الإمام الجليل

أبو زهرة

زهرة التفاسير

دار الفكر العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

AL-AZHAR
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation

الأزهــــر
مجمــع البحــوث الاســـلامية
الادارة العـــامة
للبحــوث والتـــاليف والترجمـــة

السيدة الدكتورة / عبادة إدريس محمد أبو زهرة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

وبعد

بالإشارة إلى الطلب المقدم منكم لإعادة طبع ونشر تفسير القرآن الكريم حتى الآية ٧٢ من سورة النمل للإمام المرحوم الشيخ / محمد أبو زهرة.

نفيدكم بأنه لا مانع من إعادة طبع ونشر التفسير المذكور مع الالتزام بالعناية التامة بالنصوص القرآنية وتصويبها من نسخة مصحف معتمد ومراجعتها بواسطة الإدارة،

رجاء العلم والإحاطة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تحريرا في ٨/٧/١٤٠٧هـ
٨/٢/١٩٨٧م

مدير عام
إدارة البحوث والتأليف والترجمة

٨/٢/٨٧

تعريف بالإمام الجليل
محمد أبو زهرة

هذا التعريف مأخوذ أساسا مما كتبه فضيلته بنفسه بناء على طلب أحد طلاب العلم من باكستان متقدما برسالة لنيل درجة الدكتوراه عن الإمام أبو زهرة.

ولد الإمام محمد أحمد مصطفى أبو زهرة فى مارس سنة ١٨٩٨م فى مدينة المحلة الكبرى إحدى مدن محافظة الغربية.

حفظ القرآن الكريم فى صدر حياته فى الكُتَّاب، إذ هو من أسرة دينية تنتسب إلى ولى من أولياء الله هو الشيخ مصطفى أبو زهرة الشهير بالششتاوى الذى يزار ضريحه بمسجده ببلدة شيشتا فى مدينة المحلة الكبرى ووالده هو الشيخ أحمد مصطفى أبو زهرة مشهور بالصلاح والالتزام بالدين الحنيف ومكارم الأخلاق ووالدته حافظة للقرآن الكريم وكانت تراجع معه ما حفظ قبل الذهاب إلى الشيخ فى الكتاب، وتميز عن إخوته وأخواته بحفظ القرآن الكريم ولم يتجاوز التاسعة من العمر، ولأنه كان ذا حافظة قوية، سريع البديهة فلم ينل من قسوة أستاذه بالكتّاب إلا قليلا.

كانت الأسرة من متوسطى الحال يظنها الناس من الأثرياء اشتهرت بالعلم والذكاء، وقد نبغ منها شقيقه الأستاذ الدكتور مصطفى أحمد أبو زهرة منشئ ورئيس قسم هندسة الطيران بكلية الهندسة جامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليا) وأيضا الأستاذ بكلية الهندسة بجامعة لندن بإنجلترا.

بعد حفظ القرآن الكريم تعلم مبادئ العلوم المدنية كالرياضيات، التى كان شديد الولع بها، والجغرافية والفلسفة مع العلوم العربية.

التحق فى سنة ١٩١٣م بالجامع الأحمدى بطنطا ومكث فيه ثلاث سنين، وفى هذه الفترة ابتدأ نبوغه وتفوقه يظهر حتى أن شيخ الجامع وهو الشيخ الأحمدى الظواهرى الذى صار شيخا للأزهر، اقترح أن يمنح مكافآت خاصة لامتيازه، كما اقترح بألا يمكث فى طلب العلم الأزهرى خمسة عشر عاما، كما كانت المدة المقررة، بل إن مثله يصح أن يتجاوز سنين عدة فى سنة واحدة، ولم يتم تنفيذ هذا القرار لصعوبته قانونيا، ولانتقاله إلى مدرسة القضاء الشرعى.

التحق فى سنة ١٩١٦ بمدرسة القضاء الشرعى بعد امتحان مسابقة كان فيها من الأوائل. وتكوينه العلمى الحقيقى كان فى هذه المدرسة التى أنشأها سعد باشا زغلول فى وزارة المعارف على أن تكون عاليتها من درجة أستاذ وعهد بإدارتها إلى رجل عظيم هو عاطف باشا بركات. ومن وقت أن دخل المدرسة كان ينظر إليه ناظرها عاطف باشا بركات نظرة اهتمام وتشجيع، وقد مكث فيها تسع سنين، أربعة فى القسم الثانوى وخمسة فى القسم العالى، وفيها اتسعت آفاقه الفكرية ولما تخرج منها ونال شهادة العالمية من درجة أستاذ عام ١٩٢٥ كون لنفسه منهجا فكريا فى فهم الشريعة وتفسيرها، وكلما تعمق فيها ازداد إيمانا بها.

فى ذلك الحين كان قيام ثورة (١٩١٩م)، فوقف على الكثير من دقائق أحداثها ووقائعها، وأحب سعد باشا زغلول وتعلق به وكان حريصا على حفظ خطبه وترديدها.

أخذ دبلوم دار العلوم من الخارج سنة ١٩٢٧م وفى هذه السنة عين مدرسا للشريعة واللغة العربية بتجهيزية دار العلوم والقضاء الشرعى لمدة ثلاث

سنين ثم انتقل بعد ذلك إلى التدريس فى المدارس الثانوية العامة لمدة سنتين ونصف.

انتقل فى أول يناير سنة ١٩٣٣م إلى كلية أصول الدين مدرسا للجدل والخطابة فيها ثم تاريخ الديانات والملل والنحل، وفيها أخرج أول مؤلفاته كتاب «الخطابة» وكتاب «تاريخ الجدل» ثم كتاب «تاريخ الديانات القديمة» ثم كتاب «محاضرات فى النصرانية» الذى ترجم إلى عدة لغات.

فى ٢ نوفمبر ١٩٣٤م نقل مدرسا للخطابة بكلية الحقوق جامعة القاهرة (فؤاد الأول) مع بقائه بالانتداب فى كلية أصول الدين التى استمر بها إلى يونيو سنة ١٩٤٢م وارتدى الزى الأزهرى.

فى سبتمبر سنة ١٩٣٥م انتقل من تدريس اللغة العربية إلى تدريس الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق جامعة القاهرة (فؤاد الأول) متدرجا فى مراتبها من مدرس إلى أستاذ مساعد إلى أستاذ كرسى إلى رئيس قسم الشريعة ووكيلا لكلية الحقوق جامعة القاهرة لمدة خمس سنوات انتهت ببلوغه سن التقاعد سنة ١٩٥٨ واستمر فى التدريس بكلية الحقوق كأستاذ غير متفرغ وفى غيرها حتى توفاه الله عام ١٩٧٤م.

وقد تولى التدريس فى كلية المعاملات والإدارة بجامعة الأزهر سنة ١٩٦٣م وكذلك معهد الخدمة الاجتماعية وغيره من المعاهد.

وقد اشترك فى إنشاء وتولى التدريس ورئيسا لقسم الشريعة الإسلامية بمعهد الدراسات الإسلامية ومعهد الدراسات العربية العالى التابع لجامعة الدول العربية. واشترك فى إنشاء جمعية الدراسات الإسلامية.

أختير عضوا لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر فى سنة ١٩٦١م ومقررا للجنة بحوث القرآن ولجنة المتابعة ولجنة السنة المطهرة وشيخا فى لجان التقنين للمذهبين الحنفى والشافعى.

كان أيضا عضوا بمجلس جامعة الأزهر، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ومعهد البحوث الجنائية والاجتماعية، والمجلس الأعلى للفنون والآداب، ومجلس محافظة القاهرة.

صفاته - سعة علمه ومبدؤه:

كان رحمه الله، أبيض اللون، جهير الصوت، شديد الذكاء، سريع البديهة، منظما وحر الفكر، راجح العقل، شديد الإيمان بما يقول، مستقل الرأى لا يخشى فى قول الحق لومة لائم، ويمزج فى محاضراته العلم الجاد الوقور بالدعابة الحلوة الخفيفة.

كان رحمه الله عالما متبحرا فى الفقه وأصوله وفى علوم القرآن وتفسيره، وخطيبا مفوها، وأصوليا متعمقا، ومجتهدا يقرع الحجة بالحجة والمنطق بالمنطق لا يشق له غبار يسعى دائما لتقديم الجديد والفريد للمكتبة العربية والإسلامية رافضا أن تكون كتاباته تردادا لأقوال الآخرين لما عرف عنه من اعتزازه بنفسه وبغضه لسيطرة الآخرين بغير حق.

كان رحمه الله يعيش للمبادئ ويكافح من أجلها، يناضل لعقيدة يحيا فيها ويعيش لها، يعلن رأيه ويجمع الناس عليه فقد كان فقيها فى مقدمة الفقهاء ورائدا تقدم القافلة وقد تشابهت أمامها السبل المتباينة. وقد عرض عليه البقاء والعمل بالخارج فقال: «إن وجودى فى مصر هنا يؤدى واجبا أرى أنه أصبح بالنسبة لى أشبه بفرض العين؛ فأنا على ثغر من ثغور الإسلام يتأثر بها أى بلد عربى وأى بلد إسلامى، فمصر هى العقل وهى القلب وهى الأزهر». فكان رحمه الله بحرا زاخرا، وفيضا فياضا، ورائدا عاش حياته حاملا اللواء يمزج بين العلم والشجاعة، ومن هنا كثر رواده وعظم قصاده. وقيمة العالم

بما خَرَّج من تلامذة علماء أوفياء فى جميع أنحاء العالم وبما أثرى المكتبة العربية والإسلامية من مراجع علمية.

المؤلفات والبحوث:

بجانب أشهر المؤلفات والموسوعات الإسلامية التى تزيد عن الأربعين فقد كانت له الكثير من البحوث فى العديد من المجلات العلمية والاجتماعية: مجلة القانون والاقتصاد، ومجلة المسلمون، ومجلة حضارة الإسلام، ومجلة القانون الدولى، وكتاب أسبوع الفقه الإسلامى، وكتاب أسبوع القانون والعلوم السياسية، ومجلة الأزهر، ومجلة العربى والعديد من المجلات بمختلف الدول العربية. وكذلك عدد لا يحصى من الأحاديث الصحفية كان يرد بها على المهاجمين للإسلام وللدفاع عن قوانين الأحوال الشخصية.

أما فى مجلة لواء الإسلام الشهرية لصاحبها أحمد باشا حمزة فكانت للإمام أبو زهرة أربعة أبواب ثابتة هى: تفسير القرآن الكريم، ومقال اجتماعى، وندوة لواء الإسلام، وباب الفتاوى للرد على أسئلة القراء. هذا على مدى ما يقرب من الأربعين عاما فيما لا يقل عن أربعة آلاف صحيفة.

كان لفضيلة الإمام نشاط واسع فى محاضرات وندوات عامة فى مختلف الجمعيات الاجتماعية والإسلامية العامة والخاصة داخل مصر وخارجها. لفضيلة الإمام العديد من الأبحاث ألقيت فى المؤتمرات والندوات الدولية التى حضرها مثل: حلقة الدراسات الاجتماعية التى انعقدت فى دمشق ١٩٥٢م - مؤتمر الندوة الإسلامية الذى عقد فى لاهور (باكستان) فى الفترة من ١٩٥٧/١٢/٢٩ إلى ١٩٥٨/١/١٣ - مؤتمر الخبراء الاجتماعيين الذى انعقد عدة مرات بالقاهرة وانعقد بالكويت عام ١٩٥٨ - مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية المنعقد بالجزائر عام ١٩٦٩ ثم بالمغرب عام ١٩٧١ ثم بالقاهرة عام ١٩٧٣.

هذا بخلاف المحاضرات والندوات خلال زيارات فضيلة الإمام لدول السودان، والكويت، والجماهيرية الليبية، والجزائر، وسوريا، وغيرها.

قام العديد من الباحثين بعمل رسائل ماجستير ودكتوراه عن الإمام محمد أبو زهرة فى باكستان والهند وسائر البلاد الإسلامية كما ترجمت له العديد من المؤلفات.

أشهر مؤلفاته وكتبه:

١- الخطابة.

٢- تاريخ الجدل.

٣- تاريخ الديانات القديمة.

٤- محاضرات فى النصرانية.

٥- محاضرات فى الوقف.

٦- محاضرات فى عقد الزواج وآثاره، مقارنة بين المذاهب الفقهية والقوانين العربية.

٧- أصول الفقه.

٨- أحكام التركات والمواريث.

٩- الجريمة فى الفقه الإسلامى.

١٠- العقوبة فى الفقه الإسلامى.

١١- الميراث عند الجعفرية.

١٢- أصول الفقه الجعفرى.

١٣- الأحوال الشخصية.

١٤- الإمام زيد: حياته وعصره - آراؤه وفقهه.

١٥- الإمام الصادق: حياته وعصره - آراؤه وفقهه.

١٦- الإمام أبو حنيفة: حياته وعصره - آراؤه وفقهه.

١٧- الإمام مالك: حياته وعصره - آراؤه وفقهه.

١٨- الإمام الشافعى: حياته وعصره - آراؤه وفقهه.

١٩- الإمام أحمد بن حنبل: حياته وعصره - آراؤه وفقهه.

٢٠- الإمام ابن حزم الأندلسى: حياته وعصره - آراؤه وفقهه.

٢١- الإمام ابن تيمية: حياته وعصره - آراؤه وفقهه.

٢٢- تاريخ المذاهب الإسلامية جزءان فى مجلد واحد.

٢٣- المعجزة الكبرى (القرآن).

٢٤- خاتم النبيين - ثلاثة أجزاء فى ثلاثة مجلدات.

٢٥- الملكية ونظرية العقد.

٢٦- شرح قانون الوصية.

٢٧- الدعوة للإسلام.

٢٨- الولاية على النفس.

٢٩- العقيدة الإسلامية.

٣٠- المجتمع الإنسانى فى ظل الإسلام.

٣١- التكافل الاجتماعى فى الإسلام.

٣٢- العلاقات الدولية فى ظل الإسلام.

٣٣- تنظيم الإسلام للمجتمع.

٣٤- تنظيم الأسرة وتنظيم النسل.

٣٥- بحوث فى الربا.

٣٦- الوحدة الإسلامية.

٣٧- نظرية الحرب فى الإسلام.

٣٨- مقارنة بين الفقه الإسلامى والقانون الرومانى.

٣٩- بحث فى قانون الأسرة - نشر بكتاب عن الفقه الإسلامى بنشرة معهد واشنطن للقوانين الدولية.

٤٠- بحث فى السياسة الإسلامية - نشر فى مجلة القانون الدولى المصرية.

٤١- نظرات فى العبادات الإسلامية.

٤٢- تفسير القرآن الكريم (زهرة التفاسير) حتى الآية ٧٣ من سورة النمل.

وفاته:

عقد الإمام محمد أبو زهرة فى أواخر عام ١٩٧٣ وأوائل عام ١٩٧٤ العديد من الندوات والاجتماعات بجامعة القاهرة والإسكندرية وفى جمعية الشبان المسلمين لمحاربة التعدى على الشريعة الإسلامية، وكانت له صولات وجولات فى مجمع البحوث الإسلامية والأزهر بخصوص تحديد النسل وتقييد تعدد الزوجات والطلاق فى مشروع قانون الأحوال الشخصية لوزارة الشئون الاجتماعية، وقرر فضيلة الإمام رحمه الله إقامة مؤتمر شعبى لمناقشة هذا الأمر فى سرادق كبير فى شارع العزيز بالله أمام منزله بضاحية

الزيتون، أقامه الإمام رحمه الله على نفقته الخاصة وقام فضيلته بمعاينة المكان وإنشاء السرادق مبكرا فى صباح يوم الجمعة ١٢/ ٤/ ١٩٧٤ ثم عاد إلى حجرة المكتب بالدور العلوى وشرع فى إكمال تفسير سورة النمل حتى أذان الظهر، وأثناء نزول فضيلته حاملا القلم والمصحف مفتوحا على آخر ما وصل إليه فى التفسير وأيضا الورق الذى به ما كتب من التفسير تعثر رحمة الله عليه وسقط ساجدا على المصحف وعلى أوراق التفسير، ثم فاضت روحه الكريمة إلى بارئها أثناء أذان المغرب. وهكذا شاءت إرادة الله العظيم أن يكون هذا السرادق الذى أشرف فضيلته على إقامته لمؤتمر شعبى هو سرادق العزاء للإمام.

رضى الله عن شيخ مشايخ عصره، الإمام محمد أبو زهرة وأرضاه، وأسكنه فسيح جناته وأجمل فراديسه، وجعله مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

أسرة الإمام الجليل محمد أبو زهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا، والصلاة والسلام على محمد النبى الأمى الذى بُعث رحمة للعالمين وسراجًا منيرًا، وعلى آله وأصحابه الذين قبسوا من نوره، وجمعوا القرآن وحفظوه ليكون حجة الله تعالى القائمة إلى يوم الدين؛ وتحقيقًا لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ۝٩ ﴾ [**الحجر**].

أما بعد:

فمنذ كنت طالبًا أَشدُو فى طلب العلم، وأنهل من معارفه على قدر طاقتى، وأنا أَتَشَوَّف لمعرفة القرآن الحكيم، وأتعرف أسرار بيانه ومعانيه، وأرى أن علمه هو الشريعة، وأنه ما ترك صغيرة ولا كبيرة منها إلا أحصاها، وأن محمدًا ﷺ علَّم الناس علمه، وبينه وأحكم بيانه، وحكم به بين الناس، وأظهر برهانه، فهو برهان الله سبحانه وتعالى كما قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ ...** ۝١٧٤ ﴾ [**النساء**] وهو الحق الذى لا ريب فيه، وهو حكم الله تعالى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فقد قال تعالى: ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا** ۝١٠٥ **وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا** ۝١٠٦ ﴾ [**النساء**].

ولقد كانت أمنيتى العلمية أن أكون قريبًا منه دائما، وكنت أراجع الكتب التى تصدت للتعريف بمعانيه؛ موجزها ووسيطها ومبسوطها، قديمها وجديدها، مؤمنا

بأن علمه هو عـلم الإسلام، بل هو علم النفوس البـشرية، وأسـرار الوجود، وأنه علم النبوة الإلهية فى مختلف العصور.

ولما شرفنا الله تعـالى بتدريس العلوم العربيـة والشرعيـة كان أول دروسنا فى تعرف مـعانى القـرآن، فكان ذلك يمنًا وبركـة وإشعارًا بتـوفيق الله تعـالى لنا، فى مستقبل أعمالنا.

ولكنا شُغِلْنَا عن تفسير القرآن بدروس إسلامية أخرى، وإن كنا لم ننقطع عن القرآن، وإن كان ذلك فى أوقات قصيرة، فكلما دعـينا لمحاضرة عامة، جعلنا القول فى علم القرآن غايتنا، فكنا نعود إليه الفينة بعد الفينة، حتى دعتنا مجلة دينية كانت لها مكانتهـا، ولصاحبها مكانة من تقـوى الله؛ لنكتب فيها تفسـيرًا أتمم به ما بدأه طيب الذكر فضيلة الشيخ محمد الخضر التونسى رضى الله عنه، وكان قد وصل فى تفسيره إلى قوله تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ** ... ﴿١٨٩﴾﴾ [**البقرة**].

وقمنا بما استـطعنا، ووسعـته طاقتنا حـتى وصلنا إلى قوله تعـالى فى سورة الأنعام: ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ** ... ﴿٥٩﴾﴾ [**الأنعام**] ثم حيل بيننا وبين السـير فى عملنا، بمعوقات تتصل بوحدة النسق والكرامة.

والآن قد ابتـدأنا الكتابة فى معـانى القرآن الكريم من أوله إلى مـا وصل إليه الشيخ الإمام الخضر، رحمه الله تعالى.

حتى إذا وصلنا إلى ذلك نشرنـا ما كنا قد كتبناه فى المجلة، ثم نسـتأنف بعد ذلك القول فى معانى الـقرآن من قوله تعالى: ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ** ... ﴿٥٩﴾﴾ [**الأنعام**].

وقد كان مقررًا أن نكتب مقدمة للتفسير نبين فيها نزول القرآن منجما، وجمعه فى عهـد الشيخين أبى بكر وعـمر رضى الله تعالى عنهـما. وجمعه فـى عهد ذى النورين، وبيان إعجازه ووجوه ذلك الإعجـاز، وعن قصصه، وعلومه وجدله بالتى هى أحسن، وعن مناهج تفسيره وترجمته، (والغناء به)(١).

---

(١) الغَناء ـ بالفتح ـ في كلام العرب: النفع والكفاية.

كان ذلك فى تقديرنا، وأردنا القيام به بتوفيق الله تعالى، ليكون مقدمة للتفسير، يكون فيها تعريف به، وإن كانت حقيقة كتاب الوجود فوق التعريف والبيان.

ولكن وقد اتجهنا إلى ذلك اتسع البحث علينا، ووجدنا أن ذلك قد يكون فى ذاته غرضًا مقصودًا يقصد بالذات لا بالتبع؛ ولذلك أخرجناه كتابًا قائمًا بذاته سميناه «المعجزة الكبرى».

فهذا الكتاب وإن كان مقصودا بالجوهر والذات، هو أيضا مقدمة للتفسير، ويغنى عن كتابة مقدمة جديدة، وإنا بعون الله تعالى نتجه إلى الله تعالى ضارعين إليه أن يمدنا بعونه وتوفيقه فى القيام بحق كتابه الكريم علينا، وإننا بكرمه وفضله دائبون على كتابة ما قصدنا، حتى يوافينا الأجل المحتوم ونحن فى جوار كتابه العزيز، عاملين لا نبتعد عن عرفه[1] ولا تتجافى مقاعدنا عنه.

اللهم أيدنا بالقوة والإخلاص، وأن يجعله نورًا لنا، وأن يحفظ كتابه من الأهواء التى تبغى تأويله بغير هدى نبيه، وتحويل معانيه عن غاياتها، وأن يقيه من الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ولا يسلكون الجَدَد[2]، اللهم وفقنا لما تحب وترضى.

﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٨)﴾ [آل عمران].

الإمام محمد أبو زهرة

(١) العَرف، هكذا بالفتح: الرائحة مطلقا، وأكثر ما يستعمل في الطيبة منها.
(٢) يسلكون الجَدَد: يجتهدون. والجدد: الأرض المستوية.

الافتتاحية

الحمد لله رب العالمين الذى أرسل بالحق محمدًا صلى الله تعالى عليه وسلم هاديًا ومبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وعلى آله الأطهار وصحابته الأبرار.

أما بعد، فقد كانت معجزة هذا الرسول الأمين، خاتم النبيين تتناسب مع امتداد زمانها إلى يوم الدين، كانت خالدة باقية بخلودها، فكانت كلامًا معجزًا يتحدى الأجيال كلها، إنسها وجنها أن يأتوا بمثلها: ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)** ﴾ [**الإسراء**].

وفيه علاج النفس، وطبها ودواؤها، وغذاؤها ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧)** ﴾ [**يونس**] وهو برهان رسالة محمد ﷺ ونورها المبين ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (١٧٤)** ﴾ [**النساء**].

وإن الرسل السابقين كانت لهم معجزات تقرع الحس، ولكنها انقضت بانقضاء زمانها، ولولا أن القرآن الكريم سجلها ما علمها أحد، أما القرآن فباق إلى يوم

الدين، وأحسب أنه حجة الأديان السـماوية كلها، فلولا القرآن ما عرفت المسـيحية الحق، ولطويت فى وسط الأوهام والخرافات التى اعترت العقل النصرانى.

وإنا والحمد للـه قد شغفنا حبـا بالقرآن وتعرف أسراره مـا استطعنا إلى ذلك سبيلا، وما وسعه وقتنا، وكنا ونحن نتلوه، ونتـعرف ما يمكن أن نسمو إلى معرفته من معانيه نجد أمرين :

أولهما: أن كتب التفسير المطولة تبعثر المعانى السامية منه -وكل معانيه سامية- وسط مضطرب من الأقـوال فى علم الكلام ومذاهبه، وآراء الفـقهاء واسـتدلال كل صاحب مذهب على مذهبه، فوجدنا بعض التفسيرات يتجه إلى الإعراب، ومذاهب النحويين، والمعانى الروحيـة السامية للقرآن تتمزق بأوجه الإعـراب، والقرآن المعجز وراء ذلك مسـتور بغـشاء من الجدل والاخـتلاف وتوجـيه الأقـوال. والموجزات من التفسيـر يتجلى فيها القـرآن مشرقا نيِّرا كمـا هو فى ذاته، ولكن لا تخلو من توجيه النص القرآنى بالمذهب الأشـعرى أو المعتزلى وإن كـانت لا تثير جدلا حـول المعانى القرآنية إلا قليلا .

ثانيهما : أننا وجدنا تطابق أقوال المفسرين فى فهم آيات لا نرى أنها متفقة مع المبادئ المقررة فى القرآن كأقوال المفسرين فى قوله تعالى: ﴿ **أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴿٣٢﴾ ﴾ [**الزخرف**] وتفسيرها على أنها تبين رفعة الأغنياء على الفقـراء، وما ذلك بصحيح فى المبادئ الإسلامية، ولا المقررات الدينيـة. وكذلك قول المفـسرين إلى عهـد الحافظ ابن كثـير فى تفسـير الآيات ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا** ﴿٣٦﴾ ﴾ [**الأحزاب**] وقد أجمع الأكثرون قبل الحافظ على أنها فى عشق النبى ﷺ لزينب بنت جحش، وما كان لنا إلا أن نصحح المعانى ونقول الحق الذى يناسب علو القرآن وكـمال الرسالة مخالفين هؤلاء؛ فكتاب الله أعلى من أقوالهم، ومقام الرسول الأمثل أعلى من أقوالهم، ولو

تطابقوا عليها مع مخالفة هذه الأقوال للنصوص، وتجافيها عنها بمقدار تجافيها عن الحق، حتى وجد المضللون الذريعة لأن يقولوا: النبى العاشق، فضلُّوا وأضلوا كثيرا.

من أجل هذا تسامينا بما فوق طاقتنا، واستخرنا الله تعالى، وكتبنا معانى الذكر الحكيم، كما أدركت عقولنا، ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ... ﴿٢٨٦﴾﴾ [**البقرة**] ولا يكلف إنسان فوق طاقته، وإننا نقارب ونسدد.

وإنه يجب أن ننبه إلى أمور ثلاثة :

أولها : أننا لا نتجه إلى الأغاريب إلا إذا اضطررنا لتوجيه المعانى وتقريب الناس من إدراكها، وإن ذلك نادر، وليس بالكثير.

ثانيها : أننا لا نذكر من القراءات المختلفة إلا إذا ترتب على اختلافها اختلاف فى المعانى، فنذكرها كلها، على أنها كلها قرآن، وأن هذه المعانى كلها مقصود فى القرآن السامى، ودليل على إعجازه .

ثالثها : أننا فى بعض المواضع نأتى بالكلام مطنبا، وذلك لنقرب الناس من معانى القرآن التى تكون موجزة فى ألفاظها ثرية فى معانيها، فنحاول أن نقرب الناس من هذه المعانى؛ لأنه ليس عندنا طاقة هذا الإيجاز البليغ الذى هو من دلائل الإعجاز.

هذا وإنا لا نحاول فيما يتعلق بالكون أن نحمل الألفاظ السامية فوق ما تحتمل أو غير ما تحتمل.

اللهم نسألك التوفيق؛ فلولا توفيقك ما اهتدينا، ولا وصلنا إلى غاية. إنك أنت السميع البصير، ولا نستمد العون إلا منك، وإنك نعم المعين.

تمهيد

كان أحب إلىّ منذ كنت طالبًا علم القرآن، ودراسة هذا الكتاب العظيم فى بيانه المعجز الذى تحدى العرب أن يأتوا بمثله فعجزوا، وتحدى الخليقة إلى اليوم فلن يستطيعوا أن يأتوا بمثله: ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)** ﴾ [الإسراء].

وهو يتحدى الفكر الإنسانى ببلاغته، ومعانيه، وقصصه، وشريعته، وتوجيهه الأنظار إلى الكون بما فيه من ذكر السموات والأرض، وخلق الإنسان، واختلاف ألوانه وألسنته، والنفس الإنسانية فى خواطرها، وما يعليها، وما يُدسِّيها، وسيطرة الخالق على ما خلق، له الملك فى السموات الأرض وهو على كل شىء قدير.

كنت طالبًا بالأزهر ثم بمدرسة القضاء الشرعى، وكنت أميل إلى علم تفسير القرآن؛ يصغى قلبى إليه، ويصبو فكرى نحوه، وذلك من بين علوم الإسلام وعلوم الحياة المختلفة التى كانت تدرس، فكان لكل علم ناحية فى نفسى، أما علم القرآن فكان قلبى كله له.

ولما تخرجت فى هذه المدرسة كان حب القرآن وعلوم القرآن مختلطًا بنفسى، ومن حسن المصادفات الموفقة أن يكون أول درس ألقيه، بعد أن شددت فى العلم، هو القرآن.

لقد علمت أنى عينت مدرسا بتجهيزية دار العلوم والقضاء الشرعى فى يوم ١٠من أكتوبر سنة ١٩٢٧، فلما ذهبت لأتسلم العمل فى ذلك اليوم، سلمنى شيخنا العارف بالله المرحوم الأستاذ حسن منصور الذى كان وكيلاً لمدرسة القضاء الشرعى، وأستاذ التفسير بها - سلمنى الجدول، وكله فى مادة التفسير، فى السنة

الخامسة من التجهيزية، ثم رؤى أن يقسم بينى وبين أحد زملائى الكرام، رحمه الله وطيب ثراه، ومكثت أدرِّس التفسير بالتجهيزية سنتين، وكان أحب إلىَّ من أى عمل سواه، انقطعت بعد ذلك عن هذا الدرس الحبيب بمقتضى سنَّة العمل فى الحياة العلمية، وشغلت بعلوم العربية وقتا غير طويل، نحو ثلاث سنين، ثم شغلت بالفقه فى أطول مدة قضيتها. ولكنى كنت على شوق إلى القرآن، وكانت مجلة «لواء الإسلام» تنشر فى كل عدد منها تفسيراً للقرآن، وكان يتولاه الرجل المؤمن العارف بالله الشيخ الخضر حسين، وواصل تفسيره حتى وصل إلى قوله تعالى ﴿**الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ** ... ﴿١٩٤﴾﴾ [**البقرة**] ووقف عند هذه الآية، لأسباب نفسية، لم تكن من صاحب المجلة الرجل الطيب، فاعتذر، وطلب إلىَّ أن أتمم ما بدأت، وأيده صاحب المجلة فيما طلب، فتوليت كتابة التفسير من هذه الآية راغبًا دائبًا، فعدت إلى التفسير كما بدأت فى حياتى العلمية، واستمررت فى هذا العمل المحبوب، إلى أن منعت من التفسير، ومن غيره بأمر طاغوتىٍّ بمن كان يحكم مصر إبان ذلك، وكنت قد وصلت إلى قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴿٥٤﴾﴾ [**الأنعام**].

ولما تكشَّفت الغمة ، وزال الحكم الطاغوتى، وزالت آثاره التى بقيت بعده شهورا، وحملت القلم لأعود إلى أداء الواجب، تعذر علىَّ أن أقوم بواجبى مع الكرامة، وكان لى ما كان للمرحوم الخضر رضى الله عنه، وقد ألح علىَّ الكثيرون من أهل العلم وطلابه أن أتمم ما بدأت فى «لواء الإسلام»، وتكرر الطلب، فوجدت أن من الواجب علىَّ أن أقوم بكتابة التفسير مستعينًا الله، متوكلاً عليه، ضارعًا إليه أن يمن بتوفيقه، فلولا توفيقه ما اهتدينا إلى عمل، وما أتممنا عملا بدأناه.

فابتدأت بكتابة الجزء الذى كتبه الإمام الخضر، ليكون التفسير كله نسقا واحدا، وعلى منهاج واحد، وها نحن أولاء نسير فى الطريق ضارعين إليه سبحانه وتعالى أن نصل إلى الحق فيما نكتب.

المنهاج الذى اتبعناه:

نحن ممن يتبعون إلى حدما ؛ ما كان يقوله الأستاذ العظيم العبقرى عاطف بركات فى أن القرآن كتاب مبين لا يحتاج إلى تفسير، فإنه لا إبهام فيه يحتاج إلى توضيح، وكل من يحاول توضيحه لا يصل إليه، فمن ذا الذى يصل إلى آفاقه، وممن كتب فى تفسيره من الماضين من حجب معانيه بكثرة الأقوال المتعارضة والآراء المتباينة، حتى أثار غبارا حجب عن الباحث نوره.

ولكن القرآن الكريم فيه فقه هذا الدين، وفيه خبر من مضى، وعلم الآخرين، وفيه علم الكون والوجود الإنسانى، وفيه توجيه إلى مناحى الحياة، وفيه القصص الحكيم، وفيه أسماء الأماكن وإشارات إلى وقائع، وفى الجملة فيه الكون والإنسان، وهو فوق ذلك حمَّال للمعانى السليمة، وفيه علوم الدولة والآحاد، فلابد من أن يتصدى لذلك أهل الخبرة فى العلوم، والفقه، واللغة والبيان، وإن كانوا لا يبلغون الغاية، ولاينالون مما يبغون الكفاية.

فلابد أن يكون للقرآن تفسير تتولاه جماعة علمية، من أولى العَصَبة من العلماء، ولكن لا نجد التعاون العلمى الجماعى، فى الحاضر، وقد حاولناه مع غيرنا، ولم نجد ذلك التعاون فى الماضى، وإن وجدنا مخلصين لله وكتابه، مستبحرين فى علوم الآثار واللغة، ويا حبذا لو أن هؤلاء اجتمعت آراؤهم، وأضيف إليها ما يراه علماء الكون فى آيات الله الكونية، على ألا نطوع القرآن لنظرية مفروضة، ولا أن نرهق ألفاظه لتحتمل نظرية لم يتحقق صدقها، ولكن ليستعان به لتأييدها، لا كأولئك الذين يرون صحة الفروض التى تقول بالنشوء والارتقاء ويريدون أن يؤيدوها من القرآن، أو يحملوا ألفاظ القرآن لها ليروجوها!

اتجهنا إلى كتابة معانى القرآن، كما ظهرت لنا، وكما أدركت عقولنا، وكما بلغته طاقتنا، غير محمِّلين وضعًا ما لا يحتمل، أو نطوعه لتفكير سيق إلينا، ولسنا منكرين لما بذله العلماء الذين خصوا معانى القرآن بأكبر عناية، بل إننا نجد فيما كتبوا أو نقل عنهم ذخيرتنا التى ندَّرع بها غير مفتاتين عليهم فى قول، ولا متهجمين

عليهم فى رأى، ومنهم من قام على الحق المبين، أو يستمد قوته من أثر عن النبى محمد ﷺ، ولا يتجافى عن النص القرآنى فى ظاهره ونصه، فإن جافاه حذفناه، ونظرُنا فى ذلك هو نظر شيخ الفقهاء أبى حنيفة النعمان فهو لا يقدم أثرًا على نص قرآنى ظاهر الدلالة أو هو نص فيه.

ولا نتهجم بذلك على حديث لرسول الله ﷺ، فهو الحكمة كلها كما قال ذلك الإمام الشافعى، فقد فسر الحكمة فى قوله تعالى: ﴿ **وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ** ... ﴿١٥١﴾ ﴾ [**البقرة**] بأن الحكمة هى سنة رسول الله ﷺ، فإذا رددنا منها ما يخالف القرآن فنحن نرد ما يجعلها فوق القرآن ،وبالأحرى يكون ذلك تمحيصًا للسنة، وتبيينًا لصحيحها من سقيمها، إن عبارات القرآن التى هى نص فى دلالتها، ومعانيها، فيها تنزيه لرسالة محمد ﷺ، وتنزيه للبعث المحمدى، فإنما ندفع الريب عن الرسول ﷺ، ولا نتهجم عليه ولا على حكمته، كتلك الآثار التى توهم أن النبى ﷺ سُحِرَ، وكتلك الأخبار الكاذبة التى تقول إن محمدًا ﷺ قال عن اللات والعزى ومناة الثالثة الأُخرى: تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى. إنا نرد هذا وأشباهه تنزيها للرسالة المحمدية الإلهية، مهما يكن راويها من الثقة، ونعدها عليه، وليس بمنزه عن الخطأ والنسيان، ودخول الغلط عليه، وأخشى أن أقول إن من يعتقد ذلك يكون كأهل الجاهلية الذين قالوا: ﴿ **إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا** ﴿٤٧﴾ ﴾ [**الإسراء**] فليبحثوا عن موقفهم كمسلمين مؤمنين؛ وذلك لأنهم آثروا راويا على القرآن وعلى الرسالة المحمدية كلها، إذ جعلوا الشك يَرِد على بيانها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وإذا كنا قد رددنا بعض ما ينسب للرسول ﷺ فنحن نعد المفسر الأول للقرآن هو الرسول ﷺ، فهو المفسر لأحكامه المبين لحقائقه، كما قال تعالى: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴿٤٤﴾ ﴾ [**النحل**] ولا نتصور أن نجد بيانًا يفوق بيان النبى ﷺ؛ لأنه يفصل مجمله، ويبين ما يعلو على مدارك الناس، وإن كان فى ذاته مبينًا، ولا يصح أن نفتات على الإسلام فنرد قولا صح عن رسول

الله محمد ﷺ مادام القرآن يتسع لمدلوله، ولا نقدم عليه احتمالا آخر مهما تكن مكانة قائله من الفقه والبيان؛ فإنه مهما يكن لا يناهد مقامه مقام مبلِّغ الرسالة فى الإحكام، ولا مقامه فى البيان، وإدراك معانى القرآن؛ ولذا نعد السنة النبوية هى المفسر الأول.

ويلى ذلك تفسير الصحابة الذى صحت نسبته إليهم، وخصوصا علماءهم، والسابقين الأولين الذين قال تعالى عنهم فى بيعة الرضوان: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨)**﴾ [**الفتح**].

ونأخذ بأقوال هؤلاء على أساس ألا تخالف نصا قرآنيا، أو تناهضه، أو تحمله ما لا يحتمل، وعلمُهم بالقرآن أعظم من علمنا به؛ إذ كانوا كما أشرنا من قبل أهل بيعة الرضوان، لا الذين جاءوا بعد الحديبية، وكان بعض أولئك من الذين لهم جهاد مذكور مشهور، لا يغض من مقامهم، ولكن ليسوا حجة فى فهم القرآن إلا من ناحية اللغة والبيان؛ فإن ذوقهم العربى ربما يجعل لقولهم مكانًا، ولم يعن أحد من هؤلاء بالتفسير رواية أو دراية؛ لأنهم شغلوا بغيره، إلا ما كان من ابن عباس، وأشباهه من شباب الصحابة الذين وَعَوا أفاويقه فى آخر حياة الرسول، ومنهم بعض من التزموا الرسول ﷺ.

فقد كان ابن عباس ترجمان القرآن كما عبر بعض علماء الصحابة، وقد أخذ من علم كثير من الصحابة، وخصوصا ابن عمه عليا، الذى قال فيه ابن عباس: ما انتفعت بكلام بعد كلام محمد ﷺ كما انتفعت بكلام على كرم الله وجهه. فقد كان على أستاذه بعد المرشد الأكبر محمد ﷺ.

وإن الصحابة علموا التابعين مما تعلموا من فهم القرآن وأولئك هم التابعون، فما صح عن التابعين أهل الثقة الذين لازموا الصحابة واختزنوا علمهم، وهو علم بنوه ونقلوه نقلا صحيحا أخذنا به. بيد أنه يجب الاحتراس عند الأخذ من الأقوال

المنسوبة للتابعين؛ فإنه قد حدث فى عهد التابعين أمران كانا سببا فى دخول كلام فى تفسير القرآن ليس منه، ولا مقتبسا من روحه:

أولهما - دخول كلام من بنى إسرائيل إلى العلم الإسلامى ونسبوه إلى التابعين على أنه من أقوالهم، وقد روى أن بعض من ينسبون إلى صحبة النبى ﷺ استهواه ما عند اليهود، فنقله، حتى إنه لَيُروى أن عبد الله بن عمرو بن العاص، نقل فى غزوة اليرموك حمل راحلتين مما عند اليهود، وتسرب إلى العقل الإسلامى ونسب إلى بعض التابعين، بل إلى بعض الذين لهم صحبة بالرسول ﷺ، وإن لم يكونوا من الرعيل الأول الذى حمل علم الرسول ﷺ، وما زال العلماء فى هذا يعانون الكثير، مما اختلط بالتفسير من الإسرائيليات، ومحاولة رحض(١) التفسير منها، كما يرحض الثوب الأبيض الناصع من الأقذار التى علقت به.

وإذا كان اليهود عجزوا عجزا مطلقا عن أن يعبثوا بالقرآن كما عبثوا بغيره، فإنهم أتوه من ناحية تفسيره، ولكن ذلك لا يَمَسُّه، بل يَمَسُّ العقول التى لا تمحِّص ولا تدرك، ولا تحكم بقرآن، ومقاييس العقل؛ ولذلك بقى النبع الإلهى الصافى يدركه من يتأمل ما أحيط به فينبذ الزيف، ويدرك الجوهر الصافى.

ثانيهما - أنه فى عهد الأمويين، وهو عهد التابعين، وجد من النصارى الذين كانوا فى حاشيَة الأُمويين من يعملون على بث الروايات الكاذبة حول القرآن، وينسبونها للتابعين، كما نرى فى القصة المكذوبة على رسول الله ﷺ فى زواجه بالسيدة أم المؤمنين زينب بنت جحش، فقد ادعى النصارى أن النبى ﷺ رأى زينب فى حال أثارت عشقه، فأمر زيداً أن يطلقها، وأن يتزوجها، وبث هذا الادعاء فيهم يوحنا الدمشقى الذى كان فى خدمة الأمويين وراجت هذه الأكذوبة التى لا أصل لها إلا إفك هذا الأفَّاك، ونقلت عن بعض التابعين، وفسر بها قوله تعالى: ﴿وَمَا

(١) رَحَضَ ـ من باب منع ـ الثوب رَحْضا، ورُحوضا: غسله فهو راحض، والمفعول مرحوض ورحيض [الوسيط]. والمقصود: تنقية كتب التفسير مما علق بها من الأقوال غير الصحيحة، والوجوه غير المحتملة.

كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأحزاب].

راجت هذه الأكذوبة بين المفسرين الذين يتلقون الأخبار من غير تمحيص لذاتها، ولا تعرُّف دقيق لمصادرها. ووقع فيها شيخ المؤرخين والمفسرين محمد بن جرير الطبرى، وتكلف وخرَّج عليها تفسير هذه الآيات الكريمة، وتبعه فى ذلك المفسرون، حتى الذين من شأنهم أن يمحصوا الحقائق كالزمخشرى والرازى وغيرهما، وتلقاها الذين لايرجون للقرآن ولا لمحمد ﷺ وقارا فى عصرنا، فكتب كاتب فى كتاب له «محمد العاشق» وتبعه غيره من تلاميذه أو أشباهه الذين لايمحصون الحقائق وليس للحقائق الإسلامية فى قلوبهم روعة تدفعهم إلى التمحيص، وخاض كل المفسرين الذين كانوا قبل الحافظ ابن كثير، الذى ردَّها ومحصها ونقد ابن جرير الذى خاض فيها، وأثبت أنه لا توجد رواية عن الصحابة فى هذا صحيحة أو غير صحيحة.

وظواهر النص القرآنى، ومعانيه تنافيها جميعا، وصريح القرآن يردها، فالله تعالى يحكى أن زواجها كان بأمر من الله تعالى، ويخبر أن طلاقها كان بأمر من الله، فالله يصرح بأن الأمر كان الحرج من المسلمين فى تزوج زوجة المتبنَّى، فيقول: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا

رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾ [الأحزاب] ومحـمد ﷺ كان قد تبـنَّى زيد بن حارثة، وتزوج زيد زينب على أنه ابنه ﷺ، فلما ألغى التبنى بحكم الإسلام تململت به، وتململ من كبريائها، فأراد أن يطلـقها، فقال له محمد الأمين ﷺ كـما أخبر القرآن: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ [الأحزاب] وهو إرادة الله فى الطلاق، وتزويجها النبى ﷺ، وقـال سبحانه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا..﴿٣٧﴾ ﴾ [الأحزاب] وسنبين ذلك أفضل بيان عندما نتكلم فى معانى هذه الآيات إن شاء الله تعالى.

تفسير القرآن بالرواية:

إنه لا شك أن تفسير القرآن بالرواية عن النبى ﷺ أمر مقرر ثابت؛ لأن القرآن الكريم بيانه أولا للنبى ﷺ، ويجب تحرى السنة الصحيحة، ولا يتبع إلا الصحيح، بيد أنه فى بعض المروى عن النـبى ﷺ ما يخالف ما نحـسه ونعاينه، كـقول بعض المفسرين معتمـدين على بعض الروايات بأن بعض الأنهار تنبع من الجنة وأنها تفيض منهـا، مع أنه ثبت بالمعـاينة أنها تفـيض من سـيول فى جـبـال، أو تنبع من منابع وبحيرات يراها الناس. ومن المقرر أنه إذا كان حـديث آحاد بما يثبت العقل أو الرؤيا نقيضه، يُرَدُّ حـديث الآحاد، ويثبت بطلان نسبته إلى النبـى ﷺ، وكذلك ما يُثبت علم علماء الكون خلافه ثبوتا قطعيا بالبرهان القاطع الذى لا يتطرق إليه ريب، فقد ذكر الغزالىّ أنه إذا كان خبر الآحاد يناقض ما أثبته العلم ثبوتا قطعيا، ترد نسبته إلى النبى ﷺ أو يؤوَّل، وإن النـص المناقض قطعـيـا يؤوَّل بما لا يكون بينـه وبين العلم القطعى خلاف.

وقد أكـدنا فى عباراتنا أن العلم الذى يؤوِّل النص القطعى، أو نرد به الخبر عن النبى ﷺ يجب أن يكون علمًـا قطعـيًّـا، لكيـلا نغيـر فى النصوص بفـروض ونظريات لم تثبت بـدليل قطعى، ولا يلتفت إليهـا إزاء النصوص، ولو كانت خـبر آحاد ثبـتت صحته؛ لأنهـا فروض لم تؤكد بدليل قطعى كنظرية النشـوء والارتقاء،

فإنها فروض لم يثبت صدقها. وإنما الأخبار الصحيحة - أى من حيث السند - التى تكون تفسيرًا للقرآن ولا تجوز مخالفتها هى الأخبار التى لا يطعن فى صحة متنها ولا تخالف أمرًا يقطع العقل بخلافه.

هل النبى ﷺ فسر القرآن كله؟

إن ابن تيمية العالم الفقيه يقول[١]: إن النبى ﷺ، بين القرآن كله، ولم يترك فيه جزءا يحتاج إلى بيان ولم يبينه، ولا جزءا يحتاج إلى تفصيل ولم يفصله، ولا مطلقا يحتاج إلى تقييد ولم يقيده، ويحسب أن ذلك جزء يجب الإيمان به لقوله تعالى: ﴿ ... وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ... ﴿٤٤﴾ ﴾ [النحل].

وقد تلقى الصحابة تفسير النبى ﷺ، وقد قال عبد الرحمن السلمى: «حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما - أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل». وإن الصحابة كانوا لايستحفظون القرآن فقط، بل كانوا يتعلمونه ويتعلمون معانيه، ويقول فى ذلك رضى الله عنه - أى ابن تيمية -: «من المعلوم أن كل المقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، فالعادة تقرّ ألا يقرأ قوم كتابا فى فن من العلم كالطب والحساب، ولا يستشرحوه، فكيف بالكلام الذى هو عصمتهم ونجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم؛ ولهذا كان النزاع فى تفسير القرآن قليلا جدا».

ويتعين علينا إذن أن نقول إن تفسير الصحابة عن رسول الله ﷺ، هو تفسير الرسول ﷺ إلا ما ثبت عن الرسول ﷺ من قول يخالفه.

وإن الصحابة علَّموا تلاميذهم من التابعين ما تلقوا عن رسول الله ﷺ، وهم أهل صدق، فابن عباس كان له تلاميذ تلقوا عنه كمجاهد، وعكرمة، ونافع وغيرهم ممن تلقوا عن ابن عباس، ولكن ما ينسب إلى التابعين يجب تمحيصه، فقد نفذت

(١) راجع هذا المبحث فى مقدمة أصول التفسير لابن تيمية.

الإسرائيليات وما دسه النصارى إليهم كما أشرنا من قبل، وعلى هذا يسنُّ ابن تيمية أمثل المناهج فى اعتقاده.

فأعلى المراتب **تفسيـر القرآن بالقرآن**، والقرآن كتاب متكامل، ما يجمله فى موضع يفسره فى آخر، وهكذا. وتلى هذه المرتبة **تفسير النبى** ﷺ، وقد بينا ذلك بما يناسب المقام.

والمرتبة الثالثة **تفسير القـرآن بأقوال الصحابة**، وهم الذين تلقوا تفسيرهم عن النبى ﷺ، ولقد روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال: والله الذى لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت، وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله منى تناولته المطايا إلا أتيته.

المرتبة الرابعة **مرتبة التابعين** الذين تلقوا علم الصحابة كمجاهد وقتادة، وقد يختلفون، فيرى ابن تيمية أنه إذا اختلف التابعون اختار من أقوالهم، ولا يخرج عنها. فإن التابعين قد دخلت فى عهدهم الإسرائيليات، ومعابث النصارى، فيجب الأخذ عنهم باحتراس ويقظة، وإذا اختلفوا نأخذ من أقوالهم ما ليس فيه دَسٌّ على الإسلام لنصون كتاب الله تعالى عن تطاول المفسدين، كما ذكرنا فى قصة زينب بنت جحش المدسوسة على المفسرين.

وإنه يجب التنبيه إلى أن الواجب العلمى إبعاد الإسرائيليات عن تفسير القرآن، وتنقية كتب التفسير منها، وإذا قيل إن منها ما يوافق النصوص القرآنية، ولا يخالفها، نقول إن فى القرآن غنى عنها، والأكثر فيه تهويش على معانى القرآن، وإثارة للأوهام الكاذبة.

تفسير القرآن بالرأى:

ابن تيمية وبعض علماء السلف يقصرون التفسير على ما يكون بالرواية عن النبى ﷺ ويمنعون التفسير بالرأى، ويستدلون على ذلك بما يأتى:

أولاً: قول النبى ﷺ فيما صح عن الرسول ﷺ عند ابن تيمية: «مَنْ قَالَ فى القُرْآنِ بغَيرِ عِلْمٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ منَ النَّارِ»(١)، وقوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ قَالَ فِى القُرآنِ بَرأيِهِ، وأصَابَ فقدْ أَخْطَأ»(٢).

ثانيًا: شدد أصحاب الرسول ﷺ فى منع الأخذ بالرأى فى معانى القرآن، ويروون فى ذلك عن أبى بكر أنه قال: (أى أرض تُقلِّنِى، وأى سماء تُظلُّنِى إذا قلت فى كتاب الله ما لم أعلم).

ثالثًا: وكان التابعون يتحرجون فى القول فى التفسير إلا أن تكون الرواية عن النبى ﷺ أو الصحابة، ولقد قال مسروق: «اتقوا التفسير فإنه الرواية عن الله»(٣).

وهكذا نرى طائفة من علماء السلف يمنعون التفسير بالرأى المجرد، وابن تيمية يوضح آراءهم ويؤيدها مشدداً فيها، ونحسب أن المبرر الذى جعل ابن تيمية يتشدد فى ذلك هو سد الذريعة لمنع الأوهام التى وجدت بتفسير بعض الإمامية، والإسماعيلية، والباطنية، فقد رويت تفسيرات سموها باطن القرآن وجعلوا للباطن باطنا، حتى وصلوا إلى سبعة بواطن، فكان منع التفسير بالرأى دفعًا لهذه الأوهام الباطنية التى أفسدت المعانى القرآنية بتأويلات لا برهان عليها.

فإذا كان الإسرائيليون قد أدخلوا على التفسير ما ليس بمعقول ولا مقبول، فالباطنيون قد أدخلوا بتأويلاتهم وبواطنهم ما ليس من التفسير فى شىء، والله حافظ كتابه من الفريقين، وهو بنوره الساطع يلفظ الخبث كما يلفظ الفلز فى كير النار خبثه.

---

(١) أخرجه الترمذى: كتاب تفسير القرآن - باب: ما جاء فى الذى يفسر القرآن بغير علم، وأحمد: كتاب مسند بنى هاشم - باب: بداية مسند عبد الله بن عباس رضى الله عنهما.

(٢) رواه الترمذى. الموضع السابق (٢٩٥٢)، وأبو داود فى كتاب العلم (٣٦٥٢) بلفظ: «فى كتاب الله» كلاهما عن جندب بن عبد الله.

(٣) قال أبو عبيد: عن الشعبى عن مسروق قال: اتقوا التفسير فإنما هو الرواية عن الله. [مؤلفات ابن تيمية (أصول التفسير) ج١٣ ص٥٢١].

والغزالى أجاز التفسير بالرأى، وفتح الباب، ولكن قبل أن نقدم إسناده من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة نحرر رأيه، فهو:

أولا: لا يهمل السنة ولا آثار الصحابة وأقوالهم، ويقرر أن ما أُثر عن النبى ﷺ والصحابة بسند صحيح لا تصح مخالفته، ويجب الأخذ به.

ثانيا: لا يفتح الباب على مصراعيه لكل من يرى رأيا فيفسر القرآن برأيه، بل يجب أن يكون عنده علم اللغة، وعلم القرآن، وعلم السنة، لكيلا يقول على الله تعالى بغير علم.

وإن الفهم فى كتاب الله تعالى باب متسع لكل من عنده أداة الفهم لعلم القرآن، ويستدل على ذلك بنصوص من القرآن والسنة وأقوال الصحابة:

(أ) إن القرآن الكريم فيه كل علوم الدين بعضها بطريق العبارة، وبعضها بطريق الإشارة، وبعضها بالإجمال، وبعضها بالتفصيل، وإن ذلك يحتاج إلى التعمق فى الفهم، والاستبصار فى حقائقه. وذلك لا يكفى فيه الوقوف عند ظواهر التفسير التى تجىء على ألسنة بعض السلف، بل لابد من التعمق، واستخراج المعانى ما دامت لا تخالف صريح المأثور، ولكنها أمور تسير وراءه، وعلى ضوئه وعلى مقتضى هديه؛ ولذا قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: «من أراد علم الأولين والآخرين، فليتدبر القرآن» وإن ذلك لا يكون بغير التعمق فى الفهم والتعرف بالإشارة للمَرائى البعيدة والقريبة من غير اقتصار على ظاهر النصوص.

(ب) إن فى القرآن بيان صفات الله سبحانه وتعالى، وذكر ذاته القدسية وأسمائه الحسنى، وإن معرفة ذلك مع التنزيه وعدم المشابهة للحوادث يحتاج إلى تدبر وبيان ليعرف القارئ لكتاب الله تعالى أنه سبحانه وتعالى منزه نزاهة مطلقة عن المشابهة للحوادث .

(جـ) إنه قد وردت آثار كثيرة تدعو إلى الفهم والتدبر، فقد قال على - كرم الله وجهه -: «من فهم القرآن فسَّر به جمل العلم»، وقال رضى الله عنه: «ما

أعطانى رسول الله ﷺ شيئا كتمه عن الناس إلا أن يؤتى الله عبدا فهما فى كتابه»(١).

(د) إن عبارات القرآن تدعو إلى فهمه فقال تعالى: ﴿ **وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا** ... ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [**البقرة**] فقد قال فقهاء السلف إن الحكمة هى فهم القرآن، وإذا كان فهم القرآن خيرا كثيرا، فإنه سبحانه يدعو القادرين على الفهم للبحث والتأمل والنظر فى الآيات وفهمها.

ولقد قال تعالى: ﴿ ... **وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ** ... ﴿٨٣﴾ ﴾ [**النساء**] وفى هذا دعوة إلى الاستنباط، واستخراج المعانى العميقة، كما يستنبط الماء من الآبار، وفيه إشارة إلى وجوب تعرف معانى القرآن بالفهم بصحيح كما يتعرفونها بالآثار الصحيحة، فهما طريقان مستقيمان، فمن منع أحدهما فقد خالف العقل والنقل.

(هـ) إن النبى ﷺ دعا لعبد الله بن عباس رضى الله عنهما بالفهم فى القرآن فقال: «**اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل**»(٢) وليس التأويل إلا فهم مرامى العبارات والمآل والمكان للمعانى التى تشتمل عليها الألفاظ وجمل القول. ولو كان التفسير مقصورا على ما ورد من أقوال النبى لقال عليه الصلاة والسلام: «حَفِّظْهُ».

والغزالى لا يقف فى استدلاله عند تأثير التفسير بالرأى، بل ينقد أدلة الوقافين الذين يقفون عند المأثور عن النبى ﷺ والصحابة والتابعين لا يعدونهم ـ وينقدهم من وجوه:

أولها: أنه لكى يصح الوقوف على تفسير رسول الله ﷺ يجب أن يكون كل ما نأخذ به من تفسير مسنداً إلى رسول الله ﷺ، أو ثابتا بالضرورة عن النبى ﷺ

(١) أخرجه البخاري – كتاب العاقلة – باب: الديات (٦٩٠٣). وبنحوه عند مسلم – كتاب العتق(١٣٧٠) وكذا رواه الترمذي، والنسائي، وأبو داود، وأحمد.

(٢) أخرجه أحمد: كتاب: مسند بني هاشم – باب: بداية مسند عبد الله بن عباس (٢٨٧٤-٣٩٣٢) وابن حبان والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

بأن يقول التفسير صحابى أو تابعى، ولا يتصور أن يكون ذلك من غير النبى ﷺ وليس للرأى فيه مجال، فإذا كان للرأى فيه مجال فاحتمال أن يكون ذلك من رأى الصحابى أو التابعى، وخصوصا أنه فى عهد التابعين أدخلت الإسرائيليات، ونقل عبد الله بن عمرو بن العاص حمولة زاملتين فى موقعة اليرموك، وإن ما نقل لنا عن رسول الله ﷺ من تفسير ليس كل التفسير، ولا جُلَّه.

ثانيها: أن الراجح أن تفسير الصحابة الذين قالوه لم ينسبوه إلى النبى ﷺ، فكان من المحتمل أن يكون بآرائهم، وإن كان لها فضل الاقتباس من هدى النبى ﷺ، وإن واجب الاقتداء بهم أن نفسر بالرأى مثلهم مسترشدين بأقوالهم فى فهم الآيات كما نسترشد بآرائهم فى الفقه، وفى معانى الألفاظ العربية.

ثالثها: أن الصحابة اختلفوا، وكذلك التابعون، وسماع كل هذه الأقوال محال، فلا بد أن يكون بعضها صحيحا وبعضها غير صحيح .ولو كان بعضها مسموعا لوجب رد الباقى، ولا يمكن معرفة ما يرد وما يبقى؛ لأن المسموع منها غير متميز ولا معين، ويؤدى هذا إلى أن بعض هذه الأقوال كان بالرأى، وأن المتبع للآثار ولا يعدوها لايكون له مناص من أن يختار من هذه الأقوال المختلفة، وأن ذلك سيحمله على أن يعمل الرأى فى تخير ما يختار ، ويكون المتبع قد فر من الرأى ابتداء ثم وقع فيه انتهاء.

ويبين الغزالى موضع النهى عن الرأى فى فهم القرآن فيرى أنه فى موضعين:

أولهما: أن يكون له رأى فى موضوع الآية، ويميل إليه بطبعه وهواه، فيتأوَّل الآية من القرآن لتكون على وفق رأيه، ولو لم يكن له ذلك الرأى والهوى ما كان ليلوح إليه ذلك المعنى. وهذا تارة يكون مع العلم بأنه ينزل القرآن على فكره وهواه كبعض المبتدعة الذين يجادلون فى آيات الله ويلحفون فى الجدل للغلب، وهم يدركون أن القرآن لا يؤيد رأيهم ولكن يتغالبون به.

وقد يكون غير قاصد الغلب، بأن تكون الآية تحتمل معنيين أو تبدو له كذلك، فيختار منهما ما يكون أوفق مع فكره، ولولا فكره السابق ما اختار ذلك المعنى.

ثم يقول الغزالى: وهذا الجنس مما تستعمله الباطنية لتغرير الناس، ودعوتهم إلى مذهبهم الباطل، فينزلون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم، وعلى أمور يعلمون قطعا أنها غير واردة به، فهذه الفنون أحد وجهى المنع من التفسير بالرأى، ويكون على هذا المراد بالرأى الممنوع الرأى الفاسد الموافق للهوى دون الاجتهاد الصحيح.

ثانيهما: المسارعة إلى تفسير القرآن بظواهر الألفاظ من غير معرفة المنقول فى موضوعها، ومن غير مقابلة الآيات بعضها ببعض، ومن غير معرفة العرف الإسلامى الذى خصص بعض الألفاظ العربية، ومن غير علم دقيق بأساليب الاستنباط من حمل المطلق على المقيد، والعام على الخاص، وإدراك مواضع الإضمار والحذف، وغير ذلك من الأساليب القرآنية المعجزة، فإن ذلك يكون تفسيرا بالرأى من غير أهله، واجتهاداً فى الفهم بغير أدواته، وليس ذلك من التفسير بالرأى، إنما ذلك من التهجم على ما لا يحسن والعمل فيما لا يتقن، وذلك قبيح فى كل شىء(١).

الطريقة المثلى:

وإن الطريقة المثلى التى توصل إلى الغاية فى فهم القرآن، وتعرف معانيه، وإدراك دلائل إعجازه هى الاعتماد على النقل والعقل، فلا يصح الاقتصار على النقل وحده، ولا على العقل وحده، وإنما النظر الأمثل هو أن يعتمد على العقل والرأى وعلى السماع من أقوال رسول الله ﷺ فى فهم القرآن، فظواهر القرآن من الألفاظ، والآثار التى تعاضد الظاهر، لا تكفى وحدها بل تساعد العقل، وتفتح له السبل لاستخراج معانى القرآن المتسعة الأفق البعيدة المدى التى توجه الفكر إلى أعمق الحقائق العلمية والكونية والنفسية، وكلما تفتح العقل فى ظل إدراك الألفاظ وظواهر اللغة أدرك إدراكا صحيحا ما تشير إليه الحقائق الكونية، وما يشير إليه القرآن.

---

(١) قال المصنف - رحمه الله - فى الهامش: راجعنا هذا البحث على الإحياء مع بيان النتائج من مقدماتها.

وإنه كلما اتسع أفق العقل البشرى فى فهم الكون والحقائق والشرائع اتسع فهمه للقرآن الكريم، ولعل هذا هو الحقيقة التى أشار إليها بعض الصحابة، إذ روى عن أبى الدرداء أنه قال: «لايفقه الرجل، حتى يجعل للقرآن وجوها» أى اتجاهات متلاقية، ولكن بعضها أعمق من بعض، وكله حق.

وروى عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «إن للقرآن ظاهرا وباطنا»[١] وليس هو الباطن الذى يقوله الباطنية، إنما الباطن الذى أشار إليه النبى ﷺ هو الباطن الذى تدل عليه إشارات العبارات القرآنية، من أسرار الإعجاز البيانى، وإلى ما تشير إليه من حقائق كونية ونفسية وخلقية وأحكام عملية، وغير ذلك من المعانى التى يدركها العالم المتعمق ذو البصيرة النيرة الذى آتاه الله تعالى نفاذ بصيرة، واستقامة فكر، كالذى يدركه علماء الأكوان فى قوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ۝٣٠**﴾ [**الأنبياء**] فالمعنى الظاهر لكل مُلمٍّ باللغة العربية هو أن السموات والأرض كانتا متصلتين، وهذا معنى سليم هو الظاهر، والعالم المدرك للأكوان الباحث فيها يعرف كيف كانت السماء والأرض كتلة واحدة، وكيف انفصلت الأرض وتكونت عليها القشرة الأرضية، وكيف كان الماء العذب، والملح الأجاج.

وهكذا نجد أن كل تالٍ للقرآن يدرك من معانيه بمقدار إدراكه وعلمه.

والغزالى يقرر أن المعانى اللغوية، وما يشير إليه النقل والسماع هو المفتاح والطريق للمعنى العميق الذى يدركه الناس كلما تفتقت العقول واتسعت المدارك واطلعت على حقائق الكون، وأدركت معانى الآيات الطالبة للنظر فى الكون، فهو اللوح الذى كتبت فيه حقائق هذا الوجود، وفيه الدلالة على وجود الله تعالى، وإبداعه. ويقول الغزالى فى ذلك: «العقل والسماع لابد منهما فى ظاهر التفسير أولا؛ ليتقى به مواضع الغلط ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط واستخراج الغرائب التى لا تفهم إلا بالسماع، ولا مطمع فى الدخول إلى الباطن قبل إحكام

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه وذكره العراقي في تخريج أحاديث الإحياء جـ١ - ص ٩٩.

الظاهر، ومن ادعى فهم أسرار القرآن وهو لم يحكم التفسير الظاهر فهو كمن يريد البلوغ إلى صدر البيت قبل مجاوزة الباب، أو يدعى فهم مقاصد الأتراك من كلامهم وهو لا يفهم لغة الترك، فإن ظاهر التفسير يجرى مجرى تعلم اللغة التى لابد منها للفهم.

والمعنى الباطن الذى جاء على حكم الغزالى ليس هو ما عند الباطنية كما ذكرنا، إنما هو تحرى الدقائق التى تكون فى مطوىٍّ ألفاظ القرآن، والأسرار التى لا يدركها إلا العلماء المتخصصون فى العلوم المختلفة كل بمقدار طاقته فى علمه بعد فهم ظاهر اللفظ وما فيه من مجاز وحذف وإضمار، وعموم وخصوص، وإطلاق وتقييد.

ويقول حجة الإسلام عمّا فيه من أسرار ما نصه: «وإنما ينكشف للراسخين فى العلم من أسرار بقدر غزارة علومهم وصفاء قلوبهم، وتوفر دواعيهم على التدبر، وتجردهم للطلب، ويكون لكل واحد حدٌّ فى الترقى إلى درجة أعلى منه، أما الاستيفاء فلا مطمع فيه ولو كان البحر مدادا والأشجار أقلامًا، فأسرار كلمات الله تعالى لا نهاية لها، فمن هذا الوجه يتفاوت الخلق فى الفهم بعد معرفة ظاهر التفسير، وظاهر التفسير لا يغنى عنه».

هذا ما نقلناه عن الغزالى وذلك ما قاله ابن تيمية، ونحن بلا ريب نأخذ برأى الغزالى وعليه سار المفسرون، حتى مُفسرو الروية، فإنهم لا يردونه، حتى شيخ المفسرين محمد بن جرير الطبرى، فاختياره من أقوال التابعين فيه عمق، واتجاه إلى تعرف الأسرار فى الألفاظ القرآنية، والعبارات، واستقصاء المعانى. وقد يقول قائل: إن الغزالى يشجع تفسير القرآن بالعلوم الكونية، فهل نشجعه كما شجع؟

للإجابة على هذا السؤال نقول: إن ما يكون من آيات القرآن دالا على حقيقة علمية كما تلونا في قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء] فإنه بلا ريب أن بيان الحقيقة العلمية يكون من بيان القرآن، ويعتمد فيه على كلام أهل الخبرة، وذلك كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا

طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت] .

فهذه الآيات وأمثالها كثير، ولابد فيها من الاستعانة بأهل الخبرة، ويقررون فى ظلها الحقائق العلمية، ويجب أن يلاحَظَ أمران:

أولهما: ألا تفسَّر الآيات الكريمات بنظريات وفروض لم يقم الدليل القاطع عليها، وقد تتغير العلوم الكونية بتغير النظريات حولها وقتا بعد آخر، ولا يصح أن يفسر القرآن بنظريات قابلة للنقض والتغير. إنه كتاب الله تعالى لا تبديل لكلماته، وهو العزيز الحكيم، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ثانيهما: ألا يكون الاتجاه إلى تحميل الألفاظ فوق ما تحتمل، فلا تجهد الآيات إجهادا ليطبقوها على الحقائق أو ليطبقوا الحقائق عليها، بل لا يفكر أهل الخبرة فى أسرار الآيات إلا ما يكون ظاهرا واضحا كما رأينا فى الآيات التى تُلِيَتْ، ويكون عمل الخبير العلمى تصويرها من غير إجهاد لألفاظها، أو تحميلها ما لا تحتمل، وإن الأخذ بهذا المنهاج السليم فيه بيان للقرآن الكريم، وصيانة له، وبعد به عن مواطن الشبهات.

علم الكلام وآراء الفقهاء:

كثر القول فى تفسير القرآن الكريم فى الكتب التى تصدت للتفسير كتفسير الزمخشرى، وفخر الدين الرازى وغيرهما من أمهات كتب التفسير فى أمور هى من علم الكلام؛ كتعلق إرادة الله تعالى بأفعال العباد، وكذلك الآيات القرآنية التى تتعرض للمشيئة والإرادة، وهداية العبد وضلاله، وللصفات أهى غير الذات، أم هى والذات شىء واحد، وغير ذلك من مسائل علم الكلام. والزمخشرى مع مقامه فى البيان، وإثباته إعجاز القرآن من تفسير القرآن، يذكر مذهبه الاعتزالى ويخرج تفسيره على هذا المذهب، وتعقبه من جاء بعده فى إثبات صحة مذهب

الأشاعرة[١] أو الماتريدية، حتى يغلب القول التفسير والبيان، وتختفى معانى القرآن الكريم فى لجاجة التعصب المذهبى، وهذا النوع من التفسير هو أحد القسمين اللذين ينطبق عليهما النهى عن الرأى؛ لأن المفسرين سبقت آراؤهم تفسيرَهم، فحمَّلوا معانى القرآن على ما يوافق مذهبهم، والقرآن الكريم فوق آرائهم، ومعانى القرآن فوق كل رأى ومذهب، وتحمل الآراء والمذاهب على معانى القرآن لأنه الأعلى، وهو الشرع الحكيم.

فليست معانى القرآن أشعرية ولا ماتريدية، ولا اعتزالية، وإن تخريج الآراء على مقتضى مذهب من المذاهب يجعل القرآن مفرقا، ويجعله عضين[٢]، وذلك حرام؛ لذلك لا نفتح - بعون الله تعالى وتوفيقه - مجالا لهذه المجادلة فى ذكر معانى القرآن، بل نتجه - إن شاء الله تعالى - إلى المعانى الواضحة البينة، من غير أن ننزلها من مقامها السامى إلى مضطرب المذاهب والآراء.

وبالنسبة للآراء الفقهية نلاحظ أمرين:

أولهما: أن اختلاف الآراء الفقهية حول ما ثبت من الأحكام بالنصوص القرآنية قليل، فلا اختلاف لأنظار الفقهاء فى آيات الأحكام بالنسبة للزواج وشروطه، والمحرمات، وغيرها، والاختلاف أساسه اختلاف الروايات، وهو فى الأحكام الفقهية نادر، ولا يعلو إلى درجة الاختلاف الذى يورث عداوة، أو يوجد تراميا بالكفر والخروج عن الربقة عند العلماء رضى الله تعالى عنهم وأرضاهم.

ثانيهما: وليس ثمة خلاف جوهرى فى أمر يتعلق بالأحكام الثابتة بالقرآن إلا الاختلاف بين جماهير المسلمين وطائفة الإمامية فى الميراث، وهذا الاختلاف لا يخرج عن دائرة الثابت بالقرآن، وهو فى تقديم بعض الورثة على بعض، فليس ثمة

---

(١) الأشاعرة: أو الأشعرية نسبة إلى أبي الحسن إسماعيل بن إسحاق. ينتهي نسبه إلى أبي موسى الأشعري. ولد بالبصرة ٢٦٠ هـ، والماتريدية نسبة إلى أبي منصور محمد بن محمد الماتريدي المتوفى سنة ٣٣٢ هـ.

(٢) عِضُون: جمع عِضة وهي القطعة الوجيز (عضي).

خلاف فى أن للذكر مثل حظ الأنثيين، ولا فى أن الميراث يكون للأقرب فالأقرب، ولكن الاختلاف فى معنى القرابة أحيانا، وأحيانا نجد النص القرآنى يقرب، ولا يبعد.

ومسلكنا فى آيات الأحكام أن نذكر الأحكام الثابتة بالقرآن بإجمال مستعينين بالسنة القولية والعملية فى العبادات، وفى الأنكحة، وغيرها.

نذكر الأحكام بإجمال تفسير الآيات القرآنية مبينين ما يحتاج إلى بيان بالسنة النبوية، مرجحين ما يتفق مع السنة، أو ما نراه أقرب إلى النص، كمعنى قوله تعالى: ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ ... ﴿٢٢٨﴾ ﴾ [البقرة] فإنا فى هذه نأخذ بما يُفهم من السنة.

وهكذا لا نتعرض للخلاف الفقهى إلا فى أضيق دائرة، وما يوجبه علينا ذكر معانى القرآن واضحة نيرة كشأنها دائما، ولا نخضع هذه المعانى لآراء الفقهاء، إنما نخضع آراء الفقهاء لها؛ لأنها الحكم الذى لا ترد حكومته، والقرآن هو الحاكم بالصحة لآراء الفقهاء وليس محكوما بها.

النسخ فى القرآن الكريم:

لابد قبل أن نبدي رأينا فى النسخ في القرآن الكريم أن نقرر حقائق ثلاثا لابد من بيانها أو الإشارة إليها، نكتفى هنا بالإشارة إليها:

الحقيقة الأولى: أن القرآن الكريم نسخ من الشرائع السابقة التى أتى بها الوحى وهى الشرائع السماوية، فما بقي منها أبقاه القرآن الكريم، ونص على بقائها كبعض أحكام القصاص، وكتحريم الربا، وكتحريم المحرمات وغير ذلك، وكان النص عليه فى القرآن الكريم دليلاً على بقائه من غير نسخ.

الحقيقة الثانية: أن النسخ جرى فى السنة، ذلك أن السنة كما تتولى بيان الأحكام تتولى علاج المسائل الوقتية، ويختلف الحكم الوقتى فى بعض الأوقات عنه فى بعضها؛ ولذا جرى النسخ فى السنة.

الحقيقة الثالثة: أن القرآن الكريم سجل هذه الشريعة الخالدة، بل سجل الشرائع السماوية، ومعجزات النبيين جميعا، وما نسخ منها أشار إلى نسخه، وما بقي منها صرح ببقائه، كالقصاص، وخصوصا فى الأطراف، كما جاء فى قوله تعالى: ﴿ **وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** (٤٥) ﴾ [المائدة].

ولذا نحن نرى ما رآه من قبل أبو مسلم الأصفهانى، وهو أنه لا نسخ فى القرآن قط؛ لأنه شريعة الله تعالى الباقية إلى يوم القيامة؛ ولأن النسخ لم يثبت بنص عن النبى ﷺ، وأنه لم يصرح النبى ﷺ بنسخ آية من القرآن، وما جاء من عبارات النسخ في القرآن إنما في نسخ المعجزات الحسية بالقرآن الكريم، وقد بينا ذلك فى موضعه من معانى الذكر الحكيم.

ولأن النسخ يقتضى أن تكون آيتان فى القرآن موضعهما واحد، وإحداهما مُثْبِتَة والأخرى نافية، ولا يمكن الجمع بين النفى والإثبات، وما ادُّعِيَ النسخ فيه التوفيق بينهما سهل ممكن، وما أمكن التوفيق فلا نسخ، وقد اشتركنا فى كتابة التفسير مع بعض العلماء ولم نجد آيتين متعارضتين لم يمكن التوفيق بينهما، وقد طبع ذلك التفسير وسمى بـ «المنتخب» طبعته إحدى الجامعات الإسلامية، والله الهادى إلى سواء السبيل.

سورة الفاتحة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾
الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا
الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ
عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ
وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

ابتدأ كلام الله تعالى بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وهى مقدمة لتلاوة كل سـورة من سور القـرآن، وروى عن بعض الصحـابة: «إننا كنا نعـرف نهاية سـورة وابتداء سورة بنزول قـوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾» وروى عن جعـفر الصادق بن محـمد رضى الله عنهما، أنه قـال: «البسملة تيجان السـور»، وقد قال عبد الله بن المبارك: «إنها جزء من كل سورة؛ ولذلك يجب ابتداء السورة بقراءتها.

على أنها جزء منها»، وقال الشافعى: «إنها جزء من الفاتحة»، وتَردَّد فى عدها جزءًا من كل سورة، ولكنها مهما تكن ليست جـزءا من غير الفاتحة، وهى لازمة للفصل بين سورة وسورة من السور التى ابتدأت بذكرها.

ولأن ثمة كلامًا فى كون سورة براءة ليست مستقلة عن سورة الأنفال، وعدها الأكثرون جزءا منها - لم تكن مبـتدأة بالبسملة، وينسب إلى الإمام مالك رضى الله تبارك وتعالى عنه أنهـا ليست جزءا من سورة الفاتحة أو غـيرها، ومؤدى هذا القول أنها ليست من القـرآن ككلمة «آمين» فى آخر الفاتحة؛ إذ إن الفاتحـة ضراعة إلى الله تعالى، فناسب أن تذكـر بعدها «آمين»، وعدَّ القرطبى فى كـتابه «أحكام القرآن» أن فى مذهب مـالك أن البسملة ليست مـن القرآن هو الصحيح، وذكـر أن القرآن كله متواتر، والبسملة ليست متواترة، فلا تعد من القرآن، ولكن تكون علامة على انتهاء سورة، وابتداء سورة أخرى.

ومع أنه قرر ذلك - يقـرر أن مالكا يرى أنها يُـبتدأ بها فـى الفرض والنافلة، كـمـا رواه ابن نافع، وفى الحق أن ذلك القـول غـريب عن الـقــرآن، وذلك لأن البسملة مـتواترة تواتر كل أجزاء القرآن، فلم تثبت بحديث آحـاد، بل ثبتت بالقرآن نفسه، فـقد كتبت فى مصـحف عثمان وما قبلـه، ولا تواتر أبلغ من هذا، وما كان للشيخين أبى بكر وعمر، وذى النورين وجـميع الصحابة أن يدونّوا فى المصحف ما ليس من القـرآن، و «آمين» هى التـى أمر الـنبى ﷺ بالنطق بهـا فى عـقب قـراءة الفاتحة.

إن ادعاء أنهـا ثبتت بخـبر آحاد يقـتضى ذكر ذلـك الخبر، ورواته، ومـقدار قوتهم، وضعفهم، وعددهم، وليس كذلك، بل هى ثبتت مقترنة بسور القرآن على أنها ثابتة بين كل سورة وسورة.

والسورة التى لم تصدر بها، ثبت عدم تقدمها لهذه السورة بالتواتر، فهى متواترة بالذكر فى كل السور، ومتواترة بالسلب فى سورة واحدة.

ولهذا نرى أن نسبة ذلك القول إلى إمام دار الهجرة مالك هو فى ذاته موضع نظر، وقد اقترن ذلك بادعاء أنه لم يقرأها أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، فيقول القرطبى عفا الله عنه: «فى مسجد النبى ﷺ بالمدينة انقرضت عليه العصور ومرت عليه الأزمنة والدهور من لدن رسول الله ﷺ إلى زمان مالك، ولم يقرأ أحد فيه قط ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ اتباعًا لسنة رسول الله ﷺ.

وإن لنا أن نرد ذلك القول، ونأخذ ذلك من كلامه هو، فهو قد روى أن عمر، وعليا، وابن مسعود، وعمار بن ياسر، كانوا يقرأونها ويسرون بها.

وروى هو أيضا عن النبى ﷺ أنه كان يسر بها ولا يجهر، فقد روى عن أنس ابن مالك رضى الله عنه أنه قال: «كان يصلى بنا رسول الله ﷺ فلم يُسمعنا قراءة بسم الله الرحمن الرحيم»(١) وروى عنه أيضا : صليت خلف رسول الله ﷺ، وخلف أبى بكر، وعمر، فلم أسمع أحدًا منهم يجهر بـ «بسم الله الرحمن الرحيم»(٢).

فالأمر أمر الجهر بها، لا أمر تركها، وفرق كبير بين الترك لها أصلا، وترك الجهر بها.

وبذلك ينتفي ما ادعاه من أن أحدا لم يقرأها، اتباعا للسنة إن كانت سنة، وذلك لأنهم قرأوها خفية وفى سر، آخذين ذلك من سنة النبى ﷺ.

(١) رواه النسائي: كتاب الافتتاح - باب: ترك الجهر بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» (٩٠٦) وبنحوه عند البخاري (٧٤٣)، ومسلم (٣٩٩)، والترمذي (٢٤٦)، وأبو داود (٧٨٢)، وابن ماجه (٨١٣)، وأحمد (١١٥٨٠).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ النسائي: كتاب الافتتاح (٩٠٧)، راجع التخريج السابق.

ومن كتاب الله عز وجل: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف].

وننتهى من هذا إلى أن البسملة جزء من القرآن الكريم، وهى فاصلة بين السور تدل على الانتهاء من سورة والابتداء بسورة أخرى.

وإن الشافعى يعُدها جزءا من الفاتحة، ومهما يكن فإنه لابد من البدء بقراءتها، وغيره يوجب البدء بها لا على أنها جزء من الفاتحة، ولكن على أنها قرآن يبدأ به فى أول كل سورة.

والأكثرون عدوها على أنها يبتدأ بها سرا لاجهراً أو تضرعًا فى خفية، ودون الجهر من القول، والله سبحانه وتعالى أعلم.

التعوذ فى ابتداء التلاوة:

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل] فُهِم من هذا النص الكريم أنه عند التلاوة لابد أن يقدمها بقوله: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، ثم تكون بعدها «بسم الله الرحمن الرحيم» وقد حكى ذلك عن عطاء وغيره، فقالوا: «إن الاستعاذة واجبة عند كل تلاوة فى غير الصلاة»، وإنما فى الصلاة فلا وجوب، ويظهر أن ذلك بالاتفاق؛ لأنه يكون زيادة واجب فى الصلاة لم يثبت عن النبى ﷺ، وكل وجوب فى عبادة من غير إيجاب من صاحب الشرع يُرَدُّ ولا يؤخذ به. وكان النخعى، ومعه قوم يتعوذون استحبابًا فى كل ركعة فى الصلاة، فحيث كانت قراءة قرآن تعوذوا استحبابًا، وروى عن أبى حنيفة التعوذ فى قراءة الركعة الأولى فقط.

ومن المتفق عليه أمران:

أحدهما: أن الاستعاذة ليست جزءا من الصلاة، ولا شرطًا لقراءة الفاتحة، كما هو مقرر عند الشافعى، لا سرا ولا جهرا؛ لأنه لم يثبت عن النبى ﷺ أنه التزم بها لا جهرا ولا خفية.

الثانى: أن كلمة «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» ليست قرآنا، وإنما استجابة لقول الله تعالى: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** ﴿٩٨﴾﴾ [**النحل**] وكلمة «أعوذ بالله» هى الكلمة التى يرددها الناس عند الاستعاذة، وروى عن عبد الله بن مسعود أنه كان يقول فى الاستعاذة: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم»، وروى ابن مسعود أنه تعوَّذ بها أمام النبى ﷺ فقال له: «يابْنَ أمٍّ عَبْدٍ، أَعوذُ باللَّهِ مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ هكَذَا أَقْرَأَنِى جِبْرِيلُ عَنِ اللَّوحِ عَنِ القَلَمِ»[1]، وإن هذا النص يستفاد منه أن كلمة أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هى المروية عن النبى ﷺ. وننتهى من هذا إلى أنها مستحبة وليست واجبة، ولكن إذا قالها أيُسِرُّ أم يجهر؟

الجمهور على أنه يجهر عند الصلاة بها، وقال حمزة: يسرّ بها، ومن قال إن الاستعاذة تكون بعد القراءة لأن الله يقول: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ** ... ﴿٩٨﴾﴾ [**النحل**]، فالقراءة تسبق الاستعاذة امتثالا لأمر الله تعالى؛ ولكيلا يكون القارئ متغنيا، ولا متلهِّيا، وليكون فى حضرة الله فى قراءته وبعدها، ويكون طائعا لله تعالى فى كل أحواله.

---

(١) ذكره بهذا اللفظ القرطبي فى مقدمة تفسيره ص ١٢٨.

الفاتحة، أو فاتحة الكتاب

قال جار الله الزمخشرى فى كتابه الكشاف: إنها مكية؛ لأنها أنزلت بمكة، وذلك هو المشهور، وقيل إنها أنزلت بمكة مرة، والمدينة مرة أخرى عند تحويل القبلة إلى الكعبة، والظاهر أنها مكية، نزلت عند فرض الصلاة بمكة، وكونها نزلت بعد ذلك بالمدينة تكرار للنزول، ولا نحسب ثمة حاجة للتكرار فإنها متى نزلت كانت واجبة التلاوة على أنها جزء من القرآن ولاحاجة إلى تكرار نزولها.

وتسمى أم القرآن، لاشتمالها على المعانى التى فى القرآن من الثناء على الله تعالى، بما هو أهله، ومن التعبد بالأمر والنهى، ومن الوعد والوعيد، وتسمى أيضا سورة الكنز، وسورة الوافية لذلك الشمول الإجمالى الذى اشتملت عليه فيما ذكرنا، وتسمى المثانى لأنها تثنى فى كل ركعة ولأنها السبع المثانى. وتسمى سورة الصلاة، لأنها مأمور بقراءتها فيها، وتسمى الشفاء والشافية وهى سبع آيات بالاتفاق(١).

وكلها أسماء سميت بها لمعان فيها، ولاحظها من جوانبها من سماها، فكل اسم يمثل جانبا من جوانبها.

ابتدئت الفاتحة كما ابتدئت كل سورة ما عدا براءة بـ «بسم الله الرحمن الرحيم»، وعدها الشافعى وفقهاء مكة جزءا من الفاتحة ؛ لأن النبى ﷺ عدَّ الفاتحة سبع آيات، ولا تكون سبع آيات إلا إذا عدت بسم الله الرحمن الرحيم جزءا منها، وعند أهل المدينة ومالك ليست جزءا من الفاتحة، وقد علمت القول المختلف فى ذلك، وقد قررنا أنها جزء من القرآن وابتداء لكل سورة، وقال الإمام محمد بن الحسن الشيبانى صاحب أبى حنيفة: «ما بين دفتى المصحف قرآن»، وقد كانت

---

(١) الكشاف للزمخشرى: جزء ١ ص ٤.

مكتوبة فى مصحف عثمان رضى الله عنه والمصحفين من قبله، وتواتر المصحف بتواتر القرآن، والإجماع انعقد على ذلك، ولم تنقل بخبر آحاد كما ادعى بعض المالكية.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾

﴿بِسْمِ﴾ الباء هنا هى حرف جر يدل على السببية ، وهى مبنية على الكسر كـ «لام» الأمر، والمعنى: بسبب اسم الله الذى لا يعبد سواه وأنه الرحمن الرحيم أبتدئ، فهى متعلقة بمحذوف يُذكر بعدها، لبيان اختصاص الابتداء أو التبرك باسم الله تعالى، فالتأخير يفيد الاهتمام بمتعلَّق الباء ومزيد الاختصاص بالاستعانة والتيمن والتبرك به.

والبسملة يبدأ بها فى كل أمر ذى بال، كما قال ﷺ: «كُلُّ أَمْرٍ ذِى بَالٍ لَمْ يُبْدَأْ فِيهِ بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم فَهُوَ أَبْتَر» والفعل الذى تعلقت به الباء محذوف، وكما ذكرنا يقدر مؤخرا؛ لأن المقدم يكون محل التخصيص.

ولأن البسملة يبدأ بها كل أمر ذى بال، فإنه يقدر الفعل على حسب ما نبتدئ البسملة، ويرى بعض المفسرين أن يقدر الفعل المحذوف «أبتدئ»؛ لأنه يكون صالحا، لكل أمر ذى بال وشأن، والآخرون قالوا: إنه يقدر فى القرآن أتلو أو أقرأ أو أرتل أو نحو ذلك، وبعض العلماء قال : إنها فى القرآن الكريم فى معنى القسم بأن القرآن حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وتكون على هذا للقسم، ويقدر الفعل بـ «أُقسم». والمعنى على ذلك فى أول كل سورة اجعل قسمك بالله الرحمن الرحيم أن ما تتلو هو الحق الذى لاريب فيه، فهو الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين.

و﴿اللَّهِ﴾ هو لفظ الجلالة الدال على أنه وحده له كمال العبودية، واسم الله - قال بعض العلماء إنه المراد فيه الذات العلية فهو اسم يعنى المسمى. والمعنى هو القسم بالذات العلية، وقرر بعض العلماء أن الاسم الأعلى هو المقصود بالافتتاح تبركا وتيمنا باسم الذات العلية، ولها المكان الأقدس من العباد تبارك الله، والاسم ذاته يتيمن به ويتبرك، فليس المراد بالاسم الذات؛ لأنها مذكورة، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمن]، وقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى] وهذا ما نميل إليه؛ لأنه لا يحتاج إلى تحول من المعنى الأصلى لكلمة الاسم إلى غيره، ولأن إطلاق الاسم على المسمى من قبيل المجاز، ولا يصار إلى المجاز إلا عند تعذر الحقيقة، ولأن قصد الاسم الأسمى ابتداءً يفيد معنيين، وهو تقديس الاسم فى كلمة بسم الله، وتقديس المسمى وهو الله سبحانه. ولو أطلق الاسم على المسمى، لكان تقديسا للذات العلية من غير إعلاء للاسم فى ذاته، ولا شك أن الأول أبلغ تسبيح لله تعالى لقاء التبرك بذكره، والتيمن به سبحانه وتعالى علوا كبيرا.

وكلمة ﴿اللَّهِ﴾ تعالى لا تطلق إلا على الذات العلية خالق الكون، ومنشئ الوجود على غير مثال سبق، بديع السموات والأرض. وقالوا: إن أصل كلمة الله: الإله، ثم كان حذف الهمزة، مع تقدير أنها مطوية فى الكلام مقدرة فيه. والإله تطلق على المعبود، وتعم المعبود بحق وبغير حق، ولكن كلمة ﴿اللَّهِ﴾ تعالى لا تطلق إلا على المعبود بحق، فيُقال: آلهة المشركين، وآلهة الرومان، وآلهة المصريين، ولا يقال: «الله» إلا فى مقام أنه الخالق المدبر المنشئ المستحق للعبادة؛ ولذلك كانت ألفاظ القرآن الكثيرة فى مخاطبة المشركين، على أن الله تعالى معروف بأنه المنشئ، وأنه غير آلهتهم، فكانوا يقولون: الآلهة هبل، واللات، والعزى، ومناة الثالثة؛ يقولون عنها إله وآلهة ولا يقولون عن واحدة منها إنه «الله»، لقد قال تعالى

عنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان] وكان يحتج عليهم بأنهم يعبدون مع الله آلهة أخرى، وجدل القرآن الكريم لهم لإلزامهم بالتوحيد بأنهم يعترفون بأن الله تعالى خالق السموات والأرض فهو الجدير وحده بالعبادة، اقرأ قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل]

ونرى من هذا أن العرب كانوا يعرفون الله سبحانه وتعالى، وأنه الخالق لكل شيء وما كانوا يطلقون كلمة «الله» إلا على الخالق المدبر المنفرد بالإيجاد والإبداع، وما كانوا يطلقون على آلهتهم كلمة الله، وهذا عُرْفُ لغتهم ودلالتها.

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ هذان وصفان لله تعالى قُرنا فى البسملة، وكلاهما يدل على كمال رحمة الله تعالى فى ذاته وعلى خلقه، والرحمة رقة فى القلب، والله تعالى لا يتصف بذلك؛ لأن هذا من صفات الحوادث، والله تعالى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وإنما يراد من الأوصاف التى يتصف بمثلها العباد غايتها، وثمرتها، وثمرة الرحمة الإنعام الكامل، والنفع ودفع الضر، والرزق، وغفران الذنوب، وكلاءة الله تعالى لهم، والقيام على كل ما يمدهم به بالخير والنعمة.

والوصفان اقترنا واجتمعا فى البسملة، كما اجتمعا فى بسملة كتاب سليمان عليه السلام لبلقيس، إذ قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ [النمل] وهذه بسملة كبسملة أوائل السور، كما اجتمع الوصفان فى آيتين أخريين من آيات القرآن، ففى أول سورة فصلت ذكر للقرآن الكريم، وقال سبحانه عن الذكر ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾ [فصلت] وجاء فى سورة الحشر ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ [الحشر].

ولا شك أن الوصفين من أسماء الله الحسنى وصفاته، ولا شك أن لكل منهما معنًى قائمًا بذاته، منفردًا به عن الآخر. يقول الزمخشرى (نقلا عن الزجاج): إن صيغة فَعْلان من الصيغ التى تدل على الامتلاء، كغضبان، وشبعان، وسكران، وجوعان، فإنها تدل على الامتلاء من الفعل الذى اشتُقت منه، فكذلك الرحمن معناها الممتلئ رحمة، ورحيم تدل على الاتصاف بالرحمة التى تليق بذاته العلية من غير امتلاء.

ولذلك يقول الزمخشرى ومن تبعه فى دراساته البيانية للقرآن الكريم: إن «الرحمن» أبلغ من «الرحيم»، وإن كان كلامه تعالى كله فوق الكلام البشرى وما ترى فيه من تفاوت، وإن كان كله فى أعلى درجات البيان لا يساويه بيان للإنسان. وبدراسة اللفظين فى القرآن يتبين لنا الفرق بينهما فى الاستعمال القرآنى السامى فى بلاغته إلى ما لا يتسامى إليه كلام بشر، ولا يدانيه شىءٌ من الكلام الإنسانى.

وعند الاتجاه إلى استقراء الآيات القرآنية نجد القرآن الكريم جمع بين الوصفين فى آيتين غير البسملة وقد ذكرنا، وذكر وصف الرحمن منفردا فى نحو ستين

موضعًا من كتاب الله العزيز، وكان يذكر ذلك الوصف السامى غير مضاف إلى فعل من الأفعال، ولا واقع على أحد كقوله تعالى: ﴿**قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ** ... ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء] وكقوله تعالى: ﴿**يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا** ﴿٨٥﴾﴾ [مريم] وقوله تعالى: ﴿**الرَّحْمَنُ** ﴿١﴾ **عَلَّمَ الْقُرْآنَ** ﴿٢﴾﴾ [الرحمن] ومثل قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ** ﴿٢٠﴾﴾ [الزخرف].

وهكذا فى نحو ستين آية يذكر وصف الرحمن مجردا من الإضافة إلى شيء أو شخص أو فعل كما يذكر «الله» تعالى، وذكر وصف الرحيم منفردًا عن الرحمن فى أكثر من ثلاثين ومائة آية، ونجد أنها مضافة إلى رحمته سبحانه وتعالى بالعباد مثل قوله تعالى: ﴿**فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة] ومثل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴿٦٥﴾﴾ [الحج] ومثل قوله تعالى: ﴿**فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴿١٩٢﴾﴾ [البقرة].

ومن هذه الموازنات بين استعمال القرآن لكلمة «رحمن»، واستعماله لكلمة «رحيم» ننتهى إلى ما يأتى:

أولا: أن وصف الرحمن وصف ذاتى للذات العلية لا يتعلق بفعل ولا بشخص يذكر، ولكنه وصف لله أو اسم له كلفظ الجلالة، ولكنه يشعرنا بالرحمة، كما أنه لفظ يشعر بالألوهية واستحقاق العبادة؛ ولذلك قال بعض العلماء: إن كلمة «الرحمن» اسم لله تعالى، وأما «الرحيم» فهو وصف لله تعالى يتعلق برحمته بالعباد المكلفين المخاطبين بشريعته، والذين طلب منهم أن يقوموا بحق الله تعالى فى إجابة أوامره، واجتناب نواهيه؛ ولذلك يقترن كثيرا بالتوبة والمغفرة.

ثانيا: أن الرحمة فى «الرحمن» أكثر من «الرحيم»؛ ولذلك قالوا: إن رحمة الرحمن، هى الرحمة بالوجود كله، فبرحمة الرحمن يرزق الله من فى السموات والأرض، وبرحمته الواسعة ينزل الغيث، ويرسل الرياح، ومهَّد الأرض، وجعل الجبال، وبرحمة الرحمن بعث الرسل مبشرين ومنذرين، وبرحمة الرحمن جازى المحسن بإحسانه، والمسىء بإساءته ﴿**مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ١٦٠**﴾ [**الأنعام**].

وهكذا كانت رحمة الرحمن شاملة الوجود كله، والرحيم متعلق فى رحمته بالمكلفين.

ثالثا: أن «الرحمن» أكثر رحمة لما فى الوصف بالرحمة فيه من شمول يشمل الوجود الإنسانى كله، ووصف «الرحيم» خاص بالمكلفين، كما يدل على ذلك سياق اللفظ فى القرآن الكريم.

ومن هذا الاستقراء والتتبع، واستنباط المعانى لألفاظ ﴿**الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ من استعمال القرآن نتتهى إلى أن بيان معانى ﴿**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ أن الله سبحانه وتعالى يأمرنا أن نتلو القرآن مبتدئين تالين لآياته باسمه الأقدس. نتبرك به ونتيمن ونسبح باسمه، وهو الله الإله المتفرد بالخلق والتكوين والتدبير والمتفرد بالعبودية وحده جل جلاله لأنه بديع السموات والأرض والوجود كله، وهو «الرحمن» ذو الرحمة الواسعة التى تعم الوجود كله فى السموات والأرض، والدنيا والآخرة، المدبر للوجود برحمته، وهو «الرحيم» بعباده يغفر لهم ويتوب عليهم، ويشرع لهم من الشرائع ما يكون خيراً لهم فى معادهم ومعاشهم، وهو بكل شىء عليم.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢﴾

وسورة الفاتحة كما ذكرنا مكية، وقد أجمع العلماء على ذلك، بل إن بعض العلماء يدعى أنها أول سورة نزلت من القرآن، ولكن يخالفهم الأكثرون فى ذلك، ويقررون أن أوَّل ما نزل من القرآن: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ [العلق] وقد روى البيهقى فى ذلك خبرا عن النبى ﷺ. وقد وفق العلماء بين ما رواه البيهقى وما هو مقرر من أن أول مانزل ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ بأن الفاتحة هى الأولى نزولا، وهى سورة نزلت دفعة واحدة، أما الثانية فآية، وهى قد أخبرت عن الأولى - أى عن الفاتحة - الأمر بالقراءة ، فالأمر بالقراءة يقتضى مقروءا.

والذى أميل إليه أن الفاتحة ليست أول ما نزل من القرآن، ويرجح عندى أنها نزلت عندما فرضت الصلاة فى الإسراء والمعراج.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الحمد هو الثناء الكامل على الأفعال الاختيارية، وعلى من تصدر عنه هذه الأفعال الاختيارية فيعم نفعها وهى مصدر الخير لهذا الوجود الكونى والإنسانى.

وهناك كلمات ثلاث تتلاقى معانيها فى جملتها، وتختلف فى دقتها، وهى كلمة «حمد»، وهى تكون كما ذكرنا الثناء الجميل على من يعمل أعمالا اختيارية عامة النفع، ودافعة للضرر للوجود كله بحكمة من يفعلها ، والكلمة الثانية «المدح»، وهى الثناء على الصفات الذاتية، والشخصية الطيبة، فيقال: مدحت الصفات الطيبة فى فلان، ولا يقال: حمدتها، إنما يقال: حمدت الله تعالى ومدحت خصال فلان، وقيل: إن الحمد والمدح مترادفان، ولعل قائل هذا القول

نظر إلى معنى الثناء فيهما من غير أن ينظر إلى الباعث، فإن الباعث فى الحمد أعمال الإنعام والخير، والباعث على المدح الشخص والذات، فيقال: مدحت الجميل في صفاته الحسنة، وخلاله الكريمة، ولا يقال حمدته، ومن العلماء من قال إن المدح أعم، ومن قال العكس، ونميل إلى التفرقة بينهما باختلاف الموضوع.

و«**الشكر**» امتلاء النفس بالإحساس بالنعمة، واندفاع النفس إلى الطاعة والخضوع، والقيام بحق المنعم ومقابلة الفضل والنعمة بالإحسان فى الطاعة والواجبات، وقد قال تعالى فى ذلك: ﴿**لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ...** ﴿٧﴾﴾ [**إبراهيم**] ويقول ابن جرير الطبرى: إن الحمد والشكر بمعنى واحد، والحق أنهما يتلاقيان ويختلفان، فيتلاقيان فى معنى الإحساس بالنعمة والقيام بحقها، وما يجب بالنسبة للمنعم، ولكنهما يختلفان فى القيام بحق المنعم، فالقيام بحق المنعم فى الشكر الطاعة والعمل وجعل الجوارح كلها فى طاعة الله تعالى، والخضوع المطلق لله تعالى فى كل شأن من شئونه، وحال من أحواله. والقيام بحق المنعم فى الحمد الثناء على الله تعالى ثناء مطلقا كاملا مع تذكر نعمائه، وتذكر ما يحيطه من الوجود كله، لا فى ناحية من نواحى شخصه؛ ولذلك روى عن النبى ﷺ أنه قال: «الحمد رأس الشكر»[1] والحمد ذاته عبادة والشكر يكون على النعمة وبالمثابرة على الطاعة والعبادة.

ومهما يكن فالألفاظ الثلاثة متقاربة فى مؤداها - وإن تخالفت فى مدلولاتها و «ال» فى قوله تعالى: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ**﴾ للاستغراق والكمال، أى الحمد كله وبكماله لله تعالى وحده، فلا يستحق أحد من خلقه حمدا؛ لأن الحمد كما ذكرنا عبادة، والعبادة لله تعالى، وحده وحمد غيره عبادة لغيره، وشرك بالله تعالى، وأصل

(١) رواه عبد الرزاق في المصنف، والبيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما.

الضلال يبتدئ من حمد غير الله، والثناء عليه، ثم ينقاد من بعد ذلك إلى ما يخرجه عن طاعة الله، فلا حمد إلا لله ولاثناء إلا لله.

وإن الحمد إنما هو ابتداءً على ما أنعم الله تعالى على الوجود الكونى والإنسانى من غير وجود فيكون الحمد له وحده، وتُقرأ كلمة «الحمد لله» برفع الدال. والمعنى: الحمد الثابت الكامل المستغرق لكل صنوف الحمد هو لله وحده، ولا يحمد سواه؛ لأن كل نعم هذا الوجود الكونى والإنسانى لله تعالى، فكل خير الوجود منه وإليه.

وهناك قراءة بفتح الدال على أنه مصدر، ومنصوب بفعل محذوف، ويكون المؤدَّى للقول: احمَدِ الحمدَ كلَّه لله تعالى، فلا تحمدْ سواه، وإن حمد سواه شرك لما ذكرنا من أن الحمد ذاته عبادة، وهذه القراءة تفيد تجدد الحمد آنا بعد آن بالتذكير بنعم الله تعالى وآلائه، والقراءة السابقة تفيد دوام الحمد، كما تدل على ذلك الجملة الاسمية؛ لأنها تفيد الاستمرار.

وإنى أرى أن القراءات المتواترة كلها لا تتباين، ولا تتضارب، بل تتلاقى، وتكمل واحدة معنًى فى الأخرى، فبالجمع بين القراءتين يكون معنى النص السامى: اجعل الحمد دائما مستمرا ومتجددا؛ ليكون القلب دائما عامرا بذكر الله تعالى.

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فى هذا الوصف للذات العلية إشارة إلى سبب الحمد الكامل، الدائم المستمر المتجدد؛ لأنه هو المالك والسيد، والمربى لهم والرقيب عليهم، الذى ميزهم بالنعم المستمرة، والآلاء المتكررة التى لا تنقطع أبدا.

فالرب هو المالك وهو السيد، وهو المصلح والمدبر، والجابر والقائم على كل شيء، الذى يسير الوجود كله بحكمته وبقدره وإرادته.

و«الرب» وصف لله تعالى مأخوذ من ربَّ الشيء يَرُبُّهُ بمعنى قام بإصلاحه وتقويمه، وتتبَّعه بالإصلاح والتنمية فى كل أدواره ، وروى أن النبى ﷺ قال: «هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِن نِعْمَةٍ تَرُبُّها»[1] أى تصلحها وتنميها، ثم أطلقت كلمة «رب» على الله سبحانه وتعالى، وهذا المعنى يتلاقى مع «ربَّى»، فإن التربية هى الإصلاح والتغذية، والعمل على الإنماء، ولقد جاء في الصحاح للجوهري : «رَبَّ فُلانٌ ولده يَرُبُّهُ رَبّاً، وتَربِيَةً بمعنى: ربّاهُ، والمربوب المُرَبَّى».

وعلى ذلك يصح أن تقول إن الرب من ربَّه، بمعنى نماه، أو من التربية بمعنى الإصلاح والإنماء، والمعنى فى الحالين أن الله رب العالمين بمعنى مغذيهم ومنميهم والقائم عليهم، والمصلح لهم، والمدبر لأمورهم، وهو مربيهم لأنه القائم عليهم والمهذب لهم بما خلق فيهم من عقول مدركة تدرك الخير والشر، وتختار ما تفعل وتحاسَب على ما تقدم من خير فتنال به الثواب، وما تكسب من شر فينالها العقاب.

وكلمة ﴿ **الْعَالَمِينَ**﴾ يريد بها العقلاء من الملائكة والإنس والجن، فهو رب هؤلاء جميعا ، هو الذى رباهم وأصلحهم، ودبر أمورهم، والعالَمون جمع لعالَم، وهو كل موجود غير الله تعالى، ولكن إذا جاءت «عالَمون» بجمع المذكر العاقل، أريد بها العقلاء ممن خلق الله تعالى، وقد أيد ذلك القول بقول ابن عباس رضى الله عنهما: «العالَمون الجن والإنس»، ودليله قوله تعالى: ﴿**لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً** ۝١﴾ [**الفرقان**] فلا ينذر إلا الجن والإنس؛ لا تنذر الجبال ولا الأرضون، وإنما ينذر العقلاء الذين يتصور الشر منهم، أو لا يتصور كالملائكة، وقد قلنا إن لفظ العالمين يعمهم.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة باب فضل الحب في الله (٢٥٦٧)، وأحمد: باقي مسند المكثرين (٩٨٨٧).

ويسأل سائل: لماذا جمع هنا، والأقرب الإفراد، ونقول ما قاله العلماء: إن المفرد هنا (وهو عالَم) أعم من الجمع، ولكن يبقى السؤال لم ذكر الجمع؟ أجابوا بأن فى ذلك إشارة إلى أن كل عاقل، أو العاقلين بشكل عام فيهم العوالم كلها، ففيهم دقة التكوين وجمال التصوير وروعة الخلق، من عقل يدبر، ولسان وجوارح تتحرك، فجمع الله تعالى فى عالم العقلاء كل العوالم الأخرى فى إحكام الصنع وبديع التكوين كما قال تعالى فى تقديم العلم بالنفس، وجلائل الخلق والتكوين: ﴿**وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ** ﴿٢١﴾ **وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ** ﴿٢٢﴾﴾ [**الذاريات**] ففى الإنسان أكمل صورة للخلق والتكوين.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾

هذان وصفان من أوصاف الله تعالى، أو اسمان من أسمائه ذُكِرَا فى مقام السببية لاستحقاق الله تعالى الحمد وحده، وقد ذكرنا هذين الوصفين فى الكلام فى البسملة، فلا نعيده، ولكن نذكر هنا مقامهما من النسق بعد قوله تعالى: ﴿**رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ فنقول إن «الرحمن والرحيم» يدلان على الرحمة التى يصلح بها الكون ويدبر أمره بحكمته وقدرته، فهو سبحانه يرب العالمين ويصلحهم رحيمًا بهم، ويصلح الكون والوجود كله برحمته الشاملة لاسمه الأعلى الرحمن.

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾

يوم الدين هو يوم الجزاء، وقيل يوم الطاعة، وقيل يوم الشريعة الحاكم على كل عقيدة باطلة، ومهما يكن من اختلاف هذه الألفاظ فى مدلولاتها الخاصة، فإن النهاية تتجه إلى أن ذلك اليوم هو اليوم الذى يجازى فيه المحسن بإحسانه، والمسىء

بإساءته، وهو الذى تجد فيه كل نفس ما عملت محضرا، يُعلِنُ ما تستحق من عقاب أو ثواب.

و ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فيه قراءات تختلف فى أشكالها، ولا تختلف فى مضمونها فقرئ هكذا : مالك يوم الدين، وقرئ: مليكِ يوم الدين، وقرئ: مَلِكِ يوم الدين، وقرأ أبو حنيفة رضى الله عنه: مَلَكَ يومَ الدين، وقرئ: مالكًا يومَ الدين، وقرئ: مالكٌ. والقراءات كلها تنتهى إلى معنى واحد، وإن كانت تختلف فى أعاريبها، والنص العثمانى يشملها جميعا، ولا تخالف فى النسخ المتواتر، بيد أن قراءة النصب «مالكًا» تكون حالا من الذات العلية، أى أنه الرب للوجود كله والمنعم عليه بجلائل النعم؛ جليها وخفيها، حال كونه مالكًا من بعد ذلك ليوم الجزاء، الذى يجزى كل نفس ما كسبت، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، و«يوم الدين» تكون ظرفا غير مضاف إليه، وكذلك فى قراءة الرفع مع التنوين يكون يوم الدين ظرفا للملك وكمال السلطان.

وقراءة «مالك» تفيد أن كل شيء مملوك لله تعالى فى ذلك اليوم، فالنفوس فى مآلها وفى نهايتها ملك لله، ومستقبلها القريب والبعيد لله لا تملك من أمرها شيئا، بل كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار] وإذا كان سبحانه وتعالى يملك كل شىء فى هذا اليوم؛ فالسلطان، والتدبير له، وحده الذي يملك الجزاء، والمغفرة إذا أراد، ولا إرادة لسواه، إنه الحكم العدل اللطيف الخبير.

و«مَلْك»، و«مَلِك»، الفرق بينهما وبين قراءة «مالك» كالفرق بين المصدرين، المِلْك، والمُلْك ، فالمِلْك استيلاء على الأشياء يكون مردها إليه، والمُلْك السلطان

بالأمر والنهى وتنفيذ ما يريد، وألا يكون معه آمر ولا ناه ولا حاكم سواه، ولا إرادة فوق إرادته، ولا حكم فوق حكمه.

ويلاحظ أن معنى المُلك يتضمنه بالاقتضاء معنى المِلْكِ؛ لأن من ملك شيئا ملك السلطان فيه، والسيطرة عليه، فالمِلْكَ يقتضى المُلْكَ والسلطان، والمُلْكُ لا يقتضى المِلك والسلطان؛ ولذلك يقال سبحان مالِك الملك، ولا يقال مَلِكُ الملك.

ورأينا أن كل قراءة متواترة قرآن، وأن القرآن لا يخالف بعضه بعضا، بل قد يُتِمُّ بعضه بعضا، وليس لنا أن نراجح بين قراءة وقراءة، لأن كلتيهما تتمم الأخرى.

وخلاصة القول فى القراءتين أن قراءة (مَلِك يوم الدين) موضِّحة لما تضمنته (مالك يوم الدين)، ولا نتصور أن تتعارض قراءتان متواتران؛ لأن القرآن لا يضرب بعضه بعضا. وفى الإعراب «مالك» أو «مَلِكَ» مضاف إلى يوم الدين على أنه هو المسيطر المتصرف المالك لأحداث ذلك اليوم من جَزاء: ثواب أو عقاب أو مغفرة، وأنه واقع لا محالة، وأن ما فيه فى ملكه وتحت سلطانه وحده.

وإن اسم الفاعل يدل على الاستقبال، فلا يقال إنه مالك لليوم واليوم لم يجئ، وإن الأزمان الماضى والحاضر والمستقبل كلها بالنسبة لله تعالى واحدة.

هذا، ويلاحظ أن الأسماء أو الصفات هى كما أشرنا من قبل من قبيل السبب لانفراد الله تعالى بالحمد الكامل، فالربوبية الكاملة بالإنشاء لهذا الوجود وما فيه ومن فيه، وتعهده بالإنماء والتربية والتهذيب والتكميل، والرعاية لكل شىء، وإن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا ما أمسكهن أحد من بعده، ثم رحمته الظاهرة والباطنة، والعاجلة والآجلة التى تعم الوجود كله من سماء

وأرضين، وشمـوس ونجوم، ورحـمتـه الخاصة بعـباده العـاقلين المكلفين من قـبول للتوبة، وغفران، وثواب.

ثم كونه بعد ذلك مـالكًا وحده ليوم الجزاء، كل هذه الأسمـاء والصفات من شأنها أن تجعله مستحقًا للحمد الكامل بـكل ضروبه، وفى كل الأحوال، وذلك بربوبيته الشاملة، ورحمته الكاملة، وامتلاكه وحده ليوم الجزاء.

وإن الأسماء أو الصفات كما أنها سبب لانـفراده باستحقاق الحمد، هى أيضا سبب لانفراده بالعبادة والاستعانة، وطلب الهداية، وقد التفت الكلام الحكيم من بعد ذلك من الإخبار باستحقاق الحمـد لله تعالى وحده، وبيان جليل أسمائه إلى ذكر ما ينبغى للمؤمن من إفـراده بالعبادة والاستعانة به دون غيـره، والضراعة إليه فى طلب الهداية؛ لذا قال سبحانه:

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾

كان الكلام السامى يـسير على نهج الغيبـة بذكر مقام الربوبيـة وأسماء الذات العليـة التى هى أوصافـها من شمـول الرحمـة فى كل الأحوال ولكل الـوجود إلى تخصيصها بالمكلفين من عباده.

وبعد ذلك انتقل القول من الغيبة إلى الخطاب؛ لأن الانتقال من باب إلى باب فى البيـان يعطى للكلام روعة تليق بأبلغ من فى الوجـود، فالانتقـال فى القول من غيـبة إلى خطاب يجدد فى النفس الإقـبال على الاستـمتاع بالتـلاوة، والاستمـتاع بالسماع، والاعتبار بما فى الكتاب، والإقبال الذى يتولد عنه التدبر والتفكر فى آيات الله تعالى.

وإن الأوصاف السابقة لذات الله تعالى توجب علـى العبد التفكر فى أمر الله تعالى وعبادته سبحانه، فكان من بعد ذلك ذكـر أحوال العباد الواجبة، خاطبهم الله تعالى بكمـاله، فخاطبوه بما يليق بهم أن يفـعلوه، وهو إفراده بالعبادة والاسـتعانة، وأن يطلبوا منه الهداية إلى الصراط المستقيم.

وإن العباد إذ يتدبرون صفات الذات العلية، ويستحضرون جلالها، وإفضالها، وإنعامـها وسلطانهـا يصلون فى مداركهـم إلى مرتبة المشـاهدة الروحية لـله تعالى؛ ويرتفـعـون إلى إدراك ملكوت الله تعـالى ليـخاطبـوه قـائلين: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾.

ولقد قال فى هذا المقام العلامة أبو السعـود فى تفسيره: «إن حق التالى بعدما تأمل فيما سلف من تفـرده تعالى بذاته الأقدس المستوجب العبودية بامـتياز ذاته عما سواه بالكُلِّيـة، واستبداده بجـلائل الصفات وأحكام الربوبيـة المميزة له سبـحانه عن العالمين، وافتـقار الكل إليه فى الذات والوجود ابتداء وبقـاء منه، أن يترقى من رتبة البرهان إلى طبقة العيان، وينتقل من عـالم الغيب إلى عالم الشهود، ويلاحظ نفسه حاضـرا فى مـحاضر الأنـس كأنه واقف لدى مـولاه، ماثل بين يديه، وهو يـدعو بالخضـوع والإخبات، ويقرع بالضـراعة باب المناجاة قائلا : يا من هذه شـئون ذاته وصفـاته نخصك بالعبـادة والاستعـانة، فإن كل ما سـواك كائنا ما كـان بمعزل عن الوجود فضلا عن استحقاق أن يعبد أو يستعان»(١).

وإن الارتفاع إلى مقام المشاهدة، ومخاطبة الله تعالى هو الذى من أجله كانت - أى الفاتحة - واجبة التلاوة فى كل ركـعة من ركعات الصلاة؛ لأن الصلاة وقوف بين يدي الديان، واتجاه إلى حضرته العلية، ومشاهدة روحية.

---

(١) تفسير أبى السعود: ج١، ص١٨.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ «إيَّا» ضمير منفصل أصله بمقتضى السياق العادى «نعبدك» فلما قدم الضمير انفصل، و«الكاف» حرف للدلالة على الخطاب، كما أن «الهاء» للدلالة على الغيبة فى قوله: «إياه»، و«الياء» دلالة على المتكلم، و«إيانا» دلالة على المتكلمين، وهكذا. وقيل إن «الكاف» وأخواتها أجزاء من الضمير، وهو اختلاف إعرابى لا جدوى فيه في مقامنا هذا. والعبادة أكمل أنواع الخضوع، والتذلل لله تعالى، ولا تكون لغير الله تعالى، فهو وحده المعبود بحق، فلا يعبد سواه، وإن دوام العبادة والاستمرار عليها مع القيام بحقها من خشوع وخضوع لله وتذكر مقام الله العلى الأعلى، وحضور لذاته العلية كأنه يرى الله تعالى، مع الإحساس بأنه - سبحانه - يراه.

إن دوام العبادة على هذا النحو تولِّد فى نفسه صدق العبودية، فيحس فى كل أحواله بأنه لله، ويحب الشيء لا يحبه إلا لله، ويكون ربانيا، مستجيبا لأمر الله: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ ... ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران].

والاستعانة طلبُ العون من الله تعالى، مستحضرا مافى الذات العلية من صفات الربوبية، والرحمة، والسلطان المطلق يوم الجزاء؛ إذ لا سلطان فى يوم الدين لأحد سواه، وقد جاء ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قبل ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ لأن العبادة حق الله تعالى، والتقدم إليه بالخضوع الذى لا خضوع مثله، والاستعانة حق العبد أو طلبه العون له، فما هو حق أوثق وأولى بالتقديم، ولكن يجب أن نلاحظ أن الاستعانة والضراعةَ إلى الله تعالى، وإفراده سبحانه بطلب العون منه سبحانه هو عبادة أيضا، كما هو طلب من الله؛ لأن الدعاء المخلص لله تعالى هو عبادة فى حد ذاته، حتى رُوى: «الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ»(١)، وكما قال تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه: كتاب الدعوات (٣٣٧١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [الأعراف] وإطلاق الاستعانة من غير متعلّق بذكر المستعان عليه من الأمور دال على أنه يستعين الله تعالى فى كل أمور حياته. والاستعانة هى نوع من استصغار حاله بجوار عظمة الله تعالى، وافتقاره إليه تعالى، وأنه محتاج إليه دائما، ولا يركبه غرور الحياة والضلال في أن يُقِرَّ بنفسه الغرور، وهو استجابة وفهم لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ [فاطر].

وإن من أعلى أبواب الاستعانة، الاستعانة بالله تعالى على أداء الواجبات والقيام بفروض الله تعالى، فهو يستعين بالله تعالى على أداء واجب العبادة ليصل إلى درجة العبودية، ويكون ربانيا.

وتقديم ﴿إِيَّاكَ﴾ على ﴿نَعْبُدُ﴾ و ﴿نَسْتَعِينُ﴾ لتعظيم الله تعالى بذكره أولا، ولأن التقديم للاهتمام بالمعبود والمستعان؛ وللدلالة على أنه سبحانه وتعالى هو المختص بالعبادة وحده، وأنه لا يستعان بغيره، وفى ذلك كمال التوحيد والخضوع له وحده سبحانه وتعالى، ولقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال فى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: معناه نعبدك ولا نعبد غيرك.

فتقديم إياك كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [البقرة] وقوله سبحانه: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ ﴾ [البقرة] وتكرار ﴿إِيَّاكَ﴾ فى ﴿نَعْبُدُ﴾ و﴿نَسْتَعِينُ﴾، لبيان التباين بينهما، وأن ذلك حق الله، وأن هذا طلب من العباد، ولتكرار النص على تخصيص ذلك بالله الواحد الأحد الفرد الصمد.

وأول الاستعانة طلب الهداية؛ ولذلك قال تعالى:

ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾

بعد أن ذكر دعاء العباد لربهم باختصاصه بالعبادة، طلبَ الاستعانة بالله تعالى فى كل شيء مرغوب فيه محمود غير مذموم، وذكرت الاستعانة متجهة إلى الله تعالى من غير الباء، إذ هى تتعدى بها، فيقال استعان به، وتركت الباء للتوجه إلى الله تعالى من غير توسط، ولو كان توسطًا لفظيًّا بحرف الباء، والتوجه إلى الله وحده بحيث يواجه الذات العلية بإشراف النفس من غير رؤية ولا حسٍّ إلا أن يكون روحيا.

وقد ذكر أعلى مراتب الاستعانة، وهى التى لا تكون لأمور تتعلق بالرغبات الدنيوية ولو كانت فى حلال، بل أعلاها ما يتعلق بالنفس وهدايتها، فقال سبحانه على لسان المتقين: ﴿اهْدِنَا﴾ ومجيء ذلك فى كتاب الله تعالى وبقوله الحكيم تعليم وتربية للنفس المؤمنة أن تكون استعانتها بالله تعالى تكون أولا بطلب الهداية من الله، وقوله تعالى على ألسنة عباده المتقين: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ هو دعاء من العباد لربهم بأمره سبحانه، وذلك تجلٍّ من الله العلى الأعلى بالإرشاد والتعليم فقوله تعالى: ﴿اهْدِنَا﴾ والدعاء ذاته عبادة كما روينا عن رسول الله ﷺ: «ليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء»(١).

دعاؤهم بطلب الهداية، والهداية ذات مراتب يعلو بعضها فوق بعض . .

المرتبة الأولى: أن يملأ سبحانه وتعالى نفوسهم وقلوبهم بالحق يميلون نحوه، ويتجهون إليه، وأن يكونوا ممن كتبت عليهم التقوى، وأن تكون هدايتها إلى نجد الخير، وقد قال، وقوله الحق: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد] وقال سبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس]، وذلك ليكونوا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات - باب: ما جاء في فضل الدعاء (٣٣٧٠)، وابن ماجه: كتاب الدعاء - باب: فضل الدعاء (٣٨٢٩)، وأحمد: كتاب باقي مسند المكثرين (٨٥٣٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

والمرتبة الثانية: بعد أن تصغى قلوبهم إلى الحق وتنفتح بقوله والنظر فى بيناته وهى إقامة الدلائل على الحق ليتبعوه عن بينة، أو تنفتح نفوسهم وعقولهم لقبول ما تدل عليه آيات الكون وأدلة الحق وهى أماراته، بل بيناته من سماء ذات أبراج، وأرض ذات جبال كالأوتاد، وزروع وثمار، ذات بهجة للناظرين، وأن يتدبروا فى ملكوت الله تعالى وخلقه فينظروا نظرة الإدراك والاعتبار كما قال تعالى: ﴿**أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلاَّ مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾**﴾ [**الغاشية**].

هذه هى المرتبة الثانية من الهداية: وهى أن يهديهم سبحانه إلى مواضع العبر والاستدلال فى آياته الكبرى فى خلق السماء والأرض وما بينهما، وفى آياته الكونية، ما دقَّ منها وما جلَّ، فهو خالق كل شيء.

أما المرتبة الثالثة: فهى إرسال الرسل هداة مبشرين ومنذرين، ﴿**وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾**﴾ [**فاطر**] وإن إرسال الرسل للهداية والإرشاد، وتبليغ رسالته، إنما هو لكيلا يكون على الله حجة بعد الرسل، فهو بعد أن يخلق الخلق على الفطرة المستقيمة، والاستعداد للعلم بالوجود، وما فيه من أدلة على منشئ الوجود، ثم يؤيد العلم الفطرى بعلم كسبى وهو علم النبوة الذى يجيء به رسول مبين يدعو إلى الهدى بإذنه ويهدى إلى صراط مستقيم.

والمرتبة الرابعة: مرتبة الوحى والكشف وتعليم الله تعالى لخلقه، وهو ما يكون للرسل الكرام دعاة الحق والهداة إليه، فهداية الله تعالى بالوحى، أو إرسال رسول أو أن يكلمه الله تعالى من وراء شيء من خلقه، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ... ﴿٥١﴾**﴾ [**الشورى**].

وهكذا هداية الله تعالى تبتدئ من هداية النفس والعقل إلى الحق وطلبه، ثم الإدراك للآيات البينات الدالة على واجب الوجود، ثم هداية الله تعالى بالرسل يرسلهم ليكونوا للعالمين نذيرا، ثم هداية الله تعالى بما يكون لرسله المصطفين الأخيار.

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ﴾ إن هَدَى تتعدى بإلى وباللام كقوله تعالى: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحج] وكقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى]، وقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ... ﴿٩﴾﴾ [الإسراء].

ولكن هنا لم يتعلّق قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ بـ «اللام» ولا بـ «إلى»، ولذلك حكمة بيانية، وذلك أنها تضمنت معنى الهداية باختيار خير عاقبة، فتضمنت الهداية معنى الاختيار، ويكون المعنى اهدنا مختاراً لنا فى هدايتك الصراط المستقيم. و«اختار» تتعدى بنفسها من غير أداة جر كما قال: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً﴾ [الأعراف]

والصراط معناه الطريق الجدد أو الجادة، وقالوا إنه «السراط» بالسين، وبذلك قرئت فى بعض القراءات المتواترة، وقالوا: إن الأصل فى السراط الاستراط بمعنى الابتلاع، كأن الطريق يبتلع من يسلكه لاتساعه، وأنه جادة متسعة، لا يبين سالكها، وقد وصف بأنه المستقيم لأن المستقيم أقرب خط بين نقطتين، فهو أقرب موصل للغاية المرجوة.

والمعنى على هذا: اختر لنا يارب العالمين أقرب طريق متسع يوصل إلى ما يرضيك، وهو غايتنا، ومطمعنا ورجاؤنا، والصراط المستقيم هو طريق الله الذى أمر

باتباعه، فقد قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ... ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام] فهم يطلبون أن يهديهم الله تعالى إلى هذا الطريق المستقيم وهو صراط الذين أنعمت عليهم من عبادك الصالحين.

صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

هذا بيان للصراط المستقيم، أى المستوى الذى لا اعوجاج فيه، وهو معبَّد لا يقف السائر فيه بعثرة يعثرها ولا بحجارة تدعثره، فإعراب (صراط الذين أنعمت عليهم) بدل من ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، يعمل فيها عامله ﴿اهْدِنَا﴾ فمعنى النص الكريم اهدنا طريق الذين أنعمت عليهم.

وأصل النعمة ما يستلذه الإنسان أو يستطيبه، ولكنها هنا تفسر بأنها المنفعة التى تدوم، ويستطيبها القلب، سواء أكانت عاجلة أم آجلة، وسواء أكانت دنيوية أم كانت أخروية، وسواء أكانت مادية أم كانت روحية، وإن نعم الله تعالى على عباده لا يحصيها العدُّ ولا يحيط بها الحصر، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ... ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم] فهناك نعمة الخلق الإنسانى القويم والتكوين الجسمى السليم الذى يوجد أحيانا الغرور عند غير المؤمنين، كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار].

ومن النعم أن يمكِّنه من زخارف الحياة من لباس حسن يلبسه، وزخرفة باهرة يزخرف بها مسكنه، وطيب رائحة يطيب بها نفسه، ويقبل بها على جمعه، فهذه نعم ظاهرة وباطنة، فإن آمن بالنعم وشكر له، فإنها نعمة، وإن غره الغرور، وفاخر بها، واستطال على الناس فإنها عند الله النقمة.

ومن النعم أن يحس بإشراق النفس وإخلاص القلب، والاتجاه إلى الله تعالى، وأن يكون مستقيم الفكر، نير المدارك، ولا يضل، بل يهتدى بما أنعم، ومن النعم نعمة الإخلاص فى القول والصدق فيه، وأن يعمل العمل، لا يعمله إلا لله، وأن يراقب الله فى سره وجهره وعمله، حتى يصدق عليه قول النبى ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب الشيء لا يحبه إلا لله»[١].

إذا كان المؤمن كذلك يكون ممن هداه الله إلى صراط الذين أنعم عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء].

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ المغضوب عليهم هم الذين ينزل عليهم غضب الله، ووراء غضبه عذابه إلا أن يتغمدهم الله برحمته فيتوبوا، والتوبة تجبُّ ما قبلها، وبذلك لا يكونون من المغضوب عليهم، بل ينخلعون منهم، وإنما الأعمال بخواتيمها، وإنما المغضوب عليهم هم من انتهوا إلى ألا يتوبوا، وألا ينتهوا عما يوجب غضب الله تعالى.

والذين ينطبق عليهم غضب الله تعالى لدوام شرهم، وبقاء فسادهم حتى يلقوا ربهم، وهم على هذه الحال - الكافرون سواء أكانوا وثنيين، وكثير ما هم فى الماضى والحاضر، أم كانوا من الذين أوتوا الكتاب كاليهود - لعنهم الله - ونصارى بولس الذين يعبدون المسيح، وهو بريء منهم، هؤلاء هم المغضوب عليهم ولا ريب فى نزول غضب الله تعالى بهم إلى يوم القيامة ﴿غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم ... ﴿١٤﴾﴾ [المجادلة].

والضالون قال بعض العلماء إنهم النصارى لقوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة] وإنه لينطبق عليهم بلا ريب

(١) أخرجه البخاري بنحوه، كتاب الأدب - باب: الحب في الله (٦٠٤١).

وصف الضالين؛ لأنهم عند تخلِّيهم عن مبادئ المسيح أضلهم بولس وأشباهه، فضلوا، ثم أضلوا غيرهم من بعدهم، وكفروا بما جاء به المسيح، وضلوا ضلالا بعيدا، وكفروا، ولا يزالون يتيهون فى أوهامهم، كما توهموا وأوهموا فيما سموه رؤية العذراء ، وكذبوا وافتروا، وحاولوا الإضلال كثيرا.

ومع انطباق الضلال والتضليل عليهم أولى بهم ثم أولى أن يكونوا ممن غضب الله تعالى عليهم، فغضب الله تعالى يحيط بهم من كل جانب؛ ولذلك نرى أن يدخلوا فيمن غضب الله تعالى عليه، ويصح أن نقول: إن فيهم الأمرين، فهم مغضوب عليهم وهم يَضِلُّون، ويُضِلُّون كثيرا إلى اليوم كما رأيتَ فى أمر العذراء.

والضالون كما تدل الآية الكريمة هم الذين فى حيرة من أمر اعتقادهم، لا يهتدون إلى عقيدة يطمئنون إليها ويستقرون عليها، وليسوا مع هؤلاء ولا هؤلاء .. ولقد قيل إنهم المنافقون الذين ينطبق عليهم ذلك الوصف، وتلك الحال المضطربة. ولقد يكون ذلك من ناحية حالهم قريبا فى ذاته؛ لأن النبى ﷺ وصفهم بالاضطراب والحيرة، فقال ﷺ: **«مَثَلُ المُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ العَائِرَةِ بَيْنَ غَنَمَيْنِ، إلَى أَيِّهِمَا تَذْهَبُ»**(١)، فالمنافق ضال حائر، لايستقر على قرار، ولا يطمئن إلى إيمان أو كفر، والمنافقون كما وصفهم الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿**مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَؤُلاءِ ... ﴿١٤٣﴾**﴾ [النساء].

وهم أيضا موضع غضب الله تعالى؛ لأنهم كفار كإخوانهم المغضوب عليهم، ولكنهم اختصوا بأنهم ليس لهم اعتقاد، فالمشركون لهم اعتقاد باطل، وكذلك النصارى واليهود يعتقدون اعتقاداً باطلا ليس لهم سلطان ولا حجة فى اعتقادهم .

---

(١) رواه مسلم في صفات المنافقين (٢٧٨٤)، وأحمد: مسند المكثرين من الصحابة (٥٠٥٩)، والنسائي: كتاب الإيمان وشرائعه (٥٠٣٧).

وقراءة الفاتحة مطلوبة فى الصلاة بحيث لا تكمل الصلاة إلا بها بيد أنها فرضٌ عند الشافعى لا تصح الصلاة إلا بها، وكذلك عند الجمهور لقوله ﷺ: «لا صَلاةَ لمن لم يقرأ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ»(١)؛ ولذلك سميت الصلاة، كما ذكرنا من قبل؛ لأن الصلاة ملازمة لها، ومن المجاز المرسل أن يسمى اللازم باسم الملزوم؛ ولأن النبى ﷺ ما عُرف أنه ترك قراءة الفاتحة. وعند أبى حنيفة رضى الله عنه الفاتحة واجبة، والواجب عند الحنفية دون الفرض؛ لأن الفرض ما ثبت طلبه حتما بدليل قطعى لا شبهة فيه. والواجب ما ثبت طلبه الحتمى بدليل ظنى فيه شبهة، والفرض فى الصلاة بالنسبة للقراءة قراءة ما تيسر من القرآن لقوله تعالى: ﴿**فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ** ... ﴿٢٠﴾﴾ [**المزمل**]؛ ولذلك لو ترك الفاتحة وقرأ أى قدر من القرآن تصح صلاته، وإن كانت غير كاملة؛ لأن الفاتحة تعينت للوجوب بدليل ظنى فيه شبهة، وهو حديث الآحاد.

و(**آمين**) يجب النطق بها عقب قراءة الفاتحة لقول النبى ﷺ: «وعلمنى جبريل آمين عند فراغى من قراءة الفاتحة»، وقال: «إنه كالختم على الكتاب»(٢)، فقد روى أن عليا كرم الله تعالى وجهه قال: (آمين خاتم رب العالمين)(٣) روى عن وَائِلِ ابنِ حُجْرٍ أن النبى ﷺ قال: «ولا الضالين آمين»(٤)، وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قال الإمام ولا الضالين فقولوا آمين»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الآذان - باب: وجوب القراءة للأمام والمأموم، ومسلم: كتاب الصلاة - باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة.

(٢) سنن أبي داود: الصلاة - التأمين وراء الإمام بنحوه.

(٣) أخرجه ابن عدي، والطبراني في الكبير؛ عن أبي هريرة بلفظ: آمين خاتم رب العالمين على لسان عباده المؤمنين.

(٤) الترمذي: الصلاة - ما جاء في التأمين وكذا رواه أبو داود: الصلاة (٩٢٣) وبنحوه عند أحمد: أول مسند الكوفيين (١٨٣٦٢) والدارمي: الصلاة (١٢١٩).

(٥) أخرجه البخاري: الأذان: جهر المأموم بالتأمين (٧٨٢)، ومسلم بنحوه: الصلاة: (٢٥٠).

وهكذا جاءت الأخبار عن النبى ﷺ، بذكر آمين من المأمومين عندما يقرأ الإمام ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾، والمنفرد ينطق بها، وبذلك قال جمهور الفقهاء وروى أن أبا حنيفة لم يلتزم ولم يلزم بقولها، وروى عنه أنه يخفت بها ولا يجهر عند قول الإمام ولا الضالين، ومهما يكن ما روى بالنسبة لها من أخبار فإن المجمع عليه أنها ليست من القرآن فهى زيادة بطلب إجابة الدعاء الذى اشتملت عليه فاتحة الكتاب من الضراعة والاستعانة وطلب الهداية، فهى اسم فعل بمعنى استجب.

وإنما أجمع على أنها ليست من القرآن لأنها ليست بين دفتى المصحف كالبسملة، ولأن النبى ﷺ مع طلبها لم يذكر أنها قرآن ولا من القرآن.

ورد أنه عليه الصلاة والسلام قال لأبىٍّ بن كعب: «ألا أخبرك بسورة لم تنزل فى التوراة والإنجيل والقرآن مثلها»، قال: قلت: بلى يارسول الله قال: «إنها الفاتحة وإنها السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته»[1].

تم - بحمد الله - تفسير سورة الفاتحة

(١) أخرجه الترمذي في سننه: فضائل القرآن: ما جاء في فضل فاتحة الكتاب (٢٨٧٥).

سورة البقرة

بين يدى السورة:

سورة البقرة مدنية نزلت فى المدينة فى مُدد، وقيل إنها أول سورة نزلت بالمدينة، وقد ادعى بعض العلماء أن بعض هذه السورة كان آخر آية نزلت من القرآن الكريم، وهى قوله تعالى: ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ** ... ﴿٢٨١﴾ ﴾ [**البقرة**] نزلت فى حجة الوداع بمنى، وهى على هذا باعتبار نزولها فى مكة تكون مكية.

وإن الذى نراه أن فيصل التفرقة بين المكى والمدنى، ليس هو مكان النزول، إنما هو كونه بعد الهجرة أو قبلها، فإن كان قبلها، فهو مكى، وإن كان بعدها فهو مدنى ولو نزل بمكة، إذ إن الفارق بين المكى والمدنى موضوعى، لا مكانى إذ إن أكثر الموضوعات التى تتصدى لها السور والآيات المكية: بيان أصل العقيدة الإسلامية، ومجادلة المشركين حولها، وسوق الأدلة لبطلان الوثنية، وتأكيد الوحدانية، والتعرض لأحوال المشركين، ومعاداتهم للنبى ﷺ ومن آمن معه، وأخبار المبادرة بالدعوة وإنذار العشيرة، كما قال تعالى: ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ** ﴿٢١٤﴾ **وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴿٢١٥﴾ ﴾ [**الشعراء**]. وهكذا أكثر القرآن المكى يتعرض لإثبات العقيدة، ومجادلة من ينكرونها من عبدة الأوثان.

أما السور المدنية وآياتها، فإنها تبين الأحكام الفرعية، وأحوال أهل الكتاب مع أهل الإيمان ، وتنظيم الدولة الإسلامية، وسن النظم لتكوينها، وتكوين

المجتمع الفاضل الذي تقوم عليه، وما يحل وما يحرم فى هذا المجتمع، وفيها قيام الأسرة الإسلامية التى تقوم على تقوى من الله تعالى، ورضوان من الله ورحمة.

وإذا كانت السور المكية فيها الإشارات لإيذاء المؤمنين، واستضعافهم، مع رجاء القوة كقوله تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ ﴾ [القصص].

إذا كانت السور المكية فيها إشارة إلى الاستضعاف فالسور المدنية فيها الإذن بالقتال، وتنظيمه، والسير به فى طريق الحق والعدل، وبيان الغاية من القتال ونهايته، وهى منع الفتنة فى الدين.

وسورة البقرة أطول سور القرآن، وسميت البقرة لأظهر الحوادث التى ذكرتها، وأغربها، وهى بقرة بنى إسرائيل التى لجُّوا فى السؤال عنها، وما تدل على أخلاقهم من اللجاجة فى القول، وإرادة التلبيس فى الأمر الواضح البين، فقد كانوا كلما زادت لجاجتهم زاد الأمر تعقيدا عليهم، وتلبيسا على أنفسهم.

موضوعات السورة:

وبمقدار ما فى السورة من طول ، كان فيها القدر الأكبر من الموضوعات، فهو طول فى كثرة الآيات، وليس طولا مما يمجه علماء البلاغة، فهو كثرة موضوعات وليس بطول ممل، وها نحن أولاء نشير إلى موضوعاتها قبل الخوض فى تفسيرها.

ابتُدئت السورة الكريمة بذكر شأن الكتاب الكريم، وشرف الذين يؤمنون به، وأنهم الذين يؤمنون بالغيب.

ثم ذكر القسم المقابل لأهل الإيمان وهم الكافرون الذين لا تجدى فيهم الآيات والنُّذُر سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون، وأنهم صم بكم لا يعقلون.

ثم ذكر سبحانه وتعالى أمر الحائرين الذين يترددون بين الإيمان والكفر، وهو يحيط بهم، وهم المنافقون الذين يحسبون أنفسهم أنهم المصلحون فى الأرض، وهم المفسدون.

وضرب الله سبحانه وتعالى الأمثال التى تصور حالهم وتبين أمرهم، وبين سبحانه وتعالى أن النفاق مرض القلوب ومرض الجماعات، ثم ذكر سبحانه وتعالى أن الناس جميعا فى قبضته وأنهم خلقه سبحانه وتعالى هم ومن كان قبلهم، وأنه مكَّن لهم فى الأرض وجعلها لهم فراشا، وأن ذلك التمكين والخلق والتكوين يوجب عليهم عبادة الله تعالى وحده، وألا يتخذوا الأوثان. ثم بين لهم مقام الحجة النبوية التى جاءت معجزة للنبى ﷺ تثبت لهم رسالته، وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله، وأن يأتوا بشهداء لهم ليثبت عليهم التحدى والعجز بشاهد من أهلهم، ودعاهم إلى أن يتقوا نارًا وقودها الناس والحجارة.

وقد تكلم سبحانه وتعالى فى الخلق والتكوين من البعوضة إلى الإنسان، وذكر أن خلق البعوضة عظيم، حتى أن الله تعالى لا يستحيى من الحكم فى الخلق أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها، وأن المؤمن يدرك ويعتبر، ويعلم أنه الحق من ربه، وأما الذين كفروا فيتشككون ويضلون، ويزيد ضلالهم، وينقضون ما أمر الله به أن يوثق، وبين سبحانه وتعالى أعلى درجات الخلق، وهو خلق الإنسان والجن وجعل الإنسان خليفة فى الأرض، وبين أنه خلق فيه العقل والاستعداد لعلم الكائنات، وبين سبحانه زيادة خلقه عن الجن وعن الملائكة، وأمر الملائكة والجن أن يسجدوا له فأبى إبليس وجَهِل وقال: أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين، واعترض على الله تعالى خالق النار وخالق الطين، ثم كان الاختبار الإلهى لأبى الإنسان، وهو آدم، فنهاه هو وزوجه عن الأكل من شجرة، فوسوس لهما الشيطان إبليس، فأكلا منها، فأخرجهما الله تعالى مما كانا فيه ونزلا إلى الأرض، وبينهما وبين إبليس من العداوة الشديدة، والمغالبة بين الخير والشر.

ولقد أشار سبحانه إلى المعركة الدائمة، وذكر أوضح مثل لها بما كان يفعله بنو إسرائيل، لقد أوتوا علم النبوة بما أرسل الله فيهم من رسل، وأوتوا نعما كثيرة تثبت قدرة الله تعالى بما أنعم، ولكنهم ضلوا، وذكر سبحانه ما أمرهم به وما نهاهم عنه. وبين أنهم كانوا فى علم الدين أكثر من غيرهم، ولكنهم كانوا يأمرون الناس بالبر،

ولا يبرُّون، ولقد أخذ سبحانه وتعالى يذكرهم بنعمه عليهم، وذكرهم بحالهم من فرعون إذ نجاهم منه، وكان يسومهم سوء العذاب، يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم، وذكرهم إذ فَرَقَ بهم البحر، وآياته الكبرى فيهم، وذكرهم إذ قابلوا هذه النعم بالشرك إذ اتخذوا العجل، وذكّرهم بعفوه سبحانه وتعالى عنهم، وذكرهم بأنه طالبهم بعد هذا العفو أن يقتلوا دواعى الشهوات فى أنفسهم، لتكون قوة فى هذا الوجود، فلا وجود لجماعة غلبت عليها شهوتها، وذكرهم بنعمته عليهم فى أن أتى لهم بالمن والسلوى ليأكلوا منها رغدا، وذكَّرهم بأنه أمرهم بدخول قرية لهم متطامنين متواضعين، فإن مع التواضع مغفرة الله، ولكنهم بدلوا بالطاعة الظلم، فعاقبهم الله تعالى فى الدنيا.

وذكر لهم آياته سبحانه فى أن أمدهم بالماء فى وسط الجدب، بأن ضرب لهم موسى الحجر بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، وبين أن شهواتهم، قد تحكمت فيهم فطلبوا ما كانوا يأكلون فى مصر من الفوم والعدس والبصل بدلا من المن والسلوى، واستبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير، وأنهم إذ تحكمت فيهم شهوتهم ضربت عليهم الذلة، فكانوا أذلة؛ لأنه حيثما كانت الشهوة المستحكمة كانت الذلة، ثم بين سبحانه أنه أخذ عليهم الميثاق وأكده برفع الجبل عليهم، فَأَعْطَوْهُ - أي الميثاق -، ولكنهم نقضوه وجاء من بعد ذلك أمر موسى - عليه السلام - لبنى إسرائيل أن يذبحوا بقرة، وقد كانت مقدسة فى مصر فسرت عدوى ذلك إليهم، فتلكئوا فى الأمر فسألوا عنها: أكبيرة أم صغيرة؟، وما لونها؟، ثم سألوه: أهى عاملة أم غير عاملة؟ فقال: إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلّمة لا شية فيها، فذبحوها وما كادوا يفعلون، ثم ذكر فى السورة قصة القتيل الذى ادّعى كل فريق أنه لم يقتله، فأمرهم أن يضربوه ببعضها، فظهر القاتل، وأمر الله تعالى بالقصاص منه.

والله سبحانه وتعالى بعد أن ذكر هذه الأحوال لهم بين أنه (لايُطمع فى إيمانهم)، وقد استولى النفاق عليهم، فإذا لقوا المؤمنين قالوا: آمنا، وإذا خلا بعضهم

إلى بعض قالوا جاهلين: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجّوكم به عند ربكم؟! كأن الله تعالى لا يعلم، ولقد ركبهم الغرور فى أنفسهم، فقالوا: لن تمسنا النار إلا أياما معدودات، فبين الله أن الخطايا تركبهم، وسيؤخذون بها، ولقد أخذ الله تعالى عليهم الميثاق بألا يعبدوا إلا الله ويقيموا الصلاة، وأخذ عليهم الميثاق بألا يسفكوا دماءهم وألا يقتل بعضهم بعضا، ومع ذلك أخرجوا بعضهم من ديارهم، ولا يفكون أسراكم إلا بفدية، ويؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، ويحكم عليهم سبحانه، بالحكم الخالد لكل من اتبع الشهوات بأنه اشترى الحياة الدنيا بالآخرة، وبعد ذلك ذكر الله تعالى سلسلة الرسالة الإلهية التى ابتُدِئت بموسى، ثم عيسى، وأنهم كفروا بالأنبياء، فكلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كفروا به أو قتلوه، ولما جاءهم القرآن مصدقا لما بين يديه كذبوه، وهم عندهم العلم به.

ويعيب الله تعالى عليهم قتلهم الأنبياء، ولا يمكن أن يكون ذلك إلا بغير الحق.

ولقد ذكر سبحانه وتعالى أنه قد جاءهم موسى بالبينات وأنقذهم من فرعون، ومع ذلك بفقدهم التفكير المستقل المدرك عبدوا العجل، كما كان يعبده فرعون وملؤه، ولقد ذكر الله سبحانه وتعالى أخذ الميثاق ، لبيان أنهم لا يرعون ذمة، ولا يقومون بخير، ولقد كانوا يحسبون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس فتحداهم الله تعالى بأن يتمنوا الموت ولن يتمنوه؛ لأن عبد الشهوة يتعلق بالدنيا وما فيها، يعبد الشهوة العاجلة، ولا يرجو الآجلة، وذكر سبحانه عداواتهم لجبريل مما يدل على صغر تفكيرهم.

ويبين أنهم كلما جاءهم رسول كذبوه، وكلما عاهدوا عهدًا نقضوه، ونبذوه وأنهم بدل أن يتبعوه اتبعوا السحر والأهواء، واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا، واتبعوا السحرة، وعلموا الناس السحر، وتعلموا منه ما يفرقون به بين المرء وزوجه، ولقد بين سبحانه جملة حالهم، وما يبغون فقال تعالى: ﴿ **مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن**

يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [البقرة].

ولقد كان المشركون يعيبون على النبى أنه لم يأت بمعجزة حسية، وأنه يأتى بالمعجزة المعنوية، وهى القرآن، فبين الله تعالى أنه إن ترك معجزة يأت بخير منها أو مثلها، وأن قوم موسى - عليه السلام - قد سألوا أن يروا الله جهرة.

ولقد بين الله سبحانه وتعالى أن كثيرين من أهل الكتاب يريدون أن يردوا المؤمنين عن دينهم حسدا لهم على ما آتاهم من فضل يعلمونه ويجحدون؛ه ولذا أمر الله المؤمنين أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، وأعلمهم أن ما يقدمونه من خير يأتِ الله تعالى به ويجدوه عنده، ثم ذكر سبحانه وتعالى مزاعم النصارى واليهود، وتكفير بعضهم لبعض، وذلك شأن الذين لا يعلمون . ثم بين سبحانه وتعالى ظلم الذين يمنعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وهم المشركون واليهود والنصارى.

ثم بين سبحانه وتعالى كفر الذين قالوا: إن الله تعالى اتخذ ولدًا سبحانه، وضلال الذين يطلبون أن يكلمهم الله تعالى.

ولقد ذكر سبحانه وتعالى مقام الرسالة المحمدية، وأنه ﷺ إن طلب رضا اليهود، فلن يرضوا عنه، وذكر سبحانه بعد ذلك نعمه على بنى إسرائيل .

ولقد ذكر سبحانه وتعالى بعد ذلك خبر أبى الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام فهو أبٌ لموسى وعيسى ومحمد صلوات الله تعالى عليهم، وذكرهم بهذا أن أصلهم - وهو إبراهيم - واحد، وأنه ما كان لهم أن يختلفوا.

ثم ذكر بناء إبراهيم عليه السلام للكعبة، ومعاونة ولده إسماعيل له، ودعاءهما لرب البرية أن يجعلهما مسلمَين له ومن ذريتهما أمة مسلمة له، وأن يتعلما مناسك الحج، ودعاء إبراهيم عليه السلام أن يبعث فى العرب رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وذلك الرسول هو محمد ﷺ، فهو دعوة أبى الأنبياء إبراهيم، وأن ملة إبراهيم هى ملة الأنبياء أجمعين، ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه، ولقد وصى بهذه الملة الطاهرة إبراهيم، ووصى بها يعقوب.

وإنه لا يجوز التفرق فى دين الله بين اليهود والنصارى وأتباع محمد، ولقد جاء محمد ﷺ بهذه الوحدة الدينية، ﴿ ... **لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴿١٣٦﴾ ﴾ [**البقرة**].

وإنه بهذه الوحدة الدينية التى تقوم على التوحيد، قد اتجه النبى ﷺ إلى بيت المقدس؛ لأن البيت الحرام الذى به الحج كانت الأوثان تحوطه، فلما آذن الله تعالى بأن دولة الأوثان ذاهبة بعد الانتصار فى غزوة بدر الكبرى حَوَّل الله تعالى قبلة المسلمين إلى الكعبة إيذانا بتخليصها من الشرك وأهله.

فأخذ السفهاء من اليهود يثيرون الشكوك حول ذلك التحويل: ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها؟! وقد رد الله تعالى عليهم، وبين أن ذلك أمر قدره، وأن وسطية الأمة الإسلامية، وعلوها اقتضى الاتجاه إلى ما بناه أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وبين سبحانه أن تغيير القبلة بجعلها لبيت المقدس أولا، ثم تحويلها ثانيا للكعبة إنما هو اختبار للإيمان والتسليم، وفَصَّلَ الله تعالى من بعد ذلك كيف يولون وجوههم شطر المسجد الحرام أينما كانوا.

ثم ذكَّرهم بنعمة الله تعالى عليهم، وأشار إلى أنهم سيجدون أياما غلاظا شدادا: ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ** ﴿١٥٥﴾ ﴾ [**البقرة**].

أحكام تكليفية

وتلتقى الأحكام الشرعية مع العبر والعظات، وما مضى من السورة عظات، وأخبار عن الأنبياء السابقين - وخصوصا إبراهيم عليه السلام- الذى ينتهى إليه أكثر أنبياء بنى إسرائيل وإسماعيل ومحمد ﷺ: وما بعد ذلك تكليفات مع بعض عبر الماضين.

إذا كانت القبلة ربطا للمسلمين بمكة، فمناسك الحج الذى تقوم شعائره فى مكة حول البيت الحرام فيقول سبحانه: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ ... ﴿١٥٨﴾﴾ [البقرة].

ويذكر مآثم اليهود وغيرهم ممن يكتمون العلم فيذكر سبحانه وتعالى، أنهم مبعدون عن الله تعالى وعن رحمته، ويذكر الشرك بالله تعالى، وما يفعله المشركون، ويقرر وحدانية الله تعالى، ويثبت التوحيد بالخلق والتكوين، والنعم المتضافرة فيقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة].

ويذكر سبحانه بعد هذه الآلاء والنعم من يتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله، ويذكر حال أولئك يوم القيامة حيث يتبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا. ويبين سبحانه ما أباحه الله من الطيبات. ويذكر حال الذين كفروا من ندائهم الأوثان بأنهم فى حالهم كالبهائم التى تنعق بما لا تسمع، ويكرر سبحانه إباحة الطيبات ووجوب الشكر على إباحتها، ثم يذكر تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير، وما أُهِلَّ لغير الله به، وأن الإثم يرفع فى حال الاضطرار، ويذكر من بعد ذلك الذين يكتمون كتاب الله ويشترون به ثمنا قليلا، وأن مأواهم النار.

يذكر سبحانه أن البر ليس فى أعمال الجوارح، إنما البر فى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بعد الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، والقيام بالواجبات الاجتماعية كلها من وفاء بالعهد، وصبر فى البأساء والضراء وحين البأس.

ثم يبين سبحانه وتعالى حكم القصاص، وأن فيه حياة الجماعة هانئة فاضلة ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة] ويذكر

الوصية للأقربين (الذين لا يرثون)، لأنه حيث يذكر القصاص يذكر معه الموت ونتائجه.

ثم يذكر فرضية الصوم، وأنه إذا كان القصاص فيه حياة آمنة، فالصوم فيه الروحانية الكاملة، فذكر فرضية صوم رمضان والأعذار المسوغة للإفطار والقضاء إن أمكن، وإن لم يمكن فالفدية، ثم يذكر سبحانه ليالى رمضان، وإباحة الرفث إلى النساء فيها. ويذكر حدود أوقات الصوم، وبجوار تلك الروحانية يمنع من أكل أموال الناس بالباطل.

وإنه بعد بيان أوقات الصوم ذكر سبحانه وتعالى فضل الأهلَّة، فبين أنها مواقيت للأشهر بالنسبة للصيام وبالنسبة للحج، وبالنسبة للمعاملات بين الناس.

هذه كلها أحكام تكليفية آحادية أو جماعية، وهناك الحكم الجماعى الذى تتضافر عليه الأمة، وهو الجهاد، وقد بين فيه أنه رد للاعتداء ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا... ﴿١٩٠﴾**﴾ [**البقرة**]، وفيه منع للفتنة، وأنها هى التى ينتهى عندها ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ... ﴿١٩٣﴾**﴾ [**البقرة**].

ويبين أن العمل فى القتال هو المعاملة بالمثل، فإن قاتلوا فى الشهر الحرام قوتلوا فيه والحرمات قصاص، ثم بيَّن أن أخذ الأهبة والاستعداد لابد منهما، والإنفاق فى سبيل الله يمنع التهلكة.

وينتقل من الجهاد إلى ذكر بعض مناسك الحج؛ لأن الحج والجهاد متقاربان فى تحمل المشقة. فيذكر الهدى والتحلل من الإحرام، والإفاضة من المشعر الحرام، وما يحل محل الهدى من صيام عشرة أيام، وما يحل فى الحج وما لا يحل، ويشير إلى أحوال الناس وهم فى ضيافة الرحمن.

ويذكر الله سبحانه وتعالى وجـوب ذكره سبحانه فى أيام معدودات، وأن من تقدم فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى.

ثم يذكر سبحانه وتعالى أخلاق الحاكم الفاسد، وهو من فقد الإيمان بالله وأوتى حلاوة اللسان والتغرير بها، والحاكم الفاضل هو من يبتغى مرضاة الله تعالى.

ويدعو القرآن الكريم إلى الدخول فى السلم (أى الإسلام)، ويثبت أن الناس جميعا أمة واحدة، ويبين سبحانه أن النبيين جاءوا لمنع الاختلاف بين الناس بسبب الأهواء والشهوات، ويبين سبحانه أنه لا علاج للشر إلا بتحمل أعباء الجهاد للخير، وأن مقاومة الشر تستدعى تحمل أعباء الجهاد: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)**﴾ [البقرة].

ويبين سبحانه أن ذلك يقتضى أن يكون الإنفاق فى الأسرة وفى الجهاد، ويقتضى الاستعداد للقتال دائما، وهو ما تكرهه الطبائع البشرية ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦)**﴾ [البقرة] وأن الأشهر الحرم، وهى: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، القتال فيها حرام إلا إذا اضطروا إلى ذلك، وأن من يرتد عن دينه بالفتنة، فيموت على الردة يكون من الذين ﴿**...حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧)**﴾ [البقرة] وأن الرحمة للذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا، ويبين سبحانه وتعالى حرمة الخمر والميسر، وأنه إذا كان فيهما بعض النفع فالإثم أكبر.

ويبين سبحانه وتعالى العناية باليتامى بإصلاحهم، وضمهم إلى الأسر الفاضلة، وإلا كانوا مادة تخريب فى الأمة، فلا تكون صالحة للجهاد الذى يكون به رفعة الدين، والعزة الإسلامية.

أحكام فى الأسرة

اشتملت هذه السورة على أحكام كثيرة فى الأسرة منها:

(أ) النكاح بين المشركات والمؤمنين، فحرَّم الله تعالى أن يَنكح المسلم مشركة، وأن تنكح المسلمة مشركا ﴿ وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١) ﴾ [البقرة].

(ب) أن الحائض يحرم الدخول بها فى حيضها؛ لأنه أذى ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ ... (٢٢٢) ﴾ [البقرة].

(جـ) أنه يحرم على الرجل أن يحلف ألا يأتى أمرأته أربعة أشهر، فإن مضت ولم يأتها فقد عزم الطلاق (فتطلق) والله سميع عليم .

(د) أن عدة المطلقة بعد الدخول ثلاثة قروء، وقبل أن تنتهى بعولتهن أحق بردهن إن أرادوا إصلاحا، وللمرأة من الحقوق مثل الذى عليها من الواجبات.

(هـ) وأن الطلاق الذى تجوز الرجعة فيه اثنتان فإن طلقها الثالثة من بعد، فلا تحل حتى تنكح زوجا غيره.

(و) أنه يجوز للمرأة أن تفتدى نفسها بمال تدفعه ﴿ إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ... (٢٢٩) ﴾ [البقرة].

(ز) أنه لايحل للزوج إذا طلق وانتهت العدة أن يمنع المرأة من الزواج، وكذلك لايجوز للولى ذلك.

ومن الأحكام فى الأسرة أيضا أن مدة الرضاعة الكاملة حولان كاملان لمن أراد أن يتم الرضاعة، وعلى الأب رزق المرضع وكسوتها بالمعروف، وعلى من يليه

من الورثة مثل ذلك، وأن استرضاع غير الأم جائز عن تراض منهما وتشاور، وأن إنهاء الرضاع يكون برضا. وقد ذكر سبحانه وتعالى عدة المتوفى عنها زوجها الحائلِ غير الحاملِ، وهى أربعة أشهر وعشرة أيام قمرية، وأنه تجوز خطبتها فى بحر العدة تعريضًا لا تصريحًا.

(ح) أن الرجل إن طلق من تزوجها قبل الدخول فلها نصف المهر، إذا كان قد سمى مهرا، وإن كان لم يسم مهرا، فلها المتعة، وهى قدر من المال أو الكسوة يناسب حالهما، ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ ... (٢٣٦)﴾ [البقرة].

وقد ذكر سبحانه أن التى يموت زوجها تبقى فى بيته سنة ولا يخرجها أحد متاعا بالمعروف حقا على المحسنين.

وقد ذكر سبحانه فى أثناء أحكام الأسرة الأمر بالصلاة القيِّمة التى لا اعوجاج فيها.

الدولة تقوم على النظام

وبعد أن بين الله تعالى نظام الأسرة - وهى قوام الجماعة - أخذ سبحانه وتعالى يبين نظام الجماعة، وأنها لا تعيش إلا فى عزة، واستقلال بنفسها، فصور سبحانه جماعة أصيبت بالذلة فماتت نخرة فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم بالبأس والعزة، فالذلة موت، والعزة حياة.

ثم بين الله تعالى حال قوم من بنى إسرائيل طلبوا أن يكون لهم ذو سلطان ممكَّن منهم وبرضا الله سبحانه وتعالى، فمكن الله لحاكم ذى سلطان، وهو طالوت، لأن له مؤهلات الحكم، فقد أوتى بسطة فى العلم والجسم، ولكنهم لا يريدون إلا ملكا مسيطرا بحكم الوراثة ﴿قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ

بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾. . . [**البقرة**] ولكن الله سبحانه وتعالى أراهم ملكه بأن يتغلب على أعدائهم ﴿**وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾**﴾ [**البقرة**] وقد خرج بهم طالوت مجاهدا مستردا عزتهم، واختبر الله إرادتهم بنهر، فمن شرب منه فليس له من القوة المصممة ما يجاهد به، ومن لم يشرب منه فله إرادة الجهاد وعزيمته.

ومهما يكن من حالهم فقد كان النصر ﴿**وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾**﴾ [**البقرة**].

الرسل والألوهية

بين الله تعالى مقام الرسل، وشرعية القتال ﴿**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ... ﴿٢٥٣﴾**﴾ [**البقرة**] (وهو جبريل عليه السلام)، وقد اقتتل من بعد ذلك المتبعون للرسل لاختلافهم أو بعضهم على أنبيائهم.

وأن الإنفاق فى سبيل الله هو دعامة القوة؛ لأنه يبنى مجتمعًا متعاونًا، ويشد أزر أهل الحق ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾**﴾ [**البقرة**].

وأن الجامع بين الأنبياء جميعا هو الوحدانية، والإيمان بالله تعالى ﴿**اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ ... ﴿٢٥٥﴾**﴾ [**البقرة**] إلى آخر الآية الكريمة.

وأن الإيمان قد قامت دلائله، فـ ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ... ﴿٢٥٦﴾**﴾ [**البقرة**] وقد ضرب الله تعالى أمثالا ثلاثة:

أولها: مناقشة إبراهيم عـليه السلام للذى ﴿حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ... ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة] فادعى أنه يحـيى الموتى ويميت الأحياء، فـقال له إبراهيم: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ... ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة].

الثانى: وهو فى الإعادة بعد الموت، كان فى الذى مر على قرية ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ... ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة] .. إلى آخر الآية الكريمة.

الثالث: طلب إبراهيم - عليه السلام - مـن ربه أن يريه كيف يحيى الموتى، وأنه طلب ذلك للاطمئنان، فأراه الله تعالى ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ... ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة].

الإنفاق فى سبيل الله قوة الجماعة

إن الإنفــاق فى سبـيل الله أعظم القـربات عند الله، وإن الله تـعالى يضـاعف الإنفاق فى سبيله بسبعمائة ضعف، وهذا كناية عن الكثرة، وأنها تفوق عدَّ الحاسبين.

وإن شرط ذلك ألا يتبعوا ما أنفقوا منًّا ولا أذًى ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ... ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة] هذا مثل من يبطل صدقاته بالمن والأذى، ومثل الإنفاق ابتغاء مرضات الله وتثبـيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة تؤتى أكلها ضعفين.

وإن شرط النفقة التى تثمر ضعفـها أن تكون طيبة لا نتيمم الخبيث ننفق منه، وإن النفقات تربط المودة بين الجماعة وأنها حكمـة الاجتماع، ومن يؤت الحكمة فقد

أوتى خيراً كثيراً، والنفقة إذا ابتغى بها وجه الله خير فى كل أحوالها، أبداها أو أخفاها، فنِعِمّا هى فى كل أحوالها، والله تعالى مكافئ عليها، ومن ينفق فعاقبة النفقة لنفسه؛ لأنه يصلح جماعته، وصلاحها يعود عليه، وإن الإنفاق يكون فى كل طريق للخير، ويجب أن يبحث عن مستحقيه من الفقراء ﴿ **لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤)** ﴾ [البقرة].

الاقتصاد الإسلامى خالٍ من الربا

أعقب الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم الترغيب فى الصدقات، وبيان ثمرتها، وغايتها التعاونية التى تربط بين آحاد المجتمع المؤمن وجماعاته، وذكر بعد ذلك ما يهدم بناء المجتمع ويقطع ما بين آحاده وهو الربا وتحريمه فقال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠)** ﴾ [البقرة].

وتحريم الربا تنظيم اقتصادى لقيام بناء اقتصادى سليم لا تكون فيه أزمات، ولا تؤكل فيه أموال الناس بالباطل ولا يؤدى إلى التعطل والكسل، ولا إلى أن يكون ربح من غير تحمل للخسارة.

وبعد آيات الربا، جاءت آية توثيق الديون بالكتابة وشهادة شاهدَين، وأن يذكر الأجل، وأن يكتبه كاتب عدل وأن يملى من عليه الدين ليكون ذلك إقرارا مكتوبا بالدين، وإذا كان من عليه الدين سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يُمِلَّهُ فليملل وليّه بالعدل، والشهادة تكون برجلين عدلين أو رجل وامرأتين ممن ترضون من الشهداء؛ أن تضِلّ إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى، ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله، إلا أن تكون تجارة دائرة بينكم.

وأوجب سبحانه وتعالى الشهادة فى البيوع، ومنع أن يكون فيها إرهاق للشهود ﴿وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ ... ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة] ومن دعى للشهادة فلا يكتمها، فإنه يكون آثما قلبه.

ولتوثيق الكتابة والتشدد فيها ذكر حال السفر، وأنه إن لم يكن فيه كاتب فرهان مقبوضة

وبعد هذا التوثيق ختم الله تعالى السورة بالدعوة إلى الإيمان، والإخبار بأن الرسول آمن بما أنزل إليه من ربه والملائكة . . .، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.

وبين سبحانه أنه لا يكلف نفسا إلا وسعها لها ما كسبت، وعليها ما اكتسبت، وعلمنا كيف ندعو ربنا:

﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة].

﴿الٓمٓ ١﴾

ابتُدِئَت السورة بهذه الحروف التى ينطق بها، فيقال: ألف لام ميم، وكذلك ابتُدِئَت عدة سور بهذه الحروف التى ينطق بها مفردة حرفا حرفا، وهذه الأولى، وقد أُعقبت الحروف بذكر الكتاب وشرفه، وجاءت سورة آل عمران مبتدأة بهذه الأحرف نفسها ﴿الٓمٓ ١﴾ [**آل عمران**] وعقبها ذكر جلال الله تعالى: ﴿**اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** ٢﴾ [**آل عمران**].

ثم كانت سورة الأعراف مبتدأة بمثل هذه الأحرف وهى ﴿الٓمٓصٓ ١﴾ [**الأعراف**] وذكر بعدها الكتاب، وهو قوله تعالى: ﴿**كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ** ... ٢﴾ [**الأعراف**].

وكانت سورة يونس مبتدأة بحروف مفردة، وهى ﴿الٓر ١﴾ [**يونس**] وذكر بعدها الكتاب وآياته فقال تعالى: ﴿**تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ** ١﴾ [**يونس**].

وجاءت سورة هود مبتدأة أيضا بهذه الحروف ﴿الٓمٓ ١﴾ [**هود**] وذكر بعدها الكتاب، فقال تعالى بعدها: ﴿**كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** ١﴾ [**هود**].

وسورة يوسف ابتدئت أيضا بهذه الحروف ﴿الٓر ١﴾ [**يوسف**] وجاء بعدها ذكر الكتاب فقال تعالى عقبها: ﴿**تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ** ١﴾ [**يوسف**].

وجاءت أيضا سورة الرعد مبتدأة بهذه الحروف المفردة ﴿الٓمر ١﴾ [**الرعد**] وقد ذكر بعدها الكتاب الكريم فقال تعالى عقبها: ﴿**تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ** ١﴾ [الرعد].

وابتُدِئت سورة إبراهيم بهذه الأحرف المفردة فقال تعالى: ﴿الٓر ١﴾ [**إبراهيم**]، وجاء بعدها ذكر الكتاب فقال تعالى بعدها: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ**

لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾ [إبراهيم].

وجاءت سورة الحجر مبتدأة بحروف مفردة وهى ﴿الر ﴿١﴾ ﴾ [الحجر] وذكر بعدها الكتاب فقال تعالى عقبها: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ ﴾ [الحجر].

وجاءت سورة مريم مبتدأة بخمسة حروف وهى ﴿كهيعص ﴿١﴾ ﴾ [مريم]، ولم يذكر بها (القرآن) عقب هذه الحروف، ولكن ذكَّرت برحمة الله تعالى على زكريا، فقال تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ ... ﴿٤﴾ ﴾ [مريم]، وقد ذكر (الكتاب) فى عدة مواضع بعد ذلك فى السورة، فكان يأمر الله تعالى بذكره عند ذكر القصص عن أنبياء الله تعالى، فإذا كان (الكتاب) لم يُذكر فى الكتاب الكريم عقب هذه الحروف، فقد تكرر ذكره تعالت كلماته فى مواضع مختلفة بعد ذلك.

وجاءت سورة (طه) وإذا لم نعتبر كلمة ﴿طه ﴿١﴾ ﴾ [طه] اسمًا فإنها تكون حروفًا مجردة، وذكر بعدها القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ ﴾ [طه].

وجاءت سورة الشعراء مبتدأة بحروف ثلاثة ﴿طسم ﴿١﴾ ﴾ [الشعراء] وجاء عقب هذه الحروف ذكر القرآن ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾[الشعراء].

وابتُدئَت سورة النمل بحرفين هما ﴿طس ﴿١﴾ ﴾ [النمل]، وجاء ذكر القرآن بعدها فقال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل].

وابتُدِئَت سورة القصص بثلاثة أحرف ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾﴾ [القصص] وجاء بعدها ذكر القرآن الكريم، فقال تعالى عقب الحروف: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ [القصص].

وجاءت سورة العنكبوت مبتدأة بهذه الحروف ﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ [العنكبوت] وجاء بعدها اختبار الناس وهو قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ [العنكبوت] .

وجاءت سورة الروم مبتدأة بالحروف ﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ [الروم] ثم ذكر بعد ذلك انهزامهم ثم انتصارهم ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ... ﴿٤﴾﴾ [الروم].

وجاءت سورة لقمان مبتدأة بالحروف ﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ [لقمان] وذكر بعدها الكتاب: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ [لقمان] .

وجاءت سورة السجدة مبتدأة بهذه الحروف ﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ [السجدة] وعقبت بذكر الكتاب ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [السجدة] .

وابتُدِئت سورة يس بحرف الياء والسين ﴿يسٓ ﴿١﴾﴾ [يس]، وذكر بعد الحرفين القرآن الكريم، وذلك إذا لم تعد اسمًا.

وجاءت سورة (ص) مبتدأة بالحرف ﴿صٓ ﴿١﴾﴾ [ص]، وجاء ذكر القرآن الكريم فقال تعالى عقب هذا الحرف: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾﴾ [ص].

وابتُدِئت سورة غافر بحرفين ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ [غافر]، ذكر بعدها القرآن فقال تعالى عقبها: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾ [غافر] .

وابتُدِئَت فصلت بالحرفين : ﴿حمٓ ﴿١﴾﴾ [فصلت] وعقبت بقوله تعالى عن الكتاب: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾ [فصلت].

وابتُدِئَت سورة الشورى بخمسة أحرف، وهى ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾ [الشورى] وجاء بعدها ذكر لنزول القرآن فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣﴾ [الشورى].

وابتدئت سورة الزخرف بـ ﴿حمٓ ۝١﴾ [الزخرف] وعقب الله تعالى هذين الحرفين بقوله تعالى : ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢﴾ [الزخرف] .

وابتدأت سورة الدخان بحرفى ﴿حمٓ ۝١﴾ [الدخان] ثم جاء بعد ذلك ذكر القرآن فقال تعالى عقبها: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢﴾ [الدخان] .

وابتدأت سورة الجاثية بحرفى ﴿حمٓ ۝١﴾ [الجاثية]، وعقبها الله تعالى بتنزيل القرآن فقال تعالى: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝٢﴾ [الجاثية].

وابتُدِئَت سورة الأحقاف بالحرفين ﴿حمٓ ۝١﴾ [الأحقاف] وذكر الله تعالى بعدهما القرآن، فقال تعالى: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝٢﴾ [الأحقاف].

وابتُدِئَت سورة ﴿قٓ ۝١﴾ [ق] بحرف - وجاء بعده القسم بالكتاب ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝١﴾ [ق].

وابتُدِئَت سورة القلم بحرف ﴿نٓ ۝١﴾ [القلم] وجاء بعدها ذكر القلم فقال تعالى: ﴿وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ [القلم] وفيه إشارة إلى الكتاب الكريم.

هذه هى السور التى ابتُدِئَت بالحروف المفردة ، ومن هذا الإحصاء يتبين:

أولاً: أن السور التى صُدِّرَت بهذه الأحرف سور مكية نزلت بمكة ماعدا ثلاث سور هى البقرة، وآل عمران، والرعد، فإن هذه السور الثلاث مدنية، بينما الباقى مكى نزل بمكة حيث كان أكثر التحدى بالقرآن الكريم، وإن كان هناك تحدٍّ به فى

المدينة؛ لأنه المعجزة الدائمة التى يُتحدى بها المنكرون فى كل الأحيان والعصور ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)** ﴾ [**الإسراء**].

ثانيًا: أن السور التى صُدّرت بهذه الحروف ذُكر الكتاب بعدها، مما يدل على أن للكتاب الكريم صلة بالابتداء بهذه الحروف، وثلاث سور فقط هى التى لم يأت ذكر للكتاب عقبها، وهى سورة مريم، فلم يذكر الكتاب عقب الحروف، وإن جاء ذكره بعد ذلك فى مناسبات أخرى، وكرر ذكره بهذه المناسبات، وسورة العنكبوت فإن ذكر القرآن لم يعقب الأحرف، وكذلك سورة الروم، وما عدا هذه السور الثلاث ذكر القرآن الكريم فى أعقابها.

ثالثا: أن عدد الحروف التى ابتُدئَت بها السور أربعة عشر حرفا، وهى نصف الحروف الهجائية، وهى تشتمل على أنواع مخارج الحروف المختلفة، وهذه الحروف هى الألف ، واللام ، والميم، والصاد، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والراء، والسين، والطاء، والحاء، والقاف، والنون.

ولا يحفظها ويقرأها إلا من يعرف القراءة والكتابة، فالأمى لا يعرفها وإن عرف بعضها، لا يعرفها كلها، وإلا كان قارئا كاتبا؛ ولذلك هى فى القرآن على لسان النبى الأمى من دلائل إعجازه.

قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨)** ﴾ [**العنكبوت**].

وإنه بتتبع السور الكريمة التى صدرت بهذه الحروف التى قدسها الله سبحانه وتعالى بذكرها، وإعقاب القرآن فى أكثرها بها يدل على الارتباط الوثيق بينها وبين القرآن الكريم؛ لأنه اشتمل عليها، ولأنها تشير إلى مقامه وإعجازه ومنزلته فى هذا

الوجود الإنسانى، وإن كانت معانيه المحررة مستورة عنا، وهى فى علم الله تعالى المكنون، ولكن لها إشارات توحى إلى معانٍ عالية، تليق بتصدّرها لكثيرٍ من سور القرآن. هذا ما نشير إليه إجمالا ونعرض له ببعض التفصيل.

﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ روى عن أبى بكر وعلى رضى الله عنهما أنهما قالا: إن هذه الحروف التى ابتُدئَت بها السور هى سر الله تعالى فى الكتاب، ولله تعالى فى كل كتاب سر. وتبعهما فى هذا القول عامر الشعبى وسفيان الثوري، وجماعة من المحدثين، بل قاله أكثر علماء السلف، وهى من المتشابه الذى اختص به علم الله تعالى، وروى عن عمر وعثمان وابن مسعود أنهم قالوا رضى الله عنهم : الحروف المقطعة فى أوائل السور من المكتوم الذى استأثر به علم الله تعالى. وروى عن الرَّبيع ابن خيثم، أنه قال: إن الله تعالى أنزل هذا القرآن فاستأثر منه بعلم ما شاء، وأطلعكم على ما شاء، فأما ما استأثر به لنفسه فلستم بنائليه فلا تسألوا عنه، وأما الذى أطلعكم عليه، فهو الذى تسألون عنه، وتخبرون به، وما بكل القرآن تعلمون، وما بكل ما تعلمون تعملون.

وإن هذه المأثورات عن كبار الصحابة، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وهى تدل على أن هذه الحروف من المتشابه الذى لا يعلم به أحد إلا الله تعالى، وعلينا أن نكف عما لا نعلم، عملا بقوله تعالى: ﴿**وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً** ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء].

ولكن العقل طُلَعَةٌ (١) يحاول تعرُّف المجهول أو المكتوم، وكلما كان الإبهام كان تعَرُّفُ كشفه، ولذلك حاول علماء أن يعرفوا سر وجود هذه الحروف وإن لم يعرفوا حقيقة المراد منها، وقالوا فى ذلك أقوالا أربعة؛ ثلاثة منها متلاقية فى صوابها وواحد حاول تفسيرها، فأخطأ فيما قصد.

(١) طُلَعَة: أى كثير الطلوع أو التطلع، ونفس طُلَعَة: كثيرة التطلع إلى الشيء. [الوسيط: (ط ل ع)].

أولها: أن بعضهم حاول تفسيرها بأنها رموز للذات العلية، أو أنها رموز لله ولآخرين، فقال قائل إن ﴿الٓمٓ﴾ ترمز إلى أن الله يقول أنا الله أعلم، فالألف: أنا، واللام: الله، والميم: أعلم، وقالوا: ﴿الٓمٓ﴾ أنا الله أرى، وقال بعضهم فى ﴿الٓمٓ﴾: إن الألف من الله، واللام من جبريل، والميم من محمد، وقيل الألف مفتاح اسم الله، واللام مفتاح لطيف، والميم مفتاح مجيد، وكل هذه التفسيرات ظنون، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا، ولم يرد واحد منها عن الرسول ﷺ، ولو وردت عنه لقبلناها صاغرين ولخرجت من المتشابه إلى المحكم.

ثانيها: ليس تعرفا لمعانيها، ولكنه تعرف لسر وجودها، أو لبعضها، وذلك بيان لإعجاز القرآن مع أنه مكون من حروفهم التى تتكون منها كلماتهم، ومع ذلك يعجزون عن أن يأتوا بمثله فى تأليف نغمه، وسياق معانيه، وتآلف ألفاظه وفواصله، فهذا يدل على أنه من عند الله ويدل على عجزهم عن أن يأتوا بمثله.

وثالثها: وهو كسابقه يدل على بعض أسرار وجودها، ولا يتعرض لذات معانيها، وهى أنها تدل على نزول القرآن من عند الله تعالى، وأن محمدا ﷺ لم يأت به من عنده، لأنه أمى لا يقرأ ولا يكتب، فهو النبى الأمى، والأمى ينطق بالكلمات ولا يعرف الحروف، فمجيء الحروف على لسانه ﷺ، وهى حروف كثيرة، هى نصف عدد الحروف الهجائية، وهى متنوعة المخارج، وتشمل المخارج كلها، وإن لم تشتمل كل عددها، إن هذا دليل على أنها من عند الله عالم الغيب والشهادة، الذى علَّم بالقلم، وعلم الإنسان ما لم يعلم.

رابعا: وهو كسابقيه فيه بيان سر وجود هذه الحروف، وذلك أن العرب المشركين كانوا يحسُّون بأثر القرآن فى نفوسهم إذا سمعوه، حتى أنهم قد تفاهموا على ألا يسمعوه ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ** ﴿٢٦﴾﴾ [**فصلت**]. فكانوا يحاولون ألا يسمعوا، فكانت تلك الحروف الصوتية التى

تبتدأ بها السور الكريمة إذا قرئت مرتلة مجودة تسترعى أسماعهم، ويستغربون، وقد يستنكرون، وبينما هم فى استغرابهم وعـجبهم، يهجم عليهم رسول الله ﷺ بالقرآن ونغماته، وجميل ألفاظه، ورنة موسيقاه، فيخضعون للسماع، وينقضون ما أبرموا من قبل، فهذه الحروف كانت ليستغربوا ويفتحوا أسماعهم، ويسمعوا.

وإن هذه الوجوه الثلاثة الأخيرة فيها بيان لسر وجود هذه الحروف، والله بكل شىء عليم.

ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الإشارة هنا إلى الحروف ﴿الٓمٓ﴾ التى تتـألف من كلمـات الكتـاب العـزيز الحكيم ؛ ولذلك قـيل إن ﴿الٓمٓ﴾ اسم للسورة، ولكن نقول إن هذه الإشارة إلى الحروف باعتبارين:

أولهما: أن هذه هى الحروف الذى كـوّن منها الكتاب المعجـز الذى تحدى به الإنسانية كلها.

والثانى: أنها اسم للسورة التى افتتحت بها، وذلك من قبيل إطلاق اسم الكل وإرادة الجزء، أو أن جزء القرآن قرآن يتـحدى. ألم تر أن الله تعالى تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله.

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ والإشارة هنا للبعيد ، وموضوعها قريب؛ لأن الحروف جاء بعدها فوراً ذكر الكتاب فكان الظاهر أن تكون الإشارة بما يدل على القرب، كـ (هذا) الكتاب، ولكن لأن ﴿الٓمٓ﴾ تدل على السورة التى هى جزء متكامل من الكتاب، أو الكتاب نفسه، وقد نزل من الروح الأقدس، فنزل من العلا إلى النبى المرسل، فكان ذلك إشعاراً بالبعد بين الملكوت الأعلى وخلق الله سبحانه وتعالى، أو يقال: إن الإشارة بالبعيد تنويه بذكره وعلو مقامه فإنه تكون الإشارة بالبعيد فى هذا المقام، وأى مقام يقارب كتاب الله تعالى؟! فهو علىٌّ فى ذاته، ثقيل فى ميزانه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝﴾ [المزمل].

وفى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ ثلاثة وقوف:

أولها: الوقوف عند ﴿الْكِتَابُ﴾، وتكون ﴿ذَلِكَ﴾ مبتدأ، والكتاب خبر، ويكون فيه تعريف الطرفين الذى يدل على القصر، أى ذلك وحده هو الجدير بأن يسمو، فلا يعلو علوه كتاب، ولا يُنَاصِى سَمْتَهُ مقروء سواه، إذ هو تنزيل من رب العالمين، وفيه علم بشرائع الله تعالى ويكون قوله تعالى : ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ جملة مستقلة على هذه القراءة، وهى تأكيد لمعنى العلو والسمو فيه، إذ إنه لا شك فى حقائقه، وهى بينة تهتدى إليها العقول، ولا ترتاب فيها فهو حجة بصدقه فى ذاته، وإدراك العقول لحقائقه، وهذا شرف ذاتى فيه، وهو لا ريب فى أنه من عند الله، إذ تحدى المَقَاوِل[1] من قريش وفحول الكلام منهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، فكان ذلك شرفا إضافيا فوق شرفه الذاتى.

والثانى: الوقف عند ﴿لا رَيْبَ﴾، ومؤداها مقارب من مؤدى القراءة السابقة تقريبا، إذ المؤدى أن يكون المعنى: ذلك هو الكتاب بلا ريب، ويكون قوله تعالى:

---

(١) مَقاوِل: جمع مِقْوَل: أى حسن القول لَسِن. الوسيط (ق و ل).

﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ جملة جديدة مستقلة، وتكون لبيان كماله، فوق أنه لا ريب فيه.

والثالث: الوقوف عند كلمة ﴿فِيهِ﴾، ويكون المعنى كالمعنى السابق، ثم يكون قوله ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ جملة مستقلة، وهذه القراءات تتجه كلها إلى سمو القرآن وعلوه، وأنه فوق طاقة البشر، وفوق علم الناس، إنه كتاب الله العلى الحكيم.

ومعنى ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ أنه لا يعتريه الريب لكمال حقائقه ووضوح مقاصده، والبراهين القاطعة المثبتة أنه من عند الله تعالى، فلا مساغ لمرتاب أن يرتاب. وإذا كان قد وقع فيه إنكار، فلأنهم جحدوا آيات الله تعالى، واستيقنتها أنفسهم، والنفى لوقوع الريب منه فى ذاته، ويضل ناس فيجحدون ولا يؤمنون، ولا ينفى ذلك أنه لا مكان للريب، ولا موضع له، إذ هو ارتياب حيث اليقين، وإنكار حيث يجب الإيمان، وهو الحق الذى لايأتيه الباطل من أى ناحية من نواحيه.

﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الهدى مصدر على وزن فُعَل، كالسُّرى، والبُكى، ومعناه الدلالة على الطريق الموصل للغاية الذى لا اعوجاج فيه، ولا تستعمل غالبا إلا للتوصيل إلى الخير، بدليل مقابلتها بالضلالة فى قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ [البقرة]، وبدليل نسبة الهدى إلى الله تعالى، فقد قال تعالت كلماته: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ ... ﴿٧٣﴾﴾ [آل عمران] والمهتدى من انتفع بما وجد من هداية ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ... ﴿١٠٨﴾﴾ [يونس].

وإذا قيل: فإن الهداية إنما تكون للضالين ليسترشدوا، ويسيروا فى طريق الحق، ويبتعدوا عن الغواية، وما يدفع إليه من ضلالة كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الضحى].

نقول فى الإجابة على ذلك: إن المراد بالمتَّقين ليس من وصلوا إلى أقصى درجات الهداية إنما المراد من شارفوها وطلبوها وأرادوها، وحاولوا الازدياد من العلم، ولم تكن قلوبهم متحجرة، مُبْلِسَة لا تسترشد ولا تهتدى، وبيان ذلك أن الله تعالى خلق النفوس وسواها، وألهمها فجورها وتقواها.

فمن النفوس من فطرها الله تعالى على الفطرة المستقيمة المدركة للحق فى ذاته، التى تتجه إلى الحق تبتغيه وتريده، وتظل فى حيرة حتى تجد المرشد من السماء برسول مبين يرشدها إلى صراط مستقيم، كأولئك الحنيفيين الذين رفضوا عبادة الأوثان لأنها لا تنفع ولا تضر، ولا يتّبعها إلا الغاوون.

إن هذه نفوس متقية تبتغى الرشاد، فتكون مصغية للحق عند الدعوة إليه متبعة للنور إذا أشرق، وهذا ما نراه موضعًا للتعبير بقوله تعالت كلماته: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

والمتقون مشتق من الوقاية، يقال: وقاه الله تعالى، ووقى نفسه السوء، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر].

واتقى: افتعل، من وقى، فهى فى أصلها: اوْتَقَى، ثم قلبت الواو تاء، فأدغمت فى تاء الافتعال، فصارت اتقى، ومنه أخذت التُّقى، والتُّقاة، كما قال تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران].

والمتقون مراتب فى إدراكهم لتقوى الله تعالى، وأعلاها: إدراكهم لمعنى الحق وخضوعهم لما يطلبه، وإنهم بهذا يطيعونه ويستجيبون له، ويلتزمونه، وينطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ ... ﴿٢٦﴾﴾ [الفتح] فإذا علا فى نفوسهم طلب الحق والاستعداد له، تركوا شر الأشرار مهتدين بهديه، وتجنبوا الإساءة إلى غيرهم، فإذا ساروا فى مدارج الهداية والتقوى نزهوا أنفسهم عن كل ما يخالف الحق، وصارت قلوبهم نورا مبصرا، وكانوا أولياء الله تعالى، وينطبق عليهم

قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ... ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأعراف] ألا إن هؤلاء هم المتقون الذين ينتفعون بهداية الله، وإنَّ علم الله تعالى وهدايته قد مثله النبى ﷺ بغيث ينزل من السماء فيجيء إلى أرض طيبة فتنبت النبات الطيب، وينزل على أرض لا تنبت، ولكن ينتقل منها إلى أخرى تنبت فيها النبات الطيب، وهناك أرض هى قيعان لا تنبت، ولا ينتقل منها إلى غيرها(١).

ولقد ذكر الزمخشرى في تنسيق هذه الآيات ﴿الم ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ كلمات طيبة محققة مفادها أن قوله تعالى: ﴿الم﴾ جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها و ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ جملة ثانية، و ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ جملة ثالثة، و ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ رابعة، وقد أصاب بترتيبها من البلاغة، وموجب حسن النظم؛ حيث هى متناسقة هكذا من غير حرف نسق (أى عطف) وذلك لمجيئها متآخية آخذة بعضها بعنق بعض، فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها، وهَلُمَّ جرا إلى الثالثة، والرابعة.

بيان ذلك أنَّه نبَّه أولا على أنه الكلام المتحدى به، ثم أشار إلى أنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال، فكان تقريراً لجهة التحدى وشدا من أعضائه، ثم نفى عنه أن يتشبث به طرف من الريب، فكان شهادة وتسجيلا بكماله؛ لأنه لا كمال أكمل مما للحقِّ واليقين، ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة. وقيل لبعض العلماء: فيم لذَّتُكَ؟ قال: فى حجة تتبختر اتضاحا، وفى شبهة تتضاءل افتضاحًا.

---

(١) عن أبي موسي الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ به من الْهَدَى والْعِلْم كمَثَلِ الغَيْث الكثير أصَابَ أرضًا فكانَ منْها نَقيَّةٌ قبلتْ المَاءَ فأنبَتَتْ الكلأ والعُشْبَ الكَثَير، وكانتْ منها أجادبُ أمْسكَتْ المَاءَ فَنفَعَ اللهُ بهَا النَّاسَ فشربُوا وسقَوا وزرَعُوا، وأصابَتْ منها طائفَةٌ أُخْرى إنَّما هيَ قيعَانٌ لا تُمْسكُ ماءً ولا تُنبتُ كَلأً، فَذَلكَ مَثَلُ مَنْ فقُهَ في دينَ اللَّهُ به فَعلَمَ وَعَلَّم، ومَثَلُ من لَم يَرْفَعْ بذلكَ رأسًا ولَمْ يَقْبلْ هُدى الله الَّذي أرسلتُ به » قالَ أبو عبدَ اللهَّ (أيَ البخاري): قال إسحَاقُ: « وكَانَ منْها طائفَةٌ قيلتْ المَاء ». قاعٌ: يَعْلُوهُ المَاءُ والصَّفْصَفُ: المُسْتَوى من الأرض. [أخرجه البخاري: كتاب العلم (٧٧) ومسلم بنحوه: الفضائل: (٤٢٣٢) وأحمد: أول مسند الكوفيين (١٨٧٥٢) واللفظ للبخاري].

ثم أخبر عنه أنه هدى للمتقين، فقرر بذلك كونه يقينا لا يحوم الشك حوله وحقا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم لم تخل كل واحدة من الأربع بعد أن رتبت هذا الترتيب الأنيق، ونظمت هذا التنظيم السَّرِيّ[(١)]، من نكتة ذات جزالة، ففى الأولى الحذف والرمز إلى الغرض بألطف وجه وأرشقه، وفى الثانية، ما فى التعريف من الفخامة، وفى الثالثة ما فى تقديم الريب على الظرف، وفى الرابعة: الحذف ووضع المصدر الذى هو موضع الوصف الذى هو هادٍ، وإيراده منكرًا، والإيجاز فى ذكر المتقين، زادنا الله اطلاعا على أسرار كلامه، وتبينا لنكت تنزيله وتوفيقا للعمل بما فيه.

﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**﴾ هذا هو الوصف الأول للمتقين الذين يتلقون هدى الله تعالى كما تتلقى الأرض الطيبة الغيث فتأتى بأطيب الثمرات. والإيمان: التصديق، ويتعدى بالباء لتضمنه معنى الاعتراف والإقرار والإذعان، والخضوع، ويتعدى باللام ويتضمن حينئذ معنى الاستسلام أو الاستجابة كما قال تعالى: ﴿**وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ... (١٧)**﴾ [**يوسف**] قوله: ﴿**فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ ... (٨٣)**﴾ [**يونس**]، ومن ذلك ما حكى الله تعالى عن اليهود إذ يتآمرون فيقول بعضهم لبعض، ﴿**وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ... (٧٣)**﴾ [**آل عمران**].

وأول وصف من أوصاف المتقين الذى يميزهم - وهو فى غالب أحوالهم سبب لتقواهم - الإيمان بالغيب. والغيب: كل ما يغيب عن الشخص، ويستتر، ولقد فسره العلماء بما يتفق مع أن يكون وصفًا للمتقين، فقالوا أقوالا مختلفة فى ألفاظها، وتتلاقى فى مضمونها أو المراد منها - فيما نعلم - كلها، ففسروه بأن الغيب هو الله تعالى؛ لأننا نؤمن به ولا نراه، فالبرهان يوجب الإيمان به، وهو لا يُرى بالحسِّ بل يرى بالقلب، وفسروه بأنه القدر، وفسروه بأنه الإيمان بالملائكة،

---

(١) السرى: الشريف. من سَرُوَ سَرَاوة، وسروا، : شَرُف. فهو سرىّ، والجمع: أسرياء، وسُراة.

وفسروه بالقرآن وما فيه من أخبار الملائكة واليوم الآخر، والجنة، والنار. وقال آخرون: الغيب كل ما أخبر به الرسول ﷺ مما لا تهتدى العقول إليه من علامات الساعة والحشر والنشر والصراط والميزان والجنة . . . إلخ.

والحق أنه لا تعارض بين هذه الأقوال، بل هى متلاقية فى جملة معانيها.

وإنَّا نَرى أن الإيمان، بالغيب هو الإيمان بما وراء الحس من أمور غيَّبها الله تعالى عن عقولنا، **وبيان ذلك أن الناس قسمان: ضالون ومتقون ..**

فالضالون هم الذين لايؤمنون إلا بالمادة، ولا يعرفون غيرها، وينكرون ماعداها، ويقولون: إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا، ولا يؤمنون بشىء وراء ذلك، ويقول قائلهم: الطبيعة خلقتنا، ونُردُّ إليها، فلايؤمنون بإله ولا بروح إلا أن تكون عرضًا من أعراض المادة، وهؤلاء منهم الملاحدة ومنكرو الأديان.

والقسم الثانى: أمارتهم أنهم يؤمنون بالحس على أنه خاضع للغيب، فهم لا يقصرون إيمانهم على ما يحسون وما يرون وما يبصرون، بل يؤمنون بأن وراء المادة عالماً كبيراً، وأن مدبر الكون ومنشئه، هو صاحب السلطان المطلق فيه، فلله تعالى محيانا ومماتنا.

إن فيصل التفرقة بين الإيمان والزندقة هو الإيمان بالغيب، فالمؤمن أول خلاله الإيمان بالغيب، والزنديق لا يؤمن إلا بالمادة.

إن الإيمان بالغيب يجعل النفس دائما خاضعة متطامنة[1] لا تستنكف عن عبادة الله تعالى ولا تستكبر، ولقد كان ذلك لـ: ﴿**مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ** ﴿٣٣﴾﴾ [ق] وإذا كان الإيمان بالغيب يولد الخشية فى النفس، فذلك هو لب الإيمان كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ** ﴿١٢﴾﴾ [**الملك**].

(١) تطامن: بهمز وبغير همز: سكن وانخفض. الوسيط: (طمن).

﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ كانت الصفة الأولى للمتقين إيمانا بالغيب، وما يكنه من مستورات عن المحسوسات، تولد فى النفس الخشية، والإحساس بحاجة الجسم إلى الروح، وبأن الروح فيما وراء المشاهد هى التى تسيِّر هذا الوجود الإنسانى، وأن الله تعالى لم يخلق الإنسان إلا ليحاسب على ما قدم من شر أو خير، وأنه سيرى ما اكتسب إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

بعد ذكر هذه الصفة النفسية، ذكر صفتين أخريين تنبعثان من النفس، ولكنْ لهما مظهرٌ عَمليٌّ، وهما إقامة الصلاة والإنفاق مما رزقه الله سبحانه وتعالى.

والصلاة أصلها على وزن فَعْلَة، من صلى، فأصل الصلاة صَلْوة، فنقلت فتحة الواو إلى ما قبلها، فصارت صلاة، والصلاة كانت معروفة عند العرب بأنها الدعاء. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) ﴾ [التوبة] وإطلاقها على الصلوات الخمس من قيام وقراءة، وركوع وسجود، وتحيات ـ اصطلاحٌ إسلامي.

ولقد فسر بعض العلماء الصلاة هنا بالدعاء، أى الضراعة إلى الله تعالى، والاتجاه الروحى إليه راجيًا ما عنده مؤمنا به مستجيبا لقوله تعالى: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) ﴾ [الأعراف].

ولكن الأكثرين - وهو الظاهر الذى يبدو من القول - على أن المراد بها الصلاة المكتوبة، وإن الاتجاه الروحى بالضراعة والدعاء تتضمنه الصلاة المكتوبة، وإن الصلاة قد فرضت فى مكة، وصارت متعارفة، كغيرها من الكلمات التى كان فى معناها عموم، ثم خصصها الإسلام .

وإقامة الصلاة الإتيان بها مستوية مقومة معدلة قد استوفت أركانها ظاهرًا وباطنا، فكانت مشتملة على الخشوع والحضور، واستحضار عظمة الله تعالى فى

كل لفظ يذكره، ويعبد الله بهذه العبادة، كأنه يرى الله سبحانه وتعالى، ويتوالى ذلك فى كل صلواته عامة النهار، أو أطرافًا من النهار وزلفًا من الليل، فإن كانت صلاته كذلك كان مُحسّا برقابة الله تعالى، ومن أحسَّ برقابة الله لا يعصيه؛ ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ... (٤٥)﴾ [العنكبوت] وقال عليه الصلاة والسلام: «الصلاة عماد الدين»(١).

وبعض المفسرين يفسر إقامة الصلاة بالمداومة عليها من غير تقصير، وبعضهم يفسرها بالمسارعة إليها عند النداء بها، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ ... (٩)﴾ [الجمعة] وبعضهم يفسرها بالسعى إليها عند إقامة الجماعة فيها، ولكن يَرُدُّ ذلك ما روى أن النبى ﷺ أمر بأن يمشوا إليها فى سكينة ووقار.

وإن التفسير الأول للإقامة هو الأوضح البين، والمعانى الأخرى تدخل فى ضمنه، أو تقتضيها.

وبعد أن بين الله تعالى الوصف الذى يترتب على التقوى، والإيمان بالغيب، ذكر وصفا آخر عمليا ونفسيا، فكل ما يذكره الإسلام من تكليفات، وصفات للمؤمن، لاينظر فيها إلى ناحية العمل فقط، بل ينظر فيها إلى ناحية العمل والباعث عليه، والنية التى هى طهارة النفس؛ ولذلك قال النبى ﷺ: «إنَّما الأعْمَالُ بالنِّيَاتِ وإنَّما لِكُلِّ امرِئٍ ما نَوى»(٢).

الوصف العملى النفسى ما عبر عنه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وفى هذا الوصف بيان أن الخير الذى يكون بالصلاة فى الضراعة إليه

(١) رواه البيهقى فى شعب الإيمان عن عمر – رضى الله عنه.
(٢) صدَّر به البخارى صحيحه كتاب بدء الوحى (١)، كما رواه البخارى فى الأيمان والنذور باب النية فى الإيمان برقم ٦١٩٥ ومسلم فى الإمارة (١٩٠٧).

سبحانه وتعالى ينعطف على التَّقِيِّ نفعا للناس يقصِدُ التقرب به إليه سبحانه وتعالى، فهو يتقرب إلى الله تعالى بذكره الدائم، وضراعته القائمة، ويتقرب إلى الله تعالى بالإنفاق على خلقه، ومد يد المعونة لغيره، وسد حاجتهم ورفع فاقتهم لرضا الله، وابتغاء مرضاته سبحانه وتعالى.

والرزق هو: العطاء، وهو من رزق يرزق رزقا، وهو بمعنى اسم المفعول كـ «طِحْن» بمعنى مطحون، و«رِعْى» بمعنى مرعى، وذِبْحٍ بمعنى مذبوح كقوله تعالى: ﴿ **وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ** ﴿١٠٧﴾ ﴾ [**الصافات**].

والمرزوق ما ينعم الله تعالى به على الإنسان من متاع الحياة الدنيا، من حيوان ونقود، ومطاعم ومساكن، والإنفاق إعطاؤها فى كل سبل الخير، وتشمل بذلك الزكوات، والإنفاق على من يعولهم، والإنفاق على نفسه ليقوى على الحياة، ويقوم بما يجب عليه من طاعات، ومعاونة للضعفاء بقوته، وليقوى على الجهاد فى سبيل رفع الحق وخفض الباطل، وإمداد جند الله تعالى بما يحتاجون إليه من عتاد وأسباب القوة كما قال تعالى: ﴿ **وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ** ... ﴿١٩٥﴾ ﴾ [**البقرة**].

والإنفاق كالإنفاد، بيد أن الإنفاد يرمي إلى إنهاء المال، وألا يبقى منه شيء، والإنفاق يُبقى. وقد خص بعض العلماء الرزق بأنه خاص بالحلال، فإن الله تعالى لا يرزق إلا بالحلال، والحق أن الله تعالى يفيض على ابن آدم بكل ما يقيم به أوده، ويعين به غيره، كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا** ... ﴿٦﴾ ﴾ [**هود**] وابن آدم هو الذى يجعل منها الحلال والحرام، فإن كسبه كسبًا طيبًا لا خبث فيه فهو حلال، وإن كسبه من غير الحلال، أو أنفقه فيما حرم الله تعالى، فهو الذى أوجد فيه الحلال، وفى الحلال الثواب، وفى الحرام العقاب. ولقد قال تعالى: ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ** ﴿٥٩﴾ ﴾ [**يونس**].

والله تعالى يعد الرزق نعمة، وإذا أنفق فى الحلال وكسب من الحلال كان من القربات التى يتقرب بها إلى الله تعالى، ولا يتقرب إليه سبحانه بكسب يكون طريقه ليس بحلال خالص. ويروى أن رجلا يكسب من الغناء والضرب على الدف فقال: يا رَسُولَ اللَّهِ أُرانِي لا أُرْزَقُ إلا مِنْ دُفِّي بِكَفِّي فأذَنْ لِي بالغِنَاءِ فِي غَيْرِ فَاحِشَةَ، فقال له رسول الله ﷺ: «لا آذَنُ لَكَ وَلا كَرَامَةَ ولا نُعْمَةَ، كَذَبْتَ أَيْ عَدُوَّ اللَّهِ، وَاللَّهِ لَقَدْ رَزَقَكَ اللَّهُ تَعَالَى حلالا طيبًا، فاخترْتَ ما حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكَ مِنْ رِزْقِهِ مكَانَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لكَ مِنْ حَلالِهِ»(١).

وفى العبارة السامية: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ إشارتان بلاغيتان:

إحداهما: تقديم ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ على ﴿يُنفِقُونَ﴾ وفى ذلك بيان أنهم لا ينفقون من كسب خالص لهم بل إنهم ينفقون من رزق الله تعالى، فهو وحده الرزاق إن شاء أعطى، وإن شاء منع، ولست أيها المنفق ترزق نفسك إنما يرزقك الله وحده، فأنت تعطى مِن عنده، وتجود على نفسك وعلى عباده من عِندِه، فالتقديم للقصر أولا، وللاهتمام بالإنفاق ثانيا.

الثانية: أن الإنفاق لا يكون بكل ما رزق الله تعالى بل يكون ببعضه وإن كان الكثير فـ «مِنْ» في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ للتبعيض؛ أي: ينفقون بعض ما أعطاهم الله، فلا يكونون كالمبذرين، وإن المبذرين إخوان الشياطين، والإنفاق في سبيل اللَّه تعالى لا يستكثر فيه الكثير، فكما قال ابن عباس رضي اللَّه عنه: إنفاق ألفٍ في برٍّ لا سرف، وإنفاق درهم في غير برٍّ سرف. وإنما موضع الإسراف أو الزيادة فى الإنفاق على نفسه، والله تعالى عليم خبير.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ بعد هذه الأوصاف الذاتية التى يؤمنون فيها بالغيب، فتخشع قلوبهم لذكر الله، ويقيمون

(١) رواه ابن ماجه: كتاب الحدود: باب المخنثين (٣٦١٣).

الصلاة فتتجه قلوبهم إليه ، وينفقون مما رزقهم الله تعالى على أنفسهم وعلى عباد الله تعالى إنفاقا فى غير تبذير أو إسراف.

بعد ذلك بين الله تعالى أن من صفات هؤلاء المتقين أنهم من أجلِّ صفاتهم أنهم يؤمنون برسالات الله إلى خلقه بالكتب المنزلة التى أنزلها قبل القرآن، وبالقرآن المنزل من عند الله العلى الحكيم، ويؤمنون بالشرائع التى جاءت فى القرآن الكريم وفى الكتب التى أنزلت، لا يفرقون بين أحد من رسله، ولا بين كتاب من كتبه إلا أن يكون قد نسخ الله تعالى بعض أحكام فى كتب أنزلها.

فقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ هم المتقون الذين يؤمنون ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، وتكرار (الاسم) الموصول في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ لا يدل على المغايرة فيمن نزلت فيهم الآيات، إنما يدل على المغايرة فى الصفات، وإن كان الموصوف واحدا، كما يقول الشاعر:

إلى الملك القَرْمِ(١) وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم

وقد ادعى بعض المفسرين أن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ إلى آخر الآية. إنما نزلت فى اليهود الذين آمنوا بمحمد ﷺ: كعبد الله بن سلام وغيره، وينطبق عليهم قول النبى ﷺ : «ثَلاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ، وآمَنَ بِى، ورَجُلٌ مَمْلُوكٌ أَدَّى حَقَّ اللَّه تَعَالَى وحَقَّ مَوَالِيهِ، وَرَجُلٌ أَدَّبَ جَارِيَتَهُ، فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا وتَزَوَّجَهَا»(٢).

والحق أن فصل ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ عن سياق ما قبلها من غير دليل ـ مُخَالَفَةٌ لظاهر السياق من غير باعث يبعث على ذلك، والسياق واضح متسق

(١) القَرم: السيد العظيم، والجمع قروم. واستشهد به ابن كثير لمثل ما ذهب إليه المصنف رحمه الله تعالى.
(٢) متفق عليه [أخرجه البخارى كتاب العلم (٩٧)، ومسلم - واللفظ له - كتاب الإيمان (١٥٤)].

على أن ذلك كله وصف للمتقين، فهم لإيمانهم بالحق، وخشوع قلوبهم يتقبلون الهدايات السماوية مذعنين غير معاندين ولا منحرفين، وإن المتقين يشملون من اتصف بتقوى الله تعالى مُصغين إلى تكليفه، مؤمنين بغيبه مقرِّين بحق عباده، وهم من كل خلق الله، لا فرق بين عربى وكتابى، ولا من كان أصلا وثنيا، أو كان يهوديا أو نصرانيا؛ فمن اتقى الله واستقام على الجادة وآمن بالغيب واتجه إلى ربه، فالآية تشتمل عليه، ولا يخرج عنها، فالعموم أولى وأوفق مع السياق من الخصوص.

والذى أنزل إليك فى قوله تعالى: ﴿**يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ**﴾ هو القرآن الكريم، وما اشتمل عليه من تكليفات وشرائع، وما جاء به من أخبار الماضين، وقصص الغابرين، ولقد قيل إن القرآن لم يكن قد نزل كله، فكيف يكون الإيمان به قبل نزوله كله، وإنه يُرَدُّ ذلك القيل بأن بعض القرآن قرآن فى دلائل إعجازه، وأن الإيمان بالجزء إيمان بالكل، وأنه يصح أن يطلق سماع القرآن على سماع بعضه، كما قال تعالى عن سماع الجن للقرآن، إذ قال: ﴿**وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ** ... (٢٩)﴾ [**الأحقاف**] وما سمعوا إلا جزءا منه.

وإنه لا وجه للاعتراض بأن القرآن لم يكن قد نزل إلا بعضه؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿**يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ**﴾ وقد ابتدأ النزول، فابتداء التنزيل المستمر نزولٌ له كله، كما قال تعالى: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ** ... (١٨٥)﴾ [**البقرة**] فما نزل فيه إلا أَوَّلُه، ولكنه مستمر التنزيل إلى أن كمل الدين.

وإن الآية الكريمة تبين أن الإيمان الكامل بمحمد ﷺ، وما أنزل عليه من شرائع يتقاضى المؤمن أن يكون مؤمنا بكل النبيين السابقين وشرائعهم كما قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ** ... (١٥٢)﴾ [**النساء**] ولقد روى فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الكِتَابِ فَلا

تُكَذِّبُوهُم وَلا تُصَدِّقُوهُم، وَلَكِنْ قُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا، وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكُم»[١].

وإن الإسلام دين الوحدانية، ودين الوحدة الإنسانية، ودين الرسالة الإلهية التى لا تفرق بين نبى ونبى إلا فى آيات الله تعالى المثبتة للرسالة التى تخص كل نبى، وكلها يجب الإيمان به وتصديقه، ومن لم يصدّق فقد كفر.

ولقد قرر الله سبحانه وتعالى أن شأن أولئك المتقين ﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾ فهذا ما جاءت به الديانات الإلهية كلها، فأساس الإيمان فى هذه الأديان، وفى كل دين حق أن يؤمن بأن الحياة الآخرة هى المآل، وأن الحياة الدنيا سبيل إلى الحياة الآخرة، ذلك أن هذه الحياة فيها تنازع الخير والشر، وأنه معتركها، وأن الشر كثيرا ما ينتصر على الخير فيها، فلابد للخير من أمل يكون فيه الانتصار للخير، وتجزى كل نفس ما كسبت؛ ولذلك كان الإيمان بالآخرة، إيمانا بانتصار الخير على الشر؛ ولذلك قال تعالى: ﴿**قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ** ... ﴿٣١﴾﴾ [**الأنعام**].

وقوله تعالى: ﴿**وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**﴾، فيه الإيقان مصدر أيقن، وهو إحكام العلم وإتقانه، بحيث لا يكون شك ولا ريب فى أية ناحية من نواحيه، ولا أى حقيقة من حقائقه، وبمقدار قوة الإيمان بالآخرة تكون قوة الإيمان فمن كان مؤمنا بربه حق الإيمان كان مؤمنا بالآخرة كأنها عيَان.

وقد أكد سبحانه ضرورة الإيمان بها فى تقديم الجار والمجرور على الفعل، فإن التقديم فيه مزيد من الاهتمام بهذا اليقين ، واختصاص، أى أنه لا يؤمن إلا بالحياة الآخرة، وما فيها من جنة ونعيم، وبعث وحساب، وجحيم، كأنه رأىَ

---

(١) أخرجه البخارى: كتاب التفسير (٤٤٨٥)، وأخرجه أبو داود: كتاب العلم (٣١٥٩)، وأحمد: مسند الشاميين (١٦٥٩٢).

العين، وأن الحياة الدنيا ليست موضع إيمان، فالحياة الآخرة وحدها هى الجديرة بالإيمان، وكان التأكيد بكلمة ﴿هُمْ﴾ فهو تصوير لليقين بصورة الجملة الاسمية، والجملة الاسمية تدل على بقاء اليقين و استمراره بحيث لا يضطرب ولا يتزعزع ولا ينسى ذلك اليوم أبدًا.

وقد يقال ما موضع ﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ من قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾؟ ونقول فى ذلك إن قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ كما فهمنا، وكما ذكرنا فيه أنهم لا يؤمنون بأن الوجود مادة، ليس فيما وراءه وجود، كأولئك الملاحدة الذين يظنون المادة هى «الموجود» وحدها، بدون أن يكون وراءها ما يؤمنون به، فذكر الله سبحانه وتعالى أن النفس التقية الخاشعة الخاضعة، لا تقول: خلقنا الله عبثا، بل تدرك بالفطرة أن وراء المادة معنى وحياة.

أما قوله تعالى: ﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ فهى تخصيص من العموم، والله ولى المؤمنين فى الدنيا والآخرة.

﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ ذكر الله تعالى ما تحلى به المتقون الذين يؤمنون بما غيَّبه الله تعالى عنهم، ودلت عليه الفطرة، والذين يقيمون الصلاة، وينفقون مما رزقهم الله تعالى، ويؤمنون بالرسالات الإلهية، ويوقنون بالآخرة، وبعد أن ذكر هذا ذكر سبحانه وتعالى حُكْمَه - تعالت كلماته - عليهم، مؤكدا ذلك، فقال: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ وأولئك: إشارة إلى حالهم موصوفين بهذه الصفات قائمين بهذه الصفات، والإشارة إلى الصفات وتعقيب الحكم بعد الإشارة يومئ إلى أن هذه الصفات هى علة الحكم بأنهم على هدى من ربهم، وكررت الإشارة لبيان أن هذه الصفات أيضا هى سبب الفوز بالنعيم المقيم، والبعد عن العذاب الأليم، فالتكرار للتنبيه على أنها سبب للثانية كما هى سبب للأولى.

والتعبير بـ ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ بالتعدية بعلى إشارة إلى العلو على الهدى والتمكن، كما يقال: ركب فلان متن الغواية أو علا على الهداية، فكأنه صار مستمكنا عليها لا يفارقها، ولا تفارقه. فأصحاب هذه الصفات العالية ينالون الهداية ولا يزايلونها، فهم فى هداية دائمة مستمرة.

وقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ معناها أن هذه الهداية جاءتهم من ربِّهم الذى ربَّهم وكونهم ووفقهم إلى سبيل الخير والعمل الصالح، والإيمان واليقين باليوم الآخر، فإسناد الهداية إلى أنها من الرب الكريم بيان لشرفها واستمرارها مع تمكنهم منها؛ لأنها من رب هذا الوجود الذى ربَّهُ ونماه وهذبه وأعلاه.

وهنا إشارتان بيانيتان:

إحداهما: الإشارة بالبعيد لوجود اللام، والبُعد هنا بُعد المنزلة، وعلوها وشرفها، فهؤلاء الأتقياء الأطهار الذين نزهت نفوسهم، وسامتوا[1] أعلى العلاء، يشار إليهم بالبعيد إعلاء وتشريفا وتكريما.

الثانية : تكرار اسم الإشارة أولئك، ففى هذا التكرار بيان تنويع الفضل الذى حكم الله تعالى عليهم، فهو قد حكم سبحانه وتعالى عليهم حكمين كريمين أولهما: الهداية الكاملة الدائمة التى نالوها، وركبوا متنها وعلوا عليها، والحكم الثانى: أنهم ينالون الفوز، والفوز هنا هو الفوز فى الدنيا بعلوٍّ نفوسهم، واستقامتها، والاتجاه إلى معالى الأمور ورضا الله تعالى، وهو أكبر جزاء، فرضوان من الله أكبر، والفوز فى الآخرة بالنعيم المقيم.

وقد أكد سبحانه وتعالى ذلك الفلاح الذى ينالونه بالجملة الاسمية، فالتعبير بالجملة الاسمية يدل على دوام الفلاح، وأنه دائم بدوام من يعطيه، وهو رب

---

(١) سَامَتَ الشيء: قابله ووازاه وواجهه. [الوسيط - س م ت].

العالمين، وأكده بتعريف الطرفين، وهما اسم الإشارة، وكلمة: «المفلحون»، وتعريف الطرفين يدل على القصر، أى أنهم هم المفلحون وحدهم دون غيرهم، فهم قد خلصت قلوبهم وعقولهم وكل مداركهم للحق جل جلاله، وفاضوا بخيرهم، وتحملوا المشاق فى سبيلهم، وآمنوا بكل الرسالات، ولم يطمعوا بغير أن يعدُّوا أنفسهم لحكم ربهم.

وأكد سبحانه وتعالى الحكم بأنهم المفلحون دون غيرهم بضمير الفصل وهو ﴿هُمُ﴾ فإن فى ذكره فضل التأكيد بأنهم المفلحون وحدهم، وأنه لا ينال منالهم إلا من سلك مثل سبيلهم، واختار مثل طريقهم . . اللهم اجعلنا ممن يقتدى برسلك وبهم، فإنهم هم الفائزون.

والمفلح - من الفَلْح بمعنى الشق والقطع، ويطلق المفلح على الفائز، فكأنه قد شق الطريق، ونالته المتاعب حتى نال مطلوبه، وفاز بمرغوبه، فما وصل إليه إلا بجهد جاهد، وعمل ولُغوب حتى نال ما نال، وذلك هو الفلاح، فلا فلاح إلا إذا كان ثمرة لجد وجهاد ، وطلب، وسير فى الطريق إلى غايته، فالفوز الرخيص بأمر لا يعد فلاحا، وإن الإنسان يعلو على ملائكة الله تعالى بجده ومغالبته للأهواء الإنسانية، حتى ينتصر عليها، ويصل إلى الملكوت الأعلى؛ لأنه وصل بمغالَبة وجهاد، والملائكة لا مغالبة فيهم؛ لأن الله خلقهم لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

ذكر الله سبحانه وتعالى أعلى صنف فى الوجود الإنسانى، وهم الذين علوا بنفوسهم وأعمالهم، وذكر فى مقابلهم الذين أركسوا أنفسهم فى مهاوى الباطل حتى سدت عليهم كل مسالك الإدراك للحق، ثم ذكر من بعدهم الحائرين بين الهداية والضلال، يرون نور الحق ويبصرونه، ثم يتركونه، فيتركون الحق وقد بدت لديهم معالمه، ويتجهون إلى الظلام، وقد أشرق نوره، ولمعت فى الوجود شمسه، وأولئك هم المنافقون.

وقد روى عن مجاهد أنه قال: أربعُ آيات من أول سورة البقرة فى نعت المؤمنين، وآيتان فى نعت الكافرين وثلاث عشرة آية فى المنافقين[١].

وقد تم بيان صفات المتقين، ونبتدئ فى آيتى الكافرين، فقد قال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ**﴾.

بين سبحانه الذين يتقبلون هداية القرآن، فينزل على قلوبهم كما ينزل الغيث على الأرض الطيبة، فتنبت أطيب النبات، وتثمر خير الثمر. وهم المتقون الذى جرى فى القرآن الكريم فى الآيات السابقة وصفهم. والكافرون جاء وصفهم في الآيات الكريمة على نقيض المتقين، إذ إن هؤلاء المتقين امتلأت نفوسهم بالاتجاه إلى ما وراء المادة، فلم يستول على قلوبهم بريق المادة، ولم يستغرقهم سلطانها، بل انفعلت نفوسهم متأثرة بما وراءها متعرفة أسرار الوجود من الموجود، أما الذين كفروا فقد استغرقتهم المادة، وسيطرت عليهم، فلا يفكرون إلا فيها، وفيما تحيط به، والله سبحانه وتعالى خلق كل نفس، وهداها، فإن استقامت فى إدراك الحقائق أوصلها إلى الحق، وإن عميت واعوجّت ابتداء، فلم تر إلا المادة سارت فى طريق غير سوى. والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا**

(١) تفسير القرطبى - تفسير سورة البقرة آية (٨).

وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ... ﴿٧٨﴾ [النحل]. فالله تعالى خلق الخلق، وأودع كل نفس طريق العلم، فأعطاه أدوات المعرفة كلها، وجعل السمع يستمعون به والأبصار يبصرون بها، والقلوب يدركون بها، فمن جعل هذه الأدوات متجهة إلى النور فقد أبصر، فيكون من المتقين، ومن أحاطت به مادة الدنيا، ولم ينفذ ببصره وقلبه إلى ما وراءها، فإنه لابد سائر فى طريق الغواية، مبتعد عن طريق الهداية، وكل إنسان وما يُسِّر له، فإن غلبت عليه السعادة اتقى، وإن غلبت عليه الشقوة كفر.

والكفر فى أصل معناه اللغوى السَّتْرُ، ومن ذلك إطلاق الكفار على الزراع لأنهم يسترون البذر لينبت نباتا طيبا كقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ... ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد]، أى أعجب الزراع نباته، وقد أطلق من بعد ذلك على ستر الفطرة وطمس الحق؛ لأن الفطرة الإنسانية فطرة الله؛ فطر الناس عليها تتجه إلى الحق، وتدرك نوره، فالكفر ستر نور الفطرة الذى ينبثق نحو الحقيقة، كما يطلق الكفر على جحود النعمة، وإنكارها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم].

ومن ذلك ما روى عن النبى ﷺ إذ قال: «أُرِيت النار فلم أر منظرا كاليوم قط أفظع، ورأيت أكثر أهلها النساء، قيل: بِمَ يا رسول الله؟ قال: بكفرهن. قيل: أيكْفُرْن بالله؟ قال: يكفرن العشير، ويكْفُرْن الإحسان، لو أحسنت إليهن الدهر كله، ثم رأت منك شيئا، قالت: ما رأيت منك خيرا قط»(1). وذكر الله تعالى الكفر من غير مُتَعَلَّق فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ للدلالة على جحود كل خير، فلا يكفر الكفار بالله تعالى وحده، بل يكفرون بكل نعمة، وينكرون كل خير، وتغلب عليهم

---

(1) أخرجه البخارى: كتاب الإيمان - باب: كفر دون كفر (٢٩)، ومسلم: كتاب الكسوف - باب: ما عرض على النبى ﷺ (٩٠٧).

مادية شرسة لا يؤمنون إلا بها وينكرون ماعداها، وتسد عنهم مسامع الخير، فلا يصلون إليه، ولا يتجهون نحوه، وبذلك تسد مسامعهم عن كل إنذار بعاقبة مايفعلون.

وإذا كانوا قد فقدوا كل الإنصات إلى ما يهديهم، فهم لايؤمنون سواء أأنذرتهم أم لم تنذرهم، والإنذار يفسره علماء اللغة بأنه تخويف من أمر مستقبل يتوقع وقوعه أو يؤكد وقوعه، وعند المنذر سعة من الوقت يمكنه فيه أن يتوقاه، وقالوا: إذا لم يكن متسع من الوقت لتفاديه يكون ذلك إشعارا .

ومعنى ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ﴾، أنه يستوى عندهم إنذارك وعدم إنذارك، فالاستفهام هنا للمعادلة، أى أنه يستوى الإنذار وعدمه، والمصدر هنا ثبت بالاستفهام، أو من غير أداة مصدر، كقولك: تسمع بالمُعِيدِىِّ خير من أن تراه أى: سماعُك بالمعيدىِّ خير من أن تراه.

ومعنى ذلك أنه سجل عليهم الكفر والجحود؛ لأن الشر قد استغرق نفوسهم، ولم يكن ثمة موضع لسماع داعى الهدى حتى أغلق قلبه عن كل ما يدعو إلى الخير، ولقد قال ﷺ: «إن الرجل ليصدق فتنكت فى قلبه نكتة بيضاء، وإن الرجل ليكذب الكذبة فيسود قلبه»(١). وروى الترمذى أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل ليقترف الذنب فيسود قلبه»، فإن هو تاب صقل قلبه(٢)، وقال تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين] أولئك الذين كفروا وستروا الفطرة، وأطفأوا نور الإيمان بتوالى ذنوبهم، واستمراء جحودهم، تحيط بهم خطاياهم فلا يؤمنون بالحق سواء أأنذرتهم أم لم تنذرهم.

وقد أكد الله سبحانه وتعالى هذا المعنى بـ «إنَّ» الدالة على توكيد حكم ما بعدها.

---

(١) رواه مالك فى الموطأ: كتاب الجامع.

(٢) رواه الترمذى كتاب تفسير القرآن (٣٢٥٧)، وأحمد (٧٦١١)، وابن ماجه: الزهد (٤٢٣٤).

أكد الله تعالى هذا المعنى شارحا حالتهم النفسية، وانطباعها على الشر، وعدم تقبل الهداية، فقال تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾.

الختم مصدر ختمت ختما فهو مختوم ومعناه تغطية الشيء، والاستيثاق من الغطاء حتى لا يدخله شيء من خارجه، والختم يكون محسوسا، وإطلاقه على الأمور المعنوية يكون مجازا أو استعارة، ويكون المعنى أن الله تعالى شبه ابتعادهم عن الهداية، والحيلولة بين قلوبهم ووصول الحق إليها، بسبب ما تواردت عليه من أسباب الشك والارتياب وإظلام القلوب، وعدم قبولها لنور الهداية - شبهه بحال ما ختم عليه بختم استيثاقا من ألا يفتح ويدخل عليه شيء من الإيمان، وكان على القلوب، فلا يكون معها مكان لهداية، وعلى السمع، فلا ينفتح لسماع كلمة حق هادية، وذلك من كثرة ما توارد عليها من أسباب العصيان والجحود، حتى طبع الله تعالى عليها بكفرهم، فقد قال ﷺ: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا، فأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء، وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين؛ أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مربادا كالكوز مجخيا (أى مقلوبًا) لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكراً»[1] رواه الصحيحان، ولقد قال ابن جرير فى تفسيره: «إن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم الذى ذكره الله سبحانه وتعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾.

والمعنى أن الذين أركست قلوبهم بتضافر ذنوبهم، وتوالى جحودهم، واستغراق المادة تغلق عليهم مسالك الهداية، وتسد عليهم مسام النور، فلا تصل إليهم هداية.

---

(١) رواه مسلم: كتاب الإيمان: باب: بدأ الإسلام غريبا (٢٠٧).

وعبر عن ختم قلوبهم وسمعهم بجمع القلوب، وإفراد السمع؛ لأن الأسباب التى تغلق القلب متعددة، بتعدد أصناف الهوى، فكأن كل واحدة تسكن قلبا، وتتعدد القلوب بتعدد ما ملأها من أهواء، وتتضافر هذه الأهواء، وأفرد السمع؛ لأنه طريق واحد، وجارحة واحدة، ونور الحق واحد، وصوته واحد، ولكن لا يسمع.

والوقف على قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ فإن ختم القلوب يكون على القلب، وعلى السمع، أما الأبصار، فإن عليها غشاوة، وتكرار ﴿عَلَى﴾ فى قوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ للدلالة على تقوية الختم، وتأكيده بحيث لا يصل إلى النفس منه شىء عن طريق القلب المدرك أو السمع الواعى.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ الغشاوة الغطاء الذى يحول بين البصر والرؤية، وذكر الأبصار بالجمع بدل الإفراد لتعدد المبصرات الموجهة التى يتوجه البصر إليها، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات أوتاد، وماء ينزل من السماء، ومرسلات حاملات للرياح، وخلق مجدد مستمر، وحياة وموت، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾[الغاشية] وهكذا تتعدد المبصرات، وفيها الآيات البينات الدالة على قوة القادر على كل شيء، القاهر فوق عباده.

فلتعدد هذه المبصرات ذكرت الأبصار بالجمع لا بالمفرد، والله بكل شيء محيط.

ولقد ذكر الله تعالى عقاب أولئك الكافرين الذين لا تجدى معهم النذر، ولا يجدى معهم بيان الحق فى ذاته، وقد طبع الله تعالى على قلوبهم التى شعبتها الأهواء، وعلى سمعهم فلا يستمعون للحق، ووضع الله على أبصارهم غطاء يحول

بينهم وبين معرفة الآيات البينات، وبين سبحانه وتعالى ما قرره لهم من عقاب، فقال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ العذاب كالنكال، وقد ذكر الزمخشرى المعنى اللغوى له، فقال فى كشافه : العذاب مثل النكال بناء ومعنى؛ لأنك تقول أعذب عن الشىء إذا أمسك عنه، كما تقول : «نكل عنه»، ومنه العذب، لأنه يقمع العطش ويردعه، ويدل عليه تسميتهم إياه نقاخا لأنه ينقخ العطش أى يكسرَه، وفراتًا لأنه يرفته على القلب[١]، ثم اتسع فيه فسمى كل ألم فادح عذابا، وإن لم يكن نكالا، أى عقابا يرتدع به الجانى عن المعاودة.

هذا تحليل لغوى كتبه الزمخشرى ونقلناه، والذى نخرج منه أن العذاب نكال وإيلام فادح لمنع المعاودة، وأنه يلتقى مع العذاب، فسبحان الله يجعل من العذب الذى ينقع العطش عذابًا يمنع الجريمة.

وقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، أى أنهم يستحقون استحقاق اختصاص ومِلْك، عذابا عظيما، كبيرا ليس بصغير، جزاء ما كان من تشويه فطرتهم، والطمس على قلوبهم، عذابا كبيرا، لا يكتنه كنهه، ولا يعرف قدره.

وفى الحقيقة، إنهم ينالهم عقابان: أحدهما - ما فسدت به طبائعهم وتشوهت به مداركهم، فإن نزول الإنسان عن مرتبة الإنسان إلى ما دونه من مرتبة الحيوان والخنازير والقردة الذين ينزون إلى الشهوات نزوًا هو فى ذاته عقوبة مستمدة من ذواتهم.

العقوبة الثانية أن لهم عذابا عظيما يوم القيامة. والتنكير فى ﴿غِشَاوَةٌ﴾ فيه إشارة إلى أنه نوع من أنواعها خاص بهم أساسه التعالى على الحق.

---

(١) كما فى الكشاف / ج١/ ١٥٥، وفى لسان العرب: النَّقْخُ كسر الرأس عن الدماغ، والنُّقاخ: الماء العذب البارد الذى ينقخ العطش أى يكسره ببرده.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾

بعد أن بين سبحانه وتعالى حال المتقين ثم حال الكافرين ومآلهم، بين الله سبحانه وتعالى حال الحائرين بين الحق والباطل، وبين العداوة وإظهار المودة، وهم المنافقون. وقد ذكرهم سبحانه وتعالت كلماته فى ثلاث عشرة آية، لتنوع أعمالهم، وتغير أحوالهم، بسبب حيرتهم، ونفاقهم، وأوهامهم المضلة.

ابتدأ سبحانه وتعالى بيان حالهم. يقول تعالى عنهم: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾** نقل سبحانه وتعالى قولهم بقوله: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾**.

الناس أصلها الأناس، ويعبر بالناس فى هذا بأنهم ليس لهم من الصفات إلا الوصف الآدمى الأصلى وهو أنهم ناس من الناس، فلا يقال متقون، ولا يقال مؤمنون، ويقال كافرون فقط؛ لأن لهم لونا اختصوا به، وهو أنهم كافرون، أما هؤلاء المنافقون، فإنهم حائرون، فلا يعبر عنهم إلا بأنهم ناس، لا دين لهم ولا خُلق، وليس معنى ذلك أنهم خيرٌ حالا من الكافرين، بل هم أشد كفرا، وأبعد إيغالا فى الشر، وأكثر فسادا، وإذا كان فى الكافر وضوح، فهو يعلنه، فأولئك كافرون يُبهمون ويجبنون، ولا يصارحون.

ولم يذكرهم الله تعالى فى الذين لا يجدى فيهم إنذار نذير، وأن الله تعالى ختم على قلوبهم وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة، لم يذكرهم الله فى

أولئك، وإن كانوا داخلين فيهم؛ لأنهم جمعوا مع هذه الأوصاف أوصافا أخرى، فكانوا أشد عند الله مقتا، وأبعد فى الفساد والأذى، ذلك أنهم زادوا المراءاة والاستهزاء بالمؤمنين، وبث روح الفشل فيهم، وموهوا، وعادوهم أشد من عداء الآخرين، وحاربوا فى العقيدة والفساد بأشد مما حاربوا فكانوا يحاربون بالعداوة يُسرُّونها فتكون أفعل وبإشاعة التردد وبث روح الهزيمة عند الإقدام، وبإشاعة المآثم والمفاسد فى الذين آمنوا.

هنا يسأل سائل : كيف ينفى عنهم وصف الإيمان، وقد كانوا يعرفون النبى ﷺ كما يعرفون أبناءهم، كما قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ**... ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة] وأنهم كانوا يستفتحون على المشركين بنبي جاء أوانه، وأدركهم زمانه. كما قال تعالى: ﴿**وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ** ... ﴿٨٩﴾﴾ [**البقرة**].

وإذا كانوا كذلك فهم يعرفون النبى! فكيف يكون قولهم آمنا بالله وباليوم الآخر، ليس فيه إيمان، ومنفى بقوله تعالى: ﴿**وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ**﴾؟ ونقول فى الجواب عن ذلك: إن الإيمان ليس هو المعرفة المجردة، إنما هو التصديق والإذعان والتسليم، وهؤلاء مع معرفتهم الحق فى عهد النبى ﷺ وكانوا من اليهود، فلم يذعنوا ولم يسلموا، ولم تصل المعرفة إلى تصديق؛ ولذلك نفى الله سبحانه وتعالى الإيمان عنهم بقوله تعالى: ﴿**وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ**﴾ أى ليسوا مؤمنين. واليوم الآخر وهو يوم القيامة، وما يجرى فيه من حساب ثم ثواب أو عقاب.

فالله سبحانه وتعالى أكد نفى إيمانهم بالجملة الاسمية، أى أنه سبحانه نفى الإيمان وأصله عن ذواتهم، كما أكدوا هم فى نفاقهم الإيمان بالله، وباليوم الآخر، بتكرار الباء فى بالله وباليوم الآخر.

وهنا إشارة بيانية إلى أن المنافقين ليس من شأنهم الإيمان بشيء؛ لأن الإيمان بشيء من الأشياء يقتضى الإذعان والتصديق والتسليم، والعمل بموجب الاعتقاد والاستجابة، والمنافق قلبه غير مستقر، ولا مطمئن إلى شيء، هو قلب خاوٍ، والحقائق تتردد فلا تسكن، ولاتدفع إلى عمل ولا اطمئان، فلا يؤمن بشيء، ولقد قال ﷺ: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين غنمين، لا تدرى إلى أيهما تذهب»(١)، وقال تعالى فى وصفهم: ﴿**مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَؤُلاءِ ...** ﴿١٤٣﴾﴾ [النساء] ومهما تكن حالهم فهم أشد الكفر عنادا وعنتا وخبثًا ومقتا عند الله ورسوله، وعند الناس أجمعين. ولقد يبلغ النفاق أن يغلب على نفوسهم، فيظنون أنهم يخادعون الله، ويحسبون أنه ليس عليما بخفايا نفوسهم؛ ولذلك قال: ﴿**يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ**﴾ الخدع: أن يظهر الشخص أنه يريد أمرا ليخفى إرادته الحقيقية، ومقصده، ومن ذلك ضَبٌّ خادع إذا أخفى نفسه فى جحره، وقد أراد أن يضلل من يراقبه، فأظهر الخروج من باب ويختفى فى غيره.

وكذلك حال أولئك المنافقين أرادوا أن يظهروا الإيمان أو أظهروه، وهم يبطنون الكفر، ولا يريدون غيره، بل يريدون تضليل المؤمنين، كحال ذلك الضب الخادع الذى يوهم مراقبه أنه خارج من ناحية ليختفى فى ناحية أخرى، فالنص الكريم تصوير لحالهم فى فعلهم من إظهار الإيمان لأهل الإيمان، وإبطانهم الكفر، وتبادل كلماته فيما بينهم كما قال تعالى: ﴿**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴿٧٦﴾﴾ [البقرة] وفى آية أخرى: ﴿**وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ** ﴿١٤﴾﴾ [البقرة].

---

(١) سبق تخريجه.

فالآية الكريمة وصف لحالهم ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهى وصف لحالهم وما يرتكبون، فعملهم عمل المخادع الذى يخادع الله والذين آمنوا بأن يوهمهم ويخادعهم فيظهر الإيمان ويبطن الكفر والعداوة وتربص الدوائر، ويحسب أنه يخادع الله ورسوله والمؤمنين. والمخادعة مفاعلة بين اثنين كلاهما يريد خدع صاحبه، والمفاعلة بين أولئك المنافقين من جانب والله ورسوله من جانب آخر، وكيف يخادعون الله، وهو علام الغيوب الذى لا تخفى عليه خافية فى السماء ولا فى الأرض؟ وكيف يخادعهم الله تعالى وهم فى قبضته، وكل من فى السموات والأرض فى قبضته يوم القيامة؟ وقد أجاب الزمخشرى عن ذلك فقرر أن الله تعالى يعاملهم معاملة المؤمنين، فيتزوجون، ويرثون، ويعاملهم كأنهم المؤمنون الصادقون فى الإيمان، فهم يخادعون بإظهار ما لا يبطنون، والله تعالى يعاملهم بما يظهرون، ولا يعاملهم بما يبطنون، أو يقال إن المعنى أنهم ينزلون بالمؤمنين ما يحسبونه مخادعة لهم، وإيهامهم بأنهم آمنوا، وما هم بمؤمنين، أو يقال إن المخادعة للنبى ﷺ ومن معه، وهم يعاملونهم معاملة المخادع لهم، وإن كان النبى ﷺ يعلم من لحن قولهم خفىَّ أمرهم كما قال تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ... ﴿٣٠﴾﴾ [محمد].

والمعنى فى الجملة بعد أن خرَّجنا المخادعة تلك التخريجات المختلفة أنهم يظهرون ما لا يبطنون محاولين أن ينزلوا بالمؤمنين ما تكون كالمخادعة، وقرر ذلك الراغب الأصفهانى فى المفردات فذكر أن الخداع للرسول ﷺ وأوليائه من المؤمنين، وفى التعبير عن ذلك بخداع الله تعالى إشارة إلى أن الذين يخادعون النبى إنما يخادعون الله تعالى، وأن الله تعالى كاشف أمرهم لنبيه ﷺ وأنهم إذ يضارونه، ويخفون عليه أمورهم، يبطنون عنه سبحانه وتعالى ما لا يبدون وهو من ورائهم محيط.

وإنهم إذ يخادعون المؤمنين بإظهارهم الإيمان، وإبطانهم الكفر، إنما يخدعون أنفسهم، بأن يظهروا لغيرهم الإيمان وأمرهم مكشوف غير مستور، وحالهم معروف، وكفرهم يبدو فى لحن أقوالهم، فهم يحسبون أنهم يخفون على غيرهم أمرهم، وهو معروف لغيرهم، فهم المخدوعون أنفسهم ؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، أى أنهم يحاولون أن يخدعوا غيرهم فيظنوا أنهم ستروا كفرهم وهو مكشوف لمن يخدعونهم، وأن المؤمنين يعاملونهم بما يظهرون حتى يكون يوم الدين، فهم المخدوعون؛ لأنهم يعاملون كأنهم مسلمون حتى ينكشف أمرهم، ولكنهم لا يشعرون، أى لا يحسون بأنهم مخدوعون مغرورون وأمرهم بيِّن. والله من ورائهم محيط.

وإن فى ذلك القول الحكيم تصويرًا دقيقا لحال المنافقين، إذ إنهم لفرط ضلال نفوسهم، وفقدهم الإيمان تفسد مداركهم، وتضل أفهامهم، فيحسبون أمرهم خفيا على غيرهم وما هو بخفى، وتأخذهم عزة النفاق، فلا يدركون ويستمرئون كذبهم ونفاقهم، حتى يغتروا فيحيط بهم الضلال وهم لا يشعرون.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ الآفات الاجتماعية والنفسية أمراض تصاب بها النفس الإنسانية، وهو ضعف يرد إلى النفوس، وأفحش هذه الأمراض النفاق، فهو ضعف يصيب النفوس يبتدئ من أحقر الأفراد إلى أن يصل إلى أعلاها، ولا يظن أن النفاق يكون فقط لجلب نفع آثم، أو لدفع ضرر جاثم، بل هو ضعف نفسى يحيط بالإنسان ويتغلغل فى نفسه، وإطلاق كلمة ﴿مَّرَضٌ﴾ هنا، يصح أن يكون من قبل الحقيق؛ لأن المرض هو ما يؤذى النفس، ويلقى بها فى الضعف، وليس ذلك مقصورا على المرض الذى يصيب الجسم بل هو يشمل ما يصيبه فى أعصابه، كالجنون الذى يستر العقل، وكالعَتَه الذى يمنع الإدراك، وكالسفه الذى لا يدرى النفع من الضرر، فهذه كلها أمراض، وتعد

فى اللغة أمراضا، كذلك مرض النفاق الذى يصيب النفوس بالوهن والحيرة، والحقد والبغض لخير الناس، وأن يكون صاحب هذا المرض غير مستقر بل هو فى بلبال مستمر، تزداد حاله كلما تمكن فيه هذا الداء ، وهو ساكن فى النفس لا تخرج مظاهره، وكلما استتر واستكن ازداد قوة وإيغالاً فى النفس حتى يصعب علاجه، فإذا كان الكذب المجرد قد يعالج، فالنفاق مرض لا علاج له.

وكان يراد المجاز بتشبيه النفاق بالمرض العضال الذى لا يشفى، ومرض النفاق فساد القلب، وقد صور ذلك الزمخشرى فى قوله: والمجاز أن يستعار لبعض أعراض القلب كسوء الاعتقاد، والغل والحسد، والميل إلى المعاصى والعزم عليها والبغضاء؛ لأن صدورهم كانت تغلى على رسول الله ﷺ والمؤمنين، غلا وحنقا، ويبغضونهم البغضاء التى وصفها الله تعالى فى قوله: ﴿**قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ** ... ﴿١١٨﴾﴾ [**آل عمران**].

ومن التفسير المأثور أن المرض هو النفاق، وهو مرض إذا أصاب القلب فقد الإيمان بأى شىء من شئون الأخلاق أو الاتصال بالناس، فإنه يصبح فى غربة عن أهل الحق وأهل المعرفة، والاتصال بهم، فيكون فى جو معتم، تسوده الكآبة ولا يظله نور الحق، وذلك شر ما يقع فيه الإنسان.

وإن المنافق إذا أوغل فى قلبه النفاق انتقل به من دركة إلى دركة أسفل منها، فيزيد خسرانا بإيغاله. كالسائر فى متاهة، كلما أوغل فيها ازداد ضلالا وبعداً عن الطريق الجدد، حيث الأعلام[1]. وهذا معنى: ﴿**فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا**﴾ أى أنهم بسيرهم فى هذا الطريق الضال يزدادون إيغالا فيه، فيزيد مرضهم بتقدير الله تعالى؛ لأنهم قد أوغلوا مختارين فيه.

(١) مفرد عَلَم: شىء منصوب فى الطريق يهتدى به. [الوسيط ع ل م].

وهكذا كل المعاصى والذنوب التى هى أمراض القلب، من اختارها، فقد اختار الضلالة كلما سار فيها ازداد بعدا عن الحق وعن الطريق القويم فيوغل فى المعاصى، لا يعود ولا يتوب.

وقد بين الله تعالى عاقبتهم، فقال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى عذاب مؤلم شديد، فأليم هنا بمعنى مؤلم، يصيب أجسادهم يوم القيامة كقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ... ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة] أى مبدع السموات والأرض يعنى منشئها على غير مثال سبق، فيكون لهم جزاءان أحدهما دنيوى، وهو متولد من النفاق نفسه إذ يكونون فى اضطراب لايستقرون على قرار، ولا يطمئنون؛ إذ الغل والحقد والحسد يقتل نفوسهم قتلا، ويستمرون على ذلك، حتى يكون هذا مرضًا خبيثًا يسكن نفوسهم، حتى ينغص عليهم كل حياتهم، وتكون كل نعمة تنزل بأهل الإيمان والحق نقمة عليهم.

الجزاء الثانى هو العذاب الشديد المؤلم الذى ينالهم يوم القيامة، وهو ينتظرهم، وهم واردون عليه بلا ريب، ولقد بين الله سبحانه وتعالى سبب ذلك العذاب الذى هو الجزاء الثانى فقال تعالت كلماته: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ فالباء هنا باء السببية، أى بسبب الكذب المستمر الذى كانوا يقومون به، فـ «كانوا» هنا دالة على الاستقرار والدوام، كما فى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان] وكما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب].

فمعنى ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾، بسبب كذبهم المستمر الذى لا ينقطع، وقد اتصفوا بالكذب: (١) فكذبوا على أنفسهم، فكلما بدا لهم ضوء الحق طمسوه، وغروها الغرور، وخدعوها بأنهم أهل الحق، وموهوا عليها، كما موهوا على الناس، فصارت فى عماء، وغلبت عليها شقوتها.

(٢) وكذبوا على الرسول وأصحابه، وقالوا آمنا بالحق وباليوم الآخر.

(٣) وكانوا لا يصدقون فى حديث مع الناس، ولقد قال النبى ﷺ فى وصف المنافق: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»[١].

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾
أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا
كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ
وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا
إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ
بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾

ذكر الله سبحانه وتعالى أوصاف المنافقين النفسية التى استغرقت نفوسهم، وصارت مرضا ملازما لهم كالمرض الجسمى العُقَام الذى لا يزايل المريض حتى يقضى عليه، وفى هذه الآيات يبين الله تعالى أحوالهم فى معاملة المؤمنين، فذكر سبحانه أنهم يفسدون فى الأرض ويزعمون لطغوانهم[٢] أنهم يصلحونها، وأنهم فوق الناس، ويمارون فى القول، ويظهرون للمؤمنين بوجه ولغيرهم من إخوانهم بوجه آخر حين يلقونهم، يحسبون أنهم يستهزئون بالمؤمنين.

---

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى: كتاب الإيمان - باب: علامة المنافق (٣٢)، ومسلم: كتاب الإيمان - باب خصال المنافق (٨٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) الطغوان: لغة فى الطغيان من طغى: إذا جاوز القدر وارتفع وغلا فى الكفر. [لسان العرب - باب الطاء - ط غ ى].

ولقد كان المنافقون يفسدون فى الأرض بين الناس، والفساد فى الأشياء أن تخرج عما خلقت له إلى ما يضر، والصلاح استقامتها حتى تكون فى دائرة النفع الإنسانى العام، والمنافقون فى عصر النبى ﷺ وفيما بعده من العصور شأنهم الفساد، ومن كانوا فى عصر النبى ﷺ قد وضح فسادهم، واستشرى شرهم، فهم قد كفروا بالحق إذ جاءهم، وأنكروا كتاب الله تعالى ورسوله الأمين، وقد عرفوه، ومشوا بالنميمة والسعاية بين الناس، وكلما أطفأ الله ناراً للحرب أوقدوها، ومالئوا المشركين على المؤمنين، وإذا خرج المؤمنون للقتال عملوا على أن يهموا بالفشل، يعرفون ضعفاء المسلمين ويغرونهم بالتخلف، يبتغون الفتنة بين المؤمنين ويقلبون الأمور لإثارتها، كما قال تعالى: ﴿**لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ** ﴿٤٨﴾﴾ [التوبة].

ولقد قال ابن جرير فى تفسيره فى بيان إفسادهم: أهل النفاق مفسدون فى الأرض بمعصيتهم فيها ربهم، وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه، وتضييعهم فرائضه، وشكهم فى دينه الذى لا يُقبل من أحد عمل إلا بالتصديق به والإيقان بحقيقته، وكذبهم على المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه، مقيمون على الشك والريب، ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله إذا وجدوا إلى ذلك سبيلا، فذلك إفساد المنافقين فى الأرض، وهم يحسبون أنهم بفعلهم ذلك مصلحون فيها، فهم يحرضون المشركين على المؤمنين، ويتفقون معهم، ويدلون على عورات المؤمنين، ومَقَاتِلهم، وهكذا.

ويسأل سائل: لماذا قال سبحانه وتعالى: ﴿**فِي الأَرْضِ**﴾ ونقول: إن ذلك لبيان عموم فسادهم، وأنه يتناول المدينة وما حولها. وأن الأرض موطن فسادهم، يثيرون الحروب فيها، ويشيعون الشر فى ربوعها.

وقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ**﴾ مع البناء للمجهول للإشارة إلى عموم شرهم، وأن الناس جميعا يتساءلون: لماذا كان ذلك الفساد؟ وأى مأرب لهم فيه؟،

ولسان الخير يقول لهم: ﴿لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾ فهم فى حال من الإفساد، يستنكرها كل إنسان، ولايرتضيه رجل للأخلاق عنده مكانة، وللخير عنده منزع، فتجهيل اللائم لهم بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ لعموم المستنكرين لحالهم، وأنهم فى وادٍ والناس فى وادٍ آخر، فلا تجد أحدا يوالى منافقا إلا إذا كان على شاكلته.

وإن أشد فساد الفاسد أن يغتر بحاله، ويزعم أنه ليس بفاسد، فهو معكوس النفس مركوس، قد انقلبت الحقائق فى عقله، فلا يعرف الخير من الشر، ولا الفساد من الصلاح، وهكذا المنافقون تنكس عليهم الأمور، فجميعها منكوس.

ولذلك يرد المنافقون قول من يستنكر فسادهم بما حكاه الله تعالى عن نفوسهم: ﴿ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أى قصروا نفوسهم على الإصلاح، وذلك أن «إنما» تدل على القصر أى قصرهم على الصلاح لا يكون منهم فساد قط، وذلك أعظم الغرور وأشد الفساد، فكل ما يفعلون مما ذكرنا وما لم نذكر يعدونه إصلاحا، ولا يعدونه فسادا، وهكذا زين لهم سوء عملهم فرأوه حسنا، وذلك الغرور لا يكون إلا ممن أحاطت به خطيئته، فأصبح لا يرى إلا ما يكون فى دائرتها، وقد سدت عنه كل منافذ الخير.

وقد حكم الله تعالى عليهم ذلك الحكم القاطع مؤكدا له أفضل توكيد بقوله تعالى: ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ فالله تعالى يحكم عليهم بأن الفساد يستغرقهم وأنهم مقصورون عليه، وقد أكد الله سبحانه وتعالى ذلك الحكم بعدة مؤكدات:

أولها : التعبير بـ «ألا» لأن لا نافية دخلت عليها همزة الاستفهام الدالة على التنبيه والنفى، فهى نفىٌ مؤكَّدٌ لصلاحهم، وتأكيد لفسادهم.

وثانيها: التأكيد بـ «إن» المؤكدة لفسادهم.

الثالثة : ضمير الفصل، وهو «هم».

الرابعة - تعريف الطرفين[1] وهو دال على القصر، أى أنهم مقصورون على الفساد، لا يتجاوزونه، وهو محيط بهم إحاطة الدائرة بقطرها، فهم يسارعون فيه، ولا يخرجون عنه.

ومع هذه الحال، وهذا الحكم المؤكد ﴿لاَّ يَشْعُرُونَ﴾، والشعور هو الإحساس الجسدى والنفسى والعقلى بخطأ ما يفعلون، فالشر قد استغرقهم، حتى أصبحوا لا يدركون بعقلهم الذى غمره الفساد ولا بنفوسهم الأمارة بالسوء، ولا بإحساسهم الذى آفته آفة الشر.

وإذا كان فسادهم قد ذاع وشاع فسببه أنهم جعلوا أنفسهم فى حيز فكرى ونفسى وأهل الإيمان فى حيز غيره، وشأن المنافق دائما أنه يعتقد أنه فى مكانة من الفكر والتدبر، وغيره ممن يدركون الحق فى سفه وحمق، فهم يريدون أن يصرفوهم عن الإيمان ليضلوهم، ويفتنوهم لولا أن يتداركهم الله برحمته، فيستنقذهم منهم.

كانوا صنفا قائما بين الناس لا هم كفار أعلنوا كفرهم، ولا هم مؤمنون قد رضوا بالإسلام دينا، وانحازوا بحالهم التى هى أشد كفرا ومقتا عند الله وعند الناس، فكان من سنة الناس أن يسألوهم لماذا لم يؤمنوا بقلوبهم، ولماذا يقفون ذلك الموقف الحائر المحير. لابد أن يكونوا كفارا معلنين كفرهم، وإلا اختاروا الإيمان.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ بنى الفعل ﴿قِيلَ﴾ للمجهول للإشارة إلى عموم القائلين لأن موقفهم المتردد المتذبذب بين حق خالص لاريب فيه، وباطل لا ريب فى بطلانه، فهم يعلنون الإيمان، ولم يعلنوا الكفر، وإن كانت حالهم أشد الكفر وأمقته، كان هذا السؤال يتردد فى كل القلوب،

---

(١) أى: اسم إن وخبرها، وأصلهما المبتدأ والخبر؛ إذا عرّفا دل على القصر.

ويتساءل عنه كل أهل العقل والمنطق؛ ولذلك كان التعميم فى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ قال المخلصون: آمنوا أى صدقوا واعتقدوا الوحدانية، وأن تؤمنوا بالله ورسوله والملائكة والرسل جميعا، ﴿كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾، و «أل» فى الناس للعهد أى الناس المعهودين المعروفين، وهم محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه المجاهدون الذين أخلصوا دينهم لله.

وعبر عنهم بالناس إشارة إلى أنهم الناس حقا وصدقا الذين بلغوا أعلى درجات الإنسانية بإيمانهم وطهارة نفوسهم، وعظم مداركهم، وإذعانهم للحق إذ دعوا إليه.

ولكن مع جلال ما آمنوا به، وصدقه، استعلى المنافقون بالباطل، وكذلك شأن المنافق يظن أن ما هو عليه من نفاق ومراء هو عين العقل، وما عليه غيره هو عين السفه.

قالوا مستنكرين ما قيل ويقال لهم: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ والسفهاء جمع «سفيه»، وهو الأحمق الذى لا يتخير الأمور، ولا يتعرف أحسنها فيتبعه، وقد ظن المنافقون أنهم أهل الحكمة، فقالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ وهم فى زعمهم محمد وأصحابه، والاستفهام إنكارى بمعنى النفى أى: لا نؤمن، ولا نصدق برسالة محمد إلى الخلق، كما صدق محمد وأتباعه، ومن ساروا على منهاجه، وكذلك زين لهم تفكيرهم الفاسد، وغرهم ما كانوا يفترون، ويكذبون به، وتكرر كذبهم، حتى ظنوها الأعلى، وهو الدرك الأسفل، ولقد حكم الله تعالى، وهو الحكم العدل، وهو خير الفاصلين، فقال تعالت كلماته: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ يقرر الله تعالى الحكم عليهم بالسفه، وجعلهم مقصورين عليه يدورون فى إطاره ويسارعون فيه، فهم يخرجون من سفه إلى سفه، ويسارعون فى السفاهة، ويسيرون فيها حتى يصلوا إلى الدرك الأسفل منها.

وقد أكدت السفاهة بقوله: ﴿أَلا﴾ التى هى استفهام داخل على النفى، فكان تأكيدا للنفى مع التنبيه، وقد أكد أيضا بـ «إن»، وهى تجيء بعد قوله تعالى: ﴿أَلا﴾ كما يجيء القسم بعدها.

وأكد بضمير الفصل، فى قوله تعالى: ﴿هُمُ السُّفَهَاءُ﴾.

وأكد القول بتعريف الطرفين الذى يفيد قصرهم على السفه، بحيث لايكون منهم إلا ما هو سفه، ولا يجيء منهم حكمة قط؛ لأن الحكمة لا تكون إلا من قلب سليم.

﴿وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ﴾ مقدار ما أوتوا من سفه الرأى، وما أوتى غيرهم من حكمة الإيمان، وهنا نجد أنهم عند قصرهم فى النص القرآنى على الفساد، قال: ﴿وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾؛ لأن الفساد والصلاح حسيان، فناسبهما أن يكون عنهم شعور حسى، أما حكم السفه فأمر فكرى فناسبه نفى العلم لا نفى الحس.

فذكر القرآن الكريم قياس بعض أحوال المنافقين فى أنهم يدَّعون الإيمان ويبطنون الكفر، وأن النفاق والإيمان نقيضان لا يجتمعان، والمنافق ليس من شأنه أن يؤمن بشيء، وأنهم يزعمون أنهم هم الصالحون ـ وهم المفسدون الفاسدون ـ وأنهم يحسبون أنهم بشكهم ونفاقهم فى مرتبة عالية، وأن المؤمنين بالنسبة لهم ضعاف الأحلام سفهاء.

بعد ذلك بين سبحانه علاقتهم بالمؤمنين ومعاملتهم، وكيف يمارونهم، ولا يجهرون أمامهم بكفرهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾.

كان أولئك المنافقون يشيعون فى مجالسهم أن المؤمنين سفهاء، وأنهم هم المدركون وحدهم، العارفون بحقيقة العقائد، وأنهم الأعلون؛ لأن فى المؤمنين موالى كصهيب وبلال وخباب وعمار وغيرهم.

ولكنهم كانوا إذا لقوا كبار المؤمنين رفئوهم[١] بأحسن القول كأنهم معهم فى الإيمان، بل يدخلون المسجد، كما يدخلون ليوهموهم بأنهم مؤمنون، يروى فى ذلك أن عبد الله بن أبىّ وهو كبير النفاق والمنافقين خرج وصحبا له فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فقال زعيم النفاق وقد أخذ بيد أبى بكر: مرحبا بالصديق سيد بنى تيم، وشيخ الإسلام وثانى رسول الله ﷺ فى الغار الباذل نفسه وماله لرسول الله ﷺ، ثم أخذ بيد عمر، فقال: مرحبا بسيد بنى عدى الفاروق القوى فى دين الله الباذل نفسه وماله لرسول الله ﷺ، ثم أخذ بيد على، وقال: مرحبا بابن عم رسول الله ﷺ وختنه، سيد بنى هاشم ما خلا رسول الله.

قال هذا القول، ثم افترق وانصرف إلى الذين رأوه من أصحابه وقال لهم: كيف رأيتمونى فعلت؟ فأنكروا عليه، وهم يعلمون أنه لا يحكى بقوله مافى نفسه، فهو معهم، وهو يسخر من المؤمنين، ويستهزئ، وذلك من إمعانه فى كفره، ونفاقه، وحقده وحسده.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لقى معناه قاربه، أو استقبله عن قرب، أو جمعهما مكان، وقرئ ﴿لَقُوا﴾ من لَقِىَ، كما قرأ أبو حنيفة وغيره «لاقوا». والأولى تدل على مجرد لقائهم مع أصحاب رسول الله عفوا، أو من غير إرادة، والثانية على الملاقاة بينهم والتلاقى المقصود، والآية الكريمة بالقراءتين تدل على المعنيين فهم حيثما التقوا بأصحاب رسول الله ﷺ سواء ألقوهم عفوا، أم لاقوهم قصدا واجتمعوا بهم قالوا لهم: آمنا، فهم يسترون كفرهم دائما، ويعلنون إيمانهم دائما

---

(٢) رفأ فلانا: حاباه، ورفّأه: دعا له بالرفاء، والرِّفاء بالكسر: المد الالتئام والاتفاق، من رفأت الثوب أى أصلحته. وقيل: السكون والطمأنينة، ثم استعير للدعاء للمتزوج وإن لم يكن بهذا اللفظ. وقد نهى عن قولهم: بالرفاء والبنين، مع ما فيه من التنفير عن البنات، والتقرير لبغضهن فى قلوب الرجال؛ لكونه من عادات الجاهلية. وكان يقول بدله ونعم البدل: «بارك الله لكما، وبارك عليكما وجمع بينكما فى خير». [الوسيط (ر ف أ) - مرقاة المصابيح ج ٣، ص ٢٦٩].

فى عوج، وقد يحرفون الكلم عن مواضعه ويلوون ألسنتهم بما ظاهره يدل على أنهم آمنوا، وباطنه كفر وطغيان.

هذا قولهم بأفواههم للمؤمنين، يقولون: آمنا. أى: دخلنا فى جماعتكم مؤمنين مصدقين، ولكنهم إذا تركوا المؤمنين وكانوا فى جماعتهم قالوا: إنا معكم.

وعبر الله سبحانه وتعالى عن ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ فكانت كلمة ﴿خَلَوْا﴾ متعدية بإلى، وأصلها بالباء، يقال : خلا به، ولا يقال: خلا إليه، وإنما عدل عن الباء إلى التعديه بإلى للدلالة على معنى الانصراف، إذ كلمة خلا تتضمن ذلك، والمعنى خلوا منصرفين إليهم ، تاركين المؤمنين، أو المعنى خلوا عن المؤمنين بمعنى تركوهم إليهم، فلا مجاز فى التعدى. ومهما يكن التخريج، فإن معنى خلوا بهم لا يراد، لأن معناه الانفراد، والتستر، وهم لا يتسترون فيما بينهم، يقولون جهرا بينهم، وفى أوساطهم، فلم تكن خلوة بهم، ولكن كانت خلوة معهم وإليهم.

والشيطان فَعْلان من شَطَنَ بمعنى بَعُدَ، وشياطين جمع شيطان وسموا شياطين لبعدهم عن الحق، وتجافيهم عنه، وأضيفت شياطين إليهم للدلالة على أنهم جماعتهم، وكلهم شياطين بُعَداَء عن الحق لا يهتدون ولا يستمعون إلى الحق ولا يرومونه، وقد بعدوا عن كل معنى من معانى الحق، والقصد المستقيم.

وإذا انصرفوا إلى شياطينهم، وخلّوا أهل الإيمان ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ وهنا يؤكدون أنهم لم يخرجوا عنهم بذلك الكلام الذى زوروه للمؤمنين ليخدعوهم.

وقد أكدوا أنهم لم يخرجوا من صفوف النفاق إلى صفوف المؤمنين فى قولهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ بـ «إنّ» التى تؤكد الحكم الذى يكون وراءها، وبقولهم: معكم، أى أننا ما خرجنا عنكم بهذا القول، ولكن ما زلنا فى صحبتكم أنتم دون غيركم، فلم نفارقكم بهذا القول ،وإنما هو من بضاعتنا التى نروج بها لأنفسنا.

ولم يؤكدوا للمؤمنين ادعاءهم الإيمان؛ لأنهم قالوا قولا لم يصدر عن قلوبهم، وإن تَلَوَّت به ألسنتهم، ولم يسكن الإيمان قلوبهم، فهو قول باللسان، ولم يذكروا تفصيل الإيمان، فلم يقولوا آمنا بالله ورسوله، والكتاب الذى جاء به وباليوم الآخر، إلى آخر ما يشتمل عليه الإيمان، لأنهم لا يريدون حقيقة الإيمان، ولكن يريدون أن يثيروا قولا يسترون به كفرهم المستكن فى قلوبهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ ليس تكرارا لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ ... ۝٨﴾ [البقرة] لأن الآيات الأولى فى التعريف بالصنف الذى يقابل أهل الإيمان الحقيقى، وأهل الكفر، أما هذه فهى لبيان أحوال تلك الطائفة، وكيف يقولون ما لا يفعلون، ويظهرون ما لا يبطنون، فالأولى حكم عام، والأخيرة بيان لبعض أحوالهم.

وإن أولئك المنافقين عندما يلاقون شياطينهم لا يذكرون المعوية فقط بقولهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ بل يفسرون معنى كلامهم للمؤمنين، وقولهم: آمنا. وكأن سائلا منهم سأل: لماذا قلتم ما قلتم فقالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ الاستهزاء السخرية والتعابث، يقال: هزئ به واستهزأ، أى سخر منه، وتعابث بالقول معه.

وقد أكدوا الحكم بأنهم يستهزئون - بالجملة الاسمية، وبـ «إنَّ» الدالة على التوكيد، وبذكر «نحن» لتأكيد الحكم باستهزائهم، وذُكر بـ «إنما» الدالة على القصر، والمعنى: إننا فى عملنا هذا نستهزئ، فهم يقصرون أنفسهم على الاستهزاء قصرا إضافيا.

وإن الحكم بأنهم مستهزئون يتضمن الحكم بأنهم لا يؤمنون؛ لأن من يؤمن بشىء لا يستهزئ به؛ فهم تجاوزوا حد الكفر إلى أبعد منه، هو الاستهزاء بالمؤمنين والسخرية منهم، وأصل الباب الهَزء، بمعنى الخفة.

ولكن الله تعالى بين أنهم إن يسخروا من المؤمنين فالله تعالى يسخر منهم لخفة عقولهم، وسفه أحلامهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ والمعنى أن الله تعالى ينتصف للمؤمنين فيستهزئ منهم، ويسخر بهم، وينتقم من قولهم يوم القيامة، وليس المراد معنى الاستهزاء، وهو الاستخفاف، فإن ذلك لا يليق بذات الله تعالى، وإنما المراد إنزال الهوان وأن يكونوا موضع السخرية التي يجلبونها لأنفسهم بأفعالهم، فهم موضع تهكم من أهل الحق دائما، فهم جديرون بأن يسخر منهم ومن أفعالهم الساخرون، إذ هم يتملقون الكافرين من المشركين، وهم معهم، ويدهنون بالقول مع المؤمنين، ولا تخفى على أحد حال من أحوالهم، فهم أرادوا ستر كفرهم فكُشف، وأراد إظهار إيمانهم.

وإن الله تعالى يذكر أفعال المشركين، ويوردها بمثل ألفاظها، وإن كانت دلالة الألفاظ عدلا وحقا لغير ما يريد الكافرون. مثل قوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ... (١٩٤)﴾ [البقرة]، فسمى الفعل اعتداء مجاراة لأفعالهم، وليس إلا دفعا وقصاصا، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ... (٤٠)﴾ [الشورى]، وقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤)﴾ [آل عمران]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦)﴾ [الطارق]، وقوله تعالى: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ... (٧٩)﴾ [التوبة] وهكذا. وهنا يسأل سائل: لماذا ذكر الله حالهم بقولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ باسم الفاعل الدال على الدوام، ورد الله تعالى أمرهم بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ بفعل المضارع، والجواب عن ذلك أن المضارع يدل على الدوام مع تجدد الفعل آنا بعد آن، فالاستهزاء متجدد مستمر، لا يبقى على حال، بل يتجدد وقتا بعد وقت، فهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين، وأفعالهم تجدد الاستهزاء، والآيات تنزل بفساد أحوالهم وسقم نفوسهم، والمؤمنون يحذرون،

وكلما ابتغوا الفتنة ردت إليهم وتكاثر شرهم، والبراءة منهم، حتى أن أهل كل بيت فيه منافق استأذنوا النبى ﷺ فى قتله، حتى كانوا موضع السخرية وأحسوا بها فى ذات أنفسهم، حتى برموا من أعمالهم، وإن كانوا قد استمروا فى غيهم.

ولكن لم ينزل بهم عقابهم فى الدنيا، وذلك لحكمة أرادها، ولمصلحة تغياها النبى ﷺ، وهى ألا يقتلهم حتى لا يقال بين الأعراب وغيرهم إن محمدا يقتل أصحابه(١).

﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ المَدُّ هو زيادة المدة فى حياتهم بأن يمهلهم الله ثم يأخذهم أخذ عزيز، كما قال تعالى: ﴿نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ... ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران] والطغيان: الكفر والضلال، وأصله تجاوز الحد، والطغيان هنا الكفر مع الإسراف فيه، والنفاق بلا ريب إسراف فى الكفر.

والزمخشرى يفسرُ «مَدَّ» لا بمعنى زيادة المدة، بل بمعنى زاده، وألحق به ما يقويه ويكثره مثل قوله تعالى: ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾﴾ [مريم]، ولقد قرئ: (ويُمدُّهم) بضم الياء، وهى من المدد لا محالة.

وقول الزمخشرى: فى ذلك حجة ونرجحه على غيره.

والمعنى على ذلك، أنهم مغرورون مخدوعون، يعطيهم الله سبحانه من مدد الغرور فى طغيانهم، وبيان الحق وتركه ما يزيدهم فى حيرتهم واضطرابهم واستمرارهم فى أسباب السخرية منهم؛ ولذلك قال إنهم بهذا المدد ﴿يَعْمَهُونَ﴾، والعَمَهُ مثل العمى، إلا أن العمى يكون فى البصر والرأى، أما العمه فإنه يكون فى الرأى بمعنى الحيرة، فمعنى يعمهون يتحيرون، فهم فى حيرة دائمة مستمرة .. زاد الله المنافقين فى كل العصور عمى، وزادهم عَمَهًا..!

---

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخارى: كتاب المناقب- باب: ما ينهى من دعوة الجاهلية (٣٢٥٧)، ومسلم: كتاب البر والصلة - باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما (٤٦٨٢)، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه.

أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾

المنافقون الذين جاوروا النبى ﷺ فى المدينة، سواء أكانوا من المشركين أم كانوا من اليهود، وقد كانت عدوى الأخلاق بينهم. . أولئك المنافقون كانوا يحضرون مجالس النبى ﷺ، ونور الحق يشع بينهم، فيرون مطالعه، ويدركون مشارفه، فأسباب الهداية بين أيديهم يرونها عيانا، ويسمعونها بيانا، والفطرة تحثهم، وترشدهم، والحق لا تخفى منه خافية، فعندهم العلم أو أسبابه، ولكنهم مع ذلك يتركون النور الهادى إلى الظلام الدامس، يتركون الحق الأبلج، وهو بين أيديهم، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم، يتركون ذلك إلى الضلالة، فهم قد استحبوا العمى على الهدى؛ ولذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ** ﴾ الإشارة هنا إلى المنافقين الذين ذكرت أوصافهم، والإشارة إلى المُعرَّف بالوصف هى إشارة إلى الأوصاف، وقد حملوها، وبذلك تكون الأوصاف هى علة الحكم، وسببه، إنهم بإخفائهم الكفر، وإعلانهم الإيمان، وإفسادهم فى الأرض، وهم يزعمون إصلاحها، وما فيهم من مرض النفاق الذى يعمى ويصم. وظنهم أنهم أهل الكمال، وأن غيرهم أهل السفه والخسران.

إنهم بهذه الأوصاف التى اختاروها، والأحوال التى كانوا عليها مع رؤيتهم النور والهدى، وتركهم إياه كمن يشترى الضلال بثمن هو أعلى الأثمان، وهو الهدى يدفعونه فى سبيل أن ينالوا أقبح ما فى الوجود وهو الضلال، وهل يستوى

الهدى والضلال فى سوق الخير والفضيلة، إنهما لا يستويان. شبه الله تعالى أولئك المنافقين بحال التاجر الذى يطلب الكاسد يقدم فى سبيله الرابح، وهنا يصح أن يكون تخريج الكلام بتشبيه إفرادى، أو استعارة تمثيلية، وعلى الاستعارة الإفرادية يكون تشبيه الضلالة التى يطلبونها بالبضائع المزجاة المردودة الكاسدة، والهدى بالبضاعة الرائجة المطلوبة غير البائرة، وبهذه الاستعارة يكون المعنى أنهم يتركون الطيب المطلوب، ويأخذون بدله الردىء، المردود، فهم الخاسرون لا محالة؛ لأنهم يأخذون شيئا لا خير فيه، وفيه فساد كبير، ويقدمون فى سبيله أمرا كله خير ونور.

وإذا خرَّجنا على أنها استعارة تمثيلية، فيكون المعنى تشبيه حال رجل فى يده هدى ونور وخير وفضل، يتركه ليستبدل به شيئا لا خير فيه، وفيه فساد وضرر، بحال تاجر يترك البضاعة الرائجة المثمرة إلى بضاعة كاسدة لاثمرة فيها.

وقد رشح الله فى بيان كتابه بأن ذكر ما يقوى الاستعارة بذكر أوصاف للمشبَّه، فقال: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ أى أنهم فى هذه المبادلة المعنوية خاسرون، وليسوا كاسبين لأنهم خسروا الخير وأخذوا الشر، وأى كسب فيها؟! ونسب الربح إلى التجارة، وهى محل التصرف، وذلك تعبير بليغ كقولك: نهار صائم وليل قائم، وذلك من قبل المبالغة فى الصوم والمبالغة فى الصلاة، وإنما قوله: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ مبالغة فى نفى الربح وثبوت الخسارة، لمن ترك الهداية وأخذ الضلال.

وقد أكد سبحانه ضلالهم، ونفى الهداية عنهم كنتيجة لهذه المبادلة الخاسرة فقال: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ لأن نفوسهم أركست ذلك الإركاس، وفسدت ذلك الفساد، ماكان من شأنهم أن يهتدوا أبدا، فنفى عنهم الاهتداء نفيا مؤكدا بالجملة الاسمية، وبكلمة كانوا الدالة على الدوام والاستمرار، فليس من شأن من كانت هذه الحال حاله أن يهتدى أبدا، لأن الشر قد استمكن من نفسه وأظلمت واربادَّت بالضلالة حتى إنه لا منفذ لنور يدخلها أبدا.

ولقد ضرب سبحانه مثلا آخر لضلالهم، وقد بدت لهم معالم الهداية، وبزغ بين أيديهم نورها، فقال تعالت كلماته: ﴿**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ**﴾.

المثل: الحال الشبيهة والشأن، واستوقد النار، أوقدها بعد علاج وطلب للوقود، فاستوقد معناها أَوْقَدَ، والفرق بينهما أن الأول يكون بطلب وجهد؛ لأن السين والتاء للطلب، وهى تفيد المعالجة فى الإقادة، فلا يصل الإقادة إلا بجهد ومشقة، وضرب الأمثال فى القرآن كثير، بعقد المشابهة بين الأحوال الواقعة، وما يماثلها فى الحياة، لتقريب المعانى العالية التى اشتملت عليها كثير من آيات القرآن، لتقريب المعانى المجردة للناس بعقد المشابهة بينها وبين أمر محسوس.

والمعنى السامى فى الآية أن حال المنافقين فى أنهم فى وسط المؤمنين يناكحونهم، ويتوارثونهم، ويعاملونهم، ويوادونهم، ويدلون بالجوار بينهم وبينهم، ومعرفتهم للإيمان وأهله وذوقهم محبة بعض المؤمنين، وهذه الأحوال التى تكنفهم، ومن شأنها أن يعلموا بها الحق، وقد ربطتهم مودة الجار، كل هذا، حالهم فيه، كحال من يستوقد النار ويناله ضوؤها، وتخرج عليه بنورها، حتى إذا انتفع وأدرك الحياة وعلم مغزاها ومعناها، إذا كان كذلك خمدت النار بريح أو نحوها، فبعد الضوء اللامع، فذهب الله بنورهم فهم فى ظلمات بعد ذهاب الضوء لا يبصرون.

ويصح أن يكون هنا تشبيه إفرادى، وتشبيه تمثيلى.

أما **الإفرادى**، فهو تشبيه الحال التى هم فيها من معاشرة أهل الإيمان ومخالطتهم، ومجاورتهم، وبذل المؤمنين المودة لهم من أهل وأقارب، وإقادة النار المضيئة التى ينتفع بضوئها، ثم تخمد فيذهب الضوء، وشبهت حال النفاق التى آل إليها أمرها، بالظلمات المتضافرة المتكاثفة؛ لأن النفاق ضلال متكاثف كلما أوغلوا فيه ازدادوا ضلالا، وأبعدوا فيه، حتى لا مرجع إلى النور من بعد، وشبه ما يحدثه

النفاق فى النفس من حيث إنه يسد الإدراك ، فيصبح العقل لا يدرك والنفس لا تتكشف، بحال من لا يبصرون ﴿ **فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴿٤٦﴾ ﴾ [**الحج**] هذا تشبيه إفرادى، إنه استعارة فى أجزاء القول، لا فى جملته.

والاستعارة التمثيلية فى جملة القول أنه شبه حال المنافقين فى أن أسباب النور بين أيديهم، وتحيط بهم، ولكنهم لا ينتفعون بها - بحال قوم أو فوج من الناس استوقدوا نارا، وعالجوها حتى أضاءت فلما أضاءت، ما حولهم لم ينتفعوا بها فخمدت، فذهب الله تعالى بنورهم فهم فى ظلمات متكاثفة بنفاقهم لا يبصرون.

وفى النص عبارات بلاغية يجب الإشارة إليها:

أولها - أنهم جماعة، والمفروض أنهم استوقدوا النار جميعا، أو بتعاونهم، ولكنه عبر بالمفرد، فقال تعالت كلماته: ﴿**كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا**﴾ فعبر بالمفرد، قالوا إنه مفرد أريد به الجمع، وعبر بالمفرد لثلاثة وجوه:

(أ) أن الموصول العبرة فيه بالصلة لا بلفظه ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا** ... ﴿٦٩﴾ ﴾ [**التوبة**].

(ب) وأن الحقيقة أن الذى استوقد هو بعضهم أو فوج منهم، وإن كانت الإضاءة للجميع، والنفع بالضوء للجميع لا للذى استضاء وحده؛ ولذلك كان التعبير بالجمع فى حال الانتفاع، إذ قال فلما أضاء لهم، وبعضهم قد استوقد النار والجميع يستفيد من النور، إذ هو يشيع ويعم، ولا يخص من استقاد النار.

(جـ) أن المشبه به فى الآية ليس هو الذى استوقد، إنما المشبه به هو الحال التى كان فيها الاستيقاد أولا ثم خمود النيران، وسيرهم فى ضلال، فعبر بالذى كما فى قوله تعالى: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ**

أَسْفَارًا ... ﴿٥﴾ [الجمعة] وكقوله تعالى: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ... ﴿٢٠﴾﴾ [محمد] فهو تشبيه حال بحال فى كل هذه الأمثلة.

وثانى ما يجب الإشارة إليه أن ناراً مصدر لنَارَ، وهى مرادفة؛ ولذا يقال فى التصغير نويرة، ومنها يؤخذ النور ويجمع على أنوار.

والإضاءة النور الشديد - كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا... ﴿٥﴾﴾ [يونس] والمعنى أنهم صاروا فى نور شديد موضح ثم خمد وأخمدوه هم فى أنفسهم، فلم ينتفعوا به، فأشع النور ولم يتمكنوا من الانتفاع به.

وثالث ما يجب الإشارة إليه هو جواب «لَمَّا» فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ فقد كان فى هذا الجواب نظران أحدهما: أن الجواب هو قوله: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ وذلك كلام صالح للجواب، والثانى: أن الجواب محذوف دل عليه ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ والمعنى، أن الجواب خمدت النار أو انطفأت وذهبت الإضاءة.

وقوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ معناها أذهب الله تعالى نورهم الذى كانوا يسيرون فيه، ويمكن أن ينتفعوا به؛ ولذا أضيف النور الذى أذهبه إليهم، إذ هم الذين خصص ابتداء لهم.

وعبر سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ لأن الباء للملابسة، ومعناه اهنا ذهب الله تعالى عنهم آخذا نورهم الذى أوقدوا ناره، وقد ذكر الزمخشرى الفرق بين أذهبه وذهب به فقال: «والفرق بين أذهبه، وذهب به أن معنى أذهبه أزاله أى جعله ذاهبا، ويقال: ذهب به إذا استصحبه ومضى معه، وذهب السلطان بماله أخذه فذهب به. والمعنى أخذ الله نورهم فأمسكه، وما يمسكه الله تعالى فلا مرسل له.

ومضمون هذا الكلام أن النور الذى أضاء لهم لا يذهبه الله تعالى، ولا يُضَيِّعُهُ، بل يحفظه ويمسكه ليهتدى به غيرهم، وهنا ملاحظة لاحظها الزمخشرى، وهى التعبير عن نورهم بالإضاءة، وهى النور الشديد، وذلك بأنها إضاءة شديدة

تعقبها ظلمة شديدة كقولهم: «للباطل صولة ثم يضمحل، ولريح الضلالة عصفة، ثم تخفت» فهى إضاءة شديدة لهم، ثم ذهب الله بنورها لينتفع غيرهم، أما هم فلا ينتفعون ولا يهتدون.

وإذا كان الله تعالى قد أخذ النور وذهب به ممسكا له غير مرسل إلا لمن يهتدى فقد تركهم بعد ذلك فى ظلمات لا يبصرون. وعبر بالجمع، فقال ظلمات للإشارة إلى تكاثف الظلمات فى النفاق، فإن المنافق فى حال كذب مستمر، إذ إنه دائما يظهر غير ما يبطن، وذلك كذب، فحال المنافق كذب مستمر، وهم يدهنون فى القول، وهم يمالئون الظلم، ولا ينتصرون للحق ، ودأبهم الإفساد فى الأرض والسعى بنميم بين الناس، وإرادة الأذى المستمر، وكراهيتهم للناس؛ ولذلك لما ذهب عنهم نور الحق ، تركهم الله تعالى فى ظلمات متكاثفة لا يبصرون حقا، ولا يدركونه، ونفى الله تعالى عنهم الإبصار بالفعل المضارع، لتجدد العمى عليهم، وعدم الإبصار بتكرار أفعالهم المظلمة الدائمة.

وعدم الإبصار هو عدم الإدراك، فلهم آذان لا يسمعون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل.

وأنه قد سدت كل مدارك إدراك الخير، قد اشتروا الضلالة بالهدى، وأنهم إن استوقدوا بسبب استغراق الفساد لنفوسهم تنطفئ نار الحق فيهم، ويصطحب النور، ويستمسك به لغيرٍ، فَسُدت عليهم أبواب الحق لا يسمعون إذا دعاهم، ولا تنطق به ألسنتهم إذا خوطبوا ولا يرون طريق الهدى، فيبصروه؛ ولذا وصفهم الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾.

وإذا كانت لهم آذان فهم لا يسمعون بها، وإذا كانت لهم أعين فهم لا يبصرون بها، وإذا كانت لهم ألسنة فهم لا ينطقون بها فى حق قط .

وكانت هذه الآية الكـريمة تشبـيها لحـالهم التى آلوا إليهـا فليست استـعارة، ولكنها تشبيــه صريح، إذ إن قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ﴾ خبر لمبتـدأ محذوف تقديره: «هم» أو: المنافقون، فهم كالصم لأنهم إذا استمعوا القول لا يتبعون أحسنه ويقولون سمعنا بل ينغضــون رءوسهم علوا واستكبارا ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [النمل]، وإذا بصرتهم بالدلائل الواضحة، والبينات الناصعة، لا يسـتبصرون فلهم قلوب لا يفقـهون بها، ولا ينطقون بحق اسـتنطقتهم به، فهم كالبكم الذين لا ينطقون، وهم لا يبصرون وإن كانت لهم أعين.

وخـتم الله تعـالى وصف حـالهم بأنهم لا يرجـعون، أى لا يرجـعـون إلى الهداية، بعد أن ساروا فى الغواية، أى هم وقوفٌ عند الشر الذى وصلوا؛ لأنه ليس وراءه شر، بل هو الضـلال البعيـد، وقد وصلوا إلى نهايتـه، فماذا بعـد النفاق من ضلال، ولقـد قال الزمخـشرى: إن وقوفـهم فى الحيرة هو الذى حكـم عليهم بأنه يتركهم فى طغيانهم يعمهون أى يتحيرون.

أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ
ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ
ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ
قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

يضرب الله تعالى الأمثـال ليقرب المعانى السامية إلى العـقول المدركة، ويكثر في كتابه الحكيم من الأمثال لتكون المعانى العاليـة التى تخفى على الأفهام - معروفة

مألوفة لديهم؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت].

وقد ضرب الله سبحانه مثلا للمنافقين بمن استوقد نارا، ولكن لم يستفيدوا، وذلك لأنهم فى وسط علم النبوة، والإشراق المحمدى، والجوار لأهل الحق. ولكن استمروا فى ظلمتهم.

وقد ضرب الله تعالى مثلا آخر، يبين فيه سبحانه ما نزل لهم من نور، وما قرعهم الله تعالى به من قوارع، وما أصاب نفوسهم من نوازل، كان من شأنها أن تجذبهم إلى الإيمان، فلم يتجهوا إليه، ولم يخلعوا أنفسهم مما هم فيه من انحراف عن الحق، ومقام عن إدراكه.

لقد نصر الله تعالى المؤمنين، ونصرهم كان كالصواعق والرعد، وفيهم الهدى، فضرب مثلا بهذه الحال، فقال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ..﴾ الآية. أو هنا عاطفة على قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ... ﴿١٧﴾﴾ أى أن مثلهم كمستوقد النار، أو مثلهم كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق، ويقول الزمخشرى: إن «أو» أصلها للشك، ثم صارت بالمجاز دالة على التسوية، كقوله تعالى: ﴿وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإنسان] أى أن الإثم والكفر سواء فى أن طاعة أهلهما حرام تجر إلى الوبال وسوء العقبى والمآل، والتسوية هنا بين المثل فى أن كليهما فيه عبرة واعتبار، وتصوير لحال المنافقين، فالأول يصورهم، ونور الحق بجوارهم، وهم يعيشون فيه بأجسامهم، وإن جافته قلوبهم، والثانى يصورهم، وماء الحياة ينزل عليهم مدرارا من السماء، ومن شأنه أن يحيى موات الأرض والنفوس، ولكنه لهم ظلمات، وفيه رعد مزعج وبرق يبرق ويبين، وصواعق تنزل قارعة للأجسام، عسى أن تقرع النفوس فتحولها من الضلال

إلى الهدى، فهما مثلان متلاقيان غير متباينين، كل واحد منهما يصور جانبا من جوانب المنافقين، الأول يصور الحق كنور رأوه، ولم يهتدوا به، والثانى كماء الحياة ينزل عليهم وسط نذر وإرعاد وإبراق، فلم يرتدعوا به، فهم لم يهتدوا بنور هاد، ولم تردعهم النذر والآيات.

والصيب هو الماء ينزل، وهو وزن فَيْعِل من صاب يصوب بمعنى نزل، فأصلها صَيْوِب اجتمعت الياء والواو، وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء كـ «سيِّد» و«ميِّت»، وغير ذلك مما يشابهها من كلمات فى التصريف، واللفظ فى القرآن له فصاحة وبلاغة قائمة بذاتها، فصيب تدل على ماء نازل بقوة تقرع الرءوس قرعا، وينبههم على الماء الذى جعل الله تعالى منه حياة كل شىء.

والسماء ما أظلك، ولماذا أسند إلى السماء، والمطر ينزل منها دائما؟ ونقول إن ذكر السماء يدل على أمرين، أحدهما ـ أنه نازل من السماء، وليس من العيون والينابيع، فإن ماءها لا ينزل، ولكن يخرج سلسبيلا، وثانيهما - للإشارة إلى أنه يجىء من علٍ، فينصب انصبابا.

ووصف سبحانه الماء، وهو يمطر وابلا بأن فيه ظلمات، وهى جمع ظلمة، وقد تكاثفت هذه الظلمات فاجتمع فيها ظلمة الدُّجُنَّة[1] الحالكة، وظلمة السحب الداكنة، وظلمة الليل الدامس، وظلمة الانهمار الذى ينصب على الرءوس انصبابا، وفيه رعد وبرق، وفيه صواعق تصك آذانهم صكا شديدا، وتفزعهم، حتى إنهم يجعلون أصابعهم فى آذانهم حذر الموت، خوفا من أن يموتوا.

وهذا تصوير للنذر التى كانت تأتيهم مع ماء الحياة الذى يحييهم عساهم أن يهتدوا بالنذر إذ لم يهتدوا بالحق فى ذاته، وقد كان نورا قد أشرق.

---

(١) الدُجُنَّةُ من الغيم: المُطَبِّقُ تطبيقًا، الريّانُ المظلِم، الذى ليس فيه مطر؛ يقال يومُ دَجْنٍ، ويوم دُجُنَّةٍ، وكذلك الليلة على الوجهين، بالوصف والإضافة. (الصحاح - باب النون فصل الدال).

والرعد على ما هو مقرر الآن مظهر من مظاهر الكهرباء التى أودعها الله تعالى فى الأجسام، فبعض السحاب يحتوى على كهرباء تسمى موجبة، وأخرى تحتوى على كهرباء تسمى فى اصطلاحهم سالبة، وإذا اصطدم السحاب الموجب بالسحاب السالب حدث صوت شديد هو الرعد، وصحب الاصطدام نور هو البرق، وقد تنزل نار محرقة من جراء ذلك هى الصواعق، فالمطر الصيب يكون فيه ظلمات ورعد وبرق وصواعق، وقد ذكر القرآن الكريم ذلك فى هذا المثل، ونرجع رجعة نتعرف فيها تفسير علماء الأثر للرعد والبرق والصواعق، وسنجد من بينهم من يقارب تفسيره لما تقرر فى هذا العصر، ومن باعده.

فممن باعده ما رواه الترمذى عن ابن عباس أنه قال، سألَتْ اليهود النبى ﷺ عن الرعد فقال: «ملك من الملائكة بيده مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله»، فقالوا: فما هذا الصوت الذى نسمع؟ قال: «زجره السحاب إذا زجره، حتى ينتهى إلى حيث أُمِر»، قالوا: صدقت[1]. وفسر ابن عباس - فى رواية لا ندرى مقدار صحتها - البرق بأنه سوط من نور بيد الملك يزجر به السحاب.

ولقد جاء فى تفسير القرطبى: قالت الفلاسفة الرعد صوت اصطكاك أجرام السحاب، والبرق مما ينقدح، من اصطكاكها. ولا شك أن تفسير الفلاسفة قريب مما قرره العلماء فى عصرنا من أنه احتكاك سحابة سالبة بأخرى موجبة، يتولد عنه صوت هو الرعد، ونور هو البرق.

وإن الزمخشرى رضى الله عنه فسر الرعد والبرق بمثل ما فسر الفلاسفة، فقال: والرعد الصوت الذى يسمع من السحاب كأن أجرام السحاب تضطرب، وتنتفض إذا حدتها الريح فتصوت عند ذلك من الارتعاد ، والبرق الذى يلمع من السحاب، ولا شك أن ذلك قريب مما يقرره الفلاسفة، وإن لم يكن هو.

---

(١) رواه بهذا اللفظ - عن ابن عباس - الترمذى: كتاب تفسير القرآن - باب ومن سورة الرعد (٣٠٤٢).

وهنا يجب أن نتكلم فى الرواية التى تقرر أن ملكا هو الذى يكوِّن الرعد والبرق، فالخبر لم تروه الصحاح، ولم يروه إلا الترمذى، ومن المقرر أن الأخبار إذا خالفت العلم الضرورى القاطع أوِّلت، أو كان ذلك دليلا على ضعفها لضعف متنها، فقد قال الغزالى: إذا خالفت النصوص ما قرره علماء الكون والطبيعة على أنه حقيقة مقررة تؤول النصوص إذا خالفتها، وإذا كانت حديث آحاد ردت نسبته إلى النبى ﷺ.

وعلى ذلك فنحن نفسر القرآن الكريم فى قضية الرعد والبرق والصواعق بما تقرر فى العلم، ولا نحسب أن حديثا ثابت السند، ولو حديث آحاد خالف ذلك.

وقد صور الله سبحانه وتعالى قوة الصواعق فى قرعها الشديد للآذان بقوله: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾.

وإن الإنسان عندما يقرع أذنه قارع شديد، لا يضع أصابعه كلها فى أذنه، بل يضع فقط طرف أصبعه السبابة فلا يجعل فى أذنه جملة أصابعه؛ ولذلك كان فى الكلام مجاز لاستحالة الحقيقة، ويعدون ذلك من المجاز المرسل بإطلاق اسم الكل وإرادة الجزء، وإن إطلاق اسم الكل وإرادة الجزء كثير فى الاستعمال العربى، وفى القرآن الذى هو أبلغ الكلام، فقد قال تعالى: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ... ﴿٦﴾﴾ [المائدة]، ولا يراد الأيدى كلها، بل يراد بعضها، وقال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ ... ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة] ولا تقطع اليد كلها فى حد السرقة.

ويقرر الغزالى أن أصبع السبابة هى التى تسد الأذن بطرفها، ثم يقول: فإن قلت: إن الأصبع التى تسد بها الأذن أصبع خاصة فَلِمَ ذكر الاسم العام دون الخاص، قلت: لأن السبابة فعالة من السب، فكان اجتنابها أولى بآداب القرآن، ألا ترى أنهم قد استسبحوا بها فكنوا عنها بالمسبحة.

وفى الحلية[1]: إن ذكر الأصابع مع إرادة بعضها فيه بيان عظم الهول فى نفوسهم واشتداده على حواسهم حتى أصابتهم رعدة الخوف، وظنوا الظنون من هول مايرون، وقوله تعالى: ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ أى خوفا من الموت، فهى مفعول لأجله، والصواعق جمع صاعقة، وهى ما ينزل من السماء من نار، فى الرعد والبرق.

وهنا يسأل سائل: هل جعل الأصابع أو أطراف بعضها فى الآذان يمنع الموت عنهم، فيحذرونه بوضع الأصابع، والجواب عن ذلك، أن التعليل ليس لمجرد وضع الأصابع، بل هو تعليل للحال التى هم عليها، والتى كان وضع الأصابع فى الآذان أثرا من آثارها، أو مظهرا من مظاهرها. فهى ذعر دائم من ظلمات متكاثفة من سحاب داكن، وليل معتم، وأمطار منهمرة، ورعد وبرق وسحاب، حتى توهموا أن وضع الأصابع فى الأذن فلا يسمعوا صوت الصواعق والرعد - قد يدفع الموت. فهم يفعلونه حذر الموت.

وقد بيَّن سبحانه من بعد ذلك أن الله تعالى محيط بهم، والإحاطة معناها هنا السلطان والاستيلاء والقوة، فيقال أحاط به السلطان أى أخذه، ولم ينج منه، وهى مجاز يراد به ألا يفوتوه، وقد تطلق الإحاطة ويراد بها الهلاك، كما قال تعالى: ﴿إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ... (٦٦)﴾ [يوسف] أى تهلكوا فمعنى ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أى هم فى قبضته، إن أراد أهلكهم، كما قال تعالى: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ... (٦٧)﴾ [الزمر].

والمعنى على ذلك: إنهم يحذرون الموت، ولا حذر منه، ولا ينجيهم الحذر، فإن الله تعالى محيط بهم، لا يفلتون، وذكر الكافرين هنا لأنهم كافرون أمقت النفاق، فذكر وصف الكافرين إرهاب لهم أشد إرهاب، وأنه جزاء ما يفعلون فى الدنيا، ويستقبلون فى الآخرة عذابا أليما عظيما.

---

(١) حلية الأولياء لأبى نُعيم.

وصور سبحانه وتعالى قوة البرق وأثرها فى نفوسهم بقوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ والخطف معناه الأخذ السريع؛ ولذلك يطلق على الطائر إنه الخطاف لسرعة أخذه، وخَطِفَ من باب فرح، وهى اللغة الفصيحة السائغة فى لغة العرب، وهناك لغة تجعلها من باب ضرب، فيقال خَطَفَ يخطِفُ، وقد قرئ بها فهما قراءتان، وقالها الأخفش، فرُوى أن الأخفش قال: خَطَفَ يَخْطِفُ، ولكن قال الجوهرى: وهى قليلة رديئة لا تكاد تعرف.

وعندى أنه إذا كانت هناك قراءة بكسر الطاء لا يليق أن تذكر بأنها رديئة، وقد روى أنه قرأ بها على زين العابدين، ويحيى بن وثاب، وقرأ بها يونس، والأولى أن يقال إنهما لغتان فى حركة الطاء. هذا والآية الكريمة تصور شدة البرق من حيث إنه يكاد يخطف الأبصار ويذهبها لشدته، كما فى قوله: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾﴾ [النور]، أى يكاد البرق يأخذ أبصارهم سريعا، فلا يبصرون ، وكانت السرعة فى أخذه، لأنه ومضات تجىء سريعة وتختفى سريعا، ولا تبقى طويلا.

﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ أى كلما كان البرق كان الضوء المنير، فعندئذ يمشون فيه مطمئنين غير مسرعين؛ لأن المشى إذا اشتد كان سعيا، وإذا اشتد السعى كان عدْوًا، فكلما أضاء ساروا فيه سير اطمئنان، وإذا أظلم أى إذا انطفأ فأظلم الجو، وصار ظلاما - قاموا - أى وقفوا ساكنين سكون الحيارى راكدين، فهو قيام الحائر الراكد الذى لا يدرى ما الله فاعل، وعبر فى الإضاءة بكلما لأنها مكررة بتكرر البرق، ولأنها حركة تغدو وتروح، فإذا جاء البرق وذهب توقعوا عودته، أما الإظلام فلا يطلبونه، وهو حال سلبية لا تجدد فيها، لا يطلبون، وقاموا تتضمن السكون والبقاء على ما هم عليه متحيرين مضطربين.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ﴾ لو شاء سبحانه وتعالى أن يذهب بسمعهم بالرعد والصواعق أو ببصرهم بالبرق الخاطف لذهب بها، أى لأخذها كما أعطاها، فقوله تعالى: ﴿لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ معناه لاستردها، وأعادهم صما وعميا،

كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل].

ثم ذَيَّلَ سبحانه وتعالى الآيات الكريمات بكمال قدرته، فقال تعالت كلماته: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وذلك التذييل لتأكيد قدرة الله تعالى على إذهاب سمعهم وأبصارهم، وكل قواهم، وقد أكد سبحانه قدرته القاهرة فوق عباده بعدة مؤكدات: بالجملة الاسمية أولا، وبـ «إنَّ» ثانيا، وبذكر لفظ الجلالة الذى يدل على أنه مالك الوجود، ومالك كل موجود، وعموم قدرته على الأشياء كلها ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى].

وهذه الأخبار كلها - من نزول الصيِّب المنهمر انهمارا، والظلمات المتكاثفة والرعد والبرق، وكون الأبصار يكاد سبحانه وتعالى يخطفها، أهى مجاز لأمور معنوية؟، أم هى حقائق وليست مجازا؟ ونقول إن هناك استعارة تمثيلية فى جملة القول، ولا مانع أن تكون فى كل جملة مجازا، ويتكون من هذه المجازات الصورة التمثيلية الكبرى.

ويميل إلى ذلك أكثر المفسرين، يقول الفراء فى قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ﴾: أنهم كانوا كلما سمعوا القرآن، وظهرت لهم الحجج أنسوا ومشوا معه، فإذا نزِّل من القرآن ما يَعْمَون فيه، ويضلون به، أو يُكَلَّفُونه قاموا أى ثبتوا على نفاقهم.

وروى عن ابن عباس «المعنى أنه كلما صلحت أحوالهم فى زروعهم ومواشيهم، وتوالت عليهم النعم قالوا دين محمد دين مبارك».

وكذلك يفسر الصيب بالقرآن حياة الأرواح، والظلمات والرعد والبرق بما يكرهون به أنفسهم مما يحسبونه شرا عليهم من نصر للمؤمنين، وتمكين للإيمان، وهكذا.

وإن الحق هو أن المثل كله استعارة تمثيلية، أو تشبيه تمثيلى، فقد شبهت حالهم من أن القرآن ينزل فى المؤمنين وهم جيرانهم ومعاشروهم، وفيه ماء الحياة الذى

يحيى القلوب ويغذيهم. وأنالهم العبر والمثّلات من تأييد الله تعالى، ونصره الدائم المستمر للمؤمنين، والخذلان الدائم لهم، وما يقرعهم من آيات بينات، وما يجيء إليهم من بلايا بسبب الخزايا التى تنزل بهم كالرعد الذى يقرع الأسماع والبينات تجيء إليهم نورا يسيرون فيه، ثم تظلم قلوبهم وينطفئ نور الحق بينهم.

شبهت حالهم والعلم البين بين أيديهم بحال قوم نزل عليهم غيث منهمر فيه ظلمات ورعد وبرق وصواعق، ومع ذلك لم ينتفعوا ولم يهتدوا.

فالكلام الكريم، فيه تشبيه حال بحال، وما فيه من مثل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ إنما هو من ترشيح الاستعارة، والترشيح هو ذكر الأوصاف المختصة بالمشبه به، كما إذا قلت عن شجاع: إنه ليث، ثم قلت: له لبد، أظفاره لم تقلم، فإن ذلك تقوية للاستعارة بذكر أوصاف خاصة بالمشبه به. والله أعلم.

العبادة والقدرة والكتاب

ذكر الله تعالى فى أول السورة مكانة الكتاب، وأوصاف المتقين ثم أوصاف الذين كفروا، ثم ذكر أوصاف المنافقين، لأنهم شر هذا الوجود الإنسانى، وداؤه، ويكمن فيهم سبب فساده.

بعد ذلك ذكر الله واجب العبادة، ومقام كتابه، فقال تعالى:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

هذه الآيات الكريمات تدعو إلى عبادة الله تعالى وحده، وتذكر أنه خالق من فى الوجود، وأنه ربه الذى يَرُبّه وأنعم عليه بالنعم، وهذا يبين أن الكافرين والمنافقين على باطل، وأن أهل الحق وحدهم هم الذين يسلكون الصراط المستقيم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ قال بعض العلماء: إن الخطاب بـ «يا أيها الناس» يكون لأهل مكة، وخطاب «يا أيها الذين آمنوا» يكون للمؤمنين بعد الهجرة، ونرى أن هذا التخصيص ليس محكما دقيقا، فهذه سورة البقرة مدنية، وأهل الإيمان قد قاموا واستقروا، وأهل الشرك لايزالون قائمين بمكة.

وفوق ذلك جاء الخطاب بـ «يا أيها الناس» فى سورة النساء، وهى مدنية فقد قال تعالى فيها: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا** ﴿١٧٠﴾﴾ [النساء]؛ ولذلك نرى أن ذلك الاستقراء غير كامل، والأقرب أن نقول إنه إذا كان بـ «يا أيها الناس» فإنه يعم المؤمنين والكافرين؛ لأنه يكون متضمنا خطابا للكافة، ويكون المطلوب فيه إجابة الدعوة المحمدية بالتوحيد، مع ذكر البرهان العام الدال على التوحيد وصدق الرسول ﷺ. أما النداء بـ «يا أيها الذين آمنوا» فإنه يكون متجها إلى بيان الأحكام التكليفية: نهيا أو طلبا، أو إباحة بنص شرعى، وسواء أكان التكليف يتعلق بالأسرة أم بالعلاقات الدولية، أم كان بالتحريض على الجهاد.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ قالوا إن النداء بـ «يا» يكون للبعيد، والنداء بـ «أى» يكون للقريب، وهنا النداء بـ «يا» و«أى» معا، ثم يزاد عليها ها التى تفيد التنبيه، وينادى للبعيد حسًّا بـ «يا»، وللبعيد معنويا بها أيضا،، والنداء من الله تعالى لعبيده نداء من أعلى من فى الوجود إلى خلقه؛ ولذا كان النداء بأداتى نداء، وهما «يا» و«أى»، ويضاف إليهما، فهو منه عز وجل إلى الخلق جدير بأن يكون بأعلى الصيغ، لبعد ما بين الكون وخالقه فى المنزلة، وفوق أن هذا النداء من الخالق، وهذا يقتضى أعلى

العلو وأبعده، وموضوع النداء له جلال وخطر، وعظيم شأن؛ لأنه العبادة أو الشرائع. ويقول الزمخشرى فى ذلك إجابة على سؤال وهو: لماذا كثر النداء فى القرآن بـ «يا أيها»؟ فقال: لاستقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة؛ لأن كل ما نادى الله تعالى به عباده من أوامره ونواهيه، وعظاته وزواجره، ووعده ووعيده، واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم، وغير ذلك مما أنطق به كتابه أن ينادوا بالآكد الأبلغ.

كان المنادى الناس، مؤمنين وغير مؤمنين، فهو سبحانه وتعالى ينادى الإنسانية كلها لا فرق بين كافر ومؤمن، وأبيض وأسود، وعربى وأعجمى، والذى يناديهم به أن يعبدوه وحده لا إله غيره. وطلب العبادة من المؤمنين وغير المؤمنين، وتحقيقها فى كل منهما بما يناسبه، فالكافرون الذين يعبدون مع الله تعالى الأنداد، ويتخذونهم شركاء لله - تعالى عن الشبيه والمثل - تكون عبادتهم بخلع عبادة الأوثان، والإيمان بواحد أحد فرد صمد، ليس بوالد ولا ولد، وتصديق الرسول ﷺ فى كل ما جاء به وطاعته سبحانه فيما أمر به ونهى عنه، وبالخضوع الكامل له وحده سبحانه.

وبالنسبة للمؤمنين الذين آمنوا بالله ورسله، وصدقوا محمدا ﷺ فيما جاء به من عند ربه العلى الأعلى، فإن ذلك يكون بزيادة الإيمان، والإذعان، والاستمرار على الإيمان والبقاء عليه مستوثقين، كلما جاءتهم آية زادتهم إيمانا لا يرتابون، ويجتمعون ويكونون قوة فى هذه الأرض، وإن الازدياد من العبادة عبادة فى ذاته، وكأنها منشأة بعد أن لم تكن.

والعبادة الخضوع المطلق لله سبحانه وتعالى وحده بحيث يكون القلب كله لله تعالى، لايحب إلا لله ولا يكره إلا لله، والعبادات تعم الصلوات، والزكوات، والصوم والحج، وغير ذلك مما يكلفه العباد، حتى الأعمال التى تكون بها الحياة، كلها تكون عبادة إذا قصد بالخير فيها وجه الله تعالى، ونفع عباده، فالصانع فى

مصنعه والزارع فى مزرعته إذا قصد بعمله نفع الناس ووجه الله تعالى، فهو فى عبادة، فالعبادة تعم كل أفعال الإنسان، واختصت من بينها الفرائض، لأنها لا يمكن أن تكون إلا لله تعالى، وهو عليم بذات الصدور.

وقد وصف الله - سبحانه وتعالى - ذاته العلية بصفات تدعو إلى العبادة، من له قلب يخشع، وعقل يخضع، فوصفه أولا بأنه الرب الأوحد، فقال ﴿**رَبَّكُمُ**﴾ أى رباكم ونماكم، أو وربكم: تولاكم، وكلأكم بالليل والنهار، ويتبع حياتكم، فيرعاكم حق الرعاية فى كل أجزاء جسمكم، ونفوسكم وعقولكم، ولا تخفى عليه خافية من أموركم، وهو بهذه الربوبية يستحق أن تعبدوه وحده، لا شريك له؛ لأنه لا أحد سواه يربكم.

ووصفه ثانيا بأنه ﴿**الَّذِي خَلَقَكُمْ**﴾ والخلق معناه الإنشاء والإبداع والتقدير والتصوير، صوركم، فأحسن صوركم، والعرب كانوا يعرفون الله تعالى، وأنه وحده الذى خلقهم، كما حكى الله تعالى عنهم: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ...** ﴿٢٥﴾﴾ [**لقمان**] وكانوا يقولون: ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ...** ﴿٣﴾﴾ [**الزمر**].

فهم يؤمنون بوحدة الخالق المنشئ المكون، ويؤمنون بوحدة الذات والصفات، وإشراكهم كان إشراك العبودية، فهم يعبدون مع الله غيره آلهة أخرى، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

ووصفه ثالثا بأنه خلق الذين من قبلهم، وقد يسأل سائل: لماذا كان هذا الوصف، والسابق يتضمنه، فمن خلق جيلا فإنه يخلق الأجيال كلها: من مضى، ومن حضر، ومن يجىء بعد ذلك من الأخلاف؟

والجواب على ذلك أنه لا يغنى المتضمن عن الصريح، وذكر الجيل السابق، أو الأجيال السالفة للإشارة أولا إلى عموم قدرته، وإلى أنه قادر على الإحياء والإماتة

فهو خلق السابقين، وأماتهم ثانيا، وللإشارة إلى أن الحاضرين ليسوا مخلدين، فهم سيموتون، كما مات من سبقوهم وسيبعثون جميعا يوم الدين، ولأن العرب كانوا يعتزون بأسلافهم فالله سبحانه وتعالى يبين أنه هو وحده الذى خلق أسلافهم، سواء كانوا ضالين أم كانوا مهتدين. وإن صفة الربوبية وصفة الخلق والتكوين للكون كله، ولمن حضر من الناس، ومن سبقوهم وقبروا فى مقابرهم، تقتضى ألا يعبد سواه، ولا يحمد غيره، ولا يستحق الألوهية الحق غيره، فهو الله الواحد الأحد.

وقوله تعالى: ﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ متصل بقوله تعالى: ﴿**اعْبُدُوا رَبَّكُمُ**﴾ أى اعبدوه رجاء أن تتقوا بأن تقوا أنفسكم شر عذابه، وتكونوا فى أمن من عقابه، و«لعل» الدالة على الرجاء، الرجاء فيها من العباد، والمعنى اعبدوا فالعبادة طريق التقوى ومعها رجاؤها، وتحقيقها، ويقولون إن التقوى أقصى درجات العبادة، لأن تغليب الخوف عبادة، ورجاء النجاة عبادة.

وقد يقال إن قوله تعالى: ﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ متصلة بقوله تعالى: ﴿**خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ**﴾ ومثل قوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴿٥٦﴾﴾ [**الذاريات**] والمعنى أن الله تعالى خلق الناس فى ماضيهم وحاضرهم وقابلهم رجاء أن يعبدوه أبلغ العبادة بالتقوى وامتلاء النفس بهيبته، والاعتزاز بعزته.

وإن الله تعالى عالم بكل شيء فليس يجوز عليه الرجاء؛ لأنه يحتمل الوقوع وعدم الوقوع، والرجاء لا يجوز أن يكون من أحوال الله تعالى، بل هو من أحوال الخلق.

ولذلك قرروا أن (لعل) هنا مجازية أى أنها ذكرت على سبيل المجاز، أى أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق، وجعل لهم سمعا وأبصارا وأفئدة وقدرة وقوة بها يختارون ويفعلون، لا يقع شيء من أفعالهم الاختيارية إلا بإرادتهم، يدركون الأمور ويتخيرون ويعرفون أسبابها ونتائجها، فحالهم حال من يرجو أن يتجهوا نحو العبادة

يبتغونها، فالرجاء من حالهم، والله تعالى لا يرجو، ولا يتصور منه، إنما يتصور منه العلم، ووقوع الأمر كما علم، وكما قدر.

وعندى أن الاتصال بين رجاء التقوى والأمر بالعبادة أظهر وأوضح، ولا إشكال فيه.

وقد بين سبحانه بعد ذلك بديع التكوين، والنعم التى ينعم بها العباد، فقال تعالت كلماته: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا﴾ جعل تستعمل بمعنى صير، وتستعمل بمعنى خلق، كما قال الله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ ﴿١٠٣﴾﴾ [المائدة]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ... ﴿١﴾﴾ [الأنعام] وتأتى بمعنى سمَّى، كما فى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ... ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف] وتأتى بمعنى أخذ واتخذ.

وجعل هنا بمعنى صيَّر لأنها ذات مفعولين، الأول ﴿الأَرْضَ﴾ والثانى ﴿فِرَاشًا﴾، والمعنى جعل الله تعالى الأرض ممهدة معبدة كأنها فراش يستقر عليه الإنسان، ويجد فيها مقاما ثابتا، وإذا كان فيها نتوء كالجبال فقد جعلها الله تعالى مثبتا لذلك الفراش، ولذلك قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ [النبأ] وقد وصفت الأرض بأن الله تعالى جعلها مهادا، ووصفت بأنه جعلها بساطا، فهى ممهدة كالفراش وكالبساط، وتلك نعمة من الله تعالى لتسهل الإقامة عليها، والانتقال بين آفاقها، والهجرة بين أجزائها، وهى للإنسان كالعرصة[1] فى مسكنه، وكون الأرض فراشا لا ينافى أنها كرة تدور حول الشمس، فإنها لعظمها وانبساطها تعد فراشا أو كالفراش، ولا يحس بأنها كرة إلا من تتبع الليل والنهار والشمس والقمر، والسير فيها من المشرق إلى المغرب، ومن الشمال إلى الجنوب، وما يقرره العلم الاستقرائى المتتبع لما خلق الله سبحانه وتعالى.

---

(١) العَرصة: كل بُقْعَة بينَ الدُّورِ واسِعَة ليس فيها بِناءٌ والجمع: عِراصٌ، وعَرَصاتٌ، وأعْراصٌ. [القاموس المحيط - فصل العين - باب: عرص].

﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ أى وجعل السماء بناء، أى كأنها البناء أو الخباء الذى يحيط بأهله فهى السقف، أو كالسقف، ولقد قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ... ۝٣٢﴾ [الأنبياء] ويقال: بنى على أهله. أى: زفت إليه زوجه؛ لأنه من العادة المعروفة عندهم أن المرأة كانت إذا زفت لزوجها بنى لها خباء يسترهما، فهى من الأرض بمنزلة الخباء الذى يحيط بها ويظلها؛ ولذا تسمى الأرض المُقِلَّة وتسمى السماء التى نراها المُظِلَّة.

وإن الازدواج بين المظلة والمقلة تكون نتيجته الماء الذى ينزل من السماء مدرارا، فيكون غيثا ينبت الزرع، ويكون منه الكلأ تأكل منه الأنعام والحرث.

ولذا قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أى مما كان بناء الأرض ﴿مَاءً﴾ ولم يقل من السحاب أو الغمام، وهى التى يتقاطر المطر منها، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ۝٤٣﴾ [النور] فهذه الآية الكريمة تدل على أن الماء ينزل من السُّحُب المتراكمة التى تكون كالجبال، وعبر سبحانه وتعالى عن نزول الماء بأنه من السماء، لأنها وعاء السحاب، ولأنه سبحانه وتعالى مَنَّ على عباده، بأنه جعل السماء مظلة الأرض، فناسب أن يذكر السماء مضافه إليها نعمة أخرى، وهى نعمة نزول الماء الذى يكون به الخصب والنماء، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ۝٣٠﴾ [الأنبياء].

وقد قال سبحانه بالتنكير: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أى أن هذا الماء بعض نعمه، فله نعم من الماء، وليس الماء الذى ينزل إلا بعضا من مياه كثيرة، تنزل فتفيض بها الأنهار، وتجرى فى الأقطار، فالتنكير للبعضية.

وقال سبحانه: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ ومن للتبعيض مثل قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ... ۝٥٧﴾ [الأعراف] وأسند الإخراج إليه، فلم يقل سبحانه أخرجت الأرض، أو أنبتت الأرض، أو أنبت الماء نباتا، لبيان

جلائل نعمته لأنه هو المخرج ، وهو المنبت، وهو الذى يُربى البذر، وينتج الثمر، وتلك أسباب وهو خالق الأسباب والمسببات، فالمولود لا يولد بنطفة الفحل، ولكن بخلق الله تعالى، وجعل سبحانه وتعالى النطفة سبب الوجود.

وقال تعالى: ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ ورزق بمعنى المرزوق، فهو فِعْل بمعنى المفعول، كطِحْن بمعنى المطحون، ونقض بمعنى المنقوض، وتنكير رزق إنما هو للبعضية، فالثمرات بعض الرزق الذى رزقه الله تعالى، فالنعم رزق من رزق الله تعالى لعباده، والفلزات فى باطن الأرض من رزق الله تعالى لعباده، والسمك اللحم الطرى من رزق الله تعالى، واللآلئ فى البحار من رزق الله تعالى، فتنكير ﴿رِزْقًا﴾ فى هذه الآية الكريمة التى نذكر معانيها للدلالة على البعضية، أى أنه بعض ما رزق الله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ...﴿١٨﴾﴾ [النحل].

وإنه إذا كانت هذه القدرة القاهرة التى خلقت الحاضرين والماضين ومهدت لهم الأرض تمهيدا، وجعلت لهم السماء سقفا محفوظا، وأنعمت برزق من زواج السماء بالأرض، وأخرجت لهم منها بعض رزق الله، وهو كثير، فهو وحده المستحق للعبادة وحده، إذ لا قدرة لبشر ولا لحجر أن ينشئ خلقا أو يرزق رزقا؛ إذ لا ينفع ولا يضر؛ ولذا قال تعالى بعد هذه النعم فى الخلق والتكوين: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الجعل هنا هو الاتخاذ، والند هو المثل الذى يفرض فيه أنه مماثل مناوئ، كما تقول فلان ند لفلان أى مثل مناوئ كفء له.

وهؤلاء المشركون مع إيمانهم بأن الله خالق كل شيء، ومجرى النعم، ومنزل السحاب، مع علمهم بذلك يتخذون الأنداد ويشركون بها، يعبدونها مع الله سبحانه وتعالى وكأنها ند لله تعالى فى زعمهم، وإنهم يفعلون ذلك، وهم يعلمون، أى هم يعلمون أن الله وحده هو خالق كل شيء ، وأنه منزل النعم، وأنهم لا يستجيرون إلا به أو نقول: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنهم من أهل المعرفة والإدراك، والفهم والذكاء، ولا يليق بذكائهم أن يجعلوا المخلوق كالخالق، ومن لا يضر ولا ينفع كمن يملك الضر والنفع، أو إنهم يعقلون ويدركون، فذلك حث لهم على الإيمان بإثارة علمهم وعقلهم وتفكيرهم .

القرآن المعجز

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)﴾

دعا الله سبحانه وتعالى الناس جميعا إلى أن يعبدوه، وذكر لهم سبحانه وتعالى من النعم الظاهرة، والقدرة القاهرة التى يخضع لها الوجود كله ما يدل على أنه وحده الذى يستحق أن يعبد، فالذين يعبدونهم مما يجعلونهم أندادا لله تعالى لايملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، ولكن الإيمان لا يتم إلا بالإيمان بالرسول الذى جاء بالحق والذى بعث رحمة للعالمين، وقد أتى لهم بما يدل على أن الله تعالى بعثه إليهم، وهو القرآن الكريم الذى يعجز البشر عن أن يأتوا بمثله، وهو الكتاب الجدير وحده بأن يسمى كتابا؛ لأنه كتاب الله تعالى إلى خليقته يهديهم إلى سبل السلام، وهو برهان محمد ﷺ، وهو الخالد إلى يوم الدين، فالمعجزات المادية الحسية تنتهى بانتهاء زمانها، أما القرآن الكريم، فإنه قائم إلى يوم الدين، يتحدى الناس فى كل جيل أن يأتوا بمثله، ولقد قال ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أُعطِى ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه إلىَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»(١) لأن معجزته التى تحدى بها أن يأتوا بمثلها ما زالت قائمة لم ينقض زمانها، ولقد كان للنبى ﷺ خوارق حسية جرت على يديه، ولكنه ما تحدى بها، بل تحدى بالقرآن لأنه معجزته الخالدة الباقية: ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)**﴾ [الإسراء].

---

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى: فضائل القرآن ـ كيف نزل الوحى وأول ما نزل (٤٩٨)، ومسلم. الإيمان ـ وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ (١٥٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

هذه الآيات التى نتكلم متسامين إلى معانيها هى مما تحدى القرآن الكريم بها العرب بعد أن ذكر قدرة الله ونعمه التى تثبت وحدانيته فى العبودية. هذه الآيات من التحدى الشامخ التى أثبت عجزهم.

قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ ذكر سبحانه وتعالى احتمال أن يكونوا فى ريب من أن القرآن من عند الله، وأنه الدلالة الدالة على نبوة محمد ﷺ، فقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ عبر سبحانه بأداة الشرط التى لا تدل على وقوع الريب قطعًا كـ «إذ»؛ لأن التعبير بـ «إن» يدل على الشك فى فعل الشرط، لا على تحققه للإشارة - إلى أنهم لو كانوا فى شك من أمر القرآن حقيقة، وأنهم يستطيعون أن يأتوا بمثله، كما كانوا يقولون ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ... ﴿٣١﴾﴾ [الأنفال] ما كان ذلك مبنيا على تفكير سليم، إذ إن أى تدبر وتفكير فى معانيه يزيل كل ريب، ويوجه إلى الحقيقة توجيها مستقيما، لا مجال فيه لأى ريب أو أى شك.

وهنا يسأل سائل: لقد وصف القرآن الكريم فى أول السورة بأنه لا ريب فيه، فكيف يتصور أن يكون ثمة ريب فيه؟. ونقول فى الجواب عن ذلك : إن الريب منهم لا منه فى ذاته، فهو فى ذاته يعلو عن الريب، لأنه يعلو عن المثل والشبيه فى تساوق ألفاظه ومعانيه، وجمال فواصله، ورنة نغمه، وحلاوة موسيقاه، وكل ما اشتمل عليه مما أدهش المشركين، وحاروا، ولم يجدوا محيصا من الإذعان والسكوت والانتقال من العجز الذليل إلى الاضطهاد والإيذاء.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ بالتعبير بكان المصورة لما وقع منهم، إشارة إلى أنه لا ريب فيه لذاته، وإنما الريب من عقولهم المنحرفة. ونفوسهم الوثنية، التى استهوتها الأحجار فعبدتها. فالشك منهم، والقرآن أعلى من ذلك، ولا ريب فيه، وفى أنه من العزيز الحكيم، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وقد يقال: إنهم لم يكونوا فى ريب من أمره، بل كانوا جازمين بأنه ليس من عند الله، بدليل قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فى تكذيبكم، فنقول فى ذلك: إنهم كانوا جازمين فى تكذيب أنه من عند الله تعالى، ولكن النص القرآنى ينبههم إلى أن حالهم فى مثل إدراكهم البيانى وذوقهم البلاغى، وكونهم مقاول العرب، وأهل الفصاحة والبيان والدربة فى القول، ومعرفة موازينه، وتنبههم الآية الكريمة إلى أن مثلهم فى حالهم لا ينبغى أن يجزموا منكرين، بل يترددوا حتى يصلوا إلى الحقيقة، فى أمر هذا النوع من القول الذى لا ينهد إلى مكانته قول من أقوالهم.

وإن الثابت فى سيرة رسول الله ﷺ أنه كان له أثر فى نفوسهم، وأحسوا بأنه فوق ما يقوله البشر، فقال بعضهم: «إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وأسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، ما يقول هذا بشر»، وكانوا يتفاهمون فيما بينهم على ألا يسمعوه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت] فإذا اتفقوا على ذلك ذهب كل واحد منهم سرا إلى حيث يسمعونه، وكل يظن أنه وحده الذى جاء يستمع إليه، فإذا هم يلتقون، وينقضون ما اتفقوا عليه.

ولذلك سموه سحرا، وسموا النبى ﷺ ساحرا.

ولذلك نقول: إن ذكر القرآن الكريم لهم بأنهم كانوا فى ريب منه وخصوصا أهل العلم بالبيان منهم وصف صادق، فما كانوا مؤمنين به، وما كانوا منكرين إنكارًا قاطعا بأنه ليس من عند الله؛ ولذلك لم يعرف عن أحد من عقلائهم أنه أراد أن يأتى بمثله، وإن تنكير الريب دليل على أنه ريب ليس بالقوى، أو الشديد، وذلك لكمال وضوح الأدلة الدالة على أنه ليس من طاقة أحد أن يأتى بمثله، وإن الشك إن كان منهم فليس له محل ولا مسوغ.

ومِن فى قوله تعالى: ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ معناها بيان موضع الشك الذى يثور عندهم، فيقال فى شك من الأمر، باعتبار أن موضع الشك هو الأمر، وقوله

تعالى: ﴿نَزَّلْنَا﴾ تدل على التنزيل منجما زمنا بعد زمن، ولم ينزل دفعة واحدة، وكانوا يثيرون الشك حوله بسبب ذلك، وقد قال تعالى فيما حكى عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢)﴾ [الفرقان] فكان مما يثير ريبهم الباطل أن القرآن لم ينزل دفعة، ولكنه نزل منجما ليثبت به قلب النبى ﷺ، وليتعلم ترتيله، ويعلمه أصحابه؛ وليحفظوه فى الصدور ولا يكتفى بالسطور.

وذكر الله تعالى تنزيله على النبى ﷺ بقوله تعالت كلماته: ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ وهو محمد ﷺ ذكره بالعبودية لله تعالى، وفى ذلك تشريف للنبى ﷺ، وبيان لحماية الله تعالى له، وبيان بأن الرسالة لا تبعده عن مقام العبودية فهو عبد لله تعالى، ولن يستنكف أن يكون عبدا لله تعالى، وأن الله تعالى عاصمه فى رسالته من الناس كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ... (٦٧)﴾ [المائدة].

كان فعل الشرط هو قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ وكان جواب الشرط هو التحدى بالمطلب المعجز وهو قوله: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ وهذا تحد للإعجاز، كما جاء فى حكاية إبراهيم مع الطاغية عندما تحداه أن يأتى بالشمس من المغرب بدل المشرق إذ قال تعالى حكاية عن ذلك: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)﴾ [البقرة].

والتحدى: هو أن يأتوا بسورة من مثله: السورة عدد من الآيات أقلها ثلاث كما فى قوله تعالى فى سورة الكوثر: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ (٣)﴾ [الكوثر] وهى فى أصلها من السُّور لأنها تحيط العدد من الآيات كأنها سور حولها، يحيط، أو من السورة وهى الدرجة الرفيعة،

والسورة يتحقق فيها المعنيان، فهما متحققان فى معنى السورة، فهى درجة من درجات البيان الرفيع لا تتفاوت مقاديرها وتتلاحق فى درجاتها وتقديرها، وكل واحدة لها مقامها حتى أنها لتسمى قرآنا وحدها.

ومن فى قوله تعالى: ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ بيانية، والمعنى على ذلك فأتوا بسورة من كتاب مثله إن كان فى استطاعتكم أن تأتوا بكتاب مثله، فأتوا بسورة منه تكون واضحة التماثل والتشابه بها.

وقال بعض العلماء أن «من» زائدة لتقوية السياق وتكون كقوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس]، ولا يقال فى القرآن إن حرفا زائد.

تحداهم سبحانه وتعالى أن يأتوا بسورة من قراءة ﴿مِّثْلِهِ﴾ يستطيعون بها أن يقولوا بها كما يقولون: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ... ﴿٣١﴾﴾ [الأنفال]، تحداهم ذلك التحدى، وتحداهم أن يدعوا من يشاءون ممن ينصرونهم ويؤازرونهم فى الملمات والشدائد، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ الشهداء جمع شهيد، وهو الحاضر؛ أي ادعوا الحاضرين الذين يناصرونكم ويعاونونكم فى الملمات وأَجْمِعُوا أمركم من دون الله أى متجاوزين الله سبحانه أو من تجمعونهم مهما يكونوا دون الله تعالى، فشهداؤكم مهما تكن قوتهم، ومهما تكونوا تفزعون إليهم فى أموركم وعظائمها؛ فإنهم لا يمكن أن يأتوا بذلك. افعلوا ذلك: إن كنتم صادقين فى دعواكم أنكم تستطيعون، وهذا كقوله تعالى فى التحدى: ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس].

كان التحدى من الله سبحانه وتعالى وكان العجز منهم، وقد كان التحدى يطالبهم بأن يجمعوا من يشاءون ومن يستطيعون جمعه من الأنصار والمقاويل ليقولوا، ولكنهم عجزوا لا بصرف الهمم، ولكن لعجزهم، فكان الإعجاز فى ذات القرآن لا بصرف الأفهام كما ادعى المقلدون من الفلاسفة وبعض علماء الكلام.

وإنه بمقتضى الحكم السليم والمنطق المستقيم أنهم إذا عجزوا ذلك العجز الصارخ أن يذعنوا للحق الذى جاءهم؛ ولذا قال تعالت كلماته: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ فإن لم تفعلوا أى لم تأتوا بمثله، أو بسورة من مثله، بعد أن تتضافروا وتتعاونوا، وتدعوا من استطعتم أن تدعوه، ومع ذلك تعجزون عن أن تأتوا فاعلموا أن ريبكم لا موضع له، وأنه شك حيث يجب اليقين، وعناد حيث يجب التسليم، وعليكم أن تتخذوا الإيمان وتدخلوا فى الإسلام، وتتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة التى تعبدونها تحقيقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء].

فقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ جواب الشرط فى ظاهر اللفظ، وهى تطوى فى ثناياها كلاما هو بمنزلة السبب لهذا الجواب، تقديره: فإن لم تأتوا بمثله فدعوا عنادكم، وصدقوا بالحق الذى جاءكم، وبذلك تتقون النار التى يكون وقودها أنتم والحجارة التى تعبدونها، وإن جواب الشرط على هذا إنذار بعد ذكر البرهان على الحق.

الوقود هو ما تستعر به النيران وتشتعل، وذكر الحجارة التى لا تنفع ولا تضر تنديد بهم وبعقولهم التى تعبد ما لا ينفع ولا يضر، ويضل ولا يهدى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ جملة معترضة بين الشرط وجوابه، وهى مسارعة إلى بيان عجزهم، لأنه من الله، وجعله الله تعالى فوق قدرة البشر، وأن الإنس والجن لو اجتمعوا على أن يأتوا بمثله لا يستطيعون، فكانت هذه الجملة الاعتراضية لتسجيل العجز المطلق، ونتيجته وهى أن يتقوا النار التى أعدت وهيئت للكافرين الجاحدين المعاندين للحق، وهذه الآية الكريمة كانت فى سورة مدنية، وهى تدل على استمرار التحدى بالقرآن فى المدينة. كما تحدى به فى مكة، وكما يتحدى الأجيال كلها من بعد ذلك.

لقد تحداهم الله تعالى فى سور مكية مثل قوله تعالى فى سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [يونس].

وقال تعالى فى سورة القصص: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [القصص] وندع الكلام فى أسباب إعجاز القرآن، فقد خصصنا له كتابا، وصلنا فيه إلى سبب الإعجاز بقدر طاقتنا.

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾

بعد أن أشار سبحانه إلى ما أعد للكافرين، وهو النار التى وقودها الناس والحجارة التى كانوا يعبدونها، فتلك حصب جهنم، وقد أعدت تلك النار للذين يكفرون بالوحدانية وينكرون الرسالة الإلهية، والعصاة يقيمون فيها بقدر معاصيهم إلا أن يتغمدهم الله تعالى بعفوه وغفرانه ورحمته.

بعد هذا ذكر سبحانه ما أعده للمتقين المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وهكذا يقرن الله ترهيبه بترغيبه، فهو يرهب أهل الجحود بالإنذار الشديد ليقرع الحق أسماعهم، بعد أن سلك بهم طريق الحجة والبرهان، وبيان القسطاس المستقيم، ولكن إذا لم يدخل إلى قلوبهم كانت العاقبة ما يستقبلهم من عذاب شديد.

ومن أشد العذاب أن يروا مآلهم، ومآل أهل الإيمان، فهم بسبب عنادهم معذبون سلبًا وإيجابًا. . معذبون سلبا بحرمانهم مما جزى به أهل الإيمان من جنات ونعيم، ومعذبون إيجابا بعذاب الجحيم.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بشر فعل أمر من التبشير، وأصله من البشارة، وأصلها الخبر الذى يجيء المبلغ به فتبدو آثار السرور على بشرته، فهو الخبر بالأمر الذى يسر ولا يضر، ويكون أول الخبر بالسرور، وصاحبه يسمى البشير: ﴿ **فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا... ﴿٩٦﴾** ﴾ [**يوسف**] والنبى ﷺ هو البشير النذير، الذى يبشر أهل الحق واليقين، وينذر أهل الجحود والإنكار.

وقد تطلق على سبيل المجاز كلمة التبشير فى مقام التهديد والإنذار كقوله تعالى: ﴿ **فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾** ﴾ [**آل عمران**] وهذا على سبيل السخرية والتهكم، كأنهم يترقبون مايسرهم، فيجيء الخبر بما يضرهم ويسمى باسم البشارة تهكما بهم، وإشارة إلى أن ذلك ما يجب أن ينتظروه ويترقبوه، والله محيط بهم.

وقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ فيه إشارة إلى سبب البشارة، لأن التعبير باسم الموصول دليل على أن الصلة سبب الحكم، فالإيمان والعمل الصالح هما السبب فى البشارة، أو هما السبب فى الجزاء بأن تكون لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار، وثمرات الجنة المتشابهة المختلفة الطعوم.

والإيمان هو التصديق والإذعان بالقلب، وأن يصدق المؤمن بكل ما جاء به النبى ﷺ، وأن يصدق الرسول فى كل ما جاء به مذعنا له، مصدقا بأنه من عند الله تعالى، والإسلام هو إعلان الإيمان، والإذعان لأحكام الإسلام، ولقد قال النبى ﷺ: «الإسلام علانية، والإيمان فى القلب . .»(١) ولقد حدث فى أثناء

(١) أخرجه أحمد عن أنس بن مالك رضى الله عنه: باقى مسند المكثرين (١١٩٣٣).

الدعوة المحمدية، وتبليغ الرسالة، أن كان بعض الأعراب يعلن اتباع النبى ﷺ، ولكن القلوب لم تذعن إذعانا كاملا، ؛ولذلك قال الله تعالى عنهم: ﴿ **قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ...** (١٤) ﴾ [**الحجرات**] ولقد روى الإمام أحمد عن أنس أن رسول الله ﷺ كان يقول: «الإسلام علانية والإيمان فى القلب. قال: ثم يشير إلى صدره ثلاث مرات ويقول: التقوى هاهنا، التقوى هاهنا»(١).

ولقد ذكر الله مع الإيمان العمل الصالح، فقال: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ والعمل الصالح هو العمل الذى يصلح به الناس وتستقيم جماعتهم، وتأتلف قلوبهم، ويكون فيه صلاح الأرض، ولا يكون فسادهم، وهو الذى يسوده الإيثار، فحيث كان وجد الائتلاف، ومع الائتلاف الخير والقوة، ولا يكون فيه الأثرة، فإنها حيث كانت وجدت الفرقة، ووجد الانقسام وذهبت القوة .

ويشمل العمل الصالح الصلوات والزكوات، والصيام والحج، كما يشمل كل خير يقدم للمجتمع، كما روى أن النبى ﷺ قال: «خير الناس أنفعهم للناس»(٢).

ولا شك أن العمل الصالح ثمرة من ثمرات الإيمان الصادق، والإذعان المطلق لله سبحانه وتعالى، والطاعة الكاملة لرسول الله ﷺ.

ولكن هل يزيد الإيمان بالعمل الصالح، وينقص بترك العمل بموجبه وما يقتضيه ويدعو إليه؟ وهى قضية يخوض فيها علماء الكلام من حيث إن الإيمان يزيد وينقص أو لا يزيد ولا ينقص، وأنه حقيقة واحدة، وهى التصديق والاعتقاد الجازم، والإذعان المطلق لله ولرسوله، وتلك لا تزيد ولا تنقص.

ولا نريد أن نخوض فى ذلك. ونقول مقررين حقيقتين ثابتتين.

---

(١) السابق.

(٢) أخرجه «القضاعى» فى مسند الشهاب «عن جابر».

إحداهما: أنه قد جاء فى النصوص القرآنية أن الإيمان يزيد، فقد قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ۝٢ ﴾ [**الأنفال**] وقال تعالى: ﴿ **وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ** ۝١٢٤ ﴾ [**التوبة**].

وهكذا نرى فى صريح القرآن أن الإيمان يزيد، وأنه وإن كان أصله الاعتقاد والتصديق، فإن زيادته تكون بتوثيقه بحيث يكون عميقا لا تزعزعه الرياح، أو راسيا ثابتا، كالجبال، ولا شك أن العمل بموجبه يوثقه، ويؤكده، وأن ترك العمل يجعله يجف، وإن كان لا يموت ولا يذهب وإن الجزاء يكون على الإيمان وللعمل جزاؤه. والحقيقة أنه وردت أحاديث كثيرة تجعل الأعمال من الإيمان، وقد روى ابن ماجه عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الإيمان بضع وستون أو سبعون بابا أدناها إماطة الأذى عن الطريق، وأعلاها قول لا إله إلا الله، والحياء شعبة من الإيمان»(١).

وإنَّ عد هذه الأعمال من الإيمان على أنها من ثمراته، ولا مانع من أن تعد الثمرة من الأصل إذا كانت لا تظهر إلا ثمرة له فلا تكون إلا من أصل الإيمان، فهى من قبيل الاتحاد بين اللازم والملزوم.

ومهما يكن القول فى الاتصال بين الإيمان والعمل، فإن العمل يزكى الإيمان ويقويه، وهو كالماء، والغذاء، يتغذى منه الإيمان ويقوى، وإن الإيمان من غير عمل يجف، ولا يكون مثمرا منتجا، فمن يكون مؤمنا من غير أن يعمل بموجب إيمانه يكون كمن يملك أرضا طيبة، لا يزرعها، ولا يثمرها.

ثانيهما: أن المؤمن، وإن لم يعمل، خير من الكافر، وإنه وإن أَهْمَلَ فقد يعمل، والله تعالى يجزيه الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بمثلها، وهو خير كله إذا عمل، واتقى وآثر الحياة الآخرة على الدنيا.

---

(١) رواه ابن ماجه: المقدمة (٥٦) وبنحوه البخارى: الإيمان (٨)، ومسلم: الإيمان (٥١)، والترمذى (٢٥٣٩)، والنسائى (٤٩١٨)، وأبو داود: السنة (٤٠٥٦)، وأحمد (٨٥٧٠).

وإن الجزاء الذى بشر به الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ الجنات الحدائق التى تشتمل على نخيل وأشجار متكاثفة، حتى تستر الأرض وتجنها، فهى جنات، لأنها تستر ما تظله، والضمير فى تجرى من تحتها الأنهار، يعود على أشجارها، وإن لم تذكر باسمها، فكلمة جنات متضمنة لها، إذ لا تتحقق الجنات إلا بأشجار متكاثفة ملتفة، والجريان للماء، لا للأنهار؛ لأن الأنهار هى ما يشق فى الأرض ليجرى فيه الماء فهو من إطلاق اسم المحل، وإرادة الحالّ، مثل قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾﴾ [العلق]، وإن الناظر إلى الماء وهو يجرى منسابا فى الأرض لايرى النهر ولكن يرى الماء، فكأن النهر اختفى فى الماء ولايرى غير الماء.

وإن هذه الجنات فيها بهجة للناظرين، فهى متعة للأنظار، وبهجة للنفوس بذاتها، وفيها ثمرات شهية من كل شيء، وكما قال تعالى فى آية أخرى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد].

وإن الثمرات متشابهة فى اللون، وإن كان الطعم فى الذوق متغيرا، وهى دائمة متجددة، مستمرة لا تُمل ولا تُسأم بل فيها المتعة المتجددة؛ ولذا قال تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ أى أن هذه الثمرات تجيء إليهم رزقا من الله تعالى من غير جهد يبذلونه، ولا عمل يعملونه؛ ولذلك قال تعالى: ﴿رُزِقُوا﴾ وأكده سبحانه بقوله تعالى: ﴿رِّزْقًا﴾ أى أنه يجيء بأمر الله وإنعامه رزقا حسنا من غير أن يقوموا بمجهود فيها، فهى دار الجزاء والنعيم، فإذا كانوا لم يعملوا فى الجنات فهو جزاء وفاق لما سبقوا به من عمل صالح، وإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا، فهو جزاء لمجهود سابق، وثمرة لإيمان وعمل صالح.

وهم يقولون: هذا الذى رزقنا من قبل، وهذا يدل على التجدد المستمر، ويدل على التشابه فى الشكل، فمعنى النص: هذا الذى رُزقناه فى الجنة مثل الذى رُزقناه من قبل فى شكله، ولكنهم يجدون الطعم متغيرا، وسبحان خالق كل شيء؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ فى شكله، وإن تغير طعمه.

وهناك فوق متعة الطعام، والتمكن من كل الخير متعة الأنس بالحياة الزوجية، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ والأزواج جمع زوج ذكرا كان أو أنثى، فهى تطلق على المرأة المتزوجة، كما تطلق على الرجل المتزوج، وإلحاق التاء بها بالنسبة للمرأة قليل نادر، ولكنه صحيح؛ ولذلك قال عمار بن ياسر فى عائشة أم المؤمنين عندما أخرجت فى واقعة الجمل: «إنها زوجته فى الدنيا والآخرة، ولكنه البلاء»(١).

ومعنى مطهرة أنها خالية من الدنس النفسى المعنوى والجسدى، فهن طاهرات مطهرات من كل رجس.

وقد يقول قائل: إن المرأة متعة الرجل فى الآخرة، ونقول إن الجزاء لهما معا، فلها كل الثمرات التى للرجل، والأزواج متعة للرجل والمرأة، فهو متعتها وهى متعته، إن صح هذا التعبير؛ ولذلك صرح القرآن الكريم بأن الجزاء لهما، فقال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ... ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران].

وإن ذلك النعيم دائم لا ينغصه توقع زواله، بل النعمة كاملة بدوامه؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ هذا ويجب أن ننبه إلى أن نعيم الجنة نعيم مادى

---

(١) أخرجه البخارى كتاب الفتن: (٦٥٧١) واللفظ له، وأحمد: أول مسند الكوفيين (١٧٦١٠).

حسى؛ لأن ذلك هو ما تدل عليه الألفاظ، ولا يصح تأويلها بغير سند من الشرع، ولا حجة، ولا دليل، ولا نؤولها بعقولنا المجردة، فإن ذلك يعد إنكارا للغيب الذى قرر الله سبحانه وتعالى فى كتابه الحكيم أن أول صفة من صفات المؤمنين أنهم يؤمنون بالغيب، وأن فرق ما بين الإيمان والزندقة الإيمان بالغيب.

ولكن ورد عن ابن عباس أن الألفاظ التى وردت فى نعيم الجنة ليست على حقيقتها التى نراها، فثمراتها، ورمانها وعسلها ولبنها، وخمرها، ليست هى خمرنا، وأن نعيم الجنة فوق علمنا، ولكن الله تعالى قرب لنا نعيم الجنة بما يشبهها فى استعمالنا، ولكنها مادية حسية، ويتحقق بذلك قول النبى ﷺ : «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»(١).

الأمثال فى القرآن وموقعها فى النفوس

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾

بين الله تعالى حال المنافقين، وضرب سبحانه وتعالى مثلين يبينان حالهم التى يبدو فيها النور لهم ولا ينتفعون منه، فشبههم سبحانه بحال الذى يستوقد نارا، وما

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة (٥٠٥٣)، وأحمد: باقى مسند الأنصار (٢١٧٦٠).

إن يتم له أن ينتفع حتى تنطفئ، ويذهب الله تعالى بنورهم فلا يبصرون، وشبههم ثانيا بحال قوم أصابهم صيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق، من حيث إن ماء الحياة يجيء إليهم، ولكن لسوء حالهم وفساد قلوبهم تنعكس بين أيديهم الأمور، فلا يدركون . . إلى آخر ما بين سبحانه وتعالى.

وإنه من منهاج الذكر الحكيم ضرب الأمثال تقريبا للأفهام، وتصويراً للمعانى التى تسمو بها المدارك بالأمور المحسوسة القريبة لكل من عنده لب، والأمثال تضرب لذى اللب الحكيم، فيعتبر بها، ويكون المغيب غير المحسوس كأنه المحسوس الذى يُرى ويُشاهد، ولقد ضرب الله الأمثال بالذباب فى بديع تكوينه وسر خلقه الذى تعجز العقول عن أن يخلقوا مثله. وشبه الأوثان التى يعبدونها وهى لا تضر ولا تنفع، ولا تملك من أمرها شيئا بأنها أوهام توهموها، وأخيلة من القدرة تخيلوها.

ولقد قال تعالى فى الذباب: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤)** ﴾ [**الحج**].

فهو فى هذا المثل بين أنهم لا يستطيعون أن يخلقوا ذبابا، ولو اجتمعوا له هم وآلهتهم، وأنهم لا يستطيعون أن يتغلبوا عليه إن سلبهم شيئا.

وفى سورة العنكبوت شبه آلهتهم التى يتوهمون فيها سلطانا، كمثل بيت العنكبوت أى الخيوط التى ينسجها، فقال تعالى: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١)** ﴾ [**العنكبوت**] أكثر الله تعالى من ضرب الأمثال لتقريب المعانى السامية للعقول التى لا تدرك إلا المحسوسات الدانية، ولكن المعاند الجاحد، والعاجز الحسود يقلب الحسنات، ويتهكم على الحقائق الرائعة، فتكلموا متعجبين مستغربين من

ضرب الأمثال بالبعوض والذباب، وكأنهم إذ لم يستطيعوا أن يأتوا بمثله وعجزوا عجزا صارخا أخذوا يثيرون الشك حول بعض أجزائه وما اشتمل عليه، فاختاروا الأمثال موضعا لإثارة الاستغراب والعجب يتوهمون أن ذلك يضعف من تأثيره .

لذا رد الله تعالى أمرهم وإثارة العجب بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا**﴾، ضرب ـ معناها ذكر، والمثل هو الحال التى تشبه حالا قائمة قدرت أو وقعت، فمعنى ضرب المثل بيان الحال التى تشبه وتمثل بحال واقعة ثابتة، ويقول علماء البلاغة، إن للمثل مضربا وموردا فالمورد هو الحال التى تشبه بها القول، والتى صدر فيها، والمضرب هو الحال التى يشبه الحال التى وقعت أو هى ثابتة.

ومهما يكن فالمثل تشبيه حال غير منظورة ولكن تدركها العقول بحال أمر واقع ثابت، والاستحياء انقباض النفس عن أن يكون منها ما يستقبحه الناس الذين يسيطر عليهم عرف قويم، وهو أساس من أسس الأخلاق؛ ولذا قال النبى ﷺ: «الحياء خير كله»[1]، ولكن هذا المعنى يليق بالناس، ولا يليق بالذات العلية؛ ولذلك بالنسبة لله تعالى أريد لازمه، لأن من لوازم ذلك الانقباض الترك، إذ من استحيا من عمل شىء يتركه.

والمعنى أن الله تعالت كلماته، وتسامى قرآنه، لايترك خاشيا لومة لائم أن يضرب مثلا، بأن يمثل أمرا ثابتا محققا بأمر واقع محسوس، تقريبا للمعانى إلى ما هو محسوس، وتوضيحا للأمور، لتكون بينة للجميع أو لمن يصغون إلى تلقى البيان بقلب سليم، وإدراك مستقيم.

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ مسلم: كتاب الإيمان (٥٤)، وأبو داود: الأدب (٤١٦٣)، وأحمد: أول مسند البصريين (١٨٩٧٧) وأخرجه البخارى بلفظ: «الحياء لا يأتى إلا بخير» كتاب الأدب (٥٦٥٢)، ومسلم: كتاب الأدب (٥٣)، وأحمد: مسند البصريين (١٨٩٨). عن عمران بن حصين رضى الله عنه.

والبعوضة أصغر من الذبابة، ﴿مَّا﴾ هى التى تسمى فى عرف النحاة نكرة تامة بمعنى شىء، فهى شىء مبهم، وإذا جاء بعد نكرة كانت للدلالة على إيقاعها فى الإبهام، فالمعنى بعوضة أيا كانت هذه البعوضة صغيرة أو كبيرة حقيرة أو خطيرة، فالله سبحانه وتعالى لا يترك ضرب الأمثال بالبعوضة أو ما دونها.

وإن الكلام البليغ يضرب المثل للحقير، بحقير، والمثل للعظيم بعظيم، فيضرب فيه أوهامهم فى آلهتهم من حيث إنها لا تقوى على النظر، ولا يمكن أن تكون معقولة، وحالها يناقض كل معقول بأنها كمسكن العنكبوت الذى تهدمه الرياح لأنه أوهن البيوت، وإن كان نسجها محكما، يدل على حكمة اللطيف الخبير، ولكن موضع المشابهة هو الوهن فقط.

وقد يكون ضرب المثل للبعوضة، ببيان إحكام تكوينها، وبديع خلقها، كما كان مثل الذباب من حيث خلقه وتكوينه، وعجز الآلهة ولو اجتمعوا له أن يخلقوه.

ونرى من هذا أن التمثيل بالبعوضة يكون فيه تشبيه حال الضعف، ببعض الضعف فى نواحيها، كما رأينا فى تشبيه أوهامهم حول الأصنام التى يعبدونها، من حيث إنها لا تقوى على نظر مستقيم فى أمرها، ببيت العنكبوت الذى هو أوهن البيوت.

وإن هذا النص الكريم يدل على أن ضرب الأمثال بصغير الأشياء وكبيرها يليق بالبيان الحكيم، وذكر الله تعالى فى كتابه الحميد المجيد.

وإن الأمر الجدير بالاعتبار والتقدير يختلف تلقى الناس له، فالقلب الذاكر الطاهر الذى يطلب الحقائق ويتقبلها ويدركها معتبراً متعظًا مؤمنا يزداد إيمانا، والقلب المضطرب الذى يعاند، ويكابر ويثير الاستغراب والعجب، وكأنه يحاول بذلك أن يثير غباراً حول الحقائق الثابتة.

ولذا يقول سبحانه: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا﴾ هى للتفصيل، أى تفصيل حال الذين يتلقون الأمثال المضروبة لهداية المتقين، وهى فى معنى أداة الشرط بمعنى مهما يكن من شىء، والمعنى مهما يكن من الأمر فى المثل الذى ساقه الله تعالى فالذين آمنوا وأذعنوا للحق إذا بدا لهم يعلمون أى يعرفون جازمين بالدليل القاطع أنه الحق أى الأمر الثابت الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، ويرشحون لذلك الإيمان المذعن والعلم الجازم بأنه من ربهم أى من الله العلى القدير الذى يربهم، ويدبر أمور الوجود بحكمته، وقوته، وبذلك يزدادون إيمانا.

وأما الذين كفروا فيظهرون استغرابهم بل استنكارهم، فيقولون: ﴿ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾؟ فهم يستفهمون استغرابا أو إنكارا ما الذى يريده تعالى بهذا المثل، والتجاهل يؤدى إلى الجهل، وعمى البصيرة يؤدى إلى العمى فى طرق الإدراك. إنهم يعرفون المثل ومضربه، وما تشبه به من حالهم، فإذا ضرب مثل ما يعبدون من آلهة ببيت العنكبوت فهم يعرفون أن الله تعالى بين وهن الأسباب التى يقيمون عليها، ولكن لاعتقادهم الواهم فى أصنامهم يثير المثل استغرابا ثم إنكارا، وذلك من رسوخ الضلال فى نفوسهم، فلا يزيدهم المثل إلا إمعانا فى الضلال.

و «ما» الاستفهامية، و «ذا» موصول بمعنى الذى، والمعنى على ذلك ما الذى أراد الله تعالى بهذا المثل، أو نقول: إن ماذا كلها للاستفهام، وهى مركب يراد به الاستفهام، والفرق إعرابى، ولا مؤدى له، فالمعنى واحد.

وإن هذا الاستغراب أو الإنكار الذى سبق إليهم، سببه أمران:

الأول: ضلال اعتقادهم فى أوثانهم كما أُثِر.

والثانى: غطرستهم وعنادهم، وحبهم لبقاء سلطانهم، وإن المعاند يزداد إصرارا وينفض رأسه كلما زاد الدليل وضوحا.

وقوله تعالى: ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ يراد بالفوقية الزيادة فى القوة على توجيه بعض المفسرين، ويكون المؤدى أن البعوضة أضعف الحيوان، وأنها يصح أن تكون ابتداء لضرب الأمثال من أدنى الأحياء إلى أعلاها، وهذا تخريج بعض المفسرين، وهو صحيح فى ذاته، ويفسر بعضهم الفوقية بمعنى الزيادة فى الصغر، وكأنه يتصور أن فى الأحياء ما هو أصغر من البعوضة ويقرأن الفوقية فى كل شيء بما سبقه، فإن كان ضرب المثل للصغر، فالفوقية فى الصغر أى أكثر صغرا منها.

ونحن نرى أن الأول هو الأظهر، ولكن يجب التنبيه إلى أن ذلك لا يقتضى أن يضرب المثل بما دونها فإن مؤدى القول أنه سبحانه لا يترك المثل الأكبر أو الأصغر لصغر عقولهم أو عنادهم، فإن القرآن أعلى البيان عند الله، ولا يترك سبحانه البيان السامى لاستغرابهم أو إعجابهم.

وإن المثل الذى يسوءهم لأنه تنزيل لمكان ما يقدسون فى زعمهم، يستغربون ثم ينكرون فيزيد ضلالهم؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾. أى أن ضرب المثل يضل الله تعالى به كثيرا من الضلال، وكثيرا من الناس، وكثرة الضلال بالإيغال فيه حيث يقوم الدليل على بطلان ما يعتقدون، فيلوون رءوسهم فيزدادون ضلالا، وكثرة الضالين لكثرة المفاسد.

وأسند الإضلال إلى الله تعالى؛ لأنه سبحانه وتعالى هو الذى ضرب المثل، وقد تسبب ضرب المثل فى نفوسهم التى أصابها الفجور والعناد فى أن استكبرت وزادت نفورا عن الحق، وإيغالا فى الباطل، وإن الله تعالى يسن طريق الهدى، ويبينه فمن عاند وجحد، وسار فى طريق الضلال، وكلما سار فيه أوغل، حتى يزداد ضلالا - كالذى يضرب فى الأرض؛ إن سار فى الطريق الجد وصل، وإن سار فى الطريق المعوج تاه وكلما سار زاد فى التيه.

وأما الذين آمنوا فإنهم يجدون فى المثل الحق وازدادوا إيمانا بالحق وتصديقا به؛ ولذلك حق عليهم أن يقول الله تعالى فيهم: ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً﴾ هديا كثيرا فيزيدهم إيمانا بعد إيمانهم.

وإن أولئك المؤمنين سلمت مداركهم، واستقامت عقولهم، فأدركوا معنى الحقيقة، فكلما جاء ما يؤكدها ويبينها ازدادوا هداية، وساروا على الجَدَد، وأما الآخرون فهم يخرجون عن سنن الفطرة، وما يوجه إليه الإدراك الصحيح؛ ولذلك قال تعالى: ﴿**وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ**﴾ أى الخارجين عما توجبه الفطرة، الذين شاهت عقولهم، وانعكست الحقائق أمامها، فصاروا يدركون الأمور عكس حقيقتها.

والفاسق فى أصل معناه اللغوى الخارج عن الطاعة، ويقال فسقت الرطبة إذا خرجت عن قشرتها، ويقال للفأرة فويسقة لخروجها من جحرها للفساد، ويطلق على الحشرات والمؤذيات فواسق، ولقد روى عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «خمس فواسق يقتلن فى الحل والحرم: الحدأة، والغراب، والفأرة، والعقرب، والكلب العقور»[1].

والفاسق فى هذه الآية هو الكافر سواء أكان يجمع الكفر والنفاق أم يكون كافرا من غير نفاق؛ وذلك لأنه خرج عن مقتضى الفطرة، والعقل المستقيم، فهو قد كفر بالله ورسوله، وبالأوامر والنواهى، وإنها دين الفطرة، كما قال تعالى: ﴿**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴿٣٠﴾﴾ [**الروم**].

ولقد بين تعالى أولئك الفاسقين الخارجين عن سنن الفطرة، فقال: ﴿**الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ**﴾.

ذكر الله تعالى أوصافا ثلاثة هى التى تتقطع بها أوصال الجماعة الإنسانية، ويكون بها التدابر، وأن يكون بها ابن الإنسان على أخيه الإنسان أشد من الوحوش، وأقسى من كل ما فى الوجود:

---

(١) رواه بهذا اللفظ النسائى: مناسك الحج - قتل الحدأة فى الحرم (٢٨٤١)، وهو متفق عليه؛ أخرجه بنحوه البخارى: بدأ الخلق - خمس من الدواب فواسق يقتلن فى الحرم (٣٣١٤)، ومسلم: الحج - ما يندب للمحرم وغيره قتله من الدواب (١١٩٨). عن عائشة رضى الله عنها.

الصفة الأولى - نقض عهد الله تعالى من بعد ميثاقه، والنقض فك ما أبرمه الشخص ووثقه وأكده من بناء أو وثيقة أو عهد، وإن الميثاق الذى يعقد بين الناس يوثقه بيمين الله تعالى؛ ولذلك يسمى اليمين، ويقول تعالى: ﴿ **وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا** ... ﴿٩١﴾ ﴾ [**النحل**] ويسمى عهد الله تعالى؛ لأنه إذا أكده بيمين فكأنه عاهد الله تعالى على الوفاء بها، وعدم النكث فيها فكأنه عاهد الله تعالى.

و﴿ **مِيثَاقِهِ** ﴾ معناه كما أشرنا العهد الموثق باليمين. وما المراد بالميثاق الذى نقضوه؟ قال بعض العلماء ونحن، نوافقهم، أنه ميثاق الفطرة الإنسانية، فقد خلق الله الناس، وأخذ منهم ميثاقهم بمقتضى الفطرة بالعبودية لله رب العالمين، كما قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ** ﴿١٧٢﴾ **أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ** ﴿١٧٣﴾ ﴾ [**الأعراف**].

وإن أولئك الفاسقين الذين خرجوا على الفطرة قد نقضوا ذلك العهد التكوينى الذى كون الله تعالى بنى آدم على أساسه؛ ولذلك يقول ابن حزم، ومعه بعض العلماء، إن معرفة الله بدهية لذوي العقول المستقيمة المدركة. وكانت الرسالة للتذكير بهذه الفطرة، وإيقاظها، إذا غفلت، ولحسابها إذا نبهت ولم تنتبه؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ **وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ** ﴿٢٤﴾ ﴾ [**فاطر**]، وقال تعالى: ﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً** ﴿١٥﴾ ﴾ [**الإسراء**].

هذا معنى واضح جيدٌ مستقيم تؤيده نصوص الكتاب الحكيم، ولكن مع ذلك قد يراد نقض العهود الموثقة بالأيمان وعدم الوفاء بالمواثيق التى تنظم العلاقات بين الناس آحادا وجماعات؛ لأن ذلك من سمات الكفر، وخصوصا الذى يصحبه نفاق، وقد وصف الله سبحانه وتعالى الكفار بذلك فى أكثر من آية، فقال تعالى:

﴿ **لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ** ﴿١٠﴾ ﴾ [التوبة] وقال تعالى في المنافقين: ﴿ **وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ** ﴿٧٥﴾ **فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ** ﴿٧٦﴾ **فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ** ﴿٧٧﴾ ﴾ [التوبة].

إن الوفاء بالعهود والمواثيق شأن من يراقب الله تعالى، ويحس برقابة الله تعالى، وهو لذلك خاصة من خواص المؤمنين، وكرر الله الأمر بالوفاء بالعهد مثل قوله تعالى: ﴿ **وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً** ﴿٣٤﴾ ﴾ [الإسراء] وإن الكافر لا يحس بمسئولية أمام الله تعالى؛ لذلك كان أول وصف من أوصاف الفاسقين أنهم ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه.

وإن النبى ﷺ عقد ميثاقا لليهود فنقضوه، وعقد صلح الحديبية، فنقضوه، ونصروا بنى بكر على خزاعة حلفاء النبى ﷺ.

الصفة الثانية - أنهم يقطعون ما أمر الله به أن يوصل، القطع فصل المتصل، وجعله أجزاء متفرقة، وقطعهم الذى كان الله تعالى أمرهم بوصله ما هو؟، قيل: قطع الأرحام، فلا يصل ذا رحمه، ولا يعمل بالمودة بين ذوى قرباه، ولكن الإنسانية كلها رحم واحدة، كما قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً** ﴿١﴾ ﴾ [النساء].

فالرحم الإنسانية ثابتة بين الناس، وقطعها يكون بأساليب شتى، وسبل مختلفة وكلها سبل الشيطان كما قال تعالى: ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ** ... ﴿١٥٣﴾ ﴾ [**الأنعام**] ومن قطعها أن يتحكم القوى فى الضعيف، وأن ينظر إلى الناس على أنهم طبقات منهم غنى ومنهم فقير، وأن يكون لكلٍّ قانون ونظام، وأن تختلف المعاملة، وأن تتنافر الشعوب، ولا تتضافر ولا

تتعارف كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ... ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات] وأن ينقطع التعاون بين الناس فلا يكون التعاون على البر والتقوى ويحل محله التعاون على الإثم والعدوان، وفى كل ما يكون فيه قطع للعلاقات الإنسانية يكون قطعا لما أمر الله تعالى به أن يوصل. ووصل ما أمر الله به أن يوصل هو اتباع أوامره تعالى واجتناب نواهيه، فهى كلها لربط الناس بعضهم ببعض بالمودة والعمل الصالح، وبسيادة الفضيلة والبعد عن الرذيلة، وإذا كانت ثمة حروب فلدفع أذى المفسدين، وتقويم الظالمين ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة].

وفى الجملة كل قطع بين عباد الله تعالى هو قطع ما أمر الله تعالى به أن يوصل وقطع للأرحام؛ لأن الناس جميعا رحم واحدة، من قطع ما بينهم فقد قطع الأرحام.

وقوله تعالى: ﴿مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ و ﴿مَا﴾: هى مفعول ﴿يَقْطَعُونَ﴾، أى يقطعون الذى أمر الله تعالى به - أى بشأنه - أن يوصل. «أن» وما بعدها مصدر، أى أمر الله تعالى وصله، وعدم قطعه.

الوصف الثالث - من أوصاف الفاسقين، بينه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ والفساد فى الأرض يشمل فساد العقائد إذ إن سلامة العقيدة فيها سلامة النفس، وفساد العقيدة بألا يؤمنوا بالله وحده، ولا يعبدوه وحده، ويتعلقون بالأوهام حول الأصنام ، وأى فساد أعظم من أن يحقر الإنسان نفسه وعقله، وإدراكه فيسجد لصنم لا يضر ولا ينفع، وقد رآه يصنع بين يديه، إنه ضلال العقل، وضلال النفس، وسيطرة الوهم. ويشمل الفساد بث روح النزاع المستمر بين الناس قبائل وشعوبا، وكلما أطفأ الله نار الحرب أوقدوها باسم العصبية

القبلية، أو العصبية الوطنية، أو بالرغبة فى أن تربو أمة عن أمة، أو التنافس الاقتصادى، حتى ينظر الإنسان للإنسان نظرة من يتربص به الدوائر.

ويشمل الفساد فى الأرض ألا يكون الحكم المرضى الحكومةَ هو الحق، وأن يكون الحكم للغلب، وأن يسود قانون الغابة لا قانون الفضيلة بين الناس، وأن يكون ذلك فى كل العلاقات الإنسانية، القوى يأكل الضعيف، والغنى يحقر الفقير، والعالم لا يعلّم الجاهل، بل يتخذه مطية لأهوائه وشهواته.

ويشمل الفساد فى الأرض ألا يكون تعاون فى استخراج ينابيع الثروة من باطن الأرض، بل يستبد بها القادر عليه، ويشمل الفساد ألا يوزع بين أهل الأرض خيراتها، بل يلقيه بعضهم فى البحار، ولو جاع الباقون، ضنا به على فىٍّ أخيه الإنسان.

ولقد حكم الله تعالى على من كانت هذه أوصافهم فقال تعالت كلماته: ﴿**أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾.

اسم الإشارة إلى هؤلاء المتصفين بهذه الصفات، والإشارة إلى المتصفين بصفة أو صفات تومئ إلى أن هذه الصفات هى سبب الحكم. فنقض العهود والمواثيق، وقطع الصلات الإنسانية، وإشاعة الفساد فى الأرض هو السبب فى الخسران الذى لا ينجو منه أولئك الفاسقون.

والخاسر هو الذى نقص حظه من الغاية التى كان يبتغيها، وكذلك الذين اتصفوا بهذه الصفات، فالناقض للعهد يحسب أنه كسب من نكثه فى عهده، ولكنه خسر؛ لأن الناس لا يثقون بعهده من بعد، والذى يقطع أرحام الإنسانية يحسب أنه كسب بالانفراد، ولكنه خسر المعاونة والمودة، والأخوة الإنسانية، والمفسد فى الأرض يحسب أنه كسب أرضا أو خيرا من وراء ما يفعل، وقد خسر الناسَ جميعا، فهو كمن أراد ربحا بالغش والخديعة فخسر كل ماله، وهكذا كل الفساق الآثرون الذين

يحسبون بأثرتهم أنهم الكاسبون، وهم الخاسرون. فمن كسب بغدر وخيانة وقطع الأرحام، ومن أفسد فى الأرض بالحروب الظالمة، والغدر فى العهود، فهو خسران دائما، فإن انتصر فى حرب ونال ثمرة انتصاره ظلما، وإزهاقًا وإفسادًا، فإن المهزومين يتأهبون، وهو يترقب متوجسًا خائفًا حذراً، وسيكون منهم الانتقام، ويكون الشر المستطير، بين الغالب والمغلوب، ولا سلام، بل خسران.

وأكد سبحانه وتعالى الخسران فى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ .. بمؤكدات ثلاثة أولها: التعبير بالجملة الاسمية، ففى التعبير بها تعبير بأكمل القول الدال على الاستمرار. وثانيها: التأكيد بكلمة «هم»، وهى تدل على انفرادهم بالخسارة دون المؤمنين الطائعين، فهم الرابحون دائما، وثالثها: تعريف المسند والمسند إليه[1] الدال على القصر؛ أى أنهم مقصورون على الخسارة، فلا يربحون أبدا ماداموا على الأخلاق التى تفسد الجماعات وتقطع العلاقات، والربح للإيمان وأهله.

الكفر بالخالق المنشئ المسخر الوجود للإنسان

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

---

(١) أى الخبر والمبتدأ، والمسند فى الجملة الفعلية: الفعل، والمسند إليه: الفاعل.

إن الكافرين يتعجبون من ضرب الأمثال، ويقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا؟ وحالهم عجب لأنهم يرون المحسوس الذى يدفعهم إلى الإيمان بالله الذى خلق السموات والأرض ومن فيهن، ومع ذلك يكفرون ولا يؤمنون، ولقد وبخهم الله سبحانه وتعالى أبلغ توبيخ فقال تعالى: ﴿ **كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ**﴾.

﴿**كَيْفَ**﴾ يستفهم بها للحال، والمعنى كيف حالكم وبعدكم عن الإدراك والحق وأنتم تكفرون بالله الذى أنشأكم وأخرجكم من الموت إلى الحياة؟! إنكم ترون أن الطفل يولد، ويجيء من غيب الله تعالى، وترونه يشب غلاما فصبيا فشابا فكهلا فشيخا فيموت ثم يقبر ثم تكون الحياة بعد ذلك، ترون الأمور الثلاثة؛ الأولى موت، ثم حياة، ثم موت، أفلا يكون بالقياس على البدء بالموت ثم الحياة ثم الموت أن نحييكم تارة أخرى؟ وقد قدر سبحانه على الأمور الأولى، أفلا يقدر على الأخيرة؟ ﴿ ... **كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ** ﴿٢٩﴾ ﴾ [**الأعراف**].

والاستفهام إنكارى لإنكار الواقع لا لإنكار الوقوع، والفرق بينهما أن إنكار الوقوع معناه النفى، وهو لا يصلح هنا، وأما إنكار الواقع فمعناه التوبيخ أبلغ التوبيخ على ما وقع، فقد وقع ذلك الأمر الغريب، وهو أنهم يكفرون أو يجحدون بالله بألا يعبدوه وحده، وهو الذى خلقهم، فأحياهم، وقد كانوا أمواتا، وذلك محسوس مرئى، وأوثانهم لم تصنع شيئا من هذا ولا يمكن أن تفعل.

ومعنى الموت الأول الذى يدل عليه قوله تعالى: ﴿**وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا**﴾ هو أنهم كانوا عدما ليست فيهم حياة، أو كانوا أجساما جامدة هى الطين، أو نطفا فى بطون الأمهات ثم مضغا مخلّقة وغير مخلّقة، فجعلكم أحياء.

وكيف يطلق على الجماد أنه ميت، مع أن الموت أمر نسبى تكون قبله حياة، ثم تسلب هذه الحياة فيكون الموت، والجماد لم تسبقه حياة، حتى يكون من بعدها موت؟.

ونقول فى الجواب عن ذلك: إن الموت لا يقتضى وجود حياة سابقة، بل يطلق على الجماد ذاته، فيقال: أرض موات، وأرض ميتة، وإحياؤها يكون بوجود الغيث وإنباتها النبات بإذن الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [يس]، وقال تعالى: ﴿رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق].

فقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾، أى كنتم لا حياة فيكم فأحياكم فخلق التراب ثم أنشأكم منه، فأحياكم فأفاض عليكم بالحياة، وهم قبل هذا الإحياء لم يكونوا شيئا مذكورا كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان] وقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ خطاب لهم بالانتقال من الغيبة إلى الخطاب، وهو دال على أن ذلك يعلمونه بالعيان والحس، لا بمجرد التصور والتفكر، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ و ﴿ثُمَّ﴾ هنا للتراخى؛ لأنه بعد الإحياء يعيش أجلا محدودا، ثم يموت، و ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾ [الرعد]، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بالبعث والنشور، ثم تكون القيامة، ثم إليه سبحانه ترجعون، وذلك هو مدلول قوله تعالى فى آية أخرى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا... ﴿١١﴾﴾ [غافر]، وإنه كما ذكرنا أخذ من الواقع الذى يحسونه، دليلا على وقوع ما ينتظرهم، وينتظرونه، وهو البعث، فإذا كان سبحانه وتعالى أنشأ من العدم حياة ثم سلبها، فإنه قادر على إعادتها، ولكنهم يؤمنون بالحس وحده، ولا يؤمنون بالغيب الذى لايحُسُّون.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وثم هنا للتراخى؛ أى بعد أن يقضوا حياتهم، ويموتوا ويدفنوا فى قبورهم يرجعون ليحاسبهم على ما قدموا من عمل، فإن خيراً فخير، وإن شرا فالعذاب.

وتقديم ﴿إِلَيْهِ﴾ على ﴿تُرْجَعُونَ﴾ للإشارة إلى أنه وحده هو الذى إليه يرجعون، لا إلى آلهتهم التى يتوهمون بأوهامهم فيها قدرة، ولا قدرة، فالرجوع إليه سبحانه وتعالى.

إن الله تعالى خلق الخلق، وأحياهم بعد العدم، ولم يتركهم، بل أنعم عليهم بالأرض وخيراتها، وكل ثمراتها، وسخر لهم مافى السموات والأرض، ومع ذلك كفروا بربهم الذى أولاهم الحياة، وأولاهم نعم الوجود؛ ولذلك قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

أى أنه سبحانه وتعالى خلق لكم معشر بنى آدم الأرض، وما فيها جميعا، خلق لكم كل ما فى الأرض من ثمرات وزروع تنبت بإذن الله تعالى، وما يستنبطون من فلزات، ومعادن سائلة وجامدة، خلق لكم جميعا، كل ما فى الأرض مما حوت بطونها، وجرت به أنهارها، ونزَّل من السماء ماءها.

ومعنى ﴿لَكُم﴾ اللام فيه للاختصاص أو التمليك، خلقه مملوكا لكم بتمليك ربكم، وهذا من آلائه ونعمه عليكم، أو نقول خلق وقدَّر وأنشأ كل ما فى الأرض جميعه، لأجل أن تنتفعوا به؛ تستطيبون طيباته، وتتركون خبائثه، وجاءكم بالشرائع التى تبين لكم الطيب فتتناولونه مباحا لكم حلالاً طيبا، وتبين الخبائث لتجتنبوها، فأنتم فى نعم الله دائما فى هذه الأرض، جعلها فراشا، وملأها بالنعم على ظاهرها، وفيما اكتنزته بطونها، وبين الطيب ليميز عنه الخبيث.

وهنا كلمتان لابد من ذكرهما:

أولاهما ـ ما قرره العلماء من أن هذه الآية تدل على أن الأصل فى الأشياء الإباحة إلا ما ثبت بالدليل منعه، فكل شىء مباح بحكم الإباحة الأصلية التى ثبتت بأن الله تعالى خلق للناس ما فى الأرض جميعا لينتفعوا به، وما كانوا لينتفعوا بهذه الأشياء إلا إذا كان قد أباحها، واستثنى الأكثرون العلاقة بين الرجل والمرأة ، فإنها على المنع إلا أن يكون السبب المبيح، وإن ذلك لا يمنع أن الأشياء مباحة فى أصلها، فالتنظيم بالزواج لا يمنع الإباحة.

وإن الأمر فيما، يطلبون متروك عند الإباحة إلى ما يجدون من متعة يستمتعون بها أو أمرا حسنا يستحسنونه، وهذا مبنى على أن الأشياء لها حسن ذاتى وقبح،

وهذا لا يستلزم أن يكون التكليف قائما على الاستحسان أو الاستهجان، إنما التكليف من أمر الله ونهيه.

الكلمة الثانية - أن قوله تعالى: ﴿ **جَمِيعًا**﴾ متعلقة بما فى الأرض أى أنه جميعه لكم معشر الناس، فليس لكم بعضه دون بعضه، بل هو لكم كله، لأجلكم، تنعمون به، وتعبدون الله تعالى على آلائه، فهو يؤدى إلى أن تكون هذه الملكية التى منحها الله تعالى لكم لتشكروها، ولتعبدوه بهذا الشكر، كقوله: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴿٥٦﴾﴾ [**الذاريات**].

ولا يتبادر إلى الذهن أنها تأكيد لقوله تعالى: ﴿**لَكُم**﴾. أى أن الله تعالى خلق الأشياء لكم جميعا، فلا ينفرد قبيل دون قبيل، ولا جماعة دون جماعة، ولا قوم دون قوم، ولا غنى دون فقير.

وإننا لا نرى ذلك - أولا: لأن ذلك بعيد فى اللفظ لأن التأكيد يكون للقريب، والقريب هنا هو ما فى الأرض كله للناس، يتخيرون منه، ولا يطلبون خبيثه، فلا يؤكد اللفظ إلا ما يقترن به من القول، فلا يفصل بين المؤكِّد والمؤكَّد، وعلى أى حال فإنه بمقتضى عموم قوله تعالى: ﴿**لَكُم**﴾ أن الخلق لكم كلكم، وهذه الكلية التى تعم الناس أجمعين ثابتة بعموم الخطاب، لا بلفظ ﴿**جَمِيعًا**﴾.

وليس معنى أن ما فى الأرض لهم كلهم، أن يتقاسموه، وأن يأخذوا الخير جميعهم مقسما، من غير تمييز بين عامل وخامل، ولا بين موفق وغير موفق، إنما لكل امرئ عمله، ولكل امرئ ما كسب.

ولا تقتضى الكلية أن يتساوى الناس فى أرزاقهم، فإن الرزق يمنحه الله تعالى لمن يعمل ويكسب، ولكن يتساوى الناس فى تمكينهم من الأرض، وكلٌّ وما يكسبه، والله هو الغنى الحميد.

وإنه كما ملَّك الله تعالى عبيده كل ما فى الأرض لكُلِّهم عاملين فيه جادين، سخر لهم ما فى السموات والأرض؛ ولذلك قال تعالى بعد أن ذكر نعمة الأرض عليهم بما فيها، قال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

استوى معناها قصد مرتفعا، أو ارتفع إلى السماء، وهى فى هذه الآية ما علا، وكان كالسقف المحفوظ، فسوى السموات سبعا أى جعلها سبعا؛ ولأن السماء، وهى الجهة العالية، كما أشرنا واحدة فى لفظها متضمنة السبع التى سواهن الله سبحانه وتعالى فى معناها؛ ولذا أعاد الضمير عليها بما يدل على الجمع الذى يشمل أفرادا متعددين.

والمراد من السموات السبع التى سواهن الله تعالى أى خلقهن، أو قسمهن وجعلهن سبعا متساوية، فمعنى سواهن: قسمهن بالتسوية سبعا، وهى مجموعات النجوم المتطابقة طبقة بعد طبقة، الواحدة أعلى من الدنيا وهكذا.

وكان الشائع بين علماء الفلك خمسا، لا سبعا، ولكن بعد عصر القرآن بنحو أربعة عشر قرنا إلا قليلا كشفوا بآلات الكشف الحديثة نجمين كوكبين دلا على أنها سبع، وهى: عطارد، والزهرة، والمريخ، والمشترى، وزحل، وكشف أورانوس ثم نبتون، وكل كوكب فى طبقة من السماء، والشمس والقمر ليسا من السبع، وهذا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح] فبمقتضى هذا النص تكون الشمس والقمر ليسا من السموات السبع اللائى عدهن القرآن الكريم، وإن كانتا فى السماء، وتسمى السبع المجموعة الشمسية، والشمس فى طبقة أعلى منهن.

وإن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ﴾، يدل بظاهره فى العطف بثم على أن السموات سويت سبعا بعد خلق الأرض، ولكن لا يدل على

ذلك دلالة قاطعة، فإن التعبير بثم يدل على الترتيب البيانى فى الذكر ولا يدل على الترتيب الواقعى، فإن الآيات قد تدل على غيره، وإنا نقرر أن الزمن لا يحكم أفعال الله تعالى؛ فكما أنه تعالى لا يكون فى مكان، فأفعاله تعالى فوق الأزمان.

ولقد جاء النص الكريم بأن الأرض أخذت من السماء، وكانتا رتقا، أو شيئا واحدا، كما قال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء].

ولقد قال تعالى فى بيان خلق السماء والأرض: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت].

وقد يقال: أنك نفيت الزمان عن أفعال الله تعالى، وقد ذكر سبحانه أنه خلق الأرض فى يومين، وأنه جعلها على ما هى عليه فى أربعة أيام، وأنه قضى السموات فى يومين، فكيف تنفى الزمان عن خالق الزمان والليل والنهار؟ ونقول فى جواب ذلك: إن اليوم ليس هو اليوم الذى نعده بالغروب والشروق بأن تدور الأرض حول الشمس دورة تبتدئ بشروق الشمس، وتنتهى بغروبها أو العكس، فإن ذلك تقدير نسبى بين الأرض والشمس، وما كانتا قد خلقتا، كما يدل صريح القرآن، إنما اليوم هنا المراد به الدور التكوينى، وإذا أردنا أن نتصور الدور التكوينى، فإننا نتصور على ضوء العلم أن الأرض انفصلت عن الكتلة الشمسية التى أشار إليها سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ... ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء] فهذا يوم، أى دور تكوينى، هو دور انفصال الأرض عن الكتلة الشمسية.

وعند هذا الانفصال تكونت بإرادة الله تعالى وقدرته القاهرة، وإرادته المسيطرة القشرة الأرضية، وهذا هو اليوم الثانى، أو الدور الثانى، وقد بين سبحانه وتعالى، الأدوار الأربعة بعد ذلك.

هذا وقبل أن ننتهى من القول تحت إشراق القرآن فى بيان الخلق والتكوين، نقول إن بعض المفسرين أو كثيرين منهم قال إن كلمة سبع سموات ، لا يراد بها العدد المحدود المذكور، إنما يراد بها الكثرة من الأعداد، كما فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧)﴾ [لقمان]، فإنه ليس المراد والله أعلم سبعة أبحر، إنما المراد عدد من الأبحر كثير.

ومثله قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ... (٨٠)﴾ [التوبة] فالسبع، والسبعون يراد بها الكثرة، ولا يراد بها عدد محدود بالسبعة أو السبعين.

وإن لذلك القول بجوار ما قلنا مكانه من الحق، فإن السماء ذات أبراج، وإن الشمس فى أعلى طبقاتها، وفوقها شموس، وفى السديم[1] عُلو لا يعلمه إلا الله تعالى.

ولقد ختم سبحانه وتعالى الآية الكونية بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أى أن الله تعالى خالق الكون وربه ومدبر أمره عليم به علم من لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء، وعلم من أنشأ وكوَّن وقدر ودبر، وقد ابتدأ العبارة السامية، بلفظ الجلاله لتربية المهابة فى نفس التالى للكتاب، وأكد علمه السرمدى، بثلاثة مؤكدات: بالجملة الاسمية التى تدل على دوام العلم وثباته؛ لأنه علم أزلى دائم لا يجرى عليه ما يجرى على الناس، وأكده سبحانه وتعالى بذكر

(١) السَّديمُ: الضبَّابُ الرقيق. [لسان العرب: الزاى - سدم، والقاموس المحيط: باب الميم - فصل السين].

الإحاطة التامة بكل شيء، وأكده سبحانه بذكر صفة من صفاته فقال: ﴿عَلِيمٌ﴾، سبحان من أحاط بكل شيء علما، وسبحان من عنت له الوجوه.

خلق الإنسان

ذكر سبحانه وتعالى خلق الأرض وتمليكه الإنسان حق الانتفاع بها، وأشار إلى خلق السموات فكان من بعد ذلك أن تكلم على خلق الإنسان الذى سخر له هذا الوجود الكونى، من أرض وسماء، فقال تعالت كلماته:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٠﴾

وقبل أن نتعرف القصة الحقيقية التى صورها القرآن لخلق الإنسان نذكر عوالم ثلاثة للعقلاء جاء ذكر بعضها فى بيان علاقة الإنسان فى خلقه وتكوينه بها.

وهذه العوالم الثلاثة هى: عالم الملائكة وهم خلق الله تعالى، قيل إنه سبحانه خلقهم من نور، وهم أرواح طاهرة مطهرة لا يعصون الله تعالى ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. لا يتصور منهم معصية ولا يكون منهم إلا الطاعة، ركب الله تعالى كونهم على أنه لا تتصور منهم معصية، فليست شهوات ولا أهواء، وهى بواعث العصيان.

والثانى من هذه العوالم: هو عالم الجن، وعبارات القرآن تدل على أنهم خلقوا من نار، وقد ذكر ذلك إبليس الذى هو من الجن، فقال فى غروره مفضلا

نفسه على آدم: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [ص]، وإبليس كان من الجن، ولكنه جن فاسق، فقد ذكر عنه ربه أنه ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ... ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف].

والجن يظهر أن فيهم أهواء وشهوات؛ ولذلك كان منهم العاصون، ومنهم العادلون المقسطون، وأنهم مكلفون، وأنهم سمعوا القرآن، وسمعوا من قبل توراة موسى، وقد قال تعالى فيهم.

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾﴾ [الجن] إلى أن يقول تعالت كلماته: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْسًا وَلا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾ [الجن].

والجن كما ذكر القرآن عالم غير عالم الملائكة، وغير عالم الإنسان، وتأويل القول فيهم أنهم من عالم الإنسان، وأنهم قبيلة منهم ـ تأويل بغير دليل، يخالف ظاهر القرآن، وليس لقائله من سند إلا أن يكون تحريفا للقول عن مواضعه.

والعالم الثالث هو: عالم الإنسان، وقد خلق من سلالة من طين، والعالمان الخفيان، وهما عالم الملائكة وعالم الجن، تدل الآيات الكريمات على أنهما خلقا

قبل العالم الثالث، وهو الإنسان، بدليل أن الملائكة ذكر الله تعالى لهم أنه جاعل الإنسان خليفة، وأنهم عجبوا أن يكون خليفة فى الأرض من يفسد فيها ويهلك الحرث، وبدليل أن أبليس الذى كان من الجن عصى ربه، فلم يسجد ، وقال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين.

والإنسان خلق فيه العقل المدرك الذى يرفعه إلى درجة الملائكة، وخلق فيه الشهوة والهوى اللذان يجعلانه مفسدا فيها ويهلك الحرث والنسل ، وذلك وجه استغرابهم.

ولنذكر القصة الكاملة الحقيقية التى يصور الله تعالى فيها خلق هذا العالم الثالث، وهو الإنسان.

أعلم الله تعالى الملائكة -وهم جمع ملك - بأنه سيجعل فى الأرض من يسكن ظاهرها، ويحكم فيها، وينسل فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، أى يكون ساكنا فيها بالخلافة عمن كانوا فيها، ولم يذكر سبحانه وتعالى من كانوا فيها أهم كانوا من الملائكة أم كانوا من الجن، أم كانوا خلقا آخر، ولقد ترك الله سبحانه وتعالى ذكر من خلفهم، فلنسكت عما ترك، ولا نرجم بالغيب، حتى لا نطلب ما ليس لنا به علم.

وقد يقال إن ﴿ خَلِيفَةً﴾ معناها الخلافة عن الله تعالى فى الأرض، بمعنى أن الله تعالى بما أعطاه من قوة العقل والتفكير والتدبير، والسيطرة على نفسه، وعلى ما فى الوجود، فى الأرض، التى خلفه الله تعالى عليها ليكون خليفة خلافة نسبية عن الله تعالى، والله تعالى غالب على كل أمره، وأموره.

قد يكون هذا هو الظاهر، أو أن ﴿ خَلِيفَةً﴾ معناه أنه وجنسه خلائف يخلف بعضهم بعضا، كما قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ . . . ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الأنعام].

وعندى أن ما أشرنا مرجحين له: وهو أنه خليفة عن الله تعالى وهي خلافة نسبية، ترك الله تعالى له الخلافة، ليبلوه فيما ملكه من منافع الأرض التى خلقها جميعا له.

ذكر الله تعالى لملائكته أنه جعل له تعالى خليفة فى هذه الأرض، ويظهر أن الله تعالى أعلمهم بطبيعة هذا العالم الثالث فى هذا الوجود من أنه أوتى عقلا مدركا، وشهوة قد تكون طاغية، وأنها إن طغت أفسدت، وأهلكت.

ولذلك قالوا لربهم مستغربين: أتجعل فيها من يفسد فيها، لأنه ركبت فيه الشهوة وإذا غلبت أفسدت؛ وإن الشهوات إذا تحكمت كانت الأثرة، وكان التنازع، ومع التنازع سفك الدماء، ولذا قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟! وقد كانوا مع اعتقادهم فى الإنسان ذلك الاعتقاد أشاروا إلى أنهم أولى منه بالخلافة فى الأرض من غير أن يعترضوا على الله تعالى فى حكمه، بل أبدوا استغرابهم من أن الله تعالى يتركهم إلى المفسد السافك للدماء، وهم المسبحون بحمد الله المقدسون له، . فقالوا مقابلين بين حالهم وحال الإنسان، ﴿**وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ**﴾ أى نحن نذكرك مديمين بحمدك على ما أنعمت، لأن ذاته العلية تستحق الحمد فى ذاته، ﴿**وَنُقَدِّسُ لَكَ**﴾ أى نعظمك وننزهك لك أنت. أى: لأجل ذاتك العلية.

يبين الله تعالى لهم، أن الله يعلم ذلك، فيعلم أحوالهم وأنهم فى تسبيح دائم، وتقديس ملازم، ولكن فى الإنسان ما يجعله جديرا بالخلافة فى الأرض ليبلوه فيما آتاه الله تعالى من خيرها، فهو يعلمه ويعلمهم، ويعلم الجدير منهم بأن يجعله فى الأرض؛ ولذلك قال تعالى ردا لاستغرابهم بقوله : ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ أعلم الجدير بما أعطى وغير الجدير.

وقد بيَّن الله تعالى ما أودعه نفس الإنسان من العلم بالأشياء أو الاستعداد للعلم بها، أو أودع نفسه الاستعداد بعلمه بالأشياء كلها مما لا يعلمون هم، فقال تعالى:

وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٣٣﴾

والأسماء هى الأشياء من قبيل ذكر الاسم وإرادة المسمى، إن جهل الملائكة بأسماء الأشياء وعلم آدم بها هو الأمر الذى ميز آدم على الملائكة، خلقوا للطاعة، ولا يعلمون طبائع الأشياء والوجود الأرضى إلا ما أعلمهم الله تعالى إياه، أما آدم فإن الله تعالى أودعه القدرة على العلم بالأشياء، وكان فى طبيعة نفسه التى أوجدها الله تعالى العلم بالأجناس أو مثلها. فالإنسان يولد وفى استعداده العلم بالمثل فى هذه الأرض كما قال تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ...** ﴿٧٨﴾ ﴾ [**النحل**].

بهذه الخاصة التى وهبها الله تعالى للإنسان، وهى الاستعداد للمعرفة والعلم بكل ما فى الأرض، فكان بذلك ممتازا على الملائكة ويتبعهم الجن.

ولقد أعلم سبحانه بهذا العلو عليهم، فأمرهم بالسجود له ، فقال تعالى:

وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾

كان إبليس عند أمر الله تعالى له مع الملائكة، ولنا أن نقول إنه ليس مما خلقهم تعالى من مادتهم، فإنه خلق من نار كما حكى الله تعالى عنه إذ قال: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (٥٠) ﴾ [الكهف].

وإذا لم يكن منهم، فإن الاستثناء يكون منقطعا، ولكن الخطاب موجه إليه لصحبته لهم. والسجود الذى أمر الله تعالى به ما هو؟ قال بعضهم: إنه الخضوع وهو يستعمل فى كلام العرب بمعنى التذلل والخضوع، وليس السجود الذى يعد من أركان الصلاة، ومن المعنى اللغوى قوله فى سورة يوسف: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ... (١٠٠) ﴾ [يوسف] أى دخلوا فى حكمه.

ولقد قال تعالى فى الخلق فى سورة أخرى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) ﴾ [الحجر] فهل يدل هذا على أنه كسجود الصلاة؟ الجواب عن ذلك أنه يدل على كمال الخضوع له سبحانه وتعالى، بما يدل على الخضوع الكامل بالانحناء له، وإذا كان يوهم أنه كسجود الصلاة، فليس عبادة لآدم ولكنه إطاعة الله تعالى : وإن كان آدم كالقبلة، فالعبادة تكون للآمر وهو الله تعالى لا لمن اتخذه كالقبلة وكان كأنما السجود له.

ومهما تكن حال السجود، والعلم الجازم بها عند الله تعالى، فإن الأمر به دليل على تكريم الله تعالى لآدم أبى البشر، وأن له اختصاصا بالتكريم على الملائكة الأطهار الأبرار، كما أمر الله تبارك وتعالى الذى خلق الفريقين، وميز بين العالمْين. وإبليس الذى كان من الجن خرج عن طاعة الله ففسق عن أمر الله مستكبرا بغير مسوغ للكبر؛ لأنه زعم أن أصل خلقه خير من أصل خلق آدم، فهو خلق من نار، وآدم خلق من طين، والله تعالى خالق المادتين، فهو يفاخر ويعاند بأمر خلقه الله تعالى الذى أمره بالسجود، فكان فى أشد أحوال الغفلة، وصح أن يقال فيه إنه أشد مَنْ خَلَقَ الله تغفيلا، وكذلك كان أتباعه من بعده، فهم فى غفلة عن الحق دائما.

ولقد وصفه الله تعالى بأنه كَفَر، وهو قد طغى فى كفره، وتعدى إلى معاندة الله تعالى فى أمره ونهيه، حتى لقد حكى الله تعالى أنه اعتزم الشر، وأراد فتنة بنى آدم، بل آدم نفسه، فقال عنه الله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء] وقال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص].

وإن الله تعالى بعد أن خلق آدم، قال الله سبحانه آمرا آدم، وكان قد خلق معه زوجه:

وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾

لم يذكر الله سبحانه مكان هذه الجنة، ولاحقيقتها، أهى فى السماء أم فى الأرض، أهى الجنة التى تكون جنة الخلد. أم هى حديقة فى الأرض، ومهما يكن فإنها جنة فيها رغد العيش وسعته.

ولم يذكر سبحانه وتعالى اسم زوجه، ولكنا علمنا من مصادر أخرى أنها حواء[1]، وأنه خلقها من نفس آدم، أو من جنس خلقه، فقد قال تعالى فى سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ... ﴿١﴾﴾ [النساء]، فحواء زوجة آدم من نفس خلقه أو خلقها الله تعالى من جنس نفسه.

أمر الله آدم أن يكون هو وزوجه فى الجنة ساكنين، وأن يأكلا منها موسعين على أنفسهما غير مضيقين، يأكلان رغدا أى من غير انقطاع، ولكنه نهاهما عن

(١) صرح النبى ﷺ بهذا الاسم فى الصِّحاح ومن ذلك ما رواه البخارى: كتاب أحاديث الأنبياء (٣٠٨٣)، ومسلم: الرضاع (٢٦٧٣). قال النووى: رُوِّينَا عَنْ ابْنِ عَبَّاس قَالَ: سُمِّيَتْ حَوَّاء لأَنَّهَا أُمّ كُلّ حَيّ.

شجرة من أشجارها . . ما هي وما كنهها؟ لم يذكر سبحانه وتعالى هذه الشجرة، ولكنه وإن لم يبينها لنا كانت معلومة عند آدم وزوجه؛ ولذلك كان إغراء آدم من شجرة معينة.

ابتدأ إبليس يتخذ طريق الغواية حاقدا حاسدا، فجاءهما من هذه التى أمر الله سبحانه وتعالى بألا يقرباها، وكان النهى عن القرب لا عن الأكل، لأنه أبلغ فى النهى عن الأكل، فالنهى عن القرب مبالغة فى عدم الأكل بالابتعاد عنها، وهنا كان الاختبار بهذه الشجرة، إذ حيث يكون الهوى فإنه يجر إلى العصيان.

جاءهما الشيطان من ناحية هذه الشجرة، وجاء الإغراء من النهى عن الأكل منها؛ ولذلك قال تعالى:

فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾

وترى فى الآية ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾، وعبر بالشيطان وهو إبليس لأنه ابتدأ يتحرك فاسدا مفسدا، وأزلهما معناها أوقعهما فى الزلل، ولقد ذكر سبحانه وتعالى النتيجة وهى أنه أوقعهما فى الزلل بأكلهما منه، وفصل سبحانه وتعالى عمل إبليس فى موضع آخر فى سورة الأعراف، فقد قال تعالى فى هذه السورة ما فعله بإبليس عندما عصى أمر ربه بالسجود إذ أخرجه منها، وقال بعد استكباره: اخرج منها فإنك من الصاغرين . . وقال لآدم: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ

وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأعراف].

ففى هذا النص الذى تدل عليه هذه الآيات الكريمات يبين سبحانه كيف كان الإغواء، وأنه جاء من جهة الترغيب فى الاستعلاء والبقاء، فأوهمهما أن النهى كان لكيلا يكونا من الملائكة، مع أن آدم سجدت له الملائكة، ولكنهما غفلا عن هذا، وأوهمهما أنهما يكونان خالدَين فى الجنة إن أكلا.

وكانت النتيجة من الأكل أن بدت لهما سوءاتهما بعد الأكل من الشجرة، وادعى بعضهم أن هذا يدل على أنها شجرة الشهوة، ولكن لا دليل، فيبقى أمر الشجرة غير معلوم.

والأمر الذى ترتب على الأكل فى آية البقرة وآية الأعراف هو الخروج من الجنة، والهبوط إلى الأرض، أى النزول من مكان أعلى منها، ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أى أمر التكوين كان لآدم وزوجه وإبليس، وقوله تعالى: ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، أى أن إبليس عدو لكم فاحذروه، وإنه وذريته ينفثون فى نفوس الناس الشر، فتكون العداوة الدائمة المستمرة، والتنازع والحروب.

﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أى الأرض التى خلقها، وخلق لكم ما فيها جميعا ستكون مستقرا أى موضع قرار دائم، لا أن تكون مسكنا تتركونه، ويكون فيها متاعكم إلى حين، أى إلى وقت أن تموتوا ثم تحيوا فيكون البعث والنشور، وهكذا كان الشيطان بعداوته طريق الخروج من جنة الله تعالى إلى أرضه.

وإن آدم أحس بأنه عصى ربه، وأنه ظلم نفسه، فألهمهما الله تعالى أن يقرَّا بالمعصية، وأن يطلبا منه سبحانه وتعالى غفران هذا العصيان ﴿**قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴿٢٣﴾﴾ [**الأعراف**]، هذه هى الكلمات التى تلقياها من ربهما كما قال تعالى:

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

وكما جاء فى سورة طه: ﴿**ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ** ﴿١٢٢﴾﴾ [طه].

هذه القصة الحقيقية فى خلق الله سبحانه وتعالى آدم، وهى تدل على ثلاثة أمور:

أولها: أن الله تعالى كرم آدم على خلقه من الملائكة والجن بدليل أنه سبحانه أمرهم بالسجود له.

ثانيها: أن الله تعالى خلقه ووهبه الاستعداد لمعرفة الأشياء، وبها امتاز على الملائكة، وبهذا الاستعداد للعلم، ومعرفته أسماء الأشياء سخر الله تعالى له ما فى السماء وما فى الأرض، وذلل له كل ما فى الأرض وما فى السماء.

ثالثها: أنه يؤتى من قبل أهوائه وما يغريه، وأن إبليس له عدو مبين، وأنه سلط على آدم، وسلط على بنيه من بعده، وأنه موسوس فى نفسه، فهو لا يتصل بحسه، ولكن يتصل بنفسه.

ولسنا نقول إن الجن وإبليس، هما وسوسة النفس، أو ما يحيك فى الصدر، ولكن نقول إن الجن مخلوقات موجودة، وإن إبليس موجود مخلوق، ولكن مع ذلك نقول إن إبليس وذريته من بعده يوسوسون فى النفوس بالشر، وإن كانوا يعجزون عن النفوس المؤمنة الطاهرة.

وإن إبليس وذريته يجيئون إلى النفوس من قبل الشهوات، والأهواء، وعلى المؤمن أن يسد مسام الشيطان.

الأرض موطن التكليف

خرج آدم وزوجه من الجنة، ولم يكن فيها تكليف إلا أمرهما بألا يأكلا من شجرة معينة، خرجا إلى هذه الأرض، وكان التكليف، وكان اختبار بنى آدم فيها، وعلى قدر ما يفعلون من خير يكون جزاء الخير، وعلى قدر ما يكسبون من إثم يكون جزاؤه، وفى كل نفس استعداد للخير، وللشر، والخير هو الأصل؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾ [الشمس] فكانت النفس الأمارة بالسوء بجوار النفس اللوامة فكان الاختبار بعد هبوط الأرض.

قال تعالى بعد قصة الخلق والتكوين:

قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٣٩

جاء التكليف عند نزول الأرض، وقوله: ﴿قُلْنَا﴾ معناه أنه أخرج من الجنة، وقال له تعالى بلسان التكوين: اهبطوا، والهبوط هنا معنوى أو حسى، والمعنوى أنهم نزلوا من الجنة حيث كان القرب من الملائكة الأطهار، وحيث كان العيش رغدا لا مشقة فيه، ولا جهد، بل هو راحة واطمئنان - إلى حيث اللغوب والمشقة، والمعترك الذى يكون فيه الغلب والقهر والانهزام، وحسى لأنه نزول من مكان عال إلى أدنى منه، والهبوط المعنوى ظاهر؛ ولذا نقتصر عليه، لأن الحسى غير ظاهر، وإذا كان الهبوط حيث التكليف فالجميع يهبطون: آدم وزوجه وإبليس، والتكليف على الجميع، فكل ينال أثر عمله.

وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ يدل على أن الله تعالى يرسل الرسل مبشرين ومنذرين، فالهدى الذى يجىء من قبل الله تعالى هو ما يكون بالرسالة الإلهية التى تكون عن طريق من يرسلهم الله تعالى مؤيدين بالمعجزات الظاهرة الباهرة.

وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا﴾ فيه «ما» زائدة فى الإعراب، وليست زائدة فى البيان؛ لأنها دالة على تأكيد الإتيان؛ ولذلك يكون بعدها تأكيد الفعل بنون التوكيد الثقيلة تأكيدًا وجوبيًّا عند أكثر علماء البيان، كالقسم لأن إما فى معناه، بيد أن هذه تأكيد لفعل الشرط، وهنالك تأكيد لجواب القسم - وإن معنى التأكيد لفعل الشرط أن مجىء الهداية ثابت ثبوتا لا مجال للريب فيه.

وتنكير هدى هنا للتعظيم والتكثير، فهو هدى يهدى إلى الحق، ويهدى إلى حياة قويمة مستقيمة، ويهدى إلى النفع الإنسانى العام، وإلى استخراج ينابيع الأرض مما فى باطنها، وإلى الفضيلة الإنسانية ، والعدالة فى كل نواحى الحياة.

وجواب الشرط فى قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ هو قوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ﴾ أى أن الذين يتبعون ما يجىء به النبيون من رسالات إلهية فإنهم يكونون طائعين خاضعين لأحكام الله تعالى ، محاربين للشيطان وإغرائه ووسوسته، ولا يعاقبون؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، وهو جواب ﴿فَمَن تَبِعَ﴾ لأنها هى الأخرى شرط، فكان جواب ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ جملة شرطية، أى فيها شرط وجواب، فقوله تعالى: ﴿فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ جواب شرط الثانية.

ومعنى ﴿فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أنهم يكونون فى أمن من عذاب الله تعالى، ولا يحزنون على أمر فاتهم، لأنهم سبقت طاعتهم، ولا يكونون فى حال حزن، بل فى سرور، وعلى سرر متقابلين.

وليسوا كالذين يخضعون لوسوسة إبليس، وإغرائه، فلا يطيعون، ويجحدون، ولذا ذكر عقوبة الأشرار بجوار ثواب الأخيار ليدرك أهل الحق الفرق بين الفريقين، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وكفروا معناها جحدوا أو ستروا ينابيع الإيمان فى قلوبهم، وأفسدوا فطرة الله تعالى، وكذبوا بآياتنا.

وآيات الله تعالى آيات كونية، وهى خلق السموات والأرض وكل ما فى الكون مما يدل على الله تعالى، وأنه خالق كل شىء، وآيات تجىء على أيدى الرسل الذين يجيئون بهدى الله سبحانه، وهى المعجزات التى تدل على أن حامليها رسل من عند الله سبحانه وتعالى العلى القدير، وآيات تتلى فى كتبه.

وقد كذبوا بكل هذه الآيا؛ ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أى طمس الله تعالى على بصائرهم فلا يدركون حقا، ولا يذعنون لدليل، ولو كان من عند العزيز العليم.

وكما ذكر سبحانه جزاء الذين اتبعوا الهدى، وآمنوا بالحق، وهو أنهم لا يخافون، ولا يحزنون، وذكر الخوف بقوله تعالى: ﴿فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أى لا ننزل بهم ما يوجب الخوف.

كما ذكر سبحانه وتعالى جزاء هؤلاء المتقين الذين ينتفعون بالآيات والعظات، ذكر جزاء الكافرين فقال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ذكر الله سبحانه وتعالى عقوبتهم فى الآخرة بهذا النص السامى، فابتدأ باسم الإشارة، وقد ذكرنا آنفا أن الإشارة إلى المذكور بصفات تكون الإشارة إلى الصفات، وفيها إيماء إلى أن هذه الصفات هى علة الحكم التالى الذى هو خبر اسم الإشارة، والحكم أنهم أصحاب النار؛ أى أنهم الملازمون للنار لا يفارقونها، ولا تتخلى عنهم

كما لا يتخلى الصاحب عن صاحبه، وذكر سبحانه وتعالى أنهم خالدون فيها، فقال تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، وقد أكد خلودهم فى النار بالجملة الاسمية، وتقديم الجار والمجرور، أى هم خالدون، وخلودهم مقصور عليها، فلا حول لهم ولا قوة.

بنو إسرائيل وكفرهم بنعم الله تعالى

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾

ذكر الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان، وذكر من قبل أوصاف الفاسقين التى فيها نقض الميثاق الفطرى الذى أخذه سبحانه وتعالى من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم، وأشهدهم.

بعد ذكر المنازعة التى أقامها إبليس عدوا لبنى آدم، وأن الله تعالى وعد أنه سيأتيهم بهدى من عنده برسل يرسلهم، وأن من اتبع هداه فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وهدد بالعذاب الشديد من يخالف ويعصى، بعد ذلك كله ذكر طائفة من العصاة اتسموا بكفران النعمة، وإنكارهم الحق وتلبيسهم الباطل به، فذكَّر بالنعم التى أنعم بها عليهم، وهم بنو إسرائيل الذين توارثوا ما أنكره الله تعالى عليهم من كفران للنعمة.

هم بنو إسرائيل، وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم جميعا السلام، فهم ذرية إبراهيم من فرع إسحاق، والنبى ﷺ فرع إبراهيم من إسماعيل الابن البكر له عليهما السلام، وقد وهب إسماعيل وإسحاق لإبراهيم على الكبر؛ ولذلك قال فيما حكاه عنه رب العالمين: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ** ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم].

وإن بنى يعقوب ذرية إبرهيم من إسحاق جعلهم الله تعالى صورا للإنسانية التى يختبرها سبحانه وتعالى بالنعم، فمنهم من يشكرها، ومنهم من يكفرها وهم الأكثرون، واختبرهم سبحانه بالنقم تنزل بهم بكفرهم، واستيلاء الشر عليهم، فكانوا بهذا مثلا واضحا للإنسان الذى يتسلط عليه إبليس فى النعم والنقم فإن اختبرهم بالنعم لم يشكروها وطغوا واستكبروا كما فعل إبليس، وإن اختبرهم بالنقم ذلوا واستكانوا؛ ولذلك كانوا مثلا للخاضعين لإبليس وهم فى نعمهم ونقمهم يحسدون الناس على ما أتاهم من فضله.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ النداء لأولاد إسرائيل من عهد موسى عليه الصلاة والسلام، ولكن المخاطبين هم الذين عاصروا النبى ﷺ، وخوطب من كانوا فى عصر النبى ﷺ بالنعم التى أنعم الله بها على بنى إسرائيل فى ماضيهم، مع أنهم لم يروها، فالذين عبدوا العجل ليسوا هم، والذين كان فرعون يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم ليسوا هم، ولا تزر وازرة وزر أخرى.

خوطبوا بكفرهم النعم ونقضهم الميثاق، لأنهم أمة واحدة، ويخاطب الحاضرون بمآثم الماضين إذا علموها وأقروها وساروا على مثلها، ولو أنهم ناقضوها، أو استنكروها، كعبد الله بن سلام وغيره، ما خوطبوا بأخطاء من سبقوهم، لأنهم لم يرضوا عنها ولم ينادوا بشرف الانتماء إليهم.

والنداء كما علمت للبعيد لأن النداء بـ «يا» يكون للبعيد، ويراد هنا بالبعد البعد المعنوى، وهو علو الله فى ندائهم، وناداهم ببنى إسرائيل تذكيرا بمقام يعقوب

وشرفه، وأنه كان ذلك النسب مقتضيا أن يكونوا فى مثل شرفه النبوى، وإيمانه وإذعانه وأن يكونوا عونا للخير، وأن يكونوا شاكرين لأنعمه مثله.

﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ ومعنى اذكروها، تفكروا فى أمرها، وما يوجبه، فإن ذلك التفكر فى مقدارها وفى مجيئها فى وقت الشدائد والغمة يحملكم على القيام بشكرها، وشكر النعم واجب بالعقل كما هى بدائه العقول، وإن الله تعالى أنعم عليهم بأن نجاهم من فرعون وطغيانه عليهم، ونجاهم باجتياز البحر، وقد انفلق حتى مروا فكان كل فرق كالطود العظيم،وانطبق على فرعون وملئه الذين ساموهم سوء العذاب وكانوا يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم، وأنعم عليهم فى الصحراء بالمن والسلوى يتغذون منه بأطيب الغذاء، وأنعم عليهم بأنهم استسقوا فانبجست من حجر ضربه موسى عليه السلام بعصاه - اثنتا عشرة عينا، لكل أناس مشربهم.

أنعم سبحانه وتعالى بهذه النعم كلها، وكان من شأنها أن تحملهم على الشكر والطاعة، ولكنهم وهم أهل حسد وحقد على الناس، اتخذوها ذريعة للكفر والطغيان، وحسبوها اختصاصا من الله تعالى وتدليلا، وقالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، فزادوا بالنعمة كفرا وطغيانا.

وكان الحاضرون فى عصر النبى ﷺ صورة للماضين يفعلون مثل ما كانوا يفعلون، ويرضون عما كانوا عليه، ويقولون مثل ما قالوا.

أمرهم سبحانه وتعالى عساهم يشكرون، ويعتبرون بما نزل من الأمور بمن سبقوهم، ثم أمرهم سبحانه من بعد هذا التذكير بالوفاء بالعهد، فقال تعالت كلماته: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ أخذ الله تعالى عهدا بمقتضى الفطرة، وهو أنه أخذ عليهم من ظهورهم ذريتهم أن يؤمنوا، وأخذ عليهم العهود والمواثيق فى عهد موسى، ومن جاء بعد موسى من النبيين، وأخذ عليهم العهد بألا يسفكوا

دماءً، وأخذ عليهم سبحانه وتعالى عهدًا موثقًا ببيان قدرة الله تعالى إذ نتق الجبل فوقهم فقد قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴿١٧١﴾ ﴾ [**الأعراف**] وصرح سبحانه وتعالى بهذا الميثاق وعهده لهم، فقال: ﴿ **وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ** ﴿١٢﴾ ﴾ [**المائدة**].

هذا عهد من العهود التى واثقهم الله تعالى عليها، عهد عليهم أن يقيموا الصلاة ويؤدوا العبادات وأن يؤمنوا بالرسل، وكان عهد الله تعالى أن يكفر عنهم سيئاتهم، وأن يدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار.

وقد أوجب الله تعالى على نفسه تفضلا، ورحمة وإنعاما كالإنعام المتوالى عليهم، والله تعالى لا يجب عليه شيء. يقرن القرآن الكريم وعد الله تعالى بوعيده، لقد وعدهم سبحانه بأنه يوفى بعهدهم بأن يكفر عنهم سيئاتهم، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار إذ أوفوا بعهده بأن عبدوه وحده، وآمنوا برسله ونصروهم، ولا شك أن ذلك ترغيب فى النعيم، ولكن النفوس لا تخضع للترغيب فقط، وخصوصا من كانوا على شاكلة بنى إسرائيل الذين لم تُجد فيهم النعم؛ ولذا أردف سبحانه الوعد بالنعيم - بالترهيب، فقال تعالى: ﴿**إِيَّايَ فَارْهَبُونِ**﴾ النون هنا تسمى بنون الوقاية التى تكون بين الفعل وياء المتكلم، والياء حذفت مع تقديرها فى الكلام: فارهبونى، وهذا تخويف بأشد صيغ التخويف والترهيب، وتخصيص التخويف بالله، وأنه لا يُخاف أحد سواه كما أنه لا يُعبد سواه.

وقد دل على التخصيص قوله تعالى: ﴿**إِيَّايَ**﴾ فهى دالة على التحذير، وفعلها محذوف تقديره مثلا احذرنى، كما تقول فى كلامك إياك إياك محذرا

مخوفا، فمعنى إياي: احذروني وحدى، فإن رحمتى يلحقها عذابى، وهى للمطيع، وعذابى للعاصى، وقوله: ﴿ فَارْهَبُونِ﴾ الفاء للإفصاح عن شرط مقدر تقديره: فإن كان من ترهبونه فارهبونى أنا وحدى؛ ولذلك كان الكلام فيه تأكيد للخوف من الله وحده أولا بذكر كلمة الله تعالى: ﴿وَإِيَّايَ﴾ الدالة على التحذير وتقديمها، وفى التقديم اختصاص وفى تكرار التخويف، وفى ذكر الفاء المفصحة عن شرط، وهى جوابه.

والرَّهَب: إبقاء الخوف فى النفس مع التحذير والتيقظ وتوقع العذاب الأليم.

هذا وفى الآية نص على وجوب الوفاء، وعلى شكر النعمة، وأنه لا يصح أن يخاف المؤمن أحدا غير الله تعالى، وقد أوجب الله عليهم الوفاء بالعهد فقال تعالى: ﴿ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾.

أخذ الله تعالى عهدا بأن يؤمنوا برسله، إذا أرسلهم الله تعالى إليهم مؤيدين بالمعجزة، ولا يكفروا بالرسل بعد أن يتبين الهدى؛ ولذا أمرهم بأن يؤمنوا بالكتاب الذى أنزله الله تعالى على محمد ﷺ، ولم يذكر الرسول ابتداء بل ذكر ما أنزل على ذلك الرسول، وإن الإيمان به يتضمن الإيمان بصدق محمد ﷺ، وذلك لأن ذات المنزَّل هو الحجة الدامغة، وهو فيما يدل عليه من علم حجة عليهم، لأنه مصدق لما عندهم فهو يحمل فى نفسه دليل صدقه، وذكره أخذ للحجة عليهم ابتداء وإذا آمنوا بالكتاب فقد آمنوا لامحالة برسالة من نزل عليه الكتاب الحكيم؛ ولأن ما نزل على محمد ﷺ هو الحق الذى لاريب فيه؛ فهو يدعو إلى تصديقه، وقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ بما يدل على أنهم إذا آمنوا بهذا الكتاب المنزل من عند الله يؤمنون بما عندهم، وأنهم إن كفروا به يكفرون بما عندهم.

وهذا يدل على أن الذى نزل على موسى، وبقى عندهم من تعاليمه يصدق ما فى هذا الكتاب، إذ التعاليم واحدة فى أصلها وفى لبها؛ ولذا قال محمد صلى الله تعالى عليه وسلم: «لو كان موسى بن عمران حيا ما وسعه إلا اتباعى»(١).

وإن التوراة التى نزلت على موسى فيها التبشير بمحمد ﷺ: ﴿**يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ ...** ﴿١٥٧﴾﴾ [**الأعراف**] وإن قوله تعالى: ﴿**مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ...** ﴿٤٨﴾﴾ [**المائدة**] وقوله فى هذا النص الكريم: ﴿**مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ**﴾ لا يدل على أن التوراة الحاضرة صادقة لم يعترها تحريف ولا تبديل، فإن القرآن قد نص على التحريف، إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿**يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ...** ﴿١٣﴾﴾ [**المائدة**] وقال تعالى: ﴿**وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ...** ﴿٧٨﴾﴾ [**آل عمران**] وإذا كانوا يريدون أن يستدلوا من القرآن على صدق ما عندهم، فليأخذوا به كله، لا أن يتعلقوا بحرف مما جاء فيه ويستدلوا به.

وإن معنى ﴿**مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ**﴾، أى ما بقى معكم من غير تحريف ولا تبديل وهو الرسالة الموسوية فى أصلها ومعناها من عبادة الله وحده، ومن إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، ومن تبشير بمحمد ﷺ، وهم يعلمون. كما قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ...** ﴿١٤٦﴾﴾.

وبعد أن طالبهم الله تعالى بأن يؤمنوا بما أنزل من كتاب بين لهم أنهم جديرون بأن يسارعوا إلى الإيمان لمعرفتهم ما جاء فيه من الحق، وأن يكونوا أسوة للمشركين الذين لم يؤتوا علم الكتاب، ولم تكن لهم البينات التى عندهم، فقال سبحانه: ﴿**وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ**﴾، أى: لا تكونوا أول من يكفر به.

وأول «أفعل» فى وزنه، والبصريون يقولون إنه لا فعل له، والكوفيون يقولون إن له فعلا، هو من وأل إذا نجا، فـ «وأل» فعل بمعنى نجا وخرج ومنه اشتق أول.

---

(١) أخرجه أحمد: ما فى مسند المكثرين (١٤٠١٤)، والدارمى: المقدمة (٤٣٦) بنحوه..

وهنا مسألتان نتكلم فيهما قد تبينان ناحية من نواحى الآية الكريمة:

الأولى - أن الله تعالى يقول: ﴿وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ والخطاب لجماعة لا لواحد، فالظاهر من سياق القول أن يقال أول الكافرين به، ولكن الله تعالى اختار التعبير بالمفرد، على تقدير الفريق، والمعنى لا تكونوا أول فريق يكفر به، أى لاتكونوا أول من يجتمع على الكفر به، باعتبارهم موحَّدين فى الفكرة والغاية، وأنهم يتضافرون فيما يفعلون، وإن المراد تقبيح أن يقع منهم فعل الكفر، أو أن يقع فيهم الكفر، لأنهم أهل علم بالنبوة،وفى ذلك إغراء لهم بالاتباع وحث لهم على الإيمان لأنهم أولى به وأجدر.

الثانية - أنهم إن كفروا فلن يكونوا أول الكافرين لأن قوما من قريش قد كفروا به من قبل فى مكة، وهذه الآية فى سورة مدنية فكيف ينهون عن أن يكونوا أول كافر به، ونقول: إننا فسرنا أول كافر بأول فريق يكذب به، وإن قريشا لم يكفروا على أنهم فريق، بل كفروا به آحادا، ثم كان منهم من يؤمن، وقيل إن المراد أول كافر به من أهل الكتاب.

ومهما يكن من تخريج، فالآية الكريمة تحث على المسارعة فى الإيمان، وأن يكونوا أول الجماعة المؤمنة.

قوله تعالى: ﴿وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ أى لاتستبدلوا بآياتى القائمة المبينة للحق، وتتركوها فى نظير أى أمر من الأمور، فهو مهما يكن ثمن قليل بالنسبة للآيات البينات الدالة على الحق؛ لأن الحق أغلى ما فى الوجود، فإذا ترك فإن ثمن تركه لا يمكن أن يكون فى منزلته، والتنكير فى قوله تعالى: ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ للدلالة على أن أى ثمن - مهما يكن - قليل بالنسبة لذات الحق، وأنهم كانوا يتركون الحق لمآرب دنيوية، وهو السلطان والغلب والمفاخرة، وغير ذلك مما تدفع إليه أهواء أهل الدنيا.

وبعد ذلك التحريض والحث على الاتباع، وبيان أنهم إن اشتروا بالحق شيئا فهو ثمن قليل، بعد ذلك حذرهم من ترك الحق، وخوفهم من عاقبة هذا الترك، فقال: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ تحذير من المخالفة بالتقوى والخوف من الله سبحانه وتعالى والمعنى: وإياي فاحذروا ﴿فَاتَّقُونِ﴾ النون هنا نون الوقاية التى تكون بين الفعل وياء المتكلم، والفاء جواب عن شرط مقدر أفصحت عنه، والمعنى إن كان هناك من يتقى عذابه ومن يجب أن تكون وقاية بينكم وبينه، فاتقونى أنا وحدى، أى اجعلوا بينكم وبين عذابى وقاية تقيكم من عذاب النار.

أمرهم سبحانه وتعالى أن يؤمنوا بالحق وهو الكتاب الذى أنزل مصدقا لما معهم، وهو القرآن الذى نزل على محمد ﷺ وإن الأمر بالإيمان بالقرآن أمر بالإيمان بمن نزل عليه القرآن.

وإن اليهود من دأبهم التمويه، ليصلوا من وراء ذلك إلى باطلهم؛ ولذا قال تعالى ناهيا لهم: ﴿وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

اللبس معناه الخلط ومزج شيئين بعضهما ببعض، حتى لا يميز أحدهما عن الآخر، ولبست الحق بالباطل أى خلطت بينهما، بحيث لا يميز الحق عن الباطل الذى اختلط، فلا يدرك إلا مشوبا بالباطل، فلا يكون الحق واضحا لا تحوطه الريب والظنون، ويقال إن الرجل ملبوس عليه إذا اختلط عليه الحق بالباطل، ولقد روى عن على كرم الله وجهه لبعض صحابته: (يا حارث إنه ملبوس عليك، إن الحق لا يعرف بالرجال اعرف الحق تعرف أهله).

واليهود قد غيروا فى كتبهم، فلبسوا الحق بالباطل فنهاهم الله عن ذلك، وقال تعالت كلماته: ﴿وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ وقد روى عن عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما فى تفسير هذه الآية أن معناها : لا تخلطوا ما عندكم من الحق في الكتاب بالباطل، وهو التغيير والتبديل.

والمعنى الجملى للنهى، لا تخلطوا الحق الذى جاء فى شرع موسى عليه السلام بالباطل الذى تخترعونه وتكتبونه بأيديكم، كما توهمتم فى التوراة التى بأيديكم من أن هارون عليه السلام عبد العجل مع الذين ضلوا منكم، فهم يخلطون بين الحق والباطل، فيلتبس الحق، وتختفى معالمه، فنهاهم الله تعالى عن ذلك، ونهاهم عن أمر آخر، يقع منهم، وهو أن يكتموا ما أنزل الله تعالى، فإنهم يعملون عملين: **أولهما**: أن يخلطوا الحق بالباطل، فلا يدرك الحق على وجهه، ولا يعرف صريحه مما اختلط به، وكذلك شأن المضللين يأتون ببعض الحق، ويخلطونه بالباطل، فيختفى نور الحق ببهرج الباطل. **الثانى**: أنهم يكتمون الحق الذى لا التباس فيه، ولم يستطيعوا أن يخلطوه فيكتموه ككتمانهم البشارة بمحمد ﷺ، وكتمانهم تحريم الربا وقد نهوا عنه، وغير ذلك مما حرم كتمانه، وكاستباحتهم ما حرم عليهم يوم السبت، وغير ذلك .

وقد نعى الله تعالى عليهم ذلك الكتمان للحق، فقال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾**﴾ [البقرة].

وإنهم إذ يكتمون الحق من الكتاب يفعلونه متعمدين قاصدين التضليل؛ لأنهم يعلمون ما يلبسون به الحق بالباطل، ويعلمون ما يكتمونه؛ ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿**وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ الحق فيما لبستم به، وتعلمون الحق الذى كتمتموه قاصدين كتمانه.

وقوله تعالى: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾.

قوله تعالى: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ**﴾ معطوف على قوله: ﴿**وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ**﴾ أو بالأحرى معطوف على قوله تعالى: ﴿**اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ**

عَلَيْكُمْ﴾ فقد أمرهم تعالى بأوامر متعاقبة بعضها مترتب على بعض، أولها أن يذكروا نعمة الله تعالى ليتدبروا ويتفكروا ولعلهم يشكرون هذه النعم، ولا يكفرونها، ثم أمرهم سبحانه بأن يوفوا بالذى عاهدهم عليه، وأن يوفى لهم بعهده بأن يكفِّر عن سيئاتهم، ويدخلهم الجنة، ثم حذرهم وأرهبهم، ثم طالبهم بأن يؤمنوا بما أنزل من الكتاب الذى يصدق ما معهم، وألا يكونوا أول كافر به، ثم حذرهم، وشدد فى أمرهم بالتقوى ثم نهاهم عن أن يخلطوا الحق بالباطل، وألا يكتموا الحق الخالص.

ثم بعد أمرهم بالإيمان أمرهم بالصلاة التى هى لب الإيمان، وهذه الصلاة نزل بها الكتاب الكريم الذى جاء مصدقا لما معهم، وهى الصلاة التى أمر بها النبى ﷺ، وعلمها، وقال: «صلوا كما رأيتمونى أصلى»[1]، لأنها لازمة الإيمان بالقرآن الذى أمر بالإيمان به، وأمر بالزكاة، وبذلك أمر بركنى الإسلام، وشعبتيه، وهما تهذيب الروح بالصلاة، ومثلها الصوم، والثانى قيام بناء اجتماعى متعاون فأمر بالزكاة، وبقية العبادات بل التكليفات كلها لا تخرج عن هاتين الشعبتين: تهذيب الروح، وربط المجتمع بالتعاون الوثيق.

ثم قال تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ وذلك إما بالاندماج بالصلاة فى جماعة المسلمين، والائتلاف معهم فى جماعاتهم، وإما بالخضوع المطلق لله رب العالمين، ولعل المراد باركعوا مع الراكعين الأمران معا وهو الصلاة فى جماعة، والخضوع بالائتلاف مع الراكعين، والاندماج فيهم، والله تعالى أعلم.

(١) بهذا اللفظ هو رواه البخارى: كتاب الأذان (٥٩٥)، عن مالك بن الحويرث رضى الله عنه.

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

هذا خطاب لبنى إسرائيل فى أمرٍ يفعله علماؤهم، ويرضى به سائرهم، فيلامون جميعا عليه، وهو خطة يسير عليها أسلافهم، ويرضى عنها أخلافهم، فصح أن يخاطب بها جميعهم، إذ هو عيب فيهم سلفا وخلفا، وهو عيب الناس إذا ضعف وازع الدين، وغلب عليهم حب الدنيا، وهو أن يأمروا الناس بالحقائق الدينية، ويدعونهم إليها، ولا يأخذون بهديها، وتلك إحدى صفات النفاق، وهى شأن الذين يلبسون الحق بالباطل، ويكتمون ما أنزل الله تعالى، فيكون قولهم مخالفا لفعلهم ﴿ **كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ** ﴿٣﴾ ﴾ [الصف].

كان أحبار اليهود فى كل أدوارهم عندما صار التدين شكلا لا روح فيه، ومظهرا لا حقيقة له كانوا يذكرون للناس حقائق دينية، لا يعملون بها، ويعلنون أمورا فى نجواهم ينكرونها فى جهرهم ، فكانوا يقررون أن أوصاف النبى ﷺ فى كتبهم، وينكرونها أمام النبى ﷺ وأصحابه لكيلا يحاجوهم بها عند ربهم، وكأنه سبحانه وتعالى لا يعلم خفى أمرهم .

ولذا خاطبهم الله سبحانه وتعالى مستنكراً تلك الحال فيهم؛ لأن من فعلها منهم لم ينكرها سائرهم، والاستفهام هنا إنكارى لإنكار الواقع، أى أنه كان منهم،

ويستنكره الله تعالى عليهم، وإنكار الواقع توبيخ، وبيان أنه لا يصح، ولا ينبغى أن يكون، والبر هو الخير، وهو ضد الإثم، والنبى ﷺ عرف الإثم بأنه «ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس»(١).

والنص استنكار لحالهم من أنهم يأمرون الناس بالخير، وينسون أنفسهم، أى يتركونها من غير توجيه إليه، ويكونون بمنزلة من ينسونها، ولا يفكرون فى أمرها، مع أن دواعى التذكير والتفكر فى ذات أنفسهم قائمة لأنهم يتلون الكتاب؛ ولذلك قال تعالى فى هذا النص السامى: ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ أى وأنتم تجددون تلاوته آنا بعد آن، فالاستنكار للحال التى يجتمع فيها الأمر بالخير والحث عليه مع ترك أنفسهم لا تفعلها، وكأنهم نسوها ولم يذكروها، والمذكر دائم مستمر، وليس الاستنكار للبر مجردا عما لابسه من حالهم، لأن الأمر بالبر فى ذاته ليس بمستنكرٍ، ولا يمكن أن يكون مستنكراً؛ لأنه دعوة إلى الحق، ولا تنكر الدعوة إلى الحق فى ذاتها.

وإن حالهم من دعوة إلى الحق مع نسيان أنفسهم، وتركه مع استمرار التذكير به، وكان ينبغى مع التذكير التذكر - لا يغفله الذين يفكرون ويعملون عقولهم؛ ولذا قال سبحانه: ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ والاستفهام هنا للتنبيه إلى مناقضة حالهم للعقل المدرك.

والعقل مصدر عقل بمعنى منع، ثم أطلق على ما يكون به الإدراك السليم لأنه يمنعه من القبيح، ويعقله ويقصره على الجميل، ومعنى الاستفهام، أن حالهم هى حال من لا عقل له ولا إدراك، و(ألا) هنا - كما ذكرنا - للاستفهام والتنبيه إلى نفى ما وراءه، والفاء فاء السببية أى بسبب هذه الحال يحكم عليهم بأنهم لا يعقلون، وأخرت الفاء عن الهمزة لأن الاستفهام له الصدارة، فهى مؤخرة عن تقديم.

---

(١) رواه مسلم: كتاب البر والصلة (٤٦٣٢)، وأحمد: مسند الشاميين (١٦٩٧٣). من حديث نواس بن سمعان الكلابى الأنصارى. وبنحوه رواه الترمذى والدارمى.

وقد أشرنا إلى أن المستنكر هو الحال المجتمعة من دعوة إلى الخير وعدم العمل مع التذكير الدائم، أما الأمر نفسه فلا إنكار فيه، وقد تكلم الناس فى أن من وقع فى المعاصى أيجوز له أن ينهى عنها ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، أم يطهر نفسه من المعاصى، ثم يتولى الإرشاد؟.

إن الحق أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب بنفسه، تركه معصية كغيره، ووقوعه فى معاص غيره لا يسوغ له أن يتركه، فيقع فى معصية الترك، نعم إن الموعظة نصابها الألفاظ، كما قال الغزالى فى إحدى رسائله، ولكن الموعظة فى ذاتها لا تحتاج إلى نصاب، وقد قال سعيد بن جبير التابعى، الشهيد فى الحق الآمر بالمعروف: إذا كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يكون ممن يقع فى معصية، فلن يكون هناك داع إلى الخير. ولكن مع ذلك يجب أن يروض المؤمن نفسه دائما على ألا ينهى عن أمر يقع هو فيه، فيمتنع عن النهى عن المنكر، ولكن يمتنع عن أن يقع فيما نهى عنه، كما حكى الله عن نبيه شعيب عليه السلام: ﴿**وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴿٨٨﴾﴾ [هود].

وإن الواعظ الذى لم يكن يتعظ بوعظه يحاسب على إهماله بأكثر مما يحاسب عليه غيره، ويحاسب أشد من كان يعلم الحق ولا ينطق به، فيُحرم الموعظة والاتعاظ ويحاسب من بعد حسابا عسيرا، ولقد روى عن رسول الله ﷺ: «إن الله يعافى الأميين يوم القيامة ما لا يعافى العلماء»(١) وروى: أنه «يغفر للجاهل سبعين حين يغفر للعالم مرة واحدة، ليس من يعلم كمن لا يعلم»(٢).

---

(١) رواه أبو نعيم فى الحلية، من حديث عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه عن سيار بن حاتم بن جعفر بن سليمان الضبى عن ثابت عن أنس، «والضياء» المقدسى فى المختارة من هذا الطريق «عن أنس» بن مالك.
(٢) الترغيب والترهيب - الترهيب من أن يعلم ولا يعمل بعلمه ج١ ص٧٢..

هذه عيوب من يأمرون بالخير، ولا يأتمرون به ومن ينهون عن الشر، ولا ينتهون عنه، ولكن كيف تربى النفس على أن تكون متعظة قبل أن تعظ؟ ذكر الله سبحانه وتعالى الدواء؛ وهو الصبر، والصلاة، فقال تعالى: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ**﴾. الاستعانة طلب العون، والمساعدة، وفى استعمال القرآن أنها إذا كانت للمعين تعدت بغير باء، كقوله تعالى: ﴿**وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ۝﴾ [**الفاتحة**] وفى الدعاء «اللهم إنا نستعينك ونستهديك ونستغفرك ونتوب إليك»، وإذا كانت الاستعانة بما تكون به الإعانة كانت بالباء، فيقال نستعين بكذا لفعل كذا، وهكذا نجد بالاستقراء استعمال القرآن.

وهنا الاستعانة بشيء ولذا تعدت بالباء فقال تعالى: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ**﴾ أى استعينوا على تربية نفوسكم لتكون متعظة فاعلة الخير، آمرة به ولا يتجافى فعلها عن قولها. ﴿**بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ**﴾ والصبر ضبط النفس وسيطرة الإرادة، على الهوى، وسيطرة العقل على الشهوة، فإنه إذا سيطرت الإرادة والعقل والفكر المستقيم انقمعت الشهوات، وإذا انقمعت استقامت النفس، وكان التنسيق بين القول والعمل، وقذف الله فى القلب بنور الحكمة، والقول الطيب، والعمل، وكل ما فى الحياة يحتاج إلى الصبر، فالجهاد قوته فى الصبر، وكما قال النبى ﷺ: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»(١)، ونقص الأموال والأنفس والثمرات إنما يكون بالصبر. كما قال تعالى: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ** ۝١٥٥ **الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ۝١٥٦﴾ [**البقرة**].

ويقول الفاروق الإمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الصبر صبران صبر على المصيبة، وهو حسن، وصبر عن المعاصى وهو أحسن(٢). فالصبر على المعاصى، هو السيطرة على الأهواء والشهوات، وهو تهذيب النفس وتقويمها.

---

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخارى: الجنائز (١٢٠٣). مسلم: الجنائز (١٥٣٤).

(٢) رواه ابن أبى حاتم. [جامع الأحاديث والمراسيل (٢١٨٨) مسند عمر بن الخطاب ج١٤ ص٩١].

هذه كلمات موجزات فى الصبر، وهو طريق السيطرة على النفس؛ ولذا أمرنا الله تعالى بالاستعانة به.

أما الصلاة فإنها بما اشتملت عليه من ركوع وسجود وقراءة، وخشوع، واستحضار لعظمة الله تعالى وإحساس بأنه فى حضرته وواقف بين يديه سبحانه وتعالى تنفعل نفسه فى وجودها بحضرته، بأوامره، ونواهيه، وطلب مرضاته. ولقد قال تعالى: ﴿**اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ...** ﴿٤٥﴾﴾ [**العنكبوت**] ولقد كان النبى ﷺ «إذا حزبه أمر صلى»[1] وكان يأمر بالصلاة، من كان به وجع ليصبر وينسى ألمه، فيقول ﷺ: «قم فصل فإن الصلاة شفاء»[2] لأنه يكون فى مناجاة بينه وبين ربه، فينسى الدنيا وما فيها ينسى ألمه ووجعه، وهمومه.

وإن الصبر والصلاة تجعلان النفس تتغلب على المحن، كما تتغلب على الإحن، فيلقى الله تعالى بقلب سليم، قال تعالى: ﴿**وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** ﴿٣٤﴾ **وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** ﴿٣٥﴾﴾ [**فصلت**].

وإن الاستعانة بالصبر والصلاة ليست أمرا هينا لينا، ولكنها أمر عظيم خطير، لا يتلقاها إلا النفوس القوية ذات العزيمة الحازمة؛ ولذا قال تعالى: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ**﴾.

الضمير فى قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّهَا**﴾ قيل إنه يعود إلى الضمير المنسبك من ﴿**اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ**﴾، لأن الصبر والصلاة الحقيقية أمران كبيران خطيران

---

(١) رواه أبو داود: الصلاة (١١٢٤)، وأحمد: باقى مسند الأنصار (٢٢٢١٠) عن حذيفة رضى الله عنه.

(٢) رواه ابن ماجه: الطب (٣٤٤٩) وأحمد: باقى مسند المكثرين (٨٧٠٥)]. وفى الزوائد: فى إسناده ليث، وهو ابن سليم.

عظيمان يسيران بالنفس فى مدارج الكمال النفسى والروحانى، فيكون الانسجام بين القول والعمل، ولكن قد يقال إن المصدر غير موجود، والضمير يعود إلى أقرب مذكور، فعوده إلى الصلاة أقرب وأظهر، ولذلك قال الأكثرون إنه يعود إلى الصلاة.

ولا شك أن الصلاة إذا أديت على وجهها باستحضار عظمة الله والشعور بأنه فى حضرته سبحانه وتعالى، حتى كأنه يراه ويخاطبه بقرآنه عندما يتلو آياته، وأنه عندما يقول : إياك نعبد، وإياك نستعين يحس بأنه فى حضرته، وأنه يخاطبه، وأنه يناجيه، فمقام ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ [الفاتحة] مقامٌ، لا يندرج فيه إلا الخاشعون.

والخاشع هو الخاضع المتطامن الساكن الذى لا يتحرك لشهوة، والخشوع مظهر الخضوع الذى يظهر فى الأعضاء والجوارح، ولذلك يسند إليها فيقول تعالى: ﴿ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا ۝ ﴾ [طه] فالخشوع خضوع كامل فى النفس والجسم، وأصله فى القلب؛ قال عمر لشاب قد نكس رأسه فقال له: «يا هذا ارفع رأسك فإن الخشوع ما فى القلب»(١). وقال على كرم الله وجهه: الخشوع فى القلب، وأن تلين نفسك للمرء المسلم، وألا تلتفت فى صلاتك(٢).

وقد ذكر سبحانه أثر الخشوع فى القلب والعقل والنفس، فقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾.

عرف الله سبحانه وتعالى الخاشعين بأخص صفات المؤمن، وهو الإيمان بالغيب، لأنه فرق بين الإيمان والإسلام والزندقة، وإن أبلغ الإيمان بالغيب تأثيرا

(١) جامع الأحاديث والمراسيل (٢٧١٢) - مسند عمر بن الخطاب ج١٤ ص١٦٧.
(٢) هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. [المستدرك للحاكم (٣٥٢٩) - شرح معنى الخشوع - ج٢ ص٤٢٦]. ورواه عبد الله بن المبارك، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبو القاسم بن منده فى الخشوع.

في النفس الخاشعة الإيمان بلقاء الله تعالى الذى يجازى المحسن بإحسانه، والمسيء بجزاء ما يعمل، ولذلك ذكر إيمان الخاشعين بلقاء الله تعالى فقال تبارك وتعالى: ﴿**الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ**﴾ الظن يطلق بمعنى العلم الراجح، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ** ﴿٣٢﴾﴾ [**الجاثية**] ويستعمل الظن بمعنى اليقين: ﴿**وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا** ﴿٥٣﴾﴾ [**الكهف**]، وقوله تعالى: ﴿**إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ** ﴿٢٠﴾﴾ [**الحاقة**].

والظن بمعنى العلم اليقيني، ولكن التعبير عن العلم بالظن يفيد مع اليقين توقع الأمر المعلوم، فمعنى ﴿**الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ**﴾، أنهم يتوقعون هذا اللقاء وقتا بعد آخر، فهم يؤمنون إيمانا صادقا بلقاء الله، ويترقبون ذلك اللقاء، وينتظرونه متوقعين له، فيقينهم يقين المتوقع المترقب، فيكون فى قلوبهم دائما ويستعدون له بعمل صالح يقدمونه رجاء أن يغفر لهم وأن يتغمدهم برحمته، ويكفر عنهم سيئاتهم.

والتعبير بـ ﴿**رَبِّهِمْ**﴾ فيه شعور بنعمه تعالى عليهم ، لأنه هو الذى رباهم وأنشأهم وتعهدهم فى الوجود، كما يتعهد المزارع زرعه بالسقى والإصلاح.

ويؤمنون مستيقنين متوقعين أنهم إليه وحده راجعون، وتقديم ﴿**إِلَيْهِ**﴾ للدلالة على أنه وحده الذى يرجعون إليه ويجزيهم بالإحسان إحسانا وأنه الغفور الرحيم.

هذا الذى مضى من القول الكريم من قوله تعالى: ﴿**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ**﴾ خطاب لبنى إسرائيل الحاضرين منهم والماضين باعتباره واقعا منهم فى حاضرهم وماضيهم، وهو يصلح خطابا لبنى إسرائيل وغيرهم لما فيه من توجيه وتهذيب وإصلاح بين الناس، وبه تستقيم أمورهم فى معاشهم ومعادهم.

ذكر الله تعالى بعد ذلك بنى إسرائيل بنعمه عليهم، فقال تعالى: ﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾.

تكلمنا فى ماضى قولنا فى معنى النداء بيا بنى إسرائيل، وأشرنا إلى النعم التى أنعم الله بها على بنى إسرائيل، وقد ذكر نعمة لم يذكرها سبحانه وتعالى فيما مضى من قوله الحكيم، وهو أنه سبحانه وتعالى فضلهم على العالمين، والعالمون جمع عالَم كما ذكر من قبل، ويراد أهل العقل والتفكير فى هذه الأرض.

والتفضيل ليس تفضيل ذواتهم على غيرهم كما توهموا هم، ودلاهم غرورهم، فزعموا أنهم صنف الله المختار، ودلوا على الناس بذلك بل دلوا على الله تعالى وقالوا نحن أبناء الله وأحباؤه، وأكلوا الحقوق، وعاملوا غيرهم بكل أمر ليس فيه خلق ولا دين، وقالوا ليس علينا فى الأميين سبيل.

ليس التفضيل لذواتهم إنما الفضل الذى اختصهم الله تعالى به فى جيلهم أنه جيل فيهم أنبياء، ودعاهم أولئك الأنبياء إلى التوحيد لله سبحانه وتعالى، فقد كانوا موحدين كما دعاهم موسى ومن جاء بعده من الأنبياء فى وسط وثنيين، فكان كل من حولهم وثنيين؛ فالمصريون وثنيون يعبدون الشمس ومن دونها، والفرس يعبدون النيران، والروم يعبدون الأوثان، واليونان من قبلهم على شاكلتهم، والبابليون يعبدون الكواكب، وهكذا كان جيلهم الأول جيل موسى، وحين نزول التوراة على موسى.

اختارهم الله تعالى أن يكونوا قوم موسى، وأن يكون التوحيد فيهم، وكان مقامهم يمكنهم من أن يدعوا إلى التوحيد؛ لأنهم كان مقامهم فى وسط تلك الأراضى التى كان يسكنها الوثنيون.

وإن ذلك التفضيل نعمة أنعم الله تعالى بها عليهم، وأنها توجب شكرا، وتحملهم تكليفا، أما الشكر فلأن شكر النعم واجب بحكم العقل، وبحكم التكليف الإلهى وقد كفروا بأنعم الله تعالى، وأما التكليف الذى حملوه فهو الدعوة إلى الوحدانية ولم يقوموا بحقها، بل إنهم اعتبروا اليهودية جنسا، ومن دخل معهم فى

ديانة موسى عليه السلام من غيرهم كالسامرة لم يعترفوا به، وبذلك ضلوا ضلالا بعيدا.

ولقد أخذ بعد ذلك سبحانه يذكر موجبات التفضيل وغايته فقال تعالى: ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ** ﴾.

﴿**وَاتَّقُوا**﴾ أى اجعلوا لكم وقاية تقيكم عذاب يوم شديد الهول، فيه العذاب الشديد، ولا ينفع نفسا إيمانها إن لم تكن آمنت من قبل، وهو يوم القيامة، وقال سبحانه: ﴿**يَوْمًا**﴾ بالتنكير لتذهب النفس مذاهب شتى فى تصوير هوله، والإبهام وحده يوجد رهبة، ويشعر بالتهويل، وبأنه لا يحد عذابه وصف، ولا هوله ذكر، وإن ذلك اليوم الذى اتقاؤه بالعمل الصالح والقيام بالحقوق التى للغير، وأداء الواجبات التى عليه، يتقدم فيه الإنسان منفردا إلا من عمله، لا يجزيه إلا عمله إن خيرا فخير، ولا تجزى فيه نفس عن نفس شيئا، أى لا يجزى عمل نفس عن نفس شيئا من الجزاء، فيقدر فى قوله لا تجزى نفس عن نفس أى عمل نفس عن نفس أخرى، أو نقول تجزى بمعنى تقضى، أى لا تقضى نفس عن أخرى أى شيء قلّ أو جلّ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وكل امرئ بما كسب رهين.

وعقب سبحانه وتعالى بما يؤكد أن النفس لا يجزى عنها غيرها، وأنه لا منفعة إلا من عملها، فقال تعالى: ﴿**وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ**﴾ والشفاعة من الشفع، والشافع يضم قوته إلى من يشفع فيه، فلا يقبل الله تعالى شفاعة من أحد لأحد، إنما العمل وحده هو الذى ينفع كما قال تعالى: ﴿ **فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ** ﴿٤٨﴾ ﴾ [المدثر] وإذا كان للأنبياء شفاعة فبأمر الله تعالى وحده ﴿ **وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ** ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنبياء]. ﴿**وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ**﴾ أى لا يؤخذ منها بدل، فالعدل البدل، فلا ينجيهم من عذاب شفاعة ولا فدية من العذاب ببدل يدفع، ﴿**وَلا هُمْ يُنصَرُونَ**﴾ لأنه لا ناصر إلا الله، لمن الملك اليوم؟ لله الواحد القهار.

أخذ سبحانه وتعالى يذكر النعم التى أنعمها عليهم، وابتدأ بنعمة الإنقاذ، فقال تعالى:

وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ
يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ
مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ
وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ
أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ
﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾
وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾

ابتدأ سبحانه وتعالى بأعلى النعم التى أنعم بها عليهم، وهى نعمة الإنقاذ من شر من فى الوجود إبان ذلك، وهو فرعون الذى اتخذه الفساق الظالمون من الحكام قدوة يقتدون به فى مظالمه، وإن لم يستطيعوا أن يصلوا إلى أن ينتصروا فى الحروب مثل انتصاره فى عصره.

أنقذهم الله تعالى على يد موسى كليم الله من بطش فرعون، وقد كان بطشه شديدا بهم؛ لأنهم كانوا يعدون أجانب فى مصر، وكانوا أعداء لهم، فكان فرعون يتخذ السبيل لإفنائهم، أو إضعافهم، فكان يقتل شبابهم ذبحا، ويبقى النساء، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿**وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ**﴾ .

قال سبحانه وتعالى: ﴿**وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم**﴾ أى اذكروا الوقت الذى أنجيناكم فيه من آل فرعون، فإذا تدل على الوقت الماضى، ومعنى ذكر الوقت ذكر ما كان فيه من أحداث خطيرة وشديدة، واستحضار الأهوال التى كانوا يعيشون فى بأسائها،

وضرائها، وإنه تقدر النجاة من الله تعالى بمقدار ما كان هول الأمر الذى نجاهم الله تعالى منه.

ولقد قال تعالى: ﴿آلِ فِرْعَوْنَ﴾ ولم يقل أنجاكم من فرعون، وذلك لأن آله شيعته ونصراؤه وأعوانه، وطغاة الدنيا يكون شرهم من أنفسهم أولا، ومن حاشيتهم الذين يحطون على أهوائهم ثانيا، فيزينون لهم ظلمهم، ويسمونه عدلا ويبينون له وجوه الكيد، ويمكرون مكرهم، فلولا بطانة السوء ما كان السوء، ولولا حاشية فساق الحكام ما استمكنوا، وما طغوا فى البلاد، وكلمة حق من حاشيتهم تقيم عدلا، وتدفع ظلما.

لذلك عبر بآل فرعون، لأنه لم يستمكن وحده من الظلم.

وذكر سبحانه ما كان يفعله فرعون وآله، فقال سبحانه: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أى يذيقونكم سوء العذاب ويجعلونه ملازما لكم لا تفارقونه، ولا يفارقكم، ويقال: سامه خطة خسف، وأولاه خطة خسف، أى جعل ولايته خسفا وعسفا، ولقد قال عمرو بن كلثوم الفارس العربى:

إذا ما المَلْكُ سَامَ النَّاسَ خَسْفًا   أَبَيْنَا أَنْ نُقِرَّ الخَسْفَ فِينَا

وسوء العذاب أشد سوءا وأثرا فى النفوس، ويديمونه؛ لأن «سام» تدل على الدوام، ومن ذلك السائمة التى تديم الرعى فى الكلأ، وبين سبحانه وتعالى هذا العذاب الهون فقال مبينا: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ فهم يعملون على إفناء الذكور، وإبقاء النساء.

والتعبير بـ ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ كناية عن العمل على إفنائهم وتخضيد شوكتهم وإبعادهم عن مواطن السلطان، وذلك بذبحهم أحيانا، ووضعهم فى مواضع الذل والمهانة، والغاية ألا يكون لهم وجود قائم بذاته، فقد حكى عنهم أن فرعون كان

يذبح منهم، وكان يتخذ منهم عمالا مسخرين فى الأبنية التى يشيدها، وكان يسخرهم لحرث الأرض، والثمرة لغيرهم ليذلهم، وكان يتخذ منهم خدما فى البيوت وهم الأرذلون.

وذكر الذبح بالذات، وهو إحدى وسائل فرعون لسوء العذاب الذى كان يذيقه إياهم لأنه أشدها هولا، ولأن إفناءهم هو الغاية، وهو أقرب طرقه، وهو المصدر لما كانوا عليه من الآلام.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أى أبقوهن أحياء لم يذبحوهن، وكانوا راغبين فى ذلك، ولذلك كانت السين والتاء اللتان تدلان على الطلب، والمعنى طلبوا حياة نسائهم لغايات فى نفوسهم وليشبعوا بهن شهواتهم، وقد بين الله تعالى أن ذلك هول شديد تختبر به نفوسهم؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ الإشارة هنا إلى هذا العذاب الشديد السيئ، والخطاب لهم، ولأن الإشارة إلى ما نزل بهم جعل الخطاب لهم لا بالكاف المفردة بل بالكاف وعلامة خطاب الجمع، وبلاء معناه الاختبار الشديد لتتربى نفوسهم على التحمل، ولبثّ الرحمة فى قلوبهم، لأنه لا تكون الرحمة إلا بالآلام الشديدة التى يحس بها الشخص فيرحم غيره، فإنه لا تنبع الرحمة إلا من قلب أحس بالآلام، وتربى فى أحضانها فلا يكون قاسيا على الناس، ويكون رحيما بهم، فكان هذا البلاء الفرعونى تربية لنفوسهم لتكون بارة؛ ولذلك قال: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى من الله الذى خلقكم، وربكم بعنايته وحماكم بكلاءته، ووصفه سبحانه وتعالى بأنه ﴿عَظِيمٌ﴾ لكبر هوله، وبعد أثره.

وإن الله تعالى مكَّنَ فرعون منهم لكى يعلموا أنهم ليس لهم فضل لذواتهم، ولكن لما هيأهم الله تعالى لتلقى رسالته، وتبليغ كلمته، وهى كلمة التوحيد، والعمل بالأوامر الإلهية.

ولقد بين الله سبحانه وتعالى كيف نجاهم بقدرته الإلهية القاطعة فى الدلالة على إخراجهم من ظلمات القهر والطغيان إلى نور العدالة والإيمان، فقال تعالى:

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ والمعنى اذكروا ذلك الوقت الذى فرقنا أى أوجدنا شقا طوليا فى البحر من ساحل مصر إلى ساحل سيناء، وقد كان متصل الأجزاء، وسطحا لا فرقة فيه ولا انشقاق، فسرتم فيه، كأن الماء قد افترق على قدر حاجتكم، وسرتم فيه آمنين مطمئنين، وسار وراءكم الذين عذبوكم، ودبروا السوء لكم، وذبَّحوا أبناءكم، واستحيوا نساءكم لأهوائهم، وهم آل فرعون الذين ناصروه وأيدوه، وقد ازدلفوا من ورائكم فأغرقهم، وأنتم تنظرون إلى تدبير الله تعالى، وإعجازه، وأنتم ترونه رأى العين لا بالخبر والسماع.

وقد فصل الله سبحانه وتعالى تلك النجاة وذلك الإغراق وما أحاط بهما بعض التفصيل، فقال تعالت كلماته فى سورة الشعراء: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ [الشعراء].

نجا بنو إسرائيل، وظهرت آيتان؛ إحداهما أن موسى عليه السلام ضرب البحر بعصاه، فانشق وانفلق، وكان كل فرق من أقسامه، كأنه الجبل العظيم من الماء. والثانية أن هذا كان على قدر مسير بنى إسرائيل بقيادة موسى عليه السلام، وظن فرعون وآله أن الطريق مفتوح لهم، كما فتح لبنى إسرائيل، فساروا وراءهم فانطبق البحر عليهم، وكانوا مغرقين.

كانت هذه النجاة بمعجزة من الله تعالى كافية لإيمان الكافر حتى إن فرعون قال آمنت بالذى آمن به بنو إسرائيل، وإن كان لم ينفعه إيمانه، كما قال تعالى: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢) ﴾ [يونس] نزل بنو إسرائيل أرض سيناء التى انبعث فيها نور الرسالة الموسوية. وكان حقا أن يكونوا أول المؤمنين، ولكن الله أخبر أنه لم يكن أكثرهم مؤمنين مع هذه المعجزات الحسية الباهرة، وكانوا قد ألفوا عبادة العجل من غير بيِّنة ولا دليل بل قلدوا المصريين تقليدًا فى عباداتهم، وتأثروا طريقهم، وألفوا ما ألفوه هم، وإن الهوى والوهم هما اللذان سيطرا على نفوسهم، فضلوا بضلالهم، ولذلك صنعوا عجلاً من الحلى؛ وجعلوه فى مهب الريح، فكانت الريح إذا مرت به كان له خوار كخوار العجل الحى؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ هذا ما كان منهم كفرا بالنعم التى أنعم الله تعالى بها عليهم، وفيها الدلالة القاطعة مع النعم الظاهرة، ومع ذلك قلدوا المصريين فى عبادتهم.

واعد الله تعالى نبيه موسى عليه السلام على أن يترك بنى إسرائيل لتلقى التوراة، وفيها الألواح العشرة التى تتضمن التكليفات التى كلف الله تعالى بنى إسرائيل.

فتركهم فتحرك فيهم ما ألفوه من عبادة العجل، كما كان يعبد المصريون العجل وقد جعل لهم السامرى ذلك العجل من الذهب، وكان عجلا جسدا لا حياة فيه، ولكن كان له خوار أى صوت كصوت البقر، إذا مرت الريح فى التجاويف التى صنعت فيه، وقد ذكر الله تعالى هذا العجل المصنوع ببعض قليل من البيان فى

سور أخرى، وذكر عنهم الله تعالى فى هذه السورة أنهم عبدوه، وأن هرون أخا موسى وردءه فى الرسالة نهاهم عن العبادة، وقد خلفه موسى فيهم، فقال تعالى حكاية فى ذلك: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ ﴾ [طه] وذكر تمام ذلك فى سورة طه: ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَا ابْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [طه].

وقد نسبت العبادة إلى كلهم، والذى عبد العجل بعضهم؛ لأن الذين لم يعبدوا لم ينهوا غيرهم فكانوا مثلهم كما قال تعالى فيهم: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [المائدة].

ومعنى لنحرقنه أى نحكه ونبرده ثم بعد برده لننسفنه فى اليم نسفًا، وذلك كقولهم حرّق الأُرَّم[١] أى حكها حكا شديدًا.

هذا خبر عبادتهم العجل، وكيف كانت وذلك لتأثرهم طريق المصريين، وسلوكهم طريق الأوهام التى سلكوها. وقوله: واعدنا موسى أربعين ليلة فيها قراءتان: إحداهما (وعدنا موسى)، والقراءة الأخرى: (واعدنا موسى)، وإن المواعدة لا تكون إلا بين طرفين، وذلك بعيد عن الله تعالى، ولذا قيل إن معنى واعدنا ليس المفاعلة التى تكون بين طرفين، بل معناها وعدنا، وقد تستعمل: صيغة فاعل فى غير معنى المفاعلة، كقولهم داويت العليل، وعالجت المريض، وعاقبت المجرم.

وعندى أن المواعدة على معناها وهى من الله الوعد، ومن موسى التلقى والاستجابة وإنجاز ما وعد الله.

توالت نعمة الله تعالى، ولكنهم فتنوا بما كان عليه المصريون الأقوياء، وكانوا هم الضعفاء، والضعيف دائما مأخوذ بتقليد القوى، فسرى ما عند الأقوياء، وهم قوم فرعون إلى الضعفاء، وكانوا يشعرون بالمذلة والاستكانة، وشعروا من بعد بأنهم ذلوا، فتابوا وتاب الله تعالى عليهم وعفا عنهم، وعدَّ الله تعالى ذلك عليهم نعمة، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أى أن هذه الجريمة الكبرى، وهى الإشراك بالله تعالى ما كانت لتغفر، ولكن الله تعالى عفا عنها، والتعبير هنا بثم الدالة على التراخى والبعد، لبيان بُعد ما كان منهم عن أن ينالوا من بعده عفو الله تعالى، ولكنه سبحانه وتعالى توَّاب رحيم وسعت رحمته كل شىء ما دام التوبة قد حصلت.

---

(١) حرَّق الحديد حرقا: برده، يقال: حرقه بالمبرد. ويقال: هو يحرِّق عليه الأُرَّم: يحك أضراسه بعضها ببعض من الغيظ. [الوسيط - أرم - ح ر ق].

وهنا نجده سبحانه وتعالى عبر بالعفو، ولم يعبر بالغفران وقبول التوبة، وذلك لأن العفو يكون عما وقع بجهالة، وهم كانوا فى حال جهالة، لتأثرهم بما كان عند المصريين من عادات جاهلية، ولأنهم خرجوا من ذل المعاصى إلى عزة الحق، فكان العفو أدنى إليهم، لأنهم كانوا فى فتنة.

وقوله من بعد ذلك الكفران، والفتنة التى أضلتهم، فالإشارة إلى البعيد، لبعد ما ارتكبوا عن موجب العفو الذى نالوه، فهم كفروا كفرانًا مبينا، ولكن التوبة تجبُّ ما قبلها، ولم يكن الخطاب بالجمع لأن فتنة العجل لم تكن منهم أجمعين، بخلاف ما كان يسومهم به فرعون وآله من عذاب، فقد كان يعمهم، ولا يخص فريقا.
وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، لعل هنا للرجاء، والرجاء هنا من العبيد لا من الله، والمعنى: عفونا عنكم لتكون حالكم حال الرجاء لشكر الله تعالى، فالرجاء لأمر يقع أو لا يقع إنما هو من شأن الناس، ولا يمكن أن يكون من الله تعالى الذى يعلم ما يقع وما لا يقع، ولا يغيب عن علمه شىء فى الأرض، ولا فى السماء، والله سميع عليم.

أو يكون الرجاء من الله تعالى، ويكون بمعنى الأمر، كما يقول السيد لخادمه فعلت معك كذا وكذا رجاء أن تعترف بالجميل، وتشكر لى حسن صنيعى، فهذا يكون حثا على فعل الجميل، بذكر موجبه، وعلى هذا المعنى تكون ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ فى مقام التعليل لوجوب الشكر، وتكون بمعنى: لكى تشكروا، إن كنتم لا تكفرون بالنعمة، ولكن تشكرونها.

وبعد أن بين الله تعالى أنه سبحانه وتعالى عفا عنهم، مع عظيم ما ارتكبوا، وأنه سبحانه يدعوهم إلى شكره، وأن حالهم حال من يوجب على نفسه الشكر، بعد ذلك ذكر الله تعالى أنهم قد صاروا فى منزلة ليست كمنزلة فرعون وقومه، وآله الذين ناصروه، ومالئوه فى كفره، ولم يرشدوه أو يوجهوه إلى طريق الهداية؛ لأنهم ببعث

موسى عليه السلام إليهم، قد صاروا أهل كتاب، ولذا ذكرهم الله تعالى بنعمة النبوة فيهم فقال تعالى: ﴿**وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ**﴾، يذكرهم الله تعالى بنعمه عليه بأن آتاه سبحانه وتعالى الكتاب، وهو التوراة، وفيها أحكام الله تعالى، وأنهم بها يخرجون من حكم الطاغوت الظالم الذى يسيطر عليه هوى فرعون وأوهامه والذى كان لا يرعى فى عذابكم عهدا ولا ذمة، ولا خلقا، ولا مراعاة، تخرجون من هذا إلى حكم الله تعالى بكتاب تتقيدون بأحكامه حكاما ومحكومين، فلا يفرط عليكم حالكم ولا يطغى كما كان بشأن فى فرعون لعنه الله تعالى.

والفرقان هو الكتاب نفسه، وهو التوراة، فهى كتاب مكتوب لا تخالف أحكامه، ومسجل عليكم، وهو ميثاق الله تعالى، وهو مع هذه الحال فارق بين الحق والباطل وحكم الله تعالى، وحكم فرعون، فالتعبير بالفرقان إشارة إلى أنه قد نزل عليهم ما هو مفرق بينهم، وبين ما كانوا فيه، فإذا كانت المعجزة الباهرة أن الله تعالى فرق لكم البحر فخرجتم، فقد فرق بينكم وبين طغيان فرعون بحكمه السماوى، الذى لا يخالطه باطل ولا ظلم.

وإن هذا الكتاب هو سبيل هدايتكم، ولذا قال سبحانه لعلكم تهتدون، أي رجاء أن تهتدوا بهداية الله تعالى، فالرجاء منهم، أو الرجاء من الله تعالى على معنى أن حالهم فيما أنزل إليهم، وفيما جاءهم من الآيات حال من يرجون الهداية، أو أن ذلك أمر لهم بالهداية، وهم على رجاء منها.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم
بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ
خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ
﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً

فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

ذكرهم سبحانه وتعالى بعبادتهم فى هذا النص الكريم، وهو ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ**﴾ وإذ هنا دالة على الوقت الماضى، والمعنى واذكروا ذلك الوقت، يأمر الحاضرين والماضين لأنهم أمة واحدة فى ضلال الفكر، والكفر بالنعمة، اذكروا ذلك العمل الفاجر، وما جرى فيه من نسيان للحق والإيمان، واذكروا كيف كان ضلالكم باستهواء قوم فرعون، واذكروا الوقت الذى ناداكم فيه على أنكم قومه، وأنكم نابذتم الحق، واتبعتم الباطل، واذكروا وقت أن قال موسى لكم ﴿**يَا قَوْمِ**﴾ لأنهم قومه الذين ناصرهم وأيدهم، وأحبهم ولم يتركهم للظالمين، فالنداء بقوله ﴿**يَا قَوْمِ**﴾ إشارة إلى ما يربطه بهم من مودة ومناصرة، وتأييد، وإعزاز، وتنزيه لهم عن الباطل، فالقريب نداؤه محبوب ومجاب، ولقد منَّ الله تعالى على العرب أن بعث فيهم رسولا منهم، فقال تعالى: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾**﴾ [التوبة] ناداهم موسى: ﴿**يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ**﴾، وهذا عتب رقيق لإثم قوي، ومعنى اتخاذ العجل أنهم عبدوه، وعبر سبحانه وتعالى عن عبادة العجل بأنهم اتخذوه تنزها عن أن يقول أنهم عبدوه، لأن ما كان منهم وهمٌ باطل لا يسمى عبادة فى الحق، والقول الطيب، ولأنهم لم يعبدوه فقط، بل صنع بأيديهم، أو بأيدى بعضهم، وهو ما لا ينفع ولا يضر، ولا يسمع ولا يبصر فهذا كله يدل عليه كلمة اتخذوه.

ولقد أكد موسى نبى الله تعالى عليه السلام أنهم إذ اتخذوا العجل ظلموا أنفسهم، باتخاذهم العجل، أكد ذلك بـ «إن» الدالة على التوكيد، وظلمهم لأنفسهم

بأن أضلوها عن الحق، ونوره ساطع بينهم إذ قد قامت لديهم البراهين على قدرة الله تعالى فى ضرب البحر بعصا موسى، وانشقاقه، وفى نجاتهم من الذل، وظلموا أنفسهم بأن أعادوا إليها عهد الذل والضلال باتخاذهم العجل، كما كان يفعل الذين أذلوها، وظلموا أنفسهم بكفرهم بالله تعالى، وضلوا ضلالا بعيداً.

هذه خطيئة ارتكبوها، ولا يكفرها إلا توبة نصوح يقومون بها، وقد بيَّن لهم موسى الطريق للتوبة النصوح أو حقيقة التوبة النصوح، فقال تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ﴾ الفاء فى قوله تعالى: ﴿ فَتُوبُوا﴾ هى فاء الإفصاح التى تفصح عن شرط مقدر، أى إذا كنتم قد ضللتم هذا الضلال وظلمتم أنفسكم ذلك الظلم فتوبوا إلى بارئكم أى فارجعوا إلى الله تعالى الذى خلقكم على غير مثال سبق، ومعنى «برأ» أبدع وأنشأ وجودكم، والتوبة رجوع إلى الحق، والتعبير ببارئكم يؤكد معنى ظلمهم لأنفسهم، لأنهم تركوا من خلقهم إلى ما خلقوه بأيديهم، وصنعوه تحت نظرهم، ولا يضرهم، ولا ينفعهم.

والطريق الذى بينه موسى هو قوله: ﴿فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ﴾ أى فابخعوها واجعلوها مطية ذلولا للعقل والإرادة، واقطعوا شهواتها، والتعبير عن ذلك بقتل النفس، لأن النفس الفاجرة الضالة إذا فطمت عن الشهوات كأنها قتلت، وحلت محلها النفس الطاهرة اللوامة التى تقهر الشهوات قهرا، والشرور دائما من الأهواء والشهوات، وقد جاء فى الأمثال عند أهل المعرفة: «من لم يعذب نفسه لم ينفعها، ومن لم يقتلها لم يحفظها» وتعذيب النفس الذى يريده أهل المعرفة هو فطمها عن الشهوات.

وقد أخذت الكثرة من المفسرين بظاهر اللفظ وهو القتل، ورووا فى ذلك روايات عن بعض الصحابة لم يصح سندها، وبالأولى لم يصح كلام فى نسبته إلى الرسول ﷺ.

واستعمال القتل والبخع بالنسبة للنفوس، وإرادة غير الظاهر كثير فى كلام العرب، وفى القرآن كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء].

وإن هذا النص الكريم يشير إلى أن التوبة النصوح التى يقبلها الله تعالى، ويغفر بها الذنوب توجب قهر الشهوات والأهواء وقتل منابعها فى النفس.

وقد حثهم كليم الله تعالى على هذه التوبة النصوح، فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ الإشارة إلى بخع النفوس عن شهواتها وسد منابع الأهواء وقتل نوازع الشيطان الذى يوسوس فى الصدور، وأشير بالبعيد لبعد ما بين التوبة ورياضة النفس على ترك الأهواء والضبط بالصبر، وقوة الإرادة المسيطرة القاهرة الطاهرة، وكان الخطاب بصيغة الجمع لأن الإشارة إلى عمل صدر منهم.

وقد أشار النص إلى قبول التوبة النصوح التى كانت على هذه الشاكلة فقال: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾. أى رجع سبحانه عليهم وقد طهرت نفوسهم وزكيت قلوبهم بالانخلاع عن الشهوات وقتلها، رجع عليهم سبحانه وتعالى بالغفران. وعبر سبحانه وتعالى بـ «على» للإشارة إلى علوه سبحانه وتعالى عليهم فى كفرهم وتوبتهم، وأن ذلك لرحمته بهم، لا لحاجته إلى طاعتهم، وقد ذيل الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. والتواب كثير قبول التوبة إذا قيل ذلك عن الله تعالى، أو كثير التوبة إذا قيل عن العبد، وتواب صيغة مبالغة من تائب، وتائب تطلق على التائب من الذنب، وتطلق على من يقبل التوبة، وهو الله سبحانه وتعالى، وهى هنا على هذا المعنى.

وقد اقترن وصف التواب بوصف الرحيم؛ لأن كليهما وصف لله تعالى، ولأن قبول التوبة من رحمة الله تعالى بعباده، ولقد قال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه].

وقد أكد سبحانه اتصافه بهذين الوصفين اللذين كانا من فضل الله تعالى، ومنته، بصيغة المبالغة، وبالجملة الاسمية، وبالتأكيد بإنَّ - اللهم تب علينا وارحمنا.

يذكر الله سبحانه وتعالى النعم التى أنعم بها على بنى إسرائيل، وكفرهم بها، وبالله. ثم يذكر سبحانه تعنتهم فى طلب الدليل رغم الآيات التى أراهم الله سبحانه وتعالى إياها، ولكن المتعنت لا يقنعه الدليل مهما يكن باهرا ظاهراً قاهراً.

ولذا طلبوا عنتا وانحرافا وجهلا أن يروا الله تعالى جهرة، وقد ذكر الله تعالى ذلك مبينا تعنتهم، وتدللهم فى كفرهم: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أى اذكروا أيها الحاضرون فى عهد النبى محمد ﷺ مافعلتموه، وخاطبهم هم بذلك مع أن الذى فعله أسلافهم؛ لأنهم يسيرون سيرهم، ويفترون ويغترون مثلهم.

اذكروا ذلك الوقت الذى قلتم فيه ذلك، وليس غريبا أن تقولوه الآن، قالوا لموسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أى لن نؤمن مسلمين لك، مستجيبين لما تدعونا إليه، حتى نرى الله جهرة، أى حتى نرى الله تعالى رأى العين، ولن لتأكيد النفى فى المستقبل، وقيل لتأبيد النفى، والزمخشرى وسائر المعتزلة يرون أنها دالة على الاستحالة، أى استحالة استجابتهم حتى يروا الله عيانا، ولقد ضاهى قولهم هذا قول المشركين.

وإن الله تعالى لا يرى فى الدنيا بإجماع العلماء قط؛ لأن رؤية الدنيا تقتضى مكانا والله سبحانه وتعالى منزه عن المكان، والأمر فى الآخرة أمر الله تعالى لا نعلمه إلا منه، وهو عالم الغيب والشهادة، وقد أجابهم موسى إلى ما يريدون فطلب من الله تعالى أن يراه، ويروه، كما ذكر تعالى أن ذلك لا يمكن فى سورة الأعراف، فلما تجلى ربهم أصابتهم الصاعقة، فقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾. وقد فصل الله سبحانه وتعالى مسألة الرؤية وطلب موسى عليه السلام، فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف].

لما طلب بنو إسرائيل رؤية الله تعالى جهرة أى عيانا، طلب موسى ذلك من الله تعالى ليروا ما رآه، وليعلموا ما علم، وقيل إن الذين طلبوا ذلك هم السبعون الذين اختارهم موسى ليكونوا معه عندما واعده الله لميقاته الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا ... ﴿١٥٥﴾﴾ [الأعراف] فهم الذين

حملوا موسى على أن يطلب رؤية ربه فطلبها عليه الصلاة والسلام، ومهما يكن الطالبون فإن رؤية الله تعالى مستحيلة فى الدنيا، على ما أشرنا.

والصاعقة الأمر الشديد الهائل الذى ينزل من السماء نارا، أو الذى يدك الجبال دكا، وقد يترتب عليه أن يصعق الإحساس فيغشى على من يراه.

ومعنى قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾، أى أخذت ألبابهم، ونفوسهم فلم يشعروا وهم ينظرون إليها، وقد أذهلتهم وذهبت بمشاعرهم فصعقوا كما صعق موسى إذ قال تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ... (١٤٣)﴾ [الأعراف].

وعلى ذلك يكون معنى أخذتهم الصاعقة أنهم غشى عليهم كما يدل على ذلك ما كان لموسى عليه السلام. ونرى أن القرآن يفسر بعضه بعضا ويبين بعضه الدلالة الواضحة لبعضه، تعالى كلام الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢)﴾ [النساء].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥)﴾ أى ينظرون إلى الأمر الذى هز مشاعرهم من دك الجبال دكا، وهول ما وقع نتيجة لما طلبوا، ثم قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦)﴾ أصل البعث هو الإثارة، جاء فى مفردات الراغب الأصفهانى: «أصل البعث إثارة الشىء وتوجيهه، يقال بعثته فانبعث، ويختلف البعث بحسب اختلاف ما علق به، فبعثت البعير أثرته وسيَّرته، وقوله تعالى: ﴿يَبْعَثُهُمُ﴾ يخرجهم ويسيرهم إلى يوم القيامة.

وموتهم هنا هو ما غشيهم، وفقدوا به إحساسهم، وعبر عنه بالموت، لأنه يشبه الموت من حيث إنهم فقدوا شعورهم وأصبحوا لا يحسون شيئا.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ أى أثرناهم، وحركناهم، وأوجدنا فيهم الإحساس. والتعبير بـ «ثم» للإشارة إلى البعد بين حالهم، وهم أشباه الموتى بما صعقهم من غاشية، وما آلوا إليه من شعور بالحياة والحركة. . ، وقد فقدوا ذلك، بسوء ما طلبوا، وعدم فهمهم. والله تعالى ولى المؤمنين.

وإن ذلك يقتضى شكرهم؛ لأنه كان قادرا على تركهم فيما آل إليه أمرهم ولذا قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أى رجاء أن تشكروا، فالرجاء منهم لا من الله تعالى.

بعد أن بعثهم الله تعالى، أو كان ذلك مقارنا لخروجهم من مصر، وهو الظاهر؛ لأن هذه النعم، وما كان منهم من حوادث جاء بعد أن أنجاهم الله تعالى من آل فرعون، وفرق البحر بهم، والواو لا تقتضى ترتيبا، ولا تعقيبا، لقد انتقلوا من الوادى الخصيب إلى صحراء تلفح الوجوه، وليس فيها ظل ولا ظليل، ولكن الله تعالى لم يتركهم فى حرور الصحراء وجردائها بل أظلهم بالغمام، وأمدهم بأطيب الطعام، وأبركه، فقال تعالى مبينا هذه النعمة: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾.

أى جعلنا الغمام، وهو السحاب الشديد العتمة، اسم جنس جمعى للغمامة، واسم الجنس الجمعى هو الذى يفرق بينه وبين مفرده بالتاء المربوطة أو ياء النسب، مثل روم ورومى.

تكاثف الغمام فى الصحراء، حتى صار كمظلة تظلهم أينما ساروا فلا يحسون بوهج الحر يلفح وجوههم، وقد شكوا من حر الشمس والجوع ، فأنزل الله تعالى رزقا طيبا: المن والسلوى.

والمن كان بدل الخبز، وقد أصبحوا فوجدوه فى الأرض صغيرا كحب الجزرة، وكانوا يتناولونه كالرقاق التى اختلطت بعسل فالتقى فيه خواص الدقيق والعسل معا، وسبحان الرزاق العليم، فكان خبزهم، فالمن على ذلك غذاء جيد ينزل من السماء ويبسط على الأرض فيه خواص الدقيق والعسل معا.

والسلوى طير، كان يجىء إليهم يطير على مقدار رمح من الأرض أو يزيد قليلا، فيأخذونه باليد من غير صيد أو أى محاولة، وبذلك اجتمع لديهم كل عناصر الغذاء الكامل، من غير كدّ، ولا لُغُوب.

وعبر الله سبحانه وتعالى عن ذلك الرزق الذى رزقهم الله تعالى إياه بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ لأنه ما كان بكسب كسبوه، ولكنه رزق الله تعالى من السماء أنزله إليهم لتطيب إقامتهم فى الصحراء، حتى يقضى الله تعالى أمره فيهم، فالإنزال معنوى لأنه بأمر الله تعالى لطفًا بهم ورحمة، وليكون ذلك معجزة فوق المعجزات التى توالت عليهم، ومع ذلك جحدوا بآيات ربهم، ولقد قرر الله سبحانه وتعالى أنه مكّن لهم ذلك تمكينا، فقال سبحانه: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ وقد وصف الله سبحانه وتعالى ذلك الطعام بأنه طيب، والطعام الطيب هو الذى تشتهيه النفس، ويكون مريئًا لا يضر ولا يعاف، و ﴿مِن﴾ فى قوله تعالى: ﴿مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ هى للتبعيض باعتبار أنهم يأكلون منه ما يشتهون وما يطيقون غير مدخرين، لأنهم يجدون ما رزقهم الله تعالى مجددا دائما، ويذكر فى بعض الكتب أنهم كانوا يأكلون رزق كل يوم، وقد أمروا بذلك لأنه يفسد فى اليوم التالى ويجىء الجديد ليحل محل الفاسد(١).

ويحتمل أن تكون «مِنْ» بيانية، ويكون المعنى كلوا طيبات ما رزقناكم، وعلى التقديرين يتحقق وصف الطيبات، وذكر سبحانه أنه رزق خالص من الله جاءهم من غير جهد ولا نصب، بل هو رزق الله تعالى ساقه إليهم سبحانه وتعالى.

وإنهم بتوافر هذه النعم التى منحها الله سبحانه وتعالى لهم، إذا هم جحدوا آياته، وأعرضوا عن بيناته.. ما كان سبحانه وتعالى إلا منعما عليهم إذ أنجاهم من ظلم فرعون وإذلاله، وبعد أن كانوا مستضعفين مكن الله لهم فى الأرض، ومنَّ عليهم، وكلما شكوا أمدهم الله تعالى بعونه، وسهل لهم الحياة العزيزة الكريمة المنيعة.

---

(١) روى البخارى (٣٠٨٣) ومسلم (٢٦٧٤) عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ النَّبِىِّ ﷺ: «لَوْلا بَنُو إِسْرَائِيلَ لَمْ يَخْنَزْ اللَّحْمُ» قال الحافظ ابن حجرفى الفتح: قَوْلُهُ: «لَوْلا بَنُو إِسْرَائِيل لَمْ يَخْنَز اللَّحْم» يَخْنَز بِفَتْحِ أَوَّله وَسُكُون الْخَاء وَكَسْر النُّون وَبِفَتْحِهَا أَيْضًا بَعْدهَا زَاى أَىْ يُنْتِن، وَالْخَنَز التَّغَيُّر وَالنَّتْنُ.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أى ما نقصهم سبحانه وتعالى شيئا من أسباب الحياة والقوة والسلطان، ولكنهم جحدوا شكر ما أنعم الله تعالى به عليهم، فكفروه، فكانوا هم الظالمين لأنفسهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)﴾ وأكد الله سبحانه وتعالى عليهم أنهم هم الظالمون لأنفسهم وذلك بالاستدراك فى قوله: ﴿وَلَكِن﴾ إذ معنى الاستدراك عن ظلم الله تعالى لهم بيان أن ظلمهم لأنفسهم كان منهم لا من الله سبحانه وتعالى، وأكده بالتعبير بـ ﴿كَانُوا﴾ وهى تدل على الاستمرار، كما نوهنا بذلك مرارا، وأكده سبحانه وتعالى بتقديم ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ لأن التقديم يدل على الاختصاص، أى أنهم بهذا الجحود يظلمون أنفسهم، ولا يتجاوز ظلمهم أنفسهم إلىَّ؛ فهم يظلمون أنفسهم وحدها.

وظلمهم أنفسهم، لأن الكفر ظلم للنفس، إذ هو ضلال فى ذاته، وأى ظلم للنفس أشد من تدليتها فى الضلال؟! وكفروا بأنعم الله تعالى ، وذلك ظلم كبير واقع عليهم.

وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

كان بنو إسرائيل يعيشون فى صحراء سيناء مع موسى عليه السلام، وقد أنزل الله تعالى عليهم المن والسلوى، فأكلوا منها رزقا طيبا، وما كان يمكن أن يبقى ذلك رزقا دائما، وإن كان ذلك ممكنا سائغا فى ذاته، ولكن لأنهم بَرِمون متململون مما يرزقهم الله تعالى رتيبا مستمرا، بل إنهم يطلبون التغيير.

والقرية هى المدينة العظيمة الجامعة لعدد كبير من السكان، من قَرَى بمعنى جمع؛ ولذلك أطلق على مكة أنها قرية وأم القرى، ولم يبين القرآن الكريم ما هى هذه القرية، لم يرد فى القرآن ما يبين عين هذه القرية أهى الأرض المقدسة أم هى قرية قريبة أمرهم موسى بالدخول فيها، وإن الذى نفهمه من النص والسياق أنها قرية ليست بعيدة عن صحراء سيناء، وأن ذلك فى عهد موسى عليه السلام.

أما أنها قريبة ليست بعيدة فقد أخذناه من الإشارة، فقد أشير إليها بالإشارة الدالة على القرب، وهى «هذه»، فهى لابد أن تكون قريبة، والنص يدل على أنهم دخلوها، وقد عصوا أمر ربهم الذى أمر به عند دخولهم.

وأما أنها كانت فى عهد موسى عليه السلام، ولم يكن قد فارقهم بالموت، فإن ذلك يثبت من سياق القول؛ لأن موسى عليه السلام من قبل الأمر بالدخول كان هو الذي يخاطبهم بأمر الله تعالى، ومن بعد الأمر بالدخول هو الذى كان يخاطبهم ويخاطبونه، فلم يكن من مقتضى ذلك أن يكون الدخول، وقد انقضى عهد موسى عليه السلام، وجاء غيره.

وعلى ذلك نقول إن الله سبحانه وتعالى أَبْهم ذكر هذه القرية، ولا نتعرض لبيان ما أبهمه الله تعالى، ولم يذكره نبيه ﷺ، ولم يثبت قول عن أصحابه الذين تلقوا عن رسول الله ﷺ علم النبوة ليبلغوه للناس، وإن القول فى هذه القرية ما هى؟ داخل فى النهى فى قوله تعالى: ﴿ **وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ** ... ﴿٣٦﴾ ﴾ [**الإسراء**].

ولكن قال بعض العلماء إنها أريحا، أو بعض بلاد فى الأردن، ورجح الأكثرون وقالوا إنه القول الصحيح، أنها بيت المقدس التى كتب الله تعالى لهم أن يدخلوا، وقالوا إن ذلك ذكر فى القرآن فى سورة المائدة، إذ قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن**

نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [المائدة].

وإنى وإن كنت لا يمكننى أن أعيّن قرية بعينها، فإنى لا أختار أنها الأرض المقدسة؛ وذلك لأن الإشارة إلى القرية كانت إلى قرية قريبة، ولأن الأرض المقدسة لا تذكر بهذا الإبهام المستغرق، ولأن ما حدث منهم من تبديل القول يدل على قرب عهدهم بالكفر، وأنه لم يكن التيه الذى يقوى شكيمتهم، ولأنه إذا كانت بيت المقدس، فإن دخولهم فيها بعد التيه كان على يد سيدنا يوشع عليه السلام.

وإننا ننتهى إلى هذه القرية، وليست فى هذه القرية عبرة خاصة توجب معرفتها إذا كانت القرية، إنما يكفى فى التعريف بها أنها كانت ذات رزق راغد، وعيش واسع؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ أى فكلوا أىَّ أكل تشاءونه رغدا فى هذه القرية، فلا تقتصروا على المن والسلوى، كما أنزل الله تعالى رحمة بكم، وهما أطيب الطعام وأشهاه وأمرؤه، وأهنؤه، كلوا أى أكل شئتم من الحلال رغدا واسعا كثيرا.

ثم أمرهم سبحانه أن يدخلوا الباب لهذه القرية خاشعين خاضعين شاكرين لنعمة الله تعالى التى أنعم بها عليهم طالبين غفران خطاياهم، فقال تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أى ساجدين شكرا لله تعالى على ما أنعم به عليكم وأن أخرجكم من الظلمات إلى النور، ومن الذل إلى العزة، ومن الظلم المرهق إلى العدل المنصف، وأن أعطاكم ما تحبون من طيب العيش، وما تشتهون من حلال.

﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أى حط عنا ذنوبنا، وتغمدنا برحمتك والتوبة إليك، وإن الله رتب على خضوعهم، وشكرهم لنعمة الله تعالى، وطلبهم من الله تعالى أن يحط

عنهم ذنوبهم، ويخلعوها متبرئين، ويتطهروا، رتب على ذلك غفران خطاياهم فقال تعالى: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

ومعنى نغفر لكم أى نستر ذنوبكم ثم نرفعها عنكم، ووعد الله تعالى بأنه سيزيد المحسنين خيرا وبركة، والمحسن هو من أتقن وأجاد فعل الخير، والمعنى أن الله تعالى يغفر لهم ما ارتكبوا من آثام كبيرة كانوا قد تعودوها حتى صارت خطايا، يغفرها، سبحانه وتعالى، ثم وعد سبحانه ووعده الحق أنه سيزيد المحسنين، وينعم عليهم بالتوفيق إذا تابوا وآمنوا، ويجزيهم أحسن الجزاء.

والخطايا جمع خطيئة، وهى الذنوب التى تتكاثر، حتى يفعل الذنب، وكأنه يقع منه من غير قصد إليه لتمرسه به، وقساوة نفسه وقلبه، كما قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ [البقرة].

ويقول الخليل بن أحمد فى تصريف خطايا إنها جمع خطيئة، أصلها خطائى، ثم قلبت الياء ألفا، كما قلبت فى قوله تعالى: ﴿يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ... ﴿٨٤﴾﴾ [يوسف] فصارت خطاءا، ثم قلبت الهمزة ياء لأنها صارت بين ألفين، وذلك تسهيل فى النطق.

هذا ما أمرهم ربهم، أمرهم بالدخول خاشعين ساجدين، وأن يقولوا حطة أى حط عنا ذنوبنا، ولكنهم وقد تعودوا المعصية وألفوها: غيروا الألفاظ، وبدلوها إلى ألفاظ تدل على نقيض معناها، وكذلك دائما شأن العصاة المذنبين وخصوصا بنى إسرائيل؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ لقد قيل لهم قولوا حطة أى حط عنا ياربنا ذنوبنا، ولا تعذبنا بما فعلنا واعف عنا، بدلوا هذه الكلمة الضارعة الخاشعة إلى كلمة أخرى قريبة اللفظ ولكن فيها معنى مغاير، فقالوا: (حنطة) أى أنهم بدل أن يتوجهوا إلى الله تعالى بالضراعة توجهوا إليه بطلب المادة، والحنطة هى القمح، يتركون الضراعة التى هى نعمة التقوى إلى طلب القوت، وفى ذلك عدول عن إرضاء الله تعالى إلى طلب ما يرضى أهواءهم،

ويشبع شهـوات بطونهم، وفوق ذلك فيه تلاعب بأمـر الله تعالى ونهيه، واسـتهزاء بأوامر ربهم، وتحريف للقول عن مواضعه، كـما فعلوا من بعد موسى عليه السلام، إذ حرفـوا القول عن مواضـعه، وضلوا ضلالا بعـيدا. وذكر الله تعـالى الموصول، فقال: ﴿**الَّذِينَ ظَلَمُوا**﴾، فأظهر فى موضع الإضمار للإشارة إلى أن الدافع لهم على التغـيير والتـبديـل فى أمـر الله تعالى أو نهـيه هو ظلمهم وإلحـادهم فى دين الله تعالى.

وقد عـاقبهم الله تعالى فـأنزل العذاب بهم فقـال تعالى: ﴿**فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** ﴿٥٩﴾﴾ الرجز هو العذاب، أو هو الرجس، والرجز قـاذورات النفوس وفـسادها، وقـد أصابهم اللـه تعالى بالأمـرين ففـسدت نفوسهم إلا أن يتوبوا، وأنزل الله تعالى عذابه بهم إذ جـعلهم أذلاء مستضعفين فى الأرض إلا أن يتسربلوا سـربال التقوى، ويسيروا فى طريق العزة، ويهـجروا أسباب الذل.

والرجز قسـمه الأصفهانى فى مفـرداته إلى قسمين: رجز ينزل بسـبب أعمال الإنسان من عصيان للرب، ومخالفة لأمره، وسوء تدبيره، وهذا عذاب الله تعالى، ورجز ينزل بلاء من الله، واختـباراً يصهر نفوسـهم. كطاعون ينزل بهم، أو إهلاك للحرث والنسل، أو ضرب الذلة عليهم.

وقد أصاب الله تعالى بنى إسرائيل بالنوعين من الرجز فعذبوا فى الحياة الدنيا رجاء أن يتوبوا ويهتدوا، وأصيبت نفوسهم بالذلة، التى ضربت عليهم إلا بحبل من الله وحبل من الناس، ونزلت بهم الآفات البشرية.

وذكر سبحـانه وتعالى أن السبب فى ذلك ظلمهم وفسقهم، فـأما الظلم فبينه سبحـانه بالإظهار فى موضع الإضـمار إذ قال: ﴿**فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ**﴾ والتعبير بالموصول يفـيد أن الصلة سبب لما أنزل الله تعالى من رجز، وهذا بيان للـسبب بالإشارة، أمـا فسـقهم فـقد بين سبـحانه سببـيتـه بصريح اللفظ الكريم، فقال: ﴿**بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ**﴾ أى بسبب أنهم يفسقون، و﴿**كَانُوا**﴾ دالة على

الاستمرار، والتعبير بالمضارع يفيد أن فسقهم على دوامه يتجدد وقتا بعد آخر فكلما تاب عليهم فسقوا مرة أخرى.

والفسق هو الخروج، يقال فسقت الفأرة خرجت من جحرها، وفسق الثمر خرج، فهؤلاء يخرجون عن الحق، ويسيرون وراء الباطل سيرا متجددا مستمرا آنا بعد آن.

وذكر الله تعالى أن الرجز من السماء إشارة إلى أنه يأتيهم من حيث لا يحتسبون ولا يظنون، وأنه من الله العزيز الحكيم، فإن ما يكون من السماء مغيب لا يعلم متى يجيء ولا من أى جهة يجيء.

۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ
لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ
ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟
وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾
وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ
يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا
وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ
بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ
وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ
ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

كان بنو إسرائيل يعيشون مع موسى عليه السلام فى معجزات حسية مستمرة، ولو كانت قوة الدليل وحسيته سببا للإيمان لكان بنو إسرائيل أشد الناس إيمانًا وأقواهم يقينا، ولكن الإيمان نور يقذفه الله تعالى فى قلوب الأتقياء فيدركون الحق، ويذعنون له، ويطمئنون إليه. وقد أرانا الله تعالى آياته فى بنى إسرائيل، فكلما أتاهم بدليل وكلما أتتهم آية كفروا بها، فلو كانوا يذعنون للحق لأذعنوا لبعض هذه الآيات، ولكنهم قوم معاندون، مناقضون الحس.

شكوا إلى موسى أنهم لا يجدون الماء الذى يشربونه فاتجه موسى إلى ربه ضارعا يطلب الماء، ولذا قال تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾.

وإذ - كما ذكرنا - دالة على الوقت الماضى، والمعنى اذكروا ذلك الوقت الذى استسقى فيه موسى لكم، تذكَّروا عطشكم فى ذلك الوقت، وكيف استسقى موسى ربه لأجلكم، فأمره الله سبحانه وتعالى أن يضرب بعصاه الحجر، فضرب، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، هى بقدر عدد الأسباط أولاد يعقوب عليه السلام، وذريتهم من بعدهم، اذكروا ذلك وتذكروه، فإنه معجزة من الله تعالى. فكان لكل سبط عينه، يشرب منها هو ومن معه من سبطه لكيلا يُتزاحم على الماء، فينال الماءَ القويُّ، ويضيع الضعيف، واستسقى؛ السين والتاء للطلب، أو السؤال، والاستسقاء الضراعة إلى الله تعالى أن ينزل الماء، فهذا الاستسقاء عبادة لأنه دعاء الله تعالى ضارعا إليه أن ينزل عليه الماء، والدعاء المتضرع عبادة فى ذاته، ولقد كان النبى ﷺ إذا جف المطر، وأجدبت الأرض استسقى . . فقد خرج إلى المصلى متواضعا، متذللا متوسلا متضرعا ودعا ربه أن يسقى المطرَ، فنزل مدرارا، حتى خشى الناس أن يَضُرَّ، فقال النبى ﷺ: «اللهم حوالينا، ولا علينا»(١).

---

(١) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالك قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّه ﷺ يَخْطُبُ يَوْمَ الْجُمُعَة إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه، قَحَطَ الْمَطَرُ؛ فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَسْقِيَنَا. فَدَعَا فَمُطِرْنَا، فَمَا كدْنَا أَنْ نَصلَ إِلَى مَنَازِلنَا، فَمَا زِلْنَا نُمْطَرُ إِلَى الْجُمُعَة الْمُقْبِلَة، قَالَ: فَقَامَ ذَلكَ الرَّجُلُ أَوْ غَيْرُهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّه ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَصْرِفَهُ عَنَّا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلا عَلَيْنَا» قَالَ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ السَّحَابَ يَتَقَطَّعُ يَمِينًا وَشِمَالا يُمْطَرُونَ وَلا يُمْطَرُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ. [متفق عليه رواه البخارى: كتاب الجمعة (٩٥٩)، ومسلم صلاة الاستسقاء (١٤٩٠)].

ولما استسقى موسى عليه السلام لم ينزل عليه مطر، ولكن قال له ربه: ﴿اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ والعصا هي آية الله تعالى، ومعجزة موسى التي انقلبت حية تسعى، والتي بها ضرب البحر بها فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم، ضرب بها الحجر، ولم يكن حجرا معينا له صفات ذاتية، بل إنه للعهد الذهني الذي ينطبق عليه اسم الحجر، كما تقول ادخل السوق، فالمراد أي شيء ينطبق عليه اسم السوق، ضرب موسى عليه السلام الحجر ﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾ انفجرت: انشقت، وخرجت من الحجر اثنتا عشرة عينا، والعين هي الموضع الذي يخرج منه كعين زمزم، فماء العيون لا يكون من السماء كالمطر، ولكن يكون من الأرض، أو الحجر، كما رأينا ما فعلته عصا موسى عليه السلام؛ وهنا ثلاث معجزات خارقة للعادة:

الأولى: ضرب الحجر بالعصا، فينبثق منه الماء، وهذه معجزة العصا.

والثانية: أن الضرب في الحجر الذي لا يخرج منه الماء عادة، ولا يعلم أن الماء ينبع من الأحجار، ولكن من الأرض اللينة التي لا تكون حجرا متماسكا، وقد يخرج ماء العيون من الجبال ولكن يكون من شقوق يخرج منها لا من ذات الحجر، أما الذي يخرج من ذات الحجر فإنه خاص بمعجزة موسى عليه السلام.

الثالثة: كون الماء يخرج اثنتي عشرة عينا على قدر عدد الأسباط، و﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ أي مكان شربهم، أي العين التي خصصت لهم، وقد كان الحجر الذي ضربه موسى عليه السلام بعصاه مكعبا له أربعة جوانب ظاهرة على الأرض، فكان في كل جانب قد انبثق فيه ثلاث عيون، فيكون عددها في كل اثنتي عشرة عينا، وعلم كل أناس العين التي يشربون منها، فكان لكل سبط منهم ثلاث عيون.

وإن هذا التوزيع بينهم لا يفرق، ولكنه يجمعهم، فالعدل يجمع ولا يفرق، وفوق ذلك فيه تسهيل للتناول فلا يتزاحمون ولا يتنازعون ولا يضيع الضعيف بينهم.

وقد بين الله تعالى أن الماء مباح لهم، كما أبيح لهم الطعام؛ ولذا قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أي أنه أبيح لهم الأكل من المن والسلوى، كما ذكرنا آنفا، أو أبيح

لهم أن يأكلوا من ثمرات هذا الماء الذى يجيء إليهم من هذه العيون التى تفيض فى الأرض غير مقطوعة، ولاممنوعة.

وإن النعمة إذا كثرت على أمثال بنى إسرائيل كانت مظنة الفساد، ولذا قال تعالى: ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾ العثو، من عثى يعثى بمعنى أفسد، أو بمعنى أضاع كل ما فيه من خير، فاعتدى على حق غيره، فيعثون يشمل كل فعل يؤدى إلى الاضطراب والإفزاع ومنع الخير، ويتقارب من معنى العبث، ويكون قوله تعالى: ﴿مُفْسِدِينَ﴾ ليس تكراراً للفظ لا تعثوا أو تأكيداً، إنما هو لبيان العثو، وهو القصد إلى الإفساد، فمفسدين معناها قاصدين إلى الإفساد.

وإن بنى إسرائيل شأنهم دائما ألا يستقروا، بل هم فى تململ مستمر، ولا يهمهم إلا الطعام والشراب؛ ولذا قالوا لموسى عليه السلام الذى ابتلى بهم: ﴿يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

كان اليهود (لعنهم الله) لا يهمهم إلا ما يطعمون، فسألوا الأكل أولا ثم سألوا الماء ثانيا، ثم سألوا تلوُّن الأطعمة، ولم يفكروا فى أمر معنوى، لم يفكروا فى العزة بعد الذلة، ولا فى النجاة بعد القتل، ولا فى المعانى الروحية التي جاء بها موسى عليه السلام، ولا فى الإيمان بعد الكفر، ولا فى الرفعة بعد الحطة.

لم يفكروا فى شيء من هذا إنما فكروا فى الطعام وألوانه، لم يطلبوا الهداية، ولكن طلبوا ألوان الطعام، وقال تعالى عنهم: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ والمعنى: اذكروا معشر الحاضرين ما قلتم أنتم وأسلافكم، ولا تفكير لكم فى جهاد تجاهدونه، ولكن فى طعام تأكلونه، نادوا موسى وهو لهم كالأم الرءوم: ﴿يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ وهو المن والسلوى، وقالوا: على طعام واحد، لأنه لون واحد متكرر مستمر، لا يتغير، فهو يعرض بطريقة واحدة، والشيء المتكرر

يكون شيئًا واحدًا، ولو تجدد وتكرر، ولو كان أكثر من واحد، ولو كان طيبا، وإن الرجل المادى يسأم ما يقدم له كل يوم، ولو كان أشهى، وقالوا يائسين من أن يرضوا : لن نصبر على طعام، فأكدوا النفى بـ «لن»، ودلوا على تململهم بقولهم: «لن نصبر»، أى لن نستطيع أن نضبط أنفسنا فنحملها على الرضا بطعام واحد.

ورتبوا على نفيهم الصبر نفيا مؤكدا قولهم: **﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا﴾**، الفاء فاء الإفصاح التى تفصح عن شرط مقدر دل عليه قولهم لن نصبر تقديره؛ فإذا كنا لا نصبر، **﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾** ومعناه اضرع إلى ربك الذى خلقك وربك لا إلى أن يهدينا بل إلى أن يخرج لنا مما تنبت الأرض، وقوله «يخرج» فى معنى جواب الأمر، أي إن تدع ربك فإنه يخرج لنا، فهم لتلهفهم على ما يأكلون افترضوا أن الدعاء قد وقع، وافترضوا أن إجابة الدعاء قد تمت، فقالوا هذا الكلام الدال على رغبتهم فى الإجابة السريعة.

والبقل معروف، وهو كل نبات لا ساق له غالبا كاللوبيا والفاصوليا ونحوهما كالفول، وفومها وهو الثوم وقيل القمح واللغة لا تساعد ذلك، وعدسها وبصلها وهما معروفان، ولكن موسى عليه السلام لم يسارع بالدعوة التى طلبوها، ولم تكن الإجابة التى رغبوها لإشباع نهمتهم، بل ذاكرهم فيما يطلبون، وبين لهم أنهم يطلبون غير الحسن ويتركون الحسن، فقال لهم: **﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾**، أى أتتركون الخير، وتطلبون بدلا منه الذى هو أدنى منه وإن كان من نعمة الله تعالى.

وعبر عن الذى طلبوه بأنه هو الذى أدنى فى الرتبة والمنزلة الغذائية وأنه خلق كذلك، وإن كان نعمة فى ذاته ولكن رتبته دون ما أنتم فيه، وعبر بقوله تعالى: **﴿الَّذِي هُوَ أَدْنَى﴾** أى أنه فى ذاته دانٍ فى رتبته ولا يعلو عنها ولا يصل إلى الذى هو خير فى ذاته، وثابت على الخيرية؛ لا يزيل صفة الخيرية ما تطلبون.

والأدنى معناه القريب، ولما كان القريب سهل التناول، والبعيد صعب التناول أطلق الأدنى على كل أمر يسهل الحصول عليه وفى العادة لا يكون ذا منزلة.

والسؤال استفهامى تقريرى لإنكار الواقع، أى فيه معنى التوبيخ، لأنهم فى نعمة بالطعام الطيب الذى يجىء من غير كد ولا لغوب، وهو المن والسلوى، ولأنهم فى مكان من العزة والنعمة يحمدون الله تعالى عليهما، ولا يفكرون فى شهوة البطن مع هذه العزة إن كانوا أعزة كراما.

ولقد قال موسى كما أخبر ربه: ﴿**اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ**﴾ ويفيد ذلك ضمنا بأن موسى لم يدع ربه كما طلبوا ولكن بين لهم المكان الذى يرون فيه ذلك، وعبر بقوله: ﴿**اهْبِطُوا مِصْرًا**﴾؛ لأن فيه إشارة إلى أنهم ينزلون من منزلة مرتفعة العزة والرفعة إلى مكان دون ذلك؛ لأن الهبوط نزول من مرتفع إلى منخفض، وهم ينزلون من العزة، وضيافة الله تعالى إلى حيث يشبعون بطونهم ويرضون أهواءهم، وبذلك استبدلوا الخبيث بالطيب.

وقوله: ﴿**اهْبِطُوا مِصْرًا**﴾ بالتنكير يجعلنا نفكر أهى مصر التى اضطهدوا فيها، وذبحت أبناءهم ، واستحيت نساءهم، أم مصر فيه ريف وأرض طيبة زارعة منتجة ما يريدون من فوم وقثاء وعدس وبصل.

إن التنكير يفيد أى مصر فيها زرع وثمار، ولكن الكثيرين من المفسرين يذكرون أنها مصر التى أخرجوا منها والتى أرهقوا فى حياتهم فيها، ومع ذلك لم يذكر أنهم عادوا إلى أرض مصر، وموسى بينهم؛ ولذا نرجح أن موسى عليه السلام طلب إليهم أن ينزلوا من علياء الضيافة الربانية والعزة الإلهية وأن يشبعوا شهواتهم فى أى مصر فيه الريف وما تنبت الأرض من زروع وعيون بدل عزة الصحراء.

بعد هذا يئس موسى من إصلاحهم . . أراد أن يربيهم على الوحدانية فقالوا: يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة . . وأراد موسى عليه السلام، أن يبعدهم عن فرعون وقومه، وأن يخلصهم من أوهامهم، فانتهزوا غيبته، واتخذوا العجل، وعبدوه . . وطلب إليهم أن يقتلوا منابع الأهواء والشهوات فى نفوسهم فتابوا وقبل الله تعالى توبتهم . . ولما أراد الله تعالى أن يختبر نفوسهم فأمرهم أن يدخلوا القرية ساجدين، ويطلبوا ضارعين إليه أن يحط عنهم ذنوبهم، (دخلوا على أستاههم طالبين الحنطة).

طلب الله تعالى إليهم كل ذلك، ولكن نفوسهم طبعت على الأهواء والشهوات والأوهام فتركهم الله تعالى لتؤدى هذه الأخلاق إلى ما تنتهى إليه، وهو الذلة، فما أذل النفوس كالشهوات والأهواء، وإذا هانت النفوس ذلت، وإذا سيطرت عليها الأهواء خنعت، ولا يورث فى النفس المذلة إلا المطامع.

ولذا قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ أى أحاطت بهم المذلة لا يخرجون من دائرتها، بل يتنقلون فى دائرتها؛ ينتقلون فيها من جانب إلى جانب، ولا يخرجون منها، فصارت حالهم فى ذلتهم، كحال من ضربت عليهم قبة لايخرجون منها، ولذلك عبَّر بضربت عليهم، والمسكنة هى الخضوع والاستسلام للوهن والضعف، وهى لازمة للذلة، فحيث كانت الذلة كانت المسكنة، والخضوع للظالم، ولا يرضون إلا بالذل، ولا يقبلون غيره، فإن النفس إذا ألفت الذل، واستمرأته، ترضى بكل من يذلها وتسكن خاضعة له.

فالمسكنة مصدر ميمى على وزن مَفْعَلَة معناه الخضوع المطلق والرضا بالظلم، أو الظهور بمظهر قبوله، وهو السكون ممن لا يجابهون أهل الباطل بقولهم الحق يصك آذانهم صكا.

هذه الأخلاق هى نتيجة لسيطرة الأهواء والشهوات، وهى الداء الذى يصحب من يعيشون فى خصيب الأرض ولين العيش، ويفكهون فى ملاذ الدنيا، ويستمرئون البقاء فيها.

ولقد قرر الله تعالى عقوبة قاسية لذوى الضمائر الفاسدة، وهى أنهم يرجعون بغضب الله تعالى، فهم مطرودون من رحمة الله تعالى، فمعنى ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أى أنهم رجعوا مصاحبين غضب الله تعالى ملازما لهم لا ينفكون عن الغضب، بل إنه يلازمهم فى كل أدوار حياتهم.

ولقد ذكر الله سبحانه وتعالى ذلك الغضب الذى لازمهم بعد أن طردهم من رحمته، وأنهم لا يستحقونها، ذكر سبحانه وتعالى السبب فى ذلك فقال تعالت كلماته: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

الإشارة إلى ما أنزله الله تعالى عليهم من الذلة والمسكنة وأنهم أبعدوا عن رحمة الله مصحوبين بغضبه وقد لبسهم غضب الله تعالى، ومعه الخزى والعار.

قال سبحانه فى سبب ذلك: ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ آيات الله تعالى المعجزات الدالة على رسالة موسى، وهى فى ذاتها نفع لهم، أنجاهم من فرعون الذى كان يقتل أبناءهم، ويستحيى نساءهم، إذ ضرب البحر بعصاه عليه السلام ففرقت البحر ونجا بنو إسرائيل وأغرق الله تعالى فرعون، وأنه أنزل عليهم المن والسلوى إلى آخر آيات الله التى كانت نعما عليهم ومعجزات دالة على نبوة موسى عليه السلام، والتعبير منه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ بيان لاستمرار كفرهم، وتكرره بتكرر آياته، فإن «كانوا» دالة على الاستمرار ،والتعبير بالمضارع للدلالة على تكرر الكفر بتكرار الآيات، فما جاءتهم آية إلا كفروا بها، وهى باهرة تتضمن نعمة أنعم بها سبحانه وتعالى عليهم، فاجتمع فيهم كفر الإيمان بالكفر بدلائله، وكفر النعمة بعدم شكرها، وشكر المنعم واجب بحكم العقل والشرع، وما جرى عليه الناس، ويجرون عليه إلى يوم القيامة.

وقد ذكر سبحانه وتعالى جريمة ثانية إيجابية فالجرائم السابقة كلها سلبية، الكفر سلب، وعدم شكر الله تعالى حيث يجب الشكر جريمة سلبية أيضا، أما الجريمة الإيجابية فهى قتلهم الأنبياء بغير حق، فهم لا يكتفون بعصيان الله تعالى وكفرهم بآياته، بل يزيدون على ذلك لإمعانهم فى الضلال بقتلهم النبيين الصديقين الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالى لهدايتهم ودعوتهم إلى الحق كما قتلوا يحيى بن زكريا عليهما السلام.

ويظهر أنهم لم يقتلوا واحدا، بل كانوا يقتلون النبيين كلما خالفوهم لايرعون مقامهم من الله تعالى، ولذلك كان التعبير بالمضارع الدال على التكرار، وكأن قتل النبيين كان عادة لهم وشأنا من شئونهم لتغلغل الكفر والعصيان فى نفوسهم، واستمرائهم الباطل والعصيان؛ ولذلك علل تعالى تكرار كفرهم للآيات، وقتلهم للأنبياء بقوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)﴾.

وقوله تعالى فى وصف قتلهم للأنبياء بأنه بغير الحق، وصف لإفادة عتوهم وكفرهم لا لبيان أن القتل للنبيين قد يكون بحق، بل لبيان أن فعلهم إثم وليس له مبرر، وأن كونه بغير الحق للتشنيع على فعلهم، وقبح تصرفاتهم، وقد علل تعالى كما تلونا بأن ذلك كان بعصيانهم واعتدائهم.

﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوا﴾ أى ذلك الجرم الذى ارتكبوه سببه أنهم عصوا؛ أى أن نفوسهم تمردت واستمرأت العصيان، وأنها أظلمت بتراكم المعاصى حتى استمرأتها، وهل يصدر من النفوس المظلمة إلا ما يكون فسادا وشرا؟! ويصلون إلى أقبح أنواع الشرور، وهو قتل الهداة أحباب الله تعالى وهم الأنبياء.

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى أن ذلك كان لمجرد الاعتداء، فهم فى طبيعتهم العدوان؛ لأن المعصية إذا استمرت ولجوا فى العصيان، وسيطرت الأثرة عليها يكون من آثارها لا محالة الاعتداء، الاعتداء فى طلب الأشياء، والاعتداء بسيطرة الأهواء والشهوات، والاعتداء بقتل الأنبياء، فالاعتداء والعصيان من شئونهم ، وهكذا هم بلاء هذا الوجود.

الناس جميعا سواء أمام الله يجزيهم إن آمنوا

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ
مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ
عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

اختص الله سبحانه وتعالى الآيات السابقة ببنى إسرائيل وكفرهم بالآيات المتتالية آية بعد آية، وبتكرار وتوالى ذلك الكفر ليبين سبحانه وتعالى انصرافهم عن الحق مع كثرة الآيات، وكفرهم بالنعم مع تواليها. وكأن القارئ للقرآن الكريم يحسب أن العبر تنزل لمن يكفر بها، والآيات المعجزة تتوالى على من ينكرها . .

فيبين الله تعالى أن الغاية من هذه النعم هى الإيمان، وأنهم إن كفروا بها فباب التوبة مفتوح لهم ولغيرهم، وأن الله تعالى خلق الخلق ليتفكر الناس فيؤمنوا وليجدوا فيها البرهان فيؤمنوا ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** (٥٦)﴾ [**الذاريات**].

وقد قضى الله تعالى أن الإيمان مقبول من كل الطوائف والملل، وقد جعل سبحانه وتعالى ذلك الحكم الخالد الأبدى معترضا فى أخبار بنى إسرائيل ليفتح باب الإيمان لهم، ولغيرهم، فقال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا**﴾.

والإيمان بالله تعالى هو الإيمان بالله باعتقاد وحدانيته فى الخلق والتكوين بألا يعتقدوا أن أحدا شارك الله تعالى فى إنشائه الخلق، وأنه وحده خالق كل مَن فى الوجود وأنه لا تخرج حركة عن حركة فى الوجود، وإنما ذلك قيوميته وإرادته، وأنه ليس بوالد ولا ولد ولم يكن له كفواً أحد، وأنه جلت صفاته، فليس كمثله أحد، وهو السميع البصير، وأن يؤمن باليوم الآخر وما فيه من حساب، وثواب وعقاب، وأن يؤمن بملائكته وكتبه ورسله.

هذا هو الإيمان فمن آمن من أتباع محمد ﷺ ذلك الإيمان، وأردف إيمانه بالعمل الصالح الذى يكون طاعة لله تعالى وفيه صلاح الناس؛ ﴿**وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾.

وكذلك من آمن من اليهود بالله والملائكة الأطهار والرسل الأمجاد ومنهم محمد بن عبد الله رسوله الأمين، علم أن الله منزه عن مشابهة المخلوقين، وأنه ليس كمثله شىء وعمل صالحا ﴿**وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾.

وكذلك النصارى إذا آمنوا بالله ورسله وأنه ليس بوالد ولا ولد ﴿**وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾. هذا هو الإيمان بالله حق الإيمان.

وكذلك الصابئون من توافر فيهم ذلك الإيمان الموحد بالله تعالى فى الخلق والتكوين والعبادة وآمن بالغيب، وملائكته وكتبه ورسله عامة ورسوله محمد ﷺ خاصة.

هؤلاء إذا آمنوا ذلك الإيمان، وأخلصوا لله ذلك الإخلاص وقوّوا إيمانهم بالعمل الصالح الذى يكون فيه الطاعة لله ولرسله والاستجابة لكل ما أمر به- من كانوا كذلك فلا خوف عليهم من عقاب ينزل بهم، ولا يحزنون على ما فاتهم فى ماضيهم من شر، لأن الإيمان يجبُّ ماقبله كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ... ﴿٣٨﴾﴾ [الأنفال] فلا يأسون على ما فاتهم ويفرحون بما أتاهم.

ونقبس قبسة من صورة الإيمان كما علم جبريل أمة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم:

روى ابن ماجه عن عمر رضى الله عنه قال: كنا جلوسا عند النبى ﷺ فجاء رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد شعر الرأس، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، فجلس إلى النبى ﷺ، فأسند ركبته إلى ركبته، ووضع يديه على فخذيه، ثم قال: «يا محمد، ما الإسلام؟ فقال: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت. قال: صدقت، فعجبنا منه يسأله ويصدقه، ثم قال: يا محمد، ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، قال: صدقت، فعجبنا منه يسأله ويصدقه، ثم قال: يا محمد، ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإنك إن لا تراه فإنه يراك، قال: فمتى الساعة؟ قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، قال: فما أمارتها؟ قال: أن تلد الأمةُ ربّتَها، وأن ترى الحفَاةَ العُراة العَالَة رِعَاء الشّاء يتطاولون فى البنيان»(١).

هذا هو الإيمان الذى يزيل الفوارق التى تكون بين الأمم والجماعات والأديان، وقبل أن نتم الكلام حول الآية الكريمة نذكر أمورا ثلاثة فيها بيان للناس فى ظل بيان القرآن الكريم.

---

(١) حديث جبريل الشهير، رواه بهذا اللفظ ابن ماجه: المقدمة (٦٢)، ورواه مسلم: كتاب الإيمان (٩)، والبخارى: الإيمان (٤٨)، والنسائى (٤٩٠٤) وأبو داود (٤٩٧٥) وأحمد: مسند العشرة المبشرين (١٧٩).

أولها: الفاء فى قوله تعالى: ﴿**وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ هى فى جواب الشرط أى أن الإيمان الذى شرحناه والعمل الصالح الذى ذكرناه هو الشرط لأن ينالوا الجزاء من أمن الخوف، وألا ينالهم حزن على الماضى.

الأمر الثانى: قد عرفنا اليهود، وهم منحرفون دائما، ولكن فتح لهم باب الرجاء، والنصارى كذلك، فمن هم الصابئون؟.

الصابئون الذين ظهروا فى الإسلام وقبله هم أكتم الناس لعبادة الأوثان، ويعلمون صبيانهم كتمانها، وقد قال عنهم أبو بكر الرازى فى كتابه أحكام القرآن: وأصل اعتقادهم تعظيم الكواكب السبعة أو عبادتها واتخاذها آلهة، وهم عبدة أوثان فى الأصل إلا أنهم منذ ظهر الفرس على إقليم العراق، وأزالوا مملكة الصابئين لم يجسروا على عبادة الأوثان ظاهرا، لأنهم منعوهم من ذلك، وكذلك الروم وأهل الشام والجزيرة كانوا صابئين، فلما تنصر قسطنطين حملهم بالسيف على الدخول فى النصرانية، فبطلت عبادة الأوثان من ذلك الوقت، ودخلوا فى غمار النصارى فى الظاهر، وبقى كثير منهم على تلك النحلة مستخفين بعبادة الأوثان، فلما ظهر الإسلام دخلوا فى غمار النصارى، ولم يميز المسلمون بينهم وبين النصارى، إذ كانوا مستخفين بعبادة الأوثان، كاتمين لأصل اعتقادهم، وهم أكتم الناس لاعتقادهم، فالصابئة يعبدون الكواكب والأوثان، ويظهرون بالنصرانية، هذا ما يجب بيانه هنا، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتابنا تاريخ الجدل.

الأمر الثالث: إن بعض النصارى - ومال مَيْلَهُم من فى دينه لين - قال: إن القرآن الكريم يعترف بأن النصارى لا خوف عليهم ولاهم يحزنون، ونقول إنه اشترط للاعتراف للنصارى بأنه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون - الإيمان بالله تعالى، وأنه الواحد الأحد، وأنه ليس بوالد ولا ولد، وليس له كفوا أحد، فهل يؤمن النصارى فى عصرنا ذلك الإيمان وهم يقولون إن الله ثالث ثلاثة، والله تعالى يقول: ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ** . . . ﴿٧٣﴾﴾ [**المائدة**] ويقولون بألوهية المسيح كما قرروا ذلك فى مجمع نيقية بإجماع القساوسة وإجماعهم إلى اليوم،

والله تعالى يقول: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ... (٧٢)﴾ [المائدة].

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤)﴾

عاد القول إلى بنى إسرائيل بعد أن ذكر اليهود والنصارى والصابئين، لبيان أنه لا يصح أن ييئسوا من رحمة الله تعالى بعد ما كان منهم فى ماضيهم، وما يكون منهم فى حاضرهم إن آمنوا بالله حق إيمانه، وبالآخرة إيمان إذعان ورجاء إن أطاعوا، وخوف العقاب إن عصوا.

بين الله تعالى حال اليهود فى ماضيهم ويتحمله الذين حضروا النبى ﷺ، لأنهم أقروهم عليه فكان الخطاب بما حصل من أسلافهم موجها أيضا لأخلافهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾.

الطور هو الجبل الذى هو فى سيناء، فهو جبل معين ذكره الله تعالى فى عدة آيات، وهو منسوب إلى سيناء كما قال تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ (٣)﴾ [التين].

أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل، والميثاق مفعال من الوثوق أى: وثّقنا القول والأوامر التى أمر الله بها ونهى فيها، وبين لهم عظمة قدرته وقوة عظمته، وترهيبا لأمره بعد ترغيبهم فيه، وفى هذا الرفع آية حسية تدل على رسالة موسى عليه السلام، وأنه يتلقى أوامره من ربه، إذ كانوا قد طلبوا رؤية ربهم فخروا صعقين، فهذا ربهم يخاطبهم بآية، ورفع الجبل هذا هو ما قاله الله تعالى فى سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ... (١٧١)﴾ [الأعراف].

ولقد ذكر سبحانه وتعالى مضمون الميثاق إجمالا، فقال خذوا ما آتيناكم بقوة، أي بجد وإتقان، وتعرف، وعناية، ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾، أى اجعلوه فى ذاكرتكم دائما لا تغفلون عنه، ولا تهملونه، واجعلوه حاضرا دائما فى قلوبكم لتعملوا به، ويكون فى وعيكم دائما، ولقد ذكر بعض ما فى هذا الميثاق بالتفصيل فقال تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

هذا هو بعض التفصيل لهذا الميثاق المحكم الذى واثقه الله عليهم مؤكدًا ذلك التوثيق برفع الجبل فوقهم كأنه ظلة يظلهم، وطالبهم بأن يأخذوا ما آتاهم الله تعالى من تكليفات ذكرنا بعضها، بقوة، أى بيقين وجزم وتصديق وإذعان، وأن يقرن ذلك بالعمل، فلا تأخذونه بيد، وتردونه باليد الأخرى، واذكروا ما فيه، أى اجعلوه دائما فى وعيكم وذاكرتكم وقلوبكم، ولا تنسوه.

وإن ذكر الشريعة وأحكامها هو أساس تنفيذها، وإن المسلمين اليوم قد عراهم ما أصاب فى ماضيهم، يحفظون القرآن ولا يعونه، ويرددون حروفه، ولا يتدبرونه، ولقد روى مالك فى موطئه عن ابن مسعود أنه قال: (سيأتى على الناس زمان قليل فقهاؤه، كثير قراؤه، تحفظ فيه حروف القرآن، وتضيع حدوده، كثير من يسأل، قليل من يعطى يطيلون فيه الخطبة، ويقصرون الصلاة يُبَدُّون فيه أهواءهم قبل أعمالهم)(١). أى يتبعون أهواءهم ويتركون ما افترض عليهم.

كانت هذه الأوامر التى واثقهم الله تعالى عليها، وأمرهم أن يذكروها دائما لأجل أن يتقوا الله تعالى أى يجعلونها وقاية لهم من ذنوبهم، أو رجاء أن تمتلئ

(١) عنَّ عَبْدَ اللَّه بْنَ مَسْعُود قَالَ لإِنْسَان: إِنَّكَ فِى زَمَان كَثِيرٌ فُقَهَاؤُهُ، قَلِيلٌ قُرَّاؤُهُ، تُحْفَظُ فِيهِ حُدُودُ الْقُرْآن، وَتُضَيَّعُ حُرُوفُهُ، قَلِيلٌ مَنْ يَسْأَلُ، كَثِيرٌ مَنْ يُعْطِى، يُطِيلُونَ فِيهِ الصَّلاةَ، وَيَقْصُرُونَ الْخُطْبَةَ، يُبَدُّونَ أَعْمَالَهُمْ قَبْلَ أَهْوَائِهِمْ، وَسَيَأْتِى عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ قَلِيلٌ فُقَهَاؤُهُ، كَثِيرٌ قُرَّاؤُهُ، يُحْفَظُ فِيهِ حُرُوفُ الْقُرْآنِ، وَتُضَيَّعُ حُدُودُهُ، كَثِيرٌ مَنْ يَسْأَلُ، قَلِيلٌ مَنْ يُعْطِى، يُطِيلُونَ فِيهِ الْخُطْبَةَ، وَيَقْصُرُونَ الصَّلاةَ، يُبَدُّونَ فِيهِ أَهْوَاءَهُمْ قَبْلَ أَعْمَالِهِمْ. [موطأ مالك: كتاب النداء للصلاة (٣٧٩)].

بتقوى الله تعالى قلوبهم، وتغلب عليهم مخافة ربهم فلا يعصوه، ويبادروا إلى طاعته، ولذلك قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ أى ترجون التقوى والخوف منه.

ولكن كان هذا الميثاق الذى وثقه تعالى بأمر حسى، لأنهم لا يعتبرون إلا بالمحسوسات مؤديا إلى أن يتقوه سبحانه بل إنهم تلقوا أمرًا موثقا ذلك التوثيق، مؤكدا ذلك التوكيد، ولكنهم كعادتهم فى استهانتهم بأمر الله ونهيه نسوه وتولوا عنه معرضين؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ التولى هو الإعراض، وأصله الإدبار، وأن يجعل جسمه موليا وجه من يطالبه بقول أو عمل، والمعنى أنهم أعرضوا إعراضا شديدا واضحا، كمن يعرض عن القول بتولية جسمه، واتجاهه فى اتجاه غير اتجاه من يواجهه بالقول، ومعنى ذلك أنهم جعلوا الله وميثاقه وراءهم، ودبر آذانهم.

والتعبير هنا بـ «ثم» التى تدل على التراخى للإشارة إلى البعد عن الميثاق وموجبه، وعملهم المناقض لأمر الله تعالى، والإشارة فيها بالبعيد فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ لبيان بعد عملهم، عن الميثاق الذى أمرهم سبحانه وتعالى أن يأخذوه بقوة، وأن يذكروه دائما وأن يكون فى وعيهم فى كل أحوالهم.

وإن ذلك التولى كان بالإعراض عما جاء فى التوراة أو الألواح العشرة التى أخذوها بقوة، وطولبوا بذكرها دائما ليمكنهم أن يعملوا بها، وقد قال القفال الشاسى بعض ما تولوا به عن التوراة فقال: وإنهم بعد قبول التوراة، ورفع الطور تولوا عن التوراة بأمور كثيرة فحرفوا كلمها عن مواضعه، وتركوا العمل بها، وقتلوا الأنبياء، بعد أن كفروا بهم، وعصوا أمرهم، ومنه ما عمله أوائلهم، ومنه ما فعله متأخروهم، ولم يزالوا فى التيه مع مشاهدتهم لأعاجيب البلاء يخالفون موسى ويعترضون عليه، ويلقونه بكل أذى، ويجاهرون بالمعاصى فى معسكرهم ذلك، حتى لقد خسف ببعضهم وأحرقت النار بعضهم، وعوقبوا بالطاعون، ثم نقل متأخروهم ما لا خفاء فيه، حتى عوقبوا بتخريب بيت المقدس، وكفروا بالمسيح وهموا بقتله.

هذه كلمات صورت توليهم عن الحق، واستدباره فى عامة أمورهم، وكان منهم فى عهد موسى وهو يكلمهم عن الله، ويتولى تربيتهم وبث روح الإيمان فى قلوبهم التى قست وكانوا صورة واضحة للناس الذين تغلب عليهم شقوتهم.

ولقد قال تعالى: ﴿فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الفاء فاء الإفصاح التى تفصح عن شرط مقدر أي إذا كان ذلك كله منكم بعد ذلك التوثيق لأمر الله تعالى ونهيه، وأمركم أن تأخذوه فإنه كان ينزل بكم الخسران المبين والعذاب المهين، ولكن لولا فضل الله عليكم ورحمته.. و«لولا» هنا هى التى يقال فيها أنها حرف امتناع وجود أى حرف امتناع الجواب لوجود الشرط. والمعنى أنكم كنتم تستحقون بذلك عذاب الهون، ولولا فضل الله أى إرادته أن يزيد خيره عليكم تمكينا لكم من فعل الخير بإمهالكم لكنتم من الخاسرين، ولقد قال الراغب فى تفسيره: الخاسر المطلق هو الذى خسر أعظم ما يقتنى، وهو نعيم الأبد.

فالخاسرون: هم الذين خسروا أنفسهم، بأن أوقعوها فى الهلكة والعذاب.

وإن النص القرآنى يفيد أن الله بفضله ورحمته أعطاهم مهلة ليتداركوا أمرهم، ولم يكتبهم من الخاسرين.

اعتداؤهم فى السبت

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

لقد كان بنو إسرائيل قوما غلبت عليهم شقوتهم، فكان رب العالمين يشرع لهم من الشرائع ما يربون به نفوسهم، ويعودهم ضبط النفس، وفطمها، ليتربوا على البعد عن الشهوات، ويقتصروا على ما فيه مصلحتهم، ويقيم حياتهم مستقيمة؛ ولذلك حرم عليهم بعض المباحات قرعًا لنفوسهم وفطمًا لها، وقد قال

تعالى: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأنعام].

من ذلك كان تحريم الصيد عليهم يوم السبت قمعا للشهوات، وقد يكون فيه تنظيم اقتصادى، وراحة لهم، وأن يعكفوا على العبادة، ويروضوا أنفسهم على حياة روحية تتطهر فيها نفوسهم وتتجرد من سطوة المادة وشهواتها.

حرم الله تعالى عليهم الصيد فى يوم السبت، ولكنهم مرقوا عن أمر الله تعالى، واستباحوا السبت، أو بعبارة أدق استباحه بعضهم، وسكت عن نهيهم سائرهم، وإن كان الذين امتنعوا خيرهم، وقالوا فى إخوانهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ... ﴿١٦٤﴾ ﴾ [الأعراف] ولأن أصواتهم لم تصل إلى درجة المنع - نسب الاعتداء إليهم جميعا.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ أكد سبحانه وتعالى علمهم بهذا الاعتداء باللام التى تكون للتأكيد، وبقد التى تكون للتحقيق دائما سواء أدخلت على المضارع أم دخلت على الماضى، كما هو فى القرآن الكريم.

وقالوا: إنه سبحانه وتعالى قال: علمتم، ولم يقل عرفتم؛ لأن المعرفة تمييز للشخص فى ظاهر أمره، فتقول: عرفت فلانا إذا لقيته ولم تخبر أحواله، وإذا قلت: علمته؛ فمعنى ذلك أنك علمت أحوال ظاهره وباطنه، فتقول: علمت زيدا إذا علمت أحواله ظهورها، وخفاياها.

أى أنكم علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت، فى شره نفوسهم، وَقَرمهم إلى الصيد، واندفاعهم نحو المخالفة لأمر ربهم مدفوعين بشهوات جامحة يتحايلون فيها تحايل الولهى لتحقيقها، حاسبين أن ذلك يخفى على الله تعالى، ولكن سبحانه وتعالى يزيد فى اختبار نفوسهم، فيرسل حيتان السمك إليهم شارعة يوم السبت، ثم لا تأتيهم بعد ذلك؛ ولذلك قال تعالى مبينًا الاختبار فى آية أخرى، فقال تعالى:

﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأعراف].

وهذه القرية يروى ابن كثير فى تفسيره أنها كانت بين الأبلة والطور، ولعلها المصر الذى هبطوا إليه فى قول موسى: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾. ويروى ابن كثير أنه اشتهى بعضهم السمك فجعل الرجل يحفر الحفيرة ويجعل لها نهرا إلى البحر. فإذا كان يوم السبت فتح السد فأقبل الموج بالحيتان يضربها حتى يلقيها فى الحفيرة، فيريد الحوت أن يخرج، فلا يطيق من أجل قلة ماء النهر فيها فإذا كان يوم الأحد جاءه، فأخذه، فشواه، وقد قلده جاره، وشاع هذا وفشا فيهم . . فقال لهم علماؤهم: إنكم صدتموه يوم فتحتم له الماء فدخل، فأنتم اصطدتموه يوم السبت.

وما أشبه هؤلاء بإخوانهم ينتسبون إلى دين محمد ﷺ حتى إنهم يستبيحون الربا بحيل محرمة، والله عليم بهم وبأحوالهم، ولهم ما أعده الله لبنى إسرائيل، وهم أصل الداء فى هذا وفى غيره(١).

وقد قال تعالى ما يفيد أنهم إذا لم تتهذب نفوسهم، ولم تترب بالضبط قلوبهم فإنهم كالقردة والخنازير، فقال تعالى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ الفاء كأخواتها تفصح عن شرط مقدر، أى إذا كانوا قد اعتدوا ذلك الاعتداء وشرهوا ذلك الشره، قلنا لهم بلسان التكوين: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ وروى عن مجاهد أنه قال أنه مسخت قلوبهم فصارت كقلوب القردة تنزوا لشهواتها ولا تتعقل ولا تتدبر فى عاقبة أمرها فهبطوا إلى هذه المنزلة الدون وقال: إنه مثل ضربه الله تعالى مبينا حالهم، كالمثل فى قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا . . . ﴿٥﴾ ﴾ [الجمعة] فصارت قلوبهم قلوب قردة.

---

(١) عَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنْ»؟ [متفق عليه؛ رواه البخارى: كتاب الاعتصام بالسنة (٦٧٧٥)، ومسلم: العلم (٤٨٢٢)].

وإنه يزكى ذلك المعنى أنه شبه حالهم فى آية أخرى بالقردة والخنازير لا بالقردة وحدهم، وذلك فى قوله تعالى فى سورة المائدة: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠)﴾ [المائدة].

ومعنى خاسئين . . أى مبعدين يقال خسئ أى بعد، وخسأته أبعدته، والمعنى بعيدون عن مواطن العزة ورضا الله تعالى، لأن الشهوة والعزة نقيضان لايجتمعان فالشهوات مطية الذلة والهوان، ولايهون إنسان إلا إذا هانت نفسه، وصارت أمة للشهوات .

إن الله تعالى جعل تلك القرية التى كانت مكان الفسق عن أمر الله تعالى نكالا وموعظة فقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾.

النكال المنع والزجر، والنكل القيد، والأنكال القيود، لأنها تمنع.

والفاء للإفصاح، كما ذكرنا فى غير ذلك الموضع، والضمير فى قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا﴾، يعود إلى العقوبة أى جعلنا هذه العقوبة التى كان من مقتضاها أن يفقدوا معانى السمو الإنسانى، والارتفاع عن حضيض الحيوانية الأوهد، وقيل: إنها تعود على القرية التى كان فيها ذلك الاعتداء؛ لأنها حاضرة فى الذهن ومشار إليها بذكر الذين اعتدوا منكم فى السبت، أى والقرية التى كان فيها الاعتداء، فهى إن طويت فى البيان ملاحظة فى المعنى، وهكذا يفسر القرآن بعضه بعضا، وما يطوى فى مكان يصرح به فى مكان آخر، تعالت كلمات الله تعالى.

وقد أنزل سبحانه وتعالى بسبب هذه الشهوات الجامحة الخارجة عن مقتضى الطبع الإنسانى عذابا شديدا من الذل بعد العزة، ومن الضيق بعد السعة، ومن الشدة بعد الرخاء ما جعلها عبرة لمن بين يدي الحاضرين، ومن يجىء بعدها من الناس، وعبر سبحانه وتعالى عن الحاضرين بقوله تعالى: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ كناية عن وجودها معهم، وأنها على مقربة منهم، قرب ما بين اليدين من الصدر، والذين تحوطهم ويحوطونها.

وإن ذلك العقاب يكون له صدى يتردد فى الأجيال بعدهم جيلا بعد جيل، ومثل هذه القرية كمثل قرية عصت أمر الله تعالى، وكفرت بأنعمه سبحانه، وقال فيها تعالت كلماته: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [النحل].

فما أشبه حال بنى إسرائيل فى أنعم الله تعالى عليهم بحال تلك القرية، وكأنها مثل بين لهم، والموعظة وزنها تَفْعِلَة بمعنى المصدر الميمى من الوعظ، وهو التخويف والزجر بما وقع لغيره، ويكون للتذكير بالخير مما يرق له القلب، كما يكون للتذكير والإنذار بما وقع للعصاة.

وخص سبحانه وتعالى تأثير الموعظة بالمتقين، وإن كانت هى للعالمين لتفردهم بالتأثر بها، والاهتداء بهديها وهم الذين تنفعل نفوسهم للخير لأنهم ليسوا مغرورين بعزة الشيطان، ولكن تمتلئ قلوبهم بتقوى الله تعالى، بأن يجعلوا بينهم وبين عذاب الله تعالى وقاية، فمن دأبهم الحذر من الشر، وإذا ذُكِّروا ذَكَروا، والله هو الهادى إلى الرشاد.

بقرة بني إسرائيل

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةًۖ قَالُوٓاْ
أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾
قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ
لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ
﴿٦٨﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ

يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ
﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا
وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ
لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا
قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

كان بنو إسرائيل في مصر، وكانوا أذلوهم يذبِّحون أبناءهم ويستحيون نساءهم، ولكنهم عاشروهم حقبة طويلة من الزمن تأثروا بعاداتهم، وألفوا ما كانوا يألفون، لقد كان المصريون يعبدون العجل، ويقدسونه وقد أراد الله تعالى أن يقتلع من بنى إسرائيل ما تأثروا به، وقد رأينا السامرى أضلهم فعبده بعضهم، ولم ينههم سائرهم عن عبادته، فاشتركوا جميعا فى هذا المنكر.

وإن الله تعالى قد اختبرهم ليزيل ما فى نفوسهم من نزعة إلى تقديسه أو بقية من هذا التقديس فقال رسولهم الأمين القوى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ ولو أتوا إلى أية بقرة فذبحوها لكان فى ذلك استجابة لأمر الله تعالى؛ لأن الأمر المطلق تتحقق الإجابة فيه بالتنفيذ فى أية جزئية من جزئياته، والمطلق يتحقق وجوده فى أى فرد من أفراده.

ولكن الطلب لم يصادف أهواءهم، وحالهم فى ذات أنفسهم فأخذوا يراوغون بكثرة الاستفهام، وإن أول التمرد هو كثرة الأسئلة، فالطاعة ألا تتمرد، ولا تثير الجدل، وكان أول قولهم فى مجاوبة نبى الله وكليمه موسى عليه السلام أن قالوا، وكأنهم يتهكمون: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ والهزو اللعب والسخرية، أى أنهم يستغربون ذلك الطلب، ولا ندرى لماذا يكون الأمر بالذبح سخرية بهم، وعبثا بعقولهم العابثة إلا أن يكون ذلك مخالفا لمألوفهم، وبالغوا فى الهزء فقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ أى

اتجعلنا بأمرك فى موضع الهزء والسخرية، وذلك لما ألفوه من أن البقرة مقدسة لا تذبح بل تعبد، وإذا لم تكن عندهم هذه الحال فإنه لا موضع لأن يستهزأ بهم، ولا أن يسخر منهم بذكر أمر الله تعالى.

فقال موسى كليم الله: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ كانت إجابتهم لأمر الله تعالى خروجًا عن طاعته بأغلظ القول وأفظه، فأجابهم الرسول الرفيق، فقال: أعوذ بالله تعالى أن أكون من الجاهلين؛ أى ألجأ إليه عائذا به، متجها إليه أن أكون من الجاهلين، لأن الجاهل هو الذى يجعل الهزء والسخرية فى موضع الجد وبيان أمر الله تعالى، ونفى سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام وصف الجهل، ولم يكتف بنفى الفعل؛ لأنه أبلغ وبيان أنه لا يليق بنبى من أنبياء الله تعالى: أولى العزم من الرسل، وبالغ عليه السلام فى نفى الجهل بنفي أن يكون من زمرة الجاهلين لما يجب على الرسول من بيان أمر الله تعالى.

وإن ذلك الجواب القاطع كان جديرا بأن يمنعهم من اللجاجة والمراوغة فى الاستجابة لأمر الله تعالى، ولكن لأن نفوسهم متأثرة بأوهام المصريين، استمروا فى لجاجتهم ومراوغتهم عساهم يجدون مناصا للخروج من هذا الأمر الجازم قالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ يقولون لنبى الله موسى: ادع ربك واضرع إليه الذى رباك وكوَّنك أن يبين لنا ما هى، وصيغة السؤال هكذا استفهام عن ماهية البقرة وحقيقتها وكأنهم لم يروها ولم يعرفوها، ولم يكونوا مع الذين كانوا يعبدونها ، ولكن نبى الله الحكيم، أجابهم بالأسلوب الحكيم، وهو ما ينبغى أن يكون السؤال عنه فقال عليه السلام بهداية من الله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ﴾ والفارض هى التى فرضت سنها أى أنها حطت سنها، وبلغت نهايته، أى كانت طاعنة فى السن، ولا بكر: ليست صغيرة، أى أنها بقرة وسط ليست صغيرة ولا كبيرة؛ ولذا فالعوان بين ذلك أى وسط بين الصغر والكبر المفرط، ويظهر أن تلك كانت أوصاف عجل أهل مصر، وقد قال موسى بأمر ربه ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ بلا لجاجة ولا مراوغة، ولا محاولة الإفلات من أمر الله تعالى.

وكان حقا عليهم أن يطيعوا بعد ذلك فقد بين لهم كل شيء، والفاء للإفصاح ولكن لجاجتهم لم تنته عند ذلك، وهم يريدون أن يراوغوا وأن يثيروا الجدل عساهم يفلتون من إجابة الأمر.

قالوا مجادلين مراوغين: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ أى يبين اللون الذى يريدها أهى الصفراء أم السوداء، أم الخليط من ذلك، ولقد بين سيدنا موسى اللون، فقال: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ﴾ مسندا القول لرب العالمين: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩)﴾ الصفراء هى ما فيها لون الصفرة، ومعنى فاقع لونها أى خالص صافٍ له بريق ولمعان، ولذلك يسر الناظرين، أى تتلقاه الأنظُر بالسرور، وكأن هذه كانت أوصاف العجل الذى كان المصريون يعبدونه، وكان يجب عليهم بعد ذلك أن يفعلوا ما أمروا غير متلومين، ولا متحيرين ولكنهم أثاروا بعد ذلك ما يفيد حيرتهم، ولا حيرة فى ذات الموضوع إنما الحيرة فى نفوسهم الملتوية التى سرى إليها تقديس البقرة.

قالوا كأنهم متحيرون: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ وإن التشابه من عقولهم، لا من الجهل فى ذلك قالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠)﴾ كان هذا التساؤل المستمر كاشفا لسوء نيتهم وعدم رغبتهم فى الطاعة، وقد تكشف أمرهم فستروه مظهرين رجاءهم فى الهداية وكان ذلك بقولهم: ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ أكدوا رغبتهم فى الهداية بالجملة الاسمية، وبـ «أنَّ» وبـ «لام» التوكيد، والمشيئة الربانية، ومع ذلك كان سؤالهم عن الماهية، ولكن عدل فى الإجابة إلى الأسلوب الحكيم، وهو بيان أنها ليست ذلولا معدة لحراثة ولا لسقاية الزرع، بل هى فارغة عن عمل؛ ولذا قال موسى فى الرد: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا﴾.

أوصاف يشترط وجودها ليكون ذبحها سائغًا جائزًا:

أولها: أنها ليست ذلولا أى ليست مذللة لعمل معين بل هى مطلقة ترعى فى الكلأ، لا رقابة عليها، ولا سلطان لأحد.

وثانيها: أنها لم تعد لحرث الأرض وإثارتها ليرمى فيها الزرع.

وثالثها: أنها لا تسقى الزرع فلا تدير ساقية تسقى الزرع.

والوصف الرابع: أنها مسلَّمة، أى سليمة من العرج، ومن كل ما يشوب جسمها من شوائب المرض، فمسلمة اسم مفعول من سلَّم، أى أن الله تعالى سلمها من كل العيوب الجسمية، فلا بها عرج، ولا عور، ولا أى عيب جسمى.

والوصف الخامس: أنه لا شية فيها، أى ليس فيها لون يخالف لونها الذى يعم كل أجزائها، والشية أصلها وشية حذفت فاؤها، لأنها وصلة، والشية مأخوذة من وشى الثوب إذا نسج على لونين مختلفين.

ونرى أن هذه الأوصاف فى البقرة تشبه الأوصاف التى كان يذكرها قدماء المصريين فى العجل الذى يعبدونه، فأتى الله سبحانه وتعالى بأوصافه، لتبين أنهم خلصوا من نفوسهم كل أوهام المصريين فى البقر.

وقد يقال: إنه كان عجلا، ولم يكن بقرة، فنقول: إن بقرة مفرد لاسم جنس جمعى هو البقر، ويراد به الذكور والإناث، وإن طلب ذبح بقرة تتشابه فى أوصافها مع أوصاف العجل الذى توهموا أنه يستحق أن يعبد، فيه اختبار شديد لهم، وحمل لهم على أن يخلعوا كل أوهام المصريين التى سرت إلى نفوسهم.

ولقد قال تعالى من بعد ذلك: ﴿ **فَذَبَحُوهَا** ﴾ أى قاموا بذبحها ﴿**وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ**﴾ لكثرة لجاجتهم، ومراوغاتهم وجدلهم، ولكن الله سبحانه وتعالى راضهم على ذلك حتى فعلوا كارهين غير راضين.

ادّراؤهم فى قتل نفس

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾
فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ
آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ
فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ
مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ
مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

المفسرون على أن هذه الآيات جزء من قصة البقرة إلا ما يتعلق بقسوة قلوبهم، والحجارة وبعض خواصها، فهم يقولون إن الأمر بذبح البقرة كان ليضربوه بها أى ليضربوا المقتول بها فيحيا، فقوله تعالى: ﴿**اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى**﴾ الضمير يعود إلى البقرة التي ذبحت : يضرب ببعضها فيحيا ويخبر عمن قتله ونحن لا نرد ذلك ولا نكذبه فأخبار بنى إسرائيل فيها العجائب الكثيرة التى ساقها الله تعالى ليؤمنوا ويذعنوا، ولكن لم يذعنوا قط مع توالى هذه الأمور الخارقة للعادة التى توالت وكثرت.

ولكن فى العصر الحديث قرر المرحوم الأستاذ الكبير الشيخ عبد الوهاب النجار، أنهما قصتان سيقتا لغرضين مختلفين: أما الأولى فهى قصة البقرة، وهى قائمة بذاتها سيقت لبيان آثار العقائد المصرية فى نفوس بنى إسرائيل، ولجاجتهم فى الامتناع عن ذبح البقرة متأثرين بتقديس المصريين للبقر . . والثانية سيقت لبيان أثر رؤية المقتول فى نفس القاتل، وتأثره بذلك، وأنه يحمله على الاعتراف بالجريمة عندما يرى المقتول ويمس جسده، وقد ذكر ذلك الرأى فى كتابه قصص القرآن قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا**﴾ أى لم يعرف القاتل، ودرء كل فريق القتل عن

نفسه باتهام الآخر، فالادِّراء أو التدارؤ، أن يدفع كل فريق التهمة عن النفس، ويتهم الآخر.

وكل منهم يعلم الواقع، ولكن يقرر غيره؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾ أى من الحق، ومؤدى ذلك أنهم عالمون فيما بينهم من القاتل ولكن يجهِّلون الأمر، ولكن الله تعالى كاشف الأمر.

فالمفسرون جملة يقولون: الضمير فى بعضها، فى قوله تعالى: ﴿اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ أى ببعض البقرة، وإن ضربهم للمقتول ببعض البقرة، يحييه الله تعالى فيخبر عمن قتله، ويعرف القاتل، وقصة البقرة سيقت لبيان إحياء الله تعالى الموتى فى وسط قوم ينكرون البعث والنشور؛ ولذلك قال تعالى بعد ذلك: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ أى كذلك الإحياء الذى شاهدتموه عيانا، إذ كان ميتا فأحياه الله تعالى؛ أى مثل ذلك الإحياء الجزئى الذى شاهدتموه وعاينتموه يحيى سبحانه وتعالى الأجسام بعد موتها، ويكون النشور ثم تقوم القيامة.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ أى رجاء منكم لأن تعقلوا وتدركوا الأمور على وجهها، وعلى هذا التفسير يكون المقصود أن الأمر بالذبح لكى يضرب ببعضها الميت فيحيا، وإن هذا يقتضى أن يقدم خبر الإحياء والضرب ببعضها على الأمر بالذبح.

وقد أجاب عن ذلك الزمخشرى بأن التأخير يفيد بأن فى الخبر أمرين عجيبين، وأن كليهما يصلح أن يكون قصة قائمة بذاته، فالأولى المراوغة فى الطاعة، والثانية إظهار الأمر الخارق للعادة، فى إحياء الميت بضربه ببعض بقرة، ولقد قال فى ذلك:

إن كل ما قص من قصص بنى إسرائيل إنما قص تعديدا لما وجد منهم من الخطايا، وتقريعا لهم عليها، ولما جُدِّد فيهم من الآيات العظام، وهاتان قصتان كل واحدة منهما خصت بنوع من التقريع، وإن كانتا متصلتين متحدتين، فالأولى لتقريعهم على الاستهزاء، وترك المسارعة إلى الامتثال، وما يتبع ذلك، والثانية

للتقريع على قتل النفس المحرمة، وما يتبعه من الآية العظيمة، وإنما قدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل؛ لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة، ولذهب الغرض من تثنية التقريع، ولقد روعيت نكتة بعدما استؤنفت الثانية استئناف قصة برأسها أن وصلت بالأولى دلالة على اتحادهما بضمير البقرة لا باسمها الصريح فى قوله تعالى: ﴿اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ حتى يتبين أنهما قصتان فيما يرجع إلى التقريع - وتثنيته بإخراج الثانية مخرج الاستئناف مع تأخيرها وأنها قصة واحدة بالضمير الراجع إلى البقرة .

هذا بيان أنها قصة، ولكن الزمخشرى ذكر أنهما قصتان متحدتان فى قصة واحدة، وأن الضمير العائد إلى البقرة فى قوله تعالى: ﴿اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ أى ببعض البقرة.

لكن المرحوم الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار، عدهما قصتين منفصلتين لا اتصال بينهما بأى نوع من الاتصال البيانى؛ ولذا لم يجعل الضمير فى قوله تعالى: ﴿اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ عائدا على البقرة إنما جعله عائدا إلى جثة المقتول، بمعنى فاضربوا القاتل الذى قام الاتهام على أنه القاتل ببعض جثة المقتول فإن ذلك يحمله على الاعتراف، وإذا قام الاعتراف فقد قام الدليل الموجب للقصاص، وبذلك القصاص يحيى الله تعالى من مات بالقصاص له.

ذلك كقوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ... ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة] وإحياؤها بالقصاص، فالقصاص إحياء للنفوس كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة].

وقد ثبت بالإحصاء فى تحقيق جرائم القتل أن مجرد رؤية الجانى للمجنى عليه وهو مقتول يحركه للاعتراف، واعتمد المرحوم النجار فى ذلك على إحصاءات كثيرة كتبها له رجال الشرطة، وأن من الوسائل المتبعة لحمل المتهم على الاعتراف أن

يمكنوه من رؤية القتيل، فإن ذلك يجعله يقشعر ويحس بعظيم ما ارتكب، وربما حمله ذلك على الاعتراف، والاعتراف سلطان الأدلة.

وإنه يزكى كلام المرحوم الأستاذ النجار ما يأتى:

أولا: أن القصة الثانية: وهى قصة القتل ابتدأت بقوله تعالى: **﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾**؛ ولذلك لم يسع الزمخشرى وهو الذواق للبيان القرآنى إلا أن يذكر أنهما قصتان، وإن كان قد حاول أن يصل بينهما بأن الضمير فى قوله تعالى: **﴿اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾** يعود على البقرة، مع البعد بينهما بطائفة من القول، وعدم ظهور ذلك العود على البقرة.

الثانى: أن الضمير فى **﴿اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾** إذا عاد إلى النفس المقتولة يعود إلى أقرب مذكور، وعودة الضمير إلى أقرب مذكور هو القاعدة العامة إلا إذا أدى فيها الأمر إلى شذوذ غير معقول، أو كان ذلك مستحيلا.

الثالث: أن عود الضمير على النفس يؤدى علما نفسيا اجتماعيا هاديا مرشدا، فيكون فى ذلك فائدة جديدة لم تكن فى قصة البقرة؛ لأن قصة البقرة تدل على عناد بنى إسرائيل وتأثرهم بأهواء المصريين فى تقديس العجل.

الرابع: أن الآية اختتمت بقوله تعالى: **﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾** وهو يدل على أن الموضوع يحتاج إلى تدبر، وفكر رشيد، وإدراك لمرمى التكليف.

وما نراه أن الفرق بين رأى المفسرين، ورأى المرحوم الأستاذ النجار أن اتجاه المفسرين إلى جعل مسألة البقرة مسألة معجزة، وأمرا خارقا للعادة على أساس أن الضرب ببعضها يحيى نفسا ميتة على أساس أن ذلك دليل حسى على إمكان البعث وقربه، والمرحوم النجار يرى أن ذلك تكليف اجتماعى ينبه العقول إلى أمر مقرر ثابت فى الدراسات النفسية والاجتماعية.

ونحن نميل إلى رأى الأستاذ النجار؛ لأنه لو كانت الحياة من الضرب ببعضها لأدى ذلك إلى إشباع ما فى نفوسهم من أوهام حول تقديس البقر كما كان يتوهم

المصريون، بينما الرأى الأخير لا يؤدى إلى شىء من ذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم.

بعد هذه الآيات البينات، والمعجزات الباهرة، والإرشادات الكثيرة لم ترق قلوبهم للحق، بل زادت قساوة ونفرة منه؛ ولذلك قال تعالى: ﴿**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً**﴾، وثم هنا للتراخى لبعد ما بين هذه الآيات البينات، والمعجزات الباهرة، وما انتهت إليه من قسوة القلوب وصلابتها، حتى كأنها الحجارة أو أشد من هذه الحجارة.

فقد توالت عليهم البينات، من إنقاذ من فرعون، وإغراقه وآله، ومن المن والسلوى، ومن أخذه الميثاق، ومن أنهم طلبوا أن يروا الله فصعقوا ثم أفاقوا . . . إلخ، فقسَوا من بعد ذلك فكان الفارق كبيراً. فما جاءهم من البينات ، وما انتهوا إليه من قسوة فى القلوب، فجمدت حتى لا يكون فيها ينبوع لرحمة.

والخطاب للذين حضروا النبى ﷺ باعتبارهم مع من كانوا قبلهم أمة واحدة يرضى حاضرهم بماضيهم وأخلافهم بأعمال أسلافهم، ولذا صح أن يوجه الخطاب إليهم على أساس أنهم مشتركون معهم، إن لم يكن بالفعل فبالرضا والتأييد والسير على منهاجهم.

وقد وصف سبحانه وتعالى حال قلوبهم بأنها كالحجارة، بل إنها أشد قسوة من الحجارة؛ لأن الحجارة قد يكون فيها رحمة أو يجعلها الله تعالى سببا للرحمة، أما هؤلاء فلا رجاء للرحمة فيهم قط، لأن القلوب إذا جفت فيها ينابيع الرحمة لا تخرج رحمة من بعد ذلك، وقوله تعالى: ﴿**أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً**﴾ خبر بعد خبر، فالمعنى فهى كالحجارة أو هى أشد قسوة من الحجارة.

وقد رشح الله تعالى لمعنى أن قلوبهم أشد قسوة، فذكر خواص بعض الحجارة، أو ما يكون منها أنهاراً فقال تعالت كلماته: ﴿**وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ**﴾ أى إن من الحجارة للذى يتفجر منه الأنهار وهى الحجارة التى تهطل عليها الأمطار وابلا، فيتفجر منها ومن صخورها أنهار تجرى كأنهار جبال الحبشة

وغيرها من الجبال التي تنحدر السيول من فوقها فتتفجر خلالها أنهارًا تجري فيها المياه، وإن من الأحجار الذى يتشقق منه الماء أى ينبع الماء من عيونها بتشقق منها فتجرى منها عيون يكون فيها أنهار ماء عذب فرات.

وإن من هذه الحجارة الذى ترجف فيه الرجفة خشية من الله تعالى أو أنه يرى كذلك كما قال تعالى: ﴿**لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ** ... (٢١)﴾ [**الحشر**].

وإذا كانت الحجارة منها ما هو مصدر خير عام، فقلوبهم أشد قسوة منها، لأنهم لا خير فيهم قط، ولا تنبع منهم رحمة، كما تنبع العيون من هذه الأحجار وكما تتفجر فتجرى فيها الأنهار.

وختم الله سبحانه وتعالى مهددا منذرا من عاصروا النبى ﷺ، فقال: ﴿**وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ نفى مؤكدا غفلة الله تعالى عن أعمالهم، وأنها لأعمال خارجة من تلك القلوب القاسية التى نماها كَرُّ الأيام واستمرت سارية، حتى كاد منهم للنبى ﷺ.

وأكد سبحانه وتعالى بالباء فى قوله تعالى: ﴿**بِغَافِلٍ**﴾ وبالجملة الاسمية، وإذا كان تبارك وتعالى غير غافل عما يعملون، فإنه لامحالة مجازيهم به، آخذهم من نواصيهم فهذه الجملة السامية إنذار شديد.

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾

﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾

ذكر الله تعالى أحوال بنى إسرائيل عقب ما كان من إبليس لآدم عليه السلام، وقد كان ذكرهم بعد آدم وإن لم يكونوا أول أولاد آدم فى الأرض، بل جاءوا بعده بمئات الألوف فيما نزعم، لأنهم أوضح صورة إنسانية، لتحكُّم إبليس فى ابن آدم، فقد قامت بين أيديهم الأدلة، والآيات الحسية، والنعم، ومع ذلك كفروا وإذا كانت تلك حالهم فى الماضى، والحاضرون يوافقونهم ويعتزون بهم مع هذه المآثم، ويحسبون أنهم بماضيهم الذى نسوه مفاخرون العرب، ويقولون فيهم: ما علينا فى الأميين من سبيل، فإنه لا مطمع فى إيمانهم؛ لأن الجاهل يطمع فى إيمانه إذا علم وقامت البينات الداعية، أما المغتر المعاند فى ماضيه وحاضره، فإنه لا مطمع فى إيمانه.

ولذا قال الله تعالى مخاطبا محمدا ﷺ، ومن اتبعه من المؤمنين: ﴿**أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ**﴾.

الفاء مؤخرة عن تقدم، لأن الاستفهام له الصدارة، والفاء للإفصاح عن شرط متضمن ما كان فى ماضيهم منذ آدم، وكفر متوال بأنعم الله تعالى، والاستفهام إنكارى بمعنى النهى، لأنه إنكار للواقع، إذ الواقع أن النبى ﷺ لأنه رسول يدعو إلى الهدى يطمع فى إيمان من يدعوهم، فينكر الله تعالى عليه ذلك، ويكون الاستنكار بمعنى النهى، أى لا تطمعوا فى أن يؤمن هؤلاء فإن ماضيهم الذى يراه حاضرهم ويؤمنون به ليس من شأنه أن يطمعكم فى إيمانهم، بل إنه يلقى باليأس من الإيمان فى قلوب الذين يدعونهم، ويخلصون فى دعوتهم.

وقوله تعالى: ﴿**أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ**﴾ التعدية باللام؛ لأنها تتضمن معنى الاستجابة، والمعنى أتطمعون أن يؤمنوا مستجيبين لكم. وآمنوا تتعدى بالباء إذا كان

ما بعدها هو الذى يؤمَن به كقولك: ﴿آمنُوا باللَّه وَرَسُوله ... ﴿٧﴾﴾ [الحديد]، ومثل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ من يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [البقرة].

وتتعدى باللام إذا كانت متضمنة معنى الاستجابة للداعى، ومن ذلك: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ... ﴿٢٦﴾﴾ [العنكبوت] ومثل قوله: ﴿وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ... ﴿٧٣﴾﴾ [آل عمران].

ولذلك كان التعدى هنا باللام، إما لتضمن الإجابة معنى الاستجابة، وإما لأن اللام للتعليل، أى لا تطمعوا فى إيمانهم لأجل دعوتكم، فهم ميئوس من إيمانهم لما كان منهم فى الماضى، وما يكون منهم فى الحاضر.

وقد بين سبحانه سبب الغواية فى جملة حالية وهى ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ هذا الفريق أكان فى عهود سابقة فى عهد موسى أم حالهم الحاضرة.

قال كثير من مفسرى السلف: إنهم كانوا فى عهد موسى عليه السلام، وقد كانوا يحاولون أن يسمعوا كلام الرب سبحانه وتعالى، كما يسمعه كليم الله موسى عليه السلام، ولكن ذلك بعيد، إنهم سمعوا كلام الله تعالى من لسان موسى فى التوراة التى نزلت على موسى عليه السلام، وعقلوه، وفهموه ثم حرفوه قاصدين تشويه ما سمعوا، وإفساد الحقائق وقد فهموها.

وبعض المفسرين يرون أن الخطاب للنبى ﷺ ومن معه، وأن الفريق الذى سمع كلام الله تعالى بتبليغ النبى ﷺ هو من اليهود الذين عاصروا رسول الله ﷺ، وسمعوا ما يدعوهم إليه النبى ﷺ وعقلوه، وأدركوا مراميه وغاياته وما يدعوهم إليه، ثم بعد ذلك يحرفونه، وينقلونه إلى إخوانهم محرفا، غير دال على حقيقة ما يريد النبى ﷺ، فهم فريقان: سامع محرف، ومعرض ابتداء لايحضر فى المجلس النبوى، وما التحريف وكيف يكون؟ فنقول: التحريف فى الكلام له معنيان: أحدهما التغيير فى معناه، بأن يحرفوه على طرف من المعنى، بأن يخرجوه

عن لب معناه إلى طرف من أطرافه؛ لأن الحرف أصله الطرف دون اللب والوسط فهم يتجهون إلى التعلق بغير لب القول.

والتحريف إمالة القول إلى غير معناه، وهذا هو النوع الثانى، وقال الراغب الأصفهانى فى مفرداته ونص كلامه «تحريف الكلام» أن تجعله على حرف من الاحتمال يمكن حمله على الوجهين. قال عز وجل: ﴿**يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ** ... (١٣)﴾ [المائدة] ﴿**يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ** ... (٤١)﴾ [المائدة] ﴿**وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** (٧٥)﴾.

والتعريض بـ «ثم» يفيد البعد المعنوى بين ما سمعوه وعقلوه، وتدبروه، وعرفوا غايته، وبين التحريف الذى حرفوه مما يدل على فساد نفوسهم، وضلال قلوبهم.

وأخبر سبحانه وتعالى أن التحريف من بعد ما عقلوه، وعرفوه عرفان الخبير المدرك، الفاهم، لا أنهم حرفوا عن غير علم ومن غير معرفة بمدلولات الألفاظ ومراميها، ومقاصدها، وغاياتها، فتحريفهم بقصد التضليل، ومن يقصد التضليل يكون قلبه مصروفا عن الحقائق فلا يدركها، ولا يذعن لها إن أدركها، بل هو يصد عن سبيلها.

ثم أكد سبحانه وتعالى سوء مقصدهم، وغاية عملهم، فقال تعالى: ﴿**وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ أى وهم يدركون الكلام الذى سمعوه، ويعرفون مرماه ومقصده، ومع ذلك يحرفونه آثمين فاسدين مفسدين.

هذا على اعتبار أن الذى خاطب الفريق محمد ﷺ وأتباعه.

ويجب فى مقام ذكر معانى هذه الآية أن نذكر أموراً ثلاثة:

أولها: أن الذين حرفوا القول عن مواضعه فريق منهم، وليسوا جميعهم، فكيف يكون اليأس من إيمان كلهم بعمل فريق والجواب عن ذلك أن الفريق الذى سمع أرضى بقوله الفريق الذى لم يسمع، بل إن الفريق الذى لم يسمع كان معرضا

عن سماع النبى ﷺ، فهو كان قابلا لاستماع القول المحرف راضيا به مصدقا له، فهم كانوا على سواء، وكذلك الأمر على التفسير بأن السماع كان من فريق من قوم موسى سمعوا من موسى وحرفوه، فقبله الآخرون وهم راضون، فكانوا مع غيرهم على سواء، ولا فرق بينهم.

الأمر الثانى: أنه إذا كان الفريق الذى حرف فى عهد موسى أو بعده، فإن ذلك سائغ بعد موسى ثابت، والراجع للتوراة القائمة بين أيدينا يجد أمارات التحريف تلوح، وقد بينا ذلك فى بحث رددنا به على بعض الكذابين، الذين قالوا فى القرآن ما قالوا من افتراء وكذب رددناه فى نحورهم.

وقد أثبت كتّاب النصارى أن التحريف لا يزال يجرى فى الكتب عندهم ما بين كتب العهد القديم، والجديد، واقرأ فى ذلك كتاب «ذخيرة الألباب» لأحد كتاب النصارى، فإنه بين بطريق لا يقبل الشك أن التحريف حدث فى التوراة والإنجيل، وأثبت الشيخ رحمة الله الهندى فى كتابه «إظهار الحق» أن التغيير والتبديل لا يزال يجرى إلى الآن فى كتبهم.

الأمر الثالث: الذى نشير إليه أن أثارة باقية فى كتبهم ربما تكون صادقة، ولكن اختلطت بباطل كثير.

كان اليهود يسمعون كلام الله تعالى، ثم يحرفونه من بعد أن يعقلوه، وهم يعلمون موضع التحريف. وقد ذكر الله سبحانه وتعالى حالا أخرى من أحوالهم، وهى أنهم كانوا يظهرون الإيمان فى حضرة المؤمنين فإذا خلوا مع أحد منهم تلاوموا على إظهارهم الإيمان؛ ولذا قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ** ﴾.

هذ وصف للمنافقين ذكره الله تعالى من قبل فى قوله تعالى: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ** ﴿٨﴾ **يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** ﴿٩﴾ ﴾ إلى آخر الآيات التى ساقها القرآن الكريم، والأمثلة التى ضربها فى كشف حالهم.

وهذه الآية التى نتكلم فى معناها أتت بأمر خاص باليهود الذين عاصروا النبى ﷺ، وهى أنهم لفرط غرورهم يحسبون أن الله تعالى لا يعلم خفى أمرهم، فهو نوع من النفاق أضلهم.

﴿**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا**﴾ أى صدقنا وأذعنا لكل ما جاء به محمد ﷺ آمنا بأنه الحق من عند الله وبأن ما جئت به هو الحق.

وقد حسبوا أنهم بذلك قد نجوا من الملامة، فحفظوا المظهر بما أظهروه، وحفظوا كفرهم فلم يعلنوه، ولكن إخوانهم وهم على ملتهم، وعلى جحودهم لم يرضوا بالظهور بهذا المظهر.

فإذا خلا بعضهم إلى بعض، فالتقى الذين أظهروا ما لم يبطنوا، والذين لم يلقوا الرسول، كان التلاوم فيقول الذين لم يلقوا المؤمنين ﴿**أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ**﴾، أى بما حكم الله تعالى به عليكم، فالفتح فى لغة العرب والحكم بأمر القضاء، كما قال تعالى: ﴿ **رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ** ... ﴿٨٩﴾ ﴾ [**الأعراف**].

وما حكم الله تعالى به فى هذا المقام هو بشارة التوراة بالنبى ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ **وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ** ... ﴿٦﴾ ﴾ [**الصف**]، وقد أخذ العهد عليهم بأن يتبعوه ويؤمنوا به إذا جاءهم، فالاستفهام إنكارى لإنكار فهم الوقوع فهم يوبخونهم على أنهم حدثوهم بما قضى الله تعالى عليهم بأن يؤمنوا بالنبى عليه الصلاة والسلام إذا جاءهم، وإنه كان يجب عليهم أن يستمروا فى جحودهم، وعللوا لوم إخوانهم بقولهم: ﴿**لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ**﴾ أى ليكون حجة عليكم عند ربكم، يحاجونكم به، والاعتراف حجة ظاهرة.

وإنهم بذلك يزعمون أمرين كلاهما باطل:

أولهما - أنهم يحسبون أن الله تعالى يحتاج فى معرفة ما هم عليه إلى إقرارهم، وهو عالم الغيب والشهادة، وعالم السر والجهر، وأنهم مأخوذون بما واثقهم عليه، وبالحق الذى أمرهم باتباعه.

وثانيهما - أنهم يحسبون أن النبى ﷺ وأصحابه ما كانوا يعلمون ماعند اليهود إلا بإقرارهم أمام النبى ﷺ، والمؤمنون يعرفون ما فى كتبهم من بشارة بالنبى ﷺ وهم أنفسهم كانوا يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به.

ولقد بين الله تعالى بطلان كلامهم وبعده عن المعقول فقال تعالى: ﴿**أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴿٧٦﴾﴾ الفاء مؤخرة عن تقديم لأن صيغة الاستفهام لها الصدارة، والفاء للإفصاح، والاستفهام داخل على نفى، فهو من قبيل نفي النفى وهو فى نتيجته يدعوهم سبحانه وتعالى إلى أن يعقلوا، ويتفكروا ويتدبروا، ويدركوا ما يؤدى إليه كلامهم، وهو بعده عن كل معقول، فهم يتصورون أن الله تعالى لايعلم حالهم، وما أخذ عليهم من مواثيق، وما وضع من إشارات إلى النبى ﷺ فى كتبهم، يتصورون ذلك ويحسبون أن المؤمنين يحاجونهم عند الله بهذا الاعتراف، ولا يعرفون أن الله تعالى يعرف سرهم ونجواهم. وقد يفسر قوله تعالى: ﴿**أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴿٧٦﴾﴾ على أنه من كلام بعضهم، ويكون معناه على أنه من لسانهم، ﴿**أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴿٧٦﴾﴾ وتتدبرون نتيجة كلامكم من أنهم يحاجونكم به عند ربكم، ويكون هذا إمعانا في الجهل بحالهم وعلم الله تعالى، ونحن نميل إلى احتمال توجيهه من الله تعالت كلماته.

وإنهم ممعنون فى الجهل بالله سبحانه وتعالى، وظنهم أن الله تعالى لا يعلم ما يخفون وما يبدون، وإنه لا فائدة فى أن يحدثوا النبى والمؤمنين، لأن الله تعالى بكل شىء عليم، ولذلك قال تعالى: ﴿**أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ** ﴿٧٧﴾﴾ هذا استفهام إنكارى لجهلهم، وتوبيخ لهم على عدم علمهم، فالاستفهام داخل على فعل محذوف دل عليه عطف ما بعده والمعنى أيقولون ما يقولون من ذلك القول، ولا يعلمون أن الله ـ جل جلاله ـ وقد أحاط بكل شىء علمًا ويعلم ما يسرونه وما يجهرون به، وما يعلنونه للناس، يعلم ما تخفى صدورهم، ويعلم ما يجهرون، وفى بيان ذلك العلم تهديد بالجزاء الذى ينتظرهم، فهو سبحانه يعلم ما يفعلون، وما يخالفون به مواثيقهم وعهودهم، وما ينكثون به فى أيمانهم، ومؤاخذهم به.

وقد ذكر سبحانه وتعالى حال اليهود، فأشار سبحانه إلى أن اليهود قسمان: أحبار أو علماء، وأميون يضلون الآخرين بدعوى أنهم وحدهم أوتوا علم الكتاب؛ ولأن الآخرين لا يعرفون الكتاب إلا أمانى يتمنونها، فيشبعوا أمانيهم وأهواءهم، ولذلك قال تعالى: ﴿**وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ**﴾.

الأمى هو الذى لا يقرأ ولا يكتب نسبة إلى الأمة الأمية التى لا يسودها العلم، وكان الأحبار من أهل الكتاب يقولون: ﴿**لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ** ... ﴿٧٥﴾﴾ [**آل عمران**]، وقد ينسب الأمى إلى الأم على اعتبار أنه على أصل ولادة أمه، فهو لم يزد علما عما ولدته عليه أمه.

وهؤلاء الأميون لا يقرأون الكتاب ، ولا يعرفون أحكامه، وما اشتمل عليه من تكليفات اجتماعية وعبادية، وإنهم لفرط جهلهم بالكتاب لا يعلمون إلا ما يكون فيه إرضاء لأمانيهم، والأمانى جمع أمنية، وهى ما يتمناه القلب ويحبه، وما يتمنونه أهواء مسيطرة عليهم كقول عامتهم وخاصتهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، ولقد قال تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ** ... ﴿١١١﴾﴾ [**البقرة**] أي ما يتمنونه ويقول تعالى: ﴿**لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا** ﴿١٢٣﴾﴾ [**النساء**].

وفى الجملة الأمانى التى يعلم الأميون من أهل الكتاب مضمون كتابهم بها هى مايكون متفقا مع ما يتمنون، فلا يعلمونه تكليفات وأحكاما، فيها حساب، وثواب أو عقاب، إنما يعلمونه رغبات تتحقق، وأهواء تثبت، ومثلهم كمثل عوامٍّ المسلمين، الذين يقولون أمة الإسلام على خير، ولو لم يعملوا أى عمل، بل لو لم يعملوا عملا صالحا قط، ولو زنوا أو سرقوا، وسكروا، وعبثوا فى كل معبث، ولم يتركوا منكرا إلا ارتكبوه، وسدوا باب الجهاد، وكانوا كَلا على أعدائهم يتصرفون فى مصائرهم.

وقوله تعالى: ﴿**وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ**﴾ قالوا: إن الاستثناء منقطع، فيكون المعنى لا يعلمون شيئا من الكتاب الذى يتلونه ولا يفهمونه، ولكن

يعلمونه أمانى يتمنونها وأهواء يبتغونها، ولا يدركون التكليفات والأحكام، ولايعلمون المواثيق التى أخذت عليهم.

ولا مانع أن يكون الاستثناء متصلا، ويكون المعنى أنهم لا يعلمون من علم الكتاب إلا ما يرضى أمانيهم، ويشبع أهواءهم. ويرشح لذلك قوله تعالى من بعد: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ أى إن علمهم ظن، وليس بيقين له مقدمات يقينية ينتج علما يقينيا، وإنما تنتج ظنا، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا، فعلمهم أوهام فى أوهام، وهل تنتج الأهواء التى تنبعث من الأمانى يقينا أو علما صادقا؟.

لقد قال بعض العلماء: إن الأمانى من التمنى، وهو لا يكون إلا كاذبا، ولقد قال تعالى: ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ أى ليس علمهم إلا ما يظنونه علما، وماهم بمتيقنين، وقد أكد الله تعالى قصر علمهم على الظن الذى يتجدد لهم آنًا بعد آن، فنفى عنهم العلم وقصره على الظن، أى ماعندهم من علم إلا الظن الذى تدفع إليه أوهامهم، وعبر بالمضارع للإشارة إلى أن ظنهم يتجدد ويستمرون فى أكاذيب يبتدعونها، وظنونًا يختلقونها أو يختلقها لهم أحبارهم.

فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ
ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ
فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ
﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ
أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ
عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً
وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ
فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾

إذا كان من أهل الكتاب أميون لايعلمون من علم الكتاب إلا الأمانى التى يشبعون بها أهواءهم، ويدخلون بها الكذب والتمويه على نفوسهم، فإن أولئك الأحبار أو العلماء يمالئون نفوسهم من الأكاذيب، ويكتبون بأيديهم ماليس من الكتاب، ويوهمونهم أنه من الكتاب، وما هو من الكتاب، وفى ذلك رد على الذين يزعمون أن القرآن يقر كل ما جاء فى كتبهم، فهل هو يقرما يكتبونه بأيديهم، ويقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا؟، كذبوا وبهتوا، وأعظموا الفرية على كتاب الله تعالى.

ولقد أخبر سبحانه أن أولئك الذين يجلسون مجلس العلماء فيهم ينتهزون أن فيهم أميين لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وأن علمهم ظن والظن لا يغنى من الحق شيئا، فيكتبون الكتاب بأيديهم حاذفين ما شاءوا ويزيدون عليه ما شاءوا، فقال تعالى: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ**﴾.

الفاء فى قوله تعالى: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ**﴾ وقعت فى جواب شرط مقدر، تقديره: إذا كان الأمر كذلك فويل، والويل الدعوة بالهلاك وترفع عندما لا تضاف كقوله تعالى: ﴿**وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ** (١)﴾ [**المطففين**] وتنصب إذا أضيفت فتقول: ويلك وويل نفسى على أنها بمعنى المصدر، وتستعمل «وى» منها فى معنى التعجب كقوله تعالى: ﴿**وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ** (٨٢)﴾ [**القصص**].

والمعنى أن الهلاك نازل لا محالة بأولئك الظالمين للحق فى ذاته ولأنفسهم الذين يكتمون ما أنزل الله تبعا لأهوائهم، ويكتبون الكتاب بمحض أهوائهم، ولإثبات مايريدون إثباته ومحو ما يريدون محوه وكتمان ما يريدون كتمانه لما قال تعالى: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ...** (١٥)﴾ [**المائدة**] فهم بكتابة ما يكتبون قد أخفوا كثيرا، وقد بينه القرآن الكريم أو بين ما وجب بيانه.

وقوله تعالى: ﴿**يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ**﴾ فيه تأكيد لبيان أنهم هم مصدر الإعلام به، وأنه لا مصدر له من الله تعالى، يضلون به الأميين منهم، ويعلنونه

على أنه من عند الله تعالى، وهم الذين كتبوه وصنفوه، وقد يكون فيه بعض ما جاء عن طريق موسى والنبيين من بعده، ولكنه فى جملته ليس صادقا فى كل ما كتبوا، ويكون قوله تعالى: ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ بيان لأنهم كتبوه حقيقة لا مجاز فيه، وفيه تصوير لحالهم، وهم يكتبون بأيديهم.

هذا الوجه يكون فيه قوله تعالى عنهم: ﴿يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ الإشارة إلى المكتوب لا إلى التأويلات التى يتأولونها خارجين بالكلام عن مواضعه، ويكون معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ... (٧٨)﴾ [آل عمران] أى ليس ما كتبوه بأيديهم من عند الله، وهناك تأويل آخر فى الإشارة فى قوله: ﴿يَقُولُونَ هَذَا﴾ الإشارة فيه ليست إلى المكتوب، ولكن إلى التأويلات التى يحرفون بها الكلام عن مواضعه، ويتجهون به إلى أوهام توهموها، وكذبوا على الحقائق الثابتة، ويكون المكتوب هو كتابهم. والمعنى على هذا: ويل لهم إذ يكتبون الكتاب بأيديهم، ومع أنهم يكتبونه بأيديهم يحرفونه عن مواضعه، ويقولون عن تحريفهم إن هذه التأويلات هى من عند الله، والحقيقة أنه وقع منهم الأمران، فهم كتبوا كتابهم محرفا زادوا فيه، ونقصوا منه، ونسوا حظا مما ذكروا به، وعبثوا بحقائقه، وتأولوا ما صدقوا من نقله منه بغير متَأوله.

كان منهم الأمران، وعبثوا بما أنزل الله تعالى عبثا بينا، وغيروا وبدلوا، وأولوا تأويلات باطلة. وقد علل الله تعالى الباعث لهم بأنه ثمن قليل، وهو أعراض الدنيا، بأن يكون لهم سلطان ورياسة، وأن يكون اختصاص باطل بالنبوة، وأن يمالئوا أهواء الناس، ولقد قال ابن عباس رضى الله تعالى عنه: إن الدنيا بحذافيرها ثمن قليل بالنسبة للحق الذى ضيعوه، والباطل الذى زيفوه.

﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ وهنا نجد النص الكريم يفرض معاوضة قامت بين أحبار اليهود فى أفعالهم، اشتروا بالبضاعة الثمينة الغالية التى فى أيديهم بأن دفعوها فى نظير ثمن ضئيل هو أعراض الدنيا، أو نقول أن اشترى هنا معناها باع أى باعوا ما فى أيديهم من حقائق اؤتمنوا عليها وأخذوا ثمنا قليلا مهما حسبوه كثيرا.

وقد أكد سبحانه وتعالى الهلاك النازل بهم يوم القيامة فقال تعالت كلماته: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾. ومعناها ويل لهم أى هلاك بسبب ما كتبت أيديهم، لأنها بهذه الكتابة حرفت وبدلت وسجلت فى الكتاب هراء وأباطيل، فكانت فى ذاتها إثما، وهذا يرجح أن موضع إفكهم الكتابة الباطلة نفسها لا تأويلاتهم فقط، وويل لهم من الكسب الذى كسبوه من أعراض الدنيا، لأنه سحت فى ذاته، إذ إن ما دفع فى سبيله كان باطلا، وهو أخذ لمال الله بالباطل، وما يكسبونه من جاه أو سلطان أو رياسة أمر باطل؛ لأنه دفع الحق عن سبيله، وإن الله تعالى لا يبارك شيئا أخذ بغير حله، فهو كالاغتصاب لا يطيب لنفسه، وكذلك عد سبحانه وتعالى الكتابة سببا للعقاب الشديد، والكسب الذى كسبوه بالتضليل سببا للويل، وقال تعالى: ﴿يَكْسِبُونَ﴾ بالمضارع للدلالة على تجدد ما يكسبون، وكذلك الويل يكون متجددًا مثله، وقد بين سبحانه بعض هذه التأويلات الفاسدة، والتفسيرات الكاذبة، فحكى سبحانه وتعالى عنهم فقال: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾.

هذا القول من التأويلات الفاسدة، وهو مبنى على قولهم نحن أبناء الله تعالى وأحباؤه، وأنهم لا يعذبون، ولكن يُمَتَّعون ولا يُأَثَّمون ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ قالوا: لن تعذبنا النار إلا أياما معدودة، بل قالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ﴾، كأنهم لا يدخلونها حتى فى هذه الأيام، بل تمسهم ريحها أو نحو ذلك مما يفترى المفترون كما تقول أنت تهديدا بالضرب أو نحو ذلك: لن تلمسنا بيدك قط إلا مسا خفيفا.

فهم نفوا نفيا مؤكدا - بلن- أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة تمسهم مسا، ذلك قولهم، وتلك أمانيهم ومعنى معدودة أنها عدد قليل يعد وليس عددا كبيرا تجاوز الحسبة. وهذا القول يدل على أمرين:

أولهما ـ بيان أنهم صنف مختار والعذاب والحساب على غيرهم، فهم الذين يحاسِبون ويعاقِبون، أما هم فهم فوق الحساب، وفوق العقاب.

وثانيهما - الاستهانة بأوامر الله تعالى، وما يكون وراء ذلك من حساب أو عقاب.

ويبين سبحانه أن ذلك الوهم الذى يتوهمونه، ويغترون به ليس له أساس يعتمدون عليه، وأنهم لا عهد لهم بذلك فقال سبحانه: ﴿**أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ**﴾ الاستفهام هنا إنكارى لإنكار الواقع، وتوبيخهم على فعلهم الواثقين به فى ذات أنفسهم الموقنين به كأن الله عاهدهم، والمعنى أن الله تعالى لم تأخذوا منه عهدا عاهدكم عليه، وهو وحده الذى يملك العقاب ومقداره، بألا يعاقبكم إلا بهذا القدر، وهو أن النار لن تمسكم إلا أياما معدودة، فالاستفهام يتضمن النفى، ويتضمن التوبيخ لهم على ما هم عليه، ويتضمن التعريض بنقضهم للعهود التى أخذت عليهم والمواثيق التى وثقها وأكدها، ومنها رفع الطور عليهم، وأخذهم ما أوتوا بقوة.

ولقد بين سبحانه وتعالى أن العقاب يكون على قدر العمل، والثواب يكون على قدر العمل، فلا ينظر فيه إلى الذات، بل الجميع خلق الله تعالى، ولا يريد سبحانه إلا العمل الصالح، والامتناع عن الشر ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨**﴾ [**الزلزلة**].

ولذا قال تعالت كلماته: ﴿**بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ**﴾ فتضمن الإجابة على قولهم ورده، والإضراب عنه، فالمعنى: تبين كلامكم، وهو باطل مخالف لما شرعه الله سبحانه وتعالى من عقاب وثواب أنه للأعمال من غير نظر إلى الذوات، بل الجميع على سواء أمام الله سبحانه وتعالى، فى الجزاء إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

وذكر العقاب فى الرد دون الثواب، لأنهم اجترءوا على الله تعالى فخالفوه، وكفروا بنعمه، وعصوه ظاهرًا وباطنا فقال: ﴿**مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ**﴾. الكسب العمل الذى يصير حالا ثابتة قائمة مستمرة، فمن عمل خطأ لا يقال إنه كسبه، ومن عمل إثما عن جهالة وضلالة ثم تاب من قريب لا يقال إنه كسبه، إنما

يقال إنه كسبه إذا عمل قاصداً مستمرا، حتى يكون له مجرى فى قلبه، وينكت فيه نكتا سوداء، فهذا هو الذى يقال له كسب السيئة، والسيئة فيعلة من ساء يسوء سَيْوِئة فهى فى أصلها سيوئة؛ اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء بمقتضى القاعدة الصرفية، والسيئة كل فعل يكون أثره سيئا فى الناس أو فى الجماعة أو فى النفس، فيفسد التقدير، ويكون وبالاً، فيظلم نفسه، والناس، ومن حوله.

والخطيئة فعيلة من الخطأ، ولكن هناك فرقا بينهما فالخطأ يقع من غير قصد ابتداء، ولكن لا يتكرر، أما الخطيئة فهى الفعل المقصود الآثم المتكرر الذى يخط فى النفس خطوطا، حتى يصير الذنب عادة له أو كالعادة فيصدر الشر عنه وباستمرار من غير قصد خاص إليه، وكأنه يقع غير مقصود، وفى الحال تكون النفس قد أركست بالشر إركاسا، فالخطيئة حال نفسية للنفس الآثمة التى تمرست بالإثم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ أى أن الخطيئة استولت على النفس، وصارت كأنها قبة قد أحاطت بالنفس الآثمة من كل جوانبها .

وفى هذا إشارة إلى أحوال بنى إسرائيل، وأنهم أحاطت بهم خطاياهم.

وقد ذكر سبحانه وتعالى جزاء هؤلاء وهو محقق بالنسبة لبنى إسرائيل ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الإشارة إلى الذين كان منهم كسب العمل الخبيث، وأحاطت بهم خطيآتهم، واستغرق الشر نفوسهم، فالإشارة إلى الذين فيهم هذه الحال، وقد حكم سبحانه وتعالى بأنهم ﴿أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وقد أكد خلودهم فى النار بأنهم أصحابها أى الذين يلازمونها، والذين حكم عليهم بصحبتها، وأكد سبحانه وتعالى خلودهم فيها بالجملة الاسمية، وبضمير الفصل هم. وكان تأكيد خلودهم وملازمتهم بالصحبة ردا على ادعائهم أنها لن تمسهم إلا أياما معدودة، وأنهم غير مخلدين بل هم أصحابها الخالدون فيها.

وإن الرد على أولئك الذين دلاهم الشيطان بالغرور فقالوا: لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ينتهى إلى هنا إن كانوا يتدبرون ويعقلون.

ولكن سنة الله تعالى فى كتابه الحكيم أن يقرن ببيان العقاب لأهله، وبيان الثواب لمن عمل الخير وداوم عليه لتكون العظة كاملة، فيها جزاء الخير وجزاء الشر، وكل بما كسب رهين.

قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ** ﴾. وقد ذكر الإيمان فى تأويل بعض الآي الكريمة التى تلوناها آنفا، ومقام العمل الصالح، وقلنا إن الإيمان والإذعان للحق بالإيمان بالله وحده، ورسوله محمد الأمين والرسل أجمعين، والملائكة والجن والغيب كله. وإن الإيمان يستكن فى القلب، والعمل ينميه ويزكيه، وقلنا: إن الإيمان كالبذر الطيب الذى يلقى فى الأرض لابد له من سقى ورعى وجو صالح ينمو فيه ويزكو، ولا يكون ذلك إلا بالعمل بموجب الإيمان، والإيمان من غير عمل كالبذر من غير إنتاج، وإنه يجف بل يموت إن لم يسق بالعمل، ولذلك لا يؤكد القرآن على الإيمان وحده بل يكون معه العمل الصالح، وهو العمل الذى يكون صالحا مصلحا للنفس وللناس، فيه استجابة لداعى الإيمان. وكثيراً ما ذكر العمل بوصف الصالح من غير أن يبين ما هو العمل الصالح، وذلك ليضمن كل ما فيه خير للإنسان فى الآحاد، والجماعات والأقاليم، والإنسانية كلها، وذلك مع القيام بالعبادات من صلاة وصوم وحج وزكاة، وتعاون اجتماعى فى الأسرة والجماعة والدولة، والإنسانية عامة.

وقد قال تعالى: ﴿ **أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** (٨٢) ﴾. الإشارة إلى الذين آمنوا وعملوا صالحا أي أنهم متصفون بهذه الصفات، وقد أكد سبحانه وتعالى استحقاقهم للجنة وأنهم خالدون فيها بعدة مؤكدات:

أولها ـ الجملة الاسمية لأنها تدل على قوة الحكم، وبقائه.

وثانيها – بالملازمة بينهم وبين الجنة بأنهم أصحابها الملازمون . وأكد سبحانه وتعالى الخلود بضمير الفصل الذى يدل على القصر، والله سبحانه وتعالى يجزى الإحسان بإحسان، وجزاء سيئة سيئة مثلها.

اللهم اجعلنا ممن ترضى عنهم، وإن كنا لا نرجو أن نكون أحْسَنًّا، حتى ننال جزاء الإحسان، ولكن نرجو أن تتغمدنا برحمتك الواسعة التى تسع الذين يؤمنون ويتقون.

الميثاق الإنسانى على بنى إسرائيل

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

يذكر الله تعالى نبيه والمؤمنين بالميثاق الذى أخذ الله تعالى عليهم، وهو ميثاق يصلح نفوسهم، ويهذب جماعتهم ويجعلهم يتآلفون فيما بينهم، ويألفهم الناس، ويأتلفون، ولكن رضوا النفور بدل الائتلاف، والمنازعة بدل الالتقاء فى ظل الرحمة والمودة الجامعة، وإن ذلك الميثاق الذى يذكره الله تعالى لهم هو ميثاق كل الأنبياء .

قال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أى اذكروا أيها المؤمنون الميثاق الذى أخذناه على بنى إسرائيل، فـ «إذ» تدل على الوقت الماضى، فاذكروا وقت ذلك الميثاق الذى أخذناه عليهم، وذكر الوقت ذكر ما يقع فيه واضحا بينا يتصور وجوده، كأنه موجود قائم وليس متخيلا غير واقع.

هذا ميثاق بنى إسرائيل، وهو محكم يشتمل على تهذيب النفس والجماعة الإنسانية كلها، وهو ميثاق النبيين فى كل العصور وقد اشتمل على أمور:

أولها : وهو لُبُّها عبادة الله تعالى وحده لا يشرك به شيئا، وقد عبر سبحانه عنه بقوله تعالى: ﴿لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ أى لا تعبدوا غير الله، فالله وحده هو المعبود

ولا يعبد سواه، والصيغة فى ظاهرها خبرية وهى طلبية بمعنى النهى عن عبادة غير الله تعالى كقوله تعالى: ﴿لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِه ... ﴿٢٣٣﴾﴾، وكقوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ ...﴿٢٢٨﴾﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ... ﴿٢٣٣﴾﴾ والتعبير عن الجملة الطلبية بصيغة الجملة الخبرية فيه إشارة إلى أن الإجابة أمر فطرى طبيعى، وأنه كان الطلب وكانت الاجابة، فعبر بما هو دال على الإجابة.

والتوحيد دعوة النبيين أجمعين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل].

وإن **الأمر الثانى** - الذى ولى الأمر بالعبادة لله وحده، وهى تطهير النفوس من رجس الوثنية، والأوهام الفاسدة. **الثانى** - هو ما يتعلق بالأسرة لأن الأسرة قوام المجتمع يقوم عليها بناؤه، فلا يمكن أن يتكون مجتمع فاضل إلا من أسر قوية متماسكة برباط المودة، والمحبة والإحسان الذى هو غاية المحبة، وإن أول رباط فى الأسرة هو رباط الولد بأبويه، بالإحسان إليهما؛ ولذا قال سبحانه بعد الأمر بعبادة الله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، والإحسان زيادة فى المعاملة عن المعاملة بالمثل أو بالعدل، وإنه زيادة عن العدل، بل فيه المحبة والرحمة؛ ولذا يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ... ﴿٩٠﴾﴾ [النحل] والإحسان أصله مصدر أحسن، وهو الإتقان والإجادة، وبلوغ أقصى الغاية فى الإجادة، فالإحسان فى العبادة أن تبلغ أقصى درجات التجرد لله تعالى بأن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، والإحسان إلى الأبوين أن تبلغ أقصى درجات الوفاء لهما فى البر والمكافأة، وأن تزيد فى المعاملة الحسنة، عما كان يكون منهما، احتياطا للرعاية والشفقة، والإحسان إلى الناس أن تعاملهم بالمودة الظاهرة، وإفشاء السلام بينهم فخير الإسلام

أن تقرأ السلام على من تعرف ومن لم تعرف، وإحسان العمل إتقانه ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠)﴾ [الكهف].

وإن الإحسان إلى الوالدين ابتدأ بهما لأنهما رأس الأسرة، وهما أصل تكوينها، فمنهما تتشعب، وتمتد من الأصول إلى الفروع ثم إلى الحواشى؛ ولذلك كان الإحسان واجبا لكل من يربطهم بهما رحم، وذكر الإحسان إلى ذوى القربى، فكان الميثاق الإنسانى العالى الذى أخذه الله تعالى على بنى إسرائيل فقال تعالى: ﴿وَذِي الْقُرْبَى﴾ والقربى مؤنث أقرب، والمعنى أن بعد الوالدين ذو القربى، صاحب القرابة الأقرب مترتبة الأقرب فالأقرب، وذلك يتفق مع ما روى عن النبى ﷺ. وقد سئل: من أحق الناس بحسن صحابتى يا رسول الله؟ قال: «أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أبوك»(١) ثم الأقرب فالأقرب، فمعنى ذى القربى، القريب الأقرب ثم يتوالى الأقرب فالأقرب.

والأسرة فى الإسلام ممتدة، ليست مقصورة على الأبوين أو الزوجين، بل إنها ممتدة تشمل الأقرباء أجمعين، يحسن إليهم الأقرب فالأقرب حتى يعمهم ويبرهم جميعا، ولقد قال ﷺ: «من أراد أن يبارك له فى رزقه، وينسأ له فى أثره، فليصل رحمه»(٢)، وإن ذلك كله تقوية لبناء الأسرة على التواصل والمودة والرحمة فإن المجتمع الكامل يتكون من أسرٍ قوية وهى لبنة البناء، ولا يتكون بناء قوى إلا من لبنات قوية.

وإن العناية بالأسرة عناية بالجماعة، وإن الوطن لا تتربى محبته إلا فى بناء الأسرة، والنزوع الجماعى، والتربية الاجتماعية هى التى تودع النفس الإنسانية محبة الجماعة وحسن التبادل العادل بينها وإنما يبدأ ذلك بالأسرة، وقد أراد بعض الفلاسفة - وسارت وراءهم بعض النظم - أن يمحو الأسرة ويربى الأطفال مع غير آبائهم

---

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخارى: كتاب الأدب (٥٥١٤) ومسلم: البر والصلة (٤٦٢١) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ». [متفق عليه؛ رواه البخارى: كتاب البيوع (١٩٢٥) ومسلم: البر والصلة والآداب (٤٦٣٩)].

ليكونوا جميعا منتمين للجماعة . . فنمت أجسامهم، ولكن من غير عواطف إنسانية فمحوا الأسرة، والجماعة معًا.

الأمر الثالث - أنه قد اتجه الميثاق الإنساني الذى أخذ على بنى إسرائيل إلى الإحسان إلى الضعفاء فقال تعالى: ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ واليتيم هو من فقد أباه، فإن الأب هو العائل الكالئ الحامى، ومن فقده فقد انفرد فى هذا الوجود، والأم وإن كانت هى الحانية العاطفة التى تغذيه بأنبل العواطف، لا تحميه، وبالفطرة الأولى لا تعوله؛ ولذلك لا تعوض حماية الأب، وكلاءته.

والمسكين هو الذى أسكنته الحاجة، أو المرض المزمن، وإن كلمة المسكين بعمومها تشمل الفقير، لأن الفقير أسكنته الحاجة وأذلته، وهؤلاء جميعا الضعفاء، وإنه قد يشمل ابن السبيل أيضا، وهو الذى ينقطع عن ماله، ويكون فى بلد بعيد عن بلده فهو قد أذلته الحاجة أيضا.

وفى الحقيقة إن اليتامى والمساكين بهذا العموم هم الضعاف فى الجماعة، ورعاية الضعفاء وقاية لبناء الأمة من الانهيار، وإلا كانوا أشتاتا غير متراحمين، يأكل بعضهم بعضا. وقدم الإحسان على اليتامى وإن كانوا أغنياء على المساكين؛ لأن اليتيم ضعيف، وإن كان كثير المال وهو ذو حاجة وإن كان غنيا، والإحسان إليه أن يقوم القائم عليه بتربيته، وألا يقهره ولا يذله، وأن يضمه إلى عياله.

فإنه إن لم يُحط بالعطف والرعاية والمحبة تربى على النفرة من الجماعة فيكون الشذَّاذ والكارهون للمجتمعات؛ ولذلك كانت النصوص الكثيرة الداعية إلى إكرام اليتيم، ولقد قال النبى ﷺ: «خير بيوت المسلمين بيت يكرم فيه يتيم، وشرُّ بيوت المسلمين بيت يقهر فيه يتيم»(١). فاليتامى إكرامهم فيه تقوية للأمة بإنشاء نشء على الخلق القويم.

الأمر الرابع - بعد إقامة الأسرة ومراعاة الضعفاء فى هذا الميثاق الإنسانى الذى أخذ على بنى إسرائيل وليس خاصا بهم دعا سبحانه وتعالى إلى بناء مجتمع

---

(١) عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُ بَيْتٍ فِى الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُحْسَنُ إِلَيْهِ، وَشَرُّ بَيْتٍ فِى الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُسَاءُ إِلَيْهِ». [أخرجه ابن ماجه: كتاب الأدب ـ باب حق اليتيم (٣٦٦٩)].

إنسـانى سليم يعم الإقليم والجنس والناس أجـمعيـن فقال تعـالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا﴾ معطوف على لا تعبدون إلا الله، لأنها مرادف هذا الميثاق الإنسانى الذى أخذ على بنى إسرائيل، وهو يحـمل فى نفسه موجب تنفيذه، لأنه حقيقة الدين، وهو فى أعلى درجات المعاملات، فهل استجابوا وأقروا به، وقد أخذ عليـهم بقوة، ورفع الجبل فـوقهم ليخـضعوا للحق ويذعنوا له؟ إنهم أعـرضوا عنه؛ ولذا قال تعـالى فى حالهم بعد أخـذه عليهم: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (٨٣)﴾.

التولى الإعراض الذى تـدل عليه مظاهر حسِّية، ومنـه قوله تعالى: ﴿أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ... (٨٣)﴾ [الإسراء] فالأصل فيه أنه إعراض يدل عليه مظهر حسى، وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ معناه أنهم تولوا بأجـسامهم ونأوا عنه بحـسهم، والمعنى أنهم معـرضون مقـاطعون لمبادئه وهذا تأكـيد للإعراض وأنهم تركـوه جملة وتفصـيلا من غـير أن يقـبلوا منه شيـئا، وقـد أكد سـبحانـه الإعراض بالتـصريح بالإعراض مع أن التولى يتضمن معناه، وأكده بالجملة الاسمية، أى أنه مع أنه ميثاق مؤكد، ومعناه قويم ترتضيه العقول وتطلبه - أعرضوا عنه.

والخطاب للذين كانوا فى عهد محمد ﷺ ومن سبقوهم؛ لأنهم شاركوهم فى ملتهم، واتبعوهم فى توليهم، فكانوا صالحين لأن يخاطبوا بما خوطب به أسلافهم، وبيان حالهم وأمرهم.

وإن الله تعالى حكم عـدل يحصى عمل الفاسـدين، ويسجل خيـر الأخيار؛ ولذلك استثنى فى الإعراض فقال: ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ﴾ فهم استجابوا لمقتضى الميثاق ولم يعرضـوا وكان الحكم بالتولى ابتداء عليـهم جميعـا، ثم استثنى سبـحانه الذين استجابوا ولكن لقلتهم كان الخطاب لهم جميعا.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ التعبيـر بثم فى موضعه من البعد بـين الميثاق وما اشتمـل عليه من أمور معـقولة مطلوبة فى حكم الشرع والعـقل، ثم يكون من بعد ذلك الإعراض الجافى الشديد منكم، إنه لأمر غريب لو كان من غيرهم.

سفك دمائهم وإخراجهم وأسرهم

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

إن اليهود قد أصابهم ما أصاب الأمم من تفكك فى وحدتهم، فكانوا يتسافكون دماءهم ويمالئ بعضهم جماعات أخرى بينهم وبينهم حرب، فينضم فريق منهم إلى بعض المتقاتلين، وآخرون إلى غيرهم فيقاتل بعضهم بعضا، فى ظل العدوين المتقاتلين، وقد أخذ الله تعالى عليهم العهد بمنع سفك دمائهم، وأخذ عليهم العهد بألا يخرج بعضهم بعضا من ديارهم، ومع أن ذلك العهد حفظ لجميعهم وحقن لدمائهم ويفرض التعاون بينهم - خالفوه.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ كان الميثاق ألا يسفك بعضهم دماء بعض فلا يتقاتلوا ولا ينضموا إلى قوم يقاتلون أحدا

منهم، وعبر الله تعالى عن ذلك بقوله: ﴿لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ بصيغة الخبر الدالة على النهى وعبر عن التقاتل بينهم بقوله: ﴿لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ فنسب السفك المنهى عنه إليهم والدماء إليهم للإشارة إلى الفعل ليعود على جميعهم بسفك الدماء، وإهدار الأنفس، لأنه إذا كان القاتل والمقتول من أسرة واحدة، فقد قتلت نفسها، وسفكت دمها، وأهدرت أهلها.

ومنع سبحانه وتعالى أن يخرج بعضهم من دياره، وعبر عن ذلك المنع بقوله تعالى: ﴿وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ فالخبر هنا فى معنى النهى عن ذلك، والتعبير عن إخراج البعض بأنه إخراج لأنفسهم بيان الاجتماع على أن يكونوا أمة واحدة متآزرة بحيث تكون إصابة عضو منها إصابة لجميعها ، فإخراج بعضهم لبعض إخراج لكلهم إذ يفرق جمعهم، ولأنه يطمع فيهم أعداؤهم، فيخرجهم جميعا، فإخراج بعضهم يسهل إخراج كلهم.

وإن هذا الميثاق قد أخذه الله تعالى عليهم وأقروا به وشهدوه؛ ولذا قال تعالى موثقا ذلك الميثاق بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾ أى أنتم الحاضرون أقررتم ما أخذ على أسلافكم من هذا المثياق، وأنتم تشهدون مؤمنين بصدقه.

وكان الخطاب فى الإقرار والشهادة للذين عاصروا النبى ﷺ لأنهم الذين نقضوا العهد ظاهراً، وهم الذين سفكوا دماءهم، وهم الذين أخرجوا فريقا منهم، وإن كان الاحتمال بأن ذلك حصل من بعضهم فى الماضى ليس ببعيد فقد تشابه فى مخالفة الميثاق الخلف مع السلف، وهم جميعا فى إثم مبين، وعدوان ظاهر.

وإذا كان ذلك الميثاق حفظا لوحدتهم ولجمعهم فقد نقضوه، وقتل بعضهم بعضا، وأخرج فريق منهم الآخر من داره، ولقد قال تعالى فى ذلك: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ﴾ العطف هنا بثم للبعد المعنوى بين الميثاق الذى أخذ عليهم وأقروه بألسنتهم وشهدوا عليه بقلوبهم، وبين الحال التى وجدوا فيها من أنهم قتلوا أنفسهم بأن تقاتلوا فيما بينهم سواء أكان قتالهم لأنفسهم

بأنفسهم، أم كانوا قد انضم فريق إلى قوم عدو لقوم آخر وتقاتل الإسرائيليون مع أنفسهم فى ظل آخرين، وكان كل فريق من اليهود يعاون من يظاهره من أهل الشرك على قومه بالإثم والعدوان، وفى ذلك سفك لدمائهم.

وإن ذلك التعاون مع آخرين متعادين اقتضى أن يخرج فريق منهم من ديارهم، وذلك لأجل القتال الذى انضم فيه كل فريق من اليهود إلى فريق المشركين المتقاتلين؛ ولذا قال تعالت كلماته: ﴿**وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾.

روى عن ابن عباس أنه قال فى تفسير قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ**﴾ الآية: أنبأهم الله تعالى بذلك من قبل وقد حرم عليهم سفك دمائهم وافترض عليهم فيها فداء أسراهم، فكانوا فريقين طائفة منهم بنو قينقاع وهم حلفاء الخزرج والنضير وقريظة وهم مع الأوس فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج، وخرجت النضير وقريظة مع الأوس يظاهر كل واحد من الفريقين حليفه على إخوانه حتى تسافكوا دماءهم بينهم، وبأيديهم التوراة يعرفون فيها ما لهم وما عليهم، والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان لا يعرفون جنة ولا نارا ولا حلالا ولا حراما، ولا بعثا ولا قياما ولا كتابًا.

وخلاصة هذه الرواية عن ابن عباس الذى سماه التابعون ترجمان القرآن: أن سفك اليهود لدمائهم كان فى العصر القريب للهجرة عندما كانت الحرب مشبوبة بين الأوس والخزرج، وكانوا على شفا حفرة من النار، كما أخبر القرآن العزيز، وأن اليهود لم يقفوا محايدين كما هو واجب الجوار بل تدخلوا ليوسعوا شقة الخلاف ويؤرثوا نيران الحرب لتستمر مستعرة فكان مع الخزرج بنو قينقاع، وكانوا حلفاء لهم، ومع الأوس النضير وقريظة، فتقاتل الفريقان كل فى صفِّه، وأخرج كل فريق الآخر من داره، فكان هذا نقضا للعهد الذى أقروه وصدقوه وشهدوه.

وعلى ذلك يكون الخطاب فى قوله: ﴿**ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ**﴾ لليهود الذين عاصروا النبى ﷺ والإشارة إليهم، وكانت الإشارة مع الخطاب لبيان الصفات القائمة فيهم، فالمعنى أنتم ترون أنكم تقتلون أنفسكم، وتخرجون فريقا منكم من ديارهم.

ومن الغريب أنهم كانوا يتقاتلون غير متأثمين، ولا متحرجين من أن يقتل بعضهم بعضا، ويخرج فريق الآخر من داره ومع ذلك إذا وقع أحدهم فى أسر من أى الفريقين فادوه؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ﴾ إنهم يظاهرون على إخوانهم بالإثم والعدوان، ومع ذلك إذا جاءوكم مأسورين دفعتم فديتهم لتفكوا عانيهم، للذين كانوا سببا فى أسرهم ،وشَدُّوا الوَثَاق عليهم، فلو أن الفريق الذى تحاربون معه أسر أسرى من اليهود الذين يعاونون خصمه، وجاء إليكم هؤلاء الأسرى فإنكم تدفعون فديتهم لحليفكم الذى أسرهم، وهذا غريب متناقض. . أولا: لأنكم جعلتموهم مُقَاتَلين وسفكتم دماءهم وقتلتموهم فكيف تحمون حريتهم وأنتم الذين أخرجتموهم للقتال بسبب مناصرتكم لحلفائهم، ومناصرتهم لحلفائهم؛ ولذلك يقول تعالى تنديدا بحالهم وتناقضهم: ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾.

ومعنى ﴿ تُفَادُوهُمْ﴾ أى تدفعون دياتهم؛ لأن فدى ويفادى تدل على أحد معنيين إما أخذ الفدية ممن يدفعها أو دفعها ، وتفسر هنا بمعنى دفعها؛ لأنه المناسب للمقام من حيث وقوعهم فى التناقض فى أوامر دينهم وميثاقهم فهم قد أخرجوا إخوانهم للقتال ومع ذلك إذا وقعوا فى الأسر قدموا فديتهم اعتمادا على نص عندهم يقول: (إذا رأيت أخاك الآخر مملوكا فأخرجه من رقه) وبالتالى إذا رآه مأسورا أخرجه من أسره وإنه كان عليه ألا يكون سببا فى إخراجه، وإنه محرم عليه إخراجه فلا يكون سبب الرق لذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ والحال والحكم الثابت المبين أنه محرم عليكم أن تخرجوهم، فإذا كان محرما عليكم ألا تتركوهم أسرى، فإنه من المحرم عليكم قبل ذلك ألا تخرجوهم فيكون ذلك سبب الأسر.

ولذلك قال تعالى مستنكرًا حالهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ الفاء للإفصاح عن شرط مقدر، تقديره إذا كانت هذه حالكم فأنتم تؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض، والهمزة للاستفهام قدمت على الفاء لأن الاستفهام له الصدارة دائما.

والاستفهام إنكارى لإنكار الواقع لأنهم بعملهم هذا يؤمنون ببعض الكتاب وهو تحريم البقاء على الأَسْر، ويكفرون ببعضه الآخر، وهو تحريم سفك دمهم، وإخراجهم من ديارهم للقتال، فهو استفهام لإنكار الواقع، ولومهم عليه، وبيان أنه تناقض فى إيمانهم ينفذون ما يكون هواهم فى تنفيذه، ويجحدون بما لا يكون لهم هوى فى تنفيذه فاتخذوا إلههم هواهم.

وإن هذا يؤدى إلى هوانهم وذلهم ووصفهم بالعار الدائم؛ ولذا قال سبحانه ﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الخزى: الهوان والعار والذلة، والفاء للترتيب، فإن الأمر الذى يترتب على تسليم أنفسهم لسفك دمائهم وإخراجهم من ديارهم يترتب عليه خزيهم بتسليم أنفسهم، وعار لخيانتهم لأقوامهم، ووراء ذلك كله الذلة وهوان أمرهم بين الناس ، وإن ذلك جزاء مأخوذ من العمل في ذاته ، ولذلك بين القرآن الكريم أنه لا جزاء سواه، وذلك بالنفي والإثبات بالاستثناء، أى: أن الذين يفعلون ذلك الفعل لا جزاء لهم إلا العار والذلة والمهانة، وإذا كان ذلك هو المتعين جزاءً فهو من العفل فى ذاته؛ ولذلك كانت الإشارة إليه فى قوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة أن الفعل ذاته هو العلة.

والحياة الدنيا هى الحياة الحاضرة، وسميت الدنيا، فهى مؤنث أدنى؛ لأنها القريبة المرئية المحسوسة، والحياة الآخرة هى الحياة الحقيقية الدائمة التى تكون سعادة دائمة، أو شقوة مستمرة.

وإذا كان ذلك جزاء فى الدنيا، فجزاء الآخرة أشد وأبقى؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ ويوم القيامة هو يوم الحساب والعقاب أو الثواب، بعد البعث والنشور، وقوله تعالى: ﴿يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ يفيد بإشارة اللفظ إلى أنه مرجعه إلى عذاب سابق، فالخزى عذاب دنيوى نتيجة لفعلهم، وهذه هى الدفعة الأولى، ويردون بعد ذلك إلى أخرى يوم القيامة فيها أشد العذاب وأنكله.

وقد بين سبحانه وتعالى أن حسابهم عند الحكيم العليم الذى لا يخفى عليه شىء، ولا يغفل عن شىء؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾

نفى الله تعالى بهذا النص السامى نفيا مؤكدا أن الله غافل عما يفعلون، فإذا كانوا هم ينسون ما يفعلون من آثام لاستمرائهم لها، واستمرارهم عليها، فالله تعالى لا ينساها، وقد أكد سبحانه نفى ذلك بالباء فى قوله تعالى: ﴿بِغَافِلٍ﴾ وبنفى وصف الغفلة عن ذاته العلية، بأن الغفلة ليست من شئونه، وقوله تعالى: ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ إشارة إلى إحصائه سبحانه وتعالى أعمالهم حال عملها وحال تلبسهم بآثامها.

تنبيه: هذه الآيات نزلت فى بنى إسرائيل ، والخطاب لهم ابتداء، ولكنه شامل عام فى عبرته بالنسبة للأمم جميعها، وخصوصا الأمم التى تقوم على مبادئ رسالة إلهية من السماء، فإنها يجب أن تكون بناء واحدا قائما لا تتداعى لبناته فيهوى، والنبى ﷺ قال فى أمته: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»(١). وأوجب الإسلام على المسلم أن يعين أخاه المسلم فى شدته وكربته، فقال: «من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته»(٢)، وقال ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يخذله ولا يُسلمه»(٣) ومع ذلك فعلنا الكثير نحن المسلمين فى عصرنا، وهو امتداد لعصور قبلنا من العصر العباسى الثانى إلى اليوم، سفكنا دماءنا بأيدينا لهوى الملوك، وفساد الحكام، فكانت الحرب بين المسلمين شديدة لُحيَّة، وصار كل فريق يرى فى الآخر عدوه الذى ينتهز الفرص للقضاء عليه، وصار بعضهم يغرى أعداء الإسلام من الوثنيين وغيرهم بالمسلمين، حتى وقعوا بالمسلمين وحاربوهم حرب إفناء.

---

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى: كتاب الأدب (٥٥٥٢) ومسلم: كتاب البر والصلة (٤٦٨٥) واللفظ له، عن النعمان بن بشير رضى الله عنه.

(٢) عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ وَلا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِى حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِى حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». [متفق عليه؛ أخرجه البخارى: كتاب المظالم والغصب (٢٢٦٢)، ومسلم: كتاب البر والصلة (٤٦٧٧)].

(٣) انظر السابق. وروى أحمد عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ وَلا يَخْذُلُهُ»، وَيَقُولُ: «وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا تَوَادَّ اثْنَانِ فَفُرِّقَ بَيْنَهُمَا إلا بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا»، وَكَانَ يَقُولُ: «لِلْمَرْءِ الْمُسْلِمِ عَلَى أَخِيهِ مِنَ الْمَعْرُوفِ سِتٌّ: يُشَمِّتُهُ إِذَا عَطَسَ، وَيَعُودُهُ إِذَا مَرِضَ، وَيَنْصَحُهُ إِذَا غَابَ، وَيَشْهَدُهُ وَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ إِذَا لَقِيَهُ، وَيُجِيبُهُ إِذَا دَعَاهُ، وَيَتْبَعُهُ إِذَا مَاتَ، وَنَهَى عَنْ هِجْرَةِ الْمُسْلِمِ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثٍ» [مسند المكثرين (٥١٠٣)].

ولقد كانت الأرض الإسلامية تُلتَهم قطعة قطعة، وفى المسلمين أقوياء لا يرون للدين حقا عليهم يوجب أن ينقذوا إخوانهم من المؤمنين، فقد كان النصارى يعذبون المسلمين حتى أفنوهم فيها، والأتراك من النظارة الذين ينظرون ولا يتحركون.

وجاء العصر الأخير، فرأينا أعداء الله وأعداء الإسلام يجندون من المسلمين من يحاربون المسلمين، ووجدنا من الذين يتمسحون باسم علماء الدين من يؤيدون محاربة المسلم للمسلم، ووجدنا فى السنين الأخيرة من الحكام من يقتل المَقَاتِل العظيمة فى المسلمين من رعيته، حتى يلجئهم إلى الوثنيين لينقذوهم، وتذهب جماعات إسلامية، وقتًا بعد آخر ووجدنا بيت المقدس يخربه اليهود ويستولون عليه، ووجدنا من الملوك من يؤيدونهم.. اللهم لاحول ولاقوة إلا بك وأنه ينطبق علينا قولك الحكيم: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

وإن أولئك الذين يسفكون دماءهم، ويخرجون أنفسهم من ديارهم باعوا آخرتهم بدنياهم، وكانت الحياة الآخرة هى الثمن للدنيا التى اشتروها؛ ولذلك قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ الإشارة إلى الذين سفكوا دماءهم وأخرجوا أنفسهم من ديارهم، ونقضوا مواثيق الله التى جاءتهم بالأحكام التكليفية، والإشارة إلى الموصوفين بصفات تشير إلى أن هذه الصفات هى سبب الحكم الذى يقترن باسم الإشارة، أى أن هؤلاء بسبب أوصافهم قد اشتروا الحياة الدنيا بثمن هو أغلى الأثمان، وهو الآخرة، ولكننا نجد أنهم خسروا فى الدنيا؛ لأنهم لحقهم الخزى والعار، وفسدت نفوسهم، حتى صارت كالقردة والخنازير، وإن ذلك حق، ولكنهم فهموا الدنيا متاعا يستمتعون به كالحيوان فاشتروا هذه الدنيا التى زعموها، وتركوا الآخرة فاستبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير.

ومع أنهم طلبوا الحياة، وتركوا الآخرة لم ينالوا ما طلبوه طيبا، بل أخذوه ذليلا مهينا، مصحوبا بالخزي، ولكنهم يريدون الحياة الدنيا على أية صورة كانت، ولتجدنهم أحرص الناس على حياة، وإن جزاءهم فى الآخرة التى تركوها وباعوها،

قال الله تعالى فيهم: ﴿فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ الفاء فاء الإفصاح التى تفيد ترتب ما بعدها على ما يفهم مما قبلها، أى أنه بسبب تلك المبادلة الخاسرة التى خسروا فيها الآخرة لا يخفف الله تعالى عنهم العذاب الشديد الذى يستقبلهم؛ لأن أسباب التشديد من التقاطع والتنابذ والحسد والجحود قائمة، ولا مسوغ للتخفيف قط، ﴿وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، فلا ترى من نبى ينصرهم، ولا شفيع يشفع لهم لأنهم عدموا الشفعاء، وقتلوا النبيين.

استكبارهم على الرسل

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

ذكر الله تعالى المواثيق التى أخذها على بنى إسرائيل، وكيف نقضوا ميثاقا بعد ميثاق حتى ما يتعلق بسلامة جماعتهم، وحمايتهم لأنفسهم. بعد ذلك، ذكر استقبالهم للرسل، وكتبهم فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾، الكتاب الذى أنزله الله على موسى هو التوراة، وليس هو الذى يطلقون عليه اسم التوراة، **أولاً**: لأنه يشتمل على أخبار الأنبياء من بعده داود وسليمان وغيرهما من الأنبياء الذى جاءوا من بعده، فلا يمكن بالبداهة أن يكون قد نزل على موسى ما جاء بعده من أخبار نبيين جاءوا من بعده بمئات السنين، **وثانيا**: لأنهم حرفوا وغيروا وبدلوا ونسوا حظا كثيرا مما نقل إليهم، ولا يزالون يحرفون، ويغيرون ويبدلون، ويعبثون. وإن الكتاب الذى نزل على موسى هى الأسفار الخمسة، وقد حرفوها وغيروا وبدَّعوا، ولا يزالون يفعلون. أتى الله تعالى موسى عليه السلام

الكتاب الصادق، الذى هو حجة عليهم، وليس ما بأيديهم حجة لهم لأنهم كتبوه بأيديهم ليشتروا به ثمنا قليلا ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

وإن الله تعالى أرسل الرسل من بعد موسى، ليؤيدوا ما دعا إليه فى الكتاب الذى نزل عليه؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ أى جاء بعده رسل تترى، رسولا بعد رسول، فمعنى قفينا أرسلنا رسولا وراء رسول وراء رسول لأن التقفية التتابع بحيث يكون كل رسول فى قفا الرسول الآخر وراءه، ومعنى هذا التتابع أن يكون الجميع على نمط واحد، وغاية واحدة، فإن الخط المستقيم المتتابع فى نقطة ينتهى إلى نقطة واحدة، وهى الوحدانية، والتكليفات الإلهية الواحدة، كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى].

ولقد ذكر بعد ذلك عيسى عليه السلام، وقد بعث فى اليهود، أى كانت دعوته الأولى فى اليهود، ومعه المعجزات الباهرة فقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ ذكره سبحانه وتعالى فى ضمن الرسل الذين تتابعوا من بعد موسى، وقفاهم الله تعالى به، رسولا بعد رسول، فهو رسول من بينهم، ولكن اختصه تعالى ببينات أى معجزات حسية باهرة قاطعة فى الدلالة على رسالته، ولكنهم كفروا، وقد ذكر سبحانه وتعالى هذه البينات فى آيات أخرى من القرآن، منها ما جاء فى سورة آل عمران، فقد قال تعالى مبشرا مريم بولادة المسيح عليه السلام، وهى مستغربة أن يكون من غير أب: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ

الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [آل عمران].

هذه بعض البينات، وذكرت بينات أخرى فى سورة المائدة منها أنه بإذن الله يردُّ الحياة إلى الموتى، والفاعل هو الله تعالى وأجرى الإحياء على يد عيسى عليه السلام، وأنه ينادى الموتى من قبورهم فيخرجون بإذن الله تعالى العلى القدير، وأنه نزل عليه مائدة من السماء، فكانت آية أخرى.

وفى هذا المقام لابد من ذكر أمرين:

أولهما - أن اليهود كفروا بهذه الآيات البينات، ولم يذعنوا للحق وحاولوا قتل المسيح عليه السلام، وأرادوا أن يكون فى عداد النبيين الذين قتلوهم، ولكن الله تعالى حماه منهم، وادعى النصارى الذين جاءوا بعد المسيح عليه السلام أنهم قتلوه لأوهام توهموها، وأكاذيب اخترعها بولس الذى كان له عدوًّا مبينًا.

الأمر الثانى - وهو لماذا كانت هذه البينات الخارقة للعادة للمسيح من بين سائر النبيين؟ وإن كان لمحمد ﷺ ما هو أجل وأعظم، وجاء مثلها على يديه، ولكنه لم يتحدَّ بها، بل تحدى بالقرآن العظيم الخليقة كلها فى كل أجيالها، ولا يزال يتحدى العصور إلى اليوم.

كانت معجزات عيسى أو بيناته كما عبر القرآن الكريم من هذا النوع؛ لأن اليهود ما كانوا يؤمنون إلا بالمادة ولا يعترفون بالروح فى كتابتهم، ولا فى أنفسهم، ولا فى دراساتهم الدينية فى العصر الذى بعث الله تعالى عيسى عليه السلام فيه ولا العصر الذى قارنه وسبقه، فكان لابد من أمر روحى يقرع حسهم وحالهم المادى فكان خلق عيسى عليه السلام، وكان أمرًا خارقا للعادة مبطلا سلطان المادة، وكانت المعجزات كلها من الناحية الروحية فهو يخبرهم بما يأكلون ويدخرون فى بيوتهم، وهو يبرئ الأكمه والأبرص وهو ينفخ فى الطين فيكون طيرًا، وهو يحيى الموتى، وهو يخرج الموتى من قبورهم بإذن الله تعالى، والله تعالى ينزل المائدة فيأكلون

منها، كما كان ينزل المن والسلوى على بنى إسرائيل عند خروجهم من مصر، وهم يعيشون فى سيناء.

هذا بالنسبة لبنى إسرائيل خاصة، أما بالنسبة للعقل البشرى عامة الذى عاصر المسيح عليه السلام، وكان فى القرون التى قبلها، فهو أنه عصر الفلسفة الأيونية التى تولدت منها الفلسفة اليونانية، وقد كان هذا العصر تسوده فلسفة الأسباب والمسببات فلكل شئ سبب عادى، وكل سبب هو سبب لشىء وأتبع سببا، فالوجود كله يؤثر بعضه فى بعضه، فالولد يكون من أب وأم، يُكَوَّن من أصلاب الآباء وبطون الأمهات، والأبرص والأكمه لا يشفيان، ولا يمكن أن يعود الميت حيا، ولا أن يخرج الأموات من قبورهم، وهكذا فكان لابد من قوارع تبين أن الأسباب والمسببات من الله، الله تعالى أبدعها بديع السموات والأرض، وهو يغيرها، وهو الفعال لما يريد.

لقد تطاولوا حتى قالوا: إن الوجود منشأ من موجده بنظام الأسباب والمسببات، فهو وجد منه وجود المعلول من علته ،فهو ليس مختاراً حتى فى وجوده، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، فهو القادر المختار المريد العليم السميع البصير، ليس كمثله شىء وهو فعال لما يريد.

كانت معجزات عيسى عليه السلام قاطعة فى إبطال الأسباب العادية والمسببات ولوازمها، فتعالى الله، وتقدست ذاته وتنزهت صفاته.

وما يدعى من أن عصر عيسى عليه السلام كان عصر علم الطب لا يؤيده التاريخ، بل كان اليهود الذين بعث فيهم عيسى وخاطبهم برسالته ومعجزاته كانوا أجهل الناس بالطب كما حكى عنهم الفيلسوف المسيحى رينان فى كتابه.

أيد الله تعالى المسيح عليه السلام بالبينات الباهرة، ولكن بنى إسرائيل كفروا بها، وأيده عليه السلام بروح القدس، فقال تعالى: ﴿**وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ**﴾ وروح القدس هو جبريل رسول الله تعالى إلى رسله، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً** ... ﴿٥١﴾﴾ [**الشورى**] فالرسول

الذى يرسله الله تعالى إلى رسله هو الملك جبريل عليه السلام، وقال حسان بن ثابت رضى الله تعالى عنه:

وجبريل رسول الله فينا وروح القدس ليس به خفاء

وقال تعالى: ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ** ﴿١٩٣﴾﴾ [**الشعراء**]، وروح القدس من إضافة الموصوف إلى الوصف، أى الروح القدس أى الطاهر وقد وصف بالأمين، كما ترى فى الآية التى تلونا، وليس إلها، ولا ثالث ثلاثة كما قال الذين لا يؤمنون إلا بالأوهام، وهم النصارى الذين يتبعون بولس عدو المسيح، ولا يتبعون المسيح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم.

كفر بنو إسرائيل بالمسيح عليه السلام، وقد أتى بهذه البينات القاهرة، ولكنهم كفروا استكبارا عن اتباعه عليه السلام، ولأن ما جاء به يخالف أهواءهم فهم يريدون الرسول داعيا إلى ما تهوى أنفسهم، والكفر ملازم لكل من جعل إلهه هواه، فهو يدين لكل ما يتبع أهواءهم، ولا يدينون دين الحق الذى يقوم الدليل على صحته، وأنه من عند الله؛ ولذلك قال الله تعالى فى بنى إسرائيل: ﴿**أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ**﴾.

والهوى هو الميل إلى الشيء بالانحراف، ويسمى الهوى هوى لأنه يهوى بصاحبه إلى الباطل من كل شيء فهو يهوى إلى الخلق الفاسد، وإلى الضلال، ومن بعد ذلك يهوى به إلى النار.

وإنهم يرفضون طاعتهم للحق إطاعة لهواهم ولكنهم يسترون ذلك بالاستكبار، واستصغار الحق ومن يدعو إليه مستعلين عليه، كأنهم هم وحدهم، حملة الرسالة الإلهية ولايحملها سواهم، لأنهم أبناء الله وأحباؤه؛ ولذلك كانوا مستمرين فى غوايتهم.

قوله تعالى: ﴿**أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ**﴾ الفاء لترتيب ما بعدها من حكم على ما كان قبلها من كفر متوالٍ مستمر، والهمزة للاستفهام وهو لإنكار الواقع الذى هم فيه،

وكلما شرطية تدل على تكرار الفعل وهو الجواب إذا تكرر الشرط، والمعنى يتكرر منكم الاستكبار كلما جاء نبى من الأنبياء بما لا تهوى ولا تحب أنفسكم، وإن ذلك توبيخ لهم لحاضرهم وماضيهم على سواء، لأنهم فى الباطل أمة واحدة، يتبع خلفهم سلفهم، ويدين آخرهم بما يدين به أولهم، فهم جميعا يستكبرون عن الحق، وحالهم مع النبى ﷺ هو حال أسلافهم مع أنبيائهم، فهم استكبروا عن إجابة النبى ﷺ لأنه ليس من بنى إسرائيل ولأنه لم يجئ بما تهوى نفوسهم.

وإنهم إذ يستكبرون يرتبون من ماضيهم على الاستكبار إما التكذيب المجرد، كما كانوا يفعلون مع الأنبياء، وكما فعلوا مع عيسى عليه السلام، إذ حاولوا قتله، فأنجاه الله تعالى منهم، وما قتلوه يقينا بل رفعه الله تعالى إليه، وإما التكذيب المقرون بالاعتداء الآثم؛ ولذا قال تعالى فيما ترتب على الاستنكار: ﴿**فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ**﴾.

فالفاء للترتيب، أى ترتب على الاستكبار الآثم أن كذبتم، وأن زدتم على التكذيب القتل، كما فعلتم مع يحيى وزكريا عليهما السلام، وكما حاولتم أن تفعلوا مع عيسى فرد الله تعالى كيدكم فى نحوركم.

وقد عللوا تكذيبهم للأنبياء الذى دفع إليه استكبارهم بقولهم: ﴿**وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ**﴾ وغلف جمع أغلف وهو ما عليه غلاف أى غطاء يمنع وصول ما يدعو إليه الرسول إلى قلوبهم، وهو كقوله تعالى حكاية عن أمثالهم: ﴿**وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ...** ۝٥﴾ [**فصلت**] وذلك لأن الهوى إذا سيطر سد مسامع الإدراك الصحيح فيكون لهم قلوب لا يفقهون بها، فهم لا يدركون، وهم إذ يحكمون على أنفسهم ذلك الحكم، فهو صادق فعلى قلوبهم غلاف من الهوى سد معرض عن الحق، وهم يقولون ذلك القول مصرِّين على التكذيب؛ ولذا قال تعالى: ﴿**بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ**﴾ أى طردهم سبحانه وتعالى من رحمته، وهو حكم تقريرى، مثبت لغلف قلوبهم، والإضراب فى قوله تعالى: ﴿**بَل لَّعَنَهُم**﴾ إضراب عن قبول اعتذارهم، ورده عليهم بأن هذا طرد لهم من رحمة الهداية إلى كفر الغواية.

ويفسر ابن عباس رضى الله تبارك وتعالى عنهما معنى قولهم فى قلوبنا غلف «إن قلوبنا ممتلئة علما لا تحتاج إلى علم جديد يأتى به الرسول محمد أو غيره، وقرأ ابن عباس غُلُف جمع غلاف، والمعنى أن قلوبهم امتلأت علما حتى الكظة ووضع عليها غلاف محكم يمنع أن يخرج العلم، ويمنع أن يدخل إليه غيره، وهو تعبير تصويرى ويتفق معه وصف استكبارهم، ويكون معنى: ﴿**بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ**﴾ لعناهم، وطردناهم، فالإضراب فى «بل» رد لادعاء العلم بالنبوات، بل هو غرور راكز فى نفوسهم منعهم من إدراك الحقائق الدينية، والرسالات الإلهية التى انتهت برسالة خاتم النبيين محمد ﷺ(١).

وإن ذلك متفق مع قوله تعالى فى سورة النساء: ﴿**فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً**(١٥٥)﴾ [النساء].

وقد رتب الله تعالى على تغليف قلوبهم ووضعهم الغطاء المانع من دخول الحق إليها، فقال تعالى: ﴿**فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ**(٨٨)﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أى أنه ترتب على تغليف قلوبهم عن الحق ألا يؤمنوا به، و «ما» فى النص السامى الكريم للدلالة على القلة الشديدة، والمعنى فقليلا أى قلة يؤمنون، والعلة واضح أنها فى العدد لا فى الإيمان، فالإيمان لا يتجزأ إلى قليل أو كثير، فهو كامل دائما، أو هو الإذعان للحق بعد تصديقه، وذلك لا يكون إلا كاملا، فالقلة والكثرة فى عدد المؤمنين لا فى مقدار إيمانهم، فالمعنى بسبب تغليف قلوبهم لا يؤمن إلا عدد قليل وقوله تعالى: ﴿**فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ**﴾ إن قليلا وصف لمصدر محذوف تقديره: إيمانا قليلا أى (قلة يؤمنون) والقلة كما أشرنا ليست فى أصل الإيمان، بل فيمن اتصفوا بالإيمان، لأنهم يكونون عددا قليلا، ومصداق ذلك قوله تعالى فى أهل

---

(١) عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مَثَلِى وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِى كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا، فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ قَالَ فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ». [متفق عليه؛ أخرجه البخارى: كتاب المناقب (٣٢٧١) ومسلم: كتاب الفضائل (٤٢٣٩) وغيرهما].

الكتاب: ﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦) ﴾ [المائدة] وقوله تعالى فى أهل الكتاب السابقين على رسالة محمد ﷺ: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥) ﴾ [آل عمران].

وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟
مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم
مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾
بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ
ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ
فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ
﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ
أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا
لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾

ذكرهم الله تعالى بأعمال سلفهم مع الأنبياء بصورة عامة، ثم بدأ سبحانه وتعالى أعمالهم مع النبى ﷺ بصفة خاصة، وهى فى ذاتها أشد كفرا مما كان من أسلافهم مع الأنبياء السابقين، ولذا كان الخطاب متصلا بخطاب أسلافهم، فأسلاف أخذ عليهم الميثاق لايعبدون إلا الله، وأسلاف أخذ عليهم الميثاق ألا يسفكوا دماءهم وألا يخرجوا أنفسهم من ديارهم، خوطب أسلافهم بذلك، وكان الخطاب موجها

لهم، والميثاق فى رقابهم ولذلك ندد بقتلهم أنفسهم، وإخراجهم فريقا منهم من ديارهم.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أخبر سبحانه وتعالى أنهم جاءهم كتاب، وهو قد جاء مع رسول من بنى إسماعيل عليه السلام بهذا الكتاب، فذكر الكتاب، وهو يقتضى أن يكون مع رسول، فأعلم بالكتاب لأن الأمر أنه كتاب يشتمل على المواثيق مثل المواثيق التى أخذت عليهم، ونقضوها، فهو ميثاق جديد للمواثيق التى جاءتهم من قبل، ولم يذكر اسم الرسول؛ لأن الاعتبار لهذا الكتاب الذى وصفه الله تعالى بوصفين أنه من عند الله تعالى، وما يكون من عند الله جدير بأن يتقبلوه بقبول حسن، وأن يأخذوه بمأخذ الطاعة لأوامره ونواهيه، والوصف الثانى أنه مصدق لما معهم فهو مصدق لما جاء فى التوراة من وصف للنبى ﷺ، ومصدق للمواثيق التى أخذت عليهم من ألا يعبدوا إلا الله ولا يشركوا به شيئا، وأن يحسنوا إلى الأبوين وذوى القربى واليتامى والمساكين، وابن السبيل، وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، وأن يقولوا للناس حسنا من القول، ويترتب على ذلك المعاملة الطيبة، وإن هذا النبى الذى جاء معه الكتاب الذى أنزله الله تعالى، وهو مصدق لما معهم من أوامرٍ ونواهٍ ومواثيق أخذت عليهم بقوة - قد كانوا يعلمون بمجيئه ويتوقعونه.

ومعنى تصديق الكتاب لما معهم أنه تصديق لما معهم من كتاب كانوا يكتبونه بأيديهم، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله، حتى يجيء بعض البهتانيين الكاذبين من دعاة نصرانية بولس، فيقولون إن القرآن صدق ما بأيديهم من محرف التوراة المحرفة والمنحرفة والإنجيل المحرف، إنما صدق القرآن الأوامر الأصلية مما اشتمل المواثيق التى أخذت عليهم بقوة، ولم يصدق الذى حرفوه ولا المنحرف عن الحق والخلق المستقيم، كالذى اشتملت من أن نبى الله داود زنى بحليلة جاره، وأرسله إلى الميدان ليخلو له وجه عشيقته، ذلك إفك بين لا يليق بأخلاق نبى جعله الله تعالى خليفته فى الأرض ولا يليق بذى خلق كريم، فهل هذا ما صدق به

الكتاب ما معهم، ذلك هو الضلال البعيد، ولن يكون فى كتاب منزل من عند الله، ولا يدّعيه إلا الذين هوت نفوسهم إلى مثل هذا الحضيض الأوهد من الأخلاق.

وإن اليهود الذين كانوا فى عصر النبى ﷺ كانوا يعلنون أنه سيكون نبي، وأنهم يتوقعون أن لا يكون منهم كما ذكر من قبل؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ السين والتاء للطلب أى يطلبون الفتح، والفتح هو النصر كما فى قوله تعالى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ ... (٥٢)﴾ [المائدة] وأطلق الفتح على النصر العادل، لأن النصر يفتح الطريق أمام الحق، وقد بشر الله تعالى بالنصر فى قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣)﴾ [الفتح].

كان اليهود إذا كانوا فى حرب مع المشركين ممن يجاورونهم فى المدينة يطلبون النصر بالنبى الذى حان حينه وحل، أوانه ويحسبون أنه سينصرهم على المشركين؛ لأنه سيجىء بمحو عبادة الأوثان وتحطيمها.

روى محمد بن إسحاق بسنده عن قتادة الأنصارى عن أشياخ منهم: قال: فينا والله وفيهم، (يعني فى الأنصار واليهود الذين كانوا جيرانهم) نزلت هذه الآية: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ كنا قد علوناهم قهرا دهرا فى الجاهلية، ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب، وهم يقولون: إن نبيا سيبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث الله رسوله، وكان من قريش آمنا به واتبعناه وكفروا به.

ولم يكن ذلك الاستفتاح بين اليهود من بنى النضير وجيرانهم فى المدينة، بل كان بين اليهود، وغيرهم فى داخل الجزيرة، يروى ابن عباس رضى الله عنهما أنه كانت يهود خيبر تقاتل غطفان، فلما التقوا هُزِمَتْ يهود خيبر فدعت بهذا

الدعاء. وقالوا : إنا نسألك بحق النبى الأمى الذى وعدتنا أن تخرجه إلا تنصرنا عليهم» فكان إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء، فهزموا غطفان .

كان معروفا عند اليهود ذلك النبى محمد ﷺ، يستفتحون به ويدعون الله بحقه أن ينصرهم، ولكنهم كسائر أسلافهم يتبعون أهواءهم، فلما جاء من غير قبيلهم أنكروا معرفتهم، وادعوا أنه لا ينطبق عليه أوصاف من كان يستفتحون به، وهم كما قال الله تعالى: ﴿**يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ** ... (١٤٦)﴾ [**البقرة**].

ولذا قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ**﴾، الفاء للترتيب أي أنهم مع هذا الاستفتاح ترتب نقيضه وهو أنهم لما جاءهم الذي عرفوه جحدوه وكفروا به، فهم رتبوا على الشيء نقيضه وبدل أن يذعنوا للحق الذى عرفوه أنكروه وكفروا به، وهكذا شأنهم هم وأسلافهم دائما يعرفون الحق ويكفرون به، عرفوا باطل فرعون ومع ذلك اتخذوا العجل.

عبر قوله تعالى عن إدراكهم للنبى ﷺ وعلمهم به بأنهم عرفوه، والمعرفة هى العلم الجازم المطابق للواقع عن دليل، ومع ذلك كفروا به، فكانوا مطرودين عن رحمة الله، والحق الذى جاء به النبيون، ولذا قال تعالى: ﴿**فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ الفاء للإفصاح، إذ تفصح عن شرط مقدر مؤداه إذا كانوا قد كفروا بما عرفوا واستيقنوا فلعنة الله تعالى عليهم، وأظهر فى موضع الإضمار للتصريح بأنهم صاروا فى عداد الكافرين، وخرجوا عن دائرة المؤمنين الذين يؤمنون بأى شيء فى كتابهم فهم قد كفروا بكتابهم وبما عندهم واللعنة هى الطرد، ووراء الطرد المذلة، وإن كفرهم هو السبب فى طردهم وذلتهم.

﴿**بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**﴾ بئس من أفعال الذم كنعم من أفعال المدح، ويكون معها تمييز ثم يعقبه المخصوص بالذم أو المدح كأن تقول: نعم محمد رجلا، فـ «رجلا» تمييز

ومحمد المخصوص بالمدح أو الذى يُمدح. وقد تكون «ما» هى التمييز فتكون نكرة تامة بمعنى شىء مذموم.

فـ «ما» - هنا على ما يخرجه النحاة نكرة موصوفة بالذم - لما اشتروا به أنفسهم - ويكون المعنى بئس شيئا مذموما، والمخصوص بالذم هو أن يكفروا بما أنزل الله بغيًا . . إلى آخره. فاشتروا هنا بمعنى باعوا، أى أنه بئس هذا الفعل الذى باعوا أنفسهم أن يكفروا بما أنزل بغيا ظلما وحسدا وحقدا.

هذا ما يقوله النحويون فى «ما» ونحن لا نرى مانعا من أن تكون اسمًا موصولاً بمعنى الذى، فيكون المعنى بئس الذى باعوا به أنفسهم فقد باعوها بأمر حقير مضرته شديدة وهو أن يكفروا بما أنزل الله تعالى من قرآن كريم هاد إلى الرشاد وإلى سواء السبيل، وقوله: بغيا مفعول لأجله أى لأجل ما فى نفوسهم من حسد أدى إلى ظلم شديد، والبغى فى أصله طلب الشىء بشدة، إرضاءً لهوى، وأن ذلك يؤدى إلى أن يطلب الشىء بغير حله، وإلى الظلم؛ ولذلك أطلق البغى على الظلم الذى يبتغى ويطلب فى حرص ولذا يقول تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠)﴾** [**النحل**]. وإن ذلك البغى الناتج عن الهوى والحسد هو أنهم يكرهون أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ومعنى النص الكريم **﴿أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾** لأجل البغى المستكن فى نفوسهم، وهو كراهية أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده.

فهم ارتكبوا إثمين كبيرين بذلك:

أولهما ـ الكفر بما أنزل الله تعالى وذلك إثم فى ذاته، وهو كفر مبين؛ لأن من ينكر ما أنزل الله تعالى، وقد قامت بيناته، وعرفوه من قبل فى كتبهم فقد كفر كفرانًا مبينًا . .

وثانيهما ـ أن الباعث إثم عظيم واغترار، بأنهم المختارون وحدهم لرسالة الله ـ فمعنى **﴿مِن فَضْلِهِ﴾** أى من رسالة ربه، فهى من فضل الله، والله ذو الفضل العظيم، يختص برحمته من يشاء والله أعلم حيث يجعل رسالته.

إن اليهود يحسدون محمدا ﷺ لأنه جاء من ولد إسماعيل لا من ولد إسحاق، يريدون أن يكون خاتم النبيين من ولد إسحاق، فهم يكفرون بما أنزل الله تعالى لأنهم يكرهون أن ينزل الله رسالته على من يشاء من عباده، فهم يريدون أن تكون إرادة الله تعالى على هواهم فى إرسال الرسل، وقد بين الله تعالى أن ذلك أدى إلى غضبه عليهم، وبعدهم عن رحمته؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ أى فرجعوا وكانت النتيجة لهذا البغى والحسد، أن نزل بهم غضب، والمراد أنهم باءوا بغضب متزايد متكاثر شديد لتزايد أسبابه، وتعدد دواعيه، وبواعثه.

ويقول فخر الدين الرازى: «إن غضب الله تعالى يتزايد ويكثر فلا يكون غضبه على من كفر بخصلة واحدة كغضبه على من كفر بخصال متعددة».

وقد كفر اليهود الذين خاطبهم النبى ﷺ مرتين كما أشرنا؛ إحداهما - بكفرهم بما أنزل الله تعالى، وقد عرفوه من قبل، وكانوا يعرفون النبى ﷺ كما يعرفون أبناءهم، والثانية - أنهم يريدون أن يكون أمر الله تعالى فى رسله على هواهم.

ولذلك قال تعالى: ﴿فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ والغضب يكون حالاً تليق بذات الله تعالى يتجلى فى عدم رضاه وإنزاله العذاب بمن يغضب عليه وطرده من رحمته ولعنه، وكل ما يذكر الله تعالى من صفات وأحوال يتشابه أسماؤه مع ما يتصف به من صفات وما تكون عليه من أحوال لا يكون مشابهًا لنا، بل يكون أمرا يليق بالذات العلية: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى] تعالى الله عن مشابهة الحوادث.

ولقد ذكر سبحانه وتعالى ما ينزله بهم سبحانه من عذاب فقال تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أى عذاب يوقعهم فى الذل والمهانة، وذكر سبحانه وتعالى العذاب لهم بأنه مهين مذل موقع فى المهانة؛ لأنه عقاب لاستعلائهم الكاذب، وغرورهم حتى حسبوا أن الله تعالى يتصرف كما يهوون، وكما يبتغون، والله تعالى القاهر فوق عباده وهو الحكيم العليم.

وإن الله يذل دائما كل من يتطاول، ويتسامى بغرور، روى الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اشتد غضب الله على من زعم أنه ملك الأملاك لا ملك إلا الله»[(١)].

ونحن نقول مقتدين بالنبى ﷺ، متبعين له: اشتد غضب الله على كل عتل جبار أذل البلاد، وأفسد العباد، وأنه القادر الذى ليس فوقه أحد.

وإن اليهود سيرا على غلوائهم وزعمهم الفاسد أنه لا نبى إلا من بينهم. إنهم يبغون حسدا لغيرهم إذا قيل آمنوا بما أنزل الله قالوا لا نؤمن إلا بما أنزل علينا، ولذلك قال تعالى فيهم: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ**﴾.

كان الكلام للغيبة، ولم يكن بالخطاب لأنه للحاضرين من بنى إسرائيل إذ هم الذين يعتذرون ذلك الاعتذار وبه يجحدون ذلك الجحود، وكان الكلام بالغيبة فيه تنديد بهم وبأسلافهم من قبل، وقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ**﴾ بالبناء للمجهول لكثرة القائلين، فكتبهم تقول لهم ذلك، وهم أنفسهم كانوا يقولون ذلك، إذا كانوا يستفتحون على الذين كفروا بالنبى الأمى ﷺ، والنبى ﷺ والمؤمنون يدعونهم، وحلفاؤهم من المؤمنين كانوا يدعونهم، فكثر القائلون، وإن البناء للمجهول له معنى آخر، وهو تركيز القول على ما يكون من ردهم للداعى فهذا موضع اللام، فلا لوم على من قال، فلا حاجة إلى ذكره، إنما اللوم كله فى ردهم.

القائل يدعوهم إلى الإيمان بما أُنزل فيقول آمنوا بما أنزل الله تعالى، فالله هو الذى أنزله وهو جدير بالإيمان به، لأنه من عند الله والكفر به كفر بالله تعالى.

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ أحمد فى مسنده (٩٩٨٧) عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رَجُلٍ قَتَلَهُ نَبِيُّهُ - وَقَالَ رَوْحٌ: قَتَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ وَاشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى رَجُلٍ تَسَمَّى بِمَلِكِ الأَمْلاكِ؛ لا مُلْكَ إِلا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ».
وهو متفق عليه رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة: «أَخْنَعُ اسْمٍ عِنْدَ اللَّهِ وَقَالَ سُفْيَانُ غَيْرَ مَرَّةٍ أَخْنَعُ الأَسْمَاءِ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسَمَّى بِمَلِكِ الأَمْلاكِ». قَالَ سُفْيَانُ: يَقُولُ غَيْرُهُ: تَفْسِيرُهُ شَاهَانْ شَاهْ. وهذا لفظ البخارى: الأدب (٥٧٣٨)، وبنحوه عند مسلم: الآداب (٣٩٩٣).

وردهم نؤمن بما أنزل علينا، أى لا نرى الإيمان إلا بما أنزل علينا نحن مع أن المنزل واحد، وهو الله تعالى ولكنهم يغالون فى اتباع هواهم وشهواتهم، فيزعمون أنه لا أنبياء إلا فيهم وإنهم يكفرون بما وراءه، أى بكل ما جاء بعده، فوراء يبين ما جاء خَلْفَهم وبعدهم كما كفروا من قبل بعيسى عليه السلام.

ويبين الله تعالى أن ما أنزل من القرآن هو الحق وهو مصدق لما معهم، فقد وصفه سبحانه وتعالى بوصفين أحدهما ذاتى وهو الحق أى أنه ثابت فى ذاته ما أتى إلا بأمور ثابتة يقرها العقل، وتقرها الفطرة، وتدل عليها البينات وهو ذاته معجز، مثبت وجوده بنفسه، لا يحتاج إلى بينات وراءه، والثانى إضافى وهو أنه مصدق لما تضمنته المواثيق التى أخذت عليهم، وهذا الوصف يرد زعمهم الفاسد، بإثبات عدم المغايرة بين ما جاءهم به النبى ﷺ وما نزل، وبين ما عندهم؛ فالأصل واحد وأن تفريقهم بين ما أنزل الله من قرآن، وما أنزل عليهم تفرقة بين شيئين غير متغايرين إن كانوا يؤمنون حقا بالحق من كتبهم.

ولكنهم قوم لا يؤمنون بشىء لا بما عندهم، ولا بما أنزل الله من قرآن كريم؛ ولذا قال تعالى مثبتا كفرهم بكل شىء، بالوقائع التى كانت من أسلافهم، وارتضوها هم، فقال تعالى: ﴿**قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾. والمعنى: قل لهم يا نبى الله، إن كنتم تزعمون أنكم آمنتم بما عندكم، فلم تقتلون أنبياء الله؟ أى الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى إليكم، وذكر الأنبياء مضافين إلى الله تعالى لإثبات جحودهم المطلق، وأنهم يعاندون أوامر الله تعالى سواء أكان من بعثه من ولد إسحاق أم كان من ولد إسماعيل، فقد قتلوا زكريا ويحيى، وهما من ولد إسحاق، وإنه إذا كان عندهم بقية من إيمان فما كان يسوغ قتل أنبياء الله؛ ولذلك قال تعالى فى ختام الآية الكريمة: ﴿**إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ أى أن ما كان منهم فى ماضيهم وأمرهُ حاضرهم يتنافى مع صفات المؤمنين وذلك تنديد بهم، وبيان أنهم لم يؤمنوا بالكتاب الذى جاء مصدقا لما معهم، ولا يؤمنون بما عندهم.

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

تبين فى الآيات السابقة أن بنى إسرائيل كفروا بمحمد ﷺ، وقد كانوا يستفتحون به على المشركين وأنهم قرروا في ذاتهم ألا يؤمنوا إلا بما أنزل عليهم، فلا يؤمنون بالقرآن وإن جاء مصدقا لما معهم، وذلك الكفر أكبر العناد ،وفى هذه الآيات الكريمات يبين الله تعالى أن العناد فيهم منذ أرسل موسى إليهم، لقد أتى لهم ببينات حسية قاطعة فى الدلالة على أن موسى أرسله الله تعالى لإنقاذهم.

ولقد أوتى عيسى بينات كثيرة وكفروا به وحاولوا قتله، ولم يمكنهم الله تعالى منه، فما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم، وموسى عليه السلام أتى لهم بمعجزات حسية بلغت تسعا، فقد قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ** ... ﴿١٠١﴾ ﴾ [**الإسراء**] ومنها العصا التى أبطلت سحر الساحرين، والتى ضرب بها البحر، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، والتى ضرب بها الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، قد علم كل أناس مشربهم، ومنها ما ظهر بين أيديهم مما جرى لفرعون وقومه، وقد قال الله تعالى فى سورة الأعراف: ﴿ **وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ** ﴿١٣٢﴾ **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ** ﴿١٣٣﴾ **وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن**

كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [**الأعراف**]، ولما خرجوا إلى سيناء ظللتهم السحاب من هَجيرها، وأمدهم الله تعالى بالمن والسلوى.

جاءهم موسى عليه الصلاة والسلام بالبينات القاهرة الظاهرة المحسوسات، ومع وضوحها وظهورها ﴿ **اتَّخَذْتُمُ** ﴾ أى اتخذوه معبودا وهو مصنوع بين أيديهم وتحت أبصارهم، ولذا قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ**﴾ وقد أشرنا إلى بعضها أو جلها ، ثم قال تعالى مخاطبا الذين عاصروا النبى ﷺ، لأنهم فى تفكيرهم وجحودهم وعنادهم امتداد للسابقين يحذون حذوهم، وما يعملونه صورة مما عملوا والباعث واحد، ﴿**ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ**﴾، والعطف بثم للمفارقة الواجبة بين ما تقتضيه الآيات الحسية الظاهرة من إيمان واتخاذهم العجل معبودا، وهو لا يضر ولا ينفع، ولا عذر ولا مبرر إلا أن يكون التقليد لفرعون وآله وقومه الذين عبدوا العجل وكانوا يقتلون أبناءهم ويستحيون نساءهم لأهوائهم وشهواتهم.

وقد قال تعالى: ﴿**وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ**﴾ ولم يقل سبحانه وتعالى: وأنتم كافرون؛ لأنه كفر يتضمن أشد الظلم وأفحشه، فقد ظلموا أنفسهم بأن أُعطوا قوة الحق، فأبوا إلا أن يستضعفوا ويذلوا لمن أذلوهم، وظلموا الحق وظلموا من أجرى الله تعالى على يده إنقاذهم فهو كفر يتضمن ظلما، وكما قال تعالى فى آية أخرى: ﴿ **وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾** ﴾ [**البقرة**].

هذه حالهم مع موسى الذى دفعه الله تعالى لإنقاذهم مع ما جاءهم من البينات، فكيف يمكن أن ينتزع الضلال من قلوبهم بالقرآن الكريم يا محمد، فلا تأس على القوم الفاسقين.

إن اليهود لا يؤمنون بشيء مهما تكن قوة أدلته ومهما تكن قوة الدعوة إليه. لقد رأينا الآيات الكثيرة التى ذكر الله تعالى أنها بلغت تسعًا، وكلها حسى قاهر، وفيه نعمة النجاة والرعاية الكاملة حتى ظنوا أنهم أبناء الله وأحباؤه، ثم بين بعد ذلك قوة الدعوة إلى الحق فقال تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا**﴾ دعوة إلى الحق الذى قامت أدلته بميثاق أخذه الله تعالى، وأخذه وقد رفع الجبل فوقهم كأنه ظلة أظلتهم وطالبهم الله تعالى على لسان كليمه أن يأخذوه بقوة أى بجد، ولا ينحرفوا عنه، وأن يسمعوا إليه، ولا يخالفوه.

اجتمع لهدايتهم قوتان قوة الدليل فى الآيات التسع، وقوة الدعوة فى الميثاق الذى أخذ عليهم فى حال رفع الجبل فوقهم ودعوتهم إلى سماع الحق، فهل أجابوا؟.

﴿**قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا**﴾ هذا ما جاء به القرآن نصا فى إجابتهم. وإن ما حكى الله تعالى عنهم من أنهم قالوا: ﴿**سَمِعْنَا**﴾ تفسر على ظاهرها فإنه كان النداء قويا والجبل مرتفع عليهم، ﴿**خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ**﴾ أى ما شرعناه لكم من شرائع بجد وعزم، ﴿**وَاسْمَعُوا**﴾ فإنه لابد أن يكون الجواب ﴿**سَمِعْنَا**﴾، أما ما حكاه سبحانه من أنهم قالوا: ﴿**وَعَصَيْنَا**﴾ فيصح أن تخرج على أنهم قالوها بألسنتهم، وذلك بعيد يتنافى مع قوة الميثاق وتأكده ومع طلب الأخذ بقوة أى بجد وعزم على التنفيذ، ولذا نستبعد ذلك الاحتمال لقيام القرائن ضده، وما نحسب أنهم وصلوا إلى هذه الحال أن ينكثوا بالعهد وقت توثيقه وأن يجاهروا بعصيانه، والعهد بينهم وبين المنقذ لهم، والعهد قريب، ولذلك قرر المفسرون أن كلمة عصينا مجاز عن أفعالهم، أى أن عصيانهم كان بلسان الفعال لا بلسان المقال، فهم قالوا سمعنا بالقول وقالوا عصينا بأفعالهم.

ويصح أن نقول: إن عصينا القلبية كانت مقارنة لسمعنا، أى أنهم قالوا سمعنا، وقلوبهم جافية معرضة كأنها تنطق بحالهم، وهو عصينا فكأنهم سمعوا، وهم على نية العصيان فقلوبهم جافية عن الاتعاظ بما يسمعون.

ولقد كان أوضح المظاهر التى دلت على عصيانهم، وأنهم سمعوا وعصوا هو عبادتهم العجل، أو بالتعبير القرآنى المنزه الحكيم اتخاذهم، ولذلك ذكره بعد تسجيل العصيان فقال: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾. بعض علماء اللغة يقولون إن المعنى على حذف مضاف تقديره حب العجل، وذلك مجاز مشهور يسمى مجاز الحذف، فذكر القلوب، والقلوب لا تشرب العجول قالوا إنه مجاز بالحذف، والقلوب تنكت فيها المفاسد، روى عن النبى ﷺ أنه قال: «تعرض الفتن على القلوب عودا عودا، فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء».

وبعض المتفقهين فى اللغة قالوا: لا حاجة إلى تقدير محذوف؛ لأن أشرب متعلق بالعجل مباشرة، لأن تعلق الإشراب به ليس مقصورا على المحبة، بل إنه يتجاوزها إلى العبادة، وإلى أنه تكون صورته فى قلوبهم لا تفترق عنها، ويكون من قبيل أشرب الثوب الصبغة، أى خالطت أجزاءه، وتغلغلت فيه، فالعجل تغلغل فى قلوبهم فألفوه وصار جزءا من تفكيرهم، كما صارت الصبغة جزءا من الثوب، لا تنفصل عنه، وهذا نوع من الاستعارة، فاستعيرت كلمة الإشراب لتغلغل ذكره فى قلوبهم كأنه حل حلول الشراب فيها.

وكلمة فى قلوبهم قرينة الاستعارة، وأشرب للبناء للمجهول لكثرة الأسباب الباطلة التى أشربته قلوبهم، فالشيطان زينه لهم، وسول لهم عبادته، وعشرتهم للمصريين الذين كانوا يقدسونه، والعشرة المستمرة لهم مع مظالمهم، وضلال نفوسهم كل هذا سهَّل سرَيان عبادة العجل إليهم؛ ولذلك قال بكفرهم، أى بسبب كفرهم المستكن فى نفوسهم، ولقد حكم الله تعالى عليهم بقولهم: ﴿قُلْ بِئْسَمَا

يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ الأمر للنبى ﷺ لأنهم هم الذين واجهوه (النبى ﷺ) بقولهم: ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ... ﴿٩١﴾﴾ [البقرة] وهذا القرآن الكريم بين ما يدل على أنهم لا يؤمنون بشيء حتى تركوا مايدعوهم إليه النبى ﷺ إلى الإيمان بما عندهم، وهذه صورة من الإيمان بما عندهم ﴿بِئْسَمَا﴾ دالة على ذم ما يأمرهم به إيمانهم الباطل، وهذا تهكم شديد على حالهم وعلى ما يتصورونه إيمانا بما عندك، كقوله تعالى حكاية عن قول قوم شعيب له: ﴿أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ... ﴿٨٧﴾﴾ [هود]، وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أى إن كنتم فى الماضى والحاضر مؤمنين، وبيان أن إيمانهم موضع شك بل لا إيمان.

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

كان السبب فى غرورهم، واستعلائهم الفاسد أنهم بتوالى نعم الله تعالى عليهم حسبوا أنهم أبناء الله وأحباؤه، ولذلك قالوا: ﴿**لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً** ... ﴿٨٠﴾﴾ [البقرة] وقد تلونا ذلك من قبل.

وقد دلاهم الشيطان بغرور فكانوا يحسبون ذلك، ويدعون فى ظاهر قولهم أنهم يؤمنون، ويواجهون النبى ﷺ بكفرهم به، فأمر الله تعالى نبيه الذى يواجهونه بذلك الكفر أن يتحداهم ليكشف أمرهم بأن يتمنوا الموت فقال تعالى: ﴿**قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ الخطاب للنبى ﷺ إن كانت الدار الآخرة التى تكون عند الله علام الغيوب ولا سلطان لأحد سواه، خالصة لكم من دون الناس، أى أنكم فى منزلة والناس دونكم، ولاتكون إلا لكم؛ لأن غيركم من الناس ـ سواء كانوا أتباع محمد أم لا ـ هم دونكم لا يبلغون منزلتكم بل أنتم وحدكم الذين تنالونها.

إن كانت هذه الحياة الآخرة لكم خالصة فتمنوا الموت الذى هو الطريق إليها إن كنتم صادقين فى زعمكم؛ لأن من آمن بأنه المختص بنعمة تمنى الوصول، أن يسرع فى الذهاب إليها، وإنها جنات ونعيم مقيم، فتمنوا الموت الذى هو الطريق الوحيد إليها، إن كنتم مؤمنين إيمان صدق وإذعان بما تدعون.

وهنا إشارة بيانية يحسن التنبيه إليها:

الأولى: فى كلمة ﴿لَكُمُ﴾ فيها اللام المفيدة للملكية أو الاختصاص، وقد ابتدأ بها بيانا لزعمهم، ولذلك جاء بعدها خالصة لكم من دون الناس.

الثانية: الإشارة إلى أن الدار الآخرة هى عند الله تعالى مالك يوم الدين، وهو الذى تدعون أنكم أبناؤه وأحباؤه ومع ذلك تكفرون به وتتخذون العجل تشركون وتعبدونه.

الثالثة: الإشارة إلى أنهم ليسوا صادقين، بل هم كاذبون؛ ولذلك كانت أداة التعليق هى إن فى قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ولهذا نفى الله سبحانه أن يتمنوه.

تنبيه: يلاحظ أن الله تعالى أمر نبيه بأن يتولى الرد عليهم فى قوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا ... ﴿٩٠﴾﴾ [البقرة] وقوله تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ ... ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة] وفى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ﴾.

لم يتول الله تعالى الرد والجدل معهم وأمر النبى ﷺ أن يتولى الجدل معهم فما الحكمة فى ذلك؟ ونقول ما تصل إليه مداركنا - والله هو الحكيم العليم - إن مجادلتهم التى فيها التحدى كانت مع النبى ﷺ فناسب أن يتولى بأمر الله تعالى الرد هو عليه الصلاة والسلام؛ ولأن مقام الله تعالى أعلى من أن ينزل لمجادلة الكافرين الظالمين لأنفسهم.

ولقد قال سبحانه وتعالى حاكما على حالهم بأنهم فى ذات أنفسهم وفى مداركهم يعلمون مآثمهم، ويعلمون كذبهم؛ ولذلك ليست الجنة لهم، ولذا لا يتمنون الموت، فقال تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ نفى الله سبحانه وتعالى عنهم ذلك التمنى نفيا مؤبدا، وأكد ذلك النفى بـ «لن» الدالة على النفى المؤبد، وبقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَبَدًا﴾ وبذكر السبب ألا وهو ماقدمت أيديهم، ومعنى ذلك أنهم كاذبون فى ادعاءهم أنهم ابناء الله وأحباؤه، وأنهم كاذبون فى قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ... ﴿٨٠﴾﴾ [البقرة].

وإنهم يعلمون ما قدموا من كفر، وما قدمه أسلافهم، ولم ينكروه عليهم من اتخاذ العجل، ومن كفر بالنعم التى أنعم الله عليهم وكفروا بها.

وقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ الباء للسببية، والمراد ما قدموه هم بأنفسهم، من كفر قلوبهم، وجحودهم بآيات الله تعالى، واعتدائهم فى يوم السبت، وتأييدهم لأسلافهم فى ذلك، ومن كفرهم بألا يجاب الذى جاء مصدقا لما معهم، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا به، ولكن لماذا عبر بأيديهم، دون أنفسهم؟ ونقول:

أولا - يجوز ذلك تعبيرا عن الكل باسم الجزء، وإن ذلك الجزء أظهر الأجزاء فى العمل، فهو الذى به البطش والاعتداء، وارتكاب المآثم الجماعية.

وثانيا - فيه إشارة إلى الناحية الحسية فيهم، فهم أيد باطشة آثمة، وليس لهم قلوب مدركة عالمة.

ولقد سجل الله تعالى عليهم الظلم، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وقد صدر الله سبحانه وتعالى الحكم بلفظ الجلالة تربية للمهابة، ولبيان أنهم مأخوذون والله القادر القاهر هو الذى يأخذهم بظلمهم، وبين عظيم علمه، ودقة علمه، وأنه لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء، وأظهر فى موضع الإضمار فلم يقل سبحانه وتعالى عليم بهم وبما قدمت أيديهم بل قال: ﴿عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾؛ ليسجل عليهم وصف ظلمهم، وأنهم معاقبون بهذا الظلم الذى هو كالسجية لهم.

ولقد قال الله تعالى فى هذا المعنى، وهو طلب تمنى الموت، وامتناعهم فى سورة الجمعة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝﴾ [**الجمعة**] والفرق بين النصين، وإن كان كلاهما فى مرتبة من البيان يعجز عنه البشر، فى أمرين:

الأمر الأول - أن الشرط فى الآية الكريمة التى تتصدى لتعرف معناها شرط كبير، وهو أن تكون لهم الدار الآخرة من دون الناس، فالشرط يتضمن الخلوص لهم وقصرها، ولن يتمنوا ذلك فكان النفى بلن، والشرط خال من معنى زعمهم.

الثانى - أن الآية الثانية كان الشرط الزعم بأنهم من أولياء الله من دون الناس، فكان النفى بـ «لا»، وهو دونه؛ فكان النفى بـ «لا» لا بـ «لن» على مقدار الشرط، وكذلك يصرف الله الآيات فى كتابه الحكيم.

وبعد ذلك التحدى من النبى ﷺ بأمر ربه، كان الوصف الحقيقى لبنى إسرائيل بالنسبة للموت والحياة الآخرة، وأنهم لايؤمنون بالآخرة، ولا يؤمنون بأن لهم جزاء محمودا، وأنه يرتقبهم خير؛ ولذا تمسكوا بالحياة الدنيا؛ لأن العصاة يظنون أنها الحياة وحدها، ولا يرجون خيراً لأنفسهم المادية فى لقاء الله تعالى، فقال تعالت كلماته: ﴿ **وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا** ﴾.

وقد أكد الله سبحانه وتعالى الحكم بأنهم أحرص الناس على حياة بالقسم المؤكد باللام ونون التوكيد الثقيلة، ونكر سبحانه وتعالى «حياة» فى قوله تعالى: ﴿**عَلَىٰ حَيَاةٍ**﴾ لتعميم معانى الحياة، فهم يحرصون على حياة أيا كانت صورتها، سواء كانت حياة ذل أم كانت حياة عز، وسواء كانت حياة استعباد أم كانت حياة حرية، وسواء أكانت تحكمها الفضيلة أم كانت تحكمها الرذيلة، إنهم يحرصون على الحياة ذاتها من غير نظر إلى وصفها سواء أكانت مقيتة فى ذاتها، أم كانت بكرامة من غير مهانة. وإن هذا يدل على كمال الحرص.

قال تعالى: ﴿**وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا**﴾ أى منهم من هم أحرص على حياة أيا كانت من الناس جميعا، ومن الذين أشركوا، وهم الوثنيون، وخُصوا بالذكر، لأنهم لا يؤمنون بالبعث، وأولئك اليهود أهل كتاب ويؤمنون به فى الجملة، ولكنهم مذنبون تحيط بهم خطاياهم من كل ناحية.

وهم أحرص من المشركين على الحياة؛ لأنهم يريدون الحياة على أية صفة عزيزة كريمة أو ذليلة، أما المشركون من العرب فإنهم لا يريدونها إلا عزيزة لا ذلة فيها، وشاعرهم الجاهلى يقول:

لا تسقنى ماء الحياة بذلة بل فاسقنى بالعز كأس الحنظل

ماء الحياة بذلة كجهنم وجهنم بالعز أطيب منزل

ولذلك كانــوا أحرص على حيــاة، والمشركــون يحرصــون على حيــاة عزيزة كريمة، وإن كانوا لا يؤمنون ببعث ولا نشــور، ولا حساب ولا عقاب، ويصور الله سبحانه وتعالى حرصهم على الحياة بقوله تعالت كلماته: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ يود هنا بمعنى: يتمنى أحدهم، أى أحد اليــهود، لو يعمر ألف سنة، ولو هنا مصدرية وهى التى تجىء بعد التمنى كقوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ [القلم] فهنا «لو» مع الفعل بعدها مصــدر غير أنها لا تنصِب (مثل أن). وذكر ألف عام لأنه أكبر عدد فى زعمهم . . طلب أعرابى عطاء من حاكم من حكام بنى أمية، فأعطاه ألفا، فقال له قائــل: لو طلبت أكثر من ألف لأعطاك، فقال: لو كنت أعلم أن فوق الألف عددًا لطلبته، فالألف كناية عن أكبر عدد.

ومع أنهم يودون الحياة إلى أقــصى أمد، ألفا أو أكثر، فإن العــذاب ملاقيهم، ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ... ۝٨﴾ [الجمعة] بالعذاب الذى يستقبلكم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ الزحزحة الإبعاد أو الإزالة، وهى تدل على المعــاناة فى الإبعــاد والإخراج من المــكان الذى حل فيــه كقوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ... ۝١٨٥﴾ [آل عمران].

و «ما» فى قوله: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ النافيــة، والباء دالة على استغــراق النفى، وهى زائدة فى الإعراب لها دلالة فى المعنى، والضمــير «هو» يعود على الأحد الذى يود أن لــو يعمر ألف عــام أو أكبر عــدد ممكن، والمعنى على هذا التخريج: وما هو؛ أى هذا الشخص بمبعده ولو بمعاناة ومعالجة عن العذاب تعميره، فالمصدر المكون من ﴿أَن يُعَمَّرَ﴾ فاعل لمزحــزحه، وقد أكــد سبحــانه وتعالى النفى بإعادة الضمير لتأكيد النفى، وبالباء، وبكلمة مزحزح.

وما ذلك النفى المؤكــد لوجود العذاب مهــما طال الزمن ـ إلا لأنه ارتكب من الخطايا مــا يستــحق ذلك، والله تعالى علــيم بكل شىء ولا يخفى عليــه شىء فى الأرض ولا فى السمــاء؛ ولذا ختم الآية بقــوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ والله ذو الجلال والإكرام القادر الــقاهر الفاعل المختار بصير أى عــالم علم من يبصر

على مثال ما به الناس، بما يعملونه من شرور وآثام، وجحود بآيات الله تعالى فى ماضيهم وحاضرهم، ومنزل من العذاب بمقدار ما يستحقون. ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره.

عداوة الملائكة

قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾

قال الإمام أبو جعفر الطبرى فى تفسيره: أجمع مفسرو السلف على أن هذه الآية وما بعدها نزلت؛ لأن اليهود يعدون الروح القدس جبريل الأمين عدوا لهم؛ لأنه ينزل بالعذاب والهلاك، وأن ميكائيل وليهم لأنه ينزل بالغيث والرحمة، وتعددت الروايات عن الصحابة فى ذلك، وكلها ينتهى إلى أنهم واجهوا النبى ﷺ بأن جبريل، وهو ولى النبى ﷺ، هو عدوهم، وأن ميكائيل وليهم، وأنهم لهذا يفارقون النبى ﷺ ولا يتبعونه.

ولئن صحت هذه الروايات أو بعضها ليكونن مؤداها أنهم يتخذون تعلة لكفرهم سواء أكانت التعلة مقبولة فى العقل أو مرذولة، ومهما يكن فقد رد الله تعالى قولهم، وأمر النبى ﷺ بأن يرد قولهم بقوله تعالى: ﴿**قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ**﴾ أى إذا كان جبريل عدوا لكم فأنتم تعادون الله تعالى؛ لأن الله تعالى اختاره رسولا أمينا لنزول القرآن فما نزّل القرآن بغير إذن الله تعالى إنما نزله على قلبك بإذنه سبحانه وتعالى.

وعبر سبحانه وتعالى بقوله: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ بكاف الخطاب للنبى ﷺ دون أن يقول قلبى، لبيان أن النبى ﷺ يحكى قول ربه، ولتأكيد معنى قوله تعالى بإذنه.

والضمير الأول فى ﴿فَإِنَّهُ﴾ يعود على جبريل عليه السلام، والضمير الثانى فى ﴿نَزَّلَهُ﴾ يعود على القرآن باعتبار أنه حاضر للذهن؛ لأنه ذكر فى السياق فى قوله تعالى من قبل: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ... ﴿٨٩﴾﴾ وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعين أن الضمير يعود على القرآن الحاضر فى الأذهان.

وإنه مع قبول الروايات التى انتهى المفسر السلفى فيها إلى إجماعهم من أن اليهود كانوا يعدون جبريل عدوا، فإنا نرى من المعانى القرآنية والإشارات البيانية أنهم كانوا يجعلونه عدوا؛ لأنه نزل بالقرآن على قلب النبى ﷺ، وذلك لسفه عقولهم وفساد تفكيرهم، فرد الله عليهم بأنه هو الذى نزل القرآن بإذن الله، فلا محل لعداوته، فعادوا من أنزله، ولكن سوء ظنهم جعلهم يحمِّلون جبريل عليه السلام التبعة، وإذا كان نزول القرآن سببا للعداوة، فاتخذوا الله عدوا، ولا غرابة فى ذلك ممن اتخذوا العجل وليا لهم.

ويكون المعنى الذى يفهم من الآية: لقد اتخذتم جبريل عدوا لما انتحلتم من كذب بأنه ينزل بالهلاك أو نحو ذلك، إنما اتخذتموه عدوا؛ لأنه ينزل بالقرآن على قلب النبى عليه السلام وإذا كان نزول القرآن هو السبب فإنه يكون الله هو العدو ويكون قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ شرطا، ويكون قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ تعليلاً لجواب الشرط المحذوف إذ تقديره، فإنه عدو لله تعالى؛ لأنه الذى نزله على قلبك بإذنه.

والتعبير بـ «قلبك» أى أن التنزيل على قلبك للإشارة إلى أن القرآن ينزل على القلب ليحفظ فى الصدور، لا أن يكتفى فيه بالسطور؛ لأن السطور يجرى فيها التصحيف والتحريف، أما ما يحفظ فى القلب فإنه فى أمان لا يجرى فيه تغيير ولا

تبديل؛ ولذا قال تعالى فى نزول القرآن الكريم وتلقى قلب النبى ﷺ له، ثم حفظه قلوب الصحابة من بعده، فى سورة القيامة: ﴿ **لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ** ﴿١٦﴾ **إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ** ﴿١٧﴾ **فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ** ﴿١٨﴾ **ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ** ﴿١٩﴾ ﴾ [**القيامة**].

هكذا بَيَّنَ الله تعـالى طريقة نزول القـرآن على القلب ليحـفظه ويحتـويه ثم يحفظه أصحـابه، ثم يتواتر من بعد ذلك محفوظا، وإن كـان مع ذلك مكتوبا بأمر النبى ﷺ(١).

وصرح القرآن بأن نزول جـبريل به يكون متجها إلـى قلب النبى عليه الصلاة والسـلام فى آيات أخرى، فـقد قال تعـالى: ﴿ **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ** ﴿١٩٣﴾ **عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ** ﴿١٩٤﴾ ﴾ [**الشعراء**].

ولقد قـال فى وصف القرآن الكريم الذى نزله بإذن الله جبـريل على قلبه بأنه مصدق، وقـوله تعالى: ﴿ **مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ** ﴾ والمراد بما بين يديه من الكتب التى

---

(١) عَنْ الْبَرَاءِ قَـالَ لَمَّا نَزَلَتْ (لا يَسْتَوِى الْقَـاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) قَالَ النَّـبِىُّ ﷺ: «ادْعُوا فُلانًا» فَجَـاءَهُ وَمَعَهُ الدَّوَاةُ وَاللَّوْحُ، أَوْ الْكَتِفُ، فَقَـالَ: «اكْتُبْ لا يَسْتَوِى الْقَاعِـدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِـى سَبِيلِ اللَّهِ» وَخَلْفَ النَّبِىِّ ﷺ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا ضَرِيرٌ، فَنَزَلَتْ مَكَانَهَا (لا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ). [رواه الـبخارى، واللفظ له: تفسير القرآن (٤٢٢٨) ومسلم كتاب الإمارة (٣٥١٦)].

وعن زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ الأَنْصَـارِىَّ ـ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ ـ وَكَانَ مِمَّـنْ يَكْتُبُ الْوَحْىَ قَالَ: أَرْسَلَ إِلَىَّ أَبُو بَكْرٍ مَـقْتَلَ أَهْلِ الْيَمَامَةِ وَعِنْدَهُ عُمَـرُ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّ عُمَرَ أَتَانِى فَقَالَ: إِنَّ الْقَتْلَ قَدْ اسْتَـحَرَّ يَوْمَ الْيَمَامَةِ بِالنَّاسِ وَإِنِّى أَخْشَى أَنْ يَسْتَحِرَّ الْقَتْلُ بِالْقُرَّاءِ فِى الْمَوَاطِنِ فَيَـذْهَبَ كَثِيرٌ مِنْ الْقُرْآنِ إِلا أَنْ تَجْمَعُوهُ، وَإِنِّى لأَرَى أَنْ تَجْمَعَ الْقُرْآنَ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: قُلْتُ لِعُـمَرَ كَيْفَ أَفْعَلُ شَيْئًـا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ عُمَـرُ: هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ. فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يُرَاجِعُنِى فِيهِ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ لِذَلِكَ صَدْرِى وَرَأَيْتُ الَّذِى رَأَى عُمَرُ. قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ: وَعُمَرُ عِنْدَهُ جَالِسٌ لا يَتَكَلَّمُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَـاقِلٌ وَلا نَتَّهِمُكَ؛ كُنْتَ تَكْتُبُ الْوَحْىَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَتَتَبَّعْ الْقُرْآنَ فَاجْمَعْهُ، فَوَاللَّهِ لَوْ كَلَّفَنِى نَقْلَ جَبَلٍ مِنْ الْجِبَالِ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَىَّ مِمَّا أَمَرَنِى بِهِ مِنْ جَمْعِ الْقُرْآنِ. قُلْتُ: كَيْفَ تَفْعَلانِ شَيْئًا لَمْ يَفْـعَلْهُ النَّبِىُّ ﷺ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ. فَلَمْ أَزَلْ أُرَاجِعُهُ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَـدْرِى لِلَّذِى شَرَحَ اللَّهُ لَهُ صَـدْرَ أَبِى بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَـقُمْتُ فَتَـتَبَّعْتُ الْقُـرْآنَ أَجْمَعُـهُ مِنْ الرِّقَاعِ وَالأَكْتَافِ وَالْعُسُبِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ، حَتَّى وَجَدْتُ مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ آيَتَيْنِ مَعَ خُزَيْمَةَ الأَنْصَارِىِّ، لَمْ أَجِدْهُمَا مَعَ أَحَدٍ غَـيْرِهِ: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُـولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَـا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ) إِلَى آخِرِهِمَـا وَكَانَتْ الصُّحُفُ الَّتِى جُمِعَ فِيهَا الْقُرْآنُ عِنْدَ أَبِى بَكْرٍ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ، ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ، ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ. [أخرجه البخارى: تفسير القرآن (٤٣١١)] ورواه الترمذى وأحمد بنحوه.

أنزلها تعالى على النبى ﷺ قبل بعث محمد ﷺ، والتعبير ببين يديه كناية عن أنه أمامه فما يكون أمام الإنسان يكون بين يديه سابقًا له، فهو مصدق لكل ما اشتملت عليه الكتب السابقة التى لم يجر بها تحريف، ولم ينس فيها حظ مما ذكروا به.

وكان حقا عليهم ألا يعادوا الملك الذى اتخذه الله تعالى روحا أمينا نزل به، ولكنهم أعداء الحق دائمًا عادوا موسى وربه إذ كفروا بأنعم الله تعالى.

وقال تعالى فى وصف الكتاب: ﴿وَهُدًى﴾ أى فيه الهداية إلى الحق فى ذاته، وفيه البشرى بالنعيم المقيم للمؤمنين الذين من شأنهم الإيمان والإذعان للحق إذ جاءه، وهو مع ذلك شفاء للقلوب ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ... ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء]..

وإن الله سبحانه وتعالى بعد أن بين عداوتهم لجبريل؛ لأنه الروح الأمين الذى نزل بالقرآن، بين سبحانه أنه من كان عدوا لله تعالى وملائكته، وكتبه ورسله، فإن الله عدو للكافرين.

فى هذا النص الكريم إثبات أن من كان عدوا للملائكة أو لواحد منهم، ومن كان عدوا للكتب التى أنزلها التى لم تحرف والرسل الذين أرسلهم رحمة للعباد، وهداية لهم فهو عدو لله تعالى، وهو كافر، والله تعالى عدو للكافرين، ابتدأ الله تعالى بذكر عداوة الله تعالى فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد أيها البشير النذير ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ﴾، فابتدأ سبحانه بلفظ الجلالة الكبير فى ذاته خالق الوجود، وخالق الملائكة والجن والإنس، والشمس والقمر والسموات والأرض ابتدأ بذكره جل جلاله لبيان أن من عاداه، فقد تعرض لأعظم نقمة وأشد ضلال وخروج عن الحق، فالابتداء به سبحانه وتعالى لبيان أعظم خطورة يتعرضون لها بجهلهم وفساد نفوسهم وضلال فكرهم.

وثنى سبحانه بالملائكة، وأضافهم سبحانه وتعالى إليه للإشارة إلى أن عداوتهم هى عداوة له فهم يعادونه ابتداء بمعاداة ذاته العلية، ثم يعادونه ثانيا بمعاداة ملائكته الذين خلقهم لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وهم فى

الملكوت.. ثم ثَـلث بكتبـه التى أنزلهـا هدايـة للناس ورحـمـة، وشـفـاء لأدواء الجماعات، ونسبها سبحانه وتعالى إليه إشعارا لهم بأن عداوة هذه الكتب عداوة لله تعالى لأنهـا هجر لكلامه، ورد لرسـالته، وأى ذنب أقبح من عـداوة رسالات الله تعالى التى شرفت بإرساله واحتـوت على البينات والحكم الباهرة، ثم بين بعد ذلك عداوتهم لرسله الأكرمين، وأنها عداوة لمن أرسلهم، فـمن عادى الرسول فقد عادى من أرسله مبشرا ونذيرا، وداعيا إليه وسراجا منيرا.

وذكر سبحانه وتعالى عداوة جبريل وميكائيل وخصهما بالذكر مع أنهما دخلا فى عمـوم الملائكة؛ لأن الله تعالى خصهـما بالشرف والتـفضيل على غيـرهما من الملائكة وهو يختص برحـمته من يشـاء وهو ذو الفضل العظيم، ولأن جبـريل كان روح القـدس الأمين الـذى نزلت عن طريقه الـرسالات الإلهـيـة على من أرسلهم مبـشرين ومنذرين، وأن اليهـود حكى عنهم أنهم كانوا يفـاضلون بين هذين الملكين الكبيرين، فـيعادون جبريل، لأنه ينزل بالقرآن ويوالون مـيكائيل؛ لأنه يأتى بالرحمة والغيث، فأشـار سبحانه إلى أن عـداوة أحدهما عداوة له، ومن عـادى جبريل لأنه مكلف بالقيام بأمر من الله تعالى فقد عادى الآخر؛ لأنه قائم بمثل ماقام به.

هذا هو فعل الشرط الذى يتضمن عداوة الله وملائكته وكتبه ورسله، وجبريل وميكائيل، وجواب الشـرط هو قوله تعالى: ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ**﴾ فجزاء هذه العداوة الظالمة، كراهية عادلة، ويتبعها العقاب الشديد، وهنا إشارتان بيانيتان:

إحداهما - فى تقدم الكتب على الرسل، والسيـاق يسوغ تقديم الرسل على الكتب؛ لأنهم الذين جاءوا بـها، ونزلت عليهم، فلم قـدمت الكتب؟ والجواب عن ذلك أنها مـوضوع الرسالة ولبـها، وهى المشتـملة على أمر الله تعالى ونهـيه وهى خطاب الله تعالى إلى عـباده، فقدمت كمـا يقدم الكتاب الذى تكتبـه على الرسول الذى تحمله الكتاب.

الثانـية - أن الله تعـالى أظهر فى مـوضع الإضمـار فقـال: فإن الله عـدو للكافرين، ولـم يقل لهم، وذلك لبيان أنهم بـهذه العداوة قـد كفروا وجـزاء الكفر

العذاب الأليم فالإضمار كان فيه وصف هو سبب العقاب، ولقد جاء فى البخارى فى حديث قدسى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، ولئن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه».

وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

يذكر القرآن أخلاق بنى إسرائيل فى ماضيهم الممتدة فى حاضرهم، إذ قد اتصف بها حاضرهم كما اتصف بها ماضيهم، وهو الإنكار لكل ما يجىء به نبى من الأنبياء، فيذكر الله سبحانه وتعالى ما تلقوا به ما أنزل إلى النبى ﷺ من آيات بينات.

الآيات البينات هى القرآن، وقد فسر بعضهم الآيات بالآيات الكونية، وإن ذلك بعيد، لأن وصف الآيات بالبينات دليل على أنها الآيات المتلوة، وهى بينة؛ لأن الكتاب بين واضح فى ذاته، وواضح الدلالة على رسالة النبى ﷺ، ونلاحظ إشارة بيانية فى الدلالة على أنه معجزة النبى ﷺ، وهى قوله تعالى: ﴿ **أَنزَلْنَا إِلَيْكَ**﴾ بالتعدية بـ «إلى» دون التعدية بـ «على» إذ كان التعبير فى غير هذه بالتعدية بـ «على»، كقوله تعالى: ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ** ﴿١٩٣﴾ **عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ** ﴿١٩٤﴾﴾ [**الشعراء**]، وكانت التعدية للدلالة على أن النزول والرسالة هى متجهة إلى

النبى ﷺ فهذا النبى الأمى المقصود بالرسالة، وكان حقًّا عليهم أن يتبعوه بمقتضى البشارة التى بشرت به التوراة والإنجيل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ إشارة إلى أن هذه البينات وحدها فيها الدلالة على صدق ما جاء به محمد ﷺ، وهى المعجزة الكبرى التى تحدى بها عباده أجمعين، الجن والإنس والأجيال كلها ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء] وقد جاءت على يدى النبى ﷺ خوارق للعادة حسية كثيرة، ولكنه لم يتحد المشركين وغيرهم أن يأتوا بمثله إلا بالقرآن، وقد قال ﷺ: «ما من نبى إلا أوتى ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحى إلىّ، وإنى لأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»(١).

وكانت المعجزة من هذا النوع؛ لأن رسالة محمد خاتمة الرسائل الإلهية، وهو خاتم النبيين، فكانت من نوع الكلام الذى يبقى متحديا الأجيال كلها حجة قائمة إلى يوم القيامة.

ولقد أكد الله تعالى نزول القرآن باللام وقد، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ ولكن كفروا ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ﴾، أى المتمردون فى الكفر الخارجون عن كل حد، إذ إنها آيات واضحة شاهدة بصدق ما جاء بها الرسول ﷺ، فالفاسق الكافر المتمرد الخارج عن كل حد، ولقد قال الحسن البصرى: إذا استعمل الفسق فى نوع من المعاصى، وقع على أعظم أفراد ذلك النوع من كفر أو غيره، فالفاسق الكافر أشد أنواع الكفر؛ لأنه تمرد على كل معقول.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ﴾ نفى وإثبات للدلالة على أن الكفر بهذه الآيات البينات لا يمكن أن يقع من إنسان فيه الفطرة الإنسانية، بل لا يقع فيه

---

(١) عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِىُّ ﷺ: «مَا مِنْ الأَنْبِيَاءِ نَبِىٌّ إِلا أُعْطِىَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِى أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَىَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ». [متفق عليه: رواه البخارى: فضائل القرآن (٤٥٩٨) ومسلم: الإيمان (٢١٧)].

إلا المتمرد على الفطرة وعلى كل ما يتقاضاه العقل المدرك، واللام فى ﴿الْفَاسِقُونَ﴾ للجنس، وليس المراد بها قوما معهودين، وإن كان أشد من ينطبق عليه الأمثال اليهود الذين كفروا بها. وإن اليهود إذا كانوا فسقوا، وكفروا بالقرآن الكريم معجزة النبى ﷺ، فهم قد نقضوا العهد الذى عاهدوا الله تعالى عليه فى الميثاق الذى أخذ عليهم، وناقضوا أنفسهم، إذ كانوا يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به.

فإذا كانوا قد كفروا بالكتاب الذى جاء به محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، فقد نقضوا عهدا أخذ عليهم مرارا، نقضوا الميثاق الذى أوجب تعالى عليهم أن يؤمنوا برسله، ونقضوا العهد الذى أخذوه على أنفسهم إذ كانوا يستفتحون على الذين كفروا، ولما عقد النبى ﷺ الميثاق بينهم وبينه عندما هاجر نقضوه جميعا؛ فنقضه بنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النضير وأوى الناقضون إلى خيبر، وشنوها حربا مشبوبة على المؤمنين(١).

وقد بين الله تعالى أن ذلك شأنهم، فقال: ﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ الهمزة للاستفهام الإنكارى لإنكار الواقع، وهو ما يقع منهم من نقض العهد، ونبذ للمواثيق، والواو عاطفة وهى مؤخرة عن تقديم؛ لأن الاستفهام له الصدارة دائما، والمعنى أنكروا الكتاب والنبى الذى عرفوه كما يعرفون أبناءهم ونقضوا الميثاق، وكلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم إلى آخر الآية، وتأخير العاطف عن الاستفهام كثير فى القرآن من مثل قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة] وقوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ۝٥١﴾ [يونس] وهكذا مثل ذلك كثير فى القرآن المبين.

---

(١) عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: حَارَبَتْ النَّضِيرُ وَقُرَيْظَةُ، فَأَجْلَى بَنِى النَّضِيرِ وَأَقَرَّ قُرَيْظَةَ وَمَنَّ عَلَيْهِمْ، حَتَّى حَارَبَتْ قُرَيْظَةُ، فَقَتَلَ رِجَالَهُمْ، وَقَسَمَ نِسَاءَهُمْ وَأَوْلادَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، إلا بَعْضَهُمْ لَحِقُوا بِالنَّبِىِّ ﷺ فَآمَنَهُمْ وَأَسْلَمُوا، وَأَجْلَى يَهُودَ الْمَدِينَةِ كُلَّهُمْ بَنِى قَيْنُقَاعَ، وَهُمْ رَهْطُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلامٍ وَيَهُودَ بَنِى حَارِثَةَ، وَكُلَّ يَهُودِ الْمَدِينَةِ. [أخرجه البخارى: كتاب المغازى (٣٧٢٤)، ومسلم: الجهاد والسير (٣٣١٢)].

﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا﴾ تدل على نقض العهد بين طرفين، وأكثر ما تكون عهود اليهود بين رب العالمين وبينهم، والعهد الذى يكون بين طرفين لا ينقض إلا بتراضيهم، ولكنهم لا يلتزمون بذلك، بل ينفردون بالنقض. أو بعبارة أدق لا يعرفون معهودهم، وقال تعالى: ﴿نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ النبذ الطرح والرمى، ومعناه فى العهود، نبذ الوفاء وطرحه، من غير موجب ولا مراعاة ذمام، ولم يجز القرآن النبذ إلا عند الخيانة، كما قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨)﴾ [الأنفال].

ونسب سبحانه وتعالى النبذ إلى فريق منهم ولم ينسبه إلى جميعهم، لأن الله العدل الحكيم لا يقرر إلا ماهو عدل حكيم، وقد سكت سبحانه عن موقف الفريق الآخر فهل مالأه؟ الظاهر أنه إن لم يمالئ فلم يستنكر، ولم يمنع وهو قادر على المنع؛ ولذا يصح أن ينسب إلى جميعهم إذ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون، ولقد حكم الله تعالى عليهم بقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ فـ «بل» هنا للاضراب ودفع معنى يتوهم من قبل، وهو أن أكثرهم فاضل، ومانع لهم من الشر، وذلك لقوله تعالى: ﴿نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾، فبين سبحانه أن كثرتهم لا يؤمن بالحق فقال تعالى: ﴿أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ فنفى سبحانه وتعالى عنهم أصل الإيمان بشىء من الفضيلة أو الخلق فبعضهم يمعن فى الشر إمعانا والآخرون يسكتون ولا يتحركون لأن الأكثر لا يؤمنون، فكل من كان على مثل حال هؤلاء اليهود كان كل كلامه وأفعاله لا يصدر عن قلب مؤمن مذعن للحق. وإذا كانوا لا يؤمنون بكتاب الله تعالى الذى أنزل متجها إلى محمد ﷺ، فإنهم أيضا لا يؤمنون بمحمد ﷺ، مع ما كان منهم قبل أن يبعث ﷺ، وينبذون كتابه.

ولذا قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ﴾.

قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ التعبير بلما دليل على أنهم كانوا يتوقعون مجيئه، وقد كانوا يتوقعون ذلك ويعرفونه ويستفتحون على الذين كفروا،

وعبر سبحانه بـ «رسول من عند الله» للإشارة إلى أنه من عند الله ذى الجلال الذى أنعم عليهم بالنعم المتوالية، و«رسول» التنكير فيها للتعظيم، أى رسول بالغ أقصى درجات الفضل وقد اختاره الله تعالى.

وقد وصفه الله تعالى بأنه مصدق لما معهم، وتصديقه لما معهم من ناحيتين. **الناحية الأولى**: أنه قد جاء بالتكليفات الكثيرة التى جاءت فى المواثيق التى أخذها الله تعالى عليهم، **والناحية الثانية** أنه تصديق للبشارات التى جاءت بها كتبهم، وقد بشرت به فى عدة نصوص منها، كما أشار القرآن الكريم فى مثل قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)**﴾ [**الأعراف**]، ومثل قوله تعالى: ﴿**وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ... (٨٩)**﴾ [**البقرة**].

هذا هو معنى التصديق، وليس التصديق الإقرار بصدق ما حرفوا وبدلوا حتى يقول ذلك الذين لا يفهمون، فإن القرآن يفهم بعضه ببعض، وقد كفَّرهم، وسجل التحريف عليهم ولا يزالون يغيرون ويبدلون .

ولما جاءهم محمد ـ رسول الله ـ نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله أى طرحوه، وهو يدل على أنهم لم يأخذوا به، ونبذوا تعاليمه، وراءهم ظهريا، وعبر الله تعالى بالذين أوتوا الكتاب توبيخا لهم، وتنديدا بفعلهم فإنهم كانوا جديرين بأن يكونوا أول من يأخذ بالكتاب لا أن ينبذوه ويجعلوه وراء ظهورهم، ودبر آذانهم. والكتاب الذى نبذوا تعاليمه وجعلوه وراء ظهورهم كما هو السياق يدل على أنه القرآن؛ لأنه هو الذى جاء به الرسول الكريم، الذى جاء به مصدقا لما معهم.

وقال بعض المفسرين: إن المراد بكتاب الله التوراة، أى أنهم نبذوا بشاراته بمحمد ﷺ وراء ظهورهم، ونرى أن ذلك بعيد، ولم نجد ذكرًا للتوراة فى هذا المقام، ولأن الكلام فى محمد ﷺ، وما جاء به.

وقوله تعالى: ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ مثل لمن يستغنى عن شيء، فإنه يرميه وراء ظهره، ولا يعنى به، أو يقبل عليه بوجهه، مثل قول العرب: (اجعل هذا خلف ظهرك، ودبرا منك وتحت قدمك).

فهذه أمثال للاستخفاف، وقوله تعالى: ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ معناه أنهم لم يقرءوه؛ لأن ماوراء الظهر لا يقرأ، وإنما يقرأ مايكون أمامك، وتقبل عليه.

وقد صور الله سبحانه وتعالى حالهم فقال: ﴿كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ كأنهم لا يعلمون أمر النبوة ورسائل الله تعالى إلى رسله وهم أهل الكتاب، أو المعنى كأنهم لا يدركون ولا يفرقون بين علم نازل من قبل الله تعالى وأهوائهم، والله عزيز حكيم.

السحر

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾

جاءت آيات الله بينات داعيات إلى الحق فنبذوها، وجاءهم رسول الله تعالى بكتاب مصدق للحق الذى معهم، فنبذوه وراءهم ظهريا.

تركوا الحق الذى ظهر نوره، وكان من دأبهم أن يتركوا النور، ويتبعوا الظلام، لتعشعش فيه أوهامهم، ولذلك مع تباعد العهد بينهم وبين نبى الله سليمان عليه السلام الذى سخر الله له الطير والحيوان أخذوا يتبعون أوهاما كانوا قد حرفوا بها التوراة، لقد زادوا فى التوراة قصة ما أنزل الله بها من سلطان، لأنهم كانوا يكتبون بأيديهم ويقولون هو من عند الله، وما هو من عند الله.

لقد جاء فى الإصحاح الحادى عشر من سفر الملوك أن السحرة هم الذين أقاموا ملك سليمان، وأن سليمان ارتد وكفر، فأخذوا يذكرون هذا السحر!!

وذلك لأن الذين يضلون دائما عن الحق يتبعون أوهامًا لا أساس لها من المنطق ولا من العقل.

ترك اليهود كتاب الله تعالى الذى يتلى بيّنا هاديا مرشدا إلى الحق، واتبعوا كلام السحر المكذوب، وراحوا يرددونه في مدراسهم، ومواضع عبادتهم، ولذا قال تعالى: ﴿**وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ**﴾ اتبعوا ذلك القول، وصغت قلوبهم العامرة الممتلئة بهذا العطن من الأقوال الفاسدة، والشياطين هنا هم أهل الشر من الإنس، كما قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ** ﴿١٤﴾ ﴾ [**البقرة**] والشياطين يكونون من الإنس، كما يكونون من الجن كقوله تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا** ... ﴿١١٢﴾ ﴾ [**الأنعام**].

فالظاهر فى هذه الآية أن الشياطين هنا من الإنس، وقوله تعالى: ﴿**وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ**﴾ أنهم يتبعونها مصغين إليها متتبعين لها، كما يتبع الكلام القيم؛ ولذا عبر بتتلو لأن التلاوة قراءة واضحة بينة تتوالى كلماتها، فعبر بذلك للإشارة إلى أن الشياطين يحسنون تنسيق الكلمات ويلقونها بنغمات معينة كسجع الكهان، وأولئك اليهود يستمعون إليها بعناية مصدقين، مع أنها كاذبة، ولكن أوهامهم يثبت لهم صدقها، فسمعوها محافظين على السماع.

والله سبحانه وتعالى رد عليهم أوهامهم التى سجلوها فى التوراة على أنها من عند الله، وما هى عند الله فقال تعالى: ﴿**وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا**﴾.

ما هو هذا الكفر الذى نفاه الله عن نبيه سليمان عليه السلام، أهو ما ادعته الكذبة التى ألحقت بالتوراة - بتوراتهم - وما هى منها؟ وهو أنه ارتد وكفر، فنفى الله تعالى عنه ذلك الكفر، وتلك الردة، وأن شياطينهم الذين قالوا ذلك هم الذين كفروا بدعواهم على سليمان الكفر. وافترائهم عليه وادعائهم السحر، والتمويه على الناس به، فكل هذا كفر.

هذا هو ظاهر القول، إذ كان اليهود قد اتبعوا هذه القصة المكذوبة التى وضعت فى التوراة افتراء على الله تعالى.

ونظر بعض المفسرين نظرة أخرى فقالوا: إن الكفر هو السحر، فما كفر سليمان بادعائهم أنه استعان بالسحر على تثبيت ملكه. وما كفر سليمان باتخاذه السحر واعتقاد أن فيه قوة ولا وقع منه ذلك، ولكن الشياطين الذين كانوا يتلونه على ملك سليمان، هم الذين كفروا باتخاذهم السحر وهو كفر.

وقوله تعالى: **﴿مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾** أى على تثبيت ملك سليمان فى زعمهم، وقال بعض علماء اللغة إن عَلَى تجىء بمعنى فى، والمعنى ما تتلو الشياطين فى ملك سليمان، وعندى أن على فى موضعها من حيث إنها تعويذات، والتعويذات تقع على موضوعها، وموضوعها هو ملك سليمان فى زعمهم الفاسد، وكما كذب ما فى توراتهم.

وقد بين سبحانه أن أولئك الشياطين لا يقتصرون على ذكر ما ادعوه على ملك سليمان، وافتروه عليه، وهو النبى الذى سخر الله تعالى له بعض الرياح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب، بل يتجاوزون ذلك إلى تعليم الناس السحر فقال تعالى: **﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾**.

هؤلاء الذين يسيطر عليهم الوهم، وتخيل الناس، فيتصورون أموراً واقعة، وما هى بواقعة. ولكن حال السحر أهو حقيقة ثابتة أم هو تخييل وتصوير للأمور بغير صورتها فيخيل إليه أنه يرى؟.

ونقول فى الجواب عن ذلك: جاء السحر فى القرآن ووصف بأوصاف، نتعرف حقيقته من هذه الأوصاف . . أول وصف جاء فى أخبار موسى عليه السلام مع فرعون، فقد قال تعالى فى سحر آل فرعون: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ [الأعراف] ونرى أنه يتصف بأنه سحر أعين الناس، أى أنهم لم يجعلوا الحبال أفاعى، بل إن تأثيره أنه كان فى الأعين لا فى الوقائع، فتأثيرهم فى الرؤية لافى تغيير الحقيقة وتحويلها من حبال إلى ثعابين، وفى سورة طه قال الله تعالى حكاية عنهم عندما التقوا يوم الزينة: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ [طه].

ونرى أن السحر تأثير فى الأعين المبصرة، وليس تغيير للحقائق الواقعة فلا يكون تغييرا، ولكن يكون تأثيراً في العيون، ولكنه تأثير نفسى قبل أن يؤثر في العين؛ ولذا قال تعالى فيما تلونا من سورة الأعراف ﴿اسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أى اتجهوا إلى إلقاء الرهبة فى قلوبهم؛ ولذا جاء فى سحر بابل أرض السحر أنه لا يؤثر فى النفوس إلا بما يسبق إليها من تصديقه.

ولنذكر ما عرف من سحر بابل فقد جاء ذكره فى الآية التى نتعرف معناها الكريم، فقد قال تعالى: ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ إن تأثيره مثل له أبو بكر الرازى بمن يركب جارية تجرى فى الماء، فإن ضلال الأعين يجعل الناظر إلى الأشجار يحس أنها تسير لا الباخرة.

وربط أهل بابل الذين كانوا يعبدون الكواكب تأثير سحرهم بالكواكب، وكانوا يقولون الرقى والتمائم والعقد والنفث باسمها ويوهمون العوام، والضعفاء صدقها ويشترطون فى القيام بأفعالهم الساحرة أن ينالوا أولا ثقة من يريدون التأثير فيهم، ويعقد مجالس سرية لذلك، ولقد جاء فى أحكام القرآن لأبى بكر الرازى ما نصه: «وكانوا يدعون عوام الناس وجهالهم سرا، كما يفعل الساعة (أى فى أيامهم) كثير

ممن يدعى ذلك مع النساء والأحداث الأغـمار، والجهال الحشـو، وكانوا يدعون من يعملون له ذلك إلى تصديق قولهم، والاعتراف بصحته».

هذه إشارة إلـى السحر، ومـا يعمله السـحرة، وننتـهى من ذلك إلى أن فى السحر ثلاث صفات:

أولها ـ أنه يسبقه الثقة بالساحر ليستطيع أن يؤثر تأثيره فى النفوس.

ثانيـها ـ أنه يكون فـيه إلقـاء الرهبة في الـنفوس، وتحـويلها إلى الرهبـة من الساحر، كما قال تعالى: ﴿**وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ** ﴿١١٦﴾﴾ [**الأعراف**].

الثالـثة - أن السحـر فى أعلى صوره وأدناه يؤثر فـى النظر، فيجـعل الرائي يتـخيل غـير مـا يرى، ولا يمكن أن يعرف الحـقائق، فـالحبـال حبـال، وإن بدت ثعـابين.

وإن هذه الأوصاف تتفق الآن مـع الاستهواء الذى يفعله بعض النـاس بالتأثير فى غيـرهم وتوجيه مـشاعرهم وأهوائهم، والسـيطرة على خواطرهم، ويمسـحون أفكارهم، وهو مـا يسمـى بالتنويم المغناطيـسى الذى يفعـله كبـار المجرمـين الآن، ولاحول ولاقوة إلا بالله .

هذا هو السحـر فيما نعلم، وقد مـهر فيه أهل بابل، حـتى ضللوا به، وكان السحـرة علماء، وكان اليـهود يعلمون الناس السـحر ﴿**وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ**﴾ فاليهود كانوا يعلمون ما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت، فهل هما ملكان حقيقيـان نزلا لتعليم الناس السحر، أو طرق الوقاية منه، ولا يمكن أن نعرف طرق الوقاية إلا بمعرفة طريقة التأثير.

الظاهر أنهما ملكان؛ لأن الله تعالى سماهما ملكين، ولأن الله تعالى سمى ما كانا يقومـان به أنزله تعالى عليهما، ولم يبين المدة التى أقـاماها فى بابل، لتعليم الوقاية منه وإنذار الناس منه، كما قال إمام الهدى على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم الله وجهه، وإن نزول الملك للتعليم كما ثبت بنزول جبريل فى حديث الإيمان الذى رويناه آنفا.

وإننا نسير فيما نكتب فى فقه الإسلام، وعلم القرآن على أساس أننا لا نعدل عن الظاهر إلا إذا تعذر تحقيق الظاهر، ولا ننتقل منه إلى غيره إلا مهتدين بنص؛ ولذا نرى أنهما ملكان نزلا لبيان السحر فى ذاته والتضليل به وطريق الوقاية منه فهما منذران كما قال الإمام على.

ورأى بعض الكتاب المتأخرين فى التفسير أن من سميا الملكين كانا رجلين متظاهرين بالصلاح والتقوى فى بابل وهى مدينة على نهر الفرات، ونالوا ثقة الناس حتى ظنوا أنهما ملكان نزلا من السماء، وبلغ مكر هذين الرجلين أنهما كانا يقولان: إنما نحن فتنة فلا تكفر.

واحتج الذين قالوا هذا القول من مفسرى هذا القرن بأن الملك لا ينزل إلى الأرض معلما منذرا؛ لأن المشركين طلبوا أن ينزل ملك، فقال الله تعالى: ﴿ **وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ** ﴿٩﴾ ﴾ [**الأنعام**] وكان المشركون يقولون: ﴿ **مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا** ﴿٧﴾ ﴾ [**الفرقان**]. وقالوا: إن نزول الملك مستحيل؛ لأنه لو كان ممكنا لأرسل إليهم ملكا مؤيدا للرسول.

ونحن نقول إن نزوله ليس مستحيلا، والله لم يرد عليهم بأنه مستحيل، ولكن علم أنهم متعنتون، وقد طلبوا غير ذلك، وقالوا فى طلبهم آيات أخرى: ﴿ **وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا** ﴿٩٠﴾ **أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا** ﴿٩١﴾ **أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً** ﴿٩٢﴾ **أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً** ﴿٩٣﴾ ﴾ [**الإسراء**]. فهم طلبوا هذه الآيات الحسية الكونية كما طلبوا أن ينزل ملك بقرطاس من السماء، وذلك كله كفر بالقرآن الذى تحداهم فعجزوا.

فهل هذا كله مستحيل أن يأتى الله به، أم أن الله تعالى لا يريد أن يأتى بآيات أخرى وهو يعلم أنهم لن يؤمنوا؛ ولهذا نقول إنه لايوجد دل

أن ينزل الله تعالى ملكا إلى الأرض، وقد نزل جبريل عليه السلام فى صورة رجل للنبى ﷺ فى حديث الإيمان الذى رواه البخارى.

لهذا نحن نرى كما ذكرنا أنهما ملكان؛ لأن الله تعالى ذكر أنهما ملكان، وسماهما وذكر أنه أنزل عليهما، وأنهما كانا يحتاطان فى بيان السحر، ويقولان ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾ .

كان هذان الملكان غير مضلين للناس، إنما جاءا لإنقاذ الناس من فتنة السحر إذ كانا يعلمان الحيل والتمويهات، وطرق الاستهواء التى أشرنا إليها من قبل آخذين لها من القرآن أدلة، كانا يعلمان الناس ذلك حتى لا يضلوا بالسحر، وقد اشتد ظلامه، وطم سيله ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾، أى إن ما نعلمه فتنة يختبر الناس به ﴿فَلا تَكْفُرْ﴾، أى فلا تأخذ به لأنه كفر، وإنما علمناك هذا لتتخذ منه وقاية، ولتحذره، وليكون ذلك إنذارًا حتى لا تصدقه بعد ذلك، ولتعلم أنه يضل السحر والساحر.

اتبع اليهود ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وتعلموا السحر، وأخذوا يعلمونه، وجاء الملكان ليبينا زيفه وطرق التمويه فبدل أن يحذروه تعلموه منهما.

وهكذا هم دائما يأخذون من كل شىء ما يضر ويتركون ما ينفع، فهم دائما يأخذون من التحذير طريق الوقوع فى المحظور، كما أخذ إخوة يوسف من قول أبيهم يعقوب: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ... ﴿١٣﴾﴾ [يوسف]، فقالوا عندما ألقوه فى غيابة الجب: أكله الذئب.

علم الملكان أهل بابل التمويه الذى يكون فى السحر ليتقوه، فأخذ اليهود ذلك، واتخذوه سبيلا؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ هذه صورة من أقبح الصور، ذكرها مثال لغيرها، كاستهواء النفوس بمسح تفكيرها، وأن يستبد بما فيها تفكيرا، ويسمون ذلك فى هذه الأيام المخ.

وقال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾ ولم يقل فيعلمانهم، لأن الملكين ما كانا بصدد تعليمه، بل كانا بصدد بيان زيفه ولكن هؤلاء تعلموه ليكون نقيض ما أراد الملكان كفقيه يبين الحيل الفقهية الباطلة، فيتخذها الفاسق سبيلا للتحايل على شرع الله سبحانه، وكرجل يجمع الأحاديث الموضوعة لكيلا تتخذ للاستشهاد فيجىء فسقة الناس وينشرونها، وهكذا شأن الفاسدين يتبعون الشواذ فيقولونه.

وما يفرقون به بين المرء وزوجه هو طريق الاستهواء بأن يعملوا بالطريق الذى يسمونه التنويم المغناطيسى، وهو من أشد أنواع السحر، ينزع شعور المحبة من أحد الزوجين لزوجه فيكون التفريق بينهما، والسحرة الآن لايفرقون بين المرء وزوجه، بل يفرقون بين المؤمن ودينه، والناس عنهم غافلون، ألا يستيقظ المسلمون وذلك كله فسوق عن أمر الله تعالى ونهيه.

وليس ذلك الكفر خارجا عن إرادة الله، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. ويطلق إذن الله تعالى تارة بمعنى الترخيص فى فعل، كقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج] ويطلق إذن الله تعالى تارة أخرى بمعنى تسخيره، ككون السم يؤثر فى الجسم، والسحر يؤثر فى النفس، والترياق فى إزالة السم فعل هذا بإذن الله تعالى، كذلك السحر ما كان ليؤثر تأثيره فى النفوس إلا بالأوهام الفاسدة إلا بتسخير من الله تعالى، أو إذن منه سبحانه وتعالى.

فتأثير السحر فى النفوس إنما هو بتسخير الله تعالى اختباراً للنفوس القوية التى تقاوم النفوس الشريرة والتأثير الفاسدة، وقد يسأل سائل: لماذا كان السحر، وهو على هذا النحو من الإفساد للنفوس وتخليق الأوهام؟

ونقول فى الجواب عن ذلك، كما خلق الأفاعى والجرذ؛ فإنها خلق الله تعالى، خلقها لاختبار عباده، وقد يكون لها فوائد يعلمها الله تعالى، وإنه هو الفاعل، لا يُسأل عما يفعل، وهم يسألون.

ولقد بين سبحانه وتعالى أن اليهود الذين اختاروا السحر على علم الكتاب يتعلمون ما يضرهم ولا نفع فيه فقال تعالى: ﴿**وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ**﴾ والضرر فى السحر واضح لأنه يفسد العقول، فالساحر الدائب على السحر، ينتهى أمره بفساد عقله، فيضطرب وتسارع إليه الوساوس، فلا يكون عنده ميزان عقلى سليم، يدرك به الحق من الباطل، ويكون فى وسواس مستمر، ويضر المجتمع؛ إذ به تفسد القلوب وتضطرب الأفهام، ولا يكون حق واضح، ولقد كان لنا صديق كان يتخذ السحر والتنويم المغناطيسى، وكان عالما رياضيا منظم العقل مستقيم الفكر، فلما أكثر من هذا التنويم الذى هو السحر، اضطربت موازين تقديره، وصار يصدق ما لا يقبل التصديق ويقبل من القول ما لا يصدقه.

وآخر كان مؤمنا أشد الإيمان، وأكثر من هذا التنويم الذى هو السحر حتى فسد التقدير عنده، وصار يهرف بقول لا يصدر عن مؤمن عاقل، فيفضل الرسول على رب العالمين.

وذلك لأن السحر أفسد عقله المؤمن، وتفكيره السليم، ونفى الله النفع منه، فقال تعالى: ﴿**وَلَا يَنفَعُهُمْ**﴾ أى لا ينفع متخذيه بأى صورة من صور النفع.

وليس لعاقل أن يقوم بعمل مؤكد الضرر، ولا نفع فيه بأى صورة من النفع؛ ولذا قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ**﴾.

أكدّ الله سبحانه وتعالى أن من اتخذ هذا النوع؛ أى أن من اشترى السحر، ودفع نفسه وعقله وإحساساته - ليس له نصيب فى الآخرة، فالخلاق هو النصيب.

وأكد ذلك باللام الأولى الداخلة على قد، وبقد وباللام الثانية والجملة فى معنى المجاز بتشبيه المشترى للسحر بتقديم نفسه العاقلة الطاهرة بحال من يشترى شيئا تافها، ويدفع فيه شيئا قيما ويبيع آخرته، فلا يكون له نصيب فيها.

ولقد أكد سبحانه وتعالى هذا المعنى، فقال تعالت كلماته: ﴿**وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾ فى هذه الجملة السامية تأكيد الذم للسحر وأكده باللام،

وبئس فعل دال على الذم، أى بئس هذا السحر الذى باعوا به أنفسهم، أى أن السحر فوق مضراته الواضحة المفسدة للنفس وللجماعة هو فى ذاته أمر مذموم لا يصح أن يطلب فى ذاته، ولكنهم يدفعون فيه أغلى الأثمان إذ يدفعون أنفسهم، وعقلهم وإحساسهم وقلوبهم، وقوله تعالى: ﴿**شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ**﴾ أى باعوا؛ لأن شروا بمعنى باعوا، ولكنهم فى عمياء من أمورهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿**لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾ أى نوع من العلم، فلا يقدم عليه من عنده ذرة من العلم.

وإن الفقهاء أجمعين يقررون أنه من ثبت أنه يتخذ السحر عملاً يقتل لحماية الناس من إفساده للنفوس، وتفريقه للأخيار، والله تعالى بكل شيء محيط.

اليهود يختارون الشر

وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟
وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ
﴿١٠٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟
ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾
مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ
أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ
بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

يرشد الله إلى الحق بدل الباطل لليهود؛ لأنهم يعرضون، ويطلبون السحر، وينبذون آيات الله تعالى البينات الداعية إلى الحق، وإلى صراط مستقيم، وذلك من اضطراب إدراكهم وعدم إيمانهم كشأن من تحكمه الأوهام وتسيطر عليه الأهواء؛ ولذا قال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ**﴾.

لم يقل سبحانه آمنوا بمحمد ، والضمير يعود إلى اليهود، بل قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ وذلك لأنهم لا إيمان عندهم بشيء، بل هم في اضطراب لا قرار في قلوبهم بشيء، والإيمان إذعان للحقائق، وجعلها مستقرة في القلوب مصدقة للحق فالمعنى: لو ثبت أنهم آمنوا وأذعنوا وصدقوا بالحق واتقوا غضب الله تعالى وطلبوا رضاه، واتجهوا إلى السير في الطريق السوى لكان ذلك خيرا بدل الاعوجاج الذى اختاروه لأنفسهم، فساروا في طريق عوج، لو فعلوا ذلك لكان لهم ثواب؛ ولذا قال تعالى في جواب الشرط المقدر من «لو» ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾، أى لو ثبت أنهم آمنوا وأذعنوا وسكن ذلك قلوبهم، واتقوا أى اتقوا غضب الله بعمل صالح ينفعهم وينفع الناس، ويكونون به مصدر خير لخلطائهم من الناس - لكان لهم الثواب الدائم، فالمثوبة هى الثواب الدائم المستمر، وذكر سبحانه وتعالى أن ذلك خير لهم مماهم فيه من اضطراب مستمر وفساد قلب، وقوله تعالى: ﴿ خَيْرٌ﴾ إما عطف بيان، وإما خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو خير.

وقد أكد الله تعالى المثوبة باللام المؤكدة الواقعة في جواب فعل لو المحذوف، وبين سبحانه وتعالى بعد علمهم بهذه الأمور التى يكون علمها والأخذ بها خيرا لهم؛ ولذا قال سبحانه: ﴿لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ وعلماء النحو يقولون في «لو» أنها حرف امتناع لامتناع أى يمنع جوابها لا متناع شرطها، والمعنى أنه يمتنع علمهم بذلك فيمتنع إيمانهم، فهم في ضلال مبين.

وإن اليهود دائما عشراء سوء، فكانوا يغمزون في القول دائما بالنسبة للنبى ﷺ كان المؤمنون يتوجهون إلى النبى ﷺ طالبين إرشاده وتوجيهه ودعاءه فكانوا يقولون ﴿رَاعِنَا﴾ وأصل راعنا مفاعلة من رعى يرعى، ومعنى المفاعلة راعنا بالقول الموجه المرشد نرعك بالاستماع والإنصات، فإنك هادينا ومرشدنا وقد تفيد معنى اتجه إلينا، ولقد روى عن ابن عباس في تفسير كلمة ﴿رَاعِنَا﴾ أنه قال: «كان المسلمون يقولون للنبى ﷺ راعنا على جهة الطلب والرغبة من المراعاة أى التفت إلينا، وكان هذا بلسان اليهود سبا أى اسمع لا سمعت فانتهزها اليهود وقالوا: كنا نسبه سراً فالآن نسبه جهراً.

كانوا يخاطبون بها النبى ﷺ ويضحكون فيما بينهم فسمعها سعد بن معاذ وكان يعرف لغتهم فقال لليهود: عليكم لعنة الله لئن سمعتها من رجل منكم يقولها للنبى ﷺ لأضربن عنقه، فقالوا أولستم تقولونها فنزل قوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا**﴾.

نهاهم الله تعالى عن قول راعنا لأن اليهود فسروها بما يدل على السب كما قال ابن عباس رضى الله تعالى عنه ولووا بها ألسنتهم بما يدل على أن معناها رعونة من القائل والمخاطب الكريم، ولقد صرح سبحانه وتعالى فى موضع آخر بلىّ ألسنتهم فقال تعالت كلماته: ﴿**مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (٤٦)**﴾ [النساء].

كانوا يقولون: ﴿**رَاعِنَا**﴾ يقصدون الرعونة، بمعنى عدم الاستقرار الفعلى والفكرى فأمر الله المؤمنين أن يتوقوا هذه الكلمة وأن يقولوا انظرنا بمعنى اشملنا بنظرتك وإرشادك وتوجيهك، وأمرهم مع ذلك بأن يسمعوا للرسول إرشاده وتوجيهه.

وإن ذلك يفيد أمرين:

أحدهما - إرشاد المؤمنين بأن يتخيروا العبارات التى لا تثير حولها المرتابين إلى ما يتعدى مقاصدهم، وما يحرفونها عن مقصودها، وأن يتخيروا جميل الألفاظ التى لا يؤذى جرسها الأسماع.

الأمر الثانى - أنه يجب الأخذ بسد ذرائع فساد الفهم، ومايؤدى إلى الغمز فى القول، وإخراج الكلام عن معناه، وتعدى مقصده.

بل إن بعض المشتغلين بالفقه قال: «إنها دليل على الأخذ بمبدأ سد الذرائع الذى يقوم على أن الذرائع أو الوسائل تأخذ حكم ما تؤدي إليه، فما يؤدى إلى المطلوب يكون مطلوبا، وما يؤدى إلى الممنوع يكون ممنوعا» وإن لذلك وجها من

القول، فإن نهى الله تعالى عن أن يقولوا ﴿رَاعِنَا﴾ سد لفساد اليهود الذين يغمزون فى القول، ويتهكمون بهذا على المؤمنين، وعلى مقام النبوة السامى الجليل.

ولقد ذيل الله سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ والمراد من الكافرين اليهود الذين لووا ألسنتهم غمزا واستهزاء، وقد أظهر فى موضع الإضمار لتسجيل الكفر عليهم ولبيان السبب فى عذابهم فهم كافرون بما كان منهم، وجحودهم للنبوة المحمدية وإنكارهم للقرآن الكريم ونبذهم له وراءهم ظهريا، والكافر له عذاب أليم، وأليم بمعنى مؤلم، وتنكيره للدلالة على أنه عذاب أليم لا يدرون كنهه، ولا حقيقته.

وإن المشركين عبدة الأوثان لم ينزل عليهم كتاب بعد إبراهيم عليه السلام، واليهود أهل كتاب فنزل عليهم كتاب سماوى ثم حرفوه من بعده، ونسوا حظًا منه وزادوا عليه أوهاما من عندهم، وكتموا جزءا كبيرا مما بأيديهم. إن هؤلاء المشركين واليهود جمعهم أمران: أحدهما الكفر، والثانى بغض محمد ﷺ، أو بغض ما جاء به، فإذا فرقهم العلم بكتاب سماوى، فقد جمعهم كفر وبغض لما جاء به محمد ﷺ؛ ولذا قال تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

يود هنا معناها يحب، وإن الود يجىء بمعنى محبة الشىء، وبمعنى تمنيه، وهى هنا بمعنى المحبة فقط، وما هو بمعنى التمنى قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ [القلم]، وقوله تعالى: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ ... ۝١١٨﴾ [آل عمران].

وهنا تكون بمعنى المحبة، أى ما يحب الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم، ونفى المحبة يومئ إلى الكراهية، أى يكرهون أن ينزل الله تعالى عليكم أى خير من ربكم، ومن فى قوله تعالى: ﴿مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لاستغراق النفى ومعناها أى خير من ربكم، وأعظم الخير من الله تعالى هو أن يكون رسولا من رب العالمين، وربكم الذى رباكم وصنعكم على عينه.

وقدم سبحانه وتعالى أهل الكتاب على المشركين؛ لأن الكلام كان فى أهل الكتاب؛ ولأنهم أشد جحودا وإعناتا؛ ولأن الجحود منهم وهم أهل كتاب أشد من جحود غيرهم الذين لم يؤتوا كتابا؛ فالجهل قد يكون عذرا أحيانا، وإن لم يكن هنا عذرا. وإن سبب كراهية أن ينزل عليكم خير من ربكم يختلف عند المشركين عنه عند اليهود، فهو عند المشركين كفر للوحدانية، وخوف الرياسة، والتنافس بين العشائر، وأما عند اليهود، فهو كراهية أن تكون الرسل فى ولد إسماعيل، وهم فى طبيعتهم الحسد، يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله.

وموضع الكراهية أن ينزل عليهم أى خير من ربهم، وتنزيل الخير من رب الوجود هو الرسالة، كان المشركون الذين عاندوا النبى ﷺ ينفسون على عشيرته بنى هاشم، ولقد قال عمرو بن هشام أبو الحكم الذى لقبه الإسلام بأبى جهل فى سبب كفره: (تنازعنا وبنى عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وسقوا فسقينا، حتى تجاثينا على الركب، وصرنا كفرسى رهان، قالوا: منا نبى فأنى يكون ذلك؟ والله لا نؤمن به).

واليهود قد علمنا أنهم كانوا يستفتحون به، فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين.

ولقد رد الله تعالى كراهيتهم، وأنه سبحانه وتعالى يسير فى اختيار نبيه على مقتضى حكمته وإرادته فقال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ**﴾، والله ذو الجلال والإكرام، والفاعل المختار يختص برحمته من يشاء وهى رحمة الرسالة التى ترحم الناس أجمعين، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾**﴾ [**الأنبياء**] ورحمة القرآن الذى جاء هدى وشفاء ورحمة للمؤمنين.

فمعنى يختص برحمته، أى يختص بحمل رسالته وقرآنه من يشاء، أى من يختاره بحكمته والله أعلم حيث يجعل رسالته، وإن ذلك من فضله؛ ولذلك قال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾ أى صاحب الفضل العظيم الذى يلازمه سبحانه وتعالى، فلا يكون منه إلا فضل عظيم يعم الناس أجمعين.

النسخ

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى بعض أفعال اليهود من إنكار وجحود وكفر بالنعمة وكفر بما يعرفون صدقه واتخاذ السحر وأوهامه واتباعٍ ما يضر .. بين سبحانه النسخ لأنه يتضمن نسخ بعض ما جاء فى التوراة وإن صدق أصلها، ونسخ المعجزات التى كان يأتى بها موسى عليه الصلاة والسلام، ليؤمن بنو إسرائيل وآل فرعون، ذكر الله تعالى نسخ الشرائع القديمة ونسخ المعجزات الحسية السابقة وأنه أتى بمعجزة هى القرآن، وإنها أمر أوحى للنبى ﷺ وأنه كان آخر صرح للنبوة، إذ كان محمد ﷺ آخر لبنة فى صرح النبوة، وكان خاتم النبيين.

بعد ذلك تعرض النبى ﷺ للنسخ فى الشرائع والآيات.

النسخ معناه الإزالة كما تقول نسخت الشمس الظل، أى أزالته وحلت محله، ويطلق أيضا النسخ بمعنى نقل المكتوب كما قال: ﴿ **إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴿٢٩﴾ ﴾ [**الجاثية**].

والآيات تطلق على طائفة من القرآن مفصولة عما بعدها كآية الكرسى، وآيات المنافقين وآية الربا، وآية حد السرقة وغير ذلك من آيات الله تعالى البينات.

وتطلق على الآيات الكونية التى تدل على قدرة الله تعالى وعلى حكمته، وبديع خلقه ومنها معجزات النبيين الحسية كالعصا، وفلق البحر وإبراء الأكمه وإحياء الموتى بإذن الله، والإخبار عما فى بيوتهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً** ... ﴿٥٠﴾﴾ [**المؤمنون**] ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا** ﴿٥٩﴾﴾ [**الإسراء**] ومن الآيات الحسية قوله تعالى: ﴿**أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ** ﴿١٢٨﴾﴾ [**الشعراء**]؛ لأن البناء العالى فيه دلالة على براعتهم فى البناء.

والنسخ فى اصطلاح الفقهاء على أساس أن الآية هى الآية القرآنية هو إزالة حكم الآية، ويقسمون النسخ إلى ثلاث:

القسم الأول - نسخ الحكم وبقاء التلاوة، كما ادعوا لآيات نسخ حكمها وبقيت تلاوتها، كآية تقديم الصدقة بين يدى الرسول إذا ناجوا الرسول فى قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً** ... ﴿١٢﴾﴾ [**المجادلة**].

والقسم الثانى - آية نسخت تلاوتها ولم ينسخ حكمها، كما قيل إنه كان فى القرآن آية «إذا زنى الشيخ والشيخة، فارجموهما ألبتة»(١) فنسخت تلاوتها وبقى حكمها.

---

(١) عن عَبْدَ اللَّه بْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ: قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب وَهُوَ جَالسٌ عَلَى منْبَر رَسُول اللَّه ﷺ: إنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بالْحَقِّ، وَأَنْزَلَ عَلَيْه الْكتَابَ، فَكَانَ مِمَّا أُنْزِلَ عَلَيْه آيَةُ الرَّجْم؛ قَرَأْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا وَعَقَلْنَاهَا، فَرَجَمَ رَسُولُ اللَّه ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ، فَأَخْشَى إنْ طَالَ بالنَّاس زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائلٌ: مَا نَجدُ الرَّجْمَ فى كتَاب اللَّه، فَيَضلُّوا بتَرْك فَريضَة أَنْزَلَهَا اللَّهُ. وَإنَّ الرَّجْمَ فى كتَاب اللَّه حَقٌّ عَلَى مَنْ زَنَى إذَا أَحْصَنَ منَ الرِّجَال وَالنِّسَاء إذَا قَامَتْ، أَوْ كَانَ الْحَبَلُ، أَوْ الاعْترَافُ. [متفق عليه: رواه البخارى: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة (٦٧٧٨)، ومسلم: كتاب الحدود (٣٢٠١) واللفظ له].

ورواه مالك فى الموطأ عن سعيد بن المسيب بلفظ: إيَّاكُمْ أَنْ تَهْلكُوا عَنْ آيَة؛ أَنْ يَقُولَ قَائلٌ: لا نَجدُ حَدَّيْن فى كتَاب اللَّه. فَقَدْ رَجَمَ رَسُولُ اللَّه ﷺ وَرَجَمْنَا، وَالَّذى نَفْسى بيَده لَوْلا أَنْ يَقُولَ النَّاسُ زَادَ عُمَرُ ابْنُ الْخَطَّاب فى كتَاب اللَّه تَعَالَى لَكَتَبْتُهَا (الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ فَارْجُمُوهُمَا أَلْبَتَّةَ) فَإنَّا قَدْ قَرَأْنَاهَا. قَالَ مَالك: قَالَ يَحْيَى ابْنُ سَعيد، قَالَ سَعيدُ بْنُ الْمُسَيَّب: فَمَا انْسَلَخَ ذُو الْحجَّة حَتَّى قُتلَ عُمَرُ رَحمَهُ اللَّهُ. قَالَ يَحْيَى: سَمعْت قَوْله تَعَالَى، يَقُولُ: قَوْلُهُ الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ؛ يَعْني الثَّيِّبَ وَالثَّيِّبَةَ فَارْجُمُوهُمَا أَلْبَتَّةَ. [موطأ مالك: كتاب الحدود (١٢٩٧)].

والقسم الثالث - وهو الأصل آيات محكمة لم يعرها نسخ ولا تأويل، وهذا القسم يقولون إنه أكثر القرآن.

وفى هذا الكلام نظر يستبين مما نقول إن شاء الله تعالى.

ويقولون: إن هذه أقسام بالنسبة لذات النسخ، أما بالنسبة للناسخ فيقولون القرآن ينسخ السنة، ولكن يشترط الشافعى لنسخ القرآن للسنة - أن يكون من السنة ما يدل على النسخ، كالسنة التى دلت على نسخ القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة.

وادعوا نسخ القرآن بالسنة بل ادعوا نسخ عموم القرآن بأحاديث الآحاد.

وكل على تفسير الآية فى قوله تعالى: ﴿**مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**﴾. فإنها الآية القرآنية المشتملة على أحكام تكليفية بإلغاء تكليف ووضع تكليف آخر فى موضعه كنسخ تحريم بإباحة، أو إباحة بتحريم، ولكن يلاحظ أن نسخ القرآن بالسنة لا يستقيم مع النص الكريم؛ لأن النسخ يوجب أن يأتى بخير من المنسوخة أو مثلها، ولايمكن أن تكون السنة خيرا من القرآن أو مثله.

ولكن هل الآية تدل على وقوع النسخ، أو تدل فقط على جوازه على فرض تفسير الآية بالآية القرآنية (ولنا فى ذلك نظر) نقول إن الآية تدل على الإمكان لاعلى الوقوع؛ لأن النص السامي بشرط وجواب هذا الشرط - إذ إن «ما» من أسماء الشرط جزم به ننسخ وجوابه: ﴿**نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**﴾ فهى دالة على الإمكان لا على الوقوع بالفعل، والوقوع بالفعل يجىء من تتبع الأحكام الشرعية الناسخ منها والمنسوخة كما ادعى فى الآيات التى ذكرنا، والأحكام التى تكلم فيها الفقهاء مدعين فيها نسخ آيات بآيات.

فالآية لا تدل على وقوع النسخ، ولا على لزومه.

وقبل أن ننتقل بتفسير الآية إلى معنى آخر نتكلم فى معنى ﴿**نُنسِهَا**﴾ وعلى هذه القراءة يكون ننسها من قلوب الناس لأنها من أنساها - من قلوب الناس، أى

أنه أنساها للناس، وربما يتفق هذا على قول الذين يقولون إن ثمة آيات نسخت تلاوتها، وبقيت أحكامها، كما ادعى فى الرجم.

وهناك قراءة (نَنسأها) بفتحتين وهمزة، وبمعنى نؤجلها من النَّسَاء بمعنى التأجيل، وخرج بعض اللغويين القراءة الأولى ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ على هذا المعنى، فقال إن الهمزة قلبت ياء إذ أصلها ننسئها فسهلت الهمزة فعوملت الياء معاملة حرف العلة فحذف فى حال الجزم، وعلى هذا المعنى تتلاقى القراءتان على معنى التأجيل، ويكون المعنى لا نزيل حكم آية أو نؤجل حكمها، إلا أتينا بخير منها أو مثلها. ثم قال تعالى مؤكدا جواب الشرط بقوله تعالت كلماته: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ والمعنى تعلم علمًا يقينيا مؤكدا أن الله تعالى على كل شىء قدير. وقدم قوله على كل شىء لاختصاصه تعالى بكمال القدرة وعمومها، ﴿أَلَمْ﴾ استفهام للنفى مع التنبيه ونفى النفى إثبات مع التنبيه وتأكيد العلم.

وهذا القول كله على تفسير الآية بمعنى الآية القرآنية.

وأولئك كما ذكرنا يقررون النسخ فى القرآن، وقرره الشافعى، وغيره من الفقهاء الكبار، وعلى رأسهم شيخهم أبو حنيفة وإمام دار الهجرة مالك وإمام السنة أحمد بن حنبل.

وحجة قولهم هذه الآية، وما جاء عن الصحابة من نسخ بعض آيات لأخرى وإن كانوا يسمونه التخصيص كما أثر عن ابن مسعود أنه قال فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ... ﴿٢٣٤﴾﴾ [البقرة] وقوله تعالى فى سورة الطلاق: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ... ﴿٤﴾﴾ [الطلاق] وفيها ظاهر التفارق فى المتوفى عنها زوجها الحامل، فقرر ابن مسعود أنها تعتد بوضع الحمل، وهذا تخصيص للآية الأولى بأنها لغير الحامل، فقال رضى الله عنه: أشهد أن سورة النساء الصغرى، أى الطلاق نسخت الكبرى. وهى قد خصصتها، ولكن كان السلف يعتبرون التخصيص نسخا، ولا مُشاحة فى الاصطلاح.

وإن النسخ فى ذاته لافى القرآن بالذات لا ينكره أحد؛ لأن النبى ﷺ كان يربى المؤمنين، ويدع الدين الحق فى قلوبهم، وقد مكث بينهم ثلاثة وعشرين عاما يربيهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، وما كانوا ليقبلوا ذلك التهذيب الكامل الذى ينقلهم من الجاهلية إلى العلم والتفكير، والعمل التقى الطاهر دفعة واحدة؛ بل لابد أن يأخذهم فى رفق وأناة يقر أمورًا على رجاء التغيير، حتى تشرب قلوبهم حب الإسلام، وحب آدابه، ولقد روى عن النبى ﷺ: «ما من نبوة إلا تناسخت» أى حولت النفوس بالتدريج، وترك أمور فى مرتبة العفو حتى تتشرب النفوس الحقائق الإسلامية، وليس معنى ذلك أن الله تعالى كان يجهل الحقائق ثم علم وهو ما يسمى بالبداء، والله تعالى منزه عنه تبارك وتعالى، وإنما معناه أن الله عالم بكل شىء، ولكن نبيه كان كالمربى الذى يتدرج بتعليمه حتى يشب ويعلو فكره، فتتكامل الشريعة نزولا إذ تكامل عقله إدراكا وبيانا.

لذلك كان النسخ وكانت الأحكام التى تجيء فى السنة موضع التناسخ الثابت بالحديث .

ولكن هل يجىء النسخ فى القرآن، قال جمهور العلماء ذلك مستدلين بقوله تعالى: ﴿**مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**﴾ ولكن نقول: إن الآية الكريمة كما فى بيان الشرط وجوابه، وتدل على الإمكان لاعلى الوقوع فعلاً، وإن هذا على أساس تفسير الآية بمعنى الآية القرآنية المشتملة على حكم تكليفى، ولكن كلمة الآية تدل معانيها على الآية الكونية، والمعجزات الكونية والحسية التى يجيء بها الرسل كإحياء عيسى عليه السلام الموتى بإذن الله تعالى، وإحياء الموتى من قبورهم، وتصويره كهيئة الطير فينفخ فيه فتكون طيرا بإذن الله تعالى، وكعصا موسى عليه السلام التى فلقت البحر وفجرت الماء من الحجر، وكإرسال الجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات.

وإن المشركين طلبوا من النبى ﷺ آيات أى معجزات دالة على رسالته كمعجزات عيسى وموسى ويظهر أن اليهود طلبوا مثلها، فرد الله تعالى عليهم

بقوله: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ أى ما ننزل آية لنبى أو رسول أو نؤجلها إلا أتينا بخير منها أو مثلها، وفى ذلك إشارة إلى أن معجزة القرآن خير من المعجزات التى سبقت كمعجزة موسى وعيسى؛ لأن معجزاتهم حوادث تنقضى، وتنتهى بانتهاء وقتها ولا تؤثر إلا فى نفوس من عاينوا، وشاهدوا، أما معجزة القرآن، فإنها باقية خالدة تتحدى الأجيال كلها إلى يوم القيامة.

وإننا نميل إلى تفسير الآية بالمعجزة، وذلك للأمور الآتية:

أولا - تعقيب النسخ والتغيير بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فإن ذلك يتناسب بوضوح مع الآية بمعنى المعجزة القاهرة التى تدل (على قدرة الله وصدق رسوله)، والمعجزة الكونية، ولا تظهر مناسبة مع آية التكليف.

وثانيا - قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فذكر هذا النص السامى يدل قياسًا أن النسخ أو الترك يكون لآية كونية بخير منها، تكون أبقى وأعظم أثرا.

ثالثا ـ أنه كان لوم على طلب آية أخرى، فقد قال تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ هذه الآيات كلها جاءت تالية لآية النسخ وهى فى تواليها تناسب أن تكون الآية المنسوخة معجزة من معجزات الرسالة الإلهية، ومعجزات النبيين.

ورابعا ـ أن النسخ يقتضى ألا يمكن الجمع بين الناسخ والمنسوخ، وليس فى القرآن آيات تتعارض، ولا يمكن التوفيق بينها، والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده.

وإن الله تعالى إذا أنزل معجزة لنبى، وبدل بها معجزة فذلك من كمال قدرته وليس لمؤمن أن ينكر معجزة، ولا يطلب معجزة معينة، وألا يقال: إن الرسول الذى جاء بالمعجزة القاطعة مغتر، فقد قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا

يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [النحل] فإن الله العليم الحكيم هو الذى يختار من الآيات الدالة على رسالة أنبيائه مايراه أقوى دلالة، وأكثر بقاء، فهو الذى يعلم الآيات كلها، وهو الذى يدبر كل شيء بحكمته، وإرادته، وإن الله أعلم حيث يجعل رسالته، وهو أعلم بمكان آيته، ولقد قال تعالى فى ذلك: ﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ الهمزة للاستفهام الإنكارى بمعنى النفي أى إنكار الوقوع، فما بعدها يكون منفيا بها، ولم نافية لما بعدها، فيكون نفى النفى، ونفى النفى إثبات، كما يقر علماء البيان، والنفى على طريقة الاستفهام فيه تنبيه بليغ، لأن الاستفهام فى ذاته فيه إثارة للانتباه، والمعنى: تعلم أيها الرسول، أن الله تعالى له السلطان الكامل فى السموات والأرض، فله التدبير المطلق الذى لا قيد يقيده لايسأل عما يفعل وهم يسألون فإذا اختار آية دالة على رسالة نبى مرسل، فله أن يختار آية أخرى لنبى آخر، فإذا اختار تسع آيات لموسى، واختار مثلها لعيسى، فله أن يختار لمحمد ﷺ غيرها أبقى وأدوم، وأقوى دليلا، وتحديا للأجيال كلها الإنس والجن.

وإن الله سبحانه وتعالى ببيان هذا العلم الشامل الواسع يشير سبحانه وتعالى إلى بيان القدرة على عقاب من يكذب وينكر، ويجحد بآيات الله تعالى ويقول حيث وضح الحق وقام، إنما أنت مفتر؛ ولذلك قال تعالى من بعد بيان شمول علم الله تعالى: ﴿**وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ**﴾ وهذا أنفى لهم عند العذاب النازل بهم من أن يكون لهم ولى، أى صديق، أو ذو ولاية عليهم يحميهم بولايته، ويكلؤهم بمحبته أو نصير ينصرهم والشدائد نازلة بهم يوم القيامة.

وقد أكد الله تعالى نفى الولى والنصير، بمن التى تدل على استغراق النفى، أى ليس للمعاندين لآيات الله تعالى ولى أى ولى كان، ولا نصير أى نصير كان قويا أو ضعيفا، وأكد سبحانه النفى بتكرار لا. وإن ذلك النفى المؤكد يفيد أنهم يجيئون إلى الله تعالى فرادى كما خلقهم أول مرة، وهو سبحانه مالك يوم الدين.

أشرنا إلى أننا اخترنا أن يكون النسخ فى هذه الآيات الكريمات هو نسخ الآيات الدالة على رسالة النبى ﷺ، وأن تغيير آية يأتى الله تعالى بخير منها أو مثلها، وإن قدرة الله على ذلك ثابتة وله فيما يفعل حكم ظاهرة قد نعلمها بإدراكنا الناقص، وقد تعلو على إدراكنا.

ولذا قال تعالى موجها الخطاب لأمة محمد ﷺ ملتفتا إليهم، وهم يشملون الوثنيين واليهود فهم جميعا أمة محمد فقد أرسل إلى الناس كما قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ].

﴿**أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ**﴾ أم للإضراب عن الكلام السابق إضرابا لفظيا، مؤداه علمتم أن الله على كل شىء قدير، وعلمتم أن الله تعالى له ملك السموات والأرض، وأنه يصرف الآيات لرسله الكرام فيختار لكل رسول آية، ولا يستبعد أن تكون تلك الآيات كلها على نسق هذه الآية لمن يجىء بعده، والله يصرِّف دلائله وآياته.

أتريدون يا من تخاطبون برسالة محمد أن تسألوا رسولكم آية دالة على رسالته، كما سأل اليهود موسى من قبل، أى أتريدون أن تختاروا معجزة دالة على نبوة محمد ﷺ، كما سئل موسى من قبل.

والاستفهام هنا لإنكار الوقوع، أى أنه كان ممن خاطبهم محمد ﷺ، ممن سأل النبى ﷺ أن ينزل عليهم كتابا من السماء يحمله ملك، ومنهم من سأل أن يكون المبعوث ملكا ولا يكون رجلا يمشى فى الأسواق، كان ذلك من المشركين، ومن أهل الكتاب، وقد قال تعالى فى سؤال أهل الكتاب: ﴿**يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا** ﴿١٥٣﴾﴾ [النساء].

والمخاطبون فى قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾ هم الذين خوطبوا برسالة محمد ﷺ، وهم الناس جميعا، مشركوهم وأهل الكتاب فيهم، فقد بعث النبى ﷺ للأحمر والأسود والذين طلبوا تغيير المعجزة المحمدية بغيرها من المعجزات الحسية كان منهم المشركون واليهود فهم أخص من بعث إليهم بالخطاب.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾ إلى آخره فيه الاستفهام متجه إلى إرادة السؤال لا إلى السؤال نفسه، وإذا كان الاستنكار للإرادة فهو للسؤال أشد لأنه إذا استنكرت ذات الإرادة، فالأولى يكون للفعل، وإنهم ما أرادوا المشابهة بين فعلهم وفعل بنى إسرائيل من قبل، إنما نبههم الله تعالى إلى المماثلة بقوله: ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾، أى مثل ما سئل موسى من قبل.

وإن ذلك انحراف عن السبيل، وترك للحق، وانصراف عما يوجبه الدليل، إلى سؤال عن دليل آخر مع سلامة هذا الدليل الذى يعترضون عليه؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أى ومن يجعل الإيمان فى مقابل الكفر فقد سار فى طريق منحرف ولم يسلك السبيل المستقيم، وضل يعنى بعد، ومعنى ذلك أن من يطلب الكفر يترك سواء السبيل والقصد، وفى ذلك إشارة إلى أمرين:

أولا - أنهم ضلوا القصد ولم يسلكوا سواء السبيل أى وسطه؛ لأن وسط السبيل لايكون اعوجاجًا ولا انحرافًا، وأنهم إذ ضلوا سواء السبيل وبعدوا عنه سلكوا طريق الكفر، واختاروه على الإيمان.

ثانيا - أن السبب فى سلوكهم طريق الغى والضلال وطلبهم معجزات يريدونها هو أنهم فى أصلهم جاحدون كافرون، ومن ترك الطريق الواضح مع وضوحه وقيام برهانه فقد كفر؛ لأنه يتبدل الكفر بالإيمان.

الحسد فى الدين

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ
ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا
مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟
وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ
﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم
مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ
﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ
تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ
فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾

كان المشركون والذين أوتوا الكتاب لا يرضون معجزة النبى ﷺ حجة دالة على صدق النبى ﷺ، وقد تحداهم أن يأتوا بمثلها فعجزوا وعلموا مقامه من البيان، وأنه أعلى من البيان الإنسانى حتى يقول قائلهم: (إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، والله ما يقول هذا بشر). فقد تبين لهم الحق، وأن ما يشتمل عليه هو الحق الذى لا يأتيه الباطل، ومع ذلك جحدوا وكفروا وتمادوا واضطهدوا ضعاف المؤمنين، وكانوا يودون أن يعود النبى ﷺ ومن معه إلى ما هم عليه، حسدا لهم، إذا علموا أنهم على الحق، وليكونوا تحت سلطانهم وليحتفظوا بهم وكانوا بين إحساسين: إحساس السلطان وحسد أهل الإيمان؛ ولذا كانوا يتعنتون فى طلب آيات غير القرآن.

واليهود كانوا يستفتحون على الذين كفروا بالنبى ﷺ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فالحق قد تبين وكان أشد تبينًا، لأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ومع ذلك طلبوا آيات أخرى وجحدوا، وما كان ذلك إلا تبريرًا لكفرهم بما علموا، ولم يكتفوا بكفرهم بل ودوا أن يكون المؤمنون مثلهم كفرًا وعنادًا.

ولذا قال تعالى: **﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾** ود هنا معناها تمنى، فإنها تستعمل بمعنى أحب، وبمعنى تمنى، وحيث كانت لو وما بعدها موضع الطلب كانت بمعنى تمنى؛ فإن أمنية أهل الكتاب (وكذلك المشركون) أن يختفى هذا الدين، ولا يكون إلا الوثنية وخصوصا الوثنيين الذين بقوا على وثنيتهم من الأوس والخزرج لكيلا يكون محمد ﷺ وصحبه مسيطرين على المدينة.

ويلاحظ أمران:

أولهما - أن القرآن الكريم الذى أنزله العادل الحكيم لم يذكر أهل الكتاب جميعا، بل ذكر الكثير منهم فقال تعالى: **﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾**؛ لأن بعضهم يرجى إيمانه ويسير فى طريق الإيمان، ومن سار فى طريق الإيمان لايرجو زواله، ومن يريد الهداية لايود زوالها.

الأمر الثانى - أنه ذكر أهل الكتاب دون غيرهم لأنهم كانوا أشد رغبة فى تضليل المؤمنين، وكان الحق عندهم أشد بيانا، وأقوى برهانا؛ ولأن حسدهم أوضح، فكلما كانت الحجة أقطع، كان حسدهم أوضح وأبين وعداوتهم أشد، ولجاجتهم فى الباطل.

ويقول سبحانه فى موضع التمنى وباعثه: **﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾** تمنوا أن تعودوا إلى الكفر، بعد أن ذقتم بشاشة الإيمان، وعبر بقوله تعالى: **﴿يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾** للإشارة إلى أن ذلك رجعة بعد تقدم، وانتكاسة بعد استقامة.

وما كان الباعث على ذلك الحسد؟ وعبر عن حسدهم بأنه منبعث من نفوسهم، وذلك التعبير يشير إلى أمرين:

أولهما - أنه ليس له مبرر إلا من نفوسهم فلا وجه لأن يحسدوكم على ما آتاكم الله تعالى من فضله.

ثانيهما - تأكيد ما فى نفوسهم من غل بقوله تعالى: ﴿**مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم** ...﴿١٠٩﴾﴾ [**البقرة**]، كما فى قوله تعالى: ﴿**يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ** ... ﴿٧٩﴾﴾ [**البقرة**].

والحسد تمنى زوال نعمة غيره، سواء أعادت النعمة إليه أم لم تعد. فالحاسد لا يريد الخير لغيره، وهو بهذا يملأ قلبه بالضغن والحقد من غير أن يعود إليه شيء؛ ولذلك قيل إن الحسد مرض نفسى، لايؤذى إلا صاحبه لأنه بمقدار ما ينال غيره من خير تتوالى آلامه، وخير الدنيا كثير فيزيد مرضه بمقدار ما يؤتى الناس من فضل، وقد يسمى بعض الناس حسدًا ما ينال الناس من غبطة كقول النبى ﷺ: «لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله تعالى القرآن، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً، فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار»(١).

واستعمال الحسد هنا من قبيل المجاز؛ لأن موضوع الغبطة والحسد، هو الخير بيد أن الحاسد يتمنى الزوال والغابط يتمنى الدوام والإتباع، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون.

وإن حسد اليهود كان باديا فى كل معاملاتهم للنبى ﷺ، وفى أقوالهم وأفعالهم، وحسد بعض الذين بقوا على وثنيتهم كان باديا فى نفاقهم وفى أفعالهم، وكانوا يجاهرون بالحسد قبل وقوعه إذ كانوا يجاهرون به، ولا يخفون كفرهم.

يروى أن النبى ﷺ كان راكبا دابة فمر بمجلس فيه مسلمون، ويهود ومشركون من عبدة الأوثان من بقايا الأوس والخزرج الذين لم يكونوا قد دخلوا فى الإسلام

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخارى بنحوه: كتاب التوحيد (٦٩٥٧)، ومسلم: صلاة المسافرين (١٣٥٠).

بعـد، ولو نفـاقا، فـسلم رسـول الله ﷺ ثم نزل عن دابـته وأخـذ يدعـوهم إلى الإسلام، وقرأ عليهم القرآن فقال عـبد الله بن أبى : إن كان حقا، فلا تؤذنا به فى مجـالسنا، ارجع إلى رحلك. فقال عـبد الله بن رواحة: بلى يا رسـول الله فاغش مجالسنا فإنا نحب ذلك، فاستَّب المشـركون والمسلمون واليهود، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا، ثم ركب دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة فقال رسول الله ﷺ: «ألم تسمع إلى ما قاله أبو حـباب» يريد عبد الله بن أبى بن سلول فكنّاه تقريبًا لنفسه «قال كـذا وكذا» فقال: أي رسول الله بأبى أنت وأمى! اعف عنه واصفح، فـوالذى أنزل عليك الكتـاب بالحق لقد جـاء الله بالحق الذى أنزل عليك ولقد اصطلح أهل هذه البـحيرة على أن يتوّجـوه ويعصِّبوه بالعصـابة، فلما رد الله ذلك بالحق الذى أعطاك شرق، فذلك فعل ما رأيت[1].

والحسد هنا واضح.

ولقد قال تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، والعفو معناه، ترك المؤاخذة على الذنب والرفق فى المظهر، والمعـاملة الحسنة، والصفح هو إزالة كل أثر فى النفس، فالعفو يتعلق بالمظهر كقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف] والصفح ألا يبقى فى النفس أثر من الآلام التى أثارها الحسد والعـمل على مقتضاه، وكـلاهما أعلى درجة من الصبر المجـرد؛ لأن الصبر معناه الضبط والتحـمل مع ملاحظة ورجاء، والعفو يتضمن كالصـفح معنى الصبر، مع تجمل المظهر وألا تكون آلام قط مما يصنعون.

وقد حد الله تعـالى نهاية للعفو والصفح، وهو أن يأتى أمـر الله قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ وإن ذلك يكون بأحـد أمور ثلاثة: إمـا بالقصـاص منهم، بإجلائهم أو قـتالهم، وإما بنزع الحسـد والحقد من قلوبهم وهدايتـهم، وإما بالغلب عليهم وأن يكـونوا فى ظل المسلمين، ويعلنوا إسـلامهم وقلوبهم ليـست مؤمنة وإن الأمر بالصفح والعفو كان لإرضاء قلوبهم، وإخراج الحسد من نفوسهم فإنه لا يدني القلوب إلا عفو رفيق وصفح جميل.

(١) هذه القصة مذكورة فى البخارى: تفسير القرآن (٤٢٠٠)، ومسلم: الجهاد والسير (٣٣٥٦).

ولقد ذيل الله سبحانه وتعالى الآية بإثبات قدرة الله تعالى فقال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾، فإذا أمر الله كان قادرا على نزع الأحقاد من القلوب، والقصاص من الظالمين، وكشف ضلال المنافقين؛ لأنه قادر على كل شىء وقد أكد قدرته سبحانه بالجملة الاسمية وإن المؤكدة ، وعموم موضوع قدرته واختصاصه سبحانه وتعالى بالقدرة على كل شىء بتقديم الجار والمجرور على قدير. تعالت قدرته وعظمته وحكمته.

وإن العفو والصفح صفحا جميلا لا منة فيه، يحتاج إلى رياضة نفسية وطهارة روحية وإلف اجتماعى؛ ولذلك قرن الله تعالى الأمر بالمعروف والصفح والأمر بالصلاة والزكاة وتقديم الخير رجاء من عند الله قال الله تعالى: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ**﴾.

إقامة الصلاة أداؤها على الوجه الأكمل بأن يأتى بأركانها الظاهرة، وأركانها الباطنة مقومة غير معوجة طيبة خارجة من القلوب ليست النفس منفصلة عما تقوم به الجوارح، فإذا قال: «الله أكبر» شعر بعظمة الله وأحس برقابته، وأنه دخل بالتكبير فى ظل رحمته، وأنه رقيب عليه وأنه يواجهه، وأنه فى حضرة منشئ هذا الوجود بما فيه من سماء وأرض وجبال ووهاد، وأن نفسه فى قبضة يده، والوجود كله فى قبضته، وإنه بذلك يحس كأنه يرى الله لأنه فى حضرته، وبذلك يعلو عن الأحقاد وعن الحسد، وعن كل ضغن وإحن؛ ولذا قال تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ... (٤٥)**﴾ [**العنكبوت**].

والزكاة تعاون إنسانى؛ لأنها معاونة القوى للضعيف وإعطاء الغنى للفقير، والربط بين الإنسان بالأخوة الجامعة والمحبة الراحمة والمودة الواصلة، وعندها يزول الحسد ولا يتمنى أحد زوال نعمة أحد، وعند ذلك يكون العفو الشامل والصفح الجميل، ويدرك معنى قوله تعالى فاصفح الصفح الجميل، ويراه بقلبه عيانا.

وإن مع الأمر بالصلاة التى هى رمز للطهارة النفسية والائتلاف النفسى، وإيتاء الزكاء التى تدل على الطهارة الجماعية والائتلاف - أمر سبحانه وتعالى بفعل الخير

فى شتى صوره، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ و«ما» هنا من أسماء الشرط، وفعله تقدموا، وجوابه تجدوه عند الله، والنص الكريم حث على فعل الخـير وبيان جزائه؛ لأن جـزاءه يجده عند الله تعالى ومـا يجده عند الله أوفى مما قدَّم، وأكثر مما فعل، وقال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ ونلاحظ ثلاثة أمور فى كل واحدة إشارة بيانية، وحكمة ربانية.

الإشارة الأولى ـ أن الله تعالى عبـر عن فعل الخير سواء أكان لنفـسه أم كان للجماعـة بقوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ لأن فعل الخـير للجماعـة فعل لنفسه، والخير يعـود على فاعله ابتداء، ويعود على الجماعـة انتهاء، فمن تصدق فإنما يتصـدق لنفسه؛ لأن الفائدة إليه إذ يعيش فى مجتـمع متكافل غير متدابر، ولتطيب بفـعله القلوب وتسود المحبة الكامنة، وكذلك كل فـعل خير يكون لنفسه، وهو يقدمه لنفسه أو يكون له ثوابه.

الإشارة الثانية – أنه يجد العمل قائما ثابتًا عند الله، فيكون مهيأً حاضرًا يراه ويعاينه، وذلك كناية عن جزائه الذى لاينقص عنه، بل قد يزيد عليه رحمة من الله تعالى، ويراه عند الله محفوظا لا يضيع.

الإشارة الثـالثة – تذييل الآية الكريمة بما يفـيد علم الله تعالى بقـوله تعالت كلماته: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وهذه الجملة السـامية تفـيد علم الله الذى لا تخفى عليه خـافية، فلا يضيع عمل عـامل منكم، وقد أكد سبحـانه وتعالى إحاطة علمه بما يظهر وما يخفى مؤكدات ثلاث:

أولها – إحاطته وسموا ذلك بالتعبـير بـ «ما» الدالة على العموم، فإنها بمعنى الذى، وهى تدل على العموم الشامل.

ثانيـها – بالجملة الاسـميـة وتأكيد الجـملة بأن وتقديم الجـار والمجرور على بصير، والتقديم دال على التخصيص.

وثالثها – التعبير عـن العلم بالبصير؛ فمعناه علم كأنه مبـصور بالبصر، يعلم

الخفى الدقيق، والجلى الواضح، فلا يخفى عليه شيء من عمل الإنسان ويعلمه علم من يبصره.

ذكر سبحانه وتعالى حسد اليهود بالمدينة، وكيف يداوى المؤمنون داء الحسد عند هؤلاء وهو بالعفو والصفح رجاء أن يقربوا بدل أن يستمروا على جفوتهم ونفرتهم، حتى يكون اليأس من إدنائهم فيكون القصاص أو الكشف والإبعاد، والله تعالى على كل شيء قدير.

ولقد بين سبحانه سبب حسدهم وهو غرورهم بأنهم أهل الجنة وحدهم فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾.

الضمير يعود على أهل الكتاب فى قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ والضمير فى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا﴾ يتعيَّن عودته على أهل الكتاب للقول نفسه؛ لأن الذين قالوا هذا القول اليهود، والنصارى وهم أهل الكتاب وهم الذين كانوا يجاورون النبى ﷺ.

والقول بالترتيب الجماعى فاليهود قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا والنصارى قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا، وإلا فكل فريق لا يؤمن بالآخر فاليهود لا يعترفون بالنصرانية وهم الذين عادوا المسيح، وحرضوا على قتله وإن كان الله تعالى قد نجاه من دسهم وشبه عليهم، وقد دل على ذلك قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ ... ﴿١١٣﴾﴾ [البقرة].

وهود قيل إنها هنا بمعنى يهود، ولكنها بمعنى الجمع؛ لأن «مَنْ» هنا لفظ يدل على الجمع فالجمع أنسب إليه ويكون جمعا لها كعوذ جمع لعائذ، ولأنه مقابل لنصارى ونصارى جمع، وإن قولهم هذا كذب نشأ من غرورهم وإغلاق قلوبهم على ما عندهم، وما يتمنونه من أمانى كاذبة إذ يتمنون ولا يعملون؛ ولذلك قال تعالى فى تصوير حالهم: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ وهى جمع أمنية وهى على وزن أفعولة فأصلها أمنوية اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء، وقد

ذكرنا ذلك من قبل، أى أن هذا ما يتمنونه، ولكن لماذا قال تلك أمانيهم ولم يقل تلك أمنيتهم فذكر ذلك بلفظ الجمع «قالوا»؟: إذ الجمع يدل على أنه أمنية كل واحد بعينه فجمعت للدلالة على عموم التمنى؛ وذلك لأنهم يحكمون لأنفسهم بأمانيهم لا بأعمالهم بما يتمنونه لا بما يتخذون لنيله الأسباب.

ولأن لفظ الجمع تأكيد لأن يكون هذا تمنيا لهم استجابة لغرورهم وأهوائهم، وقد قال تعالى لبيان أنها أمانٍ كاذبة ليس لها من سبب ولا دليل ﴿**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ أقر رسوله ﷺ أن يقول لهم: هاتوا برهانكم، ولم يقل سبحانه سنكل طلب البرهان إلينا؛ لأنه عالم الغيب والشهادة، يعلم كذب ما يقولون وافتراءهم، وقد حكم سبحانه وتعالى بأنه ما يتمنونه لا ما يستحقون فلا يطلب الدليل من يعلم؛ وقد فرض على النبى ﷺ أن يطلب لا ليقتنع ولكن ليبين كذبهم فى ادعائهم.

طلب منهم أن يأتوا ببرهان، والبرهان هو الدليل القاطع الملزم الذى لا يعتريه ريب ولا شك أنه ليس عندهم دليل ظنى أو قطعى من كتاب منزل أو قول نبى مرسل.

ولذلك قال سبحانه: ﴿**إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ فجعل أداة التعليق الدالة على الشك، وهى «إن»؛ إذ إنه لا دليل عندهم فهم غير صادقين.

ثم بين سبحانه وتعالى أن دخول الجنة بالإخلاص والعمل لا بالتمنى الكاذب فقال تعالى: ﴿**بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ بلى حرف للجواب بالنفى كما أن نعم للجواب بالإيجاب، وبلى تتضمن معنى الإضراب وهذا الكلام رد على المفترين الذين يتمنون الأمانى الكاذبة فليست الجنة إلا جزاء المتقين ولا تكون للكذابين الجاحدين.

﴿**مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ**﴾ ومعنى أسلم وجهه لله تعالى أسلم نفسه كلها لله تعالى، فتكون كل جوارحه وكل أحاسيسه وحركات قلبه خالصة لله تعالى خائفة منه خاضعة لكل ما يأمر وينهى، وعبر بالوجه فإنه كثير ما يعبر به عن الذات

كما قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ... (٨٨)﴾ [القصص]، ولأنه مظهر النفس، ولأنه هو الذى تكون به المواجهة وهو الذى يكون به السجود ومظاهر الطاعة والخضوع والاستجابة.

ولا يكون إسلام النفس إلا وهو معه الإحسان فى الأعمال كلها، فمعنى وهو محسن أنه يكون محسنا للناس فى معاملتهم فيمدهم بالعون عند موجبه يعين الضعيف ويغيث الملهوف، ويحمل الكَلّ، فلا يحسد الناس على ما آتاهم من خير ولا يكذب ولا يحقد ولا يمشى بنميم بين الناس ولا يتخذ السعاية سبيله، ولا يقطع ما وصل الله، ولا يفرق بين الأحبة، هذا كله يشمله معنى الإحسان وهو لا يحصى فى خصائصه ومزاياه وجملة ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ حالية ومعناها أنه متلبس بالإحسان لا يصدر عنه غيره.

و﴿مَنْ﴾ من أسماء الشرط و ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ شرطه، وجزاؤه قوله تعالى: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾ ثواب ذلك الإحسان وإسلام الوجه لله تعالى، أما الادعاء المغرور، والتمنى الكاذب فجزاؤه جهنم وبئس المصير، وإنه لا خوف عليهم من عقاب، ولا حزن يعتريهم من عمل أسلفوه.

ولذا قال تعالى: ﴿وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أى أنهم لا يخافون حسابا ولا عقابا ولا يحزنون لأمر نالهم، بل إن إخلاصهم لله، وإحسانهم العمل لا يجعل للعقاب سبيلا لهم، فهم فى أمن من الله لأنهم أطاعوه، أما غيرهم فهم فى غيهم وغرورهم يوم القيامة يخافون مما يستقبلهم ويحزنون على ما فاتهم.

الاختلاف بين أهل الكتاب

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١١٣﴾

زعم اليهود أنه لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا، وزعم النصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا، وهم بذلك قد جمعهم الغرور، والأمانى الكاذبة، لأن الاعتقادات الباطلة يجمع أهلها الأمانى الكاذبة، أو يستحسنون أعمالهم ويحسبون أنها الأمور الحسنة، لتزين لهم أعمالهم، ويحسبون أنهم يحسنون صنعا وأوهامهم تسيطر عليهم وتتردى بهم فى مهاوى الضلال.

وفى هذه بين سبحانه وتعالى ما يفرقهم بعد أن أشار سبحانه وتعالى إلى ما يجمعهم. وما يفرقهم هو التناكر أو التكذيب والتضليل، فاليهود يقولون: ليست النصارى على شىء والنصارى يقولون ليست اليهود على شىء، ومعنى على شىء: على شىء من العلم، ولا من الحق، ولا من الهداية، والتنكير لبيان عموم نفى الخير والأشياء الحسنة الطيبة التى ترفع صاحبها إلى مقام عال من الإنسانية الكاملة.

واختلفوا ذلك الاختلاف المفرق الذى يجعل كل فريق منهم فى جانب مع أنهم علماء بالكتب السماوية، ونزل عليهم فى أصل نحلتهم رسول من الله تعالى رب العالمين؛ ولذا قال تعالى موبخا مبينا سوء تفكيرهم: **﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾** والمراد الكتاب أي يقرأونه، ويعلمون ما فيه إن أرادوا ولم يحرفوه، وفيه الميزان بين الحق والباطل، وما فيه رضا الله، وما فيه غضبه، وفيه بيان ما يرفع، وبيان ما

يخفض، ولكن أهواءهم هى التى تحكمهم، والهوى يفرق، والحق يجمع، والحق يهدى، والهوى يضل.

وإن هذا النوع من التفكير الخاضع للأهواء المردية الذى يسرف فيه صاحبه لا يفترق فيه من أوتى علم الكتاب عمن لم يؤت علما بكتاب؛ ولذلك كان المشركون يقولون مثل قولهم؛ لأن المنزع واحد، وأهل كل ملة يقولون مثل قولهم إذا كان مصدر الحكم الهوى والشهوة؛ لأن كل حزب بما لديهم فرحون؛ ولذا قال تعالى: ﴿**كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ**﴾ أى قالوا ليس غيرهم على شىء من الحق والخير، بل الحق عندهم دون غيرهم وزينت لهم أفعالهم، فلم يروا غيرهم يستوجب الجنة فهى لهم وحدهم دون غيرهم.

ولعل عذرهم فى عدم العلم، أما الذين يتلون الكتاب من يهود ونصارى فما عذرهم ؟!

وقد بين سبحانه وتعالى أنه هو الذى يفصل بينهم يوم القيامة، فقال تعالت آياته: ﴿**فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ أى ليست أمورهم سددا بددًا لا حكم فيها يحكم، ولا الأهواء هى التى تتحكم، بل هناك الحاكم الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض والسماء، وهناك يوم يكون فيه الميزان والحكم؛ ولذا قال: ﴿**فَاللَّهُ يَحْكُمُ**﴾ أى الذى يحكم، هو الذى يعلم صغائر الأمور وكبيرها، هو الذى يحكم وسيكون حكمه الفصل يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين، وموضوع حكمه تسامى فى علمه وعدله وما كانوا فيه يختلفون أى الأمر الذى كانوا فيه يختلفون ويتجدد خلافهم آنًا بعد آن. وهذا كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾**﴾ [الحج].

وإن الله تعالى نهى نبيه الأمين ﷺ عن أن يكون من الذين يفرقون دينهم شيعا، ونهيه نهى لأمته، فقال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾**﴾ [الأنعام].

ومع هذا الخبر الناهى الذى فيه العبرة وقع المسلمون فى الاختلاف ولا حول ولا قوة إلا بالله.

المساجد للعبادة فلا يمنع منها أحد

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

ذكر الله سبحانه وتعالى ما يتوهمه أهل الكتاب وما يجرى بينهم من خلاف يُكَفِّرُ فيه بعضهم بعضا، وأن المشركين يفعلون مثل فعلهم، ويقولون مثل قولهم، بعد ذلك ذكر أمرًا حدث من أهل الكتاب ومن المشركين معا، وقد جمعتهم الأمانى الكاذبة كما جمعهم الاعتداء على بيوت الله تعالى التى خصصت لعبادته.

فقد وقع ذلك من اليهود والنصارى إذ يمنعون غيرهم من المسجد الأقصى حتى دمره المتمردون من المغول والرومان والنصارى، منعوه أيضا بعد أن دخل قسطنطين وحرف النصرانية فى مجمع نيقية على ما هو معروف، والمشركون منعوا المسلمين من حج بيت الله الحرام وصدوا المسلمين فى الحديبية. فالمنع من المساجد. وقوله تعالى: **﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾**. «مَن» هنا للاستفهام بمعنى إنكار الوقوع أى النفى، فالمعنى لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيه إسمه، فقوله: **﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾** بدل من المساجد، والمنع إنما هو من أن يذكر فيها اسمه وأضيف إلى المساجد للإشارة إلى أن ذلك اعتداء عليها، والاعتداء عليها اعتداء على الله سبحانه وتعالى؛ لأنها مساجد الله تعالى؛ إذ قد خصصت لعبادته سبحانه وتعالى، ومنع أن يذكر فيها اسمه، منع من ذكر الله تعالى وهو أكبر الآثام.

ثم المنع أهو من مسجد واحد، أم منع من مساجد متعددة، أو حكم عام - وهو الظاهر - أم ذكر لوقائع معينة؟ قال بعض العلماء، وعلى رأسهم ابن جرير الطبرى: إن المراد مسجد واحد، وهو المسجد الأقصى، إذ منع النصارى الصلاة وذكر الله فيه، وخربوه بعد أن حرفوا النصرانية ودخلوا فى الديانة المحرفة.

وقال الأكثرون من المفسرين: إن الكعبة المكرمة هى التى منع المشركون فى مكة أن يذكر فيها اسم الله تعالى، وذلك عام الحديبية فقد منعوا النبى ﷺ والمسلمين من أن يدخلوا البيت الحرام. وعلى رأس هذا الفريق من مفسرى السلف الحافظ ابن كثير رضى الله تبارك وتعالى عنه ولنترك الكلمة له. قال: والذى يظهر لى القول الثانى وهو أن المنع كان من البيت الحرام، وروى عن ابن عباس أن النصارى منعت اليهود الصلاة فى بيت المقدس؛ لأن دينهم أقوم من دين اليهود (وفى ذلك نظر) وكانوا أقرب منهم، ولم يكن ذكر الله من اليهود مقبولا؛ لأنهم لعنوا من قبل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، وأيضا فإن الله تعالى لما وجه الذم فى حق اليهود والنصارى شرع فى ذم المشركين الذين أخرجوا الرسول ﷺ وأصحابه من مكة ومنعوهم من الصلاة فى المسجد، وأما اعتماده (أى ابن جرير) على أن قريشا لم تسع فى خراب الكعبة؛ فأى خراب أعظم مما فعلوا؟!! أخرجوا عنها رسول الله ﷺ وأصحابه واستحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم كما قال تعالى: ﴿**وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴿٣٤﴾﴾ [**الأنفال**] وقال تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ** ﴿١٧﴾ **إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ** ﴿١٨﴾﴾ [**التوبة**].

ويسترسل الحافظ ابن كثير فى سوق الآيات الدالة على منع المشركين من أن يدخل المؤمنون البيت الحرام، وفسر تخريب البيت لا بمعنى تدميره ونقض بنيانه،

كما تمسك ابن جرير، بل فسر التخريب بمعنى خلوها من العبادة الحق، وإن ذلك هو الأقرب إلى الدلالة اللفظية؛ لأن الله تعالى لم يقل تخريبها أو تتبيرها كما عبر عن اليهود إذا دخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة، حيث قال: ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإسراء]، وإنما عبر فى هذا المقام فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ أى أنهم بهذا المنع من ذكر الله تعالى سعوا فى خرابها. وأى خراب لبيت من بيوت العبادة المخصصة لها ولذكر الله أعظم من منع هذا الذكر؟

ولذلك اختار ابن كثير أن يكون الذى منع ذكر الله تعالى فيه هو البيت الحرام، إذ منعوا المؤمنين من دخوله، وقد قال تعالى فى ذلك: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفتح].

فالخراب هو خلوها من العبادة . والبيت المسكون يكون خرابا إذا خلا من السكان، ويقول الحافظ: ليس المراد بالعمارة زخرفها وإقامة صورتها فقط، إنما عمارتها بذكر الله تعالى فيها، وإقامة شرعه. وإن هذا الكلام ينتهى لا محالة إلى أن الكلام فى المنع من مساجد الله تعالى المنع فيه كان من مسجد معين هو البيت الحرام، فلماذا عبر إذن بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ فلماذا ذكر المساجد بدل المسجد؟ ونقول فى ذلك: إن المنع كان فى مسجد، وهو سبب النزول والاستنكار والظلم فيه شديد، ولكن الظلم يكون أيضا فى المنع من غيره، فالسبب إذا كان واحدًا، قد يكون الحكم أوسع شمولا، ويكون الظلم فى منع أى مسجد، ولأن التعبير بالجمع يدل على أن المنع ظلم لما يكون من جنس المساجد كلها، ولا يختص بواحد من بينها.

ولقد قرر الله تعالى لهم عقوبة الدنيا، بأن ينزل الله على هذا المانع الظالم عقابا دنيويا صارما، وهو أنهم لا يدخلونها، لأن من سكن مكانا اعتدى فيه لا

يدخله، والجزاء من جنس العمل، وقد نبأنا القرآن الكريم بأن العقاب سينزل بهم، وأن مكة وما حولها ستكون فى قبضة أهل الإيمان، وأنهم من بعد ذلك لا يملكون منعا به بل قد يُمنعون إن شاء الله تعالى؛ ولذا قال تعالى: **﴿أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ﴾**، الإشارة فى أولئك إلى الذين منعوا مساجد الله تعالى أن يذكر فيها اسمه، والإشارة إلى موصوف تدل على أن هذه الأوصاف علة الحكم أو الخبر، وهو ألا يدخلوها إلا خائفين، وقد عبر الله عن ذلك بقوله تعالت كلماته: **﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ﴾** أى ما كان يسوغ لهم أن يدخلوها إلا وقد خرجت من أيديهم فلا يدخلون مستمكنين قاعدين مستقرين، بل يدخلونها مضطربين فيها خائفين من أن يؤخذوا بظلمهم عالمين أنها بعيدة عليهم، وليست مكان استقرار، وقال ابن كثير: إن هذه الأخبار معناها الطلب أى لا تمكنوا هؤلاء إذا قدرتم عليهم من دخولها إلا تحت هدنة، وهذا النص لما فيه من أمر وطلب فيه بشارة بأن أمرهم زائل، وأنه خارج من أيديهم إلى أيدى محمد وأصحابه.

وذكر الله تعالى عقابا دنيويا آخر وهو أنهم يلحقهم الخزى بعد استعلائهم، والذل بعد استكبارهم، فقال تعالى: **﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾** وهو أن يخرج البيت من أيديهم، ويكون أمره لغيرهم، وأن تهدم أصنامهم، وترمى من فوقه، ويطهر بناء البيت المكرم من رجسهم، ثم أن يُمنعوا من البيت إلا أن يكونوا مؤمنين وقد مُنعوا من البيت، فقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ...﴿٢٨﴾﴾** [**التوبة**] وقد بَلَّغ أبو بكر فى السنة - التاسعة عندما كان أميرا على الحج، بألا يطوف بالبيت مشرك قط[1]. وقد أشرنا فى بدء كلامنا بهذه الآية الكريمة بأن اليهود قد منعوا من بيت المقدس وخربوه، والنصارى، وقلنا أنهم فعلوا ذلك بعد أن حرفوا الإنجيل، وآمنوا بالتثليث.

---

(١) عن حُمَيْد بن عَبْد الرَّحْمَنِ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَا بكْرٍ الصِّدِّيقَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بَعَثَهُ فى الْحَجَّة الَّتى أَمَّرَهُ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّه ﷺ قَبْلَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ يومَ النَّحْرِ، فِى رَهْطٍ يُؤَذِّنُ فِى النَّاسِ: «أَلا لا يَحُجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ وَلا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ». [متفق عليه؛ رواه البخارى: كتاب الحج (٥١٧١) ومسلم: كتاب الحج (٢٤٠١)]

ولقد جاء فى عبارة ابن كثير أنهم - أى النصارى - خير من اليهود، وأنهم أقرب اعتقاداً، ونقول: إن هذا ليس بصحيح. إنهم لا يقلون فساداً فى اعتقادهم عن اليهود، وإنهم ملة واحدة فى سوء الاعتقاد، وضياع الإيمان، وإذا كان بعض النصارى فى عصر النبى ﷺ كانوا أقرب مودة للذين آمنوا، فجلهم آمن واهتدى، ومن بعد ذلك فهم واليهود على سواء فى العداوة الأثيمة.

والآية كما قال بعض المفسرين تشمل المشركين والنصارى واليهود، فالمشركون منعوا المسجد الحرام أن يذكر فيه اسم الله تعالى، والنصارى منعوا اليهود وخربوا المسجد الأقصى، واليهود بما حرفوا وبما عصوا واعتدوا، وبكفرهم عجزوا عن حماية المسجد الأقصى فدمره القوم عليهم تدميراً.

وإن الذين قالوا هذا: إن هؤلاء جميعا نالهم خزى الدنيا، فالمشركون بإزالتهم أصنامهم، ومنعهم من دخول البيت وهم مشركون، واليهود والنصارى بالجزية تفرض، ويدفعونها خائفين غير مستكبرين.

ثم ذكر سبحانه العذاب الأنكى والأشد فى الآخرة فقال تعالى: ﴿**وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ وقوله «لهم» معناه أنه مختص بهم، ونكر العذاب لشدته، ووصف بأنه عظيم لقوته.

وكان اليهود الذين يساكنون النبى ﷺ فى المدينة وعقد معهم العقود، وانتهكوا حرماتها، ونقضوها - كثيرى القول فى الإسلام، لايتركون أمراً يظنونه مكيدة للمسلمين إلا فعلوه، ولا علما علموه فيه إلا نابذوه وأشاعوا بين المسلمين الشك فيه.

كانت القبلة ابتداء - وقد هاجر النبى ﷺ - إلى بيت المقدس، فأخذوا يشيعون فى المؤمنين تبعية محمد ﷺ إلى دينهم، وقد كان من قبل يتجه إلى القبلتين، ولكن لما هاجر كانت مكة تحت سلطان الشرك وفى قبضته والأوثان حولها ولم يكن فى ظاهر الأمر أنها ستخرج من أيديهم، وإن كان أخذ يضايقهم فى عيرهم؛ الرائح إلى الشام، والقافل منها.

مكث المؤمنون على الاتجاه إلى بيت المقدس فى صلاتهم ستة عشر شهرا حتى أذن الله تعالى بأن الأمور ستخرج من أيديهم، وقاربت غزوة بدر الكبرى فى علم الله تعالى، فحول القبلة إلى الكعبة، وكان النبى ﷺ حريصا على تحقيق ذلك، وكان يقلب وجهه فى السماء طالبا داعيا، فحوله الله تعالى إليها، فأخذ اليهود يشددون غمزهم فى القول لهذا التحويل ، ويتخذون ذلك سبيلا للطعن فى محمد ﷺ ودينه، ويقولون إن ذلك تقلب فى الإيمان واضطراب فى معرفة الحق، كيف يتغير من القبلة الحق - فى زعمهم - إلى ما دونها، وهم سفهاء حقا فى كلامهم.

وقد بين الله سبحانه أن ذلك لا يتعلق بلب الإيمان، فالقلب موطنه، والله يختار أى مكان يكون القبلة وذلك مثل قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾**﴾ [**البقرة**].

لما كثر لغط اليهود قال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ**﴾ أى أن الأرض كلها ملك لله سبحانه وتعالى مشرقها ومغربها، وما بينهما، والمشرق المكان الذى تشرق منه الشمس، والمغرب، المكان الذى تغرب فيه، ولا فضل لمكان على مكان إلا باختيار الله تعالى له، ﴿**فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ**﴾ أينما شرطية دالة على المكان وتولوا الفعل مجزوم بها، لأنه فعل الشرط، والجواب دل عليه «فثم وجه الله» أى فولوه واتجهوا إليه، فإن هناك وجه الله تعالى، فثم بمعنى مكان أو هناك وجه الله، والمراد ذاته العلية الكريمة وعبر بالوجه لأن الوجه بالنسبة للعباد هو الجزء الواضح البادى، وإذا رؤى فقد رؤيت الذات، ولذا كان فى التحدث عن الله تعالى الوجه هو الذات، كما قال تعالى: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾**﴾ [**الرحمن**].

ومعنى ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، ولوا وجوهكم فإنكم ستتجهون إلى الله تعالى إذ ستجدون الله بنوره وجلاله فى أى مكان. ولا يضير الإيمان أن يتغير الاتجاه من قبلة إلى قبلة؛ لأنه حيث كان يجد الله فيتجه، والأمر إليه سبحانه فى اختيار مكان اتجاه المؤمن.

ثم ذيل سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ والسعة بالنسبة لله تعالى سعة الملك، فالله تعالى واسع ملكه وسلطانه لا يقتصر ملكه وسلطانه على مكان دون مكان، بل كله فى ملكه سبحانه الذى وسع ملكه كل شىء، وهو عليم بما يجري فيه، فالعبادة المخلصة المحسنة يعلمها ويصل إلى صاحبها ثوابها، سبحانه وتعالى . .

اللهم أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها، وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة.

ليس بوالد ولا ولد

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾

تكلم القرآن الكريم عن اليهود، وخياناتهم وغدرهم فى ماضيهم وحاضرهم وكفرهم بآيات الله تعالى، ومع ما صنعوا ادعوا أنهم أهل الجنة، وأن النار لن تمسهم إلا أياما، وقالوا مع النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا أو نصرانيا، وذكر عنهم اختلافهم وتنابذهم مع أنهم يتلون الكتاب، ثم أشار سبحانه إلى كلامهم فى شأن القبلة ولجاجتهم فى التشنيع على المسلمين بشأن تحويل القبلة إلى الكعبة يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾.

وبعد ذلك يشير إلى الوثنية فى الديانة النصرانية المثلثة، التى ابتدأت بادعاء أن المسيح ابن الله، وإذا كان اليهود قد شاركوهم فى أن عزيرًا ابن الله، فإنهم لم يلجوا فيه، ويجعلوه جزءا من دينهم، كما لج النصارى قبحهم الله، وزادهم ضلالا فوق ضلالهم، ووهما فوق أوهامهم فقد ضلوا سواء السبيل ولا أمل فى هدايتهم إلا أن يتخلصوا عن هذه الأوهام وإلا فذرهم فى غيهم يعمهون، وإن الله تعالى يهدى من يشاء.

وقالوا - أى النصارى ومن قاربهم من اليهود، وإن لم يلجوا لجاجتهم - قالوا وعليهم إثم ذلك القول لأنه اختراع كاذب، ونسب سبحانه وتعالى القول إليهم، لأنه ضلالهم الذى به ضلوا، وخرجوا عن التوحيد إلى الوثنية.

وقولهم هو: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ أى أن الله تعالى هو الذى اختار ولدا، أو جعله ولدا، وهذا يدل على زعمهم الباطل من أن الله تعالى احتاج إلى أن يكون له ولد، ورغب فيه وأراده، أو اشتهى كما يشتهي الأحياء أن يكون له ولد لحاجته إليه.

وقد رد الله تعالى عليهم ذلك الزعم بأربعة أدلة تدل على بطلان ذلك الزعم الوثنى الذى يشابه مقالة عبدة الأصنام:

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أى تنزه عن ذلك وتقدست ذاته العلية أن تكون مشابهة لأحد من الحوادث الذين يتوالدون ويتناسلون، فهو الواحد الأحد الذى لا يشابه أحدا من خلقه، ليس كمثله شيء، ولو كان له ولد لكان مشابها للحوادث ولكان له زوج، كما قال تعالى: ﴿**بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ** ... ﴿١٠١﴾﴾ [**الأنعام**] وأنه لو كان له ولد تولد منه لكان له والد، وهو منزه عن ذلك فهو الواحد الأحد الذى ليس له والد ولا ولد.

الدليل الثانى: أنه لو كان له ولد لكان مفتقدا إلى من يكمل وجوده؛ لأن الولد امتداد لأبيه، فهو كمال وجوده، والله تعالى ليس بمفتقر لأحد؛ لأنه الكامل المنفرد بالكمال، وقد أشار سبحانه وتعالى إلى ذلك الدليل بقوله: ﴿**بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾، وبل هنا للإضراب والانتقال من تنزيه إلى تنزيه، والمعنى أن له

الملك الكامل والسلطان التام فى السموات والأرض، فيستحيل أن يكون محتاجا إلى ولد، بل كل الوجود فى سلطانه، وليس فقيرا إلى ولد يعينه، وهو يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر] وأن كل شىء خاضع لسلطانه مسبح بحمده كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء].

الدليل الثالث: أنه إذا كان الوجود كله ملكا لـه، فكيف يتخذ ولدًا، وإنه إذا كان الوجود كله ملكا له، فكيف يكون محتاجا له، وإن الوالد قد يحتاج للولد ليكون مسخرا فى حاجاته يقوم بحق الوالد عليه، والله لايحتاج إلى ذلك، لأن الوجود كله فى قبضة يده، وكلهم خاضعون له؛ ولذلك قال: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ والقنوت: هو الخضوع المطلق، والعبادة والتسبيح له سبحانه وتعالى. والتنوين فى قوله تعالى: ﴿كُلٌّ﴾ دال على عموم كل من فى الوجود خاضع لله تعالى لايحتاج إلى من يكون فى طاعته.

والقنوت يشمل العبادة من ذوى الإرادة، ومن يقنتون بمقتضى التكوين الفطرى، والتكوين كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد].

الدليل الرابع: أن الله تعالى هو الذى أبدع السموات والأرض على غير مثال، وخلق الوجود كله الأرض والسماء والأحياء فهو الذى ذرأ من فى السموات والأرض، وكلهم عبيده، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم] فكيف يكون له ولد، وأنه إذا كان له ولد، فإنه يكون من جنسه، ويكون من مثله والله المبدع للوجود والخالق منزه عن أن يكون بعضه من الحوادث والولد بعض أبيه وبضعة منه.

وقد أشار سبحانه إلى هذا بقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وبديع بمعنى مبدع أي منشئ على غير مثال سبق، وقد أخذ بعض المفسرين من هذا دليلاً

على أنه لا يمكن أن يكون الإبداع متفقا مع اتخاذ الولد، فقد قال الراغب فى ذلك: «إن الأب هو عنصر للابن منه تكون، والله مبدع الأشياء كلها فلا يمكن أن يكون عنصرا للولد، فمن المحال أن يكون المنفعل فاعلا» اهـ.

وإن هذا بلا ريب يتنافى مع الإبداع.

وإن الذين قالوا: إن الله اتخذ ولدا قالوا: إنه نشأ عنه ملازما له، كما ينشأ الضوء من الشمس وكما ينشأ النور من السراج، أى أنه نشأ من الموجد الأول نشوء المعلول من علته والمسبب عن سببه، وهم قالوا ذلك آخذين له من الفلسفة، وهى الأفلاطونية التى تتوافق مع النصرانية تمام التوافق، وهى بعد أن حرفت عما جاء به المسيح عليه السلام كما هى والأفلاطونية الحديثة على سواء.

فهم يقولون: إن الله ليس فاعلا مختارا وإنما نشأ الولد نشوء المعلول عن العلة؛ ولذلك كان رد الله تعالى عليهم بإثبات ملكه وقدرته على الخلق والتكوين، وأنه أبدع السموات والأرض بإرادته رَدٌّ لكفرهم وضلال عقولهم، وأوهامهم الباطلة، التى ضلوا بها، وأضلوا الناس بالدعوة إلى تصديقها.

ولقد بين سبحانه إرادته المختارة بأنه مبدع السموات، وبقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ أى أنه إذا أراد خلق شىء ممكن قال له كن فيكون.

والواو عاطفة والمعطوف عليه بديع السموات والأرض، «بديع» صيغة مبالغة بمعنى مبدع فهى فى معنى الفعل؛ ولذا صح عطف الفعل عليها، أو عطف الجملة الفعلية عليها.

وهى بيان الاختيار والفعل المنافى للتوالد، وقضى بمعنى أنشأ وخلق وكون، والأمر هنا هو بمعنى الشىء فإذا أراد الله تعالى خلق شىء لا يكون بتوليد شيء في شيء أو مادة من مادة، إنما يكون بكلمة يقولها وهى «كن» والأمر أمر تكوينى فيكون الشىء الذى أراده الله تعالى.

وهذا يدل على أمرين :

أولهما ـ أنه سبحانه وتعالى فاعل مختار يفعل ما يريد، وأن الأشياء نشأت بإرادته المختارة، فهو فعال لما يريد، والأشياء لم تنشأ نشوء المعلول عن علته، أو المسبب عن سببه.

ثانيهما ـ أنه لايمكن أن يكون له ولد؛ لأن الولد يتولد عن والد، ولايخلق الله تعالى الأشياء بطريق التوالد، من توليد لاحق بسابق، بل إنه سبحانه وتعالى ينشئ فى الابتداء، والتوالد بين الأحياء يكون بسلطانه، وبحكمته وهو العزيز العليم.

إن المسيحية بعد المسيح عليه السلام سارت فى ذلك المسار الذى انتهى بوثنيتها وانحرافها، وتحللها من العقيدة التى دعا إليها المسيح عليه السلام، وهى عقيدة المسيح، وأنه رسول الله تعالى، وأنه عبده ﴿**لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ** ... (١٧٢)﴾ [**النساء**] وقد تم ذلك على النحو التالى:

أ - عندما توفى الله المسيح إليه، توالى التعذيب على أتباعه، والتعذيب ابتدأ فى حياته عليه السلام فى هذه الدنيا فقد اضطهده اليهود ودسوا عليه عند الرومان حتى هموا بصلبه ونجاه تعالى إذ شبه لهم، وما قتلوه وما صلبوه وتوالى من بعد ذلك تعذيب الرومان، فى عهد ملوك كثيرين منهم، فكان منهم نيرون الذى كان يطلى أجسامهم بالقار ويشعل فيه، ويسيرون فى مواكبهم مشتعلين، وكان زينة موكبه تلك المشاعل الإنسانية، ومنهم دقلديانوس الذى قتل مقتلة عظيمة فى سنة ٢٨٢ ، وإنه فى وسط هذا الاضطهاد كان المسيحيون يقيمون شعائرهم الدينية فى الخفاء إذ كلما ظهروا عذبوا، وكانوا إذا ظهروا أخفوا عقائدهم فكانوا يفتشون القلوب وينقبون عن خبايا النفوس، ولا يسلم الدين مع هذا الاختفاء إذ لا يكون مرشد هاد، ولارقيب يمنع دخول الزيف فى دينهم.

ب ـ وفى هذه العصور دخلت عناصر من الوثنيين يحملون وثنيتهم، وخلطوا ما بينها وبين عقيدة التوحيد التى جاء بها المسيح عليه السلام، وإن الاختلاط بمرضى الحقائق يجعل الضلال يسرى إليهم كما تسرى عدوى الأمراض.

ولعل أشد الوثنيين الـذين أغاروا عليهم ـ بولس، الذى سموه رسـولا، فقد كان عـدوا للمسيح فى حـياته فى هذه الدنيا، كـان إلبًا عليه يحـرض الرومان، ثم ادعى أنه دخل المسيحـية، وما دخل، أو دخلها ليخـربها وهو أول من أدخل الوثنية فيها، واطرح فيها تعاليم المسيح اطراحًا.

جـ ـ وقد كـانت الأفلاطونية الحديثـة تتكون، وأساسها أن الأوثان الرومـانية فقدت قوتها، والفلسفة هى الأخرى فقدت سلطانها، فأرادت الأفلاطونية الحديثة أن تصل إلى نفـوس الرومان باسم الدين وأرادت أن تجـمع من بقايا من الوثنـية، ومن اليهودية والنصرانية التى ظهرت دينا جديدا، فكانت النصرانية التى خرجت عن دين المسيح عليه الصلاة والسلام، وهى جمـعت بين الوثنية بألوهية المسيح وروح القدس مع الله، واليهودية باعتبار التوراة أصلاً لها فصارت النصرانية.

والأفلاطونية الحديثة التي يعد أكبر رؤسائها أفلوطين المتوفى سنة ٢٧ ميلادية تعتـقد أن العالم نـشأ عن الشىء الأول، وهو الله أو العقل الأول عـندهم، ثم نشأ عنه العقل الثـانى وهو ماسـمى عند النصارى بالابن، ثم نشـأ عنهما الروح العـامة المتصلة بالمخلوقات جميعا.

د ـ مع هذه الأعراض التى ظهرت فى المسيـحية، ومع هذه المحاولات الوثنية كان التوحيد هو المسيطر وهو الأكثر أتباعا فى القرون الثلاثة الأول والثانى والثالث، وخصـوصا فى الأول والثانى، وإذا كانت وثنيـة تظهر، فإن الكثـرة الموحدة تطردها كما يطرد الجـسم السليم بحيويته الأمـراض ويتغلب عليها، واستـمرت كذلك طول هذه القرون الثلاثة.

حتى جاء بَطريق الإسكنـدرية، وهى موطن الأفلاطونية الحديثـة، جاء باتفاق مع قسطنطين إمبـراطور الرومان فى أول القرن الرابع، وادعى أن التوحـيد بدعة فى المسيحية، وأن الأصل فيهـا ألوهية المسيح فىْ زعمهم، وأن آريوس الموحد وكان فى الإسكندرية قـد ابتدع التـوحيد مع أن كـل كنائس مصـر والشام موحـدة لا يرتاب أتباعها فى ذلك.

وأنه يجب طرد أريوس الموحـد المنكر لألوهية المسـيح من المسـيحيـة، مع أنه صورة للكثرة المسيحية الكاثرة التى كانت منبثة فى ربوع مصر والشام.

هـ - دعى بسبب هذا لعـقد مؤتمر عام فى نيـقية الذى عده النصـارى المصدر الأخير لديانتهم، دعى فى هذا المجمع العـام ٢٠٤٨، ثمانية وأربعون وألفا أسقف، وجرى بيـنهم اختلاف، والسـائد فيـهم التوحـيد وإن كـان فيه انحـراف من بعض الطوائف.

ولكن قسطنطين يريد الـدخول فى النصرانية، بعـد أن يصيرها قـريبة من دينه بإدخال الوثنيـة فاختار من هذا العـدد الكبير ٣١٨ أى ثمـانية عشر وثلاثمـائة، وقد رضوا بما يدعو إليه، وسلطهم على المسيحيين كلهم وأعطاهم شارة الملك وصولجانه.

فقـرروا ألوهية الابن أى المسـيح بقيادة بطريق الإسكنـدرية مهد الأفـلاطونية الحديثة، وكان ذلك المجمع سنة ٣٢٥.

ولكن المسيـحيين عـارضوا ذلك المجمع، واعـتبروه خارجـا على المسيحـية، وأيدت المعارضة مؤتمرات فى الشام كمؤتمر صور.

ولكن الأفلاطونية الحديثة لم تتم فصولها، فقد تقررت فى هذا المجمع ألوهية الابن فى زعمهم، ولكن ثالوث الأفلاطونية الحديثة الله أو الأب، أو العقل الأول، والابن أو العقل الثـانى، وروح القدس لم يتقـرر بعد! ولذا كان لابد من أن يتـقدم بطريق من الإسكندرية سنة ٣٨١ بطـلب تقرير ألوهيـة روح القدس فـانعقـد مؤتمر القسطنطينية، وقرر باقتراح بطريق الإسكندرية ألوهية روح القدس.

وبذلك تم ثالوث النصارى، وهو ثالوث الأفلاطونية الحديثة ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ** ... ﴿٧٣﴾﴾ [**المائدة**] وهم بهـذا وثنيون يـشركـون مع الله أحدا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

تشابه المشركين وأهل الكتاب

وَقَالَ ٱلَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌۗ كَذَٰلِكَ
قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْۗ
قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ
بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾
وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْۗ قُلْ إِنَّ
هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ
مِنَ ٱلْعِلْمِۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ
ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾

اليهود يتعنتون والمشركون طلبوا آيات مختلفة، آيات حسية مطَّرحين الآيات المعنوية، مع أن الله تعالى أجرى على يديه خوارق للعادات باهرة كالإسراء، والطعام الكثير من الغذاء القليل، وَسَحِّ الماء بين يديه، وحنين الجذع إليه، وتعشيش اليمام حول الغار، وسير السحاب معه لتظله، ونصره بالرياح وقد اشتدت الشديدة، وغير ذلك كثير، ولكنه لم يتحد إلا بالقرآن؛ لأنه الآية الكبرى، والمعجزة الدائمة القاهرة.

ولقد قال تعالى فى ذلك: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾** الذين أى الذين لم يؤتوا علما سابقا وهم الأميون، وتكون الآية الكريمة نصًا فى المشركين؛ لأنهم الأميون الذين لم يعلموا كتابا ولم

يكونوا من أهل الكتاب، وقد جرى تعبير القرآن بذلك فى مقابل أهل الكتاب، ولقد طلبوا آيات مختلفة، فطلبوا أن ينزل عليهم قرطاسا من السماء يخاطبهم به الله، أو ملكا رسولا، كما رد الله تعالى عليهم بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام].

وهذا على أن الذين لا يعلمون هم المشركون، لقد طلبوا هذا وطلبوا آيات كثيرة فى سورة الإسراء وتلونا من قبل قوله تعالى: ﴿لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ لولا هنا للتحريض والطلب، تقارب معنى هلا، وليست للشرط الدال على امتناع الجواب لوجود الشرط، مثل: ﴿لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ [سبأ] والفرق اللفظى أن لو التى تكون للطلب يكون بعدها الفعل، ولولا الشرطية يكون فى صدر فعلها اسم، كما دل على ذلك استقراء اللغويين، وفسر كثيرون من الفقهاء، أن الذين لا يعلمون هم من أهل الكتاب الذين حضروا عصر النبى ﷺ، ويرشح لهذا التفسير قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ فقد قال الذين من قبلهم أرنا الله جهرة.

وقوله تعالى: ﴿مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أى فى التعنت وطلب الآيات الحسية، وإذا كانوا قد طلبوا ذلك مع تسع آيات بينات حسية، فإن الذين فعلوا مثلهم طلبوا ذلك مع ما هو أعظم من ذلك، وهو القرآن المعجزة الإلهية الكبرى.

وليس فى الأمر تضاد بين الرأيين؛ ولذلك يكون الجمع بينهما أولا، فالذين لا يعلمون الحق، ولا يدركون معانى الإيمان طلبوا ذلك سواء أكانوا من المشركين، أم كانوا من اليهود والنصارى المتعنتين الذين إذا كان علمهم بالكتاب فقد جهلوه أو تجاهلوه أو أنكروه، فهم مع الذين لا يعلمون على حد سواء.

وقد بين الله سبحانه وتعالى تشابه ما بين ماضى الكافرين وحاضرهم، فقال تعالى: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أى أن قلوبهم تتشابه فى الإلحاد فى دين الله

تعالى، وتعنتهم فى طلباتهم، وجحودهم المستكن فى قلوبهم الذى يظهر على أقوالهم، فإذا كانت أقوالهم متحدة، فلأنها ناشئة من قلوب متحدة فى أنها لا تؤمن بشيء، ولقد جاء عيسى ببينات قاطعة من إحياء للموتى وإخراج لما فى القبور، وتصوير للطين ينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله تعالى. جاءهم بكل هذا فقالوا: هذا سحر مبين فالجاحد لا يؤمن بشيء وليس عدم إيمانه لنقص فى الدليل، بل كلما زاد الدليل قوة زادوا عنتا وكفروا، وصرفوا عقولهم ونفوسهم لا فى الإيمان به، بل فى إعمال الحيلة لرده.

ولذلك رد الله تعالى عليهم بقوله تعالى: ﴿**قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾ أكد الله سبحانه وتعالى أنه بين للذين لا يعلمون فى الحاضر، والذين قالوا مثل قولهم فى الماضى، وأتى لهم بآيات من شأنها أن تدخل إلى القلوب بالإيمان، ولكن بشرط تقبل القلوب للحقيقة، وإن من شأنها أن توقن بالحق إذا عين لها دليله؛ ولذا قال تعالى: ﴿**لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾، أى من شأنهم أن يوقنوا عند وجود الدليل، لا يترددون وليس من شأنهم التردد، وينتهى ترددهم بالجحود.

إن الدليل إذا كان قويا صدقوا بعقولهم، ولكن إذعانهم لا يكون إلا إذا كانت قلوبهم خاضعة من شأنها اليقين، وقد تستيقنها النفس ولكن لا تسكن القلوب إلا إذا كان اليقين من القلب المؤمن بالحق أو المستعد له الذى يقذف الله تعالى فى قلبه بالنور؛ ولذا قال تعالى فى شأن الجاحدين المتعنتين: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ** ... (١٤)﴾ [**النمل**].

والآيات هنا إذا كانت عامة للحاضرين والماضين فهى الآيات التى سبقت لموسى ولعيسى، وآية محمد الكبرى، وهى القرآن العظيم الخالد الباقى إلى يوم القيامة.

ومعنى قوله: ﴿**قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ**﴾ قد أنزلنا بينة مقنعة بذاتها؛ لأنها العلامات والأمارات القاطعة فى الدلالة على الله، وعلى نبوة الرسول الذى بعثه الله تعالى.

ويلاحظ أن هذا فى موضوع نسخ الآيات المعجزات، واستبدال آية بآية، والقرآن الكريم فى هذا النسق يفصل بعضها وما عرض من أخبار اليهود والنصارى والقبلة. والاعتراض والرد لم يكن بعيدا عن ذلك بعدا تاما.

وإن هذا التعنت فى طلب الآيات، وعقد مشابهة بين آيته الكبرى، وآيات النبيين السابقين التى لم تأت بإيمان أهل الكتاب بل عاندوها، وجحدوا بها، وقالوا: هذا سحر مبين، وقالوا ائتنا بآية غير هذا القرآن، وقد ذكر أنه إن نسخ آية أى تركها يأت بمثلها، أو خير منها.

ولذا ذكر سبحانه وتعالى أن رسالة النبى ﷺ حق فى ذاته يدعو إلى نفسه، وقد أيدت بآية هى حق، ويدعو إلى الحق، فقال تعالى: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً**﴾ أى إنا بعثناك نبيا مرسلا، مقترنة أو متلبسة رسالته بالحق، فهي حق يثبت نفسه، وما فيها حق، وما تدعو إليه حق، والحق وحده كاف لإقناع من يكون عنده قلب يدركه، ويمتلئ قلبه حكمة، وبصيرة، وإذا كان القلب مخلصا أدرك وآمن، يروى أن أكثم بن صيفى حكيم العرب عندما بلغه بعث النبى ﷺ أرسل ولده يسألون عما يدعو إليه فلما ذهبوا إليه تلا عليهم قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾**﴾ [**النحل**] فلما عادوا تلوا على أبيهم ما تلاه عليهم النبى ﷺ، فقال حكيم العرب: إن هذا إن لم يكن دينا كان فى أخلاق الناس أمرًا حسنًا، كونوا يا بنى فى هذا الأمر أولا، ولا تكونوا آخرًا فالحق نور يدعو إلى اتّباعه.

وقوله تعالى: ﴿**بَشِيراً وَنَذِيراً**﴾ أى مبينا الحق، ومبينا أن جزاء من تبعه الحسنى، ومبينا أن من يعانده يكون السوء مصيره فـ ﴿**بَشِيراً**﴾ بيان لبشرى من يتبع، و ﴿**نَذِيراً**﴾ بيان للسوءى لمن يعاند ويجحد، إنما أنت عليك البلاغ وإنما أنت نذير، لما قال تعالى: ﴿**وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾**﴾ [**الرعد**]، و ﴿**وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ**﴾ لست أيها الرسول مسئولا عمن يترددون فى الضلال، وهم أصحاب الجحيم، وعبر سبحانه وتعالى

عنهم للدلالة على ما يستقبلهم من عقاب فللذين أحسنوا الحسنى وللذين أساءوا السوءى.

والجحيم وصف من الجحمة والجحمة شدة تأجج النيران، والمعنى لا تسأل عن الذين يلازمون النار ملازمة الصاحب فهم أصحابها والمختصون بها.

وإنه لا يسأل عنهم، فهو النذير العريان الذى لا يتحمل تبعة مخالفة المخالفين، بل هذا جزاؤهم وهو بشير أو نذير، ﴿**بالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلنفْسه وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا** ... ﴿٤١﴾﴾ [الزمر] ﴿**وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْه آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ** ﴿٧﴾﴾ [الرعد] فلست بمسئول عمن كفر وطغى.

وإن الذين يثيرون القول فى الآيات البينات وخاصة معجزة القرآن هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين غلفت دون الهداية قلوبهم، وتعصبوا لأوهام باطلة سيطرت على نفوسهم، وحسبوا ألا يكون دين فوق دينهم يجب اتباعه، وجهلوا ما عندهم، وضلوا فيه ضلالا مبينا، وغاضبوا محمداً ﷺ؛ ولذا قال تعالى: ﴿**وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ**﴾ فى هذا النص إشارة إلى أنهم هم الذين يعارضون، ويتعنتون؛ لأنه سبق إليهم ما يحسبون به أنهم فوق أن يتبعوا غيرهم، بل غيرهم عليه هو أن يتبعهم، وقد أكد الله تعالى أن ذلك المعنى فى نفوسهم، فنفى عنهم الرضا على النبى ﷺ نفيا مؤكدا للحال التى كانوا عليها عند المبعث المحمدى؛ لأن رسالته عليه الصلاة والسلام، واجهت فى نفوسهم شعورا مملوءًا بالضلال والهوى والانحراف عن الجادة المستقيمة، ولكى يدخل الحق إليها لابد من تفريغ ما فيها من ضلال وفساد، وهداية النفس الخالية من فساد المنكر أقرب من النفس الممتلئة بالباطل.

فهم يريدون أن يكونوا متبوعين لا تابعين، وتلك توجد فيهم جحودا، وقسوة فى قبول الحق لا يقل عن المشركين، فى تمسكهم برياساتهم، وشرف قبائلهم وعشايرهم، والمنافسات بينهم.

والملة هى الشريعة، وقد قال الراغب فى مفرداته: (الملة كالدين وهى اسم لما شرعه الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء ليتوسلوا به إلى جوار الله تعالى، والفرق بينها وبين الدين أن الملة لا تضاف إلا إلى النبى عليه السلام التى تسند إليه نحو ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ... ﴿٩٥﴾﴾ [آل عمران]، ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي ... ﴿٣٨﴾﴾ [يوسف] ولا تكاد توجد مضافة إلى الله، ولا إلى آحاد أمة النبى، . . . لا يقال: ملة الله، ولا يقال: ملتى، ولا: ملته).

وعلى ذلك يكون: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ أى الملة التى جاءتهم عن أحبارهم ورهبانهم، وإن ملة اليهود، ومثلها ملة النصارى أوهام أوجدتها شهوات حبيسة، فملة اليهود أهواء وملة النصارى أوهام وأهواء، وكلهم ضلال فى ضلال.

ولذا قال تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ أكد الله سبحانه وتعالى نهى النبى ﷺ باللام الدالة على القسم مع إن، وهما أشد ألفاظ التوكيد فى بيان عاقبة الاتباع، وأنه إذا كان الاتباع المنهى عنه نهيا مؤكدا، فالعاقبة ألا يكون لمن اتبع أهواءه إلا أن ينزل عليه عقاب الله تعالى، ولا يكون له ولى محب يدفع عنه، ولا نصير ينصره من غير الله.

فمعنى النص السامى أنك أيها الرسول إن اتبعت أهواءهم فإنه من المؤكد أن العذاب نازل، ولا ينجيك منه ولى ولا نصير.

وهنا ملاحظتان بيانيتان: **أولاهما** - أن تحذير النبى ﷺ لا يقصد به شخصه أولا وبالذات، إنما يقصد به أتباع محمد ﷺ، وأن عليهم أن يحرصوا على مجانبتهم، وألا يغتروا بهم، وإنه فى وقت ضعف النفوس المؤمنة يكون كيد هؤلاء مستمرا، دائمًا ومذهبا يصلون به إلى قلوب ضعاف الإيمان، فقد يميلون - وإن لم يكفروا - فيستحسنوا ما عندهم، وإنا نرى من ضعفاء الإيمان فى عصرنا من يستحسنون كل ماعند النصارى واليهود، فإذا ذكرت أحوالهم استحسنوها، وإذا

ذكرت مكارم المسلمين استهجنوها، حتى طمع أولئك الفجرة الفسقة فى بعض المسلمين، فأخذوا يستهوونهم بكل الأساليب، وقى الله أهل الإيمان منهم.

الملاحظة الثانية - أن هؤلاء ما عندهم ليس بدين يتبع، ولكنه أهواء باطلة وأوهام فاسدة، وأى عقل يدرك أن الواحد اثنان وأن الاثنين ثلاثة ؟!! ولكنها أوهام ضالة، والله المنقذ من الضلال.

وإن الله تعالى منصف فى أحكامه، فهو سبحانه وتعالى لا يعمم فتشمل البرىء والسقيم؛ ولذا بعد أن ذكر حال اليهود فى عصر النبى ﷺ بين أن من أهل الكتاب من يتلونه حق تلاوته، ويتعرفون غايته ومراميه، وإن هؤلاء يؤمنون بمحمد ﷺ، ويتبعونه؛ ولذا قال تعالت كلماته: ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ**﴾.

آتيناهم معناها أعطيناهم، وتقبلوا العطاء بنفس شاكرة، وعقل مدرك وقلب مؤمن، فلم يكن إعطاؤهم كأى إعطاء، والكتاب هو ما أعطاهم الله تعالى من قبل كتوراة موسى أخذوها من غير محاولة تحريفها، وإنجيل عيسى أخذوه كما هو داعيا إلى الوحدانية مع الإيمان بأنه بشر كسائر البشر، رسول كغيره من الرسل أولي العزم، ليس ابنا ولا إلها، قال لقومه: اعبدوا الله ربى وربكم، فالكتاب هو كتاب أهل الكتاب، وهم الذين عرفوه، وقوله تعالى: ﴿**يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ**﴾ أى يتعرفون معناه فينزجرون بزجره، ويتعظون بعظاته، ويعتبرون بقصصه؛ ولذلك فسر بعضهم التلاوة فى هذا المقام بالاتباع، كما فى ﴿**وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا** ۝٢﴾ [**الشمس**]، أى تلا الشمس أى اتبعها واستضاء بنورها.

فمعنى ﴿**حَقَّ تِلاوَتِهِ**﴾ أى التلاوة الحق، وهى التلاوة المتبعة المتفهمة المدركة، والمتقبلة غير المعاندة. وبين سبحانه وتعالى جزاءها وأوصاف أهلها فقال تعالت كلماته: ﴿**أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ**﴾ يصدقونه ويذعنون لما يأمر به وينهى عنه، ويعملون بموجبه.

وهؤلاء هم من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [آل عمران].

وهم الذين قال تعالى فيهم: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [القصص].

هذا التفسير على أساس أن الكتاب هو كتاب أهل الكتاب الذى آمنوا به ولم يحرفوه عن مواضعه، ولم يكتبوه بأيديهم ويلوون به ألسنتهم، ويقولون هو من عند الله، وما هو من عند الله.

ولكن من المفسرين من قالوا إنه القرآن الكريم، وإطلاق اسم الكتاب عليه من غير ذكر أنه القرآن، للدلالة على كماله وأنه لا يماثله من الكتب كتاب ولو كان سماويا؛ لأنه الكتاب الكامل الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، مثل قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ ... ﴿٢﴾﴾ [البقرة].

ويكون معنى تلاوته حق تلاوته أن يتدبر معناه، ويتعظ بمواعظه، ويعتبر بقصصه كما ذكرنا آنفا، ولقد كان النبى ﷺ وهو يتلو القرآن إذا مر بآية رحمة سأل، وإذا مر بآية عذاب تعوذ(1) ولقد قال عمر رضى الله تبارك وتعالى عنه، فى معنى قوله: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ﴾: الذين إذا مروا بآية رحمة سألوها من الله وإذا مروا بآية عذاب استعاذوا منه ولقد قال الحسن البصرى فى الذين يتلونه حق تلاوته: هم الذين يعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه، ويتفهمون معانيه.

---

(١) عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ قَالَ فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ رَأْسَ الْمِائَةِ فَقُلْتُ يَرْكَعُ ثُمَّ مَضَى حَتَّى بَلَغَ الْمِائَتَيْنِ فَقُلْتُ يَرْكَعُ ... الحديث إلى أن قال: «وَكَانَ إِذَا مَرَّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ سَأَلَ وَإِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا عَذَابٌ تَعَوَّذَ وَإِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَنْزِيهٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ سَبَّحَ». [أخرجه أحمد: كتاب باقى مسند الأنصار (٢٢١٧٥) وغيره، وأصله عند مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها (١٢٩١)].

هؤلاء هم أهل الإيمان - من الماضين - بكتبهم، المؤمنون بالقرآن الكتاب الأكمل، أما من كفروا فقد ذكر الله تعالى ما يستميلهم، فقال تعالت كلماته: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الكفر به جحود بآياته وإنكار لأحكامه، ومعاندة، وقال أولئك الإشارة إليهم محكمين كفرهم متصفين به، وحكم سبحانه بالخسران مؤكدا له بضمير الفصل هم، وبالجملة الاسمية وبحصرهم فى الخسران، والله أعلم بهم.

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ
أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا
لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا
شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

تقدم بيان معانى هاتين الآيتين الكريمتين(١)، وبقى أن يسأل سائل لماذا تكررت الآيتان، ونقول إنه ابتدأت قصة بنى اسرائيل بهاتين الآيتين، وذكر من بعدها النعم المتوالية، والكفر المتوالى، وكيف كانت النعم لا تزيدهم إلا كفرًا وخسارًا، وذكر سبحانه وتعالى تقلبهم فى نعمه تبارك وتعالى، وكفرهم المتوالى بهذه النعم.

وفى ذلك اعتبار للناس، وتسلية للنبى ﷺ، وأنه كان فى قصصهم عبرة لأولى الأبصار، وأنه ما كان حديثا يفترى.

وفى ختام قصصهم فى هذه السورة (سورة البقرة) تأكيد لنعمه عليهم، وتأكيد لم كان زجرهم؛ ليتبين أن ابتداء أمرهم كنهايته. ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأعراف].

---

(١) راجع تفسير الآيتين ٤٧، ٤٨ من سورة البقرة فى هذا التفسير المبارك.

إبراهيم وبناء الكعبة

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾

بعد أن قص الله تعالى ما أنعم به على بنى إسرائيل وما كفروا به هذه النعم فى حاضرهم وماضيهم، وكانوا يفخرون بأنهم أولاد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وإنهم لهذا أبناء الله وأحباؤه، وما أداهم ذلك الاعتقاد الواهم الباطل إلى ضلال توارثوه، وفساد فكر تناقلوه، وكفر بالله، وقتل للنبيين، أخذ سبحانه يقص قصص إبراهيم أبى إسماعيل وإسحاق وجدّ يعقوب وجدّ النبيين الذين ذكروا فى التوراة والإنجيل والقرآن.

يقول سبحانه: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ و«إذ» ظرف زمان يدل على الماضى متعلق بمحذوف تقديره: اذكر الوقت الذى ابتلى الله فيه إبراهيم بكلمات فأتمهن، وذكر الوقت ليس ذكرًا للزمن المجرد، إنما هو ذكر للوقائع فى هذا الزمن، للعبرة بها، والاتعاظ فى مثلها.

وقد ابتدأ هذه الوقائع بابتلاء إبراهيم عليه السلام بكلمات، والابتلاء معناه الاختبار من الله تعالى لا عن جهل بما سيكون، بل لإظهار ما علمه الله تعالى عما

يكون، ولا يكون إلا فى أمر يعمله العبد بمجاهدة، وصبر وجهاد نفس، وقد كان الابتداء بذكر الابتلاء لبيان أن إمامة النبوة لا تكون إلا بمجاهدة، وجهاد نفس، وقدم المفعول على الفاعل وهو «الكلمات» التى ابتلى بها؛ لأن موضع الحديث هو إبراهيم ذاته وليست الكلمات، فكان هو موضع الاهتمام وحده، وكان المراد كشف حال نفسه القوية الطاهرة، كما قال تعالى: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ ... (٣١)**﴾ [**محمد**].

والكلمات التى اختبر الله تعالى بها إبراهيم، ليست هى ألفاظها وكلماتها وحروفها، إنما المراد بالكلمات المدلولات والمطلوبات التى تتضمنها من أوامر ونواه، ووقائع.

وقد اتجه بعض مفسرى السلف إلى إحصاء ما تدل عليه هذه الكلمات، واعتمدوا فى ذلك على أقوال الصحابة والتابعين ، ولكن لم يسند فيها إلى الرسول ﷺ شىء؛ ولذا قال شيخ المفسرين السلفيين ابن جرير: لايجوز الجزم بشىء مما ذكروه منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو إجماع . . ولم يصح فى ذلك خبر بنقل الواحد، ولا بنقل الجماعة يجب التسليم له. اهـ.

وإذا كان لم يصح خبر بهذه الكلمات أو بالوقائع التى تدل عليها الألفاظ، فإننا نتلمسها من القرآن الكريم سجل النبوات وأخبارها.

وأول واقعة تجلى فيها اختبار الله تعالى لإبراهيم هو فى طلبه معرفة ربه رب الوجود، ورب المشارق والمغارب، فقد اختبره الله تعالى بذلك - كما حكى القرآن الكريم - **فقد كفر بالأوثان، ابتداء**؛ لأنها لا تنفع ولا تضر، ثم أخذ يتعرف رب الوجود من الوجود والملك واقرأ قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا**

أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الأنعام].

هذا اختبار من الله تعالى عرف به عقل إبراهيم السليم، وإدراكه المستقيم.

وقد اختبره الله تعالى وألهمه أن يحطم الأوثان فحطمها، وجعلها جذاذا، وألقوه فى النار عقابا فقال الله تعالى: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنبياء]. **واختبره** الله تعالى بكلمة مدلولها أشد ما يكون على النفس البشرية أن **يذبح ولده البكر إسماعيل عليه السلام**، فاستجاب لأمر ربه، وأخذ يذبح ولده الحبيب استجابة للحبيب، ولكن فداه الله تعالى بذبح عظيم.

واختبره الله تعالى **بالهجرة** من بلده إلى الشام، وإلى مكة حيث ولده العزيز اسماعيل وأمه واختبره الله تعالى بالحنيفية السمحة فحملها وكانت ملته المتبعة، وما كان من المشركين.

اختبره الله تعالى بكلماته، أى بمدلولها، وما ذكرنا بعضها، فأتمهن أى أتم ما طلب منه فيها، وكان أمرها عظيما وكان إبراهيم فى إتمامها عظيما.

ولذا كانت مكافأة الله تعالى له أعظم، فكانت جزاء وفاقا لما أتم به الكلمات، قال الله تبارك وتعالى لخليله إبراهيم: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أى يقتدى به ويتبع، فالإمام ما يؤتم به ويتبع و«جاعلك» أى مصيِّرُك بإتمام الكلمات، ووفائك لهذا قدوة طيبة، وأسوة صالحة، فمن اتبعك فقد اهتدى، وأى امرئ عنده طاقة إبراهيم أبى الأنبياء فى القدرة على الاقتداء به، والاهتداء بهديه والوفاء بكلماته إن ذلك لمقام عظيم.

وإبراهيم كان شفيقا رفيقا محبا لأسرته فى غير ظلم ولا اعتداء، وكان يعطف على الأطفال ويرفق بهم؛ ولذلك لم يكتف بأن كان هو الإمام، بل أراد أن يكون

إمام من ذريته يعمل بمثل عمله ويقتدى به فى الهداية، فهو يطلب الهداية لذريته لاستئثارا بالمحبة ولكن بالتقوى والهداية؛ ولذلك قال مناجيا ربه: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أى اجعل يا رب العالمين من ذريتى أئمة صالحين يؤتمون ويقتدى بهم، فهو يدعو الله تعالى إلى أن تكون ذريته طيبة صالحة يقتدى بهم، فتكون خلفا له فى الإمامة لا بمجرد الانتساب إليه بل لعملهم وتقواهم وإيمانهم بكلمات الله.

ولكن الله تعالى العليم الذى يعلم كل شيء يعلم ما هو كائن، وما يكون أشار إلى أنه لن تكون ذرية إبراهيم كلها من الصالحين الذين يؤتم بهم، بل سيكون منهم الظالمون الذين يظلمون أنفسهم، وغيرهم بالمعاصى يرتكبونها وبالشر يعملونه ويطلبونه؛ ولذا قال تعالى: ﴿قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

أى أن ذريته سيكون منهم محسن، وسيكون منهم ظالم لنفسه، بالمعاصى، فالمحسنون ينالهم عهدى، ويكون منهم أئمة يقتدى بهم، وأما الظالمون فلن ينالوا إمامة فى الدين من الله سبحانه وتعالى، وقد قال تعالى: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣)﴾ [الصافات] والمعنى أن ذرية إبراهيم من أحسن منها نال الإمامة، ومن لم يحسن فهو ظالم لا ينالها؛ لأنه يضل الناس، ولا يهدى أحدا؛ ولذلك كان من ذريته أئمة فى الدين، وقد قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧)﴾ [العنكبوت].

والعهد فى اللغة مراعاة الشيء والمحافظة عليه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥)﴾ [طه] والعهد أيضا الأمر الموثق الذى لايجوز نقضه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً (٣٤)﴾ [الإسراء] وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ... (٩١)﴾ [النحل].

والعهد فى هذه الآية هو الإمامة، وكأنها مأخوذة من العهد بمعنى الرعاية فعهد الله تعالى أن يعهد برعاية الدين والإمامة إلى إمام فى الدين، وإنه لا ينال هذه

الإمامة ظالم، ولايشمل عهد الله بمعنى أن يعهد بالرعاية للظالمين، أى لا يشمل عهدى ظالما قط.

وقد تكلم بعض المفسرين على ضوء هذه الآية الكريمة على الولاية وإمامة الناس، فقال بعضهم: إن هذه الآية تدل على أنه لا يجوز ولاية الظالم، ولا يصح أن يكون إماما، وأنه إذا ولى ظالم لا تجوز طاعته، أو على الأقل فى ظلمه، وقال آخرون: تجب طاعته فى الطاعة وتجب مخالفته فى المعصية؛ لأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، ويستمر فى ولايته، ويُسعى فى تغييره.

وإن الاتفاق على أنه لا يجوز تولية الجائر، ولكن أتسقط ولايته بجوره؟، أم تبقى ويُسعى فى تغييره؟ المعتزلة والشيعة والخوارج قالوا: لا طاعة له، ويغير بالقوة.

والذى عليه الأكثرون كما قال القرطبى: أن الصبر على طاعة الإمام الجائر أولى من الخروج عليه؛ لأن فى منازعته والخروج عليه استبدال الخوف بالأمن، وإراقة الدماء، وانطلاق أيدى السفهاء وشن الغارات على المسلمين والفساد فى الأرض.

وقد كان الإمام مالك يمنع محاربة الخوارج وأمثالهم إذا خرجوا على الظالمين ويقول: دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم ثم ينتقم من كليهما، ولكن إذا خرجوا على مثل عمر بن عبد العزيز وجب على الناس أن يقاتلوهم ويمنعوهم من طغيانهم.

أنعم الله تعالى على العرب بإبراهيم عليه السلام إذ جعل البيت الذى بناه وهو بيت الله الحرام مثابة للناس وأمنا، كما قال تعالى فى سورة أخرى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ... (٦٧)**﴾ [**العنكبوت**].

ولقد قال تعالى فى ذلك: ﴿**وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا**﴾. والمعنى: واذكر الوقت الذى جعلنا فيه البيت مثابة للناس، أى اذكر ذلك الوقت بما فيه من نعم، وإكرام لأهل التقوى، والبيت المراد منه المسجد الحرام، وإطلاق كلمة «البيت» وإرادة البيت الحرام إشعار بفضله، وإشارة إلى كماله، وإلى أنه أكمل بيت وضع

للناس، لأنه أول بيت للعبادة، ولأنه بناء إبراهيم أبي الأنبياء، ولأنه موضع الأمن من الخوف، ومثابة الناس، ولأنه أنشئ مطهرا من الأصنام وما جاء بها العرب بعد ذلك إلا بعد أن انحرفوا عن ملة إبراهيم وإن كان - البيت - شرفهم ومحتدهم الكريم .

والمثابة: أى المرجع الذى يأوون إليه، والمثابة مصدر ثاب يثوب مثابا، وثووبا، أى مأوى يأوون إليه عندما تشتد بأحدهم شديدة ويريد الالتجاء إليه سبحانه.

وقوله تعالى: ﴿**وَأَمْنًا**﴾ فهو مصدر موصوف به البيت فهو أمن للناس يأمنون فيه من القتل أو الاعتداء، حتى إن الرجل ليلقى فيه قاتل أبيه أو أخيه فلا يمتد إليه، وحرم فيه القتل والقتال، وكان محترما فى الجملة من العرب أيام شركهم، وذلك من هداية الله تعالى لهم بالأخذ بأثارة من بقايا ملة إبراهيم.

ولقد قال الله تعالى فى هذا البيت: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)**﴾ [آل عمران].

وقوله تعالى: ﴿**مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا**﴾ فيه إشارة أولا إلى أن الكعبة مثابة للناس، يجيئون إليها فى حجهم، كما صرح سبحانه وتعالى، وفيها قبلتهم إذ يثوبون إليها فى الصلاة ويلتفون حولها التفاف الدائرة حول قطبها، فهم يتجهون إليها من كل أرض الله تعالى.

وإن بانى الكعبة المكرمة إبراهيم عليه السلام هو وابنه إسماعيل عليه السلام، وإنه ليبقى الاتصال بين الحاضر والماضى أمر الله تعالى أن يكون مقام إبراهيم للبناء مصلى لمن جاء بعده من الذين سماهم إبراهيم المسلمين، وهم أمة محمد ﷺ؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿**وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى**﴾ قرئ بالطلب بكسر الخاء، وقرئ بالفتح على أنها خبر، وفى الحالين هى معطوفة على ﴿**جَعَلْنَا**﴾ فعلى قراءة فتح الخاء يكون المعنى جعلناه للناس مثابة وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، وعلى قراءة

الأمر يكون عطف جملة طلبية على مثلها؛ لأن ﴿جعلنا﴾ وإن كانت بلفظ الخبر ولكن معناها الطلب؛ لأن المؤدى أنها أمر من الله تعالى بأن يكون البيت مثابة للناس يرجعون إليه ويأوون ويحيطون به فى صلاتهم إحاطة الدائرة بقطبها، وأمرهم أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى.

و ﴿مَّقَامِ﴾ اسم مكان القيام، أى الشيء الذى قام إبراهيم عليه يبنى البيت بمعاونة إسماعيل عليهما السلام، وقد قالوا إنه الحجر الذى يعرفه الناس، فى الحج، واتخاذه مصلى، أى اتخاذ المكان الذى هو فيه مصلى أى مكانا للصلاة فالمصلى اسم مكان للصلاة.

وفى البخارى أن مقام إبراهيم الحجر الذى ارتفع عليه إبراهيم حين ضعف عن رفع الحجارة التى كان إسماعيل يناوله إياها فى بناء البيت(١) وغرقت قدماه فيه، وقال أنس: رأيت فى المقام أثر أصابعه وعقبه وأخمص قدميه.

وإن اتخاذ مقام إبراهيم مكانا للصلاة إبقاء لذكر إبراهيم عليه السلام وتنويها بالصلاة فى ذاتها وأنها الصلة بين الماضى والحاضر، وقد كانت بأمر الله تعالى، وليست بدعا قد أتيها.

وقد تكلم المؤرخون فى الحجر الذى قام عليه إبراهيم لبناء الكعبة المكرمة، وأوثق من قال فى ذلك ابن كثير، لقد قال فى ذلك: «مقام إبراهيم هو الحجر الذى يصلى عنده، وهذا الحجر هو الذى قام إبراهيم عليه عند بناء البيت لما ارتفع الجدار، أتاه إسماعيل عليه السلام به ليقوم فوقه ويناوله الحجارة، فيضعها بيده لرفع الجدار

---

(١) جاء فى صحيح البخارى فى حديث طويل عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - عن النبى ﷺ قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ بَدَا لإِبْرَاهِيمَ فَقَالَ لأَهْلِه: إِنِّى مُطَّلِعٌ تَرِكَتِى، فَجَاءَ فَوَافَقَ إِسْمَاعِيلَ مِنْ وَرَاءِ زَمْزَمَ يُصْلِحُ نَبْلا لَهُ، فَقَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ إِنَّ رَبَّكَ أَمَرَنِى أَنْ أَبْنِيَ لَهُ بَيْتًا قَالَ: أَطِعْ رَبَّكَ. قَالَ: إِنَّهُ قَدْ أَمَرَنِى أَنْ تُعِينَنِى عَلَيْهِ؟ قَالَ: إِذَنْ أَفْعَلَ - أَوْ كَمَا قَالَ. قَالَ: فَقَامَا فَجَعَلَ إِبْرَاهِيمُ يَبْنِى وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ وَيَقُولانِ: (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) قَالَ: حَتَّى ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ وَضَعُفَ الشَّيْخُ عَنْ نَقْلِ الْحِجَارَةِ، فَقَامَ عَلَى حَجَرِ الْمَقَامِ، فَجَعَلَ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ وَيَقُولانِ: (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ). [أحاديث الأنبياء: باب (واتخذ الله إبراهيم خليلا): (٣١١٤)].

وكان كلما كمل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى يطوف حول الكعبة، وهو واقف عليه وكلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التى تليها، وهكذا حتى تم بناء جدران الكعبة».

ويقول ابن كثير فى موضعه الذى وضعه إبراهيم بعد البناء: «وقد كان هذا المقام ملصقا بجدار الكعبة قديما ومكانه معروف اليوم إلى مكان الباب مما يلى الحجرة يمين الداخل من البقعة المستقلة هناك، وكأن الخليل عليه السلام، لما فرغ من بناء الكعبة، وضعه إلى جدار الكعبة أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك، ولهذا - والله أعلم - أمر الله تعالى بالصلاة عند الانتهاء من الطواف وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة». اهـ

وبهذا تبين أن مقام ابراهيم هو الحجر الذى كان يقف عليه إبراهيم لإتمام البناء، ولما أتمه وضعه بجوارها، وكأن الصلاة عقب الطواف عنده حيث انتهى إبراهيم من البناء وحيث انتهى الطائفون من طوافهم. ولقد جاء فى العام السابع عشر من الهجرة سيل شديد نقل الحجر من موضعه فهال ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وركب إلى مكة وتحرى الموضع الذى كان فيه الحجر فوضعه فيه رضى الله تعالى عنه. لقد أقام البناء للبيت العتيق نبيان، وبهذا البناء بنيا مجد العرب، وبنيا أمنهما ومكان عبادة الناس، ومثابتهم التى يستقبلونها فيحيطون بها.

وقد بنياه طاهرا، مطهرا، وعهد الله تعالى إلى اللذين بنياه أن يقوما على استمرار طهارته ليتحقق الغرض الأول، وهو أن يكون مقصدا للحجيج الطائفين والذين يجاورونه عاكفين على العبادة فيه، فقال تعالى: **﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾**.

والعهد فى هذا النص السامى، من عهد إلى هذا برعاية بيته أو أهله فى غيبه. فمعنى **﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾**، أى جعلنا لهما عهدا وفوضناهما برعاية البيت إنشاءً وتطهيرا وقوله تعالى: **﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾** تفسير للعهد المذكور، وتطهيره

هو التطهير من الرجس الحسى من الخبائث الحسية، والتطهير المعنوى بأن يخصص لعبادة الله تعالى وحده فلا يكون مكانا لوثن، ولا معبدًا لغير الله تعالى، وقد قال تعالى فى هذا المعنى السامى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج].

ويصح على هذا أن نقول إن العهد أن يبنياه مطهرا من كل خبث فى بنائه بقلب سليم، ونفس مخلصة لوجه الله تعالى، وأن يجعلاه طاهرا معنى وحسا ليكون للقاصدين له من غير مكة، والمقيمين حوله، وسماهم هنا العاكفين مشيرا إلى أن البقاء بجواره مجاورين له قائمين بحقه عبادة، وعبر فى الآية الأخرى بالقائمين أى المستمرين حوله. والطائفون عند أكثر الكاتبين هم القادمون للطواف وحج بيت الله لمن استطاع إليه سبيلا، وإنه مع أنه موطن الحجيج الطوافين والمقيمين حوله مجاورين معتكفين هو مسجد الله تعالى تقام فيه الصلاة، فيكون لهؤلاء الطائفين العاكفين ويكون للمقيمين للصلاة، وأشار إليهم سبحانه بقوله تعالت كلماته: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ هم الراكعون وهو جمع تكسير، وهم الذين يخضعون لله تعالى راكعين متضرعين متبتلين، والسجود جمع ساجد، كقعود جمع قاعد، ورقود جمع راقد. ويراد الركوع الذى هو ركن الصلاة، والسجود الذى هو الركن أيضا، واكتفى بذكرهما دون بقية الأركان من قراءة وقيام وقعود؛ لأنهما مظهر الخضوع الكامل، والتطامن لرب العالمين.

بعد أن بنى خليل الله أبو الأنبياء بيت الله تعالى بأمر ربه اتجه ضارعا إليه، أن يجعل ما حول البيت آمنا، وقد أقاموا فى مكان جدب؛ ولذا دعا ربه أن يرزقهم من الثمرات، فقال تعالى حاكيا دعاءه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ وفى هذا دعاء إلى أن يكون ما حول البيت بلدا آمنا، وأن يرزقه من الثمرات، وهذا يشير إلى أنه عند بناء البيت لم يكن البلد قد تكوّن، ولكن آية أخرى تشير أن هنا بلدا متكونًا؛ ولذلك ذكر بالتعريف، فقال تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم].

وقد قال بعض المفسرين إن الدعوة قد تكررت، فالدعوة الأولى كانت ولم يكن البلد، ولذلك كانت الدعوة بتكوين البلد وجعله آمنا، كما فى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم] وإنه عند تمام البيت استجاب الله تعالى لنبيه، فأخذ الناس يأوون إليه يبنون ويقيمون الخيام، وإن البلد ينشأ بعد بضع سنين فلما نشأ، وإبراهيم ذو ضراعة، وأوّاه حليم دعا فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ وخشى من الكثرة النسبية فى البلد الذى وجد أن يكون فيهم عبدة الأوثان فضمن دعاءه قوله: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾، وإن كثيرين يرون أن طلب إبراهيم لم يكن إنشاء بلد آمن، بل كان طلبه فقط أن يكون آمنا، فالطلب من إبراهيم عليه السلام كان منصبا على الأمن، والإشارة إلى المكان، فالمعنى اجعل هذا بلدا موصوفا بالأمن، ويكون المطلوب الأمن، كما تقول مشيراً إلى ابنك اجعل هذا ابنا بارا، ويكون المراد وصفه بالبر، وقد أجاب الله سبحانه تضرعه، فجعله بيتا آمنا، ويتخطف الناس من حولهم.

﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾، والرزق الإعطاء والتمكين، ومن هنا للبعضية، أى ارزقهم بعض الثمرات فكان الطلب قانعا غير مسرف فيه، وكذلك شأن الذين لا يسرفون على أنفسهم، والثمرات ظاهرها أنه يكون مما تنبت الأرض، وقد أعطاه الله تعالى الثمرات فى حدائق الطائف وغيرها من نخيل وأعناب، وأعطاهم ثمرات التجارة، فكانت مكة موطن الاتجار فى الجزيرة العربية، وكانت مزار العرب فى الحج، وقد كان ذلك إجابة لإبراهيم خليل الله تعالى إذ قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم].

وإنه فى هذه الآية طلب أن تهوى إليهم أفئدة الناس، فيقدموا على الحج، وطلب أن يعطيهم من الثمرات، كما طلب فى الآية الكريمة التى نتكلم فى معناها

السامى، وطلب الثمرات لا يتنافى مع أنها غير ذات زرع؛ لأن الثمرات من الأشجار لا من الزرع وقد رزقهم النخـيل والأعناب، والفاكهة والرمـان، وغيره مما ينبت فى الصحراء.

وخص خليل الله تعالى المؤمـنين من ذريته بهذا الدعاء، فـقال: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ وقوله تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ﴾ بدل اشتمال من أهله فكان الطلب لهـؤلاء فـقط، وذلك لأن الله تعالى رد طلـبه بتـخصـيص غيـر الظالمين بالنسبة للإمامة، إذ قال تعالى بعد إتمام الكلمات التى اختبره الله تعالى بها: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ فرد الله تعالى طلبه بقوله: ﴿لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ فظن نبى الله تعـالى أن الرزق يكون للمؤمنين فقط كـالإمامة، فـبين الله تعالى أن الرزق يعم والإمامة خاصة بالعـادلين غير المشركين؛ ولذلك قال تعالى ردا لخليله: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ﴾ أى أن الرزق يعم، البـرىء والسقيم، والعـادل والظالم، والمؤمن والكافـر، بخلاف الإمامـة التى تكون من الله تعالى، فـلا تكون إلا لمؤمن عادل: ولقد قال تعالى فى سورة الزخرف: ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف].

وإن ذلك ليس للمحبـة ولا للرضا عن كفره، ولكنه لاستـدراجه إذا لم يرشد ويهتد كما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف] ولذا قال سبحـانه، بعد أن نبه خليله إبراهيم إلى أنه يرزق الكافر ﴿فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً﴾ أى أعطيه المتعة أمدا قليـلا، وهو ما يكون فى الدنيا، والدنيا مهـما طالت أمـد قليل بالنسبـة للآخرة التى هى البـاقية الخـالدة، وعذابهـا خالد، ونعيمهـا مقيم، ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ﴾ والعطف بثم هنا، للدلالة على تفاوت ما أعطاه من رزق وما ادخـره من عذاب، واضطره معناها أُلجئه وأسـوقه إلى جهنم سوقا، كما قال: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾﴾ [الطور] أى يدفعون دفعا،

وكمـا قال تعـالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر]. وبذلك ينالهم عذاب الحرمان، والإلجاء إلى جـهنم فاقدى الاختيار؛ لأنه جزاءً وفـاقًا لما قـدموا، والثـانى النار الدائمـة كلما نضـجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها، جنبنا الله عقابه، وغفر الله لنا، وكتب ثوابه.

بناء الكعبة

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

كان بناء الكعبة من الكلمات التى اختبـر الله تعالى بها نبيه إبراهيم، فقد قلنا إن المراد من الكلمـة مدلولاتها من أمـر ونهى، ونحوها، وقد أمـر الله تعالى نبـيه إبراهيم ببناء الكعـبـة لتكون المزار، وبها نـسك الحج؛ ولذا قال تعـالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾، و«إذ» ظرف زمان دال على الماضى، ويتعلق بمحـذوف تقديره اذكـر أو اذكـروا الوقت الذى كان يـرفع فيـه القـواعد من البـيت وإسمـاعيل، وذكـر الوقت ليس بذكـر الزمان المجـرد إنما يكون بذكر الوقـائع التى وقعت فـيه، وإنها تكون قلـيلة خطيرة، لها أثرها فـيما وراءها، وحكـى الله تعالى قصة البناء بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ وعبر بفعل المستقبل، وهى واقعة فى المـاضى؛ لأن الفعل المضارع يصور الواقع كـأنه حاضر تستـحضره، وتراه: شيخ هو خليل الله تعالى وشاب هو ذبيح الله تعالى يقومان معا ببناء البيت،

ويتضـرعان إلى الله تعالى فى كل حـجر يضعـانه، ربنا تقبل منا إنك أنت السـميع العليم.

والقواعد جمع قاعدة، وهى الأساس لما فـوقها، وكل حجر يوضع هو قاعدة لما فوقه، والحجر الثانى قـاعدة للثالث؛ ولذا قال تعالى: ﴿**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ**﴾ وعبر سبحانه عن وضع القواعد بعضها فوق بعض بـ «يرفع»؛ لأن البناء هو الغاية من الوضع، فعبر سبحانه وتعالى عن الفعل بغايته ونهايته.

وإن إبراهيم الخليل وولده الطاهر الذبيح المحتـسب، لا يبنيان لذات البناء ولا لغرض دنيوى ولا للمأوى والسكن، بل استجابة لأمر الله تعالى، بأمره، ويتضرعان بالبناء، طالبين قبوله.

ولقد ذكرنا أن البناء كان بأمر الله، روى البخـارى وجاء مثله فى مصنف عبد الرزاق أن إبراهيم عليه السلام كان يزور ولده - الذى تركه فى البيداء - الوقت بعد الآخر، فجاءه وقـد صار فتى سويا وتزوج فوجده يصلح النبل، فقـال: يا إسماعيل إن ربي عـز وجل أمرنى أن أبنى له بيـتا، فـقـال الابن البار المطيع: أطع ربك عـز وجل، قال: إنه قد أمـرنى أن تعينني عليه، فـقال الشاب القوى: إذن أفـعل، فقام فجعل إبراهيـم يبني، وإسماعيل يناوله الحـجارة، ويقولان: ﴿**رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ حتى ارتفع البناء وضعـف الشيخ عن نقل الحجارة فقـام على حجر المقام فجعل يناوله الحجارة، ويقولان ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم(١).

والدعاء على مـا بينه الحديث كان محـفوفًا بالعـمل فهما يعـملان بأيديهم، ويحملان على عاتقهما، وقلوبهما ضارعة بالدعاء وألسنتهما لاهجة بالثناء على الله تعالى، والتقرب إليـه، وقد قيل إن إبراهيم الخليل كان يبنى وإسمـاعيل كان يدعو، وذلك يخالف النص فى الـقرآن ويخالف الحـديث ويخالف منطق العبـادة، فإنه لا تكون عبادة أحدهما بالدعاء مغنية عن عبادة الآخر.

---

(١) سبق تخريجه قريبا.

وإن هذا العمل من الخليل إبراهيم، وابنه الذبيح المفدّى، يدل على أن أى عمل يمكن أن يكون عبادة إذا كان لله تعالى . . نعم إن ذلك العمل كان استجابة لأمر الله، فهو أجل من أى عمل، ولكن ذلك لا يمنع أن أى عمل فيه أداء فرض كفاية يكون بأمر الله مادام مطلوبًا لصالح الجماعة، وإذا اقترنت به نية القربى كان عبادة، ولقد قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب العمل لا يحبه إلا لله**»(١).

أقام ابراهيم خليل الله مع ابنه المطيع لأبيه وربه البناء، ودارا حول جدرانه يتممانها، وهما يحفانه بدعائهما ﴿**رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا**﴾، وقد أحسا بالاستجابة، لكمال الضراعة، وخاطبا ربهما فى إحساس بالقرب منه قائلين: ﴿**إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ وقد أكدا أن علمه تعالى علم من يسمع من غير أذن، وعلم من يعلم علم إحاطة لايخفى عليه شيء؛ أكداه أولا بالجملة الاسمية، وأكداه بإن، وأكداه بالتأكيد اللفظى بتكرار «أنت» وأكداه بتعريف الطرفين، أى أنه لا سميع غيرك، ولا عليم سواك، وهكذا كانت ضراعة الإيمان.

أتم إبراهيم بناء الكعبة، وكان مما اختبره الله به، ومن الكلمات التى أتمها كما أشرنا إلى ذلك.

وقد اتجه الأواب الحليم بعد أن دعا ربه بقبول عمله، إذ قال: ﴿ **تَقَبَّلْ مِنَّا**﴾ ، أى اقبله راضيا عنا؛ لأن التقبل أبلغ من القبول، إذ القبول المجرد أقل من التقبل برضا، وجزاء لهذا العمل.

اتجه خليل الله تعالى إلى ربه داعيا لجماعته، بعد دعائه لنفسه وابنه، فقال هو وابنه عليهما السلام: ﴿ **رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ** ﴾ .

الواو فى قوله تعالى ﴿**وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ**﴾، عاطفة على قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا**﴾ وكرر بين المعطوفين كلمة (ربنا) للشعور بكمال ربوبية الله تعالى، وبكمال

---

(١) يشهد له من الصحيح الكثير، ومنه ما رواه أبو داود فى سننه عَنْ أَبِى أُمَامَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قال: «مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ». [كتاب السنة: باب زيادة الإيمان: ٤٠٦١].

الضراعة له سبحانه، فتكرار الربوبية شعور بذكر الله تعالى دائما، وبذكر نعمه، وأنه كالئ هذا الوجود كله.

﴿وَاجْعَلْنَا﴾ جعل هنا بمعنى صيَّر، وكوَّن؛ أى اجعل فى كوننا ووجودنا أن نكون مسلمين لك، أى مخلصين لك ولوجهك الكريم، والإسلام هنا بمعنى الإخلاص والاستسلام، وأن يكونا لله وحده، مثل قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة] وإن الإيمان والإسلام هنا بمعنى واحد، بل إن الإسلام فى هذا المقام درجة عالية بعد الإيمان، فالإيمان تصديق وإذعان والإسلام هنا تصديق وإذعان، وإسلام النفس والعقل والجوارح كلها لله تعالى، فهو أعلى درجات الإيمان .

وإنهما لم يدعوا لأنفسهما فقط، بل دعوا أيضا لذريتهما، فقالا فى دعائهما الضارع المخلص، ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ أى: واجعل فى ذريتنا أمة مسلمة لك.

و«مِن» هنا للتبعيض، والمعنى اجعل بعض ذريتنا أمة مسلمة، أى مؤمنة مصدقة مذعنة مسلمة وجهها لك، بحيث تكون كلها لك.

وقالوا: إن الدعاء لبعض الأمة اتعاظا بقول الله تعالى له: ﴿لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة] ونحن نرى أن «مِنْ» بيانية؛ لأن الدعاء لله تعالى يكون بأعلى ما يطلب لا بأدناه، والمعنى اجعل من ذريتنا أمة مسلمة، أى اجعل ذريتنا أمة مسلمة لك، والمقام مختلف عن دعاء الإمامة؛ لأن الإمامة لا تكون للجميع، إنما تكون للبعض المختار منها، الذى يصلح أن يكون قدوة تتبع.

والأمة هنا الجماعة التى تجتمع على فكرة ثابتة قائمة.

هذا دعاء إبراهيم - عليه السلام - لذريته، وهو دعاء أب شفيق مخلص يرتاد لذريته أكمل المناهج، وأتم الإخلاص والضراعة ولقد دعا عليه السلام هو وابنه المخلص المطيع قالا: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أى اجعلنا نبصر ونعلم مناسكنا، والمناسك

جميع منسك، وأصل النسك الطهارة، وأصله الغسل والتنظيف، ثم أطلق بمعنى العبادة عامة، ويطلق على العباد بالحج، وإقامة شعائره من طواف، وسعى وذبح ورمى جمار بعد الوقوف بعرفة، وبالمزدلفة، ويقال كما ذكرنا لكل عبادة، ومن ذلك الناسك بمعنى المنصرف للعبادة.

وما المراد بالمناسك هنا؟، فسرها بعض العلماء بأنها العبادات الدينية سواء أكانت تتعلق بالحج، أم تعم كل العبادات كالصلاة والصوم والزكاة وغيرها، ومنها الحج.

وقال بعض المفسرين إنها مناسك الحج من طواف، وسعى وذبح هدى ووقوف بعرفة والمزدلفة ورمى الجمار، وغير ذلك من شعائر الحج.

وإنى أميل إلى تعميم مدلول المناسك ليشمل كل العبادات الشرعية.

والدعاء الذى يدل على قوة الإحساس الدينى ، وقوة إسلام الوجه هو قوله تعالى: ﴿**وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ التوبة: الرجوع إلى الله تعالى، وتاب عليه بمعنى قَبِلَ التوبة، ومعنى ﴿**تُبْ عَلَيْنَا**﴾، اقبل توبتنا، وارجع علينا بالمغفرة إنك أنت التواب الرحيم، والتواب صيغة مبالغة من تائب، والمراد منها قبول التوبة، وكأن المعنى: إننا تبنا ومن الله تعالى قبول التوبة فى رحمة، فالتواب كثير القبول لتوبة التائبين، كما قال تعالى فى آية أخرى: ﴿**غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ** ... ﴿٣﴾﴾ [**غافر**]، وإن قبول التوبة، والإكثار من قبولها هو من رحمة الله تعالى؛ ولذا قرن فى هذه الآية الكريمة قبول التوبة ووصفه سبحانه وتعالى بها بوصفه بالرحمة؛ لأن من رحمته أن يقبل التوبة فهي من فضل الله تعالى ورحمته لا عن استحقاق.

وهنا يسأل السائل: إن الأنبياء معصومون عن الذنوب، فلِمَ يتوبون، فإنه لا يحصل منهم ذنوب تستوجب التوبة والغفران؟ والجواب عن ذلك أن التوبة رجوع إلى الله وتقرب إليه سبحانه، والتوبة على ذلك مراتب:

المرتبة الأولى: وهى أدناها الإقلاع عن الذنوب بالندم على ارتكابها والابتعاد عنها، واعتزام ألا تقع من بعد ذلك وهذه تكون للعصاة الذين ارتكبوا كبائر أو أصروا على صغائر، وقد دعاهم الله تعالى إلى أن ينيبوا إلى ربهم فقال تعالى: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ... (٥٣)**﴾ [**الزمر**].

المرتبة الثانية: وهى متوسطة بين أعلاها وأدناها، وهى الاستغفار عما يكون من خطأ أو نسيان، أو هفوات إنسانية فقط مما يؤاخذ عليه الأبرار الأطهار، وهو الذى ينطبق عليه قول بعضهم: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

المرتبة الثالثة: وهى الإحساس بالقصور فى حق الله تعالى لفرط إيمانهم، وقربهم من الله، وهذه توبة الأطهار من النبيين والرسل، فهذه توبة إبراهيم.

والتوبة كيفما كانت رتبتها عبادة، وأهل الله يقولون: رب معصية أورثت ذلا خير من طاعة أورثت دَلا، فالطاعة من الأنبياء لا تورث دَلا، بل نفوسهم لقربهم من الله تحس بالذل له، فيتوبون، ثم يتوبون.

وإن نبى الله وخليله وابنه لا يكتفيان بالدعوة لذريتهما ولأنفسهما بالتوبة، بل يطلبان هاديًا مرشدًا لهم من بعدهما؛ ولذلك يقولان فى دعواتهما: ﴿**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ**﴾ الواو عاطفة عطفت «ابعث» على «واجعل»، واعترضت كلمة ربنا لكمال الضراعة والشعور بنعمة الربوبية، والرسول هو المرسل من قبل الله تعالى، وبعثه تكليفه بالقيام برسالة ربه، وتبليغها، و «فيهم» أى فى وسطهم على أنه منهم، ليكون بهم أرحم وعليهم أعطف، ولهم آلف، كما قال تعالى: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)**﴾ [**التوبة**] وواضح أن الرسول الذى دعا إبراهيم وإسماعيل ببعثته هو محمد ﷺ، وقد روى أنه قال إجابة لنفر من الصحابة قالوا: يارسول الله عرفنا بنفسك ، فقال: «**نعم، أنا دعوة إبراهيم، وبشرى عيسى**» فإبراهيم عليه السلام دعا، ببعثه وعيسى بشر به كما قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ**

اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ... ﴿٦﴾ ﴾ [**الصف**].

وقد نكر «رسولا» للتعظيم، أى رسولا عظيما كريما منهم. وقد ذكر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ما أرسل به إليه فقال: ﴿**يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ**﴾ والآيات هنا هى الآيات القرآنية، والقرآن هو المعجزة الكبرى الدالة على نبوة محمد ﷺ، ومعنى «يتلو» يقرؤها مرتلة تتلو كل كلمة أختها، ويتلوها عليهم يعني يقرؤها فقد نزل مرتلاً كما قال تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٢﴾**﴾ [**الفرقان**] أى أنزلناه كذلك لنثبت به فؤادك باستمرار نزوله، ولنعلمك ترتيله حتى تحفظه، وقيل إن الآيات هى الدلائل على نبوته، وإذا علمنا أن المعجزة الكبرى الدالة على رسالة محمد هى القرآن المتلو، تكون النتيجة واحدة، وهى أن المتلو القرآن.

وكان عمل النبى ﷺ بعد أن يتلو عليهم الآيات مرتلة ترتيلا، أن يعلمهم علم الكتاب من أوامر ونواه لهم تبيينًا، ولذا قال تعالى: ﴿**وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**﴾ والكتاب هو القرآن لأنه الكتاب الكامل الذى إذا أطلق اسمه انصرف إليه، لأنه الكامل كمالا مطلقًا.

وتعليم الكتاب بتبيين أحكامه، فالنبى ﷺ هو المبين له، والشارح لأحكامه؛ ولذلك قال تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ... ﴿٤٤﴾**﴾ [**النحل**].

فتعليمهم الكتاب هو تعليم أحكامه، وبيان شرائعه، وما اشتمل عليه، و«الحكمة»: قال الشافعى: إنها السنة؛ ولذلك اقترنت بالكتاب باعتبارها المصدر الثانى وروى ابن وهب عن الإمام مالك رضى الله تعالى عنه: المعرفة بالدين والفقه في التأويل والفهم الذى هو منحة ونور من الله تعالى، وقيل: الحكمة هى الحكم، والفصل فى عدالة بين الناس.

وإن الحكمة معناها حسن التدبير للأمور، وفهمها وفقه الدين، ومعرفة أسراره، وفى الجملة هى المعنى الجامع لصفة الإسلام وإدراك غاياته، وعلاجه للأمور، وسياسة الناس، وتصريف الأمور معهم، وكانت جلسات النبى ﷺ تحوى الكثير من أدب النفس، وتعليم لياقة المجتمع والتقريب والتأليف بين النفوس، وكل ذلك من الحكمة النبوية حتى لقد قال أبو حنيفة: إن ساعة فى حضرة النبى ﷺ تغني عن فقه سنين. وإن عمل النبى ﷺ بعد تلاوة الكتاب وتعليمه تزكية النفوس وتنميتها وتطهيرها فقال تعالى: ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أى يطهرهم من رجس الجاهلية وينميهم، بمعنى ينمى فيهم قوة الخلق وقوة الدين، وما يكون سببا لنمو عددهم وشيوع أمر الإسلام، وبقائه خالدًا قائمًا.

وإنه يستفاد من هذا أن القرآن الكريم يتعبد بتلاوته وأشار إلى ذلك قوله: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾، ويعلم الشرع منه؛ إذ فيه كله، ويشير إلى هذا قوله تعالى: ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ ﴾.

وإن النبى ﷺ يهذب النفوس، ويزكى القلوب بتعليم الحكمة والتزكية.

وقد ختم إبراهيم عليه السلام دعوته بالضراعة إلى ربه فقال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ العزيز: هو ذو العزة. وتتضمن معنى القدرة والمنعة، والغلب، والسلطان، أى أنت الغالب المعز العزيز الحكيم المدبر المنظم للوجود، الواضع كل شيء فى موضعه بإحكام.

وأكد هذين الوصفين بإن المؤكدة، وبتوكيد القول، بقوله «أنت»، وبتعريف الوصفين الدال على اختصاصه سبحانه وتعالى بالعزة والسلطان، فلا عزة لأحد بجوار عزته، ولا سلطان لأحد بجوار سلطانه.

ملة إبراهيم هى ملة الأنبياء وهو أبوهم

وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾

إن إبراهيم أبو الأنبياء الذين ذكرهم القرآن الكريم وجاءوا بعده، وقد يكون هناك أنبياء آخرون بل لابد أن يكون ذلك؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿**وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ** ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر] ويقول: ﴿**مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ** ... ﴿٧٨﴾﴾ [غافر].

ولقد دعا الله تعالى إلى ملة إبراهيم الناس جميعا من بعده؛ لأنها إجابة للفطرة، وتنبعث من النفس المستقيمة واتجاه العقل الحكيم، ولقد قال تعالى: ﴿**وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ**﴾ ومَن هنا استفهام إنكارى يتضمن معنى نفى الوقوع، ويتضمن التوبيخ على من وقع منه هذا، والمعنى لايرغب عن ملة إبراهيم ويتركها متجاوزا لها إلى غيرها من الأوهام الباطلة إلا من سفه نفسه.

وقوله تعالى: ﴿**يَرْغَبُ عَن**﴾ فيها التجاوز والترك إلى أوهام، ونقيض يرغب عنها: يرغب فيها، فالرغبة فيها إقبال عليها، والرغبة عنها تجاوز عنها، وترك لها، وهذا يتضمن أمرين: **أولهما** - أنه علمها، وكان ينبغى أن يرغب فيها ولكنه تجاوزها وتركها لا عن انصراف مجرد، بل عن قصد وإعراض، **وثانيهما** - أنه اتجه ورغب فى غيرها، ونفى الله تعالى الرغبة عنها إلا ممن سفه.

وقوله تعالى: ﴿إلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾، أى جهلها فى حمق ورعونة؛ لأن النفس الإنسانية المستقيمة تتجه إلى الله لما فى داخلها من ينبوع الخير الداعى إلى إدراك الحق المستقيم، ولأن كل ما فى النفس من عقل مدرك، ويد تبطش وعين تبصر وأذن تسمع ورجل تسير بها كلها يدل على الإيمان الحق ويهدى، كما قال فى الذين يضلون إذ ينسون خلقهم وكونهم، فيقول: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ... ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف]. فالنفس الإنسانية لو تأملنا خلقها وتكوينها تهدى وترشد إلى الحق، ولقد قال تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات].

وقوله تعالى: ﴿إلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾، أى جهلها عن سفه وحمق ورعونة كما ذكرنا، والفرق بين جهل النفس، وأن يكون قد سفهها أن الجهل قد يكون عدم علم وعدم اهتداء إلى الحق، وألا يكون عنده أدوات العلم وطرق المعرفة، أما السفه فمعناه أن يجهل وعنده طرق المعرفة، وأسبابها ويتركها حمقًا ورعونة، ولقد قال تعالى: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ... ﴿١٩﴾﴾ [الحشر] وسفه نفسه، قيل إنها بمعنى سفَّه بتشديد الفاء بمعنى أوقعها فى جهل وسلك بها غير ما تهدى إليه الفطرة.

وإن ملة إبراهيم هى ملة النبيين فقد قال تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [آل عمران] وقال تعالى فى سورة الحج: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ ... ﴿٧٨﴾﴾ [الحج].

وإن ملة إبراهيم كانت ملة النبيين؛ لأن الله تعالى اختارة للإمامة، وابتلاه بالكلمات، ولأنه كان يشكر نعم ربه، ولأنه اختاره لبناء البيت، ولأنه اختاره لتعليم مناسك الحج، ولأنه اختاره ليكون أبا الأنبياء؛ ولذلك كله قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وقال تعالى فى آية أخرى: ﴿شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ [النحل].

ومعنى اصطفاه الله تعالى، أى اختاره بعد أن ابتلاه بما صفى نفسه وخلصها لله تعالى، وصار ليس فى قلبه موضع لغيره فاختاره من بين خلقه خليلا له، وكان أمة وإماما، وكان أواها حليما رجاعا إلى الله تعالى دائما.

وأكد سبحانه وتعالى أنه فى الآخرة لمن الصالحين، ففى الدنيا اصطفاه، فكان معه فيها على الخير المطلق، وقد ابتلى فأحسن البلاء، وكان صفيا وكان وليا، واختص بأن يكون خليلا.

وقد وصف سبحانه وتعالى حاله فى الآخرة مؤكدا فقال: ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وقد قال بعض الناس: إن العمل الصالح فى الدنيا وإن جزاءه فى الآخرة فالآخرة دار جزاء لا دار عمل، فكيف يقال فى الآخرة إنه من الصالحين؟!

ونقول فى الجواب عن ذلك إن ما ذكره الله تعالى عن حاله فى الآخرة أنه سجل له الوصف بأنه من الصالحين فقد سجل عليه سبحانه وصف الصلاح، والمعنى أنه ختم أعماله فى الدنيا بالخير، وصار فى زمرة من كتب الله لهم الصلاح فى الآخرة، ففى الآخرة جعله تعالى فى جملة من رضى عنهم ووسمهم بالصلاح فكافأهم برضوانه تعالى وهو أكبر الجزاء، فليس فى الآخرة عمل، وإنما فى الآخرة تسجيل الصلاح، والجزاء عليه، وأنه يكون الصالح الذى جعل له لسان صدق فى الآخرين.

وقد أكد سبحانه وتعالى أنه فى زمرة الصالحين الذين نالوا رضوان الله بقوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فأكد بإن الدالة على توكيد الخبر، وأكد بـ «اللام» فى قوله لمن الصالحين، وأكده بتقديم فى الآخرة، وذلك التأكيد لأنه من الذين وصلوا إلى أعلى درجات الصلاح.

وإن عده من الصالحين يوم القيامة، إنما كان لأنه أخلص وأسلم وجهه لله رب العالمين مستجيبا طلب الله تعالى منه، إذ طلب ربه منه أن يكون كله له وحده؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الإسلام هنا هو الإخلاص والإذعان لله تعالى، وهو كالإسلام فى قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ

مُحْسِنٌ ... ﴿١١٢﴾ [البقرة] فهو غاية الإيمان وأقصاه، وقد ذكرنا أن الإيمان تصديق وإذعان وتسليم، والإسلام تخليص القلب والنفس والجوارح لله تعالى، فهو أعلى درجات الإيمان.

وهو ليس الإسلام الذى هو نقيض الإيمان أو يغايره، وهو الإذعان المادى، والخضوع لأحكام الإسلام سواء أكانت مع القلب، أم لم تكن، وهو الذى قال فيه للأعراب إذ قالوا: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ... ﴿١٤﴾﴾ [الحجرات].

وهذا هو الإسلام الذى يفرق علماء الكلام بينه وبين الإيمان، وليس موضوعه، وإنما هنا الإسلام بمعنى إسلام الوجه والجوارح لله تعالى، وهو الذى قال الله تعالى فيه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ... ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران].

وقد يقال إن إبراهيم أثبت إخلاصه لله تعالى ودعا الله تعالى أن يجعله وابنه إسماعيل مسلمين، فقال فى ذلك: ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ... ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة] فلم كان الأمر بذلك، وقد طلباه؟.

فقالوا فى الإجابة عنه أنه أمر بالاستدامة على الإسلام وتثبيت التوحيد، ونقول فى ذلك أيضا إن الآية لبيان مقام إبراهيم عليه السلام فى الاستجابة لأمر ربه، وخلوص نفسه إذ أمره بذلك فاستجاب فورا قائلا أسلمت لرب العالمين، فهذا النص لبيان مدى استجابة خليل الله تعالى لربه غير متردد، ولا متلكئ، ولكن صار إبراهيم يقول : أسلمت أى خلصت نفسى وجعلتها لرب العالمين، أى لخالق العالمين والقائم عليهم وربهم وكالئهم، وإن ذلك شكر له، فهو فى ذلك شاكر لأنعم الله تعالى كحاله دائما.

وإن إبراهيم عليه السلام، وصى بهذه الملة بنيه من بعده جيلا بعد جيل، وصى بها بنيه، ووصى بها أحفاده، وأبناءهم، فمن كفر بها، فقد كفر بالله وبوصية إبراهيم، وما كان إبراهيم ليرضى عنهم إذ كفروا بربهم كالمشركين، إذ غيروا وبدلوا فى دين إبراهيم، وكاليهود الذين ادعوا أن إبراهيم كان يهوديا، ولقد رد الله تعالى

قولهم بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ... (٦٧)﴾ [آل عمران].

ذكر الله تعالى وصية إبراهيم وقال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ الضمير فى ﴿بِهَا﴾ يعود إلى ملة إبراهيم التى هى موضوع الذكر من قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾، ووصى بأنها الإخلاص لله فقد قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فهى موضوع الحديث.

والتوصية طلب الشخص من غيره القيام بأمر معين والتشدد فى طلبه، وهى غالبا يكون تنفيذها بعد الوفاة، فهى طلب أو إعطاء فى الحياة أو فى آخرها ليكون تنفيذها بعد وفاته.

وقد وصى إبراهيم بنيه بأن يستمروا مستمسكين بملته بعد وفاته، ويعقوب عليه السلام - وهو حفيد إبراهيم من إسحق عليه السلام - قد وصى أيضًا بذلك.

وأولاد إبراهيم المذكورون فى القرآن هم إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، وذريتهما من بعدهما، وقد قال تعالى فى ذرية إسحاق: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧)﴾ [العنكبوت] وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤)﴾ [الأنعام].

وقوله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ برفع يعقوب بالعطف على إبراهيم عليه السلام أى أن إبراهيم عليه السلام وصى بهذه الملة بنيه، ويعقوب وصى بها بنيه كذلك، وكانت صيغة الوصية كما ذكرها القرآن ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ﴾ وهذه الجملة السامية تفسير لمعنى ووصى؛ لأنها صيغة الوصية؛ ولذا قالوا إن هناك تقديرا، وهو أنْ بفتح الهمزة التى تدل على أن ما بعدها بيان لما قبلها.

والوصية أو صيغتها كانت بنداء كل من إبراهيم، ويعقوب لأبنائه بقوله: يابني، بجمع المذكر السالم الذى حذفت منه النون بالإضافة إلى ياء المتكلم.

وناداهم بهذه الصيغة التى تدل على النسبة إليه تقريبا لهم من نفسه، وفى ذلك دليل على الشفقة بهم والرفق، وأنه يؤثرهم بما يدل على محبته وحدبه عليهم، ومضمون الملة التى وصى بها ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ﴾، أى أن الله جل جلاله، وهو ربكم الذى ذرأكم وأنعم عليكم، اختار لكم الدين الكامل، والدين هنا، هو ملة ابراهيم، فهى دين إبراهيم ودينكم ودين الخليقة من بعده، وهو ملته، وهو الإخلاص لله رب العالمين وإسلام الوجه له، كما فسر الله تعالى، من قبل بقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقد صرح سبحانه وتعالى بغاية الوصية ونهايتها كما جاءت على لسانهم، ﴿فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، والفاء هى للإفصاح عن شرط مقدر، أى إذا كانت هذه الملة هى الدين الذى اختاره لكم وهو الإسلام، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون، وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ حال من تموتن.

وقد أكد سبحانه وتعالى الطلب بنون التوكيد الثقيلة، وليس النهى متجها إلى الموت؛ لأن الموت ليس أمرًا اختياريا يجرى فيه التكليف بالأمر، وإنما الأمر منصب على البقاء على الإسلام، أى لابد أن تبقوا على الإسلام مؤكدًا ذلك حتى تموتوا وأنتم على حاله وقيامه، كما تقول: لا تصل إلا وأنت خاشع فهو أمر بالخشوع وليس نهيًا عن الصلاة.

وقوله تعالى: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ﴾ أهى وصية إبراهيم وحفيده يعقوب معا؟ الظاهر ذلك، وقال بعضهم: إنها وصية إبراهيم وأمها وصية يعقوب فقد أشير إليها فى قوله تعالى من بعد: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة].

وأرى أن قوله تعالى: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ﴾ وصيتهما معا، ولما جادل اليهود فى ذلك قال تعالى مفندا كلامهم، مبينا حقيقة الأمر ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ إلى آخر الآية، وعلى هذا التخريج فالوصية واحدة، اللهم إنا أسلمنا وجهنا لك كما أسلم إبراهيم وجهه لرب العالمين.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤) وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥)﴾

ادعى المشركون أنهم على ملة إبراهيم، شرفهم وشرف محتدهم، وادعى اليهود أنهم يسيرون على ملة إبراهيم وقد غيروا وبدلوا، بل جرى على ألسنتهم ما يومئ إلى أن إبراهيم كان يهوديا، وبذلك يقلبون التاريخ، فيجعلون أوله آخره، وصدره عجزه، وادعى النصارى الذين يعبدون الأوهام أن ثالوثهم دين النبيين أجمعين وافتروا فرية واهمة تبهت العقول، ولكن الأوهام غلبتهم، فديانتهم وهم فى وهم، ليس فيها إلا أوهام تكاثفت فاعتنقوها، والمسيح منهم براء.

هؤلاء جميعا، وخصوصا من كانوا ينتحلون نحلة ينسبونها إلى نبى من أبناء يعقوب عليه السلام كانوا يدعون أنهم على ملة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب.

ولقد وجه الخطاب إليهم، وخصوصا اليهود والنصارى لبيان أنهم ليسوا على ملة إبراهيم، وهم على غير الوصية التى وصى بها إبراهيم بنيه، ويعقوب، فقال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ أم هنا تدل على الاستفهام والإضراب معا فهى تتضمن معنى «بل» و«الهمزة»، فهى استفهام إنكارى مع التوبيخ

والاضراب عن إفكهم. والمعنى نضرب صفحا عما تقولون، ونسألكم: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ وشهداء جمع شاهد، كما قال تعالى في الشهادة على الديون: ﴿وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِه ... ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة] وتكون جمع شهيد، والمعنى على كل حال أكنتم حاضرين الوقت الماضي الذي حضر فيه يعقوبَ الموتُ، أي كنتم حاضرين الوقت الذي بدت فيه على يعقوب أمارات الموت، فمعنى حضور الموت ظهور أماراته، ومقدماته، أي وهو يحتضر؛ ولذا كان التعبير بحضر، فحضور أماراته ومقدماته، حضوره؛ ولذا لم يقل نزل به إذ الأولى في قوله تعالى: ﴿إِذْ حَضَرَ﴾ تدل على وقت حلول الموت بمقدماته وأماراته، وقد ذكر سبحانه وتعالى ﴿إِذْ﴾ مرة أخرى في قوله: ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ وهما يدلان على وقت واحد قد مضى.

قال يعقوب أبو بني إسرائيل الذين غيروا وبدلوا، قال لبنيه: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ أي من الذي تعبدونه من بعدي؟، وعبر بما هنا دون مَن لأن ما يستفهم بها عن الماهية فيقال ما الإنسان، فالسؤال متجه إلى طلب حقيقة ما يعبدون من بعده أيستمرون على عبادة الله تعالى؟ قالوا مجيبين في غير تردد ولا تلكؤ: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ .

ابتدأوا إجابتهم بما يدل على الأسوة والقدوة الحسنة وهي تدل على أنهم لا يغيرون ولايبدلون بل هم مقتدون، ولذلك قالوا: ﴿إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ﴾ ولم يقولوا مثلا: نعبد الله وحده.

وإن أباهم إبراهيم وإسحاق وليس من آبائهم إسماعيل بل هو عم يعقوب وليس أباه ولا جده ولكن العرب تسمي على المجاز العم أبا - كما يسمي العم ابن أخيه ابنه، كما قال أبو طالب لقريش عندما طلبوا أن يعطوا أبا طالب بدلا لمحمد ابن أخيه أنهد فتى من قريش ليسلم إليهم محمدا ﷺ فقال لهم موبخا: آخذ ولدكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه؟ وروى علي بن أبي طالب أن النبي ﷺ قال:

«عم الرجل صنو أبيه»(١) هذا وإن عَدَّ إسماعيل عليه السلام فى آباء يعقوب يدل على أن إسماعيل وإسحاق، لا يفرق بينهما فى نسب ولا دين كما يفعل الحاقدون من بنى إسرائيل.

وقوله تعالى: ﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾ قيل إنها بدل من إلهك ولا مانع من أن تكون النكرة بدلا من المعرفة مثل قوله تعالى: ﴿كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [العلق].

ويصح أن تكون حالاً من إلهك، أى حال كونه إلها واحدا، أى نعبده على هذه الحال، ولعل اعتباره بدلا؛ على أنه يكون بدل اشتمال أى أن البدل والمبدل منه شىء واحد.

ونرى فى ذكر الله سبحانه وتعالى مضافا إلى ضمير المخاطب يعقوب، ثم ذكره من بعد ذلك موصوفا بالوحدانية تصريح بالوحدانية فى العبادة والامتناع عن إشراك غيره معه، وإشارة ثانية إلى الاتباع والقدوة والأخذ بالوصية التى أوصى بها إبراهيم ويعقوب، وفيها إثبات السلسلة الموحدة فى أولاده فى يعقوب عليه السلام، وإن هذا التوحيد هو الدين الذى اصطفاه الله تعالى لأنه دين الله تعالى؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء].

ولقد ختم الأبناء المخلصون إجابة أبيهم، البر الرحيم، الذى ضرب به المثل فى الصبر والشفقة بقولهم: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، أى مخلصون قد سلمنا وجوهنا وقلوبنا له وحده؛ ولذا قدم قوله: ﴿لَهُ﴾ على ﴿مُسْلِمُونَ﴾ لما يدل عليه التقديم من معنى اختصاصه سبحانه بإسلام أنفسهم له تبارك وتعالى، وقد أكدوا إسلام أنفسهم له بالجملة الاسمية.

---

(١) عَنْ عَلِيٍّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِعُمَرَ فِى الْعَبَّاسِ: «إِنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ». وَكَانَ عُمَرُ تَكَلَّمَ فِى صَدَقَتِهِ. [رواه الترمذى: كتاب المناقب (٣٦٩٣) وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، كما رواه أحمد فى مسند العشرة المبشرين (٦٨٧)، وبنحوه عند مسلم عن أبى هريرة: كتاب الزكاة (١٦٣٤)].

إن اليهود كانوا كلما ذكرت محمَدَة لإبراهيم وبنيه انتحلوها لأنفسهم، وتفاخروا بها على غيرهم حتى ظنهم الناس أنهم هداة آبائهم، وإن لم يهتدوا بهديهم. فرد الله سبحانه وتعالى قولهم وقول غيرهم ممن كانوا يتفاخرون بأنهم سلالة إبراهيم وإسماعيل ولا يعملون عملهم، ولا يسلكون مسلكهم، وكانوا يحسبون مجرد النسب يكسبهم شرفا وذكرا عند الله والناس فقال: ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾.

الإشارة إلى هذه الجماعة الفاضلة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وذريتهم الذين اهتدوا بهديهم وقبسوا من نور الله تعالى بوصيتهم، وهي ﴿**قَدْ خَلَتْ**﴾ أى مضت، وصارت في عبر التاريخ لهم ما كسبوه من خير فيكون عند الله جزاؤه ، وعليكم معشر العرب أن تقتدوا بإبراهيم، وتأخذوا بوصيته، وأن تعبدوا إلها واحدا هو الله جل جلاله، إن كنتم تنتمون إليه فتجمعون بين شرف النسب وشرف الاتباع، والنسب وحده لا يغنى فتيلا من غير اتباع.

وكذلك أنتم معشر اليهود ليس لكم أن تفخروا بأن هؤلاء آباؤكم، وتلحقوا تاريخهم بتاريخكم إلا أن تتبعوهم فى الإخلاص لله رب العالمين والإسلام له، وإلا كنتم الخارجين عليهم المحاربين لمآثرهم. وإن لم تجدُّوا فى اتباعهم فلكم جزاء فعلكم.

ولذا قال تعالى: ﴿**لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ**﴾ أى لها ما كسبته مكسوبًا إليها بقدره محسوبا لها في اليوم الآخر بجزائه، ويتضمن قوله: ﴿**لَهَا مَا كَسَبَتْ**﴾ الجزاء لهذا الكسب، وهو خير ﴿**وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ**﴾، إن عملتم مثل عملهم، واتبعتم هديهم وأخذتم بوصيتهم وكانت لكم شعارا ودثاراً تتحلون به، وهذا حث على الاقتداء، ودعوة إليه، فإن تجانفوا لإثم، وتخالفوا الوصية فعليكم إثم ما تفعلون.

وإنكم لستم مسئولين عن أفعالهم إن خيرا أو شرا فكذلك ليس لكم أن تدعوا أن عملهم عملكم ونسبهم نسبكم؛ لأنكم انفصلتم بعملكم عنهم؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وكذلك لا يكفيكم عملهم، إن خيرا فخيره لهم إلا أن تكونوا قد عملتم مثل عملهم ولا تزر وازرة وزر أخرى.

إن ملة إبراهيم عليه السلام، وهى التوحيد، والطهارة من الوثنية هى لب الدين اصطفاه الله تعالى لنا، وهى الحق الذى لا ريب فيه، وهى مقياس الحق الذى يتميز به من الباطل، فمن آمن بها فقد اهتدى، ومن خالفها فقد ضل وغوى، وأهل الكتاب الذين حرفوا القول عن مواضعه، وغيروا وبدلوا، وخرجوا عن المنهاج وتركوا ملة إبراهيم عليه السلام يزعمون أن ما عندهم حق، وهو الهداية، كذلك ضلت أفهامهم، فزعم اليهود أن فى يهوديتهم السلامة، وزعم النصارى بنصرانيتهم الوثنية أنها الهداية وكل فى غيهم يعمهون؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾ أى قال اليهود: أى الحاقدون الكافرون بأنعم الله التى توالت عليهم: كونوا هودا، أى كونوا يهودا تهتدوا؛ لأن الهداية تحوطهم، وهم فى قبتها، وقال النصارى المثلثون الوثنيون: كونوا نصارى تهتدوا؛ لأن الهداية فى حقبتهم لا تخرج عنهم أبدا والعاقبة لهم فى زعمهم، مع أنهم وثنيون، لا يتبعون نبيا مرسلاً، ولكن يتبعون فلسفة كاذبة ضالة مضلة[١].

قال اليهود ما قالوا، وقال النصارى المثلِّثون ما قالوا، فأمر الله تعالى نبيه بأن يرد قولهم بقوله: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

قل لهم يارسول الله: إن المقياس الصحيح الواجب الاتباع؛ لأجل البعد عن الباطل، والاهتداء بهدى الحق - مضربا عن كلامهم صفحا - هو ملة إبراهيم؛ ولذا قال تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾، وبل هنا للإضراب عن أوهامهم وترهاتهم، وملة مفعول لفعل محذوف تقديره: بل اتبعوا ملة إبراهيم حنيفا، أى مائلاً للاستقامة أو مائلاً نحو الحق هاديًا إليه، فالحنيفية السمحة أى الحق، وجَنَفَ وحَنَفَ معناهما الميل، بيد أن الجنف الميل إلى الباطل كما قال تعالى: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ ... ③﴾ [المائدة]، والحنيف المائل نحو الحق، والحنف يطلق على الاستقامة والحنيف معناه المستقيم الذى لا عوج فيه ولا انحراف.

---

(١) راجع: «محاضرات فى النصرانية» للمؤلف.

ويثبت الله سبحانه وتعالى الوحدانية فى ملة إبراهيم، فيقول: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهذا نفى للشرك عن ملته، ورد للعرب المشركين عن تبعيته، وإن كانوا من سلالته.

ووكل الله تعالى إلى رسوله الأمين الرد على اليهود والنصارى والمشركين؛ لأنه من تبليغ رسالة ربه، وبيان الحقائق التى يجب عليه بيانها، وإن ذلك الرد كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران].

وحدة المؤمنين باتباع ملة إبراهيم

قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾

يجمع الرسل على اختلاف ما أنزل على النبيين من كتب لا تتباين فى معناها، وإن اختلفت أزمانها، يجمع هذه الكتب أنها كلها فى لبها وغايتها ملة إبراهيم عليه السلام، فهى ملة جامعة لا تختلف رسائل النبيين ولا تتباين عندها،

فهى ملة النبيين أجمعين، وقد كانت رسالة محمد ﷺ هى ملة إبراهيم عليه السلام؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ... ﴿٧٨﴾﴾ [الحج] وقد تلونا هذا النص الكريم من قبل، ولذا دعا الله سبحانه وتعالى المؤمنين أن يعلنوا أنهم يؤمنون بذلك فقال تعالى مخاطبا المؤمنين: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾.

وإن هؤلاء جميعا على ملة إبراهيم، وهى التوحيد، وهذا كقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى].

إن إبراهيم ويعقوب وصى كلاهما أبناءه بملته، واتبعه من بعدهم موسى وعيسى والنبيون الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهم السلام، فهم جميعا على ملة واحدة جامعة، وهى ملة إبراهيم التى هى التوحيد والتنزيه، والاستقرار على الحق، والحنيفية السمحة.

وقد أمر الله تعالى المؤمنين، ولم يكن أمره إلى النبى ﷺ وحده، بل كان أمره له ولمن اتبعه، وفيه بيان أن إيمانهم هو إيمان إبراهيم، وبنيه، ويعقوب وبنيه، والنبيين أجمعين، فهو إيمان عام بالرسالة الإلهية لا فرق بين رسول ورسول، ولذلك قال بحق بعض الذين علموا الإسلام وما يدعو إليه: إن الإسلام دين عام. وقيل لمسيحى أسلم: لماذا خرجت عن المسيحية؟. فقال: إنى لم أخرج عن المسيحية دين المسيح، ولكن دخلت فيها بدخولى فى الإسلام.

أمر الله المؤمنين أن يقولوا: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾، والأسباط هم ولد يعقوب عليه السلام الذى قال لهم: ما تعبدون من بعدى، وهم اثنا عشر، وقد ذكر القرآن لهم ذلك العدد فى رؤيا يوسف بن يعقوب، إذ قال الله تعالى عنه: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا

أَبَت إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾ [يوسف]. وإن الأحد عشر كوكبا رمز لأبناء يعقوب غير يوسف، وبضم يوسف إليهم يكونون اثنى عشر . . والأسباط واحدهم سِبْط، وهو بمنزلة القبيلة فى العرب، وسموا الأسباط من السبط وهو التتابع، فهم جماعة متتابعون، وقيل إن السبط هو الحفيد، وسموا بذلك لأنهم فى أصلهم حفدة إبراهيم.

ولماذا ذكر الأسباط مع أن ذكر يعقوب يغنى عن ذكرهم، لأنهم أبناء يعقوب، وقد وصاهم باتباع ملة إبراهيم وشدد فى الوصية؟ والجواب عن ذلك أنهم صاروا من بعده جموعا، كونوا العشائر والقبائل، فكانت لهم صفة بهذا الانفراد وقد أمر الله تعالى المؤمنين، بأن يقولوا ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ لأنهم جميعا يتكلمون عن الله، ويذكرون أمره ونهيه، ورسالتهم رسالة من الله تعالى، ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، أى أسلمنا وجهنا وقلوبنا وكل جوارحنا له سبحانه وتعالى، جمع الله قلوبنا ونفوسنا وحواسنا لتكون لله تعالى، وهو الحكيم العليم.

إن ذلك هو الإيمان الحق، وهو الإيمان الجامع غير المفرق؛ ولذلك كان هو ميزان الإيمان الصادق الموحد للناس حول ربهم، وهو الوحدانية لله تعالى، والوحدة فى الرسالة الإلهية؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾.

الضمير فى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ﴾ يعود إلى اليهود والنصارى؛ لأنهم هم الذين ظنوا أن الاهتداء عندهم فقط، ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ... ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة] وأمر الله تعالى نبيه أن يقول لهم: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة].

وفى الآية السابقة صورة للإيمان الموحد الجامع الذى لا يفرق، فإن آمن اليهود والنصارى بمثل ذلك الإيمان الجامع غير المفرق فقد اهتدوا ، لا أن يكونوا قد اهتدوا بما هم عليه من الانحياز المفرق.

﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ﴾ والمعنى فإن آمنوا بإيمان مثل الذى آمنتم به، أى مشابه له من حيث إنه يجمع الناس على الوحدانية لله تعالى، والوحدة فى الرسالة، والوحدة فى الإنسانية بالصورة التى أنتم عليها - فقد اهتدوا، فكلمة «مثل» فى موضعها من القول ولها دلالتها، فالمراد - وعند الله تعالى علمه - أن يؤمنوا بما آمنتم على أن يكون مثله فى المعنى الجامع، ولقد تهجم بعض المفسرين فى العصر الحديث، فقال إن مثل «مُقْحَم» أستغفر الله لى وله، إنه ليس فى القرآن مقحم، إنما ألفاظ القرآن الكريم ليس فيها مقحم قط، إنما هى تنزيل من حكيم حميد.

ونقول إن الإيمان الذى ثبت من قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ إلى آخر الآية الكريمة، يتحقق فيه أمران: **أولهما** - الإيمان بالوحدانية، **والثانى** - الصفة الجامعة، فالمثلية ليست فى أصل الإيمان، وإنما هى فى الصور الجامعة غير المفرقة.

ولذا قال تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ التولى هو الترك الجسمى والبعد الذى يدل على الإعراض النفسى فإن أعرضوا عن الإيمان الجامع للرسالة الإلهية فهم فى شقاق مستمر؛ لأن من ترك الوحدة فى الرسالة الإلهية فقد اختار النزاع والمجادلة، وحيث دخل النزاع فى الدين كانت العصبية والتعصب، والانحياز، ويفقد الدين سلطانه فى القلوب، ويصير لجاجة، وعداوة وبغضاء بين الناس، ويكون كل ملة أو دين فى شق منحاز لا يلتقى ولا يهتدى؛ ولذلك قال: ﴿فِي شِقَاقٍ﴾، والشقاق: أن يكون كل جانب فى شق من الأرض أو الفكر والنفس.

وإنه عند ذلك تكون العداوة المستحكمة من أولئك الذين تولوا عن الحق وأعرضوا عن الدين الجامع إلى الفرقة المعادية، وكأن الله تعالى ينبه نبيه الأمين، إلى أن يتوقع منهم الشر، والبغضاء المستمرة؛ ولذلك أشار سبحانه إلى أنه معه، وأنه

ناصره تعالى عليهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ والمعنى: إذا أظهروا العداوة المفرقة على الوحدة المقربة، وصاروا أعداء لكم فسيكفيكهم، أى فسيكون الله تعالى كافيا لك، ومانعك منهم. يقال كفاك هذا الرجل، أى منعك ودافع عنك، و«السين» هنا لتأكيد وقوع الفعل فى المستقبل، فـ «السين» و«سوف» الدالان على المستقبل القريب أو البعيد، يدلان مع ذلك على تأكيد الوقوع، والمؤدى أن عداوتهم سترد فى نحورهم وسيكون وبالهم عليهم.

وقد أكد سبحانه وتعالى حمايته لنبيه ولمن معه بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى عليم بما ينوون، وما يخفون وما يعلنون، عليم علم من يسمع، ومن صفاته العلم فهو يعلم ما يكون وما يقع، وإنه بذلك العلم المحيط الدقيق يعلم خائنتهم، ويكفيك أمرهم، إنه نعم المولى ونعم النصير.

إن الإيمان الجامع بالنبيين أجمعين لايفرق بين أحد من رسله، لأنهم جميعا يحملون رسالات ربهم إلى عباده وهى واحدة، إن هذا الإيمان هو دين الله تعالى، وهو ملة إبراهيم وهى الشارة الوحيدة للدين الحق؛ ولذا قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾.

الصبغة هى الملة التى اختارها الله تعالى، وهى ملة إبراهيم، وهى دين الله الحق الذى اصطفاه واختاره وصح أن يكون دينه.

والصبغة فى الأصل مايصبغ منه، ويتشربه الثوب حتى يصير لونا غير قابل للتغيير، بيد أن هذه الصبغة فى القلب يتشربها فتكون لونا ثابتا مستقرا دائما بالإيمان والإذعان، يخالط مداركه، ويتشربها قلب المؤمن كما يتشرب الثوب صبغته؛ لأنه مفطور على الإيمان والإيمان فى فطرته، إلى أن يتدرن بالأهواء والشهوات فتطمس الفطرة، ولقد قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ [الروم].

ولقد قال ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء**»(١).

وصبغة هنا منصوبة على الإغراء لفعل محذوف تقديره إلزم صبغة الله، فإنها إيمان القلوب، وزينة النفوس للمؤمنين؛ كما يتزين الجسم بزينة الثياب الملونة بأبهى الصباغ.

وإن التعبير عن الدين بأنه صبغة الله إشارة لما يفعله اليهود والنصارى من صبغ أولادهم باليهودية أو النصرانية بما يغمسونهم فيه بماء يسمى المعمودية.

فإذا كان هؤلاء يعملون تلك الأعمال حاسبين أنها تصبغهم بدينهم غير الحق الذى ارتضوا، فالله سبحانه وتعالى هو الذى يجعل القلوب تتشرب حب الدين الحق، فلا تتحول ولا تتغير ولا تتبدل.

ولقد بين سبحانه وتعالى أن صبغة الإيمان الجامع الذى اختاره الله تعالى دينا للعالمين هى أحسن صبغة وأبهاها حسا ومعنى، وطهارة؛ ولذا قال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً**﴾ أى لا صبغة أفضل من صبغة الله تعالى؛ لأنها الحق والحق وحده زينة القلوب. وغيرها الباطل، وهو طمس للفطرة وفرق بين زين القلب وحسن الإيمان، والإشراق بنوره، وطمس النور منه وامتلائه بالظلمات.

وقد قال تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ...** (٣٧)﴾ [ق] من شأنه الإذعان للحق، والتمسك به، وقال هنا: ﴿**وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ**﴾ فالقلوب قسمان: قلوب على الفطرة يدخلها نور الإيمان فيشرق فيها، وقلوب طمست عليها

---

(١) رواه أحمد عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ: «كُلُّ مَوْلُود يُولَدُ عَلَى الْفطْرَة، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانه أَوْ يُنَصِّرَانه أَوْ يُمَجِّسَانِه، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً هَلْ تُحسُّونَ فيهَا منْ جَدْعَاءَ؟» [مسند المكثرين (٦٨٨٤)، وبنحوه فى البخارى: الجنائز (١٢٧٠)، ومسلم: القدر (٤٤٠٣)]. والجدعاء: مقطوعة الأنف أو الأذن أو غيره، ولفظ البخارى: عن أبى هُرَيْرَةَ ـ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ ـ كَانَ يُحَدِّثُ: قَالَ النَّبِىُّ ﷺ: «مَا منْ مَوْلُود إلا يُولَدُ عَلَى الْفطْرَة فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانه أَوْ يُنَصِّرَانه أَوْ يُمَجِّسَانه، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحسُّونَ فيهَا منْ جَدْعَاءَ» ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ...** (٣٠)﴾ [الروم].

الأهواء وسيطرت عليها وأخفت منابع الهداية فهى فى عمياء عن الهدى، غلقت فلا تدخلها هداية.

وإنما يدرك جمال صـبغة الله تعالى، وتزيينهـا للقلب والنفوس الذين يوقنون بالحق، ومن شاء الإيمـان به إذا قامت دلائله، وبدرت محاسنه؛ ولذا قـال تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ خاضعون له لا لسواه؛ ولذا قدم «له» على «عابدون» إذ التقديم للاختصاص فلا نعبد سواه ولا نؤمن بغيره.

قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

كان اليهـود والنصارى يدَّعون أن ما عنـدهم هو دين الله تعالى، وأنهم أعلم الناس بالله، وأنهم أبناء الله تعـالى وأحبـاؤه، وحسـبوا أنهم أقرب إلى اللـه تعالى لأنهم ليسوا وثنيين ولم يشركوا به أحـدا، والوثنيون ليسوا كذلك، وبذلك يحاجون النبى فى أنهم أقرب إلى الله، وأنه أقـرب إليهم، وأنهم أولى به، فأمـر الله تعالى نبيـه بأن يبين لهم أن الله ربنا وربكم، وأن القربى إليـه بالعمل، فلنا أعـمالنا ولكم أعمالكم فقال تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ كان الأمر للنبى ﷺ، وليتولى الحِـجَاج معهم إعلاء لـكلمة الله تعالى لمن يتولى المحـاجة والمجادلة، والله

أجل وأعلى من ذلك فترك للنبى ﷺ أمر هذه المحاجة. والاستفهام هنا للتوبيخ؛ أى ماكان لكم أن تحاجونا فى الله تعالى بادعاء القرب ، وأنكم أولى به وبمحبته ومعرفته، فالمحاجة فى الله تعالى لا فى أصل وجوده، ولا فى أصل وحدانيته لقوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ [الرعد]. ففى هذا النص كان الجدال فى الله تعالى، من حيث وجوده،وأنه الفاعل المختار.

أما هنا فى هذا النص الذى نتكلم فى معانيه، فالمحاجة فى الله تعالى من جهة القرب منه، والمنزلة عنده لا محاجة أصل وجوده، والمحاجة من جانب اليهود والنصارى بادعائهم على الله سبحانه وتعالى بأن دينهم هو الذى ارتضاه وأنهم أقرب إلى الله، وأنهم أحبابه، وأنهم أبناؤه، إلى غير ذلك من الأوهام التى يثيرونها حول الله تعالى.

وهم يثيرون قولهم على اعتقاد أن النبى يحاجِّهم كما يحاجُّونه؛ ولذلك كانت صيغة المفاعلة.

وقد أمر الله تعالى نبيه، بأن يبين لهم أنه لاحاجة إلى المحاجة؛ ولذا أمره تعالى بأن يقول: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ فصلتنا بالله واحدة، وهو أنه ربنا جميعا ، وقد بين المماثلة فى الصلة بالله تعالى لصلة الربوبية، وهى متحدة فى معنى الربوبية، ولا تفاوت بيننا فى هذا، فلستم أقرب إليه، ولا نحن أقرب من هذه الناحية، ونبههم النبى ﷺ بأمر ربه بأن التفاوت إنما هو بالأعمال؛ ولذلك أمره تعالى بأن يقول لهم: ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ فأعمالنا بما فيها من خير ونفع تتحمل فى ذاتها استحقاق جزائها، ولكم أعمالكم، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، وأن القرب إلى الله تعالى أو البعد إنما هو بحسب الأعمال، فهى التى تقرب، وهى التى تبعد، وهى التى يكون عليها الجزاء.

وقد وصف الله آمرا نبيه بقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ أى نحن قد أخلصنا بقلوبنا فى عبادة الله تعالى فلا نشرك فى العبادة سواه، ولا نعكر إخلاصنا لله تعالى

بسبب من أسباب الدنيا، فنحن صرنا لله نحب الشىء لا نحبه إلا لله، وهذا تحريض لليهود وغيرهم على أن يكونوا مثلهم، فإن كانوا مثلهم التقوا على الإيمان الجامع غير المفرق.

والإخلاص كما قلنا تصفية النفس من أن يكون فيها غير الله تعالى، وتصفية الفعل من أن تكون لغير الله فيه شائبة، ولقد قال بعض الصوفية: الإخلاص سر بين العبد وبين الله لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده. وفى الجملة الإخلاص حصن العبادة الحصين.

إن اليهود والنصارى افتروا مع كفرهم وجحودهم وقولهم: عزير ابن الله، وقولهم: المسيح ابن الله وإيمانهم بالثالوث، وافتروا فادعوا أنهم أقرب إلى الله وأحب، ثم انحدروا فى تفكيرهم فقلبوا التاريخ فجعلوا أوله لاحقا وآخره سابقا، وضلت عقولهم ضلالا بعيدا، فزعموا أن إبراهيم كان يهوديا أو كان نصرانيا ولقد قال تعالى فى ذلك: ﴿**أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى**﴾.

وإن هذا قلب كما قلنا للأوضاع، فاليهود والنصارى أولاد ليعقوب عليه السلام، وهم تابعون له، ولآبائه، فكيف يقلبون المتبوع ويجعلونه تابعا، ولكنهم يحسبون لغرورهم أن ديانة إبراهيم وأبنائه كانت متفقة مع اليهودية أو النصرانية، اليهود يقولون إنهم كانوا على ديانتهم، والنصارى يبهتون الناس بالكذب فيدعون أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا يؤمنون فيما يزعمون بثالوثهم الباطل بطلانا مطلقا، ولتفنيد أوهامهم أمر الله تعالى نبيه أن يرد عليهم ردا طيبا متفقا مع قوله: ﴿**وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ... (٤٦)﴾ [**العنكبوت**] وقال الله تعالى لنبيه: ﴿**قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ**﴾ كان جواب النبى ﷺ لهم سؤالا لهم محرجا كاشفا لهم؛ لأنهم ادعوا أنهم أعلم بعد أن كفروا، وإن قالوا أن الله أعلم فقد كذبوا على أنفسهم، فهو سؤال ينتهى برد كلامهم بأنفسهم، وهو سؤال من علَّمه تعالى الحكمة وفصل الخطاب.

وإن أولئك اليهود والنصارى يعلمون أن ملة إبراهيم هى الإسلام، والإيمان الجامع لكل الرسل، ويعلمون ما حرف من التوراة والإنجيل، ويعلمون أن التوراة بشرت بمحمد ﷺ، وأن الإنجيل بشر بأنه بعد المسيح رسول اسمه أحمد، يعلمون ذلك وغيره وينكرونه، ويكتمونه حتى لا يعلم؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ﴾، والمعنى أنه لا أحد أظلم ممن كتم شهادة أودعها الله تعالى فى كتابه وما عنده من علم، فالاستفهام هنا إنكارى توبيخى لنفى الواقع والوقوع، فهو نفى أنه لا أحد أظلم ممن عنده شهادة من الله تعالى وكتمها، وفى الوقت نفسه أشارت الآية إلى أن ذلك وقع من أهل الكتاب من اليهود فهم يكتمون علم التوراة عن اليهود ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة] فيضلونهم بعلم، ويعلمون الكثير ويكتمونه.

والشهادة هى الخبر الذى يجب بيانه سواء أكان بين يدى القضاء أم لم يكن، فإن هذه الأخبار فى التوراة كان يجب بيانها، ولم تكن أخبارًا تقرأ ولا تعلم، ولكنها حقائق يجب أن تعلم وتبين، فالإعلام بها كالإعلام بالشهادة. وقد هددهم الله تعالى بقوله تعالت كلماته ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فهذا وعيد، وإخبار بأمر الله تعالى، وقد نفى الله تعالى نفيًا مؤكدا أنه غافل عن عملهم، بل إنه سبحانه آخذهم بذنوبهم، فنفى بما وبالباء الدالة على استغراق النفى.

والغفلة هى: عدم التنبه إلى ما يقع، وهو مأخوذ من الأرض الغفل وهى التى لا معالم فيها ولا بناء، والآية تهديد ووعيد بلا ريب، وقد صور فخر الدين الرازى فى تفسيره «مفاتيح الغيب» الوعيد فى هذا فقال: هذا هو الكلام الجامع لكل وعيد، ومن تصور أن الله تعالى عالم بسره وإعلانه، ولا تخفى عليه خافية، وأنه من وراء ذلك مجازاته، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، لا تمضى عليه طرفة عين إلا وهو خائف حذر، ألا ترى أن أحدنا لو كان عليه رقيب من جهة السلطان يعد عليه الأنفاس لكان دائم الحذر والوجل، مع أن ذلك الرقيب لا يعلم إلا الظاهر فكيف بالرب الرقيب الذى يعلم السر وأخفى إذا هدد وأوعد.

وقد نبه سبحانه وتعالى اليهود والنصارى وغيرهم إلى أنه لايصح لهم أن يتمسحوا بالأسلاف، فقال تعالى: ﴿ **تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ وقد تكلمنا فى معنى هذه الآية الكريمة فى ماضى قولنا فلا نعيد ما قلنا فى ذكر معانى ألفاظها.

ولكن نتلمس المعنى فى إعادة ذكرها ونرى أنها ختام لما يقوله بنو إسرائيل وغيرهم بالنسبة لأسلافهم، ودعوة لهم إلى أن الله تعالى سائلهم عما يعملون هم لا ما عمل أسلافهم.

وأيضا فإن الناس تعودوا اتباع الأسلاف، فالله تعالى يكرر سبحانه أن كل امرئ بما كسب رهين، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى، ولهم ما كسبوا وعليكم ما اكتسبتم، وأن خير الماضين ليس خيرا لكم وأن شرهم ليس وزره عليكم.

ولقد قال تعالى فى ذلك: ﴿ **وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا** ﴿١٣﴾ ﴾ [**الإسراء**] وقال تعالى: ﴿ **قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ** ... ﴿١٦٤﴾ ﴾ [**الأنعام**] قال تعالى: ﴿ **وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ** ﴿٣٩﴾ ﴾ [**النجم**].

القبلة

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟
عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟
شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا
جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ
مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ
هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ
لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾

اعلم أن القرآن كله متصل الأجزاء غير منفصل بعضها عن بعض، وقد رأينا فى الجزء الأول اتصال معانيه ومبانيه اتصالا محكمًا حتى يكاد يكون لكل موضوع منه أجزاؤه المتصلة، فابتدئت سورة البقرة ببيان أقسام من تلقوا علم القرآن بعد الإشارة فى ابتدائها إلى أنه الكتاب الكامل الجدير وحده بأن يختص باسم الكتاب.

وقد قسم الذين تلقوه إلى أهل الإيمان، وأهل الكفر، وأهل النفاق، وصور النفاق وأهله بتشبيهات حسية تبين معانيهم النفسية، ثم بين سبحانه قصة خلق آدم ومكانه بين العالمين من جن وإنس وأنه كامل التكوين.

ثم أشار تعالى إلى النعم التى توالت على بنى إسرائيل، وتوالى كفرهم مفصلا آثامهم، وقتلهم الأنبياء وتكذيبهم لهم، وقد فصل بعض التفصيل أمر إبراهيم عليه السلام وبنيه من بعده، وحقيقة إيمان المؤمن الجامع الذى يؤمن بكل الرسائل الإلهية والأنبياء الذين جاءوا.

وقد ذكر سبحانه أن إبراهيم هو الذى بنى الكعبة هو وابنه إسماعيل، وكان الأمن حول البيت إجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ... (١٢٦)﴾ [البقرة].

وكان من مقتضى النسق أن يذكر عقب أخبار إبراهيم وبنيه، والإيمان الجامع لكل الرسالات الإلهية أن يذكر أمرًا يتعلق بالكعبة المشرفة، وهو أن تكون قبلة المسلمين الذين يتبعون ملة إبراهيم والذين سماهم إبراهيم - خليل الله - المسلمين ولذا قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾.

وإن النبى بصريح هذا النص يشير إلى أنه كانت قبلته إلى الصلاة ليست هى الكعبة، وأن الله تعالى حوله عن القبلة السابقة إلى الكعبة، وذلك أنه عندما فرضت الصلوات الخمس عند الإسراء والمعراج أمر الله نبيه أن يتجه إلى الصخرة حول المسجد الأقصى، وكان النبى ﷺ لايستدبر الكعبة فى صلاته، بل يتجه إلى بيت المقدس واقفا بين الركنين من الكعبة متجها إلى بيت المقدس فكان فى الحقيقة متجها إلى الكعبة وبيت المقدس(١).

ولما هاجر كان لا يمكنه أن يتجه إلى القبلتين، فاتجه إلى بيت المقدس؛ لأن أمر الله بالاتجاه إليه قائم ثابت، ولم يكن من قبل أمر بالاتجاه إلى الكعبة، بل كان النبى ﷺ حريصا على ألا يستدبرها تكريما لها وتشريفا، ولأنه كان يتجه إليها قبل الأمر بالاتجاه إلى بيت المقدس، وقد أخطأ من أهل الكتاب من زعم أن النبى ﷺ كان يصلى إلى بيت المقدس ليتألف قلوب اليهود فما كان للنبى ﷺ أن يشرع عبادة أو فرعًا من عبادة من تلقاء نفسه، ، بل إنه أمر تعبدي من الله تعالى لا يملك فيه رسوله الأمين تحويلا ولا تبديلا.

وإنه بلا شك كان ثمة ناسخ ومنسوخ، وقد كان المنسوخ هو الصلاة إلى بيت المقدس، والناسخ هو الصلاة متجها إلى الكعبة، ثم إلى بيت الله الحرام.

---

(١) قاله ابن عباس وغيره، وذكره الحافظ ابن حجر فى فتح البارى: باب الصلاة من الإيمان.

ولم يكن الناسخ والمنسوخ ثابتين بالقرآن، بل إن كليهما ثبت بالسنة فالمنسوخ ثبت بالسنة، وهى عمل النبى ﷺ بوحى من الله تعالى، وتحويل القبلة ـ وهو الناسخ ـ ثبت بالسنة أيضا، فقد روى البخارى عن البراء أن النبى ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر، وكان رسول الله ﷺ يعجبه أن تكون قبلته قِبَل البيت، وإن أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن كان صلى معه فمر على أهل المسجد - أى قباء - فمر على أهل المسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله، لقد صليت مع النبى ﷺ قبل مكة، فداروا كما هم قبل البيت(١).

ولقد أعلم من يصلون فى قباء فى صباح اليوم التالى، روى مالك عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: «**بينما الناس بقباء فى صلاة الصبح إذ جاءهم آت، فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها وكانت وجوههم إلى الشام، فاستداروا إلى الكعبة**»(٢).

ونرى من هذا أن استقبال بيت المقدس ثبت بالسنة، وثبت التحويل أيضا بالسنة، والقرآن ذكر آثار التحويل، وما يقوله الناس، وأكد التحويل، والقرآن الذى أشار إليه الراوى فى الحديث هو الذى نزل بعد أن تحول النبى ﷺ ومن معه بالفعل، وقد تأكد أمر القبلة بقوله تعالى: ﴿**وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ... ﴿١٥٠﴾**﴾ [البقرة].

قوله تعالى: ﴿**سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ**﴾. قال بعض المفسرين أن الاستقبال هنا موضوع موضع الماضى؛ لأنهم قالوا: وإنما عبر بالمستقبل المؤكد بالسين للدلالة على دوام قولهم إذ قالوه فى الماضى، وسيقولونه فى المستقبل، فسفه القول لا ينتهى، بل هو يمتد ويكرر ما دام السفه قائما.

---

(١) سبق تخريجه فى المقدمة من رواية البخارى ومسلم.

(٢) متفق عليه؛ رواه البخارى: كتاب الصلاة (٣٨٨) ومسلم: المساجد ومواضع الصلاة (٨٢٠).

وإن ظاهر اللفظ يدل على أنهم سيقولون مع ما قالوا، وإن ذلك إخبار من الله تعالى، وخبر الله تعالى لا يقبل التخلف، ولم يثبت أنهم قالوا ذلك من قبل نزول الآيات، إذ إن نزول الآيات اقترن بالتحويل، أو بعده بقليل وإن لم يكن التحويل به بل كان بوحى من الله للنبى ﷺ وهو يصلى، وما كان الله تعالى ليقرئه القرآن وهو يصلى، فإنه عند القراءة كان يقرئه تعالى فقد قال تعالى: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة].

وإنا لنستبعد أن يكون إنزال القرآن وإقراؤه وترتيله وهو فى الصلاة يصلى، والله على كل شىء قدير.

والسفيه هو: الخفيف العقل، وذلك مأخوذ من قولهم: ثوب سفيه إذا كان خفيف النسج، وقد يكون السفه نوعيا، فقد يكون متزن العقل حكيما، ويكون فى أمور أخرى سفيها، كبعض العرب الذين كان فيهم عقل، ولكن الإدراك الدينى فيه سفه، وكبعض أهل الكتاب، فإنهم كانوا فى أمور الدين سفهاء، إذا تكلموا سفهوا أنفسهم.

ومن هم السفهاء الذين تكلموا فى القبلة متعجبين من تحويلها؟ قال بعضهم: المشركون، فقد توهموا أنه عندما حولت القبلة إلى مكة أن محمدا سيرجع إلى دينهم، وقالوا: لقد اشتاق محمد إلى مولده، وعن قريب يرجع إلى دينكم، وقال اليهود: لقد التبس عليه أمره، وتحير، واستهزأ المنافقون بالمسلمين، وهم جميعا تساءلوا: ﴿مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾.

الاستفهام هنا للتعجب الساخر المتهكم المستهزئ - لعنهم الله تعالى - وهم جديرون بهذا بوصف السفه، فليست الحقائق الدينية موضع تهكم إلا ممن سفه نفسه، وكان جهولا، ومعنى ﴿وَلاَّهُمْ﴾ أى جعلهم يعدلون صارفين النظر عن القبلة التى كانوا عليها، وهى بيت المقدس، فالتولية معناها العدول أو الانصراف أو الإعراض، وإن هذا السؤال يدل على جهلهم وعتوهم فى الفساد؛ لأنهم نسوا أنهم يعترضون على الله تعالى.

ولقد رد الله تعالى آمرًا النبى ﷺ: ﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ وقد أمر الله تعالى : بأن يتولى النبى ﷺ الرد عليهم؛ لأن الاعتراض المتهكم كان على النبى وأصحابه، وهم يرمونه بالتحير، وكان الرد ﴿لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾، أى أن الله تعالى مالك الأرض شرقيها وغربيها وشماليها وجنوبيها، وذكر الشرق والغرب؛ لأن من ملكهما ملك الأرض كلها، لا فرق بين قريب وبعيد، وإذا كان هو المالك ملكية مطلقة للأرض، فهو يتخير لموضع قبلته ما يشاء من أرضه وليس لأحد سلطان فيما يريد، وهو يختار من أرضه مايراه أصلح وأقرب وأنسب، وقد اختار البيت الحرام، كما اختار من قبل بيت المقدس، والبيت الحرام بناء إبراهيم وأول بيت وضع للناس، وهو كما قال علماء الكون فى وسط الأرض، واختصه الله تعالى بأن به وحوله مناسك الحج، وقالوا إنه منذ خلق الله تعالى مكة لم يكن بها زلزال ولا خسف، فكأن الله تعالى قد أمنها من هذه الظروف الكونية، كما كان الناس فيها آمنين من القتل، وجعله سبحانه وتعالى حرما آمنا، ويتخطف الناس من حولهم.

ولقد بين سبحانه وتعالى أن هذا الذى اختاره من قبلة هو الهداية لايرضى به إلا من هداه الله تعالى، فذيل الآية بقوله تعالت كلماته: ﴿يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أى أن الله تعالى بحكمته كان فى عباده من اهتدى، وكان فى عباده من ضل وغوى؛ فمن سلك الجدد، وحارب هواه، ووسوسة الشيطان، فإن الله تعالى يأخذ بيده، ويوجهه إلى صراط -أى طريق- مستقيم، والطريق المستقيم هو أقرب الطرق للوصول إلى الغاية، إذ إن الخط المستقيم أقرب خط بين نقطتى الابتداء والانتهاء .

وإن الله تعالى اختار خير أماكن الأرض لتكون قبلة الناس، وهى وسط الأرض وخير بقعة فيها؛ لما ذكرنا من مناقب لهذا البيت، ولأن منشئها أول نبى عرف بأنه حطم الأوثان، وجعلها جذاذا، ولقد كانت أمة محمد ﷺ ـ آخر محطم للأوثان ـ والذى جعلها جذاذا مطروحا ـ خير أمة، وإنه كما اختار الله خير بقعة فى الأرض لتكون قبلة إذ أنشأها محطم الأوثان فكذلك جعل أمة محمد ﷺ خير أمة أخرجت للناس؛ ولذا قال تعالى: .﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾.

الوسط يطلق بإطلاقين: **أحدهما** - الشيء المتوسط أو الأمر المتوسط بين أمرين أو نحو ذلك مما يكون متوسطا، **الثاني** - الوسط بمعنى الخير، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ** ﴿٢٨﴾﴾ [**القلم**] أي: قال أعدلهم، ويقال وسط الوادى أى خير موضع فيه.

ولقد قال القائلون بالتفسير الثانى: إن الوسط كان خيرا؛ لأنه متوسط بين طرفين كلاهما إثم أو باطل، إذ الوسط مجانبة للغلو والتقصير، فاليهودية قصرت فى حق الأنبياء، فقتلتهم، والنصرانية غلت فى حق نبى فعبدته، فكان الوسط ألا يكون غلو ولا تقصير، بل تلقٍ للرسالة، وإيمان بها، ولقد أثر عن النبى ﷺ أنه قال: «**خير الأمور أوسطها**»[1]؛ لأن الأوسط بعيد عن الغلو والتقصير ولقد أثر عن على بن أبى طالب أنه قال: «عليكم بالنمط الأوسط فإليه ينزل العالى ، وإليه يرتفع النازل».

ولأن التوسط خير دائما، صار يطلق الوسط على الخير فيقال عن أفاضل الناس أوساطهم، وعن خيار الأمور أوسطها، وكل موضع فيه إصلاح أو صلح بين الناس يقال فيه وسط.

والنسبية فى قوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ**﴾ من المشابهة بين خيرية الكعبة وخيرية الأمة، والمعنى كما جعلنا لكم الكعبة قبلة، وهى خير بقعة فى الأرض جعلناكم أمة وسطا.

وقد فسر بعض العلماء الوسط هنا بالإطلاق الأول، وهو التوسط بين أمرين، ومعنى التوسط أن أمة محمد ﷺ فوق الأمم ودون الأنبياء، وهم على ذلك خير

---

(١) حديث: «خَيْرُ الأُمُورِ أَوْسَاطُهَا». رواه ابن السَّمعانىّ فى (تاريخه)، من حديث علىّ بسندٍ فيه من لا يُعرف حالُه. وأخرجه ابن جرير فى (تفسيره) من كلام مطرِّف بن عبد الله، ومن كلام يزيد بن مرَّة الجعفىّ. وروى أبو يعلى عن وهب بن منبّه قال: «إنَّ لكُلِّ شَيء طَرَفَيْنِ وَوَسَطا، فَإِذَا أُمْسِكَ أَحَدُ الطَّرَفَيْنِ مَالَ الآخَرُ، وَإِذَا أُمْسِكَ الوَسَطُ اعْتَدَلَ الطَّرَفَان. فَعَلَيْكُمْ بِالأَوْسَاط منَ الأَشْيَاء». [الدرر المنتثرة - ج١ ص ٤١٥] وروى ابن ماجه عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ إذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ وَعَلا صَوْتُهُ وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ كَأَنَّهُ مُنْذرُ جَيْش . . . إلى أن قال: وَيَقُولُ: «أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ خَيْرَ الأُمُورِ كِتَابُ اللَّه وَخَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ». [المقدمة: اجتناب البدع والجدل (٤٤)].

الأمم وأعدلهم، وأقومهم سبيلا، وإن أمة محمد ﷺ تعلم الناس، وإن محمدا يعلِّمها.

وفسرها بعض العلماء بأن معنى ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ أى أمة عادلة قويمة ارتضاها الله تعالى دون غيرها من الأمم كما قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ... (١١٠)﴾ [آل عمران].

ولماذا كانت أمة محمد الذين يتبعونه ويهتدون بهديه خير أمة أخرجت للناس؟ الجواب عن ذلك أن خيرية هذه الأمة أو كونها فوق الأمم كانت لأنها بعيدة عن غلو النصارى فى عيسى، وسقوطها فى الأوهام الباطلة، وبعيدة عن حسد اليهود ومقتهم لكل حق، وفوق ذلك أنها تؤمن بجميع الأنبياء كما تلونا قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦)﴾ [البقرة] فهى أمة الكمال الدينى الجامع، وفوق ذلك هى التالية لملة إبراهيم حقا وصدقا، من أجل هذا الإيمان الكامل بالأنبياء جميعا والشرائع السماوية كلها، كان لهم حق الشهادة على غيرهم بأنهم آمنوا بالله الإيمان الكامل، هل آمنوا برسالاته الإلهية، أم لم يؤمنوا؛ ولذا قال تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

أى تشهدون للناس بأنهم آمنوا بمثل إيمانكم، والرسول يشهد لكم بأنكم آمنتم بالله الإيمان الكامل وآمنتم بوحدة الرسالة الإلهية، فالرسول يشهد بإيمانكم الذى يسمح لكم بأن تشهدوا على غيركم، فمقياس الإيمان وميزانه عندكم.

واللام فى قوله تعالى ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ هى للتعليل، أى لكونكم وسطا وعدولا فى إيمانكم تكونون شهداء على الناس، مع شهادة الرسول ﷺ

عليكم، فالخيرية التى اتسمتم بها هى علة الشهادة، وهى باعثها، والسبب فى أنكم فوق الناس تحكمون لهم أو عليهم(١).

ويصح أن تكون (اللام) ليست للتعليل، وتكون للعاقبة أو الغاية، والمعنى أن خيريتكم أو كونكم فوق الناس ودون الأنبياء غايتها وثمرتها أن تكونوا شهداء على الناس، وأن يكون الرسول شاهدا عليكم، بأنكم استحققتم هذه الخيرية.

والشهداء يصح أن تكون جمعا لشاهد، أو جمعًا لشهيد، وقد ذكرنا أن من جمع الشاهد، قوله تعالى: ﴿ وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ... ﴿٢٨٢﴾ ﴾ [البقرة].

وهنا أنسب أن تكون جمعا لشهيد؛ وذلك لأن الله تعالى ذكر المفرد فى قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ والشاهد هو الحاضر الذى يعاين الأمر الذى يشهد عليه، وهذا الأمر الذى يعاينه، وينظر إليه إما أن يكون بعينه المبصرة، وإما أن يكون ببصيرته المدركة المؤمنة الفاهمة، ولاشك أن الشهادة فى هذا المقام تكون بالأفئدة التى فى الصدور، لا بالأبصار التى ترى الحسيات، ويصح أن تكون رؤية القلوب واضحة بينة كرؤية الأبصار.

وهنا إشارة بيانية يجب أن نذكرها، وهى أنه تعالى عدَّى الشهادة بـ «على» دون اللام، فقال تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ مع أن الشهادة قد تكون لهم، وقد تكون عليهم. والجواب عن ذلك أن الشهادة هنا حكم، أو هى متضمنة معنى الحكم؛ ولذا تعدت بعلى، لتكون بمعنى الحكم، وقد تكون الشهادة بمعنى تعليم الناس، وشهادة الرسول بمعنى تعليم أمته.

وقد يسأل سائل: لماذا كانت القبلة أولا إلى بيت المقدس، ثم حولت إلى الكعبة، بعد أن كانت فى مكة ملتزمة إلى أمد يسير؛ إذ كان مع الاتجاه إلى بيت

(١) عَنْ أَبِى سَعِيد الْخُدْرِىِّ رضى الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَالُ لأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ. فَيَقُولُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ. فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ... ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة] وَالْوَسَطُ الْعَدْلُ». [رواه البخارى: كتاب تفسير القرآن (٤١٢٧)].

المقـدس كان الاتجـاه أيضـا إلى الكعبة بعدم اسـتدبارها كما نقلنا فـيما سلف من قول.

ونقول فى الجـواب عن ذلك إن هناك بيانا لحكمة ذلك ذكـره القرآن الكريم، وحكما أعظم وأعلى، وهناك سبب قد نتلمسه والسبب الذى نتلمسه هو **أولاً**: بيان وحدة الأديان السـماوية، **وثانيًا**: الإشـارة إلى أن بيت المقدس مـسجـده مقـدس كالكعبة، وإن كان دونها تقديسا، **وثالثًا**: إن الكعبة كانت الأصنام تحوطها فى ذلك الوقت. وأن التحويل إلى الكـعبة كان إيذانا بتحطيم الأوثان وزوال دولتـها؛ إذ كان التحويل فى النصف من شعبان، وكان يوم الفرقان بغزوة بدر حول منتصف رمضان كما هو ثابت فى سيرة رسول الله ﷺ وهى سيرة الإسلام.

هذا ما نتلمسه وقد يكون غير ذلك.

أما ما ذكره الله سبحانـه وتعالى، وهو المحكم الذى لا يأتيه الباطل أبدا، فقد ذكره سبحـانه فى قوله تعالت كلماته: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ**﴾ أى ما جعلنا القـبلة التى كنت عليها متـبعًا فى صلاتك لها إلا لنعلم من يستمر على تبعيته للرسول ﷺ ممن ينقلب على عقبيه.

وما القبلة التى كـان عليها النبى ﷺ: أهى بيت المقدس؟ فـقد كان النبى ﷺ يتجه إليه قبل هذا التحويل، وذلك ظاهر، لا يحتاج إلى تأويل .. أم هى الكعبة؟، وهى التى كان عليها بمـكة، وإن اشترك معها الاتجاه إلى بيت المقـدس بأمر ربه كما ذكرنا من قـبل، وكان يتـجه إليـهما، ولم يتـغيـر ذلك الاتجاه إلا بعـد أن هاجر، وللمفسرين فى ذلك اتجاهان:

أولهما - أن القبلة التـى كانوا عليهـا هى بيت المقدس، وقـد كان الاختـبار للمهاجرين، وللذين دخلوا فى الإسلام، وفى قلوبهم مرض أو ضعف فى الإيمان.

أما المهاجرون فقد ألفوا البيت الحرام، والاتجاه إليه، وقد كان مطافهم وشرفهم فى الجاهليـة، وقبلتـهم فى الإسلام، وإن كان الله تعـالى قد أمـر بالاتجاه إلى بيت المقدس، فـقد كانوا يتـجهون للاثنين على مـا أشرنا وروينا، فكانت القـبلة على ما

ألفوا من غير منافرة ولا استدبار لها، فلما كانت الهجرة، وكانت القبلة إلى بيت المقدس فقط، واستدبروها كان الاختيار، وقد أحسنوا الاختبار، وما كان لمهاجر فى سبيل الله أن يرتد على عقبيه.

وأما الذين فى قلوبهم مرض، فكان الاتجاه إلى بيت المقدس ثم التحول عنه مظهرا ما بطن من كفر المنافقين، ومن ضعف إيمان من الضعفاء فى إيمانهم ولذا ارتد منهم من ارتد، وأظهر الكفر من أظهر فمحص الله الذين آمنوا. هذا على تفسير القبلة التى كانوا عليها ببيت المقدس.

ثانيهما - تفسيرها بالكعبة، فالمعنى على هذا: وما جعلنا القبلة التى كنت عليها، وهى الكعبة قبل الهجرة، ثم الرجوع إليها إلا للاختبار، وقد وقع من المنافقين ما أظهر ما كانوا يخفون، وارتد بعض ضعفاء الإيمان، وبذلك كان التمحيص، وقد فسر بعضهم ﴿**كُنتَ عَلَيْهَا**﴾، وهى الكعبة بمعنى صرت عليها، مثل قوله تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ... ﴿١١٠﴾﴾ [**آل عمران**]، أى صرتم بإيمانكم خير أمة أخرجت للناس.

وإنى أرى أن تفسيرها ببيت المقدس هو الأقرب والأظهر، والتفسير لكتاب الله تعالى بما يكون ضاحيا واضحا أولى وإنه لا يحتاج إلى تأويل، ومن المقررات اللغوية أن ما لا يحتاج إلى تأويل أولى مما يحتاج إلى تأويل.

ولقول الله تعالى: ﴿**وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ**﴾ أى وإن كانت القبلة فى تحويلها من بيت المقدس إلى الكعبة لكبيرة إلا على الذين أودع الله قلوبهم هداية ثابتة مطمئنة لا تزعزعها الرياح، ولا مكان فيها للشبهات التى يثيرها من لا يؤمنون.

فـ «إنْ» هنا مخففة من «إنَّ» الثقيلة، والدليل على ذلك دخول اللام المؤكدة، وهى لا تدخل على «إنْ» إذا كانت نافية، وكانت دالة على تأكيد القول ببقاء الحال لمن ضل، وبعدها عمن اهتدى.

والله سبحانه وتعالى العليم الخبير الذى أحاط بكل شىء علما يبين أن الاختبار كبير لا يثبت فيه من تزلزل إيمانه الشبهات وتطيحه الشكوك؛ ولذلك أكد عظم الاختبار بـ «إن» المخففة من الثقيلة وبالفعل الماضى (كانت) وباللام.

بقى أن نشير إلى أمر لابد من بيانه، وهو قوله تعالى: ﴿**إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ**﴾ وهو: هل كان الله تعالى لا يعلم من يتبع الرسول من غيره، وهو يحيط بكل شىء علما؟ ويجاب عن ذلك بجوابين:

أولهما - أن علم الله تعالى محيط بكل شىء، وهو يعلمه من قبل أن يقع، ومن بعد وقوعه ويعلمه واقعا، فذلك العلم لا غيره هو الذى يظهر به الفعل ويستبين، فالمعنى ليظهر من يتبع ممن لا يتبع، وليتبين الآثم من المطيع ومن يستمر على اتباعه ومن ينقلب على عقبيه.

والثانى - أن الضمير فى ﴿**لِنَعْلَمَ**﴾ ليس لله وحده، ولكنه للجماعة المؤمنة والنبى ﷺ مع الله تعالى، وكون الله معهم لا يستلزم أنه لا يعلم، إنما الذى لا يعلم هم المؤمنون، فالاختبار وظهور الطائع المتبع، والعاصى المرتد على عقبيه إنما هو للمؤمنين وهم داخلون فى قوله تعالى: ﴿**لِنَعْلَمَ**﴾. والتعبير عن الأعلى، ويقصد من دونه كثير فى اللغة العربية فإذا قال رئيس دولة استولينا على كذا، فإن الاستيلاء الفعلى يكون من الجند لا منه، وكأن يقول رئيس دولة صادقا أو غير صادق نظمنا الإدارة، وأحكمنا العمل، والذى عمل ونظم غيره.

وقد عبر سبحانه وتعالى عن الذين لم يحسنوا البلاء وكشفهم الاختبار فارتدوا أو أعلنوا كفرهم، وما كانوا مؤمنين بقوله تعالى: ﴿**مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ**﴾ والعقب هو مؤخر القدم، والمرتد على عقبيه، هو الخارج عن الإسلام، وهذا التعبير ﴿**عَلَىٰ عَقِبَيْهِ**﴾ استعارة تمثيلية، فقد شبه الخارج عن الإسلام الذى دخل فيه أو أوشك أن يدخل الإيمان قلبه بحال المرتد إلى الوراء سائرا على عقبيه، سيرا مضطربا غير متماسك، فقد سجل عليه أنه رجع إلى الوراء بعد أن تقدم إلى الأمام، وأن رجوعه مضطرب بغير خطوات تسير بل على الأعقاب ينقلب، وهذا التشبيه على أساس أن الانقلاب بمعنى الرجوع إلى الوراء، بعد أن سار بضع خطوات إلى الأمام.

ويصح أن يفسر الانقلاب بمعنى أن يجعل أعلاه أسفله، وأسفله أعلاه، فيكون المعنى أنه شبه حال من يرتد بحال من انتكس فصار رأسه فى أسفل، وعقباه فى موضع رأسه، وفى هذا بيان أن من تكون هذه حاله معكوس منكوس قد نقض إنسانيته وكل مقومات الإنسانية فى نفسه.

وإن بعض المؤمنين خافوا من أن تضيع صلاتهم الماضية، وخصوصا أن بعضهم قد مات، وصلاته بعد الهجرة كانت على القبلة إلى بيت المقدس، فشكا الأحياء منهم إلى النبى ﷺ فذكر الله تعالى مطمئنا أنه لا تضيع صلواتهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ**﴾ والمراد من الإيمان هنا الصلاة، وعبر عن الصلاة بالإيمان؛ لأن الصلاة ركنه، وقوامه، فلا يعد الاعتقاد والإذعان إيمانًا من غير صلاة متجهة إلى الله تعالى، وإذا كان الاعتقاد به سلامة النفس والعقل، فالصلاة بها تأليف القلوب، وتطهيرها من الآثام، وقد قال تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ...** ﴿٤٥﴾﴾ [**العنكبوت**] ولقد قال ﷺ: «**لا دين من غير صلاة**»(١) فالتعبير عن الصلاة بالإيمان بيان لمكانها.

ولقد عبر سبحانه عن أن الله تعالى لا يضيع الإيمان بقوله: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ**﴾، أى ما كان من شأن الله تعالى، وسنته فى الوجود أن يضيع إيمان المؤمنين، ونفى الضياع يقتضى غيره والجزاء عليه بثوابه عنه يوم الحساب، وإن الله تعالى لا يضيع عمل عامل، فقد قال تعالت كلماته فى استجابة دعاء الضارعين إليه: ﴿**فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ...** ﴿١٩٥﴾﴾ [**آل عمران**] ، وقال تعالى: ﴿**إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً** ﴿٣٠﴾﴾ [**الكهف**] فذلك شأن الله وما سنَّه، وهو العادل الحكيم.

وإنه لا عقاب من غير شرع ينزل ببيان الأمر والنهى، فالذين صلوا على القبلة التى كانوا عليها كانوا طائعين، ولم يكونوا مخالفين عاصين، ولا عقوبة فى طاعة.

---

(١) عن ابنِ عمرَ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «لا إيمَانَ لَمَنْ لا أَمَانَةَ لَهُ، ولا صَلاةَ لَمَنْ لاَ طُهورَ لَهُ، ولا دِينَ لَمَنْ لا صَلاةَ لَهُ، إنَّما مَوْضِعُ الصَّلاةِ منَ الدِّينِ كمَوْضِعِ الرَّأْسِ مِنَ الجَسَدِ». [رواه الطبرانى فى الأوسط والصغير وقال: تفرد به الحسين ابن الحكم الحِبْرى. وانظر مجمع الزوائد (٤١٦١)].

وإن الله مع ما ذكر رؤوف رحيم؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الرأفة فى معناها اللغوى أشد من الرحمة، أو أعلى منها، وإن هذين الوصفين من صفات الذات العلية أو من أسماء الله تعالى، وهما متغايران وإن لم يكونا متعارضين، بل هما فى حقيقتهما متلازمان، فحيث كانت الرأفة كانت الرحمة لا محالة، فالله رحيم بعباده فى غفران ذنوبهم، وفى نعمه عليهم ظاهرة وباطنة، وفى كشف الضر عنهم، وفى قبول توبتهم، وفى أنه منع اليأس من رحمته، وهكذا وسعت رحمة الله تعالى كل شىء، ولو كان فى بعض الرحمة آلام، كقطع العضو المئوف ليسلم الباقى.

والرأفة فى أن الله يريد توبة العاصى، ولا يريد به خسارا، وفى الهداية إلى الصراط المستقيم، فيعين من كتب عليه الخروج من الشقاء، وهكذا نجد الرحمة والرأفة متقاربتين، وإن كانتا متغايرتين كتغاير الأخ عن أخيه، وإن الرأفة رحمة صافية لا ألم فيها، أما الرحمة فقد يكون فيها ألم كالرحمة بالمريض فى أخذ الدواء المر. وقد أكد سبحانه وتعالى وصفه بالرأفة والرحمة بالوصف برءوف ورحيم، وبالجملة الاسمية وبالتأكيد بإن، وباللام. نضرع إلى الله تعالى أن يعمنا برحمته، وأن يغفر لنا ما تقدم من ذنوبنا، ويهدينا، إلى سواء الصراط، وأن يرحم المسلمين بالرجوع إليه.

قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ

ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾

بين الله سبحانه وتعالى أنه سيقول السفهاء: ما ولاهم عن قبلتهم، وأن منهم أهل الكتاب، وقد كان النبى ﷺ يتجه إلى ربه بقلبه ووجهه راجيا أن تكون القبلة هى البيت الحرام، فكانت إجابة هذه الرغبة، وكان التحويل، والسفهاء قالوا ما قالوا، ولجَّ بنو إسرائيل فى سفههم، وهم يعلمون أنه الحق، وهو تحويل القبلة إلى بيت الله الحرام، وقد قال الله تعالى فى ذلك: **﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾**.

كان النبى ﷺ يرجو أن يحول من بيت المقدس إلى البيت الحرام؛ لأن الكعبة بناء إبراهيم، ولأن ملته هى ملة إبراهيم، ولأنه مثابة الناس وأمنهم، ولأنه مجتمع العرب، ومؤتلفهم، ولأن فى الاتجاه إليه تأليف قلوبهم، ومعنى تقلب الوجه الكريم أن يخفضه خضوعا، ويرفعه رجاء، فالتقلب التردد بين الرفع لله راجيا ضارعا أن يحوله إلى قبلة يرضاها، وترضى العرب، ولا يكون فيها تابعا لبنى إسرائيل، بل يولى وجهه إلى قبلة إبراهيم وإبراهيم أبو الأنبياء.

فتقلب الوجه، هو الضراعة إلى الله تعالى لكى تكون القبلة هي البيت الحرام، والرجاء منه بأن يتجه إلى السماء داعيا، وراجيا أن ينزل قرآن بتحويل القبلة.

وقد قصر بعض المفسرين تقلب الوجه وتردده بين رفعه ضارعا، وخفضه خاضعا على رجاء نزول قرآن بالتحويل، وظن أن الدعاء بتحويل القبلة تقدُّم بالطلب على الله تعالى، والحق أن التقلب لرجاء الوحى وللضراعة إليه والدعاء، وليس فى

ذلك تقدم على الله فى طلب شرعه؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام فهم أن الاتجاه إلى بيت المقدس ليس دائما، وأنه سيعود إلى بيت الله الحرام، فهو إذا دعا بذلك وتضرع إنما يستنجز وعد الله تعالى، ويرجو أن ينزل قرآن بذلك.

ولقد أجابه سبحانه إلى ما يرضيه ويرجوه فقال تعالى: ﴿**فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا**﴾ الفاء هنا تشير إلى أن ما قبلها سبب لما بعدها؛ أى أن الله تعالى استجاب لرجاء النبى ﷺ، ودعائه، وقوله: ﴿**فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا**﴾ معناها لنمكن لك ونعطيك القبلة التى ترضاها، من قبيل وليت الأمير أى جعلته واليا، فالمعنى لنعطينك القبلة التى ترضاها، أو لنولين وجهك ناحية القبلة التى ترضاها.

وقد أكد الله تعالى إجابة مطلب النبى ﷺ أو دعائه ورجائه بالقسم المطوى فى الكلام الذى دل عليه جواب المصدر بلام القسم، وتقدير القول: فوالذى يحلف به لنولينك قبلة ترضاها، وهى الحق الذى قدره الله تعالى فى علمه المكنون أن المسلمين على ملة إبراهيم عليه السلام، فلابد أن يتجهوا إلى بنيته.

وإن هذه الآية فى معناها سابقة على قوله تعالى: ﴿**سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ** ... ﴿١٤٢﴾﴾ [**البقرة**]؛ لأن تقدير قول السفهاء لا يكون إلا بعد أن حولهم عن قبلتهم التى كانوا عليها، كما نص القرآن الكريم.

وقد بين سبحانه القبلة بقوله تعالى: ﴿**فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾ والفاء للتفريع عما قبلها، والوجه المراد به حقيقة الوجه؛ لأنه يتجه بوجهه نحو البيت الحرام، وقد يراد به الشخص كله، ويكون الوجه المراد به الذات، والتعبير بالوجه عن الذات؛ لأنه الذى تكون به المواجهة، ولأنه أظهر جزء فى جسم الإنسان.

والشطر الناحية والاتجاه، والنحو، ولقد جاء فى تفسير أبى السعود العمادى: وقيل الشطر اسم لما ينفصل من الشىء، ودار شطر، إذا كانت منفصلة عن الدور، ثم استعمل لجانبيه وإن لم ينفصل.

ويستعمل أيضا فى نصف الشىء أو جزئه، ومهما يكن من الأصل اللغوى فالمراد هنا الجهة أو الناحية أو نحو ذلك، والبيت الحرام قبلة الناس فى مشارق الأرض ومغاربها، روى عن ابن عباس أنه قال إن النبى ﷺ قال: «**البيت قبلة لأهل المسجد، والمسجد قبلة لأهل الحرم، والحرم قبلة لأهل الأرض فى مشارقها ومغاربها من أمتى**»(١).

وقوله تعالى: ﴿**فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾ الخطاب فيه للنبى ﷺ، وهو إجابة لما رجاه، فخصه أولا بالإجابة إرضاء وتقريبا وإيناسا، وتشريفا، ولتبيين منزلته عند الله تعالى.

وقد بين من بعد ذلك أن هذا حكم عام، وليس بخاص بالنبى ﷺ، فقال: ﴿**وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**﴾.

وقد كان النص السابق ربما يفيد معنى الخصوص، وإن كان لا يدل عليه، فقد يفيد خصوص النبى ﷺ، وخصوص المكان الذى يقيم فيه النبى ﷺ، فكان هذا النص يفيد عموم الخطاب، وعموم الناس، وعموم الأمكنة، وكل يتعرف مكانه وموضع اتجاهه، ففى أى مكان حيث يكون يتجه إليه مجتهدا يتعرف مكان اتجاهه، جاعلا وجهه صوب الكعبة على جانب من جوانبها، وعلى أى ريح من ريحها مادام متجها نحوها، غير مستدبر لها.

وقد أشار القرآن الكريم إلى سفه الذين قالوا ويقولون: ﴿**مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا** ... ﴿١٤٢﴾﴾ [**البقرة**] وكان اليهود مبعث هذا التشكيك، وإن كانوا لم ينالوا فيه مأربا. وقد بين سبحانه وتعالى أنهم دائبون على إنكارهم وسفههم، وإثارتهم للريب وإن لم يستطيعوا، فقال تعالى مبينا مبالغتهم فى الجحود مع علمهم بالحق: ﴿**وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ**﴾ والضمير فى قوله

(١) رواه البيهقى فى سننه: باب من طلب باجتهاده الكعبة (٢٢٦٦) ج٢ ص ٢٨٠. وانظر نصب الراية للزيلعى (٥٢) ج١ ص٢٥٣.

تعالى: ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ قد يعود إلى النبى ﷺ وهو حاضر فى الأنفس وفى العقول فكأنه حضور عقلى لا يقل عن العود على مذكور، لأنه مبشر به فى كتبهم، معلوم عند أحبارهم، ومعنى ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ أى أن ما جاء به هو الحق، فليس فيما أتى به الباطل.

ولعل ذلك قد يكون بعيدا من ناحية الصياغة البيانية، لا من ناحية الحقائق المنزلة؛ ولذا نرجح أن الضمير يعود على التحويل أو التولى الذى رجاه النبى ﷺ، وكان يقلب وجهه رجاء أن ينزل به وحى الله تعالى، ورجحنا ذلك؛ لأنه فى الموضوع، ولأن السياق البيانى يتلاقى معه، ولأنه الجدير بأن يوصف بالمصدر وهو الحق، فالنبى عند الكلام فى شأنه يقال إنه جاء بالحق أو الصدق، أو نحو هذا من البيان.

وإن ذلك هو الحق عندهم، فقد علموا مما عندهم من كتب أن النبى وجدوده كانوا فى «فاران»، وأن «فاران» هى بيت عبادة أولاد إسماعيل، و«فاران» هى مكة وما حولها.

وأكد الله تعالى علمهم بالحق فقال: ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ فأكد سبحانه كونه الحق بأن المؤكدة، وبالقصر بتعريف الطرفين، فهو الحق، ولا حق سواه، ثم إنه وصفه بأنه من عند ربهم الذى خلقهم ورباهم، وخلق الأرض كلها، وله مشارق الأرض ومغاربها، فهو أعلم حيث تكون القبلة التى يختارها كما أنه أعلم حيث يجعل رسالته.

ثم بين ما يعقب أقوالهم وإثارتهم للريب، فقال تعالت كلماته: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أى أن الله تعالى عليم بهم علم من لا يغفل عن أفعالهم من بث للشك، وغمز من القول، ومنهم ساخر بأعمال الرسول ﷺ التى هى من عند ربه، فهم مراقبون فى أعمالهم، وذنوبهم وآثامهم لا تخفى عليه، وهو آخذهم بها يوم القيامة.

إذا كان الذين أوتوا الكتاب قد أثاروا عاصفة من الشك حول تحويل القبلة من بيت المقدس، وهو أحد المساجد الثلاثة التى تشد إليها الرحال، فليس ذلك لجهل منهم بالحق كما بينا، ولكن للتعصب الذى استولى على قلوبهم، والتعصب إذا سكن القلوب حال بينها وبين الإدراك السليم فلا تغنى الآيات والنذر، ولاتزيدهم البينات إلاخسارا؛ لذا قال تعالى: ﴿**وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ**﴾.

اللام فى قوله تعالى: ﴿**وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ**﴾ هى اللام الموطئة للقسم أى الدالة على أن ثمة قسما محفوظا، وأن جوابه سد مسد جواب الشرط، وهو ﴿**مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ**﴾ أى والذى يقسم به إن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية قاطعة ملائمة للعقل الحر الخالى من العناد والتكبر والتعصب لكى يتبعوا قبلتك ما اتبعوها؛ لأنهم ليسوا طلاب حق يقنعهم الدليل، بل هم معاندون مكابرون، لا تزيدهم الحجة القوية إلا إصرارًا، ولقد قال تعالى: ﴿**بِكُلِّ آيَةٍ**﴾، أى لوجمعت الحجج كلها، ورميت بها، ما تزايلوا عن إنكارهم الذى سيطر عليهم عداوة وبغضاء واستكبارا.

وقال المفسرون: إن الكلام السامى فيه إظهار فى موضع الإضمار فقد قال: ﴿**وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ**﴾ وكان موضع الإضمار؛ لأنهم ذكروا بهذا الاسم فى الآية السابقة، وكان الإظهار لبيان موضع الإنكار عليهم فى تعصبهم، وإنغاض رءوسهم عن الحق وقد قامت أماراته وأدلته مما بين أيديهم، ومع ذلك إذا زدتهم آيات أخرى ما تبعوا قبلتك.

ولقد قال الله تعالى بأن النبى ﷺ ومن معه لا يتبع قبلتهم؛ لأن الحق لا يخضع للباطل المعاند المستكبر؛ ولذا قال: ﴿**وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ**﴾ أى أنت على الحق، ولست بتابع باطلهم، وقد أكد سبحانه وتعالى أنه عليه الصلاة والسلام لا يتبع قبلتهم بالجملة الاسمية الدالة على استمرار نفي تبعيته عليه السلام لقبلتهم، وبضمير الخطاب وهو أنت، أى أنت بصفتك التى في علمهم، وهو أنك المرسل وهم الكذابون المبطلون، وأكده أيضا بالباء فى ﴿**بِتَابِعٍ**﴾ الدالة على استغراق النفى

وتأكيده، وكان النفى وكانت المحاجة موجهة للنبى ﷺ، وقومه فى اتباع القبلة تبعًا له وهم من ورائه وهو إمامهم.

كان النفى وكانت المحاجة موجهة للنبى ﷺ لأنهم كانوا يحاجون النبى ﷺ، وهو عليه الصلاة والسلام الذى يمكنه أن يأتى لهم بكل آية، ولقد روى أن اليهود عندما تحولت القبلة أصابهم غم شديد بمقدار ما كان قد أصابهم من فرح عندما كانت القبلة متجهة شطر بيت المقدس، وقد كانوا يقولون: لو ثبت على قبلتنا لكنا نرجو أن يكون صاحبنا الذى ننتظره وكان ذلك تغريرًا وخداعا، ﴿**وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** ۝٩﴾ [البقرة].

وإنه فى الواقع أن أهل الكتاب ليست لهم قبلة واحدة، فاليهود لهم قبلتهم إلى الصخرة كما سارت عليه تقاليدهم، والنصارى كانت قبلتهم إلى المشرق حيثما كانوا كما روته التقاليد، لا كما جاءت به نصوص عندهم، ولقد عبر القرآن بإفراد القبلة دون جمعها مع تعددها؛ لإثبات أنها كلها باطلة فى أصلها، لانتهاء دياناتهم، وبطلان ما هم عليه، بما فيها قبلتهم.

ولقد قال تعالى فى اختلاف قبلتهم: ﴿**وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ**﴾ أى ليس اليهود قابلين لأن يتبعوا قبلة النصارى إلى المشرق حيثما كانوا، كأنهم يعبدون الشمس فى شروقها فى مطلعها، وليس النصارى بمختارين قبلة اليهود قبلة لهم، فكلا الفريقين يتعصب لقبلته، ويعاند الآخر، ويستكبر عن اتباع قبلته، فهم فى عناد مستمر، وكلاهما يتبع هواه، ولا يتبع نصا جاء به دينه، فليس فى التوراة نص على قبلة معينة حتى يكون ما هم عليه اتباعا لنص، وكذلك النصارى ليس فى الإنجيل نص على قبلة، وإنهم بعد نزول القرآن وبيان القبلة يتمسكون بأهوائهم فى التعصب والعناد؛ ولذا قال تعالى: ﴿**وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ**﴾.

أى لئن اتبعت مايدعون إليه، وليس له مصدر دينى عندهم، وهو يخالف ما جاءك من العلم الحق فى أمر القبلة وغيرها فقد اتبعت الهوى، والأهواء جمع هوى، وهو ما يبتدعونه على حسب هواهم، إذ اتخذوا إلههم هواهم، ومن اتبع

هوى الفاسدين الذين يكون هواهم منبعثا من شـهواتهم الجامحة، لامن دين اتبعوه، ولا من نصوص، بل هواهم، وليس كـمن قال فيـه الرسول ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به**»[(١)]، بل أهواؤهم تبعا لشهواتهم، وتبعًا لانحراف فى نفوسهم.

﴿لَئِنِ﴾ اللام فيـها دالة على القـسم، والجواب جواب القـسم وقد سد مـسد جواب الشرط، وهو قوله تعالى منبها النبى ﷺ إلى أنه لا يقع فى اتباع أهوائهم إلا الظالمون ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فـفى هذا تحـذير للنبى ﷺ فى ظـاهر اللفظ وهو تحذير لأمته، وخصوصا من يقـعون تحت مثل هذا الإغراء بإتيان الهوى، وإنه يجب الحذر من أن يكون فى سلك الظالمين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فيـه إذن الدالة على الشرطيـة والجزاء والدالة على ترتب الحكم على ما كان من اتبـاع أهوائهم، إذ معنى إذن، أنه إذا كان ذلك الاتباع قد وقع، فبسبـبه تكون من الظالمين، فوقوع «إذن» بين اسم إن وخبرها فيه إشارة إلى سـبب الحكم وهو هذا الاتباع الذى لا يمكن أن يكون ممن جاءه العلم النبوى بمقتضى الرسالة الإلهية.

هذا وإن الكلام فرضى لا واقعى، ولـكنه فرضي فيه تحذير من الوقـوع فيه، فالمعنى: إن فرض واتبعت أهواءهم مع علمك ببطلان ما عندهم، فقد سايرت الذين ظلموا ورسخوا فى ظلمهم، فإنك إذن معدود فى سلكهم وجمعهم الآثم. وقد أكد الله سبـحانه وتعالى الظلم ممن يتبع الهـوى، وهو عالم غير غـافل أولا بإن، وثانيا باللام، وثالثا بالجملة الاسمية الدالة على الاستمرار والثبات، وإن ذلك كله للتحذير من اتباع الهوى، وموافقة الآثمين فى إثمـهم، والله سبحانه وتعالى هو العاصم من الضلال.

---

(١) عن أَبِي هُرَيْرَة قال: قـال رسول الله ﷺ: «لا يُؤْمِن أَحَـدكُمْ حَتَّى يكُون هَوَاهُ تَبَعًـا لِمَا جِئْت بِهِ» أَخْـرَجَهُ الْحَسَن بْن سُفْـيَان وَغَيْره، وَرِجَـاله ثِقَات، وَقَدْ صَحَّحَـهُ النَّوَوِي فِي آخِرِ الأَرْبَعِينَ. [فتح البـارى: يا أيها الناس اتهموا رأيكم على دينكم (٦٧٦٤)].

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ
فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن
رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ
فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾

إن أهل الكتاب جادلوا النبى ﷺ فى أمر رسالته، وقد كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا بالنبى المنتظر فى حروبهم مع المشركين، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، وقد جادلوا النبى ﷺ فى أمر القبلة، وظنوا أنهم يستطيعون إغراءه عليه الصلاة والسلام بقبلتهم، وهم يعلمون أن أمرها معروف فى التوراة عندهم، ولهذا سجل الله تعالى معرفتهم له ﷺ معرفة مستيقن وهو علم جازم قاطع فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ وذلك تشبيه يفيد اليقين فى المعرفة، فإن الإنسان لا يمكن أن يجهل ولده الذى يعرف نسبه ساعة من زمان ما دام عاقلا مدركا، وقد يجهل نفسه فى الوقت الذى لم يكن قد بلغ فيه سن التمييز، فكما أن الذين أوتوا الكتاب لا يمكن أن يجهلوا أبناءهم الذين من أصلابهم؛ فكذلك لا يجهلون الرسول الأمين ﷺ، روى أن عمر رضى الله تعالى عنه قال لعبد الله بن سلام، وهو ممن آمن من أهل الكتاب: أتعرف محمدًا ﷺ كما تعرف ابنك؟ فقال عبد الله بن سلام: نعم وأكثر، بعث الله أمينه فى سمائه إلى أمينه فى أرضه بنعته فعرفته، وابنى لا أدرى ما كان من أمه ، والضمير فى قوله ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ يعود على النبى ﷺ؛ لأن بعض شريعته موضوع المحاجة بين نبيه عليه الصلاة والسلام وبين اليهود، وهو حاضر فى العقول والنفوس دائما.

ومعرفة أهل الكتاب للنبى ﷺ معرفة لرسالته، وما جاء به من حلال وحرام، وللأرض التى يبعث منها، ولقومه الأميين، ولقد قال تعالى فى ذكره عليه السلام فى كتبهم: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) ﴾ [الأعراف].

وإن أهل الكتاب من يهود ونصارى كانوا من وقت بعث محمد ﷺ قسمين: قسم آمن واهتدى، وقسم كابر وعاند فغوى؛ ولذلك قال: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أى أن فريقا من أهل الكتاب الذين يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ليكتمون ذكر النبى ﷺ مع أنهم أعلنوا قبل مبعثه أنهم يعرفونه، وكانوا يستفتحون به على المشركين، وعبر سبحانه وتعالى عن النبى وشريعته، وأظهر فى موضع الإضمار، فقال: ﴿لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾، وذلك لبيان فساد نفوسهم ومقام ما أنكروه من رسالة ونبوة وشريعة، فهم يكتمون الحق، ومن يكتم الحق يكتم النور، ولابد من أن يظهر، ثم أكد فساد نفوسهم، فقال: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، أى والحال أنهم يعلمون أنه حق، وأن من يكتم الحق يضل ويفسد، فهم يعلمون أن فعلهم إثم ويعلمون نتائج ذلك الإثم، ولكنهم فى غىٍّ دائم وضلال مستمر.

هذا شأن الذين يعلمون الحق ويكتمونه، وبالإشارة إليه يتبين أن هناك من يقر به، ويؤمن به، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ قد يشير إلى أن هناك من لا يعلم، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٧٨) ﴾ [البقرة] وإثم هؤلاء على من كتموا الحق وهم يعلمون فوق ما عليهم من إثم؛ إذ إن النبى ﷺ دعاهم إلى الحق.

وإن النبى ﷺ كان يجاور اليهود، والمؤمنون كانوا يختلطون بهم، ومنهم من كانت لهم محالفة ببعض منهم؛ ولذلك ثبت الله قلوب المؤمنين، حتى لا تجرهم المودة إلى أهوائهم، أو الشك فيما عندهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾.

بعد أن أشار سبحانه وتعالى إلى أنه لا يجوز لمن جاءه الحق هو ومن معه أن يتبعوا أهواء الذين أوتوا الكتاب، وأن من يفعل ذلك يكون من الظالمين ظلما مؤكدا لا مرية فيه، بعد هذا بين أن ما عند النبى ﷺ والمؤمنين هو الدين وأنه الحق فقال: ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أى الحق الجدير بالاتباع الذى لا ريب فيه هو الذى ينزل عليك من ربك وما غيره باطل لا يتبع، فإن خالفت ما جاء من ربك، فقد خالفته إلى الظلم؛ لأن ماعداه سير وراء هوى التعصب المنحرف والشرك، وقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ إشارة إلى أنه من عند الله ذى الجلال الذى رباك وعلمك وهذبك وهداك، وهو الذى يعلم ما ينفع وما يضر وما فيه الهداية وما فيه الضلال.

وإذا كان الحق لا يكون إلا ما هو من جانب الله وأن ما عند غيره هو هوى النفوس، ووسوسة الشياطين ﴿فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الفاء لبيان أن ما قبلها سبب لما بعدها، والمعنى إذا كان ما نزل عليك هو الحق من منزل الحق الذى لا ريب فيه فلا تكونن من الممترين. والامتراء التردد بين الشك واليقين، بحيث يعتريه دور يحس فيه باليقين ودور يحس بالشك الذى يناقض اليقين، وقد يطلق على مجرد الشك لتردده بين اليقين والشك، بل إن هذا التردد هو الشك فى ذاته، فمعنى الشك موجود، واحتمال الشك ولو من وجه ينافى العلم الجازم.

والنهى عن الامتراء نهى عن أن تدخل أسبابه النفس، وأمر باليقين الدائم ويقول بعض المفسرين: إنه أمر بالاحتياط والتوقى، ذلك أن الشك يدخل النفوس بسريان ما عند أهل الأهواء إلى غيرهم، يبتدئ باستحسان ما عندهم، وأول الشر استحسانه؛ ثم يدخل الشر إلى النفس شيئا فشيئا حتى يحدث الشك فيما عنده.

وقال الله تعالى: ﴿فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾، أى لا تدخل فى صفوف أهل الشك، وفى ذلك إيذان بأنه لو شك فيما عنده لدخل فى صف الذين يمارون فى الحق ويشككون فيه.

وأمر النبى ﷺ هو أمر لأمته، فإن الشك أو الامتراء غير متصور منه، وغير متصور أن تكون من النبى ﷺ أسباب الامتراء أو أن يدخل فى صفوف المرتابين فى

أمر ربهم الذين يكتمون الحق وهم يعلمون، إنما هو أمر لأمته، بأن يحتاطوا لدينهم الحق، فيزودوا أنفسهم دائما بالعلم الذى يزيدهم إيمانا، وبالقيام بالفرائض، واتباع السنن التى تزيدهم قوة فى الاعتقاد، وتبعدهم عن مواطن الشبهات فيزدادوا يقينا، ولا يُبعد الشك ويحدث الاطمئنان إلا العمل الصالح وذكر الله تعالى دائما ﴿**أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد].

وإن الله تعالى ينبهنا إلى أننا يجب علينا أن نتجه إلى قبلتنا وشرعنا، وليس علينا أن نغير ما عند غيرنا إن اتبعوا أهواءهم بعد أن نبين لهم الحق وندلهم عليه بالآيات البينات، فإن أعرضوا فلهم أعمالهم، ولنا أعمالنا؛ ولذا قال تعالى: ﴿**وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**﴾.

الوجهة قال كثير من المفسرين إنها القبلة، والتنكير فى «لكل» دال على محذوف، والمعنى: لكل ملة أو جماعة قبلة يتجهون إليها، وتبين الحق فى هذه الجهات، ببينة الله وقبلته المختارة من بينها، وإن العبرة بعد الاتجاه إلى القبلة الحق أن تستبقوا الخيرات، أى تسارعوا متسابقين إليها، غير مدخرين جهدا فى الوصول إلى الخير من عمل صالح، وصلاة وصوم وزكاة، وتعاون على البر والتقوى، وهذا كقوله تعالى: ﴿**لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ...** ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة].

هذا على تفسير الوجهة بالقبلة، ويصح أن تفسر الوجهة بالملة أو الشريعة أو الحق كقوله تعالى: ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة] وكقوله تعالى: ﴿**لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ** ﴿٦٧﴾﴾ [الحج].

وإن المعنى على هذا: إن لكل أمة اتجاها فى اعتقاداتهم، وهم سائرون على ملتهم التى اختاروها؛ وعقيدتهم التى أرادوها ولهم طريقهم ومنهاجهم، ولا نجادلهم، ولكن أمرنا بأن نستبق بالمسارعة فى السبق إلى الخيرات، أى كل ما هو فيه

خير فى ذاته، وفيه نفع للناس والأنفس، ومافيه تطهير القلوب، والاتجاه بها إلى الله تعالى رب الوجود ومن فى الوجود.

وإنه بعد الاستباق إلى الخير، والاختلاف فى الملة سيكون الحساب، والثواب والعقاب، وبيان الحق والباطل؛ ولذا قال: ﴿**أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا**﴾ وأينما اسم شرط دال على المكان، وجواب الشرط يأت بكم الله جميعا.

والمعنى أنه فى أى مكان كنتم لابد أن يأتى الله تعالى بكم وتجتمعوا يوم القيامة، فيعرف أهل الحق من أهل الضلال، ويحاسب كل على ما قدَّم، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

وإن هذا النص السامى فيه تبشير وإنذار؛ فيه تبشير لمن استبقوا إلى الخير، وكان دينهم الحق، وإنذار لمن اعتقدوا الباطل، ولجُّوا فيه وعاندوا أهل الحق وكابروا.

وقوله تعالى: ﴿**يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا**﴾ فيه إشارة إلى أنها حياة لا يجيئون إليها مختارين، بل يأتى بهم الله تعالى طائعين أو كارهين، ومن يأتي بهم هو الله تعالى القاهر فوق عباده، ولذا ختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالت كلماته: ﴿**إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾. وقد أكد قدرته بهذه الجملة السامية المؤكدة بإن والجملة الاسمية، وتصديرها بلفظ الجلالة الدال على القدرة التى ليست فوقها قدرة، وهو سبحانه وتعالى الغالب على كل هذا الوجود، كل شىء فى قدرته وفى سلطانه، وهو العزيز العليم.

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ
وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا
اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ
شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ

شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

تبين فى الآيات السابقة اتباع القبلة فى حال المقيمين، فبينت حيث يقيم النبى ﷺ، وبينت حيث يقيم المسلمون فى الأماكن الإسلامية، كل فى مكان إقامته، فقال فيما تلونا من قبل: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُم فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ .

وفى النص السامى يبين أن القبلة لابد من الاتجاه إليها فى السفر كما يجب الاتجاه إليها فى حال الإقامة، فإذا خرج من مكان إقامته اتجه إليها، فلا تسقط فرضيتها فى السفر؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ «من» هنا أى من أى مكان خرجت، وفى أى مكان حللت، فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام، أى ناحيته؛ إذ لا فرق بين مكان ومكان ولا سفر ولا إقامة ، فالاتجاه ضرورى، أى أن السفر لا يسوّغ ترك الاتجاه شطر البيت أى ناحيته ووجهته.

وذكر ذلك النص لتأكيد الاتجاه، وأنه شرط لصحة الصلاة دائم مستمر لا فرق بين سفر وحضر، ولا فرق بين راكب وراجل، ولقد روى الدارقطنى عن أنس ابن مالك قال: « **كان النبى ﷺ إذا كان فى سفر فأراد أن يصلى على راحلته استقبل القبلة وكبر ثم صلى حيث توجهت به**»(١)، أى أنه كان يلاحظ دائما أن يكون ناحية القبلة.

وقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ الفاء هنا فى معنى جواب الشرط.

---

(١) رواه أبو داود فى كتاب الصلاة: باب التطوع على الراحلة(١٠٣٦) بلفظ: عن أَنَس بْن مَالك «أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ كَانَ إِذَا سَافَرَ، فَأَرَادَ أَنْ يَتَطَوَّعَ، اسْتَقْبَلَ بِنَاقَته الْقبْلَةَ، فَكَبَّرَ ثُمَّ صَلَّى حَيْثُ وَجَّهَهُ رِكَابُهُ».
كما رواه أحمد (١٢٦٣٥) فى مسنده عن أنس قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى رَاحِلَته تَطَوُّعًا اسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ فَكَبَّرَ لِلصَّلَاةِ ثُمَّ خَلَّى عَنْ رَاحِلَتِه فَصَلَّى حَيْثُمَا تَوَجَّهَتْ بِهِ»

وقد أكد الله تعالى القبلة إلى البيت الحرام، فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ والضمير يعود على تولية الوجه، وقد أثبت الله تعالى بهذا أنه الحق، وأكده بإن واللام، والجملة الاسمية، وإسناد هذا الحق لله تعالى، والتعبير عن الله جل جلاله للدلالة بربك للإشارة إلى أنه اقتضته تربيته لك، وقيامه على شئونك، وأنه سار على حكمته، ولأنه رأى تقلب وجهك فى السماء، وإن ذلك الحق ثابت فى كتبهم، فإنه ثابت فى التوراة أن القبلة تتحول إلى فاران أى إلى مكة.

وبعد أن أكد سبحانه وتعالى وجوب الاتجاه إلى القبلة فى السفر والإقامة - بيّن سبحانه، أن النبى ﷺ وأصحابه تحت سلطان علمه وحكمته، وأنه رقيب على المؤمنين ليس بغافل عنهم ليتحروا القبلة ويتعرفوها، ولا يصلوا إلا بعد هذا التحرى فقال تعالت كلماته: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

نفى الله تعالى وجل جلاله عن نفسه الغفلة، أى أثبت العلم الكامل، بتأكيد نفى أن يقع فعل فى الوجود على غير علم منه، باستغراق النفى، وبذكر لفظ الجلالة الذى يتصف بكل كمال، ويستحيل عليه أى نقص، وبالباء الدالة على استغراق النفى.

وإن هذا الكلام السامى قد يكون إنذارًا، ولكنه موجه إلى المؤمنين، وليس موجها إلى النبى ﷺ بدليل أن الخطاب كان باللفظ الدال على الجمع، ﴿ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

وقد أكد سبحانه وتعالى الأمر للنبى ﷺ بتكراره، وذكر الأمر للمؤمنين أجمعين تعميما للأماكن، حيثما كانوا فى سفر أو إقامة كما أشرنا، فقال تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾. وكان التكرار فى شأن النبى ﷺ لتعدد أسفاره، وغزواته، وأن القبلة الاتجاه إليها شرط لصحة الصلاة فى كل الأحوال إلا أن يكون ذلك فى حال الخوف، وتكون صلاة الخوف، ولا يمكن الاتجاه إلى القبلة، إذ يستدبر العدو، فيأتيهم من حيث لا يشعرون، وقد بين الله تعالى صلاة الخوف فقال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم

مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النساء].

وقد تشير هذه النصوص الكريمة إلى أن استقبال القبلة إذا تعذر فى حال الحرب جاز الاتجاه إلى غيرها من غير استدبار للضرورة والله تعالى هو الواقى.

وإن الله سبحانه وتعالى كرر طلب الاتجاه إلى البيت الحرام حيثما كانوا، ومن حيث خرجوا فى سفرهم وفى مغازيهم، وكرر ذلك تأكيدا للطلب لكيلا يرتاب مرتاب، ولكى يكون حجة على الناس، ولا يكون لهم حجة على النبى ﷺ وأصحابه؛ ولذا قال تعالى: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، أى أكدنا الاتجاه إلى البيت من أجل ألا يكون للناس حجة فى عدم العلم، ودليل عليكم فى عدم تحويل القبلة إلى الكعبة، وأن يسيروا على القبلة التى كنتم عليها، وهى إلى بيت المقدس، والحجة هى التى يستدل بها المخالف، وذلك لأن اليهود والمنافقين لجُّوا فى التساؤل والمناقشة وتوهين ذلك التحويل، فأكد الله تعالى التوجه إلى البيت الحرام، والحجة التى نفاها الله تعالى هى حجة عدم العلم فأكده.

وقد استثنى الله تعالى من الذين لا تقوم لهم قائمة الذين ظلموا فقال: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهذا الاستثناء أهو استثناء متصل أم استثناء منقطع بمعنى لكن؟ لقد قال الطبرى: إنه استثناء متصل بمعنى أن الذين ظلموا لا تنتفى حجتهم، وإن كانت واهية داحضة عند ربهم، وقال: المعنى لا حجة لأحد عليكم إلا الحجة الداحضة حيث قالوا: «ماولاهم»، وقالوا: تحير محمد فى دينه، وما توجه إلى قبلتنا إلا أنا كنا أهدى منه، وغير ذلك من الأقوال التى لا تنبعث إلا من عابد وثن أو من يهودى أو منافق، أى أنه لاحجة عليكم إلا المماراة وما يحسبونه حججا. وهو أقوال واهية

تدل على ضعف الإيمـان عند قائلها وأنهم يقـولون ما لا يؤمنون به، ويكون الذين ظلموا هم اليهود والمنافقون.

وقال بعضـهم: إن الاستثناء منقطع، ويكون المعنى: لئلا يـكون للناس حجة عليكم، لكن الذين ظلموا، لا يقنعهم دليل ولا تعظـهم حجة، بل إنهم يلجون في الباطل بأوهام باطلة، فـلا تنتظر منهم أن يلزموا أنفسـهم بدليل مهما كـانت قوته؛ لأنهم معاندون جاحدون مكابرون.

ولذا قال: ﴿فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ الخشية نوعان: خـشية الله تعالى وهى طمأنينة فى القلوب تبعث على التوقى مما يغـضب الله تعالى، وهذه هى الخشية من الله تعـالى وقـد أمرنـا بها، وأن تمتلىء قلوبنا بالاطمئنـان مع التـوقى مما يغضب الله.

والخشـية الأخـرى الخوف والفـزع، وهى ما نـهانا الله تعـالى عنه، فنهى أن نخـاف أو أن نفزع أو أن نتـوقع الأذى من هؤلاء الظالمين، وأن نخـشى الله تعـالى فتمتلئ نفوسنا بالاطمئنان والتقوى.

كان التأكيد للاتجاه إلى البيت الحرام لذلك، ولأمر جليل آخر، أشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ أى كانت القـبلة لكيلا يكون للناس حـجة عليكم. ﴿وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾، إن نعم الله تعالى تتوالى علـى النبى ومن معه من المؤمنين ومن تمامها نعمة الاتجاه إلى الكعبة، إذ إنها تضمنت إجابة النبى ﷺ، إذ كان يقلب وجهه فى السماء ليوليه قبلة يرضاها، ولما فيه من تشريف البيت الحرام، ولما فيه من إحياء ملة إبراهيـم عليه السلام، ولما فيه من تأليف للـعرب، ولأن ذلك إيذان بفتح مكة وإزالة دولة الأوثان، وإقامة دعائم الإسلام، وتلك كبرى النعم.

وذكر الله تعـالى أمرًا آخر، وهو جمـاع الأمور كلها، وسبـيل الحق والإيمان وهو رجاء الهداية الكاملة، فـهذا من طرقها ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ الرجاء من الناس لا من الله، فتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾

ولى الله تعالى نبيه إلى الكعبة، تكريما للبيت وتشريفًا له ولبانيه، وأتم نعمته عليهم بالإيذان بإزالة الأصنام عنه، فعل الله تعالى ذلك لتتم الهداية كما أرسل رسولا منهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿كما أَرْسَلْنَا فيكُمْ رَسُولاً مّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتنَا﴾ وفى هذا إجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام، إذ قال تعالى فى ذكر دعائه: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتكَ وَيُعَلّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكّيهِمْ ... ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة] فكما أجاب دعاءه عليه السلام بجعله بلدا آمنا وأن يكون مثابة للناس وأمنًا أجاب دعاءه بإرسال رسول منهم يتلو عليهم آياته.

يمن الله تعالى على العرب بأن جعل فيهم رسولا منهم ليقول مانًّا عليهم بذلك كما منَّ عليهم بجعل القبلة إلى الحرم الآمن الذى قدسوه وكرموه، فالرسول ﷺ أرسل فيهم وهو منهم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة].

فهو فيهم ومنهم، وهو أكثر تأليفا لقلوبهم. ورعاية لنفوسهم وهو الحق من ربهم كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكّيهِمْ ... ﴿١٦٤﴾ ﴾ [آل عمران].

وتلاوة الآيات التى جاءت فى قوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكّيكُمْ﴾، تلاوة الآيات هنا أى القرآن بقراءته فى ترتيل وفهم، وإدراك لمعانيه، وإجابة لأمره، واعتبار بقصصه، وذلك عبادة ﴿وَيُعَلّمُكُمُ الْكِتَابَ﴾ أى تعليمهم علم القرآن من بيان للصلاة والزكاة والحج والصوم وأحكام الأسرة،

وأحكام الحرب وما يحل فيها وما يحرم، وعلاقة الإنسان بالإنسان، وآداب وأخلاق المسلم فهو مأدبة الله تعالى، وهو سجل المعجزات التى جاء بها الرسل من عهد نوح إلى عيسى عليهم الصلاة والسلام.

والحكمة هى الشريعة، وما فيها من إصلاح بين الناس، وإقامة للعلاقة الإنسانية. وفسرها الشافعى بأنها السنة وقد بيناها عند ذكر قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ... (١٢٩) ﴾ [البقرة]، فارجع إليها.

﴿ وَيُزَكِّيكُمْ ﴾ أى يطهركم من أرجاس الجاهلية ومآثمها كوأد البنات وشرب الخمر ولعب الميسر بله عبادة الأوثان والأنصاب، وينمى فيهم قوة الخلق والشكيمة ويوجهها نحو مكارم الأخلاق.

وقال الله تعالى: ﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ علمهم الله علما لم يكونوا يعلمونه من قبل؛ علمهم علم النبوة، وعلمهم علم البعث والنشور والقيامة والحساب، وعلمهم علوما تنفعهم فى الحياة الدنيا، وتزودهم بالخير فى الآخرة، وعلمهم مكارم الأخلاق وعلمهم تنظيم الدولة، وقيام حكم صالح يستظل فى ظله البر والفاجر، وعلمهم العدالة والامتناع عن الظلم .. وأخيرا علمهم علم الإسلام، وقد جمعه تعالى فى قوله جلت حكمته: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) ﴾ [النحل] وجعل منهم دولة الإسلام الفاضلة التى لم تر الإنسانية لها نظيرا من يوم أن خلق السموات والأرض.

بين الله تعالى نعمة الرسالة المحمدية فى العرب، وفى الإنسانية كلها، وإن ذلك يقتضى أن يشكر صاحب هذه النعم ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ... (٣٤) ﴾ [إبراهيم]؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ ﴾، الفاء هنا هى ما تسمى فاء السببية، وهى ما يكون قبلها سببا لما بعدها، وذكر الله تعالى امتلاء النفس بعظمته وقدرته وجلالته والإحساس بنعمه الظاهرة والباطنة، وليس ذكره جلت قدرته بترديد اللسان فقط، ولا بترطيب القول بذكر

جلاله وإنما تكون أولا بامتلاء النفس بذكره، حتى يكون كأنه سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به، نطق اللسان أو صمت أو جهر به أو خفت، كما قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ... ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف] و ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف] وإن الله تعالى يقول اذكرونى أذكركم؛ اذكرونى فى كل حياتكم وفى قلوبكم أذكركم بالنعم والغفران، اذكرونى بالشكر أذكركم بالزيادة ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم] روى الإمام أحمد فى مسنده عن أبى هريرة: «أنا مع عبدى حين يذكرنى فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وإذا ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ هو خير منه وإن اقترب إلىَّ شبرا اقتربت إليه ذراعا وإن اقترب إلىَّ ذراعا، اقتربت منه باعا وإن أتانى يمشى أتيت إليه هرولة» وقد أخرجه البخارى[1]. وإن ذكر الله تعالى يكون فى القلب، ويبدو فى العمل، فالطاعات التى يقصد بها وجه الله تعالى ويبتهل فيها إليه ويطلب رضوانه بها هى ذكر لله.

وكل أعمال كالتجارة والصناعة والزراعة إذا قام بحقها، وتوكل على الله تعالى حق توكله هى ذكر لله، وكل عمل لا يعمل إلا لحب الله تعالى، فالصانع فى مصنعه، والزارع فى مزرعته ، والتاجر فى متجره إذا قصد وجه الله تعالى ونفع الناس يكون ذاكرًا لله تعالى، وإن المؤمن لا يفرغ قلبه من ذكره، إذا قام بحق الله تعالى، وإن ذكر الله تعالى يصحبه الخوف من الله فيتقى الله تعالى فى كل عمل يعمله ويكون دائما فى حذر من غضب الله تعالى، وقد قال تعالى فى وصف المؤمنين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال].

---

(١) البخارى: كتاب التوحيد - باب: قول الله تعالى: ويحذركم الله نفسه (٦٨٥٦) ومسلم: الذكر والدعاء (٤٧٣٢).

إن ذكر الله تعالى هو الخير كله، روى ابن ماجه أن أعرابيا قال: يارسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علىَّ فأنبئنى منها بشىء أتشبث به قال: «لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله عز وجل»(١).

وإن أعلى درجات الذكر شكر الله تعالى؛ ولذا قال تعالى بعد الأمر بالذكر: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾ وهنا نجد الشكر تعدى باللام وقد قال الفراء: إن ذلك هو الأفصح، ولكن يجوز اشكر لى واشكرنى.

وشكر العبد لله تعالى؛ الثناء عليه، وأن تكون نعمه لما خلقت له من طاعة، خلق له السمع فشكره لنعمته ألا يسمع زور القول ولا ينفذه، وشكر نعمة اللسان ألا ينطق إلا بالحق، وشكر نعمة اليد ألا يبطش إلا لتحقيق العدل، وألا يعمل إلا ما هو حق وألا يعتدى على حق غيره، وألا يؤذى، وأن يحمى الضعيف وينصر المظلوم، ويغيث المستغيث، ويدفع الكوارث عن المؤمنين، وأن يفك العانى .. وشكر نعمة الرِّجل ألا يسعى إلا فى خير، وألا يسعى فى ظلم، وأن يذكر دائما أن من سعى مع ظالم فقد ظلم.

وإن شكر نعم الله تعالى ليرجو به الشاكر زيادتها، ولقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧)﴾ [إبراهيم].

وإذا كان الله تعالى قد أمر بالشكر، وهو الطاعات، والأخذ بالهدى المحمدى، فقد نهى عن الكفر فقال: ﴿وَلا تَكْفُرُونِ﴾ والنهى عن الكفر معطوف على قوله تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ يجعلنا نتصور أن تكفرون فيها ياء المتكلم محذوفة أو بالياء كما فى قوله تعالى: ﴿فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ... (٤٤)﴾ [المائدة] ويكون معنى كفر الله تعالى عدم ذكره، وعدم معرفة حقيقة نعمه، ولكن الظاهر أن المراد النهى عن الكفر المطلق، وهو ألا يعتقد بالوحدانية وألا يؤمن برسالة محمد ﷺ وهو مقابل للشكر لأن حقيقة الشكر ابتداء هى القيام بالطاعات كلها، وهو مع ذكر الله تعالى الإحساس بأنه كله لله تعالى. وفقنا الله تعالى للشكر وجنبنا الكفر.

(١) رواه ابن ماجه: الأدب ـ فضل الذكر (٣٧٩٣) عن عبد الله بن بسر، وبنحوه عند الترمذى: الدعوات ـ فضل الذكر (٣٣٧٥) وأحمد: مسند الشاميين ـ حديث عبد الله بن يسر (١٧٢٤٥).

أول الجهاد جهاد النفس

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾
وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن
لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ
وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ
﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ
﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

اتجه المسلمون بأمر الله تعالى إلى البيت الحرام الذى جعله الله تعالى مثابة للناس وأمنا ، وقد اتجهوا إليه فى الصلاة إيذانا بإبعاده عن الشرك، وأن تحيط به الأوثان، وقد أشار سبحانه وتعالى بأنه سيكون الفتح، وأنه سيكون فى حوزة أهل التوحيد، وأنه من بعد سيكون يأس الشيطان من أن يعبد فى الأرض المباركة، وقد كان البيت الحرام فى أيدى المشركين ولا يخرجون منه إلا بجهاد لإخراج أعداء الله من بيت الله، أو لجعل كلمة الله تعالى العليا فى بيته، وإنه بالتحقيق ثبت بالتقريب أن تحويل القبلة كان فى الليلة الخامسة عشرة من شعبان، وكان ابتداء يوم الفرقان لغزوة بدر الكبرى فى السابع عشر من رمضان، فكان بين التحويل ويوم الفرقان شهر واحد.

ولذلك جاءت الدعوة إلى الجهاد، عقب تحويل القبلة، وأول الجهاد جهاد النفس، فجهاد النفس قبل امتشاق الحسام فى الميدان، وجهاد النفس بتعويدها الصبر

وقمع الأهواء والشهوات والاتجاه إلى الله تعالى؛ ولذا ابتدأ به فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ استعينوا فى أموركم، وفى استجابة أوامر ربكم والأخذ بأحكام دينكم وإعداد العدة للقاء عدوكم، فمجاهدة النفس مقدمة على جهاد العدو، بل هى عدته وقوته.

والصبر ضبط النفس والاستيلاء عليها، وهو يتنوع بتنوع موضوعه، فهناك صبر على منازعة الأهواء والشهوات لتعميمها والاستيلاء عليها بجعل الشهوة أَمَةً للعقل ليست مسيطرة عليه، ولا مسيرة للنفس، وهناك صبر لأداء الطاعات والقيام بالواجبات فإن ذلك يحتاج إلى عزم قوى لا يكل ولا يمل، وهناك صبر على لغو القول من الناس، واستهزاء السفهاء، وتهكم ذوى الأهواء، وهناك صبر بالإقامة مع الضعفاء وقد قال الله تعالى فيه: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ... (٢٨)﴾ [الكهف].

وهناك صبر عند المصائب فى الدنيا فلا يفزع ولا يجزع ويعلم أن الصبر فيه أجر وأن الجزع فيه وزر، وهناك صبر عند لقاء الأعداء ولعله نتيجة لصفة الصبر وتشعبها فى كل النواحى التى ذكرناها.

والصبر خير كله، وهو أول صفات المؤمنين، ومن الصبر ألا يكفر عند النعمة وألا ييئس عند النقمة، ولقد قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١)﴾ [هود].

ولقد قال ﷺ فيما رواه مسلم بسنده عن صهيب، قال رسول الله ﷺ: «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له»(١) فالصبر كله خير، وهو عدة الإيمان والأخلاق، وبناء المجتمع الصالح، وهو أقوى عدة للجهاد.

(١) رواه مسلم: كتاب الزهد والرقائق (٥٣١٨)، وبنحوه رواه أحمد والدارمى.

هذا أمر الصبر. والاستعانة به مناجاة العبد لربه، وصرف القلب إليه، والاتجاه إليه، وهى التى تملأ القلب بذكر الله تعالى فينسى ما بينه وبين الناس، وهى استحضار العزة من الله، وامتلاء الإنسان بجبروت الله، وأنه فوق قوى البشر، والاستعانة هى سلوك المؤمن، روى «**أن النبى ﷺ كان إذا حزبه أمر صلى**»[(١)].

ولقد أمر الله تعالى نبيه بالصبر والصلاة إذا اشتدت عليه شديدة الناس بالقول والعمل، فقال تعالت كلماته: ﴿**فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾**﴾ [طه] فعبر عن الصلاة هنا بالتسبيح فسبيل الرضا بالنوازل والشدائد من الناس - كما تدل الآية - الصبر على ما يقولون، والصلاة إذ هى اطمئنان القلوب، وسرور النفوس وبها تستبدل النعمة بالنقمة، والسراء بالضراء.

وختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ بمعاونته لهم، فينصرهم، بسيطرتهم على نفوسهم، ثم ينصرهم على أعدائهم، ثم يغلبهم على كل شر فى الحياة، ثم تقوية عزمهم، وضبطهم لنفوسهم، فالله معهم فى كل أعمالهم، وهو وليهم ونعم المولى ونعم النصير.

هذا ما يعدّ الله به تعالى نفوس المجتهدين، صبر وذكر لله تعالى، وإنه من بعد ذلك يكون القتال، ويكون الشهداء، وفى ذلك إشارة إلى أنه ليس القتال شهوة، ولا نزهة، ولكنه فداء وبلاء، واستشهاد، وإن الشهداء لا يموتون ولكنهم أحياء عند ربهم يرزقون، والحياة ليست للأشباح فقط، بل هى للأرواح، ولذا قال تعالى: ﴿**وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِنْ لَا تَشْعُرُونَ**﴾.

النهى عن القول، والقول دليل الاعتقاد فهو نهي عن الاعتقاد، وقد صرح الله تعالى بالنهي عن الاعتقاد فى آية أخرى فى معنى هذه الآية الكريمة وفى موضوعها فقال تعالى: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾**﴾ [**آل عمران**] وفى الآية التى نتكلم فى معناها قال الله تعالى: ﴿**وَلَٰكِن**

---

(١) رواه أحمد (٢٢٢١٠)، وأبو داود (١١٢٤). عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه.

لاَّ تَشْعُرُونَ﴾، أى ولكن لا تحسونهم بمرأى العين، وذلك لا يقتضى أنهم ماتوا، بل هم عند ربهم يرزقون، ولقد قال تعالى: **﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١)﴾** [آل عمران].

وإن حياتهم روحية يستبشرون بها بأنهم فدوا إخوانهم، وأنهم قدموا أنفسهم، وآثروا إخوانهم، ولقد صور النبى ﷺ حياتهم فيما روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**إن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش، فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال: ماذا تبغون؟ فقالوا: يا ربنا وأى شىء نبغي وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك، ثم عاد عليهم بمثل هذا، فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا قالوا: نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل فى سبيلك حتى نقتل مرة أخرى، فيقول الرب جل جلاله: إنى كتبت أنهم إليها لا يرجعون**»(١).

هذا حديث مصور لحياتهم الروحية، وأنهم فى جنات النعيم، وأنهم ما ندموا على أن قتلوا شهداء بل إنهم فرحون بذلك، وأنهم يتمنون أن يعودوا ليقتلوا فى سبيل الله تعالى؛ لأنهم راضون بما فعلوا، فهم يطلبون الشهادة بأرواحهم كما

---

(١) رواه مسلم، عَنْ مَسْرُوق قَالَ: سَأَلْنَا عَبْدَ اللَّه - أى ابن مسعود - عَنْ هَذه الآيَة **﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩)﴾** [آل عمران] قَالَ: أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلكَ فَقَالَ: «أَرْوَاحُهُمْ فى جَوْف طَيْرٍ خُضْرٍ لَهَا قَنَاديلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ منَ الْجَنَّة حَيْثُ شَاءَتْ ثُمَّ تَأْوى إِلَى تلْكَ الْقَنَاديلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِم رَبُّهُمْ اطِّلاعَةً فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: أَىَّ شَىْءٍ نَشْتَهى وَنَحْنُ نَسْرَحُ منَ الْجَنَّة حَيْثُ شئْنَا؟ فَفَعَلَ ذَلكَ بِهِمْ ثَلاثَ مَرَّات، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا منْ أَنْ يُسْأَلُوا قَالُوا: يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فى أَجْسَادنَا حَتَّى نُقْتَلَ فى سَبِيلكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا».
وبنحوه عند الترمذى (٢٩٣٧) فى كتاب التفسير - باب تفسير سورة آل عمران وابن ماجه (٢٧٩١) فى كتاب الجهاد - باب فضل الشهادة فى سبيل الله (٢٧٩١) وجاء من رواية جابر بن عبد الله عند الترمذى (٢٩٣٦) وابن ماجه (٢٧٩٠) واللفظ له يَقُولُ: لَمَّا قُتلَ عَبْدُ اللَّه بْنُ عَمْرو بْنِ حَرَام يَوْمَ أُحُد قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «يَا جَابِرُ أَلا أُخْبِرُكَ مَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لأَبِيكَ؟» قُلْتُ: بَلَى قَالَ: «مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا إِلا منْ وَرَاء حجَاب وَكَلَّمَ أَبَاكَ كفَاحًا فَقَالَ: يَا عَبْدى تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطكَ قَالَ: يَا رَبِّ تُحْيِينى فَأُقْتَلُ فيكَ ثَانيَةً، قَالَ: إِنَّهُ سَبَقَ منِّى أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لا يُرْجَعُونَ. قَالَ: يَا رَبِّ فَأَبْلغْ مَنْ وَرَائى. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذه الآيَةَ: **﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩)﴾** [آل عمران].

طلبوها بأبدانهم، وإن ذكر الشهداء بعد الأمر بالصبر والصلاة تأكيد لضرورة الصبر، ولا يكون من غير صلاة . وإن الجهاد بلاء، ولابد أن يستعدوا له، فهو اختبار؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾.

إن هذا النص جاء توطئة للجهاد، وليتحملوا كل ما فيه من شدائد، وكله شدائد إلا على المؤمنين الصابرين، وإنه يجب أن يتوقعوا ذلك ويتحملوه، فإن الأمر المتوقع إذا وقع سهل حمله، وإذا جاء على غير توقع صعب وقعه، وهلعت النفوس، وهذا النص كقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة] ومثل قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [آل عمران].

فهذه من أخوات هذه الآية التي نتكلم في معناها، فهي بيان لما يتوقعه المجاهدون، وخصوصا إن هذه الآية كما يبدو من سياقها مع الآيات كانت في السنة الثانية من الهجرة، وقد فتح باب الجهاد الأكبر ويوم الفرقان قريب الوقوع وهو بدر الكبرى الذي فرق بين عهد النصر المؤزر، وعهد الاستضعاف.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ البلاء الاختبار لا ليعلم الله تعالى، بل ليظهر للناس ما أكنه الله تعالى في علمه المكنون، ولقد أكد الله تعالى البلاء ليؤكد موضوعه بالقسم الذي دلت عليه لام القسم، ونون التوكيد الثقيلة ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ﴾ قال بعض العلماء: التنكير فيه للتقليل، وإني أرى أن المقام موجب أن يكون التنكير فيه للتكثير لكي يتحقق معنى الابتلاء فيقدمون على حرب لقوم شداد غلاظ من شأنهم أن يُخَوِّفوا ويُفَزِّعوا، وقد قيل إن ذلك الخوف يتنافى مع الشجاعة التي عرف بها النبي، وصحبه الكرام أمثال حمزة بن عبد المطلب أسد الله، وعلي بن أبي طالب فارس الإسلام والزبير وغيرهم من الصناديد الذين يتقدمون في الميدان لا يهابون إلا الله، ونقول في ذلك إن الشجاعة لا تنافي الخوف؛ لأن الخوف يحمل على تدبير الأمور،

وبعد تدبيرها يفترق الشجاع عن الجبان، فالجبان لا يُقْدِم والشجاع مُقْدِمٌ مقدرا النواحى المخوفة، والنواحى التى فيها جانب الله تعالى فيقدم على بينة، وقد حقق الذين درسوا النفوس فقرروا أن الشجاعة لا تكون شجاعة إلا إذا أحس بخطورة الأمر وأقدم غير هياب، وإن المؤمنين قد أصيبوا بما من شأنه أن يخيف ولكن لم يجبنوا عن اللقاء، بل أقدموا عليه فى غير تلكؤٍ ولا اضطراب.

هذا شأن الخوف، ثم قال تعالى: ﴿وَالْجُوعِ﴾ فقد أصيبوا بشىء غير قليل من الجوع، وقد كانوا يربطون الأحجار على بطونهم.

كما كانوا يفعلون فى حفر الخندق، ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ﴾، فإنه فى الحروب يتوقف اشتغال المؤمنين بالتجارة وغيرها، فهل كان أبو بكر التاجر تجرى متاجره، والحروب قائمة؟ وهل كان عثمان ذو النورين تستمر متاجره غادية رائحة والحرب قائمة بين الشرك وأهل التوحيد. ﴿وَالأَنفُسِ﴾؛ فإن ملحمة الحرب يكون فيها الشهداء، وقتل الأبطال. ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ وقد أصيب الأنصار فى المعارك وقد خرجوا للجهاد فلم يسقوا زرعهم ولم يرعوا ثمرات نخيلهم فنقصت ثمارها.

ذكر الله تعالى ذلك الابتلاء قبل وقوعه، وكانوا على مقربة منه؛ لأن ذلك كان قبيل غزوة بدر الكبرى، فذكر الله تعالى ذلك ليتوقعوه قبل أن يقع فيعدوا له الأنفس بالصبر، وضبط النفس، والاستعانة بقوى النفس فى الجهاد وتحمل الأذى من الحرب، فقد كتب عليكم القتال، وهو كره لكم، ولكنه خير فى نتيجته مادام ردا للاعتداء ومنعا للفتنة وفتحا لطريق الدعوة.

ولذا قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ والبشارة هى النصر الكامل، وذكر أن المبشَّرين هم الصابرون، فالوصف علة للحكم فكانت البشارة بالنصر بسبب الصبر؛ لأن الصبر عدة النصر، كما قال على رضى الله عنه بطل الحرب الإسلامية: كنا ننصر بالصبر والتأييد.

وإن الصابرين هم الذين يضبطون أنفسهم فلا تنخلع قلوبهم بفزع، ولايصيبهم عندما يفاجئون بما لا يحبون؛ ولذا عرفهم الله بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

الصبر يكون بمعنى ضبط النفس عن الأهواء والشهوات، وعما يكون فيه معصية الله تعالى، ويكون بعزمة المؤمن القوى فى طاعة الله، وبتحمل ما ينزل مما يفزع القلب، واطمئنان من غير أنين، ومن هذا النوع الصبر على ما يصيب من نوائب الدهر ومصائبه.

والمصائب جمع مصيبة، وهى كل ما يصيب الإنسان بالأذى فى نفسه من مرض، أو ماله من خسارة فادحة، أو فقد حبيب، أو مفاجأة بما لا يسر بل يضر كهزيمة فى حرب، أو غدر غادر، أو غير ذلك مما يكرث الإنسان من كوارث، والصبر المحمود فى هذه الأحوال وغيرها هو الصبر الجميل الذى يكون من غير أنين وشكوى كصبر يعقوب عندما غاب ابنه يوسف إذ قال: ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ** ﴿١٨﴾﴾ [**يوسف**].

وإنه مما يجعل الصبر جميلا لا أنين فيه ولا شكوى، ولا تململ مما أنزل الله تعالى أن يفوض أمره إلى الله تعالى، وأن يحيل المرجع والمآب إليه، وأن يعتقد أن كل شيء من الله تعالى، وأن إليه مرجع الأمور وعنده المستقر والمعاد؛ ولذا قال تعالى فى حال الصابرين وقولهم عندما تصيبهم المصيبة وتنزل بهم النازلة لا قبل لهم بها: ﴿**إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾. وإن هذه الجملة فيها من كمال التفويض والاعتزاز بجلال الله تعالى والاطمئنان إلى قدرته ما يعلو بالنفس على الأنين والشكوى لغير الله تعالى العلى القدير.

ومعنى ﴿**إِنَّا لِلَّهِ**﴾ أى أننا ملك له تعالى يتصرف فينا كيف يشاء، وأمورنا بين يديه يصرفها كما يشاء، وهو نعم المعتمد فى كشف الضر وإزالة الكرب، وإنه مَلَكَنَا بخلقه وتقديره وتصريفه فينا وله الأمر والتدبير، وإليه مرجعنا فنحن راجعون إليه وحده؛ ولذا قدم الجار والمجرور ﴿**وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾ فنحن هنا فى الحياة مملوكون له، ومن بعد ذلك نرجع إليه وعسى أن يكون ذلك خيرا لنا. روى مسلم بسنده عن

رسول اللـه ﷺ أنه قال: «**ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا سقم ولا حزن حتى الهم يهمه إلا كفّر به من سيئاته**»(١).

وقوله تعالى: ﴿**إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾ إقرار بالتوحيد واستشعار للعبودية، وإيمان بالبعث والنشور، وفى ذلك عزاء أى عزاء وسلوى عن البلاء، ولقد روى مسلم بسنده عن أم سلمه أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله عز وجل: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ اللهم أجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيرا منها، إلا أخلف الله له خيرا منها**»(٢).

وإن الصالحين لا يفرون من المصائب تنزل بهم، ولا يرونها من جانبها الشديد، بل يرونها من جانبها الصالح المفيد، فهى تربى فى المؤمن الإحساس بالربوبية والضعف أمام القدرة الإلهية والإخلاص لله تعالى، فالإخلاص حيث الضعف أمام الله، وأنه لا كاشف للضر سواه، وإن ذلك يجعله يرجع إلى الله تعالى ويكون ممن أناب إليه سبحانه كما قال الله تعالى: ﴿**وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ... (٣٢)**﴾ [**لقمان**] وحيث يحس بشدة المصيبة يتضرع إليه، فيدعو إليه متضرعا ليكشف عنه الضر. وإن المصائب تجعل النفوس بعيدة عن الاستكبار فتطمئن إلى الضعفاء، ويتربى فيها الحلم، والعفو وكثرة الثواب بكثرة الصبر، ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠)**﴾ [**الزمر**] وإن الصالحين لهذه المصائب وثمراتها من طهارة القلب وتنزيه النفس يفرحون ولا يكربون، وإن كانت تجعل غيرهم فى كرب، وإنه إذا فرح شكره وإنها تمحص القلوب وتطهرها من الغطرسة والعتو.

---

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها: كتاب المرضى (٥٢١٠)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب (٤٦٧٠) واللفظ له عن أبى هريرة - رضى الله عنه.

(٢) رواه بهذا اللفظ مسلم: كتاب الجنائز: باب ما يقال عند المصيبة (١٥٢٥)، وبنحوه عند أحمد (٢٥٤١٧) فى مسنده عن أم المؤمنين أم سلمة - رضى الله عنها -. كما رواه الترمذى، وابن ماجه، والنسائى، ومالك، والدارمى.

وإن الصالحين بتفويضهم أمورهم لله تعالى، وثقتهم بالله تعالى يعلمون أن وراء ما نزل من مصيبة ضرا لهم ولخيرهم ﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء] وإن المصائب تفطم النفس عن الأشر، وتبعد عن الترف، ووراء الترف الظلم فيكون الاستماع للبشير النذير قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سبأ].

وإن الرضا بقدر الله تعالى فيما ينزل من نوازل يجعل النفس فى اطمئنان من الجزع والهلع، وبعد عن السخط والغضب.

وأخيرا إن المصائب تصقل النفوس، وتربى فيها قوة الاحتمال إن صبرت وفوضت، ورجت الثواب والفرج من الله تعالى، وفيها يكثر الدعاء لله تعالى، والدعاء مخ العبادة، ولقد قال تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ... ﴿٦٠﴾﴾ [غافر] وكان بعض الصالحين إذا ألم به مرض أو وصب دعا ربه أن يجعله يحس بنعمة المرض والسقم، إذ إنه يقربه من ربه فلا يطغى ولا يستغنى بنفسه عن ربه.

ولقد قال تعالى فى جزاء الصابرين عند النازلة التى تكرثهم، والرضا بما يأتى به الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾.

الإشارة هنا إلى الصابرين الذين يتحملون الخوف مهما يكن مقداره، ونقص الأموال والأنفس والثمرات فى سبيل الله تعالى، وإذا نزلت بهم نازلة أصابت نفوسهم من فقد حبيب أو حرمان من مطلب من مطالب الدنيا. هؤلاء الذين تلك أحوالهم، هم من الصديقين والشهداء ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ الصلوات جمع صلاة، وجمعها الله تعالى لكثرتها، وتنوع آحادها، والصلاة معناها الدعاء ولكنها من الله تعالى استجابة الدعاء، وذلك بالعفو والمغفرة، وعفو الله ومغفرته دليل رضوانه، ورضوان الله تعالى أكبر الجزاء، كما قال تعالى فى

ختام جزاء الآخرة: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ... ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة] وإن الله تعالى لم يمن على عباده الصابرين بالمغفرة والرضوان فقط، وحسبهما جزاء للصبر ولكن منَّ بالرحمة ، رحمة الله تعالى التى وسعت كل شىء، فرحمهم فى الدنيا بالهداية والتوفيق لفعل الخير، ورحمهم فى الآخرة بالنعيم المقيم.

وقد وصفهم سبحانه بأنهم المهتدون، فقال تعالت كلماته: ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ أى المتصفون بالصبر على الشدائد من الخوف ونقص فى الأموال والأنفس والثمرات، هم الذين كتب الله تعالى لهم الهداية، وفى النص السامى ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ إشارة إلى قصر الهداية عليهم وأنهم المهتدون حقا، وذلك بتعريف المسند والمسند إليه وبالضمير «هم» وذلك أشرف بيان أنهم المختصون وحدهم بالهداية الكاملة وهبنا الله تعالى عفوه ومغفرته ورحمته وهدايته.

مقدسات البيت الحرام

۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ
فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ
بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ
لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ
﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ
عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾

ما زالت النصوص القرآنية الشريفة السامية تتكلم حول الكعبة من ناحية كونها قبلة، وأن الصلاة لا تصح من غير الاتجاه إلى البيت الحرام، وإنه مما حول البيت الصفا والمروة، وهما جبلان مجاوران للكعبة، قيل إن هاجر أم إسماعيل كانت تتردد بينهما عندما أصابهما الجوع والعطش وهى تناجى ربها أن يمن عليها بالغوث فأنبع الله تعالى لها زمزم، وقيل كانت لها طعم وغذاء وشفاء للعلة من عطشها، وقد قال تعالى فيها: **﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾**.

والشعائر جمع شعيرة، وهى المتعبد الذى يكون فيه عبادة الله تعالى والقيام بحق الطاعة، وفى هذا النص تقرير بأن الصفا والمروة موضعا تعبد لله تعالى، وقد قال بعض العلماء: إن ذكر أنهما من شعائر الله دليل على طلب السعى بينهما، ولكن ابن جزى الكلبى الفقيه المالكى ضعف هذا، ولكنا لا نجد فيه ما يسوغ التضعيف لأن كونهما متعبدا يدل على طلب التعبد عندهما، وقد بين النبى ﷺ التعبد فيهما بطلب السعى بينهما فقد قال ﷺ: «**كتب عليكم السعي فاسعوا**»[(١)] وإنه ﷺ فى حجة واعتماره سعى والناس بين يديه وهو وراءهم؛ لأنه كان راكبا، فهو منسك من مناسك الحج والعمرة، والنبى ﷺ قال: «**لتأخذوا عنى مناسككم**»[(٢)].

ويقول تعالى: **﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ﴾** فمن قصد البيت حاجا أو معتمراً فلا جناح عليه أن يطوف بهما والحج هو المعرف بأركانه وركنه الأكبر الوقوف بعرفات، ومن مناسكه النحر ورمى الجمار، والوقوف بالمزدلفة، أما العمرة فهى زيارة البيت والطواف حوله، والسعى بين الصفا والمروة، وقد سعى فيهما رسول الله

---

(١) عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ شَيْبَةَ أَنَّ امْرَأَةً أَخْبَرَتْهَا أَنَّهَا سَمِعَتْ النَّبِيَّ ﷺ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ يَقُولُ: «كُتِبَ عَلَيْكُمْ السَّعْيُ فَاسْعَوْا». [رواه أحمد فى مسند القبائل (٢٦١٩١)].

(٢) رواه مسلم: كتاب الحج (٢٢٨٦)، وأبو داود: المناسك (١٦٨٠) وأحمد فى مسنده (١٤٠٩١) عن جابر بن عبد الله بلفظ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَرْمِي عَلَى رَاحِلَتِهِ يَوْمَ النَّحْرِ وَيَقُولُ: «لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ فَإِنِّي لا أَدْرِي لَعَلِّي لا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ».

ﷺ، ولكن كان النص فى هذه الآية، ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ ونتكلم هنا فى ثلاثة أمور:

أولها: إن نفى الجناح - والجناح هو الميل إلى الإثم - يقتضى نفى الإثم لا الوجوب؛ لأن نفي الإثم يؤدى إلى معنى الجواز لا الوجوب، أو الطلب فرضا أو سنة، فمن أين جاء الطلب؟ نقول إن الطلب جاء من كلمة «شعائر» أولا، وقد بينا ذلك، ومن بيان النبى ﷺ بأن بين أن السعى كتب علينا، ومن مداومته ﷺ على السعى فى عمرته وحجه؛ ولذلك قال مالك وأحمد والشافعى: إن السعى فرض، وقال أبو حنيفة: واجب وهو مرتبة بين السنة المؤكدة والفرض، ويعرفونه بأنه ما ثبت طلبه الحتمى اللازم بدليل ظنى فيه شبهة.

الثانى: لماذا عبر سبحانه بنفى الجناح، ولم يعبر بالطلب ولا شك أنه كان ثمة موجب لنفى الإثم، وجعله أساس القول، ولقد قيل فى هذا كلام فرددته بعض كتب التفسير قالوا: إنه كان على الصفا صنم اسمه إساف، وعلى المروة صنم اسمه نائلة، وقد تحرج بعض المسلمين من السعى بينهما لمكان هذين الصنمين اللذين كان أهل الجاهلية يعبدونهما، ولأن الوحدانية طردت الوثنية من القلوب، فنفى الله تعالى الإثم لهذا، ولا يمنع نفى الإثم من الوجوب أو الطلب بشكل عام، وقيل إن بعض الأنصار لم يجدوا النص على السعى فى القرآن فتحرجوا من أن يفعلوا ما كان يفعله الجاهليون من غير نص، فبين أنه لا إثم، ودل على الطلب بالنص الذى صدر به القول فيهما وبعمل النبى ﷺ وقوله.

الأمر الثالث: قوله تعالى: ﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ أصل يطوف يتطوف قلبت التاء طاء وأدغمت الطاء فى الطاء قوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [**الحج**] والتطوف المبالغة فى الطواف بأن يعددوه، ولا يكتفوا بواحدة، ولكن الصفا والمروة لا يطوف حولهما ولكن يسعى بينهما، والمشابهة بينهما ليست بعيدة؛ لأن السعى سير على الأرض بينهما وتكرار ذلك سبع مرات، فكان كالطواف فى الأرض

التى بينهما والله سبحانه وتعالى هو مبين مناسك الحج بالقرآن والسنة النبوية المبينة للقرآن.

﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ التطوع المبالغة فى الطاعة فيما أمر الله تعالى به من فرض وواجب ومندوب، فهى المبالغة فى أصل الطاعة، وإطلاقها على النفل غير المفروض والمندوبات ونحو ذلك هو من قبيل الاصطلاح الفقهى باعتبار أن النوافل والمندوبات مكملات للفرائض التى هي أصل الطاعات، و«خيرا» وصف لمصدر محذوف وهو مفعول مطلق، والوصف يقوم فيه أحيانا مقام المصدر كما فى قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً ... (٤٥)﴾ [الأنفال].

والخير كل ما يكون فيه نفع للناس، وأداء لما أمر الله، وقيام بالواجبات الاجتماعية والإنسانية والدينية، ووصف طاعات الله أو المبالغة فى الأداء بأنها خير؛ لأنها فى ذاتها خير، ولا يكون ما يأمر الله تعالى به إلا خيرا خالصا، ونافعا خالصا، فكل أمر من الله تعالى فهو خير نافع لا ينفع سواه.

﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً﴾ فعل شرط جزاؤه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ وهذه الجملة السامية هى دالة على الجزاء، متضمنة له؛ لأن تقدير الجواب فله أجر يكافئ ما فعل؛ لأن الله شاكر عليم، أى مُجازٍ جزاء حسنا على ما فعل؛ لأن الله شاكر، والتعبير بالشكر فى هذا، وهو أعظم من أن يشكر عبداً له فالكل منه وإليه، وقد وصف نفسه بأنه غفور شكور، فكيف يشكر المنعم من أنعم عليه؟! وكل ما يقدم العبد من طاعات هو شكر للمنعم جل جلاله، وشكر المنعم واجب بالعقل والنقل، فكيف يكون الله شاكراً لأنعمه؟ ولكن عبر بذلك، تكميلا لنعمه وتفضله أولا، كما يشكر من يقوم بالواجب تفضلا، ولتحريض العبد على كمال الطاعة ثانيا، ولتعليم العبد شكر النعم ثالثا، ولإثبات رضوان الله تعالى رضوانا كاملا، فإن الشكر زيادة فى الرضوان، والرضوان الجزاء.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى نفسه مع الشكر الدال على الرضا بقوله: «عليم» أى وصف نفسه بالعلم؛ للدلالة على أنه عالم بمن يقوم بالطاعات فيجازيه،

ومن يعمل بالمعصيه، فيجزيه بالسوء سوءا، فهو إشعار للطائع بأنه يعمل تحت رعاية الله تعالى، تحت سمعه وبصره، وهو القائم بكل ما فى الوجود، وهو القادر على مكافأة كل بما يعمل إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

وإن الله تعالى من أول قوله تعالى: ﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ** ...﴿٤٠﴾﴾ [**البقرة**] كان كلامه فى بنى إسرائيل، وكفرهم بنعم الله تعالى ومخالفتهم لشرائع النبيين الجامعة لرسائل الله تعالى إلى خلقه، وما تخلل ذلك من استقبال القبلة كان ردا على سفاهتهم وغيهم، ثم ما كان يومئ إليه تحويل القبلة من إيذان بفتح مكة، وأن ذلك يحتاج إلى جهاد، فبين سبحانه أن عدة الجهاد الصبر والصلاة، وجاء ذكر الصفا والمروة تبعا لذكر الكعبة وما حولها.

ويختم الله تعالى الكلام فى أهل الكتاب ببيان أقبح ما كانوا يعملون، وهو كتمان آياته، ويكتبون بدلها بأيديهم ما يسمونه كتاب الله على أنه من عنده سبحانه، وما هو من عنده فقال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ**﴾، البينات الأخبار البينة، والأحكام المبينة فى الكتاب بعد بيانها، وقد أنزلها الله تعالى فى كتبه التى كانت للنبيين السابقين، والهدى هو ما بينه سبحانه من أوامر ومنهيات، فمن كتم البينات الدالة على الرسالات، والأخبار الصادقة عن النبيين، والأحكام الهادية إلى الصراط، فقد كتم علم الله، والكتمان للعلم، إنما يكون حيث تكون الحاجة إلى البيان من قبل أن يكون المقام مقام بيان وتوجيه وإرشاد، فيكون ممن عنده علم كما أنكر اليهود والنصارى ما عندهم من علم بالنبى ﷺ ومكة وما حولها، وإبراهيم وأولاده، وكما ينكر العلم من يسأل عنه فلا يجيب، وقد قال النبى ﷺ: «**من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار**»(١).

والآية موضوعها كل كتمان لعلم أو هداية، وقالوا إنها نزلت فى اليهود، ولكن حكمها عام يشمل كل كتمان لعلم فيه هداية للناس، فيشمل الذين يعلمون رسالة محمد ﷺ، ولا يبلغونها للناس، ومن لا يبينون الشرع الإسلامى لأهله،

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده عن أبى هريرة (٨٢٨٤)، وأبو داود: كتاب العلم (٣٢٧٣)، وابن ماجه (٢٦٢). وله طريق أخرى من رواية أنس بن مالك - رضى الله عنه.

قربوا أو بعدوا، ولمن يجهله، فإنه كما قال على كرم الله وجهه: لا يسأل الجهلاء لِمَ لَمْ يتعلموا، حتى يسأل العلماء لِمَ لَمْ يعلِّموا.

وقد حكم الله تعالى على الذين يكتمون العلم بقوله تعالت كلماته: ﴿**أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ**﴾ اللعن الإبعاد والطرد، والنبذ من جماعة الخير، وجماعة الحق، وأولئك إشارة إلى الذين يكتمون العلم، والإشارة إلى موصوف بوصف، إشارة إلى أن الوصف علة الحكم، فكتمان العلم علة للإبعاد عن رحمة الله تعالى، ونبذه من الناس، ولعن الوجود كله، واللاعنون تشمل الملائكة والجن والإنس، وكل من يسبح بحمد الله تعالى.

ولقد قال النبى ﷺ: «**إن العالم يستغفر له كل شىء حتى الحوت فى الماء والطير فى الهواء**»[1] وهذا إذا بين العلم وذكره للناس وهدى من ليس عنده علم، فإذا كتمه لعنه كل شئ لعنته الملائكة، ولعنه الناس، ولعنه كل شىء حتى الحوت فى الماء والطير فى الهواء، فاللعن عند الكتمان جزاء، هو نظير الاستغفار عند البيان.

وقد استثنى من هؤلاء الملعونين الذين يبينون من بعد الكتمان، فقال تعالى: ﴿**إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا**﴾ التوبة هي الإقلاع عن الذنب، والشعور بالندم، والعزم المؤكد على ألا يعود إليه من بعد، وإذا كان الذنب بالترك عمل، وإذا كان الذنب بالعمل ترك، فذنب الكاتمين كان بترك البيان والتبليغ فتكون التوبة بالبيان والتبليغ؛ ولذلك قال تعالى «وبينوا» أى أكدوا بفعل نقيض ما ارتكبوا.

وقوله «وأصلحوا»، أى تركوا الإفساد واتجهوا إلى الإصلاح، وعمارة الوجود، ونشر الخير بين الناس وإرشادهم إلى أقوم السبل فى هذه الحياة، وفى ذلك إشارة إلى أمرين جليلين:

---

(١) روى الترمذى: كتاب العلم - باب فضل العلم (٢٦٠٦)، عن أبى الدرداء قال: فَإِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ: « مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغى فيه علْمًا سَلَكَ اللَّهُ به طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّة، وَإِنَّ الْمَلائكَةَ لَتَضَعُ أَجْنحَتَهَا رضَاءً لطَالب الْعلْم، وَإِنَّ الْعَالمَ لَيَسْتَغْفرُ لَهُ مَنْ فى السَّمَوَات وَمَنْ فى الأَرْض حَتَّى الْحيتَانُ فى الْمَاء، وَفَضْلُ الْعَالم عَلَى الْعَابد كَفَضْل الْقَمَر عَلَى سَائر الْكَوَاكب، إنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبيَاء إنَّ الأَنْبيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دينَارًا وَلا درْهَمًا إنَّمَا وَرَّثُوا الْعلْمَ فَمَنْ أَخَذَ به أَخَذَ بحَظٍّ وَافرٍ». كما رواه ابن ماجه فى المقدمة (٢١٩)، وأبو داود: العلم (٣١٥٧)، وأحمد فى مسنده فى مسنده (٢٠٧٢٣) وغيرهم.

أولهما - أن كتمان العلم فيه فساد فى الأرض؛ لأنه يجعل الناس فى متاهة من الباطل فتنقلب الأوضاع، ويختلط الحق بالباطل، ولايعرف الناس سبيلا للهداية، وتسد مسالك الخير؛ إذ لا هادى إلا أن يرحم الله عباده بها، ويرشدهم إليها.

ثانيهما - أن بيان الخير والحق هو الإصلاح فى هذا الوجود فلا سلامة يسكت فيها الحق، وينطق فيها الباطل، وقد لعن بنو إسرائيل لسكوتهم عن البيان فى وقت الحاجة إليه، وقد قال تعالى: ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾**﴾ [**المائدة**] وكما قالت الحكمة: السكوت عن الحق نطق بالباطل، والساكت عن الحق ناطق بالباطل.

وقد جزى الله تعالى التائبين العاملين المؤكدين لتوبتهم بالبيان للحق والإصلاح بأنه يقبل توبتهم، فقال تعالت كلماته: ﴿**فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾.

هنا التفات من الإخبار إلى التكلم، فالله تعالى أخبر عنهم فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ**﴾ إلى آخر الآية، ثم التفت من الإخبار إلى التكلم عند الجزاء، وكذلك الأمر فى أكثر البيان يكون ذكر المعاصى والتوبة منها بالإخبار أو الخطاب؛ ويكون الجزاء من الله تعالى بضمير المتكلم تربية للمهابة، والإشراق فى النفس، والإشعار بالرضا، وإن قبول التوبة أحب إلى العاصى التائب من كل ما فى الوجود، وهو رفع له من ذلة الذنب وخسته إلى رفعة الحق وعزته؛ ولذا قال عز من قائل: ﴿**فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ**﴾ الإشارة إلى الموصوفين بالتوبة الذين بينوا ما كتموا وأقاموا الإصلاح مكان الإفساد، وكما قلنا وكررنا الإشارة إلى الموصوف بيان أن العلة هى الوصف، فقبول التوبة سببه التوبة النصوح، والعمل على نقيض المعصية وما ترتب عليها، و«أتوب عليهم» معناها أرجع عليهم

بالقبول والجزاء، فكما أنهم رجعوا إلىَّ من تيه المعصية أرجع بقبول التوبة وغفران الذنوب، ثم قال عز من قائل: ﴿وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أى كثير قبول التوبة لأنى رحيم بعبادى، وإن كان الناس لا يذنبون أتيت بمن يذنب لأقبل توبته كما ورد فى معنى الأثر(١).

وإن هاتين الآيتين تدلان على وجوب بيان الهادى إلى الرشاد، كما ورد فى الأثر، وإن تبليغ العلم يجب أن يكون على علم بسياسة البيان بأن يبين للناس ما يطيقون، ويتدرج من اليسير، حتى يكون العسير سهلا يسيرًا، ولقد قال ﷺ: «**حدث الناس بما يفهمون؛ أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟!**»(٢).

ويجب بيان الحق الذى لا زيغ فيه، ولقد قال ﷺ: «**لا تمنعوا الحكمة أهلها فتظلموهم ولا تضعوها فى غير أهلها، فتظلموها**»(٣) وقال عليه الصلاة والسلام فى هذا المعنى: «**لا تعلقوا الدر فى أعناق الخنازير**»(٤). وفق الله العلماء للنطق بالحق وألا يفتحوا باب التأويل لذوى السلطان حتى لا يضعوا الدر فى أعناق الخنازير.

---

(١) عَنْ أَبِى أَيُّوبَ أَنَّهُ قَالَ حِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ: كُنْتُ كَتَمْتُ عَنْكُمْ شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَوْلا أَنَّكُمْ تُذْنِبُونَ لَخَلَقَ اللَّهُ خَلْقًا يُذْنِبُونَ يَغْفِرُ لَهُمْ».
رواه مسلم: كتاب التوبة (٤٩٣٤) ورواه أيضا (٤٩٣٦) عن أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ». كما رواه أحمد والترمذى.

(٢) أخرجه البخارى عن على موقوفا: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ؟!» [كتاب العلم: (١٣٤)].

(٣) جاء فى كشف الخفا (٣١٢٤): لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم.
رواه ابن عساكر عن ابن عباس أن عيسى ابن مريم قام فى بنى إسرائيل فقال: يا معشر الحواريين لا تحدثوا بالحكمة غير أهلها فتظلموها، والأمور ثلاثة: أمر تبين رشده فاتبعوه، وأمر تبين لكم غيه فاجتنبوه، وأمر اختلف عليكم فيه فذروا علمه إلى الله تعالى.

(٤) جاء فى سنن ابن ماجه: المقدمة (٢٢٠) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، وَوَاضِعُ الْعِلْمِ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ كَمُقَلِّدِ الْخَنَازِيرِ الْجَوْهَرَ وَاللُّؤْلُؤَ وَالذَّهَبَ».

الوحدانية والوثنيون

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ
كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ
﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ
﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾
إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ
وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا
مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ
بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

بعد أن أنهى الله تعالى موضوعات أهل الكتاب فى هذا الموضع من القرآن، وقد كان فيهم كفران النعم، والنفاق وكثرة العدوان والفساد فى الأرض، والعبث بالأحكام، والاستهزاء بآيات الله تعالى. بعد ذلك أخذ يبين أقوال الوثنيين وإثبات وحدانية الله تعالى، وابتدأ القول فى بيان حال الكفار من المشركين وأهل الكتاب الذين ماتوا على الكفر، فقال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ ...**﴾.

ذكر بعض العلماء أن موضوع الآية الكريمة كفار مكة الوثنيون قبل أن يدخلوا فى الإسلام، بدليل الكلام بعد ذلك فى الوثنية والوثنيين، وبيان الوحدانية ودليل التوحيد من خلق الكون.

ونحن نرى أن وصف الكفر يعم المشركين والكتابيين، فالكتابيون كافرون كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ ... ۝١﴾ [البينة] ولقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ ... ۝٧٣﴾ [المائدة] ولقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ۝٢٩﴾ [التوبة].

وهذه أوصاف الكفار؛ لأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق، فهم داخلون فى وصف الكفار، والكفر كله ملة واحدة، فلا تفاوت فيهم، ولا فضل لكافر على كافر وليس كفرٌ دون كفر، بل جميعهم فى الجحيم على سواء.

وقد حكم الله تعالى عليهم الحكم الأبدى، إذا ماتوا على الكفر مصرين عليه بعد أن بلغوا بالرسالة فكفروا بها، وماتوا على الكفر بها جاحدين معاندين منافرين معذبين الضعفاء، ومثيرين للبغضاء والأحقاد، حكم الله تعالى عليهم بقوله عز من قائل: ﴿أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ولعنة الله تعالى إبعادهم من رحمته، وألا ينظر إليهم نظرة رضا، ومن تكون حاله كذلك يكون فى النار خالدا فيها، ولعنة الملائكة تعذيبهم لهم بأمر الله تعالى، وإبعادهم عن رحمته، ولعنة الناس بنبذهم، والدعاء باللعنة عليهم.

وهنا أمران بيانيان نشير إليهما ونجمل ولا نفصل:

أولهما- أن الإشارة فى قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ تعود على الكفار الذين ماتوا مصرين على الكفر قد بلغتهم دعوة الله، وكما قلنا ونكرر الإشارة إلى موصوف فيه إشارة إلى أن علة الحكم الوصف، وهو موتهم على الكفر بعد البيان والإنذار الشديد، ﴿... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ۝١٥﴾ [الإسراء].

الثانى- أن الله تعالى ذكر فى بيان عذابهم أن عليهم اللعنة، أى أن اللعنة تنصب على رءوسهم انصبابا وتحيط بهم من فوق رءوسهم وعن أيمانهم، وعن شمائلهم، فهم بعداء عن رحمته، وعليهم غضب الله والملائكة والناس أجمعين، وإن تلك اللعنة تنالهم بسبب موتهم على الجحود والإصرار على الكفر.

وقد أثار الناس جدلا موضوعه هل تجوز لعنة الكافر وهو حى، فناس لم يجيزوها؛ لأنه يجوز أن يتوب الله تعالى عليه، وجواز اللعنة إنما كانت على الكفار الذين ماتوا على الكفر، ومن كان حيا ترجى توبته، أو تجوز توبته.

ومن العلماء من أجاز اللعنة على الحال التى هو عليها، وخصوصا إذا كان ممن يؤذون صاحب الدعوة، ويروى فى ذلك أن النبى ﷺ لعن عمرو بن العاص، وهو على الكفر، فيروى فى ذلك أن النبى ﷺ قال: «**اللهم إن عمرو بن العاص هجانى وقد علم أنى لست بشاعر، فالعنه واهجه عدد ما هجانى**».

وقد اتفق أهل العلم على أن اللعن الذى ذكرته هذه الآية عقاب من الله تعالى، وغضب على الكافر، وجزاء له كجزاء جهنم.

وأكثر العلماء على أن لعن المسلم لا يجوز ولو كان عاصيا؛ لأنه يخزيه ويذله، وخزيانه وذله يقربه من الشيطان ويجعل للشيطان مدخلا فى نفسه، يروى عن النبى ﷺ أنه أتى بشارب خمر مرارا، فقال بعض من حضره : لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به، فقال الرسول الكريم ﷺ: «**لاتكونوا عون الشيطان على أخيكم**»(١).

وقد بين سبحانه أنهم خالدون فى عذابهم، فقال تعالت كلماته: ﴿**خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ**﴾ الخلود هو البقاء الدائم الذى لا نهاية له، وكثيرا ما يذكر الخلود موصوفا بالدوام، وبصيغة مؤكدة، وقد انحرف بعض الناس فقال إنهم يبقون فى العذاب بمقدار جرمهم الدنيوى وزمانه، وذلك انحراف فى الفكر وإن قاله بعض الذين لم يعرفوا بالانحراف.

---

(١) [أخرجه البخارى: كتاب الحدود - باب ما يكره من لعن شارب الخمر (٦٢٨٣)، كما أخرجه أبو داود (٣٨٨٢) وأحمد (٧٦٤٥)].

والضمير فى «فيها» يعود على اللعنة، وتكون اللعنة من الله تعالى مقتضية الدخول فى النار؛ لأنها متضمنة غضب الله تعالى يوم القيامة، وغضب الله تعالى مقترن به عذابه، وإنه عذاب مؤلم مستمر لا يخفف عنهم، ولا ينقطع بل هو مستمر؛ لأن سببه استمر طول حياتهم فى الدنيا، ولا ينظرون، وقد أكد الله تعالى أنهم لا ينظرون ولا يؤجلون بذكر ضمير الفصل الذى يؤكد الحكم.

وقد صرح الله سبحانه وتعالى بالوحدانية، فقال تعالى: ﴿**وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ**﴾ وقوله تعالى: «وإلهكم» بالإضافة إليهم فيه إشارة إلى أن المعبود الذى تعبدونه بحق إله واحد، فالذين تعبدونهم من أوثان وأحجار ليسوا بآلهة بل إلهكم الحق الذى يجب أن تعبدوه واحد لا إله إلا هو، لا يعبد بحق إلا هو، ولا يمكن أن يسمى غيره من الأوثان باسمه، إنما هى أسماء سميتموها ما أنزل الله بها من سلطان، فالإله هو الخالق الذى ينفع ويضر، وأنشأ الوجود برحمته، وعمهم بنعمته، ولقد وصفه سبحانه وتعالى بأنه «الرحمن الرحيم» الذى يتصف بالرحمة، وتعتبر صفة من صفاته، وهو الذى يرحم العباد فعلا، وقد بينا معنى الاسمين الكاملين من قبل .

وقد ذكر سبحانه وتعالى هذين الوصفين من بين الأسماء الحسنى؛ لأنهم يحسون بأنهم فى آلائه، ورحمته، فهم إذا كانوا فى شدة لايستغيثون بآلهتهم، وإذا كانوا فى ضر لا يلجئون إلا إليه ﴿**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ** ... ﴿٦٢﴾﴾ [النمل] ويقول تعالى: ﴿**وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴿١٢﴾﴾ [يونس] ويقول تعالى فى بيان حالهم فى مأساتهم وشدائدهم وأنهم يضرعون إليه: ﴿**قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ** ﴿٦٣﴾ **قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ** ﴿٦٤﴾﴾ [الأنعام].

فأولئك الوثنيون من العرب كانوا يعرفون الله تعالى ولكن يعبدون أوثانهم، وعندما تشتد الشديدة عليهم يلجئون إلى الله وحده مستعينين طالبين الرحمة من

عنده، ولا يرجون الرحمـة من غيره قط؛ ولذا كان وصفه بالرحمـة؛ لأنهم يلجئون إليه وحده عند رجاء الرحمة فلا يرجونها من غيره، وكأن المعنى: الواحد الأحد هو الذى يرحمكم عندما تضرعون إليه فكان المنطق يوجب عليكم ألا تعبدوا غيره.

ولقد بـين سبحـانه دلائل وحدانيـته، وأن خلق الوجـود بإرادته، ولم يخلق الوجود من غيـر إرادة خلاقة مسيطرة على ما فى الوجـود، يعرف ما خلق، ويدبره والدليل على ذلك:

أولا- تنوع خلقه من سـموات وأرضين، ومن مـاء ينزل فيحـيى الأرض بعد موتها، مما يدل على أنه مخلوق بإرادة واحدة.

ثانيا- تصريف الوجود من حال إلى حال، من ظلمة ونور وليل ونهار، يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل.

ثالثا- المخلوقات المستـمرة من رياح تتحرك وسحاب مسـخر، وجريان الفُلك على الماء بأمره، وكل ذاك لمعنى أريـد، وغاية قصدت لا تكون إلا من خـالق مريد منفرد بالإيجاد.

رابعا- الإيجـاد بالتوالد المسـتمـر، وانتظام هذا الوجود مما يدل علـى وحدة الموجد، ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴿٢٢﴾﴾ [**الأنبياء**].

فهذه الآية الكريمة تشير إلى القدرة المنفردة بالتكوين، فتنفرد لا محالة بالعبادة والألوهية، وفى مـعنى هذه الآية وإن كانت بأسلوب بيـانى آخر، ﴿**أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ** ﴿٦﴾ **وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** ﴿٧﴾ **تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ** ﴿٨﴾ **وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ** ﴿٩﴾ **وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ** ﴿١٠﴾ **رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ** ﴿١١﴾﴾ [ق].

هذه إشارات إلى بعض ما فى الآية من بينات، وأدلة على أن خالق الكون واحد مدبر وحده لا يشاركه فى هذا الإيجاد المحكم الذى يسير على سنة رسمها منشئه، لا تقدير لخلق إلا من الله وحده، وهو العليم الحكيم. ولنذكر ما ساقه سبحانه وتعالى من كلمات فى هذا الكون.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾، قالوا: إن المشركين لما ذكر الله سبحانه وتعالى وحدانيته طلبوا دليلا على الدعوى، وإردافها ببينة واضحة، فقال الله تعالى ذلك، وإذا لم يكن سؤال، فإنها جواب على فرض سؤال إذ العقل طُلَعَة يريد معرفة سر كل شيء.

والسموات جمع سماء، وجمعت لأنها تشتمل على طبقات مختلفة من أبراج ونجوم وكواكب يمسكهن الله تعالى برباط محكم مما سنه فى الكون من جاذبية رابطة، ونسق بهيج، ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ... (٤١)**﴾ [**فاطر**]، فهو سبحانه خلقها وأمسكها وحفظها من أن تنتثر أو أن تنفطر ووحد الأرض؛ لأنها فى سطحها وظاهرها شيء واحد، وإن كانت هى الأخرى طبقات.

وآية السموات ما فيها من أبرج ونجوم وارتفاعها بغير عمد ترفعها، وما فيها من الشمس والقمر والنجوم السائرة الباهرة مشرقة ومغربة نيرة، وغير نيرة.

وآية الأرض ما فيها من بحار وجبال رواسي، وما فى باطنها من فلزات ومعادن وماس، ومافى بحارها من لآلئ ومرجان وعنبر، فكل هذا آية على وجود الله تعالى ووحدانيته؛ فهو خالق الوجود وحده.

وقوله تعالى: ﴿**وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**﴾ بأن يكون كل واحد منهما خلفا، كما قال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ... (٦٢)**﴾ [**الفرقان**] واختلافهما من حيث الظلمة والنور، ومن حيث الطول والقصر وأن يطول الليل مرة أكثر من النهار وأن يطول النهار أخرى أكثر كما قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ... (٦١)**﴾ [**الحج**] وقد قال تعالى: ﴿**وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ**

نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [يس] وآية الليل والنهار هى انتظامهما وتغير أحوالهما بفعل الواحد الحكيم العليم .

وقوله تعالى: ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ والفلك تذكر وتؤنث، وهى السفن التى تحمل الأثقال وتنقلها من بلد إلى آخر، أو إقليم إلى آخر، لينتفع أهل الأرض بكل خيراتها، وما يفضل من إقليم ينقل إلى غيرها، فيعم الخير، ويتبادل الناس جميعا ما فى الأرض من نبات وحيوان؛ ولذا قال سبحانه: ﴿الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ وآية الفلك أنها تحمل أثقالا ويحملها الماء السائل الرقيق، ولقد قال تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ [يس].

وإن فى الفلك آيات أخرى فى تسخير الله تعالى لها بالرياح تجريها وتتحرك حيث أراد محركها، وإنه بعد اتساع العلم، وقدرة الإنسان فى تسخير الآلات والسيطرة عليها ما زالت الرياح عاملا قائما فى تسيير الجاريات وقوله: ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ﴾ السماء المراد بها ما علا مما يتصل بالأرض، وإن الله وحده هو الذى ينزل الماء أى الأمطار، ولأنها تجىء من غير حسبان، وتجىء بالاستسقاء أحيانا، أسند إنزال الماء إليه سبحانه وتعالى، لأنه المصرف للسحاب، ولا يمكن ابن الأرض أن يعرف متى تمطر السماء، ومتى يكون مطرها غيثًا يسقى الناس والدواب والأنعام والحرث والنسل ومتى يكون وابلاً عاصفًا مفسدا وفاسدا. وبين الله تعالى وجهًا من وجوه النعمة فى نزول المياه من السماء إلى الأرض بتسخيره، فقال تعالى: ﴿فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ والمراد الظاهر أنها من قبله كانت جرداء لا نبات فيها، ولا زرع ولا ثمر، فكانت كالميت فينزل الماء فيحييها بالخضرة والنضرة، وتصير كأنها الحى، فى ريِّق حياته، كما قال تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [يس].

وقوله تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ الدابة كل ما يدب على الأرض من الحيـوان كما قـال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ... ﴿٦﴾﴾ [هود]، وبث أى فرقـها ونشرها من أنعام وإنسـان وطير وغير ذلك من الحيوان، فإن ذلك كله من الماء الذى ينزل من السماء سواء أكان سيلا يسيل، أم نهرا يجرى، أم عينا تختزن فيها مياه الأمطار فى باطن الأرض، ولقد قال تعالى: ﴿... وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء] والآية فى ذلك أن الماء به الحيـاة، والله تعالى منزله ومـجريه ولو شاء مـا كان فى الناس هذه الحياة من كل زوج بهيج.

وقوله: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾، معناه إرسـالها على غيـر صورة واحدة، فـقد تكون عقيـما، وقد تكون مملوءة ماء، وقـد تكون عاصفا وقـد تكون رخاء، وتكون حارة أحـيانـا وباردة أحيـانا ، وقد تجىء من الشـمال وقـد تكون من الجنوب ومن الشرق أحيانا، ومن الغـرب أحيانا أخرى، وفى مقدار تسيـيرها للسفن الجاريات فى البحر ما بين كبيرة وصغيرة ودافعة ورافعة، وإن ذلك كله بتقدير العزيز العليم، وقد يقولون: إن ذلك كله يكون تابعا لسنن كونية آتية من حرارة الأرض أو برودتها، وإن ذلك لحق، ولكن من الذى سن هذه السنن الكونـية؟ إنه هو الله تعـالى، وهو قادر على تغييـرها، وهذه آية من آيات الله تعالى فى الكون، وفيه بيـان قدرة الله تعالى وحكمته العالية.

وإن الله تعالى نصـر نبيه بـالريح فى غزوة الخندق، وقد روى ابن عـباس أن رسول الله ﷺ قال: «نصرت بالصَّبا، وأهلكت عاد بالدَّبور»(١)، ولقد قال تعالى فى غزوة الخندق: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ... ﴿٩﴾﴾ [الأحزاب] وكل خواص الرياح من آيـات الله تعالى الدالة على وحـدانيته وانفـراده بالخلق والتكوين وذلك يقتضى انفراده تعالى بالعبادة فلا يعبد سواه ولا إله إلا الله .

---

(١) متفق عليه؛ رواه الـبخارى: كتاب الجمعـة (٩٧٧)، ومسلم: كتاب الاستسـقاء (١٤٩٨) عن ابن عباس - رضى الله عنهما.

وقوله: ﴿والسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ والسحاب ظلال تنتقل بين السماء والأرض، وسميت سحابا لانسحابها من مكان إلى آخر، وهى قد تكون ممتلئة فتنزل على الأرض إذا بردت، ويكون منها الودق. وقد قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾﴾ [النور]. والسحاب المسخر المذلل لأوامر الله تعالى يبعثه من مكان إلى مكان كما يريد سبحانه، وهو العليم الخبير، فيذهب بمطره إلى الأرض التى يريد الله تعالى إحياءها، ولقد قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ ... ﴿٩﴾﴾ [فاطر] ويقول تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ... ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف] فالسحب هى التى سخرت لتوزيع المياه بإرادة الله تعالى من أرض لا تنبت إلى أرض أخرى تنبت، فإذا كان الله ينزل من السماء ماء ليكون منه حياة كل شيء، فالله سبحانه وتعالى سخر السحاب لتوزيع هذا الماء الذى ينزله على حسب الحاجة وعلى حسب حكمته، وسنته.

هذا الذى ذكره سبحانه من خلق السموات والأرض والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس، والمطر الذى ينزله من السماء، وتصريف الرياح بسنن كونية نظمها، والسحاب المسخر بين السماء والأرض، فيه آيات بينات، وأدلة واضحات قاطعة تدل على وجود الله تعالى وانفراده سبحانه بتدبير الكون، وعلى أن إرادة واحدة هى التى أنشأته وهى التى تديره، سبحان الله رب العالمين؛ ولذلك قال تعالى بعد أن ذكر تلك الآيات البينات ﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ هذه الجملة السامية فيها جواب «إن» فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ إلى آخر الآية الكريمة. «آيات»، أى أدلة قاطعة لا مجال للريب فيها ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أى يعملون عقولهم لا أهواءهم، ولم تطمس عليها أوهام توارثوها، وتقليد استمسكوا به، وقالوا ما نعبد إلا ماكان يعبد آباؤنا من قبل.

وعبر سبحانه وتعالى بـ «قوم» للإشارة إلى الأقوام التى لا تعقل ولا تفكر.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾

ذكر الله وحدانيته سبحانه وتعالى، وأنه لا إله إلا هو، وذكر الأدلة على الوحدانية، وأنه حافظ الإنسانية ومنميها، والأحياء جميعا، ومع هذه الأدلة الواضحة ومع ما غمر الإنسان من نعم ووجود وكيان قائم، مع ذلك وجد من يجعل للخالق المدبر أندادًا فى العبادة؛ ولذا قال: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾** الأنداد جمع ند وهو النظير المقابل المماثل، وأنهم يتخذون الأصنام أو الأشجار أندادا مماثلة لله تعالى يتعبدون الأصنام، ولا يذكرون الله إلا قليلا، أو الأشخاص فيطيعونهم كأن أوامرهم هى من الله تعالى، وإن ذلك كله مع قيام الأدلة التى لا ريب فيها مما نيط بهم فى هذا الكون الذى هو فى ذاته دليل الوحدانية، ونعم من آلائه، سبحانه وتعالى فالإنكار ابتداء هو فى اتخاذهم هؤلاء الأنداد أيا كانوا، وقوله تعالى: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾** فيه إشارتان بيانيتان:

الإشارة الأولى- التعبير **﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾** فمن للبعضية، أى بعض الناس، وفى ذلك تصغير لشأنهم وتهوين لأمرهم سواء أكانوا عددا قليلا، أم كانوا عددا كثيرا

فهم مـهينون فى تفكيرهم، إذ هم رفضـوا الدليل المشتق من وجودهم، ومـا يحيط بهم، فضلوا ضلالا بعيدًا، والتعبير عنهم بذلك ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ إشارة إلى أنهم ليس لهم من وصف إلا أن يقال إنهم من الناس، فليس لهم وصف علم ولا إيمان، ولا شيء من المكارم التى تعلى الإنسان وتسير به فى مدارج الرقى، كما تقول عن رجل محتقرا: هذا الآدمى، أى ليس له من الصفات إلا أنه آدمى.

الإشارة الثـانية- أن الله تعالى قال: ﴿يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾. فيه إشارة إلى أنهم - أى الأنداد - لـيس لهم وجـود ذاتى بهـذا الاعـتبـار، إنما هم الذين جعـلوهم كذلك جـعلا، فـما كـان لهم ذلك إلا بزعمـهم الباطل وحـدهم، وهم يحسبون أنهم بهذا الاتخاذ يحسنون صنعا.

وإنهم لا يكتفون بذلك الاتخـاذ الباطل، بل يعبدونهم ويحـبونهم كحب الله تعالى بأن يجعلوهم نظراء الله تعالى فى المحبة والخضوع وطلب الرضا.

وقوله تعالى: ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ قد يكون مـعناه أنهم يسوونهم باللـه تعالى فى العبودية، والطاعة والرضا بما يعتبرونه مرضيا لهم مع أنهم يرون أنهم لا ينفعون ولا يضرون، وإذا أنزلت بهم شديدة لا يلجأون إلا لله، ولا يطلبون كشف الضر إلا منه كما تلونا من كتـاب الله تعالى ما يحكيه عنهم، فهم يفرقـون بين معبوداتهم، وبين الله فى شدائدهم، ولا يفـرقون فى رخائهم، وقد علمت أن وثنيى العـرب ما كانوا ينكرون وجود الله وأنه المـنشئ المكون للوجود، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ... ﴿٢٥﴾﴾ [**لقمان**] ويقولون فى أوثانهم ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله.

وهذا التخريج هـو الأقرب إلى الخاطر، وهناك تخريج آخـر، يقول إن معنى قوله تـعالى ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ أنهم يحـبونهم كـحب المؤمنين لله تعالى، فـهم ينزلون أندادهم منزلة الله تعالى عند أهل الإيمان فـيفردونها بالعبادة كـما يفرد المؤمنون الله تعالى بالعبادة وحده.

والتخريج الأول أظهر وأقرب إلى الخاطر، وهو المتبادر، ولقد قال بعد ذلك: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾، أى أن المؤمنين لوصفهم بالإيمان ولإذعانهم بالحق ولأنهم يعبدون من يملك النفع والضر، وأنه خالق الكون؛ ولأن حبهم مقصور على الذات العلية، فإنهم بذلك أشد حبا لله، ومظهر حب الله تعالى الإخلاص له، وتسليم الوجه والطاعة له، والخضوع له، ولما يأتى من عنده، فحب الله طاعته، وأن تمتلئ النفس بذكره، وأن يكون حبه كله لله تعالى لا يحب شيئًا في الوجود إلا لله، كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ... ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة] ولقد قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب الشيئ لا يحبه إلا لله**»(١) فالله فى قلبه وفى عمله، وقوله واختلاطه بالناس، وهو معه دائما.

وإن الله تعالى قد أعد العقاب الشديد لأولئك الذين اتخذوا الأنداد، وقدسوا الحجارة، وعبدوا الطاغوت، وقد قال تعالى فى وصف عقابهم الهائل: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ والذين ظلموا هم الذين اتخذوا الأنداد، وأظهرهم، ولم يعبر عنهم بالضمير أو الإشارة، لبيان أنهم ظالمون ظلموا أنفسهم وظلموا الحقيقة، وضلوا وأضلوا، وإن ما ينالهم من جزاء هو بسبب ظلمهم، وقوله تعالى: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ مفعول يرى، ويصح أن تكون يرى الأولى علمية، ويكون المؤدى أن ذلك يوم القيامة وظلمهم كان فى الدنيا، ويكون سياق الكلام هكذا: لو يرى الذين ظلموا أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب، لو يرى الذين ظلموا ذلك، وهم يرون العذاب الواقع فعلا، والمعنى يرون العذاب رأى العين بالعين البصرية يوم القيامة ويعلمون أن القوة لله جميعا، وأن الله شديد العقاب.

فهم يرون العذاب فعلا رأى العين، وقد علموا فى ذلك الوقت أن الله سبحانه وتعالى له القوة جميعا، فلا قوة لأحد أن يزحزحهم من النار التى هم فيها، ويعلمون أن الله شديد العقاب.

---

(١) عَنْ أَبِى أُمَامَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ وَأَبْغَضَ لِلَّهِ وَأَعْطَى لِلَّهِ وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ». [سنن أبى داود: كتاب السنة (٤٠٦١)].

وهنا إشارتان بيانيتان لابد من ذكرهما:

الأولى- أنه سبحانه يقرر أن الذين ظلموا لو علموا قوة الله وأنه شديد العقاب، ﴿**إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ**﴾ وهم يرون العذاب برؤية العين البصرية، وإذ هنا للزمن الماضى وذكرت هنا لبيان تحقق الرؤية كما يذكر الماضى فى موضع المستقبل لتأكد الوقوع .

الثانية- أن قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا**﴾ إلى آخره، هذا فعل شرط، فأين الجواب؟ ونقول: إن الجواب محذوف ومقدر بما يناسب المقام، وهو الهوان الشديد، ويكون المعنى لو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب لرأوا هولا شديدا لا يكتنه كنهه، ولا تدرك حقيقته إلا عند رؤيته.

وإن العلم بقوة الله تعالى، وشدة عقابه، وأنهم قد رأوا بوادره، فيه تهديد شديد، وعذاب شديد، ويلاحظ أن الله تعالى قال: شديد العقاب، ولم يقل شديد العذاب كما قال فى موضع آخر؛ لأنه ذكر الجريمة، وهو اتخاذهم الأنداد، فالعذاب الذى يرونه هو عقاب، والعقاب دائما من جنس الفعل، وليس عذابا لذات العذاب بل هو جزاء وفاق لما قدموا.

وإنهم فى هذا اليوم لا يكون لهم خل ولا شفيع، وإن الذين يتبرءون منهم، لأنهم جميعا فى عذاب أليم، وكل يفكر في هول ما نزل به، ولذا قال تعالى: ﴿**إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا**﴾ تبرأ المتبوع من التابع وتبرأ الرئيس المتغطرس من المرءوس الذليل الضعيف، وهذا كما قال الله تعالى فى سورة إبراهيم ﴿**وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)**﴾ [**إبراهيم**].

وقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا﴾ «إذ» للدلالة على الزمن الماضي، وهي هنا للمستقبل فيكون استحضار الحال المستقبل، أو يقال إنها لزمن القول، وهو عن زمن في الماضي وفيما بعد إخبار عن المستقبل، يتبرأ المتبوعون من التابعين الذين يقولون: هؤلاء الذين أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار. فيتبرأ المتبوعون منهم ويقال: لكل ضعف ولكن لا تعلمون. فهم إذ يرون العذاب لا يفكر أحد منهم فى تضليله للآخر، وإن ذلك التبرؤ وهم قد رأوا العذاب. لقد ضل التابع وضل المتبوع وقد كان مآل الفريقين النار.

وقد كانت بينهم مودة موصولة جعلت بعضهم يتبع الآخر على الشرك والضلالة، وكانت أحيانا تكون الصلة نسبية، أو عصبية جاهلية، وقد بين سبحانه أن تلك الصلات كلها تتقطع؛ ولذا قال عز من قائل: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ الأسباب جمع سبب وهو فى الأصل الحبل الذى يشد به الشىء أو يصل بين أمرين برباط بينهما والمراد هنا الصلات التى كانت تربطهم من عصبية جاهلية أو رحم أو رياسة أو من أى تبعية كانت. هذه الصلات تقطعت، وتقطعت مبالغة فى القطع، أى أنها قطعت من كل ناحية بحيث لا يمكن وصلها بحال من الأحوال.

وإن أولئك الذين أضلهم كبراؤهم، وأخذوا عليهم طريق الهداية ينالهم الألم المرير؛ لأنه كان ـ بين طريق الحق المستقيم ومخاوف الشيطان على الطريق ـ النبى ﷺ يدعو ويهدى، وعلى رأس السبل الأخرى شياطين الإنس يقودونهم إلى الضلال، فسلكوا طريقهم، فلما كان عذاب يوم القيامة يتخلى عنهم الذين قادوهم إلى مهاوى الشر، وكانوا معهم فى النيران وتبرءوا منهم؛ فتمنى التابعون أن يعودوا إلى الدنيا، ليتبرأوا منهم كما تبرأوا هم منهم؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ «الكرَّة»: الرجعة مرة أخرى إلى ما كانوا فى الدنيا، و«لو» للتمنى، ومعنى الجملة لو ثبت أن لنا كرةً نتمناها ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾، وإن تفسير هذا التمنى أنهم فى الآخرة، أخلوا بهم وتبرأوا منهم فتمنيهم العود إلى الدنيا ليتبرءوا من دعوتهم إلى الباطل وينفروا منهم ويتبعوا

الصالحات. فالمتبعون يتبرءون منهم فى الآخرة، ويتمنون أن يعودوا إلى الدنيا، ليعلنوا التبرؤ منهم ومنافرتهم بالبعد عنهم كما خذلوهم فى هذه الشدة، وقد بين سبحانه أن تمنياتهم لو حققت ما تبرأوا وما عملوا فقال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ... ﴿٢٨﴾﴾ [**الأنعام**] وإن غرور الحياة لا يمكنهم من أن يعتبروا بل ستدفعهم أهواؤهم إلى مثل ما فعلوا أولا فهم فى ريبهم يترددون، وإن ذلك التصوير الذى صوره الله تعالى لحالهم يوم القيامة هو ليريهم أعمالهم حسرات عليهم، ولذلك قال تعالى: ﴿**كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ**﴾.

أى كان هذا منهم كذلك ليكون ذلك عقابا لهم فوق عقابهم بعذاب النار، وذلك العقاب بأن يريهم أعمالهم التى مضت على أنها حسرات، توالت عليهم حسرة بعد حسرة، فكان جمعها للدلالة على كثرتها وأنها متوالية حسرة تخلفها حسرة، وإذ أعمالهم كثيرة، فحسراتهم كثيرة، وحسرات مفعول ثان؛ فالله تعالى يريهم تلك الأعمال حسرات تكبو لها النفوس بعد أن كانت فى الدنيا مسرة يفرحون بها ويطربون بسوء ما يفعلون.

ومع هذه التمنيات التى تجعل نفوسهم متلهفة على العودة إن كان ذلك ممكنا، والحسرات المتتابعة فهم فى النار خالدون فيها، ولذا قال تعالى: ﴿**وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ**﴾ فنفى الله تعالى نفيا باتا قاطعا خروجهم من النار، وأكد ذلك النفى باستغراق النفى الثابت بالباء وبضمير الفصل وبالجملة الاسمية.

الطيبات حلال الله، والشيطان يأمر بالفحشاء

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾

النداء بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يشمل الناس جميعا مؤمنهم ومشركهم، وكافرهم سواء أكان وثنيا أم كان كتابيا، وإن الله تعالى بين حال الذين اتخذوا من دون الله تعالى أندادا. وأنه يوسوس لهم فى طعامهم وطيباتهم وما أحل الله تعالى لهم، ولذا جاء الأمر بالأكل من الحلال والنهى عن تتبع خطوات الشيطان، بعد التنديد باتخاذ الأنداد، وبيان الذين يتخذونها يوم القيامة.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا﴾ الأمر هنا للإباحة من حيث الجزء، ولكنه للطلب المفروض من حيث الكل، فيباح الأكل بالجزء فى الأوقات التى يتخيرها، وفى الطيبات التى يستحسنها، ولكن لا يباح أن يترك الأكل جملة؛ لأنه يؤدى إلى الهلاك وهذا منهى عنه.

وقوله تعالى: ﴿مِمَّا فِي الأَرْضِ﴾ أى مما تخرجه الأرض من نبات وزرع وثمار وما يمشى من حيوان طيب يحل أكله وما يكون فى جوها من طير يطيب أكله.

وقد ذكر سبحانه وتعالى ما يباح أكله أو يطلب بوصفين: أحدهما أن يكون حلالا لم يحظر أكله كالخنزير والميتة وسباع البهائم وسباع الطير والمنخنقة والموقوذة والمتردية في بئر حتى ماتت، والنطيحة، وما أكل السبع من غير تذكية، وما كان فى أصله حلالا، ولكن اقترن به ما جعله محظورا كالذبح على النصب والاستقسام بالأزلام أو سمى عليه بغير اسم الله، أو لم يذك تذكية شرعية فإن ذلك كله ليس بحلال.

والطيب هو الذى تستطيبه النفوس، وينميها ويغذيها غذاء صالحا، ولا يكون طيبًا إلا إذا كان كسبه من حلال ولا يكون من حرام، ولا يكون حلالا إذا كان من الرشوة أو من السحت أو الربا أو من غلول، وفى الجملة أن يكون كسبه خبيثا، ولو كان فى أصله طيبا. روى أن رسول الله ﷺ سمع قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا**﴾ فقال عليه الصلاة والسلام: «**والذى نفسى بيده، إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه أربعين يوما، وأيما عبد نبت لحمه من السحت أو الربا، فالنار أولى به**»(١).

وبعد الأمر بالحلال نهى عن كل حرام بألا يطيع الشيطان، فقال تعالى: ﴿**وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ**﴾ وهذا يصل الكلام بالآية السابقة التى بينت أن من الناس من اتخذ أندادا بوسوسته وإغرائه.

الخطوات جمع خُطوة بضم الخاء وهى الأفصح، ويجوز فيها خَطوة بفتحها والخطوة ما بين القدمين عند انتقالهما، والخطوات ما بينهما متتابعا، وهذا كناية عن السير فى طريق، وتتبع السير فيه، باتباع حركاته، وسيرها، وكأنما شبهت حال أتباعه بحال من يتبع سيره خطوة بعد خطوة، فلو سار به فى ضلال سار معه، وانهوى به فى هاوية من الفساد، وإن السير وراءه هو سير وراء عدو واضح العداوة؛ ولذا قال تعالى معللا النهى بقوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ**﴾، بمعنى بيِّن العداوة لا يخفيها ولا يطويها، فمبين بمعنى إن عداوته جلية واضحة؛ لأنه يبينها ولا يخفيها من يوم أن عارض آدم كما قال تعالى: ﴿**اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** ... (٢٤)﴾ [**الأعراف**]، وكما قال تعالى: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ** (٦)﴾ [**فاطر**] وكما قال تعالى: ﴿**إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ** (١٥)﴾ [**القصص**]، وكما قال تعالى: ﴿**الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ** ... (٢٦٨)﴾ [**البقرة**].

---

(١) رواه بهذا اللفظ الطبرانى فى الصغير عن ابن عباس رضى الله عنهما. [راجع مجمع الزوائد (١٠١٨١)، والترغيب والترهيب (٢٦٦٤) وتخريج أحاديث الإحياء للعراقى ج٢ ص٩٠ (الحلبى)].

وإن النهى عن اتباع خطوات الشيطان له مغزاه ومعناه، ذلك أن الشيطان يجيء من الحلال الطيب الذى تشتهيه الأنفس فيخلطه بغيره، ويأخذ بالنفس التى تطيعه من طيب المال إلى سوئه، ويأخذهم من مشتبهات الحلال إلى الحرام، كما قال ﷺ: «**الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات**»[(١)]، فهو يجيئهم من هذه المشتبهات ومن أجل ذلك كان الأمر بالحلال قد اقترن به النهى عن تتبع خطوات الشيطان الآثمة لأنها تجيء على مقربة من الحلال.

وكذلك من تتبع خطوات الشيطان أن يحرم المباح على نفسه كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ** ... ﴿٨٧﴾﴾ [المائدة] ولقد أتى عبدالله بن مسعود بضرع وملح وجعل يأكل فاعتزل رجل من القوم، فقال ابن مسعود: ناولوا صاحبكم فقال: لا أريد. فقال: أصائم أنت؟ قال: لا. قال: فما شأنك؟ قال: حرمت أن آكل ضرعا أبدًا فقال ابن مسعود: «هذا من خطوات الشيطان»[(٢)]، وكذلك كل تحريم للطيبات هو من خطوات الشيطان، فكان النهى عن اتباع الخطوات مقترنا بإباحة ما أحل الله تعالى؛ لأنه مخالفة لما قرره الشرع.

ولقد ذكر الله تعالى أن الشيطان لا يكون منه خير قط، بل سوء وفحشاء، وما لا يكون فطريا، فقال تعالى معللا النهى عن اتباع خطواته: ﴿**إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾.

الأمر هنا من الشيطان هو الغواية القوية، كما قال مخاطبا ربه: ﴿**لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾**﴾ [ص]. ولما كان أهل الغواية يطيعونه شبه بالأمر فعبر عنه بالأمر، والسوء: هو ما يسوء وتكون عاقبته السوءى، سواء أكانت السوءى فى النفس، فتسوء الأنفس، أم كانت الإساءة للمجتمع، فالسوء هو ما يكون فيه فساد وهو ضد المصلحة التى يأمر بها الله تعالى، وإذا كان إغواء الشيطان بما يسوء خاصة وعامة بلا ريب يكون مقتا للنفس وللجماعة وللأخلاق أن تتبع خطواته؛ لأنها إلى ضرر لا محالة.

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخارى: كتاب الإيمان (٥٠) ومسلم: كتاب المساقاة. (٢٩٩٦) عن النعمان بن بشير - رضى الله عنه.

(٢) رواه البيهقى فى السنن الكبرى (١٥٣٣٩) ج١١ص٢٥٩.

ويأمر أيضا بالفحشاء أى يغوى بهـا، والفحشاء من الفحش والأمر الفاحش، وهو الذى يكون خارجـا عن الفطرة المستقـيمة، ؛ إذ الأمـر الفاحش هو الزائد زيادة كبيرة، والفحشاء باعتبـارها خروجا على الفطرة الإنسانية تعم المعاصى كلها من زنى وشرب خـمر، وسعى فى الأرض بالفـساد، والإيقاع بين الناس بالنمـيمة والغيـبة، وغير ذلك من المعـاصى النفسية واللسانيـة والاجتماعية، وتطلق فى كـثير من آيات القرآن على الزنى فقط، كقوله تعالى: ﴿ وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً (١٥) ﴾ [النساء].

وتطلق الفحشاء على المعاصى الكبـيرة التى تزيد عن المعقول، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) ﴾ [النحل].

فالشيطان لا يأمـر إلا بما فيه مفـسدة تسوء الآحاد والجمـاعات وإلا بالمعاصى التى تفحش حتى لا يستسيغها عاقل إلا من يكون الشيطان قد أغواه.

ويأمـر الشيطان أيضـا، أى يغـوى ويضل على ما فـسـرنا معنى الأمـر، بأن يحرموا عـلى أنفسهم ما لا يعلمـون أن الله حرمه، ويقولون على الله تـعالى ما لا يعلمـون له دليلا من عـند الله؛ ولذا قال تعـالى فى الأمـر الثالث الذى يغـوى به الشيطان بعد إغوائه بالسـوء والفحشاء ﴿ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ أغواهم الشيطان بأن يحرموا على أنفسهم بعض الغنم من الإبل والبقر والنعم يحرمون أنواعا منها، ويزعمون أن الله تعالى حرمها عليهم من غير حجة من عند الله، كما أشركوا وادعـوا أن الله تعالى لا يكره ذلـك، ولو كان يكرهه لمنعـنا، وقال الله تعـالى فى ذلك: ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ[1] كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ (١٤٨) ﴾ [الأنعام]، فالشيطان كـما سول لهم

---

(١) قال المصنف رحمه الله: أى من النعم.

الشرك بالله تعالى سول لهم أيضا أن يحرموا على أنفسهم ما لم يحرم الله ونسبوا ذلك لله تعالى، وهذا تطاول على الله تعالى كتطاول الشرك؛ إذ يقولون على الله ما لا يعلمون أنه قاله وحكم به، بظن آثم من عندهم، ولقد قال الله في جملة ما حرم: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** (٣٣) ﴾ [**الأعراف**].

ونرى من هذا أن الشيطان يأمر بنقيض ما يأمر الله تعالى، وأن الشيطان يغرى بالظنون الفاسدة التى لا أصل لها، وإن من أقبح ما يقع فيه الإنسان أن يحل ويحرم وينسب إلى الله تعالى قوله كما قال تعالى: ﴿ **وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ** (١١٦) **مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** (١١٧) ﴾ [**النحل**].

وإن إغواء الشيطان لا حدود له فمخارفه مختلفة متكاثرة وصراط الله المستقيم واحد؛ ولذا يغرى أتباعه باتباع الباطل بكل الطرق يغريهم بالإشراك هم وآباؤهم، ويغريهم بتحريم ما أحل الله هم وآباؤهم، ويظهره لهم كأنه الحق جليا بينا، ولقد قال تعالى فى ذلك: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ** ﴾.

نهانا سبحانه وتعالى أن نتبع خطوات الشيطان، وبين لنا أنه يأمرنا بالسوء والفحشاء وأن نفترى على الله الكذب، وأشار سبحانه وتعالى إلى أثره فى إغواء المشركين، وبين سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة إغواء شديدا آخر لهم، وهو اتباع الآباء من غير فكر ولا عقل يتدبر فعلهم وأقوالهم، يتدبر ما أثر عنهم أهو حق فيتبع أم باطل فينبذ، أو هو صدق فيقبل أم كذب فيرد، أو هو حسن فيقتدى بهم أم هو قبيح عليهم فينكره عليهم، لا يفكرون فى شىء من ذلك، بل إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، وألفينا معناها وجدنا آباء كانوا واستمروا إلى أن جاءوا وهم تابعون لهم. يقال لهم اتبعوا ما أنزل الله، وما أنزل

الله تعالى يحمل حجته فى ذاته؛ لأنه أنزله الله ذو الجلال الخالق الرزاق ذو القوة المتين، فدليله معه لأنه من عند الله وكفى بهذا دليلا مبينا.

ولكنهم يعرضون عن هذا الأمر الموجِّه للحق إلى باطل لا دليل فيه، ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾، يضربون عن طلب اتباع الله ويستبدلون به اتباع ما وجدوا عليه آباءهم من غير حجة قائمة هادية، ولا دليل مرشد موجه. إن اتباع الآباء وحده ليس حجة، وكونهم استمروا عليه ليس دليلا مرشدا، وإن اتباع الآباء إنما يكون حجة إذا كان عن علم وبينة، وإذا علمتم أنه كان عن علم وبينة فيكون اتباعهم للحق فى ذاته لا لآبائهم لمجرد أنهم آباؤهم، ولكنهم يتبعونهم من غير بينة ولا دليل، بل لمجرد التقليد الذى لا يهدى ولا يرشد؛ ولذا قال تعالى مندداً بتقليدهم الذى أضلهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾.

الهمزة للاستفهام التوبيخى الذى هو إنكار ما وقع منهم فقد اتبعوا على غير عقل يوجه، ولا على اعتقاد هداية قائمة، والهمزة داخلة على فعل محذوف، أى أيتبعونهم، ولو كانوا لا يعقلون ولا يدركون بعقولهم أى شىء فى هذا الاتباع، يتبعونهم فى إشراكهم بالله، ويتبعونهم فى تحريم ما أحل الله من طيبات من غير أى سبب موجب، ولا أى دليل مرشد، ولا هو فيه هداية، بل فيه ضلال مبين، لم يكن عند آبائهم دليل على ما هم عليه عقلوه، ولم يكن عندهم داعية حق يهتدون بهديه، وذكر قوله «لا يهتدون» بجوار قوله «لا يعقلون» لاختلاف موضوعهما، فموضوع العقل تفكُّر وتدبُّر وطريقه المنطق والبرهان، وموضوع الاهتداء اتباع لهاد مرشد كنبى مرسل، فما كان لهم عقل مفكر ولا هاد يهتدون بهديه، ولقد قسم الغزالى أهل الإيمان إلى قسمين: قسم يدرك بالبرهان ويسير بالقسط المستقيم، وقسم يطمئن قلبه إلى الحق ويرتضيه بإشراق قلبه بنور الحكمة والفطرة المستقيمة، أو باتباع هاد يهديه ويوجهه ويهتدى به، وقد فقد هؤلاء الأمرين فليس لهم عقل يتدبر ولا هاد يهدى إلى التى هى أقوم؛ ولذلك استنكر الله تعالى على المشركين اتباع آبائهم فى الشرك وتحريم ما أحل الله تعالى حيث حرموه ونسبوا التحريم إلى الله تعالى من غير حجة ولا سلطان مبين.

وإن ذلك مثل قوله تعالى فى موضع آخر من الذكر الحكيم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ... (١٠٤)﴾ [المائدة] ومثل قوله تعالى عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣)﴾ [الزخرف].

وإن هذا النص السامى الكريم يدل على أن التقليد فى العقائد لا يجوز، وشذ من قال غير ذلك، وعلى الذين لا يعرفون دليلا أن يسألوا أهل العلم بذلك كما قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣)﴾ [النحل]؛ ولذا يجب على العلماء أن يبينوا للناس عقائدهم، لا بطريق علم الكلام، بل بطريق القرآن، فدليل القرآن هو الغذاء والدواء الشافى، وأدلة علم الكلام كالدواء الذى يعطى بقدر لمن أصيبوا فى عقيدتهم.

وإن المشركين الذين يتبعون خطوات الشيطان فى عقيدتهم، ويتبعونه فيما يحلون وما يحرمون، ويقولون نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، ويقولون إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون بسبب ما أركسوا أنفسهم فيه قد صموا أنفسهم عن سماع الحق، ولذا قال سبحانه فى حالهم: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً﴾.

وقد تكلم المفسرون فى هذا التمثيل البليغ، فقال بعضهم: إن ذلك التمثيل هو تمثيل لدعوة النبى ﷺ والذين كفروا كمثل الراعى الذى يرعى غنمه، فينعق: أى فيصيح بالغنم التى لا تسمع إلا دعاء ونداء زاجرا لينتقل بهم من كلأ إلى كلأ، ولكن هذا التشبيه لا يليق بدعوة النبى ﷺ؛ لأنها لاتسمى بهذا الاسم وهو النعيق.

وقال بعضهم: إن ذلك تشبيه للذين كفروا فى دعوتهم إلى أصنامهم التى لا تملك نفعا ولا ضرا، كمثل الراعى الذى ينادى غنما لا تسمع إلا دعاء ونداء ما يزجره فى الانتقال من كلأ إلى كلأ، وهذا تشبيه حسن فى ذاته، ولكن القرآن نسق واحد فى البيان تأخذ كلماته بعضها بحجز بعض، وربما لا يتقارب هذا التفسير مع

قوله بعد ذلك ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ لأن هذه أوصاف للكافرين وليست أوصافا للغنم.

بقى التخريج الثالث للمثل وهو بأن يشبه الذين كفروا وما معهم من غنم يرعونها، يشبهون بالبهائم التى تنعق بأن تصيح بما لا يسمع إلا دعاء إن كانوا فى كرب، ونداء إن كانوا بعيدا.

والكافرون مع غنمهم مثلهم كناعق ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء، فأصوات الغنم تتبادل بنعيق لا يفهم، وبصياح مجاوب للنداء، فالجميع يتصايح بالنعيق، والجميع لا يفهم إلا دعاء ونداء.

ولذا صح أن يوصف المشركون بالأوصاف التى ذكرها الله عنهم، فقال ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ أى أنهم فى عدم سماعهم للحق الذى دعوا إليه كالصم الذين لا يسمعون، وهو تشبيه حالهم المعنوية فى عدم سماعهم لدعوة الحق إذا نادى المنادى به بحال الأصم الذى لا يسمع شيئا، وفى عدم نطقهم بالحق، واستجابتهم له بحال الأبكم الذى لا يتكلم. شبه عدم إدراكهم الحق الذي بدت معالمه، وظهر نوره بحال الأعمى الذى لا يبصر ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)﴾ [الحج].

وقد ختم سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالى: ﴿لا يَعْقِلُونَ﴾ ما يدعون إليه، ويتفكرون فيه ويبدون وكأنهم لم يسمعوه، ولا يفكرون فى الاستجابة بالإذعان والتسليم ولا يستضيئون بنوره.

فتح الله قلوبنا للحق إذ نسمع داعيه، ورطب ألسنتنا بالحق لنجيب نداءه، وأنار بصرنا وبصيرتنا لنراه إنه سميع الدعاء.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾

بين الله سبحانه وتعالى أننا فيما أباحه الله لنا لا نتبع خطوات الذى يغوينا بتحريم ما أحل لنا، وذكر حال المشركين فى اعتقاداتهم ثم بين بعد ذلك ما أحله وما حرمه، فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ**﴾ وكان النداء إلى الناس الذين كان منهم من اتبع خطوات الشيطان، أما الآن فالخطاب للمؤمنين خاصة، وهم لا يتبعون خطوات الشيطان إنما يتبعون شرع الرحمن.

الأمر هنا للإباحة، والإباحة بالجزء، أى لنا أن نتخير من الطيبات، وعلينا أن نتناول ما نحب لا ما لا نحب، من غير أن نحرم على أنفسنا شيئا كما تلونا قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾**﴾ [**المائدة**]، وبالنسبة لمجموعة الأوقات فالأكل من الطيبات فرض، فهو وإن كان مباحا بالجزء مطلوب بالكل، ليس لأحد أن يترك الأكل من الطيبات فإن ذلك يكون حراما، ويؤدى إلى الهلاك كما ذكرنا فى ماضى قولنا.

والطيبات هى ما تستطيبه النفوس، ويكون حلالا، والأكل منه مطلوب لتقوى الأجسام ولتقوى العقول والنفوس فى ذاتها، ولتقوى للجهاد فى سبيله وبشرط أن تكون حلالا، وحرم الله الخبائث التى تكون فى ذاتها مستقذرة كالخنزير والميتة أو التى تكون من كسب حرام كالربا والسحت، وأكل مال الناس بالباطل. وإن من

أعظم القربات بعد تقوى الله ، طلب الطيبات الحلال. وقد روى مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله ليرضى من العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها**»(١).

ولقد أردف الله سبحانه وتعالى الأمر بالأكل من الطيبات بالأمر بالشكر؛ لأن هذه الإباحة للطيبات نعمة، والنعمة توجب الشكر من المنعم، الذى أباح ومكن، والشكر يكون بترك المعاصى ولزوم الطاعات والتقوى والتقرب إليه سبحانه وتعالى، وطلب رضوانه، ويقول سبحانه: ﴿**لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ** ... (٧)﴾ [**إبراهيم**]، ولقد قال رسول الله ﷺ: «**الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر**»(٢).

وإن هذه المباحات نعم الله تعالى فى هذه الدنيا يُسأل عن حقها وعن شكرها، فقد قال تعالى: ﴿**ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ** (٨)﴾ [**التكاثر**] وإن الشكر هو الطاعات الكاملة، والعمل الصالح، وإن ذلك شريعة الرسائل الإلهية كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** (٥١)﴾ [**المؤمنون**].

وقوله تعالى: ﴿**كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ**﴾ أضيفت الطيبات، وهى إضافة تشير إلى المصدر، وهو إنعام المنعم؛ لأن الطيبات مما رزق الله تعالى، ومما تمكن عباده منه، فكان هنا نعمتان أنعم الله تعالى بهما، وهما: نعمة الرزق والعطاء، ونعمة الإباحة للطيبات، وكان الشكر على النعمتين واجبا.

ولذا قال تعالى: ﴿**وَاشْكُرُوا لِلَّهِ**﴾ أى اشكروا الله، وقد بينا أن «شكر» تتعدى باللام، وهو الأفصح، وتتعدى بنفسها، وإن الشكر ملازم للعبادة أو هو منها، أو

(١) أخرجه مسلم: كتاب الدعاء (٤٩١٥) والترمذى فى الأطعمة (١٧٣٨) وأحمد فى مسنده (١١٥٣٥) عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

(٢) ذكره البخارى تعليقا فى كتاب الأطعمة - ترجمة باب الطاعم الشاكر، ورواه الترمذى: كتاب صفة القيامة (٢٤١٠)، وابن ماجه: كتاب الصيام (١٧٥٤)، ومن طريق عند أحمد بسند منقطع (٧٤٧٣) كلهم عن أبى هريرة رضى الله عنه.

هو هى، ولذا قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أى إن كنتم تعبدونه وحدى من غير إشراك غير، وتقديم الضمير على الفعل للإشارة إلى اختصاصه تعالى بالعبادة وحده، اللهم اجعلنا من الشاكرين لنعمائك وراضين فى السراء والضراء.

بعد أن ذكر الله ما أحله من طيبات بين ما حرمه من خبائث سواء أكانت هذه الخبائث حسية أم كانت معنوية، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

حرم الله تعالى ثلاثة أشياء من الخبائث الحسية، وهى الميتة والدم ولحم الخنزير، ومن الخبائث المعنوية ما أهل به لغير الله، أى ما ذبح لصنم ونحو ذلك. والميتة هى التى ماتت حتف أنفها من غير ذبح شرعى، وتشمل النطيحة والمتردية؛ ولذا قال فى الخبائث المحرمة فى سورة المائدة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ... ﴿٣﴾﴾ [المائدة].

وإنه يدخل فى الميتة كل ما مات من غير أن يسال دمه ولو بسبب من العباد أو السبع، فيدخل فى الميتة المنخنقة التى ماتت بالخنق من غير ذبح يسيل دمها، والموقوذة التى رميت حتى ماتت، والنطيحة التى ماتت بنطح ولم يسل لها دم، والمتردية وهى التى تردت فى حفرة أو بئر فماتت بهذا التردى، ولم تذبح وما أكل السبع بعضه، ولم يذبح فإنه أيضا يكون محرمًا، وحرم الاستقسام بالأزلام وهى أقداح الميسر كما حرم الذبح على النصب، وحرمت هذه الأشياء لا لخبث فى ذاتها ولكن لما اقترن بذبحها وهو النصب، كما حرم الاستقسام بالأزلام فهى فى ذاتها طيبة حسيا، ولكن لازمها خبث معنوى وهو ما يقترن بها من ميسر، والقرآن الكريم قد حصر التحريم فى هذه الأشياء المذكورة فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ وإنما أداة من أدوات القصر، أى حرمت هذه الأشياء من النعم التى هى البقر

والإبل والغنم وغيرها مما يشبهها آكلة العشب كالغزال والأوعال، أما سباع البهائم كالأسد والذئب وغيرها فهى محرمة بذاتها؛ لأن لحمها لا يؤكل وتعافه النفوس المستقيمة، فالحصر فى التحريم، إنما هو بالنسبة للنعم وما يشبهها من آكلة العشب، والمحرمات هى الميتة ويدخل فيها كما سبق من القول المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا أن يذكى بأن يبقى بعد أكله حيا، فيذكى والتذكية إسالة الدم.

والميتة يبقى فيها الدم، فبمضي الزمن يفسد أجزاء جسمها وتتعفن ببقائه فيها فيفسد لحمها وتسارع إليها الجراثيم المفسدة، فتكون خبيثة وتتحول من لحم طيب إلى لحم خبيث، ويدخل فى ذلك الموقوذة والمنخنقة والمتردية والنطيحة والدم، والمراد به الدم المسفوح، أى السائل، وليس المتجمد بأصل تكوينه وإن كان التكوين من الدم وهو الكبد والطحال، والدم المسفوح يسارع إليه الفساد وهو ثقيل الهضم وهو يفسد الجسم والنفس، وإنما قيد الدم بالمسفوح؛ لأنه صرح فى آية الأنعام بأن المحرم هو الدم المسفوح فقال تعالى: ﴿ **قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ** ... (١٤٥) ﴾ [**الأنعام**].

ومن المقررات أن المطلق يحمل على المقيد إذا اتحد الحكم والسبب،فيحمل الدم المذكور فى الآية التى نتكلم فى معناها على المقيد فى آية الأنعام، والدم يسارع إليه الفساد وأكله يربى القسوة وهو ثقيل الهضم.

ولحم الخنزير ذكر الله تعالى فى القرآن أنه رجس أى قذر يحتوى على كل ما يضر البنية الإنسانية، وقد ثبت بالتجربة أنه أثقل طعام على المعدة، والمعدة بيت الداء، وثبت أنه يحوى من الديدان ما يضر الجسم، وأنه يحدث فقد الشهوة، ويوجد أعراضا عصبية، ويظن كثيرون أنه مورد من موارد داء السرطان العضال. وما أهل لغير الله تعالى به، والإهلال رفع الصوت بذكر الله تعالى عند الذبح، والإهلال لغير الله تعالى بأن يذكر عند الذبح أنه لصنم أو وثن أو نار أو نحو ذلك،

ويدخل في ذلك ما ذبح على النصب التى كانت تقام للأوثان وتذبح الذبائح عليها.

وقد بين سبحانه وتعالى أن ذلك عند الاختيار، وأما عند الاضطرار فإنها يرفع عنها الإثم؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أى من كان فى حال ضرورة، بحيث تتعرض الحياة للهلاك إذا لم يأكل شيئا من هذه المحرمات، فإنه لا إثم عليه إذا أكل، ويكون واجبا عليه أن يأكل إن لم يجد غيرها؛ لأن ضرر الموت أشد من ضرر الأكل، والضرر القليل يتحمل فى سبيل دفع الضرر الكبير، ولقد بين النبى ﷺ حال الضرورة لمن سأله عن ذلك، فقال: «**أن يأتى الصبوح والغبوق ولا تجد ما تأكله**»[1]، ولقد قال تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣﴾ [المائدة].

ولقد قيد الله تعالى رفع الإثم، فقال تعالت كلماته: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ﴾ أى غير طالب لها تبتغى إشباع رغبتك، كأن يكون فى عطش شديد ولم يجد إلا خمرا، فيشربها مبتغيا لها لايقصد دفع الضرورة ولكن يرغب فيها، وكمن يكون فى حال ضرورة فيكون بين يديه الميتة والخنزير فيبتغى الخنزير اشتهاءً له ورغبة فيه، ولا عاد أى غير متجاوز حد الضرورة، والضرورة تدفع بأقل قدر فلا يتجاوزه، فيتعدى ما رفع الله تعالى الإثم عنه.

وروى عن مجاهد وابن جبير أنهما قالا فى معنى باغ وعاد، غير باغ على المسلمين ولا عاد عليهم، فيدخل فى الباغى والعادى الخارج على السلطان العادل وقاطع الطريق، وبهذا أخذ الشافعى فى أحد قوليه فمن كان مضطرًا للطعام ولا يجد

---

(١) عن أبى واقد الليثى قال: قلت: يا رسول الله، إنا بأرض تصيبنا بها مخمصة، فما يحل لنا من الميتة؟ قال: «إذا لم تصطبحوا، ولم تغتبقوا ، ولم تحتفئوا بقلا فشأنكم بها». زواه أحمد فى مسند الأنصار (٢٠٨٩٣)، والدارمى فى الأضاحى (١٩١٢) والحاكم فى المستدرك (٧٢٣٤) وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

والمخمصة: المجاعة والشدة، والصَّبوح: شرب أول النهار، والغبوق: شرب آخر النهار، أى اللبن، ثم توسعوا فأطلقوه على الطعام أول النهار وآخره، وهو مقصود الحديث، وتحتفئوا: تقتلعوا فتأكلوا.

إلا بعض هذه المحرمات وكان خارجًا فى معصية فإنه لا يترخص له فى أكل واحد من هذه المحرمات؛ لأن وقوع الضرورة بسبب معصية، والمعصية لا تحل المحرم.

وأبو حنيفة ومالك وأحمد، والرأى الثانى عند الشافعى أن الرخصة قائمة وسببها ليس هو المعصية أو غير المعصية، وإنما سببها الاضطرار والخشية من الهلاك والمعصية فى قتل النفس أشد من المعصية فى الخروج على الأحكام؛ ولأن الجهة منفكة؛ فرفع الإثم لدفع الجوع والظلم فى العصيان فلا خلط بينهما، ومن المقررات أن الظالم فى معصية لا يحرم من حقوقه فى ناحية أخرى، وإلا كان ظلما والظالم لا يظلم، ولكن يقتص منه فى موضع ظلمه، هذا وإن الرخصة نتيجتها أن يرفع الإثم لا أن تباح الميتة وأخواتها، ولكن قرروا أنه فى حال الضرورة هذا يكون الأكل مطلوبا طلبا حتميا بحيث يأثم إن لم يأكل، لأن عدم الأخذ بالرخصة قتل للنفس والله تعالى يقول: ﴿**وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا** ﴿٢٩﴾﴾ [**النساء**].

ولقد ختم الله تعالى النص الكريم بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾.

هذا النص السامى فيه تسجيل لرحمة الله تعالى، ولغفرانه فى الدنيا والآخرة ما يرتكب إن كان بقصد حفظ النفس من التلف، وكان من غفرانه أن رفع الإثم وسببه قائم عن المضطر إلى أكل المحرمات، وكان من رحمته أن أباح هذه الطيبات، وإن حرم الخبائث، فتحريم الخبائث لأضرارها، وإباحة الطيبات لنفعها من رحمته سبحانه، إذ إن الشريعة الغراء قامت على جلب ما هو نافع ودفع ما هو ضار، وكان من رحمته جلت قدرته أن رفع الإثم عند الاضطرار.

وقبل أن ننتقل إلى آياته البينات نقرر أمرين. أولهما: ما قرره بعض العلماء ذوى النظر الثاقب أن الجوع الشديد يجعل الجسم يستطيع تناول هذه الخبائث الضارة إذ الجوع يذهب بأضرارها، أو لا يجعلها تؤثر بالأذى فى الجسم ما دام لا يتعدى حد الضرورة، فإن تعداها كان الضرر المؤكد من هذه الخبائث. الثانى: إن هذه المحرمات إنما هى فى حيوانات البر والنعم كما قررنا، أما صيد البحر فإنه حلال كما قال تعالى: ﴿**أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا** ... ﴿٩٦﴾﴾ [**المائدة**]. جعل الله طعامنا حلالا طيبا، وهنيئا مريئا.

كتمان الحق

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦)﴾

بعد أن بين الله تعالى فى كتابه الحكيم ما يحل وما يحرم، وذكر أن الشيطان يجىء بوسوسته فيما يحل فيحرمه، وفيما يحرم فيبيحه فهو يجعل المشركين يحرمون على أنفسهم بعض ما أحل، ويحملهم على أن يستبيحوا الزنى والقذف والخمر والقتل والغصب، بعد ذلك بين سبحانه أن ما جاء فى كتاب الله تعالى يجب أن يبين، وما جاء فى الكتب السابقة يجب ألا يكتم من بشارة بالنبى ﷺ وحلال وحرام فى هذه الكتب، وأن من يكتم الذى أنزله الله سبحانه لغرض من أغراض أو هوى من هوى الأنفس أو رجاء رشوة أو سحت من المال، إنما يبيع الحق بثمن بخس مهما يكن مقداره؛ ولذا قال تعالت كلماته: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ**﴾. الكلام فى كل من يكتمون ما أنزل الله فى الكتاب سواء أكانوا مؤمنين لا يبلغون الدعوة إلى الله ويبينون ما اشتمل عليه الكتاب من الأحكام التى يجب إعلانها وبيانها للناس، أم كانوا من اليهود أو النصارى الذين يعلمون أمر النبى ﷺ وما يجىء به من أحكام ويكتمونها، وقد قال تعالى فى ذلك: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي**

التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ... (١٥٧) ﴾ [الأعراف].

وكان من المناسب ذكر كتمانهم، والقرآن الكريم يبين الطيبات التى أحلها، والخبائث التى حرمها، والأغلال التى رفعها، وقد كتموا أمر محمد ﷺ ورسالته.

وقوله تعالى: ﴿**وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا**﴾ معناه يقدمونه فى نظير قليل، وعبر سبحانه بقوله تعالى: ﴿**وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً**﴾ لأن المشترى طالب لمقابل المبيع، فهم يتركونها طالبين ثمنها راغبين، وهو مهما يكن مقداره قليل، فهم يستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير، والثمن هو استعلاء واستكبار عن الاتباع، وإنكار وجحود، وعرض من أعراض الدنيا وقد بين الله تعالى سوء فعلتهم فى الدنيا، وعذابهم فى الآخرة، فقال تعالى: ﴿**أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ**﴾.

الإشارة إلى الذين يكتمون ما أنزل الله فى الكتاب الحق، وتركوا الواجب فى نظير قليل بالنسبة لما تركوه فهو زهيد مهما يكن مقداره بجوار الحق الذى باعوه، فقد باعوا غاليا بما لا يكافئه مهما يكن قدره، الإشارة إلى هؤلاء الذين اتصفوا بذلك، والإشارة إلى الموصوف بصفة يبين أن سبب الحكم هو هذه الصفة.

وقد حكم الله تعالى عليهم بأربعة أحكام: أولها أنهم ما يأكلون من الثمن الذى أخذوه إلا النار تلهب بطونهم، وقوله ﴿**مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ**﴾ مجاز فيه عبر عن حالهم بالمآل الذين يئولون إليه، فعبر سبحانه عن حالهم فى الثمن الذى أخذوه شرها، طمعا وإيثارا للباطل، وتركا للحق بأنهم أكلوا نارا، نزلت فى بطونهم وألهبتها ومزقت لحومهم، واختار التعبير بكون النار فى بطونهم؛ لأن المال الباطل يطلب لأجل شهوة البطن وملذاتها والتعبير عن الجزء وإرادة الكل إذ المراد أن النار تعمهم، وتشمل كل أجزائهم، ولكن عبر بالجزء؛ لأن ذلك الجزء له مزيد من الاختصاص؛ لأن شهوتهم وشرههم هو الذى جعلهم يختارون ذلك الثمن الحقير وإن كان كبيرا فإن الذى تركوه من الحق أكبر وأعظم وهو الحق الذى كتموه.

والعقاب الثانى: أنهم ينالهم غضب الله تعالى، وغضب الله الواحد القهار فيه إيلام لأهل الضمائر وإنذار شديد لأهل الشر، لأنه غضب المقتص الجبار الذى لا يفلت منه أثيم، ولا تنفع عنده شفاعة الشافعين، ولا يغنى أمامه سبحانه وتعالى شئ فى الوجود مهما يكن ومهما تكن صلته، ﴿**الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** ... (٦٧)﴾ [**الزخرف**].

والعقاب الثالث: أن الله تعالى لا يزكيهم أى لا يطهرهم من ذنوبهم فإنهم فى كون الجزاء، لا يخفف عنهم ولا يرجعون، يتمنون أن يعودوا إلى الدنيا، ولكن لا يعودون، ولا يخرجون من النار التى تحيط بهم.

والعقاب الرابع: أن لهم عذابا أليما أى مؤلما، نتيجة لغضب الله تعالى، وعبر سبحانه وتعالى عن غضبه عليهم بأنه لا يكلمهم، وكأنه يقول لهم اخسئوا فيها ولا تكلمون.

وإن الآية كما يقولون نزلت فى اليهود أو النصارى كذلك، فإن اللفظ أعم وأشمل فهو يشمل اليهود الذين كتموا الحق غرورا واستعلاء وكبرياء وطلبا للدنيا وما فيها من سيطرة وسلطة ويشمل كل من يكتم الحق من أمة محمد ﷺ فيشمل الذين تقاصروا عن الدعوة إلى الإسلام، وهم عليها قادرون، وتركوها استرخاء، وتقاصرا فى الهمم وتركا للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. ويشمل الوصف الذين لا يذكرون ما أحل الله تعالى وما حرم، تهاونا وكسلا، أو لينالوا مأربا من مآرب الدنيا، وهو الثمن البخس الذى تركوا الواجب لأجله.

ويشمل الذين تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تخاذلا عن الحق، ورضا بالباطل، ويشمل الذين يمالئون الحكام، ويخطون على هواهم، ويقررون من الأحكام ما يخالف النقل والعقل، كأولئك الذين يستبيحون الربا، والذين يدعون إلى قتل النسل، لإرضاء الحاكمين وتقربا وإزدلافا إليهم، ويشمل الذين يفتون الناس على حسب أهوائهم بأجر معلوم، أو رجاء معونة عند الحكام الذين ليس للدين حريجة فى قلوبهم، وكل أولئك نراه فى عصرنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وإن أولئك الذين كتموا الحق الذى أنزله تعالى لغرض أو لمال أو لجاه، أو لرشوة وسحت أو لمنصب يريدونه أو يرجونه، هؤلاء تركوا الهداية وطلبوا الضلالة؛ ولذا قال تعالى مشيرا إليهم: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾. الإشارة فى الأولى إشارة للذين اتصفوا بكتمان الحق وقت الحاجة إلى بيانه، وأن ذلك الوصف هو سبب الحكم الذى تقرر عليهم، وهو أنهم اشتروا الضلالة بالهدى، أى تركوا الحق، وهو المبيع الثمين لأنه هدى الله تعالى وهو الطريق، وهو الإعلام بالحق المبين تركوه، وباعوه بثمن حقير فى ذاته بالنسبة لمقابله، فهو الضلالة، فى مقابل الهداية، قد تركوا الطريق المستقيم وهو الهداية التى منحهم الله تعالى بحكم الفطرة التى فطر الله تعالى الناس عليها، تركوا ذلك الطريق المستقيم إلى متعرجات الشيطان فضلوا فى صحراء هذا الوجود ضلالا بعيدا.

وكما استبدلوا بالهداية الضلالة استبدلوا أيضا العذاب بالمغفرة، أى سلكوا الطريق الموصل إلى العذاب وتركوا الطريق الموصل إلى مغفرة الله تعالى، وقد عبر الله تعالى بالعذاب، والظاهر أنه أراد سببه والطريق الموصل إليه، إشارة إلى أنه موصل إليه لا محالة، والمغفرة هى الثواب والنعيم المقيم الذى أعده الله تعالى للمهتدين، وعبر عن الثواب بالمغفرة؛ لأن المغفرة دليل الرضا أولا، وللإشارة إلى أن من يعمل صالحا يغفر الله له ما عساه يكون من سيئات؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات ثانيا، ولأن من ينال غفران الله تعالى من المقربين.

وقد أكد الله تعالى دوام عذابهم بقوله تعالت كلماته: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ أى أنهم يأخذون فى أسباب الجحيم، ودخول النار والبقاء، ويقال فى مثل من يكون فى حالهم ممن يسيرون سيرهم، ما أصبرهم على النار وهو من قبيل التهكم كما يقول القائلون لمن يرتكب أسباب العقوبة من حد أو تعزير: ما أصبرك على السياط تكوى ظهرك كيا؛ لأنه يتخذ أسبابها، وقد يقال إن الصبر بمعناه اللغوى وهو الحبس كقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ

وَجْهَهُ ...﴿٢٨﴾ [الكهف]، ويكون المعنى ما أطول وأدوم حبسهم على النار يصلونها.

روى عن الكسائى أنه قال: أخبرنى قاضى اليمن أن خصمين اختصما إليه، فوجبت اليمين على أحدهما فحلف فقال له صاحبه: ما أصبرك على الله أى ما أجرأك عليه. والمعنى على ذلك: ما أشجعهم على النار إذ يعملون عملا يؤدى إليها .. اللهم قنا عذاب النار، وألهمنا الصبر على النطق بالحق إنك أنت الرحمن الرحيم .

وما كان ذلك الوجوب إعلام بإعلان الحق فى الكتاب الكريم والعقاب على الكتمان إلا لأن الكتاب أنزل بالحق، والذين يختلفون فيه اختاروا المشاقَّة على الإيمان؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أى أن الله تعالى نزل القرآن فى مدى ثلاث وعشرين سنة بالحق الثابت الذى لا مرية فيه، ولا شك أن من يكتمه ولا يبينه للناس ليستضيئوا بنوره، وليهتدوا بهديه - يرتكب إثما عظيما، يستحق عليه عقابا أليما، وهو الطريق المستقيم، ولا ينبغى لأحد أن يخالفه أو يختلف فى شأنه وصدقه؛ ولذا قال عز من قائل: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾، فمن يؤمن ببعض ويكفر ببعض ويترك ما يدعو إليه، أو يجعله عضين مفرقا يفهمه غير مستقيم فى فهمه بل يفهمه متناقضا على حسب هواه، لا على مقتضى نسقه الحكيم، من يفعل ذلك فشأنه فى شقاق بحيث يتخذ كل واحد شقة من القول، ويكون كل شق بعيدا عن الآخر، لا يتلاقون أبدا فهم فى خلاف وكل حزب بما لديهم فرحون.

البـــر

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

كان أمر تحويل القبلة من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام أمر هذه النفوس المؤمنة، والنفوس المشركة والكتابية وأثار جدلا وحماسة، فالمؤمنون تقبلوها بقبول حسن، لأنها بناء إبراهيم، وهو الذى سماهم مسلمين، وهو الحرم الآمن الذى جعله الله تعالى للناس مثابة وأمنا، وهو مزار العرب إليه يحجون ويعتمرون من وقت أن بناه إبراهيم عليه السلام، وهو عزهم، وأما المشركون من العرب فقد ظنوا أن محمداً عاد أو سيعود إليهم وما علموا أن ذلك إيذان بذهاب دولة الأوثان، وإزالتها من حول الكعبة، وأما اليهود فقد أذهب أطماعهم فى النبى ﷺ والمؤمنين، وعلموا أنه هو النبى الأمى الذى بشر به فى التوراة يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، وقد صدفهم الله تعالى.

إن هذا الأمر الذى يشغلهم جميعا، إنه الأمر الأعظم، وهو مقصد الأديان كلها، وغاياتها، وهو الذى يهذب النفوس، والمجتمعات ويربيها ويقيمها على التعاون على البر والتقوى ويحميها ويدفع عنها وهو نسب الأديان كلها؛ ولذا قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أى ليس هذا هو البر

المقصود الجامع لكل معانى الخير، الذى حرص الدين عليه حرصا كاملا، بل هو إلى الشكل أقرب، أو هو الوسيلة وما يكون من الأمة هو الغاية العليا من كل دين جاء من الله تعالى لهداية البشر، وتوجيههم نحو الصلاح الإنسانى آحاد وجماعات؛ صلاحا يمس نفوسهم ويملأ قلوبهم إيمانا، وليس فى العبارة السامية ما يومىء إلى الاستهانة بأمر القبلة، بل إن فيها توجيها إلى الناحية التهذيبية والكمالية للإنسان فى آحاده، وجماعاته؛ ولذا قال تعالى مستدركا مثبتا: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ﴾.

قال العلماء: إن «من آمن بالله» إن الكلام فيها على تقدير مضاف ومعناه، ولكن البر بر من آمن بالله واليوم الآخر . . وحذف المضاف إذا دل عليه المضاف إليه كثير فى القرآن وهو من إيجاز الحذف البليغ كقوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا... (٨٢)﴾ [يوسف] أى أهل القرية، وكقوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧)﴾ [العلق] أى فليدع أهل ناديه.

وإن ذلك الإيجاز من دلائل الإعجاز، وإننا نرى أن حذف المضاف أو عدم تقديره يعلو بالكلام إلى أعلى درجات البيان، إن الكلام يكون دالا على البر بمفهوم الحال المكونة من الكلام كله، فيكون المعنى ليس البر المقصود من الديانات الإلهية أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر المقصود وهو الغاية من الديانات الإلهية هو الحال التى يكون عليها من آمن بالله واليوم الآخر . . وآتى المال على حبه ذوى القربى إلى آخر ما بينته الآيات، فهذه الحال المجتمعة من تلك الصفات، وهذه الأعمال المهذبة المربية لمجتمع فاضل هى البر، وعلى ذلك لا تحتاج إلى تقدير، والبر كما يقول المفسرون هو المعنى الجامع لكل ما فيه نفع للنفس وللناس، وإنى أراه مرادفًا فى العرف الخلقى.

وقد ذكر الله تعالى صنوف البر كلها فى هذه الآية الكريمة، وكانت بحق آية البر؛ لأنها جمعت أطرافه، ونواحيه كلها، وهى من أجمع الآيات للتكليفات الدينية.

* وأول البر وسنامه وأصله الإيمان، وهو التصديق والإذعان، وأول من يجب الإيمان به الله، فالإيمان به هو لب الإيمان كله، وهو الخضوع والإذعان والعبادة له وحده لا شريك له، وامتلاء النفس بذكره، بحيث لا تذكر غيره فى الغدو والآصال، وفى الصحو، وفى المنام، ومن الإيمان بالله تعالى الإيمان بأنه وحده الخالق للوجود، والإيمان بأنه وحده الموصوف بصفات الكمال، والإيمان بأنه وحده المستحق للعبادة، فليس فى الوجود من يستحق العبادة سواه.

والإيمان باليوم الآخر، ويشمل الإيمان بالبعث والنشور، والإيمان بيوم القيامة، وما يجرى فيه من حساب وعقاب وثواب، وأن من أحسن فله النعيم المقيم، ورضوان من الله أكبر، وأن من خالف وغير وبدل فجزاؤه جهنم، وبئس المصير، وإن ذلك كله مادى حسى، وليس روحيا كما توهم بعض الكاتبين.

وكان الإيمان باليوم الآخر تاليا للإيمان بالله تعالى؛ لأنه تصديق لما أمر الله به، ولأنه سلوان المحسن العابد وإنذار للمشرك المكذب، والمعاند المستكبر الجاحد، وقد تبين له الحق.

ثم يلى الإيمان باليوم الآخر، الإيمان بالملائكة الأخيار الأطهار الذين لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، وهو إيمان بالغيب الذى لا يرى ولا يحس، وأول شعار المؤمن الإيمان، وهو الفيصل بين المسلم والزنديق، فالزنديق أو الملحد فى دين الله تعالى لا يؤمن إلا بالمحسوس، ولا يصدق ما لا يرى ويحس، والمؤمن يعلم أن وراء المحسوس سرا خفيا، وقد أمرنا الله تعالى بالإيمان فحق علينا أن نؤمن بوجودهم، وهم مذكورون فى كتابه الكريم، وفى الكتب التى صدقها، فالكفر بهم كفر بالله وبالقرآن، وذكر الله بعد ذلك الإيمان بالكتاب، وهو القرآن الكريم، والإيمان تصديق بكل ما جاء به ويدخل فى ذلك الإيمان بالكتب السابقة؛ لأنه سجلها فى قصصه، فهو سجل النبوة كله، فيه ذكر كتبها، وفيه بيان معجزات النبيين، فلولا قصصه الحكم الصادق ما عرف كتاب من كتب النبيين، ولا معجزة من معجزاتهم.

وذكر سبحانه وجوب الإيمان بالنبيين السابقين؛ لأن الإيمان الذى جاء به القرآن هو الإيمان الجامع بالنبوات الإلهية كلها، كما قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة].

هذا هو الإيمان الذى أمر به الله تعالى، وكانت حال المتصف به والقائم بما يأتى من تكليف، وأعمال، هى البر المطلق من الإنسان فى كل دين.

ولننتقل إلى بيان الأعمال التى هى بر فى ذاتها، وحال القائم بها هى البر الخالص التى تأمر به كل الأديان التى جاءت من الله لا من أوهام البشر:

* فى حال من آتى المال على حبه، ولقد قال تعالى فيه، ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ أى أعطى المال على حبه له فالضمير يعود إلى المال، والمعنى على حبه للمال ورغبته فى اقتنائه، ولكنه آثر العطاء وعلى هذا السبب وذلك كقوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإنسان]، وكقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ... ﴿٩٢﴾﴾ [آل عمران].

ويفسر هذا ما رواه البخارى عن النبى ﷺ أنه سئل: أى الصدقة أعظم أجرا، فقال ﷺ: **«أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الروح الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان»**(١).

وقد فسر بعضهم بأن الضمير يعود على الإيتاء وهو المصدر المنسبك من آتى، والمعنى أعطى المال محبا للإعطاء راغبا فيه راضى النفس، طيبا بالعطاء، راغبا فى رضاء الله به، وبذلك يجتمع له قربتان قربة العطاء فى نفسه، وقربة الاتجاه إلى إرضاء ربه.

---

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى: كتاب الزكاة ـ باب فضل صدقة الصحيح الشحيح (١٣٣٠) ومسلم: كتاب الزكاة: بيان أن فضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح (١٧١٣).

وهو فى مؤداه لا يختلف عن التقدير الأول، وإن كان الأول يدل على مجاهدة النفس فى العطاء بين ما يحبه ويشح به، بين إرضاء الله بالعطاء فيؤثر إرضاء الله تعالى على شح نفسه، فتكون قربة العطاء، وقربة المجاهدة حتى يكون مطيعا لله تعالى متقربا إليه، طالبا رضاه، وهو الغنى الحميد.

وقد ذكرت الآية الكريمة من يخصهم بعطائه، أو من يؤثرهم بهذا العطاء، ويبدو من الذكر ومعناه ترتيبهم فى العطاء وأن بعضهم يفضل فى العطاء على بعض إن لم يتسع ماله لهم أجمعين.

(أ) ذوو القربى؛ ولذا قال تعالى: ﴿**وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ**﴾ وهم قراباته، ويفضل الأقرب فالأقرب ويبدأ بالوالدين، كما قال النبى ﷺ ردا على من سأله من أحق الناس بحسن صحبتى: «**أمك**» كررها ثلاث مرات مع تكرار السؤال، ثم قال: ثم من؟ قال: «**أبوك، ثم الأقرب فالأقرب**»(١)، ولقد قال ﷺ فيما رواه النسائي: «**إن الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذى الرحم اثنتان صدقة وصلة**»(٢)، ولأن الإسلام أقام على دعامة الأسر المتحابة المتعاونة المتكاتفة، والأسرة مقصورة على الأبوين والأولاد، بل هى ممتدة إلى أن تشمل الأقارب؛ ولذا قال ﷺ: «**من أراد منكم أن يبارك له فى رزقه وينسأ له فى أثره فليصل رحمه**»(٣)، ولقد عد من ذوى القربى الزوج إذا كان فقيرا، فقد سألت امرأة عبدالله بن مسعود النبى ﷺ أيعد إعطاء زوجها صدقة؟، فقال ﷺ: «**نعم**»(٤).

---

(١) عن بَهْز بْن حكيم، حَدَّثَنِى أَبِى عَنْ جَدِّى، قَالَ: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَبَرُّ؟ قَالَ: أُمَّكَ. قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: أُمَّكَ. قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: أُمَّكَ. قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أَبَاكَ، ثُمَّ الأَقْرَبَ فَالأَقْرَبَ». [رواه الترمذى: كتاب البر والصلة (١٨١٩) وأبو داود: كتاب الأدب (٤٤٧٣) وأحمد: أول مسند البصريين (١٩١٧٥)].

(٢) رواه الترمذى: كتاب الزكاة (٥٤١) والنسائى (٢٥٣٥) وابن ماجه (١٨٣٤) وأحمد فى مسنده (١٥٦٤٤) عن سلمان بن عامر.

(٣) عن أَنَس بْن مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِى رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِى أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ». متفق عليه من رواية البخارى: كتاب الأدب (٥٥٢٧) ومسلم: كتاب البر والصلة (٤٦٣٩).

(٤) رواه بالمعنى وأصله فى الصحيحين من رواية البخارى: كتاب الزكاة (١٣٦٩)، ومسلم: كتاب الإيمان (١١٤) عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ - رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِى أَضْحًى - أَوْ فِطْرٍ - إِلَى =

(ب) والذين يلون أولى القربى فى العطاء اليتامى، سواء أكانوا من ذوى القربى أم لم يكونوا، وإذا كانوا من ذوى القربى يكونون أولى من غيرهم من الأقارب إلا الأبوين.

واليتيم هو الذى مات أبوه، وهو صغير، ورعاية اليتيم مما حرض عليه الإسلام فى عدة أحاديث، وأوصى القرآن بهذه الرعاية فى عدة من آى القرآن، وأنه يجب ألا يذل ولا يقهر؛ ذلك لأن اليتيم إن أهمل كان عضوا هداما فى المجتمع، إذ يخرج إلى الحياة ناقما عليها متمردا لا يألف ولا يؤلف، إذ إن تربية النزوع إلى الألفة تكون من الأبوين، ومن الشعور بالرحمة والحياطة والعناية وخصوصا من الأب الحانى الرفيق الحانى العطوف.

فإذا حرم من ذلك فقد يتربى على النفور وعداوة المجتمع إن لم يجد من يحل محله فى إلفه ومودته وحياطته؛ ولذا نهى الإسلام عن قهر اليتيم، حتى لا يتربى فيه نزوع النفور، فقال تعالى: ﴿**فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ** ۝٩﴾ [**الضحى**] وقال ﷺ: «**خير بيوت المسلمين بيت يكرم فيه يتيم، وشر بيوت المسلمين بيت يقهر فيه يتيم**»(١) وقال ﷺ: «**أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا، وقال بإصبعيه السبابة والوسطى**»(٢).

وقال ﷺ: «**من ترك مالا فلورثته، ومن ترك كلا فإلىَّ وعلىَّ**»(٣) وهو اليتيم.

= الْمُصَلَّى ثُمَّ انْصَرَفَ فَوَعَظَ النَّاسَ وَأَمَرَهُمْ بِالصَّدَقَةِ فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ تَصَدَّقُوا فَمَرَّ عَلَى النِّسَاءِ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ فَإِنِّى رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ» فَقُلْنَ: وَبِمَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ. مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ». ثُمَّ انْصَرَفَ فَلَمَّا صَارَ إِلَى مَنْزِلِهِ جَاءَتْ زَيْنَبُ امْرَأَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ تَسْتَأْذِنُ عَلَيْهِ فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذِهِ زَيْنَبُ فَقَالَ: أَىُّ الزَّيَانِبِ؟ فَقِيلَ: امْرَأَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ. قَالَ: «نَعَمْ ائْذَنُوا لَهَا» فَأُذِنَ لَهَا قَالَتْ: يَا نَبِىَّ اللَّهِ إِنَّكَ أَمَرْتَ الْيَوْمَ بِالصَّدَقَةِ وَكَانَ عِنْدِى حُلِىٌّ لِى فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِهِ فَزَعَمَ ابْنُ مَسْعُودٍ أَنَّهُ وَوَلَدَهُ أَحَقُّ مَنْ تَصَدَّقْتُ بِهِ عَلَيْهِمْ. فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ: «صَدَقَ ابْنُ مَسْعُودٍ زَوْجُكِ وَوَلَدُكِ أَحَقُّ مَنْ تَصَدَّقْتِ بِهِ عَلَيْهِمْ».

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخارى: كتاب الأدب (٥٥٤٦). وقال بإصبعيه: أى أشار بهما يقرن بينهما، كما صرحت به رواية أحمد ومالك وغيرهما.

(٣) متفق عليه أخرجه البخارى: كتاب الفرائض - ميراث الأسير(٦٢٦٦): ومسلم: كتاب الفرائض: باب من ترك مالا فلورثته (٣٠٤٣) عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ، عَنْ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَرَكَ مَالا فَلِوَرَثَتِهِ وَمَنْ تَرَكَ كَلا فَإِلَيْنَا». والكل: العاجز الفقير الذى يحتاج من يعوله ويدخل فيه اليتيم الذى هذه صفته. =

(جـ) والمرتبة التى تلى اليتيم فى العطاء، هو المسكين وهو من أسكنته الحاجة، وهذا يشمل الزَّمِن أى المريض بمرض مع الفقر، وعدم القدرة على العمل، ويشمل أولئك الفقراء الذين لا يملكون شيئا، ويتعففون عن أن يسألوا الناس، ولقد قال النبى ﷺ فى ذلك «**ليس المسكين هو الطواف الذى ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان، ولكن المسكين هو الذى لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه**»(١) وهو الذى ينطبق عليه قول الله تعالى: ﴿**لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ...** ﴿٢٧٣﴾﴾ [البقرة].

(د) والذى يلى المساكين ابن السبيل وهو الذى انقطع عن ماله، وصار فى مكان لا يجد فيه ما يمده بأسباب الحياة من طعام يطعمه، أو مال ينفقه أو مأوى يأوي إليه؛ ولذلك أطلق عليه ابن السبيل؛ لأنه انقطع إلا عن السبيل الذى يسير فيه، وإن إيتاء المال لهذا يكون بإعطائه ما يسعفه من قوت، وبإيوائه حتى يئوب، وإعطائه قدرا يصل به إلى بلده، ويصح أن يسهم فى إنشاء مضيف يأوى إليه أبناء السبيل الذين ينقطع بهم الطريق، ولا يجدون مأوى، ولقد قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير، ومحمد الباقر: إن ابن السبيل هو الضيف الذى ينزل بالمسلمين، وهو لتعبير جدير ببنى هاشم الأكرمين، فقد سماه ضيفًا يجب إكرامه.

(هـ) ويلى ابن السبيل فى المرتبة التى تؤتى المال على حبه فيها السائلون وهم الذين يسألون ما يقوتهم من طعام أو مال يشترون به قوتهم، وهم لهم حق على كل مسلم له غنى أو فضل مال، وقد قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ** ﴿٢٤﴾

= وجاء فى سنن أبى داود: كتاب الخراج - أرزاق الذرية (٢٥٦٥) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَنَا أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ مَنْ تَرَكَ مَالا فَلأَهْلِهِ، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ». والضياع الأبناء والذرية الذين لا يجدون من يعولهم.

(١) روى مسلم: كتاب الزكاة: (١٧٢٢) عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الْمِسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَّافِ الَّذِى يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ فَتَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ» قَالُوا: فَمَا الْمِسْكِينُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الَّذِى لا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ وَلا يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقَ عَلَيْهِ وَلا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا». وبنحوه النسائى (٢٥٢٥). ورواه أحمد عن أبى هريرة فى مسنده (٩٤٢٢).

لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ [**المعارج**] وقد روى الإمام أحمد عن الإمام الحسين أحد السبطين والثانى لسيدى شباب أهل الجنة(١)، عن النبى ﷺ أنه قال: «**للسائل حق وإن جاء على فرس**»(٢)، وإنه لا يرتكب مذلة السؤال إلا عن حاجة، ومن اللؤم أن تسأله عن مقدار حاجته.

هذا ما جاء عن رسول الله ﷺ، وقد كان هناك بيت مال يسد حاجة كل محتاج، ويبحث عن المحاويج ليعطيهم ما يغنيهم عن السؤال.

وكيف تكون الحال، ولا توجد أية ناحية تبحث عن المحاويج لتغنيهم عن السؤال؟! إنه يكون إعطاء السائل أهم وأوجب، ولكن من الناس من يمنع الماعون عن هؤلاء؛ بحجة أن هؤلاء لهم مال ويتخذون تكفف الناس حرفة يحترفونها، ويؤثر المنع على العطاء، بل إنهم يذهب بهم فرط مغالاتهم فى المنع إلى أن يحرموا العطاء، ولا حجة لهم إلا ادعاؤهم أنهم محترفون، فهل فتشتم عن حالهم، ونقبتم فى بيوتهم، وكيف يفرون من أن للسائل والمحروم حقا معلوما كما فى الكتاب السامى وقول النبى ﷺ فيما رواه أبو داود «**للسائل حق ولو جاء على فرس**»(٣) إنهم يظنون الظن، ويحكمون به من غير أن يستيقنوا فى الأمر شيئا ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(و) المرتبة الأخيرة التى تؤتى المال على حبه هم العبيد ليفك عتقهم، وعبر عنهم رب العالمين بقوله عز من قائل: ﴿**وَفِي الرِّقَابِ**﴾ والرقاب جمع رقبة، والمراد العبد الذى تعلق به الرق، وعبر عن الرقيق بالرقبة من قبيل التعبير بالجزء وإرادة الجميع، وعبر عنه بالرقبة؛ لأن الرقبة هى مظهر الخضوع حسا، إذ يطأطىء العبد رقبته، خشوعا وخضوعا، وكان تعبير القرآن عن الرقيق بالرقبة مثل قوله تعالى:

---

(١) روى الترمذى (٣٧٠١) عَنْ أَبِى سَعِيدِ الْخُدْرِىِّ - رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الجنة». قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٢) رواه أبو داود: كتاب الزكاة - حق السائل (١٤١٨) وأحمد فى مسند أهل البيت - رضى الله عنهم (٦٤٠١).

(٣) سبق آنفا.

﴿ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [البلد] وقال فى كفارة القتل الخطأ ﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ... ﴿٩٢﴾ ﴾ [النساء].

وقوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ أى يؤتى المال على حبه فى الرقاب أى فى فكها، وذلك يشمل إعطاء المكاتب وهو الذى تعاقد مع مالكه على أن يعطيه ثمنه أو ما تراضيا عليه على أن يعتقه، وقد أمر الله تعالى بالمكاتبة، فقال تعالى: ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ... ﴿٣٣﴾ ﴾ [النور] وإيتاء المال بأن يعطيه ما يستعين به على ما تعهد به لفك رقبته.

ويشمل الإعطاء فى الرقاب أن يشترى عبيدا ويعتقها، كما يشمل الإعتاق إن كان له رقيق.

وإن إعتاق الرقاب من أحب ما يطلبه الله تعالى من عباده إليه؛ لأن فى ذلك صيانة لكرامة الإنسان من الابتذال، وقد قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء] ولأن فى الحرية كمال الإنسانية وكمال التكليف الاجتماعى، ولأن فى الحرية قوة وتحمل الأعباء وأن يكون جزءًا من المجتمع يسيره إلى الخير.

* ابتدأ سبحانه وتعالى فى ذكر الخلال التى يتكون من مجموعها حال البر الذى هو غاية الغايات من الأديان الإلهية بالإيمان الجامع فى معناه، ثم ثنى ببيان المحبة للخير والإنسانية بإعطاء المال عن رغبة ومحبة للمحاويج من الأقرب فالأقرب من بنى الإنسان ثم ذكر التربية النفسية والاجتماعية فى الآحاد، والجماعات، فقال تعالت حكمته: ﴿ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴾.

وإن هذه أمور تهذب النفس والمجتمع فى الأمة، ومجتمع الإنسانية فإقامة الصلاة بأدائها على وجهها الذى شرعت له، وهو إخلاص النفس لله، وامتلاؤها بذكر الله، والإتيان بها مستوفية الأركان من قيام وقراءة وركوع وسجود، واستشعار خشية الله تعالى فى كل حركاتها، بحيث تكون النفس مستحضرة عظمة الله فى كل

حركة من حركاتها، وتلاوة للقرآن فيها، ويكون القلب مع الجوارح فى معانيها، وتكون كلها ذكر لله تعالى وتفضى إلى غايتها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ... ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت].

* وإيتاء الزكاة المفروضة، وهى التى تكون فى المال النامي المنتج إذا بلغ نصابا مقدورا بنحو عشرة مثاقيل، أو يكون من أرض زراعية أو شجر مثمر، أو نحوهما بمقدار العشر صافيا من النفقات على ما هو مصرح به فى كلام الرسول ﷺ، ومستنبط من جملة الأحكام التى قررها النبى ﷺ.

والزكاة يجمعها ولى الأمر وينفقها فى مصارفها المذكورة فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [التوبة] فولى الأمر هو الذى يجمعها، وهو الذى يوزعها.

وقد أجمع العلماء على أن فى المال حقا غير الزكاة، وهو الذى أشار إليه الله فى قوله تعالى: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ﴾ إلى آخر النص الكريم فى موضوع إيتاء المال على حبه.

وذلك لأن الزكاة مفروضة وموزعة بالحق وفى مصارف ثابتة منها الفقراء والمساكين وفى الرقاب، ومنها الغارمون وابن السبيل، وفى سبيل الله أولئك فى نطاق علم ولى الأمر، أو ما يصل أمره إلى ولى الأمر، وفوق ذلك هناك واجبات غير الزكاة فإذا كان له ذوو قربى يحتاجون إلى ماله يكون إعطاؤهم واجبًا غير واجب الزكاة، فإذا كان له أبوان فقيران فمن الإحسان إليهما الإنفاق عليهما، وكذلك ذوو قربى القرابات القريبة.

ومن اليتامى من لا يعلم ولى الأمر حالهم فكل من يعرف يتيما يجب عليه أن يكرمه ويعزه، وكذلك أولئك المساكين المتجملون الذين لا يسألون الناس إلحافا تعففًا وتجملا، وأولئك لا يعرف أمرهم إلا الأقربون منهم، وأبناء السبيل حالهم تكون عارضة وتحتاج إلى إصلاح سريع، وسد حاجة، ومعاونتهم على إعادتهم.

ومن الناس من تضطرهم الحاجة إلى السؤال لصعوبة وصولهم إلى بيت المال، الذى يجمع الزكاة ويوزعها فى مصارفها، ومنهم من يكون فى صحراء بعيدا عن العمران فيكونون فى حاجة إلى الإسعاف السريع.

وكل هؤلاء وأولئك هم مصارف من يؤتى المال على حبه، والجزاء عند الله تعالى.

* وذكر الله سبحانه الوفاء بالعهد، وهو يشمل الوفاء بالعقود التى تعقد بين الناس فى بيوعهم وتجاراتهم والجماعات فى تعاملها.

وهى أظهر فى معاملات الدولة الإسلامية فى علاقاتها بغيرها من الدول والجماعات، فالوفاء بها تنظيم من الإسلام للعلاقات الإنسانية بين أهل الأرض، ولقد قال تعالى: ﴿**وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً** ﴿٣٤﴾﴾ [**الإسراء**] وقال تعالى: ﴿**وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ** ﴿٩١﴾ **وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴿٩٢﴾﴾ [**النحل**].

فالوفاء بالعهد قوة، وهو أساس التنظيم بين الدول، ولقد قال النبى ﷺ: «**لكل غادر لواء يوم القيامة، وأعظم لواء غدرة لواء أمير عامة**»(١).

* والأمر الأخير فى الأمور التى جعلها الله تعالى قوام البر الكامل - الصبر، وهو ملاك الأخلاق الإنسانية كلها، فما من خلق كريم إلا كان الصبر قوامه، وهو قوة يقين تعين على كل ما ذكر فى آية البر، فإيتاء المال على حبه يحتاج إلى الصبر، والصلاة والزكاة والوفاء بالعهد، كل هذا يحتاج إلى الصبر وضبط النفس، وقوة العزيمة.

---

(١) عَنْ أَبِى سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرْفَعُ لَهُ بِقَدْرِ غَدْرِهِ، أَلا وَلا غَادِرَ أَعْظَمُ غَدْرًا مِنْ أَمِيرِ عَامَّةٍ» [رواه مسلم: كتاب السير - باب تحريم الغدر (٣٢٧٢)]. كما رواه الترمذى وأحمد وابن ماجه.

وقد قال تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾.

وإن مقتضى النسق أن يقول سبحانه والصابرون بالعطف على الموفون بعهدهم إذا عاهدوا ولكن كان النصب على أنه مفعول لفعل محذوف هو أخصُّ الصابرين فهى منصوبة على الاختصاص، لمعنى فى الصبر وهو واحد فى الفضائل وأفعال الخير السابقة.

وهنا يسأل سائل، إن الجمل السابقة متعاطفة فقوله: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ عطف عليها ﴿وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ فلماذا كان عند الكلام على الوفاء والصبر عبر بالوصف دون الفعل؟ والجواب عن ذلك فيما يظهر لى - والحقيقة عند منزل القرآن فعنده سر البيان الذى لا نسمو إلى إدراكه - وهو أن إعطاء المال وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة أفعال مطلوبة فى ذاتها، وهى تتجدد آنا بعد آن وإن كانت واجبة على الدوام، أما الوفاء فالفضيلة فيه أن يكون صفة دائمة لا أن يكون فعلا ثم ينقطع، بل يكون حلية يتحلى بها المكلف، وكذلك الصبر المطلوب فيه أن يكون صفة مستمرة تظهر فى كل أعماله من عبادات ومعاملات وأعمال، يصبر فى كل أمر يقتضى الصبر على النعماء فيرضى ويشكر، ويصبر على الشديدة فلا يفزع، ويصبر على الضراء فلا يئن.

وقد ذكر سبحانه وتعالى مواطن للصبر يختبر فيها النفس فلا تطيش ولا تضطرب؛ إذ الصبر ضبط النفس فلا تهلع ولا تتبرم ولا تجزع ولا تضطرب ولا تطيش. وقد ذكر الله الصبر فى البأساء وهى الشدة التى تنزل من فقر مدقع، ومن طاغية يطغى، ومن نوازل تنزل، كخسف أو ريح عاصف، أو سوء معاملة أو نحو ذلك مما يصيب الإنسان فى الحياة، والصبر فيها هو ألا يهلع، وأن يفوض أمره إلى الله تعالى، ويرجو كشف الغمة ولا تذهب نفسه شَعاعا، بل يكون مالكا لنفسه مدركا بقلبه ومبصراً بما يدفع عنه الأذى راجيا من الله تعالى العون فى هذه الشديدة النازلة.

والصبر فى الضراء، والضراء ما ينال الجسم والنفس من مرض عارض أو من مرض مزمن، أو من فقد عضو من الأعضاء أو إصابته، والصبر فى هذه الحال ألا يشكو ولا يئن ولا ييئس من رحمة الله تعالى، روى أن النبي ﷺ أنه قال: «**يقول الله تعالى: أيما عبد من عبادى ابتليته فى فراشه فلم يشك إلى عواده أبدلته لحما خيرًا من لحمه، ودما خير من دمه، فإن قبضته فإلى رحمتى، وإن عافيته عافيته وليس له ذنب**»(١).

والموطن الثالث الذى يكون فيه الصبر، وفضله كبير لأنه يحمى الجماعة، وهو «حين البأس»، والبأس هنا هو الحرب وقال تعالى: «حين» إشارة إلى أن الحرب تجيء وقتًا بعد وقت، وليست مستمرة، وإن استمرت أمدا طويلا تبدل الرجال بعد الرجال، ولا يحارب الجيش كله.

وأصل البأس الشدة، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ...** ﴿١٦٥﴾﴾ [**الأعراف**] أى شديد، وسميت الحرب بأسا لما فيها من الشدة، وإن هؤلاء الذين كانت حالهم برا قد قرر تعالى حكمه فيهم فقال تعالى: ﴿**أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾.

الإشارة الأولى والثانية إلى الذين اتصفوا بالبر، حتى كأنهم هم البر فى أعمالهم المؤلفة للقلوب، والمقربة للنفوس، وصفاتهم المثبتة لقوة الإيمان وحسن العمل، والإشارة إلى الأوصاف كما ذكرنا فيها إيذان بأن هذه الأوصاف هى علة الحكم وقد حكم الله تعالى الحكم وأكده بضمير الفصل «هم»، وحكم لهم بحكمين مؤكدين: أولهما: أنهم صدقوا، والثانى: أنهم المتقون.

---

(١) ذكره القرطبى بتمامه فى هذا الموضع من تفسيره. [كتاب الجامع - ما جاء فى أجر المريض (١٤٧٥)].
وروى البيهقى (٦٥٨٠) والحاكم فى المستدرك (١٣٢٣) عن أبى هريرة قال رسول الله ﷺ: «قالَ الله تَعالى: إذا ابْتَلَيْتُ عَبْدى الْمُؤْمِنَ وَلَمْ يَشْكُنى إِلى عَوّادِهِ أَطْلَقْتُهُ مِنْ أَسارى ثُمَّ أَبْدَلْتُهُ لَحْماً خَيْراً مِنْ لَحْمِهِ وَدَماً خَيْراً مِنْ دَمِهِ ثُمَّ يَسْتَأْنِفُ الْعَمَلَ» قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وهم صدقـوا فى إيمانـهم بأن كان إيمـانا ساكنا فى القلب، والنفس مـذعنة خاشعة، وصدقـوا فى العمل، فكان عملهم منبعثا من إيمانهـم، وصدقوا ماعاهدوا الله تعالى عليه، وصدقوا فى عهودهم إذا عاهدوا، وصدقوا فى الصبر من غير أنين ولا ضجـر، ولا تململ ولا امتـعاض، وصـدقوا فى الحرب فلم يفـروا يوم الزحف وكانوا الصابرين من غير هلع ولافزع، وطلبوا إحدى الحسنيين النصر أو الاستشهاد، فكانوا بهذه الأعمال هم الصادقون.

والوصف الثانـى هو التقوى، فـهم المتقـون الذين وضعوا وقـاية بينهم وبين العذاب، وادرعوا بطاعته فيما أمر ونهى، وهو العزيز الحكيم.

البر فى القصاص

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ
عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ
بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ
إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ
بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ
يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

هذا كلام فى البر أيضا، ذلك أن البر عمل موجب وعمل مانع، أو عمل يبنى الجماعات فـيكون موجبا، وعمل يحميـها فيكون حاميا مـانعا، والأول تبين بقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ... ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة] إلى

آخر الآية، والآية التى نتعرض للكلام فى معانيها الآن، هى لحماية الجماعة الإسلامية من الآفات التى تفتك فى بنائها، وتحميها أيضا من الاعتداء وتفريق النفوس، وتأريث الأحقاد، فإذا كان من البر إعطاء المال على حبه للضعفاء، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والصبر لأنه يؤلف القلوب، فمن البر أيضا الضرب على أيدى المفسدين، ومنعهم من أن يعيثوا فى الأرض فسادا.

ولذا كانت آية القصاص فى ترتيب التنزيل وراء آية البر؛ لأن كليهما فى بناء الجماعات الإسلامية، ونفى ما يهدد بنيانها، وإن العرب فى الجاهلية كانوا لا يقتصون من الجانى، وإنما يثأرون من القبيلة، والدماء فيهم لا تتكافأ فى نظر العصبية الجاهلية، فإذا قتل رجل من عامة الناس رئيس قبيلة لا يقتل القاتل أو لا يكتفى بقتله، بل يقتل من يكافىء رئيس القبيلة، وقد يقتل بالواحد مئات لكى يتكافئوا مع من قتل، وهكذا كان قانون الغلب، وقانون العصبية لا قانون القصاص العادل هو الذى يحكم، وكان ذلك ناشئا من العصبية أولا، وفرض التفاوت ثانيا، والثأر الذى لا عدل فيه ثالثا.

جاء القرآن الكريم ليمحو هذه العادة الجاهلية، وإثبات أن الناس جميعا سواء، وأن المسلمين كما قال النبى ﷺ: «**تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم**»(١)، وفى ذلك إشارة إلى أنهم لا يكون أقوياء أمام من سواهم إلا بالعدل الذى لا يفرق بين شريف وضعيف.

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ الإمام أحمد: مسند المكثرين (٦٥٠٦) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وذكره، وبنحوه أخرجه أبو داود فى الجهاد (٢٣٧١) وابن ماجه: الديات (٢٦٧٥).
ورواه النسائى: كتاب القسامة (٤٦٥٠) من طريق أخرى قال: عَنْ قَيْسِ بْنِ عُبَاد قَالَ: انْطَلَقْتُ أَنَا وَالأَشْتَرُ إِلَى عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقُلْنَا: هَلْ عَهِدَ إِلَيْكَ نَبِيُّ اللَّه ﷺ شَيْئًا لَمْ يَعْهَدْهُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً؟ قَالَ: لا إِلا مَا كَانَ فِي كِتَابِي. هَذَا فَأَخْرَجَ كِتَابًا مِنْ قِرَابِ سَيْفِه فَإِذَا فِيه: «الْمُؤْمِنُونَ تَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ أَلا لا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ وَلا ذُو عَهْدٍ بِعَهْدِه مَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا فَعَلَى نَفْسِه أَوْ آوَى مُحْدِثًا فَعَلَيْه لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ». وأصله فى البخارى ومسلم. وقد سبق فى المقدمة.

وجاءت هذه الآية الكريمة لرد هذه العادة الآثيمة فقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾، وكُتِبَ معناها فُرِضَ فرضًا مؤكدًا مسجَّلا، لا مرية فيه، والفرضية على الجماعة الإسلامية كلها، فيفرض على الحاكم أن يقتص من القاتل أو المقتول بشكل عام، وفرض على القاتل أن يقدم نفسه، وفرض على ولى الدم أن يطالب بالدم، أو يعفو حتى لا يُطَلَّ دم قط فى الإسلام، وفرض على الجماعة كلها أن يعين ولى الدم ليقتص القاضى من المعتدى، ولو كان ولى الأمر، فقد قرر الفقهاء على ضوء هذه الآية أن ولى الأمر، ولو كان الجامعة الأعظم إذا قتل شخصا بغير حق، وأراد ولى الأمر القصاص وجب على الأمة مجتمعة أن تعينه على القصاص فإنه لا يُطَلُّ دم قط فى الإسلام كما قال إمام الهدى على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه(١).

والقصاص مصدر قاص، وهو المساواة وتتبع الأثر، وقد كتبه الله تعالى بأن يؤخذ الجانى بما جنى، وتكون العقوبة مساوية للجريمة، وأساس الإسلام فى قواعده العامة، وإن ذلك هو العدل، وهو أردع للجانى؛ لأنه إذا علم أنه سينزل مثل ما نزل بالجانى، فإنه يتردد فى الارتكاب ثم يعدل، ولقد قال بعض علماء الاجتماع والقانون: إن العقوبة إذا اشتقت من الجريمة كانت رادعة إذ تجعل المجرم يحس بأنه نازل به مثل إجرامه.

وقد فصل الله تعالى حكم القصاص، فقال تعالت كلماته: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ﴾ أى الحر يقتل فى مقابل الحر، ﴿وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾ والعبد يقتل فى مقابل العبد، ﴿وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَى﴾ والأنثى تقتل فى مقابل الأنثى.

هذا هو العدل، وهو رد على الجاهليين الذين كانوا لا يسوون فى الدماء، فالعبد إذا قتل حرا من قبيلة أو الحر إذا قتل حرا من قبيلة، وكان الأول من دهماء

---

(١) جاء فى صحيح ابن خزيمة (٢٣٧٢) عن بشير بن يسار أن رجلاً من أهله يقال له ابن أبى حثمة أخبره: «أن نفرا منهم انطلقوا إلى خيبر فتفرقوا فيها فوجدوا أحدهم قتيلا، فقالوا للذين وجدوه عندهم: قتلتم صاحبنا، قالوا: يا رسول الله إنا انطلقنا إلى خيبر...». فذكر الحديث وقال فى آخره: «فكره نبى الله ﷺ أن يُطَلَّ دمه ففداه بمائة من إبل الصدقة».

الناس، وكان الثانى من أشـرافهم لا يقتل به بل يبحث عمن يكافئـه وربما لا يكافئه واحد، وذلك من العـصبية الجـاهلية، ومن نظام التفـاوت الذى لا يزال يسرى بين الناس مقيتا، وإن كان مألوفا.

وبين القرآن حـال المساواة فى الوصف من حـرية ورق، وذكورة وأنوثة، ولـم يذكر إذا اختلف الوصف أو الجنس بأن قتل الحر العبد، والعبد الحر، والمرأة الرجل، والرجل المرأة، وذلك لأن النص سيـق لإبطال العادة الجاهليـة التى كانت تقتل غـير القاتل، وتتعدى القاتل إلى قبيلة، وغـير الشريف فى زعمهم إذا كان هو القاتل إلى شرفائها، فرد الله تعالى زعمهم، وصحح الأمر فى هذا المقام بالقصاص العادل.

أما التسـاوى فى النفوس لا فى الأوصاف، فقد ثـبت بقوله تعالى: ﴿ **وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ...** ﴿٤٥﴾ ﴾ [**المائدة**]، ﴿ **فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ...** ﴿٢٧٥﴾ ﴾ [**البقرة**].

وثبت أيضا بقوله تعالى بعد أن ذكر قصة ولدى آدم حين قتل قابيل أخاه هابيل لأنهمـا قدما قربانـا فتقبل من أحـدهما ولم يتقـبل من الآخر، ﴿ **قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ ...** ﴿٢٧﴾ ﴾ [**المائدة**] إلى أن قال: ﴿ **فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ ...** ﴿٣٠﴾ ﴾ [**المائدة**]، بعد هذه القـصة التى تصور الاعتـداء فى أقبح صوره، قـال الله تعالى: ﴿ **مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ...** ﴿٣٢﴾ ﴾ [**المائدة**].

وقد تقـرر بذلك القصـاص على أساس تسـاوى النفوس، وعلى ذلك يـقتل الرجل بالمرأة، والمرأة بالرجل، والعبد بالحر، والحر بالعبد.

ولكن ترد هنا أسئلة مـن حيث شمول هذه الآية، والآيـات التى تلونا للصور الآتية:

أولا: تكافؤ الدم بين المسلم والذمى، أيقتل المسلم بالكافـر؟، قد اتفقوا على أن الكافر إذا قتل المسلم قتل به، ولكن كان الأكثرون على ألا يقتل المسلم بالكافر لما

ورد عن النبى ﷺ أنه قال: «**لا يقتل مسلم بكافر**»(١) ولعدم التكافؤ بين دم فى أصله مباح، ودم فى أصله حرام.

قال أبو حنيفة والثورى: يقتل المسلم بالكافر إذا قتله عمدًا بمحدّد؛ وذلك لأننا أخذنا عليهم العهد بأن يكون لهم ما لنا وعليهم ما علينا، ولأننا أعطيناهم العهد بحقن دمائهم ولو لم يقتص لهم لكان فى ذلك إخلال بالعهد، ولأنهم وقد عقدوا الذمة معنا صار دمهم حراما كدمنا، ولأننا إذا وجد من يسرق الذمى قطعنا يده، ومؤدى ذلك أن ماله غير مباح فبالأولى دمه.

ثانيا: إذا قتل الحر العبد أيقتص منه؟ قال جمهور الفقهاء: لا يقتص لأنهما ليسا سواء فالعبد مملوك والحر مالك ولأنه لا ند، والعبد شئ يقوم بقيمته فإذا قتل به الحر وهو ليس بمال لا يكون عدلا، لأن الإنسان لا يقتل فى نظير مال.

ولكن قال الإمام أحمد ونُفاة القياس والثورى وبعض الكوفيين: إن الحر يقتل بالعبد إذا قتله؛ لأنه نفس والإسلام جعل أساس القصاص المساواة فى النفوس، وقال عليه الصلاة والسلام: «النفس بالنفس» وهؤلاء الذين قالوا إن الحر يقتل بالعبد قالوا: إن المالك يقتل إن قتل عبده، لما ذكرنا، ولقول النبى ﷺ فيما رواه النسائى وأبو داود: «**من قتل عبده قتلناه، ومن جدعه جدعناه، ومن أخصاه خصيناه**»(٢) وقد أخذ به البخارى وارتأى ما اشتمل عليه الخبر صحيحا، فكان تصحيحا ضمنيًا له(٣).

---

(١) أخرجه البخارى: كتاب العلم (١٠٨)، والترمذى: الديات (١٣٣٢)، والنسائى: القسامة (٤٦٥٣)، وابن ماجه: الديات (٣٦٤٨)، وأحمد: مسند العشرة (٥٦٥)، والدارمى (٢٢٥٠) من حديث على - رضى الله عنه.

(٢) رواه النسائى بهذا اللفظ: كتاب القسامة (٤٦٥٥) وأبو داود. كما رواه الترمذى وحسنه، وابن ماجه والدارمى من غير «ومن أخصاه خصيناه» كلهم عن سمرة بن جندب. قال الحاكم فى المستدرك ج١ ص٤٠٨ (٨١٦٣): هذا حديث صحيح على شرط البخارى ولم يخرجاه، وله شاهد من حديث أبى هريرة.

(٣) قال البخارى: قال على بن المدينى: سماع الحسن من سمرة صحيح، وأخذ بحديثه: «مَنْ قَتَلَ عَبْدَهُ قَتَلْنَاهُ» وأكثر أهل العلم على أنه لا يقتل السيد بعبده. [راجع نيل الأوطار للشوكانى: الدماء - ج٧ ص٩].

ولما ورد عن النبى ﷺ من إكرام للرقيق، وفوق ذلك فإن الأساس هو المساواة فى النفس، وهى ثابتة فكان القصاص حقا على الحر إذا قتل عبدا، وعلى المالك إذا قتل عبده.

ثالثا: إذا قتل الجماعة واحدا فهل يؤخذون به؟ فجمهور الفقهاء أقروا على أنهم يقتلون به لأنه ما داموا قد اشتركوا فى القتل فقد قتل كل واحد منهم فيؤخذ بحكم القصاص، وإن تعددوا، وبهذا الاعتبار يكون التساوى لا بين الجماعة مجتمعين، بل بين كل واحد منهم، واستحق كل واحد منهم القصاص عليه.

ولأنه لو لم نقتل الجماعة بالواحد، لأهدرت الدماء، وإذا رأى واحد قَتْل شخص فقد تضافر مع غيره من الآثمين فيقتلون، وإن الآثار من الصحابة قد أقرت قتل الجماعة بالواحد، وقد روى عن الإمام عمر رضى الله تعالى عنه أن سبعة قتلوا واحدا، فقتلهم به، وقال كلمة حازمة: لو تمالأ أهل صنعاء عليه لقتلتهم به.

وقتل على كرم الله وجهه جماعة من الخوارج لقتل عبد الله بن خباب بن الأرت، فإنه عندما أخبر الإمام على بذلك قال الله أكبر، فدعاهم وقال لهم: أخرجوا إلينا قاتل عبد الله، فقالوا: كلنا قتلناه، ثلاث مرات، فقال الإمام لأصحابه: دونكم القوم. فما لبث أن قتلهم.

واقتص علي كرم الله وجهه بذلك من قتلة عبد الله بن خباب بن الأرت، هذا ما نرى أن الأخذ بالقصاص فى الآية ينطبق عليه، وثمة فروع فى القصاص كقتل الرجل ولده وعدم جواز القصاص بتركه، لأنه ليس تطبيقا للآية، ولكنه أخذ بحديث(١).

والقصاص بإجماع الفقهاء كما قرر القرطبى فى أحكام القرآن يتولاه ولى الأمر بطلب ولى الدم، لقوله تعالى: ﴿**وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً** ﴿٣٣﴾﴾ [الإسراء].

---

(١) راجع كتاب «العقوبة فى الإسلام» للمؤلف دار الفكر العربى.

العفو

والآية الكريمة فتحت باب العفو، وهو من سلطان ولى الدم، فقال تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾.

وفى هذا النص تحريض على العفو، لكيلا تنهار دماء المسلمين، ولكيلا تتأرث الأحقاد، ولينسل البغض ويعود التسامح بين المسلمين، ولأن جعل الحق للولى فى القصاص يرهب الجانى، وقد يكون القصاص ضارا لولى الدم، كرجل قتل أخاه، وولى الدم أبوهما فإنه إن كان القصاص، وأغلق باب العفو، فإن الأب المكلوم يفقد الولدين معا.

ولذلك كان من التخفيف والرحمة أن يكون حق القصاص قابلا للعفو، وإنه إذا كان العفو كانت الدية كما قال كثيرون من الفقهاء، ودل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهذا يدل ضمنا على وجوب الدية، ولقد قال ﷺ: «**أيما عبد أصيب بقتل أو خَبْل** - أى جرح - **فله إحدى ثلاث: القصاص أو الدية أو العفو فإن أراد الرابعة فخذوا على يديه**»(١).

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ يدل على ثلاثة أمور:

أولها: التحريض على العفو بذكر الأخوة الرابطة التى لم يقطعها الاعتداء؛ لأنها برباط الله تعالى فلا يفكه العبد.

ثانيها: أن أى قدر من العفو يسقط القصاص، فلو تعدد الأولياء فى درجة واحدة، وعفا أحدهم سقط القصاص.

---

(١) عَنْ أَبِى شُرَيْحٍ الْخُزَاعِىِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أُصِيبَ بِقَتْلٍ أَوْ خَبْلٍ فَإِنَّهُ يَخْتَارُ إِحْدَى ثَلاثٍ: إِمَّا أَنْ يَقْتَصَّ وَإِمَّا أَنْ يَعْفُوَ وَإِمَّا أَنْ يَأْخُذَ الدِّيَةَ، فَإِنْ أَرَادَ الرَّابِعَةَ فَخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ وَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ». رواه أبو داود: كتاب الديات (٣٨٩٨) ورواه أحمد (١٥٧٨٠) بلفظ: «مَنْ أُصِيبَ بِدَمٍ أَوْ خَبْلٍ - الْخَبْلُ الْجِرَاحُ - فَهُوَ بِالْخِيَارِ بَيْنَ إِحْدَى ثَلاثٍ: إِمَّا أَنْ يَقْتَصَّ أَوْ يَأْخُذَ الْعَقْلَ أَوْ يَعْفُوَ، فَإِنْ أَرَادَ رَابِعَةً فَخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ، فَإِنْ فَعَلَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ثُمَّ عَدَا بَعْدُ فَقَتَلَ، فَلَهُ النَّارُ خَالِدًا فِيهَا مُخَلَّدًا». ورواه ابن ماجه (٢٦٢٣)، والدارمى (٢٢٤٥).

ثالثها: أن التعبير بالبناء للمجهول يدل على تلمس العفو.

ثم قال تعالى: ﴿**فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ**﴾.

أى إذا كان العفو، فالأمر ينتقل من إراقة دم جديد إلى أن يكون اتباعا للقاتل من غير إرهاق بالملازمة، بل بالأمر الذى لا يستنكر فى العرف وتتعاون أسرة القاتل فى أدائه من غير غباب، وهذا من جانب ولى الدم، ومن جانب القاتل وأسرته يكون الواجب هو الأداء بإحسان، أى تكون نفوسهم سمحة، ويؤدون الدية فى مواقيتها من غير ليٍّ، والإحسان الإجادة والإتقان وهو فى مثل هذا المقام يكون بالمسارعة فى الأداء والسماحة ولا مانع من الزيادة تطييبًا للنفوس المكلومة.

والنص الكريم يفيد بالإشارة إلى أن الدية بدل من القصاص عند العفو، ولذلك ذكرت مترتبة عليه، وكأنه إذا كان العفو ننتقل من القصاص صورة ومعنى بقتل القاتل، إلى القصاص معنى وهو الدية، فالقصاص ثابت فى الحالين، وإن اختلف الشكل.

ولقد قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ**﴾ الإشارة إلى العفو بعد وجوب القصاص، فهو تخفيف من عنف القتل قصاصا، الذى يفزع النفوس، ويزعج وهو قاس؛ إذ يقدم للقود فى وقت لا يكون فيه انفعال مغيظ محنق، بل فى صبر وأناة، وذلك يكون أشد وأعنف، وفيه رحمة بالجانى، إذ خرجت رقبته من القتل الذريع إلى الفداء بمال، ورحمة بالعافى إذ به يتخلص من الأحقاد، وأضغانها، وقد يكون فيه رحمة خاصة بأسرته، على النحو الذى ذكرناه، ورحمة بالأمة لكونه بدل أن ينقص عددها اثنين ينقص إلى واحد، وبدل أن تتبادل الدماء تنتهى المعركة.

وإن ذلك لا يسوغ الاعتداء ولا يسهله، ولا يفتح الباب لاعتداء جديد، بعد أن أفلتت الرقبة من ضرب سيف قاطع، ولذا قال تعالى: ﴿**فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ أى فمن اعتدى بعد العفو والدية، وبعد شرعية القصاص العادل، فله عذاب أليم فى الدنيا، وله عذاب أليم أى مؤلم فى الآخرة، ولقد فهم بعض الفقهاء

أن عذابه فى الدنيا أن يحرم من رحمة العفو، وتحقيقه؛ ولذلك قرر كثيرون من الفقهاء أنه إذا عاد المعفو عنه فى قصاص إلى القتل مرة أخرى، فإنه يكون من المفسدين، فيقتل حدا وليس قصاصا، وذلك لأنه قد يكون من الشُّطَّار الذين اعتادوا الاعتداء على الأنفس، وإرهاب النفس، ويكون عفو الولى رهبة منه لا رغبة، فعندئذ يكون القتل لمنع فساده، ولقطع طريق الشر، ولذلك لا يكون محلا للعفو إذ يكون تمكينا من الشر.

وهنا نلاحظ أن فتح باب العفو، وأن يكون القصاص بطلب ولى الدم يخالف القوانين القائمة على أن جريمة الدماء تكون اعتداء على الجماعة، ويكون المجنى عليه شاهدا، وليس صاحب الحق الأول، وإن العدل هو فى النظرية الشرعية التى تعتبر الجريمة ابتداء متجهة إلى أسرة المجنى عليه، وعن طريقها تتجه إلى الجماعة، وذلك تمكين للأسرة من أن تنال حقها، وردع للأشرار عن طريق القصاص، أو التمكين منه، ويكون منعا للثارات والفساد فى الأرض، والعقوبة واحدة، القصاص صورة ومعنى أو صورة فقط، ولا يفتح باب للتخفيف من عقوبة أشد إلى أخف منها إلا بإرادة المجنى عليه، فيكون ذلك أمنع له من أن يفكر فى ثأر، أو يكون فى نفسه غيظ مكظوم دفين.

وإن شرعية القصاص على النحو الذى ذكره القرآن الكريم فيه حفظ للأنفس، وإشاعة للطمأنينة فى النفوس وإرهاب للعصاة المتمردين على المجتمع، وإحساس بالراحة؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ وإن هذه الكلمات السامية أبلغ تعبير عن آثار شرعية القصاص فى الأمة.

والقصاص كلمة عامة يشمل القصاص فى الأنفس الذى اختصت به آية القصاص، إذ قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ أما فى هذه الآية ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ فإن القصاص يشمل الأنفس والأطراف والجروح، كما قال تعالى فى سورة المائدة، بل يشمل القصاص فى الضرب واللطم على ما حققه فقهاء السلف، وأخذ به الإمام أحمد.

وفى قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ تعميم للقصاص مع تعريفه بأل التى تفيد الاستغراق، وتنكيره لكلمة حياة، والتنكير هنا للتعظيم، أى حياة سعيدة هادئة مطمئنة خالية من عبث السفاكين، واعتداء المعتدين واستهزاء المستهزئين هى حياة كريمة تظهر فيها الفضيلة، وتختفى فيها الرذيلة؛ تحترم فيها الحقوق، وتحقق فيها الواجبات؛ يقام فيها العدل، ويختفى فيها الظلم، ويتحقق الاجتماع، ولا يكون التنابذ والافتراق فلا شىء يربط الحياة بين الجماعات والآحاد سوى العدل والحق.

وكلمة الله السامية: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ اشتملت على إيجاز القِصَر البليغ إلى ما لا يصل إليه إلا كلام رب العالمين، ولقد كان هناك مثل سائر فى العرب، يقولون إنه أبلغ الكلام فى إيجازه، وأعمقه فى أدائه، وهو قولهم: «القتل أنفى للقتل»، وعقد بعض العلماء موازنة بينها، وبين الجملة السامية ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ وقد استنكر ابن الأثير هذه الموازنة؛ لأنه لايوزن كلام الله تعالى بكلام أحد من الناس، وعقد هواة الموازنة ربما يكون فيها تنزيل من مقام المعجز الذى لا يستطيع أحد من البشر أو الجن أن يأتى بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

وإن الموازنة انتهت بأنه لا يمكن المماثلة بين كلام العرب وكلام الله تعالى، وأنه بالنظرة العابرة نرى كلام الله تعالى فى مكانة وكلام العرب فى دركه، فنجد أولا التكرار فى لفظ «القتل أنفى للقتل»، ولا تكرار فى قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ ونجد أن الآية تدل على القصاص العادل، و«القتل أنفى للقتل» لا تدل على القتل العادل، بل تدل على مجرد القتل، ونجد أن القصاص يشمل القتل وقطع الأطراف، بينما كلمة العرب لا تدل إلا على القتل فقط، ونجد أن لفظ العرب لا يدل على حياة الجماعة، بينما أن النص القرآنى السامى لا يدل فقط على نفى القتل بل يدل على قيام الحياة الكريمة من هذا القصاص العادل، وإن المقابلة بين القصاص والحياة الكريمة تبين منزلة العدالة فى القصاص.

وهكذا نجد أوجه الإعجاز فى هذا الإيجاز بما لا يمكن أن يصل إليه كلام مهما بلغت مكانته من البيان عندهم، فهى بلاغة تليق بكلام الإنسان، وتتقاصر عن أن تصل إلى كلام الديان، وكلام الناس يجرى فى مساره، ولا يصل إلى برج القرآن الأقدس، تعالت كلماته وتعالى منزله.

ولقد قال تعالى مخاطبا الذين يدركون مافى القصاص من ثمرة وهى الحياة العزيزة الآمنة الطاهرة من رجس الآثام وفسق الفساق واعتداء المعتدين، فقال تعالى: ﴿يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ الألباب جمع لب وهو العقل المدرك الذى لا يكتفى فى إدراكه بمظاهر الأمور، فهؤلاء أصحاب الألباب التى تغوص إلى الحقائق فتدركها.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، ولعل هنا للرجاء والرجاء من الناس لا من الله تعالى، فالتقوى منهم وهو سبحانه وتعالى يتقبلها ويقرب بها عباده إليه سبحانه وتعالى، والتقوى رجاء من عند الله تعالى أن يتقوا بها عذاب النار وأن يتقوا فى جماعتهم كل ما يفرقها، ويعملوا على أن يقوا من شر فسق الفاسقين واعتداء المعتدين والله سبحانه وتعالى ولينا، وهو نعم المولى ونعم النصير.

الوصية فى الأسرة

كُتِبَ عَلَيْكُمْ
إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ
وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَن بَدَّلَهُ
بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾
فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ
عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

بعد أن بين سبحانه بناء الجماعة الإسلامية بما ذكره فى آية البر، وبين حماية الجماعة الإسلامية من آفات المجتمع من الاعتداء والتفريق بالقصاص بين سبحانه وتعالى بعض أحكام الأسرة التى تربط بينها بعد الوفاة، وبين فى آية البر إيتاء ذوى القربى فى حياته، وفى هذه الآية يبين سبحانه وتعالى الوصية بالإيتاء بعد وفاته.

فقال: ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ** ﴾.

وقد قال بعض الفقهاء مناسبة الآية بعد آية القصاص فوق ما ذكرنا أن آية القصاص تفيد أن للولى أن يقتص فيكون هذا الذى يقتص منه قد حضرته الوفاة، فكان له أن يوصى، بما يوصيه، إذ قد حضره الموت، فيجب عليه أن يوصى، إن ترك خيرا.

وهذه أول آية ذكرت فيها الوصية، وقد ذكرت بعد ذلك فى توزيع الميراث، وأنه يكون بعد وصية يوصى بها أو دين، ثم ذكرت فى آخر المائدة عند الشهادة عليها، إن حضر الموت وهو فى سفر.

وقوله تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ**﴾ إلى آخر الآية، كُتِب تدل على الفرضية المؤكدة مما يؤكد به القول عادة وهو الكتابة المقيدة المسجلة.

وقد قال بعض الفقهاء: إن الوصية لمن كان عنده مال يسمى «خيرا» تكون واجبة، وقد احتجوا بما روى عن ابن عمر عن النبى ﷺ أنه قال: «**ما حق امرىء مسلم له شىء يريد أن يوصى به فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده**»[(١)] وإذا استدل على هذا بأن ذلك إذا أراد الوصية، فإذا لم يردها لا جناح عليه إذا لم يوص ولم

---

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخارى: الوصايا (٢٥٣٣) ومسلم: الوصية (٣٠٧٤) عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما.

يكتب، فنقول إنه بعد ذكر صيغة الوجوب، وهى «كتب» الدالة على الفرضية يكون الحديث دالا على الكتابة تنفيذًا للفرضية وتأكيدا لها، وتثبيتا، وقال الأكثرون الوصية ليست واجبة فى غير الودائع، والديون التى عليه، والصدقات التى وجبت ولم يؤدها، وقد اتفق الفقهاء على وجوب الوصية فى هذه الأمور التى تكون حقا عليه، ولم يقم بأدائه فى حياته فيوصى به بعد وفاته.

والظاهرية من نفاة القياس قرروا أن الوصية واجبة بظاهر الوجوب فى قوله تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمْ**﴾ وأنه إن لم يقم بذلك كان للقاضى أن يأخذ قدرا من الوصية يعطيه لمن يستحقه أى قدر كان.

وقد علق تعالى طلب الوصية على وجود قدر من المال يسمى «خيرا» فقال تعالى: ﴿**إِن تَرَكَ خَيْرًا**﴾ وما المراد بالخير؟ قال بعض العلماء: إن أى قدر من المال خير، لأن الله تعالى سماه خيرا فقال تعالى: ﴿**وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ** ﴿٢٧٢﴾﴾ [**البقرة**] وإن المال القليل يطلق عليه إنه خير؛ ولذا قال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿**رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ** ﴿٢٤﴾﴾ [**القصص**] وإطلاق كلمة خير على المال قل أو جل لأنه سبيل للخير، وخلق المال لجلب الخير، ودفع الضر.

وروى عن كثير من الصحابة أن الخير المراد به فى الآية الكثير كثرة نسبية النسبة لحال الورثة وعددهم، روى عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أن رجلا قال لها: إنى أريد أن أوصى، قالت: كم مالك؟ قال: ثلاثة آلاف درهم. قالت: فكم عيالك؟ قال: أربعة. قالت: إن الله تعالى يقول: ﴿**إِن تَرَكَ خَيْرًا**﴾ وهذا شىء يسير فدعه لعيالك فإنه أفضل لك[1].

(١) عن أم المؤمنين عائشةَ بنت أبى بكر الصديق - رضى الله عنهما - قالتْ: قالَ لَهَا رَجُلٌ: إنِّى أريدُ أَنْ أَوْصِيَ، قالتْ: كَمْ مالُكَ، قالَ: ثلاثةُ آلاف، قالتْ: كم عِيَالُكَ، قالَ: أربَعَةٌ، فقالتْ: قالَ الله سُبْحَانَهُ: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ ... ﴿١٨٠﴾﴾ [البقرة] وإنَّ هَذَا لشيءٌ يسيرٌ، فاتْرُكْهُ لعِيَالك فهو أَفْضَلُ. [رواه البيهقى فى السنن الكبرى: باب من استحب ترك الوصية إذا لم يترك شيئا كثيرا (١٢٧٢٧)].

وروى أن عليا كرم الله وجهه دخل على رجل يعوده، فقال الرجل: أوصى؟ فقال الإمام كرم الله وجهه: «قال الله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ إنما تركت شيئا يسيرا فاتركه لأولادك»(١).

ويفهم من هذا أن المراد بالخير المال الكثير، وتقديره نسبى بحسب حال الورثة وحاجتهم وعددهم؛ ولذلك اختلف الصحابة فى تقدير الكثرة فمعظمهم قدرها بما فوق الستين دينارا، وقدرها بعضهم بثمانين دينارا فأكثر، وروى عن قتادة أنه قال: ألف فما فوقها، أى من الدراهم. وهكذا نرى أن الكثرة من علماء الصحابة فسروا الخير بأنه المال الكثير الذى يتناسب مع حاله وحال ورثته وعددهم وأن أحدا من الصحابة لم يفسره بأنه أى مال.

ولم يقدر مقدار الموصى به، ولا دليل على تقدير قدر معين له، وقد ترك التقدير لتحقيق كلمة بالمعروف، أى الأمر الذي لا تستنكره العقول، وتعرفه وتقر به، وتعبير القرآن الكريم فى قوله: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ يدل على ما لا يستنكر فى العرف والعادات، المستقيم الذى يضع الأمور فى مواضعها ويزنها بميزان الحق.

وقوله تعالى: ﴿لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وقد ذكرنا معنى بالمعروف، وقد كان النصب يوجب على من يقول بالوجوب الوصية للوالدين والأقربين وذكر الوالدين أولا؛ لأن الله تعالى أوصى بالإحسان إليهما وأكد الإحسان ولو كانا مشركين وقال تعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا... ﴿١٥﴾﴾ [لقمان].

والأقربون من الأقارب هم الذى تدنو قرابتهم أكثر من غيرهم كالإخوة والأخوات والأبناء والبنات، وغيرهم من ذوى العلاقات المباشرة بالقرابة كالعم وابن الأخ.

---

(١) رواه البيهقى: كالسابق (١٢٧٢٦) عن هشام بن عروة، بلفظ: إنَّ الله تَعَالَى يقولُ: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ ... ﴿١٨٠﴾﴾ [البقرة] وإنَّكَ إنما تَدَعُ شيئاً يسيراً، فَدَعْهُ لعِيَالِكَ، فإنَّهُ أَفْضَلُ.

وهنا يثور بحث أيوصى لهـا وجوبا بالمعروف، ولو كان لهم ميـراث مقرر فى آية المواريث، والميراث فـريضة محكمة، وقـد قال النبى ﷺ: «**إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث**»(١).

لقد قال الأكثرون من الفقهـاء: إن هذه الآية إنما يؤخذ بها إذا كان هؤلاء غير وارثين كما كان الأمر فى أول الإسلام إذا أسلم وأبواه مـشركان، وكما كان من بعد من تزاحم الورثة أو تقديم بعضهم على بعض، كأن يكون له أخت شقيقة أو لأب، وله ابن، فإن الأخت لا ترث وهى من الأقـربين، وكذلك أخوه؛ لأن الابن حجـبه ففى الحال إذا كان الأخ ذا حاجة كمتقدم السن فإنه يوصى له.

ولذا قـال هؤلاء الغلبـــة من الفقـهـــاء إنه يجـمـع بين آية الوصيـة وآية المواريث وتكون آية الميـراث مـخصـصة لآية الـوصيـة بأنها فـى غيـر الوارثين من الأقارب.

هذا ما عليه الجمهرة العظمى من الفـقهاء، ولا يقال إن آية الميراث نسخت آية الوصية؛ لأنها بقـيت شريعتها فى غير الوارثين، وهى فى ذاتها سـير لما عساه يكون من حاجة عند بعـض الأقارب الأقربين الذين لم يصل إليهم تقـسيم الميراث ويكون هذا هو العدل، وهو البر والرحمة بذوى قرباه.

ويرى بعض الفـقـهـاء أنه لا تعـارض لا فى الـكل ولا فى الجـزء بين آيات الميراث، وآية الوصيـة، فآية الوصية فى الثلث يوصى به لمن يراه أشد حـاجة وأقوى

---

(١) عَنْ أَبِى أُمَامَةَ الْبَاهِلِىِّ قَـالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ فِى خُطْبَته عَـامَ حَجَّة الْوَدَاعِ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى لِكُلِّ ذِى حَقٍّ حَقَّهُ فَـلا وَصِيَّةَ لِوَارِث. الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَـرُ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّه، وَمَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيه أَوْ انْتَمَى إِلَى غَـيْرِ مَوَالِيه فَعَلَيْه لَعْنَةُ اللَّه التَّابِعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَـامَة. لا تُنْفِقُ امْرَأَةٌ مِنْ بَيْتِ زَوْجِهَا إِلا بِإِذْنِ زَوْجِهَـا». قِيلَ: يَا رَسُـولَ اللَّه وَلا الطَّعَامَ؟ قَـالَ: «ذَلِكَ أَفْضَلُ أَمْـوَالِنَا»، ثُمَّ قَالَ: «الْعَـارِيَةُ مُؤَدَّاةٌ، وَالْمِنْحَةُ مَـرْدُودَةٌ، وَالدَّيْنُ مَقْضِىٌّ، وَالزَّعِـيمُ غَارِمٌ». رواه بهذا اللفظ التـرمذى: كتـاب الوصايا (٢٠٤٦) ورواه أبو داود مختصـرا: كتاب البيوع (٣٠٩٤) ورواه ابن ماجه بلفظ: سَـمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ فِى خُطْبَتِهِ عَامَ حِجَّةِ الْوَدَاعِ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِى حَقٍّ حَقَّهُ فَلا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ».

قرابة، والميراث فى الثلثين، ولقد قال ﷺ: «**إن الله تصدق عليكم فى آخر أعماركم بثلث أموالكم فضعوه حيث شئتم**»(١).

ولقد قال ذلك القول من الشيعة الجعفرية، وقالوا: إنه حديث «**إن الله أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث إلا بالثلث**». ولعلهم عللوا ذلك بأن بعض الورثة ربما لا يسد نصيبه حاجته، فالأخ قد يكون ذا متربة فلا يسد نصيبه حاجته، وقد يكون أحد الورثة زمنا مريضا بمرض لا يرجى البرء منه، وهو فى حاجة إلى أكبر من نصيبه، فيوصى له بما يكمل حاجته وقد شرع الله تعالى الوصية لتكميل ما عساه يكون فى توزيع الميراث من رأب يجب سده.

وقد أخذ القانون المصرى برأى الإمامية فى جواز الوصية.

ونقول إن الاعتبار فى حال الأخذ بجواز الوصية للوارث أن يكون ذلك بالأمر المعروف الذى لايستنكره الشرع ولا يستنكره العقل، فإن فعل فقد ارتكب إثما، فلا يوصى لابنه الغنى، أو الذى يكون من الزوج المحبوبة ويترك الآخر، وقد قال النبى ﷺ: «**سووا بين أولادكم**»(٢) أو يوصى لابنه، ويترك ابنته فإن الوصية للوارث مهما يكن مبررها هى مخالفة للميراث، أو استثناء من أحكامه ويستقيم الاستثناء إذا كان فى بر وعدل، لا فى قطيعة وإثم.

وإن القاعدة الشرعية فى الأمور الاستثنائية أو الاستحسانية التى تجىء على خلاف القاعدة أن تكون مكملة للقاعدة أو الأصل العام والباعث عليه، غير مناقضة له.

---

(١) عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَصَدَّقَ عَلَيْكُمْ عِنْدَ وَفَاتِكُمْ بِثُلُثِ أَمْوَالِكُمْ زِيَادَةً لَكُمْ فِى أَعْمَالِكُمْ» [رواه ابن ماجه: كتاب الوصايا: الوصية بالثلث (٢٧٠٠) وأحمد عن أبى الدرداء (٦٢٢١٠) عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَصَدَّقَ عَلَيْكُمْ بِثُلُثِ أَمْوَالِكُمْ عِنْدَ وَفَاتِكُمْ».

(٢) عن الشعبى قال: سمعت النعمان (هو ابن بشير) على منبرنا هذا يقول: قال رسول الله ﷺ: «سَوُّوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ فِى الْعَطِيَّةِ، كَمَا تُحِبُّونَ أَنْ يُسَوُّوا بَيْنَكُمْ فِى الْبِرِّ» [شرح معانى الآثار: كتاب الهبة والصدقة ج٤ ص٥٨].

ولقد أكد سبحانه طلب الوصية، فقال تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ وحقا فى الآية مفعولا لفعل محذوف يقدر بما يناسب القول أو الحكم، فيقدر مثلا يجعلها الله حقا، أو أوجبه حقا على المتقين.

وإن اقتران حكم الوصية الدال على وجوبها للوالدين والأقربين يومىء إلى أنها محكمة لا تنسخ؛ لأن الله تعالى لا يؤكد حكما جرى فى علمه المكنون أنه سينسخه ذلك التأكيد.

وهو يدل على الوجوب ويؤكده، وذكر الوجوب على المتقين للإشارة إلى أنهم الذين يطيعونه اتقاء غضب الله سبحانه وتعالى وابتغاء رضوانه، وإلى أنهم يسارعون بإجابته، وأنهم ينفذون فى دائرة المعروف غير المنكور.

وإن الوصية تكون عطاء من رجل فانٍ يتركها لمن بعده من ذوى قرابته أو الاتصال به، وهى تكون وديعة بين أيديهم، هى وديعة ذلك المتوفى الذى صار لايملك من أمره شيئا، وهى أيضا وديعة الله إذا كانت فى سبيل الخير الذى يرضاه الله تعالى؛ ولذا نهى الله تعالى عن تبديلها، وقال تعالى: ﴿فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ وهذا يدل على أن التبديل إثم ممن يقع منه التبديل سواء أكان وصيا فى التركة أم كان وصيا على الورثة الضعفاء أم كان شاهدا، أم كان قد أُودع الوصية، وبعبارة عامة، كل من يكون فى قدرته التبديل والتغيير فى موضوعها، أو فى مقدارها، أو فى مستحقها، ولا يقال إن التبديل من الموصى نفسه للسياق؛ إذ يقول ﴿بَعْدَمَا سَمِعَهُ﴾، أى القول الدال على الوصية، والموصى لم يسمع القول بل قاله، متفق عليه أن الموصى له أن يغير فى الوصية، ويبدل ما دام حيا؛ لأنها تصرف غير لازم، ولا تنفذ إلا بعد وفاة، ولا يأثم إلا إذا غيرها من خير إلى غيره، ولا يكون الإثم إلا من قصد الشر.

وكان التبديل إثما لأنه خيانة للموصِى الذى استودعه أسراره، ولأنه اعتدى فغير وبدل فيما لا يملك التغيير، ولأنه كشاهد الزور الذى يشهد بغير ما يعلم أنه الحق، ولأنه يفوت الخير المعروف الذى قصده الموصِى بوصيته.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ الفاء هنا واقعة فى جواب الشرط، و«إنما» دالة على القصر، أى فإن الإثم واقع على الذين يبدلونه، وليس على الموصِى وزر فيما فعلوه، فقد احتسب الخير ونواه، وأراد تنفيذه، وليس عليه وزر الذين غيروا وبدلوا.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ بواو الجمع، وقد يكون الذى غيره واحدًا، للإشارة إلى أن ذلك التغيير عادة يكون من الورثة الذين يريدون أن يغيروا إرادة المورِث، ففى التعبير بواو الجماعة إشارة إلى ائتمار منه ولا ينسب إلى واحد يتحمل وحده الوزر، بل يتحملون جميعا الوزر.

ولقد هدد الله تعالى أولئك المغيرين المبدلين المناعين للخير، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى سميع لأقوالهم التى غيروا بها وبدلوا، ومنعوا الخير عن صاحبه، وعليم بكل شىء، عليم بالوصية الحق التى كتبها الموصى، وعليم بمن غير وبدل وهو المتصف بالعلم الكامل، وهو الذى أحاط بكل شىء علما سبحانه وتعالى.

وإن ذلك إنذار شديد لمن يغير.

وقد أكد سبحانه الكلام بإن المؤكدة، والجملة الاسمية، وذكر اسم (الله) سبحانه وتعالى العالم بكل شىء.

وإنه قد يكون الموصى ظالما، أو ميالا لظلم، أو يريد إثما لوصيته كمن يوصى فى موضع، أو يعين فى وصيته على إثم فهل تنفذ هذه الوصية، وهل يجوز تغييرها؟ قال الله تعالى فى ذلك: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾.

الخوف يكون فى الأمر المتوقع فيخاف أن يقع، فتقول أخاف أن تفعل كذا، إذا كنت تتوقع الفعل المَخُوف، كما قال يعقوب: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ... ۝١٣﴾ [**يوسف**]، أو رأيت بوادره من قول أو فعل أو نحو ذلك، والجنف الميل إلى ناحية

الظلم، وهو ضد الحنف فهو الميل إلى ناحية العدل فقوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾ معناه من خاف من موص ميلا إلى ظلم، أو توجها خطأ إلى ظلم أو إثما مقصودا فأصلح بينهم أى بينه وبين ورثته وحمله على الاتجاه إلى العدل والخير، أو قصد إثما بأن أوصى لبنيه دون بناته أو أراد أن يوصى فى معصية، أو فى ناحية لا خير فيها، فحملوه على اختيار ما لا معصية فيه ولا ظلم، فإنه لا يكون عليه إثم، كإثم التبديل؛ لأنه ما بدل إنما الذى بدل الموصى، وله فضل الآمر بالمعروف، والناهى عن المنكر وفضل الصلح والصلح خير، وفضل منع الظلم، ومنع الظلم خير لا شك فيه.

وإن مثل هذا عمل عام يجب القيام به على عامة المؤمنين، وإن قام به البعض سقط الحرج عن الباقين، وإنه يجب على والى الحسبة القيام بالإصلاح فى هذه الوصايا التى تجنف لإثم والقاصدة الإثم.

وإذا كانت الوصية فيها جنف لإثم أو تعمد لإثم، ومات الموصِى مصرا عليها، كأن يوصي لغير قرابته، وهم أغنياء، وفى قرابته فقراء فإنه إن حولت الوصية إلى فقراء ذوى قربا كان أولى لأنها عدلت إلى خير.

وقد روى عن ابن عباس وقتادة وغيرهما أن معنى الآية من علم بعد موت الموصى جنفًا أو تعمد إيذاء بعض فأصلح ما وقع من الإثم وما وقع بين الورثة من الاضطراب والشقاق فلا إثم أى لا يكون إثم التبديل، بل يكون له ثواب الإصلاح، وروى النسائى أن رجلا أعتق ستة مملوكين عند موته، وليس له مال غيرهم فبلغ ذلك النبى ﷺ، فغضب من ذلك وقال: «**لقد هممت ألا أصلى عليه**»، ثم دعا مملوكيه فجزأهم ثلاثة أجزاء، ثم أقرع بينهم، فأعتق اثنين وأرقَّ أربعة(١)، وقد أخرج مسلم هذا الحديث.

---

(١) رواه بهذا اللفظ عن عمران بن حصين النسائى: كتاب الجنائز ـ باب من يحيف فى وصيته (١٩٣٢)، ورواية مسلم عنه أيضا بلفظ: «أَنَّ رَجُلا أَعْتَقَ ستَّةَ مَمْلُوكينَ لَهُ عنْدَ مَوْته، لَمْ يكُنْ لَهُ مَالٌ غَيْرَهُمْ، فَدَعَا بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجزَّأَهُمْ أَثْلاثًا، ثُمَّ أَقْرَعَ بَيْنَهُمْ فَأَعْتَقَ اثْنَيْنِ وَأَرَقَّ أَرْبَعَةً، وَقَالَ لَهُ قَوْلا شَدِيدًا». [كتاب الأيمان - باب من أعتق شركا له فى عبد (٣١٥٤)].

وقد اشترط فى نفاذ الوصية ألا يكون فيها مضارة، فلقد قال تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ... (١٢)﴾ [النساء] وقرر مالك أن كل وصية فيها مضارة تكون باطلة.

هذا وقد اتفق الفقهاء على أن الوصية بمعصية تكون باطلة، وكذلك الوصايا التى يكون الباعث عليها معصية من المعاصى كان يوصِى لخليلته لتبقى معه على العشرة الحرام، وإن تكلموا فى مدى قوة الباعث.

وفى الجملة إن الآية الكريمة تدل على أنه لا إثم على من بدل وصية آثمة فحولها إلى الخير، أو أبطلها إن لم يمكن تحويلها، وإن ذلك يكون للقضاء أو لوالى الحسبة.

ولأن التبديل لا يكون فى دائرة الإثم ختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أى إن الله تعالى بالغ الغفر؛ غفار للموصِى أن همَّ وعدل، وغفار لمن أصلح ونجح، ولا يأثم من غيَّر بعد الوفاة، وحولها من جنف إلى عدل، وأن الله يرحم الموصى ويرجى ألا يؤاخذه ما دام لم يتم ما أقدم عليه، وقد أكد سبحانه الغفران والرحمة بصيغة الغفور الرحيم، وبإن المؤكدة، وبالجملة الاسمية. اللهم اجعلنا ندخل فى غفرانك، ونحن فى رحمتك.

الصوم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ
عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم
مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ
يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ

لَّهُۥ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ
رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ
وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ
فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ
أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ
ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا
هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

ذكر الله تعالى فى آية البر، أن من البر إتيان المال مع حبه، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأشار إلى الجهاد، ولم يذكر الصوم والحج، وقد ذكر هنا الصوم، وسيذكر من بعد الحج فى محكم آياته، وبذلك تجتمع الأركان الخمسة التى هى عماد الإسلام، وهى الإيمان بالله وشهادة أن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا.

وقد بين الله تعالى صوم رمضان فى هذه الآيات الكريمات التى تلوناها ونتكلم فى معناها الآن، قال الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾** كتب بمعنى فرض لأنه قرره الله تعالى، وكتبه حتى صار مكتوبا على المؤمنين، وقد أكد سبحانه الفرضية بقوله تعالى عليكم، وبأنه شريعة النبيين أجمعين؛ ولذا قال تعالى: **﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾** وأنه سبيل لتقوى النفس، ولذا قال: **﴿لَعَلَّكُمْ﴾** وذكر أنه أياما معدودات معروفة القدر، مبينة الابتداء والانتهاء، وقد بينها سبحانه وتعالى فى قوله تعالت كلماته: **﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾**.

والصوم في اللغة الإمساك، وذلك كقول مريم فيما حكى القرآن: ﴿**فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا** ﴿٢٦﴾﴾ [مريم]، والصوم في المعنى الديني القرآني الظاهر هو الإمساك عن الطعام والشراب، وعن النساء من طلوع الفجر إلى غروب الشمس كما قال تعالى فيما سيأتي: ﴿**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ...** ﴿١٨٧﴾﴾ [**البقرة**] بهذا النص الكريم يحد الصيام من طلوع الفجر، حتى يدخل الليل وذلك بغروب الشمس.

كتب الصوم على الذين آمنوا فهو فرض مؤكد، وقد قال: ﴿**كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ**﴾ من أهل الديانات السماوية كديانة موسى عليه السلام، وديانة عيسى وغيرهما من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والتشبيه كما قال معاذ بن جبل من فقهاء الصحابة رضي الله تبارك وتعالى عنهم: التشبيه واقع على أصل الصوم، لا على صفته وعدد أيامه. وهذا يكفى في التشبيه فهو يثبت أن الصوم شريعة في الشرائع السماوية كلها، وهذا يدل على كمال فرضيته، وأنه لا يختص بالمسلمين وحدهم بل يعم الديانات السماوية كلها.

وقد بين الله تعالى حكمة شرعيته الأزلية الباقية بقوله تعالى: ﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ أي رجاء منكم لأن تصلوا إلى درجة المتقين، فتتقوا المعاصي، وسيطرة الأهواء والشهوات على نفوسكم؛ وذلك لأن الصوم يربى النفس على الضبط، والاستيلاء على أهوائها وشهواتها وحيث قويت الإرادة قوى سلطانها على الالتواء وعلى الشهوات؛ ولذلك كان من آدابه المكملة له أن يمتنع عن المحظورات كلها فلا يسب ولا يقول الزور، ولا يعمل به، ولا يجترح المنهيات بلسانه، ولقد قال النبي ﷺ: «**من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**»[1] وقال

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم (١٧٧٠) عن أبي هريرة - رضي الله عنه -، كما أخرجه الترمذي وأبو داود وابن ماجه وأحمد.

ﷺ: «الصوم جنة»[١] وإن الصوم بهذه المعانى الجليلة المهذبة للنفس الضابطة للإرادة كان من أعظم العبادات عند الله تعالى؛ ولذا روى عن النبى ﷺ عن ربه: «**كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به**»[٢]، وكان الصوم من بين العبادات مختصا بأنه لله تعالى وحده؛ لأنه تجرد روحى، وانخلاع من الأهواء والشهوات وعلو بالنفس الإنسانية عن العالم المادى وشهواته وهو سر بين العبد وربه.

وحدَّ الله سبحانه وتعالى مقدار الصوم بأنه أيام معدودات ليست كثيرة، ولا مرهقة، ولكنها فى مؤداها جليلة وهذه الأيام المعدودات التى لا تتجاوز الحسبة هى شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس، وبينات من الهدى والفرقان.

وإن الصيام فى هذه الأيام المعدودات فرض، رخِّص فيه لذوى الأعذار أن يفطروا ويؤدوا بدل الأيام ولذا قال تعالى: ﴿**فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ**﴾.

العدة العدد من الأيام، وقال أحمد: إن هذه العدة تبتدئ من وقت قدرته على الصوم بعد رمضان، وأوجب الشافعى أن تكون فى السنة التى يكون فيها رمضان، وقال أبو حنيفة: إن القضاء واجب على التراخى وهو يقدر، ويحسن أن يكون عند القدرة، والمرض الذى يبيح الإفطار قسمان: أحدهما ـ المرض الذى لا يسع المريض فيه أن يصوم قط، وهذا بالاتفاق يسوغ الإفطار والقضاء، والقسم الثانى - مرض يمكن معه الإفطار والصوم، ولكن الصوم يكون بمشقة زائدة عن المعتاد من المشقات

---

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخارى: باب فضل الصوم (١٧٦١)، ومسلم (١٩٤٣) عن أبى هريرة - رضى الله عنه - بلفظ: «الصيام جنة»، وفى بعض رواياته عند الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وأحمد، والدارمى بلفظ: «الصوم جنة».

(٢) متفق عليه؛ أخرجه البخارى (١٧٧١)، ومسلم (١٩٤٤) عن أبى هُرَيْرَةَ - رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ - يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «قَالَ اللَّهُ: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إلا الصِّيَامَ فَإِنَّهُ لى وَأَنَا أَجْزى به، وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلا يَرْفُثْ وَلا يَصْخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّى امْرُؤٌ صَائِمٌ، وَالَّذى نَفْسُ مُحَمَّد بِيَده لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ وَإِذَا لَقِىَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ».

التى يجيز الشارع احتمالها، وقالوا إنه الصوم الذى يزيد المرض شدة، أو يطيل مدته، أو يخبر طبيب مسلم عادل بأن الصوم يضره لوجود هذا المرض.

والسفر الذى يجيز الإفطار اختلف فيه الفقهاء باختلاف أنظارهم فى السفر الذى يوجد مشقة توجد الرخصة، فقيل سفر يوم وليلة: وقال أبو حنيفة ثلاثة أيام، بالسير المعتاد للإبل بحيث يسير نصف النهار، ويستريح النصف الآخر وإن السفر بدابة على هذا المعنى مشقة - ولقد قال ابن عباس رضى الله عنهما: لولا الأثر لقلت العذاب قطعة من السفر، والأثر الذى يشير إليه حبر الأمة هو قول النبى ﷺ: «**السفر قطعة من العذاب**»(١) ولا شك أن الانتقال فى الصحراء ينطبق عليه ذلك الوصف.

وهنا يثار بحث: أيكون الأفضل فى المرض والسفر الفطر، أم الصوم؟ وقد أجاب عن ذلك بعض العلماء بأنه إذا لم يجد مشقة شديدة فى المرض يكون خيرا أن يصوم، ولا يكون معاندا لرخصة الله تعالى، ولكن يكون محتاطا فى معنى المرض الذي يسوغ الرخصة، وإلا فالرخصة أفضل، وكذلك فى حال السفر، إذا كان يرى أنه يستطيع الصوم من غير إجهاد، فالأفضل الصوم، ويكون ذلك ليس معاندة للرخصة.

والسفر المجرد فى هذه الأيام لا مشقة فيه؛ ولذا أرى أن الأفضل الصوم، من غير أن نقرر وجوبه حتى لا نكون معاندين لرخص الله؛ فإن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه.

والسفر أقسام ثلاثة: سفر للجهاد فى سبيل الله، وهذا لا يحسن فيه الصوم، وإلا خالف السنة وعارض الرخصة؛ لأن الله تعالى اختبر المؤمنين فى غزوتين كانتا فى رمضان وهما غزوة بدر الكبرى، وفتح مكة، كانت الأولى فى السابع عشر من

---

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخارى: كتاب الحج (١٦٧٧)، ومسلم: كتاب الإمارة (٣٥٥٤) عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ: «السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنْ الْعَذَابِ يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَنَوْمَهُ فَإِذَا قَضَى نَهْمَتَهُ فَلْيُعَجِّلْ إِلَى أَهْلِهِ».

رمضان، والثانية فى الثالث عشر، وقد أفطر فيهما النبى ﷺ هو ومن معه من المجاهدين.

والقسم الثانى: السفر فى مباح كالتجارة، والانتقال من بلد إلى بلد للإقامة ويترك الأمر فيه إلى حال المسافر على النحو الذى ذكرناه، إن وجد المشقة شديدة أفطر وإلا صام وينطبق عليه رأينا فى السفر فى السكة الحديدية.

القسم الثالث: السفر للمعصية، وكثيرون من الفقهاء لايرون أن الرخصة تشمله لأنه عاص بسفره، والرخصة نعمة، والمعصية لا تبرر النعمة.

وهناك عذر يبرر الإفطار من غير قضاء ولكن تكون فدية هى طعام مسكين يوما، وقد قال الله تعالى فيه: ﴿**وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ**﴾ والإطاقة كما قال الراغب الأصفهانى فى مفرداته: الطاقة اسم لمقدار ما يمكن الإنسان أن يفعله بمشقة..، فقوله تعالى: ﴿**وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ...** ﴿٢٨٦﴾﴾ [**البقرة**] معناه ما يصعب علينا مزاولته، وليس معناه لا تحملنا ما لا قدرة لنا.

والمعنى على ذلك لقوله تعالى: ﴿**وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ**﴾ أى يتكلفون مشقة هى أقصى الطاقة لايستطيعون المداومة عليها، وهم الشيوخ الفانون الذين تقدمت سنهم، وقد قال ابن مسعود فى تفسير «يطيقونه» أى يصلون إلى أقصى المشقة، ولا أمل لهم، فى قضاء وقال ابن عباس: إن قوله تعالى: ﴿**وَعَلَى الَّذِينَ**﴾ نزلت فى الشيخ والشيخة إذا كانا لا يصومان إلا بمشقة..

وقد أفطر أنس خادم رسول الله ﷺ عندما طال عمره، فأفطر سنتين فى آخر حياته، وكانت الجفان تقام لإطعام المساكين ثلاثين جفنة لثلاثين مسكينا على عدد أيام الصوم.

ولقد قال تعالى بعد ذلك: ﴿**فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾.

﴿**فَمَن تَطَوَّعَ**﴾ الفاء هنا للإفصاح، أى إذا كان قد كتب عليكم الصوم ويسر الله تعالى عليكم بالرخص التى رخص بها فمن تطوع خيرا، أى فمن قصد الطاعة، وتكلفها قاصدا الخير فهو خير يدخره له يوم القيامة، فالتطوع هنا ليس النافلة كما

قال الفقهاء فإن ذلك اصطلاح فقهى لا تخضع له عبارات القرآن فى دلالاتها، بل تخضع للغة، والآثار النبوية فقط، والتطوع هنا هو المبالغة فى الطاعة قاصدا أو طالبا خيرا، فهو خير له وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ تحريض على القيام بالواجب المفروض الذى كتب عليكم وعلى الذين من قبلكم ولا شك أن أداء الواجب خير عظيم، وقال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى إن كنتم تعلمون ما هو خير لكم، وما الواجب عليكم، وقد ذكر سبحانه التعليق بـ «إن» حثًّا على طلب علم الغاية من فرضية الصيام وهو تربية نفوسكم على الصبر، ولقد ورد أن الصوم نصف الصبر، والصبر صفة المؤمنين، كما أشرنا من قبل.

ويلحق بذوى الأعذار الحامل والمرضع، وقد اختلف فى شأنهما أهُمَا ملحقان بالمرضى مرضا قريب البرء فيكون لهما الإفطار وعليهما عدة من أيام أخر، إذ هما كحال المريض الذى يصعب الصوم عليه، ويضره الصوم، أو يضر ما فى أرحام الحوامل، ومن يتغذى منهما، ونظر آخرون إلى أن المرأة الولود، وهى التى ينبغى التزوج منها، إما أن تكون حاملا، وإما أن تكون حائلاً، وفى هذه الحال تكون مرضعًا فتتردد بين الإرضاع والحمل، ولا فرصة لأن تكون لها عدة من أيام أخر؛ ولذلك تدخل فيمن لا يطيقون، ويكون عليهن فدية، وروى عن ابن عباس: لا فدية، وتكون كالمريض بمرض مزمن إذا كان لا يجد ما يفدى به، يريد الله بكم اليسر، ولا يريد بكم العسر.

وبعد أن بين سبحانه وتعالى فرضية الصوم أياما معدودات ذكر الله تعالى تلك الأيام وعينها بشهر رمضان، فقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾.

أى هذه الأيام هى شهر رمضان الذى كان أول نزول القرآن فيه، فقد أنزله تعالى فى ليلة القدر وهى فى العشر الأواخر منه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥)﴾ [القدر].

وإن اختصاص شهر رمضان بالصوم؛ لأنه نزل فيه القرآن فيه تذكير بمبدأ الوحى، واحتفال بأكبر خير نزل فى الأرض وهو بعث النبى ﷺ، فإنه نور الأرض وإشراقها، والاحتفال به احتفال بنعمة الهداية، ونعمة الخروج من الظلمات إلى النور، ونعمة إرسال نبى الرحمة، فقد قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴿١٠٧﴾﴾ [**الأنبياء**].

ولقد ذكر فخر الدين الرازى فى تفسيره الكبير ما خلاصته: إنه فى شهر رمضان نزلت هداية الله تعالى من السماء إلى الأرض فناسب ذلك أن يفرض فيه الصوم؛ لأن الصوم فبما فيه من إمساك عن شهوتى البطن والفرج، وفيه علو من الأرض إلى السماء بالتجرد الروحى الذى كان فى الصوم، ولقد قال النبى ﷺ فى هذا الشهر الذى هو احتفال بذكرى البعث المحمدى: «**إن الله تبارك وتعالى فرض عليكم صيام رمضان، وسننت لكم قيامه، فمن صامه وقامه احتسابا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه**»(١).

وقد وصف الله تعالى القرآن بأنه هدى للناس، فقال: ﴿**هُدًى لِّلنَّاسِ**﴾ أى حال كونه هاديا للناس؛ لأنه يخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، وهو معجزة الله تعالى الكبرى وهو بهذا هداية وتوجيه إلى مقام الرسالة المحمدية، وهو مع ذلك فيه آياته البينات؛ ولذا قال تعالى: ﴿**وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى**﴾ أى أن آياته بينات واضحة من الهدى وهو الشريعة التى جاء بها، والفرقان أى الأمر الفارق بين الحق والباطل، والظلم والعدل والشورى والاستبداد، والإصلاح والإفساد، وعمران الأرض وخرابها.

هذا شهر رمضان شهر البركات، ولقد بينه سبحانه وتعالى، والابتداء يرمز إلى الانتهاء فقال تعالى: ﴿**فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ**﴾ وقد تكلمنا فى أعذار المرض والسفر والعجز فى الآيات السابقة.

---

(١) رواه - عن عبد الرحمن بن عوف ـ النسائى: الصيام (٢١٨٠) واللفظ له، وأحمد فى مسند العشرة (١٥٧٢)، وابن ماجه: إقامة الصلاة والسنة فيها (١٣١٨).

وقال الله تعالى فى ابتدائه ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ﴾، ويريد سبحانه بالشهر هنا هلال رمضان، وشهده أى حضره ورآه، وعبر عن الهلال بالشهر؛ لأن العرب كانت ترى الهلال ويراد الشهر عرفا عندهم، وهذا فى الأصل مجاز، والمجاز إذا اشتهر صار عرفا وإطلاق الشهر وإرادة الهلال من قبيل إطلاق المسبب وإرادة السبب، وذلك من علاقات المجاز المرسل؛ لأن الهلال أمارة ابتداء الشهر فكان جاريا مجرى السبب، ولأن الاعتبار بالرؤية، والرؤية لا تكون إلا لمحسوس والشهر عدد من الأيام يعد بالحساب، وذلك معنى نعيش فيه ولا نراه، والهلال هو الذى يرى فكان التعبير بالشهر عنه تعبير بالمدلول على الدال الذى يرى ويعلن الابتداء.

وإذا كان الهلال دليل الابتداء فهو الذى نيط به الوجود، فيكون دليلا على الانتهاء، برؤية هلال الشهر فهو دليل الابتداء والانتهاء معا، ولقد ذكر النبى ﷺ ذلك، فقال: «**صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فأكملوا العدة ثلاثين**»[1] وهذا النص يدل على أمرين:

أولهما: أن الصوم يجب عند رؤية الهلال، فى ابتداء الشهر، والفطر عند رؤية هلال شوال أى الشهر الثانى، وإنه إن غم أولا أو آخرا فتكمل العدة ثلاثين يوما، فإن غم الهلال أولاً أكمل عدة شعبان ثلاثين وذلك بعد ارتقاب الهلال فى التاسع والعشرين من شعبان، فتكمل ثلاثين إن غم، وكذلك هلال شوال إذا غم تكمل عدة رمضان.

الأمر الثانى: الحديث يدل على أن الهلال واحد، وذلك أنه القمر فى أول منازله، والقمر واحد، فى كل الشهور وفى كل شهر يتغير من هلال حتى يصير بدرا، ثم يتغير من بعد ذلك حتى يكون المحاق، ويرتقب من بعد ذلك الهلال، فالأخير، والأول واحد.

---

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخارى: الصيام (١٧٧٦)، ومسلم (١٨١٠) بنحوه عن أبى هريرة -رضى الله عنه-، وبلفظ المصنف - رحمه الله - أخرجه النسائى عن ابن عباس - رضى الله عنهما -: كتاب الصيام - ذكر الاختلاف على عمرو بن دينار (٢٠٩٥).

ويثار فى هذا الموضوع أمران:

أولهما: إذا غم الهلال أيمكن تعرف الهلال أولد أم لم يولد بالحساب، وقد كان معروفا بتتبع أدوار القمر فى منازله من حاله هلالا، حتى يصير بدرا، ثم يضؤل من بعد حتى يختفى فى السرار، أم نقف عند حد الغمة فتكون ثلاثين كما ورد عن النبى ﷺ وكلامه فى المنزلة الأولى ولا معقب لقوله؟ رأى الجمهور الأكبر من العلماء الوقوف عند النص، وهو قول النبى ﷺ: «**صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غمي عليكم فأكملوا العدد**»[(١)] وإن الشريعة نزلت ابتداء لقوم أميين لا يعرفون حساب النجوم، فيكون على قدر ما يحسون ويرون، وجاء الحديث بذلك.

وقد ذهب مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير وهو من كبار التابعين وابن قتيبة فقالا: يعول على الحساب عند الغيم بتقدير المنازل واعتبار حسابها فى صوم رمضان، حتى إنه لو كان صحوا لرؤى لقوله ﷺ: «**فإن أغمى عليكم فاقدروا له**»[(١)] أى استدلوا عليه بمنازله، وقدروا إتمام الشهر بحسابه»[(٢)].

وقد قال بذلك بعض الشافعية، وروى ابن نافع عن مالك أنه أجاز ابتداء الشهر بالحساب، وانتهاءه بالحساب[(٣)].

وإن الأخذ بالحساب الدقيق قد يكون ممكنا، وخصوصا أن الإرصاد يكون رؤيةً بآلة فهل يؤخذ بها؟ يقول الله تعالى: ﴿**وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ** ﴿٣٩﴾ **لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴿٤٠﴾﴾ [يس].

---

(١) رواه بهذا اللفظ مسلم فى صحيحه: كتاب الصيام - صوموا لرؤيته (١٨١٠) عن أبى هريرة - رضى الله عنه -. راجع - متفضلا - التخريج السابق والذى قبله.

(٢) هذه رواية مسلم عن ابن عمر - رضى الله عنهما -: كتاب الصيام (١٩٩٥، ١٩٩٦).

(٣) ذكر المصنف - رحمه الله - أنه أفاد هذا المبحث من (تفسير القرطبى) وهو كذلك من بداية قوله: وقد ذهب مطرف بن الشخير [تفسير سورة البقرة: ١٨٥].

وإن التقدير بالمنازل كان ممكنا عند العرب والأعراب، حتى إنهم كانوا يعرفون اليوم من الشهر بمعرفة منزلة الهلال ليعرفوا اليوم الأول من رؤيته فى ليلة، واليوم الثانى بما كان من تغيير، وهكذا حتى يصير بدرا، ثم اليوم السادس عشر من التغير إلى آخره. ونقول فى هذه القضية: بعد أن كانت الأرصاد، وهى تخترق الغمة فيرى الهلال من ورائها، يجوز الاعتماد عليها عند الغمة، وتكون هذه رؤية، ويكون الصوم لرؤيته والإفطار لرؤيته، ويكون العمل بالحديث قائما. ويكون الحديث بظاهره منطبقا على من ليس عندهم أرصاد، فإنه يؤخذ بالنظر المجرد إذا لا سبيل إلى الرؤية إلا بالنظر الطبيعى وعلى ذلك قرر مجمع العلماء فى القاهرة، وأقره المؤتمر الإسلامى العام أنه يؤخذ بالحساب العلمى إذ غمت الشمس ولم تمكن الرؤية.

الأمر الثانى الذى يثار وقد أثير فى القديم وهو أن مطالع القمر مختلفة فى البلاد شرقا وغربا، فقد يرى الهلال فى المشرق، قبل أن يرى فى المغرب، فهل يصوم كل على مطلعه، أم الأساس هو أول رؤية، فيصوم أهل الغرب مثلا على رؤية أهل الشرق الهلال على أساس أول رؤية، ولا اعتداد باختلاف المطالع، لأن الأمة الإسلامية أمة واحدة، ولا يفرق بينها اختلاف الأقاليم ليكون ابتداء الصوم واحدا، وانتهاؤه واحدا فلا يصوم إقليم ويفطر آخر فى يوم واحد؟.

قال الشافعى الرأى الأول، وقال الجمهور الرأى الثانى، أى أن الاعتداد بأول رؤية، وروى عن ابن عباس، وقد كان بمكة فرأى أهل الشام الهلال ليلة الجمعة فصاموا يومها، ورأى أهل الحجاز الهلال ليلة السبت فلم يصوموا السبت، وقال: هكذا أمرنا رسول الله ﷺ(١).

---

(١) عَنْ كُرَيْبٍ أَنَّ أُمَّ الْفَضْلِ بِنْتَ الْحَارِث بَعَثَتْهُ إِلَى مُعَاوِيَةَ بِالشَّامِ قَالَ فَقَدمْتُ الشَّامَ فَقَضَيْتُ حَاجَتَهَا وَاسْتُهِلَّ عَلَيَّ رَمَضَانُ وَأَنَا بِالشَّامِ فَرَأَيْتُ الْهِلالَ لَيْلَةَ الْجُمُعَة، ثُمَّ قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ فِى آخرِ الشَّهْرِ فَسَأَلَنِى عَبْدُ اللَّه بْنُ عَبَّاسٍ - رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمَا - ثُمَّ ذَكَرَ الْهِلالَ فَقَالَ: مَتَى رَأَيْتُمْ الْهِلالَ فَقُلْتُ: رَأَيْنَاهُ لَيْلَةَ الْجُمُعَة فَقَالَ: أَنْتَ رَأَيْتَهُ فَقُلْتُ: نَعَمْ وَرَآهُ النَّاسُ وَصَامُوا وَصَامَ مُعَاوِيَةُ فَقَالَ: لَكِنَّا رَأَيْنَاهُ لَيْلَةَ السَّبْت فَلا نَزَالُ نَصُومُ حَتَّى نُكْمِلَ ثَلاثِينَ أَوْ نَرَاهُ فَقُلْتُ: أَوَ لا تَكْتَفِى بِرُؤْيَةِ مُعَاوِيَةَ وَصِيَامِه فَقَالَ: لا؛ هَكَذَا أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. [أخرجه مسلم: كتاب الصيام - بيان أن لكل بلد رؤيتهم (١٨١٩)].

ففهم الشافعى من هذا أن اختلاف المطالع يعتبر، بحيث لا يكلف أهل مطلع، إلا على مقتضى مطلعهم، وإنى أرى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما أن العبرة بمطلع مكة؛ أولا: لأنه كان بمكة ولم يعتبر برؤية الشام وثانيا: لأن مكة قبلة المسلمين يتوحدون عندها، فيكونون كالدائرة حولها، وثالثا: أن هلال ذى الحجة لا يعد إلا بهلالها، ويوم عرفة وأيام التشريق وغيرها لا يعتد إلا بها، ولأنها مجتمع الوحدة فى الصلاة والحج فتكون مجتمع الوحدة الإسلامية فى الصوم.

هذا رأى رأيناه وعرضناه والله أعلم بالصواب.

وإن شرعية صيام رمضان مع الرخص التى تسوغ الإفطار هو من تيسير أداء الفريضة؛ ذلك أن من شأن هذه الشريعة أنها إذا كلفت تكليفا فيه مشقة فتحت باب الترخيص ليسهل الأداء وليداوم عليه ويستمر من غير تململ، ولا تحمل المكلفين على أقصى المشقات ولذا قال تعالى: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾، وهذا النص الكريم فيه إشارة إلى تعليل هذه الرخص، وفيه إشارة إلى الوصف العام لشرع الله تعالى، الذى دعا إليه النبى ﷺ فقال: «**يسروا ولا تعسروا**» وما خير النبى بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن معصية، وقال تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ... (٧٨)﴾ [**الحج**] ولمقام التعليل فى قوله تعالى: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾، عطف عليه تعليل آخر، وهو قوله: ﴿**وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ**﴾ أى لتتموا عدة الشهر فى يسر من غير إعنات، وهنا فعل محذوف تقديره، شرع لكم ذاك التيسير لكيلا يكون حرج وضيق فى صومكم، ولتكلموا العدة أى لتستطيعوا أداء العدد كاملا غير منقوص بالأداء لمن لا عذر له، وبالأداء مع القضاء من أيام أخر لمن كان ذا رخصة تجيز الفطر وتوجب القضاء، فتكون عدة الشهر قد كملت، أداء وقضاء أو أداء فقط لمن له عذر.

﴿**وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ**﴾، ولتتجهوا إلى الله مكبرين ضارعين إليه جل جلاله على هدايته لكم بأن وفقكم للإيمان بدل الكفر، وبأن مكنكم من أداء الواجب كاملا.

وقالوا إن ذلك إيذان بالعيد، وهو تكبير الله إذ إن التكبير يكون للفرح بالعيد، وللصائم فرحتان يوم فطره ويوم لقاء ربه[1] وفرحته يوم فطره هى فرحته بأداء الواجب وسروره بالطاعة وفرحته يوم لقاء ربه هى فرحته بالنعيم المقيم، وبالرضوان من الله تعالى وهو لدى الأبرار أكبر من النعيم كما قال تعالى: ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ... ﴿٧٢﴾ ﴾ [التوبة].

وإن هذه النعم نعمة الإيمان، ونعمة التيسير، ونعمة أداء الواجب كاملا ونعمة الفرحة به يوم الفطر، وتكبيره سبحانه وتعالى يقتضى الشكر، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولعل للرجاء وهو من الناس، ومن ترتيب الأمور، لا من الله تعالى أى لترجوا شكرا لله تعالى على هذه النعم المتوالية، والله غفور رحيم.

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ

(١) متفق عليه من رواية أبى هريرة. وقد سبق قريبا.

﴿إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٨٧﴾

إن شهر رمضان شهر التجرد الروحى، والاتجاه إلى الله تعالى، فقد كتب الله تعالى علينا صيامه، وسن ﷺ قيامه، وسن ﷺ الاعتكاف فى المساجد، وإن المؤمن إذا تجرد ذلك التجرد كان الله تعالى ملء قلبه وناجى ربه سرا وعلانية، وذكره خفية وجهرة، ودعا ربه ضارعا إليه، وقد وعده الله تعالى بإجابة دعائه، وأنه قريب منه وأنه مستجيب له لأنه استجاب له؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ وإن العبد إذا أحس بعظمة الله تعالى، وامتلأ قلبه بخشيته أحس بأنه عونه، وأنه سنده، وإن أولئك الذين يشكرون لله تعالى نعمته فى شرعه الرخص بجوار العزائم يتجهون إلى الله تعالى، وكأنهم يسألون قربه ليصل دعاؤهم فقامت حالهم مقام سؤالهم، أو هم سألوا فعلا؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ جعل سبحانه الشرطية تتعدى بإذا - الدالة على تحقق السؤال وقد كان بحالهم الخاشعة الضارعة الطالبة، وقال سبحانه عن السائلين بحال نفوسهم: «عبادى أى» الذين يشعرون بحق العبودية ويرتضونها طيبة نفوسهم راضية خائفة قلوبهم فإذا سألوك فإنى قريب منهم قرب نفوسهم بإحساسهم بمقام العبودية وأنا قريب منهم بالربوبية ثم قال سبحانه عن نتيجة هذا القرب: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ أى أن هذا القرب ليس قرب مكان ولكن قرب إجابة ورضا ورحمة وكأنه سبحانه وتعالى يقول: ادعونى أستجب لكم كما قال فى آية أخرى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ [غافر] وهذا يدل على أن الدعاء عبادة إذ قال عن الذين لا يدعون: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾: فالدعاء عبادة وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «الدعاء مخ

العبادة»(١)، وإن الله تعالى يحب دعاء عبيده وقد روى عن النبى ﷺ: «إن الله يحب المُلحِّين فى الدعاء»(٢)، روى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «من لم يدعُ الله تعالى غَضب عليه»(٣).

فالدعاء على هذا عبادة واستغاثة واتجاه إلى الله تعالى كما جاء فى المعنى اللغوى فقد جاء فى القاموس وشرحه: الدعاء الرغبة إلى الله تعالى فيما عنده من الخير، والابتهال إليه بالعبادة والاستعانة، وبالثناء عليه تعالت ذاته العلية عن الشبيه والمثيل.

وإذا كان ذلك شأن الدعاء ومقامه، فقد قرب الله الداعين إليه وقال تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ﴾.

الفاء للإفصاح عن شرط مقدر مضمونه إذا كنت قريبا منهم أجيب دعوتهم إذا دعونى وأقبل عبادتهم - إذ كان دعاؤهم عبادة واستغاثة وثناء عليه سبحانه - إذا كنت كذلك بالنسبة لهم فليستجيبوا لى فيما أدعوهم إليه من إقامة للعدل ودفع للظلم، وإصلاح فى الأرض، ومنع للفساد، وإصلاح ذات بينهم، ومن إفراده بالعبادة والالتجاء إليه. والاستجابة الإجابة بعد معالجة النفس وحملها على الإجابة أو المبالغة فى الإجابة بالطاعة والإحسان فيها وأن يعبد الله كانه يراه فإن لم يكن يراه فليشعر أنه فى رقابة الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ أى حق الإيمان بأن يؤمنوا بأن الله واحد أحد لا شريك له، وأن يؤمنوا بقدرته التى أبدعت وخلقت كل شئ فقدرته تقديرا، وأنه المستعان فى الشدائد والملجأ فى المكاره، وليستنوا بسنته فى كل أحوالهم، ولقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال].

---

(١) سبق تخريجه من رواية الترمذى عن أنس بن مالك - رضى الله عنه -.

(٢) أخرجه الطبرانى فى الدعاء بسند رجاله ثقات إلا أن فيه عنعنة بقية عن عائشة - رضى الله عنها - مرفوعا [أفدته من فتح البارى - أول كتاب الدعوات].

(٣) رواه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده جـ٢ ص٤٤٣، ٤٧٧، بلفظ (من لم يدع الله غضب الله عليه).

ثم بين سبحانه وتعالى أن طاعة الله تعالى فى كل ما يأمر به، وينهى عنه، والإيمان به حق الإيمان هو سبيل الرشاد فى هذه الدنيا، وإدراك حقيقتها وفهمها والإصلاح فيها، ولذلك قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ﴾، أى يرجون بالإيمان الصادق والالتجاء إليه سبحانه وحده أن يرشدوا بأن يسيروا فى طريق الرشاد الذى لا عوج فيه فيصلحون ويصلح الناس بهم، ويسلكون جميعا طريق الهداية والله يهدى من يشاء.

كانت آية الدعاء وقرب الله تعالى لمن يدعوه واستجابته له، كان هذا إشارة إلى صفاء النفس الذى يكون للصائم إذا قام بحق الصيام، وقرب من الله تعالى، ولقد كان ابن عمر - وغيره من الصحابة المقربين - كثير الدعاء فى رمضان، وسماه بعض العباد شهر الاستجابة.

وبعد ذلك أخذ القرآن الكريم يبين بعض أحكام الصيام يشرح وقته، وإزالة بعض الأوهام، فقال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾.

فهم بعض الناس أن اتصال الرجل بأهله فى ليل رمضان كان ممنوعا ثم أحل، وفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾، فالإحلال لا يكون إلا فى موضع كان محرما، وقد نسخ التحريم، وإن ذلك ظن الذين يفْرطون فى ذكر الناسخ والمنسوخ فى القرآن، وعندى أن «أحل» تدل على أن الرفث إلى النساء حلال قد أحله الله تعالى، وذكر بالبناء للمجهول للدلالة على أنه حلال من قبل ومن بعد.

وإنه قد جاءت الروايات عن الصحابة بأن بعضهم حسب أنه بمجرد نوم أحدهم ينتهى وقت الفطر، ويبتدئ وقت الصوم(١)، ويظن من يأتى امرأته بعد أن

---

(١) عَنْ الْبَرَاء - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ إذَا كَانَ الرَّجُلُ صَائمًا فَحَضَرَ الإفْطَارُ فَنَامَ قَبْلَ أَنْ يُفْطِرَ لَمْ يَأْكُلْ لَيْلَتَهُ وَلا يَوْمَهُ حَتَّى يُمْسِيَ، وَإِنَّ قَيْسَ بْنَ صِرْمَةَ الأَنْصَارِيَّ كَانَ صَائمًا فَلَمَّا حَضَرَ الإفْطَارُ أَتَى امْرَأَتَهُ فَقَالَ لَهَا: أَعِنْدَكِ طَعَامٌ؟ قَالَتْ: لا وَلَكِنْ أَنْطَلِقُ فَأَطْلُبُ لَكَ، وَكَانَ يَوْمَهُ يَعْمَلُ فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ، فَجَاءَتْهُ امْرَأَتُهُ فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ: خَيْبَةً لَكَ، فَلَمَّا انْتَصَفَ النَّهَارُ غُشِيَ عَلَيْهِ، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَنَزَلَتْ =

ينام أنه قد انتهك حرمة الصوم، فرد الله تعالى ذلك الزعم بقوله تعالت حكمته: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ﴾. والرفث ذكر ما يكون بين الرجل والمرأة من جماع ومقدماته ونحو ذلك من القول، وهو هنا كناية عن الجماع كما يُكَنَّى بلفظ لامستم النساء عن الجماع، وكذلك بلفظ لمستم.

وقول الله تعالى ﴿إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ لتضمُّن الرفث معنى الإفضاء إلى النساء بجماعهن كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [النساء].

وقد بين الله تعالى صلة الرجل بامرأته بأدق عبارة وأرق قول، فقال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ اللباس ما يستر البدن للرجل والمرأة، فالعلاقة بين الزوجين تجعل الزوجة كأنها لباس لزوجها تستره، وتمس جسمه وتكون منه بمنزلة الشعار والدثار[1] ، وهو لها كأنه لباس يسترها، ويكون منها بمنزلة الشعار والدثار يلامس جسمها جسمه، فتكون المشاعر التى تثير وتهيج.

وإن هذا اللفظ يدل على الحاجة الحسية من الرجل لامرأته، ومن المرأة لزوجها، والحاجة النفسية والرباط الروحى الذى يربط بينهم بالمودة والرحمة، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ... ﴿٢١﴾﴾ [الروم].

وقد بين الله تعالى أنهم كانوا يكلفون أنفسهم ما لم يكلفوا، فكانوا يمتنعون عن مباشرة النساء ظانين أن ذلك غير حلال لهم فقال تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ

= هَذه الآيَةُ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ... ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة] فَفَرِحُوا بِهَا فَرَحًا شَدِيدًا، وَنَزَلَتْ ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ ... ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة] [رواه البخارى: كتاب الصوم (١٧٨٢)].

(١) الشِّعارُ: ما ولى شَعَرَ جَسَدِ الإنسان دون ما سواه. والدِّثارُ: الثوب الذى يُسْتَدْفَأُ به من فوق الشعار. وفى المثل: هم الشِّعارُ دون الدِّثارِ؛ يصفهم بالمودّة والقرب. لسان العرب.

﴿تخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ أى تخونون باستباحة ما أحل الله لكم إذ تضطرون بحكم العلاقة الشرعية والإنسانية أن يكون منكم لأزواجكم ما يظنونه ممنوعا، وهو غير ممنوع فتاب عليكم من هذا الظن وبين لكم أنه حلال قال تعالى آمرا بإباحة المباشرة، وحدا لميقات الصوم ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

المباشرة كناية عن الجماع، ككناية الملامسة، والرفث إليهن، ولكنها أقرب إلى الصراحة من الملامسة والمس. وابتغاء ما كتب الله تعالى هو ابتغاء الولد حفظا للنسل، وعمارة للكون بالإنسان الذى هو الخليفة فى هذه الأرض، فالنكاح ما شرعه الله تعالى إلا لابتغاء ذلك لا لمجرد الشهوة، وإن الله تعالى قد أودع غرائز الإنسان ما ينوط به تكليفه فأودع فيه الشهوة ليسهل وجود النسل وتكاثره، وإن الأسرة تكليف شديد، ويتعلق به تبعات كثيرة من تربية الأولاد، والإنفاق وحضانتهم، وحمله كرها ووضعه كرها، وحمله وهنًا على وهن، وغير ذلك من المشاق الظاهرة ولولا الشهوة الدافعة ما تزوج ولا تزوجت، ولكن الله تعالى لحكمته، ولما كتبه من البقاء للإنسان ركب فيه هذه الغريزة الجنسية لتدفعه إلى الزواج راغبا ولطلب الولد محبا.

والذين يدعون إلى الحد من النسل وأن تكون الشهوة للشهوة لا لطلب الولد، محاربون للفطرة، وينحدرون إلى درك دون الإنسان، بل دون الحيوان.

وذكر نعمة الولد وقال: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، أى ما قدر الله تعالى لكم من ولد وهذا إشارة إلى أن الولد؛ رزق كتبه الله تعالى لكم، فأكرموه؛ لأنه عطاء الله واحفظوه لأنه أمانته التى كتبها لكم وائتمنكم عليها.

وحدَّ الله تعالى ميقات الإفطار والصوم، فقال تعالت كلماته: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾.

والخيط الأبيض هو خيط الفجر يشق السماء بنور كالخط ثم ينتشر ذلك الخط شيئا فشيئا حتى يختفى الظلام ويكون النهار . . والخيط الأسود ما يكون حول ذلك الخط الأبيض من ظلام وقوله من الفجر من هنا بيانية أى أن الخطين يبدوان في الفجر وهو ابتداء النهار وهو ابتداء الصوم؛ ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ أى إلى غروب الشمس فالخط الأبيض فى سواد الليل هو نهاية الأكل والشرب وكل المباحات فى الإفطار وابتداء المنع بالصيام حتى يكون الغروب، وبذلك حد الوقت للإفطار وللصوم معا.

وإنه فى العشرة الأخيرة من رمضان يستحب الاعتكاف فى المسجد بأن يبقى فيه متعبدا متنسكا لا يخرج منه إلا لحاجة ضرورية ويعود فور زوالها ويمنع من النساء؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾.

وبهذا أشار سبحانه وتعالى إلى استحسان الاعتكاف وهو سنة عن النبى ﷺ إنه بهذا البيان الحكيم قد حد الله تعالى ما يحل وما لا يحل ووقت الحل ووقت الصوم، وحد ميعاد الصوم وميعاد الفطر؛ ولذلك قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا﴾ فالتزموها ولا تقاربوا الابتداء ولا الانتهاء، أو لا تقربوها بمعنى لا تعتدوا عليها فتمتنعوا حيث لا يجوز المنع كالامتناع عن الأكل والشرب، ثم قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أى كذلك البيان الذى بين فيه الصوم ورخصه وعزائمه وحدوده وما يجوز فيه وما لا يجوز ولا بيان كهذا البيان، يبين الله تعالى الأحكام والتكليفات رجاء أن يتقوا الله تعالى ويجعلوا وقاية بينهم وبين غضبه سبحانه وتعالى وينالون رضوانه.

فقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ لعل فيه للرجاء، والرجاء من العباد لا من الله تعالى؛ لأن الرجاء معنى لا يليق بذات الله العلية الذى جل علمه وتنزهت ذاته.

وهذا يفيد أن كل التكليفات الشرعية وخصوصا العبادات لتربية النفس المؤمنة على التقوى، وإيداع المهابة من الله تعالى فى قلوب العباد فلا يجترئون فينتهكوا حرمات الشهر الذى عظمه الله تعالى، وجعله مباركا، وأنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان.

تطهير النفس من المال الخبيث

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ١٨٨﴾

بعد أن بين سبحانه وتعالى الصوم وما فيه من تهذيب النفس - بين سبحانه وتعالى أن من التهذيب النفسى أو بث التقوى فى روح الجماعة الإسلامية نزاهة المال عن الخبث كنزاهة النفس؛ ولذا عطف على الأوامر والنواهى الخاصة بالصوم النهى عن أكل أموال الناس بالباطل، فقال تعالى: ﴿**وَلا تَأْكُلُوا أَموَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ**﴾.

الواو هنا عاطفة على ما سبق من إباحة ونهى، فى قوله، ﴿**فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ**﴾ وما تبع ذلك من صيغة أمر تبيح الأكل والشرب، ونهى عن المباشرة، وجاء النهى بعد ذلك عن أكل مال الناس بالباطل؛ لأنه من جنس الأوامر والنواهى السابقة، فإذا كانت لنزاهة النفس وطهارتها، فالنهى عن أكل مال الناس بالباطل؛ لنزاهة النفس والمجتمع وطهارته من أسباب النزاع، فالنواهى تتدرج فى النصوص الإسلامية فى هذه الآيات من إبعاد نفوس الآحاد عن الإرجاس فى العبادات، إلى النهى للجماعة كلها عما يفنى الجماعات من أخذ المال بالباطل؛ لأنه قتل لها كما قال تعالى فى آية أخرى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَموَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ٢٩**﴾ [**النساء**].

فأخذ أموال الناس بالباطل، وشيوع ذلك، واستمراؤه يقتل الأمة؛ لأنه يشيع فيها الفساد، ضياع الحقوق، وألا يحترم العدل، ويسود الظلم، وبذلك تفنى الأمم، وتذهب قوتها أمام من يتربص بها الدوائر.

وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ أمر عام للجماعة الإسلامية، بأن يكون التعامل المالى بينها على أساس من احترام كل حق الآخرين، وألا يأخذ مالا إلا بحقه، فلا يأخذه بربا أو غش أو تدليس أو بميسر، أيا كان شكله، ولا بسرقة أو غصب.

وعبر سبحانه وتعالى عن الأخذ بالأكل؛ لأن أظهر مظاهر الانتفاع بالمال الأكل حلالا أو حراما وهو أشد ما يطلب المال لأجله، ولأن الأكل إن لم يكن مصدره حلالا كان كالنار وتدخل بطن الآكل.

وقال تعالى: ﴿ أَمْوَالَكُم﴾ للإشارة إلى أن مال الآحاد مال الأمة، إن نما قويت، وإن ضعف ضعفت، وإن كان حلالا كان طيبا، كان عزا، والإشارة إلى وجوب التعاون بين الناس فى جعله لخير الجماعة، وتنميته لعمومها، وللناس كافة مع بقاء كل ملك كان على ملكيته لقوله ﷺ: «**لا يحل مال امرىء مسلم إلا بطيب نفسه**»(١).

وقوله تعالى: «بينكم»، أى متبادلا بينكم منتقلا من حيز إلى حيز بالحق، وفى ذلك إشارة إلى أنه لا يصح أن ينقل بينكم إلا بالحق، فلا يصح أن ينتقل من حيز إلى حيز إلا بالحق ولا يجوز أن ينتقل بالباطل، سواء أكان برضا كالربا، والبيوع الربوية وكالميسر، والعقود التى تشتمل عليه، وغير ذلك من العقود التى جاءت على غير ما أمر به الشرع، أم كانت بغير رضا صحيح كامل، كالغصب والسرقة والغش والتدليس والتغرير، فإن أخذ المال بهذا الشكل لا يجوز مطلقا؛ لأنه غير مبنى على علم صحيح فلا يكون الرضا كاملا.

وقال تعالى بعد ذلك: ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ﴾ هذا معطوف على النهى، فالنهى منصب على أكل مال المؤمنين بينهم، وعن

---

(١) رواه أحمد فى مسنده عن أبى حرة الرقاشى، عن عمه، فى حديث خطبة الوداع الطويل، وأورده أبو يعلى بلفظ المؤلف دون زيادات - عنه أيضا - فى باب مسند أبى سعيد الخدرى، ج٣ ص١٤٠ (١٥٧٠)، والدارقطنى عنه ج١ ص٢١ (٢٨٤٣)، كما أورده الدارقطنى من رواية أنس - رضى الله عنه (٢٨٤٢).

الإدلاء إلى الحكام، وقد وردت قراءة أُبيّ بزيادة «لا»، وهى أقرب إلى أن تكون تفسيرا، ومهما يكن فإن النهى ثابت عن الإدلاء، كالنهى عن الأكل؛ لأنه ينتهى إلى أكل للمال بالباطل، فالآية تنهى عن الأكل الظالم سواء أكان فى ضمن التعامل الآثم بينكم، أم كان بالاستعانة بالحكام، بتضليل القضاء، أو بتحويل الحاكم عن الإنصاف بسحت من المال يقدم.

والإدلاء فى أصله إلقاء الدلو فى الماء ليحمل الماء إليه من البئر، أو من حفرة فيها ماء، ثم أطلق على إرسال أى شيء يأتى بما يفيد، وأطلق على الذى يحتج على غيره، أدلى بحجته لأنه أرسلها، ليأخذ الحق من غيره، ويقال أدلى بنسب إنما اتصل بالنسبة.

ومعنى أدلى إلى الحكام بالمال، أى أنهم يقدمونها للحكام الآثمين، من نسقه الذين يجلسون فى مناصب القضاء، أو الحكام الذين يملكون العطاء والمنع، أو يملكون القسمة بين الناس، ومعنى الإدلاء بالمال على هذا تقديم المال لهؤلاء ليعدلوا بهم عن قسمة الحق إلى القسمة الضيزى التى تمنع الحق، وتقرر الباطل . . والرشوة لها صور شتى، فمرة تكون بإعطاء المال لتحول من هو فى منصب القضاء عن العدل، أو بالإهداء، أو بالضيافة، أو بأداء الخدمات حلالها وحرامها، أو بمقارضة الظلم، كأن يظلم فى قضية لمجلس فى منصب القاضى، ليظلم فى قضيته وكل ذلك استخدام للمال، أو ما يقوم مقامه من أداء أمور تقوم بمال أو لا تقوم بمال وفيها نفع واضح.

هذا تفسير قوله تعالى: ﴿**وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ**﴾ أى أكلا متلبسا بالإثم، وأنتم تعلمون أنه إثم، لا حق لكم فى أكله، وهذا تأكيد لمعنى الإثم والظلم وأكل أموال الناس بالباطل، ولقد قال النبى ﷺ: «**لعن الله الراشى والمرتشى**»(١).

---

(١) «لعن رسول الله ﷺ الراشى والمرتشى» رواه الترمذى: الأحكام - ما جاء فى الراشى والمرتشى فى الحكم (١٢٥٧) عن عبد الله بن عمرو، وقال: حديث حسن صحيح، كما رواه أبو داود، وابن ماجه، وأخرجه أحمد فى مسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص (٦٢٤٦).

وهناك تخريج آخر لقوله تعالى: ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ﴾ بأن المراد بالإدلاء بها الخصومة بشأنها، والترافع فى أمرها، وأنت تعلم أنك آخذها بغير حق، ولكن لا حجة لخصمك على أن ما فى يدك سلطانك عليه بالباطل، ولقد قال فى ذلك الحافظ ابن كثير عن ابن عباس رضى الله عنهما هذه الآية: ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ فى الرجل يكون عنده مال، وليس عليه فيه بينة، فيجحد المال ويخاصم إلى الحكام، وهو يعرف أن الحق عليه.

فهؤلاء رشوا من هو فى منصب القضاء، ولكن يضله ليأكل مقدارا من أموال الناس بالإثم، فكلمة فريق معناها مقدار قطعه من مال الناس، وهو يعلم أنه إثم.

ومن هؤلاء من يلحن بالحجة لضل الحاكم، وقد روت أم سلمة عن النبى ﷺ أنه قال: «**ألا إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلى، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضى له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار**»[(١)].

هذان تخريجان لمعنى النص الكريم ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ وإن الإدلاء لتحويل الحكام عن الحكم يكون بسحت من المال يقدم لحكام السوء، فيحولهم عن الحق إلى الباطل، وإما بحجة براقة، أو نقصان فى دليل الخصم يتحولون به مخطئين من الحق إلى الباطل، ويصح الجمع بين التخريجين إذ لا معارضة بينهما. والحكام هم المنفذون للأحكام.

---

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى: الأحكام - موعظة الإمام للخصوم (٦٦٣٤)، ومسلم: الأقضية: الحكم بالظاهر واللحن بالحجة (٣٢٣١).

الأهلة

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾

ذكر الله سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة أن الشهر وهو الهلال هو حد ابتداء شهر رمضان، وحد انتهائه؛ ففى أوله برؤية هلاله، وفى آخره برؤية هلاله، فناسب بعد تمام ما أراد الله تعالى بيانه من الصوم أن أشار سبحانه إلى ما كان يدور على الألسنة خاصا بالأهلة بجوار ما ابتدعه الجاهليون من دخول البيوت من ظهورها فى موسم الحج، فقال تعالت كلماته: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ**﴾.

كان الناس من اليهود والمشركين، وبعض المسلمين يسألون عن أمور ليست من الدين وقد تكون عن الكون، وما يجرى فيه أمر الوجود، وما كانت الشريعة الإلهية لذلك، إنما هى لبيان ما يعبد الله تعالى به، وما يصلح به العباد فى معاشهم، فليس منها لماذا كانت الشمس مضيئة كحجمها، والقمر نور يتغير حجمه من هلال كالخيط، ثم يزيد، حتى يصير بدرا، ثم يأخذ مرة ثانية فى الضيق حتى يكون المحاق.

كانوا يسألون هذه الأسئلة، وهى فى موضوعها معقولة من حيث علم الخلق والتكوين والبحث فى أسرار الوجود، ولكنها ليست من أحكام الدين، وما يجب أن يبينه ويعلم الناس به، بل أمره إليهم يتعلمونه ويتعرفونه ويذاكرونه على أمور دنياهم، لا من أمور دينهم الذى به صلاح معاشهم ومعادهم.

ولذلك لما سألوا هذه الأسئلة التى لا تتعلق بعلم الدين صرف الله تعالى نظرهم، وأخذهم إلى الناحية الدينية التى يجب أن يعرفوها ويدركوها، فقال تعالى: ﴿**قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ**﴾ وهذا لفت لهم إلى أن الواجب أن يسألوا عن فوائدها فى الدين والمعاملات، وهذا يقال عنه فى علوم البلاغة الأسلوب الحكيم، وذلك هو أن يكون السؤال فى غير موضعه فيجيب المسئول عن أمر آخر هو الذى ينبغى أن يكون السؤال فيه، ومن ذلك فى القرآن الكريم: ﴿**يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ** ... (٢١٥)﴾ [**البقرة**]، فيجيبهم النبى ﷺ بأمر ربه: ﴿**قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ** ... (٢١٥)﴾ [**البقرة**] إلى أخر الآية الكريمة، وكذلك هنا سألوا النبى عن الأهلة عن كونها، وبُدُوِّها للناظر صغيرة ثم تكبر فأمر الله تعالى نبيه بأن يقول: ﴿**هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ**﴾.

مواقيت للناس فى معاملاتهم، وفى بيوعهم وفى ديونهم المؤجلة وإجاراتهم، ومزارعاتهم، ومساقاتهم وغير ذلك مما يجرى، وفيها تتبين مواقيت الحج، ﴿**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ** ... (١٩٧)﴾ [**البقرة**] وبها تعين أوقات المناسك، ويضاف إلى ذلك مواقيت الصيام، إلى آخر ما هو معلوم فى الدين وأعراف الناس.

وجمع فى الآية الأهلة وهى هلال واحد فى كل الأوقات والشهور، ولكن لتغير حاله من ضمور فاتساع حتى يصير بدرًا، ثم يصير كالعرجون القديم عدت هذه الصور أهلة، وإن كانت الحقيقة واحدة، والتغير فى المنظر بسبب توسط الأرض بين الشمس والقمر فى دورانها حولها.

والقمر حساب يدل العرب فى صفو الصحراء على أيام الشهر، ولقد قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ** ... (٥)﴾ [**يونس**].

ولقد بين سبحانه وتعالى أن الأمور يجب أن توضع فى مواضعها، وأن يعلم أن البر هو التقوى، وليس المظاهر والأشكال، كما ورد عن النبى ﷺ: «**إن الله**

لا ينظر إلى صـوركم، ولكن ينظر إلى قلوبـكم وأعمـالكم»[١]؛ ولذا قال تـعالى: **﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾**.

قيل إن بعـض العرب كان إذا أحـرم، لا يدخل بيتـه من بابه وإنما يدخل من ظهره، قـال ابن عباس فى رواية عنه كـان الناس فى الجاهليـة وفى أول الإسلام إذا أحرم الرجل منهم بالحج، فإن كان من أهل المدر (أى البيوت المبنية بالآجر) نقب فى ظهر بيته نقـبا، ، فمنه يدخل ومنه يخرج، أو يضع سلما فيصـعد منه ويحدر عليه، وإن كان من أهل الوبر (دار أهل الخيام) يدخل من خلف الخيمة.

وقالوا إن الآية نزلت لإبطال هـذه العادة التى كانت بقـية من بقايا الجـاهلية، وبين أن هذا ليس من الإسلام؛ لأن هذه أمور شكليـة لم يأمر بها الله تعالى، وكل ما لم يأمر به الله تعالى ويتخذ على أنه عبادة يكون بدعة محرمة وخصوصا إن كان له صلة بالعبادة.

هذا هو التخريج الذى يتـفق مع بعض المأثورات وإن كانت لم تثبت صحـتها على وجه الجزم واليقين.

وهناك تخريج آخـر، وهو أن هذا الكلام تصوير للذين يـسألون عن الأهلة، ولا يعنون بصلتها الشرعية من حيث إنها مواقيت للناس والحج، من حيث إنهم مثل الذين ينظرون إلى أمـور من ظواهر الشـرع، فلا يأتون الأمـور من بابها، وهو مـا يتعلق بالقلب فـهم لم يدخلوا الأمور من بابها بتسـاؤلهم عن الأهلة، وأخذوها من غيـر بابها، وقد قال فى ذلك الراغب فـى تفسيره قـال الله تعالى: **﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾** بأن تطلبوا الأمر من غيـر وجهه، وذلك أنه يقال إن فلان أتى الأمر من غير وجهه، وجعل ذلك مثلا بسؤالهم النبى ﷺ لما هو ليس من العلم المخـتص بالنبوءات وإن ذلـك عدول عن النهج، وذلك أن الـعلوم ضربان: دنيـوى يتعلق بأمر المعاش لمعرفة الصنائع، ومعرفـة حركات النجوم ومعرفة المعادن والنبات،

---

(١) عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ». [رواه مسلم: كتاب البر والصلة (٤٦٥١)].

وطبائع الحيوانات، وقد جعل سبيلا إلى معرفته على غير لسان نبيه ﷺ.

الضرب الثانى: شريعة وهو البر ولا سبيل لأخذه إلا من جهته، وهو أحكام التقوى ومؤدى ذلك أن قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ إلى آخر الآية رد على الذين سألوا عن أدوار الأهلة. إنهم طلبوا العلم الإسلامى من غير طريقه المرسوم كمن أتى البيت من ظهره لا من بابه، وإنه كان عليهم أن يسألوا عن البر فى الشريعة لأنه المختص بالنبوة.

ولذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ﴾ يتمثل فيمن اتقى، وأتوا البيوت من أبوابها، فاسألوا النبى ﷺ فيما يختص به، وهو تبليغ رسالة الله تعالى حتى ترشدوا وتدركوا لعلكم تفلحون، أى رجاء أن تفلحوا وتنالوا الفوز برضا الله تعالى، وهو التواب الرحيم.

أحكام الجهاد (1)

ذكر الله تعالى فى آية البر أن من أعلى أوصاف أهل البر، ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ... (١٧٧)﴾ [البقرة]، والجهاد هو البأس الذى يوجب الصبر، ولذا قال تعالى:

وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ
وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ (١٩٠)
وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ
أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ

(1) بدءا من الآية ١٩٠: ١٩٣ من سورة البقرة ساقط من الأصل؛ وقد آثرنا استكماله من تفسير القرطبى، لما له من مركز الصدارة فى مراجع المؤلف رحمه الله، وإتماما لـلفائدة بعيدا عن اجتهاد ربما لا يرضاه المصنف رحمه الله تعالى. والله من وراء القصد. الناشر.

فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا
فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ
الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾

قوله تعالى: ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾. فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ **وَقَاتِلُوا** ﴾ هذه الآية أول آية نزلت فى الأمر بالقتال، ولا خلاف فى أن القتال كان محظورا قبل الهجرة بقوله: ﴿ **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ... ﴿٩٦﴾** ﴾ [**المؤمنون**]، وقوله: ﴿ **فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ... ﴿١٣﴾** ﴾ [**المائدة**]، وقوله: ﴿ **وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً ﴿١٠﴾** ﴾ [**المزمل**]، وقوله: ﴿ **لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾** ﴾ [**الغاشية**]، وما كان مثله مما نزل بمكة. فلما هاجر إلى المدينة أمر بالقتال فنزل: ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ** ﴾ قاله الربيع بن أنس وغيره. وروى عن أبى بكر الصديق أن أول آية نزلت فى القتال ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا... ﴿٣٩﴾** ﴾ [**الحج**]. والأول أظهر، وأن آية الإذن إنما نزلت فى القتال عامة لمن قاتل ولمن يقاتل من المشركين. وذلك أن النبى ﷺ خرج مع أصحابه إلى مكة للعُمرة، فلما نزل الحديبية بقرب مكة - والحديبية اسم بئر، فسمى ذلك الموضع باسم تلك البئر - فصده المشركون عن البيت، وأقام بالحديبية شهرا، فصالحوه على أن يرجع من عامه ذلك كما جاء، على أن تخلى له مكة فى العام المستقبل ثلاثة أيام، وصالحوه على ألا يكون بينهم قتال عشر سنين ورجع إلى المدينة، فلما كان من قابل تجهز لعمرة القضاء، وخاف المسلمون غدر الكفار وكرهوا القتال فى الحرم وفى الشهر الحرام، فنزلت هذه الآية؛ أى يحل لكم القتال لمن قاتلوكم من الكفار. فالآية متصلة بما سبق من ذكر الحج وإتيان البيوت من ظهورها، فكان ﷺ يقاتل من قاتله ويكف عمن كف عنه، حتى نزل: ﴿ **فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ... ﴿٥﴾** ﴾ [**التوبة**] فنسخت هذه

الآية، قاله جماعة من العلماء. وقال ابن زيد والربيع: نسخها ﴿**وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً** ... ﴿٣٦﴾﴾ [**التوبة**] فأمر بالقتال لجميع الكفار. وقال ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ومجاهد: هي محكمة، أي قاتلوا الذين هم بحالة من يقاتلونكم، ولا تعتدوا في قتل النساء والصبيان والرهبان وما شابههم. على ما يأتي بيانه. قال أبو جعفر النحاس: وهذا أصح القولين في السنة والنظر؛ فأما السنة فحديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ رأى في بعض مغازيه امرأة مقتولة فكره ذلك، ونهى عن قتل النساء والصبيان. رواه الأئمة(١). وأما النظر فإن «فاعل» لا يكون في الغالب إلا من اثنين، كالمقاتلة والمشاتمة والمخاصمة؛ والقتال لا يكون في النساء ولا في الصبيان ومن أشبههم، كالرهبان والزمنى والشيوخ والأُجراء فلا يقتلون. وبهذا أوصى أبو بكر الصديق رضي الله عنه يزيد بن أبي سفيان حين أرسله إلى الشام؛ إلا أن يكون لهؤلاء إذاية. أخرجه مالك وغيره. **وللعلماء فيهم صور ست:**

١- **النساء إن قاتلن قُتلن**؛ قال سحنون: في حالة المقاتلة وبعدها، لعموم قوله: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ**﴾ ﴿**وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ**﴾. وللمرأة آثار عظيمة في القتال، منها الإمداد بالأموال، ومنها التحريض على القتال، وقد يخرجن ناشرات شعورهن نادبات مثيرات معيرات بالفرار، وذلك يبيح قتلهن، غير أنهن إذا حصلن في الأسر فالاسترقاق أنفع لسرعة إسلامهن ورجوعهن عن أديانهن وتعذر فرارهن إلى أوطانهن بخلاف الرجال.

٢- **الصبيان فلا يقتلون**؛ للنهي الثابت عن قتل الذرية، ولأنه لا تكليف عليهم؛ فإن قاتل قتل.

---

(١) عَنْ ابْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَ: وُجِدَتْ امْرَأَةٌ مَقْتُولَةً فِي بَعْضِ مَغَازِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ. [متفق عليه أخرجه البخاري وهذا لفظه: كتاب الجهاد والسير - قتل النساء في الحرب (٢٧٩٢)، ومسلم (٣٢٨٠) كما رواه الترمذي وابن ماجه ومالك والدارمي، وأحمد.

٣- **الرهبان لا يقتلون ولا يسترقّون**، بل يترك لهم ما يعيشون به من أموالهم، وهذا إذا انفردوا عن أهل الكفر، لقول أبى بكر ليزيد: وستجد أقواما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله، فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له؛ فإن كانوا مع الكفار في الكنائس قتلوا. ولو ترّهبت المرأة، فروى أشهب أنها لا تُهاج - أى لا تزعج ولا تنفر - وقال سحنون: لا يغير الترهب حكمها. قال القاضى أبو بكر بن العربي: «والصحيح عندى رواية أشهب؛ لأنها داخلة تحت قوله: «فذرهم وما حبسوا أنفسهم له»».

٤- **الزَّمْنى**[1]، قال سحنون: يقتلون. وقال ابن حبيب: لا يقتلون. والصحيح أن تعتبر أحوالهم، فإن كانت فيهم إذاية قتلوا، وإلا تركوا وما هم بسبيله من الزمانة وصاروا مالا على حالهم وحشوة.

٥- **الشيوخ**، قال مالك في كتاب محمد: لا يقتلون. والذي عليه جمهور الفقهاء: إن كان شيخًا كبيرًا هرمًا لا يطيق القتال، ولا يُنتفع به في رأي ولا مدافعة فإنه لا يقتل، وبه قال مالك وأبو حنيفة. وللشافعي قولان: أحدهما - مثل قول الجماعة. والثاني - يقتل هو والراهب. والصحيح الأول لقول أبي بكر ليزيد؛ ولا مخالف له فثبت أنه إجماع. وأيضا فإنه ممن لا يقاتل ولا يعين العدو فلا يجوز قتله كالمرأة. فأما إن كان ممن تخشى مضرته بالحرب أو الرأي أو المال، فهذا إذا أسر يكون الإمام فيه مخيرا بين خمسة أشياء: القتل أو المن أو الفداء أو الاسترقاق أو عقد الذمة على أداء الجزية.

٦- **العُسَفاء**، وهم الأجراء والفلاحون؛ فقال مالك في كتاب محمد: لا يقتلون، وقال الشافعي: يقتل الفلاحون والأُجَراء والشيوخ الكبار إلا أن يسلموا أو يؤدوا الجزية. والأول أصح، لقوله ﷺ في حديث رباح بن الربيع: «**الحق بخالد بن**

(١) جمع زَمِن، وهو من به آفة من عرج أو عمى أو مرض شديد.

الوليد فلا يقتلن ذرية ولا عسفا»[١]. وقال عمر بن الخطاب: اتقوا الله في الذرية والفلاحين الذين لا ينصبون لكم الحرب. وكان عمر بن عبد العزيز لا يقتل حراثا، ذكره ابن المنذر.

الثانية: روى أشهب عن مالك أن المراد بقوله: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ**﴾ أهل الحديبية أمروا بقتال من قاتلهم. والصحيح أنه خطاب لجميع المسلمين، أمر كل أحد أن يقاتل من قاتله إذ لا يمكن سواه. ألا تراه كيف بينها في سورة «براءة» بقوله: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ ...** ﴿١٢٣﴾﴾ [**التوبة**] وذلك أن المقصود أولا كان أهل مكة فتعينت البداءة بهم؛ فلما فتح الله مكة كان القتال لمن يلي ممن كان يؤذي حتى تعم الدعوة وتبلغ الكلمة جميع الآفاق ولا يبقى أحد من الكفرة، وذلك باق متماد إلى يوم القيامة، ممتد إلى غاية هى قوله ﷺ: «**الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة؛ الأجر والمغنم**»[٢] وقيل: غايته نزول عيسى بن مريم عليه السلام، وهو موافق للحديث الذي قبله؛ لأن نزوله من أشراط الساعة.

---

(١) جامع الأحاديث والمراسيل (٤١٣٠). ورواه أبوداود: قتل النساء (٢٢٩٥) عن رباح بن ربيع بلفظ: قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِى غَزْوَةٍ فَرَأَى النَّاسَ مُجْتَمِعِينَ عَلَى شَىْءٍ فَبَعَثَ رَجُلا فَقَالَ: انْظُرْ عَلامَ اجْتَمَعَ هَؤُلاءِ فَجَاءَ فَقَالَ: عَلَى امْرَأَةٍ قَتِيلٍ فقَالَ: مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ قَالَ: وَعَلَى الْمُقَدِّمَةِ خَالِدُ ابْنُ الْوَلِيدِ فَبَعَثَ رَجُلا فَقَالَ: قُلْ لِخَالِدٍ لا يَقْتُلَنَّ امْرَأَةً وَلا عَسِيفًا» ورواه ابن ماجه: الجهاد - قتل النساء والصبيان (٢٨٣٢) بنحوه عنه قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَمَرَرْنَا عَلَى امْرَأَةٍ مَقْتُولَةٍ قَدْ اجْتَمَعَ عَلَيْهَا النَّاسُ فَأَفْرَجُوا لَهُ فَقَالَ: «مَا كَانَتْ هَذِهِ تُقَاتِلُ فِيمَنْ يُقَاتِلُ». ثُمَّ قَالَ لِرَجُلٍ: «انْطَلِقْ إِلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ فَقُلْ لَهُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ يَقُولُ لا تَقْتُلَنَّ ذُرِّيَّةً وَلا عَسِيفًا» وبنحوه رواه أحمد: مسند المكيين (١٥٤٢٣) والذرية الأطفال والصبيان، قلت: والعسيف الأجير. ومثله العَسِف، غير أن الأولى على صيغة المبالغة (فعيل) والثانية على صيغة المبالغة (فَعِل).

(٢) متفق عليه؛ رواه - بهذا اللفظ عن عروة البارقى - البخارى: كتاب الجهاد والسير - الجهاد ماض إلى يوم القيامة مع البر والفاجر (٢٦٤٠)، ومسلم: كتاب الإمارة - الخيل فى نواصيها الخير (٣٤٨٠). ورواه الترمذى وابن ماجه والنسائى والدارمى وأحمد، إما مثله أو نحوه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ قيل في تأويله ما قدمناه، فهي محكمة. فأما المرتدون فليس إلا القتل أو التوبة، وكذلك أهل الزيغ والضلال ليس إلا السيف أو التوبة. ومن أسرَّ الاعتقاد بالباطل ثم ظهر عليه فهو كالزنديق يقتل ولا يستتاب. وأما الخوارج على أئمة العدل فيجب قتالهم حتى يرجعوا إلى الحق. وقال قوم: المعنى لا تعتدوا في القتال لغير وجه الله، كالحمية وكسب الذكر، بل قاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم. يعني دينا وإظهارا للكلمة. وقيل: لا تعتدوا، أي لا تقاتلوا من لم يقاتل. فعلى هذا تكون الآية منسوخة بالأمر بالقتال لجميع الكفار، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾ وفيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ يقال: ثقف يثقف ثقفا، ورجل ثَقِف لَقِف: إذا كان محكما لما يتناوله من الأمور. وفي هذا دليل على قتل الأسير. وسيأتي بيان هذا في «الأنفال» إن شاء الله تعالى. ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي مكة. قال الطبري: الخطاب للمهاجرين، والضمير لكفار قريش.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي الفتنة التي حملوكم عليها وراموا رجوعكم بها إلى الكفر أشد من القتل. قال مجاهد: أي من أن يقتل المؤمن، فالقتل أخف عليه من الفتنة. وقال غيره: أي شركهم بالله وكفرهم به أعظم جرما وأشر من القتل الذي عيروكم به. وهذا دليل على أن الآية نزلت في شأن عمرو بن الحضرمي حين قتله واقد بن عبد الله التميمي في آخر يوم من رجب بالشهر الحرام، حسب ما هو مذكور في سرية عبد الله بن جحش. على ما يأتي بيانه، قاله الطبري وغيره.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿**وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ**﴾ الآية. للعلماء في هذه الآية قولان: أحدهما ـ أنها منسوخة، والثاني - أنها محكمة. قال مجاهد: الآية محكمة، ولا يجوز قتال أحد في المسجد الحرام إلا بعد أن يقاتل، وبه قال طاوس. وهو الذي يقتضيه نص الآية، وهو الصحيح من القولين، وإليه ذهب أبو حنيفة وأصحابه. وفي الصحيح عن ابن عباس قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «**إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ولم يحل لي إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة**»[1]. وقال قتادة: الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿**فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ** ... ﴿٥﴾﴾ [**التوبة**]. وقال مقاتل: نسخها قوله تعالى: ﴿**وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ**﴾ ثم نسخ هذا قوله: ﴿**فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ**﴾. فيجوز الابتداء بالقتال في الحرم. ومما احتجوا به أن «براءة» نزلت بعد سورة «البقرة» بسنتين، وأن النبي ﷺ دخل مكة وعليه المغفر[2]. فقيل: إن ابن خطل متعلق بأستار الكعبة؛ فقال: «اقتلوه»[3].

---

(١) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ: «لا هِجْرَةَ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا» وَقَالَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ: «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ لا يُعْضَدُ شَوْكُهُ، وَلا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ، وَلا يَلْتَقِطُ لُقَطَتَهُ، إِلا مَنْ عَرَّفَهَا وَلا يُخْتَلَى خَلاهُ» فَقَالَ الْعَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلا الإِذْخِرَ فَإِنَّهُ لِقَيْنِهِمْ وَلِبُيُوتِهِمْ. قَالَ ﷺ: «إِلا الإِذْخِرَ». [متفق عليه؛ رواه البخارى: كتاب الجزية - إثم الغادر البر والفاجر (٢٩٥١)، ومسلم: كتاب الحج - تحريم مكة (٢٤١٢)].

(٢) المغفر ومثله المغفرة والغفارة (كلها بالكسر): زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس، يلبس تحت القلنسوة.

(٣) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ عَامَ الْفَتْحِ وَعَلَى رَأْسِهِ الْمِغْفَرُ، فَلَمَّا نَزَعَهُ جَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: إِنَّ ابْنَ خَطَلٍ مُتَعَلِّقٌ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ. فَقَالَ: «اقْتُلُوهُ». [متفق عليه؛ رواه البخارى: كتاب الحج - دخول الحرم ومكة بغير إحرام (١٧١٥) وأطرافه فى ثلاثة مواضع أخر، ومسلم: كتاب الحج (٢٤١٧)].

«وقال ابن خويزمنداد: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ منسوخة؛ لأن الإجمـاع قد تقرر بأن عدوا لو اسـتولى على مكة وقال: لأقـاتلنكم، وأمنعكم من الحج ولا أبرح من مكة؛ لوجب قتاله وإن لم يبدأ بالقتـال. فمكة وغيرها من البلاد سواء. وإنما قـيل فيـها: هى حرام، تعظيـما لهـا؛ ألا ترى أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد يوم الفتح وقال: «**احصدهم بالسيف حـتى تلقانى على الصفا**»[(١)]. حتى جاء الـعباس فقال: يا رسـول الله، ذهبت قريش، فلا قريش بـعد اليوم. ألا ترى أنه قال في تعظيـمها: «**ولا يلتقط لقطتـها إلا منشد**»[(٢)]. واللقطة بها وبغيرها سواء. ويجـوز أن تكون منسوخـة بقوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾. قال ابن العـربي: «حضـرت في بيت المقـدس - طهره الله - بمدرسـة أبي عـقبـة الحنفي، والقاضي الزنجاني يلقي علينا الدرس في يوم الجمعة، فبينا نحن كذلك إذ دخل علينا رجل بهى المنظر على ظهره أطمـار، فسلم سلام العلماء وتصـدر في صدر المجلس بمدارع الرّعاء. فقال القاضي الزنجاني: من الـسيد؟ فقال: رجل سلبه الشطار أمس، وكان مقصدي هذا الحرم المقـدس، وأنا رجل من أهل صاغان من طلبة العلم. فقال القاضي مبادرا: سلوه؛ على العادة في إكرام العلماء بمبادرة سؤالهم، ووقعت القرعة على مسألة الكافـر إذا التجأ إلى الحرم، هل يقتل أم لا؟ فأفتى بأنـه لا يقتل. فسئل عن الدليل. فقال قوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ قرئ «ولا تقتلوهم، ولا تقاتلوهم» فإن قرئ «ولا تقتلوهم» فالمسألة نص، وإن قرئ «ولا تقاتلوهم» فهـو تنبيه؛ لأنه إذا نهى عن القتال الذي هو سبب القـتل كان دليلا بينا ظاهرا على النهي عن القتل. فاعترض عليه القـاضي منتصرا للشافعي ومالك - وإن لم ير مذهبهما - على العادة، فقال: هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾. فقـال له الصاغانى: هذا لا يليـق بمنصب القاضي وعلمه، فإن هذه الآية التي اعترضت بها، عـامة في الأماكن، والتي احتججت بها

(١) تفسير القرطبى: سورة البقرة: ١٩٢.
(٢) جزء من حديث متفق عليه، رواه البخـارى: الديات ـ من قتل له قتيل (٦٣٧٢)، ومـسلم: الحج ـ تحريم مكة (٢٤١٥) عن أبى هريرة رضى الله عنه. ولفظه: «ولا يلتقط ساقطتها إلا منشد»

خاصة، ولا يجوز لأحد أن يقول: إن العام ينسخ الخاص. فبهت القاضي الزنجاني. وهذا من بديع الكلام. قال ابن العربي: «فإن لجأ إليه كافر فلا سبيل إليه، لنص الآية والسنة الثابتة بالنهي عن القتال فيه. وأما الزاني والقاتل فلابد من إقامة الحد عليه، إلا أن يبتدئ الكافر بالقتال فيقتل بنص القرآن».

وأما ما احتجوا به من قتل ابن خطل وأصحابه في الحرم فلا حجة فيه، «إن ذلك كان في الوقت الذي أحلت له مكة وهي دار حرب وكفر، وكان له أن يريق دماء من شاء من أهلها في الساعة التي أحل له فيها القتال، فثبت وصح أن القول الأول أصح، والله أعلم.

الرابعة: قال بعض العلماء: في هذه الآية دليل على أن الباغي على الإمام بخلاف الكافر، والكافر يقتل إذا قاتل بكل حال، والباغي إذا قاتل يقاتل بنية الدفع، ولا يتبع مدبراً ولا يجهز على جريح.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿**فَإِنِ انتَهَوْا**﴾ أي عن قتالكم بالإيمان فإن الله يغفر لهم جميع ما تقدم، ويرحم كلا منهم بالعفو عما اجترم. نظير قوله تعالى: ﴿**قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ** ... ﴿٣٨﴾﴾ [**الأنفال**]. وسيأتي.

قوله تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾ فيه مسئلتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ**﴾ أمر بالقتال لكل مشرك في كل موضع، على من رآها ناسخة، ومن رآها غير ناسخة قال: المعنى قاتلوا هؤلاء الذين قال الله فيهم: ﴿**فَإِن قَاتَلُوكُمْ**﴾ والأول أظهر، وهو أمر بقتال مطلق، لا بشرط أن يبدأ الكفار. دليل ذلك قوله تعالى: ﴿**وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ**﴾. وقال ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله**»[1]. فدلت الآية والحديث على أن سبب القتال هو

(١) عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلا بِحَقِّ الإِسْلامِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّه». [متفق عليه: رواه البخاري: الإيمان (٢٤)، ومسلم (٣٣)].

الكفر؛ لأنه قال: ﴿حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أى كفر، فجعل الغاية عدم الكفر، وهذا ظاهر. قال ابن عباس وقتادة والربيع والسدي وغيرهم: الفتنة هنا الشرك، وما تابعه من أذى المؤمنين. وأصل الفتنة: الاختبار والامتحان، مأخوذ من فتنت الفضة إذا أدخلتها فى النار لتميز رديئها من جيدها. وسيأتي بيان محاملها إن شاء الله تعالى.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾ أى عن الكفر، إما بالإسلام كما تقدم فى الآية قبل، أو بأداء الجزية في حق أهل الكتاب؛ على ما يأتى بيانه في «براءة» وإلا قوتلوا وهم ظالمون لا عدوان إلا عليهم. وسمى ما يصنع بالظالمين عدوانا من حيث هو جزاء عدوان، إذ الظلم يتضمن العدوان، فسمى جزاء العدوان عدوانا، كقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ... ﴿٤٠﴾﴾ [الشورى]. والظالمون هم على أحد التأويلين: من بدأ بقتال، وعلى التأويل الآخر: من بقي على كفر وفتنة(١).

ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

بينت الآيات السابقة بعض أحكام القتال، وفى هاتين الآيتين بيان لبعض آخر، وقد تبين مما سبق أن المشركين إن انتهكوا حرمة البيت الحرام، وقاتلوا عند المسجد الحرام، واعتدوا على المسلمين فيه، فإنه لا يصح أن يحول بينهم وبين رد الاعتداء حرمة ذلك البيت الكريم؛ لأن الله سبحانه وتعالى جعله حرما آمنًا، فمن اعتدى من المشركين بالقتال فيه فقد ازدوج اعتداؤه، ابتدأ بالاعتداء، واعتدى على أهل الحق، واعتدى على حرمة البيت، وكان من الواجب أن يرد كل هذا الاعتداء، ليشفى الله قلوب قوم مؤمنين، ولأن إلقاء السلم لمن حمل السيف تمكين للباطل من

(١) انتهى كلام القرطبى من الجامع لأحكام القرآن.

الحق يجعل المبطل يمترئ الظلم، فيكرر الاعتداء فى البيت الحرام، إذ يراه أنهز للفرصة، وأنكى للمسلمين، إذ يُقَتلون ولا يُقاتِلون.

ومثل حرمة القتال فى البيت الحرام القتال فى الشهر الحرام؛ فإن الله سبحانه قد حرم القتال فيه؛ ولكن إن اعتدى المشركون فقاتلوا فيه لا يلقى إليهم المسلمون السلم لينالوا منهم؛ وهذا ما تعرضت له الآية الأولى من هاتين الآيتين:

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾: الباء هنا للمقابلة، أى الشهر الحرام من جانبكم مقابل بالشهر الحرام من جانبهم؛ فإن تقيدوا بالحرمة فيه ولم يثيروا حربًا ولم يعتدوا، التزمتم حرمته، ولم تقاتلوهم فيه، ولو كان قتالهم فى ذاته عدلا، بعد أن فتنوا الناس عن دينهم؛ وإن انتهكوا حرمة الشهر الحرام، ونابذوكم فيه وقاتلوكم فلا تكفوا عن قتالهم، ولا تقبضوا أيديكم عنهم احترامًا له؛ بل ابسطوا عليهم أيديكم، وخذوهم إلى الحق من نواصيهم؛ لأنه إذا كان الشهر الحرام واجب الصيانة فنفوس المؤمنين ألزم صيانة وأحق بها، وإذا تعارضت الحقوق والواجبات قدم ألزمها، وأحفظها لدين الله وإعلاء كلمته؛ ولاشك أن ترك المشركين يكْلَبون فى المؤمنين ويشتدون عليهم، أشد ضرراً من القتال فى الشهر الحرام الذى انتهكوا حرمته، وقد أخرجوا من قلوبهم كل حريجة دينية وخلقية وإنسانية.

و«أل» فى كلمة ﴿الشَّهْرُ﴾ هى التى يسميها علماء اللغة: أل الجنسية، والشهر هنا مفرد فى معنى الجمع؛ لأن الشهر الحرام ليس واحدًا، بل هى أربعة أشهر: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب الذى بين جمادى وشعبان، والتعبير بالمفرد وإرادة الجمع فيه إشارة إلى المعنى المشترك فى هذه الأشهر الأربعة، وهو تحريم القتال ابتداء فيها، احترامًا لها، ولبث روح الأمن والطمأنينة بين الناس؛ لأن المعنى الجامع لها جعلها وحدة قائمة بذاتها، وكأنها معنى واحد تعددت صوره؛ فالتعبير عن الجمع بلفظ هو فى أصل ذاته للمفرد، مشيراً إلى الوحدة المشتركة الجامعة بين الأفراد، مبينًا أن الحكم قد نيط بالمعنى الجامع بينها، ولا يتصل بالصفات الشخصية المميزة لآحادها.

وقد ذكرت عدد الأشهر الحرم آية أخرى هى قوله تعالى فى سورة التوبة: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ... ﴿٣٦﴾﴾ [التوبة].

فهذه الآية تصرح بأنها أربعة وليست واحداً، ثم بينت السنة هذه الأشهر الأربعة من أشهر السنة كلها؛ فقد روى البخارى ومسلم وغيرهما أن الرسول ﷺ قال فى حجة الوداع: «**ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً؛ منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذوالقعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان**»(١).

وقد اتفق العلماء على أن النبى ﷺ لم يبدأ بقتال فى الشهر الحرام، فلم يبتدئ فيه بغزو، ولكن إذا قوتل فيه لم يكن يمتنع عن القتال؛ وكذلك إذا ابتدأ القتال قبل الشهر الحرام، واستمر القتال إلى أن حل الشهر، لم يكن ينقطع عن القتال حتى يأمن الرجعة؛ فقد روى عن جابر بن عبد الله أنه قال: «**لم يكن رسول الله ﷺ يغزو فى الشهر الحرام إلا أن يغزى، فإذا حضره أقام حتى ينسلخ**»(٢).

ولقد استعد النبى ﷺ للقتال فى الشهر الحرام مرتين، إحداهما عام الحديبية عندما ذهب معتمراً هو وصحبه ومنعوه من البيت الحرام، حتى هم بقتالهم إن بدأوه بالقتال، ولكنه صالحهم على الدخول من قابل؛ والثانية عندما عاد إلى قضاء عمرته؛ فلقد كان على استعداد لأن يقاتل المشركين إن قاتلوه على ألا يبدأهم، وكان ذلك فى ذى القعدة فى العامين.

ولقد ابتدأ القتال فى العام الثامن مع هوازن وحنين فى الأشهر الحلال، ولكن استمر القتال حتى دخل ذو القعدة الشهر الحرام، والنبى ﷺ يحاصرهم، وقد استمر

---

(١) البخارى: كتاب تفسير القرآن - باب إن عدة الشهور (٤٢٩٤)، ومسلم: كتاب القسامة (٣١٧٩) عن أبى بكرة - رضى الله عنه -. وهو نفيع بن الحارث بن كلدة. ورواه أبو داود وابن ماجه وأحمد والدارمى.

(٢) عَنْ جَابِرٍ قَالَ: لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَغْزُو فِى الشَّهْرِ الْحَرَامِ إِلا أَنْ يُغْزَى أَوْ يُغْزَوْا، فَإِذَا حَضَرَ ذَلِكَ أَقَامَ حَتَّى يَنْسَلِخَ. [رواه أحمد فى مسنده (١٤٠٥٦)].

النبى ﷺ فى الحصار أيامًا ثم قفل راجعًا احترامًا للشهر الحرام؛ ولعل الأيام التى استمرها لينظم الرجوع ويأمن ظهره، وحتى لا يأخذه فى رجعته عدو الله وعدوه.

هذه حقائق مقررة ثابتة تبين أن النبى ﷺ كان يحرم على نفسه ابتداء القتال فى الشهر الحرام إلا أن يقاتَل فيقاتِل، ولقد تقرر التحريم بالقرآن الكريم فى أكثر من آية، منها قوله تعالى فى أول سورة المائدة، وهى من آخر القرآن نزولا: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ... ﴿٢﴾**﴾ [**المائدة**].

ولكن مع ذلك اختلف الفقهاء، فقال بعضهم وهم الأكثرون: إن تحريم القتال فى الشهر الحرام قد نسخ بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾**﴾ [**التوبة**] وقالوا إن معنى قوله تعالى: ﴿**فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ... ﴿٣٦﴾**﴾ [**التوبة**] أى بمنع القتال فيها كما ذكر ابن جرير الطبرى وقالوا: لقد قاتل النبى ﷺ هوازن وحنينًا فيها، وما لأحد أن يحرم ما أحله رسول الله. ذلك قولهم ودليله.

وقال بعض آخر أقلُّ عددًا من الأول: إن تحريم القتال فيها ابتداء من غير اعتداء من الأعداء فيها شريعة باقية؛ لأنه لم يوجد نص صريح يعارض نصوص التحريم، ولايمكن إعماله إلا بالنسخ، ولأن تحريم هذه الأشهر ثبت بآيات من آخر آيات القرآن نزولا وهى سورة المائدة كما نوهنا، ولأن النبى ﷺ أكد التحريم بذكر تلك الأشهر فى خطبة الوداع التى سجل فيها شرع الله على عباد الله، وأشهد عليهم فيها أنه بلغهم رسالات ربه؛ وما كان قتال النبى ﷺ لهوازن وحنين فى الشهر الحرام ابتداء بل كان امتدادا، ولقد قطع القتال ولم يستمر فيه لما صارت الرجعة عن القتال لا تعرض جنده لمضار تكون أشد من تحريم القتال فى الشهر الحرام.

ولأجل هذا قال عطاء بن رباح حالفًا بالله: إنه ما يحل للناس أن يغزوا فى الحرم، ولا فى الأشهر الحرم إلا أن يقاتلوا فيها، وما نسخت.

ولعل الفقهاء الذين قرروا إباحة القتال فى الأشهر الحرم، قد استمدوا حكمهم مما ذكرنا متأثرين بأحوال زمنهم؛ فإنه بعد أن اتسع الفتح الإسلامى صار جند المسلمين فى مذأبة من الأمم المعادية تنتهز الفرص من غير هوادة أو مهادنة؛ فإذا رأوا المسلمين قد أغمدوا القُضب فى أجفانها انقضوا عليهم، وأتوهم من مأمنهم؛ بل لعلهم وجدوا أن الفتوحات الإسلامية التى تمت فى عهد الصديق والفاروق، وامتدت فى عهد ذى النورين، لم تغمد فيها السيوف فى الأشهر الحرم؛ لأنها كانت حربا ممتدة مستمرة موصولة غير مقطوعة، فحسبوا أن تحريم القتال فى الشهر الحرام قد نسخ؛ ولكنا إذا قيدنا التحريم بالابتداء وفى غير حال مباكرة الأعداء بالاعتداء، نجد النصوص سائرة مع عمل النبى ﷺ والصحابة من غير تضارب يسيغ النسخ، والله سبحانه أعلم بالصواب. ولماذا حرم الله سبحانه وتعالى القتال فى الشهر الحرام؟ يظهر لى أن السبب فى ذلك أمران جليلان:

أحدهما: تأمين السبل فى الحج، ذهابا وجيئة؛ ولذلك كان أكثرها أشهر الحج، كما قال تعالى: ﴿**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ**... ﴿١٩٧﴾﴾ [**البقرة**] فمنع القتل فيها تأمينا للسبل، ولأمن بيت الله الحرام، وأما رجب الذى بين جمادى وشعبان فقد كان شهر الاعتمار، فيه تؤدى العمرة المندوبة انفرادا؛ وعلى هذا يكون تحريم القتال فى الشهرالحرام ليتحقق الأمن الكامل للبلد الحرام ولحرم الله الآمن إلى يوم القيامة؛ كما قال سبحانه: ﴿**أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ**... ﴿٦٧﴾﴾ [**العنكبوت**].

ولعل الفقهاء الذين قالوا: إن تحريم القتال فى الأشهر الحرم قد نسخ لاحظوا هذا المعنى؛ لأن النبى ﷺقبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى صارت الصحراء العربية بوبرها ومدرها كلها تحت سلطانه، وفى ظل الله، فصار الحجيج يصلون إلى البيت الحرام آمنين، ولو كان القتال دائر الرحى فى غير البلاد العربية، فظنوا النسخ؛ لأن التحريم حينئذ يكون قد استوفى أغراضه والغاية منه؛ واستنبطوا مع ذلك من نصوص وحوادث ما يزكى ذلك وينميه، على نظر فى ذلك.

وثانى الأمرين اللذين نظنهما حكمة التحريم: أن الإسلام يكره القتل والقتال، وهو فى نظره أمر بغيض لا يلجأ إليه إلا عند الاضطرار، وإن النفوس السليمة تقر ذلك؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ**

لَكُمْ...﴿٢١٦﴾ [البقرة] فكان من حصر القتال فى أضيق دائرة أن يتفق الفريقان على إلقاء السلاح أمدا معلوما فى أثناء القتال لعل العقول تثوب إلى رشدها، والنفوس تهدأ حدَّتها، فيكون التفاهم والسلام وحقن الدماء. وإذا كان ثمة أشهر يحرم فيها، ويرتضى الفريق الآخر ذلك التحريم حقنا للدماء فيها، فإنها ستكون هدنة فى أوار الحرب، ولعلها تكون نسيم السلام؛ ولقد لاحظ الناس بالتجارب المستمرة أنه ما كانت هدنة فى حرب ضروس إلا فلَّت حدتها، وأُضْعِفَت شِرَّتهَا؛ والله عليم بذات الصدور.

﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ تعالت كلمات الله؛ تلك حكمة بالغة، وكلمة جامعة لكل ما سبقها من معانٍ فى القتال ومبينة لمقاصد الإسلام فى علاقات المسلمين مع غيرهم، وعلاقة بعضهم ببعض فى اجتماعهم، وهى قضية خلقية سليمة صحيحة تقبلها العقول السليمة، وتقرها الأخلاق القويمة.

والحرمات: جمع حرمة، كما أن الحجرات جمع حجرة؛ والظلمات جمع ظلمة، والحرمة الأمر الذى حرمه الله ومنع انتهاكه، والقصاص من معانيه المساواة، وتتبع آثار الجريمة بالعقوبة، ومعنى القصاص فى الحرمات أن يعامل منتهك الحرمات بمثل ما فعل، وأن يكون العقاب من جنس العمل، وألا يقيد المعاقب بحرمة انتهكها الجانى، فإذا انتهك الجانى حرمة النفس بقتلها، لايتقيد المعاقب بحرمة نفسه، بل يقتص منها، لأنه إذا انتهك حرمة غيره بقتل أو اعتداء فقد أباح من حرماته مقابل ما انتهك.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ فى هذا المقام[1] أن ما انتهكوه من حرمة الأنفس بقتلها وفتنتها عن دينها، وحرمة البيت الحرام التى انتهكوها بإخراج أهله منه وصدهم عنه، وقتالهم فيه، وحرمة الشهر الحرام إذا انتهكوها، كل هذا

---

(١) يثير الفقهاء بحوثا فى هذه القضية عند تطبيقها تطبيقا جزئيا، ويختلفون فى حل ما يثيرونه بتطبيقها عليه؛ ومن هذه الأمور التى يثيرونها: أيسوغ للشخص أن يقتص لحقه بغير أمر الحاكم؟ لقد اتفقوا على أنه فى الدماء لا يسوغ ذلك قط؛ بل لابد من حكم الحاكم ليكون القصاص؛ أما فى الأموال إذا اغتصبت أو أنكرت فهل يسوغ أخذها من غير حكم؟ بعض الفقهاء منع ذلك منعا مطلقا، ولكن أولئك ليسوا الأكثرين، وجمهور الفقهاء على أن الشخص إن ظفر بعين حقه أو بمال من جنسه أخذه، ويكاد يتعقد الإجماع على الأول، أما ما كان من الجنس فالأكثرون على الجواز مادام لا يعد سرقة؛ فعلى ذلك الحنفية والشافعية وأكثر المالكية، وأما إن ظفر بغير جنسه من مال مغتصبه، فقال بعضهم يسوغ، وبعضهم لا يسوغ، وهو المعقول حتى لا تكون أمور الناس فوضى.

يعامل بالقصاص والمساواة والعدل؛ فما انتهكوه من حرمات فى حق غيرهم. يقتص بمثله منهم ولا تحترم فيه حرمة لم يحترموا مثلها فى غيرهم.

وذلك قانون شامل يعم ولا يخص؛ ينظم العلاقات الدولية، كما ينظم التعامل فى المجتمع الإسلامى؛ فمن اعتدى على غيره فى ماله، أو نفسه أو بعضه، أباح الحاكم من نفسه وماله ما أباحه لنفسه من نفس غيره وماله؛ والمعتدى على المسلمين من الدول يعامل بقدر اعتدائه، وبطريقة اعتدائه، وفى زمان اعتدائه ومكانه؛ فإن انتهك حرمة الزمان فليس له أن يستمسك بحرمتها، ومن انتهك حرمة المكان قتل فيه، ومن اعتدى بنوع من الاعتداء عوقب بمثله إلا أن يكون أمرًا لا يحله شرع الله، ولا تحله الطبائع السليمة؛ كالمُثلة، وقتل من لايقاتل أبدًا - على ما سنبين إن شاء الله تعالى.

وإن قضية ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ هى المعاملة العادلة التى تنظم الاجتماع الإنسانى فى دوله وآحاده؛ وليس من الفضيلة فى شىء أن تغل يد الفضائل عن حرمات خصمها فى الوقت الذى استباح المبطل كل الحرمات؛ وإن ذلك ليس له معنى إلا نصر الرذيلة على الفضيلة، وخضد شوكة الحق ليأكله الباطل؛ وإن التسامح فى هذه الحال هو شر ذرائع الرذائل، والقوة والقصاص فى هذه الحال هو حماية الفضيلة وفل شوكة الرذيلة.. وهكذا فضائل الإسلام دائما فضائل لها شوكة وقوة، ولا تعد التسامح الذى يمكن للباطل من أن يتغلب على الحق إلا الاستسلام والذلة.

﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ هذا تخصيص بعد تعميم، أو تفريع بعد ذكر القاعدة الكلية، بذكر بعض القواعد الجزئية بالإضافة إليها، أو الخاصة بالنسبة لها؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ قضية عامة، كما بينا، تعم معاملة الدول ومعاملة الآحاد، وتنظم الاجتماع الإنسانى وتنظيم الاجتماع فى الأمة الواحدة؛ وهى قضية الفضيلة الإنسانية الموجبة التى تحمى نفسها من الرذيلة بالقصاص منها أيا كانت صورة الرذيلة، وأيا كان موضوعها.

أما قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ فهى تبين العلاقة الدولية بين المسلمين وغيرهم؛ لأن الخطاب فيها للمسلمين مجتمعين كدولة واحدة لها نظم حاكمة، وسياسة قائمة، يبين هذا الخطاب ما يجب على دولتهم فى معاملة غيرهم به فى حرب أو سلم، وفى منازلة أو مهادنة، فذكر الله سبحانه أن تلك المعاملة هى المعاملة بالمثل.

ومعنى قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أن من يعتدى عليكم من أمم غيركم بانتهاك حرمة من حرمات دولتكم أو إلحاق أذى بجماعتكم، بحرب يشنها عليكم، أو مصادرة لمتاجركم، أو ترصد فى الطرق التى تسلكها قوافلكم أو سفنكم، فعاملوه بالمثل، وأنزلوا به مثل ما ينزله بكم؛ وإن انتهك حرمة مكان فانتهكوا منه مثل ما انتهك من غير تحرج فى ذلك ولا تأثم، فإن هذا ما تقضى به قوانين المساواة والمعاملة بالمثل.

وهنا يثير العلماء بحثا لفظيا: كيف يسمى المقابلة بالمثل اعتداء؟ إن الاعتداء هو الابتداء، أما العقوبة أو المقاومة فهى عدل وانتصار، لأن مقاومة الظلم هى عين العدل، فكيف تسمى اعتداء؟ وقد أجابوا عن ذلك بأن المشاكلة فى الفعل التى تقتضيها المماثلة سوغت أن يسمى الفعل باسم نظيره، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا... (٤٠)﴾ [الشورى] وإن ذلك لا يمنع الحقيقة، لأنه وإن تشاكلت الأفعال والأوصاف المنبعثة من الفاعل مختلفة؛ فالفعل الأول اعتداء لأنه صدر عن ظالم، وكان ظلمًا، والثانى ليس فى حقيقته اعتداء، لأنه انبعث عن عادل، وكان عدلا.

هذا مرمى ما قاله العلماء اعتراضًا وإيرادًا، وجوابًا وردا؛ وعندى أن تسمية مقاومة الاعتداء بمثله اعتداء، إذا كانت المقاومة حربا ونزالا، فيه إشارة إلى معنى إنسانى جليل، وهو أن القتل فى كل صوره وأحواله، ولو كان ردا لمثله، فيه اعتداء على النفس الإنسانية التى حرم الله قتلها بغير نفس أو فساد فى الأرض، وأنه عمل خطير تقشعر من هوله الأبدان، ولا يصح الإقدام عليه إلا إذا اضطرت الفضيلة والأخلاق إليه؛ وإن الإقدام عليه يكون كالإقدام على الضرورات المحظورة فى

ذاتها، يقدر بقدرها، فلا يسرف القاتل فى القتل؛ لأنه فى أصله محظور ممنوع كأكل الميتة لايباح إلا للضرورة، ولا يصح للمقاتل باسم الإسلام أن يسرف فى القتل ما أمكنه الانتصار بدونه؛ ولعل هذا المعنى الجليل هو الذى جعل عمر الفاروق الذى كان ينظر بنور الله يكره قتال خالد بن الوليد، ويقول: «إن فى سيفه لرهقًا» ويعجب بقتال عمرو بن العاص الذى فتح مصر بأقل ما يتصور من الدماء، ويقول: «إن حربه رفيقة».

وقوله سبحانه ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[1] هو القاعدة العامة للقانون الدولى فى الإسلام فى السلم والحرب معا؛ فمن لم يعتد على المسلمين، وترك دعوة الإسلام الحق تسير فى مسارها، وتستقيم على منهاجها من غير محاجزة بين الناس وبينها، فالعلاقة به سلمية خالصة، كالشأن مع النجاشى ملك الحبشة؛ ومن اعتدى على المسلمين كانت العلاقة بينهم وبينه بقدر ذلك الاعتداء؛ سواء أكان الاعتداء فى سلم أم لبس لبوس الحرب؛ وإذا عاهدهم أحد حفظوا عهودهم إلا أن ينكث معهم ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ... ﴿١٠﴾﴾ [الفتح].

ولكن الخصم إذا لم يكن له خلق قد يقع فى أمور تضر بالخلق القويم، كأن ينتهك الأعراض فى الحرب، أو يقتل الذرية الضعاف، أو الشيوخ الذين لا حول لهم ولا طول، فهل يعتدى بمثل اعتدائه، ويسلك المسلمون مثل مسلكه؟ هذا ما بينته الجملة الآتية، وهو عدم الجواز.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ ذيل الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بهاتين الجملتين لكيلا يندفع المقاتلون المسلمون فى القتال فيضعوا سيوفهم على أعناق من يستحقها ومن لايستحقها، وينزلوها فى موضع البرء والسقم، فيقتلوا ويتجاوزوا الحد؛ لأنه إذا اشتجرت السيوف، وكثرت الحتوف؛ قد تتجاوز موضعها،

---

(١) طبق الفقهاء هذه الفقرة من الآية الكريمة على حوادث جزئية مما يجرى بين الناس:
أ ـ منها هل يشترط فى القصاص إذا كان قتلا أن يكون بالآلة التى قتل القاتل بها ولو كان عصا أو نارا؟ قال الشافعى إن القود يكون بالآلة تماما؛ لأن المماثلة توجب ذلك. وقال مالك مثل قوله إلا أن يؤدى ذلك إلى التعذيب. وقال الحنفية القود بالسيف دائما.
ب ـ أنه من أتلف مالا لغيره قال أبو حنيفة وأصحابه والمالكية: إن كان قيميا وجبت القيمة، وإن كان مثليا وجب المثل، والمثلى عند الحنفية المكيل والموزون والعددى المتقارب، واقتصر المالكية على المكيلات والموزونات، وقال الشافعية عليه دائما المثل ولا يعدل عن المثل إلا عند عدم وجوده، يستوفى فى ذلك القيمى والمثلى. وقال بعض العلماء القيمة تجب دائما؛ لأنها وحدة التقدير وهى المماثلة فى المعنى المتحققة دائما.

فتكون فى غير العدل؛ وقد يسايرون خصومهم فى أذاهم فيقتلون الذرارى أو الشيوخ أو الضعاف أو الرهبان والعباد فى الصوامع كما يفعل خصومهم، أو يحرقون الزرع ويقتلون الضرع كما يعيث غيرهم فى الأرض فسادا؛ فأمر الله سبحانه بتقوى الله فى الحرب بأن يراقبوه وحده، ويخافوه وحده، ويلاحظوا التقوى فى قتالهم؛ فإنه ينبغى أن تكون هى الوصف الملازم لهم فى حربهم وسلمهم؛ فإن حولتهم الحرب إلى أسود كواسر، فليعلموا أن القلوب الإنسانية الدينية التى تخشى الله ما زالت فى إهابها، أو يجب أن تكون كذلك دائما.

ولقد نهى الإسلام عن قتل العسفاء وهم العمال الذين لا يشتغلون بحرب، والذرية؛ كما نهى عن قتل الرهبان الملازمين لمعابدهم، ولقد قال عمر بن الخطاب: اتقوا الله فى الذرية والفلاحين الذين لا ينصبون لكم الحرب. وقال أبو بكر فى الرهبان لقائد الجيش: وستجد أقواما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله، فذروهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له. ولقد خشى النبى ﷺ خالد بن الوليد أن يقتل الذرية والضعاف فقال لبعض أصحابه: «**الحق بخالد بن الوليد فلا يقتلن ذرية ولا عسيفا**»(١).

ولكن قد يقول قائل إن أعداء الإسلام إن قتلوا الذرية والضعاف والشيوخ الذين لا يعينون فى حرب فإن العدل معاملتهم بالمثل، وإن ذلك يكون أنكى بهم، والنكاية الشديدة قد تدفعهم إلى الخذلان، أو على الأقل تمنعهم من قتل من لا يقاتلون؟ ونقول إن الإسلام أمر بقتل من يقاتل فقط، ﴿**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ...** ﴿١٥﴾﴾ [**الإسراء**] وما كان الضعفاء ليقاتلوا، فما يسوغ فى حكم التقوى أن يقتلوا؛ وإن تقوى الله فى الحروب تقوى القلوب، والرأفة بعباد الله تدنى نصر الله؛ ولذلك قال سبحانه فى ختام الآية: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**﴾ فاستشعروا التقوى فى حربكم، وادرعوا بها فى قتالكم، فلا تعتدوا فى القتال، ولا تقاتلوا من لم يرفع سيفا، فإن الله مع المتقين بالنصر والتأييد دائمًا؛ والله ولى الصابرين.

﴿**وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ بين سبحانه مشروعية القتال عند الاعتداء، ورد الاعتداء بمثله قدرا وزمانا ومكانا مع ملاحظة الدين وعدم الاسترسال فى أمر يخالفه

---

(١) سبق تخريجه.

إن وقع من المشركين، أو المحاربين بشكل عام مثله؛ ولقد أخذ بعد ذلك يبين ما هو عدة الحرب، وقوة الجماعة الإسلامية، ورباط بنيانها، وهو المال، فأمر الأغنياء بإنفاق المال في سبيل الله أى في كل ما هو خير وبر؛ فإن كل خير وطاعة يعد سبيل الله سبحانه؛ وإنفاق المال على ذلك هو قوة الأمة في سلمها؛ وقوة السلم هي عدة الحرب؛ وإن من الإنفاق في سبيل الله الإنفاق في الحروب، وإعداد العتاد الحربي؛ ولكن ذلك وإن كان قوة الحرب المباشرة، لا ينفى أن قوة الحروب تعتمد على قوة الوحدة في الأمة، وقوة الصلة بين ضعفائها وأقويائها، وأغنيائها وفقرائها، وذلك يكون بسد حاجة المعوزين، وإعطاء المحرومين؛ ولذلك قال النبى ﷺ «**أبغونى فى ضعفائكم فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم**»(١).

﴿**وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾ التهلكة بضم اللام: مصدر بمعنى الهلاك، كما قال أبو عبيدة والزجاج؛ وادعى بعض علماء اللغة أنه لم يوجد مصدر على وزن «تفعلة» إلا هذا، ولكن روى عن سيبويه كلمتان أخريان هما تنصرة وتسترة، بمعنى نصر وستر. وقد جوز الزمخشري أن يكون أصلها «تهلكة» قلبت الكسرة ضمة، ككسرة الجوار قد تقلب ضمة فيقال: «الجُوار»، ومهما يكن فإن «التهلكة» إذا كانت بمعنى «الهلاك» في المال، فلابد أن يكون ثمة فرق دقيق اقتضى العدول من لفظ الهلاك إلى لفظ التهلكة كما هو الشأن في التخير من الألفاظ المترادفة في الكلام البليغ، ولو أن لنا أن نتلمس فرقا فهو أن نقول: إن التهلكة هلاك خاص، وهو الذى يباشر سببه من ينزل به الهلاك، وربما لا ينزل دفعة واحدة، بل يسرى شيئًا فشيئا، ولكن نتيجته تكون مؤكدة؛ أما لفظ الهلاك فهو يشمل ما ينزل دفعة واحدة وما لا يكون للإنسان فيه إرادة وغيرهما.

والباء في قوله سبحانه ﴿**وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ**﴾ قيل زائدة في الإعراب لتقوية معنى الإلقاء المنهى عنه، فيقوى النهى؛ وقيل المعنى: لا تلقوا أنفسكم مجذوبة

---

(١) عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «ابْغُونِى ضُعَفَاءَكُمْ فَإِنَّمَا تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضُعَفَائِكُمْ» [رواه الترمذى: الجهاد - ما جاء فى الاستفتاح بصعاليك المسلمين (١٦٢٤) وأحمد: باقى مسند الأنصار (٢٠٧٣٨) وبنحوه رواه ابن ماجه والنسائى]. ابغونى بهمزة الوصل والقطع بمعنى الطلب.

بأيديكم وإرادتكم إلى التهلكة. فلا تكون زائدة. وعلى أن الباء زائدة فى الإعراب يكون المراد بالأيدى الأنفس، من قبيل إطلاق اسم الجزء وإرادة الكل، والمعنى: لا تلقوا أنفسكم إلى التهلكة. والمؤدى فى التخريجين واحد.

والنهى عن الإلقاء فى التهلكة بعد الأمر بالإنفاق وبعد شئون القتال، يعين المعنى بأنه فيما يتعلق بشئون الدفاع عن الدولة والذود عن حياضها، وحفظ كيانها، أو على الأقل يتجه نحو هذه الغاية أو ذلك المرمى أولا وبالذات؛ ولذلك فسر الأكثرون الإلقاء إلى التهلكة بأنه الكف عن القتال والتقاعد عنه فتكون الأمة نهبا للمغيرين بسبب ذلك، والكف عن الاستعداد للحرب بإعداد العدة وأخذ الأهبة كما قال تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ**... ﴿٦٠﴾﴾ [**الأنفال**] وبقبض الأغنياء أيديهم عن إعطاء حق الفقراء؛ فيكون بأس الأمة بينها شديدا، يسهل إغارة المغيرين عليها؛ ولذلك روى ابن عباس فى تفسير هذه الآية وهو ترجمان القرآن ما نصه: لا تمسكوا عن الصدقة فتهلكوا.

هذا هو معنى الآية على ما عليه الأكثرون وهو الذى يتفق مع السياق، ومع المروى فى جملته؛ فقد روى البخارى فى سبب نزول هذه الآية أنها نزلت فى النفقة، وروى يزيد بن أبى حبيب عن أسلم قال: «غزونا القسطنطينية وعلى الجماعة عبد الرحمن بن الوليد والروم ملصقو ظهورهم بحائط المدينة، فحمل رجل على العدو فقال الناس: مه مه[(١)]! لا إله إلا الله: يلقى بيديه إلى التهلكة! فقال أبو أيوب الأنصارى: «سبحان الله أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لما نصر الله نبيه، وأظهر دينه قلنا هلم نقيم فى أموالنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿**وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ والإلقاء باليد إلى التهلكة أن نقيم فى أموالنا ونصلحها وندع الجهاد.

(١) بمعنى: اكفف.

وقد تضافرت الروايات بمثل ذلك مما يجعلنا نفهم أن الآية الكريمة تتجه إلى حماية الدولة والجماعة من أن تلقى بيدها إلى التهلكة، بترك الضعفاء فيها، وترك الجهاد دفاعا عنها، وعدم الاستعداد لأعدائها.

ولكن عموم الآية قد يشمل حال الآحاد إذا أقدموا على ما يضرهم من غير أى فائدة تعود على الجماعة من إقدامهم ولو كانت الفائدة معنوية أدبية، فإن ذلك يسير عليه النهى بمقتضى العموم؛ وليس منه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقول كلمة الحق للظالمين؛ فإن ذلك فيه فائدة معنوية للأمة؛ وقد قال ﷺ: «**أفضل الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل تكلم بكلمة حق عند سلطان جائر فقتله**»(١).

وقد اختلف العلماء فيمن أقدم على مهاجمة عدو كثير العدد وحده، فسوغه ناس(٢) لما فيه من فائدة للجماعة ولو معنوية، ومنعه آخر لأنه لم ير فيه أية فائدة للأمة، وفيه المضرة على من أقدم؛ فتنطبق عليه الآية.

والخلاصة أن الآية ينطبق النهى فيها على الأمة إن تركت أمر حمايتها من الآفات الاجتماعية فى الداخل، وغارات الأعداء فى الخارج حتى هلكت؛ وينطبق النهى على الآحاد إن أقدموا على ما يهلكهم من غير أى نفع مادى أو أدبى لأمتهم.

﴿**وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ الإحسان فى لغة القرآن الكريم يطلق بإطلاقين؛ أحدهما: الإتقان والإجادة فى العمل والقيام بالطاعات على وجهها؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً** ﴿٣٠﴾﴾ [**الكهف**]، وقوله تعالى: ﴿**الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ** ... ﴿٧﴾﴾ [**السجدة**]. والثانى: التفضل على

(١) «أفضل الشهداء حمزة ورجل قال كلمة حق عند سلطان جائر فقتله» أى: فقتله السلطان أو أمر بقتله. [دليل الفالحين باب ٨٠ - وجوب طاعة ولى الأمر، ولسان الميزان - باب من اسمه حكيم (حكيم بن يزيد) عن جابر رضى عنه رفعه «أَفْضَلُ الشهداء حَمْزَةُ ورجل قام إلى إمام جائر فنهاه فأمر بقتله»]. وقال الأزدى: حكيم متروك الحديث.

ورواه الحاكم فى المستدرك عن على موقوفا بلفظ: أفضل الخلق الرسل، وأفضل الخلق بعد الرسل الشهداء وأفضل الشهداء حمزة بن عبد المطلب.

(٢) ذكر الإمام محمد بن الحسن فى كتابه السير الكبير أنه لو حمل رجل واحد على ألف رجل من المشركين وهو وحده لم يكن بذلك بأس إذا كان يطمع فى نجاة أو نكاية فى العدو، فإن لم يكن كذلك فهو مكروه؛ لأنه عرض نفسه للتلف فى غير منفعة للمسلمين. فإن قصد تجرئة للمسلمين عليهم حتى يصنعوا مثل صنعه فلا يبعد جوازه، لأن فيه منفعة للمسلمين على بعض الوجوه، وإن قصد إرهابا للعدو، وليعلم صلابة المسلمين فى الدين فلا يبعد جوازه.

غيره بالعطاء والزيادة فيه؛ وعندى أن هذا فى الجملة يعود إلى الأول لأن ذلك من قبيل إتقان العبادة، والإخلاص الكامل فيها.

وعلى ذلك نرى أن الإحسان هنا هو الإجادة والإتقان؛ وقد أمر الله سبحانه المؤمنين بعد الأمر بالقتال أن يجيدوا كل أعمالهم كل الإجادة، وأن يحتاطوا فى كل ماهو متصل بحياتهم الشخصية وأحوالهم الاجتماعية، وشئون دولتهم وما يقيم أودها ويصلح أمرها؛ ففى الحرب جلاد وجهاد وفداء، وفى السلم إعداد واستعداد ومحبة وولاء، ومودة بينهم وإخاء؛ ليكونوا كما وصف الله الأسلاف ﴿**أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ... (٢٩)**﴾ [الفتح] ﴿**أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ... (٥٤)**﴾ [المائدة] فإن لم يكونوا كذلك فقدوا عون الله ونصرته، بعد أن فقدوا عزة الإسلام وهدايته؛ لأن الله مع من يحسن، ولا يحب سواه؛ إذ قال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾.

الحج

وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ
فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ
ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ
مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ
فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ
إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى
ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾
ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ

وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾

هاتان الآيتان متصلتان بما قبلهما أوثق الاتصال، وذلك بأن الآيات الكريمة من قوله تعالى: ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ... ﴿١٧٧﴾** ﴾ [**البقرة**] فيها تنظيم للجماعة الفاضلة؛ ببيان حق الفقير فى مال الغنى، وبيان المساواة العادلة فى تطبيق القوانين الإسلامية، لا فرق بين قوى وضعيف، ولا شريف ووضيع، وبيان أن العقوبة تكون على قدر الجريمة، وإن فى ذلك حياة الجماعة حياة فاضلة عادلة ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ... ﴿١٧٩﴾** ﴾ [**البقرة**] وفيها تنظيم للأسرة بالتعاون بين آحادها؛ بأن يمد الغنى الفقير بالهبات فى الحياة، والوصايا بعد الوفاة، وفيها بيان لما يهذب النفس، ويقوى الروح فذكر الصيام، ثم فيه إشارة إلى الحج الذى يجمع فى ثناياه بين إصلاح الآحاد فى ذات أنفسهم، وإصلاح الجماعة وتنظيمها، وفى أحكامه تتلاقى ذرائع التنظيم الاجتماعى، والإصلاح النفسى؛ فهو فى ذاته رحلة روحية يشارف المؤمن فيها المقام القدسى، إذ يحل فى المكان الذى شرفه الله سبحانه بنسبته إليه، ووضع قواعده النبيون الصديقون، وفيه الصدقات وإمداد الفقراء؛ بل فى بعض كفاراته الصوم؛ وفيه التنظيم الاجتماعى العام بالتعارف بين المسلمين فى كل البقاع؛ فكان حقا أن يجىء الحج بعد الأحكام المنظمة، والعبادات المصلحة للنفس، المهذبة للروح؛ لأنه يجمعها فى أحكامه.

ولكن الحج فى إبان نزول القرآن كان متعذرًا أو متعسرًا؛ لأن المزار الأكبر وهو البيت الحرام، والمشعر الحرام، كان المشركون قد سيطروا عليه، والأصنام تحيط به من كل جانب، وهم يمنعون المسلمين منه، والعداوة بينهم وبين النبى وصحبه مستعرة؛ فكان لابد من القتال للوصول إليه، وأداء تلك الشريعة الإسلامية؛ لذلك جاء ذكر

القتال بين الإشارة إليه بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا... (١٨٩)﴾ [البقرة] وبين بيان بعض أحكامه فى قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾.

ثم هناك ارتباط خاص بين أحكام القتال وأحكام الحج؛ لأن القتال جهاد لحماية الدولة فى الخارج، والحج جهاد لتهذيب النفس وحماية الدولة الإسلامية فى الداخل؛ بالجمع بين أقطارها، والتعارف العام بين شعوبها، ونشر المساواة العادلة بين آحادها؛ ولذلك لم يعتبر النبى ﷺ عبادة تلى الجهاد فى سبيل الله غير الحج لله.

ثم هناك مناسبة خاصة بين الآية الأولى وأحكام القتال؛ لأن فيها بيان حكم من يمنعه عدو من الوصول إلى البيت الحرام؛ وقد حدث فى العام السادس أن منع النبى ﷺ من الوصول إلى البيت الحرام، وهمَّ بأن يمتشق السلاح ويقاتل حتى يصل إليه بقوة السلاح، ولكن كان الصلح على أن يرجع من عامه هذا، ثم عاد فى العام السابع وأدى عمرة القضاء. فكانت هذه الآية ذات مناسبة خاصة تربطها بالقتال والجهاد فى سبيل الله تعالى.

وهذه الآيات فى بعض أحكام الحج؛ ولذلك نبين هذه الأحكام ولا نتعرض للتفريع واختلاف الفقهاء إلا بالقدر الذى يكون تفسيرا لكلماتها؛ أو يكون مستمدا من ظلالها أو قابسًا من نورها.

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ الحج فى أصل معناه اللغوى: القصد، وخصه الراغب الأصفهانى بالقصد للزيارة؛ ومن ذلك قول الشاعر:

.... **يحجون بيت الزبرقان المعصفر**

والعمرة فى الأصل اللغوى تتلاقى مع مادة العمارة التى هى ضد الخراب ويراد بالعمرة فى اللغة: الزيارة التى يقصد بها عمارة المكان، وعمارة القلوب بالود، وتلاقيها على صفاء المحبة والإخلاص.

هذا هو الأصل اللغوى لمعنى كلمتى الحج والعمرة؛ وقد صارت الكلمتان من الألفاظ الإسلامية التى خصها الشرع بمعان تتصل بأصل معناها اللغوى؛ فالحج فى أصل معناه كما رأيت قصد المكان للزيارة، فصار فى المعنى الإسلامى يطلق على قصد بيت الله الحرام وعرفات والمشعر الحرام للزيارة بشروط خاصة وأركان خاصة، جماعها المتفق عليه الذى لا خلاف فيه بين أهل العلم ثلاثة: الإحرام، وهو بالنسبة للحج كتكبيرة الإحرام بالنسبة للصلاة، والوقوف بعرفة، وهو كما قال النبى ﷺ: «**الحج عرفة**»[1] لأن له وقتًا معينا إذا فات الشخص فاته الحج فى هذا العام؛ ووجب الحج من قابل؛ والطواف.

وقد اختلف فى الوجوب فيما عدا هذه الثلاثة من السعى بين الصفا والمروة والوقوف بمزدلفة وغيرهما.

والعمرة قد رأيت أنها فى أصل معناها للزيارة المقصود بها عمارة المكان بالأشخاص، وعمارة النفوس بالمودة والإخلاص، وقد خصها الإسلام بزيارة بيت الله الحرام، وتلاقى النفوس فيه على مودة ورحمة وإخاء، ولها أركان خاصة وشروط، وجماع أركانها المتفق عليها بين الفقهاء اثنان: الإحرام والطواف.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى بإتمام الحج والعمرة لله؛ فنص بهذا على وجوب أن تكون هذه العبادة خالصة لله سبحانه وتعالى لا يشرك المؤمن فيها مع الله سبحانه وتعالى أحدًا؛ وكذلك الشأن فى كل عبادة، بل فى كل عمل خير، يجب أن يتجه العبد فيه إلى الله سبحانه، لا يقصد غير الله، ولا يريد بعمله إلا وجهه؛ لأن من كمال الإيمان أن يحب المؤمن الشئ لا يحبه إلا لله، ومن كمال الإيمان أن يكون هوى المؤمن وغاياته ومقاصده تبعًا لما جاء به النبى ﷺ، ولايقصد به إلا وجه الله سبحانه وتعالى.

---

(١) جزء من حديث رواه فى المناسك الترمذى (٨١٤) والنسائى (٢٩٩٤) وأبو داود (١٦٦٤) وابن ماجه (٣٠٠٦) وأحمد فى أول مسند الكوفيين (١٨٠٢٣) والدارمى. كلهم عن عبد الرحمن بن يعمر الديلى - رضى الله عنه.

وكل عبادة لا يقصد بها وجه الله لا يثاب عليها صاحبها، بل إنها جديرة بالعقاب لا بالثواب؛ لأن النبي ﷺ قد قرر بأن ذلك شرك؛ وهو الذي يقول عنه العلماء إنه الشرك الخفي، ولقد قال ﷺ: «**من صلى يرائي فقد أشرك، ومن صام يرائي فقد أشرك؛ ومن تصدق يرائي فقد أشرك**»(١) وقد سماه العلماء شركا خفيا لأن صاحبه يخفيه ولا يبديه، ولأنه دقيق لا يدركه إلا ذوو النفوس الطاهرة، والقلوب البارة التي تحاسب نفسها؛ ولأنه بلا ريب دون عبادة الأوثان، وإن كان من بابها؛ وقد وجدنا في عصرنا ناسًا يجاهرون بأنهم يتصدقون بالصدقة العظيمة يبتغون بها الجاه، أو ملق أصحاب الجاه، فبأى اسم يسمى عملهم؟ أيسمى شركا خفيا، أم يسمى شركا جليا؟ وهو على أى حال مروق من الدين، إذ قد اطرح فيه جانب رب العالمين.

وما المراد بالأمر بإتمام الحج والعمرة: أيراد بالأمر إقامتهما، وإيجادهما، أم يراد بالأمر إتمامهما لا أصل إقامتهما بأن يراد الإتيان بهما تامين؛ فيكون الأمر منصبا على الإتمام، لا على أصل الأداء؛ ويكون المعنى على الأول: أقيموا الحج والعمرة أى أدوهما، كقوله تعالى: ﴿**ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ... (١٨٧)**﴾ [البقرة] فليس الاتجاه إلى الإتمام بل إلى الإنشاء؛ والمعنى على الثانى ائتوا بهما تامين، أى كاملى الأركان قد استوفيت شروط كل منهما، خالصين لوجه الله سبحانه وتعالى لا تشوبهما شائبة من رياء.

هناك اتجاهان في هذا المقام؛ فبعض الفقهاء ومعهم بعض المفسرين، وسبقهم بعض التابعين والصحابة على أن المراد بالأمر الإنشاء والإتيان والإقامة، فمعنى أتموا الحج والعمرة ائتوا بهما؛ وعلى هذا المنهج علقمة والنخعى وسعيد بن جبير وعطاء، وطاوس، وروى عن ابن عمر وابن عباس وعلى رضى الله عنهم؛ ولهذا قرروا أن العمرة واجبة كالحج، وهذا ما قرره الشافعى على أحد قوليه وسفيان الثورى.

---

(١) رواه أحمد: مسند الشاميين: حديث شداد بن أوس (١٦٥١٧).

والاتجاه الثانى هو أن المراد بالأمر الأمر بالإتمام؛ أى أنه إذا شرع فيهما أو فى أحدهما عليه أن يتمه ويأتى به كاملا، وإذا لم يستطع إتمامه أو عدل عنه فعليه أن يعيده، وتكون الإعادة واجبة، كما فعل النبى ﷺ وصحبه فى عمرة القضاء؛ وعلى ذلك الرأى لا تكون العمرة واجبة لعدم قيام الدليل على وجوبها، وليس فى هذه الآية الكريمة ما يفيد الوجوب فهى لا تفيد وجوب حج ولا وجوب عمرة، بل تفيد وجوب الإتمام إن شرع فى أحدهما، وقد ثبتت فرضية الحج بآية أخرى، وهى قوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً**... ﴿٩٧﴾﴾ [آل **عمران**].

وعلى هذا الرأى جمهور الفقهاء وجمهور التابعين وكثرة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، فهى على هذا الاتجاه سنة. وقد تأيد استنباط هؤلاء من الآية الكريمة بأقوال للنبى ﷺ قد صحت عنه، وثبتت نسبتها إليه؛ وفوق ذلك فإن أركان العمرة تدخل فى ثنايا أركان الحج؛ ولذلك ورد فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال «**دخلت العمرة فى الحج إلى يوم القيامة**»(١).

والقول الجملى أن فرضية الحج مجمع عليها؛ وأما فرضية العمرة ففيها خلاف، وقد فرض الحج فى العام التاسع من الهجرة على أرجح الروايات.

وقد ذكرنا أن أول أركان الحج الإحرام، وأنه من الحج كتكبيرة التحريم بالنسبة للصلاة، ينوى به الدخول فى الحج، كما ينوى بها الدخول فى الصلاة؛ وإذا تم الإحرام على وجهه صار الشخص حاجا، فيلبس غير المخيط، ولا يحلق رأسه، ولا يقصر شعره، ويحرم عليه الصيد، وتحرم عليه النساء، كما يحرم على المرأة الرجال.. وهكذا يستمر فى تلك الشعيرة المباركة حتى يتحلل من الإحرام بالذبح والحلق، كما يخرج المصلى من الصلاة بالتسليم.

---

(١) رواه مسلم: كتاب الحج - حجة النبى ﷺ (٢١٢٧) عن جابر بن عبد الله، ورواه أحمد فى مسنده (١٣٩١٨)، والدارمى (١٧٧٨)، والترمذى (٨٥٤) والنسائى (١٥٢٥) وأبو داود (١٦٢٨) وابن ماجه (٣٠٦٥).

والإحرام له ميقات من الزمان والمكان، فهو بالنسبة للزمان يكون فى أشهر الحج، كما تبين، وفى المكان يكون فى مداخل الحرم المكى؛ وقد بين النبى ﷺ الأمكنة لأهل كل جهة ومن وراءهم ويجىء عن طريقهم؛ فجعل لأهل المدينة ومن وراءهم قرية ذى الحليفة، ولأهل الشام ومن وراءهم كأهل مصر قرية الجحفة التى تقرب من قرية رابغ، ولأهل نجد جبل قرن، ولأهل العراق ذات عرق(١).

فإذا نوى الحج أحد من هذه الأماكن صار مُحْرِمًا تحرم عليه محرمات الحج؛ إلا أنه قد يعرض له ما يرخص له قطع الإحرام أو التحلل من بعض ما حرم عليه؛ وذلك فى ثلاثة أحوال، اثنتان فيهما معنى الاضطرار، وثالثة فيها اختيار؛ فالأوليان حال الإحصار، وحال المرض؛ والثالثة حال التمتع؛ وقد ابتدأ سبحانه بذكر الأولى فقال: ﴿**فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ**﴾.

مادة الحصر فى اللغة تدل على التضييق، ومن ذلك قوله تعالى فى شأن القتال: (واحصروهم) أى ضيقوا عليهم؛ ولذلك أطلقت على الحبس. وقال سبحانه: ﴿... **وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا** ﴿٨﴾﴾ [الإسراء] أى محبسا.

هذا موضع اتفاق بين علماء اللغة، ولكن الخلاف بينهم فى الفرق بين الإحصار، والحصر؛ فقد قال الكسائى وأبو عبيدة وكثيرون من علماء اللغة: الإحصار المنع بالمرض أو ذهاب النفقة، أى ما يكون الحبس فيه من ذات الشخص لامن أمر خارج عنه؛ والحصر هو حصر العدو؛ وعلى هذا يقال أحصره المرض، وحصره العدو، وقال الفراء: هما بمعنى واحد؛ فيقال حصره المرض وأحصره، وحصره العدو وأحصره، وقال الراغب الأصفهانى: إن الإحصار أعم من الحصر،

---

(١) عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: «وَقَّتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ ذَا الْحُلَيْفَةِ، وَلأَهْلِ الشَّامِ وَمِصْرَ الْجُحْفَةَ، وَلأَهْلِ الْعِرَاقِ ذَاتَ عِرْقٍ، وَلأَهْلِ نَجْدٍ قَرْنًا، وَلأَهْلِ الْيَمَنِ يَلَمْلَمَ». أخرجه النسائى - ميقات أهل العراق (٢٦٠٨) وفى الصحيحين من رواية عبد الله بن عباس قال: «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَقَّتَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ ذَا الْحُلَيْفَةِ، وَلأَهْلِ الشَّأْمِ الْجُحْفَةَ، وَلأَهْلِ نَجْدٍ قَرْنَ الْمَنَازِلِ، وَلأَهْلِ الْيَمَنِ يَلَمْلَمَ هُنَّ لَهُنَّ وَلِمَنْ أَتَى عَلَيْهِنَّ مِنْ غَيْرِهِنَّ مِمَّنْ أَرَادَ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ، وَمَنْ كَانَ دُونَ ذَلِكَ فَمِنْ حَيْثُ أَنْشَأَ، حَتَّى أَهْلُ مَكَّةَ مِنْ مَكَّةَ». [البخارى - مهلّ أهل مكة للحج والعمرة (١٤٢٧)، ومسلم - مواقيت الحج والعمرة (٢٠٢٢)].

فهو يستعمل للحبس بالعدو وبالمرض ونحوه، وأما الحصر فيستعمل فى المنع من ذات الشخص بالمرض ونحوه فقط.

ولقد قال أبو العباس المبرد والزجاج: إن كليهما يكون للحبس بعمل العدو، وبالمرض ونحوه؛ ولكنهما مع ذلك مختلفان فى المعنى؛ فالحصر معناه الحبس، والإحصار معناه التعرض للحبس والضيق، بالعدو أو المرض؛ كما يقال حبسه بمعنى أدخله فى المحبس، وأحبسه بمعنى عرضه للحبس، وقتله بمعنى أوقع به القتل، وأقتله بمعنى عرضه للقتل، وقبره بمعنى دفنه، وأقبره بمعنى عرضه للدفن. وعندى أن هذا هو الفرق الدقيق الذى يكون بين الحصر والإحصار، فالفرق بينهما فى معنى الاستعمال الدقيق؛ لا فى موضع الاستعمال.

وقد فصلنا القول ذلك التفصيل فى هذا اللفظ، وانتهينا إلى ما انتهينا إليه؛ لأن الفقهاء اختلفوا فى الحكم، وبنوا اختلافهم على اختلاف اللغويين فى معنى اللفظ؛ فالحنفية قرروا أن الإحصار بالمرض أو بالعدو يسيغ التحلل بذبح الهدى، على أن يقضى الحج والعمرة من بعد إن كان الإحرام بعمرة؛ والمالكية والشافعية قرروا أن الإحصار فى الآية لا يكون إلا من العدو؛ أما المريض فإنه يستمر على إحرامه حتى يبرأ من مرضه، ويذهب إلى البيت فيطوف به سبعًا، ويسعى بين الصفا والمروة، وبهذا يتحلل من عمرته أو حجه؛ وقريب من ذلك قال المالكية؛ فإنهم يرون أيضا أن المريض لا يتحلل بالذبح، بل ينتظر حتى يبرأ من المرض، فإن برئ وكان فى استطاعته أداء الحج بأن يدرك وقفة عرفات أتم الحج، وإن لم يدرك كان مخيراً بين أن يستمر على إحرامه حتى يؤدى من قابل، وبين أن يذهب ويتحلل بالطواف والسعى بين الصفا والمروة؛ وقد أخذوا ذلك الحكم من الآية الكريمة، إذ فهموا أن الإحصار لا يكون إلا للعدو؛ ولأن النبى ﷺ عندما منع هو وأصحابه من أداء الحج تحللوا بالذبح(١) وأما المرض فلم يرد عن النبى ﷺ أنه بذاته أباح التحلل

---

(١) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قَدْ أُحْصِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَحَلَقَ رَأْسَهُ وَجَامَعَ نِسَاءَهُ وَنَحَرَ هَدْيَهُ حَتَّى اعْتَمَرَ عَامًا قَابِلا. [رواه البخارى: الحج - إذا أحصر المعتمر (١٦٨١)].

المطلق؛ بل يرخص للمريض فى بعض ما يحرم على المحرم، ولذلك فدية سنبينها. و«الهدى»: اسم جنس جمعى، وهو الذى يفرق بينه وبين مفرده بالتاء أو الياء المشددة، والمفرد هدية، والمراد ما يذبح من نحو الشاة والبقر والإبل، أى ما يذبح من النعم؛ والمطلوب أيسره؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿**فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ**﴾ والأيسر هو الشاة ونحوها.

واستيسر بمعنى يسر وتيسر؛ لأن الاستيسار واليسر بمعنى واحد؛ كاستصعب وصعب بمعنى واحد؛ ولكن يجب أن يلاحظ أن السين والتاء فى استيسر ما زالتا تشيران إلى المعنى الأصلى لهما وهو الطلب؛ وقوله تعالى: ﴿**فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ**﴾ على هذا المعنى يكون حثا للمكلف على أن يطلب اليسير السهل الذى يؤدى من غير كلفة ومشقة، لا العسير الصعب الذى لا يؤدى إلا بمشقة وجهد.

وإن ذلك سير على مبدأ الإسلام العام الذى يطالب دائما بالسهل اليسير، لا بالصعب العسير؛ ولقد كان النبى ﷺ كما أخبرت عائشة رضى الله عنها: «**ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما**»(١). ولقد كان ﷺ يحث على طلب الرفيق من الأمور والتكليف، ويقول فى دينه «**أوغل فيه برفق**»(٢)، وينهى عن التشدد وطلب الشاق، ويقول: «**لن يشاد الدين أحد إلا غلبه**»(٣)، ويقول: «**سددوا وقاربوا**»(٤).

---

(١) عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّهَا قَالَتْ: «مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إلا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِنَفْسِهِ، إِلا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ بِهَا». [متفق عليه؛ رواه البخارى: المناقب (٣٢٩٦)، ومسلم: الفضائل (٤٢٩٤)].

(٢) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ». [أخرجه أحمد فى مسنده (١٢٥٧٩)].

(٣)، (٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إلا غَلَبَهُ؛ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنْ الدُّلْجَةِ». [رواه البخارى: الإيمان - الدين يسر (٣٨) والنسائى (٤٩٤٨)] قلت: يشادّ: يكلف نفسه من العبادة فوق طاقتها. السداد: التوسط فى العمل من غير إفراط ولا تفريط. قاربوا: اقتربوا من السداد والصواب فى أداء الطاعات. الغدوة: الخروج أول النهار، والروحة: الخروج آخر النهار، والدلجة: السير أول الليل، قيل: سير الليل كله. يعنى: اغتنموا أوقات نشاطكم مع تحرى أفضل الأوقات للعبادة قدر المستطاع.

هذه قاعدة الإسلام: طلب اليسير من الأمور دائمًا، واجتناب العسير ما لم يكن تكليفا كالجهاد في سبيل الله.

﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ حلق الرأس أو تقصيرها شعار الانتهاء من الإحرام، والتحلل من تلك الشعيرة المباركة، كما أن السلام مظهر الخروج من الصلاة، وانتهائها، أو قطعها عند الاضطرار إلى قطعها.

وقد بين الله سبحانه أن المحرم عند الاضطرار بالإحصار، يكون له التحلل بذبح الهدى، وتحرى اليسير دون العسير؛ ولكن لا يتم التحلل ولا يسوغ الحلق أو تقصير الشعر الذى هو مظهره إلا بعد أن يبلغ الهدى مَحِلَّه، ويذبح عند بلوغه محله.

و«المَحِلّ»: اسم زمان الحلول أو مكانه؛ فهو يطلق على الزمان والمكان، فيقال: بلغ الدَّيْن محِلَّه إذا حل وقت وفائه، وبلغ الأجل الذى يستحق فيه الأداء؛ ويقال: بلغ الشخص محِلَّه إذا وصل إلى المكان الذى يحل فيه.

وما المراد بالمحل فى الآية؟ أيراد به اسم الزمان، أم يراد به اسم المكان؟ لاشك أن اللفظ يحتملهما، فيحتمل الزمان والمكان، وإن كان فى المكان أظهر، وأقرب ورودًا للخاطر؛ ولذلك كان لابد من السنة لمعرفة المراد يقينا، أو أن يستبين ذلك من آيات أخر؛ وقد قال الحنفية: إن المَحِل هو اسم مكان يراد به البيت الحرام، وقد تبين ذلك بالقرآن، فقد قال تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ [الحج]، والقرآن يفسر بعضه بعضا؛ وعلى ذلك لا يصح للمحصر أن يحلق ويتحلل، حتى يصل الهدى الذى يرسله إلى البيت العتيق ويذبح؛ وقد تأيد ذلك بآية أخرى، وهى قوله تعالى: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ... ﴿٩٥﴾﴾ [المائدة]، ففيها التصريح بأن الهدى فى الكعبة. وقد قال الجمهور إن مَحِل الهدى للمحصر هو المكان الذى كان فيه الإحصار، كما فعل النبى ﷺ عام الحديبية؛ فإن المِسْور بن مَخْرَمة يروى: «أن رسول الله ﷺ عندما منع من البيت الحرام فى تلك السنة وعقد الصلح قال لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا»، فوالله ما قام رجل منهم، حتى قال ذلك

ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فقالت له: يانبى الله أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم بكلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك؛ ففعل؛ فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا»[(١)].

فهذا يدل على أن محل الهدى للمحصر هو حيث الإحصار؛ وإنه إذا كان ممنوعا فإن الهدى قد يمنع أيضًا. وقد أجاب الحنفية عن ذلك بأن النبى ﷺ كان فى الحرم لا فى الحل، فهو كان فى محله؛ لأنه أحصر فى طرف الحديبية القريب من مكة وهو من الحرم.

ولاشك أن رأى جمهور الفقهاء يتفق مع السنة النبوية، وفيه تسهيل على المحصرين، والمناسب لحالهم هو التيسير لا التصعيب. ولا شك أن ذبحهم فى المكان الذى أحصروا فيه أيسر كلفة؛ والصدقة لا يتعين مكانها فى الضيق، ولكن النص الكريم ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ لا ينطبق تمام الانطباق على رأى الجمهور، إذا فسرنا المحل بالمكان؛ لأن البلوغ يقتضى مسافة بين المكانين؛ ولا ينطبق ذلك على مكان الحصر، بل ينطبق على مكان يكون فيه بلوغ؛ وإذا فسرنا المحل بالزمان تأتَّى معنى البلوغ بأن ينتظر المحصر حتى يجىء وقت الهدى وهو يوم النحر، ويكون بالغًا محله أى بالغا زمانه؛ وحينئذ لا يتقيد المحصر بالمكان، ولكن يتقيد فى الذبح بالزمان، وإن زال الإحصار قبل زمانه، وأمكن الوصول إلى الحج فى إبانه، فقد زال موجب الذبح، وتعين إتمام الحج.

---

(١) جزء من حديث طويل رواه البخارى: كتاب الشروط (٢٥٢٩) وفى أوله: عَنْ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانَ (ابن الحكم) يُصَدِّقُ كُلُّ وَاحد منْهُمَا حَديثَ صَاحبه قَال: خَرَجَ رَسُولُ اللَّه ﷺ زَمَنَ الْحُدَيْبيَة حَتَّى إذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيق قَالَ النَّبىُّ ﷺ: إنَّ خَالدَ بْنَ الْوَلِيد بالْغَميم فى خَيْلٍ لقُرَيْشٍ طَليعَةٌ فَخُذُوا ذَاتَ الْيَمين ... إلى أن قَالَ: فَلَمَّا فَرَغَ منْ قَضيَّة الْكتَاب قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ لأصْحَابه: «قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلقُوا». قَالَ: فَوَاللَّه مَا قَامَ منْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلكَ ثَلاثَ مَرَّات، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ منْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقىَ منْ النَّاسِ فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبىَّ اللَّه أَتُحبُّ ذَلكَ؟ اخْرُجْ ثُمَّ لا تُكَلِّمْ أَحَدًا منْهُمْ كَلمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ وَتَدْعُوَ حَالقَكَ فَيَحْلقَكَ. فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا منْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلكَ نَحَرَ بُدْنَهُ وَدَعَا حَالقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلكَ قَامُوا فَنَحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلقُ بَعْضًا ... الحديث. ورواه أحمد فى مسنده عنهما (١٨١٦٦).

ولقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن قوله تعالى: ﴿وَلا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ خطاب عام لكل المكلفين فى هذه الشعيرة، لا فرق بين محصر وطليق، وذى عذر وغيره؛ فهو بيان لوقت التحلل من الإحرام بشكل عام، وبيان لمكان الذبح بشكل عام وهو الكعبة؛ وإن لذلك الكلام وجاهته واستقامته؛ وهو تخريج يعاضد رأى الجمهور؛ لأن الكلام يكون فى مكان الذبح العام، لا فى الإحصار، ومكان الذبح فى الإحصار علم من السنة الصحيحة فى الحديبية.

وقبل أن نترك الكلام فى المحصرين ينبغى أن نبين مذهب الحنفية وغيرهم فى قضاء الحج أو العمرة إذا أحصروا؛ فقد قال مالك والشافعى: إذا تحلل بالهدى فليس عليه قضاء إلا أن يكون الإحصار فى الحجة الأولى؛ لأن الذبح قد أحله من إحرامه فلا قضاء عليه.

وقال الحنفية: إن عليه عمرة وقضاء ما أحرم به من الحج، فإن كان محرمًا بحج نفلا كان عليه عمرة، وعليه قضاء حجه؛ لأن القاعدة عندهم أنه إذا شرع فى نفل ولم يتمه وجب عليه أن يعيده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ... (٣٣)﴾ [محمد]. وإذا كان محرما بعمرة قضاها عمرة؛ لما تقدم، ولقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ فإن ذلك النص بعمومه يشمل حال من يشرع فى حج أو عمرة، ولم يتمهما اختيارا أو اضطرارا.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ بعد أن بين سبحانه أن مظهر الانتهاء من الإحرام هو الحلق أو تقصير الشعر، وتبين مما تقدم أن الحلق غير جائز فى مدة الإحرام، أخذ سبحانه يبين حكم ما إذا تعذر أو تعسر على الشخص أن يستمر من غير حلق بأن اضطر إليه لمرض فى جسمه أو رأسه استوجب الحلق ليدفع الضرر به، أو كان برأسه هوام تؤذيه وتجعل غيره يتقزز منه، وقد يصير به الشخص مصدر أذى لغيره، أو عدوى، كما هو مؤذ لنفسه؛ ففى هذه الأحوال يحل له الحلق، ولا يحل له سواه، لأنه لا يتحلل بذلك من الإحرام، بل يرخص له فى بعض محرماته ليدفع الضر عن نفسه وغيره، ولا ضرر ولا ضرار فى الإسلام؛ فالكلام فى الآية السابقة فى الانتهاء من الإحرام قبل أداء الأركان لعذر

قاهر، والكلام هنا فى الترخيص من بعض المحرمات من غير إنهاء الإحرام دفعًا للأذى من غير قهر.

والكلام السابق كان فى الأمور التى تمنع من الوصول إلى البيت الحرام؛ أما الكلام هنا فهو قد يقع قبل الوصول إلى البيت الحرام أو بعده.

والترخيص فى الحلق له فدية، وهى صوم، أو صدقة، أو نسك. والفدية هى العوض عن شىء عظيم جليل نفيس؛ ولاشك أن محرمات الحج والعمرة أمور لها جلالها وخطرها؛ لأنها مهذبات الروح والقلب، فهى نفيسة جليلة، وعبر سبحانه بالفدية ولم يعبر بكفارة؛ لأنه لا ذنب ولا اعتداء، حتى يكون التكفير من الإثم. والنسك جمع نسيكة وهى الذبيحة، وتكون من النَّعَم: الإبل والبقر والغنم، ويستيسر ولا يستصعب كما هو الشأن فى أمور الإسلام.

ولم يبين القرآن عدد أيام الصيام، ولا عدد المساكين الذين يطعمهم، ولا مقدار ما يتصدق به، كما لم يبين أهذه الأنواع الثلاثة فى مرتبة واحدة أيها اختار كان فيه غناء، ولو كان قادرًا على أعلاها.

وإن السنة بيان القرآن قد فسرت ذلك وبينته، فقد قال ﷺ لكعب ابن عُجْرة وقد رأى الهوام تتساقط من رأسه: «**لعلك آذاك هوامك**» قال: نعم يارسول الله قال: «**احلق وصم ثلاثة أيام، أو تصدق بفَرْق على ستة مساكين، أو انسك شاة**»(١). وفى رواية أخرى أنه قال: «**احلق وأهد هديا**»، فقال: ما أجد هديا، قال: «**فأطعم ستة مساكين**»، فقال: ما أجد، فقال: «**صم ثلاثة أيام**»(٢).

---

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخارى: الحج - قول الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى ... ﴿١٩٦﴾﴾ [البقرة] (١٦٨٦)، ومسلم - جواز الحلق للمحرم (٢٠٨٣) وقد رواه الأئمة بنحو من ذلك.

(٢) عن كعب بن عجرة الأنصارى أنه حدثه أنه كان أهلَّ فى ذى القعدة وأنه قمل رأسه فأتى عليه النبى ﷺ وهو يوقد تحت قدر له فقال له: «كأنك تؤذيك هوام رأسك؟» قال: أجل، قال: «احلق وأهد هديا» فقال: ما أجد هديا قال: «فأطعم ستة مساكين» فقال ما أجد فقال: «صم ثلاثة أيام». [التمهيد ج٢ ص٢٣٣].

والفرق المذكور فى الـرواية الأولى هو مكيال يسع ما وزنه من البر نحـو ستة عشر رطلا.

والحديث بروايتيـه قد بين ترتيب الأنواع الثلاثة، فهى ليـست بدرجة واحدة؛ وبين مقدار الصيام ومقدار الصدقة، والله عليم خبير.

﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعد أن بين سبـحانه وتعالى طريق الإحـلال عند الإحصـار، وطريق الإحلال الجـزئى من بعض المحرمـات عند المرض أو الأذى، بين الإحلال حال الأمن، فقال: ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ﴾ أى إذا زال خوفكم من العدو وعندكم فرصة الحج من عامكم هذا. والحكم الذى سيتبين من بعد يشمل حال الأمن المستمر، ولا يقتصر على الأمن العارض بعد الإحصار فقط؛ لأن الحكم إذا كان ثابتـا للأمن العارض بعـد الخوف، فأولى أن يثبت للأمن المستـمر الذى لا خوف معه؛ أو نقول إن كلمة ﴿أَمِنتُمْ﴾ المراد بها ثبوت حال الأمن سواء أكان عارضا بعد ضده أم كان حـالا مستمرة؛ فإن الماضى يدل فى كثيـر من أحواله على الإخبار عن الحالات المستمرة.

والتمتع أصل مـعناه الانتفاع الممتد المسـتمر؛ مأخوذ من المتـوع بمعنى الامتداد والارتفاع؛ والمراد هنا مـعنى إسلامى، وهو الجمع بين العمـرة والحج فى عام واحد على أن يحرم بالعـمرة أولا ثم بالحج؛ فمعنى قـوله تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ أى فمن أحـرم بالعمرة مـنتفعـا بعبادته ونسكه إلى أن أحـرم بالحج، فلكى يتـحلل فى إبان التحلل يذبح هديا.. إلـى آخره. وسمى ذلـك الجمع تمتـعا؛ لأن المحرم يجمع بين مـتعة الروح ومتعـة الجسد، فيحرم بالعـمرة ويستمر فـيها، وتلك متعة روحـية، ويجوز أن يتحلل منها ثم يحرم بالحج، وتلك متـعة جسدية، ثم هو يعتـمـر ويحـج فى سفـر واحـد، وتلك مـتعة مـادية؛ من أجل ذلك سمى هذا تمتعا.

ولكى يتجلى الحكم المستفاد من الآية نقول إن الإحرام ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- **إفراد**: وهو أن يفرد بالحج، ولا يجمع معه العمرة فى أشهر الحج من عامه، وقد يكون الإفراد بالعمرة؛ وإذا أفرد الحج لا يحرم بها فى أشهر الحج ويحج من العام.

٢- **قِران**: وهو أن يجمع بين الحج والعمرة فى إحرام واحد، أو يحرم بالعمرة فى أشهر الحج، وقبل أن ينتهى من أعمالها يحرم بالحج.

٣- **تمتع**: وهو أن يحرم بالعمرة فى أشهر الحج وبعد أن ينتهى من أعمالها يحرم بالحج؛ وقد يتحلل بنسك إذا لم يكن قد ساق الهدى عند إحرامه. وقد اختلف الفقهاء فى أيها أفضل وأكثر مثوبة، وأرجى لرضا الله سبحانه؛ فبعضهم قال: إنه الإفراد، وأولئك هم الأقلون، وبعضهم قال: القران، وهؤلاء هم الأكثرون؛ وبعضهم قال: التمتع، وقد أجاز النبى ﷺ الثلاثة، وفى كل منها فضل، وأساس الخلاف هو حج النبى ﷺ؛ فقد روى عن عائشة رضى الله عنها أنه كان إفرادا، ولعله اختار ذلك ليكون قدوة للناس فى طلب اليسير، ولكيلا يفهم أحد أن القران أو التمتع فرض لازم؛ وروى أنه كان قرانًا؛ وروى أنه كان تمتعا؛ وقد نقل القرطبى الجمع بين الروايات المختلفة، فقال: «من أحسن ما قيل أن رسول الله ﷺ أهل بعمرة فقال من رآه: تمتع، ثم أهل بحجة فقال من رآه: أفرد، ثم قال: «لبيك بحجة وعمرةً»، فقال من سمعه: قَرن.

وقبل أن نترك هذا يجب أن نقرر أمرين:

أحدهما: إن كلمة التمتع قد تطلق بمعنى يشمل القران والتمتع، وهو المراد فى هذه الآية الكريمة، وبذلك يمكن التوفيق بين الروايات التى تقول إنه تمتع، والتى تقول إنه قرن؛ والراجح أنه قَرَن.

ثانيهما: إنه روى أن عمر رضى الله عنه قد نهى الناس عن التمتع والقران، وقد روى ذلك البخارى[(١)] وغيره؛ ولعله لم يفعل ذلك تحريما لما اعتبره النبى ﷺ وجاء به القرآن؛ بل فعل من قبيل السياسة العامة؛ لأنه رأى الناس يزدحمون فى موسم الحج ويمكثون أمداً طويلا لجمعهم بين العمرة والحج فى أشهره، ثم يخلو البيت من الناس طول العام؛ فأمرهم ـ سياسة لا دينا ـ أن يفردوا بالحج ليعتمروا فى أثناء العام، ويكون للبيت الحرام أفئدة من الناس تهوى إليه طول العام؛ ولم يوافق عمر أحد على ما رأى. والله أعلم بالصواب.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى التحلل من الإحرام للمتمتع والقارن، فقال: **﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾** أى يطلب اليسير من النعم وهو الشاة، **﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾**.

هذه هى العبادة التى تحل محل النسك، وهى الصيام، فقامت العبادة الروحية مقام العبادة المالية؛ لأن كلتيهما تلتقى عند غاية واحدة، وهى تهذيب النفس وإصلاح المجتمع؛ ولقد جعل الله سبحانه الصيام على مرحلتين:

إحداهما: وهى الأقل - تكون فى الحج، وهى ثلاثة أيام؛ وذلك لأن الحج مشقة؛ فلكى يكون سهلا فى أدائه على ذوى الفقر جعل أقل الصيام فيه، فلا يجمع بين مشقة الصيام ومشقة الحج، وهو سفر فيه مشقة.

---

(١) روى الأئمة أن عثمان بن عفان نهى عن التمتع والقران، ومن ذلك ما رواه البخارى: عَنْ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ قَالَ: شَهِدْتُ عُثْمَانَ وَعَلِيا - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - وَعُثْمَانُ يَنْهَى عَنْ الْمُتْعَةِ وَأَنْ يُجْمَعَ بَيْنَهُمَا، فَلَمَّا رَأَى عَلِيٌّ أَهَلَّ بِهِمَا: لَبَّيْكَ بِعُمْرَةٍ وَحَجَّةٍ قَالَ: مَا كُنْتُ لأَدَعَ سُنَّةَ النَّبِيِّ ﷺ لِقَوْلِ أَحَدٍ. [البخارى: الحج - التمتع والإقران والإفراد بالحج (١٤٦١)].
أما عمر فقد روى النسائى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «سَمِعْتُ عُمَرَ يَقُولُ: وَاللَّهِ إِنِّي لأَنْهَاكُمْ عَنْ الْمُتْعَةِ وَإِنَّهَا لَفِي كِتَابِ اللَّهِ، وَلَقَدْ فَعَلَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. يَعْنِي الْعُمْرَةَ فِي الْحَجِّ». قلت: يعنى أنه لم يقصد بذلك النهى مخالفة الكتاب والسنة إلى غيرهما، وإنما أمر بالإفراد، وهو من أنواع الحج المعتبرة بالكتاب والسنة؛ لما رأى فى ذلك مصلحة المسلمين. فهذا اجتهاد عمر وعثمان وعلى وكلهم مهديون راشدون رضى الله عنهم.

والمرحلة الثانية: وهى الأكثر، بعد العودة إلى أهله حيث يطمئن ويستقر، وتذهب مشقة السفر، فيصوم سبعة أيام.

وقد اتفق العلماء على أنه لا يصوم السبعة الأيام قبل الانتهاء من الحج؛ ولكن اختلفوا أيجوز القيام بها بعد الانتهاء وقبل العودة؟ فقال فريق: إنه لا يجوز إلا إذا رجع، مستمسكا بحرفية النص لا يتجاوزها، وقال بعضهم: يجوز بمجرد الانتهاء من الحج أن يصوم؛ لأن التأخير إلى الرجوع إلى الأهل ترخيص وتسهيل، فمتى سهل عليه أن يصوم صام؛ مادام ذلك بعد الحج.

ولقد قال سبحانه وتعالى: ﴿**تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ**﴾ ليتقرر الحكم نصًا؛ وليتبين أن الذى يحل محل النسك هو العشرة الكاملة لا بعضها؛ ولكى لا ينسى الناس صوم السبعة الأيام إذا عادوا إلى أهلهم حاسبين أن حجهم قد تم، بل عليهم أن يفهموا أن الحج لم يتم حتى يصوموا.

﴿**ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾ أى أن التمتع بنوعيه من قرانٍ يجمع فيه الحج والعمرة فى إحرام، أو تمتع يجمع به بينهما فى أشهر الحج، لمن لم يكن أهله مقيمين فى مكة وما حولها؛ فإن أولئك يفردون ولا يجمعون؛ لأن العمرة فى إمكانهم فى طول العام، وهذا ما يقرره فقهاء الحنفية.

وقال الشافعية: إن أهل مكة وما حولها يقرنون ويتمتعون كغيرهم من أهل الآفاق، والإشارة فى قوله: ﴿**ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾ إنما هى للنسك وما يقوم مقامه، وذلك لأن الإشارة لأقرب مذكور؛ أى أن هذا الإهداء يكون على أهل الآفاق، لا على أهل البيت الحرام؛ لأنهم بوادٍ غير ذى زرع، كما ذكر إبراهيم عليه السلام فى دعائه.

﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ ختم الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة التى كانت فيها الإشارة إلى أعمال الحج ونسكه وشعائره بالأمر بتقواه للإشارة إلى أن الاعتبار فى أعمال الحج لا يكون لما تعمله الجوارح، وما تقوم به من أفعال، إنما العبرة فى ذلك إلى أثرها فى القلوب، فإن أوجدت رحمة بالعباد، ورهبة

من الخلاق، وتقوى من الله، فقد أديت على وجهها إذ خلصت النية، واستقامت الإرادة؛ وإن لم تؤد إلى تقوى الله والرحمة بعباده فقد خالطها رياء ولم تخلص النية، وحق العقاب؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ليلقى فى نفوس الناس الرهبة من عقابه حال رجاء ثوابه، والناس يصلحون بالثواب والعقاب، حتى إذا علت المدارك وقويت الروح كان الثواب رضا الرحمن؛ ولذا قال سبحانه بعد ثواب المؤمنين: ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ... ﴿١٥﴾ ﴾ [آل عمران].

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ قد بين فى الآية السابقة بعض أحكام الحج، وفى هذه الآية الكريمة يبين ميقاته، وما ينبغى للمؤمن فى وقت حجه.

وقوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ أى وقت الحج أشهر معلومات، وإنما جعلت النسبة إلى الحج نفسه، لا إلى وقته، فكأن الإسناد إليه - للإشارة إلى أن هذه الأشهر لأنها ميقات تلك العبادة المقدسة، تكتسب تقديسًا منها، وكأنها هى. والأشهر المعلومات اتفق على أن منها شوالا وذا القعدة والعشرة الأولى من ذى الحجة؛ واختلف فى العشرين الأخيرة أهى منها أم ليست منها؛ وعلى أنها ليست منها الأكثرون والصحاح من الروايات.

وإن هذه الأشهر سميت أشهر الحج؛ لأن أركانه تستوفى فيها، وتؤخذ الأهبة له فيها، ويحرم به فيها؛ ولكن قال أبو حنيفة ومالك والشافعى: يصح الإحرام بالحج قبلها؛ وذلك رأى جمع من التابعين؛ ورأى الشافعى تابعًا لبعض الصحابة والتابعين أن الإحرام بالحج لا يكون إلا فى أشهره، كما أن نية الصيام لا تكون إلا فى رمضان، وكما أن نية الصلاة لا تكون إلا وقت أدائها؛ وإن ذلك هو ما يشير إليه قوله تعالى ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ إذ جعلهن وعاء الفرض وظرفه.

ومعنى فرض الحج فيهن الإحرام به؛ فإذا أحرم بالحج نزه نفسه ولسانه عن كل قول يؤدى إلى نزاع؛ ولذا قال سبحانه: ﴿فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ﴾. وقد فسر بعض العلماء الرفث بما يكون بين الرجل والمرأة؛ والفسوق بالخروج عن

محظورات الحج، كلبس المخيط والحلق من غير رخصته، والصيد، وغير ذلك مما حظر الله سبحانه. والجدال هو المماراة.

وقد فسر بعض العلماء الرفث بأنه النطق بالفحش مما يكون بين الرجل والمرأة وغيره؛ والفسوق بالسباب؛ لأن النبى ﷺ قال: «**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**»(١). والجدال: المماراة والمنازعة.

وعندى أن مرمى القول الكريم هو النهى عن كل قول يجعل اللسان غير نزه، وكل قول يؤدى إلى النزاع، والجدال يؤدى إلى الخصام؛ لأنهم اجتمعوا على مائدة الرحمن الروحية ليتعارفوا، وليتلاقوا، وليقوى اتحادهم، ويعتزوا بعزة الله، فيجب اجتناب كل ما يؤدى إلى النزاع والخصام.

﴿**وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ**﴾ وإذا كنتم قد تنزهتم فى حجكم عن كل شر فاعلموا أنكم اجتمعتم لعمل الخير، فتنافسوا فيه، وتبادلوا النفع، وليتعرف الشرقى حال الغربى، واعملوا على ما يقوى جمعكم، ويزيل الضر عنكم، ويدفع عنكم كيد الكائدين؛ فإن الحج الذى يزكى نفوسكم لا يثمر ثمرته، ولا ينتهى إلى غايته، إلا إذا اعتبرتموه المؤتمر الأكبر لدولتكم، والمجتمع الأعظم لممثلى أمتكم؛ وإن الوادى المقدس هو ناديكم الذى اجتمعتم فيه؛ واعلموا أن خيركم محسوب لكم ﴿**وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ**﴾ سبحانه، فيعرف المحسن والمسيء، وحسب المحسن فضلا أن يعرف الله فضله، وأن يكون عنده من الأخيار الأبرار، وأن يكون عمله مقدوراً من ربه، مذكوراً عنده؛ ثم إنه يجازى الإحسان إحسانا، وما عنده خير وأبقى.

﴿**وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ التزود هنا معنوى نفسى، لا مادى مالى؛ فالتزود: الإكثار من التقوى، وتهذيب النفس، وإشعار المؤمن بمودة المؤمن، وتوثيق العلاقة به، والتحاب على مائدة الرحمن، وتحت سلطان الديان. والدليل على أن الزاد معنوى لا مادى قوله سبحانه من بعد معللا

---

(١) متفق عليه؛ رواه - عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه - البخارى: الإيمان - خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر (٤٦) ومسلم: الإيمان - سباب المسلم (٩٧)].

لطلبه، مثبتًا الحكمة من أمره: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ ففى الكلام استعارة، وهو تشبيه التقوى والمودة والمحبة والإخلاص الذى يملأ قلب الحاج بالزاد المادى؛ لأن الأول غذاء القلوب، كما أن هذا غذاء الأجسام.

ولقد قال بعض العلماء إن التزود مادى، وهو نهى للحجاج الذين لا يتزودون فى حجهم ويتكففون الناس، وقد كان يفعل ذلك أهل اليمن فنهوا عنه.

ولكن المعنى الواضح من الآية هو الأول؛ ولذلك أردفت الآية بالأمر بالتقوى أمرًا عاما فقال سبحانه: ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ أى اتخذوا من عمل الخير واجتناب الشر، والقيام بالطاعات والامتناع عن المنهيات وقاية من غضبى، وخص ذوى الألباب بالنداء، وهم ذوو العقول المدركة الواعية للإشارة إلى أن من لا يتقى الله ليس عنده لب يدرك، ولا قلب يعى، ولا إرادة تعمل على مقتضى العقل والحكمة. إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار، والله سبحانه وتعالى هو العليم الخبير.

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن
تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ
عَرَفَـٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ
وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ
لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ
ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾
فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَـٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ
ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن

يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ
خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا
حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾
۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى
يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ
وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

هذه الآيات الكريمات فى ذكر بقية مناسك الحج؛ وقد ابتدأت الآيات السابقة؛ فذكرت ابتداءه، وأشارت إلى انتهائه، وكيف يكون الانتهاء، وفى هذه الآية بيان أو بالأحرى إشارة إلى ركن الحج الركين الذى يفوت الحج بفواته، وهو الوقوف بعرفات. فهذه الآيات وما سبقها فى موضوع واحد.

وقد انتهت الآية السابقة بأن الحاج عليه أن يتزود من المعانى الروحية؛ لأنها لب الحج ومعناه، وغايته ومرماه: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾. وقد ابتدئت هذه الآيات ببيان أن التزود الروحى لا يتنافى مع بعض الأغراض المادية، إذا توافرت التقوى، وتسامت النفس وعلت قوة الروح، فإن المادة فى هذه الحال تكون مطية الروح، وفى خدمة المبادئ الفاضلة؛ فليست التقوى فى الإسلام هى التجرد النفسى، والانخلاع من دواعى الجسم أو تعذيب الجسم لتطهير الروح؛ إنما التقوى فى الإسلام تقوية الروح لتسيطر على الجسم، وتقوية الجسم ليؤدى مقاصد الروح، ويصل إلى غاياتها ومراميها؛ ولذلك أردفت الآية الداعية إلى طلب الزاد الروحى من التقوى بالآية التى تنفى الإثم عن مطالب الجسد، ما دامت خاضعة لقوة الإرادة والعقل؛ لأن المادة

ومقتضياتها من ملاذ ومتع ليست محرمة فى الإسلام، بل هى محللة على أن تكون أمة للعقل والروح والإرادة الحازمة الفاضلة لا أن تكون سيدا حاكما مسيرًا، أو أن تكون الغاية والقصد، فتلك هى الحيوانية.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الجناح هنا الإثم؛ وأصله من جنح إذا مال؛ يقال جنحت السفينة إذا مالت؛ وقال تعالى: **﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ... (٦١)﴾ [الأنفال]**. ولما كان الإثم ميلا متطرفا نحو الباطل صارت كلمة الجناح تطلق على الإثم لما فيه من معنى الانحراف المائل عن الحق، والابتغاء: الطلب الشديد: والفضل أصل معناه الزيادة وهى تكون فى الخير وفى الشر؛ ولكن يعبر عن الزيادة القبيحة بأنها فضول، وعن الزيادة فى الخير بأنها فضل؛ فزيادة العالم على الجاهل فضل، وزيادة المصلح على المفسد فضل؛ وزيادة الأعمال والمقاصد الخيرة على غيرها فضيلة.

وتطلق كلمة فضل ويراد بها المال الحلال من التجارة التى لوحظت فيها الفضيلة؛ ولقد جاء ذلك فى القرآن الكريم فى مثل قوله تعالى: **﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠)﴾ [الجمعة]**، وقد تطابقت كلمة المفسرين على أن الفضل فى هذه الآية الكريمة هو المال الحلال المكتسب من التجارة أو غيرها؛ لأنه جاء فى السنة النبوية التصريح بذلك؛ فقد كان الناس يتأثمون من الاتجار فى عشر ذى الحجة الأولى(١)؛ لأنهم يحسبون أن تلك الأيام تكون للعبادة خالصة لا يخالطها أى أمر من أمور الدنيا؛ وكانوا يسمون من يتجر فى هذه الأيام الداج لا الحاج؛ لأنهم أعوان الحجيج فى غايتهم الروحية، فنزل قوله تعالى: **﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن**

---

(١) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَتْ عُكَاظٌ وَمَجَنَّةُ وَذُو الْمَجَازِ أَسْوَاقًا فِى الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا كَانَ الإِسْلامُ فَكَأَنَّهُمْ تَأَثَّمُوا فِيهِ، فَنَزَلَتْ ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلا مِنْ رَبِّكُمْ فِى مَوَاسِمِ الْحَجِّ﴾. قَرَأَهَا ابْنُ عَبَّاسٍ.
[صحيح البخارى: كتاب البيوع (١٩٠٩)]، وَقِرَاءَةِ ابْنِ عَبَّاس «فِى مَوَاسِمِ الْحَجِّ» مَعْدُودَةٌ مِنْ الشَّاذِّ الَّذِى صَحَّ إِسْنَادُهُ وَهُوَ حُجَّةٌ وَلَيْسَ بِقُرْآنٍ. قاله الحافظ ابن حجر فى الفتح.

رَّبِّكُمْ﴾، ولقد روى أن رجلا سأل ابن عمر فقال: إنا قوم نكرى، أى نستأجر، فهل لنا من حج؟ فقال: جاء رجل إلى النبى ﷺ، فسأله عن الذى سألتنى عنه فلم يدر ما يقول حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية: **﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾**(١).

والمعنى على هذا: ليس عليكم إثم أن تبتغوا رزقا حلالا فى أيام الحج، على أن تكونوا فى طلبكم وأخذكم بالأسباب معتمدين على الله الخالق المنعم الذى رباكم، وأنشأكم ونماكم؛ فإضافة الرزق إلى الله ليس معناه أن نطلبه بالدعاء والتفويض، بل معناه أن نأخذ فى الأسباب ونسعى، ثم نفوض أمور المقادير إلى مدبر الكون العليم الخبير.

وإباحة طلب المال فى الحج لايقتصر على الاتجار الآحادى، أو طلب المال من الآحاد فقط، بل يشمل العمل على التبادل الجماعى، ونمو الاقتصاد بين الأقاليم الإسلامية؛ فأهل الخبرة بشئون المال من الحجاج يتصل بعضهم ببعض من الأقاليم المختلفة، ويعرف أهل كل إقليم ما عند الآخرين من فاضل الرزق الذى تخرجه أرض الله، وما ينقصهم من أسباب الحياة، ويتبادلون الفائض، ويسدون النقص وهو مايسمى فى لغة العصر الحاضر التبادل التجارى؛ فيعم الخير، ولايكون إقليم من الأقاليم الإسلامية فى نقص من الموارد، وآخر فى الكثير منها.

وهذه تكون إحدى منافع الحج المادية التى اشتمل عليها قوله تعالى: **﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ... (٢٨)﴾** [الحج].

ولقد قال بعض العلماء: إن الاتجار وطلب المال هو من قبيل الرخصة؛ لأن الله لم يطلبه بل نفى الإثم؛ فقد قال: **﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾** ونفى الإثم يشير إلى أنه

(١) عَنْ أَبِى أُمَامَةَ التَّيْمِىِّ قَالَ: قُلْتُ لابْنِ عُمَرَ إِنَّا نُكْرِى فَهَلْ لَنَا مِنْ حَجٍّ؟ قَالَ: أَلَيْسَ تَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ وَتَأْتُونَ الْمُعَرَّفَ - أى عرفة - وَتَرْمُونَ الْجِمَارَ وَتَحْلِقُونَ رُءُوسَكُمْ؟ قَالَ: قُلْنَا بَلَى. فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِىِّ ﷺ فَسَأَلَهُ عَنِ الَّذِى سَأَلْتَنِى فَلَمْ يُجِبْهُ، حَتَّى نَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلام - بِهَذِهِ الآيَةِ (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلا مِنْ رَبِّكُمْ) فَدَعَاهُ النَّبِىُّ ﷺ فَقَالَ: «أَنْتُمْ حُجَّاجٌ». أخرجه بهذا اللفظ أحمد: مسند المكثرين (٦١٤١)، وبنحوه أبو داود: المناسك - الكرى (١٤٧٣)].

عفو، لا مباح، أى أن الأولى تركه، ونحن نخالف أصحاب هذا الرأى لأن الرخصة تقتضى أن تكون هناك عزيمـة مانعة من الكسب، ولم يقم دليل على منع الكسب، فيبقى على الإباحة الأصلية، وجاءت الآية الكريمة مؤكدة لهذه الإباحة بنفى الإثم، ولأن النبى ﷺ خَطَّأ الذين يتوهمون أن الاتجار مانع من الحج؛ ولا يكون الفعل من قبيل العفو إلا إذا كان موضوعه غير مباح، ولكنه لأحوال خاصة نفى الإثم نحو كل لهو باطل إلا لعـب الرجل بقوسه.. إلخ. وطلب المال الحـلال أمر مـباح بإطلاق؛ ولقد قـال رجل لعمر رضى الله عنه: يا أميـر المؤمنين كنتم تتجرون فى الحج فـقال رضى الله عنه: وهل كانت معايشهم إلا فى الحج؟!

وفـوق ذلك أن المعنى العام الـذى يهيئ له الحج وهو التـبـادل التجـارى بين المسلمين أجمـعين، بأن يقدم كل إقليم فائض ما عنـده لأهل الإقليم الذى ينقصه؛ هو أمر مطلوب يقوى الوحدة الإسلامية، وهو إحدى منافع الحج المذكورة فى قوله: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ... ﴿٢٨﴾﴾ [الحج] كمـا نوهنا؛ فما نفى عـنه الإثم هنا ذكر فائدة هناك، فـكان مشروعـا على سبـيل الإباحة من الآحاد؛ وأحـسب أنه مطلوب على سبيل الوجوب من الجـماعات الإسلامية، فهو من قـبيل المباح بالجزء المطلوب بالكل، أى أنه مبـاح للآحاد أن يتجـروا فى الحج، وواجب على جمـاعة كل إقليم وأهل الخبرة منهم أن يقيموا أسباب التبـادل التجارى، فالحج فرصته المهيأة لهم، ولا فرصة سواه، أو تبلغ درجته.

﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ الفاء هنا لتـفصيل بعض مـا أجمل من قـبل فى قوله تعـالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ ... ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة] إلخ. والإفاضة السير متدافعين فى جمع متزاحمين، وذلك تشبيه لهم بالماء إذا أفاض ودفع بعضه بعضا فانتـشر وسال من حافتى الوادى أو الإناء. وعرفات هو الجبل المعروف الذى اتفق الفـقهاء على أن الوقوف عنده هو ركن الحج الأكـبر حتى لقد قال عليـه السلام، كما ذكـرنا من قبل: «الحج عرفة» وسمى الـيوم التاسع يوم عـرفة؛ لأنه اليـوم الذى يقف فيـه الحجـيج فى ذلك الجـبل الذى شرفـه الله ذلك التشـريف، وقد اختلـف فى السبب فى تسمـيته عـرفات مع اتفاقـهم على أنه اسم مرتجل لا منقول؛ فقال بعضهم: لأن إبراهيم عليه السلام عرفه بمجرد أن وصف له.

وقيل لأن إبراهيم عليه السلام علمه جبريل فيه مناسك الحج، فكان يقول: عرفت، عرفت. وقيل لأن آدم وحواء تعارفا فيه. وقيل لأن عرفات من عرف بمعنى طيبه الله بالعرف بخلاف منى، فإن فيها الذبح وأفراث الذبائح. وأحسن تعليل للتسمية ما جاء في الزمخشرى: قيل لأن الناس يتعارفون فيها. وهذا ما أختاره، وإن كانت الأسماء لا تعلل؛ ذلك لأن عرفات يجتمع الناس جميعًا عليه في وقت واحد، فيجرى التعارف بينهم، وليست هذه الخاصة في غيره من المناسك، فغيره يؤدى أفرادًا أو جماعة، أما هذا فيؤدى في جماعة زاخرة، هي جماعة الحجاج أجمعين.

والمشعر الحرام: هو المزدلفة؛ وسمى كذلك؛ لأنه من معالم الحج التي لا يصح أن يعمل فيها إلا ما ورد به النص، وهو منسك له حرمة وتقديس، وقد سمى المزدلفة؛ لأن الحجيج يزدلفون إليه من عرفات، كما سمى جمعًا؛ لأنهم يجتمعون فيه، ولأنهم يجمعون فيه بين صلاتى المغرب والعشاء جمع تأخير، كما يجمعون بين صلاتى الظهر والعصر جمع تقديم في عرفات. ووقت الوقوف بعرفات عند الجمهور[1] من بعد زوال اليوم التاسع إلى فجر اليوم العاشر؛ والوقوف بمزدلفة بعد فجر اليوم العاشر.

وقد روى المسور بن مخرمة أن رسول الله ﷺ خطب الناس فقال: «**أما بعد فإن هذا اليوم الحج الأكبر، ألا وإن أهل الشرك والأوثان كانوا يدفعون في هذا اليوم قبل أن تغيب الشمس، إذا كانت الشمس في رءوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوههم، وإنا ندفع قبل أن تطلع الشمس مخالفًا هدينا هدى أهل الشرك**»[2] ويبين ذلك عمل النبى

(١) قال المصنف ـ رحمه الله ـ: اتفق الفقهاء على أن الوقت من الزوال إلى الفجر وقت للوقوف، واتفقوا على أن من وقف قبل الغروب وبعده فقط صح حجه إذا استوفى ركنه. واختلفوا في أمرين فيما إذا وقف بعد الزوال وافترق قبل الغروب؛ فقد قال الجمهور يصح؛ وقال مالك في المشهور لا يصح حتى يكون الغروب ليفترق عن فعل المشركين، كما نص الحديث؛ واختلفوا إذا وقف بالزوال؛ فقال الجمهور لا يصح، وقال أحمد يجوز لما روى أن النبى ﷺ قال: من شهد صلاتنا هذه فوقف معنا حتى ندفع ووقف بعرفة قبل ذلك ليلا أو نهارا فقد تم حجه وقضى تفثه» والسؤال والنبى ﷺ بالمزدلفة.

(٢) عن المسور بن مخرمة قال: خطبنا رسول الله ﷺ بعرفة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أَمّا بَعْدُ، فَإِنّ أَهْلَ الشِّرْكِ وَالأَوْثانِ كانوا يدْفَعون مِنْ هاهُنا عِنْدَ غُروبِ الشَّمْسِ حينَ تَكونُ الشَّمْسُ على رُءُوسِ الْجِبالِ مِثْلَ عَمَائِمِ الرِّجالِ عَلى رءُوسها، فَهَدْيُنا مُخالِفٌ لِهَدْيِهِمْ، وكانوا يَدْفَعونَ مِنَ الْمَشْعَرِ الْحرامِ عِنْدَ طُلُوعِ =

ﷺ؛ فقد كان يدفع من عرفات بعد الغروب ويدفع من المزدلفة قبل الشروق، بينما المشركون كانوا يدفعون من عرفات قبل أن تغيب الشمس، ومن المزدلفة بعد أن تطلع.

والوقوف بالمزدلفة ليس شأنه فى الحج شأن الوقوف بعرفات، فجمهور الفقهاء على أن من تركها لا يفوته الحج(١).

وعرفات لها امتدادات أربعة؛ فهى تمتد فى أولها: إلى طريق المشرق، وثانيها: يمتد إلى حافة الجبل الذى وراءها، وثالثها: إلى البساتين التى تلى قرنيها على يسار مستقبل الكعبة، والرابع: وادى عرنة، وليس منها؛ ولذا لا يصح الوقوف فيه.

والمزدلفة تمتد من عرفات إلى وادى محسر، وليس منها، بل هو فى أصله مسيل ماء، وقد استوت أرضه الآن(٢).

وإن الآية الكريمة تشير إلى ذلك العمل الإجماعى الذى يقوم به الحجيج، وقد وقفوا فى عرفات تهز أعطافهم، وتنير قلوبهم ابتهالات جموعهم الضارعة، وتلبيتهم نداء الله الجامع، وتعلو الأرواح، وتسمو عن منازل الأشباح، تنادى الألسنة رب العالمين، وتناجى القلوب علام الغيوب؛ حتى إذا قضوا الساعات فى تلك المشاهد الربانية، وتلك المدارك الروحية، أفاضوا مسرعين إلى المشعر الحرام، سائرين حيث سار محمد النبى الكريم؛ ومن قبله أبو الأنبياء إبراهيم، وقد طولبوا بالذكر الحكيم، بأن يذكروا الله وهم فى المشعر الحرام بالقلوب المبتهلة الخاشعة،

= الشمسِ عَلى رُءوسِ الْجِبالِ مِثْلَ عَمائِمِ الرّجالِ على رُءُوسِها فَهَدْيُنا مُخالِفٌ لِهَدْيِهِمْ». رواه الحاكم فى المستدرك ج٢ ص٣٠٤ (٣١٤٧) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ورواه بنحوه البيهقى: شعب الإيمان (٩٥٢٩) ومجمع الزوائد (٩٥٥٥) والطبرانى فى الكبير، ومسند الشافعى (١٤٦٣).

(١) قال المصنف ـ رحمه الله ـ: أقوال الفقهاء فى الوقوف بالمزدلفة ثلاثة أولها: أنه فرض وركن كالوقوف بعرفات، وعلى هذا الرأى بعض التابعين، وبعض الشافعية؛ وقال آخرون: إنه واجب وليس بركن بحيث من فاته وجب عليه دم، ولا يبطل حجه، وعلى هذا الحنفية والشافعية؛ وقال آخرون: إن الوقوف بالمزدلفة سنة مؤكدة، وعلى هذا أكثر المالكية.

(٢) راجع تفسير الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده الذى نقله عن درسه الشيخ رشيد رضا.

وبالألسنة الجاهرة التى تقرع أجواز الفضاء بذكر الله العلى العليم (الله أكبر الله أكبر، الله أكبر لا إله إلا الله، الله أكبر، الله أكبر ولله الحمد).

﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ الخطاب فى هذه الجملة الكريمة، إما أن نجعله خطابا خاصا بالذين صاحبوا النبى ﷺ إذ أنجاهم ربهم من ضلال الوثنية ورجسها إلى نور الوحدانية وسموها، ويكون المعنى اذكروا الله وقوموا له بحق العبودية، واملئوا قلوبكم وألسنتكم وأعمالكم بذكره دائما، واجعلوه مقترنا بكل ما يكون منكم فى وجودكم الإنسانى؛ فقلوبكم لايملؤها سواه، وألسنتكم لا تضرع لغير الله، وأعمالكم لا يقصد بها إلا وجه الله؛ فإن ذلك ثمن الهداية، وأجر التوفيق؛ ولذا قال: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ أى فى مقابل هدايتكم؛ فالكاف التى تفيد فى أصل معناها التشبيه تقتضى أن يكون المعنى اجعلوا الذكر لله مشابها ومساويا للهداية الربانية التى فاض نورها عليكم، وإنكم لتعلمون ذلك الفضل السابغ، وإشراق الهداية إن تذكرتم ما كنتم عليه من قبل ذلك النور الذى قذف الله به فى قلوبكم؛ ولذا ذكر حالهم ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ إن هنا هى المخففة من الثقيلة؛ أى إن حالكم أنكم كنتم من قبل هدايته من زمرة الضالين وجماعتهم، فاعرفوا ماضيكم من حاضر أولئك الذين ما زالوا على ضلالهم ووازنوا بين حالكم وحالهم؛ فإن تلك الموازنة تريكم نعمة ربكم عليكم، وتريكم حالكم كما كنتم من قبل؛ ولذا عبر عن حالهم الماضية بالوصف إذ قال: ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ أى من هذه الزمرة الضالة التى ترون حالها، ولم يقل إنكم ضللتم من قبل.

وإذا كان الخطاب للصحابة الأولين فعلى غيرهم أن يعرف فضل الهداية، وإن لم يسبقها ضلال، فليذكر الله إذ وفقه من أول الأمر، وكان فى الإمكان أن يكون من الضالين.

وإن جعلنا الخطاب فى الآية لجماعة المسلمين عامة الماضين واللاحقين الذين توارثوا الهداية الإسلامية ولم يسبق إليهم شرك، ولم يكونوا من أهل الوثنية، يكون الذكر لأن الله جنبهم إياها، فباعد عنهم أسبابها؛ فإن معنى الهداية هو إنقاذ

نفوسهم من وساوس الشيطان؛ فإن له على كل قلب لمة؛ فإن أصابت من كتب الله عليه الضلال انحدر فيه، وإن أصابت من كتب الله عليه الهداية تذكر الله وعظمته، فساق الله إليه هدايته؛ ويكون المعنى اذكروا الله سبحانه وتعالى ذكرا مساويا لهدايتكم مشابها لها، وبقدرها، وإنكم لولا هذه الهداية كنتم من الحائرين، ولولا نور الحق لبقيتم فى حيرتكم أو لسرتم فى مخارف الشيطان.

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ بعد أن أشار سبحانه إلى الوقوف بعرفة والإفاضة إلى المزدلفة، وذكر الله فيهما، بين طريق الإفاضة فقال هذه الجملة الكريمة، واستعمال «ثم» لبيان الترتيب والتراخى البيانى أو المعنوى؛ ففى الأول ذكر مطلق الإفاضة، ثم ذكر طريق الإفاضة وكيف تكون، كمن يقول أحسن إلى الناس ثم لا تحسن إلى غير كريم؛ لبيان التفاوت بين مطلق الإحسان وتخصيص الكريم بالإحسان؛ وكذلك هنا كان التعبير بثم لبيان التفاوت فى الفضل بين مطلق الإفاضة، والإفاضة مع الناس وفى جمعهم الزاخر المتدافع ليشعر كل مسلم بأنه فى منزلة واحدة مع غيره من المؤمنين، فيستوى السوقة والأمير، والكبير والصغير، والغنى والفقير والحاكم والمحكوم؛ فتصقل هذه الزحمة القدسية قلوب المؤمنين، وتشعرهم بالمساواة أجمعين.

فهذه الجملة عامة فى خطابها تشمل الحجاج أجمعين إلى يوم الدين؛ فهم جميعا مطالبون بأن يفيضوا مع الناس، ومن حيث يسيرون، لايختص أحد بطريق، ولا يمنع لأحد طريق ولا يكون لفريق مسلك، وللناس مسلك، ولا يمنع الناس حتى يمر بعض الناس؛ بل الجميع فى المرتفع والمهبط، والسير والموقف سواء، لأنهم فى ساحات رب العالمين الذى يعطى من يشاء ويمنع من يشاء.

ولقد قال بعض مفسرى السلف: إن الخطاب فى هذه الجملة خاص بقريش وحلفائها؛ لأنهم فى الجاهلية كانوا يسمون أنفسهم الحمس يقفون بالمزدلفة، ولا يقفون مع سائر الناس بعرفة، فأمرهم الله سبحانه بأن يقفوا كما يقف كل الناس، ويفيضوا كما يفيض كل الناس.

وعندى أن الخطاب عام، ويدخل فيه النهى عن هذه الحال التى كانت من قريش؛ ومرمى الآية فى معناها العام أو الخاص هو التسوية المطلقة بين الناس فى تلك البقعة المباركة وفى ذلك المنسك المعظم.

﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ختم سبحانه الآية الكريمة التى تشتمل على آخر منسك من مناسك الحج، إذ يكون بعده التحلل، وإن بقيت بعض العبادات الأخرى، بالأمر بالاستغفار وهو طلب المغفرة من الله القدير؛ وطلب المغفرة فور العبادة أمر توحى به النفس المؤمنة البرة؛ وذلك لأن العبادة تطهر قلب العابد، وتزيل أدرانه، فتجعله يحس بما كان منه قبلها؛ فيضرع إلى المولى أن يستره بستره، ويصفح عنه بعفوه؛ ولأن المؤمن الخالص الإيمان كلما أرهفت مشاعره وقويت روحه، أحس بأنه مقصر أمام المنعم، لايصل إلى الوفاء بحقه؛ فيلجأ إلى الاستغفار عن التقصير؛ ولأن الاستغفار نفسه عبادة، وهو أبر الطاعات؛ ولذا يقول بعض الصوفية: رب معصية أورثت ذلا وانكسارًا، خير من طاعة أورثت دلا واستكبارًا.

والاستغفار ثمرة الحج، لأنه التطهير النهائى للنفس، فيعود الحاج الذى لم يفسق ولم يرفث كيوم ولدته أمه، ولقد ذيل سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى كثير المغفرة، وأن الغفران وصف له سبحانه فى معاملته لعباده؛ والسبب فى ذلك أنه رحيم بالناس؛ ومن الرحمة بهم أن يغفر للمذنب؛ ليعطيه فرصة النجاة من ماضيه واطراح مآثمه، واستقبال حياة جديدة نزهة ينعم فيها بالطهر وينتفع منه الناس؛ وذلك رحمة به وبالناس؛ فالمجتمع يستفيد من كثرة التائبين، ولا يستفيد من كثرة اليائسين من رحمة الله، إذ يستمرون فى غيهم يأسا من غفران ربهم؛ ولذا قال سبحانه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر].

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ المناسك: جمع منسك وهو العبادة؛ أى إذا أديتم عباداتكم التى بينها النبى ﷺ على وجهها،

وكما شرعـها ربكم، فاملئوا قلوبكم بثمرتها، وهى ذكـر الله دائما وعمران القلوب به، فهو غاية الـعبادة ومرماها؛ وذكر الله دائما فى كـل الأعمال والأقوال هو الذى ينهى عن الفحشاء والمنكر؛ فإن المرء إذا عـمر قلبه بذكر ربه آناء الليل وأطراف النهار - ما أقدم على معصية، وما آذى مخلوقًا، ومـا أفسد مجتمعا، وما ظلم وما بغى؛ ولذلك قـال سبحـانه: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ... ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت].

ولذلك طالب سبحـانه الحجاج بأن يذكروا الله كـذكرهم آباءهم، فإن المرء لا ينسى أباه، وإذا كان لا ينسى أباه لأنه كان السـبيل الذى وصل به إلى هذا الوجود، فليذكر خالق أبيه وخالقه وخالق كل من فى هذا الوجود.

وإن ذكر الله سبحانه يقتـضى أن يغضب المؤمن لعصيان الله فى الأرض؛ لأن ذلك اعتداء على محارم الله؛ ومن اعتدى على محارم الآباء قوتل فمن اعتدى على محارم خالق الآباء أولى أن يقاتل ويحارب؛ وقـد سئل ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ فقيل له: قـد يأتى على الرجل اليوم ولا يذكر أباه فقـال ابن عباس: ليـس كذلك، ولكن أن تغضب لله إذا عـصى أشد من غـضبك لوالديك إذا شتما، ففسر ابن عباس رضى الله عنه الآية بلازمـها ونتيجتها وغايتها؛ إذ إن نتيجة ذكـر الله دائما الغضب عندما تنتهك محارم الله سـبحانه وتعالى، وإن الله طالب بأن نذكره كذكر آبائنا أو أشد ذكرًا أى اذكـروه سبحانه كذكركم آباءكم أو أشد ذكرًا من آبائكم؛ و«أو» فى مـعنى الإضراب والترقى، أى أنه يطالبهم سـبحانه بأن يذكروه كـما يذكرون آباءهم، ثم يتـرقى فى معانى الـتقرب منه، فـيطالبهم بأن يكونوا أشد ذكـرًا له من آبائهم؛ وكأن لطالب الهداية درجتـين: أولاهما، أن يكون ذكره لله كذكره الآباء، فيغضب لمحارمه كما يغضب لشتم أبويه، ثم تترقى حاله فى مراتب التهـذيب الروحى والنفسى، فيكون أشد ذكـرًا لله فيغضب لمحارمـه أكثر مما يغضب لشتم الآباء.

وفى الآية فوق هذه المعـانى السامية تعـريض بما كان يفعله أهل الجـاهلية من قيـامهم بعد يوم النحـر فى الأسواق يتفاخـرون بالأنساب والآباء؛ كمـا تروى كتب

الأدب عما كان يجرى من المسابقات الشعرية فى الفخر والغزل فى سوق عكاظ.

ولقد استبدل النبى ﷺ بهذه المفاخرة خطبة استعرض فيها أمر الإسلام وذكر بعض أحكامه ليقتدى من بعده الأمراء فقد روى الإمام أحمد من حديث أبى نضرة قال: حدثنى من سمع خطبة النبى ﷺ فى وسط أيام التشريق، فقال: «**يأيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لافضل لعربى على عجمى، ولا لعجمى على عربى، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، أبلغت؟ قالوا: بلغ رسول الله ﷺ**»[1].

﴿**فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ**﴾ بعد أن بين سبحانه وتعالى ما يجب على الناس أن يذكروه عقب القيام بمناسك الحج، وهو أن يذكروه هو وحده، وينسوا أهواءهم وشهواتهم ويغضبوا لمحارم ربهم، بين ما يقع من الناس؛ فذكر أنهم طائفتان: طائفة تذكر الدنيا، ولا يدعون الله بعد مناسك الحج إلا بما يشبع رغباتهم وأهواءهم، ولا يذكرون الآخرة، كأن العبادة فى نظرهم ليست إلا ذريعة لطلب الشهوات أو الرغبات، أو مصالحهم الشخصية فى الدنيا؛ وفريق يذكر الدنيا والآخرة؛ وقد ذكر الفريق الأول بقوله: ﴿**فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا**﴾ الفاء هنا للإفصاح، أى إذا كان ذلك أمر الله فالناس ليسوا جميعا سواء فى طاعته، فمنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا، وقد حذف المفعول للفعل آتنا للدلالة على تعميم المطلوب، فهم يطلبون كل ما يمكن أن يصل إليهم؛ ومن طلب الدنيا لا يفرق بين هوى يرديه، وصالح يقيمه؛ ومعنى ﴿**وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ**﴾ أى لا نصيب لهم. وخلاصة المعنى: أن هؤلاء يلجأون إلى ربهم لينيلهم حظهم من الدنيا، راغبين فى كل ما فيها لأنها همهم، ولا شىء سواها فى نفوسهم، ولاغاية عندهم غيرها، وليس لهم أى نصيب فى الآخرة.

---

(١) رواه أحمد: باقى مسند الأنصار - حديث رجل من أصحاب النبى ﷺ (٢٢٣٩١). وأبو نضرة هو المنذر ابن مالك بن قطعة، من الطبقة الوسطى من التابعين.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ هذا هو الفريق الثانى؛ ليس همه الدنيا وليست مطالبه مقصورة عليها؛ بل مطالبه ثلاثة:

أولها: حسنة فى الدنيا، أى حال حسنة فى الدنيا، فلا يذل للئيم، ولا يرام بضيم، ولا تكرثه كوارث الحياة، ولا يبتلى فى دينه ومروءته وخلقه، ولا يسلط عليه حاكم ظالم أو متسلط غاشم؛ وهكذا يعيش آمنا فى سربه عنده قوت يومه، ينفع الناس ويصل رحمه؛ فكل ما يؤدى إلى الاطمئنان والبعد عن الحرام فهو حال حسنة فى الدنيا.

والمطلب الثانى: حسنة فى الآخرة، أى حال حسنة فى الآخرة، بأن يكون من المرضىِّ عنهم من رب العالمين، فلا تلحقه آثام من آثام الدنيا. والمطالبة بالحال الحسنة فى الآخرة هى مطالبة بأن يجنبه السيئات فى الدنيا، ويوفقه للطاعات فيها؛ لأن حال الآخرة مبنية على حال الدنيا، فإن كان قائما بالطاعات نافعا للناس فيها غير ظالم ولا متكبر، لا يعيث فى الأرض فساداً، فحاله فى الآخرة حسنة؛ وإن انهوى فى الشر وركبته الآثام فى الدنيا، وأحاطت به خطيئته، فليست حاله فى الآخرة حسنة.

والمطلب الثالث: أن يقيه عذاب النار؛ وقد ذكر ذلك مطلبا قائما بذاته مع أنه داخل فى حسنة الآخرة؛ إذ إن حسنة الآخرة تقتضى ألا يكون فى النار؛ لأن المؤمن الخاشع الخاضع يُغلّب الخوف على الرجاء؛ فكلما ازداد قربا من الله ازدادت خشيته ورهبته، وكلما أكثر من الطاعات استصغر ما صنع فى جانب ما أنعم عليه الكبير المتعال؛ ولذلك كان الصديقون والنبيون أخوف لله من غيرهم لأنهم أقرب إليه، وأدنى منه، ومراتب الناس فى الخوف من العقاب هى كمراتبهم فى الطاعات لا كدركاتهم فى المعاصى؛ لأن أهل المعاصى فى لهو شاغل، أما أهل الطاعات فهم فى ذكر لله دائم، وقد وصف الله الطائعين بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [**الأنفال**].

ولقد وصف القاسم بن عبد الرحمن ذلك القسم الذى يطلب حسنة الدنيا والآخرة، فقال: من أعطى قلبا شاكرا، ولسانا ذاكرا، وجسدا صابرا، فقد أوتى فى الدنيا حسنة، وفى الآخرة حسنة، ووقى عذاب النار.

ولقد كان أكثر دعاء النبى ﷺ **«ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»**(١).

ولم يذكر قسم ثالث وهو الذى يطلب الآخرة فقط، ولا يطلب الدنيا؛ لأن الإسلام لا يرضى أن ينسى المسلم حظه من الدنيا ؛ ولأن من يطلب الآخرة يطلب الأعمال الحسنة فى الدنيا؛ لأنها قنطرة الآخرة، ولأن الإسلام لا يقر الانقطاع عن طيبات الدنيا لحظ الآخرة لأنه لا يرضى بتعذيب الجسم لتهذيب الروح كما يزعم الذين يسلكون ذلك المسلك.

ولقد روى البخارى ومسلم أن النبى ﷺ عاد رجلا من المسلمين صار مثل الفرخ، فقال له رسول الله ﷺ: **«هل تدعو الله بشىء أو تسأله إياه؟»** قال: نعم كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبى به فى الآخرة فعجله لى في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: **«سبحان الله!! لا تطيقه، أفلا قلت: ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار»**(٢).

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فى هذا بيان لجزاء الذين يتجهون إلى ربهم داعين أن يوفقهم لما فيه حسنة فى الدنيا وحسنة فى الآخرة، ويقيهم عذاب النار. والإشارة للبعيد لبيان علو منزلتهم؛ وقد بين أن الجزاء هو نصيبهم مما كسبوه من عمل الخير والقيام بالحق الواجب عليهم، وفى هذا التعبير الذى يفيد أن النصيب مأخوذ مما كسبوه من أعمال إشارة إلى أمور ثلاثة:

---

(١) متفق عليه رواه البخارى: كتاب الدعوات (٥٩١٠) ومسلم: الذكر والدعاء (٤٨٥٥) عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

(٢) رواه بهذا اللفظ مسلم: الذكر والدعاء (٤٨٥٣) وقال فى آخره: فدعا الله له فشفاه. والترمذى: الدعوات (٢٤٠٩) وأحمد (١١٦٠٧) عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

أولها: إن هؤلاء الذين دعوا ربهم بالتوفيق لابد أن يقرن دعاؤهم بإرادة قوية عاملة متجهة إلى تحقيق ما يبغون وما يدعون الله سبحانه وتعالى فى التوفيق له، وإن لم يكن عمل فالدعاء أمانى وأحلام، ولا يتحقق فيها القصد الكامل والضراعة الخاشعة لرب العالمين؛ لأن الدعاء مخ العبادة؛ فإن كان صادقا فالإرادة تتجه نحوه.

الأمر الثانى: الذى يشير إليه التعبير الكريم: أن الجزاء ليس على الدعاء، وإنما الجزاء على العمل، فيجب أن يعملوا؛ فليس الدعاء وحده بمستحق جزاء إن كان العمل ينافيه.

الأمر الثالث: أن كسب العبد لعمل الخير يطوى فى ثناياه جزاءه، وكذلك كل عمل للإنسان جزاؤه مشتق من منهاجه، إن خيرا فخير وإن شرا فشر؛ فمن أسدى إلى الناس معروفا، فقد قدم بهذا الإسداء لنفسه؛ ومن أعان مكروبا، فقد كسب الجزاء ساعة عمل، وكذلك من قتل نفسا، فقد قتل نفسه إذ استحق ذلك الجزاء، ومن سرق فقد قطع يده، ومن زنى فقد رجم نفسه، وهكذا ﴿**كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ** (٢١)﴾ [**الطور**].

وقد ذيل الله سبحانه وتعالى الآية بقوله الكريم ﴿**وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾ وسرعة حسابه سبحانه وتعالى كناية عن تحقيقه، وتحقق يوم القيامة وقربه، وعلمه سبحانه وتعالى بإحسان المحسن وإساءة المسىء؛ لأن تطويل الحساب يكون من جهل المحاسب، فيبطئ ليعرف؛ فإذا كان المحاسب هو العليم الحكيم الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء، فإن حسابه يكون سريعا؛ إذ لا تخفى عليه سبحانه خافية.

وفى هذا التذييل إشارة إلى عقاب الذين ليس لهم فى الآخرة من خلاق على ما يرتكبون من موبقات ما داموا قد جعلوا الدنيا كل همهم، وغاية أمرهم، ومقصد وجودهم.

﴿**وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ**﴾ هذا ذكر لله خاص فى أيام مذكورة بعد قضاء مناسك الحج؛ وقد أمر الله فى الآية السابقة بالذكر العام، وفى هذه الآية ذكر

خاص، والأيام المعدودات التى يصحبها ذكر خاص، أيام التشريق الثلاثة، وقد نقل القرطبى فى كتابه الجامع لأحكام القرآن عن أبى عمر بن عبد البر الإجماع على أن الأيام المعدودات فى الآية الكريمة هى أيام منى، أيام التشريق الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر من ذى الحجة، وهى أيام أكل وشرب. وذكر الله الخاص فى هذه الأيام بالتصدق على الفقراء من الذبائح التى ذبحوها فى يوم النحر، ورمى الجمار فيها، بعد أن يكون الحجيج قد رموا جمرة العقبة فى يوم النحر؛ وفى رمى الجمار يكبر عند كل حصاة يرميها؛ وهذا بلا شك ذكر خاص.

ورمى الجمار على ذلك الشكل فى أيام منى الثلاثة عملى حسى مادى يقترن به عمل نفسى وجدانى، وهو إشعار القلب بعظمة رب العالمين، وتلك الحركات الجسمية هى للدلالة على التعلق القلبى بالأرض التى بارك الله فيها، وبالتالى التعلق بمن شرفها بالانتساب إليه؛ فسماها حرمه المقدس، وبيته الآمن. وكون الحركات على هذا الشكل وبهذا الوضع ليس من الأمور التى تعلل، كما أن محاولة معرفة العلة فى كون الصلاة على هذا الشكل محاولة فى غير جداء، إنما هذا أمر توقيفى، قد ارتضاه رب العالمين على لسان النبى الكريم سبيل الزلفى إليه، وتوجه القلوب نحو ذاته العلية التى لا يحدها مكان، ولا يجرى عليها الزمان.

وقد أشار النبى ﷺ إلى أن هذه الأيام هى أيام منى بما روى الدارقطنى والترمذى أن ناسا من أهل نجد أتوا رسول الله ﷺ وهو بعرفة، فسألوه، فأمر مناديا فنادى: **«الحج عرفة، فمن جاء ليلة جمع قبل طلوع الفجر فقد أدرك، أيام منى ثلاثة فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه»**(١).

وإن هذه الأيام يحرم الصوم فيها عند جمهور الفقهاء؛ فقد روى أن النبى ﷺ قال: **«أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر لله»**(٢).

---

(١) رواه الترمذى عن عبد الرحمن بن يعمر: كتاب الحج - من أدرك الإمام بجمع (٨١٤)، ورواه النسائى (٢٩٩٤) وأبو داود (١٦٦٤) وابن ماجه (٣٠٠٦) وأحمد (١٨٠٢٢) والدارمى (١٨١١).

(٢) رواه مسلم: كتاب الصوم - تحريم صوم أيام التشريق (١٩٢٦) وأحمد: أول مسند البصريين (١٩٧٩٧).

﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾

هذه الأيام هى التى يكون بعدها النفير إن كان قد أدى الحاج كل الأركان، وقد بين القرآن الكريم أنه لا يلزم أن يبقى الأيام الثلاثة بمنى فإن شاء بقى يومين يرمى فيهما الجمرات، ونفر قبل فجر اليوم الثالث؛ وإن شاء بقى اليوم الثالث؛ وهذا معنى الجملة الكريمة ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أى سافر معجلا فى اليومين الأولين فلا إثم عليه فى التعجيل ﴿وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أى من بقى إلى تمام اليوم الثالث فلا إثم عليه.

وقد قيد الله سبحانه نفى الإثم بقوله ﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾ للإشارة إلى أن العبرة بتقوى القلوب فتلك الحركات الحسية من التزام مكان معين فى زمان معين، ورمى الجمار الثلاث لكل جمرة سبع حصيات؛ كل هذا لا غاية له، ولا ثمرة إلا تربية التقوى وتنميتها فى القلوب، لتتهذب النفس، ويربى الوجدان، ويخشى العبد الديان، فيراقبه فى كل الأفعال وكل الأقوال، فيكون مجتمعًا مهذبًا كاملاً صالحًا قويًا؛ لأن تهذيب الآحاد تقوية لبناء الجماعة، فلا تتنافر أجزاؤها، ولا تتباعد آحادها، وتقوم على تقوى من الله ورضوان.

وإن هذه الأيام التى يقوم فيها الحجيج بذلك الذكر فى البقعة المباركة، يشاركهم فيها المسلمون فى كل بقاع الأرض فى بعض أفعالهم، وذكرهم؛ فالحجيج ينحرون ليتحللوا، وسائر المسلمين ينحرون ليضحوا، ويشاركوا وفود الله فى صدقاتهم؛ والحجيج يكبرون ويرمون الجمار، والمسلمون فى الأمصار يشاركونهم فى التكبير عقب الصلوات.

وقد اتفق الفقهاء على أن المسلمين يسن لهم أن يكبروا عقب الصلوات من صبح يوم عرفة وهو اليوم التاسع إلى ما بعد صلاة العصر يوم عيد الأضحى؛ واقتصر أبو حنيفة على ذلك وتبع فى ذلك عبد الله بن مسعود، ولكن أبا يوسف ومحمدا مع جمهور الفقهاء على أن التكبير لا ينتهى عقب صلاة عصر يوم النحر، بل يستمر إلى عصر اليوم الثالث من أيام التشريق، أى اليوم الثالث عشر من ذى

الحجة؛ وأن تكبير المسلمين جميعا إشعار لهم بأنهم جميعا مع الحجيج بقلوبهم وذكرهم؛ وأن المجتمع الأكبر فى حرم الله هو جمعهم أجمعين، وأن أولئك الضيوف الذين حلوا فى ساحة الكريم المنان هى وفودهم إلى ذلك المؤتمر الأكبر، وأن المؤمنين مهما تتباعد الديار كلهم على قلب رجل واحد فى رفع راية الإسلام ونشر مبادئه الفاضلة.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ختم الله سبحانه وتعالى آيات الحج التى أشار فيها إلى مناسكه، وذكر فيها بعض أعمال الحجيج الواجبة فيها، بهذه الجملة السامية، وبذلك الأمر الجازم القاطع، وهو الأمر المكون من عنصرين أحدهما: تقوى الله، وثانيهما: العلم اليقينى بالحشر، وأنه سيكون إلى رب العالمين؛ وفى هذا إشارة إلى خلاصة التدين وثمرة العبادات بكل أنواعها وكل طرقها، فإن لم تؤد أية عبادة إلى هذين الأمرين، فهى صورة لا روح فيها، وشكل لا ثمرة منه، فإن لم ترب العبادة قلبا خاشعًا، وعقلا خاضعًا، وهوى ممنوعا، وترقبا خائفا، فهى عبادة جوفاء، وإن نسى الشخص لغفلة فى نفسه أو غفوة من عقله؛ أو غشيان الضلال على قلبه - الحشر والحساب والعقاب والثواب فقد ضل ضلالا بعيدا . . إن الإيمان باليوم الآخر هو لب الدين، وهو الفاصل بين المهتدى والضال، فمن حسبها دنيا لا آخرة بعدها، فقد خسر خسرانا مبينا؛ خسر نفسه، فضل وأضل، وخسر حياته ففهمها أجلا محدودا لا غاية وراءها، ولا سمو بعدها، وخسر العزاء الروحى الذى يجعله يرضى بشدائد الحياة رجاء لما وراءها؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ . . . ﴿٣١﴾﴾ [الأنعام].

وفى الجزء الثانى من الأمر تهديد بالعقاب، بعد الترغيب فى الثواب، وعند الله حسن المآب.

وَمِنَ
ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ
عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ
فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ
لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ
بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ
ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ
رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾

بين الله سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة بعض العبادات التى تطهر النفوس وتزكى القلوب، وتحمى الجماعات وتوجهها نحو الخير العميم؛ فذكر الصدقات ثم ذكر الصوم، ثم ذكر الحج الذى تتلاقى فيه القلوب وتلتقى فيه وفود الجماعات الإسلامية من كل فج عميق فى الساحة الربانية؛ وقد ذكر فى طىٍّ الكلام أصناف الناس فى أدعيتهم التى تكشف عن خبايا قلوبهم، وأن منهم من يطلب الدنيا، ولا غاية له وراءها، ومنهم من يقول: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة].

والعبادات أيا كان نوعها دواء الجماعة وبلسم القلوب الشافى، وبعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى ذلك الدواء الناجع ذكر سبحانه داء الجماعات المستحكم، ومرضها الممض، وهو النفاق، وخلابة اللسان مع فساد القلب والمظهر الحسن مع القصد السيِّىء، ومحاولة اجتذاب الناس بالقول المعسول مع فعله المرذول حتى إذا نال ثقتهم ملأ الدنيا بالشر، وظهر الفساد فى البر والبحر.

وهكذا يذكر الله سبحانه دواء القلوب، ويذكر داءها، ليطب كل امرئ لنفسه بما يداويها، وتطب الجماعة لنفسها باجتثاث الشر من بين ربوعها، ونفى الخبث عنها كما ينقى الكير خبث الحديد.

وهذا التداوى يقوم به فريق الخير الذى نصبه الله سبحانه حجة للحق ومناراً للشرع، وهذا ما ترمى إليه الآيات الكريمات: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إلى آخر الآيات المذكورات.

وقد ذكر الله سبحانه فى هذه الآيات أن الناس فريقان: فريق الشر أهل النفاق، وهم الداء، وهم درن الأمة، بل السرطان الذى يقضى عليها، إن لم يجتث من أصله. والفريق الثانى، وهم الذين يتولون العلاج وهم الأخيار الذين شروا أنفسهم ابتغاء مرضاة الله.

وقد ابتدأ سبحانه بذكر الداء، ليعلم أهل الخير مقدار ما يبتلون به، وقد ذكر صفات أهل الشر؛ فكانت ثلاثة:

أولها: حسن البيان والقول الحلو. وثانيها: كثرة الحلف الكاذب.

وثالثها: اللدد فى الخصومة.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ هذه هى الصفة الأولى، وهى أصل الداء القاتل وقوته، فإن خلابة اللسان المنافق، وقوة البيان الكاذب، وحسن العرض للقول الباطل، هى المعاول القوية التى يرفعها المبطلون لهدم الفضائل؛ فهم بمعرفتهم بمأتى القول وموارده يثيرون الإعجاب بحسن تأتيهم، وينالون الاستحسان العظيم بلطف مداخلهم، أو بزخرف القول وزوره، ويسترعون ألباب بعض أهل الخير الكرام؛ فالمؤمن غر كريم، والمنافق خب لئيم(١).

---

(١) عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْـمُؤْمِنُ غِرٌّ كَرِيمٌ وَالْفَاجِرُ خِبٌّ لَئِيمٌ». [رواه الترمذى: كتاب البر والصلة - ما جاء فى البخيل، (١٨٨٧) وأبو داود: كتاب الأدب - حسن العشرة (٤١٥٨)، وأحمد فى مسنده (٨٧٥٥)]. الغر: قليل الفطنة للشر لكرمه وحسن خلقه. والخب: الخداع الذى يسعى بالإفساد بين الناس.

وقوله تعالى: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إما أن يكون متعلقًا بالقول، ويكون المعنى يعجبك قولهم الذى يكون موضوعه الحياة الدنيا، إذ يفهمون ما فيها ولا يدركون سواها؛ لأنها خِلْب أكبادهم، وغاية أمورهم؛ ومن أحب شيئًا أحسن القول فيه، ومن كانت الدنيا همه أحسن حكاية أمورها، حتى إن قوله فيها ليكون عجيبًا؛ أما الآخرة فلا يحسن القول فيها، لأنه لا يبتغيها، فإن تكلم فى أمر يتعلق بها اعترته حبسة وعى وحصر.

وإما أن يكون ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ متعلقًا بالإعجاب، أى أن قدرته على إثارة الإعجاب والاستحسان لبيانه إنما يكون ذلك فى الدنيا فينتج ثمرته حيث يكون الحكم للظاهر، ولاينقب عن القلوب والسرائر، كما قال عمر رضى الله عنه: أيها الناس إن الوحى قد انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم هذا أمر الدنيا، أما الآخرة فالحكَم فيها علام الغيوب الذى يعلم ما تخفى الصدور، فلا سبيل للخديعة بالقول، فالله يكشف مستور القلوب، ويحكم عليه بمقصده وغايته، لا بقوله وإجادته.

ونحن نختار أن يكون متعلق الجار والمجرور لا القول؛ لأنه الذى يتفق مع السياق؛ إذ إن السياق فى بيان الذين يخدعون الناس فى الدنيا وقلوبهم مريضة لابيان حال من يجيدون القول فيها، وإن بعض الذين يجيدون القول فى الدنيا أخيار لا أشرار.

هذا أول حال من أحوال الذين يظهرون ما لا يخفون، ويقولون ما لا يفعلون.

أما الصفة الثانية فهى قوله تعالى: ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ﴾ أى أن هذا الذى يثير إعجاب الناس فى الدنيا بخلابة لسانه وقوله الحلو المعجب المطرب، إن رأى الناس يتشككون فى قوله أقسم بصدقه؛ لأنه قد يبدو من فحوى بيانه ما يدل على جنانه كما قال تعالى سبحانه فى شأن المنافقين ومن فى قلوبهم مرض: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ... (٣٠)﴾ [محمد] فإذا لمح المخادع من النظرات التى

توجه إليه استغرابًا لدعاويه، أو استبعادًا لها، وثقها بأن أشهد الله على أن ما فى قلبه يوافق ما يجرى على لسانه.

فمعنى قوله تعالى: ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ﴾ أنه يقسم بالله تعالى إن ما جرى على لسانه هو نفس ما يختلج فى قلبه، أو ما يؤمن به ولقد قرر علماء اللغة أن من ألفاظ القسم: الله يعلم أنى فعلت كذا، أو الله يشهد أنى قلت كذا؛ فهذا توكيد بالأيمان معروف فى لغة العرب، ولقد قرروا أن الحلف على هذا النحو أوكد وأوثق من القسم الصريح، وقال بعض الفقهاء: إن من يقول كاذبا: الله يشهد بكذا أو يعلم بكذا، مؤكدا كذبه بذلك، يعتبر مرتدا؛ لأنه كذب على الله، أو رماه بالجهل، وعندى أن ذلك لا يعد كفرا لعدم القصد إلى ذلك المعنى الإلحادى؛ ولكنه على أى حال مستهين بحق الله عليه كشأن كل حالف بالكذب، سواء أكان الحلف بلفظ صريح فى الحلف، أو بلفظ يؤدى إليه.

أولئك المخادعون الذين يخدعون الناس ولا يخدعون الله هم الذين يقطعون أوصال الأمة، وبهم تبتلى، وبسببهم تنزل الفتن ويثور الشر، وتذهب الثقة بين الناس، وتقوم العداوة بينهم مقام المودة، والبغضاء محل الإخاء؛ لأنهم بخديعتهم للناس، ثم تكشف أحوالهم بمرور الأيام تضيع الثقة؛ ثم الذين يعمدون إلى تلك الأساليب الماكرة لايبغون خيراً، بل لا يبغون إلا شرا؛ لأن الأخيار لا يحتاجون إلى إخفاء نياتهم، وما يجول فى قلوبهم؛ إنما الذين يبدون ما لا يخفون هم الذين توسوس نفوسهم بالشر والهوى، ولا يريدون أن يطلع عليه أحد؛ ولذلك عرَّف النبى ﷺ الشر بأنه: «**ما حاك فى الصدر وكرهت أن يطلع عليه الناس**»(١)، فالشر لا يعيش إلا فى كِنٍّ مظلم والنور يقتله، والخير يزيده النور وضوحا وقوة ونماء؛ ومن كان الشر غايته فهو عنصر مخرب مفسد مهلك؛ وهو بلاء لأمته وجماعته وأسرته؛ بل بلاء على نفسه فى الدنيا عندما يعلم أمره، وفى الآخرة له عذاب أليم.

---

(١) عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سِمْعَانَ الأَنْصَارِيِّ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ عَنْ الْبِرِّ وَالإِثْمِ فَقَالَ: «الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ». [رواه مسلم: البر والصلة: البر والإثم (٤٦٣٢)، والترمذى فى الزهد (٢٣١١) وأحمد (١٦٩٧٣)، والدارمى: الرقاق (٢٦٧٠).

ولذلك كان أخوف ما يخافه النبى ﷺ على أمته من بعده: رجلا عليم اللسان منافق القلب[١]؛ فإن ذلك النوع من الرجال يثير التظنن بالصالحين، ويفسد الأمر على المحقين؛ ويجعل بأس الأمة بينها شديدا، ولقد روى ابن جرير عن بعض الصالحين أنه قال: إنى لأجد صفة ناس من هذه الأمة فى كتاب الله المنزل: قوم يحتالون على الدنيا بالدين، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمر من الصبر، يلبسون للناس مسوك الضأن، وقلوبهم قلوب الذئاب؛ ويقول الله عز وجل: فعلى يجترئون وبى يفترون، وعزتى لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم فيها حيران[٢].

ومهما يكن من أمر ذلك الخبر، فإن معناه متحقق سجله الإسلام، وأثبتته الوقائع، فما من أمة ابتلاها الله بهيمنة هذا النوع من الرجال إلا فسد أمرها، واضطرب حالها، وسارت فى طريق أوله نفاق وفساد، وآخره فتنة وخراب.

﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ هذه هى الصفة الثالثة الملازمة للمخادعين الذين يستلبون قلوب الناس من جنوبهم بحسن بيانهم وكذبهم على الله بأيمانهم، والألد من معناه فى اللغة: العوج، وفسر بعض العلماء قوله تعالى: ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم] أى عوجًا، والمنافق ألد دائما لأنه أعوج دائما.

واللدد من معناه اللغوى أيضا: الشدة فى الخصومة والمغالبة فيها، ويقال رجل ألد وامرأة لدَّاء، وقد لَدِدَ يَلَدُّ - كفرح يفرح - لددا؛ أى صار ألد، ولدَدْته ألُدُّ كنصر ينصر إذا جادله فغلبه، وقال الزجاج فى أصل اشتقاق اللدد بمعنى الشدة فى الجدل والخصومة إنه مأخوذ من لديدى العنق، وهى صفحتاه؛ وتأويله أنه من أى وجه أخذ من يمين أو شمال فى أبواب الجدل غلب.

---

(١) عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ». [رواه أحمد فى مسند العشرة المبشرين بالجنة (١٣٧)].

(٢) روى الترمذى: كتاب الزهد - باب ما جاء فى ذهاب البصر (٢٣٢٨) عن أبى هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يخرُجُ فى آخرِ الزَّمَان رِجَالٌ يَخْتِلُونَ الدُّنْيَا بِالدِّينِ، يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ جُلُودَ الضَّأْنِ مِنْ اللِّينِ، أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنْ السُّكَّرِ، وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الذِّئَابِ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَبِي يَغْتَرُّونَ؟ أَمْ عَلَيَّ يَجْتَرِئُونَ؟ فَبِي حَلَفْتُ لَأَبْعَثَنَّ عَلَى أُولَئِكَ مِنْهُمْ فِتْنَةً تَدَعُ الْحَلِيمَ مِنْهُمْ حَيْرَانًا».

والخصام - إمـا أن يقال إنه مصدر خاصم أى جادل أو عـادى؛ أو تقول جمع خصم كضخم وضخام؛ وقال أبو عبـيدة الأول أى أنه مصدر خاصم، وقال الزجاج الثانى.

والمعنى على الأمرين: أن ذلك النوع من الناس الذى يـحاول أن يخدع الناس بحلو لسانه، ويضلهم بقدرة بيانه، فيـه طبع ملازم له، وهو شدة الخصومة، ويصح أن نفسر الخصومة بالعداوة، كما يصح أن نفسـرها بالجدل والمغالبة البيانية فى ميدان المناظرات.

وعلى الأول يكون المعنى إنه شـديد العداوة واللجاجـة فى الخصـومة، فليس هينا لينا قريب الرضـا سهل الرجوع، بل إنه لحب نفـسه وكراهيته لخـير الناس، لا يصـفح عمن ينال منه ولو بالحـق فهـو قد أكل الحـقد قلبـه، واعتـركت فى نفسـه حسكة[1] الحسد؛ وكذلك كل شرير؛ لا يحب الناس، ولا يظهر لهم المودة إلا برئاء القول: بل ذلك شأن المجرمـين؛ ففى طبيعة كل مجرم بغض للمـجتمع، وكأن بينه وبين الناس ثأرا لا يطل، وترات[2] يجب اسـتيفـاؤها؛ وكلما انـحدر فى جريـمة وتلقفتـه يد العدالة ازداد للناس كرها وعاد إلى مثلها أو أكـثر؛ وكذلك أولئك الذين فى قلوبهم مرض، وفى ألسـنتهم حلاوة يخدعـون بها الناس: يبغـضون الناس ولا يحبونهم إلا بمقدار مـا ينالون من أرب فيهم، ولا يصفحون عـمن ينالهم بالقصاص العادل، ويتـبعون العـورات؛ وهكذا هم فى خصومـات قلبية بينهم وبين الأخـيار؛ يظهرون القول الحسن ليستمكنوا من الرقاب، ثم يشفوا غيظهم.

وعلى الثانى، وهـو أن يكون الخصام بمعنى المجـادلة والمنازلة البيـانية، يكون المعنى: أن هؤلاء الذين يخـادعون الناس بالقـول الحلو، يثيـرون الإعجاب بـحسن بيـانهم، ويوثقونه بالأيمـان المغلظة، ويجـادلون عنه بقوة وعنف وغلب؛ فـالكلام

---

(١) الحسكـة: نبت له ثمرة خـشنة (السعـدان)، أو عشب له شـوك يؤذى، وحسكة الصـدر: العداوة والحـقد والضغينة، على التشبيه. لسان العرب.

(٢) ترَات: جمع ترَّة، من ترَّ العضو إذا بان وانقطع بضربة بالسيف ونحوه. لسان العرب.

يكون كله فى بيان منهاجهم فى خدع الناس، وسلب ثقتهم بقول الزور؛ ولذلك كان هذا المعنى أنسب للسياق.

واللدد فى الجدل فى ذاته صفة ملازمة للمراء والمهاترة؛ لأن من يكون همه الجدل يندفع إلى تأييد مذهبه بالحق وبالباطل، إذ لا يهمه الحق بمقدار مايهمه انتصار فكره، وغلبه فى ميدان النزال البيانى؛ ولذلك كان مبغضا إلى الله، وإلى الذين يدعون إلى الحق المجرد؛ ولقد قال النبى ﷺ فيما رواه مسلم: «**إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم**»(١) ولقد كان الإمام مالك رضى الله عنه يقول: كلما جاء رجل أجدل من رجل نقص مما جاء به محمد ﷺ.

وفى الحق إن أولئك الذين يحاولون أن يكسبوا قلوب الناس ليتمكنوا من رقابهم بالقول المعسول الخادع فيهم الأمران السابقان: فيهم البغض الشديد للناس، وفرضهم أعداء وخصوما، ولا يفرضونهم أولياء وإخوانا؛ وفيهم اللدد فى الجدال ومحاولة الغلب بالحق وبالباطل.

بل إن بغضهم للناس، أو على الأقل عدم نظرتهم إليهم نظرة أخوة واصلة، ومودة مقربة، هى التى جعلتهم يحاولون خديعتهم بالقول البراق، واليمين الغموس، والجدل الذى تبرق فيه الألفاظ، ويختفى فيه نور الحق وتنقطع به أسباب اليقين؛ ولو كانوا يفرضون الأخوة الرابطة بينهم وبين الناس، لأحبوا لهم ما يحبون لأنفسهم، ولكرهوا مايكرهون لهم، ولكشفوا عن نيتهم واضحة بينة؛ فالحق دائما أبلج، والباطل لجلج(٢)؛ فحيثما كانت خديعة فثمة هوة فارقة، لا أخوة جامعة؛ وحيثما كانت لجاجة فثمة حق ضائع وباطل رائج.

---

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى: كتاب المظالم والغضب (٢٢٧٧)، ومسلم: العلم (٤٨٢١) عن أم المؤمنين السيدة عائشة - رضى الله عنها وأرضاها.

(٢) يقال: الحَقُّ أَبْلَجُ والباطلُ لَجلَج، أى يُرَدَّدُ من غير أن يَنْفُذ، واللَّجْلَجُ: المختَلِطُ الذى ليس بمستقيم، والأَبْلَجُ: المُضِيءُ المُستقيمُ. لسان العرب.

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ فى هذه الآية الكريمة بيان الغاية التى تغياها من يريد أن يخدع الناس، فهو يخدعهم ليمكن لأهوائه وشهواته. وإذا تمكنت الأهواء والشهوات واندفع الشخص فى اجتراعها، يشتار عسلها[١] من غير دين رادع، ولا حكم زاجر - سرى الفساد فى جسم الأمة كما يسرى الداء العضال فى جسم المريض، وبذلك يهلك الحرث والنسل، أى يهلك الزرع والحيوان، وفيهما جماع حاجات بنى الإنسان، فما من أمر يحتاج إليه الإنسان فى مقومات جسمه إلا كان من الحيوان أو من النبات، وهلاكهما كناية عن الخراب العام، والضيق الشديد، والفساد المستحكم، وضياع المصالح.

والحرث: مصدر حرث يحرث؛ بمعنى أثار الأرض لإعدادها للزراع ثم أطلق وأريد به المحروث وهو الأرض نفسها، ثم أطلق وأريد به ثمرات الحرث وهو الزرع الذى حان حصاده، والثمر الذى آتى أكله؛ والمراد به هنا ذلك.

والنسل فى أصله: مصدر نسل ينسل بمعنى خرج وسقط، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس] وقوله تعالى: ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنبياء]، أى يخرجون، ثم أطلق على خروج الحيوان[٢] من بطن أمه وولادته، ثم أطلق وأريد به ذات الحيوان الوليد.

وفى التعبير بهلاك الحرث والنسل بسبب استحكام الشهوات وسيطرة أهل الأهواء، إشارة كما قلنا إلى عموم الفساد فى المدائن والقرى، وبين أهل الزرع وسكان البوادى، أى بيان عموم الشر للحاضرة والبادية؛ لأن هلاك النسل رمز لهلاك ما تقوم عليه البادية وما به قوام حياتها؛ إذ إن رأس مال البادية النعم من الإبل والبقر والغنم وأخواتها، وقيام الثروة فى سواد الأرض الزرع وما تنتجه

(١) اشتار العسل: اجتناه من خلاياه ومواضعه. قلت: وسياق الكلام يدل على المقصود وهو ما يجده الفاجر من لذة الشهوات المحرمة، هى عنده كالعسل حلاوة لـمّا مات قلبه، وفسد حسُّه، حتى إذا ما جاءهم الموت حيل بينهم وبين ما يشتهون.

(٢) الحيوان: الجسم النامى الحساس المتحرك بالإرادة [التعريفات - باب الحاء - ج١ ص١٣]. فيشمل الإنسان والبهائم.

الأرض، فإذا هلك الأمران بسبب استحكام الأهواء والشهوات، فقد عم الفساد؛ وهلك العباد.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ قد قال العلماء فيه إن التولى يحتمل أحد أمرين: إما أن يكون معناه الانصراف والذهاب بعد أن خدع الناس بحلو القول وأقسم بالأيمان المغلظة الكاذبة وجادل وناضل فيما يدعيه من حب للخير والإصلاح، وإما أن يراد به التولى بمعنى الولاية والإمرة على الناس، ولقد قال العلماء إن الآية الكريمة تحتمل الأمرين كما نوهنا.

وعلى الأمر الأول يكون المعنى والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده: إن ذلك الذى يدعى الصلاح والإصلاح، وحب الخير والمنفعة، ويعلن ذلك بحلو اللسان، ويقسم عليه الأيمان، ويجادل عنه بأبلغ البيان - إذا تفرقت المجالس، وانصرف إلى العمل، بدت طويته، وظهرت نيته، وانكشفت سريرته، فاندفع فى الشهوات ينال منها؛ وقد ترك قوله دَبر أذنه، وما قال ما قال إلا ليكيد أو ليخفى حقيقة أمره، فيكون منه الشر والفساد، وإذا كثر من على شاكلته فسدت الحال، وكانت العاقبة السوءى.

وعلى الأمر الثانى، وهو أن يكون معنى تولى صار واليا: أن هذا الذى اجتذب ثقة الناس بالأمانى البراقة، والأقوال الخادعة والأيمان الكاذبة واللسن فى الجدل إذا تحققت بغيته، ونال طلبته، وصار واليا على الناس، لا يسعى لنفعهم، ولايقيم الحق بينهم، بل يسعى لإشباع رغباته، ويحكم الناس لنفسه لا لهم، والفاصل بين الحكم العادل والحكم الظالم، أن الحاكم العادل يعتقد أنه تولى أمر الناس لتكون ثمرة الحكم للناس، كما كان الشأن فى أبى حفص عمر رضى الله عنه، وأما الحاكم الظالم فهو الذى يحكم الناس لتكون الثمرة له ومن معه، وأمثلة ذلك فى التاريخ كثيرة لا يحصيها العد.

وهذا الخادع الكاذب المجادل المرائى يكون حكمه الناس لنفسه لا لهم، ومن ثم تحكم رغباته وأهواؤه، ومن حكمت رغباته وأهواؤه فإن سعيه لا محالة يؤدى إلى الفساد، لا إلى الصلاح؛ لأن الطمع يلد الطمع، والهوى يلد الهوى فتتسلسل

الأهواء فى سلسلة أولها إعجاب بالنفس وزهو وخيلاء، وآخرها ضياع وفساد، وهلاك للحرث والنسل، ثم ذل واستخذاء.

واللام فى قوله تعالى: ﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ هى التى يسميها العلماء لام العاقبة أى أنها تشير إلى أن العاقبة - فى عمل المتولى الذى يحكم الناس لنفسه ولرغباته وأهوائه لا لمصالحهم ونفعهم - هى الفساد فى الأرض، والهلاك العام لكل ينابيع الثروة فى البلاد، والله يتولى برحمته العباد.

ونحن نختار أن يكون معنى التولى هو صيرورته واليا؛ لأنه ذلك هو الذى يتفق مع الآية الآتية، وهى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ﴾.

وقد ذيل الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله: ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ وذلك لعدة أمور:

أولا- لبيان أن الله لا يحب ذلك الصنف من الناس الذى يخدع الناس ويكذب على الله، ويجادل ويمارى، ويضل عن بينة، ويسعى فى الأرض بالفساد؛ إذ الله لا يحب الفساد فلا يحب المفسدين، ومن لا يحبه الله فهو بعيد عن رحمته، معرض لنقمته.

ثانيا- ولبيان أن الله سبحانه وتعالى لا يريد بما فرض من عبادات إلا مصلحة الناس ودفع الضر عنهم، فهو الغنى الحميد الذى لا يكسب من عبادة عابد؛ ولا يضار من فسق فاسق؛ إنما الأمر فى ذلك إلى مصلحة الناس ودفع الضر عنهم.

ثالثا- وفوق ذلك هذا التذييل يدل على أن شرع الله كله أساسه إقامة المصلحة ودفع المضرة، فما من أمر شرعه الله إلا فيه جلب نفع أو دفع ضرر، وأن دفع الضرر، مقدم على جلب النفع، وأن دفع الضرر العام مقدم على دفع الضرر الخاص، وأن جلب المنفعة العامة مقدم على جلب المنفعة الخاصة.

رابعا- وإن هذا التذييل فوق ذلك يشير إلى أن الله سبحانه استخلف الإنسان فى هذه الأرض ليَعْمُرها لا ليفسدها، فأولئك الذين يبذلون الجهود العقلية ليصلوا

إلى ما يدمر الأرض ويخربها ويجعلوا عاليها سافلها قد ضلوا عن سنة الله، وخرجوا على قانون الفطرة وهم بعيدون عن محبة الله؛ لأنهم يفسدون فى الأرض ولا يصلحون.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ هذه حال الطغاة يرتكبون ما يرتكبون، وينزلون بالناس ما ينزلون، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا؛ وقد زين لهم سوء عملهم فرأوه حسنًا، وإذا كانت النوازل تنزل بالضعفاء لم يلتفتوا إليها لعماية الطغيان وفساد البصر والمدارك، فإذا تقدم أحد الناس مرشدًا واعظًا نهروه، وربما امتدت إليه أيديهم بالأذى، وأخذتهم العزة؛ أى الاستعلاء الجاهلى وحماقة الكبرياء؛ ودفعتهم الجرائم إلى إثم آخر فوق إثم الطغيان، وفوق ما ارتكبوا من آثام، وما أنزلوا بالضعفاء من آلام.

والباء فى قوله تعالى: ﴿بِالإِثْمِ﴾ إما أن تكون بمعنى المصاحبة والاقتران، والمعنى على هذا أخذتهم العزة واستولت عليهم مقترنة بالإثم مصاحبة له، فهى ليست عزة محمودة، بل كبرياء مبغوضة؛ أو تكون الباء للسببية بمعنى لام التعليل، ويكون المعنى: أخذتهم العزة الغاشمة والعنجهية الظالمة بسبب الإثم الذى استغرق قلوبهم وأحاط بنفوسهم، أى أنهم لفرط ما ارتكبوا من آثام، قد أحاطت بهم خطيئاتهم فسدت مسارب الهداية إلى قلوبهم، فإذا سمعوا كلمة الرشاد لم يتقبلوها، وأنغضوا رءوسهم حاسبين أن ذلك إهانة لسلطانهم؛ وإصغار لشأنهم، وما هو فى حقيقة الأمر إلا حماية للسلطان، وإكبار للأمر، وخصوصًا إذا كان من ناصح أمين.

وإذا كانت تلك حالهم فلا صلاح لهم فى الدنيا؛ وهم فى إحدى حالين، وكلتاهما نتيجتها السوءى: إما أن يديل الله منهم فى الدنيا، ويجعلهم عبرة المعتبرين، ويذيقهم وبال أمرهم فى الدنيا، وتمامه فى الآخرة .. وإما أن يمهلهم ويملى لهم حتى يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، ويلقى بهم فى نار جهنم؛ ولذا قال سبحانه: ﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾، الفاء هنا للإفصاح، لأنها تفصح عن شرط مقدر، أى إذا كانت هذه حال ذلك الطاغى الفاجر: لا يقيم الحق، بل يفسد، ولا

يطيع الناصح بل يؤذيه، وربما يقتله؛ فالله كافيه ومتوليه، وهو العزيز المنتقم الجبار، والله سبحانه ينزل به العذاب الأليم، بإلقائه فى نار الجحيم؛ فمعنى **﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ﴾** أى جهنم هى التى تكفيه، بدل كلمة الحق التى كانت تؤذيه، **﴿وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾** اللام هنا تنبئ عن قسم مقدر وهى داخلة على جوابه، والمهاد جمع مهد، وهو المكان المهيأ للنوم، والتعبير عن جهنم بأنها بئس المهاد لا يخلو من تهكم بأولئك الفاجرين، كما يقال: (تحية بينهم ضرب وجيع) وكقوله تعالى: **﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾﴾ [الانشقاق]**.

وبعد، فإن أول مظاهر الطغيان صم الآذان عن سماع كلمة الحق؛ ولعل الأمارة الظاهرة للحاكم العادل هى سماعه النقد والملام، فضلا عن الوعظ والإرشاد؛ وأمارة الحاكم الطاغى تبرمه بنصح الناصحين ونقد الناقدين فضلا عن لوم اللائمين؛ والمثل فى التاريخ كثيرة مستفيضة؛ يروى أن رجلا قال لعمر بن الخطاب أمثل الحكام: اتق الله، فقال بعض الحاضرين أو تقول لأمير المؤمنين: (اتق الله) فالتفت الفاروق، وقال: ألا فليقلها، لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها! وعمر هذا هو الذى صاح عندما تولى: من رأى منكم فىَّ اعوجاجا فليقومه فقال أعرابى: والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا! فقال أبو حفص: الحمد لله الذى جعل فى أمة محمد من يقوِّم عمر إذا اعوج!

ولو تنزلنا عن مقام عمر مقام الصديقين لوجدنا من بعض الحاكمين حتى فى عصور الاستبداد من يستمع إلى كلمة الحق أحيانًا؛ يروى التاريخ أن يهوديا له حاجة تلقى هارون الرشيد، وهو خارج، وقال له: اتق الله يا أمير المؤمنين وذكر حاجته، فنزل هارون عن دابته وخر ساجدًا، ثم أمر فقضيت لليهودى حاجته؛ فقيل له: يا أمير المؤمنين نزلت عن دابتك لقول يهودى! قال: لا، ولكن تذكرت قول الله تعالى: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾**.

وبجوار هذه الذكريات العطرة، توجد صور معتمة؛ ومن ذلك ما قاله أحد ملوك بني أمية: من قال لى: اتق الله قطعت عنقه.

بل إن هذه الصور المعتمة هى التى يسود بها تاريخ المستبدين، فإن لم يقولوها بلسان المقال قالوها بلسان الفعال، وهو أقوى أثراً وأبعد طغيانا؛ ولذلك كان من الجهاد فى سبيل الله: أن يقول المؤمن لهم كلمة الحق؛ وقد قال ﷺ: «**أفضل الجهاد كلمة حق لسلطان جائر**»(١).

﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ**﴾ بعد أن ذكر الله سبحانه بعض الناس الذين يعدون داء الجماعات التى تؤدى إلى الفساد، وإلى الهلاك، وحالهم إذا تولوا حكم الناس - ذكر أهل الفضل الذين يعدون دواء هذا الداء، وعلاج ذلك المرض الفتاك، وصلاح ذلك الفساد؛ فإنه إذا كان طغيان بعض الولاة هو الذى يؤدى إلى هلاك الحرث والنسل، فأولئك الأبرار الذين يجاهدون الطغيان هم الذين يقفون تياره، ويصدعون بأمر الله، وهم الذين باعوا أنفسهم مجاهدين ناطقين بكلمة الحق؛ ولذا قال سبحانه: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ**﴾ أى يبيع نفسه لله سبحانه؛ فيفدى دين الله والحق بنفسه وماله وكل ما يملك وفى ذكر الفريق المقابل لأهل الشر بذلك الوصف الذى يشعر بأن أخص حالهم بذل النفس والنفيس، لا مجرد الإخلاص والبراءة من النفاق - إشارة إلى عظم المهمة الملقاة على عاتقهم، وهى مجاهدة الشر والتغلب عليه، وإزالة أوضاره؛ فإن ذلك يقتضى التعرض للأذى، بل للتلف، ومن قتل فى سبيله قتل شهيداً، بل إنه يكون أفضل الشهداء، كما صرح بذلك النبى ﷺ(٢).

---

(١) رواه بهذا اللفظ أحمد فى مسنده (١٠٧١٦) فى حديث طويل فيه مواعظ وفوائد. ورواه الترمذى فى الفتن (٢١٠٠)، وأبو داود فى الملاحم (٣٧٨١).

(٢) عَنْ نُعَيْمِ بْنِ هَمَّارٍ أَنَّ رَجُلا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الشُّهَدَاءِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الَّذِينَ إِنْ يُلْقَوْا فِى الصَّفِّ يَلْفِتُونَ وُجُوهَهُمْ حَتَّى يُقْتَلُوا، أُولَئِكَ يَنْطَلِقُونَ فِى الْغُرَفِ الْعُلَى مِنَ الْجَنَّةِ وَيَضْحَكُ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ، وَإِذَا ضَحِكَ رَبُّكَ إِلَى عَبْدٍ فِى الدُّنْيَا فَلا حِسَابَ عَلَيْهِ». [رواه أحمد: باقى مسند الأنصار (٢١٤٣٨)].
وروى الترمذى: فضل الشهداء عند الله، عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «الشُّهَدَاءُ أَرْبَعَةٌ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ جَيِّدُ الإِيمَانِ لَقِىَ الْعَدُوَّ فَصَدَقَ اللَّهَ حَتَّى قُتِلَ، فَذَلِكَ الَّذِى يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ أَعْيُنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَكَذَا» وَرَفَعَ رَأْسَهُ حَتَّى وَقَعَتْ قَلَنْسُوَتُهُ - قَالَ: فَمَا أَدْرِى أَقَلَنْسُوَةَ عُمَرَ أَرَادَ أَمْ قَلَنْسُوَةَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «وَرَجُلٌ مُؤْمِنٌ جَيِّدُ الإِيمَانِ لَقِىَ الْعَدُوَّ فَكَأَنَّمَا ضُرِبَ جِلْدُهُ بِشَوْكِ طَلْحٍ مِنْ الْجُبْنِ أَتَاهُ سَهْمٌ غَرْبٌ فَقَتَلَهُ فَهُوَ فِى الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ، وَرَجُلٌ مُؤْمِنٌ خَلَطَ عَمَلا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا لَقِىَ الْعَدُوَّ فَصَدَقَ اللَّهَ =

وإن هذا الذى يبيع نفسه لله سبحانه، ويفدى الحق بنفسه وماله، لا يطلب إلا ثمنا واحدا، هو أعلى الأثمان، وهو رضا الله سبحانه وتعالى ؛ ولذا قال سبحانه فيما يطلبه: ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ الابتغاء: الطلب الشديد والرغبة القوية الصادقة؛ ومرضاة مصدر ميمى بمعنى الرضا، ولا شك أن التعبير بالمصدر الميمى دون المصدر الأصلى له معنى يدركه السامع بذوقه، ولم نجد النحويين ولا البلاغيين تعرضوا لبيان التفرقة بين التعبير بالمصدر الميمى وغيره؛ والذى يتبدى لنا ونظنه تفرقة بينهما أن المصدر الميمى يصور المعنى المصدرى واقعا قائما متحققا فى الوجود، أما المصدر غير الميمى فيصور المعنى مجردا؛ فإذا كانت كلمة مقال بمعنى القول، فإن التعبير بالقول يصور معنى مجردا من غير نظر إلى كونه تحقق وجوده أو لا، أما كلمة مقال فتصور معنى وجد وتحقق، أو فى صورة الموجود المتحقق؛ وعلى ذلك يكون معنى ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أنهم يبيعون أنفسهم طالبين طلبا موثقا رضا الله سبحانه حقيقة واقعة مؤكدة، ويتصورون رضاه سبحانه حقيقة قائمة قد حلت بهم، فيشتد طلبهم، وافتداؤهم للحق بأموالهم وأنفسهم.

وأولئك الذين باعوا أنفسهم لله، وافتدوا الحق بأموالهم وأنفسهم، هم حجة الله القائمة فى عهد الظلم والظلمات؛ وإذا كان الله سبحانه وتعالى يبتلى الجماعات بأهل الشر والطاغوت، وحكم الظالمين؛ فإنه يرسل فى هذا البلاء أولئك الذين ندبوا أنفسهم للحق يدعون عليه، ويجهرون به، ويجاهدون فى سبيل الله لرفع مناره، وجعل كلمة الله هى العليا؛ وعندئذ يكون معهم كل من يميل إلى الحق قلبه، وبين هؤلاء قوم لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

وبذلك يكون الناس أربع طوائف:

أولاها - أهل الشر الطاغون، الظالمون.

= حَتَّى قُتِلَ فَذَلِكَ فِى الدَّرَجَةِ الثَّالِثَةِ، وَرَجُلٌ مُؤْمِنٌ أَسْرَفَ عَلَى نَفْسِهِ لَقِىَ الْعَدُوَّ فَصَدَقَ اللَّهَ حَتَّى قُتِلَ فَذَلِكَ فِى الدَّرَجَةِ الرَّابِعَةِ». قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ. ورواه أحمد فى مسند العشرة المبشرين (١٤٥).

وثانيتهـا ـ أهل العدل الذين يفتدون الحق بأنفسـهم وأموالهم، ويطرحون كل هوى لهم فى سبيل رضا الله وإقامة الحق.

وثالثتها ـ أولئك الذين يتبعـونهم وإن لم يبلغوا شأوهم، ولم يفتدوا الحق مثل افتدائهم.

ورابعتها ـ أولئك الذين ينظرون، ويتبعون الفريق الغالب فى هذه المعركة التى تقوم بين الخيـر والشر؛ وأولئك هم الذين سماهم النبى ﷺ الإمـعة؛ وقد نهى ﷺ عن مسلكهم، فقال: « **لا تكونوا إمعة؛ تقولون إن أحـسن الناس أحسنًا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا**»[1].

﴿**وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ**﴾ ذَيَل الله سـبحانه وتعـالى الآية الكريمة بتلك الـكلمة السامية؛ للإشارة إلى أمور ثلاثة وصلت إليها مداركنا:

أولها ـ إن الله سبحانه وتعالى من رحمته بعباده جعل الخير القوى بجوار الشر المندفع، فهدى الله أهل الخير الأقوياء إلى مدافعة أهل الشر الطغاة، ولولا ذلك لعم الفسـاد، وهلك العـباد، ﴿**وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ** ... ﴿٢٥١﴾﴾ [**البقرة**].

وثانيـها ـ الإشـارة إلى أن الغـلب للحق دائـمـا؛ لأن ذلك من دواعى رأفتـه ورحمتـه بعباده، والحق الذى يجىء بالمغـالبة حق قوى عزيز يعض عليـه بالنواجذ؛ وفيه إعلان لغلبة المعانى الإنسانية على النواحى الحيوانية.

وثالثها ـ إن مـن رحمة الله بعباده ألا يمكـن للظالمين، وأن يمكن للعادلين؛ فـإن الحكم العادل يكون رحـمة بالناس ورفـقـا بهم؛ والحاكم العـادل ظل الله فى أرضه، ورحمته بخلقه؛ وتسليط الظالمين من أمارة غضب العلى الحكيم.

---

(١) رواه الترمذى: كـتاب البر والصلة - باب الإحسان والـعفو (١٩٣٠). والإمعة من يقلد غـيره فى قوله أو فعله.

ثم فى تذييل الآية ذلك التذييل فوق ما سبق دعوة إلى الرحمة بالناس والرفق بهم والحدب عليهم؛ ولقد قال ﷺ: **«اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم فارفق به»**(١) اللهم هب لنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ
فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ
إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ
مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾
سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ
ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ
كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۘ وَٱلَّذِينَ
ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾

(١) عَنْ عَبْد الرَّحْمَنِ بْنِ شمَاسَةَ قَالَ: أَتَيْتُ عَـائشَةَ أَسْأَلُهَا عَنْ شَىْء فَقَالَتْ: ممَّنْ أَنْتَ؟ فَقُلْتُ: رَجُلٌ من أَهْلِ مصْرَ، فَقَالَتْ: كَيْفَ كَانَ صَاحِبُكُمْ لَكُمْ فى غَزَاتكُمْ هَذه؟ فَـقَالَ: مَا نَقَمْنَا منْهُ شَيْئًا إنْ كَانَ لَيَمُوتُ للرَّجُلِ منَّا الْبَعيرُ فَيُعْطيه الْبَـعيرَ، وَالْعَبْدُ فَيُعْطيه الْعَبْدَ، وَيَحْتَاجُ إِلَى النَّفَقَة فَـيُعْطيه النَّفَقَةَ، فَقَـالَتْ: أَمَـا إِنَّهُ لا يَمْنَعُنى الَّذى فَعَلَ فى مُـحَمَّد بْنِ أَبى بَكْرٍ أَخى أَنْ أُخْبِـرَكَ مَا سَمعْتُ منْ رَسُول اللَّه ﷺ: يَـقُولُ فى بَيْتى هَذَا: «اللَّهُمَّ مَنْ وَلِىَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتى شَـيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَـاشْقُقْ عَلَيْهِ وَمَنْ وَلِىَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتى شَيْـئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ». [رواه بهذا اللفظ مـسلم: فضيلة الإمام العادل وعـقوبة الجائر (٣٣٠٧) ورواه أحمد مخـتصرا (٢٣٤٨١)].

بين الله سبحانه فى الآية السابقة على هذه الآيات حال أولئك الذين يفرقون بين الجماعات، ويعيثون فى الأرض فسادا، ويهلكون الحرث والنسل، وفيهم لدد وعنف وخصومة تغرى بالعداوة، وتنشر الفرقة والانقسام؛ وكل هذا ضد مبادئ الإسلام؛ ولذلك ناسب بعد أن بين عمل المفسدين، أن يبين واجب المصلحين؛ وهو السلم بين بنى الإنسان، والوحدة بين أهل الإسلام؛ ولذلك قال سبحانه:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً**﴾ قرئ السِّلم بكسر السين، كما قرئ فى قراءة مشهورة بفتحها؛ وكذلك قوله تعالى: ﴿**وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ... ﴿٦١﴾﴾ [**الأنفال**] فقد قرئ بفتح السين، كما قرئ فى قراءة أخرى مشهورة بكسرها[١]؛ ولذلك قال الكسائى وعلماء البصرة: إن السِّلم والسَّلم بمعنى واحد، ويطلقان على المسالمة وعلى الإسلام؛ وفرق عمرو بن العلاء فقرأها فى هذه الآية بالكسر، وقال: إنه الإسلام، وفى قوله تعالى: ﴿**وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ** ... ﴿٦١﴾﴾ [**الأنفال**] قرأها بالفتح، وقال: المراد الموادعة والمسالمة؛ وأنكر المبرد هذه التفرقة.

وعندى أن لفظ السلم بالكسر أو الفتح هو للمسالمة والصلح، وإطلاقه على الإسلام من حيث إن أحكام الدين الحنيف تتجه كلها نحو تحقيق السلام بين الناس، وتخليص القلوب من أدرانها، وتوجيه الناس نحو السلامة، والبعد بها عن مواقع الهلاك.

وما معنى السلم فى الآية: أهو الإسلام، أم هو المسالمة والموادعة والصلح؟

اتجه بعض المفسرين من السلف والخلف إلى أن معنى السِّلم فى الآية الإسلام؛ ومعنى كافة: مجتمعين، وتكون كافة حالا من الواو فى «ادخلوا» أو تكون حالا من كلمة «السلم»، والمعنى على الأول: يأيها الذين آمنوا وصدق إيمانهم ادخلوا فى الإسلام مجتمعين غير متفرقين ولا متنابذين، أى انقادوا لأحكامه

---

(١) (للسِّلم) هذه القراءة لأبى بكر والمفضل كلاهما عن عاصم، وقرأها بالفتح ﴿ لِلسَّلْمِ﴾ نافع وابن كثير وأبو جعفر والكسائى. غاية الاختصار - ج ٢/ ٤٢٧.

مجتمعين لا يفرقكم إقليم ولا يحاجز بينكم جنس ولا لون؛ لأن وصف الإيمان جامعكم، وكلمة التوحيد رابطة بينكم؛ فإيمانكم يبعثكم إلى أن تكونوا طائعين منقادين للإسلام فى اجتماع لا افتراق معه، ويوجب عليكم أن توحدوا كلمتكم.

والمعنى على أن كافة حال من «السلم»: ادخلوا فى الإسلام بكل شرائعه وأحكامه، فلا تأخذوا بحكم وتتركوا حكما، فلا تأخذوا بالصلاة وتمنعوا الزكاة، ولا تأخذوا بأحكام الزواج وتتركوا أحكام الربا، ولا تأخذوا بنظام الميراث وتتركوا أحكام الحدود وتعطلوها، وهكذا لا يصح أن يؤخذ بعض الإسلام، ويترك بعضه؛ من فعل ذلك كان كمن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعضه، وكان كمن جعل أحكام القرآن عضين، فيفرق بينها بالطاعة والعصيان، والأخذ والترك، وأحكام الإسلام كل لا يقبل التجزئة، ومجموعها هداية العقول، وطب القلوب، وعلاج الأدواء الاجتماعية والشخصية، فمن أخذ ببعضها وترك الآخر، فقد فتح فى قلبه للشيطان ثلمة ينفذ منها، وحيثما حل الشيطان فى قلب زلت الأقدام، وحكمت الأوهام، فيطمس نور الهداية من قلبه، وتنحل عُرَى الإسلام فى نفسه من بعد ذلك عروة عروة.

هذا توضيح المعنى على تفسير كلمة السلم بمعنى الإسلام، وهو قول الأكثرين. وقال قتادة ووافقه بعض مفسرى السلف: إن معنى السلم المسالمة والموادعة والصلح، وهو يشمل مسالمة المسلمين فيما بينهم، فلا يفترقون، ولا يختصمون، ولا يتنازعون حتى لا يكون بأسهم بينهم شديدا، ويكونوا طعمة للآكلين ونهزة للمفترضين، كما يشمل مسالمتهم لغيرهم، فلا يعتدون على غيرهم مادام لم يعتد عليهم.

والمعنى على هذا: يأيها الذين آمنوا إن إيمانكم يوجب عليكم أن تدخلوا فى السلام العام، فلا تنابذوا أحدًا لم يعتد عليكم، ولا تقاتلوا من لم يرفع عليكم سيفًا، ولم يوال عليكم عدوا، ثم قووا وحدتكم بالسلم الموثقة والإخاء الجامع.

ولاشك أن السلام بين المسلمين أمر يفرضه الدين، وهو مما علم من الدين بالضرورة لا يمارى فيه من فى قلبه ذرة من إيمان، ومن قال غيره فقد أعظم الفرية على الإسلام وأهله.

أما مسالمة المسلمين لغير المسلمين فقد أثار القول حولها من فهم ظواهر الأمور، ولم يتغلغل فى بواطنها، إذ قال إن الإسلام قد أباح القتال، والقتال والسلام نقيضان لا يجتمعان، والكثرة الكبرى من فقهاء المسلمين تقرر أن الأصل فى العلاقة الدولية بين المسلمين وغيرهم الحرب، حتى يتقدموا بعهد أو موادعة، كما قال سبحانه: ﴿ **وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ...** ﴿٦١﴾ ﴾ [**الأنفال**].

ذلك قول الذين فهموا الأمور بظواهرها. والحقيقة أن الإسلام دعا إلى السلام وحث عليه، ومبدؤه العام التعارف بين بنى الإنسان لا التنابذ بينهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ...** ﴿١٣﴾ ﴾ [**الحجرات**] فما جاء الإسلام للحرب والخصام، بل جاء بالهدى والسلام، ولكن سلام الإسلام سلام عزيز قوى، وليس بسلام ذليل خانع، والسلام القوى يرد الاعتداء بمثله؛ ولذلك لما اعتدى المشركون على المسلمين أباح الإسلام القتال وقال سبحانه: ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** ﴿٣٩﴾ **الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴿٤٠﴾ ﴾ [**الحج**] فما أباح الإسلام القتال إلا لدفع الاعتداء، وليس القتال لدفع الاعتداء إلا دعوة إلى السلام القوى الفاضل، وفرق ما بين السلم العزيزة القوية، وبين الذل والخضوع، أن السلام القوى هو القدرة على رد اعتداء المعتدين إن اعتدوا؛ أما الذل فهو الاستسلام والخضوع للمعتدين، وما بذلك أمر الإسلام، وليس هذا من السلام فى شىء، بل هو إغراء بالقتل والقتال وتمكين لظلم الظالمين.

وإنه لا يغرى بالقتال إلا ضعف الضعفاء واستخذاؤهم، فإن أخذوا الأهبة وأعدوا العدة وقاوموا الشر بمثله، تروَّى القوى فى غارته، أو امتنع عن عدوانه، فما استمرأ الذئب لحم الشاة إلا لأنها ليس لها ناب، وما عاف الأسد لحم الأسد إلا

لأن له نابا وبراثن يفتك بها، فالحرب أنفى للحرب، والقوة العادلة سبيل السلم العزيزة.

ولقد قرر الفقهاء أن الأصل الحرب حتى يكون عهد، لأن الأصل بين الدول فى وقت استنباطهم كان الاعتداء حتى يتعاهدوا، فما كان الإسلام ليسالم وهم يحاربون.

﴿وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ الخطوات: جمع خطوة بفتح الخاء وضمها، وهى مابين قدمى من يخطو، والمعنى: لا تتبعوا سير الشيطان. وعبر عنه بخطواته لأن الشيطان والنفس الأمارة بالسوء لاتجر المرء إلى الشر دفعة واحدة، بل تأخذه إليه درجة درجة، فيبتدئ بأيسرها وأصغرها فيقتحمه من أغواه لصغره، حتى إذا ألفه جرأه على ما هو أكبر منه، ثم ما هو أكبر حتى تحيط بالنفس خطيئاتها، وتستغرقها مآثمها، فيكون الشرير الآثم الذى تصعب عليه التوبة ولقد قال العلماء: إن كثرة ارتكاب الصغائر تجرئ على الكبائر، والشيطان يأتى من صغائر المعاصى ليغرس فى النفوس غرس الرذائل، فخطوات الشيطان مدارجه يغرى بالواحدة بعد الأخرى حتى يصل بالمرء إلى أقصى درجات الرذيلة.

ولقد كان ذلك النهى بعد الأمر بالدخول فى السلم، لأننا إن فسرناه بالإسلام يكون المعنى ادخلوا فى الإسلام كله، ولاتحلوا عراه عروة عروة باتباع خطوات الشيطان، وإطاعة هوى النفس الأمارة بالسوء، فإن ذلك يذهب بالإسلام كله وبحرماته فى النفس؛ وإن فسرنا السلم بالسلام والموادعة، فيكون المعنى: لا تحلوا وحدتكم، ولا تتبعوا خطوات الشيطان المفرق لجماعتكم بإغرائه وتدرجه فى الإغراء وإردافه المعصية المفرقة بأكبر منها حتى يكون الانقسام، ويكون بأس المسلمين بينهم شديداً.

ولقد ذيل الله سبحانه الآية بقوله: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أى إن الشيطان الذى يتحكم فى النفس الأمَّارة عدو مبين، أى ظاهر العداوة، بظهور آثار المآثم التى يحرض عليها، فى تفريق الجماعة، وضياع الكلمة، وإصابة أهل الإسلام بالذلة،

وجعلهم طعامًا سائغا؛ فظهور العداوة بظهور آثار الأعمال الوخيمة؛ إذ إنه يغرى باتباع الشهوات وهى حلوة المذاق، فإذا ذاقها من أغواه اندفع فيها، وهى مردية فى نتائجها وبيئة فى نهاياتها، فيكون الضرر المحقق بالآحاد والجماعات.

وإن عداوة الشيطان مقررة ثابتة من بدء الخليقة، فهو الذى أغوى آدم وأنزله من الجنة، وبمثل ما صنع مع الأب يصنع مع الأبناء؛ وإن الله سبحانه قد سجل أن عداوته مستمرة، فقال سبحانه: ﴿ **وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ** ﴿٣٦﴾ ﴾ [البقرة].

﴿**فَإِن زَلَلْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ يقترن فى آى الله الحكيم الأمر بالشئ بالنهى عن نقيضه، وعن أسباب المخالفة؛ ويقترنان بالترغيب فى نعيم الله أحيانًا، وبالترهيب من بطش الله العزيز الحكيم أخرى؛ وفى هذه الآية قد اقترن النهى بالترهيب من العصيان؛ لأن النهى كان منصبًا على اتباع خطوات الشيطان والخضوع لإغرائه؛ وهو يجىء إلى النفس من جهة شهواتها وما تألفه، فناسب ذلك الترهيب من العقاب؛ ليعلم من يجترح اللذات أن وراءها محاسبة القوى الجبار الذى لا تخفى عليه خافية؛ ولقد بين عداوة الشيطان للإنسان، فمن والاه فقد عادى نفسه وربه، ويحق عليه العقاب، وقبل نزوله يلزم التهديد به ليكون على بينة من أمره.

﴿**فَإِن زَلَلْتُم**﴾ أى عدلتم عن الطريق المستقيم إلى الطريق المنحرف، وأصل الزلل يكون فى القدم، ثم استعمل فى الآراء والمسالك المعنوية؛ يقال زل يزل زللا وزلولا، أى دحضت قدمه؛ وهناك لغة فى زل تجعلها من باب فرح يفرح، ﴿**مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ**﴾ أى من بعد أن ساق الله سبحانه وتعالى لكم الحجج والأدلة المبينة لكم الحق من الباطل، والضلال من الهدى.

ومعنى الآية إجمالا: إن حدتم عن طريق الاستقامة والإخلاص والحق من بعد أن علمتموه ببرهانه، فليس ثمة إلا العقاب الرادع بعد الدليل القاطع؛ واعلموا أن الله عزيز لا يغلب، ولا يهزم من ينصره، ومن عاداه وعادى أولياءه فهو عرضة

لنقمته؛ وهو حكيم يضع الأمور فى مواضعها؛ فلا يجعل المسئ كالمحسن، ولا المصلح كالمفسد؛ فكان من مقتضى حكمته أن يفرق بين الأخيار والأشرار وأهل الإيمان وأهل الكفر.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ نادى الله سبحانه أهل الإيمان بأن يدخلوا فى الإسلام بكل شرائعه وأحكامه، وأن يدخلوا فى السلام العام، كما يقيم فيما بينهم السلام والأمن؛ وحذرهم من الشيطان وغروره؛ وحذرهم من أن يزلوا فيحرموا من نصر الله، وينزل بهم عقابه؛ وبعد ذلك أشار سبحانه إلى أهل الضلال، وكيف استمرءوا الغواية، وسدوا فى نفوسهم طريق الهداية؛ وقد أقام سبحانه عليهم الدليل بعد الدليل والحجة بعد الحجة، وقد استنكر حالهم منذرًا، فقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾ وينظرون: معناها ينتظرون؛ يقال نظرته وانتظرته بمعنى واحد؛ و«ظلل»: جمع ظلة. كظلم جمع ظلمة؛ و«الغمام» اسم جنس جمعى لغمامة، وهى السحاب الرقيق؛ وسمى بذلك لأنه يغم أى يستر؛ والاستفهام إنكارى؛ فمعنى ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ لا ينتظرون. وقد وجه بعض المفسرين الآية على أن الكلام على حذف مضاف؛ فمعنى إتيان الله إتيان عقابه؛ وعلى ذلك يكون المعنى: إن هؤلاء المشركين الذين كفروا بالله بعد أن جاءتهم البينات هم فى غيهم يعمهون، وكأنهم لا ينتظرون بعد هذه الحجج الدامغة القاطعة إلا أن يأتيهم عذاب الله فى ظلل من السحاب يحسبونها عارضًا ممطرهم، وهى عذاب يسحقهم، فتأتيهم النقمة من حيث ينتظرون النعمة، ويأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون فعلى هذا التخريج تكون الآية للوعيد؛ ويكون معنى إتيان الله وملائكته إنزال عذابه الدنيوى؛ ومعنى قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ على هذا التخريج أنه إذا نزل عذاب الله فى الدنيا فقد قضى أمره فيهم؛ إذ لم يكن ثمة رجاء فى إيمانهم؛ وكذلك كان يفعل الله سبحانه فى الأقوام الذين طغوا وبغوا، وحالوا بين الناس والهداية، كما فعل بعاد قوم هود، وبثمود قوم صالح، وبفرعون وجيشه، ومن قبل ذلك بقوم نوح، وغيرهم، أما الذين علم الله أن سيكون فيهم هداية، فإنه يمهلهم ولا يهملهم.

وهناك اتجاه آخر، وهو عدم تقدير كلمة عذاب، وأن مجيء الله هو تجليه يوم القيامة، وكشف الحجاب للناس يوم الجزاء؛ فيتجلى عليهم ربهم وملائكته؛ والمعنى على هذا الاتجاه أن أولئك الجاحدين سادرون فى ضلالهم ولهوهم حتى يأتيهم أجهلم، وكأنهم لا ينتظرون وهم مستمرون فى ضلالهم إلى اليوم الآخر حيث يحاسبهم الديان، وتجرهم إلى النار ملائكة الجبار، وينال المؤمنون مثوبة الرحمن؛ ويكون معنى ﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ أنهم عاينوا الحقائق التى أنكروها حيث قضى الأمر نهائيا ولم تعد لديهم فرصة للتوبة والرجوع إلى ربهم؛ ولقد قال ﷺ: «**يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قيامًا أربعين سنة، شاخصة أبصارهم إلى السماء، ينتظرون فصل القضاء، وينزل الله فى ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسى**»[1].

وقد بدا معنى لى غير المعنيين السابقين فى إتيان الله سبحانه وملائكته، وهو أن أولئك المشركين قد كفروا مع أن الحجة قاطعة، والبينات دامغة، والحق واضح أبلج والرسول بين ظهرانيهم قد عرف طول حياته بالصدق والأمانة، وإذا كانوا قد كفروا مع تلك البينات فهل ينتظرون أن يأتيهم الله هو وملائكته فى ظلل من الغمام، لكى يؤمنوا برسالة محمد ﷺ بعد أن يشاهدوا الله وملائكته؛ ولقد طلبوا أن ينزل ملك من السماء برسالة محمد ﷺ: ﴿ **وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ** ۝٨ **وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ** ۝٩ ﴾ [**الأنعام**] فالاستفهام حينئذ للتوبيخ واللوم مع النفى؛ أى أن حالهم حال من لا يريدون أن يؤمنوا إلا بعد أن يعاينوا ويروا الله وملائكته جهرة؛ كما قال إخوان لهم سبقوهم لموسى: ﴿**أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً** ... ۝١٥٣﴾ [**النساء**]؛ ومعنى ﴿**وَقُضِيَ الأَمْرُ**﴾ أى انتهى الأمر عند هذه المعجزة التى جاء بها محمد، ﴿**فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**... ۝٢٩﴾ [**الكهف**]. ﴿**وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ**﴾ إليه سبحانه وحده لا إلى أحد سواه، ولا إلى أحد معه، تصير الأمور خيرها وشرها، وسيجزى كلا بما يستحق، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

---

(١) رواه ابن أبى الدنيا، والطبرانى من طرق أحدها صحيح، والحاكم وقال: صحيح الإسناد. ذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب.

﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ وإذا كان المشركون قد كفروا مع البينات وطلبوا ملائكة ينزلون من السماء، أو كتابًا فى قرطاس يقرءونه، فليس ذلك لنقص فى الدليل؛ أو لأنه عقلى ويريدون حسيا؛ بل الكفر غشاوة تكون على قلب الكافر تجعله ينكر الحق، ولو كان مع الحق ألف دليل؛ وهذا أمر بنى إسرائيل: نزلت عليهم عدة آيات، ومع ذلك قالوا أرنا الله جهرة؛ ولذا قال سبحانه: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ سل الحاضرين منهم أو استقر أخبار السابقين وسل تاريخهم: ﴿كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ من معجزة واضحة مثبتة إثباتا لا مجال للشك فيه، ولا إثارة الريب حوله؛ فيد موسى تنقلب بيضاء من غير سوء، وعصاه تنقلب حية تسعى، ويضرب بها البحر فتفلقه اثنى عشر طريقا، وتضرب الحجر فينبجس منه اثنتا عشرة عينا، وتظلهم الغمام فى الحر، وينزل عليهم المن والسلوى؛ ومع كل هذه الآيات البينات قالوا: أرنا الله جهرة، ومنهم من كفر وعبد العجل؛ فقوة الدليل لا تحمل الجاحد على الإيمان، ومن كفر لا يكفر عن نقص فى الدليل، ولكن عن فساد فى الفكر، بسبب غشاوة على القلب وضلال فى النفس؛ وقوة الدليل مع هذه الحال لا تزيده إلا عنادا وإصرارا.

﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾ نعمة الله هنا عامة تشمل نعمه الظاهرة والباطنة؛ فتشمل نعمة الصحة، ونعمة المال، ونعمة الجاه، كما تشمل نعمة العقل، ونعمة الهداية بإرسال الرسل وإقامة الأدلة على رسالتهم؛ ومن يبدل هذه النعم السابغة فيجعلها حجة عليه تؤدى إلى العقاب، فلا يبذل جهده فى مرضاة الله، بل فى معصيته، ولا يبذل ماله فى النفع بل فى الضرر، ولا يبذل جاهه لإعانة الضعيف، بل لحيف الشريف؛ ولا يعمل عقله ليصل إلى الحق، بل ليضل نفسه؛ ولا يقبل الهداية بل يردها؛ ومن يبدل نعمة الله ذلك التبديل، فإنه سبحانه وتعالى سيعاقبه لا محالة؛ ولذلك قال ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ والكلام فيه حذف، إذ حذف السبب، اكتفاء بذكر المسبب، كما تذكر المقدمة ولا تذكر النتيجة لأنها مفهومة ضمنا؛ والمعنى: من يبدل ذلك التبديل فإن الله سيعاقبه عقابا شديدًا، لأنه سبحانه شديد العقاب، كما أنه عفو غفور، تواب رحيم.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بعد أن بين سبحانه أن الذين كفروا قد جحدوا بالله، وقد كثرت البينات، وقامت الدلائل القاطعة، بين السبب فى غشيان الضلال قلوبهم؛ وهو أن الدنيا زينت لهم فحسبوها كل شىء وأنساهم ذلك ذكر الآخرة وما فيها من حساب وعقاب، بل إنه بسبب ضيق عقولهم انحصر تفكيرهم فى هذه، وحسبوا أن لا بعث ولا نشور، وأنكروا ذلك إنكاراً تامًا؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ فهى كل شىء فى تفكيرهم وقد دفعهم إلى اللجاجة فى الكفر والجحود أن وجدوا من لم يؤتوا حظا من الدنيا، وهم الضعفاء والفقراء والعبيد هم الذين سبقوا بالإيمان؛ ولذلك سخروا من الحق والمؤمنين إذ علموا فى أنفسهم أن التقدير عند الله هو التقدير بحال الدنيا من مال وجاه، وحسب ونسب، لا بمقدار الحق فى ذاته؛ ولم يعلموا أن الله لا ينظر إلى الأحساب والأموال والصور ولكن ينظر إلى القلوب والأعمال(١)؛ ولذلك سخروا من الذين أحبوا الإيمان وأهله وقالوا: أهؤلاء الذين سبقونا بالإيمان؟ ولذلك قال سبحانه: ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يستهزئون بالذين آمنوا. ولقد قال عطاء فى هذه الآية: نزلت فى المنافقين: عبدالله ابن أبى وأصحابه، كانوا يتنعمون فى الدنيا، ويسخرون من ضعفاء المؤمنين، وفقراء المهاجرين، ويقولون: انظروا إلى هؤلاء الذين يزعم محمد أنه يغلب بهم.

وإن أهل الحق دائما ليسوا ممن نالوا حظا كبيرا فى الدنيا؛ فإن أولئك أقرب إلى بذل النفوس فى سبيله بعد الإيمان، والعبر كل يوم قائمة شاهدة مثبتة.

ولقد ذكر سبحانه منزلة المؤمنين الذين يستهزأ بهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ﴾ الذين آمنوا واتقوا الله فوق أولئك الجاهلين الجاحدين الذين كفروا بالآخرة، وآمنوا الإيمان كله بالدنيا؛ ولا ارتباط بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة، بل قد يكون

(١) ذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب وقال: رواه ابن أبى الدنيا والطبرانى من طرق أحدها صحيح واللفظ له والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

محروم الدنيا هو المنعم فى الآخرة، والجزاء على الأعمال لا على الأموال، وعلى القلوب لا على الأحساب، وعلى التقوى لا على الأنساب؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فالله سبحانه هو الرزاق ذو القوة المتين، يعطى من يشاء ويمنع من يشاء، ولا أحد يحاسبه، وليس عطاؤه دليل رضاه، فقد يعطى الكافر، وهو غير راض عنه كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزخرف] والرزق فى الدنيا منوط بأسباب دنيوية يجيدها الكافر كما قد يجيدها المؤمن، ومن سلك سبيلها وطلبها من مظانها رزقه الله، مؤمنا كان أو كافراً، ومن تنكب الطريق، لم يرزقه الله، وله فوق الأسباب تصريف الحكيم وتدبير العليم سبحانه، إنه على ما يشاء قدير.

والخطأ أن يجعل تقدير الناس بأموالهم لا بأعمالهم، وبمظاهرهم لا بنفعهم، روى أن رسول الله كان بين أصحابه فمر بهم رجل فقال النبى ﷺ لرجل جالس عنده: «**ما رأيك فى هذا**»؟ فقال: رجل من أشراف الناس، هذا والله حرى إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، وإن تكلم أن يسمع فسكت رسول الله؛ ثم مر رجل آخر فقال رسول الله ﷺ: «**ما رأيك فى هذا**»؟ فقال: يارسول الله إن هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حرى إن خطب ألا ينكح، وإن شفع ألا يشفع، وإن قال لا يسمع لقوله، فقال ﷺ: «**هذا خير من ملء الأرض مثل هذا**»[(١)].

وإن المال هو الذى يضل العباد فيجعلهم يخطئون فى تقدير الناس، وتقطع به الأواصر، ولو قدره الناس حق قدره، ولم يتجاوزوا به الحد ما كانت تلك الآفات، ولو كان الناس يقدرون بفضائلهم لا بأموالهم وتساووا فى الحقوق أمام القانون ما كان ذلك الألم الذى يمض الفقير، وحسبُ الغنى أن المال عبء عليه، وأنه ظل زائل، وعرض حائل؛ ولقد قال ﷺ: «**يقول ابن آدم مالى مالى، وهل لك من مالك**

(١) رواه البخارى: النكاح ـ الأكفاء فى الدين (٤٧٠١) عن ابن سعد رضى الله عنه.

إلا ما أكلت فأفنيت، وما لبست فأبليت، وما تصدقت فأمضيت، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس»[(١)] والله سبحانه مالك الملك ذو الجلال والإكرام.

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾

ذكر الله سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة أن الناس فريقان: فريق يسعى فى الأرض فسادا، ويضل الناس بخلابة لسانه؛ وفريق باع نفسه للحق يفتديه، ولربه يبتغى رضاه، ولا يرجو سواه؛ وإن النضال بين الفريقين قائم، على مقتضى سنة هذا الوجود، من التنازع بين الخير والشر، وبين أهل الحق والضلال؛ وإنه من أجل ذلك سوغ الله سبحانه وتعالى لأهل الخير أن يحملوا السيف مناضلين مدافعين، وإن كان أصل الفضيلة فى الأمن والسلام؛ ولكن إن كانت الحرب سبيل السلام الفاضل فهى مطلوبة لأجل السلم، وإن كانت شجرة السلام التى تظل أهل الحق لا تقوم إلا إذا سقيت بالدماء، وجب القتال؛ لأن ما لا يتحقق الواجب إلا به فهو واجب، والسلام واجب على بنى الإنسان.

وفى هذه الآية يشير سبحانه إلى أن الاختلاف بين الناس ما بين محق فاضل، ومبطل شرير، مستكن فى أصل الوجود قائم على أصل من الفطرة التى ألهمت فيها

(١) رواه - بهذه الزيادة فى آخره: «وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس» - مسلم: الزهد (٥٢٥٩) وأحمد (٨٤٥٧). والترمذى (٢٢٦٤)، والنسائى فى الوصايا (٣٥٥٥) وأحمد فى مسنده (١٥٧١٥).

النفوس فجورها وتقواها، وهداها الله النجدين؛ وأن الله العليم الحكيم بعث الرسل مبشرين بحسن العقبى لأهل الخير وسوء العقبى للأشرار؛ ليكون من ضل إنما يضل عن بيّنة، ومن اهتدى فعن بينة؛ ولتتحقق التبعة على الأفعال بالعقاب والثواب؛ وليكون الجزاء العادل على العمل إن خيرا فخير، وإن شرا فشر؛ وليخفف بعث النبيين الخلاف وإن كان لا يمحوه؛ فإن المماراة واللدد في الخصومة التى اختص بها أهل الشر يمنعانهم من أن يسلموا بالحق رغبا، وإن كانوا أحيانًا يسلمون به رهبًا، وبعضهم يطمس الله على بصيرته فلا يجديه ترغيب، ولا يؤثر فيه ترهيب؛ بل هو ضال مضل إلى يوم الدين.

ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ**﴾ الأمة مأخوذة من أمَّ بمعنى قصد؛ والجماعة من الناس التى تربطها رابطة، وتجمعها جامعة تسمى أمة؛ لأن كل واحد منها يؤم المجموع ويقصده، ويعتمد عليه فى مدلهم الأمور. ولقد جاء فى مفردات الراغب الأصفهانى فى معنى الأمة ما نصه: «والأمة كل جماعة يجمعهم أمر؛ إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء أكان الأمر الجامع تسخيرا أو اختيارا، وجمعها أمم، وقوله تعالى: ﴿**وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم** ... (٣٨)﴾ [**الأنعام**] أى كل نوع منها على طريقة قد سخرها الله عليها بالطبع، فهى من بين ناسجة كالعنكبوت، وبانية كالسرفة[1]، ومدخرة كالنمل، ومعتمدة على قوت وقتها كالعصفور والحمام، إلى غير ذلك من الطبائع التى تخصص بها كل نوع؛ وقوله تعالى: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً**﴾ أىّ صنفا واحدًا وعلى طريقة واحدة فى الضلال والكفر، وقوله: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً** ... (١١٨)﴾ [**هود**] أى فى الإيمان؛ وقوله: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ** ... (١٠٤)﴾ [**آل عمران**] أى جماعة يتخيرون العلم والعمل الصالح يكونون أسوة لغيرهم؛ وقوله: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ**... (٢٣)﴾ [**الزخرف**] أى على دين مجتمع.. إلخ».

(١) السُّرْفة بضم السين وسكون الراء: دويبة تتخذ بيتا من دقاق العيدان فتدخله وتموت، ومنه المثل: أصنع من سُرْفة - قاموس.

ومن هذا التحقيق، وتتبع الآيات الكريمات، تبين أن معنى «أمة» الطائفة التى يجمعها أمر، ويربط بينها وصف جامع؛ فقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أى كان الناس على اختلاف أجناسهم وأقاليمهم وألوانهم أمة واحدة، أى تجمعها رابطة واحدة، ووصف مشترك يوحد بينهم جميعا، مهما تختلف المنازع وهنا يتطلع العقل لمعرفة ذلك الأمر الذى اشترك الناس جميعا فيه، فكانوا بذلك الاشتراك أمة واحدة ثم إلى ما تدل عليه كلمة «كان» أهو الدلالة على الماضى من غير استمرار، بمعنى أن ذلك الوصف الجامع كان فى الماضى وانتهى وانقطع، أى أن الناس فى الماضى كانوا أمة واحدة، وفى الحاضر والاستقبال زال ذلك الوصف عنهم، أو على الأقل فى حكم المسكوت عنه، والحكم على الماضى يشمل الحال والاستقبال؛ أم أن مدلول كان هو الوجود والاستقرار، فتدل على الوقوع فى الماضى يشمل الحال والاستقبال، فتدل على وقوع فى الماضى والاستمرار فى الحاضر، والبقاء إلى المستقبل ككان فى قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٠﴾ [الفرقان].

هذان هما الأمران اللذان يعدان مجال القول، عند تفهم مدلول تلك الجملة السامية: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ فلنقصد لذكر أقوال العلماء فيهما، وهى فى نظرنا ترجع إلى ثلاثة أقوال:

أولها - أن الوصف الجامع الذى كان يجتمع الناس جميعا عليه هو أنهم كانوا مهديين، وعلى الفطرة المستقيمة التى فطر الله الناس عليها؛ وقد اختلف العلماء فى نوع هذه الهداية وأسبابها؛ والذى نختاره ما أشرنا إليه من أنها هداية الفطرة؛ «وكان» تكون للماضى ولا يستمر الحكم بها فى الحاضر، ولا يمتد إلى القابل. ويكون على هذا التخريج لابد أن يقدر ما يدل على زوال وصف الهداية، حتى تكون الحاجة إلى بعث الله النبيين؛ ولذلك قال العلماء: إن معنى الآية على هذا التخريج: كان الناس أمة واحدة مهديين فاختلفوا ما بين ضال ومهتد، فبعث الله النبيين بالكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه.

ويصح أن نقول: إن «كان» تدل على الاستمرار، ويكون المعنى أن الناس كانوا وما زالوا أمة واحدة مهديين بمقتضى الفطرة، ولكنهم يضلون أنفسهم، فبعث النبيون ليكونوا حجة على الناس، وليكون الجزاء من عقاب وثواب، وليتحمل كل امرىء عاقبة ما صنع بالتبليغ.

القول الثاني ـ أن الناس كانوا أمة واحدة من حيث إنهم كانوا ضالين، فبعث الله الأنبياء لهدايتهم، ولإنقاذهم من حيرتهم، وليكونوا حجة عليهم، ولتترتب تبعات الأعمال، من عقاب وثواب، وذلك بالإنذار والتبشير.

«وكان» على هذا التخريج تكون للماضى واضحة المعنى، بينة، ولا حاجة إلى تقدير كلام محذوف.

القول الثالث ـ وهو قول القرطبى، إذ يقول فى أحكام القرآن: المراد الإخبار عن الناس الذين هم الجنس كله أنهم أمة واحدة فى خلوهم عن الشرائع، وجهلهم بالحقائق، لولا مَنُّ الله عليهم، وتفضله بإرسال الرسل إليهم؛ فلا تختص «كان» على هذا التأويل بالمضى فقط. بل معناه معنى قوله تعالى ﴿**وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴿٧٠﴾﴾ [**الفرقان**].

وإن هذا هو الذى نختاره[1] وعلى هذا التأويل لا يكون ثمة حاجة إلى تقدير محذوف؛ لأن ذات حالهم من كونهم لا علم لهم بالشرائع، ولا تهتدى عقولهم إلى الحقائق بنفسها، توجب البعث؛ ولأن تلك الحال التى تكون على الفطرة وحدها توجب الاختلاف فتوجب بعث النبيين؛ وذلك لأن النفوس إن تركت لمقتضى جبلتها من غير شرع مبين، ولا كتاب يحكم، تكون بين نفس غلبت عليها شقوتها؛ وبين نفس ضالة حائرة، تدفعها الغرائز إلى الشهوات دفعًا، فيكون التناحر والتنابذ؛ ولابد حينئذ من حاكم يقضى، ويقدع النفوس عن شهواتها.

---

(١) قال المصنف - رحمه الله -: وهو عين ما اختاره الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، وقد استفاض فى توجيهه، وحرره بقلمه البليغ رضى الله عنه، فارجع إليه.

ثم إن نفس كل إنسان فيها نزوع إلى الاجتماع، واستعانة بعضهم ببعض؛ وحيث كان الاجتماع لابد من نظام يربط، وشرع يحكم، وعقاب يردع؛ وإلا أكل القوى الضعيف، كما يأكل كبار السمك صغارها عند اجتماعها، وكما تفترس السبع الأوابد من يكون أضعف منها.

وعلى هذا تكون الفاء فى قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ للترتيب والتعقيب فى موضعها من غير حاجة إلى التقدير؛ لأن كون الناس أمة واحدة اقتضت الرسالة واقتضت الاختلاف، فكان لابد من شرائع السماء لتبخع الشهوات، ولتقضى على الخلاف، ولتهدى الناس وتنقذهم من الضلال.

ولأن اتحاد الفطرة واتحاد الغرائز، واندفاعها إن لم يكن لها عاصم من شرع زاجر وعقاب مانع، يجعل الناس يتناحرون ويتنابذون فلابد من حكم صالح بين الناس، فكان ذلك الحكم من السماء.

«وكان» على هذا التأويل تكون دالة على الاستمرار والثبوت؛ لأن الناس بمقتضى فطرهم دائما فى حاجة إلى شرع من السماء، لايهتدون إلا به، ولا ينير السبيل لهم شيء سواه؛ وإنه مهما تعلُ العقول فلن تقوى على التهذيب من تلقاء نفسها؛ بل لابد من دين قد اشتمل على الترغيب والترهيب من بارئ الكون ومنشئ الخلق، الذى خلق الإنسان وهداه النجدين: طريق الخير، وطريق الشر. واعتبر بما ترى بالمدنية الحاضرة ؛ فقد علت العقول عند أهلها، حتى استخرجوا كنوز الأرض، وتعرفوا على كثير من نواميس الوجود، ولكنهم يأكل بعضهم بعضا لهجرهم الأديان، وعدم وجود داع ينادى بينهم باسم القرآن.

وقد يقول قائل: إن جعل «كان» للاستمرار، يفيد أن وحدة الناس فى الفطرة وتأديها إلى التناحر يقتضى بعث النبيين إلى يوم القيامة، وإنه لابد من نبى لعصرنا؛ ونحن نسلم بالاعتراض، ولا ندفع إيراده، ونقول: نعم إنه لابد من قيام رسالة إلى يوم القيامة، وتلك الرسالة قائمة إلى يوم القيامة؛ وهى رسالة محمد ﷺ التى جاءت بكتاب تتجدد به الرسالة والبعث إلى أن تفنى الأرض ومن عليها، وذلك

بالقرآن الكريم لا تبلى جدته، وبقائه محفوظا إلى يوم القيامة من غير تحريف ولا تغيير ولا تبديل؛ وكون الذى يقرؤه كأنما يتلقاه عن النبى ﷺ، فيتلقى التكليف؛ وهو فى ذاته حجة قوية معجزة، ولا يختص إعجازها بجيل من الأجيال، ولا عصر من العصور؛ إذ هو بما اشتمل عليه من علم وشريعة، وقصص مستقيم، معجز إلى يوم الدين؛ وإذا كان الناس فى جهالة به، ولم يتلقوا رسالته، فهذا من تقصير الذين توارثوه وانتقل إليهم متواترًا جيلا بعد جيل إلى يوم القيامة؛ فبعثة النبى ﷺ مبشرًا منذرًا إذن متجددة فيه؛ وحق على حملته، ومن توارثوا علمه أن يعلنوه بين الناس، ليصدق عليهم قول الرسول ﷺ: «**العلماء ورثة الأنبياء**»(١) وإلا فهم عن ذلك فى واد يهيمون.

﴿**وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ**﴾ بعث الله سبحانه وتعالى النبيين مبشرين ومنذرين، أى مبشرين بحسن العقبى فى الدنيا والآخرة إن أطاعوا ربهم، ومنذرين بسوء العقبى فى الدنيا والآخرة إن عصوا ربهم، ووقعوا فى الشر، ولم يستقيموا على الطريقة.

ولقد أنزل الله سبحانه كتابًا مشتملا على الحق مع كل نبى يرشد به ويبين ويهدى ويقوم ويحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، بالحق الذى اشتمل عليه، إذ إن الاختلاف من طبيعة التكوين الإنسانى، ومشتق من كونهم أمة واحدة فى الجهل بحقائق الوجود إلا من رحم الله، وإن الغرائز إن لم يكن لها عاصم من الإرادة القوية والهداية الإلهية تندفع إلى الشهوات فتتناحر القوى ويأكل القوى الضعيف ولقد ذكر الكتاب بصيغة المفرد، مع أن كل نبى مبعوث له كتاب، وجاء محمد بكتاب جامع مصدق لما بين يديه وما خلفه يهدى للتى هى أقوم؛ عبر بصيغة الواحد للإشارة إلى أن كتب النبيين وإن تعددت هى فى لبها كتاب واحد؛ لاشتمالها على شرع واحد فى أصله، كما قال تعالى: ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي**

---

(١) جزء من حديث رواه الترمذى فى العلم (٢٦٠٦)، وأبو داود: العلم (٣١٥٧)، وابن ماجه فى المقدمة (٢١٩)، والدارمى فى المقدمة (٣٤٦)، وأحمد فى مسند الأنصار رضى الله عنهم (٢٠٧٢٣) كلهم عن أبى الدرداء رضى الله عنه، وذكره البخارى تعليقا فى ترجمة باب «العلم قبل القول والعمل».

أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى].

وكلمة ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾ قرئت بضم الياء للبناء للمجهول؛ وقال القرطبى إنها قراءة شاذة؛ والمعنى عليها أن الكتاب مشتمل على ما يحكم به بين الناس فيما يختلفون فيه مما يتعلق بالدنيا والآخرة، فهو المرجع الذى يدركون به الحق فى ذاته إذا اختلفوا فى العقائد أو الشرائع، أو اليوم الآخر؛ وهو الحكم العدل إذا اختلفوا فى شئون دنياهم، ومآرب الحياة، والمعنى على القراءة المشهورة «ليحكم» بفتح الياء للبناء المعلوم: أن القرآن هو الذى يحكم بين الناس، فهو الفيصل فى الخلاف، وهو المصدر العلمى فى كل شئ يتعلق بالدين، وفيه الحكم العادل إلى يوم القيامة، وإسناد الحكم إلى الكتاب للإشارة إلى وجوب الرجوع إليه عند كل اختلاف، وللإشارة إلى ألا نحكم أهواءنا فى فهم الكتاب وتأويله تأويلا بعيداً ليتفق مع رغباتنا، أو ما يسميه البعض مصالحنا، ولا مصلحة فى غير ما جاء به النص المبين، ولقد قال فى هذا الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ما نصه:

الحكم مسند إلى الكتاب نفسه؛ فالكتاب ذاته هو الذى يفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه، وفيه نداء للحاكمين بالكتاب أن يلزموا حكمه ولا يعدلوا عنه إلى ما تسوله الأنفس وتزينه الأهواء؛ فإن الكتاب نفسه هو الحاكم وليس الحاكم فى الحقيقة سواه؛ ولو ساغ للناس أن يؤولوا نصا من نصوص الكتب على حسب ما تنزع إليه عقولهم، بدون رجوع إلى بقية النصوص، وبناء التأويل على ما يؤخذ من جميعها جملة ـ لما كان لإنزال الكتب فائدة ولما كانت الكتب فى الحقيقة حاكمة، بل تتحكم فيها الأهواء، وتذهب النفوس منازع شتى، فينضم إلى الاختلاف فى المنابع اختلاف آخر جديد، وهو الاختلاف فى ضروب التأويل، وبناء كل واحد حكما على ما نزع إليه، فتعود المصلحة مفسدة، وينقلب الدواء علة! ولهذا رد الله تعالى الحكم إلى الكتاب نفسه لا إلى هوى الحاكم به.. ونسبة الحكم إلى الكتاب كنسبة النطق

والهدى والتبشير إليه في قوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ... (٢٩)﴾ [الجاثية]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ ... (٩)﴾ [الإسراء].

ويقول رضى الله عنه في إفساد الناس لمعانى الكتب المقدسة بسبب تحكيم المنافع الدنيوية والشهوات فيها: «يتخذ الواحد منهم كلمة من الكلمات أو أثرا ممن جاء به، وسيلة إلى تسخير غيره لما يريد، وذلك بقطع الكلمة أو الأثر عن بقية ما جاء في الكتاب والآثار الأخرى، وليّ اللسان أو تأويله بغير ما قصد منه، وما همُّ المؤول أن يعمل بالكتاب، وإنما كل ما يقصد هو أن يصل إلى مطلب لشهوته، أو عضد لسطوته، سواء أهدمت أحكام الله أم قامت، واعوجت السبيل أم استقامت؛ ثم يأتي ضال آخر يريد أن ينال من هذا ما نال غيره فيحرف ويؤول، حتى يجد المخدوعين بقوله، ويتخذهم عونًا على الخادع الأول، فيقع الاختلاف؛ والاضطراب؛ وآلة المختلفين في ذلك هو الكتاب»(١).

﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾

من شأن الكتاب أن يزيل الخلاف ويحسم النزاع إن احتكموا إليه واهتدوا بهديه، وهو لا يحمل الناس على الهداية حملا بل ينير الطريق ويهدى إلى التى هى أقوم، فهو كالضوء لا يخلق البصر، ولكن ينير للمبصر؛ وهو كالدليل في الصحراء يبين المسلك ولا يحمل على السير؛ ولذلك لم يزُل الخلاف بين الناس بنزول الكتاب، بل يوجد خلاف آخر حوله؛ لأن الأهواء إذا استحكمت، لا تسترشد بمرشد، ولا تتبع هاديا؛ ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾.

---

(١) قال الشيخ الإمام رحمه الله: نقلنا ذلك الكلام مع طوله ليعلم الناس رأى الإمام في طريق التأويل الصحيح، وليدركوا بطلان أقوال الذين يتعلقون بالإمام ليخضعوا الشريعة لحكم الزمان، فيعاقبون على الطلاق بالحبس والغرامة بدعوى عدم صلاحية ذلك للزمان، ويبيحون الربا بدعوى أن ذلك مصلحة الأيام، ويبيحون القمار بدعوى أنه كالبيع، أو هو تبرع، وهكذا وهكذا، ويحسبون أنهم يقلدون الإمام، والإمام من منهجهم برىء إلى يوم الدين، وتلك عباراته بقلمه، فقد كتب تفسير هذه الآية بقلمه (ج٢ ص٢٨٦، ٢٨٩).

الضمير فى «فيه» وفى «أوتوه» إما أن نجعله يعود إلى الحق، وإما أن نجعله يعود إلى الكتاب، وكلاهما مذكور، وله وجه؛ فإن كان الضمير يعود إلى الحق، فالمعنى على ذلك: إن الذين يختلفون فى شأن الحق، اختلافهم ظلم، هم مأخوذون به معاقبون عليه، فليس الاختلاف مبنيا على جهالة كالاختلاف قبل نزول الكتاب، بل هو ترك للحق عن بينة؛ لأنهم أوتوا الحق أى أوتوا العلم به، فليسوا جاهلين كشأنهم الأول؛ ولأنهم علموا الحق ببينات جاءتهم؛ ولذا قال سبحانه: ﴿**مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ**﴾ أى من بعد ما جاءتهم الحجج البينة المثبتة له التى يدركها كل إنسان إلا من ران الله على قلبه؛ ولأن البغى أى الظلم الشديد هو الذى يدفعهم إلى ذلك الاختلاف.

ولو جعلنا الضمير يعود على الكتاب، يكون المعنى أن الاختلاف يكون حول الكتاب الذى هو بيان الحق ونوره؛ وذلك لأن الذين فى قلوبهم مرض، وعلى أعينهم غشاوة، تبعث الرسل إليهم لهدايتهم بكتب فيها الحق والميزان فيجعلون تلك الكتب موضع الجدل والاختلاف ولكنه ليس كخلافهم قبل البعث؛ لأن الخلاف الأول عن جهل ففيه العذر، أما الخلاف الثانى فلا عذر فيه؛ لأنه خلاف بعد أن أوتوا علم الكتاب، وما اشتمل عليه، وبعد أن جاءتهم البينات والدلائل على الصدق.

ولقد ذكر سبحانه الباعث على الخلاف بعد نزول الكتب المقدسة بالحق المبين المؤيد بالأدلة القاطعة، فقال سبحانه: ﴿**بَغْيًا بَيْنَهُمْ**﴾ والبغى معناه طلب الشئ متجاوزا حد الاقتصاد. وقال الراغب الأصفهانى:

البغى على ضربين: محمود وهو تجاوز العدل إلى الإحسان، والفرض إلى التطوع؛ والثانى مذموم، وهو تجاوز الحق إلى الباطل.

وأكثر ما يكون البغى فى الثانى، وهو المراد هنا، أى أن الباعث على الخلاف فى الكتاب بعد نزوله مؤيدا بالحجج الدامغة والأدلة القاطعة هو الشهوات المستحكمة التى تدفع النفوس إلى مجاوزة الحد فى الطلب، وقال سبحانه: ﴿**بَغْيًا بَيْنَهُمْ**﴾ أى أن

البغى واقع فيهم، وإن لم يكونوا كلهم بغاة، فيكفى أن يكون بعضهم باغيا ليقع الخلاف حول الكتاب، بين طلاب الحق المهتدين، والذين أركسوا فى الباطل فلا ينطقون إلا تحت سلطانه، ولا يعملون إلا تحت تأثيره.

والاختلاف فى الكتاب يشمل الاختلاف فى شأنه ما بين مصدقين بما جاء به ومكذبين، ومذعنين لأحكامه ومخالفين، ويشمل الاختلاف فى أحكامه ما بين منفذين خاضعين، وعصاة لها قد ارتضوا حكم الجاهلية بدل حكم الله، ويشمل أيضا الاختلاف فى تفسيره وتأويله مابين راسخ فى علم الكتاب يطلبه من أوجهه، وبين زائغ القلب والبصيرة يتبع المتشابه، أو يثير حوله الشبه ولو كان واضحا بيناً صريحًا.

وكل هذا يدفع إليه البغى والعدوان، ولا يعتمد على حجة من برهان، وهو حجة كما قررنا على المختلفين؛ لأنه بعد أن «أوتوه» أى أوتوا علم الكتاب مؤيدا بالبينات، ولكن جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم، واستحكمت شهواتهم، وسموها مصالح ومنافع، وأرادوا أن يخضعوا نصوص الكتاب لها، فضلوا ضلالا بعيدا.

﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ أشار سبحانه فى الجملة الكريمة السابقة إلى السبب فى غواية الغاوين، وإثارة الخلاف، وهو البغى وتحكم الشهوات التى تدفع إليه؛ وفى هذه الجملة الكريمة يبين موقف المهتدين؛ ولذا قال سبحانه: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ والفاء هنا للإفصاح، لأنها تفصح عن شرط مقدر، إذ المعنى: إذا كان هذا شأن الظالمين فقد هدى الله الذين آمنوا. . إلى آخره.

وعبر بالذين آمنوا للإشارة إلى سبب هدايتهم للحق، وهو الإيمان والإذعان؛ فهم يؤمنون بالحق إذا جاءهم، ويذعنون له ويخضعون؛ وهم لاستقامة نفوسهم يتبعون النور الذى يكشف لهم الطريق ويسيرون فيه.

وأسندت الهداية إلى الله سبحانه وتعالى لأنه مقلب القلوب، وهو علام الغيوب، المسيطر على كل شئ. وللعبد إرادة أيضا، فمن كان له قصد إلى الخير، واتجاه إلى الفضيلة وسار فى الطريق المستقيم، قذف الله فى قلبه بنور مشرق، وسار

به مهديا فى مضطرب الخلاف، ومعترك النزاع؛ فالمؤمن باتجاهه المستقيم وإذعانه لليقين، وهداية رب العالمين يصل إلى الحق فى موضوع الخلاف، والصواب فى متنازع الآراء؛ لأن الذى يفسد الرأى هو الهوى، وتسلط الشهوات؛ فهى إذا استحكمت أضلت ذا اللب، وطمست البصيرة إذ أصبح محكوما بالأهواء والشهوات، يسير فى مسارها، وهو يحسب أنه يسير وراء العقل؛ وذلك هو الضلال المبين؛ فإذا خلص المؤمن من أدران الهوى ولم تتحكم فيه الشهوات فسيصل إلى الحق لا محالة؛ لأن الذى يضل العقول رَيْنُ الشهوات.

و«مِن» فى قوله تعالى: ﴿لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ﴾ هى البيانية، والمعنى: هدى الله الذين آمنوا للحق فى موضع الخلاف، فلا يطيش عقله ولا يضل فهمه، بل يتجه إلى الحق الذى جرى الخلاف حوله من غير أن تتأثر نفسه بهوى أهل الأهواء الذين اختلفوا فيه، وكانوا بسبب الاختلاف فى ريب يترددون؛ لأن الاختلاف بالنسبة للمؤمن يجلو الحق ويمحصه، وبالنسبة لمريض القلب يطمس الحق فى نفسه فيتخذ منه تعللات يبرر بها ضلاله.

وقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِهِ﴾ معناها بتيسيره وتوفيقه؛ وقال الزجاج معناها: بعلمه: وقال بعضهم: بأمره؛ ونحن نرى أن التيسير والتوفيق يتضمن هذا كله؛ لأن الله سبحانه وتعالى أعلم بالحق وأمر به؛ وهذا من تيسيره؛ ثم وفق سبحانه المؤمن للعمل به، لاستقامة فكره وقلبه؛ ولم يوفق غير المؤمن ذلك التوفيق لتحكم الأهواء والشهوات فى قلبه، فلم يتجه اتجاها مستقيما لطلب الحق والعمل به.

﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ الصراط: هو الطريق المستقيم، فوصفه بالاستقامة تأكيد لمعنى الاستقامة؛ وقد ذيل الله سبحانه الآية الكريمة بهذه الجملة السامية الحكيمة؛ لبيان كمال سلطانه سبحانه، وأن الذين يعاندون حكم الكتاب هم فى قبضة يده لو أراد أن يهديهم لفعل؛ فليس لأحد سلطان بجوار سلطان الله؛ وليس الشر قوة قائمة بذاتها، إنما الجميع تحت أمر الله الكونى وسلطانه؛ ولو أراد أن يكون الجميع مهديين لكانوا، ولكنه يختبر الإنسان فى هذا

الوجود، فجعل الشر بجوار الخير، وجعل المعركة قائمة بينهما ليكون للمهتدى ثواب الهداية إذا قصد إليها، وعلى الضال إثم ضلاله؛ وإن الاعتراك بين الخير والشر يصقل أهل الحق، ويزكى نفوسهم. وفقنا الله إلى الحق. ومن الدعاء المأثور: اللهم أرنا الحق حقًا، وارزقنا اتِّباعه، وأرنا الباطل باطلا، وارزقنا اجتنابه، ولاتجعله متلبسًا علينا فنضل، واجعلنا للمتقين إماما.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾

بين الله سبحانه وتعالى فى الآية السابقة أن الناس جميعًا قد فطروا على فطرة واحدة، وأن من هذا الاتحاد كان الافتراق والاختلاف؛ ولقد ألهم الله كل نفس فجورها وتقواها؛ وخلق الناس مستعدين للخير وللشر، وللطاعة والعصيان؛ فكان منهم من غلبت عليه شقوته فاتجه نحو الشر، ومنهم من عمته رحمة الله فاهتدى إلى الخير؛ فكان من الناس الأخيار والأشرار؛ وكان هذا من مقتضى الاستعداد للأمرين بمقتضى الفطرة التى فطر الناس عليها وكانوا فيها على سواء.

ولا شك أن العاقبة للخير؛ لأن الله هو الذى أمر به؛ فإذا كان الناس فيهم الفجار والأبرار، وأن فى نفس كل امرئ استعداداً للفجور والتقوى؛ فالله سبحانه قد دعا إلى الخير، وحث عليه، وهو غالب على أمره، وهو لابد ناصر للخير، هازم للشر، والعاقبة للمتقين؛ ولكن النصر يكون على مقتضى تدبير محكم، وصبر على البلاء، وعدم استنامة إلى الرخاء.

فلا ينتصر الخير على الشر إلا بشدائد ومكاره تنزل بالأخيار ويتغلبون عليها بعد مغالبتها، ومغالبة الأشرار معها؛ ولذلك أردف الله سبحانه وتعالى الآية الدالة على اتفاق الناس واختلافهم، بالآيات الدالة على الشدائد النازلة بالأخيار وأتباع النبيين؛ فقال سبحانه: **﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾** . . إلخ.

فى هذه الآيات إذن يبين الله سبحانه وتعالى ما ينزل بالأخيار فى سبيل الاستمساك بالحق والدفاع عنه، وكيف يغالبون المحن التى تنزل بهم، والأعداء الذين يحيطون بدولتهم؛ ولقد وصف سبحانه وتعالى أولا البلاء فى الداخل والخارج، ثم وصف علاجه في الداخل بالبر والإنفاق ثم وصف علاجه فى الخارج، بالمقاومة وحمل السيف عند الاضطرار.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا﴾ فى هذه الجملة السامية بين الله سبحانه وتعالى أن طريق الجنة محفوف بالشدائد؛ كما قال ﷺ: «**حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات**»(١) وأن نعيم الجنة مرتقى عظيم، لا يرتفع إليه إلا المجاهدون؛ وأنه كلما عظمت الشدة وطالت المدة كان الخير أعظم، ومعه رضوان الله وهو أكبر، وأن البلاء منوع مختلف؛ فهو بالبأساء وهى الشدائد والمكاره التى تكون من خارج الجسم، كحرب ضروس، أو خطر داهم؛ والبلاء قد يكون بالضراء، وهى الآلام والشدائد التى تحل بالجسم، كجراح شديدة، أو أمراض ممضة، أو آلام نفسية مزعجة وإن هذه الآلام قد تزعجهم وتشتد عليهم، وتصير كالزلازل تهز نفوسهم هزا عنيفا؛ كما يهز الزلزال

---

(١) رواه مسلم: صفة الجنة (٥٠٤٩)، والترمذى (٢٤٨٢)، وأحمد فى مسنده (١٢١٠١)، والدارمى فى الرقاق (٢٧٢٠) عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

أديم الأرض؛ وإذا كان زلزال الأرض يهزها حتى يلقى ما عليها من قصور مشيدة، فزلزال المؤمنين لا يقلب نفوسهم، ولا ينكس ما فى صدورهم؛ بل يصقلها وينفض عنها ما عساه يعلق بها من درن.

ولقد فسر العلماء البأساء ـ بالشدة من خارج الجسم، والضراء بما يكون داخله كما نوهنا ـ وهى واضحة فى الآحاد؛ وقد تكون البأساء والضراء بالنسبة للمجموع؛ فالبأساء التى تنال المجموع هى مهاجمة الأعداء، واعتداؤهم وتوالى إيذائهم؛ وعدم تركهم أهل الحق فى قرار واطمئنان؛ والضراء فى المجموع هى ما يكون من فقر ومرض، وما يتخلل صفوف المؤمنين من منافقين يرجفون بينهم بالأقوال الكاذبة، ويخذلون ضعاف الإيمان عند لقاء الأعداء، ثم ما يكون من نقص فى الأموال والأنفس والثمرات كما قال سبحانه: ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)** ﴾ [**البقرة**].

و«أم» فى قوله تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ**﴾ قد اختلف العلماء بشأنها من ناحية التخريج اللفظى بمقتضى الأحوال التى تستعمل فيها «أم»، فقال بعضهم: إنها للاستفهام المجرد، وهذا هو ما قاله الزجاج، وجوزه الزمخشرى؛ والمعنى على ذلك التخريج واضح، ويكون من قبل الاستفهام الإنكارى بمعنى إنكار النهى؛ أى لا تحسبوا أنكم تدخلون الجنة ﴿**وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم**﴾ أى لم تأتكم حال كحال الذين مضوا من قبلكم إذ مستهم أى أصابتهم البأساء والضراء، والتعبير بمستهم للإشارة إلى أنها نالتهم بالأذى أحسوا به، والآلام نالت حسهم، ولكن لم تنل قلوبهم.

وقال بعضهم: إن «أم» هى «أم المتصلة»؛ وكأن فى الكلام محذوفا دل عليه لازم قوله تعالى: ﴿ **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ... (٢١٣)** ﴾ [**البقرة**] وما قبلها، وكأن تقدير القول هكذا: أفرضيتم بالحق تنصرونه، وتدفعون بغى الباغين عليه متحملين الشدائد والمكاره، «أم» حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء. . . وبهذا تكون «أم» متصلة؛ دالة على المعادلة بين حالين،

والموازنة بين أمرين؛ وقد قال سيبويه فى الكتاب: إن «أم» المتصلة تكون دائمًا دالة على المعادلة والتسوية، وإن كان التعادل غير مذكور، كان مقدرًا فى القول مطويا فى ثناياه.

وقال بعضهم إن «أم» هى أم المنقطعة الدالة على الإضراب؛ وقد قال البصريون: إن أم المنقطعة تدل على الإضراب والاستفهام معًا؛ وكأن تقدير القول لقد نزلت بكم الشدائد من أذى شديد فى مكة وأنتم مستضعفون، ومن حرب وبلاء وهزيمة أحيانا وأنتم بالمدينة، ونزعت العرب كلها عن قوس واحدة فى غزوة الأحزاب؛ لتقتلع مدينة الله من أرضه، فعليكم أن تصبروا.. ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة].

و «لما» فى هذا الكلام الكريم تدل على النفى مع توقع وقوع المنفى كما قال الزمخشرى؛ والمعنى: لم ينزل بكم مثل حال الذين خلوا من قبلكم وقد ينزل أو سينزل، فإن نزل فاصبروا واعلموا أن الله مع الصابرين.

والزلزلة: شدة التحريك، وهى تكون فى الأشياء وفى الأشخاص، وفى الأحوال؛ فيقال زلزلت الأرض إذا تحركت واضطربت، وزلزلوا أى خوفوا. وقال الزجاج: أصل الزلزلة من زل الشئ عن مكانه، فإذا قلت زلزلته فمعناه كررت زلله.

والمعنى فى الجملة أن أهل الحق دائمًا مُعَنَّوْنَ بظلم الظالمين، وتضييق الأشرار عليهم، ودس الأشرار ونفاق المنافقين، ودعاة التردد والهزيمة؛ وهم لهذا فى بأساء وضراء؛ وقد نزل ذلك بالذين خلوا من قبل؛ فحياة الأنبياء وحواريهم كانت كلها امتحانا واختبارا، وأن على أصحاب محمد أن يعلموا أنه نازل بهم ما نزل بالسابقين من بأساء وضراء، وشدائد تزلزل النفوس وتضطرب لها القلوب بين الجنوب؛ وأن ذلك طريق الجنة؛ ولقد قال ﷺ: «**ألا إن عمل الجنة حزن بربوة، ألا إن عمل النار سَهْلٌ بسهوة**»(١).

---

(١) رواه أحمد فى مسند بنى هاشم (٢٨٦٠).

وإن تلك الشدائد كانت تبلغ أقصاها، حتى إذا وصلت القلوب إلى حال تقارب اليأس من الفرج، إذ تغمرها الشدائد غمرا، حتى تكون فى شبه ظلماء لولا نور القلوب، جاء نصر الله؛ وهذا ما يدل عليه قوله تعالى:

﴿**حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**﴾ أى أن الشدائد كانت تنزل بالماضين من أنصار الحق والدعاة إليه، ويطول زمنها، ويتطاول فيها أهل الباطل، حتى تصير النفوس فى حال تريد النصر القريب.

وليس معنى ذلك أن الهلع يستولى عليهم، أو أن اليأس يملك قلوبهم؛ فإن المؤمن لا ييئس من روح الله؛ إنما معناه أنهم تنزل الشديدة فيحتملونها ويألفونها ثم تنزل الأخرى التى تكون أشد قسوة فيروضون نفوسهم على احتمالها مستعذبين العذاب فى سبيل الحق؛ وهكذا تترادف عليهم الشدائد، وتتوالى عليهم المحن حتى تصل إلى أقصى ما تحتمله النفوس الآدمية، وتبلغ حد الطاقة البشرية؛ عندئذ يطلب الرسول والذين آمنوا معه النصر. وقدم الرسول فى هذا المقام للدلالة على أمرين: أولهما: أن الشدة قد بلغت منتهاها بدليل أن الرسول ﷺ سارع بطلب النصر من رب العالمين؛ والثانى: أن رأفة الرسول ﷺ بأتباعه تجعله يسارع بطلب نصر الله، رحمة بهم، وإشفاقًا عليهم.

وعند بلوغ الشدة هذا الحد يكون ابتداء الفرج؛ ولذا قال سبحانه: ﴿**أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**﴾ أى الله سبحانه وتعالى يبشرهم فى هذه الحال بأن النفوس قد انتهى اختبارها، وبدا جوهرها، وأن النصر لا محالة آت وهو قريب؛ فهذه الجملة الكريمة من كلام الله تعالى لهم. وقد قال بعض العلماء: إن هذه الجملة يصح أن تكون من كلام الرسول ﷺ ومن معه؛ أى أنهم لفرط إيمانهم بحسن العقبى، ورجائهم فى نصر ربهم، وإيمانهم بأن الحق منصور، يحسون فى الحال التى يطلبون فيها النصر بأن النصر منهم قريب؛ فيقول لهم الرسول ﷺ بعد طلب النصر ويستمعون إليه مصدقين كأنهم القائلون: ﴿**أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**﴾ والتعبير على هذا الشكل يدل على توكيد الخبر بالنصر؛ من جملة وجوه؛ ففيه التعبير بالجملة الأسمية

فى مقام الفعلية فلم يقـل ستنصرون، والتعبير بالجملة الإسمـية دليل على التوكيد؛ وفيه أداة الاسـتفتاح؛ وفـيه «إن» الدالة على التوكيـد؛ وفيه إضافـة النصر إلى رب العالمين القـادر على كل شىء ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج].

والرسول فى الآية الكريمة للجنس، أى أن هذه الحال هـى حال عامة تعرض لكل رسول من الرسل فى قومه إذ يدعوهم إلى الحق؛ وإن قصص القرآن عن النبيين ينبئ عن ذلك؛ فـمـوسى عليـه السلام آذاه وأصـحـابه فرعـون حـتى قطع أيديهم وأرجلهم من خـلاف، وصلبهم فى جـذوع النخل؛ وعيـسى عليه السـلام آذوه هو ومـعه الحـواريون؛ ومن قبل إبراهيم ولـوط ونوح؛ وهكذا أهل الحق لايصلون إلى الغاية الفـاضلة إلا بعد أن يقطعوا كل ما يلقـيه فى طريقهم أهل الباطـل من أحجار تدعثره، وأشواك تعوق السالك فيه.

ولقـد قال العلمـاء: إن هذه الآية نزلت بعد أن أصـاب المسلمين القـرح فى أحُد، فكانت هذه الآية للتسلية لـهم؛ ولكن الذى نزل فى غزوة أحد هو قوله ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران] بدليل ماقبلها، وهو قوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ... ﴿١٤٠﴾﴾ [آل عمران]؛ ولذلك يرجح أكثر العلماء الذين عنوا ببيان أسباب النزول أن هذه الآية نزلت عند غزوة الأحزاب، حين أصاب المسلمين ما أصابهم من جهد ومشـقة، وهـم يحفرون الخندق، ثم أصابهم من تهديد فى الأموال والأنفس عندمـا جاء أولئك الأحزاب مجتـمعين؛ كما قـال الله تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾﴾ [الأحزاب].

ومهمـا يكن من سبب لنزول هذه الآية الكريمة فـإنها تدل على أن أهل الحق فى مغـالبة دائمة، وأنهم لا ينتقلـون من شدة إلا إلى أعلى منها حتى يفـوزوا؛ فإن الشيطان من يوم أن وسـوس لآدم وحواء وأخرجهـمـا من الجنة، وأبناؤهما فى بلاء: تستغوى الشهوات جموعهم، فيندفعون فيها مجترعين من عسلها الوبىء، ثم يلغون

فى الشر، ويكلبـون على أهل الخير؛ فـإذا تقدم دعاة الخيـر يدعونهم بعد أن يتـبين الرشد من الغـى ببعث النبيـين مبـشرين ومنذرين، عادوهم ونـاوءوهم وأصابوهـم، واعتـقدوا أن مـا يدعون إليـه فيـه ذهاب طغيـانهم، وقدع شـهواتهم، والحـد من أهوائهم، وحـاولوا افـتـراسهم كـالوحـوش الأوابد عندمـا تحس بمن يمنعـهـا من الافتراس، ويكبحها عن الأذى.

وإذا كـان أهـل الحق يصـابون بـالضـراء وهى الأذى الذى يـكون فى داخل جمـاعتهم كمـا قررنا، والبأسـاء وهى الأذى الذى يأتى من خارجهم، فـقد وجب عليـهم أن يدَّرعوا، ويعـملوا صابرين على دفع الأذى فى الداخل والخـارج؛ ودفع الأذى فى الداخل بالتعاون والتكافل الاجتـماعى، ودفع الأذى الخارجى بأخذ الأهبة للقتال، والتعاون أيضًا؛ فإن التكافل الاجتماعى هو العدة لدفع أذى الداخل والخارج معا.

ولقد أخذ يبـين الله سبحانه أساس التكافل الاجـتماعى، وهو معاونة الفـقير والضعيف ودفع حاجته بالمال؛ ولذا قال تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ لقد سألوا عن نوع ما ينفقون، وقد تضافرت الآيات الحاثة على الإنفاق الداعية إليـه، باعتبار أن التعاون الاجتـماعى ركن من أركان الإسلام؛ فقد قرن سـبحانه وتعالى الزكاة بالصـلاة باعتبارهما صنوين لا يفتـرقان؛ سألوا عن نوع ما ينفقون ومقـداره بعد أن سمعوا الدعوة إليه، ولكن الله سـبحانه وتعالى قال فى الإجابة عـن هذا السؤال: ﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ وظاهر القول أن الجواب ليس عن السـؤال؛ لأنهم سألوا عن النوع، فأجيـبوا عن المصرف؛ وعلى حد تعبير علماء الاقتصاد: سألوا عن وعـاء الفريضة فأجيبوا بموضع صرفها؛ فلماذا عدل الله سـبحانه وتعالى عن الإجابة عن سـؤالهم إلى هذه الإجابة؟ الجواب عن ذلك أن النوع والمقدار يبينه المصرف، فـأجاب عن المصرف؛ ليعلموا أن المطلوب هو سد حـاجة هؤلاء؛ والنوع الذى يسد حـاجتهم مطلوب إنفـاقه. فالإجابة ببـيان

المصرف فيها أسلوب حكيم، وفيها إيجاز معجز؛ لأنه قد بين بها موضع الصرف، وإن لم يسألوا عنه، وبين فيها المقدار؛ لأن حاجة هؤلاء هى التى تعنيه؛ وفيها بين النوع، فإن كانوا محتاجين إلى ثياب يكسون، وإن كانوا محتاجين إلى طعام يطعمون، وإن كانوا محتاجين إلى مأوى يؤوَوْن. وفى هذه الإجابة فوق ذلك تصريح بحق هؤلاء على ذويهم وعلى المجتمع الذى يعيشون فيه، وهو أن يمكنوا من العيش طاعمين كاسين آوين مطمئنين؛ وأى مقدار ينفق فى ذلك من حقهم على ذويهم وعلى الناس.

وإن ذلك الحق واجب على كل من عنده يسار بالنسبة لهم، واليسار يفهم من قوله تعالى ﴿ **مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ** ﴾ فكلمة خير تطلق بالنسبة للمال على الوفير منه، لا على القليل؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ...** ﴿١٨٠﴾ ﴾ [**البقرة**] فالخير هنا هو المال الوفير كالخير فى تلك الآية الكريمة.

ذكر سبحانه أن موضع الإنفاق هم الوالدان، والأقربون، واليتامى، والمساكين، وأبناء السبيل؛ ذكر هؤلاء بذلك الترتيب؛ وإذا كان العطف بالواو لا يفيد ترتيبًا من الناحية النحوية فمن المؤكد أن الترتيب فى الذكر يفيد معنى الأولوية من الناحية البلاغية؛ فالترتيب فى الذكر إذن يشير بلا شك بأولوية البعض على البعض، فيسد حاجة الأبوين، ثم يسد حاجة الأقربين؛ ثم يسد حاجة المحتاجين من غير أسرته.

وقد روى فى سبب النزول عن عطاء: أن هذه الآية نزلت فى رجل أتى النبى ﷺ فقال: إن لى دينارًا؛ فقال: «**أنفقه على نفسك**» قال: إن لى دينارين، قال: «**أنفقهما على أهلك**» قال: إن لى ثلاثة، قال: «**أنفقها على خادمك**» قال: إن لى أربعة، قال: «**أنفقها على والديك**»، قال: إن لى خمسة قال: «**أنفقها على قرابتك**»

قال: إن لى ستة، قال: «**أنفقها فى سبيل الله تعالى**»[(١)]. وروى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**تصدقوا**»، فقال رجل: عندى دينار. قال: «**تصدق به على نفسك**» قال: عندى دينار آخر، قال: «**تصدق به على زوجك**» قال: عندى دينار آخر، قال: «**تصدق به على ولدك**»، قال: عندى دينار آخر، قال: «**تصدق به على خادمك**» قال: عندى دينار آخر، قال: «**أنت أبصر**»[(٢)].

فهذه الآثار تبين أن الترتيب فى الذكر هنا يفيد الأولوية فى العطاء إن ضاق الخير عن أن يشمل الأنواع كلها، وقد ذكر سبحانه الوالدين والأقربين من غير ذكر ما يدل على الحاجة، وذكر بقية الأصناف مع ذكر بقية الأوصاف الدالة على الحاجة؛ لأن الوالدين والأقربين يجب رعايتهم والإحسان إليهم، وإن لم تكن فيهم حاجة شديدة؛ فإن كانوا فى حاجة شديدة فالإنفاق ألزم. ولقد قال ﷺ: «**أمك وأباك، وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك**»[(٣)]، ولقد قال ﷺ: «**من أراد منكم أن يبارَك له فى رزقه، وينسأَ له فى أجله فليْصلْ رحمه**»[(٤)]. والبر بذى الرحم مطلوب فى القطيعة أشد منه عند المودة؛ فقد قال ﷺ: «**أفضل الصدقة على ذى الرحم الكاشح**»[(٥)]

---

(١) ذكر ذلك عن عطاء الرازى فى تفسيره: البقرة (٢١٥) وجاءت الرواية فى البحر المحيط، وفى آخرها: «أنفقهما فى سبيل الله، وهو أحسنها»، وذُكرت فى ضعفاء الكامل عن جابر قال: قال رجل: يا رسول الله عندى دينار. قال: أنفقه على نفسك». قال: عندى آخر. قال: «أنفقه على زوجتك». قال: عندى آخر. قال: «أنفقه على ولدك أو خادمك» - شك الوليد - قال: عندى آخر. قال: «اجعله فى سبيل الله وهو أحسنها موضعا». وروى عن جابر أيضا: جاء رجل إلى النبى ﷺ وأنا جالس عنده فقال: يا رسول الله عندى دينار، فقال: «أنفقه على نفسك». قال: يا رسول الله عندى آخر. فقال: «أنفقه على زوجتك». قال: يا رسول الله عندى الثالث. قال: «أنفقه على خادمك إن كانت لك». قال: يا رسول الله عندى الرابع والذى أكرمك ما عندى غيره، قال: «فاجعله فى سبيل الله عز وجل وهو أدناها أجرا».

(٢) رواه النسائى فى الزكاة (٢٤٨٨)، وأبو داود (١٤٤١)، وأحمد (٧١١٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٣) رواه النسائى: كتاب الزكاة (٣٤٨٥) عن طارق المحاربى، وأبو داود: بر الوالدين (٤٤٧٤) عن ج كليب بن منفعة، وأحمد عن أبى رمثة رفاعة بن يثربى (٦٨٠٨).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) رواه أحمد: مسند المكيين (١٤٧٨١)، والدارمى: الزكاة (١٦١٧) عن حكيم بن حزام رضى الله عنه. والكاشح: الذى يطوى العداوة فى باطنه ولا يظهرها.

وقال ﷺ: **«ليس الواصل بالمكافئ، وإنما الواصل من يصل رحمه عند القطيعة»**(١).

أما بقية الأصناف فإن العطاء فيها أساسه الحاجة، فاليتامى يعطون لاحتياجهم إن تركهم آباؤهم من غير مال. والمسكين: هو الفقير الذى أسكنته الحاجة، أو أسكنه المرض أو السن وجعله فى عوز. وابن السبيل: المسافر الذى لا مأوى له، وقد انقطع عن ماله إن كان له مال؛ وأولئك يعطون ما يسد حاجتهم، وينقع غلتهم.

﴿**وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ**﴾ ذيّل الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بهذه الجملة السامية لبيان فضل عمل الخير، والحث عليه؛ لأنها تدل على فضل ذلك العمل وتدفع إلى الرغبة فيه؛ إذ إن الله سبحانه وتعالى يعلمه؛ وإحساس المؤمن التقى بأن الله يرى عمله فى الخير حين يعمله، وأنه يبصره وهو يقدم عليه، يشجعه على الاستمرار عليه؛ لأنه إذا كانت رؤية أى عظيم من الناس لعمل خير يعمله الإنسان يحمله على الاستمرار، فكيف إذا شعر المؤمن الذى يحس بعظمة خالق الكون بما فيه ومن فيه؟ ثم إنه فوق ذلك ينال جزاءين مع ذلك؛ أولهما: رضاه: وهو وحده جزاء ليس فوقه جزاء؛ ولذلك قال سبحانه بعد بيان ثوابه فى الآخرة: ﴿**وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ**... (٧٢)﴾ [**التوبة**]. وثانيهما: النعيم المقيم يوم القيامة جزاء وفاقا لما قاموا من عمل صالح علمه رب العالمين وقت وقوعه، وحين أدائه.

﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ**﴾ بين سبحانه الطريق لدفع الضراء، والآلام الداخلية، وهو التعاون، ثم بين بعد ذلك ما يدفع البأساء، وهى الشدائد التى تدهم الجماعة من الخارج، وهو أخذ الأهبة والاستعداد للقتال؛ فقال تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ**﴾ وقد قرئ بضم الكاف وفتحها، والضم أكثر، وهو بمعنى الكراهة؛ أى القتال لشدة ويلاته وما فيه من إزهاق الأرواح كأنه الكراهة نفسها ويصح أن يكون كره بمعنى المكروه أي خبز بمعنى المخبوز، أى هو أمر مكروه فى

---

(١) رواه البخارى: الأدب (٥٥٣٢)، والترمذى: البر والصلة (١٨٣١)، وأبو داود فى الزكاة (١٤٤٦)، وأحمد فى مسنده (١٤٤٦).

ذاته وعلى قراءة الفتح يكون فيه معنى الإكراه، فيكون المعنى عليه: كتب عليكم القتال، وهو أمر أنتم تلجئون إليه إلجاء، وتضطرون إليه اضطرارا؛ إذ إن الكَره ضد الطوع؛ فكأنكم لا تدخلون الحرب طائعين، بل تدخلونها مكرهين كارهين، مضطرين غير مختارين، ألجأكم إليها الاعتداء عليكم، وانتهاك الحرمات والفتنة فى الدين، فأنتم مضطرون مكرهون على القتال؛ لإزالة الفتنة وصونا للحرمات، وذودا عن الدين؛ تقاتلون حتى يكون الدين كله لله.

والأمر على قراءة الفتح واضح؛ لأن القتال فى الإسلام أمر غير مرغوب فيه لذاته، إنما اضطر إليه المسلمون اضطرارا، كما قال تعالى: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** (٣٩)﴾ [الحج].

وأما على القراءة المشهورة، وهى قراءة ضم الكاف، فكيف كان القتال مكروها، مع أن الصحابة كان الموت فى سبيل الله أحب إليهم، وكانوا يرون الشهادة فى سبيل الحق غنما وليست غرما؟.

لقد قال المفسرون: إن القتال مهما يكن أمره فيه ويلات وشدائد تتلوها شدائد، ومشقات تتلوها مشقات؛ فلا يمكن أن يكون محبوبا مع ما فيه من صعاب، ومع ما يكتنفه من شدائد، فهو كان مكروها لشدائده، والعافية أحب.

ولكن ذلك لا يتفق مع ما عرف عن العرب عامة من أنهم أهل بأس وقوة، وعزيمة ونجدة، ولا ما عرف عن أصحاب محمد خاصة من أنهم كانوا يتنافسون على أماكن الردى، يلقون بأنفسهم فى مواطن الموت، لا يهمهم إلا أن يغنموا النصر أو يغنموا الشهادة، ففى كليهما فضل عظيم.

ولذا لابد أن نبحث عن سبب آخر للكراهة؛ وذلك السبب هو الذى يتفق مع الهدى المحمدى، والمنزع الإسلامى؛ ذلك أن الإسلام أودع قلوب المؤمنين رأفة ورحمة، وإلفا وائتلافا، وسلاما واطمئنانا، وبرا بالرحم، وحنانا على الأقربين؛ وتلك المبادئ لا تلتقى فى قلب مع الحب فى إزهاق الروح، وقتل النفوس، وإلقاء الحتوف فى ميادين القتال؛ فليس من خلق المؤمن المحب للسلام، أن يكون محبا

للقتال، ولعله كان من الصحابة من يؤثرون مطاولة المشركين، رجاء إيمانهم، ورغبة فى هدايتهم، مساوقا بذلك الهدى الإسلامى ؛ ولكن الله سبحانه وتعالى كتب القتال مع هذه الكراهة، لأنه الأهدى سبيلا بعد أن قامت الحجة، ووضحت المحجة، واستطالوا على المؤمنين بالأذى، وأخرجوهم من ديارهم، وألبوا العرب عليهم، وجمعوا الجموع.

﴿ **وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ** ﴾ أى عسى أن تكرهوا القتال رحمة بمخالفيكم ورجاء هدايتهم، ورجاء الخير منهم، وهم لا يريدون لكم إلا خبالا، ولو سكتم عنهم لكان أمرهم وأمركم وبالا، وفسدت أمورهم وأموركم، واضطربت حالهم وحالكم؛ فكانوا يغيرون عليكم، وأنتم ساكتون؛ ولو قاتلتموهم وأريتموهم الحق مؤيدًا بالسلاح يقمع رءوس المعاندين المعتدين الذين يفتنون الناس عن دينهم ويحاولون نشر الفساد، لكان ذلك خيرًا لكم ولهم. ووجه الخير لكم أنه رد الاعتداء، ووقف الأعداء، والذود عن الحياض؛ وأما وجه الخير لهم فهو أنهم عساهم يهتدون؛ فإن الناس أقسام ثلاثة فى قبول الحق: نوع يقنعه الدليل ويهديه البرهان، ونوع تجديه الموعظة الحسنة، ونوع جائر بائر طاغ فاسد مفسد لا تجدى فيه الموعظة ولا يقنعه الدليل، فقال الله فيه: ﴿ **وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ...** (٢٥) ﴾ [**الحديد**] فبقتاله قد يسكت عن الشر واللجاجة فيه، ويتدبر الأمر من جديد، كما قال أبو سفيان فى غزوة: لو كانت آلهتنا تنفع وتضر لنفعتنا! فكان ذلك هو السبيل لدخول الإيمان إلى قلبه، فآمن وصار من المهتدين وإن لم يكن من السابقين بالقبول والإحسان.

ثم عسى أن تحبوا الأمن والسلام وتؤثروا المحبة على الخصام، وأعداؤكم يتربصون بكم الدوائر، ويرتعون فى الشر رتعا شديدًا، فلو تركتموهم وأمرهم لكان ذلك شرا لكم، ولكانوا هم قوما بورا، لا يرشدون ولا يسترشدون؛ فمن الرحمة ما تحوى فى نفسها أقسى الظلم، ومن الرفق ما يشجع أشد العنف؛ ولذا ذيل الله سبحانه وتعالى الآية بقوله: ﴿ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾ فالله يعلم مغيب الأمور

ومكنون المستقبل وأنتم لا تعلمون، والله يعلم ما تكنه الصدور وما تخفيه وأنتم لا تعلمون، والله يعلم ما تصلح به أمور الناس في الدنيا والآخرة وأنتم لا تعلمون؛ وأنى يكون علم المخلوق كعلم الخالق، وعلم الناقص كعلم الكامل، وعلم القاصر كعلم اللطيف الخبير!.

وقبل أن ننهى الكلام فى تفسير هذه الآية نقرر أمرين:

أحدهما: أن قوله تعالى ﴿**وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾ هى قضية عامة فى كل التكليفات الشرعية يجب أن نقر صاغرين بها، وأن نقبلها طائعين ما دامت قد ثبتت بدليل قطعى لا شبهة فيه، وألا نمكن أهواءنا من التحكم فى أمور ديننا، فعسى أن يكون ما نحب شرا، وما نكره خيرا؛ كما يجب ألا نتململ بأحكام الشارع بدعوى معارضتها للمصالح، أو لروح العصر، فقد يكون ذلك هوى لا مصلحة، وفسادا ومضرة. وليس صلاحا ومنفعة!.

ثانيهما: أن هذه الآية فيها فرضية القتال؛ وظاهرها أنها تفرض الجهاد على جميع الناس القادرين عليه، وقد قال بعض العلماء لهذا: إن الجهاد فرض عين على القادرين عليه؛ ولقد قال ﷺ: «**من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات ميتة جاهلية**»[1] وقال بعض العلماء: إن الجهاد فرض كفاية إذا قام به البعض سقط الحرج عن الباقين؛ وقد قال الزهرى: الجهاد واجب على كل أحد غزا أو قعد، فالقاعد عليه إذا استعين أن يعين، وإذا استغيث أن يغيث، وإذا استنفر أن ينفر. وقد أجمع العلماء على أنه إذا نزل العدو بساحة البلاد وجب القتال على كل المسلمين، كل بمقدار قدرته؛ وقد ابتلى الله أكثر البلاد الإسلامية بالعدو نزل بساحتها، فالجهاد حق على كل مسلم حتى لا يكون فيها عدو متحكم، وتكون العزة لله ولرسوله، وللمؤمنين.

---

(١) رواه مسلم: الإمارة (٣٥٣٣)، والترمذى: فضائل الجهاد (١٥٨٩)، والنسائى: الجهاد (٣٠٤٦) وأبو داود (٢١٤١) وأحمد فى مسنده (٨٥١٠).

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

شرع الله القتال دفعا للأذى، ومنعا للفتنة، ونصرا للحق وخفضا للباطل، ولقد بين سبحانه أن المؤمنين الذين أرهف وجدانهم ومازج حب البشرية قلوبهم، كرهوه، فقال سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ كرهه المؤمنون المخلصون، وتمنوا لو أن قومهم آمنوا طائعين أو كفوا عن أذاهم حتى لا تزهق أرواح، ولا تخضب الأرض بالدماء، ولكن الله سبحانه بين لهم أنه لا سبيل لرفع الحق إلا بعزة أهله، ولا عز له بين المشركين إلا بنور الحق، وبريق السيف، وإن ذلك فى مصلحتهم، كما فيه إعلان الحق لهم، ومنع الأذى عن المؤمنين، وزوال الفتنة فى الدين، حتى يصير الدين كله لله، يطلبه من يريده حرا، ويريده من يريده مخلصا، لا لوم ولا تثريب، ولا فتنة ولا تعذيب.

والمؤمنون الذين كرهوا القتال فى ذاته كرهوه أيضا لملابساته، فقد يكون فى زمان له حرمة وتقديس، أو فى مكان مقدس قد حرم فيه القتال جاهلية وإسلاما،

فتتضاعف الكراهة؛ إذ تجتمع الكراهة الذاتية، والكراهة الإضافية لزمان القتال أو مكانه، فبين الله سبحانه ما يطمئن قلوب المؤمنين، وإن من يرد الاعتداء بر لا فاجر، ولو اضطر إلى القتال فى الشهر الحرام أو البيت الحرام ولذا قال سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾.

الشهر الحرام - قد بيناه فى تفسير قوله تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ... ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة]. وإنه مفرد أريد به الجمع وإن الأشهر الحرم أربعة، هى: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وبينا البلاغة التى أدركناها فى التعبير بالمفرد فى معنى الجمع.

وقوله تعالى: ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ بدل اشتمال من الشهر الحرام، قد وقعت كلمة قتال فى موضع الجر على البدلية، والمعنى: أن السؤال عن القتال فى الشهر الحرام، لا عن ذات الشهر، وإنما ابتدأ بذكر الشهر لأنه موضع القداسة فى نفوسهم، ولأنه أساس التحريم، فالقتال فى ذاته لم يعد موضع تفكير، بعد أن اطمأنت قلوبهم إلى أمر ربهم، وأنه سبيل الدفاع عن نفوسهم، إنما موضع السؤال هو القتال فى تلك الأزمنة، فابتدئ بذكرها، لأنها الباعث على السؤال: وهو الذى سارع إلى الخاطر، فكان الابتداء به مجاوبة للمسارعة الفكرية بالسبق البيانى.

ومن هم الذين سألوا؟ أهم المشركون، فيكون السؤال تشنيعا، أم هم المؤمنون فيكون السؤال تحرجا وتأثما من الوقوع، أو ندما أن فرط ذلك منهم؟ إن ذلك أمر لا يعرف إلا من صحيح الآثار.

لقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى، والبيهقى فى سننه بسند صحيح أن النبى ﷺ بعث بعثا على رأسه عبد الله بن جحش ليتبع عيرا لقريش قبل غزوة بدر، وكتب له كتابا، وأمره ألا يقرأه حتى يبلغ مكان كذا، وقال له: «**لا تكرهن أحدا على السير معك**»، فلما قرأ الكتاب قال: سمعا وطاعة، وخير أصحابه، وقرأ عليهم الكتاب، فرجع منهم اثنان وتبع العير فغنم غنائم وأسر أسيرين، وكان ذلك فى أول ليلة من رجب حسبوها آخر ليلة من جمادى، وقيل فى

آخر ليلة من رجب، ولم يستأنوا إلى أول شعبان حتى لا تفلت طلبتهم، ولما جاءوا إلى النبى ﷺ، وقد علم أنهم قاتلوا فى الشهر الحرام، توقف وقال: «**ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام**»(١).

ويروى أن المشركين قالوا: قد استحل محمد الشهر الحرام، فسفك فيه الدماء، وقالوا لمن عندهم من المسلمين المستضعفين: يا معشر الصبأة استحللتم الشهر الحرام، وقاتلتم فيه.

وهذا الخبر يفيد فائدتين: أولاهما - أن تلك السرية قاتلت فى الشهر الحرام جاهلة بدخوله، أو مضطرة، وكلتا الحالين تحمل العذر أو المسوغ.

الثانية ـ إن قريشا عيرت المسلمين بذلك وأن النبى ﷺ توقف عن التصرف حتى ينزل قرآن فنزل، وعلى ذلك يصح أن يكون السؤال من المشركين، وهو أوضح.

ومهما يكن فإن القتال فى الأشهر الحرم حرام فى حال الاختيار والابتداء فلا يصح البدء بالغزو فيه. ولقد قال جابر: كان رسول الله ﷺ لا يقاتل فى الشهر الحرام إلا أن يغزى أو يغزو حتى إذا حضر ذلك أقام حتى ينسلخ(٢).

ولقد قال بعض العلماء: إن تحريم القتال فى الشهر الحرام منسوخ بقوله تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً** ... ﴿٣٦﴾﴾ [**التوبة**]، وبقتال النبى ﷺ أهل الطائف فيه، ولكن قال عطاء: إنه لم ينسخ.

والحقيقة إنه لم يثبت ناسخ صريح فى النسخ فإن قوله تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً**﴾ العموم فيه بالنسبة للمقاتلين لا بالنسبة لزمان القتال، وإن النبى ﷺ لم يبتدئ قتالا فى الشهر الحرام مختارا قط، والتحريم فى الاختيار والابتداء كما بينا لا فى البقاء والاضطرار؛ ولذا قال سبحانه: ﴿**فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ** ...

---

(١) رواه البيهقى فى السنن الكبرى، ج١٣ ص٢١٠ عن جندب بن عبد الله (١٨١٠٩)، وعن عروة بن الزبير ج١٣ ص٣١٦ (١٨٣٦٢). وانظر البداية والنهاية لابن كثير ج٤ ص٤٥.

(٢) سبق تخريجه.

(٣٦) ﴾ [التوبة] ولأن الأشهر الحرام نص عليها فى خطبة الوداع، وكل ما جاء فيها غير منسوخ. وقد بينا حكمة تحريم القتال فى الأشهر الحرم عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ** ... (١٩٤) ﴾ [البقرة].

﴿ **قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ** ﴾ عير المشركون المؤمنين بأنهم قتلوا أو قاتلوا فى الأشهر الحرم مع أنهم كانوا معذورين، لجهلهم بالميقات، أو لدفع الضرر عن أنفسهم بمبادرة عدوهم قبل أن يقتلهم. وما سوغ أحد ترك الدفاع عن النفس إن هاجمه العدو، فرد الله سبحانه قولهم بقوله تعالى: ﴿ **قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ** ﴾ فهو رد بالموافقة؛ أى أن القتال فى الشهر الحرام أمر كبير على النفوس تستثقله القلوب المؤمنة فكيف إذا كان هو أمرا مكروها فى الجاهلية والإسلام؛ لأن الشهر الحرام مقدس فى الإسلام، أو يقال إن المعنى القتال فيه ذنب كبير، وعمل خطير؛ لأن فيه اعتداء على الشهر الحرام المقدس.

وهذا التسليم ليس لأن المؤمنين جديرون بأن يعيروا، لأنهم معذورون بل إن التسليم ليأخذ الكفار من نواصيهم إلى الحق، ويبين لهم مقدار ضلالهم وفسادهم، فإذا كان كبيرا وخطيرا وذنبا وإثما قتال فى الشهر الحرام لأنه اعتداء عليه هو، فكيف يكون الصد عن سبيل الله، والكفر بالله، والكفر بالمسجد الحرام، وإخراج أهله منه، وكيف تكون الفتنة فى دين الله، وحمل الناس على الخروج منه؟ إن ذلك يكون بلا شك أعظم وأخطر لأنه اعتداء على الله وعلى بيت الله، وعلى الأنفس، وعلى الأهل والعشيرة؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ **وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ** ﴾. أى أن هذه الأمور مجتمعة ومنفردة أكبر من القتال فى الشهر الحرام، ومع ذلك ارتكبوها وأخذوا على الناس القتال الشريف اضطرارا فى هذا الزمان.

والكلام مستقيم تمام الاستقامة على أن السؤال كان من المشركين، والإجابة له مفحمة ملزمة موجهة باعثة على الخير. وإذا كان السؤال من المؤمنين كالسؤال فى

قوله تعالى: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ** ... (٢١٥) ﴾ [**البقرة**] وكالسؤال فيما يأتى: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ** ... (٢١٩) ﴾ [**البقرة**] إذا كان السؤال من المؤمنين إعلانا لندمهم على صنيعهم، فقوله تعالى: ﴿ **قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ فيه بيان معذرتهم، وأنهم مضطرون لا مختارون وإن الذين قاتلوهم ارتكبوا معهم الشر بكل صنوفه، فإن أخطأتم غير قاصدين فأولئك ارتكبوا أصناف الشر قاصدين، وهم لا يرقبون فيكم إلاً ولا ذمة.

والأصناف التى ذكرها الله سبحانه من اعتدائهم خمسة: هى الصد عن سبيل الله، والكفر بالله، والكفر بالمسجد الحرام، وإخراج أهله منه، والفتنة فى دين الله.

أما الصد عن سبيل الله فمعناه المنع من سبيل الله، أى السنن المستقيم الذى سنه الله سبحانه وتعالى لخلقه ليسيروا على الفضيلة متآخين متحابين وابتدأ الله ببيان صدهم عن سبيله للإشارة إلى أنهم يعاندون الحق فى ذاته ويمنعون أن تقام العلاقات بين الناس على أسس من الفضيلة.

والفعل صد: يستعمل لازما ومتعديا، فيقال: صد عن هذا الأمر أو عن فلان صدودا إذا أعرض عنه وانصرف، ويقال: صده عن هذا الأمر صدا أى منعه وصرفه.

والكفر بالله يشمل الشرك، ويشمل كفر النعم التى غمرهم الله بها وأسبغها عليهم، سواء أكانت مادية ببسط الرزق، أم كانت معنوية بآياته البينات، وبعث الرسالة فيهم تهديهم وترشدهم، وكون الرسول ﷺ منهم ﴿ **وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ** ... (٦٦) ﴾ [**الأنعام**].

والكفر بالمسجد الحرام عدم شكر الله على نعمته إذ جعلهم فى حرم آمن والناس يتخطفون من حولهم: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ** ... (٦٧) ﴾ [**العنكبوت**]، ومن الكفر أنه بيت الله ومع ذلك يقيمون عليه الأصنام وهى الأحجار التى يشركونها بالله فى العبادة، ومن الكفر به أن يمنعوا الناس من القيام بحقه فى الزيارة والطواف فى الحج والاعتمار، ومن الكفر أن يؤذوا الناس حوله ويقتلوهم ويفتنوهم عن دينهم فى بطحاء مكة، وهكذا لم يقيموا للبيت

أى حرمة ويتمسحون بالشهر الحرام والقتال فيه، فيعيبون ناسا اضطروا إلى القتال غير قاصدين، وقد ارتكبوا هم معهم المنكر والزور.

وإخراج أهل المسجد منه، فإن إخراج الآمنين من مستقرهم جريمة كبيرة، وإخراج الساكنين حول البيت أكبر جرما وأعظم إثما؛ لأنه اعتداء عليهم، واعتداء على البيت واعتداء على الأمن الذى بقى لهم من شريعة إبراهيم عليه السلام، إذ قال: ﴿**رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ** ﴿٣٥﴾﴾ [**إبراهيم**] فهم تعدد اعتداؤهم عليه: فأزالوا الأمن الذى أوجبه الله، ووضعوا حوله الأصنام، وأخرجوا أهله منه.

هذه الأمور الأربعة كلها جرائم متتالية، وكل واحدة منها جريمة بذاتها، ولكنها فى مجموعها تساوى جريمة واحدة قائمة بذاتها وهى الفتنة فى دين الله، ولذلك خصها الله سبحانه وتعالى بالذكر كأنها وحدها تساوى الكل أو تزيد وهى مبعث أكثرها، فقال سبحانه: ﴿**وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ**﴾.

فالفتنة فى دين الله، بإنزال الشدائد بالمؤمنين ليحملوهم على ترك دينهم وتضليلهم وصرفهم عن الحق الذى اختاروه بالمحن والشدائد، وتوهين نفوس الضعفاء ليرتدوا عن دينهم.

وأصل اشتقاق كلمة الفتنة من الفَتْن، وهو إدخال الذهب النار لتظهر جودته من ردائته، واستعمل فى إدخال الإنسان النار، قال تعالى: ﴿**يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ** ﴿١٣﴾ **ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ** ... ﴿١٤﴾﴾ [**الذاريات**] أى عذابكم، وتستعمل الفتنة فى الاختبار ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا** ... ﴿٤٠﴾﴾ [**طه**] وجعلت الفتنة كالبلاء فى أنهما يستعملان فيما يدفع إليه الإنسان من شدة ورخاء، وهما فى الشدة أظهر معنى وأكثر استعمالا، وقد جاء فيهما قوله تعالى: ﴿**وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً**... ﴿٣٥﴾﴾ [**الأنبياء**]. وقال فى الشدة: ﴿**إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ**... ﴿١٠٢﴾﴾ [**البقرة**] ﴿**وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ** ... ﴿١٩١﴾﴾ [**البقرة**][(١)].

(١) جاء فى الهامش: مفردات القرآن للراغب الأصفهانى - فتن.

والفتنة التى أنزلها المشركون بالمؤمنين، وهم مستضعفون بمكة كانت أكبر من القتل؛ لأنها أذى شديد يلحق الروح، وأذى الروح وبخعها بحملها على الكفر بعد الهداية لا يقل عن القتل، فهذا موت مادى، وذلك موت أكبر وأعظم، ولقد قال تعالى ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا** ... ﴿١٢٢﴾ ﴾ [**الأنعام**] فالضلال كالموت، بل هو أشد الموت، والهداية حياة أى حياة.

والفتنة فوق ذلك محاربة الفضيلة، ومحاربة قيام الجماعة على أسس من الخير فهى تؤدى إلى موت الجماعة؛ لأن حياة الأمم بروابط الفضيلة بين أحدها وكيف يكون قتل واحد أو اثنين أو عشرة مساويا لقتل أمة، وذهاب وحدتها وتحكم الأشرار وسيادة الظلم وانتشار الفوضى؟! وإن الحرية الدينية هى معنى الإنسانية، فقتلها بالفتنة قتل لأقدس معانى الإنسانية.

ولقد كان أولئك المشركون يفتنون المسلمين الأولين عن دينهم بصنوف الأذى، والابتلاء لم يسلم من أذاهم ضعيف أو ذو عصبة، فذوو العصبة كانوا يستهزئون بهم ويثيرون السخرية حولهم، وقد تمتد أيديهم بالأذى إليهم، وقد كانوا يقاطعونهم ويمتنعون عن معاملتهم كما فعلوا ببنى هاشم عندما ناصروا النبى ﷺ ولم يسلموه إليهم ليقتلوه.

وكان أشد الأذى بالضعفاء وخصوصا الموالى، وقد حفظ التاريخ بلاء شديدا لكثيرين من المؤمنين أمثال عمار بن ياسر وأبيه وأمه، وقد مات الأب والأم فى العذاب الأليم، وبقى الابن وقد خرج من المحنة مصقول النفس قوى الجنان ثابت الإيمان، وكذلك نزل بخباب بن الأرت وبلال وغيرهم.

وإن أولئك الذين فتنوا المؤمنين الأولين وهم مستضعفون، ولا يزالون على نيتهم، وقد صار الإسلام فى عزة؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ **وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا** ﴾ فهؤلاء المشركون أعداؤكم لا تأخذكم بهم هوادة، ولا تجعلوا لهم عندكم إرادة، لأنهم أعداء دينكم، فتنوكم فيه فى الماضى،

وأخرجـوكم من دياركم، وما زالوا على هـذه النية فى الحاضـر، لا يودون لكم إلا خبالا، وهم دائما فى قتال معكم، فالتعبـير بالفعل الدال على الاستمرار مع التعبير بالمضارع يدل على الدوام والبقاء، فهم مستمرون على القتال معكم، وأنتم معهم فى قتـال دائم، فإن قاتلتمـوهم فى الشهر الحـرام، فأنتم لم تبتـدئوهم، بل هم الطغاة المبتـدئون، وإن تركتمـوهم لم يتركوكم، وإن تركـتموهم زمـنا فقد مكنتـموهم من فرصة ينتهزونها، وسهلتم لهم رغـبتهم التى يضعونها نصب أعينهم وهى أن يردوكم عن دينكم.

وقد بين الله سبـحانه أيضا غايتـهم من هذا القتال، وأمنيتهم التـى يتمنونها، وهى أن يردوكم عن دينكم الذى ارتضيتم؛ لأنهم رأوا أن هذا الدين يهدم طغيانهم، ويأتى بنيانهم من قـواعده، ولأنه دين الفضيلة وهم أعـداؤها ودين المساواة وهم لا يحبونها، ودين العدل وهم لا يرتضونه، ودين النور وهم يطمسونه.

ولكن الله سبـحانه وتعالى لا يمـكنهم وهو ناصركم، ﴿**إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ** ... ﴿١٦٠﴾﴾ [**آل عمران**]. ولقد عقب الله سبحانه وتعالى الجملة الكريمة بقوله: ﴿**إِنِ اسْتَطَاعُوا**﴾.

والتعـبير بـ «إنْ» يفـيد الشك فى قدرتهم، بل إن الزمـخشرى يقـول إن قوله تعالى: ﴿**إِنِ اسْتَطَاعُوا**﴾ دالة على عدم قـدرتهم على ذلك أو استبعـاد ذلك، فهو كقـول الرجل لعدوه، لا تبق علىّ إن ظفرت بى وهو واثق أنه لن يظفـر به، وكأنه قيل لهم وأنى لهم أن يستطيعوا ذلك، والله مـحيط بهم، ولهذا الدين رب يحميه، ولن يذل قوم الله ناصرهم!!

بيد أنهم إن عجـزوا عن ذلك بالنسبة للجماعة فلن ترد تلك العـصابة المطهرة عن دينها، قـد يميل مـعهم من يكون فى قلبه مـرض، أو فيـه ضعف، أو لم يكن قوى الإيمان بحيث يصبر على المحن، وتصقله التجارب، وتضىء قلبه الشدائد.

ولقد حذر الله سبحانه وتعالى أولئك الضعفاء، فقال تعالت كلماته:

﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ بين الله سبحانه وتعالى فى تلك العبارات السامية حال من يرتد، ويستمر على ردته إلى أن يموت، ولقد أشار فى قوله تعالى: ﴿مِنكُمْ﴾ إلى أنه لا يتصور أن تتحقق بغية المشركين، وهى أن يردوكم أجمعين، بل أقصى ما يصلون أن ينالوا ضعيف الإيمان، فيعيدوه إليهم ولا خير فيهم ولا فيه، والنار أولى بهم جميعا.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى الردة عن الدين وحكمها، والردة أن يكفر بالله بعد إذ آمن، أو بالرسول بعد أن أذعن لما جاء به أو ينكر شيئا مما جاء بالكتاب من أخبار النبيين، أو الأعمال التكليفية، وبالجملة ينكر شيئا مما علم من الدين بالضرورة، ولقد عقب الله سبحانه وتعالى الردة بالموت كافرا غير مؤمن؛ ولذا عطف بالفاء، وكأن الردة يترتب عليها الموت كافرا، وذلك لأن الشخص إذا كان مضطربا غير مستقر، يؤمن ثم يكفر، ليس من شأنه أن يموت مستيقنا ثابتا قارا على حال، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً ﴿١٣٧﴾﴾ [النساء] فالمضطرب العقيدة يغلب عليه ألا يموت مستقرا على حال، بل يموت كافرا، وإذا كان الشرع الإسلامى قد أوجب استتابة المرتد فلكيلا يكون ثمة عذر فى قتله، ولقد منع الإمام مالك استتابة الزنادقة لكيلا يتخذوا التوبة الظاهرة ذريعة لدسهم الخبيث.

وقد ذكر الله سبحانه جزاء المرتدين، فذكر عقوبتين: **إحداهما**: بطلان أعمالهم الصالحة فى الدنيا، فلا يكونون أمام الناس مؤمنين، وفوق ذلك تفسد نفس المرتد، فيذهب عنه نور البصيرة الذى يستفيده بالإيمان، فإن العقيدة الصحيحة توجه الفكر والعمل توجيها صحيحا يكون إشراقا فى العقل، واستقامة فى الأفعال والأقوال، وفوق ذلك يفقد المرتد الثقة بنفسه وثقة الناس به، وأما بطلان أعماله فى الآخرة فبعدم الجزاء عليها، وهو النعيم المقيم الذى خصص للمتقين.

وعبر عن بطلان أعمال المرتدين بقوله تعالى: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾، وأصل الحبْط من الحبط وهو أن تأكل الدابة أكلا حتى تنتفخ بطنها، فلا تنتفع بما أكلت ويفسد حالها، وكذلك الأعمال التى يحبطها الله يكون فسادها من صاحبها وتكون ضررا له وقد كان الأصل أن تكون خيرا.

العقوبة الثانية: ملازمة النار فى الآخرة والخلود، ولذا قال سبحانه: ﴿وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أن هذا التعبير فيه تأكيد نزول العذاب بهم من ثلاثة وجوه:

أولها - الإشارة إلى سببه، فإن الإشارة فى قوله سبحانه: ﴿أُوْلَئِكَ﴾ إلى هؤلاء الذين يرتدون باضطراب قلوبهم وفساد خلقهم، وذكر السبب مع الحكم تأكيد له.

والثانى - أنه ذكر أنهم ملازمون للنار ملازمة الصاحب لصاحبه، وكأنهم مختصون بها وهى مختصة بهم.

والثالث - التعبير بالجملة الاسمية مع التأكيد بضمير الفصل، وإن ذلك التعبير السامى كثير الورود فى كتاب الله تعالى فى مقام العقاب ومقام الثواب، والتعبير عن العقاب والثواب بالنسبة للكافرين والمؤمنين بالخلود، يدل على الدوام السرمدى والبقاء الابدى؛ لأن ذلك صريح، ولكن فهم بعض العلماء أن المراد طول المدة لا البقاء الدائم، وأولئك يحسبون أن عذاب النار غير دائم، وذلك لا دليل عليه بل عبارات القرآن صريحة قاطعة، وأحاديث النبى ﷺ لا تقبل الشك فى دلالتها. وإنها للجنة أبدا أو للنار أبدا.

وأن أولئك المشركين قد اعترضوا على القتال فى الشهر الحرام مع أنهم المعتدون ولا يبغون إلا أن يرتد المؤمنون عن دينهم، وقد تألم المجاهدون لقتالهم فى الشهر الحرام مع أنهم مدافعون، ولم يكونوا قاصدين القتال فيه وقد رد الله سبحانه كيد الضالين فى نحورهم، وبين عقاب من يجيبون رغبتهم، وقد بين بعد ذلك حال المؤمنين ومنزلتهم من ربهم ليزول ندمهم، فقال سبحانه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

هذه أوصاف ثلاثة لأولئك المقربين الصديقين:

أولها - أنهم آمنوا، والإيمان تصديق للحق، وإذعان لحكمه، وتنفيذ لأوامره، وإخلاص فى القلب، ونور فى البصيرة، وذلك وحده كاف للجزاء إن قام المؤمن به، وحقق لوازمه وخواصه، وصار شعاره ومظهره، وسريرته وحقيقته.

وثانيها - الهجرة، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ وكرر الموصول هنا للإشارة إلى أن الهجرة وحدها عمل زائد على الإيمان يستحق وحده الثواب لأنه ترك للمال والأهل، وطلب للعزة وإعزاز الدين، بدل البقاء فى الذلة والرضا بحياة المستضعفين وقد أمر الله بالهجرة عند الاستضعاف، ونهى عن البقاء تحت نير غير المسلمين؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩) وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٠)﴾ [النساء].

وثالثها - الجهاد فى سبيل الله تعالى، وهو باب الجنة، وهو رهبانية هذه الأمة، فإن النبى ﷺ يقول: «**رهبانية هذه الأمة فى الجهاد فى سبيل الله عز وجل**»[1].

ولقد بين سبحانه جزاءهم فقال: ﴿أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ أى إن أولئك المتصفين بهذه الصفات ليس من شأنهم أن يخافوا العذاب لخطأ غير مقصود فى الجهاد، بل إنهم يرجون الرحمة والثواب، ومن رجا طلب، ومن خاف هرب، فلا

(١) رواه أحمد (١٣٣٠٦) فى مسنده.

تخافوا فى الجهاد إلا الله، ومن أخطأ فله أجر، ثم ذيل سبحانه الجملة الكريمة بقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لبيان أنه سبحانه يقبل التوبة عن عباده فيقبل إسلام الكافرين والإسلام يجب ما قبله، وكما قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ... ﴿٣٨﴾﴾ [الأنفال] ويقبل توبة العاصى ويدنيه، وإن غفران الذنوب تشجيع على الطاعات وهجر المنكرات، وعند اليأس تموت النفس ولا يقدع الهوى، وإن ذلك كله برحمة الله تعالى لعباده آحادا وجماعات، فمن مصلحة الآحاد أن يهجروا المعاصى ويكونوا عاملين فى بناء الفضيلة، ومن مصلحة الجماعة تكثير العاملين على الخير وإقامة الحق والعدل، والله من ورائهم محيط.

۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ
وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ
أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ
كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾
فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ
خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ
ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾

أسئلة ثلاثة وإجابتها، وكلها يتصل بإصلاح المجتمع، وتقوية بنيانه، وكل واحد منها يتجه إلى ناحية إصلاحية، وكلها يتلاقى نحو مقصد واحد، وهو إقامة بناء المجتمع على دعائم من الفضيلة والمودة والتعاون على الخير، وعدم التعاون على الإثم والعدوان، وقد جاءت هذه المعانى الإصلاحية التى توثق الوحدة، وتقوى الروابط بعد الأمر بالجهاد مع بعض أحكام القتال؛ لأن القتال حماية للدولة من أن

يلتهمها العدو الخارجى، والإصلاح فى هذه المسائل الثلاث يتناول حماية الأمة من أن تأكلها نيران العدو الداخلى، وهو التنابذ، وأن تنظر كل طائفة للأخرى نظر العدو المترصد، لا نظر العضو المتعاون والأخ المتودد، ولأن الوحدة الداخلية والاتحاد المكين عدة القتال، وذخيرة الحرب، فقوة الحرب تستمد من السلم، ولأن مقصد الإسلام الأسمى هو إيجاد جماعة متآخية متحابة على أسس من الفضيلة والخلق الكريم ولكنه ما إن دعا بدعايته، حتى خرج عليه إخوان الشيطان يحاولون أن يبيدوه وأن يقضوا عليه فى مهده، وفتن المسلمون فى دينهم، وعذبوا فى إيمانهم عذابا شديدا فأذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، وساروا على سنة الوجود، وهو أن يدافعوا ذلك العدو المعتدى الذى يريد الفتك بهم، حتى إذا دفعوه وأمنوا شره، أو فلوا قوته، وخضدوا شوكته، اتجهوا إلى إقامة مدينتهم الفاضلة، وإرساء قواعدها وحققوا بهذا القصد الأول، ومكنوا لأنفسهم وأعدوا بالفضائل عدة أقوى لمنازلة الأعداء.

وقد ابتدأ القرآن الكريم فى إصلاح المجتمع الإسلامى بهذه المسائل والإجابة عنها؛ لأنها هى التى تنفى الأذى وتدفع الخطر الاجتماعى، ومن المقرر عند علماء الإسلام أن التخلية مقدمة على التحلية، أى أن نفى الإثم مقدم على جلب النفع، وأن دفع المفسدة مقدم على جلب المنفعة، إذ إنه لا منفعة مع أن الفساد يشيع، والداء يستشرى، والأذى يستمكن، ومثل الجماعة فى علاجها من أدوائها، كمثل الجسم الإنسانى فى علاجه من أمراضه، فإن الطبيب النطاسى[1] لايبادر بتقوية الجسم ويترك الجراثيم تفتك به بل يجتهد أولا وبالذات فى محاربة هذه الجراثيم والقضاء عليها، ثم يقوى الجسم، وإن عمد إلى التقوية فى أثناء العلاج فلتقوى المقاومة، ولتزداد الحصانة، ولتشتد المناعة وغرضه الأول محاربة الآفات، وكذلك الأمر فى إصلاح الأمم: يبتدئ بإماطة الأذى الذى يفتك بها، ثم يثنى بأعمال الإنشاء، التى تقيم البناء.

---

(١) نِطاسِيٌّ: عالم بالأمور حاذق بالطب وغيره. [لسان العرب - نطس].

وإن هذه الأسئلة الثلاثة - هى: السؤال عن الخمر والميسر والسؤال عن مقدار ما ينفق والسؤال عن اليتامى وإصلاحهم.

أما السؤال الأول، فقد جاء فيه قوله تعالى:

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ السؤال عن الخمر والميسر هو بلا شك عن الحل والتحريم لا عن الحقيقة والذات، فإنهم يعرفونهما بلا شك، وكان الأغنياء وذوو المقدرة فيهم منغمسين فيهما، ولذلك كان الجواب مشيرا إلى عدم رضا الشارع عنهما أو مشيرا إلى تحريمهما؛ لأن ما غلبت مضرته على منفعته - كما هو حكم الإسلام - يكون حراما، ولا يكون حلالا، وقد صرح سبحانه وتعالى بذلك، فكان يحق على المؤمن النقى النفس، الذى خلص من أدران الهوى أن يكتفى بذلك ويجتنبهما، وكذلك فعل خواص المؤمنين، والعلية من أصحاب الرسول الأمين كأبى بكر وعمر وغيرهما من السابقين المقربين. ولقد كان عمر رضى الله عنه يحس بأن شرب الخمر لا يسوغ فى الإسلام؛ ولذا كان يدعو الله قائلا: اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا، خصوصا بعد أن نزلت الآيات التى تشير إلى التحريم، ولا تصرح به.

ولماذا كان السؤال عن الخمر والميسر، وممن كان السؤال؟ إن السؤال بلا ريب من المؤمنين، ولم يكن من غيرهم؛ لأنهم رأوا الخمر تذهب الرشد، وتضعف العقل، وتجعل المرء يقع فيما لا يحسن، حتى أنه ليروى أن حمزة بن عبد المطلب شرب الخمر، فعقر ناقة لعلى بن أبى طالب قد أعدها ليحتطب عليها، ويجمع بذلك مهر فاطمة الزهراء، فشكا إلى النبى ﷺ عمه، ولما خاطبه النبى ﷺ كان سكران، فقال للرسول الكريم: ما أنتم إلا عبيد أبى[1]! فما كان المؤمنون الأولون وقد أرهف الإيمان قلوبهم وزكت أرواحهم، وطهرت نفوسهم ليرضوا عن الخمر، وإن لم يصرح القرآن بالتحريم، ولذلك كثر سؤالهم عنها، ليكون القطع فى أمرها.

(١) متفق عليه؛ رواه بنحو من ذلك البخارى: كتاب المساقاة - بيع الحطب والكلأ (٢٢٠٢)، ومسلم: الأشربة - تحريم الخمر (٣٦٦٠) عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه.

ولقد نزل فى الخمر أربع آيات من القرآن الكريم:

أولها: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [النحل].

والثانية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾.

والثالثة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ ... ﴿٤٣﴾﴾ [النساء].

والرابعة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [المائدة].

ولقد اتفق العلماء على أن الآية الأولى أول ما نزل فى القرآن خاصا بالخمر، مشيرا إليها، لأنها نزلت بمكة، إذ إنها من سورة النحل وهى مكية. وقد اتفقوا أيضا على أن آية المائدة وهى الرابعة آخر آية نزلت فى الخمر، لأنها القاطعة فى التحريم؛ ولذا قال عمر عندما سمع قوله تعالى فى آية المائدة: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة]: انتهينا، وشفى ذلك ما فى نفس الفاروق من الخمر. والأكثرون على أن قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ﴾ سبقت فى النزول آية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ ... ﴿٤٣﴾﴾ [النساء] ولكن يميل بعض المتأخرين(١) إلى أن آية ﴿لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى﴾ مقدمة على آية ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ﴾ لأن هذه فيها إشارة إلى التحريم المطلق لأنه من المقررات الشرعية أنه إذا كان الضرر أكبر من النفع، فإن الحكم هو التحريم، وكذلك كل المحرمات ضررها أكبر من نفعها، ولا يكاد يوجد أمر يكون ضارا ضررا محضا، إذ إنه ما من ضار إلا فيه نفع، وما من شر إلا كان فيه بعض الخير، وما من نفع إلا تأشب به بعض الضرر، والعبرة فى التحريم بالغالب فإن غلب النفع كانت الإباحة، وإن غلب الضرر كان التحريم، فإذا كانت آية ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ﴾ قد صرحت بعلة التحريم فقد أومأت إلى التحريم المطلق، أما آية ﴿لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى﴾ فهى لم تصرح بالتحريم المطلق،

(١) قال الشيخ رحمه الله: ذكر ذلك الأستاذ الشيخ محمد عبده والسيد رشيد رضا رضى الله عنهما.

بل أومأت إلى التحريم المؤقت أو المعلل بكونه لأجل الصلاة، وإذا كان الترتيب فى النزول لأجل التدرج فى المنع، فالمنطق يوجب أن يكون ما فيه إشارة إلى التحريم المطلق مؤخرا عما فيه إشارة إلى التحريم المؤقت، والمعلل بكونه لأجل الصلاة.

وقبل أن نترك الكلام فى آيات الخمر عامة إلى الكلام فى هذه الآية الخاصة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ﴾ لابد أن نشير إلى معنى خاص بالآية الأولى وهو قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ... ﴿٦٧﴾﴾ [النحل]، فقد فهم بعض الناس أنها تبيح الخمر، ومن المقررات العلمية فى الإسلام أن ما أباحه الله لا يرد نص صريح بإباحته بل يكون متروكا لا نص فيه بالإباحة ولا بالمنع، ولذا يقول علماء الأصول أنه لا يكون مباحا، بل يكون فى مرتبة العفو لأن ما فيه من أسباب التحريم قائم، ولكن لا نص يمنع، فيكون محل عفو الله، إذ لا عقوبة من غير نص، فكيف تكون هذه الآية مشيرة بالإباحة؟ والجواب عن ذلك أن ذا الفهم المستقيم لا يأخذ من الآية الأولى دلالة على الإباحة لا بالإشارة ولا بالعبارة، بل إنها تدل على التحريم بالإشارة، وإن لم تكن قريبة كالإشارة فى قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ ووجه الإشارة إلى التحريم فى تلك الآية أن الله سبحانه وتعالى يمن عليهم بنعمه وذكرها لهم، فذكر أنه سبحانه وتعالى رزقهم ثمرات النخيل والأعناب فاتخذوا منه سكرا، ورزقا حسنا، أى أنهم أخذوا منه نوعين متقابلين: أحدهما مسكر والآخر شراب حسن وطعام جيد سماه رزقا حسنا، فتسميته أحد النوعين بأنه رزق حسن معنى ذلك أن مقابله ليس رزقا حسنا، بل هو استعمال سيىء لما أنعم الله به، وفى ذلك بلا ريب إشارة إلى أنه مبغض غير مستحسن، ولايقر من يتخذه كذلك على ما يفعل، فليس فى هذه الآية إذن إشارة إلى الإباحة بل فيها إشارة إلى التحريم أو تصريح بعدم الاستحسان أو ما هو فى حكم التصريح من حيث الدلالة اللغوية.

وبعد ذلك نتكلم عن حقيقة الخمر عند الفقهاء، ثم نتكلم عما فيها من إثم، ومافيها من نفع، ووجه الكبر فى إثمها والقلة فى نفعها، وقبل أن نخوض فى كلام الفقهاء نذكر الاشتقاق اللغوى لكلمة الخمر:

أصل كلمة خمر تستعمل بمعنى الستر، وبمعنى الترك، وبمعنى الاختلاط فيقال خمر بمعنى ستر، ومنه خمار المرأة لأنه يستر وجهها، ومنه: خمروا آنيتكم أى غطوها، ويقال للشجر الملتف (خمرا) لأنه يستر بعضه بعضا ومنه قول القائل: دخل فى غمار الناس وخمارهم، أى اختفى فيهم وستر بهم.

ومن استعمالها بمعنى الترك قولهم: اختمر العجين، أى ترك حتى بلغ إدراكه، وقولهم خمر الرأى واختمر أى تركت حتى تبين وجه الحق فيه ومن استعمالها بمعنى المخالطة أن يقول القائل: ما خامرنى شك، أى خالطنى شك.

والخمر التى تسكر فيها المعانى الثلاثة، فهى تستر العقل، وهى لا تكون كذلك مسكرة إلا إذا تركت مدة طالت أو قصرت حتى تتكون منها المادة المسكرة، وهى تجعل الشارب لها يختلط عقله، ويغلب صوابه، فلا يعرف الحق من الباطل، واللائق من غير اللائق، والضار من النافع.

وقد اختلف الفقهاء فى مدلول كلمة خمر التى نص عليها القرآن بالتحريم مع أن كل مادة من شأنها الإسكار تكون حراما، إنما موضع الخلاف فى الأمر الذى حرم بنص الآية أيشمل المسكرات كلها، فيدخل فى عموم التحريم بالنص كل الأنبذة وكل المواد التى من شأنها أن تسكر، وإن لم يسكر المتناول فعلا سواء أكانت تلك المواد من عصير العنب أم كانت من غيره . . أم أن النص الوارد بالتحريم فى الخمر هو فيما كان من عصير العنب، وغيره من المحرمات ثبت تحريمه بالقياس عليه لتحقق علة التحريم فيه، ولعموم النص فى الحديث «**كل مسكر حرام**»؟[1].

قال الجمهور الأول، وهو أن كلمة خمر تشمل كل مسكر، وحجتهم فى قولهم أصل الاشتقاق لأن كل مسكر يتلاقى مع أصل الاشتقاق فى الكلمة، لأنه يستر العقل، ويجعل الشارب مختلط الفكر مضطرب النظر لا يعرف الحق من الباطل، وقد تبين من قبل أصل الاشتقاق. وقد روى الترمذى أن رسول الله ﷺ

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى: كتاب المغازى - بعث أبى معاذ إلى اليمن (٣٩٩٧)، ومسلم: الأشربة - بيان أن كل مسكر خمر وكل خمر حرام (٣٨٢٩).

قال: «**كل مسكر خمر**» فكان هذا تبيينا من النبى ﷺ لمعنى كلمة خمر، والنبى ﷺ هو المبين الأول للقرآن الكريم، فلا تفسير وراء تفسيره ﷺ، ولقد روى أن الرسول ﷺ قال: «**إن من العنب خمرا وإن من التمر خمرا، وإن من العسل خمرا وإن من البر خمرا، وإن من الشعير خمرا**»(١) فلم يقتصر النبى ﷺ فى تفسيره على عصير العنب، بل شمل أكثر المواد التى كان يتخذ العرب منها خمورهم.

ولقد فهم الصحابة، وهم من العرب الذين أوتوا علم هذه اللغة، تحريم كل مسكر عندما نزل قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ** ... ﴿٩٠﴾﴾ [**المائدة**]؛ ولذلك أراقوا كل الأنبذة التى كانوا يتناولونها، وليس فيها شىء من عصير العنب. ولقد روى البخارى عن أنس رضى الله عنه أنه قال: «حرمت علينا الخمر حين حرمت وما نجد خمرا من الأعناب إلا قليلا وعامة خمرنا البسر والتمر»(٢).

هذا تفسير الجمهور لكلمة خمر الواردة فى القرآن الكريم، ولقد خالف أبو حنيفة وأصحابه الجمهور فى تفسير كلمة خمر التى ورد بها النص القرآنى، فقالوا: إنها النيئ من ماء العنب إذا غلا واشتد وقذف بالزبد، وما عدا ذلك لا يسمى خمرا، وإن كان مسكرا محرما. وترى أنهم لا يعدون حتى كل عصير العنب من الخمر، فلا يدخل فى كلمة الخمر المطبوخ من ماء العنب، إنما كلمة خمر مقصورة على النيئ منه غير المطبوخ، ويستدلون لقولهم هذا بأن النبى ﷺ أتى بنشوان فقال: «**أشربت خمرا؟**» فقال: ما شربتها منذ حرمها الله ورسوله. قال: «**فماذا شربت**»؟ قال: الخليطين. فحرم الرسول ﷺ الخليطين»(٣). فنفى الشارب اسم الخمر عن

---

(١) رواه أبو داود: كتاب الأشربة (٣١٩١)، وبنحوه الترمذى (١٧٩٥)، وابن ماجه (٣٣٧٠)، وأحمد (١٧٦٢٧) عن النعمان بن بشير رضى الله عنه.

(٢) رواه البخارى: كتاب الأشربة (٥١٥٢).

(٣) قال المصنف رحمه الله تعالى: راجع كتاب أحكام القرآن للجصاص. والخليطان من نبيذ الرطب والتمر، أو العنب والزبيب، أو الزبيب والتمر. وأنا لا أرى فى ذلك حجة؛ لأن الرجل كان نشوان فيحاول التخلص، كما ادعى بعض الشاربين أن قوله تعالى: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾ [المائدة ٩٣] يدل على الحل، وما كان النبى ﷺ ليجادل نشوان ويصحح له اللغة، بل جاء من أقرب طريق وهو أن هذا حرام أيضا. انتهى كلامه رحمه الله.

الخليطين بحضرة النبى ﷺ، فلم ينكره عليه، ولو كان ذلك يسمى خمرا من جهة لغة أو شرع لما أقره ﷺ.

وقد روى أن النبى ﷺ قال فى حجة الوداع، وقد سئل عن الأشربة: «**حرام الخمر بعينها والمسكر من كل شراب**».

ومهما يكن من الاختلاف فى تفسير كلمة خمر، فقد اتفق الفقهاء على أن كل مادة من شأنها الإسكار تكون حراما وتأخذ حكم الخمر تماما، وإنما موضع الخلاف هو فى أن كل المسكرات داخلة فى النهى بنص الآية أم داخلة بالقياس وبالحديث؟ قال الجمهور الأول، وقال الحنفية الثانى.

وإن الأحاديث الصحيحة تثبت أن علة تحريم الخمر إسكارها أو تخديرها على حد تعبير العلماء اليوم، فقد ورد أن النبى ﷺ قال: «**كل مسكر خمر وكل مسكر حرام**»(١)، وإذا توافرت هذه العلة فى شراب كان حراما قليله وكثيره؛ لأنه يكون حرام التناول فى الكثير لذاته، وفى القليل لسد الذريعة، ولأنه إذا كان مسكرا فإنه لا يكون عند الأكثرين طاهرا، ولأنه إذا كان مسكرا فى ذاته فإن قليله مهما قل يكون مخدرا.

وفى الحقيقة أن المسكر حرام، لا لأنه مسكر فقط، بل لأنه يميت الضمير، أو يخفت صوت الوجدان الخلقى، ويضعف صوت النفس اللوامة، وإن ذلك يحدث فى القليل والكثير، ويحدث لكل الناس، حتى أولئك الذين لا تظهر عليهم أمارات السكر من اضطراب القول واختلاط مظاهر التفكير. وتعجبنى كلمة فى هذا قالها الفيلسوف تولستوى فقد قال فى كتابه الآفات الاجتماعية: (إن النبى محمدا ﷺ حرم الخمر لأنها تميت الوجدان أو تضعفه). والخمر كذلك حقيقة، لأن الرجل يؤنبه ضميره على فعل، فلا يتناول الكأس حتى يزول تأنيب الضمير، والرجل يهم أن يقدم على الشر فيستيقظ وجدانه، ويقف حائلا بينه وبين فعله، فلا يلبث أن يتناول الكأس أو بعضه حتى تزول محاجزات الضمير، ويندفع فى الشر اندفاعا لا يقف فى

---

(١) رواه مسلم: كتاب الأشربة (٣٧٣٤)، والترمذى (١٧٨٤)، والنسائى (٥٤٩١)، وأبو داود (٣١٩٤)، وأحمد (٤٤١٦).

سبيله واعظ من ضمير، أو زاجر من نفس لائمة، ويستوى فى ذلك قليل الخمر وكثيره، كما يستوى فى ذلك من لا يسكر ومن يسكر من الشرب.

بعد هذا نشير فى إلمامة موجزة إلى معنى قوله تعالى: ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ ولنبتدئ الآن ببيان إثم الخمر ثم نعقب على ذلك ببيان إثم الميسر.

الإثم فى أصل معناه: اسم لكل فعل معوق مبطئ لا يوصل إلى الأغراض والنتائج، ثم أطلق فى لغة القرآن على أفعال الشر؛ لأن الشر يعوق الإنسان عن الوصول إلى الغاية الإنسانية الكاملة، ويبطىء عن الوصول إلى الثواب فى الآخرة. وقد تطلق كلمة إثم فى لغة القرآن الكريم ويراد منه العذاب والعقاب ومن ذلك قوله تعالى: ﴿... وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾ [الفرقان].

والمراد من الإثم فى الآية الكريمة ما يقابل النفع وهو الضرر. وفى الحقيقة أن الخمر فيها ضرر لا شك فى ذلك، وضررها أكبر من نفعها بلا ريب، وحسبها ضررا أمران لا شك فى وجودهما، ولاريب فى أنهما يترتبان عليها:

أولهما - إضعاف صوت الضمير، ولا شىء يضر فى الاجتماع أكثر من صوت الضمير أو إضعافه؛ لأن الخلق الاجتماعى الذى يترتب عليه الإلف، والائتلاف بين الناس أساسه الحياء، والإحساس بسلطان الجماعة لائمة ومهذبة، وتبادل الشعور بينه وبين غيره، ثم النفس اللوامة، وإن الكأس تذهب بكل هذا: تذهب بالحياء والحياء خير كله، وإذا لم تستح فاصنع ما شئت، ويندفع الشخص فى مخالفة الجماعة غير هياب ولا وجل، وكثيرا ما يكون القصد الأول من الشرب خرق حجاب الحياء، لينطلق بالقول والفعل بما لا يليق.

وإن ذلك الأمر يعم كل شارب، سواء أكان ممن تقرب سكرتهم، أم كان ممن تبعد، وسواء أكان المقدار قليلا، أم كان كثيرا، فلا يكاد يكون شارب بعد شربه فى حيائه الذى كان عليه من قبل، وفى قوة وجدانه وضميره التى كانت له قبل أن يتناول ذلك السم الخلقى الذى يفتك بالأخلاق والفضيلة؛ ولذلك سميت الخمر بحق

أم الخبائث؛ لأنهـا بعد تناولها تسهل كل خـبيثة كانت مـستعصية لا تـقبلها النفس ويعافها الشارب.

ثانى الأمرين اللذين يترتبان على الشرب بلا مراء: ذهاب الرشد، أو إضعاف الإدراك ووزن الأمور وزنا صحيا، وإنـا والله لنعجب لأولئك الذين يرضون الضلال بدل الرشد، والغـفلة بدل الصحو، وقد كـان فى الجاهلية رجال عـافوا ذلك، ولم يرتضوه لأنـفسهم، وقـد قيل للعـباس بن مـرداس، وكان لا يشـرب: (ألا تشرب الخمـر، فإنهـا تزيد فى حرارتك؟) فقـال: (ما أنا آخـذ جهلى بيـدى، فأدخله فى جوفى، ولا أرضى بأن أصبح سيد القوم وأمسى سفيههم).

ولكن الفوضى الخلقية التى صار عليهـا الناس اليوم جعلتهم يغفلون عن هذه الحقائق المقررة الظاهرة، ولايلـتفتون إليها، بل لقد ذهب بعـضهم إلى المغالاة فزعم أنها ضرورية للمدنية اليوم، فإن الآلام النفسـية قد اشتدت، والمحن قد كثرت، ولا دواء لهذا الداء إلا الخمر، فهى اليوم دواء لاداء، وإنـها علاج المجتمع! ذلك قولهم بأفواههم، وذلك تفكيرهم فى أهوائهم.

ونحن نقول: إنها تناسب مـدنيتهم، وهى خاصة من خواصهـا؛ لأنها مدنية اتسمت بالرذيلة، وصارت شعـارها، فكان من المناسب أن تكون الخمر دواءها؛ لأن الدواء يكون من جنس الداء، وأم الخبائث هى التى ترأم الخبائث، وتكنفها وتحوطها وترعاها، فلا عجب إذا رأينا التـفكير المعكوس هو الذى يدافع عن الخمر، ولابد أن قائله قاله ورائحتها تنبعث من فيه!.

من ذا الذى يقول إن تفـاقم الرذائل داعٍ للانغمار فـيها؟ إنه كلما تفـاقم الشر وجب جمع العزائم لمحـاربته، وإن المحن النفسية إذا اشتـدت وجب تقوية الوجدان الخلقى، والضمير الخلقى، وتربية الناس على ضـبط النفس والصبر الجميل، وإيقاظ النزوع الدينى، والعزاء الروحى، أمـا إذا تألمت النفس وقوى الضميـر، واشتد اللوم النفسى فأخذ المتألم الكأس ليخفى الألـم وليضعف صوت الضمير، فإنه كالجندى يفر من مواطن الجهاد، وميدان العمل إلى أن يكون فى موضع الهمل، فهل يرضى كريم

لإنسانيته بتلك المنزلة الهون فيميت آدميته ويقتل خلقه، ويذهب بمروءته ورشده، ويكون ملهى الصبيان، يتلعب بكرامته الغلمان، أو على الأقل يعمل على أن يفسد تقديره ووزنه للأمور؛ لأن معرفتها على حقيقتها تؤلمه! وهل يذهب بأسباب المحن غفلته عنها وابتعاده عن الإحساس بها!! كلا إنه يتردى بالخمر من محنة إلى محنة فغفلته عن المحنة، بالخمر تدفعه إلى ثانية ثم إلى ثالثة، وهكذا تتوالى عليه المحن بها، حتى يضيع نفسه، وأهله، وأولاده، وأصحابه ولا يبقى معه إلا إخوان الشر، ودعاة الفساد!

هذه إشارة إلى مضار الخمر المعنوية والاجتماعية، **أما مضارها الجسمية،** فيكاد العلم الحديث يثبت أنه لاشىء يدخل الجسم أضر عليه من الخمر، فهى تأكل الكبد وتضخمه، وتفسد الكلية، وتضعف أنسجة الجسم وتنهك الأعضاء الداخلية العاملة، وتفقد الشهية للطعام، وتفسد المعدة وتحدث تصلبا فى الشرايين وتمددا فيها، وأحيانا يموت السكير فجأة لهذا الداء، والخمر تضعف الحنجرة، وشعب التنفس، وتكثر السعال.

وقد أثبت التحليل الطبى أن الجسم لا يستفيد منها أية فائدة، فإنها وإن كانت فيها مواد غذائية، يذهب السم الذى صاحبها بفائدتها فهى فى جملتها عقاقير سامة، وما يحدث من نشاط فى الجسم ونشوة عند شربها سببه أنها مواد غريبة على المزاج الجسمى، فعناصر الجسم تقاومها وتدافعها وبهذه المقاومة والمدافعة يتولد الإحساس بالنشاط، وإذا كانت الخمر فى أحيان قليلة تقى من بعض الأمراض التى لا خطر منها، فالضرر الناشىء عنها أشد من الأضرار الناشئة عما تدفعه!.

وقد يقول قائل: إنها تتخذ دواء أحيانا؛ ولذلك يتساهل بعضهم فى ذلك، ولكن وجدنا طبيبا إنجليزيا يصرح فى قوة قائلا: (أنا لا أعلم مرضا قط شفى من الخمر)! ويقول آخر أسكتلندى: (الخمر لا تشفى شيئا) ويقول ثالث: (إن الخمر تدخل الجسم وتخرج منه ولا أثر لها إلا ما تحدثه من أضرار)[1]. وهكذا تتوارد

---

(١) قال المصنف رحمه الله: هذه النقول من كتاب جواهر القرآن للمرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى.

أقوال الأطباء فى أنها لا تصلح شفاء وإن كانت تقى فى حالات قليلة من بعض أمراض لا خطر فيها، وبهذا يصح الأثر عن السلف: «لا دواء فى محرم»، ولقد روى مسلم أن طارق بن سويد سأل النبى ﷺ عن الخمر فنهاه، أو كره أن يصنعها، فقال: إنى أصنعها للدواء، فقال الرسول ﷺ: «**أنه ليس بدواء ولكنه داء**»(١) فما أصدق الرسول ﷺ، ولكنه المبلغ عن ربه، وكفى ذلك تصديقا.

وليست أضرار الخمر الجسمية والعقلية مقصورة على المتناول، بل إنها تنتقل إلى ذريته من بعده، إذ يكون النسل ضعيفا ضاويا، فى جسمه وعقله، حتى يكون أقرب إلى الجنون، وأشد استعدادا له، فإن تناولها يجعل السكير ضعيف العقل، إذ تضعف قواه العقلية شيئا فشيئا حتى يصير كالأبله، وينتقل ذلك إلى ورثته. ولقد قال بنتام فى كتاب «أصول الشرائع» ما نصه: (النبيذ فى الأقاليم الشمالية يجعل الإنسان كالأبله، وفى الأقاليم الجنوبية يصير كالمجنون، وقد حرمت ديانة محمد ﷺ جميع المشروبات، وهذه من محاسنها)(٢).

ولقد علم الأوربيون مضار الخمر علما يقينا، ووجدوا أن الإكثار منها بين أمم أفريقيا والشرق قد يبيدها، أو يفسد العناصر الصالحة فيها؛ ولذا جاء فى كتاب «الإسلام خواطر وسوانح» فى عجز المدنية الأوربية عن إبادة المسلمين: (إن المسكرات التى استعملها بعض الفاتحين لا تؤثر فى أهالى الجزائر لكونهم يمقتونها مقتا شديدا)(٣).

ولكن المسلمين قد أصبح قادة الفكر فيهم لا يمقتونها اليوم، فهل فتحت أبواب الفناء، وزالت حواجز البقاء؟ اللهم أصلح الأحوال، وقوِّ العزائم، وهيئ لنا من أمرنا رشدا!.

هذه بعض آثار الخمر، فما منافعها؟ والله العلى القدير لولا أن القرآن الكريم ذكر أن فيها منافع للناس ما ظننت أن فيها نفعا ولو بطريق الشبهة، ولكن هكذا قال

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأشربة (٣٦٧٠)، والترمذى: الطب (١٩٦٩)، وأبو داود (٣٣٥٧)، وأحمد: مسند الكوفيين (١٨٠٣٦).

(٢، ٣) ترجمة فتحى زغلول باشا.

القرآن، وليس لنا إلا الإيمان. ولقد ذكر بعض العلماء منافع ظاهرية لها، منها أنها وقاية أحيانا من بعض جراثيم الأمراض بما فيها من كحول، ومنها أنها قد تثير النخوة، ومنها أنها تسلى، ومنها أنها تسخى البخيل أحيانا، وأن ما يكنف هذه الأمور التى يكون ظاهرها نفعا من أضرار يجعل النفع لا جدوى فيه، بل يكون الضرر فى هذه الأحوال نفسها أكثر من النفع.

هذه الخمر، **أما الميسر، فهو قمار العرب**، ويطلق على كل قمار اسم الميسر، فكل ما يتخاطر فيه الناس من معاملة فيها خطر الكسب المطلق أو الخسارة المطلقة يعد ميسرا أو قمارا، وأصل اشتقاق كلمة ميسر إما من الميسر بمعنى السهولة؛ لأن المال يجىء للكاسب عفوا من غير جهد، وإما من يسر بمعنى وجب؛ لأن اللاعب إذا آل إليه الكسب يصير واجبا، وإما من يسر بمعنى جزأ، وقد اختار ذلك الأزهرى، فقال: «الميسر: الجزور الذى كانوا يتقامرون عليه، سمى ميسرا، لأنه يجزأ، فكأنه موضع التجزئة، وكل شىء جزأته فقد يسرته، والياسر الجزار، لأنه يجزىء لحم الجزور .. وهذا الأصل فى الياسر، ثم قيل للضاربين بالقداح والمتقامرين على الجزور ياسرون؛ لأنهم جازرون إذ كانوا سببا لذلك».

هذا هو الأصل فى استعمال كلمة ميسر، وقد أطلقت على كل قمار، وقمار العرب الذى أطلقوا عليه كلمة ميسر هو أنهم كانوا يقسمون البعير المذبوح إلى ثمانية وعشرين قسما، ويوضع عشرة أقداح، ثلاثة منها غفل لا علامة عليها تسمى: السفيح، والمنيح، والوغد، ومن طلع له واحد منها لا يأخذ شيئا، وقد تزاد الغفل على هذا العدد، أما السبعة الأخرى فهى الكاسبة وهى: الفذ وله سهم واحد، والتوأم وله سهمان، والرقيب وله ثلاثة، والحلس وله أربعة، والنافس وله خمسة، والمسل وله ستة، والمعلى وله سبعة، والمجموع ثمانية وعشرون.

ولا شك أن هذا من قبيل ما نسميه اليوم (ورق اليانصيب)، وقد كانت عادة العرب أن يفعلوا ذلك عند اشتداد الضائقة ليتبرعوا بنتائج الكسب على الفقراء، وما أشد الشبه بين هذا وبين عمل الجماعات التى تجمع التبرعات بهذه الطريقة!.

ولقد جاءت النصوص الصريحة بتحريم كل قمار، وقد ورد أن رجلا قال: إن أكلت كذا وكذا بيضة فلك كذا، فارتفعا إلى عَلىّ فقال: ذلك قمار!.

والميسر مضاره كثيـرة، فهو يؤدى إلى إتلاف المال وإهمال الأعمال، وهو أكل لمال الناس بالباطل، ويفسـد الأخلاق، وقد يترتب عليه خراب البـيوت، وهو فوق ذلك يصد عن ذكـر الله وعن الصلاة ويورث العداوة والبغـضاء، كما قـال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١)﴾ [المائدة].

ومنافع الميسر ضئيلة أيضا بجوار مضـاره، ومنها إعطاء الفقراء، كما يرى فيما تصنع جماعات الإحسان، وأن الحكومات التى تعنى بتربية شعوبها وتهذيب نفوسهم تحارب انتشار القمار، وتقطع السبل المؤدية إليه، ولو كانت تبيحه فى النوادى الخاصة فبعض الأمم الأوربية يحرم قانونها بيع أوراق اليانصيب، ولو كانت للبر؛ لأنها تربى فى الشعب روح المقامـرة، مع أن هذه الأمم تبيح فتح النوادى للقـمار، فهى لا تمنع فتـحها للحـرية الشخصـية فى زعـمها، ولكنهـا تمنع ما يبعث فى الـشعـب روح المقامرة.

ويلاحظ فى الكلمات السـامية: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ أنه أطلق الإثم ولم يضفه فلم يقل إثم على الناس أو للناس، وقـيد المنافع بأنها للناس، وهذا يدل على أن الإثم فى الخمـر والميسر ذاتى، فـهما فى ذاتهـما رجس كبـير، وخطر وبيل، وأن ما فيهـما من منافع فهى ضئيلة وهى بالنسبـة لبعض الناس، فهى منافع إضافية، لا منافع ذاتيـة، فجوهر الخمر والميسر شر لا خيـر فيه، وما يكون من نفع فيـهما فى بعض الملابسـات، كما يلاحظ فى بيع الأوراق لتـمويل بعض جمـاعات البر، فليس ذلك لأن فى الميـسر خيرا أو نفـعا، بل لأن النفوس فسـدت، وشحت بالخير، فـلا تجود إلا من هذا الطريق الفاسـد، فما فيـه من نفع إضافى سببـه فساد الناس، وهو نفع ضئيل للناس ومشتق من أحوالهم.

وأما السؤال الثانى فقد جاء فى قوله تعالى:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾، ومناسبته للسؤال الأول أنهم كانوا يتخذون من الخمر والميسر طريقا لتسخية نفوس الأشحة على الخير الذين لا يجودون من تلقاء أنفسهم، فكان السؤال عن الإنفاق على البر، عقب السؤال عن الأمر الآثم الذى كانوا يحسبونه برا وهو إثم لا بر فيه. وفى الإجابة عن هذا السؤال بيان طريق العطاء المنظم المعلوم الخالى من الإثم، بدل العطاء المجهول غير المنتظم للتأشب بالإثم الذى أحاط به. والعفو معناه: السهل، أو الزائد فإن كلمة عفو لها ثلاثة إطلاقات أولها الترك، كما قال تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ... ﴿٩٥﴾﴾ [**المائدة**] أى تركه وتجاوز عنه، وبمعنى السهل، كما قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [**الأعراف**]. وبمعنى الزيادة. والمعنى هنا السهل الزائد عن الحاجة. سألوا عما ينفقون من مال فى البر، فقال لنبيه ﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾ أى السهل الزائد عن حاجتكم الأصلية الذى لا يشق عليكم بذله، إن استقامت النفوس، وامتلأت القلوب بالإيمان، وعمرت بالرحمة وأجابت نداء الرحمن. والعفو يشمل الزكاة المفروضة؛ لأنها ليست إلا فضلا قليلا من المال، كما يشمل صدقة التطوع، وكما يشمل الصدقات التى يتعين أداؤها إذا كان شخص فى مخمصة ولا يدفع غائلة الجوع إلا شخص واحد يعرفه، ولا يعرفه سواه، فإنه يتعين عليه الأداء، وأنه فى وقت الحاجات يفيض الغنى على الفقير بكل مايسد حاجته. ولقد روى عن أبى سعيد الخدرى أنه قال: بينما نحن فى سفر مع رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل على راحلة فجعل يصرف بصره يمينا وشمالا، فقال رسول الله ﷺ: «**من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان معه فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له**» فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا فى فضل[1].

(١) رواه مسلم: كتاب اللقطة (٣٢٥٨) واللفظ له، وأبو داود: الزكاة (١٤١٦)، وأحمد: باقى المكثرين (١٩٨٦٣).

وإن الآية كما تدل على ذلك توجب على المتصدق أن يبقى لنفسه ولعياله ما يكفيهم؛ ولذا قال ﷺ: «**خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى**»(١) وروى أن رجلا أتى النبى ﷺ ببيضة من ذهب أصابها فى بعض المغانم فقال: خذها منى صدقة فأعرض عنه حتى كرر عليه مرارا... فردها الرسول ﷺ وقال: «**يأتى أحدكم بماله كله يتصدق به ويجلس ويتكفف الناس، إنما الصدقة عن ظهر غنى**»(٢).

وقد ختم الله سبحانه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿**كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**﴾ أى يبين سبحانه وتعالى فى كل الأحوال بيانا كهذا الذى ذكره فى الإنفاق وفى الخمر والميسر لكى تتفكروا وتتدبروا فى مصالحكم فى الدنيا والآخرة، فتسيروا على الطريق المستقيم فى الدنيا، وتتكون منكم الجماعة الفاضلة المتعاونة المتآزرة، ويحسن جزاؤكم فى الآخرة، وتحظوا برضوان الله، وذلك هو الفوز العظيم. و «لعل» للرجاء، وهو من الله سبحانه وتعالى فى معنى التعليل، لأنه لا رجاء من الله، إنما الرجاء من العبيد فهذا التمثيل والتصريف فى آيات الله البينات ليرجوا التفكر والتدبر، ويسيروا فيه ليصلوا إلى الغاية الصالحة.

وأما السؤال الثالث فقد جاء فيه قوله تعالى:

﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾. والإجابة فيه وأساسها أيضا إماطة الأذى عن الجماعة الإسلامية، فإنه إذا كان الإنفاق على الفقراء يحمى المجتمع من الفقر وأهواله وغوائله، فحماية اليتامى وكلاءتهم تحمى المجتمع من أن يكون منهم شريرون يبغضون المجتمع، ويجلبون له الويلات وهم فى كنف المجتمع ورعايته. لقد سألوا عن اليتامى أيضمونهم إليهم ويأكلون معهم أم يدعونهم وأموالهم، وكيف يرعونها، وكيف يقومون عليها؟ سألوا هذه الأسئلة ومايشبهها، وقد قرأوا قوله تعالى: ﴿**فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ** ﴿٩﴾﴾ [**الضحى**] وقوله تعالى: ﴿**وَلا**

---

(١) رواه البخارى: كتاب الزكاة (١٣٣٧)، والنسائى (٢٤٩٧)، وأبو داود (١٤٢٧)، وأحمد (٦٨٨٥)، والدارمى (١٥٩٢).

(٢) رواه أبو داود: الزكاة (١٤٢٥)، ورواه الدارمى: الزكاة (١٦٠٠) بنحوه.

تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ... ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الأنعام] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ [النساء] فكانوا من أمرهم فى حيرة: إن قاربوهم وأموالهم يخشون على أنفسهم أن ينالوا إثما، وإن تركوهم ضاعوا وهم فى كفالة المجتمع كله، فأمر الله نبيه أن يقول لهم أن المطلوب إصلاحهم، فقال سبحانه: ﴿قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ أى أن المطلوب إصلاحهم وإصلاح مالهم، وذكر إصلاحهم؛ لأنه المقصد الأول، ولأن إصلاح مالهم إصلاح لهم، وخير لكم ولهم، وإصلاح حالهم بالتهذيب والتربية والعطف والمحبة، والرأفة، وعدم تكليفهم ما يشق عليهم؛ لأن الغلظة معهم تربى فيهم الجفوة، وتنشأ عنها القسوة، فينشئون وهم يبغضون الناس، ويتربصون بهم الدوائر. وقد أثبت علم النفس الجنائى أن روح الإجرام تنبعث عند النشأة الأولى فى الغلمان الذين يحسون بأن المجتمع يجفوهم، ويغلظ عليهم فيخافونه ويبغضونه، ويترقبون الفرصة السانحة ليستلبوا المال أو الأرواح، أو ما يمكنهم أن يصلوا إليه، فكان لابد من تربية اليتيم بالإصلاح والتهذيب، وألا يقهر نفسه حتى لا يجفو فيكون من وراء ذلك الشر المستطير والخطر الكبير.

وإذا كان المطلوب هو الإصلاح بكل وسائله، وهو الغاية المطلوبة فإن كان الإصلاح بمخالطتهم وضمهم إليهم من غير أن تؤكل أموالهم، فالمخالطة سائغة جائزة؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ أى عند المخالطة استشعروا أنهم إخوانكم فى الدين والإنسانية وأبناء إخوانكم، وعاملوهم بتلك الأخوة الرحيمة الرابطة، ولا تنظروا إليهم شذرًا، وتؤكلوهم نزرا، ؛ لأنهم غرباء عن بيتكم، بل أشعروهم بأنهم دائما فى بيت أهلهم وذويهم، حتى لا تتربى نفوسهم على الجفوة فيبغضوا الناس، ويتربصوا بهم الدوائر، ويكون ذلك فى طبعهم إذا كبروا وبلغوا أشدهم..

ثم قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ وهذا ترغيب فى الإصلاح، وترهيب من الفساد؛ لأنه إذا كان يعلم المؤمن أن الله مطلع على ما يفعل، تجنب الشر، وآثر الخير، فتجنب إهمال اليتيم لكيلا يفسد وعمد إلى تهذيبه لكى يكون عضوا عاملا فى الجماعة يبنى كما يبنى غيره، وتقوم الجماعة على سواعد قوية يشترك الجميع فى إقامتها. ثم إنه إذا علم الله المصلح فسيجزيه خير الجزاء، وما دام يعلم المفسد، فحسابه وعقابه بمقدار فساده.

ثم قال سبحانه ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ﴾. العنت المشقة، وأعنتكم: أوقعكم فى المشقة، وذلك بأن يتركهم تهملون أيتامكم، فيكونون إلبا عليكم فى قابل حياتهم، وشوكة فى جنب الدولة، ويكون منهم قطاع الطريق واللصوص والمنتكهون لحرمات المنازل، ويفتكون بمجتمعكم، وينزلون الأذى بكم ولكن الله سبحانه كان من رحمته أن دعاكم إلى العناية باليتامى ليكونوا عاملين بدل أن يكونوا هادمين، وليكونوا قوة للجماعة بدل أن يكونوا قوة عليها هادمة فى بنائها.

ثم ذيل الله سبحانه الآيات بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ للإشارة إلى ثلاثة أمور:

أولها: أن الله سبحانه عزيز يعز من يشاء ويذل من يشاء فمن أذل يتيما أذله الله، ومن أعزه أعزه الله سبحانه.

وثانيها: أن الله سبحانه وتعالى هو الغالب على كل شىء، فهو الذى سيجزى القوامين على اليتامى بما يفعلون، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

وثالثها: أن هذا التنظيم هو من حكمته ورحمته، فمن رحمته بخلقه أن حثهم على معاونة اليتيم وإصلاحه، والقيام على شئونه، وليكون التراحم بين الناس، وليضعف الشر فيهم، ويكثر الخير والإنتاج، والله سبحانه وتعالى بكل شئ عليم.

وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

ابتدأ الله سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة ببيان الروابط التى توثق العلاقات الفاضلة فى المدينة الإسلامية، التى هى المقصد الأول من هذا الشرع الحكيم؛ فقد تضافرت الأخبار والآثار، وجاءت آيات الله البينات المثبتة أن شرع الله سبحانه وتعالى لخير الناس فى الحال والمآل، وإقامة مدينة فاضلة فى الدنيا، يكون الثواب لمن شاد بنيانها، فى الآخرة، وكل عبادات هذا الدين تتجه نحو هذه الغاية، وتستهدف هذا الهدف؛ ولقد قال سبحانه فى وصف شرعه وكتابه: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴿٥٧﴾ **قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس].

وقد ذكر سبحانه وتعالى فى الآيتين السابقتين بعض الأمور التى تحل عُرى الجماعة، وتوقع بينهم العداوة والبغضاء، وعلاج هذه الأمور، والطب لها بدواء ناجع يشفى من سقامها؛ فذكر مافى الخمر والميسر من مآثم، واكتفى فى هذا الموضع بذلك بياناً للعاقل الرشيد؛ وأشار إلى التنابذ والتدابر إن ضن الغنى بالعطاء، وفقد الفقير الرجاء، فأوجب الإنفاق؛ وأشار إلى المعاول التى تهدم الجماعة الإسلامية، وتقوض أمنها، وتكثر شذابها، وأولئك هم الضعفاء واليتامى ومن لا مأوى لهم، فإن لم يصلحوا وعودهم أخضر، كان منهم الشطار واللصوص والهادمون الذين يأتون بنيان الجماعة من قواعده.

وبعد أن أشار إلى الأذى والوقاية منه، والداء ودفعه، أخذ يبين أسس البناء الاجتماعى الفاضل، وابتدأ من هذه الأسس بالقاعدة التى يشاد عليها البناء، والوحدة التى يتكون منها البنيان، والتى إذا قويت فيها الروابط قوى، وشد بعضه بعضا؛ وتلك القاعدة هى: الأسرة؛ فهى وحدة البناء الاجتماعى، وقاعدة كل بناء فاضل، وفيها تتربى كل المنازع الاجتماعية الفاضلة.

ولقد ابتدأ من أحكام الأسرة ونظمها الإسلامية الفاضلة بالانتقاء فى ركنيها؛ وهما الزوج والقرينة؛ فإنه إن كان الاختيار فيهما حسنا كانت العلاقة موثقة بروابط المودة والرحمة والإخلاص، كما قال تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً...** (٢١)﴾ [الروم].

ولقد ابتدأ ببيان أساس الاختيار وهو التدين، فقال تعالت كلماته:

﴿**وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ**﴾ عندما ابتدأ النبى ﷺ بدعوته، وانبعث فى مكة نور هدايته، كان أكثر المؤمنين، من الضعفاء غير ذوى الجاه والنسب والحسب، والأقلون كانوا كذلك، وكل المعاندين أو جلهم من أوسط قريش نسبا، وقالوا للنبى ﷺ مثل مقالة الكفار الذين سبقوهم لأنبيائهم: ﴿**وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ...** (٢٧)﴾ [هود]. ولما قويت شوكة الإسلام، كثر دخول ذوى الأنساب فيه شيئا فشيئا، وإن كانوا مع ذلك قلة من قريش، وكان أولئك بمقتضى نسبهم الرفيع يرون فى بنى أعمامهم من قريش الكفاءة النسبية فى الزواج، وربما كان فيهم بعض الميل لمصاهرتهم، بل كان من بعضهم فعلا من أبدى رغبة فى المصاهرة؛ فجاء النهى القرآنى عن نكاح المشركات، حتى يؤمن.

والنكاح فى أصل معناه اللغوى: الضم، وتداخل أجزاء الشئ بعضها فى بعض، ثم أطلق على العقد الذى يحل علاقة الرجل بالمرأة، وعلى العلاقة التى تكون بينهما بما يتقاضاه الطبع[(١)]؛ وإطلاقه بمعنى العقد إطلاق معروف قبل

---

(١) قال الشيخ رحمه الله: يختلف فقهاء الحنفية وفقهاء الشافعية فى قضية الحقيقة والمجاز فى كلمة النكاح؛ فيقول الحنفية: هو مجاز فى العقد حقيقة فى الوطء، ويقول الشافعية: هو مجاز فى الوطء حقيقة فى =

الإسلام، وقد أقره الإسـلام بشروط، والدليل على أنه بمعنى العقد كان مـعروفا فى الجـاهلية قـوله ﷺ: «**ولدت من نكاح، ولم أخـرج من سفـاح**»[(١)] أى أنه ﷺ فى سلسلة نسبه الشريف لم تكن ولادة أى جـد من جدوده، أو جدة من جداته إلا من نكاح صـحيـح حتى إسمـاعيل عليـه السـلام؛ وعلى ذلك يكون المراد من قـوله تعالى: ﴿**وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ**﴾ النهى عن العقد عليهن.

والإنكاح: هو التزويج؛ فالنكاح الزواج، والإنكاح مباشـرة العقد، وهو أكثر مايكون عندما يتولى الشـخص الزواج عن الغير؛ فمعنى ﴿**وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ**﴾ لا تتزوجـوهن؛ ومعنى ﴿**وَلا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ**﴾ لا تزوجوهن من نسـائكم؛ فقد جرى العرف على أن المرأة يتولى زواجها أحد قرابتها؛ وقد استنبط الجمهور من هذه الصيغة أن المرأة ليس لها أن تتولى عقد زواجـها، وأن العقد لا ينعقد بعبارة النساء؛ وخالف فى ذلك أبو حنيفة وانفرد بالمخـالفة؛ وروى عن أبى يوسف تلميذه أنه يرى رأيه؛ وقد قال أبو حنيفة: إن المرأة لها أن تتولى زواج نفسها، وتنفرد بالعقد، بشرط أن يكون الزوج كفئا، فـإن كان غير كفء فلا يجوز العـقد؛ وأن قوله تعالى: ﴿**وَلا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ**﴾ جرى مـجرى الأغلب الشائع، ولأن ذلـك هو الحسن المندوب إليه؛ لا اللازم الذى لا يجوز خلافه.

والمشركـون ـ هم عبدة الأوثان. وأصله من الإشـراك، وأصل كلمة أشركـته بمعنى جـعلت الشئ بينه وبين غـيره شـركة، والشـركة كـما تكون فى الحـسيـات والأشياء، تكون فى المعانى؛ فيقال أشركتـه فى أمرى؛ وقد قال الله سبحانه وتعالى

= العقد؛ ولقد قال بعض الحنفية والـزجاج والفارسى: إنه مشترك بينهما، فهو حقيقـة فيهما؛ ولقد صرح الزمخشرى أن أكثر وروده فى القرآن بمعنى العقد، وقال أبو الحسين بن فارس: إن النكاح لم يرد فى القرآن إلا للتزويج إلا قـوله تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ ... ﴿٦﴾﴾ [النساء]، ويختار الراغب الأصفهانى أنه مجاز فى الوطء؛ لأن العرب ما كـانوا يصرحون بهذه العلاقة بل يكنون، فالأولى أن يكون إطلاقه على الوطء مجازا.

(١) رواه البيـهقى: باب نكاح أهل الشـرك وطلاقهم ج١٠ ص٤٥٥، عن جـعفر بن مـحمـد عن أبيه، ورواه البخارى فى الأدب المفرد، والطبرانى فى الأوسط عن علىّ رفعه.

حاكيا عن موسى عليه السلام ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾ [طه] وفى الحديث النبوى: «**اللهم أشركنا فى دعاء الصالحين**».

ومن هذا الباب أطلقت كلمة «إشراك» على عبادة غير الله معه؛ لأن من فعل ذلك فقد أشرك مع الله غيره فى العبادة والتقديس والألوهية؛ وألفاظ القرآن الكريم الدالة على ذلك كثيرة جدًا، ولا تكاد تحصى؛ ولكثرة استعمال القرآن هذا اللفظ فى هذا المعنى كان لكلمة «مشرك» إطلاق خاص فيه؛ وهو إطلاقه على من يعبد الأوثان؛ فكلمة: مشرك، ومشركين، ومشركات، كلها إذا ذكرت فى القرآن انصرفت إلى عبدة الأوثان من غير أية قرينة دالة على ذلك؛ لأنها صارت فى الإسلام حقيقة عرفية عليهم؛ ولا تطلق على اليهود والنصارى؛ وإن قال الله سبحانه عن النصارى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ ... ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة] وعن اليهود: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ... ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة] إذ صار لفظ المشركين اسما لجنس معين؛ ولذا كان يذكر النصارى واليهود بعنوان أهل الكتاب، وعبدة الأوثان باسم المشركين؛ فقد قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾﴾ [البينة] فذكر فى هذه الآية الكريمة الجميع بعنوان الكفر؛ ولكنه فصل بينهما، فجعلهما جنسين مختلفين، وإن ذلك أدى إلى الاختلاف فى المعاملة، والاختلاف فى الأحكام؛ وكانت العلة فى هذا الاختلاف مشتقة من التسمية نفسها؛ فأولئك لهم كتاب، وإن كان محرفا؛ والمشركون ليس لهم كتاب، فلا ضابط يضبطهم، ولا عاصم يحول بينهم وبين الإيغال المطلق فى الشر، ولا حريجة دينية تقيدهم، بل هم حائرون بائرون.

وعلى هذا التحقيق اللغوى يتبين أن قوله تعالى: ﴿وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ لا يُدخل فى عموم النهى إلا الوثنيات ولا يدخل فيه قط الكتابيات، لأن الحقيقة العرفية القرآنية لا تدخل اليهود والنصارى فى عنوان المشركين، ولا فى عموم الوثنيين، وإن كانوا مثلثِّين. ولقد قال بعض المفسرين: إن كلمة المشركات تشمل بمقتضى عمومها الكتابيات؛ لأنهن يشركن بالله فى العبادة، ويثلثن، ولكن جاء بعد ذلك النهى العام إباحة زواج الكتابيات فى قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ

الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ ... ۝٥ ﴾ [المائدة]. فكان فى نظر أولئك تخصيصا لعموم النهى، أو نسخا لبعض هذا العموم، كما يقول بعض الفقهاء.

ولكن ذلك التوجيه غير مستقيم عند الدارسين للقرآن الكريم العارفين لأسلوبه، وتقييد العبارات التى اشتمل عليها، والتبديل الذى يطرأ فى أسلوبه على عمومها؛ فما من نص يخص أهل الكتاب وصفوا فيه بالإشراك، بل ترى كل النصوص الخاصة باليهود والنصارى إما أن يعبر عنهم باليهود والنصارى، كما فى قوله تعالى: ﴿ **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ... ۝٨٢** ﴾ [المائدة] أو يعبر عنهم بأهل الكتاب، كما فى قوله تعالى ﴿ **وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ... ۝٧٥** ﴾ [آل عمران]، وقوله تعالى: ﴿ **مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝١١٣** ﴾ [آل عمران].

وحتى إنهم فى مقام الذم يوصفون بالكفر ولا يوصفون بالشرك، كما فى قوله تعالى: ﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ۝٧٨** ﴾ [المائدة].

وبهذا كله يتبين أن التحريم من أول الأمر كان خاصا بالمشركات، ولم تحرم الكتابيات؛ بل جاء النص بإباحة الزواج منهن؛ وعلى ذلك تضافرت الأخبار عن الصحابة والتابعين بإباحة زواج الكتابية، وتحريم زواج المشركة؛ وقد قال جمهور المفسرين إنه لا يعرف أن أحدا من الصحابة قد حرم زواج الكتابية، وقد جاءت الروايات بأن عثمان بن عفان تزوج نصرانية ثم أسلمت وأن طلحة بن عبيد الله، وحذيفة اليمان تزوجا يهوديتين؛ ولكن مع ذلك روى عن عمر وعبد الله ابنه رضى الله عنهما أنهما حرما ذلك أو كرهاه، والثانى هو الأصح، فإن عبدالله بن عمر رضى الله عنه كان رجلا متوقفا حذرا، وقد خشى على المسلم من زواج الكتابية؛

أما أبوه النافذ البصيرة القوى الفراسة، الصادق الحس والحدس، فقد رأى أن المسلم الذى يتزوج الكتابية لا ترضى به كرائم العقائل منهن، بل ترضاه من ترضاه لمأرب حسى من مال أو جمال، أو نسب، ولا ترضاه ذات الأسرة الكريمة العريقة منهم؛ ولذلك ورد أنه استنكر من طلحة وحذيفة ما صنعا، فقال له حذيفة: أتزعم أنها حرام فأخلى سبيلها يا أمير المؤمنين؟ فقال: (لا أزعم أنها حرام، ولكن أخاف أن تعاطوا المومسات منهن!) رضى الله عن أبى حفص الفاروق! لقد خشى ألا يتزوجوا إلا المومسات منهن؛ وإن ذلك الظن الذى ظنه وخشيه نرى كثيراً منه يقع فيمن يتزوج من غير دينه؛ إذ لا يجد إلا المنحرفة فى نفسها وخلقها وعقلها التى ترضى أن تخرج على أهلها وذويها، وأهل دينها لتتبع مسلما، لماله أو جماله أو جاهه، لا لدينه أو خلقه؛ لأنها لو كانت كذلك لارتضت الإسلام دينا.

وإن المسلمين قد أجمعوا على كراهة تزوج المسلم غير المسلمة، وإن كان جمهورهم على حلِّ الكتابية اتباعا للنص القرآنى الكريم ﴿**وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ** ... ﴿٥﴾﴾ [**المائدة**] وكانت الكراهة لما سبق من أنه فى الغالب لايرضى بالمسلم منهن إلا المنحرفات؛ ولأن المودة التى تكون بين الزوجين قد تؤثر فى دينه فينخلع من أوامره، وإن لم ينخلع من عقيدته؛ وتؤثر قطعا فى دين الأطفال، فيخرجون إلى الحياة، وقد رضعوا الميل إلى دين أمهم، فغذتهم به كما غذتهم بلبانها؛ وقد رأينا رجالا متعلمين يعدون فى عداد المسلمين فى الإحصاء ويدخلون الكنيسة؛ لأن أمهاتهم عودتهم ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله! ولولا النص الكريم لقلنا إن حالنا، وانحلال الدين فى نفوس الذين يقومون على ذلك توجب التحريم سدا للذريعة، ومنعا للفساد؛ وإن السلف الصالح كان لهم من قوة الدين، والحرص على مصلحة أولادهم، وتنشئتهم على الإسلام، ما يحصنهم وأولادهم، وما يجعلهم يجذبون أزواجهم إلى دينهم من غير أن يخلعوا هم الربقة.

النص الكريم الذى نتكلم فى معناه فى تحريم المشركات فقط كما تبين، والكتابيات فى هذه الآية مسكوت عنهن، ونص على الإباحة فى آية المائدة.

وقوله تعالى فى الغاية التى ينتهى إليها التحريم ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ فيه إشارة إلى توقع إيمان المشركين رجالهم ونسائهم، وأن الفتح المبين قريب وليس ببعيد؛ فأولئك الذين يتعلقون بأنسابهم، ويرون المصاهرة معهم، لا يتعجلون أمرًا لهم فيه أناة، فسيأتى اليوم الذى يؤمن هؤلاء جميعًا، وبذلك يزول السبب الذى كان من أجله التحريم، وهو الإشراك، وإن فى ذلك بشرى للمؤمنين بعامة بهذا الفتح، وبإعلاء كلمة الله، وبانتهاء القتال بين ذوى الأرحام الواصلة؛ وبشرى خاصة للذين يرغبون فى الزواج من بنات أعمامهم، ويحول الشرك دونهم.

﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ فى هذه الجملة السامية بيان فضل التدين والإيمان على الشرك والكفر، وبيان فضل المؤمن على الكافر، وبيان فضل كمال النفس على جمال الجسم، وبيان فضل شرف القلب على شرف النسب؛ ومثلها فى هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ فكلتا الجملتين الساميتين تشير إلى فضل الحقيقة الخلقية والدينية على المظهر الجسمى، والاستعلاء النسبى.

والأَمَة: الأنثى من الرقيق؛ والسبب فى أن زواج المؤمن من أمة مؤمنة لا يروقه منظرها، خير من زواجه من حرة مشركة يروقه منظرها، ويثير الإعجاب حسنها، كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ السبب في ذلك أن الزواج ليس علاقة وقتية، بل هو علاقة دائمة وليس قضاء وطر عاجل يكون الإعجاب المجرد سببه، بل الزواج صلة مودة رابطة يلاحظ عند الإقدام عليه عوامل بقائه لا الدوافع المجردة إلى إنشائه. وإذا كانت الأمة المؤمنة التى لا تثير الإعجاب قد اجتمعت فيها صفتان لا تثيران النفس، بل تمنعان، وهما الرق، وعدم رواء المنظر، ففيها صفة توجد المودة والوئام، وهى الإيمان. وإذا كانت الحرة المشركة التى تثير الإعجاب بجمالها فيها صفتان تسترعيان الأنظار، وهما النسب والجمال، ففيها صفة تقطع العلائق، وتفسد البيت، وهى الشرك الذى ليس معه عاصم عن إثم ولا غواية، ولا اتجاه معه إلى فضيلة ومودة واصلة وخلق كريم.

إن الزواج اختلاط روحى، وشركة أدبية، وتعاون دائم على قطع لأواء هذه الحياة وشدتها، والبيت الزوجى فى هذه الحياة اللاغبة الكادحة كالواحة فى وسط

الصحراء، يأوى الرجل إليها بعد التعب واللغوب، فلا يصح أن يكون مناط الاختيار هو الجمال ولا النسب فقط، ولاهما معا من غير أن يكون إيمان وخلق واطمئنان نفس وعلو إدراك وأمانة، وحسن عشرة ولطف مودة، والمؤمنة ولو كانت أمة لاتثير الإعجاب بمنظرها فيها تلك الخصال الكريمة، فهى عالية المدارك؛ ولذا هجرت الشرك إلى الإيمان، وفيها حسن عشرة ومودة وخلق، واستمساك بالأمانة والفضيلة وبعد عن الخيانة والرذيلة، وقد كوَّن ذلك كله الإيمان.

أما المشركة ولو كانت جميلة نسيبة فإنها فى غالب أحوالها لا تتوافر فيها عوامل بقاء الحياة الزوجية؛ فهى مستعلية بنسبها، مزهوة بجمالها، لا عاصم من دين يعصمها عن الغواية، ولا مانع من خلق يمنعها من الخيانة، وليست عالية المدارك، بدليل أنها بقيت على الشرك مع قيام البينات على التوحيد شاهدة معلمة موضحة مبينة؛ وكيف يلتقى قلبان قلب يعبد الواحد القهار، وقلب يعبد الأوثان وليست المفاضلة بينهما فى المنفعة التى تعود على العشير فقط، بل المفاضلة من حيث أثرهما فى ثمرة هذا الزواج، وهما الأولاد؛ فالمشركة تغذى طفلها بالأوهام، والمؤمنة تربيه على الإيمان؛ والمشركة تضع فى نفسه بذور الفساد والانحلال، والمؤمنة تغرس فى قلبه غرس الفضيلة والاستمساك بالعروة الوثقى؛ فالطفل بين المسلم والمشركة ينشأ حائر النفس، مضطرب الوجدان، سقيم الضمير؛ بينما أولاد المؤمن والمؤمنة ينشأون على خلق قوى، ووجدان مستقيم، وقلب سليم.

﴿وَلا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾

وإذا كان زواج المؤمن من المشركة حراما فتزويج المؤمنة من المشرك حرام أيضًا، بل إنه أشد تحريمًا إذا كان التحريم مراتب؛ لأن فى الزواج نوع ولاية من الرجل على المرأة، بدليل أن له حق تأديبها إن خرجت عن جادة الحق من غير تبريح ولا اعتداء، ولا قصد إلى الإيذاء؛ ولذلك نهى الله سبحانه وتعالى عن أن يزوج الأولياء نساءهم من مشركين. والإنكاح كما قلنا تزويج الإنسان غيره.

وإن الأسباب فى تفضيل المؤمن ولو عبداً على المشرك ولو كان يثير الإعجاب بجمال جسمه وقوة بدنه، وجاهه الدنيوى، هى التى ذكرناها هناك، ويزاد عليها أن المشرك بما فيه من عنجهية ورجس الجاهلية، والطغيان النفسى، يسئ معاملة زوجه من غير دين مانع، ولا خلق زاجر، ولا ضمير لائم؛ فمن زوج ذات رحم منه مشركا فقد أسلمها إلى الجحيم، وألقى بها فى فتنة، تفتن بها فى دينها وفى خلقها، وفى كرامتها وفى إنسانيتها؛ وإن ذلك لا يغنى عن كونه حرا نسيبا، فإن تلك المعانى التى تبذل أغلى من الحرية والنسب والمال والنشب؛ لأنها معانى الإنسانية السامية، ولهذا كان عبد مؤمن خيراً من كافر نسيب ولو غير مشرك.

ويجب أن نشير فى هذا المقام إلى أمرين:

أولهما - أن التعبير بلفظ الإنكاح فى جانب تزويج المؤمنة بالمشرك، استدل به لجمهور الفقهاء بأن المرأة لا تباشر عقد زواجها بنفسها، وأنها لا تنفرد باختيار الزوج، ولو كانت بالغة عاقلة رشيدة، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل؛ وهنا نبين وجه الاستدلال للجمهور ومستنده من السنة: أما وجه الاستدلال بالآية فهو أنه عند النهى عن الزواج من المشركة، قال: ﴿**وَلَا تَنكِحُوا**﴾ وعند النهى عن الزواج من المشرك قال: ﴿**وَلَا تُنكِحُوا**﴾ والأول العقد للنفس، والثانى العقد للغير، فذكر العقد للغير فى مقام تزويج الأنثى دليل على أنها لا تتولى إنشاء العقد بنفسها، ولا يسوغ لها أن تنفرد به دون وليها؛ وقد أيدت ذلك أحاديث قد وردت مثل قوله ﷺ: «**لا نكاح إلا بولى**»(١) ومثل قوله ﷺ: «**أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل، فنكاحها باطل، فنكاحها باطل**»(٢).

وخالف الجمهور أبو حنيفة، وفى رواية عن أبى يوسف أنه منعه؛ وقد زعم أن كل الأخبار الواردة بمنع الزواج إلا بولى لم تصح نسبتها إلى الرسول، وروى أن

---

(١) رواه الترمذى فى النكاح (١٠٢٠)، وأبو داود (١٧٨٥)، وابن ماجه (١٨٧١)، وأحمد: أول مسند الكوفيين (١٨٦٩٧)، والدارمى (٢٠٨٧) عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه.

(٢) رواه الترمذى: النكاح (١٠٢١) وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن، ورواه أبو داود (١٧٨٤)، وابن ماجه (١٨٦٩)، وأحمد: باقى مسند الأنصار (٢٣٢٣٦)، والدارمى (٢٠٨٩).

الرسول ﷺ قال: «**الأيم أحق بنفسها من وليها**»(١) وإن التعبير بالإنكاح فى الآية جرى مجرى العرف الشائع الغالب، وأن النكاح قد أسند إليها فى قوله تعالى: ﴿**فَإِن طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ**... ﴿٢٣٠﴾﴾ [البقرة] ولأنها تدير أموالها، وتتولى العقود عليها، فأولى أن تتولى أمر زواجها؛ ولأن الولاية تثبت فى الشرع لمصلحة المولى عليه، ومصلحتها فى أن تكون حرة، ولا ضرر على أوليائها إذا تقيد الزواج بالكفاءة ومهر المثل، فلا عار يلحقهم حينئذ.

ومع أن أبا حنيفة يطلق حرية المرأة فى الزواج، فإنه يستحسن أن يتولى زواجها وليها كما هو العرف الجارى بين الناس.

أما الأمر الثانى الذى يجب أن نشير إليه - فهو أن هذه الآية حرمت نكاح المسلمة بالمشرك، وليس فيها ما يدل على تحريم المسلمة بالكتابى؛ لأن كلمة مشرك لا تعم الكتابى فى لغة القرآن الكريم، والحقيقة العرفية الإسلامية، والتى أجمع المسلمون عليها تحريم زواج المسلمة بالكتابى؛ وسند هذا الإجماع قوله تعالى فى سورة الممتحنة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ**... ﴿١٠﴾﴾ [الممتحنة] فهذه الآية صريحة فى أن زواج المسلمة بالكافر لا يحل، وإن كانت زوجته وأسلمت دونه انتهت وصارت لا تحل له، ولا يحل لها. وكلمة كافر تشمل الكتابى والمشرك، كما قال تعالى: ﴿**مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ**... ﴿١٠٥﴾﴾ [البقرة].

وعلى هذا النص وعمل الرسول ﷺ اعتمد إجماع الصحابة والتابعين من بعدهم إلى اليوم.

---

(١) رواه مسلم: النكاح - باب استئذان الثيب فى النكاح بالنطق والبكر (٢٥٤٥) ورواه الترمذى: النكاح - ما جاء فى استئمار البكر والثيب (١٠٢٦) والنسائى (٣٢٠٨)، وأبو داود (١٧٩٥) وأحمد فى مسنده (١٧٩٠) ومالك فى الموطأ (٩٦٧). والدارمى (٢٠٩٢).

﴿أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ وازن سبحانه وتعالى بين الزواج من المؤمنة والزواج من المشركة، والزواج من المؤمن والزواج من المشرك؛ وكانت الموازنة من حيث الخيرية فى كل جانب؛ فكان خير المشركين والمشركات حسيا ماديا، والمنفعة فيه عاجلة غير باقية؛ وكان الخير فى جانب المؤمنين والمؤمنات نفسيا وروحيا والمنفعة فيه باقية غير سريعة الزوال، وتتناسب مع عقد الزواج وهو عقد الحياة الذى يمتد بامتدادها؛ وانتهت الموازنة بأن المؤمنة ولو كانت أمة خير من المشركة ولو كانت نسيبة حسناء؛ وبأن المؤمن ولو كان عبدًا خير من المشرك ولو كان حسيبا نسيبا ونهدا قويا.

وفى هذه الجملة السامية يبين سبحانه مغبة السوء فى الزواج بالمشركين والمشركات، فقال سبحانه: ﴿أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أى أن أولئك المشركين والمشركات إذا كان فيهم ما يستهوى الراغب فى الزواج منهم من نسب رفيع، وجاه عريض، ومال وفير، وجمال ومنصب، فهم بهذه الأوصاف الدنيوية التى تستهوى النفوس الضعيفة إذا كان معها الشرك بالله وعبادة الأوثان، يدعون إلى الإقدام على أسباب النار فى الآخرة والعذاب الأليم فيها؛ فإن الاستهواء المادى للنفس الضعيفة، والخلطة المستمرة بين الزوجين، والاتصال الدائم بينهما، كما قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ... ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة] إن هذه الأمور كلها من شأنها أن تسهل قبول المسلم أو المسلمة لما عليه المشرك من عادات جاهلية، وأخلاق وثنية؛ تبتدئ تلك المفاسد بالسريان إلى النفس بالسكوت عنها، ثم بالرضا عن فاعلها؛ ثم بالرضا عن فعلها، ثم باستحسانها؛ وأول الشر استحسانه؛ وبذلك تنحل عُرى الإسلام فى نفس المسلم عروة عروة، حتى لايبقى من الإسلام إلا الاسم والرسم؛ وهما لا يغنيان عن حقيقته شيئا!.

وكلما كانت عوامل الإعجاب أكثر، كانت عوامل التأثير والدعوة أشد وأقوى؛ فإذا كانت مسلمة تحت سلطان رجل مشرك له فضل سطوة وجاه ومال وقوة ونسب وله جمال وهمة وإقدام، فإن تلك العوامل كلها تؤثر فى نفسها شيئا فشيئا

حتى تخرجها من الإسلام خطوة بعد خطوة، وتكون خارجة عنه وهى لا تحس ولا تشعر.

وكذلك إذا كان الرجل المسلم قد تزوج مشركة حسناء لها منصب ومال ونسب، ولطف مودة وحسن مدخل، فإنها كلما قويت عوامل التأثير عندها، ضعف مقدارها من خلق الإسلام عنده، حتى يستحسن ما تستحسن؛ ويستهجن ما تستهجن؛ ولا دعوة إلى النار أقوى من هذا!

وليس المراد بالدعوة القول والنداء إلى ما يدخل النار؛ بل المعنى أن المودة والإغراء ولطف المدخل والاستيلاء النفسى؛ كل هذا من شأنه أن يؤثر، فيكون كالدعوة إلى الشرك والنار بالقول، بل أقوى تأثيرا.

وقد يقول قائل: هذه الدعوة إلى النار بهذا التأثير قد تكون أيضا فى زواج المسلم بالكتابية، كما هى فى زواج المسلم بالمشركة؛ فإنها إن كانت ذات جمال ومنصب فى قومها، ولها استهواء خاص، قد تدعو إلى النار، كما تدعو المشركة، وتحل الخلق الدينى فى نفس المسلم، كما تحله المشركة؛ وكان مقتضى هذا أن يحرم زواج المسلم بغير المسلمة مطلقا كما حرم زواج المسلمة بغير المسلم مطلقا؛ وإن لذلك الكلام موضعه؛ ولذلك أجمع الفقهاء على كراهة زواج المسلم بالكتابية؛ بل لقد زعم بعض العلماء أن زواج المسلم من الكتابية محرم كزواجه من المشركة.

ولكن الجمهور لا يقطعون بالتحريم أمام النص القاطع بالحِل، ولا يعملون العلة ليهمل النص؛ بل يرون أن علة التحريم لا تتوافر فى الكتابية توافرها فى المشركة؟ فإن المشركة لا ترتبط بأى قانون خلقى يعصمها من الزلل، ويجعل الزوج يربطها به؛ أما الكتابية فإن مجموع الفضائل الإنسانية من الصدق والأمانة، ومنع الخيانة، وحسن المعاملة وحسن العشرة، وغيرها من المبادئ الفاضلة لا تزال باقية فى تعاليم دينها؛ فيمكن الاحتكام إليها، كما يمكن الاطمئنان إلى أن الزوجة تستمسك بالفضيلة فى الجملة إن أحسن الاختيار.

وإن القرآن الكريم فى جدله مع أهل الكتاب كان يلاحظ إمكان التفاهم معهم على قواعد يمكن حملهم على الإقرار بها، كما فى قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ... ﴿٦٤﴾ ﴾ [آل عمران] وقوله تعالى فى مجادلتهم: ﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ... ﴿١٣٩﴾ ﴾ [البقرة] كما أمر الله سبحانه المسلمين عامة بألا يجادلوا أهل الكتاب إلا بالرفق، كما قال تعالى: ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ ... ﴿٤٦﴾ ﴾ [العنكبوت].

فكان من اطراد تلك المعاملة الحسنة المقربة، غير المبعدة، أن أباح الإسلام الزواج من الكتابيات.

بيد أنه يلاحظ فى إباحة الزواج من الكتابيات أمران:

الأمر الأول: أن النص القرآنى المبيح خاص بالمحصنات منهن، إذ قال سبحانه: ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ... ﴿٥﴾ ﴾ [المائدة] والمحصنات فى أظهر التفسير هن العفيفات؛ فأولئك الذين يعمدون إلى المنحرفات منهن فى أخلاقهن وعقولهن ولا يتخيرون، خارجون عن موضع الإباحة فيما أحسب؛ لأن الله أحل المحصنات، وهم استحلوا المنحرفات، ووقع ما توقعه عمر رضى الله عنه.

الأمر الثانى: أن ولى الأمر إذا رأى خطرا على الدولة الإسلامية، أو على المجتمع الإسلامى، له أن يمنع الناس من ذلك الزواج بوضع عقوبات لمن يقدم عليه سدًّا للذريعة ومنعًا للشر؛ وذلك من باب السياسة الشرعية، لا من باب تحريم ما أحل الله؛ لأن الحل قائم على أصله، والمنع وارد على الضرر الذى يلحق المسلمين، إذ فى ذلك من الاعتداء على جماعتهم ما فيه؛ كما أن أصل الأكل حلال؛ ولكن اغتصاب أموال الناس لنأكلها حرام؛ للاعتداء فيه؛ ولذلك سارت الدولة على منع رجال السلك السياسى من الزواج من الأجنبيات. وقد علمنا أن ضباطا فى الجيش

يجلسون فى مناصب قد تمكنهم من معرفة سر عدته وعتاده قد تزوج بعضهم من يهوديات، فحق على الدولة أن تنحيهم من أماكنهم، خشية على الجيش وقادته، وأن تسن قانونا يمنع ذلك فى المستقبل!.

هذه دعوة المشركين والمشركات بالإغراء وبعدوى الأخلاق، إلى النار، وهى نقيض نداء الله لعباده؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ فالله سبحانه بأوامره السامية، وشريعته المحكمة ينادى المؤمنين إلى سلوك طريق الجنة بأن يقوموا بالأعمال الصالحة، ويحصنوا نفوسهم فى زواجهم بما يحمى أنفسهم من الشر والفساد، وبواعثهما، وما يغرى بهما، ويحموا جماعتهم من أن تكون فيها تلك الأدواء الفتاكة بقيام أسر من أزواج قد انحلت فى نفوسهم روابط الفضيلة والأخلاق، فإن ذلك التحصين الشخصى والاجتماعى هو السبيل إلى جنة الرضوان، كما أنه السبيل إلى مغفرة الرحمن؛ لأن صون النفوس وعفة القلوب، وسيادة الفضيلة فى المجتمع؛ كل هذا من شأنه أن يوجه إلى الخير وإلى الكمال، فتذهب عن النفس أدرانها، وتستر عيوبها؛ وبذلك يغفر الله ذنوبها إذا تابت وأقلعت.

ولقد قيَّد سبحانه الدعاء إلى الجنة والمغفرة بقوله سبحانه: ﴿بِإِذْنِهِ﴾ والإذن يطلق على الإعلام، كما يطلق على الأمر، ويطلق على الإرادة مع الرضا والتوفيق والتيسير؛ وإن تلك المعانى الثلاثة متحققة فى هذه الجملة السامية؛ فإن الله سبحانه أعلم الناس بطرق الجنة والمغفرة، وآذنهم بها ليسلك من يريد السلوك، وأمرهم أمرًا قاطعًا بالحق فى كل شئ ليطيع من طلب الحق وسلك سبيله.

وإنه سبحانه موفق من طلب الهداية ميسر له السبيل، آخذ بيده إلى الحق الذى لا مرية فيه.

﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يدعو الله سبحانه وتعالى إلى الجنة والمغفرة ويعلم الناس بالحق ويأمرهم به، وييسر السبيل إليه؛ ولا يكتفى سبحانه

وتعالى بذلك، بل يقيم البينات والآيات الدالة القاطعة على أن الحق هو ما يدعو إليه، والمصلحة فيما يأمر به، والفضيلة والكمال فيما يشرع لهم من شرع ويوضح لهم من مناهج؛ فقد اقترن كل حكم بحكمته، وكل أمر بوجه المصلحة فيه، وكان ذلك لأجل أن يتذكر الناس دائمًا، ويكونوا على علم بوجه الخير فى أوامر دينهم، وأحكام الشرع الذى نزل من عند الله الحكيم العليم؛ وهذا معنى قوله تعالى: **﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾** فالرجاء هنا فى معنى التعليل؛ لأن الرجاء من الله تعالى فى موضع التحقيق؛ أو نقول: الرجاء على حقيقته، وهو من العبد لا من الرب؛ أى أن الله سبحانه وتعالى شرع ما شرع من شريعة محكمة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وبين بالآيات البينات وجه الخير فيما يشرع ليرجو الناس أن يكونوا فى حال تذكر دائم لربهم وشرعه، وخالقهم وما أنزل لهم من أحكام تصلح دنياهم، وتقربهم إلى الله زلفى فينالون رضوانه يوم الدين.

أما بعد: فإن هاتين الآيتين الكريمتين توضحان لكل مؤمن الطريق الذى يتخذه ليختار زوجًا يرضاها قرينة له ويقطعا معا صحراء الحياة، وتكون له السكن والمُطَمَأَنُّ؛ وتبينان له أنه يجب عليه ألا يسير وراء ما يثير الإعجاب من رواء المنظر، أو علو النسب، أو جاه دنيوى ؛ بل يطلب ذات الدين أولا؛ فإنه إن استقامت الأخلاق وتلاءمت النفوس والتقت القلوب، حسنت العشرة، وقامت الأسرة على دعائم من الفضيلة والخلق الكريم، وأنبت الله لهما الذرية الصالحة نباتًا حسنا؛ وإن لم تستقم الأخلاق ولم يكن الدين، تقطعت الروابط، وكاد كل منهما لصاحبه، أو أفسد الاستهواء قلب الصالح منهما لصاحبه، فيصير مثله، ويرين الله على قلبه، ولا يكون نبت الذرية إلا نكدا، وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: **«تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها؛ فاظفر بذات الدين تربت يداك»**(١) والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق.

---

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى: النكاح - باب الأكفاء فى الدين (٥٠٩٠)، ومسلم: الرضاع - استحباب نكاح ذات الدين (١٤٦٦) عن أبى هريرة - رضى الله عنه.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾

بين الله سبحانه وتعالى فى الآية السابقة من شئون الأسرة كيف يختار الزوج، وكيف يصطفى عشير الحياة، وأن الأساس هو الدين والفضيلة فى الاختيار، لاجاه الدنيا ولا أحسابها ولا أنسابها؛ لأن العشرة الحسنة تقوم على الفضيلة ومكارم الأخلاق، لا على الاستعلاء بالنسب، والتفاخر بالحسب.

وفى هذه الآيات يبين سبحانه وتعالى العشرة الحسنة؛ وقد تصدى فيها القرآن الكريم لبيان النزاهة البدنية فى العلاقة الطبيعية التى يتقاضاها الطبع السليم بين الرجل والمرأة، والتى بها يعمر الكون، ويبقى الإنسان الذى جعله الله سبحانه وتعالى فى الأرض خليفة.

وقد ذكر سبحانه وتعالى وصايا كريمة فى أمرين، وتشير هذه الوصايا إلى بعض مقاصد الزواج العليا؛ ثم ذكر حكمًا شرعيا قاطعًا فى أمر ينفذ فيه بحكم القضاء، لابحكم التدين المجرد.

أما الأمران اللذان جاءت فيهما الوصايا الكريمة المرشدة الهادية، العفيفة النزهة، فهما يتعلقان بمباشرة الحائض، والنهى عنه، وبالمقصد من الزواج وملاحظته عند المسيس وقضاء الوطر الجنسى؛ وهو النسل القوى ذو الخلق الكريم؛ والأمر الثالث الذى ينفذ بحكم القضاء هو الامتناع عن العلاقة الفطرية الطبيعية مضارة وإيذاء لامرأته بأيمان يحلفها للضرر والإيذاء؛ فقد حكم فيه الشارع حكما مقررا،

وهو الفرقة بعد الامتناع أمدا معلوما؛ ونؤجل الكلام فى هذا الأمر إلى موضعه من تفسير الآيات الكريمات التى تصدت لحكمه، ونكتفى هنا ببيان الوصايا فى الأمرين الأولين.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ السؤال كان من المؤمنين، ولم يكن من غيرهم؛ لأنهم أرادوا أن يعلموا حكم دينهم فى أخص شئونهم؛ ولأنهم أدركوا بقوة وجدانهم الدينى أن الإسلام مرشد إلى الأمر الصالح فى كل شىء وفى كل الأمور، ما دق منها وما جل، بل ما خص منها وما عم؛ وليس أى شأن من الشئون الخاصة إلا له صلة بالشئون العامة؛ لأن الإنسان ليس شيئا قائما بذاته منفردا عن غيره مفصولا عن سواه، بل هو جزء من كل، موصول بما عداه، فالأجزاء تتلاقى فتكون ذلك المجموع وتربطه بروابط من الفضيلة، فما من خصوص للآحاد إلا له صلة وثيقة بعموم الجماعة؛ ومن فصَل الأمور الشخصية عن الأمور العامة لم يفهم علاقة الإنسان بالإنسان ولم يفهم قانون الجماعات وسر الاجتماع.

من أجل هذا المعنى سأل المؤمنون عن هذا الأمر الخاص الذى يتصل بأدق العلاقة بين الرجل والمرأة.

والمحيض مشتق من الحيض، وأصله بمعنى السيل؛ يقال: حاض السيل بمعنى فاض، ثم أطلق الحيض على ما يقذفه رحم المرأة من دم فى حال فراغه من الحمل؛ والمحيض قال الزمخشرى فيه: إنه مصدر ميمى كـ: مجىء، ومبيت؛ وعلى ذلك يكون السؤال عن المحيض أى عن حكم العلاقة بين الرجل والمرأة عند وجوده. وقد يراد منه اسم الزمان، ويكون السؤال عن حكم العلاقة بين الرجل والمرأة فى وقته؛ وقد يراد منه اسم المكان من حيث العلاقة فى مكان الحيض وهو جهاز المرأة التناسلى.

والظاهر أن السؤال عن حكم العلاقة عند وجود الدم وكل التخريجات السابقة تصلح لذلك وكلها تحتاج إلى تأويل محذوف مقدر وهو السؤال عن الحكم، وكل التقديرات تنتهى إلى معنى واحد وما جرى بين المفسرين من خلاف فى هذا هو

خلاف لفظى لا جدوى - من حيث المعنى - فيه، ولماذا كان السؤال؟ ألم يكن من مقتضى الفطرة أن يعلموا الجواب؟ نعم لقد كان من مقتضى الفطرة أن يعلموا أن الحيض أذى فى كل أحواله، وأنه يعتزل موضعه إبان ظهوره؛ ولكن أهل الديانات السماوية التى كانت تصاقب(١) أماكنهم فى بلادهم من اليهود والنصارى قد اختلفوا، ما بين متشددين فى شأن الحائض، ومتسامحين فى شأنها؛ فالنصارى ما كانوا يفرقون بين حائض وغير حائض فى المعاملة والمباشرة؛ واليهود كانوا يشددون عليها وعلى أنفسهم فى المعاملة فيتجنبونها اجتنابًا تامًا، ولا يعتزلونها فى المباشرة وحدها، بل يعزلونها فى كل الأحوال عن أنفسهم عزلا كاملا، حتى ليعتبرون كل ما مسته يكون نجسا، ومن يمسها يكون نجسا، وكأنها تكون من الأنجاس فى هذه المدة(٢).

وكان من العرب من تأثروا بطريق اليهود، ومنهم من سلكوا مسلك النصارى، فسألوا عن حكم الإسلام إلى أى الطريقين يتجه، فكان الفطرة التى فطر الله الناس عليها، وكان بين ذلك قواما؛ فأباح المعاملة ومنع المباشرة.

﴿قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ أجاب الله سبحانه وتعالى بما أمر به النبى ﷺ أن يجيب به ﴿هُوَ أَذًى﴾ أى هذا الدم الذى يلفظه الرحم أذى يتأذى به الإنسان تأذيا حسيا جسميا؛ فرائحته، يتأذى منها من يشمها، وهو قذر فى ذاته، وهو فوق ذلك أذى نفسى للرجل والمرأة معا؛ فالمرأة لا تكون فى حال تستسيغ معها المباشرة ؛ بل إنها تكون متقززة منها فى هذه الحال نافرة إلا فى الأحوال الشاذة والصور النادرة، وجهازها التناسلى يكون فى حال اضطراب، فتتألم من كل مباشرة، وأعصابها وأحوالها وعامة شئونها تكون فى حال تتأذى معها

(١) صاقبه مصاقبة، وصقابا: إذا قاربه وواجهه، يقال: جار مصاقب. [الوسيط (صقب)].

(٢) قال الشيخ رحمه الله: جاء فى الفصل الخامس عشر من سفر اللاويين (أن كل من مس الحائض فى أيام طمثها يكون نجسا، وكل من مس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء، ويكون نجسا إلى المساء، وكل من مس متاعا تجلس عليه يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجسا إلى المساء، وإن اضطجع معها رجل، فكان طمثها عليه يكون نجسا سبعة أيام، وكل فراش يضطجع عليه يكون نجسا). وبهذا يستبين أن اليهود كانوا يشددون فى شأن الحائض، حتى تنطوى على نفسها، فلا تمس شيئا حتى لا تنجسه.

من كل اتصال جنسى؛ والرجل يتأذى نفسيا؛ إذ يكون خليطه فى حال نفرة بل بغض لما يقدم عليه؛ ثم إن المباشرة فى هذه الحال لا يتحقق معها القصد الأسمى وهو النسل؛ فإن المرأة فى هذه الحال لا تكون صالحة للإنسال.

وإذا كان موضع الحيض أو الحيض نفسه شيئًا يتقزز منه، فإن الوصية الواجبة فى حاله هى الاعتزال؛ ولذا قال سبحانه مرتبا الوصية على تلك الحال التى يتأذى منها: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ أى اعتزلوهن فى وقت الحيض، والمراد بالاعتزال الامتناع عن المباشرة؛ وقد روى عن ابن عباس أن المراد بالاعتزال هو اعتزال الفراش، وهو فى ذلك أقرب إلى مسالك اليهود؛ ولكن تلك الرواية شاذة لا يلتفت إليها، ولا تنقض إجماع العلماء على أن المراد بالاعتزال هو الامتناع عن المباشرة، لا ترك الفراش وتجنب النوم معها على فراش واحد؛ فقد أجمع العلماء وتضافرت الروايات على أن المنهى عنه فقط هو المباشرة نفسها.

ولعل تلك الرواية المروية عن ابن عباس رضى الله عنه تتجه إلى أن اعتزال الفراش بأن ينام فى مكان وهى فى مكان إنما هو للاحتياط حتى لا يكون اتحاد الفراش مؤديًا إلى ذلك الأمر الممنوع.

ولئن أخذنا بهذه الرواية لكان تحريم المباشرة لذاته، وتحريم الاجتماع فى المبيت على فراش واحد لغيره؛ لأنه يؤدى إلى الممنوع لذاته.

ويلاحظ فى نسق الكلمات السامية ﴿قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ أنه قد قدم السبب على المسبب، والعلة على المعلول؛ فإن سبب الوصية بالاعتزال هو كون المحيض أذى يوجب الاعتزال فيه.

وإذا كان سبب الاعتزال وعدم المباشرة هو أذى المحيض فإن الاعتزال مؤقت بوجوده، ويزول بانتهائه؛ ولذلك بين سبحانه مدى تحريم الاعتزال بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ والقرب المنهى عنه كناية عن المباشرة، وهى من الكنايات القرآنية التى تربى الذوق وتمنع عن الأسماع الألفاظ التى يجافى سماعها الأذواق السليمة؛ وكم للقرآن الكريم من كنايات ومجازات تعلو بمستوى القارئ، ولها

وضوح وقصد إلى المعانى من غير خطأ فى الفهم، ولا غموض فى الموضوع؛ وأى قارئ يقرأ كلمات: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾، ولايفهم منها النهى عن الحال التى يتقضاها الطبع فى الأحوال الاعتيادية، وأن النهى موقوت بذلك الوقت المعلوم.

والقراءة المشهورة هى بفتح الراء فى ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ وبضم الهاء ﴿يَطْهُرْنَ﴾ من غير تشديد الطاء. وقرأ حمزة والكسائى وعاصم فى رواية المفضل: ﴿يطَّهَّرْنَ﴾ بفتح الهاء، وتشديد الطاء.

ويذكر العلماء فى مادة «قـرب» أن هذا الفعل من باب كرُم، ومن باب فرح، فيقال قرب يقرب، ويقال قرب يَقرَبُ، والأول لازم والثانى متعدٍ، والمعنى فيهما مختلف؛ فالأول يكون بمعنى الدنو، والثانى كذلك، ولكنه غلب فى العرف أنه مجاز عن اللبس أى الاتصال بالشيء؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ ... ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام] وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا... ﴿٢٨﴾﴾ [التوبة] أى لايدخلوه وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾.

وقوله تعالى فى القراءة المشهورة يطهـرن يكون معناها انقطاع الدم ؛ لأنه إذا كان سبب الأذى هو الدم، فانقطاعه طهور منه، فهو وصف وحال قائمة بالمرأة تثبت عند انقطاع الدم لزوال سبب النجاسة. وأما قراءة يطَّهرن، فمعناها يغتسلن؛ لأن التطهر غير الطُّهور، إذ هو فعل من المرأة نفسها منسوب حدوثه إليها؛ فهى التى تنشئه لا أنه حال طهر يعود بعد زوال سبب النجاسة المؤقتة.

هذا تفسير بعض العلماء، وبه أخذ الحنفية. وقال آخرون وعلى رأسهم شيخ المفسرين ابن جرير الطبرى: إن القراءتين فى معناهما واحد، وهو التطهر، فلا تعد طاهرة إلا بالاغتسال؛ وهذا ما سلكه جمهور الفقهاء غير الحنفية.

وقد انبنى على ذلك الخلاف فى التفسير خلاف فقهى؛ فالحنفية قالوا: إنه بمجرد انقطاع الدم إذا كان الانقطاع لأقصى مدة الحيض وهو عشرة أيام تحل المباشرة ولو قبل الاغتسال أخذا بالقراءة المشهورة وهى قراءة ﴿يَطْهُرْنَ﴾ لتأكد زوال الدم،

وبه الطهارة، وإن كان الانقطاع لأقل من عشرة أيام فلابد من تأكد زوال الدم بعمل آخر من جانبها وهو الاغتسال الفعلى، وبذلك تنطبق قراءة ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ فالحنفية قد أعملوا القراءتين فى نظرهم.

وغيرهم لم يفرق بين القراءتين فى المعنى وفسرهما بمعنى الاغتسال فلا تحل قبله مطلقا؛ فالطهر حقيقة فيه، وغيره مجاز، ولا قرينة تدل على إرادة المعنى المجازى، فلا يعدل عن الحقيقة؛ وفوق ذلك فإن إباحة المباشرة صرح فيها بأن ذلك متصل بالتطهر، لا بالطهور؛ فقد قال سبحانه:

﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ وإذا كان المنع مؤقتا، فإنه بزواله تجىء الإباحة، وتعود الحال إلى ما كانت عليه؛ وهنا كلمتان ساميتان نشير إلى بعض ما اشتملتا عليه من معان سامية؛ وهما قوله تعالى: ﴿فَأْتُوهُنَّ﴾ والثانية قوله: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾. والطلب فى قوله تعالى: ﴿ فَأْتُوهُنَّ﴾ ليس المراد به الحتم واللزوم. فليس بلازم الإتيان عقب التطهر؛ لأن ذلك مبنى على الرغبة والطاقة، إنما المراد هو إباحة المباشرة فإنه من المقرر عند علماء الأصول أن الأمر بعد النهى يكون للإباحة، وخصوصا إذا كان الموضع موضع حل وإباحة لا موضع تكليف وإلزام، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا... ②﴾ [المائدة] ومثل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ... ⑩﴾ [الجمعة].

وأما الكلمة الثانية وهى ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ فمن هنا المسماة بمن الابتدائية؛ أى الإتيان يكون مبتدئا من المكان الذى أحله الله سبحانه، وهو الذى كونه الله سبحانه على أنه المكان الفطرى الطبيعى لتلك العلاقة الجنسية، وهو مكان البذر والإنسال؛ فالمراد من أمر الله فى هذا المقام الأمر الإلزامى الذى جاء الإلزام فيه بحكم الشرع الإلهى، وبحكم الفطرة التكوينية؛ فقد أمر الله بأن تكون المباشرة فى موضع النسل والحرث والبذر، والفطرة التى فطر الله الناس عليها توجب ذلك وتلزم به؛ إلا من إيفت مشاعرهم وشذ تكوينهم؛ ولذلك كانت تلك الفطرة هى الوضع

الإنسانى الذى التزمه بنو الإنسان حتى المتوحشون المتبدون، ولم يخرج عن ذلك إلا الذين أصابهم شذوذ فى عقولهم ونفوسهم من بعض الذين سموا متمدينين.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ذيل الله سبحانه وتعالى هذه الآية الكريمة بتلك الجملة السامية؛ والتواب صيغة مبالغة من تائب بمعنى راجع إلى ربه إذا هفا، منيب إليه إذا انحرف؛ كثير الرجوع إلى رب العالمين بتوبة نصوح؛ والتواب وصف مدح يمدح به العبيد.

وإن للتوبة منزلتين:

المنزلة الأولى: أن يرتكب الشخص منكرا أو معصية بشكل عام، سواء أكانت صغيرة أم كانت كبيرة، ويفعل ذلك بجهالة، ثم يتوب توبة نصوحا، ويحسن التوبة فيغفر الله له، فإن الله سبحانه يغفر الذنوب جميعا لمن أحسن التوبة؛ والتوبة فى هذه الحال وصف مدح بلا شك، وخصوصا إذا استشعر التائب ما كان فيه، وأحس بالخضوع وأحسن التضرع، وكان تذكره للماضى حافزا على الاستمساك بحاضره، والاتجاه إلى ربه، وطلب المغفرة؛ فإن الإحساس بذل المعصية يدنيه من ربه، ويقربه منه.

والمنزلة الثانية من التوبة وهى العالية السامية: أن يحس المؤمن التقى بمقام ربه، فيحس مع ذلك بالقصور فى حقه، فيراجع ربه بالتوبة الحين بعد الحين، تداركا لما ظن من تقصيره، وما ارتكب فى تقديره، فيكون توابا منيبا مستمرا فى توبته.

والله سبحانه يحب التائب فى كلتا حاليه، وإن تفاوتت المنازل واختلفت الدرجات. ومحبة الله تعالى للتائبين رضاه عنهم، وإسباغ رحمته عليهم؛ فالمحبة رضا ورحمة وتقريب. والمتطهرون هم الذين طهروا حسهم ونفوسهم، وظاهرهم وباطنهم.

وإن تذييل الآية بهذه الجملة السامية يفيد ثلاث فوائد:

أولاها: إشعار المؤمن بأن الله غفار للذنوب لمن ارتكب كما قال تعالى: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا... (٥٣)**﴾ [**الزمر**].

ثانيتها: أن الله سبحانه وتعالى يحب المؤمن الذى لا يغتر بطاعاته، حتى لا يزين لنفسه كل أعماله، فقد يتأدى الأمر بمن يزين لنفسه عمله إلى أن يزين له سوء عمله فيراه حسنا، وإن الذى يستصغر حسناته فيكثر من التوبة قريب من ربه مستمتع بمحبته سبحانه وتعالى، وهى أقدس ما فى هذا الوجود.

ثالثتها: أن طهارة الحسِّ تؤدى إلى طهارة النفس، فمن كان طهور النفس لا يقبل أن يقدم على أمر مستقذر فى ذاته، تعافه الطبائع السليمة، والفطرة المستقيمة.

﴿**نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ**﴾ فى هذه الآية يشير الله سبحانه وتعالى إلى ثلاثة أمور:

أولها: بيان أن المقصد من الزواج ليس هو قضاء الوطر وإشباع الشهوة، فإن ذلك كما يكون فى زواج شرعى يكون فى المسافدة الحيوانية؛ إنما المقصد هو النسل وبقاء هذا الإنسان فى الوجود على أكمل وجه، وتهذيب النشء بين أبويه وفى أحضانهما لتنمو غرائزه وتتهذب طبائعه، وتستيقظ ينابيع الخير فيه.

وثانى هذه الأمور: أن ما يكون بين الزوجين اللذين جمعهما الله بكلمة الشرع وحكمه هو الأنس الروحى مع المتعة الجسدية؛ وإن ذلك ليقتضى زوال الكلفة، وأن يكون بينهما من المباسطة ما تسهل معه الحياة، ويكون فى البيت تخفيف أعبائها، واستجمام القوى، ليستطيع تحمل تكليفاتها.

وثالث هذه الأمور: أن الدين يجب أن يكون مسيطرا، ويجب أن تكون العدالة قائمة، والمودة حاكمة فيما بين الرجل والمرأة.

وقد أشير إلى الأمر الأول بقوله تعالى: ﴿**نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ**﴾ وأشير إلى الأمر الثانى بقوله تعالى: ﴿**فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ**﴾ وأشير إلى الأمر الثالث بقوله تعالى: ﴿**وَقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾.

وبعد هذا الإجمال نتكلم فى معانى هذه الجمل السامية لنستبين هذه الإشارات من تلك العبارات الـقدسية، فنتكلم فى معنـى قوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ أصل كلمة حرث تطلق على إثارة الأرض لإلقاء البذر فيها، وقد تطلق كلمة الحرث على الأرض المحروثة نفسها، فتسمى الأرض المحروثة المهيأة للـزراعة أو المزروعة فعلا حرثا، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [القلم] ثم أطلقت كلمـة حرث فـى الآية الكريمة وأريد بهـا الزوجـة على سبـيل التشبيه، وقـد قال في وجه التشبيه الراغب الأصفهانى (بالنسـاء زرع ما فيه بقاء نوع الإنسان، كما أن بالأرض زرع ما به بقاء أشخاصهم).

ففى الكلام إذن تشـبيه للزوجة بالحرث؛ ووجـه التشبيـه الذى ذكره كان بين الزوجة وبين الأرض الخـصبة المنتـجة من حيث إن كليهـما يمد الوجـود الإنسانى؛ فـالزوجة تمده بعنصـر تكوينه وإنشـائه، والأرض تمده بالزرع الذى يكون به بقـاؤه. وذكر الزمخشـرى أن التشبيه بين ما يلقى فى الأرحـام من النطفة والبذر الذى يلقى فى الأرض من حيث إن كلا منهـما ينمو فى مستودعه، ويكون بـه البقاء والتوالد. وكيفما كـان توجيه التشبيه من الناحية اللفظية، فـإن الجملة الكريمة ترمى إلى معنى كريم، وهو أن العـلاقة بين الرجل والمرأة ليـست هى قضاء الـوطر لإشباع الشـهوة المجردة، بل هى تنظيم النسل فلا يصح للرجل الكامل الذى اتجهت به الإنسانية نحو الكمال أن ينظر إلى زوجه إلا على أنهـا مستودع سر الوجود الإنسـانى، وأنها مربى ولده، وأن قطعة مـنه تتصل بها فـيخـتلط وجوده بوجودها، وتخـرج من رحمـها وديعته، وقد امتزجت فـيها عناصرهما وخواصهما وطبائـعهما، وصارت صورة فى الوجود لأشخاصهما، ومنازعهما، وإذا كانت الخلطة الفطرية قد أوجد الله بها ذلك المخلوق الذى يريان فيه أنفسهـما موحدة متلاقية، فإن ذلك يتقاضـاهما أو يحملهما على تنشئته على صورة لما يصبوان إليـه من كمال؛ وإذا تقاصرت نفس أحدهما عن الآخـر فقـد يكون الاضطراب فى تكوينـه الخلقى، بل يكون نقص فى تكمـيل نموه الجسمى.

وإذا كان ذلك بعض ما يشير إليه التعبير عن الأزواج بأنهن حرث، فإنه بلا شك يحث الرجل على أن يتخير موضع حرثه، كما يتخير موضع زرعه، فإنه لا يطلب لبذره إلا الخصبة القوية من الأرض، فكذلك لايطلب إلا القوية من النساء فى جسمها وخلقها ودينها، وطيب أرومتها، وكرم بيئتها؛ ليكون الولد قويا، ولينشأ نشأة كاملة تربى فيه قوة الجسم والخلق والدين والعقل؛ ولذا جاء فى المأثور «**تخيروا لنطفكم وانكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم**»[(١)] وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «**إياكم وخضراء الدِّمَن**» وهى المرأة الجميلة التى نبتت فى منبت سوء[(٢)]. فلا تطلب المرأة لجمالها ولا لمالها، ولا لجاه أسرتها، ولكن تطلب لدينها وخلقها، ولبيئتها الدينية الخلقية الطاهرة.

وقوله تعالى: ﴿**فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ**﴾ تشير إلى المباسطة التى تكون بين الزوجين، وإبعاد ما يتكلفه الإنسان فى لقاء الإنسان؛ فإن ذلك يزول عندما يكون الرجل مع زوجه، ويستروح راحة الحياة، ومودة العشرة الزوجية؛ فإن قوله: ﴿**فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ**﴾ معناه قاربوا أو باشروا نساءكم كيف شئتم. وقد روى الرواة أن اليهود الذين كانوا يجاورون أهل المدينة كانوا عند المباشرة لا يرى الرجل من زوجه شيئا، ولا تكون المباشرة إلا بإبعاد حرف من الثياب؛ وقد سرت تلك الحال من التكلف إلى الذين كانوا يساكنونهم من أهل يثرب، ولعلهم ظنوا ذلك أدبا وتهذيبا، وحسبوه أمرا فى هذه الحال مطلوبا، فسلكوا مسلكهم؛ وكانت قريش تزيل كل تكلف من هذا عندما يختلى الرجل بزوجه؛ فلما كان التزاوج بين المهاجرين من قريش، والأنصار من أهل المدينة الذين سرى إليهم ذلك التزمت من اليهود، كانت تحدث نفرة أحيانا بين الزوجين بسبب التزمت من جانب، ورغبة التبسط من جانب آخر، فكان قوله تعالى: ﴿**فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ**﴾ مزيلا للتكلف، داعيا إلى

---

(١) رواه ابن ماجه: كتاب النكاح - الأكفاء (١٩٥٨).

(٢) مسند الشهاب (٩٥٧)، وجاء فى كشف الخفا (٨٥٥): «إياكم وخضراء الدمن». رواه الدارقطنى فى الأفراد، والرامهرمزى والعسكرى فى الأمثال، وابن عدى فى الكامل.

المباسطة، ليكون ما بين الرجل والمرأة فيه استرواح للنفوس، واستجمام للقلوب؛ فكلمة (أنى) معناها (كيف) أى باشروا نساءكم فى موضع الحرث على أى شكل كانت المباشرة.

ويقول علماء اللغة إن (أنى) يستفهم بها وتكون بمعنى كيف، وذلك أصل استعمالها، وقد تكون مع استعمالها بمعنى كيف للمكان أيضا؛ ولذلك يقول الراغب الأصفهانى: (أنى للبحث عن الحال والمكان؛ ولذا قيل هو بمعنى أين وكيف لتضمنه معناهما؛ قال الله عز وجل: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا... ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران] أى من أين وكيف لك هذا؟).

وهى هنا بمعنى كيف الذى هو أصل استعمالها. وذكر الحرث[1] فى قوله سبحانه: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ﴾ للإشارة إلى أنه مع إباحة الاستمتاع الجسدى، والاسترواح النفسى، وإحلال المباسطة محل التكلف والتزمت، مع كل هذا لا ينسى المقصود الأصلى، وهو أن الغاية هو النسل والقيام على شئونه وتربيته؛ فإذا كانت الحياة الزوجية يزول فيها كل ما يحجب الإنسان عن الإنسان من ظواهر وأشكال، فإن لذلك غايتين ساميتين:

إحداهما: النسل وتهذيبه والقيام على شئونه.

والثانية: الاستجمام والاستعداد بهذا الاستجمام للقيام بأعباء الحياة موفور القوى النفسية التى هى معين الصبر، وأساس الاحتمال.

---

(١) قال المصنف رحمه الله: أصحاب النفوس المنحرفة والأهواء المردية يتقولون الأقاويل، وقد انحرفوا فى تفكيرهم بمقدار انحراف نفوسهم عن الفطرة القويمة، فقد زعم بعض الجهلاء الذين إيفت نفوسهم أن معنى قوله: ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ أى فى أى مكان شئتم فى القبل أو الدبر، ولم يكتفوا بذلك الفهم الضال، بل حاولوا إسناده إلى عبد الله بن عمر، وإلى مالك، وقد كان ذلك كذبا لا شك فيه، فقد نفاه ابن عمر نفيا باتا عندما ترامى إليه، بل إنا لا نتصور أن شخصا مستقيم الفطرة يقوله، وكذّب الثقات بالإجماع نسبته إلى مالك، والآية لا تفيده، ولا يتصور أن تفيده، لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أى بمقتضى الفطرة والتكوين وذلك فى موضع النسل؛ ولأن الله يقول: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ﴾ ويكون حرثا إذا كان المقصود موضع النسل، ولأن الله يقول: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ أى ائتوا موضع الحرث، ولا يتصور ذلك إلا فى موضع النسل، وما كان لنا أن نخوض فى هذا لولا هؤلاء الذين انحرفت فطرتهم فضل فهمهم.

﴿وَقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ اشتملت هذه الجمل السامية على ثلاثة أوامر، وبشرى؛ أما الأوامر الثلاثة فهى ﴿وَقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلاقُوهُ﴾؛ وأما البشرى، فهى ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

والأمر الأول: وهو قوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ﴾ معناه اعملوا فى حاضركم ما يكون لمستقبلكم ذخرا وعتادا، وقدموا من الأعمال الصالحة فى الحاضر، ما يكون نفعًا لكم فى المستقبل؛ لأن من يعمل عملا صالحًا فى حاضره، يمكن للمستقبل الحسن لنفسه؛ وهذا المعنى عام يشمل كل عمل صالح، وكل بر يقدم عليه الإنسان، فهو حصن المستقبل، يقدمه لنفسه من بناء الحاضر على عماد مكين من الخير؛ وهو فى هذه الآية يدل مع هذا العموم على معنى فيها على وجه الخصوص، وهو ما يتناسب مع الزواج وعشرة الأهل، والقيام على شئونهم؛ فالمعنى على هذا: قدموا لأنفسكم فى أمر الزواج وما يثمره، بأن تختاروا عند الزواج ذات الخلق والدين والعفاف والاعتدال، حتى يكون لكم حياة هنيئة فى حياتكم الزوجية، فمن اختار الزوج العفيفة ذات الدين فقد قدم لنفسه، ولمستقبله، وإذا أحسنتم الاختيار فاطلبوا النسل وقوموا على شئونه وتعهده بالخلق الجميل وبث الفضيلة فى نفسه، فإن من قام على تربية ولده فقد قدم لنفسه والولد عمل صالح لأبيه؛ وإذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من بر يؤثر عنه، وولد صالح يذكره ويدعو له، وصدقة جارية مأثورة عنه؛ ثم إذا أحسنتم اختيار الزوج فأحسنوا عشرتها، وخذوها بالرفق والدين والفضيلة والمعاملة الحسنة والقيام بحقها، فإن من يفعل ذلك يقدم لنفسه، فإن المرأة إذا جمحت نغصت البيت، وكان العيش نكدا، فمن أحسن معاملة أهله فقد قدَّم لنفسه.

وعلى هذا يكون لقوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ﴾ معنى عام يشمل كل خير، ويدخل فى عمومه معنى خاص، وهو ما يتعلق بالزواج والعشرة الزوجية والولد.

والأمر الثانى: قوله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ**﴾ وله معنى عام وهو أن يجعلوا بينهم وبين عصيان الله وقاية، ويخافوا الله سبحانه، ويجتنبوا المعاصى، والأذى، وظلم الحقوق، والاعتداء على الناس، وخصوصًا الرقيق؛ ويدخل فى هذا المعنى العام معنى خاص يتصل بموضوع الآيات الكريمات، وهو الزواج وما يثمره، وهو أن يتقى أذى العشير، وظلم المرأة، وهضمها حقوقها، وظلم الأولاد بعدم القيام على شئونهم، وحسن تربيتهم؛ وإن أذى المرأة ظلم ليس فوقه ظلم، وهو ظلمات يوم القيامة. وفى المأثور عن النبى ﷺ أنه قال: «**اتقوا الله فى النساء فإنهن عوان عندكم، اتخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله**»(١). وكان آخر ما وصى به النبى ﷺ أن يتقوا الله تعالى فى المرأة والرقيق.

والأمر الثالث: قوله ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلاقُوهُ**﴾ والإيمان بلقاء الله تعالى هو الذى يربى النفس على فعل الطاعات واجتناب المنهيات، وهو الذى يجعل الإنسان يطمئن إلى فعل الخير، إذ يعلم أن فيه رضوان الله، وهو سيلقاه، ويجنب نفسه فعل الشر؛ لأن فيه غضب الله، وسيلقاه، وسيجزيه الجزاء الأوفى؛ سيجزيه على الإحسان إحسانا، وعلى السوء سوءًا؛ إنه بكل شئ عليم؛ وهذا المعنى عام فى كل شئون الحياة؛ ويدخل فى هذا العموم المعنى الخاص بالحياة الزوجية، وهو أن يراقب الله فى معاملته لأهله وولده، وإن المرأة إن كانت بين يديه قد فقدت النصير، أو حيل بينها وبين نصرائها، فليعلم أن الله معها، وأنه عليه رقيب، وأنه سيلاقيه، وسيأخذه أخذ عزيز مقتدر، ومنتقم جبار، وأنه إن استبد به طغيانه فأكل حقوقها، وانحرفت فطرته فضيع أولاده، فإن الله عليه رقيب، وسيلقاه، ويجزيه على سوء ما صنع؛ وإذا أحسن العشرة، وقام بحق الله وحق الزوج وحق الولد، فأعطى كل ذى حق حقه، فإن الله سيلقاه، وسيجزيه من الخير بما قدمت يداه.

---

(١) رواه مسلم: الحج (٢١٣٧)، وأبو داود: المناسك (١٦٢٧)، وابن ماجه (٣٠٦٥) عن جابر رضى الله عنه، والدارمى (١٧٧٨)، وهو جزء من حديث طويل فى حجة النبى ﷺ.
قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَمَعْنَى قَوْلِهِ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ يَعْنِى أَسْرَى فِى أَيْدِيكُمْ. كما رواه ابن ماجه: النكاح – حق المرأة على زوجها (١٨٤١) ورواه أحمد فى أول مسند البصريين، عن عم أبى حرة الرقاشى (١٩٧٧٤).

وإن هذه هى بشرى المؤمنين، وهى قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فالإيمان يتقاضى المؤمن أن يقوم بحق أهله وبحق ولده، وأن يكون حسن العشرة، وألا يهضم أهله، وإن لم يفعل فليس من الإيمان فى شىء، والله ولى المتقين.

وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَـٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾

كلام الله سبحانه وتعالى من قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ... ﴿٢٢١﴾﴾ [البقرة] فى الأسرة وبيان أسس التلاؤم بين ركنيها ودعامتها؛ وهى الدين والأخلاق، لا المال ولا الجاه ولا الجمال؛ فإن تلك أمور قد تكون عند التفاضل بعد تحقق الأصل وهو التدين والخلق؛ فلا ينظر إلى هذه الأمور إلا بعد تأكد هذين الأصلين.

وقد بين سبحانه بعد ذلك شيئا من العشرة الزوجية يتصل بالعلاقة الفطرية بين الزوجين؛ وفى هذه الآيات ذكر الأمر الذى يتصل بظلم الرجل لزوجه فيما يتصل بتلك العلاقة، وذلك بأن يمتنع عما يتقاضاه الطبع مضارة لها، وقد يكون له زوج أخرى يشبع عندها حاجته الفطرية، ويترك هذه كالمعلَّقة، لا هى زوج تأنس بالحياة الزوجية، ولا هى مطلقة تأنس بأهلها ولا تذوق مضاضة الظلم والحرمان مما أحله الله؛ وقد يوثق ذلك بيمين يحلفها، ويتوهم أن من الخير البرَّ بهذه اليمين، وأن يترك زوجه تأكلها الغيرة، وتكتوى بلوعة الظلم والأذى والمكايدة، وتستوحش بتلك النفرة المستحكمة.

ولقد بين سبحانه وتعـالى الأمر، ووثق البيـان، فنهى عن الأيمان إن حلف وكان الاستمرار على البر باليمين ظلمًـا، وذكر العقوبة الرادعة لمن يعمد إلى مكايدة أهله، والإساءة إليهـا والإضرار بها إن استمر فى غـيه ولـم يسلك الطريق الذى بينه رب العالمين للخروج من تبعة اليمين، وهو تحلتها، وهى الكفارة.

وفى بيان الأمر الأول قال سبحانه وتعالى:

﴿وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ العُرضة بضم العين: تطلق على النصـبة التى تتعرض للسهـام ونحوها؛ وأطلقت على كل ما يتعرض للأشياء والأمور ويكون هدفًا لها فيـقال: فلان عرضة للسفر أى متعرض له. وتطلق العـرضة على القـوة وعلى الهمـة؛ ومن ذلك قول بعض الـشعراء فـى مدح الأنصار: «والأنصار عرضتها اللقاء» وتطلق العرضة على الحاجز الذى يحول ويمنع.

واليمـين تطلق بمعنى الحلف والقسَم؛ وأصل ذلك أن العرب كـانوا إذا وثقوا عهـودهم بالقسم يقسمـونه، وضع كل واحد من المتعـاهدين يمينه في يمين صاحـبه وأطلق على القسم كلمة اليمين؛ وتطلق اليمين على الأمور المحلوف بها؛ ومن ذلك قوله ﷺ: «**إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيـرا منها فأت الذى هو خير وكفِّر عن يمينك**»(١).

وكلمة العرضة فى الآية الكريمـة يصح أن تكون بمعنى القوة؛ والمعنى عليه لا تجعلوا الله قوة لأيمانكم التى تمتنعون فيها عن أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس، أى لا تتخذوا من قسم الله سبيلا للامتناع عن فعل الخير.

ويصح أن تكون العرضـة بمعنى المعرض للأمر كـقول القائل: (فـلا تجعلونى عرضة للوائم) ويكون المعنى على هذا كـما قرر الزمخشرى: لا تجعـلوا الله سبحانه وتعالى معرضًا لأيمانكم فتبتذلوا القسم بالله بكثرة الحلف؛ وذلك لكى تبروا وتتقوا وتصلحـوا؛ وذلك لأن من يكثر الحلف يكون مَـهينًا بين الناس، كـما قـال تعالى:

---

(١) مـتفق عليـه؛ رواه البخـارى: الأيمان والنـذور قول الله تعـالى: (لا يؤاخذكم الـله باللغو فى أيمـانكم) (٦١٣٢)، ومسلم: الأيمان - ندب من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها (٣١٢٠)].

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [القلم]، ولأن المكثر من الحلف لا يكون ممن يصون يمينه فيبر بها؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ... ﴿٨٩﴾﴾ [المائدة] ومن لا يصون يمينه لا يبر بها بل يقع فى الحنث الكثير وقد يكفر وربما لا يكفر؛ ومن يعرض اليمين فى القليل والكثير، والعظيم والحقير من الأمور لايكون متقيا لله، ولمهانته لايصلح بين الناس.

ويصح ـ وهو الراجح ـ أن تكون العرضة بمعنى الحاجز المعترض، ويكون المعنى على ذلك: لا تجعلوا الحلف بالله سبحانه وتعالى حاجزًا مانعًا بينكم وبين فعل الخير، فلا تحلفوا فى أمر يكون الامتناع فيه امتناعا عن خير وتقوى وإصلاح بين الناس؛ وذلك لأن الرجل كان يحلف على الامتناع عن بر غضبا على من يطلبه؛ كما روى أن سيدنا أبا بكر حلف ألا يعطى ذا قرابة له عندما خاض فى شأن ابنته عائشة فى حديث الإفك عليها، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور].

وقد روى أيضا أن عبد الله بن رواحة كان بينه وبين خَتَنِه (زوج أخته) النعمان ابن بشير شيء، فحلف بالله ألا يدخل عليه ولا يكلمه، ولا يصلح بينه وبين خصمه، وإذا قيل له فيه قال: قد حلفت بالله ألا أفعل فلا يحل لى إلا أن تبر يمينى؛ فكانت الآية الكريمة ناهية عن ذلك فمن حلف على شيء فرأى خيرًا منه، فلا يصح أن يجعل الحلف بالله عرضة محاجزة دون فعل الخير، بل عليه أن يفعل الخير ويحنث ويؤدى كفارة اليمين المذكورة فى سورة المائدة، فى قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ... ﴿٨٩﴾﴾ [المائدة].

وإن تفسير العرضة بمعنى المحاجز المعارض دون فعل الخير، هو الأرجح كما نوهنا، والإيمان حينئذ تفسر بأنها أفعال الخير المحلوف على الامتناع منها؛ ووجه الترجيح من ناحيتين:

أولاهما - أن هذا التفسير هو المناسب لما يجئ بعد ذلك، وهو المقصد من السياق، وهو قوله تعالى: ﴿**لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ فإن مقتضاها أنه لا يصح أن تكون اليمين محاجزة دون فيء الرجل إلى أهله، ومنع الأذى والضرر عنها.

وثانيتهما - أن الأحاديث كثيرة متضافرة تحث الحالف على الحنث في يمينه إذا كان الحلف مؤداه الامتناع عن البر؛ فقد روى في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**إني والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذى هو خير، وتحللتها**»[1] وروى أيضا أن النبى ﷺ قال لعبد الرحمن بن سمرة: «**يا عبد الرحمن ابن سمرة لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنْتَ عليها، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها، فأت الذى هو خير وكفر عن يمينك**»[2].

وروى مسلم أن النبى ﷺ قال: «**والله لأن يَلَج أحدكم بيمينه فى أهله آثمُ لَهُ عند الله من أن يعطى كفارته التى افترض الله عليه**»[3].

وقوله تعالى: ﴿**أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ**﴾ هو بيان للخير الذى كانت اليمين تحاجز دونه، وتمنع القيام به؛ والمعنى: لا تجعلوا الله محاجزاً دون أيمانكم لكى تتمكنوا من أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس. والنسق البيانى الكريم يفيد أن علة النهى فى قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ**﴾ هو ﴿**أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ**﴾.

فالخير الذى يطلب، ولا يصح أن تحاجز اليمين دونه ثلاثة أنواع على حسب ما كان يقع من الناس فى أيمانهم:

---

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى فى عشرة مواضع أولها فى كتاب فرض الخمس - الخمس لنوائب المسلمين (٢٩٠٠) ومسلم فى ثلاثة مواضع أولها: الأيمان - ندب من حلف يمينا فرأى غيرها خيرا منها (٣١٠٩).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) متفق عليه؛ رواه البخارى: الأيمان والنذور (٦١٣٥)، ومسلم (٣١٢٧) عن أبى هريرة - رضى الله عنه.

أولها: البر بالرحم، كما حصل فى يمين الصديق الكريم أبى بكر رضى الله عنه.

وثانيها: التقوى بأن يجعل بينه وبين أذى الناس وغضب الله بأذاهم وقاية، كما يتبين فى حلف الرجل فى أهله مضارة بهن وإيذاء لهن.

والنوع الثالث: الصلح بين الناس كما حدث فى يمين عبد الله بن رواحة مع خَتَنه النعمان بن بشير رضى الله عنهما، وما من خير يحلف الناس على الامتناع عنه إلا وهو داخل فى هذه الأنواع الثلاثة.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ذيل الله سبحانه وتعالت كلماته الآية الكريمة بهذه الجملة السامية للإشارة إلى أنه سميع لأيمانهم عند النطق بها وتوثيقهم القول بها، عليم بالدوافع إليها، والبواعث التى بعثت عليها، والنتائج التى تتأدى إليها؛ وإنه تقدست ذاته، وتعالت صفاته، يغفر لهم أيمانهم بالحنث ثم الكفارة فى نظير الخير العميم والنفع العظيم، ومنع الضرر والضرار بالأهل، والبر بذوى الأرحام؛ ثم ذلك التذييل الكريم لايخلو من إنذار بغضب الرحمن الرحيم إن أصروا على ماهم عليه ولم يثوبوا إلى رشدهم ويتخذوا تحلة أيمانهم طريقا للعودة إلى البر.

﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ اللغو من الكلام: ما لا يعتد به، ولا يصدر عن فكر وروية؛ وأصله من لغا الطير، وهو صوت الطيور الذى لا يفهم منه شيء ويظن الإنسان أنه لا يقصد به شيء، وقد يطلق اللغو على الكلام القبيح الذى ينبغى ألا يعتد به؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا** ﴿٣٥﴾﴾ [**النبأ**] وقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ...** ﴿٥٥﴾﴾ [**القصص**] وقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا** ﴿٧٢﴾﴾ [**الفرقان**].

وإذا كان اللغو من الكلام ما لا يعتد به ولايورد مورد الروية والتفكير، فلغو اليمين ما لا يعتد به ولم يصدر عن روية وتفكير. وقد روى فى الآثار صور لأيمان اللغو، وأخذ بعض الفقهاء صورة منها وحصر اللغو فيها، وأخذ غيره بصورة أخرى، وقصر اللغو عليها.

وأرى أن كل صور أيمان اللغو الواردة عن الصحابة تدخل فى معنى يمين اللغو التى كان من فضل الله على عباده ورحمته بهم أن رفع عنهم إثمها، ولم يجعلها موضع مؤاخذة ولا اعتداد، فلا إثم ولا كفارة فيها.

ولنسرد هذه الصور بإسنادها، وكلها يقع مثله فى الحياة اليوم، كما وقع مثله بين الناس فى الماضى:

(أ) ومن صور يمين اللغو ما رواه الزهرى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: إن اللغو هو ما يكون بين القوم يتدارءون به فى الأمر، فيقول هذا والله وبلى والله، وكلا والله يتدارءون فى الأمر، ولا تعقد عليه قلوبهم؛ أى أن القوم يتحادثون أو يتذاكرون فتجرى على ألسنتهم ألفاظ اليمين لا يقصدون بها يمينًا، فلا يقصدون توثيق قول، ولا تأكيد خبر، وقصر الشافعية اللغو على هذا.

(ب) ومن صور اللغو ما روى عن عائشة أيضًا أن اللغو هو الشىء يحلف عليه أحدكم لا يريد منه إلا الصدق، فيكون على غير ما حلف عليه؛ أى أن الشخص يحلف على أمر يعتقد أنه الصدق، ثم يتبين أنه كان مخطئًا فى اعتقاده؛ فهذا لا يؤاخذ عليه رب العالمين، ولا كفارة فيه. وبهذا فسر الحنفية اللغو.

(جـ) ومن صور اللغو المروية عن ابن عباس يمين الغضب الذى يذهب فيه اللب، ويفقد التقدير؛ فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: (لغو اليمين أن تحلف وأنت غضبان) وإن ذلك فيه بعض النظر، وهو سليم إن قصد به الغضب الذى يفقد فيه الغاضب وزن الأمور.

(د) ومن صور اللغو ما روى مرسلا عن الحسن البصرى أن رسول الله ﷺ مر على قوم ينتضلون - يعنى يترامون بالسهام - ومع رسول الله ﷺ رجل من أصحابه، فقام رجل من القوم فقال: أصبت والله، وأخطأت والله؛ فقال

الذى مع النبى ﷺ: «حنث الرجل يا رسول الله! قال: «**كلا؛ أيمان الرماة لغو لا كفارة فيها ولا عقوبة**»[١]. وهذه الصورة قريبة من الصورة الأولى أو الثانية.

وإنا نرى كما نوهنا من قبل أن هذه الصور كلها تدخل فى معنى اللغو؛ لأن معنى اللغو يفهم من مقابله؛ وهو ما ليس بلغو، وغير اللغو هو ما يقصده القلب قصدًا صحيحًا مبنيًا على علم صحيح، وهو موضع المؤاخذة والله سبحانه عبر عن موضع المؤاخذة بأنه ما اكتسبته القلوب أى قصدته واتجهت إليه بعزيمة وعلى علم صحيح؛ وكل الصور السابقة ليس فيها كسب للقلب مبنى على إرادة وعلم صحيح، فلا مؤاخذة، فتكون لغوا.

ومعنى عدم المؤاخذة أنه لا إثم فى الآخرة ولاعقوبة فى الحنث؛ لأنه لا يمين حتى يكون منع، وحتى تجب الكفارة، وقد يقول قائل: إن الحلف بالله ولو لغوا وتكرار ذلك فيه بلا شك ما لا يتفق مع ماللاسم الكريم من إجلال وما يستحق من صون وتحفظ عند النطق، وهو الأمر الذى اتفق عليه العلماء، فكيف لا تكون مؤاخذة فى لغو الأيمان؟

ونقول فى الإجابة عن ذلك: إنه بلا شك يجب أن يصان اللسان عن النطق بأيمان اللغو ما أمكن، وإن ثمة إثمًا إذا كررها وأكثر منها فى الجليل والحقير، والصغير والكبير، حتى صار اللفظ يجرى على لسانه من غير احتياط؛ لأن ذلك قد يؤدى إلى الحلف غير لاغ، بل مع اكتساب القلب؛ ولكن ذلك الاسم الذى جاء من الإكثار والتكرار والاستمرار، ليس هو الإثم المنفى في الحلف الواحد فالإثم الثابت هو ما كان في الكل والاستمرار، والإثم المنفي ما كان فى الجزء والانفراد. على أن نفى المؤاخذة إنما هو ليقدم على الفعل من غير تحرج، وذلك متحقق فى كل أيمان اللغو، سواء أكانت ممن يكثر أم كانت ممن يقل، وإن كان ثمة لوم فهو موجه إلى الشخص فى جملة أحواله وصفاته، لا فى ذات اليمين منفردة.

---

(١) من مراسيل الحسن، ذكره الحافظ ابن حجر فى الفتح باب (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم)..

﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ هذا موضع المؤاخـذة، وهو ما كسبـته القلوب، أى قصدته وأرادته. ولم يجئ عفو الخاطر؛ أو لم يبن على علم ناقص وما قصدته القلوب نوعان:

أحدهما - أن يقصد إلى فعل أمر أو الامتناع عن أمر مستحصداً عزيمته على ذلك، موثقا تلك العزيمة بيمين الله سبحانه وتعالى.

وثانيهـما - أن يحلف على شئ كاذب مـؤكداً قوله لسامـعه ليعتقـد السامع صدقه، والحالف جازم بأنه كاذب؛ وتسمى هذه اليمين يمين الغَموس، ويدخل فيها الأيمان التى يحلفها شهود الزور، والكاذبون فى التقاضى.

والمؤاخـذة فى النوع الأول بوجـوب الكفـارة إن حِنث فى يمـينه، وفى النوع الثانى بالإثم المستمر، حتى يتوب توبة نصوحًا، ويرد الحقوق إلى أصحابها إن ترتب على يمينه ضياع حق أو حكم بباطل. ولقد قرر الشافعى رضى الله عنه أنه تجب مع ذلك كفارة يمين، ولم ير الحنفـية فيها كفارة، إنما الكفارة فـيما يقبل الحنث، وتلك لا تقبل الحنث.

وعبر سبحانه وتعالى عن القـصد والتعمد بقوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ وكسب الـقلب أدق وأخص من مجـرد التعمـد؛ وذلك لأن كسب القلب مـعناه أن اليمين كان لها أثر فيه، قد اكتسبـه منها، كما كسبت منه القصد والابتعاد عن معنى اللغو.

والأثر الذى تنتجه الأيمان المقـصودة يختلف باختلافهـا؛ فإن كانت يمينا برة هى خيـر فى ذاتها وفى موضوعـها، والإصرار عليهـا لا ينتج إلا خيراً، اكتـسبت القلوب عزيمة نحو الخير، وإصراراً عليه وإيمانا به، فتشرق بنور الله، وتستنير بذكر الله. وإن كانت اليمين فاجـرة كاذبة فى موضوعها لم يقصد الحالف فـيها إلا تزكية الإثم، فإن الـقلب يكسب منها شـراً، إذ ينكت فيـه الإثم نكتة سـوداء، وبتكرارها تحيط بالقلب خطيئـاته، وتستغرقه سيـئاته، ويرين الله سبحانه وتعالى علـيه بغشاوة كثيفة من الآثام.

وإن كانت اليمين غير فاجرة، ولكن الإصرار على موضوعها فيه منع للخير، يكون الكسب شراً إن أصر عليها، ويغفر الله إن اتخذ السبيل الذى يكون به تحلة الأيمان، وهو الكفارة السهلة الميسرة لكل إنسان.

هذا بعض ما يشير إليه التعبير الكريم السامى ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ ذيل الله سبحانه هذه الآية الكريمة بهذه الجملة السامية لتأكيد معنى عدم المؤاخذة فى اللغو، ولبيان أنه سبحانه يأخذ عباده بالرفق، ويسهل لهم سبيل العودة إلى الجادة المستقيمة إن حادوا عنها، وتنكبوا سبيل المؤمنين، ويرشدهم إلى ما يخرجون به مما يلقون بأنفسهم فيه من أقوال وأفعال؛ فهو يبين طريق التحلل من الأيمان إن حلفوا ليتركوا خيراً، أو ليرتكبوا شراً، وهو بحلمه وتدبيره وحكمته يبين لهم الحق والسبيل إليه؛ وإن سبقت الأيمان محاجزة دون الخير طلب إليهم ألا يتمسكوا بها ويفعلوا الخير.

وإن رحمة الله سبحانه وتعالى فى الأيمان وغفرانه وحلمه قد بدا فى الإعفاء من يمين اللغو، وعدم اعتبارها، وفى المؤاخذة على ما تكسبه القلوب مع تسهيل العودة إلى فعل الخير، وفى بيان التحلل من اليمين إن حالت بين صاحبها والبر والتقوى والإصلاح بين الناس.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ هذه إحدى الأيمان التى لو استمسك بها الحالف كانت محاجزة ممانعة دون البر والتقوى، فهى من جهة تطبيق عملى للحكم الذى قرره العلى القدير فى قوله تعالى ﴿وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ﴾، ومن جهة ثانية هى بيان لحكم حال تعرض فى أثناء العشرة الزوجية؛ وذلك جزء من موضوع الأسرة الذى ابتدأه سبحانه بقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ... (٢٢٠)﴾ [البقرة] أو بقوله تعالى: ﴿وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ... (٢٢١)﴾ [البقرة] على حسب الاختلاف فى معنى الأسرة من حيث العموم والخصوص.

والإيلاء مصدر آلى يؤلى بمعنى حلف، وخصه الأصفهانى بالحلف على التقصير فى الأمر فقال: (حقيقة الإيلاء والأليَّة الحلف المقتضى لتقصير فى الأمر الذى يحلف عليه).

وقد خص فى الشرع بالحلف على الامتناع عن القرب من امرأته ومسيسها، وكان ذلك التخصيص مشتقا من هذه الآية: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾. والتربص الانتظار، والترقب، ومعنى الجملة الكريمة أن الله سبحانه وتعالى جعل للذين يحلفون ويجعلون موضع حلفهم الابتعاد عن نسائهم وتجنبهن متجنين عليهن ظالمين - تربص أربعة أشهر ينتظرونها، والله يرقبهم فيها، وحكم الله يترقبهم، فإطلاق التربص من غير أن يضاف إلى الحالفين، ولا أن يضاف إلى الله سبحانه وتعالى كان بمعنى الانتظار، وهو من العبيد توسعة لهم، ومن الله سبحانه وتعالى وشرعه ترقب لهم حتى يقطع السبيل على ظلمهم إن طال الأمد وقست قلوبهم.

وتلك المدة التى وسع لهم فيها ليعودوا إلى رشدهم. ويقلعوا عن غيهم، وإلا حقت عليهم كلمة الله سبحانه وتعالى؛ هى أربعة أشهر، وبعدها يوضع حد لذلك الظلم والمضارة فى العشرة الزوجية.

إن العشرة الزوجية أنس وإلف والتقاء روحى وجسدى بتحقيق ما يتقاضاه الطبع الإنسانى، والإنسال؛ ليبقى الإنسان فى هذه الأرض يعمرها إلى أن يقضى الله سبحانه وتعالى أمرا كان مفعولا؛ فإذا جاء الرجل وهو القوام على الأسرة وهو رأسها وعمادها، واشتط واتخذ المضارة والكيد، بدل أن يؤلف القلوب ويؤنس النفوس ويربط بالمودة بينه وبين أهله؛ إذا فعل ذلك فإن الجو يعتكر، والأمور تضطرب، وتحل البغضاء محل المحبة، والمضرة محل المودة؛ فوجب أن تنتهى هذه الحال إما بإعادة الود إلى صفائه، وإما بفصم عُرَى الزوجية التى صارت لا تنتج إلا نكدًا.

وإن من أشد مظاهر المضارة والمكايدة القطيعة فى المضجع، والهجر غير الجميل فى المبيت، فإنه أذى شديد، لا لأنه امتناع عن قضاء الوطر، بل لأنه يدل

على البغض الشديد، ولا شيء يفعل في نفس المرأة أشد من الإحساس بالبغض من العشير والضجيع الذي وهبت له نفسها، وأعطته قلبها، فكان منه ذلك النكر وذلك الهجر.

ولقد جعل الله سبحانه وتعالى أقصى غاية الصبر منها هو أربعة أشهر، وبعدها يكون الفصم، وإنهاء تلك الحياة الزوجية التي تحكمت بين الزوجين فيها البغضاء.

ولماذا كانت المدة أربعة أشهر؟ لقد ذكر بعض العلماء أن تلك المدة أقصى ما تصبر عليه المرأة في المضارة بذلك الهجر غير الجميل. ولقد سأل عمر نساء عن مقدار ما تصبر المرأة عن زوجها، فقالت بعضهن شهرين، ويقل صبرها في ثلاثة، وينفد صبرها في أربعة أشهر. ولقد كان عمر رضي الله عنه بعد هذا يسترد الغزاة ويستبدل بهم غيرهم بعد أربعة أشهر.

ثم إن التقدير بأربعة أشهر هو الذي يتفق مع جملة الأحكام الشرعية؛ ذلك لأن الرجل أبيح له أن يتزوج أربعا من النساء، وإذا كان في كل شهر يقرب نساءه مرة، ويبادل بينهن، فإن قَسمها يكون مرة كل أربعة أشهر، فكان من تناسق الأحكام الشرعية أن جعلت المدة التي تصبر فيها المرأة مع هذا الهجر أو تتصبر أربعة أشهر؛ وذلك فوق أن الفطرة تقول: إن ذلك أقصى غاية الصبر على البعد المتعمد.

﴿فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وإن تلك المهلة التي أعطيها الزوج يتربص فيها وينتظر، والله يرقبه، والشرع يترقبه، إنما هي لكي يقلع عن الظلم وتعود المودة إلى ما كانت عليه، ويؤدم بينهما بحياة رفيقة يقطعانها، فإن فاء إلى زوجه أي رجع إلى مضجعه الذي هجره، وقرب من امرأته ومسها، وحنث في يمينه، كفَّر إذ جعل الله سبحانه وتعالى الكفارة تَحلَّة الأيمان، وعندئذ يغفر الله سبحانه ما كان منه؛ ولذا قال سبحانه: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي أن الله سبحانه وتعالى يغفر لهم ما فرط منهم في جنب أهلهم، والقطيعة التي كانت منهم ما داموا قد رأبوا الصدع وعادوا إلى رشدهم وطيبوا قلوب أهليهم، وأقاموا المودة، وملئوا البيت أنسا بعد أن ملئوه

وحشة؛ ويغفر لهم سبحانه حنثهم فى يمينهم؛ لأن الله سبحانه لا يريد إلا إصلاح حالهم، ولا ينقص من عظمته وجلاله أن يحنث عبد فى قسمه، ما دام الخيرَ يريد والشرَّ يجتنب؛ والله سبحانه وتعالى رحيم بعباده فى أن جعل لهم تحلة أيمانهم كفارة يستطيعونها وأن غفر لهم الحنث، وأن دعاهم إلى ذلك الحنث رحمة بالأسرة من أن تتهدم أركانها، وتتقطع أوصالها وتذهب المودة بين العشير وعشيره، والأليف وأليفه؛ ورحيم بهم فى أن غفر لهم ما فرط من كل منهما فى حق أخيه إذا أعادا المودة إلى سابق أمرها بعد أن كاد الهجر يقطعها.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ هذا هو الفرض القاسى الغليظ، بعد الفرض الرحيم الرفيق؛ وهذه هى العقوبة التى وضعها الشارع الحكيم؛ أى أنهم إن أصروا طول الأشهر الأربعة ولم يرعووا عن غيهم، فإن الطلاق واقع لا محالة بحكم الشارع وكان ذلك الاستمرار هو عزيمة الطلاق القاطعة، وإرادته من الزوج حين صمم عليها؛ لأن الشارع جعله عقوبة لفعله، فمن لم يأت امرأته أربعة أشهر كاملة بيمين حلفها، فإن طلاقها يقع، وهو عقوبة ثابتة مقررة يعتبر الزوج قد اعتزمها وأصر عليها.

فهذه الآية الكريمة تفيد وقوع الطلاق عقوبة للزوج إن أصر على يمينه ولم يحنث فيها، ولم يتحلل منها ويحسن عشرة أهله؛ وهو فى ذلك إنهاء لحال ظالمة للمرأة لا تقوم فيها حقوق الزوجية، ولا هى حرة يختارها من يريد الزواج، وهو منع للمرأة أن تتردى فى مهاوى الرذيلة بسبب هذه المضارة، بل يفتح لها الباب لتختار زوجا عادلا بدل هذا الظالم.

وقد يقول قائل: إن إيقاع الطلاق بحكم الشارع هو عقوبة، فكيف تنسب عزيمة الطلاق إلى الزوج الذى حلف فعوقب بإيقاع الطلاق بغير إرادته، ورغم أنفه، مع أن من يعزم أمراً ويقطعه لابد أن يكون مختارا حرا، وأن يكون الفاعل للأمر ينسب إليه على وجه الجزم واليقين؟

والجواب عن ذلك السؤال من وجهين:

أحدهما - أن طائفة من العلماء قرروا أن الطلاق لا يقع فور انتهاء الأربعة الأشهر، بل يمهل الحالف إما أن يفئ إلى أهله بأن يقربها ويحسن العشرة، وإما أن يقع الطلاق عليه؛ فإن لم يفيء واستمر مستمسكا بقوله، فقد اختار الطلاق واعتزمه حقًا وصدقًا، وأراده عن بينة وعلم، ولا ينفى تلك العزيمة أن يوقعه القاضى، أو يوقعه هو؛ لأنه باشر سببه واختار الطلاق وأصر عليه، وذلك هو قول طائفة من الصحابة والتابعين، وقول مالك والشافعى وأحمد والليث وإسحاق بن راهويه، وأبى ثور، وداود الظاهرى.

وأما قول أبى حنيفة رضى الله عنه فهو أن الطلاق يقع بانتهاء الأربعة الأشهر، والفيء إنما وقته فى الأربعة الأشهر، فلا زيادة فوقها بنص الشارع، وحينئذ يقال كيف اعتزم الطلاق وهو لم يوقعه؟ وحينئذ يكون الجواب هو:

الوجه الثانى - أن هذه العقوبة حتمية بأمر الشارع أعلنها دفعًا للظلم، أو منعًا لاستمراره، أو حملا على العشرة الحسنة ويجب أن يضعها الزوج الحالف نصب عينيه طول مدة الإيلاء، وأن يعرف أنها نتيجة لازمة لاستمراره عليه، فإن أصر عليها من بعد، فقد ارتضى الطلاق واعتزمه، وكيف لا يقال إنه اعتزم الطلاق من استمر أربعة أشهر مصرًا على الامتناع الظالم وهو يعرف أن نتيجته الطلاق الحتمى؟ وكيف يعطى فرصة أخرى من ترك فرصة أربعة أشهر؟.

والطلاق فى هذه الحال هو عقوبة عادلة؛ لأنه من جنس الجريمة، وهو نتيجة طبيعية لمن يظلم زوجه فى العشرة الزوجية؛ وهو باب الفضيلة، إذ يمنع الزوج من أن تتقحم فى الرذيلة.

والطلاق الذى يقع يكون رجعيًا عند الأئمة الثلاثة؛ ودليلهم أن كل طلاق رجعى إلا ما ورد النص بأنه بائن، وليس منه ذلك الطلاق؛ وعلى هذا يكون له الرجعة فى العدة؛ وقد روى عن مالك رضى الله عنه أنه اشترط للرجعة أن يفيء إلى أهله، فلا تتم بمجرد القول، بل لابد من الدخول، وقال أبوحنيفة: الطلاق بائن لأنه دفع للضرر، ولا يتحقق إلا بالبينونة، وإلا كان تمكينًا للزوج من معاودة الظلم.

وقد أشار الله سبحانه إلى غضبه وعقوبته إن عزم الطلاق؛ فقد جعل جزاء الشرط كونه سميعًا عليمًا، إذ قال ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى سميع إلى ما كان من الزوج الحالف، قد سمع يمينه التى لم يرد بها خيرا، وكلامه الذى لم يرد به إلا ضرا؛ عليم بما وقع منه من مضارة وإيذاء، وأنه لم يحسن العشرة الزوجية، ولم يحسن الفراق، فإنه لم يسرحها بمعروف، بل تركها هملا حتى أنقذها الله من ظلمه بحكمه العادل الحاسم الرحيم؛ وإن الله سبحانه إذا كان عليما بما وقع، سميعًا لما قيل فإنه لابد يوم القيامة مجاز الإحسان إحسانًا والسوء سوءًا؛ والطلاق ليس العقوبة الكاملة، إنما العقوبة الكاملة يوم الجزاء الأوفى، وعندئذٍ تجزى كل نفس بما كسبت، وإلى الله مرجع الأمور.

وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًاۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾

أشارت الآيات السابقة إلى أمثل السبل لاختيار الزوج، وهو أن يكون أساس الاختيار الدين والتقوى والخلق، لا المال والنسب، ﴿وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ... ﴿٢٢١﴾﴾ [البقرة].

ثم أشارت الآيات أيضا إلى حسن العشرة الواجبة، ولطف المودة الواصلة، وبينت أن العلاقة بين الزوجين طهر لا دنس فيه، ونظافة لا رجس معها يستوى فى ذلك الحس والمعنى، والمخبر والمظهر.

وأوجبت أن تكون العلاقة قائمة على العدل من غير ضرار ولا ظلم، وبينت الحكم فى الظلم الواقع إن استمر عليه مرتكبه، ووثق إصراره بيمين يحلفها،

وذكرت أن القطع فى هذه الحال أولى من الوصل، والإنهاء أولى من البقاء لأن بقاء الحياة الزوجية فى هذه الحال استمرارا للظلم، وبقاء للإثم، ولا منفعة ترجى، ولا جدوى تلتمس؛ ولذلك قرر الله سبحانه وتعالى حكمه الصارم وهو الطلاق القاطع لهذا الظلم المستمر.

ولقد بينت بعد ذلك هذه الآية الكريمة التى تلوناها، والتى سنتكلم فى معناها حكم الطلاق، وفصلت أحواله ومراته الآيات من بعدها.

وقبل أن نخوض فى معنى هذه الآية الكريمة، والإشارة إلى دقائق ألفاظها ومعانيها، نقرر أن شريعة القرآن شرعت الزواج عقدا أبديا فى أصل شرعته؛ لأنه شرع لمعان وأغراض لا تتحقق إلا مع البقاء والدوام، فقد شرع لإقامة الأسرة، وتنظيم الحياة بين الرجل والمرأة، وإنجاب النسل، والقيام على تربيته وتهذيبه والسير به فى مدارج الحياة، وتلك أغراض لا تكون على الوجه الأكمل إلا إذا استمرت الحياة الزوجية موصولة موثقة بروابط من المودة والأخلاق والشرع إلى أن يقضى الله قضاءه. ذلك حكم الشرع، وهو سنة الوجود، وهو أكثر أحوال الزواج بين بنى الإنسان، لا يختلف فى ذلك شرقى عن غربى ولا مسلم عن مسيحى.

والإسلام هو دين المبادئ السامية، يبين المثل العليا ويدعو الناس إليها، فهو يشير إلى المثل السامى فى الزواج فى مثل قوله تعالى: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** (٢١) ﴾ [**الروم**] وبقوله سبحانه وتعالى فى العلاقة الزوجية: ﴿ **هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ...** (١٨٧) ﴾ [**البقرة**].

ولكن الإسلام مع دعوته إلى تلك المثل العالية فى العلاقة الزوجية يعترف بالحقائق الواقعة ويعالجها، ويطب لها، ليأخذ النفوس إلى السير فى طريق الكمال، فإن عجزت أو انبتّت فى الطريق عالج ذلك العجز.

وكذلك عالج الأمر فى شأن الزواج فشرعه أبديا، ولكن الشرط فى استمراره أن يكون الوداد هو الرابطة الواصلة، وأن تلك الرابطة قد تتقطع أسبابها وتنفر

القلوب بعد مودتها، وتنفصم عروتها، فهل يبقى المثل السامى للزواج وهو الاستمرار ولا يلتفت إلى النفرة المستحكمة والعداوة المسيطرة، ونيران البغضاء الملتهبة؟ لذلك اتجه الإسلام إلى علاج تلك الأدواء القائمة والطب لها، فلم يكتف بالمثل العليا يعلنها ويدعو إليها، بل اعترف بالواقع وعالجه، وطب للأسقام، فكان دين الحقائق الثابتة، والسمو النفسى.

والنزاع بين الزوجين أمر يقع، مهما يكن الزوجان، ومهما تكن درجة كمالهما، وقد كان نساء النبى ﷺ يختلفن معه فى الشأن الذى يربط بينهما، بمطالبته بما ليس عنده، وكان النبى ﷺ الأسوة الحسنة لقومه وأمته فى أخلاقه ومعاملته لأهله، فى الغضب والرضا، وفى الوفاق وفى الخلاف، ولكن أنى يكون للناس أخلاق النبيين، والوحى ينزل عليهم من السماء، ونفوسهم علت إلى الملكوت الأعلى ولقد كان النبى ﷺ يقول: «**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى**»(١).

ولقد دعا الإسلام إلى إصلاح ما بين الزوجين إن ابتدأت العلاقة بينهما تسير فى غير طريق المودة؛ ولذا قال تعالى: ﴿ **وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٢٨)** ﴾ [النساء].

ودعا الزوجين من له بهما صلة أن يتدخلوا عند الشقاق بينهما أو عند خوفه، بأن يحكموا حكمين عند خوف الشقاق وتوقع النزاع؛ ولذا قال تعالى: ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (٣٥)** ﴾ [النساء].

وإذا تعذر الإصلاح ولم يمكن التوفيق وصار الأمر نيرانا، ولم يكن سلاما كان لابد من التفريق؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ **وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (١٣٠)** ﴾ [النساء].

---

(١) رواه ابن ماجه: النكاح - حسن معاشرة النساء (١٩٦٧) عن ابن عباس - رضى الله عنهما.

لابد إذن من التفريق بينهما؛ لأن عقد الزواج أصبح غير صالح للبقاء، ولكن من الذى يملك التفريق؟ لاشك أنهما إن اتفقا عليه وقع الطلاق، ولا ضير فى ذلك ما دام لم يكن فى نوبة غضب جامحة، ولم يكن لأمر عارض، فيجب الاحتياط لذلك ما أمكن الاحتياط.

هذا إذا لم يتفقا فهل يقع الطلاق بإرادة منفردة من غير حكم قضائى؟ لقد قال بعض الذين يظنون أن فى ذلك صلاحا أنهما إن لم يتفقا على الطلاق لا يقع إلا بأمر القضاء، وإن ذلك القول له وجهته لو كانت كل أمور الأسرة يجرى فيها التقاضى، ويسوغ فيها الأعلان، وأن تتكشف أسرارها بين الناس، ولكن الأمور بين الزوجين لا تجرى فيها البينات، وهى مستورة بستر الله لا يسوغ إعلانها، وليس من مصلحة المجتمع إظهار العيوب الخاصة فيها.

وهب السبب المسوغ للطلاق هو النفرة الشديدة فكيف يمكن إثباتها؟ إنها لا تعرف إلا من صاحبها؛ لذلك لم يكن الطلاق فى الإسلام فى عامة أحواله بيد القضاء، بل جرى الأمر فيه على أن يكون بيد الزوج إن كان هو الراغب، وبيد القضاء إن كانت هى الراغبة فيه.

وهنا يَرِدُ سؤالان: أولهما: لماذا كان بيد الزوج مطلقا وبيد الأخرى مقيدًا؟ والثانى: ألا يخشى ألا تكون النفرة مستحكمة، ويطلق الزوج لنوبة غضب جامحة، وتحت تأثير هوج ليست فيه إرادة مستقيمة؟

والجواب عن السؤال الأول: أن الزوج تكلف فى سبيل الزواج ما لا كثيرا، وسيعقب الطلاق تكليفات مالية أخرى، فوق ما يحمله الزواج الجديد من أعباء جديدة، فكل هذا يدفعه إلى التأنى والتروى فلا يندفع وراء هوى جامح إلا إذا إيفت مشاعره، وفسدت مداركه، أما المرأة فعكس ذلك، فلو كان الطلاق بيدها من غير تدخل قضاء لا ندفعت وراء هواها جامحة، ولكان فى ذلك ظلم شديد على الرجل بضياع ماله، وتكليفه بأعباء مالية جديدة فكان لابد أن يتدخل القضاء ليعرف أكان

الزوج ظالما فيذوق وبال أمره بضياع ماله، وهدم الحياة الزوجية التى أقامها على الظلم، أو ليعرف أن الزوجة ظالمة بالنشوز فيقضى بالطلاق، ويكلفها المغارم المالية التى غرمها الزوج فى سبيل الزواج كما هو مذهب مالك؟ وليس السبيل لمعرفة الحق فى الأمر هو الإثبات بالبينات فقط، إنما هو الإثبات بتحكيم الحكمين من أهلها وأهله.

وأما الجواب عن السؤال الثانى، وهو الخاص بألا تقع الحياة الزوجية تحت تأثير الغضب الجامح، فقد احتاط الشارع الإسلامى لأمر ذلك الغضب فى الطلاق بأحكام شرعها قبل الطلاق وبعده:

(أ) فهو أولا: فرض أمر الحكمين والإصلاح ما أمكن الإصلاح إذا كان شقاق بين الزوجين كما أشرنا من قبل.

(ب) وأوجب ثانيا: أن يكون الطلاق فى وقت لا تكون المرأة فيه على حال تسوغ النفرة، إلا إذا كانت مستحكمة، فمنع الطلاق فى حال الحيض ومنع الطلاق فى الطهر الذى دخل بها فيه، وظواهر السنة أن يكون الطلاق فى هذه الأحوال باطلاً.

(جـ) واحتاط الشارع الإسلامى ثالثا بالنسبة للزوج المدخول بها وهى التى قامت معها الحياة الزوجية فعلا، فلم يسوغ أن يكون الطلاق فى هذه الحال باتا، فلم يسوغه إلا واحدة، ولم يسوغه إلا رجعيا فى أثناء العدة.

(د) واحتاط الشارع رابعا: فجعل للزوج الحق فى مراجعة زوجته من غير عقد جديد ولا مهر جديد مدة طويلة تقارب نحو ثلاثة أشهر، فإذا مضت هذه المدة الطويلة، مع الإصرار والباب مفتوح وتدخل أهل الخير بينهما محتمل، فإن ذلك يكون دليلا على استحكام النفرة، وإن القلوب قد تشعب ودها، ولم يعد من الصالح بقاء الحياة الزوجية فى ظلها.

(هـ) واحتاط الشارع الإسلامى خامسا فسوغ لهما أن يستأنفا حياة زوجية جديدة، إن عادت القلوب النافرة، واستقامت على الحق، وندم كل واحد على ما فرط منه فى جنب صاحبه.

فإن تكرر الطلاق من بعد، تكررت الاحتياطات السابقة، فإن كانت الثالثة فهى التحريم المؤقت، حتى تكون التجربة القاسية بزواجها من رجل آخر زواجا صحيحا للدوام والبقاء وقيام العشرة الزوجية الجديدة ثم انتهائها بأى سبب من أسباب الإنهاء الشرعية الصحيحة، فإنها بعد ذلك تحل لزوجها الأول، وقد صقلته التجربة وصقله البعد، والله عليم بذات الصدور.

ولقد سقنا هذا القول فى مقدمة تفسير هذه الآيات الكريمة المشتملة على أحكام الطلاق؛ لأن ذلك القول خلاصتها، وهو مرماها، ولنضع الأحجار فى أفواه الذين يعيبون أحكام الطلاق فى القرآن، وهى أحكام قد اشتقت من الفطرة وطبيعة الحياة الزوجية، والاحتياط لها ما أمكن الاحتياط ولم يكن شىء منها معروفا من قبل، ولم يصل العقل البشرى لأدق منها وأحكم من بعد؛ إنها شريعة اللطيف الخبير.

﴿**وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ**﴾ التربص معناه: التأنى والانتظار، وقد قال بعض العلماء أنه مقلوب التصبر، فهو تكلف الأناة، وتكلف الانتظار مع صعوبة الاحتمال، كما هو الشأن فى أمر الصبر والتصبر، وسواء أصح ذلك القول أم لم يصح، فالتصبر والتربص متلاقيان فى المعنى، ومتشابهان فى اللفظ.

والتعبير «يتربصن» يدل على الأمر، وهو الطلب اللازم المؤكد، وإن كانت الصيغة فى ظاهرها صيغة خبرية، وقد قرر الخبراء بالبيان العربى أن أوكد الصيغ دلالة على اللزوم الموثق: الصيغ الخبرية التى تساق للطلب، مثل ﴿**وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ** ... (٢٣٣)﴾ [**البقرة**]، ومثل هذه الآية الكريمة التى نتكلم فى معناها، ولكن مع ذلك لماذا كان النسق البيانى

السامى فى أن يجىء الأمر فى هذا المقام بتلك الصيغة الخبرية، فيكون معنى يتربصن: ليتربصن؟.

والجواب عن ذلك من عدة وجوه:

أولها: الإشارة إلى أن ذلك التربص يجب أن يكون من ذات نفس المطلقة، لأنه هو الذى يليق بكرامتها، ويتفق مع فطرتها، فإن كانت الرغبة تدفعها إلى الزواج العاجل السريع إن كان الزوج الجديد كفئا، فإن الكرامة توجب عليها الانتظار والتريث، فلا يليق بالحرة الكريمة أن تنتقل بين الأزواج انتقالا سريعا، لافاصل فيه بين الزوجين.

وثانيها: أن نداء الفطرة يوجب عليها الانتظار لتستبرئ رحمها، حتى إذا كان حمل نسب لأبيه ولا يتنازعه الأزواج، فهن إذا انتظرن وامتنعن عن الزواج هذه المدة فكأن ذلك من أنفسهن لامن أمر فوقهن، وكأن ذلك إلزام الفطرة قبل أن يكون إلزام الشرع.

وثالثها: الإشارة إلى أن الأمر بالتربص أجيب وحصل التربص فعلا، فالتعبير بصيغة الخبر إشارة إلى الأمر والتنفيذ معا.

وإن من أبلغ الإشارات السامية الإتيان بكلمة ﴿**بِأَنفُسِهِنَّ**﴾ فى الإلزام بالتربص، فإن فيها الإشارة إلى ما فى معنى التربص من الصيانة لأنفسهن عن الابتذال والاحتفاظ بكرامتهن. ولقد قال الزمخشرى: فى ذكر «الأنفس» تهييج لهن على التربص وزيادة بعث؛ لأن فيه ما يستنكفن منه، فيحملهن على أن يتربصن، وذلك أن أنفس النساء طوامح إلى الرجال، فأمرن أن يقمعن أنفسهن، ويغلبنها على الطموح ويجبرنها على التربص.

ولماذا كانت تلك الإشارات المتعددة على المرأة؟ لأن التربص لا يعرف إلا من جانبها، فمداه لا يعرف إلا منها، فكان ذلك التشديد النفسى، لتتغلب على أهوائها ولا تقول إلا حقا.

وقد كانت مدة التربص بحكم القرآن الكريم هى ثلاثة قروء، والقروء جمع قرء، بضم القاف وفتحها، وقد اتفق علماء اللغة على أن كلمة القرء تطلق على الحيضة وعلى المرة من الطهر الذى يكون بين الحيضتين، وأصل معنى القرء بمعنى الجمع عند بعض علماء اللغة، ووافقهم الشافعى، ولكن خالف فى ذلك أبو عمر ابن عبد البر، وقال: أن القرء مهموز لا مقصور، والذى يكون بمعنى الجمع مأخوذ من قريت لامن قرأت، ولكن علماء اللغة على غير ماقاله ابن عبد البر.

والقرء كما يطلق فى أصل معناه على الجمع، يطلق على الانتقال والخروج من حال إلى حال، فيطلق على الانتقال من الحيض إلى الطهر، ومن الطهر إلى الحيض.

ويطلق القرء أيضا بمعنى الوقت، وهو المعنى الذى جرى فيه الاشتراك وهو وقت الطهر، أو وقت الحيض.

هذا هو الأصل اللغوى لكلمة «قُرْء»، وقد اتفق علماء اللغة على أنه يجوز إطلاقه على مدة الحيضة، وعلى مدة الطهر، ولكن اختلف مفسرو السلف فى المراد بالقرء فى الآية: أهو مدة الطهر بين الحيضتين، أم هو مدة الحيضة؟ فعمر وعلى وابن مسعود وأبو موسى الأشعرى، ومجاهد وقتادة وعكرمة والسدى وغيرهم على أن المراد فى الآية مدة الحيضة، وبهذا أخذ فقهاء العراق، وعلى رأسهم أبو حنيفة، ثم جاء على ذلك الرأى من بعد أحمد بن حنبل.

وقالت عائشة رضى الله عنها، وعبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت، والزهرى وغيرهم: إن المراد بالقرء مدة الطهر بين الحيضتين، وبهذا أخذ فقهاء الحجاز، وعلى رأسهم إمام دار الهجرة مالك رضى الله عنه، ثم جاء من بعده الشافعى، ونهج هذا المنهاج.

وقد حاول كل واحد من الفريقين المختلفين من الفقهاء، أن يلتمس من آى القرآن ومن السنة ما يؤيد مذهبه، ويوضح تفسيره، وقد استدل الحنفية والحنابلة فى تفسير القرء بالحيضة بأدلة، منها:

(أ) أن النبى ﷺ فسر القرء بمعنى الحيض، وذكر ذلك فى عدة مواضع، فقد قال النبى ﷺ: «**دعى الصلاة أيام أقرائك**»(١). ولاشك أن المراد فى هذا الحديث الحيض؛ لأنه الذى تفسد الصلاة فيه، وأيضا فإن فاطمة بنت أبى حبيش فشكت إلى رسول الله ﷺ الدم فقال لها ﷺ: «**إنما ذلك عرق، فانظرى إذا أتى قرؤك؛ فلا تصلى، وإذا مر القرء فتطهرى ثم صلى من القرء إلى القرء**»(٢).

وفوق ذلك فقد قدر عمر على جمع من الصحابة ووافقوه ولم يعرف لهم مخالف عدة الأمة بالحيض دليلا على أنهم فهموا القرء حيضة؛ لأن عدة الأمة من جنس عدة الحرة، وإن كانت نصفها، فكان لابد أن يكون المراد من القرء من الآية الحيض فى نظرهم.

(ب) وإن الدليل على أن المراد بالقرء فى تقدير العدة هو الحيض لا الطهر أن القرآن الكريم جعل الأساس فى تقدير العدة بالأقراء كون المعتدة حائضا أو غير حائض، فكان الأساس هو الحيض، فقد قال تعالى: ﴿ **وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ** ... ﴿٤﴾ ﴾ [**الطلاق**] وإذا كان الحيض هو الأساس فى تقدير الأقراء، فلابد أن تكون الأقراء هى الحيضات.

(ج) وإن الغرض الأول من العدة لا يتحقق إلا بالحيض؛ لأن الغرض براءة الرحم، وذلك لا يتحقق إلا بالحيض، ولأن الحيض هو الأساس للطهر الذى يتخلل الحيضتين، فكأن الأنسب للسياق البيانى أن تقدر العدة بالحيضات لا بالأطهار التى تتخللها، وفوق هذا أننا لو قدرناها بالأطهار لكانت العدة دون الثلاثة إن احتسبنا الطهر الذى حصل فيه، وتكون أكثر من الثلاثة إن لم تحتسبه، وإن احتسبنا الأقراء بالحيضات كانت الأقراء ثلاثة ما دام هو طلاق السنة الذى لايكون إلا فى طهر. وهو المفروض شرعا.

---

(١) رواه الدارقطنى (٨٠٩) ج١ ص ٢١. وجاء فى البخارى: الوضوء (٣١٤) ومسلم الحيض (٥٠١).

(٢) رواه النسائى: الطهارة - باب ذكر الأقراء (٢١١). ورواه أبو داود: الطهارة (٢٤٢)، وابن ماجه (٦١٢)، وأحمد (٢٦٠٩٤).

ثم فوق كل ذلك إن الذى يتفق مع معنى الجمع الذى هو فى معنى القرء هو الحيض؛ لأنه دليل الامتلاء والاجتماع الكامل، فهو الفيض بعد أن امتلأ الإناء.

هذه حجج الحنفية والحنابلة الذين قرروا أن القرء هو الحيض فى الآية: وأن العدة تقدر بالحيضات، لا بالأطهار التى تتخللها.

أما الشافعية والمالكية ومن سلك مسلكهم، فقد قالوا فى الأحاديث السابقة إنها إن صحت تكون دليلا على أن الحيض تطلق عليه كلمة قرء، ولا مشاحة فى ذلك وليست دليلا على أنه المراد فى الآية الكريمة، وأما قول عمر إن عدة الأمة حيضتان، فهو سير على رأيه فى تفسير القرء بالحيضة، ولا يدفع رأى صحابى برأى صحابى مثله بل يختار أقواهما، والاستدلال بآية ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ ... ④﴾ [الطلاق] لاينتج؛ لأن الأقراء إذا فسرت بالطهر لا تكون إلا لذات الحيض، إذ هو فاصل بين حيضتين.

وقد استدل لهؤلاء الذين فسروا الأقراء بالأطهار بأدلة من الكتاب والسنة واللغة والرأى:

أما الكتاب والسنة فقوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ... ①﴾ [الطلاق] وقد وردت السنة بأن الطلاق لا يكون فى الحيض، ولا يتصور أن يكون الطلاق فى العدة مع نهى النبى ﷺ عن الطلاق فى الحيض إلا إذا فسرنا القرء بالطهر لا بالحيض.

وأما استدلالهم باللغة والرأى، فلأن القرء معناه الجمع، يتم فى الطهر لا فى الحيض؛ لأن الحيض، مؤداه أن يرخى الرحم فيخرج الدم، فهو تفريغ لا جمع، والجمع فى الطهر.

ولأن القرء معناه فى اللغة الانتقال، فيكون المطلوب ثلاثة انتقالات، وهى الانتقال من الطهر إلى الحيض، ثم من الحيض إلى الطهر، ثم من الطهر إلى الحيض وبه تتم العدة، وذلك يقتضى أمرين:

أولهما: أن يفسر القرء بالأطهار؛ لأنها التى بها تتحقق الانتقالات الثلاثة، ولا يفسر بالحيضات؛ لأن بها تتحقق انتقالات أربعة لا ثلاثة.

الأمر الثاني: أنه يحتسب من الأطهار الثلاثة الطهر الذى حصلت فيه الطلقة.

وفى الحق أننا بعد ذلك الاستدلال الطويل نميل إلى رأى عمر وعلى وابن مسعود، وهو رأى الحنفية؛ لأن الأساس فى تقدير العدة بالاتفاق هو الحيض، سواء أفسرنا القرء بالطهر أم بالحيضة؛ لأن الطهر زمن بين حيضتين، والمناسب أن يكون الحيض هو وحدة التقدير؛ لأنه الأمر الإيجابى فى المقام، والطهر أمر سلبى، ولأنه المناط المفرق بين الحامل وغير الحامل، والمفرق بين العدة بالأشهر، والعدة بالأقراء.

وقبل أن نترك هذا المقام نشير إلى أن قوله تعالى: ﴿**وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ**﴾ خاص بالمعتدات من المطلقات ذوات الحيض غير الحوامل، أما غير المطلقات وهن المتوفى عنهن أزواجهن فقد بينت عدتهن بقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ... (٢٣٤)**﴾ [**البقرة**].

وأما الحوامل فقد بينت عدتهن بقوله تعالى: ﴿ ... **وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ... (٤)**﴾ [**الطلاق**].

ومن لا يحضن ليأس من الحيض، أو لأنهن لم يرين الحيض، فقد ثبتت عدتهن بقوله تعالى: ﴿**وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ ... (٤)**﴾ [**الطلاق**].

﴿**وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ**﴾ أودع الله أحشاء المرأة أمانات ناط بها أحكاما، فكانت الأمينة على تلك الأحكام كما كانت الأمينة بمقتضى نظام الله فى الكون، على الأنساب والأولاد، وبمقدار عظم الأمانة كان عظم التكليف؛ لذلك قرر سبحانه وتعالى أنه لا يحل لهن أن يكتمن أمانة الله التى خلقها فى أرحامهن من ولد لينسبنه إلى غير أبيه، فإن ذلك خيانة للأمانة وكذب على الله،

وافتراء على الحق، وكـذلك لا يكتمن ما خلق فى أرحامـهن من دم تلفظه الأرحام بعد أن خلقه الله سبحانه وتعالى فيها، وذلك لتطول العدة ويمتد الإنفاق، كما كان يفعل ذلك كـثيرات من نساء هذا العـصر، مما اضطر الحكومة أن تمنع سـماع دعوى نفقـة المعتـدة لأكثـر من سنة ميـلادية، ولا يزلن مع ذلك يكتمن مـا خلق الله فى أرحامهن!!.

وعبـر الله سبـحانه وتعـالى عن الدم والولد بأنه ﴿**مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ**﴾ للإشارة إلى أن الكتمـان كذب على الله، ونفى لخلقه وتكوينه، وفى ذلك مضـاعفة الجرم وعظم الإثم، وذلك فـوق أن هذا التعبيـر عام شامل كـامل لموضوعى الإنكار والكتمان وهما الحمل والحيض.

وقد قرن سبحانه وتعـالى النهى عن الكتمان بقوله تعالى: ﴿**إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ**﴾ للحث على عدم الكتمان، والإخبار بما خلق الله، لتستقيم الأحكام، وتتقـرر الحقوق، وفى ذلك تعظيم لأمـر الكتمان، بأنه ينافى الإيمـان، لأن الإيمان يبعث على الصدق، ويدعو إلى المحافظة على الأمانة، وليس من المحافظة على أمانة الله ووديعته جحودها وكتمانها، وما ترتب على ذلك من ضياع الحقوق التى تعلقت بها، والاسـتهانة بأحكام الله سـبحانه وتعـالى التى ناطها بهـا، وأى مؤمنة ترضى لنفسها أن تعاند أحكام الله، وتخون أمانته، وتجحد وديعته!!.

وفوق ذلك فى هذه الجملة السـامية تهديد ووعيد، باليـوم الآخر، وما يكون فيه من عذاب شديد، ثم ما يكون فيه مـن إظهار ما كتم، وكشف ما أسر، وإظهار ما أخفى.

هذا وقبل أن نتـرك الكلام فى هذا الكلم المحكم نقرر أن الفقـهاء مجتمـعين قرروا أن القـول قول المرأة فى الإخبار عن عـدتها، ابتداء وانتهـاء، ولكن قرروا مع ذلك أمدا ينتهى للكتب الفقهية، فـإننا لا نمس من أقوال الفقهاء إلا ما له صلة بفهم ألفاظ القرآن الكريم والله سبحانه وتعالى بكل شئ محيط.

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا﴾ فى هذه الجملة السامية بيان لبعض المقاصد الشرعية التى أرادها الشارع الحكيم من شرعية العدة، وهو أن يكون لدى المطلق فرصة مراجعة نفسه، بعد أن تكون قد ذهبت عنه نوبة الألم التى أدت إلى الفراق، وقد تكون سحابة صيف تقشعت، وعارضا قد زال، وفى هذا بيان لعلاج الله سبحانه وتعالى لنفوس المطيقين، إذ جعل لهم وقت التربص من جانب المرأة، وقت تروية وتدبر من جانب الرجل، وفرصة لائحة لمن يريد الإصلاح من الأهل والعشيرة، وكل من يهمهم أمر الزوجين، وما كان بينهما من ثمرة لهذا الزواج، والبعولة هم الأزواج، قال فيه الزمخشرى: إنه جمع بعل على وزن فعول، ولكن ألحقت به التاء، وجوز أن تكون مصدرا على وزن فعولة أريد به الجمع، أو يكون الكلام على حذف مضاف تقديره أهل بعولة.

وتسمية المطلق بعلا، بعد أن أوقع الطلاق فعلا، دليل على أن الطلاق الرجعى الذى تجوز فيه المراجعة لا تنفصم به عُرَى الزوجية، بل تستمر قائمة، ويعتبر المطلق زوجا، وتعتبر المطلقة زوجا أيضا، وكذا يتوارثان إذا مات أحدهما والعدة قائمة.

وفى اعتبار كل مطلقة زوجة إذا كان الطلاق الأول أو الثانى وهى ذات عدة ما دام الطلاق من غير فداء بالمال ـ إشارة إلى أن الطلاق الأول والثانى رجعى دائما ما دام إلى عدة، ومن غير فداء، وهو مذهب الجمهور من الفقهاء، فقد قرروا أن ذلك حكم الشارع، وأنه لا يسوغ للمطلق أن يجعل بائنا ما اعتبره الشارع رجعيا، وخالف فى ذلك الحنفية وقالوا: إنه يسوغ للمطلق أن يجعل الطلاق بائنا ولو كان بعد الدخول ودون الثالثة ومن غير فداء؛ لأن الرجعة حقه فله أن يسقطها.

ولكن الجمهور يرون أن الشارع الذى أعطى الزوج حق الطلاق هو الذى قيد ذلك التقييد فالرجعة ليست حقا مطلقا للزوج ولكنها فرصة، وقيد فى الطلاق، فلا يرفع القيد، ولا يزيل الرخصة التى رخصها الله سبحانه وتعالى له، ونظم بها أمر

الطلاق، ولكنه يستطيع ألا ينتفع بها من غير أن يسقطها، فإنها لتدارك ما فاته، إن جمحت به نفسه، فنطق بالطلاق ثم تبين خطؤه.

وإن تسمية المطلق زوجا أو بعلا فهم منه فقهاء الحنفية أن الطلاق الرجعى لا يزيل الحقوق الزوجية ما دامت العدة قائمة، والتربص فيها لازما؛ ولذلك لا يعتبرون الرجعة إعادة للزواج، أو فى معنى إنشائه، بل يعتبرونها استدامة لأحكام الزواج واستمرارا له؛ لأنه لم يزل ما دامت العدة قائمة؛ ولذلك لا يعتبرون الدخول بها حراما قبل النطق بالرجعة، ويعتبرون الدخول نفسه رجعة، وفهموا أن الرد فى قوله تعالى: ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ معناه الاستدامة والاستمرار على أحكام الزواج.

ولكن الشافعية فهموا أن الرجعة ليست استدامة لأحكام الزواج، ولكنها إعادة له؛ ولذا لم يسوغوا الدخول قبل النطق بالرجعة، والدخول لا يعتبر رجعة لأنه قبل النطق بها حرام، والحرام لا يكون سببا لنعمة الحلال.

والرجعة عمل من جانب الزوج وحده، وليس فيها مهر جديد، ولا تعتبر عقدا يحتاج إلى رضا المرأة، وقد اشترط بعض الشافعية والحنابلة الإشهاد عليها لقوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ... (٢)﴾ [الطلاق] وكان ذلك القول الكريم بعد بيان الطلاق والرجعة، والحنفية استحسنوا الشهادة فى الرجعة القولية ولم يوجبوها.

وقد قيد الله سبحانه وتعالى جواز الرجعة بقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا﴾ أى أن الرجل لا يسوغ له أن يفكر فى الرجعة إلا إذا حاول إصلاح حاله، وتقويم معوج نفسه، وحملها على الاستقامة فى المعاملة، والعمل على خير الأسرة، وإبعاد الغضب عن أن يكون حكما فى الحياة الزوجية، كما يحاول أخذ زوجه بالرفق، والتقويم بالموعظة الحسنة، وتقريبها بالمودة الواصلة، مع الإرشاد الحكيم، والإعراض عن البهتان، وتجنيبها الزلات، وسياسة الأسرة على أسس قويمة من الرحمة ولطف العشرة، والحزم الصادق، من غير إرهاق، ومن غير إعنات، وتعجبنى كلمة حكيمة قالها عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فقد قال: (يعجبنى الرجل يكون فى أهله كالصبى، فإذا التمسوا ما عنده وجدوه رجلا).

فإن راجع الرجل زوجه وهو على هذه النية فقد اختار الطريقة المثلى، وسيكون التوفيق من الله، وإن راجعها فى نوبة رضا غير مدركة، ولم يفكر فى الأمر فعسى الله أن يحدث أمرا، وإن راجعها على نية الكيد والأذى والمضارة فهو إثم عند الله، والله عزيز حكيم.

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ هذا هو القانون العادل الشامل، نطق به القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا، وقد شرعه الإسلام فى وقت لم يعترف أى قانون من قوانين العالم بأن للمرأة أى حق من حقوق، وفرضت عليها القوانين فى العصور الغابرة كل الواجبات، فجاء الإسلام ووضع تلك القاعدة العادلة، وهى أن الحقوق يجب أن تكون متكافئة مع الواجبات، فما على الإنسان من واجبات يكافئ ماله من حقوق، وما من حق إلا تعلق به واجب، فإذا كان للرجل سلطان فى البيت وعلى المرأة واجب الطاعة، فلها حق، وهو العدل . . وإذا كانت المرأة قارة فى البيت قائمة بشئونه، وفرض عليها ذلك الواجب فلها حق الإنفاق . . وإذا كان عليها أن تعد البيت إعدادا حسنا بمقتضى العرف فلها حق المهر . . وإذا كان عليها أن تؤنس زوجها، فعليه ألا يوحشها، وقد أدرك ذلك المعنى الجليل، وهو التساوى بين الحقوق والواجبات الصحابة الأولون، حتى أن ابن عباس كان يقول: (إنى لأتزين لامرأتى كما تتزين لى).

وإن التساوى بين الحقوق والواجبات ليس مقصورا على ما بين الرجل والمرأة، بل إنه قانون شامل سنه الإسلام وأيده العقل، وبه يقوم العدل، فقد جعل الواجب على المرء بمقدار ما له من حق، وعلى هذا السنن المستقيم جعل الإسلام عقوبة العبد نصف عقوبة الحر؛ لأن الرق الذى أسقط بعض حقوق الآدمية، أسقط أيضا بعض واجباتها.

وليس معنى أن الواجبات على المرأة مساوية للحقوق التى لها على الرجل أن المرأة مساوية للرجل من كل الوجوه، فإن الإسلام قرر فقط تساوى الحقوق والواجبات، بالنسبة لها وليس لذلك علاقة بشأن المساواة بينها وبين الرجل في نوع

الحقوق والواجبات، ولكى لا يفهم أحد هذا المعنى قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ فالرجل ليس مساويا للمرأة، وليست المرأة مساوية الرجل؛ لأن قانون المساواة يوجب أولا تحقق المماثلة، ومن البداهة أنه لا مماثلة بينهما، فهما وإن كانا من جنس واحد إلا أنهما نوعان متقابلان غير متماثلين، وإن كان كلاهما متمما للآخر، ومن ازدواجهما يتكامل النوع الإنسانى، ويسير فى مدارج الكمال.

وإذا كانت الأسرة لا تتكون إلا من ازدواج هذين العنصرين، فلابد أن يشرف على تهذيب الأسرة، ويقوم على تربية ناشئتها وتوزيع الحقوق والواجبات فيها أحد العنصرين، وقد نظر الإسلام إلى هذا الأمر نظرة عادلة فوجد الرجل أملك لزمام نفسه، وأقدر على ضبط حسه، ووجده الذى أقام البيت بماله وأن انهياره خراب عليه، فجعل له الرياسة؛ ولذا قال سبحانه: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ... ﴿٣٤﴾﴾ [النساء].

هذه هى الدرجة التى جعلها الإسلام للرجل، وهى درجة تجعل له حقوقا، وتجعل عليه واجبات أكثر، فهى موائمة كل المواءمة لصدر النص الكريم فإذا كان للرجل فضل درجة، فعليه فضل واجب.

ويلاحظ أن الله سبحانه وتعالى قيد المماثلة بين حقوق المرأة وواجباتها بالمعروف، كما قيدها بما للرجال من درجة تضاعف واجباتهم، والتقييد بالمعروف معناه التقييد بالأمر الذى لا تستنكره العقول، بل تقره وترضاه، ويتعارفه العقلاء، فلا يطالب الرجل بخدمة البيت كما تطالب بها المرأة.

فعلى المرأة أن تقوم بواجباتها، وتطالب بحقوقها بالنسبة لنفسها ولأولادها فى دائرة العقل، والعرف المستمد من قضايا الحق والعدل، وألف العقول والفضلاء؛ لأنه لايستقيم أمر الأسرة بغير ذلك التقييد العادل، وذلك التوزيع الحكيم.

ولقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وفى ذلك دلالة على ثلاثة أمور:

أولها ـ أن تلك المماثلة بين الحقوق والواجبات فى الحقوق الزوجية بل فى كل شئون الاجتماع الإنسانى، هى مقتضى الحكمة الإلهية والعدل الربانى، وإن ذلك أقصى ما تصل إليه المعاملة الإنسانية من سمو.

ثانيها ـ إن الله سبحانه وتعالى القاهر القادر العزيز هو الذى أعز المرأة بعد ذلها، وأعطاها حقوقها بعد هضمها، وليس لها أن تطلب العزة من غير شرع الله فهو الملجأ والمعاذ لكل ذى حق مهضوم، وقد أعلاها بعد خفض، وكرمها بعد المهانة، فما يسوغ لامرأة مسلمة من بعد أن تتمرد على حكم العزيز الحكيم، وإن حكمته اقترنت بعزته، فما للرجل من درجة هو مقتضى الحكمة، والله بكل شىء محيط.

ثالثها ـ إشعار الرجل بأن الله فوقه، وهو القادر القوى الغالب، وهو المعز المذل، الحكم العدل اللطيف الخبير، فإن تجاوز الرجل شرعه، وعدا ما حده له الكبير المتعال، أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وناله عقابه وحرم من ثوابه.

تلك شريعة الله العادلة، فليتدبرها الذين يشتطون فى القول والعمل، وليعلموا أن القرآن أول صوت سجل حقوق المرأة المعقولة كاملة ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴿٣٧﴾ ﴾ [ق].

ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾

ذكر سبحانه وتعالى فى الآية السابقة شرعية الطلاق، ومداه إذا طلق الرجل امرأته المدخول بها طلقة رجعية؛ وفى هذه الآية الكريمة يبين سبحانه وتعالى الحد الذى ينتهى فيه ما للرجل من حق المراجعة، فيبين سبحانه وتعالى أن الرجل ليس حرًا يطلق ثم يراجع، ثم يطلق ثم يراجع لغير حد محدود؛ ولقد قيل إن الرجل فى الجاهلية كان يطلق ويراجع لغير عدد ولا حد فتضطرب حياة المرأة؛ وقد يتخذ ذلك للكيد والأذى، لا للعشرة الحسنة، والرغبة فى البقاء؛ ولقد روى أن رجلا قال لامرأته: والله لا آويك ولا أفارقك! قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلقك فإذا دنا أجلك راجعتك. فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل ﴿**الطَّلاقُ مَرَّتَانِ**﴾».

وسواء أصح هذا سببا لنزول الآية أم أن الآية مقترنة بالآية قبلها متممة لموضوعها مقيدة لإطلاقها؛ فقد ذكرت الأولى أن المطلّق أحق بامرأته ما دامت العدة قائمة، ثم بينت هذه وهى الثانية أن ذلك ليس على إطلاقه إنما هو مقيد بالطلقتين الأولى والثانية، أما الثالثة فقد ذكر من بعد حكمها، وهو أنها لا تحل له حتى تتزوج زوجًا غيره.

﴿**الطَّلاقُ مَرَّتَانِ**﴾ كلمة الطلاق فى هذه الجملة السامية؛ ذكر الزمخشرى أن المراد بها التطليق، كالسلام بمعنى التسليم؛ أى أن التطليق الشرعى الذى يقره الشارع ويسوغه هو الطلاق الذى يكون على التفريق، واحدة بعد واحدة، ومرة بعد مرة؛ وليس التطليق الذى يكون بالإرسال مرة واحدة، وعلى هذا التخريج الذى ساقه الزمخشرى يكون مساق الآية لتقرير أن الطلاق الشرعى لا يكون دفعة واحدة، بل يكون مرة بعد مرة؛ وتكون التثنية فى هذه الحال لبيان التكرار لا للعدد، كقوله تعالى: ﴿**ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ... ④**﴾ [**الملك**] وكقول: (لبيك اللهم لبيك) ويكون قوله تعالى من بعد: ﴿**فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ**﴾ لبيان الغرض من التكرار وهو أن يكون بعد كل طلاق فرصة مراجعة نفسه ليمسك زوجه ويبقيها معاملا لها بالمعروف لدى أهل العقول المستقيمة الذى لا ينكره عقل ولا شرع، أو يصر على طلاقها، وإخراجها.

وإن ذلك التخريج يستقيم فى ذاته، ولكن قرن بالآية الكريمة بعد ذلك. قوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ... (٢٣٠)﴾ [البقرة] فدل هذا على أن المراد حقيقة التثنية، لأن بعد الثانية الثالثة.

ولذلك نختار التخريج الثانى، وهو أن الطلاق فى قوله تعالى: ﴿الطَّلاقُ مَرَّتَانِ﴾ أل فيه للعهد الذكرى، أى الطلاق المشار إليه فى قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ ... (٢٢٨)﴾ [البقرة] فالطلاق المذكور هو الذى يكون فيه للزوج حق مراجعة زوجته فيه؛ فالسياق يكون لبيان الطلاق الذى تبقى معه عصمة الزوجية؛ ولذلك قال بعد ذلك: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ... (٢٣٠)﴾ [البقرة] فهو ذكر حكم المرتين، ثم ذكر من بعد ذلك حكم الثالثة، وتكون التثنية على هذا التخريج المستقيم من كل الوجوه على حقيقتها لا لمجرد التكرار.

ومهما يكن السياق، فإن قوله تعالى: ﴿الطَّلاقُ مَرَّتَانِ﴾، يستفاد منه أن الطلاق لا يقع العدد به مرسلا دفعة بل هو دفعات ومرات، وكل واحدة منها يتخللها رجعة أو عقد جديد؛ وذلك ليتحقق المقصد الحكيم الذى قصد إليه الشارع من عدد الطلاق، وإعطاء فرصة المراجعة بعد كل طلاق نحو ثلاثة أشهر، ثم تكرار تلك الفرصة، حتى إذا كانت الثالثة فصم ذلك العقد الذى أصبح بقاؤه شرًا، ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ ... (١٣٠)﴾ [النساء]، وأصبح من الضرورى أن يكون ثمة تجربة قاسية، عساها تصلح من قلب الناشز منهما.

وذلك ما فهمه السلف الصالح، فما كان الطلاق يقع دفعة واحدة، بل كان يقع دفعات، لكيلا يقطع الرجل السبيل على نفسه، ولكيلا يتعدى حدود الله، وكما قال الله تعالى فى هذا المقام: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا (١)﴾ [الطلاق]؛ فلعل الله فى مدة العدة أو بعدها إذا طلق واحدة، أو اثنتين على دفعتين، أن يحدث أمرًا بإحلال المودة محل العداوة، والرحمة محل البغضاء، فتستأنف حياة زوجية هنيئة سعيدة.

وإذا أوقع الرجل الطلاق دفعة واحدة، ولم يوقعه على ثلاث مرات، أو أوقعه فى مجلس واحد متتابعا، أو أوقعه فى مجالس متفرقة، فما حكمه، وما مؤداه؟

لاشك أن صريح الآية أن الطلاق لا يقع مرة واحدة، فلا يقع الطلاق الثالث بلفظ الثلاث ثلاثًا، ولكن يقع طلقة واحدة لأنه مرة واحدة، وليس ثلاث مرات، ولكى يكون ثلاثًا يجب أن يكون ثلاث مرات.

وذلك لأن اقتران الطلاق بكلمة ثلاث لا يجعله ثلاث مرات، بل إنه مرة واحدة، ولو وصفه بالمائة، كمن يقول أحلف بالله ثلاثًا، فهو يمين واحدة، وكمن يقول قرأت هذه السورة ثلاث مرات، وقد قرأها مرة واحدة، فهو كاذب.

إن كلمة المرة توجب أن يكون الطلاق فى حال واحدة، ولسبب واحد، وفى مجلس واحد، ولغاية واحدة، مرة واحدة ولا يخرجه عن كونه مرة واحدة، تعدد الألفاظ فى المجلس، أو لأجل السبب، أو لهذه الغاية؛ ولهذا قرر كثيرون من العلماء منهم ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وطائفة من شيوخ قرطبة، منهم ابن زنباغ، ومحمد بن بقى، ومحمد بن عبد السلام، وإصبغ بن الحباب، أنه يقع واحدة؛ وكل أولئك قد اختاروا رأى ابن عباس.

وقد روى عن بعض الصحابة كعلى بن أبي طالب وأبى موسى الأشعرى وعبد الله بن مسعود والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف، وقاله من بعدهم بعض التابعين، ثم تتابع العلماء يقولونه.

وقد روى طاووس عن ابن عباس أنه قال: كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وأبى بكر وسنتين من خلافة عمر بن الخطاب طلاق الثلاث واحدة، فقال عمر رضى الله عنه: (إن الناس قد استعجلوا فى أمر لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم) فأمضاه.

هذا تفسير قوله تعالى: ﴿الطَّلاقُ مَرَّتَانِ﴾، وهذا ما فهمه منه بعض العلماء تابعين لبعض الصحابة والتابعين؛ ولكن الأئمة الأربعة يرون أن الطلاق المقترن بالعدد لفظًا أو إشارة يكون ثلاثًا أو اثنين على حسب ما اقترن به ؛ وقد قال العلماء

إنه قد اتفق عليه أئمة الفتوى، وكأن غيره من الأقوال من شواذ الفتيا الذى لا يلتفت إليه وقد استندوا إلى الأخذ بفتوى عمر، وادعوا أن الإجماع قد انعقد عليه، ومن المؤكد أن طائفة كبيرة من الصحابة كانت على ذلك الرأى، وما كان لمثلهم أن يقولوا ما يخالف ظاهر القرآن من غير سند من حديث صح عندهم، والآية الكريمة تبين ما ينبغى، ولا تبين بطلان سواه، وأنه لا يقع إلا ذلك النوع من الطلاق(١).

﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ الإمساك بالمعروف هو العشرة الحسنة، والمعاملة الرفيقة بأهله؛ فالمعروف هو الخلق الفاضل الذى تعرفه العقول السليمة، وتدركه الفطر المستقيمة، وتعالج به النفوس، وتطمئن به القلوب والتسريح إرسال الشىء وتفريقه؛ ولذلك يقال سرح الشعر، أى فصله وفرقه ليخلص بعضه من بعضه، ويقال سرَّح الماشية، أرسلها وفرقها فى المرعى.

ولاشك أن لفظ التسريح بإحسان يتضمن مع ما يشتمل من معنى التفريق والإرسال، معنى الرفق فى التفريق، فلا يفرق بعنف، وحرج للنفوس، وخدش للمروءة، ولمكارم الأخلاق، بل يفرق فى رفق وعطف، من غير حرمان، بل بإعطاء من غير منع، كما قال تعالى فى هذا المقام: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ... ﴿٢٣٧﴾﴾ [البقرة] فالإحسان فى هذا المقام، بمعنى الرفق والعطف والتسامح المادى والمعنوى، فهو من أحسن إليه، بمعنى أسدى إليه خيراً، أو أدى معروفًا، أو أعطى عطاء.

---

(١) قال المصنف رحمه الله: الأقوال بالنسبة للطلاق بلفظ الثلاث ثلاثة:
أولها: قول الأئمة الأربعة أنه يقع الثلاثة، وقد اعتمد ذلك الرأى على قول عمر ومن معه من الصحابة.
وثانيها: قول بعض الشيعة إن الطلاق الثلاث بلفظ الثلاث لا يقع به شىء؛ لأنه بدعة، فهو جاء على خلاف المنهاج الذى سنة القرآن، وسنه النبى ﷺ للطلاق، والطلاق إنما ثبت فى الحدود الشرعية التى حدها الشارع، وما جاء على خلاف ما حده فهو باطل مهما يكن العدد.
القول الثالث: إن الطلاق الثلاث بلفظ الثلاث لا يقع إلا طلقة واحدة، وهذا رأى بعض الشيعة، ورأى ابن تيمية وابن القيم وبعض الظاهرية وغيرهم؛ لأن الطلاق الموصوف بالثلاثة لا يكون إلا مرة واحدة بنص الآية، وما دام مرة واحدة فهو يقع واحدة. وقد اختار القانون المصرى ذلك الرأى فى القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ (راجع فى هذا الموضوع كتاب «الأحوال الشخصية» وكتاب «ابن تيمية» للمؤلف).

ووقت الإمساك أو التسريح فى هذا المقام، مقام ذكر الطلاق ومراته، هو ما بعد الطلقة الأولى أو الثانية، أى أنه بعد إحدى هاتين الطلقتين، إما إمساك بمعروف، بمعنى رجعة على نية البقاء والإصلاح، واطراح أسباب النزاع والخلاف، والأخذ بالرفق والحسنى، والعيشة الهنيئة الكريمة؛ وإما تسريح بإحسان، بمعنى تركها حتى تنتهى عدتها، ويغنى الله كل واحد عن الآخر من سعته.

فكأن هذه الجملة السامية تشير إلى ما ينبغى أن يكون فى فترة الروية والتفكير، وهى الأجل المفروض الذى تتربصه المرأة بعد طلاقها، بأن يفكر فى ماضى أمره، ويقدر عاقبة حاله إن أمضى الطلاق؛ فإن رأى أن الحسنى فى الإبقاء أبقاها على نية الإصلاح من شأنه، والتقويم من معوجه، والأخذ بالرفق؛ وإن رأى أن الخير فى التفريق فرق غير مجاف ولا مشاق ولا مضار، كما قال تعالى: ﴿ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأحزاب].

وعلى هذا يكون الإمساك بمعروف والتسريح بالإحسان موضعه فى هذا المقام هو فى وقت النظر والتروية، وإن كان الإمساك بالمعروف مطلوبا دائما.

ولقد قال بعض العلماء: إن المراد من التسريح بالإحسان هو الطلقة الثالثة؛ أى بعد الطلقتين الأوليين يتروى فى الأمر فيمسك بالمعروف أو يطلق الطلقة الثالثة.

وعندى أن ذلك التخريج بعيد لوجهين:

أولهما: أن التسريح يكفى فيه بعد الطلقتين أن يسكت من غير مراجعة حتى تنتهى عدتها، ولأن الترديد بين الإمساك بالمعروف، والتسريح بالإحسان لا يكون إلا فى وقت يجوز فيه الأمران، والأنسب فى ذلك ما بعد الطلاق؛ وهو المراجعة أو تركها؛ وليس المناسب فى ذلك هو إرداف الطلاق بالطلاق؛ إن ذلك لايكون فيه تسريح بإحسان، بل فيه تضييق على نفسه وظلم لها، إذ قطع السبيل، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا. وفوق ذلك فيه مجافاة ومبالغة فيها بإيقاع طلاق ثان من غير حاجة إليه.

ثانيهما: قوله تعالى بعد ذلك: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ... ﴿٢٣٠﴾﴾ [البقرة] فإن هذه الطلقة الثالثة، ولو كان التسريح بإحسان هو الثالثة لكانت هذه رابعة، ولم يقل ذلك أحد.

﴿وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ إذا كان الفراق بين الزوجين يجب أن يكون مصحوبا بالإحسان والرفق، وألا ينسوا الفضل بينهم، فلا يصح أن يأخذ شيئًا مما آتاها من مال؛ لأن ذلك يكون مجافاة لا إحسانا؛ ولأن ذلك يكون ظلمًا لا عدل فيه؛ ولقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾ [النساء].

وقال تعالى: ﴿وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ... ﴿١٩﴾﴾ [النساء].

وإن أخذ شيء حرام بلا ريب عند الفرقة، وإن الحرمة سببها ألا يجمع على المرأة أمرين كلاهما مؤذ لها؛ أولها الفراق الذى لا تريده، وثانيهما استرداد ما وهب. وقد يقول قائل: إذا طابت نفسها بذلك فلماذا لا يأخذ؟ فنقول: إذا كان طيب نفسها من غير نشوز منها، والبغضُ منه هو الذى رغب فى الطلاق وأراده، فإن ذلك مكارم أخلاق منها، وفساد نفس منه، ومثل ذلك لا يكون حلالا؛ وليس من ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾﴾ [النساء] لأن هذه الآية موضوعها حال قيام الزوجية، كما أنه ليس منه قوله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ... ﴿٢٣٧﴾﴾ [البقرة] لأن تلك الآية موضوعها الطلاق قبل الدخول الذى يسقط نصف المهر، فإنهما لم تقم بينهما عشرة زوجية، فسوغ العفو منها إذا لم تكن قد قبضت شيئًا، أو قبضت دون نصف المهر؛ وسوغ العفو منه إن كانت قد قبضت أكثر من النصف؛ ولذلك لم يكن فى ذلك أخذ لما أعطى عند عفوها، بل إسقاط لما يجب، وعساه يكون فى عسرة، وعسى أن يكون ذلك سبب الفراق ولم يكن منه أخذ، ولكن كان منها إسقاط، فلا ظلم ولا بهتان.

ولم يسوغ الشارع الحكيم الأخذ إلا إذا خافا ألا يقيما حدود الله، ففى هذه الحال يحل الأخذ. وحدود الله سبحانه وتعالى ما أوجبه من حقوق للرجل على زوجته، ولها عليه، وهى مقاصد الزواج؛ فإن لم يتحقق من الزواج مقاصده، ولم تقم الأسرة الهنيئة التى تربط بين آحادها المودة الواصلة بين الزوجين فأخذ المال جائز.

وتلك الحال التى يخافان ألا يقيما حدود الله، وواجباته، وحقوق كل منهما على صاحبه، تتحقق بسببين:

أحدهما - أن تكون المرأة ناشزا عاصية أو كارهة، كتلك المرأة التى ذهبت إلى رسول الله ﷺ تقول: «والله ما أعتب على ثابت فى دين ولا خلق، ولكنى أكره الكفر فى الإسلام؛ لا أطيقه بغضا! فقال لها النبى ﷺ: «**أتردين عليه حديقته؟**» - وهى المهر الذى أمهرها - قالت: نعم. فأمره أن يأخذ منها حديقته ولا يزداد[1]؛ ففرق رسول الله ﷺ بينهما بطريق الخلع، ويقال إنه كان أول خلع فى الإسلام.

وأحيانا تكون المرأة كارهة ولا تبدى بغضها بهذه الصراحة، ولكنها تثير الشغب فى البيت لأتفه سبب، وتعصى زوجها، وتقوم بالكفر فى الإسلام، ولا تتورع عنه، وهذا ما كرهت امرأة ثابت بن قيس التى جاءت الرواية بأمرها.

ثانيهما - أن يكون بالمرأة عيب مستحكم ولا يمكن معه القيام بالحقوق الزوجية، فإن أخذ المال فى هذه الحال يكون سائغًا، وإن لم يكن نشوز ولاعصيان؛ ولذلك سوغ الحنابلة والمالكية أن يطلب الرجل من القاضى التفريق على أن يأخذ ما أعطى أو بعض ما أعطى، وإن لم يعتبر التفريق خلعًا.

وإن هذين السببين كلا منهما يدل على أن أخذ المال جائز إذا كان سبب الفراق من جانبها، أو سبب عدم القيام بحدود الله وتحقق العدالة من جانبها؛ ولكن الآية الكريمة مطلقة لا تقيد فى جواز الأخذ بكون النشوز من جانبها أو من جانبه، بل

---

(١) هذا لفظ ابن ماجه: الطلاق (٢٠٤٦)، ورواه البخارى: الطلاق (٤٨٦٧)، والنسائى (٣٤٠٩).

يقول سبحانه فى الاستثناء: ﴿إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾. وذلك كما يكون عندما يكون النشوز من جانبها، يكون عندما يكون من جانبه.

وإن ذلك العموم قد يبدو بادى الرأى، ولكن المتأمل البصير فى عبارات الجملة الكريمة يستنبط من إشاراتها أن جواز الأخذ مقصور على الحال التى يكون النشوز من جانبها أو سببه من جانبها، أو على الأقل كان الجانب الأكبر منه يتصل بها؛ وذلك لأنه عبر عن حال جواز الأخذ بألا يخافا ألا يقيما حدود الله وحال الخوف الذى يكون من جانبهما معًا لا من جانبها وحدها تكون فى الحال التى يكون السبب من جانبها؛ وذلك لأنه مفروض أن الخوف الذى يكون هو الخوف الذى يكون سببه لا ظلم فيه؛ وذلك فى غالب الأحيان لا يتحقق إلا إذا كان السبب من جانب المرأة؛ لأنه إن كان من جانب الرجل فهوظلم؛ إذ يملك أن يطلق، ولا يقال إنه إذا خاف أن يظلم يجوز أن يأخذ المال؛ لأن أخذ المال فى ذاته ظلم إذا كان البغض من جانبه؛ لأنه يكون داخلا فى قوله تعالى: ﴿وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ... ١٩﴾ [النساء] وخوف الظلم لا يبرر ظلمًا آخر، وخصوصًا إذا كان ثمة مندوحة عنه، ويكون داخلا فى قوله تعالى: ﴿وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا... ٢٣١﴾ [البقرة] وفوق ذلك فإن النسق القرآنى قد جعل للرجل حالين، وهى حال الطلاق الذى لا يحل فيه الأخذ، وحال جواز الأخذ، وكلاهما لا يجوز إلا إذا تعذر قيام الحياة الزوجية على أسس الإصلاح والصلاح، وقد جعل الطلاق إذا كانت النفرة من جانبه، فكان السياق يوجب أن يكون الافتداء إذا كانت الفرقة من قبلها؛ فهذه حال وتلك حال؛ ولذا قال أهل البصرة من النحويين: إن الاستثناء فى قوله تعالى: ﴿إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ استثناء منقطع بمعنى لكن؛ لأن مابعد إلا غير داخل فى عموم ما قبلها، بل هو حال مغايرة له.

وأخيرًا إن قوله تعالى عن إعطاء المال بأنها تفتدى نفسها، أى تخلص نفسها بفداء تقدمه، دليل على أن خوف عدم القيام بحدود الله هو من جانبها، أو على الأقل هو من جانبها أظهر.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ الجناح معناه الإثم، من جنح بمعنى مال. والافتداء معناه تخليص النفس بمال يبذل لتخليصها، ودفع الأذى عنها؛ وأصله من الفدى والفداء بمعنى حفظ الإنسان نفسه عن النائبة بما يبذله.

والخطاب فى الآية إما أن يكون لجماعة المؤمنين من حيث إنهم متعاونون فيما بينهم، بحيث وجدوا الشر بين الزوجين؛ وإما أن يكون خطابًا لجماعة الأزواج الذين كان بينهم وبين نسائهم ما يخشى معه ألا يقيم كلاهما حدود الله التى رسمها للحياة الزوجية؛ فالخطاب لإباحة الأخذ والفداء.

وعندى أن جعل الخطاب لجماعة المؤمنين أولى بالاعتبار؛ فإن على من يعرف ما بين الزوجين أن يتدخل بالنصح والإرشاد وبيان حكم الله؛ ولذلك كان الخطاب عاما لجماعة المؤمنين بقوله ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ ونفى إثم الأخذ خاصا بالزوجين؛ ولذا قال ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ ولقد فهم بعض العلماء من التابعين من كون الخطاب موجهًا إلى جماعة المؤمنين أن الخلع الذى هو التفريق بين الزوجين فى نظير مال تفدى نفسها به، ولا يكون إلا بأمر ولى الأمر أو القاضى الذى يقيمه ولى الأمر لذلك؛ وقد فهم هذا الفهم الحسن البصرى، وسعيد بن جبير، وابن سيرين؛ وكان يسير على ذلك الرأى زياد بن أبيه فى حكمه، وقد كان مقبول الولاية من عمر وعلى، وكلاهما مكانته فى الفقه مكانته.

وإن قصر الخلع على السلطان على هذا المذهب لا نحسبه صوابًا؛ ولكن نرى أن الأولى أن يقال: إن الخلع كما يجوز بتراضى الزوجين إذا خافا ألا يقيما حدود الله، كذلك يجوز بأمر القاضى إذا تبين له بعد تحكيم الحكمين أنهما لا يقيمان حدود الله بسبب نفرة المرأة من الحياة الزوجية؛ وذلك ما نص عليه فى مذهب مالك رضى الله عنه؛ فقد جاء أن الأمر إذا فسد بين الزوجين، ولم تعلم له أسباب ظاهرة حكم الحكمان، فإن تبين أن العشرة بينهما غير ممكنة، فرقا بينهما، وجاز أن يكون التفريق خلعًا إذا كانت الإساءة من جانب المرأة.

ومن صريح الآية يتبين أن الخلع لا يكون إلا إذا خافا ألا يقيما حدود الله؛ ومن سياق الآيات وتناسقها، وإشارة الآية الكريمة وصريح الحديث النبوى يفهم أن الخلع يكون حيث تكون النفرة من جانب الزوجة؛ ولذلك قال ابن رشد فى بيان المقصد من شرعية الخلع: (الفقه أن الفداء إنما جعل للمرأة فى مقابل ما بيد الرجل من الطلاق، فإنه لما جعل الطلاق بيد الرجل إذا فرك[1] المرأة، جعل الخلع بيد المرأة إذا فركت الرجل) ولهذا قال الظاهرية إن الخلع لا يكون إلا إذا كان النشوز من جانبها؛ لأنه إذا كان النشوز من جانبه يكون النهى عن أخذ المال لوقوعه فى عموم قوله تعالى: ﴿وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ... (٢٣١)﴾ [البقرة] وقرروا أنه لا يجوز أن يأخذ أكثر مما أعطى، ولكن الحنفية والمالكية والشافعية سوغوا الخلع فى كل الأحوال، وبأى قدر من المال، وإن كرهوا الخلع إذا كان النشوز من قبله، وكرهوا أخذ أكثر مما أعطى.

هذا وللفقهاء خلاف طويل فى شأن الخلع، نتركه لكتب الفقه[2].

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

بعد بيان أحكام الطلاق وعدده وأحواله، قال سبحانه **﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾** والإشارة إلى ماتقدم من الأحكام، والإشارة للبعيد لبيان علو قدرها، وعظم منزلتها، وجلال ما فيها من مصالح ظاهرة بينة لذوى الألباب؛ وسمى تلك الأحكام حدود الله للإشارة إلى أنها فاصلة بين الحق والباطل والظلم والعدل، والمصلحة والمضرة؛ وإضافتها إليه سبحانه وهو العليم الخبير البصير إشارة إلى أنه لاينبغى أن

(١) الفرك: البغض يكون بين الزوجين.

(٢) قال المصنف رحمه الله: لا مانع من أن نشير هنا إلى أن الخلاف فى موضعين:

أولهما: فى وصفه الفقهى. فالحنابلة والشافعى فى أحد قوليه وهو أرجحهما قالوا: إنه فسخ لا يحتسب من عدد الطلقات، والحنفية والمالكية قالوا: إنه طلاق يحتسب من عدد الطلقات، ولكنه طلاق بائن، وروى عن سعيد بن المسيب أنه طلاق، ولكن عند المراجعة يرد ما أخذ.

ثانيهما: فى سببه وطريقه ومقدار المال، فقال بعضهم: إنه لا يجوز إلا من السلطان، وكلام المالكية يفهم منه أنه يجوز من السلطان بعد تحكيم الحكمين، وجمهور الفقهاء على أنه لا يقع إلا بتراضى الزوجين، وقال الظاهرية: إنه لا يكون إلا إذا كان النشوز من قبلها، ولا يقع رذا كان النشوز من قبله، وقال بعض الحنابلة إنه إن كان النشوز من قبله لا يثبت المال ويقع الطلاق، ويثبت الخلع عن دالجمهور فى الحالين وبأى مقدار، ولكن يحرم ديانة لا قضاء أن يأخذ أكثر مما أعطى. وعندى أن رأى الظاهرية أوضح الآراء.

يتطرق الريب إليها، وأن من يخالفها يعاند الله ويحاربه، ويتجنب الصالح، ويتبع الطالح، ويترك النافع إلى مافيه الضرر فى الدنيا والآخرة.

وإذا كانت تلك الأحكام حدودًا فلا يصح تجاوزها وتركها، وإلا كان معتديًا على حرمات الله، متهجمًا على شرع الله؛ ولذا قال سبحانه: **﴿فَلا تَعْتَدُوهَا﴾** فالفاء هى فاء السببية التى تبين أن ماقبلها سبب لما بعدها؛ أى أنه إذا كانت تلك الأحكام حدود الله **﴿فَلا تَعْتَدُوهَا﴾** فلا تتجاوزوها إلى الشقة الحرام، وإلا كان الردى وسوء العقبى وفساد المال؛ لأن تلك الحدود عدل الله القائم إلى يوم القيامة، وهى عدله فى الأسرة التى هى عماد المجتمع، وبها قام بنيانه، فإذا قامت على الظلم انهار المجتمع من دعائمه.

ولقد ذيل الله سبحانه الآية الكريمة بقضية عامة هى فى عنق التاركين لأحكام الله إلى يوم القيامة، فقال تعالى: **﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾** من يترك أحكام الله سبحانه وتعالى التى شرعها فى قرآنه، وبينها على لسان نبيه الكريم، فإنه بسبب تركه لها ظالم لنفسه، وظالم لجماعته، وظالم فى الحكم بين الناس.

وقد أكد الله سبحانه وتعالى الحكم على من يترك شرع الله بالظلم، فقد ربط بفاء السببية بين التعدى لحدود الله والحكم بالظلم، وتكرار الربط بالسببية للتوكيد، وعبر بالإشارة مع وجود ما يغنى عنها لتأكيد معنى السببية، أى أن السبب فى ظلمهم تحملهم لتلك المخالفة والمعاندة لحدود الله ولله، وأردف ذلك بقوله «هم» وهو للتأكيد؛ ثم عبر بالجملة الاسمية للإشارة إلى أن الظلم شأن من شئونهم ووصف ملازم لهم ما داموا تاركين لحدوده؛ ثم كان القصر، أى قصر الظلم عليهم، وهو قصر حقيقى.

ولماذا كان ذلك التأكيد الشديد؟ كان لسببين:

أولهما: أن الإنسان مغرور دائمًا، ومحكوم نفسيًا بأمور زمنية، تسيطر عليه الأحوال التى تلابسه، وقد يكون فيها الظلم والضرر، ويتوهمهما العدل والمصلحة،

ويتوهم أن لا مصلحة فى شرع الله ويحاول إخـضاع حدود الله لزمانه، أو يتركها، كشـأن الناس فى الربا والطلاق وتعـدد الزوجات والحـدود وغيـر ذلك، فبـين الله سبحانه وتعالى أنهم ظالمون لأنفـسهم إن تركوا شرع الله إلى أهوائهم، بل يجب أن تكون أهواؤهم خاضـعة لحكم الله، كمـا قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حـتى يكون هواه تبعًا لما جئت به**»(١).

ثانيهما: المقام الذى سيق فيه ذلك النص الكريم، وهو ما يتعلق بالأسرة، فإن الظلم فيها أقبح الظلم.

وفقنا الله سبحـانه لأن ندرك شرع الله، ونؤمن بأنه الحق الذى لا حق سواه، وفيه المصلحة التى يقـوم عليها بناء اجتماعى فاضـل. والحمد لله الذى هدانا لهذا، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

فى الآيات السابقة بـين الله سبحانه وتعالى طريقـة إيقاع الطلاق، وأنه يكون على دفعـات لا دفعة واحدة، حـتى لا يضيق الرجل على نفســه، ولا يغلق بابا قد فتحه الله ســبحانه وتعالى له؛ ولعل الله سبحانه وتعــالى يحدث من بعد ذلك أمرا ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا** ﴿٢﴾ ﴾ [**الطلاق**]. وبين سبحانه الطلاق الذى يكون للرجل فيه أن يستـأنف حياة زوجية؛ ثم بين سبحــانه وتعالى الحكم إذا كان الطلاق

(١) سبق تخريجه.

بافتداء المرأة نفسها من الرجل على براءة من صداقها أو بمال تدفعه، أو بإسقاط حقوق مالية نشأت عن الزواج؛ أو نشأت حال قيام الحياة الزوجية.

وفى هذه الآية الكريمة يبين سبحانه الطلاق الذى لا يمكن بعده استئناف الحياة بل تحرم عليه مؤقتا، وهو الطلاق المكمل للثلاث، فقال تعالى:

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ أى أنه إن طلقها بعد الطلقتين اللتين سوغ الله سبحانه وتعالى له الرجعة بعد كل منهما فى أثناء العدة، أو عقد زواج بعد انتهائها؛ إن طلقها بعد هاتين الطلقتين فلا تحل له من بعد طلاقه حتى تنكح زوجًا غيره؛ فمعنى «تنكح»: تتزوج بعقد شرعى صحيح.

ففى هذه الجملة السامية بيان لانتهاء الحِلِّ بالطلاق الثالث، وإثبات الحرمة ووقوعه؛ كما أن فيها بيان انتهاء ذلك التحريم؛ فهى قد حدَّت المبدأ والغاية؛ فمبدأ التحريم من الطلقة الثالثة، وينتهى التحريم بعد تزوج شخص آخر، والدخول بها، ثم تطليقها من بعد ذلك.

والنكاح المراد فى الآية هو الزواج وظاهر الآية أن الزواج ثم الطلاق من بعده يحلها للزوج الأول من غير حاجة إلى الدخول؛ وبذلك أخذ سعيد بن المسيب؛ ولكن جمهور الفقهاء والتابعين من قبلهم ثم الصحابة أجمعين قد قرروا أنه لابد من الدخول الحقيقى لكى تحل له، وذلك لنص الحديث المخصص لظاهر الآية؛ فقد ورد فى البخارى ومسلم، ومسند الإمام أحمد، ومسند الشافعى من حديث عائشة رضى الله عنها أنها قالت: جاءت امرأة رفاعة القرظى إلى رسول الله ﷺ فقالت: إنى كنت عند رفاعة، فطلقنى، فبت طلاقى، فتزوجنى عبد الرحمن بن الزبير، وما معه إلا مثل هدبة الثوب؛ فتبسم النبى ﷺ وقال: «**أتريدين أن ترجعى إلى رفاعة؟ لا، حتى تذوقى عسيلته، ويذوق عسيلتك**»(١) وواضح أن معنى ذوق العسيلة أن يفضى إليها ويدخل بها.

---

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى: الشهادات - شهادة المختبئ (٢٤٤٥)، ومسلم: النكاح - لا تحل المطلقة ثلاثا لمطلقها حتى تنكح (٢٥٨٧) عن أبى هريرة - رضى الله عنه.

وقد تعددت روايات الحديث بهذا المعنى، فكان حديثا مستفيضا مشهورا، وهو يخصص عموم القرآن الكريم، بل هو فى الحق تفسير لظاهره، وليس بعد تفسير النبى ﷺ لكتاب الله تفسير؛ وعلى هذا انعقد الإجماع قبل سعيد بن المسيب، وانعقد الإجماع بعده؛ فقوله من شواذ الفتيا التى لا يلتفت إليها.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ أى فإن طلق الزوج الثانى، فلا جناح على المرأة وزوجها الأول أن يتراجعا، أى لا إثم عليهما فى أن يستأنفا حياة زوجية جديدة؛ فالضمير فى «عليهما» يعود إلى المرأة والزوج الأول؛ لأن العلاقة بينهما هى مساق الآية الأول؛ فقد بينت الآية التحريم بالطلقة الثالثة، وأنه ينتهى بالزواج من الثانى والتطليق منه، ثم صرحت هذه الجملة السامية بابتداء الحل بعد انتهائه، وهو أنه يبتدئ بالطلاق من الثانى وزوال بقايا النكاح الثانى وآثاره بانتهاء العدة؛ فهذه الجملة الكريمة توضيح لابتداء الحل، كما كانت الأولى فيها بيان لابتداء التحريم وإشارة إلى انتهائه.

وعلى هذا سار أكثر المفسرين، وكلامهم واضح بين؛ ولكن اختار الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رضى الله عنه أن يكون الضمير فى «عليهما» فى قوله تعالى: ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا﴾ يعود على الزوج الثانى والمرأة لا على الزوج الأول فهى كقوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا ... (٢٢٨)﴾ [البقرة]. فهى تدل على معنى جديد، لم يتضمنه معنى الجملة التى سبقتها، وهو بيان أن الزواج الثانى يكون ككل أنواع الزواج، وله كل أحكامها وحدودها؛ فلا يكون زواجا مؤقتا، ولا لغرض مؤقت، إنما يعقد للبقاء والدوام ويقصد فيه معنى الزواج كاملا غير منقوص، وقد يتوهم بعض الناس أن الزوج الأول أحق بها، فدفع ذلك بأن المراجعة فى العدة حق ثابت للمطلق الثانى، وهو أولى بمقتضى الحكم العام الذى جاء به النص الذى نوهنا عنه، وهو قوله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ ... (٢٢٨)﴾ [البقرة].

وقد يعترض معترض على ذلك الرأى فيقول: إنه لايوجد على ذلك التخريج ما يفيد حلها للأول، فنقول فى رد ذلك الاعتراض: إن الحل بالزواج ثم الطلاق بعد الدخول وانتهاء العدة فهم من انتهاء التحريم بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ فالتحريم مؤقت بتوقيت زمنى غير معلوم ينتهى بالزواج الثانى، وزوال سائر أسباب التحريم الأخرى.

ومهما يكن من الأمر، فإن السياق يسير على مقتضى رأى الجمهور؛ لأن السياق كله متعلق بشأن المرأة مع زوجها الأول، والكلام فى الزوج الثانى جاء لتتميم الكلام فى الزواج الأول وإنهائه، ومدى ذلك الإنهاء؛ ويزكى ذلك أن الله سبحانه وتعالى عبر عن عودة الزواج بقوله: ﴿أَن يَتَرَاجَعَا﴾ وهذا يفيد أن ذلك بعقد جديد، ولو كان المراد الرجعة ما عبر بصيغة المشاركة؛ لأنه ينفرد بها الزوج إن كان الثانى.

وحلها للزوج الأول منوط بأمر دينى مقرر ثابت، وهو أن يكونا قد انتفعا من ذلك الدرس القاسى، وهو الفرقة المحرَّمة بينهما، وتجربتها عشرة غيره، وتجربته لرؤيتها عشيرة لسواه؛ ولذلك قال سبحانه وتعالى فى بيان إنهاء التحريم: ﴿إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ فنفى الإثم فى العودة إلى الزوج الأول مربوط دينيًا وقلبيًا بقصدهما إلى العشرة الحسنة وإرادتهما لها، وظنهما القدرة عليها، وزوال النفرة التى كانت توجب الشقاق والنزاع، وتؤدى إلى الطلاق وتكراره المرة بعد الأخرى.

وقد فهم بعض العلماء أن المراد بالظن هنا هو العلم واليقين؛ فالمراد إن تيقنا أنهما سيقيمان حدود الله، فليس للرجل والمرأة، وقد فرق بينهما تفريقا بمحرِّم بالطلاق الثلاث المتكرر، أن يستأنفا حياة زوجية بعد زوال التحريم إلا إذا علما على وجه الجزم واليقين أنهما سيقيمان فى هذا الزواج الجديد حدود الله بإعطاء كل واحد منهما ما للآخر من حق، ويقوم بما عليه من واجب، لتكون المودة بينهما فى ظل من الرحمن الرحيم.

هذا نظر بعض العلماء فى تفسيرهم الظن باليقين؛ ولكن الزمخشرى لم يرتض ذلك النظر، ولم ير أنه يتفق مع الذوق البيانى لمن يذوق كتاب الله؛ ذلك بأن

إقامة حدود الله أمر يتعلق بالمستقبل، والمستقبل مغيب مستور غير معلوم، وما كان لمؤمن ولا مؤمنة أن يجزم فى أمر يتعلق بالمستقبل بأنه سيكون على ما يبغى وما يريد، ولو كان يتعلق بقلبه ونيته؛ فالله سبحانه مقلب القلوب، وهو وحده علام الغيوب؛ بل إن أقصى ما يستطيعه الزوجان فى مثل هذا المقام أن يعتزما العشرة الحسنة، ويطرحا أسباب الخلاف التى كانت منها الفرقة الجافية، والتى هى أبغض الحلال إلى الله سبحانه وتعالى، وهما مع ذلك يظنان أن فى قدرتهما تنفيذ ما أرادا، واجتناب ما كان منهما قبل تلك التجربة الشديدة.

وإنه لواضح كل الوضوح من أن الرجل إذا طلق امرأته مرة بعد مرة، حتى أتم الثلاث، يكون هو وهى فى حاجة إلى علاج؛ إذ إن العشرة بينهما صارت غير صالحة للبقاء، وأنهما إن يتفرقا نهائيا يغن الله كلا من سعته؛ فهو وهى يسيران فى خطين متقاطعين، لا يلتقيان إلا يصطدمان، فيطلقها، ثم يراجعها أو يعقد عليها، حتى إذا التقيا تنابذا للمرة الثانية وتدابرا، فيطلقها ثم يراجعها أو يعقد عليها، حتى إذا استأنفا حياتهما الزوجية تكررت منهما المأساة؛ إن ذلك هو الكفر فى الإسلام، وإن ذلك هو الظلم الذى يجب اجتثاثه من أصله، وذلك بمنعهما من استئناف الحياة الزوجية فقد أثبتت التجربة المريرة أن الزوجية بينهما غير صالحة للبقاء، إما لعيب فيه أو لعيب فيها أو لعيب فيهما، وذلك هو غالب الأحوال؛ لأن أحدهما لو كان خالصا من العيوب التى تتعلق بالحياة الزوجية لصبر على الثانى، ولأصلح بصبره حاله؛ ولسارت السفينة فى جو هادئ لا يؤدى إلى الفصم والقطع.

وبعد تلك الفرقة المحرِّمة قد يحدث أن تتزوج زوجًا آخر، وتعاشره معاشرة الأزواج على قصد أن تدوم العشرة بينهما؛ ولكن بعد مدة طالت أو قصرت ينتهى هذا الزواج وتزول آثاره، إما بموت الزوج وانتهاء عدة الوفاة، وأو بتطليقه وانتهاء عدة الطلاق، فيبدو لزوجها الأول أن يستأنف حياة زوجية وتبادله هذه الرغبة؛ عندئذ يُنهى رب العالمين التحريم الذى أوجده الطلاق المكمل للثلاث؛ لأنه عسى أن يكون الزمان والتجربة، وعشرة غيره قد صقلت نفوسهما وأصلحت قلوبهما، ولطفت من حدة النفور منهما.

وترى من هذا أن الزواج الذى ينهى التحريم هو الزواج غير المؤقت الذى لا يقصد به مجرد التحليل للأول، بل الزواج الدائم المستمر، أو الذى يكون على نية الدوام والاستمرار؛ لأن الشارع الكريم جعل نهاية التحريم هو هذا الزواج والدخول فيه ثم الطلاق؛ لتكون تلك التجربة الشديدة المريرة، ولتصقل النفوس الرعناء المتمردة؛ فإذا لم يكن العقد زواجا قصد به البقاء والدوام، ما كانت تلك التجربة، وما كان ذلك الغرض المقصود من الشارع الحكيم.

ولكن الناس ضيقوا على أمرهم ما وسع الله، ثم أخذوا يفكون ما قيدوا أنفسهم به؛ فطلقوا لأدنى ملابسة، وطلقوا الطلقات الثلاث إما فى مجلس واحد أو بلفظ واحد، أو فى دفعات متقاربة، وقطعوا على أنفسهم الطريق ولم يفهموا قول الله تعالى: ﴿**لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا** ①﴾ [**الطلاق**] ثم بعد أن سدوا طريق الحلال، وأخذوا يتحايلون لفتحه بمفاتيح من الحرام، فأوجدوا ما سمى فى عرف الناس والفقهاء «زواج المحلل» أى الزواج الذى لا يقصد به عاقده العشرة الزوجية الدائمة، إنما يقصد به مجرد إحلالها للأول؛ فهو فى الواقع يتحايل على الأحكام الشرعية ليهدمها، لقد جعل الشارع نهاية التحريم أن تنكح زوجا آخر زواجا شرعيا صحيحا يقصد به دوام العشرة، ثم تجىء الفرقة عارضة لتكون تلك التجربة التى تهذب النفوس، وتضبط الإرادة، وتمنع الأهواء من الاندفاع؛ ولكن يجىء الناس فيهدمون مقصد الشارع ويمنعون التهذيب الذى أراده، فيكون ذلك العقد الذى ما قصد به الدوام ولا تتحقق به تجربة، وإن كانت تسقط به المروءة، وتنحرف النفس عن الجادة، ويتحايلون على أوامر الله بذلك ليسقطوها، ويخدعوا الله ﴿**وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** ⑨﴾ [**البقرة**].

ولقد ابتدأ ظهور ذلك النوع من الخداع الدينى فى صدر الإسلام؛ ولذلك نهى عنه النبى ﷺ وشدد فى النهى، وتضافرت بذلك الأخبار عنه وعن الصحابة، وسماه استهزاء بكتاب الله، ونقتبس من تلك الآثار النبوية قبسة تضئ للناس فى عصرنا، حتى لا يضلوا، فيضيقوا على أنفسهم واسعا، ثم يجتهدوا فى فتح باب الإثم إذ ضيقوا الحلال، ومن ذلك:

(أ) أنه روى عن ابن عباس أنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن المحلل فقال ﷺ: «**لا، إلا نكاح رغبة لا نكاح دَلِسَة، ولا مستهزئ بكتاب الله عز وجل لم يذق العسيلة**»(١).

ب ـ وروى الإمام أحمد والنسائى عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أخبركم بالتيس المستعار؟ قالوا: بلى يارسول الله، قال: هو المحلل، لعن الله المحلل والمحلل له**»(٢).

جـ ـ وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال: «**لعن رسول الله ﷺ صاحب الربا وموكله وكاتبه وشاهده، والمحلل والمحلل له**»(٣).

وهكذا تعددت الروايات والإسناد عن رسول الله ﷺ فى هذا المعنى.

وبهذا الهدى أخذ أصحابه رضى الله عنهم، ولم يعرف مخالف بينهم فى أن هذا النوع من العقود حرام؛ ولذلك قال الفاروق رضى الله عنه: (لا أوتى بمحلل ولا محلل له إلا رجمتهما) فاعتبر عمل الأول زنى؛ كذلك الثانى إن عقد بناء عليه، ودخل بها يكون زانيا يستحق كلاهما عليه الرجم.

ولقد جاء رجل إلى عبد الله بن عمر يسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثا، فيتزوجها أخ له من غير مؤامرة منه ليحلها لأخيه، هل تحل له؟ قال: «لا، إلا نكاح رغبة؛ كنا نعد هذا سفاحا على عهد رسول الله ﷺ».

ولقد روى البيهقى أن عثمان بن عفان رضى الله عنه تزوج امرأة ليحلها لزوجها ففرق بينهما.

وهكذا استفاضت الأخبار عن أصحاب رسول الله ﷺ، بتحريم نكاح التحليل واعتباره خداعا للشرع. ولقد سئل ابن عباس رضى الله عنه، عن رجل

---

(١) رواه الطبرانى، وراجع جامع الأحاديث والمراسيل - الإكمال من الجامع الكبير (٢٦٢٧٥) ج٨ ص٢٩١.
(٢) رواه ابن ماجه: كتاب النكاح - باب المحلل والمحلل له (١٩٢٦) عن عقبة بن عامر - رضى الله عنه.
(٣) رواه أحمد فى مسند العشرة (٦٣٤).

طلق امرأته ثلاثا ثم ندم، فقال: هو رجل عصى الله فأندمه، وأطاع الشيطان فلم يجعل له مخرجا، فقيل له: فكيف ترى فى رجل يحلها؟ فقال: من يخادع الله يخدعه.

ولقد اتفق المسلمون على أن نكاح التحليل حرام إن قصد العاقد به التحليل؛ لتضافر الأخبار بلعن النبى ﷺ له، ولأنه يخادع الشرع الشريف، ويتحايل لإسقاط أحكامه؛ ولأنه ما قصد بالعقد زواج رغبة وبقاء، بل قصد التحليل، فهو عقد مؤقت، وهو منهى عنه؛ ولأن الباعث على العقد ليس أمرًا أحله الشارع، إنما هو نقيض أمره، وكل أمر على خلاف أمر الشارع فهو رد على صاحبه؛ والعبرة فى الأمور الشرعية ببواعثها ونياتها؛ لقوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**»(١) فمن نوى أن يخدع الشرع بفعله فعليه إثم نيته، ومن نوى بعقده ما أحله الله سبحانه وتعالى فله نيته.

ومع اتفاق فقهاء المسلمين على أن نكاح التحليل حرام لصريح النصوص، إلا أنهم قد اختلفوا فى بطلانه، وفى تحليلها للمطلق الأول بمقتضى ذلك العقد؛ ذلك أن بعض الفقهاء يرون أن النهى عن عقد لا يمنع صحته، فالصحة والحل ليسا متلازمين تلازما لا يقبل الافتراق؛ فالنهى عن البيع وقت الجمعة لا يقتضى بطلانه والنهى عن الزواج مع تأكد الظلم إن تزوج لا يمنع صحته إن تزوج مع هذه الحال، وهكذا. .

وبتطبيق هذه النظرية عند أولئك الفقهاء على نكاح التحليل نراهم يقررون أنه حرام، ولكنه إن وقع فهو صحيح، ويترتب عليه حلها للأول مع إثم الاثنين أو الثلاثة.

وأما الذين قالوا إن النهى عن عقد يقتضى بطلانه، فقد قرروا أن عقد التحليل إن ثبت أنه للتحليل فهو حرام، وغير صحيح، ولا يترتب عليه حل للأول.

وإنا نبين موضع الخلاف بإجمال؛ فنقول: إن عقد التحليل له حالان:

---

(١) متفق عليه؛ أخرجه البخارى: بدء الوحى (١) بهذا اللفظ.

إحداهما: ألا تظهر نية التحليل فى أثناء العقد، بل تختفى فى أنفس الثلاثة: الزوج الثانى، والأول، والمرأة، فلا ينطق واحد منهم فى العقد بهذه النية، ولكنها فى أطواء نفوسهم جميعا؛ وفى هذه الحال قال مالك وأحمد: إن العقد غير صحيح، ولا تحل للأول؛ لأن الأحكام بالنيات، والبواعث والغايات تناط بها الأحكام، وما كان النكاح نكاح رغبة، بل هو نكاح دلسة كما عبر النبى ﷺ، وهو تحايل فى شرع الله، فلا يقر عليه المتحايل، والله لا يقرُّ أمراً جاء على خلاف ما أمر، وهو داخل فى عموم نهيه.

وقال أبو حنيفة وأصحابه: إنه فى هذه الحال ينعقد العقد صحيحا مع تحقق الإثم، ويترتب عليه حلها للأول بعد الدخول والطلاق وانتهاء العدة؛ لأن الأحكام تناط بظواهر الألفاظ، والنيات علمها عند الله، وهو الذى يؤاخذ عليها.

والشافعى قد أثر عنه قولان: أحدهما وهو القديم كمذهب مالك وأحمد، وثانيهما وهو الجديد، كمذهب أبى حنيفة وفقهاء العراق.

الحال الثانية: أن يصرح بالتحليل فى العقد، فيعقد العقد على شرطه، وهذا قال فيه الشافعى: إنه كنكاح المتعة فهو باطل؛ لأنه نكاح مؤقت؛ ومالك وأحمد على أصلهما وهو بطلانه وعدم حلها للأول بمقتضاه؛ والشافعى يوافقهما كما رأينا، وإن كان الأساس مختلفاً؛ فالشافعى أبطله لأنه مؤقت كنكاح المتعة، ومالك وأحمد أبطلاه لذلك، ولأن الباعث عليه حرام، وما كان باعثه حراما فهو حرام.

هذه أقوال الأئمة الثلاثة، وقد وافقهم أبو يوسف من أصحاب أبى حنيفة، من حيث إنه عقد فاسد لا يحلها للأول؛ وقال أبو حنيفة وزفر: يصح العقد ويحلها للأول؛ لأن اشتراط إحلالها للأول شرط فاسد، فهو يلغى ولا يكون لازما، ويصح العقد، ويحلها للأول بعد استيفاء شروط الحل.

وقال محمد من أصحاب أبى حنيفة: إن عقد الثانى صحيح مع هذا الشرط؛ لأن الشرط يلغى، ولكن هذا العقد لا يحلها للأول، أما صحة العقد فلأن الشرط ملغى لا يلتفت إليه، ولكن لأنه قد اشترط حلها للأول قد استعجل أمرا أخره الله

تعالى، وهو بذلك قد ارتكب محرما، وكان مستعجلا أمرًا قبل أوانه، فلا يصل إلى غايته، كمن قتل مورثه مستعجلا ميراثه فإنه لا يرث لأنه استعجل أمرا قبل أوانه فعوقب بحرمانه.

هذه خلاصة أقوال الفقهاء فى نكاح المحلل، وهو أقبح عقود الزواج، وترى منها أن جميع الفقهاء يرون أنه حرام، وأنه خداع لله سبحانه وتعالى، وأنه تحايل على إبطال أحكام الله، وتفويت لمقاصد الشارع الحكيم، وأن جمهور الفقهاء يرون أنه عقد فاسد لا تحل به للأول؛ وإذا كان ذلك شأن عقد المحلل فليتق الله الناس فى أنفسهم وأخلاقهم ومروءاتهم، وليجنبوا أنفسهم ألفاظ الطلاق ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، ولا يضيقوا على أنفسهم ما أفسح الله لهم؛ وليحفظوا على أنفسهم أعراضهم ومروآتهم فلا يضطروا إلى ذلك العقد الذى هو إثم فى إثم؛ وجرم فى جرم، وتعريض الحرمات للانتهاك.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ذيل الله سبحانه وتعالى أحكام الطلاق وعَدَده، ودفعاته، وما يترتب عليه بهذه الجملة السامية؛ ومعناها أن تلك الحقوق والواجبات التى بينها سبحانه وتعالى فى الطلاق من أن الزوج أحق بزوجته بعد الأولى والثانية، ومن أن النساء لا يسوغ لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن، ومن أن الطلاق ثلاث، بعدها تحرم عليه حتى تتزوج زوجا آخر، ومن أنه لا يحل له أن يأخذ منها شيئا إلا أن يكون فداء لنفسها خشية نشوزها. كل هذه الأحكام، هى الحدود التى أقامها سبحانه فارقًا بين العدل والظلم، والحق والباطل، والخطأ والصواب، وهى التى تقوم عليها معالم الأسرة الإسلامية؛ وقد بينها لقوم من شأنهم أن يعلموا الأمور على وجوهها ويدركوها على حقيقتها، ومن لم يلتزمها فقد ضل ضلالا مبينا.

وإن ذلك التذييل الكريم يستفاد منه ثلاثة أمور:

أولها: بيان أن الأحكام الخاصة بالطلاق هى حدود حدها الشارع، من يتجاوزها فقد تجاوز ماله إلى ما ليس له، وترك الحلال إلى الحرام، وترك الحق إلى

الباطل؛ وفى ذلك حث على الطاعة، وتحريض على التزام ما أمر الله سبحانه وتعالى.

ثانيها: الإشارة إلى أن هذه الأحكام هى المصلحة الحق، وأن الناس إن تجاوزوها فقد تركوا الخير إلى الشر والنفع إلى الضرر.

الأمر الثالث: حث الناس على تعرف حكم الشارع وغاياته؛ فإن مقاصد الشارع لا يعرفها على وجهها إلا الذين من شأنهم أن يعلموا، ويصلوا إلى لب الحقائق، ومرامى الأحكام الشرعية القاصية والدانية، والله بكل شئ محيط.

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

بين الله سبحانه وتعالى نظام الطلاق فى الإسلام، فذكر عدده، وأن الرجل أولى بزوجه، له ردها من غير عقد ما دامت فى العدة، إذا كان ذلك بعد الطلقة الأولى أو الثانية؛ ثم بين متى يسوغ أن تفتدى المرأة نفسها بمال تقدمه، وبين التحريم الذى يعقب الطلقة الثالثة، ومتى ينتهى ذلك التحريم؛ وفى الجملة بين نظام الطلاق

الذى يجعله فى دائرة المعقول، وعند الحاجة إليه؛ وبين معه طريق تفادى نتائجه من الفصم، متى كانت ثمة ندحة، أو متى كان هناك أمل فى استئناف حياة زوجية سعيدة، يعالج فيها كل واحد من الزوجين نفسه، ويجعلها ملائمة لنفس صاحبه، ويصلح من حاله وحال من معه، متى كان ذلك فى دائرة الإمكان.

بعد بيان ذلك النظام المحكم الوثيق الأركان، أخذ سبحانه وتعالى يبين ما يجب على الرجال إذا كانت الفرقة، وقد انشعبت القلوب، ولم يكن سبيل للالتئام، أو كان ثمة سبيل موصل إليه؛ أى أن الآيات السابقة فى بيان نظام الطلاق، وهاتين الآيتين فى بيان ما ينبغى اتباعه فى معالجة نتائجه، ليكون العدل والحق، ولا يكون الجور والباطل، أو الشطط والتهور. وقد قال سبحانه عز من قائل: ﴿**وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ**﴾.

الأجل هنا: العدة؛ ويصح أن يطلق على آخرها؛ فإن كلمة أجل تطلق على المدة كلها، كما تطلق على الزمن الذى تنتهى إليه؛ فيقال: أجل الدين هو شهران، ويقال: أجل الدين هو نهاية شهر كذا؛ وكلا التفسيرين يصح أن يكون مرادًا هنا، والأقرب أن يراد به انتهاء المدة.

وبلوغ الأجل المراد به هنا قرب انتهاء العدة، ومشارفة ذلك الانتهاء؛ وذلك لأن الإمساك بالمعروف؛ وهو المراجعة لا يمكن أن يتحقق إلا إذا فسرنا بلوغ الأجل بقرب انتهائه؛ إذ لا معنى للإمساك بمعروف بعد انتهاء الأجل؛ فإن المراجعة لا تكون بعد انقضاء العدة.

ولقد قال الراغب الأصفهانى فى معنى البلوغ ما نصه:

(البلوغ والبلاغ: الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى، مكانًا كان أو زمانًا، أو أمرًا من الأمور المقدرة، وربما يعبر به عن المشارفة عليه، وإن لم ينته إليه؛ فمن الانتهاء ﴿**حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً** ... ﴿١٥﴾﴾ [**الأحقاف**] وقوله عز وجل: ﴿**وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ**﴾ وأما قوله عز وجل: ﴿**فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ** ... ﴿٢﴾﴾ [**الطلاق**] فللمشارفة؛ فإنها إذا انتهت إلى أقصى الأجل لا يصح للزوج مراجعتها وإمساكها له).

وإن استعمال البلوغ بمعنى مشارفة الانتهاء مثاله فى المكان أن تقول: بلغت المدينة. إذا وصلت إليها، وصرت على مقربة منها بحيث صرت تشرف عليها، وتبدو لك مطالعها.

ومعنى الجملة السامية: إذا شارفت العدة الانتهاء، وقاربت العلاقة على الانقطاع التام وجب على الرجل أن يتدبر فى أمره، فينظر فى ماضيه معها وحاضره، وما يرجوه فى المستقبل ويترقبه؛ فإن رجح لديه أن البقاء أولى من القطع، وأن ما كان سببًا لكلمة الطلاق لا يصلح أن يكون سببًا لقطع العلاقة قطعًا باتًا، وأن يتفرقا، وأنه إن أعاد الحياة أقام العدل معها، ولم يكن فيها ما يدفعه إلى الظلم، ولا فى طباعه ما يدفع إلى الأذى؛ إن كان ذلك كذلك فليمسكها بمعروف، أى فليرجعها إليه معتزمًا إمساكها والبقاء معها بالمعروف، أى بالتزام الأمر المعقول الذى تعرفه العقول وتقره، ويرضاه الناس، ويزكيه الحق سبحانه وتعالى.

وإن رجح لديه بعد أن ينظر فى غابر أمره وحاضره أنه لا يرجو فى المستقبل خيرًا، وتأكد لديه ذلك، أو كان قريبًا منه، أو غلب الظن بذلك، فليسرحها(١) بمعروف أى فليمض الطلاق، ويخل بينه وبينها بمعروف، أى بالأخلاق الحسنة من غير مشاحة ولا معاندة ولا إيذاء، فإن ذلك هو الذى يعرفه العقلاء، ويؤمن به الأتقياء؛ ولقد كان الصالحون من أصحاب رسول الله ﷺ ومن جاء بعدهم لا يذكرون نساءهم اللائى يطلقونهن بسوء قط. سئل بعض التابعين: لِمَ طلقت زوجك؟ فقال: إن العاقل لا يذكر ما بينه وبين أهله.

وإن التسريح بالمعروف يتقاضى أن يؤدى لها كل حقوقها من مال كان عليه، وألا يذكرها إلا بخير، وأن يعاونها إن كانت فى حاجة إلى معونته؛ حتى لقد قرر

---

(١) قال المصنف رحمه الله تعالى: حقق الراغب الأصفهانى معنى التسريح، فقال: «السرح شجرة لها ثمرة، الواحدة سرحة، وسرحت الإبل أصله أن ترعيه السرح ثم جعل لكل إرسال فى الرعى. قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾ [النحل] والتسريح الطلاق نحو قوله تعالى: ﴿... أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ... ۝٢٢٩﴾ [البقرة] وقوله: ﴿... وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ۝٤٩﴾ [الأحزاب] مستعار من تسريح الإبل، كالطلاق مستعار من إطلاق الإبل.

الفقهاء أنه تستحب المتعة لكل مطلقة؛ وقد ادعى بعض الفقهاء وجوبها، عملا بقوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾ [البقرة].

وفى الجملة إن التسريح بالمعروف يتقاضى الامتناع عن كل أذى، ومدَّ يد المعونة إن تعينت إليه؛ وهذا هو التسريح الجميل المذكور فى قوله تعالى: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ﴿٤٩﴾﴾ [الأحزاب].

﴿وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ وإذا كان الإمساك بالمعروف، أو التسريح بالإحسان هو المطلوب، فإن الإمساك الذى يترتب عليه الضرر لا يسوغ وقد يسأل سائل: إن الله سبحانه وتعالى قد أمر بالإمساك بالمعروف، أو التسريح بالإحسان، وإن ذلك يفهم منه ضمنا النهى عن الإمساك ضراراً وإيذاء؛ إذ إن الله سبحانه وتعالى قد خير المؤمن بين أمرين لا ثالث لهما، فكان ذلك نهيا عن الثالث والرابع، وهو الإمساك ضراراً، والتسريح مع الإيذاء.

والجواب عن ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد خص الإمساك ضراراً بالنهى بعد أن فهم النهى عنه وعن غيره ضمنًا، ليبين للمؤمن أنه لا يحل له أن يراجع إلا إذا كان قد اعتزم العدل وأراده، ولم يجد معوقًا له عن إقامته، بل وجد أنه يستطيع أن يتعاون مع أهله عليه، وأن التنفير من الطلاق والنهى عن القطيعة لا يسوغان له أن يرضى بإعادة العشرة مع توقع الضرار والأذى، واستمرار الحياة المعتكرة بالشر والحدة والأذى، فإنه إذا كانت القطيعة والفراق أمرين غير مرغوب فيهما، ويتنافيان مع المودة التى يدعو إليها الإسلام؛ فإن الضرار بين الزوجين أمر منهى عنه، وإن المودة هى المطلوبة، فإن تعذر قيامها، أو غلب على الظن عدم قيامها، فلا يسوغ استئناف الحياة الزوجية مع النفرة المستحكمة، والأذى والنشوز؛ فإن ذلك هو الكفر فى الإسلام؛ لأنه كفر فى العشرة، وعداوة فى موطن المودة، ومكايدة فى موضع المسالمة.

وقد فهم بعض العلماء أن المراد من الضرار هو الإضرار، فإن ذلك هو الذى يصلح سببًا من جانب الذى يملك الرجعة وحده وهو الزوج؛ أما الزوجة فإنها لا

تملك الرجعة فلا يتصور ضرر من جانبها يكون مقصودًا عند الرجعة، والضرار يوجب عملا مشتركا من الجانبين، والاشتراك غير متصور؛ فالضرار يكون بمعنى الضرر؛ وإن ذلك الفهم صحيح فى جملته؛ ولكن لِمَ عبر عن الضرر بالضرار، وعدل عن اللفظ الأصلى الموضوع له إلى لفظ آخر؟

والجواب عن ذلك هو أن الرجل عند الإمساك الذى يؤدى إلى الضرار - وهو مبادلة الضرر التى تنشأ عن المعاندة والمكايدة - له حالان:

إحداهما: أن يقصد إلى الضرر والأذى بالرجعة، بأن يمسكها مكايدة وعناتًا ومبالغة فى الظلم لتكون كالمعلقة؛ وذلك كما كان يقع من بعض الناس فى عصر التنزيل، إذ يرجعون أزواجهم قبل انتهاء العدة، ثم يطلقونهن لتطول العدة، وليبالغوا فى الأذى، وذلك أمر منهى عنه، لا حاجة إلى النص عليه، ومعنى الضرار فيه خفي؛ لأن الضرر فيه واقع على جانب واحد، ومن جانب واحد، أو هو على الأقل واضح فى أحد الجانبين، وليس واضحًا فى الآخر.

ثانيهما: هو أن يكون المطلق قاصدًا الرجعة الحق، ولكنه لم يعتزم العدل، ولم يتوقعه، ولم ير أن أسباب الطلاق قد زالت، بل أراد العودة مع قيام أسباب النفرة؛ فإن ذلك يكون كقاصد الضرار، وإن لم يعلنه وإن لم يشعر؛ لأنه سيكون بينهما لا محالة وسيقع؛ ويكون حينئذ الضرار على أصل معناه، ويكون مقصودًا من فاعل الرجعة، أو فى حكم المقصود.

وقد بين سبحانه وتعالى أنه سيترتب على الرجعة مع قيام الأسباب التى أوجبت الطلاق والتى اعتبرت ضرارًا - أمران:

أحدهما: أن يعتدى فى الحياة الزوجية فيظلم، بل إن إقدامه مع توقع الكيد والأذى اعتداء؛ ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿لِّتَعْتَدُوا﴾ فاللام هنا هى التى تسمى لام العاقبة، فهى تبين أن ثمرة الرجعة التى لا يتوقع فيها العدل هو الاعتداء، بل إن ذات الرجعة فى هذه الحال من الاعتداء والظلم.

الأمر الثاني: الذى يترتب على الرجعة ضراراً، هو أنه يظلم نفسه، فكما أنه يترتب على ذلك الضرار اعتداء على غيره يكون فعله ظلما لنفسه؛ ولذا قال سبحانه: **﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾** أى أن من يرجع مطلقته إضراراً أو ضرارا فقد ظلم نفسه ظلمًا مؤكدًا، وإذا كان قد أراد ظلمها فمن المؤكد أنه قد ناله حظ عظيم من الظلم قبل أن ينالها؛ وذلك لأنه عصى ربه فاستحق عذابه، ولأنه جعل البيت الذى هو مثابة الراحة والقرار مكان نكد واضطراب يستبدل فيه بالمودة البغضاء؛ ولأنه لا يعيد إلى حظيرة الزوجية زوجًا ودودا، بل عدوا شديدا، وأشد الأعداء من كان منك قريبا، وقد يكون كالثعبان بين جنبيك؛ وأى ظلم للنفس فوق هذا الظلم.

﴿وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ﴾ بعد أن نهى سبحانه وتعالى عن أن تتخذ الرجعة ضرارا، أو يقدم الرجل عليها وهو يعلم أو يظن أنه لن يكون إمساك بمعروف؛ أعقب ذلك بنهى آخر هو توكيد للنهى الأول، فقال: **﴿وَلا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾** وذلك لأن الله سبحانه وتعالى رسم فى آياته حدودًا ونظمًا تتقرر بها الحياة الزوجية، فشرع الرجعة لتدارك ما فاته وقت الغضب، ولرجاء أن يستقيم الأمر، وتقام الحياة الزوجية بالمعروف، بعد أن تهددتها القطيعة، وقاربت على الانفصال؛ فمن اتخذ الرجعة للضرار، أو وهو غير مستيقن صلاح الحال أو يرجو ذلك، فهو كمن يستهزئ بأحكام الله، وآياته سبحانه؛ لأنه ينفذ الأوامر فى غير موضعها، ويكذب على نفسه وعلى دينه وعلى ربه، فهو يعمل عمل من يريد الصلاح ولا يريده، وعمل من يقيم الحياة الزوجية الصحيحة ولا يقيمها، ثم هو فى أعماله يشبه اللاعب الهازئ، بل إنه لاعب هازئ فى موضع الجد، يطلق لأتفه الأسباب، ويرجعها من غير أن ينوى الصلاح والعشرة بالمعروف، فيطلق ثانيًا عابثًا، ثم يرجعها عابثا، ثم يطلق، فيكون التحريم بسبب العبث والمجون.

ويصح أن يراد بالآيات الآيات التكوينية، لا الآيات القرآنية الحكمية المتلوة؛ وذلك لأن من آيات الله فى الكون أن جعل الزوج سكنًا تربطها به المودة، فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ... (٢١)﴾ [الروم] فمن طلق عابثا وراجع عابثا، وجعل الحياة الزوجية اضطرابا وضرارا وعداوة بدل المودة، فقد استهزأ بآيات الله الكونية، فحرم نفسه من نعمتها؛ ولذا قال سبحانه بعد هذا النهى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ﴾. فقد أمر سبحانه وتعالى المؤمنين بأن يتذكروا دائمًا نعمة الله تعالى عليهم، وأن يتذكروا ما فى الكتاب وما جاءت به السنة من أحكام وعظات.

أما النعمة التى يجب تذكرها فهى نعمة الزوجية خاصة، ونعمه سبحانه وتعالى عامة، ونعمة الزوجية تتجلى فى أن يكون للشخص أليف فى الحياة يقطع معه بيداءها، ويتحمل معه لأواءها؛ ويكون بيت الزوجية فيها كواحة فى وسط صحراء الحياة، وروضة يأوى إليها بعد المشاق وبعد الكد واللغوب، فمن عبث بهذه النعمة فقد ظلم نفسه، ونسى أنعم الله سبحانه وتعالى عليه، ثم حق عليه أن يتذكرها؛ ومن كمال نعم الله أن ذكره بها فى مقام نسيانه لها.

والتذكير الثانى هو بما أنزل الله من الكتاب والحكمة؛ والكتاب هو القرآن الكريم، والحكمة هى السنة النبوية كما فسرها الشافعى رضى الله عنه، وهو تفسير حكيم نقبله؛ لأن العطف يقتضى المغايرة، فلابد أن تكون الحكمة غير الكتاب؛ ولا شىء نزل على النبى ﷺ بعد الكتاب غير ما اشتملت عليه السنة من أحكام؛ فما كان النبى ﷺ ينطق عن الهوى ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥)﴾ [النجم] والحكمة معناها العلم النافع الذى يتجه إلى ناحية العمل الذى به تنضبط النفس، وذلك يتلاقى مع السنة النبوية، فكانت جديرة بهذه التسمية؛ لأنها تفصل الأحكام العملية الجزئية، وترشد إلى تنفيذ ما اشتمل عليه القرآن الكريم من قواعد كلية، ونظم جامعة.

والتذكير بالكتاب والسنة هو تذكير بأمرين يجب أن يكونا فى ذاكرة كل مؤمن، فهو تذكير زاجر؛ ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿يَعِظُكُم﴾ فالوعظ تذكير فيه زجر وتخويف؛ ولذلك قال الخليل بن أحمد فى تعريف الوعظ: (. . . هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب». والضمير فى ﴿يَعِظُكُم بِهِ﴾ يعود على المذكور من الكتاب والسنة، وجعل الضمير واحدًا؛ لأنهما فى مؤداهما وغايتهما شىء واحد؛ وإن السنة ليست إلا تابعة للكتاب، منه أخذت قوتها وسلطانها، إذ قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا . . . ﴿٧﴾﴾ [الحشر].

وقد قال تعالى فى ختام الآية: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ بعد أن بيَّن سبحانه العواقب الوخيمة لمن يعبث بالحياة الزوجية، ويجعلها مضارة وعداوة، لا مودة فيها ولا خير، وذكَّر بنعمة الله عليه فى أحكامه وشرعية الزواج، وبيَّن مغبة العبث بالأحكام؛ بعد هذا كله حذَّر وأنذر، فأمر بتقوى الله سبحانه وتعالى بأن يجعل بينه وبين غضب الله سبحانه وتعالى وعذابه وقاية، وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه؛ وإن تربية معانى التقوى فى النفس تجعلها تدرك الخير والشر، وتمنعها من أن يتأشب إدراكها نوازع من الهوى والعبث؛ لأن التقوى تربى المهابة من الله والخوف منه، وتجعلها تذكِّر عقابه.

ثم وصل سبحانه بالتهديد إلى أقصى الغاية ببيان علمه الكامل بكل شىء فقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فإنه سبحانه يعلم ما تخفى الصدور، وما تطويه النيات، وما تكنه السرائر؛ ثم إن التذكير بعلم الله فوق أنه إنذار أىّ إنذار، فيه بيان أن المصلحة فيما يشرع من أحكام، وما يبين من نظم؛ لأنه على قدر العلم يكون الإحكام، وعلى قدر الإحاطة يكون الإتقان؛ فهذا التنزيل فيه حث على الطاعة، كما أن فيه إنذارًا بالمخالفة؛ والله سبحانه الهادى إلى سواء السبيل.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ بعد أن بين سبحانه العواقب الوبيلة التى تترتب على الإمساك ضرارًا، وما فيه من ظلم للرجل والمرأة معًا، أخذ يبين حكمه سبحانه فى ظلم آخر يقع بالنساء وعاقبته وبيلة للمجتمع، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾.

بلوغ الأجل هنا هو بلوغ أقصى العدة، فالبلوغ هنا غير البلوغ فى الآية السابقة، إذ الأول كان للمقارنة والمشارفة، وهنا للانتهاء والسياق هو الذى عيَّن معنى البلوغ فى الأول كما بيَّنا، وهو الذى عيَّن معنى البلوغ الثانى، إذ إن العقد المعبر عنه بقوله تعالى: ﴿أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ يدل على أن المراد هو انتهاء العدة؛ إذ لا يتصور النكاح وهو العقد الذى يكون من طرفين إلا بعد انتهاء العدة؛ ولذا قال الشافعى رضى الله عنه فى هذه الآية والتى سبقتها: (دل سياق الكلامين على اختلاف البلوغين).

والعَضْل معناه هنا المنع الظالم، وأصله بمعنى الحبس والتضييق مع الألم، ومنه: عضلت الدجاجة إذا تعلقت بها بيضتها فلم تخرج منها، وعضل المرأة يمنعها من الزواج من غير مبرر فيه حبس لها وتضييق عليها، وإرهاق لنفسها ولحسها.

وإن النساء اللائى يطلقن يتعرضن لظلم المطلقين، فيحاول المطلقون أن يرهقوهن من أمرهنَّ عسراً، بأن يمنع كل مطلق من طلقها من أن تتزوج من غيره، خصوصًا إذا كان صاحب سطوة باغية، أو كان ذا جبروت طاغية؛ وتلك نزعة جاهلية، لا يقرها عرف ولا شرع ولا عقل، ويتعرض أولئك المطلقات لظلم ذويهن، فقد يردن العودة إلى أزواجهن، ويتراضين معهم على ذلك، ولكن يقف الولى محاجزًا، حاسبًا أن ذلك مهانة له ولها، كما فعل بعض الناس فى عصر النبى ﷺ؛ وقد ترتضى المطلقة رجلا زوجا لها، عِفا فى عرضه، تقيًا فى دينه فيملأ نفسها؛ ولكن لا يرتضيه أولياؤها لأمر لا ينقص من قدره، كفقر أو نحوه، فيمنعونها من ذلك الزواج!

فى كل هذه الصور يكون عضل المرأة، وحبسها والتضييق عليها فى ذات نفسها؛ فنهى الله سبحانه وتعالى عن ذلك فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾.

وقد قال بعض العلماء: إن الخطاب للمطلقين ليمتنعوا عن تلك العنجهية الجاهلية؛ وقال بعضهم الخطاب للأولياء لكيلا يحولوا بين النساء وبين الزواج ممن يردن من غير سبب ومبرر، سواء أكان الزوج الذى ارتضته هو المطلق السابق أم كان غيره.

ونحن نرى أن الخطاب عام لكل المؤمنين ممن يقع فى دائرتهم ذلك، فهو يعم المطلقين، ويعم الأولياء، ويعم غيرهم ممن يتصلون بهم، ويعم أولياء الأمر الذين بيدهم الهيمنة على الأمور؛ والتعميم بهذا الشكل يدل على التكافل بين آحاد الأمة، ووجوب التعاون بينهم فى منع كل ظلم، وخصوصًا ما يقع على الضعفاء، وما يمس الحرية الشخصية فى أدق ما تتجه إليه، ولا شىء يهم المرأة أكثر من اختيار زوجها، ولا عقد أمس بالوجدان من عقد الزواج، ولا اتفاق أكبر خطرًا فى الحياة من ذلك الاتفاق؛ فالظلم فيه خطير بمقدار ماله من خطر وشأن.

غير أن المرأة ليست لها الحرية المطلقة فى اختيار من تشاء من الأزواج، بل إن رضاها مقيد بالمعقول والمشروع؛ ولذا قيد التراضى بقوله: ﴿إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ أى بالأمر الذى تسير عليه العقول، ويجرى به العرف، ويقره العقل، ولم يكن ثمة سبب للاعتراض، فليس من المعقول أن يطلق اختيارها ويحترم إذا اختارت لمجرد الهوى العارض، سواء أكان كفئا لها أم لم يكن كفئا؛ ولذلك سوغ أبو حنيفة للولى أن يعترض إن تزوجت بغير كفء، فهو قد أطلق حريتها، ولكن إن أساءت الاختيار كان للولى الاعتراض، وغير أبى حنيفة أشركوا الولى معها فى الاختيار حتى لا تضل، ولكن نهاهم القرآن عن أن يمتنعوا من غير سبب معقول، وإلا كان ذلك عضلاً، ولها أن ترفع الأمر إلى القاضى صاحب الشأن ليرفع ظلم الأولياء.

وهنا نكتة بلاغية نشير إليها؛ ذلك أن الله سبحانه وتعالى عبر عن الذين يختارهم النساء ويمنعن عنهم ظلمًا بالأزواج مع أن الزواج لم يتم، للإشارة إلى الحقيقة المقررة الثابتة، وهو أن من يقع اختيارها عليه، ويتراضيان عليه بالمعروف، ولم يكن الزواج بينهما فيه ما يشينها أو يشين أسرتها هو الذى ينبغى أن يكون ازدواجها به، وهو فى حكم الفطرة زوجها، وعلى الأولياء ألا يعاندوا حكم الفطرة، بل عليهم أن ينفذوه ويقروه، ولا يصح لأحد أن يعارضه.

﴿ **ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾ ذلك القول الحكيم، والأمر الكريم يذكِّر الله به تذكيرًا يرق معه قلب المؤمن وتخشع نفسه، ويوجل قلبه إذا كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ ذلك لأن الإيمان بالله، والإحساس بعظمته وكبريائه، يمنع الظالم من أن يظلم، ولا يظلم الظالم إلا وهو فى غفلة عن الله، ولو أحس بأن الله محاسبه، وأنه يأخذ الظالم بظلمه، وأن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب، ما استمر فى ظلمه، ولا استرسل فى غيه، ولكنه يكون حال ظلمه فى غفوة عن الإيمان، ونسيان للواحد الديان وهو القاهر فوق كل شىء.

والإيمان باليوم الآخر من شأنه أن يحس معه المؤمن بالحساب والعقاب الذى يرتقبه، ومن شأنه أن يجعل المؤمن يستهين بالدنيا وما فيها، ويعلم أنها ظل زائل، وعرض حائل، وأن الآخرة هى الباقية وإذا كان كذلك قلل من الرغبات، وإذا قلت الرغبات ضعفت الدوافع إلى الظلم، وخمدت نوازع الشر.

﴿ **ذَلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾ ذلكم أيها المؤمنون أجمعون من غير تخصيص طائفة بالخطاب، وهو ما شرعه الله سبحانه من أحكام خاصة بسلطان الأزواج والأولياء، أزكى وأطهر، والزكاة النماء، أما أنه أزكى وأنمى؛ فلأن قيام الأسرة على العدل والمودة والتراحم يزيد فى عدد الأمة فيكثر النسل؛ ويزيد من قوتها؛ لأن الجماعات القوية هى التى تقوم على أسرة قوية، ولا شىء يقوى الأسرة أكثر من المودة والعدل والرحمة؛ وأما أنه أطهر فلأن المرأة إذا عوملت معاملة كريمة بالحق والعدل وأطلقت حريتها فى دائرة المعروف المعقول ولم

تظلم فى رغباتها العادلة، أدى ذلك إلى الطهر والعفاف؛ فإن احترام النفس صون وعفاف، وامتهانها نقيض ذلك؛ لأن النفس إذا أكرهت جمحت، وإذا جمحت لم ترتبط برباط من الحكمة والصون والعفاف، بل إنها إذا جمحت عميت، فلا تدرك خيرًا ولا شرًا. ولقد روى أن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: (إن للقلوب شهوات، وإقبالا وإدبارًا، فأتوها من قبل شهواتها وإقبالها، فإن القلب إذا أكره عمى) ولا عفة ولا طهر عند عماية القلوب.

ولقد قال سبحانه: ﴿**ذَٰلِكُمْ**﴾ بضمير الجمع، وغيَّر النسق؛ للإشارة إلى أن حماية المرأة من الهوان ومنع التضييق عليها فى اختيار زوجها، إن كان الاختيار فى دائرة المعقول - حق على الجميع، وفائدته للجميع.

ولقد ذيّل سبحانه الآية الكريمة بقوله: ﴿**وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ للإشارة إلى أن شرع الله تعالى فيه النفع الدائم، والمصلحة الحقيقية، والنتائج المرضية؛ لأنه شرع من يعلم كل شىء ولا يجهل شيئا، وليس للناس أن يتمردوا عليه، أو يخالفوه، أو يهونوا مخالفته فى أنفسهم بدعوى أنهم يرونه فى الظاهر مخالفًا للظاهر من مصلحتهم؛ فإن ما يدركونه مصلحة ليس بمصلحة فى ذاته إذا جاء نص الشرع القاطع على خلافه؛ لأن علم الإنسان قاصر، وعلم الله وحده هو الكامل؛ فلنتبع شرع الله، ولا نُحكِّم الهوى فى نصوص الكتاب، ولنَحْثُ التراب فى وجوه الذين يحاولون مخالفة النصوص الصريحة القاطعة بدعوى أن المصلحة فى خلافها؛ لأنه لا توجد مصلحة قاطعة تخالف نصًا قاطعًا؛ إنما هى أوهام، وعقول خاضعة لأزمان محكومة بالشر المتكاثف، حتى حجب النور؛ ولنقل لهم إن شرع الله هو المصلحة: ﴿ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾.

﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ ﴾

بين الله سبحانه وتعالى حقوق الزوجين، وما لكل واحد منهما على صاحبه، ثم أحكام الافتـراق إن لم تكن المودة سائدة؛ وبهـذا بين العشـرة الحسنة والتسـريح بإحسان، أو الفراق الجميل.

وبعد بيان حقوق الزوجين فى الاجتماع والافـتراق، أخذ سبحانه وتعالى يبين حقوق من كـانوا ثمرة لهذا الزواج، فى حـالى الاجتماعى والافتـراق أيضًا؛ وهذه الآية تبين ذلك؛ وقـد ذكرت أول حق يتقـرر للطفل فور ولادته؛ وهو حق التـغذية الأولى التى تناسب سنه، وتكوّن لحمـه، وتنشز عظمه؛ ولذا قال سبـحانه وتعالى: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾.

الوالدات: هن الأمـهات، سواء أكـن أزواجًا لآباء[1] الأولاد أم كن مطلقات منهم؛ والتعبير عن الأمهات بالوالدات فيه إشارة إلى أمرين:

---

(١) قال المصنف رحمـه الله: كون المراد بالوالدات الأمهات سواء أكن أزواجا أو مطلقـات هو الذى اخترناه من بين ثلاثة آراء لأنه هو الذى يتفق مع عمـوم كلمة الوالدات ومع المعانى التى يشير إليها التـعبير بالوالدات، والرأيان الأخيران:

أولهما: أن المراد المطلقات؛ لأن السياق كله فى الطلاق وأحكام الطلاق والمطلقات، ولأنهن مظنة إهمال =

أحدهما - أنهن اللائى ولدنهم وكن الوعاء الذى برزوا منه إلى الوجود، وقد تربوا فيه ومنه تغذوا، فكان من الحق أن يتغذوا منه حتى يستغنوا عنه؛ وفى هذا إيماء إلى وجوب الإرضاع على الأمهات.

وثانيهما - أن الغذاء الذى يناسب الطفل فى مهده هو الغذاء الذى يكون من نوع ماكان يتغذى منه فى بطن أمه؛ وكان فى التعبير بالوالدات إشارة إلى ذلك؛ لأن الولادة انفصال الحمل عن أمه وبروزه إلى الوجود؛ فهى تشير إلى الصلة بين المكان الذى خرج منه، وحياته التى يستقبلها؛ وذلك إيماء إلى وجوب التناسب بين الحالين، والتناسب بينهما من حيث الغذاء، يوجب التجانس بين حالى الغذاء، وذلك يوحى من جهة ثانية إلى وجوب إرضاع الأم ولدها، وهو ما سيقت له الجملة السامية.

وقوله تعالى: ﴿**يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ**﴾ هو أمر جاء على صيغة الخبر؛ فمعنى ﴿**يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ**﴾ ليرضعن؛ أى عليهن إرضاع أولادهن؛ وعبر عن الطلب بصيغة الخبر؛ للإشارة إلى أن ذلك الوجوب تنادى به الفطرة، ويتفق مع طبيعة الأمومة، وأن الأمهات يلبين الطلب فيه بداع من نفوسهن؛ فلذلك عبر بالخبر، كأن الإرضاع وقع من غير طلب خارجى، فكان ذلك التعبير مفيداً للأمر التكليفى، ومقرراً للأمر الفطرى.

والفقهاء يقررون أنه مطلوب من المرأة أن ترضع ولدها، ولكنهم يختلفون فى مدى هذا الطلب؛ فالحنفية يرون أن هذا الطلب للندب فى جملته، فليس على الأم إرضاع ولدها، إلا فى حال الضرورة، بأن لم يوجد من يرضعه سواها، أو لا يلقم الولد إلا ثديها، أو كان الأب عاجزا عن استرضاع ولده عند ظئر؛ إذ لايملك أجرتها؛ وينافى هذا الرأى قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ**

= الولد عند المكايدة، ولأن إيجابه الرزق بعد ذلك فى نظير الرضاع يوجب ذلك، وللنهى عن المضارة وهى لا تتصور إلا عند الطلاق.

ثانيهما: أن المراد الزوجات وهذا قول لا حجة له، وما اخترناه أولى لما فيه من عموم ولا دليل على التخصيص.

عَلَيْكُمْ﴾ لأن هذا يفيد أن الأب غير ملزم بالاسترضاع، بينما رأى الحنفية يفيد بأنه الملزم، والأم غير ملزمة؛ ولما رأوا ذلك قالوا: إن الأم عليها الإرضاع ديانة لا قضاء.

والمالكية يرون أن المرأة عليها إرضاع ولدها إلا لعذر، واعتبر من الأعذار أن تكون من الطبقة التى لا ترضع أولادها عادة.

وقوله تعالى: **﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾** يفيد أن الإرضاع اللازم للغذاء لا يتجاوز حولين كاملين؛ ووصف الحولين بأنهما كاملان؛ للإشارة إلى النهاية الكاملة التى لايدخلها تجاوز ولا تسامح؛ وليتناسب مع قوله: **﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾** وإن بيان الحدود من حيث الابتداء والانتهاء يجب أن يكون دقيقًا، وإن الناس قد يعدون ما دون الحولين إذا كان قليلا كشهر أو نحوه غير ناقص للمدة؛ فذكر سبحانه وتعالى وصف الكمال، لينفى مثل هذا الاحتمال.

وفى التعبير عن السنة بالحول فى هذا المقال، إشارة إلى معنى دقيق؛ يبين أنه فى انتهاء السنتين يكون الطفل قد بلغ حد الاستغناء؛ ذلك أن كلمة حول تدل على التحول من حال إلى حال، فيكون التعبير بها مشيرًا إلى تحول الطفل فى مدارج نموه من وقت ظهوره فى الوجود، ورؤيته شمسه، فإنه ينتقل شهرًا بعد آخر فى التغذية، تبعًا لنمو قواه، وحاجة جسمه، فهو يبتدئ ضعيفا لا يستطيع أن يتناول غذاءه إلا من ثدى أمه، ثم يتناول غيره قليلا، ثم يزاد حتى إذا أتى على الحولين حالت الحال، واستغنى تمامًا عن الرضاعة؛ ولذا قال سبحانه: **﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾** وهذه الجملة السامية تشير إلى أنه قد يستغنى الطفل عن أمه قبل الحولين، وأن من أراد التمام إن وجدت أسبابه يصل إلى نهاية الحولين، سواء أكان المريد الأب أو الأم.

وهذه المدة هى حد لثلاثة أمور عند جمهور الفقهاء:

أولها - أجرة الرضاعة التى تستحقها الأم، والتى دل عليها قوله تعالى من بعد **﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾**.

وثانيها - على نهاية الوجوب الذى أوجبه الشارع على الأم عند القائلين بأنه يجب عليها قضاءً إرضاع ولدها؛ وعلى نهاية الوجوب الدينى عند الذين لا يفرضون عليها إلا الوجوب الدينى دون القضائى.

وثالثها - أن الرضاع المحرِّم الذى يكون موجبًا لصلة تكون الأنثى فيها حرامًا كالنسب تماما فى كل أحوال التحريم لا يكون إلا فى هذين الحولين؛ أما بعد ذلك فالرضاع لا يحرم(١)؛ وعلى ذلك الرأى جمهور الفقهاء. وقال أبو حنيفة: الرضاع المحرم مدته ثلاثون شهرًا، وأما الرضاع من حيث الأجرة، ومن حيث الوجوب على الأم ديانة أو قضاء فمدته حولان كنص الآية الكريمة.

وإن هذا الوجوب الذى أوجبه القرآن الكريم على الوالدة يدل على مقدار عناية الإسلام بالرضاعة، ومقدار عنايته بتربية الأطفال، وتغذيتهم، وعنايته بأجسامهم، وسلامة دمهم؛ فإن لبن الأم هو الغذاء الطبيعى لولدها، ينمو بنموه، ويسير من حيث كم الغذاء مع تقدم سن الطفل شهرًا بعد شهر، وهو غذاؤه فى بطن أمه، فيكون هو غذاءه بعد ولادته وإن تعرض الطفل للمراضع يعرضه للأدواء الوراثية تنتقل إليه؛ بل يعرضه للأدواء النفسية والعقلية تؤثر فيه؛ فإن المرضع تحمل إليه مع اللبن ما فى جسمها من عيوب وراثية، وما فى نفسها وعقلها من عيوب أيضًا؛ وقد أثبتت التجربة أن العيوب النفسية فى المرضع تسرى إلى من أرضعته، وتتشربها نفسه، بل تتكون منها طباعه، كما تكون من لبنها جسمه.

ومن عناية الشارع بالرضاعة جعلها من أسباب التحريم، فيوجد الرضاعة بين الطفل ومن أرضعته وذويها وكل من تلقوا من ثديها صلة تشبه صلة النسب، ولكى يتحرى الآباء من يرضعن أولادهن، وتتحرى الأمهات من تقمن مقامهن، أو من يشركنهن فى الأمومة الفطرية التى أوجدتها الولادة.

---

(١) قال المصنف رحمه الله: فرق أبو حنيفة بين مدة الرضاعة التى تجب فيها الأجرة، ومدة الرضاعة المحرمة، فاعتبر الأولى حولين كاملين كنص الآية الكريمة، واعتبر الثانية ثلاثين شهرا، بقوله تعالى: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهرا﴾ إذ فهم منها أن مدة الفصال الذى ينتهى بانتهاء الرضاعة تحتمل أن تكون ثلاثين شهرا، فللاحتياط أعمل ذلك الاحتمال فى التحريم بالرضاع.

﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ فى الجملة السامية السابقة نص على واجب الأمهات المشتق من كونهن والدات؛ وفى النص واجب يقابله على الآباء لكونهم قد ولد لهم، فالتعبير عن الأب بقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ هو فى مقابل التعبير عن الأمهات بالوالدات؛ وكما أن الأول أوجب عليهن الرضاعة، فالثانى أوجب على الآباء النفقة؛ لأن الولادة لهم، فالنسب لهم، والولد تابع تبعية مطلقة لهم؛ وكأنه كسب كسبوه، وغنم غنموه، فحق عليهم القيام على شئونه ورعايته، والإنفاق على من خصصت نفسها وخصصتها الفطرة لخدمته ورعايته وتغذيته بلبنها الذى هو دَرٌّ من دمها.

ويلاحظ هنا عندما أوجب الله سبحانه وتعالى على الآباء الإنفاق على الأمهات اللائى يرضعن أولادهن، أمران:

أولهما: أنه قيد الإنفاق بالمعروف، وهو الأمر الذى يتعارفه العقلاء، فلا تستنكره العقول ولا يجفوه الذوق السليم بأن يليق بحالها ويكفيها شئونها، ولا يخرج عن طاقة الأب، ولا يكلفه شططا، ويسهل لها الأب ذلك الإنفاق؛ فيجىء إليها من غير جهد منها، ولا إعنات لها.

ثانى الأمرين: أن الله سبحانه وتعالى ذكر أن الإنفاق يكون فى وضع الرجل فلا يرهقه، ولا يشق عليه؛ ولذا قال: ﴿لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا﴾، وهى قضية عامة، وقاعدة كلية فى كل تكليفات الشارع الإسلامى، يلاحظ فيها أن تكون فى وسع المكلف، وليس معنى الوُسع هو الطاقة، فإن الفرق بينهما كبير؛ لأن الطاقة هى أقصى قدرة المكلف بحيث لا يستطيع الأمر إلا بمشقة وجهد؛ أما الوسع فهو قدرة المكلف على الأمر، مع بقاء فضل من جهده، بحيث لا يستغرق العمل أقصى قدرته؛ وقد وضح ذلك المعنى فى إيجاز بليغ فجعل مناط التكليف ما تسعه قدرة المكلف؛ قال تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ... (٢٨٦)﴾ [البقرة] تنبيها إلى أنه لا يكلف دون ما تنوء به قدرته.

وإذا كان الأمر كذلك فكل التكليفات الشرعية يكون فى الوسع القيام بها، بمعنى أنها تؤدى بيسر وسهولة ولا مشقة فيها لمن ذاق طعم الطاعة، وفهم معناها؛ ولذا قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ... ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة].

ولا شك أن الإنفاق على الأم بالمعروف، هو تكليف بما فى الوسع الذى يقوم به المرء بيسر وسهولة؛ لأن أساس المعروف ألا يكون فيه غضاضة على المرأة، وألا يكون شطط على الرجل؛ فلا يكلف أحدهما إلا وسعه وما يكون يسرًا من أمره.

ولقد عبر الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة عن الإنفاق بالرزق والكسوة، أى بالإطعام والإيواء والكسوة، وعبر فى آية الطلاق بالأجرة، فقد قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ... ﴿٦﴾﴾ [الطلاق] فالأجرة هنالك هى الكسوة والرزق هنا؛ وتخالف التعبيران؛ لأن كل واحد فيما يناسبه؛ فالتعبير بالأجرة؛ لأن الكلام فى المطلقات، وما يفرض لهن من نفقة وأمدها؛ ثم بين ما يستحق فى مقابل الإرضاع إن أرضعن وقد خرجن من بيت الرجل وسلطانه.

أما فى هذه الآية فالكلام فى أصل وجوب الإرضاع على الأمهات، وبيان توزيع التكليفات؛ والآية هنا عبر القرآن فيها عن الأم بوصف كونها والدة، وعلى الأب بوصف كونه مولودًا له، فناسب أن يعبر عن النفقة هنا بالرزق والكسوة لأن مؤدى التعبير الكريم أن الواجبات للطفل موزعة، والحقوق فيه متقابلة؛ فالأم لأنها تفرغت لخدمته، وقامت على حياطته، وغذته من لبنها بعد أن غذته من دمها، وأوجب عليها الشارع ذلك الغذاء - كان على الأب فى نظير ذلك أن يكدح ويعمل ليوفر لها رزقها وكسوتها بالمعروف من غير غضاضة ولا شطط.

﴿لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾ هذه الجملة السامية فى مقام التعليل للأحكام السابقة الموزعة بين الوالد والوالدة، والتى أساسها القيام بحق ذلك المخلوق الذى كان كل واحد منهما طريقًا لخروجه إلى هذا الوجود الإنسانى. والمعنى أنه لا يصح أن يقع ضرر على الأم بسبب ولدها لما لها من حنو وعطف، فيستغل ذلك الحنو وذلك العطف لإنزال الأذى بها وإعناتها وتكليفها ما ليس فى وسعها، وما

ليس متفقا مع فطرتها؛ وكذلك لا يصح أن يقع ضرر بالأب بسبب ولده لأنه يعنى بإنباته نباتًا حسنًا وتنشئته على أكمل وجه، فيرهق بالمطالب المالية، ويكلف ما ليس فى وسعه أو لا تتسع له قدرته عليه إلا بمشقة وجهد شديد.

وفى هذه الجملة السامية بحثان لفظيان نقولهما بإيجاز:

أولهما - أن كلمة ﴿لا تُضَارَّ﴾ من مادة المفاعلة من الضرر، وقد قرئت مرفوعة على معنى نفى الضرر، ونفى الضرر يقتضى النهى عنه؛ وقرئت مجزومة، وعند الوصل خفف السكون بالفتح على أصل التخلص من التقاء الساكنين، وإن لم يكن هنا ساكنان؛ ولذا قرئ بالسكون، وقراءة السكون تدل على النهى الصريح.

ولأن كلمة ﴿لا تُضَارَّ﴾ من المفاعلة تصلح أن تكون مبنية للمفعول؛ والمعنى فى الفرضين واحد، وهو أنه لا يجوز أن يضر كل واحد منهما صاحبه، أو يُضَر مِن صاحبه بسبب عطفه على ولده وحنوه عليه.

البحث الثانى - فى التعبير بقوله سبحانه، ﴿وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾ وتقديم الأم على الأب؛ فإن ذلك التعبير يشير إلى منزلة الولد من قلب كل منهما، وأنه قطعة من قلوبهما؛ ولا يصح أن يكون مزيد العطف الوالدى سببًا فى أن يتخذه كل منهما ذريعة لإيذاء الآخر والعبث بحقوقه، ولإشعارهما بأن الإيذاء باسم الحنو قد يؤدى إلى نقص العطف على الولد، ولكى يعرف كل منهما أن الولد ولدهما معًا ومزيج من جسمهما معًا، فلا يصح أن يتخذ سبيلا للكيد والإعنات والإرهاق؛ وقدمت الأم لأن حنوها أشد، ولأن مظنة إنزال الأذى بها أقرب.

﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ هذه الجملة الكريمة سيقت لبيان من ينفق على الولد إن لم يكن له أب، أو كان له أب عاجز عن الإنفاق عليه؛ فإن الإنفاق فى هذه الحال يكون على الوارث الذى يرث الولد إذا مات؛ لأن الغُنم بالغُرم، فما دام يرثه عند الوفاة إن كان له مال، فإنه ينفق عليه إذا كان محتاجًا عاجزًا.

وفى التعبير بكلمة ﴿الْوَارِثِ﴾ بدل كلمة قريب، إشارة إلى أن الوراثة هى السبب فى وجوب تقديم الرزق والكسوة، لا مجرد القرابة، أو القرابة المحرمية؛

وعلى ذلك يكون الوجوب تابعـا لمقدار الميراث، ولدرجة التـوريث؛ لأن الميراث هو السبب فى الوجوب، فيكون الوجوب مشتقًا من درجته ومقداره وقوته.

وفى هذا الكلام الحكيم تنظيم للعلاقات الماليـة بين الأسرة أو إشارة إليه؛ فإنه يوضح أن الحقـوق المالية فى الأسرة متـقابلة، فمن كان له حق الميـراث عليه واجب الإنفاق؛ وكأن مال الأسـرة شركة بين آحادها يتوارثون المال فيمـا بينهم؛ ويتعاونون فى الإنفاق فيـما بينهم؛ فالقادر ينفق على العاجـز، والغنى يمد الفقير بحـاجته فى موضع الحاجة.

ولقد فهم الإمام أحمد بن حنبل من هذه الآية أن نفقة القرابة تسير مع الميراث وجودًا وعـدمًا، وقوة فى الوجوب، وتقـديرا له؛ لأن الميراث جعل أسـاس الإنفاق بمقتضى نص الآية الكريمة ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾.

وقبل أن نتـرك الكلام فى هذا نشيـر إلى معنى لفظى أشـار إليه النص، وهو قوله: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ فإنه أشار إلى أن الوجوب على الوارث هو وجوب بدلى، أى أن الوارث قام فيـه مقام الأب، والوجوب الأصلى على الأب؛ فـقد قال فى الوجوب على الوارث: ﴿مِثْلُ ذَلِكَ﴾ فالتعبيـر بالمثل يشير إلى أن أصل الوجوب على الأب؛ ولذلك قرر أن الأب لا يشـاركه أحد فى الإنفـاق على ولده، ولو كان يشارك الأب فى الميراث من الولد غيره، فلا تشارك الأبَ القادر غير العاجز الأمُّ فى الإنفاق إذا كانت غنية.

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ تبين فى سابق النص الكريم أن الحـد بالحولين من حيث وجـوب الإرضاع ووجـوب الإنفاق ليس حدًا لازمًـا بل هو حد للكمال لمن أراد أن يتم الرضـاعة كمـا صرح النص الحكيم؛ ولذلك كان للأب والأم مجـتمعين غير منفـرد أحدهما ولا مستـبد أن يفطما الطفل قبل هذه المدة؛ ولذا سيقت الجملة السامية، ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أى لا إثم عليهـما إن فعلا ذلك، والفـصال هنا هو الفطام؛ لأن الفطام يفصل الولد عن ثدى أمه، ويفصله تدريجيا عن ملازمتها. وإن الفصال لابد فيه من أمرين:

أحدهما - التشاور فـيه بأن يفحصا حال الطفل من حـيث قوته وقدرته على الاستغـناء عن لبن الأم، وسلامة جسـمه ونموه، ولا مانع من أن يستـعينا فى ذلك برأى خبير رشـيد وقد أوجب سبحانه وتعالى التـشاور عند الفطام؛ لأن ذلك سيؤثر فى صحته فى قابل حيـاته، بل ربما أثر فى أعصابه؛ وإن لذلك خطره وشأنه فوجب التشاور فيه، والشورى واجبة فى كل أمر ذى شأن وخطر.

وثانى الأمرين اللذين لابد من وجودهمـا عند الفطام: أن يكون الفطام بإرادة حرة صريحة واضـحة ورضا كامل من كل منهما؛ ولذلك أكـد الرضا من كل منهما بالذكر مرتين: أولهما أنه قال: ﴿**فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً**﴾ فأوجب تحقق إرادتهما، وثانيهما أنه قال: ﴿**عَن تَرَاضٍ**﴾ أى إرادة حرة صـريحة صادرة عن تراض صـحيح ليس فـيه شائبة إكراه.

وفى ذلك فوق ما فيه من رعاية مصلحة الطفل احترام لإرادة المرأة فيما يتعلق بطفلها، وأنهـا ليست كمًّا مهملا فى البـيت، بل لها الرأى بجوار رأى الرجل فى أخطر الأمور وأشدها أثرًا.

وإن العناية بأمـر الفطام على ذلك النـحو تدل على عنايـة الشارع الإسـلامى بالناشئة وتربيتها تربية جسميـة وخلقية وعقلية؛ فإن العناية بالطفل عناية بجيل كامل من الأمة؛ وعلى حسب العناية بالتربية الأولى يكون الجيل من الأجيال.

﴿**وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ**﴾ ما تقدم كان فى إرضاع الأم ولدها، وفيه بيان وجوبه عليها، وما يقابل ذلك من حق لها على الأب؛ وفـى هذا الكلام يبين الله الحكم فى استـرضاع الأب غـيـر الأم، فبـيَّن أن ذلك يكون برضـا الأم وقـد قـال سبـحـانه: ﴿**وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ**﴾ أى إن اجتـمع رأى الأب ورأى الأم على أن يسترضـعوا لولدهما ظئرا، فلا إثم عليهـما فى ذلك، ولكن على الآباء أن يلاحظوا حق ذلك المرضع من الأجرة؛ ولذا قال سـبحانه: ﴿**إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ**﴾ أى سلمتم مـا وجب عليكم إعطاؤه بالمعروف أى يكون تقـديره بالمعروف بين الناس

الذى يتعارفونه أجرًا، ويكون عطاؤه من غير ممانعة، ولا مماكسة، بل بالمعروف الذى لايستنكره الناس وتقره العقول والأخلاق القويمة، وهنا بحث لفظى فى موضعين:

أولهما: فى قوله تعالى: ﴿أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ﴾ فإن استرضع كما قال الإمام الزمخشرى منقول من أرضع؛ يقال أرضعت المرأة الصبى، واسترضعتها الصبى، فهى متعدية إلى مفعولين، كما يقال نجحت الحاجة، واستنجحته الحاجة؛ وفى الآية الكريمة قد حذف أحد المفعولين، إذ المعنى أن تسترضعوا المراضع أولادكم، وحذفه متسق مع السياق الكريم؛ لأن الحذف يدل على العموم وعدم تخصيص مرضع دون مرضع، فإنه عند إرادة الاسترضاع لا يتقيد الأب بواحدة دون الأخرى ما توافرت السلامة فيهن، ولم ينل الطفل من إحداهن ضرر فى جسمه أو خلقه أو أعصابه.

الموضع الثانى: فى قوله تعالى: ﴿إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم﴾ ففى قوله تعالى ﴿آتَيْتُم﴾ ثلاث قراءات: أولاها آتيتم بالمد، وثانيها من غير مد مع ضم الهمزة، وثالثتها (أوتيتم) والقراءات الثلاث تتلاقى فى معنى واحد، وهو إعطاء الأجرة بالمعروف أى المتعارف كما نوهنا؛ وتخريجه على القراءة الأولى ﴿مَّا آتَيْتُم﴾ أى أردتم إيتاءه كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ ... (٦)﴾ [المائدة] أى أردتم القيام إلى الصلاة، وعلى القراءة الثانية «ما أتيتم» أى مما أعطيتم من مال، لأن أتى تستعمل بمعنى أحسن، فيقال أتى إليه إحسانا إذا فعله، وتكون متعدية، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١)﴾ [مريم]. وعلى القراءة الثالثة (أوتيتم) أى أعطيتم المعنى واضح صريح فيها.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ذيَّل الله سبحانه وتعالى هذه الآية الكريمة التى تبيِّن واجب الآباء والأمهات نحو الأمانة التى سلمها الله لهم؛ ليقدموها للمجتمع الإسلامى غرسًا طيبًا وجيلا قويًا طاهرًا؛ ذيَّل تلك الآية الحكيمة بالأمر بتقواه، والتذكير بأنه علِم بكل شىء علْم المبصر الذى يرى؛ إذ خلجات القلوب فى علمه الأزلى المحيط، كأنها المرئيات المبصرات.

ولذلك التذييل الكريم فوائد ثلاث:

أولاها: تربية المهابة فى قلوب المؤمنين؛ ليتذكروا الله سبحانه وتعالى فى كل أعمالهم الصغيرة والكبيرة، وليعلموا أن شئون الحياة كلها سواء كان منها ما يتعلق بالأسرة أو ما يتعلق بالمجتمع، وما يتعلق بالآحاد، لا تستقيم إلا بمراقبة الله تعالى، والإحساس بتقواه، وأنه عليم بما تخفى الصدور وما تكنه القلوب؛ وأن من يعمل عملا يعمله كأنه يرى الله، فإن لم يكن يراه فإن الله سبحانه وتعالى يراه.

وثانيها: بيان أن العلاقات بين الآباء وأولادهم وأمهاتهم لا يغفل الله عنها، وسيجزى المحسن إحسانًا والمسيئ سوءا، وإن استطاع الرجال أو النساء أن يستطيلوا ويظلموا فى الدنيا، أو يخدعوا القضاء بزور من القول، فلن يخدعوا الله سبحانه وتعالى، وهو على كل شىء رقيب، وسيجزى كلا بما صنع، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرا فشرٌ.

والثالثة: التذكير بأن شئون الأسرة تقوم على التدين، لا على الظواهر المادية، فإنه إذا صلحت القلوب استقامت العلاقة بين الرجل وأهله وأولاده، وإن تقطعت حبال المودة، وذهبت التقوى من القلوب، وأقفرت النفوس، فسيكون الظلم مهما تكن الأحكام، ومهما يكن القضاء.

منحنا الله سبحانه رضوانه، ووهبنا عرفانه، وأصلح لنا فى ذريَّاتنا، إنه سميع مجيب الدعاء.

وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ
أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ
﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ
أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ
وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ
وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ
وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟
أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾

فى الآيات السابقات بيَّن سبحانه إنشاء الزواج، وما ينبغى أن يكون فى الاختيار وما يجب، ثم بيَّن العشرة الزوجية، ثم بيَّن الفراق بين الزوجين والأحكام التى تتبع عند الافتراق، وأن الزواج إما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، وأنه إذا لم يكن واحداً منهما فهو الكفر فى الإسلام، أو الجهل بأحكامه أو الزيغ عن قانونه، والخروج من ربقته ونظامه؛ ثم أشار سبحانه إلى حقوق ثمرة الزواج فى حالى الوفاق والخلاف، وأنها حقوق مقررة فى الحالين.

وبعد ذلك بيَّن الحكم إذا فرَّق بين الزوجين الموت، فذكر القيود المعقولة التى تقيد بها المرأة، وبعدها تكون الحرية التى يكون من آثارها اختيار الزوج الكفء، فقال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ فى هذه الآية الكريمة يتبين عدة المتوفى عنها زوجها، وهى أربعة أشهر قمرية وعشرة

أيام؛ وعبر سـبحانه عن العشر بما يدل على أن المعدود مـؤنث؛ إذ إنه حذف التاء، فدل على أن المراد عشر ليال والمؤدى واحد، ولكن التعبير بالليالى فيه فائدة أكبر من التعبير بالأيام؛ لأن فيه إشارة إلى أن تقـدير الأشهر بالقمرية كما نوهنا؛ لأن الليالى هى التى تعرف فيها أحـوال القمر وأدواره؛ فكان التعبير بها توجيـها لما يكون فيها، وهو القمر بأطواره وأحواله.

وقبل أن نـخوض فى حكمـة تقدير عـدة الوفاة ذلك التـقدير، ومـا يعارض ظاهرها فى سـورة الطلاق؛ وما كـان عليه العـرب من عادات فى حـداد المرأة على زوجها؛ قبل ذلك نذكر بعض مباحث لفظية فى تلك الجملة السامية.

وأول تلك المباحث اللفظية، هو فى كلمة ﴿يُتَوَفَّوْنَ﴾ بالبناء للمجهول، ولم تقرأ غيـر ذلك؛ لأن الفعل توفى متعـد؛ فالله سبحانـه وتعالى يقول: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ... ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر] فإذا لم يذكر الفاعل بنى للمفعول.

وثانيهـا: فى كلمة «يذرون» معناها يتـركون؛ وقد ادعى علمـاء النحو أنه من الأفعال التى مات ماضيها، ولم يعرف إلا فعـل المستقبل لها؛ مضارعا كان أو أمرًا؛ ولكن وجدنا فى أساس البلاغة للزمخشرى ما دل على أن ماضيها حى وليسَ بميت؛ فقد جاء فـيه ما نصه: (ذره واحذره والعرب أماتت المصدر مـنه فيقولون: ذر تركا، وإذا قيل لهم ذروه قالوا وذرناه)(١).

ونرى من هذا أن ذلك العالم اللغوى العظيم لم يعـترف إلا بأن العرب أماتوا المصدر، أمـا الماضى فلم يميتوه، وذكـر الاستعـمال الذى يدل على حياته، فـقال: (إنهم إذا قيل لهم: ذروه. قالوا: وذرناه).

وثالث المباحث اللفظية: فى كلمة «أزواج» وهى جمع لزوج، وهو كلمة تفيد بأصل معناها الدلالة على اثنين اتحـدا فى الخواص والصفات وكل المشخـصات حتى صار كل واحد منهما صورة كـاملة من الثانى، وكأنه هو فى شخصه؛ ولذلك أطلق

---

(١) قال المصنف - رحمه الله -: انظر أساس البلاغة جـ٢ ص٤٩٨ طبع دار الكتب.

على كل واحد منهما بأنه زوج، وأطلق على كل واحد من الرجل والمرأة بعد ذلك العقد المقدس بأنه زوج؛ لأنه ثانى اثنين قد امتزجت حياتهما، وتلاءمت شخصياتهما حتى صار كل واحد منهما كأنه صورة من الآخر، وكأنه شخصه فى كونه ووجوده لما ارتبطا به من حياة، ولكمال الخلطة بينهما، ولتماثل الحقوق والواجبات عليهما ولاتحاد شخصيتهما بذلك الزواج الموحِّد بينهما.

ورابع المباحث اللفظية: فى كلمة «يتربصن» والتربص معناه الانتظار؛ فقد قال تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾ [المؤمنون] وقال تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ... ﴿٩٨﴾﴾ [التوبة] وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ [الطور] وفى كل هذه الآيات الكريمة كان التربص معناه الانتظار مع الترقب؛ والتربص من المتوفى عنها زوجها فى هذا المعنى تقريبا.

و«يتربصن» هى خبر فى معنى الطلب فالمعنى ليتربصن، كقوله تعالى ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ... ﴿٢٣٣﴾﴾ [البقرة] وفى ذلك إشارة إلى أن التربص أمر نظرى يتلاقى مع الأمر الشرعى؛ فإن الحرة الكريمة لا ترضى لنفسها ولا ترضى معها أسرتها أن تتزوج فور وفاة زوجها، أو بعدها بمدة قليلة؛ فإن ذلك أمر مستهجن فى الفطرة السليمة، وفى الشرع الحكيم، وفى عرف الناس، ولا ترضى العقول به والمدارك الصحيحة.

وكان مع ذلك التعبير بقوله تعالى: ﴿ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ فيه إشارة إلى أن ذلك التربص فيه صيانة لأنفسهن، وحفظ لكرامتهن، ودفع لمعنى الامتهان والعار الذى يلحق المرأة من أن يموت ضجيعها، فلا تلبث إلا قليلاً بعد أن يسجى ويدفن، حتى تعرض نفسها طالبة الأزواج، كأنه ليس المتوفى عشيراً أليفًا يستحق الحداد.

وقد حد الشارع للمتوفى عنها زوجها عدة هى فى جملتها أكثر من عدة المطلقات؛ لأن تلك ثلاثة قروء تجىء عادة فى نحو ثلاثة أشهر. وهنا يرد سؤالان:

أولهما: لماذا كانت العدة فى المتوفى عنها زوجـها بالأشهر دون الحيض، فلم تجعل أربع حيضات بدل ثلاثة؟ .. ولماذا كانت الزيادة؟

ولم نجد أحدًا تصدى لبيان الحكمة فى جـعلها بالأشهر، ويبدو لنا أن الحكمة التى تدركها عقولنا ـ وإن كانت الحكمة الشرعية السامية قد تعلو على مداركنا ـ هى أن عدة الوفاة تكون للمدخول بها وغير المدخول بها، وللصغيرة والكبيرة، والأساس فيها هو الحداد على الزواج السابق الذى انتهى بوفاة أحد ركنيه، فلزم أن يكون بأمر يشترك فيـه الجميع ما دام السبب واحدًا فى الجمـيع؛ وفوق ذلك إن العدة فى الوفاة لو قدرت بالحـيض، وهو أمر لايعلم إلا من جـهة المرأة، فربما تدفـعها الرغـبة فى الزواج إلى الكذب فتدعيه وهو لم يقع؛ وفى المطلقـات العدة حق للمطلق فيستطيع أن ينكر عليها، أو يظهر كذبها، وهى تخشى صولته، فتبتعد ما أمكن عن المراء؛ أما فى حال الوفاة فصاحب الحق الأول قد مات وصار الحق لله خاصًا، فحد ذلك الحق بالأشـهر والأيام حـتى لا يكون مسـاغًا للكذب وادعـاء ما لم يحـصل؛ لأن الأيام والأشهر تعرف بالكتاب والحساب، وليست أمرًا يعرف من جهتها فقط.

أما الجواب عن الأمر الثانى وهو: لماذا كانت العدة بالوفاة أكثر فى الجملة من العدة الناشـئة عن الطلاق؟ فـيبـدو بادى الرأى، من الفرق بين حـال الطلاق وحال الوفاة، أن الطلاق نتيجة شقاق؛ فـالحداد على الزوج الذى ينشئه ليس قويًا، ومعنى براءة الرحم وإعطاء الزوج فـرصة للرجـعة يـكون أوضح فى معنى العـدة، ويكفى لذلك نحـو ثلاثة أشهر؛ أمـا حال الموت، فـإن مرارة الفراق فـيهـا أوضح وأشد، ومعنى الحـداد يغلب فيها مـعنى براءة الرحم؛ ولذلك تجب على المدخول بها وغـير المدخـول بها؛ وإن الشـارع قد جـعلهـا لذلك أطول من عدة الطلاق؛ وإن الشـارع الحكيم قد خـفف من حدة مـا كانت تعملـه النسوة الجاهليـة؛ فقـد كانت المرأة فى الجاهلية تغلق عـلى نفسها أضيق مكان فى مـسكنها وتقضى فيـه سنة كاملة؛ حدادا على زوجها، فجاء الإسلام، وخفف عليها وجعلها أربعة أشهر وعشرًا، ولنذكر لك ما كان فى الجاهلية وما كان فى الإسلام، كما روى فى صحاح السنة:

فقد روى البخارى ومسلم عن زينب بنت أم مسلمة أنها قالت: «دخلت على أم حبيبة حين توفى أبو سفيان (أبوها) فدعت أم حبيبة بطيب فدهنت منه جارية، ثم مست بعارضيها، ثم قالت: والله مالى بالطيب من حاجة غير أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «**لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرًا**»(١)، قالت زينب: سمعت أمى أم سلمة تقول: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يارسول الله إن ابنتى توفى زوجها وقد اشتكت عينها أفتكحلها؟ فقال رسول الله ﷺ: «**لا**» مرتين أو ثلاثًا. ثم قال: «**إنما هى أربعة أشهر وعشرًا، وقد كانت إحداكن فى الجاهلية ترمى بالبعرة على رأس الحول؟**» قال الراوى(٢) قلت لزينب: ما ترمى بالبعرة على رأس الحول؟ فقالت زينب: «كانت المرأة إذا توفى عنها زوجها دخلت حفشا(٣) ولبست شر ثيابها، ولم تمس طيبًا حتى تمر بها سنة، ثم تخرج فتعطى بعرة، فترمى بها، ثم تراجع بعد ما شاءت من طيب أو غيره»(٤).

وترى من هذا أن الإسلام قد ألغى تلك العادات الجاهلية، وقصر أمد الحداد على الوفاة، فجعله أربعة أشهر وعشرًا بدل سنة.

وقد يرد سؤال آخر: لماذا حد العدد بأربعة أشهر وعشرًا؟ وإن تقدير الأعداد كما يقرر الفقهاء أمر توقيفى خالص لا يجرى فيه القياس؛ ولكن ليس معنى ذلك أنه لاحكمة فيه؛ وإن الحكمة يقررها العلماء فى أمرين:

أولهما ـ أن الأشهر الأربعة هى التى يظهر فيها الحمل ويستبين، وقد جعلت العشر بعدها للاحتياط، وتعرُّف أعراضه وظواهره؛ وذلك لأنه لما وكل أمر براءة الرحم إلى مدة، لوحظ فيه المدة التى فيها يعرف ويستبين وتظهر أعراضه.

---

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى: الجنائز - إحداد المرأة على غير زوجها (١٢٠١)، ومسلم: الطلاق - وجوب الإحداد فى عدة الزواج (٢٧٣٠).

(٢) الراوى هو حميد بن نافع، شيخ البخارى، من الطبقة الوسطى من التابعين، وكنيته أبو أفلح.

(٣) الحفش: المكان الضيق فى البيت.

(٤) هذا الحديث متفق عليه، رواه البخارى: الطلاق: تحد المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرا (٤٩٢٠)، ومسلم: وجوب الإحداد (٢٧٣٠).

ثانيهما ـ أن مدة أربعة الأشهر هى المدة التى قررها الشارع أقصى مدة للحرمان من الرجال؛ ولذلك جعل الإيلاء مدته أربعة أشهر، بحيث إذا حلف الرجل ألا يقرب امرأته أربعة أشهر، ومضى فى يمينه وانتهت المدة طلقت منه، فكان من التنسيق بين الأحكام الشرعية أن تجعل مدة الإحداد على الزواج فى حدود هذه المدة، ومقاربة لها فى الجملة؛ وليس من المعقول أن يعاقب الشارع الرجل إذا أصر على هجر زوجه بالفراق إذا أصر عليه أربعة أشهر، وفى الوقت نفسه يلزمها بالحداد مدة أطول من ذلك، بل ينبغى أن تكون مدة الإحداد حول هذه المدة أيضًا.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بيَّنت الجملة السامية السابقة مدة العدة للمتوفى عنهن أزواجهن، وفى هذه الجملة الكريمة يبين سبحانه وتعالى انتهاءها وما يترتب على الانتهاء؛ والمعنى: إذا انتهت المدة المقررة للتربص؛ فلا إثم على الناس فيما يفعلن فى أنفسهن من زينة واستعداد للزواج والزواج بالفعل؛ ونرى فى التعبير الفعل المباح منسوبًا لهن، ونفى الإثم عن الناس المتصلين بهؤلاء المتوفى عنهن أزواجهن؛ وفى ذلك دلالة على أمرين:

أحدهما: أن المرأة تباح لها الزينة بالمعروف، أى بالأمر المعقول الذى تقره العقول، وتدركه الأفهام، وتعرفه أهل المدارك السليمة والأذواق الدقيقة المحكومة بشكائم الأخلاق؛ ويدخل فيما يفعلن بأنفسهن الزواج، فلها اختيار الزوج، وتولى العقد، بشرط أن يكون ذلك فى دائرة العرف والتقيد بالكفاءة، وألا تجلب عارًا على أسرتها وذويها.

وثانيهما: أن نفى الإثم عن الجماعة فيما يفعلن بأنفسهن بالمعروف غير المستنكر، دليل على أن الجماعة الإسلامية متعاونة متآزرة متماسكة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن على كل امرىء أن يصلح من شأن أخيه، ويقوِّمه بالمعروف، ويبين له أوامر الشرع وحكم الله تعالى، ولا تذهب عنه هذه المسئولية حتى يكون عمل من يكون ذا صلة به فى دائرة الشرع والخلق القويم.

وقبل أن نترك الكلام فى عـدة المتوفى عنها زوجها، نشيـر إلى موضوع يتصل به، أو هو من لبه، وهو مقدار شمول هذا النص للمعتدات من وفاة: أيشمل الحامل وغير الحـامل، أم يختص بغير الحـامل فقط؟ لقد ورد فى عدة الحامـل قوله تعالى: ﴿ وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ... (٤) ﴾ [الطلاق] وورد فى عدة الوفاة هذه الآية الكريمة التى نتكلم فى معناها، وهذان عمومان متعارضان، أو يبدو فى الظاهر أنهما متعارضان.

وقد قـال جمهور الفـقهاء: إن آية عـدة الوفاة التى نتكلم فيـها خاصة بغـير الحوامل؛ فعـدة المتوفى عنها زوجها غيـر الحامل تكون بأربعة أشهر وعـشراً، وعدة الحامل بوضع الحمل عملاً بآية الحـمل، فكانت آية الحمل شاملة لحال الطلاق وحال الوفاة؛ ويسـتدل على ذلك الرأى، بالحديث الشـريف؛ فإنه روى أبو داود عن النبى ﷺ أنه أفتى سبيعة الأسلمية، بأنها حلت حين وضع حملها، وكانت قد ولدت بعد موت زوجها بنصف شهر.

هذا رأى جمهور الفقهاء، وذلك نظرهم؛ ولكن يروى عن على، وابن عباس رضى الله عنهما أن المعتدة الحامل من وفاة تعتد بوضع الحمل، بشرط ألا تقل العدة عن أربعة أشهر وعشر؛ أى أنها تعـتد بأبعد الأجلين: وضع الحمل، أو مضى أربعة أشهر وعشر.

وذلك الرأى إعمـالاً للآيتين الكريمتـين وإمضاءً لعمـومهمـا، وهو يتفق مع الحكمة من إطالة مدة العدة بالنسبة للمـتوفى عنها زوجها؛ فإنه لا يتفق مع ذلك أن تنتهى العدة بوضع الحمل بعد ساعة من الوفاة.

﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ذيَّل الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بهذا التذييل؛ لبيان أنـه سبحانه وتعـالى عليم عِلْمَ الخبير الدقـيق الذى لا تخفى عليه خافـية، بما يعملون من تنفيـذهم لأوامره، أو إهمالهم؛ وأن من سنته سبحانـه وتعالى فى كتابه الكريم أنه بعد كل أمـر أو نهى يذكر رقابته سبـحانه وتعالى فى التنفيـذ، ليعلم من

يهمل ومن يطيع، ولكل جزاؤه، إن خيراً فخير، وإن شرا فشر؛ وإذا كان المكلف يحس بأنه تحت رقابة الله دائمًا فإنه يراقب الله فى عمله، ويكون منه الخير واجتناب الشر.

﴿ وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ ﴾ الخطبة من الخطاب، وهى مخاطبة المرأة أو ذويها فى أمر زواجها؛ والتعريض ضد التصريح، وهو إفهام المراد لكلام يحتمل ما يريده المتكلم، ويحتمل غيره، وهو فى ظاهره غير ما يريد، ولكن يبدو من لحن القول وإشاراته والمقام ما يريده، وهو من عَرْضِ الشيء وهو جانبه، كأنه يحوم به حول الشيء وعلى جوانبه ولا يظهر مراده. والنساء المراد بهن فى الآية هن المتوفى عنهن أزواجهن فى أثناء العدة. والإكنان فى النفس أن يخفى إرادة الزواج والرغبة فيه مع الإصرار عليه، واعتزامه من غير إعلانه لأحد.

ومعنى الجملة الكريمة: أنه لا إثم فى التعريض بخطبة المتوفى عنهن أزواجهن، كما أنه لا إثم فى الرغبة فى الزواج منهن مع إكنان ذلك وستره من غير كشف وإعلان؛ لأن الكشف والإعلان قد يؤذى الميت، وهو فوق ذلك لا يليق بأهل المروءة من الرجال.

والتصريح بالخطبة لا يجوز، حتى لا يؤذى أهل الميت، وحتى لا يدفعها إلى الامتناع عن الحداد على زواجها، فوق أن ذلك نقص فى الخلق. وفساد فى الذوق لا يصدر عن ذى إحساس كريم؛ فالتعريض فقط هو المباح فى الخطبة فى حال عدة الوفاة؛ وأساليب التعريض متباينة يبينها المقام؛ ومن ذلك ما يروى عن سكينة بنت حنظلة أنها قالت: «استأذن علىَّ محمد بن على زين العابدين فقال: قد عرفت قرابتى من رسول الله ﷺ، وقرابتى من على، وموضعى فى العرب. . فقلت: غفر الله لك يا أبا جعفر، إنك رجل يؤخذ عنك؛ تخطبنى فى عدتى!! قال إنما أخبرتك بقرابتى من رسول الله ﷺ ومن على».

وقد أخرج الدارقطنى أن رسول الله ﷺ دخل على أم سلمة وهى متأيمة من أبى سلمة، فقال: «**لقد علمت أنى رسول الله وخيرته وموضعى فى قومى**». وكانت تلك خطبة(١).

﴿ **عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلاَّ أَن تَقُولُوا قَوْلاً مَّعْرُوفًا** ﴾ فى هذه الجملة الكريمة يشير سبحانه وتعالى إلى طبائع النفس البشرية فيمنعها من الانسياق فيما يردى ويفسد، ويبيح لها ما لا ضرر فيه، وقد يكون فيه ما تطيب به نفوس، وتطمئن إليه قلوب.

فالله سبحانه وتعالى علم أن العارفين لأخبار المتوفى عنها زوجها وأحوالها وحقيقتها، من جمال أو نحوه، ومن حسن عشرة ولطف مودة، أنهم سيذكرونها فى نفوسهم ويقرنون الذكر بالرغب والاتجاه إلى طلبها، وإعلان الرغبة والتحبب إليها وإمالة قلبها؛ ولقد علم الله سبحانه وتعالى حال النفوس هذه فأباح للناس ما تكون مغبته حسنة، ومنع غيره؛ فأباح إكنان الرغبة فى الأنفس وحديث النفس بها، فإن حديث النفس ليس موضع مؤاخذة؛ وأباح التعريض بالخطبة، ونهى عن أمرين:

أولهما: المواعدة السرية، سواء أكانت تلك المواعدة على الزواج أو غيره. وقد تكلم العلماء فى معنى كلمة «سرًا» فقيل: إن معناها ما يكون بين الرجل وزوجه من متعة جسدية. وقيل: إن معناها عقد الزواج. وقيل إنَّ سرًا، معناها زنا. وروى أن ابن عباس وابن جبير والشعبى ومجاهدًا وعكرمة والسدى، فسروا «سرًا» بألا يأخذ عليها ميثاقا بألا تتزوج غيره فى استسرار وخفية.

وإن الذى نميل إليه أن «سرًا» وصف لمحذوف أى لا تواعدوهن وعدًا سريا بأى شكل من الأشكال، وفى أى موضوع من الموضوعات؛ لأن الإسرار يدفع إلى الخلوة فتكون الحال فى مكان النهى حيث قال النبى ﷺ: «**لا يخلون أحدكم بامرأة فإن الشيطان ثالثهما**»(٢) والمعنى على هذا: لا تندفعوا وراء رغباتكم فتلتقوا بهن سرا

---

(١) ذكره بهذا اللفظ وهذا التخريج القرطبى فى تفسيره: سورة البقرة ٢٣٥ وراجع الدارقطنى فى سننه ٣/ ٢٢٤..

(٢) جزء من حديث رواه أحمد: مسند العَشَرة (١٠٩) من حديث عمر بن الخطاب - رضى الله عنه، والترمذى بنحوه: الفتن - ما جاء فى لزوم الجماعة (٢٠٩١) عن ابن عمر رضى الله عنهما.

وتقولوا معهن ما تستحيون من قوله جهرًا؛ إما لأنه قبيح لا يعلن، وإما لأنه فى غير وقته فيستنكر القول فيه فور الوفاة؛ وذلك فوق قبح الخلوة فى ذاتها.

ولقد استثنى سبحانه استثناء منقطعا فى قوله تعالى: ﴿إِلاَّ أَن تَقُولُوا قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ والمعنى لكن المباح لكم أن تقولوا قولا معروفا لا تستنكره العقول، وتقره الأخلاق، ولا يقبح إعلانه، بل يقال فى غير استسرار؛ وبهذا الاستثناء يحد الله سبحانه فرق ما بين الحلال والحرام فى هذا المقام؛ فالسرية ممنوعة أيا كان موضوعها، لما يكون معها من ملابسات محرمة، والقول المعروف الذى يكون بالتعريض، وإظهار المودة بشكل لا يؤدى إلى محرم، ولا تستهجنه العادات الفاضلة والأخلاق الكريمة، هذا حلال لا ريب فيه.

وقبل أن نترك الكلام فى هذا الأمر المنهى عنه، نذكر تحقيقًا لفظيًا ذكره الزمخشرى، وهو مقام «لكن» فى قوله تعالى: ﴿وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾، مما قبلها؛ فقد قرر رحمه الله أن المعنى: علم الله أنكم ستذكرون النساء فاذكروهن، ولكن لا تواعدوهن سرًا، ويكون المؤدى اذكروهن ذكرًا حسنا معروفًا معلنًا غير منكر، لا تمجه الأذواق، ولا تنبو عنه الأخلاق.

الأمر الثانى الذى هو فى موضع النهى ما اشتمل عليه قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ العزم: القطع، وهو يتعدى بعلى، وبنفسه، فيقال: عزم الأمر وعزم عليه، وعقدة النكاح: الارتباط به. والكتاب: هو الأمر المكتوب المفروض، وهو هنا العدة. والأجل: هو انتهاء المدة المقررة للعدة والمعنى: لا تعقدوا العزم نهائيًا فى أثناء العدة على أن تتموا الزواج بعدها، بأن تقطعوا فى أمر الخطبة فتجعلوها تصريحًا بدل أن تكون تعريضًا؛ فإن العزم القاطع لا يكون بالتعريض، بل يكون بالتصريح؛ لأن عبارة التعريض كيفما كانت يدخلها الاحتمال، فلا تنبئ عن القطع أو الجزم؛ وعلى ذلك يكون هذا الكلام السامى ذكرًا لما فهم عند نفى الإثم عن التعريض من منع التصريح؛ وفوق ذلك فيه دلالة على منع العزم مطلقًا ولو بإصرار النية، وإكنان النفس؛ لأن العاقل لا يسوغ له أن يعزم

أمرًا ولو فى نفسه قبل أن يجىء وقته؛ لأن المستقبل بيد الله ولا تدرى نفس ماذا تكسب غدًا، ولعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ فى هذا الكلام الكريم الحكيم تحذير وتقريب، وتخويف ورحمة؛ إذ بيَّن سبحانه أنه يعلم خلجات القلوب، وخطرات النفوس، وما تخفى الصدور وما يستكن فيها، وما يعلن؛ وإن للنفس هواجس وخواطر، فإذا همت النفس أو جالت فيها أمور تستهجن ولا تستحسن، كأن يجول بخاطره أن يكلم المعتدة من وفاة فى أمر منكر لا يسوغ فى الدين، ولا فى العرف، ولا فى الأخلاق، فليعلم أن الله عليه رقيب يعلم تلك الخواطر؛ فليحذره؛ لكيلا يبرزها إلى الوجود، فيندفع وراءها، وإنه إذا قمعها وقدع نفسه عنها، وجعلها فى محيط قلبه لا تخرج منه، فإن ذلك يكون فى عفو الله تعالى؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ يغفر الله فلا يأخذ العبد إلا بما يفعل ولا يأخذه بما يجول بخاطره، ولا بما تحدثه به نفسه، ومن هم بسيئة فلم يفعلها لم يكتب عليه شىء، تبارك الله سبحانه هو المنتقم الجبار العفو القدير، الغفور الرحيم.

لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ
مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ
قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ
﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ
لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟
ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ
وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

بين سبحانه آثار الفراق بين الزوجين بالطلاق أو الموت؛ فقد بين العدة، وهى فى معناها حق الزواج وحق الزوج وحق الولد؛ وقد ذكر بعد ذلك حق المرأة الخالص، وهو المهر أو المتعة؛ وقد أمر الله سبحانه وتعالى بإيتاء المهر فى قوله تعالى: ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ... ﴿٤﴾ ﴾ [النساء] ووجوبه كاملا فى حال الطلاق بعد الدخول فى قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [النساء].

وفى هذه الآية يبين سبحانه المهر الواجب أو ما يقوم مقامه فى الصورة التى قد يتوهَّم الناس أنه لا مهر فيها، لأنه لم يفض أحدهما إلى صاحبه؛ إذ لم يحصل مساس بينهما؛ فقال تعالى:

﴿ لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ الجناح معناه الإثم، ومعنى تمسوهن هنا أى لم تباشروهن ولم تدخلوا بهن، وهو كناية جميلة من كنايات القرآن الكريم التى هذبت الألفاظ العربية، وعلمت الناس الأدب فى التعبير، ليتهذب الذوق الخلقى، والبيانى، والاجتماعى.

والمس فى أصل معناه اللغوى: اللمس، فهو يطلق على كل ما يكون فيه إدراك بحاسة اللمس، ثم أطلق على سبيل الكناية على كل ما يكون فيه إصابة حسية أو معنوية ولها مظهر حسى؛ ولذا كنى به القرآن الكريم عما يكون بين المرء وزوجه، كما فى هذه الآية الكريمة، وكما فى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ... ﴿٤٩﴾ ﴾ [الأحزاب]، وقوله تعالى: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ... ﴿٤٧﴾ ﴾ [آل عمران].

وكنى بالمس عما يصيب العقل أو الجسم من مرض أو أذى؛ فقد قال تعالى: ﴿ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ... ﴿٢٧٥﴾ ﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ ... ﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ... ﴿١٢﴾ ﴾ [يونس]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ... ﴿٨٠﴾ ﴾ [البقرة].. وهكذا.

والفريضة معناها المهر المقدر، وأصل الفرض معناه التقدير؛ فمعنى لم تفرضوا لهن فريضة: لم تقدروا لهن تقديراً.

ومعنى الآية الكريمة بعد ذلك التفسير اللفظى، أنه لا إثم على من يطلق قبل الدخول إذا لم يكن ثمة فريضة مقدرة.

ونفى الجناح أو الإثم عن الطلاق قبل المسيس لا عن مطلق طلاق؛ ولقد فهم بعض العلماء أن نفى الإثم هو عن مجرد الطلاق، لا عن الطلاق المقيد، واستنبط من هذا أن الطلاق مباح فى ذاته من غير نظر إلى دواعيه؛ وذلك النظر لا نحسب أنه الصواب، لسببين:

أحدهما: أن الطلاق أبغض الحلال إلى الله[1]، وأن الله ما أحل شيئًا أبغضه كالطلاق[2]. فلا يمكن أن يكون الأصل فيه الحل من غير نظر إلى دواعيه وبواعثه؛ لأنه شرع للحاجة النفسية إليه، وذلك إذا تعذر قيام المودة فى الحياة الزوجية؛ ولذا قال سبحانه بعد محاولة الإصلاح بين الزوجين بكل الطرق وتعذر الإصلاح: ﴿ **وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ** ... ﴿١٣٠﴾ ﴾ [**النساء**].

ثانيهما: إن من المقررات اللغوية أن أداة النفى إذا دخلت على شىء مقيد بوصف أو حال، فإن النفى لا يكون منصبا عليه مقيداً بذلك القيد، ويكون القيد هو موضع النفى، لا أصل الشىء فى ذاته؛ وكذلك هنا؛ فالنفى منصب على الطلاق المقيد بأنه قبل الدخول وقبل فرض فريضة، أو بالأحرى هو منصب على الطلاق قبل المسيس، سواء أكان ثمة فريضة أم لم تكن، ولكنه فى حال الفرض للمهر قدر مخصوص، وفى حال عدم الفرض للمرأة حق آخر معلوم.

---

(١) رواه أبو داود: الطلاق - فى كراهية الطلاق (١٨٦٣)، وابن ماجه: الطلاق - باب حدثنا سويد بن سعيد (٢٠٠٨).

(٢) عَنْ مُحَارِبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَحَلَّ اللَّهُ شَيْئًا أَبْغَضَ إِلَيْهِ مِنْ الطَّلَاقِ».
[رواه: أبو داود الطلاق - كراهية الطلاق (١٨٦٢)] وهو حديث مرسل؛ ومحارب بن يسار السدوسى من الطبقة دون الوسطى من التابعين، وكنيته أبو مطرف، أقام بالكوفة وتوفى بها ١١٦هـ.

وننتهى من ذلك إلى أن موضوع الآية الكريمة هو حق المرأة فى حال الطلاق قبل الدخول، سواء أكان ثمة فرض أم لم يكن فرض؛ وإذا كان ثمة نفى للإثم فهو عن الطلاق فى هذه الحال، وإن نفى الإثم عن الطلاق فى هذه الحال؛ لا يقتضى نفى الإثم فى غيرها، وإن الفرق بين الحالين واضح؛ فإن الفرقة قبل الدخول يكون الضرر الواقع فيها على المرأة أقل، ولم يستوف فيها شىء من أحكام الزواج، ولم توثق الصلة فيها بأولاد، وإقامة بيت، يتهدم بالطلاق؛ أما الطلاق بعد الدخول، فإن جُل أو كل أحكام الزواج فيها تكون قد استوفيت، والضرر فيها أشد، وقد يتعدى الضرر إلى ثمرات الزواج؛ فنفى الإثم فى الحال الأقل ضررًا، أو التى لا ضرر فيها لا يستلزم نفى الإثم فى الحال الأشد ضررًا.

وقد يقول قائل: إن الطلاق قبل المسيس قد يسيىء إلى سمعة المرأة، ويقول الناس إنه ما طلقها إلا من شىء، وقد يكون اختياره لها مفوتًا لزوج كفء ربما لا يمكن تداركه، وذلك حق فى بعض الأحوال. ويجاب عنه بأن حسن سمعة الأسرة التى تنتمى إليها الزوجة، وكرم محتدها قد يردُّ كل إيهام أو اتهام، وإن ما يعروها من ألم بسبب ذلك الفراق المعجل يخففه التمتيع، وهو إعطاء المتعة؛ وفوق كل هذا إن الاختلاف الذى أدّى إلى الافتراق قبل الدخول يدل على أن الاختيار فى الزواج لم يكن موفقًا، فكان إنهاؤه قبل الدخول من المصلحة الحقيقية للزوج، ويهون بجواره كل ألم فى سبيل تلك المصلحة؛ لأنه يكون الأمر بعد ذلك عيشة كلها مضارة، أو افتراق فى غير الوقت المناسب، وإذا كانت المرأة قد تألمت فالرجل قد أصابه غرم مالى.

﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ هذا بيان لما تعوض به المرأة إذا حصلت فرقة قبل الدخول وقبل أن يُقدَّر لها شىء من المهر؛ فذكر الله سبحانه أن الواجب هو المتعة؛ ولذا قال سبحانه: **﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾**، والمعنى أعطوهن متعة ينتفعن بها ويكون فيها تسرية عن أنفسهن، وبعض التعويض عما نالهن، وما فاتهن فى هذا الزواج، فتطيب نفوسهن. والتمتيع

مأخوذ من المتاع، وأصل المتاع الامتداد فى الارتفاع، يقال متع النهار إذا ارتفع؛ ثم انتقل إلى الانتفاع الممتد، ثم إلى الشيء المنتفع به انتفاعًا ممتدًا يعلو به الشخص فى الحياة الدنيا، ثم أطلق على كل ما ينتفع به؛ ومنه المتعة فى الزواج، وهو ما يعطى للمطلقة لتنتفع به مدة عدتها؛ ويلاحظ أن يكون الانتفاع مما يمتد زمنًا، ومما يعلو به الشخص؛ ولذا عرَّفها الشافعى بأنها: شيء نفيس يعطيه المطلق للمرأة لتنتفع به أمدًا.

وقد جعل الله سبحانه المتعة تابعة لحال الرجل، فقال: ﴿**عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ**﴾.

المُوسِع: القادر المطيق للإنفاق عن سعة، فهو ذو السعة أى القدرة الكبيرة، كما قال تعالى فى الإنفاق: ﴿**لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ** ... ﴿٧﴾﴾ [**الطلاق**] والمقتر هو من كان قليل المال، مأخوذ من أقتر الرجل بمعنى قل ماله؛ والقدَر: الطاقة، أو المقدار؛ والمعنى؛ على الموسع قدر طاقته، وعلى المقل قدر طاقته؛ وقرىء ﴿**قَدْرُهُ**﴾، وهما بمعنى واحد. وبعض العلماء يفرق بينهما فيجعل «القدَر» بالتحريك المقدار، و«القدْر» بالتسكين الطاقة، والمؤدى واحد بلا ريب؛ إذ المراد والله أعلم: أن ذلك المال الكثير يكون عطاؤه متناسبا مع ما آتاه الله من بسطة فى الرزق؛ وذو المال القليل يكون عطاؤه بقدر طاقته.

ولكن مع هذه الرخصة التى أعطيت للمقتر يجب أن يكون ما يعطيه مقدارًا يكون الانتفاع به ممتدًا زمنا؛ ولذا قال سبحانه: ﴿**مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ**﴾ أى يكون شيئًا ينتفع به انتفاعا ممتدًا فى الزمان بالقدر المتعارف بين الناس، الذى لا يستنكره عرفهم، ولا الطبقة التى يكون فيها الزوجان بين الناس. والناس أصناف وألوان، وكل بقدر ما يتعارفه.

ولقد أكد سبحانه وتعالى الطلب فى قوله: ﴿**وَمَتِّعُوهُنَّ**﴾ أكده بصيغة تفيد أن التمتيع لازم لا مساغ من التخلص من لزومه، فقال سبحانه عز من قائل: ﴿**حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ**﴾، أى أن التمتيع هو حق أى أمر ثابت لازم واجب على المحسنين

الذين يتحرون الإحسان إلى معاشريهم ومخالطيهم والمتصلين بهم؛ فالتعبير بالمحسنين؛ للإشارة إلى أن ذلك الواجب هو من قبيل الإحسان فى المودة، والإشعار بالقربى فى وقت الانفصال، ومنع الغضاضة والألم، وتطييب القلوب؛ وذلك لا ينافى الوجوب واللزوم.

ولقد قال بعض العلماء: إن التعبير بالمحسنين يدل على أن المتعة غير واجبة، وذلك لاعتقاده أن الإحسان تبرع غير واجب، وكان ذلك حقا على المحسنين الذين يُلزمون أنفسهم بما لا يلتزم به الناس. ولكن الظاهر غير ذلك القول؛ لأن الإحسان لا ينافى الوجوب الذى دلَّ عليه الأمر في قوله تعالى: ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ وتأكد ذلك الأمر بقوله: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾؛ لأن الإحسان فى ذاته: الإجادة والإتقان وتحرى الحق وأداؤه على الوجه الأكمل، وذلك يتلاقى مع معنى الوجوب؛ وقد ورد الإحسان فى القرآن فى معنى الواجب فقد قال تعالى عن نفوس الكافرين يوم القيامة: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزمر] أى يكون ممن يؤدون الواجبات كلها فيكون من المحسنين، وذلك لا يتصور فيه معنى التبرع، بل وفوق ذلك فإن قوله تعالى: ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾، يؤكد معنى الوجوب؛ إذ فيه التعبير بعلى التى تفيد اللزوم؛ وفيه أن المقل والمكثر عليهما أداء بطاقتهما؛ ولو كانت المتعة تبرعا لأعفى منه المقل، واستحسنت من المكثر.

ومع أن المتعة واجبة إذا لم يكن ثمة مهر مسمى فى العقد، ولم يكن دخول؛ فإن الشارع قد ترك تقديرها إلى نظر المطلق، وتقديره وطاقته، ولم يكن لها حد معلوم؛ وقد قدرها الحنفية بكسوة كاملة للمرأة وهى لباس الخروج، فإن المرأة تلبس عادة عند خروجها أكمل ثيابها، وتركوا نوع الثياب إلى طاقة الرجل وتقديره، واشترطوا ألا تقل عن خمسة دراهم، وهى نصف الحد الأدنى للمهر عندهم، وإذا اختلف الرجل والمرأة فى تقديرها، كان الحكم فى ترجيح قول أحدهما على الآخر نصف مهر مثلها؛ فإن كان أقل مما ادعى الزوج كان القول قوله، وإن كان أكثر مما تدعى الزوجة كان القول قولها.

والمتعة عند الشافعى شئ نفيس يقدمه المطلق لمن طلقها قبل الدخول، ويكون فى طاقته[١].

وأحمد بن حنبل يتبع ما روى عن ابن عباس من أنه يرى أن المتعة تكون على حسب حال الرجل من يسار وإعسار؛ ونوعها يختلف باختلاف اليسر والعسر؛ وقد قال ابن عباس: أرفع المتعة الخادم (أى عبد أو أمة يعطيها أياها) وأوسط المتعة الكسوة، وأدناها النفقة. وروى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: متعة الطلاق أعلاها الخادم، ودون ذلك الورِق (أى الدراهم تعطاها) ودون ذلك الكسوة. وقد كان الصحابة رضوان الله تبارك وتعالى عليهم والتابعون من بعدهم يبالغون فى العطاء على قدر طاقتهم ليقوموا بالتسريح بإحسان، وتطيب نفس مطلقاتهم؛ حتى إن الحسن بن على رضى الله عنهما قد متع امرأة طلقها بعشرة آلاف درهم، فقالت المرأة: متاع قليل من حبيب مفارق.

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾
بيَّن سبحانه فى الآية السابقة، ما يجب عند الطلاق قبل الدخول إن لم يكن قد سُمِّى مهر وقت العقد، وفى هذه الآية يبين المطلوب إذا سُمِّى مهر، وكان الطلاق قبل الدخول أيضا، وقد قدم حكم الحال الأولى؛ لأن عدم ذكر المهر مظنة ألا تعطى شيئا إذا كان الطلاق قبل الدخول، فسيقت الآية الكريمة ببيان هذا الوجوب ليزول من الأفهام ما يسبق إليها.

وقد بيَّنا معنى الفرض فيما سبق؛ ومعنى الآية الكريمة: إن طلق أحدكم المرأة وقد قدر لها مهراً وقت العقد، فالواجب عليه هو نصف المهر الذى تراضيا عليه وقت العقد. وقد صرحت الآية بوجوب النصف، ولم تصرح بوجوب دفعه؛ لأنه

---

(١) قال المصنف - رحمه الله تعالى - فى الهامش: جرى خلاف فى الفقه الحنفى: أينظر فى المتعة إلى حال الرجل، أم إلى حال المرأة، أم إلى حاليهما؟ قال بعضهم: ينظر إلى حال الرجل، وهو صريح الآية ﴿ ... **عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ** ... ﴿٢٣٦﴾ ﴾ [البقرة]، وذلك هو الراجح، وقال بعضهم: ينظر إلى حالها؛ لأنها بدل نصف مهر المثل، وهو يقدر على حسب حال المرأة. وقال بعضهم: إنه يقدر على حسب حالهما، لقوله تعالى: ﴿متاعا بالمعروف﴾ والمعروف هو الذى ينظر فيه إلى حالهما.

عسى أن يكون قد قدم لها المهر كله أو بعضه، بل إن ظاهر الحال أنه يكون قد قدم المهر كله، أو نصفه، أو أكثر منه؛ فكان التعبير بالوجوب ليبين حق المطلق فى استرداد ما دفعه أكثر من النصف، وليشمل وجوب الأداء ومقداره إن لم يكن قد أدى شيئًا أو أدى أقل من النصف.

﴿**إِلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ**﴾ هذا استثناء من الوجوب الذى قدره الله سبحانه وتعالى بالنصف، وهذا الاستثناء يبين الله سبحانه وتعالى فيه أن وجوب المهر إنما هو لحق العاقدين، وأن العفو عنه بابه متسع لمن يريد أن يصل إلى رحابه الفسيح، والعفو معناه: الإبراء والتنزل عن المطالبة سماحا؛ فإن كان الزوج أدى المهر كله فقد فتح له الشارع باب العفو بأن يترك لها حقه مبالغة فى مرضاتها، وقد أرمض نفسها[1] بالطلاق؛ وإن كان الزوج لم يقدم لها مهرًا، وحدث الطلاق برغبة منها فإنه يحسن العفو منها وترك المطالبة، حتى لا تصيبه الخسارة فى عقد لم ينل منه مأربا؛ وقد يكون مظهر العفو بالعطاء بأن يقدم الرجل كل صداقها إن لم يكن قد أعطاها شيئًا منه، وفى الجملة إن العفو مستحسن من كل منهما فى موضعه، فيستحسن منها إن كانت راغبة فى الطلاق غير راضية بالبقاء، ويحسن منه إن كان الطلاق بغير طلبها.

وقوله ﴿**إِلاَّ أَن يَعْفُونَ**﴾ معناه: إلا أن يعفو النساء عن صداقهن، أو عن حقهن، فالنون هنا نون النسوة، ووزن يعفون يفعلن.

ومعنى قوله تعالى: ﴿**أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ**﴾ أى يعفو الزوج الذى بيده عقدة النكاح؛ فيستطيع فكها بالطلاق إن شاء، وإبقاءها إن شاء. وقيل: إن المراد به الولى الذى عقد الزواج؛ وذلك لأن الولى على مقتضى مذهب جمهور الفقهاء هو الذى تولى عقد الزواج، فهو الذى بيده عقدته. وإن الذى نختاره هو أن المراد الزوج لا الولى؛ وذلك لأمور ثلاثة:

---

(١) الرَمَض: شدة الحر. والإِرْماضُ كلُّ ما أَوْجَعَ. يقال: أَرْمَضَنى أى أَوْجَعَنى. وارْتَمَضَ الرجل من كذا أى اشتدّ عليه وأَقْلَقَه. [لسان العرب - باب الذال - رمض].

أولها: إن العقدة ليس معناها العقد؛ لأن العقد هو الربط الذى يتم به الاتفاق بين الرجل والمرأة ويكون به النكاح، وهو الزواج؛ أما العقدة، فهى الرابطة التي تكون بعد العقد أو الأثر الذى ينتجه العقد. ولا شك أن العقدة بهذا المعنى يملكها الزوج، ولا يملكها الولى.

ثانيها: إن مقتضى الآية أن من بيده عقدة النكاح أى الزواج يستطيع أن يعفو عن مقدار من المهر؛ ومن المقررات الفقهية أن الولى على النفس ليس له أن يسقط حقًا ماليًا، خصوصًا إذا كان فى وقت الطلاق.

ثالثها: إن العفو من جانب النساء يثبت بقوله: ﴿**يَعْفُونَ**﴾ والعفو مستحسن من الرجل، كما هو مستحسن من المرأة، وكل له موضع، فإذا ذكر الله سبحانه عفوهن، فمقتضى السياق أن يذكر عفو الرجل، ولو فسر قوله: ﴿**بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ**﴾ بولى الزوجة لكان معنى هذا أن العفو هو المستحسن من النساء دائما، مع أن الله يقول مخاطبا الجميع: ﴿**وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ**﴾.

والتعبير بقوله تعالى عن الزوج بأنه بيده عقدة النكاح يشير إلى أن الزوج هو الذى يملك فك الزواج بالطلاق، فكان العفو من جانبه أحق وألزم.

﴿**وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ**﴾ فى هذه الجملة الكريمة إشارة إلى وجوب التسامح والتعاطف فى وقت ذلك الافتراق القاطع، وإلى أنه تجب الرحمة فى وقت الانفصال؛ ولذلك صرح سبحانه بأن العفو: أى ترك بعض الحقوق فى ذلك الوقت، أقرب لتقوى الله سبحانه، وأدنى إلى رضاه، لكى يكون الافتراق بمفرده، ولا تكون مشاحة تدفع إلى المشادة، ثم إلى الخصومات التى تورث العداوات، وتستمر الأحقاد بين الأسرتين، وتكون الإحن ومن ورائها المحن.

ولقد ذكر سبحانه أهل الفضل بفضلهم فقال: ﴿**وَلا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ**﴾ أى لا يذهب بكم الغضب والمكايدة إلى درجة لا تتذكرون فيها ما يكون عندكم من شمم وإباء، وإرادة للتفضل والعطاء.

والفضل فى أصل معناه: الزيادة فى كل شىء، وأكثر ما يكون فى الزيادة فى الأشياء المحمودة؛ ولذا صار يطلق بمعنى العلو، فيقال: فضل هذا على ذاك كذا. ومنه الفضيلة؛ لما فيها من خير زائد، ولما فيها من علو نفسى وكمال وسمو.

فالله سبحانه وتعالى، حين ذكَّر المطلقين بالفضل الذى أنساهم إياه الغضب، صرفهم إلى الاتجاه إلى الكمال، والتعالى عن سفساف المشاحنات والمنازعات؛ ليكونوا هم الأعلين دائما.

ولقد كان أصحاب النبى ﷺ يتجهون ذلك الاتجاه السامى؛ فيروى أن بعض الصحابة تزوج امرأة، وطلقها قبل أن يدخل بها، فأعطاها الصداق كاملا، فقيل له فى ذلك، فقال: أنا أحق بالعفو منها.

ويروى أن جبير بن مطعم تزوج ابنة سعد بن أبى وقاص، ثم طلقها قبل الدخول وبعث لها المهر كاملا؛ فقيل له: لم تزوجتها؟ فقال: عرضها على فكرهت رده، قيل: فلم بعثت بالصداق؟ فقال: وأين الفضل؟.

ولقد ذيَّل الله سبحانه وتعالى أوامره الحاسمة، وإرشاده الحكيم بقوله عز من قائل: ﴿**إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ للإشارة إلى أنه مطلع على حركات الجوارح، وخلجات النفوس، ونيات القلوب، وما تخفى الصدور؛ فليعلموا ذلك، فإن العلم به يربى فيهم المهابة منه سبحانه وتعالى؛ إذ يشعرون برقابته، فيُكَفْكِفُونَ(١) من غضبهم، ويُنَهْنِهُونَ(٢) من حدتهم وقت الطلاق، حتى لا يذهب بهم فرط الغضب إلى نسيان المعروف، وتجاهل الفضل؛ فلا يسرِّحوا بإحسان بعد أن فات الإمساك بمعروف.

وقبل أن ننهى الكلام فى معانى هذا النص الكريم لابد من الإشارة إلى أمرين:

---

(١) الكَفْكَفَة: كفُّك الشىء؛ أى ردُّك الشىء عن الشىء، و كَفْكَفْت دمْع العين. [لسان العرب - الكاف - كفف].

(٢) النَّهْنَهَةُ: الكَفُّ. تقول: نَهْنَهْتُ فلاناً إذا زجرته فَتَنَهْنَهَ أى كفته فكفَّ. [لسان العرب - باب النون - نهنه].

أولهما: لماذا كان المهر فى الزواج من جانب الزوج؟

والثانى: ولماذا وجب النصف أو ما فى معناه، وهو المتعة إن حصل الطلاق قبل الدخول ؟

والجواب عن السؤال الأول: أن المهر شرع فى الزواج على أنه ثمرة من ثمرات العقد، وأثر من آثاره، وليس ركنا من أركانه، وليس شرطاً من شروطه، فليس هو كالثمن فى البيع كما فهم بعض الذين لا يفقهون المعانى الشرعية على وجهها؛ وشرعيته على أنه هدية واجبة من الرجل لزوجته؛ لأن المرأة إذ تنتقل من بيت أبيها إلى بيت زوجها، تستقبل حياة جديدة، وهى تحتاج فى سبيلها إلى ثياب، وزينة وعطر وغيرها بالقدر الذى يليق بحالها، فكان من اللازم أن يقوم لها الزوج ببعض ما يعينها على ذلك؛ ولذا أوجب الله لها المهر، وأوجب العرف أن يقدم بعضه على الزفاف إليه.

وقد جرى عرف الناس على أن المرأة هى التى تعد أثاث البيت، وما يحتاج إليه من فراش، فكان من الواجب أن يعينها الزوج على ذلك ببعض المال يقدمه، فكان هو المهر، أو بعبارة أدق معجلة.

وإن تقديم المهر من جانب الرجل هو النظام الفطرى؛ لأن الرجل هو الكادح العامل الكاسب للمال. وقد خالفت أوربا ذلك النظام الفطرى، فجعلت المرأة تقدم مالا؛ هى، فكانت الفتاة تسعى إليه، فتتعثر فطرتها، وتنحرف عن الفضيلة، وتقع فى حمأة الرذيلة قبل أن تصل إلى المال الذى تعده لخطيبها، فكان ذلك جزاء كل جماعة خالفت فطرة الله التى فطر الناس عليها.

هذا هو الجواب عن السؤال الأول، أما الجواب عن السؤال الثانى، وهو يتعلق بالسبب فى وجوب النصف بدل الجميع عند الطلاق قبل الدخول؛ فنقول: إن إعطاء نصف المهر أو المتعة من قبيل التسريح بإحسان كما أشرنا من قبل؛ وقد قال تعالى: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ﴿٤٩﴾﴾ [**الأحزاب**] وإن التفرقة قبل الدخول تجرح

إحساس المرأة إن لم تكن بطلبها، فأوجب سبحانه نصف المهر، ثم حث الرجل على إعطائها النصف الثانى فضلا وسماحا.

وذلك شرع الله، وهديه الحكيم، وإرشاده السامى؛ والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق.

حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾

توسطت الآيات التى تبين أحكام الأسرة، وعلاقات الزوجين عند الافتراق بالطلاق، أو عند التفريق بينهما بالموت ـ آيتان كريمتان تدعوان إلى الصلاة والمحافظة عليها، والإتيان بها على وجهها الكامل: من قنوت لله، وخضوع له، وخشوع وابتهال وضراعة؛ ولذلك التوسط مغزاه ومرماه؛ ذلك بأن الله سبحانه وتعالى دعا إلى العفو والتسامح، وعدم نسيان الفضل عند الافتراق، ومنع المشاحنة والمنازعة حيث تتوقعان؛ ولقد بيَّن سبحانه بعد ذلك ما يربى فى النفس نزوع التسامح، والبعد عن التجافى وهو ذكر الله سبحانه وتعالى، والإحساس بالخضوع له والانصراف إليه، ومحبته وطلب رضاه؛ فإن من يحب الله ورضوانه يحب الناس ولا ينازعهم؛ لأن الله سبحانه رب الناس وخالق الناس، وهو القاهر فوق عباده والقادر على كل شيء، والمحبة فى الله والبغض فى الله ركن الإيمان، ولا يكون ذلك كله إلا بالقيام بالصلاة وأدائها على وجهها؛ ولذا قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ** ... ﴿٤٥﴾ ﴾ [**العنكبوت**]. وإن أداء الصلاة على وجهها والقيام بحقها ليس أمرًا صغيرًا، بل إنه أمر كبير خطير، له نتائجه العليا فى الاتجاه بالنفس الإنسانية نحو السمو والتعالى عن متنازع الأهواء فى هذه الحياة؛ ولذلك قال تعالى فى الاستعانة على التغلب على الأهواء فى حياتنا الدنيا: ﴿ **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ** ﴿٤٥﴾ ﴾ [**البقرة**].

وقد يقول قائل: أفما كان الأولى أن تذكر آيات الصلاة بعد بيان أحكام الأسرة كلها؟ ونقول فى الجواب عن ذلك: إن الحق الذى لا ريب فيه هو فيما سلكه كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإن كتاب الله ليس مؤلفًا ينهج مناهج التأليف من حيث التبويب والتقسيم، بل إن كتاب الله تعالى كتاب عظة واعتبار، وبيان شرع، وإرشاد، ولترتيب منهاجه وحده، ولا يضارعه كتاب فيه، فهو يتتبع فى ترتيبه تداعى المعانى فى النفس، وتواردها على الفكر، ويأتى بالحكم حيث تتطلع النفوس إليه، فيملؤها ببيانه الرائع، وحكمه الخالد.

ولا شك أن العقل البشرى يتطلع ويستفهم كيف يمكن تذكر الفضل فى وقت تلك الفرقة التى فى أغلب أحوالها تكون نتيجة للبغض الشديد، وكيف يكون التسامح والعفو فى موطن تحكم البغض؛ فأجاب الله سبحانه داعية العقل، وتطلع الفكر، بأن الصلاة على وجهها حيث يخاطب العبد ربه، وينصرف إليه خاشعًا ضارعًا محسا بعظمته وتجليه، ومتجها إليه سبحانه فى علو سلطانه؛ إن ذلك كله هو الذى يعلو بالنفس عن شهواتها، ويصعد بها فى سموها؛ تعالت كلمات الله العلى القدير، وتسامت حكمة العليم الخبير.

﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى ﴾ الصلوات جمع صلاة، والصلاة لها معنى إسلامى، وهى تلك الهيئة المعروفة، ومعنى آخر وهو الدعاء والتسبيح؛ والمراد هنا المعنى الإسلامى، وهذا أمر صريح بالمحافظة على الصلاة؛ وحفظ الصلاة معناه: المداومة عليها، والاستمرار على أدائها، وعدم التهاون فى ركن من أركانها فالمحافظة على الصلاة تقتضى لا محالة أمرين:

أولهما: أداؤها باستمرار فى أوقاتها من غير تخلف ولا تفريط، وهذا هو الحد الأدنى من المحافظة.

وثانيهما: هو الإتيان بها كاملة الأركان مستوفية للشروط، تشترك فيها النفس مع حركات الجسم، ويشترك فيها القلب مع حركات الجوارح وما ينطق به اللسان؛ فإن قال فى صلاته: (الله أكبر) أحس بجلال الألوهية، وعظم الربوبية، وأخلص

قلبه للعبودية؛ وإذا قال: (الحمد لله رب العالمين) استشعر معانى الشكر والثناء على ذات الله العلية بما هو فى طاقة العبد الأرضية؛ وهكذا فى كل ما ينطق به، وفى كل ما يعمل من ركـوع وسجود، حتى إنه لا ينتهى من صـلاته إلا وقد صار كله لله، وامتلأت نفسه بهيبته، وقلبه بعظمته، وعقله بنوره؛ وبذلك يتحقق المعنى السامى فى الصلاة، وهو نـهيهـا عن الفحـشاء والمنكرات، والتـسامى بصـاحـبها عـن متنازع الأهواء.

وهنا بعض الإشارات اللفظية التى لابد من التصـدى لها بإجمال؛ وذلك لأن الله سبـحانه وتعالى عبـر عن إقامة الصـلاة المطلوبة بالمحافظة عليهـا فلم عدل عن التعبير بإقامة الصلاة إلى التعبير بالمحافظة؟ ولماذا قال سبحانه وتعالى: ﴿**حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ**﴾ ولم يقل: احفظوا الصلوات؟

والجواب عن السؤال الأول: أن المحافظة أو الحفظ تتضمن مع الأداء والإقامة معنى الصيانة والحياطة، فهى فوق مـا تدل عليه من طلب الإقامة على وجهها، تدل على أن الصلاة فى ذاتها شئ نفيس عزيز تجب حيـاطته وصيانته، وأن من نال فضل الصلاة فقد نال أمرًا عظيمًا وخطيرًا، وقيِّمًا فى ذات نفسه.

وأما الجواب عن السؤال الثانى: وهو التعبير بالمحافظة بدل الحفظ ـ فهو: أن التعبير بالمحافظة يدل على المداومة، والاستمرار؛ ولأن الأصل فيه أنه يكون للأفعال التى تكون من جانبين مشتركين، لأنه من مادة المفاعلة التى تدل على المشاركة، وقد تتضـمن المنازعة أو المقـابلة؛ والمداومة علـى الصلاة فيـها هذا المعنى الجلـيل، وقد وضحه الراغب الأصفهانى بقـوله فى المفردات: (إنهم يحفظون الصلاة بمراعاتها فى أوقاتهـا ومراعـاة أركانها والـقيام بهـا فى غاية مـا يكون من الطوق، وإن الصـلاة تحفظهم الحـفظ الذى نبه الله سبـحانه وتعالى عليـه فى قوله: ﴿**إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ** ... ﴿٤٥﴾﴾ [**العنكبوت**] فالمشاركة فى الحفظ بين الصلاة وبين من يؤديهـا: يحفظهـا هو بأدائهـا على الوجـه الأكمل وتحـفظه هى نفـسه بإبعـاده عن السوء).

وقد قيل إن المحافظة بين العبد والرب؛ العبد يحفظ الصلاة ويصونها ويؤديها على وجهها، والرب يحفظه ويصونه عن المعاصى، وهذا فى معنى الأول أو قريب منه.

ويصح أن يكون معنى المحافظة هو المداومة عليها بمغالبة دواعى التفريط مما توسوس به النفس فى الطاعات؛ فصيغة المحافظة ليست للدلالة على المشاركة فى الحفظ، بل تدل على المغالبة فى سبيله، كالمصابرة؛ وذلك لأن من يديم الصلاة مقيمًا لها على وجهها تقاومه نوازع النفس الأمارة بالسوء، وإن ذلك يقتضى مغالبة نفسية، فكان التعبير بالمحافظة دالا على ذلك أو مشيراً إليه.

وإلى هذا المعنى أشار الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فيما رواه عنه السيد رشيد رضا من تفسير.

ولقد قال سبحانه بعد الأمر بالمحافظة على الصلوات عامة: ﴿ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى﴾ فما هى الصلاة الوسطى التى خصها الله سبحانه بالذكر، أهى واحدة من ذلك المجموع الذى أمر به، أم هى المجموع موصوفًا بهذا الوصف؟

فى التفسير المأثور عن الصحابة والتابعين اتجاهان واضحان:

أحدهما: اتجاه الجمهور وهو أن الصلاة الوسطى واحدة من الخمس الصلوات المفروضة وإن اختلفوا فى تعيينها؛ وكثرتهم على أنها صلاة العصر؛ لوصف النبى ﷺ الصلاة العصر بأنها الوسطى(١)؛ ولأنها تقع فى وسط الصلوات الخمس؛ فقبلها اثنتان وبعدها اثنتان؛ ولأنها وسط بين صلاتى النهار وصلاتى الليل، فمعنى التوسط فيها واضح؛ وخصت بالمحافظة عليها، لأنها مظنة التفريط، إذ تجئ بعد القيلولة، فيكون كسل، فخصت بالذكر لهذا المعنى لا لأنها أفضل من غيرها، فجميعها قربات تزكى النفس وتطهر القلب.

---

(١) عَنْ عَلِيٍّ - رضى الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الأَحْزَابِ: «شَغَلُونَا عَنْ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى، صَلَاةِ الْعَصْرِ، مَلأَ اللَّهُ بُيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا» ثُمَّ صَلاهَا بَيْنَ الْعِشَاءَيْنِ، بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ.
[رواه مسلم: المساجد ومواضع الصلاة - الدليل لمن قال الصلاة الوسطى هى صلاة العصر (٩٦٦)، والبخارى: الجهاد والسير - الدعاء على المشركين (٢٧١٤)].

والاتجاه الثانى: وليس عليه الجمهور من التابعين ـ أن المراد بالصلاة الوسطى الصلاة كلها، والوسطى ليس معناها المتوسطة، بل الوسطى معناها الفضلى؛ وذلك لأن الوسطى مؤنث أوسط، والأوسط فى أكثر استعمال القرآن الأمثل والأفضل؛ ولذا قال سبحانه: ﴿**قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ** ﴿٢٨﴾﴾ [**القلم**].

والمعنى على ذلك الاتجاه: حافظوا على الصلوات كلها بالمداومة عليها، وحافظوا على أن يكون أداؤكم لها من النوع الأمثل الفاضل بإقامة الأركان خاشعين متبتلين خاضعين منصرفين فى أدائها عن كل شئون الدنيا متجهين إلى رب العالمين دون سواه.

وهنا يرد سؤال: لماذا جمع الصلوات فى الأول، وأفرد الصلاة فى الثانى؟

والجواب عن ذلك أن المراد من الصلوات فى الأول الفرائض الخمس بأعيانها، والمعنى فى الصلاة فى الثانى هو الفعل، فكان المؤدى: داوموا على الصلوات وأن تكون صلاتكم كلها من النوع الأمثل الفاضل.

وقد روى هذا الاتجاه عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما، وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه، وقد اختار ذلك الاتجاه الحافظ أبو عمر بن عبد البر إمام الأندلس فى الحفظ والآثار، وإنا نميل إلى ذلك، وخصوصًا أن الروايات فى كونها صلاة معينة من الخمس متضاربة، فقيل العصر، وقيل الظهر، وقيل الصبح، وقيل الجمعة، وقيل الظهر والعصر، وقيل الصبح والعصر؛ وإزاء ذلك نميل إلى ما اختاره ابن عبد البر، وهو الثقة الثبت فى الحفظ ونقد المتن والرجال.

﴿**وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ**﴾ القنوت فى معناه المداومة على الفعل، وقد خصه القرآن الكريم بمعنى الدوام على الطاعة والملازمة لها وأدائها على وجهها؛ ومن ذلك قوله تعالى فى وصف نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا...** ﴿١٢٠﴾﴾ [**النحل**] وقال سبحانه مخاطبًا نساء النبى ﷺ: ﴿**وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ...** ﴿٣١﴾﴾ [**الأحزاب**] وقال فى وصف المؤمنين والمؤمنات: ﴿**وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ ...** ﴿٣٥﴾﴾ [**الأحزاب**].

فالقنوت على هذا المعنى الإسلامى الرائع: ملازمة الطاعة والقيام بالعبادة فى خشوع ضارع، وانصراف كامل، وشعور بالعبودية الحقة لله رب العالمين؛ فمعنى قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾: قوموا بعبادتكم على وجهها الكامل ملازمين للخضوع والخشوع، غير مفرطين، ولا منصرفين عن رب العالمين، مستشعرين عظمته، قد ملأت قلوبكم هيبته.

ونرى من هذا أن قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ يزكى ما اختاره ابن عبد البر ويقويه، وهو أن معنى الصلاة الوسطى، الصلاة الفضلى والمثلى، وهى التى تؤدى على الوجه الأكمل.

ولهذا المعنى السامى فى الصلاة، كانت أعظم أركان الإسلام بعد شهادة أن لا إله إلا الله، فإن كانت (لا إله إلا الله محمد رسول الله) هى الفارق بين الإسلام والكفر، فالصلاة ثمرتها الأولى، والدعامة من بعد ذلك لكل الطاعات والفرائض؛ بها إن أديت على وجهها تستعصم النفس عند الشهوات، وبها إن أديت على وجهها يلتزم العبد ما أمر الله، وينتهى عما نهى الله سبحانه وتعالى عنه، وبها يكون التعامل الفاضل بين الناس بعضهم مع بعض؛ لأنها ذكر دائم لله سبحانه وتعالى، فتمتلىء النفس البشرية بعظمة الله، وتستنير البصيرة، ويتجه المؤمن إلى الخير؛ ولقد قال بعض العلماء إن ترك الصلاة كفر وروى أبو داود والترمذى وابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «**بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة**»(١) وروى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال عندما ذكر الصلاة: «**من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهانًا ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ولا برهانًا ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبى بن خلف**»(٢).

---

(١) [رواه مسلم: الإيمان - بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة (١١٦) كما رواه الترمذى: الإيمان (٢٥٤٤)، وأبو داود: السنة (٤٠٥٨)، وابن ماجه: إقامة الصلاة (١٠٦٨)، وأحمد: باقى المكثرين (١٤٤٥١)، والدارمى: الصلاة (١٢٠٥)].

(٢) رواه بهذا اللفظ الدارمى: الرقاق - فى المحافظة على الصلاة (٢٦٠٥)، وبنحوه أخرجه أحمد: مسند المكثرين (٦٢٨٨) عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنه.

ولأن الصلاة لها تلك المنزلة لم تسقطها رخصة، ولا تجب على فريق دون فريق، فلها عموم الوحدانية، ولها لزوم الشهادتين، فأكثر العبادات قد تسقط عن فريق دون فريق إلا الصلاة، فإنه لا رخصة لسقوطها؛ ولذا وجبت فى حال الأمن والخوف، وقال تعالى فى حال الخوف:

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا ﴾ هذا بيان ما يجب من الصلاة حال الخوف، وهى أعم من حال الحرب، وأخص منها؛ فبينهما ما يسميه المناطقة عموم وخصوص من وجه؛ فإن حال الخوف قد تكون فى حال الحرب، وقد تكون فى غيرها كهجوم وحش مفترس؛ وحال الحرب ليست دائما حال خوف؛ فقد يكون فيها وقت يأمن على نفسه فيصلى آمنًا مؤديًا الأركان بالجوارح.

وإيجاب الصلاة فى حال الخوف وحال الأمن يدل على أمرين:

أحدهما - أن الصلاة ركن لا يقبل السقوط إلا فى حال العجز التام حتى عن الصلاة بالإيماء، وقد نوهنا إلى ذلك من قبل، وبيَّنا أنها اختصت من بين الفرائض العملية بذلك.

ثانيهما - أن الصلاة فى لب معناها هى اتجاه القلب، وعمل الحركات مظهر ذلك الاتجاه القلبى، والنزوع الروحى السامى؛ فإذا حالت الأحوال دون القيام ببعض هذه الحركات من ركوع وسجود كاملين أغنت عنهما الإشارات إليهما، وهو ما يسمى الصلاة بالإيماء والمعنى متحقق فى الحالين، ولكن لا ينتقل المصلى من حال كمال الحركات إلى ما دونها إلا عند تعذر الإتيان بها كاملة فى نحو خوف أو مرض.

وقد رخص الله سبحانه وتعالى للمؤمنين فى حال الخوف أن يصلوا رجالاً، أى راجلين مشاة على أقدامهم، أو وقوفًا فى أماكنهم، وأن يصلوا ركبانًا أى راكبين.

وركبان جمع لراكب، وأما رجالا فهى كما يقول الزمخشرى: جمع راجل كقيام جمع لقائم، أو جمع رجل يقال رَجُل رَجِل أى راجل، وتوجيه قول

الزمخشرى أنه يقال رَجِل الإنسان يرجل إذا لم يكن معه ما يركبه ومشى على قدميه فهو رَجِلٌ ورَجُل بضم الجيم ورجلان ورجيل ورجْل بسكون الجيم، ويجمع فى الأحوال كلها على رجال. وقد جاء فى مفردات الراغب الأصفهانى ما نصه: (اشتق من الرجْل رَجِل وراجل للماشى بالرجل، ورَجُل.. ويقال رَجُل راجل أى قوى على المشى، جمعه رجال).

والخلاصة: أن الصلاة كما تؤدى بالحركات كاملة، تؤدى بالإشارة إليها بما يكون فى وسع المكلف القيام به؛ وذلك لأن الصلاة كما قلنا فى لب معناها؛ اتجاه قلبى إلى الله سبحانه وتعالى خالق كل شىء.

وقد يقول قائل: إن الصلاة إذا كان ذلك لب معناها فلماذا كانت تلك الحركات؟ وألا يغنى فيها الاتجاه القلبى، وحصر الذهن والنفس لله، وفى ذلك عمران القلب بذكر الله وامتلاء النفس بهيبته؟ قد يقول قائل ذلك، وقد قاله بعض المقلدين الفرنجة، واتبعوا من زعموا أن ذلك طريق الإصلاح الخلقى. وقد يكون ذلك القول مجديًا لو كان يمكن تحقق معناه من غير تلك الحركات، ومن غير هذه الأقوال التى تشتمل عليها الصلاة إن هذه الحركات معين لاستذكار القلب، وامتلاء الفكر بعظمة الله سبحانه وتعالى، والأقوال التى تقال فى الصلاة هى لهذا الاستحضار؛ فـ (الله أكبر) التى تتكرر عند الانتقال من حال إلى حال هى فى معناها لملء النفس بعظمة الله، والآيات التى تتلى هى حمد لله وثناء على الله سبحانه وتعالى وشعور بالربوبية وسلطان الله سبحانه مالك يوم الدين، ودعاء بالهداية إلى الصراط المستقيم، وتجنب طريق الضالين؛ والحركات هى مظاهر الطاعة والخضوع، والقيام بحق الربوبية.. وهكذا كل قول وفعل فى الصلاة إنما هو لتوجيه القلب نحو الملكوت الأعلى، وذكر الله العلى القدير، اللطيف الخبير.

ولا يمكن استحضار القلب لذكر الله بغيرها؛ بل إنها تكون ثمرة ذلك الاستحضار؛ فإن القلب إذا شعر بعظمة الله نطق اللسان بها وتطامنت الرأس خضوعا، وخر الإنسان ساجدًا صاغرًا لله رب العالمين.

﴿ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ أى إذا زال الخوف، وأقبل الأمن، فأقيموا الصلاة مستوفية لكل الأركان، أى تأتون بحركاتها كاملة؛ وذلك فى معنى قوله تعالى بعد بيان صلاة الخوف: ﴿ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النساء].

فالذكر المراد به هنا الصلاة الكاملة المستوفية الأركان، وعبر عنها بالذكر للإشارة إلى أن المغزى فيها هو ذكر الله تعالى، وإلى أن ذكر الله مطلوب أشد الطلب، وأن الصلاة بغيره لا تسمى صلاة ولو كانت مستوفية الأركان الظاهرة؛ وبهذا يتبين أن هذه الحركات مهما تكن كاملة لا يمكن أن تغنى عن استحضار القلب لمعانى العبودية والخضوع الكامل لرب العالمين؛ ولذا يقول الصوفية: إن الصلاة بغير هذه المعانى الروحية لا تكون صحيحة مهما تكن كاملة من حيث الأقوال والأفعال.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ أشار فيه الزمخشرى إلى تفسيرين، على أن النص الكريم يحتملهما:

أحدهما: أن المعنى أدوا الصلاة كاملة كما علمكم على لسان رسوله الكريم، وبأفعاله، بأن تأتوا بالركوع والسجود تامين؛ فالكاف معناها المشابهة بين ما يفعلون وما يطلب منهم فعله، وبين ما علمهم إياه رب العالمين بتبليغ النبى الأمين إذ قال: «**صلوا كما رأيتمونى أصلى**»(١).

وثانيهما: أن المعنى أدوا الصلاة شاكرين حامدين ذاكرين رب العالمين، ويكون ذكركم مقابلا بما أنعم الله به عليكم من تعليمكم شريعته التى يكون فى اتباعها صلاح حالكم فى الدنيا والآخرة؛ ففى الدنيا صلاح أنفسكم وأسركم ومجتمعكم، وفى الآخرة بالزلفى لرب العالمين؛ ويكون معنى الكاف على هذا هو المشابهة المقربة

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى: الأذان - الأذان للمسافر (٥٩٥)، ومسلم: المساجد (١٠٨٠) غير أنه لم يذكر قوله ﷺ: «صلوا كما رأيتمونى أصلى»، ورواه الدارمى بنحو من رواية البخارى: الصلاة - من أحق بالإمامة (١٢٢٥).

بين النعم التى أسبغها عليكم، والتكليفات العبادية التى كلفكم إياها، فيكون الشكر بالعبادة مشابها ومماثلا لنعمة التعليم التى علمنا الله إياها بتلك الشريعة المحكمة التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها؛ وهذا معنى قول بعض العلماء: إن الكاف هنا للتعليل، وذلك مستقيم من حيث المؤدى وإن كانت مع ذلك لم تخرج عن معنى التشبيه والمماثلة.

ولعل التفسير الثانى الذى أشار إليه الزمخشرى ووضحناه بعض التوضيح هو الذى يتفق مع سياق الآيات الكريمة التى تسبق آية الصلاة وتلحقها؛ لأن فيها إشارة إلى أن تعليم الله تعالى لنا ما عَلَّم من أحكام الشرع الشريف هو فى ذاته نعمة تستحق الشكر لله وذكره سبحانه؛ فالصلاة وإن كانت باعثة على أحسن التعامل، هى كذلك شكر للمنعم على ما علَّم وأنعم وهدى.

وفى الآية الكريمة بعض إشارات لفظية نذكرها: ذلك أن الله سبحانه وتعالى قال فى حال الخوف: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ معبرًا سبحانه بإن الدالة على التعليق فى موضع الشك أو القلة، وفى حال الأمن قال: ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ﴾ معبرًا بإذا الدالة على التحقيق والكثرة؛ وفى ذلك إشارة إلى أن حال الأمن هى الكثرة، وهى الأمر المحقق الثابت، وأن حال الخوف هى القلة وهى ليست أمرًا مؤكدًا ثابتًا. وفى ذلك بيان لنعم الله على الإنسان أنه وهبه الأمن والدعة والاطمئنان، وما يكون من اضطراب وجزع وقلق فمن فعل الإنسان. فقد وهب الله الإنسان العقل، وجعله فى أطوار نفسه يألف ويؤلف، فإذا غلبته شقوته فبدَّل من الأمن حربًا، ومن السلام خصاما، فقد تعدى حدود الله وتجاوز فطرته، والله من ورائهم محيط.

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

توسطت آيات الصلاة بين الآيات التى تبين ما للمعتدات وما عليهن؛ وذلك ليتوسط التهذيب النفسى التعامل الاجتماعى، وليستبين المؤمن أن التقوى أساس الصلات التى تربط آحاد الأسرة، وأن التقوى لازمة لتكون روح الاتصال، وميزان الاعتدال عند قيام الحياة الزوجية وعند انقطاعها.

وقد بينت الآيات السابقة ما للمطلقة من حقوق أوجبها العقد نفسه؛ فنصف المهر أو المتعة عند الطلاق قبل المسيس وقبل تسمية المهر أمران أوجبهما العقد نفسه؛ لأن العقد الصحيح يوجب مهراً على أى صورة كان المهر.

وهاتان الآيتان اللتان سنتكلم فى معناهما تبينان ما يجب ليكون الانتهاء من غير قطيعة، ولتكون المودة موصولة بعد انتهاء عقدة النكاح؛ والوجوب فيهما لا يشتق من ذات العقد، ولكنه يترتب على انتهاء العقد، وتوجبه الأخلاق الكريمة.

والآية الأولى تبين ذلك النوع من الحقوق الذى يجب للمتوفى عنها زوجها، والثانية تبين مايجب للمطلقة على أنه أثر للطلاق نفسه، لا على أنه من مقتضى عقد الزواج؛ كنصف المهر، أو المتعة السابقة.

﴿ **وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ** ﴾ والمعنى الجملى للآية الكريمة ـ فيما يظهر ويبدو بادى الرأى ـ أن الذين

يتوفـون ويذرون أى يتركون أزواجًا، والمراد الزوجـات؛ لأن كلمة الزوج تطلق على الذكر والأنثى ـ فرض الله وصية لهؤلاء الزوجات متاعًا أى انتفاعًا مستمرًا إلى نهاية الحول، أى حتى يحول الزمن ويجىء الوقت الذى مـات زوجها فيه ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ أى ينتفـعن بالإقامة فى مـسكنهن الذى كن يسكن فيه فى حـياة أزواجهن من غـير إخراج منه؛ ويصح أن يـقال غيـر مُخْرَجَـاتٍ منه، فيكون المصدر عـلى معنى اسم المفعول؛ والمؤدى واحد.

وهنا بعض مباحث لفظية نشير إليها:

أولها: كلمة «وصـية» فيـها قراءتان مـشهورتان؛ إحـداهما بالفتح، والثـانية بالضم؛ وعلى قراءة الفتح يكون تقدير القول: كتب الله وصيةً متاعًا إلى الحول غير إخراج. وعلى قراءة الضم يكون تقـدير القول: عليهم وصيةٌ لأزواجـهم حال كون هذه الوصية متاعًا إلى الحول غير إخراج، أو لأجل الانتفاع إلى الحول غير إخراج.

ثانيها: إنه عبر بحول بدل سنة؛ للدلالة على التـحول حتى تعود الأيام التى كانت فيها الوفاة، ولو قيل إلى السنة مثـلا لاحتمل أن ينتهى الانتفاع بالسكن بانتهاء السنة التى حصلت فـيها الوفاة، ولو لم يحل الحـول، فكان التعبير الـسامى بالحول نصًا فى أن يمر عام كامل من وقت الوفاة.

ثالثها: قوله «غير إخراج» فالمعنى: غير مخرجات، أو يبقَين فى مسكنهن من غير إخـراج من ورثة المتوفى لهن؛ والتعبيـر بالمصدر فى هذا المقام هو الأصل، وهو المغزى والمرمى؛ لأن الوصية هى عدم الإخراج؛ فـالوصية ألا يخرجن؛ ولذلك كان التعبير بالمـصدر هو الأصل؛ وقوله «غير إخراج» صفة لمتاعـا، ومتاعا بدل أو عطف بيان لكلمة «وصيةً» على قراءة النصب، وحال على قراءة الرفع، أو تمييز.

رابعها: إن الله سبحانه وتعالى عبر عن حق الانتفاع بالسكنى سنة بعد الوفاة بأنه وصية، وبأنه متاع؛ أما التعبـير بأنه وصية، فلأنه حق يثبت بعد وفاة الزوج فى ماله لا على أنه مـيراث، بل على أنه وصيـة أوجبهـا الله سبحـانه وتعالى بموجب الفرقة بالوفاة؛ فهو يثبت من غيـر أن يكون له أثر فى قدر ميراثها فى تركة زوجها؛

وأما التعبير عنه بمتاع، فلأنه فى مقابل ما للمطلقات من متاع فى الآية الكريمة الآتية ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١)﴾.

﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ بقاء المتوفى عنها زوجها سنة فى مسكن الزوجية من غير نظر إلى مقدار ميراثها ومن غير تأثير فى مقداره أيا كان ذلك المقدار هو حق للزوجة، وليس بواجب عليها؛ وكان حقًا لها من قبيل أنه متصل بحقوق الميت فى تركته، فكأن حق الزوجة من المقام فى بيت الزوجية من المقام سنة بعد الوفاة هو من قبل حقوق المتوفى فى ماله كالديون.

ولما كان ذلك حقًا لها، وهو واجب على الورثة أن يوفروه، فليس واجبًا عليها، فلها أن تبقى ولها أن تخرج؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ أى فإن خرجن مختارات راضيات راغبات غير مخرجات، فلا إثم عليكم فيما فعلن فى أنفسهن من معروف، أى فيما فعلن من أمور تتعلق بأنفسهن؛ أى أن البقاء فى مسكن الزوجية وعدم البقاء أمر يتعلق بأنفسهن وهن أدرى بمصلحة أنفسهن، فى ذلك؛ فإن وجدت مصلحتها وراحتها واطمئنانها وقرارها فى أن تنتفع بحق البقاء سنة كاملة بعد وفاة زوجها فإنها تبقى، ويجب أن تمكن من ذلك، ولا يخرجها أحد؛ وإن رأت أن مصلحتها فى أن تأوى إلى بيت ذويها، أو عرض لها أن تتزوج بعد انتهاء عدتها وهى أربعة أشهر وعشرة أيام، فإن لها ذلك.

وقد قيد نفى الإثم عن الجماعة فيما يفعلن فى أنفسهن بكلمة (من معروف)؛ وهو الأمر الذى تقره الشرائع، وتعرفه العقول ولا يستنكر من أحد؛ قيد نفى الإثم بذلك؛ للإشارة إلى أن الجماعة الإسلامية مسئولة عما يقع من آحادها مخالفًا للمعروف فى الشرع والعقل، فمن يأثم فعلى الجماعة أن تعمل على إصلاحه، ولا ينتفى عنها الإثم حتى تقوم بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وفسر بعض العلماء المعروف بأنه الزواج بعد انتهاء العدة، وهى أربعة أشهر وعشرة أيام؛ والحق أن المعروف أعم من ذلك.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ذيل الله سبحانه وتعالى هذه الآية الكريمة بهذا للإشارة إلى ثلاثة أمور:

أولها: أن هذه الأمور التي شرعها الله في الأسرة إنما هي بحكمته، وفيها صلاح المجتمع، وإذا كان يسوغ أن تجبر المرأة على الخروج من منزل الزوجية بمجرد وفاة الزوج، فإن ذلك قد يؤدي إلى فساد كبير، وتهزيع للأخلاق؛ ولقد أعطاها الله سبحانه وتعالى ذلك الحق درءا لهذا الفساد ومنعًا له.

وثانيها: إن الله سبحانه وتعالى غالب على كل شيء، وله سبحانه وتعالى العزة في السموات وفي الأرض، وأن الورثة إن استضعفوا شأن المرأة فمنعوها حقها فالله فوقهم قاهر غالب، وهو مجازيهم بعملهم، وهو ناصر الضعيف.

وثالثها: إشعار النفوس بتذكر الله رب العالمين عندما ينظمون علاقاتهم بعضهم مع بعض، وخصوصًا في شئون الأسرة.

تبين مما سبق أن موضوع هذه الآية الكريمة لا صلة لها بمدة العدة بالنسبة للمتوفى عنها زوجها؛ لأن هذه الآية الكريمة بألفاظها ومعانيها لا تلزم المرأة بالتربص والامتناع عن الأزواج مدة معينة كقوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ... ﴿٢٢٨﴾﴾ [البقرة] وكقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ... ﴿٢٣٤﴾﴾ [البقرة] إنما تدل هذه الآية على ما للمتوفى عنها زوجها من حق البقاء في بيت الزوجية سنة بعد موت زوجها، وأن لها أن تبقى فيه، وأن تخرج منه على ما تراه مصلحتها ويكون فيه اطمئنانها وقرارها.

وعلى ذلك لا تكون ثمة معارضة بأي نوع من أنواع المعارضة بين هذه الآية وقوله تعالى في عدة المتوفى عنها زوجها ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ... ﴿٢٣٤﴾﴾ [البقرة] لأن هذه في بيان العدة، أما الآية التي نتكلم في معناها ففي بيان حق المرأة، لا بيان الواجب عليها.

ولكن فرض الكثيرون من المفسرين تعارضًا بين الآيتين، واعتبروا الآية الأولى ناسخة للآية الثانية، وادعوا أن جمهور السلف على ذلك الرأى؛ واعتمدوا فى ذلك على روايات رويت عن عثمان بن عفان، وعبد الله بن عباس وغيرهما.

وقد خالف ذلك شيخ المفسرين ابن جرير الطبرى، فروى عن مجاهد أن هذه الآية ـ وهى التى نتكلم فى معناها ـ آية محكمة لا نسخ فيها؛ فقد قال مجاهد: العدة تثبت أربعة أشهر وعشرًا، ثم جعل الله لهن وصية سكنى سبعة أشهر وعشرين ليلة؛ فإن شاءت المرأة سكنت فى وصيتها، وإن شاءت خرجت، وهو قوله تعالى: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾.

ولقد روى البخارى مثل ذلك عن مجاهد أيضا؛ فقد أخرج البخارى عن ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾. قال: «كانت هذه العدة تعتدها عند أهل زوجها واجبًا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ قال: جعل الله لها تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية، إن شاءت سكنت فى وصيتها، وإن شاءت خرجت.

وبهذا التخريج وذلك السند الصحيح يثبت أن لا تعارض قط بين الآيتين، وشرط النسخ التعارض ولم يوجد فلا نسخ، ولكن الجمهور من الفقهاء يعتمدون فى النسخ على قوله ﷺ: «**إنما هى أربعة أشهر وعشرًا وقد كانت إحداكن فى الجاهلية ترمى البعرة عند رأس الحول**»[1] ففى هذا الحديث تصريح بأن أربعة أشهر وعشر ليالٍ نسخت وجوب البقاء حولا، وهذا كلام حق، وهو لا يخالف الآية التى نتكلم فيها؛ لأن الجاهلية كانت تجعل العدة سنة فجعلها الإسلام أربعة أشهر وعشرا، وهذه الآية لا توجب عدة الجاهلية، فهى لا تلزم المرأة بالامتناع عن الأزواج سنة كاملة، ولكنها تعطيها حق البقاء سنة كاملة، فهى تبين ما لها من حق، ولا تذكر ما عليها من واجب اكتفاء بما ذكر فى آيات العدة التى تعتدها.

(١) سبق تخريجه من رواية البخارى ومسلم.

وعلى هذا نقرر أن حكم هذه الآية باق لم ينسخ، وثابت مقرر بنص القرآن الكريم؛ وقد قال بذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، وقد وجه الحكم بعدم النسخ من قبله فخر الدين الرازى فى تفسيره الكبير، فقد جاء فيه ما نصه بعد بيان قول من حكم بالنسخ:

القول الثانى قول مجاهد: إن الله أنزل فى عدة المتوفى عنها زوجها آيتين إحداهما ما تقدم وهو قوله تعالى ﴿ **يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا** ... (٢٣٤) ﴾ [**البقرة**] والأخرى هذه الآية، فوجب تنزيل هاتين الآيتين على حالتين، فنقول إنها إن لم تختر السكنى فى دار زوجها ولم تأخذ النفقة من مال زوجها كانت عدتها أربعة أشهر وعشرًا فى تلك الآية المتقدمة، وأما إن اختارت السكنى فى دار زوجها والأخذ من ماله وتركته فعدتها هى الحول، وتنزيل الآيتين على هذين التقديرين أولى حتى يكون كل واحد منهما معمولا به.

القول الثالث وهو قول أبى مسلم الأصفهانى: إن معنى الآية من يتوفى منكم ويذرون أزواجًا، وقد وصوا وصية لأزواجهم بنفقة الحول وسكنى الحول، فإن خرجن من قبل ذلك وخالفن وصية الزوج بعد أن يقمن المدة التى ضربها الله تعالى فلا حرج فيما فعلن فى أنفسهن من معروف، أى من نكاح صحيح؛ لأن إقامتهن بهذه الوصية غير لازمة؛ قال: والسبب أنهم كانوا فى زمان الجاهلية يوصون بالنفقة والسكنى حولا كاملا، وكان يجب على المرأة الاعتداد بالحول، فبين الله تعالى فى هذه الآية أن ذلك غير واجب؛ وعلى هذا التقدير النسخ زائل؛ واحتج على قوله بوجوه:

أحدها: أن النسخ خلاف الأصل فوجب المصير إلى عدمه بقدر الإمكان.

والثانى: أن يكون الناسخ متأخرًا عن المنسوخ فى النزول، وإذا كان متأخرًا عنه فى النزول كان الأحسن أن يكون متأخرًا عنه فى التلاوة أيضًا؛ لأن هذا الترتيب أحسن، فأما تقدم الناسخ على المنسوخ فى التلاوة فهو وإن كان جائزًا فى الجملة يعد من سوء الترتيب، وتنزيه كلام الله عنه واجب بقدر الإمكان؛ ولما كانت هذه الآية متأخرة عن تلك فى التلاوة كان الأولى ألا يحكم بكونها منسوخة بتلك.

الوجه الثالث: هو أنه ثبت فى علم الأصول أنه متى وقع التردد بين النسخ وبين التخصيص كان التخصيص أولى، وها هنا إن خصصنا هاتين الآيتين بالحالتين على ما هو قول مجاهد اندفع النسخ، فكان المصير إلى قول مجاهد أولى من التزام النسخ من غير دليل؛ وأما على قول أبى مسلم فالكلام أظهر؛ لأنكم تقولون تقدير الآية فعليهم وصية لأزواجهم، أو تقديرها فليوصوا وصية، وأنتم تضيفون الحكم إلى الله تعالى، وأبو مسلم يقول فى تقدير الآية: والذين يتوفون منكم ولهم وصية لأزواجهم، فهو يضيف هذا الكلام إلى الزوج، وإذا كان لابد من إضمار فليس إضماركم أولى من إضماره، ثم على تقدير أن يكون الإضمار ما ذكرتم يلزم تطرق النسخ إلى الآية، وعند هذا يشهد كل عقل سليم بأن إضمار أبى مسلم أولى من إضماركم؛ وإن التزام هذا النسخ التزام له من غير دليل. اهـ.

هذا كلام الفخر الرازى فى تفسيره الكبير، وهو يدل على أمرين:

أحدهما: أن رأى أبى مسلم أن الوصية من الأزواج وليست من الشارع، وهذا الرأى لا جديد فيه إلا جواز مثل هذا النوع من الوصايا؛ وأما قول مجاهد فالوصية من الله، وهى ملزمة للورثة، وليست ملزمة للزوجة، وهو الذى نختاره، ويتفق مع السياق.

الأمر الثانى: أن فخر الدين الرازى يميل ميلا واضحًا إلى منع النسخ، ولذلك نراه يبتدى موجهًا الأقوال موضحًا التوجيه ثم ينتهى بعبارات واضحة كل الوضوح فى أن التزام النسخ التزام له من غير دليل؛ وذلك حق لا ريب فيه.

﴿**وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ** ﴿٢٤١﴾﴾ بيَّنت الآية السابقة حق المتوفى عنها زوجها من متاع أى انتفاع بالسكن بعد وفاته على ألا تخرج من بيت الزوجية، وفى هذه الآية يبين سبحانه وتعالى حق المطلقات.

والمتاع فى أصل معناه ما ينتفع به، وهو المعنى فى قوله تعالى: ﴿**وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ**﴾ وقد بيَّنا ذلك فيما سبق من قول؛ وقد ذكرنا أيضًا من قبل أن المتاع انتفاع ممتد الوقت، وهو على هذا التوجيه قد يراد منه النفقة

أمدًا طال أو قصر؛ لأن النفقة ـ وهى الإدرار على الحى بما به حياته وبقاؤه انتفاع ممتد فى الزمان، وقد يراد المتعة أى إعطاء شئ من نحو الثياب ينتفع به أمداً ممتدًا.

والمتاع فى هذه الآية ما المراد به؟ أهو المتعة التى ذكرناها فى قوله تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ٢٣٦﴾ [البقرة]؟ أم المراد الانتفاع بالنفقة فى أثناء العدة؟

ذكر الفخر الرازى أن معنى كلمة متاع للمفسرين فيها قولان هنا:

أحدهما: إن المراد بالمتاع هو المتعة، وهو ما يعطيه المطلق للمطلقة لها من نصف المهر، أو كسوة أو نحو ذلك من كل عطاء غير ممنون لمطلقته ليكون التسريح بإحسان.

والقول الثانى: المراد به النفقة التى تكون للمطلقة فى العدة.

وإن القول الأول قد خاض تحت ظله الفقهاء كل يريد أن يخرج الآية على مقتضى مذهبه، ومنهم من أطلق نصها وجعله على عمومه؛ فأبو ثور والشافعى فى أحد قوليه قد أخذا بعموم الآية الكريمة، وقررا أن لكل مطلقة متعة واجبة، فإنها قد وثّق الوجوب فيها بقوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ ولا يوجد تعبير يوثق الوجوب كقوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾؛ لأن الوجوب فيه قد تأكد بأنه من موجبات التقوى التى يتقى بها العذاب، وبالتعبير بعلى التى تفيد الإلزام، وبكلمة «حقًا» وهى مصدر حذف فعله، وهو يدل على تقرير الأمر وتثبيته.

ولقد اتبع هذان الإمامان فى ذلك القول الزهرى وسعيد بن جبير وغيرهما.

وقال مالك قريبًا من ذلك، وهو أن المتعة تكون واجبة لكل مطلقة إلا المطلقة المسمى لها مهر قبل الدخول بها؛ فقد جاء فى المدونة فى إرخاء الستور: جعل الله المتعة لكل مطلقة بهذه الآية ثم استثنى فى الآية الأخرى التى قد فرض لها ولم يدخل بها، فأخرجها من المتعة.

وفى قول آخر للشافعى: إن هذه الآية خاصة بغير المدخول بها التى لم يسم لها مهرًا، وهو قول أبى حنيفة وأصحابه فى المتعة الواجبة؛ وقد قال الطبرى فى ذلك إن الآية الأولى، وهى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ [البقرة]: فهم بعض الناس منها أن المتعة لمن لم يسم لها مهرًا ولم يدخل بها، من الإحسان غير الواجب وليست بواجبة، فجاءت هذه الآية صريحة فى الوجوب.

وعلى ذلك الرأى تكون هذه الآية عامة فى لفظها أريد بها الخصوص فى معناها.

هذه هى التخريجات الفقهية على تفسير المتاع بأنه المتعة، وقد رأيت اضطراب أقوال الفقهاء بشأنها واختلافهم فى معناها؛ وقد ادعى بعضهم أن هذه الآية منسوخة بالآية السابقة: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ [البقرة].

أما القول الثانى وهو تفسير المتاع بالنفقة فالذين قالوه أقل عددا، ولكنه أكثر اتساقًا، وأبعد عن كل معانى التأويل، وقد قال فيه الفخر الرازى:

والقول الثانى بالمتاع النفقة، والنفقة قد تسمى متاعًا، وإذا حملنا هذا المتاع على النفقة اندفع التكرار فكان ذلك أولى.

ونحن نوافق الرازى على أن ذلك التفسير أولى؛ لأنه أولا يندفع به التكرار، وتندفع به ثانيًا دعوى التخصيص ودعوى النسخ، ويندفع به الاضطراب الكثير فى تحرير معنى الآية الكريمة السامية؛ وأخيرًا هو الذى يتسق مع ما كان للمتوفى عنها زوجها من متاع هو السكنى، وهى إحدى شعب النفقة، فوجبت حقًا فى مال المتوفى، ولم يجب الباقى لعدم وجود من يجب عليه، أما المطلقة فتجب لها النفقة كاملة بشعبها الثلاث السكنى والطعام والكسوة، والله سبحانه هو العليم بمراده، تعالى كلام الله علوًا كبيرًا.

﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ بهذه الجملة الكريمة السامية ختم الله سبحانه وتعالى الآيات المتعلقة بأحكام الأسـرة، وقد ابتدأ بيانها بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١) ﴾ [البقرة].

وإن ذلك الختام الكريم فيـه تصوير لبيان الله سبحـانه وتعالى لأحكام الأسرة وشدة عنايتـه بأمرها، وتوضيح الأسس الصـالحة التى تقوم عليهـا، والعدالة والمودة والرحمة التى تربط بين آحادها، وكيف فصل سبحـانه القول فيها تفصيلا لم يفصله فى غيرها من شئون الدين، فلم يبين الصلاة والزكاة والحج كما بين الله سبحانه فى كتابه الكريم أحكام الأسرة والروابط التى تربط بين آحادها؛ لأن الأسرة قوام المجتمع الإسـلامى الفاضل، فـإذا تزلزلت اضطرب مـيزان الاجـتمـاع، وتهدمت أركـانه. ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ﴾ أى مثل هذا البـيان القوى الواضح العـالى الذى يوجه النفوس نحو المودة الرابطة، والرحـمة العاطفة، والعدالة المنصفة، يبـين الله سبحانه وتعالى آياته المتلوة، وآياته النفسية، وآياته الكونيـة؛ أى أن الله سبحانه وتعالى يبين دائمًا آياته المذكورة مثل البيان الذى يبين به أحكام الأسرة؛ فهذا التشبيه لتصوير بيان الله دائمـا لآياته بهـذه الصورة التى يقـرأها القـارئ لكتـاب الله فى آيات النكاح، والطلاق، وما يـعقبـه من التسـريح بإحسان أو التـسريح الجـميل كمـا عبـر القرآن الكريم.

﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ وفى هذه العـبارة السامـية إشـارة إلى الغاية من بيـان الله سبحـانه وتعالى لحقـائق الشرع وتوجيه النظر إلى الـنفس وإلى الكون، وتلك الغاية هى أن يعقل الناس أى يفكروا بعقولهم، ويبعدوا عنها أرجاس الجاهلية، ويحرروها من ربقة التقاليد القديمـة التى كانوا يعبرون عنها بقولهم ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ... (١٧٠) ﴾ [البقرة] والتعبير بصيغة الرجاء، وهى ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ هو فى معنى التعليل أى لتعقلوا؛ لأن الرجاء من الله سبحانه وتعالى لايكون على معناه الأصلى،

أو يقال إن ذلك البيان من شأنه أن يرجى أن يعقلوا ويتفكروا، فالتعبير بلفظ يدل على الرجاء للإشارة إلى هذا المعنى المحكم.

هذا وإن أحكام الأسرة كما جاءت فى الآيات الكريمة باعثة على التأمل وإحكام النظر، والإيمان بأن هذه الشريعة من عند اللطيف الخبير، والله سبحانه وتعالى بكل شىء عليم.

۞ أَلَمْ تَرَ
إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ
فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى
ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾
وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾

فى الآيات السابقة قد بين سبحانه وتعالى أحكام الأسرة، والدعامة التى يقوم عليها بنيانها، والنظم التى تربط آحادها، وحقوق كل واحد فيها على سائرها؛ فبين حق الزوج، وحق الولد، وما ينبغى لتستمر المودة الرابطة حال بقاء الزوجية وعند انتهائها ليكون حبل الوداد موصولا دائمًا.

والأسرة هى بناء المجتمع الإنسانى، واللبنات التى يشاد منها صرح مجتمع فاضل؛ فالمجتمع القوى الفاضل لا يقوم إلا على دعائم من أسر قوية فاضلة؛ ففى الأسرة يتعلم الطفل مبادىء المجتمع المشترك المتحد المؤتلف، وفى الأسرة يسمو نزوعه المدنى إلى الاجتماع والائتلاف، ويتجه اتجاهًا مستقيمًا نحو أسمى الغايات الاجتماعية، وهو أن يكون امرأ يألف ويؤلف؛ وإن الأساس الحقيقى للاجتماع أن يكون آحاده ممن يألفون ويؤلفون؛ ولذلك قال النبى ﷺ: «**المؤمن مألفة، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف**»(١).

---

(١) رواه أحمد: باقى مسند الأنصار (٢١٧٧٣) عن سهل بن سعد الأنصارى، كما رواه عن أبى هريرة فى مسنده (٨٨٣١) بلفظ: «المؤمن مؤلف».

وإن القادة والزعماء الذين يعدون أممهم للكفاح يبتدئون بالأسرة، فيحمونها ويقيمون دعائمها على أسس الخير وحب الاجتماع، والاستعداد للفداء فى سبيله والنظم الاجتماعية التى جرب فيها محو الأسرة لتتربى الأمة على الكفاح ـ كنظام ليكورغ فى أسبرطة ـ أدى إلى وجود شباب قد يكون قويًا فى جسمه، ولكن لا يمكن أن يكون قويًا فى خلقه وإيمانه بالفضيلة، والمثل العليا للمجتمع الفاضل الذى يحمى نفسه من ذرائع الانحلال فى داخله، ويدرع بعدة القتال لحماية الحوزة ودفع الذل.

من أجل هذا كانت أحكام الأسرة بين أحكام الجهاد فى القرآن؛ فقد سبق أحكام الأسرة كلام من الله تعالى فى القتال وأعقبها دعوة وتحريض على الجهاد، وحث عليه بضرب الأمثال من الأمم السابقة، وكيف جاهدت فى سبيل الحق، وانتصرت القلة مع إيمانها على الكثرة مع كفرها؛ وقد ابتدأ سبحانه وتعالى هذا بقوله تعالت كلماته:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ الاستفهام هنا يؤدى فى مغزاه معنى التقرير والتثبت؛ وذلك لأنه للإنكار والنفى، وقد دخل على منفى فنفى النفى، وبذلك تقرر المعنى وثبت؛ لأن نفى النفى إثبات؛ فالمعنى قد رأيت ونظرت وعلمت، والخطاب عام لكل قارىء وسامع إلى يوم القيامة، والرؤية بمعنى العلم؛ فإن رأى تكون بمعنى علم وبمعنى أبصر، أو تكون دائمًا بمعنى أبصر، ولكن الإبصار قد يكون بالبصر، وقد يكون بالبصيرة فيكون علمًا؛ وقد تتضمن الرؤية معنى النظر وهو نظر بالبصيرة؛ ولأنها تضمنت معنى النظر قد تعدت بإلى، فقال تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ﴾** وقد ذكر الراغب الأصفهانى فى مفرداته: أن رأى إذا تضمنت معنى النظر، ولو كان النظر بالبصيرة، تتعدى بإلى.

والمعنى الإجمالى: لقد علمت أيها القارئ المتتبع لسنن الله فى الناس واجتماعهم الناطقة به آياته فى نفوسهم وفى الآفاق، علم اليقين والجزم الناشئ عن

دليل منير ـ حال أولئك الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، ومن لم يعلم ذلك ينبغى أن يعلم؛ لأن البينات قائمة؛ والعلامة المعلمة واضحة فالاستفهام فى الآية يقرر العلم، ويوجه الأنظار إلى وجوبه، ويحثها على الأخذ فى أسبابه والالتفات إلى أماراته وأعلامه؛ فهو تقرير وتنبيه، وإثارة للمعجب من حال من فروا من الجهاد فلقوا الموت.

ومن هم أولئك الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت؟

قبل أن نخوض فى الجواب عن ذلك نتكلم فى أمرين لفظيين قد يهدى أحدهما إلى الحق فى شأن أولئك الذين خرجوا من ديارهم.

الأمر الأول ـ كلمة «ألوف» فإن بعض العلماء فسرها بمعنى كثرة العدد، أى أنهم عدد كثير، ألوف مؤلفة، وكثرة كاثرة؛ فما كان خوفهم عن قلة، بل كان عن كثرة؛ أو ما كان الخوف عن سبب يسوغه، بل كان عن جبن يخذل.

وبعض العلماء قال: إن معنى «ألوف» مؤتلفون مجتمعون؛ فألوف على هذا جمع آلف، كقعود جمع قاعد، وركوب جمع راكب، ونحو ذلك؛ والمعنى على ذلك أنهم قبل خروجهم من ديارهم، وتفرقهم فى الأرض كانوا مؤتلفين مجتمعين توحدهم كلمة جامعة، ووحدة رابطة، ففرقهم الخوف على الحياة أيا كانت صورها ولو كانت حياة الذل والانكسار، وإنه ليعقبها الشقوة والانهيار.

الأمر الثانى ـ كلمة «حذر الموت» تنبئ عن الباعث على فرارهم، وهو حرصهم المطلق على الحياة على أى صورة كانت تلك الحياة، كما وصف سبحانه وتعالى اليهود فقال سبحانه: ﴿**وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ** ... ﴿٩٦﴾﴾ [**البقرة**] أى مهما يكن نوع هذه الحياة، ثم خوفهم المطلق من الموت، أيا كانت أسبابه، ومهما تكن نهاية الفرار منه، وإن ذلك الخوف كان قبل أن تتحقق أسبابه فلم يكن الموت قد نزل ضربة لازب لا مناص منه إلا بالخروج من الديار؛ بل إن الذى دفعهم هو الحذر من الموت، وليس الحذر إلا توقيًا للأسباب واحتراسًا وابتعادًا قبل أن تظهر الأسباب قوية ملزمة موجبة، وعلى ذلك يكون الحذر من الموت أدق

فى بيـان جبنـهم من الخوف، إذ الخـوف يكون وقـد ظهرت مـوجـباته، وتعـددت الأمارات؛ أمـا الحذر فإنه توق مـانع قبل وجود الأسـباب وإن بدت ولاحت بعض أمور احتمالية لوجود هذه الأسباب.

ولقـد كانت نتـيجـة خروج أولئك الحـذرين من الموت أن اسـتقـبلهم الموت المقدور، فـقال لهم الله موتوا؛ وأمر الله سـبحانه وتعـالى هنا أمر تكوينى؛ أى أنه سبـحانه وتعالى أمـاتهم، وإن أمر الله التكوينى هو بإيجـاد ما ساقـه على أنه أمره ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس].

فإذا كان أولئك قد فروا من الموت فليلقاهم الموت، وكيف يفرون من أمر وهو واقع لا محالـة طال الأمد أو قصر، وهو واحد مـهما تعددت أسـبابه، والموت فى شرف خير من الحياة فى خسة، والموت فى عزة خير من الحياة فى ذلة!.

بعد هذا نجـيب عن السؤال: من هم هؤلاء الذين فروا من الموت فلقـيهم من حيث لا يـقدرون، ثم أحيـاهم من ذلك رب العالميـن؟ وهل هذه الحياة كـانت فى الدنيا؟

قد وردت فى ذلك أخبار وروايات لم تثبت بسند صحيح عن النبى ﷺ الذى بيَّن الكتاب للناس، ولا عن أحد من أصحابه الذين تلقوا ذلك البيان.

ومن تلك الروايات أنهم قوم من بنى إسرائيل خرجوا هاربين من الوباء فنزلوا واديًا، فأماتهم الله ثم أحياهم اعتبارًا وإجابة لدعاء نبى من أنبيائهم.

وفى رواية أخـرى أنهم قـوم من بنى إسرائيـل فروا من الجـهـاد مع نبيـهم، فأماتهم الله ليعلمهم أنه لا ينجيهم من الموت شىء، ثم أحياهم ليجاهدوا.

ورواية ثالثة تقول: إن أولئك القوم كانوا من بنى إسرائيل، حرضهم ملك من ملوكهم على الجهاد فخرجوا حذر الموت، فأماتهم الله سبحانه ثم أحياهم.

وفى كل رواية من تلك الروايات تفصـيلات لا حاجة إلى ذكـرها، ولقد نقل القرطبـى فى أحكام القرآن بعـد ذكر هذه الروايات مـا نصه: قال ابن عطـية: وهذا

القصص كله ليِّن الأسانيد، وإنما اللازم من الآية أن الله تعالى أخبر نبيه محمدًا ﷺ إخبارًا فى عبارة التنبيه والتوقيف عن قوم من البشر خرجوا من ديارهم فرارًا من الموت فأماتهم الله تعالى ثم أحياهم ليروا هم وكل من خلف من بعدهم أن الإماتة إنما هى بيد الله تعالى لا بيد غيره، فلا معنى لخوف خائف ولا اغترار مغتر؛ وجعل الله تعالى هذه الآية مقدمة بين يدى أمر المؤمنين من أمة محمد ﷺ بالجهاد؛ وهذا قول الطبرى، وهو ظاهر وصف الآية[١].

هذه كلمة نقلها القرطبى، وقد اختار من قبله شيخ مفسرى الأثر ابن جرير ذلك، وقد ارتضى ألا يتعرض لأولئك الأقوام من هم؟ إذ لو كان فى ذكرهم فائدة لذكرهم القرآن، أو لذكرتهم السنة النبوية.

وإن المفسرين السابقين قد نهجوا على أساس أن الموت حقيقى حسى، وأن أولئك قد ماتوا حسًا وأحياهم الله سبحانه وتعالى حسًا، وإن ذلك بلا ريب يكون فيه مع إعلامهم بأن الموت لا مناص منه، بيان لقدرة الله الخارقة للعادات، المتحكمة فى السنن الكونية، فلا تخضع لهذه السنن؛ لأن الله منشئها.

ولقد جاء من بعد أولئك المفسرين السابقين الأستاذ الشيخ محمد عبده، فرأى أن الموت معنوى، والحياة حسية، فرأى رضى الله عنه أن الموت هو موت الأمم، والحياة هى حياتها، وموت الأمم بتفرق كلمتها وذهاب وحدتها، وضرب الذلة عليها؛ وأن حياتها هى اجتماع كلمتها، ونيل عزتها، وتولى أمرها بنفسها؛ وخروجها من ديارها أن يتحكم فيها عدوها، فإنها تكون غريبة فى أرضها ما دام لاأمر لها فيها، وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة، ولنترك الكلمة له كما رواها تلميذه السيد رشيد رضا رحمه الله تعالى، فقد قال:

«أطلق القرآن القول فى هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم ولم يعين عددهم ولا أمتهم ولا بلدهم، ولو علم لنا خيرًا فى التعيين والتفصيل لتفضل علينا بذلك فى كتابه المبين، فلنأخذ القرآن على ما هو عليه، لا ندخل فيه شيئًا من الروايات.

---

(١) أحكام القرآن للقرطبى جـ٣ ص٢٣١.

الإسرائيلية التى ذكروها، وهى صارفة عن العبرة، ولا مزيد كمال فيها. المتبادر من السياق أن أولئك القوم خرجوا من ديارهم بسائق الخوف من عدو مهاجم لا من قلتهم، فقد كانوا ألوفا أى كثيرين، وإنما هو الحذر من الموت الذى يولده الجبن فى أنفس الجبناء، فيريهم أن الفرار من القتال هو الواقى من الموت، وما هو إلا سبب الموت.. ولما خرجوا فارين ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾ أى أماتهم بإمكان العدو منهم؛ فالأمر أمر التكوين، لا أمر التشريع؛ أى قضت سنته فى خلقه بأن يموتوا بما أوتوه من سبب الموت؛ وهو تمكين العدو المحارب من أقفائهم بالفرار، ففتك بهم وقتل أكثرهم؛ ولم يصرح سبحانه بأنهم ماتوا؛ لأن أمر التكوين مشيئة الله سبحانه.. ﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ إنما يكون الإحياء بعد الموت؛ والكلام فى القوم لا فى أفراد... فمعنى موت أولئك القوم أن العدو نكل بهم فأفنى قوتهم، وأزال استقلال أمتهم، حتى صارت لا تعد أمة، بأن تفرق شملها، وذهبت جامعتها، فكان من بقى خاضعين للغالبين، ضائعين فيهم مدغمين فى غمارهم لا وجود لهم فى أنفسهم، وإنما وجودهم تابع لوجود غيرهم؛ ومعنى حياتهم هو عودة الاستقلال إليهم؛ ذلك أن من رحمة الله تعالى فى البلاء يصيب الناس أنه يكون تأديبًا لهم، ومطهرًا لنفوسهم مما عرض لها من دنس الأخلاق الذميمة. أشعر الله أولئك القوم بسوء عاقبة الجبن والخوف والفشل والتخاذل بما أذاقهم من مرارتها، فجمعوا كلمتهم، ووثقوا رابطتهم، حتى عادت لهم وحدتهم قوية، فاعتزوا وكثروا إلى أن خرجوا من ذل العبودية التى كانوا فيها إلى عز الاستقلال. فهذا معنى حياة الأمم وموتها»(١).

وهذا نظر الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، ونراه نظر إلى مرمى الآية الكريمة، وهو يتجه إلى أن الموت والحياة هو موت الأمم وحياتها؛ وموت الأمة ليس بموت آحادها، إنما هو بذهاب الجامعة التى تربطها، واندغامها فى غيرها، حتى لا يصبح لها كيان قائم بذاته؛ وحياتها هى عودة هذه الوحدة الجامعة، والعزة المسيطرة والكيان المستقل.

---

(١) تفسير المنار ج٢ ص٤٥١.

وبعد هذا العرض الذى سقناه بيانًا لآراء العلماء أجد فى نفسى ميلاً لأن أعتبر الحياة التى منحهم الله سبحانه وتعالى ليست تلك الحياة المادية فى الدنيا بإعادة الروح إلى العظام واللحم؛ وإن كان ذلك فى قدرة الله سبحانه وتعالى؛ ولو كانت الآية فى مقام إثبات البعث والنشور لقررنا ذلك وقلنا إن الآية لا تحتمل سواه، ولكن المقام هنا هو مقام الحث على القتال والتحريض عليه وسوق القصص الدالة على وجوبه، ليكون حفاظًا للأمم، وسياجًا لوجودها، فيكون الإحياء بمعنى غير إعادة الروح إلى الجسد فى هذه الدنيا، وعلى ذلك لا مناص لى من أن أختار أحد أمرين:

أولهما: أن نقول إن الحياة هى حياة الأمم برد عزتها بعد أن فقدتها، والموت هو موت الأمم بذهاب جامعتها على النحو الذى بينه الأستاذ الإمام؛ فالحياة والموت هنا معنويان، والقرآن الكريم قد أطلق الحياة والموت على الأمور المعنوية، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ... ﴿٢٤﴾**﴾ [**الأنفال**] وقال تعالى: ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ... ﴿١٢٢﴾**﴾ [**الأنعام**].

وإنا إذا اخترنا ذلك المنهاج الذى نهجه الأستاذ الشيخ محمد عبده، فإننا نقرر أن الله سبحانه قد ذكر لنا فى آية آخرى فى بنى إسرائيل أنهم تفرقوا فى الصحراء تائهين عندما عجزوا عن دخول الأرض المقدسة مع موسى فذهبت وحدتهم، حتى إذا رد إليهم بأسهم وقويت نفوسهم بالحياة البدوية جمعهم الله فأحياهم وجعلهم جماعة تقاتل فى ظل النبيين. وقد ذكر الله سبحانه وتعالى ذلك فى سورة المائدة فقد قال تعالى فى مجاوبة بنى إسرائيل لموسى عندما دعاهم إلى القتال ليدخلوا الأرض المقدسة: ﴿**قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾**﴾ [**المائدة**].

فهؤلاء الذين تاهوا فى الأرض قد ماتت وحدتهم، وقد أحياهم الله سبحانه من بعد بجمع كلمتهم فى عهد الملوك والنبيين. وإنه ليزكى ذلك النظر أن الآيات من بعد ذلك فى قتال بنى إسرائيل مع ملوكهم وأنبيائهم، وانتصارهم وهم فئة قليلة مع داود عليه السلام على أعدائهم وقد كانوا كثيرين.

الأمر الثاني: الذى تحتمله الآية الكريمة فى معنى الحياة والممات: أن يكون المراد الموت الحقيقى بموت أكثرهم، وتشتت باقيهم؛ وذلك لأن حذر الموت جعل عدوهم يعمل سيفه فى رقابهم حتى أباد خضراءهم، واجتث شأفتهم؛ والحياة من بعد ذلك هى الحياة الآخرة، وما يجرى بعدها من حساب وعقاب؛ فهم قد أذاقهم الله سبحانه وتعالى بها مغبة الجبن فى الدنيا، وسيحاسبهم على ما كان منهم فى الآخرة؛ فهم بهذا قد خسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين. وقد يقول قائل: إن التعبير بالماضى والحياة فى الآخرة أمر مستقبل غيب الله سبحانه زمانه، وأكد وجوده، فنقول: إن التعبير بالماضى للدلالة على تأكيد أن الوقوع فى المستقبل منهاج قرآنى كما فى قوله تعالى: ﴿**أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ** ... ①﴾ [**النحل**] فـ (أتى) هنا بمعنى سيأتى، بقرينة «فلا تستعجلوه» ومثل قوله تعالى فى أهوال يوم القيامة: ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا** ㉓﴾ [**الفرقان**].

هذان هما الأمران، ولعل أولهما أبين وأوضح، ونحن إليه أميل. وقد يقول قائل: لماذا تستبعد الإحياء الجسمى فى الدنيا؟ أهو مستحيل؟ وجوابنا عن ذلك: إنه ليس بمستحيل، ولكنه خارق للعادة، والله سبحانه وتعالى يسير أمور الناس على مقتضى ما سنه فى الكون حتى تقتضى حكمته خرق ذلك النظام ليكون حجة على رسالة رسول، وليس فى الآية ما يدل على ذلك، كما أنه لم يسق الآية لبيان البعث حتى يكون خرق سنن الله التى سنها فى الكون لبيان قرب البعث وقدرة الله عليه؛ إنما الأمر فى الجهاد، ويناسب ذلك أحد المعنيين اللذين ذكرناهما، والأول فى هذا المقام أنسب، وهو على النحو الذى وضحناه يكون تمهيداً لبيان قصص بنى إسرائيل فى قتالهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ بعد بيان حال الذين فروا من الجهاد، وآثروا الدعة والراحة فلم يأخذوا الأهبة للقاء عدوهم الذى يتربص بهم الدوائر، وينتهز أية فرصة لينقض عليهم؛ بعد بيان حال هؤلاء وأنهم يفرون من الموت فى شرف إلى الموت فى خسة، ومن الموت العزيز الكريم، إلى الموت الذليل الذى يدفع إليه الطبع اللئيم؛ بعد هذا كله أشار سبحانه إلى فضله تعالى على الناس أجمعين؛ وإن الإشارة إلى فضل الله تعالى فى هذا المقام تنبيه للعقول الغافلة، وإيقاظ للأفكار الراقدة إلى عظيم نعمته تعالى على الناس فى أنفسهم وفى اجتماعهم؛ وذلك لأنه سبحانه وتعالى أنشأ النفوس الإنسانية، وأودعها الإلف والائتلاف، وبذلك يتكون الاجتماع، ويعاون كل امرىء الآخرين، وبفضل التعاون تقوم الأمة، ويشتد ساعدها؛ ولقد أودع الله سبحانه وتعالى مع تلك النعمة المؤلفة الرابطة قوة أخرى فى الإنسان، وهى القدرة على الدفاع عن النفس، ومغالبة الذين يصاولونه، ويريدون به الأذى، من أعداء مغيرين، أو حيوان مفترس؛ فبهذه القوة الخلقية التى أودعت نفسه، وبتلك القوة الجسمية المكافحة يصاول أعداءه، ويحمى أولياءه؛ ومن مزيد فضله على الناس أن أباح الدفاع عن النفس، والقتل فى سبيل ذلك، كما قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج].

ومن فضل الله على الناس أن مكن للمظلوم من ظالمه، وللمعتدى عليه من المعتدى إذا أخذ المظلوم فى أسباب دفع الظلم واستعد، ولم يمكن الظالم من رقبته؛ فإن مات فى سبيل ذلك مات شهيدًا، وجعل الله سبحانه وتعالى له فى الآخرة نعيمًا مقيمًا، وثوابًا دائمًا، واعتبره أفضل الأحياء؛ كما قال تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران].

واعتبر سبحانه وتعالى الجهاد فى الدفاع عن الحوزة والديار مادام عادلاً، جهادًا فى سبيله سبحانه وتعالى.

كل هذا من فضل الله على الناس ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ لا يشكرون هذه النعم ويقومون بحقها عليهم، فإن شكر النعم أن يحس المنعم عليه بفضل المنعم، ويحمده ويثنى عليه، ويقوم بحق الإنعام بأن يجعل ما أنعم الله به عليه لخيره وخير الناس، ويستعمله فيما أحله سبحانه.

وأكثر الناس قد كفروا هذه النعم؛ فمنهم من أشرك مع المنعم سبحانه غيره من أحجار وأوثان وشمس وبقر ونار، فطمس الله على بصيرتهم؛ ومنهم من كفر بما أودع الله نفسه من قوة، فاستخذى واستكان، ورضى بالمكان الدون، والمنزل الهون؛ ومنهم من تقاعس فى الدفاع عن حوزته ودياره وهو على ذلك قادر حتى أبيح الحمى وهدمت الديار؛ ومنهم من فر من لقاء الأعداء، حتى آل إلى الموت الخسيس، وقد جهل نعمة الله على الناس، وسننه فيهم وهى أنه لا ينجى من الموت إلا الإقدام على الموت مدرعًا بكل وسائل القتال والدفاع؛ وأن من يطلب الموت ينال الحياة، ومن يفر من الموت الشريف يطلبه الموت الذليل تلك سنة الله فى خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

هذا موضع قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ فى مقام بيان عاقبة الذين يتركون الجهاد ويفرون حذر الموت، وهو يدل على أن أولئك الفارين لم يقوموا بحق المنعم الذى أنعم عليهم؛ إذ لم يطيعوه بأخذ الأهبة والاستعداد، ولم يعتمدوا عليه سبحانه بعد أن يأخذوا بالأسباب، وكفروا بأنعم الله عليهم ولم يقوموا بحقها فعطلوا قواهم ورضوا بالفرار والعار، وعندهم القدرة على الدفاع مستعينين بالله سبحانه.

وقد قال تعالى فى وصف ذاته الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أى لصاحب فضل دائمًا، أى أن الفضل على الناس بلازم ذاته الكريمة، فهو المتفضل سبحانه وتعالى دائمًا؛ تفضل بالإيجاد، وتفضل بإيداع القوى، وتفضل بسن السنن الكونية والشرائع الهادية، والإرشاد القويم؛ وتفضل بأن أقام الأمور على الحق والقسط، وأن الخير يدفع الشر، وأهل الحق يدفعون الباطل وأنصاره، وأن

المعتدى عليه يدفع اعتداء المعتدى، وفى كل ذلك صلاح الأرض ﴿ ... **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴿٢٥١﴾ ﴾ [البقرة].

﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴿٢٤٤﴾ ﴾ هذه الآية الكريمة استئناف مترتب فيه الأمر الملزم بالقتال على القصة المشار إليها آنفًا، فإنه إذا كان الخروج من الديار حذر الموت يؤدى لا محالة إلى الموت، فإنه من الواجب القتال فى سبيل الله تعالى ورد الاعتداء؛ وإذا كان الموت فى القتال محتملا أو راجحًا، فالموت فى الفرار والخروج من الديار حذر الموت مؤكد لا محالة؛ ولو خير العاقل بين موت احتمالى وفيه الفخار، وموت مؤكد وفيه العار، لاختار بلا ريب القتال.

وإن القتال فى سبيل الله هو الحياة الكاملة؛ فإن قتل فى ذلك فقد رزق الشهادة، وهى رزق يتنافس فيه المؤمنون، ويطلبه المتقون؛ وسبيل الله هي سبيل الحق؛ فكل قتال لأجل الدين والدفاع عنه فهو قتال فى سبيل الله، وكل قتال فى سبيل الجماعة هو قتال فى سبيل الله ما دام القتال عادلا، وقتال المرء دون عرضه هو قتال فى سبيل الله، وقتاله دون ماله هو فى سبيل الله سبحانه(١)، فكل قتال لدفع الظلم وإعلاء منار الحق هو من القتال فى سبيل الله سبحانه، ولقد قال الإمام مالك رضى الله عنه: (سبل الله كثيرة) وكل طريق للوصول إلى الحق أو حمايته أو الدفاع عنه هى من سبل الله سبحانه وتعالى.

والخطاب فى الآية الكريمة: ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ للمسلمين أجمعين فى كل الأجيال وفى كل العصور، ولم يقل فى هذه الآية كما قال فى غيرها: ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا** ... ﴿١٩٠﴾ ﴾ [البقرة] مع أن أصل القتال فى الإسلام لدفع الاعتداء فقط، لم يقل سبحانه وتعالى ذلك إلا للإشارة إلى أمرين:

---

(١) عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ» قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. [سنن الترمذى: كتاب الديات - من قتل دون ماله فهو شهيد (١٣٤١)].

أولهما: وجوب الاستعداد الدائم للقتال فإنَّ حب الغلب فى فطرة الإنسان، وتوقع الاعتداء مع ذلك أمر لابد منه كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ... ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال] ولا شىء يمنع الاعتداء أكثر من الاستعداد لدفع الاعتداء، فلو كان للحَمَل نابٌ ما عَدَت عليه الذئاب؛ ولو كان للظبى ظفر وناب ما افترسته أوابد الوحوش.

ثانيهما: القتال فى سبيل نصرة الحق ودفع الظلم ومعاونة المظلومين ضد الظالمين؛ وذلك حق على كل مسلم وإن لم يكن الاعتداء واقعًا عليه؛ فالقتال لدفع الظلم وإقامة الحق قتالا عادلا وهو قتال فى سبيل الله سبحانه، ولو لم يقع الاعتداء على شخص القاتل؛ لأن ذلك من قبيل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ... ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران]. ولقد بارك النبى ﷺ حلف الفضول، وقد كان عهدًا بين المتحالفين أن ينصروا المظلوم على الظالم(١).

ولقد عطف الله سبحانه وتعالى على الأمر بالقتال قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فهو أمر منه سبحانه بأن يتذكروا دائمًا أن الله سبحانه وتعالى سميع لكل أقوالهم التى ينطقون بها سواء أكانت تلك الأقوال تدل على رغبة فى الجهاد وطلب للاستشهاد، أم كانت هذه الأقوال مخذلة معوقة للمجاهدين الأبرار من مثل قول: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا ... ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران] ومثل قول: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ... ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عمران] وإنه سيجازى كل واحد بقوله، إن خيرًا فخير، وإن شرا فشر.

وكما أمرنا أن نتذكر دائما أنه سميع لنشعر برقابته على أقوالنا، أمرنا بأن نتذكر بأنه عليم بخواطرنا وبالدوافع التى تدفعنا إلى القتال، فهو يعلم الوساوس التى تلقى فى النفس ضعفًا يظهر على الشفاه، وتعلنه الأفعال، ويعلم البواعث التى تدفع إلى القتال أهى فخار ورغبة فى دنيا يصيبها، أم لتكون كلمة الله هى العليا،

---

(١) راجع فى ذلك: فتح البارى (١٢٣٠) - لا حِلْف فى الإسلام.

ولرفع منار الحق، وخفض الباطل؛ فإن كانت الأولى فقد ذهب ثوابه بما أصاب من دنيا قصدها، وإن كانت الثانية فكل خطوة خطاها لها ثوابها، وكل مقام شهده له أجره؛ وإن ظفر بالشهادة فقد ظفر بغاية الغايات للمؤمن الصبور التقى الطاهر، والله سبحانه عليم بحال المقاتلين: اندفعوا فى قتالهم إلى الاعتداء، أم ساروا على الطريق المستقيم، فلا اعتداء فى قتال، فلم يقتلوا غير مقاتل، ولم يقاتلوا من لا يقاتل.

هذا هو الجهاد فى الإسلام: دفاعًا عن الذمار، وطلبًا للحياة الكريمة فى الوغى حيث يحمى الوطيس، ويكون الموت قد فغر فاه، وحيث المنايا تعددت طرائقها؛ وإن المجاهد فى الإسلام إنما يخط بسيفه نور الحق فى وسط ظلمات الباطل؛ وإن الجهاد لسبيل لإعلاء كلمة الله، حيث يشتد الظلم، ويستغلظ الظالمون، ويريدون أن يلتهموا الأمم والجماعات، ويبيدوا خضراءها، فعندئذ يكون القتال فى الإسلام، ومن يفر منه حذر الموت فإنما يفر من العزة إلى الذلة، ومن الحياة الكريمة إلى الموت؛ ولذلك قال على بن أبى طالب: (الجهاد باب من أبواب الجنة) وعند الله النصر المبين.

مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

بين الله سبحانه وتعالى أن الجهاد سبيل لحياة الأمم، والقعود عن الدفاع سبيل لفنائها، وبذهاب دولتها، وتقطع وحدتها، وفقد لكيانها المجتمع، وأمرها المؤتلف، وأنه لاسبيل لأن تعيد الجماعة قوتها، ودولتها إلا بالجهاد والاستعداد له؛ ففى الاستعداد للجهاد الحياة، وبالجهاد ترد الحياة؛ والجهاد فى أدق معناه هو تعرض النفس للتلف ليبقى المجموع، فهو إيثار بالنفس، وبذل للمهج والأرواح، وتقدم للبأس من القادرين؛ بيد أن الجهاد لابد له من عدة وعتاد، وشكّة وسلاح؛ ولابد له من أن تكون الكلمة موحدة، والقوى مجتمعة بالتعاون بين الغنى والفقير؛ فإذا كان

الجهاد بذلا للأنفس والمهج فى سبيل حياة أعـز فلابد فيه من بذل المال؛ فالجهاد بذل للنفس والنفيس معًا؛ ولذا أردف سـبحانه الأمر بالقتال بعد ضـرب الأمثال، بالأمر بالبذل والعطاء، فقال عز من قائل:

﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ القرض: أصل معناه اللغوى: القطع، ومنه المقراض، ثم أطلق علـى معنى المجاوزة؛ لأنها قطـع للمكان؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ ... ﴿١٧﴾﴾ [الكهف] أى تتجاوزهم وتدعهم إلى أحـد المكانين؛ ومنه انقرض القـوم أى انقطعوا من الدنيـا وتجاوزتهم. وسـمى إسلاف المال وبذله فى سـبيل الخـيـر قرضًـا لأنه يقتطع من المال المدخـر، وينتقص منه، والمال نظير النفس فكأنه يقتطع من النفس؛ ولذلك كان الجواد شجاعًا عادة؛ لأن بذل النفيس كبذل النفس كلاهمـا ينبع من نفس واحدة فالجود والشجاعة صنوان أو أخـوان لا يولدان إلا من أب واحد، ولا يتـرعرعان إلا فى منـبت واحد وبيئة واحدة، والبخل والجبن أخوان منبتهما واحد، ومولدهما واحد؛ فالبخيل جبان فى مجرى العادة، وقد دل على ذلك الاستقراء.

والقرض بعد هذا البـيان هو إسلاف المال فى السبيل الحـسن لمعاونة صديق أو سد حاجة مـعوز أو حماية الدولة أو إغاثة ملهوف على أن يرد مـثله من غير وكس ولا شطط؛ وقد يكون من جنسه مالاً بمال، وقد يكون العوض أزكى من المال وأنمى منه، وأنفع وأبقى، وذلك هو الإسلاف فى سبيل الخير غير مبتغ جزاء ولاشكوراً إلا من خالق الناس مالك الملك ذى الجلال والإكرام.

والزمخشـرى يرى إطلاق القرض على بذل المال من غير رجـاء لرد البدل فى الدنيا إطلاقـا مجازيا، كـأنه يرى ـ رحمه الـله ـ أن القرض فى حقـيقتـه اللغوية، إسلاف المال على أن يأخذ بدله؛ لأن ذلك هو الحقيقة التى آل إليها اللفظ بعد انتقاله من معنى القطع المجرد فـيكون استعمال القرض فى هذا الموضع من قـبيل المجاز فى نظر الزمخشرى؛ فقد شبه هنا بذل المال فـى سبيل الخير ورجاء ما عند الله ورضوانه والثواب المقيم فى الآخرة، والتوفيق والبسط فى الرزق فى الدنيا؛ شبه هذا بمن يبذل المال ليرد عليه مثله، فعبر باللفظ الدال على المشبه به فى معنى المشبه.

وعبارات كثيـرين من المفسرين يستفاد منها أن كلمة القـرض هنا مستعملة فى معنـاها من غير مـجاز؛ لأن مـعنى القرض ثابت؛ إذ إنـه اقتطاع من مـدخر المال، ورجاء البدل متحـقق ثابت بشكل أوضح ممن يرجو بدل المال فى الدنيا؛ لأن ما عند الله خير وأبقى؛ ولأن البركـة فى الرزق والبسطة فيه قد قدرها الله سـبحانه وتعالى لمن يعطى سماحًا جوادًا من غير منٍّ ولا أذى.

والقرض الحسن المذكور فى الآية الكريمة، هـو القرض الذى يكون منبعثًا من نفس طيبة بالعطاء، قاصدة وجه الخير ورضا الـله سبحانه وتعالى، ومتحرية موضع الإنفاق وزمانه، فالقرض الحسن فى هذا المقام لابد لتحققه من أن يكون الباعث عليه خيرًا مقصودًا به وجه الله تعالى، فلا ينفق رئاء الناس، ولا ينفق ابتغاء جاه ولا مَلَقًا لذى جاه، كأولئك الذين يتـصدقون بالصدقات العظيـمة لإرضاء كبيـر مسيطر، لا يقصد الصدقة لذاتها ولا وجه الله فيها، ولا المعـاونة لمستحقيها، وإنما يقصد إرضاء الكبير فقط؛ وإن ذلك هو الشرك الخفى؛ ولقد روى أن النبى ﷺ قال: «**من تصدق يرائى فقد أشرك**»(١).

ولابد لتحقق القرض الحـسن أن يتحرى الشخص موضع الحاجة فيـسد حاجة المعوزين، وينفق على المحتاجين، يؤثر أشـدهم حاجة؛ فالأدنى منه، ما وسع فضل ماله؛ ثم ينفق فى المصالح العامـة لإقامة مشروعات اجتماعيـة أو عمرانية، والإنفاق للجهاد فى سبيل الله هو المرتبة السامية العليا.

هذه معـانى القرض الحسن فى ذاتهـا ولبها؛ ومـا المراد به هنا؟ أيراد به المعنى العام الشامل، أم يراد به المعنى الخاص الذى يدل عليه ما قبل الآية ومابعدها؟

إنَّ الاتجاهات فى هذا ثلاثة:

أولها: القرض الحسن هنا هو المعنى العام له، وهو كل إنفاق فى سبيل الخير، سواء أكان الإنفاق لسـد حاجات المحتاجين من الآحاد، أم كـان للمصالح التى يعم

(١) سبق تخريجه من مسند الإمام أحمد رضى الله عنه.

نفعهـا، ويشمل خيرها، أم كـان فى الجهاد فى سبيل اللـه، ووجهة هؤلاء فى هذا العموم أن كل ذلك يضاعف الله فى جزائه، وذلك قـرينة العموم، والمقام لايمنعه؛ لأنه يدخل فيه الجهاد.

وثانيـها: أن القـرض الحسن مـا ينفق فى سبـيل المصالح العـامة من إنـشاء جماعات للبـر بكل ضروبه والإنفاق عليها، ومن بذل فى سبـيل إعداد الأمة إعدادًا حربيا؛ لأن كل ذلك تقـوية للوحدة فى الأمة، وهو من عدة القلوب، فالتـعاون فيه قوة، بل هو عماد القوة.

وثالثـها: أن المراد الإنفـاق فى الجهاد، بـدليل توسط الآية بين الآيات الدالة على القتال المحرضة عليه؛ فـهى تخص البذل فى القتال، وهو فى ذاته أقواها أثرًا، والمقام يؤيد إرادته.

وعندي أن السـياق حـقا يجعـل القرض الحـسن فى هذا المقام مـتجـهًا أولا وبالذات نحو البـذل لإعداد العدة وأخذ الأهبة؛ لـيتحقق على الوجـه الأكمل قوله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ... ﴿٦٠﴾**﴾ [**الأنفال**] ولكن ذلك لا يمنع الشمول، فإن الله سبحانه وتعالى يأتى بالعبارات السامية المحكمة الشاملة فى معناها فى مقام يستدعى ذكـرها لوجود حال تدخل فى العموم، فلما ذكر القـتال ذكر معه وجوب البذل عامة كـقاعدة شرعية وأصل من أصول الاجتـماع الإسلامى الفاضل، ودخل فى هذا العموم البذل فى القتال على وجه الخـصوص وخصوصيته جاءت من السياق القرآنى السامى. ولقـد حث المولى الكريم عباده المؤمنين على البذل والعطاء لمعاونة المحتاجين، وعلى الإنفاق فى مصالح الاجتماع، والإنفاق فى الحروب بشكل خاص، وقد جاء النص الكريم متضمنًا بعـبارته وإشارته أبلغ ما يدل على التحريض على البذل، والدعوة إليه؛ وإنا نذكر قدرًا مما وصلت إليه مداركنا.

وأول ما يدل على المبالغـة فى الحث على البذل فى الخير التعبيـر بقوله تعالى ﴿**مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا**﴾ فقد تضمن ذلك التعـبير الحث على البذل من عدة وجوه:

منها: التعبير بالاستفهام؛ فإنه للتنبيه وبعث الأذهان وحفز العقول على الالتفات، وبمقدار الوعى عند الاستماع تكون الإجابة وبمقدار الحث على الانتباه يكون الطلب.

ومنها: أنه جمع الإشارة والموصول فى الاستفهام فقال ﴿**مَن ذَا الَّذِي**﴾ وفى ذلك بيان لعلو شأن من يبذل؛ فإنه لا يستفهم ﴿**مَن ذَا الَّذِي**﴾ إلا إذا كان المقام ذا شأن وخطر، وكان موضع الاستفهام خطيراً وعظيمًا وكان المخاطب له شأن جليل إلى درجة أن يشار إليه، ويتحدث عنه؛ فالإشارة كناية عن أنه يشار إليه فى كل أمر جليل، والموصول كناية عن أنه يتحدث عنه عند ذكر كل أمر جليل.

ومن وجوه الحث على البذل فى الجملة السامية: أن الله سبحانه وتعالى سماه قرضًا؛ لأن فيه إشارة إلى أنه سيرد لصاحبه، وأنه ليس مالاً يبذل من غير بدل يعود إليه، بل إن له بدلا أسمى منه، وعوضًا أجل وأعظم؛ واعتبره سبحانه قرضًا لله تعالى؛ وأى سمو تعلو إليه نفس الباذل عندما يحس بأن المقترض منه هو رب العالمين، الذى يملك كل شيء وهو خالق كل شيء؟ أى كلام يحرض على البذل أبلغ من أن يسمى فعله قرضًا لله المنعم بالوجود، والمالك لكل موجود؟ ثم إن القرض لله تعالى قرض مضمون الوفاء، مؤكد الأداء.

ومن وجوه الحث على البذل فى التعبير السامى: أن سماه سبحانه قرضًا حسنًا؛ فهو حسن فى باعثه، وفى عطائه، وفى نتيجته وثمرته.

وقد ذكر سبحانه بدل القرض فقال: ﴿**فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً**﴾.

وهذا هو الأمر الثانى الذى يدل على المبالغة فى الحث على البذل والعطاء فى سبيل الجهاد والنفع العام؛ فإذا كانت الجملة السابقة تدل على علو شأن الباذل الذى يعطى وعظم البذل فى سبيل الخير والعطاء، وشرف ذلك العمل لأنه عطاء لله العلى القدير مالك كل شئ؛ إذا كانت الجملة السامية التى سبقت تدل على ذلك، فإن هذه الجملة الكريمة تحرض على العطاء من ناحية العوض الذى يعوض عنه، فإنه ليس بقدره، بل هو أضعافه.

والضِّعْف: مِثْلُ الشيء، وضعفاه أى مثلاه، وقد يراد من الضعف المثلان، وقد جاء فى القاموس المحيط ما نصه: (ويقال لك ضعفه يريدون مثليه وثلاثة أمثاله؛ لأنه زيادة غير محصورة) وقد جاء فى مفردات الراغب الأصفهانى: (الضعف من الألفاظ المتضايفة التى يقتضى وجود أحدهما وجود الآخر كالنصف والزوج، وهو تركب قدرين متساويين، ويختص بالعدد فإذا قيل أضعفت الشىء وضعفته وضاعفته ضممت إليه مثله فصاعدًا؛ قال بعضهم: ضاعفت أبلغ من ضعفت).

ومن هذا يتبين أن (يضاعف) فى الآية الكريمة معناها يرد إلى الباذل المعطى المقرض لله بدلا ما أعطى أمثالا كثيرة؛ فمعنى أضعافًا: أمثالا كثيرة. ولم يذكر سبحانه وتعالى العدد، وذلك يدل على الكثرة الكاثرة التى لاحدَّ لها، ولا عدد يحصيها؛ وحسبك أن تعلم أن الذى يوفى بالقرض هو مالك السموات والأرض.

وإذا علم الباذل أن ذلك جزاء عطائه وإنفاقه، فلابد بالغ أقصى غايات الجود، باذل كل موجود، وليس بذاهب ما يكون فى سبيل الخير، ولا ضائع ما يكون فى سبيل النفع العام.

وما هذا الجزاء؟ أهو فى الدنيا أم فى الآخرة؟ لا شك أن ثمة جزاء فى الآخرة وأن جزاءها هو الجزاء الأوفى، والغاية القصوى، والأمل المرجى لكل مؤمن؛ وإن فيها للذين أحسنوا الحسنى وزيادة.

وإنه مع ذلك الجزاء الأوفى يوجد جزاء دنيوى، ومضاعفة لفعل الخير فى هذه الحياة تبدو لكل من يفهم معانى الحياة، وإن هذا الجزاء الدنيوى هو العيش العزيز، والحياة الكريمة له ولقومه، ودفع الهلاك عن أمته؛ فإن بذل المال دفاعًا عن الحوزة هو الحياة، وهو أقصى غاية الوجود بعد بذل النفس؛ ولذا اعتبر من لم ينفق قد ألقى بنفسه فى الهلكة، كما قال تعالى: ﴿ **وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ... (١٩٥)** ﴾ [البقرة].

وليس بذل المال للجهاد هو وحده الذى يكون فيه الجزاء الدنيوى ودفع الهلاك عن النفس، بل سد حاجة المعوزين وإعطاء المال للسائل والمحروم فيه عزة الأمة؛ لأنه لا عزة لأمة لا تدفع المتربة عن آحادها وتذل فقراءها؛ ولئن تململوا بحياتهم لكان التقاطع والتنابز، ومن وراء ذلك الخراب، وأن يكون بأس الأمة بينها شديدًا، تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتى.

هذا فوق أن البذل فى سبيل الله والإنفاق فى سبيل الخير والنفع العام والمصالح الإنسانية يلقى فى النفس سعادة واطمئنانًا لا يشعر بهما إلا الأبرار؛ وإن الله يبارك فى رزق الذين ينفقون، فوق غنى النفس الذى تمتلئ به النفس؛ وقد قال ﷺ: «**ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس**»(١).

فالبذل والعطاء فى سبيل الخير يدفع ضرًا، ويقى من شر، ويحمى الجماعة من الآفات، ويسعد النفس، ويبارك فى رزق المعطى، ويكثر قوى الإنتاج فى الأمة، فتقوى الأيدى كلها على العمل فيعم الخير، وتكثر الثمرة، ويكون الإنتاج الطيب الذى يعم ولا يخص، فمن أعطى قليلا يأخذ كثيرًا فى نفسه وقومه وأهله وعشيرته.

وقد ذكر سبحانه أن الأرزاق كلها بيد الله، فعلى كل امرئ أن يعرف أن الغنى ليس بالعمل فقط، بل بتوفيق الله تعالى وتقديره وهو العزيز العليم؛ ولذا قال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾.

وهذا هو الطريق الثالث الذى اشتملت عليه الآية الكريمة فى الحث على البذل والعطاء فى سبيل الخير؛ فقد بين بهذا سبحانه أنه تعالى القابض الذى يقتر الرزق على من يشاء، ويبسط الرزق لمن يشاء؛ فعلى الغنى أن يستشعر فى نفسه أنه كان يجوز أن يخلقه الله فقيرًا لا يستطيع إعطاء، فعليه أن يشكر النعمة التى أعطاها الله سبحانه وتعالى إياه، وإن شكرها أن يبذلها فى سبيل النفع العام؛ ثم ليعلم أن

---

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى: الرقاق - الغنى غنى النفس (٥٩٦٥)، ومسلم: الزكاة (١٧٤١) عن أبى هريرة - رضى الله عنهما.

المآل إليه سبحانه وتعالى؛ ولذا قال تعالى: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى إليه وحده ترجعون فيحاسبكم سبحانه وقد جردتم من كل قوة قاهرة، وكل سلطان ظاهر، ولم يكن معكم إلا عمل صالح.

وهنا نشير إلى بعض المباحث اللفظية، وبعض المعانى الاجتماعية:

أما المباحث اللفظية فهى معنى القبض والبسط، والسبب فى تقديم الجار والمجرور فى قوله تعالى: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

القبض معناه: جمع اليد على الشيء، ويقال حينئذ قَبَضْتُه اليد، ويقال قبض عنه يده أى جمعها قبل تناوله، فلم يأخذه، وذلك يقال فيه إنه إمساك عنه، ويقال لإمساك اليد عن البذل قبض، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ... ﴿٦٧﴾ ﴾ [التوبة] أى يمتنعون عن الإنفاق؛ ولذلك أطلق القبض على المنع، والبسط على العطاء؛ قال الأصفهانى فى قوله تعالى: ﴿ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ ﴾: (أى يسلب تارة، ويعطى تارة أخرى، ويسلب قوما ويعطى قوما، ويجمع مرة ويفرق أخرى).

والبسط معناه النشر والتوسعة، وبسط الرزق التوسعة فيه، والبسطة فى الجسم أن يكون مديد القامة بعيد ما بين المنكبين وذلك كناية عن القوة؛ والبسط المد، وقد يطلق ويراد به الصولة والقوة، كما يراد به الإعطاء، ومن الأول قوله تعالى: ﴿ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ ... ﴿٢﴾ ﴾ [الممتحنة] ومن الثانى قوله تعالى: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ... ﴿٦٤﴾ ﴾ [المائدة].

وتقديم الجار والمجرور فى قوله تعالى: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ للدلالة على كمال سلطان الله سبحانه وتعالى فى الدنيا والآخرة، وأنه لا سلطان لأحد سواه، ولا مرجع إلا إليه؛ فالمعنى: إليه سبحانه وتعالى وحده ولا أحد غيره ترجعون، تعادون بالبعث فى الآخرة، وترجعون إليه فى الدنيا، فهو وحده فوق عباده يعز من يشاء ويذل من يشاء، ويقبض ويبسط، ويفرق ويجمع، وكل ذلك بأسباب وضعها، وسنن أحكمها؛ فلا ينصر إلا من يعمل للنصر، ولا يخذل من أخذ الأهبة واستعد

للأمر، ولا ينصر بعد أخذ الأسباب إلا أهل الحق ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج].

وقد يقول قائل: إن الحكمة الإلهية قد اقتضت أن يكون كل عمل له نتائجه وثمراته، فمن يعمل خيراً يجد ثمرة عمله، ومن يَجِدُّ يَجِدُ نتائج جده؛ فالغنى والفقر ثمرتان للعمل والكسل، فمن عمل واتخذ الأسباب وسار فيها نال الثمرة، ومن كَسِل وأهمل ناله الفقر ولا يلومنَّ إلا نفسه، وقد تكرر فى القرآن أن الله القابض الباسط، وأنه الرازق، وأنه يرزق من يشاء، فكيف يوفق القارئ بين ذلك السنن الحكيم، وبين ذلك القول الكريم؟

ونقول فى الجواب عن ذلك: إن على كل مؤمن أن يعمل، وأن يجد ويجتهد، وعليه فوق ذلك أن يعلم أن الله هو الرازق، وأنه فوق كل شيء، وأنه القابض الباسط، وأنه الرزاق ذو القوة المتين، ولكل موضعه، وإن المستقرئ لشئون الناس وأعمالهم فى الحياة ونتائجها ينتهى به الاستقراء إلى أن الرزق لا يمكن أن يجيء ثمرة للعمل وحده، بل إنه يجيء مع العمل توفيق الله، ومصادفات قدرها العليم الخبير، اللطيف البصير؛ فاثنان يعملان عملا واحداً، فيلقيان البذر بعد الحرث، ومع البذر السماد، والأرض طيبة منتجة، والرى متحد الزمان فى كليهما، ولكن زرع أحدهما قد يبتلى بآفة تستمكن منه فتبيده أو تكاد، ولا تصيب زرع الآخر إلا قليلا، فيكون فى سعة والآخر قد قتر الله عليه فى الرزق؛ وقد تكون الثمرات متحدة فى النتائج والمقدار، ولكن أحدهما سارع بالبيع، فصادف غلاء، والثانى أخر فى البيع فصادف كساداً؛ وقد يبيع هذا لتاجر حسن الأداء مليء، والثانى يبيع لآخر مثله، ولكنه قبل الأداء يصاب فى تجارته؛ وهكذا؛ فاتخاذ الأسباب أمر لابد منه؛ ولكن وراء الأسباب القدرة القاهرة التى هى فوق كل شيء، وهى قدرة الله تعالى، فاتحاد الأسباب لا يستدعى اتحاد المصادفات ولا اتحاد الفرص؛ واتحاد الفرص المهنية لا يوجب اتحاد الثمرات والنتائج؛ فقد تكون ثمة ملابسات لم تكن فى الحسبان، وما كان يستطيع تقديرها إنسان، وإن تقدير الإنسان مهما يكن من قوة هو فى دائرة القدرة الإنسانية، وهى محدودة الأفق، محدودة

الغاية، وإن كان له سلطان على الأعمال فليس له سلطان على النتائج والأحوال، ومن هنا كان الواجب على المؤمن أن يعمل ثم يفوض أمره إلى الله، ويقول: ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [غافر].

﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وإذا كان الرزق بيد الله فعلى الغنى أن يعلم أن ما بيده فيض من الله تعالى القدير؛ وإذا كان فيضًا من الكريم الحليم فعليه أن يشكر لله بإنفاقه فى الحلال دون الحرام، وفى إنفاقه على عيال الله، وهم الفقراء الذين اقتضت حكمته تعالى أن يحرمهم مما أعطاه، وفى سبيل النفع العام الذى يقيم دولة إسلامية فاضلة، بها يعتز دين الله، وبها تعلو كلمته، وبها يحق الله الحق ويبطل الباطل، وبها تعتز الفضيلة وتعلو الإنسانية، وعليه أن ينفق مال الله الذى أعطاه فى سبيل نصرة دينه وإعلاء كلمته؛ ولقد سمى الله سبحانه وتعالى ذلك كله قرضا حسنا له، وهو سبحانه وتعالى الذى أعطى والذى وهب ورزق؛ سبحانك ربى تعاليت، وإنك كما قلت فى كتابك المحكم: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [البقرة]، ولقد قال رسولك الأمين: «**الخلق كلهم عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله**»(١).

لقد علم الأتقياء الأبرار فى كل العصور أن الأسباب مهما تكن قوية محكمة فإن النتائج بيد الله تعالى، ولأن كل الكون فى سلطان الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿ ... إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الرحمن].

ولهذا المعنى بذلوا فى نصرة الله تعالى، فهذا أبو بكر فى الجهاد يشطر ماله فى ذلك، وهذا عثمان بن عفان رضى الله عنه يجهز فى زمان العسرة جيش تبوك من ماله إذ كان الناس فى عسرة وجدب، حتى يروى ابن هشام أن عثمان رضى الله عنه أنفق ألف دينار غير الإبل والزاد والعدة؛ فقال النبى ﷺ: «**اللهم أرض عن عثمان فإنى عنه راض**»!.

---

(١) رواه أبو يعلى، والبزار عن أنس، والطبرانى عن ابن مسعود - رضى الله عنه. [جامع الأحاديث والمراسيل - من الجامع الصغير وزوائده - ج٤ ص ٣١٢].

وروى زيد بن أسلم أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿**مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً**﴾ جاء أنصارى اسمه أبو الدحداح فقال: فداك أبى وأمى يارسول الله! إن الله يستقرضنا، وهو غنى عن القرض؟! قال: «نعم يريد أن يدخلكم الجنة»، قال: فإنى إن أقرضت ربى قرضًا يضمن لى ولصبيتى الدحداحة معى الجنة؟ قال: «نعم». قال: ناولنى يدك، فناوله رسول الله ﷺ يده، فقال: إن لى حديقتين إحداهما بالسافلة والأخرى بالعالية، والله لا أملك غيرهما، قد جعلتهما قرضًا لله تعالى! قال رسول الله ﷺ: «**اجعل إحداهما لله تعالى والأخرى دعها معيشة لك ولعيالك**» قال: فأشهدك يارسول الله إنى قد جعلت خيرهما لله تعالى، وهو حائط فيه ستمائه نخلة، قال: إذن يجزيك الله به الجنة»(١).

هذا هو الإيمان حقا وصدقا، وهذا هو شكر النعمة، وهذه هى المعاونة الصادقة، وهذه هى القوة الروحية التى تشع النور على الوجود الإنسانى؛ فهل للخلف أن يقتدوا بما كان يفعله السلف؟ وهل آن للمؤمنين أن يفدوا دينهم ودولتهم بأموالهم؟ وهل آن للمسلمين أن يعتبروا بالعبر وقد خلت من قبلهم المثلات، وأن يعلموا حق الله فى أموالهم؟

لقد صار الهوى متبعًا، والشح مطاعًا، وتشنعت الفتن، وتحكمت الإحن، وغلبت على المسلمين الشقوة، وضربت عليهم الذلة، حتى إنه ليقتطع من جسم العالم الإسلامى قطعة هى منه بمنزلة الكبد من الجسم، والأعداء يسلطون على المشردين والمقيمين فى الوادى المقدس الفقر والجوع، ويحاولون إخراجهم بالجوع والعرى من دينهم، والمسلمون يرون ويسمعون، وهم فى غفلة لاهون! **ألا فأقرضوا** الله قرضًا حسنا يضاعف لكم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) «رواه أبو يعلى والطبرانى ورجالهما ثقات ورجال أبى يعلى رجال الصحيح». [مجمع الزوائد - ج٨ ص٤٠٤].

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟
لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ
هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ
قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا
مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟
إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ
لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ
قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ
مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ
عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ
يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾

كانت الآيات السابقة فى الحث على القتال دفاعًا عن النفس والحوزة، ورفعا لمنار الحق، وخفضا للباطل، ولتكون كلمة الله هى العليا، ولبيان أن الاستعداد للجهاد وردَّ الاعتداء يقتضى البذل والعطاء. وفى هذه الآيات يقص سبحانه وتعالى قَصصًا صادقًا فى وقائعه، وصادقًا فى حكايته للأمم التى تبتلى بالهزيمة كيف يتفرق أمرها وتذهب وحدتها، وكيف تفعل الهزيمة فى قلوب الأكثرين منها، وبيان أن الطريق لجمعها قيادة حكيمة رشيدة، ونفر قليل أو فئة قليلة لم تذهب الهزيمة بنخوتها، ولم يضعف اليأس من بأسها وعزمها.

اختار الله سبحانه وتعالى لقصصه الذى جعله عبرة للمعتبرين بنى إسرائيل؛ لأنهم اتصلوا بالعرب، ولأن النبوات المعروفة للعالم فى عصر نزول القرآن كانت فيهم، ولأنهم يلتقون مع قريش فى إبراهيم أبى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ ولأنه تتمثل فيهم الطبائع البشرية فى عزتها وانتصارها، وفى هزيمتها وانكسارها؛ وتتمثل فيهم الطبيعة البشرية فى لجاجة القول والمغالبة به فى حال الضعف والاستخذاء، ونقدهم كل شىء فى تلك الحال، وبعدهم عن العمل إلى الخلاف فى المقال؛ وتتمثل فيهم الطبائع البشرية للجماعات المغلوبة عندما يعمل على إنقاذها من لم تنل الهزيمة من قلوبهم، ومن لم يستول الخور على نفوسهم.

قص الله سبحانه وتعالى ذلك القصص، وقد قال سبحانه: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ** ... ﴿١١١﴾﴾ [**يوسف**]. فالمقصود من قصص القرآن العبرة والاعتبار لاسرد وقائع وإمتاع الناس بسردها وتفصيلها عبرة لأولى الألباب، ولذلك يقصد المولى الكريم إلى موضع العبرة فيجليه، وإلى مكان الاستبصار فيبينه وتلك أقوم السبل؛ التربية بالتاريخ، والتثقيف بأحوال السابقين.

إن الإنسان ابن الإنسان، فمن يريك صورة للماضى مع العبرة، فهو يريك نفسك مع العظة، والماضى دائمًا نور يضىء للمستقبل، فهو المصباح الذى يحمله من يبتغى الهداية ويرجوها.

وإن فى تلك القصة التى ذكرها القرآن الكريم، المنزل من حكيم عليم، عبرة للناس أجمعين، وخصوصًا الأمم التى تبتلى بالهزيمة. وقبل أن نخوض فى تفسير مفصل، نتكلم بكلام مجمل فى القصة.

هُزم بنو إسرائيل من بعد موسى هزيمة شديدة سبى فيها نساؤهم وذراريهم وأخرجوا من ديارهم، وكان ذلك قبل مبعث داود عليه السلام، كما يدل على ذلك اشتراك داود عليه السلام فى المعركة التى أشارت إليها الآية الكريمة، وقد بعث الله سبحانه وتعالى فيهم نبيا وهم فى هذه الهزيمة، ولم يذكر سبحانه مَنْ هذا النبى الكريم، فلا نحاول معرفة من هو، وإن بعث النبى وهم فى هذه الهزيمة - وقد أراد سبحانه وتعالى أن يفيقوا من هذه الضربة دليلٌ على أن السبيل لإنقاذ الأمم من كبوتها وإنهاضها يكون بالرجوع إلى الدين؛ لأنه هو الذى يصهر القلوب ويملؤها بقوة الله، فتهون بجوارها قوة الناس، وقد كان الرجوع إلى الدين قبل مبعث محمد ﷺ بنبى يرسل، وأما وقد ختمت النبوة بمحمد ﷺ فقد أصبح الرجوع إلى الدين بالرجوع إلى كلام الله تعالى الخالد وهو القرآن الكريم؛ لأنه صوت الوحى الدائم إلى يوم القيامة: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ⁽٩⁾﴾ [**الحجر**].

وبعد أن تعمر القلوب بالإيمان ويذهب عنها الخور بقوة اليقين، تتلاقى القلوب فيحاول الفضلاء أن يجمعوا الشمل تحت قيادة موحدة، وتحت إمرة قوية، وسلطان يصرف الأمور، ويدبر الشئون فى السلم وفى الحرب؛ وذلك ما اتجهوا إليه: ﴿**قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا**﴾ فاختار الله سبحانه وتعالى ملكا لم يكن اختياره بالوراثة والسلالة، بل كان اصطفاؤه للمزايا التى تتفق مع الإمارة والسلطان، وهى قوة العقل وقوة الجسم، فاصطفى الله سبحانه وتعالى طالوت؛ لأنه زاده بسطة فى العلم والجسم، وهما الصفتان اللازمتان للأمير، ولكن بنى إسرائيل وقد أرهق نفوسهم الذل، وتعودوا المراء والجدل، وعجبوا كيف يختار طالوت، وهو ليس بذى فضل عليهم فى النسب، وليس ذا مال وفير؛ فبين الله لهم أن الغاية من الإمارة هى بسط السلطان، والخروج من ذل الهزيمة إلى عزة الانتصار، وأمارة استحقاق طالوت لهذه الإمرة أن يحقق ذلك الانتصار، وأن تأتى إليهم شارة عزهم ومجدهم وهى التابوت.

حمل طالوت الملك راية الجند إلى ميدان الجهاد، وكذلك يكون المَلِك حقا؛ ولكنه قبل أن يتقدم للقاء عدوهم، أراد أن يختبر قوة إرادتهم وصدق عزيمتهم، وذلك بمعرفة مقدار استيلائهم على أنفسهم، فمن استولى على نفسه فهو معه فى الجهاد، ومن لم يستطع جهاد نفسه، فهو عن لقاء العدو أعجز: قال لهم: ﴿**إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ** ... ﴿٢٤٩﴾﴾ [**البقرة**] فإنه منى، ولكن النتيجة ظهرت فى هذا الامتحان مبينة أن القليل هم الذين استطاعوا أن يجاهدوا أنفسهم وينتصروا عليها ﴿**فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ** ... ﴿٢٤٩﴾﴾ [**البقرة**] وهم الذين اجتاز بهم النهر، وترك الآخرين مخلفين مع نفوسهم التى لم يستطيعوا التغلب عليها.

أصبح جند طالوت قليلى العدد، وليس فيهم إلا مجاهد مجالد مصابر، ولكن اعتراهم شيء من رهبة الموقف؛ إذ رأوا عدوهم كثير العدد عظيم العُدَد يعتز بكثرته وعدته وسابق غلبته، فقالوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، ولكن الصفوة من تلك الصفوة لم تعترها تلك الرهبة ﴿**قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴿٢٤٩﴾﴾ [**البقرة**].

فتقدم الجميع مستعينين بقوة الله ﴿**قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** ﴿٢٥٠﴾﴾ [**البقرة**].

وبالإيمان القوى، والعزيمة الصادقة، والتفويض المطلق لرب القدرة والعزة، انتصرت الفئة القليلة على الفئة الكثيرة ﴿**فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ** ... ﴿٢٥١﴾﴾ [**البقرة**].

وآل الأمر من بعد طالوت إلى داود ومعه عزة بنى إسرائيل ﴿**وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴿٢٥١﴾﴾ [**البقرة**].

هذه قبسة من قصص الذكر الحكيم فى جهاد بنى إسرائيل، وإن العبر فيه لكثيرة، فهى تشير إلى الشدة كيف تصهر النفوس فتجعلها تتجه نحو المعالى

فتطلبها، وكيف يكون الدين أساس العزة لمن غلبت عليهم الشقوة، وأنه لا سلطان من غير إمرة يعمل تحت سلطانها البر، ويزجر بها الفاجر، وأن الأمير يجب أن يكون له من قوة العقل وقوة الجسم وسعة العلم وكمال التجربة ما يقود به الشعب إلى صالح الأمور، وأن أساس الانتصار السيطرة على النفس فلا يغلب خصمه من لا يغلب نفسه، ولا يقمع عدوه من لا يقمع شهوته، وإنه بعد أخذ الأهبة يفوض المجاهد أمره إلى الله، ويتوكل عليه. بعد هذا نتجه إلى تتبع الآيات الكريمة آية آية، مستنبطين العبر من ثناياها كما تلوح العبر في مجموعها:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قد ذكرنا ما في هذا التعبير من إثارة الاهتمام والتقرير، وتثبيت المعنى في نفس القارئ والسامع، وقد عبر هنا بالرؤية، وهي إما أن تكون بمعنى العلم كما ذكرنا من قبل، وهي تكون للعلم القلبي الذي يستيقن فيه الإنسان كما يستيقن بالعلم الحسي الذي يكون طريقه النظر والإبصار . . وإما أن يراد بالرؤية النظر أو البصر؛ وفي هذا تصوير للقصة المخبر عنها كأنها المرئية المحسوسة المشاهدة. والملأ هم الكبراء وأشراف القوم، كأنهم ممتلئون شرفًا. وقال الزجاج: سموا بذلك؛ لأنهم ممتلئون مما يحتاج إليه منهم، ويطلق الملأ ويراد به الجماعة، من قبيل إطلاق اسم الجزء وإرادة الكل؛ لأن ذلك الجزء له مزيد فضل وشرف على بقية الأجزاء، وقد فسر الراغب في مفرداته الملأ بأنه «الجماعة يجتمعون على رأي فيملئون العيون رواء ومنظرا، والنفوس بهاء وجلالا».

وما المراد بالملأ هنا؟ أهم كبراء بني إسرائيل، أم القوم كلهم؟ أكثر المفسرين على أن المراد بنو إسرائيل وعلى هذا تكون «من» بيانية؛ فالمعنى أن بني إسرائيل جميعا اجتمعوا وقالوا في عصر من العصور لنبي لهم ابعث لنا ملكا. وإني أرى أن كلمة الملأ هنا المراد بها الكبراء وأهل الرأي منهم، فإن الدهماء دائمًا في شغل شاغل حتى ينبههم كبراؤهم، وذوو الرأي والشأن فيهم، وخصوصًا إذا كان الدهماء قد غلبت عليهم الشقوة والذلة، وكذلك يكونون دائمًا في حال الانهزام وتغلب الأجنبي على الأمة.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ بيان لزمان تلك الهزيمة، فذكر أنه من بعد موسى، ولم يبين الزمان بالتعيين، وذكر كونه من بعد موسى للإشارة إلى أن تلك الهزيمة كانت بعد أن أخرجهم موسى من ذل فرعون الذى كان يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم، وبعد أن ظهر منهم الاستخذاء والضعف، بعد أن خرجوا من ربق الذل، حتى إن موسى عليه السلام لما دعاهم لأن يدخلوا الأرض المقدسة ظهر خورهم وضعفهم فتاهوا فى الأرض أربعين سنة استردوا فيها بأسهم وذهب عنهم خور العزيمة، ثم بعد ذلك نزل بهم ما نزل؛ فقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ فيه إشارة إلى تلك التجارب الشديدة التى كانت تنزل بهم، فهم ذلوا فى مصر، ثم أعزهم الله بموسى فلم يقووا على حياة العزة وتكليفاتها من جهاد ونضال إلا بعد أن تعودوا حياة الشدة والبأس فى الصحراء، ثم بعد هذه العزة دخلوا الأرض المقدسة، ثم أخرجوا منها بعد أن استناموا إلى الدعة والراحة؛ وفى هذه التجارب بيان لأطوار الأمم بأنها إن استنامت إلى الراحة واستمرأت الحياة الوادعة غلب على أمرها، ثم كان من وراء ذلك ذهاب سلطانها، حتى إذا أحست بمرارة الهزيمة، وذاقت وبال الراحة، استيقظت فيها القوى الكامنة، واستفاقت من سبات الغفلة وسكرة النعمة، فعملت على استرداد أمرها، ومقاومة عدوها.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فيه بيان موضع القصة ومكان الالتفات، والاتجاه بالنظر والقلب؛ فالمعنى: ألم تنظر وتتفكر وتعتبر فى أمر نبى إسرائيل عندما قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله؟

لقد وجدوا أنهم قد تفككت وحدتهم، وضاعت كلمتهم، وفقدوا كَوْنهم فاتجهوا إلى جمع الكلمة، ولم يجدوا السبيل إلا برياسة تلُمُّ الشعث، وتجمع المتفرق، وكان بينهم نبى مبعوث، فعهدوا إليه أن يختار من بينهم ملكا، ليكون اختياره منزهًا عن الغرض، بعيدًا عن الهوى، لا يقصد به إلا الخير، ولا يكون إلا فى الخير، لا خطأ فيه؛ لأنه نبى لا ينطق عن الهوى، لقد قالوا لنبيهم: ابعث لنا ملكا. وأصل البعث الإثارة والإخراج، فمعنى ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾ يتضمن أنه يفحص

الجماعة بإثارة أحوال رجالها وتعرف خواصهم ومزاياهم وتخير أمثلهم، وإخراجه من بين صفوفهم ليكون ملكا عليهم، فلا يكون مفروضًا عليهم، بل يكون متخيراً من بينهم بتخيُّر من لا يشك فى تخيره، وهو نبى مبعوث.

وقد قالوا فى طلبهم إن الغرض من طلبهم ملكا ينصب عليهم أن يقاتلوا فى سبيل الله، وهو إعلاء كلمة التوحيد، ورد عزتهم المسلوبة، وأرضهم المغصوبة.

وفى هذا الطلب منهم عبر وعظات:

أولها: أنهم أحسوا بالضياع، إذ أصبحوا لا رياسة من بينهم تجمعهم.

وثانيها: أنهم آمنوا بأن القتال لا يكون إلا تحت إمرة حازمة تسير بهم نحو الهدى والرشاد، وأنه لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا رياسة فيهم.

وثالثها: أن القتال دفاعًا عن الحوزة، واستردادًا للحق المسلوب، والوطن المغصوب، قتال فى سبيل الله. وقد طلبوا أن يكون الرئيس ملكا، لأن نظام الحكم الذى كان سائدًا إبَّان ذاك كان مَلَكِيا، والمذموم منه هو الظالم، والممدوح منه هو العادل، وليس ذلك دليلاً على أن النظام المطلوب فى الشرائع السماوية هو الملكى على ما نعرفه وهو الوراثة بالسلالة؛ بل إن إجابة الله لطلبهم بهداية نبيهم لملك أى رئيس دولة قد اختاره الله، دليل على أن نظام الحكم هو ما يكون إجابة لداعى الشعب، وتكون فيه ملاءمة لحال الأمة وملابساتها وما يقترن بها. ولقد كانت حال بنى إسرائيل لا تسمح بأن يختاروا هم بأنفسهم رئيسًا للدولة؛ لأنهم كانوا مغلوبين على أمرهم لا سلطان لهم، والاختيار يكون من ذوى السلطان، ولا يكون من مكره مغلوب على أمره، والملك الذى اختاره ليس ملكا بالمعنى الذى نعهده كما سنبين.

كانت حال بنى إسرائيل فى أشد الاضطراب، وقد انخلعت منهم الإرادات الحازمة، إلا من قلوب ربط الله عليها بالإيمان؛ ولذلك توقع نبيهم ألا يصبروا على القتال إذا حمى الوطيس واشتد البلاء؛ ولذلك حكى الله سبحانه ذلك الشعور الذى خالج قلب نبيهم، فقال تعالى:

﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا﴾ توقع نبيهم إن كتب عليهم القتال ألا يقاتلوا فيجمعوا بين ذلة الهزيمة، والفرار يوم الزحف، والنكوص فى مقام الإقدام وعصيان الله سبحانه وتعالى؛ فبين لهم العقبى إن كتب عليهم القتال أى فرض ولزم بإلزام الشارع، ثم جاءوا بعد ذلك ونكصوا على أعقابهم، وفى هذا القول من النبى الكريم تنبيه إلى أمرين:

أحدهما: أن يفكروا فى أنفسهم وفى حالهم، وفى قوة أعدائهم، وفى عاقبة القتال، فإن رأوا فى أنفسهم القدرة على اللقاء، فى ميدان القتال مع أعدائهم مهما يتكاثف جمعهم، أصروا على طلب فرضية القتال، واختيار ملك يتولى قيادتهم، ويكون قطبًا تدور رحى الحرب به وبتدبيره.

ثانيهما: أخذهم الأهبة والاستعداد للقتال إن أصروا عليه، فإن فيه الفصل، وليس بالهزل؛ حتى لا تكون عقبى القتال أسوأ مما هم عليه.

وهنا بحث لفظى نشير إليه، وهو قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا﴾ فالاستفهام هنا للتنبيه إلى مخاطر القتال وحالهم من الاضطراب، وتحلل الإرادة وتفكك العزائم، وأن حالهم هذه لايصلح لقتال، فعليهم أن يغيروها، فالمعنى: أتتوقعون إذا كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا، فتبوءوا بإثم الهزيمة، وإثم الفرار، وإثم العصيان!.

و(عسى) معناها هنا توقع وقارب، فمعنى فهل عسيتم أي: فهل توقعتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا؛ أى تومىء حالكم التى يبدو أنكم لا تحاولون تغييرها، مع أن الاستعداد للقتال يوجب تغيير الحال، وأنكم إذ توقعتم ذلك عالجتم حالكم.

و(عسى) لها استعمالان:

أحدهما: أن تكون بمعنى لعل، مثل قوله تعالى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ ... ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة]. فالمعنى: لعل الله أن يأتى بالفتح أو أمر، ويكون ما بعدها اسمها، وما يليه خبرها.

وثانيهما: أن تكون فى معنى الفعل توقع أو قارب، وما بعدها يكون فى معنى الفاعل، ويصح أن يكون فى مقام الاسم إعرابًا، وهى هنا بهذا المعنى، كما هى فى قوله تعالى: ﴿**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ** ﴿٢٢﴾﴾ [**محمد**].

﴿**قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا**﴾ أجابوا نبيهم بأنهم قدروا حالهم، وعالجوا ضعف نفوسهم، وبينوا أن بواعث القتال قد توافرت، فحق علينا أن نقاتل؛ إننا قد أخرجنا من ديارنا باستيلاء العدو عليها، وأخرجنا من أبنائنا بسبيهم، وفصلهم عنا، وجعل قوتهم لأعدائنا وليست لنا، فساغ لنا القتال، بل وجب علينا؛ أى أننا فى حال توجب القتال علينا، فما الذى يمنع منه؟ لقد توافر الباعث، وزال المانع فحق الجهاد، فإما فناء فى طلب العزة، وإما بقاء فى ظلها؛ بل إن حالنا شر أنواع الفناء؛ لأنه موت الأحياء!

وهنا بحث لفظى نشير إليه، وهو فى موضعين:

أولهما: فى قوله تعالى: ﴿**وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾، فالاستفهام هنا للنفى، والجار والمجرور «لنا» متعلق بفعل محذوف تقديره: ما سوغ لنا ألا نقاتل وقد أخرجنا من ديارنا! أى أنه لا مسوغ قط لعدم القتال بعد خراب الديار وذهاب الأبناء إن المرء يدافع عن أرضه وعن ولده، وقد أخرجنا من الاثنين، فأرضنا ليست بيدنا، وأنفسنا ليست بأيدينا؛ إذ أخرجنا عن فلذات أكبادنا، وقُطِع عنا من هم قطع من نفوسنا.

الموضع الثانى - قوله تعالى: ﴿**وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا**﴾: الواو هنا واو الحال، ولكن ما حقيقة الإخراج؟ أهو الإخراج الحسى بطردهم من بلادهم، والفصل بينهم وبين أبنائهم، فطردوا الكبار من الديار، وأبقوا الصغار عبيدًا فى الأرض وعسفاء فيها، أم المراد الخروج المعنوى بأن يكونوا فى أرضهم وليس لهم من أمرها شىء، وأن يروا أولادهم وليس لهم من أمرهم شىء بأن يسبيهم عدوهم، أو يتخذهم قوة له بكل الوسائل المادية والنفسية؟.

تحتمل كلمة الإخراج المعنيين؛ فيحتمل أنهم أخرجوا الكبار، وأبقوا الصغار لينشئوهم عبيدًا لهم أو أدوات عمل؛ ويحتمل أنهم أبقوهم أذلاء قد ألصقوا بالأرض وليس بصاحب بيت من لا يديره، ولا بصاحب البلد من لا يكون له أمره؛ وأولادهم لا سلطان لهم عليهم، فهم ليسوا لهم، بل لعدوهم.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ قال بنو إسرائيل الحق، وفعلوا الباطل؛ قالوا إنه لا مسوغ للقعود عن القتال، لأنه منا جهاد عن النفس، والمال والولد، والأهل والديار؛ ولكنهم عندما اشتدت الشديدة والتقى الجمعان، تولى الكثير منهم، وصبر القليل؛ وذلك عندما اختبروا بالنهر كما بيَّنا؛ وهذا ما يذكره قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، أى فلما فرض عليهم وكانت القيادة الحكيمة القادرة، وانتظمت الصفوف، وتولوا عن القتال أى أعرضوا عنه؛ والتولى عن القتال والإعراض عنه يتضمن معنى الفرار فى الزحف بأن يولوهم أدبارهم، وبألا يسلحوا نفوسهم بالصبر، والضبط، فلا يجعلوا لشهواتهم سلطانًا على إرادتهم، وبأن يتمردوا على القيادة، ولا يطيعوها فى وقت لا يجدى فيه إلا الطاعة المطلقة.

وإن بنى إسرائيل بتوالى الهزائم عليهم، وسيطرة الشهوات على إرادتهم، وتفكك وحدتهم، كشأن كل الأمم المغلوبة على أمرها، قد تحقق فى الكثيرين منهم كل أسباب الإعراض عن القتال، أو الفرار فى الزحف، أو التمرد وقت الحاجة إلى الطاعة المطلقة، وتحكم الشهوة فى أشد أوقات الحاجة إلى ضبط النفس والصبر؛ وإن هذه الحال كما قلنا تلازم الأمم المغلوبة على أمرها، حتى تتجه عزائم أهلها إلى التغيير من هذه الحال، أو يكون منهم فئة قادرة تتولى فى أول الأمر لقاء العدو بنفسها، ثم يسرى الخلق القوى شيئا فشيئًا فى سائر الأمة، فتكون العزة بعد الذلة، ويبدلهم الله من بعد خوفهم أمنًا.

لقد صبر القليل من بنى إسرائيل، وكانوا فئة الله الغالبة، وسرى دم الحياة فى الأمة بانتصار تلك الفئة القليلة، فقادها من بعد ذلك نبى الله داود إلى مواطن النصر والظفر.

وإن الله سبحـانه وتعالى قد ذيل الآية الكريمة بقـوله تعالت كلماته: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ وفى هذا التذييل إشارات إلى معـان جليلة، منها: الإشارة إلى علم الله السابق بأن هؤلاء الكثيرين سيكون منهم ما كان؛ لأن حالهم كانت تؤدى إليها، ومنهـا أن الله يمـيز الخـبـيث من الطيب ويعلم الصـالح والطالح، ويضع كـلا فى موضـعه الذى يليق به عند الناس وعنده يوم القـيامة؛ ومنهـا أن الذين نكصوا على أعقابهم والبلاءُ بلاءٌ ظالمون؛ ظلموا أنفـسهم بالرضا بالذل، وبالمنزل الهون، وبأدنى معيشة؛ وظلمـوا إخوانهم بعدم معاونتهم فى الشديدة؛ وكانوا ظـالمين بعصيان أوامر القيادة الحـكيمة، ثم ظالمين أكبـر الظلم بعصيان الله رب العـالمين؛ ثم كانوا ظالمين للذرارى والأخلاف من بعدهم، لولا توفيق الله للفئة القليلة.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ لقد ذكـر الله سبـحانه وتعالى حالهم عند القتال عندما طلبوه، ليبين سبحانه الفارقة بين القول والعمل عند الذين غلبت عليهم الذلة، واسـتولت عليهم شهواتهـم؛ ثم أخذ سبحانه يذكـر بقية القصة والعبـرة فيها: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ أى أن الله سبحانه قد أخرج من صفوفكم - وهو العليم الحكيم الخـبير بأحوالكم - شخصًا قد استوفى كل أسبـاب الرياسة وجعله ملكا عليكم. وفى التعبيـر إشارة إلى أنه أمثلهم وأقواهم على تحـمل أعباء الحكم؛ لأن «بعث» تـتضمن معـنى الإثارة والفحص ثم الإخراج.

والملك المراد به هنا فيما يظهر مالك أمرهم، والمتولى ملكهم، وليس المراد منه المعنى المتعـارف، وهو من يتولى بالسلالة، فـإنه سيتبـين أنه لم يختر لسـلالته، بل اختير لعلمه وحكمته وقـوته؛ ولم يستمر الملك فى ذريته، بل آل من بعده لنبى الله داود كما تدل على ذلك أخـبار داود التى ذكرها القرآن الكريم؛ فـقد آتاه الله الملك والحكم، وإنه اختير باختيار الله تعـالى بما أوحى به لنبيه، ولم يكن باختيارهم حتى لا يتنافسوا فيكون بأسهم بينهم شديدا، بدل أن يكون على عدوهم.

فليس فى الآية دلالة على أن النظام الملكى الذى نعرفه فى عصرنا مطلوب لا بالعبارة ولا بالإشارة؛ لأنها ليست ملكية الوراثة والسلالة، بل رياسة العلم والقدرة والحكمة، فما اختير طالوت لسلالته ونسبه بل اختير لمعان شخصية فيه.

لقد كان مقتضى ما طلبوه من نبيهم من أن يختار ملكا أن ينفذوا من غير تردد الأمر فيما اختاره بهداية الله ووحيه؛ لأنهم فوضوا الأمر إلى نبيهم؛ ولأن الله سبحانه وتعالى هو الذى اختاره، وما كان لهم الخيرة بعد اختيار الله سبحانه وتعالى، ولأن الله قد اختاره لأجلهم ولمصلحتهم؛ ولذا عبر سبحانه وتعالى بقوله: ﴿**بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ**﴾ فالتعبير بـ «لكم» إشارة إلى أنه فى مصلحتكم، وأنكم ستنتفعون بقوته، وستكون قوته لكم على أعداكم.

ولكنهم بدل أن يطيعوا ويأخذوا الأهبة أثاروا اللجاجة التى تعودوها؛ ولذلك قال سبحانه حكاية عنهم: ﴿**قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ**﴾.

تمردوا على نبيهم بذلك الاعتراض؛ لقد أبدوا اعتراضهم بعد أن فوضوا الأمر فناقضوا أنفسهم، وبنوا الاعتراض على أسباب جعلوها مناط الملك، وليست هى السبب للرياسة الصالحة والملك القوى؛ ظنوا أن سبب الملك أحد أمرين: إما سعة من المال وثروة طائلة، وإما سلالة ملكية توارثها، فقالوا: ﴿**أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ**﴾ من أى جهة استمد الملك، أى أنه ليس فى عروقه دم ملكى يستحق به الملك، وليس هو ذا نسب رفيع، بل أى واحد منا أحق بالملك منه؛ لأنه ليس من الأشراف، ولئن تجاوزنا شرف النسب وكرم الولادة لنجدن أنه فقير ليس فى سعة من المال، فقد سلب منه سببا السيادة، وهما النسب والمال.

وكذلك يكون تفكير الجماعات التى سيطرت عليها الأهواء، وغلبت على أمرها، تتجه إلى الماديات فتحكمها، وتفقد تقدير المعنويات؛ وبذلك تختل مقاييس التقدير؛ فأول ما تبتلى به الجماعات الضعيفة أن تختل مقاييس العظمة فيها؛ فإنه إذا اختل مقياس العظمة غمر العظماء، ولم يظهروا إلا بالمصادفات أو القوى الخارقة،

والعظماء فى الأمم هم القمم العالية التى تهدى إلى مواطن القوة، وتثير العزة من مكامنها.

وإن أردت أن تعرف مقياسًا ضابطًا لرقى أمة من الأمم فخذه من مقياس العظمة فيها، وقد كان بنو إسرائيل فى وقت هذه القصة فى أشد الانهيار الخلقى كما يدل على ذلك مقياسهم للعظمة بالسلالة والمال.

وفى هذه الجملة الكريمة مباحث لفظية نشير إليها:

أولها: قوله تعالى: ﴿**أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ**﴾ أنَّى، قد تستعمل بمعنى كيف، وقد تستعمل بمعنى من أين، وهى هنا يجوز أن تكون بمعنى كيف، ويكون المعنى: كيف يكون له الملك علينا، على أى حال يسوغ ذلك ويمكن؟ فهو استفهام المقصود منه الاستبعاد المطلق، أى أنه لا يتصور أن يكون مثله ملكا؟ أى أنه ليس فيه من الصفات، ولا فى بيته من المحتِد، ما يسوغ معه أن يكون ملكا. فالمقصود من الاستفهام استبعاد أن يكون فيه سبب من الأسباب المسوغة للملك.

ثانيها: قوله تعالى: ﴿**وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ**﴾ المتكلم بهذا الملأ من بنى إسرائيل أى كبراء بنى إسرائيل؛ فكل واحد منهم يقرر أنه أحق بالملك، ومجموعهم يقرر أنه دونهم، وأحقيتهم من ناحية النسب وناحية الجاه فى بنى إسرائيل، وناحية الأنصار والعصبية.

ثالثها: قوله تعالى: ﴿**وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ**﴾ أصل السعة أن تكون فى المكان وفى الفعل وفى الحال، والسعة فى الحال أن يكون على حال من القدرة أو المال بحيث لا يكون مضيقا عليه أو لا يكون فى ضيق، فلما كنَّى عن قلة المال بالضيق كنَّى عن كثرته بالسعة.

﴿**قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ**﴾ لقد اعترضوا على اختيار طالوت بأنه ليس خيرًا منهم سلالة ومحتدًا، وأنه ليس ذا مال وفير؛ فرد نبيهم قولهم:

أولا: بأن الله اصطفاه أى اختاره من الصفوة وأهل الهمة والنبل؛ وقال: ﴿اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾، ولم يقل منكم مع أنه منهم، للإشارة إلى فضله عليهم واستعلائه بما منحه الله من خواص وصفات؛ وإنه كان يكفى اصطفاء الله له ليسكتوا ولا يعترضوا؛ لأنه ليس فوق إرادة الله إرادة، وليس لهم الخيرة فيما اختاره الله؛ ولأنهم فوضوا أمر اختيار الملك إلى النبى، وقد اختاره الله ربهم ورب النبى.

ثانيا: وردَّ نبيهم اعتراضهم ببيان المقياس الصحيح لعظم الرجال واستعدادهم لقيادة الشعوب إلى مواطن العزة والشرف؛ لقد حسبوا النسب والمال مقياس العظمة، فبين لهم مقياسها، فقال: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ أى أنه أعظم منكم جميعًا؛ لأن الله سبحانه زاده عليكم فى الأمرين اللذين هما سبب للقيادة الحكيمة، وهما:

أولاً: قوة العقل وسعة العلم وكثرة التجارب، وثانيا: قوة الجسم وعظم المُنَّة(١). وفى ذلك فوق التنبيه إلى مقاييس العظمة الحقيقية، إشارة إلى الأهلية للمنصب فى الدولة، فالأهلية للمنصب ليس الحسب والنسب والمال، ولكن الأهلية للمنصب بالكفاية فيه، فإذا كان الملك أعلى المناصب، وإذا كانت الرياسة الكبرى أعظم الأعمال تبعات، فليس الذى يؤهل للمناصب السعة والمال، بل الكفاية لها والقدرة عليها؛ ففى الآية الكريمة إشارة إلى مقياس العظمة، وإلى مقياس الاختيار للأعمال والمناصب.

والبسطة فى العلم معناها الاتساع فى الأفق والتجارب، وقوة العقل والتدبير والإحكام فى التفكير، فالبسطة معناها الاتساع، وإذا أضيفت إلى العلم فمعناها الاتساع والإحاطة بكل ما يوجه العقل إلى التفكير المستقيم مع سلامة العقل نفسه.

وبسطة الجسم اتساعه، لا بمعنى كثرة اللحم والشحم، بل بأن يكون سبط العظام مديد القامة بعيد ما بين المنكبين؛ وقد يراد ببسطة الجسم تلك الحقيقة، وهو

---

(١) المُنَّة: المُنَّةُ، بالضم: القوَّة، وخص بعضهم به قوة القلب. [لسان العرب - الميم - منن].

بذلك فوق قـوة المنة، يلقى بالرعب منظره فى قلوب الأعـداء، وبالهيـبة فى قلوب الأولياء؛ أو يراد ببسطة الجسم مطلق القوة؛ لأن طويل العظام عريض ما بين المنكبين يكون فى غالب الأحوال قوى الجسم، فأطلق ذلك وأريد مطلق القوة.

ويلاحظ أنه قدمت بسطة العلم على بسطة الجسم للإشارة إلى أنها فى الرياسة أقوى تأثيرًا، وأنها الأصـل وغيرها التابع، وأنه ليست الحاجـة إلى قوة الجسم بمقدار الحاجة إلى قوة الرأى والتدبير وسعة العلم وكثرة التجارب.

﴿ **وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ ذيل الله سـبحانه وتعـالى هذه الآية الكريمة بهذه الجملة السامية؛ للدلالة على أمرين:

أولهما: أن الأمور كلها بيده سبحانه وتعالى، وأنه فعال لما يريد، وأن ما يشاء فى هذا الكون يقع، ومـا لا يشاء لا يقع، وأنـه سبـحانه يؤتى الملك فى الدنيـا لمن يشاء، وأنه إذ يعطيه هو المسيطر عليه؛ ولذلك أضيف الملك إليه إذ قال ﴿**مُلْكَهُ**﴾ فهو إذ يعطيه لمن يعطيه هـو الغالب على أمره يستطيع أن يسلبه فى أى وقت شـاء، فهو مـالك الملك، يؤتـى الملك من يشـــاء، وينزع الملك ممن يشـاء، وهو القاهر فـوق عباده.

ثانيهما: أن كل شىء فى الوجود تحت سلطان الله تعالى، وهذا معنى أن الله واسع، أى محيط بكـل شىء، قد وسع كل شئ برحمته وقـدرته، وأنه يدبر الأمور على مقـتضى العلم الواسع الشـامل؛ فهو يربط الأسـباب والمسببات، وهو يعطى لحكمة يعلمهـا، ويمنع لحكمة يعلمها، يبتلى الأمم بالقـوة والضعف والعزة والذلة، والهزيمـة والانتصـار، والبأسـاء والضراء، ثم النعمـاء والسراء، كـما قـال تعالى: ﴿ **وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً...** (٣٥) ﴾ [**الأنبياء**] وعلى الأمم المغلوبة أن تتـخذ الأسـبـاب بجـمع الكلمـة، وتأليف الـقلوب، وتحـرير النفـوس من ربقـة الأهواء والشهوات، ولا تستسلم للضعف، ولا تستخذى للقوى، وتناضل وتكافح وتصابر، وتتوكل على الله، وإلى الله مصير الأمور.

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ
ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا
تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾
فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم
بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ
مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا
مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟
لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ
يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ
غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾

انتهينا فى قصة بنى إسرائيل الذين أخرجوا من ديارهم وأبنائهم إلى أنهم أرادوا أن يتخذوا الأسباب لإعادة ملكهم وإخراج العدو من ديارهم، فوجدوا أنه لابد من رياسة تقود إلى موطن العزة، وميدان الشرف والجهاد، فطلبوا من نبيهم أن يختار لهم قائداً يكون رئيسهم ويكون له ملكهم؛ وسموه ملكا؛ لأنهم لم يعرفوا الرئيس المالك للسلطان إلا باسم الملك؛ وقد اختار الله لهم طالوت، ولم يكن من ذى النسب فيهم، أو على الأقل لم يكن من أعلى الأنساب فيهم وكان فى المال قلا؛ وما علموا أن الملك يكون فى غير ذى المال والنسب؛ فبين الله سبحانه أن مناط الاختيار للسلطان القدرة على تحمل أعباء الملك؛ وذلك يتحقق بقدرة الجسم، وسعة المعرفة والعلم، وهما أمران قد تحققا فى طالوت الذى اختاره الله سبحانه وتعالى.

فالله سبحـانه وتعالى يبين أن أساس الولاية قدرة الوالى على تحمل الأعـباء الجسام بالتزود بالعلم الكثيـر والتجارب الواسعة، والجسم القوى الـذى لا يخذله فى ميدان الجهـاد؛ وهم يرون الولاية بالوراثة وبين ذوى الأمـوال؛ فالمناط عندهم المال الوفـير والنسب، ولا عبـرة بشيء وراء ذلك، والله سبحـانه وتعالى يبين لهم أن الاعتـبار للقدرة، ولا عبرة بما وراء ذلك.

فسكتـوا، ثم أراد رب العالمين أن يثـبت قلوبهم، ويزيل شكهم، فـذكر لهم علامـة ملكه، وأمارة السلطان الذى أفـاضه الله سبـحانه وتعالـى على ذلك الحاكم المختار، فأوحى إلى نبيهم المبعوث أن يسوق إليهم البشرى، فقال سبحانه:

﴿ **وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ** ﴾ لقد خضـعوا لقول نبيهم ولحكم الله باخـتيار طالوت وليا لأمرهم، متوليًا قيادتهم، ولكنه خضوع القلِق المضطرب الذى لم يصب السكون قلبه، فلم تطمـئن قلوبهم، فساق الله إليـهم آية تدل على سلطان الله، إذ لابد من أمارة تثبت القلوب، وخصوصًا أنهم مقدمون على حرب فيها تشتد الشديدة وتبتلى القلوب، فلابد مـن نفوس ملتفة حول قائد لا يـرين عليها شيء من الريب؛ ولا يمسـها شئ من ظلمـة الشك، بل يكون الخـضوع الكامل، والاتحاد الـشامل، والتآلف بين الجيش والقائد.

فكانت آية ملك طالوت، أى أمارة سلطانه المتقـرر الثابت، أن يأتيهم التابوت فيه سكيـنة من ربهم. والتابوت على وزن فعلوت، كمـا قال الزمخشـرى ورجحه، على اعتـبار أنه من تاب بمعنى رجع وآب؛ لأن نفوسـهم كانت تئوب إليـه وتثوب، وتسكن وتطمـئن، ويرون فـيه شـارة عـزهم، ورمز مـجدهـم، وصلة حاضـرهم بماضيهم. والتابوت الذى ارتبطت به قلـوبهم ذلك الارتباط صندوق فيه آثار من آثار آل مـوسى وآل هرون، وقد فـقدوه وقت أن ضـربت عليـهم الذلة، وأخرجـوا من ديارهم، فكانت الذلة مقارنة لذلك الفقد، والعزة مقارنة للبقاء.

وقد وصف التابوت بأن فـيه سكينة أى أن فيه اطمـئنانًا لهم، من حيث إنهم يرون فى عودته بشرى بالسلطان والعزة والقـوة، وقال سبحانه: ﴿سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إشارة إلى أن السكـينة والاطمئنان فيض مـن فيوض الله سـبحانه وتعـالى يرحم به الناس؛ وإن اقترنت تلك الـسكينة بأسباب فليست تلك الأسـباب العادية هى المؤثرة فى وجودها، بل الذى يوجـدها هو رب العالمين، ومن حكمتـه سبحانه أن جـعلها مقترنة بتلك الأسـباب الدنيوية، وإن كانت غير مؤثرة فيـها بالإيجاد، بدليل أنه قد توجد تلـك الأسباب ولا توجـد معـها السكينة، ولا يكون مـعها الاطمـئنان قط، واقتران السكينة والاطمئنان بالأسباب ليطلب الناس الأسباب، ويرجوا الرحمة منه، وكل شئ عند الله بمقدار.

وفى التابوت كـما ذكـرنا بقية من آل مـوسى وآل هرون، أى آثارهم، وتلك الآثار هى سبب الاعـتزاز به والتيمن واعتـباره أمارة عزهم، والصلة بـين حاضرهم ومـاضيـهم؛ وفى تقـديم السكينة علـى «بقيـة» إشـارة إلى أن السكينة هى الغـاية المطلوبة، والاطمـئنان هو الأمر المرغوب، فـتلك الآثار ليست فى ذاتهـا الغاية، إنما الغاية هى السكينة، وقد اقترنت بوجودها لتكون علامة ومظهراً، وإن المؤثر بالإيجاد هو رب العالمين كما ذكرنا.

وهنا يثار بحث: كيف كـان إتيان التابوت؟ أجاء بأمر خـارق للعادة، أم جاء بأمر عـادى، وكان التنبؤ بمجيـئه أمارة سلطان طالوت واخـتيار الله سبـحانه له؟ ثم كيف كانت تحمله الملائكة؟ أهو الحـمل الحقيقى، أم هى القوة الروحية الغـيبية التى كانت بأمر الله تعالى من غير أن تعرف أسبابها ومظاهرها؛ كما ذكر الله سبحانه من أن الله كان يؤيد المسلمين بالملائكة فى غزوة بدر، وما كانت إلا القوى الروحية؟

للإجـابة عن هذا السؤال نقـرر أن البـاحثـين فى المسائل الـدينية، والمعنيـين بالدراسات القرآنية فريقان:

فريق يتـجه إلى تفسـيره بما يقرب مـعانيه من الأسـباب العادية، ولا يفـسره بالخوارق إلا إذا لم يكن مناص، من غيـر أن يؤول الألفاظ بما يناقض ظاهرها، ولا يتفق مع أسلوب القرآن ومنهاجه البيانى.

وفريق لا يحرص على تفسير القرآن بالأسباب العادية، بل يفسره بالخوارق ما دام ظاهره يؤدى إلى ذلك من غير محاولة تقريب؛ لأنه كتاب يتحدث عن الله، والأسباب إنما يقيد بها العباد، والله خالق كل شيء فهو فوق الأسباب والمسببات، وهو الفعال لما يريد، وكل محاولة لتقريب الألفاظ التى يدل ظاهرها على خرق للعادات إنما هو لتحكيم الأسباب العادية فى الإرادة الإلهية، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

ولقد كانت العبارة السامية ﴿**إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ**﴾ هذه العبارة الكريمة موضع نظر أولئك الباحثين على اختلاف مناهجهم، فالذين لا يحكمون العبارات بالأسباب العادية قالوا: إنه قد أتاهم التابوت تحمله الملائكة حقًا، وإن كان هذا بطريقة لم يفصلها القرآن، فهى واضحة الدلالة بينة المعنى؛ ويرشحون قولهم بأن الآية الإلهية التى تدل على اختيار طالوت يجب أن تكون أمرًا خارقًا للعادة، لتكون الدلالة على اصطفاء الله له قائدًا ومدبرًا واضحة بينة؛ فالملائكة حملته حقًا، وهم جنود الله الذين لا نراهم وإن كنا نؤمن بهم.

والفريق الثانى الذى يفسر القرآن بالأسباب العادية ما وسعت العبارات ذلك قالوا: إن التابوت قد جاء إلى بنى إسرائيل إما بأنهم عثروا عليه، وقد غيب عنهم أمدًا طويلا من غير أن يعلموا له مكانًا، والآية هى إخبار نبيهم لهم بذلك قبل وقوعه، وحمل الملائكة له هو بالقوة الروحية التى وفقتهم له بعد طول فقدهم كالقوى الروحية التى أيدت المسلمين فى غزوة بدر وغيرها من الغزوات الإسلامية.
وإما أن يقال: إن إعادة التابوت فى جولات الحرب التى كللت بالانتصار هى العلامة على إمرة طالوت التى كانت باختيار إلهى، وأمر لدنى؛ والمعنى على ذلك: إن آية ملكه وأمارته أنه سيقودكم إلى مواطن الظفر ومواضع الفخار وستعود إليكم فى حروبه شارة عزتكم، وأمارة مجدكم التليد، وعزكم الغابر وهى التابوت، وإنه سيعود إليكم مكرمًا معززًا تحمله ملائكة الله، والقوى الروحية. وفى هذا إشارة إلى أن أمارة السلطان العمل المنتج المثمر.

وقد أخطأ بعض المفسرين المحدثين، فذكر أنه يحتمل أن المراد من ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ﴾ أن التابوت كان فى شكل صندوق تحمله تماثيل كانوا يسمونها الملائكة من حيث إنها صورة ملائكة فى خيالهم. إن ذلك خطأ مبين، وإن ذكر فى التوراة الحاضرة! لأن القرآن الكريم الذى حارب الوثنية وذرائعها لا يتفق مع منطقه أن تسمى التماثيل ملائكة، ولو كان فى ذلك مجاراة لتعبيراتهم، ولا يصح أن يفسر القرآن بما لا يتفق مع منطقه ويخالف اتجاهاته ومراميه.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ختم الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بهذه العبارة السامية، لبيان أن عليهم أن يخضعوا لإمرة طالوت بعد أن تبين لهم اختيار الله له، واصطفاؤه؛ والمعنى: إن فى عناية الله سبحانه وتعالى بكم، من إعادته التابوت شارة عزكم - لآية لكم وعلامة توجب عليكم أن تخضعوا، ولا تتململوا، ولا تتمردوا إن كنتم مؤمنين. أى إن كان شأنكم أن تؤمنوا بالحق، وتذعنوا إذا علمتموه.

وهذا التخريج على اعتبار أن هذه الجملة السامية من كلام بنى إسرائيل لهم، فهى تبين وجوب الطاعة عليهم بعد هذه البينات.

ويحتمل أن الخطاب فى هذه الجملة السامية للمؤمنين من أمة محمد ﷺ، ويكون المعنى: إن ذلك القصص الحكيم، وتلك العظات البالغة لآية، أى لأمارة تدل على صدق محمد ﷺ فيما يدعوكم إليه، وأنه يتحدث عن ربه؛ لأنه وهو النبى الأمى الذى لم يقرأ كتابًا، ولم يجلس إلى معلم ولم يلقن أى علم من أى طريق قد ساق إليكم تلك الأخبار الصادقة، فهى آية من آيات نبوته إن كان من شأنكم الإذعان للحق إن بدت آياته وظهرت بيناته.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ تولى طالوت إمرة بنى إسرائيل، وقيادة جيوشهم، وتقدم بهم للانتصاف ممن أرهقوهم وأذلوهم؛ فخرج بهم من هدوء الاستخذاء والاستكانة إلى ميدان الجهاد. و«فصَل» معناها انفصل، وقد قال فى ذلك الزمخشرى: (فصل عن موضع كذا إذا انفصل عنه وجاوزه،

وأصله فصل نفسه، ثم كثر حذف المفعول حتى صار فى حكم غير المتعدى كـ «انفصل»، وقيل فصل عن البلد فصولا، ويجوز أن يكون فصله فصلا، وفصل فصولا، كوقف وصد، ونحوهما؛ والمعنى انفصل عن بلده) ويستفاد من هذا النقل أن فصل تستعمل لازمة ومتعدية عند بعض اللغويين، وعند الأكثرين هى متعدية أجريت مجرى اللازم لكثرة حذف المفعول.

ولما خرج طالوت بجند بنى إسرائيل قال لهم: إن الله مبتليكم أى مختبركم «بنهر» وهو بالفتح والسكون لغتان فيه؛ والنهر: المجرى الواسع الذى يجرى فيه الماء، مأخوذ من نهر الأرض بمعنى شقها شقًا واسعًا.

وما نوع الابتلاء؟ أهو ابتلاء لمعرفة مقدار طاعة جنده؛ لأنهم بايعوه وما أرادوا، وقبلوا ملكه وماكادوا يفعلون، فأراد قبل أن يخوض غمار الحرب أن يعرف من أذعن ورضى فيقاتل به؛ لأنه يكون كنفسه، ومن كان فى قلبه ذرة من التمرد أو عدم الإذعان القلبى، فإنه ليس له به حاجة. والنصرة فى الجيش باتحاد القلوب والقوة المعنوية، وحسن الطاعة للقيادة، فجند قليل متحدة أهواؤهم ينتصرون بعون الله. على ذلك جمهور المفسرين.

ويصح أن يكون المراد بابتلاء الله لهم أنهم يفصل بينهم وبين أعدائهم نهر، وقد وصلوا إليه مجهدين من العطش والتعب، فخشى أنهم إن مكثوا حوله، وملئوا مزاداتهم وبطونهم واستراحوا واستجموا، أحس بهم أعداؤهم، فاجتازوا النهر إليهم، وأبعدوهم عنه؛ فأراد طالوت أن يأخذ عدوه بالجولة الأولى المفاجئة، فيجتاز النهر قبل أن يحسوا به، وإن اجتازوه صار النهر فى قبضتهم يشربون منه ما شاءوا من غير حاجة إلى التزود، وكانوا هم على الماء، وعدوهم أسفل منه.

هذا احتمال قريب لا ينافيه نسق القرآن الكريم، ويتحقق فيه معنى الابتلاء الشديد؛ لأن كونهم بجوار الماء بعد جهد وعطش، ولا يأخذون منه إلا غرفات تذهب بالعطش من غير شبع وتزود منه، هذا بلا شك ابتلاء من الله، ويتحقق فيه أيضًا معنى الاختبار للطاعة، وهو يتفق مع الخطط الحربية؛ لأن الفجاءة فى الحروب

سلاح يقتل ويفرق الجمع، ثم فيه اختبار لعزائمهم وقوة إرادتهم فوق اختبار طاعتهم.

﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ أى فمن شرب منه متزودًا مستجمًا حوله مستبردًا بمائه مستمتعًا به مستنيما إلى الراحة بجواره ﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أى فليس فى قيادتى، بل هو خارج على طاعتى، وليس معنا فى هذا الجهاد المتعب فى أوله، والمثمر فى آخره؛ ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ أى لم يذقه ﴿إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ أى أنه لم يذق من ماء النهر إلا بقدر اغترافه بيده ما يبل عطشه، وينقع غلته، ويدفع حاجته العاجلة من الماء أى فمن لم ينل من ماء النهر إلا بهذا القدر ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أى معى فى جندى، وهو فى سلطان قيادتى، وله معى غب النصرة وفخار الانتصار.

والاغتراف هو الأخذ من الشىء باليد، والغرفة مقدار الماء الذى يغترف باليد.

وهنا بحث لفظى نبه إليه الزمخشرى، وهو تقديم جواب الشرط على الاستثناء من الشرط، فقد قال: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً﴾ وكان التأليف المعهود للناس أن يقال: (ومن لم يطعمه إلا من اغترف غرفة بيده فإنه منى) ولكن النص السامى جاء بتقديم الجواب على مستثنى الشرط لحكمة بليغة، وهى المسارعة إلى الحكم بالاتصال؛ وإثبات أن أساس الصلة التى تربطهم ألا ينالوا من الماء، ثم رخص لهم فى الغرفة بيد لنقع الغلة، وذلك ليقللوا ما كان فى طاقتهم التقليل؛ لأنهم إن استرسلوا فى أخذ الماء لا يقفوا عند القليل، بل ينالوا منه الكثير.

﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ لم تكن نتيجة ذلك الامتحان الذى اختبرت فيه حكمتهم، وطاعتهم، وعزيمتهم تتفق مع رغبتهم فى العزة بدل الذلة، فلم ينظروا إلى المآل بدل الحال، لم يصبروا على التعب الوقتى بالعطش ليفاجئوا عدوهم فى عقر داره، وما غُزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا؛ ولم يطيعوا قائدهم الحكيم، والطاعة أساس الجندية؛ ولم يستحصدوا بعزائمهم فلا يستنيموا إلى الراحة قبل وقتها.

ولذا قال تـعالى: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ أى فـشربوا مـنه وكرعـوا واستراحوا حوله واستجموا قبل أن يجىء وقت الاستجمام، إلا قليلا منهم ربط الله على قلوبهم؛ وبذلك لم يطيعوا ولم يصبروا، ولم يجمعـوا عزمهم متحملين التعب العاجل، فى نظير النصر والظفر الآجل.

ولقد قرأ أُبى والأعمش «إلا قليلٌ» ومن المعـروف أن المستثنى بعد الكلام التام الموجب يكون المستثنى منه منـصوبًا، فما وجه الرفع هنا؟ قالوا: إن مـعنى «فشربوا» أنهم ليسوا منه؛ لأنه تبين الارتباط اللازم بين الشرب، وكونهم ليسوا منه، فقد قال تعالى: «﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ فالمعنى إذن «فليسوا منه إلا قليل منهم» فقراءة الرفع إيماء بليغ بمقتضى المنهاج العربى إلى تضـمن فشربوا معنى فليسوا منه المصرح بها سـابقًا. ولقد قال فى ذلك الزمـخشرى: «قـرأ أُبى والأعمش إلا قليل بالرفع، وهذا مع مـيلهم إلى المعنى، وإعراض عن اللـفظ جانبـا، وهو باب جليل من علم العربية، فلما كان معنى فشربوا منه: فلم يطيعوه، حمل عليه، كأنه قيل فلم يطيعوه إلا قليل منهم».

وإن لذلك فائدة بلاغية هى أنه كما قلنا إيماء إلى النتيجة المقررة للشرب، وكأنه تصريح بها، وهى أنهم ليسوا منه وقـد انقطعت الصلة بينهم وبينه، فصاروا فى ضفة من النهر مسـتريحين مستنيمين إلى هوى النفس، وطالوت ومن معـه قد صاروا فى الضفة الأخرى، قد فاجئوا العدو وحالوا بينه وبين الماء؛ ولذا قال سبحانه من بعد:

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ اجتاز طالوت النهر مع الذين صبروا على العطش والتعب، ولم ينالوا من الماء إلا ما يدفع العطش المميت؛ ولقـد عبر سـبحانه عن أولئك الصـابرين الطائعين المدركـين بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ للإشارة إلى أن الإيمان بالله والإذعـان له سبحانه هو السبب فى طلبهم العزة، وتحملهم المشاق فى سـبيلها، والصبر على المتاعب لنيلها، والطاعة لمن اصطفاه الله وليا لأمرهم، ومدبرا لشئونهم، وقائدًا لهم فى ميدان العزة والكرامة.

والضمير فى قوله تعالى: ﴿قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ يحتمل أن يعود على بعض الذين اجتازوا النهر، ويحتمل أن يعود على الذين استناموا للراحة ولم يجتازوا النهر.

وعلى الأول يكون المعنى: إن الذين اجتازوا النهر، وهم الطائعون الصابرون المعتزمون كانوا فريقين: فريق هاله العدو وكثرته، فاعتراهم الخوف، وقالوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوت (وهو قائد جيش العدو) وجنوده؛ وفريق آخر لم تأخذ فؤاده الكثيرة ولم يذهب قلبه شعاعا، وهم الذين قال سبحانه وتعالى عنهم: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

وكأنه على هذا التخريج يكون بنو إسرائيل مراتب ثلاثًا: أولاها وأدناها: أولئك الذين ارتضوا بالعصيان وخالفوا أمر قائدهم؛ والثانية: أولئك الذين اجتازوا النهر وأطاعوا، ولكن هالتهم الكثرة الكاثرة، وحسبوها الكارثة؛ والمرتبة العليا هم أولئك الذين آمنوا بلقاء الله تعالى، وفضلوا الباقية على الفانية، وباعوا أنفسهم لله سبحانه وتعالى.

وعلى أن الضمير فى «قالوا» يعود على الذين لم يجتازوا النهر، يكون المعنى: إن الذين استناموا للراحة، وآثروا العصيان تقاولوا فيما بينهم وقالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، أى أننا فى حاجة إلى الراحة اليوم وإذا نلنا حظنا من الاستجمام والماء فقد يكون اللقاء. وأما الفريق الذين اجتازوا النهر، فقد وجدوا أنفسهم قلة قليلة أمام جموع كثيرة، وقد تخلف من إخوانهم الأكثرون، وقعدوا فى الضفة الأخرى مخالفين، ولكنهم مطمئنون إلى نصر الله وتأييدهم وقد آمنوا بالآخرة فطلبوا الموت لينالوا الحياة، كما قال الصدِّيق خليفة رسول الله: (اطلب الموت توهب لك الحياة) وقالوا: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

ومعنى لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده: لا قدرة لنا اليوم على ملاقاة جالوت وجنوده، ولو بتحمل أقصى المشقة؛ إذ الطاقة معناها أقصى ما يبذل من مشقة لحمل الأمر، وإذ انتفى ذلك فمعناه أن الأمر مستحيل بالنسبة لقُدَرهم، وهذا

هو ما يصوره الضعف والاستخذاء، واستمراء الذلة والضعة والهوان. ولأن القائلين لذلك القول فيهم هذه الصفات، نرجح أن الضمير يعود على الذين لم يجتازوا النهر ورضوا بالمقام مع العصيان.

فهذا قول الذين عصوا وذلوا، أما قول الآخرين فقد حكاه الله تعالى بقوله:

﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الظن هنا بمعنى العلم القطعى الجازم؛ لأن شأن المؤمن أن يؤمن بالله ورسله واليوم الآخر إيمانًا قاطعًا جازمًا لا شك فيه، وإنما عبر عن العلم اليقينى فى هذا المقام بلفظ الظن لسببين:

أحدهما: أن اليوم الآخر مغيب غير محسوس.

وثانيهما: أن الظن يتضمن معنى الرجاء، ورجاء لقاء الله سبحانه وتعالى راضيًا عن فعل العبد يدفعه إلى العمل والجهاد فى سبيله، وبيع النفس فى سبيل إعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى.

ووصف أولئك الثابتين الصابرين الذين أرادوا العزة فافتدوها بأنفسهم وأعظموا الفداء بأنهم الذين يظنون أنهم ملاقو الله، بيان للباعث القوى الدافع للرضا بالفداء، والصبر على البلاء؛ وذلك لأن الإيمان بلقاء الله يجعل المرء يستهين بكل ما ينزل به فى الدنيا؛ لأنه مهما يكن مقداره، تعب ضئيل فى مقابل نعيم مقيم يوم القيامة، ولأنه مهما يكن ما يلقاه من عنت فى الدنيا لايعد شيئًا مذكوراً فى نظير لقاء الله تعالى راضيًا عنه، متقبلا لأعماله، فذلك الرضوان دونه الدنيا كلها بحذافيرها.

وإذا كان المؤمن بلقاء الله المستشعر لعظمته يستهين بكل ما فى الدنيا ومن فيها، فهو مستهين بعدوه مهما تكن كثرته؛ ولذلك قالوا: **﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾** الفئة: الجماعة المتعاونة المتساندة التى يفىء بعضها إلى بعض، ويظاهر بعضها بعضًا، والمعنى كم من مرات كثيرة غلبت جماعة متعاضدة قليلة العدد جماعة كثيرة العدد، لقوة إيمانهم بالله وبحقهم.

وفى هذا إشارة إلى أن من أسباب النصر ألا يؤخذ الخصم بقوة خصمه بأكثر من أن يستعد له ويأخذ الأهبة للقائه؛ أما إن هاله أمره فإنه لا محالة مغلوب؛ لأن القوة المعنوية ذخيرة فوق العدة والسلاح، ولا تكون القوة المعنوية لقوم يرهبون لقاء عدو الله وعدوهم، بعد أن اتخذوا الأهبة، واختار الله سبحانه وتعالى لهم القيادة الرشيدة، ذات الرأى السديد؛ والمنهج الحميد.

﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ختم الله سبحانه وتعالى الآيات التى تفيد الاستعداد للقتال بتهيئة النفوس، واتخاذ سلاح المفاجأة أول سلاح يرفع ضد الأعداء - ببيان سلاح آخر هو أمضى الأسلحة التى تغالب الزمان، وتناضل الحدثان، وهو الصبر، فقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ أى أن على الذين يتقدمون للجهاد فى سبيل الله أن يدرعوا بالصبر، ويجعلوه أخص صفاتهم، ويستمسكوا به؛ فإن الله سبحانه وتعالى مع الصابرين. والمصاحبة الكريمة التى أفاض الله بها على الصابرين فقال: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ هى مصاحبة النصرة والتأييد والتوفيق. فالله جل جلاله، وعظمت قدرته، مع الصابرين، ومن كان الله معه فهو منصور، فإنه هو نعم المولى ونعم النصير.

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ
عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ
ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ
دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ
وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم
بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو
فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ
نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

اجتاز المؤمنون الصابرون النهر، وجمعوا عزائمهم فى عزيمة واحدة، وقدروا النصر مع قلتهم وكثرة عدوهم؛ لأن الإيمان بالحق وحده عدة هى أقوى عدد الجهاد، وبهذه النفوس المؤمنة المتوثبة المفوضة أمورها لرب العالمين، تقدموا للقاء الأعداء، ولم يغرهم بالله الغرور ولم يفرضوا أن قوة البدن والسلاح والشعور بالحق وحدها كافية للنصر بل لابد من تأييد الله؛ ولذا قال سبحانه فى وصفهم فى ميدان القتال:

﴿ **وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** ﴿٢٥٠﴾ ﴾ أى أنهم خرجوا إلى الأرض الفضاء المتسعة التى تتلاقى فيها القوى المناضلة، «فبرزوا» معناها خرجوا إلى البراز، أى الفضاء المتسع المترامى الأطراف، وكان بروزهم وظهورهم لقوى جبار غالب، ومعه جند مدرب تعوَّد الانتصار فى الماضى، وأذاق بنى إسرائيل من الذل أكؤسا؛ ذلك هو جالوت وجنوده.

وذكره بالاسم ومعه جنوده للإشعار بأن المؤمنين لاقوا جماعة موحدة منظمة، لها فوق كثرة العدو والعدد قوة النظام وتوحيد القيادة وقوة الانتصار فى الماضى والغلب عليهم. ولكن التعبير يشعر مع ذلك بأمر آخر قد يكون من أسباب الضعف مع هذه القوة وهو أنهم جند لشخص واحد، يعملون لغايته بمصلحته وسلطانه، بل شهواته ورغباته، فهم لا يعملون لأنفسهم وجماعتهم، بل يعملون لملكهم، وكأنهم مع دربتهم وقوتهم وغلبهم مسخرون لإرادة شخص وهواه، وذلك من أسباب ضعف الإرادات، وعدم الصبر عند الشدائد، وهكذا حكم الواحد المستبد، يحمل فى داخله دائما عوامل ضعفه مهما يكن فيه من توحيد وتنظيم للقوى وجمع للقيادة، وذلك يكون إذا كان حكم الفرد صالحا، ولم يكن فسادًا غاشمًا وطغيانًا آثمًا.

عندما التقى المؤمنون الصابرون من بنى إسرائيل بعدوهم، هالهم أمره، وهالهم أمر قائده، ولكنهم كانوا مستولين على قلوبهم، مؤمنين بالنصر أن أخلصوا

في أمرهم، وشروا أنفسهم لربهم؛ ولذلك اتجهوا إليه بعد أن أخذوا الأهبة، فدعوه ضارعين بثلاث عبارات مفوضة تفيد إدراك أسباب النصر:

أما الدعاء الأول فهو: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ يقال أفرغ الإناء: صب ما فيه من ماء، وأفرغ الدلو على نفسه: صب ما فيه من ماء على نفسه، فمعنى أفرغ علينا: أفض علينا صبرًا يعمنا في ظاهر جمعنا، وفي خاصة نفوسنا. فالتعبير بـ «أفرغ علينا صبرا» فيه استعارة تمثيلية شبه فيه حالهم والله سبحانه وتعالى يفيض عليهم بالصبر يظهر في جماعتهم مجتمعة وفي الأفراد منفردين بحال الماء يفرغ على الجسم فيعبه كله، يعم ظاهره ويتسرب إلى باطنه، فيلقى في القلوب بردًا وسلامًا، وهدوءًا واطمئنانًا.

وصدروا الدعاء بالنداء «ربنا» أي خالقنا ومنشئنا ومربينا ومميتنا، وفي ذلك إشعار بأنهم دعوا مجيبا، وضرعوا إلى قادر غالب، وإلى منشئ موجد، فهو قادر على أن يأويهم بالصبر، ويغنيهم به عن نقص العدد.

وابتدءوا بالدعاء بالصبر؛ لأن الصبر هو عدة القتال الأولى، وهو ذخيرة المؤمنين وبه ضبط النفس فلا تفزع، وبه يجتمع قلب الشجاع فلا يجزع. والانتصار في القتال بصبر ساعة، والصبر عند اللقاء الأول هو الذي تتبدد به قوى العدو مهما تكاثرت؛ ولذا قال النبي ﷺ: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**»(١).

والدعاء الثاني الذي ضرعوا إلى ربهم فيه قولهم: ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾، وهذا كناية عن أن يمنحهم سبحانه وتعالى الثبات في الزحف وعدم الفرار في النزال، فمعنى: ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾، أي ثبتنا، ومكنا من عدونا، ولا تمكن عدونا منا، ولا تجعل للفرار سبيلا إلى قلوبنا، فالتعبير بقوله: ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾، تعبير بالجزء وإرادة الكل؛ لأن الأقدام هي التي يكون بها الفرار، فتثبيتها إبعاد للفرار بثبات أداته وعدم تحركها إلا إلى الأمام، وأن الثبات مظهر الصبر، وذريعة النصر بل مظهر القوة،

---

(١) رواه البخاري: (١٢٠٣): الجنائز - زيارة القبور، ومسلم (١٥٣٤): الجنائز - الصبر عند الصدمة الأولى.

وعنده تتحطم قوى العدو، وتتفرق كلمته إذا لم يكن محاربًا فى سبيل حق، بل كان يقيم الظلم ويؤيد الباطل.

والدعاء الثالث، وهو قولهم: ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ وإن إجابة هذا الدعاء هو تحقيق لثمرة الصبر والثبات، وكان الدعاء بتحقيقه للإشارة إلى أن الأمور كلها بيد الله، وإن أولئك المؤمنين الصابرين الثابتين كانوا يأخذون بالأسباب، ثم يفوضون الأمور إلى الله مسبب الأسباب معتقدين أنه مهما يتحقق السبب ولا تكون المعونة الإلهية، والتوفيق الربانى، والتأييد من القوى الجبار - فلن يكون الانتصار، وأن الجيش القوى مهما يكن عنده من صبر وثبات يجب أن يؤمن بأن النصر من عند الله العزيز الحكيم القوى الغالب على كل شيء. وقد رأينا فى العصور الحديثة قادة عظاما يأخذون بالأسباب ثم ينهزمون، مع أن تحت سلطانهم جنودًا مدربين طائعين صابرين ولكنهم لم يقولوا: المستقبل بيد الله، بل قالوا: المستقبل بأيدينا، فكف الله أيديهم عن الناس، وكانوا عبرة المعتبرين.

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الفاء هنا للسببية، أى أنه بسبب قوة عزائمهم، وحسن صبرهم واتجاههم إلى ربهم ضارعين أن يلهمهم الصبر عند اللقاء، والثبات عند الزحف، والنصر فى النهاية لأنه المالك لكل شيء، بسبب كل هذا هزموهم بإذن الله، أى بتوفيقه سبحانه وإرادته وهدايته، وإمداده سبحانه بعونه بعد اتخاذهم الأسباب كلها.

وأصل الهزم معناه الكسر، وكثر استعماله فى كسر الأعداء، وتشتيت شملهم، وذلك لأن العدو فى هجومه يشبه الصخرة المنقضة فى تجمعه وصلابته وحدة صدمته، فإذا رد على أعقابه تكون حاله كالتكسر بعد الاجتماع والتقطع بعد الاتصال.

﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ فى هذا التعبير السامى، بيان لسبب من أسباب الانتصار الدنيوى بعد أن وهبهم الانتصار اللدنى، ذلك أن طاغيتهم قد قتل، وهو الذى كان يفرض أهواءه وشهواته عليهم فيجعل

منهم جندًا طائعين له يسيرون مع رغبته فى السلطان والقهر والغلب بالحق وبالباطل، وكذلك الشأن دائمـا فى أهل الباطل يجتمعون على رجل ويسيرون وراءه، فليست لهم إرادة غير إرادته، ولا روح جماعية تجعل لهم كيانا قائما بذاته، مظهره قائدهم، بل يكون الطاغية هو المسلط عليهم، يملى إرادته على أحدهم، ولا إرادة لأحد وراء إرادته، فإذا قتل ذلك الطاغية أو قضى على سلطانه تفرق الجمع وذهبت الوحدة الرابطة، وعملت السيوف فى أقفيتهم.

وكذلك كان أمر أعداء الله، جمعهم جالوت تحت إمرته، وفرض عليهم إرادته بحكم القهر، أو بالاستهواء، أو التبعية الشخصية، فمكَّن الله أولياءه منه، حتى إذا قتل تفرق الجمع وولى الأدبار، ولا يكون الأمر كذلك إذا كانت الجماعة تحس بالوحدة الجامعة التى تربط أحادها، وقائدها مظهر توحد الإرادة وجمع الكلمة، وليس موجد هذه الوحدة لتسخر لإرادته؛ فإنه فى هذه الحال إذا ذهب القائد، قام مقامه من يماثله أو على الأقل يقاربه؛ لأن الجماعة لها إرادة موحدة، وليست خاضعة لإرادة مسلطة وهى الموجدة لقائدها، وليس قائدها هو الموجد لإرادته، والإرادة التى أقامته تقيم غيره مقامه إذا خلا مكانه.

كان القاتل لجالوت رأس العدو هو داود، وقد رشحته قوته الجسمية، وإحكامه للقتال وعلمه وحكمته لأن يتولى الملك من بعد طالوت والملك الذى تولاه ليس هو الملك الوراثى الذى يئول فيه السلطان إلى أحد من أسرة الملك السابق بالوراثة القانونية؛ لأن داود لم يكن من أسرة طالوت، وما رشحته للملك وراثة قانونية، بل رشحه للملك انتخاب طبيعى، وإرادة إلاهية آتته الحكم والنبوة، فليس الملك الذى آل لداود هو الملك الوراثى، بل السلطان الحكَمُ ذلك الانتخاب.

وقد ذكر سبحانه العناصر التى ترشح للسلطان وحكم الناس، فكانت قوة الجسم، والحكمة والعلم؛ ولذا قال سبحانه بعد ذكر قتله لجالوت: ﴿**وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ**﴾ والحكمة هى وضع الأمور فى مواضعها والتدبير المحكم على وفق العلم، فالحكمة تقتضى صفتين ذاتيتين فى الشخص: عقلا مدركًا نافذًا

بصيرًا يرى بواطن الأمور ويتغلغل فى أعماقـها، وإرادة محكمة تجعل العمل يتلاقى مع الفكر الصـحـيح والإدراك السليم، فـلا يكون سلطان يعـارض دواعى العـقل، وأحكام الفكر السليم، فليس بحكيم من يبـادر بالحكم على الأشياء من غـير دراسة عميـقة مستقصـية وليس بحكيم من يكون عمله على غيـر ما تقتضيـه قواعد الفكر المستقيم.

ولقد ذكر سبحانه أنه علَّم داود مما يشاء أى علَّمه علمًا كثيرًا واسعًا مما شاء أن يعلمه. فقوله تعالى: ﴿مِمَّا يَشَاءُ﴾ يشير إلى سعة العلم، وأنه كثير متشعب لا تحده إلا مشيئة الله وإرادته.

فعلَّمـه سبـحانه سـياسة الملـك، وأحوال الناس، ومنازع النفـوس، وأحوال البلدان وما تـنتجه من خـيرات، وغيـر ذلك، وكان تعليم الله سـبحانـه وتعالى له بالنبوة التى أفاضها سبحانه وتعالى عليـه، والتجارب التى ساقها الله إليه، والذخيرة التى بين يديها من أحوال الحاكمين السـابقين، والهداة المرشدين، وما أوتيه من علم التوراة، والأخبـار الصحاح عن النبيين السـابقين، وفى كل ذلك هداية وإرشاد إلى أقوم مناهج الحكم الصحيح.

تلك هى عناصـر الحكم الصالح، **لابد أن يكون الحـاكم قـويًا فى جـسمـه**، بحيث لا يخذل جـسمه إرادته، فكثيرا ما يكون ضـعف الإرادة من ضعف الجسم، وضعف التـدبير من تخاذل القـوى البدنيـة عن الاحتمـال، ولكن قد تكون الإرادة القوية والعـزيمة الماضيـة فى جسم ضعـيف، وفى هذه الحال قد يسـتغنى عن ذلك العنصر إن لم يوجد شخص تتوافر فيه قـوة النفس وقوة الجسم معًا، فالاعتبار الأول لقوة النفس، وقوة الجسم خادمة لقوة النفس وليست مقصودة لذاتها.

والعنصر الثانى هو الحكمة: وهى كما رأيت جعل العمل يسير مع العقل فلا تتحكم الأهواء والشهوات، وآفة الحكم الصالح هوى الحاكم، فإن غلبت رغبته عقله غلب الفساد حكمه، فليختبـر كل حاكم نفسه، فإن رأى أهواءه هى المسيطرة فليعلم أن الشر قـد استحكم، وأنه أولى به ثم أولى أن يعـتزل وإن وجد عـقله هو المسيطر فليعلم أن الله أجرى عليه التوفيق.

والعنصر الثالث الإحاطة التامة بمصالح الناس وأحوالهم: فإن الحكم عمل للمصلحة، وليس سيطرة وتحكما، ومن ظنه سيطرة وتحكما فهو ممن طمس الله بصيرته، وغلبت عليه شهوته، ثم غلبت عليه شقوته.

إن فرق ما بين الحكم الصالح وغير الصالح دقيق فى معناه، وإن كان الأثر كبيراً فى مبناه، فالحكم الصالح أساسه أن يكون الحكم لمصلحة المحكوم وإجابة لرغبته، والحكم غير الصالح أساسه أن يكون الحكم تحكما فى المحكوم، فمن تحكم فى الرعية ولو باسم مصلحتها، فقد سلك سبيل الفساد؛ لأن التحكم ينبعث من الرغبة فى السيطرة، ولو لبس لبوس المصلحة. والسيطرة تسلط، والتسلط فى ذاته فساد يؤدى لا محالة إلى فساد، ويؤدى إلى موت الإرادات فى الجماعة، وفى ذلك إضعاف لقوتها.

وأما الحكم المنبعث من إرادة الجماعة الذى يقودها لمصلحتها، فهو يؤدى إلى الصلاح لا محالة، وإن تعثر فى أخطاء أحيانا؛ لأنه من الخطأ يتعلم الناس الصواب، ومن الخط المعوج يعرف الخط المستقيم.

﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بيَّن الله سبحانه وتعالى قصة بنى إسرائيل، وهى قصة يتجلى فيها استخذاء الضعفاء، إن خافوا الموت، وجهلوا أن البقاء على الذل هو حقيقة الفناء، ثم بيَّن كيف تتحفز بعض العزائم لرفع نير الظلم وكف يد الظالم، ثم بين كيف يقوم فى المغلوب عليهم نزاع بين دعاة التردد والهزيمة ودعاة الإقدام، وكيف تخضع النفوس لخواطر الرغبة فى العزة والإقدام على التغيير، وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، ثم بين حال الجيوش القوية فى وجوب توحد قيادتها تحت سلطان قائد قوى عالم مفكر مجرب، وكيف تضعف العزائم عند الذين ألفوا الذل فيستنيمون إلى الراحة الذليلة، بدل الشدة العزيزة، ثم بين سبحانه كيف تغلب فئة قليلة مسلحة بالإيمان القوى والتصميم على طلب العزة، مستعينة بالصبر، معتمدة على الله جلت قدرته.

بيَّن سبحانه كل ذلك فى عبارة جليـة، أو إشارة واضحة، ثم بين سبحانه أن سنة الله فى خلقه أن يدفع الخيرُ والشرُ، وأن تكون المدافعة بينهما مستمرة، حتى لا تفسد الأرض، فإنه إن غلب الشر كان الخراب والدمار.

إن الله سبحانه قد قدَّر أن يبتلى الناس من يوم أن هبط آدم وحواء إلى الأرض، فقـد ابتلاهم بإبليس وإخوانه، فكان النـزاع بين الخير والشـر والحق والباطل، والظلم والعدل، والله دائمًا يسخر للحق أنصارًا يعملون لنصرته، ويتخذون الأسباب والأهبة، ثم يؤيدهم بنصره وتوفـيقه فإن الأرض لا تخلو من قـائم للحجة ظاهرًا مـشهورًا، أو مستورًا مغمورًا، حتى لا تذهب بينات الله كما قال على رضى الله عنه.

ولذا قال سبـحانه: ﴿**وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ**﴾ أى لولا دفع الله سـبـحانه بعض الـناس الأشرار ببـعض الناس الأخـيــار لفـســدت الأرض، لأنهم إن تركوا من غير أن يدافعـوا عمَّ الفساد وعمَّ الدمار. وإن دفع الشر بالخيـر يكون فى داخل الأمم وبين الآحـاد، وبين الأمم بعضـها مع بعض، فـالأمة الواحدة يكون من آحادها الأخـيار والأشرار، ويدفع الله بعمل الأخـيار وبال عمل الأشرار.

ودفع ذلك يكون بطرق مختلفة:

منها: أن يكون الشر فى خفاء، والخيـر فى جلاء، فيكون انزواء الشر دفعًا له وفى ظهور الخير دعوة إليه، وحثا عليه.

ومنها: أن يقل عدد الأشرار الظاهرين ويكثر عدد الأخيار البارزين فيدفع الله سبحانه بتلك الكثرة الظاهرة شر تلك القلة الفاجرة.

ومنها: أن عمل الأبرار فى الأمـة يصلح الله به ما أفسده الأشرار مـهما يكن عدد هؤلاء، فـفى بعض الآثار عن النبى ﷺ أنه قال: «**إن الله يدفع العذاب ـ أى الدنيوى ـ بمن يصلى من أمتى عمن لا يصلى وبمن يزكى عمن لا يزكى، وبمن يصوم عمن لا يصوم، وبمن يحج عمن لا يحج وبمن يجاهد عـمن لا يجاهد، ولو اجتمعوا**

على ترك هذه الفرائض ما أنظرهم الله طرفة عين. ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾[(١)].

وأما دفع الله بعض الناس الأشرار ببعض الناس الأخيار فى الأمم بعضها مع بعض فإن ذلك بجهاد الأمم التى تعمل للحق للأمم التى يناصر أكثرها الباطل، أو تسكت عن ظلم حكامها لغيرهم من الأمم. ولقد روى أن ابن عباس قال فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾: «لولا دفع الله العدو بجنود المسلمين لغلب المشركون فقتلوا المؤمنين وخربوا البلاد والمساجد».

وفى الجملة أنه لابد للحق من قوة تدفع الباطل، وأن الله قد أمد الأخيار بقوته، ليدفعوا الشر ويكفكفوا من حدته.

وفى العبارة السامية إشارة إلى أن تلك المغالبة هى فى طبيعة البشر بمقتضى خليقتهم وفطرتهم، إذ قال سبحانه: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ فهو سبحانه قد حكم بأن دفعه للناس أجمعين، ثم أردف القول بالبدل بقوله: ﴿بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ وفى ذلك إشارة إلى أن تلك المدافعة بين الناس مستمرة، وأنها ليست فى جيل دون جيل، ولا زمان دون زمان، ولا يتعين أن يكون قوم بأعيانهم للشر، وآخرون للخير، فقد يكون بعض الناس فيه خير فى بعض نواحيه، فيدفع شر غيره فى هذه الناحية، ويكون فى الآخر ما يدفع به شرا فى بعض نواحى الأول، وقد يكون بعض الأقوام فى جانب الحق ينصرونه لغايات فى نفوسهم، وإن لم يكونوا فضلاء فى عامة أحوالهم، فالشر يدفع بالبر والفاجر، وينصر الحق بالأخيار والأشرار؛ ولذا لم يقل سبحانه وتعالى: ولولا دفع الله الأشرار بالأخيار، بل قال سبحانه: ﴿بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ ليعم تلك الأحوال، وذلك من فضل الله على عباده؛ ولذا ختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالت كلماته: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

---

(١) راجع الدر المنثور للسيوطى ج١ ص٧٦٤، كما ذكره القرطبى: سورة البقرة (٢٥١).

وقد دل ذلك الختام الكريم على ثلاثة أمور:

أولها: أن ذلك التنظيم الحكيم هو من فضل الله ورحمته، وإنعامه على خلقه، وليس ذلك بواجب عليه سبحانه؛ وذلك لأنه خلق الناس، وخلق معهم عقولا يعرفون بها خيرهم وشرهم، فإن ساروا فى طريق الخير والفلاح فلهم ما قصدوا إليه، وإن ساروا فى طريق الشر والفساد فإلى الهاوية يسيرون، وعليهم وبال أمرهم، وعاقبة عملهم إنما هو من فضله، وقد دل على ذلك الاستدراك بقوله تعالى: ﴿**وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ**﴾ ووصف ذلك بأنه فضل من رب العالمين خالق الناس أجمعين.

الأمر الثانى: فضل الله سبحانه وتعالى الكثير، ووصفه سبحانه بأنه ذو فضل، وقد دل على كثرة الفضل التنكير فى قوله تعالى: ﴿**ذُو فَضْلٍ**﴾ أى ذو فضل كثير، لا يدرك الناس قدره، ولا يعرف كنهه، ولا يحد بمقدار حتى يعرف ويعين بالتعريف.

الأمر الثالث: أن النعمة التى أنعم الله بها على خلقه من دفع الفساد يَنْعَم بها المؤمنون والمشركون، والأشرار والأبرار؛ لأن الفساد إذا عم لا يسلم منه أحد، والخير إذا تحقق عم الجميع، وقد دل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿**عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ فلم يقل على المؤمنين أو المتقين، بل عم الخير على الناس أجمعين للإشارة إلى ذلك المعنى الجليل.

هذه قصة بنى إسرائيل الذين غلبوا على أمرهم ثم بدلوا من الذلة عزة، وهى قصة تكشف عن سنن الاجتماع والحروب، وأمثل طرق الحكم.

فمن سنن الله فى الجماعات التى أشارت إليها الآيات أن الجماعة إن غلبت على أمرها، وسامها الغالب الخسف والهوان تحفزت قوى آحاد منها للحياة، فطلبوها عزيزة كريمة، فإذا طالبوا اتجهوا إلى قيادة تجمع أمرهم، وتنظم شئونهم، ثم ساروا تحت لواء تلك القيادة، وقد تصارعت عوامل الضعف مع دوافع العزة، فإن كان الصبر كان معه النصر وإن ضاقوا بأمرهم كان الخذلان، وضربت عليهم الذلة إلى يوم القيامة.

ومن سنن الله فى الحروب التى استبانت من القصة أن النصر يكون عند اتحاد العزائم وتلاقى القلوب، وأخذ الأهبة، والصبر والثبات، وأن النصر ليس بكثرة العدد، وإنما هو بالعزيمة الماضية والثبات والصبر، والمعونة من الله العلى القدير، وأن الحق فى ذاته قوة إن آمن به صاحبه، وأراده عزيزاً كريماً غير ذليل.

ولقد سن سبحانه فى هذا القصص الطريق لاختيار الحكام، فبين أن الحاكم لا يُختار لنسب رفيع، ولا يختار لمال وغير، ولكن يختار لقدرته على القيام بأعباء الحكم من قوة فى نفسه، وقدرة على الاستيلاء على أهوائه وشهواته، وعلم غزير بشئون الاجتماع وأحوال الناس، ومن تجارب هادية إلى الحق فى الأمور، وإخلاص ينير الطريق والبصائر، وليس الحكم عطاء يُعطى، ولكنه ابتلاء وأعباء.

وإن الحاكم الذى تجتمع القلوب حوله هو حكم الجماعة، والحاكم مظهرها، وأن قُتِلَ الحاكم أو مات أقامت الجماعة مثله، أو خيراً منه، أما الحاكم المتسلط المتجبر فإنه جامع للناس على رغباته، فإن قُتِلَ أو مات تفرق الجمع وولى الأدبار. وهذه إشارات إلى العبر فى ذلك القصص الحكيم.

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢) ﴾ بعد ذكر تلك القصة المرشدة الهادية لكل مستبصر معتبر، بين الله سبحانه أن هذه الآيات المتلوة هى من عند الله، وهى تتلى بالحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنها تتلى على الرسول الكريم وهى معجزته وآية رسالته، وإنما ذلك بعد هذه القصة لما فيها من الدلائل الواضحة البينة التى تثبت رسالة النبى الكريم؛ لأن ذلك القصص الصادق جاء على لسان أمىٍّ لا يقرأ ولا يكتب، لم يجلس إلى معلم، ولم يأته علم لا بطريق كتاب يقرؤه؛ لأنه ليس بقارئ، ولا بطريق معلم يعلمه، ولا بتلقين من أى جهة كان التلقين، إذ كان ﷺ من أمة أمية ليس فيها علم مدون فى كتب، ولا علماء يتدارسون، ولم يكن جو علمى ينال منه الأريب بالخلطة والاتصال، ولم يكن محمد ﷺ فى حياته ذا نجعة وأسفار، بل لم ينتقل من مكة إلا مرتين كانت أولاهما وهو غلام، وكانت الثانية وهو يقارب الخامسة والعشرين.

فإذا كانت حال النبى كذلك والقصص جاء على ذلك النحو من الأحكام والإرشاد والتعليم وبيان سنن الاجتماع والحكم الأمثل والقيادة الرشيدة مع صدقه فى ذاته، فهو دليل على أنه من عند الله.

والإشارة فى قوله تعالى: ﴿تَلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ إلى الآيات المتلوة من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ... ﴿٢٤٦﴾﴾ [البقرة] إلى آخر القصة وكانت الإشارة للبعيد، لما فى ذلك من معنى الاستقصاء للآيات من أولها إلى آخرها ولعلو شأنها، وكمال معانيها والوفاء فى مقاصدها. وإضافة الآيات إلى الله لأنها جزء من القرآن وكله من عند الله، فالإضافة لتقرير هذا المعنى وتوكيده، وتنبيه الأذهان دائما إليه ليعطوه حقه من الفهم والتدبير والاسترشاد به، والاعتبار بما اشتمل عليه من مواعظ وقصص وعبر.

وقوله تعالى : ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ يفيد أمرين:

أولهما: أن القرآن كان يتلى على النبى ﷺ ويتلقاه بالروح الأمين. وإسناد التلاوة إلى الله العلى القدير مع أن الذى كان يلقى القرآن على النبى ﷺ هو جبريل - للإشارة إلى أن تلاوة جبريل هى تلاوة الله فهو رسوله الأمين إلى رسله المكرمين.

الأمر الثانى: أن ما فى القرآن حق دائما، أى أمر ثابت لا يقبل التغيير فليس لأحد أن يقول إن القرآن صالح لزمان دون زمان؛ لأنه الحق الثابت المستقر الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فعلى العقول أن تتفهمه وتتدبره ثم تخضع لأحكامه المستقرة الثابتة من غير محاولة للتغيير أو التبديل.

والتلاوة هى القراءة المتتابعة المفسرة الواضحة التى تتصل فيها المعانى وتتسابق فيها الألفاظ بحيث يكون الأداء ممثلا للمعنى مصوراً له. وقد قال الراغب فى مفرداته إن مادة «تلا» أصلها بمعنى تبع متابعة ليس بينها ما ليس منها، وذلك يكون تارة بالجسم، وتارة بالاقتداء فى الحكم ومصدره تَلْوٌ وَتُلُوٌّ، وتارة بالقراءة وتدبر المعنى، ومصدره تلاوة. . ثم قال:

«والتلاوة تختص باتباع كتب الله المنزلة تارة بالقراءة، وتارة بالارتسام لما فيها من أمر ونهى وترغيب وترهيب، وهى أخص من القراءة فكل تلاوة قراءة وليس كل قراءة تلاوة».

فالتلاوة خاصة بقراءة كلام الله سبحانه وتعالى بمقتضى التخصيص القرآنى.

وقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

وإن ذلك كالنتيجة؛ لأن الله سبحانه وتعالى يتلو عليه آياته بالحق والصدق، فإن تلك الآيات برهان النبوة ومعجزة الرسالة، وقد أكد الله سبحانه وتعالى رسالة رسولنا محمد ﷺ بثلاثة مؤكدات:

أولها: «إن»، فإنها فى أصل معناها للتأكيد، وهو يصحبها فى دلالتها دائمًا.

وثانيها: «اللام» فى قوله تعالى ﴿لَمِنَ﴾.

وثالثها: «الجملة الاسمية»، وإدخاله ﷺ فى عداد المرسلين.

وإن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ يدل على أمر آخر، وهو أن إرسال رسول من قبل رب العالمين أمر مقرر ثابت معروف عند أهل العلم فلم تكن رسالة محمد وهو من البشر بدعًا، ولا أمرًا غير مألوف أو معروف فلا يمارى فى أصل الرسالة إلا جهول، أو جحود.

وإن القرآن وحده حقا هو الدلالة على رسالة محمد ﷺ، فهو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض.

﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾

فى الآيات السابقة ذكر الله سبحانه وتعالى اصطراع الحق مع الباطل، وانتصار الحق فى المآل؛ لأن غلبة الباطل فيها فساد الأرض ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ** ... ﴿٢٥١﴾ ﴾ [البقرة] وذكر فى ختام الآيات السابقة أن النبى ﷺ من المرسلين الذين بعثوا لينصروا الحق، وليعم نور الله فى الآفاق.

وفى هذه الآيات التالية يبين سبحانه أن الرسل، وإن كانوا جميعًا مبعوثين من رب العالمين، ليسوا فى درجة واحدة، وأن بعثهم ينصر الحق ولا يمحو الباطل، ويرفع منار الهدى، ولا يزيل الضلال، ولكنه يكون ضلالا بعد البينات، ولا يكون ضلالا عن جهالة، فلا يعذر فيه الضال؛ ولذلك كان القتال بعد الأنبياء بين المهتدين والضالين، وتلك إرادة الله؛ وقد ابتلى الخير بالشر، والمهتدين بالضالين ﴿ **وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا** ... ﴿١٤١﴾ ﴾ [آل عمران].

﴿ **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ** ﴾ الإشارة هنا إلى جماعة الرسل الحاضرة فى ذهن التالى للقرآن الكريم، المستقرة فى وعيه بما ختمت به الآيات

السابقة، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ [البقرة]. والإشارة باللفظ الدال على البعيد، لبيان علو منزلتهم أجمعين، وأنهم المصطفون الأخيار، وأنهم مهما تتفاوت منازلهم فى رسالاتهم، هم جميعًا ليسوا كسائر الناس، فلهم شرف البعث والرسالة والاصطفاء.

والتفضيل مشتق من الفضل وهو الزيادة؛ فمعنى ﴿**فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ**﴾ هو كقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ** ... ﴿٥٥﴾﴾ [**الإسراء**] أى جعلنا لبعضهم زيادة فى بعض النواحى على البعض الآخر. والفضل هنا إضافى وليس بذاتى؛ أى أن هذا ليس من ذات الرسل، إنما هو بما يختص الله بعضهم من معجزات مغايرة لمعجزات الآخرين. ثم التفضيل إضافى لأنه يكون فى ناحية من النواحى، وقد يكون هناك ناحية أخرى فَضَل بها المفضول غيره؛ فموسى فَضَل على عيسى بأنه كلمه الله، وعيسى فُضِّل على موسى بأنه أحيا الموتى؛ فالتفضيل إذن إضافى فى موضوعه، وفى نوعه، وفى نواحيه.

وإن تفسير التفضيل على ذلك النحو فيه توفيق بين الآيات الكريمات المثبتة للتفضيل بين الرسل وبين ما ورد عن النبى ﷺ من النهى عن التخيير بين الأنبياء. فقد روى الأئمة الثقات أن النبى ﷺ قال: «**لا تخيروا بين الأنبياء**»(١) «**ولا تفضلوا بين أنبياء الله**»(٢) وفوق ذلك فإن النهى عن أن يجرى على ألسنة الناس تفضيل نبى بذاته على نبى آخر فتكون المشادة والملاحاة. وروى فى الصحيحين عن أبى هريرة قال: «استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال اليهودى؛ والذى اصطفى موسى على العالمين؛ فرفع المسلم يده فلطم بها وجه اليهودى وقال: أيْ خبيث! وعلى محمد ﷺ؟! فاشتكى المسلم، فقال ﷺ: «**لا تفضّلونى على الأنبياء**»(٣).

---

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى (٦٤٠٥): الديات - إذا لطم المسلم يهوديا عند الغضب، ومسلم (٤٣٧٨): الفضائل - من فضائل موسى عليه السلام] عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه.

(٢) رواه البخارى: أحاديث الأنبياء (٣١٦٢)، ومسلم: الفضائل (٤٣٧٦).

(٣) راجع السابق، وبهذا اللفظ رواه البخارى (٢٢٣٥): الخصومات - ما يكون فى الإشخاص والخصومة، عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ.

والنهى عن التفضيل منعا للمماراة لا ينفى حقيقة التفضيل المقررة، كما أن النهى عن سب الأوثان لا يثبت أنها واجبة الاحترام، إذ النهى لسد الذريعة، فلا يمنع ثبوت الحقيقة.

وإن هذه الآية الكريمة سيقت لبيان فضل بعض النبيين على بعض لكيلا يندفع بعض الناس إلى الجحود، فيقولوا: إننا نتبع النبى موسى أو عيسى دون محمد، وما داموا جميعًا أنبياء فأيهم نتبع يكون فى اتباعه النجاة؛ فبين سبحانه أنه فضل بعض الرسل على بعض فى الشريعة والزمان، فجعل محمداً شريعته عامة ناسخة لما عداها، ورسالته للناس كافة، وهو خاتم النبيين، وذلك من فضل الله؛ كما أن من فضله أنه كلم موسى تكليمًا، ومن فضله أن جعل عيسى يحيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص، ويخبر الناس بما فى بيوتهم، فليس لأحد أن يرفض شريعة محمد لأنه اختار شريعة عيسى، إذ إن من فضل الله الذى اختص به محمداً ﷺ أن جعل شريعته ناسخة لغيرها؛ لأنها آخر الشرائع، ولأن محمداً خاتم النبيين، ورسالته عامة شاملة للناس كافة، وكانت رحمة للعاملين.

﴿ **مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ** ﴾ فى هذه الجملة السامية من الآية الكريمة بيان لبعض وجوه التفضيل التى اختص الله سبحانه وتعالى بها بعض النبيين، وهى فى الحقيقة وجوه للتفضيل لا تتصل بأشخاصهم، بل تتصل برسالاتهم، وما تؤيده هذه المعجزات من شرائع، ومن تخاطبهم من أقوام تكون تلك المعجزات مناسبة لهم.

وفى هذه الجمل ذكر الله نبيين من أولى العزم من الرسل، وأشار إلى ثالث:

فأما الأول فهو موسى؛ قد أشير إليه بما يشبه النص بقوله: ﴿ **مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ** ﴾ فإن ذلك هو موسى عليه السلام، فقد قال سبحانه وتعالى فى شأن موسى عليه السلام: ﴿ **وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا** ﴿١٦٤﴾ ﴾ [النساء] وقال سبحانه: ﴿ **يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي** ... ﴿١٤٤﴾ ﴾ [**الأعراف**] وقال تعالى: ﴿ **وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا** ... ﴿١٤٣﴾ ﴾ [**الأعراف**].

فهـذه الآيات الكريمات تدل على أن الله سبـحانه وتعالى قد اخـتص موسى عليه السلام بكلامه، وهو إحدى طرق اتصال رب العـالمين بالمبعوث من خلقه، فقد قال تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ** (٥١) ﴾ [الشورى] وكلام الله سبحانه وتعالى مع موسى كان من النوع الثانى، وهو الكلام من وراء حجاب.

وكان خطاب الله سـبحانه وتعـالى بتكليمه من وراء حـجاب مناسبًـا لأقوام موسى؛ لأنهم قد غلبت عليهم المادية، وغلب عليـهم الجحود وإنكار الألوهية لرب السموات والأرض، حتى لقد قالوا: ﴿ **أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً** ... (١٥٣) ﴾ [النساء]؛ فكان المناسب لمثل هؤلاء الأقـوام أن يكون كلام الله للمـبعوث إليـهم مبـاشرة ولا يكون وحيًا يوحى، ولا برسول من الملائكة يرسله إليه، فما كان ذلك تشريفًا فقط لموسى، بل كان مع ذلك التشريـف مقصد يتفق مع حكمة الله سبـحانه وتعالى، وهو العلى الحكيم.

وليس معنى ذلك الاختـصاص أن الله سبحانه وتعـالى قد رفع الله به موسى عليه السلام علـى كل الرسل، بل إن الله سبحانه رفع بعض الأنبـياء درجات، وإن لـم يكن لهم ذلك الاختـصاص؛ لأن الله سبحانه وتعـالى هو الذى يرفع ويخفض، وهو الذى يختص برحمته واصطفائه من يشاء؛ ولذلك قال سبحانه وتعالى بعد ذكر تكليم الله لبعض رسله ﴿ **وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ** ﴾ فقرن هذه بكلام موسى لتدل على أن التكليم وإن كان شرفا عظيما لا يقتضى أن يكون الملك فوق الأنبياء منزلة، بل إن بعض من لم يكلمه الله رفعه الله درجات.

والدرجات جـمع درجة، وهى المنزلة الرفعيـة الساميـة، وفى التعبيـر بالجمع إشارة إلى علو المنزلة، وكبـر التفاوت بينه وبين غيـره ممن لم يؤت ما آتاه الله، وما نيط به من تكليف هو عين التشريف.

وإن الله سبحانه قد ذكر أنه رفع مقام بعض النبيين؛ فقد ذكر عن إدريس عليه السلام أنه رفـعه مكانا عليا، فـقال سبـحانه: ﴿ **وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا** (٥٧) ﴾ [مريم]

ولكن الرفع إلى مكان على غير الرفع درجات؛ لأن الرفع درجات يدل على التفاوت بينه وبين غيره كما قال تعالى فى حقوق الرجال والنساء: ﴿ **وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ** ... ﴿٢٢٨﴾ ﴾ [**البقرة**] أما الرفع إلى مكان علي فلا يدل على هذا التفاوت.

وإن ذلك الارتفاع درجات عن النبيين كان لنبينا محمد ﷺ، فهو ذو الدرجات الرفيعة؛ لمعجزته الباقية إلى يوم القيامة، ولشريعته الخالدة، ولعموم رسالته، ولأن أمته الآخذة بشرعه المتبعة له حقا وصدقا خير أمة أخرجت للناس. ولقد قال الزمخشرى فى ذلك المقام ما نصه: «الظاهر أنه أراد محمدا ﷺ؛ لأنه هو المفضل عليهم، حيث أوتى ما لم يؤته أحد من الآيات المتكاثرة.. ولو لم يؤت إلا القرآن وحده لكفى به فضلا منيفا على سائر ما أوتى الأنبياء؛ لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر دون سائر المعجزات. وفى هذا الإبهام - (أى أنه لم يذكر اسم محمد) من تفخيم فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى؛ لما فيه من الشهادة على أنه العلم الذى لا يشتبه، والمتميز الذى لا يلتبس، ويقال للرجل من فعل هذا؟ فيقال أحدكم أو بعضكم، يريد به الذى تعورف واشتهر بنحوه من الأفعال، فيكون أفخم من التصريح به، وأنوه بصاحبه. وسئل الحطيئة عن أشعر الناس فذكر زهيرا والنابغة، ثم قال: ولو شئت لذكرت الثالث، أراد نفسه، ولو قال: ولو شئت لذكرت نفسى لم يفخم أمره».

وإن القرآن الكريم قد جاء فيه ما يدل على رفعة محمد ﷺ درجات بشريعته، فقد كانت شريعته رحمة للعالمين كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً** ... ﴿٢٨﴾ ﴾ [**سبأ**] ورفعه سبحانه بمعجزته الكبرى وهى القرآن، فقد قال فيه سبحانه: ﴿ **وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم** ... ﴿٥٥﴾ ﴾ [**الزمر**] ولقد قال ﷺ: «**بُعثت إلى الأحمر والأسود، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا، ونصرت بالرعب مسيرة شهر، وأحلت لى الغنائم، وأعطيت الشفاعة**»[(١)].

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (١٣٧٤٥). ورواه البخارى (٤١٩) ومسلم (٨١٠).

بعد أن أشار سبحانه إلى علو منزلة النبى ﷺ، ذكر ما اختص به عيسى عليه السلام من فضل فقال: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وكان ذكر فضل النبى ﷺ بين فضل النبيين قبله للمسارعة إلى أنه مهما يكن ما اختص كل واحد منهما من معجزات ترفعه فمقامه ليس أعلى من مقام النبى ﷺ، بل للنبى فوق ذلك درجات.

ذكر الله سبحانه ما اختص به عيسى من فضل ﴿وَآتَيْنَا﴾ أى أعطينا ﴿عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أى المعجزات المبينة لصدق رسالته، من إحياء للموتى، وإبراء للأكمه والأبرص، وتصوير للطين كهيئة الطير، ثم يصير طيرًا بإذن الله، وإخبارهم بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم، وغير ذلك مما يدل على علو روحى، وأنه مؤيد من رب العالمين؛ وقال سبحانه فى فضله أيضا: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ والقدس أصل معناه الطهارة، وهو يطلق على الطهارة المعنوية؛ وروح القدس الذى أيد الله به عيسى عليه السلام هو جبريل الأمين، وهو فى عبارات الإسلام وفى لغة القرآن يطلق عليه؛ فقد قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ ... ﴿١٠٢﴾﴾ [النحل] أى أن القرآن الكريم نزل به الروح القدس الأمين؛ ولذا قال سبحانه فى آية أخرى ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء]. وقد قيل إن روح القدس هو الإنجيل؛ وذلك لا يختلف فى الجملة عن سابقه، إذ إن جبريل هو الذى نزل بالإنجيل والتأييد بروح المقدس حينئذ يكون مقصورا على نزول الإنجيل، ولكن إطلاق العبارة فى التأييد يشمل نزول جبريل بالإنجيل وتأييده بغير ذلك، فتفسير روح القدس بالإنجيل تفسير يؤدى إلى تأييد جزئى، أما تفسيره بجبريل الأمين فهو تفسير يؤدى إلى تأييد أوسع شمولا.

ولماذا خص سيدنا عيسى عليه السلام بأنه مؤيد بالروح القدس وهو جبريل، مع أن أكثر النبيين كانوا مؤيدين بنزول الشرائع من الله عليهم عن طريق جبريل؟ والجواب عن ذلك أن السيد المسيح عليه السلام لم يكن محاربا لخصومه، بل عاش حياته كلها بين خصومه وأعدائه الذين يتربصون به الدوائر، من رومان ووثنيين

ويهود ماديين، ولم يؤذن له فى القتال، حتى يتولى حماية نفسه بسيفه وسيوف أنصار الحق معه، كالشأن بالنسبة لموسى وداود وسليمان، ومحمد ﷺ، فكان يتولى حمايته رب العالمين بملائكته الأطهار والأمين جبريل يعاونه، ولعله هو الذى أنقذه من بنى إسرائيل وقد بسطوا أيديهم لقتله، وأغروا به الرومان ليقتلوه، فرفعه الله سبحانه وتعالى إليه.

﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ** ﴾ أرسل الله سبحانه وتعالى رسله، وخص كل رسول بمعجزات قاطعة من شأنها أن تهدى إلى الصراط المستقيم إن استقامت الفطرة، ولم تنحرف العقول، ولم يطمس على القلوب؛ ولكن الدليل وحده لا يهدى، بل لابد من نفوس متقبلة، واتجاه لطلب الحق اتجاها مستقيما؛ ولذلك لم يكن الناس متفقين فى تلقى ما جاء به الرسل بل كان منهم من غلبت عليه شقوته، فحارب الحق وحارب النبيين معه، ومنهم من آمن واهتدى، فكانت المغالبة بين الحق والباطل، والهداية والضلالة؛ وكان الاقتتال بين أنصار الحق، وأنصار الباطل، وبين الضالين والمهتدين؛ لا يترك الضالون الحقَّ يسير فى مجراه، ويصل فى القلوب إلى منتهاه، بل يقاومونه، وينزلون الأذى بأهله.

وهنا يتساءل العقل البشرى: لماذا لم يكن الناس جميعا على شرع سواء؟ ولماذا لم يكن الناس جميعا على الهداية؟ فبين سبحانه وتعالى أن تلك مشيئته، وهذا هو التكوين الذى كون الخلق عليه؛ ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم** ﴾، أى لو شاء ألا يقتتل الذين جاءوا من بعد الرسل ما اقتتلوا، فالمفعول للفعل شاء محذوف دل عليه جواب الشرط؛ والمعنى أن الذين جاءوا من بعد الرسل بعد أن بين لهم الرسل المحجة الواضحة البيضاء التى لا يضل فيها سالك، قد اقتتلوا حولها ما بين مؤيد لها، ومعاند كافر بها؛ ولو شاء الله سبحانه ألا يكون فى كل نفس استعداد للطاعة، واستعداد للعصيان، ونزوع إلى الشر، واتجاه إلى الخير، كما قال تعالى فى تكوين الإنسان: ﴿ **وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ** (١٠) ﴾

[البلد]، أى خلقناه وفى نفسه استعداد للسير فى نجد الخير، واستعداد للسير فى نجد الشر، وكما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨)﴾ [الشمس]، وإذا كانت النفوس كذلك، فمنهم من يغلب عليه الخير فيطلب الحق ويهتدى به، ومنهم من يغلب عليه الشر فيعرض عن الخير فيطلب الحق ويهتدى به، ومنهم من يغلب عليه الشر فيعرض عن الخير وينأى بجانبه؛ فالأولون يؤمنون بما جاء به الرسل، والآخرون يكفرون بالحق الذى جاءوا به؛ ولذا قال سبحانه بعد ذلك: ﴿وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ أى اختلفوا فى النفوس والعقول والمدارك، واستقامة الفطرة وانحرافها؛ فترتب على ذلك أن كان منهم من آمن لأن قلبه يتجه إلى الحق اتجاها مستقيما، ومنهم من كفر لأن قلبه عمى عن إدراك الحق، واستولت عليه النزعات المردية، فاتخذ إلهه هواه.

وهنا إشارات بيانية من أسرار إعجاز القرآن، فلنذكر بعضها مما أدركته مداركنا:

- ومن هذه الإشارات البيانية الرائعة، أن الله سبحانه وتعالى ذكر المسبب قبل أن يذكر السبب؛ لأن الاختلاف فى الإيمان هو سبب الاقتتال؛ فذكر الله سبحانه وتعالى أولاً الاقتتال الذى هو النتيجة لهذا الاختلاف، للإشارة إلى بيان أسوأ أحوال الاختلاف، ليبين للناس ما يتعرض له الدعاة إلى الحق من تعرضهم للقتل والقتال، وللإشارة إلى أنه سبحانه وتعالى قادر على إزالة الاقتتال فى ذاته حتى مع وجود أسبابه؛ فالله سبحانه وتعالى لا يتقيد بالأسباب والمسببات؛ لأنه سبحانه وتعالى خالق الأسباب والمسببات، وهو الرابط بين الأشياء ونتائجها؛ وليقرن سبحانه وتعالى أسوأ النتائج بخير المقدمات، فيتبين الناس مقدار ضلال العقل البشرى إن انحرف عن فطرته.

- ومن الإشارات البيانية قوله تعالى: ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾، ففى ذلك بيان مقدار ما فى حيز الإنسان من حب المنازعة، وما استقر فى ثنايا الإنسان من تنازع بين الخير والشر فى أنفس الآحاد وأنفس الجماعات؛ لأن ذلك الاقتتال بعد

أن جاءتهم البينات أى الأدلة الواضحة المعلنة للحق الكاشفة له، فليس اقتتالهم عن جهالة، بل هو بعد أن تبين الحق ووضحت معالمه؛ وذلك لأن الهوى يعمى، والأعمى لا يبصر ولو كانت الشمس مشرقة.

- الإشارة الثالثة: الاستدراك فى قوله تعالى: ﴿وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا﴾ فإن هذا الاستدراك يشير إلى أمرين:

أحدهما: أن الله سبحانه وتعالى لم يشأ أن يزيل القتال؛ لأنه سبحانه وتعالى خلق الناس مختلفى المنازع، منهم من يتقبل الحق ويصغى فؤاده إليه، ومنهم من يعرضون عنه ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النور].

الأمر الثانى الذى دل عليه هذا الاستدراك: أن مجىء البينات المعلنة الكاشفة كانت توجب أن يكونوا جميعًا مجيبين، ولكنهم كانوا مختلفين، فالناس ليسوا سواء.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ الاقتتال خالد إلى يوم القيامة؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال لآدم وزوجه وإبليس: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ... ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة]، وقد كان القتال السابق بسبب الإيمان والكفر أو بسبب إجابة بعض الناس للأنبياء وجحود الآخرين لرسالات الرسل بعد أن قامت عليها البينات، وثبتت دعوة الحق بالأدلة؛ وهنا يبين بشكل عام أن الله سبحانه لو شاء لمنع الاقتتال سواء أكان الاختلاف على غرض من الأغراض؛ فإن المغالبة فى طبيعة الإنسان؛ ذلك أن فى الإنسان بطبعه حبا للعلو، والمنازع مختلفة، والقوى متباينة، والفرص قد تواتى فريقا، وتناوئ فريقا، وإذا اتحدت القوى والفرص فقد يحدث موانع لهذا لا تحدث لذاك، وبهذا يعلو فريق على فريق، فيكون النزاع، ويكون الغلاب ويكون الاصطراع، ويسرى ذلك التعالى فى كل شئ فى السلطان وفى التجارة، وفى الاقتصاد، بل فى المذاهب الاجتماعية.

وإذا وجد ذلك الصراع فسيكون من ورائه - إن اشتد - القتال، ولو شاء الله لجعل بنى آدم على طبيعة الملائكة لا يتنازعون، ولا يتقاتلون، ولكن الله الذى خلق

السموات والأرض فأتقن كل شئ خلقه، خلق طبيعة الإنسان تتأدى إلى ذلك النوع من المغالبة؛ ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ فإنه لما وجد الاعتراض بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا﴾ كرر مشيئة الله سبحانه؛ ليعقبها بقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

ولكنا نميل إلى تعميم الاقتتال بتعدد أسبابه من غير نظر إلى مجرد الاختلاف بسبب الإيمان والكفر.

والاستدراك فى قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ فيه الإشارة إلى أنه سبحانه لم يشأ منع الاقتتال، بل أراد أن تكون هكذا طبيعة الإنسان، وهو العلى القدير، فعال لما يريد.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ﴾ بعد أن بين سبحانه أن الاقتتال قائم فى الدنيا، وأن الحق لا ينال فى راحة واطمئنان؛ لأن البغى والعدوان فى طبيعة كثير من بنى الإنسان؛ وإذا كان الحق فى ذاته أنبل ما يطلبه ابن الإنسان فإن الطريق إليه ليس خاليًا من مَذْأَبةٍ من ابن الإنسان؛ وإذا كان ابن آدم قد قتل أخاه؛ لأنهما قربا قربانًا فتقبل من أحدهما، ولم يتقبل من الآخر، فقال من رُدَّ عليه قربانه لأخيه: لأقتلنك، وقتله؛ فالنزاع مستمر؛ لذلك ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج] فكان لابد من أخذ الأهبة، وبذل النفس، ثم بذل النفيس أيضًا.

ولذلك أمر سبحانه وتعالى المؤمنين بأن يستعدوا للقتال بالإنفاق فى سبيل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أى أنفقوا فى سبيل الله. فالإنفاق فى سبيل الله هو الإنفاق فى سبيل الحق، وسبيل كل خير فى هذا الوجود، فكل ما ينفق فى سبيل الفضيلة من إعطاء لليتامى والمساكين وابن السبيل، وإقامة دعائم الاقتصاد الفاضل، والعمران الشامل هو مما ينفق فى سبيل الله، وأقواها مما ينفق فى سبيل حماية الحوزة، والدفاع عند الاعتداء.

وإن إنفاق المال فى سبيل الله على المعنى الذى وضحناه هو عنصر القوة فى الأمة، وبالقوة تستطيع الأمة أن تدافع عن نفسها، وترد كيد أعدائها فى نحورهم.

وكان الإنفاق على ذلك النحو عنصر القوة فى الأمة لثلاثة أسباب:

أولها: أن المال عدة التسليح، ولا قتال من غير سلاح يفلُّ شوكة العدو ويدفع كيده، بل يمنعه من أن يفكر فى الاعتداء، فإنه لا شئ أنفى للقتال من السلاح؛ فذو الناب لا يعدو على ذى الناب، وتعدو الذئاب على من لا كلاب له.

وثانيها: أن الإنفاق فى سبيل إقامة العمران رفع لمستوى الأمة الاقتصادى، والاقتصاد سلاح ماض، والحرب اليوم تلبس لبوس الاقتصاد فى الحصار الاقتصادى والتضييق التجارى.

وثالثها: أن الإنفاق على ضعفاء الأمة يجعل منهم سواعد قوية تحمى الذمار، وإن تركهم يجعل منهم شوكة فى جنب الدولة يعوقها عن العمل، وقد يكونون قوة مدمرة مخربة، وإن الهرة إذا جوعتها انقلبت ذئبًا.

وقد قال سبحانه وتعالى فى المال المنفق منه ﴿**مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ**﴾ إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أفاض بنعمته على الغنى فهيأ له الأسباب، ومكنه من الفرص، ومنع عنه العوائق، فإن أنفق فى سبيل الله فأعطى المجاهدين، والضعفاء، فمن المال الذى مكنه الله منه أنفق؛ ولقد قال ﷺ: «**ابغونى فى ضعفائكم، فإنما تنصرون وترزقون بضعفائكم**»[1].

والإنفاق المطلوب فى هذه الآية واجب، بدليل الوعيد الذى تضمنه الطلب؛ ولذا قال كثير من المفسرين إن الإنفاق المطلوب فى هذه الآية هو الزكاة، والزكاة ينفق منها فى الجهاد وللفقراء والمساكين وابن السبيل والغارمين؛ ففيها كل المعانى التى تتحقق بها قوة الأمة من حماية للحوزة وسد للخلة، وإقامة للعمران.

وإنا نوافقهم على أن الإنفاق المطلوب فى هذه الآية إنفاق واجب؛ ولكنه أعم من الزكاة، فليس الإنفاق الواجب مقصورا على الزكاة . . بل الإنفاق فى الحرب

---

(١) سبق تخريجه.

عندما تشتد الشديدة، ولا يكون فى بيت المال ما يكفى - يكون واجبا. والإنفاق على الفقراء إذا لم تكف الزكاة يكون واجبًا؛ فالقصر على الزكاة ليس بصحيح.

وقد ذكر الله سبحانه وعيدًا شديدًا لمن لا ينفق فى سبيل الله فقال سبحانه: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ﴾ والخُلَّة المودة والمحبة، وأصلها من الخلل بمعنى الفرجة بين الشيئين، وقد جاء فى مفردات الراغب ما نصه: «الخُلَّة المودة، إما لأنها تتخلل النفس أى تتوسطها، وإما لأنها تُخِلُّ بين النفس فتؤثر فيها تأثير السهم فى الرميّة، وإما لفرط الحاجة إليها؛ يقال منه خاللته مخاللة وخلالا فهو خليل». والشفاعة مأخوذة من الشفع بمعنى الضم، فالشفاعة الانضمام إلى آخر ناصرا له وسائلا عنه، وأكثر ما تستعمل فى انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى من هو دونه، ومنه الشفاعة يوم القيامة.

وقد صرح سبحانه وتعالى بأن الإنفاق يجب أن يتداركه المنفقون قبل أن يأتى اليوم الذى لا يجدى فيه بيع ولامودة ولاشفاعة. ولا شك أن هذا اليوم هو يوم القيامة، ولكن ما المراد من نفى البيع والصداقة والشفاعة فيه؟.

هناك منهاجان فى معنى هذا النفى:

أحدهما: أن معنى هذا النفى أنه يوم لا بيع فيه أى لا تجارة حتى يدفع الحرص عليها إلى عدم الإنفاق، ولا صداقة حتى يؤثر الإنفاق عليها أو طلب المادة عن طريقها فى عدم الإنفاق، أو شفاعة أى طلب المال بطريق شفاعة الشفعاء ووساطة الوسطاء، والمعنى على هذا: أنفقوا قبل أن يجىء اليوم الذى لا تجدون فيه جدوى للمال بتجارة، أو بصداقة تتبادل فيها المنافع المعنوية والمادية، أو بشفاعة شفعاء يطلب المال عن طريقهم. والمغزى فى هذا أنه إذا غرتكم فوائد المال فى هذه الأبواب الدنيوية، فأنفقوا لتتقوا بهذا الإنفاق اليوم الذى لا تروج فيه هذه الأسباب، بل يحكم فيه الحكم العدل مالك الملك.

والمنهاج الثانى: أن يكون المراد نفى هذه الأمور فى الآخرة؛ فالمعنى: أنفقوا قبل أن يأتى اليوم الذى لا تستطيعون فيه أن تفتدوا نفوسكم بعدل تقدمونه فيكون

كالبيع، ولا تجدون صديقا يدفع عنكم، ولا شفيعا يشفع لكم فيحط من سيئاتكم إلا أن يأذن رب العالمين. والمغزى على هذا يكون الوعيد فيه أشد وأوضح؛ لأن المعنى نجوا أنفسكم بالإنفاق قبل أن يكون زمان لا منجاة فيه.

﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ذيلت هذه الآية الكريمة بهذه الجملة السامية للإشارة إلى أن المؤمنين عدول إذا قاتلوا الكافرين؛ لأنهم هم الذين اعتدوا، وإلى أن الذى يقع بهم من عقاب يوم القيامة يستحقونه، وإلى أنهم هم الذين حركوا ذلك الشر، وأنهم هم الذين أشعلوا نيران الحروب بالشر الذى كان فى نفوسهم.

ثم إن الكافرين ليس ظلمهم فقط لغيرهم، بل ظلمهم لأنفسهم، لأنهم طمسوا قلوبهم، وجعلوا أنفسهم فى شدة وبلاء، ثم هم ظالمون فيما بينهم؛ كبراؤهم يظلمون ضعافهم، وضعفاؤهم يظلمون أنفسهم، بالاستضعاف والحياة الهون بينهم، وظلموا أنفسهم بأن حرموها من سعادة الإيمان وبرد اليقين ونور الحق، ورضوان الله ونعمة الله ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ... (٤٥)﴾ [يونس].

لكل هذه المعانى كانوا ظالمين، وقد أكد الله سبحانه وتعالى ظلمهم بالقَصْر، أى قصر الظلم عليهم؛ لأنه لا ظالم غيرهم؛ وبالجملة الاسمية والضمير المنفصل.

هدانا الله إلى سبيل الحق والعدل والنور، إنه سميع مجيب الدعاء.

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا
فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ
أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا
شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ
وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥

اقتتل الذين جاءوا بعد النبيين كما بينت الآية السابقة، واختلفوا فى تلك الحقيقة المقررة الثابتة التى دعا إليها النبيون منذ أول مبعوث رحمة للعالمين؛ ولقد ناسب أن يبين سبحانه بعد ذكر الخلاف ثم القتال ما جعله المشركون موضع خلاف، وهو فى حقيقة الأمر فوق كل خلاف إن استقامت العقول، وسلمت الفطرة، ولم يُدَسِّ النفس فى الشر نازغ الشيطان، ويضل ابن آدم حتى يطمس فى قلبه نور البرهان.

ولذلك قال سبحانه: ﴿**اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾ وهذه الآية الكريمة تذكر صفات الله تعالى وسلطانه وكمال وجوده، وفيضه بنعمة الوجود على كل شيء فى الوجود. ولقد ذكر العلماء أنها تشتمل على حقيقتين مقررتين تؤكدان معنى الوحدانية، وتربيان المهابة الإلهية فى قلب كل مؤمن صافى السريرة قد خلا قلبه من كل رين الشرك؛ ومن مظاهر العبودية لغير الله سبحانه وتعالى:

الحقيقة الأولى: أنها تشتمل على عشر جمل، كل جملة منها تشتمل على وصف أو وصفين فيه بيان كمال الله العلى الأعلى، وسلطانه الشامل الكامل، وألوهيته الحق المستقرة فى ثنايا كل نفس إلا من ختم الله على قلبه.

الحقيقة الثانية: أنها أكثر آى الكتاب الكريم ذكرًا لله رب العالمين. ولقد ذكر بعض العلماء أن الله العلى العليم ذكر فيها بالاسم الظاهر أو الضمير أكثر من سبع عشرة مرة، وقد أحصاها عدا.

ولاشتمال تلك الآية الكريمة على ذكر الاسم المقدس، وتنزيهه سبحانه وكمال سلطانه، وامتيازها بتكرار ذكر الله ـ ذكر كثير من العلماء أنها أعظم آية فى كتاب الله، واستندوا فى ذلك إلى أخبار صحاح وردت فى صحاح السنة، من أقوال النبى الأمين(١). والقرآن كله فوق قدرة العقل البشرى، وهو فى ذاته أعظم كتاب نزل من

---

(١) عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِى أَىُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟ قَالَ: قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِى أَىُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ. قَال: فَضَرَبَ فِى صَدْرِى وَقَالَ: «وَاللَّهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ» [رواه مسلم: صلاة المسافرين - فضل سورة الكهف وآية الكرسى].

رب العالمين؛ لأنه كتاب الحقيقة من بدء الخليقة؛ ولا نرى ما يمنع أن تتفاوت آياته في العظم، وإن كان أصل العظم المتسامى عن قدرة البشر محققًا مؤكدًا فيه كله، وفي كل آية بخصوصها.

﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ تلك هى الجملة السامية الأولى من الجمل العشر التى اشتملت عليها الآية الكريمة، ولفظ الجلالة «الله» قال العلماء: إن أصله: إله، دخلت عليه أداة التعريف «أل» وحذفت الهمزة فصارت: الله. وهى بهذا المعنى تفيد التعريف بأنه وحده هو الإله، فهى تتضمن معنى الألوهية المنفردة؛ دلت على ذلك «أل» التى تفيد التعريف، فمعنى كلمة الله: الإله المنفرد بالألوهية التى لا يشاركه فيها سواه؛ وعلى ذلك تكون كلمة الله تفيد معنى استحقاق العبادة، ومعنى الوحدانية، ومعنى الكمال كله؛ لأنه المنفرد بذلك كله؛ فإذا أطلق اللفظ انصرف إليه، ولم يفهم منه سواه؛ تعالى سبحانه عن الشبيه والمثيل، والمقارب والنظير.

وإن ذلك المعنى المفهوم من لفظ الجلالة وأصل اشتقاقه قد صرح به فى هذه الآية الكريمة؛ فقد قال سبحانه: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ فهو تصريح بما فهم ضمنًا مما قبله، فاجتمعت فى الدلالة على الوحدانية الدلالتان: الدلالة التضمنية، والدلالة اللفظية، أو الدلالة بالإشارة، والدلالة بالعبارة؛ فكان فى ذلك تأكيد فضل تأكيد لمعنى الوحدانية فى الألوهية. ومعنى قوله تعالى: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ لا معبود بحق إلا هو، وهذا هو المعنى الذى اختاره جمهور المفسرين، وهو واضح، وفيه إشارة إلى وقائع الأمور؛ ذلك لأن بعض الناس عبدوا غير الله تعالى، فعبد بعضهم الشمس والكواكب، وعبد بعضهم النار، وعبد بعضهم الأوثان، واعتبروا كل هذه آلهة، فكانت عبادتهم باطلة وبغير حق إنما المعبود حقا، والمستحق للعبادة صدقا هو الله سبحانه وتعالى، وهو العليم الحكيم، العلى القدير.

ولقد سلك بعض العلماء مسلكا آخر فى تفسير قوله تعالى: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ فذكر أن معنى الألوهية هو تسخير الكون كله لقوة القادر الغالب على كل شيء، وتعلق الخلق كله بخالقه، واتصاله به اتصال إنشاء وتكوين، ثم اتصال تدبير

وتنظيم، ثم اتصــال خضوع وسـيطرة كاملة، وتعلــق به سبحــانه. وعلى هذا يكون المعنى: لا منشئ ولا خالق ولا مسخر ولا مسيطر على الوجود إلا رب الوجود وهو الله سبحانه وتعــالى، ولا خضوع إلا لقدرته، ولا تتعلق الأشيــاء إلا بذاته سبحانه وتعالى؛ وإذا كان كــذلك فإنه لا مستحق للعــبادة سواه؛ وبذلك يجيء المعنى الأول نتيجة لهذا المعنى وثمرة له، وهما بهذا متلاقيان.

وفى الحق أن أصل اشــتقــاق كلمة «إله» يــتضــمن معــانى الخلق، والعبــادة، والمحبة، والضراعة إليه سبحانه. ولننقل عبــارة الأصفهانى فى أصل اشتقاقها، فإنها فى هذا شاملة كاشفة؛ فقد قال:

«وإله جعلوه اســمًا لكل معبــود لهم، وسموا الشمس إلهــا؛ لاتخاذهم إياها معبودًا، وألَهَ فلان يأله عَبَد، وقيل تَألَّه؛ فالإله على هذا المعنى هو المعبود، وقيل هو من ألَه أى تَحيَّر. . وذلك أن العبد إذا تفكر فى صفاته تحير فيها؛ ولذا قيل: تفكروا فى آلاء الله ولا تفكــروا فى الله. وقــيل أصل إله ولاه، فــأبدل من الواو همــزة، وتسمــيتــه بذلك لكون كل مخلوق وَالِهًــا نحوه، إمــا بالتســخير فــقط كالجــمادات والحيوانات، وإما بالتــسخير والإرادة معًا كبــعض الناس. ومن هذا الوجه قال بعض الحكماء: الله محبوب الأشياء كلها. ودل عليه قوله تعالى: ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ... (٤٤)** ﴾ [**الإسراء**].

﴿ **الْحَيُّ الْقَيُّومُ** ﴾ هذا خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو الحى القيوم. والحى هو ذو الحياة الكاملة، والحياة الكاملة مظهرها الشعور والإدراك والعلم، وهى كمال الوجود فى المحسوسات والمخلوقات، ولكنها بالنسبة لله سبحانه وتعالى صفة كمال له جلت قدرته، مظــهرها العلم والإرادة والقدرة، والخــلق والتكوين! فإنه وإن اشــترط لفظ الحياة بين الباقى والفانى، فمعناه فى الفانى لا يليق بذاته، ومعناه فى الباقى سبحانه وتعالى يليق بذاته العلية ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ... (١١)** ﴾ [**الشورى**].

والحياة على هذا صفة كمال قــد وصف الله سبحانه وتعالى بها ذاته الكريمة، والعقل يوجب اتصافه ســبحانه بها؛ لأنها من كمال الوجود؛ والله ســبحانه وتعالى

هو وحده كامل الوجود، وفوق كل موجود. وقد ذكر الأستاذ الشيخ محمد عبده بيان وجه الكمال فى صفة الحياة له سبحانه، فقال فى رسالة التوحيد:

«إذ وجب أن يكون له سبحانه صفة الحياة، وهى صفة تستتبع العلم والإرادة؛ وذلك أن الحياة مما يعتبر كمالا، للوجود بداهة؛ فإن الحياة مع ما يتبعها مصدر النظام وناموس الحكمة، وهى فى أى مراتبها مبدأ الظهور والاستقرار، فهى كمال وجودى، ويمكن أن يتصف بها الواجب، وكل كمال وجودى يمكن أن يتصف به وجب أن يثبت له، فواجب الوجود حى، وإن باينت حياته حياة الممكنات، فإن ما هو كمال للوجود إنما هو مبدأ العلم والإرادة، ولو لم تثبت له هذه الصفة لكان فى الممكنات ما هو أكمل منه وجودا.. والواجب هو واهب الوجود وما يتبعه فكيف يكون فاقدًا للحياة ويعطيها؟».

وإذا كان الله سبحانه وتعالى حيا ذا إرادة كاملة، وعلم شامل، وقدرة قاهرة، فإن الكون نشأ بإرادته، وقام بسلطانه، وهو فوقه والمسيطر عليه، ولم ينشأ عنه سبحانه كما ينشأ المعلول عن علته، كما قال بعض الفلاسفة قديمًا، وكما يزعم بعض الماديين حديثًا، ممن ينكرون القوة الغيبية المسيطرة القادرة المريدة.

و﴿**الْقَيُّومُ**﴾ معناه القائم بنفسه الذى لا يقوم بغيره، فلا يحل فى شخص ولا فى شىء؛ والقائم على كل شىء بالتدبير والحياطة والكلاءة ﴿**مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ** ... ﴿٤٢﴾﴾ [**الأنبياء**] والقائم على كل نفس يحصى عليها ما كسبت وما اكتسبت، والقائم الدائم الذى لا يفنى ولا يزول.

ويظهر أن كلمة قَيُّوم بهذا المعنى كانت معروفة عند العرب وصفًا لله سبحانه وتعالى؛ فقد قال أمية بن أبى الصلت:

لم تُخلق السماءُ والنجومُ ... والشمسُ معها قمر يقومُ
قدَّره مهيمنٌ قيومُ ... والحشرُ والجنةُ والنعيمُ
إلا لأمْرٍ شأنُهُ عَظِيمُ

وأصل اشتقاق قيوم من قام يقوم قياما، ووزن قيوم فيعول، أصلها قيووم، اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء فى الياء.

﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾ هذا وصف سلبى يؤكد الوصف الإيجابى السابق؛ فإن قيامه سبحانه وتعالى على الكون وكلاءته له يقتضى ألا تأخذه سِنة ولا نوم؛ لأن الحركة المستمرة للعالم، والبنيان الذى ارتبطت به أجزاؤه يقتضيان ألا تعرض غفلة للقائم عليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ... (٤١)﴾ [فاطر]. ولأن السِّنة والنوم من أعراض الجسم الحيوانى، سواء أكان ناطقا أم كان غير ناطق، والله سبحانه وتعالى منزه عن مشابهة الحوادث، وليس سبحانه وتعالى جسما، وليست له أعراض أى جسم. والسِّنة هى النعاس، وهو ما يسبق النوم من فتور، وقيل إن السِّنة أسبق من النعاس؛ وذلك أنه تحدث ثلاث مراتب عند وجود أسباب النوم: أن يُحِسَّ الشخص بفتور ويبتدئ يفقد سيطرته على أعضائه، ثم يجئ النعاس، فتتراخى العين، وتبتدئ الأعضاء كلها فى التراخى؛ ثم يحصل النوم، وبه يفقد الشخص وعيه؛ ولذا قال المفضل: «السِّنَة، من الرأس، والنعاس فى العين، والنوم فى القلب» والسِّنة أصلها وَسْنة، حذفت الواو ثم كسرت السين ليمكن الابتداء بها؛ ففعلها وسَن. وقد قال عَدِى بن الرِّقاع:

وَسْنان أَقْصَدَهُ النُّعَاسُ فَرَنَّقَتْ ... فِى عَيْنِهِ سِنَةٌ ولَيْسَ بِنَائِمِ

ولقد كان مقتضى النسق أن ينفى عنه سبحانه النوم، ثم ينفى السِّنة؛ لأن نفى النوم لا يقتضى نفى السِّنة، وعلى العكس نفى السِّنة يقتضى نفى النوم.

ولكن عدل عن ذلك؛ بنفى السِّنة ثم نفى النوم لمعنى بلاغى؛ ذلك أن الترتيب الطبيعى لهذه الحقائق فى الوجود أن السِّنة تسبق النوم، وإن ذلك الترتيب الطبيعى يعطى للقارئ صورة حية للتالى لكتاب الله تعالى، إذ يتصور الذين يعرض لهم النوم كيف يبتدئ بالسنة ثم النعاس ثم النوم؛ وإذا تصور ذلك المنظر الطبيعى تصور معه الضعف الإنسانى أمام سلطان النوم بمقدماته؛ وإذا تصور ذلك تبينت له استحالة

ذلك على الله سبحـانه وتعالى القوى القادر القـاهر لكل شيء، فكان ذلك الترتيب الطبيعى فيه إشارة إلى دليل مانع من أن يوصف المولى العلى القدير بهما.

وفى التعبير بقوله سبحانه: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ إشارة أخرى إلى استحالة قيامهما بالذات العلية فقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ﴾ فيها دلالة على القوة القاهرة للنوم، وأنها تأخذ الحىَّ أخذًا، وتقهره قهرًا؛ وذلك مستحيل أن يكون للقاهر فوق عباده.

والنوم معـروف، وهو حقيـقة ترى، كمـا يرى الضوء، وكمـا تحس الحرارة، ولكن ما سببه؟ وقـد اتفق المتقدمون والمتأخرون على أن سببـه التعب الجسمى، وإن كانت عبـاراتهم مختلفـة فى تأثير التعب على الجسـم حـتى يكـون منه النـوم، فيقـول البيضاوى فى تفـسيره: «النوم حال يعرض للحـيوان من استرخـاء أعصاب الدماغ من رطوبات الأبخرة المتصاعـدة، بحيث تقف الحواس الظاهرة عن الإحساس رأسا».

وقال علمـاء العصـر: (إن النوم وقوف سلطان المخ على الأعـضاء بسـبب ما تولده الحـركة من السـمـوم الغازية المؤثـرة فى العصب). وقـيل بسـبب ما تفـرزه الحويصلات العصـبية من الماء الكثير وقت العمل، فكثـرة هذا الماء تضعف قوة تأثير المخ فى العضلات، فيحدث الفتور، فـيكون النوم، ويستمر ذلك إلى أن يتبخر ذلك الماء، وعند ذلك تتنبه الأعصاب ويرجع إليها تأثرها وإدراكها».

﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ فى هذه الجمـلة الساميـة إثبات كـمال سلطانه سبحانه، وتمام سيطرته على الكون؛ لأنه ملكه، ولا مـالك فيه غيره. وذكر السموات بالجمع، للإشارة إلى ملكية كل دقائقها، وكل نواميسها وسننها، فهو الذى يغيـر فيـها ويبـدل، وهو الذى أوجدها على ذلك النسق البـديع المحكم الذى ربط أجزاءها بأواصر قـوية. وكان إفراد الأرض مع جمع السموات للإشـارة إلى وحدتها فى الجملة بالنسبة لعالم السمـوات، وإن كانت الأرض طبقات؛ وللإشارة إلى أن ما فى الأرض ليس إلا مظهـراً من حركات السـماء، وأن الأرض شىء صـغيـر بجوار السموات وما فيها.

والجملة السامية تفيد الملكية المطلقة لرب العالمين، فيملك ما فيها من حى وجماد، ومن ناطقين وغير ناطقين، والجميع فى قبضة العليم الخبير.

وتقديم الجار والمجرور وهو «له» لإفادة القصر، أى ملك السموات والأرض له سبحانه، فليس لأحد سواه، فهو المنفرد بالسلطان فيها، والملكية لها؛ فهذا القصر يدل على الوحدانية فى الخلق والتكوين، كما يدل قوله تعالى: ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ... ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة] على الوحدانية فى العبادة.

﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ الاستفهام فى هذه الآية إنكارى بمعنى النفى، أى لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه؛ وسيق النفى بطريق الاستفهام للإشارة إلى استحالة ذلك كأنه قد سئل وبحث عن نظير تكون له قدرة الخالق البارئ حتى يكون شفيعًا عنده قريبًا منه يؤثر فى إرادته، فلم يوجد؛ لأن ذلك مستحيل استحالة مطلقة.

والشفيع يكون بمعنى النصير للمشفوع لأجله، المعاضد له، ويكون فى مرتبة المشفوع عنده أو قريبًا منه؛ لأنه يؤثر فى إرادته، ويحوله من نظر إلى نظر، وله معه أو عنده سلطان أو شركة فى أمره؛ وإن ذلك مستحيل على الله سبحانه وتعالى، فلا نظير له سبحانه؛ إنه القادر فعال لما يريد، فلا إرادة لأحد بجوار إرادته سبحانه، إنما الإرادة له وحده؛ ولذلك كان أكثر العلماء على أن هذه الجملة السامية سيقت لبيان عموم سلطانه، وأنه قد انفرد بالتدبير، فلا إرادة لأحد فى سلطانه غير إرادته.

ولقد قال البيضاوى، وهو من أئمة أهل السنة، فى تفسير قوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ «بيان لكبرياء شأنه، وأنه لا أحد يساويه أو يدانيه، يستقل بأن يدفع ما يريده شفاعة واستكانة، فضلا عن أن يعاوقه عنادًا أو مناصبة أى مخاصمة».

وإنه من كمال سلطانه وشمول إرادته أنه لا إرادة لأحد إلا مشتقة من إرادته؛ ولذا كان الاستثناء فى قوله تعالى: ﴿إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ أى أنه لا يكون لأحد إرادة إلا إذا كانت مستمدة من إذنه؛ فهو المسيطر على كل شئ، يعطى من يشاء ويمنع من

يشاء، ويأذن لمن يشاء، ويعطى لمن يشاء إرادة فى سلطان إرادته، هو المنفرد بالأمر والتدبير.

وأصل كلمة الشفاعة من الشفع بمعنى الضم، ولقد وضحها الأصفهانى فى غريب القرآن، فقال:

«الشفع ضم الشيء إلى مثله.. والشفاعة الانضمام إلى آخر مناصراً له وسائلا عنه؛ وأكثر ما يستعمل فى انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى من هو أدنى، ومنه الشفاعة فى القيامة؛ قال تعالى: ﴿**لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا** ﴿٨٧﴾﴾ [مريم] وقال تعالى: ﴿**لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ...** ﴿١٠٩﴾﴾ [طه]».

وترى أن هذه الآية الكريمة على تخريج كثير من المفسرين لا صلة لها بالشفاعة يوم القيامة، التى هى موضع خلاف فينفيها المعتزلة، ويؤولون الآية الواردة بها بأنها معلقة على الإذن، ولم يثبت تحقق ذلك الإذن بدليل قطعى، وما ورد من الأحاديث المثبتة للشفاعة المفصلة لما يجرى فيها يوم القيامة من شفاعة النبى ﷺ، إنما هى أحاديث آحاد، وأحاديث الآحاد لا تثبت بها العقائد، والإيمان بالشفاعة يوم القيامة لا يسوغ أن يثبت إلا بدليل قطعى لا شبهة فيه.

والجمهور على إثبات شفاعة النبى ﷺ بإذن ربه، تكريمًا له عليه الصلاة والسلام، ورحمة بالناس، وعفواً من الله العلى القدير؛ والأحاديث الواردة فى هذا الباب صحيحة كثيرة، قد أثبتت فى الصحاح من كتب السنة، فلا يصح أن ينكرها أحد، وإن لم تبلغ فى قوة الاستدلال بها مبلغ الدليل القطعى الذى لا شبهة فيه، ولا يدخله الاحتمال قط.

ولقد قرر الزمخشرى وهو من المعتزلة أن هذه الجملة السامية لا تثبتها، وقال فى ذلك: ﴿**مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ**﴾ بيان لملكوته وكبريائه، وأن أحدًا لا يتمالك أن يتكلم يوم القيامة إلا إذا أذن له فى الكلام، كقوله تعالى: ﴿**لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ...** ﴿٣٨﴾﴾ [النبأ].

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ هذه الجملة تأكيد لنفى الشفاعة وتأكيد لكمال سلطان الله سبحانه وتعالى فى هذا الوجود. والضمير فى أيديهم وخلفهم يعود إلى ما فى السموات وما فى الأرض؛ وعبر بضمير الذكور العقلاء تغليبًا لجانب العقلاء فى السموات والأرض من ملائكة أطهار وأناسى سواء أكانوا أشرارًا أم كانوا أبرارًا؛ وما بين أيديهم هو ما يعلمونه من شئون سابقة أو حاضرة، وما وقع منهم مما يوجب الحساب والجزاء من ثواب أو عقاب. وعبر عن هذا بما بين أيديهم؛ لأنه حاضر يستطيعون أن يعرفوه؛ ولا عجب فى أن يعرف الإنسان ما وقع فى الماضى؛ فهو من حيث التمكن من معرفته كالشىء الذى يكون بين يدى الإنسان من حيث إنه يكون محضرا مهيئًا، وكذلك يكون مما بين يدى الإنسان المحسوسات والمعلومات التجربية التى يمكن الإنسانَ بعقله أن يدركها. وأما ما خلفهم فهو ما يكون علمه مغيبا عنهم، إما لأنه فى ذاته خفى لا يدرك كنهه، ولا تعلم حقيقته؛ وليس فى طاقة العقل البشرى - من غير استعانة بالنقل - معرفته؛ وإما لأنه أمور ستقع فى المستقبل قد غيب عن البشر العلم بها، ومنه ما يكون يوم القيامة، أو اختص بها عالم الغيب فى السموات وفى الأرض، وعبر عن ذلك النوع من العلم بأنه ﴿خَلْفَهُمْ﴾ لأنه يخلفهم فى زمانه، ولأنه مستقبل وليس من مستدبر الماضى.

وإن العلم بالماضى والحاضر والمستقبل وما وقع وما لا يقع ينفى الشفاعة بمعنى أن يستنزل الشفيع المشفوع عنده عما اعتزم وأراد؛ لأن ذلك يقتضى ألا يكون عالمًا بما مضى أو بما يكون، إذ الشفيع ينبه المشفوع عنده بما غاب عنه من أمر، وذلك لا يليق فى حق العليم الخبير، وهو ينافى علمه بالماضى والقابل وما يقع فى الحس، وما يكون فى الغيب؛ ولذلك أجمع علماء المسلمين على نفى الشفاعة بهذا المعنى، إذ الشفاعة التى قررها جمهور أهل السنة هى الشفاعة لمن ارتضى، والتى قدر الله سبحانه وتعالى إجابتها تكريمًا للشافع، ورحمة بالمشفوع لأجله.

﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ هذه الجملة السامية بيان لنقصان علم المخلوق بجوار علم الخالق، والعلم المراد به المعلوم، أى لا يحيطون بشىء من

المعلومات التى يعلمها الله سبحانه وتعالى. والإحاطة معناها هى العلم الكامل بالأمر فيدركه العقل إدراكا ويستولى عليه استيلاء، كما تحيط الدائرة بكل أقطارها وما فى داخلها. وهذه الجملة السامية تدل على نقص العلم البشرى من ناحيتين:

أولاهما: أن أحدًا من البشر لا يستطيع أن يعلم كل شيء، بل إن ما يجهل أضعاف كثيرة مما يعلم، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴿٨٥﴾﴾ [**الإسراء**].

الثانية: أن الجزء الذى يعلمه البشر من الأشياء علمه فيه ناقص كل النقص، وهذا ما قرره سبحانه فى قوله تعالى: ﴿**وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ**﴾ أى أنهم لايعلمون شيئًا واحدًا علم إحاطة واستغراق لكل ما يشتمل عليه، وعلم الإحاطة هو العلم الكامل. ولقد فسره الأصفهانى بقوله «الإحاطة بالشيء علمًا هى أن تعلم وجوده، وجنسه، وكيفيته، وغرضه المقصود به وبإيجاده وما يكون به ومنه، وذلك ليس إلا لله تعالى».

وعلم الإنسان لا يكون إلا بالقدر الذى يشاؤه الله سبحانه وتعالى؛ ولذلك كان الاستثناء فى قوله سبحانه: ﴿**إِلاَّ بِمَا شَاءَ**﴾ إذ إنه إذا كان علم الإحاطة الكامل لشيء لا يمكن أن يكون إلا لله العليم الخبير، فالله سبحانه يعطى البشر من العلم ببعض الأشياء بالقدر الذى يريده سبحانه ويقدره، وقد خلق البشر على استعداد له.

﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ**﴾ الكرسى فى تعارف الناس ما يقعد عليه، وهو منسوب إلى الكرس بمعنى المجتمع، ومنه الكُرَّاسَة للمتَجمِّع من الأوراق ويقال كَرِس الرجل كثر علمه.

والعلماء فى تفسير معنى الكرسى هنا على وجهين:

أحدهما: أن لله سبحانه وتعالى كرسيا وعلينا أن نؤمن بوجوده وإن كنا لا ندرك كنهه ولا نعرف حقيقته، إذ ليس ذلك فى مقدور العقل البشرى؛ ومن هؤلاء العلماء من قال: إن الكرسى هو العرش، وقد قبله الزمخشرى احتمالا للآية؛

وروى فى ذلك قول الحسن البصرى: «الكرسى هو العرش» وقد اختار ذلك الوجه جمهور المفسرين.

الوجه الثانى: أن الكرسى فى الآية كناية عن عظم السلطان ونفوذ القدرة وشمول الإرادة، فهو كقول بعض الناس: شمل كرسى الملك الفلانى ربع أقطار الأرض والمراد نفوذ سلطانه، وعظم دولته.

أو يكون الكرسى كناية عن عظم العلم وشموله واتساعه. وتفسيره بعظم السلطان يتناسب مع قوله تعالى بعد ذلك: ﴿**وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا**﴾ وتفسيره بمعنى شمول العلم يتناسب مع قوله سبحانه قبل ذلك: ﴿**وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ**﴾ ولذلك يصح أن نقول إن قوله تعالى: ﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ**﴾ كناية عن عظيم قدرته ونفوذ إرادته، وواسع علمه، وكمال إحاطته.

وإن ذلك الوجه قد ورد عن السلف، كما ورد الوجه الأول عن السلف؛ فقد روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال: «كرسيه علمه» وروى مثل ذلك عن ابن مسعود رضى الله عنه، وقد اختار ذلك المفسر السلفى ابن جرير الطبرى.

وقد لخص الآراء ووجهها توجيها جيدًا الزمخشرى فى تفسيره، فقال: «وفى قوله وسع كرسيه أربعة أوجه:

أحدها: أن كرسيه لم يضق عن السموات والأرض لبسطته وسعته، وما هو إلا تصوير لعظمته، ولا كرسى ثمة ولا قعود ولا قاعد كقوله تعالى: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ** ... (٦٧)﴾ [**الزمر**] من غير تصور قبضة وطى ويمين، وإنما هو تصوير لعظمة شأنه وتمثيل حسى.

والثانى: وسع علمه، وسمى العلم كرسيًا تسمية بمكانه الذى هو كرسى العالم.

والثالث: وسع ملكه، تسمية بمكانه الذى هو كرسى الملك.

والرابع: أنه خلق كرسيًا هو بين يدى العرش، دونه السموات والأرض، وهو إلى العرش كأصغر شيء. وعن الحسن (الكرسى هو العرش).

وعندى أن أجود هذه الوجوه هو أن يكون كناية عن سعة الملك وسعة العلم، وهو المناسب لنسق الآية الكريمة، وهو تفسير ترجمان القرآن عبد الله بن عباس.

﴿**وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا**﴾ هذا وصف يدل على كمال قدرته، وعظيم حياطة خلقه، ومعنى ﴿**وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا**﴾ لا يثقله ولا يتعبه حفظ السموات والأرض وكلاءتهما؛ لأن ذاته العلية منزهة عن التعب، إذ هو من صفات الأجسام الحيوانية، والله سبحانه وتعالى منزه عن مشابهة الحوادث.

وأصل آدَ من الأود بمعنى العوج، فآده يؤده بمعنى عوجه بثقله وعبئه. وإن ذلك النص الكريم يدل على أن كل شيء فى الكون فى حفظ الله وحياطته؛ فالسماء بأفلاكها وطبقاتها وكواكبها، وكل ما فيها يسير على نظام محكم محفوظ بعناية بديع السموات والأرض، والأرض وما عليها ومن عليها، ومافيها ظاهرًا وباطنًا، كل ذلك فى حفظ الله خاضع لقوانينه التى سنها فى خلقه، ولا شيء يكون فيها أو منها إلا بإرادته سبحانه ﴿**وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾**﴾ [**الرعد**].

﴿**وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**﴾ هذان هما الوصفان الشاملان لكل الأوصاف السابقة؛ فالله سبحانه هو العلى: علا بصفاته وذاته عن مشابهة المخلوقات، وعلا أيضًا على خلقه بمعنى سيطر عليهم، وسيرهم؛ فالعلو يشمل معنيين:

أولهما: علو المنزلة والقدر، وذلك متحقق بتنزهه سبحانه عن مشابهة المخلوقين وأنه فوق كل موجود.

وثانيهما: علو السلطان؛ والقدرة ـ والقهر ـ ومن هذا الباب لغة (لا معنى لأنه يناسب المقام هنا) قوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ... ﴿٤﴾**﴾ [**القصص**] والله سبحانه غالب على كل شيء، قاهر كل شيء، وهو فوق عباده. هذا هو الوصف الأول. أما الوصف الثانى فهو عظم الذات العلية وصفاتها،

فذاته العلية جلت عن المشابهة، وهو الخالق القاهر القادر، وهو وحده الإله المعبود بحق، وهو الذى يسبح كل شىء فى الوجود بحمده، فهو العظيم وحده، والمعبود حقا وحده، المعظم وحده. وإذا كانت غواشى الحياة قد أضلت الأكثرين فلم يدروا عظمته فى الفانية، فستتجلى لهم عظمة ذى الجلال فى الباقية، وهم من خشيته مشفقون ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَت الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠) وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا (١١٢)﴾ [طه].

أما بعد، فهذه آية الكرسى، أعظم آية فى كتاب الله، كما ورد فى بعض الآثار المثبتة فى الصحاح؛ وإنها لتدل على وحدانية الله تعالى بكل شعبها؛ ذلك بأن الوحدانية لها شعب ثلاث: وحدانية الألوهية، وقد دلت عليها بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ ووحدانية الخلق والتكوين فلا خالق مع الله تعالى، ولا إرادة تمنع إرادته، وقد دل على ذلك بأكثر ما فى الآية الكريمة كقوله سبحانه: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وقوله تعالى: ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ والشعبة الثالثة وحدانية الذات والصفات، بمعنى أنه لا يشبهه شئ أو أحد من خلقه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ... (١١)﴾ [الشورى] وقد أشار سبحانه إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾ وبقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ تعالى الله رب العالمين علوا كبيرًا؛ تولانا سبحانه بعنايته وتوفيقه وهدايته.

لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

فى الآيات السابقة بين الله سبحانه وتعالى أمرين:

أحدهما: المغالبة بين أهل الحق وأهل الباطل، وأن تلك مشيئته الأبدية الأزلية منذ خلق بنى آدم على ذلك التكوين الذى يضم فيه كل آدمى بين جنبيه نزوع الخير ونزوع الشر، ومنذ قال لآدم وحواء وإبليس: ﴿... **اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ** ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة].

الأمر الثانى: هو ما يجرى حوله الخلاف بين أهل الحق الذين يستمسكون بالهدى والنور، وأهل الباطل الذين يستمسكون بالضلالة؛ وذلك الأمر هو وحدانية الله سبحانه وتعالى فى الألوهية، وفى الخلق والتكوين، وفى المشيئة والإرادة وفى الذات والصفات: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴿١١﴾﴾ [الشورى]. وإن هذا أمر تقره بداهة العقول، ولا مجال فيه للريب فما كان ينبغى القتال حوله، ولكن من ضل وغوى أيجوز إكراهه على الدخول فى ذلك النور بحكم تلك المغالبة بين الحق والباطل المقررة فى هذا الوجود؟ أجاب الله سبحانه وتعالى عن ذلك السؤال الذى يتردد فى قلب كل من يؤمن بالحق، إذ يكون واقفًا أمام حق نير واضح مستبين، ولجاجة فى باطل مظلم، وقد تكون الهداية أن يقضى على تلك اللجاجة الآثمة.

وقد كان جواب الله العلى القدير، كلامًا محكمًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، هو قول الحق:

﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾ نفت الجملة الأولى من هاتين الجملتين الساميتين الإكراه فى الدين، وبينت الجملة الثانية علة هذا النفى، وكيف تدرك الأديان، ومهمة الداعى إليها؛ فأما النفى الذى قررته الجملة الأولى فهو يتضمن أمرين:

أحدهما: تقرير حقيقة مقررة ثابتة، وهو أن الإكراه فى الدين لا يتأتى؛ لأن التدين إدراك فكرى، وإذعان قلبى، واتجاه بالنفس والجوارح بإرادة مختارة حرة إلى الله سبحانه وتعالى، وتلك معان لايتصور فيها الإكراه؛ إذ الإكراه حمل الشخص على ما يكره بقوة ملجئة حاملة، مفسدة للإرادة الحرة، ومزيلة للاختيار الكامل؛ فلا يكون إيمان ولا تدين، إذ لا يكون إذعان قلبى، ولا اتجاه حر مختار بالنفس والجوارح إلى الله رب العالمين.

الأمر الثانى: الذى تضمنه نفى الإكراه هو النهى عن وقوعه، فلا يسوغ للداعى إلى الحق أن يكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؛ لأن الإكراه والتدين نقيضان لايجتمعان، ولايمكن أن يكون أحدهما ثمرة للآخر، ونتيجة له؛ لأنه كلما حمل الإنسان على أمر بقوة قاهرة غالبة ازداد كرهًا له ونفورًا منه.

فالنفى عن الإكراه إذن تضمن نفى تصوره فى شئون الدين، ونفى المطالبة به، أو بالأحرى نهى الداعى إلى الحق عن سلوك سبيله؛ لأنه ليس سبيل المؤمنين، وليس من الموعظة الحسنة فى شىء: ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥)**﴾ [**النحل**].

هذه معانى الجملة الأولى السامية، أما الثانية وهى: ﴿**قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾، فمعناها قد تبين وجه الحق ولاح نوره، وتبين الغى، وهو الضلال والبعد عن محجة الحق، وطمس معالمه؛ وهذه الجملة السامية تفيد أمرين كسابقتها:

أحدهما: أن طريق التدين هو بيان الرشد، وبيان الصواب، وبيان الضلال فى وسط النور؛ فمن رأى الحق بينًا فقد أدرك السبيل، وعليه أن يسير فيها، وليس لأحد أن يحمله حملا؛ لأنه لا سبب للتدين إلا المعرفة، بإدراك الحق وغايته، ومعرفة الباطل ونهايته. وذلك المعنى فى مرتبة التعليل للنهى عن الإكراه ونفيه، لأنه إذا عرف الحق معرفة مثبتة له بالأدلة القاطعة، وعرف الباطل معرفة مبينة وجه الضلال فيه، فقد توافر سبب التدين، ومن كفر بعد ذلك فعن بينة كفر، ولا سبيل لهدايته، وليتحمل مغبة كفره بعد هذه البينات الواضحة الكاشفة.

الأمر الثانى: الذى يدل عليه قوله تعالى: ﴿**قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾، هو بيان أقصى قدر من التكليف للداعى إلى الحق من الرسل ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، فليس على الداعى إلى الحق إلا تكليف واحد، وهو بيان الرشد من الغى، فهو لم يكلف حمل الناس على الهدى، إنما هو مكلف أن يبين الهدى من الضلال، والهداية بعد ذلك من الله سبحانه وتعالى: ﴿**إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ** ... (٥٦)﴾ [**القصص**].

وإذا كان الرشد قد تبين من الغى وتميز، ولم يعد مختلطا به، بل خلص منه، وخرج نيرًا واضحًا، . كما يخرج النور من الظلمة عند انبثاق فجر الحقيقة، وظهوره ساطعًا منيرًا هاديًا، إذا كان الأمر كذلك فعلى كل طالب للتدين أن يسلك سبيل الحق، ومن بقى مترديًا فى الباطل، فعليه إثم بقائه، وما عليك من أمره شىء، ولذا قال سبحانه: ﴿**فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا**﴾ الطاغوت أصله مأخوذ من الطغيان، ويؤدى معنى الطغيان، وإن اختلف علماء اللغة فى أصل اشتقاقه، وفى وزنه الصرفى.

والطاغوت يطلق فى القرآن على كل ما يطغى على النفس فيسيطر عليها، أو على العقل فيضله، أو على الأمة فيتحكم فيها ظلمًا، أو على الجماعة فينشر فيها أهواء مردية، وآراء فاسدة؛ ولذلك يطلق الطاغوت على الكاهن، والشيطان، وكل رأس للضلال. وقد جاء فى تفسير القرطبى: قد يكون واحدًا؛ قال الله تعالى:

﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ ... ﴿٦٠﴾ ﴾ [النساء]
وقد يكون جمعًا، قال الله تعالى: ﴿ أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ ... ﴿٢٥٧﴾ ﴾ [البقرة].

وما المراد بالطاغوت هنا؟ الظاهر أن الطاغوت هو كل طغيان يطغى على النفس أو العقل أو الجماعة، فيتسلط عليه، ويمنعهم من اتباع الحق من زعماء يقودونها إلى الضلال، أو ملوك يسوقونها إلى الباطل سوقا؛ ولعل أظهر معانى الطاغوت أن يفسر بالملوك المتحكمين والكبراء المتجبرين الذين يفتنون الناس عن دين الحق، ويكرهونهم على اعتناق الباطل. وقد سوغ لنا استظهار ذلك ما جاء من نفى الإكراه فى الدين سابقًا لهذه الجملة السامية، وما سيق بعد ذلك من قصة ملك متجبر يريد أن يتحكم فى عقائد الناس وأهوائهم، فإن ذلك يومىء لنا أن نفهم من كلمة الطاغوت بأنه الحاكم المتجبر، أو الكبير المسيطر، أو الملك القاهر بالباطل، ويكون المعنى: فمن يكفر بالطاغوت، أى يزيل سلطان المتجبرين عن نفسه، ويمنع تحكم المسيطرين على قلبه، ويحرر عقله من أوهام الطغيان، ويؤمن بالله، فقد استمسك بالعروة الوثقى، . أى اعتمد على جانب قوى، وعماد على لا يهن من اعتمد عليه، ولا يسقط من ركن إليه، وفى ذلك إشارة إلى أمرين:

أحدهما: أن لا يحجب النفوس عن الإيمان بالله إلا طغيان المتجبرين عليها، وسيطرة أوهام الكبراء، فمن تحرر من ربقة الطاغوت تتكشف له الحقيقة العالية فيؤمن بها، ويدركها، ويعتصم بالله سبحانه وتعالى.

ثانيهما: إرشاد ضعفاء النفوس ومن أصاب الخور عزائمهم وأماتت الأوهام ثقتهم بأنفسهم أنهم إن رفضوا سلطان الطغاة، وحاجزوا بينهم وبين قلوبهم، فقد أَمِنُوا، ولن يصيبهم ضير إن آمنوا؛ لأنهم آووا إلى ركن شديد، وإلى معتصم حصين، فلن تضيرهم مخالفة الملوك وغيرهم؛ لأن سلطانهم وهمى، وسلطان الله حقيقى، وقوتهم فانية، وقوة الله أزلية باقية، فمن آمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها.

والعـروة فى أصل معناها اللغـوى تطلق على مـا يتعلق بالشىء من عـراه أى ناحيته، فالعروة من الـدلو والكوز المقبض، ومن الثوب مدخل الزر؛ وتطلق العروة أيضا على الشجر الملتف الذى تأكل منه الدواب حيث لا كلأ ولا نبات.

والوثقى مؤنث الأوثق، وهو الشىء المحكم الموثق، وتطلق كـلمة الموثق أيضا على الشجر الذى يتـجه إليه الناس عندما ينقطع الكلأ. والانفـصام الانكسار، وهو مطاوع فصم بمعنى كسر؛ وإنما تكون المطاوعة حيث يحـتاج الفصم إلى معالجة، أى أن الشئ المفصـوم يكون قويا، بحيث يعالج الشـخص كسره حتى ينكسـر بعد طول المحاولـة وعلى ذلك فالعـروة الوثقى فى الآية إما أن تخـرج على أنها الحـبل الموثق الشديد الأسر الذى يربط بين شيئـين، ويكون المعنى: من آمن بالله وكفر بالطاغوت فقد اسـتمسك، أى أمسك بقوة وشدة طالبًـا العصمة بحبل موصـول موثق قوى لا انفـصام له. وقـد تخرج الـعروة على أنهـا الشجـر الذى لا يوجـد سواه للمـرعى والغذاء، فيكون من كـفر بالطاغوت وآمن بالله فقد اتجه وأخذ الجـانب المفيد المربى المغذى وترك الجدب الذى لا يجدى. وقد مال الزمخشرى إلى التخريج الأول، وهو عندى أوضح وأشهر.

والاستمســاك كما أشرنا هو الإمساك المطلوب المستـقر؛ لأن السين والتاء تدل على الطلب، والطلب هنا يفـسر بأنه هجر الطـاغوت طلبًا للاعـتصام بهـذا الجانب القوى الذى لايضل من طلبـه، ويصل إليه من اعتـمد عليه ولم يطلب سـواه. وقد ذكر الزمخشرى فى تفسيره أن هذا التعبير الكريم كله ﴿**فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا**﴾ فيه تمثيل وتصـوير للمعانى السامية بالأشياء المحـسوسة فقال: (هذا تمثيل للمعلوم بالنظر والاستدلال بالمشاهد المحـسوس حتى يتصوره السامع كأنما ينظر إليه بعينه، فيحكم اعتقاده والتيقن به).

هذه هداية الله سبحانه وتعالى، لا يكره أحـد عليها، ولكن يدعى الناس إليها بالبينات الواضـحة التى يتمـيز بها الخـير من الشر، والحق مـن الباطل، والنور من

الظلام، وبعد ذلك يكون الأمر لله تعالى، ولقد ذيل سبحانه الآية بقوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ وفى هذا إشارة إلى أمرين جليلين:

أولهما: رقابة الله سبحانه وتعالى فى الدنيا رقابة العليم الخبير، فهو يعلم علم من يسمع همسات القلوب، وخلجات الأنفس، وهو وحده المتصف بالعلم المطلق الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولايعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، ولا فى الأنفس؛ وإذا كان المؤمن يحس برقابة الله تعالى المطلقة فإنه يتجافى عن المعاصى، ويبتعد عنها استحياء من الله، فقوة الإحساس بعلم الله ترهف وجدان المؤمن وهذا مقام الإحسان كما فى الحديث الشريف «**اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١).

الأمر الثانى: التنبيه إلى ما يترتب على العلم من الرضوان والثواب المقيم الدائم لمن أطاع الله وطلب رضاه، والعذاب الأليم وغضب الله لمن عصاه سبحانه.

هذه الآية الكريمة واضحة كما قررنا فى حقيقتين ثابتتين:

إحداهما: أن التدين لا يكون مع الإكراه؛ لأن الإكراه ينافى الاختيار الحر، والتدين طلب الحق والأخذ به فى حرية واختيار لا تشوبهما شائبة.

الحقيقة الثانية: أن الله سبحانه وتعالى ينهى عن الإكراه فى الدين، وحمل الناس عليه بقوة السيف حتى لا يكثر النفاق والمنافقون. وكثرة المنافقين، وإن كثر عدد المسلمين فى الظاهر، تفسد جماعتهم فى الحقيقة والواقع.

ولكن مع هذا الحق السائغ، والنور المبين، وجدنا الكثيرين يدَّعون أن هذه الآية منسوخة، وادعوا أن الذى نسخها قوله تعالى فى آيات كثيرة من آيات الجهاد ما يدل على القتال، حتى يكون الإسلام مثل قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ**

---

(١) جزء من حديث جبريل الشهير، متفق عليه؛ من رواية البخارى (٤٨)، ومسلم (١٠): كتاب الإيمان عن أبى هريرة رضى الله عنه.

وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ... ﴿٧٣﴾ ﴾ [التوبة] ومثل قوله تعالى: ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ... ﴿١٦﴾ ﴾ [الفتح] وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [التوبة] ففى هذه الآية تصريح بالقتال والغلظة مع الكفار، وفى بعضها جعلت غاية القتال أن يسلموا، ولقد ورد أن النبى ﷺ قال لرجل: «**أسلم**» قال إنى أجدنى كارهًا، فقال ﷺ: «وإن كنت كارها»(١).

والحق أن حكم هذه الآية ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ ماض إلى يوم القيامة؛ لأنها تؤيد حقيقة ثابتة، وتزكيها آيات أخرى، وأحاديث للنبى ﷺ؛ فإن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [يونس].

وإن الباعث على القتال كما تصرح آيات القتال هو دفع الاعتداء، فقد قال تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الحج] وقال تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا ... ﴿١٩٠﴾ ﴾ [البقرة] وجعل سبحانه وتعالى نهاية القتال أن تنتهى الفتنة فى الدين، والإكراه عليه؛ فقد قال تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [البقرة] وهكذا فليس القتال فى الإسلام للإكراه على الدين لأن الدين اختيار ورضا، ولا اختيار أو رضا مع الإكراه، والآيات الواردة بالأمر بالجهاد كلها محمولة على حال الاعتداء، أو التحفز للاعتداء، فلا يسوغ لمؤمن أن ينتظر حتى يغزى؛ فإنه ما غزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا.

وحياة النبى ﷺ فى مكة والمدينة تنبئ عن منع الإكراه فى الدين؛ فقد كان ﷺ فى مكة هو ومن معه من المؤمنين فى اضطهاد ومحاولة لفتن الضعفاء منهم عن دينهم، وحملهم على تغيير اعتقادهم وأنزلوا بهم من الأذى والعذاب ما لا تحتمله النفس البشرية حتى اضطر بعضهم إلى النطق بكلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان؛

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (١١٦١٨).

ولما انتقل إلى المدينة لم يحارب أحدًا إلا بعد أن شنوا عليه الغارة، أو استعدوا لها، وألبوا عليه، وكان على ذلك إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى.

وإن حديث النبى ﷺ الذى قال فيه لرجل: **«أسلم وإن كنت كارها»** لا يدل على جواز الإكراه فى الدين ؛ لأن النبى ﷺ ما أكرهه بالسيف أو بالأذى على أن يسلم، بل إن الرجل بدت له البينات الواضحات، والحجج النيرات، ومع ذلك كان مأخوذًا بما ألف، كارهًا بعاطفته لأن يغير ما كان عليه آباؤه؛ فالنبى ﷺ يوصيه بأن يتغلب على إحساسه ويتبع البرهان والدليل؛ وكثير من الناس يبدو له وجه الحق واضحًا، وتلوح له بيناته باهرة، ومع ذلك يكره السير فى هذا النور، اتباعًا لما كان معروفًا، وسيرًا وراء ما كان مألوفًا؛ فمثل هذا عليه أن يتبع الحق ولو كان كارهًا، وأن يستولى على نفسه فيحملها على اتباع الحق ولو كرهته؛ والطاعات قد تثقل على النفوس، ولكن يجب اتباعها؛ ولذا قال ﷺ **«حفت الجنة بالمكاره»**[(١)] فحديث النبى ﷺ لهذا الرجل من هذا الباب.

بعد هذا البيان نكرر ما قررنا وهو أن هذه الآية محكمة غير منسوخة، وخصوصًا أن ادعاء النسخ لا دليل عليه، وإن النسخ لا يصار إليه إلا إذا لم يمكن التوفيق بين الآيتين، فلو أمكن التوفيق ولو بتخصيص إحدى الآيتين لوجب السير إلى التخصيص دون النسخ؛ وإن التوفيق هنا ممكن بين آيات القتال وهذه الآية، بل إن شئت الحق فقل إنه لا تعارض حتى تكون محاولة التوفيق، فما كان القتال لحمل الناس على الإسلام، بل كان القتال لدفع الاعتداء أولا، ولكى يخلو الوجه للدعوة الإسلامية ثانيًا، ولتكون كلمة الحق هى العليا ثالثًا، والناس فى كل الأحوال أحرار فيما يعتقدون وما يؤمنون به ﴿**إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ** ... ﴿٥٦﴾﴾ [**القصص**].

ولقد روى فى سبب نزول هذه الآية: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ أن رجلا من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له الحصين، كان له ابنان نصرانيان، وكان هو

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى: الرقاق (٦٠٠٦)، ومسلم: الجنة وصفة نعيمها (٥٠٤٩).

مسلما، فقال للنبى ﷺ: ألا أستكرههما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية؟ فنزلت هذه الآية. وفى رواية أخرى أنه حاول إكراههما فاختصموا إلى النبى ﷺ، فقال الأنصارى: يا رسول الله يدخل بعضى النار وأنا أنظر إليه! فنزل قوله تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[1].

وقد كان المسلمون يسيرون على هذا المبدأ وهو ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ويروى فى ذلك أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لعجوز نصرانية: أسلمى تسلمى، إن الله بعث محمدًا بالحق، فقالت: أنا عجوز كبيرة والموت إليَّ قريب. فقال عمر رضى الله عنه: اللهم اشهد، وتلا ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾.

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ لقد ذكرنا فى الآية السابقة أن الطريق للإيمان هو الكفر بالطغيان، بالامتناع عن إجابة كل دعاة الشر من كبراء متجبرين، وحكام مسيطرين بأوهام باطلة، وهكذا؛ وأن من كفر بالطاغوت فقد آوى إلى ركن شديد، إذ لجأ إلى الله العلى القدير، ومن بقى تحت سلطان الطاغوت من ملوك عاتين، ورؤساء ضالين، فقد آوى إلى ما لا يعتمد عليه؛ لأنه ركن هاوٍ يهوى بصاحبه فى نار جهنم.

والولى فعيل بمعنى فاعل من الولاية. ولقد قال الراغب الأصفهانى: الولاية بالكسر النصرة، والولاية بالفتح تولى الأمر. وقيل الوِلاية والوَلاية واحدة، نحو الدِّلالة والدَّلالة؛ والولى والمولى يستعملان فى ذلك، كل واحد منهما فى معنى الفاعل» والولاية كما تطلق بمعنى السلطان تطلق بمعنى المحبة والولاء، كما فى قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ... (٤٤)﴾ [الكهف].

والولى فى الآية الكريمة: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يكون بمعنى ناصرهم؛ وقد ذكرنا أن الولاية تكون بمعنى النصرة، وبمعنى المسيطر على نفوسهم وحده الموجه الهادى، إذ قد سلمت نفوس المؤمنين من نزغات الشيطان.

---

(١) رواه ابن جرير الطبرى (٤٥٣٩) عن ابن عباس رضى الله عنهما، وروى أبو داود: الجهاد - الأسير يكره على الإسلام (٢٣٠٧).

والظلمات جمع ظلمة، والمراد بها هنا الضلالة؛ ففى الكلام مجاز؛ لأن المفاسد التى ينشرها الطغيان تظلم بها النفس وتكون فى حيرة، وتنقطع عن سبيل الهداية؛ والنور هو الهدى؛ لأن الهدى يكشف عن ينابيع الحق والخير فى النفس، وهو سلوك الطريق الموصل إلى ما يسعد الإنسان فى الفانية والباقية فهو كالمصباح للمؤمن به يهتدى، وبه يصل إلى الغاية. والمعنى للجملة السامية: الله سبحانه جل جلاله الذى ليس فوقه شيء وهو القاهر فوق كل شيء هو ولى الذين آمنوا أى ناصرهم يأخذ بأيديهم من ضلالات الشرك والأوهام والشهوات، والذلة والاستعباد، إلى نور الحق والهداية والتحرر من الأوهام ومن الذلة، والاستقامة نحو العزة. فهذه الجملة تتضمن ثلاثة أمور:

أولها: نصرة الله القوى القادر، فلا يصح لمؤمن أن يضعف أمام جبروت الملوك الطغاة أو الجبابرة العتاة، أو الكبراء المضلين.

وثانيها: أن الله سبحانه وتعالى هو المسيطر على النفوس يوجه القلوب المؤمنة إلى الحق فيلوح لها نوره، وتشرق فيها حججه.

وثالثها: أن الذين يفيض الله عليهم بهذا النور ويؤيدهم بنصره هم الذين ارتضوا الحق بإرادتهم المختارة، ورفضوا طغيان الكبراء والجبابرة، وقاوموا نزغات الشيطان؛ فإن هؤلاء هم الذين ينصرهم رب العالمين، ويهديهم بنوره.

﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ**﴾ المؤمنون يوجه قلوبهم رب العالمين، وينصرهم بقدرته، ويعتزون بعزته، وهو رب العزة، له الكبرياء فى السموات وفى الأرض، وهو العلى العظيم؛ أما الذين كفروا فالطاغوت أى الطغيان بكل أنواعه من جبابرة متحكمين، وكبراء مضلين، وأوهام مستحكمة، وضلالات مسيطرة، هو الذى ينصرهم ويسيطر على قلوبهم؛ والسبب فى ذلك أنهم جعلوا الكفر وستر الفطرة هو الذى يتحكم فى قلوبهم، فهم اختاروا تلك الأوهام المضلة، وولاية الجبابرة المذلة، واتباع الكبراء المردى، ففتحوا بسبب ذلك قلوبهم للضلالة تدخل فيها جزءًا جزءًا حتى أظلمت وبعدت عن نور الفطرة، وغلقت عليها

أبواب الحق، فلا يدخلها إلا ضلال، وكأن للقلب بابين: بابًا للنور، وبابًا للضلال؛ فإن أركست النفس فى الشهوات، فإن باب الضلالة يتسع ويضيق باب الحق حتى يغلق فلا يدخل النور إليها.

وفى الجملة الكريمة السامية إشارات بيانية يجب التنبيه إليها:

أولها: أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ**﴾ ففى التعبير بالذين كفروا إشارة بيانية إلى أنهم هم الذين ارتضوا أن يجعلوا الطغيان متحكمًا فى قلوبهم، إذ كفرهم واستيلاء الشهوات على نفوسهم هو الذى سهل استمراء ولاية الطاغوت عليهم، وتحكمه فيهم، وسيطرته على نفوسهم، وحيث كانت الشهوات مستحكمة فللأوهام سلطان، وللجبابرة سلطان،وللكبراء المضلين مكان.

والثانية: أنه أفرد الطاغوت، وجمع الأولياء، ففى ذلك إشارة بيانية إلى أن الطاغوت مهما تتعدد ضروبه، وأشكاله ومظاهر سلطانه، فهو نوع واحد، أساسه أن يتحكم الوهم والهوى والذل والضعف فى النفس ولكن مع ذلك يتعدد سلطانه، فهو مرة يظهر فى مظهر ذى سلطان متجبر تخضع الرقاب لطغيانه لتحكم الذلة أو الشهوة المردية فى نفوس الذين يتحكم فيهم، ومرة يظهر سلطان الطاغوت فى دعوة إلى الباطل زخرفها تمويه داعية مضل، وأحيانا تكون فى أوهام مسيطرة على الجماعة تجعلها تعبد حجرًا أصم لا يسمع ولا يبصر؛ وعلى ذلك يكون الطاغوت واحدًا؛ لأنه ضلال كيفما كان، ولكن لتعدد مظاهر سلطانه تعددت ولاياته وكلها لاقوة لها أمام قوة الله سبحانه وتعالى علوًا كبيرًا.

والثالثة من الإشارات البيانية: ما تضمنه قوله تعالى: ﴿**يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ**﴾ أى الضلالات المردية المختلفة الأنواع، فإن فى ذلك إشارة إلى أن الفطرة فى أصلها نور، ففى الفطرة الإنسانية نور الحق ووجدان الهداية، والإيمان الفطرى؛ حتى يكون الضلال إذ تتحكم الأهواء والأوهام وتستخذى النفوس، فكل

مولود يولد على الفطرة[١]، وهى نور، حتى يكون الضلال بما فى النفس من استعداد له مع وجود ذلك النور.

﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الإشارة إلى الذين كفروا، وفى هذه الإشارة بيان إلى أن أحوالهم التى عرفوا بها من كفرهم، ورضاهم بالطغيان حاكمًا عليهم متحكمًا فيهم مسيطراً على قلوبهم، هى السبب فى ذلك الحكم الخالد عليهم، وهو أنهم أصحاب النار.

وفى التعبير بأصحاب النار إشارة إلى ملازمتهم لها، وبقائهم فيها، واختصاصها بهم؛ لأن أصحاب جمع صاحب، والصاحب هو الرفيق الملازم الذى اختصصت بصحبته، فهذا التعبير أفاد ملازمتهم للنار واختصاص النار بهم.

وفى قوله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ تأكيد لبقائهم فيها واختصاصها بهم دون غيرها؛ ذلك لأن التعبير بالجملة الاسمية فيه تأكيد، وتكرار المسند إليه بذكر كلمة «هم»، فيه فضل تأكيد، وتقديم الجار والمجرور وهو «فيها» دليل على اختصاصها بخلودهم فيها فلا منفذ لهم فى غيرها؛ لأنهم سدوا على أنفسهم باب النور فى الدنيا، فسدت عليهم أبواب الرحمة فى الدنيا والآخرة.

---

(١) عن أَبى هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «مَا منْ مَوْلُود إلا يُولَدُ عَلَى الْفطْرَة، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانه وَيُنَصِّرَانه أَوْ يُمَجِّسَانه، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحسُّونَ فيهَا منْ جَدْعَاءَ» ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ... ﴿٣٠﴾﴾ [الروم] [رواه البخارى (١٢٧١): الجنائز، ومسلم (٤٨٠٣): القدر].

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ
أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ
وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى
بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى
كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ
عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ
بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ
قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ
فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ
حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى
ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا
تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾
وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ
تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ
ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا
ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

بعد أن بين سبحانه تحكم الطغيان فى نفوس الكافرين ذكر سبحانه وتعالى لونًا من ألوان الطغيان أو أظهـر ألوانه فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وفى هذا تصوير لملك من الملوك يدفعه اغـتراره بملكه إلى أن ينكر رب العالمين ويسأل إبراهيم عنه، وتصـوير لطاغية من طغاة الدنيا يدفعـه طغيان الغرور على نفسه ثم طغيـانه على شعبه إلى أن يدعى الربوبية.

فلننظر إلى تلك المحاجـة: ينبهنا الله سبـحانه وتعالى إلى تلك الحـال الشاذة فيقول سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وقد بينا ما فى هذا التركيب من أسرار بلاغية عند تفسير قوله تـعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ... ﴿٢٤٦﴾﴾ [البقرة] وخلاصـة المعنى: لقد عرفت هذه القصة بـالخبر القرآنى اليقينى معرفة واضـحة جلية بينة كأنها فى تعينها ووضوحها المعرفة بطريق الرؤية البصرية والنظر، وهذا على أن رأى بمعنى أبصر. وإن كانت رأى بمـعنى علم فالمعنى: تأمل وانظر بعين بصـيرتك وادرس حال تلك النفس الطاغية التى تحمل الناس على الظلمات بطغيانها وإذا تأملتها علمت أيها المكلف أو أيها القارئ للقرآن إلى أى مدى يصل الطغيان من الظلمات والضلالات.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ حاجـه: أى بادله المحجة وفى تسمـية كلامه حجة إنما هو من قبيل المماثلة اللفظية أو هو حجة فى نظره السقيم الذى أفسد تفكيره وأضله فـقد توهم وتخيل ثم ظن فـضلَّ عن معرفـة نفسه وعن معـرفة الحق ووقع فى أمور لا يقبلها أى عقل سليم.

وما السبب فى كل ذلك الضلال؟ هو شىء واحـد هو أن الله سبحانه وتعالى أعطاه الملك؛ ولذلك قـال تعالى: ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ أى أن سبب تلك المحـاجة التى تدل على مقدار ضلاله وطغيـانه هو أن الله سبحانه وتعالى آتاه أى أعطاه الملك والسلطان الدنيـوى وهو زائل فقـوله: ﴿أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ مجـرور بحـرف جر محذوف هو البـاء أو اللام، أى أن الذى بعثه على ذلك الإسراف فـى القول الوقوع فى هذا الضلال هو نعـمة الملك التى أنعم الله بها عليه فـجعلته مسـرفًا فى الضلال ذلك الإسراف المردى.

وفى الكلام إشارة إلى أن هذا ما كان يسوغ له أن ينكر وأن يحاج فى إنكاره؛ لأنه يحاج فى موضوع لا يقبل الجدل والمناقشة؛ لأنه يناقش فى ربه خالقه وخالق كل شيء، فالضمير فى «ربه» يعود إلى ذلك الملك الطاغى المتجبر، ويصح أن يعود الضمير إلى إبراهيم وإنى اختار الأول؛ لأن الطاغية هو المتحدث عنه فالضمير يعود إليه.

﴿**إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ**﴾ هذا كلام نبى الله إبراهيم وخليله، كلام معترف بالربوبية عرف ربه بأوضح ما يعرف به وبأروع آثار قدرته فى هذا الوجود وبأبعدها أثرًا فى نفس العاقل المتفكر المتدبر وهو الحياة والموت لأنهما أشد الأمور أثرًا فى نفس كل إنسان ذى حس وشعور وعقل وأفاد القول صيغة الحصر إذ قال سبحانه: ﴿**رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ**﴾ وفى ذلك تعريف المبتدأ والخبر وتعريفهما يفيد القصر، فالمعنى أنه وحده سبحانه هو الذى يحيى ويميت ولا أحد سواه يفعل ذلك. ومعنى يحيى ينشئ الحياة ويوجدها، ومعنى يميت يوجد تلك الحقيقة التى تفقد الجسم معنى الحياة. والتعبير بالمضارع يفيد معنى الاستمرار الذى يرى ويحس كل يوم، فالمعنى أن ربى وخالقى هو الذى يحيى الناس كل يوم كما ترى ويميت منهم كل يوم من ترى.

هذا كلام إبراهيم وهو يحوى حجة قوية واضحة من شأنها أن تثير فى النفس نزوع الاتجاه إلى الحق؛ لأنها تشير مع ذلك إلى حقيقة الحياة وهى أنها إلى فناء، فلا يصح أن يغر الشخص بها الغرور ولا يذهب به الطغيان إلى إنكار ربوبية الخالق.

﴿**قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ**﴾ هذا جواب الملك الذى سيطر الهوى عليه فأضله وسيطر الطاغوت على نفسه فحمل شعبه على الإذعان لطغيانه وضلاله، ومنعهم من أن يصل النور إلى قلوبهم وحاجز بينهم وبين كل دعوة إلى الحق والنور، وبذلك كان ممن يدعون إلى الظلمات كما ذكر فى الآية السابقة ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ**﴾.

أجاب ذلك الملك بنقض الاختصاص الذى ذكره خليل الله لرب العالمين، وهو أنه وحده الذى يحيى ويميت، فقال ذلك الضال: أنا أحيى وأميت أيضا، ومرمى قوله أنه إذا كان ربك يا إبراهيم يحيى ويميت واستحق الربوبية لذلك، فأنا أيضا أحيى وأميت فأستحق هذه الربوبية، ويقصد بالإحياء كما يقول العلماء العفو عمن حكم عليه بالإعدام وبالإماتة وقتل من شاء قتله هذا ما قاله العلماء. ولو أن لى أن أقول كلامًا آخر لقلت إن ذلك الطاغوت يقصد بالإحياء الاستيلاد والاستنبات ونحو ذلك مما يفعله الإنسان ويتخذه سببا عاديا من أسباب ظهور الحى بحياته، وبالإماته القضاء على الحى بالقتل أو القطع أو الاستئصال ونحو ذلك مما يجوز أن تسند فيه أسباب الحياة إلى الإنسان وأسباب الإماتة إليه، وهذا بلا شك غير ما قصده الخليل عليه السلام؛ لأن ما قصده هو خلق الحياة وخلق الموت، وذلك ما لا يستطيعه إلا رب العالمين تعالى الله علوا كبيرا. وكان الخليل يستطيع أن يبين له تلك الحقيقة ويحرر موضع القول ولكن ذلك قد يجر إلى مراء فاختار طريقًا آخر أجدى وأردع وأقوى وأشد إفحامًا؛ قال له ما حكاه رب العالمين فى قوله:

﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ لقد ادعى الطاغية أنه شريك الله سبحانه وتعالى، والشركة تقتضى المساواة فى القدرة والسلطان والخلق والتكوين ولا تبدو تلك المساواة إلا إذا كان أحد المتساويين عنده قدرة على مقاومة إرادة الآخر وبسط سلطانه حيث بسط هو سلطانه، والله سبحانه يأتى بالشمس من المشرق، أى الجهة التى تشرق منها فعلى المدعى أن يعاند هذا النظام المسيطر الذى يدعى ربوبيته عليه، بأن يأتى بالشمس من جهة الغروب، ويعكس الفلك الدوار.

والفاء فى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي﴾ هى فاء الإفصاح التى تفصح عن شرط مقدر وتقدير القول: إذا كنت تدعى الألوهية أو الربوبية فأظهر أمارات قدرتك وسلطانك على الكون بأن تأتى بالشمس من جهة غروبها الآن بدل أن تخرج من جهة شروقها، والمعنى أن ذلك الكون قد خلق على نظام محكم وأحكم تنسيقه بنظم

قدرها منشئه وأمارة قدرتك أن تغير هذه النظم فافعل إن كنت قديرًا، فليست القدرة فى أن تدعى إنشاء نظام وجد قبل أن توجد أنت وأشباهك من الطغاة، إنما القدرة تكون فى تغييره فافعل هذا التغيير وما كان ذلك فى قدرته لأنه ضال مضل؛ ولذا حكى الله سبحانه وتعالى حاله فى قوله: ﴿ **فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ** ﴾ أى تحير واضطرب ولم يجد جوابًا ولم يستطع أن يتكلم قليلا أو كثيرا. وقد عبر عنه بقوله: ﴿ **الَّذِي كَفَرَ** ﴾ للإشارة إلى أن سبب الحيرة هو كفره، إذ لو كان طالب هداية لكانت الحجة القاطعة الملزمة هادية بدل أن تكون محيرة ولكنه صمم على الكفر وأصر عليه، فكانت نفسه حائرة بين حق ظهرت بيناته وباطل قد عض عليه بالنواجذ، وكذلك شأن كل من أضله الله على علم.

﴿ **وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ ختم الله سبحانه وتعالى الآية بهذه الجملة السامية وهى تدل على ثلاثة أمور:

أولها: إن الذين يعاندون الحق ظالمون دائمًا: يظلمون أنفسهم لأنهم يسدون منافذ النور فلا يصل إلى قلوبهم، ويظلمون أقوامهم لأنهم يحملونهم على الضلال، ويظلمون الحق لأنهم يحاربونه.

ثانيها: إن ظلمهم يسبق كامل ضلالهم؛ ذلك لأن الشهوات تتحكم فيهم فتدفعهم إلى طلب ما ليس لهم ثم يستهويهم الشيطان بالطمع بعد المطمع، فيتجاوزون الحدود ويطغون ثم يكون الضلال الكامل الذى تطمس فيه البصيرة فتغلف القلوب عن الحق وتقسو فلا تلين.

ثالثها: إن الظلم إذا استحكم فى النفس أصبحت كل البراهين لا تجدى بل تزيده عنادًا وإصرارًا؛ ولذلك لم يكتب الله الهداية لمن استمرأ الظلم آحادا أو جماعات والله ولى المتقين.

ولقد كان احتجاج إبراهيم عليه السلام على الطاغية الذى يدعى الربوبية بأن الله هو الذى يحيى ويميت، فتجاهل الطاغية معنى الحياة والموت، وحرَّف الكلم عن مواضعه فلوى خليلُ الله عنقه حتى أراه عَجْزَه وقدرة الله على نحو ما ذكر سبحانه: ﴿ **فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ** ﴾.

إن الأمر الذى يحير العقول التى لا تربط بين بدء الحياة وانتهائها هو أمر الحياة بعد الموت، وقد ذكر سبحانه ما يزيل أسباب الحيرة أولا بأن الله سبحانه هو الذى يحيى ويميت، وأن ذلك من أوصاف الربوبية التى اختصت بها الذات العلية، وأزال الريب ثانيا ببيان ما كان منه سبحانه للذين أرادوا أن يروا بالحس الحياة بعد الموت والإعادة بعد الفناء فذكر سبحانه وتعالى قصتين تكشفان عن القدرة الإلهية فى الإعادة والإبقاء كما هى قادرة على الإنشاء الأولى: قصة القرية التى خوت على عروشها وتعجب من رآها من إعادتها وسأل متعجبا أنَّى يحيى هذه الله بعد موتها، والثانية: قصة إبراهيم عليه السلام وقد سأل ربه أن يريه كيف يحيى الموتى.

أما القصة الأولى فقد قال سبحانه:

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ هذه الآية مرتبطة بالسياق والعطف بالآية قبلها، والعطف فى المعنى واللفظ أو فى المعنى فقط، ونسق القول هكذا: ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك، أو ألم تر كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها والكاف هنا بمعنى مثل فالمعنى: أو لم تر مثل هذا الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها؟ ولأن القصة الأولى قصة نبى معلوم من أولى العزم من الرسل مع ملك طاغية فى زمانه لم يعبر بالكاف، أما هذه فلأن الشخص غير معلوم والمكان غير معلوم والقرية غير معلومة ذكر سبحانه الكاف فقال: ﴿كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ لأنه إذا لم يعلم الشخص ولا الزمان ولا المكان كان المقصود العبرة وبيان الحال والشأن فناسب ذلك التعبير بالكاف التى هى بمعنى مثل وإن كانت القصة لها حقيقة واقعة كما ذكر سبحانه وهو العليم الحكيم.

والقرية المدينة من القَرْى بمعنى الجمع؛ لأنها الجامعة لأشتات الناس وأصنافهم. ومعنى خاوية على عروشها، أى سقطت جدرانها على سقوفها؛ لأن العرش معناه السقف، والتعبير بـ ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ كناية عن خرابها وذهاب عمرانها وفناء أهلها، وأنه لم تعد لهم من باقية وقد خرجوا من هذه الدنيا الفانية.

وجد ذلك الذى مر على هذه القرية العظيمة الخراب قد خيم عليها وذهب كل ما فيها ومن فيها من الأحياء وبقيت الرسوم والآثار تعلن عمن عفت عليه الديار فهاله الأمر وتذكر الفناء وما بعد هذه الدنيا، ثم انبعث إيمانه باليوم الآخر، ولكن كان بين حقيقتين ثابتتين: إيمان صادق باليوم الآخر والبعث والنشور وذلك الفناء المحسوس الذى تحللت فيه أجزاء الإنسان فقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أى كيف يحى هذه القرية التى فنيت وخربت بعد موتها و«أنى» تكون بمعنى «من أين»، وتكون بمعنى «كيف»، وهى هنا بمعنى «كيف».

ويلاحظ أن التساؤل عن كيفية الإعادة لا عن أصل الإعادة فهو مؤمن بها صادق الإيمان لكنه مأسور بالحس والعيان وكأن سلطان الحس هو الذى دفعه إلى ذلك التساؤل. وفى العبارة ما يدل على ذلك فالتعبير بالإشارة «هذه» فيه إشارة إلى تلك الحال الحسية الثابتة التى استولت على حسه وهى تلك القرية الخربة. وقد قدمها على لفظ الجلالة فقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ لأن السبب فى التساؤل تلك الحال الحسية التى هو عليها.

وموت القرية هو موت السكان فهو من قبيل إطلاق المحل وإرادة الحال، وكذلك الحياة فليست الحياة هى حياة البناء والجدران؛ لأنه لا حياة لهما إنما الإحياء يكون لمن كانوا يسكنون البناء والجدران، سأل ذلك المار عن كيفية الإحياء وهو سر القدرة الإلهية لا يعلمه أحد من عباده ولكن يرون آثاره، ولقد أجاب سبحانه ذلك السائل عن الكيفية بالحال العملية.

﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أمات الله سبحانه وتعالى ذلك السائل عن الكيفية واستمر ميتا مائة عام ثم بعثه أى أثاره بالحياة ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ﴾ أى مكثت فى هذه الحال، والقائل هاتف نفسى أو ملك ناداه أو قاله الله سبحانه وحيا إذا كان ذلك السائل نبيا، والأقرب إلى خاطرى هو أن يكون المتكلم عن الله إما ملك من السماء أو وحى أوحاه الله رب العالمين إليه. سأله كم مدة من الزمان مكثتها؟ فأجاب بإحساسه الذى أحسه وهو أنه ظن أنه كان نائما قد

استيقظ من نوم طويل ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا﴾ أى مكثت فى نومى هـذا يومـا ولكنه رأى الشمس لم تغب فقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ هذا مظهر حسى قد تصور فيه الشخص الذى أماته الله أنه كان نائمًا ثم استيقظ، وفى ذلك تصوير للإنسان بأن الموت يشبه النوم والبعث يشبه اليقظة بعد النوم، ولقد قال النبى ﷺ فى جمع قريش عندما دعاهم دعوة الحق: «**والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، وإنها للجنة أبدا أو للنار أبدا**»(١).

﴿**قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ**﴾ أجابه الله سبحانه وتعالى بهاتف نفسى وجه نظره إلى ما حوله، أو بملك أرسله أو بوحى أوحى به إليه على ما بينا فى الجملة السامية السابقة. أثبت سبحانه وتعالى أنه لبث مائة عام ووجه نظره إلى آيتين تثبتان قدرة الله تعالى:

إحداهما: إنه لم يتغير الطعام والشراب بل بقى كما هو على مر السنين وهذا معنى قوله تعالى: ﴿**لَمْ يَتَسَنَّهْ**﴾ وكان الضمير للواحد مع أنهما طعام وشراب؛ لأنهما فى معناهما ومقصدهما الحاجة منهما شىء واحد.

الآية الثانية: الحمار وكيف بلى وتحلل وتفتت ولم يبق منه شىء، وهذا يدل على مر السنين وكر الأعوام. ويتجه بعض المفسرين إلى أن الحمار كان قائما كالطعام والشراب وأنه لم يتغير، ويؤيدون اتجاههم بأن السياق يدل على ذلك لأنه معطوف على الطعام والشراب، والفعل محذوف فى المعطوف لدلالة المعطوف عليه. ويرى بعضهم أن المراد انظر إلى حمارك وقد صار عظاما بالية ثم رد إليه سبحانه وتعالى الحياة وقد اتخذوا من قوله بعد ذلك: ﴿**وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا**﴾ قرينة على ذلك.

وعندى أن الأقرب هو التخريج الأول؛ ولذلك أمر سبحانه وتعالى بالنظر إلى الطعام والشراب وحدهما ثم أمر بالنظر إلى الحمار وحده فكان هذا يشعر بالتقابل

(١) تاريخ ابن عساكر ج٦ ص ٣٩٦.

وهو يومىء إلى تغاير بينهما: فهذا بلى، وهذان بقيا على حالهما، وكان بقاؤهما دليلا على قدرة العلى القدير، وتغييره أمارة على مرور السنين.

وهنا بحث لغوى فى قوله تعالى: ﴿يَتَسَنَّهْ﴾ فإما أن نقول أنه من السنة كقولهم: سانهت وسانيت فمعنى ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لم يتغير بمرور السنين وذلك من سنهت النخلة وتسنهت إذا أتت عليها السنون وغيرتها، وإما أن نقول إنها من أسن الماء أى تغير. وقيل أصلها «لم يتسنن» وقلبت النون هاء ولكن على معنى يتغير والأولى أولى بالقبول وأقرب فى المعنى والاشتقاق.

﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ والمعنى: فعلنا ما فعلنا لتدرك قدرة الله سبحانه وتعالى كما رأيت ولنجعلك آية، أى معجزة معلنة قدرة الله سبحانه وتعالى للناس لكى يؤمن بالبعث والنشور من لايؤمن ولكى يدرك عظمة الله فى الخلق والتكوين من لم يدركها وعلى ذلك فالواو فى قوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ﴾ للعطف على نتائج الكلام السامى الذى سبقها؛ لأن نتيجته أن تطمئن وتدرك ولنجعلك . . . إلخ.

ووجه كونه آية للناس أن الناس تناقلوه فيما بينهم وأن أحفاده يذكرون أنه مات وانتهى فإن وجدوه حيا وأعلمهم بما كان له وما أصابه من موت ثم حياة، ولابد أن من أسرته ومن ذريته من يذكر غيبته وأنه عاد وأنه حيى بعد وفاة وبعث بعد موت - كان ذلك آية البعث وعلامته الحسية ودلالته القاهرة لمن عنده قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

وبعد أن ذكر سبحانه تلك الآية الدالة على كمال قدرته وجه الأذهان إلى ما فى أصل الخلق من دلالة على قدرة الله سبحانه وتعالى على الإعادة كما هو قادر على الإنشاء، وأن الإنشاء نفسه دليل القدرة على الإعادة ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [**الأعراف**] وأنه لو تنبه الإنسان لأصل خلقه لأدرك عظيم القدرة، فقال سبحانه مخاطبا ذلك الذى أحياه بعد موت:

﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ أى انظر إلى العظام كيف ننشزها أى نركب بعضها فى بعض بعد أن نوجدها، فالإنشاز الإنشاء للعظام

وتركيبها. وقرئ (كيف ننشرها) أى نحييها ونوجدها فالمعنى: التفت إلى تكوين الله سبحانه وتعالى للإنسان والحيوان كيف ينشئ العظم أولا ويوجده ويركبه بعضه فوق بعض، حتى إذا تكونت العظام خلق سبحانه اللحم وتكون حول العظام كأنه الكسوة تكسوها فهذا كقوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)** ﴾ [**المؤمنون**].

ولقد أنتجت تلك البينات نتيجتها الحسية فحكى الله سبحانه ذلك عنه فقال: ﴿ **فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ أى لما تبين له بالأدلة الحسية المادية القاطعة لكل جدل قال: «أعلم» أى استيقن وأومن وأعتقد «أن الله على كل شىء قدير». ويدخل فى ذلك العموم البعث والنشور وإنشاء الحياة وإعادتها، ولكن إذا كان ذلك المار المتحدث عنه من الأنبياء كيف يقال عنه أنه تبين بعد تلك الإعادة الحسية وأنه علم علما مقترنا بها ؟ إذ معنى ذلك أنه لم يكن عالما بذلك قبلها ونقول فى ذلك: إنه إذا لم يكن نبيا فلا مورد للاعتراض ولا داعى للجواب، ولكن إن كان نبيا فللاعتراض مورد وللإجابة موضع فنقول: إن العلم درجات واليقين درجات فالعلم المبنى على الأدلة العقلية وعلى الإذعان المطلق للحق ببيان من لا يتطرق الظن إلى قوله هو نوع من العلم القاطع الجازم وهو مهما تكن درجته من القوة والإيمان والإذعان دون العلم المبنى على التجربة والحس والعيان، فذلك العلم المبنى على التجربة والحس هو العلم الجديد الذى علمه ذلك النبى والذى كان نتيجة لذلك التبين الحسى الذى لم يعتمد على التفكير المجرد بل اعتمد مع ذلك على قوة الحس والتجربة فالتقى للعلم سببان: سبب مشتق من التفكير والإيمان والتصديق، وسبب آخر مشتق من التجربة والعيان.

هذه هى القصة الأولى التى تؤكد بالحس الإيمان بالحياة بعد الموت وبالبعث والنشور. أما القصة الثانية التى تؤكد هذا فهى قصة سيدنا إبراهيم خليل الله فقد قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ هذه مجاوبة بين رب العالمين وخليله إبراهيم. لقد كان إبراهيم قانتًا لله حنيفًا وكان غواصًا طالبًا للمعرفة يتأمل فى كل شىء ويتقصى بفكره باحثًا وراء الحقيقة طالبا لها، قال لربه الذى اتخذه له خليلا: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ نادى ربه ذلك النداء، فيشير بأنه مقر بأنه خالقه ومربيه والقائم على أمره، وطلبه هو طلب الكيفية، فهو مقر بالأصل مذعن له خاضعٌ كل الخضوع لحكمه مؤمن بالبعث والنشور، وأن الله سبحانه هو الذى يحيى ويميت، وأنه القاهر فوق عباده، ولكنه يريد أن يعلم بالحس كما علم بالقول الحق وبالعيان كما علم بالبرهان.

قال إبراهيم ذلك، فقال له ربه مشيرا إلى أن الغاية هى الإيمان ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ أى: أتقول ذلك وتطلبه وأنت لم تؤمن؟ فإن كنت مؤمنا فإن ذلك غاية المطلوب وإن لم تكن فليس وراء ما علمت من حجة، وإن فيه الدليل القاطع والبرهان الساطع، فأجاب إبراهيم ربه: ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ «بلى» أى آمنت؛ فهى نفى لما بعد الهمزة، ونفى عدم الإيمان إثبات للإيمان؛ لأن نفى النفى إثبات كما يقول العلماء، وإذا كان إبراهيم مؤمنا فلماذا طلب ما طلب؟ فقد قال مستدركا: ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ والاطمئنان السكون والقرار فهل كان إبراهيم غير مطمئن وفى اضطراب حتى رأى وعاين؟ إن الاضطراب ينافى الإيمان والشك ينافى اليقين، وقد قرر أنه مؤمن فلا اضطراب، إنما كانت حيرة إبراهيم فى الكيفية لا فى أصل القضية؛ لأن إبراهيم كما قلنا كان غواصا متأملا يتطلع لتعرف كل شىء، فحمل نفسه بسبب ذلك عناء البحث عن الكيفية، فكان فى حاجة إلى ما يذهب حيرته فى هذه الكيفية، فطلب ما طلب ليطمئن عقله الحائر الذى تجاوز منطقة الإيمان بالأصل إلى محاولة معرفة كيفية الإعادة وهى فوق القدرة العقلية البشرية. ولقد قال بعض العلماء إن الاطمئنان الذى طلبه إبراهيم عليه السلام هو الاستدلال بالعيان بعد الاستدلال بالبرهان، فإن الحس يحمل الإنسان على الإذعان أكثر مما يحمل الدليل العقلى، وهذا رأى حسن فى جملته ولكن ما سقناه أولا أقوى فى نظرنا وأحكم. هذا طلب إبراهيم عليه السلام، ولقد كان جواب ربه هو ما كان بقوله تعالى:

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أى إذا كنت مُصِرا على طلبك فخذ أربعة من الطير. فالفاء هنا فاء الإفصاح التى تفصح عن شرط مقدر. ومعنى ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أى فضمهن إليك، أو أملهن أو حوِّلهن إليك، والضمير يعود على الطير؛ لأن كلمة الطير فى معناه جمع لما لا يعقل، وجمع ما لا يعقل يصح عود الضمير عليه بصيغة ضمير جماعة الإناث، وقد كانت عودة الضمير بتلك الصيغة دالة على معنى الجماعة وعموم ضم الطير واحدة واحدة، وإنما كانت الطير موضع تجربة لأنها لا تستأنس بالإنسان وتطير عند مجرد رؤيته، فتحويلهن إليه بيسر لا يكون إلا بتأليف من الله العلى الخبير.

وأن تحويل الطير إليه لتجرى تلك التجربة الربانية، وهى أن يجعل على كل جبل منهن جزءا ثم يدعوهن يأتين إبراهيم سعيًا؛ ولذا قال سبحانه:

﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ أمر الله إبراهيم بأن يجعل أى يضع على كل جبل أى كل جزء مرتفع من الأرض جزءا وأن يدعوهن بعد ذلك يأتينه سعيا.

وجمهور المفسرين يقول فى تفسير هذه الجملة السامية: أن الله سبحانه وتعالى أمر إبراهيم خليله أن يجرى هذه التجربة، بأن يذبح تلك الطيور ويقطع أجزاءها ويضع على كل مرتفع من الأرض جزءا من تلك الأشلاء المتقطعة، ثم يدعوها فتكون طيرًا بإذن الله ويجىء إليه سعيًا، وعلى هذا النحو يكون ذلك العمل الحسى تقريبًا لمعنى الإحياء وإن لم يكن بيانا كاملا للكيفية؛ لأن الكيفية عند الله العليم الخبير علمها، ويكون ذلك إظهارا للإحياء بمظهر حسى وإن لم يكن فيه بيان الكيفية.

هذا نظر جمهور المفسرين، ولقد قال أبو مسلم الأصفهانى إن الآية ليس فيها ما يدل على أن سيدنا إبراهيم عليه السلام قد ذبح الطير وقطع أجزاءها، إنما الذى فيها أنه حولها إليه ووضع جزءا على كل مرتفع من الأرض، وعلى هذا يكون المعنى أن إبراهيم عليه السلام طلب منه رب البرية أن يحول جمعا من الطير إليه

ويجعل على كل مرتفع من الأرض طائفة من هذا الطير ثم يدعو هذه الطوائف يأتينه سعيا، وفى هذا توجيه لإبراهيم عليه السلام إلى أن الله سبحانه وتعالى يؤلف كل شيء ولو كان متنافرا ويجمع كل جزء ولو كان بعيدا، كما دعوت الطير التى لا تجيب إنسانا وتنفر منه فأجابتك بقدرة العلى الحكيم الذى يؤلف بين المتنافرات، فإن كان ثمة استغراب من أن الحياة تقتضى أن يجمع الله سبحانه وتعالى أجزاء متناثرة قد تحللت وتجزأت إلى أجزاء بل جزيئات، فها أنت ذا ترى تلك النفرة التى بين الإنسان والطير تزول، تدعوها فتستجيب وهى من شأنها النفور، وكذلك يؤلف الله بين الأجزاء المتناثرة، فيجعل منها ذلك الحى الذى كان من قبل ثم إن فى تلك التجربة تصويرًا دقيقًا، وهو أن إعادة الله تعالى للأشياء لا تكون إلا بقوله تعالى كن فيكون، كما يقول خليل الله إبراهيم للطير وقد تفرقت: أَقبِلى فَتُقْبِل.

هذان هما التفسيران للآية، ونرى أن رأى الجمهور يتجه إلى تحقيق معجزة تجرى على يد إبراهيم عليه السلام وهى إحياء الموتى بالحس المعاين وإن لم تعلم الكيفية، كما جرى بالحس المعاين إماتة الرجل مائة عام ثم إحياؤه، ويكون من مقتضى التناسق بين الآيتين أن تكون فى هذه الآية معجزة الإحياء بعد تقطيع الأجزاء، فالمقام كله يتجه بنا إلى الإعجاز بإحياء الميت بمرأى العين، وتكون العبرة فى القصة هى أنه يريه الحقيقة واضحة جلية، ورؤيتها تغنى عن البحث فى كيفيتها وإنا نميل لهذا الرأى.

أما رأى أبي مسلم فهو مبنى على الألفاظ من غير أن يرمى بنظره قليلا إلى الآية التى سبقت ذلك من الإماتة مائة عام ثم الإحياء بعد ذلك، وهو نظر إلى أن الكيفية لا يمكن أن تعلم للإنسان، وإنما أقصى ما يعلمه هو أثر القدرة لا كيفيتها وأنه صور للإنسان الإعادة بقوله سبحانه وتعالى: ﴿**كُن فَيَكُونُ** ﴿١١٧﴾﴾ [**البقرة**] وأنها تكون كقول إبراهيم للطير: أقبلن أيها النافرات فيقبلن.

وقد ذيل سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله تعالت كلماته: ﴿**وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ وكان ذلك التذييل الكريم للدلالة على ثلاثة أمور:

أولها: إن العزة لله وحده فلا يركن إليه مؤمن إلا عزَّ، ولا يبعد عنه أحد إلا ذل، فمن اعتز بغير الله فهو الذليل، ومن آوى إلى فضل الله فقد آوى إلى ركن شديد. وأن مناسبة هذا للآيات السابقة كلها واضحة؛ لأن إبراهيم كان يغالب طاغية جبارًا عاتيًا قد استهان بالناس جميعا كما دلت عليه الآية الأولى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ**﴾ فالله العلى القدير يدعو خليله أن يتقدم لدعوة ذلك الجبار معتزا بالله فلا عزة إلا من الله، والله غالب على النمرود ومن هو أكبر من النمرود.

وثانيها: الإشعار بأن الله سبحانه وتعالى خالق كل شيء وعزته هي عزة القادر الغالب، لا عزة الضعيف العاجز.

وثالثها: إن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق بحكمته وبعث الرسل يدعون إلى عبادته وحده وهو الذى قدر الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وكل ذلك من مقتضى الحكمة الإلهية التى لا تصل العقول إلى العلم بها؛ لأنها لا تعلم من الكون إلا مظاهره وأشكاله وألوانه، ولا تعلم شيئا عن كيفيته وأسراره، إن ذلك كله عند علام الغيوب، وفوق كل ذى علم عليم.

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ
أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ
لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ
أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ

أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

المؤمن الحق يشعر أن الحق يتقاضاه دائمًا الجهاد لأجله، والسعى فى سبيل رفعته؛ لأنه منذ أن أخرج إبليس وآدم وحواء من جنة الله، والعداوة مستحكمة بين الحق والباطل، وإبليس يغوى الأشرار، والله سبحانه يهدى المؤمنين إلى الحق، ويوفقهم لنصرته.

وإن الجهاد فى سبيل الحق له ميادين ثلاثة:

أولها: الإقناع بالحجة والبرهان، كما قال سبحانه وتعالى لنبيه محمد ﷺ: **﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ... ﴿١٢٥﴾﴾** [**النحل**] وإن ذلك الجدال مع أهل الشر الذين مردت نفوسهم على النفاق والمغالبة بالباطل ليس أمرًا سهلا يسيرًا، بل هو أمر الأمور؛ لأن التقاء العقل الذى أناره نور الحق بالعقل الذى طمس الله على بصيرته ليس من الأمور التى يستطيعها كل العقلاء.

والميدان الثانى من ميادين الجهاد: الجهاد المسلح، بمنع اعتداء الباطل، وخضد شوكته وفَلّ حدته، وحمله على الجادة، ومنع أهله من أن يفتنوا الناس فى دينهم؛ وإن ذلك أظهر ميادين الجهاد، وهو باب من أبواب الجنة.

والميدان الثالث من ميادين الجهاد: البر وإعطاء المال، وبذله مع طيبة النفس ببذله وعطائه؛ وإذا كان المال قد سمى النفيس؛ فلأنه قطعة من نفس من يبذله، وإن بذل المال هو الذى يقوى وحدة المؤمنين؛ لأنه من التعاون بين الفقير والغنى،

والتعاون جماع كل القوى، وفوق ذلك فإن إمداد الجند بالمال، إنما هو إمداد بذخيرة القتال، وعدة النزال، والمال فى الحروب من عصبها، كما هو عصب كل إصلاح فى الأمة.

وقد ذكر سبحانه وتعالى قصص القتال بين الحق والباطل، وكيف ينتصر الحق مع الإيمان به وقلة العدد والعُدد، وينهزم الباطل مع كثرة العدد؛ وذكر عمل المرسلين، وتبليغهم رسالات ربهم؛ وذكر من ذلك مجادلة إبراهيم خليله لطاغية من طغاة الدنيا.

وفى هذه الآية الكريمة يذكر سبحانه ميدان الجهاد الثالث، وهو ميدان الصدقة غير الممنونة ولا الممنوعة؛ ولقد روى أن هذه الآيات نزلت فى صدقة عبدالرحمن بن عوف وعثمان بن عفان فى الجهاد فى سبيل الله عند غزوة تبوك؛ وذلك أن رسول الله ﷺ لما حث الناس حين أراد الخروج إلى غزوة تبوك، جاء عبد الرحمن بأربعة آلاف درهم فقال: يا رسول الله كانت لى ثمانية آلاف، فأمسكت لنفسى ولعيالى أربعة آلاف، وأربعة آلاف أقرضتها لربى؛ فقال رسول الله ﷺ: «**بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت**»(١). وقال عثمان: يا رسول الله عليّ جهاز من لا جهاز له. ولقد قال عبد الرحمن بن سمرة: جاء عثمان بألف دينار فى جيش العسرة فصبها فى حجر رسول الله ﷺ(٢). ولقد قال أبو سعيد الخدرى: رأيت النبى ﷺ رافعا يديه يدعو لعثمان يقول: «يارب! عثمان، رضيت عن عثمان فارض عنه»(٣).

---

(١) رواه البزار عن أبى هريرة، وكذلك أخرجه عبد بن حميد، وأخرجه ابن أبى حاتم والطبرى وابن مزدويه، وذكره ابن إسحاق فى المغازى بغير إسناد. راجع: فتح البارى ٨/ ٣٣٢، ومجمع الزوائد ٧/ ٣٢، وكنز العمال (٣٦٣٣).

(٢) رواه الترمذى: مناقب عثمان (٣٦٣٤).

(٣) رواه أبو نعيم وابن عساكر عن أبى سعيد الخدرى بلفظ: «اللهم قد رضيت عن عثمان فارض عنه» قالها ثلاثا، وكذا رواه ابن عساكر عن عائشة رضى الله عنها. [جامع الأحاديث - السيوطى (٤٢٢٥)].

وفى الحق إن هذه الآية تشمل صدقة عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف في معناها؛ لأنه يتحقق فى تلك الصدقة السخية كل أوصاف الصدقة التى يتقبلها رب العالمين فرضى الله عن الصحابة أجمعين.

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ﴾ الحبة اسم لكل ما يزرعه ابن آدم ويكون منه قوته، وأكثر ما تكون فى البُر، وسنابل جمع سنبلة، وهى وزن فنعلة من السبل، ويقال أسبل الزرع إذا صار فيه السنبل، أى استرسل بالسنبل كما يسترسل الستر بالإسبال، وقيل معناه صار فيه حب مستور كما يستر بإرسال الستر عليه.

وسبيل الله، هى سبيل النفع العام، والجهاد فى سبيل الله وإعطاء السائل والمحروم أو بعبارة عامة: الإنفاق فى سبيل كل خير، لايقصد بالإنفاق فيه كل وجوه البر والنفع، ولكن إذا اجتمعت مع أبواب البر الأخرى، كان المقصود بها الإنفاق فى الجهاد فى سبيل الله، وهو الإنفاق على المحاربين والغزاة وإعداد العدة، كما هو فى آية الصدقات فى التوبة: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ... (٦٠)﴾ [التوبة]؛ ولذلك كان الغالب على هذا اللفظ أن يكون الإنفاق فى سبيل الجهاد، وكل ما يعد القوة المدافعة عن الأمة.

وقد شبه سبحانه حال الذين ينفقون فى سبيل الله بحال حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة، وقد ذكر الزمخشرى وغيره من المفسرين: أن التشبيه ليس بين الذين ينفقون والحبة، بل بين الصدقة نفسها والحبة؛ فالكلام فيه مضاف محذوف مقدر فى القول، وتقديره: مثل صدقة الذين ينفقون فى سبيل الله.. فقد شبه سبحانه الصدقة التى تنفق فى سبيل الله بحبة تلقى فى الأرض فتخرج عودًا مستويًا قائمًا تتعلق به سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة، أى أنه يتولد عن هذه الحبة التى باركها خالق الحب والنوى سبعمائة حبة، وإسناد الإنبات إليها من حيث اتصاله بها، وأن تلك الحبات هى نماء متولد عنها، وفى الحقيقة إن المنبت هو الله سبحانه وتعالى.

والمفسرون جميعًا مجمعون على أن النفقة فى سبيل الله تنتج سبعمائة مثل لها؛ لأن صاحبها يكافئه الله تعالى عليها بتلك المكافأة السخية، وهو سبحانه وتعالى المعطى الوهاب، وإن ذلك وجه صحيح بلا شك، ويزكيه قوله تعالى بعد ذلك: ﴿**وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ**﴾ فإنه فى ظاهره يدل على عطاء الله بالثواب على الحسنة بعشر أمثالها، وعلى الصدقة بسبعمائة مثل؛ فلا حد لفضله وعطائه سبحانه.

ولكن يصح مع ذلك أن نقول: إن الصدقة فى سبيل الله تنتج سبعمائة مثل لها، لا من حيث الثواب الذى يناله المنفق ممن يملك الثواب فقط، بل من حيث النتائج التى تنتج عنها؛ فإن نتائج الإنفاق فى سبيل الله عظيمة تعود على الأمة بسبعمائة مثل لهذه الصدقة أو تزيد، فإن الإنفاق فى سبيل الحرب بإعداد العدة يدفع كيد الأعداء فتنجو الأمة، وفى نجاتها خير كثير هو أكثر من سبعمائة ضعف من المال الذى أنفق. ومن يعطِ يتيما ويدر عليه من ماله فإنه يربيه، فتكون منه قوة عاملة فى الأمة، تأتى من وجوه الخير بأضعاف ما أنفقت فى تربيته، ودفع شرا خطيرا، وهو أن يكون ذلك اليتيم إن لم يتعهد بالتربية الصالحة عنصر تخريب فى الأمة. ومن ينشئ مستشفى، فإنما يدفع أدواء تعوق القدرة الإنسانية فلا تنتج، فإذا حمى هذه القدرة فقد قدم للجماعة خيراً كثيراً بهذا الإنتاج.

وعلى ذلك نقول: إن سبعمائة الضعف ليست فقط هى الثواب الذى يناله صاحب الصدقة، إنما هى مع ذلك النتائج الجليلة التى ترتبت على هذه الصدقة. وإنه ليزكى نظرنا هذا، إسناد الإنبات إلى الحبة، وهى التى شبهت بها الصدقة؛ لأن ذلك يدل على أن تلك الأضعاف نماء لتلك الحبة، وهى أنسب فى معنى النتائج النافعة للصدقة فى الأمة، لا مجرد النفع فقط بالثواب لصاحبها.

وإن ذلك القول كله مبنى على أن التشبيه بين الصدقة فى نتائجها وبين الحبة فى نمائها الدر الوفير؛ وأن الكلام على تقدير مضاف فى قوله: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ**﴾ أى نفقة الذين ينفقون، على هذا التخريج الذى قاله كل المفسرين. ولقد خطر لى أنه لا مانع من أن يكون التشبيه بين المنفقين أنفسهم من حيث كونهم عنصر

خير فى الأمـة له ثمرات منتجة، وبين الحبـة من حيث ذلك النماء، وعلى ذلك لا يكون ثمة حـاجة إلى تقدير مضـاف محذوف، بل يكون المعنى على ذلك التـخريج الذى يفيده ظاهر اللفظ: إن أولئك الذين ينفقون أمـوالهم فى سبيل الله بإنفاقها فى الجهاد لإنقاذ الأمة، أو لسد حاجة المعوزين ليكونوا قوة عاملة فيها ولا يكونوا عنصر تخريب، ويعملون لحفظ القوى الإنسانية من أن تبددها الأمراض، إن هؤلاء أنفسهم مثلهم فى إنتاجهم وثمرات أعمالهم كمثل حبة نمت، فكان نماؤها أن تولد عنها عدد قد استغلظ وقام على سوقه، فـحمل سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة، وإن ذلك يكون كقوله تعـالى فى وصف المؤمنين ونتائج أعمـالهم، ؛إذ قال تعالى: ﴿ **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ... (٢٩)** ﴾ [**الفتح**].

وعلى هذا يكون تشبيه المنفقين أنفسهم بالحبة التى تنمو فتكون مائة، هو تشبيه المؤمنين بالزرع الذى يستغلظ فيقوم على سوقه، وينبت الخير الكثير.

وإن هذا خاطر خطر لى؛ وإنه يصح أن يسـتقيم عليه التـخريج، وحتى على فرض التقدير؛ فإن حذف المقدر يومئ إليه ويشير.

﴿ **وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ هذا هو التشبيه المحكم الذى ذكره رب العالمين، وتلك تخريجـاته. ولقد بين سبحانـه بعد ذلك أن هذا كله من فضل الله تعالى ومن رحمته، ونعمه التى أنعم بها على عباده؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ **وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ** ﴾ ولهذه الجملة السامية تخريجان:

أحدهما: أن تكون المضاعفة هى ذلك النمـاء، وهذا الثواب العظيم، يجعل الإنفاق ينتج عنه سبعمائة ضـعف، ويجعل الحسنة الواحدة فى باب الصدقات يكون ثوابها بسـبعمائة مثل، وتكـون بركتها فى مال المنـفق بسبعمائة مـثل أيضًا؛ إن هذه المضاعفات يضاعفـها الله سبحانه لمن يشاء بتوفيقه لفـعل الخير، والإنفاق فى سبيل الله، وهو سبحانه وتعالى الفعال لما يريد.

وثانيهـما: أن تكون المضاعـفة التى يضاعـفها ثوابًا أكثـر من سبعـمائة المثل وفوقها، ونماء أوفر منها، وعطاء أكبر.

فالله سـبحانه، وهو رب كل شـيء وخالق الأسبـاب والمسببـات يستطيع أن يعطى سبعمائة وأكـثر منها لمن يشاء؛ إذ يوفقه لفعل الخيـر بنية خالصة وقلب نقى، فيضاعف له أضعافًا كثيرة بعد السبعمائة التى نص عليها سبحانه.

ومهما يكن فإن الاتجاه واحد، وهو بيـان سعة عطاء الله تعالى، وسعة نمائه، وهو الرزاق ذو القوة المتين.

وقد ذيل سـبحـانه الآية الكريمة بقـوله تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ أى أنه سبحانه عطاؤه واسع، فالسعة وصف للعطاء، أو وصف لله سـبحانه وتعالى باعتبار شمـول قدرته، وسعة مـا يدخل فى سلطان إرادته، فلا حد يحـد هذه القدرة، ولا سلطان لغيره سبحانه يمنع شمول هذه الإرادة.

وهو سبحـانه عليم بعباده، عليم بالسر والجهـر، وبما يجرى على الألسنة وما تخفيه الصـدور، وعليم بالأعمال، والنيات التى تنبعث عنهـا هذه الأعمال، وعليم بالأعمـال ونتائجهـا، وهو سبـحانه بقدرته القـاهرة هو الذى يرتب المسبـبات على الأسباب، وينـشئ بحكمته العلاقـة المؤثرة بينهما، فلا يؤثر السـبب فى المسبب إلا بقدرته وإرادته التى تسير على مقتضى علمه الذى شمل كل شيء.

وقد ذيل سـبحانه الآية بهذيـن الوصفين للذات العليـة، لكيلا يقع فى نفس قارئ وهم بالاستكثار أو الاستبعاد، فإنه لابعـيد على قدرته سبحانه، ولا كثير أمام إرادته، وإن كل شيء عند الله بمقـدار، وهو يدبر كل أمـر بعلمـه وحكمتـه، وهو العزيز الحكيم، وهو بكل شيء عليم.

﴿ **الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴿٢٦٢﴾ ﴾ الإنفاق فى سبيل الله، سبيل النفع العام، يثمـر ثمراته من الخير العـميم؛ لأن العطاء المادى ينتج نتائجـه من معونة فى الجهاد، وسـد للثغور، ومنع للأذى، ودفع للكرب، ولكن المنفق لا يسـتحق ثواب الإنفاق إلا إذا كان طيب النفس فى عطائه لا يُرَنِّقـه من ولا أذى ولا رياء؛ فالصدقة

تنتج آثارها فى الجماعة حتما، مهما تكن نيـة صاحبها، ولكن صاحبها لا ينال أجر المنفق إلا إذا خلصت نفسه من هذه العناصر الثلاثة: المن، والأذى، والرياء؛ فإن النتائج للأعمال؛ أما الثواب فللنيات؛ كما قال ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**»(١).

والمن: أن يَعُدَّ الإنسان إحسانه على من أحسن إليه، متطاولا به عليه، مبينًا له: أنها فضل ساقه إليه، غير مشكور، وإن ذلك فيه اتجاه إلى طلب المثوبة من العبد، لا من الرب، فله ما اختار. ولقد قال الزمخشرى فى تفسيره: «صنوان مَنْ منح سائله ومَنَّ، ومن منع نائله وضنَّ» ولقد قال ﷺ: «**ثلاثة لايدخلون الجنة: العاق لوالديه، والمدمن الخمر، والمنان بما أعطى**»(٢).

والأذى: أن يصدر عنه ما يؤلم من يأخذ ولو بغير منٍّ، كأن يقول له: ألا تعمل! أو يتجهم فى وجهه عند العطاء، أو ينتقد بغير الحق الذين قاموا على المال الذى جمع لوجه عام. ويروى أن امرأة قالت لصحابى: دلنى على رجل يخرج فى سبيل الله حقًا، فإنهم إنما يخرجون يأكلون الفواكه، فإن عندى أسهمًا وجعبة، فقال: «لا بارك الله فى أسهمك وجعبتك فقد آذيتهم قبل أن تعطيهم!».

ولماذا كان المن والأذى مانعين للأجر؟ لأن الأجر هو جزاء من الله، فمن تصدق يبتغى وجه الله فله ثوابه، ومن مَنَّ أو آذى فقد قصد غير وجه الله فليس له أن يطلب ثوابه. ولقد قال فى ذلك ابن جرير الطبرى:

(أوجب الأجر لمن كان غير مان ولامؤذ لمن أنفق عليه فى سبيل الله؛ لأن النفقة فى سبيل الله مما ابتغى به وجه الله وطلب به ما عنده؛ فإذا كان معنى النفقة فى سبيل الله هو ما وصفنا، فلا وجه لمنِّ المنفق على من أنفق عليه؛ لأنه لا يد له قِبَله، ولا صنيعة يستحق بها عليه ـ إن لم يكافئه عليها ـ المنَّ والأذى إذا كانت نفقة ما أنفق عليه احتسابًا وابتغاء ثواب الله وطلب مرضاته، وعلى الله مثوبته دون من أنفق عليه).

---

(١) سبق قريبا تخريجه من رواية البخارى ومسلم، وقد استفتح به البخارى صحيحه.

(٢) رواه النسائى: الزكاة - المنان بما أعطى (٢٥١٥)].

وقد بين سبحانه جزاء الذين ينفقون على هذا الوجه لا يبتغون إلا رضاه سبحانه، ولا يرجون ثوابًا من أحد سواه، فذكر جزاءين عظيمين:

أولهما: ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أى لهم جزاؤهم مكافأة لهم على أعمالهم وسماه سبحانه وتعالى أجرًا، وهو المعطى الوهاب، توثيقًا للعطاء، وقال سبحانه: «لهم»، ولم يقل مثلا: «أعطيهم»، ولكلام الله تعالى المثل الأعلى للإشارة إلى أنه كان لهم بنياتهم، واستحقوه باحتسابهم، وليعلمهم كيف يكون العطاء من غير أجر؛ إنه سبحانه وتعالى هو الذى منحهم المال الذى أعطوا منه، وهو الذى وفقهم لأن يعطوا، وهو الذى يملكهم وما ينفقون وما يعملون، ومع ذلك يسمى ما يعطيهم أجرًا قدموا مثيله من قبله مع أنه يعطيهم أضعافًا كثيرة عنه، ولكنه يعلم الناس كيف يكون البعد عن المن، وكيف العطاء غير ممنون.

الجزاء الثانى الذى ذكره رب العالمين هو الأمن والاطمئنان؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وقد نفى سبحانه وتعالى الخوف، ولم يقل لا يخافون؛ لأن الخوف أمر نفسى، وقد يكون من غير مخوف، وتكون الخشية والخوف من شأن المؤمن شعورًا بتحمل التبعة؛ ولذا نفى سبحانه الخوف أى الأمر المخوف، أى لا ينزل بهم أمر من شأنه أن يخافوه، ولم ينف الخشية النفسية فى ذاتها؛ إذ الحال النفسية من قوة الإحساس؛ ولذا يقول الصوفية: غلب الخوف على الرجاء. أما الحزن وهو الهم الذى يصيب القلب فهو منفى فى كل صورة ولا يصح أن يكون حالا من حالات الإيمان.

وما الخوف المنفى والحزن؟ أهما ما يكونان فى الآخرة؟ جل العلماء على ذلك، ولكن لماذا لا يراد ما هو أعم من أحوال الدنيا والآخرة؟ وإن ذلك ما نختاره؛ لأن الإنفاق فى سبيل الله يدفع خطر الأعداء من خارج الأمة، ويجمع الوحدة ويقضى على أسباب الفتن الداخلية، فيكون الأمن فى الداخل والخارج معًا، فالمنفقون فى سبيل الله لا خوف عليهم فى الدنيا، ولا يحزنون فى الدنيا أيضًا كما أنهم لا خوف عليهم فى الآخرة ولا يحزنون.

وقبل أن ننتقل إلى الآية الثالثة من آيات الإنفاق ننبه إلى بحثين لفظيين:

أولهما: أن الله سبحانه وتعالى كرر النفى فقال: ﴿**ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى**﴾ لتأكيد النفى، بألا يصدر عنهم أى نوع من أنواع الأذى، فلا يكون مَنٌّ، ولا شبهة منٍّ، ولا أذى، سواء أكان أذى عن قرب أو بعد؛ حتى لقد قال بعض الصالحين: (لئن ظننت أن سلامك يثقل على من أنفقت عليه تريد وجه الله فلا تسلم عليه).

وثانيهما: إنه سبحانه وتعالى عطف بثم فى قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى**﴾ فلماذا كان العطف بثم دون الفاء؟ فهل مقتضى هذا أنه يسوغ المن والأذى عند العطاء، ولا يسوغ بعده بفترة من الزمان؟ والجواب عن ذلك أن التعبير بثم أفاد النفى المطلق على عدم اتباع الإنفاق بالمن والأذى فى زمن قريب أو بعيد؛ لأن المنفق فى غالب الأحوال يكون عند إنفاقه فى حال حماسية نفسية تدفعه إلى الإنفاق، فما يفكر فى مَنٍّ ولا أذىً وقته، وإن خطر له ذلك فقد يمنعه من الإعطاء، إنما يكون التفكير فى المَنِّ أو الأذى بعد ذهاب فورة الخير فى النفس، فإذا كان الله سبحانه قد صدَّر النفى بـ «ثم» فليحث المنفق على الاستمرار على نزعة الخير، ولا ينكص على عقبيه، فيفسد نيته بأذى يؤذى به من أجرى الخير على يديه، أو من يمن به على من أعطاه.

﴿**قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ** ﴿٢٦٣﴾﴾ فى هذه الآية الكريمة يبين سبحانه منزلة قول المعروف، وكيف يذهب الأذى بخير الصدقة الفردية، وأن الحرمان فيها مع قول الخير خير من الصدقة مع الأذى بالمن أو غيره، وأن ألم الحرمان أقل من أذى القول؛ لأنه أذى يصيب النفس بالجراح، وجراح النفس ليس لها التئام، أما ألم الحرمان فيذهبه الصبر، ووراء الصبر الفرج القريب، وإن الله مع الصابرين.

وقول المعروف هو الرد الجميل لطالب العطاء، وذلك بتأنيسه، وترجية الخير له، وإن هذا فى ذاته صدقة؛ ولقد قال ﷺ: «**الكلمة الطيبة صدقة، وإن من**

المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق»[١]. ولقد قال بعض الحكماء: (الق صاحب الحاجة بالبشر، فإن عدمت شكره لم تعدم عذره).

وإنه ظاهر من هذا أن قول المعروف يكون لصاحب المصلحة الشخصية الذى يطلب من المنفق مباشرة. ولقد ذكر الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده أن قول المعروف يكون أيضًا عندما يكون الإنفاق فى المصلحة العامة، وإنه يكون كفاءها، ومساويًا لها، وخيراً من الصدقة التى يتبعها أذى، وذلك بالتحريض على العمل، وعلى الإنتاج، وعلى الإعطاء، ويكون بالدعوة إلى كل ما فيه رفعة الأمة وتقوية عناصرها والتعاون بين آحادها، وإن ذلك بلا ريب فضله لا يقل عن الإنفاق من غير مَنٍّ، ويزيد عن الإنفاق مع المَنِّ والأذى.

والمغفرة معناها الستر أو العفو، والمراد: إما الستر من المطلوب منه العطاء، وعفوه، وذلك بأن يستر خلة المحتاج ولا يعلن سوء حاله، ويجعلها موضع حديثه، ويعفو عنه إذا أغلظ أو جفا، أو أثقل فى السؤال، وألحف فى المسألة؛ وإما أن نقول إن المغفرة هى مغفرة الله سبحانه وتعالى للمسئول إذا لم يعط من غير شح ولا بخل.

والمعنى على هذا التخريج: إن قول المعروف مع مغفرة الله سبحانه وتعالى خير من الصدقة يتبعها الأذى. والوجه الأول أظهر وأبين، وهو المتفق مع سياق القول.

وقد ختم الله سبحانه الآية بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ لإثبات أن الذين يعطون إنما يقصدون وجه الله بعطائهم لينفعوا عباده، فإذا لم يقصدوا وجهه تبارك وتعالى؛ ويطلبوا رضوانه، فإنه غنى عنهم، وهو بغناه الذى يعلو فوق كل تقدير يستطيع أن يجعل الفقير غنيا يعطى، والغنى فقيراً يسأل، فالمال مال الله، وهو غاد ورائح والله سبحانه وتعالى حليم، وعلى الناس أن يتخلقوا بأخلاق الله تعالى، ولله المثل الأعلى، وليس كمثله شيء، فلا يصح أن يدفعهم حمقهم لأن يقولوا

---

(١) رواه الترمذى: البر والصلة (١٨٩٣)، وأحمد (١٤١٨٢).

للفقير ما يؤلم، أو للقائم بالمصلحة العامة التى أنفقوا فى سبيلها ما يثبط همته، وينهنه من عزيمته. وفى ذكر هذا الوصف الكريم فى هذا المقام إشعار بأن المن والأذى ذنب كبير يستحق العقاب، ولكن لحلم الله تعالى، ولأن رحمته سبقت عذابه أمهل ولم يهمل.

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ**﴾ هذا نهى صريح واضح عن المن والأذى، وقد تضمن هذا النهى الحاسم أن الصدقات يبطلها المن والأذى، فلا يكون لها أجر من الله، ولا يكون لها شكر ممن أسدى إليه، سواء أكان الإنفاق فى سبيل النفع العام، أم كان لبعض آحاد الأمة بسد الخلة، ودفع الحاجة؛ **وقد أكد سبحانه النهى عن المن والأذى بثلاثة توكيدات**:

أولها: تصدير الآية الكريمة بنداء للبعيد وفى ذلك فضل مبين، وبأن النداء للذين آمنوا، وفى هذا إشعار بأن الأذى فى الصدقات ليس من صفات أهل الإيمان، إنما هو من صفات أهل الصلف والكبرياء والذين يمنون على الله وعلى الناس إن فعلوا الخير، وليست الكبرياء والاستطالة بفضل العطاء من صفات المؤمنين.

وثانيها: أنه صرح سبحانه بأن المن يبطل الصدقة، ولا يجعل لها ثوابًا عند الله، ولا شكرًا من الناس؛ ولذا قال ﷺ: «**إياكم والامتنان بالمعروف فإنه يبطل الشكر ويمحق الأجر**»[1] وتلا قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ**﴾.

وثالثها: أنه سبحانه وتعالى جعل المنفق مع المن والأذى كالمنفق رئاء الناس، والمنفق للرياء والسمعة مشرك شركا خفيا؛ ولذا وصف سبحانه وتعالى الذى ينفق ماله رئاء الناس، بأنه لا يؤمن بالله واليوم الآخر، فأفعاله كقلبه ليست أفعال المؤمنين، وقلبه ليس قلب مؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر؛ وإذا كان المنفق الذى يتبع صدقته بالمن والأذى مثله، فإن إبطال الصدقات أقل ما يناله.

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره: البقرة (٢٦٤) عن ابن سيرين رضى الله عنه.

ولماذا شدد سبحانه فى النهى عن المن والأذى، وكرر ذلك فى ثلاث آيات متواليات، وأكثر من التشبيه لتقبيح المن والأذى فى الصدقة؟

الجواب عن ذلك: أن المن والأذى فى الإنفاق ينشأ عن استطالة الغنى بفضل غناه، والمباهاة بثروته وقدرته، وإنه لا شيء يرمض نفس الفقير إلا إحساسه باستعلاء الغنى بسبب الغنى، وصغار الفقير بسبب الفقر، وإن ذلك يدفع بلا شك إلى تفكيك الروابط، وقطع ما أمر الله به أن يوصل، فإن الفقراء لا يتألمون لذات الفقر إنما يتألمون من مرارته باعتزاز الغنى عليهم، وإشعارهم بذل الحاجة، وعندئذ تتمرد النفوس، وتتعرض الأمم للخراب، وتذهب الوحدة الجامعة.

إن الغنى والفقر أمران لا يخلو الوجود منهما، ولا يمكن أن تخلو أمة من غنى وفقير، ما دامت القوى متفاوتة، والفرص لا تواتى الجميع بقدر واحد، والأقدار لا تسعف الجميع فى زمن واحد، وما دامت تلك حقيقة مقررة، فعمل الشرائع هو تخفيف ويلات الفقر، ومنع استطالة الغنى؛ ولقد قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه: (إن الله امتحن بعض عباده بالفقر، وأمرهم بالصبر؛ وامتحن الأغنياء بالمال، وأمرهم بالعطاء).

ولقد شبه سبحانه وتعالى المن والأذى بالرياء فى الصدقة كما أشرنا فقال: ﴿كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ وفى هذا التشبيه إشارة إلى أن الذى ينفق ماله رئاء الناس، أى لأجل الرياء والسمعة، وأن يقول الناس: إنه سخى جواد، أو لتملق ذى جاه ـ أسوأ حالا عند الله من ذى المن والأذى؛ لأن المشبه به أقوى دائما من المشبه. ولقد ذكر سبحانه حال المرائى بنفقته على أنه أمر مقرر سوءه، وليس فى حاجة إلى بيان؛ لأنه لا اشتباه فى بطلان ما أنفق، إذ إنه ماقصد الخير حتى يبطل قصده، فالفرق بينه وبين الأول أن الأول قصد الخير واحتسبه، ولكنه أفسد عمله بما خالطه به من مَنٍّ وأذى؛ أما الثانى وهو المرائى فلم يقصد خيرا قط، حتى يبطله سواه؛ فشبه سبحانه حال قاصد الخير المنان فى إبطال عمله، بحال من لم يقصد خيراً قط، بل الرياء والسمعة، وهو من فعل الشرك

الخفى؛ فقد قال النبى ﷺ: «**من صلى يرائى فقد أشرك، ومن صام يرائى فقد أشرك، ومن تصدق يرائى فقد أشرك**»(١).

ولهذا الفارق الجوهرى بيَّن المنفق المنان، والمنفق رئاء الناس، ذكر الله عمل الأول بأنه صدقة، فقال سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ**﴾ ولم يصف عمل الثانى بأنه صدقة، ولا فى سبيل الله؛ ولذا قال سبحانه: ﴿**كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ**﴾ فما الصدقة ابتغاها ولا الخير أراده، بل الشر كل الشر ما عمله.

﴿**فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا**﴾ هذا تشبيه جديد، وقبل أن نذكر التشبيه ووجه الشبه نذكر معنى هذه الألفاظ: صفوان، وصلد، ووابل: فالصفوان اسم جنس جمعى لصفوانة، كشجر وشجرة، وهو الحجر الأملس. وقال الأخفش: إن صفوان مفرد كحجر. والصلد معناه الأجرد النقى؛ وقد قال الكسائى فيه: إنه من صَلِدَ يَصْلَدُ صَلَدًا، وهو ما لا ينبت شيئًا، وقد قال النقَّاش: الأصلد الأجرد الذى لا ينبت شيئًا. والوابل هو المطر الشديد، وقد وَبَلَت السماء تبل، والأرض موبولة.

والآن نذكر المشبه به فى الآية الكريمة؛ ويبدو بادى الرأى، أن التشبيه بين الذى ينفق ماله للرياء والحجر الصفوان الأملس الذى يكون على ظاهره قليل من التراب الذى يبدو به خصبًا، ووجه الشبه هو ظاهر الخصب الذى يبدو على ظاهر الحجر، ثم انكشافه بمطر وابل، وظهور حقيقته، وهو أنه لا يمكن أن يكون منبتًا؛ فالمعنى أن حال من ينفق للرياء والظهور بمظهر البر المعطى وهو لا يقصد وجه الله تعالى ولا يبتغى رضاه بل ينفق ليرائى الناس، هى كحال حجر أملس لا ينتج شيئًا ولا ينبت نباتًا ولكن عليه ظاهر من التراب يوهم الناظر إليه أنه خصب منتج، ثم تتبين حاله بمطر يزيل ما ستره ويكشف حاله، فالمرائى لا إنتاج لعمله مطلقًا كالحجر، وإن كان يبدو للناس برا فإن ذلك لا يلبث أن ينكشف، وتظهر حاله بأمر

---

(١) سبق تخريجه.

لم يكن فى حسبانه، فثوب الرياء يشف دائمًا عما تحته، وإن لم يكشفه فإن الله كاشفه.

هذا الكلام يدل على أن التشبيه منعقد بين المرائى والحجر الأملس الذى عليه قدر رقيق من التراب ستر حاله؛ ولكن كثيرين يجعلون التشبيه بين المنفق المنان والحجر الصلد، ويكون المعنى على ذلك أن حال المنان فى نفقته التى يبطلها بالمن والأذى، كحال الحجر الأملس الذى عليه تراب كان يرجى أن يكون منتجًا منبتًا للزرع فيصيبه وابل يزيل التراب الذى عليه، فيزول سبب إنتاجه، ومادة الخصب فيه؛ فالمن والأذى فى إبطالهما الصدقات التى من شأنها أن تأتى بالثواب ورضا رب العالمين، كالوابل الذى يزيل الصعيد الطيب الذى يخرج نباته بإذن ربه، من حيث كان من شأنه أن ينتج الثواب، فأزال ذلك بمنه وأذاه.

وإنى أرجح الأول، لأن التشبيه بلفظ المفرد، وهو يناسب الذى ينفق ماله رئاء الناس؛ لأنه بلفظ المفرد، والمنفق منًّا وأذى ذكر بلفظ الجمع، فالضمير فى قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ﴾ أولى بأن يعود على المرائى لإفرادهما، ولأن الآيات التالية تبين حال المنفق ابتغاء مرضاة الله، وفيها تشبيه صدقتهم بالحبة التى تكون فى أرض خصبة، وإن هذه مقابلة ظاهرة بين المنفق رياء، والمنفق ابتغاء مرضاة الله، فكان الأظهر إذن أن يكون التشبيه فى هذه الآية بين الإنفاق رياء والحجر الأملس.

﴿لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ جمهور المفسرين على أن هذه الجملة السامية للدلالة على أن المنان والمرائى كلاهما لا ثواب له، فالمعنى لا يقدرون، أى لا ينالون شيئًا من المال الذى أرادوا بإنفاقه كسب الثواب، ولكن كيف يعبر عن نيل الثواب بالقدرة عليه، وعن الإنفاق بالكسب؟ وقد يجاب عن ذلك بأنهم إذا أنفقوا فقد صاروا قادرين على الثواب، وعلى كسبه بمقتضى ما وعد الله به عباده المتقين، فإذا مَنُّوا وآذوا فى نفقته، فقد انتفت عنهم تلك القدرة على ثواب هذا الذى أنفقوا وقد كان من شأنه أن يكون كسبًا لهم.

وإنى أرى أن يكون المعنى أن المنفقين الذين يتبعون ما أنفقوا منا وأذى، والذين يراءون ليس عندهم قدرة على شىء من المال الذى كسبوه، إنما القدرة من الله العلى القدير، فما كان لهم أن يمنوا ولا أن يؤذوا فى سبيل ذلك الإنفاق، ولا أن يراءوا به، فالمال مال الله، وهو الذى بقدرته مكنهم منه، وسلطهم عليه، فعليهم أن يتقوا الله فيه، ويشكروا نعمة المنعم به، ولا يراءوا فى إعطائهم، وإلا كانوا بالنعمة كافرين.

وعلى ذلك تكون هذه الجملة لتقوية المعنى فى الإنفاق، والتحريض على الإخلاص لله فى النفقة بحيث تكون خالية من المن والأذى والرياء.

﴿ **وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ** ﴾ ختم سبحانه وتعالى الآيات بهذه الجملة الحكيمة للإشارة إلى أن الإنفاق من غير مَنٍّ ولا أذى هو من خواص الإيمان، فالله سبحانه وتعالى يهدى إليه المؤمنين ولا يهدى إليه الكافرين، وللإشارة إلى أن المَنَّ والأذى والرياء إنما هى صفات الكافرين فيجب أن يقلع عنها أهل الإيمان، فهى صفات لا تليق بهم، ولا ينبغى أن يكونوا عليها؛ لأن فيها كفراً للنعمة التى أنعم الله بها، والصدقة رياء وسمعة فيها شرك خفى فيجب على المؤمن أن يطهر نفسه من هذه الأهواء المردية، وليضبط نفسه إذا أعطى، فلا ينطق لسانه بالمَنِّ، ولينق قلبه من الرياء فإنه يأكل الحسنة فيجعلها سيئة.

وفى الجملة إشارة إلى أن الله غنى عن عطاء المنان المؤذى أو المرائى، إن أعطوا لنفع عام أو لدفع أذى الكافرين، فإن الله سيتولى الكافرين، وهو لا يهديهم إلى سبيل الانتصار على المؤمنين الصادقين فى إيمانهم ؛ لأنهم أولياء الله الذين قال فيهم: ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴿٦٢﴾ ﴾ [يونس].

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ

وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ
لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ
فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ
فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ
لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

فى الآيات السابقة بيَّن سبحانه الصدقات التى يشوبها الرياء فيذهب بخيرها، وأن الرياء فى الصدقة لا يصدر عن شخص يؤمن بالله واليوم الآخر صادق الإيمان، وأن الرياء فى الصدقة يذهب بثمرتها والقربى فيها كما يذهب المطر الغزير يصيب أرضا حجرية عليها قشرة رقيقة من التراب، فيذهب المطر الشديد بها.

وفى الآية الأولى من هاتين الآيتين يبين سبحانه وتعالى الثمرة المترتبة على الصدقة ابتغاء مرضاة الله تعالى، ولتربية التقوى فى النفس وتهذيبها، وإرهاف إحساسها بحق المجتمع على ذوى المال من المؤمنين فقال تعالى: ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ** ﴾.

يشبه سبحانه وتعالى حال الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله ولتثبيت النفس على التقوى وتهذيبها وتقويتها تهذيبًا ناشئًا عنها منبعثًا منها - يشبه سبحانه وتعالى حال هؤلاء المنفقين بجنة، أى حديقة غنَّاء كثيرة الأشجار، بربوة أى أرض مرتفعة أصابها مطر غزير فآتت ثمراتها ضعفين أى مثلين مما ينتج أمثالها.

ولابد لبيان هذا التشبيه السامى أن نبين المشبه، والمشبه به، ووجه الشبه، والتوجيه الكريم من هذا التشبيه:

أما المشبه فهو قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فالمثل هو الحال والشأن، ومعنى ابتغاء مرضاة الله طلب رضاه سبحانه وتعالى الدائم المستمر، فالمرضاة مفعلة من الرضا، فهى مصدر ميمى من الرضا، وهو أقوى فى الدلالة من معنى الرضا، إذ المعنى فيها الرضا الثابت الدائم الذى لا يكون معه أى غضب من المولى العزيز الحكيم القوى القهار، فهو ينفق طالبا قويا موثقا رضا الله سبحانه وتعالى رضًا دائمًا مستمرًا.

وأما معنى «[illegible] قد اختلفت عبارات المفسرين حولها، وإن انتهت إلى الاتفاق على مغزاها ومرماها؛ وإن أصل معنى ثبت قوى حقيقة ودعمها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم] ويقال ثبت فلان فى الأمر أى صحت عزيمته فيه وداوم عليه؛ ويقال أيضًا: ثبَّتُّ فلانًا فى الأمر، أى جعلته ثابتًا فيه لا يتزعزع عنه ولا يضطرب، وقويت رأيه فيه.

والمعنى على ذلك: أن أولئك المتقين من المنفقين ينفقون طلبًا لرضا الله الدائم عليهم وتثبيتًا من أنفسهم أى تقوية لليقين والإيمان والاحتساب إلى الله تعالى، وتلك التقوية وهذا التثبيت صادر عن أنفسهم، فهم يربون أنفسهم على الإيمان واليقين، فـ «مِنْ» فى قوله تعالى: ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ هى «من» التى تكون بمعنى الابتداء، أى أن التثبيت مبتدئ من أنفسهم، فهم يزكونها وينقونها ويراقبونها، لكيلا يدخلها أى معنى من معانى الرياء والنفاق، أو الاتجاه إلى المَنِّ والأذى؛ وفى هذا إشارة واضحة إلى أنهم ينفقون ما ينفقون قاصدين وجه الله تعالى، وأن ذلك القصد يستمر دائمًا، فلا يجىء وقت يمنون فيه ويؤذون؛ لأن الثبات يقتضى الاستمرار على حال واحدة، وهى حال ابتغاء رضا الله وحده، لا يرجون من غيره جزاء ولا حمدًا ولاثناء، ولا يبتغون بغير رضا الله بديلا.

ويصح أن يكون معنى ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أى يقينًا وإيمانًا صادرًا من أنفسهم فالمعنى على هذا أن أولئك المنفقين المخلصين يتفقون طالبين رضا الله تعالى

وهم موقنون صادقو الإيمان بربهم محتسبو النية له تعالى. وفى ذلك إشارة إلى أن أولئك المراءين الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس أو يتبعون ما ينفقون منًّا أو أذى ليس إيمانهم كاملا، ولا يقينهم مستقرًا ثابتًا؛ والمعنيان متلاقيان فى الجملة، أو على الأقل متقاربان جدا. هذه مفردات المشبه ومعناه.

أما المشبه به فهو قوله تعالى: ﴿**كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ**﴾ والجنة البستان، وسمى البستان جنة، وهى فعلة من جن بمعنى ستر وغطى؛ لأن الأشجار تغطيها فلا ترى أرضها، وكأن الأرض مغطاة بلفائف الأشجار. والربوة المكان المرتفع قليلا، فى خصوبة تربة، وجودة زرع، والربوات من الأراضى أخصب وأكثر إنتاجًا من المنخفضات؛ ولما كان مرتفع الأرض لا تصل إليه مجارى الأنهار عادة ذكر الله سبحانه وتعالى أن تلك الربوة قد أنعم الله عليها بوابل أى مطر غزير أصابها، وبذلك تجتمع لها أسباب الإنتاج الكثير، وهى ثلاثة: خصب تربة، وتخلل الشمس لأجزائها، إذ إنها بارتفاعها صارت الشمس تنفذ إلى الأشجار، وفى ضوء الشمس غذاء للأشجار كغذاء الماء؛ والثالث الماء النقى الغزير، يصيبها به مالك السموات والأرض يكون لها نعمة يمد زرعها بالغذاء، ولا يزيل طبقة الخصب فيه كالوابل الذى يصيب الحجر الصوَّان فيتركه أملس صلدًا، بل إنه يمدها بالإنتاج لأن الخصوبة فيها ليست قشرة ظاهرة من التراب يزيلها الماء الغزير فلا تنبت بل خصوبتها فى معدنها، وليست مظهرًا بل هى حقيقة وجوهر.

وإذا كانت أسباب الإنتاج الكثير قد توافرت، فإن الثمرة ستكون لا محالة بمقدار توافر هذه الأسباب؛ ولذا قال تعالى: ﴿**فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ**﴾ فالفاء للسببية أى أن ما قبلها سبب لما بعدها، وآتت بمعنى أعطت، والمعطى فى الحقيقة هو الله تعالى، ولكن أسند إليها العطاء لتوافر الأسباب التى خلقها المولى القدير فيها، وتضافر كل المهيئات التى هيأها المولى العلى القدير لإنتاجها.

والأُكل: الثمر الذى يؤكل، وفى التعبير عن الثمر بالأكل من غير وصف سواه إشارة إلى طيب ثمرها وحسنه، واستساغة النفس له، وجودة الغذاء منه؛ لأنه

وصف بأخص ما يطلب له الثمر الجيد الطيب المستساغ وهو أن يؤكل، ومعنى «ضعفين» أى أنها آتت بضعفى ثمر غيرها من الأرض، والضعف معناه هنا المثل، وقد ذكرنا ذلك من قبل، أى أن توافر هذه الأسباب جعلها تنتج بمقدار مرتين مما ينتج غيرها. ويصح أن يكون المراد من الضعفين الكثرة المطلقة من غير تقيد باثنين كما فى قوله تعالى: ﴿ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ... ⁽٤⁾﴾ [الملك].

ولكن تلك الأرض الطيبة المباركة التى شبهت بها نفس المؤمن الطيبة، ربما لا يصيبها الوابل وهو المطر الغزير فلا ينتج طيبًا فى هذه الحال؛ فبين سبحانه وتعالى أنها تنتج أيضًا بمطر قليل؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ والطل أضعف المطر، وزرع الطل أضعف من زرع المطر الغزير وأقل ريعًا، ولكن يكون فى عيدانه قوة تماسك ونفع.

ولكن هل يكون المعنى فى الآية أنها تنتج ضعفين، كما أنتجت فى حال الوابل؟ بين أيدينا منهاجان:

أولهما أن نقول: إنها تنتج مثلها بما توافر فيها من علو يجعل الشمس تخلل أجزاءها فتمدها بغذاء يغنيها عن كثرة الماء، وبما فيها من خصب تتوافر فيه عناصر التغذية أكثر من غيرها، فيكون ذلك معوضًا لها عن قلة الماء، وتكون النتيجة على هذا التوجيه أن قلة الماء وكثرتها سواء، لتوافر أسباب النماء. هذا هو التوجيه الأول.

أما التوجيه الثانى فهو أن نقول: إن المعنى أنها تنتج على كل حال، فإن كان المطر غزيرًا أنتجت كثيرًا وإن كان المطر قليلا فالإنتاج وإن قل طيب نافع، وإن كانت الربوة هى المقابلة فى التشبيه للنفس المؤمنة الطيبة، فيكون المعنى أن النفس التقية المؤمنة التى تبغى بإنفاقها رضوان الله تعالى، وتثبيت إيمانها وتصديقها بالإنفاق فى سبيله، لإنفاقها إنتاج عظيم، ونعيم مقيم، إن قل فهو فى نفعه كالثمر الذى ينتج من الربوة الخصبة التى يصيبها طل، وإن كثر فهو كتلك الربوة تؤتى ثمرتها ضعفين إن أصابها وابل؛ وعلى ذلك فالقليل والكثير ذو نفع عظيم وخير عميم.

والتوجيه الأول عندى أولى بالقبول؛ لأنه ليس فى الآية ما يدل على قلة الإنتاج، فإن قلة المطر لاتستلزم قلة الثمر، بل قد تكون كثرة الماء معوقة عن الإنتاج لا مكثرة له وعلى ذلك يكون المعنى: أن تلك الربوة لخصبها وطيب مناخها وتخلل الشمس لأجزائها تنتج خيرًا كثيرًا، سواء قل الماء أم كثر، متى وجد القدر المنبت.

هذان طرفا التشبيه: المشبه والمشبه به، وبقى علينا أن نبين **وجه الشبه** فى النص السامى الكريم، وذلك بتوجيه التشبيه فى جملته وسياقه؛ وذلك أن الله سبحانه وتعالى شبه هؤلاء المنفقين عن إيمان صادق، قاصدين بإنفاقهم وجه الله جل جلاله لا يبغون سوى رضاه، مثلهم فى إنفاقهم الكثير والقليل كمثل جنة بربوة خصبة منتجة تنتج دائمًا فى حال غزارة المطر، وفى حال قلته، فأكلها دائم، ونفعها مستمر، لا يمنعون خيرهم إن لم يشكرهم الناس، ولا يؤذون فى نفعهم أحدًا من الناس، ولا يراءون الناس، فصدقتهم فى نماء، تنمو دائمًا فى الناس بنفع ينالهم، كصدقة جارية مستمرة لا تنقطع؛ ثم نفعها للمنفق دائم بما يحسه من أريحية دينية واطمئنان قلب، ولذة العبودية فى الاتجاه إلى الله وحده والاستعلاء بالاستغناء عن شكر الشاكرين ومدح المادحين؛ ثم يعقب ذلك كله جزاء كريم من رب العالمين، يوم الدين؛ ولذا قرر النبى ﷺ أن الصدقة تنمو لصاحبها كما ينمو الفلو[1] يربيه صاحبه، فقال ﷺ: **«لا يتصدق أحد بتمرة من كسب طيب إلا أخذها الله بيمينه فيربيها كما يربى أحدكم فلوه، أو فصيله، حتى تكون مثل الجبل أو أعظم»**[2].

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ختم سبحانه وتعالى هذه الآية بتلك الجملة السامية ليعلم الناس عظيم مراقبته سبحانه وتعالى لأحوالهم، واطلاعه على خفايا نفوسهم، فيراقبوه سبحانه فى أفعالهم وأقوالهم، كما يراقبهم سبحانه، فتمتلئ قلوبهم عند العمل بعظمته، فيعملوا ما يعملون محسين بأنه مطلع على ما تخفى صدورهم،

---

(١) الفَلُوّ هو المُهر.

(٢) رواه بهذا اللفظ أحمد (٩٠٦٤) فى مسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه، وبنحوه عنه أيضا رواه البخارى: الزكاة (١٣٢١) ومسلم (١٦٨٢).

فتتجه القلوب - تحت تأثير هذه الرقابة المسيطرة العليمة التى لا تغادر صغيرة ولا كبيرة - إليه سبحانه وحده، ولا تتجه إلى سواه.

وفوق ذلك فإن لذلك التذييل السامى معنى آخر مناسبًا مناسبة أخص للسياق الخاص بحسن القصد فى الإنفاق، وهو بيان أن الله سبحانه وتعالى يعلم الذين أخلصت قلوبهم فى الصدقة فلم تبتغ رضا أحد غير الله تعالى، فيجازيها على إخلاصها فى النية، واحتسابها الخير لوجه الله الكريم، ويعلم من ينفق رياء أو يتبع ما ينفق بالمن والأذى فيحبط عمله.

وإن عبارات التذييل فى ذاتها تربى المهابة للذات العلية فى النفس التى تريد ما عند الله تعالى؛ فإنه قد صدَّر الجملة السامية بلفظ الجلالة الذى يدل فى ذاته على العلو والسلطان والألوهية الحق؛ ثم إن هذا القاهر فوق عباده يعلم علم من يبصر ويعاين ويرى بكل ما يعمله الناس من خير وشر، وما يقصدون فى صدقاتهم، فإن أرادوا رضاه فقد آووا إلى ركن حصين، وإن قصدوا سواه فهم على شفا جرف هار، وسينهار بهم فى نار جهنم، فلا أموالهم بقيت لهم، ولا الثواب نالوا، بل العقوبة تستقبلهم ومقت الناس يلحقهم، والله من ورائهم محيط.

﴿**أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ**﴾ هذا مثل ثان يذكره سبحانه وتعالى فى بيان أولئك الذين يحبطون أعمالهم من صدقات أو صلوات أو حج وغير ذلك من أعمال البر بالرياء أو المن والأذى، أو التطاول على الناس بما يزعمون لأنفسهم من عمل خير قاموا به.

وهو يختلف عن التشبيه السابق من ناحيتين:

أولاهما: فى الشكل، فإن التشبيه الأول كان بصريح اللفظ، وقد ذكر فيه المشبه والمشبه به وأداة التشبيه وهى الكاف فى قوله تعالى: ﴿**كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ**﴾؛ أما هذا التشبيه فلم يذكر فيه المشبه ولا أداة التشبيه، وهو من النوع البيانى الذى يسميه علماء البلاغة «استعارة تمثيلية» وهى تشبيه حال بحال لم تذكر فيه أداة التشبيه ولا المشبه، بل ذكر المشبه به فقط، وقامت قرائن تدل على إرادة التشبيه.

الناحية الثانية: أن التشبيه الأول فيه تشبيه من يبتغى بعمله مرضاة الله، وينقى ضميره وقلبه من كل رياء ونفاق، بالحديقة الغناء المثمرة القائمة على ربوة من الأرض خصبة منتجة؛ أما هنا فالتشبيه هو تشبيه من ينقض عمل الخير الذى يعمله برياء يحبطه، أو مَنٍّ وأذى، أو مباهاة ومفاخرة ببرِّه بين الناس، بمن كانت له حديقة فيها نخيل وأعناب، وأنهار تجرى فيها مع الثمرات وقد أصابه الكبر، وله ذرية ضعفاء، وتكون عونًا لهم بعد وفاته فأصابتها رياح شديدة فيها نار فاحترقت.

ولم يذكر فى هذه الآية المشبه ولا أداة التشبيه كما نوهنا، بل ذكر المشبه به فقط، فعلينا أن نتكلم فى مفردات المشبه به ومعانيها، ثم نتعرف المشبه ووجه الشبه، ومغزى هذا التشبيه السامى الكريم.

والود فى قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ معناه محبة الشيء مع تمنيه؛ ولذلك يستعمل فى مقام التمنى. والنخيل اسم جمع النخل، والأعناب جمع عنب، وهو ثمرة الكروم، وقد جاء فى تفسير المنار فى السبب فى ذكر النخيل دون ثمرتها وهو التمر، بينما ذكر العنب وهو ثمر الكروم وقالوا فى تعليل ذلك: (إن كل شيء فى النخيل نافع للناس فى إنفاقهم: ورقه وجذوعه وأليافه وعثاكيله(١)، فمنه يتخذون القفف والزنابيل والحبال والعروش والسقوف وغير ذلك)(٢). والإعصار ريح عاصفة تستدير فى الأرض ثم تنعكس منها صاعدة إلى السماء على هيئة العمود، وقيل: الإعصار ريح تثير سحابًا ذا رعد وبرق، وسميت إعصارًا لأنها تلتف كالثوب، أو لأنها تكون سببًا فى نزول المطر، فكأنها تعصر السحاب، فتنزل ما يحمل من ماء؛ ولذا فسرت المعصرات فى قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾﴾ [**النبأ**] بأنها السحاب؛ لأنها تعصر بالإعصار ذلك العصر. والنار التى تكون فى الإعصار هى البرق الذى يتسبب عن اصطدام السحاب بتحريك ذلك الإعصار، أو

(١) العثاكيل: جمع العِثْكَالُ: العِذْق من أعْذاق النخل الذى يكون فيه الرُّطَب [لسان العرب: العين - عثكل].

(٢) تفسير المنار جـ٣ ص٦٩.

أن السحاب مع هذه القوة الشديدة التى يتحرك بها هو أيضا حامل لنار إذا أصابت شيئا أحرقته.

هذه مفردات المشبه به ومعانيها، والاستفهام فى قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾ هو للإنكار، وهو لإنكار الوقوع أى بمعنى النفى، والمعنى لا يود أحدكم أن يكون له جنة.. إلخ، ومجىء النفى على صيغة الاستفهام على ذلك النحو، لتأكيد النفى، وبيان أن الأمر فى ذاته غير معقول، بحيث لو سئل عنه أى عاقل لأجاب بنفيه؛ لأن النفى مجمع عليه من كل العقلاء.

وخلاصة القول: إنه لا يود أحد أن تكون له جنة فيها نخيل وعنب، وفيها من كل الثمرات غير النخيل والعنب ـ وكان النص عليهما لأنهما فاكهة العرب ـ وإنها مع هذه الثمرات الطيبة ذات منظر بهيج، فالأنهار تجرى من تحتها فتمدها بالخصب، كما تسر الناظرين، قد احتازها وقد أصابه الكبر، وله ذرية ضعفاء من ذكور وإناث يحتاجون إلى مال من بعده يسد عوزهم، ويقيم أودهم، ومع هذا الأمل المدخر فى هذه الحديقة أصابتها ريح شديدة فيها نار فاحترقت بنارها؛ لا يود أحد ذلك أبدًا، وهو شر يتوقاه ويدعو الله سبحانه وتعالى أن يجنبه إياه.

هذا هو المشبه به فما هو المشبه؟ إنه يفهم من سياق القول من سابقه ولاحقه، وهو العمل الطيب المنتج الذى يكون مدخر الرجل فى حياته الآخرة، كما كانت الحديقة مدخرة لذريته فى كبره، وهم امتداد حياته وفيهم بقاؤه بعد مماته، وإنه فى هذه الحياة الدنيا الفانية الوشيكة الزوال كمن أصابه الكبر وله ذرية ضعاف تحتاج إلى مدخره بعد مماته، فهو محتاج إلى مدخره من الأعمال الصالحة بعد وفاته لتكون ذخره وثروته فى الحياة الباقية بعد هذه الفانية، وإنه إذا أبطل ذلك العمل برياء يحبطه، أو مَنٍّ أو أذى أو مباهاة أو فخر، يكون كمن يرضى بأن تحترق جنته فى كبره بريح عاتية تأكل الأخضر واليابس ولا تبقى من المدخر لذريته فى القابل قليلا.

هذا هو المشبه المستنبط الذى تدل عليه الآيات السابقة واللاحقة.

ولقد روى البخارى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال يومًا لأصحاب رسول الله ﷺ: (فيمن ترون هذه الآية: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾ نزلت؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، فغضب عمر، وقال: قولوا نعلم أو لا نعلم! فقال ابن عباس: فى نفسى منها شىء يا أمير المؤمنين، قال: يابن أخى قل ولا تحقر نفسك. قال ابن عباس: ضربت مثلا لعمل. قال عمر: أى عمل؟ قال ابن عباس: لعمل رجل غنى يعمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان فعمل فى المعاصى حتى أحرق عمله، وفى رواية أخرى: فإذا فنى عمره واقترب أجله ختم ذلك بعمل من أعمال الشقاء).

وروى أن عمر رضى الله عنه قال: هذا مثل ضرب للإنسان يعمل عملا صالحًا حتى إذا كان آخر عمره أحوج ما يكون إليه عمل عمل السوء.

وإننا إذا نظرنا إلى سياق الآيات قصرنا المشبه على من يفسد عمله بالمن والأذى والمباهاة والمفاخرة، ثم إذا نظرنا إلى هاتين الروايتين اعتبرنا المشبه هو حال الرجل يعمل الصالحات، حتى إذا دنا أجله أو كاد، عَمِل عملا غير صالح، فكانت حاله كحال رجل كل ثروته حديقة غناء فيها من كل الثمرات وكل زوج بهيج، قد توافر خيرها، حتى إذا أصابه الكبر وله ذرية ضعاف تحتاج إلى ما يترك من مال، أصابت ثروته ريح عاتية فذهبت بها، فترك ذريته من غير شىء. وعلى هذا يكون المقصد والمرمى الاستمرار على عمل البر والمداومة عليه فى هذه الدنيا.

وعندى أن يجعل المشبه خاصا فى دائرة السياق الخاص بالمن والأذى والرياء، ويكون التشبيه على هذا الوجه أن حال من يفعل الخير ويكثر منه ثم يبطله بالمن أو الأذى أو الرياء، كحال رجل يملك حديقة غناء جعلها موضع أمله فى حياته، وغذاء أولاده بعد وفاته وهو فى سن الكبر، ثم وهو فى هذه الشيخوخة الفانية أصاب ثروته ريح أحرقتها؛ إنه لا يود أحد أن يكون فى هذه الحال، فكذلك يجب أن ينفر فاعل الخير من تلك الموبقات التى هى كالريح العاصف الذى يهلك الزرع

والنسل، ويذهب بالثروة المثرية فى وقت هو أشد ما يكون حاجة إليه فى قابل حياته، ولذريته بعد مماته.

وإنه يرشح لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ**﴾ كما يرشح له كل التشبيهات السابقة.

وإن وجه الشبه على هذا هو أن فى الحالين إبطالا لأمر جوهرى فى الحياة له نفاسة فى ذاته، وله نفع فى الحاضر والقابل، يذهبه أمر عارض مزيل لا يبقى بعده شيئًا مفيدًا، فكما أن الحديقة الغناء ذات النفع فى الحاضر والقابل للحاضر ومن يخلفهم يذهب بها الإعصار الشديد المحرق، فكذلك النفاق والرياء والمن والأذى والتطاول على الناس بفعل الخير يفسد عمل الخير الذى هو ثروة معنوية لفاعله فى حاضره ومستقبله، وفيه رضوان الله وعزته؛ فهل يود مؤمن أن تكون حاله كحال من يصيب الإعصار ثروته فى كبره، فيمد يده إلى الناس شيخًا هرمًا فانيا، ويترك أولاده كلاًّ على الناس من بعده؟ لا يود مؤمن ذلك فلا يصح أن يمكن الرياء من نفسه والاستطالة والمباهاة والمنّ والأذى من لسانه، فيكون ذلك إعصارًا شديدًا يذهب بعمله.

وفى هذا التشبيه فوائد كثيرة:

أولها: الإشارة إلى أن هذه الحياة الدنيا مهما طالت فهى متاع قليل، وعلى المؤمن أن ينتفع بكل لحظة بعمل الخير يحتسبه عند ربه، كالرجل الذى يكون فى شيخوخة فانية فعليه أن يتوقع الموت دائمًا كما يتوقع صاحب هذه الشيخوخة، وعليه أن يعمل الخير عمل من يخشى الفوت، وقد قرب منه الموت.

ثانيها: أن الرياء والمباهاة والاستطالة بعمل الخير تذهب به بل تحرقه، كما يحرق الإعصار الحديقة الغناء.

ثالثها: أن عمل الخير ينمو ويربو وينتج كالحديقة الغناء التى فيها من كل الثمرات والمياه تجرى من تحت أغراسها والشمس تمد ثمارها، فتؤتى أكلها بإذن ربها، فهى فى نماء مستمر دائم.

رابعها: أن من مطالب الحياة التى يقرها الدين أن يحرص الرجل على أن يترك لأولاده إذا كانوا ذرية ضعافًا، فضلا من المال يستعينون به فى شدائد الحياة، ولا يكونون كلاً على الناس، كما قال النبى ﷺ لسعد بن مالك(١) فى مرض كان يتوقع الموت منه، وقد أراد أن يتصدق بماله كله فنهاه وأقره على التصدق بالثلث: «**إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس**»(٢).

هذه بعض إشارات الآية الكريمة وإنها لتشع منها معان سامية متعددة كما يشع الثمر الجيد من الغصن المثمر، تعالت كلمات الله العليم الحكيم.

ومن أجل هذه المعانى السامية المنبعثة من ذلك النص الكريم المفهومة من عباراته أو إشارته، دعا سبحانه إلى التفكير فيها وتدبرها مع غيرها، فقال عز من قائل:

﴿**كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**﴾ هذا ختام هذه الآية الكريمة، والآيات المقصودة هنا هى الآيات القرآنية، والمراد من التفكر هو التدبر والتأمل وتعرف مرامى العبارات القريبة والبعيدة، والتفكر فى عواقب الأعمال ونتائجها، وفى أسبابها وغاياتها. والتشبيه فى قوله تعالى: ﴿**كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**﴾ فيه تشبيه الكلى العام من بيان الله سبحانه وتعالى فى كل آياته، بهذه الصورة الجزئية التى رأيناها فى تلك التشبيهات الرائعة وذلك السياق المحكم، وتلك المعانى الجلية التى يتدبرها المتدبر، فتجلى له معان كريمة سامية كلما أعمل فكره وتفكر وقدر، ومثل ذلك كما يجرى فى عباراتنا ـ ولكلام الله المثل الأعلى ـ أن يقول عندما يعمل عملا جيدًا يعمله فيستحسن، فيقول: كذلك أعمل دائمًا، أى كهذا العمل الذى استحسنتموه كل عمل. ومعنى التشبيه فى الآية الكريمة على هذا يكون هكذا: كهذا البيان الجلى الرائع الذى بدا فى هذا المثل المحكم بيان الله الكلى لكل آياته فى كتابه الحكيم.

---

(١) هو سعد بن أبى وقاص بن مالك بن أهيب بن عبد مناف، الزهرى القرشى، كنيته أبو إسحاق، ولقبه: فارس الإسلام، صحابى جليل، أقام بالكوفة، وتوفى بالمدينة ٥٥هـ.

(٢) رواه البخارى: الوصايا - أن يترك ورثته أغنياء (٢٥٣٧)، ومسلم: الوصية - الوصية بالثلث (٣٠٧٦).

ولعل فى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ هى فى الرجاء، وليس الرجاء من الله تعالى؛ لأن الله سبحانه وتعالى عالم بكل شيء، فلا يكون منه رجاء وتوقع؛ لأن ذلك شأن من لا يعلم، إنما يكون منه سبحانه وتعالى تحقق وتأكد؛ وإنما معنى الرجاء هو المتفق مع ذات البيان؛ لأن ذلك من شأنه أن يرجى معه تفكر المتفكر وتدبر المتدبر؛ ولذلك قال بعض العلماء: إن لعل هنا للتعليل، فالمعنى كان ذلك البيان لتتفكروا وتتدبروا.

والمعنى الإجمالى لذلك الختام الكريم لهذا المثل السامى الحكيم: يبين الله سبحانه وتعالى آياته دائمًا، كذلك البيان الذى اتضح لكم فى هذا المثل الرائع المحكم الذى تتسع آفاق الفكر فى إدراكه، فينال كل منه بمقدار إدراكه، فبيان الله دائمًا من ذلك النوع، لتتفكروا وتتأملوا آيه، وتدركوا مراميها القريبة والبعيدة.

وفقنا الله سبحانه وتعالى لإدراك معانى كتابه، والعمل به، وألهمنا الصواب فى فهمه؛ إنه سبحانه وتعالى الهادى إلى الحق دائمًا.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا
لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم
بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ
﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ
وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾

بيَّن سبحانه وتعالى الإنفاق الذى يعد برًا، ويؤتى ثمراته فى الدنيا والآخرة، وهو الإنفاق ابتغاء مرضاة الله تعالى لابتغاء تسهيل مطلب من مطالب الدنيا، ولا طلبًا لجاه، ولا ملَقًا لذى جاه، ويشترط فى ثواب الآخرة مع ذلك ألا يعقب العطاء

مَنٌّ أو أذى، فلا يُشعر المعطى من أعطاه بمنة العطاء، ويستكثر عليه ما أعطاه، ولا يؤذيه بإعلان عطائه أو توجيه كلمات مذلة، فحسبه أن يده هى الدنيا، ويد المعطى العليا، والنبى ﷺ قال: «**اليد العليا خير من اليد السفلى**»[1] فلا يصح أن يجمع عليه بين هذا الضعف مع المن وأذى الكشف والإعلان فى مواطن لا يحسن الإعلان فيها. وفى هذه الآيات التى نتكلم فى معانيها السامية الآن بيان المال الذى يكون منه العطاء، ففى الآيات السابقة كان بيان مقاصد العطاء وما يقترب به وما يعقبه، وفى هذه الآيات بيان المال الذى يكون منه العطاء؛ وأن تخير المال واصطفاءه يدل على مقدار الصفاء فى النية، فمن اختار عند العطاء أجود ماله، كان ذلك دليلا على حسن القصد إن لم يصحب العطاء مَنٌّ أو أذى أو رياء، وإن اتجه إلى غير الجيد من ماله يعطيه كان ذلك دليلا على ضعف العزيمة وشح النفس ﴿**وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ۝٩﴾ [الحشر].

ولذلك بيَّن سبحانه عقب المطالبة بأن يكون ابتغاء مرضاة الله أنه لا يسوغ أن يكون الإنفاق من الردىء دون الجيد، ومن الخبيث دون الطيب، فقال تعالت كلماته:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ**﴾
ابتدأ سبحانه بالنداء بالبعيد للدلالة على عموم النداء للمؤمنين فى كل الأجيال من وقت البعث المحمدى إلى يوم القيامة، وكان النداء للمؤمنين لبيان أن من أخلاق أهل الإيمان أن يتصدقوا من الطيب لا من الخبيث، ومما تحبه النفس لا مما تزهد فيه، فليس من مقتضيات الإيمان فى شىء أن يجىء الرجل إلى أخبث ماله أو الخبيث فينفق منه لزهادته فيه، ولرغبته عنه، وعدم اتجاهه إلى الانتفاع به؛ إذ لا يكون فيه معاناة لعمل الخير، ولا مصابرة فى إرادته، ولا جهاد نفسى للحمل على الفعل؛ والأجر على قدر كف النفس عن الهوى، ومشقة الإرادة فى التغلب عليه.

---

(١) رواه البخارى: الزكاة - لا صدقة إلا عن ظهر غنى (١٣٣٨)، ومسلم بنحوه عن ابن عمر: الزكاة - بيان أن اليد السفلى خير من اليد العليا (١٧١٥).

وما المراد بالطيب؟ للعلماء فى ذلك منهاجان: قال بعضهم: إن المراد بالطيب الحلال، أى أن الإنفاق الذى يقبله الله سبحانه وتعالى هو الإنفاق من المال الحلال الذى كسب من طريق حلال؛ فإن الله سبحانه وتعالى لا يقبل إلا طيبًا، ولا يريد من العبد إلا خيرًا، فمن كان يريد بعمله وجه الله تعالى فلا يكسب إلا حلالا، ولا ينفق إلا من حلال. ولقد روى الإمام أحمد رضى الله عنه فى ذلك أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله عز وجل يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطى الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذى نفسى بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه. قالوا: وما بوائقه يا نبى الله؟ قال: غشه وظلمه، ولا يكسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبل منه، ولا يتركُ خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار؛ إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ ولكن يمحو السيئ بالحسن؛ إن الخبيث لا يمحو الخبيث**»(١).

وعلى هذا التخريج يكون الاتجاه فى الآية هو الحث على الإنفاق من الحلال دون الحرام، ويكون بالنتيجة اللازمة الحث على طلب الحلال؛ لأنه إذا كان الكسب الحرام لا يقبل فى الصدقات، فأولى أن يكون الأكل منه إثمًا يلقى فى نار جهنم، ومن يأكل منه كمن يأكلون فى بطونهم نارًا.

فيكون على هذا القول، المرمى يتجه إلى أمرين: الحث على طلب الحلال فى الإنفاق، والحث على طلب الحلال من المكاسب، دون المآثم منها.

هذا هو القول الأول فى تفسير الآية ؛ وهو كلام فى ذاته صحيح تؤيده الأحاديث والمعانى الدينية المقررة الثابتة، ولكنه لا يتفق مع سياق الآية ولا موضوعها ولا معنى كلمة الطيب فى مقامها؛ ولذلك رجح أكثر العلماء التفسير الثانى لمعنى الطيب وهو أن المراد به الجيد فى نفسه؛ لأن كلمة طيب على وزن فيعل من طاب،

---

(١) رواه أحمد (٣٤٩٠) فى مسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

وهو ما تستطيبه النفس وتتجه إليه وتطلبه؛ وإن ذلك هو الأصل فى معنى طيب؛ ولذا جاء فى مفردات الراغب الأصفهانى ما نصه: «أصل الطيب ما تستلذه الحواس وما تستلذه النفس» وإطلاق الطيب بمعنى الحلال عرف إسلامى، لا معنى لغوى؛ لأن الله سبحانه لا يبيح إلا ما كان طيبًا فى ذاته تستسيغه النفوس السليمة المستقيمة ولا يحرم عليهم إلا ما كان خبيثًا فى ذاته تعافه النفوس السليمة، فالله سبحانه وتعالى يحل الطيبات ويحرم الخبائث، كما ورد بذلك النص القرآنى الكريم.

وإن تفسير النص بذلك، وهو أن الطيب المستطاب المحبوب للنفس هو الذى يبدو بادى الرأى من الآية الكريمة، فوق أنه الذى يتفق مع المعنى اللغوى، ولقد فسره ابن عباس بذلك؛ فقد روى عنه أنه قال: (أمرهم بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه، ونهاهم عن التصدق برذالة المال ودنيئه وخبيثه؛ «**فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا**»)[١].

وعلى هذا المعنى المستقيم يكون توجيه الآية الكريمة: أن الله سبحانه وتعالى يحث المنفقين على أن ينفقوا من الطيب النفيس، ابتغاء وجه الله تعالى، ولأن البر كل البر هو فى إنفاق الإنسان مما يحب لا مما يبغض؛ ولقد قال سبحانه وتعالى: ﴿**لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ... ﴿٩٢﴾**﴾ [**آل عمران**]. وقال تعالى: ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾**﴾ [**الإنسان**]. ولقد نهى النبى ﷺ المؤمنين عن أن يطعموا الفقراء إلا مما يطعمون، فقال ﷺ: «**لا تطعموهم مما لا تأكلون**»[٢].

إن الله سبحانه وتعالى يحاسب القلوب، فيثيبها على مقدار ما اعتزمته من خير، وإن أدل شىء على قوة العزيمة فى الإنفاق والرغبة فيه وخروجه عن طيب

---

(١) رواه مسلم: الزكاة - قبول الصدقة من الكسب الطيب (١٦٨٦)، والترمذى: تفسير سورة البقرة (٢٩١٥)، وأحمد (٧٩٩٨)، والدارمى: الرقاق - الكسب الطيب (٢٦٠١).

(٢) رواه أحمد فى مسنده عن السيدة عائشة رضى الله عنها (٢٣٧٧٠).

نفس وقوة إيمان، أن يخرجه وله فيه رغبة، بل فيه شوق ومحبة؛ ولذا ورد عن النبى ﷺ أنه قال فى خير الصدقات: «**أن تصدَّق وأنت صحيح شحيح ترجو الغنى وتخشى الفقر**»(١) أى أن تتصدق والمال حبيب إليك غير زاهد فيه، فإنك إن صابرت نفسك، وحملتها على التصدق فى هذه الحال نلت أجرين: أجر العطاء فى ذاته، وأجر تلك المغالبة النفسية التى انتصرت فيها لله وللحق، فأطعمت وكسوت، وأنت تحب المال موفورًا كثيرًا، فآثرت محبة الله على محبة المال، ورضا الله على رضا الهوى، ورضا الحق على رضا النفس، فانتصرت فى الجهاد الأكبر، وهو جهاد النفس والهوى.

هذا هو المعنى الذى اختاره جمهور العلماء لهذا النص الكريم، وهو المعنى القويم الذى يتفق مع سياق الآية وموضوعها، ويزكيه قوله تعالى: ﴿**مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ**﴾ فإن الكسب إذا ذكر مقرونًا بما يلقيه سبحانه وتعالى فى الأرض ويضعه لنا من نفائس فى باطن الأرض، وزرع نضير، وغراس مثمر، إن هذا يدل حينئذ على أن المال كله حلال، وأنه يقصد إلى طيبه أو رديئه فينفق منه، فبين أن ذلك الكسب الحلال لا يتخير فى الإنفاق منه إلا جيده، فلا تجعل حصة الفقير إلا أجوده؛ إن المال الذى كسبته رزقًا حلالا: قسم هو حق الفقير والمسكين واليتيم وقد تولى الله عنهم مطالبتك به، وقسم هو لك ولأولادك ومن تعول، فهل يسوغ أن تجعل حق من تولى الله عنهم المطالبة أرداه وأخبثه وأرذله وأسوأه؟ تلك إذن قسمة ضيزى، وكيف تصنعها وتريد بها وجه الله، والتماس عفوه ورضاه؟! إن ذلك غير معقول فى ذاته، ووقوعه غير سائغ ولا مقبول.

ولقد قسم سبحانه موارد المال الحلال إلى قسمين: قسم بعمل من العبد؛ إذ عمل العبد فيه واضح بين، واجتهاده فيه ظاهر، وإن كان التوفيق من الله، وهو الرزاق ذو القوة المتين؛ وقسم هو بعمل العبد ولكن فيض الله هو الواضح البين، والأول هو كسب العبد بالعمل والضرب فى الأرض صانعًا أو تاجرًا، أو مسهمًا بماله

---

(١) رواه البخارى: الزكاة - فضل صدقة الصحيح الشحيح (١٣٣٠)، ومسلم (١٧١٣).

فى صناعة أو تجارة؛ والقسم الثانى، بما يخرجه الله سبحانه وتعالى من زرع يحصد فيكون منه القوت للإنسان والحيوان أو غراس أو شجر يؤتى أكله كل حين بإذن ربه، أو بما يودعه سبحانه وتعالى باطن الأرض من معادن يكون بها عمران الأرض، وقيام المصانع، والأعمال الإنسانية التى تسجل خلافة الإنسان فى هذه الأرض ليصلح فيها ولا يفسد.

ولقد نبه سبحانه إلى القسمين بقوله تعالى: ﴿**مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ**﴾ ففى هذا النص الكريم ذلك التقسيم الحكيم؛ وقد قدم سبحانه وتعالى القسم الأول، وهو الكسب الذى يكون بعمل الإنسان، سواء أكان صناعة أم كان تجارة، وسواء أكان عملا آليا أم كان عملا فكريا؛ وكان ذلك التقديم لأسباب كثيرة؛ منها بيان فضل الأكل من العمل والكسب، كما قال ﷺ: «**ما أكل ابن آدم طعامًا خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده**»[1]، ومنها أن العطاء من مال يجيء بمجهود وتبذل فيه الجهود يكون أعظم ثوابًا؛ ومنها إعلاء قدر العمل الإنسانى لأن به إقامة العمران، وإصلاح الأرض، وتقدم هذا الوجود الإنسانى فى معيشته ووسائل رزقه.

والقسم الثانى فيه خير كثير، ولكنه كله بفضل الله تعالى لا عمل للعبد إلا إلقاء البذر، وغرس الغراس والقيام عليها، والباقى كله لله الواحد القهار.

وهنا يسأل سائل: لماذا أضاف سبحانه ما يخرج من الأرض إليه سبحانه وتعالى مع أن للعبد فيه عملا من حرث وبذر وإصلاح ومراقبة، ثم أضيف الكسب بالتجارة والصناعة والعمل فى هذه الدنيا إلى العبد مع أنه برزق من الله، لأنه هو الذى قسم الأرزاق بين العباد، وجميع ما للعبد من مكاسب بتوفيقه ورزقه، كما قال تعالى فى آية أخرى: ﴿**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** (٣)﴾ [**البقرة**] وكما قال تعالى: ﴿**وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا** ... (٦)﴾ [**هود**] فكل شيء منه وإليه، وكل كسب للعبد سواء أكان من الزرع والضرع أم كان من الصناعة أو التجارة فهو من الله، وبفضله، وبتوفيقه ورزقه وهدايته بل عطائه سبحانه؟

(١) رواه البخارى: البيوع - كسب الرجل وعمله بيده (١٩٣٠) بلفظ: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ».

وإن لذلك السؤال موضعه، وأن الله سبحانه فى بعض آى الذكر الحكيم يضيف الكسب إلى العبد لأنه الذى باشر العمل، وفى بعضه يضيف الرزق إلى الرب لأنه المانح، وهو سبحانه يصرف الآيات لمن يفقهونها كما قال سبحانه: ﴿**انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ** ۝٦٥﴾ [**الأنعام**] ولكل مقام ما يناسبه، ولكلامه سبحانه المثل الأعلى فلا يحاكيه كلام الإنسان مهما يعلُ قدره فى البيان.

ولو حاولنا أن نصل إلى سر التعبير، ما بلغناه على وجهه الكامل؛ وأقصى ما نقول هو أنه سبحانه وتعالى أضاف الكسب إلى العبد فى الأولى، وإخراج النبات والغراس إليه، ليتميز القسمان من الإنتاج، فهما قسمان متقابلان بلا شك؛ إذ الأول العنصر الواضح فيه كسب العبد، والثانى العنصر الواضح فيه عمل الرب، كما أشرنا، فلهذا التمييز بين القسمين كانت الإضافتان المختلفتان، وليحث سبحانه الناس على النوعين من العمل، وبيان أنهما أساس العمران فى هذا الوجود، فكلاهما إصلاح فى الأرض وسبيل من سبل الإنتاج فيها؛ وقد كان بعض الاقتصاديين المتقدمين يعتبر طريق الإنتاج فقط الزراعة، وما تخرجه الأرض؛ والأخرى طرق ثانوية، فالله سبحانه يرشد إلى أن كليهما طريق متميز فيه عمران الأرض والإصلاح فيها، وفوق ذلك فإن إضافة الكسب إلى العبد مع الحث على الإنفاق من طيباته فيه إشارة إلى أن للفقير حقا معلوما فى كل ما يكسب من مال سواء أكان بصناعة أو تجارة أو عمل باليد أم كان بالبحث فى الأرض وإلقاء الحب ورجاء الثمار من الرب، فللفقير قدر معلوم فى كل هذا، وفى كل شئ صدقة؛ فى المال المكسوب بالجهد صدقة، وفى المال الذى يخرج من الأرض صدقة، وفى العمل نفسه صدقة؛ فعلى الطبيب أن يجعل جزءًا من عمله صدقة بأن يداوى المرضى، وعلى المدرس أن يجعل جزءًا من عمله للصدقة بالإرشاد والتوجيه، وعلى الصانع أن يجعل جزءًا من عمله صدقة كالإسهام بعمله فى بناء مسجد أو مستشفى أو نحوهما، وهكذا ففى الآية الكريمة إشارة إلى كل هذا.

وبعض المفسرين لا يقصر ما تخرجه الأرض على الزرع والشجر، والحشائش التى يتغذى منها ذات الضرع وذات الحافر، بل يتجاوز إلى ما يكون فى باطن

الأرض من معادن وفلزات، وسواء مما تقوم عليه الثروات عند بعض الأمم، ومما صار أساس العمران فى عصرنا الحاضر؛ فإن أولئك المفسرين الأجلاء أدخلوا ذلك فى عموم قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ﴾ وإن ذلك صادق بلا ريب، وهو نظر مستقيم.

وقد يقول قائل: إن ذلك مودع باطن الأرض، ولم يخرجه الله سبحانه وتعالى إلى ظاهرها، بل الإنسان هو الذى يخرجه، فنقول: ليس المراد بالإخراج هو هذا المظهر الحسى، بل المراد منه التكوين والإنشاء وظهور الأعراض التى تكون سبيلا لخروجه، فيشمل الإخراج ذلك كما يشمل تكوين الزرع بخروج البذرة من باطن الأرض؛ فإن كليهما يكونه الله تعالى ويظهره لعباده؛ هذا بعوده مستقيما يراه الحس بما يحمل من ثمر وما معه من غذاء، وذاك يظهر بأعراضه التى يعرفها الخبراء، وقد يظهر للحس ويبدو للنظر، كما يرى البترول طافيًا على الأرض فى بعض البلدان، يعلن ما حوته فى باطنها من عيون ثرَّة(١) تفيض به.

وإن للفقير حقا فى كل هذا، وقد اتفق علماء الإسلام على أن يكون للفقير حق معلوم فيما يوجد فى باطن الأرض، وإن اختلفوا فى مقدار ذلك على آراء فهو على أى حال لا يخلو من إنفاق واجب فيه بقدر معلوم، أو بصدقة منثورة تقدرها الحاجة العامة.

وفى الجملة إن على كل مؤمن صدقة يقدمها من طيب ماله أيا كانت مصادره وموارده، فهو خير ساقه الله إليه يجب أن يجعل للمحتاجين قدرًا فيها ليبارك الله تعالى له.

﴿وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ بعد أن أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بأن يقصدوا فى إنفاقهم إلى الطيب النفيس ينفقون منه،

---

(١) ثرَّة: من ثرر: عَيْنٌ ثَرَّةٌ و ثَرَّارَةٌ و ثَرْثَارَةٌ: غَزِيرَة الماء [لسان العرب: الثاء - ثرر].

وقد فهم من ذلك الأمر ألا يقصدوا إلى الخبيث، أكد سبحانه ذلك الأمر والقصد إلى الطيب وعدم القصد إلى سواه، أكده بأمرين:

أحدهما: هو النهى عن القصد إلى الخبيث فى الإنفاق، فهو تكرار حسن أفاد توكيد الأمر بقصد الطيب، وأفاد أيضًا أن الصدقة المجزئة لصاحبها التى يثاب عليها والتى تنمو حتى تصير كالحبة التى فيها سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة، هى التى تكون من الطيب لا من الخبيث، فلا ثواب لمن ينفق يتحرى الخبيث ينفق منه.

ومعنى «لا تيمموا» لا تقصدوا إلى الخبيث، فإن التيمم معناه فى الأصل اللغوى القصد، ويقال يممت جهة كذا أو نحو كذا قصدتها، كذلك تيممت أى قصدت والمعنى: لا تتحروا أن تكون صدقتكم من الخبيث أى الردىء. وهذا يستفاد منه أن الإنفاق بالنسبة للمال الذى يؤخذ منه ثلاث مراتب: المرتبة الأولى وهى أعلاها وأزكاها عند الله، هى أن يقصد إلى الطيب فينفق منه، وهذا هو الذى يليق بالمؤمن، وقد دعا إليه الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ**﴾ والمرتبة الثانية: أن ينفق من ماله فيأخذ منه اعتباطا، غير قاصد إلى جيد أو ردىء، فيعطى منه من غير تحر لأحدهما، وهذه دون الأولى بلا شك، ولصاحبها قصد الخير؛ لأنه يشطر من ماله شطرًا. والمرتبة الثالثة، وهى الدنيا: أن يقصد إلى الردىء لينفق منه، وهى موضع النهى، وإذا كان منهيا عنها فهى إثم وغير مقبولة عند الله، وهى تكشف عن شح النفس وفساد القلب.

هذا هو الأمر الأول الذى تأكد به طلب الإنفاق من الطيب النفيس.

أما الأمر الثانى: فهو قوله تعالى: ﴿**وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ**﴾ أى أنتم تقصدون إلى الإنفاق من الخبيث غير الجيد رذالة المال، مع أنكم لا تأخذونه إن أُعطى إليكم هبة أو شراء أو غير ذلك إلا أن تغمضوا فيه، أى تتغافلوا عن ملاحظته وتتساهلوا فى قبوله؛ وإن ذلك غير عدل إن أنفقتم المال وأعطيتموه للفقراء والمساكين تحريتم الردىء، وإن طلبتم المال وأردتم أخذه لا تأخذوا خبيثًا إلا إذا أغمضتم عن عيوبه قاصدين الإغماض، وفى ذلك تنبيه إلى أن يضع الرجل فى أعماله مقياسا

ضابطا، وهو ألا يفعل لغيره إلا ما يحب أن يفعله لنفسه، ولا يعطى من شىء إلا ما يحب أن يعطى إليه، وهذا قانون ضابط يحمل المرء على الاستقامة فى كل ما يفعل، وهو مايرمى إليه الحديث الصحيح: «**عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به**»(١) فكذلك لا تعط من المال فى إنفاقك إلا ما تقبله طيب النفس إن أخذته فى شراء أو هبة أو غيرهما.

وهنا مبحثان لفظيان:

أولهما: فى معنى الإغماض فى قوله تعالى: ﴿**إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ**﴾ فقد قال بعض العلماء: إنه من قبيل أغمض الرجل فى أمر كذا إذا تساهل فيه، فالإغماض هنا بمعنى الإغضاء؛ وهذا يتلاقى مع من يقول إن معنى الإغماض ألا يتحرى الفحص تسامحا أو تساهلا؛ وقيل: إن معنى الإغماض أن يأخذ زيادة فى نظير هذا الردئ، فهو يأخذه مضاعفا، فإنه يقال لغة أغمض لى فيما بعتنى أى أعطنى زيادة، وكأن المعنى: إنكم لا تأخذون الردىء إلا متساهلين مغضين مغمضين أعينكم عن الفحص، أو تأخذونه فى نظير زيادة.

وثانيهما: قوله تعالى: ﴿**وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ**﴾ يقف بعض القراء على قوله تعالى: ﴿**تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ**﴾ ثم يبتدئ بقوله تعالى: ﴿**مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ**﴾ ويكون التخريج على هذه القراءة أن قوله تعالى: ﴿**مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ**﴾ فى مقام تأكيد النهى وإردافه بما هو فى معنى التوبيخ، أى لا تقصدوا إلى الخبيث مع أنكم تنفقون منه، ولا تأخذونه فى ديونكم، ففى ديون الله تعالى تتحرون الردىء وفى ديونكم تتحرون الجيد! وليس ذلك من العدل فى شىء.

(١) عن عَبْدِ اللَّه الْيَشْكُرِىُّ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّه خبِّرْنى بعَمَلٍ يُقَرِّبُنى من الْجَنَّة وَيُبَاعدُنى من النَّار. قَالَ: «تُقيمُ الصَّلاةَ وَتُؤْتى الزَّكَاةَ وَتَحُجُّ الْبَيْتَ وَتَصُومُ رَمَضَانَ وَتُحبُّ للنَّاسِ مَا تُحبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْكَ وَتَكْرَهُ لَهُمْ مَا تَكْرَهُ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْكَ. خَلِّ عَنْ وُجُوهِ الرِّكَابِ». [رواه أحمد فى مسنده عن عبد الله اليشكرى عن رجل] مبهم [(١٥٣٢١)].

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ ختم سبحانه وتعالى الآية بهذه الجملة السامية، وهى تتضمن التذكير بالله تعالى ذى الجلال والإكرام، وإشعارهم برقابته على أفعالهم وصدقاتهم؛ ولذا ذكر لفظ الجلالة الذى يربى المهابة وخشيته سبحانه فى النفوس؛ لأنه المعبود وحده، المسيطر على كل ما فى الوجود وحده، وقد تضمنت الجملة وصف الله سبحانه وتعالى بوصفين كريمين مناسبين:

أولهما: وصفه بأنه سبحانه غنى، فمن يعطى الفقراء فهو يقرض غنيًا يضاعف ما أقرض عند العطاء، وهو غنى فلا يقبل إلا الجيد الذى يقدم بنفس سمحة، وبقلب مطمئن ممن يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. وهو الحميد، أى الذى يستحق أن يحمد، ولا يحمد سواه؛ لأنه المعطى الوهاب؛ فهو الذى وهب الغنى غناه، واختبر الفقير بفقره، وكان حقا على من أعطاه أن يحمده، والحمد أن يجود من ماله سمحًا فى جوده، قاصدًا إلى الطيب من ماله يجود به، فإن خالف ذلك فقد أخطأ مرتين: مرة لأنه لم يقرض الله قرضا حسنًا، وهو الغنى المعطى، ومرة ثانية؛ لأنه أخل بواجب الحمد، فالاعتراف بالنعمة للمنعم كان يوجب عليه أن يعطى خير ما فى يده، ورجاء الثواب، ورجاء دوام هذه النعمة، كان يوجب عليه مضاعفة العطاء، لا تحرى البخس منه.

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ﴾ فى هذه الجملة يبين سبحانه وتعالى بواعث الشر الكامنة فى نفس الإنسان، فالشيطان يجرى فى عروقه مجرى الدم، وهو يوسوس للإنسان بالشر، فإذا تقدم لينفق فى سبيل الله، وإعلاء شأن الحق، أو سدِّ حاجة المعوزين من الفقراء والمساكين وأبناء السبيل، وسوس إليه بأن ذلك سبيل نفاد المال، وأنه إذا ذهب ماله، ضاع وهانت حاله، ويوسوس له بذلك، فيحجم بعد إقدام، وإن أقدم فليعط قليلا من المال، أو ليتخير الحشف[1] من ماله. هذه وسوسة الشيطان، وهذا مغزى قوله تعالى: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ ﴾ أى يوعدكم إذا أنفقتم بالفقر، ويحذركم من الصدقة بما يوسوس بذلك فى أنفسكم؛

(١) الحشف: التمر اليابس الفاسد، والمقصود هنا ردىء المال.

وفى هذا الكلام عبر سبحانه عن التهديد بوعد، وهو المشهور فى لغة القرآن، وقد تستعمل أوعد فى الشر والخير معًا؛ وإن كل بخيل تحدثه نفسه بخوف الفقر عند الإنفاق، وهذا الحديث هو حديث الشيطان؛ ولذا قيل: الناس من خوف الفقر فى فقر. ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ أى يغرى نفس المؤمن بالفحشاء، ويستمر فى إغرائها حتى تطيعه وتخضع خضوع المأمور للآمر. والفحشاء قال بعض العلماء: إن المراد بها المعاصى التى تردى النفس الإنسانية، من مثل الزنا والسرقة وشرب الخمر؛ واقترانها بالوعد من الشيطان بالفقر، ليدفع الإنسان تلك الوسوسة عن نفسه؛ وبذلك يشير المولى الحكيم إلى أن وسوسة الشيطان للإنسان بتخويفه بالفقر هى من قبيل وسوسته بالفحشاء والمعاصى المنكرة القبيحة، وإن الممتنع عن الإنفاق فى موطنه كمن يرتكب أفحش الفواحش، وينتهك الحرمات؛ لأن امتناعه عن العطاء وقت لزومه يؤدى إلى انتهاك الحرمات، وارتكاب المعاصى؛ إذ ينقلب الفقير هادمًا مخربًا، فترتكب أبلغ المحرمات إيغالا فى الشر، وقد يكون فى ترك الإنفاق تعريض البلاد للخراب والدمار، وفى ذلك نشر للفساد، وتعريض البلاد لأن تنتهك فيها الحرمات، وترتكب فيها أشنع الموبقات، وهل بعد الذلة خير يرتجى وشر يدفع؟

هذا قول بعض العلماء فى معنى الفحشاء هنا وتوجيهه، وهو تفسير للكلمة بمعناها الشائع فى استعمال القرآن الكريم، وقد فسر الزمخشرى هنا الفحشاء بالبخل الشديد؛ فإن كلمة الفاحش تطلق فى لغة العرب على البخيل الشديد البخل، ومن ذلك قول طَرَفَةَ بن العبد:

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى ... عقيلة مال الفاحش المتشدد[1]

فالفاحش هنا المراد به البخيل.

ويكون توجيه الكلام على هذا المعنى، أن الشيطان يوسوس فى نفس الغنى، يخوِّفه بالفقر، حتى إذا استمكن من نفسه وسيطر عليها فى هذا وجَّهه إلى طريق

---

(١) قال المصنف رحمه الله تعالى: اعتام معناها اختار أحسن المال، والعقيلة أكرم المال، والفاحش البخيل، ومعنى البيت أرى الموت يختار الكرام ويختار خيار مال البخيل، فلا جدوى فى البخل.

البخل الشديد فاتجه وأطاعه كما يطيع المأمور الآمر، ويصير سَيِّقَة فى يده يسوقه حيث يشاء.

ولقد قال ﷺ: «**إن للشيطان لمة بابن آدم، وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم. ثم قرأ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ الآية**»[1].

هذه وسوسة الشيطان، وتلك خاطرة النفس الملكية، وقد ذكر سبحانه أمره فى مقابل وسوسة الشيطان فقال: ﴿**وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً**﴾.

صدَّر سبحانه القول بلفظ الجلالة للإشارة إلى أن الوعد الذى وعد به المنفقين وعد حق، لا يمكن أن يجىء الشك فى صدقه؛ لأنه وعد الله ذى الجلال والإكرام المعبود بحق، الذى لا يستحق العبادة سواه سبحانه وتعالى عن الشريك والمثيل، وإذا كان الشيطان يهدد بالفقر عند العطاء، فالمولى تعالت حكمته يعد المنفق بأمرين: أولهما المغفرة، وثانيهما الفضل، وهو الزيادة فى الدنيا والآخرة.

فأما المغفرة، فلأن الصدقة التى يقصد بها وجه الله تعالى لا لأحد سواه، وليس فيها رياء ولا نفاق، ولم يعقبها مَنٌّ ولا أذى، تدل على نفس صافية خالصة مخلصة، متجهة إلى الله تعالى منصرفة، فإن كان منها فى ماضيها ما يؤاخذ المرء عليه، فإن الله تعالى يغفر له، ويتوب عليه، ولقد قال تعالى: ﴿**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** ... ﴿١١٤﴾﴾ [**هود**] وقال ﷺ: «**الصدقة تطفئ الخطيئة**»[2] ولأن النفس تكون صافية إذا كانت الصدقة على هذا الوجه، قال الله تعالى: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا**... ﴿١٠٣﴾﴾ [**التوبة**] فالصدقة التى تؤدى ابتغاء وجه الله تعالى تطهر النفس كما تطهر المال، وتوجه النفس نحو الخير، كما تنمى المال.

---

(١) رواه الترمذى: تفسير سورة البقرة (٢٩١٤).

(٢) جزء من حديث رواه الترمذى: الإيمان (٢٥٤١) وأحمد فى مسنده عن معاذ (٢١١١٦).

هذه هى المغفرة التى يعد الله سبحانه وتعالى بها، وأما الفضل وهو النماء والزيادة فإن ذلك يتحقق بالصدقات؛ لأنها تُحدث البركة فى الرزق فيكون القليل فى يد المتصدق كثيراً بتوفيق الله تعالى، وبتوجيه من الله تعالى إلى السبل الناجحة، وإبعاده عما يذهب فيه المال ضياعًا، وإن الفضل يتحقق بسيادة المرء على نفسه، ومن ساد على نفسه فقد ساد على غيره، والمنفق يغالب الأهواء فينتصر، فيشرف فى نفسه، ويشرف أمام الناس؛ ثم إن الله سبحانه مخلف الرزق فى الدنيا بالتيسير والتسهيل والرزق الوفير، وفى الآخرة بالنعيم المقيم؛ ولقد قال تعالى: ﴿**وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ] وقد روى البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان يقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفًا**»(١) وإن ذلك مشاهد محسوس بين الناس اليوم، فإن الممسك إن لم يتلف ماله تلف جسمه، فإن لم يتلف جسمه تلفت نفسه، أو شرفه، وتقطعت صلات المودة بينه وبين الناس حتى أقرب الناس إليه.

﴿**وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ ختم الله سبحانه وتعالى هذه الآية بتلك الجملة السامية تأكيدًا لوعده الذى وعد به عباده المتقين المتصدقين؛ فإنه سبحانه وتعالى قد وعدهم بأن يعطيهم من فضله، فبين سبحانه وتعالى أنه واسع المغفرة، واسع الفضل، يعطى من يشاء؛ فإذا كان هو الذى أعطى الغنى من فضله ابتداءً، فهو الذى يمده إن تصدق بفضله أيضًا، وهو مع سعة فضله ومغفرته عليم بموضع المغفرة وموضع الفضل، وهو الصادق فيما يعد، يعلم نتيجة العطاء، وأنها لا تنتج فقراً كما يوسوس الشيطان، بل يعلم الغيب، وقد أكنَّ فى قدره أنها تنتج مغفرة وفضلا، فصدِّقوا أيها المنفقون من يعلم الغيب، ولا تسيروا وراء وسوسة الشيطان الرجيم.

---

(١) البخارى: الزكاة - قول الله تعالى: ﴿فأما من أعطى واتقى﴾ (١٣٥١)، ومسلم: الزكاة - فى المنفق والممسك (١٦٧٨). عن أبى هريرة رضى الله عنه.

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾

بعد أن بيَّن سبحانه وتعالى نوازع الشر فى نفس الإنسان وإلهام الله له بالخير، وأن الشيطان يعد بالفقر ويحرِّض على الفحشاء والبخل، وأن الله يعد بالمغفرة والفضل؛ بعد ذلك بيَّن أن الحكمة فى أن يجيب داعى الله، وأن هذه الحكمة إنما هى من الله سبحانه وتعالى وأن من نالها فقد أعطاه الله خيراً كثيراً.

وأصل الحكمة مأخوذ من حكَم بمعنى منع، وهى فى الإنسانية صفة نفسية هى أساس المعرفة الصحيحة التى تصيب الحق، وتوجه الإنسان نحو عمل الخير، وتمنعه من عمل الشر، فهى فيه مانعة ضابطة حاكمة للنفس مسيرة لها نحو الكمال. ولقد قال الراغب الأصفهانى فى معنى الحكمة: «الحكمة إصابة الحق بالعلم والعقل، والحكمة من الله تعالى معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام، ومن الإنسان معرفة الموجودات وفعل الخيرات، وهذا هو الذى وصف به لقمان فى قوله عز وجل: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ** ... ﴿١٢﴾ ﴾ [**لقمان**] ونبه على جملتها بما وصفه بها». والمعانى التى أشار إليها الراغب هى فى قوله تعالى: ﴿ ... **أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ** ﴿١٢﴾ **وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴿١٣﴾ ﴾ [**لقمان**] إلى آخر الآيات التى تدل على معرفته للحق وإدراكه له وإيمانه به، وعمله على منهاج ما علم وإرشاده الناس إلى فعل الخير.

فالحكمة إذن فى حقيقتها تتضمن معانى العلم الصائب والإيمان بالحق والإذعان له وطلبه، والعمل على وفق ما علم، وإرشاد الناس إلى المنهاج المستقيم؛

ولذا قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ... ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل] وقال النبى ﷺ: «**لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضى بها ويعلمها**»(١).

وقد يقول قائل: ما موضع هذه الآية من آيات الصدقات؟ فنقول: إن الله سبحانه وتعالى أشار إلى أن المنفق عليه أن يستولى على نفسه، وأن يدفع دواعى الشر، ويحمى قلبه منها، وأن يجيب نداء الله تعالى؛ وفى هذه الآية أن تلك هى الحكمة، فالحكمة فى ضبط النفس، ومنعها من أهوائها والسيطرة عليها، وإطاعة الله تعالى.

ومن الناس من يحسب الحرص والضنَّ بالمال حكمة، ويدَّعى أن ذلك من الاقتصاد، وأن الإنفاق إسراف، فأشار سبحانه أن التصدق هو الحكمة، بذكر آية الحكمة فى آيات الصدقة.

وإن الحكمة نور يقذفه الله فى قلب المؤمن الذى يطلب الحق ويتجه إليه ويقصده؛ فإنه إن استولى على نفسه وطلب مرضاة الله تعالى آتاه الله نوراً به يبصر الحق، فأشرق فى قلبه الإيمان به فاندفع إلى العمل الصالح؛ إذ إن الاتجاه المستقيم، بقلب مخلص سليم، يكون معه نور الحكمة، إذ يقذف الله سبحانه وتعالى به فى قلبه، فيكون الفكر المستقيم الذى يصيب الحق، ويكون القلب الذى يؤمن به، ويكون العمل النافع؛ ولذا يقول بعض العلماء: إن الحكمة هى العلم النافع الذى يكون معه العمل.

هذا معنى قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾ فالمعطى للحكمة هو الله، ولكنه العليم بكل شىء يضع الأمور فى مواضعها، فهو لا يعطيها إلا لمن يخلص قلبه، ويسلم وجهه، وإن كان كل شىء بمشيئته سبحانه، إنه على ما يشاء قدير.

---

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى: العلم - الاغتباط فى العلم والحكمة (٧١)، ومسلم: صلاة المسافرين: - فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه (١٣٥٢) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه. وفى الباب عن عن عبد الله بن عمر، وعند البخارى عن أبى هريرة أيضا.

والحكمة على هذا التوجيه هى علو بالإنسان، وسمو به، إذ إنه يخلص نفسه من الأهواء المردية، ومن الشهوات الجسدية الأرضية. ومن المأثور أن الإنسان فيه طبيعتان: طبيعة أرضية منها ينفذ الشيطان، وطبيعة ملكية بها سموه، ومن جانبها تنفذ دعوة الديَّان، فإن غلبت عليه طبيعته الأرضية غلبت عليه شقوته وكان شراً من الشيطان، وإن غلبت عليه الثانية سمت إنسانيته وكان أفضل من الملك، وتلك هى الحكمة؛ ولذا قال تعالى: ﴿**وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾.

﴿**وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ أى وما يتذكر ويعتبر بأوامر الله تعالى، ويستولى على نفسه ويحارب أهواءه حتى يقذف الله فى قلبه بنور الحكمة إلا أولو الألباب، أى أصحاب العقول التى تصيب الحق وتدركه، وتتجه إليه غير متأشبة بلذة من لذات الجسد، أو شهوة من شهوات الدنيا المردية.

فاللب معناه العقل، ولكنه لا يستعمل فى القرآن إلا فى العقول المستقيمة المدركة التى تخلصت وسلمت من شوائب الهوى، ومعايب اللذات، فهى العقول المسيطرة التى تستخدم لطلب الحق وتوصل إليه، لا العقول المسخرة للأهواء واللذائذ تتحكم فيها وتسيرها.

وقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية بذلك الختام الحكيم، للإشارة إلى أن الله سبحانه الذى يعطى حكمته من يشاء لا يعطيها إلا للذين خلَّصوا قلوبهم من المفاسد والملاذِّ الأرضية، ولم يجعلوها حاكمة على قلوبهم، متحكمة فى تفكيرهم.

وللإشارة إلى أن الذين يجيبون داعى الله، ويردون داعى الشيطان هم ذوو العقول المستقيمة، فلا يتحكم الشيطان إلا فى غفوة من غفوات العقل المدرك؛ وللحث على وجوب تذكر الله دائماً، وأن على ذوى العقول أن يتجهوا بعقولهم دائماً لله ليتذكروا ويعتبروا، ويستبصروا، فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور، والله سبحانه وتعالى هو القادر على كل شىء الهادى إلى سواء السبيل.

﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ﴾ النفقة هى العطاء العاجل فى باب من أبواب البـر، فهى عطاء منجـز، توجبـه حاجـة من يعطيه، أو حـاجة الجماعة التى يعيش فـيها، والضرورات الاجتماعية، أو السيـاسية أو العسكرية لها. أما النذر فهو التزام طـاعة من الطاعات، أو عطاء فى بر. ويقول الراغب: النذر أن توجب على نفـسك ما ليس بواجب لحدوث أمـر، يقال نذرت قـال تعالى: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾ [مريم] وأصل مادة نذر من الخوف؛ لأن الإنسان إنما يلتزم ما يلتزمه على نفسه مما ليس بلازم عليه خوف التقصير وخوف أن تضـعف الإرادة البشـرية فى القـيام بـذلك الفعل الذى ليـس واجبًـا فى أصله. والصيغـة المشهورة للنذر أن يقول: لله على نذر أو نذرت لله كـذا، فهى فى معناها تتضمن العهد الموثق لله.

ومعنى الجملة السامية: ما أنفقتم من نفـقة عاجلة وأديتموها، أو التزمتم بنفقة قابلة وعاهدتم الله علـى القيام بها، فإن الله تعـالى سبحانه وتعالى يعلمـه، فيعلم الباعث عليـه أقصد ابتـغاء مرضـاة الله أم قصد به رئاء الـناس، أو كان من الطيِّب الذى يقبله اللـه، أم تيمم الخبـيث فلم يختر لله سـواه، وأتبعه مَنًّا وأذى، وجـرحًا للكرامـة وعزة النفس، أم كان بـطيب النفس، ومن غيـر ذل ولا امتهـان؛ ثم يعلم سبحانه أَوَفَّى الناذر بنذره على الوجه الأكمل أم نكث عهده، وأبطل ذمته؛ يعلم الله سبـحانه وتعالى ذلك كله، يعلمـه علم القادر القائـم على كل شىء، الذى يجازى المحسن إحسانًا والمسئ إسـاءة؛ فقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ مع إيجازها أفادت فوائد جمة: أفادت الوعـد والوعيد، أفادت التبشير بالثـواب والنعيم المقيم ورضوان الله تعالى، وأفـادت الإنذار بالعقاب، لمن فسـد قلبه، فلم يقصـد بعطائه وجه الله تعالى، ولمن نقض عـهده، وأخلَّ بذمتـه؛ ثم أفادت مع ذلك تربيـة المهابة فى قلب المؤمن؛ فـإن المؤمن إذا ذكر أن الله تعـالى يعلم عمله، أحس برقـابته فى خـلجات نفسه، وخصوصًـا أن الجملة السامية: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ صُدِّرت بما يؤكدها. وذكر العليم الحكيم بلـفظ الجلالة الدال على الاسـتحقـاق الكامل للألوهيـة، وانفـراده سبحانه وتعالى بها، فـإن ذلك كله من شأنه أن يجعل المؤمن يحس بمقام الألوهية،

ويشعر بحق العبودية، فتخلص نيته، ويخلص قلبه من كل الشوائب والأغراض الدنيوية.

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾: ختم الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بهذه الجملة السامية التى تفيد النفى المطلق لنصرة الظالمين، ومعناها ليس للظالمين أى نصير فى الدنيا والآخرة، وهى تؤكد الوعيد فى الجملة السابقة، وتشير إلى أن الامتناع عن الإعطاء ظلم، وليس للظالم نصير؛ وأن الامتناع عن الإعطاء حقيقة هو ظلم، فهو ظلم للجماعة؛ لأنه منع صاحب الحق من حقه؛ لأن الله سبحانه وتعالى وهو أحكم الحاكمين حكم بأن للفقير فى مال الغنى حقا معلوما، و لاظلم أفحش من أن يمنع صاحب الحق من حقه، ولأن الممتنع عن العطاء يظلم نفسه؛ لأنه يعرضها للهوان فى الدنيا، ولعذاب الله فى الآخرة، وهو يظلم نفسه وجماعته؛ إذ إن الجماعة التى يشح فيها الغنىُّ بالعطاء لإمداد الجند المدافع، ولإمداد الفقير وجعله يعيش عيشة آدمية محترمة - يبتليها الله تعالى ببلاء واقع ماله من دافع؛ لأن ذلك الفقير إذا جوَّعته كان أداة هدم للجماعة، فيكون الشُذَّاب(١) الذين يبدلون أمن الجماعة خوفًا، ويكون المنحرفون فى تفكيرهم ومنازعهم الذين يهدمون بناء الجماعة، ويقوضون كل قائم.

ونفى الأنصار يشمل النفى فى الدنيا والآخرة كما قررنا؛ أما نفيه فى الآخرة فمعلوم ظاهر ثابت، ونفيه فى الآخرة يدركه البصير النافذ البصيرة؛ فإن البخلاء بأموالهم عن مواطن الخير مبَغَّضُون إلى الناس، لايرضى عنهم أحد، ولا يناصرهم أحد بالقول أو العمل، وأحب الناس إلى الناس الباذل المعطى، وأبغضهم إليهم الشحيح المانع.

والآية الكريمة تشير إلى أن الوفاء بالنذر مطلوب فى العطاء؛ فإنه اقترن بالإنفاق المطلوب الذى حث عليه القرآن الكريم فى الآيات السابقة، فكذلك ما اقترن به.

---

(١) الشُذَّاب: من الشَّذَبُ، محركةً: قِطَعُ الشَّجَر، أو قِشْرُهُ، و- الشَّىْءَ: قَطَعَهُ. والتَّشْذِيبُ: الطَّرْدُ، والتَّفريقُ والتَّمزيقُ فى المال [لسان العرب: الشين - شذب].

وإنه من الحق علينا قبل أن ننتقل إلى تفسير الآية الآتية نتكلم فى النذر:

إن العلماء يقسمون النذر إلى قسمين: نذر مطلق هو التزام بطاعة غير معلق على زمن، ولم يكن المقصود منه الحض على فعل أو المنع من فعل، أو الامتناع عن فعل، أو توثيق فعل، كأن يقول القائل: لله عَلَيَّ نذر أن أعتكف فى العشر الأخيرة من رمضان، أو: لله على نذر أن أتصدق على الفقراء بعشرة جنيهات. فإن النذر فى هذه الحال يجب الوفاء به ما دام طاعة باتفاق الفقهاء ويقسم الفخر الرازى فى تفسيره الكبير هذا النذر إلى قسمين: مفسَّر وغير مفسَّرٍ، فالمفسر أن يقول مثلا: لله عَلَيَّ حجٌّ، وهذا يلزم الوفاء به، وغير المفسَّر أن يقول: لله على نذر، من غير أن يسمى النذر ويبينه فيلزمه فيه كفارة يمين لقوله ﷺ: «**من نذر نذرًا وسمى فعليه ما سمى، ومن نذر نذرًا ولم يسم فعليه كفارة يمين**»(١).

وهذا مذهب الشافعى، ويلحق بالنذر غير المفسر فى المذهب الشافعى النذر الذى يكون فى معناه تحريض على فعل، أو الامتناع من فعل، كأن يقول: نذرت لله ألا أفعل كذا ثم يفعله، فإنه يجب فيه كفارة يمين؛ لأنه فى معنى اليمين.

ولقد روى أن رسول الله ﷺ قال: «**من نذر نذرًا لم يسمه فكفارته كفارة يمين، ومن نذر نذرًا فى معصية فكفارته كفارة يمين، ومن نذر نذرًا لا يطيقه فكفارته كفارة يمين**»(٢).

هذا إذا كان النذر التزامًا مجردًا من غير تعليق أو تقييد بمكان؛ فقد اتفق الفقهاء على وجوب الوفاء به ما دام قربة، لقوله ﷺ: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه**»(٣). ولقوله تعالى: ﴿**وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ** ... ﴿٢٩﴾﴾ [**الحج**] فهو أمر حتمى لازم.

---

(١) رواه ابن ماجه فى الكفارات (٢١١٨) عن عقبة بن عامر الجهنى، وعنه رواه الترمذى: النذور والأيمان (١٤٤٨).

(٢) رواه أبو داود: الأيمان والنذور - من نذر نذرا لا يطيقه (٢٨٨٧) عن ابن عباس بهذا اللفظ، وفى آخره: «وَمَنْ نَذَرَ نَذْرًا أَطَاقَهُ فَلْيَفِ بِهِ».

(٣) رواه البخارى: الأيمان والنذور - النذر فى الطاعة (٦٢٠٢) عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها وأرضاها.

أما إذا علق النذر على أمر سيقع فى المستقبل كأن يقول: إن شفى الله مريضى مما ألم به فلله علىَّ نذر أن أتصدق بمائة جنيه مثلا، فقد اختلف الفقهاء فيه؛ فقال الحنفية فيجب الوفاء بشروط ثلاثة: ألا يكون معصية وألا يكون واجبًا، وأن يكون قربة بحيث يكون من جنسه واجب؛ فنذر المعصية باطل كما قدمنا، وكنص الحديث الذى ذكرناه؛ ونذر الواجب لا جدوى فيه؛ لأنه واجب من تلقاء نفسه؛ أما نذر القُرَب التى من جنسها واجبات كالصدقات والصيام والحج فإن الوفاء به واجب، وهذا هو مذهب المالكية إلا أنه إذا كان النذر بجميع المال وجب الثلث فقط عندهم، إن لم يكن المال معينًا بالتعيين. والشافعى فى قول اعتبر النذر المعلق على الشرط كاليمين تجب به كفارة، كأن يقول: إن شربتُ الدخان وجب عَلَيَّ كذا صدقة، فشرب، فإنه تجب كفارة يمين.

ومذهب الإمام أحمد كما حققه العلامة ابن تيمية أن النذر المعلق على شرط إن قصد به التعليق حقيقة كـ: «إن جاء رمضان فلله علىَّ نذر أن أعتكف العشرة الأخيرة منه»، فهذا يجب الوفاء به، وإن كان المقصود به الحض على فعل أو الامتناع عن فعل، فإنه لا يجب الوفاء به ولكن تجب كفارة يمين؛ لأنه حلف تجب فيه الكفارة.

وقد اتفق العلماء على عدم وجوب الوفاء فى نذر المعصية، لقوله ﷺ: **«من نذر أن يعصى الله فلا يعصه»**[(١)]. وقال أبو حنيفة ومالك والشافعى: لا يجب شىء؛ ولكن قال أحمد: تجب كفارة يمين، للحديث الذى رواه أبو داود ونقلناه آنفًا؛ ففيه التصريح بأن نذر المعصية تجب فيه الكفارة ولأن منطق الحنابلة أن النذر الذى يكون فيه الحض على فعل أو منع فعل هو من قبيل اليمين، واليمين فى المعاصى حكمها أنه يجب الحنث فيها، وتجب كفارة اليمين، لقوله ﷺ: **«من حلف على شىء فرأى خيراً منه فليحنث وليكفر»**[(٢)].

---

(١) انظر السابق.

(٢) روى مسلم فى صحيحه: الأيمان - ندب من حلف يمينا فرأى غيرها خيرا منها (٣١١٣).

هذه كلمة إجمالية فى حكم النذر واختلاف أقوال الفقهاء فيه، **ومن المفيد فى هذا الموضع أن نتكلم فى أمرين:**

أحدهما: فى نذر القيام بقربة فى مكان معيَّن، كالصدقة عند البيت الحرام، أو عند المسجد الفلانى.

وثانيهما: هل النذر فى ذاته حسن فى الدين أو ليس بحسن؟ فقد كان الكلام فى وجوب الوفاء به. أما الكلام فى هذا الموضع فهو فى أصله أيكون من المستحسن أن يلتزم الإنسان الطاعة أم يفعلها ولايقيد نفسه بالتزامها أولاً ثم يفعلها؟.

أما بالنسبة للأمر الأول، فقد اتفق الفقهاء على أن الالتزام بقربة فى مكان تشد الرحال إليه وله مزيد اختصاص بالفضل فى الشرع، كالمسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجد النبى ﷺ، يجب الوفاء به؛ فقد ورد أن النبى ﷺ نص على أنه لا تشد الرحال إلا إلى هذه المساجد الثلاثة، فالنذر بالصلاة فيها أو الصدقة عندها يجب الوفاء به؛ لأن الصدقة فى ذاتها قربة، والاتجاه إلى الله فى هذه الأمكنة بالذات قربة ثانية.

وأما إذا كان المكان الذى نذرت القربة فيه ليس من الأماكن التى تشد الرحال إليها، فقد قال كثيرون من الفقهاء: تجب القربة من غير تقييد بالمكان؛ فمن نذر أن يتصدق عند مسجد الحسين أو غيره فالوفاء واجب من غير تقيد بالمكان.

وقال بعض الفقهاء: يجب الوفاء بهذا المكان الذى عيَّنه، واستدلوا على ذلك بما روى أبو داود أن ثابت بن الضحاك قال: «نذر رجل على عهد رسول الله ﷺ أن ينحر إبلاً ببوانة فأتى رسول الله ﷺ فسأله، فقال ﷺ: «**أكان فيها وثن يعبد؟**» قال: لا، قال: «**فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟**» فقال: لا، فقال: «**اوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر فى معصية الله تعالى، ولا فى قطيعة رحم، ولا فيما لا يملك ابن آدم**»[1].

---

(١) رواه بنحو من ذلك أبو داود: الأيمان والنذور - ما يلزم به من الوفاء بالنذر (٢٨٨١) عن ثَابِت بْن الضَّحَّاكِ. وبوانة: قيل هضبة وراء ينبع، وقيل: موضع بين الشام وديار بكر، وقال البغوى: أسفل مكة دون يلملم.

وبهذا يتبين أن الوفاء بالنذر واجب ما دام غير معصية، وفى مكان لا معصية فيه، ولكن هل النذر عند الأضرحة والقبور خال من المعصية؟ إن ذلك موضع نظر، والاحتياط فى النذور أن تكون لله خالصة.

أما الأمر الثانى، وهو التزام الطاعات بالنذور المطلقة أو النذور المعلقة على شرط، أهو أمر مستحب، أم الأولى خلافه وإن كان يجب الوفاء به إن التزمه؟ لقد اختلف فى ذلك الفقهاء؛ فقال فريق كبير منهم: إن الأولى ألا ينذر العبادة، بل يقوم بها متى قدر عليها من غير نذر، وذلك لما روى عن ابن عمر عن النبى ﷺ أنه نهى عن النذر، وقال: «**إنه لا يأتى بخير، وإنما يستخرج الله به من البخيل**»(١) وإن أكثر النذور فى الماضى كما هى فى الحاضر تكون لرجاء أمر فتعلق القربة على وجوده، أو للخوف من نتائج أمر فتعلق القربة على عدمه، وإن تعليق القربة على ذلك أمر غير مستحسن، بل هو مكروه، بل صرح بعض الأئمة بأنه حرام؛ ولقد قال ذلك القول كثيرون من فقهاء المذاهب الأربعة، بل رواه أبو داود عن بعض الصحابة.

وقال آخرون : إن النذر مستحب؛ لأنه يحمل الشخص على القيام بالقرب، فهو تقوية للعزيمة على الطاعة؛ ولقد صرح النووى فى المجموع بأنه مستحب.

وعندى أن النذر غير المعلق على شرط قد يكون مستحبا لما فيه من حمل النفس على الإصرار على الطاعات، وأما المعلق على شرط، فهو الذى ينطبق عليه الحديث، وقد صرح النبى ﷺ بأنه لا يأتى بخير لمنع اعتقاد الناس ذلك، وكثيرون يتوهمون أن النذر يغير القدر، فنفى النبى ﷺ صحة اعتقادهم. والله سبحانه هو القادر على كل شىء، وله عاقبة الأمور.

---

(١) رواه بهذا اللفظ مسلم: النذر - النذر وأنه لا يرد شيئا (٣٠٩٥٩)، والنسائى: الأيمان والنذور: النهى عن النذر (٣٧٤١) عن ابن عمر رضى الله عنه، ورواه البخارى بنحوه: النذر - إلقاء العبد النذر إلى القدر (٦١١٨).

إِن تُبْدُوا
الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ
فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ
وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ
فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ
وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾

فى الآيات السابقة حذر الله سبحانه وتعالى المنفقين من أدواء الصدقات التى تفتك بها وتذهب بخيرها، وهى أعداء الإخلاص الثلاثة: المنُّ، والأذى، والرياء. والمنُّ والأذى عملان حسِّيان قد يسهل على المؤمن اجتنابهما، أما الرياء فهو داء نفسى الاحتياط فى تجنبه يوجب تفتيش النفس فى داخليتها، ومراقبتها فى حركتها، والتنقيب عن بواعثها؛ فإن كانت تتصل بالرياء عن قرب أو بعد طهرها وزكاها، وإن سلمت منه فقد برئت واصَّعدت إلى سماء التقديس؛ وإن المؤمن فى سبيل هذه المعالجة الروحية عند الإنفاق قد يتردد بين الإعلان ليكون أسوة حسنة للناس، إذ يعلن حق الله فى ماله فيعرف كل ذى مال ذلك، ولكنه يخشى أن يجد الرياء منفذًا إلى نفسه من هذه الناحية، وإن أخفاها وسترها عن الأعين، فقد يضل فى العطاء، فيعطى من لا يستحق العطاء، ولا يكون إعلان تلك الشعيرة المقدسة، شعيرة الصدقة التى تثير نخوة ذى المال، فيقتطع من ماله حق الله فيه.

ولقد بيَّن سبحانه أن فى الإخفاء خيرًا كثيرًا، والجهر محمود إن نقِّى من كل أعراض الرياء، فقال تعالى:

﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ هذه الآية الكريمة تفيد أن الصدقات فى كل أحوالها خير محض ما دام المنفق قد خلص من الرياء، وجانب المنَّ والأذى؛ وإذا كان ثمة تفاوت فهو فى حال النفس، والاحتياط للرياء، وسد مداخله؛ ولذا قال تعالى مادحًا النوعين من الصدقة: صدقة الجهر، وصدقة السر: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا﴾ أى إن تظهروا صدقاتكم وتعلنوها بين الناس فنعم تلك الصدقة، أى أنها أمر محمود ممدوح يوجب الثناء والذكر الحسن؛ فقوله تعالى: ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾ هو نِعْم المدغمة فى ما، وما هى التى يقول عنها علماء اللغة إنها نكرة تامة بمعنى شىء، والمعنى نِعْمَ شيئا يستحق المدح والثناء تلك الصدقات. وعبر فى قوله عن الإنفاق بالصدقات هنا، للإشارة إلى أن الممدوح من الإنفاق المعلن هو الصدقات التى يقصد فيها الشخص إلى إرضاء الرب، وتصدق فيها نيته، ويخلص قلبه؛ لأن كلمة (الصدقة) مأخوذة من الصدق، والصدق هنا هو صدق النية وتخليصها من كل شوائب الرياء. وإذا كانت الصدقة التى خلصت النية فيها لوجه الله تعالى هى موضع مدح وثناء ولا ذم فيها قط، فهى خير بلا شك. وذكرت خيريته بعبارات المدح والثناء دون التصريح بالخيرية، للإشارة إلى أنها ممدوحة عند الله كما هى ممدوحة عند الناس؛ إذ إن المعلن لصدقته سينال ثناء الناس، وسيتحدثون بجوده؛ فبين سبحانه أن عمله ممدوح عند الناس أيضًا وبذلك ينال المتصدق المخلص فى نيته ومقصده إن أعلن، ثواب الله، وثناء الناس، وثناء الشرع.

هذه صدقة الجهر إن خلصت من الرياء؛ أما صدقة السر فقد أثنى عليها سبحانه بقوله تعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أى إن تخفوا الصدقات التى خلصت فيها النية وتؤتوها الفقراء بأنفسكم فهو خير لكم؛ لأن البعد عن الرياء يكون أوثق؛ إذ فى السرية سد لكل ذرائع الرياء؛ ولذلك كان السر خيراً للمعطى؛ إذ فيه احتياط لنفسه من أن يدخلها داء الإنفاق، وهو الرياء؛ فإذا كان فى الجهر فائدة الثناء، ففى السر فائدة الاحتياط من الرياء؛ وذلك خير من كل ثناء. ثم

صدقة السر خير فى ذاتها كصدقة الجهر، وفوق ذلك فإن صدقة السر خير للفقير؛ لأنها تستره بستر الله، فلا يجتمع عليه ذل الفقر، وذل الأخذ، وذل الإعلان والكشف.

والتعبير فى نفقة السر بقوله تعالى: ﴿وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ﴾ فيه إشارة إلى ثلاثة أمور:

أولها: أن الصدقة قسمان: قسم يعطى إلى الحكام، وهو الصدقات المفروضة التى قدرها الشارع؛ فهذه يجمعها أولو الأمر ومن ينوبون عنهم من ولاة وعمال، أو جماعات يختارونها لذلك وهذه تكون معلنة بلا ريب. والقسم الثانى يعطى الفقراء مباشرة وهو الصدقات غير المفروضة، والصدقات المفروضة غير المقدرة التى تكون على حسب حال الشخص، كمن يرى شخصًا فى مخمصة وجوع، ويخشى عليه من الموت فإن الصدقة تكون فرضًا على من يعلم حاله؛ وهذه الصدقات التى تعطى الفقراء مباشرة يكون السر فيها أولى، بل أكاد أقول إنه يكون لازمًا؛ لأن الإعلان أذى، وقد قرر المولى العلى القدير أن الأذى يبطل الصدقة فى قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ** ... ﴿٢٦٤﴾﴾ [**البقرة**].

الأمر الثانى: الذى يفيده التعبير بقوله تعالى: ﴿وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ﴾: الإشارة إلى وجوب تحرى صفة الفقر فيمن يعطى، فلا يعطى إلا ذا حاجة، ولا يكون من الصدقات ما يعطى لغير الفقراء؛ لأنه يكون مروءة أو جودا ولا يكون صدقة يبتغى بها ما عند الله، إذ يبتغى بها ما عند الناس؛ وإن ذلك وإن كان من نظام الدنيا ليس من الصدقة فى شىء.

الأمر الثالث: أن الإعطاء فى هذه الصدقات بوصف الفقر، لا فرق فى ذلك بين مسلم وغير مسلم، ولا بر أو فاجر؛ فإذا كان غير المسلم فى حال مخمصة ولا يعلم حاله إلا مسلم فرض عليه أن يدفع عنه مخمصته؛ فإن ذلك من الرحمة المفروضة لكل إنسان؛ ولذا ورد فى صحيح البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ

قال: «**في كل كبد رطبة أجر**»[١] وفي رواية لغيرهما «**في كل كبد حَرَّى أجر**»[٢] فهذا يدل على أن الرحمة بكل الأحياء فيها أجر، فكيف بالرحمة بالإنسان.

بعد بيان أن صدقة السر فيها خير وصدقة الجهر موضع ثناء ومدح، قال سبحانه: ﴿**وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ**﴾ أي أنه سبحانه وتعالى يستر السيئات التي يرتكبها الشخص، ويخفيها ولا يظهرها عند الثواب والجزاء، فلا يحاسب عليها أصحابها إذا تصدقوا وأعطوا مبتغين وجه الله تعالى في صدقاتهم. و«من» في قوله تعالى: ﴿**مِّن سَيِّئَاتِكُمْ**﴾ إما أن تكون «مِنْ» البيانية، والمعنى أن الصدقات تكفر السيئات وإما أن تكون «من» الدالة على البعضية، أي أن الله سبحانه وتعالى يكفر للمتصدقين من الخطايا بمقدار ما يتصدقون من صدقات، وينفقون ابتغاء وجه الله تعالى. وعندي أن «مِنْ» بيانية؛ لأن النفس التي تفيض خيراتها وتتجه إلى الله تعالى في صدقاتها لا تبغي إلا مرضاته، فلا تبغي رياء ولا نفاقًا، ولا جاهًا في الدنيا، نفس برة تقية لم تحط بها خطيئاتها والنفس التي تكون على هذا النحو لا تسيطر عليها المعاصي، فيكون غفران الله تعالى لما كان منها من سيئات في بعض الأحوال.

وقوله: ﴿**وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ**﴾ قال بعض العلماء: إنه بالنسبة لصدقة السر؛ ولذا قال ﷺ: «**صدقة السر تطفيء غضب الرب**»[٣] وقال بعضهم: إن الصدقة بنوعيها تكفر السيئات؛ وذلك أوضح من الأول؛ لأن الصدقة إن سلمت من الرياء وقدمها الشخص طائعًا مختارًا ولو بإعلان هي حسنة مقبولة، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ... ﴿١١٤﴾**﴾ [**هود**] ولقد روى أن

---

(١) رواه البخاري: المساقاة - فضل سقي الماء (٢١٩٠)، ومسلم: السلام - فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها (٤١٦٢).

(٢) رواه ابن ماجه: الأدب - فضل صدقة الماء (٣٦٧٦) وأحمد (٦٧٧٨) عن عبد الله بن عمرو بنحوه.

ذات كبد: كل ما فيه روح. حرى: من شدة الحر، وهو كناية عن شدة العطش.

(٣) جامع الأحاديث والمراسيل: الجامع الصغير وزوائده - الصاد مع الدال.

النبى ﷺ قال: «**الصدقة تطفىء المعصية**»(١) ولأن من الصدقات ما لا يمكن إلا أن تكون معلنة كشراء سيدنا عثمان بن عفان لبئر رومة ووقفها على المسلمين؛ فلا يمكن أن تكون تلك الصدقات المعلنة التى يبتغى فيها وجه الله غير مكفرة للسيئات، وقد أعد عثمان جيش العسرة، فهل يغض ذلك من صدقته. ولذا نرى أن تكفير الصدقات للسيئات لا يختص بصدقات السر وحدها، بل يعم الصدقات كلها.

ولقد أثار العلماء بحثا فى أيهما أفضل: صدقة السر أم صدقة الجهر؟ وقبل أن نخوض فى أقوال الفقهاء فى ذلك نقرر أن الصحابة أثرت عنهم صدقات الجهر، كما كان معلومًا عنهم أنهم يتصدقون ويخفون حتى لا تعلم شمالهم ما تنفق يمينهم.

ومما يروى فى صدقاتهم التى كانت معروفة أن عمر رضى الله عنه جاء إلى النبى ﷺ بنصف ماله، فقال النبى ﷺ: «**ما خلفت وراءك لأهلك ياعمر؟**» قال: خلفت لهم نصف مالى: وفى هذا الوقت جاء أبو بكر بكل ماله، فقال له النبى ﷺ: «**ما خلفت وراءك لأهلك يا أبا بكر؟**» قال: عِدةُ الله وعدة رسوله. فبكى عمر وقال: بأبى أنت وأمى يا أبا بكر، والله ما استبقنا إلى خير قط إلا كنت سابقا!(٢).

وتبرعات عثمان كثيرة مشهورة معلمة بينة، دونتها كتب التاريخ، والسيرة المحمدية الشريفة.

وإذا كان المأثور عن الصحابة وعن النبى ﷺ صدقة العلن والسر، ففى كل خير، والآية صريحة فى ذلك. ولكن بعض العلماء فضَّل صدقة السر، لقول النبى ﷺ فى حديث البخارى: «**سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لاظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ فى عبادة الله، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه يرجع إليه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه،**

---

(١) سبق قريبا بلفظ: "الصدقة تطفئ الخطيئة".

(٢) رواه ابن أبى حاتم فى التفسير - ما خلفت وراءك لأهلك، وابن مردويه، وابن عساكر. عن الشعبى.

ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إنى أخاف الله رب العالمين، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»(١).

وقال بعض العلماء: إن صدقة الفرض المقدَّر الأحب فيها الإعلان؛ وصدقة الفرض المقدَّر هى الزكاة وصدقة الفطر. والصدقة غير المقدَّرة الأحب فيها الستر حتى لا يؤذى الفقير. ولقد أثر عن ابن عباس أنه كان يقول: (جعل الله صدقة السر فى التطوع تفضل علانيتها بسبعين ضعفًا، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفا).

إنه بلا شك صدقة الفريضة المقدرة تكون علنًا، وهى معلنة بحكم أن الإمام يجمعها بعماله، أو بمن ينوبهم عنه؛ وأما صدقة التطوع فإنه بلا شك واضح أن سترها أولى للبعد عن الرياء، ولعدم إيذاء الفقير؛ ولكن قد يكون فى إعلانها ما يتحقق به الأسوة، ويكون كدعوة عامة للإنفاق فى باب معين من أبواب غير المفروضة، فيكون فى الإعلان خير يفوق خير الستر، ولكن بشرط البعد عن الرياء؛ ولذلك كان السر فى غير الفريضة المقدرة التى يجمعها ولى الأمر، والأمر متروك لتقدير المنفق، لأنه يتصل بقلبه أخلا من الرياء أم شابته شوائبه؟ ولأنه يعرف حال الفقير الذى يعطيه، أويؤذيه الإعلان أم لا يؤذيه؟ ولأنه هو الأدرى بفائدة الإعلان وفائدة الستر فى أمر صدقته.

هذا هو الحكم العام فى الصدقات فى ماضيها عندما كان الناس يقومون بمراقبة نفوسهم، وإنه بالنسبة لزماننا وقد ساد النفاق، وسيطر الرياء، وعطلت الفرائض نرى أن الستر أولى حتى تهذب النفوس، وقد سئل رسول الله ﷺ: أى الصدقة أفضل؟ فقال ﷺ: «**سر إلى فقير أو جهد من مقل**»(٢).

---

(١) روى البخارى هذا الحديث فى ثلاثة مواضع، ورواه كاملا فى موضعين منهما ولفظه: الأذان - باب من جلس ينتظر الصلاة وفضل المساجد (٦٢٠). كما رواه الترمذى ومالك وأحمد.

(٢) جزء من حديث طويل رواه الإمام أحمد (٢١٢٥٧) فى مسنده.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ختم سبحانه الآية الكريمة بذلك الختام السامى؛ والمعنى فيه أن الله ذا الجلال والإكرام المعبود بحق، الذى انفرد بالألوهية خبير، أى عليم علمًا دقيقًا صادقًا بما تعملون أيها المؤمنون.

فهذه الجملة السامية تشعر المؤمن برقابة الله تعالى على أعماله، وعلى بواعث هذه الأعمال وعلى القلوب التى تنبعث منها النيات والمقاصد، عليم سبحانه بكل ذلك؛ فإذا أحس العبد برقابة الله القوى القادر بهذا العلم السامى نقَّى قلبه من كل شوائب الرياء فى صدقاته كلها، جهرها وسرها، خافيها وظاهرها. ثم هذه الجملة كما تربى فى نفس المؤمن المهابة من الله، والشعور بمراقبته تتضمن وعدًا ووعيدًا؛ لأنه إذا كان الله سبحانه وتعالى عليمًا علمًا دقيقًا بكل ما يعمل العبد من خير وشر، فإنه يكافئ العبد بما ينتج فعله، إن خيراً فالثواب والنعيم المقيم، وإن شرا فالعذاب الأليم.

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ كان المسلمون الأولون قلة فى أرض العرب، وكان المشركون يحيطون بهم، واليهود يجاورونهم، وكان يربطهم بالفريقين صلة قرابة، أو على الأقل صلة جوار.

فكان بعض المسلمين يمتنع عن مد يد المعونة بالمال ليهودى أو مشرك، مع شديد حاجته إليه، وكان ذلك الامتناع من قبل المعاملة بالمثل من جهة، ولأن فقراء المسلمين الأولى، ولحمل أولئك على الدخول فى الإسلام دين الوحدانية والعزة؛ فبين الله سبحانه وتعالى أن الصدقة واجب إذا وجد سببها، ووجدت الحاجة إلى العطاء من غير نظر إلى الموضع الذى يستحقها، فإنك تكرم إنسانيته، لا يهوديته، ولا نصرانيته ولا إشراكه.

ولقد روى ابن عباس عن النبى ﷺ أنه كان يأمر بألا يتصدق إلا على أهل الإسلام، فنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾. وقال ابن عباس أيضا: «كانوا (أى أصحاب رسول الله ﷺ) يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين، فسألوا رسول الله ﷺ فرخص لهم، فنزل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾.

وبهذين الخبرين يتبين أن هذه الآية الكريمة نزلت لبيان أن الصدقة تسوغ على غير المسلم، بل تجب إذا كان غير المسلم فى حاجة شديدة، ويخشى عليه إن لم يقدم له عطاء ينقذه.

وإن هذه الآية وما يليها من آيات تبين من يستحقون الصدقات ومن يؤثرون، فصدرها سبحانه وتعالى بالإشارة إلى أنه يسوغ إعطاء غير المسلمين، بل يجب، وبذلك التصدير يتبين موضع الإسلام من احترام الإنسانية، والإخاء الإنسانى العام؛ فإنه يدعو إلى التعاون والسلم العام، وما يحارب إلا لتقرير ذلك السلام؛ فقد قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً** ... ﴿٢٠٨﴾﴾ [**البقرة**] وقال تعالى: ﴿**وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ... ﴿٦١﴾﴾ [**الأنفال**].

ومعنى قوله تعالى: ﴿**لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ**﴾ أى أن الواجب المفروض عليك هو التبليغ والدعوة إلى ربك بالموعظة الحسنة؛ فليس عليك أن تهدى عاصيًا، ولا تدخل الإيمان فى قلب كافر، فلا تمنع صدقة لأجل الكفر، ولا تمنع عطية للحمل على الإيمان ﴿**وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ**﴾ فهو يهدى من يسير فى طريق الهداية، ويفتح قلبه لنور الإيمان، فيوفقه المولى العلى القدير العليم بما تخفى الصدور إلى الحق فيدركه بعد أن يأخذ فى الأسباب، ويسد عن قلبه مداخل الشيطان إليه.

وعليك أنت أيها الرسول أن تبلغ ما أنزل إليك، وأن تعامل الناس بما يليق بأخلاق أهل الإيمان، وباحترام الإنسانية وسد حاجة المعوزين، ولو كانوا من المخالفين الذين يدينون بغير دينك، وأن تعاملهم بالتى هى أحسن.

وبهذا المنهاج القويم أخذ السلف الصالح رضوان الله تبارك وتعالى عليهم مقتدين بالنبى ﷺ. وإنه يروى أنه فى الموادعة التى كانت بين النبى ﷺ والمشركين التى تمت فى صلح الحديبية أصابت قريشًا ضائقة، فأرسل النبى ﷺ إلى أبى سفيان بن حرب زعيم الشرك فى ذلك الإبان خمسمائة دينار يشترى بها قمحًا يفرج به ضائقتهم، ويسد حاجة المعوزين منهم، وهم ما زالوا مشركين(١).

---

(١) رواه أبو داود: الأدب - الحذر من الناس (٤٢١٩)، وأحمد (٢١٤٥٤).

ويروى أن عمر بن الخطاب وجد شيخا ذميا على باب المسجد يتكفف الناس، فأجرى عليه رزقًا مستمرا من بيت المال بعد أن قال له كلمته الرحيمة: «ما أنصفناك! أخذنا منك الجزية صغيرًا، وضيعناك كبيرًا».

ولقد أمر النبى ﷺ المسلمين أن يعطوا فقراء غير المسلمين من صدقة الفطر فقال عليه السلام: «**أغنوهم عن سؤال هذا اليوم**»(١).

وإنه إذا كانت الصدقة جائزة على غير المسلمين فأولى أن تكون جائزة على عصاة المسلمين. وقد أجمع على ذلك علماء المسلمين، ولم يشذ عن هذا الإجماع إلا ابن تيمية؛ فقد أفتى بعدم جواز ذلك لئلا يكون ذلك تشجيعا لعصيانهم؛ وهذا غير ما ورد فى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم والبخارى عن أبى هريرة فقد قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال رجل: لأتصدقن الليلة بصدقة فوضعها فى يد زانية فأصبح الناس يتحدثون: تصدق على زانية، فقال: اللهم لك الحمد على زانية، لأتصدقن الليلة بصدقة، فوضعها فى يد غنى، فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على غنى، قال: اللهم لك الحمد على غنى، لأتصدقن الليلة، فخرج فوضعها فى يد سارق فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على سارق فقال: اللهم لك الحمد على زانية وغنى وسارق فأتى، فقيل له: أما صدقتك فقد قبلت، وأما الزانية فلعلها أن تستعف بها عن زناها، ولعل الغنى أن يعتبر فينفق مما أعطاه الله، ولعل السارق أن يستعف بها عن سرقته**»(٢).

﴿**وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ**﴾ بيَّن سبحانه أن الصدقة تجوز لكل من يكون فى حاجة إليها، سواء أكان مؤمنًا أم كان كافرًا، وسواء أكان برا تقيا، أم كان فاجرا عصيا، فالعطاء لإنقاذ الإنسانية أيا كان صاحبها بعد أن بين ذلك بين سبحانه أن الصدقة كيفما كانت، وأيا كان موضعها هى خير لصاحبها؛ **وخيريتها ثابتة من ثلاث نواح**:

---

(١) أخرجه الدارقطنى عن أبى معشر، كما رواه ابن عدى فى الكامل وأعلَّه بأبى معشر، وراجع أيضا جمع الجوامع (٣٦٦٧).

(٢) رواه البخارى: الزكاة - إذا تصدق على غنى وهو لا يعلم (١٣٣٢)، ومسلم واللفظ له: الزكاة - ثبوت أجر المتصدق (١٦٩٨)].

الناحية الأولى: أنها تعود على نفسه بالتهذيب والتربية، وتقوية الإحساس بحق الجماعة عليها، والتأليف الروحي بينها وبين الناس؛ وهذا ما ذكره سبحانه بقوله: ﴿**وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ**﴾ أى أن كل شىء تنفقونه خير عائد على أنفسكم من حيث إنه يهذبها، ويقوى صلاتها الاجتماعية، ويرهف الوجدان، وفوق هذا وذاك فإن الإنفاق يدفع غوائل اجتماعية إن سلطت على الجماعة أذهبت وحدتها، وقوضت بناءها؛ فإن أولئك الفقراء إن لم يمكنوا من حقهم فى الحياة كانوا أداة تخريب وعنصر هدم، وكانوا كالشاة إذا جوعتها انتشرت ذئبًا، وافترست كل ما فى طريقها؛ وإن دفع هذه الكوارث هو حماية للنفس، ودفاع عن الوجود، وهذا المعنى يتضمنه قوله تعالى: ﴿**وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ**﴾ لأنه حماية لها.

فهذه هى الناحية الأولى التى تعود بالخير على المنفق، أيا كان من يعطيه، وأيا كان مقدار العطاء قليلا أو كثيرًا؛ ولذا قال: ﴿**مِنْ خَيْرٍ**﴾ فـ «من» الدالة على البعضية تنبئ عن أنه يجوز الإنفاق بالقليل والكثير، وفى كلٍّ خير يعود على النفس.

والناحية الثانية: ما أشار إليها سبحانه بقوله تعالى: ﴿**وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ**﴾ فهذه الجملة السامية تثبت الخيرية فى الصدقة، ولو كانت لعاص أو كافر؛ ذلك لأنه لا يقصد بالعطاء إرضاء العاصى أو الكافر إنما يقصد بالعطاء وجه الله تعالى ورضاه، ورضا الله سبحانه وحده غاية ترجى، وخير عظيم يطلب، ومقصد أسمى يتجه إليه المؤمن ويبتغيه طالب الهداية؛ فإن المؤمن العامر قلبه بالإيمان يحس بروحانية إن طلب رضا الله وابتغاه، أى طلبه بشدة.

وقوله تعالى: ﴿**ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ**﴾ لا يدل على طلب رضا الله فقط، بل يدل مع ذلك على طلب إقبال الله تعالى عليه؛ لأن كلمة ﴿**وَجْهِ اللَّهِ**﴾ تدل على الرغبة فى المواجهة والاتصال بالله تعالى، وإقباله على ربه، وإقبال ربه عليه؛ وتلك منزلة

روحية سامية حسبها جزاء للصدقة، ولو كان المعطَى كافرًا عاصيًا. ولقد قال بعض الصوفية فى معنى ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ أى يطلب المتصدق وجه الباقى، أى الناحية الباقية فى الدنيا والآخرة، وهى ناحية الله تعالى؛ ولذا يقولون إن لكل شئ ولكل عمل وجهين: وجهًا يتجه إلى هذا العالم وما فيه من أناسى، وهو الوجه الفانى، والوجه الثانى هو الوجه الدائم الباقى، وهو رضا الله تعالى.

هذه هى الناحية الثانية من الخيرية فى النفقة بالنسبة للمنفق من غير نظر إلى من أنفق عليه.

أما الناحية الثالثة: فهى التى بينها قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ فى هذه الآية الكريمة يبين سبحانه جزاء الصدقات، من حيث إنها تعود على المنفق مغباتها وثمراتها؛ والمعنى: أن ما تنفقون من خير فى هذه الدنيا يوفى إليكم جزاؤه فى هذه الدنيا، وفى الآخرة؛ أما فى الآخرة فبالنعيم المقيم الخالد، وهو أضعاف مضاعفة للصدقة، وجزاؤها فى الدنيا من حيث إنها تقوية للعناصر الضعيفة فى الأمة، فتنقلب إلى عناصر قوة تمدها بالخير والمعونة الصادقة، فتكون قوة عاملة منتجة تعود ثمرات أعمالها إلى الجميع ومنهم المنفقون، وإن الفقراء إن لم يعطوا كانوا أداة تخريب وهدم، والصدقة تجعلهم عنصر عمل وبناء، وخير ذلك للجميع.

وقد أشار سبحانه إلى أن ذلك الجزاء الدنيوى والأخروى هو للصدقة، وكأنه وفاء لها مولَّد منها؛ ولذا سماه بها، فقال: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أى يعود إليكم ذات الخير، فالجزاء لأنه ثمرة لازمة كأنه هو نفس الإنفاق، والنتيجة لأنها متولدة عن الإنفاق كانت كأنها هو. ثم ختم سبحانه الآية بقوله: ﴿وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ أى لا تنقصون أىَّ جزاء لعمل قدمتموه لا تبغون به إلا وجه الله تعالى، وهو العليم الحكيم القادر على كل شىء، وإلى الله المصير.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾

بيَّن سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة آفات الصدقات التى تذهب بخيرها بالنسبة لمعطيها من منٍّ وأذى ورياء وقصد إلى الخبيث دون الطيب ينفق منه، مع أن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا؛ ثم بيَّن أنه لا يصح أن يكون الكفر أو العصيان سببًا للمنع حيث يجب العطاء، ليُحْمَل المشرك على الإيمان، والعاصى على الطاعة. بعد هذا بيّن سبحانه موضع الصدقات والصفات التى تُوجب العطاء فى مستحقها؛ وقد قصد سبحانه وتعالى إلى بيان موضع الأولوية فيها؛ فقال تعالى:

﴿**لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ أى أن الصدقة تكون للفقراء الذين اتصفوا بهذه الصفات، وكانوا على تلك الأحوال، وهى خمس؛ فالجار والمجرور (للفقراء) خبر لمبتدأ محذوف يفهم من مطاوى الكلام الكريم السابق كله وثناياه؛ لأن الكلام السابق كله فى الإنفاق فى سبيل الله، والصدقات المأجورة المشكورة، وما يعكر إخلاصها، ويعوق جزاءها؛ فكان المحذوف المطوى فى القول مع قيام المشير إليه هو «الصدقة»، فهو محذوف فى حكم المذكور، ولكن لماذا آثر النص القرآنى الحذف مع أن الأصل الذكر ليتم النسق الكلامى؟ الجواب عن ذلك هو، أولاً الإيجاز المعجز الذى يكون فيه قصر اللفظ مع غزارة المعنى، وثانيًا هو تعليم العباد

من حيث إنه طوى لفظ الصدقـة، ولم يصرح فيه بالإسناد ووضعه بجـوار الفقراء؛ للإشـارة إلى أن الأدب يوجب على المعطى ألا يصـرح أن يعطيـه بأن هذا صدقـة، حتى لا يحس بمذلة الأخذ، فحذف القـرآن لفظ الصدقة عند الإسناد إلى الفقراء مع وجوده فى السابق من القول، ليخفيـه المعطى عند العطاء، مع احتسابه النية بإخفائه المقصد.

وقد ذكـر الله سبحـانه وتعالى للفقـراء الذين يستحـقون الصدقة أوصـافًا أو أحوالاً خمسة:

الوصف الأول منها: ما ذكـره سبحانه وتعـالى بقوله: ﴿**أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ أى مُنعوا من الكسب الحـلال الطيب الذى يطلبه صاحـبه مجـاهدًا فى طلبه. فالإحصار هنا المنع؛ وأصله من الحصر بمعنى التضييق كما قال تعالى: ﴿**وَاحْصُرُوهُمْ** ... ۝ ﴾ [**التوبة**] أى ضيِّقوا عـليهم. والإحصار هو التشديد فى التـضييق بالمنع من الحركـة والسير والعمل المنتج المثـمر؛ والمنع إما أن يكون لعـجز مطلق بمرض أو شيخوخـة أو صغر أو غير ذلك، وإما أن يكون المنع بسبـب ضيق مسالك الكسب، فإن كان قادرًا ولا يجد عملا مع طلبه، أو هو مشغول عن طلب الرزق لنفسه بما هو أجدى على الجماعـة وأنفع كالفدائيين الذين يتقدمـون الصفوف ليفتدوا جـماعتهم، ويعلوا كلمة الحـق، ويخفضوا كـلمة الباطل؛ فكل هذا إحـصار ومنع من اكتـساب الرزق.

وعبر فى الآية الكريمة بـ ﴿**أُحْصِرُوا**﴾ بالبناء للمجهول للإشارة إلى أن فقرهم لم يكن نتيجة امتناع عن العمل المجدى النافع، ولم يكن تخاذلا أو كسلا، أو تهاونا فى طلب الرزق الحلال، إنما كـان بمنع من غيـرهم، أو ليس لهم فيه إرادة حـرة قد آثروا فيـها الكسل علـى العمل، وإنما كـان المنع عجزا؛ أو لأنـهم بمقتضى الـتوزيع العادل والتنسيق الكامل فى الأعمال تحبسـهم الجماعة عن طلب الرزق لينصرفوا إلى عمل آخـر يجدى وينفع كـالجهاد فى سـبيل الله، فكانوا ممنوعـين عن طلب الرزق بحكم الواقع أو التكليف ولم يكونوا ممتنعين.

وكلمة ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ما موضعها فى الوصف المذكور؟ قال بعض العلماء: إن كلمة فى سبيل الله فى هذا المقام فيها إشارة إلى سبب الإحصار والمنع، وهو أنهم حبسوا أنفسهم للعمل فى سبيل الله، وانقطعوا عن المكاسب وطلب الرزق؛ لأنهم ربطوا أنفسهم فى سبيل الله بالجهاد فى سبيل إعلاء الحق، أو بالقيام بعمل عام، وقالوا إن هذه الآية نزلت فى أهل الصُّفَّة، وهم طائفة من المهاجرين الفقراء انقطعوا عن أموالهم، وأقاموا: بالمدينة لا مرتزق لهم فيها، ينتظرون غزوة يسيرون فيها، أو سرية يذهبون معها، فكان النبى ﷺ يأمر الصحابة ذوى اليسار باستضافتهم، فتستضيف كل أسرة واحدًا أو أكثر على حسب قدرتها، ومن بقى منهم من غير استضافة بسط النبى ﷺ مائدته لهم فى المسجد وأكلوا معه، وقد أقام لهم فى المسجد صُفَّة، أى ظلة يأوون إليها يتقون الحر والبرد.

وعلى هذا التخريج يكون الإحصار المذكور فى الآية ما يكون سببه الانصراف عن العمل بالاشتغال بعمل عام؛ فإن هذا يوجب على الجماعة التى يعملون فيها أن تجرى على العامل ما يكفيه وأهله بالمعروف؛ فإن لم تفعل الدولة ذلك، وهى التى تمثل الجماعة، تولى الآحاد والجماعات من الناس تهيئة أسباب الرزق لهم بما يكفيهم.

ولكن الأوصاف اللاحقة لهذا الوصف تومىء إلى أن الآية الكريمة يدخل فى عمومها كل فقير يتعفف عن السؤال، ولا يستطيع كسب عيشه لأى سبب من الأسباب المانعة أو المعوقة من العمل للرزق؛ بل إن قوله تعالى: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾، يجعل موضوع الآية الكريمة الفقراء العاجزين عن الكسب غير المتفرغين لخدمة عامة؛ لأن هؤلاء لا يتعرضون للسؤال ثم يمتنعون عنه، إنما الذى يتعرض له، ويعف عنه هو العاجز لغير ذلك السبب.

حينئذ يكون قوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أعم من الحال التى ذكرها أولئك المفسرون بأن يكون معناها، أى فى سبيل القيام بما يجب عليهم، سواء أكان ذلك الواجب رزقًا يطلبونه، ولكنهم يعجزون عن الحصول عليه، فهم فى سبيل هذا

الطلب فى سبيل الله، أم كان ذلك الواجب خدمة عامة حبسوا أنفسهم لها، أو القيام بأمر من الفروض الكفائية التى تخصصوا فى بعضها كطلب العلم، فإن هؤلاء على المجتمع فرادى وجماعات وعلى الدولة أن تسهل لهم الحياة، وتمكنهم من الاستمرار على طلب ما يطلبون.

والخلاصة أن الإحصار على هذا يشمل العجز المادى عن الكسب إما لمرض أو شيخوخة أو نحوهما، أو لطلب العمل مع عدم القدرة عليه، كما يشمل الذين حبسوا لتكليف عام، والقيام بفرض من فروض الكفاية.

وأما الوصف الثانى من أوصاف أولئك الفقراء الذين هم أولى الناس بالإنفاق عليهم أنهم ﴿**لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ**﴾. والضرب فى الأرض إما أن نقول إنه بمعنى الذهاب فى الأرض والسفر فيها طلبًا للرزق؛ إذ إن هذا المسافر يضرب الأرض برجله كما قال تعالى: ﴿**وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ** ... ﴿١٠١﴾﴾ [**النساء**] والمعنى على هذا أن هؤلاء لا يستطيعون السفر للاتِّجار وكسب الرزق.

إما أن يقال هذا، وإما أن يقال إن الضرب فى الأرض بمعنى حرثها وزرعها، فإن الحارث الزارع يضرب الأرض بفأسه ويشقها بمحراثه. والأولى فى نظرى أن تكون كلمة الضرب فى الأرض شاملة، وأن يكون النفى شاملا، أى أن هؤلاء الفقراء لا يستطيعون العمل فى الأرض بالزراعة، أو الذهاب فيها للاحتطاب والكسب، أو السفر للاتِّجار، والتنقل بين الأمصار سعيًا فى الرزق، لا يستطيع أولئك الفقراء شيئًا من هذا بسبب العجز المادى، أو لأنهم حبسوا لنفع عام، أو واجب كفائى على العموم، وقد تخصصوا هم لأدائه؛ ولقد قال ﷺ: «**لا تحل الصدقة لغنى، ولا لذى مرة سوى**»(١).

وأما الوصف الثالث من أوصاف أولئك الفقراء الذين هم جديرون بالعطاء أنهم ﴿**يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ**﴾، ومعناه أنهم متجملون لا يعرف حالهم

---

(١) رواه الترمذى: الزكاة - من لا تحل له الصدقة (٥٨٩)، وأبو داود: الزكاة - من يعطى من الصدقة وحد الغنى (١٣٩٢) وأحمد (٦٢٤٤)، وابن ماجه: الزكاة - من سأل عن ظهر غنى (١٨٢٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

من فقر مدقع إلا أهل الخبرة بالنفوس وذوو البصيرة النفاذة، والفراسة الصادقة، فهم لا يعرفون بفقرهم وحاجتهم وعوزهم، بل يحسبهم الجاهل، أى يظنهم أغنياء ويقوم ذلك بحسبانه وتقديره من غير أمارات ظاهرة وبينات قائمة، فالظن فى قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ﴾ ظن فى حسبان صاحبه فقط؛ و«الجاهل» إما أن يكون المراد به من لا يعرف حالهم، أو المراد به من لا ينفذ إلى حقائق الأمور، بل يأخذها بمظاهرها التى تبدو بادى النظر، وليس عنده إحساس مرهف يعاونه على إدراك حال هؤلاء الفقراء مما يحيط بهم لا من مجرد المظاهر، وهذا هو الحق، و«التعفف»: تَكلُّف العفة إما بالمبالغة فيها، والشدة فى النزاهة، أو بمحاولة الصبر عليها وتحمل المشقة فى سبيلها، أى أن الدواعى لتركها أقوى من البواعث على الاستمساك بها، ولكنه يستعين بالصبر، فيرجح العفة بعد تكلف المشقة واحتمالها. والآية الكريمة تقبل المعنيين، فإن الفقير العاجز عن الكسب عند تحمله ما يتحمل الحر الكريم فى سبيل عفته، والمحافظة عليها مبالغ فى العفة؛ أولا: لأن المبالغة فى العفة ليست بالقدر منها، إنما يكون بقدر ما يبذل فى سبيل المحافظة عليها، فالغنى لا يبالغ فى العفة إن امتنع عن أخذ أموال الناس، أو طلب المعونة منهم أو أكل مالهم بالباطل، أو سرقتهم أو اغتصابهم، ولكن العاجز عن الكسب يعد مبالغًا فى العفة إن امتنع عن طلب المعونة، وهو فى أمس الحاجة إليها . . وهذا الفقير يبالغ فى العفة ثانيًا: بتحمل المشقات والتصبر عليها وفى سبيلها.

وأما الوصف الرابع فهو ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ وهو أمر متصل بهم وبمن يراهم من ذوى الحس المرهف، والبصيرة النافذة؛ ولذا كان الخطاب فى معرفة سيماهم للنبى ﷺ وهو البصير النافذ البصيرة، ولمن كان مقتديًا به من كل مؤمن قوى الوجدان، ممن قال فيه النبى ﷺ: «**اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله**»(١). والسيما: العلامة، فما هى علامة الفقراء المتجملين الذين ستروا حاجتهم، والتى يعرفون بها؟ قال بعض العلماء: التواضع والخشوع؛ وقال بعضهم: الرثاثة ومظاهر

---

(١) الترمذى: تفسير القرآن - ومن سورة الحجر (٣٠٥٢).

الفقر؛ وقال بعضهم: الجوع وآثاره. والحق أن الله سبحانه وتعالى لم يبين لنا هذه العلامة التى يعرفون بها؛ ولكنه ذكر أنها تعرف لذى البصيرة؛ أى أن الشخص المدرك الفاهم يستطيع معرفتها بزكانة[١] نفسه، من لمحات الوجه، ومن تعرف مصادر الشخص وموارده، وما يحاول به ستر حاله؛ فإنه مهما يحاول الفقير التجمل والصبر فإنه لابد أن تبدو حاجته لذى البصيرة الكريم الذى لا يعلن عورات الناس؛ فالعلامة إذن هى الظاهرة التى تبدو للفاحص الذى يُطْمَأن إليه.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى بهذا أمرين: أحدهما ينسب للجاهل وهو الظن بأنهم من الأغنياء، إذ قال سبحانه: ﴿**يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ**﴾؛ هذا ظن الجاهل بالنفوس يحسبهم لفرط تجملهم بالصبر أغنياء، والأمر الثانى أن لهم سيما ومظهرًا لا يعرفه الجاهل، ويعرفه غيره بالنظر الفاحص العاطف، الكاشف الساتر.

وأما الوصف الخامس من أوصافهم أنهم ﴿**لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا**﴾ أى أنهم لا يسألون الناس، ولا يلحفون فى السؤال أو الطلب؛ ولقد قال الزمخشرى فى معنى «إلحافًا»: «الإلحاف الإلحاح، وهو اللزوم، وألا يفارقه إلا بشىء يعطاه من قولهم: (لحفنى من فضل لحافه) أى أعطانى من فضل ما عنده»، وقال الراغب الأصفهانى: «أصله من اللحاف، وهو ما يتغطى به» وعلى هذا يكون معنى الإلحاف: هو الملازمة فى الطلب وملاصقة من يطلب العطاء كملاصقة اللحاف لمن يستتر به، أو الإلحاف يأخذ به الفضل الذى يعطاه.

وقد اختلف العلماء فى النفى بهذه الجملة السامية: أهو نفى للإلحاف وليس نفيًا للسؤال؛ أى أنهم يسألون ولكن لا يلحفون فى السؤال؛ أم هو نفى للسؤال مطلقًا سواء أكان إلحافًا أم من غير إلحاف؟

قال بعض العلماء: إن النص الكريم يفيد بظاهره نفى الإلحاف لا نفى أصل السؤال؛ لأن النفى منصب عليه، إذ النفى إذا كان لأمر مقيد بوصف يكون موضعه ومناطه هو القيد، لا الأصل.

---

(١) الزكانة والزَّكَنُ بالتحريك التفرُّس والظن يقال زَكِنْتُه صالحا أى ظننته. [لسان العرب - زكن].

وقال بعض آخر: إن أولئك الفقراء لايسألون مطلقا لا بإلحاف ولا بغير إلحاف؛ وإنى أرى أن ذلك هو الراجح؛ لأنهم لو كانوا يسألون ما حسبهم الجاهل أغنياء من التعفف؛ ولو كانوا يسألون ماكانوا متعففين، ولو كانوا يسألون ما احتاج البصير ذو الوجدان إلى تعرف حالهم بالمظاهر والسمات؛ فإن طلبهم يغنى عن التعرف، إذ هم يعرفون أنفسهم بالسؤال؛ فسياق الآية يفيد أنهم لا يسألون مطلقا؛ ولكن لماذا كان النفى متجهًا إلى الإلحاف فى ظاهره، لا فى أصل السؤال؟ فنقول فى الجواب عن ذلك: إن النفى ذكر بهذه الصيغة، ليكون فيه إيماء إلى أن يوازيهم المعطى بغيرهم، وأن غيرهم يسأل الناس إلحافًا وهم لا يسألون؛ فالله سبحانه وتعالى نفى عنهم ما يقع من غيرهم، والنفى بهذه الصيغة فيه تعريض بالملحفين، وبه يبدو فضل المتعففين.

وفى الحقيقة إن نفى السؤال قد فهم فهما ضمنيا واضح الدلالة من الأوصاف السابقة؛ أما الوصف الأخير فهو ينفى عنهم ما يقع من غيرهم وهو الإلحاف؛ ويندر أن يكون سائل غير ملحف؛ وذلك لأن السؤال حيث وقع يكون التعفف قد زال، وإذا زال التعفف وجد الطلب والرغبة فى الأخذ، وعند ذلك يكون الإلحاف، حتما.

وإنه بلا شك يجب على المعطى أن يبتدئ فى عطائه بأولئك المتعففين الذين لايسألون؛ لأنهم الذين يستحقون، وهم المساكين كما قال النبى ﷺ: «**ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان، إنما المسكين المتعفف، اقرءوا إن شئتم ﴿لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾**»(١).

وإنه إذا أعطى هذا المتعفف يجب عليه أن يستر حاله، ولا يكشف أمره؛ ليكون ذلك عونًا له على تعففه وتحمله، وكل كشف له أذى، والأذى من آفات الصدقات.

---

(١) رواه البخارى: التفسير - لا يسألون الناس إلحافا (٤١٧٥)، ومسلم واللفظ له: الزكاة - المسكين الذى لا يجد غنى (١٧٢٣).

وإذا فضل شيء بعد كفاية المتعفف أعطى السائل؛ فإن مذلة السؤال توجب العطف؛ ولذا ورد «**للسائل حق ولو جاء على فرس**»(١) وإن على من يعطى سائلاً أن يتعرف حاله أهو يسأل متكثرا، وهو غنى أم هو فقير يسأل مستعينا؟ وليتهم نفسه وشحه قبل أن يتهم السائل؛ ولأن يخطئ فى إعطاء غنى عن جهالة خير من أن يخطئ بمنع فقير تظنُّنًا وتأثمًا؛ فإن فى الأول ثوابًا له بنيته، وفى الثانى إثما عليه بتغليب شح نفسه، وتركه فقيراً يتضور جوعًا، مسوغًا ذلك بالظن الآثم والتهمة.

وإن الإثم فى ترك السائلين يسألون إنما هو فى عدم تنظيم الإحسان، وإغناء الفقراء عن مذلة السؤال.

ولقد تكلم العلماء فى السؤال أهو سائغ من الفقير أم غير سائغ؛ فاتفقوا على أنه جائز عند الضرورة، وأنه لا يصح أن يسأل من عنده قوت يكفيه. ولقد روى الإمام أحمد بن حنبل أن رسول الله ﷺ قال: «**المسألة لا تحل إلا لثلاثة: لذى فقر مدقع، أو لذى غرم مفظع، أو لذى دم موجع**»(٢).

وإن السؤال فى غير هذه الأحوال غير سائغ، وهو داخل فى عموم النهى؛ ولقد قال النبى ﷺ: «**لأن يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره فيتصدق به ويستغنى به من الناس خيراً من أن يسأل رجلا أعطاه أو منعه**»(٣) فالسؤال حيث القدرة على العمل غير جائز.

ولقد قال النبى ﷺ: «**من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من جمر جهنم**» قالوا يا رسول الله: وما يغنيه؟ قال: «**ما يغديه أو يعشيه**»(٤).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) قال المصنف رحمه الله: الفقر المدقع: هو الذى يلصق صاحبه بالأرض. والغرم المفظع: الدين الشديد الكثير. وذو الدم الموجع: المتحمل لدية ثقيلة الأداء. اهـ. والحديث رواه أحمد فى مسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه (١١٨٣٠)، ورواه الترمذى وأبو داود وابن ماجه بأطول من هذا.

(٣) رواه البخارى: الزكاة - الاستعفاف عن المسألة (١٧٢٧)، ومسلم واللفظ له: الزكاة - كراهة المسألة (١٧٢٧).

(٤) جزء من حديث رواه أحمد: مسند الشاميين (١٦٩٦٧) عن سهل بن الحنظلية رضى الله عنه.

وإن كل سائل وعنده ما يغنيه يعد ملحفا، والإلحاف بكل صوره منهى عنه؛ ولذا قال ﷺ: «**من استعف أعفه الله، ومن استغنى أغناه الله، ومن يسأل الناس، وله عدل خمس أواق فقد سأل الناس إلحافًا**»[١].

وفى الجملة إن السؤال ذل وأمر قبيح لا يلجأ إليه المؤمن إلا عند الضرورة، وعلى من يرى سائلاً أن يعطيه إن كان المعطِى فى سعة، وإن قام فى نفسه أنه غنى لا يعطيه، ولكن عليه أن يحتاط لدينه كما يحتاط لصدقته؛ وخصوصًا فى عصرنا هذا الذى أهمل فيه حق الفقير، فلا يجرى عليه رزق دائم من الدولة، وليس للناس مروءات يغنون بها ذوى الحاجات، فكان حقا على الناس أن يعطوا هؤلاء المحرومين، كما قال تعالى: ﴿**وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ** ﴿١٩﴾﴾ [**الذاريات**].

﴿**وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ**﴾ هذه الجملة السامية ختمت بها الآية الكريمة، لثلاثة أمور:

أولها: تربية الشعور بمراقبة الله فى نفس المؤمن، فإنه إذا أحس أن الله سبحانه وتعالى مطلع دائمًا على كل ما يعمل من خير ومن شر، أحس بمراقبته سبحانه، ودام ذكره له، وشعوره بعظمته، فيكون فى مقام العبودية الرفيع، ويعبد الله كأنه يراه، كما قال ﷺ: «**اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[٢].

ثانيها: هو الإحساس برضا الله عنه عند فعل الخير؛ إذ إن الله يراه وهو يفعله، والإحساس بمرضاة الله مقام جليل، فرضوان الله أكبر من كل نعيم.

---

(١) أحمد: مسند الشاميين - حديث رجل من مزينة رضى الله عنه.
(٢) سبق تخريجه قريبا من رواية البخارى ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه.

ثالثها: العلم بالجزاء الأخروى؛ فإن الله إذا كان يعلم الخير من الأخيار، فإنه يثيبه عليه؛ لأن الله لايضيع أجر من أحسن عملاً.

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً﴾ هذا ختام آيات الإنفاق فى سبيل الله، وقد ختم سبحانه هذه الآيات كما بدأها؛ بدأها بالجزاء الأوفى لمن يتصدق وينفق فى سبيل الله، وختمها بالعاقبة الحسنى لمن يتحرى فى الصدقات مواضعها، أيا كان زمنها، وأيا كان حالها، فتستوى نفقة الليل ونفقة النهار، وصدقة السر وصدقة العلن، ما دامت الصدقات قد قصد بها مرضاة الله تعالى، وسلمت من آفاتها وهى المن والأذى والرياء.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ فيه بيان عموم الأزمان، فليس للصدقات وقت معلوم تقبل فيه، وآخر ترد وترفض، بل هى خير كلها، المقصود منها النفع العام، وهو متحقق فيها ليلاً ونهارًا، وغدوة وعشيا، وفى الضحى وفى الأصيل، فالعبرة بالفعل ونيته ونتيجته لا بزمانه ولا بوقته. وقوله تعالى: ﴿سِرًّا وَعَلانِيَةً﴾ فيه بيان عموم الأحوال، ما دامت الصدقة قد خلت مما يرنِّق صفو الإخلاص فيها، ولا يجعلها خالصة لوجه الله الكريم. ولقد قالوا إن تقديم الليل على النهار، والسر على العلانية فيه إيماء إلى أن الأولى الإخفاء والستر؛ وإن ذلك واضح؛ لأن فى الإخفاء والستر احتياطا للنفس وصونا لها عن كل ما يؤدى إلى الرياء؛ فإن الإعلان قد يؤدى إلى الحمد والثناء، وقد يستمرئ المعطى ذلك، ويستطيبه، ثم يطلبه ويقصده، وعند ذلك يدخل الرياء، إذ يجد الثغرة فى هذا الموضع فينفذ إلى النفس منها.

وهناك نوع من التعميم آخر فى الآية غير عموم الزمان والحال، وهو عموم الإنفاق؛ فقد قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم﴾ ولم يقل مثلاً يطعمون، فالإنفاق باب واسع يشمل الإطعام والكسوة، كما يشمل سداد الدين ودفع المغارم، وإعداد العدة فى سبيل الله تعالى، وإمداد المحاربين، وشراء ما يخصص للنفع العام، كشراء عثمان بئر رومة؛ فكل هذا من الإنفاق، وعمم مع الإنفاق الأموال التى تنفق، فكله خير وكله له جزاؤه.

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ هذا جزاء الذين ينفقون بإخلاص غير مقيدين بزمان ولا حال ولا مكان، ولا قدر من الإنفاق، ولا نوع منه. والجملة موقعها من الإعراب أنها خبر والمبتدأ الذين ينفقون، ودخلت الفاء فى الخبر، لأن الموصول فى معنى الشرط فتدخل الفاء فى خبره جوازًا، كما تدخل جواب الشرط.

والجزاء الذى ذكره سبحانه وتعالى ثلاثة أنواع:

أولها: الثواب يوم القيامة، وفى الدنيا، وذلك بالبركة، وبفضل التعاون الذى توجده الصدقة والإنفاق فى سبيل الله؛ ثم بالنعيم المقيم يوم القيامة. وقد سمى سبحانه وتعالى ذلك أجرًا، وسماه فى مواضع أخرى جزاء، مع أنه المعطى والمانع، والرازق والباسط، وذلك تفضل منه وكرم، ولنتعلم من الله عدم المنِّ فى العطاء.

والثانى من الجزاء: الأمن من الخوف؛ إذ قال سبحانه: ﴿وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ والصدقة تؤمن من الخوف فى الدنيا وفى الآخرة، فهى أمن من عذاب الله يوم القيامة؛ إذ إنها تكفر السيئات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ... ﴿١١٤﴾﴾ [هود] وكما قال ﷺ: «**الصدقة تطفئ الخطيئة**»[1]، أما الأمن من الخوف فى الدنيا؛ فلأن الإنفاق فى مواضع الإنفاق وقاية للمجتمع من غوائل الفقر، وعوامل التخريب، فلا يحصن مال الغنى إلا الإنفاق فى كل ما يعود على الفقير والمجتمع بالنفع، وإن الأمن من الخوف بالإنفاق واضح كل الوضوح فى الإنفاق لإمداد القوات المجاهدة فى الدفاع عن الأمة، كما هو واضح فى سد حاجات الفقير، وتهيئة فرص الحياة الرفيعة والعمل له.

---

(١) سبق قريبا.

والثالث من أنواع الجزاء: نفى الحزن، والبعد عن أسبابه. والحزن هم نفسى؛ ولذا عبر عنه بالفعل الذى يصور النفس والشخص فقال سبحانه: ﴿**وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ وهَم النفس يُدْفع بالاعتماد على الله، وطلب رضاه، واطمئنان الضمير، وبرد اليقين، وذلك كله يتحقق فى الدنيا بالصدقة، وزوال الحزن فى الآخرة بها أعظم وأكبر.

هذا والآية عامة تشمل كل من يسارع إلى الإنفاق فى وقت الحاجة إليه فى سر أو فى إعلان فى ليل أو فى نهار، غير قاصد بما أنفق إلا الخير يبتغيه، ومرضاة الله سبحانه وتعالى، لا يرائى ولا يمنُّ ولا يؤذى، ولقد ذكر العلماء أن الآية مع عمومها وجدت روايات فى سبب نزولها.

وهذه الروايات كلها لا تمنع عمومها، وإنها تبين فضل المنفق المخلص الذى يعم إنفاقه، ويجىء فى وقت الحاجة إليه، و «**الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه**»[١].

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم: الذكر والدعاء - فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر (٤٨٦٧) عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضى الله عنه.

﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي
يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ
مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ
مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ
فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمۡحَقُ
ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾

كانت الآيات الكريمات من قوله تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ** ... ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة] إلى هذه الآية الكريمة ﴿**الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ**﴾ كلها فى الصدقات؛ بينت مقاصدها، وبينت آفاتها، وبينت وعاءها، وما يكون الإنفاق منه، ثم بينت مواضع الصدقات، وما ينبغى الإنفاق فيه؛ وفي هذه الآية الكريمة يبين سبحانه قبح الربا؛ وإن المناسبة بين الإنفاق فى سبيل الله والربا، هى المناسبة بين الضدين؛ فإنه إذا تذكر الشخص أحد الضدين سبق إلى ذهنه ضده؛ وإن التضاد ثابت بين الإنفاق فى سبيل الجماعة والربا من عدة نواح: من ناحية النفس التى ينبعث منها الربا، والنفس التى تنبعث منها الصدقة؛ فنفس الربوى نفس محب لذاته يريد أن يحتاز كل شىء، ونفس المنفق فى سبيل الله نفس محب للناس ألوف، يؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة، ومن ناحية الحقيقة، فالربا أكل لأموال الناس بالباطل، والإنفاق بذل لمال النفس فى سبيل الغير ورفعة شأن الجماعة، وأكل أموال الناس نقيض لإعطاء الناس من حر ماله. ومن ناحية النتيجة فالربا يقطع التعاون بين الناس، أو يكون التعاون قائمًا على الإثم والعدوان، بينما الإنفاق فى

سبيل الله يقيم التعاون بين الجماعة والآحاد على أساس من الفضيلة، والبر والتقوى، ثم الربا يوجد قلق المرابى، والصدقة توجد اطمئنانًا وقرارًا.

فالربا والإنفاق فى سبيل الله نقيضان لا يجتمعان؛ ولذا جعلهما سبحانه وتعالى متقابلين تقابل الأضداد، فى قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الروم].

وقد ابتدأ سبحانه فى بيان حقيقة الربا وحكمه ببيان أثره فى نفس المرابى، ليعلم كل إنسان أن أثره شر فى نفس صاحبه، وأن أول من يناله الضرر هو المرابى نفسه، فهو بمقدار ما يكثر من مال يكثر من الهموم؛ ولذا قال سبحانه:

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ فهذه الجملة السامية تصوير لحال المرابى، واضطراب نفسه، وقلقه فى حياته؛ فالله سبحانه وتعالى يمثل المرابى فى قلقه المستمر وانزعاجه الدائم بحال الشخص الذى أصيب بجنون واضطراب، فهو يتخبط فى أموره وفى أحواله، وهو فى قلق مستمر. ومعنى التخبط الضرب فى غير استواء؛ ولذا قيل فى المثل: خبط عشواء. والمعنى على هذا أن الذين يأكلون الربا، ويتخذونه سبيلاً من سبل الكسب هم فى حال لا يقرون فيها ولا يطمئنون، فلا يقومون ولا يتحركون إلا وهمُّ المال قد استولى على نفوسهم، والخوف عليه من الضياع مع الحرص الشديد قد أوجد قلقا نفسيا دائما فى عامة أحوالهم، فهم كالمتخبط بسبب ما مسَّه الشيطان.

وإن تشبيه حال المرابين بحال المجنون الذى مسه الشيطان فيه إشارة إلى أن الشيطان قد يمسُّ نفس الإنسان فيصيبه. وقد أنكر ذلك الزمخشرى فى تفسيره، وخرج الآية الكريمة على غير المعنى الذى يفيد هذا فقال فى الكشَّاف فى هذا التعبير الكريم: وتخبط الشيطان من زعمات العرب، فورد على ما كانوا يعتقدون، والمس الجنون، ورجل ممسوس، وهذا أيضا من زعماتهم وأن الجنى يمسه فيختلط عقله،

وكذلك جُنَّ الرجل معناه ضربته الجن، ورأيتهم لهم فى الجنِّ قصص وأخبار وعجائب، وإنكار ذلك عندهم كإنكار المشاهدات.

وإن هذا الكلام يفيد بفحواه أن العرب يزعمون صلة بين الجنون والجن، وأنه من مسِّ شياطين الجنِّ، وأن القرآن ورد التعبير فيه على مثل ما كانوا يعبرون، وإن لم يكن ذلك حقيقة مقررة فى الإسلام عند الزمخشرى.

ولكن وردت أحاديث تفيد أن الشيطان يمس الإنسان، ويكون لمسِّه أثر فى فكره وعقله؛ فهل نترك ظواهر هذه الأحاديث مثل قوله ﷺ فيما رواه النسائى: **«اللهم إنى أعوذ بك من التردى والهدم والغرق والحريق، وأعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت، وأعوذ بك أن أموت فى سبيلك مدبراً، وأعوذ بك أن أموت لديغا»**(١).

وفى الحق إن البحوث الروحية التى يجريها العلماء الآن فى أوربا أثبتت أن الشياطين من الجن تخبط نفس الإنسان أو تمسها فيكون الجنون، وأن تلك العبارات التى كانت تجرى على ألسنة العرب حقائق ثابتة الآن، فلا يسوغ لنا أن نؤول القرآن الكريم بغير ظاهره، لإنكار لا دليل عليه.

وإن ظاهر الآية الكريمة يفيد أن هذا التمثيل هو لبيان حالهم فى الدنيا، فهو تصوير لاضطرابهم وقلقهم وتخبطهم فى حياتهم، وإن بدوا منظمين فهو تنظيم مادى، ومعه القلق النفسى، والانزعاج المستمر.

هذا هو ظاهر الآية، وبه قال بعض المفسرين، ولكن قال الزمخشرى ومعه الكثيرون: إن ذلك التخبط من أكلة الربا هو يوم القيامة، فقال فى الكشّاف: «المعنى أنهم يقومون يوم القيامة مخبلين كالمصروعين؛ تلك سيماهم يعرفون بها عند أهل الموقف، وقيل الذين يخرجون من الأجداث يوفضون إلا أكلة الربا، ينهضون

---

(١) رواه النسائى: الاستعاذة - الاستعاذة من التردى والهدم (٥٤٣٦) عن أبى اليسر، وأبو اليسر هو كعب بن عمرو بن عباد الأنصارى توفى ٥٥هـ. وعنه أيضا رواه أبو داود: الصلاة - الاستعاذة (١٣٢٨)، وأحمد: مسند المكيين (١٤٩٧٥)].

ويسقطون كالمصروعين؛ لأنهم أكلوا الربا فأرباه الله في بطونهم حتى أثقلهم فلا يقدرون على الإيفاض». ونرى من هذا أن الكشاف يقصر تلك الحال التى صورها التمثيل على الآخرة. وإنى أرى أنه يصور حالهم فى الدنيا والآخرة؛ فهم فى الدنيا فى قلق مستمر، وفى الآخرة تثقلهم سيئاتهم فيتخبطون، وكأنهم المصروعون.

ولا عجب فى أن تكون تلك حالهم فى الدنيا، فالربويون أكثر الناس تعرضًا للأزمات القلبية، كما يعرِّضون الجماعات للأزمات الاقتصادية؛ ولقد قرر الأطباء أن نسبة ضغط الدم، وتصلب الشرايين، والشلل والذبحة الصدرية عند الربويين أضعافها عند غيرهم، وما علمت ربويا مات إلا سبقه الشلل أو أخواته قبل أن يجيء إليه الموت ليستقبل نار جهنم؛ وذلك لأنهم ﴿**لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ**﴾ والله أصدق القائلين.

والربا معناه واضح يفهمه العامة وهو الزيادة فى الدَّين فى نظير الأجل، ولكن الذين يحاولون تطويع الشريعة لتكون أمةً ذليلة للاقتصاد الربوى عقَّدوا معنى الربا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا؛ ولذلك وجب أن نتكلم بإيجاز فى معنى هذه الكلمة.

أصل الربا من «ربا» يربو بمعنى «زاد»، أو «نما»، ثم أطلقت كلمة ربا على ذلك النوع من التداين، وهو أن يزيد المدين فى الدَّين فى نظير الزيادة فى الأجل، وقد صار إطلاق كلمة الربا على هذا المعنى حقيقة لغوية، أو هو عرف لغوى، وهذا هو الربا المذكور فى قوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً** ... (١٣٠)﴾ [**آل عمران**]، وقوله تعالى: ﴿**وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ** ... (٣٩)﴾ [**الروم**] وقوله ﷺ «**ألا إن ربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب**»(١) وهذا الربا يسمى ربا النسيئة؛ ولقد ورد فى

---

(١) جزء من حديث طويل رواه مسلم: الحج - حجة النبى ﷺ (٢١٣٧)، وأبو داود فى المناسك - صفة حجة النبى ﷺ (١٦٢٨)، وابن ماجه: المناسك (٣٠٦٥)، وأحمد: أول مسند البصريين (١٩٧٧٤).

الأثر (إنما الربا النسيئة)[1] ولم يشك أحد من الفقهاء فى أن هذا محرم، فتحريمه ثابت بالنص القرآنى، والحديث النبوى، والإجماع الفقهى؛ ولقد سئل الإمام أحمد عن الربا المحرم قطعًا، فقال رضى الله عنه: أن تزيد فى الدين فى نظير الزيادة فى الأجل.

وهناك نوع سمى الربا فى الشرع الإسلامى، لا فى الحقيقة اللغوية، وهو ربا العقود، الثابت بقوله ﷺ: «**الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح مِثلاً بمثلٍ، يدًا بيدٍ، فمن زاد أو استزاد فقد أربى، والآخذ والمعطى فيه سواء**»[2].

وهذا النوع من الربا لم يكن معروفًا فى الجاهلية، بل هو حقيقة إسلامية وردت فى مقام النهى؛ ولذا يقسم الجصاص الربا قسمين: ربا غير اصطلاحى، وهو ربا الجاهلية عرفته اللغة، ولا مجال للريب فيه؛ وربا اصطلاحى، وهو الربا الذى جاء الإسلام بتحريمه.

ومع وضوح معنى الربا الجاهلى ذلك الوضوح، وهو الذى جاء بتحريمه القرآن الكريم، وجدنا ناسًا يحاولون أن يشككوا الناس فى حقيقته، ليحلوا بذلك التشكيك ربا المصارف، **وقد سلكوا للتشكيك مسلكين:**

أولهما: أن قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً** ... ﴿١٣٠﴾﴾ [**آل عمران**] فهموا منه أو بالأحرى حاولوا أن يفهموا الناس أن الربا المحرم هو ما يكون بمضاعفة الدين، وما دون ذلك حلال، وأهملوا قوله تعالى: ﴿**وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ** ﴿٢٧٩﴾﴾ [**البقرة**] مع أن قوله تعالى: ﴿**أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً**﴾ حال من (الربا) وهو الزيادة، أى لا تأكلوا تلك الزيادة التى

---

(١) رواه البخارى: البيوع - بيع الدينار بالدينار نساء (٢٠٣٣)، ومسلم واللفظ له: المساقاة - بيع الطعام مثلا بمثل (٢٩٩١)].

(٢) رواه مسلم: المساقاة - الصرف وبيع الذهب بالورق نقدا (٢٩٧١)، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه. كما رواه أحمد والنسائى بمثل هذا.

تتضاعف عاما بعد عام، فالمضاعفة فى الزيادة لا فى أصل الدَّين، وفوق ذلك فالوصف جار مجرى الواقع من تكرار الزيادة حتى تصل إلى قدر الدَّين أو تزيد. ثم إنه من المقرر فقهًا أن النهى إذا ورد عاما ثم جاء نهى فى بعض أفراد هذا العام لا يكون ثمة تعارض حتى يخصص العام، بل أقصاه أن بعض أفراد العام ورد فيه النهى مرتين، فله فضل تأكيد، وكذلك الأمر، كما فى قوله تعالى: ﴿**حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ** ... ﴿٢٣٨﴾﴾ [**البقرة**].

المسلك الثانى من مسالك التشكيك أنهم قالوا: إن الربا المحرم هو ما قصد فيه المقترض أن يستدين للاستهلاك لا للاستغلال؛ فمن يقترض لشراء حاجات لازمة لنفسه أو أهله لا يصح أن يؤخذ منه زيادة نظير الأجل، ومن اقترض ليوسع تجارته، أو ليصلح زراعته، فهو مستغل بما اقترض، فالزيادة لا تكون ربا، بل هى مشاركة فى الربح.

ذلك قولهم بأفواههم، والله يقول الحق، وهو يهدى السبيل. **وإنه ينقض ذلك الزعم أمران**:

أحدهما: عموم النص القرآنى، فهو عام فى كل قرض قد جر زيادة فوق رأس المال، بدليل ﴿**وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ** ... ﴿٢٧٩﴾﴾ [**البقرة**].

وثانيهما: أن الذين كانوا يقرضون تجارًا، وكان ربا الجاهلية فى مكة التى اشتهرت بالتجارة، وكان تجارها ينقلون بضائع الروم إلى الفرس والفرس إلى الروم، وكانت اليمن والشام فيهما الجلب والعرض، كما قال تعالى: ﴿**لإِيلافِ قُرَيْشٍ** ﴿١﴾ **إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ** ﴿٢﴾﴾ [**قريش**] فشيوع الربا فى ذلك الجو التجارى يدل على أنه كان ثمة ربا استغلال، وأن ربا الاستهلاك والاستغلال كلاهما حرام.

ولا يصح أن يسمى ربا الاستغلال مشاركة فى الربح؛ لأن أصول المشاركة أن يكون ثمة شركة فى المغنم والمغرم معا، لا أن تكون الشركة فى المغنم دون المغرم.

هذه حقيقة الربا، وهى واضحة إلا عند الذين يتقبلون تشكيك المشككين وقد كان أهل الجاهلية يسوغون الربا مع إحساسهم الفطرى بأنه ليس أمرًا حسنا، وكانوا يسوغونه بعقد المشابهة بينه وبين البيع؛ ولذا قال الله تعالى فيهم وفى الرد عليهم:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ لقد عقد أولئك المشركون مقايسة بين البيع والربا، فقالوا: إن البيع يماثل الربا، فكما أن كسب البيع حلال، فكسب الربا حلال أيضا، ولا فرق بينهما فى نظرهم الكليل، كالذين قالوا مقالتهم فى ظل الإسلام، لا فى حكم الجاهلية. ولكن ما الوصف الجامع فى نظرهم بين البيع والربا؟ لعلهم نظروا إلى أن البيع قد يكون فيه بيع ما يساوى عشرة بخمسة عشر، فكان كسبه من تلك الزيادة، وهى حلال، فكذلك إعطاء مائة وأخذ عشرين ومائة حلال أيضا؛ وإلى أن من يقترض مالا ليتجر فيه يكسب منه وكسبه حلال بالبيع والشراء، فكذلك يكون الربا بالمشاركة فى هذا الكسب؛ وإلى أن البيع بثمن مؤجل أكثر من الثمن العاجل حلال، فكذلك تأجيل الدَّين فى نظير زيادة يكون حلالاً، وتكون الزيادة كسبًا طيبًا.

ذلك قولهم، وقد ردَّ الله سبحانه وتعالى قولهم بقوله: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ فهذه الجملة السامية رد من الله سبحانه وتعالى لقولهم، وعلى ذلك جمهور المفسرين، ويؤيده قوله تعالى: ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾.

ومرمى الرد الحكيم، أن طالب الحق من عند الله يجب عليه أن يتلقى حكم الله من غير محاولة تشكيك ولا اعتراض، والله قد حرم الربا وأحل البيع، فحق على كل امرئ يؤمن بالله أن يذعن لحكم الله، من غير تململ ولا اعتراض؛ وإنه نظام الله الذى ارتضاه، ولم يرتض سبحانه سواه، وإن هذا الكلام جدير بأن يخاطب الذين يحاولون التخلص من النهى عن الربا بالتفرقة بين الاستدانة للاستهلاك، والاستدانة للاستغلال.

وإن التفرقة بين البيع والربا واضحة؛ فإن البيع موضوعه عين مغلة أو منتفع بها مع بقاء عينها، أو يجرى عليها الغلاء والرخص، فكان من المعقول أن يجرى

فيها الكسب؛ أما الدَّين فموضوعه نقد لا يغل بنفسه، ولا ينتفع من عينه، ولا يجرى عليه الغلاء والرخص؛ لأنه ميزان لقيم الأشياء، فلا تتغير قيمته فى الأمة، وإن اختلفت قوة الشراء به، فالتفرقة بين البيع والربا ثابتة، ولكن الله سبحانه وتعالى يعلمنا الأدب فى تلقى أحكامه، فلا يصح أن نقايس أمام أمر الله ونهيه، لتناقض عموم أمر الله ونهيه، وكل تفكير فيه معارضة لأوامر الله أو لنهيه فهو رد على صاحبه.

ولقد كان مقتضى القياس الظاهرى أن يقاس الربا على البيع فيقال: إنما الربا مثل البيع، لا أن يقاس البيع على الربا فيقال: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ ولكن جاء سياق القول على ذلك النحو؛ للإشارة إلى أن أولئك يؤمنون بالربا أشد الإيمان، حتى إنهم ليجعلونه أصلاً فى التشبيه، فيشبهون البيع به، وكأن حِلَّه أصل، والبيع فرع. ولقد ذكر ابن كثير أنهم بقولهم هذا إنما يعترضون على الله فى تحريمه، فاقتضى ذلك أن يكون أصلاً، وكأن مرادهم أن يقولوا: إن البيع يشبه الربا تماما، فما دام الإسلام قد حكم بتحريم الربا، فكان ينبغى أن يحكم بتحريم البيع؛ ولذلك رد سبحانه وتعالى ذلك عليهم بقوله: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ وما كان لهم أن يعترضوا على أحكام ربهم، وهو العليم بكل أمورهم، الخبير بالصالح لهم، وينبغى أن يتلقوا أوامره ونواهيه بالإذعان الكامل؛ ولذا قال سبحانه وتعالى بعد ذلك: ﴿فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾.

الموعظة: اسم لما يأمر الله سبحانه وتعالى زاجرًا للناس إن خالفوا، مبينًا لهم أن المصلحة فى اتباعه، ضاربًا لهم الأمثال على أن فيه مصلحتهم فى معادهم ومعاشهم؛ والمعنى: من جاءه الأمر من الله سبحانه وتعالى أو النهى عنه فعليه اتباعه والتفكير فيه والاتعاظ به، بالبحث عن حكمته، لا أن يعترض عليه، ويجعل الشريعة تبعًا لهواه، ويخالف قول الرسول ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به**»(١) بأن يخضع الشريعة لأهواء الناس. وإن انتهى من جاءته موعظة

(١) سبق تخريجه. وقد صححه النووى فى آخر الأربعين النووية من رواية أبى هريرة عن النبى ﷺ.

الله فله ما سلف من أمره، أى لا يعاقبه سبحانه على ما سلف من أمره قبل وجود الأمر والنهى فالإسلام يَجُبُّ ما قبله، وقانونه لا يطبق على الماضى قبله، فما أكله المرابى من قبل تحريم الربا فلا عقاب عليه وهو ملك له، وليس له أى حق ربوى بعد التحريم، وليس كذلك من أكل الربا بعد التحريم فإنه لا تَجُبُّه توبة حتى يعطى المال لصاحبه؛ لأنه أكل لمال الناس بالباطل، وقد أكل بعد النص على التحريم، فإن لم يعرف له صاحب فإن عليه أن يتصدق به، ولعل الله سبحانه وتعالى يقبل توبته.

ولقد قال الله سبحانه: ﴿**وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ**﴾ أى أمر المرابى الذى رابى قبل التحريم إلى ربه، وهو العفو الغفور الرحيم؛ وفى هذا إشارة إلى أن ما يحرمه الشارع الإسلامى لا يكون مباحًا قبل التحريم بل يكون فى مرتبة العفو من الله سبحانه، وأمره إليه تعالت حكمته.

هذا شأن من انتهى، أما من عاد إلى المحرم بعد تحريمه، فقد بينه سبحانه بقوله: ﴿**وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾.

أى ومن عاد إلى حكم الجاهلية بعد إذ بين سبحانه حكم الإسلام فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. **وفى هذا التعبير الكريم إشارات بيانية إلى عدة معان**، منها:

أولا: تأكيد العقاب النازل بهم بالتعبير بـ «أولئك» التى تدل على البعيد، فإنهم بعيدون عن رحمة الله تعالى، والتعبير بالجملة الاسمية، وفيه فضل توكيد؛ وتأكيد القول بـ «هم»؛ والتعبير بـ «أصحاب»، فإنه يدل على ملازمة العقاب.

وثانيا: أنه سبحانه قال ﴿**فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ**﴾ ولم يقل فعقابهم، للإشارة إلى الملازمة بين الجريمة والعقاب، وإلى أن العقاب ثمرتها.

وثالثًا: الإشارة إلى أن المعاند لإرادة الله سبحانه وتعالى، والمستحل لما حرم الله تعالى إذ يحكم بالحل وقد حكم سبحانه بالتحريم كافر؛ ولذا حكم الله سبحانه بأنه خالد فى النار، ولا يخلد فى النار مؤمن.

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ المحق: النقص والذهاب، ومنه محاق القمر: أى انتقاصه فى الرؤية شيئًا فشيئًا حتى لا يُرى، فكأنه زال وذهب؛ والله سبحانه وتعالى يمحق الربا فى الدنيا والآخرة؛ ففى الآخرة عقاب أليم، وعذاب مقيم، وفى الدنيا ينقص ماله، كما قال ﷺ: «**إن الربا وإن كثر فعاقبته إلى قُلّ**»(١) أو تمحى من المال البركة، بحيث لا يمكن الانتفاع به، إما لهمٍّ دائم وقلق مستمر، وإما لمرض يصيبه فيكون المال الكثير مع عدم القدرة على الانتفاع به، كمن عنده طعام شهى ولكنه لا يستطيع أن يتناوله؛ لأنه يكون وبالاً عليه؛ وإما لمقت الناس له، فيفقد تعاونهم، وفى ذلك شر عليه، والربوى لا يمكن أن يخلو فى الدنيا من واحد من هذه الأمور، فكان الربا ممحوقًا دائما.

هذه نتيجة الربا، أما الصدقات فإن الله يربيها وينميها، إما بالكسب الوفير، وإما بفضل التعاون وبالهدوء والاطمئنان، ثم بالنعيم المقيم يوم القيامة؛ كما قال عليه الصلاة والسلام: «**إن صدقة أحدكم لتقع فى يد الله فيربيها كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله، حتى يجئ يوم القيامة، وإن اللقمة لعلى قدر أُحُد**»(٢).

والصدقة ليس المراد منها مجرد العطاء، بل تشمل كل نفع عام أو خاص لا يقصد به المؤمن المنفعة الشخصية التى تنبع من الهوى، وعلى ذلك يكون القرض الحسن الذى يقصد به التعاون على الاستغلال من الصدقة أيضا، وهو من خير الصدقات أيضا، وهو من خير الصدقات التى يربيها الله فى الدنيا والآخرة.

﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ هذا تهديد لمن استحلوا الربا، أو ارتكبوه، وقد ذُكروا فى ذلك الكلام العام للإشارة إلى أن المرابين يسترون الحق، ويعوقون عن الخير؛ إذ معنى «كفَّار» من كفر بمعنى سترَ وأخفى وجحد، فهى صيغة مبالغة لكافر؛

---

(١) رواه بهذا اللفظ أحمد: مسند المكثرين - مسند عبد الله بن مسعود (٣٨٢٢). ورواه ابن ماجه: التجارات - التغليظ فى الربا (٢٢٧٠) عن عبد الله بن مسعود مرفوعا إلى النبى ﷺ.

(٢) رواه بنحو من هذا البخارى: الزكاة - الصدقة من كسب طيب (١٣٢١)، ومسلم: الزكاة - قبول الزكاة (١٦٨٤) عن أبى هريرة وقد سبق.

ومعنى أثيم معـوق مبطئ عن الخير[١]؛ فالذين يرابون ويأكلون أموال الناس بالباطل يدخلون فى عمـوم قوله تعالى: ﴿كُلَّ كُفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ وقد جـمع سبحـانه وتعالى بين الوصـفين للإشـارة إلى أن إيمـان المرابين ناقص إن لم يسـتـحلوه، وهم كفـار إن استحلوه؛ وهم فى الحـالين آثمون معاقبون، ولكل حـال مقدارها من الإثم، فليس إثم من جحد بآيات الله كإثم من نقص إيمانه بتـرك العمل بها، فذلك كافر، وهذا فاسق، وفرق مـا بين الأمرين عظيم. ويصح أن نقول: إن الكافر هو الكفَّـار بنعمة الله والمتمادى فى كفرانها، بأن يتخذ ما أنعم الله به عليه من نعم كالمال، فى الإيذاء لا فى النفع، فيـأكل أموال الناس بالبـاطل بسبب ما أعطـاه الله من مال، وإن ذلك توجيه حسن، وهو فى هذا المقام مناسب.

ونفى حب الله تعالى بحرمان الآثمين من رضاه؛ إذ إن محبة الله تعالى شأن من شئـونه، ومن مظهـره الرضا، ومن حـرم من رضا الله فـقد حـرم خير الدنـيا والآخرة، وإلى الله عاقبة الأمور.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

(١) وأثيم على وزن فعيل لآثم؛ مبالغة فى الإثم.

بيَّن الله سبحانه وتعالى فى الآية السابقة الجرم العظيم الذى يقع فيه آكل الربا، والأثر الذى ينال نفوسهم وعقولهم من مغبة إثمهم، والعذاب الأليم الذى يرتقبهم يوم القيامة؛ ثم بيَّن سبحانه بعد ذلك جزاء الصالحين الذين لا يأكلون الربا، والذين يستبدلون بأكل أموال الناس بالباطل الزكاة يؤدونها، والفرائض يقيمونها، وحق الله والناس فى أنفسهم وأموالهم يأتون به على الوجه الأكمل؛ وبعد بيان تلك المرتبة العالية لأهل الإيمان، ذكر الطريق لتوبة أكلة الربا، والمسلك الذى يسلكونه ليرتفعوا إلى مرتبة الطاهرين، وعاقبة السوء إن استمروا فى غيِّهم يعمهون.

ابتدأ سبحانه ببيان الأطهار فى مالهم وأنفسهم فقال سبحانه:

﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ**﴾ ذكر سبحانه ذلك الصنف الفاضل الذى جعله الله تعالى من صفوة عباده، فوصفه بأربع صفات، هى: الإيمان .. والعمل الصالح .. وإقامة الصلاة .. وإيتاء الزكاة.

أما الوصف الأول فهو الإيمان، فهو نور القلب به يشرق وبه يهتدى، وإذا قوى الإيمان تطهرت النفس من كل أدران الهوى ومقاصد السوء. وذكر القرآن الإيمان فى أول أوصاف الأبرار لثلاثة أمور:

أولها: إن الإيمان بالله ورسوله إذا استغرق النفس، واستولى على القلب وُجد الإخلاص للناس وطلب الحق، فاتجه الإنسان بكل جوارحه إليه؛ والإخلاص هو النور الذى يهتدى به الإنسان ويحميه من كل حيرة.

وثانيها: إن الإيمان الذى هو الوصف الثابت للمؤمنين هو والربا نقيضان لا يجتمعان؛ فما من شخص يأكل الربا أو يبيحه إلا كان منشأ ذلك نقصًا فى إيمانه، واضطرابا فى يقينه؛ إذ يكون إيمانه بالمال أكثر من إيمانه بالله.

وثالثها: إن الإيمان يتضمن معنى الإذعان للحق، ومن ادعى الإيمان ولم يذعن للحق، فقد جافى حقيقته.

من أجل هذه المعانى صُدِّرت أوصاف الذين لا يأكلون الربا بوصف الإيمان.

والوصف الثانى من أوصاف الذين لا يأكلون الربا: هو العمل الصالح؛ والعمل الصالح هو كل عمل فيه خير للمجتمع الذى يعيش فيه المؤمن، يبتدئ فيه بالأسرة: الأقرب فالأقرب، ثم بالجيران: الأدنى فالأدنى، ثم بالعشيرة كلها، ثم بقومه، ثم بأمته.

وإن اقتران الإيمان دائما بالعمل الصالح يدل على أن الإسلام يدعو إلى العمل الإيجابى للخير، فليس الإيمان فى الإسلام مجرد نزاهة روحية، وتعبد فى الصوامع، إنما الإيمان مظهره عمل إيجابى فيه نفع للناس؛ فالإسلام يدعو إلى العمل الإيجابى، لا مجرد التقديس السلبى.

وإذا كان العمل الصالح هو النفع العام والنفع الخاص، فإنه يفترق عن الصلاة والزكاة، من حيث إن هذه هى الفرائض الوقتية المنظمة للعلاقات بين العبد وربه، وبين العبد والناس؛ أما العمل الصالح فهو الحال الدائمة للمؤمن التى لا تتقيد بزمان ولا مكان، ولا حال؛ فكما أن الإيمان حال دائمة، فالعمل الصالح أى النفع الدائم المستمر للإنسان هو الذى ينبغى أن يكون حالا دائمة مستمرة للمؤمن.

وذكر هذا الوصف فى مقابل أكل الربا فيه إشارة إلى التقابل بين الشر والخير، والإثم والبر؛ فإن الإثم إيذاء للناس ومن ذلك الربا، وأخلاق المؤمن العمل النافع الدائم للناس، وهو الخير وهو البر.

والوصف الثالث: إقامة الصلاة، أى الإتيان بها مقومة غير معوجة بحيث يستذكر فيها المصلى ربه، ولا يسهو فيها عن ذكره سبحانه، وما ذكرت الصلاة فى مقام المدح للمصلين إلا ذكرت بالإقامة؛ لأن إقامتها هى التى تهذب النفس، وتبعدها عن الفواحش والمنكرات، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ** ... (٤٥)﴾ [**العنكبوت**].

وإنَّ ذكر الصلاة بجوار العمل الصالح فيه إشارة إلى أن الإسلام يلتقى فيه وصفان جليلان: التهذيب الروحى، والنزاهة النفسية التى تكون بالصلاة والمداومة

على إقامتها، والعمل النافع المستمر وجلب الخير للناس، ففيه نزاهة الروح والنفع العام.

والوصف الرابع من أوصاف المؤمنين إيتاء الزكاة؛ والزكاة هى الفريضة الاجتماعية التى فرضها الله سبحانه وتعالى، وبها يأخذ ولى الأمر من مال الغنى ما يسد به حاجة الفقير؛ فهى قدر معلوم قدره الشارع الحكيم، بحيث يأخذه من مال الغنى قسرًا أو اختيارًا، وذكر الله سبحانه وتعالى فى هذه الجملة أولئك الذين يؤتون الزكاة طواعية واختيارًا، فهم يعطونها محتسبين النية معتقدين أن الزكاة مغنم لهم ومطهرة لأموالهم، وليست مغرمًا لهم، ولا منقصة لأموالهم. وقد أشار النبى ﷺ إلى أن المسلمين بخير ما حسبوا الزكاة مغنمًا، ولم يحسبوها مغرمًا، ولقد قال تعالى: ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا** ... (١٠٣) ﴾ [**التوبة**].

وذكرت الزكاة فى هذا المقام؛ لأنها مقابلة للربا كما بينا فى الآية السابقة، وقد تلونا فيما سبق قول الله تعالى: ﴿ **وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ** (٣٩) ﴾ [**الروم**].

﴿ **لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ هذا جزاء الذين يؤمنون، ويعملون العمل الصالح فى سبيل النفع، ويطهرون نفوسهم بالصلاة، ويطهرون أموالهم بالزكاة، وقد ذكر سبحانه وتعالى لهم أنواعا ثلاثة من الجزاء.

أولها: الأجر، وهو عوض ما قاموا به من خير، واعتبر إنعامه عليهم بأضعاف ما صنعوا أجرًا وعوضًا وهو المنعم المتفضل، حثا على فعل الخير، وتعليم الناس الشكر، ومقابلة الخير بالخير.

والثانى من أنواع الجزاء: الأمن وعدم الخوف، فلا مزعج يزعج فاعل الخير، إذ إنه بالعمل للنفع العام، وتطهير النفس، وإعطاء الفقير حقه المعلوم قد وقى نفسه ووقى مجتمعه من ذرائع الفتن ونوازع الشر؛ هذا فى الدنيا؛ أما فى الآخرة، فالأمن من عذاب الله تعالى.

والجزاء الثالث: أنهم لا يحزنون؛ وذلك لأنهم باستقامة قلوبهم، وامتلائها بالإيمان وتهذيب أرواحهم وأدائهم ما عليهم من واجب فى حق أنفسهم ومجتمعهم ـ قد حصنوا أنفسهم من أسباب الهم والغم، فلا يأسون على ما يفوتهم، ولا يجزعون لما يصيبهم؛ لأن نفوسهم روحانية تعلو عن متنازع الأهواء التى تملأ النفس بأسباب الهم والغمِّ.

وإن ذكر هذه الأحوال فى مقام مقابل لحال الربويين الذين لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المسِّ ـ له مغزاه ومعناه؛ إذ فيه بيان للنعيم فى مقابل الجحيم، وللراحة والاطمئنان، فى مقابل الجزع والاضطراب، وكل امرئ بما كسب رهين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فى هذه الآية الكريمة يبين سبحانه وتعالى طريق التوبة من الربا، والخروج من مآثمه، ويحث على هذه التوبة بإثبات أنها من مقتضيات الإيمان؛ وأول طرق التوبة لمن خوطبوا بالقرآن أول نزوله، أن يتركوا ما بقى من الربا؛ فما كسبوه قبل الخطاب بالتحريم فإنه فى مرتبة العفو، أما ما يجىء من بعد ذلك ولو كان بعقد سابق فإنه حرام؛ ولذا خاطبهم سبحانه وتعالى بقوله: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾** وفى ذلك نهى عن أخذ ما استحق بالعقود السابقة؛ **وقد تأكد النهى بثلاثة مؤكدات:**

أولها: تصدير النداء **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾** فإن ذلك التصدير لبيان أن ترك الربا من شأن الإيمان ومقتضياته، فليس من خلق أهل الإيمان بالله ورسوله وكتابه وما اشتمل عليه من أخلاق سامية ومبادئ اجتماعية عالية، أن يأكلوا الربا وأن يتعاملوا به؛ لأنه ضد تهذيب النفس وسمو الروح؛ إذ هو شَرَهٌ مادى وكسب بغير الطريق الطبعى، ولأنه يقوض بنيان الاجتماع، ويجعل كل واحد من آحاده ينظر إلى الآخر نظر القنيصة التى يقتنصها والفريسة التى يفترسها، فتنقطع الأوصال، وينتثر العقد الجامع.

ثانيها: قوله تعالى: ﴿**اتَّقُوا اللَّهَ**﴾ فهذا النص يفيد أن من مقتضيات التقوى اجتناب الربا؛ لأن التقوى معناها أن يجعل المؤمن بينه وبين الآثام وقاية، وأن يجعل بينه وبين غضب الله تعالى وقاية، وأن يجعل بينه وبين إيذاء الناس وقاية؛ والربا ضد هذا كله؛ لأنه يعرض المرء للمآثم؛ فإنه بمجرد أن يعجز المدين عن الوفاء ـ وذلك كثير ـ تتوالى المطالبة المصحوبة بالأذى والترصد المستمر حتى تصبح عيشة المدين ضنكًا، وقد يبخع نفسه تخلصًا من تلك المآثم المتوالية المستمرة.

ثالثها: أنه سبحانه جعل ترك الربا شرطا للاستمرار على الإيمان، فقال فى ختام الآية الكريمة: ﴿**إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ أى إن كنتم مستمرين على حكم الإيمان، مذعنين لأحكام الديان.

وهنا بحثان أحدهما لغوى، والآخر موضوعى:

أما البحث اللغوى فهو فى معنى كلمة «ذَرُوا» فإن معناها اتركوا. وقد قال النحويون: إن ماضى «ذروا» ومصدرها قد أماتهما العرب كالشأن فى دع ويدع، وقد قال فى ذلك الراغب الأصفهانى: «يقال فى ذلك فلان يذر الشىء أى يقذفه لقلة اعتداده به، ولم يستعمل ماضيه» وهذا الكلام يدل على أن الماضى قد مات، وعلى أن «يذر» لا تستعمل فى مطلق الترك، بل تطلق على الترك الذى يصحبه عدم اعتداد بالمتروك، فكأن معنى ﴿**وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا**﴾ اتركوه غير معتدين به، بل اتركوه مهملين له؛ لأنه أذى فى ذاته.

والزمخشرى يقرر ذلك فى أساس البلاغة ولكنه يقرر أن المصدر هو الذى مات، وليس الماضى؛ ولذا قال فى أساس البلاغة: (ذره واحذره، والعرب أماتت المصدر منه، فيقولون: ذر تركًا، وإذا قيل لهم ذروه قالوا وذرناه).

وهذا معنى جديد أتى به الإمام الزمخشرى فى معنى ذره؛ لأنه يدل على ترك الشىء مع الحذر منه، فكأن معنى ﴿**وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾: اتركوه غير معتدين به حذرين من أن تنالوا منه شيئًا فإنه إثم كله.

هذا هو البحث اللغوى الذى يظهر لنا بعض ما فى النص الكريم من دقة وإحكام وإشارات بينة محكمة.

أما البحث الموضوعى، فهو ﴿**مَا بَقِيَ**﴾ الذى أوجب الله تركه فى قوله: ﴿**وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا**﴾ ما المراد منه: أهو الجزء الباقى من الربا الواجب التنفيذ بمقتضى العقد؟ وهل الجزء الذى تسلموه من قبل مباح أو فى موضع العفو؟ قال العلماء ذلك؛ أى أن الآية خاصة بالذين كانوا يتعاملون بالربا، ولهم عقود ربوية قد قبضوا بعضها، فإن لهم ما سلف؛ أما الباقى فليس لهم أن يقبضوه، وإن كان بعقود ربوية عقدت قبل التحريم. ويزكى هذا المعنى قوله تعالى من قبل: ﴿**فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ** ... ﴿٢٧٥﴾﴾ [**البقرة**].

ولقد روى فى سبب نزول هذه الآية أنه كان بين قوم من ثقيف، وبنى المغيرة من بنى مخزوم عقود ربًا فى الجاهلية، فلما جاء الإسلام وحرم الربا ودخلت ثقيف فى الإسلام طالبوا بنى مخروم بالربا الذى تعاقدوا عليه من قبل، فقال أولئك؛ لا نؤدى الربا فى الإسلام بكسب الإسلام، فكتب فى ذلك عتاب بن أسيد نائب مكة إلى رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية(١).

وترى من هذا أن ما أخذ قبل التحريم فأمره إلى الله تعالى، وما كان بعد التحريم لا يحل، ولو كان العقد قبله؛ ولذلك كانت الأحكام الإسلامية واجبة التطبيق على العقود التى تعقد قبل الإسلام إذا كانت مستمرة التنفيذ بعده وأحكامها تشتمل على أمر منهى عنه فى الإسلام.

هذا حكم الله، ومن امتنع عن تنفيذه فإنه يحاد الله ورسوله؛ ولذا قال تعالى بعد ذلك:

---

(١) راجع: أسباب النزول - الواحدى - سورة البقرة من الآية (٢٧٨) إلى الآية (٢٧٩). وراجع تفسير الطبرى، والدر المنثور للسيوطى ج١ ص٣٦٦.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: أى فإن لم تفعلوا وأخذتم ما بقى من الربا فأنتم معاندون لله ولرسوله، وأنتم فى حرب معهما، ومن حارب الله فإن الله غالبه، وهو مهزوم لامحالة، وإن الله سيعاقبه على عظيم ما ارتكب.

وهنا عدة كلمات فيها إشارات بيانية تبين عظيم ما يتعرض له من يعاند الله ورسوله، ويخالف أحكامه التى يقررها الله تعالى لتنظيم المجتمع الإسلامى، وتبين أيضًا عظيم عمل من يحترم أحكام الله تعالى:

أول هذه الكلمات: إن الله تعالى يقول: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ أى لم تتركوا ما بقى من الربا؛ فعبر عن الترك هنا بالفعل، فلم يقل: فإن لم تتركوا، بل قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ وذلك لأن الذين يتركون ما بقى من عقود عقدوها، يقاومون رغباتهم ويقاومون أهواءهم وشهواتهم، فهذه المقاومة، وذلك الكف فعل نفسى جليل يحرِّضهم سبحانه وتعالى عليه، ويدعوهم إليه، فإن فعلوه كان لهم الثواب المقيم والرضا الكريم، وإن لم يفعلوا فقد أعلنوا الحرب على الله ورسوله.

والكلمة الثانية: أن الله سبحانه وتعالى يقول للذين لا يتركون ما حرم الله من ربا ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ﴾ أى فاعلموا بأنكم فى حرب؛ وذلك لأن أذن هنا بمعنى علم، وفى قراءة «فآذنوا» بحرب. ويقول الزمخشرى فى هذه القراءة إن معناها «فأعلموا بها غيركم» وعلى ذلك يكون آذنوا بالحرب معناها الإعلام بها، وأما أذنوا بحرب فمعناها العلم بها؛ ولكن الراغب الأصفهانى يقول: «إن الإذن بالحرب والإيذان بها بمعنى واحد».

ولماذا عبر عن معاندتهم لله وحربهم لشريعته بقوله: ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ﴾ ولم يقل فأنتم فى حرب؟ للإشارة إلى أن الجهالة توهمهم أنهم ليسوا بخارجين عن إرادة الله تعالى إن طالبوا بأحكام العقود التى عقدوها من قبل، فالله سبحانه وتعالى أعلمهم بأنهم فى أخطر مخالفة وأشد معاندة.

والكلمة الثالثة: إنه تعالى قال فى الحرب: ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ولم يقل فى حرب الله ورسوله، وقد بين السر فى ذلك الزمخشرى فى الكشاف بقوله: «كان هذا أبلغ؛ لأن المعنى فأذنوا بنوع من الحرب عظيم من عند الله

ورسوله» أى أن فى هذا التعبير الكريم تهويلا لشأن هذه الحرب من ناحيتين: ناحية التنكير، فهى حرب هائلة لم يدركوا كنهها، والناحية الثانية ناحية التصريح بإضافتها إلى الله ورسوله، فهى حرب معهما، والنتيجة فى هذا مؤكدة محتومة.

وهذه الحرب أهى مجازية، أم حقيقية؟ يبدو بادى الرأى أنها مجازية من حيث إن كل معاندة لله ولرسوله عن عمد وبسبق إصرار، فيها معاندة لأحكامه سبحانه، ومصادمة لأوامره ونواهيه، وكل مصادمة لأوامر الله تعالى ونواهيه نوع من الحرب والمحادة له سبحانه.

ولكن بعض المفسرين يقول: إن ذلك كان إيذانًا فعلاً بالحرب؛ كما حارب أبو بكر أهل الردة عندما منعوا الزكاة، وزكوا ذلك بأن النبى ﷺ عندما بلغه صنيع ثقيف من مطالبتهم بربا كان ثمرة لعقود عقدوها من قبل، قد آذنهم بحرب، وكتب إلى عتاب بن أسيد والى مكة من قبله يقول له: «**إن رضوا وإلا فآذنهم بحرب**»[(١)] أى أنه ﷺ اعتبرهم مرتدين يقاتلون باستمرارهم على أكل الربا؛ وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام عندما صالح ثقيفًا بعد حرب كان مما نص عليه فى هذا الصلح أن ما لهم من ربا على الناس، وما كان للناس عليهم من ربا موضوع.

وما أجدر بعض الذين يتكلمون فى هذا اليوم مستحلين الفوائد على أنها ليست من الربا أن يعتبروا ببنى ثقيف وبنى مخروم!! فإن أولئك كانوا يأخذون من الثقفيين ليتجروا، وليربوا، فوضع الله الربا الجاهلى كله، واعتبر المطالبة بما بقى حربا لله ولرسوله .. ألا فليمتنع هؤلاء عن قولهم حتى لا يخاطبوا بقول الله: ﴿**فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾.

﴿**وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ**﴾ أى أن من يقع فى الربا وأراد أن يتوب إلى الله ويرجع إليه، فليعلم أنه ليس له أن يأخذ بعد تحريم الربا إلا رأس المال. وإن الاقتصار على رأس المال لا يكون فيه ظلم للدائن؛ لأنه

(١) رواه الطبرى فى جامع البيان: ج٣/ ٧١، والسيوطى فى الدر المنثور ج١/ ٣٦٦.

وصل إليه مثل ما أعطى وليس له وراء ذلك حق، ولا ظلم فيه على المدين؛ لأن أداء الحق لا ظلم فيه، وإن امتنع عن إعطاء رأس المال كان ظالمًا؛ ما دام يمتنع عن قدرة؛ لأن النبى ﷺ قال: «**مطل الغنى ظلم**»(١).

وفى النص الكريم إشارة إلى أمرين:

أحدهما: أن من يعطى الربا ليس له إلا رأس المال، وأن الزيادة أكل لمال الناس بالباطل أيا كانت هذه الزيادة قليلة كانت أو كثيرة، فلا عبرة بالمقدار مهما يكن ضئيلا، ولا عبرة بالدين أيا كان نوعه. والتعبير عن أصل الدين برأس المال نص فى أن الربا يكون إذا كان الدين قد اتخذ أصلا للاتجار والكسب؛ أى أن الدين الذى يؤخذ للاستغلال الربا فيه حرام، وبالأولى الدين الذى يؤخذ للاستهلاك واختيار ذلك اللفظ بالذات يومئ إلى أن الربا كان يتخذ سبيلا للاستغلال. والتعبير بـ «رأس» أيضًا يحسم الخلاف؛ لأنه لو عبر بالدين فربما يدعى الربوى أن الدين هو الأصل والزيادة معًا.

ثانيهما: الذى يدل عليه النص الكريم: أن طريق التوبة دائمًا أن ينقى التائب ماله من كل مال خبيث، فكل زيادة عليه ترد إلى أصحابها، وإلا يتصدق بها.

﴿**وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ**﴾ أى إن كان المدين غير قادر على الأداء لعسرة ملازمة له كملازمة الصاحب لصاحبه فانتظار إلى وقت يتيسر فيه، فلا يزيد عليه ليرهقه، فيعجز عن الوفاء، بل ينتظر حتى يجىء الوقت الذى يستطيع الأداء فيه.

وهنا بعض عبارات فيها إشارات بيانية جديرة بالتنبيه:

أولها: التعبير بذو عسرة فى قوله ﴿**وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ**﴾ أى كان صاحب عسرة وضيق شديد يلازمه كملازمة الصاحب، لأن كلمة ذو تدل على المصاحبة؛

---

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى: الاستقراض - مطل الغنى ظلم (٢٢٢٥)، ومسلم: المساقاة - تحريم مطل الغنى (٢٩٢٤) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

وفرض أن بعض المدينين ذو عسرة يدل على أن مدينين آخرين يستطيعون الوفاء، ومنهم الذين يقترضون للاستغلال.

ثانيها: قوله تعالى: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ معناها: فالحكم أو الأمر انتظار إلى ميسرة، وهناك قراءة أخرى، وهى (فَنَاظِرُهُ إِلَى مَيْسَرَةٍ) أى فمنتظره إلى ميسرة.

ثالثها: قوله ﴿إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ فالميسرة بفتح السين وضمها كمَقبَرة ومقبُرة: هى حال اليسر، فليست الميسرة هى مجرد اليسار، بل هى اليسار المستقر الثابت الذى يتمكن فيه المدين من وفاء دينه كله مقدما القوى على الضعيف، أى أن الدائن ينتظر المدين حتى يقف من عثرة العسرة ويستقيم أمره، لا أن يترقب أى مال حتى يأخذه كما يأخذ الصائد قنيصته.

﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى أنه إذا ثبت العجز وتقرر، وأصبح احتمال اليسار غير قريب فتصدقوا بالدين على صاحبه وأبرئوه منه؛ فإن ذلك يكون خيرًا لكم فى الدنيا والآخرة؛ أما فى الدنيا فلأنكم إذا فقدتم الأمل فى الاستيفاء فكل جهد فى سبيله ضائع، وكل تعقب فى سبيله يورث الإحن من غير جدوى؛ ويثير الأحقاد المستمرة من غير فائدة، فيكون من الخير العفو والإبراء، والإبقاء على الأخوة، والعلاقات الاجتماعية؛ وأما فى الآخرة فالنعيم المقيم.

وهذا الجزء من النص الكريم فيه إشعار للدائنين بأنه إذا ذهب دينهم بالتّوى[1] وعجز المدين عن الوفاء فلا تذهب أنفسهم حسرات، وليعلموا أن التصدق أجدى إن كانوا يعلمون. وذكر سبحانه هذه الجملة السامية: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لأن غمرة الألم لفقد الدين قد تنسيهم ما ينبغى فى مثل هذه الحال فنبههم إلى ما ينبغى ليكونوا فى حال وعى نفسى دائم، ولا ينسيهم المال الحال والمآل.

(١) التَّوَى: الهلاك والخسارة - الوسيط.

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ ترقبوا وخافوا يومًا يردكم الله سبحانه وتعالى إليه فلا تملكون من أموركم شيئا فيه؛ فإذا ملكتم المال فى الدنيـا، ففى هذا اليوم لا تملكون شيـئا، وإذا ملكتم المنح والمنع اليوم ففى اليوم الآخر لا تملكون شيئا. وفى هذا اليوم ﴿ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ أى جزاء ما كسـبت إن خيراً فخير، وإن شـرا فشر، وكأن ما توفاه عـين ما كسبت للمماثلة بـين الجزاء والعمل ﴿ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ أى لا ينقصون شيـئا من ثواب ما عملوا، ولا يعاقبون على ما لم يعملوا.

وتمت آيات الربا بهذه الآية ترغيبًا وترهيبًا، ترغيبا فى القرض الحسن، وترهيبًا من أكل الربا.

ومن الحق علينا أن نختـم الكلام فى هذه الآيات بكلمات ننقلها عن الأسـتاذ الإمام محمد عبده، لقد قال رحمه الله:

«يقول كـثير من الذين تعلـموا وتربوا تربية عـصرية، وأخذوا الشـهادات من المدارس، ومن هو أكـبر من هؤلاء: إن المسلمـين مُنوا بالفـقر وذهبت أمـوالهم إلى أيدى الأجانب، وفقدوا الثروة والقوة بسبب تحـريم الربا، فإنهم لاحتياجهم للأموال يأخذونهـا بالربا من الأجانب، ومن كـان غنيا منهم لا يعطى بالربا، فـمال الفقـير يذهب، ومال الغنى لا ينمـو.. وهذه أوهام لم تُقل عن اختبار؛ فـإن المسلمين فى هذه الأيام لا يُحكِّمُون الدين فى شىء من أعمالـهم ومكاسبهم ولو حكموه فى هذه المسـألة ما استدانوا بالربا وجعلوا أموالهم غنائم لغيرهم، فإن سلمنا أنهم تركوا أكل الربا لأجل الدين فهل يقول المشتبهـون إنهم تركوا الصناعة والتجارة والزراعة لأجل الدين».

هذه كلمة الأستاذ الإمام الذى تجنى عليه المـنحرفون، وقالوا عليه ما لم يقل، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى
فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ
كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ
ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ
فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ
أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ
مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ
مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ
إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ
أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ
عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ
تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ
أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ
وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ
ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾

وجه المناسبة بين هذه الآية وما قبلها أن الآيات كلها موضوعها المال؛ فالآيات الأولى كانت فى بيان الحقوق المتعلقة بالمال، وهى الإنفاق فى سبيل الله، وإعطاء السائل والمحروم؛ وآيات الربا كانت فى الحدود المحرمة التى لا يصح لصاحب المال أن يرتع فيها، وهى أكل أموال الناس بالباطل؛ وهذه الآية فى بيان حق صاحب المال

إن خرج من يده، وهو الاستيثاق من الوفاء، وذلك بكتابة الدين والإشهاد عليه، ويشمل الإشهاد على المعاملات المالية ذات الأثر الباقى بين المتعاملين.

وثمة مناسبة خاصة بين هذه الآية وآيات الربا؛ فإن الربا استغلال آثم غير حلال ويؤدى إلى الأكل لأموال الناس بالباطل؛ إذ إنه كسب لا يتعرض للخسارة، فهو غنم لا غرم فيه، بل لا تعرض فيه للغرم؛ وفى آية الديون إشارة إلى طريق كسب حلال؛ فإن من الديون ما يكون سَلَمًا وهو أن يبيع شخص لآخر شيئًا غير حاضر، ولكنه معرف بجنسه ونوعه ووصفه، ويكون التسليم مؤجلا إلى أجل معلوم على أن يقبض البائع الثمن معجلا فيكون البائع مدينًا بذلك المبيع المعرف بالأوصاف، فقد ثبت دينًا فى الذمة؛ وإن هذا السلم باب حلال من أبواب الاستغلال، فدافع النقود ينتفع لأنه سينتفع من فرق السعر بين العقد وبين التسليم، وفى غالب الأحوال يكون علو السعر متوقعًا، وينتفع البائع من أخذ الثمن يستغله فى أى باب من أبواب الاستغلال؛ فالدافع ينتفع مع التعرض للخسارة. وهذا هو الفرق بين الربا والسلم فى المعنى.

وثمة وجه خاص للمناسبة بين هذه الآية وآخر آية الربا؛ فإن آخر آية الربا ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ وقد بين سبحانه وتعالى طريق الاستيثاق من وفاء الدين وعدم جحوده، وهو كتابته والإشهاد عليه، وإن الدين المؤجل يحتاج دائمًا إلى الاستيثاق من الوفاء.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ التداين معناه: التعامل بالدين، أى أن يستدين بعضهم من بعض على نية الجزاء. والدين يطلق على المال الثابت فى الذمة الذى يكون معرفًا بالجنس والوصف والنوع، فهو يشمل اقتراض النقود، واقتراض المثليات بشكل عام، كما يشمل الدين الذى يكون مبيعًا فى باب السلم؛ بل روى عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى سَلَم أهل المدينة.

ولقد يرد سؤال: لماذا صرح بقوله ﴿بِدَيْنٍ﴾ مع أن ﴿تَدَايَنتُم﴾ لا يتحقق معناها إلا فى الديون؟

ولقد أجيب عن ذلك بجوابين:

أحدهما: بأن معنى تداينتم هو تعاملتم، والتعامل يكون بالدين وغيره، فلما ذكرت كلمة ﴿بِدَيْنٍ﴾ كانت صريحة فى أن التعامل كان بالدين. وعندى أن استعمال تداين بمعنى تعامل هو توسع، وإن التفسير الخاص لها هو أن التداين معناه التعامل بالدين، لا مطلق تعامل.

والجواب الثانى: هو ما أجاب به الزمخشرى فى الكشاف بقوله: (ذكر الدين ليرجع الضمير إليه فى قوله: (فاكتبوه) إذ لو لم يذكر لوجب أن يقال فاكتبوا الدين فلم يكن النظم بذلك الحسن، ولأنه أبين لتنويع الدين إلى مؤجل وحالّ). ومقتضى هذا الكلام أنه صرح بالدين لأنه موضوع القول لا مجرد التعامل به؛ وإن هذا التخريج أوجه من قول غيره إن ذكره لمجرد التأكيد، مثل قوله تعالى: ﴿**وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ**... ﴿٣٨﴾﴾ [**الأنعام**].

وعبر سبحانه وتعالى بتداينتم بدل استدنتم، أو أدنتم، لأن تداينتم تعم الفريقين: الدائن والمدين؛ فكلاهما متداين: ذلك بالعطاء، وهذا بالأخذ؛ أما استدنتم فإنها تطلق على المدين فقط، والثانية تطلق على الدائن، والمطالبة بالكتابة موجهة إلى الدائن والمدين معًا، فالكتابة ليست حقا للدائن، بل هى واجب عليه، وإن كان الذى يتولاها هو المدين.

ووصف الأجل بالمسمى، للإشارة إلى وجوب إعلام الأجل، فيذكر الشهر الفلانى، أو إلى وقت الحصاد، ونحو ذلك مما يكون معرفًا تعريفًا يمنع من الجهالة.

والدين يشمل دين القرض، ويشمل أثمان المبيعات إذا كانت مؤجلة، ويشمل المبيع فى السَلم إذا كان الثمن معجلا والمبيع مؤجلا ومعرفا بالوصف والنوع والجنس؛ فكل هذه ديون مؤجلة إلى آجال مسماة، على خلاف فى القرض، فإن الحنفية والشافعية قالوا: إنه لا يصح أن يسمى له أجل؛ وذلك لأن القرض تبرع، والأجل شرط، والشروط لا تلزم فى عقود التبرعات، ولأن القرض عارية، ولا ينقلب مضمونًا إلا باستهلاكه على رأى البعض؛ ولذلك يقول فقهاء هذين المذهبين:

عارية الدراهم والدنانير قرض. ويقول القانونيون فى مثل هذا إنه عارية استهلاك، أى عارية لا ينتفع بالعين فيها إلا باستهلاكها والتصرف فيها.

وقال المالكية وأكثر الحنابلة: إنه يصح الأجل فى القرض وتجب تسميته وتعريفه، لنص هذه الآية؛ إذ هو دين داخل فى عموم الدين فى الآية الكريمة؛ ولأن القرض لا فائدة فيه للمدين إلا إذا كان مؤجلا، فكانت المصلحة فى أن يعين الأجل ويتفق عليه بينهما دفعا للمشاحة، ومنعًا للنزاع وإن ذلك الرأى هو الأظهر وهو الذى يشمله عموم النص، وهو الأقرب إلى عرف الناس، والمصلحة فيه.

والأمر بالكتابة هنا أهو للطلب الملزم الذى لا محيص للمكلف عنه، أم للإرشاد أو الندب؟ قال جمهور العلماء: إنه للندب؛ وذلك لأن النبى ﷺ ما ألزم الدائنين بكتابة ديونهم، ولا المدينين بأن يكتبوها؛ لأن النبى ﷺ قال: «**إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب**»[1] ولأن الله سبحانه وتعالى قال بعد ذلك: ﴿**فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ** ... ﴿٢٨٣﴾﴾ [**البقرة**] وإن ذلك بلا ريب تسويغ لعدم الكتابة، والاعتماد على مجرد الأمانة، فإنه مع الكتابة لا ائتمان، أو لا اعتماد على الأمانة.

وقال الظاهرية: إن الأمر هنا للوجوب، ومن لم يفعل كان آثمًا، ذلك لأن الأصل فى الأمر أنه للوجوب، ولا يخرج عن الوجوب إلى غيره إلا بدليل من النصوص، ولم يوجد الدليل؛ ولأن طلب الكتابة تأكد بطرق عدة؛ منها النص على الكتابة فى الصغير والكبير من الديون بقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ**﴾ ومنها النص على أنه الأقسط والأقوم للشهادة، والأدنى للمنع من الارتياب؛ ومنها التعميم واستثناء صورة واحدة، وهى حال التجارة الدائرة بين التجار، وقصر نفى الإثم عليها دون غيرها، فإنه إذا كان نفى الإثم مقصوراً على هذه الحال فمعنى ذلك أن الإثم ثابت فى غيرها؛ وإن الائتمان لا يتنافى مع الكتابة،

---

(١) رواه البخارى: الصوم - قول النبى ﷺ: «لا نكتب» (١٧٨٠)، ومسلم: الصيام - وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال (١٨٠٦).

بل إنه مع الكتابة الائتمان قائم؛ على أن قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ ... ﴿٢٨٣﴾﴾ [البقرة] سيق فى حال السفر عند تعذر الكتابة.

هـذا وإن تصـدير الآية الكريمـة بالنـداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يشيـر إلى أمرين:

أحدهما: أنه ليس من مقتضى الإيمان أن تـلزموا المساجد والصوامع، بل إن الإيمان أن تهذبوا نفوسكم، وترهفوا وجدانكم وتشعروا بمراقبة ربكم، لتكون دنياكم فاضلة، ويكون تعاملكم، وإدارة المال بينكم على نهج دينى فاضل، فالمال ليس طلبه ممنوعا، بل إنه من طريقه الحلال مشروع ومطلوب.

الأمر الثـانى: أن الإسلام ليـست أوامره مـقصـورة على العبـادات، بل جاء لتنظيم المعاملات، بل إن العبادات فيه طريق لإصلاح التعامل الإنسانى؛ وكذلك كل الأديان السماوية، فإنه من الجهل الادعاء بأن الأديان جاءت لتنظيم العلاقة بين العبد والرب فقط، ولا تتدخل فى العلاقة بين الإنسان والإنسان.

﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ فى النص السابق أمر بالكتـابة وحث عليها، وفى هذا النص يبيـن الكاتب؛ فبين أن الذى يكتب شـخص يجيـد الكتابة، وعنده فقهها وعلمها، بأن يكون على علم بشروط العقود وتوثيقها، وما يكون من الشروط سائغا فى الشرع ومـا يكون غير سائغ؛ وقيَّد كتـابته بأن تكون بالعدل بألا يزيد ولا ينقص فى الدين الذى يكتبه، ولا يقيد أحـد العاقدين بشروط شديدة، ويحل الآخر من كل القيـود والشروط، بل يكون مراعـيًا العدل فى كـتابة أصل الدين، ومراعـيًا العدل فى الالتزامـات بين الفريقين، ثم إن العدل يتقـاضى مع هذين أيضًا أن يكون الكاتب خبيرًا بمعاملات الناس، وما يقع بينهم، وما يمكن تنفيذه من الشروط وما لا يمكن.

وهكذا فالكاتب الذى يتولى ميزان العدل بيـن العاقدين يمنعهما من الشطط، ويمنعهـما من التجـانف لإثم. وقد ذكر فى النص السـامى بوصف «كاتب» للدلالة على مهارته فى الكتابة، وكونها له كالملكة.

﴿وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾ هذا نهى لمن كان قادرًا على الكتابة من أن يمتنع عن الكتابة، فلا يصح لمن يحسن الكتابة من حيث جودة الخط واستبانته، ومن حيث العلم بفقه العقود، والقدرة على تحقيق العدالة بين العاقدين فى وثيقة العقد؛ لا يصح له أن يمتنع عن الكتابة إذا دعى إليها؛ وإنه ليأثم إن تعين للكتابة ولم يوجد موثوق به فيها سواه، وامتنع عن الكتابة؛ ولقد قال الفقهاء: إن الكتابة فرض كفاية بمعنى أنه إذا امتنع كُتَّاب أهل قرية عن الكتابة أثموا، بل إنه يجب على أهل كل قرية أن يخصصوا ناسًا لكتابة الوثائق فيها.

وإنه على هذا يجب أن تعمل الدولة على تهيئة ناس لتوثيق العقود وكتابتها.

وإن الكتابة لطلابها من التعاون على البر والتقوى، فهى صناعة، وهى علم، وواجب على الصانع أن يُعين من لا يحسن؛ فقد قال ﷺ: «**إن من الصدقة أن تعين صانعًا، أو تصنع لأخرق**»[١] والامتناع عن الكتابة ككتمان العلم، وقد قال ﷺ: «**من كتم علمًا يعلمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار**»[٢].

وقوله تعالى: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾ فيه بحثان لغويان:

أولهما: فى التشبيه بالكاف فى قوله: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ ما المعنى الذى يفيده؟ ذكر الزمخشرى أن معناه إما أن يكون تشبيها بين علم الكتابة والواجب على الكاتب، أى أنه كما أن الله علمه الكتابة ويسَّرها له، وجعله أهل خبرة، عليه واجب المعاونة بالكتابة لغيره، فالتشبيه تشبيه بين نعمة الكتابة، والواجب المتعلق بها، فما من نعمة إلا تتولد عنها واجبات مساوية لها، فنعمة الكتابة يقابلها ويشابهها ويماثلها واجب معاونة غيره بها، وهو بقدرها، ويأثم عند الترك بمقدار علمه.

هذا أحد وجهى التشبيه، أما الوجه الآخر، فهو أن التماثل بين ما يكتب على القرطاس وما آتاه الله الكاتب من فقه وعلم بالعقود والالتزامات؛ والمعنى على

---

(١) رواه مسلم: الإيمان - كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال (١١٩)، والبخارى: العتق - أى الرقاب أفضل (٢٣٣٤) غير أن روايته بلفظ: «ضايعا» بدلا من: «صانعا».

(٢) رواه بهذا اللفظ أحمد (١٠٠٨٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

ذلك: لتكن كتابة وثيقة الدين على مقتضى العلم والفقه الذى فقَّه الله به الكاتب، أى تكون الكتابة على مقتضى أحكام الشرع، فلا تكون فيها شروط ليست فى كتاب الله، أو لا يسوغها الشرع، أو لا يمكن تنفيذها.

الأمر الثانى: إن قوله: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ ما مُتعلقه؟ أهو متعلق بـ «يكتب» الأولى، أو «فليكتب» الثانية؟ يجوز الأمران، وعلى الأول يكون المعنى: لا يمتنع أن يكتب كما علمه الله؛ ثم أكد المعنى بعد ذلك بتكرار الأمر بالكتابة، فقال سبحانه: ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾؛ وعلى الثانى وهو أن يتعلق بقوله ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ يكون المعنى: لا يأب كاتب أن يكتب؛ فهذا نهى عن الامتناع؛ ثم قال ذلك فى كيفية الكتابة ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾ أى لتكن على قدر علمه وفقهه، ومساوية فى روحها لنعمة العلم بها.

﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ فى الجمل السامية السابقة بيان طلب الكتابة والكاتب، وفى هذه الجملة بيان من يتولى الإملاء؛ فقال سبحانه: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ أى ليُملِ على الكاتب الذى عليه الدين ويلتزم بأدائه، وذلك ليكون إملاؤه إقرارًا بالدين وبالحقوق التى يجب عليه الوفاء بها.

والإملال معناه الإملاء، وهما لغتان فى الإملاء. وقال بعض اللغويين: إن الأصل هو الإملال، وعلى أى حال قد وردت اللغتان فى القرآن، فقد قال تعالى: ﴿اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ۝٥﴾ [الفرقان].

وإذا كانت تبعة الإملاء قد وضعت فى عنق من عليه الحق فإن عليه عند الإملاء واجبين: تقوى الله، وعدم البخس؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ﴾ أى لا ينقص ﴿مِنْهُ شَيْئًا﴾ وقد وثق سبحانه الأمر بالتقوى بأن جعل التقوى من الله، وهو رب كل شىء ورب من عليه الحق، أى عليه عند الإملاء أن يراقب الله جل جلاله الواحد القهار الغالب على كل شىء المسيطر على كل شئ الذى يغلب ولا يغلب، فلا يتلاعب بالعبارات حتى لا يذهب بحق صاحب الحق؛ ثم

ليعلم أن الذى عليه أن يتقيه هو ربه الذى ذرأه ورباه ونماه، ووهب له المواهب التى توجب الشكر، ولا تسوغ التلاعب بالحقوق.

وإذا كان لا يسوغ أن يتلاعب بالعبارات فلا يسوغ أن ينقص من الدين أو يزيد فى الأجل، أو يضع شروطا فى مصلحته وليست فى مصلحة الدائن، فإن ذلك وغيره بخس لحق صاحب الحق.

﴿**فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ**﴾ فى هذه الجملة السامية بيان الحكم إذا كان من عليه الحق لا يحسن الإملاء، وقد أظهر فى موضع الإضمار فلم يقل تعالت كلماته: (فإن كان سفيها) وإنما أظهر للتوضيح؛ ولأن الذى عليه الحق المبين الفاهم المتكلم القادر وهو المذكور أولا، غير الذى عليه الحق السفيه أو الضعيف أو الذى لا يستطيع.

وقد ذكر سبحانه فى هذا النص ثلاثة لا يحسنون الإملاء، وهم:

أولا: السفيه، وهو الجاهل بالعقود والتصرفات، أو الذى لا رأى له، أو المبذر المتلاف الذى لا يحسن تدبير أموره وإدارة أمواله؛ وكل هذه معانٍ تدور حول الجهل بالعقود، أو فساد الرأى فى التصرفات.

وثانيا: الضعيف وهو الصبى والشيخ الهرم.

ثالثا: من لا يستطيع، وهو معقود اللسان، أو من لا خبرة له بهذه العقود.

والولى: هو النصير الموالى ذو الصلة بمن عليه الحق الذى يهمه أمره، ويهمه ألا يضيع حقه، سواء أكان النصير وليا بالمعنى الشرعى، أو قيما أقامه القاضى المختص، أم كان وكيلا أقامه صاحب الشأن معبراً عن إرادته مصوراً لما يعتزم عليه.

وذكرت كلمة العدل فى هذا المقام، للإشارة إلى أن ذلك الولى عليه العدل، ويجب أن يلاحظه من ثلاث نواح: من ناحية صاحب الحق، فلا يبخسه ولا ينقصه، ومن ناحية من عليه الحق الذى يتكلم باسمه ويملى عنه، فعليه ألا يمالئ

الطرف الثانى فى أمره، ومن ناحية الشرع فلا يذكر شرطًا أو التزامًا يخالف الشرع الشريف.

﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ احتاط الشارع الحكيم للديون المؤجلة، فأمر سبحانه وتعالى بكتابتها، ولم يكتف بذلك، بل أمر بالإشهاد عليها حتى لا تتعرض للضياع، ودعا المتداينين إلى أن يطلبوا شهودًا عدولا يشهدون عند كتابة الدين، توثيقا للدين وتوثيقا للكتابة؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا﴾ أى اطلبوا وابحثوا وتحروا؛ فالسين والتاء للطلب. ﴿شَهِيدَيْنِ﴾ أى شاهدين عدلين؛ لأن «شهيد» صيغة مبالغة من شاهد، والمبالغة فى معنى الشهادة تحرى معنى العدالة فيها، وأسباب المعاينة، وأن يكون التحمل على وجه التعيين والجزم، فالتعبير بشهيد دون شاهد إشارة إلى ضرورة العدالة وقوة الضبط وقوة الصدق والمروءة فيهما. ﴿مِن رِّجَالِكُمْ﴾ خرج به شهادة النساء من غير حضور الرجال، وشهادة غير المسلمين.

وقال بعض المفسرين: إنه خرج به أيضا شهادة العبيد؛ لأن ﴿مِن رِّجَالِكُمْ﴾ أى من أحراركم، وبنوا على ذلك بطلان شهادة العبيد من المسلمين، وهو قول الجمهور؛ وخالف فى ذلك الإمام أحمد بن حنبل وقرر أن شهادة العبيد من المسلمين، جائزة تلزم القضاء، وإنما نميل إلى ذلك الرأى من بين آراء الفقهاء، فإذا كان الموالى تقبل روايتهم عن رسول الله تعالى، فكيف لاتقبل شهادتهم فى أمور الناس؟

ولأن ﴿مِن رِّجَالِكُمْ﴾ يدخل فى عمومها العبيد؛ لأن الخطاب للمؤمنين، وهم من الرجال المؤمنين، وإخراجهم يقتضى إخراجهم من الخطاب بيأيها الذين آمنوا، فكيف يخرجهم مفسر من ذلك الخطاب؟

﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ فى هذا بيان لشهادة النساء مع الرجال، وهو أنه إذا لم يكن رجلان يشهدان، يقوم مقامهما رجل وامرأتان؛ والمعنى: فإن لم يكن الشاهدان رجلين فرجل وامرأتان يشهدان. واشترط فيهما ماهو الشرط فى كل شهادة، وهو أن يكونوا ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ أى

من الذين يرتضى قولهم ويقبل، أى من العدول الذين يمارسون الشهادة ويقولون الحق، ويقيمونها على وجهها الحق، ويشهدون ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين. والتعبير بقوله: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ﴾ أدق فى الدلالة على صدق الشهادة من العدالة؛ لأن العدل قد يكون مرضيًا فى دينه وخلقه ولكنه ممن يتأثرون بالمشاهد المؤثرة، فتخونهم ذاكرتهم فى وقت الحاجة إليها، وقد يكون فى الناس ذوو مروءات يمنعهم جاههم ومقامهم فى الناس من أن يكذبوا، وإن كان منهم بعض المعاصى.

﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى﴾ هذا بيان العلة فى أن المرأتين تقومان مقام الرجل؛ فالمعنى كانت المرأتان بدل رجل لتوقع أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى؛ فإن المرأة لقوة عاطفتها، وشدة انفعال نفسها بالحوادث، قد تتوهم ما لم تر، وهذا هو الضلال؛ فهو نسيان مع اعتقاد غير الواقع، أو ظن غير الواقع، وهذا النوع من الضلال يكثر فى النساء والأطفال؛ فالحوادث تفعل فى نفوس هؤلاء ما يجعلهم يتخيلون مالم يقع واقعيا؛ ولهذا الضلال كان لابد أن يكون مع المرأة أخرى بحيث يتذاكران الحق فيما بينهما، وليس من المعقول أن يتحد الضلال؛ ولذلك كان من المقررات الفقهية أن الرجال تسمع شهاداتهم على انفراد بحيث يسمع كل شاهد منفردًا من غير أن يسمعه الآخرون من الشهود؛ أما المرأتان فتسمعان معًا، لتتذاكرا إن كان ضلال من إحداهما أو منهما بحيث تذكِّر كل واحدة الأخرى بما غاب عنها متوهمة سواه.

وهنا سؤال وهو: لماذا أظهر فى موضع الإضمار، فقال سبحانه: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى﴾ ولم يقل فتذكرها الأخرى؟ والجواب عن ذلك فيما يبدو لى: أن إحداهما معناها واحدة منهما فالمعنى فيه: أن تضل واحدة منهما؛ فتذكر كل واحدة تضل الأخرى، فهما يتبادلان الخطأ ويتبادلان التذكير، فكان فى إظهار المضمر إشارة إلى هذا المعنى، وإشارة إلى أنهما معًا فيهما شهادة رجل متذكر غير ناس، إذ إن التصريح بـ ﴿إِحْدَاهُمَا﴾ ثانية تصريح بأن إحداهما والأخرى شهادة لا نسيان فيها، فهى شهادة رجل متذكر.

﴿وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ أى لا يأب الذين اشتهروا بالعدالة ووثق الناس بهم واطمأنوا إليهم عن الشهادة إذا دعوا إليها، سواء أكانت الدعوة للحضور وتحمل الشهادة كالشهادة فى التوثيق بالكتابة، أم كانت الدعوة لأداء الشهادة عند الإنكار فى مجالس القضاء؛ وإن هذا يدل على أن الشهادة إذا تعين الشاهد فرض أداؤها، وهذا تطبيق لقوله تعالى: ﴿وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ... ﴿٢٨٣﴾﴾ [البقرة] وقال بعض العلماء: إن أداء الشهادة عند الدعوة واجب، ولكن ليست إجابة الدعوة إلى تحمل الشهادة بحضور الكتابة ونحوها فرضًا.

﴿وَلا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾ أى لا تملوا من كتاب الدين إلى أجله بأن تحدُّوه وتبينوا أجله، سواء أكان الدين كبيرًا أم كان الدين صغيرًا، فلا يذهب بكم احتقار الصغر إلى إهماله وعدم كتابته؛ لأن الصغر والكبر لاحدود لهما، فقد يكون صغيرًا فى نظر غنى ملىء، ويكون كبيرا خطيرا عند غيره؛ ولأن إهمال الصغير يؤدى إلى جحوده، وعندئذ تذهب الثقة، وإذا ذهبت ساد التناحر والتنازع؛ ولأن التهاون فى الصغير قد يؤدى إلى التهاون فى الكبير؛وإن التشديد فى كتابة الصغير والكبير يدل على أن الأمر بالكتابة للوجوب كما بينا.

﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلاَّ تَرْتَابُوا﴾ الإشارة هنا إلى كل ما ذكر من الأمر بالكتابة، والنهى عن الامتناع عنها، والأمر بالاستشهاد، والنهى عن الامتناع عن الشهادة، والأمر بكتابة الصغير والكبير؛ وإن هذه الجملة السامية فيها تعليل للتشديد فى الأوامر السابقة، وقد تعللت هذه الأوامر والوصايا بثلاثة أمور:

أولها: أنها أقسط عند الله، أى أنها أعدل فى ذاتها؛ لأنها أعدل عند الله تعالى، وكل ما يكون أعدل فى علم الله تعالى فهو الأعدل فى ذاته، وكانت الأعدل فى ذاتها؛ لأنها حماية لنفس المدين من الجحود، وحماية لحق الدائن من الضياع، فهى حماية للفريقين.

والأمر الثانى: أنها ﴿أَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾ أى أن الكتابة والشهادة على الكتابة أشد تقويمًا للشهادة والإتيان بها مقومة عادلة ثابتة لا زيف فيها ولا اضطراب؛ والمراد

بالشهادة الإثبـات، أى أن الكتابة والإشهاد عليها أقـوم طريق للإثبات والحكم. وقد فهم بعض العلماء من هذا أنـه يجوز أن يستعين الشاهد بمـا كتب وقت المعاينة عند تحمل الشهادة.

والأمر الثـالث: أنها ﴿أَدْنَىٰ أَلاَّ تَرْتَابُوا﴾ أى الأوامر السـابقة والوصـايا إذا نفذت على وجـهها أقـرب إلى ألا يكون ريبا وتظننا فى التـعامل، والريب والتظنن ونحوهما يفقد الثـقة، وإذا فقدت الثقة بين المتعاملين فـسد التعامل، وانحلت عرى التضافر الاجتماعى، والتعاون الإسلامى، والاقتصادى.

﴿إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا﴾ التجارة الحاضرة التى تدور بين التجار، هى التى يجـرى فيها التقابض فى المجالس، أو التى يتأخـر فيها الأداء سـاعة أو بعض يوم أو نحو ذلك، ووصـفت بأنها تدور؛ لأن هذا يعطى وذاك يأخـذ، وقـد يطلب هذا بضـاعـة ويدفع ثمنا مـرة، ثم يعطى بضاعة أحيانا، وسـميت حاضرة؛ لأن المبيع والثمن كلاهما حـاضر؛ فهذا النوع من التعامل ليس هناك جناح أو إثم فى ألاَّ يكتب؛ وإن الاستثناء على هذا يكون استثناءً منقطعا؛ لأنه إذا كانت التجـارة حاضرة بمعنى أن الثمن والمبيع كلاهما حـاضر مهيأ للدفع، وإن تأخر أحدهمـا قليلا من الزمن لايعد تأجيـلا، فإنه ليس ثمة دين داخل فلا أمـر بالكتـابة حتى يكون الاسـتثناء منه، فـ «إلا» هنا بمعنى «لكن». وفى نفى الجناح والإثم إشارة إلى أمرين: أولهما- أن الأولى الكتـابة، وثانيهما- أن غير ذلك يأثم فيه من لا يكتب؛ فـالكتابة واجبة فى غير موضع الاسـتثناء، لأن الامتناع عن موضع الإثم واجب.

﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ هذه وصية جديدة من وصايـا التعامل، وهو الإشهاد على البيـع. وقد قرر الظاهرية أن الإشـهاد على البـيع واجب بحيث لو لم يُشـهد المتبايعان على البيع يأثمان، وإن كان الـبيع يقع صحيحًا؛ وذلك لأن الظاهرية قرروا أن الأمر للوجوب حتى يوجد دليل يمنع الوجوب، ولم يوجد عندهم الدليل. وقال الجمهور: إن الإشـهاد فى البيع غير واجب، وإنما هذا إرشـاد وتعليم مجرد؛ وذلك

لأن النبى ﷺ كان يتبايع ولا يشهد، حتى لقد جحد البائع العقد مرة فشهد له خزيمة[١].

وعندى أن الإشهاد فى بيع الأشياء التى تبقى يجب، حتى يعلم الناس انتقال اليد فيه، وانتقال الحوزة، وليمنع الجحود.

﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ كلمة «يضار» تحتمل أن تكون للفاعل، ويحتمل أن تكون بالبناء للمجهول، والمعنى على الأول نهى الكاتب والشاهد عن أن ينزلا ضررا بأحد المتعاملين، بأن يبخس الكاتب أحدهما، أو يشهد الشاهد بغير الحق؛ والمعنى على الثانى - وهو الظاهر - لا يصح أن ينزل ضرر بالكاتب أو الشاهد لحملهما على كتابة غير الحق أو قول غير الحق، فإنهما أمينان، وإضرار الأمناء يحملهم على الخيانة وفى ذلك ضياع للأمانة، وذهاب للثقة؛ ولذا قال تعالى بعد ذلك: ﴿وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ أى إن تفعلوا الضرر بالشاهد والكاتب، وتنزلوا الأذى بهما فإن ذلك يكون فسوقًا بكم، أى معصية وخروجًا عن جادة العدل يحل بكم، وينزل فى جماعتكم فتضيع الحقوق، وتذهب الأمانات، وتمحى الثقة فى التعامل، ولا يمكن إقامة حق وخفض باطل، فخير الجماعة فى حماية الذين يوثقون الحقوق من كاتبين وشاهدين.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ختم الله سبحانه وتعالى هذه الآية بما يربى المهابة للأوامر العلية والوصايا الإلهية؛ وقد اشتمل ذلك الختام الكريم على ثلاثة أمور:

أولها: تقوى الله، فإنها نور القلب، وهى الشعور بمراقبة الله، وفى ذلك إشارة إلى وجوب مراقبة الله عند التعامل، ونية الأداء.

ثانيها: الإشعار بأن هذا تعليم من الله اللطيف الخبير، ليحسن التعامل، ويقوم على أسس من الثقة والاطمئنان ومنع الريب.

---

(١) رواه النسائى: البيوع - التسهيل فى الإشهاد على البيع (٤٥٦٨)، وأبو داود فى الأقضية - إذا علم الحاكم صدق شهادة الواحد (٣١٣٠)، وأحمد: مسند الأنصار (٢٠٨٧٨)، عن عمارة بن ثابت رضى الله عنه.

ثالثها: الإشعار بإحاطة علم الله، فما يأمر به هو أمر عليم حكيم يعلم وجه المصلحة، وهو عليم بالضمائر، وهو الذى يتولى السرائر.

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾

فى الآية السابقة بين سبحانه وتعالى وجوب الكتابة، عند من يقول: إن الأمر للوجوب؛ أو وصى سبحانه وتعالى بالكتابة وأرشد إليها؛ وفى هذه الآية يبين سبحانه حال الترخص من الكتابة، وهى الحال التى لا تكون الكتابة فيها ممكنة، إذ يكون المتداينان على سفر، ولا يوجد كاتب؛ فإنه فى هذه الحال يترخص فى عدم الكتابة، ويعوض عن الكتابة والشهادة فى الاستيثاق بالرهن، وإن لم يكن رهن فإنه يكون الاعتماد على الأمانة المطلقة حيث تعذر الاستيثاق بالأمور المادية، وهى: الكتابة والشهادة عليها، ثم الرهان المقبوضة، فيقوم مقام هذه الأمور الأمانة والذمة.

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ الرهان: جمع رهن بمعنى مرهون، فرهن ليس معناها المصدر، بل معناها العين المرهونة، وقرئ (فَرُهُن مقبوضة). وقد خرج بعضهم هذه القراءة على أن (رُهُن) جمع رهان بمعنى رهن.

وخرجه بعضهم على أنه جمع رَهْن كسقْفٍ وسُقُف، وفَرْشٍ وفُرُش، وحَلْقٍ وحُلُق، وهكذا. وقرئ بدل ﴿ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا ﴾: (ولم تجدوا كتابا).

والمعنى فيما يظهر: إذا كنتم مسافرين ولم تجدوا كاتبا يكتب، أو قرطاسا يكتب فيه، أو لم تتيسر أسباب الكتابة لأى سبب من الأسباب، فإنه يقوم مقام الكتابة رهن يستوثق به فى أداء الدين، وإنه لا يقوم مقام الكتابة فقط بل يقوم أيضًا مقام الشهادة.

وهنا إشارتان بيانيتان ويجب التنبيه عليهما:

أولهما: أن الله سبحانه وتعالى يعبر عن المسافر فى حال بيان الرخصة التى ترخص له بسبب السفر بقوله تعالى: ﴿ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ وقد عبر سبحانه بذلك فى حال رخصة الإفطار، ورخصة ترك الكتابة، ورخصة التيمم عند عدم وجود الماء؛ وذلك لأن معنى ﴿ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ يتضمن معنى الركوب، أى راكبين فوق سفر؛ وذلك يشير إلى اضطراب الحال والقلق والانزعاج، فليست الحال حال استقرار، إذ من كان مركبه سفرا وانتقالا مستمرا، فهو غير مستقر ولا مطمئن. وتلك الإشارة تتناسب مع الترخيص فى الإفطار، والترخيص فى ترك الكتابة، والترخيص فى التيمم.

ثانيهما: أن فى الآية قراءتين متواترتين كما بينا؛ إحداهما: ﴿ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا ﴾ والأخرى (وَلَمْ تَجِدُوا كِتَاباً) وإذا كانت القراءتان متواترتين فكلتاهما قرآن مقروء مفهوم بمعناها، ومجموع القراءتين يؤدى معنى تتضافران فى أدائه، وهو أنه فى حال السفر يقوم الرهن مقام الكتابة والشهادة إذا لم يوجد كاتب، أو وجد الكاتب ولم يوجد الكتاب، أو أى أداة من أدوات الكتابة.

والفقهاء فى ظل هذا النص الكريم يتكلمون فى مسائل فقهية، ويقتبسون معانيها من إشاراته وعباراته؛ وإنا نوجز المسائل التى يتكلمون فيها فى ثلاث:

أولها: إن الذين يقولون: إن الأمر فى الكتابة والاستشهاد على الدين للوجوب يقول بعضهم: إن الترخص فى الرهن بدل الكتابة والشهادة إنما يكون فى

حال السفر، وكل حال يتحقق فيها المعنى المسوغ للترخيص فى السفر، وهو عدم وجود الكاتب الذى يكتب، أو الأداة التى يكتب بها، أو القرطاس الذى يكتب عليه، ولو كان فى حضر لا فى سفر؛ لأن المعنى وهو تعذر أو تعسر وجود الكاتب أو ما يكتب به يتحقق فى هذه الحال كما يتحقق فى السفر، ولكن ذكر السفر؛ لأنه مظنة لذلك التعذر، وهو فيه كثير عند العرب لغلبة الأمية عندهم، أما فى الحضر فذلك نادر، وإن وجد فإنه يطبق عليه حكم السفر. وبعض هؤلاء الذين قالوا إن الكتابة واجبة والشهادة عليها مثلها قالوا: إن الترخص مقيد بالسفر، ولا ترخص بغير الكتابة فى الحضر. وكأنهم بهذا يرون أن من الضرورى أن يكون فى كل قرية أو حى كاتب وأدوات كتابة، وأن على أهل هذه القرية أن يهيئوا الأسباب لذلك؛ لأنه فرض كفاية إن تركه الجميع أثموا، وإن قام به بعضهم سقط الحرج عن كلهم.

الثانية: أن الرهن يقوم مقام الشهادة والكتابة فى الاستيثاق من أداء الدين؛ ولذلك فإن المعقول أن يكون قريبًا من الدين فى قيمته. وقد استنبط مالك رضى الله عنه من هذا أنه إذا اختلف الدائن والمدين فى مقدار دين موثق برهن ولم يكن للدائن بينة تثبت مقداره فإنه لا تُوَجَّه اليمين إلى المدين، بل يُحكَّم الرهن؛ فما يشهد له الرهن يكون القول قوله ؛ فإن كان مثل ما يقول المدين أو أقل فالقول قول المدين، وإن كان مثل ما يقول الدائن أو أكثر فالقول قول الدائن، وقال أبو حنيفة والشافعى: إن اليمين فى كل الأحوال على المدين ما لم تكن بينة للمدعى. وحجة مالك أن الرهن قائم مقام الشهادة والكتابة فهو شهادة وكتابة معا؛ فما يشهد به يكون الحكم على مقتضاه.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿**فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ**﴾ فقد أخذ بنص الآية الكريمة أبوحنيفة وأصحابه، وقرروا أن الرهن لا يتم إلا بالقبض فإن لم يكن قبض لا يتم، فإذا افترق العاقدان من غير قبض فالرهن غير صحيح. وقال مالك رضى الله عنه: إن الرهن يتم من غير القبض، ولكن القبض حكم من أحكامه، فمن حق المرتهن وهو الدائن بعد تمام عقد الرهن أن يطالب بقبض العين المرهونة، فالقبض حكم للعقد،

وليس ركنا من أركـانه، ولاشرطا لتمـامه. وقال الشـافعى: إن الرهن يتم من غـير حاجة إلى القـبض، وإنما الرهن للاستيـثاق من الوفاء بالدين، ووصف «مقـبوضة» جرى مجـرى العرف، وليس وصفًا له مـفهوم يعطى تخلفه غيـر حكمه، بل يكون الرهن مقـبوضًا أو يكون غـير مقبـوض، وأثره فى حال عدم القـبض أن يتعلق حق الدائن بالعين بحيث يمنع صاحب العين من التصرف فيها حتى يستوفى الدين، وأنه إذا حل الأجل من غير أن يوفـى المدين فإنه تباع العين فى سبـيل أداء الدين. وكأنه فى المذهب الشافعى كـما هو فى القانون المدنى المصرى الرهن ينقسم إلى قـسمين: رهن حيازة، وهو الذى يتم فـيه القبض، ويكون أكثـر ما يكون فى المنقول؛ ورهن تأمينى، وهو الذى يسـتمر تحت يد المدين، ولكن يؤمن به الدين ويوثق، وهو أكـثر ما يكون فى العقار.

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ هذا تدرج حكيم؛ الكتابة فى الديون والإشهـاد عليها مطلوبان، فإن تعذرت الكتـابة والشهادة فإنه يتـرخص حينئذ بـالرهن المقبوض، ولكن إذا كـان طالب الدين ليس عنده رهن يوثق به الدين، وهما فى سـفر ولا كاتب ولا شـهيد أيمتنع القـرض ويكون الحرج على المدين، وقد يكون فى ضرورة للاستدانة وهو ملىء فى دياره يستطيع الأداء عند عودته؟ إنه لم يبق إذن إلا الاعتماد على أمانته، وهذا هو الذى يتبين فى ذلك النص الكريم؛ والمعنى: إذا أمن الدائن المدين، واعـتمد على ذمتـه ومقدار أمانتـه، فليؤد الدين فى ميـعاده؛ لأنه أمانة فى عنقـه، ولأن الدائن اعتمـد على حسن أدائه وعلى مقدار ما عنده من أمـانة، فلا يضيع رجاء الخير فيـه؛ ولأن الله سبحانه عليم بما فى الصدور، فليتق الله ربه. وإذا كان النص الكريم قد جـاء فى مساق الدين وتوثيقه، فإن اللفظ عام يعم وجوب أداء الأمانات كلها سواء أكانت ديونًا فى الذمة، أم كانت ودائع مقبوضة، أم كانت أمانات مرسلة حمل المؤتمن أداءها.

وفى النص الكريم عدة إشارات بيانية، تتضافر فى مجموعها، وتؤكد وجوب أداء الأمانة.

أولها: فى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ فإن التعبير بـ «أَمِنَ» بدل أعطى أو أودع، إشارة إلى الجانب الذى اعتمد عليه وهو خلق الأمانة فى صاحبه، فهو لا يرى فيه إلا جانبًا مأمونا لا يتوقع منه شرا من جحود أو خيانة.

ثانيها: ذكر الظاهر بدل الضمير فى قوله تعالى: ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ﴾ فإن التعبير بالموصول هنا يشير إلى علة وجوب الأداء، أو إلى توثيق الأداء؛ لأنه ائتمنه، فحق عليه أن يؤدى الأمانة.

ثالثها: فى إضافة الأمانة فى قوله تعالى: ﴿أَمَانَتَهُ﴾ فإن الأمانة هى فى الواقع للدائن أو المعطى من حيث إنه مالك للدين وللوديعة ونحوها، ولكن أضيفت إلى المدين من حيث إنها عبء عليه يجب أن يؤدى، وبأدائه يزيل ما عليه من عبء فإن الأمانة عبء ثقيل لمن عرف حقها.

رابعها: قوله تعالى: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ فإذا كان صاحب الحق لم يوثق حقه بكتاب أو شهادة أو رهن، فإن التقوى هى الوثيقة الكبرى التى لا تعدلها وثيقة. وقوله تعالى: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ فيه طلب للتقوى مؤكد بالأمر، وبالتعبير بلفظ الجلالة الذى يربى ذكره المهابة فى النفس، إذ يحس القارئ بعظمة الخالق وجبروته وألوهيته، ومؤكد أيضًا بالتعبير بربه؛ إذ فيه إشارة إلى أنه خالقه وبارئه ومربيه، والمهيمن الدائم عليه.

﴿وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ بيَّن سبحانه فى النص السابق وجوب أداء الأمانة عامة، ولأن الكلام فى الديون وطرق توثيقها كانت دالة على وجوب أداء الأمانة فى الديون خاصة. وفى هذا النص الكريم يبين نوعا من الأمانات يجب أداؤه، وأداؤه أشد وجوبا، وأغلظ تكليفا، وهو أمانة الشهادة؛ فإن العلم بصاحب الحق أمانة فى عنق العالم به يجب عليه أداؤها عند طلب ذلك منه أمام القضاء أو أمام غير القضاء؛ وإن هذه الأمانة كانت أغلظ الأمانات لأنها تُناط بها الحقوق، وانتظام المعاملات، وقيام المجتمع على أساس من الثقة وتبادل المنافع؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ وكتمان الشهادة ألا يقول ما عاين، بأن

يمتنع عن الذهاب إلى مجلس القضاء مطلقا، أو يذهب ويقول لا أعلم؛ فإن ذلك فوق أنه كتمان كذب، أو يقول بعض ما يعلم. والأداء أن يقول كل ما يعلم حيث طلب إليه أن يقول، ولا يترك شيئًا مما يعلمه متصلا بموضوع الشهادة.

وقد وصف الله سبحانه من يكتم الشهادة بالإثم، وأسند الإثم إلى القلب، فقال سبحانه: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ وقد أسند الإثم إلى القلب خاصة مع أن الإثم يسند إلى الشخص، وهذا من قبيل المجاز، وهو تعبير عن الكل باسم الجزء؛ لأن لذلك الجزء مزيد اختصاص فى موضع الحكم؛ لأن الإثم فى كتمان الشهادة عمل القلب لا عمل الجوارح؛ ولأن القلب أساس كل خير وكل شر ولو كان الإثم من عمل الجوارح، فهو المضغة التى إن صلحت صلح الجسم كله، وإذا فسدت فسد الجسم كله. ولقد قال الزمخشرى فى هذا المعنى: «كتمان الشهادة هو أن يضمرها، ولا يتكلم بها، فلما كان إثما مقترنا بالقلب أسند إليه؛ لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التى يعمل بها أبلغ؛ ألا تراك إذا أردت التوكيد تقول: هذا مما أبصرته عينى، ومما سمعته أذنى، ومما عرفه قلبى؟ ولأن القلب رئيس الأعضاء والمضغة التى إن صلحت صلح الجسد كله، وإن فسدت فسد الجسد كله؛ فكأنه قيل: فقد تمكن الإثم فى أصل نفسه، وملك أشرف مكان فيه، ولئلا يظن أن كتمان الشهادة من الآثام المتعلقة باللسان، ولِيُعْلَمَ أن القلب أصل متعلقه، ومعدن اقترافه، واللسان ترجمان عنه؛ ولأن أفعال القلوب أعظم من أفعال سائر الجوارح، وهى لها كالأصول التى تشع منها؛ ألا ترى أن أصل الحسنات والسيئات الإيمان والكفر، وهما من أفعال القلوب؛ فإذا جعل كتمان الشهادة من آثام القلوب، فقد شهد له بأنه من معاظم الذنوب».

وهنا يسأل سائل: إن ما يهم به القلب لا يحاسب عليه الشخص؛ ألا ترى أن من هم بسيئة فلم يفعلها لم يكتب عليه شىء، فكيف يكون إثم فى عدم أداء الشهادة، وهى ليست إلا عملا قلبيا لا أثر له فى الجوارح؟ والجواب عن ذلك: أن

أعمـال القلب ليست معـفاة من الإثم دائمًا، إنما الذى يعـفى من العقاب مـا يجول بخاطره ويتمناه من غـير أن يكون له أثر فى الجوارح، أما ما يعتزمـه ويصمم عليه، ويتجه إليه، ولكن يفوت التمام لأمر خارج عن إرادته وليس له قبل به، كمن يعتزم قتل شخص ويذهب إليه ليفترسه، وقد عقد النية، واستحصد العزيمة، ولكن أفلت من يده، أفـلا يكون ثمـة إثم؟ وأحيـانا تكون عـزيمة القلـب وحدها هى مـوضع المؤاخذة، وذلك إذا كان عمل القلب كف الجوارح عـن العمل فى موضع يجب فيه العمل، فترك الواجبات كلها مـوضع مؤاخذة، ومن ذلك ترك الشهادة. وفى الشرع الإسلامى جرائم تسمى جرائم الترك، وهى الجرائم التى يكون الجزاء فيها ليس على الفعل، ولكن على ترك واجب، كمن يرى شخصا يموت جوعا ومعه مال ولا يسد غائلة جـوعه، وكمن يرى أعـمى يتردى فى بئر ويتـركه قاصداً بالتـرك أن يموت، وهكذا ؛ ومن ذلك النوع كـتمان الشـهادة، فـهو ترك الواجب، وهو إثم وجـريمة بسبب ذلك الترك.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ ختمت الآية الكريمـة بهذه الجملة السامـية، للوعد والوعيد، ببيـان علم الله ذى الجلال والإكرام المنتقم الجبار علمًا دقـيقًا بما يعمله كل إنسان؛ يعلم الخيـر والشر، ويعلم ما تخفى الصدور، ومـا تكنه القلوب، وما يظهر على الجوارح، فـيجازى على الإحـسان إحسـانًا، وعلى السوء سوءا؛ فـمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره، ومن يأكل أموال الناس بالباطل إنما يأكلون فى بطونهم ناراً ويصلون سعيراً.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ فى هذه الجملة السامية بيان لشمول ملك الله سبحـانه وتعالى، وفى ذكر هذا الشمول بعـد الآيات التى بينت أحكام الأموال ببيان مصارف البر، ومواضع التحريم، وطرق التعامل، وما يوجد الثقة - إشارة إلى معان عامة وخاصة:

أما العامة فهى بيان أن ما فى يد الإنسان عارية مُستردَّة، وأن المالك فى الحقيقة هو الله سبحانه وتعالى، فلا يغـتر ذو مال بماله، ولا تذهب به النهمة إلى طلبه من غيـر حلال، فإن يده زائلة عنه لا محـالة، وعليه أن يجمل فى الطلب، وأن ينتـهز

فرصة وجود المال بين يديه ليكثر من البر وفعل الخير، فهو الباقي والدائم، وأنه سبحانه وتعالى المسيطر على كل شيء المعطى الوهاب، فهو الذى أعطى ذا المال وبسط له الرزق، وهو الذى قدر رزق الفقير، فليس لغنى أن يعتز بغناه، ولا ذى فقر أن يذل لفقره، فالعزة لله وحده، والخضوع له وحده؛ وإنه سبحانه إذا كان المالك لكل ما فى السموات والأرض، فله وحده العقاب والثواب، وليس لأحد من عباده إلا ما ينعم به عليه من نعم.

وأما الإشارة إلى المعنى الخاص، فهو أنه سبحانه وتعالى ذكر فى الآية السابقة أنه عليم بكل ما يعملون؛ وإن من أسباب هذا العلم الدقيق أنه مالك لكل ما فى السموات والأرض؛ لأنه خالق ما فى السموات والأرض ﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴿١٤﴾ ﴾ [**الملك**] وإذا كان الله سبحانه وتعالى عليما بكل ما يعمله الناس، ومالكا لكل ما فى السموات وما فى الأرض فإنه سبحانه وتعالى يحاسب على كل ما يفعله الإنسان سواء أكان من حركات النفس أم كان من حركات الجوارح؛ ولذا قال سبحانه:

﴿ **وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ** ﴾ : فى هذا النص الكريم يبين سبحانه أنه يعلم السر والعلن، ما ظهر وما بطن، وأنه يعلم حركات النفس وما تصر عليه وما تعزمه من فعل، سواء أعلنته أم لم تعلنه؛ وإن هذا النص كما يفيد علم الله بما ظهر وما بطن من أعمال النفوس، يفيد بصريحه أنه يحاسب الإنسان على النيات وما تكسبه القلوب، سواء أأخفاه الشخص أم أظهره، فما تكسبه القلوب موضع مؤاخذة بهذا النص؛ وقد قال تعالى: ﴿ **لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ...** ﴿٢٢٥﴾ ﴾ [**البقرة**] ولكن قد اعترض على ذلك بقول النبى ﷺ: «**إن الله تجاوز لأمتى ما حدثت به أنفسها، ما لم يتكلموا أو يعملوا به**»(١).

---

(١) رواه مسلم: الإيمان - تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب (١٨١)، بهذا اللفظ، والبخارى: الأيمان والنذور - إذا حدث ناسيا فى الأيمان (٦١٧١).

ولقد ادعى بعضهم لهذا الحديث أن الآية منسوخة؛ لأن حديث النفس لا يمكن التخلص منه؛ وأنها نسخت بقوله تعالى: ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ... (٢٨٦) ﴾ [**البقرة**] ولكن ذلك القول غير مقبول؛ لأنه لا تعارض بين الآيتين، حتى تنسخ إحداهما الأخرى، كما أنه لا تعارض بين الآية والحديث الشريف؛ لأن حديث النفس ليس هو ما تكسبه النفس، ويعزمه القلب، وينويه الشخص ويصر عليه؛ وإنما هو تلك الخواطر النفسية التى تعرض للإنسان فتوجهه نحو الهوى والشهوة؛ فإن سار وراءها حتى اعتزمها وأرادها وأصر عليها، ولكن عاقه عائق عن تنفيذها، لا يكون حديث النفس، بل يكون كسب النفس، ولكل نفس ما كسبت، وعليها ما اكتسبت؛ فالمرتبة الأولى وهى تلك الخواطر ليست موضع مؤاخذة، بل إن التغلب عليها، وكفها بعد مكافحتها موضع ثواب؛ لأنه جهاد النفس، وجهاد النفس هو الجهاد الأكبر، كما ورد فى الأثر «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»(١) ويقصد به جهاد النفس؛ إنما موضع المؤاخذة الإصرار بعد الخواطر.

وعلى ذلك: نقول إن موضع التجاوز هو حديث النفس، وموضع الحساب هو الإصرار والنيات، والاتجاه القلبى إلى الأذى والانتقام وقد بينا ذلك من قبل.

﴿ **فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ** ﴾ وإن هذه نتيجة الحساب، فيستر الله سبحانه وتعالى ذنوب من يشاء ويعفو عنه، وإنه ليعفو عن كثير كما ذكر سبحانه، ويعذب من يشاء جزاء ما اقترف من آثام؛ وإن مشيئة الله سبحانه وتعالى لا قيد يقيدها، ولا شىء يحدها، ولكنه سبحانه يغفر لمن سار فى طريق الهداية، ولم تركس نفسه فى المعاصى، ولم تُحِط به خطاياه حتى تستغرق نفسه، وتستولى على حسه، ويغلب عليه حب الخير؛ وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** ... (١١٤) ﴾ [**هود**]. أما من استولت عليه الشهوات، وأحاطت به

(١) كشف الخفاء جـ١ ص٥١١ (طبع مكتبة التراث الإسلامى تحقيق أحمد القراش).

الخطايا، وغلب عليه الشر والأذى، ولم يكن منه الخير إلا لماما، فإن الله محاسبه بما كان؛ لأنه لاحسنات تذهب بالسيئات؛ والله سبحانه وتعالى هو المالك للإنسان وما يصنع الإنسان، فلا قيد يقيد إرادته تبارك وتعالى.

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هذا ختام الآية الكريمة، وهو فى بيان شمول قدرة الله تعالى وعموم إرادته سبحانه، فهو القادر على الثواب والعقاب، وهو القاهر فوق عباده، ولا سلطان فوق سلطانه، وهو الذى يلهم التوفيق لمن كتب له التوفيق، وهو الذى يترك من يقع فى غواية الشيطان، وهو الذى يسهل التوبة لمن يتوب، غافر الذنب، قابل التوب، شديد العقاب؛ فالإنسان وما يملك، وخواطره وهواجسه، وأحاسيسه، ونياته واعتزاماته؛ كل ذلك تحت سلطان القادر، وقوة القاهر.

اللهم اجعلنا من عبادك الطائعين الخاضعين، الراضين بقضائك وقدرك، إنك أنت العزيز الحكيم.

ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ
إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ
وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا
وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ لَا يُكَلِّفُ
ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ
رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ
عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا
تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ
أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦

بهاتين الآيتين الكريمتين ختمت هذه السورة، وهى أطول سورة فى القرآن، وفيها لب الإسلام، ومغزاه ومرماه؛ فيها بيان أخلاق الناس، واختلاف تلقيهم للحق الذى يدعون إليه؛ فمن مؤمن يُذعن للحق بقلبه وجوارحه، ومن منافق يظهر الإذعان ويبطن الكفر، ومن معاند مشرك بالله يعرض عن الحق، وقد لاحت بيناته، وأضاءت الوجود آياته. ثم بينت أصل الخليقة، وبها تبيين الطبائع الإنسانية والطبائع الإبليسية، والإخلاص الملائكى ثم ضرب سبحانه الأمثال وقص سبحانه قصص النبيين: موسى وإبراهيم وإسماعيل، وبنى إسرائيل، وفيهم يتمثل الإيمان أحيانًا، والطبائع الإنسانية يتسلط عليها الشيطان فى أكثر الأحيان، ويتمثل الطبع الإنسانى فى قوته وضعفه. ثم ذكر سبحانه أحكاما للجماعة فى القتال، وفى السلام، فى الأسرة وفى المجتمع، وفى التعاون بين الآحاد بالإنفاق فى سبيل الخير وإعلاء كلمة الحق والفضيلة، ثم فى الأسباب المفرقة بين الجماعات كالربا، ثم فى المعاملات الفاضلة التى تحفظ فيها الثقة المتبادلة بين آحاد الجماعات الإسلامية.

بيَّن سبحانه وتعالى ذلك، ثم ختم السورة ببيان أمرين:

أحدهما: أن رسالة محمد ﷺ هى امتداد للرسالات السابقة كلها، وأن لب الدين واحد فى كل الرسالات الإلهية.

وثانيهما: بيان أن كل التكليفات الدينية يسر لا عسر فيها، وأنها تهذيب روحى وتعاون اجتماعى. وقد بينت الآية الأولى من الآيتين الكريمتين الأمر الأول وبينت الثانية الأمر الثانى ولنبتدئ بالكلام فيما اشتملت عليه الآية الأولى:

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ وفى هذا الجزء من الآية الكريمة يبين سبحانه وتعالى الأصل الأول من أصول الإيمان، وهو الإيمان بما جاء به وما نزل عليه؛ فهو ﷺ ومعه المؤمنون يؤمنون بما أنزل إليه من ربه ﷺ، الذى أنشأه ونماه وكمله، وخصه بالخصال التى تؤهله للرسالة، وتعده للنبوة: **﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ... (١٢٤)﴾** [**الأنعام**].

والإيمان بما أنزل الله يشمل الإيمان بالتوحيد المطلق للذات العلية وبكل ما اشتمل عليه القرآن من غيبيات، والإيمان بكل ما اشتمل عليه القرآن من تكليفات على أنها من عند الله اللطيف الخبير، سواء أكانت تتعلق بالعبادات أم كانت تتعلق بالمعاملات؛ فيؤمن النبى ومعه كل المؤمنين الصادقى الإيمان بأن الله حرم الربا كما حرم الشرك وكما حرم الاعتداء على النفس والمال، وحرم الزنا كما حرم الخمر والخنزير وأكل الميتة؛ وأمر بالزكاة كما أمر بالصلاة، وأمر بإقامة الحدود كما أمر بالحج؛ فالإيمان بما أنزل الله إيمان بكل ما اشتمل عليه الوحى المحمدى. ومن قال إن منه ما يناسب عصر النبى ﷺ ولا يناسب عصرنا فهو لم يؤمن بما أنزل إليه من ربه، ولم يكن من المؤمنين الذين اقترن إيمانهم بإيمانه ﷺ.

ونشير هنا إلى معنى سام تفضل به الله على المؤمنين، وهو أنه قرن إيمان المؤمنين بإيمان النبى ﷺ وجمعهما فى نسبة واحدة، وفى ذلك إشارة إلى أن المؤمنين الذين يصدقون فى إيمانهم بما أنزل الله يقاربون فى منزلتهم منزلة النبيين. وفى تأخيرهم فى الذكر إشارة إلى تأخر التابع عن المتبوع، وإشارة إلى أن النبى ﷺ أول من يؤمن بما أوحى إليه، وأنه أقوى الناس إيمانا بوجوب طاعة الله، وأنه أول من أطاع الله؛ فكانت نبوته ﷺ تصديقًا منه وطاعة.

﴿ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ بهذا النص الكريم يبين سبحانه معنى الإيمان الجامع من حيث الاعتقاد، وذلك الإيمان يتضمن الإيمان بالله تعالى أولا، ثم بملائكته، وهم وسائط التبليغ لمن يختارهم لرسالته من خلقه، ثم بكتبه، وهى سجل شرائعه التى تنزل من السماء، ورسله، وهم المصطفون الأخيار من البشر الذين اختيروا لتبليغ ما اشتملت عليه الكتب. فهذا تدرج قويم؛ فابتدأ بالإيمان بالله المنعم بكل شىء فى هذا الوجود؛ ثم ثنى بالملائكة الأطهار وهم غيب لا يرى ولا نعرف شيئًا عنهم إلا بالإخبار منه سبحانه، وهو الذى أمرنا بالإيمان بهم، فالإيمان بهم نوع من الإيمان بالله سبحانه. وكذلك الكتب والرسل.

وقد يقال: لماذا ذكر الإيمان بهؤلاء بجوار الإيمان بالله تعالى؟ والجواب عن ذلك أن بعض المنحرفين من أهل الأديان السابقين كانوا يذكرون بغير الخير وبالعداوة بعض الملائكة كجبريل الأمين، فبين سبحانه أن الملائكة جميعا من غير استثناء يجب الإيمان بهم، والإذعان لكل ما ينزلون به من رسالات ربهم، وكذلك الكتب السابقة، والنبيون السابقون؛ فمن بنى إسرائيل من قتلوا بعض النبيين، وكفروا ببعضهم وحرضوا على قتله، فبين سبحانه وجوب الإيمان بكل الرسل من غير استثناء؛ لأنهم المبلغون للناس رسالات الله، وفوق ذلك فإن هذا الذكر المفصل يفيد اشتراك المؤمنين جميعا فى عناصر الإيمان، وأن الإسلام امتداد لسائر الأديان المنزلة؛ وهو الخطوة الأخيرة فى شرائع السماء إلى الأرض، وأن من يؤمن بالإسلام يؤمن بكل الأديان والشرائع التى أنزلت على الرسل غير محرفة ولا مبدلة؛ فهو دين الوحدة الإنسانية، كما هو دين التوحيد الإلهى. والإيمان بالله تعالى هو الإيمان بوحدانيته تعالى فى الذات؛ فليس لله سبحانه وتعالى مشابه له من الحوادث ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى] وبوحدانية الله فى الخلق والتكوين، فهو سبحانه الخالق لكل شىء، وليس لأحد مهما يكن شركة لله سبحانه فى الخلق والتكوين؛ ووحدانية العبودية؛ فلا يعبد مع الله أحدًا؛ لأنه المنعم بهذا الوجود، وليس أحد يستحق معه العبادة؛ إذ لا يماثله أحد؛ تعالى الله عما يقوله المشركون علوا كبيرا.

وهنا ملاحظة لفظية يجب أن نشير إليها، وهى لفظ «كل» وعدم إضافته، إذ قال سبحانه: ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ و«كل» سواء أضيفت باللفظ أم لم تضف، على نية الإضافة؛ فالمعنى: كل فريق من هذين الفريقين، وهما الرسول والمؤمنون وذكر كل على هذا فيه إشارة إلى مرتبة النبيين، وأنها أعلى من مرتبة المؤمنين ولو كانوا صادقين، وإن جمعهما المولى القدير فى نسبة واحدة، تعالت كلمات الله سبحانه.

﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ هذا التفات فى القول، وهو منهاج بلاغى، فبعد أن كان الكلام بصيغة الحكاية عن النبى ﷺ والمؤمنين، صار بصيغة المتحدثين عن أنفسهم هم، وهى أن حالهم فى هذا الإيمان أنهم لايفرقون بين رسول ورسول،

فيؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض، وهناك قراءة أخرى، وهى: (لا يفرق بين أحد من رسله) والضمير فى الفعل «يفرق» يعود فى هذه القراءة على «كل» ولفظ «كل» مفرد، فيعود الضمير عليه مفردًا وإن كان معناه جمعًا، وقد يعود الضمير جمعًا ملاحظًا فى ذلك المعنى لا اللفظ. ومعنى هذه الجملة السامية هو تصريح بما تضمنه ما قبلها؛ لأن ما قبلها تضمن أنهم يؤمنون بكل الرسل، ومقتضى ذلك أنهم لايفرقون فى الإيمان بهم وكونهم مبعوثين من عند الله بين رسول ورسول، وعدم التفرقة لا صلة لها بالتفضيل فى الدرجات؛ لأن ذلك من فضل الله إذ يقول: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ...﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة]، ولأن موضوع التفرقة وعدم التفرقة هو فى الإيمان.

﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ فى هذه الجمل السامية يبين سبحانه وتعالى خواص الإيمان التى لا تفارقه إلا إذا اعتراه نقص، وبمقدار نقصها يتخلف المؤمن عن مراتب الكمال، ودرجات الفوز.

وأول خاصة من خواص الإيمان، ومظهر من مظاهره - الاستماع لما يدعو إليه استماع متعرف طالب لحقيقته متقص لغاياته، متجرد من الأهواء والشهوات، حتى إذا عرف الحق فى الشرع سائغًا أطاعه غير متململ، وصبر على تكليفه غير متضجر؛ فمن طلب الدين مؤولا نصوصه على غير وجهها خضوعًا لأهواء زمانه، أو خضوعا لهواه، فهو غير مستمع ولا طائع، نعوذ بالله العزيز الكريم.

والخاصة الثانية ـ أن يحس المؤمن بالتقصير مهما يكن مؤديًا لواجب الطاعة، فإن ذلك الإحساس يرهف الوجدان، ويجعله على مخافة من الزلل، فيتجنب الشطط، ويلتزم الاعتدال؛ ولذلك قال فى هذه الخاصة رب النفوس ومقلب القلوب: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ أى أنهم لفرط إحساسهم وخشية التقصير، لأن هذا الدين متين، يضرعون إلى الله دائمًا طالبين المغفرة، ويقولون: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ أى اغفر لنا غفرانك الذى هو من مقتضى رحمتك ونعمك التى تفيض علينا دائما، وأنت ربنا الذى خلقنا وربانا ونمانا، والعليم بأحوالنا.

وإن هذا هو مقام الخوف الذى يجب أن يُغلِّبه المؤمن؛ ولذا كان محمد ﷺ يقول: «**إنى أخشاكم لله**»(١) ومقام الخوف من قوة الإيمان، والغرور من ضعف الإيمان، فلا يليق بمؤمن أن يغتر بعبادته، فإن هذا ينقصها أو دليل على نقصها، ويقول الصوفية: إن معصية أورثت ذلا واستخذاء خير من طاعة أورثت عزا وافتخارًا.

والخاصة الثالثة - التفويض إلى الله تعالى، والإيمان باليوم الآخر؛ ولذا قال تعالى عنهم: ﴿**وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**﴾ وإن هذا مقام التفويض والإيمان بالقدر خيره وشره، وهو مع ذلك يتضمن الإيمان باليوم الآخر؛ فالمؤمن الحق يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، ويذعن للحق ويعمل به غير مغتر بعمله؛ بل يرجو عفو ربه وغفرانه، ثم يفوض أموره إلى ربه، عالمًا بأن المآل إليه ومصيره عنده سبحانه وتعالى.

﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾ قال الزمخشرى فى تفسيره: «الوسع ما يسع الإنسان ولا يضيق عليه ولا يحرج فيه، أى لا يكلفها إلا ما يتسع فيه طوقه، ويتيسر عليه دون مدى الطاقة والمجهود. وهذا إخبار عن عدله ورحمته كقوله تعالى: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ...**(١٨٥)﴾ [**البقرة**] لأنه كان فى إمكان الإنسان وطاقته أن يصلى أكثر من الخمس، ويصوم أكثر من الشهر، ويحج أكثر من حجة)، وهذا الكلام يستفاد منه أن الوسع غير الطاقة، فالطاقة هى غاية المجهود وأقصاه، وما يفعله الإنسان قادرا عليه ولكن فى تعب وجهد، والوسع ما يكون فى الإمكان، ولكن تكون بعد الأداء سعة من قدرة على أداء غيره، ولكن لا يؤدى الزيادة إلا بجهد. ولا يفهم من هذا أن تكليف الوسع لا تكون فيه مشقة قط، بل إن كل تكليف هو أمر بما فيه كلفة، وهى المشقة؛ وعلى ذلك تكون التكليفات الشرعية لها ثلاث خواص ملازمة: وهى أن فيها مشقة محتملة، وأنها تكون فى الوسع والقدرة من غير حرج ولا ضيق، وأنها تكون من غير مجهود شديد يكون

---

(١) روى البخارى: الإيمان - أنا أعلمكم (١٩).

أقصى الطاقة. تلك هى خواص تكليف الله تعالى لكل نفس كما تدل عليه الجملة السامية.

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ هذه الجملة السامية تبين أن كل تكليف قد اقترن بجزائه، وأن كل امرئ سيجزى على الخير خيرا، وعلى الشر شرا. وما تضمنه ذلك النص الكريم هو نتيجة لما تضمنه النص السابق؛ لأن النص السابق أفاد أن ثمة تكليفا، ولا ينتج التكليف نتائجه إلا إذا كان ثمة جزاء؛ والنص السابق أيضًا أفاد أن الله لا يكلف إلا بما يكون فى القدرة من غير إرهاق، بل بإرادة حرة ويسر لا عسر فيه. وذلك أساس للقيام بالتكليف بإرادة حرة، ومقدرة غير مرهقة؛ وذلك يوجب الجزاء العادل.

وقد اتفق العلماء على أن قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ المراد بها الحسنات التى يثيب الله عليها؛ وقوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ المراد به السيئات التى التى يعاقب الله تعالى عليها. وقد أخذوا هذا من النص باللام فى الجملة الأولى، والنص بعلى فى الجملة الثانية؛ فإن التعبير باللام التى تفيد الملكية المفيدة فى مقابل على التى تفيد التحميل، ووضع الشئ على الشخص، يجعل الأولى مفيدة للجزاء ثوابا، والثانية مفيدة للجزاء عقابًا؛ وإذا لم يكن ذلك التقابل، فإنه يعبر باللام فى موضع الثواب والعقاب؛ فيقول سبحانه: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ... ۝١٠﴾ [البقرة] و﴿لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ... ۝٢٥﴾ [البقرة] إذ لا قرينة تدل على الملكية المفيدة؛ فتكون اللام لمطلق الاختصاص.

وهنا سؤال لفظى: لماذا عبر سبحانه عن هذا الخير بقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ وعن الشر بـ ﴿اكْتَسَبَتْ﴾ مع أن الكسب يكون للخير وللشر كما فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ... ۝٢٧﴾ [يونس]؟ وقد أجاب عن ذلك الزمخشرى بقوله: «فى الاكتساب اعتمال؛ فلما كان الشر مما تشتهيه النفس، وهى منجذبة إليه وأمَّارة به، كانت فى تحصيله أعمل وأجد؛ فجعلت لذلك مكتسبة

فيه» وهذا التعليل قد يشير إلى أن الشر الكبير الذى تعتمله النفس وتجد فيه، وتلح وتستمر عليه، هو موضع المؤاخذة، والضئيل قد يكون موضع العفو؛ أى ما تفعله النفس من خير فكله موضع ثواب، قل أو جل؛ وذلك معنى صحيح.

ولكن هناك تعليلاً آخر نراه، وهو أن التعبير باكتسب يفيد معنى الاعتمال، وهو ما يفعله الإنسان غير منساق إليه، والطبيعة الإنسانية تنحو نحو الخير، والشر ضد الفطرة وضد الوجدان والضمير، ومن يفعله يغالب فطرته ثم لا يلبث إلا قليلا حتى يذوق شجرة الشر فينساق، وإن الإنسان ليرى ذلك فى كل من يرتكب الجرائم، فهو يبتدئ بالجريمة مغالبًا نفسه ثم تطاوعه ثم ينساق؛ فالقاتل كذلك، والسارق، والزانى؛ أول جريمة يرتكبها بتعمل، ثم يألف الارتكاب فيكون سهلا؛ لذلك عبر عن الشر بالاكتساب؛ لأنه ضد الفطرة التى فطر الله الناس عليها، وضد الضمير، وعبر عن الخير هنا بالكسب لأنه الفطرة.

وبعد بيان سنة الله فى التكليف وجزائه ذكر سبحانه حال المؤمن المخلص فى ضراعته، وضراعته بالالتجاء إلى ربه ودعائه، وقد ذكر سبحانه ستة أدعية تفيد هذه الضراعة وتشير إلى رحمة الله تعالى وخواص شرعه الشريف.

﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ هذا هو الدعاء الأول، وقد ابتدأ بنداء الله سبحانه بـ «ربنا» لكمال الضراعة والشعور بالربوبية، وكمال إنعام الله تعالى، وضعف المخلوق أمام الخالق، ووفاء المنعم عليه أمام المنعم، وللإشعار بأن ما تضمنه الدعاء من النعم التى أنعم بها، وكمال الربوبية التى ربَّ الناس بها.

والمؤاخذة معناها المجازاة، وأصلها من الأخذ. وفى التعبير عن المجازاة بالمؤاخذة إشارة إلى أن ما يستحقون من عقاب هو فى نظير ما أخذوا من نعم لم يعرفوا حقها، فهم أخذوها وجحدوها، فأخذهم الله تعالى بحقها.

وقد سأل سائل: لماذا ذكر الله سبحانه عن أحوالهم هذا الدعاء مع أنه مرفوع عن أمة محمد بقوله ﷺ: «**رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**»؟[(١)] وقد أجاب عن ذلك الزمخشري فقال: «إنهم كانوا متقين الله حق تقاته، فما كانت تفرط منهم فرطة إلا على وجه النسيان والخطأ، فكان وصفهم بالدعاء بذلك إيذانًا ببراءة ساحتهم عما يؤاخذون به، كأنه قيل: إن كان النسيان والخطأ مما يؤاخذ به فما فيهم سبب المؤاخذة إلا الخطأ والنسيان ويجوز أن يدعو الإنسان بما علم أنه حاصل له قبل الدعاء من فضل الله لاستدامته والاعتداد بالنعمة فيه». هذه إجابة قيمة، وأزيد عليها أن المتقين أرهفت ضمائرهم وقويت نفوسهم، واشتدت خشيتهم من الله، حتى لقد أحسوا من فرط حساسيتهم أنهم محاسبون على ما لا حساب عليه؛ وإن المؤمن التقى يستكثر هفواته، ويستقل حسناته، وإن النسيان والخطأ قد توهموا فيهما أن يكون سببهما الإهمال وعدم العناية، وهما كذلك أحيانًا، فكان فرط إحساسهم مرجحًا لجانب المؤاخذة على جانب العفو، وجانب الخوف على جانب الرجاء، فكان الدعاء.

﴿**رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا**﴾ الإصر: هو العبء الكبير، مأخوذ من أصرَ بمعنى حبَس، فكأنه لثقله يحبس صاحبه فى مكانه فيمنعه من الحركة، وحمل عليه بمعنى وضع عليه وألقى عليه. وهذا هو الدعاء الثانى، ومعناه أن أولئك المتقين حالهم حال ضراعة لربهم بألا يلقى عليهم آصارًا شدادًا من التكليفات تثقل عليهم حتى يعجزوا عن أدائها أو لا يؤدوها إلا فى حال من الشدة، كما حمل الله جلت قدرته وعلت حكمته على الذين من قبلهم. ولكن ما هذه الآصار، وتلك الأعباء؟ أهى أعباء من التكليفات تتعلق بالأوامر الشرعية والنواهى، أم هى ما يبتلى به المؤمن من شدائد واختبارات كما ابتلى الذين من قبلهم فى قوله تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ**

---

(١) فتح البارى: الأيمان والنذور - (٦١٧١) وأَخْرَجَهُ اِبْن مَاجَهْ مِنْ حَدِيث اِبْن عَبَّاس - كتاب الطلاق - طلاق المكره والناسى (٢٠٣٥).

وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة] وإنى أميل إلى أن الآصار هى من هذا النوع من الابتلاء، كأنهم لرغبتهم فى نصر الله تعالى يضرعون إليه أن يمدهم بعونه فى حمل عبء الجهاد فى سبيل نشر الإسلام والدعوة إليه. ويزكى ذلك قوله تعالى فى ختام السورة ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ولكن هل معنى ذلك أنهم لا يريدون أن يختبروا كما اختبر أقوياء الإيمان ممن سبقوهم؟ وأقول فى الإجابة عن ذلك: إن طالب الحق المؤمن به يستكثر فعل الخير من غيره، ويستقل حال نفسه وفعله، وكأنهم يعترفون بفضل من سبقوهم، ويحسبون أنهم دونهم، فيطلبون عون الله تعالى، وذلك دليل قوة الإيمان، وأنهم ليسوا أقل منهم، بل يزيدون بذلك الاعتراف الكريم.

﴿رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ الطاقة: قال فيها الراغب الأصفهانى ما نصه: «الطاقة اسم لمقدار ما يمكن الإنسان أن يفعله بمشقة؛ وذلك تشبيه بالطوق المحيط بالشىء؛ فقوله تعالى: ﴿لا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ أى ما يصعب علينا مزاولته، وليس معناه لا تحملنا مالا قدرة لنا به» فالطاقة على هذا تكون فيما يمكن فعله بأقصى القدرة. وهذا هو الدعاء الثالث وقد كررت فيه كلمة «ربنا» لكمال الضراعة ولبيان أن حالهم دائمًا يتجدد فيها الشعور بالربوبية، وحق الخالق المنعم عليهم. وهذا هو الدعاء هو تدرج مترتب على الدعاء السابق. لقد ضرعوا إلى الله ألا يختبرهم ذلك الاختبار الشديد الذى ألقى على عاتق من سبقوهم أو يخشون ألا يقوموا بحقه كما قام من قبلهم ثم يضرعون الآن ألا يكلفوا إلا ما يطيقون، أى أنهم على أتم استعداد لأن يبذلوا أقصى قدرتهم، وغاية قوتهم؛ فإن الطاقة أقصى القدرة كما بينا ونقلنا. فمعنى الجملة السامية: لا تحملنا ما فوق الطاقة ونحن على استعداد بعونكم لما هو كل الطاقة. وهذه حال من الإيمان سامية. وعبر هنا بالفعل المضعف «تحمِّلنا» وفى الأول من غير تضعيف؛ لأن الإصر نفسه والتعبير بعلى فيهما بيان شدة الاختبار، فلا حاجة إلى مبالغة فى صيغة الحمل؛ أما هنا فالاختبار بما هو فى الطاقة وإن كانت المشقة شديدة، فكان ثمة متسع فى المبالغة فى الصيغة.

﴿ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ﴾ هذه هى الأدعية الثلاثة الأخيرة وكلها فى باب واحد، وهو باب الإحساس بالمصير فى القيام بالواجب، وهى مرتبة من الإيمان سامية؛ لأن المؤمن يفرض التقصير فى نفسه ليسعى إلى الكمال، وليرجو رحمة الكبير المتعال، لا يفرض فى نفسه الكمال حتى لا يدلى بغرور، ويكون ممن زين له سوء عمله فرآه حسنًا. وحال الرسول مع المتقين حال الشاعرين بالتقصير مهما يكن مقدار ما قاموا به؛ وإذا ضرعوا بهذا الدعاء؛ طالبوا بالعفو بألا يحاسبهم على ما عساه يكون منهم من هفوات، أو ما تتحدث به نفوسهم من إصرار على شر ولا نية له، وما يكون موضع الحساب يضرعون إلى ربهم أن يكون موضع غفرانه، فيستر ذنوبهم ولا يفضحهم، ثم يضرعون إلى الله بعد ذلك أن يمنَّ عليهم برحمته فى الدنيا والآخرة، وإنهم لفرط إحساسهم بالتقصير لا يعتبرون الثواب جزاء، بل يعتبرونه رحمة ومنةً وفضلا من رب العالمين.

﴿ أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ هذه هى الوثيقة الربانية، يستمسكون بها، وهى إحساسهم بأن الله مولاهم، أى معينهم وكالئهم وناصرهم وممدهم بفضله، وقد طلبوا منه النصرة الدائمة على القوم الكافرين. وإن هذا الدعاء الأخير يقوى المعنى الذى قررناه فى تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا ﴾.

وإنا نضرع إلى المولى جلت قدرته أن يعفو عنا، ويغفر لنا، ويرحمنا، إنه الغفور الرحيم، والعفو القدير.

سورة آل عمران

بين يدى السورة:

هذه أولى آيات سورة آل عمران، وهى مدنية، وقد سميت بآل عمران لاشتمالها على قصتهم؛ إذ قال سبحانه: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴿٣٣﴾ ﴾ [**آل عمران**] إلى آخر كلامه العزيز فى تلك العبرة التى ساقها.

موضوعات السورة:

وإن هذه السورة الكريمة :

(١) فيها تنويه بذكر القرآن وأقسامه، وإشارة إلى محكمه والمتشابه منه، وأقسام الناس فى تلقى ذلك الهدى الإلهى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

(٢) وفيها قصة آل عمران، وولادة مريم البتول، ويحيى النبى، وعيسى الرسول، وما اكتنف ولادتهم من آيات تدل على كمال إرادة الله تعالى فى خلقه.

(٣) وفيها إشارات إلى معجزات عيسى عليه السلام، وكفر من دعاهم بعد هذه المعجزات الظاهرة القاطعة؛ وإن ذلك يدل على أن العناد يضع غشاءً على العين فلا تبصر، وعلى البصيرة فلا تدرك.

(٤) وفيها مجادلة النبى ﷺ مع النصارى واليهود، وبيان طائفة من أخلاق اليهود واعتقادهم أن الإيمان احتكار لمذهب، وتغليق القلوب عن غيره؛ إذ قالوا: ﴿ **وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ** ﴿٧٣﴾ ﴾ إلى آخر كلامه العزيز فى تلك العبرة.

(٥) وفيها بيان أن الإسلام فى لُبِّه ومعناه هو دين كل الأنبياء السابقين؛ لأنه دين الله السرمدى ، سبق بالدعوة إلى حقيقته النبيون، وختم الله الدعوة بخاتم النبيين محمد الأمين.

(٦) وفيها بيان فريضة الحج المحكمة وبيان الوحدة الإسلامية، وفى جمعها مع الحج فى موضع واحد إشارة إلى أن الحج من وسائلها، وأعقب ذلك ببيان فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأنها ركن الوحدة الإسلامية ودعامتها، والذريعة لجعل هذه الوحدة على أسس فاضلة مشتقة من هدى الدين الحكيم.

(٧) وفيها بيان واجب قادة المؤمنين من ألا يتخذوا بطانة من غير المؤمنين؛ إذ هم فى حقيقة أمرهم لا يألون المؤمنين خبالا ويودون عنتهم، ثم فيها تفصيل محكم لغزوة أحد، وبيان سبب الهزيمة وأعقابها، والعبرة فى هذه الغزوة التى كانت فيها هزيمة ولكن لم يكن فيها خذلان، بل كانت العبرة فيها والاعتبار بها باب الفتح المبين. وفى أثناء القصة وختامها بيان حال قتلى المؤمنين وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون.

(٨) وفيها إشارة إلى أعمال المنافقين فى النصر والهزيمة، واتباع ضعاف الإيمان لوسوستهم، وصيانة الله لأقوياء الإيمان من أعمالهم.

(٩) ثم فيها عزاء للنبى ﷺ بذكر ما كُذب به الأنبياء السابقون مع أنهم أتوا بالبينات والأدلة الحسية القاطعة إذ قال سبحانه: ﴿ **فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ** ﴿١٨٤﴾ ﴾.

(١٠) وفيها بيان أن الله سبحانه سيبتلى المؤمنين ويختبرهم، وفى الابتلاء صقل إيمانهم.

(١١) وفيها بيان أخلاق المؤمنين وتفكرهم فى خلق السموات والأرض وما بينهما، وضراعتهم إلى ربهم، واستجابة الله تعالى لهم، وجزاؤهم يوم القيامة، والمقابلة بينه وبين جزاء الكافرين الذين اغتروا بالحياة الدنيا مع أن متاعها قليل، وفيها إنصاف كريم لبعض أهل الكتاب الذين آمنوا وصدقوا ولم يسرفوا على أنفسهم بالإنكار والتكذيب مع قيام الدلائل الواضحة القاطعة.

(١٢) ثم ختم سبحانه بدعوة المؤمنين إلى مجاهدة المشركين بالتقوى وبالصبر وبإعداد العدة، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ (١) ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ (٣) مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ (٤) إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ (٥) هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٦)

﴿ الـم﴾ هذا الاسم القرآنى الذى سَمى به القرآن هذه السورة، وهذه حروف تقرأ فى القرآن الكريم بأسمائها، وهى ألف لام ميم. والمعنى الذى تدل عليه هذه الحروف غير معلوم على وجه اليقين كما أسلفنا فى سورة البقرة والله أعلم بمراده منها، ولا يستطيع عالم يعتمد على الحقائق العلمية أن يقرر المراد من هذه الحروف، والمعنى المحرر لها، وأقصى ما ذكره العلماء لها حِكَم يدل عليها ذكرها، ومن أحسن ذلك أن يقال : إن هذه الحروف تشير إلى أن القرآن الكريم من جنس ما يتكلم به العرب، وأنه مكون من الحروف التى يتكون منها كلامكم، ومع ذلك تعجزون عن أن تأتوا بمثل سورة منه؛ فهى إشارة إلى العجز مع الطمع فى أن يحاولوا، ولن يأتوا بسورة من مثله. ومن أحسن ما يقال أيضا أن النبى الأمى كان ينطق بهذه الحروف التى كان لا يعرفها إلا من يقرأ ويكتب، فاشتمال القرآن عليها مع أميته ـ عليه السلام ـ دليل على أنه من عند الله. ومن ذلك أيضا

ما قيل من أن هذه الحروف الصوتية التى اشتملت عليها بعض أوائل السور إذا أنطق بها الناطق مع ما فيها من مد طويل أو قصير، استرعى ذلك الأسماع فاتجهت إليه، وإن لم يُرد السامعون. ويروى فى ذلك أن المشركين من فرط تأثير القرآن قد تفاهموا على ألا يسمعوا لهذا القرآن: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ** ﴿٢٦﴾ ﴾ [**فصلت**]. فكانوا إذا قرعت آذانهم هذه الحروف بمدها، التفتوا مرغمين، ثم هجمت على قلوبهم من بعد ذلك الآيات البينة المحكمة، تعالت كلماته سبحانه:

﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** ﴾: هذه الجملة السامية تبين أصل التوحيد، وتقرر معناه، فابتدئت بلفظ الجلالة الذى يدل على كمال الألوهية، وانفراده ـ سبحانه ـ بحق العبودية، إذ إنه الإله وحده الذى أنشأ الخلق ورباه ونماه، ولا مالك لهذا الوجود ومن فيه وما فيه سواه. ولفظ «الله» علم على الذات العلية المتصفة بكل كمال والمنزهة عن كل نقص، والتى لا تشابه الحوادث، ولا يشبهها شىء من الحوادث: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴿١١﴾ ﴾ [**الشورى**]. ثم صرح سبحانه وتعالى بما تضمنه لفظ الجلالة وهو الانفراد بالألوهية وحق العبودية فقال سبحانه: ﴿ **لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ** ﴾ أى لا معبود بحق إلا هو، أوْ لاَ إله فى الحقيقة والواقع إلا هو، وكل ما يدعى له الألوهية من شخص أو وثن فهو ليس إلا أسماءٌ سمّاهم بها المشركون الضالون، وليس من حقيقة الألوهية فى شىء ﴿ **إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ** ... ﴿٢٣﴾ ﴾ [**النجم**] ثم بين سبحانه الأوصاف التى تبين استحقاقه وحده لحق العبودية، فقال سبحانه: ﴿ **الْحَيُّ الْقَيُّومُ** ﴾ أى الدائم الحياة الذى لا يفنى، ويفنى ما سواه، ولا يستمد حى حياته إلا بإرادته سبحانه، وهو القائم بنفسه، والقائم على كل شىء، والمدبر لكل شىء. فهذا معنى القيوم(١).

(١) قال الشيخ أبو زهرة رحمه الله تعالى: قد فسرنا هذه الجملة السامية فى تفسير آية الكرسى فارجع إليه..

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ «الكتـاب» هو القـرآن الكريم، وإن أكثر السور التى تبتدئ بتلك الحروف تقترن فيها الحروف بالتنويه بذكر القرآن، وإعـلاء شأنه، مما جعل المفـسرين يعتبـرون تلك الحروف أسمـاءً للسور، سماها القـرآن بها، وفواصل محكمة بين سورة وأخـرى من سور القرآن الكريم، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل. وقد عبر ـ سبحانه وتعالى ـ عن نزول القرآن الكريم بـ ﴿نَزَّلَ﴾ للإشـارة إلى أن النزول كان تدريجـيا، ولـم يكن دفـعة واحـدة، إذ إن التنزيل يدل على التدرج فى النزول، وكذلك كان القـرآن الكريم؛ فقد نزل منجما ينزل فى الوقائع، أو الأسـئلة ليكون السبب الذى اقـترن بنزوله مـعِينا على فهـمه وإدراك بعض مغازيه.

وقد ذكر تنزيل القرآن مقترنا بأمرين متصلا بهما :

أولهما: أنه حق فى ذاته، ومبين للحق مشتمل عليه، وداع إليه، فقال الله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أى مصاحبا له مقترنا به ملازما له، فهو حق لأنه نزل من عند رب العالمين، واشتمل على الحق، فكل ما فيه من قصص وأخبار وشرائع وأحكام وعقائد حق لا شك فـيه، وهو يدعو إلى الحق والعدل، فـهو الحق الملازم للحق، الناصر للحق.

وثـانى الأمـرين: أنه مـصـدق لما بيـن يـديـه؛ أى الشـرائع الإلهـيـة التى سبقته؛ ولذا قـال سبحانه: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فهو فى لبه ومـعناه مبين لكل الشرائـع مصدق لصـدقهـا؛ وهذا يدل على أن الشـرائع الإلهيـة واحدة فى لبـها ومعناها وأصولها؛ ولذا قال سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ... ﴿١٣﴾﴾ [الشورى]. فالإسلام هو لب الأديان وغايتهـا؛ ولذا قال سبحانه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ... ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران].

﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ هذا تصريح ببـعض ما تضمنتـه الجملة السامـية السابقة؛ إذ قد تضمنت الجملة السابقة أن القرآن يصدق الثابت النازل من عند الله

فى الشرائع السابقة، وهى تتضمن أنها كانت هداية للناس؛ وهذه الجملة تصرح بأن التوراة أنزلت هى والإنجيل من عند الله هداية للذين أنزلت لهم. وفى هذه الجملة إشارة إلى معنى آخر، وهو أن لكل أمة كتابا وهداية خاصة، وإن كانت فى معناها مشتقة من الهدى الإلهى العام، حتى إذا كانت دعوة محمد ﷺ كانت هى الهدى العام الخالد إلى يوم القيامة.

﴿التَّوْرَاةَ﴾ اسم للكتاب الذى اشتمل على شريعة موسيعليه السلام، ونزل عليه من رب العالمين، وليست هى التوراة التى يتلوها اليهود اليوم؛ لأن هذه التى تسمى بهذا الاسم الآن تشمل ما نزل فى عهد موسى، وتشمل ما جاء بعد ذلك فى عهد النبيين الذين بُعثوا فى بنى إسرائيل كداود وسليمان وغيرهما، وفوق ذلك فإن القرآن الكريم أشار فى عدة مواضع إلى أن أهل الكتاب نسوا حظا مما ذكروا به، وحرفوا الكلم عن مواضعه، وغيروا وبدلوا، ثم كانت التخريبات التى حلت بأورشليم فى عهد بختنصر أولا، ثم فى عهد الرومان ثانيا سببا فى أنهم نسوا حظا مما ذُكِّروا به، فليست التوراة المذكورة فى القرآن هى التوراة الشائعة الآن.

﴿وَالإِنجِيلَ﴾ كلمة يونانية(١) معناها البشارة، والإنجيل هو الكتاب الذى نزل على عيسى، وليس هو هذه الأناجيل التى يقرؤها المسيحيون اليوم، فإن هذه مؤلفات ألفت بعد السيد المسيح عيسى عليه السلام؛ نسبت إلى بعض الحواريين من أصحابه؛ ولقد كان للمسيح عليه السلام إنجيل غير هذه الأناجيل، وهو الذى ذكره القرآن الكريم على أنه هداية للناس. ولقد قرر الأحرار من النصارى ذلك؛ فقد قال أكهارن من مؤلفى تاريخ النصرانية : «إنه كان فى ابتداء المسيحية رسالة مختصرة يجوز أن يقال إنها هى الإنجيل الأصلى، والغالب أن هذا الإنجيل كان للمريدين الذين لم يسمعوا أقوال المسيح بآذانهم ولم يروا أحواله بأعينهم، وكان هذا الإنجيل بمنزلة القلب، وما كانت الأحوال المسيحية مكتوبة فيه على الترتيب»(٢).

(١) وقيل: سريانية، وقيل: أعجمية (اللباب ٥/ ١٩-٢٠).
(٢) راجع تاريخ الأناجيل وصحة نسبتها فى كتاب «محاضرات فى النصرانية» للأستاذ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربى.

وقد ذكرت ذلك الإنجيلَ الأناجيلُ المنسوبة لبعض الحواريين وهى المعروفة الآن؛ فقد جاء فى إنجيل متى ما نصه: «وكان يسوع يطوف كل الجليل، يعلِّم فى مجامعهم، ويكرر ببشارة الملكوت، ويشفى كل مرض وكل ضعف فى الشعب» وبشارة الملكوت هى ترجمة دقيقة لكلمة إنجيل، فإن كلمة إنجيل يونانية كما نوهنا، فقد كانت إذن بشارة أى إنجيل غير هذه الأناجيل، وهو المذكور فى القرآن، وإن لم يعلم الآن.

﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾: ﴿الْفُرْقَانَ﴾ هنا هو: القرآن، وكرر ذكره بعد أن ذكرت التوراة والإنجيل؛ للإشارة إلى الاتصال الكامل بين شرائع الله تعالى، وأنه تتميم لما سبقه، وأنه كمال هذه الشرائع كلها، وأن رسالة النبى ﷺ هى آخر لبنة فى صرح الشرائع الإلهية، وبنزولها كمل دين الله[1]. وكرر ذكره أيضاً لوصفه بالفرقان، فهو أتى بمعنى جديد لا يغنى عنه ذكر الكتاب أولا. ووصف القرآن الكريم بالفرقان؛ لأنه فارق بين الحق والباطل، ومبين للصادق من الكتب السابقة، ولأنه فارق بين عهدين فى الرسائل الإلهية؛ فقد كانت رسالات الرسل من قبل لأمم خاصة، ومن بعد كانت الرسالة المحمدية للناس كافة، فمن قبله كانت الرسالات لعلاج أحوال عارضة وقتية؛ أما رسالة القرآن فعلاج لأدواء الإنسانية، وتقرير الصالح لها مهما تختلف الأمصار، وتتباعد الأقطار، ولأنه ميزان الحقائق إلى يوم القيامة؛ ولذلك قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ... ﴿١٧﴾﴾ [الشورى].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ ذكر سبحانه عقاب الذين يكفرون بآيات الله، أى معجزاته الباهرة، وآياته المتلوة القاهرة، بعد أن ذكر كتب الديانات الثلاث: اليهودية، والنصرانية، والإسلام؛

(١) يشير - رحمه الله - إلى ما ورد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إلا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلاَّ وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ. قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ» وهو حديث متفق على صحته رواه البخاري: المناقب - خاتم النبيين (٣٢٧١)، ومسلم: الفضائل (٤٢٣٩).

للإشارة إلى أن الذين يكفرون بمحمد إنما يكفرون بشرائع الله المنزلة كلها؛ لأن شريعته كمالها، وبها تمامها وختامها؛ وللإشارة إلى أن اليهود والنصارى الذين لا يتبعون محمدا، إنما يكفرون بحقيقة النصرانية نفسها، واليهودية ذاتها إذ يكفرون بمحمد ﷺ؛ فليست رسالة محمد إلا الخطوة الأخيرة فى الشرائع الإلهية، وهى الكمال، وقد بشرت به الكتب السابقة كلها، فالكفر به كفر بها، والإسلام سيمر بالشرع الإلهى إلى أقصى غايته؛ ولو كان موسى حيا ما وسعه إلا الإيمان بما جاء به محمد كما أشار بذلك النبى ﷺ.

ومن أجل هذا كان الذين يكفرون بمحمد لهم عذاب شديد، وخصوصا إذا كانوا من اليهود والنصارى؛ لأنهم حينئذ يكفرون بكل آيات الله تعالى.

ثم وصف سبحانه ذاته الكريمة بما يفيد أنه غالب، وأنه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، فقال: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ أى أنه سبحانه بعزته غالب على كل شىء، مسيطر على كل شىء، ليس فوقه أحد، وهو القاهر فوق عباده. وهو ذو انتقام؛ أى أنه سبحانه له انتقام شديد لا يدرك كنهه؛ ولذلك نكَّر الانتقام. والانتقام إنزال النقمة والشدة فى مقابل ما يرتكبه الشخص؛ فإن كان من عادل حكيم كان عقوبة عادلة، وجزاء وفاقا؛ وكذلك يكون عقاب الله تعالى؛ فانتقام الله ليس تشفيا وشفاء غيظ كما هو الشأن من البشر، بل انتقام الله عقوبة عادلة، وقصاص رادع. وعبر بـ ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾، أى صاحب انتقام؛ للإشارة إلى أن هذا الانتقام فى قدرته سبحانه وسلطانه ينزله أنى شاء، ومتى شاء بمقتضى حكمته وإرادته وقدرته، وعلمه الذى يحيط بكل شىء؛ ولذا قال بعد ذلك:

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾ هذه الجملة السامية تفيد تمام إحاطة الله تعالى فى علمه، فهو سبحانه وتعالى يتجلى له كل شىء، ولو كان خافيا عن الناس أو من شأنه الخفاء؛ ولذلك جاء التعبير عن العلم الكامل، ببيان نفى الخفاء عليه سبحانه؛ وذلك لأن العالِم المحيط قد يخفى عليه شىء، لكن علم الله غير ذلك، فهو علم لا خفاء معه فى شىء مطلقا؛ وإذا كان الله سبحانه وتعالى عليما بكل شىء لا يخفى عليه شىء فهو يعلم القلوب وما تخفيه، وما تكنه السرائر، وما تكنه الضمائر، فهو يعلم البواعث على الكفر، وأنها ليست نقصاً فى الدليل، ولكنها مآرب الدنيا، والعصبية الجنسية والمذهبية، فليس الذين ينكرون ما جاء به محمد مخلصين فى إنكارهم، بل هى لجاجة العناد، وجحود المستيقن. وذكر سبحانه السماء والأرض للإشارة إلى أن علمه قد وسع كل شىء؛ وسع السموات والأرض، وليس الإنسان وما تحدثه به نفسه إلا شيئا صغيرا فى هذا الملكوت العظيم، وذلك العالم بأرضه وسمائه. وأكد نفى الخفاء بتكرار «لا» فى قوله تعالى: ﴿وَلا فِي السَّمَاءِ﴾ فَذكرُها ثانيا تأكيد لأنه لايخفى عليه شىء.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ هذا بيان لسبب علم الله بعامة، وعلمه بالإنسان بخاصة؛ فإنه علمُ المكوِّن المنشىء، الخالق المبدع، ومن ذا الذى لا يعلم ما أنشأه وكونه وأبدعه على غير مثال سبق؟! ولذا قال تعالى: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك]. فهذه الآية الكريمة فى مقام التعليل للآية السابقة؛ إذ الأولى بينت أن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء، وهى تتضمن الإشارة إلى أن ما تخفيه السرائر من بواعث على الإيمان أو الكفر، والوفاق أو العناد، يعلمه سبحانه لأنه لا يخفى عليه شىء

فى الأرض ولا فى السماء. وهذه الآية تفيد أن الله سبحانه وتعالى يعلم الإنسان لا بعد أن استوى وصار فى أحسن تقويم، بل يعلمه وهو نطفة لُفِظَت، ثم استقرت فى الأرحام، ويعلمه كذلك علم المكوِّن المنشىء المربى الذى يتولى بقدرته تصويره حتى يصير بَشَرا سَوِيا.

والتصوير: مأخوذ من مادة صار إلى كذا بمعنى تحول إليه، أو من صَارَهُ إلى كذا بمعنى أماله وحوله؛ فالتصوير معناه إذن تحويل شىء من حال إلى حال مغيَّرا فى شكله وهيئته بإمالته من مشابهة شىء إلى مشابهة شىء آخر؛ وكذلك صنع الله تعالى فى النطفة؛ فإنه يحولها إلى علقة، ومن علقة إلى مضغة، ثم يجعل المضغة عظاما، وهكذا، وتحويل الله وتصويره ليس تغييرا فى الشكل، بل هو تنمية، وتكوين، وتدرج فى هذا التكوين يستمر من وقت إيداع النطفة فى مستودعها، حتى يصير إنسانًا فى أحسن تقويم، بل يستمر التكوين حتى يبلغ أشده.

والأرحام: جمع رحم، وهو مستودع النطفة فى المرأة الذى فيه يتربى وينمو، ويجرى تصوير الله له وتكوينه إياه، حتى يبرز فى الوجود حيا يحس ويسمع، ثم يعلم ويتعلم؛ والله سبحانه وتعالى على كل شىء قدير.

وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ فيه بيان لأمرين:

أحدهما: أن هذا التكوين تبع لمشيئة الله وإرادته، فلم يكن وجوده كوجود المعلول من علته، وكالمسبب من سببه، إنما وجوده وتكوينه ونموه بإرادة الله تعالى ومشيئته، وهو فعال لما يريد.

الأمر الثانى: بيان أن الله وحده هو الذى يجعله ذكرا أو أنثى، وجميلا أو دميما، وأبيض أو أسود، بل إنه سبحانه يكتبه وهو فى رحم أمه شقيا أو سعيدا، مؤمنا أو كافرا، عالما أو جاهلا، تعالى الله سبحان فى علمه علوا كبيرا.

ولقد ذكر بعض المفسرين أن هذه الآية الكريمة فيها رد على بعض النصارى الذين اعتبروا المسيح عيسى ابن مريم إلـها؛ لأنه ولد من غير أب؛ فالله سبحانه وتعالى يبين فى هذه الآية أنه هو الذى صوره وكونه فى رحم أمه، كما يُكوِّن سائر الناس، وما كان الإله قابلا للنمو من الصغر إلى الكبر، ومن النطفة إلى العلقة، فالمضغة، فالعظام، وإذا كان رب البرية قد ألقى فى رحم مريم ما هو من جنس النطفة البشرية من غير أب يودعها فإن التكوين الذى يسرى على البشر سرى عليه فكيف يكون إلها؟ ويزكى هذا أن الآيات من أول السورة إلى ثمانين آية كان سبب نزولها - فيما يروى فى أسباب النزول - وفد نجران ومناقشة النبى ﷺ، وسواء أصح ذلك سببا للنزول أم لم يصح فإن الآية فيها رد على من يدَّعى ألوهية المسيح.

﴿**لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ فى هذه الجملة السامية تقرير للوحدانية وانفراده سبحانه وتعالى بالألوهية وحق العبودية، بعد أن قدم ما هو دليل على هذه الوحدانية، وهو العلم الشامل لكل شيء الذى لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء، وبعد أن أشار سبحانه إلى أنه المكون لكل شيء وخص الإنسان بالذكر؛ لأنه هو الذى يتمرد ويضل، وكل ما فى الوجود مسخر له كما قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا** ... (٢٩)﴾ [**البقرة**].

ثم ختم سبحانه وتعالى بالعزة والحكمة، لبيان كمال سلطانه فى ملكه الذى خلقه، وإثبات أنه لا سلطان لأحد معه حى يشترك فى عبادته سبحانه وتعالى، وكيف يكون إله لا سلطان له! ولبيان أن الله سبحانه يدبر هذا الكون بواسع علمه وعظيم حكمته، إنه على كل شيء قدير، وهو نعم المولى ونعم النصير.

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾

فى الآيات السابقة ذكر سبحانه منزلة القرآن بين الكتب السماوية، وأنه فرقانُها وميزانها، وذكر أنه سبحانه وتعالى العليم بكل شيء، الذى لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء، فهو العليم بخلقه، والعليم بما ينزل عليهم من آيات بينات، والعليم بمداركهم البشرية، وطاقاتهم العقلية، يطالبهم بما يدركون ويكلفهم ما يستطيعون؛ وفى هذه الآية يبين أقسام القرآن من حيث قوة إدراكهم له، وتطلعهم لفهمه، وتباين مقاصدهم فى طلب حقيقته ومعْناه، وغايته ومرماه؛ وفيها بيان أنه قسمان: قسم لا تدركه كل العقول، وقسم تدركه كل العقول المميزة، وأن ما يعلو على الإدراك، أصله ما أدركه كل الناس. ولذا قال سبحانه:

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ الضمير يعود إلى الذات العلية التى وصفت فى الآيات السابقة، إذ قد وصف ذاته ـ جلت قدرته ـ بأنه الحى القائم على كل شيء، والذى به يقوم كل شيء، وبأنه منزل الكتب من السماء، وجاعل القرآن ميزانها، وأنه سبحانه لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء، وأنه سبحانه الذى يعلم الإنسان منذ يكون نطفة فى بطن أمه إلى أن يصير إنساناً مستوياً كامل التكوين، وهو الذى يصوره ذلك التصوير، ويكونه ذلك التكوين، وهو العزيز الغالب المسيطر على كل شيء خلقه، ولا شيء فى الوجود إلا كان خلقه، الذى يتصرف فى هذا الكون بمقتضى حكمته وعلمه بكل شيء؛ فقوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ﴾ الضمير يعود إلى المتصف بهذه الصفات. وقوله: ﴿الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ معناه أن هذا الكتاب العظيم الشأن الذى هو ميزان الكتب السابقة وفرقانها، أنزله الله العلى القدير المتصف بهذه الصفات عليك، وقد اختارك موضع رسالته، وأداء أمانته، و ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ... ﴿١٢٤﴾﴾ [الأنعام] وهو أعلم بشأن الكتاب وما جاء فيه، وتلقى الناس له، ومقدار إدراكهم لما فيه، وقد شاء بحكمته الواسعة أن يجعله قسمين؛ أحدهما: يدركه كل الناس، والثانى: فوق مستوى عامة الناس، ولذا قال بعد ذلك:

﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴿٧﴾﴾ أى أن القرآن من حيث بيانه وإدراك الناس له: محكم، ومتشابه؛ ولقد وجدنا القرآن الكريم وصف بأنه كله محكم فى مثل قوله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ... ﴿١﴾﴾ [هود] أى أنها نزلت محكمة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها؛ ووصفه الله سبحانه وتعالى بأنه متشابه؛ فقد قال تعالى: ﴿كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ... ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر] ومعنى التشابه هنا هو أنه على شاكلة واحدة من حيث قوة تأثيره، وتآخى معانيه، وإحكام نسقه، وفصاحة ألفاظه، وقوة تأثيره بِأَلْفَاظِهِ ومعانيه؛ فهو فى هذا متشابه، أى يشبه بعضه بعضاً.

وفى هذه الآية التى نتكلم فى معانيها وُصف القرآن بأن منه آيات محكمات، وأخر متشابهات؛ فلا شك أن معنى مُحكم هنا غير معناها فى قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ... ﴿١﴾﴾ ومتشابه غير معناها فى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ ... ﴿٢٣﴾﴾ وإن ذلك يتضح من تفسير كلمة محكم ومتشابه فى أصل معناها اللغوى. وهذا ما جاء فى كتب اللغة: العرب تقول: حاكمت وحكمت وأحكمت بمعنى رددت ومنعت، والحاكم يمنع الظالم من الظلم، وحكمة اللجام هى التى تمنع الفرس من الاضطراب. وروى إبراهيم النخعى: أَحْكِمْ اليتيمَ كما تُحْكِمْ ولدك. أى امنعه عن الفساد.

وقال ابن جرير الطبرى: أحْكموا سفهاءكم أى امنعوهم، وبناء محكم أى وثيق يمنع من تعرض له. وسميت الحِكمة حكمةً لأنها تمنع عما لا ينبغى. وأما التشابه فهو أن يكون أحد الشيئين مشابها للآخر، بحيث يعجز الذهن عن التمييز؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ... ﴿٧٠﴾﴾ [البقرة] وقال فى وصف ثمار الجنة ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ... ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة] أى متفق المنظر مختلف الطعوم، وقال تعالى: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ... ﴿١١٨﴾﴾ [البقرة]. ومنه يقال: اشتبه علىَّ الأمران، إذا لم يفرق بينهما وقال عليه الصلاة والسلام: «الحلال بيّن، والحرام بيّن، وبينهما أمور متشابهات». وفى رواية أخرى «مشتبهات»[١]. ثم لما كان من شأن المتشابهين عجز الإنسان عن التمييز بينهما سمى كل ما لا يهتدى الإنسان إليه بالمتشابه إطلاقا، سواء أكان له مشابه أم لم يكن له مشابه[٢].

وعلى هذا الأساس اللغوى، نقول : إن التشابه فى القرآن أطلق على ما لا يمكن فهمه مطلقا، أو ما لا يمكن معرفة حقيقته على الوجه الأكمل، أو ما يدق ويختفى على العامة، ولا يستغلق على الخاصة. هذان هما الوجهان اللذان يحتملهما معنى التشابه؛ فإما أن نقول إنه ما لا يمكن معرفة حقيقته على الوجه الأكمل فى هذه الدنيا، وإما أن نقول إنه ما يمكن معرفته ولكن لبعض الخاصة الراسخين فى العلم، والمحكم هو ما يقابل المتشابه، وهو الواضح البين للعامة والخاصة الذى لا تتفاوت فى إدراكه الأنظار، وما يمكن معرفة حقيقته على الوجه الأكمل؛ وهو أم الكتاب؛ لأنه الأصل الذى يجب على كل مؤمن معرفته، والجزمُ بمعناه، والتصديق بمغزاه. فالآيات المحكمات أم الكتاب، أى أصله الذى يرجع إليه، ويحمل المتشابه عليه، ويخرج بتخريج لا يناقضه إن كان ممكن الإدراك على الوجه الكامل. فالآيات المحكمات هى الحكم الذى يفصل بين التأويل الزائغ، والتأويل الصادق، فما شهدت له، فهو الصادق الذى يتفق مع أصل التنزيل، وما يخالفه فهو الزيغ فى الدين، والخروج عن جادته.

(١) متفق عليه وقد سبق تخريجه بألفاظه.
(٢) جاء فى هامش الأصل هذا التحقيق اللغوى منقول من التفسير الكبير للفخر الرازى، بتصرف قليل.

والمتشابه ينتهى كما ذكرنا إلى أحد معنيين؛ إما أن نقول إنه الغيب الذى لا يستطيع الإنسان معرفته، كحقيقة الروح، وحقيقة الجن والملائكة، وما يكون يوم القيامة، وكيف يكون نعيم الجنة الحسى، وعذاب الجحيم المادى، وكيف ينشىء الله الخلق، وكيف يعيده، وكيف يتجلى سبحانه يوم الحساب، وهكذا مما غيبه الله تعالى علينا؛ لأن عقولنا مأسورة بالحس الذى نحسه، وبالمادة التى ندركها، وعلم الغيب قد أخفاه الله سبحانه عنا؛ لأنه يعلو عن مداركنا فى هذه الدنيا، وعلينا أن نؤمن بما أخبرنا به القرآن الكريم، وما جاءت به السنة الصحيحة؛ فإن من صفات أهل الإيمان الإيمان بالغيب، إذ قال سبحانه فى أوصافهم: ﴿ **الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ③ ﴾ [البقرة].

هذا هو الوجه الأول الذى يحتمله تفسير كلمة المتشابه.

أما الوجه الثانى فمعنى المتشابه أنه الذى يدق معناه إلا على طائفة خاصة من أهل العلم، كبعض العبارات القرآنية الخاصة بالكون وتكوين السماء والأرض، وبعض ما ذكر فى القرآن من أوصاف لله سبحانه وتعالى، ونحو ذلك من الحقائق التى لا يخوض فيها إلا أهل الذكر، وهى دقيقة فى معناها.

هذان هما الوجهان اللذان تحتملهما الآية الكريمة، ويدخل فى عمومهما كل الأقوال التى قيلت فى هذا المقام(١). ونرى أن كلا الوجهين تحتملهما الآية، من غير ترجيح لأحدهما على الآخر، بل يصح لنا أن نقول:

---

(١) جاء فى هامش الأصل: اختلف المفسرون فى المحكم والمتشابه على أقوال كثيرة:
١- منها أن المحكم ما اتفقت عليه الشرائع السماوية، والمتشابه ما خالف فيه الإسلام ما سبقه.
٢- ومنها أن المتشابه أوائل السور المبتدأة بالحروف.
٣- ومنها أن المحكم الناسخ، والمتشابه المنسوخ.
٤- ومنها أن المحكم ما كان دليله واضحا والمتشابه ما يخفى دليله إلا على الراسخين.
٥- ومنها أن المحكم ما أمكن الاستدلال عليه بدليل جلى أو خفى، والمتشابه ما لا يمكن الاستدلال عليه.
٦- ومنها أن المحكم ما فيه بيان الحلال والحرام والمتشابه ما سواه.
٧- ومنها أن المتشابه ما احتمل فى تأويله عدة وجوه، والمحكم ما لا يحتمل إلا وجها واحدا.
٨- ومنها أن المحكم والمتشابه فى القصص، فما فصل منها محكم، وما أجمل متشابه.

إن الوجهين معا مرادان، وسنختار ذلك، ونبين وجهه عندما نتكلم فى تأويل المتشابه إن شاء الله تعالى.

وإن وجود هذين القسمين فى القرآن الكريم كان سببا فى أن وَجَدَ الذين زاغوا وأضلهم الله على علم سبيلا لأن يفتنوا الناس عن دينهم ويضلوهم؛ وذلك بمحاولة تأويل المتشابه من غير أن يلاحظوا الموافقة بينه وبين الآيات المحكمات وهن أم الكتاب؛ ولذا قال سبحانه:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ فى هذه الآية الكريمة يبين سبحانه وتعالى أن الذين يتلقون هدى القرآن قسمان، كما أن آيات القرآن قسمان، ولكلام الله تعالى المثل الأعلى؛ فالقسم الأول يتلقى الهدى القرآنى مستضيئا بنوره آخذا بهديه؛ ما يعرفه يهتدى به، وما لا يعرفه يؤمن به، ويفوض فيه الأمر إلى ربه، ويقول: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [ص]. والقسم الثانى زاغ، فَأَزاغه اللهُ عن الحق. وقد ذكر الله ذلك القسم، ويفهم القسم الأول من قوله تعالى فى حق الراسخين فى العلم أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾.

والزيغ أصل معناه فى اللغة: الميل عن الاستقامة. والتزايغ التمايل، ورجل زائغ: أى مائل عن الطريق المستقيم فى طلب الحق. والمعنى على هذا: أن الذين فى قلوبهم زيغ، أى ميل عن طلب الحق وعدم أخذ بالمنهج المستقيم، لا يتجهون إلى المحكم يطلبون منه حكم القرآن، بل يتبعون ما تشابه من القرآن؛ لأنه بُغيتُهم، ويجدون فى الاشتباه ما يتفق مع اعوجاج نفوسهم، وعدم استقامة تفكيرهم، وما ينطوى عليه مقصدهم الباطل؛ فإن اعوجاج القلوب يجىء من تحكم الهوى فى

= ٩- وقال ابن تيمية: المحكم: ما يجب الإيمان به والعمل به، والمتشابه ما يجب الإيمان به من غير تكليف بعمل.

١٠- ومنها أن المتشابه آيات الصفات، وغيرها محكم.

١١- وقال ابن حزم الظاهرى: كل القرآن محكم ما عدا الحروف التى ابتدئت بها بعض السور، وأقسام القرآن مثل قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾﴾ [الشمس].

النفس، وإذا تحكم الهوى وسيطرت الشهوات المختلفة كشهوة التسلط والغلب وحب السلطان، وشهوة المال، وشهوة النساء، وشهوة المفاسد؛ فإن القلوب تركس، وتفسد، وتعوج، فلا تطلب الحق لذات الحق، بل تطلب ما يحقق شهوة النفوس، وأولئك لأنهم لا يطلبون الحق يتبعون المتشابه يتقصَّوْنه ويتعرفون مواضع الريب، ليثيروا الشبهات حول الحق، ويشككون الناس فيه؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ أى طلبًا لفتنة الناس عن دينهم وخدعهم، وإثارة الريب فى قلوبهم، بأوهام يثيرونها حول المتشابه الذى جاء فى القرآن، مثل أن يقولوا: ما نعيم الجنة وما جحيمها؟ و ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ... ⟨٥⟩﴾ [الرعد]. وكيف يخلق الله العالم؟ وهكذا يثيرون هذه الأوهام المشتقة من مألوف الحياة الفانية، ليشككوا فى حقيقة الحياة الباقية. فابتغاء الفتنة مقصودهم الأول؛ ولذا ذكر أولا، ثم أعقبه سبحانه بابتغاء التأويل فقال: ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ فهم قد ابتغوا التأويل بانبعاث من الهوى والرغبة فى تضليل الناس وإثارة الشكوك حول حقائق الدين، فالرغبة فى الفتنة هى المقصد الأول، والرغبة فى التفسير أو معرفة المآل جاءت تابعة إذ لا تتحقق الفتنة إلا بها.

والتأويل فى أصل معناه اللغوى كما قال الأصفهانى فى مفرداته «من الأَوْل أى الرجوع إلى الأصل، أى رد الشىء إلى الغاية المقصودة منه علما أو فعلا» فهو معرفة الغاية، إما بمعرفة المراد المقصود؛ ولذلك أطلق التأويل على التفسير ومعرفة ما يخفى من الحقائق وإرادة غير الظاهر لقرينة تدل عليه؛ وإما بمعرفة المآل والنتيجة عملا، كما فى قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ⟨٥٣⟩﴾ [الأعراف].

والتأويل الذى يبتغيه الزائغون هو معرفة المآل فى الدنيا، كأن يطلبوا إنزال العذاب الذى يهددون به، وكأن يطلبوا إحياء بعض الموتى، وقد يفسرون تفسيرات

المقصود منها تشويه الحقائق وتضليل العقول، وقد قصدوا فى الأمرين الضلال. وإن الله سبحانه وتعالى قد بيّن بعد ذلك أن معرفة المآل عند الله تعالى وحده، ومعرفة المعنى قد يدركها الراسخون، فقال سبحانه:

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ فى هذا النص الكريم قراءتان: إحداهما بالوقف عند لفظ الجلالة، والابتداء بقوله تعالى فى استئناف للقول: ﴿الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾. وهذه القراءة يستفاد منها أن معرفة التأويل والعلم به هى لله وحده، وعلى هذا يكون التأويل بمعنى معرفة مآل ما اشتمل عليه القرآن من أخبار اليوم الآخر وغيره من مغيبات عن الحس. والقراءة الثانية بالوصل من غير وقف، بعطف الراسخين فى العلم على لفظ الجلالة؛ ومعنى هذا أن العلم بالتأويل عند الله، ويعرفه الراسخون فى العلم من غير زيغ مع استقامة المنهاج، ووضوح الغاية، والتأويل هنا بمعنى التفسير وتعرُّف المراد علما.

وإذا كانت قراءات القرآن سنة متبعة وكل قراءة هى بذاتها قرآن متلو مبين، فمجموع القراءتين يشير إلى أن التأويل قسمان؛ أحدهما: علم بالمآل والغاية، وهذا لا يعلمه إلا الله، كما أشارت القراءة الأولى، والقسم الثانى من التأويل علم بالتفسير والمراد من الألفاظ، وهذا يعلمه الله، وقد يعرفه الراسخون فى العلم، وهم فى الحالين يقولون آمنا، أى صدقنا وأذعنَّا، كل من عند ربنا، فهم مفوضون مؤمنون مذعنون فى حال علمهم وجهلهم، مصدقون بأن المحكم والمتشابه من عند الله. فمعنى ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ أى كل واحد منهما يجب الإيمان به من غير تشكيك. وهذا هو الفرق بين الزيغ، واستقامة الفكر؛ فالمستقيم المفكر المؤمن يتقدم الإيمان على طلب التأويل، أما الآخر فيطلب التأويل ليلقى بالريب والشك.

وإن هذا المنهاج المستقيم الذى يطالب به الإسلام هو منهاج أهل العقول الراجحة المستقيمة، وهم الثابتون فى تفكيرهم وإيمانهم، الذين لا تعبث بإيمانهم الأهواء؛ لأنه إيمان عميق، وسماهم العلى الحكيم: «الراسخين» فى العلم، من الرسوخ وهو الثبات والتمكن، فالراسخ فى العلم المؤمن الثابت الإيمان المتحقق الذى لا تعرض له شبهة إلا أزالها بنور بصيرته؛ إذ الشبهة كالظلمة يبددها الضوء الساطع. وقد بين سبحانه أن أولئك هم الذين يتذكرون القرآن، ويتدبرون معانيه، ويدركون مراميه، وهم ذوو الألباب حقا وصدقا؛ ولذلك ختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله:

﴿**وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾ أى ما يدرك الحقائق الدينية ويعتبر بها، ويتذكر ما فى القرآن من عبر ومواعظ وهداية إلا أصحاب العقول الراجحة التى لا تخضع للهوى والشهوة. وفى التعبير عن إدراك الحقائق الدينية والمعانى القرآنية وتفويض الأمور إلى الله تعالى فيما يعلم ويجهل بقوله: ﴿**وَمَا يَذَّكَّرُ**﴾ إشارة إلى أن المعانى الدينية فى فطرة كل إنسان، ولكن يطمسها الهوى عند بعض الناس فلا يتذكرون، وتتكشف هذه الفطرة عند الذين لم تسيطر عليهم الأهواء فيتذكرون، والله أعلم بالأنفس.

هذه آية المحكم والمتشابه تكلمنا فى معانيها التى تفهم من ألفاظها، ولكن بعض العلماء يتكلمون فى موضوع هذه الآيات المتشابهة؛ وقبل أن نخوض فى ذكر بعض ما قالوا نقرر أن الذى يستخلص من مصادر الشريعة ومواردها أن الآيات المتشابهة لا يمكن أن يكون موضوعها حكما تكليفيا من الأحكام التى كلف عامة المسلمين أن يقوموا بها، وإنه لا يمكن أن تكون آية من آيات الأحكام التكليفية قد انتقل النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى من غير أن يبينها، ولا تشابه فيها بعد أن بينتها السنة النبوية؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** ... ﴿٤٤﴾﴾ [**النحل**] ولا شكَّ أَنَّ مِنْ أوَّلِ بيان ما نزل إليهم بيان الأحكام التكليفية، ولو تصور أحد أن من آيات القرآن التى تشتمل على أحكام

تكليفية لم يبينه النبى ﷺ لكان معنى ذلك أن الرسول الكريم لم يبلغ رسالة ربه، وهذا مستحيل. لذلك نقول جازمين: إنه ليس فى آيات الأحكام آية متشابهة، وإن اشتبه فهمها على بعض العقول لأنه لم يطلع على موضوعه فليس ذلك لأنها متشابهة فى ذاتها، بل لاشتباه عند من لا يعلم، واشتباه من لا يعلم لا يجعل آية فى القرآن متشابهة.

وأكثر العلماء يقولون إن آيات الصفات التى توهم التشبيه هى من المتشابه كقوله تعالى: ﴿يد الله فوق أيديهم ﴿١٠﴾﴾ [الفتح] وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ... ﴿٨٨﴾﴾ [القصص] وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه] فقالوا إن السلف يفوضون فيقولون آمنا به كل من عند ربنا، والخلف يؤولون، فيقولون: إن اليد هى القدرة، والاستواء الاستيلاء، والوجه هو الذات؛ وهكذا يعتبرون تلك الآيات من المتشابه. وقد وجد من العلماء من لم يعدوا آيات الصفات من المتشابه إنما المتشابه عند أكثرهم هو ما يكون خاصا بالغيب الذى لا نعلمه، ولم يعلمه لنا، كحقيقة الروح، وما يكون من نعيم اليوم الآخر، والعقاب والثواب فيه؛ من حيث إنه لا يعرف مآله إلا الله تعالى، وما أخبره الله تعالى إن هو إلا تقريب، ففى الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطرَ على قلب بشر. وهؤلاء الذين نفوا أن آيات الصفات من المتشابه، لهم ثلاثة مناهج:

المنهاج الأول: منهاج ابن حزم؛ فهو يقول إن آيات الصفات لا تشابه فيها، فهى كلها أسماء للذات العلية؛ فاليد كناية عن الذات، والوجه كذلك، والاستواء فعل للذات العلية . . وهكذا، وقصَر المتشابه على الحروف التى تبدأ بها السور، والأقسام التى يقسم بها الله تعالى.

والثانى: منهاج للغزالى ذكره فى بعض كتبه، وهو «إلجام العوام عن علم الكلام»، وقد ذكر فيه أن بعض هذه الألفاظ التى توهم التشبيه هى استعمال مجازى مشهور، وليس تأويلا؛ فإنه يقال: وضع الأمير يده على المدينة،

فيفهم كل عربى أن معنى ذلك أنه استولى عليها وسيطر، ويكون من هذا القبيل: ﴿ **يد الله فوق أيديهم** ﴿١٠﴾ ﴾ [**الفتح**]. فعبارات الغزالى فى هذا الكتاب تفيد أن هذه العبارات مجاز عربى مشهور لا يحتاج إلى تأويل، ولكن يجب بعد هذا الفهم الظاهر التفويض وأن نقول: ﴿ **آمنَّا به كُلٌّ مِّنْ عند ربِّنَا** ﴾.

المنهاج الثالث: منهاج ابن تيمية، وهو يرى أن هذه الآيات ظاهرة فى معانيها، فهو يقول: إن لله يدا ولكن ليست كأيدينا، ووجها ولكن ليس كوجوهنا وإن هذه معان حقيقية، ويقول إن ذلك هو مذهب السلف؛ وهو فى هذا تابع لطائفة من الحنابلة ادَّعوا أن ذلك منهاج الإمام أحمد. ولكن رد عليهم ابن الجوزى، وأنكر أن يكون ذلك مذهب أحمد فقال: «رأيت من أصحابنا من تكلم فى الأصول بما لا يصلح، ورأيتهم قد نزلوا إلى مرتبة العوام، فحملوا الصفات على مقتضى الحس، فأثبتوا له سبحانه صورة ووجها زائدا على الذات؛ وقد أخذوا بالظاهر فى الأسماء والصفات، ولا دليل لهم فى ذلك من النقل ولا من العقل، ولم يلتفتوا إلى النصوص الصارفة عن الظواهر إلى المعانى» ثم يقول: «يا أصحابنا أنتم أصحاب نقل واتباع، وإمامكم الأكبر أحمد بن حنبل رحمه الله يقول وهو تحت السياط: كيف أقول ما لم يقل! ثم قلتم فى الأحاديث تحمل على ظاهرها، فظاهر اليد الجارحة، ومن قال استوى بذاته المقدسة فقد أجراه سبحانه مجرى الحسيَّات، وينبغى ألا يهمل ما يثبت به الأصل، وهو العقل، فإنا به عرفنا الله تعالى، وحكمنا له بالقدم» ثم يقول «لا تُدخلوا فى مذهب هذا الرجل الصالح ما ليس فيه».

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ
لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ
النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم
مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ آلِ
فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ
وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ
وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾

﴿ **رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا** ﴾ هذه ضراعة يجب على كل مؤمن أن يتضرع بها إلى ربه. وقد قال بعض العلماء إنها من مقول الراسخين فى العلم، فهم يقولون: ﴿ **آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا** ﴾ ويقولون أيضاً: ﴿ **رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا** ﴾ وكأنهم إذ يعلنون الإيمان والإذعان يضرعون إلى الله تعالى أن يحفظه ويبقيه بإبعادهم عن الزيغ والاضطراب فى العقيدة.

وقال بعض المفسرين: إن هذا كلام جديد، وهو تعليم من الله تعالى للمؤمنين ليدعوا بهذا الدعاء، والمعنى على الحالين: ربنا أى ياخالقنا والعليم بنفوسنا والقيوم على أمورنا ﴿ **لا تُزِغْ قُلُوبَنَا** ﴾: لا تبتلينا بابتلاء واختبار تَزيغ معه قلوبنا، وتضطرب معه نفوسنا، فتكون الإزاغة عن الطريق المستقيم والمنهاج الحق. والزيغ يبتدئ دائما بسيطرة الأهواء على النفوس، فتضطرب فتحيد، فيكتب الزيغ فتزيغ؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ** ... ﴿٥﴾ ﴾ [**الصف**]

وروت أم سَلَمة رضى الله عنها أن أكثر دعاء الرسول ﷺ: «يا مقلب القلوب ثبت

قلبى على دينك». فقالت له: يا رسول الله ما أكثر دعاءك يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك؟ فقال: «يا أم سلمة، إنه ليس آدمى إلا وقلبه معلق بين أصبعين من أصابع الله، فمن شاء أقام، ومن شاء أزاغ»(١).

﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ هذا بقية الدعاء والضراعة التى تجرى على ألسنة الراسخين فى العلم، وهى من تعليم الله سبحانه وتعالى، وهذا الدعاء يتضمن طلب الرحمة، وقد تضمن الأول طلب تثبيت الإيمان، وهو أول أبواب الرحمة، والأصل لكل رحمة؛ فبعد أن علمنا الضراعة بأن لا تميل قلوبنا، وجَّهنا لطلب الأثر كذلك وهو الرحمة، ورحمة الله تفضُّل وإنعام على العبد؛ لأنه وما يملك ملك لله تعالى يتصرف فيه كما يتصرف المالك فى ملكه، وليس لأحد عند رب العالمين حساب. والرحمة المطلوبة كلمة شاملة جامعة، فتجمع النصر فى الدنيا والقرار والاطمئنان فيها، والنعيم فى الآخرة. والتعبير بقوله تعالى: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ أى من عندك، ولَدُن لا تستعمل بمعنى عند إلا إذا كانت العندية فى موضع خطير جليل عال. والمعنى على هذا أن الرحمة فيض من فيوض الله ينزل على عباده كما ينزل المطر من مرتفع السماء إلى الأرض. وقد ختمت الآية الكريمة بما يدل على أن هبة الرحمة شأن من شئون العلى القدير، ووصف من أوصافه، فقال سبحانه على ألسنة الضارعين المبتهلين: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ فى هذا تأكيد رحمة الله تعالى بعدة مؤكدات، منها «إنَّ» التى للتوكيد، ومنها تأكيد الضمير بقوله «أنت» ومنها القصر، أى لا يهب أحد سواك، وذلك بتعريف الطرفين؛ ومنها التعبير بصيغة المبالغة، وهى: الوهاب؛ وإنه سبحانه قد انفرد بالرحمة وهبة الرحمة لمن يشاء، وإن رحمته وسعت كل شىء.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ هذه هى الضراعة الثانية التى اقترنت بآية المحكم والمتشابه فى القرآن، والكلام فيها كالكلام

---

(١) رواه الترمذي: الدعوات (٣٤٤٤) عن شهر بن حوشب رضي الله عنه، وأحمد: مسند الأنصار (٢٥٤٥٧).

فى الآية السابقة، من حيث كون هذا الدعاء من مقول الراسخين فى العلم، أو تعليم من الله للراسخين فى العلم من المؤمنين، وكلاهما ينتهى إلى أن هذه الضراعة إن صدرت عن القلب تكون مانعة له من الزيغ؛ فإن الإيمان باليوم الآخر لبُّ الإيمان، وهو يربى الإذعان، وفيه كل معانى التفويض، وبه يستعين المؤمن على محاربة داعى الهوى والشهوة. وقوله تعالى على لسان المؤمن الراسخ فى العلم: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ﴾ تنبيه إلى أنه فى هذا اليوم يتبين الحق، ويواجه المحق والمبطل، ويعلن الذين يزيغون والذين يذعنون، ويتبين زيغ الزائغ وجزاؤه، وثمرات الإيمان وجزاؤه. وفى هذا تنبيه أيضا إلى أن اليوم الآخر لا ينبغى أن يكون محلَّ ريب؛ لأن الذى أخبر به هو الذى خلق الخلق، فهو الذى بدأهم، وهو الذى يعيدهم؛ ولأنه سبحانه ما خلق الخلق عبثا، وما ترك الأمر للباطل والمبطلين يرتعون فى الأرض ويفسدون، بل جعل للحق سلطانا، وجعل له العلو، فإن لم يكن فى الحال، فإنه سيكون لا محالة فى المآل، والله على كل شىء قدير.

والأساس فى العلم باليوم الآخر هو إخبار الله تعالى الذى لا يحتمل إخلافا؛ ولذلك قال سبحانه بعد ذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ أى إن اليوم الآخر الذى لا ينبغى لمؤمن أن يرتاب فيه هو وعد الله الذى وعد به المتقين، ونذيره الذى أنذر به الجاحدين الضالين، والله سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد. وفى هذه الجملة السامية ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ إشارة إلى الجزاء الأخروى وما فيه من جزاء بعد الحساب، فهى تتضمن تبشيرا للمؤمنين، وإنذارا للعاصين الكافرين. جعلنا الله من المتقين المهتدين، الذين لا يزيغون فى فهم دينه، وتفهم قرآنه؛ والمذعنين للحق الطالبين له.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ كان السبب فى كفر من كفر، وزيغ من يزيغ، هو اغترارهم فى هذه الحياة الدنيا بكثرة المال، وعزة النفر، وقوة العصبية، مما جعلهم يبغون على الناس، ويبغون على أنفسهم،

فتطمس مسالك النور إلى قلوبهم؛ وإنه لا شيء يُدَلِّي بالنفس فتعمى عن الإدراك أكثر من الغرور؛ ولذلك ذكر سبحانه وتعالى أن هذه الأموال وأولئك الأولاد وإن كانوا العصبة أولى القوة لن تغنى عنهم شيئاً. وقد أكد القول سبحانه فى موضعين فى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وبهذا يؤكد سبحانه وقوع الكفر منهم، ويؤكد النفى سبحانه فى قوله: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ إذ نفى بـ: «لن»؛ فالخبران مؤكدان: الإثبات والنفى؛ فكفرهم وعدم نفع أعراض الدنيا مؤكدان، وكأن مجرى القول هكذا: غرتهم أمانى الدنيا بالأموال والأولاد فكفروا كفراً مؤكدا مع أنه من المؤكد أنها لن تنفعهم بأى نفع، ولن يكون فيها ما يغنى عن رحمة الله التى حرموها بسبب كفرهم المؤكد.

وهنا بعض إشارات بيانية منها قوله: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ﴾ فقد قال بعض المفسرين: إن معناها لن تدفع عنهم من عذاب الله شيئا. فتغنى معناها تدفع، والدفع المنفى هو منع العذاب، ولكن كلمة تغنى لا تدل على معنى الدفع إلا على سبيل المجاز، الذى يرشح له ويقويه قوله تعالى: ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ و«من» هنا بمعنى البدلية، والمعنى يكون على هذا: لا تكون الأموال والأولاد مغنية أى غناء ونافعة أى نفع بدل رحمة الله تعالى وقدرته وإرادته ونفعه لعباده؛ فالغاية أن الأولاد والأموال لا تجلب رحمة بدل رحمة الله تعالى ونفعه لعباده شيئا من الغَنَاء أو النفع.

ثم قوله فى نفى نفع الأولاد بعد نفى نفع الأموال ﴿وَلا أَوْلادُهُم﴾ إشارة إلى أن قوة النفع بمقتضى الفطرة والعادات الجارية فى الأولاد أكثر؛ ولذا أكد النفى فيه بعد تأكيده أولا بتكرار «لا» كأن نفى نفع الأموال أسهل قبولا من نفى نفع الأولاد، ولذا زاده توكيدا بعد توكيد؛ وإن أولئك الكافرين إذا كانوا قد حرموا نفع الأولاد والأموال، ولم يستبدلوا برحمة الله شيئا، فلهم مع ذلك عذاب شديد؛ ولذا قال سبحانه بعد ذلك:

﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ الإشارة فى قوله: ﴿وَأُولَئِكَ﴾ إلى أولئك الكافرين الذين غرهم غرور الأموال والأولاد فضلوا لفرط اعتزازهم بسلطان المال والعصبية، وفى الإشارة إليهم وهم موصوفون بالكفر المؤكد الذى لا سبيل إلى الشك فيه ولا الريب بيان أن السبب فى العقاب الذى ينزله الله بهم هو هذا الكفر الذى دفع إليه الغرور والاعتزاز بغير الله وبغير الحق. والجملة السامية ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ دالة على عقابهم الشديد يوم القيامة. وقد أكد الخبر بثلاثة مؤكدات:

أولها: الإشارة إلى البعيد بـ ﴿أُولَئِكَ﴾ الدالة على غلوهم فى الكفر، وإيغالهم فيه، وكلما قوى السبب قوى المسبب، وكلما اشتدت الجريمة اشتد العقاب، فهى مَثُلَةٌ للجزاء.

وثانيها: ذكر ضمير الفصل «هم»، فهو يؤكد؛ إذ فيه تكرار لذكر الموضوع الذى يَرِد عليه الحكم، وكل تكرار فيه تأكيد فوق ما يدل عليه من الاختصاص.

وثالثها: التعبير عن العقوبة النارية التى تنزل بهم، بأنهم يكونون وقود النار؛ فإن الوَقُودَ هو الحطب الذى تُحرَق به النار، وأصله من وقدت النار تقد إذا اشتعلت، والمصدر الوُقود، وبالفتح ما يكون به الاتقاد والاشتعال. والمعنى على هذا أن الكافرين يكونون وقود النار؛ أى أن النار يشتد اشتعالها فيهم حتى كأنهم هم مادتها التى بها تتقد وتشتعل. وقرئ ﴿وُقُود﴾(١)، وهذا يكون فيه مبالغة فى شدة احتراقهم، أى أنهم يحترقون بالنار ويسجرون فيها حتى كأنهم الاشتعال لا مادة الاشتعال، ولا من يكوى بهذا الاشتعال.

وإن هذا العقاب هو الذى ينتظر الكفار جميعا، وإن حال منكرى الإسلام فى الإنكار والجحود والغرور بالمال والولد، والعزة بالنفر والعصبية، كحال من سبقوهم، ولذا ينزل بهم ما نزل بأولئك؛ ولهذا قال سبحانه وتعالت آياته:

---

(١) قرأ بها مجاهد والحسن وجماعة (المحرر الوجيز ١/ ٤٠٥، البحر المحيط ٢/ ٤٥، الدر المصون ٢/ ٢١).

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الدأب: العادة والشـأن، وأصله من دأب الرجل فى عمل يدأب دأبا ودءوبا إذا جد فيـه واجتهد، ثم أطلق الدَّأْبُ على العادة والشأن؛ لأن من يدأب فى عـمل ويستمر عليه أمدا طويلا يصـير شأنا له، وحالا مـن أحواله، وعـادة من عاداته؛ فـهو من باب إطلاق اسم السـبب وإرادة المسـبب. وآل فرعـون، وهم نصراؤه وأهل حـوزته ومعـاضدوه، قـد استـمرءوا الطغيان وألفوه حتى صار الكفر دأبا وعادة وشأنا من شئونهم.

وقد شبه الله سبحانه وتعالى حال الكافرين الذين كفروا بمحمد ﷺ وما جاء به، بحال آل فرعون والذين سبقوا فرعـون من الطغاة العتاة القساة المغرورين، وقد كان وجه الشبه فى أمرين:

أولهما: أن الغرور هو الذى دفع إلى الجحود واللجاجة فيه والإصرار عليه، حتى إنهم ليردون الدليل تلو الدليل، ومـا تزيدهم الآيات إلا كفورا، وما تزيدهم الموعظة إلا عُتوا فى الأرض وفسادا.

وثانيهما: فى الجزاء.

وهنا يرد سؤالان أولهما: لِمَ ذكر آل فرعون، ولم يذكر فرعون؟، والثانى: لماذا نص على قوم فرعون من بين الذين سبقوهم بالكفر والجحود ومعاندة النبيين؟

والجواب عن السؤال الأول: أن ذكر آل فرعون يتضمن ذكر فرعون؛ لأنه إذا كان العناد فى التـابع فهو فى المتبـوع أشد؛ وفوق ذلك فإن آل فـرعون وحاشيـته ونصـراءه هم السبب فى طغـيـانه، وهم الذين سهلوا له سـبـيل الطغيـان وضنوا بالموعظة فى إبَّانها، وهم الذيـن حرضوه على الاستـمرار فى الشر والإيغال فـيه، فهم اتبعوه أولا، ثم حرضوه على الطغيان ثانيا بمبـالغتهم فى مرضاته، واستحسان ما يفعل.

وأما الجـواب عن السؤال الثانى، وهو اخـتصـاص فرعون وآله بـالذكر، فلأن فـرعون كـان أقوى الطغـاة وأشدهم، وكـان أكثـرهم مالا، وأعزهـم نفرا،

وأكثرهم غرورا؛ أليس هو القائل: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ... ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف] أليس هو الذى ذهب به فرط غروره إلى أن يقول فى حماقة ظاهرة: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ... ﴿٣٧﴾﴾ [غافر] ولقد كان مستكبرا يصم آذانه عن سماع الحق حتى لقد قال سبحانه فيه: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ... ﴿٣٩﴾﴾ [القصص].

ولقد بين سبحانه وتعالى نتيجة الغرور فى آل فرعون والذين من قبلهم، وهو التكذيب بآيات الله، وقد ترتب على التكذيب نزول العقاب الشديد؛ سنة الله فى الذين كفروا ولجوا ولم يثوبوا إلى رشدهم، وينيبوا إلى ربهم، فقال سبحانه:

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ هذا هو الدأب والعادة، وهو الغرور المُرْدى، وهذه نتائجه التى تجمع بين المغرورين دائما، وهو التكذيب بآيات الله تعالى. وفى هذه الجملة السامية يقرر الله سبحانه ثلاث حقائق ثابتة؛ اثنتان منها تتعلقان بالكافرين المغرورين، وهما: التكذيب بآيات الله تعالى، والعقاب الذى يأخذهم سبحانه وتعالى به؛ والثالثة بيان شأن من شئون الله تعالى جلت قدرته، وهو أنه سبحانه وتعالى شديد العقاب، كما أنه سبحانه غفور رحيم، وأنه المنتقم الجبار، كما أنه اللطيف الخبير.

فأما الحقيقة الأولى فقد قال سبحانه فيها ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أى كَذَّبُوا بالآيات والأدلة التى تثبت رسالات الرسل، وتثبت وحدانية الله تعالى. وأضاف سبحانه الآيات إليه جلت قدرته، للإشارة إلى عظم دلالتها وقوة إثباتها، وأنها آيات الخالق لتعريف خلقه، وأدلة الواحد الأحد لإثبات وحدانيته، ومع ذلك لجوا واستمروا فى غيهم يعمهون.

والحقيقة الثانية: قال سبحانه وتعالى فيها: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى يعاقبهم على هذه الذنوب بما يساويها، وبما يقابلها، وعبر عن العقاب بهذا التعبير؛ لأنه يفيد أُموراً ثلاثة:

أولها: أن الأخذ يفيد الوقوع التام فى سلطان الله تعالى، فهو سبحانه أخذهم كما يؤخذ الأسير، لا يستطيع من أمره فكاكا.

ثانيها: أن التعبير بالباء يفيد أمرين: المصاحبة والمقابلة؛ فهم قد أخذوا مصاحبين ومتلبسين بذنوبهم لم يقلعوا، ولم يتوبوا، بل استمروا على حالهم ملابسين لها ومقترنة بهم، كما تدل على أن العقاب مقابل للذنوب، فهو بدل ببدل، وكما أنهم قدموا الذنب، فليتسلموا العقاب.

وثالثها: أن هذا التعبير فيه إشارة إلى عدل الله سبحانه وتعالى الكامل؛ فالذنب هو الذى ولد العقاب، وهو يماثله تمام المماثلة، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون.

والحقيقة الثالثة: قال سبحانه وتعالى فيها: ﴿**وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ وفى ذكر هذا الوصف للذات العلية إشارة إلى شدة العقاب لشدة الجريمة، وإشارة إلى أن العدالة الإلهية تقتضى شدة العقاب؛ لأنه لا يستوى الذين يحسنون والذين يسيئون، ولا يستوى الأخيار والأشرار؛ فإن المساواة هى الظلم فى هذه الحال. ثم فى هذا الوصف للذات العلية تعليم للناس بأن كل فعل يجب أن يكون له جزاؤه ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾**﴾ [**الزلزلة**]. وهذا النص الكريم فوق ذلك يربى المهابة فى النفس، ويجعل كل مؤمن يغلِّب الخوف على الرجاء، فإن الخوف يجعل العابد يستشعر الطاعة دائما ولا يَدِل بالعبادة، وتغليب الرجاء يمكن للنفس الأمارة بالسوء أن تسيطر، ويجعل العابد يَدِل بعبادته.

﴿**قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ**﴾ اغتر المشركون بأموالهم وأولادهم وقوتهم فى الأرض، فكفروا وعتوا عتواً كبيرا؛ فبين الله سبحانه وتعالى أنهم سيُغْلَبون فى هذه الدنيا، وأنهم فى الآخرة سيحشرون إلى جهنم؛ ولذا أمر الله سبحانه وتعالى نبيه أن يقول فيهم هذه الحقيقة فقال سبحانه: ﴿**قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا**﴾.

فهذه الآية الكريمة إنـذار للمشركين بأن الهزيمة ستلحقهم فى الدنيا، وأن العذاب سيستقبلهم فى الآخرة. وقد أمر الله سبحانه نبيه بأن يواجههم بهذا الخطاب، ولم يوجهه سبحانه وتعالى إليهم؛ لأن أولئك المغترين المفتخرين كانوا يدلّون بقوتهم على النبى ﷺ، ويعتزون بها فى مخاطبته ﷺ، فكانوا يقولون له: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥)﴾ [سبأ]. وكانوا يأخذون من عزتهم فى الدنيا دليلا على عزتهم فى الآخرة، فكان حالهم كحال هذا العامل الذى حكى الله سبحانه عنه بقوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦)﴾ [الكهف] وهكذا الطبيعة الإنسانية إن استغنت طغت فى حاضرها، وغرها الغرور فى قابلها: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)﴾ [العلق].

وإذا كانوا يجابهون النبى ﷺ بذلك فإنه يكون من المناسب أن يتولى هو الرد، وهو الذى جُرِّدَ من المال والولد، ولا ناصر له إلا الله سبحانه وتعالى.

وإن ذلك الاغترار كان من المشركين واليهود الذين كانوا يجاورون النبى ﷺ بالمدينة، وقد جابهوا النبى ﷺ بذلك عندما دعاهم إلى الإسلام بعد واقعة بدر التى انتصر فيها المسلمون؛ فإنه يروى أن النبى ﷺ جمعهم فى سوق بنى قينقاع، وقال لهم: «يا معشر اليهود، احذروا مثل ما نزل بقريش، وأسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم، فقد عرفتم أنى نبى مرسل». فقالوا: لا يغرنك أنك لقيت أقواما أغمارا لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا(١).

وإذا كان الاغترار من الفريقين فإنه يصح أن نقول إن الخطاب للكفار جميعا الذين يغترون مثل هذا الغرور، وخصوصا أن النبى ﷺ أمر بأن يخاطب بهذا الذين كفروا، سواء أكانوا من هؤلاء أم كانوا من أولئك، وإن الكفر بالحقائق

(١) رواه أبو داود: الخراج والإمارة والفيء - كيف كان إخراج اليهود من المدينة (٣٠٠١).

الواضحة البينة التى تدركها العقول السليمة يكون سببه دائما اغترارا بأمر مادى مسيطر على النفس يجعل عليها غشاوة فلا يدرك العقل، ولا يؤمن القلب.

وهنا يرد بحث لغوى وهو: لماذا أدخل السين فى قوله تعالى: ﴿ سَتُغْلَبُونَ﴾ ولم يقل تعالت كلماته: ستحشرون؟

والجواب عن ذلك: أن السين لتأكيد القول، والذى كان موضع شك عند هؤلاء هو كون النبى ﷺ سيهزمهم فى الدنيا، والحشر قد أكده سبحانه وتعالى فى كثير من آى الكتاب. وفوق ذلك فإن السين مقدرة فى تحشرون باعتبارها معطوفة على «ستُغلَبون» والعطف على نية تكرار العامل.

ولقد أشار سبحانه إلى أن الحشر سيكون تجميعا للكفار يساقون بعده إلى نار جهنم، وجهنم هى الجزء العميق فى النار؛ ولأنه بعد الحشر يكون السَّوق إلى نار جهنم وتعدت كلمة يحشرون بـ «إلى»؛ إذ قد تضمنت مع معنى التجمع معنى السَّوق والأخذ إلى نار جهنم. ثم أشار سبحانه إلى شدة العذاب بقوله تعالى: ﴿ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أى أنها ليست مُقَاما محمودا بالنسبة لهم، بل هى مقام مذموم منهم يصح أن يقال فيه بالنسبة لهم «بئس المهاد» فجهنم ليست موضع ذم فى ذاتها باعتبارها دار جزاء عادل، ولا يذم الجزاء العادل ولو كان قاسيا، ولكن هى موضع الذم ممن ينزل به لأنه سيتلقى قسوته. ومعنى المِهَاد: الفراش المبسوط السهل اللين المريح، فيقال: مهد الرجل الأمر بسطه وهيأه وأعده، وعلى هذا فالتعبير فيه نوع من التهكم بهم، إذ هى لا تكون أمرا ممهدا.

قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ هذه الآية نزلت بعد غزوة بدر، فالفئتان المشار إليهما فى الآية: المسلمون، والمشركون. والمسلمون الفئة التى تقاتل فى سبيل الله، أى فى سبيل إعلاء كلمته وطلبا لمرضاته، والأخرى الكافرة: المشركون. والمعنى على هذا أن الله سبحانه إذ ينذر الكافرين بأنهم سيغلبون فى الدنيا، ينذرهم بما قامت عليه البينات، وظهرت به الأمارات؛ وذلك لأن لهم آية أى أمارة ودلالة تدل على صدق ما يوجهه النبى ﷺ من أنهم سيغلَبون، وتلك الآية الدالة على صدق ذلك التهديد والإنذار الشديد هى فى حال الطائفتين اللتين التقتا فى حرب قوية، إذ انتصرت الفئة التى تقاتل فى سبيل الله وهى القلة، على الفئة الكافرة وهى الكثرة، ومع أن أولئك الذين يقاتلون فى سبيل الله كانوا يعلمون أن أولئك أكثر عددا، وأكثر عُدَّة.

ونريد أن نبحث هنا فى بعض الألفاظ التى لها إشارات بيانية:

فقوله تعالى عن الفئة الكافرة: ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ فيه إشارة إلى بُعد ما بين الفريقين من حيث الغاية من القتال؛ ففيه إشارة إلى تقدم الأولى معنويا، وتأخر الثانية؛ فالأولى تقاتل لا لعرض من أعراض الدنيا، ولا لغاية مادية مبتغاة، بل للحق، وفى سبيل الحق، ومرضاة للحق جل جلاله؛ والأخرى تكفر بكل هذه المعنويات فتقاتل فى الباطل وللباطل ولنصرة المادة ، ولأعراض الدنيا؛ وفرق ما بين الفئتين عظيم؛ فإن كانت الأولى فقيرة فى المال قليلة فى العدد، فهى قوية بالمقصد والغاية، والثانية على نقيض ذلك تماما، فهى كثيرة المال وكثيرة العدد، ولكنها فقيرة فى الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ فيه بيان أن المؤمنين يرون المشركين ﴿مِّثْلَيْهِمْ﴾ أى أكثر منهم مرتين، فالمثل معناه المساوى، والمثلان لأمرٍ ضِعفُه، والمعنى على هذا أن المؤمنين الذين أعطاهم الله ذخيرة من الإيمان واليقين وطلب الحق يرون أعداءهم رأى العين لا بالوهْمِ والخيال ضعفهم، ومع ذلك لم

يجبنوا ولم يضعفوا. فالتعبير بقوله: ﴿رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ تأكيد الرؤية بأنها رؤية بصرية، لا رؤية تقديرية؛ فهم يعاينون معاينة لا لبس فيها ولا غموض أنهم ضعفهم. فالذين يعتزون بالكثرة عليهم أن يعرفوا أى الفريقين غلب، والذين يعتزون بالمادة عليهم أن يعرفوا لمن كانت النصرة: أهى للمادة أم للروح والإيمان؟ فالذين رأوا خصومهم مثليهم هم المؤمنون. وهذا ترجيح ابن جرير الطبرى. وقد رجح الزمخشرى أن الذين رأوا: هم المشركون، قد رأوا المؤمنين مثليهم. وإن الأول فى نظرنا أولى؛ لأن المسلمين فى غزوة بدر كانوا فعلا أقل عددا من المشركين، وأقل عدة، ولأن التعبير بقوله تعالى ﴿رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ يفيد أن رؤية هذه الكثرة كانت بصرية بالمعاينة، لا بالتقدير أو التخيل أو التوهم، ولا يمكن أن يتحقق ذلك فى رؤية المشركين للمؤمنين؛ لأنه كان يكذب، ولذلك نختار أن الرؤية كانت رؤية المؤمنين للمشركين، ولكن قد ورد اعتراضان:

أحدهما: أن المشركين فى بدر كانوا ثلاثة أمثال المؤمنين تقريبا ولم يكونوا ضعفهم.

ثانيهما: أن الله سبحانه قد قال فى غزوة بدر: ﴿**وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً ... ﴿٤٤﴾**﴾ [**الأنفال**].

وإن رد الاعتراض الأول سهل؛ فإن العين لا تقدر تقديرا عدديا، ولكنها تقدر تقديرا تقريبيا؛ فثلاثة الأمثال قد تُرى رأى العين مثلين. وقد يقال إن المراد بكلمة مثلين ليس التثنية إنما المراد مجرد التكرار وذلك استعمال عربى، كما فى قوله: ﴿**ثم ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ... ﴿٤﴾**﴾ [**الملك**]، فالمراد تكرار النظر، لا التقدير بمرتين اثنتين؛ كذلك هنا المراد التكرار العددى لا مجرد مثلين اثنين، وإن ذلك شائع، فيقال مثلا: اقرأ هذا مرتين ولا تكتف بالنظرة الأولى، والمراد التكرار.

أما الاعتراض الثانى، فقد أجاب عنه ابن كثير فى تفسيره المستمد من الأثر، بأنهم عندما أرادوا حسبانهم رأوهم ضعفهم أو يزيدون، فلما ألقى فى قلوب الذين

آمنوا البأس والقوة، والتقوا بهم استهانوا بهم؛ ولذا روى عن ابن مسعود أنه قال فى غزوة بدر: «نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلا واحدا» وتلك حكمة الله العلى الخبير؛ رأوهم يزيدون عليهم أضعافا، وذلك هو الحس الواقع، ولكن عند اللقاء صغروا فى أعينهم ليكون النصر؛ لأن المقاتل إن استكثر قوة خصمه عند اللقاء ضعف أمامه فيكون الانهزام، وإن استهان مع الحرص كان النصر؛ ولذا سئل على رضى الله عنه: كيف كنت تصرع من يبارزك؟ فقال: «كنت أكون وهو على نفسه» أى أن عليا يقدم مستعليا بإيمانه على خصمه، وخصمه يحس بالخوف فتكون عليه قوتان ينتفع بهما على: قوة من نفسه، وقوة من نفس خصمه ولَّدها الخوف.

﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾

اشتمل ذلك النص الكريم على حقيقة مقررة، ودعوة إلى التأمل والاستبصار لأولى الأبصار، ليمتنع الناس عن الاغترار بالقوة والاعتزاز بغير الله تعالى. أما الحقيقة فهى أن الله ينصر من يشاء، فهو الذى سينصر ويخذل، وأن من يعتمد على قوته وحده من غير اعتبار بما تجرى به المقادير يخذله الله، وإن شأن الذين يغترون بالقوة المادية دائما ويعتزون بها لا يعتمدون على الله تعالى، ولا يعملون حسابا للقدر الذى يجريه خالق الكون حسب مشيئته وتدبيره، وأنهم إذ ينسون هذا يأتيهم القدر من حيث لا يحتسبون، فينهزمون حيث يرتقبون النصر؛ وإذا كان النصر والخذلان بيد الله تعالى، فالله سبحانه ينصر من ينصره، ويخذل من يكفره، كمال قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ [**محمد**] وكما قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾ [**الحج**].

وأما الدعوة إلى الاعتبار فقد ذكرها رب البرية بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ**﴾ أى إن ذلك الذى رأوه وشاهدوه وهو أن الفئة القليلة المؤمنة التى تقاتل فى سبيل الله، غلبت الفئة الكثيرة الكافرة التى تقاتل فى سبيل الشيطان

مع كثرتها وعدتها وأموالها فيه اعتبار بأن يجعلوا منه سبيلا لإدراك المستقبل؛ فإن العبرة معناها في اللغة وفي عرف القرآن والناس أن يؤخذ من الأمور الواقعة المحسوسة دليل على ما يمكن أن يأتي المستقبل غير المحسوس والمكشوف، فكان على هؤلاء أن يعرفوا من هذه الواقعة التي انتصر فيها الإيمان مع قلة أهله على الكفر مع كثرته، أن القوة المادية ليست كل شيء؛ وإن الذي يدرك ذلك هم أولو الأبصار، أي أصحاب المدارك الصحيحة التي تفهم الأمور على وجهها، فالمراد من الأبصار ليس البصر الحسي بل البصر المعنوي العقلي ولكن الذين طمست عليهم المادة لا يدركون الأمور على وجهها، كما قال تعالى: ﴿ **لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ** (١٧٩) ﴾ [**الأعراف**].

وإنه لكي تخرج النفس من ربقة المادة تذكر الله دائما، كما قال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** (٢٨) ﴾ [الرعد].
اللهم ثبت قلوبنا على دينك والإيمان بنصرك وعدلك يارب العالمين.

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ
وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ
وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ (١٤) ۞ قُلْ
أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ
وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ (١٥)

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾

فى الآيات السابقة بيّن سبحانه اغترار المشركين بأموالهم وأولادهم وكثرتهم، وكثرة النفر الذين يعاضدونهم، وأشار إلى اغترار آل فرعون بسلطانهم، وعاقبة أمرهم؛ وفى هذه الآية يبين سبحانه مصدر الغرور وأسباب الاغترار فى هذه الدنيا، وما ركز فى قلوب الناس من حب الشهوات التى يؤدى الاشتداد فى طلبها إلى الانحراف فى التفكير وإلى أن يطمس على البصيرة فلا تدرك الأمور على وجهها؛ ثم يبين سبحانه منزلة ما فى هذه الدنيا من مُتَع فانية بجوار ما فى الآخرة من نعيم دائم. وإذا كان قد بيّن سبحانه وتعالى أولا مآل المغترين المعتزين بأعراض الدنيا، فقد بين فى هذه الآيات مآل المتقين وأوصافهم، ومقدار فهمهم لزخارف هذه الحياة وما فيها من شهوات مردية عند الانحراف فى طلبها. ولقد ابتدأ سبحانه بما ركز فى فطرة كل إنسان من حب وطلب لهذه الشهوات فى مواضعها، فقال سبحانه:

﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ**﴾ هذه زينة الحياة الدنيا، وهذه متعها، وهى مصدر الخير، ومصدر الشر فيها، وبها تكون الرفعة، وبها يكون السقوط، وبها تكون العزة، وبها تكون الذلة؛ والإرادة الإنسانية هى التى تجعلها فى أحد الطريقين، فإن كانت الإرادة قوية حازمة جعلت من هذه الأمور مصدر خير وطريقا إلى الجنة، وإن تحكم الهوى وغلب الشيطان، وضعف الوجدان الدينى، كانت هذه الأمور مصدر شر وطريقا إلى النار؛ فهى طريق الجنة عند الأبرار، وطريق النار عند الأشرار، وكل امرئ وما تهوى نفسه.

وإن هذه الأمور محببة لنفس الإنسان، مجبول بفطرته على الميل إليها، والاستشراف لها وطلبها، فهى طَلِبَةُ النفس الإنسانية؛ إذ هى من طبيعتها، وهى تتقاضاها طبيعة الإنسانية، ومن يحاول أن ينزع الميل إلى هذه الأشياء الستة من نفسه، فإنما يحاول اقتلاع الخاصة الإنسانية من كونه، فالطبيعة الإنسانية قد ركز فيها حب هذه الأمور، ولا تخرج هذه الأمور من النفس الإنسانية إلا إذا بعد الإنسان عن طبعه.

ولأن هذه الأمور فى الفطرة الإنسانية عبر سبحانه وتعالى بالبناء للمجهول، فقال سبحانه:

﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ**﴾ فأبهم سبحانه مَنْ زَين حب هذه الأمور للإشارة إلى أنها فى الفطرة الإنسانية، نشأت فى الإنسان منذ خلقه سبحانه وأنزله إلى هذه الدنيا، فهو قد كوَّنه سبحانه ومعه تلك الطبيعة الإنسانية، وإنه ينتهى الأمر إلى أن الذى زين هذا الحب هو الله سبحانه وتعالى، وقد يؤكد ذلك قراءة مجاهد (**زَيَّنَ لِلنَّاسِ**)[١] بالبناء للفاعل، ويكون الفاعل ضميرا يعود على الله سبحانه وتعالى. ومعنى ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ**﴾: أودعت فطرتهم حب هذه الشهوات، وأنهم لا يرون فيها نقصا ولا مخالفة لـلكمال والشهوات المراد بها موضع الشهوات، فهى من باب ذكر المصدر وإرادة اسم المفعول؛ فهذه الأمور الستة هى المشتهيات، وليست هى الشهوات، ولكن أطلق عليها اسم الشهوات للإشارة إلى شدة محبتها والحرص عليها. ولقد قال الزمخشرى فى ذلك: «جعل الأعيان التى ذكرها شهوات مبالغة فى كونها مشهاة محروصا على الاستمتاع بها» فالمراد أنهم يحبون هذه الأشياء، ويرون محبتها أمرا حسنا، ولا غضاضة فيه.

ويرى الزمخشرى أن قوله تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ**﴾ فيه إشارة إلى خساسة هذه الأمور، ويقول فى ذلك: «والوجه أنه يقصد تخسيسها فيسميها شهوات؛ لأن الشهوة مسترذلة مذموم من اتبعها شاهد على نفسه

---

(١) وبها قرأ الضحاك، ينظر: المحرر الوجيز ١/ ٤٠٨، البحر المحيط ٢/ ٤١٣، الدر المصون ٢/ ٣١.

بالبهيمية، وقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ ثم جاء بالتفسير ليقرر فى النفوس أن المزين لهم حبه ما هو إلا شهوات لا غير، ثم يفسره بهذه الأجناس فيكون أقوى لتخسيسها، وأدل على ذم من يستعظمها ويتهالك عليها ويرجح طلبها على طلب ما عند الله».

ولسنا نرى رأى الزمخشرى فى أن هذه خسيسة فى ذاتها، أو يقصد إلى تخسيسها فى ذاتها، وإنما نرى أنها فطرة الله يبينها الله سبحانه وتعالى، ويشير إلى أنها مطلوبة من كل إنسان، وأن المقتصد يُجمل فى الطلب ويجعله للخير، وغير المقتصد يسرف فيفحش، فيكون الشر. وزينة الله التى خلقها ليست حراما، وهى من قبيل هذه المشتهيات، فيقول تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ... ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف]. وقال تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف] وقال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ...﴿٢٢﴾ ﴾ [البقرة]، وقال ﷺ فى الخيل: «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة»[(١)]. وقال فى الحرث وهو الزرع: «ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان أو دابة إلا كان له به صدقة»[(٢)]. وقال ﷺ: «حبب إلىّ من دنياكم: النساء، والطيب، وجعلت قرة عينى فى الصلاة»[(٣)]. وقال ﷺ: «ألا أخبركم بخير ما يكنز المرء؟ المرأة الصالحة، إذا نظر إليها سرته، وإذا غاب عنها حفظته، وإذا أمرها أطاعته»[(٤)]. وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم].

---

(١) متفق عليه رواه البخاري: الجهاد والسير - الخيل معقود في نواصيها الخير (٢٦٣٨)، ومسلم: الإمارة (٣٤٨٠).

(٢) رواه بهذا اللفظ أحمد في مسند المكثرين (١٣٠٦٥)]، والحديث متفق عليه فقد رواه البخاري: المزارعة - فضل الغرس (٢١٥٢)، ومسلم: المساقاة (٢٩٠٤).

(٣) رواه النسائي: عشرة النساء - حب النساء (٣٨٧٨)، أحمد: مسند المكثرين (١٨٤٥).

(٤) رواه أبو داود: الزكاة - حقوق المال (١٤١٧).

وبهذا يتبين أن هذه الأعيان ليست خسيسة فى ذاتها، ولا يقصد تخسيسها، وإن كانت هى دون نعيم الآخرة ومتعها.

وقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ فيه إشارة إلى أن الناس يحبون هذه الشهوات ويستحسنون هذه المحبة؛ وذلك لأن الإنسان قد يحب شيئا ولكنه فى محبته له غير راض عن نفسه، كأولئك الذين يميلون إلى بعض الآفات الاجتماعية، كالخمر، والميسر؛ فإنهم مع ميلهم إليها يستنكرون حالهم، ولا يحمدون ما يفعلون، إلا إذا كانوا قد طمس الله على بصيرتهم، فعموا وضلوا، وَزُيِّن لهم سوءُ أعمالهم فرأوْه حسنا، ولكن الناس جميعا مع محبتهم لهذه الأمور يستحسنون هذه المحبة، ويرضون عن أنفسهم فى ميلهم إليها؛ وإن ذلك الاستحسان من عامة الناس يدل على أن محبة هذه الأمور من فطرة الإنسان ومن طبيعته؛ وإن هذا الميل لا يدل على خسة فى الطبع، ولكنه يدل على أنها فى الفطرة.

وإن محبة هذه الأشياء، وهى رمز للطبيعة الإنسانية ليست بدرجة واحدة، بل تختلف بمقدار قوة نزوع النفس إليها، وتختلف بمقدار ما تشبع به الحاجات والغرائز الإنسانية.

وقد يقول قائل: وكيف يكون حب الذهب والفضة فطريا، مع أنه ليس من الفطرة؟ والجواب عن ذلك: أن الذهب والفضة يشبعان الحاجات الإنسانية، فهما من الوسائل للوصول إلى النساء وغيرهن، وهما فى خدمة تلك الفطرة، وأحبهما الناس لأنهما يوصلان دائما إليها، ثم صار حبهما لذاتهما، وأشبه أن يكون من الفطرة.

ولنذكر هذه الأمور الستة، وهى مرتبة مراتب بترتيب القرآن الكريم:

المرتبة الأولى: النساء، وحبهن فطرى فى الطبيعة الإنسانية مستكن فيها، لا يختلف فيه الناس إلا من إيفَت[1] مشاعره وفسدت طباعه، وهن زهرة هذا

(١) أي أصابتها الآفة.

الوجود الإنسانى، ولقد سماهم القرآن كذلك فقال تعالى: ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ... ﴿١٣١﴾﴾ [طه].

وقال تعالى فى العلاقة بين الرجل والمرأة: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ... ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة]. وإن الرجل فى حب النساء قد يستهين بكل شيء. ولقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه البخارى ومسلم: «ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء»(١). وقد يقول قائل إن المرأة من المكلفين ومن الناس فلماذا ذكر حب الرجال للنساء، ولم يذكر حب النساء للرجال، وكلاهما فطرى فى الطبع الإنسانى؟ وقد أجاب عن ذلك بعض المفسرين بأن طلب الرجل للمرأة أشد وأقوى وأحد، وكثير من الرجال من يفتتنون بالنساء، وقليل من النساء من تظهر فتنتهن بالرجال، والحس يؤيد طلب الرجل للمرأة، فهو يبذل النفس والنفيس فى طلبها، ولا يعرف من النساء إلا قليلا من يبذل ذلك.

والرأى عندى أن ذكر حب الرجال للنساء فيه إشارة إلى علاقة المحبة المتبادلة بين الفريقين؛ فهى إشارة إلى تلك العلاقة الفطرية من الجانبين، فذكر محبة الرجل للمرأة فيه تنبيه إلى محبة المرأة للرجل؛ وما يستفاد بالإشارة يستغنى فيه عن العبارة، واكتفى بذكر حب الرجل لأن حبه الأوضح، ولأنه الأشد، ولأنه الذى يؤدى فى جملة أحواله إلى الفتنة، ولأن المرأة مجيبة فى هذا الباب لا طالبة، وإن سبقت هى بالمحبة حاولت أن تخلق الطلب فى نفس من تحب.

وحب النساء ليس شرا؛ لأن الله جعل المرأة رحمة للرجل، إنما يكون الشر فى الإسراف فى الطلب حتى يكون النساء خلب كبده، وفى طلب الحرام، وفى طلب الجمال من غير ملاحظة الدين؛ فلقد قال ﷺ: «إياكم وخضراء الدِّمن»(٢)،

(١) متفق عليه؛ رواه البخاري: النكاح - ما يتقى من شؤم المرأة (٤٧٠٦)، ومسلم: الذكر والدعاء (٣٩٢٣) عن أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه. وراجع الإكمال من الجامع الصغير، والكامل لابن عدي.

وقال ﷺ: «تنكح المرأة لمالها وحسبها وجمالها ودينها، عليك بذات الدين تربت يداك»(١).

ولقد قال ﷺ: «من أراد أن يلقى اللهَ طاهرا مطهرا فليتزوج الحرائر»(٢).

المرتبة الثانية: حب البنين، وقد ذكر حب البنين بعد حب النساء؛ لأن البنين ثمرة الحب الأول؛ وفيه إشارة إلى التوجيه الإسلامى، وهو أن يكون حب النساء ذريعة إلى الإنجاب والنسل لا لذاته، كما قال ﷺ: «تناكحوا تناسلوا تكثروا فإنى مُبَاهٍ بكم الأمم يوم القيامة»(٣). وهل المراد من البنين الذكور فقط؟ الظاهر ذلك، ويزكى هذا قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ... ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف] وما هو واقع بين الناس فى الماضى والحاضر من أنهم يطلبون الذكر دون الأنثى، وأنهم يرون فى كثرة البنين نصرة وفخارا، وفى البنت غير ذلك؛ ولكن لو أننا قلنا إن المراد الأولاد ذكورا كانوا أو إناثا لكان فى النص القرآنى متسع؛ لأن الابن يطلق ويراد الذكر والأنثى على سبيل المجاز، وإن محبة الولد بعد ولادته أمر فطرى لا فرق بين ذكر وأنثى، وإن كان الكثيرون يرغبون فى الذكور دون الإناث فإن ذلك لا ينفى المحبة الفطرية لأولاده جميعا، والعرب أنفسهم كانوا يحبون بناتهم وإن كانوا لا يعتزون إلا بالبنين. وإنى أميل إلى هذا؛ فالأولاد جميعا ثمرات القلوب وقرة الأعين؛ ولقد قال النبى ﷺ: «إنهم لثمرة القلوب وقرة الأعين، وإنهم مع ذلك لمجبنة مبخلة محزنة»(٤).

والمرتبة الثالثة: حب القناطير المقنطرة من الذهب والفضة. روى أن النبى ﷺ قال: «القنطار ألف أوقية ومائتا أوقية»(٥) وإن كانت الأوقية التى نعرفها هى

(١) متفق على صحته وقد رواه البخاري: النكاح - الأكفاء في الدين (٤٧٠٠)، ومسلم: الرضاع - استحباب نكاح ذات الدين (٢٦٦١).
(٢) رواه ابن ماجه: النكاح - تزويج الحرائر (١٨٥٢) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٣) فتح الباري في شرحه حديث: من استطاع منكم الباءة (٤٦٧٧).
(٤) أخرجه ابن ماجه: الأدب - الوالد والإحسان إلى البنات، وأحمد: مسند الشاميين (١٦٩٠٤).
(٥) رواه الدارمي: فضائل القرآن - كم يكون القنطار (٣٣٣٤) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه.

الأوقية التى أشار إليها النبى ﷺ فالقنطار الذى نعرفه فى مصر هو القنطار الذى ذكر فى حديث النبى ﷺ؛ لأن القنطار (١٢٠٠) أوقية لأنه مائة رطل والرطل (١٢) أوقية. وقد قال الزجاج فى أصل معنى القنطار: إنه مأخوذ من عقد الشىء وإحكامه، تقول العرب: قنطرت الشىء إذا أحكمته، ومنه سميت القنطرة لإحكامها، والقنطرة المعقود، فكأن القنطار شىء محكم يسع ذلك المال، أو أنه جمع قدر كبير من المال متراص الأجزاء محكم الربط. والمقنطرة معناها مضاعفة مقادير القنطار، فمعنى قناطير مقنطرة عدد كثير من القناطير متضاعف، كقولك ألوف مؤلفة، وأضعاف مضاعفة، والمراد أن كثرة المال أمر محبوب مطلوب زين للناس حبها، ومحبة المال الكثير قد أودعت قلوب الناس؛ لأنهم رأوا أنه السبيل إلى طلب ملاذ هذه الحياة، فلا يجد غايته من النساء إلا ذو مال، ولا غايته من إشباع الحاجات إلا ذو المال؛ ولقد قالت عائشة رضى الله عنها: «رأيت ذا المال مهيبا، ورأيت ذا الفقر مهينا» وقالت رضى الله عنها أيضا: «إن أحساب ذوى الدنيا بنيت على المال».

وإن محبة المال لم تكن فى أول الأمر لذات المال، ولكن لأنه ذريعة لغيره من ملاذ الحياة ومطالبها، ولكن بتوالى الأزمنة نسى كثير من الناس الغاية، واتجهوا إلى الوسيلة فصارت فى ذاتها غاية، وأصبح المال يطلب لأنه غاية فى ذاته، كما هو الشأن فى كل وسيلة تؤدى إلى أمر محبوب مؤكد المحبة وهى مؤكدة التوصيل؛ ولذلك صار المال مطلوبا، وطلبه كالأمر الفطرى. ولقد قال ﷺ: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى ثالثا، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»[(١)].

---

(١) متفق عليه؛ رواه البخاري: الرقاق - ما يتقى من فتنة المال (٥٩٥٦)، ومسلم: الزكاة - لو كان لابن آدم (١٧٣٧)]. وجاء بلفظ «من ذهب» في صحيح مسلم (١٧٣٨). كما رواه الترمذي وأحمد والدارمي بنحوه.

وطلب المال ليس شرا، بل قد يكون خيرا إن طلب من الطريق الحلال، وأنفق فى حلال، وأعطى منه حقه. ولقد قال عليه السلام: «إن الله يحب العبد التقى الغنى الخفى»[(١)].

النوع الرابع: الخيل المسومة، ومعناها المعلمة بعلامة تجعلها مرموقة حسنة المنظر، تجتلب الأنظار. وقيل المسومة: الراعية. والخيل من مفاخر الناس، ومن أدوات القتال، وكانت عزا للعربى؛ ولقد ذكر النبى ﷺ أن فى نواصيها الخير، كما أشرنا من قبل؛ وقد روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الخيل ثلاثة: لرجل ذِكْرٌ، ولرجل ستر، ولرجل وزر»[(٢)] فهى ذكر لمن كان يقتنيها للجهاد فى سبيل الله، وستر لمن يقتنيها ويربيها ويبيع من نتاجها ما يستر به حاله ويرد غائلة الفقر، ووزر لمن يقتنيها ويفاخر بها، وكمن يسابق بها فى قمار أو ما يشبه القمار. والخيل فى أصل طلبها كانت لأنها أداة الحرب، ومن عدة القتال، ثم صارت هى مطلبا يقتنى لذاته، ويرغب فيه.

والنوع الخامس: الأنعام، وهى الإبل والبقر والغنم، وهى تكون فى حاجات الإنسان، ويتخذ منها مركبا وزينة ومطعما؛ قال تعالى: ﴿**وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦**﴾ [**النحل**].

والنوع السادس: الحرث، وهو الزرع والغراس؛ لأن الحرث معناه إثارة الأرض ووضع البذر أو الغراس فيها، فأطلق السبب وأريد المسبب. والزرع والشجر منهما يؤخذ ملبس الإنسان وطعامه وأدوات زينته.

هذه إشارات إلى متع الحياة التى ذكرها النص القرآنى الحكيم. ويلاحظ أن القرآن الكريم اقتصر على ذكر هذه الأمور مع أن فى الحياة متعا حلالا غيرها،

---

(١) صحيح مسلم: الزهد والرقائق (٥٢٦٦) عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه، وأحمد: مسند العشرة المبشرين (١٣٦٤).

(٢) جزء من حديث طويل رواه مسلم: الزكاة - إثم مانع الزكاة (١٦٤٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه البخاري: شرب الناس والدواب من الأنهار (٢١٩٨).

فلماذا اختصها بالذكر؟ والجواب عن ذلك أنه ذكرها لأنها أوضح من غيرها، ومجمع على طلبها، ولأن فيها إشارة إلى أنواع المتع كلها؛ فذكر النساء فيه إشارة إلى متعة الصلة التى تربط بين الرجل والمرأة، سواء أكانت متعة جسدية أم كانت متعة روحية، وإشارة إلى الأسرة التى هى قوام المجتمع. وذكر البنين فيه إشارة إلى بقاء النوع الإنسانى، والعزة بالقبيلة والعشيرة والجنس والأرومة. وذكر المال فيه إشارة إلى الحاجات الإنسانية والنظم الاقتصادية التى يعد المال أساسها وعصبها. وذكر الخيل المسومة فيه إشارة إلى الكفاح فى نصرة الحق، والجهاد فى سبيل الله، وأنه لا يحمى الجماعة إلا قوة مسلحة، كما قال تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ** ﴿٦٠﴾﴾ [**الأنفال**]. وفى ذكر الأنعام والحرث إشارة إلى أصول الإنتاج الطبعى الذى هو مادة الاقتصاد الأولى. فذكر هذه الأمور الستة يومئ إلى سائر متع الحياة؛ ولذلك اعتبرها الله سبحانه متع الحياة فقال :

﴿**ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**﴾ أى هذه الأمور التى حببت إلى النفوس هى متاع الحياة الدنيا، وموضع النفع والانتفاع فيها، وهى موضع الزينة ومطلب الناس الذى يستمتعون به ويرغبون فيه، ولكن عليهم فى طلبها والسعى إليها واللجاجة فى طلبها أن يلاحظوا ربهم؛ وأن يطلبوا ما عنده؛ ولذا قال سبحانه: ﴿**وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**﴾ أى أن الله جل جلاله وهو المستحق للألوهية وحده عنده حسن المرجع، فإن المآب معناه المرجع، من آب يئوب بمعنى رجع.

وفى ذكر هذه الجملة السامية فى هذا المقام إشارة إلى أن هذه الأمور مع أنها متع هى موضع حساب، فإن اعتدلوا فى طلبها وقصدوا إليها من طريقها الحلال وأجملوا فى الطلب كانت موضع ثواب، وإن طلبوها من غير حلها، ولم يعطوا حقها، فإنها تؤدى إلى العقاب. وفى هذا الذكر إشارة إلى وجوب الاعتدال فى

طلبها، فما يعاقب عليه هو الإسراف والإفحاش، وأن ينسى بها ربه وحقه فيها، حتى تلهيه عن ذكر الله، وعن حق الله. وأيضا ففيه إشارة إلى أن عند الله نعيما آخر أعلى وأعظم، وهو ما بينه بقوله تعالى:

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ الخطاب للنبى ﷺ؛ يكلفه جل شأنه أن يوجه إليهم ذلك السؤال لينبههم إلى عظيم شأن ما ادخره لهم سبحانه من نعيم مقيم إن أحسنوا، فالاستفهام للتنبيه؛ وقد حوى من طرق التنبيه ثلاثة: أولها: التعبير بـ ﴿أَؤُنَبِّئُكُم﴾؛ لأن الإنباء معناه الخبر العظيم الخطير الشأن، وثانيها: التعبير بـ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ بالإشارة للبعيد للدلالة على عظيم شأن ما سيخبرهم به، وبالتعبير بـ «كم» كأنه يدعوهم جميعا ليستمعوا إلى ما سيخبرهم به، وثالثها: التعبير بـ «خير» الدالة على الأفضلية، وأن نعيم الجنة خير لا شر فيه قط، وأن نعيم الدنيا لا يخلو من شر.

وبعد أن كان الاستفهام الذى سيق للتنبيه كان الجواب هو :

﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ هذه متع الآخرة، وهى أعلى مقاما، وأعظم مكانا من نعيم الدنيا، وهى أربعة:

أولها: ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، وفى هذه الجنات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وثانيها: الخلود، وهو نعمة وحده، فكل ما فى الدنيا عرض زائل يعروه الفناء، ومافى الآخرة دائم البقاء.

وثالثها: ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ لا دنس فيها، ولا ما يشينهن أو يوجد الريب، فلا معكر من شر أو ما يشبهه.

ورابعها: وهو أعظمها بل أعظم ما فى الوجود، وهو ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أى رضا عظيم من خالق الخلق، ومبدع الكون ومنشئ الوجود، فالرضوان مصدر

كالرضا، ولكن يزيد عليه أنه الرضا العظيم؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، ولأن التنكير قصد به التفخيم والتعظيم، ولأنه إبهامه ثم بيان مصدره فيه إشارة إلى شرف هذا الرضا بإضافة لأعظم نسبة إذ هو منسوب إلى الله جل جلاله.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أى أن الله سبحانه جل جلاله عليم بأحوال العباد علم من يبصر ويرى، فهو يعلم دقائق أحوالهم وخفى أمورهم، وخلجات قلوبهم. وصدَّر سبحانه القول بلفظ الجلالة لتربية المهابة فى القلوب، وإشعارها بعظمته. وإذا كان الله سبحانه وتعالى عليما بخفى أحوالهم، فإنه سيجزى المحسن إحسانا والمسيء عقابا؛ فهذه الجملة السامية فيها وعد ووعيد، وفيها إشعار برقابة العلى القدير، مما يجعل المؤمن التقى يشعر دائما بأن الله يراه، وإن لم يكن هو يراه، ويتحقق قول الرسول ﷺ: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(١).

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ هذه أول أوصاف المؤمنين الذين استحقوا ذلك الجزاء الكريم من رب العالمين: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ وهذا الوصف يدل على أنهم دائما متذكرون للإيمان وحالهم إنما هو تصديق للنبى فى كل ما جاء به، فلسان حالهم دائما أنهم يقولون ﴿آمَنَّا﴾ أى أنهم يقولون إنهم يذعنون ويصدقون كل ما جاء به القرآن الكريم، وهدى النبى الأمين، ومن كان لسان حاله تذكر الإيمان والإذعان لأمر الله تعالى لا تكون منه معصية كبيرة، ولا إهمال لأوامر الله تعالى؛ لأن ارتكاب المعاصى يتنافى مع الإذعان المطلق، وتذكر الإيمان الدائم؛ إذ المعصية تكون فى غفلة القلب وعدم تذكر الإيمان؛ ولذا قال عليه الصلاة والسلام: «لا يزنى الزانى وهو مؤمن»(٢)، وإذا كان الإيمان بالله

---

(١) هو جزء من حديث جبريل الشهير وقد سبق تخريجه من رواية البخارى ومسلم، وذكر الحافظ ابن حجر فى الفتح بلفظ المصنف رحمه الله تعالى.

(٢) متفق عليه؛ رواه البخاري: المظالم والغصب - النهبى بغير إذن صاحبه (٢٢٩٥)، ومسلم: الإيمان - نقص الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس(٨٦)].

مستوليا على شعورهم فهم دائما يغلبون الخوف على الرجاء والضراعة على الطمع، ولذا رتبوا على هذه الحالة طلبهم المغفرة وقالوا ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ فهم دائما يحسون بعظم أخطائهم، وذلك من قوة إيمانهم، وقوة إذعانهم؛ ولذلك يطلبون الستر والغفران، والوقاية من النار، وذلك كله من قوة الوجدان الدينى، وعظم سلطان النفس اللوامة، والضمير المستيقظ، فتكبر فى نظرهم هفواتهم، وتصغر حسناتهم، ويعتقدون أنه لا جزاء إلا أن يتغمدهم الله برحمته.

﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾

هذه خمسة أوصاف للمؤمنين الصادقى الإيمان، والمذعنين حق الإذعان:

أولها: أنهم صابرون، والصبر صفة الإيمان حقا وصدقا، وقد حث عليه القرآن فى أكثر من سبعين موضعا، والصبر له شعب كثيرة، منها وهى أدناها الصبر عند الشديدة، وتحملها من غير أنين ولا شكوى، وهذا هو الصبر الجميل، فإن ضج الصابر وشكا فصبره غير جميل، ومنها الصبر بضبط النفس عن الشهوات وقدعها عن الأهواء المردية، وجعل العقل متحكما دائما؛ وهذه مرتبة عالية فى الصبر. ومنها الصبر على تحمل النعم؛ فإن النعم تحتاج إلى صبر لكيلا يطغى الإنسان بسبب النعمة فتؤدى إلى الكفر بدل الشكر. ولقد قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾ [هود].

والوصف الثانى: أنهم صادقون، والصدق من أكمل الصفات الإنسانية، وهو شُعَبٌ أيضا فمنها الإخبار بالحق؛ ومنها أن يصدق نفسه، فلا يخدعها، ويزين لها سوء الأعمال، ويغالط قلبه وحسه؛ ومنها أن يتعرف عيوب نفسه بالحق ويتكشفها ويَتعرفها ولا يسترها عن نفسه، لتكون بين يديه ماثلة دائما فيستيقظ ضميره، وهذا هو طريق التهذيب الروحى الحق.

والوصف الثالث: أنهم قانتون، والقانت هو الطائع المديم للطاعة غير متململ منها، ولا متبرم بها، ولا خارج على حدودها، فالقنوت يصور الإذعان المطلق.

والوصف الرابع : أنهم المنفقون، أى أنهم ينفقون المال فى مصارفه سواء أكانت عامة أم كانت خاصة، وقد بيّنا مناهج الإنفاق الدينى فيما أسلفنا.

والوصف الخامس: أنهم مستغفرون بالأسحار، والأسحار جمع سحر، وهو آخر الليل، وهذا الوقت وقت التهجد، وتذكر ما كان من عمل، واستقبال ما يكون من أعمال، فالاستغفار فيه باستشعار الضراعة وتذكر الله، والشعور بمراقبته، يجعل المؤمن يستقبل أعمال الحياة بقلب سليم نقى كما هو، فلا يكون فيه إلا خير، وليس الاستغفار هو ترداد كلمة أستغفر، إنما هو الشعور بالخضوع، ومراقبة الله والضراعة إليه سبحانه، وليس كذلك أكثر المستغفرين؛ ولذا قالت رابعة العدوية: «استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير». ولقد روى البخارى أن رسول الله ﷺ قال: «سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت، خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك على، وأبوء بذنبى فاغفر لى، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. ومن قالها بالنهار موقنا فمات من يومه قبل أن يمسى فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات من ليله قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة»(١).

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ

---

(١) رواه البخاري بهذا اللفظ عن شداد بن أوس رضي الله عنه: الدعوات- أفضل الاستغفار (٥٨٣١) كما رواه الترمذي والنسائي وأحمد بنحوه.

لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾

بَيَّنَ سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة أوصاف المؤمنين فى تبتلهم، وصدق إيمانهم، وإذعان نفوسهم، وصبرهم وضبط شهواتهم؛ وهنا يبين حقيقة الإيمان والإسلام وأن الإسلام شريعة النبيين أجمعين، وهو دين الله المتين؛ وابتدأ سبحانه بحقيقة الإيمان فقال:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ الشهادة: الحضور، إما بالبصر، وإما بالبصيرة؛ ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ... ﴿٢٨﴾﴾ [الحج] وقوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ [النور] ثم أطلقت الشهادة على الإخبار المبنى على المشاهدة والمعاينة، ثم أطلقت بمعنى العلم، وبمعنى الحكم؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ... ﴿٢٦﴾﴾ [يوسف].

وقوله سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ﴾ للعلماء فى تفسير الشهادة فيه طريقان:

أحدهما: أن الشهادة الإخبار، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن وحدانيته بالآيات القرآنية التى أنزلها على نبيه فى القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ... ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة] وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص] وأخبر الله سبحانه وتعالى عن وحدانيته أيضا بالآيات الكونية التى وجه الأنظار إليها من خلق السموات والأرض وما بينهما، ومن تسخير

الشمس والقمر، ومن إيلاج الليل والنهار. وأخبر سبحانه عن وحدانيته بالأدلة القاطعة التى أشار إليها فى كتابه العزيز، من مثل قوله تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴿٢٢﴾﴾ [**الأنبياء**].

وإخبار الملائكة عن وحدانيته سبحانه، بعبادتهم له سبحانه وطاعتهم المستمرة ﴿**لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴿٦﴾﴾ [**التحريم**] ونزولهم على الأنبياء بأخبار الوحدانية.

وشهادة أولى العلم من الناس هى إخبارهم أيضا بما يستنبطونه من الأدلة العلمية الكونية الدالة على وحدانيته سبحانه، وتصديقهم لما جاء به الرسل، ونطقهم بما آمنوا به ودعوتهم إليه؛ وهذه الشهادة مختصة بأهل العلم الذين قد أخلصوا فى طلب الحقيقة؛ فقد قال تعالى عن الجهال: ﴿**مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ...** ﴿٥١﴾﴾ [**الكهف**].

وفى إجماع هذه الأخبار - إخبار خالق الكون، وإخبار الملائكة الأطهار، وبنى آدم الأبرار - دليل على أنه معنى مقرر لا مجال لأن يرتاب فيه عاقل.

المعنى الثانى للشهادة فى قوله تعالى: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ**﴾ هو العلم. والمعنى: علم الله فى علمه الأزلى، وعلم الملائكة بِفِطَرهم وبما أنشأهم عليه رب العالمين، وعَلَم أهل العلم من الناس باستنباطهم وتقصيهم لأنواع الاستدلال المختلفة أنه لا إله إلا هو. وفى جمع العلم على هذا النحو إشارة إلى أن أنواع العلم الثلاثة قد اتفقت على الوحدانية. فعلمَ الله الأزلى، قد تلاقى مع علم الملائكة النورانى وعلم الناس الاستدلالى على أن الله واحد، فكيف يختلف الناس فيه؟! تعالى الله سبحانه وتعالى علوا كبيرا.

وقوله تعالى: ﴿**قَائِمًا بِالْقِسْطِ**﴾ معناه أنه هو الواحد الأحد، الذى يسيطر على العالم بالقسط والعدل والميزان، وكل شىء فى هذا الكون بمقدار، يسير على نظام محكم بقدرته سبحانه، لا يتعدى أى جزء من أجزاء ذلك الكون الطورَ الذى

أعده الله سبحانه له، كما قال سبحانه: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس] وهذا التعبير السامى ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ فيه مع المعنى الذى ذكرناه إشارة إلى مقام الربوبية، وهو أنه الخالق المسيطر المسير المحكم لهذا النظام الكونى، وإشارة إلى مقام الألوهية، وهو أنه وحده المستحق للعبادة، ما دام هو وحده القائم على كل شىء وفيه إشارة إلى مقام العبودية، وهو أنه لا يعبد سواه، فلا قوة لأحد أو لشىء بجوار قدرة الله؛ فهو سبحانه الديان، والمجازى للخلق على ما يعملون، بمقتضى قيامه على هذا الكون بالقسط، فإنه بحكم القسط لا يستوى الذين يعملون الخير، والذين يعملون الشر؛ ولهذا نقول: إن فى هذه الجملة الكريمة ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ إشارة أيضا إلى اليوم الآخر وما فيه من حساب وعقاب وثواب.

وكرر سبحانه تقرير الوحدانية فقال:

﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وفى هذا التكرار إشارات إلى معان جديدة.

منها: الإشارة إلى أنه سبحانه وتعالى لا يترك الناس سدى، فهو بمقتضى انفراده بالربوبية والألوهية والعبودية، قد شرع الشرائع بمقتضى حكمته، وهو يحميها بعزته وسلطانه؛ ولذا وصف سبحانه بأنه ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أى الذى يدير هذا الكون وأمور الناس، ويشرع لهم الشرائع ويحميها؛ لأنه العزيز الحكيم.

ثم فى هذا النص أيضا إشارة إلى كمال سلطانه وانفراده وحده بهذا السلطان.

وفيه أيضا رد على الذين يتخذون لله شفعاء يحسبون أن لهم سلطانا، وما لأحد عند رب العالمين من سلطان، فكل خلقه بالنسبة لقدرته وعلمه وإرادته سواء.

وقبل أن نترك القول فى هذه الآية الكريمة لابد من أن نتكلم كلمة موجزة فى أولى العلم؛ فمن هم أولو العلم الذين قرن اسمهم باسم الملائكة بل بلفظ الجلالة، ووضعت شهادتهم مع شهادته سبحانه، وشهادة ملائكته الأطهار؟ هذا سؤال يتردد فى نفس كل قارئ يتلو كتاب الله العظيم. ونقول فى الإجابة عنه: إنهم الذين وصفهم الله سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ

... ﴿٢٨﴾ [فاطر] وهم الذين وصفهم الله تعالى بالتفويض والإخلاص فى قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران] ولذا نرى أن أول وصف من أوصافهم الإخلاص فى طلب الحقيقة، والصدق فى القول والعمل، فلا يقال لهم مثلا: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف] وقد أشار سبحانه إلى وصف آخر من أوصافهم فقال: ﴿وَأُوْلُوا الْعِلْمِ﴾ أى الذين صاحبوا العلم ولزموه، واتجهوا إلى المعانى الروحية، ولم يخلطوا بالمعانى العلمية الرغائب المادية، ولم يجعلوا العلم مطية للأهواء والمآرب المادية؛ فهاتان صفتان لازمتان أو هما خاصتان من خواص العلماء، وهما الإخلاص، والانصراف التام لطلب الحقائق العلمية بألا يجعل العلم طريقا للمنافع الذاتية الآثمة. ولقد قال رسول الله محمد ﷺ فى العلماء الذين كانت فيهم هاتان الخاصتان: «العلماء أمناء الله على خلقه»(١) وقال فيهم: «العلماء ورثة الأنبياء، يحبهم أهل السماء، وتستغفر لهم الحيتان فى البحر إذا ماتوا»(٢).

هؤلاء هم العلماء الذين قرنت شهادتهم بشهادة الله والملائكة، فإن لم يكونوا كذلك فإنه يخشى أن يكونوا ممن خوف أمته منهم فى مثل ما روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «أخوف ما أخاف على أمتى رجل منافق، عليم اللسان غير حكيم القلب، يغيرهم بفصاحته»(٣).

﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ فى هذا النص الكريم قراءتان: قراءة بفتح همزة «أن»، وقراءة بكسر همزة «إن»(٤) وعلى القراءة الأولى يكون سياق النص

---

(١) رواه ابن عساكر، والقضاعي عن أنس رضي الله عنه [كنز العمال: ج١ ص١٩٨١ (٢٨٦٧٥)]، وقد أورد الإمام أحمد: مسند الشاميين (١٧١١٨).

(٢) راجع تلخيص السنن للمنذري، وقد أخرجه عن أبي الدرداء الترمذي: العلم - ما جاء في فضل الفقه على العبادة (٢٦٠٦) وأحمد (٢٠٧٢٣) والدارمي: المقدمة (٣٤٦). سنن أبى داود: العلم - الحث عل طلب العلم.

(٣) رواه أحمد في مسند العشرة المبشرين بالجنة (١٣٧).

(٤) قرأها الكسائي بفتح همزة إن، وقرأ الباقون بالكسر. [غاية الاختصار في قراءات العشرة أئمة الأمصار - أبو العلاء الحسن الهمداني ص٤٤٧].

الكريم هكذا: شهد الله أنه لا إله إلا هو، شهد أن الدين عند الله الإسلام، فيكون قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ فى موضع البدل أو عطف البيان من قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ وينتهى ذلك إلى أن معنى لا إله إلا الله هو الإسلام، وأن الله يشهد بالإسلام وقد أقام الأدلة على صحته، وأنه دينه الذى ارتضاه، وشهد بذلك الملائكة الأطهار بما أخبرهم به رب العالمين، وشهد به أولو العلم بما استنبطوه، فهو دين العقل، ودين الإخلاص، ودين الله. هذا على قراءة الفتح، أما قراءة الكسر فإن الكلام يكون مستأنفا مقررا لمعانى الآية السابقة وما اشتملت عليه من معانى الألوهية والعبودية والربوبية وعزة الله وحكمته؛ لأن دين الإسلام يقتضى الإيمان بكل هذا؛ فكأن سائلا سأل: ما هو الدين الذى يقرر هذه الحقائق؟ فقال سبحانه: إن الدين عند الله الإسلام؛ وكلمة الدين تطلق بمعنى الجزاء، وبمعنى الطاعة والعبادة وبمعنى مجموعة التكليفات؛ وإنى أميل إلى المعنى الثانى، وهو أن يكون الدين هنا بمعنى الطاعة والعبادة، والمعنى على ذلك: أن الطاعة والعبادة التى يقبلها الله هى الإسلام والإسلام هو الإذعان المطلق لله سبحانه وتعالى والإخلاص لله سبحانه وتعالى، وعدم الاستكبار على الحق فى أى ناحية من نواحيه؛ وعلى ذلك يكون الإسلام هنا مكونا من عنصرين : الإخلاص لله سبحانه وتعالى، والخضوع لذات الله وحده لا لأحد سواه. وقد يؤيد هذا المعنى قول الله تعالى بعد ذلك: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ وقوله تعالى فى آية أخرى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ... ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة] وعلى هذا يكون الإسلام هنا هو كمال الإيمان بالله جلت قدرته، وتوحيده. ولقد قال النبى ﷺ: «الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان، وعمل بالأركان»(١).

وإضافة الدين إلى الله تعالى بقوله سبحانه: ﴿عِندَ اللَّهِ﴾ واعتبار الإسلام وحده دين الله، كما يدل على ذلك تعريف الطرفين، فيه بيان فضل الإسلام

(١) رواه ابن ماجه: المقدمة - الإيمان (٦٤) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

بالمعنى الذى ذكرناه؛ لأنه له ذلك الشرف الإضافى، وهو أن الله لا يقبل غيره، فوق أنه الحق الخالص من شوائب الشرك.

والإضافة فوق ذلك تفيد أنه الدين الذى نزل على كل النبيين، وأنه الأصل فى كل شرائع السماء؛ ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ** ... ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى] فهو دين الله، وقد صرح سبحانه بأنه دين أبى الخليقة الثانى نوح كما يعبر بعض القصصيين، ودين آخر الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام. وعلى هذا فدين جميع النبيين دين واحد، وهو دين الله، وهو دين الإسلام.

﴿ **وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ** ﴾ وعلى هذا كانت شريعة الله واحدة، وإن اختلفت الديانات السماوية التى لم يجر فيها التحريف والتبديل، فإن ذلك لا يكون فى الأصل، بل يكون فى الفرع، ولا يكون فى الكليات، بل يكون فى الجزئيات ولكن لوحظ مع ذلك أن كثيرين من أهل الكتاب اختلفوا فيما بينهم، فقالت اليهود ليست النصارى على شىء، وقالت النصارى ليست اليهود على شىء، واختلفت كل طائفة فيما بينهم على فرق، كل واحدة تحسب أنها اختصت بالخلاص وحدها، وتكفر الأخرى أو تشلحها من حظيرة الإيمان المقدسة؛ ثم اختلفوا مجتمعين على المسلمين، ونابذوهم العداوة، وقد كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فكانت هذه المنابذة عن بينة، ولم تكن عن جهل، بل إنهم يعرفون النبى كما يعرفون أبناءهم، ولم يؤمن بالحق كثيرون فى عصر النبى ﷺ؛ ولذا قال الله سبحانه وتعالى فيهم: ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ** ﴿٦٦﴾ ﴾ [المائدة] وقد بين سبحانه أن سبب ذلك الاختلاف هو البغى والظلم؛ ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ** ﴾ فالسبب هو البغى فيما بينهم؛ لأنهم قد بغى بعضهم على بعض بالباطل، وتبادلوا ذلك البغى، كل يبغى على غيره، وإذا تبادل قوم الباطل ضعف فى نفوسهم الإيمان، فإن شدة الخصومة تورث

الريب، ومع الريب يكون النفاق، والمنافق لايؤمن بشيء ولقد قال الإمام جعفر الصادق: «إياكم والخصومة فى الدين، فإنها تحدث الريب وتورث النفاق» فتبادل البغى فيما بينهم كما قال سبحانه وتعالى: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ كان سببا فى عدم إيمانهم بالحق، بل فى عدم إيمانهم بشيء وإن كانوا يعلمونه ويفهمونه، فليس مصدر الإيمان العلم فقط، بل مصدر الإيمان علم وإخلاص فى طلب الحق، وإذعان له إذا بدا نوره.

ولماذا قدم سبحانه وتعالى كلمة «﴿إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ﴾ إذ إن السياق هكذا: وما اختلف الذين أوتوا الكتاب بغيا بينهم إلا من بعد ما جاءهم العلم، فقدم حينئذ المستثنى على بعض المستثنى منه؟ والجواب عن ذلك: أن هذا البيان موضع التوبيخ والاستنكار؛ إذ إن ذلك الاختلاف ما كان عن تعذر العلم بالحقائق، ولكنه كان مع أن العلم بها قد جاءهم، وكان فى قدرتهم أن يصلوا إلى الحق فى الأمر من غير اختلاف ولا نزاع ولا إثارة للشك، وكيف يختلفون مع أن العلم قد جاءهم، وكان بين أيديهم أن يعرفوا السائغ منه، والحق أن العلم كالنور لا ينتفع فيه إلا الذين أوتوا بصرا يميزون به وينظرون، وكذلك لابد لإدراك العلم من بصيرة نافذة، وقلب يخضع للحق؛ أما إذا كانت البصيرة غير نافذة، والقلب قد ران الله عليه، فإنه لا يدرك، وإن كسب السيئات يضع غلافا على القلب يمنعه من إدراك الحق؛ ولذا قال سبحانه وتعالى فى شأن الضالين: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين] فأسباب العلم لا تكفى للوصول إلى الحقائق، بل لابد معها من قلب منير، والذين أوتوا الكتاب لم يكن أكثرهم على ذلك من الإخلاص فى طلب الحقيقة والإذعان لحكمها؛ ذلك لأن الشهوات تحكمت فى قلوبهم واستولت على نفوسهم، فجعلتهم يبتغون الباطل، ويطلبونه طلبا شديدا؛ ولهذا جعل الاختلاف مع وجود العلم أساسه البغى فيما بينهم، إذ إنهم يبتغون بالأمر السيطرة والسلطان واحتيازا للسيطرة الدينية؛ ولذا قال: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أى ظلما وتحاسدا، وتغالبا بالباطل بينهم.

وهؤلاء جاءهم العلم ولم يلازمـوه ولم يصاحبـوه ولم يذعنوا لحكمه؛ ولذا لم يقل سبحـانه «أوتوا العلم» بل قال: ﴿جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ إذ قد جاءهم ولم يردوا موارده العذبة، والعلم كالمطر الغزير لا تستـفيد منه إلا الأرض الطيبة، وكذلك لا يستفـيد من العلم إلا النفوس الطيبة، فـأولئك الظالمون جاءهم العلم، ولم يكونوا علماء يخشون الله، ولم يكونوا أولى العلم الذين يشهدون بوحدانية الله.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ آيات الله تشمل آياته الكونية الدالة على وحدانيته، وآياته المنزلة الداعيـة إلى شريعته، والمبينة لها. والمعنى: من يكفر بآيات الله جاحدا غـير مذعن لحكمها طامسـا لداعى الفطرة فى قلبه فإن الله محاسبه ومعاقبـه، والله سريع الحساب. فقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ قائم مـقام الجواب المحـذوف، والسيـاق هكذا: ومن يكفر بالله فـإن الله معاقـبه ومحاسبه، والله سريع الحساب، وسـرعة الحساب تدل على سرعة العقاب، وعلى العلم الكامل للمـحاسب وهو الله سبـحانه وتعالى، فـهو لا يحتـاج إلى فحص وبحث، وتدل على قيـام البينات القاطعـة ، إذ تشهد عليهـم ألسنتهم وأيديهم بما اقترفوا، بل تشهد عليهـم قلوبهم بما جحدوا، وختم الكلام عن أهل الكتاب بهذه العبارة السامية للإشارة إلى أن اختلافهم لا محالة راجع إلى كفرهم، وأن الكفر له عقـاب بعد حساب سـريع مؤكد ، ونتـيجته عـذاب أليم، وأسباب العلم حـجة عليـهم، وليسـت حجـة لهم. اللهم لا تجـعلنا ممن أضله الله على علم، ووفـقنا للهداية، وأنطق ألسنتنا بالحق، واهدنا سواء الصراط.

فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ
وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ
ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا
عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ

﴿ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

ذكر سبحانه اختلاف أهل الكتاب فيما بينهم، واختلافهم على أنبيائهم بعد أن جاءتهم البينات من ربهم؛ وفى هذه الآية يبين سبحانه محاجتهم للنبى ﷺ، وأشار إلى أنها محاجة ليس أساسها الإذعان للحق إذا تبين، بل أساسها محاولة طمس الحق، واللجاجة بالباطل؛ وذلك لأن المجادلة قسمان: قسم يراد به طلب الحق وتمحيصه، ودراسة الأمر من كل نواحيه، وتبادل الأدلة ليستبين من بينها نور الحق، وهذا القسم محمود لا شك فيه. والقسم الثانى لا يقصد به طلب الحق، بل يقصد به الدفاع عن فكرته من غير نظر إلى كونها حقا أو باطلا، فهو يجادل ليغالب خصمه، لا ليهتدى إلى أقوم المناهج؛ ومن ذلك النوع الأخير مجادلة أولئك الذين اختلفوا من أهل الكتاب، ومجادلة أولئك الذين جحدوا بالآيات من المشركين الذين قال الله سبحانه وتعالى فى أمثالهم: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ** ... ﴿١٤﴾﴾ [**النمل**] وإذا كان جدل هؤلاء من ذلك النوع الذى لا يقصد به رفع منار الحق أو طلب الحق، فإن النبى ﷺ بأمر ربه طلب إليهم أن يخلصوا فى طلب الحقيقة كما أخلص هو؛ ولذا قال سبحانه:

﴿**فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ**﴾ المحاجة: أن يتبادل المتجادلان ما يعتقده كل فريق أنه حجة بأن يقدم كل واحد حجته، ويطلب من الآخر أن يرد عليها أو يقدم الحجة على ما يدعيه ويزعمه الحق الذى لا شك فيه. والمعنى: فإن حاجك أهل الكتاب، ومن لف لفَّهم، وسلك مثل طريقهم، فلا تسر معهم فى لجاجتهم؛ فهم لا يطلبون الحق مخلصين فى طلبه لا يبغون بدله، ولا يريدون غيره؛ بل إنهم قد شاهت عقولهم، وتأشبت بالغرض المردى نفوسهم وكلامهم هو التمويه الكاذب ولذلك لا

تُجارهم فى هذه اللجاجة، واطلب تصفية قلوبهم من الغرض والهوى، وابدأ بنفسك فبين سلامة مقصدك ونيتك: ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾. والوجه المراد به الذات؛ لأنه هو الذى تكون به المواجهة، وهو مجمع محاسن الجسم؛ فالتعبير به عن الجسم تعبير بجزء له شأن خاص وتتم به إرادة الكل. ومعنى أسلمت وجهى: أخلصت وسلمت نفسى وتفكيرى لله سبحانه وتعالى، فلا أفكر إلا فى الله، ولا أطلب الأمر إلا لله، ولا أقصد فى طلبى إلا وجه الله. ومعنى قوله: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ أى قد أسلم الذين اتبعونى وارتضوا الإسلام دينا؛ فقد أخلصوا فى طلب الحق وأسلموا وجوههم لله تعالى. وإن إسلام الوجه لله تعالى وحده فيه إشارة إلى التوحيد، وأن محمدا وأتباعه لا يعبدون إلا الله، وفوق ذلك لا يطلبون أى أمر من الأمور إلا لوجه الله تعالى؛ وتكون هذه الجملة السامية كقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران].

وإذا كان النبى ﷺ وأتباعه قد أخلصوا لله ذلك الإخلاص فى العبادة فإن الأساس الذى تبنى عليه المجادلة بالتى هى أحسن، أن يطلب منهم النبى ﷺ أن يكونوا على مثل تلك الحال من الإخلاص فى طلب الحقيقة؛ ولذا أمر الله نبيه بأن يطلب إليهم ذلك، فقال سبحانه: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ﴾.

أهل الكتاب: هم اليهود والنصارى؛ لأن أسلافهم قد أوتوا الكتاب أى أعطوه كاملا وأخذوه كاملا، وإن كانوا مع ذلك قد نسُوا حَظا ممَّا ذُكِّرُوا به. والأميون هم المشركون، وجاء التعبير عن المشركين بالأمّيين؛ لأنهم أولا تغلب فيهم الأمية؛ إذ قليل منهم من يقرأ ويكتب، وليست لهم علوم؛ ولذا كان يقول العرب عن أنفسهم؛ نحن أمة أمية، ولأنهم لم يعرف لهم كتاب يرجعون إليه فى أحكام دينهم. وفوق ذلك هذا التعبير فيه توبيخ لليهود والنصارى؛ إذ إنهم بعدم تسليمهم للحق وإذعانهم له تساووا مع أولئك الذين كان يسميهم اليهود

أُمّيين ولا يحترمونهم، ويقولون عنهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ... ﴿٧٥﴾﴾ [**آل عمران**] . ومعنى النص الكريم: قل لأهل الكتاب والمشركين: إذا كنت قد أخلصت فى طلب الحق فهل أخلصتم؟

والاستفهام فى قوله تعالى: ﴿**ءَأَسْلَمْتُمْ**﴾ للحضِّ على أن يسلموا وجوههم لله ويخلصوا فى طلب الحقيقة كما أخلص الرسول وأصحابه، وكأن النبى ﷺ يوجههم إلى أن يطلبوا الحقيقة مجردين أنفسهم من كل هوى وغرض وتعصب، بدل أن يحاولوا الإلحان بالحجة والمغالبة بالقول، وأن يستمروا على اللجاجة فى الجدل. وبهذا يتضمن الاستفهام معنى جليلا وهو أن يبين لهم النبى ﷺ أن العبرة فى طلب الحقائق ليس بالأدلة تصطنع، والحجج تزوَّر، إنما العبرة بإسلام الوجه والإخلاص فى طلب الحقيقة، وقد قال فى ذلك الزمخشرى: «وهذا كقولك لمن لخصت له المسألة، ولم تبق من طرق الاستدلال طريقا إلا سلكته: هل فهمتها؟ لا أُمَّ لك!» ويكون الاستفهام حينئذ عند الزمخشرى من قبيل التوبيخ على عدم الإخلاص.

وعندى أن الاستفهام بمعنى الحض، والمعانى على أى حال متقاربة. ولقد بين سبحانه نتيجة الإخلاص إن أخلصوا فقال:

﴿**فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ**﴾ والمعنى: إن أسلموا وجوههم لله، وأخلصوا دينهم لله، ولم يلاحظوا فى طلب الحقيقة عصبية مذهبية أو جنسية، فقد اهتدوا أى سلكوا طريق الحق، ومن سار على الدرب وصل. وقد فسرها بعض العلماء بمعنى يهتدون، وعبر بالماضى لتحقق الهداية تحققا كاملا. وعندى أن نفس ذلك الإخلاص، وهو إسلام الوجه لله تعالى هو الهداية الحق، فمن أسلم وجهه لله تعالى مخلصاً فى طلب الحق، فقد اهتدى حقا وصدقا؛ إذ إن ذلك الإخلاص هو روح الدين وغايته، فمن وصل إليه فإنه لا محالة سيتبع الدين الذى يوصل إليه وهو الإسلام.

هذا إن أخلصوا، وإن تولَّوْا أى أعرضوا عن هذا الإخلاص، وانصرفوا إلى المثارات البيانية يثيرونها ليطفئوا نور الحق، فما من حجة تهديهم، وما من آية ترشدهم، وقد أديت ما وجب عليك وهو التبليغ؛ ولذا قال سبحانه: ﴿**وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ**﴾ وقد بلغتهم فالمحاجة معهم لا تجدى؛ لأنهم مكابرون، والمكابر لا تزيده قوة الحجة إلا إصراراً وعنادا ولجاجة؛ فإن أعرضوا فأعرض عنهم، واتجه إلى المخلصين طلاب الحقيقة تهديهم وترشدهم، وتأخذ بيدهم إلى ما فيه صلاحهم فى الدنيا وثوابهم فى الآخرة. ثم ذيل سبحانه الآية بقوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**﴾.

والمعنى أنه سبحانه وتعالى عليم علم من يبصر بالعباد، يعلم نفوسهم ما يهديها وما يرديها، وما يصلحها وما يُجدبها، وعليم بنفوس هؤلاء المتمردة التى لا تبغى سدادا، ولا تريد رشادا، وعليم بمسالكهم فى الدنيا، وأعمالهم التى أركستهم فى ذلك الضلال المتكاثف، والذى يزيده إمعانهم فى الإنكار والجحود ظلاما، وعليم بما يصيبهم فى الآخرة. فهذا التذييل لتلك الآية الكريمة فيه عزاء للنبى عن كفرهم وإشارة إلى أحوالهم، وإنذار بسوء مصيرهم.

وقبل أن نختم الكلام فى هذه الآية الكريمة نقرر أن جمع أهل الكتاب والأميين فى دعوة النبى ﷺ إشارة إلى عموم رسالته، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً...** (٢٨)﴾ [سبأ] ولقد قال ﷺ: «بعثت إلى الأحمر والأسود»(١) وقال ﷺ: «كان النبى يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة»(٢) ولقد قال ﷺ: «والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه

---

(١) رواه الدارمي: السير - الغنيمة لا تحل لأحد قبلنا (٢٣٥٨)، وأحمد: مسند الأنصار (٢٠٣٥٢)..

(٢) هذه الرواية تفسر قوله عليه الصلاة والسلام: «بعثت إلى الأحمر والأسود» يعني: «إلى الناس كافة»، وبالأول رواها مسلم في صحيحه باللفظ المشار إليه فى التخريج السابق. مسلم: المساجد ومواضع الصلاة فيها (٨١٠)، النسائي: الغسل والتيمم (٤٢٩)، أحمد: باقي المكثرين: (١٣٧٤٥)، الدارمي: الصلاة (١٣٥٢).

الأمة يهودى ولا نصرانى، ومات ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أهل النار»(١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هذه بعض أعمال أسلاف الذين كانوا يحاجون النبى ﷺ، وقد ذكرت تلك الأعمال للدلالة على أنهم لا يطلبون الحق، وإنما يلجون فى الباطل، وقد ذهبت لجاجتهم إلى درجة أن يقتلوا الداعين إلى الحق، فقتلوا بعض النبيين، وقتلوا بعض الذين يدعون إلى القسط. وقد ذكر سبحانه لهم وصفا، ثم ذكر من أعمالهم عملين يتصلان بوصفهم؛ أما الوصف فهو أنهم يكفرون بآيات الله، أى يكفرون بالحجج والبينات المثبتة لوحدانية الله، ولرسالة رسله وصدق دعواتهم، فهم لا يكفرون فقط بالله، بل يكفرون مع ذلك بالآيات الدالة المثبتة، وهذا أقصى ما يصل إليه الضالون، لا يهتدون إلى الحق، ويغلقون عقولهم فلا يمكن أن تصل إليها دعوة الحق، ويمنع الغرض مداركهم من أن تفهم ما تشير إليه الآيات البينات وأمثال هؤلاء لا تجدى معهم محاجة، فهم قوم بور، كما عبر القرآن الكريم عن أمثالهم، وإنهم لكفرهم بالحق وعنادهم، وصم آذانهم عن أن تستمع إلى الداعى إليه اندفعوا فعملوا عملين وهما: قتل النبيين، وقتل الدعاة إلى القسط؛ والقسط هو الحق والميزان والاعتدال والمعقول فى كل شىء، وهؤلاء اليهود قد قتلوا بعض النبيين كيحيى بن زكريا عليهما السلام فكيف يقال إنهم قتلوا النبيين، ولم يقل بعض النبيين؟ والجواب عن ذلك أنهم استهانوا بمقام النبوة، ومقام الدعوة إلى الحق، فاعتدوا ذلك الاعتداء على بعض النبيين، ومن فعل ذلك مع البعض فقد اعتدى على مقام النبوة فكأنما قتل كل الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ... ﴿٣٢﴾ ﴾ [المائدة].

---

(١) رواه مسلم: الإيمان - وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ (٢١٨)، وأحمد: باقي مسند المكثرين (٧٨٥٦).

ولماذا ذكر سبحانه وتعالى كلمة ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ مع أن قتل الأنبياء لا يمكن أن يكون بحق أبدا؟ والجواب عن ذلك أن هذا تصريح بموضع الاستنكار، فموضع الاستنكار اعتداؤهم على الحق بالاعتداء على النبيين، وللإشارة إلى أنهم بما طمس الله على بصائرهم صاروا أعداء للحق لا يألفونه، ولا يريدونه ولا يخلصون فى طلبه. وذكر سبحانه كلمة الحق بصيغة التنكير فقال ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ لعموم النفى، بحيث يشمل الحق الثابت، والحق المزعوم، والحق الموهوم، أى لم يكونوا معذورين بأى نوع من أنواع العذر فى هذا الاعتداء، فلم يعتقدوا أنه الحق، ولم يزعموه، ولم يتوهموه، بل فعلوا ما فعلوا وهم يعلمون أنهم على الباطل، فكان فعلهم إجراما فى باعثه، وإجراما فى حقيقته، وأبلغ الإجرام فى موضوعه.

هذا قتل الأنبياء، وهو أفظع جرم فى هذا الوجود، ويليه ومن جنسه قتل الدعاة إلى الحق، والقسط الذى هو الميزان فى كل شيء، فإن قتل هؤلاء كقتل النبيين منشؤه صمم الآذان عن سماع الحق، وإعراض القلوب، والتململ من أهل الحق والتبرم بهم. وقد قال ﷺ: «بئس القوم قوم يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، بئس القوم قوم لا يأمرون بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر، بئس القوم قوم يمشى المؤمن بينهم بالتقية»(١)! وروى أن أبا عبيدة عامر بن الجراح سأل رسول الله ﷺ: أى الناس أشد عذابا يوم القيامة؟ فقال الرسول ﷺ: «رجل قتل نبيا، أو من أمر بمعروف ونهى عن المنكر»(٢).

---

(١) ذكره القرطبي في تفسيره وقال روي عن ابن مسعود قال: قال النبي ﷺ: «بئس القوم قوم يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس»وذكره بتمامه. [تفسير القرطبي: سورة آل عمران (٢١)]. وفي كنز العمال (٥٥٨٣).

(٢) رواه الإمام أحمد (٣٦٧٤) في مسنده عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه. وراجع الدر المنثور – ج٢ ص١٣.

ولماذا قال سبحانه: ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ فى قوله: ﴿الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ مع أنهم حتما من الناس؟ والجواب عن ذلك أن هذا للإشارة إلى أنهم ليسوا بأنبياء بل من الناس غير المبعوثين، وفى قرنهم بالأنبياء، وإثبات أن الاعتداء عليهم قرين الاعتداء على الأنبياء إشارة إلى بيان منزلتهم، وأنهم يعملون عمل النبيين وأنهم حقيقة ورثة الأنبياء، بالقيام بحق هذا الواجب المقدس؛ فإن لم يقوموا بهذا الواجب فليس لهم من وراثة الأنبياء شىء.

وقد ذكر سبحانه عقاب هؤلاء وهو العذاب الأليم، فقال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أى أن جزاءهم فى الآخرة عذاب مؤلم ينزل بهم.

وفى هذا الجزء من الآية بحثان لفظيان:

أحدهما: دخول الفاء فى خبر الذين وهو: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ وقد دخلت الفاء لأن الجملة طلبية، والجملة الطلبية تحتاج إلى الفاء لتصلح خبرا فى كثير من الأحيان؛ ولأن الاسم الموصول فى معنى الشرط، وخبره فى معنى الجواب، وإذا كان الجواب جملة طلبية فإن الفاء تدخله.

والثانى: هو فى التعبير بقوله تعالى عن العذاب: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ مع أن البشارة لا تكون إلا فى الأخبار السارة؛ لأن البشارة والبشرى الخبر السارّ الذى تنبسط له بشرة الوجه؛ والجواب عن ذلك أن هذا التعبير من قبيل التهكم؛ وذلك لأن هؤلاء الضالين من بنى إسرائيل وغيرهم مع أنهم جحدوا، وفعلوا بالأنبياء ودعاة الحق ما فعلوا، وكانوا يقولون: نحنُ أبناءُ اللهِ وأحباؤه، وأن لهم البشرى بجنسهم لا بعملهم؛ فالله يقول له: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أى أن البشرى التى يرتقبونها بسبب المحبة التى يدعونها هى عذاب أليم وليست بنعيم مقيم، وليس هذا العذاب فى الآخرة فقط، بل إنه فى الدنيا بفساد جماعتهم؛ ولذا قال سبحانه: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾:

الإشارة إلى هؤلاء الذين يحاجون بالباطل، ولا يسلمون وجوههم لله، ولا يذعنون للحق، ويقتلون الأنبياء، ويقتلون دعاة الحق؛ هؤلاء بسبب هذه الصفات

وهذه الأعمال حبطت أعمالهم، أى بطلت وأصبحت لا تنتج إلا شرا لصاحبها، كالدابة التى تأكل شر الثمار حتى ينتفخ بطنها من سوء ما تأكل، وَحَبْطُ الأعمال أن لا تنتج خيرا لصاحبها، وأن يكون الجزاء عليها شرا، وأن تكون نتيجتها سوءًا، فيحاسب الله الفاعلين على نياتهم التى طويت فى صدورهم وعملوا الأعمال باسم الخير، وهى للشر ، وأولئك الأشرار يبطل الله أعمالهم ويحبطها، فجزاؤها شرّ فى الآخرة بعذاب أليم، وفى الدنيا بذهاب دولتهم وسلطانهم؛ لأن الإعراض عن الحق، ومعاقبة من ينطق بكلمة الحق، وقتل الذين يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، من شأنه أن يفسد الدولة، وإذا فسدت الجماعة ذهبت القوة، ولذا قال سبحانه: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ أى ليس لهم أى ناصر، فالنفى المستغرق مع تأكيده بمن الزائدة، يفيد أنه لا يمكن أن يكون لمن يقتل الداعى إلى الخير ناصرٌ مطلقا؛ لأن الناس لا يثقون به ويتقونه ولا يطمئنون إليه، ولا يمكن أن يعيش امرؤ هنيئا إلا بثقة من الناس. ولقد قال ﷺ: «خير الناس آمَرُهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر، وأتقاهم لله، وأوصلهم للرحم»(١).

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

(١) رواه أحمد: مسند القبائل (٢٦١٦٥).

قد بين سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة عن ماضى اليهود من أهل الكتاب أنهم اختلفوا بغْيًا بينهم مع أن أسباب العلم متوافرة بين أيديهم، ولكن البغى ومجاوزة الحد إن سكنا فى رءوس قوم أذهب عنهم الهداية، وتحكمت فيهم الغواية مهما تكن أسباب العلم قائمة؛ وبين سبحانه أيضا أنهم قوم غير مخلصين فى طلب الحقيقة، وأنهم لو أخلصوا لوصلوا، وأن محاجتهم للنبى ﷺ منبعثة عن الهوى والغرض. وفى هذه الآيات يبين سبحانه صورة حسّية عن مناقشتهم للنبى ﷺ؛ يكون الحق محسوسا بين أيديهم ويعرضون بعد أن تتبين الحجة ناصعة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ هذه الآية نزلت فى طائفة من اليهود، دعاهم النبى ﷺ إلى الدين الحق فأعرضوا، ودعاهم ليحكم بينهم كتاب الله فأعرضوا، ولكن ما كتاب الله الذى دعاهم إليه؟ روى فى ذلك ابن جرير الطبرى روايتين:

إحداهما: أن المراد من كتاب الله التوراة، فهى فى أصلها كتاب من عند الله، وإن حرفوه وغيروه؛ ويروى فى ذلك أن النبى ﷺ دخل مَدْرَاسَ اليهود، وهو بيت تدارسهم، فدعاهم إلى الله، فقال قائلهم له: على أى دين أنت يا محمد؟ قال: على ملة إبراهيم، فقال القائل: إن إبراهيم كان يهوديا، فقال الرسول الكريم ﷺ: «هَلُمَّ إلى التوراة فهى بيننا وبينكم» هذه هى الرواية الأولى. وإطلاق كلمة **﴿كِتَابِ اللَّهِ﴾** على التوراة باعتبار أصلها، وباعتبار أن الجزء الذى كان التحاكم إليه فيها هو من الجزء الباقى الذى لم يدخله تحريف.

والرواية الثانية: أن كتاب الله هو القرآن؛ وذلك لأن طائفة من اليهود تحاكموا إليه ﷺ ليحكم بينهم بحكم القرآن، فلما تبين لهم الحكم وأنه على غير هواهم أعرضوا ونَأَوْا بجانبهم عن سماع قول الحق والإنصات إليه.

وأياما كان الكتاب المشار إليه فى الآية فالأمر دليل على أنهم لا يذعنون لحق ولا يهتدون بهدى، بل هم قوم غلبت شقوتهم، وغلب هواهم على تفكيرهم وطمس الله على أبصارهم وبصائرهم، فهم لا يهتدون، ولا ترجى منهم هداية، فلا تعجب إذا لم يؤمنوا.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هذا تعبير قرآنى معناه لقد رأيت وتحققت وعجبت من أمر أولئك الذين أُوتُوا نصيبا من الكتاب كيف يدعون إلى حكم الحق فيتولون ويعرضون. والاستفهام داخل على الفعل المنفى، وهو استفهام إنكارى تعجبى، فهو نفى دخل على فعل منفى، ونفى النفى إثبات، إذ إن نفى عدم الرأى معناه ثبوت الرؤية، وسيق الكلام على ذلك النحو لتأكيد الأمر، وللتعجب، ولبيان أنه ما كان يصح أن يقع، ولكنه وقع.

وقوله تعالى: ﴿أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ يشير إلى أمرين:

أولهما: أنهم يتعلقون باسم الكتاب ولكن لا يأخذون به؛ فالنصيب المراد به الجزء المعنوى من الكتاب، وهو أنهم تلقوا كتاب التوراة وأخذوا منه ترديده وذكره، ولم يأخذوا منه الهداية والإيمان.

وثانيهما: أنهم حرفوا هذا الكتاب وغيروه، فما عندهم هو نصيب من الكتاب أى جزء منه، وليس كل الكتاب.

وعبر هنا بقوله تعالى: ﴿أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ وفى الآيات السابقة قال سبحانه: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ... ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران] وذلك لأن الكلام هنا فى الذين كانوا يعاصرون النبى ﷺ، والذين كانوا يعاصرون النبى ﷺ لم يكن عندهم قطعا إلا حظ من الكتاب، ولم يكن عندهم كل الكتاب؛ أما فى الآيات السابقة فقد كان الكلام فى الذين عاصروا النبيين السابقين من بنى إسرائيل، وقد كان عندهم الكتاب كله، ومع

ذلك ضلوا على علم، وذلك لسيطرة الهوى على قلوبهم، وغلبته على نفوسهم، فبغوا وطغوا، وقتلوا النبيين والذين يأمرون بالقسط من الناس.

دُعِيَ أولئك اليهود إلى كتاب الله تعالى ليحكم بينهم، وقد كانت النتيجة أنهم لم يذعنوا للحق كما قررنا، بل تولوا عنه، أو تولى فريق منهم عن الحق؛ ولذا قال تعالى:

﴿ **ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ** ﴾ أصل تولى الأمر أو الشخص الإقبال عليه، والانصراف إليه؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ** ... ﴿٥١﴾ ﴾ [**المائدة**] أى من يتخذ منهم ولاية ونصرة، ويقبل عليهم فهو منهم. وإذا عُدِّى هذا الفعل بـ «عن» أو قُدرت فى القول كانت بمعنى الانصراف عن الأمر وعدم الإقبال عليه؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ** ﴿٦٣﴾ ﴾ [**آل عمران**] وقوله تعالى: ﴿ **وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم** ﴿٣٨﴾ ﴾ [**محمد**]. والمعنى فى هذه الآية هو من هذا القبيل، أى أنه بعد الدعوة إلى تحكيم كتاب الله تعالى ينصرفون عن الحق، ويولونه أدبارهم، بدل أن يولوه قلوبهم.

وعبر هنا بِثُمَّ التى تفيد التراخى للإشارة إلى تباين حالهم مع ما كان ينبغى منهم؛ وذلك لأنهم ليسوا أميين أو جاهلين فيعذروا، بل هم قوم أهل علم ودين، ونزلت بين أيديهم كتب السماء، فهم كانوا جديرين بأن يرضوا بحكم الكتب المقدسة، ولكنهم بدل أن يخضعوا ويذعنوا أعرضوا، واستمروا فى غيهم يعمهون، فكان هذا التفاوت بين ما كان ينبغى، وما هو كائن، سببا فى التعبير بثم المفيدة للتراخى بين المعطوف والمعطوف عليه، والتباعد بينهما زمانا أو معنى.

وقوله تعالى: ﴿ **وَهُم مُّعْرِضُونَ** ﴾ قال بعض المفسرين: إنه تأكيد لمعنى التولى، والحق أنها أفادت معنى جديدا، إذ أفادت أمرين:

أولهما: أن حال هؤلاء الناس حال إعراض دائم عن الحق، فليس توليهم إذ دعوتهم إلى أن يحكم كتاب الله بينهم أمر عارض لحال وقتية اقتضته، بل الإعراض صفة مستمرة لفريق منهم لا تنفصل دائما عن تفكيرهم.

الأمر الثاني: أن تلك الحال المستمرة الدائمة من الإعراض هى سبب توليهم عن الحق عندما يدعون إلى كتاب الله تعالى ليحكم بينهم.

والقرآن الكريم ينصف الحق فى أخباره، كما هو الحق فى ذاته؛ ولذلك لم يعمم الحكم على كل الذين أوتوا الكتاب بل قرر أن التولى كان من فريق منهم، ولم يكن من كلهم؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿**مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ** ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة].

﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ**﴾ فى هذه الآية يبين سبحانه السبب فى أنهم لا يقبلون على الخير ولا يعملون بالحق، وهو اعتقاد أنهم لن يعاقبوا عقابا أليما، ولن يعذبوا عذابا شديدا؛ وذلك لما ركز فى نفوسهم من أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم شعب الله المختار، وأنهم لا يحاسبون إلا بمقدار ما يحاسب الأب ولده المدلل، وحبيبه المختار، إذا رأى مخالفة أو عنادا فإنه لا يجافيه ولا يعاقبه، ولكن يقربه ويعاتبه؛ فمعنى ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ**﴾: ذلك الإعراض عن الحق، والتولى عن الداعى إليه، واللجاجة فى الباطل؛ بسبب أنهم يقولون لن تمسنا النار إلا أياما معدودات. وليس المراد إحصاء الأيام، بل المراد الاستخفاف بالعقاب والاستهانة به، وعدم الالتفات إلى وعيد الله، وزعمهم الباطل أنهم ينالون ما وعد به من ثواب ونعيم مقيم من غير عمل يعملونه، ولا كسب يكسبونه، فهم بهذا قد استناموا إلى الأمانى وغرتهم الأوهام.

ولماذا كان الاستخفاف بالعقاب وعدم الاهتمام بالوعيد سببا فى الإعراض عن الحق؟ الجواب عن ذلك أن الحق يصل إليه المؤمن بأحد أمور ثلاثة: إما بإشراق النفس، واستقامة القلب، وسلامة الفكر من الهوى والغرض، وذلك شأن من زكت نفوسهم وعلت قلوبهم؛ وإما شكر للنعمة، ووفاء لحق المنعم، وذلك

شأن عباد الله الأخيار؛ وإما خوف العقاب والحساب، وذلك شأن المتقين وأولئك قد حرموا الأول والثانى، فلم يبق إلا الثالث، فاستهانوا بالعقاب فكانوا قوما بُورا. وإن المؤمن يجب أن يصون نفسه دائما بخوف العقاب، وأن يغلب الخوف على الرجاء؛ فإنه إن زاد الرجاء عن الخوف تسربت الاستهانة إلى النفس وإذا تسربت الاستهانة هانت النفس فأركست فى السيئات، وارتكبت الموبقات؛ وذلك شأن كثيرين من المنتسبين للأديان، وشأن كثيرين من المسلمين فى هذه الأيام. وإنه يجب على المؤمن ألا يغتر، ولا يأخذه الغرور فيستهين بعقاب. ولقد رد الله سبحانه وتعالى فى غير هذه الآية على اليهود فى زعمهم أنهم لا يعاقبون إلا أياما معدودة، فقد قال الله تعالى: ﴿ **وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢)** ﴾ [البقرة].

﴿ **وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ** ﴾ يقال غررت فلانا أى أصبت غرته ونلت منه ما أريد بسبب ذلك، والغرة: الغفلة والغفوة. ومعنى ﴿ **وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ** ﴾: أصاب موضع الغرة والغفلة منهم فى دينهم ما كانوا يفترون أى يكذبونه متعمدين قاصدين.

وإن الأوهام التى ترد على النفس وتستولى على القلب تدفع إلى الضلال، وكذلك شأن هؤلاء اليهود: تعصبوا تعصبا شديدا لدينهم، وأبغضوا غيرهم بغضا شديدا، حتى إنه لا يتصور أن يهوديا أحب غير يهودى لغير مأرب من مآرب الدنيا، أو غاية من غاياتها؛ وحتى لقد حسبوا أن الديانة جنس، واندفعوا تحت تأثير ذلك التعصب إلى اعتقاد أوهام، ثم تأييد هذه الأوهام بأكاذيب افتروها، ثم تكاثفت تلك الأكاذيب جيلا بعد جيل، حتى أصابت غرة وغفلة فى عقولهم، فاعتقدوا ما لا يعتقد؛ اعتقدوا أنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، واعتقدوا أن الجزاء بالجنس لا بالعمل؛ وهذا ما يفيده قوله تعالى: ﴿ **وَغَرَّهُمْ فِي**

دينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى ما استمروا على افتـرائه جيلا بعد جيل. ولقد رد الله سبحانه وتعالـى زعمهم بإثبات أن الثواب والعقاب بالعمل، إن خـيرا فخير، وإن شرا فشر؛ ولذا قال سبحانه:

﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** ﴾ كيف: يستفهم بها عن الحال، أى مـا حالهم وما شأنهم إذا جمعهم الله رب العـالمين، ليوم لا ريب فـيه؟ لا شك أنهم يفـاجأون بذهاب غـرورهم الذى اغتروه، وضـلالهم بسبب استمـرار افترائهم الذى أحدثوه فـدلاهم فى غرورهم؛ وإنه فى هذا اليوم الذى لا ريب فيه توفى كل نفس ما كسبت أى جزاء ما كسبت، وهم لا يظلمون أى لا ينقصون مما فعلوه شيئا، فـسيجزون بالخير الحسنى، وبالشر السوءى.

وفى الآية الكريمة بعض البحوث اللفظية نشـير إليها واحدا واحدا؛ لأن فى بيانها توجيها إلى معانٍ دقيقة فى النص الكريم:

أول هذه الأمور: الفاء فى قوله تعالى: ﴿ **فَكَيْفَ** ﴾ فإنها هى ما تسمَّى فاء الإفصـاح، وهى التى تفصح عن شـرط مقدر، أى أنه إذا كـانت العقـوبة المقررة عليكم أياما معدودات فى اعـتقادكم مهما ارتكبتم، فـماذا تكون حالكم إذا كانت المفاجأة التى لم تقدروها وطُمس عليكم فلم تعلموها؟.

وثانى هذه المباحث اللفظيـة قوله تعالى: ﴿ **جَمَعْنَاهُمْ** ﴾ فإن التعـبير بلفظ الجـمع فيـه إشارة إلى مـعنى المسـاواة التامـة، وأنه لا فـضل لجنس على جنس، وإضافة هذا الجمع إلى رب العالمين، خالق الناس أجمعين يزكى هذه المساواة؛ لأنه خالق الجميع، ورب الجـميع، وجامع الجميع يوم القيامة، فـالجميع بين يديه سواء فى الأصل والتكوين وفى الربوبية والحفظ، وفى الجمع يوم القـيامة فيكونون سواء فى الحساب والعقاب والثواب، وكل وعمله.

وثالث هذه الأمور: تنكيـر «يوم» فى قوله تعالى: ﴿ **لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ** ﴾ فإن ذلك التنكيـر للتهويل، وبيـان عظم شأنه وأنه يوم عـبوس، وأنه مع شـدته وشدة

الحساب لا ريب فى وجوده ولا شك. وذكر قوله: ﴿لاَّ رَيْبَ فِيهِ﴾ فى هذا المقام لأن من اليهود طائفة تنكر البعث، فالتأكيد لأجل هذه الطائفة المنكرة الملحدة فى دين الله، الخارجة على كل أديان السماء، والباقون إن اعتقدوا بعقولهم لم يذعنوا بأفعالهم.

ورابع هذه المباحث اللفظية فى التعبير بقوله تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ إسناد التوفية إلى ما كسبت وعدم ذكر الجزاء، فيه إشارة إلى عدل الله اللطيف الخبير، وهو مساواة الجزاء للعمل، وكأن المثاب يُوفَّى عمله، لا جزاء عمله، وذلك لشدة المساواة بينهما. وقد أكد سبحانه وتعالى معنى العدالة وأن كل شىء بالقسطاس المستقيم بقوله: ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ أى سيجزون بأعمالهم، وسينالون ما يستحقون، وكل ما ينالهم بسبب ما فعلوا هو العدل عينه، ولا ظلم، فإذا ألقوا فى السعير فليس فى ذلك ظلم بل هو العدل. وإن سبب ضلال اليهود أنهم زين لهم سوء عملهم فرأوه حسنا.

فاللهم أرنا عيوب أنفسنا، وجنِّبنا الاغترار فى ديننا، إنك سميع الدعاء.

قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ
مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ
مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ
فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ
وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

بين سبحانه وتعالى اعتزاز المشركين بقوتهم الدنيوية وغلبهم وسلطانهم، وذكر أنهم فى غرورهم كفرعون ذى الأوتاد، واعتزازه بقهره لشعبه، وطغيانه فى

ملكه؛ إذ يقول: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف]. ثم أشار سبحانه إلى طغيان أهل الكتاب، واختلافهم على النبيين، وقتلهم بعض الأنبياء، وقتلهم الذين يأمرون بالقسط من الناس، وما كان ذلك الإعراض عن الحق بعد أن تبين لهم إلا لأن حُب السلطان والغلب قد استولى عليهم واستغرق نفوسهم، ولذلك كانوا إذا حاجّهم النبى ﷺ أو حاجّوه نظروا فى محاجتهم إلى الأمر من وراء ذلك الغرض، وتلك الشهوة؛ وقد أمر الله سبحانه نبيه بأن يقابل هواهم بإعلان إخلاصه فى طلب الحق، وإسلامه وجهه لله سبحانه! وفى هذه الآية: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾ إشارة إلى أن الإخلاص للذات العلية، وطلب الحق إرضاء لله، لا لأحد سواه، فيه اتجاه إلى مالك الملك الذى يؤتى الملك من يشاء، فالإخلاص للحق جل جلاله، يؤدى إلى السلطان الحق من مالك الملك.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ الأمر للنبى ﷺ، ولكل قارئ للقرآن الكريم مؤمن بالله مذعن للحق، أن يضرع إلى الله تعالى ناطقا بهذه الحقيقة؛ فإنها الحق فى هذا الوجود، ولا يعرف مؤمن سواها؛ والمعنى فى هذا الدعاء الكريم الضراعة إلى الله تعالى ونداؤه بأنه مالك السلطان المطلق فى هذا الوجود، فليس فقط صاحب السلطان، بل إنه يملك ذات السلطان، يؤتيه ويعطيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء؛ أى يسلبه ممن يشاء ممن يكون السلطان فى يده. والملك هنا هو السلطان، وفسره بعضهم بالنبوة، وعبرعن النبوة بالملك عند هؤلاء باعتبار أن الملك الحق لازم من لوازمها؛ ولذا قال سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [النساء] والظاهر أن المراد هو السلطان. وقوله تعالى: ﴿اللَّهُمَّ﴾ نداء إلى الذات العلية بلفظ الجلالة، والميم المشددة فى الآخر قائمة مقام حرف النداء على ما قال الخليل وسيبويه. وقال بعض الكوفيين: إن الميم المشددة هى «أمَّ» بمعنى قصد، أى أقصدك يا مولاى بضراعتى، وأنت صاحب السلطان.

ولكن خطأ ذلك النظر الزجاج، وقرر أن معنى القصد ثابت بمجرد الالتجاء والدعاء. وقوله: ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ نداء آخر وضراعة على تقدير أداة النداء، أى يامالك الملك، فكأن فى النص دعاءين: دعاء للذات العلية بلفظ الجلالة، وقد اشتمل على كل معانى العبودية، والتنزيه والتقديس، والخضوع التام، والتسليم لله سبحانه وتعالى بكل معانى الألوهية؛ والدعاء الثانى لمالك الملك، وفيه كل معانى الإحساس بالربوبية، والضعف أمام جبروت الله سبحانه وتعالى وملكوته.

وقلنا إن قوله تعالى: ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ أبلغ من صاحب الملك أو صاحب السلطان؛ لأن من يملك شأن أمة لا يملك مُلكها، ولكنه يستولى على ملكها ويده فيها ليست يدَ ملِك ولكنها يدٌ عارية؛ أما سلطان الله تعالى ذى الملكوت فسلطان مالك متصرف فى السلطان، يعطيه من يشاء عطاء عارية، ويمنعه ممن يشاء، ويسترد عاريته ممن يشاء؛ ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾.

وهنا أمران لابد من الإشارة إليهما:

أولهما: التعبير عن إزالة الملك بقوله تعالى: ﴿وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ فالتعبير بالنزع مع تكرار كلمة ملك، فيه إشارة إلى أنه يأخذه منه بعد أن استقر فيه وثبت له وظن أنه لا مزيل لسلطانه، فيأتيه الله من حيث لا يحتسب، ويأخذ ملكه أخذ عزيزٍ مقتدر ثم إن فى النزع إشارة إلى أن من يؤتى سلطانا يطغى فيه ويبغى ولا يسير بسنة الحق والعدل لا يتركه طائعًا، بل لابد أن يُمكِّن الله منه من ينزعه من يده، وقد يأخذه منه من كان يأتمنه «ومنْ مَأمَنه يُؤتى الحَذِر». وفى كثير من الأحيان يكون السبب فى زواله هو من كان السبب فى طغيانه.

الأمر الثانى الذى تجب الإشارة إليه: أن الله سبحانه وتعالى بمقتضى حكمته وما سَنَّ من نظم فى هذا الوجود، وما تسير عليه أعماله فى خلقه، لا يعطى الملك إلا من يستحقه، ويأخذ بالأسباب العادلة فى طلبه، ويقصد به رفعة قومه، ولا ينزعه إلا ممن يسىء ويطغى، ويفهم أن الملك متعة تشتهى وليس تَبِعات

تؤدى، فينزعه منه غيره، وكذلك سنة الله تعالى فى الحكم بين الناس: من لا يسوس الملك يُخلَعه، ومن حل محله ينزل به ما نزل بسابقه إن سار سيرته.

وكلمة «الملك» ليس المراد منها ما تعارفه الناس من الحكم بمقتضى الوراثة فى أسرة، إنما المراد بالملك السلطانُ فى هذه الأرض، سواء أكان سلطانا بالغَلب، أم كان سلطانا بالاختيار والانتخاب، أم كان سلطانا بالوراثة، وسواء أكان محدودا بجزء من الدولة، أم ناحية من نواحيها، أم كان عاما شاملا لكل أجزائها تجتمع فى يد صاحبه كل السلُطات فيها، فكل هذا ملك لأنه سلطان. وقد ذكر سبحانه بعد ذكر الملك يعطيه من يشاء وينزعه ممن يشاء العزة، فقال:

﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ﴾ العزة ليست مرادفة للسلطان، وإن كان الأصل فى كلمة عَزَّ معناها غَلَبَ؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾ [ص] ولكن العزة صارت تستعمل بعد ذلك فى معنى نفسى، وهو عدم الخضوع إلا للحق، والتسامى عن الخضوع الذى ينافى المروءة والخلق الكريم، وقد يكون ذلك فى ضعيف فى بدنه مستضعف عند الناس، ما دام قد علا عن الخضوع إلا لذات الله تعالى؛ وإن صهيبا وآل ياسر، وخباب بن الأرتّ وغيرهم، كانوا وهم المستضعفون فى مكة الأعزاء فى أنفسهم؛ لأنهم لم يجعلوا قلوبهم مراما للأقوياء، فلا عزة إلا مع الإيمان بالله وحده، والاعتماد عليه وحده؛ ولذلك لا يكون المنافقون مهما يؤتوا من مال ونسب وسلطان إلا أذلاء. ولما قال المنافقون فى شأن المؤمنين: ﴿لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ ... ﴿٨﴾﴾ [المنافقون]. نفى سبحانه وتعالى عنهم العزة فقال سبحانه: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون]. وكيف يكون المنافق عزيزا وهو الذى جعل نفسه وفكره ولسانه ملكا لغيره؟ فهو قد سلب كل شئ حتى قلبه ولسانه.

ومشيئة الله تعالى فى العزة والذلة تسير على مقتضى حكمته، فهو لا يعطى العزة إلا لمن خلَّص قلبه من كل أدران الهوى والشهوة، فالشهوات مردية، ولا

يكون عزيزا بين الناس من يكون عبد شهوته؛ فإن العزة تبتدئ من النفس، فإن ضبَط المرء أهواءه وشهواته وسيطر عليها أعطاه العزة، فكان بين الناس عزيزا؛ ومن سيطرت عليه أهواؤه ومطامعه وشهواته كتب الله عليه الذلة، وكان الذليل وإن ظهر أنه العزيز؛ ولذا كان من حكمة السلف الصالح قولهم: «أذلَّ الحرصُ أعناقَ الرجال».

﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هذا تسليم بأن ما يفعله الله تعالى دائما خير، وأن الخير كله بيده سبحانه وقوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ معناه إنك وحدك الذى تملك الخير كله، فـ «ال» فى قوله «الخير» للاستغراق الشامل؛ فكل خير هو بيد الله سبحانه. والتعبير بـ «يد» هنا إشارة إلى الملكية التامة السيرة، فهو استعارة تمثيلية، فقد قرب سبحانه - ولله تعالى المثل الأعلى - لأذهاننا معنى سلطانه وكمال ملكه لكل الأمور، بحال من يكون الأمر فى يده وقبضته، ولا سلطان لأحد من الناس فيما بيده، وفى قبضته. ومعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ شمول قدرته على الأشياء كلها: ما يتخذه الناس سببا للخير عندهم، وما يتخذونه سببا للشر عندهم. وفى الجمع بين قوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ و ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إشارة إلى أمرين :

أولهما: أن كل ما يفعله الله تعالى هو خير، فلا يقال إن بيده الخير والشر، فإن الشر معنى نسبى بالنسبة للعبيد، ولكن بالإضافة إلى الله تعالى فإن الله لايفعل إلا خيرا. ولقد قال الزمخشرى فى هذا المقام ما نصه: «إن كل أفعال الله تعالى من نافع وضار صادر عن الحكمة والمصلحة فهو خير كله كإيتاء الملك ونزعه».

الأمر الثانى: إثبات أن الله تعالى خالق الأسباب، وهى الأشياء التى يستخدمها الناس للخير والشر، يحسنون فلا يقصدون إلا النفع فيكون ما مكَّن الله لهم فى الأرض نفعا للناس وخيرا، ويسيئون فيقصدون إلى نواحى الفساد فيكون ما يفعلونه فسادا وضررا عاما. وهذا أشار إليه سبحانه بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فكل ما فى هذا الوجود من أشياء وأعمال ومخلوقات تحت قدرة الله، وكله خير بالنسبة له سبحانه، والشر والخير بالنسبة لمقاصد الناس، ولانتفاعهم بما مكَّن الله تعالى فى هذه الأرض. وإنه يلاحظ دائما أن الشر نسبى للناس، ولا يصح أن يقال فى فعل الله إلا أنه خير. ولقد بين سبحانه مظاهر قدرته فى الكون المحسوس فقال سبحانه مبتدئا بآياته جل شأنه فى الليل والنهار:

﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ هذا مظهر حسى لقدرة الله تعالى فى هذا الكون. تولج معناها تُدخل، أى تدخل الليل فى النهار وتدخل النهار فى الليل. وقد فسر بعض العلماء دخول الليل فى النهار بزيادة الليل حتى يصل إلى أقصى الزيادة، وفى هذا الوقت ينقص النهار حتى يصل إلى أقصى النقصان، وكذلك دخول النهار فى الليل فمعناه أن يأخذ النهار جزءا من معدل النسبة بينهما وهو تساويهما، فيدخل النهار فى الليل. وفقد فسر الزمخشرى مع كثير من المفسرين دخول الليل فى النهار ودخول النهار فى الليل بالتعاقب بينهما بأن يكون الوقت نهارا ثم يصير ليلا، ويكون ليلا ثم يصير نهارا، ولكن كيف نسمى ذلك التعاقب دخولاً لليل فى النهار، ودخولا للنهار فى الليل؟ والجواب عن ذلك: أن الليل لا ينقلب نهارا دفعة واحدة، بل إنه يدخل النهار فى الليل شيئا فشيئا، فيبتدئ النور يدخل فى الظلمة شيئا فشيئا، يبتدئ الفجر الكاذب فالصادق، فتنفس الصبح لحظة بعد لحظة، والنور يغزو الظلمة حتى تنجاب غياهبها، فيكون الضوء الساطع؛ وكذلك لا يجيء الليل دفعة واحدة، بل يبتدئ الضوء يضعف من الأصيل حتى تجئ الغروب، ثم تجيء العشية، فيكون ظلام وتُمحى آية النهار.

وإن توجيه الأنظار إلى دخول الليل فى النهار، ودخول النهار فى الليل، سواء أكان بالمعنى الأول أم كان بالمعنى الثانى، فيه توجيه الأذهان إلى عظمة الكون وكمال سلطانه سبحانه وتعالى فيه، فما كان تعاقب الليل والنهار وتداخلهما إلا ظاهرة لدوران الأرض حول الشمس، وحركة الفلك الدوار المستمرة الدائبة بقدرة

الله تعالى وقيامه على كل شيء، وفى الليل تبدو الكواكب والنجوم، وتظهر آيات ذلك النظام العجيب المحكم الذى يسيره سبحانه بقدرته وحكمته.

﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ هذا مظهر كونى حسى يدل على عظيم قدرة الله، وبيان أنه لا إرادة فى هذا الكون غير إرادته، وأنه القادر على كل شيء، يخرج الضد من ضده، وهو المبدع لكليهما، المسير لهما؛ فالله سبحانه يخرج الحيَّ من الميت، ويجعل من هذا الحيّ الذى أخرجه ميتا؛ وإخراج الحيّ من الميت ليس هو الخلق الأول الذى ذرأ الله به الأحياء، وهو خلق آدم من طين، فإن الخلق غير الإخراج؛ إذ الخلق إبداع وإنشاء ابتداء، والله هو الخلاق العليم، ولا خالق سواه، والإخراج تحويل فيه معنى الاستخراج والتوليد؛ وإخراج الله الحيّ من الميت قال بعض العلماء وهم الأكثرون: إنه إخراج الجسم النامى الذى يسير فى مدارج الحياة، من الجسم الجاف الذى لا تبدو فيه حياة، كإخراج الشجرة من النواة، والعود من البذرة؛ وإخراجُ الميت من الحى هو أيضا إخراج النواة الصلبة من الجسم الحيّ النامى، وإخراج البذرة الجافة من العود الحى الرطب. وقد يعترض على ذلك بأن النواة الجافة والبذرة الصلبة فيها حياة تولدت عنها تلك الحياة المحسوسة للنبات، وكذلك النطفة التى تبدو سائلا ليس فيه حياة فيها أحياء تتوالد فتكون ذلك الحيوان المحسوس. وقد يجاب عن ذلك بأن ذلك اصطلاح علمى، وإن الحياة التى تعرفها اللغة مظهر ذلك النماء المتدرج المستمر. وفى الحق إن إخراج الحيّ من الميت أمر محسوس مرئى كل يوم؛ فإن تلك الشجرة أو ذلك العود النامى يتغذى من الهواء والضوء والماء والتراب، وكلها جماد لا حياة فيها، وما يتم التحول المتدرج فى الحياة إلا بتلك العناصر التى هى غذاء الحى، فهى إخراج الحى من الميت، وليس المراد من الميت من كانت به حياة ثم انتهت، إنما الظاهر من كلمة الميت هو ما لا حياة فيه؛ وإن إخراج الميت من الحى أمر واضح لا مجال للشك فيه؛ فهذا العود الأخضر يصير حطاما، وهذا الجسم الحيوانى يتحلل فيكون رميما ثم يكون ترابا.

وعلى هذا نقول إن إخـراج الحى من الميت ليس فلْق النوى بإخـراج النبات والشجر منه فقط، بل بهذا وبتدرج الحياة، وإدخال عناصر الغذاء التى تكون الحى وأكثرها من جـماد؛ ولذا قال سبـحانه فى آية أخرى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٩٥﴾ [الأنعام]

﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ هذا مظهر رابع من مظاهر قدرة الله تعالى المحسـوسة بين الناس، وهو الرزق للعبـاد، وكلمة الرزق تشمل إعطاء الله عبـيده مـالا، وإعطاءهم جاها، وإعـطاءهم علما، وإعطاءهـم حزمـا ورأيا، وإعطاءهم صحـة، فكل هذه أرزاق يعطيها رب العـالمين. ولذا قال الراغب الأصفـهانى فى مفرداته: «الرزق يقال للعطاء الجارى تارة، دنيويا كان أم أخرويا، وتارة للنصيب، ولما يصل إلى الجوف ويتغذى منه به تارة أخرى؛ يقال أعطى السلطان رزق الجند، ورُزقت علما؛ قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ... ۝١٠﴾ [المنافقون] أى أنفقوا من المال والجاه والعلم».

فالله سبحانه وهو الرزاق ذو القوة المتين، قد وزع رزقه بين عباده بالقسطاس المستقيم؛ فمنهم من أعطاه صحة وعافـية، ومنهم من أعطاه مالا وحرمه من نعمة العلم، ومنهم من أعطاه جـاها وسلطانا، ومنهم من أعطاه أولادا تقر بـهم عينه، ومنهم من وهب له ذكرا حـسنا بين الناس. ومن قصر الرزق على المال فـقد ضل ضلالا بعيدا، كذلك المعترض الذى يقول:

كَم عاقلٍ عاقلٍ أعْيَتْ مذاهبُـه ... وجاهـل جاهلٍ تَلقَاه مرزوقـا
هذا الذى ترك الأوهامَ حائرةً ... وصيَّر العالِمَ النِّحْـريرَ زِنْديقـا

فما فى ذلك حَيْرة إلا فى رأس القائل، فتلك هى القسمة العادلة: حَرم هذا من المال وأعطاه علمـا، وحرم هذا من الولد وأعطاه ذكـرا بين الناس . . وهكذا؛ ولو اجتـمعت كلها فى واحـد، لكانت الحيرة، وعـلاجها التـفويض المطلق لرب العالمين .

وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ معناه أنه ليس فوقه أحد يحاسبه، تعالى الله علوا كبيرا، وأن عطاءه كثير يعلو على العد والحساب، وهو يعطى من يشاء بسنة الحكمة والعدل والفضل، وإليه مصير كل شىء، ولا ينتج عمل عامل نتيجته إلا بفضل من الله. روى الحافظ ابن كثير عن ابن عباس عن النبى ﷺ أنه قال: «بسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب» فى هذه الآية: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن
يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ
تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ
إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾
يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ
مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ
ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾

بين سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة أن الملك كله بيد الله سبحانه وتعالى، وأنه هو الذى يعطى بعض عباده سلطانا، وهو الذى ينزع السلطان من أيديهم إن لم يحسنوا القيام عليه؛ وفى هذه الآية يبين سبحانه أنه لا يصح للمؤمن أن يستعين بسلطان غير المؤمن على المؤمن لما يراه من قوة سلطان غير المؤمن، فإن

الملك بيد الله، قد يديل سبحانه من دولة الشرك والكفر[١]، ويكون لله ولرسوله الكلمة العليا؛ فكأن الآيات السابقة مقدمة، وهذه الآية نتيجة؛ أى أنه إذا كان الملك لله سبحانه، وهو مالك الملك، فلا يسوغ لمؤمن أن يدخل فى سلطان غير مؤمن وولايته؛ لأنه بذلك يخرج من ولاية الله مالك الملك إلى ولاية كافر أعير الملك، والعارية مستردة لصاحبها فى أى وقت، وهو الحق سبحانه الذى لا سلطان فوق سلطانه؛ ولذا قال سبحانه:

﴿**لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ أولياء جمع ولى، وهو من الولاء. وأصل هذه الكلمة بينها الأصفهانى فى مفرداته، فقال: «الولاء والتوالى: أن يحصل شيئان حصولا ليس بينهما ما ليس منهما، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان، ومن حيث النسبة، ومن حيث الدين، ومن حيث الصداقة والنصرة، والاعتقاد. والوِلاية (بكسر بالواو) النصرة. والوَلاية (بالفتح) تولى الأمر. وقيل الوِلاية والوَلاية واحدة نحو الدِّلالة والدَّلالة». وعلى ذلك تكون كلمة ولى تطلق بمعنى الصديق وبمعنى النصير، وبمعنى من يتولى أمر غيره. وما المراد بها هنا؟ الظاهر أن المراد هو من يتولى أمر غيره، فمعنى ﴿**لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ نهى المؤمنين عن أن يدخلوا فى ولاية الكافرين وتحت سلطانهم وفى ظلهم دون ظل المؤمنين وسلطانهم؛ فإن على المؤمنين أن يكوِّنوا لأنفسهم دولة وولاية تظلهم، ولا يكون أحد منهم فى ولاية غيرهم والدليل على أن أولياء هنا معناها متولون الأمر قوله تعالى: ﴿**مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ فإن دون هنا بمعنى غير، وهذا يومئ إلى ترك ولاية المؤمنين ليكونوا فى ولاية غيرهم؛ فالمعنى إذن أنه لا يجوز لطائفة من المؤمنين أن يكونوا فى ولاية غير المؤمنين. وهنا إشارة بلاغية رائعة فى قوله تعالى: ﴿**لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ**﴾ وفى قوله: ﴿**مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾؛ فإنه من المقررات البيانية أن اللفظ إذا

---

(١) يُديلنا: من الدَّوْلَة. والإدالَةُ: الغَلَبَةُ. ودالَتِ الأيَّامُ: دارَتْ، واللّهُ تعالى يُداوِلها بينَ الناسِ. [القاموس المحيط - فصل الدال - الدولة].

أعيد معرفا بـ «أل» كان الثانى هو عين الأول، فإذا قلت: خاطبت رجلا، فأفهمت الرجل حقيقة موقفه، كان الثانى عين الأول، فتكرار المؤمنين بالتعريف بأل إشارة إلى أن الثانى هو عين الأول، وفى ذلك إشارة إلى أن المؤمنين الذين يدخلون ولاية غيرهم يتركون أنفسهم، ويتخذون من عدوهم نكاية لأنفسهم.

وإن النهى عن تولى المؤمنين لغير المؤمنين غير معلل هنا صراحة، وإن كان قوله تعالى: ﴿**مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ يشير إلى أن تولى المؤمنين لغيرهم يكون نكاية لأنفسهم، وفى آية أخرى كان النهى معللا تعليلا صريحا؛ فقد قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ...** ﴿٥١﴾﴾ [**المائدة**]. وقال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ** ﴿٧٣﴾﴾ [**الأنفال**].

ففى هاتين الآيتين تعليل صريح للنهى عن أن يكون المؤمنون أو بعضهم فى ولاية غير المؤمنين، وأن تكون سيوفهم وكل قوتهم لغير المؤمنين. والذى يستفاد من هاتين الآيتين أن السبب فى أنه لايجوز للمؤمنين أن يتولَّوْا غير المؤمنين بأن يكونوا فى ولايتهم، يتكون من ثلاثة أمور:

أولها: أن غير المؤمنين لا يمكن أن يرعوا حقوق المؤمنين حق الرعاية، بل لا يألونهم خبالا، وقد حققت الأيام ذلك؛ فإن المؤمنين الذين يخضعون للأمم الأوروبية كمسلمى يوغسلافيا مع قيامهم بحق إقليمهم فى نصرته لا يكادون يستمتعون بأى حق سياسى، ولا يتولون أعمالا إدارية إلا فى صغير الأمور.

وثانيها: أن الذى يكون فى ولاية غير المسلمين تكون نصرته وقوته لغير المسلمين؛ ولذا قال سبحانه: ﴿**وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ**﴾ إذ تكون كل قوته وكل نشاطه الإنسانى والاجتماعى لهم، وليس للإسلام منه شىء.

وثالثها: أن المسلمين الذين يكونون فى ولاية غيرهم يفتنون فى دينهم، ولو من قبيل العدوى وعدم تنفيذ أحكام الإسلام فى الدولة، وفى ذلك فساد أى

فساد؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ أى إلا تمتنعوا عن الدخول فى ولاية غير المسلمين تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير.

هذا، ويجب التنبيه إلى أن تولى المؤمنين لغيرهم ليس معناه المحبة، فإن بر المؤمن لغير المؤمن واجب إن تحقق السبب الموجب للبر؛ فقد قال تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة].

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ أى من يدخل فى ولاية الكافرين، ويترك ولاية المؤمنين فقد قطع صلته بالله سبحانه وتعالى قطعا تاما؛ لأن ولاية المؤمنين هى ولاية الله تعالى؛ وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾. وقد أولها بعض العلماء على حذف مضاف، والمعنى: فليس من ولاية الله فى شىء، وبعضهم قال: فليس من الصلة بالله فى شىء، ولكن لِمَ حذف المقدر، وجعل النفى عن ذات الله مباشرة؟ والجواب عن ذلك هو الإشارة إلى أن من دخل فى ولاية غير المؤمنين تاركا ولاية المؤمنين، فقد ترك ذات الله سبحانه وتعالى وكان مختارا لقوة الكفار دون قوة العزيز الجبار، فهو يعاند الله نفسه، ويحاد الله سبحانه، والله عزيز ذو انتقام، وهو ذو القوة المتين، وهو الناصر، فإن نصر فلا خذلان، وإن خذل فلا نصر: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ ... ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران].

هذا حكم الجماعة الإسلامية أو بعضها فى الدخول فى ولاية غير المسلمين، ولكن قد يكون بعض الآحاد فى حال ضعف، وهم مضطرون لأن يعلنوا الموالاة لبعض الكافرين، فهل يسوغ ذلك؟ ذكر الله حكم هؤلاء فى هذا الاستثناء، فقال سبحانه: ﴿إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ أى أن براءة الله سبحانه وتعالى من الذين يوالون الكفار ثابتة قائمة إلا فى حال الخوف وخشية الضرر المؤكد لبعض المسلمين

فإنه يجوز لهؤلاء أن يظهروا لهم الولاء، وهم بذلك يتقون ضررهم المؤكد؛ ومعنى: ﴿أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ أى تخافوا خوفا شديدا لضرر مؤكد، فتجعلوا إظهار الولاء وقاية تتقون بها الضرر؛ وقد أكد سبحانه وتعالى الخوف بالمصدر فقال: ﴿أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ أى يكون الضرر ثابتا لامجال للشك فيه، وألا يتجاوز الولاء المظهر واتخاذ الوقاية المؤقتة. و«تقاة» مصدر وقى على وزن فعلة، وأصله وقية، قلبت الواو تاء كما فى تؤدة أصلها وأدة، وتهمة أصلها وهمة.

وإن هذا النص يستفاد منه أن التقية جائزة، والتقية أن يظهر المؤمن غير ما يعتقد اتقاء الأذى الذى يتلف الجسم على أن يكون نزول الأذى مؤكدا، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ... ﴿١٠٦﴾ ﴾ [النحل] على أن يكون ذلك مقصورا على الأحوال الأحادية لا الأحوال الجماعية، وعلى أن يجتهد الذين يكونون فى ولاية غير المؤمنين أن يخرجوا من ولايتهم وألا يبقوا مستضعفين فى الأرض؛ فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ﴿٩٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾ [النساء].

هذا، وإن التقية الأحادية أمر لا يعلمه إلا الله، وقد يمالئ بقلبه ولسانه رجاءَ رجاء كما يفعل بعض ملوك المسلمين ويدعى أنه يفعل ذلك تقية ودفعا للضرر؛ ولذا قال سبحانه محذرا هؤلاء، ومحذرا من يوالى الكفار بشكل عام:

﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾:

التحذير: هو التخويف لأجل الحذر واليقظة، والعمل على منع الأمر المخوف قبل وقوعه. والتحذير لا يكون إلا حيث يتوهم الشخص الآمن، ويعتقد أنه لا مخاف، ولا ما يثير الخوف؛ وإن مقام التحذير هنا واضح بين ؛ لأن أولئك الذين يوالون الكافرين يظنون أن ذلك من دواعى الأمن والاستقرار، والواقع أنهم

إن أمنوا الكفار ومالأوهم على هذا واختاروا ولايتهم دون المؤمنين، فإنهم لا يأمنون عقاب الله، فعليهم أن يحذروه .

ومعنى ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ قال بعض العلماء فيه: إن الكلام على حذف مضاف وهو: عقاب الله أو نقمته، وعندى أنه لا حاجة إلى تقدير مضاف، بل إن التحذير من ذات الله، والتحذير من ذات الله يقتضى الخوف ووقوع الرهبة فى النفس من الذات العلية، كما يقول القائل ولله المثل الأعلى: احذر الأسد؛ فإنه لا يقدر: صولته ولا شدته، إنما يريد أن ذاته فى كل أحوالها مخوفة مرهوبة. وعبر سبحانه عن التحذير من ذاته العلية بقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ للإشارة إلى تأكيد معنى المعاندة لله تعالى عند موالاة الكافرين، فإن كلمة نفس تقال لتأكيد التعبير عن الذات، كما يقول القائل: خاصمت زيداً نفسه، وغاضبت عمرواً نفسه؛ وللإشارة إلى أن ما ينزله الله تعالى مغيب غير معلن الآن؛ إذ إن التعبير بالنفس يكون لما يخفى فى أطوائها، كما قال الله تعالى عن نبيه عيسى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة].

وهذا التحذير من ذات الله تعالى تحذير ممن يكون عقابه أدوم بقاء، ونقمته أكثر استمراراً؛ ولذا قال بعد ذلك: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أى إليه وحده المآل وانتهاء أمر العباد، فلا يكون ثمة معقب لما يقول ويفعل، والمصير إليه حيث تذهب سطوة الكفار الذين يمالئونهم على المؤمنين ويوالونهم دون المؤمنين؛ فإن كانت للكافرين قوة ظاهرة فى الدنيا فهى حال ليست باقية، والمصير إلى الله والعاقبة للمتقين، وإن كان للكافرين عزة فى الأرض فاجرة، فالعزة الحقيقية لله ولرسوله وللمؤمنين .

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ كان التحذير والتخويف من الله سبحانه وتعالى، وقد أمر سبحانه نبيه بأن يبين لهم مقدار علمه بخفايا نفوسهم، وعلمه بالكون وما فيه، فقال سبحانه: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ أى أن علمه سبحانه وتعالى يعم الظاهر والباطن، وإن كون الأمر ظاهرا أو باطنا

إنما هو بالنسبة لنا، أما علم الله تعالى فإنه ليس فيه ظاهر وباطن، بل العلم كله سواء بالنسبة له سبحانه وتعالى وسيق إثبات علم الله تعالى وإحاطته الشاملة فى هذا المقام، لمقام التحذير أيضاً؛ لأن الذين يوالون الكافرين يظنون فى أنفسهم ضعفا وقد يظهرون أن ما يفعلون إنما هو تقية وخوف من الكافرين، والواقع أنهم يفعلون ذلك استخذاء وذلة، أو تملقا للأقوياء أو مداهنة لهم على أقوامهم، أو رجاء غرض دنيوى ينالونه، كما نرى فى عصرنا الحاضر، إذ نجد ناسا يبررون كل خيانة قومية ودينية، والدخول فى ولاية غير المؤمنين بالتقية وحال الضعف، وما هو إلا ضعف وازع الدين وفقد اليقين، ورجاء الدنيا الذليلة، وفرار من العزة والحياة السامية الكريمة حقا وصدقا؛ فأمر الله نبيه أن يبين أنه يعلم ما تخفيه الصدور، وما تختلج به القلوب، وما ينوون وما يقصدون، كما يعلم ما يبدون ويعلنون، وأن الله سبحانه محاسبهم على أعمالهم بنياتهم، لا بظواهر هذه الأعمال، ولا بما تتلوى به الألسنة، وإن كانت مخالفة لما تطويه القلوب.

وجعل البيان من النبى ﷺ بعد أن وجه سبحانه وتعالى الترهيب بذاته العلية؛ لأن ذلك التنويع من شأنه أن يربى المهابة، كما يقول ذو السلطان محذرا مخوفا: أحذركم مخالفتى، ثم يتركه لصفىٍّ من أصفيائه يبين له مدى سلطانه وقوته وعلمه.

﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فى هذا بيان شمول علم الله تعالى وشمول قدرته، فهو يعلم سرائر النفوس وظواهرها، كما بيّن فى الجملة السابقة، ويعلم الكون وما يجرى فيه من نجوم سارية، وأفلاك دائرة، وشمس مشرقة، وقمر منير، والسحاب وما تحمل، والرياح المسخرات بين السماء والأرض، ويعلم كل الأحوال، وكل الأزمان، وكل اللحظات، وجميع الأوقات، وما من شىء فى هذا الوجود إلا تحت سلطان علمه، وفى متعلق إرادته، وفى شمول قدرته؛ إنه فعال لما يريد؛ فكيف يتصور من عاقل أن يترك ولاية المؤمنين وهم أولياؤه، ويدخل فى ولاية الكافرين وهم أعداؤه؟ فإن كانت

الولاية للعزة والقدرة والسلطان والعلم ، فلله وحده العزة والكبرياء فى السموات والأرض. وقد ذكر سبحانه شمول القدرة بعد شمول العلم؛ لأن القدرة الكاملة لا تكون إلا عن العلم الكامل، فكمال القدرة من مظاهر كمال العلم. ولقد قال الزمخشرى فى معنى هذا النص الكريم: «هذا بيان لقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ لأن نفسه، وهى ذاته المتميزة من سائر الذوات متصفة بعلم ذاتى، لا يختص بمعلوم دون معلوم، فهى متعلقة بالمعلومات كلها، وبقدرة ذاتية لا تختص بمقدور دون مقدور، فهى قادرة على المقدرات كلها، فكان حقها أن تحذر وتتقى، فلا يجسر أحد على قبيح ولا يقصر عن واجب، فإن ذلك مطلع عليه لا محالة فلاحق به العقاب، ولو علم بعض عبيد السلطان أنه أراد الاطلاع على أحواله فوكل همه بما يورد ويصدر، ونصب عليه عيونا، وبث من يتجسس على بواطن أموره، لأخذ حذره وتيقظ فى أمره، واتقى كل ما يتوقع فيه الاسترابة به، فما بال من علم أن العالم بالذات الذى يعلم السر وأخفى وهو آمن، اللهم إنا نعوذ بك من اغترارنا بسترك» ولقد بين سبحانه وقت تنفيذ عقوبته المؤكدة، وهو يوم القيامة، فقال :

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ المعنى الجملى للنص الكريم: خافوا الله واحذروه، واخشوا حسابه وعقابه،وارجوا ثوابه يوم تجد كل نفس ما عملت من خير ظاهرا ثابتا واضحا، كأنه قد أحضر من الدنيا إلى الآخرة فيرى رأى العين، وما عملت من شر معلوما كذلك كأنه رئى بالحس والبصر، وتود كل نفس أن لو يتأخر أمدا طويلا بعيدا، وذلك لأن ما يخافه الإنسان يتمنى أن يتأخر ويؤجل؛ ليكون عنده أطول فسحة من الأمان. وهنا عدة مباحث لفظية تجلى المعنى:

المبحث اللغوى الأول - متعلق ﴿يَوْمَ تَجِدُ﴾: لقد ذكر العلماء ثلاثة توجيهات؛ أولها ذكره الزمخشرى أنه متعلق بـ «تودّ» والمعنى : تودّ كل نفس لو

أن بينها وبينه أمـدا بعيدا أى زمنا طويلا وقت أن تجـد كل ما عملت محـضرا من خير أو سوء.

وهذا يؤدى إلى أن من عملت خيرا تود أمـدا بعيدا، مع من عملت سوءا، مع أن رجاء الثواب يسوغ تمنى المسارعة لا تمنى التأجيل؛ ولهذا لا نوافق عليه.

والوجه الثانى: أنه متعلق بقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ بدليل قوله تعالى مكررا التحذير، فقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ مرة أخرى، ولكن يرد على هذا بعد القول، ومجىء جملة مستقلـة بينهما، واختلاف القائل؛ فالأول من قول الله تعالى والتحذير من الله، والثانى من قول النبى ﷺ بأمر الله ولكن قد يرد هذا الاعتراض بأن قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ﴾ معترضة بين كلامين متلازمين للمسارعة بإثبات شمول علم الله تعالى وقدرته.

التوجـيه الثـالث: أنه متـعلق بمحذوف تقـديره: اذكروا، وهذا أسلمـها فى نظرى.

المبحث اللغوى الثانى - قوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ﴾ أهى معطوفة على ﴿مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ﴾ أم «ما» مبـتدأ خبره «تود»؟ أظـهر الأقوال أنها مـبتدأ وجملة تود خـبر، والمعنى: ما عمـلت: ما عملت من خيـر تجده محضـرا، وما عملت من سوء تتمنى كل نفس أن يكون بينها وبينه أمد بعيد.

المبحث الثالث - الأمد اسم للزمـان كالأبد يتقاربان، لكن الأبد كـما قال الأصفهانى مدة من الزمان ليس لها حد مـحدود، ولا يتقيد، فلا يقال: أبد كذا؛ أما الأمد فـمدة لها حد مجـهول، إذا لم يضف إلى غاية معينة، فـإن أضيف كان محـدودا بهذه الغاية. والمعنى أن النـفس التى تجد عملهـا السيئ محـضرا تود لو يتأخر أمدا بعيدا، ولكن لا تحقيق لهذا التمنى.

ولقد كـرر الله سبحـانه التحذير من نفـسه تذكيـرا، وليكون فى بال المؤمن دائما، ولبيان أن ذلك التـحذير من دواعى الرحمة كما هو من تربيـة الرهبة، فهو

قد ذكر تمهيدا لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ فتذكير العباد وتحذيرهم من رحمته بهم حتى لا يؤخذوا أخذ عزيز مقتدر، وختمت الآية بهذا التذييل الكريم؛ لإثبات أن عقاب المسيء وثواب المحسن من الرحمة، فليس من الرحمة فى شىء أن يتساوى المحسن والمسيء، ولإثبات أن ولاء المؤمنين ومعاداة الكافرين من الرحمة بالعباد، حتى لا يعم الظلم وينتشر الفساد. اللهم وحِّد الولاية الإسلامية، واجعل المسلمين جميعا بعضهم أولياء بعض.

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

يؤمن المؤمن رغبة فى الثواب، ويؤمن المؤمن خوفا من العقاب، ويؤمن المؤمن إذعانا للحق، ومحبة للرب، وإخلاصا وخلاصا من أدران الهوى، ومآثم هذه الدنيا؛ وتلك أعلى المراتب، وأشرف المناصب، وبها يعلو المؤمن.

وفى الآية السابقة حذر الله المؤمن من نفسه، فقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ وقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ فكانت هذه الآية تدعو المؤمن إلى الطاعة ولزوم الجماعة بالترهيب، وفيها إشارة إلى الترغيب فى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

وفى هذه الآية يدعو إلى الطاعة لا خوف العقاب ولا رجاء الثواب، ولكن لأن الطاعة تؤدى إلى أعلى منازل السائرين، وهى المحبة: محبة الله لعبده، ومحبة العبد لربه.

قال بعض السلف: ادعى قوم محبة الله، فأنزل الله تعالى آية المحبة:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ الأمر للنبى ﷺ، وجعل سبحانه وتعالى الخطاب منه للنبى ﷺ إليهم لبيان شرف النبوة وعلوها، ومكانة الاتصال بينها وبين الله سبحانه وتعالى؛ إذ جعل اتباع الرسول يكون من نتائجه محبة الله تعالى.

وكون النبى ﷺ هو الذى يخاطب بذلك ويقرره، وأن الله تعالى يمضى ما يقرره، علوٌ بمقام الرسالة المحمدية، وبمقام النبوة؛ لأن فيه إشعارا بعظم محبة الله لنبيه، وأنها فوق كل محبة؛ فإذا كان من يتبعه يحبه، فهو إذن فى أعلى درجات المحبة؛ ولأن فيه بيان أقوى الاتصال؛ لأن خطابه لهم هو خطاب من الله لهم، بدليل أن المحبة من الله تجىء نتيجة لاتباعه الذى دعا إليه ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ فيه إيجاز معجز، وهو إيجاز حذف دل عليه المقام؛ لأن المعنى: إن كنتم تحبون الله فاتبعونى، وإن اتبعتمونى يحببكم الله؛ لأن جواب فعل الأمر فى معنى الجزاء، فكان ثمة فعل شرط مقدر؛ وإن هذه الجملة السامية تدل على ثلاثة أمور:

أولها: أن أول طرق محبة الله تعالى هو اتباع الرسول ﷺ؛ لأن طاعة الرسول طاعة لله تعالى جلت قدرته، وعصيان الرسول عصيان لله تعالى، وليس من المعقول أن يحب الله تعالى ويعصيه؛ ولذلك يقول الشاعر الصوفى:

تعصى الإلهَ وأنت تُظهر حُبَّهُ ... هذا لعَمْرِى فى القِيَاس بَدِيعُ
لو كانَ حُبُّك صادقًا لأَطَعْتَهُ ... إنَّ المحبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

الأمر الثانى الذى يدل عليه النص الكريم: أن الطاعة ومحبة العبد لربه يترتب عليهما حتما محبة الله سبحانه وتعالى لعبده. وأى منزلة للطاعة أسمى من أنه يتبعها حتما محبة الله سبحانه وتعالى.

الأمر الثالث الذى يدل عليه النص القرآنى: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أن من يصل إلى مرتبة المحبة التى تبتدئ بالطاعة وتنتهى بمحبة الله تعالى يغفر له الله

سبحانه وتعالى كل ما كان له من تقصير سابق وإثم قد جلته المحبة عن القلب؛ وذلك لأن السيئات أدران تعلق بالقلب، فإذا وصل إلى درجة محبة الله تعالى، بعد قيامه بحق الطاعات، انصهر قلبه بهذه المحبة، وإذا انصهر القلب بالمحبة زال عنه كل خبث ومحى كل درن، فصفا، والله سبحانه وتعالى يغفر لمن يصل إلى هذه المرتبة. ولقد ذيل الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

وصفان كريمان للذات العلية : أولهما أنه غفور؛ أى أنه كثير الغفران لعباده؛ لأن فعول تدل على المبالغة، ووصف الله تعالى نفسه بهذا الوصف للإشارة إلى أنه يحب من عباده الطاعة، ويحب من عباده التوبة؛ فهو ليس كحكام الدنيا الذين يفرضون العقاب ولا يتمنون لرعاياهم الخلاص منه، بل يتمنون إنزال العقوبة بهم، والله سبحانه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم يقبل التوبة عن عباده، ويحب المغفرة، ولذلك وصف بالتواب؛ فالعقاب ليس لذاته، ولكن لكيلا يتساوى المسىء بالمحسن، وليحمل المسىء على الطاعة ويستمر المحسن على إحسانه.

والوصف الثانى الذى وصف به ذاته العلية: أنه رحيم. وكان من رحمته أن قبل التوبة وغفر الذنب، ومن رحمته أنه أرسل الرسل بالبينات ليقيموا القسط بين الناس، ويُعَلِّمُوا هذه الشرائع التى بها صلاح الدنيا، وبها تقوم على الخير والفضيلة؛ ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء]، وكان من رحمته أن سنّ العقاب للمسىء المستمر على إساءته الموغل فى الفساد؛ فإن من يفسد فى الأرض يكون من الرحمة عقابه، ومن لا يرحم الناس كان من مقتضى الرحمة بالناس أن لا يرحم؛ ولذا قال النبى ﷺ: «من لا يرحم لايرحم»[1].

---

(١) رواه البخاري: الأدب - رحمة الولد وتقبيله (٥٥٣٨)، ومسلم: الفضائل - رحمته ﷺ الصبيان والعيال (٤٢٨٢).

وقبل أن نترك الكلام فى هذه الآية الكريمة، لابد من الإشارة الواضحة إلى أمرين:

أولهما: فى معنى الاتباع الذى يوجب المحبة، ومعنى ترتيب المحبة على الاتباع.

وثانيهما: التعريف بهذه المحبة التى يتصف بها العبد، وتترتب عليها محبة الله تعالى: أهى الطاعة أم شىء أعلى من الطاعة؟ وما محبة الله: أهى الرحمة أم أمر أعلى من الرحمة والإحسان، ولله الفضل والمنة فى كل حال.

أما بالنسبة للأمر الأول؛ فإن النص الكريم ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾ يفيد الطريق والغاية، أو الدليل والنتيجة؛ أما الطريق فهو اتباع الشريعة، وأما الغاية القصوى فهى محبة العبد لربه، ومحبة الرب لعبده، أى تبادل المحبة بين الخالق والمخلوق، وكل بما يليق به، وبما يتفق مع نوع وجوده؛ فواجب الوجود وذو الكمال المطلق جل جلاله محبته تليق بذاته العلية، وجائز الوجود الحادث المخلوق محبته حال يتفق مع حدوثه، ونقص وجوده.

وقد فصل الله الاتباع الذى يوجب المحبة السامية بعض التفصيل فى قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ...**﴿٥٤﴾﴾ [المائدة].

فعلامات الاتباع التى يترتب عليها أن يحبهم الله ويحبوه، أربع:

أولها: أنهم أذلة على المؤمنين، وقد قال عطاء فى هذا: إنهم للمؤمنين كالولد لوالده والعبد لسيده، وعلى الكافرين كالأسد على فريسته: ﴿**أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ...**﴿٢٩﴾﴾ [الفتح].

والعلامة الثانية: أنهم أعزة على الكافرين، أى لا يخضعون للكافرين ولا يحالفونهم على المؤمنين، ولا يختارون أن يدخلوا فى ولايتهم ويتركوا ولاية المؤمنين.

العلامة الثالثة: الجهاد فى سبيل الله بالنفس واللسان والمال، وذلك هو تحقيق دعوى المحبة.

والعلامة الرابعة: أنهم لا يأخذهم فى الله لومة لائم، وهذه علامة صحة المحبة، فكل محب أخذه اللوم عن محبوبه فليس بمحب على الحقيقة(١).

تلك هى آيات الاتباع الذى يوجب هذه المحبة، وقد وصف النبى ﷺ كمال الإيمان الذى يوجب هذه المحبة، فقال: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»(٢) وهذا الوصف هو الجامع لكل الأمارات التى لا يند عنه(٣) شيء منها.

هذا هو القول فى الأمر الأول، وهو الاتباع الذى تترتب عليه المحبة. بقى أن نتكلم فى الأمر الثانى وهو التعريف بالمحبة التى تكون من الله للعبد، والمحبة التى تكون من العبد لله تعالى:

أما محبة الله فحال من أحوال الذات العلية لا نعرف كنهها، ولا ندرك حقيقتها وهى تليق بذاته الكريمة، وتتفق مع صفات الجلال والكمال التى يتصف بها واجب الوجود، والذى خلق بقدرته كل موجود، وهى غير الإحسان، وإن كانت من فضل الله، وغير الرحمة، وغير الرضا؛ لأن الله سبحانه وتعالى جعلها لبعض عباده، والإحسان والرحمة يَعُمَّان كل موجود، والرضا وإن جعله جزاء أعلى للمحسنين، كما قال فى جزاء المؤمنين بعد ذكر الجنات والنعيم المقيم: ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ... ﴿٧٢﴾ ﴾ [التوبة] نجد المحبة أكثر منه. وقد ذكرها الله سبحانه وتعالى فكان هذا دليلا على أنهما متغايران بالنسبة لذاته العلية، كما أن المدلول اللفظى لهما متغاير، وإن كانت المحبة تتضمن الرضا لا محالة، بل إنها لا تكون إلا حيث يكون أقصى الرضا، هذه إشارة إلى محبة الله لبعض عباده الذين اصطفاهم.

(١) جاء فى هامش الأصل: راجع فى هذا الجزء الثالث من «مدارج السالكين»، ابن قيم الجوزية، ص١٤.
(٢) البخاري: الإيمان- حلاوة الإيمان (١٥)، مسلم: الإيمان (٦٠).
(٣) أي لا يشرد. نَدَّ البعير يَنِدُّ نُدودا إذا شَرَدَ. لسان العرب - باب النون - ندد.

وأما محبة العبد لربه، فقد قال الحارث المحاسبى فى تعريفها بأنها: الميل بكُلِّيته لربه، وإيثاره على نفسه وماله، ثم مرافقته له سرا وجهرا، ثم اعتقاده تقصيره فى حقه مهما يؤدِّ من واجبات وطاعات.

ومحبة العبد لربه غير طاعته المجردة لأوامره ونواهيه، وإن كانت ملازمة للاتباع المطلق للأوامر والنواهى، **وفى الحقيقة إن طاعة العبد لربه لها مرتبتان: أولاهما**: الطاعة رجاء الثواب وخوف العقاب، **والثانية**: الطاعة محبة لله تعالى ولقد قال فى هذا المعنى النبى ﷺ فى وصف بعض أصحابه «نعم العبد صهيب، لو لم يخف الله لم يعصه». ولقد قال الله تعالى فى وصف المؤمنين المتقين: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧**﴾ [**الإسراء**] فإن هذا النص الكريم دل على أن ثمة مقامين جليلين: مقام الطاعة رجاء الثواب وخوف العقاب، والطاعة بالتوسل إلى الله والتقرب منه، كما قال تعالى: ﴿**أَيُّهُمْ أَقْرَبُ**﴾ وهذا مقام الطاعة محبة وازدلافا إليه سبحانه، وهذه هى الوسيلة المبتغاة، والمحبة المرتجاة، وإن المحبة تقتضى الأنس بذكر الله تعالى، فتكون النفس ممتلئة بالسرور لقرب الله، ومعرفة الله، وكمال العبودية له، والشعور بكمال ألوهيته، حتى يستغرق ذلك كل حسه، وكل نفسه وقلبه، ولا يكون موضع لتذكر سواه.

والمحبة هى غاية التصوف العالى وسمته وعنوانه؛ ولذا يقول ابن القيم فى مدارج السالكين: «المحبة سمة هذه الطائفة المسافرين إلى ربهم، الذين ركبوا جناح السفر إليه، ثم لم يفارقوه إلى حين اللقاء، وهم الذين قعدوا على الحقائق، وقعد من سواهم على الرسوم».

والمحبة ثلاث درجات:

أولاها: استغراق النفس بذكر الله، فلا يرتفع إلى مقامه فى القلب ذكر شىء سواه، ويصف الهروى فى «منازل السائرين» تلك المحبة بأنها: تقطع الوساوس، وتسلى عن المصائب، وتثبت تلك الدرجة من الشعور بقوة الله، ومن اتباع السنة المحمدية، والشعور بالحاجة والفاقة إليه تعالى.

والدرجة الثانية: وهى أعلى من هذه فى درجات المحبة - هى التى يلهم فيها اللسان بذكر الله بعد امتلاء القلب، والجوارح بإيثار الحق، ويقول فيها ابن القيم: «فيها مطالعة الصفات، وشهود معانى آياته المسموعة، والنظر إلى آياته المشهودة. وكل منها داع قوى إلى محبته سبحانه؛ لأنها أدلة على صفات كماله، ونعوت جلاله، وتوحيد ربوبيته وألوهيته، وعلى حكمته وبره وإحسانه، ولطفه وجوده، وكرمه وسعة رحمته، وسبوغ نعمه، فإدامة النظر فيها داع لا محالة إلى محبته»(١).

والدرجة الثالثة: المحبة التى يكون فيها الشهود بنور القلب. وجاء فى «منازل السائرين» فى هذه المحبة (هذه المحبة هى قطب هذا الشأن، وما دونها محاب نادت عليها الألسن، وادعتها الخليقة وأوجبتها العقول).

هذه إشارات موجزة إلى ما يقوله أهل التصوف فى المحبة بين العبد وربه، وقد قبسنا منها قبسة نرجو أن تضيء فى هذا الموضوع، وإن كانت لا تدفئ.

وإن العبرة فى هذا الموضوع هى أن الشريعة لا يصح أن تنسى حتى فى أعلى مقام للمحبة، فإنها هى الدليل المرشد، والمصباح المنير لمن يريد أن يصل إلى درجة المحبة الحقيقية، وهى أعلى درجات الإيمان، وأقوى درجات الاتباع. فاتباع أحكام الشرع هو طريق المحبة عند أهل السنة الراشدين، وتنكب طريق الاتباع وادعاء الارتفاع عن التكليف هو مَخْرَف أهل الابتداع الضالين.

وإذا كان ذلك هو الحق، فإطاعة الله ورسوله هى فيصل التفرقة بين الحق والباطل وبين محبة الله ومحبة الضلال، وبين الإيمان والكفر؛ ولذا قال سبحانه وتعالى بعد ذلك: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾.

الأمر للنبى ﷺ بأن يدعوهم إلى طاعة الله وطاعته، وهو معنى الاتباع فى الماضى، وتكرر الأمر بهذه الصيغة للإشارة إلى أن اتباع الرسول هو طاعة لله

(١) مدارج السالكين جـ٣ ص٢٥.

وللرسول، فمن اتبع الرسول لايطيع الرسول فقط، بل يطيع الله رب العالمين، وما كان الرسول ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحى يوحى، والسبب فى التكرار فى ذاته هو تأكيد المعنى الذى قررناه، وهو أن محبة العبد للرب ليس لها طريق إلا الاتباع، ولذا يقول الزمخشرى فى الكشاف: «من ادعى محبته وخالف سنة رسوله فهو كذاب، وكتاب الله يكذبه، وإذا رأيت من يذكر محبته، ويصفق بيديه مع ذكرها، ويطرب وينعر ويصفق، فلا تشك فى أنه لا يعرف ما الله، ولا يدرى ما محبة الله. وما تصفيقه وطربه ونعرته وصعقته إلا لأنه تصور فى نفسه الخبيثة صورة مستملحة معشقة فسماها الله بجهله ودعارته ثم صفق وطرب ونعر وصعق على تصورها».

وهنا إشارة بلاغية تتفق مع المقصد الأسمى من الآيتين الكريمتين، وهو إثبات أن محبة الله تعالى طريقها المستقيم الذى لا عوج فيه هو اتباع الرسول، وتلك الإشارة أنه سبحانه قال: ﴿**قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ**﴾ فقد ذكر الأمر بالإطاعة غير مكرر عند العطف، فلم يقل: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، وعدم التكرار يومئ إلى أن الطاعة واحدة، وأن إطاعة الرسول إطاعة لله تعالى، كما صرح سبحانه وتعالى بذلك فى قوله تعالى: ﴿**مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا** ﴿٨٠﴾﴾ [النساء] وإن من إعجاز القرآن الكريم أن تكون العبارات والإشارات البيانية كلها تتجه إلى مقصد النص الكريم وترشح له.

﴿**فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ**﴾ أى فإن أعرضوا عن اتباع ما تدعوهم وهو اتباعك الذى به تكون إطاعة الله ومحبته، فإنهم لا ينالون محبة الله تعالى؛ لأنهم كافرون؛ إذ تعمدوا ألا يطيعوك، وأنكروا أن اتباعك طريق محبة الله رب العالمين. **ففى هذا النص الكريم دلالة على أن محبة الله لا ينالها إلا من يتبع الرسول بأبلغ ما يكون من بيان، وذلك لوجوه:**

أولها: أنه سبحانه عبر بأنه لا يحبهم، وليس بعد نفى الحب إلا البغض والسخط، فالله ساخط على من لا يتبعون الرسول، وإذا كان رب العالمين ساخطا عليهم، فمن المؤكد أنه لم يعتبر حالهم حال من يحبونه ويبتغون رضاه.

وثانيها: أنه عبر عن تركهم اتباع الرسول بالتولى وهو الإعراض، وكيف يكون طالبا لمحبة الله من يعرض عن طاعة الله.

وثالثها: أنه سبحانه وتعالى عبر عنهم فى حال الإعراض متعمدين منكرين بأنهم كافرون، وكيف يكون محبا لله ومحبوبا من الله من يكون كافرا بأوامره، منكرا لرسالته، معاندا لرسوله! إن ذلك فى القياس غريب.

اللهم وفقنا لاتباع نبيك لنرتفع إلى مقام من يحبونك، ولننال سمو محبتك. فقد قال نبيك وقوله الحق: «إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال إنى أحب فلانا فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادى فى السماء فيقول: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول فى الأرض. وإذا أبغض عبدا دعا جبريل، فيقول إنى أبغض فلانا فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل ثم ينادى فى أهل السماء: إن الله يبغض فلانا فأبغضوه فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء فى الأرض»(١).

إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ
وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ
مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا
وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ

(١) رواه مسلم: البر والصلة والآداب - إذا أحب الله عبدا حببه إلى عباده (٤٧٧٢)، وأحمد: باقي مسند المكثرين (٨٩٨٤)، ورواه البخاري: التوحيد - كلام الرب مع جبريل ونداء الله الملائكة (٦٩٣١).

وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ
وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ
حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا
زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ
قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

أشار سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة إلى اختلاف المشركين وقتالهم المؤمنين وإلى اختلاف أهل الكتاب فيما بينهم، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ...** ﴿١٩﴾ ﴾ [**آل عمران**]، ثم أشار سبحانه إلى محبته لعباده الذين يطيعونه ومحبتهم له، ورأفته سبحانه وتعالى بعباده، وسبق رحمته لغضبه وفى هذه الآيات: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ بين سبحانه وتعالى وحدة الإنسانية التى ما كان يسوغ معها خلاف إلا ممن ضل سبيل الهداية، ووحدة النبوة والرسالة الإلهية، التى وحدت بها شريعته تعالى، وما كان يسوغ بعد هداية الله تعالى خلاف إلا إذا كان الضلال. ثم بين سبحانه من يجتبيهم ومن يصطفى ويحب من عباده، وكيف يحبونه هم ويخلصون لذاته العلية: بأن يسلموا وجوههم له سبحانه وتعالى، ويحررون أولادهم لعبادة الله تعالى.

وقد ذكر سبحانه وتعالى فى هذا أربع قصص، كلها يصور قدرة الله سبحانه وتعالى وإرادته فى خلقه، ولا تخلو واحدة منها من خوارق العادات.

وأولى هذه القصص: قصة مريم البتول، وكيف كانت خالصة لله تعالى مذ حملت بها أمها، حتى ولدت، ولزمت المحراب، وكفلها زكريا، وكيف كانت مرزوقة مكفولة يأتيها رزقها رغدا بغير حساب.

والقصة الثانية: قصة زكريا، وكون الله سبحانه وتعالى قد وهب له يحيى، مع أنه كان قد بلغ من الكبر عتيا، وامرأته عاقر، وبذلك خرقت العادة المعروفة، وهو أن العاقر لا تلد قط، وهذا قد أنجب وقد أصابته الشيخوخة، وامرأته عاقر لا تلد.

والقصة الثالثة: قصة ولادة السيد المسيح عليه السلام، وقد كان ذلك أعظم خرق للعادات، إذ ولد من غير أب، وفى ذلك تتسلسل القصص الثلاث فى خوارق تبتدئ بالخارق القريب من المعروف ثم بغير المعروف مطلقا، ثم بالخارق الغريب الذى لم يعرف قط لغير عيسى بعد أن انتشر بنو آدم فى الأرض.

القصة الرابعة: قصة حياة عيسى، التى اشتملت على خوارق كثيرة كانت فى ذاتها أغرب من ولادته؛ منها: إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله على يديه، وهكذا غيرها.

وقصص القرآن ليس المقصود منه مجرد السرد التاريخى، كما يسجل التاريخ وتدون قصصه، إنما قصص القرآن المقصود به **أولا: العظة والاعتبار**، كما قال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ... ١١١**﴾ [**يوسف**]، ثم **ثانيا: إثبات صدق الرسول** ﷺ؛ وذلك لأن هذا القصص الحق يتفق مع الصادق من كتب أهل الكتاب يجرى على لسان أمى لا يقرأ ولا يكتب، ولم يجلس إلى معلم، ولم تعرف ملازمته لأحد من أهل الكتاب حتى يطلعه على ذلك، بل كان المنقطع فى بلد أمى ليس به علم يدرس، ولا فلسفة تبحث. ثم المقصود **ثالثا: بيان وحدة الشرائع الإلهية السماوية**؛ لأنها جميعها تنبعث عن مصدر واحد، وهو رب السموات والأرض وما فيهما؛ فبيان قصص النبيين السابقين وما كانوا يلقون فى الدعوة إلى التوحيد دليل على أن التوحيد هو الوحدة الجامعة بين كل الشرائع، وهو الحد الفاصل بين ما هو من السماء، وما هو من إفك أهل الأرض. وفى بيان قصص النبيين تسلية للنبى ﷺ، وتسرية عن شدائده بالاستبصار فيما لقيه غيره من عنت.

وفى قصص النبيين وكفر أقوامهم مع الآيات الحسية التى أتى بها النبيون بيان أن الكفر ليس منشؤه نقصا فى البينات، ولكنه ينشأ من الجحود وغلبة الهوى، والإعراض عن مناهج الاستدلال الصحيح. ولعل أوضح مثل لذلك، الآيات التى أجراها الله تعالى على يد عيسى عليه السلام؛ فما كانت وراءها آيات تقرع الحس، وتدل على خوارق العادات كهذه الآيات، ومع ذلك كفروا وما آمنوا، وما ازدادوا إلا طغيانا وعتوا.

هذه تقدمة نقدم بها قصة أولئك الأبرار الأطهار، ونبتدئ بما ابتدأ به القرآن الكريم من قصة مريم البتول: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾:

معنى الاصطفاء: طلب الصفوة من كل شىء، ولذلك قالوا إن معناها اختارهم مؤثرا لهم على غيرهم، وفى التعبير بالاصطفاء إشارة إلى أن آدم ونوحا، وآل إبراهيم وآل عمران هم صفوة الناس والتعبير بعلى فى قوله تعالى: ﴿**عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ إشارة إلى معنى التفضيل على غيرهم من الناس؛ فهم صفوة الناس، وهم مفضلون على كل الناس. وآل إبراهيم هم أسرة إبراهيم بفروعهم، سواء منهم من أووا إلى مكة وكان منهم صفوة الخلق محمد ﷺ، ومن كانوا فى الأرض المقدسة وكان منهم النبيون من بعد؛ وآل عمران هم ذرية عمران، وهو أبو مريم البتول، ومن ذرية عمران السيد المسيح عليه السلام الذى خلقه رب العالمين بكلمة منه هى «كن» .

وإن فى ذلك التسلسل إشارة إلى أن الخليقة لم تخل من هاد يهديها إلى الحق وإلى صراط مستقيم؛ فقد ابتدأت الهداية بأبى الإنسانية آدم كما قال تعالى: ﴿**ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ١٢٢**﴾ [طه] فهو أول خليفة، وأول هاد للإنسانية بمقتضى أبوته، وبمقتضى اجتباء الله تعالى له، وقد حكم بأنه هداه، واهتدى به بنوه من بعده.

ثم جاء نوح من بعده بسنين وقرون لا يعلمها إلا علام الغيوب، وهو الأب الثانى للخليقة، فاصطفاه رب العالمين للهداية كما قال تعالى: ﴿وَكُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ... ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام].

ثم جاء من بعد ذلك بقرون لا يعلمها إلا فاطر السموات والأرض أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، فكان هو وآله من أقارب كلوط وذريته التى جاءت من بعده فيها صفوة الخلق وفيهم النبوة، فكان منهم إسماعيل ومحمد فى فرع، وإسحاق وبنوه فى فرع آخر، وكان من هؤلاء آل عمران وهم ذرية عمران وأقاربه كزكريا ويحيى عليهما السلام، ومن تلك الدوحة النبوية عيسى عليه السلام الذى ختمت به تلك الشعبة من أولاد إبراهيم. وتسلم الرسالة الخالدة إلى يوم القيامة الفرع الثانى من أولاد إبراهيم وهم ذرية إسماعيل، فكان محمد، وبه ختمت الرسالة الإلهية فى هذه الأرض. وعمران هذا هو أبو مريم كما نصت على ذلك الآية التالية، ولا حاجة لفرض أنه عمران آخر، وهو أبو موسى، فذكر اسم واحد فى مقام واحد يشير إلى أن المدلول واحد، ولا حاجة إلى فرض التغاير. وكلمة الآل تشمل الأقارب من العصبات، والذرية.

ولقد بين الله سبحانه بعد ذلك تسلسل هذه الصفوة المختارة بعضها من بعض فقال: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

الذرية هم الفروع من الأولاد وأولادهم مهما نزلوا، وأصلها من مادة «ذرأ»، وقيل من «الذرو»، وقيل من «الذر»، وكل هذه الألفاظ تنتهى إلى التكوين والتفريع فرعا من بعد فرع؛ ومعنى النص الكريم أن أولئك المصطفين الأخيار بعضهم ذرية من بعض، فهم متصلو النسب بسلسلة لا تنقطع؛ فنوح من ذرية آدم، وآلُ إبراهيم من ذرية نوح، وآل عمران من ذرية آل إبراهيم، وهكذا، فهى سلسلة متصل بعضها ببعض فى النسب والهداية. ويترتب على أن بعضهم من بعض أن تتشابه صفاتهم فى الخير والفضيلة ما داموا جميعا مصطفين، وما داموا جميعا من سلسلة ونسبة واحدة. وقد قال بعضهم إن معنى ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ

بَعْضٍ﴾ أنهم متشابهون، كقوله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ ... ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة] فهم يشبه بعضهم بعضا، وهم ذرية واحدة لآدم. والحق أن ذلك المعنى يجيء بالالتزام من المعنى الأول فليس مغايرا له من كل الوجوه.

ثم ختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ إشارة إلى كمال إحاطته، وإلى أنه إذ اصطفى هؤلاء اصطفاهم على علم كعلم من يسمع، أى أنه علم دقيق لا يخفى على الله شئ فى الأرض ولا فى السماء، وإن ذلك النص الكريم فيه تمهيد لما سيتلى من بعد، وهو قول امرأة عمران، فقد قال تعالى حاكيا عنها:

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ متعلق بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى كان يعلم علم من يسمع فى الوقت الذى قالت فيه امرأة عمران ذلك القول، فهو سبحانه وتعالى سمع قول امرأة عمران ذلك القول، ونَذْرَها ذلك النذر، وقد عقدت العزم على أن يكون ما فى بطنها خالصا لله سبحانه وتعالى؛ ومعنى النذر التزام التقرب إلى الله تعالى بأمر من جنس العبادات المفروضة؛ وقد نذرت هذه السيدة الكريمة لله، أى التزمت لله أن يكون ما فى بطنها محررا، أى خالصا لله سبحانه وتعالى ولخدمة بيته المقدس؛ فمعنى «محررا» أى مخلصا للعبادة والمناجاة، ومن أخلص للعبادة فقد صار عتيقا من كل رق فى الدنيا، فهوعتيق من رق الهوى، ومن رق الرجال، ومن رق ذوى السلطان؛ لأنه يكون خالصا لمالك الملكوت، ومن خلص له تعالى فقد عتق من كل رق فى الدنيا.

وعمران: هو أبو مريم بهذا النص، وهو عمران المذكور أولا كما ذكرنا، وفرض المغايرة بأن يكون الأول عمران أبا موسى، وأن عمران هذا هو أبو مريم، تكلف لا حاجة إليه، وليس فى النص ما يدل عليه.

قصدت امرأة عمـران تلك العبادة واحتسبت هذه النية راجـية ما عند ربها، وأول رجائها أن يقبل نذرها؛ ولذلك تضـرعت إليه أن يقبل فقالت: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. أى أضرع إليك أن تقبل نذرى، فإنك سمعت ما قلت، وما حـدثت به نفسى، ومـا احتسـبت به القربى عندك، فكان النذر بذاته عـبادة، وكان الدعاء بالقبول عبادة أخرى، فإن الدعاء مخ العبادة، خصوصا فى ذلك المقام الروحانى السامى الجليل، والـتقبل هو الأخذ بالأمر فى طريق القـبول، حتى يتم القبول، فكأنها ما كانت تطمع فى القبول بادئ ذى بدء، بل تطمع فى أن ينظر فى الأمر نظرة رضا حـتى ينال القبول، وتلك مرتبة الصـديقين يستصغـرون أعمالهم بجوار رضـا الله. ولقد كانت إجابـة الله تعالى لهذه العبـادة التى طويت فى ثنايا النذر، والعبادة الأخرى التى طويت فى ثنايا ذلك الدعـاء الضارع، ما حكاه بقوله تعالى من بعد لما وضعتها: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾.

وهى فى نذرها وفى ضراعتها لقبول هذا النذر كانت تفرض أن الحمل ذكر، لأنه هو الذى يصلح لسدانة المسجد الأقـصى والبيت المقدس، ولكنها عند الولادة تبين أنهـا أنثى، فذكرت ذلك، وأشارت فـى ذكرها إلى تقديرها وفرضـها؛ ولذا حكى الله عنها أنها قالت:

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ﴾ أى أنها قدرت الحـمل ذكرا، وقدرت لذلك أن يكون فى خـدمة البيت وأنها لذلك تتحسر؛ لأنه لا يستطيع المولود بعد أن تبين أنه أنثى الخدمة، فليس فى هذه الخدمـة المقدسة الذكر كـالأنثى، فإن الأنثى لا تستطيع ذلك. وقـوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ جملة مـعترضة بين كـلاميها؛ وهى تشـير إلى أن الله تعالى أعلم منها بما وضعت، فليس لها هذا الاعتذار لأن من تعتذر إليه، وتتحسر بين يديه أعلم منهـا بما وضعتـه؛ لأنه هو الذى خلقه وجـعله أنثى، وهو أعلم بما يصلح له، وهو وحـده العليم بما هيّـأ له فى لوح القدر، فـإذا كانت لا تسـتطيع خدمة البيت كـالذكر فقد اختارها رب العالمين ليكون منها عـيسى عليه السلام من

غير أب؛ ولذا قال الزمخشرى فى هذا: «قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ تعظيما لموضوعها . . ومعناه والله أعلم بالشىء الذى وضعت وما علق به من عظائم الأمور، وأن يجعله وولده آية للعالمين، وهى جاهلة بذلك لا تعلم عنه شيئا». وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ﴾ إما من كلام الله فيكون فى الجملة المعترضة، ويكون المعنى وليس الذكر الذى طلبت كالأنثى التى أعطيت فى الشرف والمكانة والعبادة بل هو دونها، وهذا هو الظاهر؛ وإما أن يكون من كلامها وهو غير الظاهر؛ إذ يكون الأولى حينئذ التعبير بقولها: وليس الأنثى كالذكر لأنها ترى الذكر أفضل.

ومع أن هذه التَّقِيَّة تتحسر على أن مولودها لم يكن ذكرا كما قدرت؛ ليكون فى خدمة بيت الله تعالى كما نوت، فقد رضيت بما وهب الله تعالى، وضرعت إليه أن يهديها ولذا قالت :

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ فهى قد اختارت الاسم راضية بما أُعطيت، قال الزمخشرى فى الكشاف: «وإن اختيار الاسم فيه تقرب إلى الله تعالى؛ لأن مريم فى لغتهم معناها العابدة والخادم، فأرادت بذلك التقرب إلى الله، والطلب إليه أن يعصمها، حتى يكون فعلها مطابقا لاسمها، وأن يصدق فيها». ولذا طلبت إلى ربها أن يعيذها وذريتها من الشيطان الرجيم. ومعنى الإعاذة أن تكون فى ملجأ من الله تعالى يعصمها من الشيطان؛ وذلك لأن التعوذ الالتجاء. فمعنى أعوذ بالله ألجأ إليه، وأتخذ منه معاذا؛ ومعنى أعذته بالله من الشيطان جعلت الله تعالى معاذا له منه، وهذه الإعاذة كانت دعاء من الله تعالى، فكان هذا الدعاء عبادة أخرى. وهكذا اقترنت ولادة مريم وحملها من قبل بعبادات متضافرة متوالية مستمرة، وضراعة تدل على خلاص النفس وإسلام الوجه لله تعالى.

والشيطان: ما يوسوس فى النفس، وهو يجرى من الإنسان مجرى الدم. والرجيم أى المطرود المنبوذ من رحمة الله من وقت قال له رب البرية: ﴿قَالَ

فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الحجر]. وإن الله تعالى عصم بهذا الدعاء مريم وابنها من أن يمسهما الشيطان. وقد ورد فى ذلك بعض الآثار.

ولقد قال الزمخشرى فى ذلك: يروى من الحديث «مامن مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخا من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها»(١) فالله أعلم بصحته، فإن صح فمعناه أن كل مولود يطمع الشيطان فى إغوائه إلا مريم وابنها، فإنهما كانا معصومين، وكذلك كل من كان فى صفتهما كقوله تعالى: ﴿ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحجر] واستهلاله صارخا من مَسه تخييل وتصوير لطمعه فيه، كأنه يمسه ويضرب بيده عليه، ويقول: هذا ممن أغويه، ونحوه من التخييل قول ابن الرومى:

لِمَا تُؤذنُ به الدنيا من صُروفها ... يكونُ بكاء الطفلِ ساعةَ يُولَد

تلك ضراعات امرأة عمران عند ولادة مريم البتول، وقد تقبل الله نذرها، وأجاب دعاءها؛ ولذا قال سبحانه:

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ قلنا إن التقبل هو أخذ الأمر بالنظرة الراضية المستحسنة غير المستهجنة، ويكون القبول نتيجة له، وقد ضرعت أم مريم أن يؤخذ نذرها مأخذ الرضا والاستحسان من ربها، فيقبل، وقد أجاب الله دعاءها، وعلى ذلك لا يكون التقبل بمعنى القبول، ولقد قال فى ذلك الراغب الأصفهانى: (إنما قال: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾، ولم يقل: بتقبل حسن؛ للجمع بين الأمرين التقبل الذى هو التدرج فى القبول، والقبول الذى يقتضى الرضا والإثابة).

هذا هو قبول النَّذر، أما إجابة الدعاء وهو ألا يمسها الشيطان أو لا يكون له سلطان عليها؛ لأنها من عباد الله المخلصين، فقد بينه الله تعالى بقوله: ﴿ وَأَنْبَتَهَا

(١) متفق عليه؛ رواه بهذا اللفظ البخاري: تفسير القرآن (٤١٨٤)، ومسلم: الفضائل - فضائل عيسى عليه السلام (٤٣٦٣).

نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أى أنشأها برعايته ومحبته وحَصَّنها، وكانت حالها كالنبات ينبته رب العالمين فينمو يوما بعد يوم حتى يستوى على سوقه، فكذلك كان مع مريم: تولى رعايتها من المهد، وغذاها بغذاء من الروح، فبعدت عن كل شر، وغذاها ونماها جسميا، فجعل لها رزقا مستمرا يأتيها من حيث لا تحتسب، ولا يحتسب كافلها، أما التنشئة الروحية التهذيبية فقد كانت: بأن نشأت فى بيت العبادة، وإن كان الكافل لها نبيا من الأنبياء، وأما الثانى فبالرزق المستمر كما أشرنا، وقد ذكرهما الله تعالى بقوله:

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾:

﴿وَكَفَّلَهَا﴾: أى ضمها إلى زكريا؛ لأن الكفالة فى أصل معناها الضم، وقد ضمها إليه لتكون فى رعايته، وكان ذلك بإرادة الله، ونتيجة اقتراع كان بينهم؛ ذلك بأن الصالحين من قومها تنازعوا فيمن يكفلها، فاقترعوا فكانت القرعة لنبى الله زكريا؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران] فكانت تلك القديسة الطاهرة فى رعاية نبى، وتربت فى مهد النبوة، لتكون هى وابنها آية للعالمين.

وأما كفالة الله تعالى لرزقها، فقد أشار إليها سبحانه بقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ المحراب هو مقدم بيت العبادة، فكأنها كانت فى عكوف دائم بالمسجد منذ غرارة الصبا، بل كان ذلك وهى بالمهد، والرزق كان يجىء من حيث لا يحتسب كافلها، إما من هبات توهب لها، أو من فيوض الله تعالى عليها، وهو خالق كل شىء، فمن خلق من العدم كل هذه الموجودات قادر على أن يؤتى لهذه المصطفاة رزقا جاريا لا يعلمه إلا هو، وهو على كل شىء قدير. ومن أنكر ذلك، فقد أنكر علم الغيب، وهذا التخريج الأخير هو ما نراه حقا؛ ولذا عجب زكريا منه، فقال سبحانه حاكيا عنه:

﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ عجب نبى الله فقال: أَنَّى لك هذا؟ أى من أين لك هذا؟ فإن أَنَّى تكون بمعنى كيف، كما قال تعالى: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ... (٢٢٣)﴾ [البقرة] وتكون بمعنى من أين، وهى هنا كذلك؛ عجب نبى الله من هذا الرزق، وما كان العجب إلا لأنه لا يعرف سببه، ولو كان يعرف أنها هبات تأتيها ما ثار عجبه، ولقد كانت إجابتها إجابة الربانيين الأبرار؛ ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾. أكدت أنه رزق الله، ولذلك أتت بالضمير، ثم أكدت ذلك بما يزيل العجب، فقالت: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أى أن رزق الله كثير غير محدود بحد، ولا مقدر بقدر؛ ولذا لا يحده الحساب، ولا تجرى عليه الأعداد التى تنتهى. ويصح أن تكون هذه الجملة السامية من كلام الله تعالى لتقرير ما قالت، وبيان أن الله أجرى عليها الرزق لينمو جسمها مع نمو روحها، ويتم لها الإنبات الحسن فى الجسم والروح معا، والله سبحانه وتعالى على كل شىء قدير.

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾

فى الآيات السابقة ذكر سبحانه قصة ولادة مريم، وفى هذه الآيات يقص ولادة يحيى، وإن ولادة مريم كانت ذات صلة وثيقة بولادة يحيى عليه السلام، وإنها تتجه نحو خوارق العادات أكثر من ولادة مريم وحالها. فالقصص الأربع تتدرج فى خوارق العادات، تبتدئ بالقريب من المألوف ثم تنتهى بخوارق لم يكن للناس بها عهد من قبل.

وانتهينا فى قصة مريم البتول إلى أن نبى الله زكريا كفلها، وأنها تربت منذ صغرها فى المسجد، بيت الله المقدس، وأن الله أفاض عليها بالخير والنعم الظاهرة والباطنة، فملأ قلبها إيمانا وروحانية، وغذاها بلبان المعرفة، وبغذاء مادى طيب.

ولقد كان زكريا، ومريم تدرج فى مدارج الصبا، شيخا هرما يئس من الولاد، ولكنه عندما رأى مريم وتنشئتها على الإيمان والمعرفة ومحبة من الله تعالى، ورآها ترزق بغير حساب، ورأى منها مع صغر السن نجابة وتفويضا وإيمانا راسخا، حنَّ إلى الولد حنينا، ورغب فى الذرية، وكان بين حالين متناقضتين: حال تلك الرغبة وعدم اليأس من رحمة الله القادر على كل شىء، وحال الكبر الذى أصابه، والشيخوخة الفانية التى هو فيها؛ ولكنه قد تحرك فيه عامل الرغبة عندما تكلم مع مريم فى المحراب يسائلها عما عندها من رزق كلما دخل عليها،؛ ولذا قال سبحانه وتعالى فى قصته.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ ففى هذه الحال التى رأى فيها مريم تغلب فيه جانب الرجاء على جانب اليأس، ولذا قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ أى فى هذا المكان وهو المحراب الذى كان يلتقى فيه بمريم الفينة بعد الفينة، ويسائلها فيه، وتتكلم بلسان البر والتقوى، تحركت غريزة الأبوة فى ذلك المكان المقدس، فدعا ربه. والتعبير بدعا ربه إشارة إلى شعوره بقدرة الله تعالى على كل شىء، إذ هو ربه الذى ذرأه ونماه صغيرا، حتى بلغ أشده ثم تولاه حتى بلغ من الكبر عتيا، فقد اتجه إذن فى دعائه إلى الرب القادر العليم الذى أبدع كل شىء على غير مثال سبق، قال: ﴿رَبِّ﴾ أى

خالقى الذى خلقنى، وخلق كل شىء من طين، وصدر عنه كل ما فى الوجود بإرادته العالية: ﴿هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ أى أعطنى أنت عطاء كريما لا سبب له إلا إرادتك، ولا باعث عليه إلا رحمتك، فلا يكون الأمر فيه جاريا على مقتضى الأسباب ومسبباتها، إنما يكون على مقتضى الهبة المجردة، والعطاء الخالص الذى لا سبب له إلا إرادتك الأزلية وإلا رحمتك: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ أى من عندك؛ أى السبب يكون من عندك لا من عندى؛ لأن الأسباب عندى قد زالت، ولم يعد إلا سبب منك، وإلا معجزة تكون فيها المانح المعطى من غير أى علة أو ترتيب. والتعبير بـ ﴿لَّدُنكَ﴾ التى لا تكاد تستعمل فى القرآن إلا فى جانب الله تعالى يفيد العندية العالية السامية، لا العندية القريبة المقارنة، ولا العندية المقاربة.

ودعاء نبى الله أن يهب له ذرية طيبة، فلم يذكر الله سبحانه عنه فى هذه الآية سوى أنه يطلب ذرية طيبة، والذرية قد بينا معناها من قبل. والطيبة: هى الذرية الحسنة المرغوب فيها التى تكون ذات أثر طيب؛ لأن الطيب هو الأمر الحسن المحبوب المرغوب فيه الذى لا ينتج إلا خيرا، ويأتى بخير الثمرات وأحسن النتائج؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا ... ﴿٥٨﴾﴾ [الأعراف].

وبعد أن ضرع هذه الضراعة بدأ رجاؤه فى الإجابة بقوله: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أى إنك تعلم بدعائى علم من يسمع، وإن الأمر إليك إذ علمته وسمعته؛ فإن أجبت فبرحمتك، وإن لم تجب فبحكمتك، فأنت العليم الحكيم، والرحمن الرحيم. والصيغة تفيد قرب الرجاء وإمكان الإجابة.

وفى هذه السورة لم يبين سبحانه شكل الدعاء أكان جهرا أم كان خفيا، وفى سورة مريم بين حاله، وبين نوع ما يطلب من الذرية، فقال سبحانه: ﴿كهيعص ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي

خفتُ الْمَوَالِيَ من وَرَائِي وكَانَت امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي من لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾ [مريم].

وفى هذا النص الكريم يتبين أنه مع رجائه كان يذكر شيخوخته الفانية، وكون امرأته عاقرا لا تلد، ومع ذلك تغلب عليه جانب الرجاء، فدعا ذلك الدعاء، وضرع إلى الله تعالى تلك الضراعة، وقد أجاب الله تعالى دعاءه فور طلبه؛ ولذا قال سبحانه:

﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ ﴾ والتعبير بـ «الفاء» يفيد أن النداء كان فى زمن قريب من الدعاء. وهنا ثلاث نقط نريد أن نوضحها بعض التوضيح:

أولاها: فى النداء ونسبته إلى الملائكة، فهل خاطبه بهذا عدد منهم؟ لقد أجاب المفسرون عن ذلك بجوابين؛ أحدهما: أن الذى ناداه هو جبريل الذى ينزل بالوحى على النبيين، ولقد قال فى ذلك التفسير ابن جرير الطبرى «يقال خرج فلان على بغال البريد، وإنما ركب بغلا واحدا، وركب السفن، وإنما ركب سفينة واحدة، وكما يقال: ممن سمعت هذا؟ فيقال: من الناس، وإنما سمعه من رجل واحد، وقد قيل إن منه ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ... ﴿١٧٣﴾ ﴾ [آل عمران] والقائل فيما ذكروا كان واحدا».

هذا توجيه من قال إن المراد جبريل. وفى ذكر الملائكة بالجمع إشارة إلى الجنس، أى أن الله سبحانه كان من رحمته به أن أجاب دعاءه، وسارع بتبشيره بإجابته، وكانت الإجابة بملائكته، وإن كان المبلغ واحدا.

وأما التخريج الثانى: فهو أن المراد الجمع من الملائكة؛ لأن من كمال عناية الله تعالى بعباده أن ألقى إليه بالبشرى عدد كبير من الملائكة لا واحد منهم، وهذا ما رجحه ابن جرير؛ ولذا قال: «والصواب من القول فى تأويله أن يقال إن الله جل ثناؤه. أخبر أن الملائكة نادته، والظاهر من ذلك أنها جماعة الملائكة دون الواحد، وجبريل واحد، فلا يجوز أن يحمل تأويل القرآن إلا على الأظهر الأكثر

من الكلام المستعمل فى ألسن العرب دون الأقل، ما وجد إلى ذلك سبيل، ولم تضطرنا حاجة إلى صرف ذلك إلى أنه بمعنى واحد، فيحتاج له إلى طلب المخرج بالخفى من الكلام والمعانى» ولا شك أن العدد فيه مبالغة بالتبشير، وكأن حال هذا النبى الكريم فى يأسه من الولد لشيخوخته الفانية وكون امرأته عاقرا وعجوزا، كان يحتاج فيها إلى عدد من المبشرين ليزول من نفسه كل يأس، ويحل محله الرجاء.

النقطة الثانية: أن النداء الذى وجهته الملائكة كان وهو قائم يصلى فى المحراب، فهو فى وقت مواجهته لربه، ومناجاته لخالقه، وإنه بابتداء القول بالفاء الدالة على التعقيب من غير تراخ، وكون خطاب زكريا لمريم كان وهو فى المحراب، وأن الدعاء كان وهو فى المحراب، يتبين أن إجابة الدعاء كانت فور الدعاء، فهو قد ضرع إلى الله خالص النية، طاهر النفس والحس فأجاب الله دعاءه على سنته فى إجابة المهديين من خلقه دعاءهم، كما قال تعالى: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠)**﴾ [**غافر**].

النقطة الثالثة: فى قوله تعالى: ﴿**أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ**﴾ وهنا قراءتان فى أن، إحداهما بالكسر على تضمين النداء معنى القول، أى فنادته الملائكة قائلين إن الله يبشرك بيحيى، والفتح على أن الباء محذوفة والتقدير فنادته الملائكة بأن الله يبشرك بيحيى، واقتران التبشير بالتسمية بيحيى للإشارة إلى أن ذلك المولود سيحيى اسمه وذكره بعد موته، وبذلك تتحقق الإجابة الكاملة للدعاء، إذ قال كما فى سورة مريم ﴿**يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦)**﴾ [**مريم**].

وقد أجاب المولى القدير كل دعاء زكريا، فكان المبشر به رضيا فى خلقه ودينه؛ ولذا قال سبحانه فى وصفه:

﴿**مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ**﴾ وصفه الله سبحانه وتعالى بصفات أربع كلها بجعل من الله وتكوينه وخلقه: وأولى هذه الأوصاف:

أنه كان مصدقا بكلمة من الله، وتصديقه بكلمة من الله اختلف المفسرون فى تحرير معناها، لاختلافهم فى معنى: «كلمة»، فمنهم من اتجه إلى أن كلمة الله هو المسيح عيسى بن مريم، ما قال تعالى من بعد ذلك لمريم: ﴿**يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ... ﴿٤٥﴾**﴾ [**آل عمران**] ويكون المدح فى يحيى حينئذ بأنه صدق عيسى وأذعن للحق إذ تبين له، فلم يكن من المعاندين الذين يجحدون بآيات الله تعالى، ويكفرون ببيناته، وسمى عيسى «كلمة من الله» من الله؛ لأنه نشأ بكلمة منه سبحانه، ومن المفسرين من قال إن المراد من كلمة الله تعالى كتابُه؛ وذلك لأنه تطلق الكلمة ويراد منها الكلام، وذلك من هذا القبيل، والظاهر عندى هو الأول؛ لأنه فى هذا المقام ذكرت كلمة الله على أنها المسيح عليه السلام، والاسم المكرر فى مقام واحد تكون فيه وحدة المقام دليلا على وحدة المسمى. وكان فى هذا التعبير إيذان بأن ولادة المسيح ستكون قريبا من ولادة يحيى وفيه إيماء إلى أن زكريا نبى الله قد أوتى علما بأن المسيح عهده قريب.

والوصف الثانى من أوصاف يحيى: أنه سيد، والسيد فيْعل من السيادة، وهى الشرف والتفوق والعلو، وتبتدئ السيادة بسيادة الإنسان على نفسه بأن يملك زمامها، ويضبطها ويأخذ بعنانها، فلا تذل، ولا تتكبر ولا تجمح، ولا يزال يترقى فى معنى السيادة من ضبط النفس والعلو عن سفساف الأمور، والاستغناء عما فى أيدى الناس حتى يفوق الناس. وإنه يروى أن أعرابيا مر بالبصرة، فسأل من سيد هذا المصر؟ فقيل له: الحسن البصرى فقال: وبم ساده؟ قيل استغنى عما فى أيدى الناس، واحتاج الناس إلى ما فى يده، فقال: ذلك هو السيد حقا.

فكلمة السيد فى النص القرآنى الكريم تتضمن كل معانى السؤدد ومكارم الأخلاق.

والوصف الثالث: أنه حصور. وأصل الحصر معناه الحبس، والمراد أنه حبس نفسه عن الشهوات، حتى لقد روى أنه امتنع عن النساء زهادة واستعفافا، واتجاها إلى الروحانية. وقيل إنه كان لا يأتى النساء عجزا، وذلك غير صحيح، والحق أنه

إن كان قد امتنع عن النساء فعن قدرة واختيار لا عن عجز؛ وذلك لأن الله سبحانه وتعالى ساق ذلك الوصف فى مقام المدح والثناء، ولا يتحقق معنى المدح والثناء إلا إذا كان فيه اختيار، ولم يكن عجزا وجبرا. ولأن «حصور» صيغة مبالغة لحاصر، أى أنه يبالغ فى منع نفسه من الشهوات .

وليس فى النص ما يدل على أنه امتنع عن النساء بخاصة، بل النص يدل على أنه حبس نفسه عن الشهوات، وقدعها عن أهوائها.

الوصف الرابع: أنه نبى من الصالحين، وفى هذا بشارة أخرى لزكريا بأن الله سيختار ابنه نبيا؛ فإن الأوصاف السابقة فيها إجابة لدعائه، ولكن الله سبحانه وتعالى مَنَّ عليه بأعظم مما دعا به، وأعطاه النبوة وقوله ﴿مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ إشارة إلى موطن النبوة. وموضع اختيارها، والله سبحانه وتعالى أعلم حيث يجعل رسالته، وهو سبحانه وتعالى لا يختارهم إلا من الصالحين، فالله سبحانه يقيهم الانغماس فى الشر قبل النبوة، ويعصمهم عن المعاصى بعدها.

استمع زكريا إلى تلك البشارة الإلهية، فاعتراه العجب، لما كان يتنازعه من عامل الرجاء وعامل اليأس، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾.

﴿أَنَّى﴾ هنا بمعنى «كيف»، فهو يعجب من الحال، ولا يصح أن تكون بمعنى «من أين» لأن الله سبحانه وتعالى أخبر أنه سيعطيه الولد، فلا يليق أن يسأل من أين، إنما العجب من حال العطاء مع حاله هو وامرأته؛ ولذا كانت الجملة من بعد ذلك جملة حالية صُدِّرت بواو الحال، فقال: ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ كان وجه العجب من ناحيتين: الناحية الأولى: أنه شيخ فانٍ قد أصابه الكبر بما فيه من ضعف، والثانية أن امرأته عاقر لا تلد، والعقر يوصف به الرجل والمرأة، فيقال رجل عاقر، وامرأة عاقر أى بينة العقر، والعقر مصدر عَقَرَ يعقر عُقْرا ويظهر أن امرأته مع شيخوختها كانت عقيما لا تلد، فكان العجب إذن من ثلاث نواح: شيخوختهما، وعقرها. وقد عبر عن شيخوخته بقوله : ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ ولم

يقل قد بلغت الكبر وهو الظاهر، ولكنه عدل هنا للإشارة إلى أن الكبر قد أصابه بضعفه وما فيه من آلام وأسقام وضعف. ويقول فى ذلك الزمخشرى: (وقد بلغنى الكبر كقولهم أدركته السن العالية، والمعنى أثر فىَّ الكبر فأضعفنى) وعلى ذلك يكون قوله تعالى: ﴿بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾ يتضمن بلوغ الشيخوخة، وأنها أوجدت فيه ضعفا وعجزا، ويكون هذا فى معنى قوله تعالى فى سورة مريم حكاية عن زكريا: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾﴾ [مريم].

وقد أجابه سبحانه وتعالى بما يزيل عجبه، ويمنع حيرته؛ وذلك بأن بين أن الله تعالى فوق السنن الكونية وفوق الأسباب فى الخلق؛ لأنه خالق الأسباب؛ فقال تعالى:

﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ أى مثل ذلك الذى رأيته من أن يكون لك وأنت شيخ وامرأتك عاقر، يفعل الله تعالى ما يشاء، أى أن الله سبحانه يفعل بمشيئته واختياره غير مقيد بالأسباب والمسببات والعادات وأحوال الناس؛ لأنه سبحانه وتعالى خالق الناس، وخالق الأسباب، وخالق مجارى العادات التى تجرى بينهم. فالإجابة لا تتضمن فقط إزالة تعجب زكريا عليه السلام بل تتضمن مع ذلك تقرير قضية عامة، وهو أن الله يفعل ما يفعل باختياره وإرادته غير مقيد بأى قيد إنه سبحانه فعال لما يريد.

ولماذا كان ذلك الخارق، وما يجىء بعده؟ الجواب عن ذلك: أن هذا لأن بنى إسرائيل كانوا لا يؤمنون إلا بالحس، إذ كانوا يفسرون كل شىء تفسيرا ماديا، وقد سادت عندهم الفلسفة المادية، وكثر بينهم القول بأن الأشياء تنشأ عن العقل الأول نشأة المسبب عن السبب أو المعلول عن علته، فكان لابد من صادع يقرع حسهم بحادث من هذا الصنف الذى تتخلف فيه فلسفتهم، فيوجد المسبب من غير سبب فيدل هذا على أن المنشئ فاعله مختار يفعل ما يريد، وهو اللطيف الخبير؛ ولذا قال سبحانه ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾.

ولقد أراد نبى الله زكريا أن يعلم الوقت الذى تبتدئ فيه هذه البشارة أن تتحقق، وأن تقوم آية تدل على الحمل كما يقول بعض المفسرين فقال كما حكى الله عنه: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا﴾:

فى تفسير هذا النص الكريم اتجاهان:

أولهما: أن سيدنا زكريا عليه السلام طلب علامة تدل على موعد الحمل، فقال: ﴿اجْعَل لِّي آيَةً﴾ أى علامة أعرف منها موعد الحمل، فقال له ربه: آيتك أى علامتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا، أى لا تستطيع أن تكلم الناس إلا بالرمز والإشارة، وأن تستطيع ذكر الله، فاذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والإبكار، أى فى المساء، وفى الصباح من وقت الفجر إلى الضحى، وقد وضح هذا الاتجاه الزمخشرى فقال: «آيتك ألا تقدر على تكليم الناس ثلاثة أيام، وإنما خص تكليم الناس ليعلم أنه يحبس لسانه عن القدرة على تكليمهم خاصة مع إبقاء قدرته على التكلم بذكر الله؛ ولذلك قال: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾، يعنى فى أيام عجزك عن تكليم الناس، وهى من الآيات الباهرة. فإن قلت لم حبس لسانه عن كلام الناس؟ قلت ليخص المدة بذكر الله لا يشغل لسانه بغيرها، توفرا منه على قضاء حق تلك النعمة الجسيمة، وشكرها الذى طلب الآية من أجله، كأنه لما طلب الآية لأجل الشكر قيل له آيتك أن تحبس لسانك إلا عن الشكر. وأحسن الجواب وأوقعه ما كان مشتقا من السؤال ومنتزعا منه».

هذا هو الاتجاه الأول. وأساسه أن ثمة أمرا آخر خارقا للعادة، وهو عجزه عن كلام الناس مع قدرته على الذكر.

أما الاتجاه الثانى، فأساسه غير ذلك، إذ إن معنى النص الكريم على هذا الاتجاه أن زكريا شعر بإكرام الله تعالى إكراما خصه به، وكانت آية ذلك الإكرام بين الناس أنه قد أنجب من عاقر وعجوز ولدا، وقد بلغ من الكبر عتيا، فدعا ربه أن يجعل له بين الناس آية تدل على عظيم شكره، وأن يختص من بين الناس بهذا الشكر، ليعلم الناس علامة شكره كما علموا علامة إكرامه، فقال سبحانه:

﴿آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا﴾ بأن تحبس أنت لسانك عن حديث الناس وتجعله خاصا لله ثلاثة أيام لذكره وتسبيحه طرفى النهار وزلفا من الليل، فهذه آية شكر فى نظير آية إنعام، وقد يزكى ذلك الاتجاه أنه لا دليل فى الآية على العجز عن الكلام، فما قال تعالت كلماته ألا تستطيع الكلام، بل قال: ﴿أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ﴾ وإضافة عدم الكلام إليه يدل بظاهره على أنه امتنع اختيارا لا اضطرارا، وأن الأنسب بشكر النعمة أن يكون امتناعه عن كلام الناس بالكف عنه، لا بالعجز عنه، فإن الأول اختيارى يعد شكرا، والثانى غير اختيارى يعد عجزا، وإن سياق القصة فى سورة مريم أظهر فى الدلالة على الاختيار دون الإجبار إذ يقول سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم].

وقد كان الدعاء بطلب الولد فى المحراب وإجابته فوره كما نوهنا، وكانت المجاوبة فيه أيضا، فخرج إلى الناس ينفذ طلب ربه فى أن يحبس وهو مختار لسانه عن غير ذكر الله تعالى، ويعتزم العكوف على الذكر والتسبيح ويدعو الناس إليه بالرمز والإشارة، لا بالكلام والعبارة. وإن هذا الاتجاه لا ينكر الخوارق، ولكنه ليس فى الآية مايدل على الخارق، ويعتبر من مرشحات شكر النعمة أن يكون ترك كلام الناس اختيارا. وفوق ما تقدم فإن عطف قوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾. يقتضى أن يكون قوله تعالى: ﴿أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ...﴾ جملة طلبية؛ لأن الجملة الطلبية لا تعطف إلا على مثلها، وإذا كان الامتناع عن كلام الناس طلبا من الله العلى القدير، فهو اختيارى من المكلف وليس حبسا وعجزا، أما إذا كان خارقا فهو إخبار وليس بطلب.

وهنا بعض عبارات نفسرها لفظيا:

الأولى: كلمة ﴿إِلاَّ رَمْزًا﴾ قد جاء فى تفسير الزمخشرى: «إلا إشارة بيد أو رأس أو غيرهما، وأصله التحرك، يقال ارتمز إذا تحرك، ومنه قيل للبحر الراموز، وقرأ يحيى بن وثاب «إلا رمُزاً» بضمتين جمع رموز كرسول ورسل؛ وقرئ «رمزاً» بفتحتين جمع رامز كخادم وخدم.

والثانية: كلمتا ﴿بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾؛ فالعشى من حين تزول الشمس إلى أن تغيب، والإبكار من طلوع الشمس إلى وقت الضحى.

والثالثة: كلمتا ذكر وتسبيح؛ فإن الذكر معناه أن يستحضر الإنسان عظمة ربه، وينطق بها لسانه، والتسبيح معناه التنزيه المطلق لله سبحانه وتعالى، وقد كان طلب الذكر والتسبيح فى هذا المقام مناسبا لتلك النعمة التى أسداها لعبده ونبيه زكريا عليه السلام؛ فإن سيادة المادية فى بنى إسرائيل وطغيانها على الروح أنستهم ذكر الله، وسيادة الفلسفة المنكرة للإرادة جعلتهم لا ينزهون الله تعالى، فدعا ربه لأن يقوم بهذا الأمر الذى فيه استذكار كل معانى الألوهية وانصراف بالكلية للنواحى الروحية. وفى التسبيح إدراك لله وتنزيه له عن العلية؛ ولذا اتخذ زكريا من هذا الخارق للعادة بإنجابه ولدا سبيلا لأن يدعوهم إلى التسبيح وهو التنزيه عن العلية والسببية وكل ما لا يليق بذات الله تعالى، وأن يتركوا ما هم عليه من ماديات وفلسفة تنكر الإرادة لرب العالمين، فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا.

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾.

بين الله سبحانه الأمر الخارق للسنن التى سنها فى خروج الحىّ من الحى، بالنسبة لولادة يحيى من عجوز عاقر، وإن الذى خرق هذه السنن هو خالق السنن، وإنما خرقها الذى خلقها ليعلم الناس أنه سبحانه خلقها بإرادته وحكمته؛

فإنه سبحانه وتعالى فعال لما يريد. وبعد أن بين ذلك، وهو العليم، مهد سبحانه لخارق أعظم وأبين، ليقرع حس الناس فى عصر غلب فيه التفكير المادى على التفكير الروحى؛ وذلك هو خلق عيسى بن مريم من غير أب، كما خلق من قبل آدم من غير أب ولا أم، وكان ذلك التمهيد ببيان الإرهاصات التى سبقت ولادة عيسى عليه السلام ، وهو اصطفاء مريم واختيارها لتكون محل تلك الوديعة التى يودعها الله رحمها من غير علاقة ذكر بأنثى، وكان الاصطفاء بالطهارة والعفة والقنوت، والركوع والخضوع لرب العالمين، ثم باختيارها النهائى للوديعة الربانية؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ «الواو» هنا عاطفة، وهى تعطف هذا النص الكريم على قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ... ﴿٣٥﴾﴾ [آل عمران] فهذا عود إلى قصة مريم البتول التى ابتدأت بالنذر بها وهى حمل، ثم ببيان حال أمها عند وضعها وبعد وضعها، وما كان من رزق الله تعالى لها وكفالة نبى الله زكريا إياها، مما جعلها تنشأ تنشئة التقوى والورع، ولما شبت عن الطوق واكتملت فى تكوينها وأنوثتها خاطبتها الملائكة بذلك الخطاب ﴿قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ﴾ وتفسر كلمة الملائكة هنا بعدد منهم، لا بواحد، كما استظهرنا مع ابن جرير فى خطاب الملائكة لنبى الله تعالى زكريا عليه السلام؛ ولكن يجئ هنا البحث: من أى نوع خطاب الملائكة لمريم البتول؟ أكان بالمخاطبة كما يخاطب النبيون، أم كان بالإلهام أو الرؤيا الصادقة فى النوم؟ لم تبين الآية هنا نوع الخطاب؛ ولذا قال بعض العلماء: إن الخطاب كان بالإلهام، وإلى هذا يومئ الزمخشرى رضى الله عنه، ولكنه صرح بقوله: «روى أنهم كلموها شفاها معجزة لزكريا، أو إرهاصا لنبوة عيسى عليه السلام».

وبعض العلماء كما ترى قرر أن الخطاب كان مشافهة ولم يكن إلهاما، ولا رؤيا صادقة فى النوم؛ وإنا نميل إلى ذلك الرأى، ؛ لأنه ثبت بنص القرآن الصريح

الذى لا يحتمل تأويلا أن الملك خاطبها حين ابتدأ حملها، كما جاء فى سورة مريم، إذ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ [مريم].

والروح الذى ذكر مضافا إليه سبحانه هو روح من عند الله، أرسله سبحانه ليبشر مريم البتول بعيسى عليه السلام، ولم يكن الملك يحمل وديعة كما يحمل الإنسان؛ لأنه ليس بإنسان، والعلاقة الجنسية من خواص الآدمية؛ بل الوديعة التى يحملها هى بشرى، والخلق والتكوين لرب العالمين، وهو يخلق الحى من غير جرثومة حياة، كما يخلق جرثومة الحياة نفسها.

وإذا كانت الملائكة قد خاطبت مريم مشافهة فهل هى نبية، لأن الملائكة خاطبوها؟ هكذا قال بعض العلماء.

ولكن الأكثرين على أنه لا يمكن أن تكون نبية، وخطاب الملائكة لها لا يقتضى النبوة؛ لأن النبى من يوحى إليه بشرع، ومريم لم يوح إليها بشىء من الشرع، ولكنه كان خطابا للبشارة بواقعة معينة دالة على علو منزلتها، واصطفاء الله سبحانه وتعالى لها.

والاصطفاء افتعال من صفا؛ فمعنى اصطفى طلب الصفوة المختارة؛ والمعنى اللازم هو اختيار الله تعالى لها باعتبارها من صفوة الإنسانية البرة التقية. ولقد كان اصطفاء الله تعالى إياها مرتين بينهما طهر وتقى؛ فأما الاصطفاء الأول فحين قبولها نذرا من أمها البرة التقية، واختيارها لسدانة البيت المقدس؛ وأما الاصطفاء الثانى فهو حين اختارها لتكون أما لمن لا أب له، إذ تلد بعد أن تحمل من غير علاقة تناسلية مما يجرى بين البشر؛ وبين الاصطفاءين طهر وتقى وعفاف، وإيمان وانصراف للعبادة، وهذا هو معنى قوله تعالى عن خطاب ملائكته لمريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ وذكر فى الاصطفاء ما يدل على أنها

به مختارة دون نساء العالمين؛ لأن الاصطفاء الأول ومعه الطهر والتقى لا تختص به مريم، فكم من عابدات قانتات قوامات بالليل صوامات بالنهار؛ أما الاصطفاء الثاني وهو أن تلد من غير أب فإن ذلك قد اختصت به لم تشركها فيه امرأة فى هذا الوجود؛ ولذا قال فيه: ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾.

وإن هذا التعبير يدل فوق دلالته على اختصاصها بهذا الاصطفاء، يدل على أن لها فضلاً على نساء العالمين، إذ إن التعبير ﴿عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ يتضمن معنى الأفضلية عليهن، وإن لها ذلك الفضل، ولذلك قال النبى ﷺ فيما رواه مسلم عن أبى موسى الأشعرى: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»(١) وروى من طرق صحيحة: «خير نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد»(٢).

﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ القنوت لزوم الطاعة والاستمرار عليها، مع استشعار الخضوع التام المطلق، والاستسلام لله وإسلام الوجه لله الكريم، فمعنى نداء الملائكة دعوتها إلى أن تستمر على ما هى عليه من خضوع لله وإسلام وجهها له سبحانه، وتفويض أمورها له. وتكرار النداء لإشعارها بقربهم منها وهم رسل ربهم إليها، وفى ذلك بيان قربها منه سبحانه وتعالى. وفى تكرار النداء إشعار بأن طلبهم الاستمرار على القنوت هو من قبيل شكر الله على هذه النعمة؛ فهذا الاصطفاء يوجب الشكر بالاستمرار على القنوت، وقوله تعالى: ﴿وَاسْجُدِي﴾ هذا الأمر هنا يفسر بملازمة الطاعة والعبادة؛

---

(١) متفق عليه رواه البخاري: أحاديث الأنبياء - (٣١٧٩)، ومسلم: فضائل الصحابة - فضائل أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها (٤٤٥٩) عن أبي موسى الأشعري، واللفظ لمسلم.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ج٦ ص١٨٦، عن أنس رضي الله عنه، ورواه الترمذي: المناقب - مناقب خديجة رضي الله عنها (٣٨١٣) وقال أبو عيسى: هذا حديث صحيح.

فالسجود الخضوع المطلق لله تعالى؛ لأن أظهر مظاهر الخضوع أن يتطامن الشخص فيضع جبهته على الأرض خضوعا لله تعالى، وشعورا بعظمته وجلالته، وعلوه سبحانه، وانخفاض العبد أمامه. وقوله تعالى: ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ فسرها الزمخشرى بأن تصلى مع المصلين، فقال: «﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ بمعنى لتكن صلاتك مع المصلين أى فى الجماعة، أو انظمى نفسك فى جملة المصلين، وكونى معهم فى عدادهم، ولا تكونى فى عداد غيرهم»، فالأمر بالركوع مع الراكعين كناية عن صلاتها مع الجماعة، وهذا فيه فائدة، وهى إثبات أن الصلاة مع الجماعة من تمام النسك والعبادة. فمريم البتول كانت ملازمة للمحراب منذ نشأتها فى كفالة زكريا عليه السلام، وهى بهذا تشبه أن تكون بعزلة عن عوجاء الحياة وما فيها، وما عند الناس حتى فى عباداتهم، فبينت لها الملائكة عن الله سبحانه أن تصلى جماعة مع الناس، فإن صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد.

وعلى ذلك يكون الأمر بالسجود من قبيل الأمر العام بالانصراف للعبادة والطاعة؛ لأن فيه أظهر مظاهر إسلام الوجه لله، ويكون الأمر بالصلاة ثابتا بقوله ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾.

ويصح أن نقول إن الأمر بالسجود هو أمر بالصلاة مطلقا، إذ إنه أظهر مظاهر الصلاة، وأقواها تأثيرا فى النفس، وكان الأمر على هذا النحو بأن تديم الصلاة منفردة وفى خلواتها؛ وقوله تعالى: ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أمر آخر بأن تصلى مع الجماعة وألا تنقطع عنهم لفضل الصلاة فى الجماعة، وكأن فى النص تعبيرا عن طلب الصلاة بتعبيرين؛ أولهما: طلبها بعبارة «اسجدى» والثانية: طلبها مع الجماعة، بعبارة «اركعى»، والبلاغة تسوغ أن تعبر عن المعنى الواحد بعبارتين مختلفتين فى صيغتيهما ومادتهما فى مقام واحد، وإن كان الأمر الأول مطلقا، وكان الثانى مقيدا.

هذه قصة مريم فى ولادتها، وتهيئتها للآية الكبرى الدالة على أن الخالق فاعل مختار، قد قصها الله جل شأنه فى القرآن الذى جاء به أمى لا يقرأ ولا

يكتب، لم يتعلم ولم يجلس إلى معلم، ولم يختلط باليهود والنصارى، وفوق ذلك هذه القصة لم تكتب فى التوراة قط، ولم يتعرض لها الإنجيل، وجاء بها القرآن الكريم. وهى صادقة كل الصدق فمن أين جاء علم هذا إلى ذلك الأمى؟ إنه من عند الله. أشار المولى إلى هذا المعنى بقوله:

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ الإشارة إلى القصص الحكيم الذى شمل نذر أم مريم، وولادتها، وكفالة زكريا لها، ودعاء زكريا وإجابة الله دعاءه، ولزوم مريم للعبادة، وخطاب الملائكة؛ فبين الله سبحانه وتعالى أن هذا القصص من أنباء الغيب، أى من الأخبار العظيمة الشأن التى اختص بها علم الله، وهى مغيبة عن الناس لم يدونها تاريخ، ولم يذكرها كتاب، فهى مغيبة عن علم الناس لا يعلمها أحد إلا من الله تعالى، وهى عظيمة الشأن فى مجرى التاريخ الدينى، ومجرى الفكر الإنسانى، ومجرى التاريخ بشكل عام؛ وذلك لأنها تتعلق بآية من آيات الله الكبرى فى هذا الوجود، وهى إيجاد إنسان كامل مستو من غير أب ، وحمل امرأة من غير تلقيح؛ فإن هذا يفتق ذهن الإنسان المفكر لأن يدرك أن الله يخلق الأشياء بإرادته غير مقيد بسنن كونية، ولا بنظم فى الخلق والإنشاء؛ لأنه خالق كل السنن وكل النظم؛ وبذلك يرد أقوال الفلاسفة الذين زعموا أن العالم نشأ عن العقل الأول نشوء المعلول عن العلة من غير إرادة مبدعة مسيرة.

والأنباء جمع نبأ، والنبأ هو الخبر العظيم الشأن، فليس كل خبر يسمى نبأ، والغيب هو الأمر المغيب المستور الذى لا يعلم إلا من قبل الله تعالى. وقوله: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ إشارة إلى موضع الصدق وهو أنه بوحى من الله تعالى؛ وهو كالنتيجة لكون الموضوع مغيبا، لم يذكر فى واقعة تاريخية ولا فى كتاب دينى من قبل، لأنه إذا كان مغيبا عن الناس جميعا فعلمه لا يكون إلا من الله تعالى. وفى قوله: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ مع كونه من قبل كان مغيبا إشارة إلى معنى الاختصاص، وفى الاختصاص بالتعريف كل معانى التكريم الإلهى لمحمد ﷺ.

وإذا كانت حال مريم وخلوصها لعبادة الله تعالى مجهولة للناس قبل بيان القرآن، فإن القرآن صاحب الفضل فى بيان براءتها من الدنس، ومقامها فى عبادة

الله تعالى، وكفالة الله تعالى لها بنبى من أنبيائه، وتشريف الله تعالى بخطاب ملائكته لها مبشرين بالآية الكبرى والمعجزة الإلهية القاطعة، وذلك بولادة عيسى عليه السلام.

وفى ذلك إشارة إلى وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وهو إخباره بالصادق الذى لا يوجد دليل قط على كذبه مع أن النبى ﷺ لم يقرأ ولم يكتب، ولم يتعلم، والخبر لم يكن مدونا من قبل حتى يتلقاه من أحد كأولئك؛ الذين ادعوا أنه كان يقول ما يقول عن أخبار بنى اسرائيل من حداد بمكة، وقد رد الله تعالى فريتهم بقوله تعالى: ﴿**لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ** ﴿١٠٣﴾﴾ [**النحل**]. فلا يمكن أن يدعى لأخبار مريم؛ لأنه ما كان معلوما قبل بيان الله تعالى، ولذلك سماه غيبا.

وقد وضح سبحانه وتعالى هذا المعنى، وهو كون هذا بوحى، لا من عند محمد عليه الصلاة والسلام، بقوله:

﴿**وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ**﴾ الأقلام جمع قلم، من قلمه بمعنى قطعه، والمراد بالأقلام القداح التى يضربون بها القرعة. والاختصام معناه فى الأصل أن يكون كل فى خصم أى جانب، والاختصام هنا هو التنافس بينهم فى كفالة مريم؛ وذلك لأنها ولدت يتيمة، وقد تيمن العباد من بنى إسرئيل بها، وكل يرجو خيرا من كفالتها، ويتخذ من هذه الكفالة قربة وزلفى إلى الله العزيز الحكيم، العليم الخبير، فلما كان الاختصام والتنافس اتفقوا على القرعة تحكم بينهم، وقد كانت نتيجة القرعة أن آلت كفالتها إلى نبى الله زكريا عليه السلام، وهكذا كان الله تعالى يختار لها ولابنها؛ فاختارها من صفوة آل عمران، واختارها منذورة للعبادة محررة لها، واختارها مكفولة بنبى، واختارها لخطاب الملائكة إياها، ثم كانت النتيجة لهذا كله أن اختارها على نساء العالمين لتكون موضع آيته الكبرى فى هذا الوجود.

والمعنى الجملى للنص الكريم: وما كنت لديهم أى عندهم إذ يختصمون ويتنافسون على كفالة مريم، كل يريدها فى كنفه ورعايته، وما كنت لديهم إذ

يحتكمون إلى القرعة، ليعرفوا بطريق التفويض للغيب أيهم يكفل مريم فتضم إليه، وقد ذكر سبحانه من قبل أن الكفالة بهذه القرعة آلت إلى زكريا عليه السلام، إذ قال من قبل: ﴿**وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ... ﴿٣٧﴾**﴾ [**آل عمران**].

ما كنت عندهم فى هذا الوقت، وما تلقيت بالسماع من أحد، وما كنت تقرأ فى كتاب، فمن أى شيء علمت هذا الغيب الذى لا يعلمه أحد؟ إنه لا بد أن يكون من عند الله تعالى، فهذه الجملة الكريمة سيقت لإثبات أن العلم كان وحيا من عند الله العليم الخبير.

وهنا بعض مباحث نشير إليها:

أولها: أن «لدى» معناها «عند»، و «لدى» هنا تشير إلى معنى ليس فى «عند»؛ ذلك أنها تشير إلى عندية بعيدة غير حاضرة ولا قريبة فى الزمن؛ فهى تشير إلى أن خبر مريم وولادتها خبر بعيد موغل فى القدم بالنسبة للإنسان، فما كانت هذه العندية متصورة، وما كان لأحد أن يعلم ما عند القوم علم من يشاهد ويعاين؛ لأن كثيرا منها كان نفسيا قلبيا، وبعضه كان حسيا ماديا ولكن لم يعلم للناس.

وثانيها: أن هذه القصة ليست معلومة على هذا الوجه عند المسيحيين، ولا يسعهم تكذيبها؛ لأنها أقرب إلى العقول مما ينسبونه لمريم من أنها كانت ذات بعل، أو مخطوبة أو نحو ذلك، فما عندهم مدعاة للشك، وما ذكره القرآن مدعاة للصدق والطهر والنقاء، وهذا الذى يرشح للآية الكبرى بولادتها من غير حمل؛ فأى الخبرين أصدق قيلا؟

وثالثها: وهو أن هذه القصة بما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿**وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ**﴾ تشير إلى بعض معانى الإعجاز فى القرآن الكريم، وهو حكاية أخبار الأولين التى لم يكن يعلمها أحد إلا ربّ العالمين، وهى حكاية دلائل الصدق فيها واضحة، وبينات الحق فيها لائحة؛ وإذا كان النبى لا يعلمها عن

مشاهدة ولا عن سماع، فطريق العلم بها هو الله، وهذا يدل على أن القرآن من عند الله العزيز الحكيم، وهو سجل الشرائع السماوية الخالد إلى يوم القيامة، ولو كره الكافرون، كما قال منزله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر].

إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾

توالت فى هذه القصة خوارق العادات متدرجة من القريب من المألوف إلى البعيد الذى لا يعرفه الناس قط بمقتضى السنن الكونية المطردة؛ فقد ولدت مريم البتول بعد أن نذرت لتكون خالصة للبيت المقدس، وكان يأتيها فى المحراب الرزق من حيث لا تحتسب ولا تقدر، حتى أثار ذلك عجب نبى الله زكريا، ثم كانت ولادة امرأة زكريا، وهى عجوز عاقر، وهو قد بلغ من الكبر عتيا؛ ثم كانت الحادثة الكبرى التى تدل على أن الله تعالى مبدع الكون وخالق الأسباب ينشئ الكون كما يريد، وتلك الحادثة هى ولادة عيسى من غير أب؛ وهذا هو ما اصطفى الله به مريم ابنة عمران؛ ولذا يقول سبحانه:

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ الكلام فى هذه الآية الكريمة متصل بما سبقها؛ فإذ هنا متعلقة بما تعلقت به

إذ فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [آل عمران] فإذ هنا فى مقام البدل أو البيان من الأولى؛ لأن هذا فيه تفصيل لمعنى الاصطفاء الذى اختصت به على نساء العالمين؛ والمعنى: اذكر إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك . . إذ كان ذلك الاصطفاء على نساء العالمين؛ بأن كانت هى التى تلقت البشارة الكبرى بأن تلد مولودا من غير أب قد أنجبه. والملائكة الذين خاطبوا مريم بذلك الخطاب يتضح من السياق أنهم الذين خاطبوها بالاصطفاء؛ فكأنهم قد بشروها بالاصطفاء على نساء العالمين، وبشروها مع ذلك بنوع الاصطفاء. وقد استظهرنا كما استظهر ابن جرير الطبرى أن الملائكة الذين بشروا بالاصطفاء كانوا عددا ولم يكونوا واحدا، فلابد إذا أن الذين بشروا بحقيقته كانوا عددا أيضا، ولكن سورة مريم فيها بيان أن الذى أنبأها نهائيا بهبة الله تعالى لها كان ملكا تمثل فى صورة بشر قد أودعها ما يكون منه الولد من غير تلقيح جنسى؛ لأن الملك ليس له تلك الشهوة الإنسانية؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾ [مريم].

وإن التوفيق بين هذا النص الكريم، والنص الذى نتكلم فى معناه سهل لا يحتاج إلى إعمال فكر؛ ذلك أن الله سبحانه وتعالى أرسل ملائكته إليها يبشرونها بالاصطفاء ويبشرونها بنوع الاصطفاء، ثم أرسل إليها بعد هذه البشارات المتكررة ملكا تمثل لها بشرا سويا، . ليودع رحمها نهائيا تلك الهبة التى أهداها رب العالمين إليها.

ذكر سبحانه البشارة بأنها كلمة منه، وأن معنى هذه الكلمة شخص حى يسرى عليه حكم الأحياء اسمه المسيح عيسى ابن مريم، فلماذا اعتبره الكريم كلمة

منه؟ لأنه سبحانه خلقه وأبدعه بكلمة منه؛ فإذا كان سبحانه قد خلق الأحياء بطريق التناسل: الرجل يلاقح الأنثى، ويخرج الأولاد من أصلاب الآباء، فإن عيسى عليه السلام لم يخلق ذلك الخلق، بل خلقه الله تعالى خلقا آخر؛ خلقه بكلمة منه وهى «كن» فكان، فكان جديرا بأن يعتبر كلمة، وأن تكون هذه الكلمة منسوبة إلى الله تعالى.

ويقول ابن جرير: إن الكلمة هى كلمة البشرى، تشريفا لمريم البتول، وتكريما لها بأن تكون البشرى بكلمة من الله، أى بخطاب من الله تعالى مرسل منه إليها. ويزكى هذا قوله تعالى: ﴿ **وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ** ... ﴿١٧١﴾ ﴾ [النساء]. وقوله تعالى: ﴿ **اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ** ﴾ هو ما تضمنته البشارة، ويكون التأويل: يبشرك ببشارة جازمة قاطعة لا احتمال لتخلفها؛ هذه البشارة هى ولد اسمه المسيح عيسى ابن مريم. وكأن «اسمه المسيح» تكون خبرا لمبتدأ محذوف تقديره: البشارة ولد اسمه المسيح عيسى بن مريم.

وقد عرَّف سبحانه وتعالى ذلك المولود بثلاثة تعريفات: لقب، واسم وكنية؛ أما اللقب فهو المسيح، وأما الاسم فعيسى، وأما الكنية فهو ابن مريم، وهذه التعريفات الثلاثة، كل واحد منها يومئ إلى معنى قد تحقق فى السيد المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم؛ فأما الكنية فللإشارة إلى أن نسبه ثابت لأمه لا لأحد سواها، فليس ابنا لأى حىّ من الأحياء، وليس ابنا لله تعالى كما توهم أو كما لبَّس على نفسه كل من لا يريد أن يحكِّم عقله فيما لُقِّن من عقائد باطلة، ولا تعلق لهم فى أن عيسى قيل عنه كلمة الله، فالكلمة هى البشارة، وهى مخلوقة، أو لأنه خلق بكلمة الله وهى «كن» وكلتاهما لا يمكن أن تكون ابنا لله تعالى. وأما الاسم فينبئ عن البياض والصفاء المعلم الواضح؛ ولذلك يقول الأصفهانى: «عيسى اسم علم وإذا جعل عربيا أمكن أن يكون من قولهم: بعير أعيس وناقة عيساء، وهى إبل بيضاء يعترى بياضها بعض الظلمة، أى فيها اغبرار يعطى بياضها صفاء وجمالاً»، فهو ينبئ عن جمال تكوينه، وجمال دعوته وصفاء رسالته.

وأما اللقب فهو ينبئ عن البركة والفضل، وهو أحسن ما قيل فى ذلك؛ فقد ذكر الزمخشرى أن كلمة مسيح فى أصلها العبرى، وهو مشيح، معناه مبارك، وهذا قد جاء فى شكره لربه إذ قال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ... ﴿٣١﴾﴾ [مريم].

وقد وصفه الله سبحانه وتعالى بأربعة أوصاف وأحوال؛ أولها: أنه وجيه فى الدنيا والآخرة، والثانى: أنه من المقربين، والثالث: أنه يكلم الناس فى المهد وكهلا، والرابع: أنه من الصالحين. وقد ذكرت هذه الأوصاف كلها لأمه وقت البشارة به، فكانت أجل تبشير لأم رءوم فى مثل تقوى مريم البتول.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى الوصفين الأولين بقوله تعالى:

﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ هذان وصفان تمَّا لعيسى الرسول بعد كمال رجولته، وظهرا أتم ظهور فى أداء رسالته، وأحدهما وصف ذاتى أضفاه الله تعالى على ذاته النبوية الطاهرة ليكون صاحب رسالته، وداعى هدايته، وناشر رحمته، وذلك الوصف هو الوجاهة فى الدنيا، والوصف الثانى وصف إضافى، وهو أنه فى موضع المقربين من الله تعالى، وهذا وصف يضفى شرفا إضافيا، فوق شرف النبوة، وشرف الرسالة الإلهية .

وكلمة «وجيه» مشتقة من الوجه؛ لأنه هو الذى يلقى به الناس، وهو مظهر كل مافى النفس مما يوجب الاحترام، ومنه اشتقت كلمة جاه، أى أن من له جاه يكون ذا وجه دال على الاحترام والشرف، فمعنى «وجيها» أى أنه ذو شرف ومكانة؛ أما مكانته يوم القيامة، فأمر مقرر ثابت، وإذا لم يكن لمثل عيسى هو وأمثاله من النبيين عليهم السلام وجاهة فوق تقديرنا، فلمن تكون وجاهة الآخرة؟

وأما وجاهة الدنيا فأمر ثابت مقرر، وأى وجاهة وشرف وأثر فى النفوس أكبر من وجاهة رجل روحانى يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى، ويؤثر فى القلوب فتنجذب له، ولم يستطع أن ينال خصومه منه شيئا، وإذا قيل إن اليهود آذوه وطردوه فليس ذلك بمانع من وجاهته، بل إنه دليل وجاهته وأثره فى

القلوب، ولو كان خاملا ما تحركوا لإيذائه، ومع ذلك لم ينالوا منه شيئا، ولم يمكنهم الله من رقبته، بل نجاه من شرورهم ودسائسهم، فكيف لا يكون وجيها عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم؟!.

فعيسى عليه السلام كان وجيها، ووجاهته أكمل أنواع الوجاهة، وهى الوجاهة التى تتجرد من كل سلطان إلا سلطان الحق والروح، وبهما ملك القلوب. والجاه الحق - كما قال الغزالى - هو ملك القلوب.

وأما كونه من المقربين إلى الله تعالى، فمعناه أنه مقرب إلى الله تعالى كما هو قريب من الناس، وأنه وجيه عند الله تعالى ذو مكانة قريبة منه، كما هو ذو مكانة عند الناس.

ولقد بين سبحانه وتعالى حالين هما من أحوال المسيح عليه السلام، فقال تعالى:

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ المهد: هو مضجع الطفل، من مهد يمهد مهدا، بمعنى أنه مهيأ مسهل له وهو فى الرضاعة.

ومن فى المهد يكون طفلا صغيرا يحمل لا يتصور منه كلام مطلقا، والكهل هو الرجل السوى، والأمر الخارق للعادة فى هذا أن عيسى عليه السلام تكلم وهو فى المهد، وكلامه وهو فى المهد ليس لغو صبيان، بل هو كلام شبان مكتهلين، وقد بلغوا تمام الرجولة والاستواء العقلى، وجمعهما معا فى الكلام يدل على أن كلامه فى الأول من نوع كلامه فى الثانى؛ ولذا يقول الزمخشرى: «ومعناه يكلم الناس فى هاتين الحالتين كلام الأنبياء من غير تفاوت بين حال الطفولة، وحال الكهولة التى يستحكم فيها العقل، ويستنبأ فيها الأنبياء» وإن ما حكاه الله تعالى عن كلامه فى المهد ليوضح ذلك؛ ففى سورة مريم: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ

﴿يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم].

وقد ذكر سبحانه حالا ثانية من أحواله، أو وصفا من أوصافه، وهو أنه من الصالحين، وهذا رمز إلى ما يأتى به من إصلاح خلقى واجتماعى، وروحى فكرى؛ إذ يزيل النزعة المادية من قلوب المؤمنين؛ فإن الصالح حقا هو الذى يصلح، فليس بصالح صلاحا كاملا من لم يرشد غيره إلى طريق الصلاح.

هذه بشارة الله بطريق ملائكته لمريم البتول، وقد بين الله تعالى أن هذه البشارة أثارت عجبها واستغرابها: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾:

هذه الجملة السامية تدل على بالغ عجبها، وتومئ إلى ارتياعها الذى عبرت عنه كما فى سورة مريم: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ [مريم]. صدرت إجابتها بالنداء للرب، وفيه معنى الاعتراف بالخلق والتكوين، وكمال الربوبية لله سبحانه وتعالى، فهو تسليم بالقدرة الإلهية، وبأن خالق كل شىء لا يكبر عليه شىء، سبحانه وتعالى.

و﴿أَنَّىٰ﴾ فى قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ هى بمعنى كيف، أى كيف يكون منى ولد ولم يمسسنى بشر أى لم يكن منى ما يكون بين الرجل والمرأة مما يكون منه ولد. فالاستغراب فى الكيفية، لا فى أصل القدرة الإلهية. وكلمة ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي﴾ إما أن نعتبرها كناية عن اختلاط الرجل بالمرأة، وهذا ظاهر، وتعبير القرآن عن اتصال الرجل بالمسيس مجاز مشهور معروف، حتى يكاد يكون حقيقة عرفية فى لغة القرآن الكريم؛ أو نقول: المس المراد به حقيقته، وهو أنها لم يلمسها رجل؛ لأنها متبتلة دائما منصرفة للعبادة لم يلمس جسمها رجل من غير محارمها قط؛ وبذلك ينتفى بالأولى ما هو أبلغ من مجرد اللمس، فموضع العجب والسؤال هو أن يكون ولد من غير اتصال رجل بامرأة. ولقد أزال عجبها رب البرية بقوله تعالى:

﴿قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أى كهـذا الخلق الذى تجدينه فى أن يكون لك ولد من غير أن يمسك رجل وهو إبداع، يخلق الله تعالى ويبدع ما يشاء ويريد إبداعه، وكلمة يخلق غير ينشئ؛ لأن الخلق إنشاء على غير مثال سبق، فالتعبير بـ «يخلق» يفيد الإبداع، وأنه منهاج فى التكوين يخالف منهاج غيره فى التكوين. وهذه الجملة السامية تفيد أمورا ثلاثة:

أولها: أن هذا النوع من التكوين، وهو إنجاب من غير أب هو فى قدرة الله تعالى؛ لأنه الخالق المبدع، وما هو غريب عليكم هو فى قدرته سبحانه؛ لأن من خلق الخلق الأول وخلق السنن الكونية وغيرها قادر على تغييرها؛ لأنه مبدعها ومنشئها.

ثانيها: أن خلق عيسى أمر من أمر الله تعالى، وعيسى ليس إلا مخلوقا من مخلوقاته، فهو أبدعه كما أبدع غيره من المخلوقات، فليس إلها ولا ابن إله.

ثالثها: أن خلق الله تعالى بمشيئته وإرادته، وهذا فيه إشارة إلى السبب الذى من أجله خلقه الله تعالى من غير أب وهو أن المخلوقات لا تصدر عن الله صدور المعلول عن علته، ولكنها توجد بإيجاده وتنشأ بإبداعه: ﴿بديع السموات والأرض أَنَّى يكون له ولد﴾ وفى ذلك رد عملى على أهل الفلسفة المادية التى تقول إن العالم نشأ عن العقل الأول نشوء المعلول عن علته.

ثم أشار سبحانه إلى عظيم قدرته بقوله تعالى:

﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يوجد أمرا لا يوجده إلا بكلمة «كن» وعبر سبحانه عن الإيجاد بـ «قضى» للإشارة إلى أن إيجاده للأشياء ليس إلا من قبيل الحكم عليها بالوجود، فإذا حكم بالوجود فى أمر نفذ حكمه، وحكمه هو أن يقول كن، فيترتب على ذلك أن يكون.

وهل الأشياء حقيقة تنشأ بمجرد الإرادة الإلهية، أم أن هذا تصوير لسهولة الخلق؟ الظاهر أن هذا بيان لسهولة ذلك على خالق الخلق، وبارئ النسم؛ فهو

تمثيل لبيان قدرة الله تعالى الشاملة، وسهولة الإنشاء عليه سبحانه، ونفاذ إرادته فى خلقه، ولذلك جاءت الإجابة فى مثل هذا المقام بهذا المعنى فى سورة مريم فقد قال تعالى فى الإجابة عن استغرابها فى تلك السورة : ﴿ **قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا** ﴿٢١﴾ ﴾ [مريم]. فهذا التعبير الكريم صريح فى أن السياق لبيان سهولة مثل هذا الخلق على خالق الخلق، ويفيد أيضا أن المقصود بيان أن الله سبحانه فعال لما يريد، وهو على كل شيء قدير. ربنا لا ترهقنا من أمرنا عسرا.

وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾
وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ
أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ
فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ
وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ
فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾
وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم
بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ
هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾

فى هذا القصص القرآنى الصادق تستمر الآيات الكريمة متممة قصة البشارة بعيسى عليه السلام؛ بشرت به أمه قبل أن يكون فى بطنها، وقد أوحى إليها أنه ستكون له تلك المنزلة فى الدنيا والآخرة التى اصطفاه الله تعالى لها، وإن من سنة

الله تعالى فى كلامه المعجز أن يشتمل الكلام على الإيجاز، الذى هو من أسرار الإعجاز، ففى أثناء البشارة قبل الحمل كان بيان رسالته وما هيأه الله به لأداء الرسالة، والمعجزات الكبرى التى أجراها الله سبحانه وتعالى على يديه، وماهية الرسالة التى جاء بها، ومقام رسالته من الرسالات قبلها، ثم بيان تلقى الذين أرسل إليهم هذه الرسالة مؤيدة بهذه المعجزات الباهرة القاهرة، ثم بيان النهاية التى انتهى بها، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم.

ولقد ابتدأ سبحانه ببيان علم الرسالة الذى تكون به قوة الرسول الذى يدعو قوما معاندين من أمثال اليهود والمشركين من الرومان، فقال:

﴿ **وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ** ﴾ فى هذه الآية الكريمة يبين الله سبحانه وتعالى علم الرسالة التى أرسله بها، وهو علم بأربعة أمور: علمه بالكتاب، وعلمه بالحكمة، وعلمه بالتوراة، وعلمه بالإنجيل. **أما علمه بالكتاب** فقد قال بعض مفسرى السلف: إنه العلم بالخط والكتابة، وتوجيه ذلك التفسير أن عيسى بعث فى أمة اشتهرت بالعلم والمعرفة، فلابد أن يكون فيه ما هو سبيل العلم والمعرفة وهو الكتابة، وقد كانت آيته فى إثبات رسالته فوق علم العلماء، وقدرة الناس قاطبة. وقال بعض مفسرى السلف أيضا: إن علم عيسى بالكتاب هو علمه بما نزل على النبيين السابقين. وإنا نختار الأول؛ فإنه على التفسير الثانى يكون تكرار؛ لأن علم الرسالات السابقة، فى التوراة التى ذكر أنها من علمه، والتأسيس أولى من التأكيد. **وأما العلم الثانى، وهو الحكمة**، فهو العلم الذى يحكم صاحبه فى القول والعمل، وسياسة الناس فى القول والعمل، ولذا يقول العلماء: إن الحكمة هى العلم النافع؛ فهى العلم الذى تظهر ثمرته فى القول والعمل وهداية الناس، وقيادة نفوسهم؛ ولذلك قال الله تعالى آمرا نبيه الكريم ﷺ: ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ... (١٢٥) ﴾ [**النحل**] وإن هذا النوع من العلم هو ألزم العلوم لمن يقود الناس إلى الإيمان، ويدعوهم بدعاية الرحمن.

وأما العلم الثالث والرابع: فهما علم التوراة وعلم الإنجيل، والتوراة تومئ إلى علم الرسالات التى كانت قبلها، وعلم الإنجيل هو العلم برسالته التى بعث بها فى وسط تلك المادية التى استولت على بنى إسرائيل، وهذا يدل على اتصال رسالته بالرسالات التى سبقته، وكل رسول مبعوث لا تكون رسالته مقطوعة عما قبلها، بل هى موصولة بها متممة لها، وهى لبنة فى صرح الرسالات الإلهية

وبعد أن أشار سبحانه وتعالى إلى علم الرسالة التى هيأه الله تعالى لها، أشار إلى من أرسل إليهم، فقال تبارك وتعالى: ﴿**وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾:

أى بعثه سبحانه وتعالى رسولا إلى بنى إسرائيل. ومعنى الكلام: ويجعله أو يبعثه رسولا إلى بنى إسرائيل. وذكر بنو إسرائيل خاصة مع أن دعوته كانت تعم كل الذين علموها من اليهود والرومان وغيرهم حتى يجىء من السماء ما ينسخها أو يكملها، وهى الرسالة العامة الخالدة، رسالة محمد بن عبد الله ﷺ؛ والسبب فى اختصاص بنى إسرائيل بالذكر أنهم هم الذين خرج عيسى من بينهم، فهو منهم، وقد كانوا يدعون أنهم أولى الناس بعلم الرسائل الإلهية، وكانت دعوته بينهم، وانبعثت منهم إلى غيرهم، فكان تخصيصهم بالذكر، فيه إشارة إلى حقيقة واقعة وتوبيخ لهم؛ لأنهم أوتوا العلم برسالات الأنبياء، مع ذلك كفروا برسول مبعوث منهم، أوتى بمعجزات لا تجعل للعقل مساغا لإنكار.

ولقد ذكر سبحانه فى هذه الآيات معجزات عيسى التى أرسله الله بها لإثبات رسالته، فقال سبحانه:

﴿**أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ وهذا النص الكريم فيه معنى هذه الرسالة التى كان بها رسولا، أى أنه يتبين معنى أنه رسول بقوله: ﴿**أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ فالجملة عطف بيان لمعنى الرسالة المنطوى فى الكلام. وفى الكلام التفات وانتقال من خطاب الله لمريم، إلى بيان رسالة بشارة الله إليها، وجاء بيان الرسالة على لسانه هو، وابتدأ بيان الرسالة ببيان إثباتها، وهو المعجزة، وكأن المعجزة جزء من الرسالة؛ لأنها ركنها ودعامتها التى قامت عليها، ولأن معجزة عيسى كانت

تومئ إلى معانٍ من رسـالته؛ ذلك بأن عصره كان عـصرا ماديا، لا يؤمن بالإرادة المختارة لله تعـالى، ويؤمنون بالأسباب التى تجرى فى الحـياة على أنها المؤثرات فى إيجاد الأشياء، فكانت مـعجزاته عليه السلام إعلانا لبطلان تـأثير الأسباب، بدليل خرق هذه الأسبـاب، بإحياء الموتى؛ وقد جرت الأسـباب المادية التى ترى على أن من مات لا يحيا فى هذه الدنيا، وأن الأكـمه الذى ولد أعمى لا يرتد بصيرا، وأن إخراج الحىّ من الطين مباشرة لا يكون، فجـاء عيسى بكل هذا، فكان إعلانا قويا بأن الله فاعل مختار، وذلك جزء من رسالته.

والآية هنا هى المعـجزة، وهى فى أصلهـا العلامـة، والمراد بها هنا العـلامة الدالة على الرسالة، وأطـلق على الجزء من القرآن آية؛ لأن كل آية فى كـتاب الله تعالى معجزة فى ذاتها، دالة بوحدتها على رسالة النبى ﷺ .

ولقد ذكـر بعد ذلك سبـحانه آيات، وكانت الآيات المذكـورة فى هذا المقام أربعا؛ وعبر عنهـا بآية؛ لأن مجمـوعها دال على رسـالته، وإن كانت كل واحدة منها تصلح حجة قائمة بذاتها؛ فذكرهـا بلفظ المفرد للإشارة إلى أنها جميعا كانت آيته.

والآيات الأربع: هى أنه يخلق من الطين كـهيئة الطيـر، فينفخ فيـه فيكون طيـرا بإذن الله، وأنه يبرئ الأكـمه والأبرص، وأنه يحـيى الموتى، وأنه ينبئـهم بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم؛ فهذه آيات أربع.

والآيات الأربع ذكرت مـضافة إلى السيـد المسيح عليه السلام؛ لأنهـا كانت تجرى على يديه، ولأنها هى التـى كان يقيم بها الدليل على رسالتـه؛ وقد خاطب بها بنى إسرائيل، ومن استمع إليه من الرومان وغيرهم.

وأول هذه الآيات تصـوير الطين ثم النفخ فـيه فـيكون طيـرا، وقد ذكـرها سبحانه وتعالى بقوله: ﴿**أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾:

الخلق المراد به هنا التصوير، أى أنه صور من الطين كهيئة الطير، أى بشكله، فينفخ فيه، فكان طيرا بإذن الله تعالى، فهنا أعمال ثلاثة» اثنان منها لعيسى عليه السلام، والثالث لله تعالى جل جلاله وعظمت قدرته، أما اللذان لعيسى فهما: تصوير الطين كهيئة الطير، والنفخ فيه، وأما الثالث الذى هو من عمل الله تعالى وحده، فهو خلق الحياة فى هذه الصورة التى صورها عيسى عليه السلام؛ ولذلك قال: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أى بأمره وإعلامه، والكون كله بأمره سبحانه ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. وهذا يدل على أنه لم يكن فى عيسى ألوهية، ولا أى معنى من معانيها.

ولقد قال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده: إن الصيغة التى ذكرت بها هذه الآية وهو قوله: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ تدل على استطاعته ذلك ولكنها لا تدل على الوقوع، وعندى أنها تومئ إلى الوقوع لأن ذكر الكيفية وهو أنه يتخذ من الطين صورة الطير، ثم النفخ ثم الكون طيرا يدل على الوقوع لا على مجرد الاستطاعة وفوق هذا فإن آية المائدة تدل على الوقوع بشكل أوضح من هذا؛ فإنه سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فهذا النص الكريم دليل على الوقوع، لا على إمكان الوقوع؛ لأن الله تعالى لا يمن عليه إلا بالذى وقع فعلا.

والآية الثانية والثالثة: بينهما سبحانه وتعالى بقوله:

﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الأكمه هو الأعمى الذى يولد أعمى، أى الذى لم يؤت حاسة الإبصار؛ أجرى الله تعالى على يد عيسى عليه السلام إبراءه. والأبرص هو الذى يكون فى جلده بياض مشوب بحمرة، وهو مرض لا يبرأ منه من يصاب به؛ فهذان مرضان لا يتصور بمقتضى العادة، والأسباب الجارية بين الناس أنه يمكن أن يكون منهما شفاء؛ لأن الأول يولد به الشخص ناقصا حاسة الإبصار، والثانى لم يصل الطب إلى الآن إلى طريق للشفاء منه، فإذا كان الله قد أجرى على يدى عيسى عليه السلام الشفاء بهما فإن هذا

يقنع الماديين بأن وراء هذه الأسباب فاعلا مختارا، وليست الأسباب مؤثرة فى الإيجاد، إنما المؤثر هو الله سبحانه وتعالى.

وإحياء الموتى وحده برهان قاطع على أن الأسباب العادية ليست هى المؤثرة وإنما الخالق المكون هو المؤثر، وأن الأشياء لم تخلق بالعلِّيَّة، إنما خلقت بالإرادة المختارة المبدعة المنشئة المكونة، وعبر بقوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فى كل هذا للإشارة إلى أن المبدع المنشئ هو الله سبحانه وتعالى، وأنه ليس ما يجرى على يدى عيسى لمعنى الألوهية فيه، إنما هو لله العلى القدير.

والآية الرابعة بينها سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾:

الإنباء والتنبيء: الإخبار بالخبر العظيم، إما لموضوعه، وإما لعظم شأن الإخبار نفسه، والإخبار عن شيء من غير رؤيته، إخبار عظيم فى ذات شأنه؛ ولقد كان عيسى لفرط روحانيته، ولما أكرمه الله به من إجراء الخارق للعادة على يديه تأييدا لرسالته، يخبر من بعث إليهم بما يأكلون، أى ما يأكلون، وما يدخرون فى بيوتهم، وهذا نوع من الكشف النفسى أعطاه الله لنبيه عيسى عليه السلام، وهو ليس من قبيل الإخبار عن المستقبل، وإنما هو من قبيل الإخبار عن الحاضر الواقع ممن لا يراه.

وقد كان النبى محمد ﷺ يخبر عن بعض الأمور المستقبلة، كما أعلمه الله تعالى، مثل قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الأَرْضِ، وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ وكإخباره عليه الصلاة والسلام عما يحدث لأمته فى الأزمان المستقبلة، وكإخباره عليه الصلاة والسلام عن فشو الربا فى أمته، مثل قوله عليه الصلاة والسلام: «يأتى على الناس زمان يأكلون فيه الربا» قيل: الناس كلهم يارسول الله؟! قال «من لم يأكله ناله غباره»(١).

---

(١) رواه بهذا اللفظ أحمد بن حنبل: باقي مسند المكثرين (١٠٠٠٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه، كما رواه النسائي: البيوع (٤٣٧٩)، وأبو داود: البيوع (٢٨٩٣)، وابن ماجه: التجارات (٢٢٦٩) بنحوه.

هذه المعجزات الأربع وغيرها، هى آية الله تعالى لإثبات رسالة السيد المسيح عليه الصلاة والسلام؛ ولذا قال تعالى بعد ذكرها:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أى إن فى هذه الأمور التى أجراها الله على يد السيد المسيح عليه السلام لآية، أى لعلامة واضحة بيّنة تدل على صدق رسالته، وتثبت دعوته، ويقتنع بها من يريد الاقتناع. وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إيماء إلى أن الذين يقتنعون بالحجج والآيات هم الذين من شأنهم أن يذعنوا للحق، ويخضعوا له؛ فالناس قسمان: قسم يذعن للحق ويؤمن به إن قام الدليل عليه، وأولئك هم الذين من شأنهم الإيمان والإذعان للحق؛ وقسم لا يزيده الدليل إلا عنادا واستكبارا، وأولئك هم الذين من شأنهم أن يجحدوا ولا يذعنوا للحق إذا دعوا إليه؛ ولذلك عبر بالوصف فى قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أى إن كان الإيمان والإذعان للحق شأنا من شئونكم، ووصفا ذاتيا لكم.

وإن هذه المعجزات الباهرة القاهرة التى خضع لها من خضع، وكفر بعدها من كفر، دليل على أن الدليل مهما يكن قويا لا يكفى للإيمان، بل لابد من اتجاه نفسى لطلب الحق من أن يتأشب بالنفس أى داع من دواعى الهوى، أو أى غرض من أغراض الدنيا؛ وأى دليل حسى أقوى فى الدلالة على الرسالة الإلهية من إحياء الموتى، وأن يصور من الطين كهيئة الطير فيكون طيرا بإذن الله، ومع ذلك آمن من آمن، وكفر من كفر، وكان الذين عاندوا أكثر عددا من الذين أذعنوا وآمنوا، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

بعد أن أشار سبحانه إلى الآيات الكبرى التى أجراها على يدى السيد المسيح عليه السلام، أشار إلى رسالته، وهى تتلخص فى أمرين: أنها مصدقة لما جاء فى التوراة مع إحلال لبعض الذى حرم على اليهود فيها، وثانيها: أنه يدعو إلى الإيمان بأن الله خالق كل شىء ومبدعه ومنشئه بإرادته المختارة؛ وهذا ما تضمنه قوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ :

وقوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ حال من الفعل المحذوف الذى دل عليه العطف، أى أنّى جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق، وجئتكم مصدقا لما بين يدى؛ يقال الأمر بين يديه أى أنه حاضر ثابت موجود، وعيسى جاءت رسالته متممة لرسالة موسى ناسخة لبعض ما جاء فيها، كالشأن فى كل نبى بالنسبة لمن سبقه. ولقد بين عيسى عليه السلام لهم أنه جاء بالرفق والسماحة؛ ولذا أحل الله لهم على يديه بعض ما حرم عليهم بظلمهم وقسوتهم وجفوتهم ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ... ﴿١٦٠﴾﴾ [النساء] ولقد قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾[الأنعام]. ذلك لأنهم قست قلوبهم وغلظت أكبادهم، واستناموا إلى الراحة واسترخت أجسامهم، فابتلاهم الله بهذا التحريم لينشطوا ويعملوا، ويكونوا قوة عاملة، ولا يكونوا أجساما مسترخية؛ فلما جاء عيسى عليه السلام، وقد نزل بهم من البلاء ما نزل، أحل الله لهم على لسانه ما كان قد حرم. وقوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ذكرت الآية، لأن جزءا من الرسالة العيسوية إثبات خلق الأشياء بالإرادة المختارة، ومعجزته كلها تتجه نحو هذا الاتجاه، فهى فى ذاتها جزء من دعوته؛ لإثبات قدرة الله تعالى وإرادته فى الخلق والإبداع.

وبعد أن أشار سبحانه إلى ما تضمنته الرسالة العيسوية، ذكر دعوة عيسى لقومه بهذه الرسالة، فقال سبحانه حاكيا قول عيسى لهم:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ كانت دعوة عيسى تتجه إلى هذين الأمرين: تقوى الله تعالى، وأن يطيعوه بأن يتبعوه فى منهاجه الذى رسمه لهم ووجههم إليه تبليغا لرسالة ربه. أما تقوى الله تعالى فكان لابد أن تكون لُباب الدعوة العيسوية؛ لأن اليهود كانوا قد أعرضوا عن الله تعالى إعراضا تاما، حتى لقد كان فريق منهم، وهم الصدوقيون لا يؤمنون باليوم الآخر، وحتى لقد حسب أكثرهم أن العقاب الذى هدد الله به هو العقاب الدنيوى، لا العقاب الأخروى؛ ومن أجل ذلك سرى

في قلوبهم حب الدنيا والحرص عليها حرصا شديدا أيّا كانت حياتهم فيها؛ ولذا قال تعالى عنهم: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ ... ﴿٩٦﴾ ﴾ [البقرة].

وأما الطاعة لعيسى عليه السلام فبأن يتخذوا منه قدوة حسنة في زهادته وروحانيته وسماحته، ليخففوا من غلظتهم وقسوتهم. واليهود إلى الآن في أشد الحاجة إلى مثل هذه الدعوة، وهي التقوى والعفة والسماحة، ولكنهم أجابوا في الماضي داعي الحق بمحاولة قتله، وكذلك يفعلون الآن، فهم يحاولون قتل من حموهم وآووهم.

ولقد قرر عيسى ـ عليه السلام ـ أن هذه المعجزات الباهرة لا تخرجه عن أنه عبد لله تعالى مخلوق له سبحانه؛ ولذا حكى الله تعالى عنه قوله:

﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي أن الله تعالى خلقني وهو الذي يربني ويكلؤني ويحييني، وهو أيضا الذي خلقكم وينميكم ويكلؤكم ويحييكم، وإذا كان كذلك فحق علينا أن نعبده وحده ولا نشرك به أحدا سواه، فإن العبادة تكون شكرا لهذه النعمة، وقياما بحقها، وصلاحا لأمر الناس في هذه الدنيا. وعبادة الله وحده والاعتراف بربوبيته وألوهيته وحده هي الصراط أي الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، اللهم اهدنا إلى سواء السبيل.

۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾

هذا القصص الحكيم مستمر فى قصة عيسى، وقد انتقل فى الآيات السابقة من بشارة مريم بأن تكون المختارة لتكون منها الآية الكبرى وهو أن يولد منها ولد هو إنسان حيّ يأكل ويشرب وينمو من غير أب ينجبه، إلى ملاقاة قومه له وتكذيبه؛ ولم يكن ذلك الانتقال مفاجئا من غير تمهيد بل مهد له، فأشار فى البشارة إلى مقامه ورسالته وآيته الباهرة القاهرة؛ وبهذا علم القارئ الذى يتلو كتاب الله من السياق رسالته والمعجزات التى تحدى بها قومه أن يأتوا بمثلها؛ وعلى ذلك لم يبين فى هذا الموضع ولادة عيسى عليه السلام، وحال مريم عند ولادته، وتكلمه فى المهد صبيا، وبين ذلك فى سورة مريم فى قوله تعالى: ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾ [مريم].

ففى سورة مريم فصل خبر ولادته، وفى هذه السورة فصل الآيات التى أثبت بها نبوته، وكان هذا مناسبا لما يجىء بعد ذلك من ملاقاة قومه لدعوته إلى الله، وإقامته الآيات التى تدل على رسالته، فقال :

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ هذا النص الكريم كان معقبا للآيات الباهرة من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وتصوير الطين كهيئة الطير فيكون طيرا بإذن الله. وتعقيبه لهذه الآيات، وكون الكثرة لم يكونوا مؤمنين كما يشير النص، يدل على أن الآية مهما تكن باهرة قاهرة لا تحمل

الجاحدين الذين غلفت قلوبهم دون نور الهداية على الإيمان، والفاء هنا كأنها فاء التعقيب على الآيات الباهرة، أى أنهم فور هذه الآيات كفروا ولم يتدبروا، وأحس منهم عيسى هذا الكفر، فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله. والإحساس هو العلم الذى يكون بالحواس، وإطلاقه على العلم المجرد بعد ذلك من قبيل تشبيه العلم اليقينى القاطع البدهى بالعلم المدرك بالحواس.

ولما أحس عيسى الذى أوتى هذه البينات الكفر من قومه، وعلم ذلك علما يقينيا، اتجه إلى من يدعوهم يتعرف من أصاب الإيمان قلبه ليتخذ منهم قوة للدعوة وليكونوا صورة للمهتدين الصادقين؛ ولذلك قال: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أى من الذين رضوا أن يكونوا أنصارى لأواجه بهم الذين يحاربون دعوتى، على أن يكون أولئك الأنصار منصرفين متجهين إلى الله تعالى لا يبغون غير رضاه، **وهذا التعبير الكريم فيه إشارة إلى معان ثلاثة:**

أولها: أن الأكثرين لم يكونوا مؤمنين؛ ولذلك عبر بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ فنسب الكفر إليهم، وذلك لا يكون إلا إذا كان الكافرون هم الكثرة الظاهرة، والمؤمنون هم القلة المغمورة، حتى بحث عنهم السيد المسيح عليه السلام بقوله: من أنصارى إلى الله تعالى.

المعنى الثانى: الذى يشير إليه النص الكريم: أن السيد المسيح عليه السلام أحس بأنه أصبح مقصودا بالأذى، وأن الدعوة الحق أصبحت مهاجمة من تلك الكثرة الساحقة؛ ولذلك طلب أن يكون له نصراء يجعلون للحق منعة وقوة من جهة، ويكونون مدرسة الدعاية له، والخلية التى تدرس فيها حقائقه من جهة أخرى.

المعنى الثالث: الذى يشير إليه النص: هو أن النصرة الحقيقية فى مثل هذا المقام أساسها إخلاص النية لله تعالى، والاتجاه إليه، وتفويض الأمور إليه، فإنهم إن كانوا قليلا فهم بمعونة الله كثيرون ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠)﴾ [الحج] ولذلك كان فى سؤال السيد المسيح عليه السلام إضافة النصراء

إلى الله، فقال: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ وقد قال فى ذلك الزمخشرى: «إلى الله من صلة أنْصارى مضمنا معنى الإضافة، كأنه قيل: من الذين يضيفون أنفسهم إلى الله ينصروننى كما ينصرنى، أو يتعلق بمحذوف حالا من الياء، أى من أنصارى ذاهبا إلى الله أو ملتجئا» والأوضح فى نظرى أن يكون المحذوف حالا من الأنصار أنفسهم أى من أنصارى حالة كونهم متجهين ملتجئين إلى الله تعالى، وفى هذا طمأنة لهم بأن نصرته هى نصرة الله، وأن الذين ينصرونه يلتجئون إلى جانب الله تعالى، يعتمدون عليه، فهم إذا كانوا للحق منعة، فى عزة من الله ومنعة منه، وإن دعوة الحق لابد أن تجد نصيرا وإن طغى الباطل واشتد؛ ولذلك أجيب عيسى عليه السلام من المخلصين من قومه:

﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ الحواريون هنا هم أنصار عيسى عليه السلام الذين أخلصوا له ولازموه، وكانوا عونه فى الدعاية إلى الحق بعد الله تعالى الذى أمده بنور من عنده. وأصل مادة (حَور): هى شدة البياض، أو الخالص من البياض، ولذلك قالوا فى خالص لباب الدقيق: الحوَّارَى، وعلى النساء البيض: الحواريات، والحوريات؛ وعلى ذلك يكون تسمية صفوة الرجل وخاصته حوارى؛ لأنهم أخلصوا له، ولأنهم لُباب الناس بالنسبة له، وكذلك كان حواريو عيسى عليه السلام؛ فقد كانوا خاصته، والذين صفت نفوسهم، وخلصت من أدران الدنيا وأهوائها كما يخلص الثوب الأبيض الناصع البياض من كل ما يشوبه.

أجاب أولئك الحواريون عيسى عليه السلام عندما أخذ يبحث عن النصراء ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ وهم بذلك بينوا اهتداءهم لأمرين:

أولهما: أنهم علموا أنه يتكلم عن الله تعالى وأنه رسول أمين؛ ولذلك اعتبروا إجابة دعوته هى من إجابة دعوة الله، وأنهم إذا كانوا نصراءه فهم نصراء الله تعالى؛ ولذا قالوا: نحن أنصار الله، ولم يقولوا نحن أنصارك.

الأمر الثانى: أنهم فهموا أن نصرته تكون بإخلاص النية لله تعالى، وتصفية نفوسهم من كل أدران الهوى، حتى تكون خالصة لله تعالى، ولذلك أردفوا قولهم هذا بما حكاه سبحانه وتعالى عنهم بقوله تعالى:

﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ فهـذا النص الكريم يفيد مقـدار إدراكهم لمعنى نصرة الله تعالى ونصرة رسوله عيسى عليه السلام؛ قالوا ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ أى آمنا بأنه الواحد الأحد الفرد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، وأنه خلق الأشياء بإرادته المختارة، وبقدرته الفعالة، ولم توجد عنه الأشياء وجود المعلول عن العلة، والمسبب عن السبب، كما كان يدعى بعض الفلاسفة فى عصرهم، وأردفوا قولهم بما يدل على الإذعان المطلق لله تعالى، وإخلاص نياتهم وقلوبهم له سبحانه بقولهم: ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾. الشهادة هنا بمعنى العلم المنبعث من المعاينة والمشاهدة، فهم يطلبون من سيدنا عيسى أن يعلم علم معاينة بأنهم مسلمون أى مخلصون قد أسلموا وجوههم لله رب العالمين، وصاروا بتفكيرهم وقلوبهم وجوارحهم لله تعالى، وإن ذلك فوق أنه إعلام لحقيقة نفوسهم هو إشهاد من قبلهم بما خلصت به أرواحهم.

خاطبوا بهذا الخطاب نبى الله تعالى مجيبين دعوته، ملبين نداءه، معلنين نصرته، ثم اتجهوا بعد ذلك إلى الله تعالى ضارعين إليه قائلين:

﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ وقد صدروا ضراعتهم إلى الله تعالى بالاعتراف الكامل بالربوبية، وفى الاعتراف بالربوبية إحساس صادق بجلال النعم، وتقديم شكر المنعم، ثم الاعتراف بالربوبية الحق يطوى فى ثناياه الاعتراف بالألوهية الحق؛ لأن كمال الخضوع لله لا يكون إلا بالإيمان بالربوبية، ووراء هذا كله الإفراد بالعبودية، ثم بعد الضراعة بلفظ الربوية أعلنوا الخضوع والإذعان الكامل، فقالوا: ﴿آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ﴾ أى صدّقنا تصديق إذعان وتسليم وهداية بما أنزلت. وما أنزل الله تعالى على عيسى عليه السلام هو تكليفات؛ فالإيمان الصادق بها يقتضى العمل ؛ لأن العمل يدل على كمال الإيمان، ولأن المخالفة من غفوة الإيمان، ومن قبيل ذلك قول محمد ﷺ: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن»(١). وقد تأكد ذلك المعنى وهو العمل بمقتضى ما أنزل لهم بعد ذلك فى

---

(١) سبق تخريجه.

ضراعـتهم ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ وهو عيـسى عليه الـسلام، واتباع الرسـول يكون بالعمل بهديه، والأخذ بسنته.

وإذا كانوا قد ضرعوا إلى ربهم بهذا الإيمـان تلك الضراعة، فقد اتجهوا مع ذلك إلى دعائه راجين بإجـابته أن يقوى الله سبحانه وتـعالى إيمانهم، وأن ينقلهم من الإيمان الغيبى إلَى الإيمان الذى يصل إلى درجة تشبه المشاهدة؛ ولذا قالوا:

﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أى إذا كنا قد امتـلأت قلوبنا بربوبيتك، وألوهيتك وعـبـوديتك فـارفـعنا إلى مـرتبـة أعلى هى أن نكتـب مع الشـاهدين؛ ومن هم الشاهـدون؟ يصح أن نقول إنهم الذين صـفت نفوسـهم وزكت مداركهـم، حتى وصلوا إلى درجة العلم الذى يكون كعلم المشاهدة والرؤية، الذين قال فى أمثالهم محمد ﷺ: «اعبـد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[١] فهذه مرتبة من الإيمان، والمعـرفة أعلى من مـجرد الإيمان. ويصح أن تسـمى هذه المرتبة مـرتبة الشهود أو المشـاهدة التى يقول عنها الصوفيـة، فالمؤمن يتعبد، ويصـفى نفسه من أدران الدنيا، حـتى يصبح كأنه يشاهد الله رب العـالمين فى أعلى ملكوته، ويحس فى كل فعل يفعله كأنه فى حضرته العلية كمن يعاينه.

وإن النص الكريم يدل على وجود ذلك الصنف من العباد الأصفياء الأتقياء الأبرار، وأنهم فى أعلى درجات اليقين، بدلـيل أن هؤلاء الأتقياء طلبوا أن يكونوا فى هذا الصنف، وحكى العـلى القدير للأجـيال طلـبهم الذى رشـحهم له فـرط ضراعتهم وتقواهم، وأولئك الشاهدون هم الأنبياء والصديقون والشهداء.

أحس عيسى عليه السلام بحدة كـفر الكافرين، وشدة نضالهم؛ ولذلك اتجه إلى أن يكون له دعـاة مناصرون أطهـار، تكون منهم مـدرسة الحق، وأخـذ يبث تعاليمه فى تلاميذه، وينتقل فى أراضى بيت المقدس وجـبالها وآكامها هاديا مرشدا باعثـا الأرواح إلى الإيمان بالحـق، ولكن جحدوا بـالحق بعد أن ظهـرت أماراته،

---

(١) سبق تخريجه.

وقامت بيناته، ثم أخذوا يَحولون بينه وبين هدايته، ودعوة الحق التى يدعو بها، ولما رأوا أن نور الحق يزداد انتشارا، قرروا أنه لابد أن يقطعوا حركته نهائيا بتدبير الشر لشخصه. ويستفاد من الإشارات القرآنية أنهم حاولوا قتله، ولا عجب فقد قتلوا يحيى بن زكريا عليه السلام الذى عاصره. ولا يستغرب على اليهود عمل فاجر، فهم فى ماضيهم كما نراهم اليوم فى حاضرهم، ولقد قال تعالى بعد أن بلغت دعوة الحق أقصاها وأعلاها ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾:

أى أن هؤلاء الذين أحس عيسى عليه السلام منهم الكفر، ورآه عيانا منهم بعد أن كوّن فيهم مدرسة الهداية بالحواريين، وأخذوا يدبرون التدبير للقضاء عليه أو على دعوته. والمَكْر، كما يظهر من عبارات القرآن: هو التدبير الذى يجتهد صاحبه فى إخفائه عمن يمكر به؛ ولذا نسب المكر إلى الله تعالى، ولا يمكن أن يكون عمل الله تعالى إلا خيرا، ولذا ذكر المكر موصوفا بالسوء فى قوله تعالى: ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ... ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر] فدل هذا على أن مطلق المكر لا يعد سوءا، مكر الفجار لإيذاء الأبرار لا يمكن أن يكون خيرا، ومكر الله تعالى لإحباط تدبير الأشرار لا يتصور إلا أن يكون خيرا. وقد قصر بعض المفسرين المكر على التدبير السيئ، وسمى تدبير الله لإحباط تدبيرهم مكرا من قبيل المشاكلة ورد الفعل بمثله وإن لم يكن له وصفه، كتسمية رد الاعتداء اعتداء فى مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ... ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة] وما هو إلا عمل عدل ولكن سمى به للتماثل بين الفعلين فى الواقع ليتحقق الدفاع العادل.

دبر أولئك قتل عيسى عليه السلام كما قتلوا يحيى، فكانوا - لاستيلاء الفساد على قلوبهم - قد أصابهم شره لدماء الأطهار دبروا ذلك، والله يدبر حمايته، وقد تم ما أراد الله تعالى؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ فسرها بعض المفسرين بأن الله سبحانه لا يصدر عنه إلا الخير، فمكره خير مكر لأنه لا يتصور فيه شر قط. وفسر الزمخشرى قوله:

﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ بقوله: أقواهم مكرا، وأنفذهم كيدا، وأقدرهم على العقاب من حيث لا يشعر المعاقب؛ وذلك كلام مستمد من ذوق بيانى رائع والله من وراء كل من يدبر الشر للأطهار، وهو الذى يحفظ بعلمه وقدرته الأبرار، ربنا هيئ لنا من أمرنا رشدا.

إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾

هذه الآيات موصولة بالقصص السابق، والذى تدل عليه الآيات قبلها هو أن معركة قائمة بين الخير والشر؛ فعيسى عليه السلام ينادى أنصاره إلى الله تعالى، ويجيبه الحواريون بالإيمان والإخلاص والاستعداد للابتلاء فى سبيل إيمانهم ونصرتهم للسيد المسيح عليه السلام، والشر يدبِّر التدبير السَّيِّئ، والله من ورائهم محيط، يدبر الخير ويهدى إليه ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ وفى هذه الآيات يبين سبحانه خيبة تدبيرهم ونجاته عليه السلام من شرهم، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾:

والمعنى: اذكر يا محمد للعظة والاعتبار قصص عيسى بن مريم، إذ قال الله تعالى له فى نداء رحيم منجيا له من أذى اليهود الذين كانوا ولا يزالون أعداء لكل

خير، أنصارا لكل شر: ﴿يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ والمعنى المتبادر من هذا النص الكريم أن الله تعالى توفى عيسى كما يتوفى الأنفس كلها، وأنه رفع مكانته برفع روحه إليه سبحانه وتعالى، كما ترفع أرواح الأنبياء إليه سبحانه وتعالى، هذا ظاهر هذا النص، ولكن جاءت نصوص أخرى يفيد ظاهرها أن الله تعالى رفعه بجسده إليه سبحانه؛ فقد قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء] فظاهر هذا النص أن الله تعالى رفعه إليه بجسمه؛ لأنه مقابل بالقتل والصلب، ولا يصلح مقابلا لهما رفعه بالروح؛ لأنه يجوز أن يجتمع معهما، ويؤيد هذا ما ورد فى صحاح السنة من أن عيسى عليه السلام سينزل إلى الأرض فيملؤها عدلا، كما ملئت جورا وظلما؛ فقد روى مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «والله لينزلن ابن مريم حكما عادلا فليكسرنَّ الصليب، وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية، ولتُتركنّ القلاص[1] فلا يسعى عليها، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد، ويدعون إلى المال فلا يقبله أحد»[2] فإن ظاهر هذا الحديث يفيد أنه ينزل بجسمه من الملكوت الأعلى.

وإزاء تعارض ظواهر النصوص على ذلك النحو، كان لابد من تأويل جانب منها لتكون ثمة مواءمة بينه وبين الأخرى؛ ففريق من العلماء وهم الأقل عددا، أجروا قوله تعالى فى الآية الكريمة التى نتكلم فى معناها على ظاهرها وأولوا ما عداها؛ ففسروا قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ بمعنى مميتك ورافع منزلتك وروحك إلىّ، فالله سبحانه وتعالى توفاه كما يتوفى الأنفس كلها، ورفع روحه كما يرفع أرواح النبيين إليه.

(١) جاء فى الهامش: القلاص جمع قلوص وهى الناقة، ولعل المعنى أن ابن آدم يتجرد للروحانية.

(٢) متفق عليه، وقد رواه بهذا اللفظ عن أبي هريرة - رضي الله عنه - مسلم: الإيمان - نزول عيسى ابن مريم حاكما بشريعة نبينا (٢٢١)، وبه رواه أحمد: باقي مسند المكثرين (١٠٠٠١)، ورواه البخاري: البيوع - قتل الخنزير (٢٠٧٠).

وإذا كان أصحاب هذا الرأى قد فسروا الآية على ذلك الظاهر، فقد قرروا أنه لا معارضة بينها وبين الأحاديث التى تفيد النزول؛ لأنها تدل على مجرد العودة إن أخذناها بظاهرها، وليس الله سبحانه وتعالى بعاجز عن أن يرد روحه إلى جسمه، وهو الذى يُحيى العظام وهى رميم، وكما قال تعالى: ﴿... **كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ** ﴿٢٩﴾﴾ [**الأعراف**] وفضلُ عيسى عليه السلام أنه عاد إلى جسده قبل أن يعود غيره إلى جسده، هذا إذا قبلت هذه الأحاديث بظاهرها من غير تأويل، ومن غير نظر إلى سندها وكونها أخبار آحاد لا يؤخذ بها فى الاعتقاد.

وأما التوفيق بين الآية الكريمة وبين قوله تعالى: ﴿**بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ**﴾ فإنه فى نظر أصحاب ذلك النظر لا يحتاج إلى عناء فى التأويل؛ لأن الإضراب الذى تضمنته «بل» إضراب عن القتل والصلب، وليس إضرابا عن الموت الطبيعى، وكونه لا يقتل ولا يصلب لايقتضى أنه لايموت موتا طبيعيا، والتعبير بقوله: ﴿**بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ**﴾ فيه إشارة إلى معنى الكرامة والإعزاز والحماية، وأنه تعالى حاميه منهم، ومانعه دونهم، وأنهم لن يتمكنوا من رقبته؛ إذ إن الذى يحميها هو خالق الكون، وخالق القدر.

هذا هو التفسير الأول للآية الكريمة، وهو الذى يجريها على ظاهرها من غير أى تأويل، ويقرر أنه إن كان لابد من تأويل فهو فيما يعارض ظاهره ظاهرها، على أن التوفيق فى ذاته ممكن من غير تأويل بعيد أو قريب، إذ الظاهر أن التفسيرين فى نظرهم غير متعارضين، والتوجيه الصحيح لمعانيها يجعلها متلاقية غير متنافرة وإن التأويل إنما يكون بترك ظاهر الآية الكريمة: ﴿**مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ**﴾.

والتفسير الثانى: يقرر أن الرفع بالجسم لا بالروح فقط، وأن عيسى حىّ فى السماء، وأن الأرض قد خلت منه ليعود إليها فيملؤها عدلا، بعد أن ملئت جورا؛ وإن أصحاب هذا الرأى وهم الأكثرون ويحتاجون بلا ريب إلى تأويل هذه الآية، ولهم فى التأويل طرق مختلفة، منها أن قوله ﴿**مُتَوَفِّيكَ**﴾ ليس معناها مميتك، بل

معناها هو المعنى اللغوى الأصلى؛ إذ إن التوفِّى فى اللغة أخذ الشىء وافيا تاما، والمراد فى نظرهم أنِّى موفيك حياتك كلها فى الدنيا على الأرض ببقائك فيها، ثم رافعك إلى السماء تستوفى حظك من الحياة هناك. ولكن يعارض هذا التأويل أن القرآن له استعمال فى العبارات يخصصها، وقد خصص هذا اللفظ بالموت، كما خصصته اللغة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿والله يَتَوفَّى الأنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَتَوفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ... ﴿١١﴾ ﴾ [السجدة].

ومن التأويلات: أنهم فسروا الوفاة بمعنى النوم باعتبار أن النوم هو الموتة الأولى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ... ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنعام]. والمعنى على هذا منومك نوما عميقا، ثم رافعك فى أثناء هذا النوم إلىَّ.

ومن التأويلات: ماذكره القرطبى بقوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ على التقديم والتأخير؛ لأن الواو لا توجب الرتبة، والمعنى إنِّى رافعُكَ إلىّ ومطَهِّرُك من الذين كفروا ومتوفيك بعد أن تنزل من السماء، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ ﴾ [طه]، والتقدير ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما[1] أى أن الوفاة ستكون، وليست سابقة على الرفع، بل هى متأخرة عنه، أى أنه عليه السلام يموت بعد أن ينزل إلى الأرض ولا شك أن هذا ضرب من التأويل، وليس ظاهر النص.

ذانك نظران فى تفسير الآية الكريمة، أولهما يعتمد على ظاهر الآية الكريمة، وعلى أنه لا تعارض بين هذا الظاهر وظواهر النصوص الأخرى، ومنهم من يقف من أحاديث نزوله إلى الأرض موقف المستفهم؛ لماذا اختص عيسى بهذا؟ ولماذا لا يكون هذا لنبينا محمد ﷺ؟ ويخشى أن يكون ذلك من دس النصارى، وكم دسوا فى الإسلام؛ ولقد كان فى عصر التابعين يوحنا الدمشقى فى بلاط بنى

---

(١) أحكام القرآن للقرطبى جـ٤ ص٩٩.

أميـة يؤلف الجماعات السـرية التى تدس الآراء والأفكار التى من شأنها أن تفـسد عقائد المسلمين.

أما النظر الثانى فاعتماده الأكـبر على الأخبار التى وردت بنزول عيسى عليه السلام وأوّلَ من أجلها هذه الآية الكريمة، مع أن الأخـبار أحاديث آحاد، وأولئك هم الأكثرون كما قلنا.

﴿ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ التطهير مـعناه إزالة الأدران والخبائث، والله سبحانه وتعـالى طهر المسيح عليه السلام من الآثام التى حاول أن يلصقهـا به وبأمه اليهود ومن جاءوا بعده ممن ادعوا اتبـاعه وهم لم يتبعـوه، وأبدى سبحانه وتعـالى للملأ من اليهود طـهر أمه وعفتها ونزاهتـها، كما أبدى روحانيته وسلامتـه مما رماه به من عادوه وأفرطوا فى عداوته، وما رماه به من أحبوه وأفرطوا فى محبته حتى حسبوا أنه إله أو ابن إله، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا. هذا تطهير الله لعيسى عليه السلام، ولقد طهره أيضا بأن لم يمكن اليـهود والرومان من صلبـه ومن قتله بل شُبـه لهم، ونجاه الله تعالى من كيـدهم؛ وهكذا طهّر الله عيسى من كل رجس مـعنوى أو حسى، ومن كل أذى حسى أو معنوى.

ولقـد جعل الله سـبحـانه وتعـالى الذين اتبعـوه فـوق الذين كفـروا إلى يوم القيامة، وهنا يسأل القارئ لكتـاب الله: من هم الذين اتبعوه؟ ومن هم الذين كفروا به؟ وما هذه الفوقية التى تكون للذين اتبعوه؟

ليس الذين اتبـعوه هم الذين قـالوا إنا نصارى أو نحن نتـبع المسيح وكـانوا يزعـمـون أنه ثالث ثلاثة أو ابن الله؛ لأنه مـا قـال هذا وما ادعـاه، ولكنه جـاء بالتوحـيد، والإيمان بالله العلى القـدير وحده؛ وإنما الذين اتبـعوه هم الذين آمنوا به، وبأنه رسـول من رب العالمين، وبأنـه بشر كـسائر البـشر، وأن تعـاليمـه هى العدالة، والرحمة، والسماحة، والإخـلاص فى طلب الحق وعبادة الله تعالى كما أمر الله؛ ولذلك لم يجانب الحق من قال إن أتباعه هم المسلمون، لأنهم هم الذين

يؤمنون برسالته حق الإيمان من غير إفراط ولا تفريط، ومن غير أن يتجاوزوا به قدره الذى قدره الله تعالى له وسواه عليه.

والفوقية ليست هى القوة؛ فإن الأسد أقوى من الإنسان، ولكنه ليس فوقه ولا أعلى منه، بل الفوقية هى فوقية الإدراك والإيمان والإخلاص؛ وذلك لأن سبب الفوقية هو الاتباع، والمسبب من جنس السبب، فالسبب معنوى روحى، فالفوقية روحية معنوية، فليست الفوقية إذن فوقية سيف وسنان، بل فوقية حجة وبرهان، . ولقد قال الزمخشرى فى ذلك: «يعلونهم بالحجة، وفى أكثر الأحوال بها وبالسيف، ومتبعوه هم المسلمون؛ لأنهم متبعوه فى أصل الإسلام، وإن اختلفت الشرائع، دون الذين كذبوه، والذين كذبوا عليه من اليهود والنصارى»[(١)].

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ إن الفوقية التى أشرنا إليها هى فوقية الحجة القوية الثابتة عن النظر بعين الحق السائغ، والقسطاس المستقيم، وإن هذه الحجة قائمة فى الدنيا إلى يوم القيامة، حتى إذا انتهوا إلى ذلك اليوم المعلوم المقطوع بأنه سيقع لا محالة، يكون الاحتكام بها إلى الحكم العَدْل العليم؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أى إلىّ رجوعكم ومآبكم، وإذا كان المرجع إلى الله والمصير إليه سبحانه وهو العليم بكل شىء، فهو الذى يحكم بينهم فيما كانوا يختلفون فيه، وحجة بعضهم فوق حجة الآخرين، فالفاء فى قوله تعالى: ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ هى التى تسمى فاء الإفصاح؛ لأنها تُفْصِح عن شرط مقدر، وقد ذكرناه فى مطوى كلامنا. ولقد بين سبحانه وتعالى بعض الحُكم مفصلا فى قوله تعالى:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ هذا هو الجزء الأول من الحكم، وهو عذاب الذين كفروا، وفى التعبير بالموصول إشارة إلى أن سبب العذاب هو كفرهم، وقد أكد سبحانه وتعالى شدة

---

(١) الكشاف: جـ١ ص١٩٢.

العذاب بعدة تأكيدات، أولها: بنسبة التعذيب إليه، وهو القوىّ القهّار الغالب على كل شىء، وفيه إشعار بعدالة العذاب عدالة مطلقة، وثانيها: بالتأكيد بالمصدر، وثالثها: بالوصف بالشدة، ورابعها: بعدم رجائه إنهاءه أو إزالته؛ إذ لا يوجد لهم من ناصر؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ وهو نفى مؤكد مستغرق، أى ليس لهم من ناصر أيا كان هذا الناصر، وأيا كانت نصرته، ولو كانت ضئيلة.

ولقد ذكر أن العذاب فى الدنيا. وفى الآخرة؛ أما عذاب الآخرة فالأمر فيه إلى الله تعالى العلى القدير، وأما عذاب الدنيا بالنسبة لمن كذبوا المسيح من اليهود فهو هذه الذلة والتفريق فى الأرض، ومهما يحاول الكافرون أمثالهم لهم من معاونة فإن حبلها مقطوع بعون الله تعالى العلى القدير ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء] وأما النصارى فإن العذاب الذى هم فيه يبدو للناظر الفاحص من اختلافهم فيما بينهم، وتفرقهم أحزابا وشيعا، وجعل بأسهم بينهم شديدا، وهذه هى الحروب بينهم مستمرة مفنية مدمرة، وأى عذاب أشد من هول الحروب التى وقعت بينهم فى الحربين العالميتين السابقتين!! فكم من دماء أهرقها أولئك الذين كفروا بالمسيح فيما بينهم، وأى ذرية أبادوها، وكم من العمران خربوه!! ولا يدرى إلا الله ما سيكشف عنه المستقبل من عذاب شديد يعده بعضهم لبعض، حتى يصيروا فى نهايتهم بورا.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾

هذا هو الجزء الثانى من الحكم وهو جزاء الذين آمنوا، وقد ذكر جزاءهم الحكيم العليم بأنه يوفيهم أجورهم أى جزاءهم على ما قدموا من أعمال استحقوا عليها ذلك الجزاء، وهو النعيم المقيم؛ وقد جعل ذلك الوفاء وهذا الجزاء مبنيا على أمرين، أحدهما: إيمان صادق، والثانى: عمل صالح، فهما اللذان نيط بهما الجزاء، وفى الحق إن الإيمان الصادق يتبعه العمل الصالح، وليس بمؤمن حق الإيمان من يتخلى عمله عن اعتقاده، ولم يذكر سبحانه وتعالى نعمته فى ثوابه، وهو المنعم دائما المتفضل بالثواب؛ للإشعار بأن إنعامه سبحانه منوط بعمل،

ولْيُعلمْنا العدالة بأن نربط الجزاء بالعمل. ثم ذيل سبحانه وتعالى الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ لإعلان عدالته ولإثبات أن الكفر والظلم قرينان، وأن الإيمان والعدل متلازمان، ولبيان استحقاق الذين آمنوا وعملوا الصالحات لما أعطوا من ثواب ونعيم مقيم. ولقد ختم الله سبحانه وتعالى قصص عيسى بقوله تعالى:

﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ ذلك القصص الذى ذكرت فيه قصة آل عمران، وقصة مريم وولادتها وزكريا ونداءه وإجابته، وعيسى وروحانيته وآياته الباهرة، نتلوه، أى نقصه عليك بعضه تلو بعض فنتلوه فى بيان رائع، وهو من الآيات البينات المثبتة لرسالتك، فما كنت لديهم إذ حدثت هذه الوقائع الثابتة التى لا مجال للريب ولا للشك فى صدقها، وما كنت تقرأ فى كتاب، ولا تلقيته بيمينك، إنما هو وحى به إليك لتثبت به رسالتك، وتؤيد به دعوتك، وهذا القصص مع دلالته على نبوتك هو فى ذاته يحمل العظة والاعتبار؛ ولذلك كان هو من ﴿وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ أى الذكر الذى يربى الحكمة فى القلوب التى تقرأ وتعى وتدرك، إذ هو يذكر القارئ بأن الأدلة مهما تكن قوتها لا تجعل الضال يهتدى ما لم يفتح قلبه لها، فالأدلة كالنور لا يراه إلا من له بصر يبصر به، اللهم افتح قلوبنا لإدراك الحق والإيمان، إنك على كل شىء قدير.

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

فى الآيات السابقة بيَّن الله سبحانه وتعالى كيف كان الحمل بعيسى، وما أجراه الله تعالى على يديه من معجزات، وكيف كان عبدا من عباده الصالحين، وذكر دعوته إلى ربه، ومعاداة قومه له، وتقدم الحواريين ليكونوا أنصاره إلى الله، وكيف مكر القوم به وأحبط الله مكرهم، ثم توفاه سبحانه، ورفعه إليه، وجعل فوقية للذين اتبعوه فى هدايته، فآمنوا بوحدانية الله وبرسالته، وليس منهم قطعا أولئك الذين قالوا إنا نصارى وادّعوا ألوهيته، أو أنه ابن الله، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

وإنه فى هذه الآيات يبين الله سبحانه وتعالى حقيقة تكوين عيسى، ويزيل وجه الغرابة فى ولادته، وأن الله تعالى لا يتقيد بالأسباب والمسببات؛ لأنه خالق كل شىء، وهو الفاعل المختار، يخلق الأشياء بإرادته واختياره، ولا تصدر عنه المخلوقات صدور المعلول عن علته، كما يتوهم الماديون الذين عاصروا عيسى عليه السلام، والذين يعاصروننا اليوم، وإن الله سبحانه كما خلق الإنسان الأول آدم من غير أب ولا أم، فكذلك خلق عيسى من غير أب، وهو سبحانه ذو القوة المتين. ولقد بين سبحانه هذه الحقيقة بقوله:

﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ**﴾ يبين الله بهذا النص الكريم مكان خلق عيسى عليه السلام من قدرته سبحانه وتعالى، بجوار خلق آدم من تراب؛ فالله سبحانه وتعالى خلق آدم من تراب، أى من غير أب ولا أم، ومن مادة ليس من شأنها أن يكون منها إنسان حى ينطق ويتكلم، وقد تعلم الأسماء والأشياء كلها؛ ومعنى النص الكريم: إن حال عيسى فى تصويره وتكوينه من غير أب بالنسبة لقدرة الله تعالى كحال آدم صوره وكونه من طين.

وفى هذا التمثيل احتجاج على النصارى الذين ألَّهوا المسيح عيسى ابن مريم لأنه خلق من غير أب، واعتبروه ابن الله **والاحتجاج من وجهين**:

أولهما: أنه إذا كان خلق عيسى من غير أب مسوغا فى زعمهم لأن يكون إلهـا أو ابن إله، فأولَى بذلك ثم أَولَى آدم؛ لأنه خلق من غير أب ولا أم، ولا

أحد من الناس ادعى ألوهية آدم لهذا السبب فيبطل حينئذ ذلك الزعم الباطل لانهيار الأساس الذى قام عليه.

ثانيهما: أن الله سبحانه وتعالى إذا كان قادرا على خلق إنسان حيّ من غير أب ولا أم، ومن مادة ليس من شأنها أن يتكون منها إنسان حى، فأولى أن يكون قادرا على خلق إنسان من غير أب، ومن أم هى إنسان يلد ويحيا ويموت، وهى وعاء لحياة الإنسان وهو جنين؛ وإذا فلا غرابة فى خلق عيسى من غير أب، وما كان يصح أن يكون هذا دافعا لهذا الضلال المبين.

والنص الكريم فوق ما تضمنه من حجة دامغة تقطع دعوى المبطلين، هو بيان لقدرة الله تعالى العلى القدير فى خلق الأحياء وخلق الأشياء، من حيث إنها تخلق بإرادته المختارة، وأنه بهذه الإرادة يخلق الحيّ من غير الحيّ، ويخلق الحيّ على غير النظام الجارى فى مجرى العادات، وما نسميه طبائع الأشياء فى التكوين والتوالد، ولا تصدر عنه الأشياء كما يصدر المعلول عن علته، وإلا ما كان من الطين إنسان حى ناطق هو أبو الخليقة آدم عليه السلام. ولذا بين سبحانه بعد ذلك عظم إرادة الله تعالى فى خلق آدم:

﴿**ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ هذا تصوير لخلق الله تعالى آدم من تراب، أراد سبحانه وتعالى أن يكون فصوَّره من طين، ثم قال له لما صوره آمرا له أمرا تكوينيا «كُن» فكان. وهذه الجملة السامية تصور خلق الله سبحانه وتعالى للأشياء الأحياء وغير الأحياء، فليست إلا أن تتجه الإرادة إلى تكوينها، فيكون الأمر التكوينى، وتكون الاستجابة التكوينية، ويكون الأمر كما أراد سبحانه. وقال سبحانه وتعالى بالنسبة لخلق آدم عليه السلام: ﴿**كُن فَيَكُونُ**﴾ ولم يقل كن فكان، وهو المناسب للماضى، وذلك لأن التعبير بالمضارع دائما فيه تصوير وإحضار للصورة الواقعة كما وقعت، ومن جهة أخرى فصيغة المضارع فى هذا المقام تنبئ عما كان، وتومئ إلى ما يكون بالنسبة لخلق الله تعالى المستمر فى المستقبل كما كان فى الماضى وقد بين سبحانه أن هذا هو الحق الثابت المستمر، فقال:

﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أى هذا الذى أخبرك الله به سبحانه من أن عيسى خلق من غير أب، وكونه كذلك، وكون خلق آدم من طين، وكون هذا التكوين العام هو بإرادة مختارة، لا قيد يقيدها، وأنها خالقة الأسباب، هذا هو الحق، والحق هو الثابت اليقينى الذى لا مجال للشك فيه. وقد أكد سبحانه وتعالى كونه الحق الذى لا مجال للريب فيه بثلاثة تأكيدات:

أولها: بتعريف كلمة الحق بأل، فإن مؤدى ذلك أن خلق الله بإرادته المختارة على النحو الذى بينه هو الحق وحده، ولا حق سواه.

ثانيها: أنه بين أن إثبات ذلك الحق هو من ربك الذى ذرأك وحفظك، وفى ذلك مايدل على صدق الإثبات صدقا لا ريب فيه.

ثالثها: أنه نهى عن الامتراء والشك فى ذلك الحق، فقال سبحانه: ﴿فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أى أنه لا مجال فيه للشك، أو للجدال والمراء المثير للشك. والخطاب موجه إلى النبى ﷺ مع أن النبى ﷺ لا شك عنده، وكان كذلك لإثارة الاهتمام والاتجاه إليه، وبيان أنه لا موضع فيه للجدل والامتراء، فيكون الاطمئنان إلى الحق المبين، وإذا كان هذا دعوة للنبى إلى الابتعاد عن الامتراء فغيره أولى بأن توجه إليه الدعوة القاطعة لكل ريب.

والامتراء: هو الشك الذى يدفع إلى المراء والمجادلة المبنية على الأوهام لا على الحقائق ولذلك قال الراغب الأصفهانى فى معنى الامتراء ما نصه: «المرية التردد فى الأمر، وهو أخص من الشك، قال تعالى: ﴿وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ... ۝٥٥﴾ [الحج] ﴿فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ ... ۝١٠٩﴾ [هود] ﴿فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ... ۝٢٣﴾ [السجدة] ﴿أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ... ۝٥٤﴾ [فصلت] والامتراء والمماراة: المحاجة فيما فيه تردد، وأصله من مريت الناقة إذا مسحت ضرعها للحلب».

فمؤدى كلمة الامتراء هو المحاجة فيما فيه ريب، فكأن الله سبحانه وتعالى يقول لنبيه الكريم أو لقارئ القرآن العظيم: فلا تكن من الذين يجادلون فى هذا

شـاكين؛ فـإنه ليس مـوضع شك من جـهة، وليس مـوضع جـدال؛ لأن الذين يجادلون فيه يجـادلون فى قدرة الله تعالى ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ [الرعد] وإذا كان النبى ﷺ منهـيا عن المجادلة فى هذا الأمـر لأنه لا مسوغ فيـه للجدل، فماذا يكون من أمره إن حـاجوه هم؟ فبين سبحانه ما يـكون منه إن حاجوه بقوله تعالت كلماته:

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ المحاجة تبادل الحجة، سـواء أكانت الحجة قوية أم كانت حجـة داحضة عند ربهم، والفاء هنا فاء الإفصـاح؛ إذ إنها تفصح عن شرط مـقدر؛ والمعنى إذا كانت هذه حقـيقة السيـد المسيح عـليه السـلام، وهذه إرادة الله تعالى فى الخلق والتكوين، فكـل ما يدعى له من الألوهية باطل، ولا يؤمن به أحد، فمن حاجك إلخ: والمعنى: فمن حاجك فى شأنه من حيث كونه إلهـا أو ابن إله أو غير ذلك من الترهات الباطلة، بعد أن عـلمت من شأنه مـا علمت، وذلك بعلم الله الذى أعلمك إياه، ووحـيه الذى أوحاه إليك، فلا تبادلهم حـجة بحجة لأنهم لا يؤمنون بحقيـقة ما يقولون، ولا يذعنون للحق الذى تقول، وإن كـانوا يعلمونه، ولكن قل لهم: ﴿تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ والمعنى ندع من عندنا من ذرية ونسـاء، ومن عندكم من ذرية ونسـاء، ومن عندنا من رجـال، ومن عندكم؛ أى يتلاقى جمعنا وجـمعكم، ثم نتجه نحو الحقيقـة طالبين لها، أو على الأقل يعلن كل واحد منا إيمانه بما عنده، ونبتهل إلى الله ضارعين إليه، متجهين بقلوبنا نحوه أن يجـعل لعنتـه وطرده من رحـمتـه على الكاذبين فـى دعواهم المنحـرفـين فى اعتقادهم.

وهذا المعنى هو ظاهر الآية؛ إذ فيه الدعـوة الاجتماعيـة من الفريقين ليكون الجمع فى مقابل الجمع فيعرف المحق من المبطل.

وهناك معنى آخر تشير إليه مرويات الصحاح من السنة، وهو أن يدعو النبى خاصته من أهل بيته، وهم نساء قرابته وذريته، ورجال أسرته؛ وقد روى البخارى وغيره أن النبى ﷺ ذهب إلى المباهلة ومعه الحسن والحسين وفاطمة وعلى(١).

والمعنى على الأول يشير إلى أن المباهلة بين أهل الحق مجتمعين، وأهل الباطل مجتمعين، ثم يتجهون جميعا إلى رب العالمين؛ لأن الأمر يهم الجميع، فإما أن يذعن أحد الفريقين للآخر، وإما أنه يطرد من رحمة الله تعالى. وعلى الثانى يشير إلى أن المباهلة بين النبى وأسرته، وكبراء الفريق الآخر وأسرهم، وإلى أن الذى يؤمن بما يقول لا يمتنع عن تقديم أحب الناس إليه فى المباهلة مادام مؤمنا بأن الحق فى جانبه.

وإن النبى تقدم إلى هذه المبارزة المعنوية الاعتقادية، ولكنهم أحجموا ولم يتكلموا ورضوا أن يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

والابتهال قال فيه الزمخشرى: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾: ثم نتباهل بأن نقول بهلة الله على الكاذب منا ومنكم، والبهلة بالفتح والضم اللعنة، وبهله الله: لعنه وأبعده من رحمته، من قولك أبهله إذا أهمله. وأصل الابتهال هذا، ثم استعمل فى كل دعاء يجتهد فيه، وإن لم يكن التعانا.

وفى الآيات الكريمة إشارة إلى عدة معانٍ نفسية واجتماعية:

أولها: أن المجادل الممارى لا تزيده الحجة القوية اقتناعا، ولا تحمله على الإذعان، إنما يحمله على الإذعان التوجيه النفسى، بأن يدرس مقدار اقتناعه هو بما يقول، وفى الابتهال وسط لجاجة أولئك الذين يحرفون الكلم عن مواضعه دعوة لهم إلى أن يفتشوا قلوبهم ويعرفوا مقدار إيمانهم بما يقولون، ومقدار الحق فيما يعدلون؛ ولذلك خروا صاغرين، ولم يستطيعوا جدالا.

(١) رواه الترمذي: المناقب - مناقب علي بن أبي طالب (٣٦٥٨) وأحمد: مسند العشرة المبشرين بالجنة (١٥٢٢).

وثانيها: أن الدعوة بالتى هى أحسن توجب على الداعى ألا يفرط فى المجادلة، كما كان يقول الإمام مالك: بيّن الحق ولا تجادل فيه، فإن كل مجادلة توجب على الفريق الآخر أن يلتزم موقفه.

ثالثها: أنه يجب أن تعلم الذرية والنساء شئون الدين؛ ولذلك كانوا مشتركين فى تلك المنازلة بين الحق والباطل وهذه المعركة النفسية الفاصلة بين إيمان المؤمنين، وانحراف المنحرفين.

ورابعها: التعاون الفكرى والنفسى بين المؤمنين؛ فإن تلك المباهلة كانت بين أهل الإيمان متعاونين على دعوة الحق، وأهل الباطل مدعوين إلى التعاون عليه فيها إن كانوا مؤمنين به، فلم يحيروا جوابا.

ولقد أكد سبحانه وتعالى صدق ما أخبر به عن عيسى عليه السلام فقال تعالى: ﴿**إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ**﴾ أى إن هذا الذى أخبرت هو القصص الثابت الذى لا مجال فيه لإنكار منكر، ولا لتشكيك متشكك، وقد أكد سبحانه صدق القصص فى تلك الجملة السامية بأربعة مؤكدات هى: إنَّ، فهى للتوكيد، واللام فى قوله تعالى: ﴿**لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ**﴾ وضمير الفصل، والقصر الذى تضمنه تعريف الطرفين؛ إذ المعنى فيه أن ما أخبرت به فى شأن عيسى عليه السلام هو وحده الخبر الحق، ولا حق فى سواه، بل ما عندهم ترهات وأباطيل.

وإن هذا الخبر يتضمن فى ذاته أن المسيح عيسى عليه السلام ليس إلها ولا ابن إله، وأنه عبد الله ورسوله الأمين، وأنه من أولى العزم من الرسل، وأن الألوهية الحق هى لله تعالى وحده؛ ولذا صرح بهذا عقب تأكيده القصص الحق، فقال تعالى: ﴿**وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾:

هذا نفىٌ باتٌّ قاطع للألوهية من غير الله تعالى، وإثبات الألوهية لله وحده، وقد أكد النفى بكلمة «من» فهى تفيد استغراق النفى استغراقا مستمرا ثابتا مؤكدا، وفى النفى والإثبات تأكيد لمعنى المستثنى أبلغ تأكيد، وإن هذا النفى فيه رد بالغ على النصارى الذين ادعوا ألوهية للمسيح عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ معناه أن الله سبحانه وتعالى المنفرد بالألوهية وحده هو العزيز الغالب الذى لا يقهر، الحكيم الذى يدبر كل شيء بكمال سلطانه وسيطرته على هذا الوجود الذى لا ينازعه السلطان فيه غيره كائنا من كان. وإن الجملة السامية فيها تأكيد لمعنى العزة والسلطان الكامل بالتعبير بإن، وباللام، وبضمير الفصل، وبتعريف الطرفين.

وفى هذا الكلام رد على أولئك الذين يزعمون أن المسيح إله، ويعتقدون مع ذلك أنه غُلب على أمره وصُلب ولم يستطع لنفسه حولا ولا طولا، ولا حيلة يخرج بها من ذلك المأزق، ولكن هكذا يعتقدون، وبه يؤمنون.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أى فإن أعرضوا ولم يبتهلوا لتكون لعنة الله على الكاذبين، وكلمة الحق هى الغالبة المسيطرة، فاعلم أنهم ليسوا طلاب حق وهداية ولكنهم دعاة باطل، وفى دعاوى الباطل يكون الفساد فى الأرض؛ لأنه لا فساد فى الأرض أكثر من فساد الاعتقاد، فإن فساد الاعتقاد، يدفع إلى فساد العمل.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ ليس هو جواب الشرط ولكنه ينبئ عن جواب الشرط المحذوف، إذ تقدير القول: فإن تولوا وأعرضوا فأنذرهم بسوء المغبة وسوء العقبى، فإن الله عليم بالمفسدين. وهذه الجملة السامية تتضمن فى ذاتها تهديدا شديدا، إذ إن الله تعالى إذا علم بالمفسد لا يسكت عنه، ولا يتركه يعيث فى الأرض فسادا، بل إنه يأخذه أخذ عزيز مقتدر، ويوم القيامة يأخذه بالنواصى والأقدام، وكذلك الشأن فى كل من يعرضون عن الحق إذا دعوا إليه.

اللهم مكن الحق من قلوبنا، واجعلنا ممن يؤمنون به، ويذعنون له، وأعز الإسلام، واجعل أهله يؤمنون به، ويفتدونه، إنك أنت العزيز الحكيم.

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

ذكر سبحانه وتعالى فيما سبق خبر مريم البتول، وخبر ابنها عيسى الذى رفعه الله مكانا عليا، ثم ذكر سبحانه وتعالى الآيات الكبرى التى أجراها على يد عيسى عليه السلام لإثبات رسالته، وتوثيق دعوته، ثم آمن به الحواريون، وكفر به الأكثرون، مما يدل على أن المعجزة لا تحمل على الإيمان حملا، ولكنها تنير السبيل أمام طالبى الحق الذين لا يبغونها عوجا؛ ثم أشار سبحانه إلى انحراف الذين جاءوا بعد عيسى وادّعوا أنهم اتبعوه، وما اتبعوه فى شىء؛ فقد ادّعوا أنه إله أو ابن إله، وليس إلا عبد الله ورسوله، وقد اعتمدوا فى هواهم على أنه خلق من غير أب، فأبطل سبحانه قياسهم بقياس أدق وأقوى إنتاجا، وهو أن آدم خلق من غير أب وأم فكان أولى أن يعبد، إن كان قياسهم سليما، ولكنه غير سليم.

ثم أمر سبحانه وتعالى أن يخاطب نبيه محمد ﷺ نصارى عصره بما يكشف خبيئة نفوسهم، وهى أنهم لا يؤمنون بشىء إيمانا صادقا، ولكنهم يمارون، وما أمره سبحانه به هو أن يبتهل هو وهم، فيجعلوا لعنة الله على الكاذبين، فلم

يدخلوا فى تلك المبارزة النفسية التى يبارز فيها الحقُّ اليقينُ الثابتُ الباطلَ المترددَ المتحيرَ.

وفى هذه الآيات ينتقل سبحانه وتعالى من الخصوص إلى العموم، فيخاطب أهل الكتاب من نصارى ويهود على لسان نبيه، يدعوهم جميعا إلى الحق الذى يتساوى عنده الجميع، فقال تعالى:

﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ**﴾ النداء هنا لأهل الكتاب عامة، لا لطائفة خاصة منهم؛ فهو يشمل اليهود والنصارى جميعا، لا فرق بين طائفة منهم وطائفة، وكان النداء فى هذا عاما؛ لأن العيب عام فيهم، والدواء واحد؛ فلوحدة الداء ووحدة الدواء كان النداء عاما؛ ذلك أن عيبهم هو التعصب لما عندهم تعصبا أعماهم عن الحق عند غيرهم، فهم يظنون أنهم وحدهم أهل علم النبوة لا ينزل على غيرهم ولا يدينون به لسواهم، فهم يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وكل يتعصب لما عنده، فاليهود يقولون: ليست النصارى على شىء، والنصارى يقولون: ليست اليهود على شىء، وكلاهما يقولون: ليس غيرنا على شىء، والدواء واحد أيضا، وهو طلب الحق لذات الحق من غير إذعان لهوى، ولا إفراط فى العصبية، وحتى لا تؤدى إلى الانحراف.

وناداهم سبحانه: بـ «أهل الكتاب» مع أنهم حرفوا فيه الكلم عن مواضعه، وانحرفوا عن مبادئه، وفرقوا فى أحكامه، وتفرقوا فى فهمه؛ والسبب فى هذا النداء هو أولا توبيخهم على ما كان منهم؛ لأن علمهم بالكتاب كان يوجب عليهم الإذعان للحق بدل التفرق فيه، ﴿**وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ** ... ﴿١٤﴾﴾ [**الشورى**] ثم هناك سبب آخر، وهو أن علمهم بالكتاب فى الجملة يجعل الاحتكام إلى ما بقى منه عندهم كافيا لإذعانهم إن كانت عندهم أثارة من إيمان بالحق وطلب له مع ماهم فيه من تعصب.

ولقد أمر الله نبيه بأن يدعوهم بقوله: ﴿**كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ**﴾ أى كلمة هى مستوية بيننا وبينكم، أى فيها إنصاف لنا ولكم، ونلتقى فيها معكم، وتلتقون

عندها إن طلبتموها، وكلمة سواء تطلق بمعنى العدل والنصفة، وقد قال زهير بن أبى سلمى:

أرونِى خطَّةً لا ضَيْمَ فيها يُسَوِّى بيننا فيها السَّواءُ

فالسواء هنا هو العدل، وأصل السِّوَى، والسُّوى الاسْتواء، وإذا فتحت السين منها صارت سواء، ولقد قال تعالى: ﴿... **مَكَانًا سُوًى** ﴿٥٨﴾﴾ [**طه**] أى مكانا مستويا.

والمؤدى أن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه أن يدعوهم إلى كلمة يستوى فيها النبى معهم، وكان ينبغى أن يستووا بالنسبة لها معه، وتلك الكلمة، أو تلك الحقيقة المقررة الثابتة فى كل الكتب السماوية التى لا يفترق فيها كتاب عن كتاب هى ما ذكره سبحانه وتعالى بقوله:

﴿**أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ**﴾ فهذه الكلمة التى يستوى فيها الإسلام مع الأديان التى سبقته هى التوحيد، والتوحيد بشمول معناه يشمل التوحيد فى العبودية، والتوحيد فى الربوبية، والتوحيد فى العبودية ألا يعبد إلا الله سبحانه وتعالى، وهذا ما بينه سبحانه وتعالى بقوله على لسان نبيه: ﴿**أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا**﴾. فلا يصح أن يشرك مع الله فى الألوهية حجر ولا بشر، فلا يقال: فلان إله، ولا ابن إله ولا عنصر ألوهية قط فى حجر.

أما التوحيد فى الربوبية، فهو ما أشار إليه سبحانه بقوله تعالى: ﴿**وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ**﴾ أى لا يتخذ أحد من البشر فى مقام الرب، بأن يكون له فضل فى التكوين أو الإنشاء أو التأثير فى الخلق بأى نوع من أنواع التأثير، فإن هذا كله من عمل الرب، والله سبحانه وتعالى هو رب العالمين وحده، ولا رب سواه، فلا مؤثر فى الكون ولا فى الأشخاص، ولا فى الأشياء سواه، فلا أثر لحجر ولا لبشر كائنا من كان هذا البشر.

وهناك معنى آخر للربوبية يدخل فى مضمونها، وهو أن يكون الشرع كله لله تعالى، فلا يتكلم عن الله أحد إلا نبى يوحى إليه، والجميع بعد ذلك أمام الشرع سواء، إلا أن يكون فهم متميز متفهم متعرف، ومن ادعى أنه يتكلم عن الله باسم الله من غير وحى يعتمد عليه، فقد زعمه ربا يؤخذ عنه؛ ولذلك عبر القرآن عن علماء النصارى واليهود الذين ادعوا أن قولهم دين يتبع، وتقاليد تؤثر، بأنهم قد اتخذوهم أربابا من دون الله، فقال تعالى: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ** ... (٣١)﴾ [**التوبة**] ذلك بأنهم جعلوا لهم الحق فى أن يشرعوا باسم الله ما لم يشرعه الله، وأن يخالفوا ما أمر الله سبحانه وتعالى، فهم جعلوهم فى مقام الرب جل جلاله، ولقد روى عندما نزل قوله تعالى: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ**﴾ قال عدى بن حاتم: ما كنا نعبدهم يارسول الله! فقال الرسول عليه السلام: «أليسوا كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذوا بقولهم؟» قال: بلى. قال النبى ﷺ: «هو ذاك»[(١)].

وعن بعض التابعين أنه قال: لا أبالى أطعتُ مخلوقا فى معصية الخالق أو صليتُ لغير القبلة!! فكانت التسوية كاملة بين الأخذ فى دين الله بغير ما أنزل الله، والخروج عن الإسلام الذى رمز إليه ذلك التابعى الجليل، وهو ألا يكون من أهل القبلة.

عرض النبى بأمر الله تعالى ذلك الأمر الذى يكون فيه نصَفة له[(١)] ولهم، وكانت الدعوة إلى أخذ دين الله من ينبوعه الصافى فيهما فائدتان: إحداهما: ألا يتزيدوا على ما أمر الله تعالى وما نهى عنه؛ والثانية: أن أولئك المجادلين هم الذين يبثون فى نفوس أتباعهم التعصب الأعمى، محافظة على سلطانهم أن يزول؛ فكانوا فى زعامتهم بمنزلة زعماء قريش وأشباههم من أنهم خشوا على سلطانهم من اتباع النبى الكريم ﷺ.

---

(١) رواه الترمذي: تفسير القرآن - ومن سورة التوبة (٣٠٢٠).

(١) النصفة: الإنصاف، وهي المعاملة بالعدل.

وإذا كان قد دعاهم إلى هذا الإنصاف وإلى ترك التعصب جانبا، وعدم الخضوع لأسبابه، فإن حال الذين يخاطبهم إحدى حالين: إما أن يخلصوا فى طلب الحق، ويجيبوا داعيه، وتلك خير الخصلتين، وإما أن لايجيبوا داعيه وتلك هى السوءى، فإن كانت الأولى فتلك هداية الله، وإن كانت الثانية فإن الله تعالى قد كتب عليهم الشقوة، ولا سبيل لأن يدخل النور قلوبهم، فإن من طلب منه الإنصاف فأعرض عنه فلا سبيل إلى هدايته، والجدل معه لا يجدى؛ ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿إِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾:

أى فإن أعرضوا ونأوا بجانبهم عن إجابة داعى الإنصاف، والدعوة بالتى هى أحسن فلا تجادلوهم ولا تحاجوهم، فإن الجدل مع من لم يجب داعى العدالة لا يزيده إلا لجاجة وعنادا؛ وإن الحقائق تتبعثر على ألسنة المتجادلين، ويتبدد رونقها، ويذهب بهاؤها، وتفقد النفس عند الجدل الإيمان بالحقائق والإذعان لها، بل أمرهم الله تعالى بقوله: ﴿فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أى يقول النبى ﷺ ومن معه من المؤمنين لأولئك الذين مردوا على الجدال وبعثرة الحقائق فى حومة الجدل: اشهدوا بأنا مسلمون، مذعنون لطلب الحق فلا تحاولوا أن تغيرونا عما اعتقدنا وقد أنصفناكم بالدعوة إلى كلمة الحق والإنصاف، فلم تجيبوا، والآن ننصفكم مرة أخرى بأن نشهدكم بأننا مخلصون فى طلب الحق مذعنون له؛ ومن جانبنا؛ فإن أذعنتم مثلنا فنعمّا هى، وإن لم تذعنوا فلنا ديننا، ولكم دينكم، والله يحكم بيننا وهو خير الحاكمين. وإن إعلان الإذعان للحق من جانب المؤمنين فيه دعوة للحق بإعلان المثل الواضح البين السامى، وهو يؤثر فى الدعوة إلى الحق أكثر من الجدل، إذ يكون فيه ذكرى لمن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. وإن الجدل يثير غبارا يجعل الوصول إلى الحق عسيرا وسط عجاجة المتجادلين.

وإن هذه الآية الكريمة صورة سامية من الدعوة إلى الحق. ولذا كان يتخذها النبى ﷺ منهاجه فى دعوته، فقد كانت فى الصيغة التى اختارها فى دعوة الملوك والحكام الكبراء إلى الإسلام، وهذا نص كتابه عليه الصلاة والسلام إلى هِرَقْلُ ملك الروم:

«من محمد عبد الله ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم؛ سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين[١] ، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباب من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون»[٢].

ولقد كان النصارى يحاجون بولادة عيسى، ويتخذون منها دليل ألوهيته، واليهود يتحاجون ويجادلون بما عندهم من توراة ، أو بالأحرى بما بقى عندهم منها؛ ولما كان كل من الفريقين يدعى أن إبراهيم أبا الأنبياء كان على مثل دينهم، وذلك ليبينوا أن ديانتهم هى ديانة السابقين، كما هى ديانة المتأخرين؛ بين الله سبحانه أن مثل هذا الاحتجاج منهم باطل فى معناه، كما هو باطل فى شكله ومبناه؛ فقال سبحانه:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أى أنه لا يسوغ لكم المحاجة فى شأن إبراهيم من حيث إنه كان يهودياً أو كان نصرانيا ومن حيث إنكم أتبع الناس له أو أبعد الناس عنه، ومن حيث ما جاء به وحقيقة دعوته؛ فإن التوراة والإنجيل ما جاءا إلا من بعده، فكيف يكون يهوديا يدين بالتوراة قبل أن تجيء التوراة، وكيف يكون نصرانيا يدين بالإنجيل قبل أن ينزل الإنجيل؟ إن هذه محاجة واضحة البطلان.

والمحاجة معناها مبادلة الحجة، فما هذه المحاجة؟ أكانت مع النبى ﷺ أم كانت فيما بينهم؟ ظواهر النصوص تفيد بمقتضى السياق أنها كانت مع النبى ﷺ، فهم يقيمون الحجة على سلامة دينهم بأنه دين إبراهيم الذى كان موضع إجلال الجميع، والذى بنى البيت الحرام الذى هو أول بيت وضع للناس، والذى كان موضع تقديس العرب أجمعين.

---

(١) جاء فى الهامش: الأريسيون هم: العمال والفلاحون، أو الدهماء بشكل عام.

(٢) متفق عليه؛ رواه البخاري: بدء الوحي(٦)، ومسلم: الجهاد والسير - كتاب النبي ﷺ إلى هرقل (٣٣٢٢)، عن أبي سفيان (صخر) بن حرب رضي الله عنه.

ولكن مع هذا الظاهر روى ابن اسحاق عن ابن عباس أنه قال: اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهوديا، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانيا، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ الآية(١).

وسواء أكانت المحاجة مع النبى ﷺ أم كانت فيما بينهم فإنها غير معقولة فى ذاتها؛ ولذا وبخهم سبحانه وتعالى عليها بقوله تعالت كلماته:

﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ هذا النص الكريم هو نتيجة لهذا الحكم الذى يتحاجون فيه، وهو كون إبراهيم يهوديا أو نصرانيا؛ إذ أن ذلك هو حكم من لا يعقل؛ ولذلك كانت الفاء التى تفيد السببية، وهو كون ما قبلها سببا لما بعدها، فتلك الحال التى هم عليها من الغرابة هى السبب فى ذلك السؤال عن أصل عقلهم، وإدراكهم لمعناها.

والاستفهام إنكارى؛ فهو نفى لكونهم يعقلون فى هذه الأمور التى يتجادلون حولها، وذلك يؤدى إلى السؤال عن أصل وجود العقل عندهم، وإن هذا النفى هو فى ذاته توبيخ، وتنبيه إلى ما أدى إليه التعصب الأعمى الذى جعلهم لا يدركون الأمور على وجهها، وينسيهم البدهيات التى لا تختلف فيها المدارك والعقول، حتى يكون أصل العقل عندهم موضع إنكار.

ولقد زكّى سبحانه وتعالى ذلك التوبيخ، وهذا النفى ببيان مظهر آخر من مظاهر مخالفتهم لما يقتضيه العقل فى أمر آخر، يتصل بهذه المسألة، وهو أنهم يجادلون ويتقدمون بالحجج فى أمر ليس عندهم أصل العلم به؛ ولذا قال تعالى: ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾:

أى أنتم معشر أهل الكتاب حاججتُم وبادلتم الحجة، سواء أكانت داحضة أم دامغة فى أمر عندكم أسباب العلم به، سواء أكنتم تجادلون بمقتضى هذا العلم أم

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل - أسباب النزول للسيوطي: آل عمران (٦٥).

تخالفون مقتضاه، وتلوون منطقه، وتبعدون به عن الحجج، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم؟ وبيان ذلك أن اليهود والنصارى عندما كانوا يتجادلون مع النبى ﷺ، وفيما بينهم كانوا يتجادلون فى أمرٍ أسباب العلم به قائمة حاضرة مهيأة وإن كانوا ينحرفون بها عن غاياتها، ويلوونها عن مقاصدها ومراميها تبعا لأهوائهم وشهواتهم، فكانت محاجة فى أمر لهم به علم، وإن لم يسيروا على مقتضى أحكام العلم، أما جدلهم فى كون إبراهيم كان يهوديا أو نصرانيا، أو فى كون النبى ﷺ المبعوث فى المستقبل يكون عربيا أو عبريا فجدل ومحاجة فى أمر لا علم لهم به، وإن العاقل ينأى به عقله عن أن يجادل فى أمر ليس عنده شيء من أسباب العلم به، ولكن هكذا يتردى أهل العقول عندما تنحرف نفوسهم إلى التعصب، فيتحكم الهوى فى العقل.

وهنا مباحث لفظية:

أولها: أن الهاء المكررة فى قوله تعالى: ﴿**هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ**﴾ هى هاء التنبيه، وتكرارها فى موضع واحد للدلالة على غرابة ما هم عليه ومجافاته لكل تفكير ولكل عقل، وكيف دلاهم التعصب فى هذا الانحراف الفكرى.

وثانيها: أن «هؤلاء» إشارة إلى النصارى واليهود الذين قالوا فى إبراهيم ما قالوا، وقد أنزلت التوراة والإنجيل من بعده، فهى تتضمن الأحوال الغريبة التى كانت منهم، وأنها أدت إلى شذوذ عقلى آخر.

ثالثها: أن الزمخشرى ذكر أن بعض العلماء قال هنا إن «هؤلاء» بمعنى «الذين» وإن هذا يفيد أن الذى أدى إلى ترديهم العقلى هو أنهم يتكلمون فيما يعلمون وفيما لا يعلمون.

﴿**وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ ختم الله سبحانه وتعالى ببيان علمه تعالى المؤكد، فقرر العلم المطلق له سبحانه، ونفى عنهم العلم فى هذا المقام، فالله سبحانه وتعالى هو الذى يعلم حال إبراهيم عليه السلام، ويعلم الحق فيما يتحاجون به بعلم وبغير علم، ويعلم مَن الذى يكون أهلا لرسالته أيكون من

العرب أم يكون من العجم؟ ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ... ﴿١٢٤﴾ ﴾ [الأنعام] وهو الذى يعلم بخفايا نفوسهم، والحقد الدفين فيها، والحسد للناس على ما آتاهم الله من فضله. وقد قرر سبحانه أنهم لا يعلمون، فقال: ﴿ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ فهم لا يعلمون حال إبراهيم عليه السلام ولا من هو أهل للرسالة؛ وليس من شأنهم أن يعلموا؛ لأن أحقادهم تحول بينهم وبين أن يدركوا الذى عليه من يخالفونهم، فإنه لا شيء كالحقد والحسد يحول بين المرء والإدراك السليم والعلم الصحيح.

اللهم وفقنا للحق، وهيئ لنا أسباب العلم به، والإذعان له؛ فإن الهداية منك وإليك، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له.

مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ
حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ
بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ
وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ
ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾
يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ
وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾

ذكر الله سبحانه وتعالى فى الآية السابقة ما يشير إلى أن كلتا الطائفتين من اليهود والنصارى كانت تدّعى أن دينها هو دين الله الخالص، وأنه دين النبيين جميعا، وأنه دين أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وأنهم ما غيروا وما بدّلوا؛ وكذلك كان يدّعى المشركون؛ لأنهم من سلالة إبراهيم عليه السلام، وحسبوا هذا

يسوغ لهم ذلك الإدعاء؛ وقد بين الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية أن إبراهيم عليه السلام برىء من هذه النِّحَل؛ لأنه نبى الوحدانية، هادم الأوثان، وحاطمها، والذى تعرض للأذى بالنار لجرأته الكبرى عليها وعلى عُبَّادها، وما نجاه إلا الله، كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء] ولقد قال سبحانه فى تقرير هذه البراءة من اليهودية والنصرانية والشرك:

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ وفى هذا النص القرآنى الكريم نفى لوصف اليهودية والنصرانية عن خليل الله تعالى، ومرمى النص هو براءته منهم، وفى نفى الوصف على ذلك النحو توكيد لهذه البراءة، وتثبيت لهذه النزاهة؛ إذ إن المؤدى أنه لو كانت اليهودية أو النصرانية على ما هما عليه تنتمى إلى إبراهيم عليه السلام لكان متصفا بهما، وهو قد نزهه ربه عن أن يتصف بما عليه اليهود من ضلال؛ فنفى وصف اليهودية عنه عليه السلام تضمن براءته منهم، وفيه التعريض بما فيهما من ضلال لا يليق أن يلصق بنبى من أنبياء الله، والتنويه بشأن إبراهيم من أن يكون فى مثل حمأة اليهود والنصارى الذين عاصروا النبى ﷺ.

وقد ذكر سبحانه على سبيل الاستدراك وصفه الحقيقى، ودينه الحق فقال تعالى: ﴿وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

فقد ذكر سبحانه فى وصفه الحقيقى ثلاثة أوصاف تتنافى كلها تمام التنافى مع ما عند اليهود والنصارى، وهذه الأوصاف هى أنه: حنيف، ومسلم، وما كان من المشركين.

والوصف الأول وهو حنيف معناه: الميل إلى الحق وطلبه، والاتجاه إليه، وتحريه والاستقامة فى الوصول إليه؛ ولقد قال الأصفهانى فى مفرداته: «الحَنفُ ميل عن الضلال إلى الاستقامة، والجنف ميل عن الاستقامة إلى الضلال. والحنيف هو المائل إلى ذلك، قال عز وجل: ﴿... قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ... ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل] وقال: ﴿حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ وجمعه حنفاء؛ قال عز وجل:

﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ ... ﴿٣١﴾﴾ [الحج]. وتحنف فلان أى تحرى طريق الاستقامة».

ووصفُه عليه السلام بأنه حنيف يطلب الحق مستقيما فى طلبه فيه بيان منافاة أخلاق اليهود والنصارى لأخلاقه وهديه، فهم لا يطلبون الحق لذات الحق، ولكن يطلبون هوى أنفسهم، فإن يكن الحق لهم يأتوا إليه مذعنين، وإن يكن الحق عليهم أعرضوا عنه وذلك لمرض قلوبهم.

والوصف الثانى من أوصاف إبراهيم خليل الله أنه مسلم، والإسلام هو الإخلاص لذات الله، والمحبة والانصراف إليه سبحانه وتعالى، حتى لا يعمر القلب بغير نوره، وهذا أيضا وصف مناف لما كان عليه اليهود والنَّصارى، فإلههم هواهم، ومحبتهم لأنفسهم لا لله، وإنما هى أعراض الدنيا أركست نفوسهم، وأغلقت دون نور الله قلوبهم.

والوصف الثالث: وصف سلبى، وهو أنه كان غير مشرك، وقد نفى الله سبحانه وتعالى عن خليله وصف الشرك بهذه الصيغة الجامعة فقال: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ولم يقل «وما كان مشركا» لأنها تتضمن نفى الإشراك كله وشوائبه عن إبراهيم عليه السلام؛ فإن المشركين أصناف وألوان؛ فمنهم من يعبد الأوثان، ومنهم من يجعل لله ابنا يعبد، ومنهم من يجعل الله ثالث ثلاثة، ومنهم من يتخذون أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله، ومنهم من يتخذون وساطة بين العبد والرب، وهكذا، فما كان إبراهيم من أى صنف من هذه الأصناف. وفى ذكر هذه الصيغة السامية فى نفى الشرك عن إبراهيم تعريض بين حالهم وما هم عليه من الشرك الظاهر، فكيف يدعون الانتساب لإبراهيم عليه السلام، وهم على ماهم من الشرك، إنما الذين يعدون أولى الناس هم من قال الله فيهم:

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى إن أشد الناس ولاية بإبراهيم وأجدرهم بالاتصال به، لَلَّذين اتبعوه، وهذا النبى والذين آمنوا بهذا النبى، فهم أصناف ثلاثة قد أكد سبحانه اتصالهم بإبراهيم بثلاثة

تأكيدات؛ أولها: «إن» وثانيها: أفعل التفضيل، وثالثها: اللام في قوله تعالى: ﴿لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾.

والذين اتبعوه موصول عام يشمل الذين اتبعوا هدايته في حياته، وأجابوا دعوته، ولم يخالفوه، والذين اتبعوه من بعد وفاته، وإنهم لكثيرون، وكان يمكن أن يكون من هؤلاء اليهودُ والنصارى، لو اتبعوا هديه فطلبوا الحق وأخلصوا لله في طلبه، وتجنبوا الشرك بكل ضروبه وبكل أشكاله، وفي هذا توبيخ لهم على أنهم لم يتبعوه، وادعوا الانتماء إليه. وقد ذكر النبي ﷺ بالنص عليه بالذات على أنه أولى الناس بإبراهيم عليه السلام، ولم يذكره في ضمن الذين اتبعوه؛ لأن النبي ﷺ تلقى الهداية من السماء كما تلقاها إبراهيم، ولأن محمدا ﷺ خاتم النبيين، ولأنه آخر دعامة في بناء صرح الرسالة الإلهية إلى أهل الأرض. وفي ذكر النبي ﷺ تمهيد لبيان أولوية الذين آمنوا به ﷺ وبسيدنا إبراهيم من اليهود والنصارى؛ لأنهم حنفاء طلبوا الحق و وتحرَّوْهُ وآمنوا به واهتدوا، وأخلصوا دينهم لله تعالى، وصار الله ورسوله أحب إليهم من أنفسهم. والذين آمنوا في الآية هم من آمنوا بمحمد ﷺ؛ ولقد قال النبي ﷺ: «لكل نبي ولاة من النبيين، وإن وليي منهم أبي وخليل ربي إبراهيم»(١).

وولاية إبراهيم للنبي ومن اتبعهما بإحسان إلى يوم الدين أساسها الإخلاص لله تعالى وتوحيده، فهي من ولاية الله؛ ولذا قال سبحانه:

﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أن الله سبحانه وتعالى جل جلاله، وعظمت قدرته، وتعالت حكمته، وتسامت عظمته، هو ولي المؤمنين وناصرهم، وهم أهل محبته ورضوانه؛ وذلك لأنهم لا يطلبون إلا رضاه، ولا يبتغون إلا محبته ورضوانه؛ فهم بإخلاصهم قد نالوا ولاء الله ومحبته؛ والله سبحانه وتعالى لا يوالي إلا من يؤمن للحق ويذعن له، ولا يطلب سواه.

---

(١) رواه أحمد: مسند المكثرين - مسند عبد الله بن مسعود (٣٦٠٩)، والترمذي: تفسير القرآن - ومن سورة آل عمران (٢٩٢١).

وفى هذه الجملة السامية إشارة إلى عدة معان عالية:

أولها: أن اتصال النبى ﷺ والذين اتبعوه، والذين اتبعوا إبراهيم بخليل الله؛ لأنهم اتصلوا بالله تعالى، والمؤمنون بعضهم لبعض ولى ونصير؛ لأنهم جميعا أولياء الله. فالمؤمنون برسالة إبراهيم والمؤمنون برسالة محمد كلهم أولياء، لأنهم جميعا أولياء الله تعالى، وفى ذلك يبين سبحانه لليهود وغيرهم الطريق الحق الذى يجعلهم أولى بإبراهيم كالنبى ومن اتبعه.

ثانيها: الإشارة إلى أن ولاية الله هى الغاية الكبرى التى يجب أن يطلبها كل مؤمن، وطريقها الإحسان فى كل شيء، وأساس الإحسان الإخلاص؛ ولذا يقول النبى ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1].

ثالثها: الإشارة إلى منزلة أهل الإيمان عند الله والوعد بنصرتهم مهما يتكاثف عددهم: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴿٤٠﴾ ﴾ [**الحج**].

﴿**وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ**﴾ إن اليهود والنصارى كانوا يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، كما قال تعالى: ﴿**وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا ...** ﴿١٠٩﴾ ﴾ [**البقرة**] فأولئك الكتابيون كانوا يشعرون أنهم فوق مستوى سائر العرب، فلما جاء النبى ﷺ بهديه فيهم ارتفع مستوى العرب فلم يذعنوا للحق الذى كان عليهم أن يؤمنوا له، بل تمردوا عليه، ولعظم المنزلة التى يعلمونها فيما جاء به محمد ﷺ كانوا يتمنون أن يضل المؤمنون، وأن يتركوا الحق؛ ولذا قال تعالى: ﴿**وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ**﴾ أى تمنت طائفة من أهل الكتاب ضلالكم، فلو هنا مصدرية تدل على التمنى، أى ودت هذه الطائفة ضلالكم ولم يكن ذلك منهم أمنية يتمنونها فقط، بل كانوا يقرنون القول بالعمل، فكانوا يلقون بالظنون والشكوك والأوهام حول الدعوة المحمدية ليرتاب الذين آمنوا، وكان منهم منافقون ينبثون بين المسلمين باسم أنهم مسلمون، ويلقون بالريب والتشكيك فى النبى ﷺ وما جاء به كما

---
(١) متفق عليه، وقد سبق تخريجه من رواية عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

يفعل اليوم أخلافهم من بعدهم؛ ولقد كان منهم من يجرؤ على الدعوة إلى اليهودية، حتى إنه ليروى أن يهود المدينة دعوا حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر إلى اليهودية، ولكن ضل سعيهم، وباءوا بالخسران المبين.

وإن الذى يعلم الحق، ويحاول أن يضلل غيره يزداد ضلالا ويعمى عن طريق الهداية، حتى ينتهى الأمر به إلى أن يجهل الذى كان يعلمه، وكذلك كان هؤلاء؛ ولذا قال سبحانه:

﴿**وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ**﴾ أى أنهم بسبب غوايتهم وعمايتهم واستيلاء الهوى على قلوبهم أخذوا يثيرون الشك على أهل اليقين، فما أثَّر الشك فى أهل الحق، ولكن تأثرت نفوسهم هم بهذا الشك الذى أثاروه ليضلوا غيرهم، فضلوا، فهم حاولوا إضلال المؤمنين، فأكد الله سبحانه أنهم ما أضلوا إلا أنفسهم، **وكان ضلالهم لأنفسهم من ناحيتين:**

إحداهما ما ذكرناها من أن إيرادهم للشك فى الأمر الذى كانوا يعلمون الحق فيه قد أوجد فيهم هم أنفسهم حيرة بعد أن كانوا يعلمون، ومثل هذا مثل الكذوب الذى يكذب ويكرر كذبته حتى يعتقد صدقها.

الناحية الثانية: أنهم كلما لجوا فى الدعوة إلى الباطل الذى استمسكوا به بعدوا عن الإذعان للحق، فبمقدار ما كانوا يثيرون حول الحق من أكاذيب كانوا يبتعدون من الإيمان والإذعان، فيزدادون ضلالا فوق ضلالهم؛ وتلك حال نفسية يقيمون فيها ولايشعرون بها.

﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ**﴾ وجه الله سبحانه وتعالى بهذه الآية النداء إلى أهل الكتاب يدعوهم إلى الإيمان مبينا لهم فى صيغة استفهام إنكارى توبيخى أن دواعى الإيمان قائمة، ودواعى الكفر غير ثابتة، ولذا يستفهم عنها، إنكارا وتوبيخا، وابتدأهم بهذا النداء الكريم، إذ قال: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ**﴾ وفى هذا النداء إشارة إلى أن ما أُعْطَوْه كان يقتضى أن يسارعوا إلى

الإيمان لا أن يكفروا، ثم وجه إليهم ذلك الاستفهام الإنكارى: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أى لقد كفرتم بآيات الله وبيناته الدالة على صدق الرسالة المحمدية وعندكم علم بها، وأنتم تعلمون صدقها، فالآيات هنا هى آيات نبوة محمد ﷺ، وهى القرآن الكريم، وما اشتمل عليه، والاستفهام لإنكار هذا الواقع الذى وقع منهم وهو الكفر مع قيام دلائله. ولقد أكد سبحانه وتعالى الاستنكار بقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أى وأنتم تعلمون صدق الرسول علما يقينيا كعلم المشاهدة والعيان، بما أخبر به فى كتابكم، أو: وأنتم تشهدون كل يوم الدلائل الصادقة التى تثبت الرسالة المحمدية. ، ولكن اليهود والنصارى الذين عاصروا النبى ﷺ ما كانوا يكتفون بالكفر، بل كانوا يحاولون أن يلبسوا الحق بالباطل، ليفسدوا الإيمان على أهله؛ ولذا قال سبحانه:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

صدَّر النداء هنا بـ «أهل الكتاب» زيادة فى التوبيخ، وكل توبيخ لهم يُعد قليلا مهما يتكاثر وتترادف عباراته، والاستفهام هنا إنكارى لإنكار ما وقع منهم؛ ذلك بأنهم لبسوا وخلطوا الحق بالباطل، وكتموا الحق الذى يشهد لمحمد ﷺ بالصدق وهم يعلمون به، فكان الاستفهام للتوبيخ على هذا الذى وقع منهم؛ **فقد وقع منهم أمران، وثبت فيهم أمر ثالث:**

أما الأمر الأول: فهو خلط الحق بالباطل، بأن حاولوا أن يزيفوا الحق، فألبسوه ثوب الباطل، وأظهروه بمظهره إمعانا منهم فى التضليل. وقد فسر الكثيرون كلمة «تلبسون» بمعنى تخلطون، وهى فى المؤدى كذلك، ولكن لابد أن يلاحظ معنى الستر واللباس فى الكلمة، ذلك بأنهم جاءوا إلى الحق المبين فألبسوه ثوب الباطل لِيُسْتَبْهَم؛ ولقد قال فى هذا المعنى الأصفهانى: أصل اللبس ستر الشىء، ويقال ذلك فى المعانى، يقال لبست عليه أمره، قال: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام]، وقال: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ . . . ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران].

الأمر الثانى: كتمان الحق الذى عندهم فهم يسترون الحق الذى يقدمه النبى ﷺ بلباس الباطل الذى يخترعونه، ويكتمون الذى عندهم، ويشهد بصدق النبى ﷺ، وهذا أقصى ما يمكن أن يصل إليه الكفر بالحق، يكون عند الكافر دليل الحق، ومع ذلك ينكر الدليل الذى يقدمه صاحب الحق، ويحاول أن يزيفه بالباطل. وكل ذلك وهم يعلمون الحق فى ذاته، ولكنهم أضلهم الله على علم.

اللهم اكتبنا فيمن هديتهم، وامنحنا التوفيق؛ وأنقذنا من الضلال، ووفقنا لإدراك الحق، والإذعان له، والإيمان به، إنك سميع الدعاء.

وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟
بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ
ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ
عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ
عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ
ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

بّين الله سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة أن أهل الكتاب يودون أن يضل المؤمنون، ويعملون على إضلالهم، وكلما أمعنوا فى هذا الطريق ازدادوا ضلالا، وما ازداد المؤمنون إلا إيمانا، وإن وجدوا فى ضعاف الإيمان ما يشبع نهمتهم وقتيا فإنهم سرعان ما يقوى إيمانهم بالحق، ويرتد أولئك المضلون فى طغيانهم يعمهون.

وفى هذه الآيات يبين سبحانه طريق طائفة منهم فى إضلال المؤمنين، وإثارة الشك فى قلوب ضعاف المؤمنين، وهى أن يظهروا الإيمان والإذعان والاطمئنان

إلى الحقائق الإسلامية، ليظن فيهم الظن الحسن من لم يعرف مكرهم وكيدهم، حتى إذا اطمأن الناس إليهم أعلنوا كفرهم، بعد مظهر الإيمان ليوهموا المؤمنين أنهم كانوا مخلصين فى إيمانهم طالبين الحق بهذا الإيمان، فلما تبين لهم البطلان خرجوا، فقد يخرج بهذا الخروج ضعاف الإيمان، ويلقون بذلك بين المسلمين شكا عمليا. وقد حكى الله سبحانه وتعالى عمل هذه الطائفة الماكرة الخبيثة فقال عز من قائل:

﴿ **وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ** ﴾ أخرج ابن جرير الطبرى عن قتادة التابعى أنه قال: «قال بعض أهل الكتاب لبعض: أعطوهم الرضا بدينهم أول النهار، واكفروا آخره، فإنه أجدر أن يصدقوكم، ويعلموا أنكم قد رأيتم فيه ما تكرهونه، وهو أجدر أن يرجعوا عن دينهم». وأخرج ابن جرير أيضا عن السُّدى أنه قال: «قالوا لبعضهم: ادخلوا فى دين محمد أول النهار، وقولوا: نشهد أن محمدا صادق، فإذا كان آخر النهار فاكفروا وقولوا: إنا رجعنا إلى علمائنا وأحبارنا، فسألناهم فحدثونا أن محمدا كاذب، وأنتم لستم على شيء، وقد رجعنا إلى ديننا، فهو أعجب إلينا من دينكم لعلهم يشكُّون، فيقولون هؤلاء كانوا معنا أول النهار فما بالهم؛ فأخبر الله سبحانه وتعالى رسوله بذلك وروى أنهم نفذوا قولهم عملا» والروايات فى هذا كثيرة، وكلها متلاقية فى المعنى غير متنافرة.

وخلاصتها: أن أولئك المضللين الذين أكل الحسد قلوبهم دعا بعضهم أن يظهروا الإسلام ليبدوا طلاب حقيقة، فإن رجعوا استطاعوا أن يجتذبوا معهم بعض ضعفاء الإيمان.

والمراد بوجه النهار ما يقابل آخره، وهو أول النهار، وعبر عنه بالوجه؛ لأن أول النهار هو وقت إقباله، والوجه هو مظهر الإقبال، والوجه أيضا كناية عن الظهور، وأول النهار هو وقت الظهور ووقت الوضوح، بعكس آخره.

وهل معنى الاتفاق الذى اتفقوا عليه هو أن يبدءوا فى الضحى فيسلموا ثم يكفروا فى المساء؟ ظاهر اللفظ ذلك، ولكن يبدو للمتأمل البصير أنهم يريدون أن يسلموا حينا من الزمان حتى تتم الثقة بهم والاطمئنان إليهم، ثم يكفروا من بعد ذلك، على ألا يستغرق إظهارهم الإسلام إلا أمدا يستطيعون فيه جلب الثقة إليهم؛ ويكون حينئذ التعبير كله من قبيل الاستعارة التمثيلية، سيقت لتصور حالهم التى اتفقوا عليها، وهى أنهم يظهرون الإيمان ثم يكفرون بعد أمد قصير. فالاستعارة لتصوير سرعة الرجوع وإظهار الكفر، وتأكد التعاقب بين إظهار الكفر وإظهار الإسلام، كما يتعاقب ظهور آخره بعد أوله. وقد حكى الله سبحانه وتعالى عنهم مقصدهم ومكرهم السيئ بقوله تعالت كلماته:

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فهذا التعبير يفيد بيان مقصدهم وهو رجاء أن يرجع بعض المؤمنين إلى الكفر بعد الإيمان، ولكنهم عبروا عن البعض باسم الكل، فإنه لا يمكن أن يرجعوا جميعا، بل الذى يرجى رجوعه من المسلمين هو الضعيف غير القوى فى دينه، غير المطمئن فى يقينه، ولكن كفر هذا الفريق بعد إيمان يحدث اضطرابا فى جماعة المسلمين، فيكون التظنن فيهم، وحيث جرى الشك فى الجماعة كان وراءه التفرق وفقد الثقة، وكان وراءهما الفشل الذريع، وإنهم من بعد ذلك يطمعون أن تعود الجزيرة العربية إلى الشرك بعد هذا الإيمان الذى هددهم فى كيانهم؛ وكذلك سولت لهم نفوسهم، فإن الذى يركب رأسَه الشيطانُ توسوس له نفسه بالشر، ويتسع أفق تصوره حتى يتمنى الأمانى البعيدة القاصية كأنها قريبة دانية.

وإن تلك الطريقة التى سلكوها من أقوى ما تفتق عنه التدبير الإبليسى؛ فإن إظهار الكفر بعد إظهار الإيمان مع التذرع بتلبيسات مضللة من شأنه أن يدخل الشك فى ضعفاء الإيمان، وقد يكون معه الجهر بما يثير الريب حتى فى أقوى الحقائق صدقا وأجدرها باليقين؛ ولذلك كانت عقوبة الردة التى ثبتت بقوله ﷺ:

«من بدّل دينه فاقتلوه»[١]. هى القتل؛ وذلك لقطع السبيل على الذين يدخلون فى الإسلام ظاهرا، وهم يريدون إثارة الشك حول حقائقه، وليس فى ذلك منافاة للحرية الدينية التى قررها الإسلام فى قوله تعالى: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ... ﴿٢٥٦﴾﴾ [**البقرة**] ولقد كان أولئك الذين أخذوا بذلك الطريق الخبيث لإفساد العقائد يظهرون فى عصور الإسلام الوقت بعد الآخر، وهم الزنادقة، فهم كانوا فى باطنهم كفارا يستترون بستار الإسلام ليفسدوا الأمر على أهل الإسلام، ويشككوا الناس فى عقائدهم.

وإن الفقهاء كانوا يحذرون الناس من سمومهم التى ينفثونها، وقرر جمهورهم أن كل مرتد يستتاب إلا من عرف بالزندقة، فإنه يتخذ التوبة ستارا ليستطيع بها الكيد للإسلام وأهله، فيرد عليه كيده فى نحره، وإن ظهر منه الكفر الذى يحاول ستره يؤخذ بالنواصى والأقدام.

وإن أهل الكتاب ليبالغون فى التدبير للاحتياط من أن يذهب منهم إلى المسلمين من يؤمنون بالإسلام، فهم يحاولون من جهة بث الشك فى الإسلام بين أهله، ومن جهة أخرى يعملون على الاحتياط من أن يدخل أحد منهم فى الإسلام، ولذلك يثيرون العصبية الدينية فيما بينهم، ويتداعون ألا يذعن أحد منهم لغير طائفته؛ ولذلك يقولون: ﴿**وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ**﴾:

أى لا تذعنوا مصدقين مقرين بالحق إلا لمن تبع دينكم، أى لا تنطقوا بالحق الذى تعلمونه مذعنين له إلا لمن تبع دينكم؛ وذلك لأنهم يعرفون محمدا كما يعرفون أبناءهم، وبين أيديهم الأدلة الصادقة الناطقة بصحة دعوته؛ فهم يعرفون ذلك ويتذاكرونه فيما بينهم، ولكنهم يتناهون عن أن يقولوه لغيرهم.

---

(١) رواه البخاري: الجهاد والسير - لا يعذب بعذاب الله (٢٧٩٤)، والترمذي: الحدود - ما جاء في المرتد (١٣٧٨)، والنسائي: تحريم الدم - الحكم في المرتد (٣٩٩١)، وأبو داود: الحدود - سنن من ارتد (٣٧٨٧)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله تعالى: ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ فيها قراءتان، إحداهما: بهمزة واحدة، والأخرى بهمزتين إحداهما سهلة، والثانية قراءة ابن كثير[1]، وإحدى الهمزتين على هذه القراءة تكون للاستفهام الإنكارى.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾ يحتمل أن تكون معترضة، ويكون قوله تعالى: ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ ..﴾ متصلا بقوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا﴾ ويحتمل أن تكون غير معترضة، وتكون متصلة بما بعدها.

وعلى الاحتمال الأول مع قراءة الهمزة الواحدة يكون تخريج القول هكذا: ولا تصدقوا مذعنين ومقرين إلا لمن تبع دينكم كراهة أن يُؤتى أحد بمثل ما أوتيتم من كتاب منزل من السماء ومنزلة دينية بين الناس، وكراهة أن يحاجوكم بسبب ذلك الإذعان وذلك الأمر من عند ربكم، وقد اعترض سبحانه وتعالى بين قولهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾ أى إن هداية الله تعالى ملك له وحده يعطيها لمن يشاء، فليست حِكْرا لأحد، ولا أمرا مقصورا على أحد، بل يعطيها من يشاء. وسبب ذلك الاعتراض هو المسارعة ببيان بطلان زعمهم من أنهم ذوو المنزلة الدينية وحدهم، ولبيان أن المنزلة منشؤها الهداية، والهداية طريقها وحدها فلهم أن يتبعوها، ولبيان أنهم بذلك التفاهم على الشر والتواصى على الباطل قد خرجوا عن نطاق الهداية فحقت لغيرهم. وعلى قراءة الهمزتين لا يتغير المؤدى، ويكون تقرير القول هكذا: ولا تذعنوا مصدقين إلا لمن تبع دينكم، أتقرون بذلك لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم.

هذا هو تخريج الآية الكريمة على احتمال أن قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾ جملة معترضة بين متلازمين، أما تخريجها على احتمال أنها متصلة بما يليها فهو هكذا: لا تذعنوا مصدقين إلا لمن تبع دينكم، بذلك ينتهى قولهم، فيرد

---

(١) قرأ ابن كثير المكي بهمزتين على الاستفهام، الثانية منهما مسهلة، وقرأ الباقون بهمزة واحدة على الخبر [النشر في القراءات العشر ج١ ص ٣٦٥، ٣٦٦ - غاية الاختصار في قراءات أئمة الأمصار، ج٢/ ٤٥٠].

الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾ ثم يبين سبحانه وتعالى أن هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم بأن ينزل بينهم وحى السماء كما نزل بينكم، أو يحاجوكم به عند ربكم، و «أو» هنا تكون بمعنى الواو. وعلى قراءة الاستفهام يكون المعنى: أتنكرون أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم.

ذانك الاحتمالان؛ وإنى أميل إلى الاحتمال الأول، وأن تكون الجملة السامية ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾ معترضة، وأن قوله : ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ من قولهم، وذلك ليستقيم أمر الله بعد ذلك لنبيه بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ فإنه لا يتضح معناه إلا إذا كان عقب قولهم، ليكون معنى جديد للأمر الثانى بعد الأمر الأول؛ إذ لو كان قوله: ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ﴾ من كلام الله تعالى المأمور به ما اتضح لنا معنى الأمر الثانى: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ إلا إذا كان لتكرار هدايته وفضله، والتأسيس أولى من التأكيد.

لقد بين سبحانه بعد ذلك أن الهداية هى فضل من الله تعالى يتفضل به على من يشاء من عباده؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾:

فهداية الله تعالى، والنبوة والرسالة التى تنبعث منها هداية المؤمنين الذين يذعنون للحق؛ ذلك كله فضل من الله تعالى لعباده، فليس حقا عليه لهم، بل هو منه تكرم وعطاء، والمتفضل المتكرم ليس بملزم بالعطاء لأحد، فإن كان قد جعل الرسالة حينا فى بنى إسرائيل فبفضل منه وبرحمة، وليس ذلك بملزم له، ولا بمسوغ لهم بأن يمنعوها عن غيرهم، ويستنكروا أن تكون فى قوم أميين؛ وعليهم أن يذعنوا للحق أينما كان، ومن أى جهة كان النداء به، فالله أعلم حيث يجعل رسالته؛ وليس فوق إرادة الله سبحانه وتعالى إرادة، وليس من حق طائفة من الناس أن تقول نحن أبناء الله وأحباؤه.

ثم بين سبحانه وتعالى سعة فضله وجليل حكمته، وإحاطة علمه، فقال عز من قائل:

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أى أن رحمة الله تعالى واسعة، وفضله عظيم، لا يكون لقبيل دون قبيل، وإن تعدد من يؤتون فضلا لا يغض من قدر الفضل عند غيرهم، فالذين يريدون أن يحتكروا الهداية، أو يحتكروا بينهم وفى أوساطهم رسالة الله إلى أهل الأرض، إنما يُضيِّقون واسعا، ويحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله من غير أن يعود عليهم من هذا الحسد شىء. ووصف سبحانه وتعالى ذاته بأنه واسع مع أن الظاهر سعة فضله؛ لبيان أن شمول فضله شأن من شئونه سبحانه، يظهر آثاره فى خلقه، فما من شىء فى هذا الوجود إلا وهو بفضله سبحانه وتعالى.

وقد اقترن وصف السعة هنا بوصف العلم، للإشارة إلى أن فضله تعالى هو على مقتضى علمه، فهو يعطى من يشاء بمقتضى فضله وعلمه، فما من شىء يكون من الله تعالى لعباده إلا بميزان، وكل شىء عند ربك بمقدار؛ وإنه بمقتضى هذا يختص هذا برحمته، ويختص آخر بنوع آخر؛ ولذا قال سبحانه وتعالى:

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ اختص تستعمل لازمة ومتعدية، فيقال اختصه الله بفضله، ويقال اختص بفضل الله، والله سبحانه وتعالى بمقتضى علمه وحكمته يختص برحمة معينة من رحماته خلقا من خلقه، فقد يقول قائل إن كل من فى الوجود فى رحمة الله تعالى، ما من أحد من خلق الله تعالى إلا ناله نصيب من رحمة الله، ومنهم من يشكر، ومنهم من يكفر، فَلِمَ عبر سبحانه وتعالى بهذا الاختصاص، ولا عام أعم من رحمة الله، ولا عموم إلا فى فضل الله تعالى؟.

والجواب عن ذلك أن الرحمة التى يختص الله تعالى بعض عباده بها هى الرحمة النوعية، فيختص سبحانه هذا بالعلم، وذلك بالمال، وهذا بالجاه، وذلك

بالراحة، وهذا الفريق بالرسالة والهداية، وذلك الفريق بالغلب والسلطان؛ و«كل ميسر لما خُلق له»(١).

فإذا كان بنو إسرائيل وأشباههم قد نَفِسُوا على بنى إسماعيل(٢) أن تكون فيهم النبوة الكبرى التى تختتم بها رسالة السماء إلى الأرض، فذلك مما اختص به سبحانه وتعالى بعض عباده بالرحمة، وليس لأحد أن يعترض على فعل الله، فإن فضله على من اختصه عميم؛ وفضله أيضا على من لم يمنحه هذا النوع من الرحمة عظيم؛ ولذا ختم سبحانه الآية الكريمة بقوله: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ فلا عظمة تساوى عظمة فضل الله تعالى على خلقه، فالاختصاص النوعى لبعض الرحمات لا يعارضه عموم الفضل على خلقه، ولا عظمة هذا الفضل.

اللهم مُنَّ علينا بتوفيقك لنعرف فضل نعمتك، ونشكرك ولا نكفرك، وتب علينا، إنك أنت التواب الرحيم.

وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

(١) رواه البخاري: التوحيد - قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ (٦٩٩٦)، ومسلم: القدر - كيفية خلق الآدمي في بطن أمه (٤٧٨٩).
(٢) أى ضنوا عليهم. الصحاح.

بين الله سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة استهانة بعض أهل الكتاب الذين عاصروا النبى ﷺ بالحق وتلبيسهم الحق بالباطل، وكذبهم وافتراءهم على النبيين وعلى رأسهم أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، ثم بين تعصبهم، وحرصهم على أن يظهروا بين الناس بأن الهداية فى حوزتهم وحدهم، وأن الناس ما عداهم دونهم، ثم ذكر ما يتواَصَوْن به فيما بينهم من النفاق بأن يؤمنوا أول النهار ويكفروا آخره، لعلهم يفسدون بذلك عقائد المؤمنين؛ وهكذا مما يدل على فساد اعتقادهم وعدم إذعانهم للحق، وكذبهم فيما يدَّعون.

والكذب والخيانة توْأم، كما أن الصدق والأمانة توْأم، وفساد النفس يترتب عليه فساد العمل، وعدم الإذعان للحق فى الاعتقاد يترتب عليه عدم الإذعان للحق فى المادة، فإذا كان بعض أهل الكتاب قد كان منهم ذلك النفاق الدينى، فإنهم قد بدت منهم الخيانة المادية، ولذا قال سبحانه:

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ﴾ قسمان متقابلان أحدهما يبلغ الغاية من الأمانة، فيعطيها عند طلبها مهما تكن قيمتها؛ ومهما تكن نفاستها، وعبر عن الكثرة بالقنطار من الذهب، ولم يذكر كونه من الذهب؛ لأنه مفهوم من السياق؛ لأن الدينار لا يكون إلا من الذهب، فلا بد أن يكون القنطار الذى يكون فى يد الأمين من الذهب، وهذا القسم الذى يكون على هذا القدر من الأمانة هو الذى يجيب داعى الحق ويؤمن به إذا دُعِى إليه؛ لأن التسليم بالحق فى الماديات التى تصورها الأمانة لا ينشأ إلا من ينبوع النفس التى تؤمن بالحق فى المعنويات؛ بل إن هذا فى الحق ينتهى إلى معنى الأمانة؛ لأن نصر الحق والإذعان له بعد قيام الدليل عليه نوع من الأمانة، إذ إن الله سبحانه أودعنا هذه القوى المدركة لنجعلها للحق وللنفع، فذو العلم عليه أن يؤدى أمانة العلم، وذو المال عليه أن يؤدى أمانة المال، ومن قام بين يديه الدليل على صدق دعوة إلى الحق لا يكابر ولا يمارى، وكانت الأمانة أن يعلن تلك الحقيقة ويناصرها ويؤيدها، ولذلك قال كثيرون من العلماء: إن الأمانة

التى حملها الله للإنسان بمقتضى الفطرة هى إدراكه لمعنى التكليفات الإنسانية والإلهية وقيامه بحقها، وقد قال تعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢)**﴾ [**الأحزاب**].

هذا هو القسم الأول، وقد قال العلماء إنهم أهل الكتاب الذين آمنوا برسالة محمد ﷺ، كعبد الله بن سلام، وغيره من اليهود الذين سارعوا إلى الإسلام، وكذلك الشأن فى كل كتابى علم الحق فى رسالة النبى ﷺ، وأذعن له؛ لأنه يكون ممن يؤدى الأمانة.

والقسم الثانى هو الذى لا يؤدى الأمانة، وهو فى مقابل الأول؛ لأن الأول فى السماك الأعزل، وهذا فى الحضيض الأوهد. وصور الله سبحانه الفرق بينهما ذلك التصوير الحكيم البين الواضح بأن الأول لو ائتمن على قنطار من ذهب لأداه، والثانى إن ائتمن على دينار لا يؤده إلا بالملازمة الدائمة، والتتبع والإلحاف الشديد، وعبر الله سبحانه وتعالى عن هذه الملازمة بقوله تعالى: ﴿**إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا**﴾ أى إلا إذا استمررت مطالبا له مصمما على أن يؤدى مشرفا عليه فى غدوه ورواحه. ودام معناها استمر، وقائما معناها ملازما متتبعا؛ ذلك لأن قام فى استعمال القرآن الكريم لها تكون كما قال الراغب فى مفرداته: «على أضرُب، قيام بالشخص إما بتسخير أو اختيار، وقيام للشئ وهو المراعاة للشىء، والحفظ له، وقيام هو بمعنى العزم على الشىء .. ومن المراعاة للشىء قوله تعالى: ﴿**كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ... (٨)**﴾ [**المائدة**] وقوله تعالى: ﴿**قَائِمًا بِالْقِسْطِ ... (١٨)**﴾ [**آل عمران**] وقوله تعالى: ﴿**أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ... (٣٣)**﴾ [**الرعد**] وقوله تعالى: ﴿**لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ... (١١٣)**﴾ [**آل عمران**] وقوله تعالى: ﴿**إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا**﴾ أى ثابتا على طلبه.

وإن هؤلاء الذين لا يؤدون الأمانة المادية إلا بهذه المطالبة الدائمة، والملازمة المستمرة - هم الذين لا يتركون التضليل كما أشرنا، فلا يأمن أهل الحق شرهم إلا برقابة مستمرة لمنع تضليلهم، وفتنة الناس عن دينهم، ثم هم يخونون العهود، وطالما خانوا النبى ﷺ فى حروبه مع المشركين، حتى اضطر لإجلائهم عن المدينة وما حولها.

وإن هؤلاء يبررون خيانتهم للأمانة المادية بقولهم كما حكى الله سبحانه وتعالى عنهم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾.

أى ذلك الامتناع عن وفاء الحق، وأداء الأمانة والإذعان لبواعث الهداية الذى هو أداء الأمانة المعنوية سببه زعمهم الذى قالوه، ونطقوا به وهو أنهم ليس عليهم سبيل أى تبعة أو ملام أو عتاب فى شأن الأميين وأموالهم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ فالأميون هم العرب، وسُموا أمِّيين؛ لأنهم لم يكن عندهم علم ولا حضارة، وكانت تغلب عليهم الأمية، وهى الجهل بالكتابة والقراءة، فكان هذا الاسم لهم لغلبة الأمية عليهم؛ ومعنى سبيل حجة ملزمة؛ لأن السبيل هو الطريق، وهو يطلق بمعنى الحجة باعتبارها طريق الإلزام وتحمل التبعات، وقد قال الزمخشرى فى تفسير هذه الجملة السامية ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ أى لا يتطرق علينا عتاب وذم فى شأن الأمِّيين، يعنون الذين ليسوا من أهل الكتاب، وما فعلنا بهم ما فعلنا من حبس أموالهم والإضرار بهم؛ إلا لأنهم ليسوا على ديننا، وكانوا يستحلون ظلم من خالفهم، ويقولون لم يجعل لهم فى كتابنا حرمة، وقيل: «بايع اليهود رجالا من قريش، فلما أسلموا تقاضوهم قالوا ليس لكم علينا حق، حيث تركتم دينكم».

وإن هذه أخلاق الذين يظنون فى أنفسهم العلو المطلق، ويستخدمون ذلك الظن الباطل، لأكل أموال الناس بالحق، وليفسدوا فى الأرض وهو ما عليه أهل أوروبا؛ يقومون بالحق فى بلادهم، ويثبتون دعائمه فى عشائرهم لا يضيع عندهم

حق؛ فإذا تجاوز الحق أقطارهم أنكروه، ولم يذعنوا له؛ وتقوّلوا الأقاويل وادّعوا أنه ليس للأمم المتخلفة فى الحضارة حق كحق غيرها، وأنه ليس للملونين حق كحق غيرهم.

وإن هذا مبدأ اليهود، وهم مغرقون فيه، فقد كانت التوراة تحرم الربا تحريما مطلقا، وكان النص فيه: لا تأخذ ربا من أخيك إذا أقرضته، فزادوا كلمة أخيك الإسرائيلى لأنهم لا يشعرون بالأخوة الإنسانية فى ذاتها.

وإن المبادئ الخلقية الفاضلة لا تعرف جنسا ولا لونا ولا ثقافة؛ ولذا قال تعالى ردا عليهم مبينا كذبهم.

﴿يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فى هذه الجملة السامية رد عليهم بأن ما قالوه من أنه ليس عليهم فى الأُمِّيين سبيل كلام لا أصل له فى شرع سماوى فهو ليس دينا، وإذا كانوا قد قالوه على الله تعالى فقد كذبوا على الله تعالى، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى ذلك فى قضية عامة تدل على أن من شأنهم أن يقولوا الكذب على الله تعالى، وهم يعلمون أنه كذب فقد كذبوا فادّعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وكذبوا فادعوا أن إبراهيم كان يهوديا، وكذبوا فادّعوا أنه لا نبى إلا من بنى إسرائيل، فكان الكذب على الله تعالى شأنا من شئونهم، ولذلك عبر بالمضارع، أى أن شأنهم أن يقولوا الكذب على الله، قالوه فى الماضى، ويقولونه فى الحاضر، وسيقولونه فى المستقبل، وذلك شأن الذين يحتكرون لأنفسهم حق التكلم فى الدين، ويحسبون غيرهم ليس من حقهم أن يتكلموا فيه.

وإن الأمانة كانت توجب عليهم ألا يقولوا إلا الحق، ولكنهم خانوها فى الماديات، وما ذلك إلا لأنهم فقدوها فى المعنويات، فكان هذا هو أساس ذلك الضلال البعيد، ولقد روى سعيد بن جبير أن النبى ﷺ قال فى أهل الكتاب عندما نزل قوله تعالى عنهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾: قال عليه الصلاة والسلام:

«كذب أعداء الله، ما من شيء فى الجاهلية، إلا وهو تحت قدمى هاتين إلا الأمانة، فإنها مؤداة إلى البر والفاجر»(١).

ويروى أن رجلا سأل ابن عباس، فقال: «إنا نصيب فى الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة، والشاة، فقال ابن عباس: فتقولون ماذا؟ قال نقول: ليس علينا بذلك بأس. فقال حبر هذه الأمة: هذا كما قال أهل الكتاب: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾. إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم».

وإن الحق الثابت المقرر أن الفضائل الدينية هى حق على المؤمن لكل إنسان، ويأثم إن لم يؤدها لكل إنسان، ولذا قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

هذا تأكيد لبيان كذبهم على الله تعالى، وبَلَىَ هنا معناها إثبات ما نفوه؛ لأنها تجىء فى القول لإثبات المنفى؛ لقد نفوا أنه ليس عليهم فى الأمِّيين سبيل، فقال سبحانه بل عليكم فيهم سبيل، وأنتم معذبون بما تجرمون فى شأنهم، ومثابون إن أوفيتم لهم بعهدهم وآمنتم، وقد علل سبحانه ذلك الحكم العادل بقضية دينية عامة ثابتة، وهى قوله سبحانه: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

وإن معنى هذا النص السامى أن الذى ينال محبة الله تعالى ورضاه سبحانه، لابد أن يتحقق فيه وصفان:

أولهما الوفاء بالعهد، فكل ما يلتزمه من عهود، سواء أكان موضوعها أمرا ماديا كأداء الأمانات أم كان الموضوع أمرا معنويا كالقيام بحق من الحقوق - الوفاء به يستوجب رضا الله سبحانه، وكل غدر يكون فيه إبعاد عن رضوان الله سبحانه ومحبته.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم، ورواه ابن جرير الطبري في تفسيره وقال: حدثني ابن حميد، وراجع الدر المنثور للسيوطي ج٢، ص٥١.

ويدخل فى العهود ما أودعه الله سبحانه قلب كل إنسان من إدراك للحق، وفهم له وإدراك لمعنى الدليل، فإذا لم يذعن له ويعلنه لا يكون موفيا للعهد.

الوصف الثانى المستوجب لرضا الله ومحبته - هو التقوى بأن يشعر بحق الغير عليه ويؤمن به، ويجعل بينه وبين الاعتداء أيا كان نوعه وقاية.

هذان هما الوصفان اللذان يستوجبان محبة الله تعالى، وقد خلا اليهود منهما، فليسوا من محبة الله فى شيء، وإن هذين الوصفين متداخلان فالوفاء بالعهد داخل فى التقوى، ولذلك قال سبحانه فى جزاء الوصفين معا: ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ**﴾ أى من أوفى بعهده واتقى فقد استحق محبة الله، لأن محبة الله تعالى لا يعطيها إلا لأهل التقوى الذين يجعلون بينهم وبين غضب الله تعالى وقاية، فيوفون بالعهد ويعطون كل ذى حق حقه، ويخشون مقت الله وعذابه، وأن الذى يسهل عدم الوفاء بالعهد أعراض الدنيا، وهى ثمن لا يساوى شيئا فى جانب عدم رضا الله تعالى؛ ولذا قال سبحانه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ**﴾:

أى إن الذين يتركون عهد الله تعالى فى مقابل عرض من أعراض الدنيا يستبدلون ثمنا قليلا بأمر جليل إذ إن من يترك عهد الله الذى عاهد الناس عليه ويمين الله التى وثق بها ذلك العهد يفقد ثقة الناس، ومن فقد ثقة الناس لا يأمنونه، وتلك خسارة كبيرة، وإذا فقد المجتمع الثقة بين آحاده صار كل واحد ينظر إلى الآخر كما ينظر الوحش إلى فريسته، فيذهب الاطمئنان، فتكون الجماعة كقطيع من الذئاب.

وعهد الله تعالى يشتمل معنيين: أحدهما ما التزمه بمقتضى فطرته والتكاليف الدينية والمدارك العقلية من أداء الحقوق والواجبات ومراعاة الأمانات، والثانى ما يعطيه هو من عهود يذكر فيها اسم الله تعالى، ويوثقه بيمين الله تعالى أو لا يوثقه. وإن ترك هذه العهود له أثر فى الدنيا وفى الآخرة، أما فى الدنيا فالنبذ والطرد. وأما أثره فى الآخرة، فذكر سبحانه بعضه بقوله: ﴿**أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ**

﴿فِي الآخِرَةِ﴾ أى أولئك الذين ينكثون بالعهود ولا يحترمون يمين الله لا نصيب لهم فى الآخرة من ثواب؛ ولكن مغبتهم حساب وعقاب، فخسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

﴿وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا ينظرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ أربعة أنواع من الجزاء تنالهم أولها: أن الله لا يكلمهم، وهذا كناية عن عدم محبته، لأن المحب مقبل على حبيبه، متحدث إليه، ومن فقد محبة الله فقد فقد معنى الوجود، وثانيها: أنه لا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يرعاهم؛ لأنهم إذا فقدوا النظر إليهم منه سبحانه فقدوا كلاءته وحمايته، فعدم النظر كناية عن أنه لا يحميهم من العقاب، ولا ينزل بهم نعيما، والنوع الثالث: أنه لا يزكيهم، وذلك كناية عن عدم رضاه سبحانه؛ لأن من يرضى عن شخص يزكيه ويطريه ويثنى عليه. والجزاء الرابع الذى هو نتيجة ما سبق من بغض الله، وسخطه، ومنع حمايته هو أن لهم عذابا مؤلما:

اللهم قنا عذاب النار، وامنحنا رضاك واعف عنا واغفر لنا وارحمنا، وأنت خير الراحمين.

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ
مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ
مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن
دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ
وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ
وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

بين الله سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة كذب اليهود والنصارى الذين عاصروا النبى ﷺ والذين سبقوه، ومن جاء بعد هؤلاء وأولئك؛ كيف كانوا يكذبون فى الوقائع البدهية، فَيدَّعون أن إبراهيم أبا الأنبياء كان يهوديا أو نصرانيا وكيف كان اليهود وغيرهم يدعون أن هداية الله حكر احتكروه، وهى فى حِرْزهم لا تخرج عنهم إلى غيرهم، وقد اندفعوا إلى النفاق بإظهار الإيمان وإبطان الكفر، ثم اندفعوا إلى خيانة الأمانات المادية، وأكل أموال الناس باسم أنهم الصنف الممتاز فى هذه الأرض الذى يباح له كل شىء. وفى هذه الآيات التى نتكلم الآن فى معانيها السامية قد أعظموا فى البطلان كما يحكى رب العالمين، فكذبوا على الله تعالى، وهذا الكذب هو أصل الداء، وأبعد غايات الافتراء، كذبوا على الله فحرفوا الكتاب، وقرءوا أهواءهم على أنها من عند الله، وما هى من عند الله، وعلى أنها من الكتاب وما هى من الكتاب ولذا قال تعالى:

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ هذا من عدل القرآن الكريم فى حكمه على الطوائف والجماعة، لا يعمِّم الحكم على الجماعة كلها، ولكن يخص بالذكر الذين ارتكبوا ابتداءً كِبْرَ الشر، وإن عم ضلالُهم من بعدُ الطائفة كلها، ولهذا نسب التحريف ابتداء إلى طائفة منهم، وإن كان الضلال شاملا.

ولَىُّ اللسان معناه، فتْلُه عند النطق لتوجيه الكلام نحو معنى لا يقصد من ظاهر اللفظ؛ وهذا يشمل معانى كثيرة؛ فيشمل إخفاء بعض الحروف عند النطق بكلمة، فيتغير المعنى؛ كمن يقول: (السلام عليكم) فيخفى (اللام) فتصير الكلمة «السام عليكم» ويكون المعنى مناقضا للمعنى الأصلى، إذ السلام هو: الأمن، والسام هو : الموت، والأول دعاء له، والثانى دعاء عليه؛ ومن اللَّى، أن يغير لفظا بلفظ آخر، ويومئ اللفظ الثانى إلى معنى غير المقصود من الأول، ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن بعض أهل الكتاب: **﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ**

وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ ... ﴿٤٦﴾ [النساء] فكان لَيُّ اللسان أن استعملوا كلمة (راعنا) بدل كلمة (انظرنا) وكلمة راعنا - في لغة السريان والعبرانيين - للسب، فهم باختيارها يشيرون إلى معنى السب في هاتين اللغتين، وبذلك يطعنون في الدين، ويسبون النبي ﷺ، ومن لىِّ اللسان، أن تقرأ عبارات في الكتاب بنغمته، وهي ليست منه. ومِنَ اللَّيِّ المعنوي، تحريف المعاني بتوجيهها إلى غير المراد منها.

وبهذه الأنواع الأربعة كان بعض اليهود والنصارى يلوُون ألسنتهم بالكتاب أي عند قراءته و«الباء» في قوله تعالى: بـ ﴿الْكِتَابِ﴾؛ بمعنى «في» فهم ينظرون إلى الصحائف التي تحوي التوراة، ويقرءون غير ما فيها بليِّ ألسنتهم إما بحذف حروف يغير المعنى حذفها، أو بتغيير كلماتها، أو بقراءة كلام غيرها بنغمتها وتجويده، أو بتحريف معانيها، ليتجهوا إلى معان ليست فيها؛ وليس شيء من هذا في الكتاب الذي يوهمون سامعيه أنه منه، وليس منه، وبذلك ضلُّوا وأَضلُّوا كثيراً، وضلُّوا عن سواء السبيل، وإن ذلك هو أصل الشر فيهم، وأصل فساد الاعتقاد عندهم.

والضمير في قوله سبحانه: ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ وفي: ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يعود إلى مالوَواْ به ألسنتهم؛ وتكرار الكتاب في النفي، لبيان شدة براءة الكتاب المنزل على موسى وعيسى عليهما السلام مما يدعون ويفترون.

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ في هذا النص السامي بيان مدى الخطورة في لَيِّ ألسنتهم بالكتاب، وإيهام الناس أن ما يقرءون وما يقولون من كتاب الله حتى يحسبه الناس كذلك، فإنهم إذْ يفعلون ذلك ينسبون لله تعالى ما لم يقله فيقولون: إن كلامهم هو من عند الله، وليس من عند الله، وذكر «هو» في كلامهم يفيد إصرارهم على ما يدعون مع علمهم بأنهم يكذبون ويفترون وذكره في نفي ادعائهم لتأكيد هذا النفي، وبيان أنَّه منصبٌ على كلامهم، لا على أصل الكتاب، ويقول الزمخشري في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾

تأكيد لقوله: ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾، وزيادة تشنيع عليهم، وتسجيل بالكذب، ودليل على أنهم لا يعرِّضون، ولا يورون، وإنما يصـرحون بأنه فى التوراة هكذا، وقد أنزله الله تـعالى على موسـى عليه السلام كـذلك؛ لفرط جـراءتهم على الله تعالى، وقساوة قلوبـهم، ويأسهم من الآخرة. وقد سجل سبحـانه وتعالى عليهم الكذب بقوله سبحانه:

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ فى هذه الجملة السامية بيان مـقدار جـرأتهم فى البـاطل، وكـذبهم على الحق، فـهم يكذبون على الله، وهم يعلمون أنهم كاذبون. **وقد أكد سبـحانه وتعالى شناعة تصرفهم وتبـجحهم بأربعة مؤكدات:**

أولها: أن كذبهـم لم يكن تعريضـا، ولا بلسان الفـعال، بل كان بـالقول الصريح.

وثانيها: أن المفترى عليه هو الله سبحـانه وتعالى، فهم لا يفترون على بشر مثلهم، ربما لا يعلم افتراءهم عليه، بل إنهم يكذبون على علام الغيوب الذى يعلم ما تنـطق به الألسنة وما تكنه القلوب، وإذا كـانوا ينكرون علمـه واطلاعه، فـقد كفروا بهذا الإنكار قبل أن يكفروا بهذا البهتان.

وثالثها: أنهم يعلمون الحق، وينطقون بالباطل، ويعلمون حكم الله تعالى، ويكذبون عليه، ويتقولون الأقاويل، وهم يعلمون أنها غير صادقة.

ورابعها: أنه أكد علمهم بذكر الضمير، فى قوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، أى: هم بأعيانهم وأشخاصهم يعرفون كذبهم، وذلك هو الضلال البعيد.

وإن أعظم فرية افـتراها بعض أهل الكتـاب هى ادعاؤهم أن بعض النبـيين دعوهم إلى أن يعبـدوهم من دون الله تعالى، أو يتخذوهم أربـابا، ولقد أشار الله سبحانه وتعالى ـ إلى هذه الفرية العظيمة ببـيان أنها غير معقولة فى ذاتها، وأعظم الافتـراء ما كان منافـيا لطبـيعة من ينسب إليـه؛ ولقد قال تعـالى فى بطلان هذه

الفرية: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ﴾.

لقد ادَّعى النصارى أن المسيح إله وعبدوه، وادّعوا أن ذلك من رسالته، واتخذ اليهود والنصارى الأحبار والرهبان أربابا من دون الله تعالى بمعنى أنهم لم يتصلوا فى معرفة الدين بنصوص كتابهم من غير حجاب، بل اتصلوا به عن طريق تفسير الأحبار والرهبان، وأولئك حرفوا وبدلوا، وكانوا ينشرون كلامهم على أنه من دين الله، وما هو منه.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ استعمال قرآنى يفيد نفى الشأن وعدم اتفاق هذا المعنى مع الحقيقة المفروضة فى الرسول، وقد قالوا إن كلمة «ما كان» فى هذا المقام وما يشبهه فى معنى ما ينبغى. وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا ... ﴿٩٢﴾﴾ [النساء]، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ... ﴿٣٥﴾﴾ [مريم]. وقوله تعالى: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ ... ﴿١٦﴾﴾ [النور].

والنفى فى النص القرآنى منصبّ على اجتماع الرسالة مع القول الذى يكذبون به على أنبياء الله، ومعنى النسق هذا، لا ينبغى لبشر أن يخاطبه الله تعالى ويعطيه الحكم والنبوة أن يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله فليس النفى بالبداهة منصبا على إيتاء الله الكتاب والحكم والنبوة، بل هو منصب على المعطوف، وهو أن يكون منه - مع ما آتاه الله - ذلك الادعاء فيدعو الناس إلى عبادته.

و«الكتاب» المراد به سجل الشريعة التى جاءت، و«الحكم» قيل المراد به الحكمة، ومن ذلك قول أكثم بن صيفى: (الصمت حكم، وقليل فاعله)، وأنا أرجح أن المراد هو الشريعة المنزلة التى يحكم بها بين الناس، و«النبوة» هى الرسالة الإلهية التى حملها النبى من أنبياء الله تعالى، وتلك النعم التى أنعم الله بها على هذا النبى لا تتفق مع ما ينسب إليه، فالكتاب الذى آتاه حجة عليه والشريعة التى

جاء بها تتجافى عن هذا الادعاء، والأمانة التى تحملها برسالته عن الله تعالى تمنعه من أن ينطق بهذا البهتان الصريح؛ فإنه ليس فى كتابه ولا شريعته، ولا يتفق مع معنى رسالته، وإذا كان من المستحيل أن يدعى تلك الدعوة فإن المعقول أن تكون دعوته متفقة مع هذه الأمور، ولذا قال سبحانه فى دعوته:

﴿وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أى: ولكن يقول أولئك الذين أوتوا علم الكتاب، وعلم الشريعة، وفضل النبوة والسفارة الإلهية للناس: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ والربانيون، نسبة إلى الرب سبحانه وتعالى وقويت النسبة بزيادة الألف والنون، ومعنى هذه النسبة إلى الله تعالى يتضمن أنوارا يتخلق بها المؤمن.

أولها: ألا يعبد إلا الله وحده، فيكون بعقله وقلبه وأحاسيسه خالصا لله سبحانه وتعالى ولا يشرك فيها أحداً سواه.

وثانيها: ألا يعرف حقيقة شرع إلا عن الله، فلا يوسط فى تعرفها عبادا لهم أهواء وشهوات، يحرفون الكلم عن مواضعه إلا أن يكونوا ذوى فهم فى كتاب الله تعالى قد حرم هو منه، فيستعين بهم على فهم كتابه سبحانه لا أن يأخذ أقوالهم على أنها دين الله.

ثالثها: ألا ينفذ من الأحكام إلا أحكام الرب سبحانه وتعالى.

رابعها: أن تكون كل أعماله خالصة لوجه الله فلا يمارى ولا ينافق.

خامسها: أن يخضع للحق لذات الحق، وقد بين سبحانه -حكاية عما ينبغى أن يقوله الرسل وقد قالوه- كيف تتربى الربانية فى نفس المؤمن، فذكر أنها علم الكتاب المنزل والعكوف على دراسته، فقال: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾. أى: أن الذى يربى الربانية هو الاستمرار والدءوب على أمرين اثنين:

أولهما: دراسة الكتاب المنزل الذى بينه الرسول، فهو يدرسه مع شارحه، ويقطع كل الحجزات التى تحول بينه وبين هذه الدراسة، فلا يأخذ دين الله عن غير كتاب الله الذى بينه رسول الله تعالى.

ثانيهما: استيعاب علم الكتاب وتعليمه من البعض ليتمكن الدارسون من أن يعرفوا حقيقة كتاب الله، والاهتداء بهديه. وقُدِّم تعليم علم الكتاب على دراسته لأمرين:

أولهما: الإشارة إلى جرم أهل الكتاب الذين اتجهوا إلى تعليم الناس أهواءهم بدل أن يعلموهم كتاب الله.

وثانيهما: أن بيان الدراسة من غير تعليم وتدريس خبط عشواء. وسير فى ظلماء؛ كما يحاول ملاحدة اليوم الذين يريدون أن يفهموا القرآن من غير أن يعلموا شيئا حتى علم العربية:

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ فى النص القرآنى[1] قراءتان إحداهما بضم الراء، ويكون الكلام بها مستأنفا، ومتمما بيان ما لا ينبغى لرسل الله تعالى. والثانية بفتح الراء؛ بالعطف على أن يؤتيه مع ملاحظة المعطوف الأول عليها، والمعنى: أنه لا ينبغى لبشر أن يؤتيه الله الكتاب مع قوله كونوا عبادا لى من دون الله، ولا ينبغى له أيضا أن يأمرهم بأن يتخذوا الملائكة والنبيين أربابا بأن يعتقدوا أن الملائكة والنبيين يسيّرون الكون بغير إرادة الله، وأنهم يعبدون من دون الله أو مع الله. وقد وقع فى عبادة الملائكة - الصابئة الذين كانوا يقيمون فى بلاد الكلدان، وتبعهم بعض المشركين من العرب، والذين عبدوا بعض النبيين هم النصارى فقد اتخذوا المسيح إلها يعبد، وبعض اليهود فقد اتخذت طائفة منهم عزيرا إلها وزعموه ابن الله، تعالىَ الله عما يقولون علوا كبيرا.

﴿أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ هذا استفهام إنكارى بمعنى النفى أى: أن الرسل لا يمكن أن يأمروا بالكفر بالله، وقد أوتوا علم الكتاب وفضل السفارة، وتنفيذ شريعة الله تعالى، ذلك لأنهم يكونون مضللين ولا يكونون هادين، وقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ فيه إشارة إلى أن الناس بمقتضى فطرهم يسلمون ويخلصون وجوههم لله سبحانه وتعالى، فهذا شأن من شئونهم، وطبيعة فى فطرهم، حتى لقد قال بعض العلماء: إن معرفة الله تكون بالعقل؛ وأوجب

(١) غاية الاختصار ص٤٥١.

أبو حنيفة معرفة الله بالعقل؛ وما كان الرسل ليصرفوا الناس عن مقتضى الفطرة والعقل ؛ فعبادة الله وحده فى فطرة الله التى فطر عليها الناس.

اللهم جنبنا الهوى، واهدنا إلى الرشاد.

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ
وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ
بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ
قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾
فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾
أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

بين سبحانه وتعالى أحوال اليهود الذين عاصروا الرسالة المحمدية، وكيف كانوا يتعصبون لما عندهم، ويحرفون الكلم عن مواضعه؛ تشددا فى التمسك بما عندهم على أن يكون على هواهم. وبين سبحانه كيف أداهم ذلك إلى الظلم، وإلى فساد الاعتقاد. بعد هذا بين سبحانه وتعالى وحدة الشرائع السماوية، وأنها يكمل بعضها بعضا. وأنها كالقصر المشيد، كل لبنة منه جزء من كيانه، وهو جماع لبناته وأركانه وأشكاله؛ وأكد سبحانه تلك الوحدة فى الرسالة الإلهية ببيان أنها ميثاق الله على الأنبياء، وأن الله سبحانه أخذه عليهم ليصدق بعضهم بعضا فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾.

الميثاق مأخوذ من الوثاق، وهو ما يشد به الأمر، ويثبت ويؤكد؛ والميثاق الذى أخذه الله على النبيين هو ميثاق بمقتضى الهداية التى جاءوا بها، والحق الذى

يناصرونه، وهو مشتق من معنى النبوة، والرسالة الإلهية؛ فإن هذه الرسالة بمقتضى وظيفتها وعملها هى عهد موثق بين العبد المختار، والرب الذى اختاره، كمن يرسل رسولا، فإنه يكون ثمة عهد بين الرسول ومن أرسله، بأن يقوم بواجب الرسالة على الوجه الأكمل.

وإنه بمقتضى هذا العهد الموثق الذى اشتق من منصب الرسالة الأسمى، تكون الرسالة الإلهية واحدة فى مقصدها وغايتها، وهى إسعاد البشرية، وتنظيم العلاقات الإنسانية على دعائم من الأخلاق الفاضلة المنبعثة من النفس العابدة، والروح الزاهدة، التى لا تحرم طيبات ما أحل الله .

وإذا كانت الوسائل تختلف أحيانا قليلة، فالغاية واحدة، وهى الرحمة ، وإقامة الحق والقسط بين الناس.

وكل نبى متمم ما بدأ به النبى الذى سبقه، أو بالأحرى يؤكد ما جاء به ويوثقه ويقويه، حتى ختم الله أنبياءه بمحمد ﷺ ، فكان خاتم النبيين، ولذلك كان حقا على كل نبى أن يصدق ويؤمن بما يجىء به النبى الذى بعده، والذى أعلمه الله تعالى به، وإذا كان حقا على النبى المبعوث أن يؤمن بمن سبقه، ومن يجيئون بعده ممن أخبره الله تعالى بمجيئهم، فإنه بلا ريب حق على الذين يتبعونه أن يصدقوا ذلك النبى الذى يجىء بعده؛ لأنهم يتبعونه فى كل ما يؤمن به؛ فحق على اليهود والنصارى بمقتضى العهد الذى أخذه الله على النبيين، وبمقتضى إيمان هؤلاء النبيين، وتنفيذا لهذا العهد، أن يؤمنوا بالنبى ﷺ، وإلا ما كانوا متبعين لموسى وعيسى عليهما السلام، إنما يكونون متبعين لأهوائهم وشهواتهم؛ ولذا يقول النبى ﷺ فيما رواه جابر: «لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعنى»(١).

---

(١) رواه أحمد: مسند المكثرين - مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنه (١٤١٠٤).

هذا هو معنى النص الكريم بالإجمال، بقى أن ننظر فى تخريج هذه المعانى السامية من الألفاظ المقدسة، فنقول: إن فى الآيتين قراءتين[١]؛ إحداهما: القراءة بفتح «اللام» وتكون اللام فى هذه الحال هى اللام الموطئة للقسم، التى تُشْعِرُ بأن فى الكلام قسمًا تضمنه سابقها؛ وأن ما بعدها يتضمن الجواب؛ وتكون (ما) شرطية، ويكون معنى الكلام: مهما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن؛ أى أنه ميثاق الله وعهده إن أتاكم علم الكتاب والحكمة، وهى الشريعة الحاكمة، وجاء رسول أن تؤمنوا فالعهد الأساس بينكم معشر الرسل، وبين من أرسلكم، أنه إن جاء كتاب الرسالة، وشريعتها التى هى حكمتها الحاكمة هو أن تؤمنوا بكل رسول يجىء بعدكم مصدقا لما معكم كإيمانكم بكتابكم: هذا تخريج معانى الآية على قراءة فتح «اللام».

وثانيتهما القراءة بكسر (اللام) وتكون (ما) بمعنى الذى، فهو اسم موصول، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ عطف على الصلة، ويكون المعنى: أخذ الله سبحانه وتعالى الميثاق على النبيين بسبب الكتاب الذى نزل، والحكمة التى جاءوا بها، وتصديق النبى الذى جاء من بعدهم - أخذ عليهم عهدا بأن يؤمنوا به.

وقوله تعالى: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾ جواب القسم الذى تضمنه معنى الميثاق؛ لأن الميثاق المؤكد الموثق هو فى حكم القسم المؤكد الموثق، وقوله تعالى: ﴿وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ عطف على لتؤمنن أى أن مقتضى العهد والميثاق على النبيين أن يؤمنوا بما جاء به الرسول الذى صدق ما معهم؛ وأن ينصروه إذا اختلف مع المشركين. ولكن قد يسأل سائل: إنهم قد مضوا، فكيف تتصور منهم النصرة؟.

إن تصور الإيمان منهم ممكن باعتبار أن الله تعالى مخبرهم بمبعثه، ولكن النصرة غير متصورة، والجواب عن ذلك: أن الكلام بالنسبة للأنبياء فرضى، وبالنسبة لأتباعهم واقعى؛ وكأن المراد أن هؤلاء الأنبياء لو كانوا أحياء فى عهد

---

(١) قرأها (لِمَا) بكسر اللام حمزة، وقرأ الباقون ﴿لَمَا﴾ بفتح اللام. غاية الاختصار - ج٢/ ٤٥١..

الرسول الذى يجىء مصدقا لما معهم، لآمنوا به، ولاتبعوه ونصروه وآزروه؛ لأن ذلك ميثاق الله الذى ربط النبوات بعضها ببعض، فهى متلاقية عند غاية واحدة، وإذا كان النبيون لا يفرض فيهم إلا ذلك فاتباعهم يجب عليهم أن يفعلوه إن كانوا متبعين لهم.

بعد أن صور الله سبحانه وتعالى ذلك العهد الموثق بمقتضى الرسالة الإلهية قال:

﴿قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ فى الجملة السابقة بيّن سبحانه عهد الله على النبيين، وفى هذه الجملة يوثقه ويؤكده بأخذ إقرار منهم بهذا الميثاق، وبأخذ عهد آخر عليهم، وهو أن يتولوا هم أخذ العهد على غيرهم بأن يقوموا بعهد الله تعالى الذى عاهدهم عليه؛ أى أنه سبحانه يأمرهم بأن يأخذوا ذلك العهد على أتباعهم؛ وهذا معنى ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ أى أخذتم من أتباعكم على ذلك الميثاق - أن ينفذوه وأن يتبعوه، وأن يقوموا بحقه عليهم، فثمة إذن عهدان: عهد الله على النبيين، وعهد النبيين على أتباعهم، وهذا هو الإصر الذى أخذوه عليهم. فالإصر هنا هو العهد الموثق الشديد، وقد قال الراغب فى أصل اشتقاق «أصر»: «والإصر عقد الشيء وحبسه بقهره يقال أَصَرتُه فهو مأصور». قال تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ ... ١٥٧﴾ [الأعراف] أى الأمور التى تثبطهم، وتقيدهم عن الخيرات، وعن الوصول إلى الثوابات .. و«الإصر» العهد المؤكد الذى يثبط ناقضه عن الثواب، وعن الخيرات، قال تعالى: ﴿أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾.

وإذا كان أتباع النبيين قد أخذ عليهم العهد بأن يؤمنوا بالرسول ويصدقوه وينصروه، فإنه فى عنق اليهود والنصارى أن يؤمنوا بمحمد وينصروه ويؤيدوه؛ لأن ذلك جزء من الرسالة التى أتوا بها.

ولقد زكى سبحانه العهد الذى أخذه النبيون على أتباعهم بقوله تعالى: ﴿قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

أى أن الله سبحانه قد أخذ هذا الإقرار على أنبيائه، وأخذوا هم ذلك الميثاق على أتباعهم، وبعد ذلك أمرهم سبحانه بأن يشهدوا على أتباعهم بأنهم أخذوا ذلك الميثاق عليهم، فمعنى قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاشْهَدُوا﴾ أى فاشهدوا أيها الأنبياء على أتباعكم بأنكم أخذتم عليهم تلك العهود بأن يؤمنوا بالرسول الذى يجىء مصدقا لما معكم، وأنهم إذا لم يفعلوا فقد خالفوا العهد والميثاق، ونقضوا عهد الله تعالى الذى أمر النبيين بأخذه عليهم، ثم أكد سبحانه وتعالى تلك الشهادة بشهادته سبحانه وتعالى، وليس كمثله شىء، وهو السميع البصير؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ وأى شهادة أجل وأعظم من شهادة خالق السموات والأرض ومن فيهما.

وإن هذا كله ينتهى بلا ريب إلى أن اليهود والنصارى عليهم أن يتبعوا النبى ﷺ، وأن ينصروه، وأن يؤمنوا به، وعليهم أن يعلموا أن ذلك اتباع لدينهم، وأنهم إن ناوءوا الرسول، فإنما يناوئون أنبياءهم ، وأنهم بمخالفتهم له قد خرجوا عن دينهم الذى ارتضوا، والذى يزعمون أنهم يناقضون النبى ﷺ لتأييده ونصرته.

وإن هذه الآية السامية تدل على وحدة الرسالة الإلهية إلى أهل الأرض، فما جاء به إبراهيم وموسى وعيسى هو ما جاء به محمد ﷺ؛ ولذا قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ... (١٣)﴾ [الشورى].

ولهذه الوحدة الدينية فى الرسالة الإلهية سمى الله سبحانه كل مكذب لنبى مكذبا لدين الله، ولو كان يدعى أنه يتبع ديناً ولذا سمَّى الخارجين فاسقين فقال تعالى: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

أى فمن أعرض بعد ذلك عن الإيمان بمحمد وعن نصرته وتأييده، فأولئك هم الفاسقُون، أى الخارجون على كل دين غير المؤمنين بأى نوع من الإيمان، فلم يؤمنوا لا بأنبيائهم ولا بمحمد، ولا بمن يدَّعون الإيمان بهم، وقد أكد فسقهم

بالإشارة بالبعيد، وبتعريف الطرفين الذى يفيد انحصارهم فى الفسق وانحصار الفسق فيهم، وأكد أيضا بضمير الفصل الذى يفيد التخصيص.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ هذه الجملة السامية فيها تصريح بوحدة الرسالة، فإن ما يجىء به الرسل جميعا واحد لا يتغير، وهو دين الله تعالى؛ ومن خالفه فقد خالف دينه سبحانه، ومن آمن ببعض الرسل، وكفر ببعض آخر، فهو يبغى غير دين الله، ويطلب سواه، ومعنى النص الكريم: أنهم إذا أعرضوا عن تصديق محمد طلبوا غير دينه سبحانه.

والاستفهام هنا للتوبيخ، واستنكار ما يفعلون، وبيان أن مؤداه أنهم يطلبون غير دين الله سبحانه وتعالى، وأنهم لا يمكن أن يكونوا مؤمنين بنبى قط، إذا أنكروا رسالة نبى من الأنبياء، وخصوصا محمدا ﷺ الذى جاء بكتاب مصدقا لمن بين يديه من الكتب.

وفى هذا الكلام إشارة إلى أن دين الله واحد لا يتجزأ، فمن كفر ببعضه، فقد كفر بكله، وأن حقيقة هذا الدين تتجلى فى كل ما جاء به الرسل لا فى بعضه، وأنه يتلاقى كله فى مجموعه، ولا يتعارض إلا ما يكون من جزئيات عملية ضئيلة، فلا تختلف رسالات الرسل فى قواعد كلية.

وهنا مباحث لفظية. أولها: أن الفاء هنا للترتيب والتعقيب، وهى مؤخرة عن تقديم؛ لأن الاستفهام له الصدارة دائما، والمعنى أنه ترتب على كفرهم بمحمد ﷺ أنه وجه إليهم ذلك الاستفهام الإنكارى توبيخا لهم على ما فعلوا وما أنكروا، وما ضللوا.

وثانيها: إسناد الدين إلى الله تعالى، ففيه إشارة إلى أن من يكفر ببعضه إنما يكفر بالله، لا بنبى من الأنبياء فقط.

وثالثها: تقديم المفعول على الفعل، أى تقديم كلمة «غير دين الله» على «يبغون» ففيه تنبيه إلى موضع الاستنكار وهو أنهم أرادوا غير دين الله تعالى، فقدم المفعول لأهميته، إذ هو موضع التنبيه والتوبيخ.

ورابعها: التعبير بـ ﴿يَبْغُونَ﴾ بدل يريدون، فإنه يفيد شدة إلحافهم وإصرارهم، وفى ذلك إشارة إلى أنهم بذلك ظالمون.

وقد بين سبحانه أن ذلك الأمر الذى ابتغوه وطلبوه كان تمردا على الله، وخروجا على طاعته، مع أنه سبحانه قد أسلم له كل من فى السموات والأرض طوعا وكرها؛ ولذلك قال سبحانه:

﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾. أى أنهم يبغون غير دين الله، ويخرجون عن طاعته؛ مع أنه قد أسلم له من فى السموات والأرض طوعا وكرها؛ وتقديم الجار والمجرور لإفادة القصر، أى له وحده، لا لأحد سواه، خضع وأخلص كل من فى السموات والأرض من عقلاء. ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ أى أنهم خاضعون مستسلمون له بنوعين أحدهما: بالطاعة، والإخلاص، والإذعان، وقبول كل ما يحكم به، والتقرب منه بعبادته، وأولئك هم الأخيار.

وثانيهما: بالخضوع لقوته القاهرة، وكونه سبحانه مسير الأكوان؛ لأنه لا أحد من الخلق له أثر فى تسييرها، وفيما يكسب من خير وشر، والجميع فى قدرته وحفظه، وهذا الخضوع هو الخضوع كرها وقسرا، وهو سار على الأخيار والأشرار.

ثم هددهم سبحانه بقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾. أى إليه وحده المرجع والمآب، يحاسب كلا على ما صنع من خير وشر.

اللهم اغفر لنا وارحمنا، وأنت خير الراحمين.

قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ
وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ
مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ
دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾

بين سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة شدة تعصب بعض الذين أوتوا الكتاب، وأنهم غلّقوا بهذا التعصب باب النور فلم تشرق قلوبهم بهداية الإيمان، ثم بين سبحانه أن صرح النبوة واحد، وأن كل نبى متمم لما جاء به سابقه مصدق له، ومبشر بالنبى الذى يجئ بعده، وأن ذلك عهد الله وميثاقه، وفى هذه الآية يشير إلى وحدة الرسالة الإلهية، وأن محمدا ﷺ مؤمن بكل رسول جاء من قبله، وأن ذلك الإيمان جزء من رسالته عليه الصلاة والسلام؛ ولذلك أمره ربه بقوله تعالى:

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ وهذا أمر من الله لنبيه بأن يبين لهم ارتباط شرائع الله، وأنها سلسلة متصلة، كل حلقة منها آخذة بالحلقة الأخرى، لتنتهى معها إلى نهاية واحدة، وهى الإخلاص، وقد ابتدأ سبحانه بذكر الإيمان بالله، فقال: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ والإيمان بالله هو جماع الشرائع كلها، إذ الإيمان بالله يقتضى الإيمان بوجوده واحدا منفردا بالعبودية، ومنفردا بالتكوين والإنشاء، ويقتضى الإخلاص لذاته العلية فيطيعه فيما يأمره به، وينتهى عما ينهاه عنه، وتصديق رسله، وعدم الاستكبار على أحد منهم، وذلك هو الإيمان حقا وصدقا، والإسلام الذى هو دين النبيين أجمعين، وإذا كان الإيمان بالله يقتضى تصديق كل ما جاءت به رسل الله - ذكر سبحانه بعد ذلك الإيمان بما أنزل على النبيين، وهو عطف للمسبب على السبب وللنتيجة على المقدمة، لبيان شرف النتيجة فى ذاتها، وأنها غرض مقصود لذاته، وليس فقط تابعا لغيره؛ وذلك لأن ما أنزل على الرسل فيه لُبُّ الشريعة السماوية المشتركة فى كل الأديان التى ذكرها الله سبحانه بقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ... ﴿١٣﴾﴾ [الشورى].

وإن الأنبياء الذين ذكرتهم الآية هم الأنبياء الذين يدعى اليهود والنصارى أنهم يتبعونهم، وفيهم إسماعيل أبو العرب، وفى ذكرهم بيان أن اليهود والنصارى قد خرجوا عن دينهم بكفرهم بالنبى ﷺ.

والأسباط هم أولاد يعقوب الاثنا عشر، والمراد بما أنزل على الأسباط هو ما أنزل على ذريتهم كالذى أنزل على داود وسليمان وغيرهما من الأنبياء الذين جاءوا من سلالة هؤلاء الأسباط، فكان المعنى: آمنا بما أنزل على إبراهيم وولديه إسماعيل وإسحاق وحفيده يعقوب، ثم من جاء بعد ذلك من ذرية الأسباط الذين هم أولاد يعقوب، فأنبياء بنى إسرائيل لا يخرجون عن ذلك، ثم خص اثنين من أنبياء بنى إسرائيل بالذكر، وهما موسى وعيسى، فقال: ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾.

وهنا قد يسأل سائل ما الذى أُوتيه موسى وعيسى والنبيون، أهو شىء آخر غير ما أنزل عليهم: ونجيب عن ذلك السؤال بأن ما ذكر بأنه أنزل على النبى ﷺ وإبراهيم وإسماعيل وإسحق، هو الجزء الذى لا تختلف فيه الديانات السماوية قط، وهو لبها وخلاصتها، وأساسه التوحيد المطلق، والإيمان بفضائل الأخلاق، وغيرها مما لا يقبل النسخ والتغيير، وأما الذى أوتيه موسى وعيسى والنبيون من ربهم فهو ما اختص به كل نبى من أحكام توافق زمنهم، ويصح أن نقول جوابا آخر وهو أن ما أوتيه موسى وعيسى والنبيون هو معجزاتهم التى أقاموا بها الدليل على رسالة ربهم، ويصح أن يكون الجواب شاملا للأمرين معا.

وقد أورد الزمخشرى، سؤالا وأجاب عنه هو وغيره، وهو أنه فى سورة البقرة، قد قال الله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ... ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة] فلماذا عبر هنا بقوله تعالى: ﴿أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ وهنالك ﴿أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ وقد قال الزمخشرى فى السؤال وفى الجواب ما نصه: «فإن قلت لم عدّى لـ «أنزل» فى هذه الآية بحرف الاستعلاء، وفيما تقدم من مثلها بحرف الانتهاء[١]. قلت لوجود المعنيين جميعا؛ لأن الوحى ينزل من فوق، وينتهى إلى الرسل، فجاء تارة بأحد المعنيين، وأخرى بالأخرى، ومن قال إنما قيل «علينا» لقوله: «قل»، و«إلينا» لقوله: «قولوا» تفرقة بين الرسول والمؤمنين؛ لأن الرسول

---

(١) حرف الاستعلاء (على)، وحرف الانتهاء (إلى).

يأتيه الوحى على طريق الاستعلاء، ويأتيهم على طريق الانتهاء - فقد تعسف، ألا ترى إلى قوله: ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ... ﴿٤﴾﴾ [البقرة]، و﴿أنزلنا إليك﴾، وإلى قوله تعالى: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا ... ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران].

وإنا نميل إلى ما اعتبره الزمخشرى تعسفا؛ لأن الخطاب فى الأول من الله لنبيه، والوحى ينزل عليه، فكان من مقتضى الحقيقة أن يعبر بعلى، والثانى خطاب للمؤمنين، والوحى لا ينزل عليهم، ولكن ينتهى فى نزوله إليهم، وكون الله تعالى عبر فى مقام النزول على النبى بـ «إلى»، وحكى عن اليهود أنهم قالوا فى مقام النزول إلى المؤمنين بعلى، فلأسباب واضحة فى مقامها لا يخل بالتعليل فى هذا المقام.

﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ هذه ثمرة الإيمان بالله وحده لا شريك له، والإيمان بكل رسله، وبكل ما أنزل على رسله، فالنبى والمؤمنون معه إذ يؤمنون بكل ما جاء به الرسل لا يفرقون بين أحد منهم، فلا يؤمنون بواحد ويكفرون بآخرين، ولا يؤمنون بجماعة ويفردون بالكفر واحدا، بل هم فى الإيمان سواء، وإذا كان بينهم تفاضل فى أشخاصهم، فأصل الإيمان برسالتهم واجب لا تفرقة فيه؛ ولكن التفضيل يكون بأمور أخرى وراء أصل التصديق والإيمان؛ ولذا قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ... ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة].

ثم بين سبحانه الوصف الكامل لأهل الإيمان، وهو الإذعان لذات الله ولذات الحق، فيطلبون الحق مذعنين له مؤمنين به خاضعين، ولذا قال سبحانه: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أى ونحن لله سبحانه وتعالى مذعنون مخلصون، لا نذعن إلا له، فلا نفكر فى الأمور تحت تأثير عرض من أعراض الدنيا، أو عصبية جنسية أو دينية، أو حب رياسة وسلطان، بل نطلب الأمر من الأمور وقد أخلصنا فى طلبه، وخلصنا أنفسنا من شوائب الدنيا وأعراضها، فالإخلاص لله والإذعان له فيه الخلاص والاستقامة نحو الحق.

وقد بين سبحانه وتعالى أن الإخلاص لله سبحانه والإذعان المطلق هو لب الأديان كلها وروحها، وهو دين الله الحق، ولذا قال سبحانه:

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ الإسلام هنا هو الإسلام فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ...﴿١٩﴾﴾ [آل عمران] فهو الإيمان بالله تعالى وحده، وإذعان العقل والنفس والقلب لله سبحانه وتعالى، فهو التوحيد، والانقياد، والإذعان، والإخلاص لذات الله، بحيث يحب الشيء لا يحبه إلا لله. وكأن المعنى: من يطلب غير الإخلاص دينا لله تعالى فلن يقبل منه؛ لأن عدم الإخلاص لله تعالى إشراك للهوى ومآرب الدنيا فى الاتجاه إليه سبحانه، وذلك نوع من الشرك الخفى، ولذا أكد سبحانه وتعالى ذلك بقوله: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ أى أنه ليس من شأنه أن يقبل غير الإخلاص إذ إن الله سبحانه وتعالى لا يقبل من عباده إلا ما كان خالصا له مجردا من كل هوى من أهواء الدنيا، ومن كان عنده ذلك الإخلاص الحق هو الذى قال سبحانه وتعالى فى مثله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت].

وإن الله تعالى إذا كان لايقبل ذلك النوع من التدين، وهو الذى خلا من الإخلاص، فإن صاحبه يكون يوم القيامة من الخاسرين، ولذا قال سبحانه: ﴿وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أى أن الخسران يوم القيامة يكون شأنه، إذ خسر رضوانه تعالى، وخسر النعيم المقيم، وخسر رحمة الله، فألقى به فى الجحيم. اللهم هب لنا الإخلاص، وأنِرْ به بصائِرَنا، وامنحْنا قبولك ورضاك يا أرحم الراحمين.

﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٦ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ٨٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٨٨ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٨٩﴾

إن لله سبحانه وتعالى سننا محكمة فى خلقه، وكما أن الكون يجرى على قوانين ثابتة لا تقبل التخلف إلا إذا أراد الله سبحانه وتعالى، كذلك هناك سنن فى النفوس لا تقبل التخلف إلا أن يشاء ربك، ومن سننه تعالى فى النفوس أنه لا يهدى إلا من طلب الحق مخلصا فى طلبه، لا يرين على بصيرته هوى يَظلمها، ولا يعوق طريق الهداية عرض أو عصبية، وإذا كان الله يهدى الضال عن جهالة، فإنه لا يهدى من يضل عن بينة؛ لأنه أركس نفسه فى الشر، وسد ينابيع الخير فى قلبه، وسد مطالع النور فلا تصل إليه؛ تلك سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا. وإن أولئك اليهود أضلهم الله على علم، فهم آمنوا بالله تعالى ثم كفروا به، ثم شهدوا بأن الرسول حق وجاءتهم البينات المثبتة المنيرة، ثم بعد ذلك كفروا به، لقد كانوا يعلنون بين المشركين أنه سيجىء رسول يحطم الأصنام، ويستبشرون بِمَقْدِمِهِ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به.

ولذا قال سبحانه وتعالى فى شأنهم وشأن من يماثلهم بعد أن قص الكثير من قصصهم:

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ هذا استفهام للنفى واستبعاد الإيمان مع الحال التى عليها هؤلاء، فالمعنى أن هؤلاء مع حالهم التى هم عليها، وهى استيلاء الهوى على

قلوبهم، وسيطرة الغرض على نفوسهم، وطمس العصبية لإدراكهم - لا يمكن أن يتحقق منهم إيمان وإخلاص صادق فلا يهديهم الله، فالنفى الذى اشتمل عليه الاستفهام هو النفى مع هذه الحال؛ ولذا كانت صيغة الاستفهام بلفظ كيف التى يستفهم بها عن الحال، ويكون النفى فيها أيضا مقيدا بهذه الحال التى هم عليها.

وحالهم التى أوجبت هذا النفى مكونة من عناصر أربعة: إيمان فى الابتداء، وشهادة بأن الرسول حق، وكون البينات قد جاءتهم موضحة لهذا الحق، ثم بعد ذلك يكفرون، فلو كان حالهم حال ضلال عن غير علم لأنار الله أبصارهم، ولو كانوا مخلصين جهلوا الحقيقة وطلبوها لكانت هداية الله لهم ثابتة، ولكنهم غير ذلك، فهم قد كانوا مؤمنين، ويشهدون بالحق، وذلك عن بينة وعن أدلة يقينية ملزمة، ومع ذلك استولى عليهم التعصب بالباطل، فكان العمى الذى أرادوه، فلا هداية إلى الحق من بعد، وذلك لأن الله تعالى يهدى إلى الحق مَنْ أخلصَ وطلبه، فإن الإخلاص يقذف فى القلب بالنور فيكون الإشراق الروحى، وتكون الهداية الربانية، أما من قصد إلى الباطل، ولم يخلص وعكرت بصيرته بالهوى، فإنه يكون محروما من هداية الله، حتى يغير من حاله بأن يتوب عن غيه، ويخلص وينيب.

والآية عامة لا ريب فى ذلك، فهى تبين من يحرمه الله من هدايته، وهو الذى لا يذعن للحق إلا إذا كان متفقا مع غرضه، وهو من الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ **وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾** ﴾ [النور].

ولكن المفسرين يذكرون لهذه الآية سببا للنزول، فيروى النسائى عن ابن عباس أنه قال: كان رجل من الأنصار أسلم، ثم ارتد ثم ندم، فأرسل إلى قومه يطلب إليهم أن يسألوا الرسول ﷺ: هل من توبة؟ فنزلت الآية(١). وروى عن

(١) رواه النسائي: تحريم الدم - توبة المرتد (٤٠٠٠)، وأحمد: مسند بني هاشم (٢١٠٨).

مجاهد أنه جاء الحارث بن سويد فأسلم عند النبى ﷺ ثم كفر فرجع إلى قومه نادما، فأنزل الله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ فحملها إليه رجل من قومه، فقال الحارث: (إنك والله ما علمت لصدوق، وإن رسول الله لأصدق منك، وإن الله لأصدق الثلاثة) ثم رجع وأسلم(1)، وروى عن الحسن البصرى أنه قال: إنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين رأوا نعت النبى ﷺ فى كتابهم وشهدوا أنه حق، فلما بعث من غيرهم حسدوا العرب على ذلك وأنكروه وكفروا بعد إقرارهم.

وإن هذا هو الذى أميل إليه، فقد قال تعالى فى شأن اليهود: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)﴾ [البقرة]. وإن قصص القرآن فيه بيان تعصب اليهود، ومعاملتهم للمسلمين، وتلقيهم لهداية القرآن، وتواصيهم بالنفاق والكفر.

على أنه مهما يكن سبب النزول فإن الآية تقرر حقيقة ثابتة، وهى أن النفس التى تشهد بالحق وتؤمن به ثم تكفر للهوى والعصبية لا يرجى لها هداية إلا أن تزيل منها درن الغرض، وتنخلع عن العصبية الجامحة بالتوبة النصوح.

وفى النص السامى بعض مباحث:

أولها: ما حقيقة الهداية الإلهية فى هذا المقام؟ وإنا نقول فى الإجابة غير متعرضين لما بين المعتزلة والأشاعرة من خلاف: إن الهداية هنا هى الهداية المطلوبة فى قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾ [الفاتحة] والمذكورة فى قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧)﴾ [الضحى] وهى بيان الطريق الحق، والإرشاد إلى سبيل المعرفة الحقيقية؛ وإن من يكون على هذه الحال، وهى الإيمان، والشهادة بالحق ومجىء البينات السابقة - لا يحتاج إلى بيان فوق ما جاء إليه، بل يحتاج إلى عقاب صارم يجعله عبرة لكل من يكون على مثل حاله.

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: سورة آل عمران ٨٦:٨٩.

ثانيها: قوله تعالى: ﴿وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ﴾ على أى شىء يكون العطف فى العبارة السامية ﴿وَشَهِدُوا﴾ وقد ذكر الزمخشرى موضع العطف، فقال: «فيه وجهان: أن يعطف على ما فى إيمانهم من معنى الفعل؛ لأن معناه بعد أن آمنوا، ويجوز أن تكون الواو للحال، بإضمار قد، بمعنى كفروا وقد شهدوا بأن الرسول حق.

ولماذا لا تكون عطفا على كفروا نفسها ويكون من باب الجمع بين المتناقضات، كما تقول قتل القتيل وبكى عليه، أى أن حال هؤلاء مذبذبة متناقضة، فهم يكفرون بالرسول ويشهدون بأنه حق، والعطف بالواو لا يقتضى ترتيبا، فيصح أن يكون الكفر فى الوقوع متأخرا عن الشهادة ولكن يجىء سؤال: لماذا ذكر الكفر أولا؟ والجواب عن ذلك أن الكفر هو موضع الاستنكار، فكان تقديمه لهذا المعنى.

ثالثها: أن الله تعالى يذكر أنهم شهدوا بأن الرسول حق، وجاء الحق وصفا للرسول، ولعل الظاهر أن يكون وصفا لما جاء به وهو القرآن، ولكن وصف به؛ لأن اليهود ما كانوا ينكرون الشرائع السماوية، وما كان السبب فى كفرهم هو ما جاء به النبى ﷺ، بل كان السبب هو الحسد لشخصه وللعرب، فأشار سبحانه إلى أنهم كانوا يشهدون لشخصه، فأوصافه عندهم، وكانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فشهادتهم منصبة على شخص الرسول صلوات الله وسلامه عليه، فهم يعرفون شخصه من أوصافه فهو فى علمهم حق وكل ما جاء به هو الحق.

﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ذيل الله سبحانه وتعالى الآية بهذا النص الحكيم للإشارة إلى أنهم ظالمون، فهم ظلموا أنفسهم، وظلموا الرسول! وظلموا الحقائق وطمسوا على بصائرهم، فلا يمكن أن تدخل الهداية إلى قلوبهم ، وفى النص الكريم إشارة إلى أن الظلم يحدث فى نفس الظالم ظلمة شديدة لا ينفع معها ضوء. فتغلق كل الأبواب التى ينفذ منها النور إلى موضع الإدراك، إذ إن أساس الظلم هو تسلط الهوى والغرض الفاسد والحقد والحسد على النفس،

فتنحرف عن مدارك الحق ومشارق العرفان، فلا يمكن أن يكون للهداية موضع فى النفس، فلا يهديه الله سبحانه، وإن الظلم بطبيعته يفسد الإدراك كله؛ لأن إدراك الحقائق يستلزم صدق النفس فى طلبها، وصدق النفس فى طلب الحقائق لا يمكن أن يكون مع الظلم. الذى يجعل الهوى مسيطرا، فالظلم ظلمات فى النفس، وظلمات يوم القيامة.

﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ بعد أن شرح الله سبحانه نفس الذين سيطر الهوى عليهم بين الله جزاءهم فى الدنيا والآخرة، وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إليهم فى أوصافهم السابقة، فالإشارة ليست إلى أشخاصهم؛ لأنه لم يذكر أشخاصا، إنما ذكر أوصافا، فالإشارة إلى من عندهم هذه الأوصاف، وقد ذكر سبحانه فى هذه الآية الكريمة الجزاء الأول لهم، وهو اللعنة المؤكدة الثابتة المجمع عليها، وهى لعنة من الله وهى أعلاها، ولعنة من الملائكة، ولعنة من الناس أجمعين، أى أنها لعنة من الخالق والمخلوقين العقلاء سواء منهم من كانت طبيعته روحية ملكية، ومن كانت طبيعته إنسانية لها صلة بأعلاق الأرض ولها صلة بالروحانية السماوية؛ ذلك بأن الظلم أبغض الصفات الإنسانية عند الله والناس، فالله سبحانه قد كتب العدل على نفسه، ولذا روى أنه ورد فى حديث قدسى: «ياعبادى إنى قد حرمت الظلم على نفسى فلا تظالموا»[(١)]، والظالمون الذين سيطر الغرض والهوى على نفوسهم فلا يؤمنون بشىء، ولا يذعنون للحق إذا عارض أهواءهم الظالمة، لا يحبهم أحد، فإن من غلب عليه هواه، وأحب نفسه أبغضه الناس.

ولكن ما اللعنة التى ضربها الله على الذين اتخذوا إلههم هواهم؟ قال علماء اللغة: إن اللعن فى الأصل معناه الطرد، وإذا أسند إلى الله تعالى كان المراد الطرد من رحمته، وإنى أرى أنه قد يستعمل بمعنى غضب الله تعالى وسخطه، وهذا

(١) جزء من حديث قدسي طويل رواه مسلم: البر والصلة والآداب - تحريم الظلم (٤٦٧٤)، وأحمد: مسند الأنصار (٢٠٤٥١)، عن أبي ذر رضي الله عنه.

معنى لازم للطرد الذى هو الأصل فى المعنى اللغوى؛ لأن الطرد يترتب عليه السخط والمقت والغضب؛ إذ لا يُطرد من رضى الله عنه، ولا يُطرد محبوب، وعلى ذلك تكون اللعنة هنا بمعنى سخط الله تعالى وغضبه، وسخط الملائكة وغضبهم، ولا مانع من أن يراد الطرد من رحمته إذا اجتمع مع الغضب فى مثل قوله تعالى: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء]. فهذه معان متلازمة مترتب بعضها على بعض، فيترتب على الغضب الطرد من الرحمة، ويترتب على الطرد من الرحمة عذاب السعير، فإنها للجنة أبدا، أو للنار أبدا، كما قال ﷺ(١).

وكون اللعنة تكون من الناس أجمعين معناه أن الفطرة الإنسانية السليمة كلها تتنكر وتلعن تلك القلوب المنحرفة التى لا تخضع لحق، ولا تؤمن للبينات، بل تتجه إلى طمس المعالم التى تنير وتهدى، فالمراد المعنى الإنسانى العام لا الإحصاء والجمع لآحاد بنى الإنسان.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ هذا تأكيد للجزاء الأول وتصريح يلازمه، فاللعنة دائمة مستمرة، وهم فيها خالدون لا تزايلهم ولا تنفصل عنهم أبدا، فهم فى سخط من الله مستمر، وسخط من الملائكة والناس دائم، وإنه يترتب على سخط الله عذابه، وإذا كان سخط الله دائما فعذابه دائم لا يقبل التخفيف، ولذا قال سبحانه: ﴿لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ لأن تخفيف العذاب لازم لتخفيف الغضب والسخط، وإذا انتفى الملزوم فقد انتفى اللازم.

وهذا العذاب فى الآخرة عاجل لا يقبل التأخير، ولذا قال سبحانه: ﴿وَلا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أى لا يؤجلون ولا يؤخرون لمعذرة يعتذرون بها أو ليتمكنوا من إصلاح خطئهم، فإن الآخرة دار جزاء عما عملوا فى الدنيا.

---

(١) عَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَة كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّة، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّة خُلُودٌ فَلا مَوْتَ وَيَا أَهْلَ النَّار خُلُودٌ فَلا مَوْتَ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ وَهَؤُلاءِ فِي غَفْلَة أَهْلُ الدُّنْيَا ﴿وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إن الله سبحانه وتعالى يغفر الذنوب جميعا لمن يتوب ويحسن التوبة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ... ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر] فباب التوبة مفتوح، والتوبة أحب إلى الله من العقاب، ولذلك فتح باب التوبة لهؤلاء، التى كانت حالهم ما بينا، استثنى التائبين فى هذا النص الكريم، والمعنى أن اللعنة مستمرة، والعذاب لا يخفف إلا للذين تابوا من بعد إجرامهم وأصلحوا، ومعنى ذلك أن يقوموا بعمل صالح، فالتوبة الحقيقية مظهرها العمل الصالح، وهو ركن من أركانها وغايتها الجوهرية، فمن ادعى التوبة من غير عمل، فهو كاذب فيها، ومن تاب تلك التوبة النصوح ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أى بمقتضى اتصافه البالغ بالغفران يقبل التوبة، وبمقتضى الرحمة يَجُبُّ ما كان من سيئات، اللهم اغفر لنا ذنوبنا، وكفر عنا سيئاتنا، وتوفنا مع الأبرار.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾

بين الله سبحانه وتعالى حال أولئك الذين أَرْكَسُوا أنفسهم فى الضلالة وقد جاءتهم البينات من ربهم، وشهدوا أن الرسول حق، بين حالهم فى الدنيا وحالهم فى الآخرة، وأن مصيرهم إلى النار، إلا إذا تابوا وعملوا عملا صالحا، فإن الله تواب رحيم، وإن الآيات السابقة تشير إلى احتمال توبتهم بيقظة الضمير بعد

غفلته، فإن النفس قد تظلم وتشتد ظلمتها، ثم ينبثق إليها النور من إحدى النوافذ، فتكون الهداية بعد الضلال، والإيمان بالحق بعد الباطل، وذلك مشروط بألا يمعن الشخص فى طريق الضلال فيزداد كفرا وشرا، أما الذين يمعنون فى الغواية، ولا يقفون فيها عند نهاية، فإنهم يستمرون فى غيهم يعمهون، ولا يتوبون؛ ولذا قال تعالى فيهم: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ**﴾.

فهذا كما أشرنا قسم ممن كفروا بعد إيمان؛ لأن أولئك قسمان أحدهما يرجى توبته، وذلك هو الذى لم يوغل فى طريق الكفر والإمعان فيه، وقد أشار سبحانه بقبول توبته بقوله تعالى مستثنيا له: ﴿**إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا** ... ﴿٨٩﴾﴾ [**آل عمران**] والقسم الثانى هم الذين كفروا بعد أن آمنوا، ولم يكتفوا بذلك بل لجوا فى العناد، واسترسلوا فى الغىّ، واستمروا فى مقاومة الحق، فإنهم كلما أوغلوا فى الباطل بعُدوا عن التوبة والرجوع، ومثلهم كمثل من يسير فى صحراء وقد ضل الطريق، فإنه كلما أوغل فيها ازداد ضلاله. وهذا القسم لا تقبل توبته؛ لأنه لا يتوب توبة نصوحا، وقد عبر سبحانه عن إيغالهم فى الشر بقوله: ﴿**ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا**﴾ أى أن الكفر درجات، وكل إيغال فيه ازدياد؛ ذلك لأن الكفر جحود القلب مع قيام الأمارات والأدلة، وكلما اشتد العناد اشتد الجحود، واستغلظت الحجب التى تحول بين المرء والهداية، فإذا كان الحجاب عن الإيمان بالحق رقيقا أولا، فبالإمعان فى العناد يغلظ الحجاب، ويستمر فى الغلظ حتى يحكم الإغلاق، وهو الذى عبر الله عمن تصاب قلوبهم به بقوله تارة: ﴿**طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ** ... ﴿١٠٨﴾﴾ [**النحل**] وتارة ﴿**خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ** ... ﴿٧﴾﴾ [**البقرة**] وقوله تعالى مرة ثالثة: ﴿**بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴿١٤﴾﴾ [**المطففين**].

وأولئك قال تعالى فيهم: ﴿**لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ**﴾، فنفى سبحانه وتعالى قبول توبتهم، ولنا أن نفسر نفى قبول التوبة على ظاهره بمعنى أنه قد تقع منهم توبة

ولكنها ليست التوبة التى تُقبل، ونص على قبولها فى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ... ﴿٢٥﴾﴾ [الشورى] وعدم قبول توبتهم هذه لأنها بظاهر من القول، أو لأنها فلتات نفسية تحدث أحيانا فى حال كرب أو شدة، ثم يعودون لما كانوا عليه كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ... ﴿٢٣﴾﴾ [يونس]. أو تكون التوبة فى آخر رمق فى الحياة كتوبة فرعون وقد أدركه الغرق، فقد حكى الله تعالى ذلك عنه إذ يقول: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس]. فإن هذه التوبة لا تقبل؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء].

هذا هو الفرض الأول فى تخريج الآية الكريمة، وهو عدم قبول التوبة إن وقعت، والفرض الثانى أن نقول إن النفى المؤكد منصب على عدم وقوع التوبة، بله على عدم قبولها، فالمعنى لن تقبل توبتهم، لأنه لا توجد لهم توبة قد استوفت شروط القبول، ومؤدى الفرضين واحد، لأنه على تسليم وجود توبة فى الفرض الأول يجب أن نقرر أنها كلها توبة، وقد أكد سبحانه النفى بكلمة (لن) التى تدل على تأكيد النفى، كما أكده ببيان استمرار ضلالهم فقال سبحانه: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾:

وفى هذه الجملة السامية أكد سبحانه ضلالهم بثلاثة أمور: أولها الجملة الإسمية، وثانيها ضمير الفصل الذى يدل على تأكيد النسبة بين المسند والمسند

إليه، وثالثها القصر والتخصيص، فقد قصر عليهم الضلال كأنه لكماله فيهم لايوجد فى غيرهم، وإن السبب فى استمرار ضلالهم هو لجاجتهم وعنادهم، فهم كلما لجوا فى مقاومة الحق ازدادت نفوسهم بعدا عنه. وكلما بعدوا عنه أوغلوا فى الضلال، والإشارة فى قوله سبحانه (أولئك) هى إليهم متصفين بما اتصفوا به من كفر بعد إيمان، وازدياد ولجاجة فى هذا الكفر والجحود ، فتلك الصفات هى السبب فى هذا الاستمرار وتأكد الضلال، وإن هؤلاء الضالين سيموتون بلا شك وهم كفار فيندرجون تحت حكم الآية الكريمة الآتية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ﴾ إن هذه الآية تبين مآل الذين يموتون وهم كفار، أى أنهم يستمرون على كفرهم حتى يلقوا ربهم، فالواو فى قوله سبحانه: ﴿وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ واو الحال وهى تفيد أنهم ماتوا وهم على حال لهم مستمرة ملازمة لم تفارقهم، وهى الكفر والضلال، وإن أولئك فى اليوم الآخر يلقون جزاءهم على ما قدموا من سيئات وجحود بالحق موفورا كاملا، وذلك الجزاء ذو شطرين، أحدهما سلبى والآخر إيجابى. أما السلبى فهو أن كل ما عملوا من خير وأنفقوا من مال لا يكافأون عليه، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان] والسبب فى فقد الجزاء عليه أن أساس الجزاء فى الدين النية، والنية لا تكون سليمة إلا إذا كان فعل الخير قد قصد به وجه الله سبحانه وتعالى، وذلك لا يكون ممن لا يذعن لدين الله؛ لأنه لو طلب وجه الله لأجاب نداءه، وقد عبر سبحانه عن ذلك بقوله: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا﴾ أى لن يقبل منهم أى إنفاق، ولو كان بمقدار ما يملأ الأرض من ذهب، فمهما يفعلوا من عمل، هو فى ذاته خير، فقد أفسدوه بنياتهم الآثمة، وتمردهم على الحق إذ دُعوا إليه.

والجزاء الإيجابى هو العقاب الذى لا يكون منه مناص ولو بفدية مهما كبرت أو عظمت، كما قال تعالى مخاطبا المنافقين: ﴿فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلا

مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ [الحديد] وقد أشار إلى هذا العذاب بقوله سبحانه: ﴿**وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ**﴾ أى لو افتدى نفسه من عذاب الآخرة بمثل الذهب الذى يملأ الأرض. والواو هنا تفيد أنه لا يقبل منه أى إنفاق يقدمه ولو كان ذلك الإنفاق قدمه ليفتدى به نفسه من عذاب الله. ثم بين سبحانه العذاب بقوله تعالى: ﴿**أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ**﴾.

أى أولئك الذين ماتوا وهم كفار بسبب الكفر الذى لازموه حتى موتهم، لهم عذاب مؤلم شديد الإيلام مستمر، وليس لهم ناصر، و(من) هنا لاستغراق النفى، أى ليس لهم أى ناصر مهما يكن، فمن كانوا يتخذونهم شفعاء لا يشفعون لهم، والرسل الذين كانوا يتعلقون بهم لا يعرفونهم، ولا نجاة لهم من عذاب الله، لا بفدية يفتدون بها أنفسهم، ولا بناصر ينصرهم من دون الله، وبذلك يكونون حطب جهنم والنار مأواهم وبئس المصير، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وهنا بحث لفظى أثاره إمام اللغة الزمخشرى ، وهو لماذا عبر فى الآية السابقة فى الخبر من غير فاء، فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ**﴾ وفى هذه الآية أتى بالفاء فقال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ**﴾ إلى آخره، وقد أجاب عن ذلك بقوله: «قد أوذن بالفاء أن الكلام بنى على الشرط والجزاء، وأن سبب امتناع قبول الفدية هو الموت على الكفر، وبترك «الفاء» أن الكلام مبتدأ وخبر ولا دليل فيه على التسبب، كما تقول: الذى جاءنى له درهم، لم تجعل المجىء سببا فى استحقاق الدرهم، بخلاف قولك: فله درهم.

وإن ذلك الكلام مغزاه أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يبين لهم أن هذا الجزاء نتيجة للعمل، وأنه مسبب عنه لأن الجزاء من جنس الفعل دائما، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر. وأما فى الآية الأولى فلأن عدم قبول التوبة ليس جزاء؛ إذ معناه عدم وجود توبة صالحة للقبول؛ أجرى القول مجرى الإخبار كأنه وصف ملازم لحالهم، أو هو حال أخرى من أحوالهم، وإذا كان الجزاء من جنس العمل دائما، فإن الله بعد أن بين جزاء الشر بين سبحانه جزاء الخير فقال تعالت كلماته:

﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ الخطاب عام، وقد صدر بتأكيد النفى المنصب على نيل البر، والمعنى لن تنالوا وصف الأبرار الأخيار حتى تنفقوا مما تحبون، وفى هذه الآية حث على الإنفاق، وعلى القيام بالأعمال التى تكون فيها مخالفة للهوى ومنازعات النفس، وقد تكلم المفسرون فى معنى البر المذكور فى هذه الآية، فقال بعضهم: إن المراد الاتصاف به كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ ... (١٧٧)﴾ [البقرة] إلى آخره، فالمعنى لن تنالوا وصف البر الذى هو خاصة الأخيار إلا بأن تنفقوا مما تحبون، وهذا ما نختاره، وهو الأوضح مما عداه، ولكن لم يذكر على هذا جزاء الآخرة. ونقول إن ذلك حكم من الله تعالى بأن الذين يفعلون ذلك من الأبرار.

ولن ينال ذلك الوصف إلا المنفقون، وقد كنى بهذا اللفظ ﴿مما تحبون﴾ عن المال، لأن جميع الناس يحبون المال. وقيل: معناه ما تحبون من نفائس أموالكم، دون أرذلها كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ... (٢٦٧)﴾ [البقرة]. وقد روى أى عليا رضى الله عنه اشترى ثوبا فأعجبه فتصدق به وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من آثر على نفسه آثره الله يوم القيامة بالجنة، ومن أحب شيئا فجعله لله، قال تعالى يوم القيامة قد كان العباد يكافئون فيما بينهم بالمعروف وأنا أكافئك اليوم بالجنة»(١).

ثم اعلموا أن الله يعلم كل ما تفعلون، ويعلم ما فى نياتكم، ثم هو الذى يجازيكم على هذه الأعمال والنيات، فاختاروا لأنفسكم، إذا كنتم ترجون أحسن ما عند الله، فقدموا لأنفسكم أحسن ما عندكم، نسأل الله عز وجل أن يوفقنا لما يحب ويرضى.

(١) رواه البخارى: الزكاة - الزكاة على الأقارب (١٣٦٨)، ومسلم: الزكاة - فضل النفقة والصدقة على الأقربين (١٦٦٤). .

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ
إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ
ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ
٩٣ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩٤ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا
وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٥﴾

هذه الآيات الكريمة متصلة بمحاجة اليهود، ومجادلتهم فى ذات الشرع الإسلامى، وذات النبى ﷺ، فقد بين الله سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة عدم استقامتهم فى طلب الحق، وأنهم كانوا يتواصون فيما بينهم ألا يؤمنوا ولا يذعنوا للحق إذ جاء إليهم، وكانوا يقولون: آمِنُوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره، وقد اعترضوا على النبى ﷺ بالباطل وما اعترضوا عليه بحق قط، وما دفعهم إلى ذلك إلا تعصبهم المردى وظنهم أنهم أولياء الله وأحباؤه، وأن الناس جميعا مهما تكن منزلتهم دونهم، ولقد روى فى الآثار، وكما تدل عبارة التوراة أنهم كانوا يحرِّمون على أنفسهم لحوم الإبل وألبانها، ويظهر أنهم كانوا يُعَيِّرون العرب بأن طعامهم لحم الإبل وألبانها، وأن غذاءهم الجوهرى هو ذلك اللبن والتمر، ولذلك بين الله سبحانه وتعالى أنه حلال لهم أيضا أن يأكلوه، وأنه طعام لهم كما هو طعام عند العرب، وأنهم إذْ حرَّموهُ على أنفسهم قد خالفوا الفطرة وخالفوا التوراة ثم ادّعوا أن تحريم لحوم الإبل كان شرْعة إبراهيم، ولقد رد الله عليهم ذلك بقوله :

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾ «حِلٌّ» معناها حلال، ومعنى النص السامى أن كل الطعام قبل التوراة كان حلالا لبنى إسرائيل حتى غلظت أكبادهم، واستولت عليهم الماديات،

فأراد الله سبحانه وتعالى أن يَفْطموا نفوسهم عن أهوائها ليكبحوا جماح شهواتهم ولكيلا يندفعوا فى الظلم والأهواء المردية؛ ولذا قال سبحانه: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ... ﴿١٦٠﴾﴾ [النساء].

والطعام هو ما يطعمه الإنسان ويستسيغه ويطلبه راغبا فيه، وهو فى عمومه يشمل البُرَّ والذرة والشعير، وكل المواد النباتية والحيوانية؛ ولذا قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ... ﴿٩٦﴾﴾ [المائدة]. وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ...﴿٥﴾﴾ [المائدة: ٥] والمراد ذبائحهم.

وبمقتضى هذا النص السامى يكون كل طيب مطعوم مرغوب فيه حلالا ولا يحرم إلا الخبائث من الميتة والخنزير وغيرهما، وأن ذلك كان شريعة إبراهيم عليه السلام، وأنه ما كانت لحوم الإبل ولا ألبانها من المحرمات لأنها من الطيبات، وإبراهيم وذريته على هذه الشريعة الفطرية، حتى قست قلوب بنى إسرائيل ففطمها الله بذلك التحريم المؤقت.

إذن فلم يكن شىء من الإبل محرما، ولم يكن شىء من الطيبات محرما على بنى إسرائيل من قبل التوراة، إلا ماحرمه إسرائيل على نفسه، وإسرائيل اسم ليعقوب بن اسحق عليهما السلام، وقد اختلف العلماء فى تخريج قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ ما المراد بإسرائيل أهو القبيل كله، وهم اليهود؛ أم المراد ذات يعقوب الذى هو أبو القبيل، وإليه ينتمى؟.

ذكر الزمخشرى التخريجين، ورجح أن المراد ذات يعقوب عليه السلام، ويكون المعنى: إن كل الطعام كان حلالا لبنى إسرائيل إلا ماكان يحرمه إسرائيل على نفسه باجتهاد منه لشخصه: إما لعلاج جسمى بأن وجد أن هذا الطعام يضره ويؤذيه، وأن الابتعاد عنه ينفعه ويجديه، كما نرى من ناس يتجنبون بعض الأطعمة لأنها لا تناسب حالهم بإشارة طبيب أمين أو بتجربة شخصية، وكل امرئ طبيب نفسه. وإما لعلاج نفسى كأن يمتنع عن بعض ألوان الطعام قناعة وفطما

للنفس، وما كان يتخذ ذلك شريعة تتبع بل اتخذه علاجا شخصيا لجسمه أو لنفسه، ولقد قال النبى ﷺ: «من الإسراف أن تأكل كل ما تشتهى».

هذا هو التخريج الأول.

أما التخريج الثانى فإن مقتضاه أن بنى إسرائيل هم الذين حرّموا بعض الأطعمة على أنفسهم كما كان العرب يحرمون على أنفسهم بعض أنواع الأطعمة، كتحريم البَحيرة(١) ونحوها مما نعاه القرآن الكريم عليهم.

ولعل القبيل كان يحرم على نفسه الإبل مثلا تقليدا ليعقوب فيما لا يجب التقليد فيه.

ولكنهم ادّعوا أن تحريمهم لبعض الأطعمة التى لم يحرمها الله تعالى عليهم كان فى التوراة منسوبا لإبراهيم، ولذلك تحداهم الله سبحانه وتعالى بقوله:

﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ الخطاب للنبى ﷺ، وهو تكليف منه تعالت قدرته بأن يطلب إليهم أن يأتوا بالتوراة ليبيّنوا النص الذى كان به التحريم أهو يدل على أنه كان قبل التوراة أم كان بعدها؟، وأيدخل فى عموم التحريم تحريم لحوم الإبل وألبانها؟ و«الفاء» فى قوله: ﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ﴾ هى التى تسمى فاء الإفصاح، وهى تفصح عن شرط مقدر، أى إذا كانت دعواكم تحريم الإبل فى شريعة إبراهيم وقبل التوراة فأتوا بها أى أَحْضِروها، و«الفاء» فى قوله: ﴿فَاتْلُوهَا﴾ فاء العطف، أى فأحضروها، واتلوها عقب إحضارها، وتلاوتها أى قراءتها بإمعان، وتبين التحدى فى قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ والتعبير بـ «إن» للإشارة إلى عدم صدقهم؛ لأنها تدل على الشك فى الشرط، وعدم ترتب الجواب عليه، أى هم ليسوا صادقين فيما يدَّعون، ولذلك لا يتلون ولا يقرءون. والمؤدَّى: أنكم لو جئتم بها وأمعنتم فى تفهمها، لكَذَّبتْكُم ولأثْبَتَت افتراءَكم على الله سبحانه وتعالى، وإن من افترى الكذب على الله تعالى ظالم لنفسه وللناس، ولذا قال تعالى بعد ذلك:

---

(١) البحيرة ابنة السائبة، والسائبة هي الناقة التي كانت تُسَيَّب في الجاهلية لنذر أو نحوه. الصحاح.

﴿فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الفاء هنا للإفصاح كسابقتها، والمعنى إذا كنتم مصرين على قولكم فأنتم ظالمون؛ لأن من افترى على الله الكذب فهو ظالم، وافتراء الكذب معناه القصد إليه وتعمده، والقطع بالقول فيه من غير تردد، مأخوذ من فَرَى يفرى بمعنى قطع. وأولئك باستمرارهم على قولهم هذا قد كَذَبوا على الله، فادّعوا أنه حرم، وهو لم يحرم، وادعوا أن ذلك فى شريعة إبراهيم عليه السلام التى نزلت من عند الله تعالى، وليست منها فى شىء.

ومن قصد إلى الكذب قاطعا به من غير دليل ولا حجة (بل قام الدليل على نقيض ما يقول) فهو ظالم، ولذا قال تعالى:

﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الإشارة إليهم محملين وصف الافتراء على الله تعالى وعلى النبيين، وهذا الوصف هو سبب الحكم بالظلم، وقد أكد الله تعالى وصف الظلم بقصر الظلم عليهم بضمير الفصل، وهم ظالمون للحقيقة إذ أخفوها وكذبوا، وظالمون لأنفسهم لأنهم يخادعون الله الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء، وهم إذ يخادعون الله تعالى، يخادعون أنفسهم ويضلونها باستمرارهم على السير فى طريق الغواية، ؛ إذ كلما أَوْلَجُوا فيه بعُدُوا عن طريق الهداية، وظلموا بغمطهم الحق والناس، وحسدهم لهم على ما آتاهم الله من فضله.

وإن أولئك الذين يتمسحون بذكر إبراهيم لم يتبعوه ، ولم يهتدوا بهديه، بل خرجوا عن منهاج الفطرة الذى هداه الله تعالى، ولذلك أمرهم الله سبحانه وتعالى باتباعه فقال تعالت كلماته :

﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ الأمر للنبى ﷺ، فقد أمره أن يذكر لهم صدق الله تعالى فيما أخبره به من أن إبراهيم ما حرم الإبل ولا ألبانها، وأن بنى إسرائيل من قبل التوراة كان كل الطعام الطيب حلالا لهم غير حرام عليهم.

وفى ذلك إشارة إلى أنهم يعاندون الله تعالى بأخبارهم الكاذبة، وأن كلامهم لا يروج عند مؤمن، لأنه إما أن يصدق الله تعالى ذا الجلال والإكرام، المنفرد بحق العبودية، والمنفرد بالألوهية، وإما أن يصدق أخبارهم الكاذبة التى تتنزى بالحقد والحسد الدفين.

وإذا كانوا يتمسحون بإبراهيم فعليهم أن يتبعوه فى أخص شريعته ولبها، ولذا قال: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أى اتبعوا منهاجه وشرعته وطريقته، وقد كان طريقه هو طريق الفطرة السليمة، ولذلك وصفه بقوله «حنيفا» أى متجها إلى الحق لا ينحرف عنه إلى غيره، ولا يسلك غير سبيل المؤمنين يجيب داعى الحق إذا دعى إليه.

وإذا استمروا على طريقهم من معاندة الحق ومنازلته، وإثارة غبار الشك حوله، فإنهم بعيدون عن إبراهيم، كما بعد عنه المشركون، وقد أكد سبحانه بعد إبراهيم عن الشرك بقوله:

﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ هذا نفى الإشراك عن إبراهيم عليه السلام نفيا مؤكدا وهو مؤكد بالجملة الأسمية، وبالفعل «كان»، فهو نفى للكينونة أى الوجود، فهو لم يوجد مشركا ولا يمكن أن يكون مشركا، أو يدخل فى صفوف المشركين، وفى ذلك بيان براءة إبراهيم من مشركى قريش براءته من اليهود، فليس لأحد الفريقين أن يتمسح به، وأن يذكر أنه يسير على ملته، وهو لا يخلص فى قول ولا يجعل وجهته رب العالمين.

اللهم اهدنا بهديك، وخلص قلوبنا، وأصلح أحوالنا، ووفقنا إلى الإخلاص فى القول والعمل إنك سميع الدعاء.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

بين الله سبحانه وتعالى بطلان ما كان يحتج به أهل الكتاب فى الآيات السابقة، ورد عليهم بما يرشدهم إلى الصواب لو كانوا طلاب هداية، وباحثين عن الحقيقة لا يبغونها عوجا؛ وفى هذه الآية وما وليها، يرشدهم إلى الأمر الجامع الذى يلتقون فيه مع العرب، وهو الاتصال بإبراهيم الذى يعتزون بنسبتهم إليه، وهو جد إسرائيل الذى كان منه الأسباط، وكان منه عن طريقهم من ينتمى إليهم من النبيين الذين أنشأوا بيت المقدس، وأقاموا الدولة المقدسة فى الأرض المقدسة، والتى لم يحسن اليهود من بعدهم القيام عليها؛ بل عثوا فيها بالفساد، حتى مزقهم بُختنصر شَرَّ ممزق، وشرد الرومانُ بعد ذلك بهم من خلفهم، حتى جاء المسلمون فأعادُوا إلى الوادى المقدس شريعة الله المقدسة، وهى الإسلام الذى كتب له أن يعمره بها إلى يوم القيامة[1]: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم]، ولقد ذكر الله سبحانه ذلك الأمر الجامع فى بيان شرف بيت الله الحرام فقال:

---

(١) روى الإمام أحمد (٢١٢٨٦) في مسنده عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَعَدُوِّهِمْ قَاهِرِينَ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ إلا مَا أَصَابَهُمْ مِنْ لأْوَاءَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَيْنَ هُمْ؟ قَالَ: «بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ وَأَكْنَافِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ».

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ البيت المقصود به هنا هو البيت الحرام، وهو الحرم المكى العامر إلى يوم القيامة، وقد عرفه بأنه الذى ببكة، وبكة هى مكة. وفى لغة العرب قلب الميم باء فى أحوال كثيرة من غير انضباط، ولقد جاء فى تفسير الزمخشرى ما نصه:

(مكة وبكة لغتان فيها نحو قولهم: النبيط والنميط فى اسم موضع بالدهناء ونحو: من الاعتقاب أمر راتب، وراتم، وحمى مغمطة ومغبطة. وقيل: مكة البلد، وبكة موضع المسجد، وقيل اشتقاقها من بكَّهُ إذا زحمه؛ لازدحام الناس فيها). وقيل: بك بمعنى دك؛ وذلك لأن الله يدق عنق كل من يرومها بسوء.

وعرف البيت بأنه الذى ببكة للإشارة إلى أن مكة ذاتها هى مثابة الشريعة الباقية وهى شريعة النبيين أجمعين، وهى خالدة إلى يوم القيامة، وهى الإسلام جماع كل الشرائع السماوية؛ وهو الذى وصى الله به إبراهيم وموسى وعيسى.

وما معنى أولية البيت الحرام؟ أهى أوليته من ناحية أنه أول بيت بنى للعبادة؟ أم أنه أول بيت بنى بإطلاق.

قيل: إنه أول بيت بنى فى الأرض؛ فقيل إن الملائكة بنته لآدم؛ كما ورد فى بعض الآثار؛ وليس ثمة مانع عقلى؛ إن الذى يبدو من خلال الآيات: أنه أول بيت من بيوت العبادة القائمة؛ فهو أسبق من بيت المقدس وجودا؛ وهو أجمع للديانات السماوية من بيت المقدس؛ لأن إبراهيم أبا الأنبياء أصحاب هذه الشرائع الباقية هو الذي بناه؛ بينما بنى بيت المقدس فى عهد داود وسليمان عليهما السلام[(١)].

---

(١) عن أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّه أَيُّ مَسْجِد وُضِعَ فِي الأَرْضِ أَوَّلَ؟ قَالَ: «الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ» قَالَ قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «الْمَسْجِدُ الأَقْصَى» قُلْتُ: كَمْ كَانَ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ سَنَةً، ثُمَّ أَيْنَمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلاةُ بَعْدُ فَصَلِّهْ؛ فَإِنَّ الْفَضْلَ فِيهِ» [رواه البخاري: أحاديث الأنبياء - واتخذ الله إبراهيم خليلا (٣١١٥)، ومسلم: المساجد ومواضع الصلاة (٨٠٨)].

فوجود مقام إبراهيم بالبيت الحرام، وآثار أقدامه الشريفة دليل على مكانة هذا البيت من ملة إبراهيم عليه السلام، وأما ما يدعيه اليهود من وجود آثار هيكل سليمان تحت المسجد الأقصى، فلم يقم عليه دليل ولا بينة.

ووصفه سبحانه وتعالى بأنه مبارك؛ أى فائض الخيرات كثير الثمرات المادية والمعنوية؛ فمن بركاته المادية أنه يفد إليه الحجيج من كل فج عميق؛ ويعتمرون فيه فى كل أيام أشهر السنة، حتى أنه لا يمر عليه يوم من غير وفود تجيء إليه، ومع هذه الوفود خيرات الأرض؛ وكان ذلك إجابة لدعاء إبراهيم فى قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم].

وقد كان فى البيت تلك البركة المادية بتلك الوفود؛ وبالثمرات التى كانت فى باطن الأرض حوله أو على مقربة منه فقد كشفت على مقربة منه فلزات الأرض وسيول الغاز، مما كان خيرا وبركة على سدنته ومن يعيشون حوله، وبذلك أجاب الله تعالى دعاء إبراهيم عليه السلام، وبقى على الذين يتنعمون بهذه الثمرات أن يشكروا الله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

هذه هى البركة المادية، أما البركة المعنوية فهى أنه موضع لأكبر عبادة جامعة وهى الحج، وهو مبعث محمد ﷺ، وفيه منازل وحيه، وإليه يتجه الناس فى كل بقاع الأرض، وتلتقى عنده قلوب الأجناس والألوان المختلفة فى عباداتهم، ولذا وصفه سبحانه بقوله: ﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾:

هذا عطف على قوله سبحانه ﴿مُبَارَكًا﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى جمع لهذا البيت الكريم حالتين خاصتين به لم تجتمعا فى بيت غيره، فهو قد اشتمل على البركة المادية والمعنوية، وحماه الله تعالى من اعتداء المعتدين، ولهذا قال: ﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ أى هو بذاته مصدر هداية للعالمين أى للناس أجمعين؛ ففى وسط الشرك كانوا يلتحمون ويتقاتلون حوله، فإذا جاءوا إليه كان الرجل يلقى قاتل أخيه أو أبيه فلا يمسه بسوء لعظم حرمة البيت فى قلبه، وإن مس الشرك نفسه.

والذين أرادوه بسوء ما إن جاءوا إليه حتى ارتدوا على أدبارهم خاسئين؛ وبذلك ثبتت حرمته، وأشع نوره لغير العرب، كما امتلأت قلوب العرب بحرمته، وبعد الإسلام كان قبلة المسلمين فى كل العالمين ومزارهم وموضع مؤتمرهم الأكبر، وإلى البيت الحرام يأرِزُ الإسلام، فكون هذا البيت العتيق مصدر هداية ثبت جاهلية وإسلاما، وهدايته فى الإسلام مطلقة، وهدايته فى الجاهلية نسبية:

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ فى هذا النص السامى بيان عظمة البيت الحرام، ومكانته والأدلة على قدمه وبركته؛ ومعنى النص الكريم:

فيه علامات واضحة تبين شرف منزلته وقدمه وطهارته، وفيض الله سبحانه وتعالى عليه بالنور وأسباب الهداية، وأنه لا بيت يدانيه فى منزلته عند الله، وإن كان هذا البيت الآخر تشد إليه الرحال(١). وقد قالوا إن قوله تعالى: ﴿مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ بيان لهذه الآيات البينات، ويصح أن نعتبرها وحدها بيان هذه الآيات من حيث الدلالة على قدمه، وأن بانيه إبراهيم، وأن آثار أقدامه واضحة خالدة فيه، وقد وضح هذا المعنى الزمخشرى أتم توضيح فقال:

(فإن قلت كيف صح بيان الجماعة بالواحد؟ قلت فيه وجهان؛ أحدهما: أن يُجعل وحده بمنزلة آيات كثيرة، لظهور شأنه وقوة دلالته على قدرة الله تعالى ونبوة إبراهيم عليه السلام، ومن تأثير قدمه فى حجر صلد . . والثانى: اشتماله على آيات كثيرة؛ لأن أثر القدم فى الصخرة الصماء آية، وغوصه فيها إلى الكعبين آية، وإلانة بعض الصخر دون بعض آية، وإبقاؤه دون سائر آيات الأنبياء آية، وحفظه مع كثرة أعدائه من المشركين وأهل الكتاب والملاحدة ألوف السنين آية).

وهذا الكلام على اعتبار أن مقام إبراهيم هو موضع الآيات البينات ولكن الذى نراه وقد ذكره الزمخشرى أيضا أن هذه الآيات البينات ليست مقام إبراهيم

---

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ: «لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلا إِلَى ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ: مَسْجِدِي هَذَا وَمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِ الأَقْصَى» [متفق عليه؛ رواه البخاري: الجمعة - فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة (١١١٥)، ومسلم واللفظ له: الحج - لا تشد الرحال (٢٤٧٥)].

وحده، ولكنها مقام إبراهيم وكـونه أَمْنَ الناس ومثابتهم، وكونه المكان الذى يحج إليه المسلمون إلى اليوم، وكان العرب يحجـون إليه ويقومون بكثير من المناسك، وإن خالطوها بشرك.

ولقد ذكر سبحانه الآية الثانيـة البينة لمقام البيت عند الله تعالى وعند العالمين بقوله:

﴿ومَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ أى آمنا من الأذى والقتل. وهذه آية لا شك فـيها، فالعرب كانوا يحترمونه كمـا نوهنا، وكانت هذه نعمة أنعم الله بها عليهم، وبقيت حتى فى شركهم؛ ولذا يقول سبحانه:

﴿أَوَ لَمْ يرَوْا أَنَّا جعَلْنَا حرَمًا آمنًا ويُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ...﴿٦٧﴾﴾ [العنكبوت]. وأنعم عليهم سبحانه بأن حماه من كل من يغـير عليه معتديا. حتى إن أبرهة عندما أغار بجيشه وأفياله ليهدمه، ارتد خاسئا كما قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ [الفيل].

وتلك آية من آيات الله الكبرى فى البيت.

ولقد حماه الله سبحانـه وتعالى فى الإسلام، حتى إن النبى ﷺ عندما فتح مكة احـترم أمنها فـكان مناديه ينادى : من دخل داره وأغلق بابه فهـو آمن، ومن دخل دار أبى سفيـان فهو آمن، ومن دخل البيت الحـرام فهو آمن(١) ووصف يوم الفتح بقوله: «هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة»(٢).

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ هذه آية لتعظيم الله سبـحانه وتعـالى شأن بيـته المقـدَّس، وحرمه الآمـن إلى يوم القيامـة، وذلك أنه

---

(١) صحيح مسلم: الجهاد والسير - فتح مكة (٣٣٣٢).
(٢) جزء من حديث رواه البخاري: المغازي - أين ركز النبي ﷺ الراية (٣٩٤٤).

سبحانه فرض الحج إليه على من يستطيع، وجعله موضع المؤتمر الإسلامى الأكبر، كما قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج].

والحج بالمعنى الشرعى هو القصد إلى أداء المناسك ونية العبادة به، وهو فى أصل معناه اللغوى القصد المجرد إلى مكان معين، وتقرأ كلمة «حَجّ» بفتح الحاء، وهى لغة أهل الحجاز وبها قرأ أكثر القراء، وبكسر الحاء وبها قرأ الكسائى وحفص(١).

وقوله تعالى: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾. بدل من ﴿النَّاسِ﴾، فالفرضية العينية منصبة على من يستطيع دون غيره ولكن تصدير الكلام بإضافة الفرضية إلى الناس، ثم البدل منهم بالمستطيعين يدل على أن عامة المسلمين عليه فرضية عامة، وإن لم تكن كفرضية المستطيعين، وهذه الفرضية نفسرها بأمرين.

أولهما: بالتكليف العام الذى يدخل فى عموم فروض الكفاية، بمعنى أن عامة المؤمنين عليهم أن يسهّلوا تلك الفريضة على من يريدها ويستطيعها، ويبتغى بها مرضاة الله تعالى؛ فعلى ولى الأمر الذى يمثل جماعة المؤمنين أن يسهل هذه الفريضة لطلابها؛ وعلى جماعة المؤمنين أن يعملوا على إقامتها كلٌّ فى طاقته وفى حدود قدرته.

وثانيهما: ما يقرره الفقهاء من أن أصل الوجوب ثابت ما دام الشخص مكلفا؛ ولكن وجوب الأداء هو الذى يشترط فيه الاستطاعة. فمن لا يستطيع هذا العام قد يستطيع فى قابل وهكذا.

والاستطاعة التى توجب فرضية الأداء هى الحد الأدنى من الاستطاعة، ولذلك قال النص الكريم: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾.

---

(١) ﴿حج البيت﴾: قرأها بكسر الحاء عاصم وحمزة والكسائي وخلف - غير أبي بكر - ويزيد. وقرأ الباقون بالفتح. [غاية الاختصار - ص٤٥١] وقوله: «وحفص» أي عن عاصم.

أى استطاع بأى سبيل للوصول إلى الحج، فليست الاستطاعة الموجبة للحج هى الاستطاعة الواسعة المعنى التى لا تكون إلا للأغنياء، ولذا فسرها الفقهاء بالقدرة البدنية، والقدرة على الزاد والراحلة أى ما يمكن أن يصل به؛ ولابد أن يكون ذلك فاضلا عن حاجاته الأصلية وعمن يقوتهم، فإن ترك من يقوتهم بلا مال إثم، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت»[١]. والفرض لا يؤدى بالإثم. ومن استطاعة المرأة ألا تكون ذات أطفال صغار يخشى عليهم الضيعة إن تركت حضانتهم ولا حاضن لهم سواها، كما أن من استطاعتها أن يكون معها زوجها أو ذو رحم محرم منها.

والحج عند الأكثرين فرض على التراخى، ولكن المالكية يقررون أنه لا يسع من تجاوز الستين أن يؤخر عن قدرة، وإن كان أصل التراخى ثابتا لصريح الآثار الواردة فى ذلك، والحج فرض مرة واحدة فى العمر، والحج هو مؤتمر الإسلام الأكبر، وقد بيناه مرارا.

﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ فى معنى هذا النص اتجاهان؛ أحدهما: أن يكون الكلام فى تارك الحج ويكون المعنى من ترك الحج جاحدا له منكرا لفرضيته فقد كفر وأضاع مصلحة نفسه ومصلحة أمته بالإجماع فى المؤتمر الأكبر؛ والله سبحانه غنى عن العالمين أى عن الناس أجمعين. فهم محتاجوّن إليه، وهو غير محتاج إليهم.

والاتجاه الثانى: أن يكون الكلام متجها إلى اليهود الذين أنكروا فضل البيت وقدمه وبناء إبراهيم له. ويكون المعنى: ومن أنكر تلك الحقيقة الثابتة وجحدها بعد البينات فقد أركس[٢] نفسه والله سبحانه غنى عن العالمين.

اللهم اهدنا إلى الحق ووفقنا للإيمان به.

---

(١) رواه بهذا اللفظ أبو داود: الزكاة - في صلة الرحم (١٤٤٢)، وأحمد: مسند المكثرين من الصحابة (٦٢٠٧).

(٢) أركس الشيء: رده مقلوبا. ومنه قوله تعالى: ﴿والله أركسهم بما كسبوا﴾ أي ردهم إلى كفرهم.

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ
عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ
بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟
فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾
وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ
رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾

فى الآيات السابقة بين الله سبحانه وتعالى شرف البيت، وأنه أول بيت بنى للعبادة، وضعه إبراهيم عليه السلام، وأن على كل مؤمن أن يحج إليه، وكان ذلك فى مساق الرد على اليهود الذين أنكروا فضل البيت الحرام، وادعوا أن بيت المقدس أقدم منه عبادة، فبين سبحانه أنه أول بيت وضع للناس، وقد ذكر سبحانه وتعالى أن هؤلاء اليهود كانوا يحاولون دائما تضليل المؤمنين، وما كانت مجادلتهم هذه لأنهم يتشككون، بل لأنهم لا يذعنون للحق بعد إذ عرفوه، ويريدون أن يكون الناس جميعا على طريقتهم العوجاء، وعلى ما هم عليه؛ لأنهم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، ولقد أثاروا كثيرا من الشك فى مجادلاتهم ليُوهِنُوا أمر العقيدة فى قلوب المؤمنين، فلم يجدوا بين المؤمنين آذانًا مصغية، ولا قلوبا مفتوحة لظلامهم، بعد أن أشرق فيها نور الحق، فإنه لا يلتقى فى قلب واحد نور الله وظلمات الباطل، ولقد انتقلوا من التشكيك فى العقيدة إلى إثارة الفتنة بين المؤمنين، لتعود العادات الجاهلية كما بدأت، فإنه يروى أن رجلا يهوديا قد عتا فى الجاهلية، وكان شديد الضغن على المؤمنين - أراد أن يثير الفتنة بين الأوس والخزرج فأمر فتى بأن يجىء إليهم، وينشدهم بعض الأشعار التى كانوا

يقولونها فى الجاهلية متفاخرين، ففعل، فتذاكروا يوم بعاث، وهو يوم حرب من أيامهم فى الجاهلية، وتكلموا فى ذلك فتنازعوا وهَمَّ الحيَّان أن يتقاتلا، حتى جاءهم النبى ﷺ يقول لهم: «يا معشر المسلمين، الله الله، أتدعون بدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف بينكم، أترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا؟»(١).

هذا فعل اليهود، كفروا بالحق بعد أن جاءتهم البينات، ولم يكتفوا بالكفر، بل أخذوا يصدون ويمنعون عن الحق أو الاستقرار فيه غيرَهم؛ ولذا قال سبحانه:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ الأمر للنبى ﷺ، وقد أمره سبحانه وتعالى أن يوبخهم على ما كان منهم، وأمره أن يناديهم بـ «أهل الكتاب» للمبالغة فى التوبيخ والاستنكار؛ لأن علمهم بالكتاب كان يتقاضاهم الإيمان، وأن يذعنوا للحق، فإنه لا يستوى من يعلم ومن يجهل؛ فإن كانوا مع علمهم بأخبار النبوات يكفرون، فهو دليل على فساد قلوبهم، ويقول سبحانه: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ والآيات هنا هى الآيات القرآنية، والكفر بها هو عدم الإذعان لأحكامها وإنكار صدقها، ومنازعة أهل الحق فى معانيها، أو نقول: آيات الله تعالى هى الأمارات التى ساقها الله سبحانه وتعالى لإثبات الحق فى الرسالة المحمدية، فهم لإيغالهم فى الجحود والإنكار لا يكتفون بإنكار الحق، بل ينكرون الدليل الذى قام عليه، وثبت به، وهم بذلك يغلقون قلوبهم، فلا يصل إليها نور الحق، وإذا كانوا ينكرون كل دليل يصلهم بالهداية، فقد سارعوا إلى الكفر، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ أى عالم علم المعاين الحاضر القائم الحاكم على ما يعملون دائما، سواء أكان العمل عمل القلب أم كان العمل عمل الجوارح.

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره - آل عمران: ٩٩

والإنكار فى الآية الكريمة منصب على كفرهم مع هذه الحال، والمعنى: يا أهل الكتاب الذين أوتوا علم النبوات لِمَ تكفرون بالأدلة القائمة على صدق رسالته، والحال أن الله تعالى شهيد عالم معاين حاكم قوام على ما تعملون من خير ومن شر، فالنص السامى يتضمن توبيخا على الكفر، وتهديدا بالعقاب الشديد على ما يعملون، لأن الله تعالى إذا كان شهيدا على ما يفعلون، وهو الحكم العدل القادر على الثواب والعقاب، فإنه بلا ريب مجازيهم على فعلهم، ومحاسبهم على مقاصدهم فى أقوالهم وأفعالهم.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ﴾ ذكرنا أنهم لا يكتفون بكفرهم، بل يبغون فى غيرهم إبعاده عن الحق، فيصدون عن سبيله، وقد كرر سبحانه بالحق الذى أنكروه، ويضع أيديهم على حالهم التى ألفوا فيها الباطل، حتى غلقوا به أبواب الحق على أنفسهم وقوله تعالى: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ معناه لِمَ تصرفون الناس عن سبيل الله تعالى وهو سبيل النور وسبيل الحق، فالصد هو الصرف والمنع، والحيلولة بين الشخص والوصول إلى الأمر؛ و«سبيل الله» هى السبيل التى وضّحها وبيّنها سبحانه، وهى الصراط المستقيم الذى يوصل إلى رضاه سبحانه، وإذا كان أولئك يحاولون منع الناس من الطريق الذى رسمه العلى الكريم وحد حدوده فقد عاندوا إرادة الله وحادوه، ومن يحادّ الله تعالى فإنه مغلوب لا محالة، وقد وصف سبحانه وتعالى حالهم فى الصد عن سبيل الله فقال: ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أى ترغبون العوج لها، أى تريدون أن تكون ملتوية غير واضحة ولا بيّنة فى أعين المهتدين، كما التوت نفُوسُكم، وحالت عيونكم، فلم تدرك الحق مستقيما بعد أن قامت بيناته، أو المراد تبغونها أى تطلبونها معوجة حائلة، أى لا تتجهون فى طلبها بقلب سليم، فتكون معوجة لاعوجاجكم.

وقد قال الزمخشرى فى معنى هذه الجملة السامية: «فإن قلت: كيف تبغونها عوجا، وهو محال؟ قلت: فيه معنيان؛ أحدهما: أنكم تلبسون على الناس حتى توهموهم أن فيها عوجا بقولكم: إن شريعة موسى لا تنسخ، وبتغييركم

صفة رسول الله ﷺ عن وجهها، ونحو ذلك. والثانى: أنكم تتبعون أنفسكم فى إخفاء الحق وابتغاء ما لا يتأتى لكم من العوج فيما هو أقوم من كل مستقيم». وهذا الكلام فى جملته قريب منه ما بيناه آنفا.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ﴾ والحال أنكم شهداء عالمون بالحق علم من يعاين ويشاهد ويحكم بأنه الحق والصواب، فهو جحود عن علم، وكفر ليس عن جهل، وإيغال فى الكفر بالصد عن سبيل الله، وبينات الحق بين أيديكم وأماراته مُعلنَة له فى أيديكم.

والاستنكار التوبيخى متجه إلى جملة حالهم، ومعنى كلامه السامى سبحانه: لِمَ تصرفون الناس عن طريق الحق، وتبغون الاعوجاج، أو توهمون الناس أن فيه عوجا والتواء، والحال أنكم تشهدون بالحق الذى اشتمل عليه، وتعلمه علم المعايش الذى يراه ويحسه، ولقد أنذرهم سبحانه بعد ذلك بقوله تعالى:

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ هذا نفى مؤكد لإهمال الله تعالى عملهم، وغفلته عنهم ومما يضمرون ويفعلون، وقد تأكد النفى بالباء الزائدة التى تفيد توكيد النفى، وكان ذلك النفى المؤكد لبيان عاقبة أعمالهم، فإذا كان ما يفعلون فى كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فإنهم مجزيون به، محاسبون عليه، وهو من جنس ما صنعوا، وما صنعوا بكفرهم وصرفهم الناس عن طريق الله تعالى، وطريق الحق ـ إلا شرا، وإلا خسارا يعود عليهم فى الدنيا والآخرة، ففى الدنيا يعود بالفشل والذلة، وفى الآخرة عذاب الهون بما كانوا يكسبون.

ولقد حذر الله سبحانه المؤمنين مما يريدونه بهم. فقال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ كان نزول هذه الآية وما وليها من آيات بعد تلك المحاولة التى حاولها الشيخ اليهودى فى التفرقة بين الأوس والخزرج، والتى هَمَّ الفريقان بسببها أن يتشاجرا بالسيوف لولا أن نبى الرحمة تداركهم قبل أن يفعلوا، وأدركوا بكلمات

الرسول أنها نزغة الشيطان، فحذرهم الله تعالى هذه النزغة مرة أخرى، وأمرهم بالحذر الشديد من اليهود خشية أن يكون فعلهم محاولة لما يريد أولئك الأشرار الذين ابتلى الله بهم البرية، ومطاوعة لمقاصدهم الآثمة، وصدر الخطاب بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تنبيها لخطر ما يدعوهم إليه، ولتحريك عناصر الإيمان فى قلوبهم، فيكون منهم الحذر واليقظه، فإن الإيمان فطنة[1]، ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين[2]، ولأن علة الإجابة للطلب هى الإيمان، وفى قوله تعالى: ﴿إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ عبر فى الشرط بـ «إن» للإشارة إلى بعد وقوع الطاعة منهم لهؤلاء مع إيمانهم، لأن «إن» الشرطية تفيد الشك فى وقوع الشرط، وبالتالى ترتب الجواب عليه، بخلاف «إذا» فإنها تفيد وقوع الشرط أو تؤذن بوقوعه وترتب الجواب عليه، كقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝١﴾ [الانشقاق] وقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ۝٢﴾ [الانفطار]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ [التكوير] وذكر سبحانه وتعالى الذين يحاولون إركاس المسلمين فى الفتنة وتضليلهم، بأنهم فريق من الذين أوتوا الكتاب؛ لأنهم لم يكونوا كلهم، ولأنه يرجى الإيمان من بعضهم. بدل الاستمرار على الغى والفساد؛ ووصفهم سبحانه وتعالى: بأنهم أوتوا الكتاب للإشارة إلى أن تضليلهم مقصود، وأنهم أهل معرفة، ولكنهم استخدموها للضلال والتضليل، فصاروا بهذا كالأنعام بل أضل سبيلا؛ لأن المعرفة إن لم تكن لنصرة الحق كان الجهل خيرا منها؛ لأنه أدنى إلى المعذرة.

وقد رتب سبحانه على الطاعة المفروضة التى حذر سبحانه وتعالى منها نتيجتها إن وقعت، ولا تقع من مؤمن بحمد الله تعالى فقال سبحانه: ﴿يَرُدُّوكُم

(١) الفطنة: الفهم والحذق.

(٢) متفق عليه؛ رواه البخاري: الأدب - لا يلدغ مؤمن من جحر مرتين (٥٦٦٨)، ومسلم: الزهد والرقائق (٥٣١٧) وجاء في فتح الباري.

﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ وفى هذا يعبر سبحانه وتعالى بقوله: ﴿يَرُدُّوكُم﴾ ولم يقل: ﴿ترتدوا﴾ والمعنى متلاق، ولكن الأول فى بيان تسلط الكفار على قلوب أهل الإيمان فى حال تلك الطاعة، فهو نوع آخر من التحذير منهم؛ لأنهم كالشياطين، فعلى كل مؤمن أن يحذرهم.

أما الارتداد فإنه يكون انبعاثا من نفس المرتد، بضلاله هو لا بتأثير من غيره.

وفى الجملة النص السامى الكريم سيق لتحذيرهم من ذلك العدو الذى اختلط بهم، وأخذ ينفث سموم الشر، وسموم التفرقة بينهم، وأنهم يعودون إلى الكفر إذا استجابوا لدعوته، ومكنوا لسمومه من أن تصل إلى قلوبهم، ولقد بيّن سبحانه بعد ذلك أنه ما كان يسوغ لهم أن يستمعوا إلى دعوات الأعداء، ويفتحوا الباب لتدبيرهم الخبيث، ورسول الله فيهم فقال: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾:

الاستفهام هنا للتعجب أو للإنكار، ومعنى التعجب فيه هو أنه لايُتَصَوَّر أن يكون منكم كفر، ولو تصور لكان موضعا للعجب والاستغراب؛ لأن آيات الله تتلى عليكم، ورسوله بين ظهرانيكم، ويردكم للحق إن زغتم، وتهديكم آيات الله البينة إن ضللتم، وهذا فيه ما يومئ إلى إلقاء اليأس فى قلوب اليهود من أن يصلوا إلى ما يبتغون من إيجاد الفرقة والانقسام بأمر جاهلى، وأما على اعتبار الاستفهام للإنكار فهو إما نفى للوقوع أى أنه لا يمكن أن يقع منكم الكفر، ورسول الله بينكم، وآيات الله تتلى عليكم، وإما أنه نفى للواقع، فيكون للعتب، والمعنى كيف سوغتم لأنفسكم أن تفتحوا قلوبكم لأسباب الكفر التى ابتغاها اليهود بالاستماع إلى كلماتهم المفرقة، فيكون الإنكار لما وقع باعتباره كان يؤدى إلى الكفر، فيعودون إلى ما كانوا عليه فى الجاهلية يضرب بعضهم رقاب بعض، فإذا كان الإنكار للواقع يكون الإنكار للسبب الذى وقع ويؤدى إلى السبب وهو الكفر، لا أن الكفر قد وقع.

والإنكار أو التعجب أساسه الحال التى هم عليها، وهى كونهم فى حضرة الرسول ﷺ وهو يتلو عليهم الآيات، فالمعنى كيف تكفرون أو يتصور منكم الكفر، أو يسوغ لكم أن تسيروا فى أسبابه، وآيات الله تتلى عليكم بلسان رسول الله ﷺ لا بلسان أحد سواه، ويقول الزمخشرى فى توضيح هذا: (تتلى عليكم على لسان رسول الله ﷺ غضة طرية، وبين أظهركم رسول الله ﷺ ينبهكم ويعظكم ويزيح شبهكم).

والخطاب فى الآية: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ﴾ - كما يبدو من عبارات الزمخشرى وغيره - خاص بالمؤمنين فى عصر النبى ﷺ، وهم الذين شاهدوا النور المحمدى وشافهوا الرسول ﷺ، وإن ساعة فى حضرة النبى ﷺ تغنى عن اجتهاد سنين، كما قال أبو حنيفة رضى الله عنه. ويصح أن يكون الخطاب لكل المؤمنين، وتكون الآيات تتلى على لسان القراء والعلماء من بعده، وهى ستتلى إلى يوم القيامة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر] وأما وجود الرسول فى الأخلاف فإنه يكون بوجود سنته النبوية الشريفة، وإنه إن كان الاحتياط يكون أشد - لا يخلو من فضل ثواب إن سلم القلب واهتدى العقل وتحصنت النفس، وقد روى البخارى أن النبى ﷺ قال لأصحابه يوما: [«أى المؤمنين أعجب إليكم إيمانا؟» قالوا: الملائكة، فقال عليه الصلاة والسلام: «وكيف لا يؤمنون والوحى ينزل عليهم؟!» قالوا: فنحن؟ «وكيف لا تؤمنون، وأنا بين أظهركم؟!» قالوا: فأى الناس أعجب إيمانا؟ قال: «قوم يجيئون من بعدكم يجدون صحفا يؤمنون بما فيها»].

﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ بعد أن بيّن سبحانه ما يحاوله اليهود وما يتمنونه وهو أن يضلوا المؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [آل عمران] - أخذ يبّين سبحانه طريق العصمة من مكايدهم، ويغلق أبواب القلب حتى لا يتأثر بما يحاولون أن يفسدوه به، فقال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ﴾ أصل

الاعتصام معناه الامتناع والالتجاء والاستمساك، وهو من عصم بمعنى منع، يقال عصمه الطعام أى منع عنه الجوع، وعصمته النبوة أى منعته من أن يقع فى إثم قط، ومعنى النص السامى: ومن يعتصم بالله أى يجعل الله تعالى عاصما له ومانعا، يستنصح بكتابه، ويلجأ إلى كلام رسوله إذا أدلهمت الظلمات، فقد هدى إلى صراط مستقيم، أى طريق مستقيم لا عوج فيه ولا انحراف، ومعنى الاعتصام بالله : الاعتصام بدين الله كما قال أكثر المفسرين،وإنى أرى الاعتصام بالله هو الاعتصام بذاته سبحانه، وإن كان الاعتصام بالذات العلية يستلزم حتما الاعتصام بدينه الحق الخالد إلى يوم القيامة، ولكنى اخترت الاعتصام بالله، وأن يكون الإسناد إلى ذاته سبحانه من غير تقدير مضاف؛ لأن الاعتصام بالله يقتضى ألا يحب أحدا إلا الله، ويقتضى أن يكون الشخص ربانيا لا ينظر إلى عصبية جاهلية، ولا لهوى ولا لعرض من أعراض الدنيا، فيلجأ إلى الله، ويحب الشىء لذات الله كما ورد فى الحديث الشريف: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب الشىء لا يحبه إلا لله تعالى»(١)، ويقتضى أن يتجه إلى الله ويتذكره عندما ينزغ فى النفس نازغ، كما قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ... ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت]، ويقتضى الاعتصام بالله أن يتوكل على الله حق توكله، فيدبر الأمور ويعتزمها ثم يفوض أمر مصايرها إليه سبحانه وتعالى، ويقتضى الاعتصام بالله أن يبتعد عن مواطن الريب، ولا يتبع الشبهات، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران].

ذلك بعض مظاهر الاعتصام بالذات العليّة، ولذا نجد أنه لا حاجة إلى تقدير مضاف هو لفظ دين ، وفوق ذلك فإن هذا التقدير لا يستقيم معه نسق القول فى

(١) سبق تخريجه.

نظرى؛ لأن الصراط المستقيم هو دين الله القويم، فكيف يكون دين الله هو الذى يهدى إلى دين الله، إنما الذى يهدى إلى دين الله هو الاعتصام بذات الله العلية.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ عبر فيه بالماضى للإشارة إلى التحقق والتأكد والثبوت، أى الجواب يترتب على الشرط لا محالة، فإذا وجدت حقيقة الاعتصام بالله - وإنها لأجلُّ حقائق هذا الوجود - فإنه يوجد لا محالة الاهتداء إلى الطريق المستقيم الواضح الذى لا عوج فيه ولا أمت[١].

اللهم اعصمنا من الزلل، واهدنا فيمن هديت، ووفقنا لما يرضيك يارب العالمين.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

بين الله سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة عناد بعض أهل الكتاب واستمرارهم فى غيهم، وسدهم طريق الهداية فى قلوبهم، وتحديهم للحق وأهله، ومعاندتهم للبينات الثابتة التى لا تقبل نكيرا، ثم مجاوزتهم الحد، ومحاولة صدهم المؤمنين عن الحق، وبث روح الفرقة والانقسام، لكى يعود أمر الجاهلية كما كان، ولكى يتفرقوا أوزاعا كما كانوا أولا. وفى هذه الآيات يبين للمؤمنين

(١) الأمت: المكان المرتفع، والعِوَج: المرتفع. الصَّحَّاح. فالطريق المستقيم هنا هو المستوي الذي لا ارتفاع فيه ولا انخفاض.

الحبل الوثيق الذى لا يضلون إذا استمسكوا به، ولا يتفرقون ما داموا آخذين بعروته الوثقى، وهو تقوى الله حق تقاته، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾.

صدر الكلام سبحانه بهذا الموصول الذى كانت الصلة فيه الإيمان، للإشارة إلى أن المطلوب من مقتضيات الإيمان ومن نتائجه، وهو غاية الغايات فيه، والثمرة الدانية له. وقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ معناه: اتقوا الله تعالى «واجب تقواه» أى اتقوا الله تعالى بالقدر الذى يجب أن يتقى به، وهو الحق الثابت المستقر الذى ينبغى أن يستمر ولا ينقطع؛ و«تُقَاة» مصدر على وزن فعلة كتؤدة، والواو قلبت تاء على ما هو الأصل فى كلمة تقوى لأنها من الوقاية؛ وكلمة «حَقَّ» منصوبة على أنها مفعول مطلق مضاف إلى المصدر المشتق منه الفعل؛ ومثل هذا قولنا ولكلام الله المثل الأعلى: أكرم فلانا حَقَّ الإكرام، أو أدب ولدك حق التأديب، وإضافة تقاة إلى الله تعالى فى قوله تعالى: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ تفيد علو الواجب المطلوب له سبحانه وتعالى من التقوى، فالمطلوب هو التقوى الواجبة التى تليق بذى الجلال والإكرام الواحد القهار، والمالك لكل شيء، القاهر فوق عباده، الغالب على كل أمر، ويقول الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ واجب تقواه وما يحق منها، وهو القيام بالمواجب، واجتناب المحارم، ونحوه ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ... ﴿١٦﴾﴾ [التغابن] يريد بالغوا فى تقوى الله حتى لا تتركوا من المستطاع منها شيئا».

وهذا معنى مستقيم، وتخريج قويم، ويكون المعنى فى الآيتين متلاقيا؛ إذ يكون معنى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ اتقوه بأقصى الاستطاعة فى التقوى، فبذل المستطاع منه هو عين التقوى، وهو أقصى غاياتها.

وقد زعم بعض المفسرين أن الصحابة عندما نزل قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ شكوا إلى رسول الله مشقة ذلك عليهم، فنزل قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا

استَطَعْتُمْ ... ﴿١٦﴾ [التغابن] واعتبروا هذه الآية ناسخة للسابقة، وفى الحق، إن دعوى النسخ باطلة، فإنه إذا صحت الرواية، فإن المناسب لمعناها أن نقول: إن القوم لقوة إحساسهم الدينى لم يرفقوا بل اشتدوا على أنفسهم فى العمل، فقاموا فى صلاة الليل حتى ورمت عراقيبهم، وتقرحت جباههم، كما ورد عن سعيد بن جبير، فبين الله سبحانه وتعالى المقدار الذى كُلفوه، وهو الاستطاعة الدائمة، فهم لا يكلفون إلا المستطاع الذى لا يشق أداؤه، وهذا هو المعنى الذى يتفق مع الحقائق الإسلامية والسنن المروية الثابتة، فإنه يروى أن النبى ﷺ رأى عابدا يعبد الله حتى أرهق نفسه وغارت عيناه، فقال له عليه الصلاة والسلام: «إنَّ هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، إنَّ المُنْبتَّ لا أرضا قطع، ولا ظهرا أبقى»(١).

وإن أفضل التقوى فى الإسلام ما يدوم، وما يمكن أن يستمر الشخص عليه من غير إجهاد ومشقة، ولذا قال النبى ﷺ: «أحب الأعمال عند الله أدومها وإن قل»(٢) وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله يحب الديمة من الأفعال»(٣) وذلك لا يكون إلا فى دائرة المستطاع، وقد جمع النبى ﷺ معنى تقوى الله حق تقاته فى قوله: «حق تقاته: أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا يُنسى، وأن يشكر فلا يكفر» ﴿وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾:

النهى ليس منصبا على الموت، وإنه بضم النهى إلى الاستثناء يكون المطلوب أمرا إيجابيا، وهو ما بعد أداة الاستثناء، فيكون المعنى الجملى كونوا على حال الإسلام المستمرة إلى الموت؛ إذ كل كلام مشتمل على استثناء هو فى معناه تكلم بالباقى بعد أداة الاستثناء؛ فإذا قال قائل: لا تكرم إلا محمدا، فمعنى القول أكرم محمدا وحده؛ لأن معنى الاستثناء نفى وإثبات، فهو يتضمن النفى لما عدا ما بعد

(١) رواه أحمد: باقي مسند المكثرين (١٢٥٧٩).
(٢) رواه البخاري: القصد والمداومة على العمل (٥٩٨٣)، ومسلم: صلاة المسافرين وقصرها - فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره (١٣٠٥).
(٣) سبق تخريجه.

إلا، والإثبات لما بعد إلا، وقد يكون العكس ويكون موضع النهى هنا هو النهى عما يمنع استمرار الإسلام إلى الوفاة ولقاء الرب تعالت قدرته، وعظمت نعمته، فهو أمر لهم بأن يقصروا أنفسهم على حال الإسلام وحده إلى أن يتوفاهم الله سبحانه وتعالى.

ومعنى الإسلام هو الإخلاص لله سبحانه وتعالى وحده، والإذعان له تبارك وتعالى، وألا يستمعوا إلا إليه، وأن يصموا آذانهم عن كل دعوة تخالف ما يأمر به وما ينهى عنه؛ فذلك هو الإسلام المطلوب ممن تشرفوا بذلك النعت الكريم، وهو ما قد بيَّنَّاه من قبل عند الكلام فى قوله تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ... (٨٣)﴾ [آل عمران] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ... (١٩)﴾ [آل عمران] وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣)﴾ [البقرة] وإطلاق الإسلام بمعنى الإذعان الظاهرى لا يكون فى القرآن إلا بقرينة، ويعبر عنه فى مقابل الإيمان، وبالفعل لا بالوصف، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ... (١٤)﴾ [الحجرات].

والخلاصة أن الله تعالى يأمر المؤمنين بأن يستمروا على إذعانهم للحق الذى يدعوهم إليه، ويمنعوا أن يدخل الانحراف إلى قلوبهم، فلا يجيبوا داعى اليهود وأشباههم الذين يريدون أنْ يصدوهم عن دينهم حسدا من عند أنفسهم.

ولقد أمر الله سبحانه وتعالى من بعد ذلك بما يكون فيه العصمة من الزلل، والاستمرار على الحق إلى أن يلقوا ربهم، فقال تعالى:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾ العصمة: المنعة، ومعنى اعتصموا اجعلوا أنفسكم فى عصمة ومنعة عن الزلل بحبل الله، ولكن ما هو حبل الله الذى أمر سبحانه بالاستمساك به، واعتبر الأخذ به عصمة من الزلل؟

والجواب عن ذلك أن «الحبل» فى أصل معناه اللغوى «السبب» الذى يوصل إلى الغاية، وله بعد هذا المعنى الأصلى اللغوى معان أخرى مشتركة، فيطلق على

الرسن[١]، كما يطلق على العهـد، كما فى قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ...﴿١١٢﴾﴾ [آل عمران] ويطلق على الإيمان، كما يـطلق على القرآن، وقد ورد بذلك الحديث النبوى، فقـد قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ القُرآن هو حبل الله المتين، وهو النور المبين، والشفاء النافع، عصمة لمن استـمسك به»[٢]، وروى عن زيد بن أرقم أن النبى ﷺ فسر حبل الله تعـالى فى هذه الآية بالقرآن، فـقد قـال: «حبل الله هو القـرآن»[٣] وإن ذلك هو الواضح، فحبل الله تعـالى هو شريعته المحكمـة الباقية إلى يوم القـيامة، والمؤدى واحد، فشريعـة الله سجلها القرآن، فهو بيانهـا، وهى حبل الله، والعروة الوثقى التى يضل من فصمها أو تركها.

وقد ذكـر سبـحانه أن الأمـر بالاعتصـام لا يؤدى غايتـه وحقـيقـته إلا إذا اعتصمت الأمة جميعها، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ أى كونـوا جميـعا مـستـمسكين به؛ وذلك لأن هـذا الدين كل لا يقبل التـجـزئة، والجماعة الإسلامية كل وطائفة واحدة، وكلمة ﴿جَمِيعًا﴾ يصح أن تكون حالا من الواو، ويصح أن تكون حالا من حبل الله تعالى، وعلى الأول يكون المعنى كونوا جميـعا مستـمسكين بحبل الله، ولا يصح أن ينفصل منكم طائفـة لا تأخذ بذلك الحبل؛ لأن الشـيطان ينفذ إليكم عن طريق هذه الطـائفة التى شذت وعـصت أمر ربها.

وعلى أن كلمة ﴿جَمِيعًا﴾ حال من حبل الله، يكون المـعنى خذوا بالقرآن كله، ولا تجعلوه عضينا تؤمنون ببـعضه وتكفرون ببعضه، أو خذوا بشـريعته كلها ولا تأخذوا بجزء منها دون جزء، فإنها كل لا يقبل التجزئة.

---

(١) الرسن: الحبل، ورسن الفرس، إذا شدَّه. من باب نصر. الصحاح.

(٢) رواه بهذا اللفظ الدارمي: فضـائل القرآن - باب من قرأ القرآن (٣١٨١) هكذا موقوفـا على عبد الله بن مسعود.

(٣) عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا وإنى تارك فيكم ثقلين أحـدهما كتاب الله عز وجل هو حبل اللـه، من اتبعه كـان على الهدى ومن تركـه كان على ضـلالة». جزء من حديث رواه مـسلم في صحيحه: فضائل الصحابة - فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٢٤٠٨).

والأمران مرادان معاً، فإن مقتضى النص أن نأخذ جميعاً بالشريعة كلها، لا نفرق بينها، ولا نتفرق فى أمرها؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَلا تَفَرَّقُوا﴾ أى لا تتفرقوا فى أنفسكم، فلا يضرب بعضكم رقاب بعض، ولا تتنادوا بنداء الجاهلية، ولا تتفرقوا فى دينكم، فتذهبوا فى فهمه شيعا وفرقا مختلفة، فتضلوا عن سبيل الله، ولا شيء يذهب بنور الحق المبين أكثر من اختلاف الأنظار فى فهمه وإدراكه، والنظر إليه بروح التعصب الذى يغفل عن الاتجاه إلى الحق فى كل جوانبه، ولذلك جاء النهى عن التفرق فى الدين، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ... ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام] ولقد توقع النبى ﷺ الافتراق لأمته، وأنه سيكون سبب ضعفها، وأن عودة قوتها فى عودة اجتماعها، ولذا قال النبى ﷺ: «ليأتين على أمتى ما أتى على بنى إسرائيل حذو النعل بالنعل، وإن بنى إسرائيل تفرقت اثنتين وسبعين ملة، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين، كلهم فى النار إلا واحدة، قالوا: ومن هى يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابى»(١).

وإن الطريق للخروج من الافتراق هو الذهاب إلى لب الدين بإخلاص، ومن غير انحراف إلى طائفة دون أخرى، ولذا قال النبى ﷺ: «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لاشريك له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، مات والله عنه راض»(٢) فإنه لايفرق إلا الأهواء، ولايهدى إلا الإخلاص، فإذا سيطرت الأهواء المنحرفة، سرى الضلال إلى النفس وإلى الفكر، ولذا قال ﷺ: «إنه سيخرج من أمتى أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله»(٣).

---

(١) رواه الترمذي: الإيمان - ما جاء في افتراق هذه الأمة (٢٥٦٥).
(٢) رواه ابن ماجه: المقدمة - الإيمان (٦٩) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٣) جزء من حديث رواه أبو داود: السنة - شرح السنة (٣٩٨١).

وإن النهى عن التفرق توجب إطاعته الإخلاص والحذر، وطريقه الاعتبار، ولذلك قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾.

الخطاب عام لكل المؤمنين فى كل الأجيال وكل الأعصار، ويدخل فى عمومه كل الأجناس وكل الشعوب، فالدعوة إلى التذكر دعوة عامة، وهى تذكر لماضى الانقسام، ثم من بعد الاتفاق والوئام، والطريق إلى الوحدة، ولكن إذا كان التذكير عاما، فإن الاختلاف الذى أشار إليه النص الكريم كان خاصا بطائفة من المؤمنين، وهم الذين عاصروا النبى ﷺ من المهاجرين والأنصار، فالأنصار أكلتهم الحرب التى قامت بين الأوس والخزرج حتى أتم الله عليهم نعمة الهداية، والعرب جميعا كانوا فى تنابز وتنافر حتى كادت بعض قبائلهم تفنيها الحروب التى لا تبقى ولا تذر. ولماذا اعتبر الاختلاف السابق الخاص كأنه اختلاف عام، وخوطب به المؤمنون جميعا؟ والجواب عن ذلك أن هذا للدلالة على وحدة الأمة، فما كان من ماضيها يخاطب به حاضرها للاعتبار والاتعاظ، ولأن سبب الاختلاف فى كل نفس لا يقى منه إلا الهداية، فما وقع من الماضين يتوقع أن يقع من الحاضرين، لأن الإنسان ابن الإنسان، ولأن الخلاص طريقه واحد، فما خلص به الماضون يخلص به الحاضرون، إن اعتزموا سلوك ما سلكه الذين من قبلهم.

والنعمة التى يذكرنا الله بها فى قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ هى نعمة الهداية والتأليف القلبى، وهو أعظم النعم على الجماعات والأمم، وقد بينها سبحانه بقوله: ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ فهذه نعمة بيّنة واضحة، وهذه النعمة ترتب عليها أثرها الجليل الخطير بفيض آخر من نعمته سبحانه أيضا ولذا قال: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ فالنعمة الثانية التى كانت امتدادا للنعمة وفيضا لها هى نعمة الأخوة العامة، التى تجعل الأهواء مشتركة، والمصالح متشابكة متوحدة، يتعاون كل واحد فى الأمر الذى يحسنه لمصلحة الجميع، والآية ترمى إلى بيان أن تألف القلوب وحده نعمة والأخوة المترتبة عليه المتعاونة نعمة أخرى،

والتآلف معنى نفسى، والأخوة مظهر اجتماعى عملى، ولقد شدد - سبحانه - فى التذكير بمآثم الاختلاف بعد أن أشار إلى نعمة الوفاق بقوله : ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾.

أى كنتم -بسبب اختلافكم وضلالكم وعبادتكم للأوثان وانحراف تفكيركم- قد أوشكتم على أن تقعوا فى النار بسبب تغلغلكم فى أسبابها وسيركم فى طريقكم حتى صرتم كأنكم على شفا حفرتها، وشفا الحفرة حرفها، وقوله تعالى: ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ الضمير يعود إلى الحفرة؛ لأن من يكون على شفاها يقع فيها لا محالة إلا أن يبعده مبعد عنها، فيكون منقذا له منها، والكلام فيه استعارة تمثيلية، وخلاصتها أنه شبهت حالهم فى ترديهم فى الاختلاف والوثنية وسيرهم فى طريق النار يوم القيامة بحال من يكون على طرف حفرة من النار لا يتماسك عن الوقوع فيها، وشبهت هداية الله تعالى لهم بحال من يتولى تجنيبهم التردى فى تلك الحال الخطيرة، ولقد ذكر سبحانه وتعالى سنته فى بيان هدايته فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

أى كهذا البيان الذى بيّنه الله سبحانه وتعالى لكم فى محكم القرآن، وبين لكم به سبيل هدايتكم، وبين لكم به نعمة هدايتكم ونعمة أخوتكم، يبين سبحانه وتعالى دائما الآيات البينات سواء كانت تلك الآيات قرآنية أم كانت كونية، وذلك لتقربوا دائما من الهداية، ولتكون بين أيديكم أسبابها، لعلكم تنالون الثمرة وهى الاهتداء الدائم، والله سبحانه وتعالى هو الهادى إلى سواء السبيل.

وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا
تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ
وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ

وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾

بعد أن أمر سبحانه وتعالى بالاعتصام بحبل الله تعالى؛ والاستمساك بالقرآن الكريم، والالتفاف حوله، وعدم التفرق والانقسام - بيّن سبحانه وتعالى السبيل لهذا الاعتصام، والطريق للوحدة الفاضلة، التى لا تفرق فيها، ولا اختلاف يفك عراها، ويهدم بنيانها، وذلك السبيل هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. ولذلك فرضه سبحانه وتعالى بقوله تقدست كلماته:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ المعروف هو الأمر الذى تعارفته العقول ولم تختلف فيه الأفهام؛ وهو الذى يكون متفقا مع الفطرة الإنسانية التى لا تختلف فى الناس، والمنكر هو ما تضافرت العقول الإنسانية على إنكاره وقبحه، وهو مناقض للفطرة الإنسانية. وإن العقول من بدء الخليقة تضافرت على أمور أقرتها، وعلى أخرى أنكرتها، فلم تختلف العقول فى مدح الصدق والعدل والحياء والعفة، ولم تختلف العقول فى استنكار الظلم والكذب والفجور والاعتداء بكل ضروبه، ومهما يحاول الذين يريدون حل المجتمعات الفاضلة وهدم بنيانها، من إنكار لتلك الحقائق، وادعاء أنها ليست مقومات الإنسانية، وأنها اتفاقات زمنية، وأوهام سيطرت على العقول - فلن يصلوا إلى غاياتهم، وإن ادعوا أن ما يقولونه هو طبيعة الوجود، ولذا سموا أنفسهم وجوديين، وذلك لأن كلامهم ضد طبائع النفوس، وضد السمو الإنسانى عن الطبيعة الحيوانية، وضد الفطرة التى فطر الله الناس عليها، وإن الأعرابى الذى سئل: لماذا آمنت بمحمد؟ فقال: ما رأيت محمدا يقول فى أمر: افعل، والعقل يقول لا تفعل، وما رأيت محمدا يقول فى أمر: لا تفعل، والعقل يقول افعل - أكبر إدراكا من هؤلاء المتفلسفة، وأكثر اتصالا بطبائع الوجود الإنسانى منهم، وهم

فى حقيقة أمرهم وتفكيرهم أكثر اتصالا بالطبائع البهيمية منهم بالطبائع الإنسانية.

و (مِنْ) فى قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ قيل: إنها بيانية، وقيل. إنها تبعيضية، وهى تحتملهما معا، وعلى أنها بيانية يكون المعنى أن الأمة كلها عليها واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ويكون التخريج اللفظى لقوله تعالى تقدست كلماته: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ مثل قول القائل: ليكن منك رجل خير، أو ليكن منك رجل جهاد، أى ليكن منك رجل خير ورجل جهاد، فالمعنى الجملى للنص الكريم: ولتكونوا أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وإذا كان ذلك الواجب على الأمة كلها، فهو يتفاوت بتفاوت مقدار ما أوتيه كل واحد من العلم والقوة، فعلى أولياء الأمر أن يرتبوا أمر الدعوة الإسلامية، وبيان الحقائق، ووضع النظم الزاجرة المانعة من الشر، أن يتفاقم أمره، ويشتد سيله، ويكون على العلماء واجب بيان الشرع فى دروس عامة وخاصة، وبيان الحق فى كل أمر يَجدّ فى شئون الناس، وبيان طرق الدعوة إلى سبيل الله، ويكون على العامة كلٌّ فى محيط وجوده وبمقدار طاقته أن يرشد وأن ينصح، فمن رأى رجلا يرفثُ فى القول، أو يجرح كرامات الناس، أرشده ونهاه، ومن رأى رجلا يفطر فى رمضان وعظه وهداه، ومن رأى رجلا لا يصلى حثه على الصلاة، على أن يكون ذلك برقيق القول، لا بالجفوة والعنف فإن الجفوة لا تجدى بل تبعد، والمودة تجدى وتقرب، وبهذا تكون الأمة كلها تتواصى بالحق، وتتواصى بالصبر والهداية.

هذا سياق القول على أن (مِنْ) بيانية، وأما سياقه على أنها تبعيضية، فيكون المعنى: ليكن بعض منكم أمة أى طائفة تُؤم وتقصد وتكون مجابة الدعوة، إذ تدعو إلى الخير أى إلى كل ما هو نافع فى ذاته، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وعلى ذلك يكون فى الآية الكريمة طلبان:

أحدهما موجه إلى الأمة كلها، وهو إعداد هذه الطائفة التى تقوم بالإرشاد العام والتوجيه الفكرى والنفسى، وتزويدها بكل ما يمكنها من أداء مهمتها، والقيام بالواجب عليها على الوجه الأكمل، وثانى الواجبين هو واجب هذه الطائفة التى تكونت، والوجوب عليها أخص من الوجوب الأول، وكذلك الشأن فى كل الفروض الكفائية، فيها وجوبان: وجوب خاص على من عندهم الأهلية الخاصة للواجب الكفائى، ووجوب عام على الأمة كلها، وهو تمكين هؤلاء الخاصة من القيام بواجبهم وتزويدهم بما يحتاجون إليه.

وقد رجح الزمخشرى أن تكون (مِنْ) تبعيضية، وقال فى ذلك «من» للتبعيض لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفايات، ولأنه لا يصلح له إلا من علم المعروف والمنكر، وعلم كيف يرتب الأمر فى إقامته، وكيف يباشره، فإن الجاهل ربما نهى عن معروف، وأمر بمنكر، وربما عرف الحكم فى مذهبه، وجهله فى مذهب صاحبه، فنهاه عن غير منكر، وقد يغلظ فى موضع اللين، ويلين فى موضع الغلظة، وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تماديا، أو على من الإنكار إليه عبث، كالإنكار على الجلادين وأضرابهم).

والأمة التى تُقصد وتكون من صفوة الأمة لها عملان متمايزان بنص الآية؛ أحدهما: الدعوة إلى الخير، وثانيهما: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. أما الأول فهو توجيه الأمة إلى النفع العام، فالخير هو كل أمر نافع فى الدنيا أو فى الآخرة، كتنظيم الاقتصاد، وترتيب العمران، وتنظيم حقوق الفقراء، وربط العلاقة بين الأغنياء والفقراء بوثائق من الدين والنصوص المحكمة التى لا تقبل التخلف، وإنشاء المساجد ودور التعلم وتوجيهها التوجيه السليم، فكل هذا دعوة إلى الخير، وبعبارة عامة شاملة الدعوة إلى الخير تشتمل على كل ما يقوم عليه بناء الاجتماع من الناحية المادية والأدبية.

أما الثانى وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فالمراد به نشر الفكر الإسلامى، وبيان الحقائق الدينية، وتوجيه النفوس إليها وجذبهم نحوها، ودفع كل ما ليس بإسلامى، وإقامة الحق والعدل، وهو مقام سام لا يصل إليه إلا ذوو

الهمة والتقى من الرجال، وهو شاق إن أدى على وجهه، بحيث يرشد الحاكم والمحكوم، والقوى والضعيف، لا يخشى فى الله لومة لائم، لا يجمجم إذا كان المنكر من قوى ظالم، ويغلظ ويعنف إن كان المنكر ممن لا يخشى بطشه ولا يرجى عطاؤه، ولا يتأول لتصرفات من يخاف شره ويطمع فى خيره.

فإن كان المرشد على ذلك النحو فقد سار فى طريق النبيين، ولقد روى أن النبى ﷺ قال: «من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله فى الأرض، وخليفة كتابه، وخليفة رسوله»[١] وهو بهذا الاعتبار خير الناس، ومعنى خلافته عن الله تعالى أن يكون مصلحا فى الأرض غير مفسد فيها، ولذا قال تعالى عند خلق آدم للملائكة: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ** ... ﴿٣٠﴾﴾ [**البقرة**] فخلافة الله فى الأرض تقتضى الصلاح والدعوة إليه، وذلك ما يقوم به الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر، ولقد سئل عليه الصلاة والسلام وهو على المنبر: مَنْ خيرُ الناس؟ قال: «آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم وأوصلهم»[٢]. ولقد قال أبو الدرداء: (لتأمرُن بالمعروف ولتنهوُن عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم سلطانا ظالما، لا يجل كبيركم، ولا يرحم صغيركم، ويدعو عليه خياركم فلا يستجاب لهم، وينتصرون فلا ينصرون، ويستغفرون فلا يغفر لهم).

وإن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مراتب، تعلو كل مرتبة عن الأخرى بمقدار ما يكون فيها من مشقة وتعرض للعنت مع الجدوى والفائدة، ولذا كان أعلاه ما يوجه إلى الجائرين من الحكام والأمراء؛ ولذا قال النبى ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»[٣]. وبذلك اعتبر النبى ﷺ هذه المرتبة جهادا،

---

(١) رواه الديلمي عن ثوبان. كنز العمال ج٣ (٥٥٦٤).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه النسائي: البيعة - فضل من تكلم عند سلطان جائر (٤١٣٨) عن طارق بن شهاب، وابن ماجه: الفتن - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠٠٢) عن أبي أمامة الباهلي، وأحمد: باقي مسند المكثرين (١٠٧١٦) عن أبي سعيد الخدري.

واعتبـر من يقتل فى سبيلها شهـيدا، كمن يقتل فى الحرب، بل اعـتبره فى أعلى درجات الشهـداء، فقد قال عليه الصلاة والسـلام: «سيد الشهداء حمـزة بن عبد المطلب، ثم رجل قـام إلى إمـام فـأمـــره ونهـاه فى ذات الله تعـالى فـقـتله على ذلك»[١].

وإن ترك الأمر بالمعـروف والنهى عن المنكر وخصوصـا للأمراء والحكام هو الذى أضاع المسلمين فى الماضى، وأضاع بنى إسرائيل قبلهم، ولقد روى فى ذلك أحمـد والترمذى وأبو داود أن النبى ﷺ قـال: «إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أن الرجل كان يلقى الرجل، فيـقول: ياهذا اتق الله، ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغـد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكـيله وشريبه وقعـيده، فلمـا فعلوا ذلك ضـرب الله قلوب بعضـهم ببعض. كـلا والله لتأمرُن بـالمعروف ولتنهوُن عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرا، أو ليضربن بقلوب بعضكم على بعض ثم يلعنكم كما لعنهم»[٢].

وإن القيام بحق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يؤدى إلى الفلاح فى الدنيا والآخرة، ولذا ذيل سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالى:

﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أى أولئك الذيـن قـامـوا بهـــذا الواجب هم المفلحـون، ولا يمكن أن يفلـح سواهم ممـن لم يقم بهـذا الواجب، فـفى النص قصر، أى نفى وإثبات، فهو يثـبت الفلاح لهم، وينفى الفلاح عن غيرهم ممن لم يقم بهذا الواجب المقدس، فهـو مناط عزة الأمة ورفعتها وقوتهـا وتقدمها، ونشر العدل والحق والإيمان فى ربوعها، والإشارة هنا إلى الأمة كلها سواء اعتبرنا (مِن)

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه أبو داود: الملاحم - الأمر والنهي (٣٧٧٤). وبنحوه رواه الترمذي: تفسير القرآن - ومن سورة المائدة (٢٩٧٣)، وابن ماجه: الفتن - الأمر بالمعروف والنهي عـن المنكر (٣٩٩٦)، وأحمد: مسند المكثرين - مسند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (٣٥٢٩).
والأطر: الرد، وأصله العطف والثني، لسان العرب.

بمعنى بعض، أم اعتبرناها بيانية، وإذا كانت بيانية فالأمر ظاهر لا يحتاج إلى بيان؛ لأن الأمة هى فى جملتها الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر الداعية إلى الخير، وأما على أن الأمة التى تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر هى طائفة معينة من مجموع المؤمنين، فإن النتيجة من حيث الفوز والفلاح لا يعود على الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر وحدهم، بل الفائدة تعود عليهم أجمعين، إذ إن ضرر الترك يعود عليهم أجمعين، وإنه لا نجاة للأمة إلا إذا تواصَوْا بالحق وتواصَوْا بالصبر، وتواصوا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقد ضرب النبى ﷺ مثلا لترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بقوم يركبون سفينة، ووجدوا واحدا يخرق السفينة، فإن تركوه غرق وغرقوا معه، وإن أخذوا على يده نَجا ونجوا معه(١).

﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ بعد أن بيّن سبحانه وجوب الاعتصام بحبل الله، وأن الاعتصام به مدعاة الوحدة والقوة والاجتماع على الحق، وبيّن طريقه وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، أخذ سبحانه وتعالى يشير إلى نتائج التفرق ناهيا عنه محذرا منه، مبيّنا نتائجه فى الدنيا والآخرة، وأول نتائج التفرق هى العمى عن الحق مع وضوحه وقيام البيِّنات عليه، فقال سبحانه: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ نهى سبحانه وتعالى بهذا عن التفرق بأبلغ تعبير، وألطف إشارة، فقد كان النهى عن أن يكونوا كمن سبقوهم فى التفرق، وذلك نهى مع الدليل الموجب للنهى، والغاية التى ترتبت على النهى عنه، وذلك بالإشارة إلى ما كان ممن سبقوهم؛ إذ تفرقوا أحزابا وَشيَعا كل حزب بما لديهم فرحون، فتفرق اليهود طوائف، وتفرق النصارى طوائف مثلهم، وكل طائفة تُكفِّر الأخرى، أو ترميها بالزيغ والضلال، وقد ترتب على التفرق وتوزع أهوائهم ومنازعهم أن اختلفوا فى إدراك الكتاب مع وضوحه، ومع ما جاءهم من

(١) رواه البخاري: الشهادات - القرعة في المشكلات (٢٤٨٩) عن النُّعْمَان بْن بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

البيّنات الموضحة المبينة التى قامت مثبتة للحق، وهو واحد لا يتعدد، وإن ذلك فيه بيان نتيجة التفرق، وهو الاختلاف مع وجود الحق، وهو تأكيد لمضمون النهى؛ لأنه إذا كان التفرق مؤديا إلى استبهام الحق أمام المختلفين مع وضوحه فى ذاته، فإن الافتراق فى ذاته أمر قبيح، وإن هذه الصيغة فوق ذلك فيها الاعتبار بمن سبقوا، ووضع صورة واقعية لنتائج الافتراق، ولذا كان قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ أكثر معانى من (ولا تتفرقوا) وهى فى هذا المقام أبلغ وأبين، ولأن الآيات السابقة فيها كلام عن أحوال اليهود والنصارى، ومناقضتهم للحقائق الإسلامية، ومحاولتهم تضليل المسلمين عن الحق الصريح، فكان من المناسب أن يشار إلى حالهم، ونتائج تفرقهم، وإعراضهم عن الحق بعد إذ تبين لهم.

وقد يقول قائل : إن الاختلاف يؤدى إلى التفرق مع أن ظاهر الآية أن الافتراق هو الذى أدى إلى الاختلاف، ونقول فى ذلك: إن الاختلاف الذى لا ينشأ عن التفرق ولا يؤدى إليه هو اختلاف تفكير، ولابد أن يصل فيه المختلفون إلى الحق ولا يضلون، وأما الاختلاف الذى يؤدى إلى الافتراق، فهو بلا شك يؤدى إلى الضلال، ويترتب عنه ضلال مع وجود بينات الحق؛ إذ التفرق معناه انحياز كل جماعة إلى ناحية وفرْق معين، وكذلك التفرق السابق على الاختلاف، فإنه يكون نوعا من تحكم الهوى، أو العصبية النسبية، أو العصبية الإقليمية، فيكون كل تفكير تحت سلطان هذه العصبية، فلا تستقيم الحقائق، ولا تدركها العقول، مع قيام البينات.

وقد بين سبحانه نتائج هذا الضلال فى الآخرة فقال سبحانه: ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أى أولئك الذين فرقتهم الأهواء فضلوا ولم يدركوا الحق مع قيام البينات عليه لهم عذاب عظيم فى الآخرة، وهذا التهديد الشديد مقابل للنتيجة الحسنة التى تكون ثمرة التواصى بالحق والتواصى بالصبر، وهى الثابتة بقوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة]. فالافتراق نتيجته خسران فى الدنيا وعذاب عظيم فى الآخرة.

وقد بين سبحانه حالهم فى ذلك اليوم فقال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾. والتعبير عن الحق بالبياض، وعن الباطل بالسواد، مجاز عربى مشهور، كوصف الحق بأنه نور، ووصف الباطل بأنه ظلام ، ووصف الوجوه بالبياض مجاز عن إشراق القلوب بالمعرفة، وامتلائها بالنور؛ ووصف الوجوه بالسواد مجاز من إظلام القلوب، وانطفاء نورها، ولقد قال الزمخشرى فى تحقيق هذا المعنى اللغوى: (البياض من النور، والسواد من الظلمة، فمن كان من أهل نور الحق وُسِم ببياض اللون وإسفاره وإشراقه وابيضت صحيفته، وأشرقت، وسعى النور بين يديه وبيمينه، ومن كان من أهل ظلمة الباطل وُسِم بسواد اللون وكسوفه وكمده، واسودت صحيفته وأظلمت، وأحاطت به الظلمة من كل جانب. نعوذ بالله وبسعة رحمته من ظلمة الباطل وأهله».

ثم بين سبحانه حال الذين اسودت وجوههم وعقابهم بقوله تعالت كلماته: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

هذا تفصيل لما أشار إليه الإجمال، وفيه بيان العقوبة وسببها، وقوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ بيان لحالهم، أى أن حالهم حال من يستفهم عنها استفهام إنكار وتعجب فيقال لهم: أكفرتم وجحدتم الحق وأنكرتموه بعد إيمانكم به وإذعانكم، وهذا حقا موضع عجب، كمن يكون فى روضة من الرياض فيها النعيم، ويتركها إلى الكفر والجحيم، فهم كانوا فى روضة الإيمان، وبتفرق أهوائهم وتنازعهم وعصبيتهم انتقلوا إلى جحيم الكفر، وإذا كانوا كذلك فكفرهم كان كفرا عن علم بالحق وهم لذلك لاى عذرون، ولذا ترتب عليه العقاب فقال: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أى فادخلوا جهنم وذوقوا مرارة العذاب وآلامه كما ذقتم حلاوة الهوى، وكان ذلك العذاب بسبب استمراركم على الكفر، وموتكم عليه، ودل على الاستمرار التعبير بـ ﴿كُنتُمْ﴾، فإن (كان) تدل على الاستمرار، وقد استمروا على حال الكفر فى أقبح صوره، وهو الكفر بعد الإيمان، وبعد هذا بين حال الذين ابيضت وجوههم فقال:

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أى أن الذين أشرقت نفوسهم بنور الحق، وأدركت قلوبهم معنى الإيمان، وذاقت حلاوته، فى رحمة الله تعالى، ورحمة الله تعالى تتسع لكل معانى النعيم المقيم، ورضوانه العظيم وهو أكبر الرحمة، ثم خصهم سبحانه بالخلود فى هذا النعيم الذى لا يُحد بحد، ولا يُرسم برسم، ولا تبلغ العقول مداه، فقال سبحانه: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. أى هم فى الرحمة باقون دائمون.

ويجب التنبيه هنا إلى أمرين:

أولهما: أنه ذكر بياض الوجوه قبل، ثم ذكر حال الذين اسودت وجوههم قبل الذين ابيضت، ليختتم الآية برحمته، كما اختتم الآية السابقة ببيان من يفوز بهذه الرحمة.

الأمر الثانى: أنه سبحانه ذكر وصف الخلود فى النعيم، ولم يثبت الخلود لمقابله، وقد صرح به فى غير هذا الموضع، وذلك أيضا من باب الرحمة ورجاء التوبة.

اللهم مُنَّ علينا بهدايتك، وأنعم علينا بنعمة الإيمان الدائم، واشرح صدورنا لكل ما تأمر به، واصرفنا عما نهيت عنه، فإن القلوب بيدك وأنت مقلب القلوب.

تِلْكَ ءَايَٰتُ
ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾
وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ
﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ
وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ
أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ
وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾

بعد أن بين سبحانه وتعالى ما كان من اليهود فى ماضيهم، وكيف أضلهم الهوى، والعصبية العنصرية، ومنعتهم من أن يصل نور الحق إلى قلوبهم، حتى إنهم ليرون النور يمشى بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وشمائلهم، ومع ذلك يصمون آذانهم عن سماعه، ويحجبون أضواءه عن نفوسهم؛ ذكر سبحانه أنه بين ذلك فى آياته ليعتبر من يعتبر، ولينتفع الحاضرون بنتائج ما وقع فيه الغابرون، فيستبصروا ويستبينوا ويتعظوا ويعتبروا، ولذا قال سبحانه: ﴿**تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ**﴾.

الإشارة فى الآية الكريمة إلى ما كان من آيات سابقات بينت فيها أحوال النفوس التى ضلت وعميت عن الحق، وكانت الإشارة بالبعيد لعلو منزلة هذه الآيات فى بيانها للحق، وإعلانها له، وصدقها فيما حكت وأعلنت، ومعنى ﴿**نَتْلُوهَا**﴾: ننزلها عليك متلوة مقروءة واضحة مبينة سهلة الفهم لمن يريد الحق ويبتغيه، وقوله تعالى: ﴿**بِالْحَقِّ**﴾ أى متلبسة بالحق مبينة له موضحة، والحق هو الأمر الثابت الذى لا مجال للشك فيه، ولا تختلف فيه العقول السليمة، والمدارك القويمة، ولا يوجد أمر ثابت كالحق، وهو ميزان الأفكار ومقياس الأشياء، وعليه قامت السموات والأرض وما بين الناس. وإضافة التلاوة إلى الله تعالى والإظهار فى موضع الإضمار، فقد قال سبحانه: ﴿**تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا**﴾ لكى يكون التصريح باسم الله سبحانه وتعالى مربيا فى النفس المهابة والإجلال له، وهو المستحق وحده لوصف الألوهية، فلا إله سواه، ولا معبود بحق غيره، وهو ذو الجلال والإكرام، وهو المنشئ الموجد لهذا الكون وما فيه ومن فيه، وهو العلى القدير، فالتصريح باسمه الكريم يزيد البيان جلالا، ويتضمن معنى الحساب لمن يعرض عن آيات ربه، ويجعل النفس لا تسير وراء الهوى، ويتضمن معنى القدرة على إنزال العقاب والثواب بعد الحساب، وإنه إذا كان كل شىء فى هذا الوجود أوجده ربه بالحق، وأخبر عنه، فالظلم منفى عنه سبحانه وتعالى، ولذا قال سبحانه:

﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ هذا نفى للظلم عن الله سبحانه، والتصريح بلفظ الجلالة فى موضع الإضمار هنا، كان لمثل ما ذكرنا لتربية المهابة، وليكون ذلك تأكيدا لنفى الظلم، إذ كيف يظلم الموصوف بالألوهية، وحده، وكيف يريد الظلم مانح العالم كله الوجود؛ وقال: ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ وهم العقلاء فى هذا الكون؛ لأنهم هم الذين يحسون بوقع الظلم وآلامه، ويشعرون بمتاعبه وآثامه، وأصل الظلم معناه النقص، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ... (٣٣)﴾ [الكهف] ثم أطلق على نقص الحقوق وهضمها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا (١١٢)﴾ [طه] وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ... (١١٠)﴾ [النساء] ثم أطلق الظلم على وضع الأمر فى غير موضعه، حتى لقد قالوا فيمن حفر الأرض، ولم تكن موضعا للحفر إنه ظَلَمها، ويقال عن التراب المظلوم، وعن الأرض المظلومة، ولقد قال الراغب فى معنى الظلم: (الظلم عند أهل اللغة وكثير من العلماء: وضع الشىء فى غير موضعه المختص به، إما بنقصان أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته ومكانه).

والظلم الذى نفاه سبحانه وتعالى عن نفسه عام لا يخص نوعا دون نوع، وهو نكرة فى موضع النفى، ومن المقررات اللغوية أن النكرة فى مقام النفى تعم ولا تخص، فالمعنى لا يريد الله سبحانه وتعالى ظلما قط أى ظلم كان، فقد خلق السموات والأرض بالحق، وربطهما وما فيهما بميزان لا يتخلف إلا بإرادته سبحانه وتعالى، فليس فيهما شىء إلا فى موضعه، ودبر أمور الكون والناس بدقة وإحكام، وهو العليم الحكيم اللطيف الخبير السميع البصير، وأنزل سبحانه الشرائع بالحق والميزان، فليس فيها شىء إلا وهو عدل لا ظلم فيه، وأساس الشرائع السماوية كلها العدل الذى يستطيعه الإنسان، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ... (٩٠)﴾ [النحل]. وبهذا نفى الله سبحانه وتعالى الظلم عن نفسه، ونفى أن يكون نظام شرعه فيه إباحة لظلم العباد فيما بينهم، ولذا قال سبحانه فى حديث

قدسى: «يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى، وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا»(١).

ويلاحظ أن النص القرآنى لم ينف فقط الظلم عن الله سبحانه، بل نفى عنه إرادة الظلم، فهو أمر لا يليق بذاته، ولا يتصور وقوعه منه. وإنه سبحانه وتعالى مالك كل شىء، فهو مانح الحقوق ومعطيها ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ۝٢﴾ [الفرقان] ولذا قال سبحانه بعد أن نفى عن نفسه إرادة الظلم:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ كل ما فى السموات من أفلاك وأجرام ونجوم وكواكب وأبراج وعوالم لا يحصيها إلا خالقها هو لله تعالى، أبدعها على غير مثال سبق، وأنشأها بإرادته، نظم مسالكها وما يربطها بحكمته، وكل ما فى الأرض من سهل وجبل، وصحراء وماء، وأقاليم مختلفة، ومزارع وأغراس تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها، وكل ما يحتويه باطنها من معادن سائلة، وفلزات متماسكة، وأحجار تبهر الأنظار، ملك لله تعالى أبدعه وأنشأه، وإذا كان هو المبدع المنشئ لكل ذلك، وهو الذى وضع لكل شىء نظامه المحكم، وسيره المنظم، فإنه لا يتصور منه سبحانه أن ينقص شيئاً أو حقا، أو يضع أمرا فى غير موضعه، فهو خالق النظم، وخالق الأوضاع، والمسيطر على كل شىء.

وكما أن المبدأ منه فالعود إليه سبحانه، ولذا قال سبحانه: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ فكل أمر ونظام مرد بقائه وإنهائه إليه، كما كان إبداعه وإنشاؤه منه؛ وكل تصرفات الناس راجعة إليه يوم القيامة، وهم محاسبون عليها، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، فهو مالك الميزان والقسطاس المستقيم فى الدنيا وفى الآخرة.

---

(١) جزء من حديث قدسي رواه مسلم: البر والصلة والآداب - تحريم الظلم (٢٥٧٧)، عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما يرويه عن رب العزة تبارك وتعالى.

وإن الله سبحانه قد نفى عن ذاته الكريمة إرادة الظلم، وبين أنه يضع الأمور في مواضعها؛ ليصحح الأفهام التى تتوهم أن النبوة تكون فى قبيل دون قبيل، ولبيان أن كل شىء له ميزان ومقياس، وأن رقى الأمم ورفعتها يكون بميزان ثابت، وأن الله تعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له، وأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ما كان فى أمة إلا وقاها الآفات الاجتماعية، وأنه لا تتركه أمة إلا تردت فى مهاوى الفساد، وأدال الله من قوتها، ذلك هو الميزان الذى وضعه العلى القدير لرفعة الأمم، ولذا قال سبحانه فى وصف الأمة المثلى:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ والخطاب فى هذه الآية للمؤمنين الذين تلقوا الوحى من النبى ﷺ والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين، و«كان» فى قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ يصح أن تكون بمعنى وُجِد، أى وجدتم خير أمة لهذه الأوصاف ما تحققت فيكم، ويصح أن تكون ناقصة، ويكون المعنى قدرتم فى علم الله تعالى خير أمة إن قمتم بهذه الأمور، ويصح أن تكون بمعنى صار، أى تحولتم معشر المؤمنين الذين عاصرتم النبى ﷺ من جاهليتكم إلى أن صرتم خير أمة أخرجت للناس بسبب الإيمان والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ونحن نميل إلى أن تكون بمعنى وُجِد أو ناقصة، والمعنى فيهما متقارب، ليشمل النص المخاطبين بتلك الحقائق فى عصر النبى ﷺ ومن يجيئون بعدهم ويتبعونهم بإحسان إلى يوم القيامة.

وإن هذه الخيرية التى قدرها سبحانه لهذه الأمة منوطة بتحقيق أمرين أحدهما: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والثانى: الإيمان المطلق بالله والإذعان له وتفويض الأمور إليه بعد الأخذ فى الأسباب، واعتقاد أنه لا قوة فى هذا الوجود غير قوته، ولا معبود بحق سواه، ولا خضوع لأحد كائنا من كان غيره تعالت قدرته، فليست الخيرية التى خاطب الله بها المهاجرين والأنصار والذين يتبعونهم؛ لأنهم مسلمون فقط، أو لأشخاصهم وذواتهم، بل لأنهم متصفون

بأوصاف هى علة هذه الخيرية، ومناط تلك الرفعة الإلهية. وتلك الأوصاف هى: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان بالله، وقوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ موقعها من الإعراب إما أن تكون جملة حالية من ضمير الخطاب، وإما أن تكون كلاما مستأنفا مفصولا، ولذا قال الفخر الرازى فى التفسير الكبير: «اعلم أن هذا الكلام مستأنف، والمقصود منه بيان علة تلك الخيرية كما تقول: زيد كريم، يطعم الناس ويكسوهم، ويقوم بما يصلحهم، وتحقيق الكلام أنه ثبت فى أصول الفقه: «أن ذكر الحكم مقرونا بالوصف المناسب له يدل على كون ذلك الحكم معللا بذلك الوصف؛ فهنا حكم بثبوت وصف الخيرية لهذه الأمة ثم ذكر عقيبه علة هذا الحكم».

هذا، ويصح أن نقول: إن الحكم بالخيرية مبهم، وقد بينه سبحانه بقوله: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ فالخيرية التى حكم سبحانه وتعالى بها هى هذه الأوصاف، وهذا ينطبق على المثل الذى ساقه الرازى، وهو، فلان كريم: يطعم ويكسو، فإن يطعم ويكسو تفسير لمعنى كرمه، وبيان له، فالاستئناف إذن ليس لأن جملة «تأمرون» علة للخيرية، بل هى بيان للخيرية، ولذلك لاينطبق الحكم بالخيرية على من لا يتصف بهذه الصفات، فالجماعات التى تهمل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولا يكون فيها إيمان، لايمكن أن تكون خير أمة، بل لا توصف بالخيرية قط؛ لأنه لا خير إلا فى الفضائل والحق والعدل، ولا تقوم هذه الأمور إلا بالإيمان وقيام رأى عام مُهذَّب لائم يقوم المعوج، وتنزوى فيه الرذائل انزواء، إذ يقتلها نوره المشرق وشمس الحقيقة الناصعة.

وهنا قد يسأل سائل: لماذا قدم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على الإيمان؟ ولماذا اقتصر فى الإيمان على الإيمان بالله، ولم يذكر الإيمان بالرسل والملائكة واليوم الآخر والحساب والعقاب وغير ذلك مما يوجبه الإيمان، ولا يعد الشخص مؤمنا إلا به؟ ويجاب عن السؤال الأول: بأن ذكر الأمر بالمعروف والنهى

عن المنكر مقدما لبيان أنه مطلوب لذاته، وأنه فضيلة لا تختلف فيها الأمم ولا الجماعات، فهو كالصدق والعدل والحق تتفق عليها الأفهام وبل ولا يمكن أن يتحقق بنيان جماعة من غير تحققه، وإلا كانت كالذئاب الضارية، أو كانت كالوحوش فى الغابة، والإيمان سياج الجماعة وحمايتها من أن تضل، وكأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو الذى يقوم به بناء الجماعة، والإيمان هو الذى يحميها ويسدد خطاها، فذكر مايقوم به البناء ثم ذكر ما يكون به ذلك البناء فى دائرة الفضيلة والأخلاق الكريمة وهو الإيمان، وفى الحقيقة هما متلازمان، فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والتواصى بالحق يتبعه إيمان الشذاذ الخارجين، والإيمان الحق بالله تعالى والإذعان لأوامره ونواهيه يتبعه حتما الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

هذا هو الجواب عن الجزء الأول من السؤال، أما الجواب عن الجزء الثانى، وهو لماذا اقتصر على ذكر الإيمان بالله؟ فهو أن الإيمان بالله هو لب الإيمان بكل أجزائه وعناصره، فالإيمان بالله هو الإذعان المطلق لقوة غيبية تسيّر هذا الكون وتدبره، وتقوم على كلاءته وحمايته، والإيمان بقوة غيبية يقتضى الإيمان برسالتها للناس، ويقتضى الإيمان بالأرواح الطاهرة المطهرة، والإيمان بأن الله لم يخلق هذه الأشياء عبثا، وإن ذلك يقتضى الإيمان بقدرة الله على الإعادة كما بدأ الخلق بالتكوين، وبأن هنالك يوما آخر فيه الحساب، وإن من يؤمن بالله ولا يؤمن بهذه العناصر كلها لا يكون مؤمنا بالله حق الإيمان، ولا مذعنا لأحكامه حق الإذعان، ولذا كان أهل الكتاب الذين أعلنوا إيمانهم بالله، وأنكروا رسالة الرسول مع قيام البينات عليها غير مؤمنين، وغير مذعنين للحق الذى ارتضاه الله.

ويجب التنبيه هنا إلى أمرين: أولهما: أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر غير تغيير المنكر، وغير العمل بالفعل على منعه، فالأمر والنهى إرشاد وتوجيه ونصح وتنبيه، والتغيير يكون بالعمل المنظم والأحكام الرادعة، وذلك يتولاه الحكام، إلا إذا تقاصرت همم الحكام، فإنه يجب تغييرهم ليتولى من يقيم حدود الله، وينفذ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

والأمر الثانى الذى يجب التنبيه إليه: أنه ليست الخيرية مرادفة للقوة، فالخيرية هى أن يكون المجتمع فاضلا يقوم بحق العدل، وأن يكون كل شىء فيه بقسطاس مستقيم، وأن تسوده الأخلاق الكريمة والسلوك القويم، وأما القوة فالأمر فيها لسيطرة المادة والغلبة والاستعداد الحربى، وإنا نرى أقوى الأمم الآن أشدها انتهاكا لحرمات الفضيلة فى داخلها وخارجها، ومن الأمم الضعيفة ما يكون للفضيلة فيها موضع، وللأمانة فيها سلطان، وللحق فيها أنصار، ولا شك أنها أقرب إلى الخير من تلك الأمم القوية، وفى الجملة، إن القوة تستمد من المادة إذا انفصلت عن الفضيلة، والخيرية تستمد من الحق والعدل والفضائل الإنسانية، والمساواة بين بنى الإنسان من غير عصبية جنسية أو إقليمية، وهما فى عصرنا الحاضر متمايزان لسيطرة المادة على الأقوياء، وفقدانهم قوة الإيمان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد قلنا: إن الإيمان بالله يقتضى الإيمان بكل رسول إذا قامت الأدلة على رسالته؛ ولذا نفى الله سبحانه وتعالى الإيمان عن بعض أهل الكتاب، فقال تعالت كلماته:

﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ و«لو» هنا هى التى يقول عنها علماء النحو: إنها حرف امتناع لامتناع، أى امتنع الخير فيهم لأنفسهم لامتناع الإيمان الكامل، وقد ذكر نفى الإيمان عنهم مطلقا مع أنهم يقولون إنهم يؤمنون بالله، ويقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه، وذلك لأنهم إذ لم يذعنوا لأحكام الله تعالى وأوامره - وقد فسروها على حسب أهوائهم ومنازعهم العصبية والجنسية، واعتقادهم أنهم شعب الله المختار - قد فقدوا الإيمان، إذ الإيمان كلٌّ لا يقبل التجزئة، فليس بمؤمن بالله من يكذب رسالة الله التى جاءت بها البينات، وقامت عليها الدلائل؛ وفى نفى الإيمان نفيا مطلقا ما يومئ إلى أن الذين يجعلون هواهم مسيرا لاعتقادهم وفكرهم لا يؤمنون بحقيقة من الحقائق إلهية كانت أو إنسانية.

وقد نفى سبحانه عنهم الإيمان بأى شئ، ولذلك لم يكن ثمة حاجة بعد هذا إلى نفى القيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ لأن ذلك يقتضى الإيمان بالفضائل والمعانى الإنسانية، وهم لا يؤمنون بشىء منها، وإن ذلك ليس خيرا لهم فى شىء؛ لأنهم بذلك تنحل جماعتهم، وتتفرق وحدتهم، ونفى الإيمان عن أهل الكتاب ليس نفيا له عن الكل، بل هو نفى عن الأكثر؛ لذا قال سبحانه:

﴿مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ المؤمن هو المذعن للحق إذا قامت بيناته أو دلت أماراته، وهو ينشأ عن استقامة القلب، والتزام الجادة، والاتجاه دائما إلى الطريق المستقيم بإخلاص ونزاهة نفس عن الهوى، ولذلك كان غير المؤمن خارجا عن الاستقامة، ولذا يسمى فاسقا، باعتباره خرج عن منهاج الاستقامة، وترك طريق الحق، وسلك سبل الشيطان، ويسمى كافرا باعتباره جحد الحق، وستر ينابيع الإدراك فى نفسه، وناسب أن يذكر وصف الفسق بالنسبة لغير المؤمنين من أهل الكتاب؛ لأنهم خرجوا عن منهاج الكتاب المنزل، وفسقوا عن أمر ربهم وتركوه وراءهم ظهريا.

وإن منهاج القرآن هو العدالة فى الحكم دائما، ولذا لم يصفهم كلهم بالفسق وإن كان قد عمهم، بل وصف بعضهم وإن كان الأكثر، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة] ولكن من هم المؤمنون ومن هم الفاسقون؟ سنبين ذلك فى تفسير الآيات الآتية، والله سبحانه وتعالى هو وحده العليم بالصواب.

لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى
وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ
عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ
وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ

﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾

بين الله سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة منزلة المؤمنين من غيرهم إذا أخذوا بأحكام الإسلام واهتدوا بهديه، وكوَّنوا منهم جماعة فاضلة تؤمن بالله تعالى حق الإيمان، وتذعن لشريعته حق الإذعان، وتتواصى بينها بالحق والصبر، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وبين أن ذلك هو عصام الأمة وجامع وحدتها، والرابط بينها بأرسان[1] من الهداية الربانية، فيستتر الشر ويختفى، ويظهر الخير وينكشف، وإن تلك المنزلة جعلها الله تعالى خير المنازل، وبين سبحانه أن أهل الكتاب الذين عادوا المسلمين، وهم يعلمون أنهم أهل الحق وأهل الإيمان لو آمنوا بما أنزل على الذين آمنوا لكان خيرا لهم، ولكن آثروا مجافاة الحق على اتباعه، وعداوة أهل الإيمان على موادتهم، ولقد بين سبحانه من بعد أن عداوتهم لا تضر المؤمنين ضررا بليغا له أثر، مادام أهل الإيمان مستمسكين بما رفع منازلهم وأعلى درجاتهم، ولذا قال تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى﴾:

فى هذا النص الكريم بيان أن الذين أوتوا الكتاب، ثم كفروا به وبالبينات لما جاءتهم، لن يضروا المؤمنين ضررا يبقى أثرا فى جماعتهم، ويؤثر فى قوتهم، وإن وقع منهم أذى؛ وذلك لأن الضرر قسمان: ضرر يترك أثرا فى الأمة، فيضعف قوتها، ويوهن أمرها. وضرر لا أثر له: كالأذى بالقول أو الفتنة فى الدين تتناول الآحاد، أو محاولة التأثير فى ضعاف الإيمان، أو محاولة بث روح النفاق بين الجماعة من غير أن يعم ويشيع، وقد نفى الله سبحانه وتعالى النوع الأول من الضرر نفيا مؤكدا بلفظ ﴿لَن﴾ فإنها تدل على تأكيد النفى باتفاق علماء اللغة، وقال الزمخشرى وطائفة كبيرة من اللغويين: إنها تدل على تأبيد النفى وعلى ذلك يكون الاستثناء متصلا، ولا يكون منقطعا، لأن الأذى مهما ضؤل نوع من الضرر، وإن لم يبق أثرا.

---

(١) جمع رسن، وهو الحبل. وقد سبق.

وإن الشرط فى نفى الضرر الذى يؤثر فى الجماعة الإسلامية أن تكون مؤمنة بالله حق الإيمان آخذة بتعاليمه مهتدية بهديه، وأن يسودها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى هو خاصتها، ورباط وحدتها، وإلا فإن الضرر البالغ يصيبها؛ لأنها فقدت مشخصاتها ومكوناتها.

ولقد بين سبحانه بعد ذلك حال أولئك الكفار من اليهود والنصارى مع المؤمنين الصادقى الإيمان:

﴿**وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ**﴾ هذه الحال التى ذكرها الله سبحانه تفصيل لبيان ما تضمنته الجملة السامية من قبل، فإنها تضمنت أن هؤلاء لا يمكن أن يصيبوا المسلمين بضرر بليغ يبقى له أثر، وإنه من تفصيل بعض ذلك أنهم ينهزمون فى قتال المسلمين، ومعنى قوله تعالى: ﴿**وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ**﴾ أنهم إن قاتلوا ينهزمون، وعبر عن انهزامهم بتوليهم الأدبار، لأن من ينهزم فى ميدان القتال لا يقابل عدوه بوجهه، ولكنه يطلب النجاة بالفرار، ولسان حاله يقول: النجاء النجاء، والتعبير عن الهزيمة بتوليتهم الأدبار؛ فيه إشارة إلى جبنهم، وأنهم يفرون فرارا أمام خصومهم، وكذلك كان الشأن فى قتال المسلمين الأولين للكفار اليهود والنصارى، فقد قاتل المؤمنون بنى النضير وبنى قريظة ويهود خيبر وغيرهم، وكانوا يفرون فرارا، وقد كتب الله على بعضهم الجلاء، وعلى بعضهم الفناء، وعلى بعضهم البقاء فى ذلة، وكذلك كان الشأن مع النصارى بالشام ومصر.

وقد ذكر سبحانه وتعالى أنهم مع انهزامهم فى القتال لا يمكن أن ينتصروا على المؤمنين ما دام المؤمنون على الشرط الذى ذكرناه، ولذا قال سبحانه وتعالى مخبرا: ﴿**ثُمَّ لا يُنصَرُونَ**﴾ أى أنهم لا يمكن أن ينصروا أبدا، وهذه الجملة خبرية ليس لها صلة لفظية بالجملة الشرطية، فليست معطوفة على جواب الشرط، فهى إخبار عن نفى الانتصار غير مرتبط بكونه فى قتال أو غير قتال، ولقد وضح الزمخشرى فى الكشاف هذا المعنى أكمل توضيح، فقال: (فإن قلت؛ هلا جزم

المعطوف فى قوله: ﴿ثُمَّ لا يُنصَرُونَ﴾؟ (قلت) عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداء، كأنه قيل ثم أخبركم أنهم لاينصرون، فإن قلت: فأى فرق بين رفعه وجزمه فى المعنى؟ (قلت) لو جزم لكان نفى النصر مقيدا بقتالهم كتولية الأدبار، فحين رفع كان نفى النصر وعدا مطلقا، كأنه قال: ثم شأنهم وقصتهم التى أخبركم عنها وأبشركم بها بعد التولية أنهم مخذولون منتفٍ عنهم النصر والقوة، لا ينهضون بعدها بجناح، ولا يستقيم لهم أمر، وكان كما أخبر حال بنى قريظة، وبنى النضير، وبنى قينقاع، ويهود خيبر).

وكان العطف الخبرى بـ «ثم» على مضمون الجملة الشرطية كلها، وكان التراخى لتقرير عدم النصر، إذ إنّ عدم النصر المطلق الذى يكون بالقتال وغيره ينشأ من توالى الانهزام، إذ إن توالى الانهزام يلقى فى قلوبهم بروح اليأس فلا تكون لهم من بعد ذلك نصرة فى أية ناحية من النواحى.

ذلك خبر الله تعالى، وخبر الله تعالى صادق إلى يوم القيامة، ولكن الذى نراه منذ قرون هو انهزام المسلمين، وتوالى انتصار النصارى من أهل الكتاب، بل إن بلية البلايا أن ينتصر اليهود، فهل أخلف الله وعده؟! كلا، ما أخلف الله موعدا، وإن وعد الله لحق، وخبره صادق، ولكن الذى تغير هو حال المسلمين، فقد اشترطنا لتحقق نصر الله أن يكونوا مؤمنين بالله حق الإيمان، مذعنين لأحكامه حق الإذعان، متعاونين فيما بينهم، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فعندئذ يكونون أنصار الله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾ [الحج]. فهل كان المسلمون على هذا الشرط عندما انهزموا؟ لقد تغيرت حالهم، فلم يذعنوا لأحكام الله تعالى، ونقص إيمانهم به، ولم يتواصوا بالحق والصبر، ولم يعودوا أشداء على الكفار رحماء بينهم، بل صار بأسهم بينهم شديدا، وأخذ يأكل بعضهم بعضا، وبذلك تغيرت حالهم فغير الله تعالى بهم، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ۝١١﴾ [الرعد]. ولئن عادوا إلى الإيمان

والإذعان والتعاون والتواصى بالحق ليعودن النصر، فإنه وعد الله تعالى، والله لا يخلف الميعاد.

ولقد بين سبحانه حال الذين كذبوا بآيات الله تعالى، ولم يذعنوا للحق بعد خذلانهم فى كل مجال:

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ أى أحاطت بهم الذلة كما يحيط السرادق بمن فيه، وكما تحيط القبة بما فى داخلها، فهم فى نشاطهم وحركتهم فى ذلة، لا ينتقلون من ذل إلا إلى ذل، و﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾ معناها أينما وجدوا جماعات ووحدانًا، فجماعاتهم فى ذلة، وآحادهم فى جبن، ذلك بأنهم فقدوا الإيمان بالله، والاعتزاز بعزته، فاعتمدوا على عزة من الناس، ومن اعتمد على أن يستمد عزته من غير الله فهو الذليل، فأولئك الذين فقدوا الإذعان لأحكام الله تعالى قد استعانوا بغير الله فحقت عليهم كلمة الذلة.

ولقد استثنى سبحانه حالا يرتفعون فيها من الذلة فقال تعالى: ﴿إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾. والحبل معناه فى أصل اللغة ما يربط بين شيئين، ويطلق على العهد، وقد فسره جمهور المفسرين هنا بهذا المعنى وهو العهد، فالمعنى لا ترفع الذلة عن هؤلاء اليهود إلا بعهد من الله تعالى وعهد من الناس، وذلك العهد هو عقد الجزية الذى يربط بينهم وبين المسلمين، فهو حبل من الله تعالى يصلهم بأهل الإيمان إذ هى بأمر الله تعالى، والوفاء بها وفاء بعهد الله ورسوله، إذ يقول سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ... ﴿٩١﴾﴾ [النحل]. والجزية أيضا حبل يربطهم بالمؤمنين؛ إذ يكونون بهذا العهد بين المسلمين، ترعى حقوقهم وتحفظ أموالهم ودماؤهم، ويكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم.

وهذا تفسير حسن، وهو مشتق من قواعد الإسلام ذاتها وأحكامه المقررة الثابتة، ولكن يلاحظ أن الله سبحانه قرر فى الاستثناء أن حبل العزة هو حبل من الناس، ولم يذكر أنه حبل من المؤمنين؛ إذ يقول سبحانه: ﴿إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ

مِّنَ النَّاسِ﴾ . ولذلك يصح أن يفسره بما هو أعم من الجزية، فإن حبل الناس أوسع من معنى الجزية، وإن ذلك يفسره بعض الوقائع التى تجرى فى العصور الأخيرة، فقد كانت لهم عزة وقتية بسبب اتصالهم ببعض الناس، وتخاذل المسلمين عن الأخذ بحكم الكتاب والسنة والهدى الإسلامى، ولكنه على كل حال استثناء؛ لأن الله ضرب عليهم الذلة، وإنه ليرجى أن يعود الإسلام كما بدأ فى قلوب أهله، فيتحقق وعد الله لهم، إذا تحققت أسبابه.

﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ أصل معنى «باء» ساوى، فيقال باء فلان بدم فلان، أى: ذهب وساواه، ومن ذلك ما جاء فى بعض أقاصيص العرب على لسان المهلهل أخى كليب : «بُؤْ بشسع نعل كليب» أى أنه لا يساوى إلا هذا، ويطلق البواء بمعنى الإقامة، ومنه المباءة والبيئة أى شكل الإقامة، والمعنى الجملى أنهم قد صاروا فى غضب، ويعتبر هذا مباءتهم التى باءوا بها والتى هم يستحقون، وقد ضربت عليهم المسكنة، أى أحاطت بهم واستولت عليهم، والمسكنة ضعف نفسى، وصغار ينال القلب، فيستصغر الشخص نفسه، ويحس بهوانها مهما تكن لديه أسباب القوة متوافرة متضافرة، والفرق بينها وبين الذلة أن الذلة هوان تجىء أسبابه من الخارج بأن يكون بفرض من قوى، أو يكون نتيجة انهزام حربى، أما المسكنة فهى هوان ينشأ من النفس لعدم إيمانها بالحق، واتباعها للمادة، وإن توارث الذلة قرونا طويلة يورث هذه المسكنة، إن بواء اليهود والنصارى بغضب الله، وضرب المسكنة عليهم، لا استثناء فيه، بل هو أمر مستمر إلى يوم القيامة ما داموا على حالهم، ولا يغرنك ما عند النصارى وتقلبهم فى البلاد، بل انظر إليهم إن أصابت فريقا منهم هزيمة فإنهم يخرون للأذقان يبكون صاغرين، مما يدل على أن المسكنة فى طبيعتهم؛ إذ عزة الحق قد فارقتهم. ثم ذكر سبحانه وتعالى السبب فى استحقاق أهل الكتاب ذلك فقال تعالت كلماته:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ الإشارة إلى هزيمتهم المستمرة، وأنهم لا يمكن أن ينتصروا، وأن الذلة ضربت عليهم إلا بحبل

من الله وحبل من الناس، وأنهم في غضب من الله، وأن المسكنة قد ضربت عليهم إلى يوم القيامة، فالصغار ملازمهم، لا يفارقهم أبدا، لأن الصغار والإيمان بالباطل متلازمان لا يفترقان. وقد ذكر سبحانه أن السبب في كل هذا أنهم كانوا يكفرون بآيات الله أي بأمارات الحق وأدلته التي يقيمها الله سبحانه وتعالى عليهم في كتبه وخلقه وعلى ألسنة رسله، وأنهم لا يكتفون بجحود الحق بعد قيام البينات عليه، بل يعتدون على الداعي إليه، فيقتلون الرسل الذين ينادون به، ويجاهدون دونه، ولقد قال سبحانه وتعالى: ﴿**وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ**﴾ والحكمة في ذكر هذا أنهم لم يكونوا في اعتدائهم لهم أية شبهة حق، ولذا نكر كلمة حق، وقد بيّنا هذا من قبل، ولماذا كان ذلك الكفر، وهذا الجحود المستمكن الذي يدفع إلى قتل الداعي إلى الحق؟ ذكر سبحانه ذلك بقوله: ﴿**ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ**﴾:

أي أن الذي أورث في قلوبهم الجحود بالحق، والتمادي في الباطل، هو ارتكاسهم في المعاصي، وتعودهم الاعتداء على الناس، فإن المعاصي تنكت نكتا سوداء في القلب، فإذا استمر الشخص عليها وضعت عليه أغلفة من الظلمة تمنع أن يصل الحق إليه، فعمى القلب عن الحق وصم، ولذا قال تعالى: ﴿**مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا** ... ﴿٢٥﴾﴾ [نوح] وقانا الله شر المعاصي، وجعل قلوبنا تشرق بنور حكمته، ووفقنا لقصد السبيل، وجنبنا جائره، إنه سميع الدعاء.

لَيْسُوا سَوَاءً
مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ
وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ
فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا
مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

هذا من إنصاف القرآن، فهو لا يعمم حكمه إلا حيث يكون التعميم هو الحق الذى لا شك فيه، وإن كان فى قوم من هم جديرون بالثناء ذكرهم، وكذلك كان الشأن فى ذكر أهل الكتاب، فيقول: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ... (٧٥)﴾ [آل عمران] ويقول سبحانه: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩)﴾ [الأعراف] وفى هذه الآية يذكر بالخير العظيم طائفة من هؤلاء فيقول الحكم العدل تعالت كلماته: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾.

أى ليسوا متساوين فى هذه الأعمال وتلك الأخلاق، أو ليسوا متساوين مطلقا، فليسوا جميعا أشرارا. وإن الله سبحانه وتعالى لم يخلق طائفة كبيرة من الناس اجتمعت على الشر اجتماعا مطلقا، بحيث يرتضيه الجميع ويقصدونه ويريدونه ويبتغونه عامدين مريدين معتدين، بل إن منهم الضال، ومنهم المضل، ومنهم الناطق بالحق الذى لا يجد داعيا، أو يحمل على السكوت فى وسط نكران الضالين، ففى وسط طغيان فرعون، وانقماع قومه فى إرادته، وجد مؤمن آل فرعون، ينطق فيهم قائلا كما حكى الله تعالى عنه: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩)﴾ [غافر].

وبعد أن ذكر سبحانه أنهم ليسوا سواء، وقد ذكر أحوال أشرارهم، أخذ يبين أحوال أخيارهم.

﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أى من أهل الكتاب الذين ذكرنا أوصاف الكثرة منهم - طائفة تُؤم وتُقصد موجودة حاضرة ليست ماضية خالية، فمعنى قائمة على هذا موجودة، وفسر الزمخشرى

كلمة قائمة بمعنى مستقيمة على العدل والحق، مأخوذة من قولهم أقمت العود فقام واستقام. وقد ذكر سبحانه وتعالى فى هذا الجزء من الآية الكريمة وصفين اثنين: أنهم يتلون آيات الله، والثانى أنهم يسجدون، ومعنى يسجدون أى يخضعون ويتطامنون للحق ولا يجحدون، ويتجهون إلى ربهم. يرجون رضاه، ولا يستكبرون عن نداء الحق إذا دعوا، فكنى بالسجود عن الخضوع المطلق الذى يعد السجود مظهره، ويصح أن يراد به السجود الذى يقع فى صلاة المسلمين على ما سنبين، وقد ذكر ذلك الوصف مصدَّرا بـ «هم» إذ يقول: وهم يسجدون، فلم يقل ويسجدون؛ للإشارة إلى أن الخضوع والإذعان للحق شأن من شئونهم، وليس حالا تعرض لهم، إذ إن ذكر الضمير فيه تقوية الإسناد وتوثيق لدوامه واستمراره.

وما هو الكتاب الذى يتلونه كما أشار الوصف الأول؟ إن الجواب عن هذا السؤال يستدعى بيان مَنْ هذه الطائفة التى استحقت تلك الأوصاف الجليلة التى وصفها الله تعالى بها، ونقول فى ذلك: إن العلماء قد اختلفوا فى ذلك على رأيين:

أحدهما: أنها طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالله ـ تعالى ـ وبرسوله محمد ﷺ، وأذعنوا للحق الذى جاء به ودعا إليه، ومن هؤلاء عبد الله بن سلام وطائفة من اليهود الذين كانوا يقيمون مع النبى ﷺ، وهو ينطبق على النصارى وغيرهم الذين يهتدون بهدى الإسلام، ويرتضونه عن بيّنة دينا لهم، وقد قال النبى ﷺ فيهم وفى أمثالهم ممن يكونون فى قابل الأيام: «ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة فأدبها وأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فله أجران»(١) وعلى هذا الرأى يكون تفسير قائمة بمعنى موجودة؛ لأنها قد وجدت حقيقة، وارتضت الإسلام دينا.

(١) متفق عليه، وقد سبق تخريجه.

الرأى الثانى: أن هذه الطائفة من أهل الكتاب ولم تعتنق الإسلام، وكانت قبله أو بعده ولم تبلغها الدعوة على وجهها، ولم تحرف التوراة أو الإنجيل أو لم تأخذ بالمحرف منهما، وقد أثر ذلك الرأى عن بعض السلف، فقد روى عن ابن عباس أنه قال فى معنى أمة قائمة: «أمة مهتدية قائمة على أمر الله لم تنزع عنه وتتركه كما تركه الآخرون وضيعوه» وروى عن قتادة أنه كان يقول فى الآية: «ليس كل القوم هلك، لقد كان فيهم بقية».

ويكون معنى ﴿قَائِمَةٌ﴾ على هذا التفسير بمعنى مستقيمة مهتدية مؤمنة بالحق مذعنة له.

وقد اختار التفسير الثانى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فيما نقله عنه صاحب المنار، فيقول: (وظاهر أن هذا كالذى قبله فى أهل الكتاب حال كونهم على دينهم).

وآيات الكتاب التى يتلونها على ذلك هى البقية الصحيحة من كتبهم التى تشتمل على أدعية كلها توحيد وضراعة ونحو ذلك من أمثال بعض مزامير داوود، مثل ما جاء فى المزمور الخامس والعشرين: (إليك يارب أرفع نفسى، عليك توكلت، فلا تدعنى أَخْزَى، لا تشمت بى أعدائى، كل منتظريك لا يخزون، ليخز الغادرون بلا سبب، طرقك يا رب عرفنى، سبلك علمنى، وربنى فى حقك وعلمنى). وأمثال هذه الأدعية والمناجاة لعلها البقية الباقية من تلك الكتب التى حرف فيها الكلم عن مواضعه.

وعندى أن الآية الكريمة فى أهل الكتاب الماضين الذين استقاموا على الحق، ولم يدركوا عصر النبى ﷺ، وذلك لأن القرآن الكريم تكلم عن ماضى أهل الكتاب وحاضرهم، فحاضرهم كان سوءا، وذكر ما ضيهم فبين أن بعضه كان سوءا وكان منهم أمة مقتصدة، فهذه الأوصاف فى الأمة المقتصدة التى مضت، ويصح أن تطلق على المخلصين من أهل الكتاب الذين لم يبلغوا دعوة الإسلام، وكان فيهم إخلاص للحق وطلب له وإجابة لداعيه إن دعوا إليه، ويكونون داخلين بالقياس على الماضين.

وقد ذكر سبحانه أوصافهم فقال تعالت كلماته:

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ هذا النص الكريم فيه بيان حال من أحوالهم، وهى الحال الدائمة المستمرة التى جعلتهم مستقيمين على الحق مهتدين بهديه، فإن الإيمان بالله تعالى حق الإيمان يجعل المؤمن يذعن للحق، ويخلص فى كل ما يطلب، ولا يحب الشىء إلا لله، ويكون الله تعالى سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، فلا يكون منه إلا ما يكون للحق جل جلاله، وتكون كل مشاعره وأهوائه تبعاً لأوامر الله تعالى ونواهيه. هذا هو الإيمان بالله، أما الإيمان باليوم الآخر، فإنه يعرف به حقيقة هذه الدنيا، وأنها لعب ولهو، وزينة وتفاخر، وأنه فى هذه الحياة الآخرة يلقى الله سبحانه وتعالى، وأنه إذ يلقاه يجد كل ما عمل من خير محضرا، وما عمل من شر يود لو أن بينه وبينه أمدا بعيدا، وإذا عمل حساب ذلك اللقاء ما أقدم على شر إلا مضطرا أو لماما.

﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ هذا هو العمل الذى يفيضون به على غيرهم، ويشعرون بأن عليهم حقا بالنسبة للحق الذى أدركوه، وهو أن يتواصوا بالحق، ويتناهوا عن الباطل، ويأمروا بالمعروف الذى تقره العقول، ولا تنكره الفطرة المستقيمة، فإن المؤمن المذعن للحق يدعو إليه، ولا يسكت على باطل ولا يرتضيه، وتلك صفة أهل الخير من أهل الكتاب، وعلى عكس ذلك أهل الشر، فإنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه. ولذا قال تعالى فى أهل الشر منهم: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة].

﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ هذه حال من أحوالهم المستمرة، وهى أنهم فى خير مستمر، لا يجدون لحظة إلا يقومون فيها بخير، ولا تلوح لهم فرصة خير إلا يقدمون عليها.

ولقد ذكر بعض العلمـاء هنا وجه البلاغة فى التعـبير بـ «فى» دون «إلى» إذ كان مقتـضى الظاهر أن يقال يسارعون إلى الخيرات، ولكنه سبـحانه وتعالى قال: يسارعون فى الخـيرات، للإشارة إلى أن هؤلاء يسيرون فى كل أعمـالهم فى سبيل الخير، فهم ينتـقلون من خير إلى خير، فى دائرة واحدة هى دائرة الخـير، ينتقلون بين زواياها وأقطارها، ولا يخرجـون منها، فهم لا ينتقلون مسـارعين من شر إلى خيـر، بل إنهم ينتقلون من خير إلـى خير، فكان التعـبير بـ «فى» له موضـعه من البيان.

﴿وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الإشارة هنا إلى الموصوفين بالصفات السابقة، من تلاوة الكتـاب فى خشـوع وخضوع وتعـرف لمراميـه ومعـانيه، وإذعـان لحقـائقه ومغازيـه، ومن خضوعهم المطلق لله سـبحانه وتعالى، ومن إيمـانهم حق الإيمان بالله تعالى، وتصديقهم لكل ما جاء عن الله تعـالى ببيناته وأدلته، ورجائهم لليوم الآخر، وخوفهم من عذابه، وترقبهم فى كل مـا يعملون لحسابه، فهذه الأوصاف كلها سلكتهم فى عداد الصالحين، ولم تجـعلهم فى زمرة الفاسقين الذين ذمهم الله سبحـانه وتعالى: والصالحون الذين دخل هؤلاء فى جمـاعتهم هم الذين صلحت أحوالهم واستـقامت أمورهم، وفى التعبيـر بقوله تعالى: ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ إشارة إلى أنهم بهذه المزايا، وتلك الصـفات قد انـسلخوا من عـداد أهل الكتاب الذين ذمهم الله تعالى: وذكر أن أكثرهم فاسقون، فهم قد خرجوا من صفوف المذمومين إلى صفوف الممدوحين.

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ فى هذا النص الكريم بيان أن الله تعالى يحتسب ما يفعلون من خيـر، ويثيبهم عليه، و«ما» هنا شرطية، ولذا جزم الفـعل بعدها، و«مِن» هنا تفيد العـموم، أى: إن يفعلوا أى خيـر قليلا كان أو كثير فلن يحرموا ثوابه، وقد أكد احتسابه بـ «لن»، لأن النفى بـ «لن» يفيد التوكيد، و«كَفَرَ» بمعنى ستر، وهى لا تتعـدى إلى مفعولين، ولكن لتضمنها معنى «حرم» تعدت إلى مـفعولين، ويقول فى ذلك الزمخشـرى: «فإن قلت: لم عدى إلى مفعولين وشكر وكفر لا يتعـديان إلا إلى واحد، تقول: شكر النعمة وكفرها؟

(قلت): ضمن معنى الحرمان فكأنه قيل فلن يحرموه، بمعنى فلن يحرموا جزاءه» وفى حذف هذا المضاف وهو الجزاء إشارة إلى أن الجزاء ثمرة الفعل دائما، وأن عمل العامل خيرا أو شرا يتضمن كسب الجزاء إن خيرا أو شرا، وذلك بالنسبة للثواب تَفَضُّل من الله تعالى دائما.

وفى هذا النص الكريم إشارة إلى أن النية الطيبة فى الخير مع سلامة العقيدة ونزاهة النفس تجعل العمل طيبا مرجو الثواب دائما، لأن الأساس دائما تقوى القلوب، ولذا قال تعالى فى تذييل الآية: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾.

وفى هذا التذييل الكريم إشارات إلى أمور ثلاثة:

أولها: أن تقوى القلوب هى أساس لكل خير، وهى المجنب من كل شر.

والثانى: أن التقوى إذا كانت شأنا من شئون النفس، صار الشخص لا يوصف إلا بأنه من المتقين، وصار عمل الخير كسجية له من السجايا.

والثالث: أن الله عليم بكل ما تخفيه القلوب وهو يجزى بما يعلم، اللهم وفقنا لتقواك، وأنِرْ بصيرتنا، وطهر قلوبنا من رجس الهوى، إنك سميع الدعاء.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم
مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾
مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا
صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا
ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

بعد أن بين سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة أعمال الكافرين، أشار إلى مبعث جحودهم، وهو اغترارهم بأموالهم وأولادهم، واعتزازهم بما يملكون من

حطام الدنيا وما فيها، وقد أشار إلى هذه الأموال وأولئك الأولاد ببيان أنها لن تغنى عنهم من الله شيئا، ولذا قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾.

يقال: أغناه عن هذا الأمر فلان أى كفاه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة] وقوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء] وقوله تعالى: ﴿لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا ... ﴿٢٣﴾﴾ [يس] وهى فى كل هذا بمعنى لا يكفى عنه، وهى هنا من هذا الاستعمال، فمعنى قوله تعالى: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ لن تكفى عنهم بدل الله شيئا من الغَنَاء، فمن هنا هى التى تستعمل بمعنى بدل، والغناء يتضمن هنا أمرين: أحدهما سد الحاجة، والثانى دفع الأذى، وإن الله سبحانه وتعالى قد قرر أن هؤلاء الكفار لن تدفع عنهم أموالهم أذى، ولن تسد عنهم حاجة قط، فى وقت هم فى أشد الحاجة إلى معونة، وقرر ذلك بصيغة التأكيد، وذلك بالتعبير بـ «لن» لأن «لن» تفيد تأكيد النفى.

وإن أولئك الكفار ما كانوا يعتزون إلا بالمال والولد، فهذا قائلهم يقول: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الكهف]. ولقد كانوا يربطون بين المال وكل المعانى السامية، فكانوا يظنون أن كل الخير وكل الفضائل للأغنياء، وكل الرذائل للفقراء، فلا يتصور من الأغنياء إلا الخير، ولا يتصور من الفقراء إلا الشر، ولقد أخذ منهم العجب عندما أرسل الله محمدا ﷺ وهو فقير، فقد قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف] وفى هذا بيان خطأ نظرهم، فالغنى والفقر لا يتجاوز كل منهما أنه قسمة الله تعالى للمعايش فى هذه الحياة، أما رفع الدرجات فأمر آخر ليس مرتبطا بالمال قلة أو كثرة، ويشير إلى أن الرفعة تكون للفقراء ليسخر الأغنياء منهم، فيزداد الأولون من الله قربا، ويزداد الآخرون من الله بعدا.

وإن الله سبحانه إذ قد حكم بذلك، وهو أن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا، فقد أشار إلى أن السبب فى ذلك كفرهم؛ لأن التعبير بالموصول يشير إلى أن سبب هذا الحكم هو الكفر. ولماذا اعتبر النص الكريم الكفر سببا لعدم غناء الأموال والأولاد، مع أن طبيعة هذا الوجود تجعلها غير مغنية مؤمنا أو كافرا؟ والجواب عن ذلك أن المؤمنين لا يعتقدون أن أموالهم وأولادهم تغنى عنهم من الله شيئا، فلم يكن ثمة حاجة للنفى بالنسبة لهم، وفوق ذلك فإن المؤمنين يتخذون من الأموال والأولاد سبيلا لرفع منار الحق وعزته، فهى تكفيهم بعض الكفاء، وإن كانت لا تغنيهم عن الله تعالى، ولأن كلمة «تغنى» فى معناها دفع الأذى، والله سبحانه وتعالى منزل الأذى بالكافرين عقابا لجرائمهم ولشرورهم، وما تعرض المؤمن لهذا الأذى، فلا حاجة لهذا الدفع.

وفى ذلك النص السامى بحث لفظى، وهو تكرار النفى فى قوله تعالى: ﴿أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم﴾ فـ «لا» هنا تفيد ثلاثة أمور: أولها- مزيد تأكيد للنفى الثابت بـ «لن». وثانيها- أن تكرار «لا» يفيد أنهم كانوا يعتزون بالأموال والأولاد مجتمعين ويعتزون بأحدهما منفردا، فنفى سبحانه وتعالى الغناء عنهما مجتمعين ومنفردين أيضا. وثالثها- أن المال يكون قوة فى مواضع، والولد يكون قوة فى مواضع، فتكرار النفى يستبين أنه لا قوة تدفع مقت الله وغضبه لا من المال ولا من الولد. وقد بين سبحانه تبعد ذلك عذاب الله تعالى الواقع الذى ليس له من دافع، ولا يغنى فيه المال ولا الولد، فقال تعالى: ﴿وَأُوْلَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾:

الإشارة هنا إلى الذين كفروا، ليس لهم أمام الله ولى ولا نصير، ولا عون ولا دفاع، فالله سبحانه وتعالى يحكم عليهم وهو خير الحاكمين بأنهم أصحاب النار الخالدون فيها. فمعنى المصاحبة هنا الملازمة الدائمة المستمرة، و«لعل» فى هذا التعبير إشارة إلى أنهم بعد أن كانوا يصطحبون فى الدنيا أموالهم مفاخرين بها وأولادهم مستنصرين بهم، يصاحبون بدلهم فى الآخرة نار الله الموقدة، وعذابه الأليم، وبعد أن تركوا نعيما غير مقيم استقبلهم شقاء دائم مستمر.

وقد أكد سبحانه وتعالى الحكم العادل بعدة تأكيدات: منها التعبير بالإشارة المتضمن السلب من كل قوة كانوا يعتزون بها، ومنها ذكر مصاحبتهم للنار، ومنها بيان قصرهم على النار لا يتجاوزونها، ومنها ذكر الضمير (هم) فهو لتأكيد الحكم.

وقد يقول قائل: لماذا لا ينفعهم فى الآخرة ما كانوا ينفقون من مالهم فى الدنيا، وقد كان منهم جود وسخاء؟ بين الله سبحانه مغبة ذلك الإنفاق وعاقبته، فقال تعالت كلماته:

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ وفى هذا التشبيه بّين سبحانه أن هذا الإنفاق ليس خالصا من الضرر فى ذاته، فهو يحمل فى ذاته ما يفسده ويجعله ضارا لا نفْعَ فيه، وشرا لا يمازجه خير، فقد شبه سبحانه إنفاقهم فى هذه الحياة من حيث اشتماله على الضار، وعدم إثماره وإنتاجه، بالريح التى لا ترسل لواقح، ولا تكون نسيما عليلا تلقى فى النفوس بالبشر والحبور، ولا تكون ريحا يحمل للزرع عوامل النماء إذ يكون فيها غذاء، بل يكون فيها ما يميت الزرع والضرع، وهى الريح التى يكون فيها صِرٌّ، والصر معناه البرد الشديد المميت للنبات، ومعنى اشتمالها على الصر وصفها به أى أنها ريح صر فهى ريح قارة باردة مهلكة مفنية وليست منمية مبقية، وهنا يرد سؤال: لماذا ذكر الصر على أنه فى الريح وأنها مشتملة عليه، وهى له ظرف وهو مظروف؟ وقد أجاب الزمخشرى عن ذلك بأنه ضرب من ضروب المبالغة، وبأن «صر» مصدر فى أصله فجىء به على أصله، كما تقول : ثوب فيه جمال، والكلام بمعنى جميل، وقد خرج تخريجات أخرى ليست واضحة

ونحن نرى أن التعبير بقوله تعالى: ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ يشير إلى أن الرياح فيها بطبيعتها رجاء، ولكنها اشتملت على ما يذهب بخيرها، وفى ذلك وصف من أوصاف من المشبه؛ وذلك لأن الإنفاق فى ذاته قد يرجى منه النفع، ويظن فيه، ولكنه اشتمل فى ذاته ما يذهب بخيره، ولا ينبت إلا باطلا، وذلك أنه بمقاصده

التى لا يقصد بها وجه الله ولا نفع الناس، ولكن يقصد التفاخر والتباهى والتنافر، والاستطالة على الناس بفضول القول، يذهب كل خيره، فالتعبير بقوله سبحانه: ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ فيه إيماء إلى أن الأذى والضرر الذى لابس المشبَّه وهو الإنفاق لم يكن من ذاته، ولكن من قلب المنفق ونيته، وغايته من الإنفاق، وإن هذا الانفاق - كما قلنا وكما أشار النص القرآنى الكريم - يحمل فى ذاته موجب رده، وقد بيّن سبحانه أنه ضار مؤذ فى الشطر الثانى من التشبيه، إذ قال سبحانه فى وصف الريح: ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾.

الحرث هو الزرع، وأصل كلمة «حرث» فَلْح الأرض وإلقاء البذر فيها، ثم أطلقت فى مجاز مشهور على ما هو نتيجة ذلك وهو الزرع، وقد أطلق على كل موضع يكون فيه إنتاج ولو لم يكن أرضاً وزرعا، كما قال تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ... (٢٢٣)﴾ [البقرة].

ومعنى التشبيه فى جملته - كما دل على ذلك هذا النص الكريم والنص الذى سبقه - أن حال هذا الإنفاق الذى لم يقصد به وجه الله تعالى بل قصد به التفاخر وكسب الثناء وتحدث الناس بالعطاء، كمثل الريح التى تكون باردة بردا شديدا يتوقع منها الناس الخير لزرعهم، فتهلكه وتبيد خضراءه وتجعله حطاما، والجامع فى هذا التشبيه بين المشبَّه والمشبه به هو أن كليهما كان يرجى خيره، ولكن بما لابسه من ضر وأذى صار مؤذيا.

وفى هذا التشبيه بيان أن الضرر لاحق بهم من هذا الإنفاق؛ ولاحق بالناس، لأنهم كانوا يعينون به على الشر، إذ كانوا ينفقونه فى محاربة الرسول ﷺ، وإيذاء المؤمنين؛ وهو سبب فى استعلائهم واستكبارهم، ولو حرموا المال والإنفاق لكان خيراً لهم.

فى النص القرآنى إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى يعاقب بالريح من يظلمون أنفسهم بارتكاب المعاصى، فقال سبحانه: ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾، فإن هذا النص السامى يومئ إلى أن الله تعالى يرسل فى الدنيا عقابا

على أموال الظالمين فيهلكها، ولو اتخذوا الأسباب وما يجب اتخاذه من احتياط لحفظ الأموال، وإن ذلك التخريج لا يوجد ما يمنع من قبوله، بل الإذعان له لأن تدبير العبد واحتياطه، لا يمنع تقدير الرب وقضاءه، وإن الريح كانت سببا فى نصرة النبى ﷺ فى غزوة الأحزاب، فإن الله تعالى أرسل على المشركين ريحا ألقت الرعب فى قلوبهم مع كمال العدة والعدد، وقال تعالى فى ذلك: ﴿ **وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا** ﴿٢٥﴾ ﴾ [**الأحزاب**]. ولقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «نُصِرْتُ بالصَّبَا وأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُور»(١).

وإذا كان ذلك ثابتا فلماذا نستبعد أن يعاقب بعض الظالمين فى الدنيا بإصابة حرثهم بريح، لفساد نياتهم، ولاستخدامهم المال فى غير مواضعه، وإن الذين يستبعدون ذلك هم الذين يُفْرِطُون فى الإيمان بالأسباب العملية، ولا يذعنون للأحكام القدرية، وإن الزرع بالذات ليس لأحد أن يدَّعِىَ أنه يستطيع حمايته من الرياح والآفات، مهما يتخذ من الاحتياط، فإن للأجواء أثرها، وللآفات الوبائية حكمها، ولا سبيل إلى التوقى الكامل منها.

وإذا كان الزرع وغيره مهما يتخذ من احتياط لحفظه لا يتقى الريح والآفات، فإنه لا يصح أن يكون ذلك نتيجة للمصادفة، فإن المصادفة بالنسبة لمداركنا، أما بالنسبة لأعمال الله تعالى فإن كل شىء عنده بمقادير، ومقصود بإرادته السرمدية، وهو يكون ثوابا أو عقابا أو إملاءً يُملى الله به للظالمين حتى حين، كما قال تعالى: ﴿ **وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ** ﴿٤٥﴾ ﴾ [**القلم**] وقد قال تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ** ﴿١٢﴾ **وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ** ﴿١٣﴾ ﴾ [**الرعد**].

(١) رواه البخاري: الجمعة - قول النبي ﷺ: نصرت بالصبا (٩٧٧)، ومسلم: الاستسقاء - في ريح الصبا وريح الدبور (٩٠٠). الصبا: ريح تهب من المشرق. والدبور: ريح تهب من المغرب.

إذن فالأمر فى الريح يصيب الله بها بعض الظالمين لظلمهم حق لا ريب فيه، ولقد أخبر الله تعالى أن الظالم يسىء إلى نفسه دائما، فقال: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

والضمير هنا يعود إلى الذين أُصيب حرثهُم بسبب ظلمهم، أى أن الله تعالى ما ظلمهم بالريح تصيبهم، إنما هم الذين ظلموا أنفسهم بفساد قلوبهم ونيتهم، واعتقادهم أنهم يستطيعون التحكم فى القدر، وفى هذا إشارة إلى أولئك الذين أنفقوا فى الإفساد للافتخار والخُيَلاَء والاستكبار، فى أن الله ما ظلمهم بإبطال إنفاقهم، إنما هم الذين ظلموا أنفسهم بأن تجنبوا إنفاق المال فى الحلال بنية الحلال، بل أنفقوه فى الحرام، وما أنفقوه فى حلال إلا بنية الحرام.

وجوز الزمخشرى أن يعود الضمير إلى الذين ينفقون فى هذه الحياة، وهو ظاهر كل الظهور. ونضرع إلى الله أن يلهمنا الإنصاف فى أقوالنا وأفعالنا، وأن يرزقنا صدق القول، والإخلاص فى أعمالنا له، إنه سميع الدعاء.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا
وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى
صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾
هَـٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ
وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ
مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾
إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ
بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا
إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾

هذه الآية وما وَلِيَهـا من آيات فيها عود إلى التحذير مما يريده أهل الكتاب والمنافقون من أهل الإيمان والإخلاص، فقد قال تعالى من قبل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ** (١٠٠)﴾ [**آل عمران**] وبين وجوب الاعتصام بحبل الله تعالى وهو كتابه تعالت كلماته، وعظمت آياته، لتتم الوحدة الإسلامية، ثم ذكر من بعد ذلك بعض أحوال أهل الكتاب، وما عساه قد يكون فى بعضهم من خير، وما عليه سائرهم من شر، وفى هذه الآية يحذر تحذيرا شديدا من نوع آخر، فقد كان التحذير متجها إلى الحث على اليقظة الفكرية، حتى لا يفسد أهل الكتاب على المؤمنين دينهم الذى ارتضوا، فبين أنه لا يصح الاسترسال فى إرضائهم، فإنه لا يرضيهم من المؤمن إلا أن يخرج عن دينه ويطرحه وراءه ظهريا، وأن يسير وراء ركبهم، ولقد قال سبحانه: ﴿**وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ** ... (١٢٠)﴾ [**البقرة**]. فالتحذير هنالك للخوف على العقيدة أن يفسدها هؤلاء، أما التحذير هنا فهو للخوف من أن يفسد أولئك المنافقون من أهل الكتاب الجماعة الإسلامية، وينشروا فيها الاضطراب، وألا يكون نظام قائم ثابت الدعائم، ولذا قال سبحانه:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ**﴾ بطانة الرجل: خاصته الذين يعرفون خفايا أمره، ومكنون سره، ويستبطنون ما يخفى على غيرهم، فيعرفون موضع قوته وضعفه، ويتخذ منهم مستشاريه الذين يستشيرهم، ويستنصحهم إن احتاج إلى نصيحة، وأصل البطانة خلاف الظهارة، وتطلق على الثوب الخفى الذى يكون باطنا غير ظاهر، وقد استعير اللفظ للدلالة على الذين يختصون بالاطلاع على باطن أمر الشخص، وكأنه شبه الذين يختصون بشئون الشخص خفيها وظاهرها ببطانة الثوب التى تلاصق الجسم أو تقاربه، لقوة الاتصال فى كل منهما، ولأن كليهما يمس ذاته وشخصه: بطانة الثوب تمسه حِسا، وبطانة الرجل تمسه معنى، وكما أن الأولى أدرانها تكون أمكن فى الأذى وتكون أسرع، كذلك الثانية تكون أمكن وأقوى تأثيرا وأسرع.

ومعنى النص الكريم أنه لا يجوز للمؤمنين أن يتخذوا مستشارين ونصحاء، يستبطنون أمورهم من دونهم أى من غيرهم، فمعنى «دونكم» هنا «غيركم» الذين لم يبلغوا ما أنتم فيه من قوة الإيمان والإخلاص للحق، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ ... ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنبياء] أى غيره الأقل منه.

وصدر النداء بوصف الإيمان للإشارة إلى أن مقتضى الإيمان ألا يستعينوا بأولئك الذين كفروا بآيات الله تعالى، وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم، فقضية إيمانكم وكفرهم توجب ألا تأمنوهم فى خاصة أموركم، ولقد كان السلف الصالح يأخذون بذلك الهدى القرآنى ، فقد كان عمر رضى الله عنه ينهى عن اتخاذ الأعوان من أهل الكتاب وغيرهم، فقد قال رضى الله عنه: (لا تستعملوا أهل الكتاب، فإنهم يستحلون الرشا، واستعينوا على أموركم ورعيتكم بالذين يخشون الله تعالى) وقيل لعمر رضى الله عنه: إن ها هنا رجلا من نصارى الحيرة لا أحد أَكْتَبَ منه، ولا أَخَطَّ بقلم، أفلا يكتب عنك؟ فقال الإمام النافذ البصيرة: (لا آخذ بطانة من دون المؤمنين).

وقد ذكر سبحانه الأوصاف والأحوال التى توجب الامتناع عن اتخاذ بطانة منهم، فذكر لهم أحوالا ثلاثة: أولها، وهى كافية فى إبعادهم عن أسرار الدولة، وهى التى قال الله تعالى فيها: ﴿ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ﴾.

الخبال كالخبل: الاضطراب والفساد وهما متلازمان، فلا اضطراب إلا ومعه فساده ولا فساد إلا يترتب عليه اضطراب، فهما معنيان متقاربان ومتلازمان، ومعنى «يألو» بقصر فى بذل الخير ويبذل الأذى غير مقصر ولا متوان، بل ينتهز الفرص، وهى تتعدى إلى مفعول واحد، وقد تتعدى إلى مفعولين إذا تضمنت معنى المنع، ومعنى قوله تعالى: ﴿ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ﴾ (لا يقصرون فى جهد يبذلونه لضركم، ولا يمنعونكم خبالا واضطربا فى الأمور)، أى لا يمنعونكم باذلين الجهد فى تحقيق مقصدهم ومرادهم فسادا واضطرابا فى الأمور، ليفسدوا عليكم دينكم، ويقوضوا دعائم دولتكم، ويخضدوا شوكتكم، ويكون أمركم بوارا بالفتن التى يبثونها، والريب التى يثيرونها.

ولقد صدق الله تعالى كلماته، فمن وقت أن صارت بطانة الملوك والأمراء من أهل الكتاب، وأمور المسلمين فوضى، تختفى الفوضى السياسية عندما يكون الأمير أو الملك قويا، ولكن تكون فى بث أفكار فاسدة، وآراء تحل الوحدة، وقد كان أول من اتخذ كتابا من أهل الكتاب معاوية بن أبى سفيان، وحسبك أن تعلم أنه فى عهده انتشرت الإسرائيليات، والأفكار التى تثير الرِّيَب فى الحقائق الإسلامية، وقد كان يوحنا الدمشقى كاتب عبد الملك بن مروان وأبوه الذى كان كاتبا لمعاوية يبثان الأفكار الفاسدة بين المسلمين، مثل ادعائهم عشق النبى ﷺ لزينب بنت جحش، ومثل إثارة الكلام فى الطلاق الثلاث، بل الكلام فى أصل الطلاق، وإثارتهم الكلام فى أن الله متصف بصفة الكلام أو غير متصف، وأن القرآن قديم أو غير قديم، ومثل إثارتهم الكلام فى الجبر والاختيار.

وبذلك كانوا يحلون الوحدة الفكرية، ليتسنى لهم من بعد حل القوة الإسلامية، كما ظهرت النتائج من بعد.

﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ هذا هو الوصف الثانى، أو الحال الثانية من أحوالهم، وهى سبب لإرادتهم البوار والفساد للمسلمين، فالأولى مظهر ونتيجة، والثانية باعث ودافع، فهم لا يودُّون للمسلمين السعادة والرفاهية والخير والقوة بل يودون لهم الشقاء والتعس والأذى، وليس لعاقل أن يطلع خفايا أموره ويستنصح من لا يود له إلا الشر والأذى.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ أى ودوا عنتكم وهلاككم، وإجهادكم وإنزال المشقة بكم، التى يترتب عليها تفريق جمعكم، وذهاب قوتكم. و«ما» فى قوله تعالى: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ هى ما المصدرية التى يسميها علماء النحو الموصول الحرفى، وهى تؤول هى وما بعدها بمصدر.

﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ البغضاء: البغض الشديد المستمكن الثابت الذى لا يتغير ولا يزول، فهى صفة ثابتة، وفرق بين البغض والبغضاء فالبغض حال تقبل الزوال، وأما البغضاء فهى كراهية يبعد

زوالها، وهى على ذلك أخص من البغض المطلق، إذ هى بغض مقيد، وهى تظهر من عباراتهم وكلماتهم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ... ﴿٣٠﴾ ﴾ [محمد]. وليس معنى ذلك أن البغضاء لا تبدو إلا فى الأقوال، بل تظهر أيضا فى الأفعال، ولكن عند الفحص الدقيق، والوزن الصحيح، وإن ما يظهر على اللسان هو طفح مما امتلأ به القلب، فهى فيض الإناء وما يسيح منه، وما فى الإناء أكثر وأغزر، وهو المادة الوفيرة التى كان منها طفح الكيل، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ أىْ ما يطوون فى صدورهم وتنطوى عليه نفوسهم أكثر مما يظهر، إذ إن ما يظهر هو الجزء الذى انبثق من الوكاء، أو هو فى الحقيقة الرشح الذى ظهر من المسام التى تخفى ما وراءها.

وهذا الوصف هو فى الحقيقة توبيخ لأولئك الذين يأتمنونهم، وحالهم فى البغضاء ظاهرة مكشوفة، غير مخفية ولا مستورة.

﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ختم الله تعالى هذه الأحوال بهذا النص الكريم، ليدعوهم إلى التفكير فيما هم مقبلون عليه، وليدعوهم إلى الحذر وتخير خاصتهم وبطانتهم، وخصوصا الحكام منهم، فإن البطانة تكون خيرا إن حضت على الخير، وتكون شرا إن حرضت على الشر، والعميق النظر المدرك المتعقل فيما يفعل هو الذى يدرك الأخيار من الأشرار، ولقد قال النبى ﷺ فيما روى البخارى: «ما بعث الله من نبى، ولا استخلف من خليفة، إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالخير، وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر، وتحثه عليه، والمعصوم من عصمه الله»(١).

والآيات المراد بها تلك البينات التى ذكرها صفات وأحوالا لهؤلاء يعرفون بها، وقد بينها الله للحكام إن كانوا يدركون الأمور بعقولهم لا بشهواتهم

(١) رواه البخاري: الأحكام - بطانة الإمام وأهل مشورته: البطانة: الدخلاء (٦٦٥٩)، كما رواه النسائي: البيعة - بطانة الإمام (٤١٣١)، وأحمد: مسند المكثرين (١٠٩١٤)، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وأهوائهم، فمعنى ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تدركون الأمور بعقولكم، وإن ذلك لحق، فما رأيت حاكما يتخذ خاصته من غير المؤمنين إلا إذا كان ممن غلبت عليه شهواته وأردته ودولته أهواؤه، وما رأيت حاكما مسلما يتجنب هؤلاء إلا إذا كان ممن غلب عقله هواه، وممن جنبه الله الزلل فى الحكم.

بعد هذا أخذ سبحانه يقابل بين إخلاص المؤمنين، وحقد الكافرين الذين يتخذ بعض المسلمين منهم بطانة فقال: ﴿هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾.

الإشارة إما أن تكون لعامة المؤمنين: من يتخذون بطانة من الكافرين، ومن لا يتخذون، ويكون المعنى ها أنتم أولاء أيها المؤمنون تحبونهم وترجون لهم الهداية والتوفيق، والخير والرشاد، وتؤمنون بالكتاب كله أى بالكتاب المنزل الذى يحوى شريعة الله تعالى التى لا تتغير ولا تتبدل، فالكتاب هنا جنس للكتب المنزلة كلها، وهم لا يحبونكم ولا يريدون الرشاد، واستمرار الهداية، بل يريدون إفساد أموركم.

وإما أن يكون الخطاب للذين يخطئون ويتخذون منهم خاصة وبطانة ويطلعونهم على سر الأمور، ويكون المعنى ها أنتم أيها الذين أخطأوا تحبونهم وتقربونهم وتجعلونهم خواص لكم وهم لا يحبونكم، وأنتم أكمل إيمانا وأقوى يقينا، لأنكم تؤمنون بالكتاب المنزل كله، ففى ضمن إيمانكم التصديق بالصادق عندهم، وهم ناقصو الإيمان، فكيف تثقون بهم وهم منكرون جاحدون لما عندكم؟

ثم ذكر سبحانه حالا لهم تكشف عن كراهيتهم وبغضهم ونفاقهم، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾.

هذا بيان لنفاقهم، ولا يمكن أن يكون فى بطانة المؤمنين إلا المنافق منهم، سواء أكان من المنافقين الذين أعلنوا الإسلام فى ظاهر أحوالهم وعامة شئونهم

وأضمروا غيره، أم كان من الذين لم يدخلوا فى ضمن المسلمين ظاهرا؛ إذ لا يمكن إلا أن يكون فى قلبه حظ كبير من النفاق ما دام قد قبل أن يعمل خاصة وبطانة لمؤمن؛ لأنه لا يمكن أن يصل إلى هذه المنزلة إلا إذا أَبْطن غير ما يظهر، إن لم يكن فى شئون الاعتقاد ففى غيرها، فمن كان شأنه كذلك يكون منافقا لا محالة.

ويصح أن يكون المراد المنافقين الذين أضمروا الكفر وأظهروا الإسلام، ويكون هذا واضحا، ويؤيده قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا**﴾ لأنهم يعلنون الإيمان، ولكن واضح أيضا أن قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً**﴾. عامة تشمل المنافقين وغير المؤمنين، فكيف نذكر بعد ذلك أوصاف المنافقين فقط؟ والجواب عن ذلك أن النهى عام، وقد ذكر التعليل خاصا بالمنافقين، لأنهم الأقرب لئلا يعهد إليهم بخواص الأمور، إذ هم يعلنون الإسلام، ويبطنون غيره، فهم مظنة أن يخدع الحاكم فيهم، فدعاه القرآن الكريم إلى أن يتخير بطانته، وغيرهم لسان حالهم ينفر منهم إلا إذا كان الأمير أو الحاكم ممن لا يحسنون الحكم ولا معرفة المصلحة.

وعلى النظر الأول، وهو أن يكون الكلام فى قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا**﴾ عاما لكل الكافرين يكون معنى: ﴿**قَالُوا آمَنَّا**﴾ أنهم يظهرون الرضا بحكم الإسلام والاطمئنان إليه، وأنهم يريدون قوة الدولة الإسلامية وعزتها، فليس الإيمان على حقيقته، بل معناه الرضا بقبول الحكم الإسلامى.

ولا شك أن التخريج الآخر أوضح وأبين

ومعنى ﴿**وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ**﴾ أن الحقد يأكلهم ولا يستطيعون إظهار الألم الشديد فى حضرة المؤمنين، فيدخرون إظهاره حتى إذا خلوا أظهروه فى أقسى مظاهره، وهى عض الأنامل من الغيظ، والأنامل قيل هى أطراف الأصابع، وقيل الأصابع نفسها، والمغيظ المحنق دائما يعض الأنامل، فهذا

مظهر لأعلى درجات الغيظ، وإن لم يقع من بعض الناس بالفعل، ولذا قال الشاعر:

فأقتلُ أقوامًا لئاما أذلةً يعضون من غيظٍ رؤوسَ الأباهِم[1]

فهذا التعبير كناية عن بلوغ أقصى درجات الغيظ، وفى هذا إشارة إلى أن من يكون إحساسهم نحو المؤمنين كذلك لا يصح أن يوثق بهم فى مهامهم؛ لأنهم منافقون، والمنافق ليس جديرا بالثقة، ولأنهم لا يسرهم من المؤمنين إلا أن يكونوا فى خبال.

وإنهم ما داموا لا يريدون إلا الشر بأهل الإيمان، فإنه يجب أن يستمروا على حالهم من الغيظ، لأن الخير فيما يغيظهم، ولذا قال سبحانه: ﴿ **قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾.

الخطاب للنبى ﷺ ابتداء، ولكل مؤمن بالتبع له عليه الصلاة والسلام، وقوله ﴿ **مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ** ﴾ ظاهره الأمر بالموت أو الدعاء بالموت، وحقيقته الدعوة إلى استمرارهم على غيظهم ما دام غيظهم سببه نجاح الإسلام ودعوته، وعموم هدايته وصلاح شأن المسلمين، فالأمر هنا طلب استمرارهم على غيظهم، فالمعنى استمروا على غيظكم، والاستمرار على الغيظ استمرار لسببه وهو نجاح الإسلام وقوته، وصيغة الأمر هنا للتهكم عليهم.

وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾ لإفادة أن ما يبيتونه للمسلمين يعلمه الله ويحاسبهم عليه ويعذبهم، فحالهم فى الدنيا شر حال، وفى الآخرة العذاب الأليم، فلهم كمد الدنيا، وعذاب الآخرة، وقد جوز الزمخشرى أن تكون تلك الجملة من مقول القول المأمور به فى «قل» وأن تكون من قول الله تعالى، والمؤدى واحد، وهو أن الله عليم بالسرائر والضمائر، وفيها تطيب لنفوس النبى والذين آمنوا بأن الله تعالى ناصرهم وكاشف أمر أعدائهم إذا أطاعوا أوامره،

(١) الأباهم: جمع الإبهام.

واجتنبوا نواهيه، ولم يجعلوا من أولئك الأعداء بطانة لهم، حتى لا يمكنوهم من دخائل أمورهم، فيكون سر المسلمين مكشوفا، وأمر هؤلاء مستورا.

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ هذه صورة واضحة لأنهم لا يحبون المؤمنين، ويغيظهم صلاح حال المؤمنين، وإمداد الله تعالى بالنصر لهم، والمعنى إن أنزل الله لكم نعما ونصرا وأمرا حسنا نافعًا فى ذاته ويحسن فى نظركم وينفعكم ساءهم ذلك، وأثار غيظهم وحسدهم، وإن نزلت بكم شديدة وأمر يسوء يفرحوا، وتستطار ألبابهم سرورا وحبورا، وقد عبر سبحانه وتعالى فى جانب الحسنة بقوله: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾ وفى جانب السيئة بقوله: ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ للإشارة إلى تمكن الحقد والحسد فى قلوبهم بحيث إن أى حسنة ولو مست ولم تغمر وتعم - تسؤهم؛ لأنهم يستكثرون كل خير للمؤمن مهما ضؤل كالشأن فى كل الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، ولا يفرحون بالمصيبة التى تمس، فإنها لا تشفى غيظهم بل لا يفرحون إلا بالمصيبة التى تغمر وتعم وتستمر.

وإن هذا كله يدل على أنهم يكيدون للمؤمنين ويبالغون فى الكيد لهم، وإن دفع هذا الكيد يستدعى الصبر والتقوى، ولذا قال سبحانه: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾.

أى وإن تصبروا، فتضبطوا أنفسكم ولا تنساقوا فى محبة من لا يستحق المحبة، وتتحملوا مشاق التكليفات، وتقاوموا العداوة بمثلها، وتردوا اعتداءهم بمثله، وتتقوا الله تعالى، وتتقوا أذاهم، فلا تتخذوا منهم بطانة - إن فعلتم ذلك لا يضركم كيدهم وتدبيرهم السيئ شيئا من الضرر مطلقا، وإن لم تفعلوا ذلك فلم تأخذوا حذركم منهم، وسهلتم دخول الغفلة عليكم، ولم تضبطوا أنفسكم عن محبتهم، فإنهم يستمكنون منكم بكيدهم، ولا منجاة لكم من شرهم.

وقد قرئ قوله تعالى: ﴿لا يَضُرُّكُمْ﴾ بالضم على أن ذلك من قبيل التخلص من التقاء الساكنين بالضم، فإن الفعل مجزوم، فيفك الإدغام، ويتخلص

من التقاء الساكنين بالضم أو الفتح، وقد قرئ بالفتح، كما قرئ «لا يَضِرْكم» من ضار يضير بمعنى ضر يضر.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ ذيل الله سبحانه الآية بهذا النص، ليطمئن المؤمنين ويهدد الكافرين، فالمعنى: الله تعالى محيط بما يعملون إحاطة علم وإحاطة قدرة، وإحاطة العلم فيها بيان أنه لا تخفى عليه خافية من كيدهم، وإحاطة القدرة مؤداها أنه محبط كل ما يدبرون ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران].

هذه وصايا الله تعالى للنبي ﷺ وللمؤمنين بالنسبة لسياسة أمورهم مع مخالفيهم، يحترسون منهم، ولا يفرطون في الثقة بهم، فلا يتخذوا منهم بطانة وخاصة، وإلا كان الدمار والبوار والخبال، وهكذا نحن الآن، اللهم هيئ لنا من أمرنا رشدا.

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ
تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾
إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى
ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ
أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾

في الآيات السابقة بين سبحانه وتعالى ما بيته أعداء المسلمين من خبال وأذى ينزلونه بهم إن اتخذوا منهم بطانة يلقون إليهم بالمودة ويكشفون سرائرهم لهم، وبين أن أولئك المنافقين تسوءهم مصلحة المؤمنين، وتسرهم مساءتهم، وأنه لا

علاج إلا أن تحذروهم وتصبروا عليهم، وتتقوا الله تعالى، وتصونوا أنفسكم عن تمكينهم من الأذى، وفى هذه الآيات يشير سبحانه إلى بعض صنيعهم فى شديدة للمسلمين، وكيف كانوا يبثون الشك والفوضى فى نفوس المجاهدين، مما جعل بعضهم يفكر فى أن يفشل ويعجز وتخور عزيمته، ولقد أشار سبحانه فى ذلك إلى غزوة أحد وغزوة بدر، فقال سبحانه:

﴿**وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ**﴾ هذه الآية وما تليها نزلت فى غزوة أحد، إذ خرج النبى ﷺ فى السحر من السابع من شوال فى السنة الثالثة من حجرة عائشة، وأخذ يصف المؤمنين للقتال، ويقف كل فريق منهم فى موقفه، وقد جعل الرماة من وراء المقاتلين، وأمرهم بأن يكونوا وراء ظهور المقاتلين ينضحون عنهم بالنبل، وقال لأميرهم: «انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك، لا نؤتين من قبلك» وأمر الجيش كله ألا يتحرك إلا عندما يأذنه بالحركة، حتى إن أحد الأنصار استشرف للقتال وتمناه عندما رأى قريشا قد سرَّحت أفراسها وإبلها فى زروع المسلمين، وقال: «أترعى زروع بنى قيلة (يعنى الأنصار) ولما تضارب».

وهذا مؤدى قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ**﴾ ومعنى غدوت: أصبحت مبكرا مسارعا إلى تنظيم جيش المؤمنين جيش الله تعالى، والغدوة والغداة أول النهار، ويذكر الغدو والغداة أول النهار، ويذكر الغدو مقابلا بالآصال أى وقت العصر وقبل المغرب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ** ﴿٣٦﴾﴾ [**النور**]. وقوبلت الغداة بالعشى، ويطلق الغدو على الذهاب ويكون مقابلا للرواح، ومن ذلك قوله تعالى فى الرياح: ﴿**غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ** ... ﴿١٢﴾﴾ [**سبأ**] وذلك لأن الذهاب عادة يكون فى البكور، وتبوئ معناه تسهل وتنظم وتثبت، وأصله من البواء وهو مساواة الأجزاء فى المكان، وبوأت له مكانا سويته، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا** ... ﴿٨٧﴾﴾ [**يونس**].

وعلى ذلك يكون معنى قوله تعالى: ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ أى تسوى لهم بالتنظيم والترتيب مقاعد للقتال، فهى إذا تتضمن معنى التنظيم والتهيئة والاستعداد، ولقاء المشركين صفا واحدا، كأنهم بنيان مرصوص.

وهذا التنظيم إنما هو بيان مواقف القتال، وموضع كل فريق فى الموقف الذى يقفه، ولكن النص السامى الكريم قال: ﴿مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ فعبر عن المواقف بالمقاعد للإشارة إلى وجوب الثبات والسكون، حتى لا يتحركوا إلا بأمر من القائد الأعظم وهو النبى ﷺ. وقد كان الثبات سبب النصر فى غزوة أحد، والهزيمة كان سببها عدم الاستمرار فى البقاء فى مواقفهم، ذلك أن الرماة عندما رأوا المؤمنين قد انقضوا بأمر النبى ﷺ على المشركين يقتلونهم ويزيلونهم عن مواقفهم، تركوا مواقفهم وذهبوا وراء المؤمنين يغنمون ويأخذون، فانقض عليهم من ورائهم فرسان المشركين، فتفرقوا، وهذا قوله تعالى:

﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ... ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران] ومن هنا كانت إصابة المسلمين فى موقعة أحد.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ذيل الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بهذا النص السامى لبيان أنه تعالى مطلع على ما كان يجرى بين المؤمنين وبين النبى ﷺ من مشاورات، وما استقر عليه رأى كثرتهم، ثم نزوله عليه الصلاة والسلام عند رأى الكثرة، ثم عدول الكثرة إلى رأى النبى ﷺ، ثم قول النبى لهم معتزما إمضاء ما قرروا أولا، وإن كان غير رأيه الذى مال إليه، ليعلمهم أن التردد ولو للصواب المحتمل ضرره أكثر من المضى ولو فى الرأى المحتمل للخطأ، فإن صواب الحروب وخطأها، لا يتبين، وإن التردد فيها يقتل، والمضاء فيها ينصر، وبين بهذا التذييل أيضا أن الله تعالى عليم بخفايا القلوب، فهو يعلم ما تهم به قلوب المؤمنين، وما توسوس به قلوب المنافقين، وما يبثونه من روح الذعر والهلع فى نفوس المؤمنين، وبحديثهم مستجابا فى قلوب ضعفاء الإيمان، وهم الذين قال القرآن عنهم: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ...﴿١٠﴾﴾ [البقرة].

ولقد علم الله ما كان من المؤمنين والمنافقين من مناقشات عندما ساور المدينة المشركون فى العام الثالث، وأرادوا أن يثأروا من الدماء التى أصابتهم فى بدر، فقد جمع النبى ﷺ أصحابه ليستشيرهم فى الأمر، أيخرجون إليهم، أم يبقون حتى يجىء العدو إليهم فى الديار، فقال بعض المؤمنين: (أقم يارسول الله بالمدينة، ولا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فكيف وأنت فينا؟ فدعهم فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة، وإن رجعوا رجعوا خائبين). وعارض ذلك الرأى الأكثرون ممن لم يحضروا بدرا فقالوا: (اخرج بنا يارسول الله إلى هؤلاء الأَكْلُب لا يرون أنَّا قد جَبُنَّا عنهم). وما زال أولئك الذين لم يحضروا بدرا بالرسول حتى نزل عند رأيهم، وقد كان إلى الأول أميل.

وتركهم وعاد إلى أهله ليلبس لأْمَةَ الحرب، فتلاوم المسلمون فيما بينهم، وقال قائلهم: بئسما صنعنا، نشير على رسول الله ﷺ والوحى يأتيه؟ فلما جاء إليهم الرسول قالوا: اصنع يا رسول الله ما رأيت، فقال الرسول ﷺ ذو العزم: «ما كان لنبى لبس لأْمَتَه أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه»(١).

وقد خرج رسول الله ﷺ فى ألف من أصحابه، وكان عدد المشركين ثلاثة آلاف، وكان مع المسلمين طائفة من المنافقين، على رأسهم عبد الله بن أبى ابن سلول، فرأى أن يحدث الخلل فى الصفوف فرجع ومعه نحو ثلاثمائة ممن على شاكلته وضعاف الإيمان، وبرز تخاذله بأنه كان يرى ألا يخرج إليهم المؤمنون وأن يبقوا بالمدينة، ومنهم من زعم أنه لا قتال، وقالوا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ ... ﴿١٦٧﴾﴾ [آل عمران].

---

(١) جاء في البخاري في ترجمة «بَاب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾». وأحمد: باقي مسند المكثرين (١٤٢٦٠).

وقد ظهرت عداوة المنافقين، وبرزت نياتهم، وتكشفت سرائرهم، حتى إن أعمى منهم قد مر النبى فى بعض أصحابه بحائطه (أى بستانه) فأخذ يحثو التراب فى وجوههم، ويقول وقد أخذ حفنة بيده: لو أنى أعلم أنى لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك فابتدره القوم ليقتلوه، فقال النبى ﷺ: «لا تقتلوه فهذا الأعمى أعمى القلب، أعمى البصر» وفى وسط تلك الزوبعة التى أثارها المنافقون بانشقاقهم عن الجمع وعودتهم إلى المدينة ألقوا الرعب فى قلوب بعض الضعفاء، حتى لقد هم بعض المؤمنين بالفشل، وهذا هو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿**إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا**﴾.

الهمُّ هو حديث النفس واتجاهها إلى أمر معين من غير تنفيذ، فحديث النفس هو ما يأخذ طريق التنفيذ، فإذا أخذ طريق التنفيذ فهو إرادة وعزيمة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ والفشل ضعف مع جبن، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** ... ﴿٤٦﴾﴾ [**الأنفال**] ومن ذلك أيضا قوله تعالى:

﴿**حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ماتحبون**﴾ ومعنى النص اذكر أيُّها النبى الكريم أنت وأمتك أثر إفساد المنافقين إذ اتخذتم منهم بطانة، اذكر ذلك إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا، أى إذ حدثت نفسها طائفتان من المؤمنين لا من المنافقين أن تفشلا وتضعفا فى وقت الشديدة والكريهة، مع أن الله تعالى وليهما وناصرهما، ومن يكون الله معه لا ينهزم إلا إذا خالف أوامر الله وأوامر نبيه وقائده الأعلى، **فذكر ولاية الله تعالى فى هذا المقام لسببين:**

أحدهما: أن المنافقين استطاعوا أن يؤثروا فى المؤمنين ذلك التأثير السيئ مع أن المؤمن يشعر دائما بولاية الله تعالى وعزته، وأنه سبحانه وتعالى ينصر من

ينصره، وهو القوى العزيز، وأن هذا يوجب أن يعمل الهادى والمرشد على أن يصون نفوس المؤمنين من أن يدخل إليها شياطين الإنس من المنافقين والمخادعين.

الثانى: أن ذلك فيه معنى التوبيخ لأولئك الذين تأثرت نفوسهم بأولئك المنافقين لأنه ما كان ينبغى لهم أن يستمعوا إلى دعاية المنافقين، أو أن يفتحوا لها بابا تدخل منه إلى قلوبهم، ولكن هكذا البشر تتسرب إلى نفوسهم وسوسة الشيطان من حيث لا يشعرون.

وإن الطائفتين اللتين همتا بالفشل هما بنو حارثة من الأوس وبنو سلمة من الخزرج، وكانا جناحى العسكر يوم أحد، وقد ذكر البخارى عن جابر قال: فينا نزلت: ﴿**إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا**﴾. نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة، وما نحب أنها لم تنزل لقول الله عز وجل: ﴿**وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا**﴾.

﴿**وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ وإذا كان الله سبحانه وتعالى ولىّ المؤمنين حتى من يهم أن يضعف متأثرا بحركات المنافقين، فإنه سبحانه وتعالى هو الذى يتوكل عليه المؤمنون، والمؤمن بوصف كونه مؤمنا لا يعتمد على حليف أو نصير، وإنما يعتمد على الله تعالى وحده، فإذا كان المنافقون قد خذلوا المؤمنين فى ساعة العسرة فإن الله معهم وناصرهم، ولن يخذلهم ما داموا آخذين بأوامره منتهين عن نواهيه، ولن يتمكن منهم فى هذه الحال أعداؤهم ﴿**وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ** (٢٠)﴾ [البروج].

والتوكل الحقيقى لا يستدعى ترك الأسباب، فإنه لا توكل إلا بعد الأخذ بالأسباب، إذ إن حقيقة التوكل الذى طالب الله تعالى به هو أنه يأخذ بالأسباب ويستعد، ثم يترك الأمور لله تعالى، فإنه قد يعرض للإنسان ما ليس فى حسبانه، فعليه أن يترك تلك المنطقة الغيبية لعلام الغيوب، والدليل على أن التوكل فى القرآن والسنة يستدعى اتخاذ الأسباب، أنه يجتمع مع الجهاد والمشاورة، فالله

تعالى يقول: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ... ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران].

وفى الآية التى نتكلم فى معانيها السامية جاء الأمر بالتوكل بعد أن أخذ النبى ﷺ يبوئ المؤمنين مقاعد للقتال، ويأخذ الأهبة ويستعد، وإذا كان التوكل ترك الأسباب فَلِمَ كان الأمرُ بالعمل والقتال وغيره من التكليفات التى تكون سببا لنتائج شرعية.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ بعد أن أشار سبحانه إلى تأثير أهل السوء مع كثرة المؤمنين - فى غزوة أُحد وكيف حاولوا أن يوهنوا عزائم المؤمنين أخذ سبحانه وتعالى يبين غزوة بدر، وقد كانت وليس بين المؤمنين منافقون؛ لأن أولئك المنافقين ما دخلوا إلا بعد أن وجدوا أن كلمة الله هى العليا، فأظهروا الإسلام وأبطنوا غيره، وكان منهم يهود ومنهم مشركون، فكان المسلمون قلة، ولكن لأنه لم يكن بينهم منافقون، ولم يتخذوا بطانة من غيرهم نصرهم الله سبحانه وتعالى. والمعنى أن الله تعالى نصركم والحال أنكم كنتم قليلا وكنتم مستضعفين فى الأرض كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال].

وإن ذكر هذا يدل على أمرين: أحدهما: أنه لابد من التفويض إلى الله تعالى مع أخذ الأسباب، والثانى: أن القلة مع نقاء القلوب وتلاقى العزائم يكون معها النصر؛ لأن توحيد الغرض قوة فى ذاته تكافئ قوة العتاد والعدة.

وقد يقول قائل: كيف يعبر القرآن الكريم عن المسلمين بأنهم كانوا أذلَّة قبل بدر، والذلة أمر نفسى، وما كانوا كذلك فى أى دور من أدوارهم، فأولئك الضعفاء الذين كانوا يفتنون فى دينهم فلا يغيرون هم فى عزة نفسية أكثر من مضطهديهم، والله تعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ... ﴿٨﴾﴾

[المنافقون] ويقول فى وصف المؤمنين: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [المائدة] ويقول تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ... ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح]؟.

والجواب عن ذلك أن الذلَّة التى وصف بها المؤمنون قبل بدر هى مظاهرها من ضعف العدة، وقلة العدد وقلة المال، حتى إنه لم يكن معهم ظهر، وقد خرجوا للقاء المشركين فى بدر، وقد قال الزمخشرى فى معنى كلمة أذلة: «والأذلة جمع قلة، والذلان جمع الكثرة، وجاء بجمع القلة، ليدل على أنهم على ذلتهم كانوا قليلا، وذلتهم ما كان بهم من ضعف الحال، وقلة السلاح والمال، والمركوب، وذلك أنهم خرجوا على النواضح، يعتقب النفر منهم على البعير الواحد، وما كان بينهم إلا فرس واحد، وقلتهم أنهم كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر، وكان عددهم فى حال كثرة زهاء ألف مقاتل، ومعهم مائة فرس والشكة والشوكة).

فليست الذلة ذلة النفوس إنما هى ظاهر الحال وما كان فيه من ضعف.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إذا كان النصر من عنده تعالى، وهو ولى المؤمنين، فعليهم أن يتقوه، والتقوى معناها استشعار هيبته وجبروته وعظمته وقوته، وأنه إن أراد بقوم خيرا فلا يستطيع أهل الدنيا أن يمنعوه، وإذا أراد بقوم سوءا فلا يستطيع أن يمنعه من قوة الله تعالى، فلا عزة إلا منه، ولا ذلة إلا فى عصيانه، وأن التقوى على هذا المعنى توجب الشكر، ولذلك قال بعد الأمر بالتقوى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أى اتقوا الله تعالى وهابوه، وأقروا بأن الكبرياء له وحده فى السموات والأرض، رجاء أن تشكروه بهذه التقوى، والرجاء من العبيد لا من الله تعالى، فهو الغنى الحميد، فالتقوى هى فى الحقيقة شكر الله تعالى، لأنه سبحانه هو المنعم وهو المتفضل فى كل ما يتعلق بالإنسان من نعم هذا الوجود، وشكره أن تعرف حق ما أسدى، وما تدل عليه النعم من جلال الله وعظمته، فاللهم وفقنا لتقواك، ليتحقق منا شكرك، إنك أنت العلى الوهاب.

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ
أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ ءَالَافٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ
مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ
هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَافٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ
﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا
ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا
مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾

اختلف المفسرون فى هذه الآيات، أهى فى غزوة بدر الكبرى التى جعل الله فيها الكلمة العليا للمسلمين، والكلمة السفلى للمشركين، والتى خرجت بالمؤمنين من حال الضعف فى الأرض إلى حال القوة فيها؟ أم هى فى غزوة أحد التى اختبر الله المؤمنين إذ لم يتبعوا أمر الله تعالى الذى يتضمن الطاعة للرسول ولأولى الأمر، فبين لهم سبحانه وتعالى نتيجة المخالفة بذلك الاختبار الشديد، قال بعض المفسرين: إن الآية فى غزوة بدر الكبرى، لأن الله تعالى يقول قبل هذه الآية مباشرة: ﴿ **وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾.

فقد ذكر النصر مجملا فى هذه الآية فيكون ما بعدها تفصيلا لمجملها، وتكون هذه الآيات الكريمة التى نتكلم فى معانيها السامية بياناً لأسباب هذا النصر، وهذا يتفق مع السياق.

وقال أكثر المفسرين: إن هذه الآيات فى غزوة أحد، فقوله: ﴿ **إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ** ﴿١٢٤﴾ ﴾ [**آل عمران**] فى موضع البيان أو البدل من قوله تعالى: ﴿ **إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴿١٢٢﴾ ﴾ [آل عمران].

إن الرواية تؤيد ذلك إذ روى عن كثيرين من التابعين أن إمداد الله بالملائكة كان فى بدر بألف، كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝﴾ [الأنفال]. وقد ذكر الضحاك فى قوله تعالى: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ﴾ أن هذا كان موعدا من الله يوم أحد، عرضه الله على نبيه محمد ﷺ وقد روى أن المجاهدين قالوا لرسول الله ﷺ وهم ينظرون المشركين: أليس الله تعالى يمدنا كما أمدنا يوم بدر، فقال رسول الله: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ﴾.

ويرجح شيخ المفسرين ابن جرير أن هذه الآية فى غزوة أحد.

وإنا نختار ذلك الرأى؛ لأن الآيات من بعد ذلك ستتكلم على نتائج غزوة أحد فى تفصيل بين، وما كانت الإشارة إلى بدر إلا من قبيل التذكير بحال المجاهدين فى الغزوتين، وأن حالهم فى الأولى أوجبت النصر، وما كان فى أثناء القتال أنتجت ذلك القرح الذى أصاب المسلمين فى تلك الغزوة وهى أحد: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾.

على الرأى المختار وهو أنها فى غزوة أحد تكون كلمة «إذ» ظرف زمان بدل من «إذ» فى قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ ففى هذا النص السامى بيان حال الوهن الذى أصاب بعض المؤمنين ، وفى هذه الايات التى نتكلم فى معناها، عمل الله ونبيه على علاج هذا الوهن، وهو بالبشرى التى يزفها لهم من تأييد لهم بالملائكة ينزلون إليهم. وإن ذكر عدد الملائكة هنا مناسب لعدد المشركين؛ لأن عدد المشركين كان نحو ثلاثة آلاف أو يزيدون، وعدد المسلمين كان نحو ألف؛ انخذل منهم نحو ثلثهم قبل القتال، وهم أولئك الذين اتبعوا رأس النفاق عبد الله بن أُبيٍّ، كما أن عدد الملائكة كان مساويا لعدد المشركين كانوا نحو ألف، وعدد المؤمنين نحو ثلاثمائة، وإن هذا مما يزكى أن الآية التى نتكلم فى معانيها السامية نزلت فى غزوة أحد.

وقوله تعالى على لسان نبيه: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ﴾ تومئ إلى أن حالا من الخور قد اعترت نفوس بعض المحاربين، إذ إن الاستفهام كان منصبا على (لن) التى تفيد النفى المؤكد، والمعنى: أمن المؤكد أنه لا يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين، وهذا فرق ما بين الاستفهام إذا دخل على «لا» والاستفهام إذا دخل على «لن» فالأول استفهام منصب على نفى غير مؤكد، والثانى استفهام منصب على نفى مؤكد، وذلك يدل على خور قد اعترى بعضهم، فكانت الحال فى الابتداء عن بعض المحاربين تومئ إلى احتمال هزيمة.

ومعنى الآية الكريمة فى الجملة: تذكر حالهم أيها النبى الكريم فبعضهم هَمَّ بأن يفشل، وأن قوما قد نكصوا على أعقابهم، وأثر ذلك فى نفوس غيرهم، وأنك بأمر ربك وعدتهم بأن يمدهم الله تعالى بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين، أى ينزلهم الله تعالى إلى أفئدتهم فؤادا فؤادا، ويكون منهم النصر العزيز بأمر الله تعالى، وإن هذه الحال، وهى ابتلاء الوهن على نفوس بعض المسلمين، جعلت النبى ﷺ بأمر ربه يعدهم وعدا أوْفَى، ويزيل احتمال عدم الكفاية من مدد الله، ويؤكد الكفاية فيقول تعالى:

﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ «بلى» هنا إجابة لحاجتهم من المعونة الروحية، وفيها معنى الإضراب عن الإمداد الكثير إلى الإمداد الأكثر، والمعنى: يكفيكم أن يمدكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة، ونرى من المقابلة بين النصين الكريمين أن النص الأول فيه استنكار للنفى المؤكد بـ «لن» من أن ثلاثة آلاف لا يكفى، وفى هذا النص تأكيد بأنه يكفيهم خمسة آلاف، ولكن الكفاية لا تتحقق فى ثلاثة آلاف أو خمسة آلاف إلا بشرط، وهو الصبر، والتقوى، ولذا قال تعالى: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا﴾ أى إن تسربلتم سربال الصبر، واستشعرتم تقوى الله، وعلمتم أن النصر من عنده، فإنكم لا محالة منتصرون، وسيمدكم الله بروح منه، أولئك الملائكة الأطهار، وإن الصبر هو قوة الحروب، والصبر يتقاضى أن يضبط المجاهد نفسه فلا ينساق وراء

هوى المال، وأن يضبط نفسه فلا يفر فى لقاء، والتقوى تتقاضى التوكل بعد الأخذ فى الأسباب، والاعتماد على القوى القهار الغالب على كل شيء، فبالتقوى والصبر تفيض الروحانيات المؤيدة التى هى مدد الله من الملائكة. ومعنى ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ﴾ أى من ساعتهم، والأصل فى الفور أنه مأخوذ من فوران القدر، ونحوها، ثم استعير للسرعة، ثم صار بمعنى التعقيب وعدم التراخى، ويطلق على كل حال لا تأخير فيها ولا بطء. ومعنى ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ أى مكلفين أو مرسلين.

ومعنى النص الكريم: إن تصبروا وتتقوا ويأتوا من ساعتهم وقد استعددتم له أتم استعداد، فإن الله ـ تعالى ـ ممدكم بخمسة آلاف من الملائكة - يرسلها تأييدا لكم.

ولقد قرر بعض العلماء أن الله أمد المؤمنين فى بدر بالملائكة، ولم يمدهم بها فى أحد، وقد قال فى ذلك الطبرى: إن الله أخبر عن نبيه محمد ﷺ أنه قال للمؤمنين : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة، ثم وعدهم بعد الثلاثة آلاف بخمسة آلاف إن صبروا لأعدائهم، ولا دلالة فى الآية على أنهم امتدوا بالثلاثة آلاف، ولا بالخمسة الآلاف ولا على أنهم لم يمدوا بهم ولا خبر عندنا صح من الوجه الذى يثبت أنهم أمدوا بالثلاثة آلاف، ولا بالخمسة، وغير جائز أن يقال فى ذلك إلا بخير تقوم الحجة به، غير أن فى القرآن دلالة على أنهم أمدوا يوم بدر بألف، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾ [الأنفال] أما فى أحد فالدلالة على أنهم لم يمدوا أبين منها فى أنهم أمدوا، وذلك أنهم لو أمدوا لم يهزموا ونيل منهم ما نيل منهم».

ونحن نوافق شيخ المفسرين فى ذلك، ذلك أن شرط الإمداد كان الصبر والتقوى؛ والصبر أى ضبط النفس لم يكن من الرماة الذين أمرهم النبى ﷺ أن يحموا ظهر المؤمنين، فلا يتحركون سواء أكانت الجولة الأولى للمؤمنين أم كانت عليهم.

ولكن ما معنى الإمداد؟ وهل نزل الملائكة إلى الأرض حاملين السيوف مقاتلين فى صفوف المؤمنين؟ لقد ذكر بعض الرواة أنهم نزلوا ذلك النزول، ويكون معنى الإمداد هو الإمداد الحسى الذى يرى ويسمع ولكن ليست هذه الرواية هى المشهورة وإن الحق فى الموضوع أنهم لم يروا مقاتلين، ولا محاربين.

وإذن كيف كان الإمداد؟ الإمداد من مده بمعنى بسطه، ثم أطلق على الزيادة فى المال والقوة، ويصح أن يطلق بمعنى الإمداد الروحى، وليس معنى الإمداد الروحى هو تقوية العزيمة فقط، بل معناه أن الله يفيض بأرواح الملائكة المطهرين، فتكون فى قلوب المؤمنين تثبتهم وتقويهم، وتطهر نفوسهم، وتجعلها نحو الدين، ثم تفيض هذه الأرواح من الملائكة فتثبط المشركين وتخذلهم وتلقى الرعب فى قلوبهم، فعمل الملائكة تثبيت المؤمنين وإلقاء الرعب فى قلوب المشركين، ولذا قال تعالى فى غزوة بدر الكبرى: ﴿**إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ** ... ﴿١٢﴾﴾ [**الأنفال**] وعلى ذلك نحن نميل إلى أن نزول الملائكة نزول روحى، والأرواح الطاهرة المطهرة تحل فى قلوب أهل الحق، إذا وجد عندهم الاستعداد لتلقيها، والاستعداد لتلقيها يكون بالتقوى وتخليص النفس من أهوائها، وضبط المشاعر والإحساس، حتى يكون الجو الروحى الذى يمكن أن تنزل فيه تلك الأرواح التى هى نور خلقه الله تعالى، ولذلك كان الشرط فى نزول الملائكة، وإمدادهم للمؤمنين، أن يصبر المؤمنون جميعا ويتقوا. ولا يكون فى فريق منهم ما يجعل للهوى فى قلبه سبيلا فيمنعه من ذلك التلقى الروحى. وإن ذلك هو رأى الطبرى فقد ذكر ذلك فى تفسير قوله تعالى: ﴿**فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ إذ قال: (قووا عزائمهم، وصححوا نياتهم، فى قتال عدوهم من المشركين، وقيل كان ذلك بمعونتهم إياهم بقتال أعدائهم) ونرى بهذا أنه اعتبر من قال إنهم قاتلوا معهم قوله ضعيف، ولذا عبر عنه بقيل، وقد أنكر أبو بكر الأصم من فقهاء الحنفية قتال الملائكة، وقرر أن ذلك إن كان فهو من أعظم المعجزات ولم يذكر قط أنه معجزة، ولأن ملكا واحدا يكفى لدك مدائن،

فلا تكون ثمة حاجة لعدد من الملائكة ألفا أو ثلاثة آلاف أو خمسة آلاف، وإنما المراد تقوية القلوب والعزائم.

هذا، وإننا ننتهى من هذا إلى أن الملائكة وهى الأرواح المطهرة نزلت، وامتزجت بأرواح أولئك الصديقين الأطهار فى يوم بدر، وكان النصر من عند الله تعالى. وأن الأرواح الطاهرة من الملائكة قد تلابس أرواح أمثالها، ولا دليل من العقل يمنع وقد قام الدليل من النقل، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ أى وما جعل الله تعالى ذلك الوعد الذى ساقه على لسان رسوله لكم إلا تبشيرا لكم بالنصر إن أخذتم الأهبة، وسلكتم الجادة واستقمتم فى إطاعة القائد الحكيم، والمدبر العظيم، وقد كنتم فى حاجة إلى هذا الوعد، إذ أصاب بعضكم الوهن عندما رجع المنافقون بجموعهم وهم ثلث الجيش يقولون: «لو نعلم قتالا لاتبعناكم» حتى لقد همت طائفتان منكم أن تفشلا؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ فهذا الوعد الإلهى الذى جاء على لسان النبى الأمى كان للتبشير بالفوز إن صبروا واتقوا، ولتطمئن قلوبهم به وليذهب فزع الذين أصابهم الفزع عندما كان من المنافقين ما كان.

ولقد يقول قائل: كيف تكون البشرى مع أن النتيجة لم تكن نصرا، والبشرى يكون فيها الفوز ولا فوز هنا، والله سبحانه وتعالى لا يتخلف قوله ولا وعده؟ ونقول فى الجواب عن ذلك: إن تلك البشارة مقرونة بشرطها من جانبهم وهى أن يتقوا ويصبروا، وما صبروا أو على الأقل ما صبر الرماة منهم لأنهم ما ضبطوا أنفسهم، بل خالفوا نهى النبى ﷺ، واتبعوا هواهم فكان ما كان، وفوق ذلك فإن البشرى قد تحققت فى أن الله تعالى ألقى فى قلوب المشركين الرعب عندما تلاوموا فيما بينهم بعد أن أصابوا من المؤمنين قرحا، وقال قائلهم: «لم تصنعوا شيئا، أصبتم شوكتهم وحدهم وقد بقى منهم رءوس يجمعون لكم، فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم» وما زالوا حتى أجمعوا الكرة على المؤمنين ولكن

الله تعالى أركسهم وخذلهم، وألقى فى قلوبهم الرعب، فرضوا من الغنيمة بالإياب.

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ هذا تقوية لمعنى البشرى، ورد على كل الأوهام التى ثارت، وفيها أمر لهم بالتفويض لربهم، وأنهم إن كانوا قد أصابتهم جراح لأخطاء ارتكبوها، ومخالفات للطاعة وقعوا فيها، فإن الله تعالى لم يتخل عنهم، ولا نصر إلا من عنده، لأن كل شىء بيده، وقد حرم المشركين من ثمرات ما فعلوا حتى عادوا من غير نصر نالوه، وإنه يعدكم النصر منه متى أخذتم بالأسباب، وتركتم عوامل الخذلان، وقد وصف ذاته الكريمة بأنه عزيز حكيم؛ لأن ذلك هو الذى يناسب المقام، فالله سبحانه عزيز غالب قهار لا يغلب، وهو حكيم لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء، وقد وعد بالنصر، فالنصر آت لا ريب فيه.

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ فى هذا النص الكريم بيان لثمرات نصر الله تعالى، وفيه يتبين أن نصر الله لعبادة المؤمنين ينتهى إلى غايات منها: أن يقطع طرفا من الذين كفروا، وفسر العلماء ذلك بأن يقتل فريق منهم ويؤسر فريق، فإن ذلك قطع لهم، وعندى أن قطع طرف من الذين كفروا يتحقق بذلك، ويتحقق بما هو أقوى منه، وهو أن تنقص عليهم الأرض من أطرافها، ويستولى على جزء من أرضهم، حتى يتحقق قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ... ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب]. ومن غايات النصر ونتائجه أن يكبت الله تعالى الذين كفروا بسبب كفرهم، والكبت يطلق بعدة معانٍ، فيراد به الرد العنيف، ويراد به شدة الغيظ، وقيل: إن أصله الكبد، أى إصابة الكبد وتقريحه بالغيظ الشديد، ويطلق ويراد به الخزى، والمعنى أن من غايات نصر الله تعالى للمؤمنين أن يصاب الذين كفروا بالغيظ الشديد والخزى والألم النفسى، حتى يخبو صوت الكفر، ويعلو صوت الإيمان، ويصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعند الناس ينقلبون، أى يعودون خائبين. وفى التعبير عن العودة بالانقلاب

إشارة إلى أن مقاصدهم قد انقلبت، فقد أرادوا اقتلاع الإسلام فما وهن المسلمون، وأرادوا أن يطفئوا النور فما انطفأ، فالانقلاب عودة من غير تحقق المقاصد، وفي هذا إشارة إلى أن الجراحات التي أصابت المؤمنين لم تكن نصرا للكافرين، بل قد كانت ثمرة النصر للمؤمنين، إذ قد انقلب الكفار خائبين: ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ... (٢٥) ﴾ [الأحزاب]، ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) ﴾ [إبراهيم].

لَيْسَ لَكَ
مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ
(١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ
وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢٩) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ
(١٣١) وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢)

الكلام متصل بغزوة أحد وما فيها من عِبَر، فإنه يروى في الصحاح عن أنس: أن النبي ﷺ كسرت رباعيته يوم أُحد، وشج وجهه الكريم، حتى سال منه الدم الزكي، فقال عليه الصلاة والسلام: «كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم»(١) فأنزل الله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾.

(١) ذكر ذلك البخاري في الترجمة: المغازي - باب (ليس لك من الأمر شيء)، ورواه مسلم في صحيحه: الجهاد والسير - غزوة أحد (١٧٩١). كما رواه الترمذي: تفسير القرآن (٢٩٢٨)، وابن ماجه: الفتن (٤٠١٧)، وأحمد: باقي مسند المكثرين (١١٥١٨).

وسواء أكان هذا هو السبب فى النزول أم لم يكن، فإن الخبر صحيح فى ذاته، والآية الكريمة متصلة بما قبلها، وهو اتصال تفسير وتتميم على بعض التخريجات، أو اتصال موضوع على تخريج آخر، إذ إن موضوعها متصل بغزوة أحد كالآيات قبلها، والتخريجان يظهران فى تفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، فإن بعض العلماء يعتبرها معطوفة على قوله تعالى فى الآية السابقة: ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾، ويكون قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ جملة معترضة؛ والمعنى على هذا: إن النصر من عند الله العزيز الحكيم يعطيه عباده المؤمنين ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم، بأن يخزيهم ويرد كيدهم فى نحورهم، أو يتوب عليهم أو يعذبهم، ولكن الأمر فى هذا ليس لك، إنما هو لله تعالى، لأنه يتصل بتدبيره سبحانه الكونى، وتقديره الأزلى، وليس لك إلا أن تدبر ما تستطيعه، وتقدر ما يدخل فى حسبانك، وتنفيذ ما تكلف بتكليفه وقد رجح هذا التخريج الزمخشرى، وقال فيه: (المعنى أن الله مالك أمرهم، فإما أن يهلكهم أو يهزمهم أو يتوب عليهم إن أسلموا، أو يعذبهم إن أصروا على الكفر، وليس لك من أمرهم شىء إنما أنت عبد مبعوث لإنذارهم ومجاهدتهم).

هذا هو التخريج الأول فى قوله تعالى: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، وهناك تخريج آخر مؤداه أن الاتصال ليس اتصال عطف بين الآيتين، إنما هو اتصال موضوع فقط، وهذه الآية تكون لأمر جديد فى الموضوع، وهو بيان أن هؤلاء منهم من يفلح فيتوب، ومنهم من يصر على الكفر فيعذب، وتكون نصب (أو يتوب) على تقدير (أن) الناصبة، وتكون (أو) بمعنى (حتى) والمعنى: ليس لك من أمرهم شىء فيما يتعلق بمستقبلهم حتى يتوب الله عليهم فتفرح بتوبتهم، أو حتى يصروا فيعذبهم فترى آية الله فيهم وصِدْقَ وعده لأنبيائه، إذ قد وعد، ووعده حق وصدق.

وقيل إن (أو) هنا بمعنى (إلا)، والمعنى: ليس لك من أمرهم شىء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح، أو يعذبهم فيذهب غيظ المؤمنين، والمؤدى واحد سواء كانت (أو) بمعنى «حتى» أو «إلا».

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ تعليل لعذابهم عند إصرارهم، فالسبب فى التعذيب بعد هذا الإصرار أنهم ظالمون، لأنهم اعتدوا على المؤمنين ففتنوهم عن دينهم الذى ارتضوا، واعتدوا على النبى ﷺ بإيذائه والسخرية منه، واعتدوا مرة ثالثة بقتال المؤمنين، ومحاولة اقتلاع مدينتهم الطاهرة، واعتدوا على الحقائق فموهوها وزيفوها، واعتدوا على أنفسهم فأضلوها وأفسدوها؛ اعتدوا كل هذه الأنواع من الاعتداء فكانوا ظالمين ومستحقين للعذاب، وقد أكد سبحانه وتعالى وصفهم بالظلم بـ «إنَّ» المؤكدة للحكم، وبالجملة الاسمية، وبوصفهم بالظلم كأنه شأن من شئونهم وطبيعة فى نفوسهم، إذ لم تهدهم إلى الحق الحجج الدامغة، ولا الآيات البينة ولا القوة الغالبة.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ هذا تأكيد للنفى السابق فى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إذ الأمر فى السموات والأرض كله لله تعالى، وسلطانه تعالى على ما فى السموات والأرض سلطان المنشئ والمدبر والمالك والعالم بماضى ما فيها وحاضره ومستقبله، خلق كل شىء فقدره تقديرا، وهو يعلم بما يجرى فيه، وما سيكون من شأن له فى المستقبل فهو علام الغيوب الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء، وإذا كان كذلك فلا سلطان لأحد سواه، وليس لأحد مهما أعلى الله تعالى منزلته، واختصه بفضله ورحمته، شىء من الأمر، وهو سبحانه وتعالى يعلم توبة التائب قبل أن يتوب، وإصراره على الذنب قبل أن يموت، وهو الذى يغفر إن شاء، ويعذب من يشاء، ولذا قال بعد ذلك للدلالة على كمال سلطانه: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾.

وسلطانه تعالى فى هذا مطلق لا قيد يقيده؛ لأنه الحكم المطلق الذى لا يرد حكمه، والقادر المهيمن القاهر فوق عباده، ولقد قيد الزمخشرى الغفران بالتوبة، ويقول فى ذلك: (عن الحسن البصرى) يغفر لمن يشاء بالتوبة ولا يشاء أن يغفر إلا للتائبين، ويعذب من يشاء) ولا يشاء أن يعذب إلا المستوجبين لعذابه، وعن عطاء: (يغفر لمن يتوب إليه، ويعذب من لقبه ظالما . .) ويشير إلى اختيار ذلك

الرأى الذى نقله، ويقرر أن السياق يؤدى إلى هذا، لأن هذا تفسير لقوله تعالى من قبل: أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون، إذ تكون المغفرة عند التوبة والعذاب عند البقاء على الظلم، ويرمى الذى يسوغون الغفران لغير التائبين بأنهم يتصامون ويتعامون عن آيات الله فيخبطون خبط عشواء!.

والأمر فى هذه القضية يرجع إلى أن المعتزلة يقررون أن الذنب لا يُغفر إلا بالتوبة، لصدق وعد الله ووعيده وقد وعد المتقين والتائبين بالثواب، وأوعد الظالمين بالعقاب، والله سبحانه وتعالى منجزٌ وعده ووعيده، وأكثر العلماء على أن الله تعالى وصف نفسه بالغفران، وقال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ... ﴿٤٨﴾﴾ [النساء] ولقد ذيل سبحانه وتعالى النص الكريم بقوله:

﴿**وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ وصف سبحانه وتعالى ذاته العلية بصيغة المبالغة فى الغفران، فقال «غفور» أى كثير المغفرة يحبها ويريدها، وهو رحيم، والرحمة أوسع معنى وأشمل من مطلق التجاوز عن الذنب، بل إن الرحمة قد تعم العقاب كما تعم الثواب، **فاقتران الرحمة بالغفران يدل على ثلاثة أمور**.

أولها: أن الله تعالى لا يكتفى بغفران الذنوب عن العصاة التائبين، بل يثيبهم على ما يفعلون من حسنات، وإن الحسنات عنده سبحانه وتعالى يذهبن السيئات.

ثانيها: أن الغفران من الرحمة، وما دام من الرحمة فلا قيد يقيده، والله أعلم بمن يكون موضع رحمته، ومكان مثوبته.

ثالثها: أن العذاب للمصر على الذنب الذى يعيث فى الأرض فسادا، ويفتن الناس عن دينهم يعد من الرحمة؛ لأن رحمة الله تعالى عامة لا خاصة، ومن الرحمة بالعامة عقاب العصاة المفسدين، وثواب الطائعين الأبرار.

بعد أن أشار سبحانه إلى أن التفرق وعدم الطاعة للرسول كان سببا للهزيمة يوم أحد، والتعاون والاتحاد كان أساس القوة والنصر والتأييد من الله تعالى يوم بدر أخذ يبين أن قوة الأمة تكون بالتعاون.

ولعل أبعد الأمور عن معنى التعاون - الربا، ولهذا نهى الله سبحانه وتعالى عن الربا فى هذا المقام؛ فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً**﴾.

ولقد ذكر القفال - من علماء الشافعية - أن بين هذه الآية الناهية عن أكل الربا أضعافا مضاعفة، وغزوة أحد مناسبة ظاهرة، وذلك أن المشركين فى غزوة أحد أنفقوا على عساكرهم أموالا كثيرة جمعوها من الربا، ولعل ذلك يدعو بعض المسلمين إلى الإقدام على الربا، حتى يجمعوا المال وينفقوه على العسكر ويتمكنوا من الانتقام منهم، فلا جرم نهاهم عن ذلك.

لقد ابتدأ الله سبحانه وتعالى الآية بالنداء بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ لبيان أن أكل الربا ليس من شأن أهل الإيمان، وإنما هو من خواص أهل الكفر والعصيان، فإذا كان المشركون يأكلون الربا ويتقَوَّوْنَ به، ويكاثرون أهل الإيمان بأموالهم التى اكتسبوها من السحت فليس لأهل الحق أن يجاروهم، بل عليهم أن يحرموه على أنفسهم، ولا يأكلوا إلا حلالا طيبا.

و«الربا» معناه الزيادة، والمراد بها هنا الزيادة على الدَّين، وهو ربا الجاهلية، ذلك أن الرجل منهم كان يكون له على رجل منهم مال فإذا حل الأجل طلبه من صاحبه، فيقول المدين: أخر عنى دينك.

ولقد قال عطاء: كانت ثقيف تداين بنى المغيرة فى الجاهلية، فإذا حل الأجل قالوا: نزيدكم وتؤخرون، ولقد قال زيد بن ثابت: إنما كان ربا الجاهلية فى التضعيف يكون للرجل دين فيأتيه إذا حل الأجل فيقول: «تقضينى أو تزيدنى».

وبهذه الأخبار الصحاح تبين أمران أولهما: أن ربا الجاهلية كان أساسه الزيادة فى الدَّين للزيادة فى الأجل من غير نظر إلى سبب الدَّين، وأن هذا الربا

المنصوص عليه فى الآية هو **ربا الجاهلية**، وهو الذى ذكره النبى ﷺ فى خطبة الوداع، إذ قال: «ألا إن ربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب»(١) ويبين بهذا أن المضاعفة هى فى الزيادة لا فى أصل الدين، فهى التى تتضاعف سنة بعد أخرى، وذلك هو معنى اللفظ فى واضح معناه؛ لأن المضاعفة فى الآية موضوعها الربا، والربا ليس هو أصل الدَّين، إنما هو الزيادة عليه، وإن كلمة الربا مرادفة لكلمة الفائدة فى لغة الاقتصاديين، فإذا قال قائل: لا تأكلوا الفائدة أضعافا مضاعفة، أفيكون المراد مضاعفة الدين أم مضاعفة الزيادة؟ وإن ضِعف الشيء معناه مثله ومعنى الإضعاف إضافة أمثاله، ومعنى ضاعفها أكثر من الإضعاف سنة بعد أخرى.

وهذا النوع من الربا هو الذى يسمى فى لغة الصحابة والفقهاء **بالنسيئة**، وهو حرام لا شك، وقد قال الإمام أحمد بن حنبل إنه يكفر من يجحد تحريمه، وقال ابن عباس: لا ربا إلا ربا النسيئة.

ويقابل ربا النسيئة **ربا البيوع**، وهو المنصوص عليه فى حديث: «البُر بالبُر مثلا بمثل يدا بيد، والذهب بالذهب مثلا بمثل يدا بيد، والفضة بالفضة مثلا بمثل يداً بيد، والشعير بالشعير مثلا بمثل يدا بيد، والتمر بالتمر مثلا بمثل يدا بيد، والملح بالملح مثلا بمثل يدا بيد، فمن زاد أو استزداد فقد أربى»(٢) وقد اتفق العلماء على أن بيع هذه الأصناف لابد أن يكون بغير زيادة إذا كانت بمثلها كقمح بقمح، ولابد من قبضها، وإذا اختلف الجنس كقمح بشعير جاز الزيادة، ولابد من القبض فى المجلس، والتأخير يسمى **ربا النَّساء**، والزيادة المحرمة تسمى **ربا الفضل**، وما يماثل هذه الأصناف يكون لها مثل حرمتها كالأرز، والزيت ونحو ذلك ، وقد اختلفوا فى تعيين من يماثلها اختلافا طويلا قد دون فى كتب الفقه، وأقرب الآراء فى نظرى هو قول حذاق المالكية: «إن علة التحريم هو الثمنية والطعم معا قبل

(١) رواه مسلم: الحج - حجة النبي ﷺ (١٢١٨)، أبو داود: المناسك (١٦٢٨)، وابن ماجه (٣٠٦٥)، والدارمي (١٧٧٨) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم: المساقاة - الصرف وبيع الذهب بالورق (١٥٨٤)، وأحمد: باقي مسند المكثرين (١١٢٠٨).

الادخار؛ لأن نظام المقايضة فى هذه الأموال يؤدى إلى احتكارها فى يد منتجيها، ويريد الإسلام الاتجار فيها بتوسيط النقدين لكيلا يكون تغرير ولا غرر، ولذلك قال بعض الصحابة للنبى ﷺ: عندى تمر وأريد رطبا، فقال عليه الصلاة والسلام: «بع التمر واشتر الرطب»(١). ولا شك أن ذلك يمكن من ليس عنده تمر ولا رطب من أن يأكل، ولأن السعر يكون مضبوطا، وتحريم المقايضة فى الذهب والفضة إلا بالمثل لأنهما مقاييس لضبط قيم الأموال فلا يصح أن تكون موضع اتجار حتى لا يقيد التقويم.

وربا الجاهلية المنصوص عليه فى الآية يحرم كل زيادة قلت أو كثرت، أيا كان سبب الدين، إذ يقول سبحانه فى آخر البقرة وهى آخر آيات الربا نزولا: ﴿**وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ** ﴿٢٧٩﴾﴾ [**البقرة**].

وقد ادعى بعض الذين يريدون أن يطوعوا الشريعة لتخضع للنظام الربوى اليهودى القائم - أن ربا القرآن هو ربا الديون الاستهلاكية أى الديون التى تقترضها لغرض: ليأكل أو ليسكن أو ليشترى ثيابا، وذلك قول باطل.

لأن تخصيص عموم القرآن لا يكون بالتحكم فى عباراته، بل يكون تخصيصه بنصوص، أو بقواعد مستمدة من نصوص الدين عامة، ولأن العرب لم تكن حياتهم عريضة، ؛ لأن عيشهم كان ساذجا ولم يكن معقدا، إذ حياتهم تقوم على التمر واللبن وسكنى الأخبية، فلماذا يكون الاقتراض للاستهلاك؟! ولأن ربا الجاهلية كان حيث التجارة، فقد كان فى مكة والمدينة وهما يتجران كما هو ثابت فى التاريخ إذ ينقلان بضائع الروم إلى الفرس، وبضائع الفرس إلى الروم عن طريق القواقل فى الصحراء، وقد قال الله تعالى: ﴿**لإِيلافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾**﴾ [**قريش**]، ولأن الدائنين الذين كانوا يرابون فى الجاهلية لا يتصور منهم أن يجيئهم محتاج للمال ينفقه فى حاجاته الضرورية

---

(١) روى الترمذي: البيوع - ما جاء في النهي عن المحاقلة والمزابنة (١١٤٦).

فيمتنع عن إعطائهم إلا بربا، فهذا العباس الذى كان يسقى الحجيج جميعا نقيع الزبيب والتمر لا يتصور منه أن يجيء إليه محتاج، فلا يعطيه إلا بفائدة، إنما يتصور أن يعطى تاجرا يتجر فى ماله ولا يحد له الكسب إلا بزيادة محدودة مستمرة لا بنسبة من الربح؛ ولأن المدينين الذين جاءت الأخبار بذكرهم لم يكونوا من الفقراء، بل كانوا من التجار، فبنو المغيرة الذين كانوا مدينين لبعض ثقيف هم تجار لا فقراء.

وبهذا يتبين أن تحريم الربا فى الإسلام لإيجاد نظام اقتصادى تمنع فيه الأزمات، وقد بينا ذلك من قبل فى عدة بحوث ومقالات، ولذا قال سبحانه: ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾.

أى اجعلوا بينكم وبين غضب الله تعالى وقاية، فأطيعوه فى أوامره ونواهيه، ولا تحاولوا التخلص منها بما تزعمون من أوهام لا أصل لها، فلا تأكلوا الربا، ولا تعينوا عليه، ولا تحرفوا الكلم عن مواضعه، لعلكم تفلحون، أى لترجوا أن تنالوا الفلاح والفوز فى الدنيا والآخرة، وهذه إشارة إلى أن تحريم الربا فيه صلاح الدنيا، وأن أولئك الذين يزعمون أن المصلحة فى إباحته فى عصرنا ويتأولون الشريعة ليخضعوها لتلك المدنية الآثمة، واهمون فى معنى المصلحة، لأن علماء الاقتصاد يقررون **أن نظام الفائدة هو سبب الأزمات**، وهو نظام مؤقت حتى يجدوا ما يحل محله، وعندنا نظامنا، وأكثر البلاد الخاضعة للنظام الروسى أو آخذة به حرمته، والاشتراكية الوطنية الألمانية قبل الحرب حرمته، ولم يضر مصلحتها شيء، بل حمت مصالح البلاد:

﴿ **وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** ﴾ أى اجعلوا بينكم وبين النار التى أعدها الله تعالى للكافرين وقاية من الطاعة، ولا تنحرفوا عن الشرع ومقاصده إلى أهواء الكافرين ومنازعهم، وقد اقترنت هذه الآية بآية تحريم الربا لتهديد المعاندين أو الذين يمارون فى الشرع ويجادلون فيه، وهذا كقوله تعالى فى آية تحريم الربا فى البقرة: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴿٢٧٨﴾ **فَإِن**

لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ... ﴿٢٧٩﴾ ﴾ [البقرة]، فالذين يأكلون الربا أو يدعون إليه، أو يسهلون أمره أو يوطئون أحكام الشريعة لأحكام الكافرين يحاربون الله ورسوله.

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ جاء الأمر بالطاعة لله ولرسوله بعد ذلك النهى القاطع؛ لأن ما يتعلق بالأموال يتحكم فيه الأهواء، وتستولى عليه المنازع المختلفة فيكون مظنة العصيان بتأويل فاسد، أو تحريف مقصود، أو انحراف بسبب الطمع فينساق الشخص فى طاعة من لا يطاع، ويترك طاعة الله والرسول، وفى ذكر طاعة الرسول مقترنة بطاعة الله فى قرن واحد إشارة إلى أن طاعة الرسول طاعة الله، وأن الرسول مطاع فيما يقول عن الله، ومعنى النص: أطيعوا الله والرسول رجاء أن تكونوا فى رحمة لا فى شقاء، وفى هذا إشارة إلى أن تحريم الربا فيه رحمة عامة شاملة، اللهم اجعلنا فى طاعتك وطاعة رسولك دائما.

۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا
ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ
فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ
عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا
فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ
لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ
مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ
مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ
فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾

هذه الآيات موصولة بالآيات التى قبلها؛ إذ الآيات التى قبلها ختمت بالأمر بطاعة الله ورسوله، فقد قال سبحانه: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وفى هذه الآيات بيان معنى هذه الطاعة المطلوبة التى تؤدى إلى التراحم والتواصل والتواد، ولذلك كانت هناك رواية بالقراءة من غير وصل بالواو ﴿سَارِعُوا﴾[١] بدل ﴿وَسَارِعُوا﴾. وإن رواية القراءة من غير وصل واضحة من حيث النسق فى أنها تفصيل لمعنى الطاعة المطلوبة، والقراءة المشهورة التى عليها القراء السبعة فيها ما يدل على أنها لبيان معنى الطاعة بالمعانى لا بالنسق.

﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ المسارعة هنا معناها المبادرة والاتجاه الذى لا تراخى فيه، ومعنى المسارعة إلى مغفرة الله تعالى المبادرة باتخاذ طريقها، بأن يطهر قلبه من المعاصى ونفسه من الأدران، ويتجه إليه سبحانه بقلب سليم قد رحض عنه المعاصى كما رحض الثوب من الأوساخ، ولقد فسر ذو النورين قوله تعالى ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بالإخلاص، أى بادروا بالإخلاص وتنقية القلوب إلى مغفرة الله تعالى فإن ذلك هو الطريق المستقيم لطلب رضا الله تعالى، ولقد عظَّم سبحانه وتعالى شأن المغفرة التى ينبغى طلبها والاتجاه إليها فذكر بأنها تجىء من ربكم الذى خلقكم ونماكم ورعاكم، فهى مغفرة تعلو بعلو مصدرها وهى الأمان والاعتصام.

ويلاحظ أن القرآن يعدى المسارعة فى الخير بـ «إلى»، والمسارعة فى الشر بـ «فى»، فيقول سبحانه: ﴿يسارعون فى الكفر﴾، ويقول هنا: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ﴾؛ لأن المسارعة فى الكفر تنقُّل فى براثنه فهم فى قبته المظلمة التى تحيط بهم يتنقلون بالضلال فى أرجائها، وهم فى مرتبة واحدة، أما المسارعة إلى الخير، فإنها انتقال من رتبة إلتى رتبة، ومن مقام صالح إلى مقام أصلح منه.

---

(١) قرأها بلا واو: نافع وأبو جعفر المدنيان، وابن عامر الشامي، وقد رسم هذا الحرف بغير واو وقبل السين في مصاحف أهل المدينة والشام.

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ هذا عطف على مغفرة، وفيها إشارة إلى أن مغفرة الله سبحانه تُطلب وحدها؛ لأن فيها طلب رضا الله تعالى، ورضا الله تعالى أكبر غايات المتقين، ولذا قال تعالى فى جزاء المتقين: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ...﴿٧٢﴾﴾ [التوبة]. فأكابر المتقين يطلبون رضا الله لذاته لا خوفا من ناره ولا طمعا فى جناته.

فالمطلب الأكبر هو المغفرة، والمطلب الذى يليه هو «جنة عرضها السموات والأرض» وهو ما يطلبه الذين دون الصدِّيقين والشهداء، والعَرض ضد الطول، وهو أقصر منه فى الغالب، والنص لبيان سعة الجنة، لأنها رحمة الله تعالى بعباده الأتقياء، ولذا عبر عن هذه السعة بأوسع ما يدركه الحس، وأوسع ما يعلمه الناس من خلقه سبحانه، وقد يقول قائل: لِمَ ذكر العرض، ولم يذكر الطول، وهو أدل على الانفراج والبسط؟ والجواب عن ذلك أن ذكر العرض أبلغ فى الدلالة، لأنه إذا كان عرضها كعرض السموات والأرض فإنه يذهب العقل فى إدراك طولها كل مذهب، ويتصور الكثير من الصور، وذلك كقول الله تعالى: ﴿بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ... ﴿٥٤﴾﴾ [الرحمن] فإنه إذا كانت البطانة من الحرير الثمين فكيف يكون ما فوق البطانة مما تراه الأعين ويسر الناظرين؟ وقد يقال إن ذكر العرض ذكر للطول فإن تنسيق البيان يوجب المساواة بين طول الجنة وطول السموات والأرض، كما أن عرضها كعرضهما، ويكون ذلك من الإيجاز البليغ.

وقد فسر أبو مسلم الأصفهانى - العرض هنا - بالأشياء القيمية المعروضة للبيع التى جمعها عروض، ومن ذلك قول النبى ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس»[1]، ويكون المعنى على هذا التفسير أن الجنة فى قيمتها وعلوها وسموها ومكانتها تعادل السموات والأرض فى قيمتهما، فهى الحياة وهى النعيم المقيم الدائم: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أى هيئت ووضعت للمتقين، وهم

---

(١) متفق عليه رواه البخاري: الرقاق - الغنى غنى النفس (٥٩٦٥)، ومسلم: الزكاة: ليس الغنى عن كثرة العرض (١٠١٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الذين جعلوا بينهم وبين الشر وقاية أى جعلوا أنفسهم فى حصن فلا مدخل للشيطان إليها، ولا سارب له فى قلوبهم، وصار ذلك شأنا من شئونهم حتى كان وصفا وحالا دائمة مستمرة لهم.

وقد أخذ بعد ذلك يبيّن سبحانه وتعالى الصفات التى رفعتهم إلى هذه الرتبة، والتى جعلتهم يصلون إلى هذه المنزلة فذكر خمس صفات كلها ذات صلة وثيقة ببناء مجتمع سليم قوى ثابت، وقد ذكر الصفة الأولى فقال سبحانه:

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ ومعنى النص السامى أنهم ينفقون، ويتجدد إنفاقهم آنا بعد آن، ولذا عبر المضارع؛ لأن التعبير بالمضارع يفيد التجدد المستمر، والتعبير بالماضى يفيد الواقع المنقضى، ومعنى قوله تعالى: ﴿فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أنهم ينفقون فى حال مسرتهم، وحال مساءتهم، وهذا يشمل أحوالا كثيرة، فهم ينفقون فى حال الغنى والفقر واليسر والعسر، وكل حال بمقدارها، وفى حال الصحة والمرض، وفى السرور والحزن، وحال عرس أو مأتم أو حبس، والمغزى فى هذا أنه لا تشغلهم أنفسهم عن حاجة الناس إليهم أو إلى أموالهم، ولا تشغلهم همومهم الخاصة عن هموم الناس، والإنفاق منهم ليس لمناسبات تعرض وتزول، ولا لأحوال تجىء ثم تحول، بل هو لطبيعة ثابتة فيهم مستقرة غير مفترقة لا تزايلهم. وقدم الإنفاق على غيره من الصفات، لأنه وصف إيجابى وما عداه سلبى أو يتصل به، والإيجابى فى أكثر أحواله أشق من السلبى، ولأنه أدل على الإخلاص، ولأنه فى صدر الإسلام كان المجتمع أشد احتياجا إليه من غيره، إذ كان الفقر كثيرا، وكانت الحاجة إلى المال فى الجهاد أشد؛ إذ كان ذلك ابتداء دولة، ولذلك قرن الأمر بالإنفاق بالنهى عن التعرض للتهلكة، فقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ... ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة].

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ كظم الغيظ أن يمسك على ما فى نفسه، فيحملها على الصبر، ولا يظهر أثر لهذا الغيظ، ولقد قال الراغب الأصفهانى فى مفرداته: (الغيظ أشد الغضب وهو الحرارة التى يجدها

الإنسان من فوران دم قلبه). والغيظ بلا شك يدفع إلى الثورة وهى مظاهر الغضب فكظمه إبقاؤه فى النفس وعدم ظهور آثاره فى القول أو فى الفعل، وأصل كظم من كظم السقاء إذا ملأه وسد فاه، والكظامة ما يسد به مجرى الماء، وكظم البعير إذا لم يجتر.

وإن هذا الوصف ليس فيه منع للألم الذى يحدث من الأذى، بل إنه يدعو إلى كبح جماح الغضب ومنع نفسه من الاسترسال فى مجاوبة الشر بمثله، وإن هذا لا ينال إلا بشق الأنفس وقوة الإرادة: ولذلك قال النبى ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، ولكن الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب»[(١)] ولقد اعتبر النبى ﷺ أقرب القربات ألا يغضب، واعتبر أن إبعاد المؤمن الغضب عن نفسه إبعاد لغضب الله تعالى عليه، فقد سأله أنس رضى الله عنه عما يبعد غضب الله تعالى، فقال له عليه الصلاة والسلام: «لا تغضب»[(٢)].

وإن غضب المؤمن يجب أن يكون لأجل حقوق الله، وغيظه يجب أن يكون لانتهاك حرمات الله تعالى. ولقد قال النبى ﷺ: «ما من جرعة يتجرعها العبد خير له وأعظم أجرا من جرعة غيظ فى الله تعالى»[(٣)].

هذا هو الوصف الثانى من أوصاف المتقين؛ أما الوصف الثالث فهو العفو، وهو ثمرة لكظم الغيظ، وإنه يجب أن يكون معه لأن الغيظ الشديد إذا لم يصحبه عفو فإنه يمض القلب، ويفسد النفس، وينهك القوى فلابد أن يقترن بالكظم العفو لمصلحة الشخص ولمصلحة الناس، ولكيلا تتولد الإحن[(٤)]، وتتكاثر المحن، وليس العفو هو الستر على الجرائم العامة، فإن الجرائم العامة إذا ظهرت وجب

(١) متفق عليه؛ رواه البخاري: الأدب - الحذر من الغضب (٥٦٤٩)، ومسلم: البر والصلة والآداب - من يملك نفسه عند الغضب (٢٦٠٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه أحمد: مسند المكثرين (٦٣٤٦) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: مَاذَا يُبَاعِدُنِي مِنْ غَضَبِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: «لا تَغْضَبْ».

(٣) رواه ابن ماجه: الزهد - الحلم (١٤١٧٩) عن ابن عمر رضي الله عنه.

(٤) الإحن: جمع إحنة، وهي الحقد. الصحاح.

العقاب لأنه تقليم لأظفارها، وقطع لآثارها فلا يصح العفو عن زان يعلن جريمته، ولا عن سارق اعتاد السرقة واستهان بالحرمات، وروَّع الآمنين، كما لا يصح العفو عن فساق الألسنة، الذين يقذفون الناس، ويرمونهم بالسوء، ويعملون بذلك على إشاعة الفاحشة فى الذين آمنوا، فإن العفو فى هذه الأمور استهانة بحرمات الله تعالى، إنما العفو المطلوب هو الذى يكون فى أنواع الأذى الشخصى وهى التى ينطبق عليها قول الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف] وقوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت]، ولقد ذكرت عائشة فى وصف النبى أنه كان لا يغضب إلا أن تنتهك حرمات الله، فإذا انتهكت حرمات الله لا يقوم لغضبه شيء حتى ينتقم لله(١).

ولقد ختم سبحانه هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وهى الصفة الرابعة، وقد ذكرها الله سبحانه وتعالى بهذه الصفة لتوجيه النظر إليها، ولبيان أنها أعلى منازل التقوى، وأنها تنال بها محبة الله تعالى، والإحسان معناه الإتقان والإجادة، وهو يطلق فى عبارات القرآن الكريم بإطلاقين أحدهما أن يراد به الإجادة المطلقة فى كل ما يطالب الله تعالى به عباده، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف]، وقوله ﷺ فى إحسان العبادة: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(٢). والثانى أن يكون العمل أكثر من المكافأة، فهو لا يكافئ بالعدل بل يزيد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ... ﴿٩٠﴾﴾ [النحل]، وقوله تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ... ﴿٧٧﴾﴾ [القصص]، والإحسان بالإطلاق الأول يتعدى بنفسه ويذكر بجواره العمل، والثانى يتعدى بـ «إلى» ويذكر بجواره المحسن إليه، وأقرب الإطلاقين فى

(١) رواه البخاري: المناقب - صفة النبي ﷺ (٣٢٦٩)، ومسلم: الفضائل - مباعدته ﷺ للآثام (٢٣٢٧).
(٢) متفق عليه وقد سبق تخريجه من رواية البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

الآية الكريمة هو الثانى، فإنها تومئ إلى أن البر التقى يكظم غيظه، ويعفو عمن ظلمه بل يحسن إليه إن كان للإحسان موضع، وإن الله سبحانه وتعالى أمر أهل الفضل بألا يذهب غيظهم بإحسانهم فقد قال تعالى: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ... ﴿٢٢﴾﴾ [النور] فقد نزلت هذه الآية عندما حلف أبو بكر ألا يعطى بعض قرابته الذين خاضوا فى حديث الإفك بالنسبة لعائشة زوج رسول الله وإن هذه الدرجة هى أقصى ما تصل إليه السماحة البشرية، وهى لا تكون إلا لنفس محبة للناس، ولذلك كانت المكافأة هى حب الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ هذا هو الوصف الخامس من أوصاف المتقين الذين أعدت لهم الجنان التى عرضها كعرض السموات والأرض، والفاحشة هى المعصية الزائدة التى تكون خارجة على مقتضى الطبيعة الإنسانية الفاضلة، وقد غلبت على الزنا، وبذلك فسر بعض العلماء الفاحشة هنا، وعلى هذا الرأى يكون المراد من قوله تعالى: ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ كل ذنب غير المعصية، وقال آخرون: الفاحشة الذنب الكبير، وظلم النفس الذنب الصغير، وبعض المفسرين يقول الفاحشة ما يتعدى أذاها إلى غيره، وظلم النفس ما لا يتجاوز الأذى نفسه، ويكون هذا كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ ... ﴿١١٠﴾﴾ [النساء] وهذا كله على أن الفاحشة وظلم النفس أمران متغايران؛ وبعض العلماء على أنهما وجهان للمعصية، وأن كل معصية كبيرة فيها هذان الوجهان وتكون «أو» بمعنى «الواو»، ويكون المعنى: من يرتكب فاحشة ويظلم نفسه، ويتذكر الله عند ارتكابها فيعود إلى ربه يكون من المتقين؛ وإلى هذا نميل، والتعبير بصيغة الشرط ﴿إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ يفيد اقتران الجواب بالشرط، أى أن ذكر الله يكون عند الارتكاب ولا يكون بينهما تراخ يجعل الشر يفرخ فى النفس، فالتوبة إلى الله تكون فور الارتكاب لا تراخى بينهما ولا يستمر فى المعصية حتى تحيط به خطيئته، وهذا ما صرح الله تعالى به فى

قوله: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [النساء].

ومعنى قوله تعالى: ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ أى تذكروا أوامره ونواهيه وتذكروا عظمة الله تعالى وجلاله وقوته، ولذكر الله تعالى مرتبتان (إحداهما) ذكر أوامره ونواهيه وما أعده للمذنبين وما أعده للمتقين (والثانية) وهى العليا ذكر جلاله وعظمته وعلمه بما تخفى الصدور وهذه لا ينالها إلا الأبرار المقربون.

وإن ذكر الله تعالى لابد أن يتبعه لا محالة الاستغفار والإنابة، ولذا عقبه سبحانه بقوله: ﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ فهو ثمرة ملازمة ونتيجة محتمة للذكر.

﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ الكلام موصول بالكلام السابق، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ فيه بيان إجابة الاستغفار وفيه بيان أنه لا مفزع من الله إلا إليه، ولذا يقول الزمخشرى فى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ «وصف لذاته بسعة الرحمة وقرب المغفرة، وإن التائب من الذنب عنده كمن لاذنب له، وإنه لا مفزع للمذنبين إلا فضله، وأن عدله يوجب المغفرة للتائب لأن العبد إذا جاء فى الاعتذار والتنصل بأقصى ما يقدر عليه وجب العفو والتجاوز، وفيه تطييب لنفوس العباد وتنشيط للتوبة وبعث عليها، وردع عن اليأس والقنوط، وإن الذنوب وإن جلت فإن عفوه أجل وكرمه أعظم». وذلك كلام مستقيم لولا أنه أوجب المغفرة حيث التوبة، والله تعالى لا يجب عليه شيء، وإن رحمة الله بعباده مع علمه بطبيعة تكوينهم الذى يتنازعه الخير والشر جعلت المغفرة قريبة، ولذا ورد عن النبى ﷺ أنه قال: «والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم»(١) وشرط الاستغفار المجاب ألا يصر المذنب على ذنبه، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أى لم يصروا على الفعل الذى فعلوه بأن تكون

---

(١) رواه مسلم: التوبة - سقوط الذنوب بالاستغفار توبة (٢٧٤٩)، وأحمد: باقي مسند المكثرين (٧٧٣٦). عن أبي هريرة رضي الله عنه.

عندهم النية إلى العودة إليه، وقد فعلوه وهم يعلمون أمر الله تعالى فيه ونهيه، ولذلك قال العلماء: (لا توبة مع الإصرار) وإن الاستغفار مع الإصرار ذنب فى ذاته وقد قال الحسن البصرى: (استغفارنا يحتاج إلى استغفار) وإن من الإصرار على الذنوب أن يعلن التوبة، وللناس عنده مظالم لا يردها، فحقوق العباد لا تقبل التوبة فيها إلا بعد ردها إلى أصحابها، وإن التائب المعترف بذنبه المستكبر له التائب عنه مقرب إلى ربه حتى إن الصوفية يقولون: (إن معصية أورثت ذلا وانكسارا خير من طاعة أورثت دلا وافتخارا).

﴿ أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى أولئك الذين اتصفوا بهذه الصفات بسببها قد استحقوا برحمة الله تعالى جزاءهم وهو ثلاثة: أعلاها مغفرة من ربهم الذى خلقهم وهذه المغفرة دليل رضاه، وهو أعلى جزاء، والثانى الجنات التى تتوافر فيها أنواع النعيم، وثالثها الخلود، فهو نعيم ليس على مظنة الانتهاء، إذ إن توقع الزوال ينقص من قدره، ولذلك قال بعد ذلك سبحانه: ﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ أى ذلك الجزاء جدير بأن يُرغب فيه، ويتنافس فيه المتنافسون، ويطلبه كل عارف لحقيقته لم تلهه الدنيا بما فيها، فذلك المدح للحث على طلبه والعمل على استحقاقه وعدم التخلف عن الاتجاه إليه، اللهم اغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين.

قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ
فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ
١٣٧ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ١٣٨
وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ
١٣٩ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ
وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠
وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٤١

أشار سبحانه فى الآيات السابقة إلى غزوة أحد وإمداد الله بالملائكة للمؤمنين فى الحروب إن صبروا فى اللقاء، ولم يختلفوا على قائدهم فى المعركة، وجعلوا ما عند الله تعالى الغاية والمرمى، ثم ذكر من بعد ذلك سبحانه ما هو دواء القلوب، وغذاء الإيمان، وهو الطاعة والتعاون، وألا يأكل أحد حق أخيه أو ماله بالباطل، وأن المال الحلال هو قوة الحروب، والمال الحرام كمال الربا سُحت، وطلبه من ضعف الإيمان، ويربى خور العزائم إذ إن شهوة المال، والشجاعة وحب الفداء خلال لا تجتمع فى قلب رجل واحد، ثم بين سبحانه أن أعظم الذخائر هو تربية النفوس على التقوى وطلب مغفرة الله سبحانه وتعالى.

ولقد جاء بعد ذلك الكلام على أثر غزوة أحد فى نفوس المؤمنين، وقد نهاهم سبحانه عن الضعف والوهن والحزن، وأمرهم أن يتخذوا من الهزيمة سبيلا للنصر، وإنها سنة الله فى خلقه فعليهم أن يخضعوا لها ويقروا فى ذات أنفسهم بها، ولذا قال سبحانه: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾.

«خلت» معناها مضت وثبتت وتقررت، والسنن جمع سنة، وهى تطلق بمعنى الطريق المسلوك المعبد، وتطلق بمعنى المثال الذى يتبع، ولقد قيل إنها من قولهم سن الماء إذا صبه صبا متواليا فشبهت العرب به الطريقة المستقيمة المتبعة المستمرة، والمعنى أنه قد مضت وتقررت من قبلكم سنن ثابتة ونظم محكمة فيما قدره الله سبحانه وتعالى من نصر وهزيمة، وعزة وذلة ، وعقاب فى الدنيا وثواب فيها، فالحق يصارع الباطل، وينتصر أحدهما على الآخر بما سنَّه سبحانه من سنة فى النصر والهزيمة، من طاعة للقائد، وإحكام فى التدبير، وقوة إيمان، واستعداد للفداء، وهكذا؛ ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ [الرعد].

وإن من سنن الله تعالى الثابتة ألا يمكن من الظلم وأن ينتصر أهل الحق إذا عملوا على نصرته، وتضافروا على إقامته ولم ينحرفوا عن طاعته، وأن أهل الباطل قد ينتصرون إن اتحدوا واستعدوا، فينالون الظفر لتخاذل أهل الحق

وانقسامهم، أو إرادتهم عرض الدنيا، أو عدم الصبر على طاعة القائد العظيم كما كان الشأن فى أحد.

وإن من سنن الله تعالى أن يجعل العاقبة للصابرين الصادقين، فإن أَمْلى للكافرين سنة فإنه سيأخذهم من بعد أخذ عزيز مقتدر، وينصر عليهم أهل الحق، وإنما قدر الله تعالى نصرتهم الوقتية على أهل الحق ليصقل أهل الإيمان، وليهديهم هداية عملية إلى طريق الانتصار، وليميز من بينهم ضعيف الإيمان، ويظهر نفاق أهل النفاق، وبذلك تتبين الصفوة المختارة التى يعتمد عليها، ويذهب الذين مردوا على النفاق بنفاقهم، فلا ينخدع بهم أحد، ولا يرجفون بكيدهم فى الجماعة، ولقد بين سبحانه لأهل الإيمان عاقبة المكذبين تثبيتا لقلوبهم، وتأييدا لهم فقال جل من قائل: ﴿**فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾.

أى أنه إذا كانت سنة الله تعالى فى خلقه، أو العاقبة دائما للمتقين، فسيروا فى الأرض، فانظروا الحال التى قد انتهى بها الكاذبون. والتعبير بلفظ (كيف) الدال على الاستفهام يقصد به التصوير وتوضيح الحال فى صورة تدعو إلى العجب وتثير الاستغراب، أى أن عاقبتهم التى انتهوا إليها من تدمير ديارهم، وتعفية آثارهم بعد أن طغوا وبغوا فى البلاد وأكثروا فيها الفساد، تثير العجب والدهشة لمن ضعف إيمانه، وتلقى بالطمأنينة والصبر والرضا لمن قوى إيمانه.

وفى هذه الآية وأمثالها من الآيات التى تدعو إلى السير فى الأرض والبحث لمعرفة أحوال السابقين دعوة إلى أمرين: أحدهما- دراسة تاريخ الأمم بشكل عام، فإن التاريخ كتاب العبر، وسفر المعتبر، وهو رباط الإنسانية التى يربط حاضرها بماضيها.

والأمر الثانى- دراسة أحوال الأمم من آثارها فإنها أصدق من رواية الرواة وأخبار المخبرين، فقد يكون التاريخ المكتوب أكاذيب، أما الآثار فصادقة لمن يعرف كيف يستنطقها، وإن الملوك وأشباههم يزيفون الأخبار المنقولة، وإنه ليحكى أن

أحد الملوك كلف كاتبا أن يكتب تاريخ دولته، فسأل بعض أصحاب الكاتب عما يكتب فقال: «أكاذيب ألفقها وأباطيل أنمقها».

﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الإشارة فى النص السامى إلى ما تضمنته الآية السابقة من الحث على السير فى الأرض وتعرف سنن الله تعالى من آثار المكذبين الذين طغوا أولا ثم ذلوا وأُخذوا من حيث لا يحتسبون - وقد ذكر أن هذا بيان للناس أجمعين، يدركه كل من له بصر يبصر به، وفهم يفهم به، وتحقق البيان لا يقتضى تحقق أثره وهو المعرفة التى تهدى إلى الإيمان وتوجب الاتعاظ، إنما تكون الهداية من البيان والاتعاظ به للمتقين دون غيرهم، ولذلك جعل سبحانه البيان للناس جميعا، والهداية والموعظة للمتقين منهم فقط؛ إذ إن الهداية بالبيان تقتضى إشراقا روحيا، واستعدادا قلبيا، وإخلاصا فى طلب الحقيقة، والموعظة وهى الاستفادة من العبر، تقتضى قلبا متفتحا لإدراك الحقائق والاتجاه إليها بقصد سليم، وذلك كله لا يتوافر إلا للمتقين الذين أخلصوا أنفسهم لله، وطلبوا الحق، وسلكوا سبيله لا يبغونه عوجا، ومثل البيان مثل البذر يلقى فى الأرض، فإذا أصاب صحراء قاحلة جف ولم ينتج، وإذا أصاب أرضا خصبة أنبتت نباتا حسنا، وقد مثل النبى ﷺ العلم بالغيث وبين اختلاف الناس فى تلقيه، فقال: «مثل ما بعثنى الله كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله به الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به، فعلم وعمل، ومثل من لم يرفع رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به»(١).

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد بين هذا البيان فيجب على المؤمنين أن يعتبروا بسنن الله تعالى وأن يعرفوا أن ما أصابهم فى أحد فبسنن الله، وعليهم أن

(١) رواه البخاري: العلم - فضل من عمل وعلم (٧٧)، ومسلم: الفضائل - بيان ما بعث الله به النبي ﷺ (٢٢٨٢) عن ابي موسى الأشعري رضي الله عنه وقد سبق تخريجه بألفاظه.

يأخذوا الأهبة للمعركة القابلة، ولا تأسر تفكيرهم المعركة السابقة إلا بمقدار ما فيها من عظة وعبرة، ولذا قال سبحانه: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

الوهن: ضعف النفس، وقد يؤدى إلى ضعف الجسم عن العمل، والحزن ألم نفسى يصيب الإنسان عند فقد ما يحب أو عدم إدراكه، أو عند نزول أمر يهم النفس، ويجعلها فى هم دائم، ومعنى النهى عن الوهن والحزن - وهما أمران نفسيان - هو النهى عن الاسترسال فى الألم مما أصابهم، والمغزى: لا تسترسلوا فى الهم والألم مما كان يوم أحد، فإن ذلك يؤدى إلى ضعفكم عن القتال، فليس النهى منصبا على أصل الوهن والحزن، ولكنه منصب على سببهما الذى هو فى قدرة المؤمن وهو الاسترسال فى الوهن والحزن.

والآية الكريمة تضمنت ذلك النهى، وتضمنت بشارة وتسلية، كما تضمنت فوق ذلك بيان سبب النصر وهو صدق الإيمان.

فأما النهى فقد بينا ما يتجه إليه، وأما البشارة والتسلية، فهى قوله: ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ فهى تسلية للنبى وأصحابه من حيث إن فيها بيانا لأنهم أعلى، ومعنى العلو أنهم قد كان لهم غلب أكثر مما كان للمشركين، فقتلى المشركين يوم بدر أكثر من قتلى المؤمنين يوم أحد، والمؤمنون فى أحد ذاتها قد كانوا أعلى منزلة من الكفار؛ لأن قتلى المؤمنين فى الجنة، وقتلى المشركين فى النار؛ ولأن قتال المؤمنين فى سبيل الحق، وقتال المشركين فى سبيل الطاغوت، وأى علو للإنسان أكثر من أن يشعر بأنه يقاتل لنصرة الحق، ويغالب فى سبيله، فإن الحق فى ذاته عزة وعلو، وفوق ذلك فى النص بشارة بأن العاقبة للمتقين، وهو العلو فى الأرض كما قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥﴾ [القصص].

وأما سبب النصر فهو صدق إيمان المؤمنين، فإن صدق الإيمان يصفى النفوس من أدرانها ويبعد عنها آثامها، ويجعل القصد هو إعلاء كلمة الحق، فيقدم

المؤمن على القتال وهو يعلم أنه يفوز بإحدى الحسنيين: الشهادة أو النصر، وكلتاهما غاية الطلب.

فالآيات تساق لمقاصد سامية منها إلقاء البشرى، والتسلية والتعزية، فقد بيّن الله سبحانه أن ما أصاب المسلمين فى أحد قد أصاب المشركين مثله، وفى ذكر ذلك دعوة إلى تجديد الجهاد بقلوب مستبشرة، ونفوس مطمئنة، فقال تعالى: ﴿**إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ**﴾.

القَرْحُ بفتح القاف: الجرح، وبضمها: الألم الذى يترتب عليه، وقال الكسائى والأخفش: اللغتان بمعنى واحد وهو الجرح وأثره، وبهما قرئت الآية[1]، ولقد جاء فى المفردات للأصفهانى: (القرح الأثر من الجراحة من شىء يصيبه من الخارج، والقرح أثرها من الداخل، كالبثرة ونحوها). فالقرح على هذا أثر الجراحات فى الظاهر، وبالضم أثرها فى الباطن وإذا كان القرح هنا معنويا، فيصح أن نقول: إنه بالفتح ما يعقب المعركة من ألم واضح للهزيمة، وهو بالضم الغم والحزن الذى يستولى على النفوس حتى يكون النصر من جديد، وإن الظاهر هنا أن الفتح أوضح؛ لأن الله عبر عن أثره بأنه مس فقال: ﴿**إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ**﴾ والمس إنما يتناول الظاهر فقط.

والقرح الذى أصاب المشركين هو يوم بدر، وما أصاب المسلمين هو يوم أحد، وقد قرر الزمخشرى أنه يجوز أن يكون القرح الذى أصاب المشركين هو يوم أحد؛ لأن المشركين قتل منهم عدد، فكان فيهم مقتلة كما فى المسلمين فقد قال الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم**[2] **بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ...** ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران].

---

(١) قرأها بضم القاف: حمزة والكسائي، وخلف وأبو بكر. وقرأ الباقون بالفتح. [غاية الاختصار لأبي العلاء الهمداني: ج٢ ص ٤٥٣]

(٢) تحسُّونهم: تقتلونه.

ولكن الظاهر هو الأول، ليتحقق معنى قوله تعالى فى بيان سننه إذ قال: ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾.

هذه هى الفائدة الأولى التى تستفاد مما أصاب المسلمين يوم أحد، وهذه الفائدة هى أن يروا سنة الله قائمة، فلا نصر يدوم، ولا هزيمة تدوم؛ لأنه لو دام النصر لكان الغرور، ومع الغرور الطغيان، ووراء ذلك الترف، وإذا أصاب الترف نفوس الشعوب ذهبت نخوتها وضؤلت قوتها كما توقع الصِّدِّيق خليفة رسول الله ﷺ للعرب عندما يتوالى انتصارهم: (والله لتألمن من النوم على الصوف الأذربى (أى صوف أذربيحان) كما يتألم أحدكم من النوم على حسك السعدان)(١). والمداولة معناها تبادل النصر، وقد كان ذلك فى أول الإسلام مرة واحدة لكيلا يأخذ الترف السابقين من المؤمنين، وفسر الزمخشرى مداولة الأيام بتبادل النصر وقال: (المراد بالأيام أوقات الظفر والغلبة. نداولها: نصرفها بين الناس نديل تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء)، وأصل كلمة نداول من الدولة، وهو مصدر لدال يدول بمعنى انتقل من حال إلى حال، أو من يد إلى يد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ... ⑦ ﴾ [الحشر]، أى يتدولون المال فيما بينهم، ولا يصل إلى أيدى الفقراء منه شيء.

والمعنى الجملى: فعلنا ذلك إجراء لسنة من سنن الله التى خلت من قبلكم وهى مقررة فى قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا ﴾ ولذا عطف عليه قوله تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ﴾:

هاتان فائدتان أخريان لما أصاب المسلمين يوم أحد، فأولاهما- تحقق علم الله تعالى وإظهاره المؤمنين الثابتين، والذين ينافقون، فمعنى علم الله تعالى هو تحقق ما قدره فى الأزل، فيعلمه الناس، ويعلمه الله تعالى واقعا حاضرا، ولقد

(١) حسك السعدان: نبات شوكي وهو من أفضل مرعى الإبل، وفي المثل: مرعى ولا كالسَّعدان. الصحاح. سعد.

ذكر الزمخشرى فى تفسير علم الله فى هذا المقام أنه على وجهين: أحدهما أن يراد تمييز قوى الإيمان من ضعيف الإيمان فيتميز الخبيث من الطيب، ويكون هذا من قبيل التمثيل، أى فعل الله تعالى ذلك فعل من يريد أن يعلم من الثابت على الإيمان منكم من غير الثابت، والوجه الثانى- أن يكون علم الله الذى ثبت بالواقعة هو علم الجزاء أى يتحقق فيهم جزاء الله تعالى وفى الحق أن المؤدى فى الأقوال كلها واحد وهو أن يظهر صادقو الإيمان وينكشف نفاق المنافقين، ويعلن بذلك للناس علم الله تعالى المكنون.

والفائدة الأخرى فى الآية هى اتخاذ شهداء - أى وقوع الشهادة فى المؤمنين أى قتل المؤمنين الذين يشهد لهم بالجنة ويشهد لهم بالفداء، وإن هذه فائدة؛ لأن هؤلاء يكونون مُثُلاً عليا فى الفداء يَقتدِى بهم غيرُهم، ويستهينون بالموت فى سبيل إعلاء كلمة الحق، وخفض كلمة الباطل؛ ولأن هذا يجعل المجاهدين يعلمون أن الحرب مع نصر الله غير خالية من الشدائد والاستعداد لها، والإصابة فيها.

﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ إذا كان من هؤلاء الذين تقدموا للقتال من كانوا من أهل الحق، ومنهم من كان من أهل الدنيا، وقد علم الله تعالى الفريقين، فإنه لا شك أن الذين لم يثبتوا على القتال وقد دخلوا، والمنافقين الذين ثبطوا الذين آمنوا حتى همت طائفتان منهم أن تفشلا - ظالمون، وإذا كانوا ظالمين، فمن نتائج المعركة أن يتميزوا وأن يعلموا أنهم ليسوا من أهل الله؛ لأنهم فقدوا محبته، وفى هذا النص إشارة إلى ظلم الذين اتبعوا الغنائم، وتركوا موضع الرماية وكشفوا ظهر المؤمنين إذ إن هذا كان سبب الهزيمة، والله لا يحب الظالمين، ولا يحب أفعالهم، ولذلك قدر الهزيمة مع هذا الفعل، فعلى القائد أن يختار جنده من الصفوة دون غيرهم، وبهذا يكون ذلك النص فائدة رابعة.

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ هاتان فائدتان، أولاهما تمحيص الذين آمنوا، والتمحيص هو التخليص، أى تخليص المؤمنين من ذنوبهم والمنافقين، وقد جاء فى أساس البلاغة للزمخشرى: «محص الشىء محصا،

ومحصه تمحيصا خلصه من كل عيب، ومحص الذهب بالنار خلصه مما يشوبه»، والمعنى على هذا أن هذا القرح الذى أصاب المؤمنين خلصهم مما كان يشوب قلوبهم من أعراض الدنيا، وخلصهم ممن كانوا يخالطونهم من ضعاف الإيمان والمنافقين، إذ تبين خبثهم، فصاروا لا يجدون لقولهم سامعا، ولا لدعوتهم إلى التردد والهزيمة مجيبا.

والفائدة الأخرى قررها الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى ينقصهم، إذ المحق معناه النقصان، ومنه المحاق لآخر الشهر؛ لأن الهلال يبلغ أقصى مدى النقصان فيختفى، والمعنى أن هذه الإصابة التى ترتب عليها تخليص المؤمنين من الشوائب يترتب عليها أن يختفى عَلَم الكفر فلا يظهر، وتنقص قوتهم فلا ينتصرون من بعد؛ لأن العزائم قد تحفزت حذرة لمنازلتهم، فكانت الهزيمة سبيلا للنصر، وكان الجرح سبيلا لإعلاء كلمة الله تعالى.

هذه عبرة ساقها العزيز القدير لهزيمة المؤمنين يوم أحد، وقد نبه سبحانه إلى طريق الاستفادة من الهزيمة، بأن نخلص أنفسنا من شوائبها، ونمحص جماعتنا، فهل لنا أن نستفيد من ذلك؟! إن الله تعالى يداول بين الناس وقد دالت علينا الأزمان بما فعلنا وبما ظلمنا أنفسنا وباستخذائنا وضعفنا، وقد بدت البشائر بأن الدولة أوشكت أن تعود إلينا، اللهم أجعلنا ننتفع بمواعظ القرآن، وهداية الرسول ﷺ: ﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦) ﴾ [البقرة].

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (١٤٣) وَمَا مُحَمَّدٌ

إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

هذه الآية موصولة بما قبلها؛ لأن موضوعهما واحد، إذ الكلام فى أثر غزوة أحد فى نفوس المؤمنين، ومداواة العزيز الحكيم لهذه النفوس بالعبر يسوقها، وسننه تعالى يبينها، وآياته فى الآفاق والأنفس يكشفها، وقد بين سبحانه وتعالى فى الآية السابقة مداولة الله سبحانه فى الأمم بالنصر والهزيمة، وأن العاقبة للمتقين، وفى هذه الآيات يبين أن الجماعات تصقل بالمحن، والمجاهدين يتميزون عند وجود الشدائد، وأنه لا تخلص النفوس وتطهر إلا بالاختبار الشديد، ولذا قال تعالى:

﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ** ﴾ «أم» هنا إما أن تكون للإضراب، ويكون المعنى: بل حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم، والإضراب هنا معناه الانتقال من طريق للبيان إلى طريق آخر، ففى الأول بين العبر والسنن بطريق التقرير، وفى هذه الآية يبين سنة أخرى بطريق الاستفهام الإنكارى، وفيه فضل تنبيه وفضل تقرير، والمعنى: أن سنة الله تعالى فى نعيمه أنه لا يستحقه على كماله إلا من بذل المهجة فى حياته، وصبر فى السراء والضراء، وهذا كقوله تعالى: ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ... ﴿٢١٤﴾** ﴾ [**البقرة**]. وكقوله تعالى: ﴿ **أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾** ﴾ [**العنكبوت**].

ويصح أن تكون «أم» هنا للمعادلة، أى تكون متصلة لا منقطعة، ويكون المعنى على هذا: أعلمتم أن لله تعالى سننا فى خلقه وأنه يداول النصر بين الناس،

وأن الحرب لا تخلو من فرح ونكاية، أم حسبتم وظننتم أنكم تدخلون الجنة من غير أن يصيبكم الجرح، وتدموا[1] فى الحروب، ويكون منكم شهداء.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ ﴾.

المراد من العلم فيها المعلوم، أى ولما يستبن لكم أمركم، ويظهر لكم جهاد المجاهدين وصبر الصابرين، فالمعنى ظهور علم الله الواقع فيكم وبيانه لكم، وذلك لأن الله يعلم الأمور قبل وقوعها، فلا يتصور أن يكون غير عالم حتى تقع، بل المراد وقوع ما علمه الله تعالى وظهوره وكشفه وإعلانه مُحَسا واقعا، بعد أن كان خفيا لا يعلمه إلا علام الغيوب، وقد تكلموا فى الحكمة فى أن الله تعالى عبر فى نفى المعلوم الواقع بنفى العلم الثابت، فقال: ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ ﴾ ولم يقل: ولما يقع معلوم الله، ونقول: إن حكمة ذلك هو تعليمنا بألا نحكم إلا بما يظهر ويقوم عليه الدليل المحسوس، ولا يحكم أحد بما يتوقع، فالله العليم بكل شيء يرشد إلى أنه يترك الحكم فى الأمر حتى يقع ما حكم به محسوسا ملموسا.

وقد نفى الله تعالى «العلم» بكلمة «ولما» وهى فى معنى لم، بيد أنها تمتاز عنها بأنها تنفى الأمر فى الماضى والحاضر، وتؤمئ إلى وقوعه فى المستقبل، ففى الآية إيماء إلى أن المعلوم وهو المجاهدون، لم يكونوا معلومين قبل الاختبار، وكانوا بعد الاختبار، وظهرت تلك الصفة فيهم. ﴿ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾.

أى ويقع المعلوم الثانى الذى قدره الله تعالى، وهو أن يتميز الصابرون من غيرهم، فالابتلاء الشديد أظهر نوعين من الرجال: أولهما- المجاهدون الذين يجالدون ولا يفرون ولا يولون الأدبار، ولا يذهب ببأسهم قوة عدوهم، وفشل فريق من إخوانهم. والفريق الثانى الذى أظهره هم الذين صبروا ولم تذهب قلوبهم شعاعا، ولم يذهب تفكيرهم، ولم يضع رشدهم، ولم تطش أحلامهم، وقد يقول قائل: إن الجهاد يتضمن الصبر، كما قال النبى ﷺ: «إنما الصبر عند

(١) من دَمِي: إذا تلوث بالدم. الصحاح. والمقصود هنا ما أصابهم من جراحات وقتل.

الصدمة الأولى»[١]، وإن الصبر عدة الجهاد الأولى، فلماذا خُصَّ الصابرون بالذكر، وخص الصبر بالتنويه، ونقول فى الإجابة عن هذا السؤال: إن الصبر ولو أنه عدة الجهاد ينفرد بمعنى آخر غير الجلد والصبر تحت حر القتال وفى بريق السيوف، فإن الصبر يتضمن ثبات الفكرة واطمئنان القلب إلى الحقائق المقررة، وعدم طيش الأحلام، فإن الأخبار التى تثبط العزائم فى الحروب إذا كانت كاذبة قد يصدقها المجاهد، ولكن شجاعته تدفعه إلى مواصلة القتال، وعدم التأثر، والصابر المطمئن النفس يمحص الأخبار فى وسط الاضطراب النفسى، فإذا أشيع فى ميدان القتال أن القائد قد قتل، كان الأبرار من الجند فريقين: أحدهما- المجاهدون الشجعان الذين يستمرون على القتال، ولو كان الخبر صادقا، ويندفعون فى الميدان. والفريق الثانى المجاهدون الذين نالوا حظ الأولين وكان لهم مع ذلك قدرة على التأمل أصادق الخبر أم كاذب، وإذا كان صادقا حثوا غيرهم على الاستمرار وبينوا لهم أن الواجب صار أشد وأقوى وألزم، فهذا فريق الصابرين، وإن هذا النوع من الصبر هو أعلى أنواع الصبر؛ لأنه ثبات الجنان، وتحمل التبعات بأبلغ أحوالها وأشد صورها، فهو صبر فى جهاد الفكر، وجهاد النفس، وتحمل عبء الجاهلين الأغرار، وتولى إرشادهم وتوجيههم.

والنص يفيد أن الطريق إلى الجنة ليس سهلا يسلكه كل إنسان، إنما هو محفوف بالمكاره والشدائد، ولا يصل إلى غايته إلا الذين جاهدوا وصبروا وصابروا، ولذا قال النبى ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»[٢] وذلك لأن المعاصى أسبابها اندفاع الشهوات الإنسانية، وانطلاق الغرائز المنحرفة، فليس فيها جهاد بأى نوع من أنواعه، بل فيها تلذذ وانحراف، وأما الجنة فسبيلها جهاد للنفس ومغالبة للهوى، ومنازلة بين الحق والباطل، وتكليفات يجب القيام

---

(١) سبق تخريجه من رواية البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم: الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٣)، والترمذي: صفة الجنة (٢٤٨٢)، وأحمد: باقي مسند المكثرين (١٢١٠١)، والدارمي: الرقاق - حُفَّت الجنة بالمكاره (٢٧٢٠) عن أنس رضي الله عنه.

بها، وكل هذه مشاق يحتاج احتمالها إلى جهد فى دائرة الطاقة، و ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ...﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة].

ولقد أشار سبحانه وتعالى إلى أن المؤمن الصادق الإيمان يعرف طريق الجنة، وأن الموت فى سبيلها هو شكر لنعمة الله تعالى فيما أنعم فى الحياة الدنيا، وفيما ينعم فى الجنات فى الحياة الآخرة، وإن الذين قاتلوا فى غزوة أحد الذين سيقت لهم هذه العبر يعلمون ذلك ويعرفونه ويؤمنون به، وينفذونه، ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾.

كان المؤمنون يتمنون الموت حقا وصدقا، وصدق الله العظيم، ذلك أنهم كانوا يتشوقون للشهادة ويريدونها ويطلبون أسبابها، وفى غزوة أحد بالذات ما كان للنبى ﷺ رأى فى الخروج من المدينة، ولكن شباب المجاهدين أرادوا اللقاء خارجها، فنزل عليه الصلاة والسلام على حكم الشورى وقادهم، وما كانوا يريدون عرضا من أعراض الدنيا، ولا غاية لهم إلا أن ينالوا إحدى الحسنيين الظفر أو الشهادة، وفى كلتيهما إعلاء كلمة الحق، وخفض كلمة الباطل.

ومعنى تمنى الموت: تمنى لقاء سببه وهو الحرب، وكأن الله سبحانه وتعالى ينبههم إلى أنهم بتمنيهم لقاء الأعداء فى الميدان يجب أن يفرضوا أن الموت ينالهم كما أن الحياة العليا قد ينالونها، فكان عليهم أن يتوقعوا الموت عند تمنى اللقاء، وأن يعلموا أن تمنيهم للقاء هو فى ذاته تمن للموت، وأن تمنى الموت هو سبيل النصر وطريق الظفر، فإن الشجاع هو الذى يدخل الميدان طالبا الشهادة، فإنه لا يموت إلا إذا قتل عددا، ولقد وُصِفَ فارس الإسلام علي رضى الله عنه بأنه كان إذا تقدم إلى الميدان لا يدرى أيقع على الموت أم يقع الموت عليه، فكان يقع رضى الله عنه على الموت يصيب به أعداء الله وأعداءه.

ولقد أورد الزمخشرى فى الكشاف اعتراضا خلاصته: كيف يتمنى المؤمنون الموت، وفى الموت غلبة ونصرة للأعداء فكأنهم يتمنون ذلك النصر لأعدائهم، وقد أجاب عن ذلك بأنهم يتمنون فضل الشهادة من غير نظر إلى ما يجره ذلك

على الأعداء من ظفر، ونحن نجيب جوابا آخر، وهو أن تمنى الموت هو تمنى الحرب فى سبيل نصرة الله، ومن دخل الحرب متمنيا الموت فإنه لا يترتب على قتله نصر للأعداء بل يترتب عليه هزيمة لهم، كما أشرنا قريبا، وقد كان السبيل الحق إلى النصر أن يدخل المجاهدون غير حريصين على حياتهم، إنما يحرصون على النصر، ولو كان يموت آحاد منهم، ولا يتحقق ذلك إلا إذا كان كل واحد لا يحرص على الحياة، ولكن يطلب الموت، وَإِنَّ طلب الموت يؤدى إلى الحياة، كما قال الصدِّيق: (اطلب الموت توهب لك الحياة، وفر من الشرف يتبعك الشرف)، وإن الحرص على الحياة يؤدى إلى الجبن، والجبن يؤدى إلى الهزيمة، وإن المجاهد الذى يستحق شرف هذا الاسم يتقدم مريدا عزة الحق، وقابلا الموت، بل يتمناه ليكون شهيدا، وإذا وقع يكون أمرا قد توقعه، ومن بقى من بعد عليهم أن يجددوا العزيمة، ويعيدوا الكرة عليهم، ولذا عتب الله سبحانه وتعالى على المؤمنين إذ أصابهم الغم عندما اشتدت شديدة الحرب عليهم فأصابهم ما أصابهم بل أمرهم أن يثبوا مرة أخرى، وإذا كانوا قد تمنوا الموت، فقد وقع لبعض منهم ما تمنوا، ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿**فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ**﴾.

الفاء هنا للإفصاح، فهى تفصح عن شرط مقدر دل عليه صدر الكلام، ومعناه: إذا كنتم تمنيتم الموت فقد رأيتموه رأى العين وشاهدتموه، فوقع ما توقعتم، وقوله تعالى: ﴿**وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ**﴾ تأكيد لحال الرؤية أو تصوير لرؤيتهم؛ لأن الجملة حالية والتعبير بالمضارع يفيد التصوير، وإحضار الصورة الواقعة فى الماضى كأنها واقعة فى الحاضر، فيستحضرها العقل كما وقعت، وكما ظهرت فى الوجود، والنظر الذى قرره سبحانه بقوله تعالى: ﴿**وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ**﴾ يتضمن النظر إلى الموقعة كلها، وكيف كان الانتصار فى ابتداء الأمر عند الطاعة، ثم كيف كان الانهزام عند المخالفة إرادة عرض الدنيا من بعضهم كما قال تعالى: ﴿**مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ... ١٥٢**﴾ [**آل عمران**].

ويتضمن النظر بعد وقوع الانهزام كيف تفرقت الإرادات، وقد كانت إرادة واحدة، وكيف تضعضعت بعض الهمم، وكيف كثرت الظنون، وكيف أصابكم

الغم، ولم تفكروا فى إعادة الوثبة، ولذلك كان قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ متضمنا تأكيد الرؤية ومصورا لها، ومتضمنا مع ذلك العتب أو اللوم؛ لأن حالهم لم تكن متفقة مع ما كانوا يتوقعونه من قبل، إذ إن حالهم من بعد انتهاء الموقعة تفيد أنهم كانوا يريدون النصر رخاء سهلا من غير عقبة تحول يجب تذليلها، ومن غير شدة عنيفة يجب الصبر عليها.

ولقد حدث فى أثناء الموقعة أن زاغت الأبصار، فظن بعض المجاهدين أن النبى ﷺ قتل، فاضطربت عزائم، واسترخت همم، واستضعف أقوياء، وقد لامهم الله تعالى على ذلك أشد اللوم، وكأنما كان الظن الذى غلبهم ليبين الله لهم حقيقة غابت عنهم، وهى أن محمدا بشر كالبشر، يموت كما يموتون، ويحيا كما يحيون، ولذا قال سبحانه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾.

تقرير لحقيقة ثابتة وأمر واقع، وهو أن محمدا بشر من البشر، وأنه يموت كما يموت سائر البشر، وقد قرر هذه الحقيقة ومعها دليلها، وذلك ببيان حقيقتين كل واحدة منهما تصلح مقدمة فى دليل لإثبات أنه ميت لا محالة كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠)﴾ [الزمر].

الحقيقة الأولى أو المقدمة الأولى: أن محمدا ﷺ رسول فقط فليس أكبر من رسول، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ﴾ أى ليس له صفة تميزه على الناس إلا الرسالة، والحقيقة الثانية: أن الرسالة لا تقتضى البقاء، فقد مضى رسل من قبله وماتوا، وقد قررها سبحانه بقوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾.

ومن مجموع الحقيقتين يثبت أن محمدا سيموت؛ لأنه إذا كان ليس إلا رسولا، والرسل من قبله قد ماتوا، فهو سيموت لا محالة.

وإذا كان محمد سيموت لا محالة فإن رسالته لا تموت من بعده، ولا يصح أن ينقلب المؤمنون من بعده، بل عليهم أن يحملوا العبء من بعده، وقد بلغ

رسالات ربه، وأتم بيان دينه، ولذا وبخ المؤمنين على ما كان منهم يوم أحد إذ ذاع في وسطهم أن محمدا قد قتل، فقال تعالى: ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾.

الفاء هنا لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أو للإفصاح عن شرط مقدر، والاستفهام للتوبيخ، والمعنى: أإذا مات وقد علمتم أن موته حق لا ريب فيه، أو قتل فى الميدان والقتل طريق من طرق الموت، انقلبتم على أعقابكم، أى عدتم كفارا بعد أن آمنتم، وعباد أوثان بعد أن صرتم من أهل التوحيد، وضلالا بعد أن اهتديتم، والتعبير عن ذلك بقوله تعالى: ﴿انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ تصوير سامٍ لمن ضل بعد أن اهتدى، فهو تصوير لمن يرجع إلى الوراء وبصره إلى الأمام، وأعقابه هى التى تقوده، وهو منكس جعل رأسه فى أسفل وعقبه فى أعلى، وذلك أقبح منظر يكون للإنسان.

ولكن هل وقع ذلك الضلال أو كان ما يدل على احتمال وقوعه. يروى فى ذلك أن عبد الله بن قمئة الحارثى أقبل يريد قتل النبى ﷺ، فتصدى له مصعب بن عمير حامل راية المؤمنين فقتله المشرك، وظن أنه الرسول فأذاع ذلك فى المشركين، وانتقل الخبر إلى بعض المؤمنين، إذ قد اختلط الحابل بالنابل، فريعت قلوب بعض المسلمين وولوا مدبرين، وانطلق المنافقون يقولون : لو كان نبيا ما قتل، وثبت المؤمنون الصادقون، وقد مر أنس بن النضر، ووجد قوما خارت عزائمهم فقال لهم: يا قوم إن كان محمد قتل فإن رب محمد حى لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ، فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه .. اللهم أعذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل. وقد مر بعض المهاجرين بأنصارى يتشحط[١] فى دمه، فقال له: أشعرت أن محمدا قد قتل، فقال: إن كان قد قتل فقد بلغ، فقاتلوا على دينكم، ولقد صاح بعض المجاهدين فى وسط ذلك البلاء: يامعشر المؤمنين إن كان محمد قد أصيب أفلا تمضون على ما مضى عليه نبيكم حتى تلحقوا به.

---

(١) أي يتخبط فيه ويضطرب ويتمرغ.

وبهذا يتبين أن المحاربين كانوا فريقين: أحدهما رعب واضطرب، والثانى ثبت وجاهد، ولقد ذكر الله حال الفريقين، ومقام كل واحد من الحق ودعوته فقال تعالت كلماته فى الفريق الأول: ﴿ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ﴾.

أى ومن ينقلب على عقبيه بعد وفاة النبى ﷺ فلن يضر دين الله تعالى فى شيء، ولأن دين الله تعالى بعد أن بلغ النبى رسالة ربه، وأكمل البيان لهذا الدين، قد ظهر وصار حقيقة ثابتة فى الوجود، فلا عبرة بمن يخرج، كما قال تعالى: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ... ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة].

وفى هذا تنبيه إلى ثلاثة أمور:

أولها: أن من يجاهد عليه أن يجاهد لحقيقة من الحقائق الثابتة الخالدة التى لا تفنى ولا تنتهى، ولا يقاتل لأجل الأشخاص الذين ينتهون ويفنون، فالمعانى خالدة، والأشخاص ميتون.

الثانية: أن من يفسد قلبه فيرتد بعد إيمان ويكفر بعد يقين، لا يضر دين الله بل يضر نفسه؛ لأن الضال المضل يضر نفسه قبل أن يضر غيره.

ثالثها: إخبار الله تعالى بأن هذا الدين خالد ثابت باق إلى يوم القيامة؛ لأنه سبحانه قد قرر أنه لا يضره من يخرج عنه أو يمرق عن أحكامه، أو يتركها مستهينا، فإن للإسلام ربا يحميه، ورجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

ثم بين سبحانه من بعد ذلك جزاء الصابرين الذين لم يرعبوا ولم يضطربوا، فقال سبحانه: ﴿ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾.

أى وسيجزى الله سبحانه وتعالى الذين صبروا فى هذه الشديدة وشكروا الله تعالى فى السراء والضراء، فلم يزعجهم البلاء كما لم تبطرهم النعماء، فصفة الشكر كصفة الصبر كلتاهما تظهر فى السراء والضراء معا، فالصبر يكون فى النعمة بالقيام بحقها، وفى الكريهة باحتمالها، من غير تململ وتضجر .

وقد يقول قائل: لماذا عبر هنا بالشاكرين ولم يعبر بالصابرين، والصبر هنا هو الأظهر، فنقول: إن الشكر فى هذا المقام هو أعلى درجات الصبر، وذلك أنهم لم يحتملوا البلاء فقط، بل تجاوزوا حد الصبر إلى حد الشكر على هذه الشديدة، فالشكر هنا صبر وزيادة، وقليل من يكون على هذه الشاكلة، ولذا قال تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ].

وإنا نضرع إلى الله تعالى أن يجعلنا من الصابرين فى البلاء، الشاكرين فى الضراء والسراء معا، إنك سميع الدعاء.

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْأَخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْأَخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

الكلام فى هذه الآيات موصول بالآيات قبلها، ففى الآيات السابقة أشار سبحانه إلى اضطراب بعض المؤمنين عندما بلغهم كذبا أن النبى ﷺ قد قتل، فضعفت نفوس، ووهنت قلوب، واضطربت عقول، فبين الله سبحانه وتعالى أن محمدا رسول من البشر، وأنه يموت كما يموت سائر البشر، وأن له أجلا ملموسا، وأن الدعوة الإسلامية كاملة ما دام النبى ﷺ قد بلغها وأتم تبليغها، وبهذا

أتم ما عهد إليه، فإذا مات حمل هذه الأمانة مَن بعدهُ ونقلوها إلى الأخلاف، ثم أشار سبحانه وتعالى إلى أن النفوس جميعها بيد الله، وأنه سبحانه قد جعل لكل أجل كتابا.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً﴾ والمعنى ما تحقق وما ثبت لنفس أن تموت إلا بإذن الله تعالى، وقد كتب لها كتابا مؤجلا، ومعنى الإذن هنا يتضمن أن لله تعالى الإرادة المطلقة فى قبض النفوس وإرسالها، فهى لا تموت إلا بمشيئته، ولا تحيا إلا بإرادته، وقد عبر سبحانه وتعالى عن الإرادة بالإذن، وذلك للإشارة إلى أنه إذا كان القتل فى الحروب سببا للموت، فإنه ما دام لم يجئ الإذن الذى يعلن مشيئة الله تعالى وإرادته فإن المقاتلين مهما يكونوا أقوياء لا يمكن أن يصيبوا نفسا لم يشأ الله تعالى قتلها، فهذا النص الكريم يؤكد معنيين: أحدهما: أن الموت بالإرادة الأزلية، وبالمشيئة الإلهية، فما لم يأذن فلا موت. والثانى: أن القتال مهما يكن شديدا فلن تموت نفس لم يكتب الله تعالى لها الموت، وهناك إشارات فى الآية كثيرة: منها أن الموت لا يحتاج بالنسبة لله تعالى إلى أسباب، فليس إلا أن يأذن بقبض الروح فيكون الموت من غير أى مجهود يبذل، ومنها تحريض المؤمنين على الجهاد، وتشجيعهم على لقاء الأعداء، فإن الحذر والحرص على الحياة لا يمنعان ما قدر الله تعالى، فإذا كان قد أذن للنفوس أن تلقى ربها فلا مانع يمنعها، ولا دافع يدفع عنها أسباب المنايا، ومنها الإشارة إلى حفظ الله تعالى لنبيه ﷺ وقد تربص به الأعداء، وأحاطوا به من كل جانب، وصار قريبا من نهزة المختلس، ولكن الله تعالى أحاطه بكلاءته وعنايته، ومنها بيان أن الله سبحانه وتعالى قابض نبيه ﷺ مهما يطل الأمد أو يقصر.

وقوله تعالى: ﴿كِتَابًا مُّؤَجَّلاً﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف معناه: كتب كتابا مؤجلا، أى له أجل معلوم لا يتقدم ولا يتأخر، وهو آت لا محالة.

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ وإذا كان الأجل مكتوبا، فإن ذلك لا يمنع أن العمل مكسوب، فعلى كلٍّ أن يعمل، وكلٌّ

ميسر لما خلق له، وكل يكون جزاؤه فى الدنيا والآخرة، فمن يرد ثواب الدنيا أى جزاءها والنتائج المطلوبة فيها، ويسلك السبيل القاصد الذى يوصل إلى الغاية، وينتهى إلى النهاية، يمكنه الله تعالى من الأسباب، ويسهل له الحصول على النتائج، ومن كان يريد الآخرة ويقصد وجه الله تعالى فى كل ما يعمل، ويقصد إلى الدنيا لا لذاتها، بل على أنها مزرعة الآخرة، فإن الله تعالى يؤتيه من ثواب الآخرة ما ادخره لعباده المتقين، وهذا كقوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ... (١٥٢)﴾ [آل عمران]. وكقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠)﴾ [الشورى].

فالنص الكريم يثبت أن الدنيا لها وسائل، والنجاح فيها له أسباب توصل إلى النتائج، والآخرة لها أسباب وذرائع، وعلى ذلك لا يكون النجاح فى شئون الدنيا دليلا على القرب من الله تعالى، ولا الفشل فيها دليلا على البعد عن الله تعالى، ذلك قول الفجار، الذين يتخذون من سطوة الكفار مع كفرهم دليلا على أنهم أقرب إلى الله من المؤمنين، ويغفلون عن قول الله تعالى: ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥)﴾ [الزخرف].

وفى النص الكريم إشارات بينات، فهو يشير إلى الذين اتبعوا الغنائم وتركوا طاعة الرسول يوم أحد بأنهم أرادوا الدنيا، ولكن لم يسلكوا مسالكها، ويشير إلى الذى يقاتلون طلبا للغنائم، وأنهم لا ينالونها إلا إذا استقاموا على مناهج القتال الصحيحة، ويشير إلى فضل الذين صبروا ويصبرون فى الحرب، ويطلبون بها وجه الله تعالى لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا، ويشير إلى أن القتال يجب أن يقصد به وجه الله تعالى، لعمارة الأرض ومنع الفساد فيها، ثم يبين سبحانه أن أولئك هم الذين ينالون الثواب، ولذا قال تعالى :

﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ شكر النعمة القيام بحقها، وأداء ما ينعم الله تعالى به من نعم فى مواضعه، فإذا أعطى فشكر العطاء بإنفاقه فى مواضع الإنفاق، وإذا منح القوة فشكرها أن يجعلها لنصرة الحق وخفض الباطل، وإذا أعطى نعمة الحكمة والفكر السليم، فيكون الشكر بتسخير ذلك لنفع العباد، وهدى الناس، وإرشادهم إلى طرق البحث وتذليل الأرض لهم، وأن يكون ما ينتجه للعمارة لا للخراب.

وهنا نجد النص لم يبين الجزاء، ولم يبين من الذين يتصفون بالشكر من طلاب الدنيا أو طلاب الآخرة، وقد ترك الجزاء من غير بيان ليعم الجزاء الدنيوى، والجزاء الأخروى، فمن طلبوا الدنيا واتخذوا أسبابها، ونصروا الضعيف، وخذلوا القوى، وعمروا الأرض ولم يفسدوها، ولم يطرحوا ما عند الله تعالى بل طلبوه، كانوا من الشاكرين. واستحقوا الجزاءين: جزاء الدنيا بأن يصلوا إلى النتائج التى قصدوها، وهى العلو فى الأرض من غير طغيان، والجزاء فى الآخرة عند تجلى الرحمن.

ولم يبين سبحانه من هم الشاكرون؟ أهم طلاب الدنيا أم طلاب الآخرة، وذلك لأن المطلبين ليسا متضادين، بل إنهما يتلاقيان، وإنه عند التحقيق لا يعد طالب الدنيا سالكا طريقها إلا إذا طلب الآخرة فيها، وأذعن لقدرة الخالق فى طلب الحياة الدنيا، فكل شيء عنده بمقدار، فمن اعتمد على الأسباب الدنيوية وحدها من غير تفويض الله معها فإنه يعاند قدرة الله، ولا ينجح له تدبير، ولا ينتهى إلى غاية فى تفكير، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [**الأنعام**]. ولذلك كان الشكر مشتركا عند طلاب الدنيا إن طلبوها على وجهها وطلاب الآخرة، وإنه عند التحقيق أيضا طلب الآخرة لا ينقطع تماما عن طلب الدنيا، فإن الزهد فى الإسلام طلب الحلال وليس إعراضا عن الدنيا، وإن من

يحتطب لقوت أهله أَعْبَدُ ممن ينقطع فى صومعة للعبادة، ولذلك ورد فى بعض الآثار «رهبانية أمتى فى الجهاد»(١).

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ﴾

كلمة ﴿ وَكَأَيِّن ﴾ بمعنى كم الخبرية الدالة على الكثرة، أى كثيرون من الأنبياء قاتل معهم ربيون كثيرون، وهناك قراءة و«كائن»(٢)، وهى لغة جائزة فى كأين، وقد جمع بينهما الشاعر فى قوله:

كَأَيِّن أَبَدْنَا مِن عَدُوٍّ بعزِّنَا وَكَائِنٌ أَجَرْنَا مِنْ ضَعِيفٍ وخَائِفِ

والربيون هم المؤمنون الصادقون الإيمانَ الذين يقاتلون ابتغاء ما عند الرب، فهم منسوبون للرب سبحانه وتعالى لخلوصهم له، واتجاه قلوبهم إليه وحده، وقال الزمخشرى: إنها نسبة غير فيها النسب، وقد قرئ بفتح الراء وضمها وكسرها، ولذا قال الزمخشرى: «والربيون هم الربانيون، وقرئ بالحركات الثلاث، فالفتح على القياس والضم والكسر من تغييرات النسب».

والمعنى كثيرون من الأنبياء قاتل معهم مؤمنون صادقو الإيمان وكانوا يصابون، والقتال يتعاور فيه المقاتلون الجروح والدماء، فليس القتال ريحا رخاء سهلا، بل هو عاصفة وملحمة بشرية يدال بين المقاتلين فى الميدان، فكانوا بهذه الجراح راضين صابرين لم يهنوا ولم يضعفوا ولم يستكينوا ويذلوا، وهذا الكلام للاعتبار بحال الماضين الذين قاتلوا من قبل مع الأنبياء، ما ضعفوا عندما أصابهم القرح، فكذلك أنتم ما كان يليق أن تضعفوا إذا أخطأتم فجرحتم يوم أحد.

---

(١) سبق تخريجه من رواية الإمام أحمد وغيره عن أنس رضي الله عنه.

(٢) وبها قرأ ابن كثير، وأبو جعفر المدني وليَّن الهمزة. [غاية الاختصار لأبي العلاء الهمداني: ج٢ ص٤٥٣].

وقد فهم بعض العلماء أن المراد أن بعض الأنبياء قتل فى الميدان فما وهن جيشه بقتله ولا ضعف، فما كان يسوغ لهم أن يضطربوا ذلك الاضطراب يوم أحد.

ولكنا نرى أنه ليس فى الآية ما يشير إلى هذا المعنى، حتى يتعين مرادا لها، والحق أن العبرة فى كون النبيين كانوا يقاتلون ومعهم مؤمنون صادقو الإيمان، يصيبهم جراح، وتصيب أعداءهم، وما كانت جراحهم توهنهم أو تضعفهم أو تجعلهم يستكينون ويذلون، **وقد نفى الله تعالى عن أولئك الربانيين ثلاثة أوصاف لا تتفق مع الإيمان:**

أولها: الوهن فقد نفاه سبحانه وتعالى بقوله تعالى: ﴿**فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ والوهن اضطراب نفسى، وانزعاج قلبى، فهو يبتدئ فى الداخل، وإذا وصل إلى الخارج كان ضعفا وتخاذلا، وإذا أنتج الضعف نتائجه كانت الاستكانة والذل، ولذلك ابتدأ بنفى الوهن، وقرن نفى الوهن بكون سببه ما أصابهم فى سبيل الله للإشارة إلى أن الوهن ينافى قوة الإيمان، لأن من كان يقاتل فى سبيل الله عليه أن يعلم الغاية من القتال، وهى توجب تحمل كل الشدائد، والعاقبة للمتقين.

الوصف الثانى: الضعف والتخاذل الذى يوجبه اليأس والاضطراب، وهذا كما قلنا نتيجة للوهن.

والوصف الثالث: الاستكانة، وهى الرضا بالذل والعيش مع الهوان، وذلك ليس شأن المؤمن.

وقد نفى سبحانه هذه الأوصاف الثلاثة مع أن واحدا يكفى نفيه لنفيها، لأنها متلازمة، لبيان قبح ما يقعون فيه لو سلطوا وصفا منها على نفوسهم فاستمكن فيها.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ الله سبحانه وتعالى يشير بهذا إلى أن الذين لا يصيبهم وهن بسبب اشتداد المعركة ولا ضعف ولا ذل ولا استكانة واستسلام هم الصابرون حقا وصدقا. والله سبحانه وتعالى يحبهم. ونقف هنا وقفة قصيرة عند معنى الصبر، واستحقاقه للمحبة لا لمطلق الجزاء، إن الصبر ليس هو احتمال الشدائد، فقط، بل هو ألا يتضعضع عند نزولها، وألا يضطرب التفكير عند اشتداد الشديدة، وأن تنفى مطامع النفس إلا ما كان منها إجابة لداعى الحق ونصرته، وأن تخلص القلوب عن شوائب الشهوات فلا تخضع لها ولا تذل، بل تتحكم كل نفس فى أهوائها، وألا يكون أنين ولا شكوى ولا ضجيج، وهذا هو الذى سمى الصبر الجميل، والصبر على هذا المعنى هو أجل الصفات الإنسانية وأكملها؛ لأنه ضبط النفس، وكمال العقل، وسيطرة الحكمة وقوة الجنان، وهو يتضمن فى ثناياه معنى الشكر، فهو عنصر من عناصره، ومظهر من مظاهره، وكان الجزاء أعلى جزاء، وهو المحبة من الله، ومحبة الله تعالى تتضمن رضوانه، وتتضمن ثوابه، وهى مرتبة أعلى منهما، ولا ينالها إلا الصابرون.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ أى أن هؤلاء الصابرين ليس لهم شأن فى ميدان القتال وفى عموم الأحوال إلا الاتجاه إلى ربهم ضارعين شاعرين بالتقصير فى جنب الله سبحانه وتعالى، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا﴾ وما ثبت وتحقق لهم من قول إلا أن قالوا: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ فنفى الله تعالى عنهم كل قول إلا الاستغفار وطلب النصر، فلم تكن منهم صيحات الفزع والاضطراب، ولا صيحات الأخذ من الأسلاب والغنائم، إنما قولهم هو فى علاج نفوسهم والطب لأدوائها، وطلب النصر من ربهم على أعداء الحق الكافرين به، وتلك غاية الغايات عندهم.

ولقد كانت ضراعتهم إلى ربهم بالدعاء تتجه إلى ثلاثة أمور:

أولها: طلب غفران الذنب والإسراف، والذنب هو التقصير فى حق الله تعالى، والإسراف فى الأمور هو تجاوز الحد فى الأمور، وأمرهم هو كل ما يتعلق بإجابة الله تعالى، فهم يستغفرون من التقصير فى حق الله تعالى، وتجاوز حدود الله تعالى، وإن ذلك الدعاء مناسب للقتال لأن المقاتل إما أن يقصر فيتخاذل، وإما أن يتجاوز الحد فيقتل فى غير حاجة إلى القتال، فكان هذا الدعاء فى موضعه، وإن الإسراف فى القتل من غير حاجة إلى القتل مؤاخذ عليه كالتقصير، فمن يقتل امرأة أو عاملا غير مقاتِل أو شيخا هرما لا رأى له فى القتال، أو يقتل أسيرا، أو يقتل بعد الأمان، يكون مسرفا فى أمره، فيكون مؤاخذا، ولذلك طلبوا الاستغفار من الأمرين: التفريط والإفراط.

وإن طلبهم هذا يدل على سلامة قلوبهم، واستصغار عملهم، وذلك شأن الأتقياء، ولذا جاء فى الكشاف فى هذا المقام: (هذا القول، وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربانيين كان هضما لها واستقصارا) ولقد كان دعاء النبى ﷺ: «اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى وإسرافى فى أمرى، وما أنت أعلم به منى»(١).

الثانى: طلب تثبيت الأقدام بألا يهزموا ولا يفروا، بل يلاقوا الأعداء بصدورهم ولا يولوهم الأدبار، وفى تقديم الدعاء بالغفران إشارة إلى أنهم يقدمون طهارة نفوسهم وتزكية القلوب واعتبارها أساس الثبات والصبر فى مواطن القتال، وجاء فى الكشاف: «والدعاء بالاستغفار مقدما على طلب تثبيت الأقدام فى مواطن الحرب والنصرة على العدو ليكون طلبهم إلى ربهم عن زكاة وطهارة وخضوع وهو أقرب إلى الاستجابة».

---

(١) رواه البخاري: الدعوات – قول النبي ﷺ اللهم.. (٥٩٢٠) واللفظ له، ومسلم: الدعوات – التعوذ من شر ما عمل (٢٧١٩).

الثالث: طلب النصر على الكافرين، وهو غاية القتال؛ لأن الانتصار عليهم رفع لاعتدائهم، وتمكين لأهل الإيمان فى الأرض، ومنع للفتنة فى الدين، وإزالة الحواجز التى تحول بين النبى ودعوته، وذلك نصر لحق الله تعالى.

﴿**فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ**﴾ الفاء هنا لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى أنهم بسبب ذلك الصبر والاطمئنان نالوا جزاء الدنيا وثوابها بالنصر والغنيمة وجعل كلمة الله تعالى هى العليا، ومكن لهم فى الأرض، وبسبب هذا أيضا نالوا حسن ثواب الآخرة، أى نالوا النعيم المقيم، وجنات عدن، وما فيها مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر، ونالوا ما هو أعلى من ذلك وهو رضا الله تعالى ثم محبته، وهى أعلى الدرجات، ووصف ثواب الآخرة بالحسن؛ لأنه الثواب الذى لا يعكره معكر، ولا تكليف فيه، ولا مشقة تحتمل فى سبيله، فهو حَسَن بإطلاق، وأما ثواب الدنيا فحسنه إضافى إذ فيه تكليفات ومشقات، إذ الدنيا قد اختلط حلوها بمرها، وسراؤها بضرائها، وشقاؤها براحتها، ولذلك كان ثوابها غير حسن إلا حسنا إضافيا نسبيا، أما ثواب الآخرة فحسن باستمرار وإطلاق ﴿**وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾.

ذيَّل الله سبحانه وتعالى الآية التى تتعلق بالجزاء بأعظم جزاء وهو محبته الكريمة، وأشار إلى أن هؤلاء الربانيين قد استحقوه بسبب إحسانهم وإتقانهم لما عملوا وما جاهدوا فيه، وصبرهم فى الشدائد والمكاره، وتلقيهم للأحداث بجنان ثابت وقلب رابط.

وإننا نجد أن الله تعالى وصف المؤمنين بثلاث صفات، وكل واحدة منها قد استحقت جزاء، فالوصف الأول أنهم شاكرون، فقال: ﴿**وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ**﴾؛ لأن الشكر أول أبواب الطاعة، والرغبة فى الفداء؛ إذ هو الإحساس بحق المنعم فيما أنعم به.

والوصف الثانى هو الصبر؛ لأن الإيمان الذى هو أول ثمرات الشكر يقتضى ضبط النفس عن أهوائها ومنع الاضطراب فى (الصدمات) والرضا بكل شديدة من

غير أنين، والصابرون يحبهم الله، والوصف الثالث الإحسان، وهو نتيجة للصبر، وهو أن تكون النفس كلها لله، تراقبه فى كل عمل تعمله، وكل قول تقوله، وكأنها ترى الله، وقد قال النبى ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك»(١) وبذلك يكون ممن يحبهم الله، ولقد قال النبى ﷺ عن ربه فى العبد الذى يحبه: «إذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها»(٢).

اللهم إنا ما عملنا عملا نستحق به محبتك، ولكنَّا مع ذلك نطمع فيها، فإن أعطيتها فبفضلك، وإن منعتها فبحقك، وإنا لنضرع إليك من بعد ألا نكون ممن غضبت عليهم وسخطت أعمالهم، إنك غفور رحيم.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾

كانت غزوة أُحد فيها العبر، وهى عركة نفسية عركت بها قلوب المؤمنين، وتميزت فيها نفوس المترددين، وقد اتخذ القرآن الكريم منها درسا نبه المجاهدين إلى ما ينبغى أن يعلموه فى المواقع والحروب، نبههم إلى أن النجاح فى الأعمال

(١) سبق تخريجه من رواية البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
(٢) رواه البخاري: الرقاق - التواضع(٦٠٢١).

مهمـا يكن . . أساسه التنسيق والتـوزيع، وتخصيص كل طائفة لمـا تحسن، حتى تتلاقى الجهود كلها فى ثمرات مفيدة للجماعة، والجهاد عمل من الأعمال، فلا بد أن تنسق فيه الأعـمال، ويكون كل لما يخصص له، فإذا خـرج عما هيئ له وأُسند إليه، انتثر العقد، واضطربت الأمـور، وخفت الثمرات، وذلك ما كان فى أحد، ولقد قرر الله تعـالى أن يصاب المسلمون بذلك الجـرح الدامى لتكثير العبـر، فقد افـترى من افـترى فـادعى أن النبى عليـه الصلاة والسـلام قـد قتل، فـاضطربت الأفهام، إذ لو كان الخـبر صادقا لأوجب على المجاهدين أن يتضـافروا على حمل العبء لا أن تذهب نفوسهم شعاعا. ولقد أصابت الهزيمة قلوبهم، وأصابهم غم شديد، فأخذ يبين الله أن القتال تتعاوره الهزيمة والنصر، وأن الهزيمة بسبب خطأ لا توجب الوهن، ولكن توجب تجنب الخطأ.

ولقد وجـد ناس وقد اشتـد البلاء، وأظلمت نفـوس، وذهب ما فيـها من أضواء الحق، فـتنادى بعضهم أن يوسطوا المنافـقين ليتـخذوا لهم عند أبى سفـيان زعيم الشرك إبان ذاك عهـدا بالأمن والاستسلام، وقد بين الله سبـحانه بعد ما بين من عبـر أن هذه هى الخطة الذليلة، وهى المنزلة الدون، والمكان الهون، فقـال عز من قائل:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ**﴾ النداء للمـؤمنين بوصف كونهم مـؤمنين، وفـيها بـيان أنه لا يليق بهم بوصف كـونهم مؤمنين أن يطيـعوا الذين كفروا؛ فـإن الكفر والإيمان نقيـضان لا يجتـمعان، ولا يكونان فى قلب رجل واحد، ولقد أشار سبحانه إلى بعد احتمال أن يطيع المؤمنون الكافرين بالتعبير فى أداة الشرط بـ (إن) دون (إذا)؛ إذ إن: (إذا) للتحقق أى تحقق الشرط، وتحقق الجـزاء، أما (إن) فإنها لا تفـيد تحقق الشرط، وبالتـالى لا يتحقق الجـزاء. والمعنى فى هذا هو التـحـذير من مـسـايرة الكافـرين بأى نوع من أنواع المسـايرة؛ إذ كل مسـايرة طاعة، ولا يليق بـالمؤمن أن يطيع كافـرا؛ لأنه يجب أن يكون فى حـذر دائم، وإنه لو فـرض وأطاعـوهم فـإنهم يرتدون على أعـقـابهم خاسرين.

والنداء متجه ابتداء للمؤمنين المجاهدين الذين حضروا أُحدا، ووجد بينهم المنافقون ينادون بالويل والثبور وعظائم الأمور، ويرجفون فى المدينة، ووجد أيضا المترددون الضعفاء الذين استجابوا أو كانوا على استعداد للاستجابة، إذ دعا بعض المنافقين بأن يتوسطوا عند أبى سفيان لينجوا بأجسامهم.

ومع أن الخطاب ابتداء لهؤلاء له وجه عام، وهو نداء المؤمنين فى كل الأجيال وفى كل الأحوال بألا يسايروا الكافرين، رجاء نصر، أو تحقق نفع، وألا يمالئوهم بأى نوع من أنواع الممالأة، فإن الكافرين فى كل العصور لا يريدون بالمؤمنين إلاخبالا، ولا يرجون لهم إلا أن يكونوا قوما بورا، فالآية الكريمة تحذر المؤمنين تحذيرا عاما بألا يطيعوا الكافرين، ولا يستنصروا بهم، ولا يجعلوا لهم ولاية عليهم، لأن ولايتهم غير ولاية الله، وولاية الله هى الولاية الحق، وهم موضع غضب الله تعالى دائما، والذى يتولاهم ويستنصر بهم، فإنما يتولى قوما غضب الله عليهم، والله تعالى يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣)**﴾ [**المتحنة**].

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى نتيجة إطاعة الكافرين فى أى عصر من العصور إن كان هناك احتمال لذلك. فذكر فى جواب الشرط نتيجتين، كلتاهما مترتبة على الآخرى، أولاهما: أشار إليها بقوله سبحانه: ﴿**يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ**﴾، والثانية المترتبة عليها: أشار إليها بقوله عز من قائل: ﴿**فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ**﴾. **ولنتكلم بكلمة موجزة فى كل واحدة من هاتين النتيجتين المتلازمتين اللتين يقتضى وجود إحداهما وجود الأخرى:**

فالنتيجة الأولى، وهى ردهم على أعقابهم، معناها أن يرجعوا إلى موضع الذلة الذى كانوا فيه قبل أن يؤذن لهم بالجهاد أو يرجعوا إلى ما كانوا عليه فى غير انتظام وفى اضطراب، والمضطرب دائما لا يملك زمام نفسه، والأعقاب جمع عقب، وهو مؤخر القدم، والتعبير بـ: ﴿**يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ**﴾، فيه إشارات إلى أمور ثلاثة، أولها: أن هذا مطلب للكافرين، فإن أطعتموهم فقد حققتم لهم

مقصدهم، وهو أن يردوكم، ولذا أسند الرد إليهم، ولم يقل ارتددتم، وثانيها: أن طاعتهم التى يترتب عليها ما ذكره سبحانه هى أقصى الهزيمة وهى الكبوة التى لا قيام بعدها، ولذلك عبر عن هذا بالرجوع على الأعقاب، فهو رجعة إلى الوراء وليس وثبة إلى الأمام، والأمر الثالث الذى يشير إليه النص هو أن زمام المؤمنين يكون نهائيا بأيدى الكافرين إذا أطاعوهم، وهذا هو ما آل إليه أمر المسلمين فى العصور الأخيرة، وفى هذا تذكرة لمن يخشى.

والنتيجة الثانية هى الانقلاب خاسرين، والتعبير بالانقلاب فى قوله سبحانه: ﴿فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ يفيد أن إطاعة الكافرين يكون حتما فيها تغيير حال أهل الإيمان، ولكنه تغيير هو انقلاب، وجعل أعلى ما فيهم أسفل، فهو نكسة تصيبهم، ويعز عليهم من بعد أن يعودوا مستقيمين يضعون أغلى ما فيهم وهو الإيمان فى موضعه، وإن ذلك الانقلاب تلابسه لا محالة الخسارة المؤكدة التى لا احتمال فيها؛ إذ يخسر المؤمنون إيمانهم، ويخسرون من وراء ذلك الآخرة، وينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١)﴾ [الحج] وإن أولئك الذين يستخذون للكافرين ويسايرونهم، بل يطيعونهم وينتقلون من العزة والكرامة إلى الذلة والمهانة ويعتقدون القوة فى الكافرين فيعطونهم الولاية، ينسون الله تعالى وولايته، ولذلك قال سبحانه مطمئنا المؤمنين الصادقين الذين لا يرضون بولاية الكافرين: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾.

المولى هنا هو النصير، وإذا كان الله ناصره، فإنه لا محالة غالب، فهو نعم المولى ونعم النصير. والمولى لا تدل على النصرة فقط، بل تدل على كمال الصلة والمحبة والقرب، والنصرة تجىء لازمة لهذه المعانى، و«بل» هنا للإضراب وهو إضراب انتقالى؛ إذ هو انتقال من الكلام فى موالاة الكافرين، وما يترتب عليها من نكوص على الأعقاب، واضطراب بين الحق والباطل، واستكانة وذلة وخسران مبين، إلى الكلام فيما هو سبب العزة والرفعة والكرامة والقوة والسؤدد والنصر المؤزر الثابت، وهو موالاة الله تعالى، وعبر عن ذلك بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ

مَوْلاكُمْ﴾ أى أن الله الخالق لكل ما فى الوجود، والذى بيده مقاليد كل شىء، والمسيطر القوى الجبار القاهر فوق عباده هو مولاكم، فعليكم أن تطلبوا ولايته، ومن اعتصم به فقد آوى إلى ركن ركين، وحصن حصين، وذكر هذا الأمر بصيغة الخبر للإشارة إلى أن المؤمن بمقتضى كونه مؤمنا هو فى ولاية الله تعالى فلا يخرج عنها، وولاية الله تعالى تقتضى أن يكون فى ولاية المؤمنين، لا يخرج عن جماعتهم ولا يسلك غير سبيلهم، ولا يطيع أعداءهم، أويمالئهم، أو يسايرهم، فإن ذلك يكون محادة لله ولرسوله ومشاقة لله ولرسوله، والله تعالى يقول: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ... (٢٢)﴾ [المجادلة] ويقول سبحانه جلت حكمته: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥)﴾ [النساء].

وإذا كانت النفوس الضعيفة تجد فى الالتجاء إلى الكافرين بعض الحماية فلتعلم أن المعاذ والنصرة من عند الله؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾.

أى أن الله تعالى هو الذى ينصر المؤمنين، ونصره هو المؤكد المحتوم الباقى، وهو نصر مالك القوى كلها، والمسيطر على العالم بكل ما فيه ومن فيه وما تجرى به الأسباب، وما ارتبطت به شئون الناس والكون، ولذلك كان نصره خير نصر، إذ هو أدومه وأقواه، وما عند الناس من نصر فهو ظاهرى، ولا يتحقق إلا بأسباب قدَّرها، فهو المسيطر المريد لكل ما يقع فى الكون، ونصر الله تعالى معه العزة، ونصر الناس معه الذلة، فمن استنصر بالله عز، ومن استنصر بالناس ذل، وهذا على أن «خير» وهى من أفعل التفضيل على بابه، وقيل: إن أفعل التفضيل هنا على غير بابه، وأن المعنى أنه لا ناصر إلا الله، ولا ناصر سواه، فنصره هو النصر، ونصر غيره ليس بنصر. ثم بين سبحانه بعضا من أسباب نصره، فقال: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾.

الرعب الخوف والانزعاج، أو امتلاء النفس بالخوف والانزعاج، حتى تضعف الجماعة مع وجود أسباب القوة، وأصله من الملء مع الاضطراب، يقال سيل راعب، يملأ الوادى ويضطرب به، ورعبت الحوض ملأته، ومعنى إلقاء الله تعالى بث روح الخوف والفزع فى قلوبهم، وإن إلقاء الله تعالى الرعب فى قلوب المشركين كانت له مظاهر شتى: منها أن يضع سبحانه وتعالى فيهم الفزع، فيخافون عند النصر لهم من متابعته، كما كان عقب أحد، فإن المشركين سارعوا بالعودة وبينما هم فى الطريق ندموا وقال قائلهم: بئس ما صنعنا، قتلناهم حتى لم يبق منهم إلا الشريد ثم تركناهم ارجعوا فاستأصلوهم، ولما عزموا على ذلك ألقى الله فى قلوبهم الرعب، فانصرفوا لايلوون على شيء، ومن مظاهره النصر بالريح، كما كان فى غزوة الأحزاب، فقد جاءت إلى المشركين ريح شديدة قذفت فى قلوبهم الرعب، فعادوا ولم ينالوا شيئا، وقال تعالى فى ذلك: ﴿ **وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا** ﴿٢٥﴾ ﴾ [**الأحزاب**].

وقد روى فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا، وأحلت لى الغنائم، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس جميعا»(١).

وقد ذكر سبحانه وتعالى السبب فى إلقاء الرعب فى قلوب أعداء أهل الإيمان فقال سبحانه وتعالى: ﴿ **بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا** ﴾ والسلطان هنا هو الحجة والدليل، كما قال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ** ...﴿٣٥﴾ ﴾ [**غافر**]، وكما قال تعالى: ﴿ **فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ** ﴿١٠﴾ ﴾ [**إبراهيم**]، وقال: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ** ﴿٩٦﴾ ﴾ [**هود**].

---

(١) سبق تخريجه، ومسلم: المساجد ومواضع الصلاح (٥٢٥).

فالمعنى أنهم أشركوا بالله أحجارا لم ينزل الله بها حجة مثبتة لصحة عبادتها، لأنه لا دليل على سلامة هذه العبادة، ولا يوجد دليل قط يؤيدها. ويصح أن يفسر السلطان هنا بمعنى القوة والتمكن، والمعنى على هذا أنهم أشركوا بعبادة الله تعالى أشياء لم ينزل أى لم يجعل فيها قوة تنفع وتضر، فهم يعبدون ما لا يملك نفعا ولا ضرا، ويشركونه فى العبادة مع الذى يملك كل شىء، وهو الذى ينفع ويضر من غير شريك.

والسببية التى أشار إليها سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿**بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ**﴾ لها توجيهان:

أحدهما: أن الله تعالى يلقى الرعب فى قلوبهم لأنهم عاندوا الله سبحانه، وحادوه، وأشركوا معه فى العبادة، ولأنهم ينشرون بهذا التفكير الفاسد الشر والفساد فى الأرض، والله تعالى لا يحب الفساد، وهو ينصر الخير على الشر، والصلاح على الفساد، فالسببية هى إرادة الله تعالى التى بها قوام كل معوج وصلاح كل فاسد.

وثانيهما: أن السبب فى إلقاء الرعب من حالهم هم؛ ذلك لأنهم يعبدون ما لا ينفع ولا يضر ، ولا تقوم عندهم حجة ولا شبه حجة على صلاحية ما يعبدون للعبادة، ويكون الوهم هو الذى سيطر، والهوى هو الذى تحكم، ومن تتحكم فيه أهواؤه وأوهامه يكون مضطرب النفس مزلزل القلب تزعجه الكوارث، ويضطرب عند نزول أى حادث، فكان الشرك وتحكمه فى النفس هو السبب فى الرعب والخوف والفزع؛ إذ هم يخافون من غير مخوف، ويفزعون فى غير مفزع.

تلك هى حال الكافرين الذين ناوءوا أهل الإيمان، كان سبحانه يلقى الرعب فى قلوبهم، ويثبت قلوب المؤمنين، **فهل هذه سنة أهل الإيمان مع المشركين وأشباههم دائما؟**

والجواب عن ذلك: أنه شأن المؤمنين حقا وصدقا إذا لم يضعفوا ولم يذلوا، ولم يوالوا أعداء المؤمنين على المؤمنين، بل يأخذون الأهبة، ويغلبون الهدى على

الضلال، ويجعلون الله مولاهم، فإذا رأينا الحال قد تغيرت، فليس ذلك لتغير سنة الله فى خلقه، ووعده لأنبيائه والصديقين معهم، بل لتغير حال المؤمنين، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد] ولقد تنبأ ﷺ بما آل إليه المسلمون، وبين أن ذلك سببه الوهن الذى يتولد عن حب الدنيا، وكراهية الموت، وإنه عندما تصاب القلوب بهذه الإصابة ذكر النبى ﷺ أن الله ينزع من قلوب أعدائهم المهابة منهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «ولينزعن من قلوب عدوكم المهابة منكم»[١].

فإذا كنا نرى المؤمنين قد أُلقى فى قلوبهم الرعب بدل الكافرين، فليس فى هذا مخالفة لوعد الله؛ لأن بعض المسلمين فى هذه الأيام وَالَوْا الكافرين على المؤمنين، وذلُّوا تحت ولايتهم واستخذَوا لهم واستَعْدُوهم على أهل الإسلام، فنزع الله المهابة من أهل الإيمان، فكان ما كان، وشرط إلقاء الرعب فى قلوب الكافرين ألا نطيعهم، فقد وقعنا إذن فى المنهى عنه فى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [آل عمران].

ولقد أطعناهم وواليناهم دون المؤمنين، ولم نتخذ الله مولى لنا، فخسرنا خسرانا مبينا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ المأوى اسم مكان من أوى يأوى وهو الذى يرجع إليه الشخص ويعود إليه، ويقيم فيه إقامة طويلة، والمثوى اسم مكان من ثوى يثوى أى أقام إقامة لا نهاية لها، والمعنى أن الكافرين إذا ألقى الله فى قلوبهم الرعب خسروا وباءوا بخسرانهم فى الدنيا، وليس لهم مأوى فى الآخرة إلا النار، وبئس هذه النار موضع إقامة دائمة لهم، وقد أظهر سبحانه وتعالى الاسم فى موضع الإضمار، فلم يقل تعالت كلماته: وبئس النار مثواهم، بل

(١) رواه أبو داود ولفظه عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا» فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّة نَحْنُ يَوْمَئِذ؟ قَالَ: «بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاء السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُور عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ» فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: «حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ».

قال: ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ للإشارة إلى أن هذا المآل جزاء وفاقا لظلمهم فهو عقاب يستحقونه بسبب الظلم؛ إذ قد ظلموا أنفسهم فأضلوها وصدوها عن الحق وسبيله بسبب الغواية التى ارتضوها، وظلموا الحق فصدوا الناس عنه، وظلموا المؤمنين وحاولوا أن يفتنوهم عن دينهم واعتدوا عليهم وعثوا فى الأرض مفسدين، وخضبوها بالدماء البريئة، فكان ما لقوه من هزيمة ورعب وخسران فى الدنيا بعض الجزاء، والجزاء الأوفى فى الآخرة. اللهم قنا عذاب النار، اللهم اهدنا فيمن هديت، وتولنا فيمن توليت، وقنا شر ما قضيت. اللهم أعزنا بعزتك، اللهم قنا شر الاستخذاء والولاية لغيرك، إنك سميع الدعاء.

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ
وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ
وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم
مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم
مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ
وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ
﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ
وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ
غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ
وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

فى الآيات السابقات إشارات إلى بعض ما كان فى غزوة أحد من اضطراب القلوب، والرجفة التى أصابت الصفوف، وشيوع القالة المثبطة للعزائم الممزقة

للوحدة، وإنتاج هذه المقالة نتائجها فى قلوب ضعيفة، ونفوس مريضة بالنفاق، وفى هذه الآيات وما وليها يذكر الله سبحانه وتعالى سبب الهزيمة مقترنا بنتائجها فى نفوس المؤمنين الثابتين فى إيمانهم، الأقوياء فى عزيمتهم، الذين احتسبوا النية لله رب العالمين، فقال سبحانه:

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾

وعد الله تعالى الذين آمنوا بالنصر وعدا عاما عندما أذن لهم بالقتال، ووعدهم فى أحد وعدا خاصا، فقد قال سبحانه وتعالى فى الوعد العام: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج].

والوعد الخاص فى أُحد جاء ذكره فى قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [آل عمران].

ونرى الوعد بالنصر فى الآية الأولى التى كان الوعد فيها عاما كان مقيدا بأن ينصروا الله فى قتالهم، لا يريدون مأربا دنيويا ولا عرضا من أعراض الدنيا، كما ترى الوعد فى أُحد خاصة كان مقيدا بأن يصبروا، وقد تخلف الشرطان فى أحد، فإن فريقا منهم أراد عَرَضا من أعْراض الدنيا فى أثناء المعركة، ولم يصبرُوا؛ إذ لم يضبطوا إرادتهم ولم تستحصد عزائمهم فى طاعة القائد، فإن طاعة القائد من سبل النصر، وتحتاج إلى صبر وضبط نفس، ولذلك لم يكن فى أحد ما ينافى صدق الله وعده لنبيه، وصدق النبى فى وعده لهم بإذن من ربه سبحانه وتعالى.

ومعنى صدق الوعد فى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ أن يقع الأمر فى الوجود كما وعد الله تعالى وهنا (صَدَق) متعدية إلى مفعولين، والمعنى

قد أوقع الله سبحانه وتعالى الأمـر فى الوجود، كما وعدكم، بروح منه، ولكنكم أنتم الذين لـم تلتزمـوا الجادة، ولـم تكونوا ناصرين الله تعالى فى المعـركة كلها؛ إذ لـم يكن قتالكـم لله تعالى فى هذه المعركة من مبـتدئها إلى انتهائـها، ولـم تضبطوا أنفسكم، وإن وعد الله تعالى لكم بتـأييد الملائكة، وهى الأرواح الطاهرة المطهرة، كان مقيدا بالصبر النفسى، ولـم تصبروا أنفسكـم وبين سبحانه وتعالى وقت النصر، وهو وقت ابتداء الحرب، فقـال سبحانه: ﴿**إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ**﴾ ومعنى تحسونهم أى تصيبون حِـسَّهم بإزالته، وذلك يكون بقتله، فمعنى حَسَّهُ أصاب حِسه، مثل كبده أصاب كبده، وفأده أصاب فؤاده، وشـغفه أصاب شغاف قلبه، ولقد قال فى ذلك الأصـفهـانى: «حَسَسْتُ، وحسَـيْتُ، وأحـسست) يقـال على وجهـين: أحدهمـا- يقال أصـبته بـحسى (أى أدركتـه بإحسـاسى، ومنه شيء محـسوس) والثانى- أصبت حاسته نحو كبدته، وفأدته، ولما كان ذلك قد يتولد عنه القتل عبر به عن القتل، فقيل: (حسسته أى قتلته).

والمعنى كان وعد الله صادقا كل الصدق عندما كنتم تقتلونهم بإذنه، مؤيدين منصورين، ومعنى الإذن هنا يتضمن معنى التـأييد والتقوية والتثبيت، ولكنكم أنتم الذين أبعدتم أنفسكم عن نصر الله تعالى، وأشار إلى ذلك سبحانه بقوله: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ**﴾ أى حتى إذا ضعفت نفوسكم وعجزتم عن مقاومة أهوائكم، وتنازعتم فيما بينكم أنتبع الغنائم نجمعها، أم نطيع الرسول؟ وانتهى أكـثركم إلى العصيان من بعد مـا أراكم الله ـ تعالى ـ ما تحبون من نصر مؤزر ثابت أو من غنائم تحبونها، وتهواها أنفسكم . وهذا يفيد أن الترتيب الـنفسى يتفق مع التـرتيب فى الذكر؛ وذلك لأن الفـشل، ومعناه العـجز النفسى عن الصـبر والاحتـمال، ترتب عليـه التنازع وعصيـان الرسول، ولابد أن نذكر هنا بعض ما روى عن ذلك فى غزوة أحد، فقد روى البخارى عن البراء بن عازب: «لما كان يوم أحد، ولقينا المشركين أجلس رسول الله ﷺ أناسا من الرماة، وأمَّر عليهم عبد الله بن جبيـر، وقال لهم: «لا تبرحوا مكانكم، وإن رأيتموهم قد

ظهروا علينا فلا تعينونا عليهم» فلما التقى القوم وهزمهم المسلمون حتى نظرنا إلى النساء يشتددن فى الجبل[1] وقد رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن فجعلوا (أى ناس من الرماة) يقولون: الغنيمة الغنيمة، فقال لهم عبد الله: امهلوا أما عهد إليكم رسول الله ﷺ ألا تبرحوا؟ فانطلقوا، فلما أتوهم صرف الله وجوههم وقتل من المسلمين سبعون رجلا»[2].

وإن الرماة لم يذهبوا جميعا إلى الغنائم يجمعونها، بل بقى منهم عدد قليل، قيل إنهم عشرة، ولكن نسب العصيان إليهم جميعا، بل نسب إلى الجيش كله، مع أن غير الرماة كانوا الفريسة لعصيان كثرة الرماة؛ وذلك لأن ما يعم أثره ينسب إلى الجميع، باعتبار ذلك الأثر، وأنهم جميعا كان عليهم أن يتواصوا بالطاعة المطلقة للقائد الخبير، وذلك كقوله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً** ... ﴿٢٥﴾﴾ [**الأنفال**] فعلى كل جماعة أن تتضافر فى منع ما يضر أثره بها كلها، لا بالظالمين فقط منها، وإن إثم الآثمين فى الجماعات والأمم، ينشأ من سكوت أهل الحق والعدل، ويعيش فى ظل صمتهم، ولذلك ينسب العصيان إلى الجميع، ولقد بين سبحانه أن العصيان وإن نسب إلى الجميع كان فيهم من أراد الحق، وفيهم من أراد الدنيا من غير طريقها، فقال سبحانه: ﴿**مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ**﴾.

هذا تفصيل للتنازع الذى كان بين الرماة، وما كان فى الجيش نفسه، وهو خطاب لجمهور الذين اتبعوا النبى ﷺ .. منكم أيها المحاربون من يريد الدنيا بإرادة الغنائم، والقصد إليها، وقد غلبته على نفسه حتى نسى الطاعة الواجبة والخطة المرسومة، وهو إذ يطلب الدنيا فى هذا المقام، إنما يطلبها بغير الأخذ فى أسبابها الحقيقية التى توصل إلى الغاية فيها، ولذلك ذهب طمعهم بالغنيمة والنصر معا، ولو صبروا حتى سارت الحرب فى طريقها، والخطة إلى غاياتها، لنالوا

---

(١) قال المصنف رحمه الله تعالى: يسرن مسرعات بشدة من الفزع.
(٢) رواه البخاري: المغازي - غزوة أحد (٣٧٣٧) عَنْ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

النصر والغنيمة معا، فإنه لا غنيمة إلا بالنصر المستقر، ولا نصر إلا بالتزام خطة القائد الرشيد، ومنكم أيها المجاهدون من يريد الآخرة، وهم أنتم الذين ضبطوا أنفسهم عن الغنيمة ، ولم يعصوا ما أمر به رسول الله ﷺ، ولو ذهبت الغنائم، وأنتم الذين صبرتم فى فتنة الهزيمة العارضة بعد أن اضطربت القلوب وأرجف المرجفون، وتنادى الكاذبون بأن محمدا قد مات، فقد صبرتم وصابرتم، وجاهدتم ونازلتم فى الشديدة، والقوى حقا من يملك نفسه عندما تضطرب النفس، ويثبت عندما تكون دواعى الهزيمة، وأولئك أرادوا الآخرة؛ لأنهم ما طلبوا غنيمة، وكان ثباتهم فى وقت الفزع دليلا على امتلاء قلوبهم بالإيمان بالله واليوم الآخر.

وهنا بحث لفظى يثيره العلماء، وموضوعه (إذا) فى قوله تعالى: ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ** ﴾. فقد ذكر الزمخشرى وغيره أن فيها وجهين: أحدهما- أن تكون «حتى» بمعنى «إلى»، وأن تكون (إذا) لمجرد الوقت أى أن النصر كان حليفكم تقتلون فيه القتل الذريع، إلى وقت أن فشلتم وتنازعتم فى الأمر.

والوجه الثانى أن تكون شرطية، وجواب الشرط محذوف، وإن كان مفهوما أنه شر لا خير فيه، وضرر لا نفع معه؛ لأن ما يكون مقدمه عجزا واضطرابا نفسيا وتنازعاً فى أمر، ثم عصيانا يترتب عليه عدم تنفيذ خطة القائد الحكيم - لا يكون التالى المترتب عليه خيرا قط، ولم يُذكر لتذهب فيه العقول كل مذهب، وللإشارة إلى أنه شر عظيم لا يكتنه كنهه، ولا يتصورون حقيقته. وإنه كان من نتائج ذلك الضرر أنكم لم تنالوا بغيتكم من المشركين، ولذا قال تعالى: ﴿ **ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ** ﴾.

أى النتيجة التى صرتم إليها غير المقصد الذى قصدتم إليه، لقد خرجتم إليهم من مدينتكم لتقتلوهم وتنالوا منهم ما نلتموه فى بدر، ولم تريدوا أن تكونوا فى المدينة يأتون إليكم، بل أردتم أن تواجهوهم فى الميدان لا فى الأزقة وبين الجدران، ولكن بسبب ذلك العصيان من بعضكم صرفكم الله عنهم، أى انصرفتم عنهم بإرادة الله تعالى، ورضيتم أن تعودوا مقهورين، وقد خرجتم لتعودوا

منصورين بتأييد الله، ولتفاوت ما بين المقصد الأصلى، والنتيجة التى انتهوا إليها بسبب هذا الخطأ الجزئى - عطف سبحانه وتعالى بـ «ثم» بدل الواو أو الفاء.

وكان التعبير بكلمة (صرفكم) بدل (هزمتم) لأن ما حدث فى أُحُد لم يكن هزيمة، وإن لم يكن نصراً؛ لأن الهزيمة تقتضى أن يولى المسلمون الأدبار، وأن يتحكم الأعداء، وليس ما حدث أكثر من أن القتلى فى المؤمنين كانوا أكثر من القتلى فى المشركين، ولم ينل المشركون بذلك مأربا، فكأن الله سبحانه وتعالى يشير لهم بأن ما حدث لا يصح أن تبتئسوا له، ولا يصيبكم الحزن؛ لأنه ليس هزيمة، بل هو نوع من الصرف عن الغاية التى من أجلها خرجتم. وكان هذا لابد منه ليمحص قلوبكم، وليختبركم بالشدائد التى تصقل نفوسكم، وتجعلها مستعدة لما يأتى به القدر، ولبيان أن الطاعة للقائد الحكيم هى أساس الظفر، والعصيان سبب للاندحار.

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فى هذا النص السامى يبين سبحانه عفو الله تعالى ليرفع من نفوسهم، ويذهب الحسرة من قلوبهم، ويحيى موات العزة التى اختفت فى وسط ذلك المضطرب، ولقد أكد سبحانه وتعالى عفوه بعدة تأكيدات أولها: بالتعبير بـ «قد»، فإنها للتحقيق، واستعمالها فى أكثر آى القرآن للتحقيق، وثانيها: باللام. وثالثها: بالتعبير بالماضى. ولماذا أكد سبحانه وتعالى عفوه بهذا التأكيد؟ لأن أولئك الأبرار الذين أخلصوا دينهم لله تعالى قد تجسم فى نفوسهم خطؤهم، حتى توهموا أنه غير قابل للغفران، فإن المؤمن التقى يستكثر هفوته، ويستصغر حسنته؛ لأنه يحس بحق الله تعالى عليه، ووجوب شكر النعم التى أنعم بها، وبمقدار قوة الإيمان يغلب المؤمن خوف العقاب على رجاء الثواب.

ولقد ذيل سبحانه الآية بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ لبيان فضل الله تعالى العميم على عباده المؤمنين، فكل شىء بفضله، فنصرهم فى بدر بفضل منه، ونصرهم فى الابتداء فى أُحد كان بفضل منه، وخذلانهم بفشلهم

وتنازعهم فيه فضل بتعليمهم حق الجهاد وواجبه، وعفوه عنهم هو الفضل كله، ولقد تأكد فضل الله تعالى فى الآية بقوله: ﴿ذُو فَضْلٍ﴾ أى صاحب فضل، والمرمى أن الفضل يلازمه، ولا ينقطع عنه سبحانه وتعالى أبدا.

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾ هذا بيان لبعض ما جرى للمسلمين فى أحد، بعد أن نزل الرماة إلى ميدان الغنيمة فى غير الوقت المحدود، وهو يصور جيش الحق، وقد اضطرب بسبب ذلك الغلط الذى كان يبدو صغيرا لمن وقعوا فيه، وله نتائج خطيرة، والصورة البيانية التى تستمد من النص الكريم ترينا كيف كان المقاتلون يسيرون على غير مقصد يقصدون إليه، لا إلى النجاة بأنفسهم يسعون، وقد أحيط بهم، ولا إلى العدو يقصدون، وقد أظهر أنه استعلى عليهم مؤقتا وظنوا هم فى أنفسهم الظنون، ولا فوضىً فى جند أكثر من أن يسير على غير مقصد، وجيش الإسلام وهو فى هذه الحيرة وهذا التيه كان النبى ﷺ فى آخره يدعو جنده قائلا فيما روى عنه: «إلىَّ عِبَادَ الله إلىَّ عِبَادَ الله، أنا رسولُ الله، من يكرُّ فله الجنة»[(١)].

ومعنى ﴿تُصْعِدُونَ﴾ تسيرون فى بطن الوادى؛ لأن الصعود معناه الارتفاع، والإصعاد معناه السير فى بطن الوادى؛ وقال أبو حاتم فى هذا: (أصعدتَ إذا أمْضَيْتَ حيال وجهك، وصعدت إذا ارتقيت فى جبل أو غيره). وقال قتادة: أصعدوا يوم أحد فى الوادى. ومعنى (تلوون) تعطفون فى سيركم إلى مقصد تقصدونه. ولقد جاء فى المفردات للأصفهانى: يقال فلان لا يلوى على أحد إذا أمعن فى الهزيمة.

والمعنى: عفا الله عنكم فى الوقت الذى وقعتم فيه فى الفوضى والاضطراب، وأصبحتم تسيرون فى بطن الوادى لا تقصدون، ولا تبتغون أمرا،

---

(١) ذكره بهذا اللفظ في تفسيره: الرازي، والنسفي، والبيضاوي، والألوسي، والزمخشري، ورواه ابن جرير الطبري فى تفسيره جامع البيان، عن ابن عباس بلفظ: إلَيَّ عباد الله ارْجِعُوا، إلَيَّ عِبَاد اللهِ ارْجِعُوا! وراجع البداية والنهاية. غزوة أحد.

ولا تتبعون غاية أيا كانت، بل تضربون فى الأرض وتخبطون خبط عشواء، ولقد ذكر النتيجة الحتمية لهذا الاضطراب، وهى الغم الشديد، فقال تعالت كلماته:

﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ﴾ أثاب معناه أعاد وأعقب ما ارتكبوه كنتيجة غما بغم، فمعنى الثوب عودة الشىء ورجوعه إلى الأمر الذى كان مقدرا له على أنه غايته ونتيجته، والغم أصل معناه فى اللغة التغطية، ومنه غُم الهلال إذا غطاه الغمام فلم يُرَ، والغَمُّ يطلق على الألم الذى يغطى العقل والإحساس والمشاعر، والذى يكون الشخص معه فى حال استسلام لا يدرى ما الخلاص منه، فهو من الغُمَّة، وقد جاء فى أساس البلاغة: (وأنه لفى غُمة من أمره إذا لم يهتد للخروج منه). والباء فى قوله تعالى: ﴿بِغَمٍّ﴾ يحتمل أن تكون للسببية، ويحتمل أن تكون بمعنى (على) أو دالة على المصاحبة، وعلى الأول يكون المعنى: أعقبكم الله تعالى غما بأن فاتكم النصر، ونزلت بكم الجراح، وقتل من قتل منكم بسبب الغم الذى أنزلتموه على الرسول ﷺ بالمخالفة وعصيان أمره، وعلى الثانى يكون المعنى أعقب الله تعالى فيكم غما بعد غم أو غما مصطحبا بغم، فقد أصابكم غم فوات الغنيمة، وغم فوات النصر، وغم الإرجاف بقتل الرسول ﷺ، وغم الاضطراب.

وكان ترادف الغموم هذه كنتيجة لمخالفتكم الأولى له غاية ونتيجة مؤكدة إن اعتبرتم واتعظتم، هو: ألا تحزنوا على ما فاتكم من غنائم ونصر، وما أصابكم من جراح وتقتيل، بل تستحصدون العزائم، وتتقون الخطأ من بعد. ويقول الزمخشرى فى تعليل ترتب عدم الحزن على ترادف الغموم : (لكيلا تحزنوا : لتتمرنوا على تجرع الغموم، وتضْروا[1] باحتمال الشدائد فلا تحزنوا فيما بعد على فائت من المنافع ولا مصيب من المضار)، وإن ما ذكرنا من ترتب عدم الحزن أظهر فى نظرنا، والله ـ سبحانه ـ أعلم بمراده.

(١) يقال: ضَرِيَ الكلبُ وأَضْراهُ صاحبُه أي عوَّده وأغراهُ بالصيد، ويُجْمع على ضَوارٍ. [لسان العرب - باب الضاد - ضرا]. والمقصود هنا أنهم يتدربون على احتمال الشدائد ومواجهة الصعاب؛ فيصيرون شجعانا تشبيها لهم بالسباع الضارية.

﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ذيل الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بهذا النص للإشارة إلى أن ما وقع كله كان فى علم الله، يعلمه علما دقيقا قد أحصى فيه كل أعمالكم قبل وقوعها، وقدر نتائجها ونهاياتها، وما يعقبه بعد ذلك من عبرة يحملكم على الطاعة المطلقة للقائد الحكيم الذى يهديكم سبيل الرشاد، وأنه لا نصر مع المعصية، ولا هزيمة مع الطاعة واحتساب النية، والله بكل شىء محيط.

ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ۖ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾

الآية الكريمة موصولة بما قبلها، فهى تبين ما أصاب القلوب التى توهمت أنها انهزمت بعد موقعة أحد، وقد بين فى الآيات السابقة أنها أصابها غم كان كثيفا على النفوس، وفى هذه الآية يبين ما حدث بعد الغم، فذكر سبحانه أن قلوب المؤمنين بعد هذا الغم اعتراها الاطمئنان إلى قدر الله تعالى المقدور، وثقتهم فى المستقبل تحقيقاً لوعده بنصر عبده ونبيه محمد ﷺ والاطمئنان هو سبيل التدبير المحكم، والقلق لما كان فى الماضى يجعل العقل مأخوذا بحوادثه فلا يفكر ولا

يدبر، ولا يتحفز ويتوثب للمقاتلة مرة أخرى، ولقد قال تعالى فى وصف حال المؤمنين التى أفاضها عليهم بعد الغم المتولى:

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾ أمنة: مصدر بمعنى الأمن، وقرئ: (أَمْنة) بتسكين الميم، وهى مصدر بمعنى المرة من الأمن، وقد بين سبحانه نوع الأمن أو مظهره، بقوله:

﴿نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾ والنعاس فتور مع استراحة من غير فزع ولا قلق وهو النوم الهادئ، ومعنى يغشى: يغطى، أى أنه يغطى الحس، ويستر الإدراك والتنبه، والمعنى أنه سبحانه وتعالى أفاض وأنزل بعد الغم الذى غمر النفوس بالألم أمنا كان مظهره نعاسا اطمأنت فيه النفوس واسترخت الأعضاء واستسلمت لمقادير الله تعالى وإرادته فى خلقه ونصره دينه، مطرحين الماضى مكتفين منه بالعبرة ومتخذين منه نورا يضيء للمستقبل بخطئه وبصوابه.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى النعاس مظهرا للاطمئنان قبل واقعة بدر، فقال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ [الأنفال].

وفى غزوة أحد كان النعاس مظهر الاطمئنان والتسليم لله سبحانه وتعالى والثقة بالمستقبل - بعد الفزع والهلع والاضطراب.

وتلك الطائفة التى غشيها النعاس واطمأنت بعد الاضطراب، وآمنت بأن ما كان كان بخطأ من بعضهم، وأنه عبرة لأولى الأبصار - هم المؤمنون الصادقو الإيمان الذين يريدون ما عند الله تعالى، ولا يبتغون غير رضاه، ولقد اعتبرهم القرآن وحدهم الأهل للخطاب، لأنهم هم الذين يعدون ذخيرة المستقبل، وجند الله الغالب، ولذلك قال: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً﴾. وإن أمنهم ونومهم مع أن الجراح قد أثقلتهم، والاضطراب كان قد أذهلهم، دليل على عمران قلوبهم بذكر الله وصدق وعده: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد].

والطائفة التى لم تكن على هذه القوة والإيمان ذكرها سبحانه على أنها خارجة على الخطاب، وكأنها ليست من المؤمنين فقال تعالى: ﴿ **وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ** ﴾.

لأن نسق الآية يومئ إلى أنها بعيدة عن الخطاب، قال أكثر العلماء: إنها من المنافقين، أى أن هذه الطائفة ليست مؤمنة، بل كافرة تظهر الإسلام وتبطن غيره، ولكن الأوصاف التى ذكرت لها من بعد تومئ إلى أنهم من ضعاف المؤمنين الذين وصفهم الله تعالى بأن فى قلوبهم مرضا - فى غير هذا الموضع؛ وذلك لأن الله تعالى يصفهم بأنهم يظنون ظن الجاهلية، وهذا يفيد أنهم ليسوا من أهل الجاهلية، وهم يعتذرون لأنفسهم بالقضاء والقدر، والله سبحانه وتعالى بيّن أن ما نزل كان للابتلاء والتمحيص وأدخلهم فيه، وليس كذلك المنافقون، والنص يومئ إلى أنه كانت فيهم جراح، والمنافقون لم يخوضوا غمار الحرب، فلا جراح فيهم، ولا قتل، وهؤلاء كان فيهم قتل.

وفى الحق إن غزوة أُحد كان فيها عدد من ضعاف الإيمان، إذ قال سبحانه: ﴿ **إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** (١٢٢) ﴾ [**آل عمران**].

وعلى ذلك نقول: إن هؤلاء كانوا من ضعاف الإيمان لا من المنافقين.

ولقد وصف الله سبحانه وتعالى هؤلاء بأنهم أهمتهم أنفسهم، وبأنهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، وكلمة «أهم» مأخوذ من الهم. والهم ما يهم به الإنسان، وما يحزنه، يقال: همنى الأمر بمعنى أذابنى من الحزن، ومعنى أهمتهم أنفسهم، جعلتهم لا يجعلون لهم أمرا يهتمون به سواها، فلا يهمهم شأن الإسلام، انتصر أو انهزم، ولا شأن النبى ﷺ وصحابته، بل الذى يهمهم وحده هو أنفسهم، أو يكون المعنى: أوقعوا أنفسهم فى الهم والحزن بعدم اطمئنانهم وعدم صبرهم وجزعهم المستمر.

وإن المرء إذا لم يكن له تفكير إلا فى نفسه، ولا يهمه شىء سواها، أضفى عليها المعاذير إذا قصرت، وجعل السبب من غيرها لا منها، ومن هنا يجىء الوصف الثانى، وهو ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ والظن هنا ليس هو الاعتقاد الجازم، بل هو الوهم الملازم للضعف، المسيطر على النفس، وقوله ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ مفعول مطلق وصف لمصدر محذوف، والمعنى يظنون ويتوهمون بالله ظنا ليس هو الحق، ولا الذى يجب أن يظن بالله تعالى، وهو العدل والمعاونة الصادقة، والتأييد عند الثبات، وقد بين سبحانه وتعالى ذلك الظن غير الحق والذى لا ينبغى أن يظن بالله تعالى، بينه بطريق عطف البيان، أو البدل المبين فقال: ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ وشأن أهل الجاهلية أن يطرحوا عن أنفسهم التبعات، ويدعوا ألا مسئولية عليهم، وأن الأمر للمقادير وحدها إذ كانت النتيجة على غير ما يبغون.

ولذا قال سبحانه فى تفسير ظن الجاهلية: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾.

هذا القول هو مظهر الظن الباطل الذى ظنوه بالله سبحانه وتعالى: والاستفهام هنا استفهام إنكارى بمعنى النفى المطلق الشامل، والمعنى: ليس لنا من الأمر شىء أى شىء، فلسنا مسئولين عن الهزيمة إن انهزمنا، إنما الأمر كله لله تعالى، فأمر النصر والهزيمة بيده، وقد وعدنا بالنصر ولم ننتصر، فهم يلقون عن أنفسهم كل تبعة وكل مسئولية. وإن هذا إنكار للأسباب، وظن جاهلى؛ لأن الجاهلى إذا انتصر فرح وأشر وبطر، وأصابته عزة النصر غير ملتفت إلى إرادة غير إرادته، وإن أصابته كارثة حسبها من المقادير ملقيا عن نفسه كل تبعة، وقد رد سبحانه وتعالى وهمهم بأن أمر النبى بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ أى أن تقدير الأمور كلها لله سبحانه وتعالى، لا أمر النصر والهزيمة، فكل شئ عنده بمقدار، ولكنه سبحانه وتعالى خلق كل شىء بحكمته ومشيئته وإرادته وحده، وهو الذى قدر الأسباب ومسبباتها، وربط بين الأفعال ونتائجها، فمن اختلفوا ولم يطيعوا

قائدهم، وأقدموا على الغنائم فى غير الوقت المعلوم فلا بد أن يحدث عن فعلهم الهزيمة والاضطراب، لأن هذا هو النظام الذى سنه رب البرية فى الارتباط بين الأسباب ومسبباتها، فكون الأمر كله لله لا ينفى عنكم التبعة، بل يؤكدها وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ جملة سامية معترضة بين متلازمين، وهو قولهم: ﴿هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ وقوله تعالى من بعد ذلك: ﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا﴾.

ظاهر الجملة السابقة أنهم يلقون عن أنفسهم التبعة بتقرير أن أمر النصر بيد الله تعالى، وأنه قد حرمهم منه، وفى هذه الجملة يبين الله سبحانه وتعالى أن لهم غاية يقصدون إليها من وراء هذه الجملة، وهو إثبات أن الذى كان سبب قتلهم ووقوع الهزيمة عليهم هو خروجهم إلى هذا المكان، ولو بقوا فى أماكنهم بالمدينة ما قتلوا، وكان فى ذلك إشارة إلى ما كان من خلاف عند مجىء المشركين إلى المدينة أيخرج المؤمنون إليهم ليقاتلوهم فى أحد أم يبقون فى المدينة حتى يقاتلوهم فى الأزقة ومن وراء الجدران فلا يبقوا منهم أحدا، وأن الذى اختارته الكثرة هو الخروج، وأن النبى ﷺ نزل على حكمها وإن كان يرى غيره. إلى آخر ما كان فى هذه المشاورة، وعلى هذا تكون خلاصة المعنى: يخفون بقولهم هل لنا من الأمر من شىء أمرا لا يريدون إبداءه، وهو أنهم لو كان لهم رأى يطاع، وقول يُسْمع ما خرجوا إلى هذا المكان وقتلوا فيه، بل بقوا فى ديارهم آمنين، ولكنه أمر الله تعالى وتقديره، وتطوى هذه الجملة الإشارة إلى أمرين: أحدهما - أنهم ما كانوا يريدون القتال، ولكنه قدر الله وأمره لهم، وهذا يذكر بقوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ... ﴿١٢٢﴾﴾ [آل عمران]. والأمر الثانى الذى يشير إليه النص- أنهم ما كانوا يرون الخروج من المدينة للقتال؛ بل ينتظرون حتى يجىء إليهم الأعداء، وأنه لو كان لهم شأن ما خرجوا وما قاتلوا.

وهم فى كلتا الحالين يلقون تبعة الهزيمة عن أنفسهم، ويشيرون إلى أن الخروج لم يكن رأيا حسنا، ولكنه قضاء الله وقدره جعلهم يقعون فى هذا الخطأ.

وقد رد سبحانه وتعالى ذلك عليهم بقوله:

﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أى أن الله سبحانه قدر الأمور تقديرا، ولكلٍّ أجل كتاب، فأولئك الذين كتب عليهم أن يقتلوا فى الميدان، لابد أن يقتلوا، فلو كنتم فى بيوتكم، لخرجوا إلى الأماكن التى قتلوا فيها وقتلوا، ومعنى «برز» أى خرج من مكمنه المستور الذى لا يظن الخروج منه، والمضاجع جمع مضجع، وهو مكان النوم، والمراد هنا مكان قتلهم الذى قتلوا فيه وصرعوا وناموا إلى يوم البعث والنشور؛ وهو المكان الذى خرجوا إليه فى أحد وماتوا فيه، وفى هذا يدعوهم رب البرية أن يستسلموا لحكمه، ويخضعوا لقدره، ويرضوا به، ويطمئنوا إليه؛ لأن الإطمئنان إلى القدر بعد أخذ الأسباب رضا بحكم الله وقبول لإرادته فى خلقه، وعدم الرضا بالقدر تمرد على الخالق، وانزعاج نفسى لا علاج له؛ وإذا كان من الناس من يعيب الرضا بالقدر فهى نزعة إلحاد فى النفس، والذين يشكون من المقادير، ويتمردون عليها لا يرضون برب المقادير حكما عدلا وهو اللطيف الخبير، السميع البصير، والرضا بالقدر يلقى فى النفس بالاطمئنان والصبر والرضا والقدرة على الاحتمال، والاستعداد للقابل وعدم الالتفات إلى الوراء، فمن لا يؤمن بالقضاء قصير النظر، ومن يؤمن به متجدد الفكر؛ نظره إلى الأمام دائما ثم قال سبحانه: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

الواو هنا عاطفة؛ والمعطوف عليه فعل دل عليه ما طوى فى الكلام السابق، من معنى الدعوة إلى الصبر والاطمئنان والاستجابة للدعوة، لتتعودوا الصبر والاطمئنان والاستجابة للدعوة، ولتتعودوا تحمل الشدائد ولتعرفوا أن الحياة قد اختلط حلوها بمرها، وليبتليكم.

ومعنى قوله سبحانه: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ يعاملكم معاملة المختبر لنفوسكم، فيظهر ما تنطوى عليه فيعالج هذه الأوزار التى تظهر بما يذهب

بوضرها[1] ويوجهها نحو الخير، ومعنى يمحص قلوبكم، يزيل ما عساه يعلق بها من أدران، ويطهرها مما يخالطها من ريب يحدث من الشدائد؛ وذلك لأن مَحَصَ ومَحَّصَ في أصل معناهما تخليص الذهب مما يختلط به من مواد غريبة عنه.

وخلاصة معنى النص الكريم: نزل بكم ما نزل لتتعودوا تحمل الشدائد والمحن، وليظهر الله ما في صدوركم فيصلحها، ويخرج من قلوبكم ما يخالط الإيمان من بعض الأوهام.

﴿**وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾ وهو إذ يفعل ذلك يعلم بما في صدوركم، يعلم ما يخالطها وما توسوس به ويعلم مواضع أدوائها، وما تنطوى عليه نفوس الأبرار الأقوياء، ونفوس الضعفاء ونفوس الأشرار، وقد أكد سبحانه وتعالى علمه بخفايا النفوس، بثلاثة تأكيدات: التأكيد الأول- التعبير بالجملة الاسمية، والثاني- التعبير بوصف عليم، فهو يعلم صغائر الأمور وجليلها، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، والثالث- التعبير بذات الصدور، فهذا من قبيل ما يشبه التأكيد المعنوى، فمعناه يعلم الصدور ذاتها، فلا يقتصر علمه على ما في الوعاء، بل يعلم الوعاء ذاته، ولقد فتح الله سبحانه وتعالى باب التوبة بعد ذكر بيان السبب في الذنب، فقال تعالت كلماته: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا**﴾.

التولى يستعمل بمعنى الإقبال وبمعنى الإدبار، فإن كان متعديا بنفسه كان بمعنى الإقبال، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا** ... ﴿٥٦﴾﴾ [**المائدة**]، و ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ** ... ﴿١٣﴾﴾ [**الممتحنة**] وإذا كانت متعدية بـ «عن» أو غير متعدية أصلا كانت بمعنى الإعراض ومنه الإدبار عن الزحف والأمر في وقته، وهي هنا لذلك، والتولى الذى وقع فيه أولئك الذين ذكرهم سبحانه يوم التقى الجمعان كان في أحد ويشمل

---

(١) الوَضَرُ، محركَةً: وسَخُ الدَّسَمِ واللَّبَنِ، أو غُسالَةُ السِّقاء والقَصْعَة ونحوهما، وما تَشَمُّه من ريحٍ تَجِدُها من طَعامٍ فاسدٍ. [القاموس المحيط - فصل الواو - وضر]. والمقصود هنا آثار الذنوب والأوزار.

فريقين: أحدهما الذين أقبلوا على الغنيمة وتركوا مواقعهم من الرماية فأولئك بتركهم مواقعهم وإقبالهم على الغنيمة كانوا مدبرين يشبهون الفارين (والفريق الثانى) الذين فروا من القتال يوم أن اضطربت الموقعة وأصيب المؤمنون بجراح، وكانت فيهم مقتلتهم. وقد ذكر سبحانه السبب فقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا**﴾ ومعنى استزلهم الشيطان طلب لهم الزلل وسهله لهم ببعض ما كسبوا من صغائر؛ فإن تضافر الصغائر، وطلب الدنيا من شأنه أن يسهل ارتكاب الخطايا فإن النفس تمرد عليها[1] وتسير فى طريقها، ولقد قال فى ذلك الراغب الأصفهانى: استزله إذا تحرى زلته. وقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ**﴾ أى استخرجهم حتى زلوا فإن الخطيئة الصغيرة إذا ترخص الإنسان فيها تصير مسهلة لسبيل الشيطان على نفسه، ومعنى هذا أن الشيطان لا يفتح معاقل النفس، ويغزو مواضع الفضيلة، إلا بالصغائر التى تسهل الرذائل، فإذا فتح النفس من هذا المعقل هجم بكل أسلحته، فتحكم الهوى والشيطان واستضعفت النفس وذلت، وأحاطت بها الخطايا، وسدت عنها منافذ الهداية والنور.

والمعنى الجملى أن أولئك الذين كانوا سبب تلك الجراح أو فروا من الموقعة قد وقعوا فيما وقعوا فيه بسبب أن نفوسهم لم تتجه إلى الله بكليتها ولهذا استزلهم الشيطان، وأمامهم الفرصة لتطهير نفوسهم، وقد أعلن سبحانه العفو عنهم فقال: ﴿**وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ**﴾.

وقد أكد سبحانه عفوه بأربعة تأكيدات أولها: باللام فهى تنبئ عن القسم، والثانى: قد، فإنها تفيد تأكيد تحقق القول، والثالث: وصف الله تعالى بالمغفرة فإنه يؤكد أن العفو شأن فى شئونه سبحانه، والرابع: الوصف بالحلم فإنه سبحانه لا يسارع بالعقاب: ﴿**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ... ⁽٤٥⁾**﴾ [فاطر].

---

(١) المرود على الشيء: المرون عليه. الصّحّاح. ومنه قوله تعالى فى سورة التوبة (١٠١): ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ أى مرنوا عليه وأقاموا فلم يتوبوا.

وقد أكد سبحانه أمر العفو، لتذهب عن نفوسهم حيرتها، ولتنخلع من الماضى ولتستقبل الحاضر والمستقبل بقلب جرىء ثابت، ولتشعر بعون الله وتوفيقه وتأييده وتسديده.

ربنا اعف عنا واغفر لنا وارحمنا، وانصرنا على القوم الكافرين.

يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا
ضَرَبُواْ فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا
قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِ وَيُمِيتُ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾
وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

ما زالت النصوص القرآنية الكريمة تذكر العبر فى هزيمة أُحُد، وكأن هذه الهزيمة التى لم تكن فاصلة، بل رجع فيها المنتصرون لم يلووا على شىء - فيها دروس فائدتها أكبر من فائدة النصر، وفيها كشف لأحوال نفسية، ومعرفتها ذريعة إلى الاستمرار على القتال والانتصار فيه، وفى هذه الآيات بين الله سبحانه وتعالى الفرق بين النفس المؤمنة إذا فقدت أحبابها أو أصفياءها فى جهاد أو ما يشبهه، والنفس الكفارة إذا أصيبت بمثل هذه الإصابة، وفى هذه الآيات أيضا يبين سبحانه أن النظر إلى الماضى المؤلم من غير الاقتصار على الاعتبار يؤدى إلى الحسرة والحزن الدائم، فالنفس الدبرية التى تلاحقها دائما بآلام الماضى لا تسعد فى ذاتها، ولا تتأهب لعمل يحتاج إلى تضافر الهمم وتحفز العزائم، فإن تقرُّح القلب بآلام

الماضى كفرٌ بالله، وعدم تفويض إليه سبحانه، وعدم إيمان بالمستقبل الذى يكون يوم القيامة، ويكون الأمر فيه كله لله تعالى، وإن هذه الروح الدبرية هى روح الكافرين، وقد نهى الله سبحانه عن أن يكونوا مثلهم، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ...﴾.

الخطاب واضح بأنه للمؤمنين الصادقى الإيمان، وهو نهى عن التشبه بالذين كفروا، فى حالهم التى يبينها سبحانه وتعالى، وفى التعبير بالذين كفروا إشارة إلى أن الجزع للحاضر أو الماضى، والالتفات إلى الماضى، والنظر إلى وجوب تغييره، وقد سجل فى الوجود، وأصبح لا سبيل إلى تغييره؛ لأن ما وقع لا يكون - كل هذا من شأن الكافرين الذين يأسرهم ما يقع، ويتخذون «لو» التى هى سبيل الشيطان دائما وسواسا لنفوسهم، يكررون ما كان يجب، وقد وقع ما وجب، والبصير الذى آتاه الله نعمة الهداية والتوفيق لا يفكر إلا فيما يجب فى المستقبل على ضوء ما وقع فى الماضى وصيغة النهى التى عبر بها سبحانه: ﴿لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تفيد تباعد ما بين المقامين: مقام الإيمان، ومنزل الكفران، وأنه لا يصح بالمؤمن أن ينزل إلى المرتبة الدون، بعد أن علا بالإيمان إلى مقام الأعلين الأبرار، وفى هذا تقبيح المنهى عنه بأبلغ تعبير، وأرق تصوير؛ إذ حسب الذين أهمتهم أنفسهم، وقالوا عن إخوانهم فى حال يأس مستول: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَا هُنَا ...(١٥٤)﴾ [آل عمران]، أن يكونوا فى هذا كالذين كفروا؛ إذ يوسوس إليهم الجزع بأن يقولوا مثل هذه المقالة - حتى يبتعد المؤمنون عنها، ويجانبوها كل المجانبة، والأمر نهى عن المماثلة فيما حكاه سبحانه يقول: ﴿وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾.

ضربوا فى الأرض معناها سافروا وأبعدوا فى السفر، ولم يكن سفرا قاصدا، بل كان سفرهم فيه مشقة وجهد، وتعرض فيه المسافر للأذى. وغُزّى: جمع غاز، كراكع وركَّع، وصائم وصُوَّم، ونائم ونُوَّم، وشاهد وشُهَّد، وغائب وغُيَّب، واللام فى قوله تعالى: ﴿لإِخْوَانِهِمْ﴾ إما أن تكون دالة على موضع

الخطاب، ويكون المعنى أن هؤلاء الذين كفروا لفرط جزعهم على الذين فقدوهم يقولون لإخوانهم الأحياء: لو كانوا مقيمين معنا، وملازمين بيوتهم، ولم يضربوا فى الأرض ولم يغزوا فيها ما ماتوا وما قتلوا؛ فالأحياء يتبادلون الكلام فى شأن الذين قتلوا أو ماتوا.

ويقول الزمخشرى: إن اللام هنا ليست دالة على الخطاب، إنما هى للتعليل، والمعنى: يقول أولئك الذين نجوا لأجل ما فقدوه من إخوانهم، تحسرا وأسفا عليهم: لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا.

وهذا القول ينبعث من قلوب غير مؤمنة يسيطر عليها غم حاضر وهم غابر، وهو يدل على ضيق العقول، ومصادمة لكل معقول تحت تأثير الهوى الجامح المسيطر، فإنهم ما داموا قد خرجوا مختارين، فليس لكلمة «لو» مقام بعد ذلك فى اعتبارهم، ثم إن هذا الكلام يضعف العزيمة، ويفتح القلوب للخور، فالمأسور بهزيمة الماضى لا ينتصر فى المستقبل، وفوق هذا فإن ذلك القول يدل على عدم تفويض الأمور لله سبحانه، فهو مسيِّر كل شئ، وكل شيء عنده بمقدار، وعلى المؤمن أن يعمل ويجد، ويترك تقدير الأمور لرب العالمين، وما حاول إنسان أن يضبط شئون المستقبل كما يجب إلا أصابه الله سبحانه وتعالى بما يخالف تقديره، ويبطل تدبيره، وهذا القول لا يصدر أيضا إلا عن قوم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، ولا يرجون ما عند الله سبحانه وتعالى، ولذلك ذكر سبحانه أنه من خواص الذين كفروا بالله واليوم الآخر، وإن تلك الحال اليائسة القاتلة شأن من شئون الذين يلحدون فى الله دائما، وهى عقاب دنيوى لهم، ولذا قال سبحانه: ﴿ **لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ** ﴾.

اللام هنا هى التى تسمى لام العاقبة، وهى تدل على المآل، ولا تدل على التعليل الباعث، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ **فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا** ... ﴿٨﴾ ﴾ [**القصص**] فإنه ما كان الباعث على الالتقاط هو أن يكون لهم عدوا وحزنا، بل كانت النتيجة هى العداوة.

ويصح أن تكون اللام للتعليل، ويكون المعنى: أن الله سبحانه وتعالى خلق الكفار على هذه الأخلاق اليائسة، أو قدر لهم هذه الأحوال المؤئسة ليلقى الحسرة فى قلوبهم، والغم فى نفوسهم، والضلال بهذه الأقوال فى عقولهم.

والحسرة هى الهم المعيى الكاشف للنفس الذى يلقى بالحزن المستمر فيها، وقد قال الأصبهانى فى هذه المادة: «الحاسر من لا درع له، والحاسر المُعْيا لانكشاف قواه، ويقال للمُعيا حاسر ومحسور، أما الحاسر فتصور أنه قد حسر بنفسه قواه، وأما المحسور فتصور أن التعب قد حسره، وقوله عز وجل: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [الملك] يصح أن يكون بمعنى حاسر وأن يكون بمعنى محسور، وقال تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۝٢٩﴾ [الإسراء]، والحسرة الغم على ما فاته، والندم عليه، كأنه انحسر عنه الجهل الذى حمله على ما ارتكبه، وانحسرت قواه من فرط غم، وأدركه إعياء عن تدارك ما فرط منه، قال تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝٥٠﴾ [الحاقة]. ومن هذا يتبين أن معنى الحسرة يتضمن هما وحزنا وإعياء، وتكشفا للآلام يلقى تشاؤما وارتياعا وانزعاجا مستمرا.

والكلام السابق على أساس أن الحسرة نتيجة لقولهم واعتقادهم الفاسد، ذلك أنها تلقى فى قلوبهم ضعفا وألما، فالسبب فى الحسرة على هذا التوجيه من أنفسهم التى ركبها الله سبحانه وتعالى ذلك التركيب، ويصح أن تكون الحسرة نتيجة للنهى، وتكون اللام للتعليل، ولا تصلح أن تكون للنتيجة والمآل، ويكون المعنى على هذا: يأيها المؤمنون لا تكونوا كالذين كفروا إذ يشغلهم الماضى ولا يفكرون فى الحاضر، بل اتخذُوا من الماضى عبرة، وفوِّضوا الأمور إلى الله تعالى ليجعل الله لكم بهذا قوة، ويكون ذلك حسرة فى قلوب الكافرين؛ إذ يرونكم مستبشرين بنعمة من الله وفضل دائما، فلا تألمون لمن تفقدون، ولا تتخاذلون بمن يقتلون من صفوفكم، بل تأخذون الأهبة، وتتقدمون طالبين الشهادة أو النصر المؤزر، وذلك هو سبب الحسرة.

﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فى هذه الجملة السامية ترشيح وتقوية لمعنى النهى السابق، وتأكيد لضلال الكفار ومن يحاكونهم فى انشغال أنفسهم بمن ماتوا، وظنهم أن الخروج هو الذى كان سببا فى قتل من قتلوا، كما قال الكافرون: ﴿لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا﴾، ففى هذه الجملة يبين سبحانه أن الأرواح كلها بيد الله تعالى يقبضها إن شاء، ويرسلها إن أراد، فهو سبحانه لا يتقيد بخروج للقتال، فالقعود لا يضمن الحياة، والخروج لا يكون معه التلف، بل ربما كانت فيه النجاة، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ... ﴿٧٨﴾﴾ [النساء] وإنه إذا كانت الحياة والموت بيد الله وحده قد جعل لكل أجل كتابا ومن جاء أجله لا يستأخر ساعة ولا يستقدم، وأن الله سبحانه وتعالى خالق الأسباب ومسبباتها، وهو الذى يربط بينهما برباط السببية لحكمة يراها، والأسباب لا تلزمه سبحانه، لا يسأل عما يفعل، وهم يسألون، والله سبحانه فى أفعاله كلها بالإحياء والإماتة يتصرف تصرف العليم الخبير، ولذا قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أى أن الله تعالى عليم عِلْم من يرى ويبصر بأعمالكم التى تعملونها، يعلم البواعث والنتائج ويعلم الحقائق والوقائع، فلا تذهب أنفسكم حسرات على الماضى، واستعدوا، وقد بين سبحانه أن الله غافر ما كان منكم من خطأ فى ماضيكم، ومجازيكم بخير مما ينال هؤلاء، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

اشتمل الكلام على قسم وجملة شرطية واقعة، فالله سبحانه وتعالى يقسم وهو العزيز الحكيم بأن من يموت أو يقتل فى سبيل الله طالبا رضاه محتسباً النية فى جهاده يناله جزاءان عظيمان: أحدهما- أن يغفر الله تعالى ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وتلك نعمة عظيمة، لا يشعر بها إلا من يشعر بتقصيره ويحاول رضا مولاه، ويغلب الخوف على الرجاء، ويستصغر حسناته بجوار ما يرتكب من هفوات، وتلك مرتبة الصديقين والشهداء والصالحين، وذلك ما يتضمنه الوعد

بالمغفرة من رضوان الله تعالى، فإن الله تعالى لا يغفر إلا لمن يرضى عنه، ويذهب عنه سخطه سبحانه وتعالى، ففى الوعد بالمغفرة نعمة الغفران، ونعمة الرضوان، وهو أكبر.

الأمر الثانى- الرحمة من الله تعالى، ورحمة الله تعالى تتضمن الثواب، والنعيم المقيم يوم القيامة، وذكر رحمة الله تعالى فى هذا المقام لكيلا تذهب نفوس المؤمنين حسرة على ما ماتوا منهم، فإنهم ليسوا فى شقاء بل هم فى نعيم، ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴿١٦٩﴾ ﴾ [**آل عمران**].

وهنا بحوث ثلاثة حول هذا النص الكريم:

أولها: أنه سبحانه وتعالى صرح بأن مغفرته ورحمته خير مما يجمع المشركون من أموال وعقار وكل أغراض الدنيا، ويقول ابن عباس فيما روى عنه من تفسير: (خير من طلائع الأرض ذهبة حمراء) أى خير من ملء الأرض ذهب أحمر، و«خير» أفعل تفضيل، وهو هنا ليس على بابه فإن الخيرية فى مغفرة الله تعالى، ولا خيرية فيما يكنزون، فإنها تكوى بها جباههم وجنوبهم، أو تقول أفعل التفضيل على بابه، ويكون المراد من الخير مطلق النفع، ولا شك أن رحمة الله ومغفرته أنفع لأنهما أبقى.

ثانيها: أنه ذكر أن الموت قد يكون فى سبيل الله وذلك إذا كان المؤمن يعيش طول حياته مخلصا لله وللحق وللمعرفة والهداية يحب الشىء لا يحبه إلا لله تعالى، وكان الله ورسوله أحب إليه من نفسه، فإن من يكون كذلك يعيش لله وفى سبيل الله ويموت فى سبيل الله.

ثالثها: أنه قدم (قُتلتم) فى هذا المقام لأنه المناسب؛ لأن الكلام الكريم فى أعقاب مقتلة أصابت المسلمين وأصابهم هم بسببها فناسب تقديم (قتلتم) على (متم) وإن الخطاب هنا للمؤمنين الذين جاهدوا. وهو مبين لجزائهم وقال سبحانه: ﴿ **وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ** ﴾.

الخطاب الأول للتبشير بالنسبة للمجاهدين كما أشرنا والخطاب هنا يعم المجاهدين وغيرهم، ولذا قدم فيه (متم) على (قتلتم)، وبين أن الجميع سيلقون ربهم، وأنهم سيحشرون إليه، أى سيجمعون جميعا يوم الحشر مسوقين إليه سبحانه وتعالى، والتعبير بالحشر إشارة إلى أن الجميع يجتمعون لا يفلت منهم أحد؛ فالمنافقون والمشركون والمؤمنون الذين قتلوا والذين نجوا مجموعون عند ربهم، وسيلقاهم، وسيحاسب كل امرئ بما كسب، للمجاهدين مقامهم، ولغيرهم مهواهم الذى هووا إليه، ففى هذا إنذار وتبشير وتذكير بلقاء الله العلى الكبير، اللهم هب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الغفور الرحيم.

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾

بين سبحانه حال المؤمنين قبيل المعركة فى غزوة أحد، وبعدها، وفى أثنائها وما أصابهم من غم، ثم بين سبحانه دواء أسقامهم، ودعاهم إلى استئناف الجهاد، وإن يكونوا قد مسهم قرح، فقد مس القوم قرح مثله، وقد بين سبحانه أسباب الهزيمة ليتوقوها، فإن الغلط الذى يعلِّم الصواب خير، وليس بِشَرّ، ولقد بين بعد ذلك سبحانه حال النبى ﷺ فى القيادة الحكيمة، وما اتبعه وما تحلى به، وأمره سبحانه وتعالى بالاستمرار عليها، فبين سبحانه أن القيادة الحكيمة تكون مع العزيمة رحيمة، ومع استقبال الأحداث بقوة تكون خالية من الفظاظة والقسوة، وتلتزم الصفح عن الخطأ ليعتزموا الصواب، والاستغفار من الذنب لتجدد التوبة،

ولذا قال تعالى فى حال النبى ﷺ، وما انبعث منه فى موقفه يوم أحد، فقال تعالت كلماته: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾.

«الباء» هنا باء السببية، و«ما» زائدة فى الإعراب، ولكنها فى المعنى لتقوية معنى الرحمة، والمعنى: بسبب رحمة أى رحمة عظيمة فياضة أفاضها المولى العلى القدير كنت ليِّنا معهم فى كل أحوالك، وكنت لينا لهم بعد الأخطاء التى وقعوا فيها، والكارثة التى نتجت عن مخالفتك، فما لُمْتَهُم، ولاعَنَّفْتَهم بل سكتَّ حيث رأيت ما أصابهم من غم استغرقهم، وحزن استولى عليهم، ولقد شكر الله سبحانه وتعالى لنبيه ذلك اللين؛ إذ لم يؤاخذهم، ولم يفرط فى القول معهم؛ لأن اللوم على الماضى يُيْئِسِ النفس من غير جدوى، وهو رجعة إلى الوراء، والقائد الحكيم يتجه إلى الأمام، ولا يلتفت إلى ورائه إلا بمقدار ما ينير له السبيل أمامه، وبمقدار ما يجنبه خطأ وقع فيه، وبمقدار ما يحفز همة من معه، ويشحذ عزيمتهم، وإن المبالغة فى اللوم على ما وقع فى الماضى يلقى باليأس، وفى اليأس الهزيمة، واليأس والقنوط إسراف على النفس بالهموم، ولا نجاح لمن فى هم دائم، وحزن واصب، فكان لين النبى ﷺ معهم فى هذه الآلام التى أصابتهم كالبلسم الشافى لأسقامهم، والقائد الماهر الحكيم يجب أن يجمع إلى العزيمة القوية الموجهة إلى العمل البِشْر ولين العريكة، وتسهيل الخروج من أوضار الخطأ، حتى لا يعنتهم ولا يبهظهم(١)، وحسبُهم ما أصابهم، وإن الشدة فى مثل هذه الأحوال والغلظة فى القول والعمل تنفر ولا تجمع، وقد بين ذلك سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾.

وهذا النص الكريم يثبت أن النبى ﷺ ليس فظا ولا غليظا ولا قاسيا؛ لأن (لو) تدل على نفى الجواب لنفى الشرط ، والمعنى أنك لست فظا ولا غليظ

(١) بهَظَه الحِمل: أثقله وعجز عنه، فهو مبهوظ، وأمر باهظ: أي شاق . الصحاح - بهظ.

القلب، وهذا هو الذى يتفق مع صفات النبوة والقيادة الحكيمة الرشيدة الهادية الموجهة إلى أمثل الطرق الجامعة للقلوب، لأنك لو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك. والفظاظة خشونة المظهر، والعشرة السيِّئة، وسوء القول، وتجهُّم الوجه؛ وغلظ القلب قسوته، وقد نفى الله سبحانه وتعالى عن نبيه الغلظة فى المظهر والباطن، فالغلظة فى المظهر هى الفظاظة، والغلظة فى الباطن قسوة القلب وكلا الوضعين من شأنه أن ينفر، ولقد قال الله تعالى فى وصف نبيه: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴿١٢٨﴾﴾ [**التوبة**]. وكان النبى ﷺ باشا لطيف المعشر متسامحا رحيما لا يقسو ولا يعنِّت أحدا ولا يغضب ولا يسْب، وما ضرب أحدا بيده قط، وكان سهلا فى معاملاته متسامحا، وكان طلق الوجه دائما، رآه أعرابى، فاسترعاه بشاشته وطلق محياه فقال له: أأنت الذى تقول عنه قريش إنه كذاب؟ والله ما هذا الوجه بوجه كذاب!. وأسلم إذ دعاه النبى ﷺ.

ولقد وصف عبد الله بن عمرو بن العاص النبى ﷺ، فقال: (إنه ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق، ولا يجزى السيئة بمثلها، ولكن يعفو ويصفح)(١). وكان عليه الصلاة والسلام لا يثير غيظه شيء، ويدارى الناس إلا أن يكون فى المداراة حق مضيع، ولقد روت عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله أمرنى بمداراة الناس كما أمرنى بإقامة الفرائض»(٢).

وإذا كانت الغلظة منفرة فالعفو جامع، ولذلك أمر الله تعالى نبيه الكريم بما يترتب على الرفق والبشاشة، وهو العفو فقال: ﴿**فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**﴾.

---

(١) رواه بنحوه البخاري: تفسير القرآن - ﴿إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا﴾ (٤٤٦١)، والدارمي: المقدمة - صفة النبي ﷺ (٦)، وأحمد مسند المكثرين (٦٣٣٣) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه.

(٢) جمع الجوامع (٤٧١٣)، والسلسلة الضعيفة للألباني (٨١٠)، والفتح الكبير ج١، ص٢٦٩، وكنز العمال جزء١، ص٥١٠.

الفاء هنا تفيد ترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى أنه يترتب على اتصافك بالعفو والرحمة والبشاشة، والبعد عن الفظاظة وغلظ القلب أن تكون عفوا، ولذا أمره سبحانه بالعفو عن المخالفة التى وقعوا فيها، وترتب عليها ما ترتب من هزيمة وفوات فرصة، وإن العفو فى هذه الحال ليس للرحمة فقط، بل هو للمصلحة أيضا؛ لأنه يشحذ العزائم، إذ هو يقيل من العثرة، ويرفع من الكبوة، وعندئذ تستقيم القلوب نحو الحق، كما قامت الأجسام بعد الوقوع.

وأمره سبحانه بأن يستغفر لهم، بأن يطلب من الله أن يغفر لهم ما أساءوا، وأن يغفر هو لهم هذا الخطأ، وإن فى استغفاره الله تعالى لهم، وإعلانه ذلك الاستغفار بينهم تأكيدا لعفوه، وتشجيعا، وضراعة إليه سبحانه أن يجعل حاضرهم وقابلهم خيرا من ماضيهم الذى أخطأوا فيه.

وقد أمر نبيه بأمر ثالث، وهو أن يشاورهم، وإن المشاورة من بعد ما كان منهم دليل على عفو النبى ﷺ بعد عفو الله تعالى وغفرانه؛ لأن مما أخطأوا فيه فى الماضى أن النبى ﷺ شاورهم فى أمر الخروج إلى لقاء المشركين فى أحد، وأنه كان يميل إلى البقاء حتى يدخلوا المدينة، وشبابهم كان يريد الخروج، فنزل عليه الصلاة والسلام عند رأيهم، ثم كان ما كان منهم من أن طائفتين همَّتا بأن تفشلا، ثم ما كان من خروج الرماة عن مواقفهم، ولو بقوا فى المدينة ما وقع هذا، ولكن الله سبحانه مع ذلك أمره بمشاورتهم للإعلان عن سماحته المطلقة، ولأن المشاورة إن أخطأت فيها النتيجة مرة، فصوابها كثير.

والشورى أصل من أصول الحكم فى الإسلام، قد التزمها النبى ﷺ فى كل أمر كان يمس أمور المسلمين العامة فقد استشار فى غزوة بدر قبل وقوعها، واستشار فى الأسارى غِبَّ وقوعها، واستشار فى أحد، واستشار فى غزوة الأحزاب، وكان من نتائج الشورى حفر الخندق والتحصن وراءه، واستشار فى القتال يوم الحديبية، والتزم أبو بكر ومن بعده عمر الشورى، وما اضطرب حبل الأمور من بعد إلا عندما منعت أمر الشورى.

والأمر الذى وجه للنبى ﷺ فى الشورى قال بعضهم إنه أمر إلزام، وقال آخرون إنه بالنسبة للنبى ﷺ ليس أمر إلزام، بل طلب استحباب، ولكن الأكثرين على أنه أمر إلزام، بدليل التزام النبى ﷺ للمشاورة فى كل أمر يمس مصلحة المسلمين فى السلم أو فى الحرب، ولم يكن تبليغا لرسالة ربه؛ وإن أفعال النبى ﷺ تعليم لنا.

ومن المتفق عليه أن الشورى لازمة بالنسبة لغير النبى ﷺ، ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ... ﴿٣٨﴾﴾ [الشورى] أى الأمر الجامع للمسلمين يكون بالشورى وتبادل الآراء، والتعاون والإخلاص فى القول، ولذا يقول النبى ﷺ: «الدين النصيحة، قلنا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[1]. والنصيحة لعامة المؤمنين هى بالشورى التى تُبْدَى فيها الآراء لله وحده، لا لشيء سواه، ولا لطلب الجاه عند الناس. ولقد قال البخارى: «وكان الأئمة بعد النبى ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم فى الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها»[2].

ومع اتفاق الفقهاء على أن الشورى أصل من أصول الحكم فى الإسلام لم نجد نصا قرآنيا وضع منهاجا لها، ولم نجد النبى ﷺ وضح أسسها وطرائقها، نعم إنه كان يستشير من معه من أهل المدينة، وكذلك كان يفعل الشيخان أبو بكز وعمر رضى الله عنهما، فلماذا لم يبين ذلك فى كتاب ولا سنة؟ والجواب عن ذلك أن مناهج الشورى تختلف باختلاف الجماعات وباختلاف الأحوال، وباختلاف الموضوعات ولا يوجد نظام ضابط لكل ذلك، بل ترك سن النظام للناس، ولابد أن يتحقق معنى الشورى فى النظام على أن يكون أهل الشورى من ذوى العلم والخبرة، ففى أمور الحروب يستشار أهل الحرب، وفى أمور القانون يستشار الفقهاء

---

(١) رواه مسلم: الإيمان - الدين النصيحة (٥٥)، وذكره البخاري في الترجمة: الإيمان - الدين النصيحة، كما رواه النسائي: البيعة - النصيحة للإمام (٤١٢٦)، والترمذي: البر والصلة - ما جاء في النصيحة (١٨٤٩) عن تميم الداري رضي الله عنه.

(٢) من كلام البخاري في ترجمة باب: الاعتصام بالكتاب والسنة - (بَاب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ، وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ).

والمشرعون، وفى أمور العمران يستشار أهل الهندسة، ولذلك تتألف اللجان فى المجالس النيابية من أهل الخبرة فى كل أمر من أمور العامة.

وفى الجملة فإن الشورى مطلب كالعدل، يجب تحققه من أقرب الوسائل إليه توصيلا، ولقد جاء فى تفسير القرطبى ما نصه:

«والشورى بركة، وقال عليه الصلاة والسلام: «ما ندم من استشار، ولا خاب من استخار»[١] وروى سهل بن سعد الساعدى عن رسول الله ﷺ: «ما شقى قط عبد بمشورة، وما سعد باستغناء رأى»[٢].

وإنه يجب أن نعلم حقيقتين ثابتتين:

أولاهما: أن الشورى إحساس نفسى من الحاكم يدفعه إلى طلب أمثل الطرق للحكم وتحقيق العدالة والمصلحة، فإن لم يكن فى الحاكم ذلك الخلق، فإنه لا ينتفع بأى نظام للشورى مهما يكن، وإذا لم يكن المستشار يحس بأن إبداء القول فى الشورى واجب عليه وليس مجرد حق له فإنه لايمكن أن يكون من رجال الشورى.

ثانيهما : أنه لا يعادى الشورى من الحكام إلا أحد اثنين إما رجل قد أصابه داء الغرور، فظن أن قوله الحق الذى لايخالطه باطل، وإما رجل يخاف من اطلاع الناس حتى لا يظهر شئ من أموره.

والمشاورة لها وقت معلوم، وهو وقت الدراسة والفحص، فإذا تمت المشاورة وجب الأخذ بالعزيمة فى الأمر والإقدام على العمل؛ ولذا قال سبحانه بعد الأمر بالشورى: ﴿ **فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** ﴾ .

---

(١) جاء في مجمع الزوائد: ج٨ ص١٨١ (٧٥٣١) عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا خَابَ مَنِ اسْتَخَارَ، وَلاَ نَدِمَ مَنِ اسْتَشَارَ، وَلاَ عَالَ مَنِ اقْتَصَدَ». رواه الطبراني في الأوسط والصغير من طريق عبد السلام بن عبد القدوس، وكلاهما ضعيف جداً.

(٢) القضاعي في مسند الشهاب: ج٢، ص٦ (٧٧٣) عن سهل ابن سعد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «ما شقي عبد قط بمشورة، وما سعد باستغناء برأي، يقول الله تعالى ﴿وشاورهم في الأمر﴾ وقال تعالى ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾».

العزيمة عقد النية على إتمام الأمر بعد الاستشارة، والنبى ﷺ اشترط لتحقق العزم سبق الاستشارة فاعتبر الشورى ركنا من أركان العزم، فقد سئل ﷺ عن العزم، فقال: «مشاورة أهل الرأى ثم اتباعهم»[(١)]. وفى النص القرآنى الكريم، والحديث النبوى الشريف إشارة إلى أنه بعد تعرف كل وجوه الرأى يكون الاعتزام ثم يكون العمل، ولا يصح أن تكون مشاورة أخرى بعد الدراسة العميقة السابقة إلا إذا جد أمر لم يكن فى الحسبان ولم يكن فى تقدير الذين استشيروا أولا فإنه يعاد النظر إليهم، وفى غير هذه الصورة تكون العودة إلى الاستشارة ترددا يدعو إلى الهزيمة والاضطراب، ولا يصح أن يكون التعصب لرأى إذا لم يؤخذ به باعثا على إعادة النظر، فإن ذلك استبداد من أصحاب هذا الرأى، وفوضى فى الشورى؛ لأن ما يعتزم من آراء بعد الشورى هو رأى الجميع، ويجب أن يفنى معه كل رأى معارض وإن النبى ﷺ مع أنه فى غزوة أحد كان يرى البقاء فى المدينة حتى يجيء إليها المشركون فيضيعوا فى طرقها وأزقتها، وتكون الدور حصونا يرمون منها ولكن الكثرة رأت غيره، فنزل على رأيها، وأمضى الأمر، ولما وجدت حركة تدعو إلى رأيه وتكونت له كثرة، قال الرسول الحازم الرشيد: «لا ينبغى لنبى يلبس لأْمَته أن يضعها، حتى يحكم الله»[(٢)] واللأمة: الدرع أو السلاح.

ولقد أمر سبحانه وتعالى بالتوكل بعد المشاورة وأخذ الأهبة، وأن يكون التوكل مصاحبا للعزيمة والإقدام على العمل، وإن ذلك يستفاد منه أن التوكل على الله تعالى حق التوكل لابد أن يقترن بالعمل، وأن يسبقه دراسة للموضوع من كل نواحيه، وإن التوكل بعد ذلك أمر لابد منه؛ لأن العلم بالحق الأمثل من المناهج والأعمال عند علام الغيوب، فمهما يكن علم الإنسان فهو ناقص، فالتوكل عليه سبحانه فيه معنى الشعور بالنقص الإنسانى مهما يظهر كماله، ولأن

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور ج٢ ص٣٥٧ .
(٢) سبق تخريجه قريبا.

الله تعالى خالق الأسباب والمسببات، وهو القادر على تغييرها، أو جعل الأمور على غير ما توجبه أسبابها، فالتوكل عليه ضراعة وإحساس بالكمال المطلق لله تعالى وقدرته الشاملة الكاملة على كل ما خلق، وإن عدم التفويض مع العمل غرور من الإنسان، واستعلاء بغير سبب، وإنه مهما يدبر الإنسان فقد يخطئه التنفيذ كما كان فى غزوة أحد.

ويجب أن نقرر هنا حقيقتين: «إحداهما» أن قدرة الله تعالى واضحة فى نتائج الأفعال، فعليه المعتمد. ألم تر إلى رجلين يبذران بذرا، ويلقيانه فى قطع متجاورات من الأرض، ويأتى الله لأحدهما بأبرك الثمرات، والآخر تأكل الآفات زرعه وكلاهما احتاط وأخذ بالأسباب. «والثانية» أن الاتكال على الله تعالى ذكر لله، فتطمئن القلوب ويذهب الخوف والجزع ويكون الإقدام.

ولهذه المعانى النفسية العالية فى التوكل الحق صرح بحب المتوكلين المولى العلى القدير فقال تعالت كلماته: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ وأى منزلة أعلى فى الوجود من هذه المحبة التى تتضمن الرضا، ورضوان الله أكبر من كل شىء، فكيف تكون محبته، والمتوكل على الله حق توكله قد تسامى بنفسه عن أعلاق الأرض، ودرج بنفسه فى مدارج الروحانية؛ لأنه اعتبر إرادته وعزيمته وتدبيره وعمله ليست بشئ بجوار قدرة الله.

وقد أكد سبحانه وتعالى طلب التفويض والتوكل بعد التدبير وأخذ الأهبة بقوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ﴾.

أى أنه إذا أراد الله تعالى أن ينصركم، واستحققتم نصره فإنه لا يوجد قوم من شأنهم أن يغلبوكم، والتعبير باسم الفاعل فى قوله تعالى: ﴿فَلا غَالِبَ لَكُمْ﴾ يفيد أنه لا يوجد مَن عنده القوة ومَنْ شأنه أن يغلبكم؛ لأنه إن كان قويا فى نفسه فالله معكم وهو القاهر فوق عباده، وهو الحفيظ عليهم، وخلق

الإنسان ضعيفا مهما تكن قوته، وإن استحقاق نصر الله يكون بأخذ الأهبة ومبادلة الرأى، وتعرف أسباب النصر، ثم التوكل على الله تعالى، وتفويض الأمور إليه. وإن النبى ﷺ بعد أن أعد الأهبة أخذ يدعو الله تعالى بالنصر، ويكرر هذه العبارة: «اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض»(١).

وإنه إذا فقد المؤمن نصر الله فلا ناصر له من غيره، ولذلك قال سبحانه: ﴿ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ ﴾.

أى إن يكتب الله سبحانه وتعالى لكم الخذلان، ويحرمكم من معونته وتأييده، فلا أحد ينصركم من بعده أى ممن هو دونه أو من بعد خذلانه، لأنه لا أحد عنده قدرة تقف أمام قدرة الله تعالى، والاستفهام هنا إنكارى بمعنى النفى، وقد جاء النفى على صيغة الاستفهام ليوجه أنظار المخاطبين إلى البحث عن قوى تكون قدرته كافية للوقوف أمام إرادة الله تعالى الخذلانَ، فإنهم سيبحثون عن قوى لا تكون قوته إلى بقاء، ولن يجدوه، فعندئذ يحكمون بأن الله وحده الكبير المتعال، ولا ناصر سواه ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

أى عليه وحده لا على شىء سواه، وأفاد ذلك تقديم ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ أى أن المؤمنين لا يتوكلون إلا على الله سبحانه وتعالى فالاتكال عليه وحده، والإيمان متلازمان لا ينفصلان، فغير المؤمن يعتمد على الأشخاص الفانين، أما المؤمن فلا يعتمد على أحد سوى الله تعالى، والاتكال على الله من مقتضيات الإيمان بالله وحده؛ لأنه جزء من الوحدانية، فالذين يعتمدون على غير الله من العباد يصيبهم نوع من الشرك الخفى؛ لأنهم يفرطون فى تقدير العباد، بل قد تفرط منهم عبارات

---

(١) وذلك يوم بدر، وقد رواه مسلم بنحوه في حديث طويل: الجهاد والسير (١٧٦٣)، والترمذي: تفسير القرآن - ومن سورة الأنفال (٣٠٠٦) عن عمر بن الخطاب عن ابن عباس رضى الله عنهم. كما رواه: مسند العشرة (٢٠٣).

التـقديس، وقـد كـان بعض الذين لا دين لهم يعـبـرون عن بعض الملوك بالذات العالية، وذلك شرك بلا ريب، وأهل الإيمان الصادق لا يعتمدون إلا على الله بعد أخـذ الأسبـاب؛ لأنهم لا يؤمنون إلا بالله: ﴿ **رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ** ﴿٤﴾ ﴾ [الممتحنة].

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾

الكلام في غزوة أحـد وما فيـها من عبر ومـا بينه الله سبحـانه وتعالى من أحكام لمناسبـة ما كان فـيها، وفى هذه الآيات يبـين ما يجب من مراعـاة الأمانة بالنسبة للغنائم فى الحروب، ذلك أن الرماة الذين خالفوا أمر النبى ﷺ قد خالفوه لأنهم خشوا أن ينفرد المقاتلون بالغنـيمة دونهم؛ إذ ظنوا أن من يستولى على شىء فهو له، وهم بموقـفهم موقف الحراسة لظهـور المقاتلين سيُحـرمون إن لم يقاتلوا، فبينت هذه الآيات بالإشارة أنه لا قسمة قبل انتهاء المعركة، وأن الغنيمة لا يختص بها فريق دون فريق، وأن الغنيمة نتيجـة النصر، والنصر ثمرة تعاون الجميع، فحق أن تقسم الثمرة على الجميع، ولقد روى أن النبى ﷺ قال للرماة: «أظننتم أنا نغل ولا نقسم لكم»(١).

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول عن الكلبي ومقاتل.

وإن الله سبحانه وتعالى يسن الأحكام العامة للمناسبات الخاصة، ليكون السبب موضحا للحكم، وإن كان الحكم عاما، ولذا قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

ابتدأ سبحانه بنفى وصف الغلول وهو الخيانة فى الغنائم عن النبى ﷺ، وذلك لبيان أن التسوية فى القسمة مطلوبة من الجميع لا فرق فى ذلك بين قائد وقائد، ولو كان أحد يسوغ له ألا يسوى فى القسمة لما كان رسول رب العالمين، ولكنه أول من ينفى عنه هذا الوصف، ولأن الرماة تعجلوا خشية ألا يأخذوا، فبين الله لهم أن عدم تسويتهم فى الغنيمة غلول، وما كان الغلول من شأن النبى ﷺ، ولبيان أن عدم توزيع الغنيمة بالعدل خيانة، فلا يستكبر قائد عن أن يوصف بها إذا وقع منه عدم التسوية.

ومعنى قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ ما ساغ وما صح لنبى أن يخون، فالنفى هنا نفى للشأن، أى ليس من شأن النبى أن يخون، والتنكير هنا للتعميم، فليس من شأن أى نبى يتكلم عن الله تعالى أن يخون، وإذا كان التنكير للتعميم لأنه تنكير فى مقام النفى، فمؤدى الكلام أن النبوة والغلول نقيضان لا يجتمعان، فما كان لأحد أن يظن أن النبى سوف لا يقسم بالسوية، وإذا وقع ذلك الظن فهو من الظن الإثم: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ... ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات].

وأصل الغلول من الغَلَل، وهو دخول الماء فى وسط الشجر كما جاء فى مفردات الراغب الأصفهانى، وسميت الخيانة فى الغنيمة غلولا؛ لأنها تدخل المِلك من غير حله وفى خفاء، كجريان الماء بين الأشجار فى خفاء، ويقال تغلغل فى الشىء دخل فيه واختفى، ويطلق الغِل بكسر الغين على الحقد لأنه يكون دفينا متغلغلا فى كيان النفس الإنسانية ويفسدها.

وإن المعنى الذى يجرى عليه جمهور المفسرين بأن المراد بالغلول المنفى عن الرسول وسائر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين هو الغلول المادى فى شئون المادة، ولم تتعرض الآية الكريمة للغلول المعنوى وهو كتمان ما أنزل الله

تعالى وعدم بيانه؛ ولكن قال بعض العلماء: إن الغلول المنفى عن الأنبياء هو كتمان ما أنزل الله تعالى وعدم بيانه؛ لأن الغلول المادى غير متصور الوقوع، ولكن السياق لا يؤيد هذا المعنى؛ لأن السياق كله فيما قبله وما بعده يدل على أنه فى الحرب وما يتعلق بها من غنائم أغرت الرماة وأخرجتهم من مَحَارسهم[١]؛ ولما يجىء بعد ذلك من تعميم الحكم لكل من يغل غير الأنبياء من حيث إنه يأتى بما غل يوم القيامة؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾.

والمعنى أن من يخون فى الغنائم أو غيرها بأن يكون ذا سلطان على مال، فيخص نفسه منه بما شاء يأتى يوم القيامة مأخوذا بإثم ما غل يوم القيامة، صغيرا كان أو كبيرا، حقيرا كان أو خطيرا، فالمراد على هذا التفسير من قوله سبحانه: ﴿ **بِمَا غَلَّ** ﴾ وزره؛ وذلك كقوله تعالى: ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)** ﴾ [**الزلزلة**] فما يراه الإنسان يوم القيامة هو عمله المبرور وعمله الموزور، وأما موضوع العمل فلا وجود له إذ هو يرى الوزر أو يرى البر. وظاهر كلام المفسرين أنه يرى ذات الشىء الذى غله، لظاهر قول النبى ﷺ فيما رواه الشيخان: «لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء، فيقول: يارسول الله أغثنى، فأقول له: لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة، فيقول: يارسول الله أغثنى، فأقول: لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك..»[٢] فإن ظاهر هذا الحديث أن موضوع الغلول يجىء بذاته يوم القيامة، ومثل ذلك ما روى عن النبى ﷺ من الغلول فى جمع الصدقات، فقد روى أن رجلا اسمه ابن اللتبية جمع الصدقات، ثم قال: هذا لكم وهذا أهدى إلىَّ، فوقف النبى ﷺ خطيبا، وحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «ما بال العامل نبعثه، فيجىء، فيقول هذا لكم، وهذا

---

(١) جمع محرَس، اسم مكان من «حرس»، والجمع محارس، أي: أماكن الحراسة.

(٢) رواه البخاري بنحوه: الجهاد والسير - الغلول وقول الله عز وجل ﴿ومن يغلل يأت بما غل﴾ (٢٨٤٤). ورواه مسلم: ك الإمارة - غلظ تحريم الغلول (١٨٣١).

أهدى لى، ألا جلس فى بيت أمه أو أبيه فينظر أيهدى له أم لا، لا يأتى أحد منكم بشىء إلا جاء به يوم القيامة، إن كان بعيرا فله رغاء، أو بقرة فلها خوار، أو شاة تيعر، ثم رفع يديه حتى رأينا عُفرتى إبطيه، ثم قال: اللهم هل بلغت، اللهم هل بلغت»(١).

والذى نراه أن هذه الأحاديث إنما هى تصوير لما يكون يوم القيامة من أن وزره يكون قائما بين يديه، وصُور ما وقع وموضوع أوزاره تكون قائمة فى كتابه كأنها حاضرة بأعيانها، هذا هو الذى تدل عليه الألفاظ، ولا نقول إن حضور ذات الأشياء مستحيل على الله، فإن الله على كل شىء قدير، ولكن نقول: إن ذلك هو ما يؤدى إليه الذوق البيانى العربى، وإن ذلك يومئ إلى دقة الحساب، وقيام الموازين بالقسط، ثم بين سبحانه نتيجة هذا الحساب، فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾.

وبعد الحساب العسير لهؤلاء الذين يأكلون الأموال بالباطل، ويغلون فى الغنائم؛ ويغلون فى أموال الدولة - يوفون جزاء ما كسبوا من غير ظلم، وفى النص الكريم عدة إشارات بيانية، الأولى: التعبير بـ (ثم) وهى تفيد التراخى بين إحضار الأعمال بأوزارها ثم يتولى جزاءها؛ فإن هذا التراخى يفيد طول الحساب، وطول الحساب عذاب فى ذات نفسه، وهو فى الوقت ذاته يدل على دقته إذ تقام الموازين بالقسط. والثانية: التعبير بـ (توفى) فإن فيه إشارة إلى أنه لا ينقص شىء مما عملت إن خيرا وإن شرا، إلا أن يتغمده الله برحمته فيعفو عن بعض السيئات وهو العفو الغفور، والثالثة: أنه عبر سبحانه وتعالى عن المساواة بين العمل والجزاء بقوله سبحانه ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ فإن هذا التعبير يفيد بظاهره أن الوفاء يكون بالعمل ذاته، ولكن المعنى: جزاء ما كسبت ولكنه سبحانه عبر بهذا التعبير للدلالة على

(١) متفق عليه؛ وقد رواه بألفاظ متقاربة البخاري: الأحكام - هدايا العمال (٦٦٣٩)، ومسلم: الإمارة (١٨٣٢)، كما رواه أبو داود: الخراج والإمارة والفيء (٢٥٥٧)، وأحمد: باقي مسند الأنصار (٢٢٤٩٢)، والدارمي: الزكاة (١٦٠٩). تيعر، من اليعار وهو صوت الشاة. والعفرة: بياض غير ناصع مشرب بحمرة أو سمرة.

كمال المساواة بين العمل وجزائه، حتى كأن الجزاء هو العمل ذاته، الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ فيه تأكيد للمساواة وفيه أيضا نفى للظلم نفيا مؤكدا بالتعبير بالجملة الإسمية، إذ المعنى أنهم ليس من شأنهم أن يظلموا؛ لأن الله تعالى خالقهم والله تعالى لا يظلم مطلقا؛ لأنه لا يليق بكماله تعالى، ولأنه كتب العدل على نفسه، كما ورد فى الحديث القدسى(١).

وإن التسوية بين الجزاء والعمل هى القانون العادل الذى سنه رب العالمين، فلا تستوى الحسنة ولا السيئة، ولا يستوى الخير والشر ولذا قال سبحانه: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ﴾.

هذا هو القانون السامى الذى وضعه سبحانه، وهو التساوى بين العمل وجزائه، وأنهم لا يتساوون فى ذات أنفسهم، وفى الجزاء إذا اختلفت أعمالهم، ويفيد النص أن الجزاء يتحد إذا اتحد العمل، ويختلف إذا اختلف العمل، **وفى النص الكريم عدة إشارات بيانية:**

الأولى: أنه ساق الكلام مساق الاستفهام الإنكارى الذى يفيد النفى أى إنكار الوقوع، وهذا يفيد أن ذلك القانون بدهى لا تختلف فيه العقول، بحيث لو سئل كل واحد من الناس عن ذلك لأجاب بأنه لا يستوى من اتبع رضوان الله، مع من يبوء بغضب الله.

والثانية: أن الله سبحانه وتعالى سمى الأمناء الذين لا يغلون ولا يخونون فى أى شىء، وخصوصا فى الغنائم: يتبعون رضوان الله تعالى، وذلك لأنهم يخرجون مجاهدين فى سبيل الحق ورفع كلمة الله وقد قدموا أنفسهم لمرضاته، وكانوا ممن شَرَوْا أنفسهم لله، ومن المؤمنين الذين اشترى الله سبحانه وتعالى أنفسهم، وفى ذلك رضوان الله تعالى، وهو أعظم جزاء فى الدنيا والآخرة.

---

(١) إشارة إلى الحديث القدسي الذي رواه مسلم في صحيحه: البر والصلة - تحريم الظلم (٢٥٧٧) عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلا تَظَالَمُوا» الحديث.

والثالثة: أنه عبر عن الذين يغلون ويخونون بأنهم يبوءون أى يعودون على أنفسهم بسخط الله تعالى، والسخط ليس هو الغضب المجرد، بل هو الغضب الذى يصحبه أو يترتب عليه العقاب، وفرق بين عملين: أحدهما يجلب أبلغ الرضا، وثانيهما يجلب أبلغ الغضب وأشد العقاب، وإن ذكر هذه المقابلة ليعرف الذين يغلون بالغنائم أنهم لا يكسبون لأن ما يخسرونه أضعاف ما يكسبون من عرض لا بقاء له، والعبرة بفاضل ما بين الكسبين، أما الذين قد اختاروا الأمانة سبيلا، فإنهم لا يخسرون شيئا؛ لأن مال الخيانة لا يعد كسبا، بل هو سحت لا كسب فيه، ومع أنهم لا يخسرون شيئا، وكسبهم عظيم لا حد له، وهو رضوان الله تعالى.

والرابعة: أنه سبحانه عبر عن اتباع أوامر الله ونواهيه باتباع رضوانه، لأن الطاعة المخلصة تؤدى إلى رضوانه سبحانه وتعالى، فطلب رضا الله فى طاعته.

ولقد عقب سبحانه ذكر سخطه بذكر عقابه؛ لأن السخط والعقاب متلازمان، كما أشرنا؛ ولذا قال سبحانه: ﴿**وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾ أى أن عودتهم بغضب الله الشديد يتبعه حتما ذلك المصير يوم القيامة، وهو أن يكون المستقر الذى يستقرون فيه وينتهون إليه، هو جهنم، وهى الهاوية التى يهوون إليها فى النار، جزاء هاوية الخيانة التى أصابتهم فى الدنيا، وبئس ذلك المصير الذى صاروا إليه، وكان لهم نهاية، وإن لم يريدوه لهم غاية.

وإن نتيجة عدم التساوى بين من يتبع رضوان الله تعالى ويطلبه بإقامة الطاعات على وجهها الأكمل، ومن يختارون الشر سبيلا - هى أن يكون الناس درجات بحسب مقدار طلب الرضوان، ومقدار اتباع السخط، ولذا قال سبحانه:

﴿**هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ**﴾ الدرجة هى الرتبة والمنزلة، ومنها الدرج بمعنى السلم؛ لأنه يُعلى عليه رتبة بعد رتبة، وأكثر ما تكون كلمة الدرجة فى القرآن بمعنى المنزلة الرفيعة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ**

فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ... ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف] وأما المنزلة غير الرفيعة فيعبر سبحانه بالدركة؛ ولذا يقول سبحانه: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾ [النساء] ولقد قال الراغب الأصفهانى فى المفردات «الدرك كالدرج، لكن الدرج يقال اعتبارا بالصعود، والدرك اعتبارا بالحدور، ولهذا قيل درجات الجنة، ودركات النار».

والضمير فى قوله تعالى: ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ ﴾ يعود على الفريقين الذين اتبعوا رضوانَ الله تعالى، والذين اتبعوا سخطه سبحانه، وإطلاق «درجات» على الفريقين وفيهم الأشرار من قبيل التغليب، وهو تغليب له مغزاه؛ إذ هو تغليب الخير على الشر، وتغليب رضا الله على سخطه، وتغليب الأبرار على الفجار، وإن الآية الكريمة تشير إلى معنى جليل، وهو تفاوت درجات الأبرار، وتفاوت دركات الأشرار، فالذين يسيرون فى الخط الذى رسمه الله تعالى لطاعته متفاوتون فى مقدار ما يقطعونه من ذلك الطريق النورانى الذى ينتهى بطاعته سبحانه وهم بذلك درجات عند الله تعالى بمقدار اتباعهم ما فيه رضوانه، وهو الأوامر والنواهى، والآخرون متفاوتون فى مقدار انهوائهم فى الشر بمقدار ما يخالفون أمر الله ونواهيه، وإن تلك الدرجات المتفاوتة هى نتيجة العمل، ولذا قال سبحانه: ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى يعلم عمل كل إنسان علم من يراه ويبصره، فلا يغيب عنه سبحانه مثقال ذرة فى السماء ولا فى الأرض، وإنه سبحانه سيجزى كل نفس بما كسبت، على مقتضى علمه الكامل، وإن هذه الدرجات التى يضع الناس فيها هى بمقتضى علمه سبحانه.

وإن النبى ﷺ قد خولفت أوامره فى غزوة أحد، فنزل بالمؤمنين فيها ما نزل، ولقد ناسب أن يبين الله سبحانه وتعالى للمؤمنين نعمته عليهم فى إرسال الرسول الأمين، ويشير إلى الهداية التى اشتملت عليها رسالته، وأن اتِّباعه اتباع رضوانِ الله، ومخالفته اتباعٌ لسخط الله، فقال سبحانه:

﴿**لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ**﴾ لقد من الله تعالى، ونعـمه على المؤمنين كثـيرة، باختـيار رسول الله محـمد ﷺ، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فلقد كان حكيما أمينا فيهم من قبل الرسالة، وكان رفيقا بهم لا يعنتـهم بعـد الرسـالة، لانَ لـهم، ولم يكن فظا غليظا بـهم، وفى هذا النص السامى يبـين أن ذات رسالتـه نعمة، فـقال: ﴿**لَقَدْ مَنَّ**﴾، أنعم وأعطى ووهب، وأكد عظيم المنة والعطاء باللام، ولقـد كانت منته فى بعث الرسول مـن أنفسهم، ومعنى ﴿**مِّنْ أَنفُسِهِمْ**﴾ **يصح تخريجها تخريجين**:

الأول: أن يكون من نفس العـرب، ومن قـومـهم، ويكون كلمـة المؤمنين خاصة بمؤمنى العرب.

والثانى: أن يكون من أنفـسهم، أى أنه بشـر مثل سـائر البشـر آتاه الحكم والنبـوة، وكان رسـول رب العالمـين ليرسم لهم طريـق الهداية ويكون لهم أسـوة حسنة؛ إذ لا يمكن أن يكون أسوة حسنة لهم إلا إذا كان من جنسهم، وكان بشرا مثلهم، يأكل مما يأكلون ويشـرب مما يشربون، وما يأتيه من خـير يكون جنسه فى طاقة البـشر، وإن كـان مقام النبى ﷺ فـيه أعلى وأزكى وأوفـر خيـرا، وقد بين سبحانه وجه النعم فى هذا البعث المحمدى فقال:

﴿**يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**﴾ الـتلاوة القراءة المتابعة المرتلة التى يكون بعضها تلو بعض، أى يعقـبه فى نظام محكم دقيق، والتلاوة فى أكثـر أحوالها لا تكـون إلا فى آيات مقروءة، والآيات تطلق علـى الآيات الكونية باعتبارها أمارة وشاهدا على قدرة الله تعالى ووحدانيته، وتطلق على الآيات المتلوة باعتبـار أن كل آية من كتاب الله تعالى دليل على أنه من عـند الله، وظاهر السياق أن الآيات التى تتلى هنا هى الآيات القرآنية، والمعنى فى ذلك أن الله سبحانه يلقى على نبيه القرآن الكريم فيتلوه عليهم متحديا العرب أن يأتوا بمثله، وقيل: إن المراد بالآيات . . الكونيـة، ومعنى تلاوتهـا تلاوة القرآن المشـتمل على أنبائـها، وعلى توجيـه الأنظار إليها، وإن الظاهر هو الأول، ولا يخلو الـرأى الثانى من تكلُّف.

وإنه من أعظم منن الله أن يخاطَب المؤمنون بكتاب يتلى عليهم من السماء، وأن يوجه إليهم الخطاب مباشرة من الله تعالى.

والتزكية هى العمل الثانى من عمل النبى ﷺ، وهى تطهير نفوس المؤمنين من أدران الجاهلية، وتنميتهم وتقويتهم، فالرسالة المحمدية كأن آثارها فى المؤمنين تتجه إلى ثلاث نواحٍ: تهذيب نفوسهم آحادا، والربط بين قلوبهم جماعات، والعمل على رفع شأنهم والتمكين لهم فى الأرض بأسباب القوة، كما قال تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) ﴾ [القصص]. والكلمة «﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾» تشتمل على كل هذه المعانى التى ترفع من شأن أهل الإيمان.

وتعليم الكتاب هو تعليمهم ما اشتمل عليه من أحكامه ببيان ما عساه يكون فيه من نصوص تعلو على مداركهم، وتفصيل المجمل فيه، وتطبيقه عليهم، فتعليم علم الكتاب غير تلاوته إذ تلاوته قراءته مرتلا مفهوما، وتعليمه بيان أحكامه، فقد أمر بالصلاة، والنبى ﷺ علمها، وأمر بالحج، والنبى ﷺ علمه، وهكذا، وقيل: إن تعليم الكتاب هو تعليم المؤمنين الكتابة ونقلهم من الأمية إلى العلم، فتعليم العلم فى ذاته غاية من غايات الإسلام، ولذا كانت أولى آيات القرآن: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ [العلق].

وتعليم الحكمة، فسره الشافعى بأنه تعليم السنن العملية، ويصح أن تفسر الحكمة بما هو أعم من ذلك وأشمل، فتشمل العلم بأسرار الكون، وأسرار النفوس، والسلوك القويم الذى يسدد الخطا فى الدنيا، ويرضى الله سبحانه وتعالى فى الدنيا والآخرة.

﴿ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ أى إن حال الناس، وخصوصا العرب، أنهم كانوا من قبل بعث النبى ﷺ فى ضلال واضح بيِّن، تنفر منه العقول المستقيمة وتأباه الأذواق السليمة، ألم يكن العرب فى عمياء من أمورهم

متنابذين متدابرين يئدون بناتهم؟ وألم تكن فارس فى اضطراب ونزاع وانحلال؟ وألم يكن الرومان ومن أخضعوهم فى طغيان واضطراب عقائد؟ كل ذلك كان وقت أن بزغ فجر الإسلام، اللهم أتم علينا نعمة الهداية والتوفيق.

أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ
قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾
وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ
﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ
أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ
يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ
فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ
وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ
ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾

الكلام إلى الآن موصول فى غزوة أحد وأعقابها، وفى هذه الآيات يبين سبحانه أنه ما كان يليق بالمترددين الذين أصاب اليأس قلوبهم، أن يعجبوا لماذا كانت الهزيمة، وإنه لا يصح أن تأخذهم روح الانهزام إلى هذا الحد؛ لأنهم إذا كانوا قد أصيبوا فى هذه الواقعة بقتلى فقد أصيب أعداؤهم بضعف ما أصيبوا، ولأنه لا عجب فى أن يهزموا لأنهم خالفوا قائدهم، والله سبحانه وتعالى قدر لهم تلك الهزيمة لكى يعتبروا، ويحسنوا التدبير، ويحسنوا الطاعة، ويحترموا حق القيادة الحكيمة الرشيدة، ولكى يتخذوا من الهزيمة علاجا للأخطاء التى سببتها وتوقيا فى المستقبل لها، ولكى يبث فى نفوس أهل الإيمان أن الحرب ليست نصرا

مستمرا، ولكن العاقبة فى النهاية لأهل الحق والعدل والرشاد، وهناك فائدة للهزيمة أنها تبين الصادق الإيمان من المنافق الذى لا يؤمن بشىء، ففى المحنة يتميز الخبيث من الطيب، وإذا كان النصر فى بدر قد فتح باب النفاق، فدخل فى الإسلام من لم يؤمنوا به، وأعلنوا الاعتقاد من يبطنون خلافه، ويخفون ما لا يبدون، فإن الهزيمة فى أُحد قد كشفت النفاق والمنافقين، بل إن غزوة أحد من أول أمرها قد كشفت النفاق، فقد أخذ المنافقون يثبطون، حتى همت طائفتان أن تفشلا والله وَلِيُّهُمَا، فلما كانت النتيجة أخذوا يبثون الأوهام الفاسدة، ليضعضعوا عزائم المؤمنين، ويشككوا ضعفاءهم فى اعتمادهم على الله، فغزوة أحد قد كشفت النفاق فى أولها وفى آخرها، وحسبها ذلك فائدة.

﴿**أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا**﴾ المصيبة أصلها فى اللغة الرمية التى تصيب الهدف، ولا تخطئه، ثم أطلقت على النائبة التى تنزل، ولا تكاد تستعمل فى القرآن فى معنى الخير، وأما الفعل «أصاب» فيستعمل فى الخير والشر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ** ... ﴿٧٩﴾﴾ [النساء] وقوله تعالى: ﴿**إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ** ... ﴿٥٠﴾﴾ [**التوبة**] والمِثل هو المساوى، والمثلان هما ضعف المساوى، والمعنى: أوَلَمّا أصابتكم مصيبة قد أنزلتم بالأعداء ضعفها أصابكم الشك والتردد وقلتم أَنَّى هذا؟ وقد أصابوا من المشركين ضعف ما أصاب المشركون منهم، فقد قتلوا منهم مقتلة فى بدر، قتلوا نحو سبعين، وأسروا مثلهم، وقتلوا منهم مقتلة فى أول الحرب فى أحد، والاستفهام هنا إنكارى للتوبيخ، وموضع التوبيخ هو قولهم: «أَنَّى هذا»؛ لأن ذلك يدل على التردد والشك أو تسربه إلى قلوبهم، ومعنى «أَنَّى هذا»: من أين هذا، أى من أين جاءت هذه الهزيمة، وهذا لا يقوله إلا ضعاف الإيمان؛ لأن المؤمنين الصادقين يدركون خطأهم، ويعرفون تقصيرهم، ويغلبون إسناد عيبهم إليهم على إسناد العيب إلى غيرهم، فكأن حل النسق البيانى الرائع هو هكذا: أقلتم من أين هذه الهزيمة لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها، بالمقتلة

العظيمة فيهم فى بدر، والمقتلة العظيمة فى أول الغزوة فى أحد، ويصح أن يقال: إن الذين قالوا من أقوياء الإيمان؛ لأنهم يستعجلون نصر الله تعالى لإعزاز دينه، ويَخْشوْن أن يكون الله تعالى تخلى عن نصرتهم لعيوب فيهم، وقد أمر الله تعالى أن يجيبهم، ويزيل تعجبهم، فقال: ﴿**قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ**﴾.

أى أن سبب المصيبة منكم أنتم، وقد أكد أنه منهم بإبراز الضمير فى الإجابة[1]، وبالإتيان بالظرف وهو عند، وبالتعبير بـ «أنفسكم» التى تدل على التوكيد، وكان سبب الهزيمة منهم لأنهم لم ينتظروا فى المدينة حتى يجيء إليهم الأعداء ويقضوا عليهم، فالنبى ﷺ خرج من المدينة نزولا على حكم الشورى، وعلى رأيهم ، فعليهم أن يتحملوا تبعته، وهم فوق ذلك هموا بأن يفشلوا، ولأنهم عندما رتب النبى ﷺ جيشه ترتيبا حكيما، وأخذ المقاتلون ينفذونَ الخطة بإحكام، والرماة يحمون ظهورهم، حتى أخذوا يَحسُّونهم بإذنه، وقتلوا من المشركين مقتلة عظيمة، وفروا أمامهم، ترك الرماة أماكنهم، فكان الاضطراب فى جيش الحق، وفوق ذلك فإن الشك قد أصاب القلوب الواهنة، حتى أخذ يضرب بعضهم رقاب بعض، وضعف صوت الهادى الرشيد، وانطلق المنافقون يعلنون قتل النبى ﷺ، فبسبب ذلك كله كانت الهزيمة.

بيد أن هذه الهزيمة كانت إرادة الله سبحانه وتعالى ليمحِّص المؤمنين، وليبين لهم بالعمل أن طاعة القائد الرشيد سبب النصر، وأن قدرة الله تعالى فوق كل شيء، فهو قادر على كل شيء، كان يستطيع أن ينصركم فى هذا المضطرب، وقد فعل فإنه صرف المشركين عن أن يعودوا إلى المدينة وقد أثخنتكم الجراح وأثقلكم الاضطراب، ولكن الله خوَّفهم فَرَضُوا من الغنيمة بالإياب، ولذا قال سبحانه مؤكدا قدرته:

﴿**إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ وهذا رد على ضعفاء الإيمان الذين يقولون كيف ننهزم والله معنا، فبين سبحانه أن قدرته فوق كل شيء، وأنه سبحانه أراد

(١) أي الضمير «هو» في قوله تعالى: ﴿هو من عند أنفسكم﴾.

لكم تلك النتيجة وحماكم من أن تؤثر فى مجرى تاريخكم فصرفهم ذلك الصرف، حتى كأنهم المهزومون وأنتم المنصورون، وقد أكد سبحانه قدرته بلفظ «إنَّ»، وبذكر لفظ الجلالة الذى يربى المهابة من الخلاق العليم فى قلب المؤمن، وبعموم قدرته سبحانه على كل شيء وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير، وقد بين سبحانه عموم إرادته وقدرته فقال:

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أى إن ما أصابكم يوم التقى الجمعان فى أحد وكلاهما قد أصر على أن يكون الموقف حاسما لمصلحته، قد كان بإذن الله تعالى، أى بإرادته الأزلية، وتقديره الحكيم، وقضائه المحكم، فما كان بغير إرادته: بل كان على مقتضى حكمته، ذلك أن الله سبحانه ربط الأسباب بمسبباتها والمقدمات بنتائجها، فمن سلك طريق النصر ينتصر إن خلصت نيته، واستقامت إرادته، وتوكل على الله تعالى، ولا يبغى إلا وجهه سبحانه، وإن طريق النصر أوله انصراف عن المادة لأنها تضعف العزيمة، ثم تنظيم محكم ووضع لكل شخص فى موضعه الذى يحكم القيام به، ثم طاعة وإصرار وعزيمة على امتثال الخطة المثلى، ثم ثبات جَنَان وتصرُّف فى الشديدة، ولم تكونوا كذلك فى هذه المعركة الطاحنة التى اختبرتم فيها اختبارا شديدا، وهو سبيل النصر إن انتفعتم به، فقد شابت نفوس بعضكم المادة وهمت طائفتان أن تفشلا فلم تكن النية المحتسبة. وخالفتم القائد الرشيد، وأفسدتم النظام المحكم، وذهب الهلع بنفوس أكثركم إذ اشتدت الشديدة وقوى البلاء.

وهنا بحثان لفظيان: أحدهما: أن الله تعالى عبر فى غزوة أُحد عن الموقعة بقوله: «﴿الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ وفى ذلك إشارة إلى قوة التجمع فى الفريقين، وذلك يدل على أن كل فريق مُصر على القتال، مُريد للنصر فيه، فهزيمة بدر جمعت المشركين فى أحد وجعلت لهم عزيمة مريدة ماضية، وإيمان المؤمنين جعل فى أقويائهم رغبة فى النصر أو الاستشهاد.

والثانى: أنه سبحانه وتعالى عبر عن إرادته الأزلية بالإذن؛ لأن الإذن هو الإعلان، وقد علمت تلك الإرادة بهذا الأمر الذى وقع، وقد كانت تلك المصيبة التى نزلت لها فوائد؛ أولها: ضرورة الاستمساك بأسباب النصر، وطلبه بأسبابه، وقد أشرنا إلى ذلك، وثانيها وثالثها: ما أشار إليه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿**وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا**﴾.

أى ليعلَم الله سبحانه وتعالى وقوع ما قدره فى علمه الأزلى، فيعلم المؤمنين الثابتين الأقوياء الذين لا يبغون مادة، بل يبغون إعلاء كلمة الله تعالى، وجعلها هى العليا، وكلمة الشرك هى السفلى، وليعلم وقوع ما قدره فى علمه الأزلى وهو ظهور المنافقين فى هذه الشدة، ولتقريب المعانى نقول: إن الله تعالى يعلم ما يقع فى المستقبل علما أزليا كما قال سبحانه: ﴿**إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ** ... ﴿٣٤﴾﴾ [**لقمان**] فإذا وقع ما قدره علمه سبحانه واقعا، وما يتغير بذلك علم الله تعالى، بل الذى يتغير هو المعلوم من أنه سيقع إلى أنه واقع، وعلم الله واحد.

ويصح أن يقال: إن معنى علم الله تعالى فى هذه الآية الكريمة وما يشبهها من آيات هو ظهور ما قدره سبحانه وتعالى بحيث يعلمه الناس، وهو من قبل فى علم الله المكنون، ولوحه المحفوظ.

ومرمى النص الكريم أن تلك الشدة التى نزلت تميز بها الصادقون من أهل الإيمان من المنافقين الذين كانوا يبثون روح الهزيمة فى أوساط المؤمنين كما قال تعالى: ﴿**مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ** ...﴿١٧٩﴾﴾ [**آل عمران**] لقد دخل المنافقون صفوف المؤمنين بعد غزوة بدر، فكان لابد أن يُميَّزوا ويُعرَفوا ليتوقى المؤمنون شرهم، ولا يكون ذلك إلا بتجربة تعرك فيها النفوس، وتلك التجربة كانت فى غزوة أحد، فعلم أمر أهل النفاق من بعدها، حتى صاروا يعرفون بسيماهم وأقوالهم وأفعالهم، وقد عبر الله سبحانه

عن المنافقين بقوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ لبيان أن النفاق حدث جديد، قد وجد في صفوف المؤمنين، ولم يكن قبل بدر الكبرى، فالقوة في بدر قد أوجدته، والتجربة القاسية في أحد قد كشفته.

ولقد قال سبحانه وتعالى في مظاهر المنافقين، وأوصافهم، وأحوالهم، وإعراضهم عن الجماعة في الشدة:

﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ﴾ هذه الجملة السامية فيها بيان حال أولئك المنافقين، وعدم مجاوبتهم نفسيا مع المؤمنين، وقد أشار سبحانه بهذا إلى أنهم كانوا معوِّقين(١) في ابتداء القتال، قيل لهم من النبي ﷺ ومن الذين يعاشرونهم ويجاورونهم، ومن أهليهم وعشيرتهم: تعالوا، أي تساموا بأنفسكم وارتفعوا لتقاتلوا في سبيل الله تعالى مجاهدين مبتغين مرضاته بالدفاع عن الحق، فإن لم تسمُ نفوسكم إلى حد القتال طلبا لمرضاة الله، فلتقاتلوا دفاعا عن الوطن والعشيرة، فالمعنى: قاتلوا لرضا الله، أو ادفعوا عن أنفسكم عار الذل وعار سيطرة قريش عليكم إن لم تقاتلوا، وقيل إن معنى ادفعوا أن يكثروا سواد المسلمين، فيلقى ذلك الرعب في قلوب الأعداء فيعرفوهم بهذا التكثير، وعن سهل بن سعد الساعدي وقد كف بصره قال: لو أمكنني لبعت داري ولحقت بثغر من ثغور المسلمين، فكنت بينهم وبين عدوهم، قيل: كيف وقد كف بصرك؟ قال: لقوله تعالى: ﴿أَوِ ادْفَعُوا﴾ وعبر بالمجهول في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا﴾ للإشارة إلى كثرة القائلين فقيل لهم من النبي، ومن الأصحاب، ومن أهلهم وعشيرتهم المؤمنين، ولكنهم امتنعوا لامتلاء قلوبهم بالنفاق. ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ﴾.

---

(١) أي مثبطين، قال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿١٨﴾﴾ [الأحزاب].

ظاهر المعنى أنهم يوهمون دعاتهم للخروج معهم أنهم لا يعتقدون أن قتالا يقع، وأن الأمر ينتهى بغير قتال، ولكن الزمخشرى فسر بغير هذا الظاهر، فقرر أن المعنى أننا لو نعلم أنكم تخرجون لقتال رتبت أسبابه وأخذ فيه بالاحتياط، ولكنه زلل، وإلقاء بالتهلكة، وكان خيرا أن تبقوا بالمدينة، حتى يجيء العدو إليكم، وكأنهم بهذا يرجحون الرأى الأول، وهو البقاء فى المدينة، ولو بقوا فى المدينة لوجدوا السبيل لبث الفتنة بطرق أخرى، فهم لا يبغون إلا الفتنة، وذلك لأنهم خرجوا معهم، ولكنهم قبل أن يصلوا إلى أحد رجعوا فرجع كبيرهم عبد الله بن أبى بن سلول فى ثلاثمائة ممن على شاكلته ليخذلوا المؤمنين.

﴿**هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ**﴾ تضمن ذلك النص حكما على أعمال المنافقين، وبيانا لحقيقتهم، فأما الحكم فهو أنهم فى هذا اليوم المشهود الجليل الذى ميزهم وعرف بهم - كانوا أقرب إلى الكفر من الإيمان، وأما الوصف فهو أنهم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم مغررين مظهرين الإيمان، وكاتمين الكفر، ويذكرون لبث روح الهزيمة بين المؤمنين أمورا يعرفون كذبها، وينشرون أراجيف يعلمون بطلانها.

والحكم الذى حكم الله به عليهم، وهو أنهم فى هذا اليوم، أقرب للكفر منهم للإيمان، ظهرت بوادره فقد كانوا يتمنون نصر المشركين ويعملون لبث روح الهزيمة فى صفوف المسلمين، فهم بلا شك كانوا أقرب للكافرين منهم للمؤمنين بإرادة نصر الأولين، وهزيمة الآخرين، مع أنهم عشراؤهم وخلطاؤهم، ومنهم من تربطه ببعض المؤمنين قرابة قريبة فمنهم من كان أبا لبعض المؤمنين أو أخا، ولكن نفاقهم جعلهم ينسون تلك الوشائج من القربى، فكانوا يقطعون ما أمر الله به أن يوصل. فالمراد بـ «الكفر» أهله، وكما فى قوله تعالى: ﴿**فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ** ﴿١٧﴾﴾ [**العلق**]، ويصح أن يقال: إن المراد من قربهم إلى الكفر هو بالنسبة لأقوالهم وأفعالهم، فأفعالهم وأقوالهم فى يوم أحد كانت تدل بظواهرها على قربهم إلى الكفر وبعدهم عن الإيمان، وإن كانت لا تدل على كل حقيقتهم؛ وذلك لأن تلك

الحوادث قد كشفتهم، وبينت قربهم من الكفر؛ إذ حرصهم على ألا يظهروا بحقيقتهم جعلهم لايعلنون كل أمرهم، ولكن الجزء الذى ظهر، وإن لم يكن الكل، دل على حقيقة النفاق الذى يسكن قلوبهم، وكان مظهرهم به أقرب إلى الكفر، وأما الوصف الذى وصفهم الله سبحانه وتعالى به وهو أنهم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم، فتلك طبيعة النفاق دائما فهو ستر للباطن، وإعلان ما يناقضه، وقد أظهروا أنهم يريدون مصلحة المسلمين، وهم يريدون خذلانهم وأظهروا أنهم يقولون الحق عندما كانوا يثبطون المؤمنين، وهم لا ينطقون بالحق، ولا يريدونه.

ثم ختم الله سبحانه النص الكريم بقوله: ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾.

أى أنهم يخادعون المؤمنين، ويبدون ما لا يخفون، ويحسبون أنهم يخادعون الله والذين آمنوا، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون، فالله سبحانه وتعالى عليم بالسرائر وما يبيتونه للمؤمنين، وقد كشف الله تعالى بعض شئونهم، ليحترس المؤمنون منهم، ولكيلا ينخدعوا بهم، ولكى يتجنبوهم فى الشدائد حتى لا يحدث لهم بسببهم محنة، وإن أولئك قد كتموا الرغبة الشديدة فى الكيد للنبى وأصحابه، وأنهم كلما ثار حقدهم على النبى ﷺ ازداد كيدهم، وما كان يثير حقدهم إلا نصر يؤيد الله تعالى به نبيه، وقد كتموا موالاتهم لأعداء الإسلام من اليهود وغيرهم، وإن أولئك المنافقين لا يكتفون بتخذيلهم والمعركة قد ابتدأت، بل يظهرون الشماتة بعد أن وقعت، لكى يثبطوا المؤمنين عما يكون من قتال من بعد، وقد حكى الله سبحانه وتعالى عنهم، فقال:

﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾ فى هذا النص قولهم بعد انتهاء الحرب، وقد قالوه ليبعثوا الريب فى جماهير المؤمنين، وليعلنوا تخلى الله عن نصرتهم، والمعنى: هؤلاء قالوا لإخوانهم الذين هم مثلهم لو أطاعنا المؤمنون ما قتلوا، فقد دعوناهم إلى العودة إلى المدينة والامتناع عن الخروج ولكنهم خالفونا، فانتهوا إلى القتل، فالتقاول كان بين المنافقين أنفسهم، أو نقول: إن

إخوانهم هم ذوو رحمهم وعشائرهم من المؤمنين الذين استشهدوا فى أحد، والمعنى على هذا أن الذى قالوه لأجل أو فى شأن إخوانهم، فاللام للتعليل وبيان الباعث على القول، فهم لا يتألمون لإخوانهم وذوى رحمهم، ولكن يلقون باللوم عليهم.

وخلاصة القول: إنهم فرحون بأنهم لم يقتلوا لأنهم لم يخرجوا، ولائمون لمن خرجوا وقتلوا، شامتون فيهم، وهم بهذا يقررون أن موتهم سببه الخروج للقتال، وقد رد الله سبحانه وتعالى ذلك عليهم ببيان أن الموت مكتوب على الإنسان، وتقدر أسبابه، فقد يكون قتال ولا موت، وقد يكون موت من غير قتال، فقال سبحانه: ﴿ **قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾.

الفاء هنا هى التى تسمى فاء الإفصاح وهى تفصح عن شرط مقدر، والمعنى: إذا كنتم تظنون أنكم دفعتم عن أنفسكم الموت بامتناعكم عن الذهاب إلى الميدان وقعودكم فى الديار، فادرءوا أى ادفعوا عن أنفسكم الموت المكتوب الذى لا تفرون منه أبداً وهذا كقوله تعالى: ﴿ **أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ** ... ﴿٧٨﴾ ﴾ [**النساء**] والمرمى فى هذا النص أنهم يعتقدون أنهم نجوا من الموت بقعودهم، فهل يعتقدون أنهم نجوا منه نهائيا؟. إنه ملاحقهم، ومادام ملاحقهم وهو حقيقة مقررة يثبتها الحس المستمر، فلماذا تفرون من القتال؟ والتعليق فى قوله تعالى: ﴿ **إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ لإفادة كذب حسهم، وكذب قولهم فى زعمهم إن القعود سبب للنجاة، فإن الله سبحانه وتعالى يذكر لهم أنهم إن كانوا صادقين فى أن القعود سبب للنجاة فليدفعوا عن أنفسهم الموت؛ لأن الموت لا يدفعه قعود ولا يستعجله خروج، ولتوضيح هذا الذى نقصده نقول: إن كلام هؤلاء المنافقين ككلام الكافرين الذى حكاه الله تعالى آنفا فى قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ** ...﴿١٥٦﴾ ﴾ [**آل عمران**].

وإن هؤلاء قد زعموا أن القعود دافع للموت مانع من نزوله، فإن كان فى إمكانهم بقعود أو نحوه أن يدفعوه فليدفعوه إذا جاء إن كانوا صادقين فى هذا الزعم الذى زعموه، والمؤدى أن الموت إذا جاء الأجل ليس له من دفاع، فلا ينجى منه القعود، ولا ينزله الخروج، فَزَعْمُهُم بأنهم كانوا ينجون لو لم يخرجوا زعم باطل، وإن كانوا صادقين فليدفعوه إذا نزل .

اللهم اجعل لنا فى الموت عبرة، واجعل خير أعمالنا خواتيمها، وخير أيامنا يوم لقائك يارب العالمين.

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ
بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟
بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾
۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ
أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾

ما زالت النصوص الكريمة فى ذكر أعقاب غزوة أُحد التى كانت أبلغ درس إسلامى للغزاة خاصة، وللمؤمنين عامة، وقد كانت المسبار(١) الذى سبرت به النفوس، وتكشفت به قلوب المؤمنين، وأظهرت قلوب المنافقين، ولقد كانت عباراتهم فيها شماتة بأهل الإيمان، وقد بين الله سبحانه وتعالى فى هذه الآيات ما ناله أهل الشهادة باستشهادهم، وما هم عليه من روح وريحان، وما يستقبلونه من جنات النعيم، وقد بين فى هذه الآيات الكريمة ما أعده الله سبحانه للمؤمنين

(١) سبر الجرح: نظر ما غوره، والمسبار ما يسبر به الجرح. الصحاح. والمعنى هنا الكشف عن أغوار النفوس.

المجاهدين الذين استجابوا لله ورسوله من بعد ما أصابهم القرح، من أجر لا يضيع، وعمل صالح يرى، وقول طيب هدوا إليه يسمع، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ﴾.

وفى هذا النص الكريم رد على شماتة المنافقين، وتحريض للمؤمنين، وتقرير لحقيقة إسلامية ثابتة، وهى أن الاستشهاد فى سبيل الله تعالى ليس فناء، بل هو بقاءٌ، وأن الموت ليس إنهاء للحياة، ولكنه امتداد لها بصورة أكمل وأبقى، أو بعبارة أخرى هو انتقال من دور الحياة المادية إلى دور الحياة الروحية حتى تكون القيامة، وتجزى كل نفس بما كسبت، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

نهى الله سبحانه وتعالى نبيه الأمين عن أن يظن أى ظن بأن الذين قتلوا فى سبيل الله تعالى أموات بل هم أحياء، والتأكيد هنا تأكيد للنهى، أى أن الله تعالى ينهى نبيه نهيا مؤكدا عن أن يظن ذلك الظن، فـ «نون التأكيد» ليست لتأكيد الظن المنهى عنه، بل هى لتأكيد النهى، كما يقال: لا تفعلن كذا، فليست النون لتأكيد الفعل، بل هى لتأكيد النهى، ولا شك أن نهى النبى ﷺ نهى لغيره، وغيره أولى بهذا النهى منه وأجدر؛ لأن الناس منهم من ظنوا بالله الظنون، وقد أصابتهم حسرة شديدة، وبعضهم أصابتهم خيبة آمال، ومنهم من كان فى ألم شديد للذين قتلوا منهم، وقد وجه النهى للنبى ﷺ ابتداء ليكون انتهاء النبى ﷺ أسوة حسنة لهم، والنبى أقرب البشر إلى الله سبحانه، فنهيه فيه تأكيد النهى لغيره.

والذين قتلوا فى سبيل الله تعالى هم الذين قتلوا فى سبيل الحق والدعوة إليه، سواء أكان ذلك فى ميدان القتال، أم كان فى ميدان الدعوة إلى الله تعالى وإلى صراط مستقيم، وكل داع لله إذا قتل فى سبيله أو مات فى طلبه فهو قد قتل فى سبيل الله تعالى، ولقد قال النبى ﷺ: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»[1] فمن قتل فى هذه السبيل فقد قتل فى سبيل الله تعالى.

---

(١) سبق تخريجه.

وقد يقول قائل: كل ميت فهو حى بروحه؛ لأن الله تعالى قد بين فى محكم آياته أن الموت ليس فناء، كما قال سبحانه: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ... ﴿١٨٥﴾﴾ [**آل عمران**]. وقد بين النبى ﷺ بمخاطبته يوم بدر قتلى المشركين أن أرواحهم تسمع الكلام[1]، فلماذا إذن اختص الذين قتلوا فى سبيل الله تعالى بأنهم أحياء؟.

والجواب أحد أمور ثلاثة:

(أولها) أن هذا النص الكريم رد على شماتة الذين شمتوا من اليهود، وتطييب لقلوب الذين فقدوا أحبتهم من المؤمنين، وتشجيع للذين يحملون السيوف على عواتقهم لجعل كلمة الله تعالى هى العليا، وكلمة الشرك هى السفلى.

(ثانيها) أن النص الكريم تذكير بحقيقة مقررة ثابتة وهى أن الموت ليس فناء، فى وقت قد غامت فيه على النفوس غيمة من الألم المرير، وقد كان أقرب المتوفين ذكرا فى هذا الوقت هم الشهداء الذين قتلوا فى سبيل الله تعالى.

(ثالثها) أن الله تعالى قد ذكر لأولئك الشهداء حياة ليست كحياة غيرهم، بل هى حياة فيها تكريم واستبشار ورزق كريم، ونعيم وسعادة ورضا بما كان منهم، وأنهم قد نالوا جزاء كريما بمجرد الاستشهاد، وأن هذه الحياة السعيدة لا يصح أن يطلق عليها اسم الموت، وإن كان يصح إطلاقها على غيرهم.

وما هذه الحياة التى ينالونها بعد الاستشهاد وما كيفها؟ وإن كنا لا نشعر بها ولا نراها، كما قال تعالى: ﴿**وَلا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ** ﴿١٥٤﴾﴾ [**البقرة**]؟. والجواب عن ذلك أنه قد وردت أحاديث كثيرة فى هذا الباب تدل على حياة كريمة لهؤلاء الشهداء، فقد روى مسلم عن مسروق: إنا سألنا عبد الله بن عباس عن هذه الآية: ﴿**وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾ فقال: إنا قد سألنا رسول الله ﷺ

(١) رواه بهذا اللفظ مسلم: الإمارة - بيان أن أرواح الشهداء في الجنة (١٨٨٧)، وقد سبق تخريجه.

فقال: «أرواحهم فى جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوى إلى تلك القناديل، فاطلع عليهم اطلاعه، فقال: هل تشتهون شيئا؟ فقالوا: أى شىء نشتهى، ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا يارب نريد أن ترد أرواحنا إلى أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم سؤال تركوا»[1].

وهذا الحديث يدل على حياة كريمة، وهى حياة روحية لا جسدية، وأقصى ما يدل عليه التجسيد هو أنها تكون فى طيور خضر، وأن هذه الآية تشير إلى الجزاء الأوفى الذى يستقبلهم فى الحياة الآخرة، وإلى أن الأرواح بعد الموت إما فى شقاء، وإما فى نعيم، وأن حياة أولئك الشهداء الأطهار فى أحسن نعيم، وأكمله، ولذا قال سبحانه: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

فى هذا النص الكريم ما يثبت أن حياتهم فى هذه الفترة التى تكون بين الاستشهاد والحساب والثواب حياة كريمة سعيدة هنيئة؛ لأن فيه التصريح بأنهم عند ربهم الذى خلق الكون وخلقهم، والذى جاهدوا فى سبيله، وقاتلوا وقتلوا، وإذا كانوا عنده فهم عند من يكرمهم ومن يجازيهم جزاء عاجلا، حتى يكون الجزاء الأوفى والنعيم المقيم، عندما تتصل أرواحهم الطاهرة بأجسامهم التى يعيدها الله سبحانه وتعالى إليهم فى سعادة وحبور.

والرزق الذى يرزقهم الله تعالى رزق معنوى من سعادة وهناءة، وطيب مثوى تشعر به أرواحهم ويرون مقدمات جزائهم، ولا نقول إنه فى هذه الفترة مادى؛ لأن الحياة فى هذه الحال حياة أرواح قد انفصلت عن أجسادها، والرزق حينئذ يكون معنويا، وإن هذا معنى تقريبى؛ لأن كل الأحاديث النبوية الواردة فى هذه الفترة تشير إلى أن الحياة روحية، ومن ذلك قوله ﷺ فيما رواه الإمام مالك

---

(١) رواه بهذا اللفظ مسلم: الإمارة - بيان أرواح الشهداء فى الجنة (١٨٨٧)، وقد سبق تخريجه.

رضى الله عنه: «نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجرة الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم مبعثه»(١).

ولقد قال النبى ﷺ مخاطبا صحابته من أهل بدر وأحد: «لما أصيب إخوانكم يوم أحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، تأكل من ثمارها، وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم، قالوا: ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدوا فى الجهاد، ولا ينكلوا فى الحرب»(٢).

وإن هذا الحديث وإن ذكر طعاما ماديا يتناوله الطير الخضر التى حلت فيها الأرواح هو يدل على أن الحياة روحية، إذ الأرواح ليست فى أجسادها.

وقد بين الله سبحانه وتعالى حالهم فقال سبحانه: ﴿**فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ**﴾.

أى أنهم فى هذه الحياة التى يحيونها يشعرون بسعادة عظيمة؛ لأنهم يرون ثمرات أعمالهم من الجهاد فى سبيل الله، ويشعرون برضا الله سبحانه وتعالى، وأنهم فى تكريم، وقد آتاهم الله تعالى نعمة الطاعة ونعمة الجهاد، وأشعرهم بالسعادة المطلقة فى حياتهم الروحية، ورحابه الكريم. وأن الملائكة أولئك الأرواح الطاهرة تحفهم بالتكريم والترحيب، ويروى فى ذلك البخارى أن جابرا، قال: لما قتل أبى جعلت أبكى وأكشف الثوب عن وجهه، فجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهوننى، والنبى ﷺ يقول: «لا تبك، ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفع»(٣) فأرواح الشهداء فى تكريم من الملائكة الأطهار، والله

(١) رواه الإمام مالك في الموطأ: الجنائز - حديث السيدة عائشة رضي الله عنها (٥٠٤).
(٢) رواه بهذا اللفظ الإمام أحمد: مسند بني هاشم (٢٢٦٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما، كما رواه أبو داود بنحوه: الجهاد - فضل الشهادة (٢١٥٨).
(٣) رواه البخاري: الجنائز - الدخول إلى الميت (١١٦٧)، ومسلم: فضائل الصحابة - فضائل عبد الله بن عمرو ابن حرام (٢٤٧١).

سبحانه وتعالى يتغمدها برضاه وتقريبها حتى إن النبى ﷺ ليذكر أن الله تعالى يخاطبها كفاحا، أى مواجهة، وأى تكريم أعلى من ذلك وأسمى؟ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وإن أرواح الشهداء الأبرار لترضى بجهاد الذين أعقبوهم فى الميدان فلم يخلوه، ولذا قال سبحانه: ﴿**وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾.

الاستبشار: طلب البشرى، والبشرى هى الأمر الذى يدخل السرور فى النفس، لأمر كان يتوقع منه مرهوبا أو محبوبا فتجىء البشرى بالمحبوب دون المرهوب، وفى بيان استبشار أولئك الشهداء الأبرار تخريجان: أحدهما- أن يكون المراد طلبهم البشرى بأن الذين لم يلحقوا بهم فى الاستشهاد وخلفوهم فى الميدان، لا خوف عليهم من أن يستمكن العدو منهم ولا ينتصر عليهم، ولا هم فى حزن أو غم بسبب أنهم لم ينالوا ما يرغبون من نصرة كلمة الحق، ورفع كلمة الدين، فهم على اطلاع بما يجرى للمؤمنين، ويريدون أن تجيء إليهم البشرى بالانتصار الباهر، والفوز الظاهر الذى يذهب معه الخوف ويكون بدله الأمن، ولا يكون حزن من هزيمة، أو غم من قرح يصيبهم وتكون كلمة يستبشرون معناها يطلبون البشرى.

التخريج الثانى: أن يكون معنى الاستبشار طلب البشرى ونيلها، فالاستجابة معناها طلب الإجابة ونيلها، والمعنى أنهم فى سرور وحبور مما آتاهم الله تعالى من فضله، ولأنهم جاءتهم البشرى بأن الذين لم يلحقوا بهم فى الاستشهاد لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، بل يقبلون على الجهاد طالبين الاستشهاد من غير خوف، ولا رهبة، ولا حزن، بل تلقيا لأسباب المنون بإيمان قوى؛ لأنها إما الشهادة فى عزة وكرامة، وإما الانتصار وإعلاء كلمة الله تعالى.

ولقد بين سبحانه وتعالى استبشارهم بحسن الجزاء فقال سبحانه: ﴿**يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾.

هذه الجملة بيان للاستبشار السابق، والتخريج فى معنى كلمة الاستبشار الذى ذكرناه فى النص السابق يجرى فيها.

والمعنى أن هؤلاء الشهداء يطلبون البشرى بنعمة من الله تعالى، وهى نعمة جزيلة كريمة فاضلة لأنها صادرة عن مانح النعم لهذا الوجود كله ومسديها لكل حىّ، والنعمة هنا هى نعمة الانتصار، والفضل هو ما يسبغه الله تعالى على أهل الحق من عزة، وطلب له شاعرين بأن الموت فى سبيل الله هو عين البقاء، والحياة فى باطل هى عين الفناء، فالاستبشار من هؤلاء الأطهار استبشار بالعزة لدينهم وللحق الذى افتدوه بأجسامهم وخفقت من بعد ذلك أرواحهم، فهم يستبشرون بنعمة النصر وفضل العزة للذين جاءوا من بعدهم، فنعمتهم هم وفضل الله عليهم فى نصرة الإسلام بعدهم، وكون الله تعالى لا يضيع أجر المؤمنين، بأن يعطيهم النصر والعزة والكرامة جزاء جهادهم، وليس الاستبشار هنا بما ينالونه هم، بل بما ينال الإسلام والمؤمنين من بعدهم، والدليل على ذلك أن الاستبشار هنا بيان للاستبشار الذى سبقه، والاستبشار الذى سبقه كان لأن الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأيضا فإن المؤمنين الذين لا يضيع جزاؤهم فى الدنيا بالنصر، ولا فى الآخرة بالنعيم المقيم، بينوا بأنهم الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿**الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ**﴾.

أصل استجابوا: طلبوا الإجابة، والمعنى هنا أنهم عالجوا أنفسهم وطلبوا إجابة داعى الله إلى النصر، فأجابوا، فالاستجابة لأن السين والتاء للطلب تدل على أنهم راضوا نفسهم على إجابة الله تعالى، ونالوا ذلك الشرف العظيم؛ إذ أجابوا داعى الله ورسوله من بعد ما أصابهم ذلك الجرح ولم ينهنه من قوتهم، بل استرسلوا فى قوة وصبر وعزيمة، واستثارهم الجرح ولم يضعفهم، وأنهم أجابوا الداعى فور الواقعة، فإنه يروى فى ذلك أنه لما رجع المشركون قالوا: (لا محمدا

قتلتم، ولا الكواعب أردفتم[١]، بئسما صنعتم، ارجعوا). فسمع رسول الله بذلك فندب المسلمين، فانتدبوا حتى بلغوا حمراء الأسد، ولكن خذل الله المشركين، وقوى المؤمنين، فرجع المشركون من حيث جاءوا، ويروى أن النبى ﷺ عندما ندب المؤمنين أذن مؤذن رسول الله بطلب العدو، وأذن مؤذنه «ألا يخرجن معنا إلا من حضر أُحدا[٢]، فخرجوا فهؤلاء هم الذين استجابوا لله والرسول، لأنه لم تأخذ الهزيمة من نفوسهم، وإن أصيبوا بكلوم فى أجسامهم، وقد قال سبحانه وتعالى فى جزائهم.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ اختص سبحانه وتعالى من أولئك الذين جاهدوا ولم يستشهدوا بعد بأن لهم أجرا عظيما، وهنا يلاحظ ثلاثة أمور:

(أولها) أن الله لم يذكر الأجر لهم جميعا، لأنهم كانوا أحياء، والحىّ قد يغير ويبدل، فكان لابد من التقييد بالإحسان والتقوى، أى يستمر على ما هو عليه.

(وثانيها) أن الإحسان هنا غير التقوى؛ إذ الإحسان هو إجادة الخطة، واتباع المنهج المستقيم فى القتال، وذلك لابد منه فى الانتصار، والطاعة المطلقة للقائد من إحكام الخطة.

(ثالثها) أن التقوى - وهى وقاية النفس من الغرض والهوى والاتجاه إلى الله بإخلاص وقلب سليم خال من الشوائب - أساس الأجر العظيم، والله سبحانه وتعالى بكل شىء عليم.

---

(١) أخرجه النسائي: السنن الكبرى ج٦، ص٢٧٦ (١٠٩٧٩). وفي مجمع الزوائد: ج٦، ص١٧٦ وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن منصور الجواز، وهو ثقة. وذكره الحافظ ابن حجر فى فتح البارى (باب قوله تعالى: ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح﴾.
(٢) السيوطي: الدر المنثور ج٢ ص١٠٢، وعزاه لابن جرير عن عكرمة.

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾

الكلام متصل بالكلام فى أعقاب أحد، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى الذين استجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابتهم الجراح، ولم تمنعهم هذه الجراح من أن يجيبوا داعى الله، ويستعدوا، ويتقدموا؛ ويتغلبوا على روح التردد والهزيمة التى كان يبثها المنافقون، وترشح لها الجراح، وإن أبا سفيان قد هم أن يرجع إلى المدينة، فخرجوا للقائه، ولكن ثبطه الله، فعادوا، ولقد كان أولئك الذين استجابوا لداعى الجهاد، وهم فى تلك الحال، لهم موقف آخر جليل ذو شأن فى الجهاد، وأثر فى الإسلام، ولقد ذكر الله ذلك الموقف بقوله تعالت كلماته: ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا**﴾.

وقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ**﴾ الموصول فيها بدل من الموصول فى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ استجابوا لله والرسول﴾ فهم طائفة واحدة لم تتعدد، ولكن تعدد عملهم، فهم فى الأول لم تثقلهم الجراح عن أن يجيبوا الرسول ﷺ، وهم فى الثانى لم ترهبهم أقوال الناس . . المتضافرة عن أن يتقدموا للقتال، وقد

تكاثرت أسباب الرهبة، وأخبار الاستعداد، فهذا موقف آخر، وإن كان الذين نالوا الفضلين طائفة واحدة، وذلك الموقف هو أن أبا سفيان ومن معه لما رجعوا لا يلوون على شيء، قال للنبى ﷺ: موعدكم بدر القابل فقبل النبى ذلك التهديد، وكان ذلك فى شوال من السنة الثالثة، وكان تجار قريش يقدمون إلى بدر فى ذى القعدة، ويسمون ذلك بدرا الصغرى، فاستعد النبى ﷺ للقائهم بعد نحو شهر من أحد، وخرج أبو سفيان فى أهل مكة ولكن ألقى الله الرعب فى قلوبهم، فبدا له أن يرجع، فلقى نعيم بن مسعود الأشجعى وقد قدم معتمرا، فقال: يا نعيم إنى أوعدت محمدا أن نلتقى بموسم بدر، وإن هذا عام جدب، ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر، ونشرب فيه اللبن وقد بدا لى، ولكن إن خرج محمد ولم أخرج زاده ذلك جرأة فالحق بالمدينة فثبطهم ولك عندى عشرة من الإبل، ويروى أن الذين دسهم أبو سفيان ليبثوا الهزيمة فى قلوبهم هم ركب عبد القيس، ويظهر أنه تكرر ذلك الدس من أبى سفيان، ولذلك قال الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ**﴾ أى تضافرت الأخبار من هؤلاء الناس الذين اندفعوا يثبطون، ويقولون إن الناس - أى مشركى مكة - قد جمعوا لكم، وكانوا يقولون فى أخبارهم المثبطة الملقية بالرعب لمن لا يعتمد على الله تعالى وقد وجدوا المؤمنين يتجهزون للمعركة: (ما هذا برأى، آتوكم فى دياركم وقراركم، فلم يفلت منكم أحد إلا شريدا، أفتريدون أن تخرجوا، وقد جمعوا لكم عند الموسم؟ فو الله لا يفلت منكم أحد) فقال ﷺ: «والذى نفسى بيده لأخرجن ولو لم يخرج معى أحد»(١) فخرج فى سبعين راكبا، وقيل ألف راكب.

وقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿**قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ**﴾ قد حذف فيه المفعول، فلم يقل جمعوا جيشا، وذلك ليذهب الخيال كل مذهب فى مقدار ما جمعوا من

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في التفسير بلفظ: وإن رسول الله ندب الناس لينطلقوا معه، ويتبعوا ما كانوا متبعين، وقال: «إنّما يَرْتَحِلُونَ الآنَ فَيَأْتُونَ ولا يَقْدِرُونَ على مِثْلِها حَتّى عام مُقْبل» فجاء الشيطان فخوّف أولياءه فقال: إن الناس قد جمعوا لكم. فأبى عليه الناسُ أن يتبعوه، فقال: «إني ذَاهِبٌ وإنْ لم يَتْبَعْني أحَدٌ لأُحَضِّضَ النَّاسَ».

أسلحة، ومقدار من جمعوا من الرجال وأموالهم، فيكون ذلك أشد تخويفا، ولكن لم يثبط ذلك من عزيمة المسلمين وإرادتهم القتال، وقد حكى سبحانه حال المؤمنين بقوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

أولئك المثبطون الدساسون قالوا ما قالوا، وقالوا: اخشوهم، أى قَدِّرُوا أنهم سينزلون بكم الأذى الشديد والقتل الذريع إن خرجتم، فهو إفزاع عن المستقبل، والفرق بين الخوف والخشية أن الخوف يكون من أمر حاضر، والخشية من أمر متوقع، وهى إن كانت فى الحاضر تكون خشية من قوى لما يكون منه فى القابل.

وكان أثر ذلك الدس المرهب أمرين:

أحدهما: زيادة الإيمان، والثانى التفويض إلى الله تعالى.

فأما زيادة الإيمان هنا فمعناها قوة اليقين وعدم تضعضع الثقة فى الله تعالى.

والأمر الثانى الذى كان أثرا لذلك الكلام المدسوس المثبط أنهم قالوا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ ومعنى حسبنا أى كافينا، أى إذا كانوا هم يستنصرون بقواتهم يحشدونها، وعددهم يستكثرون به، ويعدون ذلك كفايتهم، فنحن كفايتنا من الله تعالى، وقد وعدنا بالنصر، وهو نعم النصير المعاون، فالوكيل هنا معناه النصير الكفيل المعاون، والوكيل الذى يستعان به فى الدنيا إنما يكون لفضل قوته أو خبرته أو حكمته، فكيف يكون والمستعان هو الله سبحانه وتعالى، وهو نعم المولى ونعم النصير، فالوكيل هنا هو القادر الذى توكل إليه الأمور.

ويتكلم العلماء حول قوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ فيقولون هل الإيمان يزيد وينقص؟ لقد قال بعض العلماء إنه لا يزيد ولا ينقص لأنه اعتقاد وإذعان، وتلك حقيقة ثابتة إما أن توجد كاملة وإما ألا توجد، ويكون معنى الزيادة على هذا الرأى ليست زيادة أصل الإيمان، إنما زيادة الثقة بنصر الله تعالى وعونه، وذلك من ثمرات الإيمان، لا من أصله، وهو شعبة منه، وليس جوهره.

وقال آخرون وهم الأكثرون: إن الإيمان يزيد وينقص، وقد قال الزمخشرى فى تصوير ذلك الرأى من هذه الآية: لما أخلصوا النية والعزم على الجهاد، وأظهروا حمية الإسلام كان ذلك أثبت ليقينهم وأقوى لاعتقادهم، كما يزداد الإيقان بتناصر الحجج، ولأن خروجهم على أثر التثبيط - إلى العدو طاعة عظيمة، والطاعات من جملة الإيمان لأن الإيمان اعتقاد وإقرار وعمل، وعن ابن عمر رضى الله عنه أنه كان يأخذ بيد الرجل، فيقول: قم بنا نزدد إيمانا، وعنه: «لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان هذه الأمة لرجح».

ولقد قالوا: إن قوة الإيمان بإشراقه فى القلب، وشدة ذلك الإشراق، وروى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه. عن النبى ﷺ: «إن الإيمان ليبدو لَمْظَةَ بيضاء فى القلب، وكلما ازداد الإيمان ازدادت اللمظة»(١). أى كثر الصفاء وأشرق البياض، وكان العمل الصالح.

والإيمان هو اليقين الجازم القاطع واليقين وهو من حيث أثره فى النفس ثلاث مراتب:

أولاها: علم اليقين، وهى أن تتوافر الأدلة والاطمئنان حتى يكون اليقين الجازم القاطع الذى لا يكون معه شك ولا ريب، ولا إنكار أو جحود، بل تسليم وإذعان من غير مماراة.

وثانيها: عين اليقين ، وهو أن تكون أعماله كلها وفق ذلك الاعتقاد الجازم، فيكون اليقين قد رؤى عيانا فى الجوارح والأعمال.

والثالثة، وهى المرتبة العليا: حقيقة اليقين، وهى أن يصل إلى درجة تشبه المشاهدة أو تكون من جنسها وهى التى قال فيها النبى ﷺ: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(٢) وهذه مرتبة المشاهدة ولقد وصل إليها الأبرار من أصحاب النبى ﷺ مثل أبى بكر وعمر وعثمان وعلى، ولقد قال على كرم الله

---

(١) ذكره القرطبي في التفسير: آل عمران (١٧٣)، وأحسبه موقوفا على علي رضي الله عنه.
(٢) سبق تخريجه.

وجهه: (لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا) لأنه رضى الله عنه وصل إلى مرتبة المشاهدة. وفى الجملة فإننا نرى أن الإيمان يزيد وينقص والله سبحانه وتعالى عليم بذات الصدور.

﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ بعد أن خرج أولئك الأبرار الأطهار، وقد استعدوا إلى اللقاء عادوا من بدر إذ لم يجدوا[١]، فمعنى انقلبوا عادوا. والانقلاب فى العودة تصوير للحال الحسية عند العودة؛ لأنهم بعد أن كانوا مستقبلين بدرا استدبروها وبعد أن استدبروا استقبلوها، وهذا التعبير يدل على أنهم عادوا كما خرجوا لم يقتلوا ولم يقاتلوا، ولكن صحبهم فى هذه العودة أمور أربعة: أولها- نعمة الله عليه إذ خذل أعداءهم وثبطهم وألقى الرعب فى قلوبهم وأحسوا بأنهم وحدهم لا قِبَلَ لهم بمحمد ﷺ والذين آمنوا معه، ولذلك لما عادوا إلى القتال ومحاولة ضرب المدينة ضربة قاصمة جمعوا العرب بشتى قبائلهم فى غزوة الأحزاب فى العام الثانى، وثانيها- الفضل من الله، وقد فسر كثيرون الفضل بأنه فضل مالى؛ لأن المسلمين لما لم يجدوا قتالا اتجروا فى بدر، ويروى أن عيرا كبيرة مرت ببدر فى هذا الموسم من سوقها فاشتراها النبى ﷺ فربح مالا، وقسمه بين أصحابه وذلك الربح هو الفضل، وقد روى البيهقى ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما[٢] ولا مانع من أن نعتبر ذلك الفضل معنويا، وهو فضل الجهاد والنية المحتسبة وقد باعوا أنفسهم لله تعالى، ولعل الأولى أن نقول: إن الفضل يشمل النوعين الربح المالى، والشرف المعنوى، وكلاهما قد نالوه.

وثالث الأمور- أنهم عادوا سالمين، وهذا معنى: ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ أى لم تنزل بهم جراح، بل إنه حتى الأمر الذى يسوءهم لمْ يمْسَسْهم بل قد عادوا

---

(١) أي لم يجدوا قتالا.

(٢) رواه البيهقي عن ابن عباس - في قول الله ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل﴾ قال: النعمة أنهم سلموا، والفضل: أن عيرا مرت في أيام الموسم فاشتراها رسول الله ﷺ فربح فيها مالا فقسمه بين أصحابه.

فرحين مستبشرين، ورابع الأمور- أنهم اتبعوا رضوان الله، أى اتبعوا أمر الله تعالى، وساروا فى الطريق الذى يكون فيه رضوانه تبارك وتعالى، ورضوان الله أعظم ما يناله المؤمن، وحسبه أن يكون فى عمل فيه رضوان الله الذى هو أكبر النعم لينال حظى الدنيا والآخرة، وإن هذه النعم التى نالوها هى من فضل الله تعالى:

﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ ختم الله سبحانه وتعالى هذه الآية الكريمة بذلك النص السامى وهى تصف المولى العلى الكريم بأنه صاحب فضل عظيم لا تكتنه حقيقته، ولا يحده الحصر، وقد بدا فيما أسبغه الله تعالى من نعم على الناس أجمعين، وما أنقذ به عباده المؤمنين من شر الكافرين، وما وفقهم له من طلب رضوانه وما نصرهم به من نصر مؤزر، والتنكير فى الفضل ووصفه لإفادة كثرته وقوة أثره.

ومن أفضل نعم الله أنه ثبت قلوب المؤمنين، فلم يفزعوا عندما دست الأخبار لإفزاعهم وترويعهم، فلم يروعوا لأن الله حاميهم وهم اعتمدوا عليه وهو وليهم؛ والترويع من الأوهام إنما يكون لأولياء الشيطان، ولذلك قال سبحانه موازنا بين أهل الإيمان وأهل الكفر والشيطان:

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ الخطاب فى الآية للمؤمنين الأقوياء أى إن الإرهاب والإفزاع يكون من أولياء الشيطان(١)، وهو يخوف أولياءه ونصراءه بهذا التخويف وذلك الإفزاع، لأن أولئك لا يهمهم إلا الحياة الدنيا، ودائرة سلطان الشيطان فى أن يحملهم على ألا يؤمنوا بالحياة الأخرى، ومادامت الدنيا همهم اللازم، فإنه لا يهمهم إلا الفوز الحاضر، ومن هنا يجد الشيطان موضع ثقته ووسوسته، فأولياء الشيطان إذا كانوا قد خوَّفوا المؤمنين بالكثرة والعدد والهزيمة القريبة، فذلك هو منطقهم ومنطق الشيطان، أما المؤمنون فهم أولياء الله ولا يعتمدون إلا عليه، ولهم إحدى الحسنيين إما النصر العاجل

(١) قال القرطبي: «قال ابن عباس وغيره: المعنى يخوفكم أولياءه؛ أي بأوليائه.

ومعه الجزاء، وإما الاستشهاد والثواب المقيم، ورضوان الله أكبر، وهو ثابت فى الحالين، ولذلك لا يفزعهم مثل هذا التهديد الذى حملته رسل أبى سفيان، ويكون المعنى على هذا، إن تخويف الشيطان المبنى على الإفزاع والإرهاب إنما يكون أثره فى أوليائه من الكافرين والمنافقين، ولا يمكن أن يكون له أثر فى قلوب المؤمنين، والإشارة فى قولهتعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ﴾ هى للعمل الذى قام به أولئك الذين دسوا القول المفزع المثبط فى النبى ﷺ والذين آمنوا معه، وجعل المسند إليه من قبيل ذكر السبب وإرادة المسبب، فالمعنى: إنما ذلكم القول المدسوس هو الشيطان أى عمله وتدبيره، ولا يمكن أن يكون إلا فى أوليائه، والله ولى الذين آمنوا، والشيطان على هذا هو إبليس اللعين الذى أضلهم ويخوفهم، هم ومَن هم على شاكلتهم من المنافقين.

ولقد أكد الله سبحانه ولايته لهم، ونصرته لهم فقال تبارك وتعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أى فلا تخافوا تهديدهم الذى هو تدبير الشيطان، فإنه إذا كنتم أولياء الله، ولا يهمكم إلا رضاه، ولستم أولياء الشيطان، ولا أثر له فى قلوبكم، فلا يصح لكم أن تخافوا أولياء الشيطان، ولا تدبيره، والله معكم، ولذلك لا تخافوا سواه ما دام الإيمان شأنكم ووصفكم، فضعوا فى نفوسكم ولاية الله ونصرته وتقواه، وضعوا أيضا فى نفوسكم خشية عقابه ورجاء رضاه، فإن فعلتم خفتم الله وأرضيتموه، واتبعتم طريق السداد، وكنتم فى أمن من الشيطان وأوليائه.

والخوف أمر نفسى لا قدرة للإنسان على منعه، فكيف يكون النهى عنه؟ والجواب عن ذلك أن النهى عن الخوف نهى عن أسبابه، ودعوة إلى رياضة النفس على الصبر؛ وذلك لأن سبب الخوف والجبن حب الدنيا وكراهية الموت، وعدم عمران القلب بذكر الله وعدم الإحساس بولاية الله تعالى، وضعف الثقة بالنفس وبالله، فالله سبحانه وتعالى إذ نهى المؤمنين عن الخوف من الشيطان فمعناه النهى عن أسباب الخوف والأخذ فى أسباب القوة، بالتقوى وذكر الله تعالى، والاتكال

عليه تعالى بعد الأخذ فى الأسباب، والإيمان بأن الله تعالى ناصر دينه، وناصر من استمسك به وأخذ بعروته ولم يتركها قط.

والمقابلة بين النهى عن الخوف من أولياء الشيطان، والأمر بالخوف منه سبحانه، فيها بيان علاج النفس إذا ضعفت وخافت من الشيطان وأوليائه، فدفع الخوف من أولياء الشيطان يكون بالخوف من الله تعالى، فمن خاف الله تعالى حق الخوف منه لا يخاف أحدا من العباد إذا عاندوا وحادوا الله ودينه، لا يخاف أهلَ الضلال من يخافُ الله سبحانه وتعالى[١].

ولقد كان المشركون بعنادهم المستمر ومقاتلتهم النبى ﷺ وأصحابه بعد فتنتهم يوغلون فى الكفر، والنبى ﷺ تذهب نفسه عليهم حسرات، فهو لا يخاف منهم، ولكن يشفق، ويتمنى أن يجيئوه مؤمنين، بدل أن يأخذهم مقتولين، ولقد نهاه سبحانه عن الحزن عليهم فقال تعالى: ﴿**وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا**﴾:

والمعنى لا يحزنك ولا تكن فى نفسك حسرة على الذين يسارعون فى الكفر أى يوغلون فيه وينتقلون من درجة إلى درجة فينتقلون من الضلال والجحود إلى التضليل ومن التضليل إلى الفتنة ثم القتال، ثم التدبير الخبيث والمكر السيئ، ولقد فسر الزمخشرى كلمة ﴿**يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ**﴾ بمعنى الوقوع فيه سريعا من غير تريث وتدبر وتفكير، والأول عندى أوضح؛ لأن الكلام ليس فى الذين وقعوا فيه من جديد، وإنما هو فى الذين مردوا عليه وأوغلوا فيه واستمروا عليه، والنهى عن الحزن نهى عن الاسترسال فيه، ونهى عن أسبابه، وهو الظن بغلبة الضلال على اليقين والكفر والإيمان، ولقد طمأن الله تعالى نبيه تأكيدا للنهى، ونفيا لمبرراته، فقال سبحانه:

﴿**إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا**﴾ أى إنهم مهما يتماد شرهم وطغيانهم وفتنتهم الناس عن دينهم، فلن يضروا الله شيئا من الضرر ولو صغيرا. فلن ينقص كفرهم

---

(١) أي فهما ضدان، والضدان لا يجتمعان.

من سلطان الله، ولن يزيد إيمانكم من سلطان الله تعالى، فالله غالب قاهر فوق عباده، فعظمة الله لا يُنقصها كفر، وقد زكى سبحانه النهى عن الحزن بأمر آخر وهو بيان أن الله أراد لهؤلاء ما هم عليه، وإن كان باختيارهم، ولذا قال سبحانه:

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ ﴾ أى أنه لا يصح أن تحزن لمسارعتهم فى الكفر وانحدارهم فى مهاويه؛ لأن الله سبحانه هو الذى لم يجعل لهم حظا فى الآخرة، فما عصوا الله تعالى غالبين لإرادته، بل عصوا بإرادتهم وإرادته سبحانه، وإن كان لا يرضى لعباده الكفر، وفرق ما بين الرضا والإرادة، فالله سبحانه وتعالى لم يرد أن يجعل لهم حظا فى الآخرة، ولكنه لا يحب الكفر ولا يرضاه.

فالمعنى أن كفرهم ليس مراغمة لله ـ سبحانه ـ حتى تحزن وإنما هو بإرادته لأنه أراد ألا يكون لهم حظ من الخير فى الآخرة ولهم بدل الحظ من الخير عذاب عظيم، ولذلك قال سبحانه: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾، لتهديدهم بما يستقبلهم فوق الخزى العظيم فى الدنيا، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار.

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ
أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ
وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ
أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ
عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ
وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٧٩﴾

النص الكريم في بيان معاملة الله تعالى للذين تركوا الحق، ويتبعون الضلال، ويُحادُّون الله ورسوله سرا وإعلانا، وقد بين سبحانه في الآية أنه لا يصح أن تكون مسارعة الكفار في الكفر وتنقلهم من حال إلى حال فيه سببا في حزنك، وإلقاء الغم في قلبك، لأنهم لايضرون إلا أنفسهم ولن يضروك شيئا ما دام الله سبحانه معك، ولن يتخلى عنك، وفي هذه الآيات يبين معاملة الله تعالى لهؤلاء الكافرين، واختباره سبحانه للمؤمنين، وأنه سبحانه وتعالى قد قدر كل ذلك في علمه المكنون الذي لا يطلع عليه أحد، وقد قال سبحانه في أوصاف الكافرين: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾.

هذه الآية تبين حال الذين عاندوا الرسول، ولم يخلصوا في طلب الحق، وهؤلاء أقبلوا على الكفر راغبين فيه طالبين له، حتى إنهم ليجعلون الإيمان الذي أودعه الله تعالى النفوس في تكوينها، وجعله موضع النور في كيانها - ثمنا يقدم في نظير الكفر الذي يأخذونه، وفي هذا دلالة على أمرين:

أولهما: أن الكافرين طمس على قلوبهم فاستبدلوا بفطرة الإيمان التي فطر الله الناس عليها كفرا قامت الدلائل على بطلانه فكان هذا دليلا على تمكن الضلال، وكل ما يقع منهم بعد ذلك من شر يجب أن يكون متوقعا، فيهون أمره، ويضعف في النفس أثره.

ثانيهما: أن الإيمان في ملك كل إنسان، وهو الأصل الذي يجب أن يهتدي إليه عندما تلوح ظواهره وبيناته فإن الله تعالى قد ألهم كل نفس فجورها وتقواها، والبينات الشاهدة الواضحة المؤيدة الهادية تجعل الإيمان في قبضة يد طالب الحق، فإذا فتح قلبه للكفر، فقد باع أغلى شيء في الوجود، وهو الإيمان، بأحقر شيء في الوجود وهو الكفر، والكلام بعد ذلك فيه استعارة تمثيلية، وهي تصوير الكافر الذي يترك بينات الله وآياته، وإنها لكثيرة، ويختار الضلال مع قيام الأدلة على بطلانه، بمن يكون في يده أجود بضاعة، ويبيعها بأرخص الأثمان، بل بشيء لا

يفيد قط، وفيه إشارة إلى أن الكافرين يعلمون أن ما هم عليه هو الباطل، ولكنه العناد والطغيان، وقد ذكر ذلك سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ... (١٤)﴾ [النمل].

وقد بين سبحانه أن هؤلاء الذين اتجروا بإيمانهم وجعلوه سلعة تباع - مغبة فعلهم عليهم وحدهم دون سائر الناس، ولن يضروا المؤمنين إلا أذى والعاقبة للمتقين، ولذا قال سبحانه: ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ أى ليس فى طولهم ولا فى طاقتهم أن يضروا دين الله تعالى ولا رسول الله ﷺ، ولا المؤمنين بالله تعالى شيئا من الضرر الذى تكون عاقبته انتصارهم إلى النهاية، فإن الله تعالى ناصر دينه خاذل أعداء الحق، فإضافة إرادة الضرر إلى الله تعالى على حذف مضاف، أى وتقديره دين الله أو رسوله أو المؤمنين بالله، وفى حذف المضاف إشارة إلى أن ما يفعله المشركون ويوجهونه إلى المؤمنين إنما يوجهونه إلى الله تعالى رب العالمين، وذلك إعلاء للدين وللرسول وللمؤمنين.

وإذا كان أولئك لا يضرون الله فهم لايضرون إلا أنفسهم، وبين سبحانه الضرر الذى يلحقهم بقوله سبحانه: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى عذاب مؤلم شديد الإيلام لهم فى الدنيا وفى الآخرة، فآلامهم فى الدنيا هزائم تتلوها هزائم، وخزى وسقوط لهم عن علياء طاغوتهم إلى الدرك الأسفل، وفعيل هنا بمعنى فاعل، كـ ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ... (١١٧)﴾ [البقرة] بمعنى مبدع.

ولقد يسأل سائل: لماذا يتمتع هؤلاء بالسلطان، ولماذا ينتصرون أحيانا؟ فبين سبحانه أن ذلك إملاء لهم، فقال: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ﴾.

قد يرد على الخاطر: إذا كان أمر الله هو الغالب فَلِمَ يترك هؤلاء فى هذا النعيم؟ فقال سبحانه ذلك النص الكريم.

الإملاء: الإمهال والتخلية بين العامل والعمل ليبلغ مداه، من قولهم: أملى لفرسه إذا أرخى له الطول ليرعى كيف شاء، ويطلق الإملاء على طول العمر، وهو من أملى بمعنى أعطاه ملاوة أو مهلة من الزمان. جاء فى مفردات الراغب الأصفهانى: «الإملاء: الإمداد، ومنه قيل للمدة الطويلة ملاوة من الدهر، وملى من الدهر».

وهنا فى النص الكريم قراءتان إحداهما بالياء أى: ﴿**وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ**﴾ ويكون النهى عن الظن متجها للذين كفروا، والمعنى على هذا لا يجل بخواطر أولئك الكافرين أن إملاءنا لهم بإعطائهم نعيما فى الدنيا، وإرخاء العنان لهم، وتمتيعهم وعدم القضاء عليهم دفعة واحدة - فيه خير لهم، ويكون مفعولا يحسب قد سد مسدهما «أنْ» المصدرية و«ما» بعدها فإن ذلك كثير فى القرآن وكثير من كلام العرب، كقولك عن شخص: لا يحسب أنه عالم.

وعلى القراءة الثانية[1]، ﴿**وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنفُسِهِمْ**﴾ يكون الخطاب بالنهى متجها إلى النبى ﷺ، ويكون المفعول الأول هو ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾، و﴿**أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنفُسِهِمْ**﴾ بدل من الذين كفروا، وسد مسد المفعول الثانى، ويصح أن يكون هو المفعول الثانى، ويكون المعنى على هذا: لا تظن يا محمد ولا يظن أحد من أمتك الذين كفروا قد أُمْلِىَ لهم لخير يأتيهم، ويكون توجيه الظن إلى الذين كفروا له فائدة؛ لأن الظن قد سبق إلى المؤمنين من أشخاصهم، وما أوتوا من مال وقوة وعزة نفر، وبقاءهم على هذا أمدا طويلا.

وقد صرح سبحانه من بعد ذلك بنتيجة الإملاء فقال سبحانه: ﴿**إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ**﴾.

---

(١) أي: (ولا تحسبن) قرأها بالتاء خطابا: حمزة، وقرأ الباقون بالياء فيها، وكذلك في الآية (١٨٠) التي بعدها من نفس السورة. غاية الاختصار ج٢ ص٤٥٦.

والمعنى أننا لا نملى للذين كفروا إلا لنتيجة واحدة مقررة ثابتة، وهى أن يزدادوا إثما، وينالهم عذاب مهين مذل لهم فى الدنيا والآخرة، فإنهم إن كانوا قد نالوا فى هذا الإملاء نعيما وعزا، فإنهم بعد ذلك سينالهم العذاب الأليم المهين الذى لا يكون لهم قِبَلٌ بدفعه.

و«اللام» هنا لبيان العاقبة لا للتعليل والغاية وذلك كقوله تعالى: ﴿ **فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا** ... ﴿٨﴾ ﴾ [**القصص**]، وذلك بيان للنتيجة؛ لأن نتيجة الالتقاط كانت كذلك، وإن كان الباعث فى الحقيقة هو أن يتخذوه لهم وليا وموضع سرور، وبهذا تكون الآية مبينة لغاية عملهم، وأن النتيجة شر لهم لا محالة.

وقد يقول قائل: إن من الكافرين من تكون زيادة الإملاء له سببا فى زيادة خير يقوم به وإن كان كافرا، وإن من هؤلاء الكافرين من يؤمن ويحسن إيمانه، فكان حقا أن الإملاء أنتج خيرا إذ مكنهم من الإيمان.

ونقول فى الإجابة عن الأول إن زيادة الإثم، لا تمنع وجود فعل خير، وهم يزداد إثمهم باستمرارهم على الكفر ومشاقة الله ورسوله على أن ما يفعلون من خير يحبطه جحودهم وإنكارهم ومعاندتهم لله سبحانه إذ تنقصهم عند فعل الخير النية الطيبة.

وعن الثانى نقول: إن زيادة الإثم مشروطة باستمرارهم على الكفر؛ لأن الإملاء ينقطع بإيمانهم، وإن الإملاء إنما هو لأجل مشاقة الله ورسوله وإعلان الكفر ومحادة الحق، وبإيمانهم تنتهى هذه المشاقة فيزول سبب الإملاء، وإن زيادة الإثم إنما هى منوطة بوصف الكفر، فبانتهائه تزول الزيادة، بل يغفر الله سبحانه وتعالى ما سبق كما قال تعالى: ﴿ **قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ** ... ﴿٣٨﴾ ﴾ [**الأنفال**].

وقد وصف عذاب هؤلاء بأنه مهين ليتعزى المؤمنون عما يرون من عزة هؤلاء وسلطانهم ببيان أنهم سيكونون من بعد فى أشد الذلة؛ لأن عذاب الله سبحانه سيريهم الهوان الحقيقى الدائم الذى لا رفعة معه.

وقد بين سبحانه أن تلك الشدائد التى تنزل بالمؤمنين هى خير لهم ليتبين الطيب من الخبيث، ولذا قال سبحانه: ﴿ **مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ** ﴾.

كانت هذه الشديدة التى نزلت بالمسلمين فى غزوة أحد سببا فى أن عُرف المؤمنون الصادقون من المنافقين وضعاف الإيمان، وقد بين سبحانه أن شأن الله تعالى فى عباده أن يختبرهم، ويصهر جماعتهم بالشدائد لينفصل عنهم الخبث، كما ينفصل الخبث عن الذهب بصهره، و«يذر»: معناها يترك، وقوله: ﴿**عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ**﴾، من اليسر، وعدم التعرض للشدائد، ومعنى ﴿**يَمِيزَ**﴾ يفصل، وقرئ (يميِّز)[١] أى يحدد ويبين، والطيب هو الصادق الإيمان، والخبيث هو المنافق ومن يثق به من ضعاف الإيمان، ومعنى النص الكريم: ما كان من شأن الله تعالى وسنته فى عباده، ومعاملته لأهل الإيمان والصدق أن يتركهم فى حال من اليسر الذى لا صعوبة معه، فإن ذلك يجعلهم مختلطين لا مميز يميز من دخل فى الإيمان وأشرب قلبه حبه، ومن دخل فى الإسلام ولم يذق حلاوته، ومن أضمر الكفر وأظهر الإيمان، وما كان الله تعالى ليتركهم غير متميزين حتى يبين الخبيث من الطيب، وتنفصل الأقسام، وتتميز كل جماعة بحقيقتها. وهذا على أن قوله تعالى: ﴿**عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ**﴾ من نصر مستمر، لا مشقة فيه ولا ابتلاء، وعلى أن قوله تعالى: ﴿**عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ**﴾ بمعنى مختلطين غير متميزين يكون السياق واضحا، وقد بينه الزمخشرى بقوله: (لا يتركركم مختلطين حتى يميز الخبيث من الطيب بأن يكلفكم التكاليف الصعبة التى لا يصبر عليها إلا الخلَّص الذين امتحن الله قلوبهم كبذل الأرواح فى الجهاد، وإنفاق الأموال فى سبيل الله، فيكون عيارا

(١) أي بتشديد الياء؛ وبها قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف. المرجع السابق.

على عقائدكم، وشاهدا بضمائركم، حتى يعلم بعضكم ما فى قلب بعض من طريق الاستدلال ، لا من جهة الوقوف على ذات الصدور والاطلاع عليها فإن ذلك مما استأثر به علم الله).

وإن أولئك المنافقين الذين يتخذون من الهزيمة دليلا على عدم صدق الرسول لكاذبون؛ لأن الله لا يطلع على غيبه أحداً، وماكان لكم معشر المؤمنين أن تعلموا حقيقة المنافقين وضعاف الإيمان فإن ذلك من الغيب.

﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ** ﴾ الغيب ضد المشاهد ، وهو ما غيب عنا مما لا نعلمه بطريق الحس ولا تصل عقولنا المجردة إلى معرفته، كالعلم بما يكون فى المستقبل، وحقيقة الملائكة وذواتهم، وغير ذلك مما غيب الله عنا علمه، و«اجتبى» معناها اختار واصطفى، والمعنى: من شأن الله تعالى أن لا يطلع عباده المؤمنين على الغيب من الأمور، حتى يعرفوا ما يكون لهم فى الغد، بل إنه يغيب المستقبل عنهم ليجِدّوا ويجتهدوا، ويعلموا، وسيرى الله عملهم ورسوله والمؤمنون، ومع ذلك يصطفى من رسله من يطلعهم على بعض الغيب، كما كان يطلع رسوله أحيانا على بعض ما يدبر له كاطلاعه على مادبره اليهود لاغتياله، وكاطلاعه على من حملت رسالة إلى قريش تخبرهم بسر غزوته لهم، وكمكاشفته بالوحى لجبريل الأمين، وهكذا من شئون الغيب، ويستفاد من هذا أن الله سبحانه وتعالى قد اختص بعلم الغيب، كما فقال تعالى: ﴿ **وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ...** ﴿٥٩﴾ ﴾ [**الأنعام**] وأن الأنبياء قد يصطفى الله منهم من يعطيه علم بعض المغيبات، فما يعطيهم يعلمونه، وإنه لنزر قليل لايعد شيئا ولقد قال سبحانه على لسان نوح عليه السلام: ﴿ **وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ...** ﴿٣١﴾ ﴾ [**هود**]، وقال تعالى عن النبى ﷺ: ﴿ **وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ ...** ﴿١٨٨﴾ ﴾ [**الأعراف**].

﴿ **فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾ أى إذا علمتم أن الله تعالى لا يطلع على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يتعين أن تؤمنوا بالله

حق الإيمان بأن تعرفوه متصفا بصفات الكمال منزها عن المشابهة للحوادث، ليس كمثله شيء، وأن تؤمنوا برسله فتعرفوا حقيقة رسائلهم وأن تؤمنوا بالله حق الإيمان، وبالرسل وما جاءوا به وتتقوا الله وتجعلوا وقاية لأنفسكم بالطاعات تقومون بها وتؤدونها على وجهها فلكم أجر عظيم.

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾

بين الله سبحانه وتعالى العبر فى غزوة أحد وما كان فيها، وقد أشار سبحانه فى آخر بيان العبر إلى ماعليه أهل الكفر من نعيم دنيوى، وتمكين من أسباب الحياة، وأشار سبحانه وتعالى بالشدائد، مع رؤية نعيم الكافرين، ليميز الله سبحانه وتعالى الخبيث من الطيب، وأشار سبحانه إلى أن هذا الإملاء للكافرين ليس خيرا لهم، بل إن عقباه ستكون شرا لهم؛ لأنهم بهذا العطاء سيستمرئون الشر، ويوغلون فيه إيغالا، ووراء ذلك العذاب الأليم، والخزى فى الدنيا والآخرة، وفى هذه الآيات يصرح سبحانه بما يكون منهم فى النعمة التى اختبرهم سبحانه وتعالى بها؛ إذ إنهم لا يجعلونها سبيلا للخير، بل يحبسونها على أنفسهم حبسا، فتكون شرا لا خير فيه لأحد، ولذا قال سبحانه: **﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾**.

البخل هو الحرص الشديد فيما يملك الإنسان من مال أو علم أو أى ضرب من ضروب القدرة التى يستطيع أن يعين بها غيره، وعلى ذلك يشمل البخل كل شح، سواء أكان موضوعه المال، أم لم يكن موضوعه المال، وقد فسر بعض العلماء البخل فى هذه الآية بكتمان العلم، ذلك أن اليهود كتموا أوصاف النبى ﷺ وتبشير التوراة به، وضنوا بها فلم يعلنوها ليضلوا، أو ليمنعوا الهداية.

وقد فسر الأكثرون البخل بمعناه الظاهر المتبادر، وهو البخل فى المال، ويتفق هذا مع سياق الكلام، إذ إن الله سبحانه وتعالى قد حكى عن هؤلاء الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله، أن منهم من يقول إن الله فقير ونحن أغنياء، ولأن الله سبحانه وتعالى ذكر بعد بيان بخلهم أن الله سبحانه وتعالى له ميراث السموات والأرض، والتعبير بكلمة ميراث يومئ إلى أن موضوع البخل هو المال.

والنهى عن الظن وأن البخل المالى فيه خير فى قوله تعالى: ﴿**وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ**﴾ يدل على النفى المؤكد، فالمعنى لا يصح لهم أن يظنوا بأى حال من الأحوال أن ذلك البخل فيه خير لهم، بل فيه شر لهم، وفى الآية الكريمة إشارة إلى أن سبب البخل نسيان أصل المال، إذ أن البخيل يحسب أن ما يأتى إليه من مال إنما هو بجهوده وكسبه فقط، وليس فضلا من الله، وينسى أن الله سبحانه وتعالى هو المعطى المانع، وأنه يرزق من يشاء بغير حساب، وأن الرجلين يسعيان ويتخذان الأسباب، فتأتى جائحة لهذا تأكل الأخضر واليابس، وينجو مال ذاك، والله على كل شىء قدير، وبكل شىء عليم، ولذا بين الله سبحانه أن المال الذى يجىء إليهم إنما هو بفضل من الله سبحانه وتعالى، ولذلك قال: ﴿**يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ**﴾، فهو يبين لهم أن المال مال الله تعالى، وأن الله تعالى يعطى من يشاء، ويمنع من يشاء.

والضمير فى قوله تعالى: ﴿**هُوَ خَيْرًا لَّهُم**﴾ تأكيد لمعنى البخل المفهوم من قوله تعالى ﴿**يَبْخَلُونَ**﴾، ونرى أن الضمير ضمير الفصل لتأكيد نفى الظن فى الخيرية.

وقد بين سبحانه أنه شر لهم، فقال سبحانه: ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ وفى إعادة الضمير، وذكر الجملة الاسمية تأكيد لمعنى الشر فى البخل، والبخل شر فى الدنيا وفى الآخرة؛ وذلك لأنه يدفع إلى الحقد فى الدنيا، والحقد فى الآحاد يؤدى إلى النزاع المستمر، وتقطع العلاقات الأدبية، وهو فى الجماعات يؤدى إلى الخراب والدمار. ولقد روى مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»[١].

﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ التطويق إما من الطاقة، والمعنى سيكلفون أقصى ما يطيقون ليخسروا المال الذى بخلوا به يوم القيامة، ولكنهم لا يملكون فى هذا اليوم من أمرهم شيئا، فلا يستجيبون لنداء، ولا لكلام، لأنهم لا يستطيعون، وذلك على حد قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [القلم].

وقد يكون وهو الأرجح من الطوق، والمعنى أنه سيكون ما بخلوا به طوقاً فى أعناقهم، وغلا فيها يشعرهم بما كان منهم فى الدنيا، وهو طوق مؤلم، مَثَّلَهُ النبىُّ ﷺ بثعبان، فقد روى البخارى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مُثِّلَ له شجاعا[٢] أقرع له زبيبتان يطوَّقه يوم القيامة فيأخذ بلهزمتيه[٣] يقول: أنا مالك أنا كنزك ثم تلا قوله تعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾»[٤].

---

(١) رواه مسلم: البر والصلة والآداب - تحريم الظلم (٤٦٧٥) عن جابر رضي الله عنه.

(٢) قال الإمام رحمه الله: الشجاع: هو الثعبان الذكر الذى يقوم على ذنبه ويواثب الراجل والفارس. والأقرع هو الذى يكون أملس الجلد كثير السم، والزبيبتان علامتان سوداوان فوق عينيه، وهما تكونان لأخبث الحيات.

(٣) اللهزمتان بكسر اللام والزاى: شدقاه.

(٤) رواه البخاري: الزكاة - إثم مانع الزكاة (١٣١٥). كما رواه النسائي: الزكاة - مانع زكاة ماله (٢٤٣٦)، وأحمد: باقي مسند المكثرين (٧٣٠٧) كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

والنص القرآنى والحديث النبوى استعارة تمثيلية لإحاطة البخل بصاحبه يوم القيامة، وإنها إحاطة إيلام، وفيها بيان أن السعادة الوقتية للاكتناز والبخل فى الدنيا ستكون يوم القيامة بؤسا شديدا، وشقوة وإيلاما.

بهذا النص الكريم تبين قبح البخل، ويتبين مقام الإنفاق فى سبيل الله ولكن ما حد البخل؟ وما حد السرف؟ وبهذين الحدين يتبين الإنفاق الحلال والقصد.

لقد قرر العلماء أن الإنفاق فى سبيل الله تعالى لا إسراف فيه قط، ولو كان بكل المال وأنه يروى أن عمر بن الخطاب تبرع فى إحدى الغزوات بنصف ماله، وأن أبا بكر الصديق تبرع بكل ماله، فسأله النبى ﷺ قائلا: «ما أبقيت لأهلك؟» فقال صديق هذه الأمة: «الله ورسوله»[1] وقد كان ذو النورين عثمان بن عفان يجهز الجيش كله أحيانا، كما فعل فى ساعة العسرة، ولم يعد ذلك إسرافا.

وقد اتفقوا أيضا على أن الامتناع عن الإنفاق فى سبيل الله تعالى فى عسرة الدولة، ومداهمة الأعداء لها، بخل بل هو أقبح البخل وأشده، ولذلك أجاز الفقهاء فرض ضرائب إذا داهمت الأمة الإسلامية الأعداء وامتنع الأغنياء عن الإنفاق، وهذا النوع من البخل هو المقصود بهذا النص الكريم .

وقد اتفقوا أيضا على أن كل درهم ينفق فى معصية هو إسراف، والخلاصة أن الحد ما بين الإسراف والبخل هو الإنفاق فى غير ما أمر الله تعالى، ولذلك يقول ابن عباس: إنفاق ألف فى سبيل الله لا يكون إسرافا، وإنفاق درهم فى معصية يكون إسرافا.

﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ هذا النص الكريم يفيد أربعة معان تؤكد وجوب الإنفاق فى سبيل الخير، والجهاد فى سبيل الله تعالى:

---

(١) رواه الترمذي وقَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ: كتاب المناقب - في مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما كليهما(٣٦٠٨). كما رواه أبو داود في الزكاة - في الرخصة في ذلك (١٤٢٩)، والدارمي: الرجل يتصدق بجميع ما عنده (١٦٠١)، وذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (باب لا صَدَقَةَ إِلا عَنْ ظَهْرِ غِنًى).

المعنى الأول - أن المال كله لله تعالى، فهو الذى أعطى كما عبر سبحانه وتعالى: ﴿بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾، وأن مآل المال إليه سبحانه وتعالى فى ضمن ما يئول إليه كل شيء فى هذا الوجود، بلا استثناء مطلقا، ومن يبخل لورثة يرثونه، فليعلم أن الميراث كله لله تعالى، وأنه سيعطيهم إن أراد سبحانه، وإن لم يرد لهم عطاء فسينفقونه إسرافا وبدارا.

والمعنى الثانى - هو بيان سلطان الله تعالى على كل ما فى الوجود، فهو ملكه، وهو الذى يئول إليه، وفى ذلك بيان كمال سلطانه، وتأكيد لمعنى أنه المعطى الوهاب، والقوى الرزاق المتين، ولذلك لم يعبر عن الميراث بأنه ميراث الأموال التى نعرفها، بل ميراث كل ما حوته السماء وما حوته الأرض.

والمعنى الثالث - أن العطاء الذى يعطيه الله تعالى بعض عباده، ويختصهم به يوجب عليهم تكليفات مالية فيه، فإذا كان سبحانه وتعالى قد ابتلى الفقراء بالفقر، فقد ابتلى الأغنياء بالمال، وأوجب عليهم أن يعطوا، وهم محاسبون على مالهم، ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ⑨﴾ [الحشر]، وقد فهم هذا من ذكر علم الله تعالى الدقيق العظيم، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

والمعنى الرابع - أن الجزاء سيكون شاملا كاملا؛ لأن علم الله دقيق لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ⑦ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ⑧﴾ [الزلزلة].

ولذلك عبر سبحانه عن علمه بأعمالنا بأنه خبير، والخبرة هى العلم الدقيق الشامل.

ولقد كان الشح فى موضع الإنفاق يسرى إلى المسلمين من اليهود الذين كانوا يجاورونهم، ولذلك ذكر بعض شنائع اليهود لِيَنْفُرَ المسلمون منهم، ولا يقلدوهم فى خساستهم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾.

لقد كان اليهود يحرضون المؤمنين على الشح وعدم الإنفاق فى سبيل الله تعالى بطرق شتى، وكانوا يحاولون أن ينالوا من إيمان أهل الإيمان، فلما نزل قوله تعالى: ﴿**مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ... ﴿١١﴾**﴾ [**الحديد**] أخذوا يتهكمون على القرآن، وعلى دعوة الرسول ﷺ، ويصفون الله سبحانه بما لا يليق، وذلك ليُوهِنُوا قلوب المؤمنين، ويشككوهم فى دينهم، أو ليبعثوا فيهم روح الشح. ويروى فى ذلك عن ابن عباس أنه لما نزلت هذه الآية: ﴿**مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ... ﴿١١﴾**﴾ جاءت اليهود إلى النبى ﷺ، فقالوا: يا محمد ربك فقير يسأل عباده القرض[1]، ويظهر أن ذلك قد تكرر منهم، وتجرءوا به على ذات الله سبحانه، أو اتجهوا إلى تكذيب ما فى القرآن بالتهجم على ما اشتمل عليه فى هذا المقام، ولقد بين سبحانه أنه عليم بقولهم علم من يسمع القول، ولذلك قال سبحانه: ﴿**لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا...**﴾ وفى هذا التعبير بيان أن الله تعالى مُطَّلِعٌ عليهم، ومراقب لهم مراقبة من يستمع إليهم، وفى ذلك من التهديد ما فيه، إذ إنه إشعار بأن ذا الجلال القوى القهار القادر على كل شىء والذى يملك الوجود ومن فيه وما فيه، مستمع لما يقال فى شأنه، وما يتجرءون به عليه، كما يقول القائل لمن يجده يتجرأ على عظيم: إنه يسمع قولك ويعلم به، فارتقب عواقب ما تفعل، واستشعر الهيبة والمخافة والخشية: ﴿**وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾**﴾ [**النحل**] وقد عقب سبحانه ذلك بنتائج تلك المراقبة، وصرح بالتهديد الشديد فى قوله تعالى: ﴿**سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ**﴾.

فى هذا الكلام تهديد شديد لهم، وذلك لأن المعنى: سنثبت عليهم فى سجل الله تعالى قولهم هذا وتجرؤهم عليه سبحانه، وليس المراد مجرد الكتابة، بل المراد نتيجتها وهو الحساب عليها، والجزاء من العذاب الأليم، والتعبير بالكتابة كناية عن العلم المستتر الثابت الذى تترتب عليه نتائجه وثمراته، ولما تضمنته الكتابة

---

(١) رواه ابن أبى حاتم، وابن المنذر عن ابن عباس بسند حسن، وذكره الواحدى فى أسباب النزول.

من معنى العقاب الرادع الذى لا مناص منه عبر بالمضارع فقال سبحانه: «﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ والتعبير بـ ﴿مَا قَالُوا﴾ فيه إشارة إلى ما فيه من تجرؤ على الله تعالى، وتهجم على مقامه الأعلى سبحانه.

وقد قرن سبحانه ذلك القول الجرىء بعمل جرىء من أسلافهم، وقد ارتضوه، فكان من الحق أن ينسب إليهم، وهو ما عبر عنه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وذلك لإثبات جرأتهم فى الشر، واستهانتهم بالحقائق الدينية، وشرههم إلى الفساد، وقد أثبت الله سبحانه وتعالى بذلك فساد فعلهم بهذا القتل الشنيع، وفساد قولهم بذلك القول الفاسد الجرىء على الله سبحانه وتعالى.

وهنا تثار ثلاثة أمور نتكلم فيها بإيجاز:

أولها: فى قرن هاتين الجريمتين، وقد أشرنا إلى أنهما من نوع واحد، وهو التجرؤ على الله سبحانه وتعالى، فالقديمة تجرؤ على رسالة الله، والثانية تجرؤ على ذات الله، وبذلك يكونون قد عتوا عتوا كبيرا، وضلوا ضلالا بعيدا.

ثانيها: أن نسبة القتل إلى الحاضرين صحيحة لأنهم رضوا به، وإن لم يكونوا قد باشروه، ومن رضى بجريمة فقد فعلها، وقد قال النبى ﷺ: «إذا عملت الخطيئة فى الأرض كان من شهدها فأنكرها من غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها»(١).

وثالثها: أنه وصف قتلهم للنبيين بأنه بغير حق - مع أن هذا النوع من الإجرام لا يمكن أن يكون بحق أبدا، وذلك للإشارة إلى شناعة أفعالهم، وعظم شرهم، وأنهم لا يبالون أكان فعلهم فى موضعه أم فى غير موضعه.

وقد قلنا إن هذه الكتابة هى للعقاب، وقد قال سبحانه بعد ذلك مصرحا بالعقاب: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

---

(١) رواه أبو داود: الملاحم - الأمر والنهي(٣٧٨٢)عن العُرس بن عميرة الكندي.

الذوق هو الإحساس، وهو هنا الإحساس بالألم، والتأصل فى الذوق أن يكون فى أمر مرغوب فى ذوقه وطلبه، وهو هنا للألم، فالتعبير فيه تهكم عليهم، كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾﴾ [الانشقاق]، والحريق النار الملتهبة، وهذا الكلام فيه إيجاز حذف، إذ أن السياق تضمن حذف كلمات دل فيها ما ظهر على ما طوى، إذا المعنى سنكتب ما قالوا وما فعلوا ونلقيهم فى جهنم وبئس المصير، ونخاطبهم وهم يَصْلون نارها بقولنا: ذوقوا عذاب تلك النار الملتهبة وآلامها، وذلك مثواهم، وقد صرح سبحانه بالسبب فى ذلك العذاب الأليم، وإن كان ما مضى دالا عليه فقال: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

أى ذلك العذاب الشديد الأليم بسبب ما قدمت أيديكم وما تكلمتم به، والتعبير بـ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ﴾، وتخصيص الأيدى بالذكر؛ للدلالة على التمكن من الفعل وإرادته، ولأن أكثر الشر يكون ببطش اليد، ولأن نسبة الفعل إلى اليد تفيد الالتصاق به، والاتصال بذاته.

وإذا كان ذلك العذاب لأجل هذا العمل، فهو لا ظلم فيه، وفوق ذلك فإنه لو أهمل حسابهم لكان الله ظلاما لعباده بتسوية المحسن بالمسىء، فكان العذاب لينفى عن ذات الله تعالى الظلم، وأبلغه وأقصاه بأن يتساوى المحسن والمسىء، وقد نفى الله سبحانه وتعالى عن ذاته الكريمة تلك التسمية، كما قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص]. ربنا إننا ظلمنا أنفسنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين.

ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ
ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ
تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ
وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾
فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ
وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ
وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ
عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ
إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿١٨٥﴾

الكلام مستمر فى وصف اليهود وأخلاقهم واستيلاء المادة عليهم، وغلظ قلوبهم وقسوتها، حتى لقد بلغ بهم الجحود أن يقولوا عن الله تعالى وقد سمعوا من الرسول ﷺ - أن من يتصدق يقرض الله قرضا حسنا - إن الله فقير ونحن أغنياء، وفى هذه الآيات يبين أن من نتائج جحودهم أن يطلبوا معجزة غير المعجزة التى جاء بها النبى ﷺ، فيطلبون دليلا غير الدليل الذى قام حجة عليهم، ولقد سألوا موسى من قبل أكبر من ذلك، فقالوا: أرنا الله جهرة، ومع أنه قد جاء على يد موسى عليه السلام من المعجزات الحسية العدد الكثير كانوا يطلبون غيرها؛ لأنهم معاندون والمعاند لا يزيده الدليل البيّن إلا عنادا وكفرا وجحودا. لقد سألوا النبى معجزة، وكذبوا فيها فقال الله فيهم: ﴿**الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ**﴾.

تذكر كتب التفسير أن من معجزات بعض الرسل الذين جاءوا من قبل أن يُقَدِّمَ القربان، وهو الصدقة من النَّعم، فتكون أمارة قبوله أن تنزل نار من السماء

بيضاء تأكله، وقد ادعى اليهود أن ذلك عُهد من الله عهد إليهم، وهو ادعاء باطل، فهذا الأمر إذا كان معجزة لرسول لا يستلزم أن يكون معجزة لكل رسول، وآيات الله تعالى لإثبات رسالات الرسل متعددة النواحى، مختلفة المناهج ، لكل أمة منهاج من الإعجاز يناسبها، وكون هذا كان حجة من الحجج الدالة على الرسالة وصدق الرسول فى زمن - لا يقتضى أن يكون حجة فى كل الأزمان.

ولا شك أن ذلك النوع من الإعجاز قد وقع، وذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾، والذى قالوه هو أن يأتيهم بقربان تأكله النار.

ولتتميم الكلام فى النص لابد أن نتعرض لتفسيرات لفظية لبعض الكلمات، ومن هذه الكلمات كلمة (نؤمن لرسول)، وكلمة (قربان)، وكلمة (يأتينا)، وكلمة (تأكله).

ومعنى ﴿نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ﴾: أى نذعن لما يدعو إليه ونخضع؛ إذ المطلوب منهم هو الإذعان للحق والخضوع له والتسليم به، لا التصديق المجرد الذى يصوره مجرد إيمان، فالفرق بين الإيمان بالرسول والإيمان له أن الأول يتضمن معنى التصديق، وإن لم يكن معه إذعان والتسليم والخضوع لما يدعو إليه.

ومعنى ﴿يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ أن الرسول هو الذى يأتى بالقربان من النعم وهو ما يتقرب به إلى الله تعالى من النعم، ويقدمه هو، تنزل النار البيضاء من السماء فتأكله، فليسوا هم الذين يقدمون القربان الذى تأكله النار، بل الذى يفعل ذلك هو الرسول إعجازا، ولبيان أنه رسول، ولا يقال حينئذ إنه إذا كان كل قربان تأكله النار لا تكون ثمة فائدة يستفيدها الفقراء من القرابين، بل هذه حال خاصة يأتيها النبى من الأنبياء، ويقوم بها فتكون تلك الأمارة التى على التأييد من السماء، كانقلاب العصا حية، وانبجاس الماء من الحجر، وانفلاق البحر اثنا عشر فرقا كل فرق كالطود العظيم.

ولقد بين سبحانه وتعالى أن هؤلاء الذين سألوا النبى ﷺ قوم يتعنتون والمتعنت لا يُلْتَفَتُ إلى مطالبه، وقد ذكر سبحانه الرد مع الدليل على تعنتهم، فقال: ﴿**قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾؟.

الخطاب للنبى ﷺ و«البينات» المراد منها الحجة المبينة المثبتة لرسالة الرسل، و«بالذى قلتم»، والمعنى بموضوع القول الذى قلتموه، وهو الإتيان بقربان تنزل عليه نار بيضاء من السماء فتأكله، وقد يطلق القول ويراد منه موضوع القول، كأن يقول قائل: قلت لك إن الأمر سيكون على وجه كذا، وقد كان ما قلت، أى قد كان معنى القول الذى قلت وتحقق موضوعه.

والمعنى: إن عليك يا محمد أن تقول فى محاجتهم ولبيان تعنتهم قد جاءكم رسل بالبينات من قبل، وتحقق من الأنبياء ما تطلبون، وهو أنهم أتوا بقربان تأكله النار، فلم تؤمنوا ولم تصدقوا، وقد دل على هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿**فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ إذ إن القتل لا يكون إلا أثرا من آثار التكذيب العنيد، والجحود الشديد، فيكون نسق القول الكريم هكذا: لقد كذبتم وأبلغتم فى الكذب بادعائكم أن إيمانكم مرتبط بالقربان تأكله النار، فقد جاءكم هذا ولم تؤمنوا، بل كذبتم وأعنتم حتى بلغ بكم الأمر والاستهانة بالداعى أن قتلتموه، ولو كنتم صادقين فى ادعائكم ارتباط الإيمان بالإتيان بقربان تأكله النار فَلِمَ كان القتل؟. فالصدق المنفى هو صدق الارتباط بين الإيمان وتلك الحجة التى يطلبونها، والاستفهام إنكارى ينفى أن يكون ثمة مبرر للقتل على أى وجه كان المبرر، وينفى أيضا صدقهم.

وسياق الخطاب الموجه للنبى ﷺ هو لبيان تعنتهم، وأنهم لا يطلبون حجة لنقص الدليل، بل يتعنتون، وأنهم فعلوا مع من أتوا لهم بهذا الدليل أشد مما فعلوا معك وهنا أمر يجب التنبيه إليه، وهو أن القتل والتكذيب مع هذه الحجة كان من أسلافهم، والخطاب للذين حضروا عصر النبى ﷺ، ومن يجىء بعده ممن على

شاكلتهم، ولقد وجهت إليهم جريمة الماضين منهم؛ لأن وصف التعنت الذى أدى إلى ما كان من الأسلاف قائم فى الأخلاف، ولأنهم راضون عن أعمالهم، فكان حقاً أن يخاطبوا بجريمتهم؛ ولأنهم تكلموا عن الماضين منهم بأنهم منهم فقالوا: إن الله عهد إلينا، مع أن الأمر كان فى هؤلاء الماضين لا فيهم، لذلك كان عليهم أن يتحملوا وصف الإجرام الذى وقع من الماضين حتى يتخلصوا من تلك الأمة الخاسرة، ويدخلوا فى أمة الإيمان وأهل الإذعان.

ولقد بين الله لنبيه أن هؤلاء جنس قائم بذاته تعود التكذيب، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون، ولذا قال سبحانه:

﴿ **فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ** ﴾ البينات هى الآيات المبينة للحق، الموضحة له، وهى الأدلة التى يتحدى بها النبى من الأنبياء قومه ليثبت لهم رسالته، والزبر جمع زبور، وهو الصحيفة أو الكتاب أو هو جَمْعُ جَمْعٍ لزَبْر، وهو الأمر الشديد، وخص الزبور بالكتاب المنزل على داود عليه السلام وقال تعالى: ﴿ **وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا** (٥٥) ﴾ [الإسراء] وقُرِئَ ﴿ **زُبُورًا** ﴾ بضم الزاى[1] كقولهم فى جمع ظريف ظروف، أو يكون جمع زَبْر وزبْر مصدر سمى به كالكتاب، ثم جمع على زُبُر كما جمع كتاب على كتب، وقيل بل الزبور كل كتاب صعب الوقوف عليه من الكتب الإلهية، وقال بعضهم: الزبور اسم للكتاب المقصور على الحكم العقلية دون الأحكام الشرعية، والكتاب اسم لما يتضمن الأحكام الشرعية.

وخلاصة القول أن الله تعالى يخفف عن نبيه ﷺ تكذيب أولئك الضالين الجاحدين فيبين أن الأنبياء قبله قد جاءوا بالمعجزات القاطعة المثبتة للرسالة، ومعهم الأوامر الإلهية المشددة الزاجرة، ومعهم الكتاب المبين التى اشتمل على ما فيه مصلحة الدنيا والآخرة، ومع ذلك كفروا بآيات ربهم، وأنكروا الرسالة مع قيام

---

(١) وهي قراءة حمزة وخلف، وقرأ الباقون بفتح الزاي. غاية الاختصار ج٢ ص٤٦٨.

الأدلة التى لا مجال لإنكارها، ومع أن ما يدعو إليه معقول فى ذاته، وفيه مصلحتهم فى الدنيا والآخرة، وإذا كانت الطاعة فى الدنيا غير ثابتة، فإن الله سبحانه وتعالى جعل الآخرة دار الطاعة والقرار، ودار الجزاء والثواب والعقاب، وما الحياة الدنيا إلا سبيل لما يكون يوم القيامة، ولذا قال سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

ذكر سبحانه وتعالى هذه الكلية الثابتة لبيان الجمع الحاشد يوم القيامة الذى يتقدم فيه كل امرئ بما قدم من عمل، إن خيرا فجزاؤه خير، وإن شرا فجزاؤه شر، وهنا إشارات بيانية رائعة ككل إشارات القرآن؛ وذلك لأنه عبر عن إقبال الموت بذوقه، للإشارة إلى أنه عند ذوق الموت سيكون المذاق إما مرا حنظلا يومئ إلى ما يتبعه من عقاب، وإما أن يكون المذاق حلوا هنيئا، فيكون إيماء إلى ما يكون يوم القيامة من نعيم مقيم، والتعبير عن حلول الأجل فى الدنيا بذوق الموت فيه استعارة بتشبيه الموت عند إقباله الرهيب أو الرغيب بالأمر الذى يذاق فيؤلم، أو يذاق فيسعد.

وهنا إشارة بيانية أخرى رائعة هى أنه أسند ذوق الموت إلى النفس، ولم يسنده إلى الشخص؛ لأن النفس روح، والشخص جزءان جسم ونفس، وإن النفس تبقى بعد مفارقة الجسم، فهى التى تذوق الموت، كما ذاقت الحياة الدنيا، فإسناد الذوق إليها لأنها باقية، وقد تغيرت حياتها من حال إلى حال، فبعد أن كانت فى غلاف من جسم من الطين، قد تجردت أبدا منه حتى تلتقى به يوم البعث والنشور.

وبعد أن تذوق النفس طعم تلك النقلة من متاع الدنيا الزائل إلى الآخرة، يكون الجزاء من نعيم أو جحيم، ولذا قال سبحانه: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

والأجر هو العطاء خيرا أو شرا، والقيامة هى قيام الساعة لرب العالمين، وتقويم أعمالهم من خير وشر بالميزان الدقيق، والحساب الذى لا يترك صغيرة ولا

كبيرة إلا أحصاها. فيوم القيامة هو الذى يقوم الناس فيه لرب العالمين، وتقوم أعمالهم من بين أيديهم وتنطق بها جوارحهم، وتُقَوَّم تلك الأعمال بقيمتها الحقيقية، ويذهب الزيف ولا يكون إلا الحق الخالص، ومعنى توفية الأجور إعطاؤها كاملة لا نقص فيها، وإذا قلنا إن الأجر هو العطاء فإن مجازاة المسىء بقدر إساءته هو العطاء العدل.

والخطاب هنا للأشخاص لا للنفوس وحدها، فذوق الموت للنفوس، ولكن الجزاء للأشخاص إذ تلتقى الجسوم بالنفوس، ولذلك خاطب الأشخاص فقال سبحانه: ﴿ **وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ** ﴾.

وإن السياق الذى ذكرنا عليه أكثر المفسرين وهو أن توفية الأجر تشمل الثواب والعقاب، ولكن أرى أن روح الآية وما اقترن بها من بعد يدل على أن الجزاء هنا هو العطاء الصرف بنعيم يوم القيامة لمن يستحقونه، فالخطاب للمؤمنين تعزية للنبى ﷺ والمؤمنين عند تكذيب المكذبين، ولذا قال سبحانه إن أول عطاء هو البعد عن النار، فقال سبحانه: ﴿ **فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ** ﴾.

الزحزحة عن النار الإبعاد عنها، والتنحية عنها، وهو تكرار الزح بمعنى الإبعاد، والمعنى أن من أبعد عن النار بعد تكرار التنحية عنها فقد فاز فوزا مطلقا، والنص يشير إلى أن أعمال الإنسان ترديه ولا تنجيه، وأنه لكى يبعد عن النار ويتجنبها يكون كالمحتاج لمجهود، وتكرر الزح والتنحية كشىء ثابت ملازم لها، لا يبعد عنها إلا بمجهود، وذلك تصوير دقيق لعفو الله ورحمته وغفرانه، وأن المرء لا يبعد عن النار إلا بعد تكرار الرحمة والمغفرة، وأن البعد عن النار ثم دخول الجنة هو أكبر الفوز، وهذا كله على أساس أن الزحزحة والتنحية فى الآخرة التى هى دار الجزاء، ويصح أن يكون المعنى فى الدنيا، بالأخذ فى أسباب التوقى من النار، ودخول الجنة، ويكون السياق هكذا: من غالب شهواته وجاهد أهواءه وإنها لصعبة المراس تحتاج إلى صبر وضبط، فإنما يزحزح نفسه عن النار بتوقى أسبابها، ويدخل نفسه الجنة، واتخاذ الوسائل الموصلة إليها، فالزحزحة هى جهاد الأهواء التى هى أسباب النار، وليس ذلك التفسير ببعيد، وإن كان الأول أوضح وأبين.

ولقد بين سبحانه أن سبب العذاب هــو الغرور فى الدنيا، ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾.

فى هذا النص الكريم قصر الحــياة الدنيا على حال واحدة، وهى أنهــا متاع يستمتع به الإنسان ويغريه حتى ينسيه متاع الآخرة، إن استولى عليه واستغرق حسه ونفسه، والمعنى ليست هذه الحيــاة القريبة منا التى نشاهدها ونراها، وهى فى ذاتها الحد الأدنى للحياة، إلا متاعا يستــمتع به المغتر بها الذى يظن أنها كل شيء، وأما من يؤمن بأنها قنطرة الآخرة، فإنهــا تكون جهاد النفس، والسيطرة على الأهواء، ولقد قال الزمخشرى فى تفسير متاع الدنيا: «شبه الدنيا بالمتاع الذى يُدلس به على المُسْتام(١)، ويغره حتى يشــتريه، ثم يبين له فســاده ورداءته، والمدلس هو الشيطان الغرور، وعن سعيد بن جبير: إنما هذا لمن آثرها على طلب الآخرة».

اللهم لا تغرنا بهذه الدنيا، ووفقنا لأن نطلب ما عندك، وامنحنا ياذا الجلال والإكرام رضوانك، فهــو أعلى ما يبتغيه المؤمن؛ إذ رضــوانك أكبر من كل ما فى الوجود يارب الوجود.

لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ
وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ
مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ
وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾
وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ
وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا
قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ
بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم
بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾

(١) من السوم في المبايعة، تقول منه (ساومه سِواما)، و(استام) عليَّ و(تساومنا). الصحاح.

لقد بين الله سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة أن محنة أُحد كانت فيها العِبَر، وكانت تمحيصا لقلوب المؤمنين وصقلا لنفوسهم، وبين الله سبحانه وتعالى فى تلك الآيات أيضا أنه سبحانه لا يذر المؤمنين على ماهم عليه حتى يتبين الخبيث من الطيب، وقوى الإيمان من ضعيفه، وذكر سبحانه ما كان يلقيه المشركون واليهود من أقوال جارحة، وبعضها يمس ذات الله تعالى، كقولهم - لعنهم الله - إنَّ الله فَقِيرٌ ونحنُ أغنياءُ.

ولقد ذكر سبحانه من بعد ذلك أن المستقبل سيكون من جنس الماضى، وأنه سينزل بالمؤمنين ضروب من البلاء كالتى نزلت أو أقوى، وأن واجب التبليغ والإيمان يتقاضاهم أن يتحملوا ذلك بصبر وتقوى واحتياط، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿**لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا**﴾.

ففى هذا النص السامى إخبار لهم بأن البلاء الذى ذاقوا بعضه مستمر، وهو خير لهم، وذلك ليستعدوا لتلقيه من غير فزع ولا جزع، فإن الشدة المتوقعة يسهل احتمالها، أما الشدة التى تقع من غير توقع، فإنه يصعب احتمالها، وقد ذكر سبحانه وتعالى مواضع الابتلاء، وكلها عزيز يحرص عليه، وهذه المواضع هى المال والنفس، والدين.

والمال والنفس قال فيهما سبحانه وتعالى: ﴿**لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ**﴾، وقد أكد سبحانه وقوع الابتلاء بالقسم، واللام الموطئة للقسم، ونون التوكيد الثقيلة، وقد أكد بهذه التأكيدات ليكون الوقوع مستيقنا، وليستعدوا بالصبر والمجاهدة، والاعتماد على الله تعالى؛ والابتلاء فى المال بإنفاقه فى سبيل الله تعالى، وتبديده بغارات الأعداء، وبالتكليفات الكثيرة المتعلقة به، وقد ابتدأ به لأنه أدنى الدرجات، فالترتيب فى الابتلاء متدرج يبتدئ من الأدنى، وهو المال، والاختبار فيه شديد قاس، والاحتمال يحتاج إلى صبر وعزم، وقد يكون الاختبار فى المال بالجوائح تنزل به، فكل هذا اختبار بالمال، وإنه ليسمى نفيسا؛ لأنه قرين

النفس، وإن كان دونها، وهى أغلى منه، والمعنى: ليست أحوال المؤمن رخاء دائما، بل فيها شدة وبلاء يقتضى الصبر، وفيها نعمة وإحسان يقتضى الشكر.

والابتلاء فى الأنفس يكون بالخوف من مساورة(١) الأعداء، وتربصهم دائما، وبالجوع، وبهلاك النفوس فى الحروب، وبالشدائد فيها، والابتلاء فى المال والأنفس قد ذكره سبحانه وتعالى بهذه الآية، وفى كثير من الآيات.

والدرجة العليا من الابتلاء هى ما يخص الدين، وقد خصها سبحانه وتعالى بالذكر المؤكد، فقال: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ والأذى الذى كانوا يسمعونه هو الافتراء على الله تعالى، والتهكم على القرآن، والسخرية من الشرع الإسلامى، من مثل قولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ... ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران] ومثل قول المشركين: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ... ﴿٤٧﴾﴾ [يس]، وهكذا مما يمس الحقائق الدينية، وقد جعله الله سبحانه وتعالى فى المرتبة العليا من الابتلاء؛ لأن المؤمن يسهل عليه التأذى فى ماله ونفسه، ولا يسهل عليه الأذى فى دينه، وإنه يحتمل كل شىء فى سبيل الدين، فإذا اتخذت الحقائق الدينية ذاتها هزوا ولعبا فإن ذلك فوق الاحتمال، ولذلك لم يحتمل أبو بكر الصديق كلام (فنحاص) عندما تهجم على ذات الله فضربه وشج رأسه(٢)، مع ما اشتهر به الصديق من رقة وعطف، حتى شبهه النبى ﷺ باللبن السائل للينه وسهولته.

وفى النص الكريم إشارات بيانية نبينها، فإن فى بيانها ذكرا لمرامى النص الكريم:

أولها: أنه عبر عن المخالفين الذين كفروا بالنبى ﷺ بما يشير بأنهم قسمان: قسم أوتى علم الكتاب الذى نزل على بعض الأنبياء من قبل النبى ﷺ، والقسم

(١) المساورة من معانيها المواثبة والمقاتلة، وسورة الغضب: وثوبُه. الصحاح - لسان العرب (سور). فالمعنى هنا مهاجمة الأعداء.

(٢) سبق قريبا تخريج هذه الرواية.

الثانى المشركون الذين لا يؤمنون بكتاب، ولا يهتدون بهدى، وقد جمع القرآن القسمين فى أمر واحد، وهو معاداة النبى ﷺ.

وقد دفعتهم المعاداة إلى الجحود، وما كانت المعاداة لشخصه، بل كانت لما جاء به، وما يدعو إليه، وفى الجمع بين العالم بالكتاب والجاهل به إشارة إلى أنه عند وجود المعاندة يستوى العالم والجاهل، فإن الجاهل يَعْمهُ فى عمياء جهالته، والعالم يطمس الله تعالى على قلبه، فيكون هو والجاهل سواء.

والثانى: الإشارة إلى أنه إذا كان سبب معاندة المشركين جهلا فسبب معاندة الكتابيين هو الحسد، إذ يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، ذلك أنهم بمقتضى كونهم أوتوا الكتاب من قبل ظنوا ذلك اختصاصا اختصوا به، وأنهم أولى أن تكون الرسالة فيهم دون غيرهم، ﴿**اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ... ﴿١٢٤﴾﴾ [**الأنعام**] وبذلك سكن قلبهم الحقد والحسد، وحيث كان الحسد كانت العداوة وكان العمى عن إدراك الحقائق.

الثالث: التعبير عن نزول الأذى بسماعه، وقال سبحانه: ﴿**ولَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً**﴾ والذى يُسمع هو كلام، وعبر عنه بالأذى لأنه يؤدى إلى أذى، وموضوعه أذى، وهو فى ذاته أذى، فكأن الأذى فى ذات القول، ولذلك كان مفعولا للسماع، ووصفه سبحانه وتعالى بأنه أذى كثير، وذلك ليبين لهم ما يوجب استعدادهم لسماعه، من أذى ليس بقليل فى مقداره، ولا فى نوعه، ولا فى موضوعه، فالكثرة ليس المراد منها المقدار فقط، بل الكثرة تشمل المقدار والنوع، والطريقة والموضوع.

وقد بين سبحانه وتعالى العلاج فى هذا البلاء: ﴿**وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**﴾.

الصبر ضبط النفس وحبسها عن الجزع، وحبسها على العمل واتخاذ الأهبة، وحبسها أيضا مع أهل الإيمان كما قال تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ**

رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ... ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف] فالصبر يتضمن ضبط النفس عن الجزع، وقوة الاحتمال، والتضافر مع الجماعة، وقد وصف النبى ﷺ صبر الأنصار فيما روى عنه من أنه قال فيهم: «يقلون عند الطمع، ويكثرون عند الفزع»(١).

﴿تَتَّقُوا﴾ معناها أن تتخذوا الوقاية بطلب رضا الله تعالى، ورجاء ما عنده، وأن تستعدوا، وتدفعوا الاعتداء بالحق وتعملوا على الخروج من المحنة، فليس شأن المؤمن استسلاما للمصائب تنزل به، بل شأنه صبر من غير جزع، وعمل من غير طمع، وجد وجهاد ودفع للشر.

وقد بين سبحانه أن التقوى والصبر هما من الأمور التى أمر الله تعالى بها لأنها تؤدى إلى النجاح، ولذلك قال سبحانه: ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ أى إن ذلك مما يعقد الأمور ويربطها ويوثقها ويؤكدها، ويجعلها قوية منتجة مثمرة، فالصبر والتقوى بهما النجاح فى الأمور.

وقد بين سبحانه أن أهل الكتاب فيما يصنعون قد خالفوا ما أخذ عليهم من مواثيق، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ﴾.

الميثاق هو العهد الموثق المؤكد، وقد أخذ الله سبحانه وتعالى على الذين أوتوا الكتاب العهد المؤكد الذى لا يقبل تأويلا ولا احتمالا أن يبثوا علم الكتاب ويعلنوه، ولا يقصروا العلم به على طائفة من الناس خاصة، والضمير فى ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ﴾ يعود إلى الميثاق، ويكون المراد من العهد الذى وثقه الله تعالى هو تعاليمه وشرعه ونوره، وعلى ذلك يكون ثمة احتمالان فى عود الضمير، أحدهما أن يعود إلى الكتاب، والثانى أن يعود إلى الميثاق نفسه، والأظهر أنه يعود إلى الكتاب، والالتفات من الغائب إلى الخطاب؛ إذ إنه كان متحدثا عنهم، ثم فسر

(١) جزء من حديث رواه العسكري في الأمثال كما جاء في جامع الأحاديث والمراسيل١٣٤٩٢ - ج١٩، ص٣٧.

الميثاق بالخطاب، لتأكيد أخذ الميثاق بإعلان أنهم ما كانوا غائبين عند أخذه، بل كانوا حاضرين مخاطبين، فالعهد قد أخذ عليهم بألسنتهم، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾ وهنا يسأل سائل: لماذا أكد قوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾ بعدة توكيدات، بالقسم وبلامه، وبنون التوكيد الثقيلة، ولم يؤكد (ولا تكتمونه)؟ وذلك لأن طلب البيان مشدد ومؤكد، وبذلك يتأكد عدم الكتمان بتأكد طلب البيان، ولو أن أدوات التوكيد لحقت «ولا تكتمونه» لأوهم الأسلوب أن المنفى هو الكتمان المؤكد المبالغ، أما غيره فلا ينفى، فلو قيل: «ولا تكتمنه» لأوهم الأسلوب أن المراد النهى عن المبالغة فى الكتمان، فغير المبالغة فى موضع الإباحة، وذلك غير معقول، ومع هذا العهد الموثق لم يبينوا؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾.

النبذ الطرح، والتعبير بوراء ظهورهم كناية عن أنهم لن يعودوا إلى ما نبذوه، والكلام تصوير لعملهم فى عدم الوفاء بعهد الله الذى أخذه عليهم، إذ إنهم أهملوه، ولم يفكروا فى العودة، وأهملوه إهمال استخفاف واستهانة، كما ينبذ الشىء الحقير.

والضمير فى «نبذوه» على هذا يعود إلى الميثاق، باعتبار أنه هو موضع الحديث ابتداء، ويصح أن يعود إلى الكتاب؛ لأن الميثاق هو الشرائع والأحكام والكتاب وعاؤها، فنبذ الكتاب نبذ للعهد، فهم لم يكتفوا بالامتناع عن البيان لغيرهم، بل أضافوا إليه إهمال الكتاب إهمالا مطلقا.

وإن هذا النبذ للكتاب وتعاليمه، وللميثاق المؤكد وإعلانه - سببه الهوى الدنيوى، وحب السلطان والغلب، والاستطالة على الناس بما عندهم، والإدلال عليهم بالعلم من غير أن يعملوا به، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ أى تركوا كتاب الله تعالى والعمل به وبشرائعه، وإعلانه، فى نظير ثمن تافه قليل، وكل ثمن للإعراض عن كتاب الله تعالى والعمل به هو قليل مهما يكبر فى نظر التاركين، ولذا قال سبحانه: ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ أى أنه مذموم قبيح ما يطلبون من أعراض الدنيا فى نظير إهمال الشريعة والعهد الموثق.

وإن هذا الكلام يدل على وجوب إعلان الحقائق الدينية والدعوة إليها، ومجابهة مخالفيها بإثم المخالفة، ومن أحسن ما قرأت فى ذلك ما قاله الزمخشرى فى التعليق على هذا: (كفى به دليلا على أنه مأخوذ على العلماء أن يبينوا الحق للناس، وألا يكتموا منه شيئا لغرض فاسد، من تسهيل على الظلمة، وتطييب لنفوسهم، واستجلاب لمسارّهم، أو لجرِّ منفعة وحطام دنيا، أو لتقية، أو لبخل بالعلم وغيره من أن ينسب إلى غيرهم، وعن النبى ﷺ: «من كتم علما عن أهله ألجم بلجام من نار»(١).

﴿**لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا**﴾ هذا وصف آخر لليهود فى ماضيهم، وفى حاضرهم، فهم يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، ويفرحون بما أتوا، وتلك طبيعة الضال دائما، فالضال يفرح بكل ما يعمله، ويزين له سوء عمله فيراه حسنا، ويحب أن يحمد بما لم يفعل، فيدعى لنفسه من المحاسن ما شاء، وينكر محاسن غيره.

والنهى موجه للنبى ﷺ، وهو نهى مؤكد عن حسبان الخير فيهم فالتأكيد فى قوله تعالى: ﴿**لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ**﴾ هو تأكيد للنهى، وليس بتوكيد للظن، فليس النهى منصبا على الظن المؤكد، وغيره لا يكون منهيا عنه، بل التوكيد هو لأصل النهى، أى ينهى الله سبحانه وتعالى نبيه نهيا مؤكدا عن أن يظن فيهم خيرا، أو يصيبهم خير، و«تحسب» لها مفعولان أصلهما مبتدأ وخبر، والمفعول الأول هو (الذين يفرحون بما أتوا) إلى آخره، والمفعول الثانى محذوف دل عليه ما بعده، وتقدير الكلام هكذا: ولا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا موفقين أو مهتدين، أو صالحين، وحذف لدلالة ما بعده عليه، وليذهب العقل كل مذهب فيما يتناسب مع الوصف الذى وصفهم سبحانه به، وهو أنهم يزينون أعمالهم، ويرغبون فى المدح الكاذب، فإن ذلك هو الضلال البعيد، وليرتب السامع عليه ما شاء من عدم الهداية وعدم التوفيق، والبعد عن الخير والنفع، فكل ذلك وغيره يتضمنه الكلام المحذوف.

---

(١) رواه ابن ماجه: المقدمة (٢٦١) عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ. كما رواه أحمد: مسند المكثرين (١٠٠٨٢) عن أبى هريرة.

وقد صرح سبحانه بهلاكهم، فقال سبحانه: ﴿فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ﴾ أى إذا كانوا بهذا الوصف الذى وُصِفُوا به، وهو الضلال المبين فلا تَحْسَبنَّهم بمفازة أى بمنْجَاة من العذاب، والتعبير عن النجاة من العذاب الأليم بقوله تعالى: ﴿بِمَفَازَةٍ﴾ الإشارة إلى أن أقصى ما يكون لهم من فوز أن ينجوا من العذاب الأليم أى المؤلم، ولكنهم لن ينجوا منه أبدا، ولذا أكد النهى بالخبر، فقال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى عذاب مؤلم أشد الإيلام، أو بكل ما يتصور العقل من إيلام، ولذلك جاءت كلمة أليم نكرة، فذكر سبحانه عذابهم الأليم بالسلب والإيجاب، فنفى أولا أنهم بمنجاة منه وأخبر ثانيا بأنهم واقعون فيه.

وهنا بيان لطرق الشيطان إلى النفس. إنه يجعل الشخص يحمد كل ما يأتيه أى يصدر عنه، ويجعل نفسه هى مقياس الخير والشر، ويحبب إليه الثناء بغير الحق، وذلك هو الغرور، وهو الضلال، وهو الضعف النفسى، والفرح بما لم يفعل، وإن الثناء الكاذب ضار بمن يكون موضع الثناء، وضار بالمجتمع ولذلك قال ﷺ: «إذا رأيتم المداحين فاحثوا فى وجوههم التراب»[(١)]، وقال ﷺ: «لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فإنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله»[(٢)]. اللهم اكفنا شر النفاق، وامنعنا من الغرور، وثبت قلوبنا وألسنتنا وأقلامنا على قول الحق، إنك سميع الدعاء.

(١) جزء من حديث رواه مسلم في صحيحه: الزهد والرقائق - النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط (٥٣٢٣). كما رواه الترمذي: الزهد (٢٣١٦)، وأبو داود: الأدب - كراهية التمادح (٤١٧٠)، وابن ماجه: الأدب - المدح (٣٧٣٢).

(٢) رواه البخاري: أحاديث الأنبياء - قول الله تعالى: ﴿واذكر في الكتاب مريم﴾ (٣١٨٩)، وأحمد مسند العشرة المبشرين - أول مسند عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١٤٩)، والدارمي: الرقاق - لا تطروني (٢٦٦٥).

وَلِلَّهِ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى
خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ
لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا
وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾
رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ
أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ
ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا
سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا
عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

أنذر سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة وبشَّر، وأرشد وزجر، وبين غرور الذين كفروا بزخارف الدنيا، والتمكين لهم فيها مما دلاهم بغرور، وجعلوا يعتقدون أن السلطان فيها دليل السلطان فى الآخرة. وفى هذه الآية الكريمة يبين سلطانه سبحانه، وهو الذى وعد وأوعد، وهدد وحرض، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿**وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾.

أى لله وحده سبحانه ملك السموات والأرض بما فيهما ومن فيهما، وتقديم لفظ الجلالة لإفادة الاختصاص والانفراد، وفى ذلك إشارة إلى أنه وحده المتصرف، وهو الذى يعطى ويمنع ويحاسب ويعاقب، وقد أعطى من أعطى فى الدنيا ليتمتعوا حتى حين، وأبقى ما أبقى فى الآخرة ليجزى الصابرين، وينال

عهده المتقون، وإن عطاءه لحكمة، ومنعه لحكمة، وفيه إشارة إلى كمال قدرته، وأنه إن أوعد بالعقاب، ووعد بالثواب فهو القدير على تنفيذ ما وعد وأوعد.

وبعد أن بين سبحانه ملكه للسموات والأرض أشار إلى ما فيهما من عبر، فقال تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾.

وقد قال فخر الدين الرازى فى علاقة هذه الآيات بما قبلها: «اعلم أن المقصود من هذا الكتاب الكريم جذب القلوب والأرواح من الاشتغال بالخلق إلى الاستغراق فى معرفة الحق، فلما أطال الكلام فى تقرير الأحكام والجواب عن شبهات المبطلين عاد إلى إنارة القلوب بذكر ما يدل على التوحيد والإلهية والكبرياء والجلال فذكر هذه الآيات».

وفى الحق، إن هذه الآيات تدعو إلى التدبر والتفكر فى هذا الكون العظيم، وصانعه الحكيم، ومبدعه ومنشئه من العدم، والآيات: الأمارات الواضحة الدالة على قدرة الصانع وسلطانه وكمال حكمته، واختلاف الليل والنهار هو تعاقبهما، مع تخالف مظاهرهما، فهذا نور ساطع، وذلك ظلام حالك، وفى النهار الشمس التى تمد الأرض بحرارتها وأشعتها، وبها يحيا النبات ويحيا الإنسان، وفى الليل النجوم الزاهرة، والقمر الباهر، وأولو الألباب هم أهل العقول المدركة التى تنفذ إلى لب الأشياء، ولا تكتفى بظواهرها، وما أحسن ما قاله الزمخشرى فى وصف أولى الألباب: «الذين يفتحون بصائرهم للنظر والاستدلال والاعتبار، ولا ينظرون إليها نظر البهائم غافلين عن عجائب الفطرة، وفى النصائح الصغار: «املأ عينيك من زينة هذه الكواكب، وأجلهما فى جملة هذه العجائب، متفكرا فى قدرة مقدرها متدبراً فى حكمة مدبرها، قبل أن يسافر بك القدر، ويحال بينك وبين النظر» وليس كل أولى الألباب يفهمون الآيات، بل لابد من قلب خاشع، وعقل متفكر، ولذلك ذكر لأولى الألباب أوصافا أخرى لهم: أولها - نوه إليه سبحانه بقوله: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ**﴾.

ذكر الله تعالى استحضار عظمته والإحساس بجلاله، واستشعار النفس بنعمه، وقد يدخل هذا في معنى قول النبي ﷺ: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(١) فذكر الله يتضمن كل معاني العبودية والإحساس بالألوهية والنعم التي أسبغها على خلقه ظاهرة وباطنة، وذكر الله لب كل عبادة، وغاية كل نسك، لذلك قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [العنكبوت] وقد وصف الله تعالى أولي الألباب الذاكرين بأنهم يذكرون الله تعالى في كل أحوالهم، فهم يذكرونه قائمين، وقاعدين، وهم على جنوبهم، فقوله تعالى: ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ إشارة إلى أن الذكر يكون في عامة أحوال الإنسان في الحياة ، وظن بعض المفسرين أن المراد بالذكر الصلاة لما روى أن النبي ﷺ قال لعمران بن الحصين: «صل قائما، فإن لم تستطع فقاعدا، فإن لم تستطع فعلى جنب»(٢) والحق أن الذكر أعم من الصلاة، وأن الصلاة الحقيقية التي تثمر ثمراتها ضرب من ضروبه، وكل العبادات من مسالكه، وقوله تعالى: ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا﴾ مصدران وضعا موضع الوصف وموقعهما في الإعراب أنهما حالان.

وذكر الله تعالى على هذا النحو من أكمل العبادات، ولو ذكر المؤمن ربه في عامة أحواله لساد المجتمع الإنساني كله الوئام، وما كثر الخصام، وما امتشق الناس الحسام، بل ما تنازع اثنان، وفوق ذلك من يذكر الله يعلو عن آلام الحياة واضطرابها وما ينزعج له الناس ويتحيرون فيه، ولذا قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد].

﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ هذا هو الوصف الثاني بعد أوصاف أولي الألباب الذين يدركون آيات الله الدالة على جلاله وعظمته في خلقه، والتفكر: ترداد الفكرة في النفس لتصل إلى أقصى ما تؤدي إليه، وقد جاء في

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري: الجمعة - إذا لم يطق قاعدا (١٠٥٠)، والترمذي: الصلاة: ما جاء في صلاة القاعد (٣٣٩)، وأبو داود: الصلاة - صلاة القاعد (٨١٥)، وابن ماجه: إقامة الصلاة والسنة فيها (١٢١٣).

مفردات الأصفهانى: «الفكرة قوة مطرقة للعلم، والتفكر جولان تلك القوة بحسب نظر العقل، وذلك للإنسان دون الحيوان، ولا يقال إلا فيما يمكن أن يحصل له صورة قى القلب، ولهذا روى: «تفكروا فى آلاء الله، ولا تفكروا فى الله، إذ كان الله منزها عن أن يوصف بصورة . .»[1] قال بعض الأدباء: (الفكر مقلوب عن الفرك، لكن يستعمل الفكر فى المعانى، وهو فرك الأمور وبحثها طلبا للوصول إلى حقيقتها).

والتفكر فى السموات والأرض له ثلاث درجات بعضها أعلى من بعض، أدناها أن ننظر إلى السماء وما فيها من نجوم وكواكب وشمس وقمر وأبراج، وما فيها من نظام بديع محكم، وهذه هى النظرة العامة التى تكون لذوى الألباب وغيرهم؛ لأن هذه النظرة أساس الحس وإشراق المحسوس.

والمرتبة الثانية التفكر فى خلقها وأسرار وجودها ونواميسها وقوانينها، وهذا ما يفكر فيه علماء الكونيات الذين يعرفون ما اشتمل عليه الكون من قوى وما أودعها الخالق من أجرام وقوانين لسيرها.

المرتبة الثالثة وهى أعلاها، وهى النظرة التى تتجه إلى الخالق من وراء المخلوق، فيتدبر الكون وما فيه ليدرك عظمة المبدع، فيتعرف من جمال الصنعة جلال الصانع، وهذا النوع هو المذكور فى هذه الآية وهو أعلى مراتب العبادة، وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «لا عبادة كالتفكر»[2] وقد كان بعض الصحابة يقول: «إن ضياء الإيمان التفكر».

وإن هذا النوع الأخير من التفكر يجعل القلب يخضع واللسان يخشع فينطق مستشعرا عظمة الله قائلا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

---

(١) جاء في الفتح الكبير (٥٤٣٠) ج٢، ص٣١٠: تَفَكَّرُوا فِي كُلِّ شَيء ولا تَفَكَّرُوا فِي ذات الله تعالى فإنَّ بَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ إلى كُرْسِيِّهِ سَبْعَةَ آلاف نُور وَهُوَ فَوْقَ ذَلِكَ (أبو الشيخ في العظمة) عن ابن عباس. وذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (باب ما يذكر في الذات والنعوت وأسامي الله): جاء في كتاب السنة لعبد الله بن أحمد - من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس: «تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله؛ فإن بين السموات والأرض سبعة آلاف نور وهو فوق ذلك» موقوف وسنده جيد.
(٢) رواه القضاعي في مسند الشهاب ج٢، ص٣٩: (٨٣٨).

تلك الضراعة التى بدت على الألسنة هى أولى ثمرات التفكر، لقد وصلوا بتفكرهم إلى إدراك ربهم فقالوا (ربنا) ونادوه سبحانه بذلك النداء الخاضع الضارع الشاكر لنعمائه، وقد وصلوا بتفكيرهم وتدبرهم إلى أن هذا الكون لا يمكن أن يخلق باطلا، أى لا يكون لغير غاية، ولا لغير حكمة، فمعنى البطلان هنا العبث وعدم الغاية وإنهم ليعلمون أن ذلك مستحيل على الله تعالى، ولذا أردفوا هذا بقولهم: (سبحانك)، أى تنزهت ذاتك وتقدست، وبذلك ارتفعوا إلى مقام التقديس وهو كمال العبودية والألوهية، ثم اعترتهم وقد وصلوا إلى هذا النوع من العلم خشية العلماء، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ** ﴿٢٨﴾ ﴾ [**فاطر**]، ولذلك غلب عليهم الخوف من عذاب الله تعالى فقالوا مرتبين على تفكرهم ما أدى إليه: ﴿**فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ فهذه ضراعة إلى الله تعالى أن يقيهم عذاب النار، والوقاية من عذاب النار تكون بأمرين: أولهما- أن يوفقهم لتجنب ما لا يرضيه، والثانى- أن يغفر لهم ما أفرطوا فى جنبه سبحانه وتعالى.

وقد كان ترتيب الخوف على التفكر له موضعه لأن نهاية التفكر هو الخوف؛ إذ ينتهى إلى أعلى درجات الشعور بالمهابة لله تعالى، وهو يجعل المؤمن يستصغر حسناته، ويستكثر سيئاته، وإن الصوفية الحق يبالغون فى التفكر، حتى إنهم يفضلونه على صلوات النفل فهو من أفضل مقامات العبودية.

﴿**رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ**﴾ هذا فى مقام التعليل لضراعتهم بالوقاية من النار، وهو تعظيم لأمر العقاب يوم القيامة، وفيه فوق ذلك شعور بالعدالة إذا وقع العقاب، إذ إنه يكون من ظلم المرتكب، وفيه أيضا بيان أن العقاب إن أراده الله فلا مناص منه، ولا منجاة بنصر ناصر، أو شفاعة شفيع، وأعظم العقاب ما فيه من الخزى أمام الله واهب الوجود، ومولى النعم وذى الجلال والإكرام، والخزى فى أصل معناه الوقوع فى بلية، وقد يطلق على الوقوع فى البلايا المعنوية بأن يكون قد ارتكب أمرا يتعير به أمام الناس

ولا مناص لرد اعتباره، وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ يتضمن هذه المعانى، فقد أوقعهم سبحانه فى بلية لا يستطيعون التخلص منها، وهم فى عار معنوى لأنهم نالوا سخط الله تعالى، وذلك بظلمهم، وقد أكدوا استحقاق المجرمين، وعدم خلاصهم منه بقولهم ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أى أن المذنبين ظالمون فهم معاقبون بحق ولا ناصر لهم، و(مِنْ) دالة على استغراق النفى، أى لا ناصر لهم أيا كان، وفى ذلك إشارة إلى انفراد الله تعالى بالسلطان.

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا﴾ إذا كان ذكر الله يربى القلب، والتفكر يهديه، وهما معا يرفعان المؤمن إلى مرتبة الخوف من الله، فإن التذكر لله والتفكر فى خلقه يفتح أيضا القلب للتصديق والإذعان للحقائق الدينية، ولذلك كان من ثمرات التفكر إجابة نداء الحق، والإيمان بالله ورسوله والغيب، ولذلك كان شأن أولئك المتذكرين المتفكرين فى خلقه أنهم بمجرد أن سمعوا نداء الإيمان أجابوا . . وهنا بحوث لفظية:

أولها: أن أولئك سمعوا نداء المنادى، ولكن أسند السمع إلى الشخص لكمال الانتباه إليه، ولأن شخص المنادى له أثر فى حسن الاستماع لأنه رسول من عند الله، فما اقتنعوا بالحق لذات الحق فقط، بل لأن الداعى صادق أمين.

ثانيها: أنه أطلق المنادى، ثم ذكر بعد ذلك أنه ينادِى بالإيمان وذلك لما فيه من إبهام بعده بيان، فيكون البيان أكثر ثباتا، ولأن الإطلاق أعطى المنادى تفخيما وتكبيرا، ولأن النداء إلى الحق اعتبر كالعنوان له.

وثالثها: أن الإيمان ذكر مطلقا على أنه إيمان بالرب، وذلك للدلالة على الإذعان المطلق لله وللحق والهدى . . اللهم هبنا إيمانا بالحق وإذعانا له، وقد أجابوا نداء الإيمان فقالوا (فآمنا).

وسماع النداء لا يلزم أن يكون من شخص المنادى، بل يعم السماع من شخصه وتتبع رسالته من بعده.

﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾ كان التفكر والتذكر لله سببا فى قوة إحساسهم بهفواتهم ونسيانهم حسناتهم وتواضعهم أمام ربهم خاضعين خاشعين، ولذلك طلبوا ثلاثة أمور: **أولها**: الغفران إحساسا بتقصيرهم وفضل ربهم. **وثانيها**: تكفير السيئات، أى الأمور التى تسىء فى ذاتها، والفرق بين الذنب والسيئة، أن السيئة عصيان فيه إساءة، والذنب فيه تقصير وتبطؤ عن الخير والغفران، والتكفير كلاهما ستر، ولكن الأول يتضمن معنى عدم العقاب، والثانى يتضمن ذهاب أثر الإساءة. **والمطلب الثالث** الذى طلبوه هو أن الله يتوفاهم مع الأبرار، أى يميتهم مع الأبرار بأن يسلكوا طريق الاستقامة فى الدنيا حتى يخرجوا منها مع المستقيمين الأبرار الأخيار.

﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لقد ترقوا فى الطلب، فانتقلوا من طلب الغفران إلى طلب الثواب، فمعنى النص الكريم: أعطنا يوم القيامة ما وعدتنا به على ألسنة رسلك الأكرمين، وقد أخروا ذلك لشعورهم بهفواتهم أكثر من شعورهم بحسناتهم التى يستحقون عليها الثواب، وقوله: ﴿عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ على حذف مضاف أى ألسنة رسلك، وقالوا على رسلك، ولم يقولوا على رسولك للإشارة إلى أن ثواب المطيع وعقوبة العاصى مما جاء به كل الرسل، ولتأكيد طلب إعطاء الثواب، ومع بلوغهم مرتبة الرجاء كان يغلب عليهم الخوف، ولذلك أردفوا الرجاء بقولهم: ﴿وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وختموا ضراعتهم بقولهم: ﴿إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾. وقد أكدوا رجاءهم فى أن يوفوا أجرهم وتغفر لهم ذنوبهم.

هذا وننبه إلى أمرين:

أولهما: أنهم كرروا فى ضراعتهم كلمة (ربنا) وذلك لأن تفكيرهم وذكرهم أداهم إلى الاعتراف بكمال الربوبية.

ثانيهما: أن النبى ﷺ تلا هذه الآيات، ثم قال: «اللهم اجعل فى قلبى نورا، وفى سمعى نورا، وفى بصرى نورا، وعن يمينى نورا، وعن شمالى نورا،

ومن بين يدى نورا، ومن خلفى نورا، ومن فوقى نورا، ومن تحتى نورا، وأعظم لى نورا يوم القيامة»(١).

فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن
ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟
مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ
عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾
لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ
ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟
رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا
نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ
أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ
أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا
قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟
وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

---

(١) روى مسلم: صلاة المسافرين - الدعاء في صلاة الليل وقيامه (١٢٨٠). كما رواه أبو داود: الصلاة - صلاة الليل (١١٤٨)، وأحمد: مسند بني هاشم (٣٣٦٠).

هذه إجابة الدعاء المتكرر الذى ابتهلوا به لربهم، وقد تكررت ضراعتهم لله تعالى بتكرار كلمة (ربنا)، إذ قد تكررت خمس مرات، وقد قال الحسن البصرى: (ما زالوا يقولون ربنا حتى استجاب لهم) وقال الإمام جعفر الصادق: (من حزبه أمر، فقال خمس مرات (ربنا) أنجاه الله مما يخاف، وأعطاه ما أراد، قيل: وكيف كان ذلك؟ قال: اقرءوا إن شئتم: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [**آل عمران**] والمراد من قول حفيد الرسول ﷺ أن نذكر (ربنا) ضارعين خاضعين خاشعين، مدركين معنى الربوبية والألوهية، ومذعنين لأحكامه.

﴿**فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ**﴾ الفاء للترتيب، فالاستجابة معقبة لهذا الدعاء الضارع، والاستجابة معناها هنا الإجابة، وأصل معنى الاستجابة التحرى والتهيؤ للجواب، وإذا كان معناها هنا الإجابة، فالمؤدى أنها إجابة مهيأة معدة لهم قد محصوا قبلها، وإجابة الله لهم دليل على استحقاقهم لرحمته، وقد أجابهم سبحانه إجابة تدل على كمال عدله، فقد قال سبحانه: ﴿**أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم**﴾ فإذا كان سيجزيهم الجزاء الأوفى فلأنهم عملوا خيرا، وسبحان الله الشاكر العليم، هم يطلبون الجنة منحة من الله، لأنهم لا يعتقدون أن عملهم يدخلهم الجنة استصغارا لأعمالهم بجوار نعمة رب العالمين عليهم، والله الكريم المنان يبين لهم أن ما ينالون من خير من عملهم، وأن الله إذا لم يثبهم لكان مضيعا لعمل الخير الذى قاموا به، وإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا، ففى الآية الكريمة إشارة إلى عدله ورحمته، وبيان القانون الأمثل للعدل، وهو أن يكون الجزاء من جنس العمل ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾**﴾ [**الزلزلة**].

وبين سبحانه تعميم الجزاء لكل عامل بذكر النوعين اللذين خلقهما الله تعالى فى هذا الوجود، فقال: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ فلا فرق فى الجزاء بين الذكر والأنثى. ويروى أن السيدة أم سلمة رضى الله عنها قالت: يارسول الله ألا أسمع ذكر النساء فى الهجرة بشىء فأنزل الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾(١).

وفى التعبير باللفظ السامى (ربهم) إشارة إلى أن الذى يجزيهم هو خالقهم ومربيهم والمنعم عليهم، وفيه مشاكلة بين لفظ الدعاء والإجابة، ومعنى قوله تعالى: ﴿بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ أى أن الذكر من الأنثى والأنثى من الذكر، فأنتم جنس واحد يتمم بعضه بعضا، فلا تُحرَم الأنثى جزاء ولا يحابى الذكر دونها، فهذا النص السامى فيه تعليل لمعنى التسوية فى الجزاء بين الذكر والأنثى. وبعض العلماء فسر قوله تعالى: ﴿بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ أنها لعموم أجناس الناس، أى أنكم جميعا أيها الناس بعضكم من بعض لا فرق بين عربى وأعجمى، ولا أسود ولا أبيض، فالجزاء من جنس العمل أيا كان العامل ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ... ⦗١٣⦘﴾ [الحجرات] وهذا النص الكريم يشير إلى عدة معان سامية:

أولها: أن المرأة ليست شيطانة ولا نجسا، بل لها كل ما للرجل وإن كان له درجة فى الدنيا لتنظيم الحياة.

وثانيها: أن العمل له جزاؤه من غير نظر إلى قبيلة العامل أو لونه.

ثالثها: أن استجابة الله ثابتة من وقت عمل العامل.

وقد بين سبحانه الأعمال التى استحقت الإجابة من هؤلاء الأبرار، فقال: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾.

(١) رواه الحاكم أبو عبد الله فى صحيحه، وأخرجه الترمذي: تفسير القرآن - ومن سورة النساء (٢٩٤٩).

فى هذا النص تعداد للأعمال الصالحات التى قام بها هؤلاء المؤمنون الأولون، واستحقوا بها نعيم الجنة، وتوقوا بها عذاب النار، **وهى أمور ثلاثة**: آخذ بعضها بحجز بعض، ومتلاقية فى معناها ومغزاها.

أول هذه الأمور أنهم هاجروا وأخرجوا من ديارهم فهم هجروا مغانيهم التى تربوا فيها غير راغبين ولا محبين للخروج، بل ملجئين مضطرين، ولذلك روى أن النبى ﷺ قال مخاطبا مكة عندما خرج منها: «إنك أحب أرض الله إلى، ولولا أن أهلك أخرجونى ما خرجت»(١) ويروى أن ورقة بن نوفل قال للنبى ﷺ: ليتنى أكون جذعا إذ يخرجك قومك. فقال له عليه الصلاة والسلام: «أو مخرجىّ هم» قال: ما أوتى أحد بمثل ما أوتيت إلا عودى(٢) والله تعالى يقول: ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ** ... ﴿٣٠﴾ ﴾ [**الأنفال**] فكان الإخراج سبب الهجرة.

ولقد جاء فى التفسير الكبير للفخر الرازى أن كلمة هاجروا يراد بها الهجرة اختيارا، والإخراج هو الإخراج اضطرارا، وإنى أقول: إن هذه التفرقة لم تكن فى عصر النبى ﷺ، وربما تكون من بعد ذلك، فمن الناس من يخرج من ديار الشرك أو الكفر مختارا ليكون قوة لأهل الإسلام، ومنهم من يخرج اضطهادا وإيذاء، كما فعل كفار اليوم باللاجئين المسلمين.

والأمر الثانى الذى استحقوا به الجزاء الأوفى هو أنهم تحملوا الأذى فى سبيل الله تعالى، فهم أوذوا فى مكة قبل الهجرة، واستمر الإيذاء بعدها، وكل ذلك فى سبيل الله، وفى سبيل الحق وإعلائه، وجعل كلمته هى العليا، وكلمة الباطل هى السفلى، وإن هذا يزكى الخير فيهم، فإنهم ما أخرجوا من ديارهم، وهجروا أحباءهم وذويهم إلا فى سبيل الله تعالى.

---

(١) رواه الترمذي: المناقب- فضل مكة(٣٨٦٠). ورواه أحمد: أول مسند الكوفيين (١٧٩٦٦)، والدارمي: السير - إخراج النبي ﷺ (٢٣٩٨)، كما رواه ابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنه: المناسك - فضل مكة (٣٠٩٩).

(٢) متفق عليه، رواه في حديث طويل البخاري: بدء الوحي(٣)، ومسلم: الإيمان - بدء الوحي (٢٣١) عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وأرضاها.

والأمر الثالث: أنهم قاتلوا فى سبيل الله تعالى فجاهدوا الأعداء واستشهدوا فى هذا القتال، فلهم فضلان: فضل القتال والتقدم، وفضل الاستمرار فيه والشهادة فى سبيل الحق، وقد بين سبحانه وتعالى الجزاء بقوله تعالت كلماته: ﴿ **وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ** ﴾.

السيئات هى ما تسوء، ومعنى تكفيرها المبالغة فى سترها، حتى تعتبر نسيا منسيا، وهذا أولى الجزاء، والثانى : إدخالهم الجنة، وقد صورها بأقرب صور نراها للنعيم فى الدنيا، وهى الجنة التى تجرى الأنهار من تحتها. هذا، وإن نعيم الجنة حسى، وهو فوق ما نراه فى الدنيا، وإن كان تصويره لا يكون إلا بما نراه، فإن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وفى تقديم تكفير السيئات على إدخال الجنة ما يسميه العلماء التخلية قبل التحلية، أى تطهيرهم مما كان منهم من سيئات، ثم تحليتهم بأعظم نعيم يكون فى الآخرة.

وقد أكد سبحانه وتعالى ذلك الجزاء بـ «اللام» الدالة على القسم، و«بنون التوكيد» الثقيلة، وبتوكيد معنى الكلام كله بالمصدر ﴿ **ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ** ﴾ إذ هو مصدر لما تضمنه معنى ﴿ **لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ** ﴾ ومعناه: لأثيبنهم ثوابا، وقد أكد ذلك الثواب بأنه من عند الله تعالى ذى الجلال والإكرام، وإذا كان من عند الله فهو يتضمن رضوانه، ورضوانه سبحانه وتعالى أكبر، كما قال تعالى: ﴿ **وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ** ... ﴿٧٢﴾ ﴾ [**التوبة**].

والثواب أصله من رجوع الشىء إلى حالته، فكأن الجزاء على العمل رجوع بالعمل إلى الحال التى يكون عليها أو يستحقها، وقد قال الراغب فى ذلك: «والثواب ما يرجع إلى الإنسان من جزاء أعماله، فيسمى الجزاء تصورا أنه هو هو (أى أن الجزاء هو ذات العمل) ألا ترى كيف جعل الله الجزاء نفس العمل: ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ** ﴿٧﴾ ﴾ [**الزلزلة**] ولم يقل جزاه، والثواب يقال فى الخير والشر، لكن الأكثر المتعارف فى الخير، وعلى هذا قوله عز وجل: ﴿ **ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ** ﴾.

وقد ختم سبحانه وتعالى النص الكريم بقوله تعالى: ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ لبيان اختصاصه سبحانه بالثواب الحسن كأن كل جزاء للأعمال فى الدنيا لا يعد حسنا بجوار ما أعده الله تعالى للمحسنين من عباده وما فى الدنيا من ثمرات الأعمال لا يعد شيئا، وهذا تمهيد لقوله سبحانه: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتَاعٌ﴾.

فى الآيات السابقة إشارات إلى سطوة المشركين؛ إذ آذوا المؤمنين، وأخرجوهم من ديارهم، وقاتلوهم وقتلوا منهم، وقد بين سبحانه أنه سيجزى المؤمنين على صبرهم وهجرتهم، وجهادهم، ولكن قد يعرض للخاطر: لماذا يكون هؤلاء المشركون فى هذه القوة وتلك النعمة الدنيوية؟ فجاء النهى الكريم ليمنع من توسوس له نفسه من أن يغتر بما عليه هؤلاء المشركون من قوة وسطوة ومتاع دنيوى، والنهى موجه للنبى ﷺ، ومعناه: لا يصح أن تُغر بما عليه المشركون من قوة ومال، وهو نهى لكل المؤمنين، وفيه إشارة إلى أن هذه الحال من شأنها أن تغر وتخدع من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، فكان النهى لهذا، وليس من مقتضى النهى أن يكون قد وقع من النبى ﷺ غرور، فالنهى عن أمر من شأنه أن يقع فى النفوس ليس دليلا على وقوعه، ولذلك روى أن قتادة قال: والله ما غروا نبى الله ﷺ، حتى قبضه الله إليه. ولقد قال الزمخشرى فى توجيه النهى للنبى ﷺ: «فيه وجهان؛ أحدهما: مدرة[1] القوم ومتقدمهم خاطب بشىء فيقوم خطابه مقام خطابهم جميعا، فكأنه قال لا يغرنكم. والثانى: أن رسول الله ﷺ كان غير مغرور بحالهم، فأكد ما كان عليه وثبت ما كان على التزامه كقوله: ﴿وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢)﴾ [هود]، ﴿وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧)﴾ [القصص]، ﴿فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨)﴾ [القلم]، ومعنى غره أصاب غِرته، والغرة غفلة فى اليقظة.

والتقلب التصرف، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩)﴾ [الشعراء]، ومعنى تقلب هؤلاء الأعداء فى البلاد تصرفهم فيها حاكمين

---

(١) مِدرةُ القوم (بالدال): أي المقدم فيهم.

مسيطرين أقوياء ينتقلون أحرارا من بلد إلى بلد، وجملة معنى النص الكريم: لا يصح أن يُخدع أحد بما عليه أولئك الناس من قوة وسطوة وتصريف فى شئون البلاد، فإن هذا إلى أمد قصير، وهو متاع قليل، ولذا قال سبحانه: ﴿ **قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ** ﴾.

المتاع الشيء الذى يجعل الانتفاع به ولا يبقى طويلا، من ذلك قوله، تعالى: ﴿ **وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ** ﴿١٨٥﴾ ﴾ [**آل عمران**]، وهى هنا خبر لمبتدأ محذوف دل عليه الكلام الذى قبله، والمعنى أن تقلبهم وتصرفهم فى البلاد متاع قليل، فهو انتفاع عاجل ومقداره قليل، ثم تعقبه بعد ذلك حسرات، ولذلك ذكر مايعقبه فقال : ﴿ **ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ** ﴾ العطف بـ «ثم» ليس للدلالة على التراخى الزمنى فقط، بل للدلالة على تفاوت ما بين حالهم فى الدنيا، وما يكونون عليه فى الآخرة، والمأوى هو المكان الذى يأوى إليه الشخص ليستقر فيه ويطمئن، فكان استقرارهم هو جهنم، وهى اسم لنيران يوم القيامة، والمهاد هو المكان الممهد والفراش اللين، ويكون التعبير عن مآلهم بالمهاد من قبيل التهكم. ويصح أن يقال إنهم هم الذين مهدوه لأنفسهم، ويكون المعنى بئس الذى مهدوا به لأنفسهم، أى أنهم بأعمالهم فى الدنيا قد مهدوا لأنفسهم فراشا من اللظى والجحيم وبئس هذا المهاد.

وفى هذا تعزية للمؤمنين أبلغ تعزية، وقد روى الترمذى أن رسول الله قال: «ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه فى اليم، فلينظر بما يرجع»(١).

﴿ **لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا** ﴾

الاستدراك هنا بـ «لكن» للمقابلة بين المتقين الأبرار والمشركين الفجار بالنسبة للمآل، فالكفار مآلهم جهنم ومتاعهم دنيوى قليل، والمتقون لربهم المدركون لمعنى الربوبية الشاكرون لنعمته مآلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار، وليست مدتها

---

(١) الترمذي: الزهد - باب منه (٢٢٤٥)، ورواه مسلم: الجنة وصفة نعيمها وأهلها - فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٥١٠١). وأحمد: مسند الشاميين (١٧٣٢٢)، عن مستورد بن شداد بن عمرو.

قليلة، بل لهم فيها الخلود، فالنعيم كثير والزمن طويل، بينما الآخرون نعيمهم ضئيل قصير، وعذابهم دائم كثير.

﴿ نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ ﴾ «النُّزُل» ما يعد للضيف لإكرامه والحفاوة به، ونصب (نزلا) على التمييز كما تقول كان لك هذا هبة، أى من نوع الهبة، وفى هذا بيان لمقدار عناية الرحمن الرحيم بهم، وإدخالهم مدخل صدق، وإنزالهم منزلا مباركا، وقد بين العطاء الروحى بعد العطاء المادى، فقال سبحانه: ﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ ﴾، وقد حاول بعض المفسرين أن يقول إن الأبرار مرتبة أعلى من مرتبة المتقين، سيرا على قاعدة (حسنات الأبرار سيئات المقربين)، ويكون تفسير النص السامى على نظرهم، ومعناه أن ثمة للأبرار منزلة روحية، وتكريما رضوانيا هو خير من المذكور، ومع هذا لا مانع من أن نقول إن الذين اتقوا هم الأبرار، والمعنى إن الله أعد لهم شيئا خيرا من النزل، وهو الرضوان والنعيم الروحى مع النعيم المادى.

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ بين سبحانه ما كان من أهل الكتاب، وما كانوا ينزلونه بالمؤمنين، وما يسمعونهم من أذى، كما قال سبحانه: ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ... ﴿١٨٦﴾ ﴾ [آل عمران].

وفى هذا النص الكريم يبين الله سبحانه باب الرحمة المفتوح لهم، فذكر سبحانه مؤكدا القول بـ «إن» وبـ «اللام» الدالة على القسم اهتداء فريق منهم، وذلك أن هؤلاء المهتدين قد تحلوا بخلال خمس: أولها أنهم يؤمنون أقوى الإيمان وأخلصه، والإيمان يزيل العناد والغطرسة فيطلبون الحق لذات الحق. والثانية أنهم يؤمنون بما أنزل على النبى ﷺ بأن يعلموا أنه آخر لبنة فى صرح النبوة، وأنه لو كان موسى حيا لآمن بمحمد. والثالثة أن يؤمنوا بحقيقة ما أنزل إليهم، ويعرفوا أن الرؤساء حرفوا الكلم عن مواضعه، وأن يعرفوا أن ما أنزل إليهم أو إلى أسلافهم

هو ما جاء به محمد مخبرا عنه. والرابعة الخشوع، وهو الخوف من الله تعالى مع الضراعة إليه وطلب رضاه دون سواه. والخامسة ألا يؤثروا شيئا على آيات الله تعالى هى أماراته البينات، وقد ذكرت هذه فى آخر الآية بقوله سبحانه: ﴿لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ أى لا يتركون آيات الله المبينة لشرعه ودينه فى نظير ثمن هو عرض من أعراض الدنيا فهو قليل مهما يكن كثيرا فى نظر الضالين، وهذه الأمور الخمسة يترتب بعضها على بعض، فيترتب على الإيمان الصادق بالله الإيمان بمحمد والإيمان بما نزل على النبيين الصادقين، ويترتب على هذا كله الخشوع، وأولى ثمرات الخشوع ألا يتركوا آيات الله تعالى لأى عرض من أعراض الدنيا، هؤلاء ينالون جزاءهم، ولذا قال سبحانه: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أى أولئك المتصفون بهذه الصفات التى تدل على الخلوص لله لهم جزاؤهم عند ربهم، وإنه عاجل لهم فى الآخرة، كما أن العذاب لمن لم يؤمنوا عاجل، ولذلك قال سبحانه مؤكدا: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ كانت سورة آل عمران مبينة لألوان الجهاد الذى يقوم به المؤمنون، ففيها جهاد بالحق والبرهان، وجهاد بالقتال وتحمل مرارة الهزيمة، ولذلك ختمها سبحانه بهذا النداء السامى الذى يجب أن يكون شعار كل مؤمن، وابتدأ النداء بيأيها الذين آمنوا، لإشعارهم بأن ما يطلب منهم هو من ثمرات الإيمان ومن مقضياته، وقد أمر بأمور أربعة: الصبر، والمصابرة، والمرابطة، والتقوى. والصبر: معناه ضبط النفس عن أهوائها، وتحمل المكاره راضيا غير ساخط، والقيام بالطاعات على وجهها، وتجنب المعاصى، وتحمل آثار الهزيمة، والعمل على النهوض بعد الكبوة، وتحمل أذى الأعداء وسخريتهم، فالصبر معنى نفسى فى الصابر يجعله يعلو على الحوادث والنوازل، ويستولى على نفسه، ويحملها على ما تحب وتكره، والصبر كما يكون فى الفقر يكون فى الغنى، وصبر الغنى بقمع شهواته، وعدم البطر، وعدم الفرح المسرف الفاخر المستعلى.

والمصابرة هى المغالبة بالصبر، وهى تكون فى الجهاد مع الأعداء فى الملحمة، أو فى المجادلة، أو فى أى مغالبة على أى لون كانت، والمرابطة هى القيام على الثغور الإسلامية لحمايتها من الأعداء، فهى استعداد ودفاع وحماية للديار الإسلامية، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «رباط يوم فى سبيل الله خير عند الله من الدنيا وما عليها»[١]، وكان كبار الزهاد يرابطون نصف السنة، ويطلبون قوتهم بالعمل فى النصف الآخر: والتقوى هى لب كل عمل صالح، وهى النية المحتسبة للخير، فالمرابطة والمصابرة إن لم تكن منبعثة من التقوى لإرضاء الله تعالى فإنه لا خير فيها، وإن هذه الأمور الأربعة هى التى يرجى بها الفلاح، أى الفوز فى الدنيا والآخرة، ولذا قال سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أى رجاء أن يكتب لكم الفوز بالنصر فى الدنيا والجزاء فى الآخرة. اللهم اكتبنا برحمتك فى عبادك الفائزين برضاك.

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري: الجهاد والسير - فضل رباط يوم في سبيل الله (٢٦٧٨) عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. كما رواه الترمذي بلفظ (وما فيها): فضائل الجهاد - ما جاء في المرابط (١٥٨٧)، ورواه أحمد: باقي مسند الأنصار - حديث أبي مالك سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه (٢١٨٠٢).

سورة النساء

تمهيد

قبل أن نتجه إلى التفسير التحليلى لآيات هذه السورة، لابد من تمهيد موجز يعطى القارئ صورة لما اشتملت عليه.

لقد اتفق الرواة على أن هذه السورة مدنية، أى نزلت بعد الهجرة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم، وأن ما اشتملت عليه يدل على أنها نزلت بعد أن كان للإسلام دولة تنظم علاقاتها بغيرها، وبعد أن منَّ الله تعالى على الذين استُضعِفُوا فى الأرض وجعلهم أئمة يهدون بأمر الله تعالى فيها.

وقد روى أن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: «ثمانى آيات نزلت فى سورة النساء خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت. أولهن: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦)﴾ [النساء] والثانية: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا (٢٧)﴾ [النساء] والثالثة: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا (٢٨)﴾ [النساء] والرابعة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠)﴾ [النساء] والخامسة: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا (٣١)﴾ [النساء] والسادسة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا (١١٦)﴾ [النساء] والسابعة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤)﴾ [النساء] والثامنة: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١١٠)﴾ [النساء].

وإن صحت هذه الرواية عن ابن عباس(١) فإنها تدل على أنه اتجه إلى عدل الله ورحمته بعباده، وفتحه باب التوبة والمغفرة. وإلا فإن القرآن كله بكل سورة وآياته خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت.

وسورة النساء هى سورة الإنسانية، ففيها عَيَّن القرآن الكريم العلاقات الإنسانية التى تربط الناس بعضهم ببعض، وما ينبغى أن تنهجه المجتمعات الفاضلة فى جعل العلاقة الإنسانية الأصيلة تسير فى مجراها الطبيعى الذى رسمه رب العالمين بمقتضى الفطرة، وفيها ما حده الله ـ تعالى ـ لعلاج الانحراف الذى ينحرف به ذوو الأهواء من الآحاد والجماعات .

ابتدئت السورة الكريمة ببيان الارتباط الإنسانى الجامع الذى تلتقى عنده البشرية جميعها، فقال ـ سبحانه ـ: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا** ... (١) ﴾ [النساء] وإذا كان الناس جميعا ينتهون إلى أصل واحد فإنه لا بد من التساوى، ولا بد من التراحم لهذه الرحم الواصلة، ثم إن أول مظاهر التراحم هو الأخذ بيد الضعفاء، وأوضح الضعفاء مظهرا أولئك اليتامى الذين لا عائل يعولهم، وإن اليتيم المقهور هو الذى يتولد فيه الانحراف، ومن الانحراف تكون العداوة، ويكون الشر المستطير، ولذلك ابتدئت السورة بعد إثبات الوحدة الجامعة بعلاج اليتم لتكون الجماعات فى طريق المودة.

واليتيم لا يحتاج فقط إلى الغذاء والكساء بل يحتاج إلى المودة والإصلاح فى نفسه وماله: ﴿ **وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً** (٩) ﴾ [النساء].

وفى سبيل بيان حقوق اليتامى يبين ـ سبحانه ـ نظام التوزيع المالى للأسرة عندما يموت واحد منها ، فيبين الميراث وأنه حد لله تعالى للحقوق المالية لمن يخلفون المتوفى فى ماله، وأن الانحراف عنه عصيان لله تعالى .

(١) رواها ابن جرير الطبرى فى تفسيره، وروى الحاكم بإسناد صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، عن ابن عباس أنه قال: سلونى عن سورة النساء؛ فإنى قرأت القرآن وأنا صغير.

وبعد ذلك أخذ يبين الله سبحانه وتعالى تكوين الأسرة الإسلامية، وأساس التكوين هو العلاقة بين الرجل والمرأة، أو بتعبير القرآن السامى العلاقة بين النفس وزوجها، فنفى أن تكون العلاقة بينهما كالعلاقة بين أنثى الحيوان والذكر، بل العلاقة بينهما أسمى وأعلا، ولذلك أشار إلى عقوبة من ينزل إلى مرتبة الحيوان فقال: ﴿ **وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً** (١٥) ﴾ [النساء].

وبين أن باب التوبة مفتوح لمن يقع فى هذه الخطيئة الحيوانية، ثم أخذ يرسم - سبحانه وتعالى - الطريق السليم للعلاقة بين الرجل والمرأة، وهو الزواج، وحرم ما كان عليه أهل الجاهلية من وراثة النساء وسمَّى ذلك مقتا، ثم أخذ يبين سبحانه شرائط العقد الصحيح، والنساء اللائى يحرمن فى الزواج ، ثم نفى سبحانه أن يكون اتخاذ الأخدان سبيلا من سبل تكوين الأسرة ومن اتخاذ الأخدان ما يسمى بالمتعة وهو اتخاذ المرأة لأمد محدود فى نظير أجر معلوم.

وبعد أن بين سبحانه العماد الذى تقوم عليه الأسرة، وهو الزوجان، أخذ يبين علاقة الإنسان بغيره من الناحية المالية فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا** (٢٩) ﴾ [النساء].

ولقد كانت العلاقة بين الرجل والمرأة موضع نظر الماضين كما هى الآن موضع النظر والقول، فوضع الله سبحانه وتعالى الحدود التى تبين حقوق كليهما، فبين الله سبحانه وتعالى أن لكل منهما نصيبه من الكسب، ﴿ **... لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا** (٣٢) ﴾ [النساء]. وبين مع ذلك أن للرجال فضل الرياسة والقوامة، وأن ذلك يظهر فيما للرجل على امرأته من ولاية التأديب، وقد ذكر سبحانه ضروب التأديب التى يملكها الرجل على زوجه، وكلها من غير قسوة ولا شذوذ ولا طغيان، ثم بين سبحانه العلاج إذا أصابت الأسرة آفة الشقاق، فقال سبحانه

وتعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [النساء].

وبعد أن بين سبحانه ماهو قوام الأسرة وعمادها ـ وقد أشار إلى العلاقات المالية بين الناس، وأن أساسها التراضى - أخذ سبحانه وتعالى يبين لنا العلاقة بين العبد وربه، والعلاقة بين العبد والناس بغير التجارة، فَأمَّا العلاقة بين العبد وربه فهى العبادة لله وحده، لا يشرك به أحدا، وأما العلاقة بينه وبين الناس فهى الإحسان، وأول من يجب له الإحسان الوالدان، ثم الإحسان إلى ذوى القربى واليتامى أيَّان كانوا؛ لأنهم إن أهملوا تربت بينهم وبين المجتمع روح العداوة، ثم الإحسان إلى الجار المجاور، والجار القريب لك، ومن تصاحبه فى طريق أو عمل، والإحسان إلى ابن السبيل والضعفاء جميعا، والتضامن والتواضع، ولذا قال تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النساء].

وبين سبحانه التلازم بين الاختيال والفخر والبخل، وبين عاقبة كليهما، وذكر أن من المختالين البخلاء من ينفقون أموالهم رئاء الناس، وأن هذه العيوب النفسية هى من وسوسة الشيطان، وبين سبحانه وتعالى عقاب هؤلاء فى الدنيا والآخرة وكيف يحضرون يوم القيامة: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [النساء].

وقد بين سبحانه وتعالى الأساس الذى تقوم عليه العلاقة الإنسانية، وهو الضمير، والضمير لا يتربى إلا بالصلاة، ولذلك أخذ يشير إلى أحكامها، مشيرا إلى تحريم أم الخبائث وهى الخمر، فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلا جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ... ﴿٤٣﴾ ﴾ [النساء].

ثم بين سبحانه حال أولئك الذين ماتت ضمائرهم مع ما أُوتُوه من علم الكتاب، وهم اليهود، فقد اتخذوا منه ذريعة للسلطان والسيطرة، وبذلك عملوا على إضلال غيرهم، وإفساد عقائد مَن كانوا يجاورونهم، وبين فى هذا محاولتهم إيذاء النبى والتهكم عليه فى دعوته، وفى أثناء بيان رسالته، وربط سبحانه وتعالى حاضرهم بماضيهم، وأشركهم سبحانه مع المشركين فى قرن، وقد بين سبحانه أن الباعث على هذا الضلال والتضليل هو إرادتهم الملك والحسد، ولذا قال سبحانه: ﴿ **أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا** ﴿٥٣﴾ **أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا** ﴿٥٤﴾ ﴾ [النساء] وبين سبحانه من بعد ذلك عاقبة الذين يكفرون بآياته سواء أكانوا ممن أُوتوا الكتاب من قبل أم كانوا من المشركين. وقابل هذه العاقبة بما أفاضَهُ الله ـ تعالى ـ من نعيم أُخرَوى على المؤمنين.

وقد بين سبحانه وتعالى من بعد ذلك أساس الحكم الإسلامى، فذكر أنه العدل والأمانة، وأن أمثل طريق لتحرى العدل والأمانة هو إطاعة الله ورسوله، وأن الحاكم عليه أن يردَّ كل تنازع إلى حكم الكتاب والسنة، وأن التحاكم إلى غير كتاب الله تعالى وسنة رسوله تحاكم إلى الطاغوت، وأن المنافق هو الذى يرتضى حكم الطاغوت بدل حكم الله تعالى: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا** ﴿٦١﴾ ﴾ [النساء] وقد بين أن أمارة الإيمان هو تحكيم الكتاب والسنة ﴿ **فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء].

وإن الحق يجب أن ينصر، وإن المؤمن لا يصح أن يستسلم للاعتداء، وإذا كان العدل وأداء الأمانة وإطاعة الله ورسوله أساس الحكم الإسلامى، فإن العدل مع المخالفين هو أساس العلاقة بين المسلمين وغيرهم، وإن القتال إذا كان العدل يستوجبه يكون أمرا لازما، فإذا اعتُدِى على الإسلام وأهله وجب القتال، ووجب أخذ الأهبة، وكان الحذر من الأعداء بقتالهم: ﴿ **فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ**

الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾ [النساء].

وإن الخروج للقتال هو العلاقة المميزة بين أقوياء الإيمان وضعفاء الإيمان ومنهم المنافقون، فهؤلاء وأولئك يقولون: ﴿ ... لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ... ﴿٧٧﴾ ﴾ [النساء].

وشأن الضعاف أن يزيلوا عن أنفسهم مظنة التقصير، وينسبوا ما يصيبهم من سيئة لغيرهم، وينكروا فضل ذوى الفضل: ﴿ ... وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ ﴾ [النساء].

وإن أولئك يخالفون الرسول، فالله سبحانه أكد لهم أن من يطع الرسول فقد أطاع الله، وأن ذلك كله من هجرهم لأوامر القرآن، وعدم تدبرهم لإعجازه ومراميه، وأن عليهم أن يردوا ما يستغلق عليهم فهمه إلى سنة الرسول وإلى العلماء منهم.

وإن أولئك المنافقين معوِّقون، ولذا أمرالله نبيه بألا يلتفت إليهم: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً ﴿٨٤﴾ ﴾ [النساء].

وقد بين سبحانه أن المعاملة بالمثل هى أساس الإسلام، وأن الجزاء مجانس للعمل دائما، والله سبحانه وتعالى سيجمع الناس جميعا يوم القيامة.

وقد ذكر سبحانه وتعالى ما ينبغى أن يعامل به المنافقون الذين هم كالداء الوبيل فى جسم الأمة، فبين الله سبحانه وتعالى أن يعاملوا باحتراس ولا يتخذوا نصراء ولا أولياء، فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يخلصوا فى دين الله تعالى، وإذا

خرجوا من دياركم أيها المؤمنون فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا. إلا إذا لجأوا إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق، أو قوم ليس بينكم وبينهم حرب ولا يريدون أن يحاربوكم، فإن قاعدة الإسلام احترام المواثيق، وأن من سالم أهله لا يرفع عليه سيف، ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿ ....**فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً** ﴿٩٠﴾ ﴾ [النساء].

وإذا كان العدل هو أساس الحكم الإسلامى، وأساس العلاقات الإسلامية، فإن من الواجب أخذ الجانى بجريمته، ولذلك اتجه إلى بيان ما ينبغى لحماية الأنفس فى الداخل بعد أن بين طريق حمايتها فى الخارج، وهذا بالقتال، وكانت الحماية فى الداخل بالعقوبات المقررة الثابتة فى الإسلام، فذكر عقوبة القتل الخطأ من المؤمنين أو من قوم بيننا وبينهم ميثاق، ثم ذكر عقوبة القتل العمد الأخروية لأنه ذكر القصاص فى سورة البقرة، وقال سبحانه: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ** ... ﴿١٧٩﴾ ﴾ [البقرة].

وبهذا بين الله سبحانه احترام الإسلام لحق الحياة، ولذلك لا يُطلُّ دم(١) فى الإسلام، وهو لا يحترم حق الحياة للمسلمين فقط، بل يحترمها للناس كافة إلا فى حال الاعتداء، ولذلك أمر بالاحتراس فى الحرب من أن يقتل غير مقاتل، أو يحارب غير محارب، وأمر المؤمنين عند القتال والخروج إليه ألا يقتلوا من يلقى السلام، فقال سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا** ﴿٩٤﴾ ﴾ [النساء].

وإن العدل لا تقوم أركانه فى الأرض إلا بأمرين: أحدهما: استعداد أهل الحق لدفع شر الأعداء للحق، وإن للمجاهد فضلا على من لم يجاهد، ولذا قال

---

(١) أى: لا يُهدَر.

سبحانه: ﴿ لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ... ﴿٩٥﴾ ﴾ [النساء].

الأمر الثاني: ألا يرضى مؤمن بالبقاء فى ذلة تحت سلطان عدو الله وعدو الحق، بل عليه أن يهاجر من أرض الذلة، ولذا قال سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ... ﴿٩٧﴾ ﴾ [النساء].

وقد بين سبحانه وتعالى وجوب الهجرة على القادر عليها، وفضلها.

وإن الجهاد فريضة محكمة، والصلاة ذكر الله، ولذلك لا تسقط فريضة الصلاة فى الجهاد، بل هى واجبة، ولها نظام خاص يلتقى فيها الجهاد مع أداء الصلاة جماعة بإمام واحد، فيبتدئ الإمام مع فريق والآخر يحرس الجماعة المجاهدة من الغارة، حتى إذا كان نصف الصلاة ذهب الذى ابتدأ معه للحراسة، وجاء الذى لم يبتدئ، وأتم الإمام صلاته معه، ثم يكمل كل ما فاته. وله فضل الجماعة.

وإن الصلاة قد اتخذت منها قوة معنوية، ولذلك أمرهم بالثبات بعد الصلاة، فقال سبحانه: ﴿ وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [النساء].

وإن النبى ﷺ فى جهاده إنما يجاهد للحق، وهو الحكم العدل، ثم بين سبحانه وتعالى العدو الداخلى وهو النفاق والمنافقون، وكيف كان ﷺ لا يكشفهم ولا يظهرهم، فيقول سبحانه: ﴿ وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [النساء] وبين سبحانه عدله الكامل، ورحمته الشاملة، أما عدله فبجعله الجزاء موافقا للعمل ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ... ﴿١١١﴾ ﴾ [النساء].

وأما الرحمة فبفتحه باب التوبة وباب المغفرة ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء]. وإن الفضل والرحمة والعدالة فيما أنزل سبحانه: ﴿... وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء].

وقد بين سبحانه أن الاستخفاء بالأقوال والأفعال عن الرسول أكثره لا خير فيه: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ... ﴿١١٤﴾﴾ [النساء] فالنفاق استخفاؤه ضلال، والإيمان استخفاؤه إصلاح، ونفع، ثم بين أن الموالاة بين المنافقين والمشركين مشاقة لله ورسوله، ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء].

ولقد بين الله سبحانه وتعالى دعوة الله تعالى ودعوة الشيطان. فدعوة الله تعالى إلى تحكيم العقل، ودعوة الشيطان إلى الضلال والغواية، فالشيطان يدعو إلى تقطيع آذان الأنعام، وتغيير خلق الله، ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا، وبين عاقبة المتبعين لله ولرسوله، وعاقبة المتبعين لأهوائهم، وكيف يرجون الخير ولا يعملون إلا الشر، وهى أمانى كاذبة ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء] وقد أشار سبحانه إلى أحسن الأديان، وهو الاتجاه إلى الله وحده وإحسان العمل، واتباع النبيين.

وإن الإسلام هو القسط، وقد اتجه سبحانه إلى إصلاح الأسرة بمنع الظلم عن المرأة، فإن شكَتْ مِنْ زوجها نشوزا عالجته هى بالإصلاح، فإن لم تجد استعانت بمن يصلحه من أقارب، وإن لم يجد إصلاحا ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ ... ﴿١٣٠﴾﴾ [النساء]، وإن تقوى الله فى كل الأعمال هى المطلوبة، وهى التي تصلح النفوس. ولذلك صرحت الآيات الكريمة بأنها أمر الله الدائم إلى يوم القيامة، أمر به من سبقوا ومن لحقوا.

وبعد هذا بين سبحانه وتعالى أمره الخالد، وهو العدالة المطلقة التى لا تعرف وليا ولا عدوا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ... ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء]. وأمر بعد ذلك سبحانه بالإيمان بالله ورسوله، وبهذا يشير إلى أن العدالة قرين الإيمان.

وبعد هذا البيان الرائع الذى يصور حقيقة الإيمان وعماده أخذ يصور حقيقة النفاق والمنافقين تصويرا قرآنيا، وإن أدق صورة بيانية للنفاق والمنافقين قوله تعالى: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴿١٤٣﴾﴾ [النساء].

والله سبحانه برحمته التى وسعت كل شىء يفتح باب التوبة حتى للمنافقين ثم يقول: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء].

أدبنا سبحانه وتعالى أدبا عاليا، وهو منع الجهر بالسوء؛ لأن الجهر به دعوة إليه، ولكن رخص للمظلوم أن يتكلم فى ظالمه بالحق ﴿لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾ [النساء]، وقد بين سبحانه بعد ذلك أحوال اليهود، فقد فرقوا بين الرسل، آمنوا ببعض وكفروا ببعض، وقد بين تعنت الماضين، مع أنهم أُوتُوا تسع آيات بينات، ومع ذلك طلبوا أن يَروا الله جهرة، ثم اتخذوا العجل إلهًا من بعد ما جاءتهم البينات، ورفع الجبل فوقهم وأُخِذت عليهم العهود الموثقة، وأُمِروا ألا يَعْدُوا فى السبت، ومع كل هذا خالفوا، فطبعت قلوبهم على القسوة، وعقولهم على الإنكار، والبينات تجدى طالب الهداية فقط ولم يطلبوها، وقد استمروا على افترائهم فافتروا على مريم البتول، وادعوا أنهم قتلوا المسيح ﴿...وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ... ﴿١٥٧﴾﴾ [النساء]. وبهذا الظلم وتلك القسوة والجشع المادى حرم الله عليهم طيبات أحلت

لهم؛ ليفطم نفوسهم - وليسوا جميعا سواء؛ ولذلك ذكر الله تعالى الراسخين فى العلم منهم ومقامهم من الحق والإيمان بهم.

ولقد بين سبحانه وحدة الرسالة الإلهية، فما أوحى إلى النبى هو ما أوحى إلى الأنبياء قبله، وإن الله يشهد والملائكة يشهدون بصدق ما جاء به، وإن الكافرين صدوا عن سبيله وضلوا وطريقهم إلى جهنم. ثم بين سبحانه ضلال أهل الكتاب، فقد غالوا فى أنبيائهم، فقال النصارى: الله ثالث ثلاثة! وذلك ليس الحق ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ... ﴿١٧٢﴾ ﴾ [النساء].

ثم بين سبحانه وتعالى أن القرآن حجته فيه، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾ [النساء].

وقد ختم سبحانه وتعالى السورة بما ابتدأ به، وهو أمر بعض أحكام الأسرة، لبيان أن الأسرة هى حمى المجتمع وموضع صيانته، فقال سبحانه: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [النساء].

هذه إشارة موجزة إلى ما اشتملت عليه السورة التى تعلو بالإنسانية إلى أعلى مراتبها، قدمناها بين يدى تفسيرها ليكون التفسير تفصيلا لهذه الإشارات، والله تعالى هو الذى يمدنا بعونه وتوفيقه. إنه هو الحكيم العليم.

معانى السورة الكريمة

قال تعالى:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا
زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ
بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ
وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ
كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾

قلنا فى الاستعراض الذى ذكرناه لسورة النساء: إنها سورة المجتمع الإنسانى، وتنظيم العلاقات بين الآحاد والجماعات والدول، فهى تنظم الأسرة، والمجتمع الصغير، والمجتمع فى الأمة الإسلامية، وحالها فى الدفاع عن نفسها، ودفع عناصر الفساد فيها، وتنقيتها من كل بواعث السوء، وعلاقتها بغيرها ممن ألقوا السلم، وممن نابذوها العداوة.

ولذلك كان ابتداؤها بهذا النص السامى الشامل فى معناه، فقال سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ**﴾.

يذكر بعض المفسرين أن النداء بـ «يا أيها الناس» يخاطب به أهل مكة، والنداء بـ «يا أيها الذين آمنوا» يخاطب به المؤمنين، وأخذوا ذلك من أن أكثر الآيات التى ابتدئت بـ «يا أيها الناس» نزلت بمكة، وأكثر الآيات التى ابتدأت بـ «يا أيها الذين آمنوا» نزلت بالمدينة، ولا شك فى أن «يا أيها الذين آمنوا» خاصة فى ندائها بأهل الإيمان؛ لأن صلة الموصول تعيّن ذلك. أما «يا أيها الناس» فتخصيصها بأهل مكة تخصيص بغير مخصص، إنما تسرى على عمومها، وهو عموم الخطاب لمن يعقلون، وذلك اللفظ وما هو مضمون النداء عام شامل جميع

الناس، فكلمة «الناس» تشمل كل بنى الإنسان، وما فى مضمون النداء من إنذار وتبشير وبيان للحقائق الوجودية والكونية، والأدلة والبراهين أمور عامة لا تختص بقبيل دون قبيل، ولا بقوم دون قوم. وفى النص الكريم الذى نتكلم فيه يتضمن النداء حقيقة عامة نفسية تجمع بنى الإنسان مهما تختلف أجناسهم وألوانهم وألسنتهم، فهو يثبت أن الأصل هو «نفس واحدة» كلهم يرجعون إليها، ويتصلون بها، وهذا النص يشبه قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ... ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات].

بيد أن النص الذى نتحدث عنه يثبت أن الذكر والأنثى من طبيعة واحدة، ويثبت فى مضمونه الصلة الرحيمة التى تربط الناس جميعا، وما ينبنى عليها من تعاطف وتواد وتراحم، والنص الآخر يبين وجوب التعارف الذى هو الطريق للتراحم والتواد، فهنا بيان الغاية، وهنالك بيان طريقها.

نادى الله سبحانه وتعالى الإنسانية، ذلك النداء الخالد ونبههم سبحانه وتعالى إلى الوحدة فى أمرين:

أولهما: وحدة الربوبية، فإن ربكم واحد، إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿**اتقوا ربكم**﴾ الذى هو رب الجميع، رب الأبيض والأسود والعربى والأعجمى، والعالم والجاهل، فصلة الجميع به واحدة، وهى صلة الربوبية، وإن هذه الصلة توجب أن يشعر الجميع بأنه لا فضل لجنس على جنس، ولا للون على لون إلا بمقدار الاتصال الروحى بخالق الخلق، وذلك بالتقوى، فهذه الصلة مقوية للأمر بالتقوى، وأنها مناط التفضيل، وهى سبيل قوة الصلة الرابطة.

والثانى: وحدة التكوين والإنسان، فالكل ينتهى إلى نفس واحدة هى الجنس العام الجامع، مهما يَعْلُ ابن آدم أو ينخفض فإلى هذه النفس ينتمى، وبهذه الأخوة العامة يرتبط.

والأمر بالتقوى فى هذا المقام لبيان الصلة التى تربط الإنسان بالرب الذى أنعم بهذا الوجود على كل من فى هذا الوجود، وكان ذلك الأمر ممهدا لأمر آخر،

وهو أن يلاحظ كل إنسان تلك الأخوة الرابطة فى كل عمل يعمله، وكل غاية يتغياها ويريدها، وما أجود ما قاله الزمخشرى فى هذا المقام، فقد قال جار الله رضى الله عنه: «أراد بالتقوى تقوى خاصة، وهى أن يتقوه فيما يتصل بحفظ الحقوق بينهم، فلا يقطعوا ما يجب عليهم وصله، فقيل اتقوا ربكم الذى وصل بينكم، حيث جعلكم صنوانا مفرغة من أرومة واحدة فيما يجب على بعضكم لبعض، فحافظوا عليه ولا تغفلوا عنه، وهذا المعنى مطابق لمعانى السورة».

والنفس الواحدة هى آدم أبو الأناسى فى هذا الوجود، والمعنى على هذا الكلام يتطابق مع قول النبى ﷺ «كلكم لآدم وآدم من تراب»(١) وهذا نظر الأكثرين من المتقدمين، وهو الذى يتلاقى مع قوله بعد ذلك: ﴿**وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً**﴾.

وقد ذكر الرازى فى مثل هذا المقام أنه قد يراد بنفس واحدة أن البشر جميعا متجانسون متحدون فى المنشأ ونفوسهم متشابهة متلاقية، فهم جميعا ينتهون إلى نوع من النفوس واحد، وقد ذكر هذا المعنى فى قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا** ... ﴿١٨٩﴾﴾ [**الأعراف**] فقد نقل عن القفال فى تأويل هذه الآية أنه تعالى ذكر هذه القصة على سبيل ضرب المثل، والمراد خلق كل واحد منكم من نفس واحدة، وجعل من جنسها زوجها إنسانا يساويه فى الإنسانية، وارتضى أن يكون هذا أحد التأويلات.

وعلى هذا الكلام يكون المعنى: إن الله تعالى خلق نفسا واحدة تلتقى عندها كل الأنفس متشابهة متشاكلة، وإن ذلك يقتضى التشابك فى كل بنى الإنسان، ومع التساوى فى الخلق يكون التساوى فى الحقوق والواجبات.

﴿**وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً**﴾ الزوج القرين المجانس أو المقابل غير المجانس، وقد قال فى ذلك الأصفهانى: «يقال لكل واحد من القرينين

---

(١) جزء من حديث رواه أحمد (١٠٥٥٥)، والترمذى (٤١٢٧) وحسَّنه، وأبو داود بنحوه (٥١١١) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

من الذكر والأنثى فى الحيوانات المتزاوجة زوج، ولكل قرينين فيها وفى غيرها زوج، ولكل ما يقترن بآخر مماثلا له أو مضادا زوج. قال تعالى: ﴿ **فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ** ﴿٣٩﴾ ﴾ [القيامة] قال: وزوجك الجنة[١]، وزوجة لغة رديئة، وجمعها زوجات. قال الشاعر: «فشكا بناتى شجوهن وزوجتى».

وإن كثيرا من المفسرين على أن المراد من الزوج حواء، وقد خلقت من آدم، وقد أخذوا من ظواهر آثار وردت عن الصحابة، وعن تفسير بعض التابعين، ومن ظاهر قوله ﷺ: «إن المرأة خلقت من ضلع أعوج وإن أعوج شيء فى الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج»[٢].

وإن كثيرين من المفسرين قالوا إن المراد من جنسها أى من طبيعتها، ومن خواصها، وذلك مثل قوله تعالى:

﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ...** ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم]. ومثل قوله تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ...** ﴿٧٢﴾ ﴾ [النحل]. وقوله تعالى: ﴿ **فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى].

وإذا كانت الزوج من جنس النفس العامة فإنه يسكن إليها ويطمئن عندها كما ذكر فى آيات أخرى غير الآية التى هى موضوع كلامنا.

وقد كانت نتيجة ذلك الازدواج النفسى والجسدى، أن كان البشر، ولذلك قال سبحانه: ﴿ **وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً** ﴾. والبث معناه النشر والتفريق، ومن ذلك

---

(١) أى فى قوله تعالى فى سورة البقرة (٣٥) : ﴿ **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ** ﴾.

(٢) أصح ما ورد فى هذا الحديث ما جاء فى الصحيحين؛ رواه مسلم: الرضاع - الوصية بالنساء (١٤٦٨)، ولفظه: عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَى طَرِيقَةٍ، فَإِنْ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَبِهَا عِوَجٌ، وَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهَا كَسَرْتَهَا وَكَسْرُهَا طَلَاقُهَا»، ورواه البخاري: النكاح- المداراة مع النساء (٥١٨٤).

قوله تعالى: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾ [الغاشية] وإن هذا يدل على أن البشر الذين تفرقوا فى هذا الوجود رجالا وإناثا، وانشعبوا قبائل متفرقة فى أقصى الأرض وأدناها، كلهم ينتمون إلى هذه النفس الواحدة بلا فرق بينهم فى أصل الانتماء، وفوق هذا يدل الكلام على أن طبيعة المرأة من طبيعة الرجل، وأنها ليست من جنس مرذول يجرى الشيطان فى عروقه ولا يجرى فى عروق الرجل، وأنها لعنة الله فى الأرض كما تجرى عبارات بعض المتكلمين فى المسائل الدينية من غير المسلمين، وإن الآيات المتضافرة التى تدل على أن الزوج من نفس الزوج فيها إشارة إلى وجوب التجانس النفسى بين الزوجين، وأن الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف، وكل رجل يكون كنصف دائرة يسبح فى الوجود حتى يلتقى بنصف الدائرة الذى يساوى قطره فيكون الالتئام وتتكون الحياة الزوجية الهنيئة.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾ تساءلون أصلها تتساءلون فأدغمت التاء فى السين، وقرئ تساءلون بطرح إحدى التاءين، ومعناها يوثق بعضكم مطالبه من أخيه ومسألته له بالله تعالى أى يسأل بعضكم مزكيا مسألته بذكر الله تعالى، وبذكر الأرحام الرابطة بينكم، ووشائج القربى.

والأمر بالتقوى تكرر لتربية المهابة فى النفس، ولتوكيد الطلب، ولأن مقام التقوى فى الثانى غير مقام التقوى فى الأول، فمقام التقوى فى الأول هو مقام التقوى التى تتجلى فى شكر الرب على ما أنعم، وبقيام الواجب نحو الخلق للصلة الجامعة الوثيقة، فهى تقوى الربوبية والإنعام، ومقام التقوى فى الثانى تقوى الألوهية، ولذلك ذكر لفظ الجلالة الدالة على كل معانى الألوهية، فهى تقوى العابد الخائف الراجى رحمته، والأولى تقوى الشاكر المحس بجلائل الإنعام.

والأرحام قرئت بفتح الميم[1]، ويكون المعنى اتقوا الله واتقوا الأرحام، ومعنى اتقاء الأرحام ألا يقطعوها، بأن يجعلوا لها وقاية من المودة الواصلة،

(١) قرأها بالجر حمزة، وقرأ الباقون بالنصب. [غاية الاختصار ٢، ص٤٥٩].

والأرحام هنا هى كل الصلات الإنسانية التى وصل بها بين الخلق بخلقهم من نفس واحدة، وبالأولى تدخل الأرحام الخاصة، والقرابات القريبة.

ويصح أن يكون المعنى اتقوا الله الذى تتساءلون به وبالأرحام، وتكون الواو واو المعية، وتتلاقى هذه مع قراءة الكسر[1]، وقراءة الكسر قد تتعارض مع قواعد النحاة الذين قد يقولون إن العطف لا يكون على ضمير موصول مجرور، ولكن قراءات القرآن المتواترة فوق قواعد النحاة، وهى أصدق فى الفصحى.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ هذا ختام للآية الكريمة فيه حث على المبالغة فى التقوى ورعاية الرحم، والصلات الإنسانية التى تربط بين الناس بعضهم للوحدة الإنسانية الشاملة، وكان الحث على التقوى لإشعارهم جميعا بقوة رقابة الله سبحانه وتعالى. وقد ذكر العلى القدير رقابته مؤكدة بأوثق توكيد، فأكدها بـ «إنَّ» وبتكرار لفظ الجلالة الذى يربى فى نفس المؤمن كل معانى العبودية، وبالتعبير بـ «كان» الدالة على الدوام والاستمرار، وبذكر الفوقية فى قوله تعالى ﴿عَلَيْكُمْ﴾ وهى دالة على معنى الاطلاع الدائم مع السيطرة والقهر، وأخيرا بصفة المبالغة إذ قال: ﴿رَقِيبًا﴾ وإن الله يؤكد صلة الأرحام بهذا وباقترانها به فى الذكر وباقترانها به عند السؤال باسم الله تعالى، ويقول الزمخشرى: «وقد آذن عز وجل إذ قرن الأرحام باسمه ـ أن صلتها منه بمكان كما قال تعالى: ﴿...أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ... (٢٣)﴾ [الإسراء] وعن الحسين: إذا سألك بالله فأعطه، وإذا سألك بالرحم فأعطه».

﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ أوجب سبحانه وتعالى الرحمة العامة فى الآية السابقة وأخصها ما كان فى الأسرة الواحدة، وقد ابتدأ فى هذا بأحق الناس بالرحمة العاطفة، والمودة الواصلة، وهم الذين نزلوا إلى هذا الوجود من غير حامٍ غير الله تعالى يحميهم، ولا قلب يحنو عليهم حنو الوالد الشفيق، وأولئك هم اليتامى، واليتم معناه: (الانفراد) واليتيم هو الصغير الذى مات أبوه، وقد حث الله تعالى على إكرام اليتامى فى آيات كثيرة، وأحاديث نبوية

(١) هى قراءة حمزة كما سبق بيانه.

مستفيضة قد تضافرت كلها على وجوب إكرامه ومنع قهره وإذلاله، ذلك أن اليتيم يحتاج إلى إصلاح وعطف ومحبة تعوضه عما فقد من رعاية، وإن العواطف الإنسانية تنمو فى الطفل وهوصغير بالمجاوبة النفسية بينه وبين من يحيطون به. فإذا انقطعت تلك العاطفة فى الصغر نفر ونظر إلى الجماعة كلها نظرة العدو إلى عدوّه، فيكون من هؤلاء الذين فقدوا عطف الأبوة ولم يكن ما يعوضها ـ الشذاذ وقطاع الطرق، وبعبارة عامة من ليس عندهم ضمائر، ولا نفوس لوَّامة.

وقوله تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ فيه أمر واضح بالرعاية من ناحية المال، فلا يمنعون حقهم المالى، والأمر بالإيتاء أمر لعموم الجماعة الإسلامية بأن تتضافر فى تمكين اليتيم من أن يصل إليه ماله، فلا يأكله الورثة وَيُضيِّعون حقه، وعلى ذلك يكون معنى الإيتاء تخصيص نصيب لليتامى كاملا غير منقوص، فتحفظ لهم حصتهم فى أبيهم أو فى مورثهم، ويحفظ لهم نصيبهم فى كل غلة لأموالهم، ويكون وصف اليتامى على حقيقته؛ لأن ذلك وهم صغار، وفسر بعض العلماء الإيتاء بالإعطاء لهم إذا بلغوا رشدهم، ويكون التعبير عنهم باليتامى باعتبار ما كان.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ معناه: لا تجعلوا لهم خبيث المال بدل الطيب، ويكون الطيب معناه الجيد، والخبيث معناه الردىء، فعلى هذا يكون المعنى الجملى: لا تجعلوا ردىء المال لهم بدل الجيد، فإذا كانت التركة شاءً فلا تجعلوا لهم الهزيلة، ولكم السمينة، وإذا كانت نقدا فلا تجعلوا لهم الزيوف، وتجعلوا لأنفسكم الجيد، ومعنى التَّبدل، جعل شىء بدل شىء أى يجعلون الردىء بدل الجيد، والباء فى مادة التبدل يجوز أن تدخل على المتروك، ويجوز أن تدخل على المأخوذ، وهى هنا على المتروك، لأنه يترك عنهم الجيد، ويؤخذ لهم الردىء وفسر بعضهم الخبيث بالحرام، والطيب بالحلال، ويكون المعنى: لا تجعلوا الحرام عليكم بدلا عن الحلال، أى لا تأخذوا الحرام من مالهم وتتركوا الحلال الطيب من أموالكم، وبهذا فسر الزمخشرى.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ الكلام السابق كان فى تخصيص أنصبة لهم غير منقوصة، وتخير هذه الأنصبة من الطيب دون الخبيث، وهنا الكلام فى خلط أموالهم بأموال الأوصياء، ومعنى النص الكريم: لا تضموا أموالهم إلى أموالكم آكلين لها. والآية صريحة فى النهى عن خلط مال القاصر بمال الموصى عليه قاصدا أكله؛ لأن الأكل فى ذاته حرام، وهى أيضا تتضمن النهى عن خلط مال القاصر، ولو لم يقصد أكله؛ لأنه قد يؤدى إلى ضياعه وعدم تميزه، إذ يخشى أن يموت من غير أن يعرف مال اليتيم من ماله، فيؤدى الأمر إلى أكله، وإن لم يكن مقصودا، ولذا يقول الفقهاء: إذا مات الموصى على اليتيم مجهلا مال اليتيم اعتبر مستهلكا له.

﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ الضمير يعود إلى النهى عن أكل مال اليتيم بأى طريق كان الأكل، ومعنى «حوبا كبيرا»: إثما كبيرا، فالحوب معناه الإثم، وفلان يتحوب أى يتأثم، والحوباء النفس المرتكبة للإثم، وإن الإثم فى هذا كان كبيرا؛ لأنه اعتداء على ضعيف، والاعتداء على الضعيف أكبر الإثم، ولأنه خيانة للأمانة، ولأنه تضييع لنفس بشرية وهى نفس اليتيم؛ لأنه إذا كان يؤكل ماله فمم يأكل؟ ولأن ذلك ينشئ اليتيم على النفرة من المجتمع، وفى ذلك شر مستطير، ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾ [النساء].

وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾

بين الله سبحانه وتعالى فى الآية السابقة حق اليتيم من العطف والرعاية ومضار إهماله وعدم إصلاحه والعمل على إذلاله، وفى هذه الآيات يبين حق النساء، والأمر فيهن يتلاقى مع أمر اليتيم؛ لأنهن ضعاف(١)، فهن فى حاجة إلى رعاية وإصلاح وعطف، ومعاملة عادلة لا شطط فيها ولا جور، ولذا قال تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ ... ③ ﴾ [المائدة].

معنى الإقساط العدل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ... إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ④٢ ﴾ [المائدة] وقوله تعالى: ﴿ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴾ أى تقيموا العدل بيسر ليصل إليهم من غير مجهود، فمن النقص فى العدل ألا يصل العدل إلى صاحبه إلا بمشقة وجهد.

ومعنى «خفتم»: ظننتم، ومعنى «ما طاب لكم»: ما حل. وقد تفسر بمعنى ما تستحسنونه من النساء لدين وخلق ونسب وجمال أو لواحد من هذا، و«ما» هنا فى موضع العاقل، وعبر بـ «ما»، وهى فى أصل وضعها لغير العاقل، إما لأنه أريد الصفات؛ لأن طاب تدل على أن الوصف أساس الاختيار، وإما لأن جماعة الإناث تعامل فى نسق القول معاملة غير العاقلين كما قرر الزمخشرى، وإما لأنه عند التعميم يستعمل (ما) فى موضع (مَن)، و (مَن) فى موضع (ما) كقوله تعالى: ﴿ ... فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ ... ④٥ ﴾ [النور] وذلك هو الذى نختاره. والنكاح هنا معناه العقد، وكلمة النكاح فى القرآن الكريم لم تستعمل إلا فى موضع العقد، لا الوطء.

وهنا شرط وجواب، والشرط هو ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ ﴾ والجواب هو ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ ﴾، وقد تكلم

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول على المنبر: «أُحَرِّجُ مَالَ الضَّعِيفَيْن: الْيَتِيمِ وَالْمَرْأَةِ». رواه الحاكم فى المستدرك (٧٢٤٥): ج٤، ص١٤٣، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

العلماء فى العلاقة بين الشرط وجزائه، **وتساءلوا ما العلاقة بين الإقساط فى اليتامى، والزواج مثنى وثلاث ورباع، إلى آخر النص الكريم؟ وقد أجيب عن ذلك بعدة إجابات:**

أولها: أن الرجل تكون فى ولايته يتيمة، فيخشى ألا يتزوجها خشية ظلمها، أو يخشى أن يطلبها من وليها فيكون منه الظلم لضعفها وعدم وجود حام لها، فقال الله تعالى ما معناه إن رغبتم فى الزواج من اليتيمات، وخشيتم من تحقيق هذه الرغبة ألا تعدلوا فى اليتامى فلا تحققوا هذه الرغبة، وانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، وتكون إباحة التعدد وتقييده قد جاءت عرضا، لا بالقصد الأصلى فى البيان، وقد روى المفسرون ذلك عن عائشةرضى الله عنها.

وثانيها: أن المعنى: إن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فخافوا أيضا ألا تقسطوا فى النساء بتزوج أكثر من أربع، أو فى دائرة الأربع ولا تعدلوا، أى أنه إذا كان قد تحقق منكم هذا الخوف بالنسبة لليتامى فخافوا بالنسبة للنساء، فلا تتزوجوا أكثر من أربع، وعلى هذا التخريج يكون النص قد سيق لتقدير التعدد لا لإباحته، وقد قال هذا بعض التابعين.

وثالثها: وقد ذكره الزمخشرى، وهو أن يكون المعنى: إن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فخافوا الزنا أيضا، وإذا خفتم الزنا فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، والربط بين الزنا وظلم اليتامى أن كليهما فيه إضعاف للنسل، فالزنا إضعاف له بإخراج مولود ليس له ولىّ أصلا، واليتم فقد الولى، فكلاهما فاقد للنصير، ومن حماية الإنسان من الزنا أن ينكح ما طاب له مثنى وثلاث ورباع، ويكون فى هذا التخريج بيان التعدد المباح، وإشارة إلى بعض حكمته.

ورابعها: وهو ما اختاره ابن جرير الطبرى، أن المعنى إن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى، فخافوا أيضا ألا تقسطوا فى النساء إذا تخلفت العدالة عند التعدد فلا تعددوا، وإذا تخلفت العدالة فى الواحدة فمما ملكت أيمانكم، فالآية سيقت للعدالة فى التعدد وعدم التعدد، وهو قريب من الثانى، فإن كليهما لمنع ظلم

الفساد، بيد أن الثانى تخريجه على أساس تقييد العدد، أما هذا فسياقه المطالبة بالعدالة، وهما متلاقيان فى الجملة.

وعلى كليهما يكون التعدد والعدالة قد سيق الكلام لهما، ولم يكن عرضا، وإنا نختار ذلك، وسياق القول يدل عليه، وذلك أن الكلام فى اليتامى قد اختلط بالكلام فى النساء، وذلك لأن كليهما ضعيف، وقد كانت حقوق المرأة ضائعة مأكولة كما كانت حقوق اليتيم ضائعة مأكولة، والمرأة فى عهد نزول القرآن كانت أسيرة فى بيت أبيها وبيت زوجها فأوصى الله برعايتها كما أوصى برعاية اليتيم، ولذلك قيد التعدد بالعدل، وقيد بالقدرة على الإنفاق كما سنبين، وذلك لكيلا يقع ظلم على المرأة.

ولفظ «مثنى» معدول به عن اثنين، اثنين، وثلاث معدول به عن ثلاث ثلاث، ورباع معدول به عن أربع أربع، ومعنى جاء الجند مثنى أى جاءوا اثنين اثنين، وجاءوا ثلاث أى ثلاثة ثلاثة، ورباع أى أربعة أربعة، ومعنى الآية على هذا أن لجماعة العاقلين أن يتزوجوا معددين جامعين اثنين أو جامعين ثلاثا، أو جامعين أربعا، والخطاب فى قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا﴾ لجماعة المسلمين، أى كونوا أيها المسلمون معددين اثنين أو ثلاثا إلى آخره.

والعطف على نية تكرار العامل، أى انكحوا جامعين اثنين أو انكحوا جامعين ثلاثا أو انكحوا جامعين أربعا، وبهذا النص يستفاد أن الإباحة مقصورة على أربع، وقد ثبت فى السنة أن بعض الذين أسلَموا كان معهم فى عصمتهم أكثر من أربع فأمرهم النبى ﷺ أن يقتصروا على أربع، ويطلقوا الزائد عنهن(١).

وقد قيد التعدد بقيدين أحدهما القدرة على العدالة، والثانى القدرة على الإنفاق، ولذلك قال سبحانه وتعالى بعد ذلك: ﴿**فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا**﴾.

---

(١) عن سالم، عن أبيه قال: أسلم غيلان بن سلمة الثقفى وعنده عشر نسوة فأمره النبى ﷺ أن يأخذ منهن أربعًا. رواه الحاكم فى المستدرك (٢٨٢٩) ج٢، ص٢٠٩.

العدالة شرط فى كل زواج ولو كان ذا زوجة واحدة، فمن كان غير قادر على العدالة أو على الإنفاق لا يحل له أن يتزوج، والزواج مطلوب من القادر على العدالة والإنفاق، ولذا قال النبى ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة (أى تكاليف الزواج من نفقة وغيرها) فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجَاءُ»[(١)] أى إنه قاطع شهواته بالسيطرة عليها، وإذا كانت العدالة مطلوبة فى الزواج الواحد، فهى ألزم فى تعدد الزوجات، ومعناها يتسع، فتكون العدالة مع كل واحدة بحيث لا يظلمها فى ذاتها، ويجب عليه أن يساويها مع غيرها، والعدل المطلوب هو العدل الظاهر بالتسوية بينهن فى المطعم والملبس والمسكن والبيت، فلا يبيت عند واحدة أكثر من غيرها إلا بإذنها، أما العدل الباطن بمعنى التسوية فى المحبة القلبية، فهى غير ممكنة وغير مطلوبة، وقد جاء فى أحكام القرآن للجصاص: «أمر الله تعالى بالاقتصار على واحدة إذا خاف الجور ومجانبة العدل. إنها إباحة للاثنتين إذا شاء، وللثلاث إن شاء، وللأربع إن شاء، فإن خاف ألا يعدل اقتصر من الأربع على الثلاث، فإن خاف ألا يعدل اقتصر على اثنتين، فإن خاف ألا يعدل اقتصر على واحدة... والعدل المطلوب هو العدل الظاهر، وهو القَسْم بين الزوجين، والمساواة فى الإنفاق، والمساواة فى المعاملة الظاهرة، وليس هو العدل فى المحبة الباطنة فإن ذلك لا يستطيعه أحد، ولا يكلف الله إلا ما يكون فى الوسع، لا يكلف الله نفسا إلا وسعها، وكان النبى ﷺ لا يسوى بين أزواجه فى المحبة القلبية؛ ولذلك كان يقول عند قَسْمه بين أزواجه: «اللهم إن هذا قسمى فيما أملك، فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك»[(٢)].

وقد وفق العلماء بين هذه الآية التى تطالب بالعدل، وبين الآية التى تنفى إمكانه، وهو قوله تعالى: ﴿**وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا**

---

(١) رواه البخارى: النكاح- من لم يستطع الباءة فليصم (٥٠٦٦).

(٢) روى أبو داود: النكاح- القسم بين الزوجات (٢١٣٤) عَنْ عَائشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ يَقْسِمُ فَيَعْدِلُ وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ هَذَا قَسْمِى فِيمَا أَمْلِكُ فَلا تَلُمْنِى فِيمَا تَمْلِكُ وَلا أَمْلِكُ» قَالَ أَبُو دَاوُد: يَعْنِى الْقَلْبَ.

تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ... ﴿١٢٩﴾ [النساء] فقالوا إن العدل المطلوب هو العدل الظاهر والمساواة فى المعاملة والعدل المنفى المساواة فى المحبة القلبية.

وإنه واضح أنه إذا لم يستطع العدل الظاهرى وجب الاقتصار على واحدة، وإن لم يستطع العدل معها اكتفى بالدخول بملك اليمين، أى بالدخول بالجارية التى يملكها، وقد زال الرق، فزالت معه تلك الرخصة، فمن لم يستطع العدالة مع زوجه عليه أن يروض نفسه بالصوم، أو يروض نفسه على العدالة.

وقد قيد التعدد بقيد ثان، وهو القدرة على الإنفاق على النسوة اللائى يتزوجهن، وعلى من سيرزقهم الله منهن، وقد أشار القرآن إلى وجوب مراعاة ذلك، فقد قال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ أى إن هذا التقييد بهذا العدد المحدود، مع قيد العدالة، ومنها القدرة على الإنفاق، أقرب إلى ألا تعولوا، وعال يعول معناها مال، ومنه عال الميزان أى مال، وفسرها بعض العلماء بمعنى ذلك أدنى ألا تجوروا، وروى ذلك التفسير عن عائشة - رضى الله عنها، ولكن فسرها الإمام الشافعى بألا يكثر عيالكم، وهذا التفسير يؤدى إلى معنى جديد، لم يفهم مما سبق، وقد رجح ذلك الزمخشرى بقوله: «والذى يحكى عن الشافعى أنه فسر ألاَّ تعولوا : ألاَّ تكثر عيالكم فوجهه أن يجعل من قولك عال الرجل عياله يعولهم، كقولهم مانهم يمونهم إذا أنفق عليهم، لأن من كثر عياله لزمه أن يعولهم، وفى ذلك ما يصعب المحافظة على حدود الورع وكسب الحلال والرزق الطيب، وكلام مثله من أعلام العلم وأئمة الشرع ورءوس المجتهدين حقيق بالحمل على الصحة والسداد، وألا يظن به تحريف تعيلوا إلى تعُولوا، فقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال: «لا تظن بكلمة خرجت من فىّ أخيك سوءا وأنت تجد له محملا»، وكفى بكتابنا «شافى العى، من كلام الشافعى» شاهدا بأنه أعلى كعبا، وأطول باعًا فى علم كلام العرب من أن يخفى عليه مثل هذا، ولكن للعلماء طرقا وأساليب، فسلك الشافعى فى هذه الكلمة طريق الكنايات».

ومع أن التعدد مقيد بالعدالة والقدرة على الإنفاق، وهى تدخل فى العدالة، لا يعتبر العقد فاسدا إذا لم يتوافر هذان الشرطان ولم يحدث أن قاضيا أو حاكما اشترط لصحة العقد أو نفاذه ذلك الشرط، والإجماع على أنه لا أثر لفقد الشرطين فى العقد، وكل كلام غير ذلك هو بدعة لم تكن عند السلف، وإنما لم يفسد العقد لأن الفساد يكون بأسباب واقعة، لا بأسباب متوقعة، والعدالة والإنفاق أمران مقدران فى المستقبل، فقد يتوب من الظلم، وربما يجعل الله من عسره يسرا، ولأن الظلم أمر نفسى، والفساد والبطلان لا يكونان لأمور نفسية خفية لا يجرى عليها الإثبات. وإذا سوغ بعض الناس للقاضى ألا يأذن إلا إذا تأكدت العدالة والقدرة على الإنفاق، فقد جعل للقاضى ما لا سبيل إلى التأكد منه، ثم إن العدالة والقدرة على الإنفاق لازمان فى الزواج[1] لزومهما فى الزواج الثانى والثالث، فلماذا يسوغان ذلك للقاضى عند التعدد فقط؟! إن ذلك معاندة لشرع الله تعالى الذى أباح التعدد.

والتعدد لا بد منه عند استحكام الشهوات؛ لأنه إن لم يعدد اتجه إلى الحرام، والحلال على أية صورة خير من الحرام، واتخاذ الحلائل خير من اتخاذ الخلائل، والتعدد قد يكون علاجا اجتماعيا، عندما تأكل الحرب شباب أمة من الأمم ويكون عدد النساء الصالحات للزواج أكثر من الشباب بأضعاف مضاعفة، ولا سبيل لإكثار النسل إلا بالتعدد، وهو فى هذه الحال منع للمرأة من الابتذال ووقوعها فى البغاء، وإن التعدد فى هذه الحال خير للمرأة بلا ريب، فليس التعدد شرا على المرأة فى مجموع عددها، وقد تكون الزوجة فى حال تستوجب أن يتزوج الزوج بأخرى لمرضها أو يطلقها، والخير لها حينئذ فى بقاء الزوجية. ذلك شرع الله. وقد منع الأوربيون التعدد الشرعى، ففتح الناس باب التعدد الحرام، وفسدت الأسرة هنالك وانحلت، والأسرة الإسلامية ما زالت أقوى الأسر استمساكا، ولا تزال كذلك ما استمرت مستمسكة بدينها، معرضة عن الدعوات التى تريد إبعادها عنه.

---

(١) أى فى الزواج الأول، وبعبارة أخرى: فى الزواج بواحدة.

﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ هذا الكلام فى بيان العدالة مع النساء فى المعاملة، فلا يصح أن يستهان بحقوقهن التى ينشئها الزواج، وأولها المهر، فالصدقة هنا هى المهر، وسمى صدقة لأن تقديمه يدل على صدق النية، والإخلاص فى طلب الزوجة، فمن أخلص فى طلب يد امرأة قدم لها ما يليق بمثلها تكريما لمعنى الزوجية، وتشريفا لتلك العلاقة، وقال تعالى: ﴿نِحْلَةً﴾ ومعناها عطاء بطيب نفس، وهى «فِعْلَة» من نَحَلَهُ ينحله بمعنى أعطاه هبة صادق النية، وفسرها بعض العلماء بمعنى فريضة واجبة، وقد فسرها بذلك أبو عبيدة، وقال الزجاج فى آتوهن صدقاتهن نحلة (تدينا) أى أن الدين أوجب ذلك، والخطاب لجماعة المؤمنين يوجب أداء المهور صادقى النية طيبى النفوس متدينين بهذا العطاء.

﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ الحياة الزوجية لا تقوم فقط على التكليف الواجب، بل تقوم على المودة الرابطة والتسامح، وقد يجهد الرجل المهر كله، فيقتضى حسن العشرة أن تترك بعض مهرها طيبة النفس، وليست المهور كسائر الديون، إنما هو دين فيه معنى الهدية، ولذلك فتح الشارع الباب لمثل هذه المعانى. ولذلك قال تعالى: ﴿...وَلا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾ [البقرة] ومعنى طابت نفسها رضيت من غير تورط، ولا تغرير ولا ضغط ولا إرهاق، وطيبة النفس بالعطاء أرق من الرضا به؛ لأن الرضا قد يتصور مع التورط أما طيبة النفس فلا تتصور إلا بالسماح، بل من غير طلب بالتصريح أو بالإشارة، ومعنى هنيئا، أى لا ألم فى أخذه، ومعنى مريئا حسن العاقبة، وأكل المال أخذه، فلا يراد بالأكل هنا حقيقته، بل يراد الأخذ الذى يؤدى إليه.

وقد كان يحدث أن بعض الناس يرهقون زوجاتهم ليتركوا بعض المهر أو كله، فكان الفقهاء حريصين على أن تتوافر الحرية كاملة فى العطاء، ولذا كتب عمر -رضى الله عنه- إلى بعض قضاته: «إن النساء يعطين رغبة ورهبة، فأيما

امـرأة أعطت ثم أرادت أن ترجع فلهـا ذلك». وروى أن رجـلا أبرأته امـرأته من مهرها، ثم طلقها فرجعت[1] فاحتكما إلى عبد الملك بن مروان فحكم لها، وقال شريح في مثل هذه الحـال: لو طابت نفسها ما رجعت، وكـان الأوزاعى لا يجيز هبة المهر إلا بعد أن تنجب منه، أو تمضى سنة على زفـافها ـ والنص يشير إلى أنه يحسن ألا تترك له كل المهر، ولذا قال تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ﴾ ومن للتبعـيض أى عن بعضه، ويظهر أن هذا لتـأكيد طيب نفسـها، ويجوز الإبراء منه كله.

﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ السفهاء جـمع سفيه، والسفـه اضطراب فى الرأى والفكر، وأصله من اضطراب المحـسوسـات. ويقول الراغب الأصفهانى فى مفرداته: «السفه صفة فى البدن، ومنه قيل زمان سفيه كثير الاضطراب، وثوب سفيه ردىء الـنسج، واستعمل السفه فى صفـة النفس لنقصان العقل فى الأمور الدنيوية».

والسفـهاء هنا هم الذين لا يحسنون تدبيـر الأموال إما لصغـر سنهم، وإما لنقص عـقولهم، وإمـا لسوء تدبيـرهم وتبذيرهم، والقـيام هنا هو الولاية المالـية والسلطان، وعـبر عن الولاية بالقيـام، لأن القيـام هو العماد والسنـاد فى اللغة، والولاية المالية المقصود منها أن تكون عمادا وسندا للقاصر المولى عليه، وعلى هذا التفسـير يكون معنى السفهـاء شاملا لكل العاجزين عن تدبيـر المال أيا كان سبب العجز. ويكون معنى النص الكريم: لا تعطوا المال للّذيـن لا يحسنون القيام عليه لصغر أو نقص عقل، أو فـساد رأى ثابت، والمراد مال هؤلاء، ولكن أضيف المال إلى الأولياء ليحـثهم على حفظه وصيـانته كأنه مالهم، وقد يـكون الخطاب لجميع الأمة بالدعـوة إلى المحافظة على أموال العاجـزين؛ لأنه من حال الأمة المتـضافرة المتعـاونة المتكافلة، ورجح الزمـخـشـرى أنه خطاب للأوليـاء، وقـال فى ذلك: «والخطاب للأوليـاء وأضاف الأمـوال إليـهم؛ لأنها من جنـس ما يقـيم به الناس

(١) أى رجعت فيما أبرأت من مهرها.

معايشهم، كما قال: ﴿ ...ولا تقتلوا أنفسكم ... ﴿٢٩﴾ ﴾ [النساء] والدليل على أنه خطاب للأولياء فى أموال اليتامى قوله: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ وإنه على أن الخطاب لمجموع الأمة المتكافلة يكون من التكافل رزق اليتامى وعدم قهرهم.

﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ معنى الرزق الإنفاق المستمر المنظم على الشخص فى طعامه وكسوته، فالكسوة بل المسكن داخلان فى ارزقوهم وإنما خص الكسوة بالذكر؛ لأنها كثيرا ما تهمل، وللحث على المبالغة فى تكريمهم، ومن مظاهر التكريم الكسوة الحسنة، وقال ارزقوهم فيها واكسوهم، ولم يقل ارزقوهم منها للإشارة إلى أن الرزق لا يقتطع منها، بل يتجر فيها ويعمل فيها ليكون الرزق فيها من الكسب لا من أصلها، ولهذا قال النبى ﷺ: «اتَّجِروا فى مال اليتيم حتى لا تأكله الصدقة»[١] وقد قال الزمخشرى فى تفسير ارزقوهم فيها: «اجعلوها مكانا لرزقهم بأن تتجروا فيها وتربحوا حتى تكون نفقتهم من الأرباح لا من صلب المال» وقد أمر الله تعالى بألا يرهق المحجور عليه، ولا يستذلوا ولا يقهروا؛ ولذا قال: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ أى قولا غير منكر وغير مسترذل، وغير قاهر وغير مضعف لنفوسهم، ولا مذل لهم، وذلك لكيلا يذهب الحجر بعزة نفوسهم، وليشعروا أنه فى مصلحتهم، ولكيلا تضعف شخصيتهم، ويمردوا مع الذلة صغارا؛ فيعادوا الناس كبارا، والله هو الولى وهو نعم المولى ونعم النصير.

---

(١) روى الترمذى: الزكاة - زكاة مال اليتيم (٦٤١) عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ فَقَالَ: «أَلا مَنْ وَلِيَ يَتِيمًا لَهُ مَالٌ فَلْيَتَّجِرْ فِيهِ وَلا يَتْرُكْهُ حَتَّى تَأْكُلَهُ الصَّدَقَةُ».

وَٱبْتَلُوا۟

ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟
إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ
غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا
دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾
لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ
مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا
مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ
وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا
﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا
خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى
بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾

قلنا إن الآيات الكريمات من أول السورة فى بيان العلاقات الإنسانية، وقد نظم سبحانه وتعالى العلاقات بين بنى الإنسان، وعنى ببيان حقوق الضعفاء، وهم اليتامى والنساء، فقد كانت المرأة فى الماضى مظنة أن تؤكل حقوقها وتهضم، واليتيم مقهور إلا إذا مَنَّ الله تعالى بكالئ من البشر يحوطه بعنايته، وفى هذه الآيات التالية يبين سبحانه معاملة اليتيم حتى يبلغ، وحقه فى الميراث، وكيف تجب حياطته والعناية به وبماله، ولا يدفع إليه ماله إلا إذا رشد.

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ الابتلاء معناه اختبار حال اليتيم من حيث قدرته على التصرف فى ماله، ويُمَرَّن على ذلك قبيل البلوغ، حتى لا يجيء وقت إلا وقد صار فى قدرة على إدارتها، وقد قال القرطبى فى بيان اختباره: «لا بأس أن يدفع إليه شيئا من ماله يبيح له التصرف فيه، فإن نماه وحسن النظر فيه فقد وقع الاختبار، ووجب على الوصى تسليم جميع ماله إليه (أى بعد بلوغه) وإن أساء النظر فيه وجب عليه إمساك المال عنده»... وقال جماعة من الفقهاء: الصغير لا يخلو أن يكون غلاما أو جارية، فإن كان غلاما رَدَّ النظر إليه فى نفقة الدار شهرا، وأعطاه شيئا نَزْرا ليتصرف فيه، ليعرف كيف تدبيره وتصرفه، وهو مع ذلك يراعيه لئلا يتلفه، فإذا رآه متوخيا سلم إليه ماله عند البلوغ وأشهد عليه، وإن كان جارية رد عليها ما يرد إلى ربة البيت من تدبير بيتها والنظر فيه فى الاستغزال والاستقصاء على الغزالات فى دفع القطن وأجرته، واستيفاء الغزل وجودته، فإن رآها رشيدة سلم إليها مالها وأشهد عليها وإلا بقيا تحت الحجر.

وإن نهاية اليتيم ببلوغ النكاح، أى بوجود المظاهر التى تدل على الرجولة فى الغلام، والتى تدل على مبلغ بلوغ النساء فى الفتاة، وإن أقصى مدة البلوغ ذلك المبلغ اختلف الفقهاء فيها، فالجمهور على أن البلوغ بالسن وهو أقصى غاية: لظهور أمارات النكاح ببلوغ خمس عشرة، وأبو حنيفة على أنه سبع عشرة بالنسبة للفتاة وثمانى عشرة سنة بالنسبة للصبى... وقوله تعالى: ﴿بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ كناية واضحة عن ظهور أمارات الرجولة الكاملة، وأمارات الأنوثة؛ لأن الاستعداد للزواج هو كذلك، و«حتى» هنا للغاية، وهى داخلة على الجملة، فهى تبين نهاية الصغر، والجملة التى دخلت عليها ظرفية فى معنى الشرط.

ولا يدفع المال بمجرد البلوغ، بل لا بد من الرشد، ولذلك قال تعالى:

﴿فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾ آنس معناها أبصر، ولذلك قال تعالى: ﴿... آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا

... ﴿٢٩﴾ [القصص] وقيل آنس معناها أَحَسَّ، وعندى أن معنى الإحساس ثابت فى آنس، فهو ليس رؤية فقط، بل هو رؤية، اتصل بها إحساسه ووجدانه، ومعنى الرشد الصلاح فى العقل والخلق والمال، ونكّر الرشد، فقال ﴿رُشْدًا﴾ للإشارة إلى أنه لا يطلب من الصغير أن يؤتى الرشد الكامل بمجرد البلوغ بل إنه يكتفى بنوع من استئناس الرشد وتوقع الخير منه، ولا يطلب منه الكمال وإلا ما أعطى صغير يبلغ ماله قط؛ لأن الرشد الكامل لا يكون إلا بالممارسة المستمرة.

ومعنى هذا الكلام أنه لا بد من فترة بعد البلوغ يستأنس فيها الرشد، بعد الاختبار فى الصغر، إلا إذا كان الاختبار فى الصغر أثبت رشدا، وإذا بلغ غير رشيد ولم يؤنس منه رشد استمر تحت الولاية عند جمهور الفقهاء مهما تبلغ سنه، وذلك لقوله تعالى: ﴿**وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا** ... ﴿٥﴾﴾ [**النساء**] وقال أبو حنيفة: لا يدفع إليه ماله حتى يبلغ الخامسة والعشرين، فإذا بلغها عاقلا، ولو غير رشيد فليس لأحد عليه سبيل، وعلى هذا الرأى إبراهيم النخعى.

وقد نهى الله الأوصياء عن أن يأكلوا مال اليتامى، فقال: ﴿**وَلا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا**﴾ أى لا تأكلوا فى مدة وصايتكم أموال اليتامى مسرفين فى الأكل، أو مبادرين بالأخذ خشية أن يكبروا، فالإسراف والبدار مصدران وقعا فى موقع الحال، وهما فى معنى الوصف، وليس المراد أن لهم أن يأكلوا غير مسرفين ولا مبادرين، بل إن ذلك بيان لأشنع الأحوال التى يقع فيها الأوصياء، وهى أن يأكلوا أموال اليتامى بإسراف مبادرين إلى الأكل خشية أن يكبروا فتؤخذ منهم تلك الأموال وتئول إلى أصحابها.

وقد بين سبحانه جواز الأكل من مال اليتيم عند الضرورة فقال:

﴿**وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ**﴾ قسمت الآية الأوصياء إلى قسمين: غنى يقوم برعاية اليتيم من غير أجر حسبة لله تعالى، وقال عنه: ﴿**فَلْيَسْتَعْفِفْ**﴾ ومعناها ليُعِفَّ نفسه، وقال الزمخشرى: إن الاستعفاف أبلغ

من العفاف؛ لأنه تحرى العفاف وبلوغ أقصى غاياته، ومعنى ذلك أنه لا يأخذ شيئا؛ لأن طلب أى شىء من غير حاجة طمع فى مال اليتيم، يتنافى مع العفاف الذى ينبغى أن يتحلى به الأوصياء.

والقسم الثانى: فقير أذنه الله تعالى بأن يأكل من مال الصغير بالمعروف أى بالقدر الذى لا يستنكر، فلا يسرف فى الأخذ، وقد قال رجل للنبى ﷺ: إنى فقير ليس لى شىء ولى يتيم، فقال له: «كل من مال يتيمك غير مسرف ولا مبذر ولا متأثل»[(١)] أى جامع مدخر تتجاوز الحاجة، وقد روى أن عمر بن الخطاب شبه الوالى على المسلمين بالوصى على اليتيم، قال: (ألا إنى أنزلت نفسى من مال الله منزلة الولى من مال اليتيم إن استغنيت استعففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف، فإذا أيسرت قضيت).

ونرى من هذا أن الآية تشير إلى أنه لا تفرض أجرة للغنى قط، أما الفقير فيأكل بالمعروف، ولا يكون ذلك أجرة لأنه ممنوع من التأثل والادخار؛ وذلك لأن اليتيم رعايته فرض كفاية على المسلمين ليخرج أليفا مألوفا، ولا يخرج منابذا الجماعة، شرا عليها.

وجمهور الفقهاء قد قرروا جواز فرض أجرة حتى للغنى خشية أن يحجم الناس عن ولاية أمر اليتيم، والله سبحانه يتولاه برعايته، ويحفظه بكلاءته.

﴿**فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا**﴾ هذا بيان ما يجب القيام به عند انتهاء الوصاية عليه، وهو أن يدفع إليه ماله كاملا، وللاحتياط من الخصومات والمنازعات يُشْهِد على دفعه المال، والشهادة فى هذه الحال حجة لازمة ملزمة للمحجور عليه الذى انتهت الوصاية عليه، فهذا إرشاد

---

(١) رواه أحمد: الوصايا: مسند عبد الله بن عمرو بن العاص (٦٧٢٦) ولفظه: عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ رَجُلا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: لَيْسَ لِى مَالٌ وَلِى يَتِيمٌ. فَقَالَ: «كُلْ مِنْ مَالِ يَتِيمِكَ غَيْرَ مُسْرِفٍ وَلا مُبَذِّرٍ وَلا مُتَأَثِّلٍ مَالا، وَمِنْ غَيْرِ أَنْ تَقِيَ مَالَكَ - أَوْ قَالَ تَفْدِيَ - مَالَكَ - بِمَالِهِ»، والنسائى: الوصايا - ما للوصى من مال اليتيم (٣٦٠٨).

عظيم من الله سبحانه وتعالى لمنع المشاحة وَلإِبْرَاءِ الوصىّ، ولكى يكون اليتيم على بينة من أمره، والكلام يتضمن تقديم حساب عن التصرفات التى تصرفها فى مال القاصر، وقد كان على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ وصيا على يتامى، فلما أعطى إليهم أموالهم حاسبهم وحاسبوه، وكان فى ضمن الحساب زكوات أموالهم؛ إذ كان يدفعها من هذه الأموال.

وإنه فى هذا الحساب يكتفى أبو حنيفة بيمينه إذا كان هناك خلاف فى شأنها؛ لأنه أمين لم تعرف خيانته، إذ لو عرفت لعزل، والأمين يصدق باليمين إذا خولف، والمالكية والشافعية والحنابلة لا يُقْبل الحساب عندهم إلا بالإقرار من القاصر، أو البينة الكاملة، وهى رجلان أو رجل وامرأتان، وإن حساب الناس قد يغادر الكثير، والأمر فى ذلك إلى الضمير الدينى، والقلب المخلص، ولذلك كان وراء حساب الناس حساب الله الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولذا قال سبحانه: ﴿**وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا**﴾ والحسيب هو المحاسب المراقب المشاهد الدقيق الحساب الذى لا يترك شيئا، وكفى أن يكون هذا الحساب، وكأن المعنى: حاسبوا أنفسكم فقدموا الحساب عن مال اليتيم صادقا؛ فإنكم إن أفلتم من حساب الدنيا فلن تفلتوا أبدا من حساب الله المحيط الدقيق، وإن استطعتم الإخفاء والكتمان والتحايل على الناس، فلن تستطيعوا ذلك عند الله تعالى.

﴿**لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ**﴾ هذه قاعدة عامة لأصل التوريث فى الإسلام، وهى قاعدة أن الرجال لا يختصون بالميراث، بل للنساء معهم حظ مقسوم، ونصيب مفروض، سواء أكان قليلا أم كان كثيرا، وهذا إبطال لما كان يقع فى الجاهلية من حرمان النساء من الميراث وقصره على الرجال. وذكر فى هذا الموضع عند الكلام فى شئون اليتامى؛ لأن الظلم عليهم كما يقع فى أموالهم الثابتة، قد يقع فى أموالهم التى تئول إليهم من مُوَرِّثيهم، فهذا النص أفاد دفع الظلم عن ضعيفين هما المرأة واليتيم، أفاد دفع الظلم عن المرأة بالنص، وأفاد دفع الظلم عن اليتيم بالإشارة، وسيصرح القرآن

الكريم بذلك فى قوله سبحانه: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ ... ﴿٩﴾﴾ [النساء]. ولقد روى ابن عباس أنه قال: كان أهل الجاهلية لا يورثون البنات ولا الصغار الذكور حتى يدركوا، فمات رجل من الأنصار يقال له أوس بن ثابت وترك ابنتين وابنا صغيرا، فجاء ابنا عمه - وهما عصبته - فأخذا ميراثه كله، فأتت امرأته رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وذكرت ذلك، فنزل قوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ﴾[1].

وقد ذكر سبحانه الحق مرتين، فذكره أولا للرجال فقال: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ﴾ ثم ذكره ثانيا للنساء فقال: ﴿وَلِلنِّسَاءِ﴾ وذلك ليؤكد حقهم، وليبين أنه حق مستقل عن حق الرجل، ثبت لها استقلالا بالقرابة، كما ثبت له استقلالا بالقرابة، حتى لا يتوهم أحد أن حقها تابع لحقه بأى نوع من أنواع التبعية، ثم أكد سبحانه الحق بقوله:

﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ هذا تأكيد لحق النساء فى التركة، وقد أكده مرتين ـ أولاهما ـ أنه يجب فى كل تركة قليلة أو كثيرة فليس حقها تسامحا يعطى، ولكنه حق ثابت، لا يُقَدَّم حق للرجل، ويؤخر حق المرأة، بل يثبتان معا فى القليل والكثير، ولا تسامح فى القليل - ثانيهما قوله: ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ وهى منصوبة على الاختصاص، والاختصاص يفيد العناية أى قدرا عناه الله تعالى وقصده ﴿مَّفْرُوضًا﴾ أى مقطوعا لا سبيل إلى الهوادة فيه، والاكتفاء ببعضه نزرا يسيرا، أو مقدارا كبيرا، فلا بد من إعطائه كاملا غير منقوص.

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ هذا النص الكريم ورد فى الأقارب الذين لا ميراث لهم كما قال أكثر المفسرين، ولكن القارئ للنص يرى أنه أوسع شمولا؛ لأنه يشمل المساكين واليتامى بإطلاق، وإن لم يكونوا أولى قربى، والمساكين هم الفقراء الذين أسكنتهم الحاجة

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور ج٢، ص٤٣٧ وقال: أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية لا يورثون البنات، ولا الصغار الذكور حتى يدركوا.

وأذلتهم، وليس المراد من حضورهم أن يكونوا مشاهدين للقسمة؛ لأن قسمة الأموال لا تكون عادة فى حضرة هؤلاء الضعفاء، وإنما المراد العلم بهم من مُقَسِّمى التركة علم حضور ومعاينة، ومعنى الرزق إعطاؤهم مالا ينفقون منه، ويسدون منه حاجاتهم بحيث لا يكونون أثرياء. والأمر فى قوله تعالى: ﴿فَارْزُقُوهُم﴾. قال بعض التابعين: إنه للندب، فعلى الورثة أن يَرْضَخُوا[1] مقدارا من المال ندبا، وحجة هؤلاء فى أن الطلب للندب أنه غير مقدر، والفرض الذى يكون لازما من المال لا بد أن يكون مقدرا، وقد كان الصحابة يفعلون ذلك، حتى إنه يروى أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر قسم ميراث أبيه، وأم المؤمنين عائشة -رضى الله عنها- على قيد الحياة، فلم يدع فى الدار أحدا إلا أعطاه.

وقال بعض التابعين: إن ذلك واجب، وهو للقرابة الفقيرة واليتامى والمساكين فى التركات، فهو ثابت كثبوت حق الورثة، لا يزيد أحدهما على الآخر، وعدم التقدير فيه ليس إجمالا، بل ترك الأمر فيه إلى الورثة، وإلى القاضى الذى يقوم على تنفيذ التركات، وقد ادعى بعض التابعين نسخ الوجوب فى الآية فرد قوله سعيد بن جبير، فقال: «إن ناسا يقولون نسخت، والله ما نسخت، ولكنها مما تهاون به الناس».

وإن الذين قرروا أن الأمر للوجوب قصروا العطاء على (النقود) وما يشبهها كالقمح ونحوه دون العقار، وقد روى أن الحسن والنخعى قالا: [أدركنا الناس وهم يقسمون على القرابات واليتامى والمساكين من العين (أى الذهب والفضة) فإذا قسم الذهب والفضة وصارت القسمة إلى الأرضين والرقيق - قالوا لهم قولا معروفا].

وقد قرر من الفقهاء وجوب العطاء - الظاهرية، فقالوا يجب إعطاء هؤلاء من التركة مقدارا يتناسب مع حال الورثة وحال هؤلاء ومقدار التركة، ويقدره القضاء.

---

(١) رَضَخَ له من ماله يَرْضَخُ رَضْخا: أعطاه. الرَّضْخُ: العطية القليلة. [لسان العرب - رضخ].

والقول المعروف مطلوب: وهو القول الذى لا يخدش الكرامة، وليس فيه منة العطاء، وقد قال فيه الزمخشرى: (وأن يلطفوا لهم القول، ويقولوا خذوا بارك الله عليكم، ويعتذروا إليهم، ويستقلُّوا ما أعطوهم، ولا يستكثروه ولا يمنوا عليهم).

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴾ واضح أن هذا النص وارد فى اليتامى، ويحتمل أن يكون المراد الحث على إعطاء اليتامى غير الوارثين مقدارا يعين على إصلاحهم، ويكون تخصيصهم بالذكر للحث على إكرام اليتيم، وذلك سنن القرآن الكريم دائما، ويحتمل وهو الراجح أن يكون الكلام فى شأن نصيب اليتامى فى التركات، ويكون المخاطبون غير المخاطبين فيما مضى أو هم، ولكن لعمل آخر وهو المحافظة على حق اليتيم فى الميراث فلا يضيع، وقد حث سبحانه على المحافظة على حق اليتيم بأبلغ تعبير، فقال ما معناه: على الذين يتحكمون فى مال اليتيم فَيُطَفِّفُونَه أو تكون عندهم هذه النية أن يخافوا على أنفسهم، ويخشوا أن يكون لهم من بعدهم ذرية ضعاف أى أولاد لا حول لهم ولا طول، ويكونوا يتامى كهؤلاء الذين يتحكمون فيهم، وإذا كانوا كذلك، فليتقوا الله فى مال اليتيم ولا ينقصوه ولا يضيعوا له حقا؛ فإن القصاص سيكون فى أولادهم، وقد جعل الله تعالى من شعورهم بالحنان على ذرياتهم باعثا لهم على الحنان على أيتامهم، وخير الناس من يجعل من شعوره بالمحافظة على العزيز عنده شعورا مثله لمن يكونون فى مثل أمره.

وقد فسر بعضهم القول السديد هنا بما يقارن القول المعروف، ونحن نرى أن القول السديد هو القول المسدد نحو الحق المصيب للهدف، وذلك بأن يقول القول لا تطييبا لليتامى فقط، بل يقوله للمحافظة على حقوقهم، فإن رأى من المقتسمين رغبة فى نقصهم سدد القول وقال الحق ومنع الظلم حتى لا يؤكل نصيب اليتيم فى التركة، أو يضيع حقه فى أى تصرف من التصرفات.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ إن اليتامى مظنة أن يبخسوا فى الميراث، فأكل مالهم هنا ظلما هو بخسهم حظهم فى الميراث، أو أكل الأوصياء أموالهم والأخذ من مال اليتيم سماه الله تعالى أكلا لما فيه من معنى الأخذ وأن يقصد به تنمية ماله كما ينمى جسمه بالأكل، ولكنها تنمية آثمة مآلها البوار «ومن نبت لحمه من حرام فالنار أولى به»(١) وقال سبحانه ﴿ظُلْمًا﴾ لكمال التشنيع على الأكل، إذ هم يظلمون ضعيفا لا يقوى على الانتصاف منهم، وقد ذكر سبحانه إثم ذلك الأكل بقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ﴾ وهذا تصوير لضرر الأكل عليهم؛ لأنه يكون أكلهم كمن يأكل النار ويضعها فى بطنه أى يملأ بطنه بها فهو فى ألم دائم حتى يهلك، وكذلك دائما من يأكلون أموال اليتامى لا يأكلون أكلا هنيئا ولا مريئا، بل هم فى وسواس دائم حتى يقضى الله عليهم، وقد رأينا بيوتا خربت لأنها أكلت مال اليتيم. وهذا عقابهم فى حاضرهم، أما العقاب الذى ينتظرهم فى الآخرة فقال: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ أى ستوقد بهم نار شديدة الأوار، يستمرون فى بلاء شديد منها. اللهم ارزقنا رزقا حسنا، وجنبنا ما حرمت، وأقنعنا بالحلال الطيب، إنك سميع الدعاء.

يُوصِيكُمُ اللَّهُ
فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً
فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا
النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن
كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ

(١) جاء فى كشف الخفا (١٩٧٣): «كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به». رواه البيهقى وأبو نعيم عن أبى بكر، قال المناوى: وسنده ضعيف، والمشهور على الألسنة: «كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به».

فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي
بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ
نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾
۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن
لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا
تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ
وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ
فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ
مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ
رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ
وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ
فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ
أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ
﴿١٢﴾ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ
خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾
وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ
نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٤﴾

قد بين الله سبحانه وتعالى الواجب بالنسبة لليتامى ورعاية حقوقهم، فى الأموال التى يرثونها، والأموال التى تئول إليهم. كما بين سبحانه حق الفقراء والمساكين وذوى القرابة الذين لا ميراث لهم عند تقسيم التركات. وفى هذه الآية يبين حقوق أكثر الوارثين، وهى تقسيم الله سبحانه وتعالى.

إن الميراث قد تولَّى القرآن بيان أكثر أحكامه، ولم يُفصِّل أحكاما كما فصّل أحكام الميراث، وقد قال ﷺ: «العلم ثلاثة: آية محكمة، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة»(١). وقد عده نصف العلم، وهذا العدد دليل على مقدار وجوب العناية به، فقد قال ﷺ: «تعلموا الفرائض وعلموها الناس فإنه نصف العلم، وهو أول شيء ينسى، وأول شيء ينتزع من أمتى»(٢).

والميراث هو وصية الله تعالى بتوزيع التركات على مستحقيها؛ فإنه إذا كان للعبد وصايا فى أمواله من بعد وفاته، فالميراث هو وصيته سبحانه وتعالى ووصية الله تعالى أولى بالإيجاب وأحق بالتنفيذ. ولكى تكون وصية الله تعالى لها مكانتها فإنه قد جعل لها الثلثين، ولوصية صاحب المال الثلث، ولذلك قال ﷺ: «إن الله تعالى قد تصدق عليكم فى آخر أعماركم بثلث أموالكم فضعوه حيث شئتم». وقد أراد بعض الصحابة أن يوصى بماله كله، فمنعه النبى ﷺ، ثم أراد أن يوصى بالثلث فأجازه، وقال: «والثلث كثير، إنك إن تذَر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس»، أو كما قال النبى ﷺ.

وفى هذه الآيات كما قلنا بيان حقوق طائفة من الوارثين، وهم الأولاد والآباء، والأزواج وأولاد الأم، وقد مزج بين الآباء والأولاد فى الحقوق؛ لأن الأولاد لا يحجبون الآباء أى لا يمنعونهم من الميراث، ولذلك يعدون طبقة واحدة، وقد قال تعالى فى ذلك:

---

(١) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْعِلْمُ ثَلاثَةٌ: وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ فَضْلٌ: آيَةٌ مُحْكَمَةٌ أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ». [رواه أبو داود: الفرائض- ما جاء فى تعليم الفرائض (٢٨٨٥)، وابن ماجه: المقدمة - اجتناب الرأى والقياس (٥٤)] وفى إسناده مقال.

(٢) رواه ابن ماجه: الفرائض- الحث على تعليم الفرائض (٢٧١٩).

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ هذا النص الكريم يبين ميراث الأولاد، وقد ذكر لهم ثلاث أحوال: الحال الأولى إذا كانوا ذكورا وإناثا فإن الميراث بينهم يكون للذكر مثل حظ الأنثيين، والحظ هنا النصيب، والتعبير بالحظ إشارة إلى أن عطاء الأنثى، ولو كان نصف عطاء الرجل، قدر كبير لها فيه حظ، أى عطاء فيه كرم وسخاء؛ لأن التكليفات المالية عليها دون التكليفات المالية على الرجل بقدر كبير يعدّ أكثر من النصف.

الحال الثانية: أن الأولاد إن كن نساء فقط، يكون نصيبهن الثلثين، والنص الكريم يقول: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ يفيد بيان نصيب الأكثر من اثنتين، ولم يبين الاثنتين، ولكن يفهم من آية أخرى أن نصيب الثنتين هو الثلثان أيضا؛ لأن الله تعالى قال فى توريث الإخوة والأخوات:

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ... (١٧٦)﴾ [النساء].

ففى الأخوات نص على أن نصيب الأختين الثلثان، وبالأولى يكون نصيب البنتين الثلثين؛ لأن البنتين أقوى قرابة وأكثر اتصالا، وأجدر بالرعاية، فإذا كانت الأختان تأخذان الثلثين فأولى أن تأخذ البنتان الثلثين، فما حذف فى آية البنات وجد ما يدل عليه فى آية الأخوات. وكذلك حذف فى آية الأخوات نصيب الأكثر من أختين، وصرح به فى آية البنات، ففهم بطريق الأولى أن الأكثر من أختين تأخذان الثلثين؛ لأنه إذا كان الأكثر من بنتين يأخذ الثلثين فقط، فأولى أن يأخذ الأكثر من أختين الثلثين. والمعنى أنه حذف من آية البنات ما يفهم بالأولى من آية الأخوات، وحذف من آية الأخوات ما يفهم بالأولى من آية البنات، وذلك بلاغة الإيجاز، وهو من سر الإعجاز.

الحال الثالثة: أن يترك الشخص بنتا واحدة، وهى فى هذه الحال تستحق النصف بصريح الآية: ﴿وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾.

هذا توريث الأولاد، ويلاحظ ما يأتى:

أولا: أن نصيب الأولاد إذا كانوا ذكورا وإناثا يكون بعد أن يأخذ الأبوان والأجداد والجدات وأحد الزوجين أنصبتهم. فإذا كان للمتوفى أب وزوجة وأبناء وبنات، فإن القسمة للذكر مثل حظ الأنثيين تكون بعد أخذ الأب والزوجة نصيبهما.

ثانيا: أن الأولاد يطلقون على كل فروع الشخص من صلبه، أى أبناؤه وأبناء أبنائه، وبنات أبنائه. أما بنات بناته، فإنهن لا يكن من أولاده. وقد خالف فى ذلك الشيعة فلم يفرقوا فى نسبة الأولاد بين من يكون من أولاد الظهور ومن يكون من أولاد البطون، أى لا يفرقون بين من تتوسط بينه وبين المتوفى أنثى ومن لا تتوسط.

ثالثا: أن أبناء الشخص وبناته يقدمن على أبناء أبنائه وبنات ابنه، أى أن الطبقة الأولى تمنع من يليها.

رابعا: إن بنات الابن يأخذن حكم البنات تماما إذا لم يكن للشخص أولاد قط، لا ذكور ولا إناث، بل إن جمهور الفقهاء يجعل لبنات الابن السدس، وإذا كان للمتوفى بنت واحدة تأخذ النصف، وذلك لحديث ابن مسعود الذى سئل فيه عن رجل توفى عن بنته وبنت ابن ابنه وأخته... فأعطى البنت النصف، وبنت الابن السدس، والأخت الباقى، وقال: ذلك قضاء رسول الله ﷺ(١).

---

(١) روى البخاري: الفرائض - ميراث ابنة الابن (٦٧٣٦) عن هُزَيْل بْن شُرَحْبِيلَ قَالَ: سُئِلَ أَبُو مُوسَى عَنْ بِنْت وَابْنَة ابْنٍ وَأُخْت فَقَالَ لِلْبِنْت النِّصْفُ وَلِلأُخْت النِّصْفُ، وَأْت ابْنَ مَسْعُود فَسَيُتَابِعُنِى فَسُئِلَ ابْنُ مَسْعُود وَأُخْبِرَ بِقَوْلِ أَبِى مُوسَى فَقَالَ: لَقَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ؛ أَقْضِى فِيهَا بِمَا قَضَى النَّبِيُّ ﷺ: «لِلابْنَة النِّصْفُ، وَلابْنَة ابْنِ السُّدُسُ تَكْمِلَةَ الثُّلُثَيْنِ، وَمَا بَقِيَ فَلِلأُخْتِ فَأَتَيْنَا أَبَا مُوسَى فَأَخْبَرْنَاهُ بِقَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَ: لا تَسْأَلُونِى مَا دَامَ هَذَا الْحَبْرُ فِيكُمْ».

﴿وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ هذا ميراث الأبوين، وقد ذكر القرآن الكريم حالا يشترك فيها الأب والأم، وهى أن يأخذ كل واحد منهما السدس إذا كان للمتوفى ولد. والمراد من الولد الفرع الذى لا يتوسط بينه وبين المتوفى أنثى، وذلك عند الجمهور، وعند الشيعة الإمامية: كل من يتصل إلى الميت من الفروع بطريق الإناث أو الذكور فهو ولد.

والأب قد يأخذ مع السدس باقى التركة إذا كان للمتوفى فروع من الإناث فقط، فإنه عند الجمهور يأخذ السدس مع الباقى، والباقى ثبت بقول النبى ﷺ: «ما بقى بعد أصحاب الفروض فلأقرب رجل ذكر»(١) فبهذا الحديث يأخذ الباقى، وبنص الآية يأخذ السدس.

وحالا ثانية ذكرها للأم صراحة، وللأب ضمنا، فقال سبحانه: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ فإن هذا النص يفيد أمرين: أحدهما - أن الميراث للأبوين إن لم يكن أولاد، وثانيهما - أنه يكون للأم الثلث، وما دام الميراث منحصرا فى الأبوين؛ فإنه يكون للمم الثلث والباقى للأب.

وإذا كان معهما زوج أو زوجة، فهل الآية تفيد الحكم؟ ونقول إنها لا تفيده صراحة، بل تفيده ضمنا، وذلك أنها قررت أنه فى حال انحصار الإرث فى الأبوين يكون نصيب الأم الثلث، ونصيب الأب الثلثين فهذه الآية قد حدَّدت النسبة، أى أن نصيب الأم يكون على النصف من نصيب الأب، وبتطبيق ذلك على حال وجود أحد الزوجين، فإن أحدهما يأخذ فرضه وتأخذ الأم ثلث الباقى، ويأخذ الأب ثلثيه، وهذا رأى ابن مسعود وزيد، وعلى، على أرجح الروايتين عنه، وعمر وعثمان، وهو الذى اختاره الأئمة الأربعة وأكثر فقهاء الأمصار.

---

(١) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا فَمَا بَقِيَ فَهُوَ لأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ» [رواه البخاري: الفرائض - ميراث الرجل من أبيه وأمه (٦٧٣٢)، ومسلم: الفرائض - ألحقوا الفرائض (١٦١٥)].

وهناك رأيان آخران: أحدهمـا ـ أنها تأخذ ثلث التركة كلها، وقـد أخذ هذا القول من صريح الآيـة، وهو يؤدى إلى ألا يكون نصيب الأم على النصف من نـصيب الأب، بل يؤدى إلى أن الأب يأخذ أقل من الأم، كأن يكون زوج وأم وأب، فإن الزوج يأخذ النصف والأم تأخذ الثلث، والأب يأخـذ الباقى وهو السدس، أى أن الأب يأخذ نصف نصيب الأم، وهذا الرأى رأى الإماميـة، وفيه شذوذ كما ترى، وقد نسب إلى ابن عباس، وقيل إنه روى عن على ومـعاذ بن جبل. والثانى ـ أنها تأخـذ ثلث الكل فى حال مـا إذا كانت زوجـة وأب وأم، وتأخذ ثلث البـاقى إذا كانـت المسألة فـيهـا زوج بدل الزوجة، وذلك لكى لا يأخـذ الأب أقل من الأم. وأسلم الآراء أولها، وهو أوضحها وأعدلها.

وحالا ثالثـة بالنسبة للأم أنهـا تأخذ السدس إذا كان هناك إخـوة أو أخوات زادوا على واحد، فـإنها تأخـذ السدس، وهذه الحال خـاصة بالأم؛ لأن الأب لا يؤثر فى نصيبه على الإخوة والأخوات، بل إنهم لا يرثون معه.

هذا ميراث الأولاد والأبوين، وقد بين ـ سبحانه وتعالى ـ حكمة ذلك وأكد تقسيمه بقوله سبحانه:

﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ يبين الله أن هذه قسمته، ولا يصح أن تحكِّموا أهواءكم فى أموالكم بعد وفاتكم، فإنكم لا تدرون أيهم أقـرب لكم نفعا، آباؤكم أو أبناؤكم؛ لأنه عند حكم الهوى يفقد العقل تقديره وميزانه فلا يدرى أين يكون النفع، وقد صدر الآية بذكر الآبـاء والأبناء لقوة قـرابتهم واتحـاد اتصالهم، ومع ذلك لا يعلمـون النافع منهم. وقد أكد الله معنى هذا التقسيم بتأكيدين: أحدهما ـ قوله سبحانه **﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾** أى فرض الله ذلك فريضـة وقدره تقديرا فلا يجوز خـلافه، لأنه تقدير الله وقسمته، وليس لأحد أن يخالف قسمة الله جلت قدرته ـ التأكيد الثانى: قوله سبحانه: **﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾**. فإن الله تعالى ذيل النص الكريم بهذه الآية تأكيدا للنفع فى هذا التـقسيم؛ لأن الله هو الذى قسَّم تلك القسـمة العادلة، وهو

كان دائما عليما حكيـما، يعلم كل شيء ولا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السمـاء، ولا يعزب عنه مثـقال ذرة فى السمـاء ولا فى الأرض، وهو يدبر الأمر على مقتضى هذا العلم، وبحكمته سبحانه، وهو العزيز الحكيم.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾ هذا بيـان أحوال مـيـراث الزوج، فإنه يكـون له النصف إن لم يكن للمتـوفاة ولد، والمراد من الولد أولاد الظهـور أى الفروع الذين لا يتـوسط بينهم وبين المتوفـاة أنثى، خلافـا للشيعـة، وإن كان للمـتوفاة ولد فـإن الزوج يكون له الربع.

﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم﴾ وهذا بيان ميـراث الزوجة تأخذ الربع إذا لم يكن للمتـوفى ولد، وقد بيَّنا معنى الولد، وتأخـذ الثمن إن كان للمتـوفى ولد. ونرى من هذا أن الزوجة على النصف فى التقدير من الزوج، وهو قـاعدة عامة فى قسمة الميـراث بالنسبة للرجل والمرأة، ولم يستثن إلا الإخوة لأم.

﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ هذا النص فى مـيراث الإخـوة والأخوات لأم، وقـد عبر عنهم بالكلالة، والـكلالة هم القرابة من غيـر الأصول والفروع، وقد قـيل إن الكلالة مشتقـة من الإكليل، وهو الذى يحيط بالرأس من جوانبـه، وقرابة الكلالة وهى غير الأصـول والفروع تحيط بالشخص من جـوانبه، وليست فى أصله ولا فرعه، ومعنى **﴿يُورَثُ كَلالَةً﴾** أى يورث من غير أصوله أو فروعه، وعـلى ذلك يكون ميراث المذكورين فى الآية شـرطه ألا يكون أصول ولا فروع. والميـراث بالكلالة ذكر فى موضعـين: أحدهما هذا الموضع، والثـانى قوله تعالى فى آخر هذه السورة: **﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ... ﴿١٧٦﴾﴾** [النساء].

وقد أجمع الصحابة على أن المراد من الإخوة والأخوات هنا الإخوة لأم والأخوات لأم، كما أجمعوا على أن المراد بالإخوة فى آخر السورة الأشقاء ثم لأب. وقد سئل النبى ﷺ عن الكلالة فى هذه الآية فذكر أنها أولاد الأم، وبهذا يتبين أن هذا النص الكريم فيه أحوال ميراث الإخوة والأخوات لأم، وقد ذكر لهم حالين: إحداهما ـ أن يأخذ الواحد أو الواحدة السدس، والثانية أن يأخذ الأكثر من واحدة أو واحد الثلث يشتركون فيه بالسوية بلا فرق بين الذكر والأنثى ؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ والشركة الأصل فيها التسوية حتى يذكر النص الدال على التفاوت، ولم يوجد فى النص ما يدل على التفاوت. وهناك حال فهمت من التعبير بالكلالة، وهى أن هؤلاء لا يرثون إلا إذا لم يكن فروع ولا أصول.

هذا، ومرتبة الورثة فى التقسيم بعد سداد الديون، وبعد تنفيذ الوصايا، فالتركة لا تقسم إلا بعد سداد الديون، ولا تميز أنصبة كل وارث إلا بعد تنفيذ الوصايا التى لا تتجاوز الثلث. فنصيب الورثة دائما لا يكون إلا فى الباقى بعد الوصايا، ولذا قال سبحانه فى كل قسمة إنها بعد تنفيذ الوصية والدين، فقال بعد ميراث الأبوين والأولاد: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا﴾، وقال بعد ميراث الزوج: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا﴾ وقال بعد ميراث الزوجة: ﴿مِّنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾.

وهنا أمران تجب الإشارة إليهما:

أولهما: أنه كرر فى كل حال حق الدائنين والموصى لهم، تبرئة لذمة المتوفى وتأكيدا لحقهم. وهو دليل على أن حق الدائنين والوصايا هو حق للميت نفسه، فهو أولى من غيره. وقدم الوصايا فى الذكر، مع أنها مؤخرة عن الدين فى السداد، وذلك للتشديد فى تنفيذها؛ لأنها مظنة الإهمال أو مظنة الإخفاء، فكان من الأسلوب الحكيم العناية بتنفيذها، وكان من العناية تقديمها فى الذكر.

الأمر الثاني: أنه ذكر عند ميراث أولاد الأم التحريض على الأداء، فقال تعالى: ﴿**غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ**﴾ فكان التحريض مرتين، مرة بمنع المضارة، ومرة أخرى بتأكيد أن هذه وصية الله، فمن خالفها فقد تمرد على وصية الله العليم الحليم الذى يعلم كل شىء وإن لم ينزل العقاب فور الجريمة. وكان ذلك فى أولاد الأم؛ لأن حقوقهم مظنة الضياع والإهمال، ولا يزال الناس إلى الآن يكادون يهملون نصيب أولاد الأم، وإذا ذكروا به، كان ذلك بمنزلة التذكير بأمر غريب، فكان التأكيد لهذا.

وقد كانت أحكام المواريث مظنة التلاعب فى الماضى، ولا تزال حقوق النساء فيها موضع التلاعب إلى اليوم، ولذلك أكد الله سبحانه حق الميراث بقوله:

﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ أى أن الميراث حدٌّ رسمه الله تعالى، فمن أطاع الله تعالى فقد فاز فوزا عظيما. وإن ذكر الجنات فى هذا المقام له موضعه؛ لأن هذا الذى يترك التوزيع لله تعالى، ويتغلب على هوى نفسه فيمن يحب أو يكره يجزيه الله تعالى جنات تجرى من تحتها الأنهار، وهذا الجزاء هو الفوز العظيم؛ لأن فيه النجاة وفيه النعيم، فمن فعله فقد نال الحسنيين، فإذا كان قد تغلب على منازع الدنيا، فقد نال نعيم الآخرة، ومن ينظر إلى مآل ماله عليه أن ينظر قبل كل شىء إلى مآل شخصه.

﴿**وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ**﴾ هذا جزاء من يخالف حكم الله وخصوصا فى الميراث، فهو عاص لله سبحانه، وقد تعدى ما رسمه الله من حدود فى ماله. وإن جزاءه أن يدخل النار ويخلد فيها، وله عذاب مهين أبلغ إهانة فى الآخرة، فهو قد باع آخرته بدنيا غيره، وإذا كان أراد السعادة الدنيوية لغيره بهذا المال فقد نال الشقاء الأخروى بعمله، وإذا كان قد أراد إعزاز بعض من يحب فقد أهان نفسه، والله هو الذى يبين الحق، ويهدى إلى الرشد، كما قال تعالى: ﴿**يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شىء عليم**﴾.

وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ
عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي
ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا
﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا
وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا
﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ
ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ
ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ
يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ
قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ
أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾

ابتدئت سورة النساء ببيان العلاقة الإنسانية التى تربط الناس بعضهم ببعض، وتثبت أن الناس جميعا أمة واحدة بحكم الخلق والتكوين، وكان ذلك هو الذى ينبغى، ولكنهم اختلفوا من بعد. وبعد الإشارة إلى هذا المعنى الإنسانى الجامع، بيّن - سبحانه - حق الضعفاء على المجموع، ثم أخذ يبيِّن سبحانه حقهم فى الأسرة، ووجوب رعايتهم.

وفى هذه الآيات التى نتلوها، يتجه النص الكريم إلى إقامة دعائم الأسرة، التى هى خلية التكوين الإنسانى، وخلية البناء الاجتماعى، والمهد الذى يتربى فيه.

النوع تربية يكون بها الإلف والائتلاف مع المجتمع الذى ينشأ فيه. وقد ابتدأ بإبعاد ما من شأنه إفساد بناء الأسرة، وهو الفاحشة، فإن مثل من يبنى الأسرة كمثل من يبنى قصرا مشيدا، ينَقى أولا مواد البناء من العناصر التى لا تجعله قويا متماسكا، أو تكون مواد تنقض بناءه، ولذا قال سبحانه وتعالى:

﴿وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ فحش معناها زاد، وأطلق على الزيادة التى لا تسر، وأطلق على القبيح من الأفعال؛ لأنه انحراف عن الفطرة. وقد جاء فى مفردات الراغب: «الفُحش والفحشاء والفاحشة ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال»، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف]. ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل]. ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الأحزاب] ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا ﴿١٩﴾﴾ [النور] ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف] ﴿إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴿١٩﴾﴾ [النساء] كناية عن الزنا، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ ﴿١٥﴾﴾.

فالفاحشة هنا هى الزنا، والله سبحانه وتعالى يعبر عن هذه المعانى التى لا تألفها النفس الكريمة بعبارات تسترها، فتكون الكناية بدل التصريح، وذلك من تأديب الله لنا فى التعبير.

وقد ذكر سبحانه وتعالى علاج النساء اللائى وقعن فى ذلك الأمر المنكر، وقد سماه بهذا الاسم كما سماه بأنه «إدّ»(١)، فكان علاجهن بأمرين أحدهما - يختص بهن، والثانى - يشتركن مع الرجال فيه، فأما الذى يختص بهن فهو إمساكهن فى البيوت، وليس الإمساك معناه الحبس والتضييق المجرد، بل الإمساك

---

(١) أى سمى الله تعالى الأمر المنكر بالفاحشة، كم سماه (أى الأمر المنكر بالإد) قال الرازى فى تفسيره سورة النساء (١٥): «قوله: ﴿يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ﴾ أى يفعلنها يقال: أتيت أمرا قبيحا، أى فعلته قال تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ (مريم: ٢٧) وقال: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ (مريم: ٨٩)». وفى لسان العرب (أدد) الإدُّ هو العجَبُ والأمر الفظيع العظيم والداهية.

معناه الحفظ والصيانة والرعاية، ويتضمن ذلك معنى الإرشاد والتوجيه والوعظ، ولذا قال الراغب: إمساك الشيء التعلق به وحفظه، قال تعالى: ﴿ **فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ** ... ﴿٢٢٩﴾ ﴾ [البقرة] وقال: ﴿ **وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ** ... ﴿٦٥﴾ ﴾ [الحج] أي يحفظها. فمعنى الإمساك فى البيوت الحفظ فيها والرعاية والتهذيب بعطف؛ وذلك لأن المرأة تزل إذا فقدت التهذيب، وحرمت من الصيانة فتنطلق غير مقيدة. إذا لم يكن لها هاد مرشد وإذا كان ذلك سبب الزَّلل، فعلاج الانحراف بالإمساك فى البيوت مع الحفظ والرعاية. ويستمر الإمساك حتى الوفاة، أو حتى الزواج، كما قال: ﴿ **فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً** ﴾، أى طريقا واضحا لمنع الزَّلل والابتعاد عنه، وذلك بتحصين نفسها بالزواج.

والرمى بالزنا أفحش ما ترمى به المرأة والرجل، وكثيرات من النساء يكُنَّ فريسة لشائعات كاذبة، ولذلك شدد الله تعالى فى إثبات الزنا أبلغ ما يكون التشديد، فقرر أن يكون بشهادة أربعة من الرجال بحيث لا تقبل فى ذلك شهادة النساء، وقرر أن تكون الشهادة بالمعاينة لا بالسماع، ولذا قال: ﴿ **فَإِن شَهِدُوا** ﴾ أى إن ذكروا أنهم عاينوا وشهدوا ﴿ **فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ** ﴾؛ ولحماية الشارع لعرض المرأة من أن يكون مضغة فى الأفواه - قرر عقوبة شديدة لمن يرمى النساء والرجال من غير أن يكون أربعة يشهدون، فقال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴿٤﴾ ﴾ [النور].

هذا هو العلاج الوقائى الذى خص القرآن به المرأة، حتى لا تستمر فى غيها، وذلك هو طريق الإثبات، أما العلاج الذى يشمل الرجل والمرأة، فهو ما جاء فى قوله تعالى: ﴿ **وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا** ﴾.

هذا حكم الذكر والأنثى إذا أتيا تلك الفاحشة، وهى الأمر الإدُّ، وهى المنكر الذى تنكره العقول. والعلاج فى هذه الحال ليس علاجا نفسيا لهما فقط، بل هو

زجر اجتماعى ليرتدع غيرهما، وهذا العلاج هو العقوبة الشديدة المؤذية فى البدن وفى النفس، وكانت هذه علاجا نفسيا؛ لأن النفس المنحرفة لا تقوَّم إلا بشدة كالعود المعوج لا يقوَّم إلا بعمل شديد ليس بسهل، ولكن يلاحظ ألا ينكسر العود، وألا تنكسر النفس وتهون، ولذا كان العلاج بالإمساك والحفظ والرعاية.

ولقد ذكرت العقوبة هنا مجملة غير واضحة المقدار ، بل كانت مجرد الإيذاء، وذكرت بعد ذلك مفصلة بينة المقدار فى قوله تعالى : ﴿**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣)**﴾ [النور].

ففى هذا النص عقوبتان مؤدبتان: إحداهما الجلد، والثانية منع الزواج من الزانى والزانية، وذلك ليحملهما على التوبة. وقد يقول قائل: إن الله تعالى ذكر علاجا تهذيبيا للمرأة، وهو الإمساك والرعاية فى البيت، ولم يذكر علاجا تهذيبيا للرجل. نقول إنه ذُكر له علاج تهذيبى، وهو منع الزواج منه كالمرأة، وذكر علاج له فى السنة وهو التغريب سنة[1]؛ لأن التغريب سنة يبعده عن الجو الذى عاش فيه آثما وأعلن فيه إثمه، وإنه فى ذلك سيكون تحت رقابة الحاكم ورعايته، فهذا التغريب يقابل الإمساك فى البيوت. ولم يعاقب الرجل بالحبس؛ لأن الرجل مطلوب منه الكدح والعمل لنفقته ونفقة من يعوله، فكان التهذيب مدة معلومة أنسب له، والإمساك فى البيوت أليق بالمرأة.

وإذا تكررت الجريمة تكرر العقاب، إلى أن تكون التوبة والإقلاع عن ذلك المنكر، ولذا قال تعالى:

---

(١) عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ أَمَرَ فِيمَنْ زَنَى وَلَمْ يُحْصَنْ بِجَلْدِ مِائَةٍ وَتَغْرِيبِ عَامٍ. [رواه البخاري: الشهادات - شهادة القاذف والسارق والزاني (٢٦٤٩)].

﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ عالج الإسلام نفس المذنب ليتوب، ودعا إلى التوبة دعوة صريحة بفتح باب المغفرة. وفى هذه الجريمة التى تعد من أكبر الكبائر، كما أنه قد عالج نفس المذنب، بالإمساك فى البيوت للحفظ والرعاية والصيانة، وبالتغريب بالنسبة للرجل ليسترد كرامته التى هانت بالجريمة والعقوبة المعلنة، وبمنع الزواج من الزانى والزانية حتى تكون التوبة. فإذا تم العلاج، وشفى المذنب من الداء، وكانت التوبة الصحيحة، وكان من الواجب الإعراض عنهما وعدم تذكيرهما بالجريمة، فالإعراض هنا ليس معناه الصُّدُودَ والاستنكار بل معناه ألا يذكَّرا بجريمتهما، وأن يعاملا معاملة الأطهار الأبرار، وأن يكون لهما كل تقدير واعتبار، فإن الإصرار على وصف الجريمة يجعل النفس تهون، وإذا هانت سهل عليها الهوان، وأغراها الشيطان بالمعاودة. ويروى أن النبى ﷺ عاقب شاربا للخمر بعقوبة الشرب، وبعد تمامها قال له بعض الحاضرين: «أخزاك الله»، فقال النبى ﷺ: «لا تعينوا عليه الشيطان»[1]؛ لأن الخزى يشعر النفس بالصغار، ومع الصغار يسهل الإجرام. وقد ذكر سبحانه وتعالى مع التوبة الإصلاح، فقال: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا﴾، والإصلاح هو إصلاح النفس، وصلاح العمل، وذلك دليل التوبة الصادقة، وقد قرن الله تعالى التوبة دائما بالعمل الصالح، مما يدل على أن العمل دليل الإقلاع؛ لأن النفس إذا انحرفت، وأحاطت بها الخطيئة، لا يكون الخروج من دائرتها بالقول فقط، بل بالقول والنية والعمل وإن الله تعالى حينئذ يقبل التوبة، ولذا ذيل الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ أى أن الله تعالى يقبل التوبة عن عباده دائما. وقد أكد ذلك بـ «إن»، وبـ «كان» التى تدل على الدوام، وبصيغة المبالغة «توابا»، وأشار سبحانه

---

(١) عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِرَجُلٍ قَدْ شَرِبَ قَالَ: «اضْرِبُوهُ» قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَمِنَّا الضَّارِبُ بِيَدِهِ وَالضَّارِبُ بِنَعْلِهِ وَالضَّارِبُ بِثَوْبِهِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: أَخْزَاكَ اللَّهُ قَالَ ﷺ: «لا تَقُولُوا هَكَذَا لا تُعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانَ». [رواه البخارى: الحدود - الضرب بالجريد والنعال (٦٧٧٧)، كما رواه أبو داود وأحمد].

إلى أن ذلك من رحمته التى وسعت كل شىء، ولقد سبقت رحمته عذابه، وإن الله تعالى ليفرح بتوبة العبد أكثر من فرح العبد بإقلاعه عن ذنبه.

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ التوبة هى الرجوع إلى الله تعالى وإلى أوامر دينه بعد الانحراف عنها، ويعرف الأصفهانى التوبة فى الشرع بأنها ترك الذنب لقبحه والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما يمكنه تداركه من الأعمال بالإعادة، والتوبة على هذا النحو أعلى درجات الاعتذار، وذلك أن الاعتذار على أنواع ثلاثة، **أحدها**: وهو أدناها إنكار الوقوع، وهذا لا يتأتى بالنسبة للعلام الخبير الذى لا تخفى عليه خافية فى السماء ولا فى الأرض، **وثانيها**: تبرير الفعل، وذلك أيضا لا يمكن أن يكون أمام الله تعالى، **وثالثها**: وهو أعلاها الاعتراف بالوقوع وبأنه لا مبرر له، وأنه يرجو الصفح والغفران، وأنه مقلع عما ارتكب، وذلك هو التوبة.

والتوبة إذا كانت قريبة من وقوع الذنب فقد وعدنا الله تعالى، ووعده الصدق الحق، بأن الله تعالى يقبلها. وتفضل الله سبحانه وتعالى تأكيدا للوعد، وحثا على التوبة، فعبر سبحانه بأن الغفران حق عليه، ولذا عبر سبحانه بلفظ «على» فقال: **﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾** أى أن قبول التوبة حق على الله تعالى، وذلك أبلغ درجات الصفح والغفران، سبحانك إنك التواب الرحيم، غفار للذنوب.

وعبر سبحانه وتعالى بـ «إنما» الدالة على الحصر، أى لا يكون قبول التوبة حقا على الله تعالى إلا بتحقق شروط ثلاثة: **أولها**: أن يكون ذنبه ليس كثيرا ولم يُحِط بنفسه وقلبه، ولذلك قال تعالى: **﴿يَعْمَلُونَ السُّوءَ﴾** أى يقع منهم ما يسىء من غير أن تُرْكَس نفسه فى السيئات وتحيط بها. **وثانيها**: أن يكون الفعل **﴿بِجَهَالَةٍ﴾** أى أنه وقع فى حال غَفْوَةِ الضمير والضعف النفسى، ومن غير إدراك للعواقب، ولا قصد للنتائج، وقد قال السلف: إن كل ذنب على هذا النحو يكون

بجهالة. وثالثها: أنهم ﴿يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾، بحيث لا يسترسل فى الشر استرسالا، ويستمرئه ويكرره ويستمر عليه، وهؤلاء ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران].

وذلك لأن من يفعل الذنب على ذلك النحو لا يستغرق قلبه، وقد ورد فى الأثر «إن المذنب إذا أذنب نُكِتَتْ نُكْتَةٌ سوداء فى قلبه، ثم تتوالى النُّكَت السوداء حتى يَرْبَدَّ قلبه»، ومن يعمل السوء بجهالة ثم يتوب من قريب ليس كذلك، وقد أكد الله قبول التوبة فقال: ﴿فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾.

أى هؤلاء الذين ارتكبوا عن جهالة بعض الذنوب، ولم تَرْبَدَّ قلوبهم بتكرار الذنوب وتعددها واستمرائها والاستمرار عليها، يتوب الله عليهم أى يقبل توبتهم، ويأخذ بأيديهم إلى الهداية ويطهر نفوسهم من أرْجاس الذنوب، وهذا ما تضمنه النص السامى ﴿يَتُوبُ اللَّهُ﴾ أى يسبغ التوبة عليهم، وهى تتضمن معنى الاهتداء والاتجاه إليه سبحانه، وإسباغ التوبة عليهم هو إلقاء الطهر عليهم فتتطهر نفوسهم، وقد بين سبحانه أن ذلك مقتضى علمه وحكمته، فقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ أى أن الله تعالى يعلم النفوس وحركاتها وخلجاتها وسكناتها وميولها وانحرافاتها، ويعلم ما يطهرها، وما يركسها، وما يهديها وما يغويها، وهو بحكمته يعالج أدواءها. وقبول التوبة أبلغ علاج، والصفح فى أكثر أحواله دواء للأسقام التى تعرض للنفوس، ولم تستقر فيها استقرارا.

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ بعد أن بين سبحانه الذين أخذ العهد أن يقبل توبتهم، وهم الذين قد كانت حالهم ما ذكره سبحانه، بين حال الذين لا تقبل توبتهم، فقال تعالت كلماته: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ﴾ هنا نفى لوقوع التوبة؛ لأن حقيقة التوبة كما بينا تقتضى أن يكون العبد فى فسحة من الوقت تمكنه من معاودة الخير، فمن يقول عند حضور الموت: ﴿إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾ ليس بتائب. وإذا لم تتحقق منه التوبة فإنه لا يستحق من الله تعالى القبول؛ إذ لا موضوع له.

ومن هم أولئك الذين لا توجد منهم التوبة، حتى لا يتصور قبولها؟ ذكر الله فريقين: فريق العصاة من المسلمين، وفريق الذين يموتون وهم كفار، أما فريق العصاة من المسلمين فقد ذكر لهم وصفين أو أمرين: **أحدهما** ـ أنهم يعملون السيئات، أى تتعدد أنواع السوء، وتكثر وتشيع فى النفوس، حتى يَرْبَدَّ القلب بها وَيَسْوَدَّ، وهم الذين قال الله تعالى فى أمثالهم: ﴿**بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴿٨١﴾﴾ [**البقرة**] فالفرق بين هؤلاء ومن سبقوا أن الأولين ارتكبوا فى غفوة من الضمير، ولم يمت. وأما هؤلاء فقد مات وجدانهم الدينى، كأولئك الذين نراهم سادرين فى الفساد وقد استهانوا بكل المحرمات الدينية والتكليفات الربانية. **والوصف الثانى** أنهم لا ينطقون بالتوبة فى وقت الاختيار، بل ينطقون بها فى وقت الاضطرار؛ ولذا قال سبحانه: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ**﴾.

أى أنهم يستمرون فى غيهم يعمهون، لا يستيقظ لهم ضمير، ولا يقلعون عن معصية، حتى إذا أزفت الآزفة، وحضر الموت، ولم يكن مناص من أخذهم، قال قائلهم: إنى تبت الآن، ولم يقل سبحانه عن حالهم إنهم تابوا، بل حكى قول أحد: ﴿**إِنِّي تُبْتُ الْآنَ**﴾ مما يدل على أنهم لم تقع منه توبة قط، وقوله لا يعد توبة فى حقيقته، وإن سماه هو توبة.

وقد ذكر سبحانه من عصاة المسلمين فريقين:

أحدهما: الفريق الذى يتوب من قريب وقد ارتكب السوء بجهالة، وقد وعد سبحانه بأنه يقبل التوبة منه، وتفضل سبحانه فجعل القبول حقا عليه، وهو فوق عباده.

والفريق الثانى: أولئك الذين استمروا فى غيهم حتى أدركهم الموت. وبقى ثالث لم يذكره سبحانه، وهو الذى لم يتب من قريب، ولكنه تاب قبل أن يحضره الموت، فما شأن هذا الفريق الثالث؟ قال مفسرو السلف إنه يعدُّ قد تاب من قريب، وإن تأخر فى الزمان بالنسبة لأجله، ما دام قد تاب قبل أن يحضره

الموت، وكان فى فسحة من الوقت، وقد رووا فى ذلك آثارا عن النبى ﷺ، منها ما روى عن عبد الله بن عمرو أن النبى ﷺ قال: «ما من عبد يتوب قبل الموت بشهر إلا قبل الله منه»(١). فمقياس القرب هو ألا تكون التوبة وقت حضور الموت، ووقته علمه بأنها دنت، أما إذا كانت التوبة وهو صحيح يرجو الحياة، فإنها مقبولة، وأجل الإنسان كله قريب. وقد بين سبحانه بعد ذلك الذين لا تقبل توبتهم من غير المسلمين فقال: ﴿وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ .

أى أن الله تعالى لا يعتبر توبة الكفار عن ذنوبهم توبة لأنهم لم يؤمنوا، فأساس الطاعات الإيمان. وإن تابوا قبل أن يموتوا وهم فى فسحة من الوقت، فإن توبتهم غير مقبولة، وإنما تكون مقبولة إذا آمنوا ولم تكن من قبيل قول فرعون عند الغرق: ﴿... آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝٩٠﴾ [يونس].

﴿أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أى أولئك الذين لم يتوبوا، هيأنا لهم عذابا مؤلما وجيعا، وهذا يشمل عصاة المؤمنين، والذين ماتوا وهم كفار، غير أن الكفار خالدون فى النار، وأما عصاة المؤمنين فبمقدار ذنوبهم.. اللهم نجنا من عذاب النار واقبل توبتنا، ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ... ۝٧﴾ [غافر].

---

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: مَنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِه عَامًا تِيبَ عَلَيْه وَمَنْ تَابَ قَبْلَ مَوْتِه بِشَهْرٍ تِيبَ عَلَيْه حَتَّى قَالَ: يَوْمًا حَتَّى قَالَ: سَاعَةً حَتَّى قَالَ: فُوَاقًا. قَالَ: قَالَ الرَّجُلُ: أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ مُشْرِكًا أَسْلَمَ؟ قَالَ: إِنَّمَا أُحَدِّثُكُمْ كَمَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ. [رواه أحمد: مسند المكثرين (٦٨٨١)].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ
لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ
مُّبَيِّنَةٍۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ
أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾
وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ
إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ
بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ
بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا
غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾

الكلام فى الأسرة، وإن حماية الأسرة تكون بحماية ضعفائها، ومن لا يستطيع الذود عن نفسه، ولذلك تكلم القرآن الكريم فى شأن اليتامى، ثم فى شأن النساء. وقد تكلم سبحانه فى الميراث وتقسيمه العادل، وفى هذه الآيات التالية يشير سبحانه إلى نوع من الميراث ظالم، كان من عادات بعض أهل الجاهلية، لم يكن موضوع الميراث فيه مالا، ولا حقا يقبل التوريث، بل كان موضوع الميراث فى زعمهم حق امرأة المتوفى فى نفسها، فقد زعموا أن من يموت زوجها، لا تكون مالكة لأمر نفسها بموته بل يكون أمر زواجها بيد أوليائه الذين يرثون ماله، فإنهم يرثون مع ماله الولاية على زوجه، فلا تتزوج إلا بإذنهم أو تزويجهم، ولذا قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾.

صدر النص السامى بالنداء للذين آمنوا، للإشارة إلى أن ذلك لا يتفق مع الإيمان، بل إنه من مظالم الجاهلية. وإذا كان مثله يصدر عن أهل الشرك، فإنه لا يسوغ مع الإيمان، ولا يليق أن يصدر عن المؤمنين؛ لأن حقوق الأشخاص لا تورث، وليست المرأة ولا حق زواجها متاعا يقبل التوريث.

ولقد روى الزهرى أنه كان من عادات أهل الجاهلية أنه إذا مات الرجل يُلْقِى ابنه من غيرها أو أقرب عصبته ثوبه على المرأة، فيصير أحق بها من نفسها ومن أوليائها، فإن شاء تزوجها بغير صداق إلا الصداق الذى أصدقها الميت، وإن شاء زوجها من غيره وأخذ صداقها، ولم يُعْطِها شيئا، وإن شاء عضلها من الزواج، أى منعها منعا مشَدَّدا لتفتدى نفسها بما ورثته من الميت أو تموت فيرثها!!

ومغزى هذه الرواية أنهم يجدون لهم حقا فى إمساكها ومنعها من الزواج، بما كان قد دفع لها زوجها من صداق، وبما كان له عليها من حق الإمساك. ونهى القرآن الكريم عن ذلك بقوله: ﴿**لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا**﴾، ومعنى النص الكريم على هذا أنه لا يصح أن يرث أولياء الميت حق تزويج نساء المتوفين كرها عنهن من غير توكيل، فليس الميراث هو ميراث ذات المرأة كزوجة، بحيث يملك زواجها بغير عقد، بل المراد حق تزويجها من نفسه أو من غيره، من غير أن تكون لها إرادة حرة فى الزواج.

وبعض العلماء فهم أن المراد من الميراث هو ميراث الزوجية نفسها، بحيث تكون المرأة زوجا من غير عقد، كما فهم آخرون أن المراد لا يحل أن ترثوا أموالهن. ولكن الظاهر من مجموع الروايات، أن المراد بالميراث هو ميراث حق التزويج، وميراث ما أعطيت من صداق. وقد عبر الله سبحانه وتعالى - ولكلامه المثل الأعلى - عن النهى عن هذا العمل بقوله تعالى: ﴿**لا يَحِلُّ**﴾ بدل لا ترثوا للإشارة إلى أنه أمر غير مستحسن فى ذاته، فهو فى ذاته غير حلال وغير لائق، فلا يحتاج فى نفى الحل إلى نهى ينشئ التحريم، بل إن الفطرة السليمة تدرك عدم

حله، وقد كان الجاهليون فى ضلال مبين وظلم شديد، إذ كانوا يفعلونه، ولذلك استنكره كثيرون منهم، وكان العمل من بعضهم، لا من كلهم.

﴿ **وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ** ﴾ العضل هنا معناه التضييق والتشديد لمنع الزواج، أو الظلم الشديد من الأزواج، وقد قال الراغب فى معنى العضل: «العَضَلَة كل لحم صلب فى عصب الرجل، ورجل عَضِلٌ مكتنز اللحم، وعَضَلْتُه شددته بالعَضَل نحو عصبته، وتُجُوِّزَ به فى كل معنى شديد» قال تعالى: ﴿ **وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ** ﴾ والمراد هنا التضييق الشديد، والخطاب هنا إما أن يكون لأولياء الميت، وتكون ﴿**لا تَعْضُلُوهُنَّ**﴾ معطوفة على ﴿ **أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ** ﴾ وتكون (لا) لتأكيد النفى، والمعنى على هذا: لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها، ولا تعضلوهن وتمنعوهن من الزواج لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن، أى لتضيقوا عليهن حتى يتركن حقهن فى المهر الذى أخذنه، أو بقى لهن، ومعنى ﴿**لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ**﴾ تضيعون حقوقهن، إذ يقال ذهب بالأمر أو بالحق: أضاعه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ .. **ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ** (١٧) ﴾ [**البقرة**].

هذا احتمال فى النص الكريم، وهناك احتمال آخر فى توجيه الخطاب، وهو أن يكون ذلك نهيا مستأنفا، محمولا فى النسق على نفى الحل السابق، ويكون الخطاب للأزواج، فيكون المعنى على هذا: لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها، فتتزوجوهن أو تزوجوهن بغير رضاهن، وكذلك لا تعضلوهن بأن تضيقوا عليهن وتظلموهن وترهقوهن وهن زوجات، لتكرهوهن على طلب التفريق فى نظير أن تأخذوا بعض ما آتيتموهن. وإذا كان التضييق لأخذ بعض المهر منهيا عنه، فأولى أن يكون فى موضع النهى التضييق عليهن لأخذ المهر كله.

وإنا نختار أن يكون الخطاب موجها للأزواج، ويكون النص السامى قد اشتمل على بيان التحريم فى موضعين: **أولهما** ـ إكراه المرأة على زواج لا تريده، وذلك بدعوى حقهم فى ميراث حق تزويجها. **والثانى** ـ النهى عن إكراه المرأة

على طلب التفريق حتى يضيع عليها بعض حقها فى المهر، وبالأولى إكراهها حتى يضيع حقها كله، والمؤدى فى الأمرين هو حماية المرأة من أن يتحكم فيها أولياء زوجها ببطشهم، أو يتحكم فيها الزوج بسلطان الغلب والزوجية.

ولكن قد تكون المرأة ظالمة لزوجها، فهل يحل أخذ شىء من مهرها لأنها أفسدت الحياة الزوجية؟ قد بين النص الكريم أنه يحل ذلك بقوله تعالى: ﴿**إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ**﴾.

الاستثناء هنا منقطع، معناه لكن إن يأتين بفاحشة مبينة يحل أخذ المهر الذى أوتينه أو بعضه، ومؤدى هذا الكلام تحريم وتحليل، أما التحريم فهو ما بين فى الكلام السابق، وهو أنه لا يصح أن يعضل امرأته ظالما لها كارها، ويريد طلاقها ويفعل ذلك ليكرهها على طلب الطلاق فى نظير ما أعطى كله أو بعضه . وأما التحليل فهو إباحة أن يطلقها فى نظير بعض ما قدم لها أو كله، إذا كانت ظالمة له مفسدة للحياة الزوجية. والفاحشة المبينة هى الفاحشة الواضحة المعلنة التى تعلن نفسها، وتكشف أمرها؛ لأن المُبيِّن يكون بيِّنا دائما، فعبر عن البيِّن بلفظ المُبيِّن مبالغة فى وضوحه وبيانه وإعلانه. وما هى الفاحشة؟ قال بعض العلماء هى الزنا، والمعنى أنه يباح فى هذه الحال، استرداد المهر كله، ولو بغير رضاها، وقد قال الإمام مالك ذلك. والتعبير عن الزنا بلفظ الفاحشة تعبير يجرى فى القرآن كثيرا، وأصل الفحش الأمر السيئ الذى يزيد عن كل معقول مقبول، فالعقول تمجه فى كل صوره ولا شىء أكثر من الزنا فى ذلك.

وقال بعضهم: الفاحشة هى النشوز وإفساد الحياة الزوجية بكل طرق العناد والمشاكسة والمباغضة. وقال آخرون: البذاءة والفحش فى القول والعمل والمكارهة بالعبارات والفعل. وفى الحق إن الفاحشة البينة الواضحة تشمل كل هذا، وهى فى كل صورها إفساد المرأة للحياة الزوجية، وقد اتفق العلماء على أنه فى هذه الحال يحل للزوج أن يأخذ كل ما أعطى أو بعضه.

وهذا هو موضوع قوله تعالى: ﴿وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا ... ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة].

هذا، وإن الرجل هو الراعى، وهو المسئول عن هذه الرعية، ولذلك خاطب الله تعالى الأزواج بقوله تعالى:

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أمر الله سبحانه وتعالى الأزواج بالعشرة الحسنة، بالمعروف، وإن العشرة هى المخالطة والممازجة بحيث تلتقى النفسان، ومن طبيعتها أن تكون فى ألفة لا فى نفرة، وقد أطلقت العشرة على المعاملة، والمراد بالمعروف أن يعامل الرجال أزواجهم معاملة تليق بأمثالهن من غير أن يكون منهم ما يستنكر عقلا أو شرعا، أو عادة، فهو يؤنسها ولا ينفرها، ويقربها ولا يبعدها، وكان الأمر بالعشرة الحسنة بعد الإشارة إلى ما قد يكون منهن من نشوز وبذاءة وفحش فى القول، لبيان أنه لا يسوغ لرجل أن يفترق لمجرد ظهور النشوز منها، بل يعالجها بالرفق، وإزالة أسباب النفرة إن أمكن. وإن الصحابة رضى الله عنهم كانوا يعاشرون أزواجهم على أكمل ما تكون العشرة، ويقربونهن بكل وسائل التقريب، حتى إن ابن عباس كان يقول: إنى أتزين لامرأتى كما تتزين لى. وقد يكون سبب النفرة من الرجل نفسه، وإنه ليروى فى ذلك أن امرأة ذهبت إلى الإمام عمر بن الخطاب رضى الله عنه تطلب الفراق من زوجها، فرأى عمر الزوج، وإذا هو أشعث أغبر خَلَق الثياب مستطيل الشعر، فأدرك بثاقب نظره أن النفرة من هذه الحال، فأجَّلها وأرسله إلى المغتسل فاغتسل، وألبسه ثيابا حسنة، وأزال شعثه، ثم ناداها، فسألها: أمُصِرَّة على ما تطلب؟ فلما رأت زوجها على حاله الجديدة عدلت عن طلب الطلاق.

وإن معاملة المرأة بالحسنى دليل على كمال الرجولة والْخُلُق، ولذا قال النبى ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى»(١).

---

(١) رواه ابن ماجه: النكاح – حسن معاشرة النساء (١٩٧٧) .

ثم بين سبحانه وتعالى أنه لا يصح للرجل أن يسترسل فى كراهيته إن عرضت له أسباب الكراهية، بل يتعرف المحاسن، ولا يقتصر على النظر إلى المساوئ، ولذا قال تعالى: ﴿**فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾.

إن العشرة الحسنة مطلوبة ولو فى حال كراهية الزوج لزوجته، فإنه لو أظهر الكره لكانت المباغضة، ولاسترسل فى غواية تضله، فيصر على الكراهية، وقد كان فى الإمكان أن يرى فيها المسرة بدل المضرة، وأسباب المحبة بدل البغض.

وإن النص الكريم يشير إلى معنى سليم، ويدعو إلى إدراك معان مختلفة كثيرة: **أولها** ـ أن ينظر إلى الحياة الزوجية من جميع نواحيها، لا من ناحية واحدة منها، وهى البغض والحب، فينظر إلى مصلحة أولاده، وإلى نظام بيته، وإلى محاسنها بدل أن ينظر إلى مساويها. **وثانيها** ـ أن يفكر فى من يعقبها: أهى خير منها أم لا؟ **وثالثها** ـ أن ينظر فى شأن العلاقة بعين العقل والمصلحة المشتركة لا بعين الهوى المسيطر الجامح. ورابعها ـ وهو أعظمها أن ينظر إلى المسألة بالقلب الدينى، وأن يتذكر فى وقت الكراهية العشرة الحلوة السابقة، ولذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾، والخير الكثير يتكشف للرجل فى الأمر المكروه بإحدى حالين: إما بالنظر الثاقب الذى يتغلب فيه العقل على الهوى، وإما بعد فوات الوقت، فيعرف الخير الذى فاته بفعله، فلا يمكن التدارك، ويكون الندم المرير، ولات حين مَنْدَمَ.

وإن هذا النص يشير إلى معنى جليل عام لا يخص الحياة الزوجية وحدها، وهو ألا يبت فى الأمور تحت تأثير الكراهة، فإنها عارض وجدانى قد يزول، وقد يكون فى المكروه الخير الكثير الذى غاب عنه فى وقت إدراكه، فيفوته النفع العظيم تحت تأثير الكراهية التى قد يبعث عليها أمر حسى عارض. وفى الحديث الصحيح. «لا يَفْرَكْ مؤمن مؤمنة، إن سخط منها خلقا رضى منها آخر»(١) والفَرَكُ

(١) رواه مسلم: الرضاع - الوصية بالنساء (١٤٦٩)، وأحمد: باقى مسند المكثرين (٨١٦٣) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

البغض الكلِّى الذى تنسى فيه كل المحاسن. وروى مكحول عن ابن عمر أنه كان يقول: «إن الرجل ليستخير الله تعالى فَيُخَار له، فيسخط على ربه عز وجل، فلا يلبث أن ينظر فى العاقبة، فإذا هو قد خير له».

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ﴾ بين سبحانه فى النصوص الكريمة السابقة حال أخذ الرجل بعض ما آتاه إذا أتت المرأة بفاحشة بينة واضحة تعلن نفسها، وذكر سبحانه علاج الرجل لنفسه إذا أحس بكراهية، لكى يتجنب الطلاق الذى قال فيه النبى ﷺ: «ما أحَلَّ الله شيئا أبغضه كالطلاق»(١)، فإذا استرسل فى الكراهية، واختار أبغض الحلال، فإنه لا يصح أن يسترد منها أى مقدار أعطاها إياه ولو كان قنطارا من فضة أو ذهب، فالتفريق هنا بمجرد إرادته لا بسبب من جانبها، ولذا قال: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ﴾ وعبر فى التعليق بـ «إن» وهى لا تكون لوقوع الفعل مؤكدا، لينبه إلى أن الإرادة قد تكون غير سليمة، وغير مبنية على أسباب قوية، والاستبدال طلب البدل، بأن يطلق واحدة ويتزوج أخرى. وقوله تعالى: ﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا ﴾ لبيانه أنه لا يُسترد شىء مهما يكن كبيرا؛ إذ القنطار أقصى ما يتصور من مهور. والقنطار أصله من قَنْطَرْتُ الشىء إذا رفعته، ومنه القنطرة؛ لأنها بناء مرتفع مشيد، وقد قال الشاعر:

كَقَنْطَرَةِ الرُّومِىِّ أَقْسَمَ رَبُّهَا ... لَتُكْتَنفَنْ حَتَّى تُشَادَ بِقَرْمَدِ(٢)

وخلاصة المعنى أنه لا يصح أن يأخذ شيئا مادام التفريق بإرادته وبسبب من جانبه، ولم يكن لها فيه أى عمل، وهذا لا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿ ... وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ... (٢٢٩) ﴾ [البقرة] فإن الآية التى نتكلم فيها كان الطلاق بسبب من جانبه وهو إرادته

---

(١) عَنْ مُحَارِبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَحَلَّ اللَّهُ شَيْئًا أَبْغَضَ إِلَيْهِ مِنْ الطَّلَاقِ». رواه أبو داود: الطلاق - كراهية الطلاق (٢١٧٧).

(٢) البيت قاله طرفه بن العبد البكرى فى معلقته وهو تشبيه للناقة. والقرمد والقرمدة: الآجر.

الاستبدال، وأما الآية الأخرى، فإنها عندما تريد المرأة ذاتها التفريق غير مَعْضُولةٍ ولا مبخوسة أى حق من حقوق الزوجيةالمفروضة على الزوج.

وقد وبخ سبحانه وتعالى على الأخذ عند إرادة الاستبدال بنصين كريمين: أولهما قوله تعالى:

﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ هذا توبيخ واستنكار للأخذ، والبهتان هو الكذب غير المعقول الذى يتحير فيه العقل، ويطلق على كل أمر يتحير العقل فى إدراك سببه، أو لا يعرف مبررا لوقوعه، كمن يعتدى على الناس من غير عداوة سابقة ولا نفع مجلوب، ولا غرض مقصود. والإثم الذنب العظيم، والمبين الواضح الذين يعلن نفسه ووضوحه، ويكشف عن مقدار الأذى فيه. وقد قال العلماء: إن البهتان والإثم مصدران قصد بهما الوصف، أى أتأخذونه باهتين فاعلين فعلا تتحير العقول فى سببه، آثمين بفعله إثما واضحا معلن الوضوح مستنكر الوقوع، ويصح أن يكون المصدران مفعولين لأجله، ويكون ذلك توبيخا أشد، ويكون المعنى عليه: أتأخذونه لأجل البهتان والإثم المبين؟ ويكون فى التعليل توبيخ أشد، وهذا هو الذى نراه.

هذا، هو النص الأول الموبِّخ، والنص الثانى هو قوله تعالى:

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ الإفضاء معناه الخلوص، أى يخلص كل واحد للآخر، وفسر بأنه الخلوة بين الرجل وزوجه ليس معهما أحد؛ لأن الفضاء هو الذى يكون بينهما. والاستنكار هنا للحال الواقعة، فالأول كان استنكارا لذات الأخذ، وهنا الاستنكار لما أحاط بالأخذ من أحوال. والمؤدى أن الأخذ عند إرادة الاستبدال أمر مستنكر فى ذاته، ثم هو مستنكر لأجل الأحوال التى كانت بين الزوجين. وقد ذكرسبحانه وتعالى سببين للاستنكار: **أحدهما** - الإفضاء وخلوص زوج لنفس صاحبه حتى صارا كأنهما نفس واحدة. **وثانيهما** ـ الميثاق الغليظ أى الشديد القوى الثابت الذى هو عهد ثقيل لا يصح منه التخلص. وذلك الميثاق، هو الارتباط بين الزوجين أمدا

صارت فيه نفس كل واحد قطعة من الآخر، وهو أمر الله تعالى إذ يقول: ﴿... فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ... ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة]، وليس الأخذ من التسريح بإحسان، وهو المودة التى تظل بين الزوجين فى مدة الحياة الزوجية التى صورها الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم].

هذا، وقبل أن نختم الكلام فى هذه الآيات نقرر أمرين:

أحدهما ـ أن الرجل فى افتراقه عن زوجه لا يحل له دينا أن يأخذ منها شيئا إذا كان النشوز من جانبه، ولا يحل أن يأخذ أكثر مما أعطى إذا كان النشوز من جانبها، وما أخذ فى غير ذلك يكون كسبا خبيثا، وقد اتفق على ذلك العلماء.

ثانيهما ـ أن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾ تدل على أنه ليس للمهر حد أعلى، وقد استدلت بذلك امرأة أمام أمير المؤمنين عمر عندما قال: (ألا لا تغالوا فى صَدُقات النساء، فإنها لو كانت مكرمة فى الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله ﷺ؛ ما أمهر قط امرأة من بناته ولا نسائه فوق اثنتى عشرة أوقية). وجعل رضى الله عنه ذلك حدا أعلى، فقالت امرأة: (يعطينا الله وتحرمنا)، وتلت الآية، فقال الإمام العادل: (أخطأ عمر وأصابت امرأة)، ولكن عمر كان ينظر بنور الله وروح الإسلام، فإن أخطأ فى الحد بمقدار، فإنه لم يخطئ فى منع المغالاة فى المهور، ولله عاقبة الأمور.

وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ
ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا
وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ
وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ
ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ
وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ
وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ
ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ
مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ
إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾

كانت الآيات السابقة فى بيان تحريم ظلم المرأة فى حال الزوجية وظلمها بعد وفاة زوجها، وظلمها عند إرادة الافتراق عنها. وفى هذه الآيات يبين الله سبحانه من يحل من النساء الزواج بهن، ومن لا يحل، وإذا كانت الآيات السابقة لدعم الأسرة بمنع الظلم؛ لأن العدل به قوام الأسرة وقوتها، ومنع الظلم تقوية سلبية، فالآيات التى تبين المحرمات من النساء تبين أسباب قوة الأسرة من ناحية المودة التى تربط بين الزوجين برباط الرحمة والمحبة، وتجعل الزواج مثمرا ثمراته الطيبة من العلاقة الزوجية التى لا تُرَنِّقها علاقة أخرى. وقد ابتدأ سبحانه ببيان تحريم زوجة

الآباء إذا افترقوا عنها، فكما أن الرجل لا يحل له أن يرث حق تزويج زوجة أصله كذلك لا يحل له أن يتزوجـها. وقد ابتدأ بهذا النوع من التحـريم لتناسبه مع منع ميراث حق التزويج للنسـاء. ولذلك قال سبحانه: ﴿**وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ**﴾ .

كان فاشيا بين العرب فى الجاهليـة أن يتزوج الرجل امرأة أبيه إذا مات عنها أبوه، وكان ذلك يؤدى إلى منـعها من حريـة الاختيار فـى الزواج، وقد نهى الله سبحانه وتعالى عن ذلك فى الماضى من الآيات الكريمات، وهنا يمنع تزوج الولد ممن كانـت زوجة أبيه، بل ممـن كانت زوجة آبائـه على وجه العـموم؛ وذلك لأن كلمة «آباؤكم» تشمل كل الأصول من الرجال أى تشمل الأجداد جميعا سواء كانوا من جهة أبيه أم كانوا من جهة أُمه، وذلك من قبيل الإطلاق المجازى.

والنكاح هو عقد الزواج، وهو لا يستعمل فى القرآن إلا على الزواج، وقد يطلق على المباشرة نفسهـا، ولكنه لم يطلق فى القرآن إلا على العقد، ولذلك قال الشافعى وكثيـرون من الفقهاء، إن النكاح حقيقة فى العـقد، وإذا أريد به المباشرة كان ذلك مجازا من قبيل إطلاق السبب وإرادة المسبب، وذلك أنه لا يكون إلا فى المباشرة الحلال، والحنفية قالوا إنه حقيقة فى المباشرة مجاز فى العقد. والذى يتفق مع تعبير القرآن هو رأى الشافعى.

ولما كان ذلـك النوع من الزواج كثـيرا فى الجاهلـية، وربما وقع فيـه بعض المؤمنين فى الجاهليـة قبل الإسلام، أشار سـبحانه إلى أن ما كان فى الجـاهلية هو موضع عفو لا يعاقب الله تعـالى عليه، ولذا قال سبحانه: ﴿**إلا ما قد سلف**﴾ أى أنكم لا تؤاخذون على مـا قد مضى منكم فى الجـاهلية، والاستـثناء هنا منقطع، و«إلا» بمعنى «لكن»، والمعنى: لكن مـا قد سلف لا تؤاخـذون عليه، والله يعـفو عنكم، وهو ينتهى بهـذا التحريم، فمن كان مـتزوجا ممن كانت امرأة أبيـه، فإنها حرام عليـه من وقت نزول ذلك النص الكريم، وعفـا الله عمـا سلف، ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام.

والتحريم له حكمته. فإنه يتنافى فيما للآباء من وقار، وما يجب لهم من حسن صحبة، ولأن امرأة الأب لا تحتشم على الابن، فلو كانت تحل له بعد الفراق لتطلعت النفس إليها، وقد ترغب فيه، فتفارق الأب أو تغاضبه طمعا فى ابنه، ولا إساءة إلى الأب أبلغ من هذا، فكان المنع لأجل الرحم والمودة فى القربى، وحسن الصحبة. والعقد ذاته سبب التحريم، فإذا عقد الأب أو الجد فإنها تكون حراما على الأبناء والأحفاد، ولو لم يدخل بها؛ لأن ذلك ما يقتضيه الإحسان إلى الوالدين.

وفى النص إشارة إلى أنه لا عقوبات من غير نص محرِّم، وهؤلاء كانوا يرتكبون ما يرتكبون مستحلين له، فلما جاء النص القاطع المحرم كان العقاب، ولا عقاب قبل النص المحرم.

وإن ذلك النوع من النكاح سيئ فى ذاته، لا يقدم عليه كريم، ولذا قال سبحانه وتعالى فيه:

﴿**إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً**﴾ هذه أوصاف ثلاثة وصف الله بها ذلك النوع من العقود: **أولها** أنه فاحشة، أى أمر زائد فى القبح شرعا وخلقا، والفحش هو الأمر الزائد زيادة قبيحة، فهو زيادة قبيحة على موجب الفطرة المستقيمة. **والوصف الثانى** أنه مقت، وهو مصدر وصف به أى أنه ممقوت من ذوى المروءات لا يقبلونه ولا يرضونه. **والثالث** أنه أسوأ سبيل لطلب الولد؛ إذ يكون ابنه أخا لأخيه من أبيه وبنته أختا لأخيه أو لأخته من أبيه، وذلك نوع من المجوسية، فهو لذلك كان سبيلا سيئا.

وقد قال الزمخشرى فى هذا النص: «كانوا ينكحون روابهم (أى تنكح المرأة ربيبها)، وناس منهم كانوا يمقتونه من ذوى مروءاتهم ويسمونه نكاح المقت، وكان المولود عليه يقال له المقتى، ومن ثم قيل ﴿**وَمَقتا**﴾، كأنه قيل إنه فاحشة فى دين الله بالغة فى القبح، قبيح ممقوت فى المروءة، ولا مزيد على ما يجمع القبحين».

بعد ذلك بين سبحانه وتعالى المحرمات من الأقارب فقال تعالى:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ﴾ هذا النص الكريم لبيان تحريم أربع طوائف من القرابة، فمعنى حرمت عليكم أمهاتكم، أى حرم عليكم نكاح أمهاتكم.

والطوائف الأربع أولاهن: الأمهات والجدات؛ لأن الأمهات يراد بهن الأصول، إذ الأم تطلق على الأصل، كما قال تعالى: ﴿... وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [**الرعد**] ويصح أن يراد من الأمهات الصُّلبيات، ولكن يثبت تحريم الجدات بطريق الأولى، لأنه إذا كانت العمة والخالة حراما، فأولى أن تكون الجدة حراما، لأن الأمّ هى طريق الوصول فى القرابة إلى هؤلاء، وقد أجمع المسلمون على تحريم الجدات.

والطائفة الثانية: الفروع من النساء، وذلك ثبت بقوله تعالى: ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ بالعطف على ﴿أُمَّهَاتُكُمْ﴾، وقد ثبت تحريم البنات بالنص، وبقية الفروع من النساء ثبت تحريمهن بالأولى؛ لأن النص يحرم بنت الأخ وبنت الأخت، وإذا كانت بنت الأخ والأخت، حراما، فأولى بالتحريم بنت البنت وبنت الابن؛ لأن البنت أقرب من الأخت.

والابن أقرب من الأخ، فأولادهما أولى بالتحريم، وقد انعقد الإجماع على تحريم الفروع من النساء مهما تكن طبقتهنّ.

والطائفة الثالثة: فروع الأبوين، وهن الأخوات، وبنات الإخوة والأخوات، وثبت تحريمهن بقوله تعالى: ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ ثم قوله تعالى: ﴿وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ﴾، وذلك يشمل الأخوات شقيقات أو لأب أو لأم، كما يشمل فروع الإخوة والأخوات جميعا؛ لأن كلمة (بنات الإخوة والأخوات)تشمل كل الفروع على سبيل المجاز، ولأن التحريم يثبت بالأولى، لأن عمة الجد حرام بالنص فأولى بالتحريم بنت ابن الأخ، وبنت بنت الأخ أو الأخت؛ لأنهن أقرب، وقد انعقد الإجماع على تحريمهن.

والطائفة الرابعة: العمات والخالات، وقد ثبت التحريم بقوله تعالى: ﴿وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ﴾ بالعطف على الأمهات من حيث التحريم، والعمات والخالات، يشملن عمات الأب والأم وخالات الأب والأم، وعمات الجد والجدة، وخالات الجد والجدة؛ لأن هؤلاء يطلق عليهن عرفا اسم العمة والخالة، واللغة لا تمنع ذلك، وقد انعقد الإجماع على ذلك. والنص على تحريم العمة والخالة والاقتصار على ذلك يدل على أنه لا يكون تحريما لبنت العم وبنت الخال والخالة، أيا كانت طبقة العمومة والخئولة، فبنت عم الأب حلال، وبنت خال الجد حلال أيضا.

وإن هؤلاء المحرمات قد ثبت تحريمهن فى الشرائع السماوية كلها؛ لأن تحريمهن مشتق من الفطرة، وفى الزواج بهن إيجاد نسل غير قوى، لأن التجارب العلمية أثبتت أن التلاقح بين سلائل مختلفة الأرومة ينتج نسلا قويا، والتلاقح بين حيوانات متحدة الأرومة ينتج نسلا ضعيفا، وعلى ذلك يكون التزاوج بين القرابة القريبة منتجا نسلا ضعيفا. ولقد ضعف آل السائب؛ لأنهم كانوا لا يتزاوجون إلا فيما بينهم، فقال لهم الإمام عمر: (قد أضويتم يا آل السائب فانكحوا النوابغ).

وإن الزواج من القرابة القريبة يفسد علاقة القرابة والعواطف الشريفة التى تربط بينهم، فعلاقة الأمومة والبنوة والأخوة والعمومة والخئولة يفسدها الزواج بما يكون بين الزوجين من مباسطات أو منافرات أحيانا، والحياة الزوجية على القبض والبسط، والرضا والسخط، والمداعبة والهجر أحيانا، وكل ذلك يفسد القرابة.

﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ﴾ الأم الرضاعية هى التى أرضعته، والأخت الرضاعية هى التى أرضعتها أمه، أو رضعت من ظئر رضع هو منها، أو بعبارة عامة التقيا على ثدى واحدة، ولا يشترط أن تكون الرضاعة من لبنه أو لبنها، بل إن كل من ترضع ولدا تحرم عليه بناتها جميعا صغيرة أو كبيرة. وقد قرر جمهور الفقهاء أنه يعتبر من الأخوات الرضاعيات كل من رضعت من امرأة أبيه إذا كان اللبن الذى رضعته كان أبوه هو السبب فيه. وهذه العلاقة

الرضاعية نشأت من قبل أبيه لا من قبل أمه، فمن رضعت من لبن أخيه لأبيه أو أخته لأبيه تعد أختا رضاعية له.

والأمهات الرضاعيات يشملن الأم التى أرضعته وجداته اللائى كانت العلاقة بينه وبينهن رضاعية، فى أى طبقة من الطبقات، سواء أكن جدات رضاعيات له من جهة أبيه أم من جهة أمه.

وإنه يلاحظ أنه لا يحرم بالرضاعة الأمهات والأخوات فقط، بل البنات والعمات والخالات، وبنات الأخ والأخت، وإن نزلت درجاتهن فى القرابة. وقد فهم كثيرون من المفسرين تحريم هذا كله من الآية الكريمة؛ وذلك لأنه سبحانه وتعالى لما سمى المرضع أما، وابنة المرضع أختا، فقد نبه بذلك إلى أنه أجرى الرضاعة مجرى النسب، ففهم بفحوى الخطاب باقى المحرمات رضاعا اللائى يعتبرن نظيرا للقريبات، وإنه قد نص على تحريم الأخت رضاعا، وليست الأخت أقرب من بنت البنت الرضاعية، فتحرم عليه بالأولى، ولقد جاءت السُّنة موضحة ذلك المعنى، فقد روى أنه لما طُلِبَ إليه عليه الصلاة والسلام أن يتزوج ابنة عمه حمزة قال: «لا تحل لى، إنها ابنة أخى من الرضاعة، ويحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب»(١). وروى أن عائشة كانت قد رضعت من امرأة أبى القُعَيْس، فجاء أخوه أفلح يستأذن عليها، فقالت: أرضعتنى امرأة أخيه، فلا آذن له، حتى أستأذن رسول الله ﷺ، فلما ذكرت ذلك لرسول الله قال: «ائذنى له فإنه عمك تَربت يداك»(٢)، وذلك لأنها لما رضعت من امرأة أخيه على ولد أخيه اعتبر أبا رضاعيا لها، فيكون هو عمها.

---

(١) رواه بهذا اللفظ مسلم: الرضاع - تحريم ابنة الأخ من الرضاعة (١٤٧٧) عن سعيد بن أبى عروبة، وبنحوه رواه البخاري: الشهادات - الشهادة على الأنساب (٢٦٤٥) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: إِنَّ أَفْلَحَ أَخَا أَبِى الْقُعَيْسِ اسْتَأْذَنَ عَلَيَّ بَعْدَ مَا نَزَلَ الْحِجَابُ فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لا آذَنُ لَهُ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؛ فَإِنَّ أَخَا أَبِى الْقُعَيْسِ لَيْسَ هُوَ أَرْضَعَنِى وَلَكِنْ أَرْضَعَتْنِى =

والرضاعة المحرمة عند مالك وأبى حنيفة هى كل مقدار قل أو كثر، وعند الشافعى وأحمد لا يحرم إلا خمس رضعات مشبعات ليمكن أن يكون الولد جزءا ممن أرضعته؛ إذ يكون قد أخذ منها غذاء يوم كامل. ولا بد أن تكون الرضاعة فى الصغر، لقوله عليه الصلاة والسلام: «إنما الرضاعة من المجاعة»(١) وذلك يكون فى السنتين الأولين من حياة المولود، ولذا قال سبحانه: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ... ﴿٢٣٣﴾﴾ [البقرة]. وقال أبو حنيفة: إن الرضاعة المحرمة هى ما تكون فى الثلاثين شهرا التى أعقبت الولادة.

والحكمة من التحريم بالرضاعة أن المولود يتكون جسمه من جسم التى أرضعته فيكون جزءا منها، كما هو جزء من أمه، التى حملته، وإذا كانت هذه غذته بدمها فى بطنها، فتلك غذته بلبنها فى حجرها، وربما تكون مدة الإقامة فى حجرها أطول كثيرا من مدة الحمل، فكان لابد أن يثبت لهذه الأم الرضاعية ما يثبت للأم النسبية من حُرْمَةٍ وكرامة، وإن تكريم المرضعات بذلك التحريم الذى يكون للأمهات الحقيقيات يشجع النساء على الرضاعة، فلا يضيع الأطفال الذين فقدوا أمهاتهم، وفى هذا التحريم فوق ذلك تنبيه إلى أن يتخير الآباء من يرضعن أولادهم؛ لأنهم إذا علموا أن أولادهم ستتكون أجزاؤهم ممن يرضعنهم تخيروهن من ذوات الأجسام القوية، والدماء النقية التى لا يدنسها مرض ينتقل بالوراثة، ولقد كان العرب والسلف الصالح يتخيرون مراضع أولادهم لهذه المعانى.

﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ هذه النصوص تعرضت للمحرمات بسبب المصاهرة، وهى تتم ما ابتدأه سبحانه

= امْرَأَةُ أَبِى الْقُعَيْسِ، فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّه ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّه إنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ هُوَ أَرْضَعَنِى وَلَكِنْ أَرْضَعَتْنِى امْرَأَتُهُ. قَالَ ﷺ: «ائْذَنِى لَهُ فَإِنَّهُ عَمُّكِ تَرِبَتْ يَمِينُكِ». [رواه البخارى واللفظ له: النسب - قول النبى ﷺ: تربت يمينك (٦١٥٦)، ومسلم مختصرا (١٤٤٥)].

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٥٩٥) كتاب الشهادات - باب الشهادة على الأنساب والرضاع المستفيض، ومسلم: إنما الرضاعة من المجاعة (٣٥٦١). من حديث عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها وأرضاها.

بقوله تعالى: ﴿وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ التى تعرضنا لذكر أحكامها فى ابتداء القول فى المحرمات، وهذه النصوص شملت ثلاث طوائف.

أولاها: ﴿أُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ وأمهات من كانت زوجة للشخص يكُنّ حراما سواء أكن أمهات صلبيات أم جدات، فيشمل النص كل الجدات، لما ذكرنا من أن كلمة الأمهات تشمل الجدات، ولإجماع الفقهاء على ذلك، ولبيان النبى ﷺ. وأما من عقد عليها وافترق تحرم عليه، سواء أدخل بها أم لم يدخل؛ لأن الأم توحش صدر ابنتها إذا تزوجت من مطلقها، ولأن الأم لا يليق بها أن تتطلع إلى الزواج ممن كان زوج ابنتها، ولو لم يدخل بها، فإن ذلك مخل بكرامة الأمومة وشرفها وحنانها، وهو سبيل لقطع رحمها، وشيوع ذلك يؤدى إلى الفساد. **والطائفة الثانية** بينها الله تعالى بقوله: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾.

والربيبة هى ابنة الزوجة لأن الزوج فى أكثر الأحوال يَرُبُّهَا أى يربيها ويعطف عليها، وهى فى غالب الأحوال تكون فى حجره، أى فى بيته وتحت رعايته، فقوله تعالى: ﴿اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم﴾ كناية عن الرعاية والحياطة والعطف، وغيرها من أنواع البر التى يحوط بها أولاد زوجته من غيره إن كان رجلا عطوفا كريما، وهذا الوصف جار مجرى العادة، والتعبير فيه مجازى لبيان قبح من يتزوج بنات امرأته، وقد اشترط للتحريم أن يكون قد دخل بزوجته التى افترق عنها، وأراد أن يتزوج ابنتها، ولذلك صرح سبحانه وتعالى بالحل، إن لم يكن قد دخل بالأم وافترق عنها وأراد الزواج بالبنت، إذ قال سبحانه: ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أى لا إثم عليكم فى أن تعقدوا عليهن، وإن المعانى التى من أجلها حرم الزواج بالأم عند العقد على البنت ليست قوية فى حال التزوج بالبنت بعد الافتراق عن الأم، فالأم لها من الحنان والعطف والشفقة ما يجعلها تغفر لابنتها تزوجها ممن كان زوجها إذا لم يكن دخول، ولأن البنت ليس

فيـها من الكرامة والاحتـرام والشرف ما للأم الرءوم العطوف، لذلك اشـترط فى التحريم الدخول بها.

والحكمة فى التـحريم واضـحة؛ لأنه لو كانت الإباحـة، فيـباح للرجل أن يطلق الأم المدخول بهـا ويتزوج ابنتهـا، ويطلق البنت ويتزوجـها، لأدى ذلك إلى إلى تقطيع الأرحام بين الأم والبنت ، ولأدى إلى التـضييق فى الأسرة، فـلا يباح للرجل أن يضم إليـه أولاد امرأته، ولا يبـاح له أن يعطف على بناتهـا، ويؤويهن عنده إن كن فى حـاجة إلى إيواء، خـشيـة أن يؤدى ذلك إلى الرغبـة فى الزواج بواحدة منهن.

والطائفة الثالثة بين سبحانه وتعالـى تحريمها بقوله: ﴿**وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ**﴾ والحـلائل جمع حليلة وهى الزوجـة التى تحل، والأبناء يشـملون الأولاد من الطبقة الأولى والطبقات الأخرى، وقد انعقد الإجماع على ذلك، فمن كانت زوجة ابنه أو ابن ابنه أو ابن بنته لا تحـل له لأنها كانت حليلة لأحد هؤلاء، والتحريم ثابت سواء أدخل بها فـرعه أم لم يدخل، وقوله تعالى ﴿**مِنْ أَصْلابِكُمْ**﴾ ـ مـعناها من ظهـوركم، وكـان فى ذكر كلـمة (أبنائكـم) ما قـد يغنى عن ذكـر ﴿**أَصْلابِكُمْ**﴾، ولكنها ذكـرت ليخرج الذين يُتَـبَنَّوْنَ، فقد كـان العرب يعتـبرون المتـبنَّى ولدا له كل حـقوق الأولاد، ويحـرمون علـى أنفسـهم الزواج من أزواج المتبنين، وقد سـماهم القرآن أدعياء، ولـذلك قال الله تعالى: ﴿**مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥)**﴾ [**الأحزاب**] ومن أجل إباحة الزواج بمن كانت زوجة المتبنى أمر الله نبيه بأن يتزوج امرأة زيد بعد أن يطلقها لأنه كان متـبنى للنبى ﷺ فى الجاهلية، ولذا قال سبحانه عند الأمر بزواجها: ﴿**فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**

حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأحزاب].

﴿ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ هذا نوع جديد من التحريم المؤقت، وهو ألا يجمع الرجل بين امرأة وأختها فى عصمته، فلا يصح أن يتزوج أخت زوجته، وهى فى عصمته، أو يكون قد افترق عنها وعدتها لم تنته، فإن ذلك حرام؛ لأنه يؤدى إلى قطع الرحم بينهما، ومثل الجمع بين الأختين الجمع بين المرأة وعمتها والمرأة وخالتها وابنة أخيها وابنة أختها، وقد ثبت تحريم الجمع بين هؤلاء لقول النبى ﷺ فيما رواه أبو هريرة: «لا تنكح المرأة على عمتها، ولا على خالتها، ولا المرأة على ابنة أخيها، ولا ابنة أختها»، وزاد فى بعض الروايات: «إنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم»(١)، وقد انعقد إجماع من يعتدّ بإجماعهم على ذلك. وقد قال بعض المفسرين: إن تحريم الجمع بين هؤلاء يثبت من نص القرآن فى قوله تعالى: ﴿ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ ﴾؛ ذلك لأن التحريم لخشية إيحاش قلب الأختين بالعداوة، ويكون بينهما ما بين الضرائر من مبادلة الأذى، وإن ذلك أظهر فى الجمع بين المرأة وخالتها أو عمتها، فأولى أن يكون التحريم فى الجمع بينهما، ولأن العمة والخالة بمنزلة الأم.

﴿ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ يظهر أن هذا كان يقع من العرب فى الجاهلية، ومنهم بعض الذين آمنوا، ولذلك بين الله سبحانه أن ذلك موضع

---

(١) رواه أصحاب السنن، وما اتفق عليه البخاري: النكاح (٥١٠٨)، ومسلم: النكاح - تحريم الجمع بين المرأة (٢٤٠٨) إلى قوله: «ولا على خالتها»، ورواه أبو داود (٢٠٦٥) وأحمد (٩٣٦٩) وغيرهما: عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لا تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ عَلَى عَمَّتِهَا وَلا الْعَمَّةُ عَلَى بِنْتِ أَخِيهَا وَلا الْمَرْأَةُ عَلَى خَالَتِهَا وَلا الْخَالَةُ عَلَى بِنْتِ أُخْتِهَا وَلا تُنْكَحُ الْكُبْرَى عَلَى الصُّغْرَى وَلا الصُّغْرَى عَلَى الْكُبْرَى». وأما هذه الزيادة وهو قوله: «فَإِنَّكُم إِنْ فَعَلْتُم ذَلِكَ قَطَعْتُم أَرْحَامَكُم». فمن رواية الطبرانى عن ابن عباس رضى الله عنهما، وروى أبو داود فى مراسيله عن عيسى بن طلحة: قال: نهى رسول الله ﷺ أن تنكح المرأة على قرابتها مخافة القطيعة. [راجع مرقاة المفاتيح-ج٣ص٩٣٩، نصب الراية للزيلعى: فصل فى بيان المحرمات-الحديث الرابع].

عفـو الله تعالى، ولذا قال سبـحانه: ﴿إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ والاستثناء هنا منقطع، و(إلا) بمعنى (لكن) والمعنى: لكـن ما قـد سلف منكم فى جـاهليتكم قـبل ذلك التحـريم موضع عـفو الله تـعالى؛ وذلك لأن الله تعـالى غفـور رحيم، فـقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ فى موضع التعليل لعفو الله فى هذا الاستثناء المنقطع، والمعنى أن الله يعـفو، لأنه سبـحانه وتعالـى كان ومازال غـفاراً للذنوب رحيما بعباده، ومن رحمته بعباده ألا يعذبهم من غير نذير، وألا يؤاخذهم على ما اكتسبـوا إلا بعد بيان واضح، وإن كان العقل يدرك حسن الأشياء وقـبحها، والله سبحانه وتعالى بكل شىء عليم.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۖ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ۚ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ بالضم معطوف على أمهاتكم فى آية التحريم السابقة التى صدرت بقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾، فهذه الآيات تتمّة لبيان المحرمـات. ثم بعد ذلك بيَّنت المحللات من النساء بعبارة جامـعة، ثم بعبارة مفـصلة لحل الإماء. وأحْصَـنْ متلاقـية فى المعنى مع كلمـة الحصن، وهو المكان المحكم الذى يُتقى به أذى العدو، فمعنى أحْصَـنَ المرأة جعلها فى حصن الفضيلة، وقد جاء فى مـفردات الأصفهانى: (يقال حـصان للعفيفة، ولذات حـرمة، وقال

تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ... ﴿١٢﴾﴾ [التحريم]. وقال تعالى: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ ... ﴿٢٥﴾﴾ [النساء] أى تزوجن، و«أُحْصِنَّ» زُوِّجن، والحَصَان فى الجملة المحصنة إما بعفتها أو بتزوجها أو بمانع من شرفها وحريتها).

وبهذا يتبين أن المرأة المحْصَنَة هى التى صانت نفسها وتحصنت بحصن الفضيلة والبعد عن الفحشاء، وإحصانها بزواجها، أو بعفافها المجرد، أو بحريتها وشرفها، ولذلك تطلق كلمة المحصَنَات، ويراد بها أحيانا العفيفات، وتطلق بمعنى الحرائر، وفى هذه الآيات استعملت كلمة المحصنات بالمعانى الثلاثة، فقوله ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ المراد المتزوجات، وقوله تعالى ﴿الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ﴿٢٥﴾﴾ [النساء] المراد الحرائر، وقوله ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ ﴿٢٥﴾﴾ [النساء] المراد العفيفات، وقوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ المراد بهن الحرائر.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ المحصنات هنا المتزوجات اللائى يكنّ فى عصمة أزواجهن، ويدخل فى عموم المحصنات المعتدات، فزوجة الغير ومعتدته لا تجوز، وتحريمهن ثابت بمقتضى الفطرة والطبيعة الإنسانية، وسنَّة الله تعالى فى الخلق والتكوين، ولكن استثنى من ذلك الدخولُ بغير الزوجات المملوكات، فإنه يجوز الدخول بهن، والاستثناء هنا منقطع بمعنى لكن، ؛لأن الكلام فى العقد لا فى الدخول، إذ إن قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ كل هذا فى تحريم العقد، لا فى تحريم الدخول فقط، فالاستثناء بعد ذلك فى الدخول بملك اليمين، لا يكون على منهاج الاستثناء المتصل، وقد قرر العلماء أن السبايا اللائى يدخلن فى الرق لا يلتفت إلى زواجهن السابق، بل تصير ملكا يحل للمالك أن يدخل بها بمقتضى الملك، لقوله تعالى: ﴿وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴿١٠﴾﴾ [الممتحنة] وهذا متفق عليه، وهو مما ينطبق عليه النص الكريم، فقط ينتظر حتى تستبرئ رحمها من الحمل.

وهناك صورة أخرى قد اختلف فيها الفقهاء، وهى الأمة التى تكون مملوكة ثم عُقِد عَقْد زواجها، وبعد ذلك باعها مالكها: أيلزم المشترى الجديد بهذا الزواج، قال بعض العلماء إنه يفرق بينهما بعد هذا الشراء؛ لأن الذى عقد هو وليها الأول، ولا يلزم بعقده الثانى، وقال بعض الفقهاء: يلزم الثانى؛ لأن الزواج سابق على الشراء، فيكون قد اشتراها ملتزما بما كان من قبل. ويظهر أنه من المتفق عليه أن مالكها إذا زوجها فهو ملزم بهذا الزواج لا يبطل بإبطاله، لأنه التزم به، فلا ينقض أمرا تم من جهته. ومن المقررات الفقهية أن من سعى فى نقض ما تم من جهته فسعيه مردود عليه.

ويتبين من هذا أن الاستثناء الخاص بالدخول بملك اليمين مقصور على حال السبى بالاتفاق، وقد قيل إن الآية نزلت فى ذلك، وادعى بعض الفقهاء أنها تشمل حال المشتراة التى سبق زواجها.

﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ جاء هذا النص بعد بيان المحرمات من قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ وكان سياقه لتأكيد التحريم وتوثيقه، و«كتاب الله»، لها فى الإعراب تخريجان، كل واحد منهما يشير إلى معنى مستقيم: **أولهما** ـ أن يكون (كتاب) مصدر كتب، والمعنى: كتب الله تعالى التحريم كتابا مفروضا بأحكامه عليكم، فليس لكم أن تتخلوا عنه. **وثانيهما** ـ أن يكون المراد القرآن، والمعنى: الزموا كتاب الله الذى هو حجة عليكم إلى يوم القيامة، وهو الذى بين شريعة تحريم المحرمات فأطيعوه.

فكلا التخريجين يؤدى إلى توثيق التحريم وتوكيده بنسبته إلى الله تعالى، إما باعتباره كَتَبَه وفَرَضه هو، وإما لأنه نص عليه فى كتابه الخالد الباقى إلى يوم القيامة، ولم يترك بيانه لرسول أو نبى.

﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ﴾ فى الآيات السابقة بيان المحرمات، وفى هذا النص الكريم يشير بلفظ عام إلى الحلال من النساء، فـ (ما) هنا المراد بها النساء، وقالوا تكون لما لا يعقل و (من) تكون لمن يعقل؛ وهى هنا لمن يعقل، لأن العموم

يعبر عنه بهـا. وفى الحق أن المستقرئ لاستعمال القرآن يتبين له أن (مَا) و(مَنْ) يتبادلان من يـعقل وما لا يعقل، فمن استعمال (مـا) لمن يعقل هذا النص، ومن استعمال (من) لما لا يعقل قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ﴿٤٥﴾﴾ [النور]، ولذلك أرى أنه لا ضرورة لتعيين إحداهما للعـقلاء والأخرى لغـير العقلاء، ثم التـمحّل[1] من بعد ذلك، فكتاب الله تعالى هو حجته الفصحى، وليس من حجة تقاربه.

وكلمة (وراء) المـراد بها غيـر هؤلاء، وهى فى أصل استـعمالهـا للخَلْف، وكأن المعـنى أن المحرمات مـقدمـات إلى الأمام، والمحللات خلفـهن، وفى ذلك إشارة إلى أن التحـريم كان للتكريم والتشريف، وملاحظـة المودة، فليس التحريم إيذاء، ولكنه تكريم. وقد قيل إن الآيات السابقة لم تشمل كل المحرمات، فالجمع بين المرأة وخالتهـا أو عمتها، حرام، ولم ينص عليه فـى المحرمات، فكأن الجمع جائز بينهن، ولقـد فهم هذا بعض الذين لا يأخذون بالسنة المشهـورة، وقد أجيب عن ذلك بإجابتين:

الأولى: أن هذا النص جاء بصدد بيان المحللات بذواتهن، بخلاف التحريم لعـارض الجمع فـقد بينتـه السُّنة، فـإن الخالة وحـدها حـلال[2]، وبنت الأخت وحدها، وكذلك بـنت الأخ والعمـــة، كل واحدة حــلال بذاتها، إنما الـتحريم هو فى الجـمع، والنص بين المحللات لذواتهن، وهذه الإجابة بيـنها الشافـعى فى الرسالة.

الثانية: أن التحريم ثابت فى الجمع بالـنص السابق؛ لأن النص السابق قال الله فيه سبـحانه فحرم الجمع بين الأختين بالنص، وثـبت تحريم الجمع بين الخالة وبنت أختها والعـمة وبنت أخيها بالأولى؛ لأن الخالة صِنْـوُ الأم، وكذلك العمة،

(١) تمحل للأمر: احتال له [القاموس - محل].

(٢) أى خالة المرأة وحدها حلال، وهكذا عمتها.

فإذا كان الجمع بين الأختين حراما، فأولى بالتحريم الجمع بين البنت ومن هى بمنزلة أمها، وقد انعقد الإجماع على ذلك.

﴿أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ هذا بيان ضرورة المهر لشرف المحل، ولإعزاز المرأة وتكريمها، ولتستعين به فيما تتأهل به للزواج، ومعنى النص الكريم أن الإحلال يقتضى أن تبتغوا، أى أن تطلبوا الزواج أشد الطلب، وأن ترغبوا فيه أشد الرغبة، متقدمين فى ذلك بأموالكم، فإن المال يكون دليل الرغبة.

ثم أشار سبحانه إلى فرق ما بين الزواج والفاحشة، فقال: ﴿مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ أى ابتغوا الزواج واطلبوه حالة أنكم تحصِّنون به أنفسكم، ونُطَفَكم، وتحفظون به أولادكم، فمعنى الإحصان هنا الإعفاف، وما يتضمنه من حفظ النطف والولد. وجعل فى مقابل الذين يحصنون أنفسهم ونطفهم الذين يسافحون، والسفاح من سفح الماء أو الدم أساله، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا ... ﴿١٤٥﴾﴾ [الأنعام]، والزانى يسفح النطفة ويلقيها ويسيلها على تراب الرذيلة. فالسفاح على هذا إلقاء للنطفة الإنسانية، وهى الجوهر المادى للإنسان، والزواج تحصين لهذه النطفة، ووضع لها فى حرْثها الذى أعده الله تعالى لها.

﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ الاستمتاع الاستيلاء على ما فيه متعة وخير ومتاع، وقد كان الرجل فى الجاهلية يتزوج المرأة، ويستمتع بها، ثم يتركها خالية الوفاض[1]، فذكر الله تعالى ضرورة إعطاء المهور التى فرضت وقدرت وقت العقد، وقد سماها الله تعالى هنا أجرا، والأجر هو الجزاء على ما قدم الإنسان من عمل، وقد يطلق على معنى العطاء، كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ [التين]؛ لأن اقتران كلمة الأجر بعدم المَنِّ يرشح لأن يكون المراد بها العطاء، إذ هو الذى يجرى فيه المنُّ والأذى، وعلى أى حال فإن الظاهر فى كلمة الأجر هنا هو الجزاء، وقد يقال: لماذا عبر هنا بالأجر، وفى

---

(١) أصل الوِفَاض الجلدة التى توضع تحت الرحى [لسان العرب - وفض]. فخلوُّها إذن كناية عن الفقر.

أصل فرضية المهر بما يفيد أنه عطاء، فقد قال تعالى: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ۝٤﴾ [النساء]! والجواب عن ذلك أن الآيات التى بينت أصل الوجوب تبين القصد من الشرعية، وهو كونه هدية واجبة لبيان شرف العلاقة بين الرجل والمرأة، وللمعانى التى شرع من أجلها المهر، أما الآيات التى سمَّت أجرا[1] فهى لبيان الأداء بعد أن تأخر عن ميقاته، فلتأكيد الأداء سمى أجرا، وأصبح المُؤَدِّى غير جدير بأن يسمى معطيا أو ناحلا أو مانحا.

وهذا النص قد تعلق به بعض المفسرين الذين لم يفهموا معنى العلاقات المحرمة بين الرجل والمرأة، فادعوا أنه يبيح المُتْعَة، وهى عقد بين الرجل والمرأة يستمتع بها مدة معلومة فى نظير مهر معلوم، أو فى نظير أجرة معلومة، ولو تخلفت المرأة فى بعض المدة ولم تسلم نفسها نقص من مهرها، أو بالأحرى من أجرتها والنص بعيد عن هذا المعنى الفاسد بُعْدَ من قالوه عن الهداية؛ لأن الكلام كله فى عقد الزواج، فسابقه ولاحقه فى عقد الزواج، والمتعة حتى على كلامهم لا تسمى عقد نكاح أبدا، وقد تعلقوا مع هذا بعبارات رواها مسلم عن النبى ﷺ أنه أباح المتعة فى غزوات ثم نسخها، وبأن عبد الله بن عباس كان يبيحها فى الغزوات[2]، وهذا الاستدلال باطل؛ لأن النبى ﷺ نسخها، فكان عليهم عند تعلقهم برواية مسلم أن يأخذوا بها جملة أو يتركوها، وجملتها تؤدى إلى النسخ لا إلى البقاء، وإذا قالوا: إنا نتفق معكم على الإباحة ونخالفكم فى النسخ فنأخذ المجمع عليه ونترك غيره، قلنا لهم: إن النصوص التى أثبتت الإباحة هى التى أثبتت النسخ، وما اتفقنا معكم على الإباحة، لأننا نقرر نسخ الإباحة، على أننا نقول إن ترك النبى ﷺ المتعة لهم قبل الأمر الجازم بالمنع ليس من قبيل الإباحة، بل هو من قبيل الترك حتى تستأنس القلوب بالإيمان، وتترك عادات الجاهلية،

---

(١) أى سمت المهر أجرا.

(٢) عن الربِيعِ بْنِ سَبْرَةَ الْجُهَنِيُّ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْ الْمُتْعَةِ وَقَالَ: «أَلا إِنَّهَا حَرَامٌ مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ كَانَ أَعْطَى شَيْئًا فَلا يَأْخُذْهُ». [رواه مسلم: النكاح - نكاح المتعة وبيان أنه أبيح ثم نسخ (١٤٠٦)].

وقد كان شائعا بينهم اتخاذ الأخدان، وهو ما نسميه اتخاذ الخلائل، وهذه هى متعتهم، فنهى القرآن الكريم والنبى ﷺ عنها(١). وإن الترك مدة لا يسمى إباحة، إنما يسمى عفوا، حتى تخرج النفوس من جاهليتها، والذين يستبيحونها باقون على الجاهلية الأولى. ومثل ذلك الخمر، فما أبيحت، ولكن تركت عفوا حتى جاء النص القاطع بالتحريم، وابن عباس رضى الله عنه قد رجع عن فتواه، بعد أن قال له إمام الهدى علىّ كرم الله وجهه: «إنك امرؤ تائه، لقد نسخها النبى ﷺ، والله لا أُوتى بِمسْتَمْتِعَين إلا رجمتهما»(٢).

﴿ وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

الجنوح معناه الميل، والجناح الإثم، والفريضة المهر المقدر، والتراضى من بعده إما على زيادته، وإما على نقصه، والمعنى لا ميل إلى الإثم فى الأمر الذى تتراضون عليه من بعد المهر الذى سميتموه وفرضتموه على أنفسكم، وعليكم أن تلتزموا بما التزمتم من بعد العقد، قليلا كان أو كثيرا، مع ملاحظة أن المرأة إذا تركت بعض مهرها من بعد الفريضة فيجب أن يكون ذلك بطيب نفسها، كما قال تعالى: ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾ ﴾ [النساء] فلابد من طيب النفس، وقد ذكرنا ذلك من قبل.

---

(١) عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِى طَالِبٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنْ مُتْعَةِ النِّسَاءِ وَعَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الأَهْلِيَّةِ زَمَنَ خَيْبَرَ. قَالَ أَبُو عِيسَى: حَدِيثُ عَلِيٍّ حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَالْعَمَلُ عَلَى هَذَا عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَغَيْرِهِمْ، وَإِنَّمَا رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ شَيْءٌ مِنْ الرُّخْصَةِ فِى الْمُتْعَةِ، ثُمَّ رَجَعَ عَنْ قَوْلِهِ حَيْثُ أُخْبِرَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ. [الترمذى: النكاح - ما جاء فى تحريم نكاح المتعة (١١٢١)].

بل قد روى الترمذى (١١٢٢) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِنَّمَا كَانَتْ الْمُتْعَةُ فِى أَوَّلِ الإِسْلامِ، كَانَ الرَّجُلُ يَقْدَمُ الْبَلْدَةَ لَيْسَ لَهُ بِهَا مَعْرِفَةٌ فَيَتَزَوَّجُ الْمَرْأَةَ بِقَدْرِ مَا يَرَى أَنَّهُ يُقِيمُ فَتَحْفَظُ لَهُ مَتَاعَهُ وَتُصْلِحُ لَهُ شَيْئَهُ حَتَّى إِذَا نَزَلَتْ الآيَةُ: ﴿إِلا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَكُلُّ فَرْجٍ سِوَى هَذَيْنِ فَهُوَ حَرَامٌ.

(٢) رواه البيهقى فى الكبرى (١٤٣٦٢) ج١٠، ص٤٧٩، كما رواه الطبرانى فى الأوسط عن محمد ابن الحنفية ورجاله رجال الصحيح. راجع مجمع الزوائد (١٩٣٧).

وقد ذيل الله سبحانه وتعالى آيات المحرمات بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ لبيان أن ما شرعه هو مقتضى علمه الذى أحاط بكل شىء، ومقتضى حكمته التى تضع كل شىء فى موضعه، وهى مقتضى جلاله تبارك وتعالى، ومقتضى ألوهيته، ولذا صدّر الكلام بلفظ الجلالة. وقد أكد الله وصفه سبحانه بالعلم والحكمة بـ «إن»، وبلفظ الجلالة، وبـ «كان» الدالة على الدوام والاستمرار، فعلينا أن نعلم حكمة الله تعالى فيما شرع، وفيما أمر ونهى، فهو أعلم بمصلحتنا منا، ولنخضع لما أمر، ولا نحاول أن نخلع الربقة[1]، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾

---

(١) الرِّبْقُ، بالكسر: حَبْلٌ فيه عِدَّةُ عُرى، يُشَدُّ به البَهْمُ، كُلُّ عُرْوَة: رِبْقَةٌ، بالكسر والفتح. القاموس المحيط - ربق.

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ المحصنات الحرائر، والفتيات الإماء، فإن الإسلام لا يعبر عن العبد إذا أضيف إلى مولاه بالعبد، بل يعبر عنه بالفتى، وهذا من أدب الإسلام وتكريم الإنسان، ولذا ورد فى الحديث الصحيح: «لا يقولن أحدكم عبدى وأمتى ولكن ليقل فتاى وفتاتى»(١). كما نهى النبىّ العبد عن أن يقول: سيدى وسيدتى، بل يقول: مولاى ومولاتى. والطول: القدرة والسعة فى المال والجسم، ومعنى ملك اليمين، أن تكون فى ملكه، وعبر باليمين لإفادة السلطان، فإن يمين الرجل مظهر قوته، وبها يكون الصَّفْق فى البياعات، فأضيف الملك إليها لأنها سببه. والآية بمضمونها أفادت أنه لا يحل الزواج من الإماء إلا إذا لم يكن فى طوله أن يتزوج حرة. وقد اختلف الفقهاء فى حدود الطول والقدرة، فقال أبو حنيفة: الطول أن يكون متزوجا حرة، فمن كان عنده حرة لا يجوز أن يتزوج أمة، وإن عقد كان عقده باطلا. وقال مالك: الطول السعة والقدرة على المهر والنفقة، فمن عجز عن مهر الحرة ونفقتها وهو قادر على الزواج من أمة فإنه يجوز له زواج الأمة، ولو كانت عنده حرة. وقال الشافعى، وهو قول عند مالك: إنه يجوز له زواج الأمة بشرطين، **أحدهما**: عدم القدرة على زواج الحرة، **والثانى**: أن يخشى العنت أى المشقة الشديدة إن لم يتزوجها. وفسر بعض العلماء عدم الطول بأن يتعلق بها وتهواها نفسه، بحيث يخشى على نفسه أن يقع معها فى زنا إن لم يتزوجها.

واشترط الشافعى ومالك وأحمد لإباحة زواج الأمة أن تكون مؤمنة كنص الآية، وأبو حنيفة أباح الزواج من الأمة الكتابية إن لم يكن عنده حرة . وشدد الإسلام فى إباحة الزواج من الإماء لحمل المالكين على عتقهن، فمن رغب فى أمة فليشترها، وليعتقها ثم يتزوجها؛ ولأن الولد يتبع أمه فى الرق، فلمنع كثرة الرقيق

---

(١) متفق عليه، رواه البخارى: العتق - كراهية التطاول على العبيد (٢٥٥٢)، ومسلم: الألفاظ من الأدب وغيرها (٢٢٤٩) عن أبى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُحَدِّثُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لا يَقُلْ أَحَدُكُمْ أَطْعِمْ رَبَّكَ وَضِّئْ رَبَّكَ اسْقِ رَبَّكَ وَلْيَقُلْ سَيِّدِي مَوْلايَ، وَلا يَقُلْ أَحَدُكُمْ عَبْدِي أَمَتِي وَلْيَقُلْ فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلامِي».

قيد الزواج من الإماء بحيث لا يدخل بهن إلا أولياؤهن فيكون الولد حرا، ويعتق أمه، كما هو مدون فى الفقه، أو تعتق ثم يكون الزواج منها.

﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ هذه جملة معترضة بين إباحة نكاح الفتيات المؤمنات، وصورة العقد عليهن. وهذه الجملة السامية فيها فائدتان: **أولاهما**: التفتيش النفسى عن القلب، وما تخفيه الصدور بحيث يكون الشخص دائم التفتيش عن عيوبه؛ لأن الله تعالى أعلم بإيماننا منا، وهو سيحاسبنا على ما يعلم، وأفعل التفضيل فى قوله تعالى: «أعلم» على بابه، فهو أعلم منا بأنفسنا، أو نقول إنه للعلم المطلق الذى لا يصل علم مهما يكن إلى مقداره، فيكون أفعل التفضيل على غير بابه. **والفائدة الثانية**: بيان أن الناس جميعا من دم واحد وأنه لا يصح أن يستعلى حر على عبد، ولا حرة على أمة، فإن بعضنا من بعض، فقوله تعالى: ﴿ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ أى أنكم جميعا تضمكم إنسانية واحدة، وكل له حقوقها وعليه واجباتها. فالعبيد من الأحرار؛ لأنهم من أصل حر، والأحرار قد يكونون من العبيد، والله سبحانه وتعالى فوق الجميع بالعدل، فلا يظلم بعضكم بعضا.

﴿ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ النكاح العقد ولا يستعمل فى القرآن إلا بهذا المعنى، والمعنى: فاعقدوا عليهن عقد الزواج بإذن أهلهن، وأهلهن فى هذا المقام هم المالكون لهن. وعبر عن المالكين بالأهل حملا للناس على الأدب فى التعبير، ولأنه يجب أن تكون العلاقة بين العبد ومالكه علاقة أهل لا علاقة رق، ولذا يجب عليه أن يعطيه كل حقوق قرابته من مأكل ومسكن وملبس، ولذا قال النبى ﷺ: «إخوانكم خَوَلُكُم (أى مكنكم الله من رقابهم) قد ملككم الله إياهم، ولو شاء لملكهم إياكم، أطعموهم مما تطعمون، واكسوهم مما تكسون»[1]. وأمر

---

(١) رواه بلفظ مقارب البخاري: الإيمان (٢٥٤٥)، ومسلم (١٦٦١) عن أبى ذر رضى الله عنه، كما رواه غيرهما من أصحاب السنن، وليس فى هذه الرواية عندهم ذكر الملك.

سبحانه وتعالى بإعطاء المهور، وشدد فى ذلك، وقال ﴿ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أى بالقدر الذى لا يستنكره العرف، فلا يتخذ من كونها أمة سبيلا لغمط حقها، وتصغير شأنها. وبيَّن أن إعطاء الأجر يكون للأمة نفسها، وهذا يدل على أنها تملكه وهو حقها، وهى تحتاج إليه فى إعداد نفسها للزواج، وبذلك يثبت أن العبيد أهل للملكية، وقد أثبتت الملكية للعبيد والإماء - الظاهرية، وذلك ظاهر القرآن الكريم، كما تدل الآية الكريمة، إذ فرقت الآية بين العقد والمهر، فالعقد يتولاه المولى، والمهر تعطاه هى.

وقوله: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾ حال من قوله: ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾، وهنا وصف بالإحصان، أى العفة، الزوجات دون الأزواج، وذلك لأن الزوجات من الإماء، وهن مظنة الانزلاق؛ إذ الرق والضعف وفقدان الحرية يكون معها الهوان،وحيث كان الهوان كانت الرذيلة قريبة؛ لأنه لا شىء كالهوان يفتح السبيل للشيطان، ولذلك طالبهن الله تعالى وقد كرمهن بالزواج أن يُحَصِّنَ أنفسهن به، وأن يباعدن السفاح، ولهذا المعنى كانت الجريمة من الإماء أقل شأنا من الجريمة من الحرائر، وكانت العقوبة عليهن أقل. ومعنى اتخاذ الأخدان اتخاذ الخليل الملازم من غير زواج، ولو باتفاق على مهر ونفقة، فالخدن هو الخليل، وهذه هى المتعة التى حرمها القرآن والنبى ﷺ.

﴿ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ معنى الإحصان هنا الزواج، فمعنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ﴾ إذا تزوجن. وجاء الشرط بـ «إذا» الدالة على تحقق الشرط، لوقوع ذلك الإحصان وللترغيب فيه، والفاحشة هنا الزنا، والعذاب هو الحد، والمحصنات هنا الحرائر، وعبر سبحانه فى جانب شرط الفاحشة بـ «إن» فى قوله ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ﴾، و«إن» تدل على الشك فى وقوع الشرط؛ لأن الفاحشة غير متوقعة وهى أمر منفور منه غير متصور أن يكون مرغوبا فيه، وخصوصا من زوجة حرة أو غير حرة.

ومرمى النص الكريم أن الأمة إذا ارتكبت الفحشاء تكون عقوبتها نصف عقوبة الحرة؛ لأن الجريمة تهون بهوان مرتكبها وتعلو بعلو مرتكبها. وإذا علَتْ

الجريمة علت معها العقوبة، وإذا نقصت نقصت معها العقوبة، وهذا دليل على عدل الشريعة، وعلو الأحكام الإسلامية عن القانون الرومانى وغيره من قوانين أهل الدنيا، ففى القانون الرومانى كان العبد إذا زنا بحرة قتل، وإذا زنا الشريف حكم عليه بغرامة، فكان هذا ظلمًا، ولكن الإسلام قال إن عقوبة العبد على النصف من عقوبة الحر، فإذا زنا الحر الشريف جلد مائة أو رجم، وإذا زنا العبد عوقب بخمسين جلدة[(١)].

وإن الزواج من الإماء هو عند خشية العنت والمشقة، ولذلك قال سبحانه:

﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ العنت المشقة الشديدة التى يخشى منها التلف أو الوقوع فى الزنا، والإشارة فى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ للزواج من الإماء المنوه عنه بقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ و(خشى) معناها خاف من أمر متوقع هو قريب من الواقع، فالرق بين الخوف والخشية أن الخشية تكون من أمر متوقع قريب الوقوع أو واقع بالفعل، فكان زواج الإماء لا يباح إلا للضرورة أو للحاجة الشديدة، ومع ذلك فالصبر أولى، ولذا قال: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فتحملوا مشقة الحرمان أولى من زواج الإماء؛ لأن الولد يكون رقيقا، وفى ذلك تكثير للرق، ولأنه لا يمكنه أن يقوم على تربيته وشئونه، ولأنها لا يتكون منها مع بقائها على رقها بيت زوجية صالحة؛ إذ ستكون مطالبة بخدمة وليها، فالحياة

---

(١) قال الآلوسى: ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ﴾ أى فإن فعلن فاحشة وهى الزنا وثبت ذلك. ﴿فَعَلَيْهِنَّ﴾ أى فثابت عليهن شرعا ﴿نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ﴾ أى الحرائر الأبكار ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ أى الحد الذى هو جلد مائة، فنصفه خمسون ولا رجم عليهن لأنه لا يتنصف. وقال ابن كثير: وقوله: ﴿نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ يدل على أن المراد من العذاب الذى يمكن تنصيفه وهو الجلد لا الرجم، والله أعلم. وقال الثعالبى: و﴿الْمُحْصَنَاتُ﴾ فى هذه الآية: الحَرَائِرُ؛ إذ هى الصفَةُ المَشْرُوطة فى الحدِّ الكاملِ، والرَّجْمُ لا يتنصَّف، فلم يُرَدْ فى الآية بإجماع.

الزوجية لا تكون كاملة، ولـذا روى أبو هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: «الحرائر صلاح البيت، والإماء هلاك البيت»(١).

ومن هذا يكون السبيل للزواج بهن شراءهن وإعتاقهن، وبذلك يقل الرقيق، ويكثر الأحرار، وإذا دخل بها مولاها كان ابنه حرا وكان سبيلا لحريتها ومنع بيعها، فيكثر الأحرار. وقد ختم الله سبحانه الآية بقوله: ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ للإشارة إلى عظيم رحمته بعبادِه فيما شرع، والى عظيم غفرانه لمن يرتكب إثما ثم يتوب، وإلى أن غفرانه من رحمته، إنه غفار لمن اهتدى. فاللهم اجعلنا من التوّابين الذين ينالون مغفرتك، إنك أنت التوّاب الرحيم.

يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾

بين سبحانه فى الآيات السابقة المحرمات، ونبه إلى ما كان يقع فيه أهل الجاهلية من استباحة بعض هذه المحرمات، كزواجهم ممن كانوا أزواجا لآبائهم،

(١) مسند الفردوس عن أبى هريرة مرفوعا، رواه الديلمى والثعلبى عن أبى هريرة وضعفه السخاوى [تنقيح القول الحثيث بشرح لباب الحديث - الباب الخامس والعشرون]وجاء فى كشف الخفا (١١٢٣) ج٤، ص٤٠. رواه الثعلبى بسند فيه أحمد بن محمد اليمانى - متروك - عن يونس بن مرداس خادم أنس - وهو مجهول - أنه قال: كنت بين أنس وأبى هريرة، فقال أنس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أحب أن يلقى الله طاهرا مطهرا فليتزوج الحرائر»، فقال أبو هريرة: سمعته يقول: «الحرائر صلاح البيت، والإماء فساد البيت»، أو قال: «هلاك البيت».

وكاستباحتهم الجمع بين المرأة وأختها. وفى هذا النص الكريم يبين سبحانه أن ما قرره هو الهداية، وهو سنة الفطرة، وهو شريعة النبيين أجمعين. ثم بين سبحانه بالإشارة والعبارة أن تحصين الفروج مطلب دينى سام، وأن الإحصان حماية لمعنى الإنسانية وترفع عن الحيوانية. وفى هذا النص يبين سبحانه أن الذين يدعون إلى اتباع الأهواء والشهوات لا يريدون بأهل الإيمان الخير، ولكن يريدون أن تتحكم الأهواء والشهوات، وتسيطر وتدفع إلى العبث والحيوانية. وقد قال سبحانه:

﴿**يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ**﴾ معنى هذا النص الكريم أن الله تعالى يريد، بما شرع من أحكام، وما ذكر من محرمات، أن يبين ما فيه خيركم، وما فيه صلاح مجتمعكم، وما يعلو بكم من دَرْكَةِ الحيوان إلى سمو الإنسان، وما يحمل العلاقة بين الرجل والأنثى علاقة معنوية روحية، ولا تكون مادية حيوانية فقط، وما يحفظ النوع الإنسانى متدرجا فى سبيل الرقى، والسمو الروحى. ويريد سبحانه أن يبين سُنَنَ الذين من قبلكم، أى الطريقة المثلى التى كانت تسير عليها المجتمعات الفاضلة قبلكم، وما جاء به النبيون، وهدى إليه المرسلون، فيبين أن هذا هو سنن الذين من قبلكم وهو سنة الفطرة. ولم يصرح بأن ذلك هو ما جاء به النبيون، وإن كان ذلك مفهوما، بل صرح بأن هذا هو سُنَنُ الذين من قبلكم للإشارة إلى أنه أمر مشتق من الفطرة الإنسانية. وأن من يخالفه إنما يشذ عن مقتضى الفطرة وحكم العقل، وسنة الإنسانية. فبعض الملوك أو الأمم الذين استباحوا المحرمات كانوا فى حكم الأجيال الإنسانية من الشذاذ؛ لأنهم خرجوا عن سنة الفطرة التى فطر الله الناس عليها.

وفى النص القرآنى الكريم مباحث لغوية لابد من الإشارة إليها لتقريب المعنى السامى:

أولها ـ معنى اللام فى قوله تعالى: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ**﴾، فإن له تخريجات مختلفة، منها أن المعنى: يريد الله تعالى ذكر ما ذكر من محرمات ويقصد إليه ليبين لكم، فاللام على هذا تكون للتعليل، و«أن» مضمرة بعدها ـ ومنها أن اللام

زائدة، وأن النصب بـ «أنْ» المحذوفة، وزيدت اللام لبيان أحكام إرادة الله سبحانه وتعالى فى بيان ما يبين توثيق هذا البيان، وهذا ما اختاره الزمخشرى فى الكشاف ـ ومنها أن اللام هى الناصبة للفعل، وأنها بمعنى أنْ. فإن اللام قد تقوم مقام أن، وذلك إذا كان الفعل قبلها يدل على الإرادة أو الأمر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ** ... ﴿٨﴾ ﴾ [**الصف**] وفى معناه فى نصف آخر: ﴿ **يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ** ... ﴿٣٢﴾ ﴾ [**التوبة**] وفى الأول ذكرت اللام بدل «أن». وقوله تعالى: ﴿ **وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴿٧١﴾ ﴾ [**الأنعام**] وفى معنى قريب منه: ﴿ **وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ** ... ﴿٦٦﴾ ﴾ [**غافر**] وقوله تعالى: ﴿ **وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ** ... ﴿١٥﴾ ﴾ [**الشورى**]، وهذا التخريج الأخير هو عند الكوفيين، والأولان عن البصريين، ونسب ثانيهما لسيبويه. وإن مفعول «يبين» محذوف، وقد دل عليه السياق، والمعنى يبين لكم ما فيه مصلحتكم، وتكوين جماعتكم الفاضلة العفيفة النَّزِهة الطيبة.

وثانيها - قوله تعالى: ﴿ **وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ** ﴾ ، نرى أن «هَدَى» قد تعدت بنفسها هنا، ولم تعد بـ «إلى» ولا باللام، وإن ذلك جائز، فالفعل «هدى» يتعدى بنفسه كما فى هذا النص، وباللام كما فى قوله تعالى: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا** ... ﴿٤٣﴾ ﴾ [**الأعراف**]، وقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ** ﴿٩﴾ ﴾ [**الإسراء**]، ويتعدى بـ «إلى» كما فى قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴿١٠١﴾ ﴾ [**آل عمران**] وقوله تعالى: ﴿ **وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنعام] وقوله تعالى: ﴿ **أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ** ... ﴿٣٥﴾ ﴾ [يونس]. وفى الواقع أن اختيار القرآن الكريم للتعبيرات المختلفة من حيث إنه يعبر أحيانا بالتعدية بـ «إلى»، وأخرى باللام، وثالثة بنفسها، يكون لمعان اقتضاها المقام. ويصح أن يقال إنها تعدت هنا بنفسها لتضمنها معنى البيان وقبول الفطرة السليمة لهذا البيان، فمعنى يهديكم سنن الذين من قبلكم: بينها لكم بيانا مشفوعا بالقبول منكم لأنه الفطرة.

وثالثها: معنى سنن الذين من قبلكم: السنة هى الطريقة، وفى أكثر استعمالها تكون للطريقة المثلى الهادية إلى الحق، وسنن الذين من قبلكم قيل هى شرائع النبيين، والذى نراه هو أن السنن هى طرائق الذين سبقوكم من الأمم التى سارت على الفطرة، فحرمت هذه المحرمات بوصايا الأنبياء السابقين، وأحكام العقل المستقيم والطبع السليم.

﴿**وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ قرن سبحانه وتعالى التوبة بعد هذا البيان لسببين:

أحدهما ـ أن يبين أن الله تعالى فاتح باب التوبة دائما، فمن تاب من الذنوب صغيرة أو كبيرة، فإن الله يتوب عليه، ويغفر له ما تقدم من ذنبه إذا كانت توبته نصوحا.

وثانيهما ـ أن الآيات السابقة تتضمن تحريما لأمور كان أهل الجاهلية يستبيحونها، فقد كانوا يستبيحون نكاح زوجات الآباء، ويستبيحون الجمع بين المحارم، ويستبيحون اتخاذ الأخدان، وهو ما يسمى اتخاذ الخلائل فى عصرنا، وكانوا يثبتون بذلك النسب، فبين الله حرمة هذا كله، ولا تزال تطلع على طائفة من الناس يعيشون عيشة أهل الجاهلية فى اتخاذ الأخدان، ويستبيحونها، وقد ذكر سبحانه وتعالى لهذا أن الله بين الحلال والحرام، وعلى المرتكب لأى محرم أن يقلع، وإن الله تعالى يتوب عليه، والتعبير عن قبول التوبة فى كل المواضع ﴿**يَتُوبَ عَلَيْكُمْ**﴾ فى التعدى بـ «على»؛ للإشارة إلى ما يتضمنه معنى قبول التوبة من ستر للذنوب، ومنع لكشفها، فهى غطاء على المعاصى يمنعها من الظهور، حتى يذهب تأثيرها فى النفس، وقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ للإشارة إلى أن الله ذا الجلال والإكرام والإنعام المستحق وحده للعبودية مطلع على كل ما يعمل الإنسان من خير وشر، وهو يعلم الذنوب التى يقع فيها العباد، وهو الذى يغفرها عند التوبة، وإنه سبحانه وتعالى حكيم يضع الأمور فى مواضعها، فيغفر ويقبل التوبة من عباده إذا أخلصوا النية، واعتزموا الخير وأقلعوا عن الشر. وقد بين سبحانه محبته للتوبة فقال:

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ هذا النص يفيد إرادة الله سبحانه وتعالى قبول توبة عباده، وستر ذنوبهم وغفرانها، وذلك إذا أقلعوا عن هذه الذنوب، وتابوا إلى الله توبة نصوحا؛ لأن الله تعالى يريد التوبة من عباده عما أسلفوا من ذنوب، وقد بين لهم طريق الحق، والوصول إليه، وأن الماضى من الذنوب لا يعوق عن الاتجاه إلى الله ولا يكون سببا للقنوط من رحمته، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر] وعلى ذلك تكون إرادة الله تعالى للتوبة عليهم متضمنة بيان الهداية لهم، ووجوب سلوك طريق الفطرة المستقيمة، وتسهيل الرجوع إليه سبحانه لتتطهر نفوسهم وتصغى إلى الحق أفئدتهم، وغفران الذنب إن أحسنوا التوبة وأخلصوا النية، واعتزموا السير فى طريق الحق، وإنه فى الوقت الذى يريد الله للناس الهداية والتوبة - يوجد - من إخوان إبليس من يحرضون على الغواية، ولذا قال سبحانه:

﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا﴾ هذه إشارة إلى كمال المباينة بين دعوة الحق التى يدعو إليها الله سبحانه وتعالى، ويبين سبلها، ودعوة أولياء الشيطان، فإن دعوة الله تعالى هى دعوة إلى الفطرة السليمة التى لم تنحرف، ولم تخرج عن النجد السوى، ليس فيها تحريم للطيبات ومتع الحياة وليس فيها انطلاق إلى الأهواء والشّهوات والخروج عن سنن الفطرة المستقيمة.

وأما دعوة أولياء الشيطان، فهى دعوة إلى الانحراف، والميل إلى جانب الشهوة ميلا عظيما، ينحرف به عن سبيل الإنسانية المهذبة. وهذا الكلام يدل على أن الناس فى كل عصر يوجد فيهم داعيتان: أحدهما إلى الحق والاعتدال، وأولئك يدعون بدعاية الرحمن، وهداية الأديان لا تحرم ما أحل الله من طيبات، ولكن بقدر لا اعتداء فيه ولا انحراف، وآخرون هم داعية الشيطان، وهؤلاء يكونون بأعمالهم وأقوالهم وأشعارهم فى الماضى وصحفهم فى الحاضر داعين إلى الانحراف، وعبر عن هؤلاء سبحانه بقوله: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾ أى

أنهم، بسبب استغراق الشهوات لنفوسهم وصيرورتها قائدا لهم يتبعونه، قد أصبحوا يريدون أن يكون الناس على شاكلتهم من الانحراف. وقد بين سبحانه إرادتهم للمهتدين فقال: ﴿**أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً**﴾، والميل أصله الانحراف من الوسط إلى جانب من الجوانب، ولما كان الاعتدال فيه العدل أطلق الميل على الجور والاعتداء، وهؤلاء لا يكتفون بمجرد الميل يريدون الناس عليه، بل يريدون أن يميلوا ميلا عظيما، أى يريدون أن ينحرفوا انحرافا مطلقا فيبتعدوا عن الاعتدال إلى أقصى الانحراف.

سبحانك ربى، ما أصدق بيانك وأحكم قرآنك! إننا نجد الآن كما كان فى الماضى الذين يتبعون الشهوات ويريدون من أهل الحق أن يميلوا ميلا عظيما، فهؤلاء الآن يدعون إلى مجونهم، مرة باسم الوجودية، وأخرى باسم التحرر، وثالثة باسم الحرية، وقد كتبوا فى ذلك كتبا، ونشروا قصصا مثيرة يدعون إلى أن يميل الناس كل الميل، واسترسلوا فى ذلك استرسالا بكل وسائل الدعاية، فمن خيَّالة تُرِى المناظر المثيرة، ومناظر فى الطرقات تحرض على الفسق والمجون، ومن استباحة علنية لكل ما يخالف الدين والخلق لتتحقق إرادتهم، ولكن إرادة الله تعالى غالبة بعونه سبحانه.

﴿**يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ**﴾ يريد الله تعالى بهذه الأحكام التى ليست فيها شدة تنوء بها القوى الإنسانية، وليس فيها حرمان من الطبائع البشرية، كما أنها لا تفتح باب الشهوات والعبث والمجون، يريد سبحانه أن يخفف عنكم، فلا يكون فيكم الحرمان من متع الحياة، ولا يكون فيكم الانطلاق الذى يحل جماعتكم، ويسلط عليكم الأهواء والشهوات، فترديكم، وتذهب ريحكم، فشرع الله تعالى إباحة الطيبات، ومن حرمها فقد خالف أمر ربه إذ قال سبحانه: ﴿ **لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ** ... ﴿٨٧﴾ ﴾ [المائدة] وقال تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ** ... ﴿٣٢﴾ ﴾ [**الأعراف**] وقال ﷺ: «كلوا

واشربوا والبسوا من غير سرف ولا مخيلة»[١]، وليس فى الإسلام رهبانية، ولا انقطاع عن النساء، ولكن ليس فيه إباحة مطلقة، وكان ذلك التخفيف فى التكليف ليسهل على الإنسان الاحتمال، وقد قال تعالى:

﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ أى خلق الله تعالى الإنسان والضعف ملازم له، وليس الضعف المذكور هو الضعف البدنى فقط، بل يشمل الضعف النفسى، فالتكليفات يلاحظ فيها ذلك الضعف، ولذلك كانت كل التكليفات يسهل تعويد النفس عليها، ولا يصعب احتمالها والمداومة عليها، وقد حث الإسلام على السهل من الأعمال التى تمكن المداومة عليها، ولذا قال عليه الصلاة والسلام: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ»[٢]، ولضعف الإنسان أبيح له من الشهوات ما لا يجعله عبدا لشهوته ، بل يكون سيدا عليها ، وإن أبرز مظاهر الضعف الإنسانى يكون أمام النساء ، ولذا أبيح له مثنى وثلاث ورباع، من غير بغى ولا ظلم. ، ولقد قال سعيد بن المسيب: ما أيس الشيطان من بنى آدم قط إلا آتاهم من قبل النساء، فقد أتى علىّ ثمانون سنة،وذهبت إحدى عينى، وأنا أعشو بالأخرى، وإن أخوف ما أخاف علىَّ فتنة النساء[٣]! وقانا الله تعالى شر ضعف نفوسنا، وقوى عزائمنا وهدانا إلى الحق، والله سبحانه وتعالى يتولانا برحمته.

---

(١) ذكره البخارى تعليقا، وسبق تخريجه من رواية النسائى وابن ماجه وأحمد عن عمرو بن العاص رضى الله عنهما.

(٢) عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَاعْلَمُوا أَنْ لَنْ يُدْخِلَ أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، وَأَنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ». رواه البخاري: الرقاق – القصد والمداومة على العمل (٦٤٦٤).

(٣) عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِى فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنْ النِّسَاءِ» [رواه البخارى: النكاح – ما يتقى من شؤم المرأة (٥٠٦٩) ،ومسلم: الذكر والدعاء – أكثر أهل الجنة الفقراء (٢٧٤٠)].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾

فى الآيات السابقة بين سبحانه وتعالى الأسس التى يقوم عليها بناء الأسرة، وكيف يختار كل واحد من الزوجين صاحبه، وبين الآفات التى قد تعترى الأسرة فى ابتداء تكونها، وبين أن دعائم الأسرة التى يقيمها عليها هى من الفطرة، وهى سنن الذين كانوا قبل الإسلام. وبعد هذا انتقل إلى العلاقات الاجتماعية العامة، وذلك تدرج من الخاص إلى العام، فالعلاقات فى الأسرة خاصة والعلاقات بالمعاملات المالية علاقة عامة، ولذا قال:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَموَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ**﴾ أكل المال معناه أخذه، وأطلق الأكل وأريد به الأخذ للإشارة إلى الأصل فى وظيفة المال الإنسانية وهو أن يكون وسيلة لمتع الحياة التى أخصها الأكل، وإذا تحول المال من كونه وسيلة لنيل المطاعم إلى أن يقصد لذاته ليكون متعة مطلوبة كالأكل، فعندئذ يكون الشح

والحرص والتنازع على طلبه بِحِل أو بغير حل، وهذا شأن من يأخذون الباطل يستمتعون به كما يستمتع الآكل بالطعام. وعبَّر بأموالكم للإشارة إلى أن مال آحاد الأمة مال الأمة موزعا بين آحادها بتوزيع الله تعالى الذى قسم الأرزاق، وأن المال كله فى حماية المجتمع، ولو كان مملوكا ملكا خاصا. وذكر كلمة ﴿بَيْنَكُمْ﴾ للإشارة إلى أن التبادل بين الآحاد يكون على أساس من الحق، ولا يكون بالباطل، والباطل هو الطرق المحرمة لجمع المال كالربا والرشوة والسرقة والغصب والنصب والتزوير والغش والتدليس والاحتكار الآثم، وغير هذا من الأساليب التى لا تبيحها شريعة ولا يبيحها قانون.

﴿إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ الاستثناء هنا منقطع، والمعنى لكن يباح لكم أخذ المال بالتجارة الناشئة عن تراض، فلا يحل مال امرئ إلا عن طيب نفس أخيه(١)، كما ورد فى بعض الآثار عن النبى ﷺ. وقد يسأل سائل: لماذا جاء هذا بعد النهى عن أكل مال الناس بالباطل؟ والجواب عن ذلك أن بعض ما يستباح مما حرمه الله يشبّه بالتجارة، فالذين يأكلون الربا يشبهون الزيادة بالكسب الذى يجىء من البيع والشراء، ولذلك حكى الله سبحانه عن المشركين أنهم قالوا: ﴿... إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ... ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة] ورد الله قولهم: ﴿... وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ... ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة] وبهذا بيّن الله سبحانه وتعالى حل التجارة حتى لا يتوهم أحد أن مكاسب التجارة من أكل أموال الناس بالباطل، فإنها مال حلال ما دام أساسها التراضى وطيب النفس.

والتراضى أساس العقود عامة وأساس المبادلات المالية خاصة، فلا بيع من غير تراض ولا شراء ولا إجارة ولا شركة ولا غيرها من عقود التجارة ما لم يتحقق الرضا. وقد وسع الفقهاء الباب للرضا، فأباحوا للعاقد أن يفسخ العقد إذا خفيت العيوب ولم تظهر؛ لأن الرضا لم يكن على أساس سليم، وأباحوا للعاقد

---

(١) «إِنَّهُ لا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ إِلا بِطِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ» جزء من حديث رواه أحمد (٢٠١٧٢): أول مسند البصريين عن عم أبى حرة الرقاشي.

أن يشترط لنفسه حق الفسخ، ومن الفقهاء من أباح له الفسخ طول مدة مجلس العقد، ولو أعلن الرضا، وذلك كله للاحتياط، ولكى يكون الرضا على أساس من العلم الصحيح والجزم القاطع، والبَتِّ القائم على بينة ومعرفة.

وهل التراضى أساس حر للتعاقد من غير قيد يقيده إلا التحريم؛ بمعنى أن كل ما يشترط ويتعاقد عليه المتعاقدون يكون حلالا ملزما للعاقدين ولو لم يرد به نص خاص؟. للفقهاء فى ذلك منهاجان مختلفان **أحدهما**: أن التراضى أساس للإلزام والالتزام ولو لم يرد نص لكل عقد وشرط مادام لا نص يمنع، فكل ما يشترطه العاقدان ويتراضيان عليه يكون لازما لا يصح نقضه، إذا لم يكن نص يحرمه، ولقد قال فى ذلك عمر ـ رضى الله عنه ـ: مقاطع الحقوق عند الشروط. وأكثر الحنابلة وبعض المالكية على ذلك المنهاج. **والمنهاج الثانى**: أنه لا يلزم من الشروط والعقود إلا ما جاء الدليل على وجوب احترامه، وهذا منهاج الشافعية والحنفية فعندهم لا يلزم الشرط إلا إذا قام الدليل على وجوب الوفاء به.

والتجارة باب من أبواب الكسب الطيب وفيها فائدة للناس،وهى تنقل ما فيه الحاجة الإنسانية من مكان إلى مكان، وبهذا النقل تتغير قيمة الأشياء، وزيادة القيمة بهذا النقل تقارب زيادة الأشياء بالزرع، وزيادة قيم الأشياء بالتحويل الصناعى، فإن الحديد مثلا إذا تحول إلى آلة زادت قيمته بما زادت الصناعة فيه، فكذلك بنقل البضائع من مكان إلى مكان تزيد القيمة بهذا النقل.

وإن علماء المسلمين كانوا يرحبون بالتجارة التى تنقل البضائع من بلد إلى بلد ومن إقليم إلى إقليم، ولا يرحبون بالتجارة فى البلد الواحد؛ لأن هذا ليس فيه طلب للأرزاق، ولأنه قد يؤدى إلى الاحتكار، وقد جاء فى القرطبى: «والبياعات التى تحصل بها الأغراض نوعان: تقلب فى الحضر من غير نقلة ولا سفر، وهذا تربص واحتكار، قد رغب عنه أولو الأقدار، وزهد فيه ذوو الأخطار.

والثانى: تقلب المال بالأسفـار، ونقله إلى الأمصار، وهذا أليق بأهل المروءة وأعم جدوى ومنفعة»[(١)].

وإن النبى ﷺ قد حث على الاتجار بالنقل من بلد إلى بلد، ومنع الاحتكار وما يؤدى إليه، فقال النبى ﷺ: «المحتكر خاطئ والجالب مرزوق»[(٢)].

﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ جاء هذا بعد النهى عن أكل أموال الناس بالباطل؛ لأن المال عند الناس بمنزلة النفس أو قريب منها، وقد اختلف العلماء فى معنى قوله تعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ فقال بعضهم: معناه لا يقتل أحدكم نفسه، فإن ذلك إثم، ومن قتل نفسه فقد اعتدى على نفس حرّم الله قتلها، وهذا تأويل غير متفق مع السياق، وإن كان ظاهر اللفظ ربما يفيده، وقال بعضهم: إن المعنى ولا يقتل بعضكم بعضا؛ فإن قتل واحد منكم للآخر قتل لأنفسكم، وتحريض على الدماء بينكم، وقتل نفس كقتل الناس جميعا، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة] وإن السياق على هذا يكون فيه ترقٍّ فى النهى عن الاعتداء، ابتدأ بمنع الاعتداء على المال، ثم بمنع الاعتداء على النفس، فهو انتقال من الكبيرة إلى أكبر منها. وقال بعضهم إن المعنى لا تقتلوا أنفسكم بأكل بعضكم أموال بعض، وبارتكاب المعاصى، فإن ذلك مفرق لجماعتكم مفسد لأمركم مذهب لوحدتكم، وبذلك تقتل الأمم والجماعات، وقد ارتضى هذا ابن بشير فقال: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أى بارتكاب محارم الله تعالى ومعاصيه، وأكل أموالكم بينكم. وإن هذا هو الذى نرتضيه، وهو يتضمن فى ثناياه النهى عن القتل بكل ضروبه لأنه داخل فى محارم الله.

---

(١) راجع الجامع لأحكام القرآن: تفسير سورة النساء (٢٩). الجزء٥، ص٣١.

(٢) روى مسلم فى صحيحه: المساقاة - تحريم الاحتكار فى الأقوات (١٦٠٥) أنه كَانَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ يُحَدِّثُ أَنَّ مَعْمَرًا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ احْتَكَرَ فَهُوَ خَاطِئٌ».

ومعنى الاحتكار: إمساك السلعة وعدم بيعها حتى يرتفع ثمنها.

وقد ذيل الله سبحانه وتعالى النص بقوله تعالت كلماته: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ للإشارة إلى أن الله نهى عن هذه المحرمات وأباح هذه المباحات من التجارة بكل أنواعها رحمة بكم، فكل شرع الله رحمة، وكل شرع صادر عن رحمة الله التى هى شأن من شئونه[1]، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء].

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ الإشارة هنا إلى الأمرين: أكل أموال الناس بالباطل وما يتضمنه من معاصٍ وطرق للشر مختلفة، والثانى ما يترتب عليه من قتل نخوة الأمة وتفرق أمرها، وذهاب وحدتها وتمكن أعدائها منها. والنص تهديد شديد، والعدوان فى أصل اللغة معناه مجاوزة الحد المشروع قصدا، والظلم وضع الشيء فى غير موضعه، وهما متلاقيان فى المعنى، والجمع بينهما كان ليشمل العذاب كل أحوال الارتكاب، وليخرج ما كان غير مقصود، فمن الظلم ما لا يكون مقصودا لمن يتلف مال غيره غير قاصد، فإنه ظالم ويعوض ما تلف، ولكن لا يكون له ذلك العذاب الشديد.

وقوله: ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ وإن إنزال ذلك العذاب الشديد ليس أمرا على الله عسيرا، ولكنه على الله تعالى يسير سهل، ولذلك قال: ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ فكل ما فى الكون ما غاب منه وما ظهر هو فى قبضة يده، وإن بيان يسر هذا العذاب فيه تهديد أشد، وفيه بيان لقوة الله تعالى وعظمته فى العقاب وفى الثواب معا.

﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ بعد أن أنذر سبحانه وتعالى ذلك الإنذار الشديد فتح باب التوبة حتى لا ييئس العباد من رحمته، ولا

---

(١) قال ابن جرير الطبرى - ج٥، ص٢٠: «فإنه يعنى أن الله تبارك وتعالى لم يزل رحيما بخلقه، ومن رحمته بكم كفّ بعضكم عن قتل بعض أيها المؤمنون، بتحريم دماء بعضكم على بعض إلا بحقها، وحظر أكل مال بعضكم على بعض بالباطل، إلا عن تجارة يملك بها عليه برضاه وطيب نفسه، لولا ذلك هلكتم وأهلك بعضكم بعضا قتلاً وسلبا وغصبا» اهـ.

يقنطوا من العودة إليه سبحانه فقال: ﴿إن تجتنبوا﴾، والاجتناب معناه البعد، حتى تكون المعاصى فى جانب وهو فى جانب، ولا يتلاقيا قط، ومعنى التكفير ستر السيئات أو إبعادها وإماطة أذاها عن النفس، فإن التوبة الصادقة النصوح كالماء الطهور تطهر النفس. وفى النص إشارة إلى أن المعاصى قسمان كبائر وصغائر، وسمى الصغائر هنا سيئات لأنها تسوء صاحبها وتؤلمه وتسوء فى ذاتها، ولا تتعدى فى كثير من الأحيان، وسماها فى آية أخرى اللّمم، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ ... (٣٢)﴾ [النجم] أى ما يلم به الإنسان من غير إصرار عليه، ولا استمرار فيه، ومن هذين الوصفين نستطيع أن نعرف صغائر الذنوب بأنها ما تسوء فى ذاتها من غير تعد ويرتكبها الشخص من غير إصرار، فإن الإساءة تتعدى وتفحش، وإن كان ثمة إصرار فليست صغيرة.

وبتعريف الصغائر نستهدى إلى تعرف الكبائر، وقد روى فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات»، قيل: يارسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله، وقتل النفس التى حرّم الله إلا بالحق، والسحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات»[1]، ولا شك أن هذا الحديث لا يدل على الإحصاء للكبائر، فقد ذكر فى أحاديث أخرى أن منها عقوق الوالدين، وشرب الخمر، وقد جاء فى حديث آخر أن من أكبر الكبائر الزنا، وأفحشه ما كان بحليلة الجار[2]. وقد قيل لابن عباس: الكبائر سبع، فقال رضى

---

(١) متفق عليه؛ رواه البخاري: الوصايا - قول الله تعالى ﴿إن الذين يأكلون أموال﴾ (٢٧٦٧)، ومسلم: الإيمان - بيان الكبائر وأكبرها. عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّه وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِاللَّه، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّى يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلاتِ».

(٢) يؤيده ما رواه البخارى ومسلم عَنْ عَبْد اللَّه قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّه؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ للَّه نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ» قُلْتُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ. قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ». رواه البخاري: تفسير القرآن.

الله عنه: هى إلى سبعمائة أقرب. لأنه لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار.

وإننا إذا تتبعنا الكبائر التى ذكرها النبى ﷺ من غير إحصاء، نرى أنها قد اتسمت بسمتين ـ إحداهما: أنها تهدم أمرا ضروريا من ضروريات المجتمع، فالزنا يهدم الأسرة، والقذف يهدمها ويشيع الفاحشة، وشرب الخمر يفسد العقل وهو ضرورى للمجتمع، والسحر يفسد العلاقات الإنسانية، وعقوق الوالدين ينقض بناء الأسرة من قواعده، وهكذا ـ **والسمة الثانية**: أن الاعتياد عليها يميت الضمير، ويجعل النفس تمرن على الشر.

ولذلك نقول: إن الكبائر هى المفاسد التى تهدم بناء المجتمع الفاضل، والمعاصى التى يصر عليها الشخص ومن شأنها أن تفسده أو تفسد غيره، ولو كانت فى ذاتها هينة؛ لأن استمراء النفس للمعصية الصغيرة يسهل الكبيرة(١).

﴿ **وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا** ﴾ وعد الله الذين يباعدون الكبائر عن نفوسهم بأن يكفر عنهم سيئاتهم، وإنه ليس بعد زوال السيئات إلا الثواب، ولذلك قال تعالى: ﴿ **وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا** ﴾. «المُدْخَل» اسم مكان من «أَدْخَل»، وعبر بالإدخال للإشارة إلى أن ذلك تفضل من الله ورحمة، إذ لم يملكوا الأسباب والمفاتيح إلا بتفضل منه ورحمة، ووصف المكان بالكرم للإشارة إلى أمرين: **أحدهما**: أنه مكان طيب، ينعم المقيم فيه، ويستطيب الإقامة، **والثانى**: أن من يحل فيه يكرمه الله تعالى، ويفيض عليه برضوانه، فهو مكان كريم فى ذاته، ولا يدخله إلا كريم مكرَّم يفيض الله تعالى عليه بكرمه ومنَّته.

---

(١) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ» وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَرَبَ لَهُنَّ مَثَلا كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلاةٍ فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ فَيَجِيءُ بِالْعُودِ وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا فَأَجَّجُوا نَارًا وَأَنْضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا.

﴿ وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ التمنى تصور ما لا حقيقة له وطلب ما لم تتخذ الأسباب لتحصيله، ويتضمن معنى الطمع فيما في يد الغير، والحسد له، وإن ذلك يؤدى إلى شقاء النفس وفساد الخلق والدين، وإن الله تعالى فضل بعض الناس بالعقل والذكاء، وبعضهم بالجاه، وبعضهم بالقدرة على إدارة شئون الدولة، وبعضهم بفضل من المال. والفضل معناه الزيادة لا ترتيب الدرجات، فقد يكون المفضول أعلى درجة عند الله ممن زاد عليه. ومعنى النص الكريم: لا تتمنوا ولا تطمعوا وتتطلعوا إلى ما زاد الله به بعضكم على بعض فى المال أو الجاه أو العمل أو الجهاد، فإن ذلك يجعلكم فى اضطراب وبلبال مستمر وقلق دائم يزعجكم ويزعج المجتمع بكم، وما كانت الانقلابات الاجتماعية والفتن المخربة إلا بسبب تطلع كل إنسان لما أعطاه الله غيره من فضل ليس عنده، فذو المال يحسد ذا العقل والتدبير، والفقير يحسد ذا المال، وهكذا يكون كل إنسان فى انزعاج بسبب تمنيه وتطلعه لما لا يستطيع.

وإن الله سبحانه وتعالى قد سهل عمل الخير لكل إنسان، وله من نتائج عمله الجزاء على قدر العمل، وإن التكليف على قدر الطاقة وعلى مقتضى التكوين الإلهى للأشخاص والأنواع، ولذلك قال سبحانه:

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾ إن للرجال حظًا مما اكتسبوا من أعمال قاموا بها من جهاد فى سبيله، وإدارة لشئون المسلمين، وفصل فى الخصومات، وقيام بالتكليفات العامة، وللرجال حظ من الأموال بمقدار ما يكلفون من أعمال اجتماعية، وللنساء نصيب وأجر مما اكتسبن، فلهن جزاء على آلام الحمل وآلام الوضع، وآلام التربية والسهر على الطفل والرعاية لشئونه، والصبر على هذه الرعاية، ولهن الجزاء الأوفى على القيام على مملكة البيت التى هى راعيتها، ولهن من المال فى الميراث بمقدار ما يكلفن من تكليفات اجتماعية، فليرض كل من الرجال والنساء بحظهم الذى يتفق مع تكوينهم وكل له جزاؤه فى الواجبات العامة لكلا الصنفين، والواجبات الخاصة بأحدهما، ولا يتمنَّ أحد ما ليس له.

﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ أى لا تتمنوا ولا تتطلعوا إلى ما لم تتخذوا الأسباب له، واتجهوا إلى الله تعالى علام الغيوب الرزاق ذى القوة المتين، واسألوه ما يتفضل به عليكم، وما يزيدكم به من حظوظ الدنيا والآخرة، فإنكم عندئذ تطمئنون وتستقر نفوسكم، ويبعد عنكم القلق والانزعاج، والله سبحانه هو المعطى الوهاب.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ إن الله تعالى ذو الفضل العظيم وهو يعطى من فضله بمقدار علمه وبمقدار تكوينه للأشياء وتقديره لما يصلح، وإنه سبحانه وزع الأرزاق والمواهب بمقتضى علمه، فجعل من الناس الغنى والفقير؛ إذ لو كان الناس سواء فى الغنى والفقر ما كان من يعمل بيده ويزرع الأرض، ويقيم العمران وينمى الزرع والحرث، ولو كان الناس جميعا ذوى مواهب عالية ما وجد من ينفذ ما يفكر فيه أولئك العلماء، ولو كان الناس جميعا ساسة ما وجد من يسوسونه، ولكان الاختلاف ولا يكون الناس أمة واحدة، وإن الناس كهرم قاعدته أوسعه ساحة، ثم يعلو حتى يضيق أعلاه، والقاعدة هى أساس البناء، وإن ذلك التنظيم هو مقتضى العلم ومقتضى النظر، اللهم إليك الأمر والنهى والتقدير، قد فوضنا كل أمورنا إليك، وإنك نعم المولى ونعم النصير.

وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ
وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ
نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾
ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ
عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ
قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ

نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَـٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾

فى الآيات السابقة ذكر سبحانه وتعالى أنه جعل لكل من الذكور والإناث حظه مما اكتسب، رجالا ونساءً، فليس لأحد أن يتمنى ما فضل به غيره عليه، وإلا عبث الشيطان بعقله وقلبه، فالأمانى الكاذبة مطايا الشيطان دائما.

وفى هذا النص الكريم يبين أنه جعل كذلك حظوظ الميراث بما قدر سبحانه وتعالى، وقد جعله فى الأولياء النصراء الذين كان يستنصر بهم فى حياته، ويأمن بهم من الاعتداء والجور، ففى ظلهم وقربهم كان كسبه، فيكون لهم بعد وفاته ما قدره العليم بكل شىء. وقد قدر سبحانه الميراث بنوع القرابة وقربها، لا بآحادها كالشأن فى كل الشرائع والقوانين، تقدر أحكامها بالأنواع لا بالآحاد، ولذا قال تعالى:

﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ المولى هو النصير والصديق والقريب، ويقول الأصفهانى فى مفرداته: «الولاء والتوالى أن يحصل شيئان فصاعدا حصولا ليس بينهما ما ليس منهما، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان، ومن حيث النسبة، ومن حيث الدين، ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد»، وأقرب المعانى هنا أن يكون الموالى هم الذين يخلفون الشخص فى ماله وشخصه، فتكون حياتهم امتدادا لحياته، وهم الوارثون. والمعنى كما يبدو من النص الكريم: ولكل أحد ممن يتركون هذه الحياة

الدنيا إلى الحياة العليا جعلنا خلفاء له فى ماله من أقرب الناس له، وأكثرهم نصرة، ويكون لكل من هؤلاء الأولياء حظ من ماله يأخذه، وهؤلاء هم أبناؤه وأقاربه والذين عقدت أيمانكم. وفى النص الكريم بعض مباحث لفظية ومعنوية.

فالنص يشير أولا إلى أن الذين يخلفون الآباء والأقربين والذين عقدت الأيمان هم النصراء والأقارب الأدنون؛ لأنهم شاركوه فى الجهد بنصرتهم وقرابتهم، ولأن بقاء شخصه يكون ببقائهم، **والنص يشير ثانيا** إلى أن المال الذى يتركه موزع بين هؤلاء لايستبد به قريب دون قريب، إذا اتحدت درجة القرابة وقوتها؛ لأن الميراث يتبع الاقربية، فهو للأقرب فالأقرب. **ويشير ثالثا** إلى سبب الميراث، وهو القرابة ويدخل فيها الزوجية هنا؛ لأن الزواج يوجد ارتباطا نفسيا يكون كالقرابة، بل يكون أقوى من بعضها، فتصير المرأة بضعة من الرجل. والسبب الثانى هو عقد اليمين، ويقال عَقَدَتْ الأيمان لكل عقد قوى موثق، والأيمان هنا هى الأيدى جمع يمين، وهى اليد اليمنى؛ لأن العقد الموثق يضع فيه يده فى يد الآخر عند عقده، ولذلك يقال للبياعات الصفقات؛ لأن كل عاقد يصفق بيمينه على يمين الآخر. ومن هم ﴿**وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ**﴾ كما جاء فى النص؟. لقد نسب إلى الأستاذ الشيخ محمد عبده أنه قال: إن المراد الأزواج؛ لأن سبب الميراث هو عقد الزواج والقرابة، والأكثرون بل الجميع من المتقدمين على أن المراد عقد الولاء، وهو أن يعقد الشخص مع رجل أقوى منه نصيرا على أن تكون له نصرته، وأن يرثه إذا لم يكن له وارث، فالأقوى ينصر الأضعف، ويرثه إذا مات، وقد كان ذلك واقعًا. وقال بعض الفقهاء: إنه نسخ الميراث به، كما نسخ الميراث بالإخاء، وقال الحنفية ومعهم بعض الفقهاء: إنه ما زال باقيا لم ينسخ، وهذا ما نميل إليه، ونحن بهذا نخالف ما نسب إلى الأستاذ الشيخ محمد عبده، ونخالف من ادعوا النسخ، ووجهتنا فى الأول أن القرآن الكريم لم يعبر عن أحد الزوجين بمن عقدت أيمانكم؛ لأن الحياة الزوجية ليست العلاقة فيها مجرد تعاقد بين الرجل والمرأة، بل هى بعد استقرارها تكون ازدواجا نفسيا، فتكون هى قطعة

منه ويكون هو قطعة منها. وتكون بينهما لُحمة أقوى من لُحمة النسب، إذا أعقبا أولادا يتكونون من أجزائهما، فيريان فيهم شخصيهما قد اندمجا، فكانا ذلك الحى الذى هو خِلْبُ الكبد. وأما وجهتنا فى عدم نسخ الميراث بالولاء، فهى أنه لا يوجد دليل ناسخ، وما وجد من السنة هو ظنى أولا، والظنى لا ينسخ القطعى، وقد ورد فى نسخ الإخاء، وقد حلت القرابة محل الإخاء، والميراث بالولاء لا يتعارض مع الميراث بالقرابة؛ لأنه يكون إذا لم يكن الشخص أحد من الأقارب قط، وبذلك لا يكون للولاء قوة القرابة، ولكن تكون له قوة الوصية التى تتأخر عن القرابة والزوجية، وإن أقصى ما يدل عليه عقد الولاء أن يقدم على بيت المال، وهو مؤخر عن الوصايا الصريحة إذا كانت لا تزيد على الثلث، وبذلك تكون النصرة الخاصة مقدمة على النصرة العامة؛ إذ عَقْدُ الولاء سبب للنصرة الخاصة والأمة هى النصير العام، وإن بيت المال يأخذ المال الضائع، وما دام قد جعل المال لواحد من بعده فإنه لا يعد ضائعا.

﴿فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ إذا كان توزيع التركات بِجَعْل الله تعالى وتقديره، فيجب أن يؤتى كل واحد حظه منه؛ إذ هو نصيب لم يكن بمنحة من أحد، ولكن بعطية من الله تعالى، فليس لأحد أن يمنع ذا حق حقه، إذا كان ذلك الحق قد قرره مالك الملك، فلا يجوز للذكور أن يحرموا الإناث من نصيبهم فإن ذلك يكون ظلما مبينا، ولا يجوز للقوى من الوارثين أن يُطَفِّفَ من نصيب الآخرين، كما أنه لا يجوز لحاكم أن يغير ميراث الله تعالى، ولا أن يمنعه، فكل من ملك مالا أو حقًّا فلورثته، كما قال النبى ﷺ: «من ترك مالا أو حقا فلورثته»(١). وقد أكد الله سبحانه وتعالى أمره بمنع الظلم فى الميراث بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أى أن الله تعالى ذا الجلال والإكرام

---

(١) رواه البخاري: الاستقراض وأداء الديون - الصلاة على من ترك دينا (٢٣٩٨)، ومسلم: الجمعة - تخفيف الصلاة والخطبة (٨٦٧)، وغيرهما ولفظه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَرَكَ مَالا فَلِوَرَثَتِهِ وَمَنْ تَرَكَ كَلا فَإِلَيْنَا».

يشاهد كل شىء، ويشهد عليه، فيعرف الظالم الذى يأخذه ومآله معرفة المشاهد المعاين، فمن أراد إخفاء مال، أو أكل الحق من صاحبه، فليعلم أن الله تعالى سيأخذه أخذ عزيز مقتدر.

﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ**﴾ يقال قام على الشىء وهو قائم عليه وقوام عليه، إذا كان يرعاه ويحفظه ويتولاه بعنايته والمحافظة عليه، وليست القوامة مطلق الرياسة، بل إن الرياسة تسمى قوامة إذا كان الرئيس يقوم على رعاية المرءوس والمحافظة على حقوقه وواجباته، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ**﴾ فإن المعنى أن الرجال يقومون على شئون النساء بالحفظ والرعاية والكلاءة والحماية، فيقوم الآباء على رعاية بناتهم والمحافظة على أنفسهن وأخلاقهن ودينهن، والأزواج يقومون على شئون زوجاتهم بالحفظ والرعاية والحماية والصيانة، ومن هنا تجىء الرياسة، بل إنى أقرر أن قيام الرجل على شئون الزوجة ليس فيه رياسة، إنما فيه حماية ورعاية وهو من قبيل توزيع التكليفات، فإذا كان للرجل رياسة عامة، فللمرأة أيضا رياسة نوعية، ولذا قال النبى ﷺ: «الرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها»(١).

وقد ذكر سبحانه وتعالى سبب تكليف الرجل هذه الرعاية دون المرأة، فبين سببين: **أولهما**: قال فيه ﴿**بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ**﴾، والتفضيل هو الزيادة فى القوة الجسمية والمعرفة، واختصاص الرجال بالرسالة الإلهية، والولايات الكبرى، وقد تبع هذا تكليفات كثيرة على الرجل، منها الجهاد ودفع الأعداء، وما عرف التاريخ أن امرأة قادت الحروب، ومهما يكن من عمل للمرأة فى الحروب فهو من قبيل الأعمال الثانوية، لا الأعمال الأصلية، والتفضيل هو تفضيل الجنس

---

(١) عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ؛ الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِى أَهْلِه وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِى بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِى مَالِ سَيِّدِه وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه».
[رواه البخارى: الجمعة - الجمعة فى القرى والمدن (٨٩٣)، ومسلم بنحوه: الإمارة (١٨٢٩)].

على الجنس، لا تفضيل آحاد، فمن النساء من هى أقوى من الرجال عقلا، ومعرفة، بل قوة جسم فى بعض الأحيان، وقال: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ولم يقل: بما فضلهم الله عليهن **أولا** للإشارة إلى البعضية المشتركة، وأن الرجال من النساء والنساء من الرجال، فاللحمة الواصلة واحدة، وللإشارة إلى أن ذلك التفضيل لصالح الجميع، وكلٌّ يؤدى عمله الذى خلقه الله سبحانه وتعالى له.

والسبب الثانى فى القوامة والرعاية والحفظ والصيانة هو ما عبر الله سبحانه وتعالى عنه بقوله: ﴿وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾، وذلك لأن تكليف الرجل بالإنفاق، وجعله حقا للمرأة عليه، يجعله مكلفا أيضا أن يرعاها ويصونها؛ إذ إن ذلك التكليف استوجب أن يكون عمل المرأة داخل المنزل، وعمل الرجل خارجه؟ فهى عاكفة على شئون الأطفال وإعداد البيت ليكون جنة الحياة، وهو مكلف رعاية الجنة وحمايتها وصيانتها.

﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ إن رعاية الرجل للمرأة والعمل على صيانتها وحفظها تختلف باختلاف المرأة، والمرأة المتزوجة نوعان: إحداهما الصالحة، والثانية من ليست كذلك، وهنا يبين هذا النوع. ومعنى الصالحة النافعة المستقيمة فى خلقها ودينها، فهى صالحة فى نفسها وزوجيتها، وقد وصفها الله سبحانه وتعالى بوصفين ظاهرين يميزانها، ويكشفان عن صلاحها، فى نفسها ودينها: **أحدهما** أنها قانتة. وقانتة معناها مطيعة عن طيب نفس، واطمئنان قلب، لا عن قسر وإكراه، وهى مطيعة لله تعالى فى كل مظاهرها، ومن طاعة الله تعالى طاعة زوجها فى غير معصية. ولم يبين فى اللفظ من تطيعه للإشارة إلا أن من طبيعتها الطاعة لصاحب الطاعة. وصاحبها هو الله، وهو مصدر الطاعات كلها. **والوصف الثانى** أنها حافظة للرجل فى غيبه، وقد عبر الله سبحانه عن ذلك بقوله: ﴿حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ أى يحفظن الأمور المغيبة المستترة، فلا يفشين ما يكون بينهن وأزواجهن، ولا يكتمن ما خلق الله فى

أرحامهن، ولا يعتدين عليه، ولا يضعن فى الوديعة التى أودعها الله إليهن ما لا يجوز أن يكون فيها، وقوله تعالى: ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ (ما) إما مصدرية وإما موصولة، والمعنى على أنها مصدرية: حافظات للغيب بحفظه تعالى، أى بالصورة التى حفظ الله بها ذلك الأمر وجعله غيبا مكنونا. وعلى أنها موصولة: حافظات للأمور الغيبية المستورة بالأمر الذى حفظها الله تعالى فى تكوينه وشرعه.
والخلاصة على التخريجين أن المرأة الفاضلة الصالحة مع طاعتها لزوجها تحفظ غيبه وستره وعرضه، وقد جاء الوصفان فى قول النبى ﷺ: «خير النساء من إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته»(١).

هذا هو القسم الأول من النساء المتزوجات، والقسم الثانى ما بينه بقوله:

﴿وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ ذلك القسم هو غير الطائع وغير الصالح بلا ريب، والنشوز خروج الزوجة عما توجبه الحياة الزوجية من طاعة الزوجة لزوجها، وقيامها على شئون بيتها، وأصل النشوز مأخوذ من النشز بمعنى الارتفاع فى وسط الأرض السهلة المنبسطة ويكون شاذا فيها، فيكون نشوز المرأة ترفعا أو إعراضا عن الحياة الزوجية الطيبة وشذوذا فيها، وقال سبحانه، ﴿تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ﴾ ولم يقل «ينشزن» للإشارة إلى أمرين: **أولهما** علاج الداء قبل أن يستفحل، وذلك بأن يكون العلاج عند وقوع بوادر النشوز وظهور أماراته، حتى لا يصل إلى أقصى درجاته، وهو أن تهجر الزوج، وتخرج من منزله؛ لأن ذلك العلاج يكون وهى فى ظل العُشِّ الزوجى لم تغادره ـ **والأمر الثانى** استكثار وقوع النشوز بالفعل، وهو أن تترك البيت على من فيه وما فيه، وكأنه لا يتصور أن تقع زوجة فى ذلك، ولو لم تسم فى لغة الشرع زوجة صالحة. وقد ذكر الله لهذا النوع من النساء ثلاثة أنواع من العلاج:

---

(١) مسند الطيالسى عن أبى هريرة رضى الله عنهما، وروى أبو داود: الزكاة - فى حقوق المال (١٦٦٤) عن ابن عباس مرفوعا.

أولها ـ ما ذكره سبحانه بقوله تعالى: ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ «الفاء» هنا واقعة فى خبر الموصول؛ لأنه فى معنى الشرط فدخلت الفاء فى خبره الطلبى، كما تدخل فى جزاء الشرط إذا كان طلبا. والوعظ القول الذى يؤثر فى النفس ويوجهها إلى الخير، وقد قال الخليل بن أحمد: «الوعظ هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب» فالوعظ توجيه إلى الخير بذكر نتائج الشر، وهو مراتب أعلاها التوبيخ، وهو أيضا مراتب. ولكل امرأة من النساء ما يليق بمثلها، فذات الإحساس الرقيق إذا كان منها ما لا يستحسنه، يقال مثلا: أفعلت هذا؟ كأنه ينكر أن يكون حدث منها، أو يقول: ما تصورت أن يكون هذا من مثلك. ثم يذكرها بشرف أسرتها، ثم يذكرها بحق الله تعالى، ثم يوبخها، ومنه اللوم، وهو فى كل هذا لا يقسو ولا يعنف.

والثانى ـ الهجر فى المضجع، والمضجع فى المجاز هو المسكن كله، والهجر المطلوب هو الهجر الجميل، وهو الهجر من غير جفوة. والهجر مراتب: أدناها أن يكون الهجر فى موضع النوم، وهو المضجع الحقيقى، والآخر مجازى بأن يدير لها ظهره ولا ينام، فإن علا نام فى منام آخر، فإن علا ترك حجرة النوم إلى حجرة أخرى من غير مجافاة ولا مخاصمة، ولكل حال نوعها من النساء ونوع من أمارات النشوز وعلاماته التى تكشف عن توقعه إن ترك حبلها على غاربها.

الثالث ـ من دواء النشوز، الضرب، وهو أقصاها، ولا يلجأ إليه إلا عند فشل الدواءين السابقين. وقد ثبت أن الضرب المباح يكون عندما تبلغ الحياة الزوجية درجة يخشى عليها من النشوز والافتراق، وقد قيدته السنة بقيدين. أحدهما: أن يكون غير مبرح، وأن يكون غير مشين بألا يضرب الوجه، فقد صرحت بذلك السُّنة(١)، وسئل ابن عباس عن الضرب غير المبرح، فقال: هو

(١) عَنْ حَكِيمِ بْنِ مُعَاوِيَةَ الْقُشَيْرِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا حَقُّ زَوْجَةِ أَحَدِنَا عَلَيْهِ؟ قَالَ: «أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ - أَوْ اكْتَسَبْتَ - وَلا تَضْرِبْ الْوَجْهَ وَلا تُقَبِّحْ وَلا تَهْجُرْ إِلا فِى الْبَيْتِ» رواه أبو داود: النكاح - حق المرأة على زوجها (٢١٤٢)، وابن ماجه: النكاح - حق المرأة على الزوج (١٨٥٠)، وأحمد: أول مسند البصريين (١٩٥٠٩).

الضرب بالسواك أو مثله. وهذا هو الضرب المباح، فهو رمز لاستحقاق الضرب، وليس بضرب. وقد نص فى مذهب مالك على أن الزوج إذا ظلم زوجته وشكته إلى القاضى، وعظه، فإن تكررت الشكوى حكم لها بالنفقة ولم يحكم له بالطاعة زمنا، فإن شكته بعد ذلك عزره بالضرب ليستقيم، وهذه عقوبات ثلاث تقابل عقاب الزوج لزوجته، ولكنها أشد وأعنف، فالضرب لا يكون غير مبرح.

﴿**فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيراً**﴾ البغى الطلب الشديد، ومعنى النص الكريم: فإن أطاعت الزوجات فلا تطلبوا طريقا من طرق العقاب أيا كان باغين عليهن به ظالمين، والمغزى أن كل عقاب مع الطاعة ظلم وبغى لا يقصد ولا يطلب، بل يقصد الزوج إلى استدْنَاء مودتها بالرحمة والعطف والتقريب والتحبب بكل أساليبه. وقد ذيل الله سبحانه وتعالى الآية بقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيراً**﴾، للإشارة إلى قوته القاهرة، وأنه إذا استعلى الرجل على امرأته فالله العلى الكبير فوقه، وهو مؤاخذه وآخذه بعذاب أليم.

﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيراً**﴾ هذه حال ثالثة للحياة الزوجية، وهى حال خوف الشقاق، وهى غير حال خوف النشوز؛ لأن خوف النشوز يكون والزوجة فى بيت زوجها له نوع سلطان عليها، وهناك مودة بينهما، فتكون تلك المودة من سبل العلاج، ولذلك كان من العلاج الهجر الجميل، إذ لا يصلح عقابًا إلا عند قيام المحبة، أما الشقاق فإنه يكون عندما تنشعب المودة، ويكون كل واحد من الزوجين فى شق، وهذه حال لا يتولى إصلاحها الزوج؛ لأن القلوب تنافر ودها، ولهذا كان العلاج لا بد أن يكون من طريق آخر، وقد بينه الله تعالى بقوله: ﴿**فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا**﴾، والبعث معناه الإثارة، وهو هنا الإثارة مع التخير؛ لأنه ليس كل إنسان يصلح طبيبًا معالجا للنفوس المتنافرة، والحكم من له حق الحكم والفصل، وعمل الحكم يتجه إلى أحد أمرين: **أحدهما** الإصلاح بينهما ورد النفوس الشاردة إلى مستقر الحياةَ الزوجية، وإن ذلك يقتضى

أن يكون عند الزوجين نيـة إزالة الخلاف أو على الأقل لا يمانعان فـيه، ولذا قال تعالى: ﴿إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ أى إذا كان كلا الزوجـين مع وجود النفرة يرغب فـى إزالتها. فـإن الله موفق بينهـما، بأن يجعل كل قلب يـلتقى مع الآخر، والتوفـيق يقتضى أن يفتح كل واحـد جزءا من قلبه ليدخل فـيه أو يلتحم معه القلب الثانى.

والأمر الثانى التفريق بينهما، وقد كان الخلاف بين الفقهاء فى جوازه، فقال أبو حنيـفة والشـافعى؛ لا يجـوز ذلك إلا بتوكـيل من الزوج، لأن النص بيّن أن عملهـما فى الإصلاح، فإن عجـزا عنه فقد انتهـت مهمتهـما، ولأن الطلاق حق الزوج وحده، ولا يتولاه غيره إلا بالنيابة عنه، وقال مـالك وأحمد: لهما التفريق إن عجزا عن الإصلاح؛ لأن الله تعالى سماهما حكَمَيْن، والحكم هو الذى يحسم الخلاف، فإن عجزا عن الإصلاح حسـما الخلاف بالتفريق، ولأن عليا ـ رضى الله عنه ـ عندما بُعِثَ حـكمان لحسم الخـلاف بين عقيل بن أبى طالب وامـرأته قال: أتدريان ما عليكما؟ إن عليـكما إن رأيتما أن تفرقا فـرقتما، وإن رأيتما أن تجـمعا جمـعتـما. وعلىٌّ أحق من فـسَّر القرآن. وبعث الحـكمين يكون بأمـر القاضى، والبعث يكون عند خـوف الشقاق؛ لأن الشـقاق يكون بالانفصال التـام، والخوف قبله. وقد ذيل الله الآية الكريمة بقوله تعالت كلماته: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ أى أنه مـتصف بصـفـة العلم الدقـيق المحيط الذى يعلـم أحوال النفـوس وطرق عـلاجهـا، ويعلم ما يـقوم به الناس، ويعلم مـا تخـفى الصدور، وعنده الجـزاء والعقاب وهو على كل شىء قدير.

وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ
إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ
ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ

وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾

فى الآيات السابقة من أول السورة وردت أحكام الأسرة، وواجبات الأقوياء فيها بالنسبة لضعفائها، والدعائم التى تقوم عليها، والحقوق المتبادلة بين آحادها، وأشير إلى الآفات التى قد تعروها، ثم بينت عناصر تكوينها سليمة، وأشير إلى المعاملات المالية بينها من غير تفضيل، ثم بيِّن علاج ما يكون بين الزوجين من أسباب النزاع التى قد تهدد المودة الواصلة بينهما بالقطع، وفى هذه الآيات ذكر سبحانه الأسس التى تقوم عليها المعاملات العامة والخاصة، وذكر وجوب الإحسان إلى كل من يتصل بالشخص بقرابة أو جوار، ثم بين حال الذين يقطعون العلاقات بين الناس، وبين سبحانه وتعالى أن أساس التعامل الفاضل هو عبادة الله تعالى وحده، من غير إشراك، وأن أساس التعامل الفاسد هو أن يريد الشخص بعبادته غرضا من أغراض الدنيا من غير اتجاه إليه سبحانه، ومراعاة حق الناس عليه.

ولذا قال سبحانه: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ هذا أول الخط الذى يسير فيه الفاضل فى علاقته بالله وبالناس، وهو أول الخط المستقيم، والعبادة معناها خلوص النفس لله تعالى، والاتجاه إليه وحده، والإخلاص فى كل ما يعمل

لله تعالى، وهى بهذا المعنى تشمل العبادات من صلاة وحج وصوم، وصدقات. والصلاة لب العبادة، وهى ذات صور مختلفة فى الديانات، ولكنها فى صميمها لا تكون صلاة إلا إذا تحققت فيها الضراعة التامة، والاتجاه إلى الله وحده، وعدم الانشغال عنه سبحانه بأى عرض من أعراض الدنيا. وهذه هى العبادات المفروضة، وبعدها يكون الاتجاه إلى الله تعالى فى كل مقصد وعمل، ولا يحس بالالتجاء إلا له، فالدعاء له وحده، لا يشرك معه أحدا فى دعائه، ولذلك ورد عن النبى ﷺ أنه قال: «الدعاء مخ العبادة»(١). ويلى هذه المرتبة فى سمو العبادة ألا يفعل الأعمال إلا لله، ولا يحب إلا فى الله ولا يبغض إلا فى الله.

وهذه المرتبة يصورها قول النبى ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب الشىء لا يحبه إلا لله»(٢).

هذه هى العبادة، أو إشارات إلى أنواعها ومراتبها. وإن الأخذ بها يجعل كل الأعمال فى دائرة الفضيلة، وينير البصيرة، وإن نقيض العبادة الخالصة لله تعالى الشرك، وهو منهى عنه. وكما أن العبادة مراتب فالشرك مراتب أيضا، أعلاها الشرك الأعظم، وهو اعتقاد شريك لله تعالى فى ألوهيته واستحقاقه للعبودية، وهو الذى ذكره الله تعالى فى قوله: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ... ﴿١١٦﴾ ﴾ [**النساء**] ويليه أن يعتقد أن أحدا ينفع ويضر من دون الله، والالتجاء إلى غير الله والخضوع لغير الله وبغير ما أمر الله تعالى. والمرتبة الثالثة الإشراك فى القُرُبات، بأن يصلى مرائيا، أو يزكى مباهيا، أو يصوم متعاليا، ولا يقصد وجه الله بصومه، وقد قال ﷺ: «من صلى يرائى فقد أشرك، ومن صام يرائى فقد أشرك، ومن تصدق يرائى فقد أشرك»(٣)، ويسمى هذا النوعُ الشركَ الخفى. وقد روى الترمذى أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أتخوف

---

(١) رواه الترمذى: الدعوات عن أنس بن مالك رضى الله عنه. وقد سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه من رواية أحمد عن شداد بن أوس بن ثابت.

أمتى: الإشراك بالله، أما إنى لست أقول يعبدون شمسا ولا قمرا ولا وثنا، ولكن أعمالا لغير الله وشهوة خفية»(١).

وإن النهى عن الشرك يشمل الإشراك بالله فى أى شىء أو أى حال، ولذا قال تعالى ﴿وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، أى شىء وعلى أى نحو كان، سواء أكان شركا ظاهرا أم كان شركا خفيا. وإن الإشراك فى كل صوره يضعف الضمير، والإيمان بالله يقوى الضمير، وإن أول مظاهر قوة الضمير التى توجدها عبادة الله وحده، البر بالناس، ولذا عقب طلب البر والإحسان بالنهى عن الإشراك فقال تعالى:

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ وقد قرن الله سبحانه وتعالى النهى عن الإشراك بالإحسان إلى الوالدين، ومن وليهما، وقد جاء فى آيات أخرى ذكر الإحسان بالوالدين فقط بعد النهى عن الإشراك، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء] لأن أحق من يستحق الإرضاء بعد الله الوالدان، ولا يستحق غيرهما بعد الله الشكر، ولذا قال تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ... ﴿١٤﴾﴾ [لقمان] وقال عليه الصلاة والسلام: «رضاء الرب من رضا الوالدين، وسخطه فى سخط الوالدين»(٢)، والإحسان إلى الوالدين بالصحبة الكريمة، وسد حاجتهما، والقول الحسن، وعدم التململ من حياتهما إن بلغا الكبر، وتعبا تعب الشيخوخة، وصارت حياتهما عبئا على أولادهما، ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء].

والإحسان إلى ذى القربى من هذا الصنف، فعلى القريب أن يحسن بقريبه، بسد حاجته، ويكرم صحبته، ويصله ولو قاطعه، ولذا قال النبى ﷺ: «ليس

---

(١) رواه بهذا اللفظ ابن ماجه: الزهد - الرياء والسمعة (٤٢٠٥) عن شداد بن أوس رضى الله عنه.

(٢) رواه البزار عن عبد الله بن عمرو. الترغيب والترهيب ٣/ ٢٢١.

الواصل بالمكافىء إنما الواصل من يصل رحمه عند القطيعة»[١]، ويكون فى عونه دائما فى دفع الملمات، والمواساة فى الشدائد.

والإحسان باليتيم، يكون بإيوائه، والعطف الذى يقوم مقام عطف أبيه، وسد حاجاته، والاختلاط به بالرحمة، فيجعله مع أولاده مختلطا بهم، مؤتنسا معهم، ويسوّى بينهم وبينه، لكى ينشأ أليفا مألوفا مع المجتمع الذى يعيش فيه، وقد ورد فى الأثر: «إن خير بيوت المسلمين بيت يكرم فيه يتيم، وشر بيت من بيوت المسلمين بيت يقهر فيه يتيم»[٢]، وإن قهر اليتيم وإذلاله ينشئه نافرا شاذا، فيكون عدوا للجماعة لا يألفها، ويكون منه الإجرام، والإيذاء، وقد قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ ۝ ﴾ [الضحى].

والمساكين هم الفقراء والذين لا طاقة لهم على عمل، لمرض مزمن أو شيخوخة فانية، أو آفة فى جسمهم تجعلهم غير قادرين، أو تعطُّل لا يجدون معه عملا يعملون، والإحسان بهم سد حاجاتهم، وكفالة الراحة لهم.

وبعد أن بين سبحانه الإحسان اللازم المطلوب الذى لا مناص عنه، وهو دفع الآفات الاجتماعية، اتجه إلى الإحسان إلى المجتمع القريب، والإحسان فى المعاملة بشكل عام، فقال:

﴿ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ ﴿ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ هو الجار الذى يتصل بالإنسان بصلة الرحم والقرابة، وهذا له مع حق الجوار حق الرحم، فقد ثبت له الإحسان من ناحيتين:

---

(١) رواه البخارى: الأدب - ليس الواصل بالمكافئ (٥٩٩١)، والترمذى: البر والصلة - ما جاء فى صلة الرحم (١٩٠٨)، وأبو داود: الزكاة - فى صلة الرحم (١٦٩٧)، وأحمد: مسند المكثرين (٦٤٨٨).

(٢) سبق تخريجه، وقد أخرجه ابن ماجه فى الأدب - حق اليتيم (٣٦٧٩) مرفوعا بلفظ: «خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه» وأخرجه البخارى فى الأدب المفرد، وأبو نعيم فى الحلية. عن أبى هريرة رضى الله عنه.

إحداهما: من ناحية القرابة، فهو داخل فى ذى القربى، **والثانية**: الجوار، وقد يقول قائل: لماذا أمر بالإحسان به فى الجوار مع أنه مذكور فى القرابة؟ والجواب عن ذلك أن الجوار قد يوجد احتكاكا، تكون معه الشحناء، فللحرص على بقاء المودة الواصلة، نبّه ـ سبحانه ـ إلى أن الجوار يوثق الإحسان ولا يباعده، فهو يجعله أوجب وألزم.

﴿**وَالْجَارِ الْجُنُبِ**﴾ هو الجار الذى يكون مسكنه أو متجره، أو مزرعته بجنبك، والإحسان إليه بألا يكون منه أذى له بأى نوع من أنواع الأذى، فلا يزعجه فى أمنه، ولا يمنع الماء عنه، ولا يرسل إليه الماء غير الصالح، ويلقى عليه مزابل بيته. ثم من الإحسان به مواساته فى شدائده، ومعاونته فى حاجاته، وأن يحفظ سره، ولا يكشف عورته، ولا يعلن منه ما يخفى على الناس. ومن الإحسان إليه أن يهدى إليه ما يعجز عن شرائه لأولاده من حلوى وفاكهة ونحو ذلك. وإن الإحسان إلى الجار هو الأمر الذى يدعو إليه التآلف الإسلامى فى المجتمعات الصغيرة، وقد أكثر النبى ﷺ من الحث على الإحسان بالجار(١).

﴿**وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ**﴾ هو الصاحب الذى يكون بجنبك فى عمل أو سفر، أو طريق، أو مركب، وقد قال جار الله الزمخشرى فى ذلك:

«الصاحب بالجنب هو الذى صحبك بأن حصل بجنبك إما رفيقا فى سفر، وإما شريكا فى تعلم علم أو حرفة، وإما قاعدا إلى جنبك فى مجلس أو مسجد، أو غير ذلك من أدنى صحبة التأمت بينك وبينه. فعليك أن ترعى ذلك الحق ولا تنساه وتجعله ذريعة إلى الإحسان» وإن من الإحسان إلى الصاحب الذى يكون بجنبك، ألا تؤذيه بمنظر كريه أو ريح كريهة، وأن تحافظ على الحياء فى مجلسك،

---

(١) من ذلك ما رواه البخارى: الأدب - الوصية بالجار (٦٠٤١)، ومسلم: البر والصلة - الوصية بالجار (٢٦٢٤) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا زَالَ يُوصِينِي جِبْرِيلُ بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ».

فلا تجعل نعلك يحف بثيابه أو بحيث يؤذيه، وأن تعاونه إن كان محتاجا إلى معاونتك.

﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ هو المنقطع عن أهله ولا مال له، فكأن الطريق تبناه، والإحسان إليه بإيوائه وإطعامه وتسهيل الحياة له حتى يعود إلى أهله. وقد أوجب الإسلام إعداد مأوى لهؤلاء من بيت مال الزكاة، وإمدادهم بالطعام والكساء حتى يثوبوا إلى أهلهم.

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ هم العبيد والإماء الذين ملكت رقابهم فى الحروب العادلة، فهم فى سيطرة المالك لهم، وكأن رقابهم فى يمينه يسيرها كما شاء. والإحسان إليهم يكون من مالكهم بالإطعام والكساء والمأوى، وعدم إيذائهم بأى نوع من أنواع الأذى، فلا يضربون، ولا يلطمون، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «من كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم، فإنْ كلفتموهم فأعينوهم عليه»[(١)].

وفى سبيل الإحسان بهم نهى النبى عن أن يقول المالك عبدى وأمتى، فقال: «لا يقل أحدكم عبدى وأمتى، بل ليقل فتاى وفتاتى»[(٢)]، ونهى عن ضربهم: «من لطم عبده فكفارته عتقه»[(٣)]، وقال بعض الحنابلة: إنه بمجرد اللطم يكون عتيقا.

---

(١) عَنْ الْمَعْرُور بْنِ سُوَيْد قَالَ: لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بالرَّبَذَة وَعَلَيْـه حُلَّةٌ وَعَلَى غُلامه حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلكَ فَقَالَ: إنِّي سَابَبْتُ رَجُلا فَعَيَّرْتُهُ بأُمِّه، فَقَالَ لى النَّبيُّ ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بأُمِّه! إنَّكَ امْرُؤٌ فيكَ جَاهليَّةٌ، إخْـوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمْ اللَّهُ تَحْتَ أَيْديكُمْ، فَـمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَده فَلْيُطْعمْـهُ ممَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبسْهُ ممَّا يَلْبَسُ، وَلا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلبُهُمْ، فَإنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعينُوهُمْ». [رواه البخاري: الإيمان - المعاصى من أمر الجاهلية (٣٠)، ومسلم بنحوه: الأيمان (١٦٦١)].

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه مسلم فى صحيحه: الأيمان - صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده (١٦٥٧) وتمامه: عَنْ زَاذَانَ أَنَّ ابْنَ عُمَـرَ دَعَا بغُـلام لَهُ فَرَأَى بظَهْره أَثَرًا فَـقَالَ لَهُ: أَوْجَعْـتُكَ؟ قَالَ: لا. قَـالَ: فَأَنْتَ عَتـيقٌ. قَالَ: ثُمَّ أَخَذَ شَـيْئًا منْ الأَرْض فَقَـالَ: مَا لى فيـه منْ الأَجْر مَا يَزنُ هَذَا؛ إنِّى سَـمعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ: «مَـنْ ضَرَبَ غُلامًا لَهُ حَدا لَمْ يَأْته، أَوْ لَطَمَـهُ فَإنَّ كَفَّارَتَهُ أَنْ يُعْـتقَهُ» وَفى حَـديث وَكيع: «مَنْ لَطَمَ عَـبْـدَهُ..» وَلَمْ يَذْكُرْ الْحَـدَّ. كما رواه أبو داود: الأدب (٥١٦٨)، وأحمد: مسند المكثرين (٤٧٦٩).

وهنا بحث لفظى فى الكلمة السامية: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، فقد قالوا: إن «أحسن» تتعدى بنفسها وذلك بالنسبة للأعمال، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف] وقول النبى ﷺ: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يحسنه»(١) وقول علىّ رضى الله عنه: (الناس أبناء ما يحسنون). ويتعدى بالباء، وبإلى وباللام، وتكون بمعنى الإنعام والإكرام. وقالوا: إنها فى تعديها بالباء تكون بمعنى الإكرام مع الاتصال والمودة والقرب ممن أحسن إليه.

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾ المختال هو ذو الخيلاء أى الكبر؛ وذلك لأن المتكبر يتخيل لنفسه من الصفات والسجايا والأفعال ما ليس فيه، فيستعلى على الناس، والفخور هو الذى يكثر من ذكر مزاياه ويبالغ فيها، ويحب أن يحمد بما لم يفعل. وإن هذين الوصفين يتلازمان، فحيث كان الكبر كان الفخر الكاذب، والله تعالى لا يحب هؤلاء؛ لأنهم يستنكفون عن الاتصال بالناس، ويغمطون حقوق الناس، ولا يقومون بحق النعمة التى أنعم الله بها عليهم، ولذا قال عليه الصلاة والسلام: «الكبر بطر النعمة وغمط الناس»(٢).

وكان ذكر ذلك النص الكريم بعد طلب الإحسان للإشارة إلى أن المتصف بهاتين الصفتين لا يمكن أن يكون محسنا لأحد - هو إيذاء بصفاته وبأفعاله، وهو مصدر الشر والتفرق فى الجماعات، وقد بين الله سبحانه وتعالى حقيقتهم بأوصافهم، وذكرها سبحانه وتعالى صفة صفة، فقال:

(١) فى مجمع الزوائد (٦٤٦): وفيه: مُصعب بن ثابت، وثقه ابن حبّان، وضعفه جماعة. والحديث رواه البيهقى وابن عساكر بلفظ مقارب

(٢) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِى قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ» قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ». [رواه مسلم: الإيمان - تحريم الكبر وبيانه (٩١)، والترمذي: البر والصلة (١٩٩٩)، ورواه أحمد فى مسند المكثرين (٣٧٩٧) بنحوه.

﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ وإن من صفة هؤلاء المختالين أنهم بخلاء، ويحرضون الناس على البخل، ويكتمون ما أعطاهم الله من فضله. والبخل أن يضن الشخص فى مواضع الخير، فليس البخل مرادفا للاستمساك بالمال؛ إذ إن الإنفاق فى الشر والضنّ على الخير يسمى بخلا فى لسان الشرع والعقل، كما أن الإنفاق فى سبيل البر مهما يكثر لا يكون إسرافا، فتبرع أبى بكر بكل ماله فى الحرب لا يسمى إسرافا، ومثل ذلك تبرع عمر رضى الله عنه بالشطر من ماله، وكذلك تبرع عثمان بالأموال الضخمة للمسلمين، ولهذا روى عن عبد الله بن عباس: «درهم فى الشر إسراف وألف فى الخير ليس بإسراف» فلا غرابة إذن إذا وجدنا المختالين ينفقون الألوف فى المظاهر والاستعلاء، ومع ذلك وصفهم الله تعالى بالبخل، ولا تناقض بين وصفهم بالبخل، وكونهم مثل الذين ينفقون رئاء الناس؛ لأن كلا الوصفين ينبع من نفس واحدة، وهى الشح فى الخير.

ودأب هؤلاء أن يبخلوا وأن يحرضوا على طريقهم الذى سلكوه، ويسخروا ممن يؤثرون على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة؛ لأنهم فى طبيعتهم لا يحسون إلا بأنفسهم، ولا يؤمنون بحق الغير عليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾، المراد بها كتمان المال فى موضع البر، فهم أشحة على الخير يحسبونه مفنيا لمالهم، فيكتمون ما أعطاهم الله من مال بفضله، وعلى هذا سار بعض المفسرين، وحجته أن الكلام فى المال، فالكتمان فيه.

وقال آخرون: إن المراد كتمان العلم الذى أُوتُوه بفضل الله عليهم، وإرسال رسل كثيرين فيهم، ويكون النص فى اليهود لأنهم يتصفون بكل هذا، ويرشح لذلك قوله تعالى فى ختام الآية: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ وأرى أن يفسر الكتمان تفسيرا عاماً يشمل العلم والمال.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ معناه: وهيأنا للجاحدين لرسالة محمد ﷺ ولوحدانية الله تعالى عذابا يهينهم ويذلهم، فإذا كانوا قد استكبروا وطغوا واستعلوا واختالوا فى الدنيا، وهى متاع قليل، فالذل الدائم والهوان المستمر لهم فى الآخرة.

وتعقيب هذا النص السامى للأوصاف السابقة يشير إلى أن تلك الأوصاف أوصاف الكافرين الجاحدين بنعيم الله، لا أوصاف المؤمنين المقربين بأنعمه، وقد وصف سبحانه أمثال هؤلاء بقوله:

﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ الرئاء مصدر راءى يرائى مراءاة، ورياء، ورئاء، وهو أن يعمل العمل، أو ينفق المال يظهر للناس أنه يقصد الخير، وهو يقصد بذلك الظهور أمام الناس والشهرة بالخير، وهو من صنف مماثل للبخلاء أو هو منهم؛ لأنه ينفق لنفسه لا لغيره، فكأن أولئك المختالين الفخورين صنفان: صنف لاينفق على الناس قط، ولا يعين بأى نوع من العون فى طريق البر، وصنف يعطى فى سبل النفع، ولكن لا يقصد وجه الله تعالى، بل يقصد ما عند الناس، من رجاء مَحْمَدَة، أو تفاخر، أو استعلاء، أو طلب جاه لدى ذى جاه، كأولئك الذين ينفقون النفقات العظيمة، ويتصدقون بالصدقات الكبيرة، تملّقا لذوى الجاه، أو رجاء لما عندهم، وإن هذا النوع يكون إنفاقه إلى بوار عليه، ولا ثواب عليه، ولو كان من أهل الإسلام.

وقد قال عليه الصلاة والسلام فى المرائين الذين ينفقون رياء: «يقول صاحب المال يوم القيامة لربه: ما تركت من شىء تحب أن ينفق فيه إلا أنفقت فى سبيلك، فيقول الله تعالى: كذبت إنما أردت أن يقال جواد، فقد قيل»[(١)]!.

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم: الإمارة - من قاتل للرياء (١٩٠٥)، والترمذى فى الزهد - ما جاء فى الرياء والسمعة (٢٣٨٢)، والنسائى: الجهاد - من قاتل ليقال فلان جرئ (٣١٣٧) وأحمد: باقى مسند المكثرين (٨٠٧٨). عن أبى هريرة رضى الله عنه.

وقد ذكر سبحانه بجوار الإنفاق رياءً عدم الإيمان، فقال فى أوصافهم: ﴿وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ وهذا وصف يعم الذين يراءون، ويشمل الكافرين، وهو حقيقى فى الكافرين الذين لا يذعنون للحق، فيؤمنون بالله واليوم الآخر، ودائم معهم بدوام كفرهم، وبالنسبة للمرائين من أهل القبلة ثابت لهم وقت رئائهم؛ لأن من يتصدق راجيا ما عند العباد من جاه أو ملق أو استعلاء، لا يؤمن بحق الله عليه وقت تبرعه، ولا يؤمن بأن وجه الله هو الذى يقصد، ولا ينظر إلا إلى متاع الدنيا، ولا يؤمن فى عمله هذا باليوم الآخر، ولو كان يؤمن بالله فى عمله هذا لقصد وجهه الكريم، وما يكون من ثواب مضاعف على فعله، وإن هذا كله من عمل الشيطان.

﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ الشيطان هنا كل ما يحرض على الشر من وسوسة نفس، وصاحب مفسد، ومن تسلط على عباد الله تعالى لإغوائهم، وفى النص القرآنى إيجاز بالحذف معجز، إذ المعنى: وقد دفع هؤلاء إلى الرياء فى إنفاقهم وإلى البخل والكتمان قرناء السوء من شياطين الإنس والجن، والقرين هو الصاحب الملازم الذى يخلط نفسك بنفسه، ويقرنها بها حتى تصيرا كأنهما شىء واحد، ومعنى قوله: ﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ من يكن الشيطان صاحبا ملازما له قد اختلط به ومازج نفسه، فما أسوأه من قرين محرض على الشر يدفع إليه بصحبته، وملازمته وإغوائه، والعدوى التى تسرى إليه. وفى النص إشارة إلى أن قرناء السوء يفسدون الأخلاق؛ لأن عدوى الأخلاق تصل بالمجاورة كما تصل عدوى الأمراض.

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ هذا النص توبيخ للذين يؤثرون رضا الناس على رضا الله، فلا يبتغون ما عنده، ويبتغون ما عند الناس، فيراءون ويمنعون الخير لذات الخير. والمعنى: ماذا يكون عليهم من مغبة أو تبعة أو ضرر، لو أنهم آمنوا بالله حق الإيمان وباليوم الآخر الذى يكون فيه الجزاء الحقيقى، ولم يأخذهم زخرف الحياة الدنيا فلا يرعوا سواها؟ إنه لا ضرر

بلا شك فى الاتجاه إلى الله، وإنفاق بعض رزقه الذى أعطاه إياهم؛ إذ لا ينفقون إلا بعض ما أعطى، ومع عدم الضرر هناك نفع عظيم جليل، وهو رضا الله، وثواب يوم القيامة، وصلاح حالهم صلاحا حقيقيا فى الدنيا. وبمقارنة ذلك بما عليه حالهم من رياء أو بخل أو كتمان، يتبين أنهم اختاروا الصفقة الخاسرة؛ لأن فى انفاقهم لأجل الرياء أو بخلهم، إغضابا لله، وتعرضا لعقابه وإفسادا لمجتمعهم، وما ينالون من نفع ضئيل بجوار ما ينالهم من ضرر خطير. ولم يذكر سبحانه وتعالى ما ينالون من نقع فى دنياهم؛ لأنه لا يعد فى حقيقة الأمر نفعا، فضررهم مؤكد، ولا نفع، وإذا اتجهوا إلى الله فالنفع ثابت ولا ضرر.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ هذه إشارة إلى الضرر الذى ينالهم، وهوعقاب الله تعالى لهم، وهو عليم بأحوالهم يعلم سرهم وما يخفى من شئونهم، وإنه سيجازيهم بعملهم، فالعقاب لاحق بهم لا محالة، وقانا الله تعالى شر نفوسنا، وجعلنا لله لا لأحد سواء.

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ
وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ
ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾

في الآيات السابقة بيّن سبحانه وتعالى وجوب إفراد الله تعالى بالعبادة، سواء أكانت هذه العبادة فى التكليفات التى خصصت للعبادة ذاتها، أم كانت من المعاملات بين الناس التى لابد من نية القربة فيها. فالإنفاق لابد أن يخلص لله تعالى، كالصلاة لابد أن تكون خالصة لله. فالنية فى الأقوال والأفعال أساس الجزاء من عقاب وثواب.

وفى هذه الآية الكريمة بين الجزاء الأوفى من خير أو شر، وأن الشر لا يجازى إلا بمثله، وأن الحسنة تكون بأضعافها، ولذا قال سبحانه:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ المثقال ـ معناه المقدار الذى له ثقل يحتمل أن يوزن، والذرّة الغبار الذى لا يرى فى أكثر الأحوال، والمعنى اللفظى أن الله لا ينقص عاملا حقا وزن ذرة، وهى لا تعلى الميزان ولا تخفضه، إلا أن يكون ميزانا دقيقا جدا، وهذا النوع من الموازين لا يوجد فى الدنيا، ولكن يوجد فى الآخرة، فعندئذ تكون الموازين القسط التى لا تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا قوّمتها.

ومعنى النص فى مرماه أن الله سبحانه وتعالى، لا ينقص أحدا من ثواب عمله أى مقدار ولو ضؤل، فهذا الكلام فيه استعارة مؤداها أنه لا ينقص عمل عامل، لقوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨ ﴾ [الزلزلة]. وإن النص عام يشمل المؤمن وغير المؤمن فى ظاهره، ولذا تكلم العلماء فى أعمال الخير التى تقع من الكافر إذا قصد بها وجه الله تعالى مع كفره وضلاله، وقال الأكثرون إن الله لا يغفر الشرك، ويعطى الكافر ثواب الخير فى الدنيا، أما المسلم فيؤتيه ثواب الخير فى الدنيا والآخرة، واستندوا فى ذلك إلى ما رواه مسلم فى صحيحه عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة، يعطى بها فى الدنيا، ويجزى بها فى الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله فى الدنيا، حتى إذا أفضى بها إلى الآخرة لم تكن له حسنة يجزى بها»(١).

---

(١) رواه مسلم: صفة القيامة والجنة والنار (٢٨٠٨) عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

وإن ذلك نظر حسن يفسره ما نراه للكافرين من نعم مادية فى الدنيا تجرى عليهم، فلعلها ثمرة لما عملوا من بعض الخيرات فى التعاون الإنسانى، وثمرة لاتخاذهم أسباب الرزق على وجه كامل.

ويميل الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده إلى أن الكافر إن عمل خيرا يقصد به وجه الله أو سبيل الخير المجردة، لا يضيعه الله تعالى عليه يوم القيامة، ولكن ينقص به من سيئاته، غير الكفر والإشراك فإن هذين لا يكفرهما شيء. ويؤيد نظره هذا بأن الآثار قد وردت بأنه يخفف عن أبى طالب لكفالته النبى ﷺ، وحمايته له(١)، وقد كان فى ذلك حماية للدولة الإسلامية.

وقد روى أيضا أنه يخفف عن أبى لهب لعتقه ثُوَيْبَة حين بشرت بمولد النبى ﷺ(٢)، وأبو لهب هذا هو الذى قال الله تعالى فيه وفى امرأته: ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ** ۝١﴾ إلى قوله ﴿**وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ** ۝٤ **فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ** ۝٥﴾ [المسد]. فحسنات الكفار تكفر السيئات التى دون الشرك والكفر، على هذا النظر، فالكفر لا يغفر، ويذهب من السيئات الأخرى بمقدار الحسنات، ونحن لا نرى فى ذلك خروجا عن حكم الإسلام، وهو معقول فى ذاته يتفق مع عموم النصوص، وإن كنا نميل إلى الأول.

---

(١) قَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا أَغْنَيْتَ عَنْ عَمِّكَ؛ فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ؟ قَالَ: «هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ» [رواه البخاري: المناقب - قصة أبى طالب (٣٨٨٣)، ومسلم: الإيمان- شفاعة النبى ﷺ لأبى طالب (٢٠٩). والضحضاح من النار: موضع لا عمق له يبلغ كعبيه تغلى منه دماغه، كما فسرته الروايات الأخرى فى صحيح البخاري.

(٢) قَالَ عُرْوَةُ: وثُوَيْبَةُ مَوْلاةٌ لأَبِى لَهَبٍ كَانَ أَبُو لَهَبٍ أَعْتَقَهَا فَأَرْضَعَتْ النَّبِيَّ ﷺ، فَلَمَّا مَاتَ أَبُو لَهَبٍ أُرِيَهُ بَعْضُ أَهْلِهِ بِشَرِّ حِيبَةٍ، قَالَ لَهُ: مَاذَا لَقِيتَ؟ قَالَ أَبُو لَهَبٍ: لَمْ أَلْقَ بَعْدَكُمْ غَيْرَ أَنِّي سُقِيتُ فِي هَذِهِ بِعَتَاقَتِي ثُوَيْبَةَ. رواه البخارى: النكاح ﴿وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم﴾ (٥١٥١). وشر حيبة: على أسوأ حالة من الهم والحزن.

﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وإن الله سبحانه وتعالى عفوٌ غفور رحيم بعباده، لا يكتفى بمنع الظلم عمن يحسن، بل إنه يضاعف الأجر لمن يحسن، و«تَكُ» أصلها «تكن» حذفت النون و«كان» هنا ناقصة، والمعنى: وإن تكن الفعلة حسنة تكون مضاعفة، ومعنى يضاعفها أى يكون بدلها أمثالا كثيرة لها. وقد قيل: إن الفرق بين المضاعفة والتضعيف أن المضاعفة تكون بأضعاف كثيرة، والتضعيف يكون بضعفين اثنين، والمؤدى أن الحسنة تكون بأمثال كثيرة لها كقوله تعالى:

﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة] وقوله تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام] فالله سبحانه وتعالى لا ينقص من عمل الخير شيئا بل يضاعفه فى الآخرة، وإن الله سبحانه وتعالى فوق هذا الجزاء المضاعف أضعافا كثيرة يزيد المحسن من عطائه، ولذا قال سبحانه: ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أى أن الله تعالى يعطى عطاءً كثيرا، غير ملاحظ فيه المثلية والمضاعفة، بل إنه سبحانه فوق مضاعفة الحسنة بأمثالها، يعطى عطاءً سمحا غير مقيد بالمضاعفة، بل إنه يكون سماحا، وكرما من الله تعالى. وسمى ذلك العطاء أجرا ، وهو فى الحقيقة ليس فى مقابل عمل ؛ لأن مقابلة العمل كانت بالأمثال السابقة ؛ لأن الأجر قد يطلق على مطلق العطاء، وإن لم يكن له مقابل، وتفضل الله تعالى فى كرمه فسماه أجرا، وإن لم يكن له نظير، فهو أجر غير ممنون.

وقد عظم الله سبحانه وتعالى ذلك العطاء غير الممنون بوصفين.

أحدهما: أنه عظيم فى ذاته ذو جلال وشأن، فهو رضوان الله تعالى، ونعيم مقيم، وجنات فيها ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت،ولا خطر على قلب بشر.

والثانى: أنه عطاء من لدن الله تعالى، فهو قد نال شرفا إضافيا بأنه من الله تعالى.

وكانت عظمة العطاء على ذلك الوجه ليقدم المؤمن على العمل الصالح.

وقد بين الله سبحانه وتعالى أن كل ما يكون يوم القيامة من حساب، أدلته ثابتة من نطق الجوارح بما صنعت، ومن شهادة الأنبياء بالتبليغ والبيان، فالجرائم معها دليل وقوعها، والقانون الذى نظم العقاب وجرّمها قائم بشهادة الذين أعلنوه وبينوه، ولذا قال تعالى:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ الاستفهام هنا للتنبيه، وبيان ما سيكون يوم القيامة من حساب يتبعه عقاب عادل، أو ثواب يتبعه جزاء سابغ وعطاء غير ممنون. والمعنى تنبهوا أيهؤلاء الذين يجحدون الأدلة القائمة، والرسالات الثابتة، وتصوروا حالكم، وأعمالكم تنطق بها ألسنتكم وجوارحكم، ومعكم النبيون يشهدون عليكم بالتبليغ والبيان، وأنه لم يكن لكم حجة فى كفر، ولا معذرة فى جحود. والشهيد هو الشاهد الناطق بالحق، المتحرى المستقصى الذى لا يترك حقا لم يبينه. ومعنى قوله تعالى:

﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ أنه يؤتى لكل أمة من الأمم بشهيد منها هو نبيها الذى بعث فيها ودعاها إلى الحق، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، فكل نبى يشهد على قومه بالتبليغ والبيان. وما من أمة إلا كان لها نذير، فقد قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر]، وقال تعالى: ﴿... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء].

وقد اختلف فى الإشارة فى قوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾، فقال بعض المفسرين: إن الإشارة فى هؤلاء إلى النبيين السابقين، فالنبى ﷺ باعتباره خاتم النبيين، وأن رسالته خالدة إلى يوم القيامة، ولتكريم الله تعالى، يكون شاهدا على كل النبيين السابقين، والشهادة عليهم بمعنى أداء الشهادة بأنهم بلغوا، وكانت التعدية بعلى للإشارة إلى معنى المحافظة على أصول الشرائع السابقة لاشتمال القرآن الكريم عليها، ونشرها خالصة سائغة واضحة بينة للأجيال.

هذا هو القول الأول ـ والقول الثانى أن المشار إليهم فى النص الكريم هم أمة محمد ﷺ، وهى أكثر الأمم عددا؛ لأن محمدا ﷺ أكثر الأنبياء تابعا؛ إذ دينه لم يحرف ولم يبدل، فقد حفظت أصوله فى القرآن الكريم، وهو نور الله تعالى الباقى إلى يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ⁽٩⁾﴾ [**الحجر**] وإن الكثيرين على الأول؛ لأن النبى ﷺ له شهادتان إحداهما شهادته للرسالات السابقة بالصدق والبيان، وقد اطلع على هذه الشهادة المسلمون ببيان القرآن، والثانية شهادته على أمته، وقد جمع الشهادتين قوله تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ⁽١٤٣⁾﴾ [**البقرة**] وإن تلك منزلة عالية للنبى ﷺ والمؤمنين به إيمانا صادقا الذين يذعنون للحق دائما، وكان النبى ﷺ يستعظم أمر هذه الشهادة، فقد روى أحمد فى مسنده، والبخارى فى صحيحه، والترمذى والنسائى فى سننهما، عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «قال رسول الله ﷺ: اقرأ علىَّ»، قلت: يارسول الله، أقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: «نعم أحب أن أسمع من غيرى»، فقرأت سورة النساء، حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾ ، فقال: «أمسك»، وفى رواية: «حسبك الآن»، فإذا عيناه تذرفان(١) . وكأن رسول الله ﷺ لفرط إيمانه بالله تعالى تخوف يوم الحساب والعقاب، واستعظم تلك الشهادة التى وضعت فى عنقه، وهى أعظم أمانة، فسالت عبرات عينيه ﷺ(٢) .

---

(١) متفق عليه، وهذا الفظ فى صحيح البخارى: تفسير القرآن - ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ**﴾ (٥٤٨٢)، فضائل القرآن- قول المقرئ للقارئ: حسبك (٥٠٥٠)، ورواه مسلم: صلاة المسافرين - فضل استماع القرآن (٨٠٠). عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

(٢) وفى البحر المحيط ج٣، ص٦٤٢: وبكاؤه ـ والله أعلم ـ هو إشفاق على أمته ورحمة لهم من هول ذلك اليوم. وقال الآلوسى ج٥، ص٣٣: «فإذا كان هذا الشاهد تفيض عيناه لهول هذه المقالة وعظم تلك الحالة، فماذا لعمرى يصنع المشهود عليه؟! وكأنه بالقيامة وقد أناخت لديه..».

وفى الدر المنثور ج٢، ٥٤٠: وأخرج ابن أبى حاتم والبغوى فى معجمه والطبرانى بسند حسن =

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الأَرْضُ﴾ يومئذ ـ هى ظرف مضاف إلى الظرف، ودخله التنوين على غير ما يقرره قياس النحويين، لبيان عظم ذلك الزمان الثانى وهوله، وأضيف الظرف إلى الظرف لتأكيد وجود ذلك الزمان، فهو يوم مؤكد الوقوع وهو على الكافرين عسير، ولشدته يحب ويتمنى الذين كفروا وعصوُا الرسول محمداً ﷺ أو عصوا أى رسول بعث إليهم ـ وتكون اللام للاستغراق ـ أن يكونوا ترابا كالأرض؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾﴾ [النبأ]، وهذا معنى تسويته بالأرض. ويصح أن يكون المعنى أن يدفنوا ويعودوا إلى القبور، وتسوى بهم الأرض كما كانوا من قبل. ويصح أن يكون المراد ألا يبعثوا وأن يستمروا مقبورين، والأرض مسوّاة عليهم. والباء فى قوله تعالى «بهم» على التخريجات السابقة التى تنتهى إلى معنى واحد، للملاصقة، أى يستمرون ملاصقين للأرض على أنهم جزء منها أو فى داخلها.

وإن هذا التمنى الذى تدل عليه «لو» سببه عصيانهم وكفرهم بالأنبياء، وشهادة النبيين عليهم بالتبليغ وشهادة جوارحهم عليهم بالارتكاب، وقد قال سبحانه من بعد ذلك:

= عن محمد بن فضالة الأنصاري - وكان ممن صحب النبى ﷺ - أن رسول الله ﷺ أتاهم فى نبى ظفر ومعه ابن مسعود، ومعاذ بن جبل، وناس من أصحابه، فأمر قارئا فقرأ فأتى على هذه الآية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيدًا﴾ فبكى حتى اضطرب لحياه وجنباه، وقال: «يا رب هذا شهدت على من أنا بين ظهريه فكيف بمن لم أره؟».

فائدة: فى بكاء النبى ﷺ من زاد المعاد ج١، ص١٣٤: وأمَّا بكاؤه، فكان من جنس ضحكه، لم يكن بشهيقٍ ورفع صوت كما لم يكن ضحكه بقهقهة، ولكن كانت تدمَعُ عيناه حتى تَهْمُلا، ويُسمع لِصدره أزيزٌ. وكان بكاؤه تارة رحمة للميت، وتارة خوفا على أمته وشفقة عليها، وتارة مِن خشية الله، وتارة عند سماع القرآن، وهو بكاء اشتياق ومحبة وإجلال، مصاحبٌ للخوف والخشية.

﴿وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ أى لا يكتمون يوم القيامة حديثا من أحاديث أنفسهم، فكل ما يجول بخاطرهم تنطق به ألسنتهم وجوارحهم، وإذا كذبت الألسنة صدقت الجوارح. وقوله تعالى: ﴿وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ عطف على ﴿يَوَدُّ﴾ فى النص السابق، والمعنى أنهم يودون لو تُسَوَّى بهم الأرض، ولا يكتمون مع ذلك حديثا، أى حال التمنى هذه ربما كانت تسوغ لهم الكذب، ولكنهم مع ذلك لا يتمكنون منه، وإن كذبت الألسنة شهدت سائر الأعضاء. وقيل إن الواو فى قوله تعالى: ﴿وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ للحال، والمعنى على هذا: أنهم يودون لو تسوَّى بهم الأرض، والحال أنهم مع ذلك لا يكتمون حديثا من أحوالهم فى الدنيا. والمؤدى على التخريجين واحد، فلا مناص من ثبوت جرائمهم. وشهادة الأنبياء بالتبليغ. اللهم إنا نضرع إليك أن تجنبنا الزلل، وأن تغفر لنا خطايانا، وأن تغمرنا برحمتك يوم المطلع والحساب والعقاب، كما غمرتنا بها فى الدنيا، فإنك الغفور الرحيم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ
وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي
سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ
أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً
فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْۗ إِنَّ
ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

أمر الله سبحانه وتعالى فيما سبق من قول حكيم بعبادته وحده، وألا يشرك العبد به شيئا، ثم أمر بعد ذلك بحسن المعاملة، بالأقربين، ثم بالناس أجمعين،

وبالأخذ بيد الضعيف، وبإخلاص النية له سبحانه فى القول والعمل، وأن الرياء ينافى الاتجاه إلى الله وحده. وفى هذه الآية الكريمة بين طريق المعاملة الكريمة، وتربية الإخلاص له سبحانه وتعالى، وهى الصلاة، وقد ذكرها بذكر ما يجب من مقدماتها، وهو تطهير الجسم والقلب، فقال سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ يذكر المفسرون فى معنى لا تقربوا الصلاة تأويلين: أحدهما: أن المعنى لا تقوموا بها، أو لا تغشوها واجتنبوها وأنتم سكارى، كما قال سبحانه: ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء]، وكما قال تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾. والثانى: أن معنى قرب الصلاة قرب مواضعها، أى لا تقربوا مواضع الصلاة وأنتم سكارى، وإذا كان النهى عن قرب الموضع قائما، فهو بلا ريب متضمن النهى عن الفعل نفسه، فهذا التأويل يزيد المعنى فيه عن الأول بالنهى عن دخول السكران المسجد حتى يستفيق، وفى ذلك احترام للمسجد وتكريمٌ لبيوت أذن الله تعالى أن يرفع ذكره فيها.

والنهى هنا نهى عن الصلاة فى حال السكر؛ لأن ذلك يتنافى مع الخشوع والقصد وإخلاص النية فى كل جزء من أجزائها لله تعالى. وقد حُدَّ النهى بنهاية معينة، وهى الاستفاقة وفهم ما يقول، ولذا قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ أى حتى تقصدوا قصدا حقيقيا بنية خالصة، عالمين موقفكم من الله تعالى، وعالمين بما يشير إليه لفظ التكبير، ولفظ التسبيح، ومعانى الفاتحة التى هى دعاء القرآن وضراعة المؤمن لربه، ومعانى الآيات التى تتلى فى الصلاة، فهذا هو ما يقال فى الصلاة. فليس العلم الذى هو الغاية التى ينتهى عندها هو مجرد الإدراك والفهم، وذهاب غيبوبة السكْر، بل العلم هو هذا اليقين والإدراك العالى الذى به تقام الصلاة، ويكون حسن إقامتها.

وقد يقال: كيف يخاطب السكران بهذا النهى؟ والجواب عن ذلك أنه خطاب له وهو فى وعيه بحيث يعمل على تجنب السكر فى وقت الصلاة، ولا

قُرْبَ وقـتهـا، فكان النهى يتضمـن الأمر بتجنب الشـرب فى أوقات الصـلاة وما قبلها، بحيث يتحرى ألا يجىء وقت الصلاة إلا وهو مدرك إدراكا تاما. وإنه يؤيد هذا قوله: ﴿وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ﴾ فإن هذا التـعبيـر يفيد النهى عن القـرب من الصلاة وهم بهذه الحال، فهو يفيد النهى عن السكر قبلها، حتى يكون صاحيا وقتها.

وإنه يترتب على هذا مـراعاة أن يكون السكر فى غير أوقـات الصلاة، وأن يتأكد أن وقت الصـلاة لا يدركه إلا وهو يعلم ما يقول، فـلا يسكر الشخص قط فى أثناء النهـار؛ لأنه لا يمكن أن يضـمن الصحـو فى وقت الصلاة، إذا شـرب مسكرا فى أثناء اليوم. ولا يتمكن من الـسكر إلا بعد العشاء، وإنه يجب أن يعلم أن الصحـابة الذين كان يقع منهم الشرب أحيـانا قبل التحـريم الشافى، منهم من كان يتهجد فى الليل، وإذا تردد بين الشرب والتهجد آثر صلاة الليل.

وإن ذلك كله قـبل التحـريم القاطع المنهى لحـال العفـو عن الشـرب، وقد قالوا: إن ذلـك قبيل كـان من التدرج حـتى يألفوا اجـتناب الخمـر، ويستـأنسوا بتحريمها تحريما قاطعا.

﴿وَلا جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ والجنب هو من أتى النساء ولم يغتـسل، وتكون المرأة أيضا جنبا، وهو يستـعمل وصفا، وأصله مـصدر، ولذلك يطلق على المفـرد والجمع والمذكـر والمؤنث بلفظ واحـد، ولفظ جنب هنا المراد به الجمع، وهو عطف على الحال، وهو: ﴿وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ﴾.

والمعنى: النهى عن قـرب الصلاة جـنبا، كـالنهى عن قرب الصـلاة (وهم سكارى). وإذا كـان النهى فى الأول مـؤداه الأمر بتـجنب السكر وقت الصـلاة. فكذلك الأمر هنا مؤداه تجنب ما يكون سببا للجنابة وقت الصلاة.

وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ﴾، قال بعضهم: إنه المسـافر، لأن المسافر يعبر الطريق ولا يتوقف بل يسير. وقد استبعـد الأستاذ الشيخ محمد عبده أن يعبر عن المسافر بـ «عابر سبيل» بل التعبير القرآنى الشائع هو كلمة «على سفر». وقالوا

إن تفسير عابر السبيل بالمسافر هو على منهاج من يفسر ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ﴾ بقربها هى. وأما من قال إن المراد من قرب الصلاة قرب موضعها، المتضمن النهى عنها، فإنه يكون معنى عابر السبيل الذى يمر من المسجد لحاجة، فإن الجنب محرم عليه دخول المسجد إلا أن يكون عابر طريق فيه لحاجة، ولا يمكنه الوصول إلى حاجته إلا إذا مر من المسجد. وقد مر أن النهى عن قرب مكان الصلاة وهو جنب نهى ضمنى عن الصلاة ذاتها، ولذا أشرنا باختياره، ولقد روى أن عائشة رضى الله عنها قالت: «جاء رسول الله ﷺ ووجوه بيوت أصحابه شارعة فى المسجد، فقال: «وجهوا هذه البيوت عن المسجد»(١)، فقبل توجيه البيوت كان بعض الذين بيوتهم تجاور المسجد لا ينفذون إلى الطريق إلا منه، وبعض فقراء الصحابة كانوا يقيمون فى المسجد، ولهذا استثنى عابر السبيل منه لحاجته، لكيلا يكون على المؤمن حرج.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ بيان لغاية المنع بالنسبة للجنب، فكما أن المنع بالنسبة لمن هو فى حال سكر هو أن يعلم ما يقول، فكذلك النهى لمن هو فى حال جنابة نهايته هو الاغتسال. والاغتسال تعميم الجسم كله بالماء، وإن الاغتسال بعد الجنابة طهارة حسية، ونفسية، وتعويض بدنى، وإنعاش للأعصاب بعد أن أنهكت أو أجهدت. وإن الطهارة النفسية بالاغتسال لما فى الاغتسال والاستعداد به للصلاة من تذكر لله تعالى وقت أن استحكمت الشهوة وتحكمت ونفذت، فتخلص نفسه من المادية التى كانت فيها وسيطرت عليها، وإذا تذكر الله طلب الولد والنسل والذرية الطيبة من زوجه الطاهرة. وأما الإنعاش للأعصاب، والتعويض البدنى، فإن هذين الأمرين يؤيدهما الحس والتجربة، ولا ينكرهما الطب.

وإن بعض الناس يكون مريضا يشق عليه استعمال الماء، أو يكون على سفر يشق عليه الحصول على الماء، ولذلك شرع له التيمم، وهو طهارة روحية فقط، إذا عجز عن الطهارة الحسية بالماء، ولذا قال سبحانه :

---

(١) رواه أبو داود (٢٣٢)، والبيهقى فى السنن الكبرى (٤٣٥٦)، وفى صحيح ابن خزيمة (١٣٢٧)، وفى مسند اسحاق بن راهويه (١٧٨٠) عن عائشة رضى الله عنها.

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ هذا النص اشتمل على الأعذار التى تسوغ التيمم، وأول هذه الأعذار المرض، وهو الذى يضر معه استعمال الماء، أو يزيده الماء، أو يبطئ برءه، فإن الله يرخص لهذا المريض أن يتيمم بدل أن يتوضأ، أو يغتسل إذا كان الموجب لاستعمال الماء هو الجنابة. وثانى هذه الأعذار السفر، والسفر عادة يقل فيه الماء، فإذا لم يجده أصلا، أو كان ما معه من ماء يبقيه ليتقى به العطش فى مجاهل الأرض، فإنه يكون له أن يتيمم بدل الوضوء والاغتسال، كل فى موضعه وعند تحقق سببه. والثالث عدم وجود الماء فى الحضر من غير سفر، فإنه يسوغ التيمم.. ومثل حال المرض ما إذا كان الماء باردا بردا شديدا، ولا يوجد معه ما يدفىء به الماء، ليتقى ضرره، فإنه يسوغ التيمم، وقد أقر النبى ﷺ ذلك، فقد كان عمرو بن العاص على سفر فى غزوة، فأصابهم ما أوجب الاغتسال، وكان البرد شديدا، والماء شديد البرد، فتيمم خشية من استعمال الماء الشديد البرودة، وأبلغ ذلك للنبى فأقره[1] وإنه إذا كان المرض يجيز التيمم فتوقعه المؤكد أو الذى يغلب على الظن يبيح التيمم أيضا.

وبيّن سبحانه بالإشارة أسباب الوضوء أو التيمم فقال: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾، والغائط من الغيط، الأصل فى معناه ما انخفض من الأرض، والجمع غيطان وأغواط، ولما كان ما يلفظ من باطن الإنسان عن طريقه

(١) عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: احْتَلَمْتُ فِى لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ فِى غَزْوَةِ ذَاتِ السُّلاسِلِ، فَأَشْفَقْتُ إِنْ اغْتَسَلْتُ أَنْ أَهْلِكَ، فَتَيَمَّمْتُ ثُمَّ صَلَّيْتُ بِأَصْحَابِى الصُّبْحَ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «يَا عَمْرُو! صَلَّيْتَ بِأَصْحَابِكَ وَأَنْتَ جُنُبٌ؟» فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِى مَنَعَنِى مِنْ الاغْتِسَالِ وَقُلْتُ: إِنِّى سَمِعْتُ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا. [رواه أبو داود: الطهارة - إذا خاف الجنب البرد أيتيمم، وأحمد: مسند الشاميين (١٧٣٥٦) وذكره البخارى تعليقا: كتاب التيمم، فقال: بَاب إِذَا خَافَ الْجُنُبُ عَلَى نَفْسِه الْمَرَضَ أَوْ الْمَوْتَ أَوْ خَافَ الْعَطَشَ تَيَمَّمَ، وَيُذْكَرُ أَنَّ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ أَجْنَبَ فِى لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ فَتَيَمَّمَ وَتَلا: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ فَذَكَرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ يُعَنِّفْ.

الطبيعى يكون فى غوط الأرض عند الكثيرين من أهل البادية أطلق عليه ذلك الاسم، من قبيل إطلاق اسم المكان على ما يحل فيه، وهذا مجاز عربى اشتهر حتى صار حقيقة عرفية، والمجاز إذا اشتهر صار كالحقيقة لا يبحث له عن أصل، ولا عن علاقة، فصار يطلق ولو كان ذلك الملفوظ لا يلقى فى غوط الأرض أو منخفضها.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ لامَسْتُمُ﴾، فى قراءة: ﴿أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾[1] كناية عن الدخول بهن، فهو لا يعبر عن هذا المعنى إلا بهذه الكناية الظاهرة، ومثله المس يعبر به عن الدخول، فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴿٤٩﴾﴾ [الأحزاب]، وقال تعالى: ﴿لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ﴿٢٣٦﴾﴾ [البقرة]، ففى هذه العبارات السامية وأمثالها، يكون المس المراد به الدخول. وقد جوز الشافعى الجمع بين الحقيقة والمجاز، فلم يمنع أن يراد باللمس معناه الحقيقى وهو مس بشرة الجسم، ومعناه المجازى أو الكنائى، وهو الدخول بالمرأة، ولذا نقض الوضوء عنده بمطلق لمس امرأة ليست ذات رحم محرم ما دامت قد بلغت البلوغ الطبيعى.

و (أو) فى قوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾ قال بعض العلماء إنها بمعنى الواو، والمعنى على ذلك: وإن كنتم مرضى، أو على سفر، وجاء أحد منكم من الغائط، أو جامعتم النساء، فتيمموا صعيدا طيبا. والأولى أن تكون على معناها، ويكون الكلام على تقدير محذوف دل عليه ما بعده، وتأويل القول هكذا: وإن كنتم مرضى أو على سفر، وأصابتكم جنابة، أو ما ينقض الوضوء، فتيمموا. أو أصابكم ما ينقض الوضوء أو ما يحدث جنابة فلم تجدوا ماء فتيمموا. ويكون فى الكلام تقسيم حسن أوله التيمم لأجل المرض أو السفر وشح الماء،

---

(١) قرأها ﴿لمستم﴾ بغير ألف: حمزة والكسائى وخلف، والمفضل عن عاصم، وقرأ الباقون ﴿لامستم﴾. غاية الاختصار - ج٢، ص٤٦٤. تحقيق د. أشرف محمد فؤاد طلعت. التوعية الإسلامية.

والثانى التيمم فى حال الإقامة إذا لم يوجد الماء، ويكون قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ متصلا بحال السلامة والإقامة، وهو معقول؛ إذ المرض يسوغ التيمم، ولو كان ماء، والمسافر قد يجد الماء ولكن يحتاج إليه للشرب، والإقامة التى لا يكون فيها الماء، ويكون فقده هو المبرر وحده.

﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ التيمم معناه فى اللغة القصد، وأطلق شرعا على القصد إلى التراب لمسح الوجه واليدين به، ولذا قال: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾، أى اقصدوا ترابا على ظاهر الأرض طاهرا. فالصعيد هو سطح الأرض، والتيمم من التراب الثابت فيه، ومعنى الطيب الطاهر، فمادة التيمم تراب طاهر، والتيمم عبادة يتقدم بها إلى الصلاة، والأمر فيها تعبدى، لا يبحث عن علته، ولكن الطاعة فيه تدل على قوة الإيمان، وهو كيفما كان رمز لخلوص القلب وصفاء النفس بالاتجاه إلى الله تعالى. وينقض التيمم ما ينقض الوضوء، كما ينقضه وجود الماء والقدرة على استعماله قبل انتهاء وقت الصلاة أو قبل أدائها به، فإجماع العلماء أن على من وجد الماء أو قدر على استعماله قبل أداء الصلاة - نقض تيممه ووجب عليه الوضوء.

وقد بين سبحانه وتعالى أركان التيمم فقال: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ أى امسحوا وجوهكم وأيديكم بالتراب. وقد اتفقوا على ضرورة مسح الوجه كله كالوضوء، والأكثرون على أن مسح اليدين إلى المرفقين، وهو المنصوص عليه فى القرآن بالنسبة للوضوء، فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ۝٦﴾ [المائدة] والأكثرون بالنسبة للتيمم على أنه من ضربتين: إحداهما للوجه، والأخرى لليدين، ومسح اليدين يكون ظهرا وبطنا، ليعم المسح أجزاءهما.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ ذيل الله سبحانه وتعالى الآية بهذا النص الكريم لبيان أن الله تعالى متصف بالعفو، فلا يختار لعباده إلا السهل اليسير الذى يسهل عليهم أداؤه من غير مشقة مرهقة، ويعفو عن التقصير فى الواجبات الأصلية

للأعذار، ويفتح باب الرخص، ويجب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه، ويجعل كل ما هو شاق مرهق فى مرتبة العفو دائما، وهو الغفار كثير المغفرة لمن يتوب إليه، وقد أكد سبحانه هذين الوصفين بثلاثة أمور: أولا: (إنّ) فهى من أقوى ألفاظ التوكيد، و (كان) فهى تدل على استمرار عفوه ومغفرته سبحانه، وبالجملة الإسمية فلها فضل توكيد فى المعنى الذى اشتملت عليه. اللهم اعف عنا واغفر لنا وارحمنا وأنت أرحم الراحمين.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ
الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾
وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾
مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ
سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ
وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا
لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ
إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾

فى الآيات السابقة بين سبحانه وتعالى وجوب الإخلاص لله سبحانه وتعالى فيما يؤدى العبد من فرائض، وما يقوم به من صدقات، وأشار إلى أن الرياء يمحق فعل الخير، ويقرب العبد من الشرك، بل إن الرياء فى العبادات هو الشرك الخفى، ثم بين سبحانه وتعالى مقام أهل الإيمان ممن سبقوهم، ومقام صاحب الرسالة فى الشهادة على كل من سبقوه، فرسالته هى الحق، وأنه لا يصح لمؤمن أن يستمع لما يكذب به الضالون من أهل الكتاب، وقال سبحانه فى ذلك:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هذا تعبير قرآنى قد تكرر فى كثير من آى القرآن الكريم، وأصل الصيغة للاستفهام، وهو موجه إلى عدم الرؤية، والاستفهام إنكارى لنفى وقوع ما دخل عليه، فإذا قال القائل: أفعلَ فلان كذا. .؟! يستنكر نسبة الفعل إليه، فمعناه نفى الفعل مع توبيخ من نسب إليه ذلك، أو تنبيه السامع إلى النفى؛ لأن معناه حينئذ: ما وقع من فلان هذا الفعل، وما كان يُعقل أن يقع منه. والاستفهام هنا متجه إلى أمر منفى، ويقول العلماء إن نفى النفى إثبات، فيكون معنى النص: قد رأيت ونظرت ببصيرتك وبصرك إلى عمل الذين أوتوا نصيبا من الكتاب، وفى هذا التعبير تنبيه إلى تأكد العلم بحال هؤلاء الذين تراهم من أهل الكتاب، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم أوتوا نصيبا أى مقدارا من الكتاب ولم يؤتوا الكتاب كله؛ لأنهم نسوا حظًا مما ذكروا به، ولأن الأحداث التى توالت عليهم من غارات التتار ومظالم الرومان، قد جعلت أجزاء من كتبهم تتقطع سلسلة سندها، ويذهب عنهم علمها، وهم فوق ذلك لم يعملوا بأحكام ما وصل إليهم، فهم قد وصل إليهم بعض الكتاب، وحرفوا ذلك الذى وصل إليهم، وأوَّلوه على غير معناه، وأهملوا العمل بأكثره، فهم لم يؤتوا علما وتفسيرا وعملا إلا أقله!.

وموضع التنبيه والغرابة ليس هو وصفهم، وإن كان فى ذاته أمرا أعجبا، إنما موضعه أنهم يبتغون الضلالة ويطلبونها ولو دفعوا فيها أغلى الأثمان، وهو الهُدى، ولا يطلبونها لأنفسهم، بل يريدون أن يكون غيرهم مثلهم فى ضلالهم، ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ أى تبعدوا عن الطريق المستقيم الذى هو صراط الله تعالى الذى قال فيه تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام].

وهنا يرد بحثان لغويان: أحدهما أنه ذكر هنا المطلوب وهو الضلالة، ولم يذكر المتروك كما فى بعض الآيات الكريمة: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [البقرة] والجواب عن ذلك أن ذكر المطلوب وهو الضلالة من غير ذكر

المتروك وهو الهدى، أو ذكر المبيع من غير ذكر الثمن، فيه ما يدل على أنهم يطلبون الضلالة فى ذاتها، فالبعد عن الحق مطلب لهم وغاية، لأنهم مَرَدُوا على الباطل لا يستمرئون غيره ولا يبتغون سواه!! ويدل على هذا أن هناك قراءة بالياء[1] فى (أن تضلوا) وتكون الآية على هذه القراءة: (ويريدون أن يضلوا) أى أنهم يبتغون الباطل ويريدونه ولا يقعون فيه عن جهل وعماية، بل عن قصد وإرادة، وذلك شر ما تبتلى به النفس.

البحث اللغوى الثانى: أن «ال» فى السبيل للعهد، لا للاستغراق، والسبيل الحق معروف بيِّن لا عوج فيه، وهو وحده الموصل إلى الحق؛ لأنه الطريق المستقيم، ولأنه صراط العزيز الحميد.

وإن هؤلاء هم أعداء أهل الإيمان حقا وصدقا؛ لأنهم يبتغون الضلالة لأنفسهم، ويبتغون الضلالة لغيرهم من المؤمنين، ولقد قال سبحانه مقررا عداوتهم:

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ فى هذا النص السادس تحذير للمؤمنين من هؤلاء الذين أُوتوا حظًّا من الكتاب، وهم يطلبون الضلالة ويبتغونها لأنفسهم وللمؤمنين، لأنهم يحسدونهم، ولأنهم يريدون لهم الخذلان والضلال وأن يكونوا قوما بورا، ! وقد أشار بالنص الكريم إلى أنهم أعداء المؤمنين، وإن كانوا يخفون ما لا يبدون، ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ أى أن الله جلّت قدرته أعلم منكم بأعدائكم، لأنكم تعلمون ما يبدو من أفعالهم وما يظهر على ألسنتهم، والله سبحانه وتعالى يعلم ما تخفى الصدور، وقد قال تعالى فى آية أخرى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ

---

(١) ليست فى العشر المتواترة.

مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [آل عمران].

ومع أن هؤلاء أعداؤكم فلا تخافوهم ولكن احذروهم، ولا تتخذوا منهم أولياء توالونهم، بأن تتخذوا ولايتهم ولاية لكم بأن تنضووا تحتها، ولا تستنصروا بهم لأنهم يريدون لكم الخذلان لا النصر، ومن اعتز بغير الله ذل، ومن استنصر بعدوه خذل، وقال سبحانه: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ ويكفى المؤمن فى الاعتزاز أن يكون الله وليّه، لا ينضوى إلا تحت لواء أهل دينه، ولا يدخل فى ولاية غير ولايتهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴿٥٥﴾ ﴾ [المائدة]. وكما أنه يكفى المؤمن أن يكون الله وليّه، فإنه يكفيه أيضا أن يكون الله تعالى ناصره: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [آل عمران].

وهنا بحثان لغويان: **أولهما**: أن النحويين يقررون أن الباء فى قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ﴾ زائدة فى الإعراب، ولكن ليست زائدة فى المعنى؛ إذ هى تشير إلى تضمن الاكتفاء بولاية الله وعونه ونصرته، وكان المعنى: اكتفوا بولاية الله ونصرته، وكفاكم الله الولاية والنصرة والمعونة.

والبحث الثانى: تكرار كلمة ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ﴾ وذلك لإلقاء الاطمئنان فى قلوب المؤمنين، فإن التكرار فيه توكيد، وفيه الإشعار بعظمة الله جل جلاله الذى يتولى ولايتهم ونصرتهم.

﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ هذه طائفة من أعمال اليهود فى استماعهم لدعوة النبى إلى الحق، وإلى صراط الله المستقيم، وقد ذكر سبحانه أن منهم فريقا يحرفون الكلم عن مواضعه، فقوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ﴾ فيه مبتدأ محذوف يقدر بفريق، والتحريف معناه الإمالة وجعل الكلام محتملا غير معناه.

جاء فى مفردات الراغب الأصفهانى: تحريف الكلام أن جعله على حرف من الاحتمال يمكن حمله على الوجهين. قال عز وجل: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ ومن بعد مواضعه: ﴿... وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة].

وهذا الفريق ليس تحريفه هو التحريف العام الذى وقع من اليهود فى تأويل كتبهم وإهمال كثير منها، وإخفائهم التبشير بالنبى ﷺ، إنما تحريفهم هو حمل كلام النبى ﷺ على غير وجهه، وجعله يحتمل ما لا يراد به،كما سنبين، هذا الفريق هو الذى قال الله تعالى فيه: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة].

فهذا الفريق لا يكتفى بما فعله أسلافه وما يتحمل وزره الذين يعلمون الكتاب المنزل من قبل ويكتمونه، بل إنه يجعل كلام النبى ﷺ منحرفا فى أذهانهم الملتوية عن حقيقة معناه، ويتهكمون عليه، ويحمّلونه بأغراضهم الفاسدة ما لا يحتمل من المعانى، ولا يكتفون بذلك التحريف، بل يجمعون معه النطق بالعصيان عند السماع، وقد قال الله سبحانه عن تلقيهم لأحكام الشرع التى يبينها النبى ﷺ:

﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ وإن حال هؤلاء الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، كما حرف أسلافهم كتبهم، إنهم إذا سمعوا ما أنزل على الرسول لا يستمعون ليتبعوا الحق إن ظهرت بيناته، بل يستمعون على نية الرد، والاستمرار فى العناد، وسد كل أبواب الهداية لكيلا تصل إلى قلوبهم، فإذا سمعوا الرسول يدعو إلى الحق، وإلى صراط مستقيم، جمجموا فى أنفسهم[1] أو غمزوا به فيما بينهم قائلين: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أى سمعنا قولك ووعيناه، وعصينا ما تدعونا إليه، وإن كان الحق الذى لا مِرْيةَ فيه، ولا توجد نفس أوغلت فى

(١) والجَمْجَمَةُ: أن لا يُبَيِّنَ كلامَه من غير عِيَ، وفى التهذيب: ألا تُبين كلامك من عِيَ.

العناد بأكثر من ذلك!! وإنهم يردفون ذلك القول العاصى الذى يرددونه فيما بينهم بكلام من جنسه فيقولون: ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾، وقولهم ﴿وَاسْمَعْ﴾ المراد به اسمع صدى دعوتك لنا وردنا عليها، وقد ذكر الزمخشرى أن كلمة ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ تحتمل ثلاثة وجوه: **أولها**: أن يكون المعنى الدعاء على النبى الكريم بأن يصاب بالصمم فلا يسمع، أو لا يسمع خيرا قط. **والوجه الثانى**: أن يكون المعنى غير مُسْمَعٍ كلامُك فلا يجاب ولا يقبل. **والوجه الثالث**: ما ذكره بقوله رضى الله عنه: «ويجوز أن يكون غير مسمع مفعول اسمع أى اسمع كلاما غير مسمع إياك؛ لأن أذنيك لا تعيه نبوا عنه»، وإنّا نختار ما عليه أكثر المفسرين، وهو أن يكون مرادهم لعنهم الله الدعوة عليه، عليه الصلاة والسلام بعدم السماع، وذلك هو الذى يتفق مع ما عرف عنهم من حقد وحسد للناس على ما آتاهم الله من فضل، وما أُودعت نفوسهم من بغض للناس وكره لهم، لحسبانهم أنهم المستحقون للتكريم والرفعة وحدهم بزعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، زادهم الله خزيًا فى الدنيا، وعذابا فى الآخرة، وزاد الله محمدا ﷺ وشريعته رفعة وتكريما وإعزازا. وإن هؤلاء لعنهم الله يلوون ألسنتهم طعنا فى الدين، ولذلك حكى الله عنهم ذلك فقال:

﴿وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ بدل أن يعبروا فى خطابهم بقولهم: «انظرنا» نظرة رعاية ومحبة طالبين منه الإقبال عليهم، وإن كان ذلك موجودا، يقولون ﴿وَرَاعِنَا﴾ يفتلون بها ألسنتهم ويحولونها عن المعنى الظاهر لها إلى معنى غير قويم ولا مستقيم، وهو رمى النبى ﷺ بالرعونة والسفه، ويطعنون بذلك فى الدين الذى يدعو إليه، والحق الذى ينفذه. وقد جاء فى مفردات الراغب فى تفسير قولهم: ﴿وَرَاعِنَا﴾: «قال الله تعالى: ﴿... لا تَقُولُوا رَاعِنَا ... (١٠٤)﴾ [البقرة]، ﴿وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ كان ذلك قولا للنبى ﷺ على سبيل التهكم يقصدون رميه بالرعونة، ويوهمون أنهم يقولون: (راعنا) أى (احفظنا) فهم ينطقون بالكلمة على أن النون من بنية الكلمة، وليس ضمير المتكلمين، وذلك لَىُّ اللسان وفتله، والطعن فى الدين.

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ ﴾ هذا بيان لما كان ينبغى، والمعنى: لو ثبت لهم أنهم قالوا سمعنا الحق واتبعناه، وكلام الرسول وأطعناه، ولو قالوا للرسول اسمع إجابتنا دعوة الحق، وانظر إلينا نظرة إقبال وعطف ورعاية من غير أن يلووا ألسنتهم، ويحرِّفوا القول عن موضعه، وما يدل عليه بظاهره، لكان ذلك خيرا لهم؛ إذ يفتح باب الهداية فى قلوبهم ولا يطمس عليها، ولا يكون ذلك الخزى والذل فى الدنيا، أدامه الله تعالى عليهم وبدلهم من أمنهم خوفا، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً، ولكان ذلك خيرا لهم ﴿ وَأَقْوَمَ ﴾ أى كان هذا هو الأمر القويم الذى يجب أن يسلكه العقلاء طلاب الهداية. وأفعل التفضيل ليس على بابه، ومعناه أن يكونوا بلغوا من الاستقامة أقصاه، ولكنهم ضلوا ضلالا بعيدا، ولذلك قال سبحانه:

﴿ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ استدراك مما كان ينبغى لهم، أى أنهم لم يفعلوا ما ينبغى؛ لأن الله تعالى لعنهم بأن طردهم من رحمته، فبعدوا عن الهداية بسبب إصرارهم على الكفر، وهم بذلك دخلوا فى الكفر بإرادتهم، وأوغلوا فيه حتى صار الكفر بالنبوات ديدنهم، فغلقت أبواب الحق عليهم وطمس الله على بصائرهم، فلم تر الحق ولم تذعن له، فلا يؤمنون، أى ليس الإيمان من شأنهم بعد أن كان منهم ما كان، ولكن الله تعالى بعدله وحكمته لا ينفى الإيمان عنهم نفيا مطلقا، بل يقرر أن منهم من يؤمن، ولكنه عدد قليل، ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أى إلا عددا قليلا لا يدخل فى عموم اللعنة التى كتبها الله تعالى عليهم فى جملتهم، وهذا كقوله فى آية: ﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [المائدة] ـ هدانا الله تعالى إلى الحق.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾

يقرن الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم طلب التوبة والإيمان بحال المذنبين ولو كانوا قد أسرفوا على أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر]، فباب الإيمان والتوبة مفتوح للعصاة والكافرين، وإن يَنتهوا يُغفر لهم ما قد سلف. وإن أولئك اليهود الذين كانوا فى عصر النبى ﷺ، ولا يزالون على عهدهم، قد أسرفوا فى عصيانهم، ولجوا حتى لقد كان قائلهم يقول إذا سمع دعوة الحق: ﴿... سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ... ﴿٤٦﴾﴾ [النساء] ويلوون ألسنتهم استهزاءً عند سماع الهدى النبوى!! ولا لجاجة فى الكفر أكثر من الاستهزاء بالداعى إلى الإيمان! ومع هذه الحال فيهم وجه الله سبحانه وتعالى الدعوة إلى الإيمان منذرا لمن لا يجيب، ومرغبا من يجد باب الهداية مفتوحا فى قلبه، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ النداء لأهل الكتاب كما ترى، والتعبير بالموصول للإشارة إلى أن إعطاء علم الكتاب لهم كان يوجب أن يؤمنوا، لا أن يعرضوا ويعاندوا ويلجوا فى العناد. وفى النص الكريم تحريض على الإيمان بثلاثة أمور:

أولها: أنهم أوتوا علم الكتاب وعلم النبوات، وأنهم يعلمون الوحى الإلهى، والكتاب الذى نزل على نبيهم، والأنبياء قبله، وإن ذلك كله يوجب المسارعة إلى تلبية داعى الحق إذا دعوا، وألا تأخذهم العصبية الدينية، كما تأخذ أهل الشرك العصبية الجاهلية.

وثانيها: أن هذا الإيمان هو التصديق بما نزل الله تعالى على نبيه، والله هو الذى أنزل على نبيكم أو أنبيائكم شرائعه، وهو الذى نزل الشريعة التى تدعوكم إلى الإيمان، ووحدة المنزل توجب الإيمان بكل ما أنزل، وإلا كنتم تؤمنون ببعض وتكفرون ببعض.

وثالثها: أن هذا الذى يدعوكم رب العالمين إلى الإيمان به، هو يصدق ما معكم من الحق؛ لأن البشارة برسوله عندكم، وقد كنتم تستفتحون به على الذين كفروا، ولأن الفضائل الدينية والاجتماعية قد اتفقت فيما يدعو إليه النبى مع ما دعا إليه أنبياؤكم من قبل، فالوحدة الدينية قائمة بوحدة المُنزل، وبوحدة الحق الذى يدعوكم إليه رب العالمين.

وقد يقول قائل: فى الآيات السابقة، ذكر سبحانه فى غير هذا المقام أنهم أُوتوا نصيبا من الكتاب، وأنهم نسوا حظا مما ذكروا به، وفى هذه الآية يناديهم بأنهم «أوتوا الكتاب»؟ ونقول فى الإجابة عن ذلك: إن نسيانهم حظا مما ذكروا به، وتركهم نصيبا منه، لا يمنع الحكم بأنهم أوتوا الكتاب؛ لأنه نزل على أنبيائهم السابقين كاملا غير منقوص، فهم أعطوه ثم نقصوه، والخطاب لهم على أساس ما أوتوه، لا ما حرفوه، ولعله كان من أحبارهم من يعلم علم الكتاب كله، بل إن ذلك يشير إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾** [البقرة].

وقد يكون معنى الكتاب هنا جنسه، وهو يشمل ما بقى عندهم معلنا معرفا، وإن كان ناقصا محرفا.

﴿من قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾ هذا إنذار بسوء العاقبة فى الدنيا والآخرة إن لم يؤمنوا، وقد جاء فى مفردات الأصفهانى فى معنى الطمس ما نصه: (الطمس إزالة الأثر بالمحو، قال تعالى: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨﴾ [المرسلات]، ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ ... ۝٨٨﴾ [يونس] أى أزل صورتها، ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ ... ۝٦٦﴾ [يس] أى أزلنا ضوءها وصورتها كما يطمس الأثر. وقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾، منهم من قال عنى ذلك فى الدنيا، وهو أن يصير على وجوههم الشعر، فتصير صورهم كصور القردة والكلاب، ومنهم من قال ذلك هو فى الآخرة إشارة إلى ما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۝١٠﴾ [الانشقاق]، وهو أن تصير عيونهم فى قفاهم. وقيل معناه يردهم عن الهداية إلى الضلال، كقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ۝٢٣﴾ [الجاثية: ٢٣]. وقيل عنى بالوجوه الأعيان والرؤساء، ومعناه نجعل رؤساءهم أذنابا وذلك أعظم البوار).

هذا هو التفسير اللغوى لمعنى الطمس، وقد حاول الأصفهانى تخريج الآية التى نتكلم فى معناها على ما ارتأى من وجوه، فصرنا حيارى فى أيها نختار، لو اقتصرنا على ما قال، وقبل أن نبين ما نراه معنى للنص الكريم نبين معنى الأدبار وردها: الأدبار جمع مفرده «دُبُر»، هو الخلف، أو ما اشتملت عليه أجزاء الجسم الخلفية، والارتداد على الأدبار يكون فى القتال يوم الزحف يجعل الوجوه فى موضع الأدبار فرارا أو جبنا، بمعنى أنه كان يجب أن يستقبل المقاتلين بوجهه فينقلب إلى جهة دبره. وقد يكون الارتداد على الأدبار معنويا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٥﴾ [محمد].

وإن الذى يبدو لنا من ظاهر النص أنه يراد به سحقهم فى القتال، وحملهم على أن يولوا الأدبار، فتكون وجوههم غير بادية بصورها، بعد أن كانوا مقبلين بها، فأزالها السيف والخوف، وجعل صورتها مختفية، وأقفيتهم هى البادية الواضحة، فكأن صورة الوجوه قد زالت وحلت محلها صورة الأدبار.

وعلى ذلك يكون المعنى أنكم استرسلتم فى غيكم وضلالكم، ومع ذلك نطالبكم بالهداية والإيمان قبل أن ينزل الله سبحانه وتعالى غضبه عليكم فى الدنيا إذ تماديتم، وذلك بتسليط المؤمنين بالحق عليكم، فيذيقونكم بأس القتال فتفرون، وتختفى وجوهكم، وترد إلى مواضع الأدبار، فلا ترى إلا أدباركم. وإذا لم يكتب الله سحقكم وحملكم على تولى الأدبار، فإنكم ستلعنون كما لعن أصحاب السبت، وتطردون من رحمته، ويكتب عليكم الذل إلى يوم القيامة.

﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ اللعن الطرد من الرحمة وإنزال العذاب، وقد كان فى شريعة بنى إسرائيل ألا يعملوا فى يوم السبت ليستريحوا وينصرفوا للعبادة، والتعاون الاجتماعى، ولكن رغبتهم فى المال وشرههم إليه كان يحمل بعضهم على العمل، فإنه كانت قرية كبيرة تطل على البحر، قد اختبرها الله تعالى، فكانت فى يوم السبت تأتيهم الحيتان ظاهرة فى هذا اليوم الذى ينقطعون فيه عن العمل، ولا تأتيهم فى اليوم الذى يعملون فيه، ليحملهم الله تعالى على الطاعة للأوامر الإلهية، وليدركوا سر الله فى خلق الكون، وأنه فعال لما يريد، وهذا قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأعراف]: وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [البقرة] فالله سبحانه عاقب الذين اعتدوا فى السبت بأن سلط عليهم نزوات أهوائهم وشهواتهم، وبها ضربت عليهم الذلة، ولعنهم الله تعالى، فكذلك هؤلاء الذين عاندوا وكفروا. وذلك أمر قدره الله عليهم فهم ملعونون فى كل الأجيال

والأزمان، ولذا قال سبحانه: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ أى قد ثبت وتقرر أن أمر الله تعالى فيما يخبر به، مقدر واقع لا محالة، فلا مناص منه، فهؤلاء الذين عاندوا النبى ﷺ لهم أحد العذابين: إما سحقُهم بالقتال الذى يولون فيه الأدبار، وإما ضرب الذلة عليهم ولعنهم من الناس أجمعين. وإن ذلك محقق بعون الله، وقد قال الزمخشرى فى هذا المقام: قد حصل اللعن، فهم ملعونون بكل لسان! والظاهر اللعن المتعارف دون المسخ، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة].

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ اشتملت الآية السابقة على دعوة أهل الكتاب، وأنه إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف، وعلى إنذار شديد فى الدنيا بإجلائهم وقتلهم، أو لعنهم من الناس أجمعين، وفى هذا النص الكريم فتح لباب المغفرة التى كتبها الله على نفسه لعباده؛ لأنه كتب على نفسه الرحمة، ومعنى النص: إن الله تعالى ليس من شأنه أن يغفر لمن يشرك به فى العبادة أو فى الربوبية؛ لأن الشرك انحراف شديد لا يقبل الغفران، إلا أن يعود إلى التوحيد المطلق بعد الإشراك. والإشراك نوعان: إشراك فى الإنشاء والتكوين أو العبادة؛ كأولئك الذين يعتقدون أن الكواكب لها دخل فى الإنشاء، وكأولئك الذين يعبدون غير الله، وإن كانوا يعتقدون أن الله تعالى وحده هو الذى خلق وأنشأ وكوَّن، ويعبدون الأوثان لأنها فى زعمهم تقربهم إلى الله زلفى. والنوع الثانى من الإشراك أن يتركوا كتب الله تعالى، ويعرضوا عنها، ويتخذوا دينهم من الأحبار، ولو غيروا فيه وبدلوا، زاعمين أنهم لا يتكلمون إلا عن الله تعالى، وإن كان الكتاب يخالف قولهم، ومن هؤلاء من أشار الله تعالى إليهم بقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة].

فهذا نوع من الإشراك لا يقل خطرا عن الشرك فى العبادة؛ لأن الله وحده هو الذى أنشأ الكون، وهو وحده الذى يشرع لعباده، وبين لهم أوامره ونواهيه، وليس لأحد أن يتكلم عنه إلا أن يكون رسولا منه إلى العالمين، فمن اتخذ غير الرسول طريقا لمعرفة شرع الله من غير كتاب الرسول وكلامه فقد أشرك بالله.

وقد ذكر سبحانه أنه لا يغفر ذلك، وأكد عدم الغفران لهذه الحال بـ (إنَّ) التى تفيد التوكيد، فلا يرجو مشرك غفرانا، أيا كان نوع الشرك، إلا أن يقلع عنه، فإن الله تعالى غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا.

وقد ذكر سبحانه أنه يغفر ما دون الشرك لمن يشاء، وما دون الشرك يكون من مرتكب الكبيرة أو الصغيرة من أمة محمد ﷺ، ومن آمن بالأنبياء السابقين قبل أن تنسخ شريعتهم بالشريعة المحمدية، فإن هؤلاء قد وعد سبحانه وتعالى فضلا منه ومنة على عباده أن يغفر لهم ما يشاء لمن يشاء من عباده. ذلك أن من يرتكب الكبيرة إن تاب عنها غفرها الله تعالى، وإن لم يتب ولم تحط الخطايا بنفسه، وله حسنات، فإن الحسنات يذهبن السيئات. وفى ميزان الله تعالى العادل يوم القيامة توزن الحسنات والسيئات، فمن ثقلت كفة حسناته فأولئك هم المفلحون.

ومشيئة الله تعالى هى مشيئة الحكيم الخبير، الذى يضع كل أمر فى موضعه، ولا يظلم ربك أحدًا.

﴿**وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا**﴾ الافتراء هنا معناه الكذب الشديد الذى يؤدى إلى الفساد. جاء فى مفردات الراغب: الفرى قطع الجلد للخرز والإصلاح، والإفراء للإفساد، والافتراء فيهما، وفى الإفساد أكثر، وكذلك استعمل فى القرآن فى الكذب والشرك والظلم نحو: ﴿**وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا**﴾ فمعنى ﴿**فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا**﴾ فقد كذب كذبا فيه ظلم وفيه إفساد وضلال، وكان ذلك كله إثما عظيما.

فالشرك يتضمن الكذب على الله تعالى بادعاء شريك له تعالى، ويتضمن ظلما؛ لأنه اعتداء على المستحق للعبادة وحده، وهو فساد فى النفوس. و(افترى) هنا تضمن قولا كذبا، وفعلا ظالما، وتضمن أعظم ذنب فى الوجود؛ لأنه اعتداء على رب العالمين. وقد يقول قائل إن الافتراء أكثر ما يكون باللسان، فكيف يقال «فقد افترى إثما عظيما»؟ والجواب عن ذلك أن الافتراء بالنسبة للشرك لما تضمنه من أفعال، اعتبر فى ذاته ارتكابا لأعظم ذنب فى الوجود. اللهم جنبنا الشرك ما ظهر منه وما خفى، واجعلنا من عبادك المخلصين.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ
وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۖ
وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا
مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾
أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾

كانت الآيات السابقة تدعو أهل الكتاب إلى الإيمان، وتذكرهم بعاقبة الكفر، وهى الذل فى الدنيا والخزى فى الآخرة، واللعن من الرحمن، والهوان. وبين سبحانه وتعالى لهم ولغيرهم أن باب التوبة والمغفرة مفتوح لكل من يذعن لرسالة الله تعالى، ولا يكفر بها، وذلك لكيلا يسرفوا على أنفسهم، ويوغلوا فى معاصيهم. وفى هذه الآيات يبين سببا من أسباب ضلال اليهود ومن على شاكلتهم، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾، هذا تعبير قرآنى فيه استفهام دخل على النفى، وهو استفهام إنكارى يتضمن معنى النفى، فهو نفى داخل نفى. ومؤدى الكلام: قد نظرت إلى الذين يزكون أنفسهم متعجبا من حالهم مستغربا أمرهم. ورأى هنا معناه نظر، ولذلك تعدت بـ «إلى». وتزكية النفس تطلق بمعنى تطهيرها وإبعادها عن دنس المعصية، وقد تطلق على الفعل المحمود. والمراد هنا أنهم يصفون أنفسهم بالأفعال الحسنة، وليسوا بمستحقيها، وقد يدعون أنهم يطهرون أنفسهم، ويبعدونها عن الدنس فى نظرهم، وليسوا كذلك. وأصل التزكية كما ترى من زكاء النفس جاء فى مفردات الراغب: (زكاء النفس طهارتها، يصير الإنسان بحيث يستحق فى الدنيا الأوصاف المحمودة، وفى الآخرة الأجر والمثوبة، وهو بأن يتحرى الإنسان ما فيه تطهيره، وذلك ينسب تارة إلى العبد لكونه مكتسبا لذلك، نحو ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩﴾ [الشمس] وتارة ينسب إليه تعالى لكونه فاعلا لذلك فى الحقيقة نحو ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾.

وتزكية اليهود والنصارى لأنفسهم تحتمل أمرين: **أولهما**: أنهم يصفون أنفسهم بالطهارة والتقوى، وتحرى ما يربى التقوى فى النفس، ويستطيلون على الناس بذلك. **والأمر الثانى**: أن يدَّعوا أنهم بأعمالهم واتخاذهم ما هم عليه مذهبا يطهر النفس، أى يدعون أنهم يسلكون سبيل الهداية وتطهير النفس. والأمر الأول هو الذى عليه جمهور المفسرين، وهو أوضح ويتفق مع المأثور من أسباب النزول، فقد تضافرت المرويات عن التابعين على أنهم كانوا يدعون أنهم المغفور لهم دائما. وقال الضحاك والسُّدِّى إنهم كانوا يقولون: (لا ذنوب لنا، وما فعلناه نهارا غفر لنا ليلا. وما فعلناه ليلا غفر لنا نهارا، ونحن كالأطفال). وقد رد الله تعالى ذلك بقوله: ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾.

على تفسير تزكيتهم أنفسهم بمعنى أنهم يدعون أنهم بأفعالهم يطهرونها، يكون المعنى أن الله تعالى رد عليهم ادعاءهم أن ما هم عليه تطهير لأنفسهم. فبين أن الله تعالى هو الذى يطهر النفوس ويزكيها؛ لأنه هو الذى يبين طريق الهداية،

وقد بين، فما أنتم عليه ضلال فى ضلال. وعلى الاحتمال الراجح، وهو أنهم يصفون أنفسهم بالأوصاف الحميدة، وأنهم أهل المغفرة، ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ... ﴿١١١﴾﴾ [البقرة]، وقولهم: ﴿... نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ... ﴿١٨﴾﴾ [المائدة] على هذا الاحتمال يكون المعنى أن الله تعالى هو وحده الذى يصف أفعال عباده بالخير أو الشر؛ لأنه وحده الذى رسم طريق الخير وطريق الشر. وإن تزكيته سبحانه تقتضى رحمته وغفرانه، وأن يجزى الجزاء الأوفى. فليصفوا أنفسهم بما شاءوا، وليمنوا أنفسهم الأمانى بأنهم لا ذنوب لهم، أو أنها تمحى فور ارتكابها، فكل ذلك من مزاعمهم، والله وحده هو الذى يصف الأفعال المحمودة والأفعال المذمومة، ويعطى عليها الثواب أو العقاب، ولذلك قال سبحانه من بعد ذلك ﴿وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾، أى لا ينقصون أى قدر مهما ضؤل ولو كان بقدر الفتيل، وهو الخيط الذى يكون فى شق نواة التمر، وقيل القشرة التى تكون حول النواة ويطلق على ما يفتل من خيوط دقيقة، والمعنى: لا ينقصون أى قدر من أعمالهم، ولو كان كأصغر الأشياء التى لا يلتفت إليها، ولا يتجه النظر نحوها، ولكن الله تعالى عليم بكل شىء وكل شىء فى كتاب ﴿... لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ... ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف] ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة].

﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ انظر أيها الرسول أنت ومن معك كيف تطوع لهم نفوسهم أن يدعوا أنهم بأعمالهم القبيحة، وتكذيبهم للرسل، يزكون أنفسهم ويطهرونها، وأنهم بذلك ممدوحون أمام الله تعالى، وأنهم محبوبون منه، وأنه يغفر لهم كل ما يفعلون! انظر إلى هذه الحال وتعجب! وإنهم بهذا يكذبون على الله تعالى قاطعين فى هذا الكذب فيحسبون أنهم مقبولون عند الله محبوبون، وهم يعاندون رسوله، ويبالغون ويكيدون له، فهم يفترون الكذب على الله ورسوله والمؤمنين.

﴿وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ أى كفاهم هذا العمل أن يكون إثما بينا واضحا. والإثم والآثام الأفعال المبطئة عن الخيرات التى يثاب عليها، وهؤلاء قد ارتكبوا بتزكيتهم أنفسهم بغير الحق الأمر البين الذى يبطئهم عن فعل الخيرات ويوقعهم فى السوء؛ ذلك أن هؤلاء ضلوا وحسبوا ضلالهم هو الخير، ومن كان شأنه كذلك فإنه لا يتجه إلى الخير؛ لأن الذين يرتكبون الشر ثلاث مراتب: أدناها أنه يقع فيه عن جهل وسفه وحمق، وهذا قريب التوبة والرجوع إلى الحق، وهو من الذين قال الله تعالى فيهم ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ... (١٧)﴾ [النساء]. والثانية: أن يرتكب السيئات ويوغل فيها، ولكنه يعلم أنها سيئات لا يمدح فاعلها، بل يذم، وأنها لا تستحق التزكية، بل تستحق اللوم، وهذا ترجى توبته وعودته إلى الله. والثالثة: أن يزين له سوء أعماله، فيفعل الشر، ويفخر به، وهذا يكون فى مرتبة تبطئه أو تبعده إبعادا كليا عن الاتجاه إلى الحق وطلبه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ قد رأيت أيها النبى الأمين متعجبا مستغربا حال الذين أوتوا حظا من الكتاب، وعلموا بعض علم الرسالات الإلهية، يؤمنون بأردأ العقائد والأخلاق، وبالطغيان والظلم والاندفاع نحو الشر. فالجبت هنا هو الردىء من الأفكار، أصله الجبس قلبت السين تاء، وهو الردىء من الأشياء، فهؤلاء يؤمنون بأردأ الأوهام، ويؤمنون مع ذلك بالطغيان والسيطرة الظالمة، ولذلك يخنعون لكل ذى سلطان، ويضعون ظهورهم لكل راكب، ويطغون على كل عادل لا يُذل ولا يؤذى!! وعبر هنا بأنهم أوتوا نصيبا من الكتاب، وفى مقام آخر خاطبهم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم ... (٤٧)﴾ [النساء]، وذلك لأنهم أنزلت عليهم كتب الرسالة الأولى لنبيهم، فبمقتضاها يدعوهم إلى الإيمان، ولذا عبر بالكتاب كله لا ببعضه، فهم فى هذا المقام يخاطبون بمقتضى الكتاب الذى نزل على رسولهم. أما هنا فيذكر حقيقة أمرهم، وهو أنهم نسوا حظا مما ذكروا به.

ومن جهة أخرى فإن نيلهم أقل قدر من علم الكتاب يتنافى مع إيمانهم بأتفه الأوهام، وإيمانهم بالظلم والطغيان، واعتبارهما سبيلا للعيش فى الحياة، فهم ظالمون يرضون بالظلم يقع عليهم، ويتنافى علم الكتاب مع ممالأتهم لعبدة الأوثان على أهل التوحيد، فيقولون فى المشركين هؤلاء أهدى طريقا من المؤمنين، وهذا قول الله تعالى:

﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴾ والذين كفروا هنا هم المشركون، أى أنهم يقولون لأجل إرضاء الذين كفروا وأشركوا وعبدوا الأوثان: هؤلاء فى شركهم وعبادتهم غير الله تعالى أرشد طريقا، وسبيلهم هو سبيل الهداية، أما سبيل الذين آمنوا بالله وحده، ولم يشركوا به غيره، وأذعنوا لأحكام الله تعالى فى أوامره ونواهيه، فليس هو سبيل الرشاد.

ويروى أن اليهود عندما بلغ بهم حسدهم للنبى ﷺ أقصى مداه، ذهب فريق منهم إلى أهل مكة يحالفونهم على النبى ﷺ، فقال لهم المشركون: أنتم أهل كتاب، وأنتم أقرب إلى محمد منكم إلينا، فلا نأمن مكركم، فاسجدوا لآلهتنا حتى نطمئن إليكم، ففعلوا. وقال أبو سفيان: أنحن أهدى سبيلا أم محمد؟ فقال المتحدث باسم اليهود: ماذا يقول محمد؟ قالوا: يأمر بعبادة الله وحده وينهى عن الشرك، وقال: ما دينكم؟ قالوا: نحن ولاة البيت ونسقى الحجيج، ونقرى الضيف ونفك العانى، قال: أنتم أهدى سبيلا.

هذا شأن أولئك اليهود العجب، وهم قد أوتوا بعض علم الكتاب، يدفعهم الهوى والتعصب وفساد النفس إلى أن يجعلوا عبدة الأوثان أهدى من عبدة الديان!.

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً ﴾ أولئك الذين غلب عليهم الهوى، ودفعهم تعصبهم الأعمى إلى أن يحالفوا أولياء الشيطان على أولياء الرحمن ويمالئوهم فى القول والعمل، فيسجدوا لأصنامهم، ويزكوا أفعالهم،

ويقولوا إن طريقهم هو طريق الهداية، وطريق أهل التوحيد لا هداية فيه! بسبب هذا لعنهم الله تعالى بأن طردهم من رحمته، فكتب عليهم بُغض الناس فى الدنيا، والذل والمقت فيها، وعذاب الله تعالى فى الآخرة. والإشارة فى قوله تعالى «أولئك» إشارة إليهم موصوفين بالصفات التى وصفهم الله بها من نفاق، وخداع، وكذب، وتعصب وسيطرة الهوى على نفوسهم، وضياع الحقوق بينهم، وهذه الصفات هى سبب الطرد من رحمة الله تعالى. وإذا كانوا مطرودين من رحمة الله قد كتب الله تعالى غضبه عليهم، فلن ينصرهم أحد من أهل الأرض ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة] فإذا كانوا قد ذهبوا إلى أهل مكة يستنصرون بهم فلن ينصروهم، ولن يثقوا بهم، ولذلك قال تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً﴾ أى فلن تجد للملعون الذى طرده الله تعالى من رحمته نصيرا ينصره من الناس، و«لن» هنا لتأكيد النفى، ويقول الزمخشرى (إن لن تفيد تأكيد النفى أبدا)، أى أنهم لم ينصرهم الله ولن يجدوا أبدآ نصيرا من الناس تستمر نصرته، وإذا استطاعوا أن يستنصروا بأمثالهم فى هذه الأيام، فإن الخذلان وراءهم إن شاء الله تعالى، وهم أشد مقتا عند الله وعند الناس فى هذه الأيام كما كانوا فى كل ماضيهم، والله المنتقم الجبار. وقد أخبر الله تعالى نبيه بأنهم إذا كان لهم أحيانا نصيب من الملك غير مستقر ولا دائم، فسيكون ظلما كبيرا ولا يرضى الله لعباده أن يستمر فيهم ظلم.

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾ (أم) هنا تفيد الانتقال فى القول من التعجب من حالهم فى ممالأة المشركين إلى بيان حالهم العجيب إذا أُوتوا أى حظ من السلطان والحكم؛ والمعنى: أثَبتَ أنهم إذا كان لهم حظ من الملك والسلطان ولو كان ضئيلا يحكمون بالعدل، ويقومون بالقسطاس المستقيم؟ والاستفهام لنفى الوقوع، وهو نفى لوقوع العدل منهم إذا أعطوا أى حظ من الحكم؛ ذلك لأن المنافق لا يمكن أن يكون عادلا؛ لأن العدل والالتواء نقيضان لا يجتمعان، ولأنهم أهل هوى، ولا عدل مع سيطرة الهوى، ولأنهم غلبت عليهم عصبية دينية جامحة، وكل حكم

يصدر من التعصب لا يكون عدلا بالنسبة لمن تعصب عليه. ولذا قال سبحانه فيهم إذا حكموا:

﴿ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً ﴾ النقير العلامة السوداء الصغيرة التى تكون فى ظهر النواة، وهى الثقبة التى تنبت منها النخلة، ويضرب به المثل فى الشىء الصغير البالغ أقصى حدود الصغر. والمعنى: إذا تولى هؤلاء نصيبا من الملك والسلطان، فإنهم لا يعطون الناس أى قدر من حقوقهم عليهم، ولو كان ضئيلا بالغا أقصى حدود الضآلة؛ ذلك لأن العادل يكون حكمه لمصلحة المحكومين، لا لمصلحته. وهؤلاء لا ينظرون إلا إلى منافعهم الذاتية. ولأن العادل يحس بأنه من الناس له ما لهم وعليه ما عليهم، وهؤلاء يظنون أنهم صنف فى الخليقة ممتاز، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، والناس جميعاً دونهم. ولأنهم يبغضون الناس جميعا؛ لأنهم يظنون أنهم سلبوهم حقوقهم، بمقتضى ما لهم من امتياز بمقتضى التكوين. فهم بهذه الأهواء الواهمة عادوا الناس وأبغضوهم، ويحسبون أنفسهم فى حرب مستمرة من البشر! أنقذ الله أهل الإسلام من شرهم، وأرْدَاهم هم ومن يعاونونهم على الغىِّ والظلم والفساد، وَاللهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ.

أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ

كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

الآية موصولة بما قبلها، فالحديث فى اليهود الذين ذهب بهم حقدهم على النبى ﷺ والمؤمنين، أن يقولوا وهم أهل كتاب نزل عليهم من السماء وإن حرفوه، إن المشركين أهدى إلى الحق وإلى الصراط المستقيم من المؤمنين الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر والملائكة والنبيين من بعده. وفى هذه الآية يبين سبب انحرافهم، وجزاء الضالين يوم القيامة، ثم جزاء المهتدين. والسبب الباعث على ضلالهم أنهم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، ولذا قال سبحانه:

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ الحسد هو الألم الشديد لما يصيب الناس من خير، وتمنى زواله، ثم العمل على زواله، فهو يبتدئ بألم شديد يحز بالنفس الحاسدة، ثم يصحبه تمنى الزوال، ثم يكون بعد ذلك بخس المحسود حظه وحقه، والنيل منه! والفرق بينه وبين الغبطة أن الغبطة السرور بما ينال الغير من خير، وذلك وصف أهل الإيمان، ولذلك قال النبى ﷺ: «المؤمن يغبط والمنافق يحسد»(١)! والحسد يذيب النفس ويذهب بفضائلها، ولقد قال الحسن البصرى: «ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من حاسد»! وإن من يحسد إنما يعادى الله ويعادى نعمه؛ لأنه كلما آتى الله أحدا نعمة نقمها على صاحبها، فكأنما يعادى الله الذى أعطاها، ويعاديها، ولقد قال عبد الله بن مسعود: (لا تعادوا نعم الله!

(١) المؤمن يغبط والمنافق يحسد. من كلام الفضيل بن عياض كما فى كشف الخفا للعجلونى (٢٦٩٤).

وفى سير أعلام النبلاء (ج٥، ص٤٨٣) : "وعن الفضيل قال: المؤمن يَغْبِطُ ولا يحسدُ، الغبطة من الإيمان، والحسدُ من النفاق.

قيل له: ومن يعادى نعم الله؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله).

والناس هنا فى النص الكريم، قيل العرب، وعندى أنهم النبى ﷺ وأصحابه، إن أريد التخصيص، وإن كان التعميم فهى على عمومها. وأولئك اليهود قد أسكن الله تعالى قلوبهم حسدا على الناس، فهم إذا حسدوا النبى والمؤمنين، فلأنهم ناس آتاهم الله تعالى جزءا من فضله، فإن فضله عظيم، فـ «مِن» هنا للبعضية، أو نقول إنها بيانية، فقد كان الإيتاء صادرا عن فضله ومجرد تكرمه. وفى هذا إشارة إلى أن الذين يحسدون من يتكرم عليه الله، فإنما يعاندون الله تعالى. وسبب هذا الحسد الدائم فيهم أنهم يعتقدون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم اختصوا بالنبوة دون غيرهم من الناس، وقد بيَّن اللهُ سبحانه أن ذلك وهم، فقال تعالت كلماته:

﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ أى إذا كنتم تحسدون الناس لما توهمتم أن النبوة فيكم، وأنكم أهل الوحى دون غيركم، فقد كذبتم على أنفسكم، فإن الله تعالى قد أعطى آل إبراهيم، أى قرابته القريبة من ذريته من إسماعيل وإسحق الكتاب، أى بعث فيهم النبيين بالكتب من غير تفرقة. والحكمة، أى العلم النافع الذى يصحبه عمل نافع وإصلاح بين الناس، وأعطاهم مع علم النبوة ومع نشر أحكامها ملكا عظيما، أى سلطانا وبسطة فى الأرض فلستم مختصين بالنبوة، ولستم مختصين بإبراهيم، فله قرابة غيركم كانوا فى العرب، ولم يكن تلقى الناس لذلك الهدى ولهذا السلطان واحدا:

﴿فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ أى فمن قرابة إبراهيم وذريته وأوليائه الذين جاءوا، من آمن بما جاء به من هدى، وسار على مقتضاه، وانتفع به انتفاعا كليا، أو نهل من موارده العذبة، أو أخذ بقدر ما تقوى عليه نفسه، وهو فى ضمن المهديين، ومنهم من أعرض عنه، وإن ذلك المعرض له جزاؤه، وهو جهنم التى تلتهب نارها، وتستعر، فلم يكن من آل إبراهيم وذريته

مقتضيا أن يصدقوا بالرسائل الإلهية التى نزلت بين ربوعهم وفى أوساطهم، فمن العرب وهم من آل إبراهيم من أشرك بالله وعبد الأوثان، مع أن النبى ﷺ، وهو من آل إبراهيم بعث فيهم رحمة للعالمين، وأنتم معشر اليهود كفرتم وكذبتم الرسل من آل إبراهيم وقتلتم بعضهم، ولم ينفعكم أنكم من ذرية إسحق بن إبراهيم، فلا عبرة بالأنساب، إنما العبرة بالاستجابة للحق، والإيمان به والإذعان لحقائقه.

وهنا بحثان لفظيان: **أحدهما** ـ أن (صَدَّ) تستعمل لازمة متعدية، وإذا كانت لازمة فمصدرها الصدود ومعناه الإعراض، وإن كانت متعدية فمصدرها الصد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ... **وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ** ... ﴿٣٨﴾ ﴾ [**العنكبوت**] والنص هنا معناه الإعراض عن الهداية التى جاءت إليهم، فهو من اللازم.

والثانى: قوله تعالى: ﴿**وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيراً**﴾ لم يذكر فيها من كانت جهنم كفاية لهم، وهو مفهوم من فحوى الكلام، والمعنى كفاهم أن تكون جهنم بسعيرها ولهيبها مصيرا لهم.

وإن هذا مصير كل كافر سواء أكان من اليهود أم كان من غيرهم، ولذا قال سبحانه وتعالى:

﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً**﴾ الصَّلى معناه إيقاد النار، وصَلِيَ وقع فى النار، وأصليناهم نارا: ابتليناهم وعذبناهم بنار، فالتمييز هنا فيه تأكيد لمعنى العذاب بالنار والإيقاع فيها، وإن هذا العذاب الشديد الذى يستقبلهم يوم القيامة يستحقه الكافرون بسبب كفرهم، من غير تفرقة بين ذرية إسحاق وإسماعيل وغيرهم، ولذلك عبر بالموصول؛ إذ التعبير بالموصول يشعر بأن الصلة سبب الحكم، فهؤلاء حكم عليهم بالعذاب؛ لأنهم كفروا، ومتى تحقق السبب تحقق الحكم بلا فرق بين قبيل وقبيل، وأن عذاب الكفار دائم، وآلامه مستمرة، وقد أكد وجود العذاب بقوله سبحانه: ﴿**سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً**﴾ فسوف هنا كما قال سيبويه

للتهديد، فهى لتأكيد العـذاب المقبل ولو بتراخ، وتراخى العذاب مع تأكيده يجعل النفس فى فزع حتى يقع.

﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ فعذاب هؤلاء الكفـار دائم لا مناص لهم من الاستـمـرار فيـه. فكلما أصـاب العذاب مـوضع الإحســاس من الجـسم أعاد الله تعـالى ذلك الإحســاس إليه، وذلك أن مـوضع الإحســاس فى الجسم هو الطبقـة التى تلاصق اللحم من الجلد، فإذا فـسدت هذه الطبقة ذهب الإحساس بالألم، ولقد عبر الله تعالى عن موت الإحساس ثم إعادته بقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾، فشبه سبحانه وتعالى حالهم فى تعذيبهم بالنار بحـال قطع من اللحم تلقى فى النار، فإذا تهدأت الجلود من شدة النـار حتى صارت لا تحس بدَّل الله تـعالى هذه الجلود بأخـرى، فيكون العذاب وآلامه فى اسـتمرار دائم! ولا موضع إذن لاعتـراض الذين يقولون: كيف يعذب جلد لم يعـص لجريمة جلد قـد عصى؛ لأن الجسم المعـذب واحد، ولكن الكلام تصويرى لبيان استمرار الإحساس بآلام العذاب، فلا ينقلبون كقطعة فحم، بل يستمر الإحساس بالألم الدائم، وهذا يتلاقى مع ما روى عن الفضيل فى تفسير هذا النص: «يجـعل النضج غـيـر نضـيج» أى يجـعل الجلد مع إصـابة مـوضع الإحساس منه بما يمـيته لا يموت، بل يستمـر! ومن العلماء من قال: إن الجلد لا يتغـير ذاته بل يتـغيـر وصفه، فـيخلق فـيه هذا الإحـساس بعد أن يبـلى موضع الإحساس بالنار.

والغاية أن يذوقوا العـذاب، أى أن يستمروا فى ذوقه والإحـساس به، وقد شبه الإحـساس بالذوق، للإشارة إلى عظيم الألم، لأنهم يحسـون به كمن يحس بذوق المرير من الطعـام أو بمن يذوق النار ليأكلهـا، واللسان أشـد أعضـاء الجسم حساسيـة، فإذا كان العذاب يذاق، فهذا دليل على شدة الإحسـاس، وحيث اشتد الإحساس كـان الألم، وحيث مات الإحساس فـلا ألم، وليس لجرح بميت إيلام! وقد ختم الله تعالى الآية بما يبين عظم سلطان الله:

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ هذا تذييل بلاغى يؤكد التهديد الذى اشتمل عليه، فإن منزل العذاب قوى غالب، هو المسيطر على كل شىء، ولا يسيطر سواه، وليس فوقه أحد، ولا ناصر لأحد من أمره، وهو حكيم يضع الأمور فى مواضعها، فلا يعذب محسنا ولا يثيب كافرا وإن كان يعفو عن كثير من دون الكفر.

وقد أكد سبحانه عزته وحكمته بـ «إن»، وبـ «كان» التى تدل على الاستمرار، وإن من مقتضى حكمته أن يثيب الأبرار كما يعاقب الكفار.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ وفى مقابل العذاب الذى نزل بالكافرين كان الثواب للمؤمنين. وإذا كان الكفر هو السبب فى العقاب، فإن الإيمان والعمل الصالح هو سبب الثواب، وقد عبر سبحانه وتعالى بالموصول للإشارة إلى أن العلة التى أثبتت الثواب الذى يتفضل الله تعالى به على عباده المؤمنين، هو الإيمان والعمل الصالح، ولا شك أن الإيمان هو الأساس فى الجزاء، والعمل الصالح ثمرته، ولا إيمان من غير عمل صالح إلا أن يكون غير مثمر لأعظم ثمراته. ولقد قرر سبحانه وتعالى فى وعده أنه سيدخل هؤلاء المؤمنين العاملين جنات تكمل فيها أسباب النعيم، فالأنهار تجرى من تحت أشجارها، وهى ليست نعيما وقتيا، بل هى نعيم خالد، وقد أكد الخلود بالتأبيد، فكأن الخلود ثابت ثبوتا مؤكدا لا شبهة فيه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. ويلاحظ هنا أنه فى التعبير عن المستقبل عبر بقوله (سندخلهم) أتى بالسين دون سوف، وكلاهما يفيد تأكيد القول فى المستقبل، واختيار السين هنا يؤيد سيبويه فيما قاله من أن سوف قد تكون للتهديد، ويظهر على هذا أن السين عكسها.

وأن كل ما يتصور من نعيم الدنيا يوجد مثله على صورة أعظم وأكمل، ومن أكمل متع الحياة الدنيا الحياة الزوجية:

﴿لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ من أعظم نعم الدنيا الزواج، فهو ظل المرأة، ومأوى الرجل، ومستقر حياته، ومطمأنها ونعيمها، فيه مكاشفة النفس، وفيه الازدواج الروحى والمادى، وفيه المعاونة الإنسانية على أعلى صورها، وإن نعيم الجنة أكمل من نعيم الدنيا، فيه ما فيها من نعيم، ولكن على صورة أعلى وأكمل، والفرق بينهما كبير شاسع، يجتمعان فى الاسم ويختلفان فى الحقيقة. ولذلك كان فى الجنة أزواج، فللنساء أزواج وللرجال أزواج مثلهم، وأزواج الجنة مطهرون من الرجس المادى والرجس المعنوى، فلا حيض، ولا نفاس، ولا أخلاق ذميمة؛ لأنه لا يدخل الجنة وفيه خلق ناقص، من أخلاق أهل الدنيا. وقد تكلم الناس فى نوع العلاقة بين الزوجين فى الجنة، ولكن القرآن لم يفصل ذلك الجزء، فنتركه على ما تركه الله تعالى:

﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً﴾ الظل هو ما يحجب الشمس وحرارتها، ويقال ظل الليل وظل الجنة، وقد قال الأصفهانى أنه يعبر عن الظل بالعز والمنعة، وقد قال فى ذلك: «ويعبر بالظل عن العز والمنعة وعن الرفاهة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ ... ﴿٤١﴾﴾ [المرسلات] أى فى عزة ومتاع. قال تعالى: ﴿... أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ... ﴿٣٥﴾﴾ [الرعد] ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ ... ﴿٥٦﴾﴾ [يس].

وعلى ذلك نقول إن هذا النص السامى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً﴾، إما أن يراد به الظل الحسى، ومعنى ظليل أنه عميق ساتر لا يتخلله أى شىء مما يؤذى، ويقول الزمخشرى فى تعريف الظل الظليل: (هو ما كان فينانا لا جدب فيه، ودائما لا تنسخه شمس، وسجسجا لا حر فيه ولا برد، وليس ذلك إلا ظل الجنة) ويصح أن يراد بالظل المنعة والعزة، ويكون المعنى ندخلهم فى عزة ومنعة ورحمة ورعاية كريمة من الله تعالى. اللهم ارزقنا نعمة رضاك ووفقنا للعمل الصالح.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾

ضاع اليهود بأمرين: أولهما أنهم كانوا لا يؤدون الأمانات، كما قال تعالى فى أكثرهم: ﴿ **وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ** ... ﴿٧٥﴾ ﴾ [**آل عمران**]. الأمر الثانى الذى أضاع بنى إسرائيل فى الماضى، أنهم لا يقيمون العدل إذا حكموا كما قال سبحانه: ﴿ **أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا** ﴿٥٣﴾ ﴾ [**النساء**]، فبالظلم ذهب ملكهم فى الماضى، وسيذهب فى الحاضر إن شاء الله تعالى. وإذا كانت الخيانة قد أفسدت أمرهم، والظلم قد أذهب سلطانهم، فعلى المؤمنين أن يقيموا علاقاتهم على دعائم الأمانة والعدالة؛ ولذا قال سبحانه:

﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا** ﴾ هذا أمر عام للمؤمنين جميعا، لا يختص به راع دون الرعية، ولا قوى دون ضعيف، ولا غنى دون فقير.

وقد أسند الأمر إلى الله تعالى بقوله تعالت كلماته مؤكدا أمره ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ** ﴾، وذلك لتأكيد الأداء فضل تأكيد بهذا التصريح، وذلك أن الأمر من قبل الله سبحانه مضافا إليه أمر مؤكد، كما يقال لتأكيد الأمر للعبد بالطاعة: سيدك

يأمرك بكذا، ولله المثل الأعلى فى أوامره ونواهيه، وذلك فوق التأكيد بـ «إنَّ» فى صدر النص الكريم.

والأمانة مصدر بمعنى المفعول، فالمراد بالأمانة ما يؤتمن الإنسان عليه، وقد جمعها سبحانه بقوله تعالى ﴿**الأَمَانَاتِ**﴾ لتشمل كل ما يؤتمن الإنسان عليه من علم، ومال، وودائع، وأسرار، وغير ذلك مما يقع فى دائرة الائتمان وتنبغى المحافظة عليه. ومعنى أدائها إلى أهلها توصيلها إلى ذويها كما هى، من غير بخس ولا تطفيف. فالعالم يؤدى أمانة العلم من غير تزيّد عليها، ولا تحريف لها؛ لأن التزيّد طمس لمعالم العلم، والتحريف تبديل للحق. فمن أوتى علما بالقرآن لا يؤوله لهوى فى نفسه، بل يقدمه للناس من غير تحريف للكلم عن مواضعه. والحكم أمانة فى أعناق الحكام، عليهم أن يؤدوا الأمانة فيه بإقامة العدل، وتوخى المصلحة، وتجنب الفساد، سواء أكان فسادا معنويا، أم كان فسادا ماديا، والأول أعلى أنواع الفساد، والثانى أدناها. ومن أمانة الحكم ألا يشقوا على الرعية، وألا يفسدوا ضمائرهم، ولا يزعجوهم بالتظنن والتتبع ما داموا مؤمنين مذعنين، كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً** ... ﴿١٢﴾﴾ [**الحجرات**]. وإذا كانت رعاية الأمانات وأداؤها واجبا مفروضا على الأمة كلها، حاكمها ومحكومها، وأنها متفاوتة المراتب، فإن الحاكم قد اختص بواجب آخر هو العدل، وهو من نوع الأمانة التى اختص بها، ولذا قال سبحانه بعد الأمر بأداء الأمانات:

﴿**وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ**﴾ قال بعض العلماء: إن الخطاب فى هذا النص موجه إلى الذين يحكمون، وهم الحكام من ولاة وقضاة وغيرهم ممن يلون الحاكم، ولا مانع عندنا من أن يكون الخطاب موجها للأمة كلها؛ لأن الأمة العزيزة غير الذليلة التى تتولى أمور نفسها من غير تحكم من ملك أو طاغ قاهر، هى محكومة ومُحكَّمة، فهى التى تختار حاكمها، وهى فى هذا محكّمة،

مطلوب منها العدل، فلا تختار لهوى، أو لعطاء، أو لمصلحة شخصية أيا كان نوعها. وهى محكّمة فى حاكمها فلا تقول فيه إلا حقا، ولا تطالبه إلا بما هو حق لا جور فيه، ولا تشتط فى نقده، ولا تسكت عن نصيحته. فإن النبى ﷺ يقول: «الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»(١).

والعدل معناه فى أصل اللغة المثيل، وأطلق فى مقام الحكم بمعنى أن يكون الحكم مساويا لما يستوجبه، فإذا ارتكب شخص جرما كان الحكم النازل مساويا للجرم المرتكب، وإذا كان الحكم بدين وجب أن يكون مساويا لما أخذ من غير زيادة، وهكذا. وإن العدل أنواع مختلفة، وله وسائل متباينة، وإذا كان مطلوبا فى ذاته فوسائله يجب أن تتحقق فيها العدالة أيضا، وأخص أنواع العدالة عدالة القاضى فى حكمه، وهى تتطلب أمورا أربعة: **أولها**: معرفة حكم الشرع والقانون فيما يقضى فيه. **ثانيها**: معرفة موضوع القضية معرفة متقصٍّ لأطرافها مستوعب لكل أجزائها. **وثالثها**: أن يبعد الهوى من نفسه، وأن ينظر دائما نظرا غير متحيز. **ورابعها**: أن يسوى بين الخصمين فى كل شىء، وقد جاء فى تفسير فخر الدين الرازى عن الشافعى مايأتى: «قال الشافعى ـ رضى الله عنه ـ: ينبغى للقاضى أن يسوى بين الخصمين فى خمسة أشياء: فى الدخول عليه، والجلوس بين يديه، والإقبال عليهما، والاستماع منهما، والحكم عليهما.. ولا ينبغى أن يلقن واحدا منهما حجته، ولا شاهدا شهادته؛ لأن ذلك يضر بأحد الخصمين. ولا يلقن المدعى الدعوى والاستخلاف، ولا يلقن المدعى عليه الإنكار والإقرار، ولا يلقن الشهود أن يشهدوا أو لا يشهدوا.

وعدالة الحاكم الأكبر تقتضى الرفق بالرعية، وألا يعمل إلا ما فيه مصلحة، وأن يمنع الرشوة، وألا يولى أحدا ممن دونه لهوى أو غرض! فلا يوسّد الحكم لمن

---

(١) سبق تخريجه من رواية مسلم وغيره عن تميم الدارى، وذكره البخارى فى ترجمة الباب.

دونه إلا لمن هو أهل له، ولقد قال النبى ﷺ: «إذا وُسِّد الأمر لغير أهله فانتظروا الساعة»(١).

والأمانة واجبة سواء أكان من ائتمنك عادلا أم كان جائرا، فالنبى ﷺ يقول: «أدِّ الأمانة لمن ائتمنك ولا تخن من خانك»(٢). ومن المقررات فى الفقه الإسلامى أن الظالم لا يُظلم.

والعدل مطلوب فى ذاته، يستوى فى ذلك المسلم وغير المسلم، فقد قال تعالى ﴿... **وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ** ... ﴿٨﴾﴾ [المائدة].

﴿**إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾ الوعظ معناه التذكير بالخير والتحذير من الشر، بما يرق له القلب، ويخضع له الوجدان. و(ما) هنا إما نكرة بمعنى شىء، أو موصول، والمعنى واحد، وإن اختلف التخريج النحوى. ومؤدى النص أن الله جلت حكمته وهو العليم بكل شىء يأمركم بالأمانة والعدالة ولَنِعْمَ هما شيئا خطيرا جليلا ذا أثر عظيم، فى حياتكم العامة والخاصة، يذكركم به ويدعوكم إليه، فأداء الأمانات وإقامة العدالة، بهما تقوم الأمم، وعليهما تبنى دعائم العزة والكرامة الإنسانية، فهما ممدوحان دائما، ولا ينتج عنهما إلا خير، ولا ينتج عن تركهما إلا شر.

---

(١) عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فى مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَدِّثُ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: سَمِعَ مَا قَالَ فَكَرِهَ مَا قَالَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ. حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ: «أَيْنَ أُرَاهُ السَّائِلُ عَنْ السَّاعَةِ؟» قَالَ: هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: «فَإِذَا ضُيِّعَتْ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ» قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ: «إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ». رواه البخاري: العلم - من سئل علما وهو مشتغل بحديثه فأتم (٥٩)، ورواه أحمد: باقى مسند المكثرين (٨٥١٢) بلفظ: «إذا توسد». ومعنى وُسِّد: أُسند.

(٢) رواه الترمذى: البيوع - النهى للمسلم أن يدفع إلى الذمى الخمر (١٢٦٤). ورواه أبو داود: البيوع - فى الرجل يأخذ حقه من تحت يده (٣٥٣٥).

وإن الله تعالى إذ يأمركم بذلك الخير العميم نَفْعُه يراقبكم فى تنفيذه، وإنه لن يترككم ولن يخليكم من العقاب إن لم تقوموا به، ولذلك ذيّل الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾، أى إن الله تعالى يعلم أحوالكم علم من يسمع، فهو يسمع خطرات نفوسكم وحركات قلوبكم، وعلم من يبصر، فهو يرى أعمالكم. هو إذن يسمع كلمة الحق نطق بها القاضى، وكلمة الرعية يختارون بها راعيهم، بالأمانة والصدق والإخلاص، ويرى عمل الوالى إذا عدل، فيجزيه بالحسنى، وعمله إذا ظلم أو شق على رعيته أو أرهقها من أمرها عسرا، فيأخذه سبحانه بظلمه إن ظلم. ويرى سبحانه الأمة وهى تقصر فى حقوقها، ولا ترعى واجب الأمانة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومنع الظالم من ظلمه، فيفسد أمرها، ويتحقق فيها قول النبى الأمين: «لَتَأْمُرُنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر ولتأخذنَّ على يدى الظالم ولتأطُرُنَّه على الحق أطرا أو ليضربن قلوب بعضكم ببعض ثم تدعون فلا يستجاب لكم»[(١)]!!.

وإذ كان العَدْل، وجبت الطاعة لولى الأمر مقرونة بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله؛ لأنها مشتقة من طاعتهما، ولذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾.

طاعة الله وطاعة رسوله متلازمتان، فمن يطع الرسول فقد أطاع الله، فإطاعة الرسول إطاعة لله، وإطاعة الله إطاعة للرسول أو تقتضيها، فقد قال الله تعالى: ﴿... وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ... ⁽٧⁾﴾ [الحشر].

وأولو الأمر هم الذين بيدهم الحل والعقد وبيدهم مقاليد الأمة التى يقومون على رعاية مصالحها وشئونها وإرشادها وتوجيهها. وقد قال بعض الحكام إنهم الفقهاء والذين يستطيعون استنباط الأحكام، ولكن الأكثرين على أن ولاة الأمر هم الحكام وأهل الحل والعقد.

(١) سبق تخريجه من رواية أبى داود: الفتن والملاحم، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

ونلاحظ هنا أمرين:

أحدهما ـ أن القرآن الكريم يصرح بأن ولاة الأمر الذين تجب طاعتهم يجب أن يكونوا من المؤمنين، ولذلك يقول سبحانه «منكم»، فلا طاعة مطلقا لمن يغلبون على شئون المسلمين ممن ليسوا من أهل الإيمان، فأولئك المنحرفون من بعض أهل الهوى الذين يزعمون أنهم مسلمون، ويزعمون أن الإنجليز أيام حكمهم كانوا من ولاة الأمور الذين يوجب النص طاعتهم ـ قد ضلوا ضلالا بعيدا، وهم بهذا وبغيره خارجون عن حكم الإسلام.

ثانيهما ـ أن الله قرن طاعة أولى الأمر بطاعة الله ورسوله، فوجب أن تكون طاعتهما من جنس طاعة الله تعالى ورسوله، بأن تكون فى سبيل العدل، ولا تخرج عن حدوده. وإنه باقتران هذه الآية بالآية السابقة يستبين أن ولاة الأمر الذين تجب طاعتهم هم العادلون؛ لأن الأولى أوجبت العدل، والثانية أمرت بالطاعة، فلو كانوا غير عدول لكانت الطاعة مسايرة لهم على الظلم. وقد نهينا عنه. ولقد قال الزمخشرى فى هذا المقام ما نصه:

«المراد بأولى الأمر منكم أمراء الحق، لأن أمراء الجور ـ الله ورسوله بريئان منهم ـ فلا يُعطفون على الله ورسوله فى وجوب الطاعة لهم، وإنما يجمع بين الله ورسوله والأمراء الموافقين لهما فى إيثار العدل، واختيار الحق، والأمر بهما، والنهى عن أضدادهما، كالخلفاء الراشدين. وكان الخلفاء يقولون: أطيعونى ما عدلت فيكم، فإن خالفت فلا طاعة لى عليكم.

وعن أبى حازم أن سلمة بن عبد الملك قال: ألستم أُمرتم بطاعتنا فى قوله تعالى: ﴿وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ قال: أليس قد نُزِعَتْ عنكم إذا خالفتم الحق بقوله: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾. وعن النبى ﷺ أنه قال:

«من أطاعنى فقد أطاع الله، ومن عصانى فقد عصى الله، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى، ومن عصى أميرى فقد عصانى»(١).

ولكى تكون طاعة أولياء الأمر فى سبيل الحق والعدل، ومقترنة بطاعة الله ورسوله، وجب الرجوع عند الاختلاف إلى الكتاب والسُّنة، ولذا قال سبحانه:

﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ لقد ثبت بإجماع العلماء الذى لا مماراة فيه أن طاعة أولياء الأمر إنما تكون فيما فيه طاعة الله تعالى، وطاعة رسوله الأمين كما نوهنا، وأنه ليس لولىٍّ الأمر طاعة فى معصية، لقوله ﷺ: «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق»(٢)، ولقوله ﷺ: «إنما الطاعة فى المعروف»(٣)، والمعصية منكر لا طاعة فيه، ولقوله عليه الصلاة والسلام: «على المرء المسلم السمع والطاعة، فإن أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»(٤)، ولمَا قررنا من أن طاعة أولى الأمر مقرونة بطاعة الله ورسوله، وأنه

---

(١) رواه البخارى: الأحكام - قول الله تعالى: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾ (٧١٣٧)، ومسلم: الإمارة - وجوب طاعة الأمراء فى المعصية وتحريمها فى المعصية (١٨٣٥) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) رواه القضاعى فى مسند الشهاب ج٢، ص٥٥ (٨٧٣) عن عمران بن حصين رضى الله عنه، والبغوى فى شرح السنة عن النواس بن سمعان، كما فى مشكاة المصابيح ج٤، ص٢٣٨. كما رواه أحمد فى مسنده وعن الحكم بن عمرو الغفارى وعمران بن حصين (٢٠١٣٠)، وعن على رضى الله عنه (١٠٩٨)، ولفظه عَنْ عَلِيٍّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِى مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ». وهو عند البخارى بسنده عن على.

(٣) متفق عليه. وراجع التخريج السابق.

(٤) متفق عليه رواه البخاري: الأحكام - السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية (٧١٤٤)، ومسلم: الإمارة - وجوب طاعة الأمراءفى غير معصية (١٨٣٩) ولفظه عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ إلا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلا سَمْعَ وَلا طَاعَةَ» ولفظ البخارى عن نَافِعٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (أى ابن عمر حيث الرواية عن نافع) عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلا سَمْعَ وَلا طَاعَةَ».

ليس من المعقول أن يفهم من الآية أن ولى الأمر يطاع حيث يعصى الله ورسوله، وهما مقترنتان، وولى الأمر منَّا حقا وصدقا لا يخالف الله ورسوله، وإلا كان متغلبا طاغيا.

وإذا كانت طاعة ولى الأمر لا تكون إلا فى دائرة الكتاب والسنة، فلا بد أن يكونا هما المرجع فى الوفاق والخلاف معا، فإن اتفق أهل الحل والعقد على أمر مشتق من كتاب الله وسنة رسوله، وغير خارج عنهما ولا عن أصولهما المقررة، فهو الحجة الواضحة، كما كان يفعل أبو بكر وعمر رضى الله عنهما، فقد كانا يعرضان الأمر الذى لا يعرفان له حكما من كتاب ولا سنة على الصحابة، وأحيانا على كل أهل المدينة، فما يثبت أنه ورد فيه قرآن أو سنة خضع الجميع له، وإلا فإنهم ينظرون مجتهدين فيما يكون من جنس ما يأمر به الكتاب أو السُّنة، فإن اتفقوا عليه نفذوه. وإذا كان اختلاف، فإنه لا حكَم فى الاختلاف إلا الكتاب والسُّنة أيضا، وهذا موضع قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ﴾ وليس التنازع هو المحاربة، إنما التنازع هو الاختلاف فى طلب الحق فى الأمر، وقد جاء فى تفسير معنى التنازع فى مفردات الراغب: «نزع الشيء جذبه.. والتنازع والمنازعة المجاذبة، ويعبر بهما عن المخالفة والمجادلة». وكأن كل واحد من المختلفين يجذب من الآخر الحجة لدليله، ويجعل الحق فى جانبه بجذب الحجة على مخالفه، ومن هذا قول النبى ﷺ: «مالى أنَازَعُ القرآن»(١)! وذلك أن بعض المأمومين جهر

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ انْصَرَفَ مِنْ صَلاة جَهَرَ فِيهَا بِالْقِرَاءة فَقَالَ ﷺ: «هَلْ قَرَأَ مَعِي أَحَدٌ مِنْكُمْ آنفًا؟» فَقَالَ رَجُلٌ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «إِنِّي أَقُولُ مَالِي أُنَازَعُ الْقُرْآنَ» قَالَ: فَانْتَهَى النَّاسُ عَنْ الْقِرَاءَة مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيمَا جَهَرَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ الصَّلَوَاتِ بِالْقِرَاءَة حِينَ سَمِعُوا ذَلِكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. [رواه الترمذي: الصلاة-ترك القراءة خلف الإمام إذا جهر الإمام (٣١٢)، والنسائي: الافتتاح - ترك القراءة خلف الإمام فيما جهر به (٩١٩)، وأبو داود: الصلاة - من كره القراءة بفاتحة الكتاب إذا جهر الإمام (٨٢٦)، وابن ماجه: إقامة الصلاة والسنة فيها - إذا قرأ الإمام فأنصتوا (٨٤٩)، وأحمد: مسند المكثرين (٧٢٢٨).

خلفه، فنازعــه القراءة فشغله، فنهى ـ عليـه الصلاة والسلام ـ عن الجهــر بالقراءة خلفه فى الصلاة.

ويجب بهـذا النص عند التنازع الرد إلــى كتـاب الله وسنة رسـوله، وذلك بالتماس مـا يكون من الأحكام متفقـا مع المقاصد والغايات التى جـاء بها الكتاب والسُّنة، وإن لعلماء الإسلام فى ذلك منهاجـين: أحدهما: أن يبحث فى الأصلين عن حكم منصوص عليه يشبه فى سبب الحكم الحـادثة التى لا يجدون فيها نصا، وهذا يسمى الـقياس الفـقهى، وهو مـا تسير عليـه الكثرة الكبـرى من الفقـهاء. والمنهاج الثانى. أن ينظر إلى المقاصد العامة للشريعة، وهى مصالح الناس، الثابت الأخذ بها من مجموع النصوص لا من نص بـعينه، فإذا كان فى الأمر المتنازع فيه مصلحة ملائمة لمقاصد الشارع، من غـير مخالفة أى نص، أخذ بها، وهذا المنهاج أخذ به الإمام مالك، وأحمد، وزيْد.

ولكن يرد هنا سـؤالان: من الذين يجرى بينهم التنازع؟ ومن الذيـن يتولون رد الأمر إلى الكتاب والسُّنة؟.

والجواب عن السـؤال الأول: أن الذين يجرى بينهم الخـلاف هم أهل الحل والعقد، وذلك يقتـضى أن تكون هناك جماعة مصطفاة مـختارة تتولى سن النظم ووضع القوانين المشـتقة من كتـاب الله تعالى وسنة رسوله، وهم رجـال الشورى الذين ترتضيهم الأمة.

والجواب عن السؤال الثانى ـ أن الذين يردون الأمـر المختلف فيه، يجب أن يكونوا على علم بالكتاب والسنة ومقاصد الشـريعة وغاياتها، وهم علماء الإسلام المتفقهون فى أحكامـه. ولذلك يجب أن يكون فى أهل الحل والعقد، أو بجوارهم يعملون مـعهم، رجال من فـقهاء الإسلام المخـلصين المؤمنين بحقـائقه، الذين لا يغلب عليـهم الهـوى، ولا يخضـعـون لهوى الحكام، ولا يحـرفـون الكلم عن مواضعه.

وإن الله تعالى يقرر - تعالت كلماته - أن ذلك وهو الرد إلى الكتاب شأن أهل الإيمان بالله حقا وصدقا، والذين لا تغلبهم الدنيا ومتعها العاجلة، ولذلك يقول ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ أى إن كنتم تذعنون للحق الذى شرعه الله تعالى لكم وتصدقون وتؤمنون بالآخرة وما فيها من حساب وعقاب، ولم تستول عليكم الدنيا بأهوائها وشهواتها، فإنكم بلا ريب سترجعون إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، ذلك أن المؤمن حقا ومصدقا بالله واليوم الآخر لا تستهويه شهوات الدنيا، فيظنها مصالح، بل يذعن لحكم الله دائما، ولا يكون كأولئك الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النور]. وإن اتباع القرآن والسُّنة فى الحكم فيه الخير وحسن المآب، ولذا قال سبحانه:

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ إن ذلك الرجوع إلى الكتاب والسُّنة، فى الفرقان والافتراق، خير لكم فى الدنيا؛ لأن فيه مصلحتكم الحقيقية، وفيه بعد عن الهوى، وفيه خضوع لله تعالى. وأحسن تأويلا أى مآلا ونهاية، وفهمًا لأمور هذه الحياة، فإن شئون الحياة معقدة، تختلط فيها الشهوات بالمصالح، فلا يمكن فهمها على حقيقتها إذا تشابكت إلا بالرجوع إلى شرع الله، ففيه الفهم الصحيح، وفيه الغاية السامية، وفيه المآل الذى لا شر فيه. فاللهم وفق أمتك للأخذ بِشْرعَتِك واجعلنا من الذين لا يحرِّفون الكلم عن مواضعه، إنك سميع الدعاء.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ
وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ
وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ
ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ
اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ
صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا
قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا
إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا
فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي
أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾

دعت الآيتان السابقتان المؤمنين إلى أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها، وأن يحكموا بالعدل. وقد ذكرت الآية الثانية أن طاعة الله ورسوله واجبة، وأن طاعة أولى الأمر لازمة ما استقاموا على الحق من غير عوج، وأن ذلك سبيل الحق والعدل، واستقرارهما. وفى هذه الآيات يبيّن سبحانه وتعالى حال بعض أهل الكتاب الذين يتركون الأحكام المقررة فى الشرائع السماوية، ويستبدلون بها الظلم وحكم الطغيان، ولذا قال سبحانه:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هذا التعبير قرآنى، وهو استفهام سيق للتعجب والإنكار، فيه التعجبُ وتوبيخ الذين وقع منهم هذا الفعل. وأداة الاستفهام دخلت على النفى، ونفى النفى إثبات. والمعنى: قد رأيت الأمر العجب المستنكر الذى وقع من أولئك الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك. والزعم يكون فيمن يقول قولا لا يوجد ما يدل على صدقه، والمعنى: قد رأيت حال أولئك الذين يدعون كذبا أنهم يعتقدون ويُذْعِنُونَ للذى أنزل إليك من شريعة عادلة وحاكمة بين الناس بالعدل، وأنهم يؤمنون بالكتب المنزلة وما اشتملت عليها، ومع ذلك يتركون الحق الواضح البين الذى لا شبهة فيه، الذى اشتملت عليه شريعتك وما قبلها، ويتحاكمون إلى الطاغوت، وهو الطغيان الكثير، ولعل المراد به هنا الحكْمُ الذى لا يبنى على الحق، ولا يقوم على أساسه، وليس له نظام وقانون مقرر ثابت، يعرف فيه كل واحد من الخصمين ما له من حقوق وما عليه من التزامات.

وواضح من النص الكريم أن هؤلاء متصفون بصفتين:

أولاهما ـ أنهم يدعون الإيمان وليسوا بمؤمنين، إذ قال سبحانه: ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾.

وثانيتهما ـ أنهم فى الأصل من أهل الكتاب الذين يدعون أنهم آمنوا بما أنزل على موسى والأنبياء قبله. وبهذا النص الكريم يتعين أن يكون أولئك من المنافقين من اليهود الذين كانوا يظهرون الإيمان، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون، أو من الضعفاء الذين ليس عندهم من قوة الإيمان ما يحملهم على الخضوع لأحكام الله تعالى.

وإن المفسرين قد تكلموا فى سبب نزول هذه الآيات، ورووا فى ذلك روايات مختلفة، وأقربها إلى معنى الآية أن منافقا اختلف مع يهودى، فأراد اليهودى أن يكون الحكم هو النبى لما يعرف عنه من عدالة وامتناع عن رشوة، ولأنه يحكم بقانون ثابت لا عوج فيه ولا انحراف، وأراد المنافق أن يتحاكما إلى غير النبى ـ قيل إلى كاهن، وقيل إلى أحد كبار اليهود ـ وكلا الحكمين لا يمكن

أن يكون بالنسبة للنبى ﷺ إلا ظالما، حكمه فيه طغيان كثير؛ لأنه لا يعتمد على قانون منظم للحقوق والالتزامات.

﴿ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً ﴾ وإذا كان الله تعالى قد أمرهم أن يكفروا بحكم الهوى والغرض والظلم وبحكم الأوهام والكهنة، واختاروا هم الاحتكام إلى طاغية من طغاتهم، أو كاهن من الكهان، فقد كان ذلك بوسوسة الشيطان المضل فى نفوسهم، وهو لا يريد لهم إلا العدول عن الخط المستقيم. فالضلال هو العدول عن الخط المستقيم، سواء أكان ذلك فى المعنويات أم كان فى السير الحسى. ومن عدل عن الطريق المستقيم واستمر فى غيره، فهو كمن بعُد عن الطريق السوى، وسار فى متاهات، كلما أمعن بعد. وهؤلاء قد ابتدأوا بالنفاق، فكلما وسوس لهم شيطانهم بالباطل أبعدهم عن الحق وعن طريقه. فمعنى يضلهم ضلالا بعيداً يبعدهم عن الحق الذى ابتدأوا باجتنابه، فصاروا كمن يوغلون فى متاهات من الأرض، كلما أوغلوا زادوا بعدا عن الطريق المستقيم.

وإن هذا النص يومئ إلى أنه لا يتفق مع الإيمان الصادق أن يتحاكم المؤمن إلى غير النظام الذى يقرره القرآن والسُّنة. ويومئ النص أيضا إلى أن كل تحاكم لغير شريعة الله تعالى وما تقرره من أحكام، هو تحاكم إلى طغيان كبير لا يقوم الحكم فيه إلا على الهوى. ألم تر كل النظم التى تحكم بغير القرآن لا تعاقب الزانى، ولا تعتبر فعله جريمة إلا إذا كان فيه اعتداء على الزوجية أو اغتصاب، أو زنى بقاصرة! وأى طغيان وهوى أعظم من ذلك جرما؟!

ويومئ النص كذلك إلى أن من يرفض حكم القرآن يخضع لحكم الشيطان، ويضل به ضلالا، كلما سار فيه بعد عن الحق المبين:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً ﴾ إذا قيل لهؤلاء الذين ضعف إيمانهم فلم يذعنوا للحق، ولم يخضعوا لحكم الله: تعالوا وأقبلوا على الخضوع لله تعالى ولحكمه - رأيت الذين اتسموا بالنفاق منهم يعرضون عنك إعراضا شديدا؛ وذلك لأنهم لمرض النفاق فى قلوبهم

ينفرون من العدل والحق نفورهم من الإيمــان الصريح الذى لا دَخَلَ فيه[١]، ومن الطريق المستقيم الخالى من العوج.

وفى الآية الكريمة إشارتان بيانيتان:

إحداهما- التعبيـر بقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ فإن هذا يبـين لهم أنهم يتـركون الحكم المنزل من السـمـاء من عند الله إلى حكم الأرض وأهواء أهلها، ويبـين لهم أن الرجوع فى الحكم إلى الرسـول هو رجوع إلى حكم الله الذى ينطق به رسوله الأمين، وأن امتنــاعهم عن ذلك إنكار للرسالات الإلهية مع أنهم من أهل الكتـاب، الذين يعـتـزون على العـــرب بأنهم يؤمنون بشـرائع السمـاء وغيرهم أمـيون!! ثم يبـين ذلك أن الخضوع لحكم الرســـول خضـــوع لحكم الله تعالى وما أنزلـه الله، فالمعترض على حكم الرسول مـعترض على الله سبحانه وتعالى.

الثانية- فى قوله تعالى: ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ فإنه يشير إلى أن الذين يعرضون عن حكم الله تعالى وينفرون منه هم المنافقون الذين يسرون ما لا يظهـرون ويخفون ما لا يبـدون، فالإعراض عن حكم الله تعالى سـمة من سمات النفاق أو بالأحرى أوضحها وأبينها.

والنص يشـير مع هذا إلـى أن الذين يريدون أن يتحـاكـموا إلى الطاغـوت فريقان: فريق ضعيف الإيمان، وفريق منافق، وأن المنافقين من بينهم شديدو النفرة والإعراض. اللهم إلا أن يقـال إن ذلك إظهار فى موضع الإضـمار، أى أن الذين يزعمون أنهم آمنوا بالله وبالرسول، الذين يرتضـون حكم الطاغوت هم منافقون، وهم بسبب نفـاقهم يعرضون عن حكم الله إعـراضا شديدا، فهم طائـفة واحدة!

---

(١) و الدَّخَل: ما داخَل الإنسـانَ من فساد فى عـقل أو جسم، وقد دَخِلَ دَخَـلاً و دُخِلَ دَخْلاً، فهو مَدْخُول أى فـى عقله دَخَلٌ. وفـى حديث قتادة بن النعمان: وكنت أَرى إِسْلامه مَدْخُولا، الدَّخَل، بالتـحريك: العيب والغِشُّ والفَساد، يعنـى أن إِيمانه كان فـيه نِفَاق.

وأظهر وصفهم ليعلم أنه علة إعراضهم، وهذا ما نرتضيه، ويتفق مع قوله تعالى من قبل ﴿ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا ﴾.

﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾ إذا كان أولئك المنافقون يصدون ذلك الصدود، ويعرضون هذا الإعراض، فلينظروا إلى حالهم عندما تصيبهم مصيبة بسبب تركهم التحاكم إلى القانون العادل والحاكم العادل، كيف تكون حالهم عندما تنزل بهم مصيبة الظلم وعدم الخضوع لقانون عادل يرد الحق إلى نصابه! وذلك أن الذى يترك القانون الذى لا يخضع لهوى، والقاضى الذى لا يخضع لغرض، ولا ينحرف عن الحق لأى غرض من أغراض الدنيا - تنزل به مصيبته لا محالة، وهى الاضطراب، وعدم الاطمئنان إلى حكم حاكم! والجماعة التى تترك الحكم المستقيم إلى الحكم المعوج الذى يستمد من الطغيان والظلم، لا بد أن تنزل بها مصيبة التفرق والانقسام، وعدم التواصى بالحق. فالقرآن يشير للمنافقين بهذه النتيجة، بل ينبئهم فيقول لهم: كيف تكون حالكم إذ تصيبكم مصيبة التظالم، وأكل بعضكم مال بعض، ونفرة الرسول منكم، وظهور أمركم وانكشاف حالكم، وذلك بما قدمته أيديكم من ترك للحق وعدم خضوع له! والتعبير «بما قدمت أيديكم» يبين ما سبق من أمرهم، وإن لم يكن باليد؛ لأن اليد مظهر العمل، فهى كناية عن عمل الإنسان، وإن كان باللسان أو القلب.

ثم إنهم بعد أن تصيبهم مصيبة الباطل وانكشاف أمرهم، ونفرتك منهم - جاءوك يعتذرون إليك ويوثقون اعتذارهم بالحلف بالله تعالى قائلين: ما أردنا بالمخاصمة لغيرك إلا إحسان المعاملة والتوفيق بين الخصوم.

والمعنى الجلى للنص السامى: كيف تكون حالهم إذا نزلت بهم النازلة التى تترتب على تركهم حكم الله إلى حكم الطغيان، ثم جاءوا إليك معتذرين عما سبق منهم، قائلين حالفين بالله أنهم ما قصدوا الإعراض، بل أرادوا التوفيق، والمعاملة الحسنة!!.

والتعبير بـ «ثم» فى هذا المقام، يشير إلى التباين بين حالهم فى الإعراض والصدود، وإقبالهم بالاعتذار والحلف والازدلاف.

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾. أولئك النافرون عن حكم الله إلى حكم الطغيان والهوى والشيطان، وهم يزعمون أنهم من أهل الإيمان يعلم الله تعالى ما يستكن فى قلوبهم، وما يدفعهم إلى أعمالهم وخروجهم عن حكم الحق إلى حكم الهوى. والإبهام فى قوله تعالى ﴿ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ للإشارة إلى خفائه إذ يخفونه ويبدون غيره، وإلى أنه شىء كثير من الفساد والانحراف النفسى يحكمون إخفاءه، وإلى تنوعه من رغبة فى الكيد والأذى، والتفريق بين المؤمنين، وممالأة المشركين، وغير ذلك.

وإذا كان الله يعلم ما فى نفوسهم علما دقيقا، لا يغيب عنه شىء؛ لأنه وحده العليم بذات الصدور الذى لا يخفى عليه شىء فى السماء والأرض، فإنه سبحانه وتعالى مجازيهم فى الآخرة بأعمالهم ودوافعها المكنونة فى قلوبهم، إن استمروا على حالهم ولكن عليك أنت أيها الرسول أن تبلغهم الحق، وتدعو إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة.

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا ﴾ أى: إذا كانوا كذلك من السوء فأعرض عنهم. وفى هذا النص بيان لطرق علاج المنحرفين فى نفوسهم إذا كانوا صالحين للعلاج، وهذه الطرق ثلاث مراحل متداخلة:

أولاها ـ الإعراض عنهم بألا يقبل عليهم ليشعروا باستنكاره لأعمالهم، وأنه غير راض عنهم، وذلك فى غير جفوة؛ لأنه إن كانت الجفوة كان العناد، فلا يمكن أن يصل إلى المرحلة الثانية. وهذه المرحلة الأولى هى التى عبر عنها سبحانه بقوله تعالى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾.

الثانية ـ الوعظ، وهو الزجر مع التخويف بسوء العاقبة والمآل ونتائج أعمالهم، فإن ذلك قد يدفعهم إلى التفكير، ومع التفكير فى العاقبة ينفتح باب الهداية وسلوك الطريق المستقيم.

الثالثة ـ الاتجاه إلى جذبهم بقول بليغ يصل إلى قلوبهم، بأن يبين لهم العاقبة الحسنى فى العمل بالحق، والخضوع لحكم القرآن المشتمل على شريعة الرحمن. ومعنى قوله تعالى: ﴿قَوْلاً بَلِيغًا﴾ أنه يبلغ إلى كنه ما فى قلوبهم، فيصل إلى أعماقها ويوجههم توجيها حسنا إلى ما فيه صلاح فى الدنيا والآخرة، وذلك بأن يورد النبى ﷺ القول على طريقة تجعلهم يقبلون قوله ولا ينفرون، فيقربهم ويدنيهم، ويأتيهم من قِبَل ما يألفون إن كان حقا.

وإن القول البليغ الذى يصل إلى كنه القلوب، يجب أن تتحقق فيه ثلاثة أوصاف: **أولها**، أن يكون المطلوب حقا، **والثانى**، أن يكون اللفظ مستقيما، والمعنى سليما، فلا يصل إلى الحق إلا بالحق، **والثالث**، أن يكون القول منبعثا من النفس، بحيث يؤمن القائل بصواب ما يقول، فإنه لا يؤثر إلا المتأثر.

هذه طرق الدعوة إلى الحق، هدانا الله إلى الطيب من القول وهدانا إلى صراط الحميد.

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾

ما قبل هذا النص الكريم كان فى وجوب إطاعة الله تعالى ورسوله، ووجوب إطاعة أولى الأمر الذين ينفذون حكم الله تعالى ويقومون على رعاية

شرعه، ويرجعون إليه فى وفاقهم وفى اختلافهم. وكان فيما سبق أيضا بيان أن من يتركون حكم الله ورسوله، إنما يتحاكمون عند تركه إلى الظلم والطغيان؛ لأن ما جاء به الشرع هو الحق الذى لا شك فيه، وماذا بعد الحق إلا الضلال، وماذا بعد ترك حكم الله إلا حكم الطغيان!!

وفى الآيات التالية يبين سبحانه أن الالتجاء إلى حكم الله تعالى، عندما يكون الخلاف، هو من الإيمان، فمن ترك حكم الله إلى غيره عامدا مستهينا بحكم الله، أو منكرا عدالته وصلاحيته، لا يعد مؤمنا ولا يعد آخذا بحكم الرسالة، ولذا قال سبحانه وتعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ومعنى النص السامى: لا نرسل أى رسول فى أى أمة، إلا كان من شأنه أن يطاع، وهذه الطاعة اللازمة على من أرسل إليهم هى بإذن الله بطاعته، فالله تعالى هو الذى بأمر بطاعته، ومن عصاه فإنما يعصى الله، ومن أطاعه فقد أطاع الله: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ... ﴿٨٠﴾﴾ [النساء]. وفى الأثر الصحيح: «من أطاعنى فقد أطاع الله، ومن عصانى فقد عصى الله، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى، ومن عصى أميرى فقد عصانى»[1] أى أن من يعصى الأمير المعين من قبل الرسول، أو الذى عين على مقتضى أحكام شريعته، فقد عصى الله، فليس كل أمير يعد أميرا للرسول.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ﴾ يدل على أبلغ عموم وأبلغ استغراق، إذ تأكد الاستغراق بالتنكير وبحرف (من) وبالنفى والإثبات، وإن هذا يدل على أن الطاعة هى مقتضى الرسالة، فأساس الإيمان بالرسالة الإيمان بأن ما يبلغ إنما يبلغ عن الله تعالى، ولقد أيد سبحانه وتعالى هذا المعنى وهو التبليغ عن الله تعالى بقوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ، فكل أمر يأمر به هو من الله تعالى، وكل ما

---

(١) سبق تخريجه قريبا.

ينهى عنه هو من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ④﴾ [النجم].

ويجرنا الكلام فى هذا إلى الكلام فى اجتهاد النبى ﷺ: هل طاعته واجبة فيه بإذن من الله، وبعبارة أخرى: أهو لا يخطئ فتجب الطاعة، ويكون ما ينتهى إليه فى الاجتهاد هو كالموحَى به؟ والجواب عن ذلك أنه يجوز الخطأ على النبى ﷺ فى الاجتهاد فى بيان بعض الأحكام، ويجوز الخطأ عليه فى القضاء إذا لبَّس الخصوم. والخطأ الأول قد وقع فقد اجتهد مع أصحابه فى معاملة الأسرى، وخطأهم الله فى اجتهادهم فى ذلك الموضع(١). وقد فرض عليه الصلاة والسلام جواز الخطأ فى القضاء، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «إنكم تختصمون إلىَّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من البعض الآخر، فمن قضيت له بحق أخيه، فإنما أقتطع له قطعة من النار»(٢). ولكن الخطأ فى الأحكام لا يمكن أن يقره الله تعالى عليه، بل يبينه، لسلامة النقل عن الله تعالى، وليكون كل ما يأمر به النبى ﷺ حقا، وليتحقق معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «ما أمرتكم به فخذوه، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه»(٣). وكذلك لا يجتهد النبى ﷺ فى قضائه

---

(١) أومأ إمامنا إلى قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: ٦٧). قال القرطبي: هذه الآية نزلت يوم بدر، عتابا من الله عزّ وجلّ لأصحاب نبيّه ﷺ. والنبيّ ﷺ لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب، ولا أراد قطّ عرض الدنيا، وإنما فعله جمهور مباشرى الحرب؛ فالتوبيخ والعتاب إنما كان متوجها بسبب من أشار على النبيّ ﷺ بأخذ الفدية.

(٢) متفق عليه؛ رواه البخارى: الشهادات - من أقام البينة بعد اليمين (٢٦٨٠)، ومسلم: الأقضية - الحكم الظاهر واللحن بالحجة (١٧١٣).

(٣) رواه ابن ماجه: المقدمة- اتباع سنة الرسول ﷺ (١) ولفظه: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا». وهو فى الصحيحين؛ (١٣٣٧) البخارى: الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٨٨)، ومسلم فى الفضائل: ولفظه عند البخاري: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ؛ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ».

ويكون باطلا؛ لأنه يكون ظلما، ولا يقع منه عليه الصلاة والسلام، وقوله السابق في هذا من قبيل فرض التقصير في نفسه، كما فرض التقصير في كثير من أمره تنزها عن الغرور، وتوجيها لنا. ولعل قوله عليه الصلاة والسلام لتعليم الناس قول الحق في مجلس القضاء، وليبين لهم أن إثم خطأ القاضي يقع عليهم، والقضاء لا يبرر الباطل ولا يغمط الحق، فإن أخطأ لا يحل دينا لمن كان الخطأ لمصلحته أن يأكل مال أخيه، أو يغمط حقه.

ولقد ذهبت الجرأة ببعض الذين يتكلمون في الفقه إلى أن ما يكون باجتهاد من النبي ﷺ لا يكون حجة. كأن النبي يمكن أن يقر على الخطأ في اجتهاده! وذلك كلام باطل لا يكون إلا من مستهين بمقام النبوة، وتبليغ الرسالة! ولقد قال بعض المالكية وقولهم الحق: إن كل من لم يرض بحكم النبي ﷺ وطعن فيه ورده، فهي ردّة يستتاب فاعلها. فأولى بهؤلاء أن يصمتوا ولا يتكلموا، فكلامهم تلبيس وأوهام لا تصدر عن عالم في الدين يفهم حقائقه، ويدرك معانيه!.

طاعة الرسول إذن واجبة في كل ما يأمر به على أنه دين واجب الأخذ به، وكل من يعاند الرسول في حكمه يكون ظالما لنفسه؛ لأنه تمرد على أمر ربه، ولأنه اختار الباطل بدل الحق، ويجب عليه التوبة والاستغفار. ولذا قال تعالى في أولئك الذين يتمردون على أحكام الرسول وقضائه.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ أي: لو ثبت أن أولئك الذين تحاكموا إلى الطغيان والظلم، من اليهود أو المنافقين، وظلموا أنفسهم بخروجهم عن جادة الحق وردهم الحق الثابت، جاءوا إليك تائبين راجعين، فطلبوا غفران الله تعالى، وطلبت لهم ذلك، لعلموا علم اليقين أن الله كثير القبول للتوبة، رحيم بعباده، يفتح باب المغفرة ليدخلوه آمنين مطمئنين إليه، وما سلكوه من طريق الضلال يغفر لهم سلوكه؛ لأن الله تعالى يحب قبول التوبة ويحب المغفرة. وإن مثلهم كمثل الناقة

الشاردة التى يراها صاحبها، يضع لها أسباب التقريب، فإذا عادت إليه فرح بعودتها، بيد أن أحدا من عباد الله لا ينفعه!.

وهنا إشارات بيانية يجب التنبيه إليها:

أولاها- أن الله تعالى سمى الذين تحاكموا إلى غير الشرع ظالمين لأنفسهم، يستوى فى ذلك من حكم لـه ومن حكم عليه؛ لأن تحكيم الطاغى الظالم هو بث للظلم ونشر له، وإذا شاع الظلم وكثر شاع معه الفساد والاضطراب، ومن فعل ما يؤدى إلى ذلك هو ظالم لنفسه، وظالم لجماعته التى يعيش فيها.

وثانيتها- أن الله تعالى قرن الاستغفار من الرسول بالاستغفار له، ليشير بهذا إلى أن الرسول ﷺ لا يقول من عند نفسه، بل يقول عن الله تعالى، ولتكريم مقام الرسالة ومقام الحاكم العادل، فإن الإعراض عنه استهانة به، والاستهانة بالحاكم العادل تؤدى إلى الفوضى وعدم استقرار الأحكام.

والثالثة- أن قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة، ويقول الزمخشرى فى ذلك «لم يقل: (واستغفرت لهم) وعدل عنه إلى طريقة الالتفات، تفخيما لشأن رسول الله ﷺ، وتعظيما لاستغفاره. وتنبيها على أن شفاعة من اسمه رسول من الله بمكان». فالالتفات كما نرى للتنبيه إلى مكانة الرسالة، وتفخيمها، ولبيان أن شفاعة الرسول بمقتضى كونه رسولا، لها مقامها من الله تعالى، وفوق ذلك أن الالتفات يؤدى إلى أن يكون الاستغفار للرسول بوصف أنه رسول، فالباعث على وجوب الاستغفار له هو أنه يبلغ رسالة الله، فترك حكمه استهانة بحكم الله، وهو رسول الله، ورسول الله له حق الكرامة الكاملة.

﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾

﴿شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ معناها تنازعوا فيما بينهم، واختلط الحق بالباطل، وتشابكت الأمور كما تتشابك غصون الأشجار، وإن التحاكم يكون فى مثل هذه الأمور التى

تتشابك فيها عناصر الحق والباطل، ويلتبس بعضها ببعض، ولا يعرف الحق الصريح الواضح من بينها، ويميزه الحاكم العادل الفاحص، الذى ينظر إلى الأمور بعمق، وتدبر، وقوة فراسة، وعزمة على الحق، وطلبه بإخلاص لا هوى.

﴿فَلا وَرَبِّكَ﴾ أيها النبى الكريم، لا يؤمنون، ولا يعدون فى عداد المؤمنين، حتى يحكموك فيما يكون بينهم من خلاف، فإن من أول مظاهر الإيمان والإذعان للحق الرضا بتحكيم الشرع فى الخلاف.

وهنا ثلاثة بحوث لفظية:

أولها: (الفاء) فى قوله تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ﴾ ونقول إنها فاء الإفصاح، لأنها تفصح عن شرط مقدر، ومعنى الكلام: إذا كانت طاعة الرسول واجبة بحكم أنه رسول من عند الله، فإنهم لايؤمنون برسالته حتى يرتضوا التحاكم إليه.

ثانيها: (لا) فى قوله تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ﴾ قال الزمخشرى إنها زائدة لتقوية الكلام، فيكون النص كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [**الحجر**] وقد قال الطبرى إن «لاَ» ليست زائدة، وإنما هى رد على ما تقدم ذكره من تحاكمهم إلى الطاغوت وتركهم حكم الشرع، وقد قال فى ذلك: «قوله (فَلاَ) رد على ما تقدم ذكره، تقديره: فليس الأمر كما يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك ثم استأنف القسم بقوله ﴿وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ﴾.

ثالثها: أن الله سبحانه وتعالى أقسم بذاته العلية، ولكنه أضاف الربوبية إلى النبى ﷺ فقال: ﴿وَرَبِّكَ﴾ يأيها النبى، تكريما لذات النبى ﷺ، وإعلاءً لشأنه، وجواب القسم هو قوله تعالى: ﴿لا يُؤْمِنُونَ﴾.

ومن هذا النص السامى يتبين أن أول مظهر من مظاهر الإيمان الرضا بحكم الشرع، ولكن الرضا وحده ليس كافيا بل لا بد من أمرين آخرين، وهما أن يكون الرضا عن طيب نفس من غير حرج ولا ضيق، وثانيهما التسليم والخضوع لحكم الشرع. وقد قال سبحانه وتعالى فى ذلك:

﴿ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ الحرج الضيق والتململ من الحكم أو الشك فى صحته، والمعنى: أن من مظاهر الإيمان أن يقبلوا التحاكم إلى النبى ﷺ ابتداء، وإذا صدر الحكم لا يشكون فى صحته، ولا يضيقون ويتبرمون به، بل يتقبلونه بقبول حسن؛ لأن قبول الأحكام على أنها من عند الله ينهى الخصومات، ويلقى بالسلام بعدها؛ لأنهم تحاكموا إلى ذى الجلال والإكرام. وقد تكلم العلماء فى العطف بـ «ثَمَّ» بدل الفاء أو الواو، فقال إن «ثُمَّ» تدل على التراخى، وكأن الله يغفر لهم الإثم الذى يصيبهم عند صدمة الحكم لهم بالنطق به، ولكن عليهم أن يروضوا أنفسهم على القبول والإذعان، من غير ضيق ولا تململ، لكى يكون الحكم حاسما للخلاف قاطعا للنزاع.

﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ هذا هو الوصف الثالث لأهل الإيمان بالنسبة لأحكام الشرع الشريف. والتسليم معناه الانقياد والإذعان التام فى المظهر والحس. وإذا كان الوصف الثانى لبيان الخضوع النفسى، فهذا الوصف الثالث لبيان الخضوع الحسى الظاهر. وقد أكد سبحانه وتعالى التسليم بالمصدر فقال «تَسْلِيمـا» للإشارة إلى وجوب الإذعان المطلق من غير أن يثيروا أى شبهة حول الحكم، ولا أن يماروا فيه مراءً ظاهرا، فإن المراء قد يثير نزاعا جديدا، والقضاء يجب أن يكون حاسما قاطعا.

وأصل التسليم هو تقديم النفس، وجعلها خالصة لمن يسلم إليه. يقال: سلمَ لأمر الله وأسلم له. إذا جعل نفسه خالصة لله تعالى، ثم أطلق التسليم على الانقياد الظاهرى، وعدم المماراة فيما يقرره الشرع من حقوق وواجبات.

ويجب التنبيه إلى أن التحاكم إلى النبى بعد وفاته هو التحاكم إلى كتاب الله تعالى وسنة النبى ﷺ، فيجب أن يعلم كل من يُسمى نفسه مسلما أن الله تعالى يقرر أنه لا يؤمن من لا يتحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله، ثم لا يجد ضيقا فى حكم الشرع، بل يرضى به، وينقاد له انقيادا ظاهرا وباطنا. وإذا كان ذلك ما يقره الشرع، فليعلم المسلمون اليوم مكانهم من الإيمان، وقد ارتضوا حكم القوانين

الأوروبية بدل كتاب الله وسنة رسوله، وإذا دعوا إلى حكم الله ضاقت صدورهم حرجا، وتململوا ولم يسلموا، بل يناوئون ويعاندون؛ إذ هم يؤمنون بما عند الأوروبيين أكثر من إيمانهم بكتاب الله تعالى وسنة رسوله! ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾

الآيات السابقة بينت أحوال المنافقين وصفات الإيمان، وأن مظهر قوة الإيمان إطاعة الله ورسوله، والرجوع إلى الكتاب والسُّنة عند الاختلاف، وتحكيمهما فى كل أمور الحياة التى تحتاج إلى حكم وفصل. وأقسم الله بذاته العلية التى خلقت كل ما فى الوجود، وقامت عليه بالحفظ، ألا يكون الإيمان الكامل إلا لمن يُحكِّم الله ورسوله فى كل الخصومات، ويذعن للحكم من غير تململ، ولا تردد. وفى هذه الآيات يبين أن الذين يذعنون لأمر الله ونهيه، حتى فى النفس وترك الأهل، قليلون، وليسوا كثيرين، وهم الذين تقوم عليهم قوة الأمة، ولذا قال سبحانه:

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾ معنى قتل النفس تعريضها للتلف من غير أمل فى النجاة، ويكون فى ذلك إعلاء للحق، ونصر للفضيلة ورفع شأنها، كهذا الذى ينطق بكلمة الحق أمام سلطان جائر ويتأكد أنه سيقتله إن قالها! ولذلك قال النبى ﷺ: «سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قال كلمة حق أمام سلطان جائر فقتله»[١]! ومن هذا أيضا أن يحمل على النطق بالكفر، فيمتنع فيقتل! نعم إن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ (١٠٦) ﴾ [النحل]، فرخص له بالنطق بكلمة الكفر، ولكن الأفضل ألا يقول، وهو مثوب إذا أصر ولم يقل، ففى هذه الأحوال يكون التعرض للقتل فضيلة مشكورة؛ لأنه إعلان للناس بأن للحق أنصارا يفتدونه بأنفسهم، وفى ذلك تحريض على تأييده وهو دعوة صارخة له.

ومعنى الخروج من الديار: الهجرة من البلد منصرفين للجهاد فى سبيل الله تعالى، وذلك إذا لم يكونوا مستضعفين فى الأرض، محكومين بغير المسلمين.

ومعنى النص الكريم: لو ثبت أننا فرضنا عليهم أن يعرضوا أنفسهم للتلف من غير أمل فى النجاة، أو يخرجوا من موضع استقرارهم وأمنهم فى ديارهم، إلى حيث المشقة الشديدة والعمل الكادح، ما استجاب لهذه الفريضة إلا عدد قليل من الناس، وهذا يشير إلى أمرين:

أولهما: أن التكليفات الشرعية لا تكون إلا فيما يطاق من غير مشقة مجهدة، لأن الله ـ تعالى ـ يقول: ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ... (٢٨٦) ﴾ [**البقرة**]، والتعبير بـ (لو) يدل على أن التكليف لا يقع على هذا؛ لأن (لوْ) كما يقول العلماء تدل على امتناع الشرط لامتناع الجواب، فالله تعالى لو يكلف ذلك التكليف لثقل التكليف إلا على عدد قليل منهم.

الثانى: أن فى كل طائفة عددا يقوم بذلك الأمر الشاق، فهؤلاء المؤمنون الأولون قد صبروا على أذى المشركين فى مكة من غير وهن ولا ضعف، ومنهم

(١) سبق تخريجه.

من مات تحت حرّ العذاب الشاق، ثم هاجروا وخرجوا من ديارهم، وهؤلاء أصحاب الأخدود الذين آذوا المؤمنين، فصبروا، وهم يلقون فى النيران وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ۝ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝﴾ [البروج].

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ وإذا كان الله سبحانه لا يكلف ما يشق أداؤه، ولا يمكن احتماله، إلا لعدد من الأقوياء جعلوا منار الهدى أمام الناس فى كل العصور، فإنه سبحانه يكلف الناس ما فيه خيرهم وتثبيتهم على الحق.

ومعنى النص السامى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾: لو ثبت أنهم فعلوا ما يكلفونه من تكليفات محتملة بينت لهم فيها نتائجها وثمراتها، لكان فيها الخير لهم فى الدنيا والآخرة، ففى الآخرة يكون الثواب العظيم والنعيم المقيم، وفى الدنيا يكون العدل والفضيلة، والمصلحة الحقيقية، وهذه الأمور هى خير الدنيا. فالشرع الإسلامى بنى على هذه الأمور الثلاثة: **الأول** الفضيلة المهذبة للنفس، الموجهة إلى توثيق العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان، والعبد وربه، والسعى نحو الكمال الإنسانى، والمنزلة الرفيعة. **والثانى** العدالة التى هى الميزان فى العلائق الإنسانية التى ينتظم بها معاشهم ومعادهم، **والثالث** المصلحة الحقيقية، فما من مصلحة حقيقية ليست هوى ملحا ولا شهوة جامحة - إلا دعا إليها الإسلام، وما من حكم جاء به التكليف الإلهى إلا طويت فيه المصلحة، وكانت نتيجة وثمرة للأخذ به.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ أى يكون فى الأخذ بالتكليف الذى يطاق تثبيت على الحق، هو أشد تثبيت وأقواه. وكان فى التكليف الذى يطاق تثبيت للحق، لأنه يمكن الاستمرار عليه، والاستمرار على فعل ما هو حق يثبته ويقرب الغاية منه، ولذلك كان النبى ﷺ يدعو إلى المداومة على الخير ولو كان

قليلا، وقد قال ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ»(١). وإن الاستمرار على طاعة الله يؤدى إلى مثلها، وإن الاستمرار على السهل يجعل المكلف قادرا على الصعب، ثم على الأصعب، وهكذا حتى يصل إلى أعلى درجات التكليف مشقة، فيكون بعد هذه الخطوات أمرا مستطاعا. وإذا وصل إلى ذلك يكون الأجر العظيم، لذا قال سبحانه:

﴿ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ وإنما قام المكلفون بما كلفوا، وأدوا حق الله تعالى، وقد زاد ثباتهم على الحق، ونالوا الخير، فإن لهم مع ذلك جزاء عظيما، لا حدود لعظمته. وقد تأكدت عظمة الجزاء بأمور ثلاثة: **أولها** ـ تنكيره، فهذا التنكير يشير إلى أنه غير محدود بحدود، فهى عظمة أقصى ما يصل إليه الخيال. **ثانيها** ـ أنه قال إن ذلك من لدن الله تعالى، وهذا شرف إضافى لهذا الجزاء، وهو جزاء يعلو على كل جزاء من الناس، ثم إنه جزاء يستهان فى سبيله كل أذى. **وثالثها** ـ الوصف بالعظمة، والذى وصفه بذلك هو الحكيم الخبير، والخلاق العظيم.

﴿ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ الصراط هو الطريق، والمستقيم هو الذى يوصل إلى غايته أو هدفه، ويقول علماء الهندسة: إن الخط المستقيم هو أقرب خطٍّ بين نقطتين، فالصراط المستقيم هو أقرب طريق يوصل إلى الحق، والهداية هنا هى التوفيق لأقرب طريق موصل إلى الله تعالى. ومعنى النص الكريم: من أجاب داعى الحق، وقام بالأوامر والنواهى على وجهها الأكمل، وفقه الله تعالى إلى طريقه المستقيم الذى لا اعوجاج فيه، ويصل بذلك إلى القرب من الله تعالى، فإن الذى يتقرب إلى الله تعالى بالطاعات يصل إلى إدراك نورانى لحقائق العبودية. ولقد قال البيضاوى فى تفسير هذه الآية: (يصلون بسلوكه جناب القدس، ويفتح عليهم أبواب الغيب، قال النبى ﷺ: «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم

(١) سبق تخريجه.

يعلم»[١]، وإنه قد ورد أن العبد يتقرب إلى الله تعالى بنوافل الطاعات حتى يصير الله تعالى بصره الذى يبصر به وسمعه الذى يسمع به).

وإن الأساس فى الارتفاع إلى هذه المقامات العليا هو طاعة الله وطاعة رسوله، ولذا قال سبحانه:

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ﴾ ذكر الله سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة فضل الطاعة وجزاءها، وهو أجر عظيم، وهداية إلى الطريق الذى يوصل إلى القدسية ومرتبة المشاهدة لله تعالى، وعظمته التى ذكرها النبى ﷺ فى قوله: «اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[٢] وفى هذه الآية الكريمة يذكر لهم جزاءً آخر، وهو كرم الصحبة فى الدنيا والآخرة، فهم إذ يسيرون فى الصراط المستقيم الموصل إلى الله يكونون فى قافلة الأطهار من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وما أحسنها رفقة طاهرة كريمة طيبة!!.

والإشارة فى قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ إلى أولئك السابقين الذين أعطاهم الله سبحانه الأجر العظيم، وهداهم للوصول إلى مرتبة السُّمُو، ومشاهدة المعانى القدسية، وكرر ذكر الطاعة فقال: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾؛ لأن هذه الطاعة هى الأساس فى هذه الأجْزِية المجزية، الرافعة السامية الهادية، وفى تكرارها تحريض عليها، ودعوة إليها.

وقد ذكر سبحانه أن النبيين والصديقين والشهداء والصالحين قد أنعم عليهم، وإن ذلك هو الحق الذى لا ريب فيه، ففيهم جميعا نعم ثلاث قد اختصوا

---

(١) أبو نعيم فى (الحلية) من حديث أنس بهذا اللَّفظ. وأخرج أبو الشيخ عن ابن عبَّاس مرفوعا: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً فَعَمِلَ بِهِ كَانَ حَقّاً عَلَى الله أَنْ يُعَلِّمَهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ». وفى كتاب (رواية الكبار عن الصِّغار) لأبى يعقوب البغدادى عن سفيان: «مَنْ عَمِلَ بِمَا يَعْلَمُ وُفِّقَ لِمَا لاَ يَعْلَمُ». الدرر المنتثرة ج١، ص٧٩٣ برقم (٤٢٢).

(٢) سبق تخريجه.

بها: **أولاها** - نعمة الهداية والتوفيق، وتلك هى الأساس. **والثانية** - نعمة إدراك معانى الربوبية والعبودية، فهم يحسون بعظمة الخالق المنشئ، كما يحسون بعظمة المعبود، ويذوقون طعم الخضوع لله الواحد الأحد الذى ليس بوالد ولا ولد. **والثالثة** - نعمة العمل الصالح. وتلك النعم هى معانى الإنسانية العالية التى تسمو عن كل مظاهر الحيوانية، وما بقى منها فإنه تقوى به هذه المعانى العالية، وتلك النعم السامية.

ومن هم أولئك الرفقاء الأطهار؟ إنهم مراتب ودرجات، وهم أربعة:

أولهم: النبيون، وهم الذين أنبأهم الله، واختارهم ليخبروا عنه سبحانه، ويبلغوا الناس شرعه ويفسروه، وإن من يبالغ فى محبتهم وطاعتهم يكون معهم، لأن النبى ﷺ يقول: «المرء مع من أحب»(١).

وقد روى ابن جرير الطبرى عن سعيد بن جبير أنه قال: «جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ وهو محزون فقال: يا رسول الله، شيء فكرت فيه! فقال الرسول: «ما هو»؟ قال: نحن نغدو إليك ننظر إلى وجهك ونجالسك، وغدا ترفع مع النبيين فلا نصل إليك! فنزل قوله تعالى: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم** ...﴾ الآية. وروى عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها قالت: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال له: «إنك لأحب إلىّ من نفسى، وأحب إلىّ من أهلى، وأحب إلىّ من ولدى، وإنى لأكون فى البيت فأذكرك، فما أصبر حتى آتى، فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتى عرفت أنك إن دخلت الجنة رفعت مع النبيين فخشيت ألا أراك. فنزلت الآية الكريمة»(٢).

والذى يعنينا فى هذا أن من يحب الله ورسوله يكون مع حبيب الله محمد ﷺ وغيره من الأنبياء الأطهار.

---

(١) متفق عليه؛ رواه البخاري: الأدب - علامة حب الله عز وجل (٦١٦٨)، ومسلم: البر والصلة - المرء مع من أحب (٢٦٤١). عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

(٢) رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن عمران العابدى وهو ثقة. عن عائشة رضى الله عنها. مجمع الزوائد (١٠٩٣٧).

والفريق الثانى من قافلة الأبرار، الصديقون، ومرتبتهم تلى مرتبة النبيين، والصديقون جمع صِّديق، وقد فسر العلماء الصديق بأنه الصادق الذى لا يكذب، وقد جاء فى مفردات الراغب الأصفهانى: الصِّديق من كثر منه الصدق، وقيل: يقال لمن لا يكذب قط، وقيل: لمن لا يتأتى منه الكذب لتعوده الصدق، وقيل: بل لمن صدق بقوله واعتقاده، وحقق صدقه بعمله. قال تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا** ﴿٥٦﴾﴾ [مريم] وقال: ﴿**وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ** ... ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة] وقال: ﴿**مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ**﴾.

وإن هذه المعانى متلازمة، فمن صدق فى قوله لا يكذب قط؛ إذ يصير الصدق عادة نفسية له، فلا يتأتى منه الكذب، ولقد قال النبى ﷺ: «عليكم بالصدق فإنه يهدى إلى البر، والبر يهدى إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا»(١).

وإن الصدق فى القول إذا صار عادة نفسية زكت النفس وطهرت، واستقام الفكر والعمل، وصار يدرك الحق لذات الحق، ويتجه إلى طلبه من غير التواء، فيدركه من غير طلب حجة ولا برهان؛ لأن أمارات الحق تلوح له، ويدركها بنور قلبه. وكذلك كان صدِّيق هذه الأمة أبو بكر رضى الله عنه، وقد روى ابن مسعود عن النبىّ ﷺ أنه قال: «ما عرضت الإسلام على أحد إلا كانت له نظرة، غير أبى بكر فإنه لم يتلعثم»(٢).

---

(١) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ (ابن مسعود) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا». [رواه مسلم: البر والصلة والآداب - قبح الكذب وحسن الصدق وفضله (٢٦٠٧)، كما رواه البخارى بلفظ مقارب: الأدب - قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ (٦٠٩٤)].

(٢) رواه الديلمى عن ابن مسعود. كما فى كنز العمال (٣٢٦١٢).

وإن زكاء النفس بمداومة الصدق يؤدى إلى سلامة الاعتقاد، وصحة العمل، وإلى المداومة على تعرف عيوبها، فيكون الصدوق سليم النظر فى كل شىء لم يلبس بباطل، وبذلك يكون الصدِّيق لا يتأتى منه الكذب، ويسلم قلبه كما سلم لسانه، ويصح اعتقاده كما يصلح عمله.

والفريق الثالث من قافلة البر، هم الشهداء، وهم الذين شهدوا الحق وعلموه علما كعلم المعاينة والمشاهدة، فهؤلاء يشهدون بالحق، ويعلنونه ويدعون إليه، فهم الذين قال الله تعالى فى أمثالهم: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة]، فهم حضور الحق والشاهدون به والداعون إليه، وإن من أولئك بلا ريب الذين يقتلون فى الجهاد فى سبيل الله تعالى لإعلاء كلمة الحق، قاصدين وجه الله بقتالهم؛ لأنهم شهدوا الحق وأعلنوه، وضربوا الأمثال على افتدائه بأنفسهم، وشهد الله تعالى لهم بالجنة.

والفريق الرابع الصالحون، وهم من صلحت نفوسهم وأعمالهم، فهم صالحون فى الباطن والظاهر.

هذه القافلة المكونة من هذه الطوائف الأربع، هم أهل الإيمان حقا وصدقا، وهم رفقاء الخير، ورفقتهم أحسن النعم، ولذا قال سبحانه:

﴿**وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا**﴾ الرفيق هو الصاحب الذى يلازمك فى عمل أو سفر، وسمى رفيقا لأنك ترتفق به وتستعين، ويعاون كل منكما صاحبه، ويأتنس به فى العمل والسفر والملازمة بشكل عام. والرفيق هنا ذكر مفردا واستعمل فى معنى الجمع، فالمعنى: وحسن أولئك رفقاء! وإنما أفرد لأن الحسن فى ذات الرفقة، ولأن المصاحبة إفرادية، فكل واحد يصاحب الأحاد والجميع، فهم جميعا فى معنى رفيق واحد، لتشاكل النفوس وتوافقها. وقال الزمخشرى: إن (حَسُن) فى معنى فعل التعجب، فالمعنى: ما أحسن وأطيب رفقة هؤلاء! ولذلك كانت نعمة أنعم الله بها على عباده المخلصين. وهى من فضله.

﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيماً﴾ الإشارة إلى كل ما ذكر من جزاء على طاعة الله وطاعة الرسول ﷺ، من أجر عظيم، وهداية إلى الصراط المستقيم، ورفقته مع الأخيار الأبرار من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، هذا كله فضل من الله تعالى العلى الكبير، وعطاء منه، ورحمة يرحم بها المتقين، وهو العليم بكل ما يعملون من خير، لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء، وهو السميع البصير. فقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيماً﴾ فيه بيان أنه يعلم سبحانه من يستحق فضله وعطاءه ومن لا يستحق، وفيه إشارة إلى أن الطاعة هى طاعة العالم بكل شيء، فالطاعة فيها مصلحة للعباد؛ وكون الجزاء بفضل الله فيه إشارة إلى أن العمل وحده لا يستوجب العطاء، إنما هو من فضل الله تعالى. ولقد روى أن النبى ﷺ قال: «لن يُنَجِّيَ أحدا منكم عمله»، قالوا: ولا أنت يارسول الله؟! قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدنى الله برحمته. سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا، وشيء من الدلجة (أى من قيام الليل) والقصد القصد تبلغوا»(١). اللهم اختم لنا بخير ما نعمل، ونجنا بفضل رحمتك من سوء أعمالنا، إنك ذو الفضل العظيم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ

(١) رواه البخارى: الرقاق - القصد والمداومة على العمل (٦٤٦٣)، ومسلم بنحوه: صفة القيامة والجنة والنار - لن يدخل أحد الجنة بعمله (٢٨١٦). عن أبى هريرة رضى الله عنه.

﴿فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾

فى الآيات السابقات بين الله سبحانه وتعالى دعائم الحكومة الإسلامية الوثيقة الأركان، فذكر لها ثلاثة أوصاف:

أولها ـ أن تسودها الأمانة فى القول والعمل والمال، فلا تقوم حكومة قويمة إلا إذا كانت الأمانة هى السائدة بين الحكام والسائدة بين الشعب، والسائدة فى العلاقات بين الشعب والحكومة. فإذا لم تكن الأمانة فسد أمر الحاكم والمحكوم، وضاعت الأمة.

وثانيها ـ العدل، فهو ميزان الجماعة وميزان الحكم. ولقد كان العدل شعار الإسلام وسيماه ومعناه، فإذا كان لكل دين سمة واضحة فيه، فسمة الإسلام العدل من العدو والولى على سواء. ولا تقوم أمة إذا لم يقم بينها العدل، واحترام الحقوق التى قررها الله تعالى، ومنحها لعباده.

وثالثها ـ الرجوع إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، واتخاذهما الحكم المرضى للحكومة دائما، لا يأخذ أحد منهما ما يحب ويدع ما لا يحب.

وإنه يجب أن يكون للأمة مجلس للحل والعقد يستشيره الحاكم ويشير عليه، فإن اختلف أهل الحل والعقد، احتكموا إلى كتاب الله تعالى، يشير إلى ذلك قوله تعالى: **﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴿٥٩﴾﴾** [النساء].

وفى الآيات السابقة أكد الأمر بطاعة الله تعالى، وبين أن أعلى الدرجات أن يطيع المؤمن الله ورسوله، ولو أمره بأن يتقدم لإعلان الحق والنطق به، وهو يعلم أنه سيقتل.

وإذا تكونت الأمة ذلك التكوين العادل الأمين، تقدمت للدفاع عن نفسها، ولذلك جاء بعده أخذ الأهبة للقتال، فقد قال سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ يا أيها الذين أذعنوا للحق، واستجابوا لله ولرسوله، خذوا الأهبة بالحذر واتقاء أذى الأعداء، وكونوا متأهبين للقاء دائما، ولا يكن أخذ الحذر والاحتراس بالقعود فى الديار، بل بالنفرة والاستعداد لمواجهة الأعداء فى الميدان. فعلى المؤمنين أن ينفروا للحرب، جماعة بعد جماعة، تمر بالثغور التى تواجه الأعداء، أو تلاقى من تستطيع لقاءه منهم. أو إذا تكاثف العدو فى مكان، وأصبحت لا تكفيه جماعة الجند العامل، فلينفر الجند كله، وليتقدم للميدان بكلكله[1]، وهذا معنى النص الكريم بالإجمال ولنتجه إلى تحليل بعض العبارات من ناحية اللفظ والمعنى.

وأولى هذه العبارات قوله تعالى: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾، فقد قال الزمخشرى: «إن الحِذْرَ والحَذَرَ معناهما واحد، ويقال: أخذ حذره إذا تيقظ واحترس. ومعنى خذوا حِذركم، أى خذوا ما فيه الاحتياط لكم، ودفع كل مخوف عنكم»، وقد ذكر الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده: «أن مِنْ أخذ الحذر تعرف حال البلاد الإسلامية، وتعرف حال بلاد الأعداء، أو من يتوقع منهم الاعتداء، وتعرف بلاد المعاهدين وغيرهم، بحيث إذا اضطروا إلى الحرب كانوا عالمين بمواطن قوتها وأماكن ضعفها». وذكر رضى الله عنه «أنه يدخل فى الاستعداد وأخذ الحذر، واتقاء كل مخوف معرفة الأسلحة واستعمالها فإذا كان ذلك يتوقف على معرفة الهندسة والكيمياء والطبيعة وجر الأثقال، فإنه يجب تحصيل ذلك». ولقد قال الإمام هذا فى أول هذا القرن الذى يعيش فيه، وهو ألزم فى هذا العصر الذى

(١) الكلكل: الصدر من كل شىء. لسان العرب.

كشف ابن الأرض فيه الفضاء، وصارت الحرب لا تكون بشجاعة الشجعان، بل تكون بالأدوات وغيرها. . ولقد قال أبو بكر لخالد بن الوليد يوم حرب اليمامة: «حاربهم بمثل ما يحاربونك به»! فعلينا أن نعد العدة بمثل ما يعدون، وقد ابتكروا ما يخرب الديار، فعلينا أن نعمل بهذا الابتكار، فإن الشر لا يدفع إلا بمثله. والله من ورائهم محيط.

والثانية فى قوله تعالى: ﴿**فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا**﴾، فمعنى انفروا: اخرجوا إلى ميدان القتال أو الحراسة. وقالوا: إن نفر ينفر معناه انزعج وخرج إلى عمل من الأعمال، ومنه قوله تعالى: ﴿**فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ** ﴿١٢٢﴾﴾ [**التوبة**]، ومصدره النفر أو النفار أو النفير، والأخير قد يطلق بمعنى الجماعة النافرة. وقالوا إنَّ نَفَرَ يَنْفُر ـ معناها انزعج عن الشيء، ومنه النفور من الأمور ونفور الدابة. (وثُبَات) جمع ثُبَة، وهى فى الأصل ثُبَيَّة، حذفت الياء، ووزنها فعة. ويقال: ثبيت الجيش، جعلته ثبة ثبة، أى جعلته جماعة متفرقة، كل واحدة لها مقصد خاص، وعمل تقوم به، اقتضاه توزيع القوى.

والنفير جماعةً جماعةً، هو الحال الدائمة المستمرة، فيجب أن تكون حراسة مستمرة للحدود والثغور، وهى المرابطة، كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴿٢٠٠﴾﴾ [**آل عمران**].

وأما النفير العام فإنما يكون عند قيام الحرب التى لا تكفى فيها كتيبة، أو كتيبتان، أو كالتعبير التاريخى فى الإسلام: سرية أو سريتان أو أكثر، بل لا بد من الجيش المحارب كله والأمة من ورائه تؤيده وتؤازره.

ولكن ما المراد من النفير جميعا؟ أهو الجيش المحارب كله، أم نفير الأمة كلها؟ لا شك أنه إذا لم تغن السرية وجب أن يتقدم الجيش كله، وتقدم الجيش كله هو فى معنى نفير الأمة كلها؛ لأن الأمة عليها أن تكوِّن الجيش المقاتل، تؤازره وتؤيده بالمال والقول والعمل، وتكون من وراء ظهره تدفعه إلى العمل وتحميه من

كل خيانة. فإن تكوين جيش مسلح كاف فرض كفاية على كل المسلمين، تأثم الأمة كلها إذا تركت تكوينه. ثم إذا دخل العدو الديار صار الواجب أن ينفر كل قادر من الأمة، وإلا كانت كلها مقصرة، ويكون الخروج فرض عين، وحين ذلك تنفر الأمة كلها حقيقة لا حكما.

إن هذا واجب المخلصين فى الأمة، وفى كل أمة معوِّقون يقولون: هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا! ولذا قال سبحانه: ﴿ **وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً** ﴾.

وإن ممن يعيشون معكم ويساكنونكم ويرتبطون معكم برحم واصلة، ويعلنون اسم الإيمان لمن يتثاقلون عند الدعوة إلى القتال، فيبطئون ولا يخرجون، يبطئون غيرهم ويثبطونهم. وهؤلاء لا ينظرون إليكم نظرة المحب الذى يودكم، بل يترقبون الأمر معكم، فإن أصابتكم هزيمة وقتية، أو استشهد عدد منكم، لا يتألمون، بل يفرحون، ويعتبرون قعودهم نعمة أنعم الله بها عليهم، ويحمدون الله تعالى إذ لم يكونوا حاضرين هذه الحرب!! فمعنى ﴿ **شَهِيداً** ﴾ حاضرا الحرب، يقاتل فَيَقْتُلُ أو يُقْتَلُ.

ومن هم هؤلاء؟ أهم المنافقون، أم ضعاف الإيمان؟ قال أكثر مفسرى الرواية: إنهم منافقون، وذلك شأنهم. والتعبير بـ «منكم» يحتاج إلى توفيق بين هذا وقوله تعالى فى شأن المنافقين: ﴿ **مَّا هُم مِّنكُمْ وَلا مِنْهُمْ** (١٤) ﴾ [**المجادلة**]، والتوفيق أن يقال هنا إن المراد بقوله منكم، أى من أهلكم وعشيرتكم وتربطكم بهم رحم؛ فكل منافق كان فى قرابته من هو صادق الإيمان، مجاهد فى الله حق جهاده. ويزكى هذا قوله تعالى فى الآية الآتية: ﴿ **كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ** ﴾.

وبعض المفسرين رأى أن المراد ضعاف الإيمان، ومن ليست عندهم عزيمة الجهاد، وذلك موجود فى كل جماعة، ففى كل جماعة المؤمن القوى فى نفسه ودينه، ومنهم الضعيف فى نفسه وهمته ودينه.

والحق أنه يصح أن يشمل التعبير الطائفتين: المنافقين وضعاف الأنفس والإيمان، فكلا الفريقين لا يهمه إلا نفسه، ولا يندمج إحساسه فى إحساس أهل الإيمان، فهو متربص منتظر، فإن وجد هزيمة لا يألم، بل يسر لأنها لم تصبه؛ إذ لا يعتبر آلام جماعته إيلاما لنفسه، وإن وجد نصرا تألم؛ لأنه لم يكن من الغانمين الذين اشتركوا فى المعركة، ونالوا الفوز فيها؛ ولذا قال سبحانه وتعالى فى شأن هؤلاء فى حال النصر:

﴿ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ ولئن نلتم نصرا وغنما بفضل الله تعالى، لا يفكرون فى سروركم ولا يحمدون الله على نصركم، ولكن يفكرون فى أمانيهم، ويتمنون أن لو كانوا معكم ليفوزوا الفوز العظيم الذى نلتموه، وهو فوز النصر وفوز الغنيمة، فوز الاطمئنان وأداء الواجب، يفكرون فيما ينالهم من خير يرجونه، أو آلام يتجنبونها، ولا ينظرون إلى آلامكم وسروركم، كأن لم يكن بينكم وبينهم أية مودة، ولو كانت ضئيلة!! فتنكير المودة لبيان تصغيرها، وهذا شأن الأثِر الذى يحب نفسه فقط، ولا يفكر فى الجماعة التى يعيش فيها.

وهنا ثلاثة بحوث لفظية ومعنوية:

أولها: التعبير عن هذه الجماعة، المنافقة أو ضعيفة الإيمان، بالمفرد اتباعا للفظ (مَنْ) الذى يجوز عود الضمير عليه مفردا. وفى هذا التعبير إشارة إلى معنى الانفراد فى الإحساس الذى اختصوا به، ولم يشاركوا أحدا فى إحساسهم بالألم أو السرور.

وثانيها: التعبير بقوله: ﴿أَصَابَكُمْ فَضْلٌ﴾ فإن التعبير بإصابة الخير مع أنهم نالوه، للإشارة إلى أن ذلك إرادة الله تعالى. فإن أصابكم ما يؤلمكم فبإرادته، وإن نلتم من خير فبإرادته وبتفضله.

وثالثها: إن قوله تعالى: ﴿ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ ﴾ جملة معترضة بين القول ومقوله، للإشارة إلى فقدهم الإحساس الاجتماعى فقدا تاما، الذى

يجعل مودة أيا كان مقدارها بين المتعاشرين أو المتجاورين أو المتجانسين! لقد فقدوا هذا فقدا تاما، وهذا شأن كل من ينفصل عن جماعته بالإحساس والأنانية الخسيسة!!

وفى قوله تعالى: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ إشارة إلى استعظام الخير الذى ينال المؤمنين، شأن الحسود غير المحب.

وإن هؤلاء الذين يعيشون مع جماعة المؤمنين، ولا يحسون بإحساسهم، لا يخرجون إلى قتال، وإنما يخرج للقتال أولئك الذين يؤثرون على أنفسهم، ويقدمونها لله تعالى رجاء ما عنده، فهؤلاء هم القوة، وهم العماد فى الحروب والشدائد، ولذا قال سبحانه: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ﴾ إذا كان المخذِّلون يتربصون بالمجاهدين، فإنه يجب أن يكون الجهاد للمخلصين، وأن يبعدوا عنهم المعوقين، فإنهم لا يزيدونهم إلا خبالاواضطرابا! فليتقدم للقتال الذين لا ينظرون إلى مغنم يبتغونه، ولا مال يريدونه، إنما يبيعون الحياة الدنيا ومتعها وشهواتها، ويطلبون ثمنا هو الآخرة وما فيها من جنات وعيون، ونعيمها ثابت دائم، ومعها رضوان الله تعالى. وسبيل الله التى يجب القتال فيها هى سبيل الحق، وإعلاء دينه، وجعل كلمة الله هى العليا.

و «يَشْرُونَ» هنا معناها يبيعون أنفسهم، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ﴿١٠٢﴾﴾ [البقرة] وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴿٢٠٧﴾﴾ [البقرة] وقوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴿٢٠﴾﴾ [يوسف] أى باعوه. وإن الذى يبيع نفسه لله، ليفتدى الحق وأهله، له جزاؤه وأجره العظيم، ولذا قال سبحانه: ﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

ومن يتقدم للقتال فى سبيل الحق، طالبا رضاه سبحانه، فإن قتل واستشهد فى سبيله سبحانه، أو غلب وانتصر بتأييد الله تعالى، ونال السلطان من الله بالغلب، فهو فى كلتا حاليه سينال جزاء عظيما. و«سوف» هنا لتأكيد نيل الجزاء فى المستقبل، وأكثر استعمالاتها فى القرآن هى لتأكيد الوقوع فى القابل، ولذا لا تدخل على النفى. وقد وصف الجزاء بالعظم للدلالة على مقداره، ونكّر للدلالة على أنه لا يحده تعيين، ولا يبينه تعريف، مهما يكن دقيقا.

وإنما ينال ذلك الجزاء من خرج مجاهدا فى سبيل الحق، لا يبتغى غير رضاء الله، ولا يبغى علوا فى الأرض ولا تفاخرا. ولقد قال ﷺ: «تَضَمَّنَ الله لمن خرج فى سبيله لا يخرج إلا جهادا فى سبيلى، وإيمانا بى، وتصديقا برسلى، فهو علىَّ ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة»[(١)].

اللهم هب أمتك روح الجهاد فى سبيل الحق، وهبنا رحمة من عندك، إنك أنت الوهاب.

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾

(١) رواه مسلم: الإمارة - فضل الجهاد والخروج فى سبيل الله (١٨٧٦)، والبخارى بلفظ: «تكفل الله»: فرض الخمس - أحلت لى الغنائم (٢١٢٣) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

هذه الآيات، وما يليها من آيات كريمات، للحض على الجهاد فى سبيل الله وقد ابتدأ بدعوة المؤمنين لأخذ الأهبة، والنَّفْرَة للجهاد فى سبيل الله وإعلاء الحق، والحفاظ على جماعتهم، وحماية أنفسهم، وأخذ الحذر لكيلا ينقض عليهم أعداؤهم.

وإنه فى سبيل الاستعداد أن يبعدوا عن حسابهم أولئك الذين يثبطون عن القتال ولا يحتسبوا فى عدادهم إلا أولئك الذين باعوا أنفسهم لله، وباعوا متع الحياة الدنيا، لينالوا نعيم الآخرة.

وفى هذه الآيات يحض على القتال بتذكيرهم بشرف ما يجاهدون من أجله، وهو رضا الله، وإعلاء كلمة الحق، ويذكرهم بإخوانهم الذين يرهقون بالظلم، ويعيشون مستضعفين أذلاء، لا يجدون وليا يلى أمرهم، ولا نصيرا ينصرهم ويستنقذهم مما هم فيه من بلاء، ولذلك قال تعالى:

﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ أى شىء ثبت لكم، حتى صرتم فى حال لا تقاتلون فيها فى طريق الله طريق الحق الصحيح، والدين الذى لا شك فيه، والهداية التى فيها خير الإنسانية فى الدنيا، وحسن المآل فى الآخرة، ولا تقاتلون فى سبيل أولئك الذين استضعفوا لعدم وجود من ينصرهم، فضعفوا، وهانوا على أولئك الظالمين، وإن لم يهونوا عند الله سبحانه وتعالى، وعندكم أنتم أهل الحق والإيمان.

وأولئك المستضعفون الذين أراد المشركون إضعافهم وإذلالهم، منهم الرجال الذين سلبوا كل حول وقوة، وصاروا أذلاء، ومنهم النساء اللائى لا قدرة لهن بحكم الأنوثة ومنهم الذرية الضعاف.

وهنا بحوث نحوية وبلاغية، لا بد من الإشارة إليها.

أولها: موضع ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ من الإعراب، وقد قيل: إن (ما) دخلت على فعل محذوف يتضمن الكلام معناه ويقتضى تقديره، ويكون

المؤدى ما يثبت لكم حال كونكم لا تقاتلون فى سبيل الله، فقوله سبحانه: ﴿لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ استفهام إنكارى، وموضع الاستنكار أنهم لا يقاتلون فى سبيل الله مع توافر دواعى القتال من الإيمان وحماية من تجب حمايتهم بحكم الشرف، والكرامة الإنسانية.

ثانيها: قوله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ فإنهم قالوا إن القتال لاستنقاذهم قتال فى سبيل الله، فلماذا ذكر بعد القتال فى سبيل الله، وهو يشمله؟ وقد أجابوا عن ذلك بأن هذا من قبيل عطف الخاص على العام؛ لأن للخاص مزيد عناية بيانية. ومنهم من قال إن قوله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ منصوب على الاختصاص، والمعنى: لا تقاتلون فى سبيل الله وخصوصا المستضعفين إلخ. ومهما يكن من التخريج النحوى، فإن المؤدى أن النص على هؤلاء للتحريض على القتال، بحكم الشرف والمروءة، بعد التحريض عليه بحكم الدين والقربى إلى الله سبحانه وتعالى، ذلك أن العربى الكريم المعدن، وإن لم يكن مؤمنا، يرى من المروءة والشرف والنجدة ألا يعتدى على ضعيف، لا قوة له، وأن من الواجب عليه أن ينصره، وأن يغيثه.

ثالثها: أن النص على النساء والولدان الصغار فيه تحريض أقوى تحريض؛ لأن هؤلاء يعيرون إذا تركوهم فى أيدى الأعداء. وذكر الأولاد بالذات، وهم لم يجنوا أى جناية، فيه حث بذاته على القتال، فإذا كان المشركون قد أفحشوا فى الاعتداء، فليس للمسلمين أن يخذلوا هؤلاء الضعفاء.

وإن هؤلاء المستضعفين من الرجال والنساء والذرية ليسوا مستسلمين للظلم، ولكنهم يريدون دفعه، ويتجهون إلى الله تعالى أن يخرجهم منه، إذ يقولون كما حكى الله سبحانه وتعالى عنهم:

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ لا يجدون لهم قوة إلا الدعاء والضراعة إلى الله سبحانه وتعالى يطلبون معونته وإمدادهم، فيقولون مقرين بأن لله وحده حق الربوبية، وبأنه هو

الذى يحوطهم ويكلؤهم، وأنه وحده الذى يملك أمرهم: أخرجنا من هذه المدينة الكبيرة، وهى مكة، التى يظلمنا أهلها، والظلم شأن من شئونهم، ويضرعون إليه سبحانه أن يجعل لهم وليا ينتمون إليه، وولاية قوية يشعرون تحت سلطانها بالعزة والكرامة، ويبتعدون عن ولاية الكافرين الظالمة العاتية الباغية، وأن يجعل لهم من ينصرهم، ويخرجهم من نير أهل الكفر، فهاهنا ثلاثة مطالب متلاحقة لهم توجهوا بها إلى ربهم:

أولها: الإخراج من نير الظلم، وحكم الظالمين.

وثانيها: أن يكونوا تابعين لولاية دولة الله، وهى الدولة الإسلامية، فلا يخرجون مشردين لا دولة تحميهم، ولا ديار تؤويهم.

وثالثها: أن يكون لهم من الله نصير دائم ينصرهم، فلا يتمكن الأعداء منهم.

وهنا بحوث بلاغية:

أولها ـ أن المراد من القرية مكة، وقد وصف أهلها بأنهم ظالمون، ولم توصف هى بأنها ظالمة، كما وصف غيرها من القرى مثل قوله تعالى: ﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا** ﴿٥٨﴾﴾ [**القصص**] وذلك تكريم لمكة، إذ هى حرم الله الآمن، ولم يمكن أن يوصف حرم الله الآمن بالظلم، ولو على سبيل المجاز والتقدير. وقد قال ناصر الدين السكندرى فى كتابه «الانتصاف» فى هذه الآية ما نصه: (ووقفت على نكتة فى هذه الآية حسنة، وهى أن كل قرية ذكرت فى الكتاب العزيز، فالظلم إليها ينسب بطريق المجاز، كقوله تعالى: ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً** ﴿١١٢﴾﴾ [**النحل**] إلى قوله تعالى: ﴿**فكفرت بأنعم الله**﴾، وقوله تعالى: ﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا** ﴿٥٨﴾﴾ [**القصص**]، وأما هذه القرية فى سورة النساء، فينسب الظلم إلى أهلها على الحقيقة، لأن المراد بها مكة، فوُقِّرت عن نسبة الظلم إليها، تشريفا لها، شرفها الله تعالى).

ثانيها ـ أن النص يفيد أنهم يحسون بأن النصرة لا تكون إلا من الله، وأن الولاية لا تكون إلا منه فهم بذلك معتزون مطمئنون، ولو كانوا مستضعفين لا حول لهم ولا طول؛ لأن من التجأ إلى الله تعالى عزيز، ولو كان فى أرض الذل.

ثالثها ـ فى التعبير ﴿**لَّدُنكَ**﴾ وهى بمعنى (عند)، ولا تكاد تستعمل فى القرآن إلا مضافة إلى لفظ الجلالة، وعلى أى حال هى تفترق عن عند بأن (عند) تستعمل للعلو، والانخفاض فى العندية، كما تستعمل فى التساوى، فيقال فلان عند فلان إذا كانا متساويين فى الرتبة أو أحدهما دون الآخر، أما (لدنك) فإنها لا تستعمل إلا إذا كان المضاف إليه عاليا، والمضاف دونه، فهذا التعبير يشير إلى أن أولئك الضعفاء قد لَجأوا إلى الجانب الأعلى الذى لا يدانيه علو فى الأرض ولا فى السماء، وإذا كانوا قد لجأوا إلى الله، فإن الله ناصرهم.

﴿**الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ**﴾ سبيل الله تعالى هى سبيل الحق الثابت الذى لا يكون فيه العدل، ولا يكون بغى ولا فحشاء ولا أذى، وفيه قيام المصالح ودفع المفاسد. والطاغوت هو فَعَلُوت من طغى، وهو مجاوزة الحد، والبغى الشديد، وترك الخير، وفعل الشر، والسعى فى الأرض بالفساد.

وهنا مقابلة بين قتال أهل الإيمان، وقتال أهل الكفر ـ بالغاية منهما ـ فغاية المؤمنين نصرة الحق ودفع الفساد، وغاية الكافرين نشر الظلم والفساد فى الأرض، ولو ترك الظالمون من غير أن يقاومهم أهل الحق، لعم الفساد، وذهب الخير، وهدم الحق، كما قال سبحانه: ﴿**وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة]. ﴿**وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴿٤٠﴾﴾ [الحج].

وإن السبب فى أن يجاهد المؤمنون فى سبيل الله، وهى سبيل الحق ورفع الإنسانية، والمحافظة على كرامة الإنسان، هو إيمانهم، فالإيمان يدفع إلى أسمى الغايات والدفاع عنها، وذلك السمو هو سبيل الله تعالى، والكافرون لعدم إيمانهم بالمثل العليا الإنسانية يقاتلون فى سبيل الطغيان والسيطرة الظالمة على الأرض.

وإن هذه ظاهرة ثابتة، فالقتال فى ظل الدين، والتمسك بمثله العليا، رفعة للإنسانية، ومنع الفساد، ومنع لتحكم الرذيلة فى الفضيلة. والماضى ينبئ عن ذلك، فقتال النبى والصحابة من بعده كان فيه حد من طغيان الملوك، وظلم الظالمين، ونشر للواء العدل، ومنع للفتنة فى الدين، وتحكم الإنسان فى أخيه الإنسان. وقد وصف الله المؤمنين إذا انتصروا، فقال سبحانه وتعالى فى أحوالهم: ﴿ **الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ** ﴿٤١﴾ ﴾ [**الحج**]، أى أنهم إذا انتصروا رفعوا لواء العدل، وأقاموا مجتمعا فاضلا على أساس من الفضيلة ودفع الرذيلة.

وأما الذين لا يذعنون للحق، ولا يؤمنون به، ولا يقيمون للفضيلة وزنا، فإن قتالهم فى سبيل الغلب، والسلطان الغاشم، والتحكم والسيطرة، وإن الماضى والحاضر يشهدان بصدق ذلك، وإن العيان ليؤيد هذه الشهادة الصادقة. ألم تر إلى أولئك الذين يتحكمون الآن فى مصاير العالم، لا يفكرون إلا فى الغلب على قطعة من الأرض يستولون عليها، أو يبسطون نفوذهم فيها، وما ذلك إلا طغيان المتحكمين المسيطرين فى بلادهم! وانظر نظرة عميقة إلى أولئك الذين وضعوا أيديهم على أدوات الحرب المخربة، التى إن ألقيت لا تبقى ولا تذر، وتأكل الأخضر واليابس، فإنهم يتغالبون على النفوذ، ولو استشيرت أُمَمُهم فردا فردا، لاستنكروا ما هم مقدمون عليه أو يكادون! فالحروب التى يثيرها الكافرون فى هذا الزمان لا يدفعها إلا طغيان أفراد معدودين، يتحكمون فى الشعوب ومصايرها، بطريقة أقسى مما كان يتحكم الملوك من قبل!.

﴿فَقَاتِلُوا أُوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ إذا كان الكافرون يقاتلون فى سبيل الطغيان، والظلم والسيطرة والفتنة فى الدين، وإكراه الناس، حتى لا يستمروا على إيمانهم، فإن على المؤمنين أن يقاتلوهم؛ لأنهم نصراء الشيطان، أو الذين دخلوا فى ولايته. ومعنى النص السامى: قاتلوا أيها المؤمنون الذين ارتضيتم سبيل الله طريقا، ونصرة الحق منهاجا، الكافرين الذين اتخذوا الشيطان لهم وليا يوالونه، ونصيرا لهم ينصرهم فى زعمهم؛ وذلك لأنكم تُعلون الحق، وتدفعون الأذى، وتمنعون الشر والفتنة فى الدين، وتحاربون الفساد. ولا تخافوا من هؤلاء الذين يوالون الشيطان، ويزعمون أنه ينصرهم، فإنهم يتبعون تدبير الشيطان لهم، أى يتبعون وساوس أنفسهم، وأهواءها التى يتحكم فيها الشيطان ويسيّرها. وتدبير الشيطان مهما يكن، لا يكون قويا ينتصر به أهل الكفر والفساد على أهل الحق. وضعف ذلك الكيد والتدبير الذى يدبره الكافرون وإبليس معهم، سببه أنهم تسيطر عليهم الأهواء، والأهواء تفسد الفكر وتفسد الأعمال، وتوجد الشحناء. وأهل الحق لو اتخذوا كل أسباب القوة، واعتزموا أمورهم ودبروا تدبيرهم، وقد جانبوا الهوى والشهوات، هم غالبون لا محالة، وما يغلب أهل الباطل إلا لعدم اتخاذ أهل الإيمان الأسباب.

وسمى الله سبحانه تدبير الكافرين مع شيطانهم ﴿كَيْدَ﴾، لأنهم لا يقصدون بالتدبير رفع حق أو خفض باطل، بل الكيد والأذى لأهل الحق.

اللهم اهد المؤمنين إلى أسباب القوة، وأخذ الأهبة، وإعداد العدة للجهاد فى سبيلك، سبيل الحق والكرامة والسمّو والعلو.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾

الآيات السابقة فى الحض على القتال، وبيان أن القتال دفاع عن العجزة، والنساء، والأطفال، الذين لا يجدون حيلة للخروج من الهوان والاستكانة للظالمين، ولا يجدون سبيلا لأن يخرجوا من ديار الذل أو يدفعوا عن أنفسهم أوْضَاره وآلامه، ففى القتال دفاع عن هؤلاء، وإخراج لهم. ولكن المسلمين لم يكونوا سواء فى تلقى شدائد القتال: فمنهم من يتقدم للميدان لا يهمه أن يقع على الموت أو يقع عليه، كعلى بن أبى طالب، وغيره من صناديد المؤمنين، ومنهم من يخشاه ويخافه، وهذا الصنف فى كل جماعة، ولقد قال الله تعالى فيه:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ تكاثر جمع المؤمنين نسبيا فى مكة، وخرجوا مهاجرين، ليقيموا دولة الفضيلة فى المدينة، وسكنها النبى ﷺ واستقر بها، وأخذ يعقد العقود، وينسق العلاقات بين المقيمين بها وحولها، حتى يكون الاطمئنان. ولقد أراد المؤمنون أن يتقدموا لقتال

المشركين، حتى إن النسائى يروى أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابا له أتوا النبى ﷺ، فقالوا: يانبى الله، كنا فى عز ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا فى ذل!! يريدون أن يأمرهم بقتال المشركين. وسواء أكان الطلب وهم بمكة، أم كان وهم بالمدينة، قبل أن يتقدم النبى ﷺ لدفع أذى المشركين بالسيف بعد أن استمادوا وطغوا فى الأرض، وأكثروا فيها الفساد. فإن النبى بحكم الله أمرهم بأن يكفوا عن القتال وقتا ينظم فيه الأمر بتقوية أرواحهم، وتوجيهها إلى الله تعالى لتخلص لله وحده، وذلك بإقامة الصلاة، فإن الصلاة فيها تخليص النفس من أدران المآثم، والاتجاه بها إلى الله وحده، وهى إذا أديت على وجهها تنهى عن الفحشاء والمنكر، كما أمرهم أن يتجهوا فى هذه الفترة أيضا إلى تقوية أنفسهم، والربط بين آحادهم بصلات المودة والتعاون، وإزالة ضعف الضعفاء، وذلك بإعطاء الفقراء الزكوات التى كانت مفروضة فى أول الإسلام. وإن تقوية الضعفاء سبيل قوة الدولة، كما قال ﷺ: «ابغونى فى ضعفائكم، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم»(١)... حتى إذا استقام أمر الجماعة الإسلامية كتب الله تعالى القتال الذى طلبه من قبل أقوياء الإيمان، ولم يعارضه غيرهم، فكان الطلب من الجميع، كتبه الله تعالى دفاعا عن أهل الإيمان الذين يستذلهم المشركون، ومنعا للفتنة فى الدين، وإعلاء لكلمة الحق، ولكى يتقدم للإيمان كل مريد للحق طالب له، غير خائف من صولة الشرك. ولما كتب القتال كان الصادقون الأقوياء آخذين الأهبة، ومستعدين للإقدام، وكان الضعفاء فى وجل، ولذا قال سبحانه:

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ الخشية الخوف الشديد مع مهابة الضعيف لمن يخافه، وهذا الفريق الذى خاف القتال مع الهيبة من الأعداء هو من الضعفاء الذين لا يعلون بإيمانهم. والتعبير بقوله تعالى فى أوصاف هذه الخشية: **﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾**، فيه بعض إشارات بيانية.

---

(١) سبق تخريجه من رواية الترمذى وأبى داود والنسائى.

أولاها ـ أنه عبر عن الأعْدَاء بقوله ﴿النَّاسَ﴾، وهو توبيخ أبلغ توبيخ، ذلك لأنهم أناس مثلهم، وليسوا فى الفضل مثلهم، وفوق ذلك مع أنهم أناس مثلهم، يجعلون خشيتهم فى مقابل خشية الله تعالى ذى الجلال والإكرام القاهر فوق عباده.

الثانية ـ التعبير بلفظ الجلالة فيه إشارة إلى بيان خورهم وفساد تفكيرهم؛ إذ يجعلون خشية الله ـ جل جلاله ـ، فى مقابل الخشية من الناس، والله تعالى إذا كان معهم وقاموا بحق الجهاد، فلن يخذلوا أبدا.

الثالثة ـ فى الترديد بين أن تكون خشيتهم من الله بمقدار خشيتهم من الناس، أو أكثر، فيه بيان لحال ضعفهم، واستمكان الضعف، وهو ترقٍ فى التوضيح، إذ إنه من المقرر أن المؤمن لا يليق به أن يخاف الناس، كما يخاف الله، فكيف إذا كان يخاف الناس أكثر من الله؟! ولا شك أن فريقا من أولئك الضعفاء أو المنافقين كان على هذه الحال.

وأولئك الجبناء لا يكتفون بالخوف والفزع، بل يصل بهم الأمر إلى درجة أن يعترضوا على فرضية القتال.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ قد قالوا لفزعهم: ربنا الذى خلقنا ونمّانا وربانا، لأى شىء كتبت علينا القتال وفرضته وألزمتنا به، وهو أمر مخوف مرهوب؟! فمن فرط ذهولهم وجبنهم ينسون العزة والكرامة، وأنهما مطلبان لا ينالان إلا بالحرب والجهاد؛ وينسون إذلال الكافرين للمؤمنين، والفتنة فى الدين، ويسألون عن أسباب القتال!. نعم إن القتال أمر تكرهه النفوس، ولكن إن كان دفعا للذل يصير واجبا، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة]. فيصير القتال أمرا مستمرا لشرف الغاية التى تدعو إليه.

وإذا ذُكر أولئك الضعفاء بالباعث على شرعية القتال لا يذهب فزعهم، بل يقولون وجلين هلعين: ﴿لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾، أى: هلا أخرتنا فى إجابة

داعى القتال إلى زمن مؤجل قريب؟ فهم بعد أن يعود إليهم رشدهم يطلبون أن يُؤَخروا هم، لا أن تؤخر الفرضية! . لقد كان كلامهم الأول فى شأن الفرضية، ولما أدركوا سوء قولهم، كان كلامهم عن مطالبتهم بتأخير ذهابهم إلى القتال، وذلك ما يدل عليه تعبير الله عنهم بقوله: ﴿لَوْلا أَخَّرْتَنَا﴾، فهذا الفريق الضعيف الإيمان يريد أن يذهب المجاهدون الأبرار، ويقعدوا هم مع القاعدين!! وقد قال فى ذلك القرطبى: (معاذ الله أن يصدر هذا القول من صحابى كريم، يعلم أن الآجال محدودة، والأرزاق مقسومة، بل كانوا لأوامر الله ممتثلين، سامعين طائعين، يريدون الوصول إلى الدار الآجلة خيرا من المقام فى الدار العاجلة، على ما هو معروف من سيرتهم، اللهم إلا أن يكون قائله ممن لم يرسخ فى الإيمان قدمه، ولا انشرح بالإسلام جنانه، فإن أهل الإيمان متفاضلون؛ فمنهم الكامل، ومنهم الناقص، وهو الذى تنفر نفسه عما يؤمر به، فيما تلحقه فيه المشقة، وتدركه الشدة).

﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾ إن الحرص على الدنيا والتعلق بها، يدفع إلى الرغبة فى البقاء على أية صورة كان البقاء، سواء أكان البقاء فى عزة أم كان فى ذلة. فمطامع المال ومتاع الدنيا تجعل النفس ترضى بالحياة بكل صورها، وقديما قال العرب: (أذلَّ الحرصُ أعناقَ الرجال). فكان لابد لتربية روح الجهاد من تعريف المسلم بقيمة هذه الحياة، ووزنها بالنسبة لما بعدها، ولذلك أمر الله نبيه أن يقول لهؤلاء الذين كانت خشيتهم للناس كخشية الله أو أشد، واضطربوا عندما أمروا بالقتال: إن كل منافع الدنيا ولذاتها قليلة، مهما كبرت فى نظركم، فكثيرها قليل إذا كانت فى ذلة، ولا يبقى الانتفاع إذا تحكم فيكم الأعداء، وهى فانية لا تبقى، وكل ما يكون مآله الزوال ضئيل مهما تكاثر فى العدد، وإذا وزن متاع الدنيا بمتاع الآخرة الباقى الخالد الدائم، فإنه لا يكون شيئا مذكورا!! ولذا جاء قول النبى بأمر الله تعالى: ﴿مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾ والآخرة بما فيها من متاع دائم خير من الدنيا بكل حذافيرها؛ لأنه لا نزاع

فيها، ولا شر يتحكم ولا مغالبة، بل اطمئنان وهدوء، وسرور مستمر، لمن ينالون جنتها ويبعدهم الله تعالى عن جحيمها، وهى مع ذلك أكلها دائم، ونعيم مقيم، ورضوان من الله أكبر، وإن أعمال الخير فى الدنيا، والجهاد فى سبيل الحق، هى السبيل لنيل ما فى الآخرة من خير وجنات تجرى من تحتها الأنهار، ومن عمل عملا صالحا نال جزاءه موفورا، ولذا قال سبحانه وتعالى:

﴿وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ الفتيل: هو الخيط الدقيق الذى يكون فى شق نواة التمر، وهو يضرب مثلا للقلة والتفاهة. والمعنى: إنه إذا كانت الآخرة خيرا من الدنيا وأبقى من متاعها، فإن طريق الآخرة هو الجهاد فى سبيل الله، والقيام بطاعته، وإنكم ستنالون الجزاء الأوفى، ولا ينقص من أحد منكم أى قدر من جزائه، ولو كان قدرا ضئيلا لا تأبهون له فى دنياكم، فإذا كان حرصكم هو الذى جعلكم تخشون القتال، وترجئونه، فإنه يجب أن يكون حرصكم كبيرا على ما هو أغلى وأعظم، وما هو مؤكد لا احتمال فيه، ولقد كان حرصهم وخوفهم من القتال؛ لأنهم يريدون الحياة ويخافون الموت، فبين لهم سبحانه أن الموت آت لامحالة، وأنه لاحق بهم أينما يكونوا:

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ البروج جمع برج، وهو يطلق على الحصن المنيع، ويطلق على القصر العالى الذى لا يصل إليه أحد، ويبنى للملوك والكبراء لكيلا تصل إليهم الرعايا. مشيدة: أحكم بناؤها، وارتفعت، أو بنيت بالشيد، وهو الملاط القوى الذى تربط به اللبنات بعضها ببعض. ولقد قال طرفة بن العبد:

كأنها برج رومىٍّ تكنَّفها بانٍ بشيد وآجرّ وأحجار

ومعنى النص: إن كنتم تريدون بقعودكم عن الجهاد وطلب إرجائه أن ترجئوا الموت أو تطيلوا الحياة، فقد أخطأتم، فإنه حيثما كنتم يدرككم الموت ولو كنتم فى أقوى الحصون، وأمنعها، وأحكمها بناء.

وفى التعبير بكلمة «يدرككم» إشارة إلى أن الموت كأنه يطلب الإنسان ويتبعه حيثما كان، وفى أى وقت كان، فهو طالب لا بد أن يدرك ولا بد أن يصل؛ لأنه حقيقة محتومة فإن فررتم منه فإنه ملاقيكم، فلا تفروا منه واطلبوا الحق ولو أدى إليه، وما أحسن ما قاله زهير بن أبى سلمى:

ومن هاب أسباب المنايا ينلْنه   وإن يَرْقَ أسباب السماء بسلَّم

وإن هؤلاء الذين ضعفت نفوسهم قد يدفعهم اضطرابهم إلى أن تسيطر عليهم الأوهام، فمنهم من يقول كلاما يثير الظنون ويسكت عنه الباقون منهم فكأنهم قالوه، ولذا حكى ـ سبحانه ـ القول عن هذا الفريق فقال:

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾ أى إن تصبهم حال حسنة تحسن عندهم، من رخاء أو خصب أو ظفر أو غنيمة أو سعة فى الرزق، يقولوا: هذه الحال من عند الله تعالى، فإن كان النصر قالوا: من عند الله. وإن يصبهم أمر يسيئهم، كالهزيمة، قالوا: ذلك من محمد، كأنهم ينسبونه إلى سوء تدبيره ـ عليه الصلاة والسلام ـ، أو يتشاءمون به، ويهبطون بذلك هبوطا شديدا! فالحسنة ما يحسن عندهم، والسيئة ما يسوؤهم. وذلك التفكير الذين يفكرونه ناشئ من ضعفهم النفسى، وضعفهم الإيمانى، وسوء ظنهم بالنبى ﷺ، وذلك شأن أهل النفاق ومن يستمعون إليهم من ضعفاء أهل الإسلام:

﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ أى إذا كنتم تنظرون إلى ما قدره الله تعالى فى علمه المكنون، وما يوفق إليه عباده، وما يمدهم به من عون، فإن كل شىء من عند الله، فالشدة والرخاء من عند الله، والغنيمة والهزيمة بتقدير الله عند اتخاذ الأسباب، فلا ينصر الله متخاذلا، ولا يخذل من يريد ما عند الله، ويتجه إلى الجهاد مستعدا بقلبه وعدته وتنظيمه، وبهذا يرد عليهم ما توهموه، أو قالوه.

وقد بين سبحانه أن كلام هؤلاء كلام من لا يفقه الأمور على وجهها، ولا يدرك معانى الأقوال والأفعال. ولذا قال سبحانه: ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ والمعنى: أن الأمر ثبت لهؤلاء الذين لم يدركوا الأمور حتى كادوا لا يدركون إدراكا حقيقيا أى حديث يتحدثون به، أو أى حديث يلقى إليهم، فلا يعلمون أن الله هو القابض الباسط القادر على كل شىء!. وإنهم لو فهموا ما يتلى عليهم من كتاب الله والحكمة لاهتدوا، وهذا الاستفهام توبيخ لهم وبيان لوصفهم الحقيقى، وهو أنهم لا يكادون يفهمون معنى ما يسمعون وما يقولون! اللهم اهدنا إلى الطيب من القول، واهدنا إلى الصراط الحميد.

مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾

هذه الآيات تتميم للمعانى التى اشتملت عليها الآيات السابقة، فإن هؤلاء المنافقين وضعاف الإيمان، كانوا يُحمِّلون النبى ﷺ تَبعة الهزيمة إن كانت!. وإن كان ما يحسن فى نظرهم قالوا: هذا بفضل الله، ونسوا أن كل شىء بتقدير الله سبحانه وتعالى وتوفيقه، فقد قدر النصر والفوز، كما قدر الضرر والأذى، وكلٌّ من عند الله سبحانه وتعالى. وقد حسب أولئك المنافقون والضعفاء أن البعد عن

القتال يُنْجيهم من الموت، فبين الله سبحانه أنه لا نجاة من الموت، وأنه حيثما كان الشخص فالموت مدركه ولاحقه.

وفى هذه الآيات يبين سبحانه أن ما يصيبك من أمر يحسن عندك، فإنه بفضل الله تعالى؛ إذ وفقك إلى سببه، وجعل السبب منتهيا بالنتيجة وما أصابك من أمر يسوؤك فبسببك وعمل منك، وأن الرسول لا يحمل أوزاركم، وأن طاعته واجبة فى المنشط والمكره، وأن الذين يظهرون الطاعة بألسنتهم أمامه، ويبيتون العصيان من ورائه، الله بهم عليم، ولذا قال سبحانه:

﴿**مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ**﴾ فى هذا النص الكريم تخريجان: أحدهما ـ أن هذا من كلام الله تعالى، والخطاب للنبى ﷺ، وهو من بعد ذلك خطاب لكل مكلف مطالب بالعمل بالشرع الشريف. والمراد بالحسنة ما يكون فيه ما يسر وما يحسن فى نظر الإنسان، والسيئة ما يسوء فى نظر الإنسان. والمعنى على هذا التخريج: ما أصابكم من أمور حسنة فبتوفيق الله تعالى لكم، وجعل النتائج مترتبة على أعمالكم التى اتخذتم فيها الأسباب، ولم تتقاصروا عن الاتجاه فيها إلى أسباب الظفر. وما يصيبكم مما يسوؤكم وينزل بكم من غم، فلتجنبكم الأسباب الموصلة إلى الغاية، ومخالفتكم أوامر الله ورؤسائكم، كما كان الشأن فى أحد، فما كان الأمر الذى ساء إلا من المحاربين الذين أُمروا فخالفوا، وما كان النصر فى بدر إلا من الله، وإطاعتهم الأوامر.

والتوفيق بين النص الكريم، وقوله من قبل: ﴿**قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ** ﴿٧٨﴾﴾ [النساء]، هو أن النص الأول كان موضوعه الكلام فى تقدير الله، فهم إن انتصر المؤمنون لا ينسبون للنبى ﷺ أى فضل، بل يجردونه من الفضل، ويقولون هو من عند الله!! وما قصدوا التفويض والإيمان بالقدر، بل قصدوا الغض من مقام النبوة!! وإن كان ما يسوء نسبوه إلى النبى إيذاءً وتمردا، فالله قال لهم: كل ذلك بتقدير الله وإرادته. أما هذا النص: ﴿**مَا أَصَابَكَ**﴾، فموضوعه اتخاذ الأسباب، ومعناه أن من أخذ الأسباب وتوكل على الله، فالله تعالى يعطيه النتائج، ومن لا

يتخذ الأسباب أو يخالف المنهاج السليم الموصل إلى الثمرة، أو لا يتوكل على الله تعالى ولا يفوض إليه، فإنه سيناله ما يسوؤه، وبسبب منه؛ فالأول لبيان القَدَر، والثانى لبيان العمل.

وهذا هو التخريج الأول، **والتخريج الثانى** أن يكون: ﴿**مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ**﴾، من حكاية قول المنافقين والضعفاء فى إيمانهم؛ لأن آخر الآية السابقة: ﴿**فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا** ﴿٧٨﴾﴾ [النساء]، ثم ذكر سبحانه حديثهم الذى لم يفقهوه، وهو قولهم: ﴿**مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ**﴾ إلخ، ويكون الخطاب للنبى ﷺ، فهم يقولون له: ليس لك من فضل فى النصر الذى تناله، فإن ما أصابك من ظفر فمن الله، وما أصابك من هزيمة فمن نفسك! وقد ذكر هذا التخريج القرطبى، وقال: «والمعنى: فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا، حتى يقولوا: ما أصابك الله من حسنة فمن الله!».

ويكون ذلك الكلام على هذا التخريج ترديدا لقولهم: ﴿**مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ**﴾، ويكون فى الأول الحديث عن أنفسهم، وفى الثانى الحديث عن النبى ﷺ، ففى الأول معنى التطير والتشاؤم، وفى الثانى تجريد النبى ﷺ من كل فضل!.

وهم فى الأمرين خارجون عن الطاعة متمردون، وقد ردَّ الله تعالى كلامهم بقوله سبحانه:

﴿**وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً**﴾ وإنا أيها النبى قد شرفناك برسالتنا، فأرسلناك رسولا فقط، لا تتكفل بالأرزاق، ولا تهب النصر، ولا تمسك مقاليد الكون، ولست تملك من أمر نفسك شيئا، إنما أنت مكلف بالتبليغ فقط، فإن بلغت فما عليك شىء، وإن اتخذت الأسباب فى الحروب للظفر، وتوكلت على الله، فإن الله مانحك النصر، ومعطيك الغلب، وإن خالف من معك ما سننت لهم من منهاج للظفر، فإن الهزيمة واقعة بهم، ولست مسئولا عما يصيبهم

القدر به من أمر يسرهم، ولا أمر يسوؤهم. وفى قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً﴾ يذكر سبحانه كلمة ﴿رَسُولاً﴾ تأكيدا لوصف النبى ﷺ بالرسالة، ولبيان أن عمل الرسول ليس هو التحكم فى القدر، إنما عمله التبليغ فقط، فإذا بلغ فما عليه من شىء.

وإذا كانوا قد اتهموك وقالوا ما قالوا، فكفاك شهادة الله لك بأنك بلغت وجاهدت، وأن ما يرمونك به باطل، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات.

وإن تصرف أولئك المنافقين والضعفاء فيه إخلال بواجب الطاعة، وإن الرسالة التى حمل عبئها محمد ﷺ توجب عليهم طاعته من غير تمرد، بل مع الإذعان والخضوع لما يطلبه باسم الله، وأن يعلموا أن طاعته فيها طاعة الله، فإن تمردوا عليه أو تشاءموا به، فليعلموا أن ذلك تمرد على الله، ولذا قال سبحانه:

﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ إن هؤلاء كانوا ينتقصون فضل النبى بنسبة الظفر إلى الله والهزيمة إلى النبى، وقد بين الله تعالى أنه رسوله، فإن تنقصتموه فإنما تتنقصون من أرسله، وإن تمردتم عليه فإنما تتمردون على من أرسله: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ﴾. فيما يأمر به، وينهى عنه، وفى دعوته إلىْ الجهاد، فإنما يطيع الله تعالى؛ لأنه إنما يتكلم عن الله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [النجم] ولقد روى أن رسول الله ﷺ قال: «من أحبنى فقد أحب الله، ومن أطاعنى فقد أطاع الله»، فقال الذين يشككون فى الإسلام من المنافقين: ألا تسمعون إلى ما يقول هذا الرجل. لقد قارف الشرك، وهو ينهى أن يعبد غير الله! ما يريد هذا الرجل إلا أن نتخذه ربّا كما اتخذت النصارى، فنزلت هذه الآية: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ﴾[1] وعندى أن الآية لا تحتاج إلى سبب نزول فى بيانها لأنها واضحة بينة، يشهد لمعناها سابقها ولاحقها، وإن الحديث فى ذاته صحيح المعنى، وروى مسلم مثله عن أبى هريرة، وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «من

(١) ذكره جماعة من مفسرى السلف منهم القرطبى والرازى وأبو السعود والآلوسى والبيضاوى والسمرقندى عن قتادة (من التابعين).

أطاعنى فقد أطاع الله، ومن يعصنى فقد عصى الله، ومن يطع أميرى فقد أطاعنى، ومن يعص أميرى فقد عصانى»(١)، ومن نال فضل طاعة الله ورسوله، فقد نال حظ الدنيا والآخرة، ومن أعرض عن ذلك فعليه تبعة عمله.

والرسول ﷺ قد أدى واجبه فى التبليغ، ولذا قال سبحانه وتعالى:

﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ ومن عصى أمرك ولم يطعك، وأعرض عن الحق الذى أمرك الله تعالى بتبليغه، فإنه وحده الذى يتحمل تبعة إعراضه عن دين الله، ولا تبعة عليك، إنما عليك التبليغ فقط، وعلى الله تعالى حسابهم يوم الحساب، فلا تكلف نفسك ما لست مكلفه، فما أرسلك الله تعالى إلا مبشرا ونذيرا، وليس عليك أن تحمل الناس على الإيمان، ثم ما أنت مكلف بالمحافظة عليهم ومراقبتهم وتتبعهم حتى يكونوا مهتدين: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ... ﴿٥٦﴾﴾ [القصص]، وما أنت بمهيمن عليهم حتى تحاسبهم على الإيمان، إنما الحساب عند الله...

وإن هؤلاء المنافقين يظهرون الطاعة، ويبطنون المخالفة، ولذا قال سبحانه:

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ إنما يقول المسلمون جميعا: أمرنا معك طاعة وخضوع لما تطلب، فليس لنا إلا أن نطيعك، ولا يجوز أن نخالفك؛ لأن طاعتك هى طاعة الله، فأنت فينا المطاع دائما، وقد قصرنا أحوالنا على طاعتك.

هذا قول المسلمين عامة، ولكن المؤمنين يقولون ويذعنون ظاهرا وباطنا، وسرا وإعلانا، والمنافقون يقولون ذلك بظاهر من القول، وهم ينوون المخالفة ويصرون عليها ولا يتركونها، وهم الذين يقول الله تعالى فيهم: ﴿فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾، أى فإذا خرجوا من عندك بارزين ظاهرين غير مستخفين، أخذوا يتدبرون فيما بينهم الأمر الذى يكون مخالفا للطاعة!

---

(١) متفق عليه، وقد سبق تخريجه.

والتعبير عن الخروج بالبروز للإشارة إلى تفاوت ما بين أحوالهم! وتضارب مظهرهم مع خبيئتهم. ويقول الزمخشرى فى المعنى اللغوى للتبييت: (والتبييت إما من البيتوتة؛ لأنه قضاء الأمر وتدبيره بالليل، ويقال: «هذا أمر بُيِّت بليل». وإما من أبيات الشعر؛ لأن الشاعر يدبرها، ويسويها)، وعندى أن هذا المعنى غريب، ولكن الأولى هو الأول مضافا إليه معنى التزوير والتحسين، لأن (بيّت) تتضمن معنى التزوير والتمويه. والمعنى على أى حال أن هذه الطائفة، بعد خروجها من عندك، تدبر أمر مخالفتك، وتحسن هذه المخالفة وتزينها لنفسها فى خفاء، والله يعلم ما يسرون وما يعلنون، ولذا قال:

﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ والله سبحانه وتعالى يعلم ما يبيتون، فلم يكن خافيا قبل أن يقع، ولم يزدد به علما بعد الوقوع، فهو يعلم ما كان وما يكون إلى يوم الدين. وفى هذه الجملة تهديد لهم وتطمين للنبى ﷺ، فإن الله تعالى يبين أن تبييتهم وإخفاء نياتهم لا يخفى على الله، بل إن علمه به علم ما يكتب وما يسجل عليهم، ليكون مرئيا لهم فى صحائف أعمالهم يوم القيامة، وليعلم نبيه بتدبيرهم السيئ ونيتهم، ليتقى شرهم، ويحفظه من أذاهم، فإنه هو ناصره وكافله. وإذا كان الله تعالى يكتب عليهم ما يخفونه، فليس للنبى أن يأبه لهم والله حافظه وكالئه، ولذلك أمره بألا يلتفت إليهم، ولا يأخذه همٌّ فى شأنهم، وليعتمد على الله، وليكل إليه أموره، ولا يكل أموره إلى غيره، وإنه إن توكل على الله حق التوكل، حفظه، وكفاه شرهم، ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾.

والمعنى: يكفيك أن الله تعالى هو الموكل بأمرك، وهو حافظك وكالئك وحاميك، ومن كان الله تعالى وكيله والموكل بأموره، فلن يضيع أبدا.

اللهم هيئ للمسلمين أسباب العزّة، ووفقهم للعمل الصالح، واجعلهم يكلون مآل أمورهم إليك، إنك نعم المولى ونعم النصير.

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟
فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ
أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى
ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ
ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾
فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ
عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا
وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ
نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟
بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾
ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ
وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾

فى الآيات السابقة بيَّن اللـه تعالى لنبيه ﷺ أحوال المنافـقين، وما هم عليه من لؤم الطبع والمكر والخداع، ثم أمره ﷺ بالإعراض عنهم، فهم لن يضروه شيئا مهـما كان لـؤمهم وخداعـهم، وما عليـه إلا أن يتوكل على الله، فـهو حسبه، وسيكفيه شرهم، ولن يبلغوا منه شيئا.

وفى هذه الآيات لا يزال الكلام عن المنافقين متصلا، فالله سبحانه وتعالى يعيب عليهم حالهم فى عدم تدبر القرآن الكريم والتفكر فى معانيه؛ لأن التدبر فى القرآن يجعلهم يفكرون فى عاقبة أمرهم، ويستيقظون من سباتهم الذى يملك عليهم نفوسهم، ويتجسد أمام بصائرهم ما سوف ينالهم من جزاء يوم القيامة.

وهم لو تدبروا القرآن لرأوا فيه العجب العجاب، ولتبين لهم أن هذا الكتاب منزل من الله رب العالمين، وأن محمدا عبد الله ورسوله.

فالقرآن الكريم يحمل بين جنباته دلائل صدقه، وبراهين أنه من لدن حكيم حميد، إذ لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه تناقضا فى القضايا، واختلافا فى الألفاظ، وتضاربا فى المعانى، ولضربت الآيات بعضها بعضا؛ لأن الإنسان من البشر إذا تكلم بكلام كثير، لابد أن يوجد فى كلامه اختلاف، لاختلاف مزاجه بين الحين والحين، ولما يعتوره من الصحة والمرض، ولاختلاف مواقفه فى الزمان والمكان، فيظهر ذلك كله فى صورة تناقض فى اللفظ أو الوصف، أو فى المعانى، أو الصدق والكذب إلى غير ذلك من صور الاختلاف.

ولكن القرآن الكريم بين أيديهم، فليتدبروه حق التدبر، فلن يجدوا فيه اختلافا فى وصف، ولا ردا فى معنى، ولا تناقضا فى قضاياه، ولا كذبا فيما يخبر به من أمور الغيب، ولكنهم بإعراضهم عن التدبر، يظلون كالأنعام بل هم أضل، قد أغلقوا قلوبهم عن الهدى، وأصموا آذانهم عن صوت البشير النذير، فما لهم لا يعقلون، ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد] فهم لا يفقهون.

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ عجبا لأمر هؤلاء المنافقين، إنهم يسارعون فى الفتنة، ويتحينون الفرص ليزرعوا الشكوك والظنون فى صدور المؤمنين، ويشيعون الأخبار على غير حقيقتها، فإذا سمعوا خبرا عن أمن المسلمين أو انتصارهم، أو عن الخوف عليهم

والإشفاق من تحركاتهم، أسرع هؤلاء المنافقون لإذاعة الشائعات، وأظهروها وتحدثوا بها قبل أن يقفوا على حقيقتها، وقد يكون فى ذلك ضرر بالإسلام والمسلمين، ولكنهم لا يبالون، بل ربما كان ذلك هو ما يبتغون.

وقال بعض المفسرين إن ضعاف المسلمين كانوا يفعلون ذلك أيضا، فقد كان بعضهم يفشى أمر النبى ﷺ، دون إذن فى ذلك، ويحسبون أنهم لا يخطئون فيما يفعلون، ويسيئون ويحسبون أنهم يحسنون.

وسواء أكان ذلك من المنافقين أم من ضعاف المسلمين فهو خطأ لا يجوز أن يحدث؛ لذلك يجيء الأمر من الله تعالى بألا يسرع المسلم فى الحديث بأخبار لم يتحقق منها، ولم يتبين له صدقها من كذبها، ولم يميز من أمرها بين النفع والضرر، بل يجب على هؤلاء وأولئك أن يردوا الأمر إلى النبى ﷺ، وينتظروا حتى يكون عليه الصلاة والسلام، هو الذى يتحدث به ويكشف عن صدقه، ويبين نفعه للمسلمين أو ضرره، وهذا الحكم ماضٍ فى كل زمان ومكان، فإذا كان النبى ﷺ قد انتقل إلى الرفيق الأعلى، فإنه قد ورَّث العلم لطائفة من أمته هم أولو العلم وأولو الأمر، وأهل الفقه فى الدين، فيجب على المسلمين أن يردوا مثل هذه الأمور إليهم؛ لأنهم إذا ردوا الأمر إليهم ﴿**لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ**﴾ أى يستخرجون معناه، ويبينون فحواه، فإذا الأمر معلوم، والحق واضح لا شبهة فيه، ولا غموض.

والاستنباط هو استخراج الماء من البئر، فشبهت الأفكار التى تدور فى خَلَد الإنسان بالماء الذى فى البئر، والعلماء يستخرجون هذه الأفكار ويكشفون عن معناها، فيعلمون ما ينبغى أن يقال وما يجب أن يستر ويكتم فلا يشيع بين الناس.

وفى تلك الجملة دليل على جواز اجتهاد العلماء فى الأمور الفقهية عن طريق القياس، والحكم بما يبينه ذلك القياس، ما لم يكن هناك نص من القرآن أو السنة، وما لم يكن هناك إجماع.

﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ لقد أنزل الله الكتب، وأرسل الرسل، وبين طريق الحق من الباطل، والهدى من الضلالة، والرشاد من الغواية، وهذا فضل من الله ورحمة، ولولا هدايتكم للعمل بما جاءت به الرسل، وأنزلت به الكتب، لاتبعتم الشيطان، ولبقيتم على الكفر سائرين فى طريق الضلال، إلا قليلا منكم كانوا هم المهتدين، أو لاتبعتم الشيطان فى غالب أعمالكم، وكان اتباعكم للرسول وللكتاب اتباعا قليلا، ولغلبت سيئاتكم حسناتكم، وفى ذلك ما فيه من الخسران، والعياذ بالله تعالى.

﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ حتى ولو تركوك وحدك منفردا لا أحد معك، فإن معية الله خير وأبقى، فهو الذى أمرك بالقتال، وهو الذى تكفل بنصرك ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر].

فى الآية أمر من الله تعالى لرسوله محمد ﷺ، بألا يترك جهاد العدو، حتى ولو كان وحده، لأن الله ضمن له النصر، وهناك من يقولون أن الخطاب للأمة كلها، إذ قال ابن عطية فى تفسيره: «هذا ظاهر اللفظ، إلا أنه لم يجئ فى خبر قط أن القتال قد فرض عليه وحده دون الأمة مدة ما، فالمعنى، والله أعلم، أنه خطاب له فى اللفظ، وهو مثال ما يقال لكل واحد فى خاصة نفسه، أى أنت يا محمد، وكل واحد من أمتك، هذا الخطاب موجه إليه، وكل إنسان ليس مكلفا إلا عن نفسه، فإن تقدم نفسك للجهاد فإن الله هو ناصرك، وليس الجنود، فإن شاء نصرك وحدك كما ينصرك وحولك الألوف من الجند، فالنصر أولا وأخيرا من عند الله.

وقيل إن النبى ﷺ دعا الناس إلى الخروج للقاء المشركين فى معركة بدر الصغرى، وكان أبو سفيان قد واعد الرسول على أن يتلاقوا فيها، فكره بعض الناس أن يخرجوا، فنزلت الآية، وخرج النبى ﷺ وليس معه إلا سبعون، ولو لم يخرج معه أحد لخرج وحده، فكأن الله سبحانه وتعالى يقول له: يا محمد، إنك لا تكلف إلا نفسك وحدها، فاخرج ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إذ ليس عليك بالنسبة لهم إلا التحريض، وأمرهم دون تعنيف ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

وقد كان، فكف الله بأس الذين كفروا، وهم قريش، الذين تواعدوا مع النبى على اللقاء، فقد غير أبو سفيان رأيه، وخشى عاقبة المعركة، فقال لقومه: إن هذا عام مجدب، لن تقدروا فيه على لقاء محمد وأصحابه، فانتظروا عاما مخصبا، كما تعودتم، لتلاقوا فيه محمدا ومن معه، ووقتها سيكون بأسكم شديدا، وتنكيلكم بمحمد وأصحابه شديدا، ألم يعلموا أن العزة لله جميعا ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾ من قريش ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ من كل أعدائكم. و﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢﴾ [البروج] فهو أعظم سلطانا، وأقدر على ما يريد.

﴿مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ أصل الشفاعة والشفعة ونحوها، من الشفع، وهو الزوج فى العدد، ومنه الشفيع لأنه يصير مع صاحب الحاجة شفعا، فالشفاعة إذن هى ضم غيرك إلى جاهك ووسيلتك، للوصول إلى مصلحة ترغبانها، فهى على التحقيق إظهار لمنزلة الشفيع عند المشفِّع، وإيصال المنفعة إلى المشفوع له، والشفاعة الحسنة هى ما تكون في البر والطاعة، والشفاعة السيئة هى ما تكون فى المعاصى، فمن شفع شفاعة حسنة ليصلح بين اثنين استوجب الأجر، ومن سعى فى غير طاعة، فقد أثم واستوجب العقاب.

يقول الزمخشرى فى «حقائق التنزيل»: الشفاعة الحسنة هى التى روعى بها حق مسلم، ودُفع بها عنه شر، وابتُغى بها وجه الله، ولم تؤخذ عليها رشوة، وكانت فى أمر جائز، وليست فى حد من حدود الله ولا فى حق من الحقوق، ولكل منها نصيب من الأجر، بقدر ما فيه من طاعة أو معصية.

وقد حث النبى ﷺ على الشفاعة لقضاء الحوائج، والتعاون على البر والتقوى، إذ يقول عليه الصلاة والسلام: «اشفعوا فلتؤجروا، وليقض الله على لسان نبيه ما أحب»(١).

---

(١) متفق عليه؛ رواه مسلم: البر والصلة والآداب - استحباب الشفاعة فيما ليس بحرام (٢٦٢٧)، والبخارى بلفظ مقارب: الزكاة - التحريض على الصدقة والشفاعة فيها (١٤٣٢) عن أبى موسى الأشعرى عن أبيه، وأبوه هو عبد الله بن قيس بن سلا بن حضار. رضى الله عنهما.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ المقيت هو الحافظ المقتدر، الذى يعطى كل إنسان قُوتَهُ وقوَّتَهُ، فهو يجازى كل إنسان بقدر ما حفظ له من عمل، وهو يُقيت الجائع، ويعين من استعان به، فالرزق الذى هو القوت من عنده، والعافية التى هى القوة بسلطانه وبأمره، وكل شىء عنده بمقدار.

﴿وإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ التحية هى السلام، وأصل التحية الدعاء بالحياة، والتحيات لله هى السلام من الآفات، وإنما يقال «التحيات لله» بصيغة الجمع، ولم يقُل «التحية» بصيغة الإفراد، لأنه كان فى الأرض ملوك تؤدى لهم تحيات مختلفات، فيقال لبعضهم: «أبيت اللعن»، ويقال لبعضهم: «اسلم وانعم» فقيل لنا نحن المسلمين، قولوا: «التحيات لله» أى كل الألفاظ التى تدل على تحيات الملوك وتؤدى معانيها، هى الله.

والعلاقة بين هذه الآية وما قبلها أن الله تعالى يقول، إذا خرجتم للجهاد، كما سبق الأمر، فحياكم إنسان بتحية الإسلام، فلا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا، بل ردوا جواب السلام، فإن الأحكام تجرى عليهم، وقد أجمع الفقهاء على أن الابتداء بالسلام سنة مرغَّب فيها، ورده فريضة، لقوله تعالى ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ أو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾، فقد قال المفسرون عن ذلك، إن هذه الصفة «الحسيب» حسنت هنا، لأن معنى الآية فى أن يزيد الإنسان أو ينقص، أو يوفَّى قدر ما يجىء به، والله سبحانه وتعالى يجازى الإنسان بقدر ما فعله، حتى فى لفظ التحية والسلام.

روى النسائى عن عمران بن حصين قال: كنا عند النبى ﷺ، فجاء رجل فسلم فقال: السلام عليكم، فرد عليه رسول الله ﷺ، وقال: «عشر» ثم جلس، ثم جاء آخر فسلم، فقال: السلام عليكم ورحمة الله. فرد عليه رسول الله ﷺ،

وقال «عشرون». ثم جلس. وجاء آخر فقال: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» فرد عليه رسول الله ﷺ، وقال: «ثلاثون»[١].

وهذا الخبر يعطى تفسيرا بأن من قال لأخيه المسلم «السلام عليكم» كتب له عشر حسنات، فإن قال: «السلام عليكم ورحمة الله» كتبت له عشرون حسنة، فإن قال: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» كتبت له ثلاثون حسنة، وكذلك من رد التحية له مثل ذلك الأجر.

وللتحية وردها آداب يجب أن يتعلمها المسلم، ويتخذها منهجا وسلوكا، فمنها أن يسلم الراكب على الماشى، والقائم على القاعد، والقليل على الكثير، والصغير على الكبير، وفى المسألة مسائل فقهية متشعبة، على المسلم أن يتعرف عليها من مظانها، ولا يغفل عنها؛ لأن التحية وإفشاء السلام من الأسباب التى تصل القلوب بعضها ببعض، فتأتلف الأرواح، وتتحاب النفوس، تصديقا لقوله عليه الصلاة والسلام «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم»[٢].

ثم عليكم أن تتذكروا فى كل شئونكم أنه جل ذكره:

﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ وقد نزلت هذه الآية فى شأن هؤلاء المكذبين الذين يشكون فى البعث والحساب، فأقسم الله تعالى لهم بنفسه، والدليل على ذلك القسم هو وجود اللام المتصلة بكلمة ليجمعنكم، ثم نون التوكيد المشددة بعدها، يقول النحاة أن اللام

(١) رواه الترمذى: الاستئذان والآداب - ما ذكر فى فضل السلام (٢٦٨٩)، وأبو داود: الأدب - كيف رد السلام (٥١٩٥)، وأحمد: أول مسند البصريين (١٩٤٤٦)، والدارمى: السلام - فضل التسليم ورده (٢٦٤٠). عن عمران بن حصين رضى الله عنه.

(٢) رواه مسلم: الإيمان - بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون (٥٤)، والترمذي: الاستئذان والآداب - ما جاء فى إفشاء السلام (٢٦٨٨)، وأبو داود: الأدب - فى إفشاء السلام (٥١٩٣)، وابن ماجه: المقدمة - فى الإيمان (٦٨). عن أبى هريرة رضى الله عنه.

واقعة فى جواب قسم، والتقدير، والله أعلم، أن الله يقسم ليجمعنكم، فهو قسم، يلقيه إلينا رب العزة، بأنه سيجمع الناس وهم أموات تحت الأرض، فكل من يموت سيجمع إلى من سبقوه تحت التراب، وسيظل جمعهم هذا إلى يوم القيامة ثم يبعثون.

وفى رأى آخر أن حرف الجر «إلى» صلة فى الكلام، معناه: ليجمعنكم يوم القيامة، وسميت القيامة قيامة؛ لأن الناس يقومون فى هذا اليوم لله رب العالمين. قال جل شأنه: ﴿**أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾**﴾ [**المطففين**].

﴿**وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا**﴾، استفهام تقريرى، هل هناك من هو أصدق من الله؟ فيكون الجواب تقريرا للحقيقة التى لا يشك فيها مؤمن: لا، لا أحد أصدق من الله، فهو سبحانه، يخاطبنا بما كان، وما سيكون، وكل ما جاء من عنده صدق لا ريب فيه، فهو جل شأنه لا يجوز عليه الكذب، لأن الكذب إخبار عن الشىء بغير ما هو عليه، والكاذب لا يكذب إلا أنه فى حاجة للكذب، لكى يستفيد منفعة، أو يدفع مضرة، والله سبحانه وتعالى حكيم غنى لا يجوز عليه الاحتياج، فهو عالم بكل معلوم، منزه عن الكذب، كما هو منزه عن سائر النقائص والقبائح. سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا.

فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ
فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ
أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ
تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ
حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ
حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾
إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ
حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ
اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ
وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾
سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ
مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ
السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ
ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

كان المنافقون فى الحروب عنصر فتنة مستمرة، وكانوا فى السلم مثيرى النزاع والخصام، فهم فى الحرب إن رأوا ضعفا استغلوه، وإن لم يجدوا ضعفا ظاهرا أثاروه، ولم يكن النفاق فى داخل المدينة فقط، بل كان يمتد كلما قوى المؤمنون فى البلاد. ففى أول إقامة الدولة الإسلامية بالمدينة، وانتصار المؤمنين فى بدر،

ظهر النفاق فيها خوفا من قوة المؤمنين، وأخذ ينفث سمومه فى قوتهم! وكلما عم سلطان الدولة الإسلامية واتسع، ظهر منافقون، فظهر فى الأعراب نفاق كما قال تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ [التوبة] وظهر نفاق بين مشركى مكة، فكان ناس إذا أرادوا تجارة، وأرادوا أن يأمنوا غارات المؤمنين فى الطريق عليهم، أعلنوا أنهم يصدقون بما جاء به محمد، وناقلوه بين الركب وبين الناس، فكان المؤمنون يختلفون فى شأنهم، فمنهم من يراهم مؤمنين لا يقاتلون ولا يغار عليهم، ومنهم من يراهم كفارا منافقين يريدون أن ينجوا بأموالهم، فنزل قوله تعالى:

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾ إذا كان المنافقون على ما ترون، من أنهم ينطقون باللسان خشية القوة، وابتغاء الفتنة، ولا يريدون إلا دفع الأذى عن أنفسهم، وإنزاله بكم، فما الذى يسوغ لكم أن تختلفوا فى شأنهم فئتين أى طائفتين، إحداهما ترجو الخير فيهم، والثانية ترى الشر يستحكم فى قلوبهم، ويبدو فى لحن أقوالهم؟ وأنتم ترون أيها المختلفون ضلالهم، ووقوعهم فى الفساد، وأنهم لا يبدو من أعمالهم ما يدل على إيمانهم، بل هم يعملون بالكفر، وينطقون بالإسلام.

والإركاس معناه قلب الشىء على رأسه، ورد مقدمه إلى مؤخره. جاء فى مفردات الراغب الأصفهانى: «الركس قلب الشىء على رأسه، ورد أوله إلى آخره، يقال أركسته فركس وارتكس فى أمره».

والمعنى على هذا أن الله سبحانه وتعالى أوقعهم فى الضلال فقلب مداركهم، ورد الأول على الآخر فى تفكيرهم، بحيث صاروا لا يستطيعون ترتيب المقدمات الفكرية ونتائجها، وذلك بما كسبوا من الإيغال فى الشر بعد ابتغائه وطلبه، فلما ساروا فيه خطوة امتد بهم السير خطوات حتى أوغلوا فيه، وأصبحوا لا يستطيعون الحكم فى قول.

ومن هم أولئك المنافقون الذين أركسهم الله تعالى ذلك الإركاس؟ قيل: هم منافقو المدينة، أتباع عبد الله بن أبيّ، ومن معه. وقيل: قوم أقاموا بالمدينة مؤمنين، ثم خرجوا منها منحرفين فى اعتقادهم، وأظهروا أن جوها لم يطب لهم! وقيل، كما روى عن ابن عباس: إنهم قوم آمنوا بمكة، وقالوا إن ظهر محمد ﷺ فقد عرفنا، وإن ظهر قومنا، فهو أحب إلينا.

وعندى أن المنافقين هنا تشمل من اتصفوا بذلك، وتخص الأعراب ومن على شاكلتهم من الذين كانوا يسلمون فى قبائلهم، ويعلنون ذلك من غير أن يهاجروا إلى المدينة مناصرين للمؤمنين، ولم يكن من أعمالهم ما يدل على انتمائهم للدولة الإسلامية، وإعلان ولايتها عليهم. والحقيقة أن هؤلاء كانوا يتذرعون بكلمة الإسلام، لكيلا يحكم السيف الإسلامى فيهم. ولذلك ذكرت الآية أن الأمارة القاطعة الدالة على إيمانهم هى أن يهاجروا.

﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾ أيها المؤمنون المختلفون أتريدون أن تحملوا على الإيمان من أضله الله، أى من كتب عليه الضلالة، بسبب أنه سار فى طريقها، وانحرف عن جادة الحق وسبيل المؤمنين، فإن من يسير فى طريق لا بد أن ينتهى إلى نهايته، ما دام لم يرجع ولم يعد. ومن يضلل الله، أى من يكتب عليه فى لوحه المحفوظ، وقدره المحتوم، أن يكون ضالا، فلن يجد أحد سبيلا إلى هدايته؛ لأن قَدَر الله تعالى لا يتغير، وقضاءه لا يتبدل، وحكمه لا يتخلف، فمن حاول هداية المنافقين الذين حكم عليهم بالضلال، فكأنما يحارب قدر الله سبحانه وتعالى.

وإن المؤمنين يحاولون هداية المنافقين، أو الحكم لهم بالإيمان، بينما المنافقون يودون للمؤمنين عكس ذلك.

﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ وإن هؤلاء الذين تتمنون هدايتهم أو تحكمون بها عليهم، أو ترجونها لهم، يتمنون أن تكفروا كما كفروا، بحيث تكونون أنتم وهم على سواء؛ ومن تكون هذه حاله لا يعد مسلما، ولا

يحكم عليه بأن نور الإسلام دخل قلبه، فهو لا يريد أن تجتمعوا معه على هدى، بل يريد أن تكونوا معه على ضلالة! فإذا كانوا يريدون الاتصال بكم اتصال مودة، فعلى أساس الكفر لا على أساس الإيمان، وإذا كانوا كذلك، فلا يصح أن تتخذوا منهم أنصارا، أو ترتبطوا معهم بمودة أو صلة، ولذا قال سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الولى يطلق بمعنى المناصر، ويطلق بمعنى المحب الودود، والنهى منصب على الاثنين، فإنه لا يصح للمؤمنين أن يتخذوا أولياء من هؤلاء المنافقين، الذين يظهرون الإسلام وهم مقيمون فى ديار الأعداء يناصرونهم، وقوتهم لهم على المسلمين، فكيف يكونون مع هذه الحال نصراء أهل الإيمان!! وإذا كان لا يصح أن يتخذوا منهم نصراء، فإنه لا يصح أن يقال إنهم منتمون للدولة الإسلامية، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، ولا يجوز لهذا أن يضموا إليها.

وإنه لا يصح أن يربط بعض المؤمنين معهم مودة؛ لأنهم ببقائهم فى ظل الكفر، وقوتهم له، يكونون فى ضمن من يحادون الله ورسوله، والله تعالى يقول: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة].

وإن أمر القلوب بيد الله سبحانه وتعالى، فلا يصح أن تحكموا عليهم بالإيمان حتى تظهر أماراته، وتبدو معالمه. وإن مظهره الحقيقى فى هذا النوع من الناس هو أن ينضموا إلى جماعة المؤمنين بالهجرة إليهم، لتكون قوتهم للمؤمنين لا عليهم، ولذا قيد سبحانه وتعالى ترك ولايتهم بغاية، وهى الهجرة، فقال: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بأن يخرجوا فى سبيل الله تعالى مجاهدين مع المؤمنين ومناصرين ومؤيدين لهم.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾ أى فإن أعرضوا عن الهجرة، وهى واجبة، فلا تعتبروا إسلامهم؛ لأنهم لايزالون قوة عليكم، وخذوهم من نواصيهم بالأسر، والترصد لمتاجرهم

وأموالـهم، حتى لا يتـخذوا من ذلك ذريعـة لتقـوية أقوامـهم، واقتلوهم حـيث وجدتموهم؛ لأنهم أعداء بمعـاونتهم أعداء المؤمنين. وإذا كانوا يستطيـعون الخروج بمتاجـرتهم وغيرها، فإنهم يـستطيعون الهـجرة إليكم ليكونوا قوة لكم، والهـجرة واجبـة، وإذا كانوا مـعكم فى حال قـتال كمـن ينتمون إليـهم، فلا تقـبلوهم فى ولايتكم، ولا توادُّوهم، ولا تتخـذوا منهم نصراء؛ لأن النصيـر هو الذى يعاونك ويكون معك على أعدائك، وليس هؤلاء منهم، فقوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا** ﴾، يدل على النهى عن أمـور ثلاثة: أولها ـ ألا يعتـبروهم منهم بالولاية والانتماء، لأنهم لم يعملوا على الانضمـام لجماعة المؤمنين. وثانيها ـ ألا يوادوهم، لأنهم يـحـادونهم إذ يحـادون الله ورسـوله، وهـم بهـذا من حـزب الشـيطان، لا من حـزب الله تعـالى وثالثـها ألا يتـخـذوا منهم نصـراء، لأنهم سيخادعون، ومن كانت هذه حالهم لا يؤتمنون، فنصرهم خذلان، والاستعانة بهم استعانة بغير أهل الإيمان.

وإن السياق يدل على أن المنافقين الذين تتحدث عنهم الآية ـ وإن كان اللفظ عامـا ـ هم من الذين يظهرون الإسلام فى قـبائلهم، ولا يخرجـون إلى المسلمين ليكونوا مـعهم، فإن زمـان إنشاء الدولة الإسـلامية يحـتاج إلى التجـمع، ليكون المؤمنون قوةً واحدة، كـما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ۝٤ ﴾ [**الصف**].

والخلاصة أن أولئك المنافقين يعاملون معاملة الذين ينتمون إلى دولة أخرى، فإذا كانت دولتـهم تقاتل المؤمنين قوتلوا وقتلوا، وإن كانت دولـتهم تسالم المؤمنين بميثاق، فلا يقاتلون احتراما للعهد والميثاق، ولذا قال تعالى:

﴿ **إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ** ﴾ الاستثناء هنا منفصل بمعنى «لكن»، وهو من الأمر بالأخذ بالنواصى، والقتل حيثما وجدوا. والمعنى: لكن لا تأخذوا ولا تقتلوا أحدا من هؤلاء الذين يصلون بالانتماء أو الرعوية إلى قوم بينهم وبين المسلمين عـهد موثق، لا يصـح النكث فيه، ولا الخـروج على أحكامه، أو

التمرد على مقتضاه، فهؤلاء يعاملون كالدولة التى ينتمون إليها، والأقوام الذين يصلون أمورهم بهم، ولا يصح أن يقتلوا أو يؤسروا؛ لأن قتلهم أو أسرهم نقض للعهد الذى وثق وأكد، والله تعالى يقول: ﴿ **وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً** ﴿٣٤﴾ ﴾ [الإسراء]، ويقول: ﴿ **وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ** ﴿٩١﴾ ﴾ [النحل].

وإن قوله تعالى: ﴿ **يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ** ﴾، يدخل فى مضمونه طائفتان:

أولاهما ـ طائفة تكون رعية لدولة بينكم وبينهم عهد وميثاق، فإنه لا يشترط لنجاتهم أن يخرجوا إليكم مهاجرين، فإنهم آمنون بمقتضى العهد والميثاق، فإن أعلنوا الإسلام، لا يستراب فى أمرهم.

والثانية ـ من يتصلون بعهد أو ميثاق أو ولاء ممن كان بينكم وبينهم عهد، فإن لهم حكم من يكونون رعية لمعاهديكم. وإن هذا الصنف يصح أن ينطبق على من لا يظهرون الإسلام ولكن يعلنون السلام.

وهناك صنف لا ينتمى لقوم ذوى عهد، ولكنه لا يقاتل قومه لعذر عنده، ويخرج إلى المؤمنين مخلصا لله الدين أو ملقيا بالسلام، وهم الذين قال الله سبحانه وتعالى فيهم:

﴿ **أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ** ﴾ هذا فريق آخر ممن يعلنون الإسلام فى وسط أقوامهم أو لايعلنونه ولا يقاتلون مع المؤمنين، وهؤلاء ينتمون إلى قوم يقاتلون المؤمنين، وهم فى حال حرب، فهؤلاء يعلنون إسلامهم ويجيئون إلى المسلمين معلنين الإسلام، ولكنهم يكونون فى ضيق وحرج، فلا يستطيعون قتال أقوامهم، خشية على ذرياتهم أو ذوى أرحامهم أو أموالهم، ويريدون أن يتذرّعوا بالامتناع عن قتال قومهم، فإنه يقبل منهم الاعتزال. ومعنى ﴿ **حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ** ﴾ ضاقت. وقد قال الراغب: (الحصر التضييق. قال الله عز وجل: ﴿ **فخذوهم واحصروهم** ﴾ أى ضيقوا عليهم، وقال

تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ﴿٨﴾﴾ [الإسراء]» وقوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ أى ضاقت).

ويظهر أن مادة (حصـر) تكون من باب نصر ومن باب فرح، وإذا كانت من باب نصر تكون دالة على التضييـق على الغير تضييقا حـسيا، وإن كانت من باب فـرح تكون لازمـة ودالة على ضيـق النفس. والمعنى على هذا أن هؤلاء ضـاقت نفوسـهم، وصاروا فى حرج لا يستطيـعون قتال المسلمـين، ولا يستطيعـون قتال أقوامـهم، فـهؤلاء مسـالمون، لأن الله كـفى المؤمنين أمرهم، ولأنهم لا يـعدون منافقين، ولقد حـرض الله سبحانه المؤمنين على مسالمتهم رغبـة فى السلام، فقال سبحانه:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾ أى أنه من رحمة الله بكم أن قلل أعـداءكم، وأضعف شـأن الذين يقـاتلونكم، بأن يخـرج من بين صـفوفـهم من يسالمونكم، وإن الـله ناصركم فى هذا بأمرين: بتـقوية جـمعكم، وإضعـاف شأن عدوكم، ولو شاء سبحانه أن يكونوا جـميعا عليكم ولا يخرج منهم من يسالمكم، وجعل أولئك الذين يمدون يد السلام مسلطين عليكم بالقتل والقتال، لكان ذلك، وليس فى مـصلحتكـم، فاخـتاروا مـا أمركم الله بـه، وهو مسـالمة أولئك الذين يسالمونكم، وقد خرجوا من بين أقوامهم.

ولقد أكد سبحانه هذا المعنى بقوله تعالى:

﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾ أى فاقبلوا من هؤلاء المسالمة، إن اعتزلوا قتالكم، ولم يكونوا مع أعدائكم عليكم، ولم يريدوا أيضا أن يكونـوا معكم على أقوامهـم، وألقـوا إليكم السلام غـير مـعانـدين، ولا مخـالفيـن، فاقـبلوا ذلك منهم، ولا تحـاربوهم؛ لأنهم لا يقاتلونكم ولا يؤلبون عليكم، ولا يعتدون، والله تعالى يقول: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة]، وما داموا لا يقاتلون لا يحل قـتالهم، وإلا كنـا معـتـدين. والقتـال فى الإسـلام شرع

لدفع الاعتـداء، فإذا كانوا كذلك فـما جعل الله لكم فى شـرعه وأحكامه سبـيلا لقتالهم.

وفى النص الكريم إشارتان لفظيتان: **أولاهما** - قوله سبحانه: ﴿**فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً**﴾، إذ التعبير بـ «عليهم» يومـئ إلى أن قتالهم اعتداء عليهم، وما جـعل الله لكم حق الاعتـداء، فالمعنى: مـا جعل الله سـبحـانه لكم سبـيلا للاعتداء بـ «عليهم». **الثانية** - التعبير بـلفظ السلم بدل السلام للإشارة إلى معنى التسليم، لا مجرد الأمن والسلام؛ لأن السلم يفيد معنى التسليم، فهم ألقوا إليكم الأمن وتسليم القيادة لكم.

وهناك صنف آخر غير هؤلاء المسالـين، وهم قوم يخادعون، لا يكفون عن القتال، وقد قال سبحانه فيهم:

﴿**سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا**﴾ هذا صنف أخيـر يتجه إلى أن يأمـن قومه، فلا يـقاتلهم، ويأمن المؤمنين حـتى لا يقتلوه، ولكنه لا يمـدّ يد الأمان، ولا يسلم القـياد، وهؤلاء إذا دعوا إلى القـتال، ولم يعـترضوا منفـردين لأذى المؤمنين، استـجابوا للقـتال فى صفـوف المشركـين، فهم يظهـرون الأمان، أو يظهـرون الإسلام، ليأمـنوا جانب المؤمنين، فإن لاحت لهم فرصـة الانضمام لأعداء الله قاتلوا مـعهم، وهذا مرمى قوله تعالى: ﴿**كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا**﴾، أى كلما ردوا إلى قـومهم مفتونين بعـصبيتهم وكفـرهم، قلبت نفوسهم أقبح قلب، فأركسـوا فى فتنة الكفر والعصبيـة، وهؤلاء أوجب الإسلام قتالهم إذا لم يعتزلوا أقـوامهم ويكفوا أيديهم عن قتال المسلمين، ولذا قال سبحانه:

﴿**فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا**﴾. أى إن لـم يعتزلـوا قتالكم، ويمتنعوا عن حـربكم، ويلقوا إليكم بالأمان مع تسليم أنفسـهم منقادين، ويكفوا أيديهم عن القتال، فقد حل دمهم، وزالت عصمتهم، فخذوهم بالنواصى أسرى،

واقتلوهم حيث وجدتموهم؛ فمعنى ﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ وجدتموهم. وعبر عن الامتناع عن القتال بقوله ﴿وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ﴾؛ لأن اليد هى الأداة الأولى للقتال؛ وإن الله بهذا قد جعل للمسلمين سلطانا أى سيطرة تمكنهم من قتالهم، وهذا معنى قوله: ﴿وأُوْلَائِكُمْ جعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ أى أولئك بأوصافهم من الغدر، وقتالهم للمؤمنين، وفتنتهم، جعل الله لكم عليهم سلطانا مسوّغا لقتالهم، واضحا بينا لاشك فيه، فقاتلوهم من غير استرابة ولا شك ولا تلكؤ. اللهم أعز الإسلام وانصرنا على القوم الكافرين.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾

كان الكلام فى الآيات السابقة فى المنافقين الذين يعملون على نقض بناء الدولة الإسلامية، ويعملون على إلقاء الريب فى قلوب أهل الايمان، وفى وجوب قتل الكافرين الذين ينقضون العهد والميثاق، والذين يظهرون الإيمان بين قبائلهم، ولا يعملون عملا للإسلام، فإنهم منافقون يريدون أن يتخذوا من مظهر الإيمان

وقاية لهم، إن اشتدت الشديدة على أقـوامهم! وإنه لا يحمى دم هؤلاء فى القتال إلا إذا كانوا قد ألقـوا السلام، واعتزلوا القتال مع أقـوامهم، أو كانوا يصلون إلى قوم قد ارتبط المسلمون معهم بميثاق عدم اعتداء. وإن التفرقة بين هذه العناصر قد يقع معـها الخطأ، ولذا ذكـر القرآن الكريم الخطأ فى هذه الأحـوال الثلاث: وهى قتل المؤمن الخطأ لمؤمن قائم مع المؤمنين، وقـتل الخطأ لمؤمن من قوم أعداء، وقتل الخطأ من قوم لهم ميثاق، حتى إذا وقع الخطأ كان الحكم بيّنا، ولذا قال تعالى:

﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا** ﴾ «ما كـان» النفى هنا ليس لنفى الوقوع، أى نفـى أن يقع قتل خطأ، وإلا مـا وقع ذلك أبدا، لكنه يقع، بل النفى بمعنى عدم الجواز والنهى عنه، مثل قوله تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا** ﴿٥٣﴾ ﴾ [**الأحزاب**]. ومثل قوله تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا** ﴿٣٦﴾ ﴾ [**الأحزاب**]، والمعنى على ذلك ما ساغ ولا جـاز ولا أبيح أن يقتل مـؤمن مؤمنا قط، فـإن ذلك أمر مـحرم تحـريما قاطعا، لكن إن كـان خطأ، فإن ذلك قد يكون معذرة يعتـذر بها؛ لأن الله تعالى رفع عن أمة محمد إثم الخطأ، إذ قال عليه الصلاة والسلام: «رُفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»(١)، وليس على المؤمن إثم القتل إن قتل خطأ، وإن كان يجب الاحـتراز من الخطأ. وإن التقصـير لا يخلو من مؤاخـذة، ولذلك قال الزيلعى من فقهاء الحنفيـة: «وبهذا النوع من القتل (أى الخطأ) لا يأثم إثم القتل، وإنما يأثم إثم ترك التـحرز، والمبـالغة فى التثـبت؛ لأن الأفعـال المباحـة لا تجوز مباشرتها إلا بشرط ألا تؤذى أحدا، فإذا آذى أحدا فقد تحقق ترك التحرز».

والقتـل الخطأ يتصور فـى ثلاث صور: **أولاها** ـ أن يرمى هدفا، فـيصيب إنسانا معصوم الدم، بأن تنحرف الرمية.

---

(١) رواه بهذا اللفظ الطبرانى عن ثوبان رضى الله عنه، كمـا فى الفتح الكبير ج٢، ص١٢١، برقم (٦٦١٩)، والجامع للسيوطى ج٤، ص٤٠١ برقم (١٢٥٦).

والثانية ـ أن يقصد هدفا معينا، على أنه حيوان مفترس مثلا، فيتبين أنه إنسان معصوم الدم. **والثالثة** ـ أن يقتل إنسانا على أنه من الأعداء، فيتبين أنه معصوم الدم، تحت هذه الصور صور كثيرة: منها أن يقتل من قال: لا إله إلا الله، زاعما أنه قالها تحت حد السيف، وغير ذلك من أخطاء القتال.

وقد ذكر الزمخشرى فى سبب نزول هذه الآية أنه «روى أن عياش بن أبى ربيعة، وكان أخا أبى جهل لأمه، أسلم وهاجر خوفا من قومه إلى المدينة، وذلك قبل هجرة الرسول ﷺ، فأقسمت أمه ألا تأكل ولا تشرب، ولا يؤويها سقف حتى يرجع، فخرج أبو جهل ومعه الحارث بن زيد، فقال أبو جهل: أليس محمد يحثك على صلة الرحم؛ انصرف وبرّ أمّك وأنت على دينك! حتى نزل وذهب معهما، وقدما به على أمه، فلما أبعدا عن المدينة كتفاه، وجلده كل واحد مائة جلدة، فقال عياش للحارث: هذا أخى، فمن أنت يا حارث، لله علىّ إن وجدتك خاليا أن أقتلك، وقدما به على أمه، فحلفت لا يحل كتافه أو يرتد، ففعل، ثم هاجر بعد ذلك وأسلم الحارث، وهاجر، فلقيه عياش بظهر قباء ولم يشعر بإسلامه، وأنحى عليه وقتله، ثم أخبر بإسلامه فأتى رسول الله ﷺ، فقال: قتلته، ولم أشعر بإسلامه، فنزلت الآية».

وسواء أصح هذا سببا للنزول أم لم يصح، فإن الآية عامة تعم كل قتل خطأ. والقتل الخطأ يوجب كفارة، ويوجب دية تسلم إلى أهله، أى أنه يجب تعويض أهل الإيمان، إن أمكن، ويجب تعويض أسرة القتيل. وتعويض أهل الإيمان يكون بإعتاق رقبة مؤمنة، وتعويض أسرة القتيل. إن كانت غير منتمية لقوم عدو للمؤمنين يكون بالدية. وقد ذكرت أحوال ثلاثة للدية، تجب فى حالين، ولا تجب فى حال أخرى: أما الحالان اللتان تجب فيهما، فهما إذا كان القتل حدث على رجل مؤمن يعيش بين المؤمنين، والثانية إذا كان المقتول من قوم بينهم وبين المسلمين ميثاق عدم اعتداء، وقد ذكر سبحانه الحال الأولى فى قوله تعالت كلماته:

﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُوا ﴾ التحرير جعله حرا طليقا لوجه الله تعالى، بعد أن كان عبدا رقيقا، والتعبير عن العتق بالتحرير، للإشارة إلى أن الحرية مقصد من مقاصد الشارع الإسلامى، وأن العقوبة ليس المقصود بها إيذاء القاتل، إنما المقصود بها نفع العبد، وكذلك كل عقوبة تكون بعتق رقبة لا يقصد بها الإيلام، إنما يقصد بها تحرير الرقاب، وقد أخطأ بعض الفقهاء فأشار على ملك من ملوك المسلمين قد جامع فى رمضان بأن يصوم شهرين متتابعين، مع أن النص يقرر أن الصيام إنما هو بالنسبة لمن لا يملك رقابا، وكان خطؤه من ناحيتين: إحداهما ـ أنه أعمل الرأى فى موضع النص، وذلك لا يجوز، والثانية أنه لم يفهم مقصود الشارع ابتداء، وهو نفع العبيد بالإعتاق.

وعبر عن نفس الحر بكلمة الرقبة، للإشارة إلى أن الرق غل معنوى فى الرقاب، وأن المؤمن الصادق لا يجوز له أن يَغُلَّ رقاب العباد، إلا لضرورة، والضرورة تقدر بقدرها، ولذلك عبر سبحانه وتعالى عن العتق بفك الرقبة فى آية أخرى، فقال سبحانه وجلت كلماته: ﴿ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) ﴾ [البلد].

والدية التى قدرها النبى ﷺ هى مائة من الإبل لمن يملك إبلا، وألف دينار من الذهب لمن لا يملك إبلا، وعشرة آلاف درهم لمن يملك فضة، وقيل اثنا عشر ألف درهم: وقال الشافعى: إن الدية فى الأصل مائة من الإبل، ومن لا يجد مائة من الإبل تكون عليه قيمتها من الذهب أو الفضة، بالغة ما بلغت، قليلة كانت أو كبيرة.

وإن الدية تسلم إلى ورثة المقتول، وقد كان رأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: لا تسلم الدية إلا إلى عصبته، فلا يسلم جزء منها لزوجته مع أنها وارثة، فيروى أنه قضى بدية المقتول، فجاءت امرأته تطلب ميراثها، فقال: لا أعلم لك شيئا إنما الدية للعصبة، فقام الضحاك بن سفيان الكلابى وقال: «كتب

إليّ رسول الله ﷺ يأمرني أن أورث امرأة أشيم الضبابى من عقل (أى دية) زوجها أشيم» فورَّثها عمر بعد أن علم بقضاء النبي ﷺ فى هذا، وما كان له أن يخالفه[١].

والدية عند الأكثرين تجب على عصبة القاتل، ليكون ذلك دليلا على تضافر الأسرة كلها، وإذا كان فقيرا وأسرته فقيرة، فإن دية المقتول تكون على بيت مال المسلمين؛ لأنه وارث من لا وارث له، فيجب عليه ما كان يجب على الوارث؛ ولأنه لا يطل دم فى الإسلام، ولأنه إذا كانت الأسرة الصغرى قد عجزت عن دفع الدية، فإنها تجب على أسرته الكبرى، وهى الأمة. وهنا بحثان لفظيان:

أولهما: التعبير عن أداء الدية بقوله: ﴿**مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ**﴾. فإن هذا التعبير يومئ إلى وجوب حسن الأداء، بألا يكلفوا أسرة المقتول شطط التقاضى والمطالبة، فيجمعوا عليها ألم الفقد، ومضاضة الشكوى والتظلم، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿**فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ** ﴿١٧٨﴾﴾ [البقرة].

والبحث الثانى: قوله تعالى ﴿**إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُوا**﴾، أى إلا أن يتبرع أهل القتيل، وفى التعبير بكلمة «يصدقُوا» إشارة إلى أن ذلك أمر مرغوب فيه محبب، وأنه صدقة لها ثوابها، إذا كان أولياء القاتل وعصبته يرهقون بأدائها، أو كان العطاء من بيت المال فيتركونها صدقة لجماعة المسلمين، وإن ذلك يكون إذا كانوا هم فى ثروة لا يحتاجون معها إلى هذه الدية، وفى الجملة يكون لها كل أحكام الصدقة، ولا صدقة إلا عن ظهر غنى.

بقى أن نبين الحكمة فى هذه العقوبة: لماذا كانت العقوبة أولا؟ ولماذا كانت بهذا الشكل؟! أما عن شرعية العقوبة، فحكمتها واضحة وهى تربية الناس على

---

(١) رواه الترمذى وصححه: الديات - فى المراة هل ترث من دية زوجها (١٤١٥)، وأبو داود: الفرائض (٢٩٢٧)، وابن ماجه: الديات (٢٦٤٢)، وأحمد: مسند المكيين - مسند الضحاك بن سفيان رضى الله عنه (١٥٣١٨) عن سعيد بن المسيب والضحاك بن سفيان الكلابى رضى الله عنهما.

الاحتراز وصيانة الأنفس، وحسبك مثلا فى عصرنا أننا نرى استهانة سائقى السيارات بالأنفس لنقص العقوبة على جريمة القتل الخطأ، فكان التقصير فى تحرزهم واضحا، ولأن من المقررات الشرعية ألا يذهب دم فى الأرض الإسلامية هدرا، وقد قال فى ذلك الزيلعى من فقهاء الحنفية: الضمان فى الخطأ بضرورة صون الدم من الإهدار، ولولا ذلك لتخاطأ كثير من الناس، وأدى إلى التفانى، ولأن النفس محترمة، فلا تسقط بعذر التخاطؤ، فيجب المال صيانة لها من الإهدار.

وأما السبب فى كون العقوبة على هذا النحو، فقد أشرنا من قبل إلى أنه قد اعتدى على الجماعة بتقصيره فى التحرز، فوجب عليه أن يعوض الجماعة الإسلامية عما فقدت، واعتدى على الأسرة فثكلت عائلها أو وليها، فكان لا بد من تعويضهما، فأما تعويض الجماعة فبإعتاق رقبة مؤمنة؛ لأن تحرير العبد كأنه إحياء له، إذ الحرية هى الحياة، ولأنه أفقد الجماعة عنصرا عاملا فيها، فكان لابد من تعويضها بعنصر عامل لها، والعبد عمله لسيده، أما الحر فعمله لجماعته، واعتداؤه على الأسرة كان تعويضها عنه ذلك المال المدفوع.

هذه حال الاعتداء بالخطأ على المؤمن فى دولة الإيمان. أما إذا كان المؤمن ينتمى إلى الأعداء فإن الدية لا تدفع. قال تعالى:

﴿ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾

أى أنه إذا كان ينتمى إلى الأعداء، فإن الدية لا تدفع. لأن أموال الأعداء وأرواحهم غير مصونة، ولأن إرسال الدية إلى قومه تقوية لهم على المؤمنين، فلا تعوض أسرة القتيل، ولكن تعوض الجماعة الإسلامية بالحرية التى تمنح لواحد منها تعويضا عما فقدت.

والحال الثالثة: إذا كان المقتول من قوم بينهم وبين المؤمنين عهد وميثاق، وفى هذا تدفع الدية إلى أهله، ولذا قال سبحانه: **﴿ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾**، والذين لهم ميثاق فريقان: فريق

يعيش بين المؤمنين، وفريق يعيش فى دولة أخرى بينها وبين المسلمين عهد، فأما الفريق الأول فهم الذين لهم ذمة رسول الله ﷺ وعهده، وهذا أقوى عهد موثق ومؤكد، وبمقتضى حكم الإسلام لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، ويسمون ذميين. ولقد قال النبى ﷺ: «من آذى ذميا فأنا خصمه يوم القيامة، ومن خاصمته خصمته»[1]! ولقد كان الراشدون رضى الله عنهم يعْنَوْن بأمرهم، ويقيمون العدالة فيهم. وأما الفريق الثانى فإنهم أقوام لهم دولة قائمة، وبينهم وبين المسلمين عهد موثق بعدم الاعتداء وإقامة السلم فيما بينهم وبين المسلمين، وقد يكون بينهم وبين المسلمين حلف على التناصر إذا حصل اعتداء.

وهنا إشارة بيانية تؤكد حرص الشرع على دفع الدية لأهل المقتول ولو كانوا غير مسلمين، وهى تقديم الدية على الكفارة؛ لأنها نفيت فى حال القاتل الذى ينتمى إلى الأعداء، فكان لابد من توكيدها حتى لا يتردد القاتل فى دفعها إلى غير المسلمين، إن كان بينهم وبين المسلمين ميثاق بمنع الاعتداء.

وقد قال بعض العلماء. إن الدية ذُكرت منكّرة ولم تذكر معرّفة، فلم يقل تعالت كلماته: الدية تسلم لأهله؛ وهى قد ذكرت منكرة فى الحالين اللتين وجبت فيهما، واستنبط من هذا أنها لو ذكرت معرفة لكان تقدير النبى ﷺ بيانا لمعناها فى القرآن، وما جاز تقديرها بغير تقديره، ولا الاتفاق على غيرها.

ونحن نؤيد هذا الاستنباط بشرط ألا يكون تفاوت فى تقدير الدية من حيث الجنس أو اللون، أو القوة والضعف، أو العلم والجهل، أو التحضر والتَّبدِى، فإن هذا شأن الجاهلية، ولا يقره الإسلام، ولا يصح أن يترك الأمر ليستغل القوى ضعف الضعيف.

وهنا يجب أن نذكر فرعين: **أحدهما** ـ إذا قتل المؤمن ذميا أو معاهدا غير مسلم، فهل تجب الدية والكفارة؟ والجواب عن ذلك أن الدية واجبة الأداء باتفاق

---

(١) رواه الخطيب عن ابن مسعود رضى الله عنه مرفوعا كما فى الفتح الكبير: ج٦، ص٤٨١ برقم (٢٠٠٣٨).

العلماء، أما الكفارة فهى موضع نظر، وأميل إلى وجوبها؛ لأن التحرز عن دم الذمى أو المعاهد كالتحرز من دم المسلم، لأنه معصوم الدم كالمؤمن على سواء، وموجبات الأمن لأهل الدولة الواحدة ثابتة، ولأن الكفارة عبادة، وعتق أهل الإيمان أمر مرغوب فيه.

الفرع الثانى: إذا قتل الذمى ذميا، فإن الدية بلا ريب واجبة؛ لأنها تعويض لأسرة القتيل، ولأنها فى معنى القصاص من القاتل قتلا خطأ، وأما الكفارة فإنها عبادة، فلا تجب على غير المسلم، وخصوصا أن فيها صوم شهرين متتابعين، والصوم عبادة إسلامية، والأمر فيه بين العبد وربه، والصوم يكون حيث لا توجد الرقبة.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أى فمن لم يجد رقبة مؤمنة يعتقها، فالواجب فى الكفارة، حيث تجب، صيام شهرين متصلين فى أيامهما، لا يفرق بينها فطر، بحيث لو أفطر يوما فيها استأنف من جديد ابتداء الشهرين، إلا أن يكون إفطار اليوم لعذر كمرض أو سفر مضطر إليه، وخالف فى ذلك أبو حنيفة والشافعى، وقررا وجوب الاستئناف من جديد، ولو كان الإفطار لعذر قاهر. والآية تصرح بأن سبب الكفارة هو التوبة والرجوع إلى الله تعالى من تقصير فى التقدير. وقد يقال: إذا لم يكن إثم فمن أى شىءتكون التوبة، مع أنه باتفاق العلماء لا إثم فى الخطأ؟ ونقول: إن إثم القتل لا يتحقق عند الخطأ كما نقلنا من قبل، ولكن التقصير قد يكون ثابتا،والتوبة إنما هى من هذا التقصير، والحمل على الاحتياط والتحرز فى المستقبل، والكفارة مذكر مستمر بالتقصير حتى لا يتكرر من بعد.

وقد ذيل الله تعالى النص الكريم بذكر اتصافه بأنه عليم بكل شىء، عليم بالنفوس وحركاتها ومداها، وعليم بما يقع من الأعمال، ويجول فى النفوس والخواطر، وهو المدبر لكل شىء بحكمته، والذى يشرع الأحكام على مقتضى المصلحة الإنسانية العالية.

وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾

فى الآية السابقة بيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ حكم القتل الخطأ، وفصل القول فيه تفصيلا؛ فذكر الحكم إذا كان المقتول من قوم أعداء للمؤمنين، والحكم إذا كان من قوم بينهم وبين المسلمين ميثاق، والحكم إذا كان المقتول من المؤمنين الذين ينتمون إلى الدولة الإسلامية. وفى هاتين الآيتين يبين سبحانه أمرين: **أولهما** ـ حكم قتل المؤمن متعمدا، **وثانيهما** ـ وجوب تجنب الخطأ عند الجهاد، فإن الجهاد والضرب فى الأرض مظنة قتل غير المقاتل، أو غير المعتدى، وفى حال قتل غير المعتدى يكون القتل عمدا، ولكن على أساس وصف من الأوصاف المسوغة للقتال، فوجب الاحتراز منه. ولأن فيه نوعا من القصد والتعمد، جاء بعد حكم القتل المتعمد، الذى بينه سبحانه وتعالى بقوله:

﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا** ﴾ تبين تلك الجملة السامية عظم الجرم فى القتل المتعمد المقصود، سواء أكان بآلة من شأنها أن تقتل كالرصاصة أو السيف أو السكين، أم كان بآلة ليس من شأنها أن تقتل، ولكن قصد بها القتل، وكان الضرب فى مقتل، فإن القتل فى كلتا الحالين مقصود متعمد، يعلم الله تعمده وقصده. والتفرقة بين ما يكون بآلة تقتل، وأخرى لا تقتل، هى تفرقة فى الأحكام الدنيوية. والآية هنا تبين الحكم الأخروى، وهو الدخول فى جهنم. أما الحكم الدنيوى، وهو القصاص الذى ثبت بآية القصاص، وقال فيه سبحانه: ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ** ﴿١٧٩﴾ ﴾ [**البقرة**]، فهو الذى فرق فيه بعض الفقهاء بين القتل الذى يكون بآلة من شأنها أن تقتل، والقتل بآلة لا

تقتل، ومع ذلك لم يفرق فى الحكم مالك إمام دار الهجرة بين الأمرين، مادام قد ثبت العدوان والقصد إلى القتل.

وإن الجزاء الأخروى صارم قاطع، فهو جهنم والمكث فيها على الدوام، إن كان قد استباح ذلك، ولم يؤمن بحرمته، ولم يتب عن جريمته؛ ولا نجد قاتلا يقتل غيره إلا وهو مستحل لدمه مستبيح له! أفلا يستحق بهذا أن يخلد فى النار ما لم يتب ويقدم رقبته، أو يعفو عنه أولياء المقتول؟ والمعتزلة الذين يقولون: إن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ويخلد فى النار، يستدلون بهذه الآية. ونحن نقول: إن خلوده فى النار ليس لمجرد الفعل، بل لاستباحة القتل، وإنكاره التحريم. ولا يوجد قاتل عند ارتكابه تلك الجريمة التى تعد أكبر جريمة فى الوجود، لا يستبيح فعله، فكانت العقوبة على الاستباحة، والنبى ﷺ يقول فيما يروى عنه: «لزوال السموات والأرض أهون عند الله من قتل امرئ مسلم بغير حق»[1].

﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ هاتان عقوبتان معنويتان، وثالثة مادية، أما المعنويتان فهما الطرد من رحمته الذى عبر عنه سبحانه وتعالى بقوله «ولعنه»، وأى عقوبة أعظم من الطرد من رحمة الله تعالى، ونفحاته القدسية، ووادى رحمته المشرق المنير؟والعقوبة المعنوية الثانية هى غضب الله تعالى، وغضب الله من أشد عقابه، كما أن رضوانه أعظم ثوابه، وكيف لا يغضب رب العالمين من يهدم ما بناه سبحانه فى خلق الإنسان الذى سواه وعدَّله فى أحسن تقويم؟!.

وأما العقوبة المادية، فقد أشار إليها سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾، وهذه إشارة إلى عظم الجريمة؛ لأن العقوبة العظيمة لا تكون إلا لجرم عظيم، وأى جرم أعظم من هدم بناء الإنسان الذى سجد له الملائكة، ولعن من

---

(١) رواه بهذا اللفظ الترمذى: الديات - ما جاء فى تشديد قتل المؤمن (١٣٩٥) عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه مرفوعا وموقوفا وقال: والموقوف أصح من المرفوع، كما رواه النسائى: تحريم الدم - تعظيم الدم (٣٩٨٧) مرفوعا.

أجله إبليس وطرد من رحمة الله؟ حتى لقد قال بعض العلماء: إن من قتل قتلا عمدا لا تقبل له توبة، ونحن نخالف فى ذلك ونقول: تقبل التوبة بحقها، وهى أن يقدم رقبته جزاء جريمته، أو يعفو ولى الدم.

وأما العذاب العظيم، فهو ما قرره سبحانه وتعالى فى الدنيا من قصاص، وفى الآخرة من نيران شديدة، وقد يقال: أليس هذا تكرارا لقوله تعالى: ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾؟ ونقول، لا تكرار؛ لأن هذا الجزاء فى مقابل جزاء من قتل خطأ وفى هذا الجزء الأخير بين سبحانه أن هذا الجزاء معد بالفعل يوم القيامة، فبين سبحانه وتعالى العقوبة وتنفيذها، وأنها لا هوادة فيها، ولا تسامح بالنسبة لمرتكبها.

وإن القتل الخطأ الذى بين القرآن الكريم أحكامه فى الآيات السابقة، قد يكون سببه أن يقتل مُحرَّم الدم، على أساس أنه مباح الدم، كمن يلقى طائفة من الناس فى بادية يحسبهم من الأعداء الذين يباح دمهم، لاعتدائهم على المسلمين، فيقتل منهم أحدا، فيكون الخطأ: ولذا نبَّه سبحانه إلى توقِّى المجازفة فى القتل، فلا يسارع المؤمن إليه؛ لأن الأصل فى الدماء أنها محرمة، ولا تباح إلا عند الاعتداء؛ ولذا قال سبحانه بعد الآية السابقة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ٩٤﴾

بعد أن بين سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة أحكام القتل الخطأ، نبه سبحانه الى توقِّى المجازفة فى القتل، فلا يسارع المؤمن إليه، لأن الأصل فى الدماء أنها محرمة، ولا تباح إلا عند الاعتداء. ولذا قال جلَّ جلاله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ الضرب فى الأرض معناه السير فيها، والضرب فى سبيل الله معناه السير مجاهدا فى سبيله تعالى، وكل جهاد فى الإسلام لا يعتبر جهادا إلا إذا كان فى سبيل الله تعالى، أى لإعلاء كلمة الحق والدين، ورد المعتدين. فسبيل الله هى سبيل الحق، وكل دعوة إلى الخير هى سبيل الله تعالى ومعنى «تبيَّنوا»: تثبتوا، وهناك قراءة نصها: «فَتَثَبَّتُوا»(١).

ومعنى النص الكريم: يا أيها الذين أذعنوا للحق وصدقوا به، وخرجوا مجاهدين فى سبيل الله، إذا سرتم فى جهادكم، فتعرَّفوا من يحاربكم ومن يعاديكم، ولا تضعوا السيف فى موضع البرء والسقم، فى المقاتل وغير المقاتل، فى المحارب وغير المحارب، ولا تتعجلوا بالقتل عند الشك فى أن من تقتلونه عدو أو ولى، أو عند احتمال ألا يكون عدوا؛ فإن الأصل فى الدماء التحريم، وكل شك يمنع القتل؛ إذ القتل إنما هو لدفع الاعتداء، فلا يقتل إنسان إلا عند تأكد الاعتداء منه، أو نيته عنده، ومن لم يتثبت، فقد خالف أمر الله واعتدى.

وروى فى سبب نزول هذه الآية روايات مختلفة، كلها يتلاقى عند معنى واحد، وهو أن المجاهدين الأطهار قتلوا رجلا نطق بالشهادتين: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، بعد أن استمكن المسلمون من رقبته، أو قال للمجاهدين: السلام عليكم، فقتلوه، وقد جاء فى (أحكام القرآن) للقرطبى: فى سنن ابن ماجة عن عمران بن حصين، قال: بعث رسول الله ﷺ من المسلمين إلى المشركين بعثا، فقاتلوهم قتالا شديدا، فمنحوهم أكتافهم، فحمل رجل على رجل من المشركين، فلما غشيه قال: أشهد أن لا إله إلا الله، إنى مسلم، فطعنه فقتله،

---

(١) وبها قرأ حمزة والكسائى، وخلف، وقرأ الباقون ﴿فتبينوا﴾. غاية الاختصار، ج٢، ص٤٦٦.

فأتى رسول الله ﷺ، فقال: يارسول الله، هلكت! قال: «وما الذى صنعت، مرة أو مرتين»؟ فأخبره بالذى صنع، فقال رسول الله ﷺ: «فهلا شققت عن بطنه، فعلمت ما فى قلبه. . . فلا أنت قبلت ما تكلم به ولا أنت تعلم ما فى قلبه»(١)!.

ويروى مثل ذلك بالنسبة لأسامة بن زيد، فقد قتل رجلا نطق بالشهادتين، فلامه النبى ﷺ، فقال أسامة: لقد قالها تحت حرِّ السيف! فقال النبى ﷺ: «هلاَّ شققت عن قلبه»(٢)!.

ولعل وقائع قد وقعت من هذا الصنف، والقتال شديد، وقد حمى الوطيس، فجاء الأمر الكريم بالتثبت.

وليس النطق بالشهادتين فقط هو الذى يحقن الدم، بل إعلان السَّلام وحده كاف لمنع القتل، ولذا قال سبحانه:

﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ السلام معناه الأمن، وقد أطلق على اللفظ الذى يدل عليه، وهو تحية الإسلام: «السلام عليكم». وأطلق على استسلام العبد لربه. و«ألقى السلام»، معناه: قاله، أو قدمه. والنص الكريم جاء للنهى عن قتل من ألقى السلام وقدمه بالاستسلام، سواء أكان مؤمنا، أم غير

---

(١) سنن ابن ماجه: الفتن - الكف عمن قال لا إله إلا الله (٣٩٣٠) عن عمرا بن حصين رضى الله عنه.

(٢) عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِى سَرِيَّةٍ، فَصَبَّحْنَا الْحُرَقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ فَأَدْرَكْتُ رَجُلا فَقَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ فَطَعَنْتُهُ فَوَقَعَ فِى نَفْسِى مِنْ ذَلِكَ، فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَقَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَقَتَلْتَهُ؟!»، قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنْ السِّلاحِ قَالَ: «أَفَلا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لا!» فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّى أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ. قَالَ: فَقَالَ سَعْدٌ: وَأَنَا وَاللَّهِ لا أَقْتُلُ مُسْلِمًا حَتَّى يَقْتُلَهُ ذُو الْبُطَيْنِ - يَعْنِى أُسَامَةَ - قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: أَلَمْ يَقُلْ اللَّهُ ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ فَقَالَ سَعْدٌ: قَدْ قَاتَلْنَا حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ، وَأَنْتَ وَأَصْحَابُكَ تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا حَتَّى تَكُونَ فِتْنَةٌ. [رواه مسلم: الإيمان - تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله (٩٦)، وبنحوه البخاري: الديات (٦٨٧٢)، كما رواه أبو داود: الجهاد - على ما يقاتل المشركون (٢٦٤٣)، وأحمد: مسند الأنصار - حديث أسامة بن زيد (٢١٢٩٥).

مؤمن، وسواء أنطق بالشهادتين مع ذلك، أم لم ينطق. والنهى عن القتل بالنهى عن رد الكلام الذى قاله معلنا السلام، ورد الفعل الذى يدل على الاستسلام؛ فمعنى النص الكريم لا تردّوا إلقاء السلام وفعله الذى يدل عليه، قائلين: لست مؤمنا، أى لست مصدقا للشهادتين إن نطقت بها، أو لست من صفوف المؤمنين حتى يحرم على أنفسنا قَتلك. فمعنى ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ على هذا يَشمل أمرين: أحدهما إنكار الإيمان إذا ادعاه، والثانى أن يقال له مع استسلامه، وإن لم يعلن اسلامه: نقتلك لأنك لست من قومنا، أو من صفوفنا!. وبذلك ينهى الإسلام عن القتل ما دام قد منع الاعتداء. ولقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ينهى عن قتل من أعلن الاستسلام ولو بالإشارة، فقد أرسل إلى قائد جيشه، الذى كان يقاتل فى فارس، ينهى عن أن يقتل أحد أشار بالاستسلام، ويحذر من يقتله بأنه سيقتله به؛ لأنه اعتدى، والإسلام ينهى عن الاعتداء، ولو فى القتال، ولذا قال سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠)﴾ [البقرة].

وإن الذين يقتلون من يطلب الأمان مستسلما، أو من يعلن الإسلام مسلما، يخرج قتالهم عن معنى الجهاد فى سبيل الله تعالى إلى معنى آخر يجافيه، وهو أن يبتغوا عرض الدنيا بالمال يطلبونه، أو بإعلان قوتهم، وليس ذلك مقصد الإسلام من القتال، إنما مقصده إعلاء كلمة الله تعالى، وبيان كلمة الحق، ولذلك قال سبحانه" :

﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ الابتغاء الطلب الشديد، والرغبة الملحة. وعرض الدنيا، جميع متاعها، وسمى متاع الدنيا عَرَضا؛ لأنه مهما يكن زائل غير ثابت، فهو عارض لا يدوم، ومنه قول على ـ رضى الله عنه: «الدنيا عرض حاضر، يأكل منها البَرُّ والفاجر»(١)! ومنه ما روى فى صحيح

(١) عن شَدَّاد بن أَوْسٍ قالَ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «أيُّهَا الناسُ إنَّما الدُّنْيَا عَرَضٌ حاضِرٌ، يَأْكُلُ مِنْهَا البَرُّ والفَاجِرُ، والآخرةُ وَعْدٌ صادقٌ يَحكُمُ فِيهَا مَلِكٌ عادلٌ، يُحِقُّ فِيهَا الحقَّ ويُبْطِلُ الباطِلَ». رواه البيهقى ج٤، ص٤٦٥ (٥٨٣٧)، كما رواه الطبرانى فى الكبير.

مسلم عن النبى ﷺ أنه قال: «ليس الغِنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس»(١) وقد أخذ بعض العلماء الشعراء هذا المعنى، وضمنه بيتين من الشعر فقال:

تقنّع بما يكفيك واستْعمِل الرضا　　فإنك لا تدرى أتصبحُ أم تمسى
فليس الغِنَى عن كثرةِ المالِ إنما　　يكونُ الغِنَى والفقر من قِبَل النفس

ومعنى النهى فى النص السابق مع هذا النص الكريم: لا تنكروا السلام والأمن على من يلقيه إليكم، مبتغين متاع الدنيا؛ لأنكم خرجتم بذلك عن الجهاد فى سبيل الله تعالى إلى طلب المال والدنيا، وما لأجل ذلك كان القتال، بل قاتلوا فى سبيل الله بالحق، واطلبوا الله بفعالكم، واطلبوا ما عنده سبحانه، فإنه إذا كان ذلك كانت المغانم الحلال، وإنها لكثيرة، ولذا قال سبحانه بعد ذلك النهى: ﴿فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ والمغانم جمع مغنم، وهو ما يصل إلى الإنسان من طريق حلال، ويطلق فى القتال على ما يأخذه المحاربون من أعدائهم، غالبين لهم بهذا الأخذ، فهو يطلق على ما يؤخذ فى أثناء القتال، أو فى أعقابه، قبل أن تنتهى الحرب، ويتم الصلح أو الغلب النهائى. وهذا وعد من الله تعالى بكثرة المغانم، ولكن وعد الله مشروط بالصدق فى القتال، وطلب ما عنده سبحانه.

وقد أكد سبحانه وتعالى النهى عن قتل من أعلن الإسلام أو الاستسلام بقوله سبحانه:

﴿كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا﴾ بهذه الحال التى ترونها فى المشركين الآن، من جحود بالحق وكفر به، كنتم من قَبْلُ، حتى هداكم الله تعالى، وإذا كنتم كذلك، فتبينوا حال الذين تقاتلونهم، عسى أن يكونوا قد هدى الله بعضهم كما هداكم، وأن يكون قد مَنَّ عليهم كما منَّ عليكم، فلا تستكثروا على مشرك أن يُؤْمِنَ، ولو كان ذلك فى حومة الوغى، فنور الهداية مفتوح فى كل

(١) متفق عليه؛ رواه مسلم: الزكاة - ليس الغنى عن كثرة العرض (١٠٥١)، والبخاري: الغنى غنى النفس (٦٤٤٦) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

مكان لا يغلق باب دونه، والله يهدى من يشاء بإذنه. وفوق ذلك، فإنه كان يتصور منكم من قبل فى الوقت الذى كنتم فيه كافرين أن تعتدوا على المؤمنين، وتضطركم حال القتال، إلى أن تستسلموا طالبين الرحمة، فارحموا من وقع فى مثل هذه الحال.

وقد كرر الأمر بالتبين؛ لأنه فى الأول كان عاما يستدعى التثبت قبل القتال، وفى أثنائه وبعده، فلا يهاجمون إلا من يتأكدون منه الاعتداء، والأمر هنا يتضمن تبين حالهم فى الماضى، وحال الكافرين فى الحاضر، كما يتضمن التثبت عند الاستسلام، وعند إعلان الإسلام. فالتبين لمعرفة الحال قبل القتال وبعده وفى أثنائه يتضمن الموازنة، ويتضمن التبين عند القتال وبعده فقط فبينهما أمر مشترك، وكلاهما ينفرد بتبين خاص. وفوق ذلك، فإن التبين هنا اقترن بتذكير وإنذار إذا لم يكن، ولذا قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ أى أنَّ الله تعالى متصف بالعلم الدقيق، الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، فالخبرة هى العلم الدقيق بالأشياء. وقد اقترن ذلك الوصف بأعمال المؤمنين المخاطبين بذلك الخطاب لبيان مراقبة الله تعالى الدائمة لأعمالهم، دقيقها وجليلها، ولأحوال نفوسهم ما ظهر منها وما بطن، وأنه لا تخفى عليه خافية فى السماء ولا فى الأرض. وقدم سبحانه وتعالى لفظ «بما تعملون» على الوصف العام، ليراقبوا أنفسهم، فقد علموا أن الله تعالى يراقبهم، وأنهم إذا لم يراقبوه فى تصرفاتهم مع خلقه فهو تعالى يراقبهم. اللهم إنا نضرع إليك ألا تمكننا من ظلم أحد من عبادك، إنك على كل شىء قدير.

﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾

فى الآيات السابقة كانت الدعوة إلى الجهاد، وتخللت هذه الدعوة آيات فى وجوب الحذر من المنافقين، وفى بعض العلاقات الدولية، وأحكام الخطأ إذا كان المقتول معصوم الدم، ثم جاء فى السياق قتل المؤمن عمدا، وعظم الجرم فيه، وإنزال العقاب الشديد بمن يرتكب ذلك الجرم. وكان هذا بمثابة التمهيد لوجوب الاحتراس من قتل المؤمن إذا استعرت الحرب واشتد أوارها، فكان على المؤمنين إذا ضربوا فى الأرض ألا يضعوا السيف فى موضع البرء والسقم. وفى هذه الآيات الكريمات يبين سبحانه وجوب الخروج للجهاد إن وجدت دواعيه، وأن الأجر العظيم للذين يخرجون مجاهدين، وأنه لا يصح أن يقعد مؤمن عن الجهاد، وهو قادر عليه، فقال تعالى:

﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ الجهاد مصدر جاهد مجاهدة وجهادا، وهو بذل أقصى الجهد فى مقابلة من يبذلون أقصى الجهد للاعتداء، فهو مبادلة لارتكاب المشاق، وهو فى سبيل الله لا يكون إلا لنصرة الحق وتأييده والدفاع عنه، وأكثر ما يطلق فى لغة القرآن والحديث وعرف أهل الإسلام، يكون على القتال فى سبيل الدين. والجهاد أعم من القتال، وأخص منه، فبينهما عموم وخصوص من وجه كما يقول المناطقة، فهما يجتمعان فى القتال للدفاع عن الحق. والقتال قد يكون فى البغى

على الحق، ولا يكون الجهاد بمقتضى العرف الإسلامى إلا ردا للاعتداء. والجهاد لا يكون بالقتال وحده، بل يكون ببذل المال فى تأييد الحق، وبالبيان فى الدعوة إليه، ولذلك يقول النبى ﷺ: «جاهدوا المشركين بأنفسكم، وأموالكم، وألسنتكم»(١). ومعنى النص الكريم: لا يستوى الذين قعدوا عن الجهاد لإعلاء كلمة الحق، ولم يخرجوا مناصرين له بأنفسهم وأموالهم، مع الذين قعدوا عن ذلك، من غير ضرر ملازم لهم، كمرض مزمن أو عمى أو شلل أو عرج، أو الذين لا يجدون ما ينفقون منه فى إعداد العدة، ولا يوجد من يقدم لهم السيف والزاد والراحلة. وقد بين الله سبحانه وتعالى أولى الضرر فى آية أخرى، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢)﴾ [التوبة].

ونجد فى هذا النص الكريم أن الإخلاص مع الاستعداد وعدم القدرة على التنفيذ، قد يغنى عن الجهاد، أو على الأقل يسقط المؤاخذة، ولذا قال تعالى: ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أى أخلصوا، وبذلوا فى سبيل الله أقصى ما يستطيعون بذله.

ونجد فى النص الكريم إشارة إلى أن الجهاد بالمال جهاد، وإلى أن القعود نوعان: **أولهما**. قعود مادى حسى، بمعنى ألا يخرج من الدار والعدو متأهب لمنازلة أهل الإسلام، أو غزوهم فى عقر دارهم، وما غزى قوم فى عقر دارهم، إلا ذلوا، كما قال فارس الإسلام على ـ رضى الله عنه ـ، **والثانى**. قعود عن

---

(١) رواه أبو داود: الجهاد - كراهية ترك الغزو (٢٥٠٤)، وأحمد: باقى مسند المكثرين (١١٨٣٧)، والدارمى: الجهاد - جهاد المشركين باللسان واليد، كما رواه النسائى: الجهاد - وجوب الجهاد (٣٠٩٦) ولفظه عند النسائي: «جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ» كلهم عن أنس ابن مالك رضى الله عنه.

البذل والإنفاق فى سبيل الحرب، وهذا قعود عن الجهاد بالمال، وهو لا يقل خطرا عن القعود والعدو قد أخذ الأهبة، ولذلك عَدَّ القرآن الكريم البخل فى هذه الحال مؤديا إلى التهلكة، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [البقرة].

ولا شك أن أكمل الجهاد ما كان بالمال والنفس، كما هو الشأن فى جهاد كثير من الصحابة، كأبى بكر وعمر، وعثمان، وعبد الرحمن بن عوف، وغيرهم من كبار الصحابة الذين كان لهم مال بذلوه، وكان لهم بلاء فى ميدان القتال، فقاتلوا فى سبيل الله بأنفسهم.

والآية تشير إلى وجوب إعداد الشباب فى الأمة للجهاد، بأن يتربوا منذ طفولتهم على أساليب الحرب والنزال، فإنه لا يسوغ استنفار طائفة إن حملت السلاح لا تستطيع الضرب، ولذلك وردت الآثار بتعليم الشباب الرماية، والدربة على القتال، ويعدُّ ذلك ضَرُوريا من ضروريات التعليم الدينى. وإذا كان الإسلام قد منع العكوف فى الصوامع للعبادة وحدها، فقد أمر الأمة كلها بالجهاد فى سبيله، أو الاستعداد له، وقد قال النبى ﷺ: «رَهبانيةُ أمَّتى الجهاد فى سبيل الله»(١).

وإذا كانت المساواة بين القاعد والمجاهد غير سائغة فى حكم العقل والشرع، فالفضل فى الدرجة للمجاهدين؛ ولذا قال سبحانه:

﴿ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ﴾ وإذا كان التساوى بين المجاهدين والقاعدين من غير ضرر يمنعهم غير مستساغ، فإن الله تعالى فضَّل المجاهدين بالمال والنفس على القاعدين ذوى الضرر، وجعلهم فى درجة أعلى من القاعدين لعذر، والمراد بالدرجة أن يكون لهم فضل أعظم، ومكانتهم عند الله أكرم من ذوى الأعذار؛ وذلك لأن جهاد

(١) سبق تخريجه.

هؤلاء عملى إيجابى، وموقف ذوى الأضرار سلبى، وهم يعرضون أنفسهم للتلف، وأولئك لم يتعرضوا له، ويقدمون النفيس من المال، وأولئك لم يقدموه، ومع ذلك فإن الله تعالى وعد كلا من الفريقين الحسنى، أى العاقبة الحسنة، حيث لا يكون ثمة عقاب يوم القيامة، بل يكون النعيم المقيم لهما معا. والله تعالى يثيب المرء بمقدار نيته، وقد قال النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إن بالمدينة رجالا ما قطعتم واديا ولا سرتم مسيرا إلا كانوا معكم، أولئك قوم حبسهم العذر»[(١)]، وقد كان النبى يقيم عبدالله ابن أم مكتوم على المدينة، وهو أعمى، لكى ينتفع بكل القوى، وليكون لذوى الأعذار فضل العمل.

وإن تفضيل الدرجة على القاعدين ذوى الضرر لكى يسير القادر ولو نسبيا، فلا يقعد لضرر وهمى، أو عذر غير قهرى، فكثير من الناس يتوهمون أعذارا، حيث لا عذر.

هذا فضل المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين ذوى الضرر، وقد رحم الله الضعفاء، فجعل لهم الحسنى كالمجاهدين، وإن كانوا دونهم فضلا، أما الذين قعدوا من غير عذر، فقد بين سبحانه فضل المجاهدين عليهم بأنه درجات، فقال سبحانه: ﴿ **وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾.

كان التفضيل الأول بالدرجة الواحدة، وذلك النص فى تفضيل الذين يجاهدون بأموالهم وأنفسهم على القاعدين من غير ضرر. فالمجاهدون بأموالهم وأنفسهم مفضَّلون عليهم بأجر عظيم، وأنَّى يكون من قعد بين أهله آمنا فى سربه، كمن ارتكب المشقة وترك الأهل والولد!.

---

(١) رواه البخارى: المغازى - نزول النبى ﷺ الحجر (٤٤٢٣)، وعن أنس بن مالك رضى الله عنه، كما رواه مسلم وغيره عن جابر رضى الله عنه بلفظ مقارب، ولفظ مسلم: الإمارة - ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر (١٩١١) عَنْ جَابِرٍ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِى غَزَاةٍ فَقَالَ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرِجَالا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا وَلا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلا كَانُوا مَعَكُمْ حَبَسَهُمْ الْمَرَضُ» وفى رواية: «إِلا شَرِكُوكُمْ فِى الأَجْرِ».

ونجد النص الكريم لم يذكر الذين قعدوا بمذمة صريحة، وفى هذا إشارة إلى أن الغزو والخروج للجهاد فرض كفاية، وليس فرض عين، وذلك إذا لم يكن المسلمون فى حاجة إلى كل القادرين. ومهما يكن، فالخارجون للجهاد لهم الفضل الأعظم. وقد بين سبحانه عظيم الأجر بأنه يرفع المجاهد درجات عند الله تعالى، فقال سبحانه مبينا ذلك:

﴿ **دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً** ﴾ هذا بيان للأجر العظيم الذى يعلو به المجاهد بنفسه وماله عن القاعد كسلا أو تراخيا، أو لأنه سبقه غيره إلى الجهاد. وهذا الأجر مكون من عناصر ثلاثة:

أولها: أن الله تعالى يرفعه درجات، ويقربه إليه سبحانه منازل يوم القيامة، فيكون فى مرتبة الصديقين والأنبياء والصالحين؛ إذ إن الشهداء الذين أخلصوا النية فى جهادهم، والمجاهدين الذين تعرضوا لشرف الاستشهاد لهم المنازل العليا، والمقامات الكبرى. ونُكرت الدرجات لبيان أنها لا يحدها الحصر، ولا يعيِّنها المقدار، بل هى شرف عظيم لا يناله إلا المقربون الأبرار.

ثانيها: أن الله تعالى يغفر له ما تقدم من ذنبه، فإن الحسنات يذهبن السيئات، وأى حسنات أعظم من تقديم النفس والنفيس.

ثالثها: الرحمة تنزل بالمجاهد، فإنه يكون مغمورا برحمة الله تعالى فى الدنيا والآخرة: ففى الدنيا براحة الضمير وأداء الواجب، والإحساس بأنه كان سببا للرحمة بالمؤمنين؛ إذ وقاهم شر العدو، ومنعه من أن يتحكم فيهم، ودفع عنهم الفتنة فى دينهم، وجعل الدين خالصا لوجهه الكريم، ومنع الفساد فى الأرض. وفى الآخرة بالثواب العظيم.

وقد ختم الله تعالى النص بأن الغفران والرحمة وصفان دائمان لذاته العلية، لا ينفصلان عنها، وفى ذلك دعوة لكل من يكسل عن الجهاد لأن يعمل، وللعاصى ليتوب، فإن باب المغفرة مفتوح قد فتحه الغفور، وباب الرحمة متسع قد وسَّعه الرحيم. اللهم اكتبنا فى عبادك التائبين، واغفر لنا، إنك أنت الغفور الرحيم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾

فى الآيات السابقة ذكر سبحانه خروج المؤمنين مجاهدين، وما يجب أن يكون عليه المجاهد من حذر، فلا يثق بخائن أو منافق، ولا يضع سيفه على من يلقى إليه السلام، وذكر أن الخروج للجهاد واجب، وأن القعود لا يجوز إلا عند عدم الحاجة أو المعذرة. والقعود قسمان: قعود عن الجهاد، وقعود عن الهجرة. وإذا كان القعود الأول فيه ملامة إن لم يكن لمعذرة، فالقعود الثانى فيه ذلة، وفيه إثم الرضا بالذلة، ولذا قال تعالى:

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا** ﴾ معنى توفَّاهم الملائكة: تتوفاهم فهو فعل ماض أريد به المستقبل لتأكد وقوعه، كقوله تعالى: ﴿ **أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴿١﴾ ﴾ [النحل] والمعنى: أن الذين تتوفاهم الملائكة الذين نيط بهم قبض الأرواح، قد توفوا فى حال ظلمهم لأنفسهم، بسبب رضاهم بالذل والهوان، باستمرار إقامتهم فى أرض لم يستطيعوا إقامة دينهم فيها، أو لم ينضموا إلى أهل الإسلام ليكثر بهم المسلمون، ويعظم جهادهم. وقد روى البخارى أنها نزلت فى ناس من المسلمين لم يهاجروا، فكانوا مع المشركين يكثر

بهم سوادهم، وكانوا يخرجونهم معهم فى القتال، فيصيبهم المسلمون بسهامهم أو سيوفهم.

ومهما يكن سبب النزول، فالعبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، فإن كل مؤمن يعيش فى أرض يستذل فيها، أو لا يستطيع إقامة حق دينه فيها، أو يعامل بغير الأحكام الإسلامية يكون من الواجب عليه أن يهاجر إلى الأرض التى يكثر فيها سواد المسلمين. وقد فهم هذا المعنى العام «الزمخشرى»، فقد قال فى ذلك: (وهذا دليل على أن الرجل إذا كان فى بلد لا يتمكن فيه من إقامة أمر دينه كما يجب، لبعض الأسباب، والعوائق عن إقامة الدين لا تنحصر، أو علم أنه فى غير بلده أقوم بحق الله تعالى، وأدوم على العبادة، حقت عليه المهاجرة. وعن النبى ﷺ: «من فرَّ بدينه من أرض إلى أرض، وإن كان شبرا من الأرض، استوجب الجنة، وكان رفيق أبيه إبراهيم، ونبيه محمد»[1]، وقد ذكر الزمخشرى أنه فعل ذلك ﷺ إذ جاور بيت الله الحرام، وقال جار الله الزمخشرى داعيا ربه: (اللهم إن كنت تعلم أن هجرتى إليك لم تكن إلا للفرار بدينى، فاجعلها سببا فى خاتمة الخير ودرك المرجو من فضلك، والمبتغى من رحمتك، وصل جوارى لك بعكوفى عند بيتك بجوارك فى دار كرامتك يا واسع المغفرة)[2].

هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالإقامة فى دار لا تحكم بالإسلام، ولا يكون فيها قوة لأهل الحق ـ تسألهم الملائكة يوم القيامة، فيقولون لهم: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾، ويقول الزمخشرى إن المعنى: فى أى شىء كنتم من أمر دينكم؟ والسؤال للتوبيخ، ومؤداه إنكم لم تكونوا مستطيعين إقامة شئون دينكم، فكيف ترضون بذلك؟ وعندى أن معنى النص: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾؟ فى أى حال كنتم؟ أكنتم فى عزة أم فى ذلة؟ وكيف ترضون لأنفسكم الهوان، ولدينكم الدنية؟. والاستفهام للتوبيخ أيضا كما قرر الزمخشرى.

---

(١) أخرجه الثعلبى من طريق الحسن مرسلا، وقد ذكر ذلك الآلوسى ج٥، ص١٢٥.

(٢) ذكره الزمخشرى ج١ ص٥٥٦ من الكشاف.

وقد أجابوا عن ذلك بما حكاه الله سبحانه وتعالى عنهم بقوله: ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ﴾، ومعنى مستضعفين أنهم أريد ضعفهم وإذلالهم وعدم تمكينهم من إقامة الحق؛ لأن السين والتاء تدلان على طلب الضعف لهم من غيرهم، فهم يعتذرون بأن أعداء الدين أو المسيطرين عليهم أرادوا بهم هذا الضعف، وألزموهم إياه، فلم يستطيعوا عنه حولا!. وهذا اعتذار غير سليم، لأنهم كانوا فى ذات أنفسهم ضعفاء، إذْ رضوا بالذل والهوان، ولذلك قالت لهم الملائكة: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ والاستفهام هنا إنكارى أيضا، ومعناه: لقد كانت أرض الله تعالى واسعة، فلماذا لم تهاجروا إلى تلك الأرض الواسعة، حيث العزة، وحيث الجهاد، وحيث يكثر سواد المسلمين، ويعتز أهل الإيمان، ويكون المؤمنون بعضهم لبعض، ويكونون فى الجهاد كالبنيان المرصوص المتماسك، كما قال النبى ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضُه بعضا»[1].

وإن هذا النص الكريم يدل على أن المؤمن محاسب إذا رضى بالذل والدعة والعيش الناعم فى غير أرض الإسلام، وأنه خير له أن يعيش فى ظل الإسلام وفى خشن العيش مع العزة، من أن يعيش فى نعيم مع الذلة، ولذا قال تعالى فى عقاب هؤلاء المنقطعين عن الإسلام:

﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ أى إن هؤلاء الذين رضوا بالذل وظلموا أنفسهم، أو رضوا بأن يكونوا فى قوة أعداء الإسلام، ولم يكونوا مع المسلمين، مدَّعين أن الضعف هو الذى أقعدهم ـ إذا كانوا قد ارتضوا الإقامة فى مكان الهوان فى الدنيا، فإن مأواهم الذى يأوون إليه فى الآخرة هو جهنم، وهى مصيرهم الذى يصيرون إليه، ونهايتهم التى ينتهون إليها، وما أسوأ جهنم مآلا ونهاية ومأوى لمن يسيرون فى طريقها، فأولئك جمعوا على أنفسهم هوان الدنيا وعذاب الآخرة!.

---

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى: الصلاة - تشبيك الأصابع (٤٨١)، ومسلم: البر والصلة والآداب - تراحم المؤمنين وتعاطفهم (٢٥٨٥). عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه.

وإن هذا النص يوجب على المؤمن أن يعيش عزيزا كريما، تكون قوته للمؤمنين، وعليه أن يجاهد فى ذلك، وإن لم يفعل فقد جنى على نفسه مرتين: إحداهما بهوان الدنيا، والثانية بعذاب الآخرة.

﴿ **إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً** ﴾ هذا استثناء من المصير الذى سيئول إليه هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم، وهؤلاء هم ضعفاء حقا، فقد استضعفهم الأعداء وأرهقوهم، ولم تكن عندهم قوة تمكنهم من الإفلات من بقائهم فى أرضهم وخروجهم إلى أرض الإسلام. **وهؤلاء ثلاثة أصناف:**

أولهم: ضعفاء الرجال من الشيوخ الفانين، والمرضى وذوى العاهات، ونحوهم، ومن هؤلاء من كان لا يرضى بالذلة ولو فنى بالطريق! ويروى أنه لما نزلت هذه الآية بعث بها رسول الله ﷺ إلى مسلمى مكة، فقال ضمرة بن جندب لبنيه: احملونى، فإنى لست من المستضعفين، وإنى لأهتدى إلى الطريق، والله لا أبيت ليلة بمكة!. فحملوه على سرير متوجها إلى المدينة، وكان شيخا كبيرا، فمات فى الطريق!.

والصنف الثاني: النساء اللائى لا يستطعن الخروج، إما لثقلهن بالأولاد، وإما لخشية أمن الطريق، وإما لعدم وجود زوج يصحبها، ولا ذى رحم محرم يكون معها فى الطريق.

والصنف الأخير: الولدان، وقد قال بعض المفسرين: إنهم العبيد ونحوهم، وذلك القول ليس بشىء، والأصح أنهم الصبيان، ويقول الزمخشرى: إنهم الذين تجاوزوا الحلم قريبا. ويصح أن يكون المراد هؤلاء والأولاد الذين يتبعون آباءهم، أو الذين ليس لهم آباء يتبعونهم، وهم بهذا الضعف غير مسئولين، واستثناؤهم لعدم تكليفهم أو لأنهم لا قوة لهم على تفسير الزمخشرى؛ إذ إن ضعف الصبا لا يزال بهم، إذا كانوا قد بلغوا الحلم، ولم يدخلوا فى دور الرجولة.

وقد ذكر سبحانه الوصف الذى استوجب استثناءهم، فقال سبحانه: ﴿لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً﴾، والحيلة المراد بها التحول من حالهم التى هم عليها إلى غيرها أى لا يستطيعون تحولا ولا انتقالا لعجزهم المطلق بمرض أو زمانة أو شيخوخة، أو يستطيعون التحول، ولكن لا يهتدون إلى الطريق الموصل كالصبيان القريبى العهد بالبلوغ، بحيث لو خرجوا هلكوا.

﴿فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ إن هؤلاء الذين استضعفوا حقا وصدقا بسبب ضعفهم، عسى أن يعفو الله عنهم، أى يرجى أن يكونوا محل عفو الله تعالى، فلا يؤاخذهم برضاهم بالبقاء فى أرض الذل، فالفاء هنا هى فاء السببية، أى أن السبب فى أنهم محل عفو الله، ورجاء العفو لهم، هو ضعفهم. وهنا بحثان تشير إليهما الآية الكريمة:

أولهما ـ أن الهجرة هى الأمر المفروض الذى لا مناص منه إلا عند العذر الشديد، وإن الأعذار يقدرها أصحابها. ومع وجودها يرجى لهم العفو، ويرجونه، ويقول الزمخشرى: إن هذا يدل على أن ترك الهجرة أمر مضيق لا توسعة فيه، حتى إن المضطر البين الاضطرار من حقه أن يقول: عسى الله أن يعفو عنى. وهذا كله معناه أن الأصل هو الهجرة.

ثانيهما ـ أن الأمور التى يرخص بها فى مقابل واجب مفروض، لا تكون مباحة فى ذاتها، بل تكون فى مرتبة العفو؛ لأن المباح يكون مطلوبا على وجه التخيير، وهذه لا طلب فيها، بل رخص بها فى الترك، والأصل وجوب الهجرة.

وقد ختم سبحانه وتعالى الآية بأنه كثير العفو عن عباده فى الرخص التى يرخص لهم بها، كثير المغفرة لمن تاب وأناب، والله سبحانه وتعالى رحيم بعباده.

۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾

فى الآيات السابقة كان بيان حال الذين رضوا بالذل والهوان والضيق، وأنهم مؤاخذون لذلك، إلا إذا كانوا عاجزين عن الانتقال. وفى هذه الآيات يرغب سبحانه فى الهجرة عند الضيق كما ألزم بها عند الذل، فقال تعالى:

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ يقال: أرغمه، إذا أوقعه فى الرغام، وهو تراب الأرض، ورَغِمَ أنفه إذا نزل إلى التراب، وذلك كناية عن الذل بعد الكبرياء. وأرغم أنفه، إذا أنزل به. وراغمه، إذا حاول كل واحد منهما أن يرغم الآخر. والمُراغَم مكان المراغمة، وقد أطلق على مواضع طلب المعيشة، والطريق فى الأرض، وذلك إذا كان يصل إليه بعد مشقة، أو جهد غير معتاد، وهذا هو الذى يقال فى معنى النص الكريم. فالمعنى على هذا: ومن يهاجر ويترك دار إقامته فى سبيل الله تعالى طالبا ما عنده يجد طرائق كثيرة فى الحياة، وإن كان لا ينالها إلا ببعض المشقة، فإنها قنطرة للراحة، وكذلك ينال سعة فى رزقه وحياته ودينه، فلا يُضَيَّق فى دينه عليه، ولا يعيش فى ذلة وهوان، أو مقترا عليه فى الرزق.

والآية تحث على الهجرة إذا توافرت أسبابها، وتشير إلى أن المهاجر، إن ترك محل العيش الرتيب، فإنه سيجد فى النهاية مذاهب مختلفة للرزق، وسعة فى الحياة، وعدم ضيق، فهو معوض بلا ريب.

وتكون الهجرة فى سبيل الله تعالى: إذا كانت للفرار من الفتنة فى الدين، أو لدفع الذل وطلب العزة، أو للخروج من أرض ليست تحت ولاية الإسلام إلى أرض فيها ولاية الإسلام، أو من أرض فيها ظلم سائد واقع على الأبدان أو المال ولو كانت من ولاية الإسلام، أو كانت الهجرة لتكثير سواد المسلمين فى إقليم قلَّ فيه عددهم، وهى الانتقال من أرض إسلامية مزدحمة بالسكان قد اكتظت بأهلها إلى أرض إسلامية خالية من السكان، فإنها تكون مظنة أن يأخذها أعداء المسلمين، فتكون قوة لهم على المسلمين. ففى كل هذه الأحوال تكون الهجرة فى سبيل الله تعالى:

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ المهاجر فى سبيل الله تعالى ينتقل من حمى الناس إلى حمى الله تعالى، فهو مهاجر منتقل إلى جانب الله تعالى ورسوله، فإذا كان يترك بيته وأهله وعشيرته، وجيرانه الذين عاش بينهم وعاشرهم، فهو يتركهم إلى جانب أعظم، ورحاب أوسع، وهو جانب الله تعالى ورسوله ورحابهما. وإن المهاجر إلى الله تعالى فى سبيل تحقيق مقصد من مقاصد دينه التى نوهنا عنها سابقا ينال إحدى الحسنيين: إما الظفر بالسعة والعزة، والمال، وإما الظفر بالأجر العظيم، وذلك إذا أدركه الموت، وهو فى الطريق الى الله.

وهذا قد قال فيه سبحانه: ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، أى فقد حق له الأجر العظيم عند الله تعالى. وقد تفضل سبحانه، فاعتبر ذلك الأجر حقا عليه ـ سبحانه، ولذا عبر بـ «على» فى قوله: ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ ووقع هنا معناه ثبت وتقرر، وكأنه صار وثيقة على الله تعالى وذلك كله تأكيد لتحقق الأجر بهذه الهجرة.

وإن ذلك الأجر غفران لما مضى من ذنبه، ورحمة به بالنعيم المقيم فى الآخرة، ولذلك قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أى أن الوصف الدائم الثابت لله تعالى فى الأزل أنه كثير المغفرة، ومن شأنه الرحمة بعباده، فبمقتضى

رحمته فتح باب الهجرة وحثَّ عليه، وبمقتضى رحمته مكَّن للمهاجر من السعة والعمل فى الأرض، وبمقتضى رحمته اعتبر نية الهجرة إذا صاحبها العمل كافية للثواب والأجر العظيم.

اللهم أعزَّ الإسلام والمسلمين، وبدِّلهم من بعد خَوفهِم أمنا، ومن بعد ضعفهم قوة، واهدهم للعمل بكتابك وسنة نبيك، إنك سميع الدعاء.

وبعد أن ذكر أن الهجرة فيها عزة، وأن المهاجر يجد سعة من الرزق، يذكر سبحانه ما سهله تعالى للمهاجر أو المسافر من عبادة تيسيرا له، وتشجيعا على السفر، فقال سبحانه: ﴿ **وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ** ﴾ الضرب فى الأرض هنا هو السفر، وأطلق الضرب فى الأرض على السفر؛ لأن المسافر يضرب برجله وبراحلته وبمتوكئه على الأرض فى حركة مستمرة جزءا من النهار، فكان التعبير عن الضرب فى الأرض بالسفر فى موضعه، وهو مجاز واضح فى علاقته.

ونجد التعبير فى هذا النص الكريم يختلف عن قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ فى الآية السابقة فى أمرين: **أحدهما**: أنه فى الآية السابقة عبر عن السفر بالهجرة: والهجرة تقتضى الانتقال على غير عودة، وعلى نية الإقامة فى مكان آخر يتخذه موطنا ومستقرا ومقاما دائما له، وفى هذا النص عبر عن السفر بالضرب فى الأرض، أى أنه سفر على نية العودة غالبا، ولا يريد به اتخاذ مكان آخر موطنا له.

والثانى: أن الآية الأولى تنص على الهجرة فى سبيل الله تعالى، والخروج من أرض الذل إلى أرض العزة، حيث يمكن أن تكون بالهجرة نصرة للمسلمين، يعد فى سبيل الله؛ أما فى هذه الآية، فإن السفر عام يشمل ما يكون فى سبيل إقامة الدين، وما يكون فى طلب الرزق، وزيارة ذوى الأرحام، وغير ذلك مما يعد قربة أو أمرا مباحا.

والنص الكريم يبيح قصر الصلاة، ووردت السنة بأن الصلوات التى عدد ركعاتها أربع ركعات يقصر إلى اثنين، وهى صلاة الظهر والعصر والعشاء، والنص الكريم قد اقترن القصر فيه بشرط مخافة العدو أن يفتن المؤمنين فى سفرهم، بأن يكون المؤمنون غير آمنين من أن يدهمهم عدو فى سفرهم، فهم يقصرون الصلاة، حتى يكونوا فى حال استعداد مستمر، ولا تشغلهم الصلاة عن الحذر منه. وقد قوى هذا بأن الآية الكريمة التى أعقبت هذه الآية كانت خاصة بصلاة الخوف التى تكون فى الميدان، فبمقتضى ظاهر النص يكون القصر عند الخوف من العدو، وأن القصر مع صلاة الخوف يكون عند لقاء العدو.

ومعنى الفتنة هنا هو إنزال الأذى بالمؤمنين، بأن يجعلهم فى حال شدة، وينزل بهم كارثة بمداهمتهم وقتلهم أو الانقضاض عليهم، وهم ليسوا فى حال استعداد للقتال.

وبهذا يكون قد ثبت بالنص القرآنى قصر الصلاة، فى حال خوف الفتنة من الذين كفروا، وصاروا فى عداوة مستمرة للمؤمنين بسبب كفرهم. ولكن ثبت بالسنة القصر فى الصلوات التى عدد ركعاتها أربع فى حال سفر، ولو لم يكن السفر فى موضع مخوف، وقد ثبت هذا بالسنة المتواترة عن النبى ﷺ، والتى أجمع الصحابة عليها[1]. ويصح أن نقول أن قوله تعالى: ﴿**إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ لم يكن إلا فى بيان القصر فى حال خوف الفتنة من الذين كفروا؛ لأن السياق كله كان فى الجهاد، ولكن يمنع ذلك الفرض أن النص جاء فى مطلق سفر، لا لأجل الجهاد.

---

(١) من ذلك ما رواه مسلم فى صحيحه: صلاة المسافرين وقصرها (٦٨٦)، عَنْ يَعْلَى بْنِ أُمَيَّةَ قَالَ: قُلْتُ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنْ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فَقَدْ أَمِنَ النَّاسُ فَقَالَ: عَجِبْتُ مِمَّا عَجِبْتَ مِنْهُ فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: «صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ».

ومهما يكن فقد ثبت النص القرآنى فى القصر فى حال خوف الانقضاض من العدو، وبالسنة القصر فى عموم أحوال السفر. ولما كان ذلك هو موضع النص، ذُيِّل النص الكريم بما يدل على وجوب الحذر دائما من الأعداء الكافرين، فقال:

﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذا النص لتأكيد الحذر من الكفار دائما؛ لأن عداوتهم مستمكنة فى قلوبهم، وقد أكد سبحانه وتعالى هذه العداوة بمؤكدات أربعة: أولها ـ «إنَّ» الدالة على التوكيد، مع وصف الذين كفروا بالكفر، وجعله شأنا لهم، ومن كان جمود الحقائق شأنه لا يؤمن على شىء. وثانيها ـ التعبير بـ «كان» الدالة على الدوام والاستمرار. وثالثها ـ وصف الكافرين بالعداوة؛ لأن العدو يطلب لعدوه دائما الشر، ويترقب مواضع غفلته لينقض عليه، فلا تنتظر منه رحمة أو حلم، أو نسيان للحقد. ورابعها ـ وصف العداوة بأنها ظاهرة بينة لا خفاء فيها، فالمغرور من يأمن عواقبه.

وقد تكلم العلماء فى السفر المسوغ لقصر الصلاة: ما مقداره؟ وما حكم القصر؟ أهو واجب أم سنة؟ ونوع السفر الذى يجوز فيه القصر؟.

أما بالنسبة لمسافة السفر التى يجوز فيها القصر، فالفقهاء اختلفوا فيها على أقوال ثلاثة:

أولها ـ قول أهل الظاهر أن القصر يكون فى كل ما يسمى سفرا، سواء أكان قصيرا أم كان طويلا؛ لأنه لم يثبت عن النبى ﷺ مقدار محدود يمنع القصر فيما عداه، فبقيت كلمة السفر على إطلاقها، من غير تقييد بمدة معلومة ولا مسافة محدودة.

وثانيها ـ قول الحنفية، أن السفر الذى يُسوِّغ القصر مسيرة ثلاثة أيام بلياليها، بالسير المعتاد، وهو سير الإبل، مع أخذ الراحة الواجبة فى السفر، فلا يسير المدة كلها، بل يسير فى الزمن الذى يعتاد فيه السفر؛ وذلك لأن عرف العرب أن الرجل كان لا يعتبر مسافرا إلا إذا تجاوز موطنه بسير نحو ثلاثة أيام.

وثالثها - قول أكثر الأئمة أنه يوم وليلة، وقيل يوم فقط؛ وذلك لأن النبى ﷺ قال: «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم إلا مع ذى رحم محرم منها»[١]، وروى الحديث مرة يوما وليلة[٢]، وروى ثلاثة أيام[٣]، ففيه الأوجه الثلاثة. والتوفيق أن كل رواية كانت إجابة لحال خاص، فسئل عليه الصلاة والسلام عن يوم، وعن يوم ليلة، وعن ثلاثة.

وبالنسبة لكون القصر واجبا أو مخيرا فيه، فالمذهب الشافعى أنه مخير فيه، وروى أنه سنة، ومن اختار القصر صلى قصرا بالنية، ومن اختار التمام صلى تماما بالنية، ويكون الفرض فى حقه بعد أن ينوى التمام أربعا. وبقية الأئمة تقريبا على أن القصر واجب، وما يصلى فوق القصر يكون نافلة، وحجتهم ما تواتر عن الصحابة من أنهم يقصرون كلما كان سفر، وقدره يوم للإمام عثمان إذ لم يقصر عندما حج، وقال أصحاب هذا الرأى أن الفرض شرع اثنين، ثم بقى فى السفر كذلك ثم زيد فى الحضر. وحجة الرأى الأول قوله تعالى: ﴿**فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ**﴾، ونفى الإثم يقتضى التخيير. وقد أجاب عن ذلك الزمخشرى بأن ذلك للتيسير والتسهيل. وفى الحق أن كلمة «لا جناح» استعملت فى السعى بين الصفا والمروة، ومع ذلك كان السعى بينهما واجبا، فالله تعالى يقول: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾**﴾ [البقرة].

وبالنسبة لنوع السفر الذى تقصر فيه الصلاة، فقد أجمع الفقهاء على أن السفر للجهاد أو الحج أو العمرة أو صلة الرحم أو القيام بواجب، يجيز القصر أو يوجبه. والأكثرون على أن السفر للتجارة والأعمال المباحة يكون فيه القصر.

---

(١) رواه مسلم: الحج- سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره (١٣٣٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) من ذلك ما رواه البخارى: الجمعة - فى كم يقصر الصلاة (١٠٨٨).

(٣) من ذلك ما رواه البخارى: الجمعة - فى كم يقصر الصلاة (١٠٨٧)، ومسلم: الحج - سفر المرأة (١٣٣٨).

وروى عن مالك أنه قال: إن خرج للصيد، لا لمعاشه، أو لمشاهدة بلد متنزها ومتلذذا، لم يقصر. وجمهور العلماء على أنه لا يقصر للصلاة من سافر فى معصية، وروى عن أبى حنيفة والأوزاعى، أنه يقصر؛ لأنه يتحقق فيها معنى السفر، وقد كان القصر فى مطلق سفر، وروى مثل ذلك عن مالك ـ رضى الله عنه.

وفقنا الله تعالى لإقامة الصلاة عمود الدين، وفيها برد المتقين.

وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾
فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾

فى الآيات السابقة بين الله سبحانه وتعالى وجوب الهجرة على المؤمن للجهاد فى سبيل الله تعالى، ولطلب الرزق، إن ضاقت أرضه التى نشأ فيها، ثم

ذكر سبحانه وتعالى ما سهَّل به على المسافر من قصر الصلاة. وفى هذا النص الكريم بيَّن سبحانه حال الصلاة إذا كان المسافر فى حال جهاد، وهو ما يسمى فى عرف الفقهاء بصلاة الخوف، أى الصلاة التى تكون فى حال الخوف من العدو، بأن يكونوا فى حال حرب معه. فالمراد بالخوف هو الحذر من مباغتة العدو. ولذا قال سبحانه:

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ﴾ هذا النص الكريم فيه بيان الصلاة حال القتال، بأن يجمع المؤمنون بين الصلاة التى بها تطهير القلوب من كل الأدناس والأرجاس وبين الاستعداد للقاء العدو، والحذر منه.

ومعنى النص السامى: إذا كنت أيها الرسول فى المؤمنين، فأردت إقامة الصلاة على وجهها فى هذا المقام، فلتقم طائفة منهم معك، بأن تبتدئ بالصلاة معها، على أن يكون معها السلاح، وهى فى حال الصلاة، حتى يكونوا على أهبة القتال دائما. وحمل السلاح فى الصلاة لا يبطلها، ولا يؤثر فى حال الخشوع، وخصوصا إذا كان حمل السلاح لإعلاء كلمة الله تعالى وخفض الباطل، فهو عبادة من أعظم العبادات، فكان النبى ﷺ يقسم المؤمنين المجاهدين صفين، صفا يبتدئ بالصلاة معه، فإذا سجدوا للصلاة وقد ألقوا وجوههم على الأرض، لا يرون شيئا ولا يستحضرون إلا عظمة الله تعالى، فإن الصف الثانى يكون من وراء هؤلاء، يدفع عنهم أذى الكفار، والاعتداء على أهل الحق والايمان، وهذا معنى قوله تعالى: **﴿إِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ﴾**، أى فليكن الصف الآخر، أو الطائفة الأخرى من ورائكم، حامية لظهوركم، مانعة نزول الأذى بكم، ومن بعد ذلك تجيء الطائفة الحارسة، وتكون من بعد ذلك فى محل المصلية، وتذهب الأخرى حارسة، وهذا قوله تعالى: **﴿وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾**.

أى إذا صلت الطائفة الأولى، والنبى ﷺ لم يُنه صلاته، جاءت الأخرى فصلى بها النبى ﷺ، وقد أمر الله بأن تكون معها أسلحتها، وشدد فى الأمر بأن أمرها مع ذلك بأخذ الحذر والاحتراس، وقدم الأمر بأخذ الحذر على أخذ الأسلحة؛ لأن أخذ الأسلحة من الحذر، ولأن الحذر عند انتقال الصفوف واجب، خشية أن يباغتهم العدو، وهم يغيرون صفوفهم؛ لأن هذا يشبه التغيير فى الخطط وقت القتال، وهو لا يخلو من خطورة يجب معها الحذر، ولأن الطائفة الأولى عند سجودها، عسى أن يتنبه العدو لحالها فيطمع، وخصوصا إذا رأى الصفوف تتغير، وتتحرك فى داخل الجيش نفسه.

اتفق الفقهاء على أن صلاة الخوف تقتضى أن يصلى النبى ﷺ بطائفة، ثم يصلى بالأخرى التى تكون أمام العدو ابتداءً، وتحل الأولى محلها، ولكن اختلفوا بعد ذلك فى كيفية صلاة الخوف تبعا لما فهموا من اختلاف الروايات فى صلاة النبى ﷺ، وها هى ذى الروايات ومن اختاروها:

الرواية الأولى - رواية عبد الله بن مسعود التى أخرجها أبو داود والدارقطنى، وخلاصتها أن الصلاة فى هذه الحال ركعتان إن كانت رباعية، ويقسم النبى المجاهدين إلى صفين: أحدهما يصلى به ركعة، ثم يقوم، حتى تجىء الطائفة الأخرى فيصلى بها الركعة الثانية، حيث تكون الأولى فى مواجهة العدو، ثم يسلم، وتأتى الأولى فتتم صلاتها بغير قراءة، لأنها كما يعبر الحنفية لاحقة، أى كأنها وراء الإمام حكما طول الصلاة، ولا قراءة وراء الإمام، فإذا أتمت جاءت الثانية فصلت بقراءة، لأنها تكون مسبوقة، إذ تكون كمن أدرك آخر صلاة الإمام وفاتته ركعة، فتكون القراءة واجبة. وبهذه الرواية أخذ أبو حنيفة وأصحابه.

الرواية الثانية - هى ما رواه الإمام مالك فى موطَّئه، أن صلاة الخوف أن يصلى الإمام بالطائفة الأولى ركعة ولا يسلم، وتتم هى الصلاة وحدها، فإذا أتمتها جاءت الأخرى، فصلى الإمام معها الركعة الأخرى وسلم، وهم يتمون الركعة، وبذلك تقل الحركات عن الرواية الأولى. وبهذه الرواية أخذ الإمام مالك؛ وروى

أن الإمام لا يسلم إلا بعد أن تنتهى الثانية من صلاتها، وبهذا أخذ الشافعى رضى الله عنه، واختاره أحمد، وإن كان يجوز غيره، كما سنبين موقفه من هذه الروايات.

الرواية الثالثة ـ أن الرسول صلى بالطائفة ركعة، وبها تتم صلاتها، ثم قام حتى تجيء الثانية، فصلى بها الركعة الثانية، وسلم، وبها تتم صلاتها فتكون صلاة الخوف على هذه الرواية ركعة واحدة بالنسبة للمأموم، وركعتين للإمام، وبهذا أخذ بعض الفقهاء.

الرواية الرابعة ـ أن النبى ﷺ صلى ركعتين بالأولى ولم يسلم، وذهبت، وجاءت الثانية فصلى بها اثنتين أخريين، ثم سلم معها. وفى رواية أنه سلم بينهما، فسلم مع الأولى، وسلم مع الثانية. وقد اختار بعض الفقهاء هذه الرواية الأخيرة.

ولقد قال الإمام أحمد بن حنبل، وهو عالم السنة الأول فى عصره: «لا أعلم أنه روى فى صلاة الخوف إلا حديث ثابت، وهى كلها صحاح ثابتة، فعلى أى حديث صلى منها المصلى صلاة الخوف أجزأه، إن شاء الله».

وإن كل هذه الروايات تتفق مع النص الكريم، واختلاف الرواية الصحيحة يدل على أن النبى ﷺ صلاها بكل هذه الوجوه المختلفة، لبيان أنها جائزة بكل وجه من هذه الوجوه.

وبعض العلماء قالوا: إن صلاة الخوف خاصة بما إذا كان النبى ﷺ مع المجاهدين، أى أنها خاصة بعصر النبى ﷺ، وبشرط أن يكون هو قائد الجند، وحجتهم فى ذلك أن الخطاب خاص بالنبى ﷺ، إذ يقول: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ﴾، فالكيفية مقيدة بشرط، وهو إقامته فيهم، وليست كل التكليفات التى يوجه فيها الخطاب للنبى ﷺ، على أن يكون موجها لكل الأمة، مشروطا فيها هذا الشرط، فالتكليف مقيد بالشرط، وليس بمطلق، وليس أحد بعده يقوم فى الفضل مقامه عليه الصلاة والسلام. وقال الجمهور: أُمرنا باتباعه،

والتأسّي به فى كثير من الأحاديث وآيات القرآن الكريم. وقال ﷺ: «صلوا كما رأيتمونى أصلى»[1]، وإن كثيرا من المطالب التكليفية يكون الخطاب فيها للنبى ﷺ، ثم لأمته، وإن الصحابة جميعا فهموا عموم الرخصة فى صلاة الخوف، فَعَدَّوْها إلى كل إمام فى الجيش، وهو أعلم بمقاصد الإسلام؛ لأنهم تلقوا علمهم عن النبى ﷺ، وأن الإمام القائم بالجهاد هو خليفة النبى ﷺ على أمته، ولأن المعنى فى صلاة الخوف لا يتحقق فقط مع النبى ﷺ، بل يتحقق مع كل أمير جهاد، ولأن صلاة الخوف هى من نوع الحذر، والجمع بين المُضىّ فى القتال، والمُضىّ فى الصلاة التى هى عماد الدين، والحذر مطلوب دائما، وقد بين الله سببها فقال: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾.

هذا، ولا بد من التنبيه لأمرين: **أحدهما** - صلاة المغرب، فقد كانت الصلاة التى تكلم فيها الفقهاء هى الصلاة الثنائية بالأصالة، وهى الفجر، أو الثنائية بالقصر، وهى صلاة الظهر والعصر، والعشاء. وأما المغرب فقد روى عن النبى فيها روايتان: إحداهما أنه صلى بالطائفة الأولى ثلاثا، وبالثانية مثلها، وبهذه الرواية أخذ الحسن البصرى. والرواية الثانية أنه صلى بالطائفة الأولى ركعتين، وبالثانية واحدة، وهذا قول أبى حنيفة ومالك. وروى أن الشافعى قال: يصلى بالأولى واحدة، وبالثانية اثنتين.

الأمر الثانى - أنه لا يلزم الاتجاه إلى القبلة إذا خيف أن يأخذ العدو المؤمنين على غرة، وذلك فى حال الالتحام الشديد، وإذا خيف فوات الوقت يصلى متى أمكن له أن يصلى، وبذلك قال مالك، والثورى، والأوزاعى، والشافعى، وقال غيرهم: يصلون بالإيماء، ولا يتركون الوقت.

والسبب فى شرعية صلاة الخوف هو الحذر، والخوف من المباغتة، ولذا كرر الله الأمر بأخذ الأسلحة والحذر، وبين ما يوده الكفار فقال: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾.

---

(١) جزء من حديث سبق تخريجه من رواية البخارى وغيره عن مالك بن الحويرث.

فى هذا النص الكريم إشارة إلى السبب فى صلاة الخوف، وهو ترقب العدو لحال المسلمين، عساهم يجدون منفذا ينفذون منه إلى صفوفهم، أو ثغرة يدخلون منها، أو غفلة ينتهزونها، فكان الحذر أن تسد عليهم كل المنافذ التى ينفذون منها لتحقيق مآربهم، فلا يصح للمسلمين أن يغفلوا بالعبادة عن الجهاد، ولا يتركوا العبادة.

ومعنى: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تمنى الذين كفروا، وهم أعداؤكم الذين نصبوا راية العداوة لكم، أن تأخذكم الغفلة عن أسلحتكم التى بها شوكتكم وقوتكم، وعن أمتعتكم التى فيها زادكم وبها تستمرون على القتال من غير أن يصيبكم جوع أو عرى. وأنهم يريدون هذه الغفلة ليميلوا بقوتهم وكَلْكَلِهم عليكم، فيكونوا ثقلاء الوطأة، ويضربونكم الضربة القاصمة الفاصلة، فيما يتوهمون ويزعمون! وهذا معنى قوله سبحانه: ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾، أى يثقلون الوطأة عليكم ويضربونكم الضربة المستأصلة فى زعمهم ووهمهم!!.

وفى هذه النصوص كلها نجد الأمر المتكرر بوجوب أخذ الأهبة دائما، وحمل السلاح باستمرار. ولكن قد يتعسر حمل السلاح، وهنا يرخص فى عدم حمله، مع أخذ الحذر، بحيث يكون فى مكان قريب، كى يعمل عند أول صيحة، ولذا قال سبحانه:

﴿وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ لا إثم عليكم فى أن تضعُوا أسلحتكم فى أغْـمِدَتِها، إذا كان فى الميدان مطرٌ شديدٌ يعوق استعمالها ولقاء الأعداء، فإنها إن لم توضع تعرضت للصدأ، ووراء ذلك تلفها، والاحتياط لسلامتها فى الميدان واجب، وكذلك من يكون به مرض يغمد سلاحه حتى يستطيع استعماله، فإن تركه من غير استعمال يفسده، فلا يصلح عند وجوبه، وقوله تعالى: ﴿أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ﴾ الخطاب للجميع، ويراد به البعض من وجه؛ لأنه يبعد أن يكون جميع الجيش مريضا، فالله تعالى يرخص للمريض فى أن يدع القتال حتى يشفى، فليس على المريض

حرج، وهو خطاب للجميع من جهة أخرى؛ إذ على الجماعة أن توفر للمريض راحته، فتغنيه عن حمل السلاح وهو مريض، وتحمل هى عنه العبء.

ومع أنه لا إثم فى وضع السلاح عند المطر المعوِّق الذى يعد أذى، ولا يعد غيثا، والترخيص للمريض فى غمد سلاحه، فلابد من الحذر، فيترقبون من العدو دائما انتهازه للفرصة، ومن ذلك أن يتقلدوا السيوف(١)، ولو أنها فى أغمدتها، ووضع الرقباء، وبث العيون على العدو ليعرفوا حاله، فعسى أنه يحاول الهجوم من ثغرة أو طريق سهلة عليه، وإن ذلك لأن الله تعالى يريد أن تعلو كلمة الإيمان فى الدنيا، وتنخفض كلمة الكفر، ولذا قال سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أى إن الله أعد للجاحدين به وبالحق عذابا مذلا لهم فى الدنيا والآخرة، ففى الآخرة بالعذاب الشديد الذى لا نجاة منه، وفى الدنيا بالغلب عليهم، وإذهاب صولتهم، ودولتهم، وذلك يكون بأخذ الأهبة والحذر، والاعتماد على الله تعالى، وقد أكد سبحانه العذاب المهين الذى ينزل بهم فى الآخرة بثلاثة مؤكدات: بحرف (إن)، وبأن الله تعالى هو الذى ينزله، وما أراده الله تعالى لابد واقع، وبالتعبير بكلمة (أعَدَّ)، فإنها تفيد أنه هيئ لهم فعلا، وهو يستقبلهم، وهم صائرون إليه لا محالة.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ أى إذا أديتم الصلاة على حال الخوف، فإن العبادة لم تنته، بل إن معناها قائم مطلوب منكم، وهو أن تذكروا الله تعالى فى كل أحوالكم، قائمين فى الميدان، أو غادين ورائحين ﷺ أو قاعدين مستريحين، أو نائمين على جنوبكم، فإن ذكر الله تعالى هو العبادة المستمرة التى بها تطمئن القلوب، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد].

(١) أو ما فى معناها من عدة الحرب.

وإن التعبير عن صلاة الخوف بقوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ﴾ فى مقابل قوله تعالى عند الاطمئنان: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ فيه إشارة إلى أنها بدل عن الصلاة الكاملة تؤدى معناها، وإن لم تكن مثلها فى الصورة الظاهرة.

﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ أى إذا ذهب الخوف، وعادت القضب إلى أجفانها[1]، ورجعتم إلى مساكنكم، فأقيموا الصلاة أى أدُّوها كاملة، مستقبلين القبلة، موصولة من غير فاصل بين أجزائها. والكمال هنا كمال الصورة، وإلا فالمعنى يتحقق فى صلاة الخوف بمقدار لا يقل عن كماله فى الإقامة، إذ إنها عبادة فى عبادة، هى عبادة الصلاة فى عبادة الجهاد، وهو أشق عبادة، ولا شاغل قد يشغل المصلِّى عن صلاته إلا هذه العبادة العالية، وفى الإقامة قد تشغله بعض أعراض الدنيا. وقد بين سبحانه مكان الصلاة فى الإسلام، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾، أى الصلاة مكتوبة على المؤمنين مؤقتة بأوقاتها، وهذا تأكيد لفرضيتها، وقد أكدت الفرضية بأربعة مؤكدات: أولها «إن» التى للتوكيد. وثانيها «كانت» التى تدل على الدوام والاستمرار فى الماضى والمستقبل، وثالثها. التعبير عن فرضية الصلاة بأنها (كتاب) فهو تعبير عن الوصف بالمصدر، وفيه فضل توكيد، ورابعها. التعبير بقوله تعالى: ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، فإن ذلك يفيد الإلزام والحتمية. اللهم وفقنا لإقامة الصلاة، وإقامة الحق، والعمل على إعلاء شأن الإسلام، إنك سميع الدعاء.

(١) أى السيوف إلى أغمادها. وسيفٌ قاضِبٌ وقضيب: قطّاع (مقاييس اللغة)، وأجفان السيوف وجفونها أغمادُها، واحدها جَفْنٌ. (لسان العرب).

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾

فى الآيات السابقة كان بيان ما يتبعه المؤمنون من الصلاة عند الخوف، ولقاء العدو، ومن قبل ذلك ذكر الله سبحانه وتعالى ما ينبغى أن يتبعه المؤمنون المغلوبون على أمرهم فى دولة غير إسلامية من الهجرة. فالآيات كلها فى وجوب الجهاد، وما حول الجهاد، وذلك أكد سبحانه طلبه بقوله تعالى:

﴿وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ قال بعض العلماء: إن ذلك الأمر المرشد بعد غزوة أحد، ورويت فى ذلك روايات إن صحت لم تعين أن يكون هذا النص فى موضعها، ولكن الذى يتفق مع السياق، إن هذا النص بعد صلاة الخوف يدل على وجوب الاستمرار فى القتال من غير وهَنٍ ولا ضعف، ووجوب الاستمرار فى طلب مواطن الضعف فى الأعداء، ليكون الغلب لكلمة الحق وكلمة الله سبحانه وتعالى، فالسياق على هذا يكون: إنكم إذا أديتم الصلاة، فاتجهوا من بعدها، وقد تسلحتم بذكر الله، إلى القتال.

ومعنى النص الكريم: لا يصيبكم وهن، أى ضعف فى همتكم وعزيمتكم، فى ابتغاء العدو وطلبه، وتحرِّى موضع ضعفه والنيل منه، ولا تقعد بكم آلام الحرب عن متابعته، واللحاق به، فإن تكونوا قد أصابتكم جراح فقد أصابته، ولذا قال سبحانه:

﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ مرمى النص الكريم أنـه لا يصح أن تكون الجراح، وويلات الحرب وآلامها مثبطة لكم عن الاستمرار فى طلب المعتدين وملاقاتهم؛ لأنه إن أصابكم من الجراح والآلام ما أصابهم، فهم يجرحون ويألمون من غير رجاء فى الآخرة، ولم يوعدوا بالنصر المؤزر الباقى فى الدنيا، ولا بالنعيم فى الآخرة، فهم يألمون فى غير أمل مرجو، وأنتم إن ألمتم، فلرجاء النصر ولرجاء النعيم، فأنتم أحق بالصبر، وأولى بأن تطلبوهم، ولا تهنوا وتضعفوا فى طلبهم.

ويسوق الزمخشرى النص الكريم مساقا فيه شبه لوم للمؤمنين، فيقول فى تفسير قوله تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ﴾: (أى ليس ما تكابدون من الألم بالجرح والقتل مختصا بكم، إنما هو أمر مشترك بينكم وبينهم، يصيبهم كما يصيبكم، ثم إنهم يصبرون عليه، ويتشجعون، فما لكم لا تصبرون مثل صبرهم؛ لأنكم ترجون من الله ما لا يرجون من إظهار دينكم على سائر الأديان، ومن الثواب العظيم فى الآخرة).

ونحن نرى أن النص فيه تحريض على الصبر، ولا لوم فيه ولا شبه لوم، فما كان عند المشركين صبر كصبر المؤمنين، حتى يوازَنوا بهم ويحرَّضوا على مثل ما هم عليه.

وفى جعل رجاء المؤمنين من الله، فى قوله تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ﴾، إشعار للمؤمنين بأنهم فى جانب الله تعالى، وأن رجاءهم عنده، وهو يجيب رجاء المؤمن ودعاءه، ويؤيده بنصره: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران]، وليس للمشركين من يرجون إلا أن يكون أصناما لا تضر ولا تنفع!.

وإذا كان الرجاء من الله، فهو رجاء من العليم بكل شىء، الحكيم الذى يضع الأمور فى مواضعها، وينصر من ينصره بحكمته، ولذا قال سبحانه: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أى ثبت وتقرر أن العلم والحكمة من أسماء الله تعالى الحسنى،

جلت قدرته، وإذا كان الله سبحانه وتعالى عليما حكيما، فإنه يعلم جهاد المؤمنين للحق، واعتداد المشركين بالباطل، وبمقتضى حكمته، لا يستوى الصالح والمفسد، والمحق والمبطل، ولا يستوى عنده الذين يعلمون والذين لا يعلمون، فالمؤمنون إذ يرجون ما عنده، ويطلبون رضاه، يجدون العليم الحكيم: ﴿**وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ... ١٣**﴾ [**آل عمران**]، ﴿**كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ... ٢١**﴾ [**المجادلة**].

وإن العليم الحكيم هو الذى أنزل القرآن مشتملا على شريعته، ليكون القسطاس المستقيم، والحكم العدل، ولذا قال سبحانه:

﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ**﴾ يذكر العلماء فى سبب نزول هذه الآية ما رواه الترمذى والحاكم وغيرهما عن قتادة بن النعمان، قال: كان أهل بيت منا، يقال لهم بنو أبيرق، ثلاثة: بشر وبشير ومبشر، وكان بشير منافقا، وقد كان طعام وسلاح لعمى رفاعة، كان قد ابتاعه فسُرِق منه، فقال: يابن أخى، قد عُدى علينا فى ليلتنا هذه، فنقبت مَشْربتنا (أى غرفتنا) وذهب بطعامنا وسلاحنا، فتحسسنا وسألنا، فقيل لنا: إن بنى أبيرَق استوقدوا فى هذه الليلة، ولا نراهم إلا على بعض طعامكم.. ويسترسل قتادة فى القصة، فيذكر أن بنى أبيرق اتهموا رجلا له صلاح وإسلام، وهو لبيد بن سهل، فغضب وهدد بالسيف... فذهب قتادة إلى النبى ﷺ، فقال: «سأنظر فى ذلك»، فلما سمع بنو أبيرق، أتوا رجلا يقال له أسيد بن عروة، فكلموه فى ذلك، فاجتمع بأناس، فقالوا: يارسول الله، إن قتادة بن النعمان وعمه عمدا إلى أهل بيت منا، أهل إسلام وصلاح، يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت، ويقول قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ، فقال: «عمدت إلى أهل بيت إسلام وصلاح، ترميهم بالسرقة على غير ثبت وبينة»!. فرجعت فأخبرت عمى، فلم يلبث أن نزل القرآن: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا**﴾، وقد كشف أمر بشير فلحق بالمشركين مرتدا![1].

---

(١) رواه الترمذي: تفسير القرآن - ومن سورة النساء (٣٠٣٦) عن قتادة بن النعمان.

وسواء أصح ذلك الخبر سببا للنزول أم لم يصح، فإن الآية لها صفة العموم، وتفسر بعمومها، لا بخصوص سببها، ومعنى النص الكريم على ذلك: إن الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن الكريم المكتوب المسجل ليحكم النبى ﷺ بما توجبه نصوصه، وبما يريه الله تعالى وينير قلبه لإدراك الحق.

وهنا ثلاث إشارات بيانية:

الأولى - أن الله تعالى عبر عن القرآن بـ «الكتاب» للإشارة إلى أنه مكتوب مسجل مدون، باق إلى يوم القيامة.

الثانية ـ كلمة «بالحق»، والباء تدل على الملابسة والاتصال والمعية، فهو مع الحق، وبالحق، وناطق بالحق، ومشتمل عليه، ولا شىء فى هذا الكتاب إلا ما هو حق، ولا يخالفه إلا ما هو باطل.

الثالثة ـ قوله تعالى **﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾**، فإنها مقابلة لقوله تعالى: **﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾**، وهذه المقابلة تقتضى أن تكون كلمة **﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾** لها معنى خاص، وهو النظر بنور الله تعالى فى الأقضية التى يقضى فيها، فالقاضى لكى يكون قضاؤه عدلا لابد من أمرين: **أحدهما** ـ قانون عادل هو الحق من كل نواحيه، وهو هنا الكتاب الكريم، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - **والثانى** ـ أن يكون فحصه للقضية ببصيرة نيِّرة نافذة، وقلب مشرق مدرك، وهذا يكون بنور الله، وهو للنبى ما عبر عنه بقوله تعالى: **﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾**.

ولكن نور الحق لا يكون إلا إذا نظر القاضى فيما يعرض عليه نظرة غير متحيزة، ولا منحرفة، وهذا هو ما نهى الله عنه نبيه، والنهى لعموم أمته، ولذا قال تعالى:

﴿وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ تبادر إلى النبى ﷺ فى القصة السابقة أن من فيه صلاح وإسلام يكون على الحق، فانحاز فكره ككل البشر، فالله سبحانه وتعالى نبهه، تعليما لأمته، ولكل قاض من بعده، إلى أنه لا يجوز أن ينحاز فكره إلى أحد الخصمين، فعسى أن يكون هو الخائن، وغيره هو البرىء، ولابد أن يسمع البينات، ويجعلها هى الحاكمة. والخصيم بمعنى المخاصم، كالجليس بمعنى

المجالس، والمعنى على هذا: ولا تكن أيها الرسول الأمين مخاصما لأجل الخائنين، بأن تجعل فكرك ينحاز إليهم قبل سماع البينات الهادية المرشدة إلى الحق. وسُمى هؤلاء خائنون؛ لأنهم فى علم الله كانوا كذلك، وهو يخبر النبى ﷺ بخيانتهم، والله تعالى خير شاهد.

وهذا إرشاد لكل قاض أن ينظر إلى المتخاصمين نظرا غير متحيز، لكى يستمع إلى البينات منصفا مقدرا، ويجعل الأدلة توجهه إلى الحق، ولا يوجهها.

وإن على كل قاض أن يستغفر الله دائما فى أقضيته؛ لأنه لا يدرى: لعله أصاب الباطل! والعصمة لله تعالى وحده، ولأنبيائه، ولذا قال سبحانه:

﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ الأمر فى ظاهره للنبى ﷺ، وهو فى عمومه لكل أمته، ولكل قاض يفصل بين الناس. وطلب الاستغفار دائم يوجهه الله تعالى إلى النبى، وإلى كل مؤمن تقى، لأن الاستغفار إنابة، وعبادة، وهى مطلوبة. وإذا كانت القصة قد ذكرت أن النبى ﷺ تبادر إلى ذهنه براءة خائن، فإن هذا ليس بذنب، ولكنه يوجب الاستغفار من الرسول، فإن علو مقامه يجعل مثل هذه التى لا تعتبر ذنبا من الناس، موجبة للاستغفار، على حد قول العلماء: (حسنات الأبرار سيئات المقربين).

وفوق ذلك فإن طلب الاستغفار، مع ما فيه من القنوت والطاعة، حث لكل قاض يفصل بين الناس على الاستغفار فى كل قضية، وقد بين سبحانه أن هذا الاستغفار الضارع يقبله الله تعالى؛ لأنه سبحانه قد ثبت واستقر له أن المغفرة بأقصى درجاتها، والرحمة بأوسع معانيها، صفتان له سبحانه، وهذا معنى قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾**.

وقد أكد سبحانه اتِّصافه تعالى بهاتين الصفتين بأربعة مؤكدات: أولها ـ(إن) التى تفيد التوكيد، وثانيها ـ (كان) التى تفيد الاستمرار، وثالثها ـ صيغة المبالغة فى غفور ورحيم، ورابعها ـ الجملة الإسمية.

اللهم لا تجعلنا فى جانب الخائنين والعصاة، واجعلنا مع الأبرار الأتقياء.

﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾

الكلام مستمر فى نهى المؤمنين عن أن يدافعوا عن رجل يظهر غير ما يبطن، أو يرتكب أمرا، ويحمّل غيره وزره، فهو يرتكب الشر مرتين، ويتحمل إثمين: إثم الارتكاب وإثم رمى الأبرياء، والتدليس ولبس الحق بالباطل، وكان النهى موجها إلى النبى ﷺ، ليبين وجوب الاحتراس على كل مؤمن، حتى لا يقع فى الدفاع عن الآثمين الخاطئين؛ لأنه إذا كان النبى ﷺ، وهو الذى ينزل عليه الوحى، إن اعتمد على نظره، قد يلبس الأمر عليه، فالاحتراس عن هذا أولى بكل مؤمن وأجدر، وقد قال سبحانه:

﴿وَلا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ الجدال هنا الدفاع وإقامة الدليل لمصلحة الخائنين، وذلك للاسترسال فى حسن الظن بالمظهر، وترك ما يختفى ولا يستبين، فإن ذلك إن جاز فى السياسة لا يجوز فى القضاء، وإن جاز فى حقوق الله تعالى لا يجوز فى حقوق العباد، ليعطى كل ذى حق حقه، ولكيلا تذهب الأموال والأنفس والدماء هدرا، فلا بد لإظهارها من تكشف المستور، وإظهار المخبوء.

والجدال فى أصل معناه اللغوى مشتق من الجدْل بمعنى الفتل، أى تقوية الحجة، ويكون المجادل كمن يفتل الحبل ويقويه. وقيل إنه مأخوذ من الجدالة، والجدالة هى الأرض، فكل واحد من الخصمين يكون كالمصارع يريد أن يلقى صاحبه على الأرض. وإطلاق الجدالة على الأرض منه قولهم: تركته مُجَدَّلا، أى مطروحا على الأرض.

والاختيان، الذى هو مصدر ﴿يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾، يُعَرِّفه الأصفهانى فى مفرداته بأنه: «تحرك شهوة الإنسان لتحرى الخيانة»؛ وتحرك الشهوة لتحرى الخيانة قصدٌ إليها وتَعَمُّد لها، وعمل على إحكامها. والخيانة والنفاق باب واحد، موضعهما من النفس واحد.

ومعنى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾: الذين يقصدون خيانة أنفسهم، ويتحرونها، ويحكمون إخفاء المستور من جرائمهم. وأضيفت الخيانة للنفس؛ لأن الذين يصنعون ذلك إنما يحدثون فى الأمة ذعرا عاما، يعود ضرره على الجماعة، ويعود عليهم أنفسهم، إذ يعيشون فى جماعة قد فسد أمرها، وارتابت فى شئونها، وضَلَّ عن الناس معرفة الحق، وغاب عنهم لبُّه!! وكذلك لأن تلك الخيانة مغبتها على أنفسهم شديدة أمام الله تعالى، وسيحاسبهم عليها من لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء، ولأن هؤلاء الخائنين الذين يتحرون الخيانة، إنما يحلون فطرهم السليمة عن الفطرة التى فطرهم الله عليها، فيصيب الفساد نفوسهم، وتنحل كل العُرا فيها، وبذلك تضطرب، وتكون فى بلبال مستمر:

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ إذا كان الخائنون الذين تحروا الخيانة وقصدوها، وانحرفوا بفطرهم عن أصلها، ينالون العذاب فى الدنيا بالحكم عليهم، وإعراض أهل الفضل عن معاونتهم، فإنهم لا ينالون حب الله تعالى، والمعنى الظاهر للنص: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ هو أن الله تعالى العلى الحكيم، الذى لا تُرجى محبةَ سِواه، لا يحب من كانت الخيانة وصفا

من أوصافه، وشأنا من شئونه، وخلقا من أخلاقه، ومن صار الإثم عادة له، حتى صار يوصف بأنه خوَّان، وأثيم. فكلمة خوان صيغة مبالغة معناها أن الخيانة صارت وصفا ملازما له، وكلمة أثيم صيغة مبالغة من إثم، تفيد أن الإثم صار وصفا ملازما!. وأن محبة الله تعالى شأن من شئونه سبحانه تليق بذاته الكريمة، وهى تتضمن معنى الرضوان، وتستلزم فيض رحمته ومنح غفرانه، فمن فقد محبة الله تعالى، فقد حرم من الرضوان، وحرم من رحمة الله تعالى التى تكون للتوابين، وحرم غفرانه؛ لأنه لا يكون إلا لمن أحاطت به خطيئته، حتى لا ينتقل إلا من إثم إلى إثم!!.

وقد أكد سبحانه نفى محبته لهؤلاء الذين أركِسَت نفوسهم فى الخيانة، ودنَّس الإثم نفوسهم، حتى أصبحوا لا يعيشون إلا فى آثام، بالجملة الاسمية المصدرة بحرف «إن» الدال على التوكيد.

وهنا إشارة معنوية: وهى أنه تعالى وصف الذين حرموا محبته بأنهم خوانون أثيمون؛ وذلك له معناه لأن اختيان النفس، وتعودها الخيانة يجرها إلى آثام كثيرة، فمن خان يسرق ويكذب، ويأكل أموال الناس بالباطل، ولا يتحرج عن إثم، فكأن الخيانة جاذبة معها كل الآثام!.

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ إن أولئك الخوانين الأثيمين لا تنالهم محبة الله تعالى، ولا رحمته ولا مغفرته، ومن شأنهم أن يكونوا بعداء عن الناس غير ملتقين بهم، فهم دائما يستخفون من الناس ليدبروا ما يدبرون، ولأنهم فى جفوة مستمرة، ولا يحبون الناس ولا يألفونهم، ولا يحبون لقاءهم، وإذا لقوهم أظهروا غير ما يكتمون، وأبدوا غير ما يخفون!. فالخائن لمجتمعه وأمته يتسم بسمة تجمع عيوبا ثلاثة: هذه السمة هى الاستخفاء، وهذه العيوب هى الجفوة التى تحمله على ألا يظهر، وكتمانه أمره حتى لا يكشف، وتدبيره السوء فى استخفائه! والباعث على ذلك كله الأنانية الظالمة، والأثَرة القاطعة!.

وإنهم إذ يستخفون من الناس لا يشعرون برقابة الله على أعمالهم؛ لأن ذلك الشعور ينبعث من ضمير حى قوى موجه للنفس، والوجدان الدينى القوى لا يكون فى قلب جاف قاس، قد ترك الناس ولم يألفهم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾، فهو مطلع عليهم، وإن كانوا لا يشعرون، وعليم بأمرهم، وإن كانوا يستخفون من الناس، ويبتعدون عنهم.

والاستخفاء المبالغة فى طلب الخفاء، والابتعاد، وذلك ليتسنى لهم تدبير ما يريدون، والله سبحانه معهم إذ يدبرون السوء، لذا قال سبحانه تعالت كلماته وجلت قدرته:

﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾
هؤلاء الذين يستخفون من الناس مجافين لهم، ولا يشعرون برقابة الله تعالى عليهم، والله مطلع على أقوالهم وأعمالهم، اطلاع من يصاحبهم فى غدوهم ورواحهم، وهو معهم عندما يدبرون الأعمال فى خفية من الناس والأقوال التى لا يرضى الله عنها. فالتبييت تدبير الأمر فى البيات، أى الليل، وأطلق على كل ما يدبر بعيدا عن الناس، ويقول الزمخشرى فى معنى النص الكريم: «يدبرون ويزورون ـ وأصله أن يكون بالليل ـ مالا يرضى من القول... فإن قلت: كيف سمى التدبير قولا، وإنما هو معنى فى النفس؟ قلت: لما حدَّث بذلك نفسه سمى قولا على المجاز».

فالتبييت معناه التدبير فى الخفاء مطلقا، سواء أكان تدبير قول يسترون به عملهم، ويزينون به مظهرهم، أم ترتيب عمل يخفونه، ويقومون به، فإن أعمال المنافقين جميعها تدبَّر بليل، وتنفذ بليل، حتى تظهر آثارها فى الجماعة، ولكن الله سبحانه وتعالى ذكر القول فقط، فقال: «مالا يرضى من القول»، فلماذا ذكر القول وحده؟ لقد وجه الزمخشرى سؤالا قريبا من هذا، وأجاب عنه، ونحن نقول: إنَّه ذكر القول وحده مقترنا بعدم رضا الله تعالى؛ لأن أقصى ما يتستر به المنافق قول مزخرف يضل، ولذلك بيَّن النبى ﷺ أن عليم اللسان منافق القلب هو

أخوف من يخافه على أمته[1]، فعناية المنافق بالقول الذى يستر به عمله هى الجزء الأكبر من تدبيره، وإن عمل الليل سهل، ولكن إخفاءه بزخرف القول صعب عند ظهور آثاره. وفوق ذلك فإن القول إذا كان لا رضى، فالعمل أبعد عن الرضا.

وقد عبر سبحانه عن فعلهم وقولهم بأنه لا يرضاه، للإشارة إلى مقته لهم، وحسابهم عليه. وإذا كان الله تعالى عليما بما لا يرضى من القول علم من يصاحبهم عند التدبير والتبييت، فهو بعملهم عليم أيضا، وهو أيضا لا يرضى عنه، ولذا قال سبحانه:

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ فإذا كان الله تعالى مصاحبهم فى قولهم الذى لا يرضيه، فهو محيط دائم بكل عملهم إحاطة الدائرة بقطرها، لا يغيب عنه شىء، ولا يعزب عنه مثقال ذرة منه. والتعبير عن علم الله تعالى لأعمالهم بالإحاطة، فيه إشارة إلى أمور ثلاثة: أولها- أن علمه كامل لا ينقصه شىء، فهو علم إحاطة واستغراق. وثانيها- أن الله معاقب بقدر ما ارتكبوا. وثالثها- أن الله واضع أعمالهم فى دائرة، فلا يمكن أن يصل إلى أهل الحق أذاهم؛ لأن الله محيط بهم وبما يعملون:

﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يستطيع أهل النفاق بحلو قولهم، وقدرتهم على تزوير الكلام وتحسينه، أن يجدوا لهم أنصارا من أهل الحق، يخدعون بمظهرهم، ولطف مداخلهم، فيظنون بهم الخير، ويندفعون للدفاع عنهم، والله سبحانه وتعالى يبين أن هذا الدفاع إن أجدى فى الدنيا لهم، فهو جداء يؤدى إلى إيغالهم فى الشر والفجور، وإذا كان ينجيهم من عذاب الدنيا، فلن ينجيهم من عذاب الآخرة، إذ لا يكون العقاب إلا من علام الغيوب الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء، والجدال عنهم فى الدنيا أمام البشر، أما الجدال عنهم فى الآخرة، فهو أمام الله تعالى العليم

---

(١) عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِى كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ». رواه أحمد: مسند العشرة - أول مسند عمر بن الخطاب رض الله عنه (١٤٤، ٢١٣).

الحكيم، والشهود فى يوم القيامة عليهم كثيرة متعددة، فإنه تشهد عليهم أيديهم وأرجلهم وألسنتهم بما كانوا يفعلون.

وهنا أربع إشارات بيانية:

أولها ـ التنبيه إلى مجادلة المؤمنين عن المنافقين، ووقوعها فى الماضى، وتوقعها فى القابل، وذلك للإشارة إلى حسن ظن المؤمنين بالناس. وقد قرر سبحانه التنبيه إلى ذلك فى قوله تعالى: ﴿**هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ**﴾، فتكررت هاء التنبيه، وذكر اسم الإشارة الذى هو تنبيه ثالث، وذلك التنبيه إلى الواقع والمتوقع للتنبيه إلى الاحتراس، ومراقبة أنفسهم عندما يفرطون فى الثقة بمن ليس بها جديرا.

ثانيها ـ التعبير بالماضى فى قوله تعالى ﴿ **جَادَلْتُمْ**﴾ مع أن النهى منصب على المستقبل، لبيان تحقق وقوع المجادلة عن المنافقين مع توقع وقوعها، إذ النهى لا يكون إلا عن أمر محتمل الوقوع فى المستقبل، والصيغة تتضمن اللوم على الواقع، والنهى عما يمكن أن يقع.

ثالثها ـ الإشارة إلى أن المجادلة فى الحياة الدنيا، إنما سببها الجهل بالقلوب، وعدم تحرى ما تنطوى عليه، وأن حالهم ستنجلى يوم القيامة، فإذا كانوا يخدعون أهل الدنيا، فالله سبحانه كاشفهم وخادعهم يوم القيامة.

رابعها ـ أن الله سبحانه وتعالى نبَّه إلى أن المجادلة عنهم نوع من المحاماة عن الرذيلة، والدفاع عنها، ولذا قال سبحانه:

﴿**أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً**﴾ ومعنى النص الكريم: إذا كانوا يحامون عنهم، ويجادلون عنهم فى الدنيا، فسيلقون ربهم يوم القيامة غير راض عنهم ولا محب لهم، فلا يُرحمون فى ذلك اليوم، ولا يُغفر لهم؛ لأنهم لم يتوبوا، واستغرقت نفوسهم الخطيئة، ولا منجاة لهم من العذاب، ولا مخاصم عنهم أمام الله!! اللهم ارحم أمتك من نفاق المنافقين واجعلنا من عبادك المخلصين.

وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

فى الآيات السابقة ذكر سبحانه أحوال المنافقين والذين يختانون أنفسهم، وأشار إلى الذين يرتكبون الشر، ويرمون به غيرهم، وما يجب أن يكون عليه القاضى المنصف الذى يرد الحقوق إلى أصحابها، وتكون عنده المقاسم الحقيقية للحق والباطل، وكل ذلك فى الأحكام الدنيوية. وفى هذا النص يبين الله سبحانه مراتب العصاة أمام الله تعالى فذكر ثلاث مراتب: المرتبة الأولى مرتبة التوابين، والثانية مرتبة الذين لا تتعدى آثامهم أنفسهم أو لا يرمون بها غيرهم، والثالثة، وهى التى تنال أشد الجزاء الأخروى بعد الخزى الدنيوى، هى التى ترتكب الشر وترمى به غيرها. وقد بين الله سبحانه المرتبة الأولى بقوله تعالى:

﴿ **وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ السوء هو الأمر الذى يحدث غما وألما، سواء أكان لفاعله، أم كان لغير فاعله، ولكن بمقابلته بقوله تعالى:

﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ لا بد من أن تفسر الكلمتان بمعنيين متغايرين، وقد تكلم في ذلك المفسرون، وأحسن ما رأينا هو ما قاله الزمخشرى من أن السوء هو ما يكون فيه أذى للغير، كالقذف والشتم والسب، ونحو ذلك، وأما ما يكون فيه ظلم للنفس، فهو مالا يكون فيه أذى مباشر للغير ابتداء، كالفاحشة، وشرب الخمر، وترك الصلاة والصوم والحج، وغير ذلك من المعاصى التى لا تتجاوز غير صاحبها مباشرة وابتداء، وإن كانت فى مآلها تتعدى إذا تفشت الأمة وكثرت فيها.

ولا بد أن نذكر بإجمال عبارات فى بعض الإشارات البيانية القرآنية:

الأولى ـ عن التعبير بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا﴾ فإن هذا التعبير يشير إلى أن نفسه لم تركس فى الشر، ولم يستغرقها، بل إنه عمل عارض، ولذا كان التعبير ﴿يَعْمَلْ﴾، وهذا فى مقابل قوله فى الطبقة الثانية: ﴿يَكْسِبْ﴾، فإن الكسب كما تبين يشير إلى تدنس النفس، وارتكاسها فى الشر، أما العمل ففى ظاهر الأمر إنه لا يتجاوز الجوارح؛ ولذا كانت التوبة قريبة، وكان الاستغفار غير بعيد.

الثانية ـ أن التعبير عن المعاصى الشخصية التى لا تتعدى صاحبها ابتداء بظلم النفس، فيه معان واضحة، فهى تفيد أن كل ما نهى الله عنه فلمصلحة العبد، فإن تجاوز حدود ما نهى الله عنه فقد وقع فى ضرر مؤكد. وفيه تنبيه إلى أن المعاصى، سواء أكانت إيجابية كشرب الخمر، أم سلبية كترك الصلاة والصوم، مغبة وقوعها تكون على العبد ابتداء، ثم تكون على غيره من بعد.

وفى الحق أن كل ما نهى الله عنه، وما أمر به فهو لمصلحة الجماعة، ومخالفة أمر الله فيه ظلم للنفس وإساءة للمجتمع، بيد أن بعضه يكون أثره مباشرا، إما على الغير كالقتل والاعتداء بكل أنواعه، أو يكون أثره المباشر على شخص المرتكب، ثم يتعدى إلى المجتمع من وراء ذلك، حتى أن مَنْ ظَلَمَ النفس عده الله تعالى اعتداء على حقه تعالى، كالزنا وشرب الخمر، وكونه ظلما للنفس لا يمنع أنه اعتداء على حق الله تعالى وذلك للمآل والآثار، لا بالمباشرة.

الثالثة ـ أن التعبير بـ «ثم» فى قوله تعالى: ﴿**ثم يستغفر الله**﴾ ـ للإشارة إلى تفاوت ما بين المعصية والاستغفار، فالتراخى الذى دلت عليه كلمة «ثم» تفاوت معنوى، وليس بتراخ زمنى لأن من يعمل السوء أو يظلم نفسه من غير أن يحيط بالنفس، توبته قريبة، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً** ﴿١٧﴾﴾ [**النساء**].

والاستغفار هو طلب المغفرة، وذلك يقتضى الإقلاع عن الذنب، والندم على ما كان منه، والالتجاء إلى الله تعالى فالاستغفار هو التوبة النصوح، ومن مقتضيات هذه التوبة أن يرد الحقوق إلى أصحابها، ويطلب العفو ممن أساء إليه؛ لأن حقوق العباد لا تتحقق فيها التوبة إلا إذا ردت إلى أصحابها، أو كان العفو منهم.

وقوله تعالى: ﴿**يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَّحِيماً**﴾، يفيد استجابة طلب الغفران إن تحققت شرائطه، ولم يصب النفس بدنس، فالمعنى إن استغفر وتاب وأناب استحق المغفرة، لأنه يعلم وصف الله تعالى لذاته العليَّة بأنه المتصف بصفة الغفران والرحمة، وكان من رحمته أن يقبل توبة التائب، ويعاقب العاصى المصر.

ثم ذكر سبحانه المرتبة الثانية فى المعاصى بقوله:

﴿**وَمَن يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً**﴾ الكسب معناه طلب ما يرغبه الإنسان، ويطلق الكسب على ما يناله الإنسان من أمور الدنيا، وما تناله النفس من حظوظها أو ما تراه حظا لها، وقد ورد الكسب فى القرآن بمعنى طلب الرزق، وورد بمعنى فعل الخير، وورد بمعنى فعل الإثم. ولاحظنا فى تعبيرات القرآن عن كسب الآثام أنها تقرن بما تدل على استمراء النفس للشر، وتأثرها به، فقد قال تعالى: ﴿... **أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ** ... ﴿٧٠﴾﴾ [**الأنعام**] أى تمنع من الخير بسبب ما كسبته من ذنوب، وقال تعالى: ﴿... **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا** ... ﴿٧٠﴾﴾ [**الأنعام**]، وقال تعالى: ﴿... **إِنَّ الَّذِينَ**

يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ [الأنعام]، وغير ذلك. ولذلك يصح أن نفسر كسب الإثم بأن يتحراه وتَتَدرَّن به نفسه، حتى يصير كسبا رديئا لها؛ وذلك أن الشر إذا ارتكبه الإنسان خط فى النفس خطا، فإذا تكرر ذلك كثرت الخطوط السوداء، حتى يَرَبدَّ القلب، وبذلك يكون قد كسب الإثم، وهو الذنب المبطئ عن الله تعالى.

ومن وصل الشر فى نفسه إلى هذا الحد، فإن ذلك الذى اكتسبه لا يعود بالشر ابتداء إلا على نفسه، لأنه أفسد فطرتها، وحولها عن طريق الانتفاع بها إلى أركاسها فى الشر. وخسارة الشرير فى نفسه أكثر من خسارة الناس فيه، ولأنه يصير من الشُذَّاب الذين تلفظهم الجماعات الإنسانية، ولأن عذاب الله يستقبله، ولذا قال سبحانه مهددا بأنه عالم بما يرتكب، ولو أخفاه، حكيم، يضع لكل امرئ ما يستحق، فلا يتساوى عنده المسيء مع المحسن وهو وحده المتصف بأعلى درجات العلم والحكمة.

ويلاحظ فى الفرق بين التعبير فى الآية السابقة وهذه الآية أمران:

أولهما ـ أنه عبر فى الأولى عن مرتكب الشر بـ «يعمل» وقد بينا ما فهمناه من ذلك، وفى هذه الآية عبر بـ «يكسب»، للإشارة التى تدنس النفس بالشر، واسوداد القلب به، حتى اربدَّ، وأصبح لا نور فيه.

ثانيهما ـ أنه لم يعبر عن الشر الذى وقع فى الأولى بالاثم، بل عبر بالسوء أو الظلم للنفس، وهنا عبر بالإثم المبطئ المبعد عن الله تعالى؛ لأن الشخص فى الحال السابقة قريب من الخير بالتوبة القريبة، أما هنا فحاله حال من تبطؤ توبته.

وقد قال سبحانه فى المرتبة الكبرى من الشر:

﴿ **وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا** ﴾ الخطأ هو العدول عن الجهة، وقد قال فى تفسيره الأصفهانى فى مفرداته: (الخطأ العدول عن الجهة، وذلك أضرب: أحدها - أن يريد غير ما تَحسُن إرادته، وهو الخطأ التام المأخوذ به الإنسان، يقال خطئ

يخطأ خِطئـا، وخطأة، قال تعـالى: ﴿... إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء] وقال تعالى: ﴿... وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يوسف]. والثانى - أن يريد ما يحسن فعله، ولكن يقع منه خلاف مـا يريد، فيقال: أخطأ، إخطاءً، فهو مخطـئ، وهذا قد أصاب فـى الإرادة، وأخطأ فى الفعل، وهذا هو المعنى بقـوله عليه الصـلاة والسلام: «رفع عن أمتى الخطأ والنسـيان»(١)، وبقوله عليـه الصلاة والسلام: «من اجـتهد فـأخطأ فله أجره»(٢)، وقوله تعالى: ﴿... وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ... ﴿٩٢﴾﴾ [النساء] والثالث- أن يريد مـا لا يحسن فعله، فيقع خلافه، فهذا يخطئ فى الإرادة ومصيب فى الفعل).

ومنها يتـبين أن الخطأ الكامل ما يكون انحرافـا فى الإرادة، بأن يريد ما لا تصح إرادته، ويأثم بهذه الإرادة، ومـن ذلك كلمـة «خطيئة» فـإنها تستـعمل فى كثيـر من آى القرآن فيمن يرتكب الشر، منحـرف الـنفس،، حتى أنه يصدر عنه من غـير تكلف، ولا مـعاناة، ومن ذلك قـوله تعـــالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ... ﴿٨١﴾﴾ [البقرة]، وقوله تعـالى أيضا: ﴿... وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا ... ﴿٢٥﴾﴾ [نوح]، وكانت الخاطئة هى الذنب العظيم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿... وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾﴾ [الحاقة].

وعلى ضـوء هذه المعانى نـقول: إن الخطيـئة هـنا فى قوله تعـالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً﴾ هى الذنب العظيم، الذى تمرست به النفس، حتى صار وصفا من أوصافـها، يصدر عنهـا من غير قـصد، بل هو انحراف النفس التى أحـاطت بها ظلمات الشر، والإثم هو الذنب المبطئ عن الاتجاه إلى الله بالاستغفار.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّـهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْـتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَـاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَـأَ فَلَهُ أَجْرٌ». [البخارى: الاعـتصام بالكتـاب والسنة - أجر الحاكم إذا اجتهد (٧٣٥٢)، ومسلم: الأقضية - أجر الحاكم. (١٧١٦)]

وإن جريمة هؤلاء جريمتان: إحداهما ارتكاب الشر والإيغال فيه، والثانية أنهم يرمون البرآء به، ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾.

وإن هذه الجريمة تتضمن هى الأخرى فى ثناياها جريمتين: **إحداهما** - البهتان، وهو الكذب الذى لا يتصور عند أهل الخير وقوعه، **والثانية** - إثم واضح، وهو إلقاء التبعة على الغير، إذ إنه كذب حير البرىء وأذهله.

وإن هؤلاء، مع هذه الذنوب التى يرتكبونها، منافقون يظهرون غير ما يبطنون، وهم شر الجماعة الذين يسعون بالفساد فى الأرض، وأن السعاية التى يرتكبونها بنفاقهم توجب قطعهم عن الأمة، ولقد أوجب بعض الفقهاء عقابهم.

وإن هؤلاء يفسدون الحكام على شعوبهم، ويسعون فى الأرض فسادا بجرمهم، وإن الله يحذر نبيه من أمثالهم، وهو قدوة حسنة لكل الحكام.

﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ الضمير فى قوله تعالى: ﴿لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ يعود على ما يفهم ضمنا من حال هؤلاء الذين أُركست نفوسهم فى الخطايا، حتى أصبحوا يقدمون عليها من غير قصد خاص إليها، كأن ذلك حال من أحوالهم، فهم منافقون يبتغون الفتنة فى الذين آمنوا، وأول فتنة وأقوى فتنة هى التى تجىء فى الحكام، فتبعد ما بينهم وبين الأخيار من الأمة، ويتقرب بها الأشرار الذين يرتكبون الشر، ويرمون به الأبرياء. ومعنى النص الكريم: إن أولئك المنافقين العصاة جريئون على رمى الأبرياء وتضليل الحكام. ولولا أن الله تعالى مَنَّ عليك بفضله العميم، ورحمته الواسعة، لهمت طائفة منهم أن يجعلوك فى ضلال بالنسبة لمن تحكمهم وتهديهم، فهم لم يهموا بذلك؛ لأنهم يعلمون فضل الله تعالى عليه بالوحى الذى يبين له الحق، ورحمته الواسعة التى يمنُّ بها عليه وعلى قومه، فلا يكون منهم ما يعنتهم، كما قال تعالى فى وصف نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿... عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾

[التوبة]. وإن هؤلاء إذا حاولوا هذه المحاولة أو لم يحاولوها، واستمروا فى غيهم يعمهون، فإنهم باستمرارهم فى هذه الغواية يسيرون إلى أقصى المدى فى الشر، فيبعدون عن الهداية، ولذلك لا يُضلون إلا أنفسهم، فإن النبى ﷺ لن يضل أبدا، وإنهم لا يضرونه بأى قدر من الضرر، ولا بأى نوع منه؛ لأن الله حافظه، وحافظ من اتبعوه إلى يوم القيامة. وقد بين الله حصانه نبيه، إذ قال:

﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ هداية كاملة بالرسالة، بينها الله سبحانه وتعالى بأن الكتاب أنزل عليه مبينا به الشريعة الحق التى لا يأتيها الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو يحكم بقانون القرآن، وعلَّمه الرسالة، وأنزل عليه الحكمة، وهى الفهم الصحيح، وفقه الوقائع، والمسائل: فلا يقضى إلا بالحق. وقد فسر الإمام الشافعى الحكمة بالسنة، وإن هذا التفسير له موضعه من الحق، فالله تعالى أنزل عليه الوحى بالسنة، فما كان ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحى يوحى.

وإنه يعلم القرآن، وبالحكمة التى أنزلها على قلبه، قد أنار الله بصيرته، فعلمه علما كثيرا لم يكن يعلمه، وكان فضله بهذه الرسالة، وبهذا القرآن، وبهذه الحكمة، وبهذا العلم النورانى الذى علمه إياه، عظيما لا حدود لعظمته.

وإن هؤلاء الذين يَسعَوْن فى الأرض فسادا، كانوا يحاولون أن يضلوا النبى، لولا كتاب الله الذى أنزل عليه، وحكمته التى أوحى بها إليه، وما علمه من علم، وأن أمثالهم فى كل زمان، وهم أجرأ على الحكام؛ إذ لا هداية من السماء تنزل على الحاكمين، فلا حواجز تحجزهم عن السعاية بالشر، فعلى الحكام أن يأخذوا حذرهم منهم، ولا يجعلوا منهم ألسنة تحكى حال غيرهم، بل عليهم أن يقطعوها، والله من ورائهم محيط.

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤) وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (١١٥)﴾

فى آخر الآيات السابقة، أشار سبحانه إلى أن هناك طائفة تدبر التدابير للإخلال والإضرار، وأن الله تعالى مبطل مكرهم وتدبيرهم الشر، وفى هذا النص الكريم يشير إلى أن الشر لا يدبر إلا فى خفاء، ولا يكون فى إعلان، وأن الناس يعلنون خيرهم ويخفون شرهم. والإسرار بمقتضى الطبيعة البشرية لا يكون إلا فيما يُخشى إعلانه، ويتقى اطلاع الناس عليه، ولكن مع ذلك قد يكون من الخير الإسرار فى بعض الأمور، ولذا قال تعالى:

﴿**لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ**﴾ يقول الأصفهانى فى مفرداته فى بيان النجوى: إن أصل هذه المادة الانفصال عن الشىء، والنجوة والنجاة المكان المرتفع، والنجوى عنده اسم مصدر للمناجاة، وهى المُسَارّة، وهى عنده أن تخلو بإنسان وتخاطبه كأنك تسر إليه شيئا، ولا خير فى كثير من هذه المناجاة، إلا أن تكون أمرًا بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس. فالأمر الأول من التناجى المحمود هو الأمر بالصدقة، والصدقة هى التبرع والتطوع بفعل الخير، من إنفاق مال، أو مساعدة ضعيف، أو إنظار مدين معسر، أو ترك الدين والعفو عنه، يقول تعالى: ﴿**وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ .. (٢٨٠)**﴾ [البقرة].

وقال عليه الصلاة والسلام: «ما تأكله العافية فهو صدقة»[١]، أى ما يقدمه الإنسان من قوة بدنية فهو صدقة، فمعونة الضعيف على حمل ما يحمل صدقة، وبهذا التفسير العام لكلمة الصدقة نقول: كل ما يقدم من معونة إنسانية بالبدن أو المال، عطاء أو تركا، وكل ما يتسامح فيه الإنسان: تأليفا لقلب محب، يكون صدقة، بل إن بعض العلماء جعلها تعم كل أبواب الخير، ومن ذلك قوله النبى ﷺ: «كل معروف صدقة»[٢].

والأمر الثانى من التناجى المحمود: الأمر بالمعروف فى لغة القرآن الكريم معناها ما يقره العقل ولا يستنكره، ويقوى الروابط الاجتماعية، ويقيمها على دعائم من الفضيلة ورعاية الحقوق والواجبات، فالمعروف لفظ يعم كل أعمال البر، وخصوصا الاجتماعية منها: وإن المعروف مقابل المنكر. من حيث معناه، ومن حيث حكمه. فالمنكر هو كل ما يضر الإنسان والمجتمع، وهو منهى عنه، والمعروف كل ما يصلح الإنسان والمجتمع، وهو مأمور به مطلوب. فالتناجى لتدبير خطة إصلاحية، ومبادئ اجتماعية، وقيام بحق الله تعالى فى إقامة مجتمع فاضل، هو من أفضل الفضائل. وإن المعروف يجب القيام به حيثما لاحت فرصته، وقد قال فى ذلك الماوردى فى كتابه القيم «أدب الدنيا والدين»: «ينبغى لمن يقدر على إسداء المعروف

---

(١) هذا الحديث رواه أحمد: باقى مسند المكثرين - مسند جابر بن عبد الله (١٤٢٢٦)، والدارمى: البيوع - من أحيا أرضا ميتة فهى له (٢٦٠٧). عن جابر رضى الله عنه.
وتأتى رواية مسلم: المساقاة (١٥٥٢) عن جابر بن عبد الله - أيضا لتزيد الأمر قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا إلا كَانَ مَا أُكِلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةً، وَمَا سُرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ مِنْهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَتْ الطَّيْرُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَلَا يَرْزَؤُهُ أَحَدٌ إلا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ». قلت: فليس المقصود هنا بالعافية القوة البدنية، كما سيأتى بعد. ولا عطر بعد عروس.

(٢) رواه البخارى: الأدب - كل معروف صدقة (٦٠٢١) عن جابر رضى الله عنه، ومسلم: الزكاة - بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (١٠٠٥) عن حذيفة رضى الله عنه.

أن يجعله حذار فواته، ويبادر خفية عجزه، وليعلم أنه من فرص زمانه، وغنائم إمكانه».

والأمر الثالث الذى يصح التناجى فيه: أمر الإصلاح بين الناس، سواء كانوا جماعات وأمما، أم كانوا آحادا وأفرادا. والإصلاح بين الناس فريضة اجتماعية تجب على أولى العزم من الرجال، وهى ضريبة ذى الجاه والمنزلة، فإذا كان بين اثنين خصام وأزاله، فقد قرب الله بين قلبين، وإن القضاء والفصل فى الخصومات يورث فى القلوب إحنا، بينما الصلح بينهم يبقى المودة. ولقد قال فى ذلك الإمام عمر ـ رضى الله عنه ـ فى كتابه إلى أبى موسى الأشعرى «رد الخصوم حتى يصطلحوا، فإن القضاء يورث بينهم الضغائن»، ولقد قال النبى ﷺ: «من أصلح بين اثنين أعطاه الله تعالى بكل كلمة عتق رقبة»[1]، وقال عليه الصلاة والسلام لأبى أيوب الأنصارى: «ألا أدلك على صدقة يحبها الله ورسوله؟ تصلح بين أناس إذا تفاسدوا، وتقرب بينهم إذا تباعدوا»[2].

والإصلاح بين الجماعات المتناحرة أوفر خيرا من إصلاح الآحاد، والله تعالى يقول: ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠** ﴾ [**الحجرات**].

فكرر سبحانه الأمر بالإصلاح قبل القتال وبعده، وفى أثنائه.

وإن الذى أذهب النخوة من المسلمين قتال كبرائهم، وعدم وجود من يصلح ذات البين بينهم، حتى ترامى بعضهم فى أحضان أعدائه وأعداء الله، وإثم ذلك على من لم يسع بالصلح، ورأب الكَلْم.

---

(١) ذكره مع ما يليه القرطبى فى التفسير ج٥، ص٣٨٢. عن أنس بن مالك. وذكر القرطبى أخبارا أخرى ثم قال: ذكر هذه الأخبار أبو مطيع مكحول بن المفضّل النسفيّ فى كتاب اللؤلئيّات له، وجدته بخط المصنف فى وريقة ولم ينبه على موضعها رضى الله عنه.

(٢) المرجع السابق.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ العبادات في الإسلام ليست مقصورة على الصلاة والصوم والحج، بل إن كل عمل فيه خير إذا قصد به إرضاء الله سبحانه وتعالى يكون عبادة، ولذلك يقول النبى ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»(١) وإن محبة أى شيء لله تعالى عبادة، ولذلك يقول النبى ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب الشيء لا يحبه إلا لله»(٢).

ومن أجل هذا كان من يفعل الخير بالتناجى والتعاون على إصلاح الجماعة، بإفشاء البر والإصلاح بين الناس، وإقامة المعروف، وإبعاد المنكر - من يفعل ذلك طالبا مرضاة الله تعالى ولا يبغى سواه، فإن الله تعالى سيؤتيه جزاء عظيما بالغا أقصى درجات العظمة. وسوف هنا لتأكيد الوقوع فى المستقبل.

وعلى الناس من بعد أن يطلبوا مرضاة الله بقوة إيمان فى كل ما يتجهون إليه من إصلاح شئون الجماعة، فلا بركة فى عمل، مهما يكن صالحا فى ذاته، إلا إذا طلب به إرضاء الله، فالقوانين والنظم التعاونية والاشتراكية إذا لم يقصد بها وجه الله لا بركة فيها. فعلينا أن نتجه إلى الله فى كل ما نعمل:

﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ﴾ إن الكثير الذى يتناجى به الآثمون هو فى أكثر أحواله يكون منشؤه أنهم لا يندمجون بإحساسهم مع المؤمنين، فهم فى جانب بإحساسهم وشعورهم، والرسول والمؤمنون فى جانب آخر، وهم فى الجانب الذى اختاروه يجعلون السلطان عليهم لجماعة أخرى، كأولئك المنافقين الذين كانوا يجعلون نصرهم فى أمرهم لليهود أو للمشركين، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ﴾، والشقاق أو المشاقة، وهو أن يكون فى شق، والآخرون فى شق، أى يكون فى جانب بإحساسه وولائه، والرسول والمؤمنون فى جانب آخر بإيمانهم وولائهم لله تعالى، وذلك كله بعد أن يتبين له الحق وقامت أدلة الهداية.

---

(١) متفق عليه، وقد سبق تخريجه من رواية عمر بن الخطاب ضى الله عنهما.

(٢) سبق تخريج ما فى معناها من حديث صحيح.

ومن يفعل ذلك فإنه يكون قد خرج من ولاية المؤمنين ونصرتهم إلى ولاية من يتولونه ونصرته، أى أنهم يكونون قد انضموا إلى أعداء الله تعالى! .

وقد قال الإمام الطبرى فى تفسير هذا النص: «ومن يباين الرسول من بعد ما تبين له أنه رسول الله، وأن ما جاء به من عند الله يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم، ويتبع طريقا غير طريق أهل التصديق، ويسلك منهاجا غير منهاجهم، وذلك هو الكفر بالله؛ لأن الكفر بالله ورسوله غير سبيل المؤمنين وغير منهاجه. ﴿نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ﴾: يجعل ناصره ما استنصره، واستعان به»، ونرى من هذا أنه يجعل الشاقين كافرين، وذلك حق، ولكننا نخصهم بالمنافقين من الكفار؛ لأنهم الذين كانوا مع إظهارهم الإسلام يكونون فى شق، والمؤمنون والرسول معهم فى جانب الحق، وقد ذكر سبحانه العقوبة المترتبة على ذلك فقال:

﴿وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ أصل الصلى إيقاد النار، وصلى بالنار بلى بها، وصلى النار دخل فيها، وأصلاه فيها أدخله فيها، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾ أدخلناه جهنم يشوى فيها كما تشوى الشاة، وأنها باقية، وهو يخلد فيها لا يخرج منها يوم القيامة أبدا. كذا قال تعالى: ﴿وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ أى أنها مصيره الدائم الباقى ولا مصير له سواه؛ لأنه كافر معاند للحق بعد أن تبينت له كل الأدلة المثبتة، وما أشد ذلك المصير سوءا وقبحا، وهو جزاء لما كانوا يعملون.

وقبل أن نختم الكلام فى ذلك النص نقول: إن بعض علماء أصول الفقه قالوا إن هذه الآية دليل على أن الإجماع حجة وينسبون ذلك الاستدلال إلى الشافعى، ولم نجد فيما كتبه الإمام الجليل ما يدل على أنه استشهد بها فى بيان حجية الإجماع، ولا نجد روح الآية ومعناها يدل على ذلك لأنها كانت فى قوم منافقين كافرين، شاقوا الرسول والمؤمنين. وقد رد الغزالى فى كتاب «المستصفى» القول بأنها دليل على حجية الإجماع، وكان كلامه حقا، والله سبحانه وتعالى أعلم. اللهم لا تجعل ولايتنا لغيرك واجعل ولايتنا لك ولرسولك وللمؤمنين.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ
ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا
١١٦ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ
إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ١١٧ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ
مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ١١٨ ﴾

كانت الآية السابقة على هذه النصوص مبينة مصير أولئك الذين يكونون فى شق، والنبى وأصحابه فى شق آخر، يوالون أعداء المسلمين، ويناصرونهم، ويتخذون النصرة منهم، لا يرجون خيرا إلا منهم، ولا يقدمون الولاء لغيرهم، وفى هذا النص الكريم يفتح الله تعالى باب التوبة والغفران لهم، حتى لا يسرفوا على أنفسهم، ويقنطوا من رحمة الله تعالى، وقد نهى سبحانه وتعالى عن ذلك فقال: ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴿٥٣﴾ ﴾ [**الزمر**].

وفى نص الآية التى نتصدى للكلام فى معناها، يبين سبحانه أن كل ذنب قابل للغفران عند التوبة إلا أن يكون مشركا مصرا على الشرك:

﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى لا يغفر الشرك به، والمراد بالشرك أن يعبد مع الله تعالى غيره، فالشرك فى ذاته غير قابل للغفران؛ لأنه إلغاء لمعنى الوحدانية التى هى سمة الإسلام، وروح العبادة ومعناها. وإنه يدخل فى الإشراك بالله إنكار رسالة الرسل، بعد قيام الأدلة القطعية، لأن ذلك تحكيم للهوى، وإبطال للغاية من الوحدانية؛ إذ هى طريق العبادة الصحيحة، كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴿٥٦﴾ ﴾ [**الذاريات**].

فإذا كـانت العبـادة الصحـيحة هى ثمـرة الخلق والتكوين والخضـوع المطلق لسلطان الله تعـالى، فإن العبـادة فى القول والعـمل ومعرفـة الكون لا تكون إلا برسالة الله تعـالى وحده إلى الإنسان، فـمن كفر بهـذه الرسالة فقـد ألغى معنى الوحدانية.

والله تعالى لا يغفر الشرك، وكان تعـبيره سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ﴾ للإشارة إلى أنه لا يغفـر ذات الشرك، ولكن يغفر للمـشرك إذا خلعه وتاب عنه، ودخل فيما يدعو إليه الرسل، كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنفال].

ولذلك أضيف نفـى الغفران إلى الشـرك لا إلى من تلبس به، فإن الغـفران يلحقه إذا خلعه.

وما دون الشرك وإنكار الرسالة من العاصى، يكون تحت غفران الله سبحانه وتعالى، ويتعلـق بمشيئته، ومـشيئته سـبحانه قد أشار إلى بعض مـا تتعلق به من أعمال العبـاد، ومنها التوبة، فإن التوبة النصوح تخلع المـؤمن من ذل المعصية إلى عزة القبول، ومنها كثرة الحـسنات وقلة السيئات، فإن الله تعالى يقول: ﴿... إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ... ﴿١١٤﴾﴾ [هود]. فمن رجـحت كفـة الحسنات فى ميـزانه يوم القيامـة، قد وعدنا رب العـالمين بأنه يغفر له، ومـشيئـة الله تعالى لا حدود لها، ولكن منها ما بينه.

وقـد قالوا فى سـبب نزول هذه الآية: إنه جـاء شيخ من العـرب إلى النبى ﷺ، فقـال: إنى شيخ منهـمك فى الذنوب، إلا أنى لم أشـرك بالله منذ عرفـته وآمنت به، ولم أتخذ من دونه وليا، ولم أوقع المعـاصى جرأة على الله تعالى ولا مكابرة له، وما توهمت طرفة عين أنى أعجز الله هربا، وإنى لنادم مـستغفر، فما ترى حالى عند الله؟ فنزلت هذه الآية(١).

---

(١) أخرجه الثعلبى عن ابن عـباس رضى الله عنهما، كما فى تفسـير الآلوسى، وذكره القرطبى فى التفسير ج٥، ص٣٨٥ عن الضحاك.

وفيها ما يدل على أن الله يغفر للتائبين المستغفرين الخارجين من نطاق المعصية إلى سعة الفضيلة، وإن ذلك لا يمنع غفران الله تعالى لمن كانت له معاصى وطاعات، والمعاصى لم تغلب عليه ولم تفسد نفسه، بل استمر قلبه مضيئا بنور الإيمان والحق.

﴿ **وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا** ﴾ قد يسأل سائل: إذا كانت التوبة تجبُّ ما قبلها، والإيمان يجبّ ما قبله، فإذا انخلع الشرك، وحلت محله عقيدة الوحدانية، وغفر الله ما تقدم من الشرك، كما ورد النص الذى تلوناه، فلماذا يفرق بين الشرك وغيره من المعاصى؟ والجواب عن ذلك أن الشرك إذا سكن النفس واستقر فيها، كان الخروج منه صعبا وعسيرا، ولذا قال سبحانه: ﴿ **وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا** ﴾.

والضلال هو السير فى غير الطريق الموصل، فالضال فى بادية يسير فى غير طريق النجاة، وكلما بعد عن الطريق المستقيم أَوْغَل فى الضلال، والمشرك الذى تدرنت نفسه بالشرك قد ضل عن طريق النجاة، وكلما استمر فى سيره كان مستمرا فى الضلال، فمن يشرك بالله غيره، فَيدَّعى أن له شريكا فى الخلق والتكوين، أو فى الوجود مما يماثله ذاتا أو صفات، أو يدعى أنه يستحق العبادة معه، فقد سار فى طريق الشر سيرا بعيدا، ومن ضل سيجد كلما سار أبوابا من الشر، فمن كان فى بحبوحة الإيمان قريب الرجوع، وتكون له حسنات بجوار السيئات، فيكون باب الغفران مفتوحا، أما من أشرك بالله، فقد كان فى معاص مستمرة، وليس له من الحسنات ما يرجح كفة الميزان؛ لأن الشرك يقتل الحسنات قتلا، فلا تقبل فيه طاعة.

والشرك هنا هو نقيض الوحدانية، وهناك شرك خفى، وهو أنه يرائى فى عبادته، كما قال النبى ﷺ: «من صلى يرائى فقد أشرك، ومن صام يرائى فقد أشرك، ومن تصدق يرائى فقد أشرك»[1]!.

(١) رواه أحمد عن شداد بن أوس، وقد سبق تخريجه.

ولا نرى أن هذا النوع من الشرك داخل فى موضوع الشرك الذى ينفى عنه الغفران؛ لأن هذا النوع يقتل ما فى العبادة من خير، وقد يكون للمرائى خير آخر، كالبر بأسرته. والعطف على الجيران. والتعاون الاجتماعى الخالص.

وقد بين سبحانه صورا من ضلال المشركين، وهى:

(١) عبادة من لا يتصور عبادته عاقل مدرك. إدراكا خاليا من التأثر بالباطل.

(٢) ومنها خضوعهم المطلق للشيطان.

(٣) ومنها توهم التقرب بما لا يتصور عقلا أنه مقرب، كتقطيع آذان الإبل والبقر والغنم وتغيير خلق الله تعالى فيها، ولذلك قال تعالى:

﴿**إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا**﴾ «إن» هنا هى النافية، والدعاء هنا العبادة، والالتجاء لإنقاذه من الهلاك أو المرض أو الكوارث بشكل عام. والمعنى: لا يتجهون فى عبادتهم وضراعتهم بعد الله سبحانه ذى الجلال والإكرام إلا إلى إناث قد استبدلوهن بعبادة الله. فهم قد تركوا عبادة القوى القادر القاهر الذى هو فوق كل شىء، إلى عبادة العاجز الذى لا يستطيع حماية نفسه ورفع الضر عنه! فالعبارة تفيد بمرماها أنهم تركوا عبادة من يحميهم ويكلؤهم إلى من لا يستطيع حماية نفسه.

ولكن لماذا عبر عن الأوثان التى كانوا يعبدونها بالإناث؟

قد ذكر العلماء لذلك ثلاثة تعليلات مختلفة: **أولها** ـ أن العرب كانت عندهم أوثان تتسمى بأسماء إناث، كاللات والعزّى ومناة؛ وعن الحسن البصرى، أنه لم يكن حى من أحياء العرب إلا ولهم صنم يسمونه: أنثى بنى فلان، **وثانيها** ـ أنهم كانوا يقولون عن أصنامهم: بنات الله، تعالى الله عما يقولون. **وثالثها** ـ ما قرره الأصفهانى من أن المراد جماداتهم التى كانوا يعبدونها، فقال: «لما كانت معبوداتهم من جملة الجمادات التى هى منفعلة، لا فاعلة، سماها الله تعالى

أنثى، وبكَّتهم بها، ونبههم على جهلهم واعتقاداتهم فيها، مع أنها آلهة لا تعقل ولا تسمع ولا تبصر، بل لا تفعل فعلا بوجه من الوجوه».

وخلاصة هذه التعليلات أن الله تعالى يبين ضلال الشرك بأن العابد فيه لا يعبد إلا ما هو كالإناث، يحتاج إلى من يحميه ولا يحمى أحدا، ويترك عبادة الله تعالى القهار القادر على كل شيء. الذى لا يوجد ذو قوة فى هذا الوجود إلا كان يستمد قوته منه سبحانه.

وإن الذى يدفعهم إلى ذلك هو وسوسة الشيطان الذى كان سلطانه عليهم كسلطان المعبود الذى يعبد! ولذلك يقول تعالى:

﴿ وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴾ «المريد» على وزن فعيل من الفعل (مرد)، وهذا الفعل يطلق بعدة إطلاقات، منها أن (مرد)، معناها مَرَن على الشر، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ﴿١٠١﴾ ﴾ [التوبة]، ومنها أنه من يخرج على الطاعة، ومن ذلك (مارد، ومتمرد)، ويطلق على من ظهر شره، وتجرد من الخير، ومن هذا (شجرة مرداء) إذا تساقط ورقها وظهرت عيدانها. وإن الشيطان الذى يوسوس فى صدور الناس ويدفعها إلى الشر، فيه كل هذه الأوصاف، فهو قد تعوَّد الشر، وهو قد عتا، وهو قد خرج على الطاعة لله تعالى، وهو قد تجرد من كل خير، فيكون المعنى على هذا: إنهم يدعون، أى يعبدون، فى الواقع شيطانا قد عتا، وتجرد من الخير، وتعود الشر، فلا يكون منه إلا شر، وإذا كان هؤلاء يلجأون إليه فى دعائهم، وكأنهم يعبدونه، إذ يعبدون الأوثان التى زينها لهم، فهم فى أبعد الضلال، ويسلكون طرقا من الشر متعددة! وقد ذكر سبحانه ما يفعله الشيطان بعقول هؤلاء، فقال تعالى:

﴿ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ أى إن الله سبحانه وتعالى طرده من رحمته، وأخرجه من جنته، كما عتا وتمرد وخرج عن طاعته، فلم يسجد لآدم، وقد أمره الله تعالى بالسجود له، فلما طرده الله من ظلال جناته بسبب عصيانه بالنسبة لآدم، وجعل عمله فى هذا الوجود مصادمة الخير، وجذب

ذرية آدم إلى الشر قال مؤكدا بلسان المقال والفعال: لأتخذن من عبادك الذين خلقتهم من ذرية آدم نصيبا مفروضا، أى مقدارا معينا قليلا كان أو كثيرا. أى أنه سيستهوى طائفة من عباد الله، و يسيطر على نفوسهم، ويجعلهم فى طاعته، بدل أن يكونوا فى طاعة الله سبحانه وتعالى. ويقول الأستاذ الإمام محمد عبده: إن النصيب المفروض هو ما للشيطان فى نفس كل واحد من الاستعداد للشر، الذى هو أحد النجدين فى قوله تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ [البلد]، وفى الحق أن هذا ليس من اتخاذ الشيطان، إنما هو خلق الشخص، والشيطان يأخذ من يأخذه من العباد من طريق السيطرة على جانب الشر.

اللهم جنبنا وسوسة الشيطان وتزيينه، واجعلنا معك، ومع القرآن، ومع الرسول، ومع المؤمنين.

وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ
وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ
فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا
مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾
يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ
ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾

ذكر الله سبحانه فى الآيات السابقة ما عاهد الشيطان عليه نفسه الشريرة، من أنه سيتخذ نصيبا مفروضاً مقدرا من بنى آدم عباد الله سبحانه، بيَّن الله سبحانه إضلاله لهم، وطريق هذا الإضلال، وهو أن يُمنِّيهم بالأمانى الكاذبة، فيهيموا فى أحلام لا أصل لها، ويجعلهم بها فى أوهام، فيقطعون آذان الأنعام من غير مبرر معقول، ويُغيِّرون خلق الله من غير مبرر، ويحسبون ذلك عبادة يُتقرب بها، ولكنهم بها يتخذون الشيطان وليا فيغرهم ويخدعهم، ويكونون فى ضلال، ولذلك قال سبحانه وتعالى:

﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ يؤكد الشيطان كما ذكر الله أنه سيضل عباده، ويبعدهم عن الحق، ليسيروا فى الباطل إلى أقصى مداه، ويتجنبوا الحق فى كل مسالكه. وإنه قد بين سبحانه طريق الشيطان فى الإضلال، كما ذكرها على لسانه فقال: ﴿وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾؛ أى لأجعلنهم يتمنون الأمانى. والمعنى أن الشيطان فى إضلاله للعباد يخلق فى صدورهم أمانى يتمنونها ويطمعون فى تحقيقها، فتستولى على نفوسهم، وينفذ إليهم من طريق المطامع، بأن يودع فى أنفسهم أوهاما يظنونها تحققها، فكلما تمنوا ألقى الشيطان فى أمنيتهم أوهاما معها، فيصيرون خاضعين له على الدوام، والمؤمن يصون نفسه من الأمانى، فلا يخضع للشيطان ابتداء. وقد قال تعالى فى صور الأوهام التى يضعها الشيطان فى نفوسهم، فيكون كالآمر لهم:

﴿وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ﴾ والبتك معناه القطع، وقد اختص بقطع أعضاء الجسم أو الشعر، والمراد بالقطع هنا ما كانوا يفعلونه، إذ كانوا يقطعون آذان الأنعام، أو يشقونها شقا واسعا، ويتركون الحمل عليها، ويفعلون ذلك كأنه أمرٌ تكليفى مطلوب منهم تقربا للأوثان، وما كان ذلك الأمر إلا من الشيطان الذى زين لهم ذلك فاتبعوه، فهو كالآمر لهم الذى يجعل ما ليس بعبادة أصلا عبادة، وإن ذلك تشويه لما خلق الله سبحانه وتعالى. يروى فى ذلك أن أبا الأحوص من الصحابة أتى النبى ﷺ، وكان رث الهيئة فقال له النبى ﷺ: «هل لك من مال»

قال: نعم؟ فقال النبى ﷺ: «فإذا آتاك الله مالا، فليُرَ عليك أثره»[١]، ثم قال عليه الصلاة والسلام: «هل تنتج إبل قومك صحاحا آذانها، فتعمد إلى موسى فتشق آذانها، وتقول: هذه بُحُرْ (أى جمع بحيرة) وتشق جلودها، وتقول: هذه صرُم (جمع صريمة)؟ قال: أجل. قال: «كل ما آتاك الله حِلٌ، وموسى الله أحد من موساك، وساعد الله أشد من ساعدك»[٢].

﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ أى أنه يزين لهم الشر، فيغيرون خلق الله تعالى بتشويه الأجسام بالخصاء، وفقوء الأعين، والوشم، وتغيير الفطرة بتحويلها إلى أوهام.

ولقد قال النبى ﷺ عن ربه: «إنى خلقت عبادى حنفاء كلهم وإن الشياطين أتتهم فاجتالتهم عن دينهم، فحرّمت عليهم ما أحللت، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا، وأمرتهم أن يغيروا خلقى»[٣]. فتغيير الخلق يشمل التغيير المادى والمعنوى، وكان كل ذلك خضوعا لأوامر الشيطان. فكانوا بهذا أولياءه.

﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ ومن يوالى الشيطان فيطيعه مع أنه متمرد عن الحق، داع إلى الشر، ويترك الحق وأمر الله، فإنه بهذا يخسر خسرانا واضحا يخسر الحق فلا يتبعه، ويرتكب الشر، ويترك المعقول إلى المرذول، ويمسخ فطرة الله تعالى، وتنحرف نفسه، ويلتوى تفكيره، وتشوه إنسانيته، وذلك خزى فى الدنيا ووراءه عذاب فى الآخرة. وأى خسارة أعظم من هذه الخسارة وأوضح منها.

---

(١) رواه: النسائي: الزينة (٥٢٢٣) وأحمد: مسند الشاميين - حديث أبى الأحوص عن أبيه (١٦٧٨٠).

(٢) تتمة الرواية السابقة كما فى مسند أحمد: مسند المكيين - حديث مالك بن نضلة عن أبيه (١٥٤٥٧).

(٣) جزء من حديث طويل رواه مسلم: الجنة وصفة نعيمها وأهلها - الصفات التى يعرف بها فى الدنيا (٢٨٦٥).

﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ صور الله سبحانه وتعالى حال إغراء الشيطان بأنه عمل عملين، لا يكون فيهما أى نفع عاجل أو آجل، فهو أولا يسرف فى وعدهم بمتع لا حد لها، بأن يصور لهم أن فيما يفعلون من شر متعا كثيرة، ونفعا كبيرا، وليس لذلك أى أثر. وثانيهما - أنه يجعل النفس تتمنى ما لا يعقل ويكون بعيد الوقوع. ومن وراء تلك الأمانى تنفذ إلى النفس الأوهام فتسيطر عليها. وما كان ذلك الوعد، وإثارة الأمنيات إلا الغرور والخيبة فى ذاتها.

﴿أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أولئك الذين يعطون ولايتهم للشيطان، ويخسرون فطرتهم السليمة، ونفوسهم المستقيمة، وعقولهم المدركة، تحت سلطان الأمانى الكاذبة والأوهام الخادعة، لا يكون لهم مأوى يوم القيامة غير جهنم. ولا يجدون ملجأ دونها يلجأون إليه، فلا مفر منها ولا مهرب، وذلك جزاء إضرارهم لفطرتهم وانحرافهم عن الجادة، ويرميهم بغرور الشيطان، وإن ذلك يتبعه الأذى لبنى الإنسان، وتركهم عبادة الديان، والإعراض عن الحق، إذا جاءهم به رسل الله تعالى، وأنهم لا معدل لهم عنها ولا مهرب، وهذا معنى: ﴿وَلا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أى معدلا ومهربا، من حاص يحيص عدل وهرب.

ولقد بين الله تعالى فى مقابل ذلك جزاء المتقين. فإنه لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴿١٢٢﴾﴾ إذا كان الشيطان يَعِد أولياءه بالأمانى الكاذبة، ويدفعهم إلى أوهام لا أصل لها، فالله تعالى قد وعد المؤمنين وعدا حقا، وإذا كان المشركون قد رأوا مآلهم جهنم لا يجدون عنها معدلا، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات جزاؤهم جنات تجرى من تحتها الأنهار، وأولئك يستحقون هذا، **أولا** - بإيمانهم الصادق، وانفكاكهم عن حبائل الشيطان، وبعدهم عن غروره وخديعته، **وثانيا** - بأعمالهم الطيبة الصالحة المبنية على أسباب

معقـولة لا على أهواء مرذولة، فهى تفيد أنفـسهم ومجتمـعهم، ويؤدون بها حق ربهم.

وإن ذلك الجزاء اتصف بأمور ثلاثة:

أولها ـ أنه نعيم مادى فهو جنات وحدائق فيها كل ما تشتهيه الأنفس.

وثانيها ـ أن فيها نعيما معنويا تلذ به الأعين، وتنشرح له الصدور، وهو أن الأنهار تجرى من تحت قصور، فتريهم منظرا بهيجا يسر الناظرين إليه.

وثالثها ـ أنها خالدة لا تنقطع ولا تزول، ولا يعرض لهـا تغيير ولا تبديل. وهناك ما هو أغلى من كل هذا، وهو رضوان الله تعالى.

وإذا كان الشيطان قد غر أولياءه فقد صدق الله تعالى أولياءه، فقال:

﴿ **وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً** ﴾ وعد الله تعالى وعدا، وحقه حقا، فهو وعيد ثابت لا يقبل تغيـيرا ولا تبديلا، إذ هو وعد ثابت صادق لأنه وعد الله تعالى، ولا يوجد أصدق قولا من الله تعالى، فالاستفهام فى قوله تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً** ﴾ للنفى، والمعنى لا يوجد فى هذا مَنْ أصـدق من الله قولا، فقـيل معناها قول مؤكـد لا ريب، وصدق وعد الله تعـالى، لأنه من ذى الجلال والإكرام المهيمن علـى كل شىء، فلا يتصور أن يكون من قوله سبـحانه غير الحق والصدق، وفوق ذلك هو وحده القادر على تنفيذ ما وعد به.

وهذا فى مقابل تغرير الشيطان بالأوهام والوعـود الكاذبة؛ لأنه عاجز عجزا مطلقا، والله تعالى هو القـادر قدرة مطلقة، اللهم اجعلنا ممن يصدق فـيهم وعدك ولا يصدق فيهم وعيدك، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ
وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ
وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٢٣﴾ وَمَن
يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ
فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴿١٢٤﴾ وَمَنۡ
أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ
مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا
فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ
مُّحِيطٗا ﴿١٢٦﴾

فى الآيات السابقة بين الله سبحانه وتعالى أن الشيطان يلقى بالأمانى الباطلة فى نفوس الذين يوسوس لهم بالشر، فيجعلهم يتمنون الخير فى غير موضعه، ويقومون بأعمال يرجون بها نفعا ولا نفع فيها، فليس الخير عندهم بعمل صالح يقومون به، ولكنهم يتمنون المثوبة فيما لا مثوبة فيه، ويرجون الخير من غير أن يتخذوا أسبابه، وفى هذه الآيات يبين سبحانه وتعالى أن الأمور ليست بالتمنى، ولكن بالعمل، ومن يعمل سوءا يجز به، ومن يعمل صالحا ينل جزاءه، فقال سبحانه:

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ إن الله أوعد المفسدين بالشر، ووعد الصالحين بالثواب العظيم والنعيم المقيم، ولكن الأمانىّ تتحكم فى النفوس، فتتمنى ما لم تعمل له، وتسير وراء ما تتمنى من غير أن يربطوا بين العمل والجزاء، والسبب والمسبب، فنبه سبحانه إلى ذلك.

الأمانى جمع أمنية، وهى ما يتمناه الإنسان، ويرغب فيه، ويحبه، ولو لم يتخذ له أسبابه، والضمير[١] فى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ يعود على ما وعد به من عذاب وثواب، والمعنى ليس ما ينزل بكم جزاء لما تعملون بالأمانى تتمنونها، ولكن لمن الخطاب فى قوله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ ؟ أهو للمشركين أم لعامة المسلمين؟ فى ذلك توجيهان: أحدهما ـ أن الخطاب للمسلمين، والمعنى على هذا: ليس الأمر بما تتمنون أنتم معشر المسلمين وأهل الكتاب، إنما بما تعملون، فمن يعمل عملا لسوء نفسه أو غيره يجز به فى الدنيا والآخرة، ولا يجد له غير الله نصيرا ينصره، أو وليا يعاضده أو يواليه فى شره بل الجميع يبرأ منه، ويزكى ذلك الوجه ما يروى عن قتادة، لقد قال: ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم، ونحن أولى بالله منكم، وقال المسلمون: نحن أولى بالله منكم، نبينا خاتم النبيين، وكتابنا يقضى على الكتب التى كانت قبله، فنزلت الآية ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾.

وقد يكون فى هذا الوجه نظر؛ لأنه يضع أهل الكتاب فى موضع المؤمنين فى الاحتجاج، مع أن كلام أهل الإيمان هو الحق الذى لا شك فيه، وفيه الإيمان بالكتب السابقة، مع الكتاب الكريم.

والوجه الثانى أن يكون الخطاب لمشركى العرب. ويكون فى الكلام التفات فبعد أنه كان يتكلم عنهم بضمير الغائب[٢]، التفت وخاطبهم بضمير الخطاب تنبيها لهم وبيانا للحق، وبيان أن العمل هو الذى يقدم صاحبه ويؤخره، ويزكى هذا الوجه ما روى عن مجاهد شيخ مفسرى التابعين فقد قال: «قالت العرب: لن نبعث، ولن نعذب، وقال اليهود والنصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى، تلك أمانيهم»، فكانت هذه الآية ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ ردا على هذه الأوهام.

---

(١) المقصود بالضمير، أى المستتر وهو اسم ليس.

(٢) أى فيما سبق من الآيات البينات قبل هذه الآية الكريمة.

وقد رجح ذلك الوجه ابن جرير الطبرى، وقال فى ترجيحه: «وأولى التأويلين بالصواب ما قاله مجاهد؛ لأن المسلمين لم يجر لأمانيهم ذكر فيما مضى من الآى قبل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ وإنما جرى ذكر أمانى نصيب الشيطان المفروض، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ولأمنيهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ فإلحاق معنى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ بما جرى ذكره قبل، أحق وأولى من ادعاء تأويل لا دلالة عليه من التنزيل ولا أثر عن الرسول ﷺ، ولا إجماع من أهل التأويل.

وإنما نختار ما اختاره ابن جرير، لما ساقه من دليل.

وقوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾. ما هو الجزاء؟ أهو الدنيوى أم الأخروى؟. قال بعض العلماء إنه الجزاء الدنيوى، ويستدل على ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام - فيما رواه عطاء - لأبى بكر: يا أبا بكر، إنك تمرض، وإنك تحزن، وإنك يصيبك أذى، فذاك بذاك[1]، وكان هذا تفسيرا للنص.

وقال آخرون: إن المراد الجزاء الأخروى، وهو المناسب للنص، وللآيات السابقة، والجزاء القرآنى دائما جزاء أخروى، والحق هو القول الأخير، أن الجزاء هو الأخروى، والدنيوى إن كانت حكمة الله تعالى فى جزاء دنيوى كالتشريد والذلة، والهزيمة فى الحروب.

وقوله تعالى: ﴿وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾ أى أن الشيطان الذى كان يوسوس لهم يختفى سلطانه ولا يكون له ولاء لهم، لا يوادّهم ولا يحبّهم، ولا يناصرهم، كما قال تعالى عنه وعنهم يوم القيامة: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن

---

(١) عَنْ أَبِى بَكْرِ بْنِ أَبِى زُهَيْرٍ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ الصَّلاحُ بَعْدَ هَذِهِ الآيَةِ؟ قَالَ: «يَرْحَمُكَ اللَّهُ يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَسْتَ تَمْرَضُ أَلَسْتَ تَحْزَنُ أَلَسْتَ تُصِيبُكَ اللأْوَاءُ؟» قَالَ: بَلَى. قَالَ: «فَإِنَّ ذَاكَ بِذَاكَ». [رواه أحمد فى مسند العشرة: مسند أبى بكر (٧٠)]. وروى مسلم فى صحيحه: البر والصلة والآداب - ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن (٢٥٧٤).

سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم].

هذا جزاء أهل الشر، أما جزاء أهل الخير فقد ذكره سبحانه وتعالى بقوله:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ﴾ وهنا يذكر سبحانه وتعالى جزاء الذين يعملون عملا صالحا، فيعينه، ولا يتركه مجملا، فقد ذكر فى الآية السابقة، جزاء الشر به ولم يبينه، ولكنه ذكر أنه على قدر العمل من غير أن يبين صنف الجزاء. والعبرة فى ذلك هو المساواة بين الجزاء والعمل، وأنه بهذا لا يظلم لأن الجزاء على قدر العمل، فالجريمة والعقاب متساويان.

وهنا ملاحظتان، إحداهما أن الله تعالى يقول: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ ﴾ أى أنه يعمل بعض الصالحات؛ وذلك لأن الإنسان لا يستطيع أن يعمل كل الصالحات، بل يستطيع أن يعمل بعضها؛ لأن طاقته النفسية والبدنية لا تمكّنه من عمل كل الخير، وكلٌّ يعمل على قدر طاقته من غير تقصير، والله تعالى يغفر القصور، وفى ذلك إشارة إلى أن الإنسان يطلب من العبادة ما يطيق من غير مشقّة ولذلك لم يطالب النبى ﷺ بأقصى الغاية من العبادة، بل قال: «سددوا وقاربوا»(١).

والملاحظة الثانية: أنه ذكر الأنثى فى قوله تعالى:

﴿ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ و(من) هنا بيانية، فهى بيان لمن فى قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ ﴾ والأحكام الشرعية كلها تشمل النساء والرجال، إلا ما يقوم الدليل فيه على أن أحد الصنفين مختص بحكم؛ لأنه يكون ملائما لطبيعته، وإن ذكر الإناث

---

(١) جزء من حديث متفق عليه، وقد سبق تخريجه من رواية البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه.

فى الأحكام العامة فيه إشعار بكمال الإنسانية فى المرأة، وأن لها حقوقا، وعليها واجبات اقتضاها التكليف فما من عبادة إلا طولبت بها المرأة كما طولب بها الرجل، وإن كان للرجل اختصاص فى بعض العبادات كالجهاد، وسبب ذلك الرجولة ذاتها. والإعفاء من واجب شاق لا يعد حرمانا، وفى الحق إن المرأة تقوم بواجبات شاقة تنفرد بها أيضا، كالحمل والولادة، والقيام على شئون الأولاد فى المهد.

وقد اشترط لاستحقاق الأعمال الصالحة أن يكون من يعملها متصفا بالإيمان، فإن الجزاء من الله تعالى ويجب أن يكون العمل قد قصد به وجهه وحده. فالثواب ليس على مجرد العمل، بل على النية فيه، وقصد الخير، وذلك لا يكون إلا إذا قصد به وجه الله تعالى.

وقد أكد سبحانه وتعالى الجزاء بقوله:

﴿**وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً**﴾ أى لا ينقصون من عملهم الصالح شيئا، ولو كان شيئا صغيرا بقدر النقير، وهو العلامة التى تكون فى ظهر النواة، فتظهر كثقب صغير، وتسمى نُقْرة كأنها حصلت بمنقار طائرصغير، ويضرب العرب بها المثل فى القِلَّةِ.

وإن مثل هذا الجزاء لا يستحقه العبد إلا بفضل من الله تعالى بدليل أنه يقبل بعض الصالحات ويدخل الجنة عليها، ولا ينقص شيئا فهو يفيض بالثواب، ولا ينقص من عمل الخير.

وقد تساءل الزمخشرى لماذا ذكر عدم الظلم ولم يذكره فى عمل السوء؟ وأجاب عن ذلك بأن عدم الظلم ملاحظ هناك بذكره هنا. وفى الحق إن عدم الظلم ملاحظ هناك من النص ذاته، فقد ذكرنا أن الله سبحانه وتعالى قال:

﴿**مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ**﴾ وهذا فيه النص على أن الجزاء بقدر العمل، ومؤدى هذا ألا يظلم، وكان الجزاء عمل الغير أكثر منه من أن ينقصوا، أما فى

عمل الشر، فالجزاء لا زيادة فيه، والإيمان الصادق الذى لا تسيطر عليه الأمانى والأحلام هو الاتجاه إلى الله تعالى، ولذا قال سبحانه:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ والاستفهام هنا بمعنى النفى، فالمعنى لا أحد أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن، والنفى هنا هو نفى الحسن، ولكن المراد هو الحق، والمعنى لا أحد يؤمن بحق إلا من أسلم وجهه لله. ولكن التعبير بأحسن يفيد بأن هذا هو الحق وهو الأمر الحسن فى ذاته، الذى لا تستحسن العقول السليمة سواه، وتستقبح غيره.

ومعنى ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أخلص نفسه، وجعلها كلها لله تعالى، لا يحب إلا له، ولا يبغض إلا له، ولا يطلب جاه غيره. والتعبير ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾ معناه أسلم ذاته، فالوجه يعبر عنه بالذات؛ لأن به المواجهة، ولأنه أوضح أجزاء الجسم. وإن هذا الدين الخالص لوجهه تعالى لا يستقيم بمجرد النية، بل لا بد أن يقترن مع ذلك بإحسان العمل وإتقانه، ولذلك قال تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ فالدين الحق الخالص يقتضى أمرين لا محالة: أحدهما إخلاص القلب والنية لله تعالى، بحيث لا يكون عامرا إلا بذكر الله تعالى، والثانى: إتقان العمل الصالح وإجادته، فلا عمل يكون صالحا من غير إيمان، ولا إخلاص يكون من غير إحسان العبادة والعمل الصالح.

وقد ذكر سبحانه أن الإخلاص والعمل هو دين النبيين أجمعين، ولذلك قال: ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أى أن هذه الملة هى الدين والمنهج، أى كان فى إخلاصه وإتقانه للعمل متبعا منهاج إبراهيم، وإبراهيم أبو الأنبياء، فمنهاجه هو منهاج كل الرسل، واتباع ملته اتباع لكل الرسل. وكان حنيفا أى مائلا إلى الحق متجها إليه دائما، منذ كان غلاما إلى أن بعثه الله تعالى نبيا مرسلا، وقد قال لأبيه وقومه كما حكى القرآن الكريم: ﴿... إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨)﴾ [الزخرف].

وفى الجملة من أخلص لله وعمل وأحسن، فهو متبع دين النبيين جميعا، وإن اتباع دين محمد هو اتباع الأديان السماوية كلها لأنه إيمان بكل الرسل.

وقد كرم الله سبحانه وتعالى إبراهيم لإخلاصه وتوجهه إلى الله تعالى بقلب سليم، وإحسانه فى العمل، بأن جعله خليله، فقال تعالى:

﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ أى اصطفاه من بين خلقه، فأعطاه ذلك الاسم الجليل، وذلك الوصف الكريم. ومعنى الخليل الحبيب الذى يلجأ إلى حبيبه، فهو من الخلة وهى المحبة، أو من الخلة بمعنى الحاجة[1]. والحقيقة أن إبراهيم عليه السلام كان فيه الأمران معا فهو من جانبه كان يحب لله، ويبغض لله ولا يطلب شيئا إلا لله. وكان مع ذلك لا يعتمد فى حاجة إلا على الله سبحانه وتعالى وهو يقول فى بيان حاجته إلى ربه: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء].

هذا ما كان من جانب إبراهيم. أما ما كان من جانب الله، فإنه قد أفاض عليه بنعمه ظاهرها وباطنها، وجعل من ذريته النبيين، وحماه من أعدائه، وقربه إليه، وصار من عباده المخلصين، ثم منحه وضعا لم يمنحه غيره، وهو أنه خليله.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ وبعد أن أشار سبحانه إلى أن الله تعالى منفذ عقابه وثوابه، وإلى أن الدين الحق هو إخلاص الذات. والقلب والنفس لله تعالى، بين سبحانه وتعالى أن ما فى السموات والأرض كله له. فمن أخلص لله تعالى، فقد أخلص للقوى القادر القاهر الذى لا يخرج عن سلطانه شىء فى الملكوت. وإن هذا لدليل على أنه وحده المستحق للعبادة، وإسلام الوجه والطاعة له سبحانه وتعالى.

---

(١) الأولى خُلَّة (بالضم)، والثانية وهى الحاجة والفقر - بالفتح.

وإنه سبحـانه يحيط بكل شىء فى هذا الوجود إحاطة قدرة وتصـرف، فهو وحده المتصرف فى السـموات والأرض وما بينهما، وإحاطة علم فـهو يعلم كل ما فى الكون وما فى النفوس، فلا يخفى عليه شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه وحـده الخالق والمكون والمصـرف والسمـيع البصـيـر. اللهم املأ قلوبنا بذكـرك، فبذكرك تطمئن القلوب.

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾

تعرضت سـورة النساء لأحكام الأسرة فى أولهـا، وبينت أحكام المواريث، والعـلاقات المحـرمـة للزواج، ثم أشـار سبـحانـه إلى حق الرجل وحق المرأة فى الأسرة، وتعـرضت من بعد ذلك للعـلاقات الاجتـماعيـة بين الناس، وبينت أن أساسـها إقـامة العـدالة، وتنفيـذ أحكام الله تعالى ثم ذكـرت أدواء الجمـاعات، وأساسها الاعـتداء من الخارج بالحروب ومن الداخل بالنفاق، وما يتبـعه من فساد خلقى، وانحلال نفسى، وتعرضت من بعد ذلك لسـبب الاعتداء والشرك والنفاق وهو تحكم الشيطان فى النفوس.

ومن بعد ذلك عاد إلـى بيان العلاقة بين الزوجين وفـقه علاجهـا، وعلاقة آحاد الأسرة، والطب لأدواء الضعف بينهـم. وفى خلط أحكام الأسرة والعلاقات فيها، والعلاقات الاجتماعية والإنسـانية العامة إشارة إلى قيام المجتمع على الأسرة وأن صلاحها صلاح له، وأنه من الأخلاق الاجتماعية الفاسدة تجىء آفات الأسرة،

ومن قوة العلاقات الأسرية تجيء قوة المجتمع المتماسكة، فرعاية ضعفاء الأسرة توجد قوة للأمة تشترك في حماية زمارها، ومن إهمالها، تكون عناصر مقوضة لبنائها، والآياتْ التي نتكلم في معانيها مبينة علاج الضعفاء والعناية بهم، فقد قال تعالى:

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ﴾ الاستفتاء معناه طلب الفتيا أو الفتوى، ومعنى الفتوى حل ما يشكل من الأمور، وإن العرب قد وقعوا في إشكال بالنسبة للمرأة، فقد كانوا في الجاهلية لا يفرضون لها حقوقا، لا تأخذ من ميراث، ولا يكون لها أى حق قِبَل زوجها، بل كان عليها تبعات، من غير أن تلاحظ من جانبها واجبات، فجاء الإسلام وأعطاها في مقابل واجباتها حقوقا، فقال تعالى: ﴿... وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ ﴿٢٢٨﴾﴾ [البقرة].

فكانوا في كل تصرفهم بالنسبة للمرأة تعتريهم حيرة، أينفذون دينهم وحكمهم الجاهلي أم أن للإسلام في كل أمر من هذه الأمور حكما تجب رعايته ويجب اتباعه فكثرت الأسئلة، وتعددت موضوعاتها، فمنهم من يسأل عن الميراث، ومنهم من يسأل عن الصداق. ومنهم من يسأل عن المعاملة، وجاءت الروايات فرادى ببعض الأسئلة، وكلها ينتهي إلى مجموعها، وهو حيرتهم في أمر المرأة وقد أجاب سبحانه هذا الاستفتاء بقوله تعالى:

﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ أى يفتيكم الله تعالى مبينا أمرهن وما يجب لهن، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ قال كثير من المفسرين إن «ما» هنا في موضع الرفع بالعطف على لفظ الجلالة، والمعنى يفتيكم الله ويعلمكم أحكام النساء وحقوقهن، كما يعلمكم ما يتلى عليكم في كتاب الله من أحكام اليتامى من النساء اللاتي كتب لهن في كتاب الله من ميراث وحقت رعايتهن والقسط معهن عند الزواج، وإلا فليتزوج من غيرهن.

وقد قرر سبحانه وتعالى هنا وجوب العدل مع اليتيمة عند الرغبة فى الزواج، وصرح بما أشار إليه قوله: ﴿**وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى**﴾ على ما فهمه بعض المفسرين من أن المراد إن خفتم ألا تقسطوا فى النساء اليتامى فتزوجوهن من غير أن تعطوهن حقهن من ميراث أو صداق، وقد قال سبحانه فى ذلك: ﴿**وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ**﴾ والمعنى لا تؤتونهن ما كتب الله لهن من حقوق، وترغبون أن تنكحوهن.

وهناك نجد قوله تعالى: ﴿**أَن تَنكِحُوهُنَّ**﴾ مصدرا[1] قد دخل عليه حرف جر محذوف، وهو إما (فى)، و(إما) عن وعلى أن المحذوف: لا تعطونهن ما كتب الله لهن من حقوق وترغبون فى نكاحهن لأنفسكم، فلا تعطوهن ميراثا ولا صداقا، وعلى أن المحذوف «عن» يكون المعنى لا تعطونهن ميراثهم، وتمنعونهن من النكاح، وترغبون عنه لكى يبقى المال تحت أيديكم.

ويظهر أن الذين كانوا يقدمون على شأن يتامى النساء فريقان، فريق يأكل مالها ولا يعطيها صداقها، ويرغب فى نكاحها لجمالها، وفريق يستبد بمالها، ويرغب عن زواجها من نفسه أو من غيره حرصا على مالها، والآية تشمل الفريقين وتندد بالطائفتين، ولقد روى أن عمر بن الخطاب كان إذا جاءه ولىّ اليتيمة، فإن كانت حسنة غنية قال عمر: زوِّجها غيرك والتمس لها من هو خير منك، وإذا كانت بها دمامة، ولا مال لها، قال له: تزوجها، فأنت أحق بها، وقد قال على بن أبى طالب لولى يتيمة: تزوجها إن كنت خيرا لها، فإن كان غيرك خيرا لها فألحقها بالخير.

ولم تكن رعاية الله تعالى فى أحكامه خاصة بيتامى النساء، بل إنها تعم المستضعفين وسائر اليتامى، ولذا قال سبحانه: ﴿**وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ**﴾ وصيتان بنوع واحد من الضعفاء فى الأسر وهم اليتامى، بيد أن **إحداهما** مؤداها إعطاؤهم حقهم من المال. **والثانية** القيام على رعايتهم، وحفظهم من الضياع، وواضح أن الثانية عامة تشمل اليتيم الذى ترك له أبوه مالا، أو نال مالا من أية ناحية من النواحى، والأولى تكون لذوى المال.

---

(١) أى مصدرا مؤولا، وهو المنسبك من (أن) و (الفعل المضارع).

وبالنسبة لهذه الوصية القرآنيــة الإلهية نقول: إن العرب كان من عاداتهم ألا يرث إلا من يستطيع حــمل السلاح ويغزو ويـغنم ويستنصر به، ولذلك مـا كانوا يورثون النساء، ولا الـصغار الضـعاف؛ لأنهم لا يقومـون بذلك: والله سبـحانه وتعالى وزع الميـراث توزيعا عادلا لم يـفرق بين قوى وضـعيف بل كانت رعـايته للضعيف أشد، ولذلك أعطى الذرية أكـثر مما أعطى الأبوين؛ لأن الذرية الضعاف أحوج إلى المال، وهو لهم ألزم، ولذلك قال تعـالى فى وصيته: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ أى الذيهن هم فى حال يسـتضعفهـم غيرهم ولا يعطيهم حـقوقهم، وهم ضعفاء فى ذات أنفسهم، أى أنه لا بد أن يعطوا ميراثهم كاملا غير منقوص، وعبر عن هؤلاء بقـوله سبحانه: ﴿مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ ولم يعبر عنهم بيتامى، مع أنهم يتامى، للإشارة إلى ما يربطهم بالمتوفى، وهو كـونهم أولاده، وهذا قدر يشتركون فيه مع الكبـار، فالسبب فى الميراث هو الولاء، وهم جمـيعا يشتركـون فيه، وإذا اشتركوا فى السبب وجب أن يشتـركوا فى المسبب وهو الميراث، ولا فرق فى ذلك بين كبير وصغير.

والوصية الأخرى، وهى القيام على شئون اليـتيم برعايته وكفالته، وإصلاح حاله، وتعهده بالعطف والمحبة والإكرام، وقد تكرر فى القرآن الكريم الأمر برعاية اليتيم، وتكرر فى قـول النبى ﷺ الأمر برعايته والتوصيـة به، ففى القرآن الكريم نجد كثيرا من ذلك مثل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ ۝٩﴾ [**الضحى**].

وفى السنة مـثل قـوله ﷺ «أنا وكـافل اليـتيـم فى الجنة هكذا...» وضم أصبعيه[1] الكريمتين ـ علـيه الصلاة والسلام ـ وقوله ـ عليـه الصلاة والسلام ـ: «خير بيت من بيـوت المسلمين بيت يكرم فيه يتيم، وشـر بيت من بيوت المسلمين بيت يقهر فيه يتيم»[2].

---

(١) رواه البخارى: الأدب - فضل من يعـول يتيما (٦٠٠٥)، والترمذى كتـاب البر والصلة- ماجاء فى رحمة اليتـيم وكفالته (١٩١٨)، وأبو داود: الأدب - فيمن ضم اليـتيم (٥١٥٠)، وأحمد: باقى مسند الأنصار (٢٢٣١٣) عن سهل بن سعد رضى الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

ونجد النص الكريم يقول: ﴿ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ﴾.

وهذا التعبير فيه ثلاث إشارات بيانية:

أولاها ـ التعبير بالقيام، فإن مؤداه أن ينهض الولى على القاصر بعناية واهتمام لرعاية حاله، وكون الخطاب للجميع لا لخصوص الأوصياء يدل على الوجوب على الأمة بشأن يتاماها، أو رعايتهم فرض كفاية فهو على الأمة مجتمعة.

ثانيها ـ التعبير باللام فى قوله تعالى «لليتامى» أى أن يكون القيام والنهوض لمصلحة اليتامى الحقيقية، من حيث التربية والتهذيب، والمحبة من غير تدليل مضعف لقوة النفس والعزيمة والإرادة القوية.

ثالثها ـ أن يكون ملاحظا فى ذلك القسط والعدل، بألا ينقص من ماله شىء ولا يترك هملا إذا لم يكن له مال، فإذا كانت العدالة المالية توجب ألا ينقص من ماله، فالعدالة الاجتماعية توجب أن تسد خلته وضعفه.

وكانت عناية الإسلام باليتامى؛ لأنهم قوة للأمة إن صلحوا، وقوة مدمرة فى الأمة إن لم يصلحوا، إذ إنهم لو قُهروا ينشأون وبينهم وبين الناس عداوات مستمرة، ونفور يدفعهم إلى أن يكونوا مدمرين فى الجماعة وعنصر تخريب، فإن أكثر الخارجين على الجماعة تبتدئ عقدهم النفسية فى طفولتهم بالجفوة معهم، وحرمانهم من المودة والرحمة. ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴾.

أى خير تفعلونه، ويكون نافعا لجماعتكم، مصلحا بينكم، فإن الله سبحانه وتعالى يكون عليما به علما دقيقا، لا تخفى عنه فيه خافية، وفى ذكر هذا النص الكريم بعد الوصايا السابقة إشارة إلى أن هذه الوصايا تنفيذها خير محض، ونفعها لا شك فيه ولا ريب، نفعه لمن يفعله لأن عاقبته حسنى له، وخير للجماعة لأنه يقدم للمجتمع عناصر قوية بانية، وخير للضعفاء فى أنفسهم، وهو خير عند الله يحتسب به الجزاء الأوفى عنده.

وإن فعل الخير يعلمه من يستطيع الجزاء علما محيطا دقيقا، فإذا علمه جازى به خير الجزاء، وقد أكد سبحانه علمه الذى يرتب عليه خير الجزاء بثلاثة مؤكدات: **أولها**- التعبير بإن، **وثانيها**- نسبة العلم إلى الله جل جلاله، فهو علم يليق بذاته، وبقدرته وإرادته. **وثالثها**- صيغة المبالغة بوصفه بـ «عليم» ثم بلفظ الكينونة وهو كان، فإنه يقتضى استمرار العلم ودوامه، فعلى الذين يقومون على شئون اليتامى أن يعلموا أنهم فى رقابة مستمرة من الله تعالى ذى الجلال والإكرام ويعلمون أنه مجاز على مقدار ما يعلم.

وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحًاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾

وبعد هذه الوصايا فى إعطاء الضعفاء من اليتامى حقوقهم والإنصاف لهم ذكر سبحانه وصاياه فى علاج ما يكون بين الزوجين، فقال:

﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ﴾ الخوف توقع الإنسان مكروها يقع به، وقد فسر الطبرى النشوز بقوله: «يعنى استعلاء بنفسه عنها إلى غيرها أثرة عليها وارتفاعا بها عنها، وإما لكراهة

منه بعض أشياء بها أو لدمامتها وإما سنها وكبرها، أو غير ذلك من أمورها، والإعراض ألا يؤنسها، وأن يصرف عنها وجهه. وقد قال بعض العلماء: إن الفرق بين النشوز والإعراض أن النشوز تباعد، والإعراض انصراف الوجه وعدم الأنس بها مع القرب منها».

وإن المرأة إذا لا حظت ذلك من زوجها لا تقابل النشوز بمثله ولا الإعراض بالصد، فإن ذلك يوسع الهوة بينهما ويفك الأسرة، وينتهى الأمر إلى شقاق لا لقاء بعده، وإن العلاج فى هذه الحالة نفسى يختلف باختلاف قوة النفرة، فإذا كانت لم تستحكم ويمكن أن يتوليا علاجها كان عليهما دينا أن يوليا العلاج، وإذا كان مع النفور خصام كان لا بد من تدخل الغير، لإصلاح ذات البين، وإذا استحكمت النفرة، ولا سبيل للإصلاح فالافتراق، فهذه ثلاثة أنواع. وقد ذكر سبحانه وتعالى علاج المرتبة الأولى، فقال:

﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ ففى هذه المرتبة يكون الواجب الدينى على المرأة والرجل أن يعملا بأنفسهما على إصلاح ما بينهما، فتطامن المرأة للعاصفة ويقرب الرجل امرأته إليه، ويترك شِماسَه[1] وإعراضه، ويتطامن لأهله، ويعلم قول النبى ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى»[2]، وإن التطامن من الرجل لزوجه لتكون العشرة على مودة ورحمة هو عين العزة، فالكريم لا يذل أهله والذليل هو الذى يهين أهله، وقد لوحظ فى التعبير أمور ثلاثة.

أولها- أنه عبر عن طلب الصلح بقوله تعالى: **﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا﴾** وذلك ترفق فى الإيجاب، فعبر عنه بنفى الإثم لكيلا يتوهم أحدهما أن فى التساهل عن بعض حقه إثما. والصلح يقتضى أن يتسامح أحد الفريقين فى

---

(١) الشِّماس: العداوة الظاهرة والعناد. [لسان العرب - شمس].

(٢) سبق تخريجه.

جزء من حقه؛ لينال خيرا أكثر مما تسامح فيه، فإذا تركت المرأة بعض حقها لتدوم العشرة بالمعروف فذلك لا إثم فيه. بل فيه الخير.

ثانيها- أنه أكد الصلح بقوله «صلحا» للإشارة إلى أن الصلح فى هذا المقام لا يكون صلحا ظاهرا، بل يكون نفسيا، بحيث تتلاقى القلوب وتصفو النفوس، ويحل الوئام محل الخصام، فليس الصلح فى هذه الحال إنهاء لمشكلة فقط، بل هو تلاقى القلوب على المودة والرحمة.

ثالثها- أن الله تعالى أكد الصلح بقوله تعالى أولا «والصلح خير» أى أنه فى ذاته خير يعم الطرفين؛ مَن تسامح يناله من الخير بمقدار ما تسامح أو بأضعاف ما تسامح، فهو قد أعطى ليأخذ وتساهل لتلزم ولتدوم نعمة الزوجية.

وأكد سبحانه الصلح بدعوة الزوجين ألا يشح أحدهما بالعطاء لرفيقه، ولذا قال تعالى: ﴿**وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ**﴾ والشح هو البخل، وهو هنا التشاح النفسى بأن يلتزم كل واحد من الزوجين موقفه متمسكا بحقوقه الشكلية، ومعنى قوله تعالى ﴿**وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ**﴾ أن الشح جُعل حاضرا لا يغيب عنها ولا تنفك عنه كأنها مطبوعة عليه، وعلى المتصالحين اللذين يريدان التصافى أن يلاحظا هذا ويعالجاه، فهو الداء، وإذا عرف سهل الدواء، وما دام الصلح كاملا يجب اجتثاث الشح الحاضر، ليكون الصفاء الدائم.

وأكد سبحانه وتعالى طلب الصلح ثالثا بقوله تعالى: ﴿**وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً**﴾ فى هذا النص الكريم علاج لشح النفس إذا حضر، ولوقوف كل فى الجانب الذى يحفظ به حقوقه، ولا يتحرك، فإن العلاج لهذه الحال هو الإحسان، فليكن محسنا بدل أن يكون مُلحفا، فإذا كان الإحسان ذهب التشاح، والعلاقات فى الأسرة لا تبنى على الظاهر، بل تبنى على القلوب، والقلوب لا يطهرها إلا تقوى الله فى المعاملة؛ إذ إن المعاملة الطيبة، والإحسان وزيادة العطف وتقوى الله هى البلسم الشافى من الشح النفسى الذى يعترى ما يكون بين الزوجين.

وإن الله تعالى قد وعد بالثواب العظيم لمن يحسن ويلاحظ تقوى الله تعالى فى المعاملة من الزوجين؛ لأن الله تعالى يعلم علما دقيقا لا يغادر شيئا، وهو علم مستمر دائم يليق بجلاله سبحانه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً**﴾ وإذا كان عليما علما دقيقا بما يعملون، فإنه هو الذى يجازى بمقتضى علمه، فإذا تسامح أحد الزوجين، فإنه مثاب فى الآخرة، فإذا كان قد تسامح فى بعض حقه الدنيوى، فإنه سيضاعف له الجزاء فى الآخرة.

وإنه فى الحياة الزوجية تحقيق العدالة الكاملة غير ممكن، ولذا وجب التسامح، فقال تعالى:

﴿**وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ**﴾ إن الله سبحانه وتعالى نفى استطاعة العدالة بين النساء نفيا مؤكدا، لأن حرف (لن) لتأكيد النفى، فالعدالة بمعنى تنفيذ كل الحقوق المقررة والواجبات النفسية أمر غير ممكن مهما يكن حرص الإنسان على العدالة.

وقد فرض العلماء أن هذه العدالة غير الممكنة لا تكون إلا إذا كان الرجل ذا زوجين فأكثر، وذلك ظاهر؛ لأن العدالة النفسية بالمساواة فى الإقبال القلبى والمحبة. أمر غير ممكن؛ لأن الناس بحكم الخلقة لا يملكون نزعات نفوسهم وميول قلوبهم، ولقد كان النبى ﷺ يقسم بين زوجاته فى كل ما هو ظاهر كالمبيت والكسوة والنفقة، وكل ما يتعلق بصورة الحياة الزوجية، ولكنه وهو أكمل البشر لم يستطع العدالة النفسية، ولذلك كان يقول ﷺ: «اللهم إن هذا قسمى فيما أملك، فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك»[1].

وقد ادعى بعض الكتاب فى أول هذا القرن العشرين الميلادى وتبعه غيره، أنه بضم آية ﴿ ... **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً** ... (٣)﴾ [النساء] إلى هذه الآية التى نتكلم فى معناها يكون منع تعدد الزوجات، وما هكذا تفهم النصوص فى

---

(١) رواه أبو داود: النكاح - فى القسم بين النساء (٢١٣٤) عَنْ عَائِشَةَ رضى الله عنها وأرضاها.

القوانين فضلا عن نصوص القرآن فإن البداهة تتجه إلى التوفيق، والتوفيق يبدو بادئ النظر، وهو أن هذه الآية موضوعها نفسى، والآية التى فى صدر السورة موضوعها العدالة الظاهرة، وقد وضَّح هذا المعنى النبى ﷺ فى الحديث الذى رويناه، وهو عجزه عليه الصلاة والسلام عن العدالة النفسية، وعلى فرض أن التوفيق غير ممكن إن سايرنا تلك المدارك المحدودة، فإن المتأخر ينسخ المتقدم. والمتأخر هو هذه الآية التى نتكلم فى معناها، وهى تطالب بالعدالة المطلقة، بل طالبت بالممكن فقال تعالى: ﴿**فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا**﴾.

المعلقة هى التى تهمل نفسيا ومعنويا وحبا ومودة، فلا هى ذات زوج تنال الحقوق الزوجية أو بعضها، ولا هى خالية الأزواج، ترجو أن يوفقها الله تعالى وهذا تشبيه بالشىء المعلق بشىء من الأشياء؛ لأنه لا يكون قد استقر على الأرض، ولا ما علق عليه تحمله، أو يستطيع تحمله.

وإنه لأجل الوصول إلى هذا الحل الذى لا يكون فيه شطط يجب التدخل لإصلاح ذات البين، ولذا قال الله تعالى: ﴿**وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا**﴾ وهذه هى المرتبة الثانية من الشقاق التى يتعذر فيها على الزوجين أن يقوما بعلاجها، ولذا يستمد العلاج من المتصلين بهما وهو المنصوص عليه فى قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ... ٣٥**﴾ [النساء] وعند التدخل للإصلاح يجب أن تكون تقوى الله هى التى تحكم الحكمين ولذا قرن الإصلاح بالتقوى، فإن كان إصلاح القلوب مع تقواها، فإن الله سبحانه وتعالى يغفر ما عساه يكون من تجاوز للحد قبل ذلك، ولذا ختم سبحانه وتعالى هذا الجزء من العلاج بقوله: ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ أى أن غفرانه البالغ ورحمته الواسعة المستمرة المؤكدة يفيضان على المصلحين المتقين؛ فإن لم يجد هذا كانت المرتبة الأخيرة، وهى الفراق، ولذا قال سبحانه:

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ أى إنه إذ لم يستطيعا إصلاح ما بينهما، ولم يصلح غيرُهما ذلك الإصلاح لم يبق إلا أن يتفرقا، وهذا ما تقتضيه الفطرة، ولذلك أسند التفرق إليهما معا، لا إلى أحدهما؛ لأن التفرق بالطلاق نتيجة تفرق القلوب، وإنه إذا كانت هذه الحال أغنى الله كل واحد عن الآخر من سعة الرحمة التى يرحم بها عباده، ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ وكان الله تعالى ولا يزال واسع الرحمة فكلمة «واسعا» على تقدير مضاف، وهو الرحمة، وكان ولا يزال حكيما، يشرع بعباده بمقتضى حكمته ما هو أصلح لهم، ولو كانت النفوس تنزعج له أو تبغضه، وإن المرأة الفاضلة الكريمة إذا أعرض زوجها أو استعلى عليها ولم يمكن إصلاح ستجد من المجتمع من يقدر فضلها، ويبدلها من الناشز عدلا من الرجل، اللهم أصلح أمورنا، وابسط المودة بيننا، إنك سميع الدعاء.

وَلِلَّهِ مَا فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ
مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ
مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾
وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾
إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ
ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

في الآيات السابقة ذكر سبحانه وتعالى ما ينبغى أن تكون عليه العلاقة بين الزوجين، وما يجب من علاج لأدواء النفوس فيها، ووجوب العدالة الممكنة بها، وما يجب عند تعذر العدالة الحقيقية، وأنه إذا تعصى الداء، وتعذر العلاج كان الفراق آخر الدواء، وفى هذه الحال يكون كلاهما فى سعة من رحمة الله الواسعة، وفى هذه الآيات يشير سبحانه إلى سعة ملكه، وأن كل شىء فى ملكه وتحت سلطانه، فهو الذى يغنى كلا، وهو القادر على كل شىء، وأنه بعد بيان عظم قدرته وسلطانه يبين وجوب العدالة بين الناس فى علاقاتهم بعضهم ببعض، كما يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ... ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء] وقد توسطت هذه الآيات الدالة على عظم سلطان الله تعالى بين الأمر بالعدل فى داخل الأسرة، وهى اللبنة الأولى فى بناء المجتمع، وبين الأمر بالعدالة فى المجتمع الأكبر، وكان ذلك التوسط لتربية المهابة من الله فى قلب المؤمن، فيتجه إلى العدل الذى هو ميزان العلاقات الإنسانية كلها.

وقد جاء فى تفسير الطبرى وجه آخر للمناسبة قال فيه ما نصه: «وإنما ذكر جل ثناؤه ذلك بعقب قوله: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ﴾ تنبيها منه لخلقه على موضع الرهبة عند فراق أحدهم زوجه، ليفزعوا إليه عند الجزع من الحاجة والفاقة والوحشة بفراق سكنه وزوجه، وتذكيرا منه أنه هو الذى له الأشياء كلها، وأن من كان له ملك جميع الأشياء فغير متعذر عليه أن يغنيه وكل ذى فاقة وحاجة ويؤنس كل ذى وحشة».

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أى لله وحده ما فى السموات والأرض من مطر ينزل، وأرض تنتج، وشمس تمد الكون بالدفء والحرارة والضوء، وقمر منير، ونجوم تزين السماء الدنيا، وهو سبحانه وتعالى يملك ذلك كله ملك اختصاص وسلطان وقدرة وإنشاء، فهو الذى أبدعه على غير مثال سبق، وهو رب الدين فى السماء والأرض، وهو الذى يوزع الأرزاق بمقتضى حكمته، وهو القاهر فوق عباده، يقيم العدل ويغنى كلا من سعته بما يشاء، وأنه لم يترك

الناس هملا، بل أنزل عليهم الكتب السماوية تدعو إلى التفكير فى ملكه، وخلقه، وتتجه إلى عبادته سبحانه وتعالى وحده وتقواه وحده، ولذا قال:

﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ الخطاب فى هذا النص لأمة محمد ﷺ، والكتاب المراد به جنس الكتاب، لا واحده، أى الذين أوتوا علم النبوّة من قبلكم برسل أرسلوا إليهم، وكتب سجلت أوامر الله تعالى ونواهيه، وخطاب من الوحى الإلهى نزل إليهم، وقد دعاهم سبحانه وتعالى كما دعاكم إلى أن تتقوا الله تعالى فى كل أعمالكم، بحيث تتربى مهابته فى قلوبكم، فتذكرونه فى كل تصرفاتكم، فإن وسوست نفوسكم بظلم ذكرتموه فامتنعتم، وإن همت بفساد ذكرتموه فاعتصمتم، وإن أصابكم جزع ذكرتموه فاطمأننتم، وإن أصابكم فاقة ذكرتموه فصبرتم، وإن أصابتكم بأساء ذكرتموه فارتضيتم، وإن أصابتكم نعماء ذكرتموه فشكرتم، فالأمر بالتقوى أمر جامع لكل معانى الإيمان والتوحيد.

ولذا أكد سبحانه الأمر بالتقوى بأربعة مؤكدات.

أولها ـ التأكيد باللام وقد، فـ (قد) وحدها مؤكدة، واللام تتضمن معنى القسم فهى مؤكد آخر، وهذا ما تضمنه قوله تعالى «ولقد» فى صدر الكلام.

ثانيها ـ التعبير بقوله ـ جل جلاله ـ «وَصَّيْنَا». فإن التوصية تكون طلبا مشددا لا يقتصر على زمان الأمر، بل يتعاقب الطلب بتعاقب الأزمان والدهور، ولا يقتصر على زمان دون زمان، وهذا يفيد أن الأمر بالتقوى قانون محكم، لا يعتريه فسخ ولا تغيير مهما تختلف العصور؛ لأنه لب الأديان.

ثالثها ـ ذكر كتب النبيين السابقين مع خطاب أمة خاتم النبيين محمد ﷺ، فإن ذلك الذكر يفيد أن التقوى شريعة السماء.

رابعها ـ التعبير بـ «أن» فى قوله تعالى جلت قدرته ﴿أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ فإنها هى «أنْ» المفسرة، أى أنه سبحانه وتعالى يفسر وصيته الخالدة الباقية بأنها شىء واحد، وهو الأمر بالتقوى، ومن المقرر فى علم البيان العربى أن الإبهام ثم البيان

يؤكد المعنى فى النفس أفضل تأكيد، وقد قال الزمخشرى إن لفظ «أن» يحتمل أن تكون أن فيه مصدرية، والمعنى: وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم بتقوى الله سبحانه وتعالى. والتعبير بالمصدر المؤول المنسبك من «أن» وما يليها فيه تؤكيد لمعنى المصدرية؛ إذ فيه تصوير واضح للفعل والقيام به، وإن قوله تعالى و ﴿إِيَّاكُمْ﴾ هو من قبيل عطف الضمير على الاسم الظاهر، فيكون فى موضع النصب، ولذلك انفصل الضمير.

وقد أكد سبحانه وتعالى وصيته الخالدة ببيان نتيجة مخالفتها، وأنها لمنفعة العبادة، فقال سبحانه:

﴿وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ وإن الأمر بالتقوى فيه خيركم، إذ فيه سلامة اعتقادكم، واطمئنان قلوبكم؛ وصلاح جموعكم، ومنع الفساد فى الأرض، وإن جحدتم أوامر الله تعالى، ولم تعبدوه وحده، وتخشوه حق الخشية، فستفسد أموركم أنتم، ولن يضر الله منكم شىء؛ لأنه مالككم، ومالك كل ما فى السموات والأرض، وهو بهذا الملك الظاهر والسلطان القاهر، يستغنى عن تقواكم، وهو المستحق للحمد الدائم، والمحمود فى ذاته وشرائعه وأوامره ونواهيه وفى إنشائه وإبداعه، فلا يضيره كفر الكافر، ولا ينقص من سلطانه فجور الفاجر؛ لأن الجميع فى قبضة يده وتحت سلطانه.

ولقد قال ابن جرير الطبرى فى معنى هذه الآية الكريمة: «وإن تجحدوا وصيته إياكم فتخالفوها فإن لله ما فى السموات وما فى الأرض. يقول فإنكم لا تضرون بخلافكم وصيته غير أنفسكم، ولا تعدون فى كفركم هذا أن تكونوا أمثال اليهود والنصارى فى نزول عقوبته بكم، وحلول غضبه عليكم، كما حل بهم، إذ بدلوا عهده، ونقضوا ميثاقه، فغير بهم ما كانوا فيه من خفض العيش، وأمن السِّرب، وجعل منهم القردة والخنازير، وذلك أن له ملك جميع ما حوته السموات والأرض، لا يمتنع عليه شىء أراد تجميعه.. من إعزاز من أراد إعزازه، وإذلال من أراد إذلاله».

ويُرى من هذا التخريج أنه يرى أن الخطاب باحتمال الكفر موجه إلى الأمة المحمدية، ويكون قوله تعالى: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ كلام مستأنف يبين نتائج مخالفة الأمر بالتقوى المؤكد، والذى جاءت به شرائع السماء كلها، وهذا هو الظاهر.

وقد قرر بعض العلماء أنه يجوز أن يكون فى ضمن الوصية المؤكدة، ويكون المعنى: ووصينا أولى الكتاب وإياكم بالتقوى، وقلنا لهم ولكم: إن تكفروا فإن لله ما فى السموات وما فى الأرض. وإننا نرى أن الأول أظهر، وقد سار عليه ابن جرير، ووضح المعنى على أساسه... وقد أكد سبحانه عظيم سلطانه، وحاجتهم إليه وغناه ـ جل ثناؤه ـ عنهم، فقال تعالت كلماته:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ الوكيل هو من يتولى الأمر ويحفظه ويرعاه، والمعنى: كفى أن يكون الله تعالى حافظا للإنسان يتولاه، ويكلؤه ويق يه، فإذا كان الله تعالى غنيا عن عباده فعباده فقراء إليه، كما قال سبحانه: ﴿... وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ... ﴿٣٨﴾﴾ [محمد] فعلى المؤمن أن يتقى الله تعالى، وأن يعلم أنه مالك أمره، وهو الذى يتوكل عليه، وأن الله سبحانه يحب المتوكلين لأنهم يحسون بقدرته، وعظم سلطانه، فكل متوكل عليه سبحانه يحس بعظم سلطان ربه، وضآلة سلطانه وقدره وذلك إيمان صادق، إذا قام بما يستطيع، وما تمكنه قدرته المحدودة، ويترك بعد ذلك الأمر لربه، وهنا أمر يجب أن نشير إليه، وهو تكرار قوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ فقد ذكر ذلك القول السامى ثلاث مرات، فلماذا كان ذلك التكرار؟ إنه بلا شك بهذا التكرار يتأكد المعنى الذى يشتمل عليه القول، ولكن هذا التوكيد للمعنى جاء فى كل مرة مبينا معنى خاصا، فالذكر الأول كان لتربية الإحساس بعدله، وعظم سلطانه وسعة رحمته، وأنه تسع رحمته كل الناس، فينصف المظلوم، ويبسط الرزق لذى الفاقة، فلا يضيق أحد الزوجين بالفراق، بل الله سبحانه يكلؤه، ويسعه برحمته، وذكر ذلك القول فى

المرة الثانية لبيان استغنائه عن خلقه، وأن تقواهم لمصلحة أنفسهم ولخيرهم، وليس له بها حاجة بل هو الغنى المحمود دائما. وذكر هذا الكلام فى المرة الثالثة لبيان حاجة الناس إليه، وأنهم فقراء إليه فى مقابل غناه عنهم، تعالى الله علوا كبيرا.

وبعد هذا بين سبحانه قدرته القاهرة، وأنه هو الذى أنشأ الناس، وطالبهم بالعبادة، وأن من أنشأ يستطيع الإفناء، ويستطيع التبديل والتغيير فى خلقه، فيستبدل بالناس ناسا، وبالأقوام أقواما، ولذلك قال سبحانه:

﴿ **إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا** ﴾ والمعنى الجملى للنص السامى: إن يشأ الله تعالى أيها الناس إفناءكم ويأت بآخرين، فإنه سبحانه وتعالى يفعل؛ لأنه على ذلك قادر قدرة مطلقة لا يحدها حد. وهى العامة الشاملة لكل شيء، وهنا نجد جواب الشرط قد حذف ودل عليه قوله تعالى: ﴿ **وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا** ﴾ وحذفه مع ما يدل عليه يجعل الذهن يتجه إلى تعرف مدى عظمته وقدرته، وحذف مفعول المشيئة فى قوله﴿ **إِن يَشَأْ** ﴾ قد دل عليه جواب الشرط فى قوله: ﴿ **يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ** ﴾.

ومن هم الناس الذين خوطبوا بذلك الخطاب؟. يحتمل هذا وجهين: **أحدهما**، أن يكون الخطاب للناس فى أمة محمد، ومن كانوا قبلهم، ويكون الكلام تابعا لمقول القول المقدر عند من قدره فى قوله تعالى: ﴿ **وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ** ﴾ ويكون أيضا قوله تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا** ﴾ له هذه التبعية. ويكون الكلام كله فى خطاب السابقين واللاحقين. وقد قلنا إن ذلك غير الظاهر.

والوجه الثانى أن يكون الخطاب فى أمة محمد ﷺ، وهو بهذا يشمل المؤمنين والمشركين. ويكون للمشركين بشكل خاص. وإن اختلاف التوجيه على هذا النحو يترتب عليه الاختلاف فى جواب الشرط، وهو منَ الذين يذهبهم الله تعالى، ويأتى بآخرين، وله القدرة التامة على تنفيذ ما يقول تعالى؟ فعلى الوجه الأول يكون المعنى: إن يشأ سبحانه أن يذهب بهذا العالم الإنسانى، ويأتى بعالم

آخر يعبده ويؤمن به فإنه الفاعل المختار المريد، ويكون القصد بيان قدرة الله تعالى الشاملة، وإثبات أن كفر الكافر ليس بعيدا عن تقديره، وإيمان المؤمن كذلك، فهو الذى خلق الإنسان صالحا لأن يسلك طريق الشر وطريق الخير، وأن ذلك بإرادته، ولو أراد غيره لكان ما أراد لأنه هو الذى يقول للشىء كن فيكون، وهو الذى خلق الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، ويكون ذلك كقوله تعالى: ﴿ **إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ** ﴿١٦﴾ ﴾ [فاطر].

وعلى التوجيه الثانى - وهو أن يكون الخطاب للمشركين الكافرين بالرسالة المحمدية والمسلمين الذين يكونون على طرف الإسلام - يكون المعنى إن استمررتم على الشرك أو كان منكم الكفر بعد الإيمان، فإن الله تعالى بمقتضى سننه فى الفطرة الإنسانية يفنيكم بإذهاب قوتكم وسيطرة الفساد عليكم، ويجىء من بعدكم من ينصر الحق، ويكون النص كقوله تعالى: ﴿ **وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ** ﴿٣٨﴾ ﴾ [محمد] وكقوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ** ﴿٥٤﴾ ﴾ [المائدة: ٥٤] وقد ذيل الله سبحانه النص الكريم ببيان قدرته الكاملة على ذلك التغيير، فقال تعالى:

﴿ **وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا** ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى قدير على ذلك التغيير والتبديل الذى تستغربونه وتستبعدونه، وقد قدم الجار والمجرور وهو قوله ﴿ **عَلَىٰ ذَٰلِكَ** ﴾ لموضع الاهتمام وهو التغيير والتبديل، الذى يستبعدونه لفرط إحساس المشركين بقوتهم، وغرورهم بدولتهم، واستضعافهم لشأن المؤمنين الصادقين.

﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ** ﴾ الثواب ما يعود على الإنسان من أى عمل يعمله، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، ثم أطلق الثواب فى القرآن على الجزاء، وذلك فى مقابل العقاب الذى هو جزاء الشر، والمراد هنا على هذا الأساس نعيم الدنيا، والنتائج الطيبة لأعمال الدنيا. ومعنى النص السامى من يكون من شأنه وطوية نفسه أن يطلب نعيم الدنيا وما فيها من خير، فإن الله

تعالى يعطيه ما يطلب إن اتجه إلى طلبها عن طريق الحق والدين، فإن الله تعالى ذا السلطان الكامل فى الدنيا والآخرة هو وحده عنده نعيمهما معا، فمن أراد الدنيا عن طريق الخير والحق، فإنه سينال ذلك بتوفيق الله تعالى وتمكينه.

وهذا الكلام يطوى فى ثناياه معانى ثلاثة:

أولها ـ أن الاستجابة لما يطلبه الله سبحانه وتعالى تؤدى إلى خير الدنيا من عزة ورفعة وقوة وسلطان فى الأرض، وتعاون على إصلاحها ومنع فسادها، وتواصل وتراحم، من غير تقاطع ولا تدابر.

ثانيها ـ أن من يطلب الدنيا من غير طلب الآخرة ولا يستجيب لداعى الله، يكون قد طلب الأخس وترك الأخطر منهما، ولا يكون طالبا لها على وجه الحق، ويكون محاسبا على كل ما نال من مغانم فى هذه، ولذا قال تعالى: ﴿ **وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ...** (١٤٥) ﴾ [**آل عمران**: ١٤٥]

ثالثها ـ أن النص الكريم يفيد قدرة الله، وكمال سلطانه، وعدله فى الثواب والعقاب، وأنه يعلم الخير ويجزى عليه والشر ويعاقب صاحبه ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ** (٧) **وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** (٨) ﴾ [**الزلزلة**] ولذا ختم سبحانه الآية بقوله:

﴿ **وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا** ﴾ أى أن الله سبحانه وتعالى عالم علما دائما أزليا علم من يسمع ما يجهر به ويسر، ومن يطلع على حركات النفوس، وخلجات القلوب، وما يجيش فى الصدور، وعالم علم من يبصر أدق الأعمال وأخفاها من خير أو شر، وإنه مجازى كل إنسان على مقتضى هذا العلم الذى لا تخفى عليه خافية.

﴿ **رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** (٢٠١) ﴾ [**البقرة**]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾

فى الآيات السابقة أمر الله بالعدل، ولو كان فى مصلحة الكافرين، وأمر بالعدل بين الأزواج، وإنه أساس قيام الأسرة، وإن كان العدل فى الأسرة أمرا شاقا؛ لأنه يتصل بالنفوس، لا بالأمور المادية. إذ العدل فى الحقوق الظاهرة يكون سهلا ليس صعبا، أما المساواة فى الأمور النفسية فمن الأمور التى تشق على النفوس. ثم بيَّن سبحانه وتعالى سلطانه الكامل، ورقابته على الأعمال ما ظهر منها وما بطن، وتستوى فى ذلك أعمال الجوارح، وأعمال القلوب وخلجات النفوس، وفى هذه الآية يبين أن العدل خاصة أهل الإيمان، وقد أمر الله به المؤمنين، لأنه مقتضى الإيمان، وهذا العدل يعم العدو والولىّ على السواء. ولذلك قال سبحانه:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ**﴾ النداء «يأيها» للتنبيه، وقد اختير اللفظ الدال على النداء للبعيد لتعظيم التنبيه إلى الأمر الخطير الذى يدعوهم إليه، وهو العدالة التى بها ميزان السماء والأرض، والتى هى دعامة الإسلام الأولى، وسِمَتُهُ ومظهره، ومعنى «قوَّامين» أن تقوموا على القسط وهو العدل وترعوه حق رعايته، فقَوَّام صيغة مبالغة من قام بالأمر، وقام عليه وتعهده، وهو أبلغ من كونوا عدولا؛ لأن القوَّام بالعدل تكون فيه خصال ثلاث:

أولاها: أن يعدل فى ذات نفسه، فلا يظلم أحدا.

والثانية: أن تكون العدالة شأنا ملازما له لا يفترق عنه، لتكون كالسجية من سجاياه، والملكة من الملكات.

وثالثها: أن يرعى العدل فى غيره، فلا يعدل فقط فى القضية التى تعرض عليه ليقضى فيها، بل يعمل على منع الظلم حيث كان، وأيا كان، فليس قوّاما بالقسط من يرى مظلوما يُظلم، أو ضعيفا يهضم، ولا يمنع الاستمرار فى ظلمه، ولو لم يكن قاضيا يحكم بين الناس، وهذا تطبيق لقول النبى ﷺ: «لتأمرنَّ بالمعروف ولتنْهَوُنَّ عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطْرا، أو ليضربنَّ الله قلوب بعضكم ببعض، ثم تدعون فلا يستجاب لكم»(١).

وقد أمر الله تعالى بالعدل بهذه الصيغة فقال: ﴿**كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ**﴾ فلم يقل تعالت كلماته «اعدلوا»، أو «قوموا بالقسط». . بل قال سبحانه: ﴿**كُونُوا**﴾ وهذا التعبير يقتضى أمرين:

أحدهما ـ أن يروضوا أنفسهم على العدالة، ويربوها ويعلموها لشباب هذه الأمة، ويَفْطِموا النفوس عن شهواتها، فإنه لا يذهب بالعدل إلا الشهوة، فليربوا أنفسهم على السيطرة عليها، وجعلها أمة ذلولا، لتكون النفس عادلة دائما.

وثانيهما ـ أن ينصبوا أنفسهم لنشر لواء العدل، فلا يتركوا ظالما يرتع، ولا مظلوما يخضع، سواء أكان الظالم فردا أو جماعة، أم كان أمة، فأمة العدل يجب أن تكون قوّامة بالعدل.

وإن القوامة على العدل توجب عدالة الإنسان فى نفسه، وأهله، وولده، وصحبه، وكل من يتصل به، وتوجب منع الظلم أنَّى يكون، وتوجب العدل فى الولاية والقضاء، والصلح بين الناس.

وهناك أمر هو سبيل الحق، وطريق معرفته، وهو الشهادة، إذ هى السبيل للعدل فى القضاء والولاية والصلح، وهى سبيل إحقاق الحق، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**شُهَدَاءَ لِلَّهِ**﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

ومعنى الشهادة لله تعالى، أن يقول الحق طلبا لرضا الحق جلّ جلاله، لايلتفت إلى رضا المخلوق، أيًّا كان ذلك المخلوق، فإن تحرى رضا المخلوق قد يذهب بالحق، ويضعف سلطانه، وإن الشاهد إذا لاحظ جانب الله فى شهادته قال الحق من غير تلعثم ولا اضطراب، وأفاض الله تعالى عليه نورا، فلا يضل فى شهادته، ولا يخطئ ناحية من نواحى الحق.

وقد فهم بعض المفسرين أن قوله تعالى: ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ حال من الذين آمنوا، والمعنى على هذا كونوا قائمين بالحق حال كونكم شهداء به لله تعالى، وعلى هذا التفسير تكون القوامة على الحق مقصورة عل الشهادة غير عامة.

وقد ضَعَّفَه أكثر المفسرين. وجمهورهم على أن قوله تعالى «شهداء لله» خبر بعد خبر، أى أن هناك أمرين طلبهما المولى جلّ شأنه:

أولهما: القوامة بالقسط، وهذا عام للشّهادة وغيره.

وثانيهما: أنه خصَّ الشهادة بالذكر، لأنها السبيل للحق، والشهادة لأجل رضا الله تعالى هى السبيل لكل عدل وكل حق.

والشهادة لله تعالى توجب ألا يحابَى قريب لقرابته، ولا يحابى غنى لغناه، ولذا قال تعالى:

﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ والمعنى اجعلوا الشهادة لله تعالى فلا تنطقوا إلا بالحق، ولو أدى ذلك إلى أن تكون العاقبة ألما ينزل بالوالدين والأقربين، فالمحاباة على حساب الغير ظلم، وصلة الرحم لا تبرر الظلم، وليس من الإحسان إلى الوالدين أن تقرهما على الظلم، وترضى لهما أن يأكلا الحقوق، كما أنه لا يصح أن تكون الرحمة بالأقارب الأقربين طريقا للظلم، فإن هذه لا تكون رحمة حقيقية، ولكنها شفقة جنونية، فالأولى حملهم على الحق، وذلك بأداء الشهادة لله، وبالحق.

وقد يسأل سائل: ما معنى الشهادة على النفس، وقد أجاب عن ذلك المفسرون بأن الشهادة على النفس هى الإقرار عليها بما ارتكبت، وقد قال

الزمخشرى أن يشهد بما يؤدى إلى وبالها، بأن يشهد على سلطان ظالم فيؤذيه، وقد قال في ذلك ـ رضى الله عنه ـ: «ويجوز أن يكون المعنى وإن كانت الشهادة وبالا على أنفسكم أو على آبائكم وأقاربكم، وذلك أن يشهد على من يتوقع ضرره من سلطان ظالم أو غيره».

وإنه بهذا الذى قرره جار الله الزمخشرى ننتهى إلى أن الشهادة على الوالدين والأقربين تكون بإلزامهم بحقوق عليهم مباشرة، وتكون بالنسبة للأنفس بالإقرار بإلزامها، وتكون بالشهادة فى الأمور التى ربما تؤدى إلى الإضرار بهم كشهادتهم فى أمر عام قد يؤدى إلى حرمانهم من المزايا التى يطلبونها، كمن يشهد بمجرى ماء لشخص تؤدى إلى حرمانهم من بعض ما يبغون، وقد تكون بالشهادة على أصحاب السطوة الذين يؤذون من يشهد عليهم . . . وهكذا.

وإنه قد قال قتادة فى معنى هذه الآية: «أقم الشهادة يا بن آدم، ولو على نفسك أو الوالدين، أو الأقربين، أو على ذى قرابتك، وأشراف قومك، وإنما الشهادة لله، وليست للناس، وإن الله تعالى رضى بالعدل لنفسه، والإقساط والعدل ميزان الله فى الأرض، به يرد الله من الشديد على الضعيف، ومن الكاذب على الصادق، ومن المبطل على المحق. . . وبالعدل يصلح الناس».

وقد يكون سبب الانحراف فى العدل أو الشهادة أن تكون الخصومة بين غنى وفقير، فقال سبحانه:

﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ أى لا يصح أن يكون اختلاف المتخاصمين أو المتعاملين، أو المشتركين غنى وفقرا سببا فى اجتناب العدالة، فلا يمنع الغنى حقا لغناه، ولا يعطى أحد غير حقه لفقره، كما لا يصح أن يحابَى الغنى أو يعفى من العقاب لجاه ماله، ويعاقب الفقير بعقوبة أشد لفقره، فالفقر والغنى بأمر الله تعالى، ولذا قال: ﴿ فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ أى فالله سبحانه وتعالى هو الأولى والأجدر بحساب الغنى والفقير، وهو الذى رتب الحقوق والواجبات، وقسم الأموال بحكمته، ونظمها بإرادته، وهو الأعلم بمصالح العباد، وهو الذى

يتولى النظر لكليهما بعين رحمته، ويفيض هدايته، روى ابن جرير عن السدّى أنه قال: نزلت فى النبى ﷺ، إذ اختصم إليه رجلان، غنى وفقير، وكان ضلعه مع الفقير، يرى أن الفقير لا يظلم الغنى، فأبى الله إلا أن يقوم بالقسط فى الغنى والفقير: ﴿ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾.

وإن الذى يستفاد من هذه الرواية مع أصل النص الكريم أن الغنى أو الفقر لا يصح أن يكونا سببا فى التفاوت فى الحكم؛ لأن الله هو الذى نظم الكون بما فيه ومن فيه، فهو الذى أراد للفقير الفقر مع الأسباب، وأراد للغنى الغنى مع الأسباب الظاهرة لدينا، والمصلحة الإنسانية هو سبحانه وحده قدرها، فهو أولى بأن يكون الغنى له لأنه هو الذى منحه، وأن يكون الفقير له لأنه هو الذى منعه، فابتلى الأول بالمال، وابتلى الثانى بالحرمان.

هذا حكم الله، وقد رأينا ناسا يحاربون الغنى، ورأينا مع الأسف قضاة يمنعون بعض الحقوق، ويمنحون باسم الغنى والفقر. فهذا «محمد» خير البشر عندما علم الله ـ الذى يعلم السر وأخفى ـ أنه يضلع مع الفقير بقلبه، ذكره بأن الله أولى بالغنى والفقير، وأنه مقسم الأرزاق، فكيف يسوغ لأحد من البشر أن يظلم غنيا لماله؟!! أو يحابيه لذلك.

وقال الزمخشرى: « ـ فإن قلت ـ لِمَ ثنى الضمير فى ﴿ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾ وكان حقه أن يوحد، لأن قوله: إن يكن غنيا أو فقيرا فى معنى إن يكن أحد هذين ـ قلت: قد رجع الضمير إلى ما دلَّ عليه قوله: إن يكن غنيا أو فقيرا إلى المذكور، فلذلك ثنى ولم يفرد، وهو جنس الغنِىّ وجنس الفقير، كأنه قيل: فالله أولى بجنسى الغنى والفقير، أى بالأغنياء والفقراء». . وفى هذا التخريج الذى ذكره الزمخشرى إشارة إلى أن الغنَى والفقر أمران ثابتان فى هذا الوجوب، لا يمكن أن تخلو منهما الجماعة الإنسانية، لأن ذلك تنظيم الله تعالى، وإرادته الخالدة، وهو الذى يتفق مع الطبيعة الإنسانية؛ لأن القُدَر متفاوتة والأعمال مختلفة، ونتائج الأعمال كثمرات الزرع والشجر، تختلف باختلاف ما يزرع وما يغرس، وإن

اتحدت الأعمالَ فقَدرُ الله تعالى يسيِّر الوجود، هذان زارعان يزرعان فى قطع من الأرض متجاورات يبذران بذرا واحدا، وتسقى أراضيهما من ماء واحد، ومع هذا فذلك يأتى بزرع طيب، والآخر يأتى برديء، أو هذا يبيع بسعر جيد، وذاك يتأخر شهرا أو يتقدم شهرا فيبيع بسعر دون الأول، فمن ظن أنه يستطيع إزالة ما بين الغنى والفقر، فإنه يظن أنه يستطيع مغالبة القدر.

وإن الميل فى الشهادة أو فى الحكم عن الحق سببه هو اتباع للهوى، ولذا نهى الله تعالى عن اتباع الهوى فقال:

﴿فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا﴾ «الفاء» هنا هى التى تسمى فاء الإفصاح؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، كأنه يقول إن اتجهتم إلى الحق تطلبونه، ﴿فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ﴾، بل اتبعوا داعى العقل وحكم الشرع، والهوى هو الخضوع للشهوات، وعدم الخضوع لحكم العقل، وما يوجبه الشرع، ومن اتباع الهوى الخضوع للنزعات الوقتية، والظاهر، وعدم البحث عن ذات الحقائق، فمن الخضوع للهوى أن تمنع الغنى حقا لمجرد أنه غنى، وتحابى الفقير لمجرد أنه فقير، فهذا من قبيل الخضوع لمجرد الإحساس من غير تفكير وبحث عن الحقائق، فإن الغنىّ لا يحل ظلمه، والفقير لا يقر على ظلم.

ومعنى النص الكريم: ﴿فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ﴾ وتجنبوه لكى تعدلوا، وتتجهوا إلى الحق من غير تعويق من العواطف أو الأحاسيس التى تلقى وهما لا حقيقة، فقوله تعالى: ﴿أَن تَعْدِلُوا﴾ فى مقام بيان الغاية لعدم اتباع الهوى، فهو تعليل للنهى، ولا حاجة فيه إلى تقدير، ومؤدى الكلام على ذلك نهيتم عن اتباع الهوى لتعدلوا.

والكثيرون من المخرِّجين على تقدير محذوف، والمعنى على ذلك لا تتبعوا الهوى مخافة أن تعدلوا عن الحق إن اتبعتم الهوى، فإن الهوى من القاضى أو الشاهد يذهب بالحق ويضيعه، وإن هذا التخريج فيه تقديران:

أولهما: كلمة مخافة.

وثانيهما: تقدير أن تعدلوا عن الحق.

والأظهر، والأكثر اتفاقا مع السياق والنسق البيانى هو التخريج الأول، وما لا يحتاج إلى تقدير أولى مما يحتاج إلى تقدير.

﴿وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ قراءة الجمهور فى هذا النص الكريم بواوين «وإن تلووا» وقرأ حمزة وبعض الكوفيين بواو واحدة، «وإن تَلُوا أوْ تعرضوا»(١).

ومعنى النص على القراءة الأولى وإن تلووا فى الحكم أو فى الشهادة بأن تحكموا بغير الحق، أو تشهدوا بغير الحق، أو تحرفوه، أو توجهوا الكلام إلى غير وجهته فى الشهادة بأن تظهروا فى الكلام معنى، وتُعَرِّضوا بغيره قاصدين له لكيلا تكون الشهادة على وجهها، فإن كل هذا لَىٌّ للكلام، إذ لَىُّ الكلام تحريفه وتوجيهه إلى غير وجهته السليمة، وذلك يشمل قول الباطل والحكم به، وتلوية مقاصد القول وإبهامه، والإعراض معناه الامتناع المطلق عن الشهادة أو الحكم، وجواب الشرط هو التهديد الشديد بالعذاب الأليم، تضمنه قوله سبحانه: **﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾**.

أى أن علم الله المستمر الذى يعلم به دقائق الأشياء والنفوس وخفاياها قائم على أعمالكم وقلوبكم، وظواهركم وبواطنكم فاحذروه. اللهم اجعلنا من القوامين بالقسط، الشهداء بالحق، الذين لا يتبعون الهوى، ولكن يعدلون فى أنفسهم وذويهم وأهليهم، وما وُلُّوا.

---

(١) قرأها بواو واحدة حمزة وابن عامر، وقرأ الباقون بواوين. [غاية الاختصار (٧٨٨) جزء ٢، ص٤٦٧].

يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَالْكِتَٰبِ الَّذِى نَزَّلَ
عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَالْكِتَٰبِ الَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ
بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ
ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ
ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ
سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾

فى الآيات السابقة كان الأمر بالعدالة فى خاصة الأسرة، وانتهى الكلام إلى الأمر العام بالعدالة مع العدو ومع الولى، ومع الغنى ومع الفقير. ومع الأقربين من ذوى القرابة، ومع الغرباء، وبذلك أثبت الكتاب الكريم أن العدالة خاصة الإسلام، ولازمة من لوازمه، ولا تتحقق معانى الإسلام إلا مع العدالة، وإنها قرينة الإيمان، لا تفترق عنه، ولا تنفصل، ولذلك قرن الأمر بالعدالة بالأمر بأركان الإيمان كلها، فقال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ هذه الآية تدل على وحدة الرسالة النبوية إلى الخليقة، إذ إن لبها هو الإيمان بالله ورسله وملائكته والكتب التى أنزلت على رسله، وأن المتأخرين يجب عليهم أن يؤمنوا بما جاء به السابقون لهم؛ لأن الرسالة الإلهية سلسلة متصلة الحلقات، كل حلقة منها تالية لسابقتها، وكما قال النبى ﷺ: «إن

صرح النبوّة واحد»[1]، الرسالة المحمدية آخر جزء لذلك الصرح الشامخ، وبها تمامه وكماله.

ومعنى النص السامى: يا أيها الذين أذعنوا للحق وطلبوه، وصدقوا به اجعلوا إيمانكم مستقرا وثابتا بالله جلّ جلاله، وبرسوله الذى جاء بشيرا ونذيرا وبالكتاب الذى نزّله منجما مقسطا، وهو القرآن، وبالكتاب الذى أنزل من قبل. والمراد جنس الكتب السابقة، لا واحد منها.

ونرى أن النص الكريم فيه أجزاء الإيمان التى يلازم بعضها بعضا، ولا ينفصل واحد منها عن باقيها، فهى كلٌّ لا يقبل التجزئة، ولا يمكن أن يتحقق معناه إلا باتصاله بعضه ببعض.

وأول عناصر الإيمان هو الإيمان بالله سبحانه وتعالى. وذلك باعتقاد أنه واحد أحد فرد صمد، فوق كل شىء وليس فوقه شىء، ليس كمثله شىء، منفرد وحده بالألوهية، فهو الواحد فى ذاته وصفاته، وهو الواحد فى خَلْقه وتدبيره، فهو خالق كل شىء؛ وهو القادر على كل شىء، وهو القاهر فوق عباده، وهو الواحد فى استحقاقه للعبادة، فلا يعبدُ بحق سواه.

هذه إشارات إلى معنى الإيمان بالله الرحمن الرحيم ذى الجلال والإكرام. وإن الإيمان بالله تعالى على ذلك النحو يقتضى الإيمان بأن رحمته توجب ألا يترك الناس هملا يضلون، ولا يهتدون، ولا يقومون بحق الطاعة، بل لا بد من بشير ونذير، ومن يكون رحمة للعالمين، فلا بد من الرسل يرسلهم، وكان حقا على الذين يدركون رسولا أن يؤمنوا به، فكان حقا على الذين أدركوا محمدا أن

---

(١) فى معناه ما رواه البخارى: المناقب - خاتم النبيين (٣٥٣٥)، ومسلم: الفضائل - ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين (٢٢٨٦) وغيرهما عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مَثَلِى وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِى كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ هَلا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ، قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ».

يؤمنوا به، ويكون المراد من رسوله هنا محمدا ﷺ، وذلك واضح من الإفراد ومن تكرار كلمة الرسول مقترنة بالكتاب الذى يُنَزَّل تنزيلا.

والكتاب الذى نُـزِّل على رسوله هو القرآن الـكريم، وقد ذكر التـعبـير عن نزوله بـ ﴿نَزَّلَ﴾ للإشارة إلى نزوله منجما، وأنه لم ينزل جملة واحدة، وأنه كان لا يزال ينزل وقت هذا الخطاب القدسى، ومعنى الإيمان بالكتاب الإيمان بأنه حق لا يأتيه الباطل من بين يـديه ولا من خلفه، وأنه من عند الله العلىّ الحكيم، وأنه كلامه سبحانه وتعالى. وأن كل ما فيه من أخبار صادق، وما فيه من أحكام واجبة الطاعة. وأنه حجة الله الخالدة، وأنه حبل الـله ـ تعالى ـ الممدود إلى يوم القيامة، وأنه محفوظ بحفظه، لا يعتريه تغيير ولا تبديل؛ لأن الله تعالى قد وعد بحفظه، وهو صادق،وأنه ما حاربه جبار إلا قصم الله تعالى ظهره.

والكتاب الـذى أنزل من قبل هو كتـب النبيين الســابقين التى أنزلـها الله ـ تعالى عليـهم، ومعنى الإيمان بـها التصديـق برسالات الأنبيـاء الذين ذكرهم الله تعالى، وذكـر فيها كـتبهم، وذكر بجـوارها أنها أنزلت، لأنها قـد مضت وانقطع نزولها.

وعبر عنها بالفرد دون الجمع، للإشارة إلى تصديق معناها الجامع لها، وهو أنها رســالات الله تعالى إلى أهل الأرض، وهو مـعنى لا يتغـير، بل يشـير إلى الوحدة.

وقـد يقول قـائل ما مـعنى أمر أهـل الإيمان بالإيمـان؛ ألا يكُون فى هذا تحصيل حاصل، وأمر بما هو كائن؟ لقـد أجاب المفسرون عن ذلك بأن المراد بالأمر فى قوله «آمِنوا» اثبتوا على إيمانكم واستمـروا عليه، ولا تتحولوا عنه، فالأمر أمر بالثبات والدوام.

ويصح أن نقول مع ما قاله المفسرون إن الحال التى عليها المؤمنون حال إذعان وتسليم وتصديق، والأمر بالإيمان مع هذه الحـال التى هم عليها واستنارت قلوبهم بها بيــان لأجزاء الإيمان، وأركـانه وأصوله ومعـانيه المتـلازمة، فلا يفـرقون بين

أجزائه، ولا يفرقون بين أحد من رسله سبحانه، وفى هذا الأمر بيان اتصال المسلمين بالديانات السابقة، وبيان أن الإسلام لا يهدم الأديان قبله. ولكنه يتممها. وأنه الخطوة الأخيرة فى الوحى الإلهى، وأن منْ يكفر به وقد أدركه يكفر بغيره، وإن ادعى اعتناقه، ومن يصدقه من غير إيمان بالكتب السابقة لا يكون صادقا.

وننبه هنا إلى أمر لفظى، قد أشرنا إليه، وهو أن الله تعالى عبر عن القرآن بقوله «نزَّل» وعن غيره بـ «أنزل»، لأن القرآن قد نزِّل منجما[١]، وكان لا يزال ينزل وغيره قد تم نزوله، وفى ذلك إشارة إلى طريقة نزول القرآن وأنه أمر أراده الله تعالى لمصلحة العباد، وتسهيل هدايتهم به، وتسهيل حفظ النبى ﷺ ومن معه له، ولأُنس النبى ﷺ باستمرار الوحى ينزل عليه.

وبعد أن بين سبحانه حقيقة الإيمان، ذكر ما يؤدى إليه الكفر فقال سبحانه وتعالى:

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾ أى من يجحد بالله، فلا يؤمن بوحدانيته ولا بقدرته المبدعة الخالقة ولا بحق الإذعان له، والعبودية له سبحانه وحده، ومن ينكر الملائكة، والكتب المنزلة، والرسل المرسلة واليوم الآخر، الذى ينتهى إليه أمر العباد، من يجحد ذلك الجحود، فقد حاد عن السبيل، وانحرف عن الجادة، وبُعد فى التيه بعدا كبيرا، لا يمكن معه أن يعود إلى الطريق المستقيم؛ لأنه أوغل فى الشر إيغالا شديدا، وهنا نجد عناصر خمسة يجب الإيمان بها، وهى الإيمان بالله جلَّ جلاله، والإيمان بالملائكة وهم عباده المطهرون الغائبون عنا حسنا، القريبون منا ومنهم من ينزل بوحى الله تعالى على رسله، ومن ينزل بالكتب؛ ولذلك قرن بالكفر بهم الفكر بالكتب التى ينزلها تعالى على خلقه مسجلة أحكامه وشرائعه وأوامره ونواهيه، واقترن الكفر بالرسل بالكفر بالكتب؛ لأن الرسل هم الذين يبلغونها، ويبينونها، ويدعون إليها،

(١) أى مفرقا بحسب الحوادث.

فالكتاب، ينطق بالحق ببيان الرسول ﷺ، ثم إنه يُتبع الكفر بكل ما سبق الكفر باليوم الآخر، والكفر باليوم الآخر هو طريق الضلال البعيد، الذى لا يستطيع التائه الضالّ إذا سار فيه أن يعود إلى الحق، إذ كلما أصر على الكفر باليوم الآخر ضلّ فى فهم معنى الحياة، وبذلك ينزل إلى مرتبة الحيوان الذى لا يعرف أنه موجود لغاية، وأن له نهاية هى ابتداء لحياة أفضل وأبقى، ومن ظن ألا حياة إلا هذه الحياة الفانية، فهو يلهو ويلعب، ويعيث ويفسد، ولا ينتقل من ضلال إلا إلى ضلال، لايهتدى بهدى، ولايسترشد بإرشاد.

وإن قوة الإيمان وعظمة الإذعان تكون فى الإيمان بالغيب؛ لأن المؤمن يخرج من أسر الحسِّ إلى انطلاق الروحانية، فيعلو فيها مدارج، ويسلك سبلا فجاجا.

وإن قوة الإيمان يقين ثابت مستمر، فلا هداية لمن يكون مزعزع العقيدة، مضطرب النفس يعرض له عارض فيرى نور الإيمان، ثم تعرض ظلمة فينطمس، ويستمر حائرًا بائرًا، ولذا قال سبحانه فى أصحاب هذه الحال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾ قال شيخ المفسرين ابن جرير الطبرى: إن هذه الآية واردة فى أهل الكتاب، فقال فى ذلك: «عنى بذلك أهل الكتاب الذين أقروا بحكم التوراة، ثم أقر من أقر منهم بعيسى والإنجيل، ثم كذب به بخلافه إياه، ثم كذب بمحمد ﷺ، فازداد بتكذيبه كفرا على كفره..

ومؤدَّى هذا الكلام أن هؤلاء هم أهل الكتاب الذين آمنوا بالتوراة، ثم عبدوا العجل وحرَّفوا التوراة، ثم آمنوا بالإنجيل ثم حرَّفوه وكفروا بعيسى وبالله، إذ جعلوا المسيح ابن الله، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا».

ونرى أن نص القرآن يفيد أن الذين يخبر عنهم ـ سبحانه طائفة واحدة آمنت ثم كفرت، ثم آمنت ثم كفرت، ثم ازدادت كفرا.. وما قاله ابن جرير يؤدى إلى أن يكون الكلام فى طائفتين: إحداهما اليهود والأخرى النصارى، ولذلك نرى

ترجيح قول الذين قالوا إن هذا النص فى مرضى القلوب والمنافقين الذين اضطربت عقائدهم، فهم يؤمنون أول النهار، ويكفرون آخره، فيعتريهم قبس الإيمان، فيهتدون حينا فيؤمنون، ثم تعتريهم ظلمة نفوسهم فيكفرون، ثم لا يزالون يترددون حتى تنطفىء قبسات النور من قلوبهم، وبذلك يزدادون كفرا، وذلك وصف دقيق للمترددين الحائرين، يبتدئون بحيرة مضطربة بين النور والظلمة، ثم يوغلون فى الظلام إيغالا.

وإن أولئك الذين يترددون ذلك التردد، ثم ينتهون إلى تلك النهاية الموغلة فى الكفر لا تنالهم المغفرة، ولذا قال سبحانه:

﴿لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾ هذا نفى مؤكد للغفران والهداية معا، فالله لا يغفر لهم، ولا يهديهم سبيلا مستقيما، بل هم فى حيرة مستمرة، واللام فى قوله: ﴿لِيَغْفِرَ﴾، و ﴿لِيَهْدِيَهُمْ﴾ هى اللام التى يسميها النحويون لام الجحود أى النفى المؤكد، وهى تكون بعد الفعل المشتق من الكون، ، ككان ويكون، ولتقريب معناها نضرب مثلا من عبارات الناس، فيقول بعض الناس: لم أكن لأكرمك أى لم أوجد لأكرمك، أى ليس من شأنى وحالى المستمرة استمرار وجودى أن أكرمك، ويكون معنى النص السامى على هذا ذكر ما يؤدى إليه الكفر.

وبعد أن بين سبحانه حقيقة الإيمان لم يكن من حكمته وعلمه وكمال تدبيره أن يغفر لهؤلاء، ولا أن يهديهم السبيل، والسبب فى ذلك أنه لا تتصور منهم التوبة والرجوع إلى الحق، والإنابة إلى الله، حتى تكون منهم التوبة النصوح التى تجبُّ ما قبلها من الذنوب، إذ أن التوبة تكون لمن يقع فى الذنب عن جهالة، ثم يتوب قبل أن يوغل فى الشر ويفقد معه كل عناصر، وكذلك لا يهديهم سبيلا؛ لأن الهداية تكون لمن لم يظلم قلبه، ولمن أراد الهداية، وهؤلاء لايريدونها.

فنفى الغفران، ونفى الهداية، بسبب أنهم أركسوا فى الشر، وأحاطت بهم خطيئاتهم، ولقد قال فى ذلك الزمخشرى ـ رضى الله عنه ـ: «والمعنى أن الذين

تكرر منهم الارتداد، وعهد منهم ازدياد الكفر، والإصرار عليه يستبعد منهم أن يحدثوا ما يستحقون به المغفرة ويستوجبون اللطف، من إيمان صحيح ثابت، يرضاه الله؛ لأن قلوب أولئك الذين هذا ديدنهم قلوب ضربت بالكفر، ومرنت على الردَّة، حيث كان الإيمان أهون شيء عندهم، وأدونه حيث يبدو لهم فيه كرة بعد أخرى».

اللهم هبنا إيمانا ثابتا وقلوبا مخلصة نقية من أخلاط الريب، إنك سميع الدعاء.

بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ
يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ
عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى
ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا
تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ
إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾
ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ
نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ
عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾

كانت الآيات السابقة، فى بيان الإيمان الحق الصادق، وأنه يشمل الإيمان بالرسل وكتبهم، والإيمان برسالة محمد ﷺ وكتبه، وكل ذلك فى ظل الإيمان بالله تعالى باعث الرسل ومنزل الكتب من عنده، وخالق كل شيء، ومبدع الكون. ثم كانت الآية التى وليت ذلك فى ذكر حال هؤلاء المترددين الحائرين الذين لا يستقرون على حال، وهم قسمان: قسم ضعيف الإيمان مضطرب الاعتقاد، وهؤلاء قد يؤمنون ثم يرتدون لغير غاية. والقسم الثانى يعلن الإيمان ويبطن الكفر، ويتردد مظهره بين الإيمان والكفر؛ إذ إنه مهما يطو اعتقاده فى نفسه لا بد أن يظهر على لسانه، كما قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [محمد].

وهذه الآيات فى شأن المنافقين: ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

المنافقون هم الذين خلصوا للنفاق، وأصبح الإيمان لا موضع له فى قلوبهم، وهم المنافقون فى الاعتقاد بالرسالة المحمدية؛ وذلك لأن النفاق قسمان: نفاق خالص، وهؤلاء كفار فى ذات الرسالة المحمدية، وهؤلاء كفار كما قال تعالى فى الآيات اللاحقة. والقسم الثانى نفاق ليس خالصا، وهو لا يتصل بالعقيدة، بل يتصل بالأخلاق، وهو الذى جاء ذكره فى الحديث «آية المنافق أربع: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان، وإذا خاصم فجر»[١]، وبعض الروايات ليس فيها الخصلة الرابعة[٢]. وهذا النوع هو الكثير الشائع فى عصرنا.

والتعبير بقوله: ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ ﴾ فيه نوع مجاز؛ لأن البشارة لا تكون غالبا إلا فى الخبر السار، ويقول فى ذلك الأصفهانى فى مفرداته: «وبشرته أخبرته بسار

(١) روى البخارى: الإيمان - علامة النفاق (٣٤)، ومسلم: الإيمان - بيان خصال النفاق (٥٨) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو.

(٢) عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ» [رواه البخارى: الأدب].

بسط بشرة وجهه، وذلك أن النفس إذا سرت انتشر الدم فيها انتشار الماء فى الشجر. . ويقال للخبر السار البشارة والبشرى، قال تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس]».

وقالوا إن التعبير بالبشرى فى هذا المقام، وهو إنذار المنافقين بالعذاب الأليم فيه نوع تهكم بهم؛ لأن المنافق فيه طمع وهو يريد النفع الدنيوى، أو المادى، فيقال لهم ما تنتظرونه من أمر مبشركم ويرضى مطامعكم هو عذاب شديد. مؤلم أشد الإيلام، فهو ثمرة نفاقكم، فما غرستم من غرس هو شر محض، فلا ينتج إلا شرا.

﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذه بعض أحوال المنافقين، وموقع ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ﴾ إما أنها بدل أو عطف بيان من المنافقين المذكورين فى الأولى، وإما أنها فى موضع النصب على الاختصاص، ويكون المعنى على هذا: أخص الذين يتخذون. . .

وعندى أن البدل أولى؛ لأن تلك الأحوال تعمهم، ولا تخص فريقا منهم دون فريق.

وما معنى اتخاذهم الكافرين أولياء من دون المؤمنين ـ نقول إن الذى يقرب معنى الآية الكريمة أن نقول إنهم يلتمسون النصرة والعزة والكرامة من الكافرين، ويجعلون انتماءهم إليهم لا إلى الدولة الإسلامية، ويتخذون هذا الولاء ضد المؤمنين، أى أنهم يجعلون الولاء فى الأمر الذى يكون فيه خلاف بينهم وبين المؤمنين، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أى مخالفين ومعاندين ومباعدين ولاء المسلمين، ومتجهين إلى ولاء الكافرين، ومؤدى هذا أنهم يتركون ولاء المؤمنين، للوصف اللازم لهم وهو الإيمان، ويتخذون ولاء الكافرين للوصف المميز لهم وهو الكفر، وهم بهذا يحاربون الله ورسوله، والله تعالى يقول: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة].

وإن الذين تكون أوصافهم هكذا هم كافرون.

والولاء قسمان: ولاء نصرة وانتماء، وهذا منهى عنه من المؤمنين إلا بالضرورة، وولاء مودة ومحبة، وهذا غير منهى عنه بالنسبة لغير المسلمين إلا إذا كانوا قد حاربوا الله ورسوله وخرجوا محاربين له منابذين.

وقد استنكر سبحانه وتعالى أن يكون لهؤلاء المنافقين ما يبرر هذا الولاء، ولذا قال سبحانه وتعالى:

﴿ **أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** ﴾ إن هؤلاء المنافقين تضل أفهامهم، ويطمس على مداركهم، ويفسد تفكيرهم؛ لأنهم مردوا على الابتعاد عن الحقائق والحكم على الزمان بحالهم الوقتية، ولا تنفذ عقولهم إلى ما وراء ظاهر الأمور، فهم يطلبون العزة من غيره.

والاستفهام هنا لإنكار الواقع، أى للتوبيخ على أمر وقع منهم، وهو أنهم يطلبون العزة ويريدونها إرادة شديدة راغبين فيها من الكافرين الذين لا يملكون أن يعزوا غيرهم لأنهم يعاندون الله تعالى، ولا عزة لمن يجحد ويعاند الله العزيز الحكيم. وقد أكد الله تعالى ذلك المعنى بقوله تعالت كلماته:

﴿ **فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** ﴾ أى أنه لا عزة إلا ما يكون من عند الله تعالى، ولمن يطيع أوامره، وينتهى عن نواهيه، وقد أكد الله تعالى أن العزة له وحده بعدة مؤكدات منها التوكيد بـ «إنَّ»، ومنها ذكر لفظ الجلالة، ومنها ذكر عمومها بكلمة ﴿**جَمِيعًا**﴾.

إن العزة لله وحده، فليس بعزيز من يعانده؛ إذ ليست العزة غطرسة وكبرياء، ولكنها معنى نفسى يسكن فى القلب فيحس باستعلاء على مظاهر الحياة، واستجابة لمعانيها وأولئك الذين يريدون العزة من غيرهم يبنونها على أوهام، وعلى مطامع مادية، وليست هذه العزة، إن كل استعلاء يبنى على أمر مادى، أو جاه خارجى، أو مطمع دنيوى، إنما هو وهم سرعان ما يزول، وتذل النفوس التى لا

تتمسك بالحق، فالحق فيه العزة، وهو الذى يكون من عند الله، فلا عزة إلا من الله، والذل حيث لا يريد وجه الله.

وإن أولئك المنافقين لفرط كفرهم وإيغالهم فى البعد عن الله يشاركون الذين يثيرون السخرية عند تلاوة القرآن، ولذا قال سبحانه:

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا﴾ إن المنافقين يوالون الكفار ويجعلون الولاية لهم، ويجلسون معهم مستهزئين ساخرين معاندين الله تعالى مع أنه سبحانه وتعالى نزل فى كتابه المحكم أنكم إذا سمعتم أيها المخاطبون بالحقائق الإسلامية الذين يتحدثون ساخرين بالقرآن، فلا تقعدوا بل اتركوا مجلسهم وأعرضوا عنهم حتى يخوضوا أى يتكلموا فى حديث غيره، والذى نزل فى القرآن ونهى عن الجلوس مع الذين يستهزئون بما جاء به هو فى سورة الأنعام المكية التى نزلت قبل سورة النساء المدنية، وهو قوله تعالى: **﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ (٦٨)﴾ [الأنعام]**.

والخطاب فى قوله تعالى: «عليكم» لعامة الذين يتلون القرآن الكريم من مؤمنين صادقين، ومنافقين، ومؤدى الكلام أنه من المنهى عنه أن يجلس المسلم مع مثير السخرية على آى القرآن، والمشركون يفعلون ذلك، ومع ذلك لا يكتفى المنافقون بهذا، بل إنهم يولونهم أمورهم، ويجعلون عزتهم منهم، ويكون ضمير الغيبة عائدا على الكافرين.

وبعض العلماء قال إن الخطاب للمنافقين وهو لا يخرج عن المعنى السابق.

وأرى أن الخطاب كله للمؤمنين، وفيه تحذير للمؤمنين من أن يجالسوا المنافقين إذا استهزءوا بآيات الله تعالى، وسخروا من الأحكام الإسلامية؛ لأن سماع الشر شر؛ ولأن سماع الاستهانة بالقرآن قد تؤدى إلى الاستهانة من السامع، فأول الشر سماع الشر، وإن أولئك المنافقين يبدو فى مجالسهم كلمات الكفر وكلمات الاستهزاء.

وعلى ذلك يكون ضمير الخطاب للمؤمنين وضمير الغيبة للمنافقين والكافرين.

وقد بين سبحانه أن القعود مع الأشرار، وسماع كلمات الكفر والاستهزاء، يجعل المؤمن كالكافر والمنافق، ولذا قال سبحانه:

﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ أى إنكم أيها المؤمنون إن استمعتم إلى الكفار والمنافقين وهم يعلنون الكفر بآيات الله تعالى وجحودها تكونون مثلهم فى الاستهانة بكتاب الله تعالى ورسالة الرسول الأمين، والاستهانة بالأحكام الإسلامية، وقد رأينا ذلك عيانا، فإن أولئك الذين يجالسون الفرنجة ويقرءون ما يكتبون عن الإسلام، ويثيرون السخرية على أحكامه تسرى إليهم العدوى، ولقد سمعنا بعض هؤلاء ممن يتسمى باسم إسلامى، وهو من أسرة إسلامية، يتهكم على قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ ... (١١)﴾ [النساء] فلعنه الله تعالى، ولعنة الله على كل من لا يؤمن بسلامة هذه القضية، ولعنة الله على كل من ينكر ميراث القرآن أو يهون من شأنه.

وإن الآية يستفاد منها فوائد: **أولها** أن الاستهزاء بالحقائق القرآنية لا يقدم عليه مؤمن. **وثانيها** أن الاستماع إلى الكفر بها والاستهزاء يجعل السامع كالمتكلم؛ لأن السكوت لا يخلو من رضا ولو كان جزئيا، **ثالثها** أن الشر يسرى من القائل إلى السامع كما يسرى السم فى الجسد، وكما يجرى الشيطان فى النفس.

وقد أكد سبحانه النهى عن مجالسة المنافقين بقوله تعالت كلماته:

﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ أى أنه إذا كان المنافقون يطلبون العزة من الكافرين، ويطلبون الولاء والنصرة منهم ويحاولون بذلك أن يجتمعوا على النبى ﷺ، فإن الله سبحانه وتعالى جامعهم فى الذل والهوان، لا فى العز والاستمكان، إنه جامعهم فى جهنم جميعا بلا استثناء قط؛ لأنهم تحدوا الله ورسوله، ولأنهم جحدوا بآيات الله تعالى وسخروا منها، ولأن كلمة الكفر تجمعهم وتفرقهم فى النوع لا فى الأصل. فإن الكفار قسمان: قسم أعلن الكفر

والمناوأة وأولئك أقوياء الكفار، وقسم كفر وغش وخدع، فادّعى الإسلام، وكلاهما فى جهنم وان كان المنافق فى الدرك الأسفل منها.

﴿**الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ**﴾ التربص الانتظار، فيقال تربص بمعنى انتظر، ويقال تربص به إذا انتظره مراقبا له، ففى قوله: ﴿**وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ** ﴿٢٢٨﴾﴾ [**البقرة**] يراد التربص مع مراقبة النفس، وملاحظة حال الحيض وغيرها.

وهؤلاء المنافقون عند اشتداد الشديدة، وقيام الحرب ينتظرون مراقبين المؤمنين وغيرهم، فإن كان النصر الفاتح الفاصل بين قوة الشرك وقوة أهل الإيمان بنصر الله تعالى وتأييده قالوا: نحن معكم لنا حظ فى الغنيمة ولابد أن يسهم لنا سهم فيها، وإن كان للكافرين نصيب من النصر قالوا: ألم نحطكم بحمايتنا ورعايتنا ونمنع المؤمنين من أن ينتصروا عليكم، أى أن انتصاركم كان بفضل حياطتنا ورعايتنا، فهم لطمعهم مترددون بين الفريقين كالشاة العاثرة بين غنمين، يذهبون إلى حيث المطمع العاجل، إذا احتدم القتال بين الفريقين، أما إذا كان السلم فقلوبهم وولاؤهم للكافرين دائما لأنهم منهم.

وفى النص القرآنى بعض بحوث لفظية تقرب معنى النص الكريم:

أولها ـ أنه سبحانه وتعالى عبر عن النصر فى جانب المؤمنين بأنه فتح؛ لأن الفتح فصل بين الحق والباطل، ولأنه من وراء نصر المؤمنين فتح الطريق لكى يدرك الناس الإسلام، ويدخل فيه من أراد، ولأن النصر للمؤمنين دائم، وقد عبر سبحانه عن الفتح أنه يجىء من الله وفى ذلك معنى الدوام؛ لأن الذى يجىء به هو الله القائم على كل شىء فهو باق ما بقيت الأسباب التى تتخذ للنصر.

ثانيها ـ أن الاستفهام فى قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ**﴾ معناه أننا كنا معكم مؤكدين ذلك بالاستفهام، وهو الذى يسمى الاستفهام التقريرى وهو فى أصله للنفى، وهو داخل على النفى، وهو: لم نكن معكم، فهو نفى لهذه القضية، ونفى النفى إثبات، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ**﴾.

ثالثها ـ أنه عبر عن انتصار الكافرين فى الموقعة بقوله: ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ فلم يقل أن انتصارهم فتح، ولكنه قدر من النصر قل أو كثر، ولا يمكن أن يكون فتحا؛ لأنه لا ينصر الباطل نصرا دائما، ولا يكون للكافرين نصيب من النصر إلا فى غفلة من المسلمين كما فى أُحد، ويدوم بمقدار الغفلة، فإن كانت اليقظة كان فتح الله للمؤمنين.

رابعها ـ أن كلمة استحوذ معناها أحطنا بحاذيكم أى جانبيكم وهذا كناية عن الإحاطة بهم للحماية والمنع.

﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ وإذا كانت تلك حال المنافقين، فى الدنيا وحال الكافرين فيها، فإن مآلهم إلى الله تعالى يوم القيامة، وهو الذى سيحكم بالحق وحده، ولا يستوى الذين يؤمنون والذين يكفرون، ومهما يكن من استنصار المنافقين بالكافرين، وتمالؤ الفريقين على المؤمنين، فالله سبحانه ولى المؤمنين سيقطع ما بين الفريقين، وسيكون المؤمنون فى النعيم، وأولياء الشيطان فى الجحيم.

وإنه فى الدنيا والآخرة لن يجعل الله تعالى للكافرين بوصف أنهم كافرون سبيلا أىَّ سبيلٍ للسيطرة على المؤمنين بوصف أنهم مؤمنون، وإذا كنا نرى غلبة من أهل الكفر على الذين يتسمَّوْن باسم الإسلام الآن؛ فلأنهم تخلوا عن أوامر الله تعالى للمؤمنين، وخذلوا الحق، فما كانت الغلبة من كافر على مؤمن بل كانت من كافر على مسلم تخلى عن واجب الإيمان، اللهم ارفع كلمة الحق والإيمان، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا، إنك سميع الدعاء.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى
ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا
قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ
وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ
أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾

الكلام فى المنافقين، وقد ذكر سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة علاقتهم بالمؤمنين، فذكر أنهم يتربصون بهم الدوائر، ويريدون أن ينالوا من الغنائم من غير أن يعملوا، وقلوبهم مع الكافرين.

وقد ذكر سبحانه وتعالى وصفا لأهل النفاق، وهو أنهم يظنون أن أعمالهم مستورة، وأن الناس عنهم غافلون بل إنه ليصل بهم فرط غرورهم إلى أن يظنوا أن الله تعالى لا يعلم ما يسرون وما يعلنون، ويعاملوا الناس على أساس هذه الخديعة، ولذا قال سبحانه فيهم:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ الخدع أو الخداع أن يحاول المخادع حمل الغير على تغيير اعتقاده فيه، بحيث يعتقد فيه الخير، وليس أهلا لهذا الاعتقاد، فيوهمه أن أمره على ما يحب، وهو على ما يكره، أو أن يظهر من الأفعال ما يخفى أمره، ويستر حقيقته، بغية تضليل من يعامله، وقوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ صيغة تدل على مفاعلة من الجانبين، والخداع دائما فى ذاته مفاعلة من الجانبين: خادع ومخدوع، فهو معاملة آثمة إذا لم يكن فيه خير، وخداع أهل الخير شر دائما.

وهنا نجد النص فيه عمل أهل النفاق، وهو أنهم يخادعون الله، وعمل الله تعالت قدرته عليهم، وهو أنه خادعهم، وقد تكلم العلماء فى معنى مخادعتهم لله تعالى، وكلامهم ينتهى إلى تخريجين.

أحدهما - أن معنى مخادعتهم لله تعالى أنهم يعاملون الله تعالى كأنهم يخادعونه؛ إذ يظنون أنه يخفى عليه أمرهم فيعلنون غير ما يبطنون، ويظنون أن الله تعالى لا يعلم ما فى قلوبهم، وخفايا نفوسهم؛ وذلك لأن المخادع يتوهم أن من يخادعه لا يعلم أمره، فهؤلاء لفرط جحودهم، وكفرهم بالله وجهلهم لذاته وصفاته يتوهمون أن أمورهم خافية عليه، وأنهم معه كأمرهم مع الناس، إذ يخفون ما لا يبدون.

والثانى - أن معنى مخادعتهم لله أنهم يخادعون النبى والمؤمنين؛ إذ هم أولياء الله تعالى، ومن يخادعهم كأنما يخادع الله سبحانه وتعالى، وقد وضح هذا التخريج الراغب الأصفهانى، فقال: «الخداع إنزال الغير عما هو بصدده بأمر يبديه على خلاف ما يخفيه. قال تعالى: ﴿**يُخَادِعُونَ اللَّهَ**﴾ أى يخادعون رسوله وأولياءه، ونسب ذلك إلى الله تعالى من حيث إن معاملة الرسول كمعاملته، ولذلك قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ** ﴿١٠﴾﴾ [**الفتح**]».

وجعل ذلك خداعا له تفظيعا لفعلهم وتنبيها على عظم الرسول وعظم أوليائه، وقول أهل اللغة إن هذا على حذف مضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه، فيجب أن يعلم أن المقصود بمثله فى الحذف لا يحصل لو أتى بالمضاف المحذوف لما ذكرنا من التنبيه على أمرين: أحدهما فظاعة فعلهم فيما تحروه من الخديعة، وأنهم بمخادعتهم إياه يخادعون الله، والثانى التنبيه على عظم المقصود بالخداع، وأن معاملته كمعاملة الله تعالى.

ومرمى هذا الكلام هو بيان منزلة الرسول وأولياء الله، وأن خداعهم خداع لله وهو أمر فظيع، وأن الأصل هو أن الكلام على حذف مضاف وهو الرسول والمؤمنون، وكأن نسق الكلام: يخادعون رسول الله، فحذفت كلمة الرسول،

وأقيم المضاف إليه وهو الله تعالى مقام المضاف تفظيعا لعملهم، وإعلاء لقدر الرسول والمؤمنين.

وفى الحق إن التخريجين يمكن الجمع بينهما، فهم يعاملون الله تعالى معاملة من يظنون أنهم يخادعون لعدم إيمانهم بالله، وهم يخادعون أولياءه ومن هذا الطريق أيضا يخادعون الله تعالى.

ومعنى خدع الله تعالى لهم أنهم مقابل ذلك الخداع الذى يصنعونه يجزون بجزائه، وهو ثمرة له، فمعنى خدع الله تعالى مجازاتهم على نفاقهم، ومحاولتهم خداع الرسول ومن معه.

ويصح أن يقال إن معنى خدع الله تعالى أن يرد عليهم كيدهم فى الدنيا، فيأتيهم سوء العاقبة فى الدنيا من حيث كانوا يظنون أنهم واصلون إلى مقاصدهم؛ إذ يحسبون بنفاقهم أنهم واصلون إلى غاياتهم، فيأتيهم الله تعالى من حيث لم يحتسبوا، ويظنون أنهم مجهولون، والله تعالى كاشفهم.

وهنا إشارة بيانية دقيقة، وهى أنه سبحانه وتعالى عبر عن خداعهم بصيغة تدل على المشاركة والمغالبة، وأنهم قد ينجحون وربما لا ينجحون، أما خداع الله تعالى لهم، فلم يعبر عنه بصيغة المشاركة بل عبر سبحانه بقوله: ﴿**وَهُوَ خَادِعُهُمْ**﴾ للدلالة على الغلب، وأن الله تعالى لا محالة كاشف أمرهم ومزيل مغبة خداعهم، ومحاسبهم لا محالة على ما يرتكبون.

﴿**وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ**﴾ هذه حال من أحوال المنافقين تدل على مقدار نفاقهم وتظهره، وهى أيضا من قبيل الخداع لله ولرسوله، وللمؤمنين وذلك فى الصلاة، ففى المظهر الحسى لها يقومون كسالى متثاقلين، لا نشاط يحركهم ولا إيمان يبعثهم، وهذا مظهر يريدون به إظهار الإيمان، وهو يكشف عن خبيئة أنفسهم، ولذلك جعل النبى هذا النوع من الصلاة شيمة النفاق، فقد قال ﷺ ذاما الذى صلى على هذا النحو: «تلك صلاة المنافقين، تلك صلاة

المنافقين، تلك صلاة المنافقين، يجلس أحدهم يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرنى شيطان، قام (فنقر أربعا) لا يذكر الله فيها إلا قليلا»(١).

والحقيقة النفسية فى هذه الصلاة أنهم يتوهمون بها أنهم يخدعون غيرهم، إذ إنهم يصلون هذه الصلاة ليراءوا بها، والرياء أن يقوم الشخص بالعمل الجميل فى مظهره لا لاتباع أمر الله والقيام بحق الغير عليه ونفع الناس به، بل ليخدع به الناس ويظهر بالخير ابتغاء رضاء الناس. والرياء نوع من الشرك، فقد قال ﷺ: «من صلى يرائى فقد أشرك ومن تصدق يرائى فقد أشرك»(٢).

وإن هذا النوع من الخداع مكشوف كما رأيت، فهم لا يقصدون وجه الله بصلاتهم، ولكن يقصدون ستر نفاقهم وتغطية أمرهم، ولذلك قال الله تعالى فيهم:

﴿وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أى أنهم لا يجرى ذكر الله تعالى فى قلوبهم إلا ذكرا قليلا، أو إلا وقتا قليلا لا يلبث أن يطفئه النفاق وإذا قامت فى قلوبهم شعلة من الإيمان بالله لا تلبث أن تخبو لغلبة أهوائهم؛ وذلك لأن هؤلاء المنافقين يعرفون الله تعالى، ويدركون معانى الإيمان، ولكن غلبت عليهم شِقْوتُهم، فكفروا به إذ عرفوه، ومن كانت هذه حاله يعتريه أحيانا تذكر لله تعالى وعظمته،

---

(١) رواه مسلم بلفظ مقارب بلفظ المفرد (تلك صلاة المنافق) بغير تكرار، كما رواه الترمذى، والنسائي، ورواه أبو داود، وأحمد، ومالك بنحو من الرواية المذكورة فى التفسير. أما ما رواه مسلم: المساجد ومواضع الصلاة - استحباب التبكير للعصر (٦٢٢) عَنْ الْعَلاءِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ فِي دَارِهِ بِالْبَصْرَةِ حِينَ انْصَرَفَ مِنْ الظُّهْرِ وَدَارُهُ بِجَنْبِ الْمَسْجِدِ، فَلَمَّا دَخَلْنَا عَلَيْهِ قَالَ: أَصَلَّيْتُمْ الْعَصْرَ؟ فَقُلْنَا لَهُ: إِنَّمَا انْصَرَفْنَا السَّاعَةَ مِنْ الظُّهْرِ، قَالَ: فَصَلُّوا الْعَصْرَ، فَقُمْنَا فَصَلَّيْنَا، فَلَمَّا انْصَرَفْنَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «تِلْكَ صَلاةُ الْمُنَافِقِ يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيْ الشَّيْطَانِ قَامَ فَنَقَرَهَا أَرْبَعًا لا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلا قَلِيلا».

(٢) سبق تخريجه من رواية أحمد عن شداد بن أوس.

ولكنه تذكر لا يكون معه إيمان مثمر، ولا تصديق مذعن، فلا خير فيه، ولا ثواب عليه، ولا يمدحون بذلك القدر من الذكر، الذى لا يجدى. وقوله تعالى:

﴿وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ هو حال لهم ذكرها يفيد أنهم قد طمس على قلوبهم حتى إذا جاءهم بريق من النور أطفأوه، ولا يبقونه. وهؤلاء المنافقون أمرهم عجب هم أحيانا يدعون أنهم من دولة أهل الإيمان وفى ولايتهم إن وجدوا للمؤمنين غلبا، وينتمون إلى دولة الكفر إن كان للكفر نصيب من نصر أو غَلَبَ أهل الحقد على أهل الإيمان، ولذا قال سبحانه:

﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَىٰ هَؤُلاءِ وَلا إِلَىٰ هَؤُلاءِ﴾ الذبذبة الاضطراب، ومن ذلك قول النابغة فى مدح النعمان:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أعطاكَ سُورةً ... تَرَى كُلَّ مُلْكٍ دُونها يتذبذبُ

أى يضطرب ولا يصل إليها، كذلك هؤلاء المنافقون فى اضطراب دائم مستمر، ويترددون: أيخرجون من الكفر إلى الإيمان، أم يبقون على ما هم عليه من كفران، ثم أهم يجعلون أنفسهم مع محمد وأوليائه، أم مع الذين يحاربونه من أعدائه، وقد أشرنا من قبل إلى ما رواه مسلم من قول النبى ﷺ: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير إلى هذه مرة، وإلى هذه أخرى»(١).

وهنا أمر لفظى، وهو قوله تعالى: ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ الإشارة فى الظاهر إلى المذكور آنفا، فى طى الكلام، وهو الكفر والإيمان، أو الاستنصار بأهل الإيمان والاستنصار بأعدائهم، فهم مترددون بين هذين الأمرين وهما المذكوران فى مضمون الكلام، فالإشارة إلى المذكور، وهو يتضمن أمرين متعارضين هما الالتجاء لأهل الإيمان أو البقاء مع أهل الشيطان. والتعبير بكلمة (بين) الدال على المكان الذى يكون بين أمرين مؤداه أنهم يكونون فى مكان متوسط بين الأمرين،

(١) سبق تخريجه.

وهذا التوسط معنوى، من حيث إنهم يـدركون الحق ويعرفونه، ولكن لا يدخلون فى وسط أهله، ولا يعرفون الله تعالى حق معرفته.

ويصح أن تكون الإشارة إلى الولاء، فهم مترددون فـيه، فإما أن يستنصروا بالمؤمنين ويوالوهـم، وإما أن يسـتنصـروا بالمشـركيـن، فهم فى هذا الاسـتنصـار متـرددون حائرون، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. وإنه لا سـبيل إلى هداية هؤلاء الحائرين، ولذا قال سبحانه:

﴿ **وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً** ﴾ لقد كان النبى ﷺ يتـمنى الهداية لكل الذين يدعوهم، حتى الذين ينافقون منهم، فـبين الله تعالى أن ذلك غير ممكن إلا أن يريد الله، لقد كان النبى ﷺ يستغفر للمنافقين، فبين الله تعالى أن الله لا يغفر لهم، فقال تعالى: ﴿ **اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ** (٨٠) ﴾ [التوبة]

وبهذا الحكم الثابت لن تكون لهم هداية لم يُرِدْها الله تعالى.

ومعنـى النص: ومن يكتب الله تعالى علـيه الضلال فـى سجله المحـفوظ يتـردى فى مهاوى الـرذيلة، حتى يركس فـيهـا، ويتكاثف الشر فى قلبـه، ويزيد بالخطايا فلن ينفتح باب الهداية له، ولن يشـرق عليه نور الإيمان، وبذلك لن تجد سبيلا لهدايته. وإن ما يكتبه الله تعالى إنما هو علمه المكنون الذى لا يتخلف أبدا، وهو لا يمنع إرادة الشر من مرتكبه، وإرادة الخيـر من فاعله، ونسبة الإضلال إلى الله تعالى هـى من قبيل المجـاز من حيث إنه تركه فى غـيه ولم يسـد عليه طريق الشر؛ لأنه اسـتمـرأ الرذيلة، وسار فى طريق الضـلال إلى النهاية، فكـان ضلاله بعيـدا، والله تعالى يهدى من أراد لنفـسه الخيـر، وسلك سبيل الرشـاد، فإن الله تعالى يوصله الى طريق النجاة.

وان السبب فى ضلال المنافقين الذى لا هداية معه هو اتخاذهم الكافرين أولياء، ولذا قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. النداء للمؤمنين بالبعيد ليكون التنبيه قويا، ونادى بالموصول للإشارة إلى أن الإيمان يقتضى ألا يكون ولاء المؤمن لغير المؤمنين، ومعنى النص: يأيها الذين آمنوا وحسن إيمانهم بالله، لا تتخذوا الكافرين بالله الذين لم يخلصوا له نصراء لكم تدخلون فى ولايتهم وتكونون تابعين لهم وتتركون المؤمنين، فإن ذلك لا يتفق مع الايمان، فالمراد بالولاية هنا النصرة والانتماء إلى جماعة الكافرين، وإن الولاء يطلق بمعنى المحبة، وبهذا المعنى جاء النهى عنه، وهو التبعية والنصرة، وإن هذا الأخير منهى عنه بالاتفاق، ولا يجوز من المؤمن إلا اتقاء الأذى إن تيقن الإيذاء، أما المحبة فغير منهى عنها إلا أن يكون الكافر قد انتقل إلى المحادة والعداوة، ولا يقتصر على مجرد الكفر، ولذلك قال تعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة].

وقوله تعالى: ﴿دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يشير إلى أنهم يتركون المؤمنين لينضموا إلى ولاية الكافرين، وذلك لا يسوغ من مسلم، ولذلك قال تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾.

الاستفهام للإنكار والتوبيخ إن وقع هذا منهم، وهو يتضمن التهديد لهم بتسليط مقت الله عليهم إن فعلوا فهو استفهام يتضمن إنكارا للوقوع، أى لا يقع منهم، ولا يصح أن يقع، ويتضمن التحذير والإنذار، والمعنى: إنكم إن فعلتم ذلك فقد جعلتم لله حجة فى عقابكم، وتسليط ذنوبكم عليكم وتخليه عن نصركم فإن نصر الله لا يكون إلا لمن يطلب النصرة من الله وحده، ولن ينصر الله من يستنصر بغير الله كما قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد].

وإذا كان الاستنصار بغير المؤمنين يترتب عليه هذا فهل تريدون أيها المؤمنون أن تجعلوا لله تعالى سبيلا بينا واضحا يخذلكم بسببه بعد النصرة، ويعاقبكم عليه بعد الإيمان، ويذهب شوكتكم؟ لا يسوغ ذلك منكم، فاحذروه، اللهم اجعل ولاءنا لك، ولا تجعل نصرتنا من غيرك.

إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

الحديث فى أقوال المنافقين، وشئونهم وعاقبة أمرهم لا يزال مستمرا، وهذا النص القرآنى يبين مآل المنافقين يوم القيامة، فهم فى خزى دائم فى الدنيا، وعذاب شديد مقيم فى الآخرة، وجزاؤهم هو أشد جزاء؛ لأن كفرهم أشد كفر، لأنه كفر بالله، وكذب على رسول الله، وافتراء على المؤمنين، واستغلال لإخلاص المخلصين، ومن المشركين من يصدق فى القول كما رأينا من أبى سفيان عندما سأله هرقل عن النبى ﷺ وأحواله، وليس من المنافقين من يصدق فى قول، أو يخلص فى عمل أيا كان، ولذا قال تعالى:

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ جاء فى مفردات الراغب الأصفهانى ما نصه: الدرك كالدرج، لكن الدرج يقال اعتبارا للصعود والدرك اعتبارا بالحدور، ولهذا قيل درجات الجنة، ودركات النار، ولتصور الحدور فى النار سميت هاوية وقال

تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ والدرك أقصى بر البحر، وسميت مراتب النزول دركات لأنها متداركة متتابعة . .

وإن جهنم طبقات بعضها أسفل من بعض، وإن أسفلها أقساها عذابا؛ لأنها تتكاثف عليها ما فوقها من طبقات؛ ولأن أعمق النيران أشدها توهجا، وأكثرها لهيبا.

والمعنى: إن المنافقين الذين مردوا على النفاق واستمرءوه، صار وصفا لهم يمالئون الكافرين، ويخذلون المؤمنين، ينالهم عذاب يوم القيامة على أشده، وأشده هو أعماق جهنم، وهى الهاوية التى تهوى بهم أعمالهم فيها، وإن هذا النص الكريم يفيد أن جهنم طبقات ومنازل، وأن العقاب فيها مرتب على طبقاتهم، وهى كلها عذاب أليم، وقد وصفها القرآن الكريم بأوصاف كلها تنبئ عن الشدة فى العذاب، فذكرت باسم «جهنم»، وهو ينبئ عن التردى فى النار، ووصفت بأنها «لظى»، وبأنها «الحطمة»، ثم «السعير»، ثم «سقر»، ثم «الجحيم»، ثم «الهاوية»، وقال بعض العلماء إنها مرتبة فى مقدار شدتها بهذا الترتيب، والله أعلم بما يكون يوم القيامة.

ولماذا كان المنافقون فى الدرك الأسفل فى الهاوية من العذاب؟ قد أجاب عن ذلك العلماء بأن المنافق أوغل فى فساد النفس من أى مشرك كافر، وقد جعل الله تعالى لآل فرعون الذين مالئوه وعاونوه فى طغيانه أشد العذاب، فقال سبحانه: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر].

وأولئك فى كفرهم ونفاقهم أكثر إيذاء من أى كافر سواهم، ذلك أنهم جمعوا بين الكفر، والفسق والتضليل والتغرير والكذب، وتعرُّف أسرار المؤمنين وكشفها، وإظهار عورات المسلمين فى الحروب، وإفساد لجماعة المؤمنين بإشاعة قول السوء بين المؤمنين، واستغلال ضعف الضعفاء منهم، وتوهين أمر المؤمنين بسبب ذلك الاستقلال، كل هذه جرائم متتابعة تدل على أن نفوسهم قد فسدت، وقلوبهم قد شغرت[1] من كل خير، والكافر الجاحد أقرب إلى الهداية من هؤلاء، فكان عقابهم أشد؛ لأن جرائمهم أشد.

---

(١) أى خلت.

ولكن من هو المنافق الذى يستحق أشد العقاب، ويكون فى أعمق النيران يوم القيامة؟ نقول فى الجواب عن ذلك إنه المنافق الخالص الذى لم يكن فيه خصلة أو أكثر من خصلة فقط، ولكن هو الذى كفر بالله وبالرسالة المحمدية، وأغلق باب الإيمان فى قلبه، ولم يكتف بذلك بل أظهر الإسلام ليفسد بين المسلمين ويتعرف أسرارهم.

ذلك أن النفاق درجات هذا أعلاها، وهو أشد الكفر، ودونه بعد ذلك مراتب تكون بين المسلمين، ولا تخرج المسلم عن إسلامه، وإن كانت تجعل إيمانه ضعيفا، ومن ذلك ممالأة الحكام، والسكوت عن كلمة الحق مع النطق بالباطل ملقا، وخداعا. وقيل لابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ: «ندخل على السلطان، ونتكلم بكلام فإذا خرجنا تكلمنا بخلافه، فقال ـ رضى الله عنه ـ: (كنا نعده من النفاق).

ولقد جاء فى الحديث النبوى الشريف ما يفيد أن المنافقين فريقان، فريق خلص للنفاق، وهذا منكوس القلب والنفس والفكر؛ وقسم فيه خصلة من النفاق، وهذا يتنازعه الخير والشر، ولنضىء القرطاس بنور الرسالة، فقد قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيما رواه الإمام أحمد: «القلوب أربعة قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفح، فأما القلب الأجرد، فقلب المؤمن سراجه فيه نوره، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق الخالص، عرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم، فأى المدتين غلبت على الأخرى غلبت عليه»(١).

وإننا لهذا نقول إن النفاق فى داخل الإسلام مراتب، وأعلاها أولئك الذين يتملقون الحكام، وينحدرون إلى درجة وضعهم فى مقام النبيين ومنهم من يذهب به فرط نفاقه، فيفضل بعض عملهم على عمل النبيين، وهؤلاء نتردد فى الحكم بأنهم

---

(١) أجرد: ليس فيه غش ولا خداع. أغلف: عليه غشاء من سماع الحق وقبوله. مصفَّح: ذو وجهين اجتمع فيه نفاق وإيمان. والحديث رواه أحمد: باقى مسند المكثرين- مسند أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه (١٠٧٤٥).

مسلمون، وقريب منهم الذين يتأولون النصوص من غير حجة فى التأويل ويعبثون بظواهرها القاطعة لهوى الحكام.

هذا عقاب المنافقين فى إيمانهم فى الآخرة، ولهم عقاب فى الدنيا والآخرة، ذكره سبحانه بقوله تعالى:

﴿ **وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً** ﴾ نفى الله تعالى عنهم نفيا مؤكدا، أن يكون لهم نصراء، وجعل الخطاب موجها للنبى ﷺ، وهو الذى ذاق آثار نفاقهم، وذاق المؤمنون معه مرارة ذلك النفاق؛ لأن فى ذلك تثبيتا للمؤمنين، حتى لا يتزلزل أحد منهم بعمل المنافقين الذى مردوا عليه، ولم يتراجعوا عنه،ولأنهم أرادوا بالنفاق الاستنصار بغير دولة الحق، لتفوز دولة الباطل على النبى ﷺ، فذكر الله تعالى لنبيه أنه لن يجدهم منصورين عليه أبدا لأنهم لا ناصر لهم.

وإن هؤلاء لن يكون لهم نصير يوم القيامة؛ لأنه لله وحده، ولن يجدوا نصيرا يخلص فى النصرة لهم فى الدنيا؛ لأن النفاق يسلب الثقة عنهم، فلا ينصرهم أحد ممن يستنصرون بهم، بل إنهم يستخدمون شرهم، ولا يعطونهم خيرا، وما وجدنا منافقا فى الماضى أو الحاضر يخون قومه، وينال نصرة صحيحة ممن ينافق لأجلهم، فتلك سنة الله تعالى فى المنافقين: ﴿ **وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً** ﴾.

إن الله سبحانه وتعالى ذكر المنافقين بما يدل على أنهم أُركسوا فى الشر، وطغى على قلوبهم، وأغلق باب الهداية عليهم، حتى أن رجوع المشرك عن شركه أقرب من رجوع المنافق عن نفاقه، فغلاف القلوب قد ينكشف ولكنه سبحانه مقلب القلوب، فقد تكون من المنافق توبة، ولذلك فتح الله سبحانه وتعالى بابها بقوله سبحانه فى هذا الاستثناء:

﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ** ﴾ الاستثناء هنا منقطع؛ لأن الذى يتوب التوبة النصوح لا يمكن أن يعد فى صفوف المنافقين الذين يستحقون الدرك الأسفل من النار؛ ولذا نقول إن المعنى هو: لكن الذين تابوا من النفاق وخرجوا من صفوفه يكونون مع المؤمنين، **وإن أولئك الذين يخرجون من أوكار**

النفاق، قد ذكر الله تعالى لهم أوصافا أربعة هى التى تخرجهم من زمرة المنافقين إلى جماعة المؤمنين.

أول هذه الأوصاف: التوبة، وهى التوبة النصوح، وأركانها ثلاثة- أولها إدراك لقبح العمل ثم الندم على ما كان منه ثم الإقلاع وأن يعزم على ألا يعود إليه من بعد أبدا، فإذا تحققت هذه الأركان فإن الله يفتح قلب العبد لنور الهدى، ويأخذ بيده إلى سلوك طريق الحق المستقيم.

والوصف الثانى: أن يكون التطهير القلبى له مظهر عملى ليقوى، وذلك بالإصلاح، بأن يتجهوا فى ذات أنفسهم إلى الأعمال الصالحة التى هى مظهر الإذعان والتوبة، فكل ما يكون فى النفس من درن النفاق يطهرها منها بالاستمرار على العمل الصالح ويدوم عليه، فليست التوبة، كلاما باللسان، ولكنها طهارة للوجدان، ومع إصلاح النفس وتقوية عزيمتها يتجه إلى الإصلاح فى الأرض وعدم الإفساد فيها، فلا يفسد بين الناس، ولا يغرى بالعداوة بينهم، ولا يخذل أهل الحق، وينصر أهل الباطل، فالإصلاح المطلوب يتضمن عناصر ثلاثة، تطهير النفس من أدناس النفاق كلها، فيخرجها منها كما يخرج الذهب الخالص مما اختلط به، والعنصر الثانى العمل الصالح يقوم به لذات نفسه وللناس، والثالث أن يكون بين الناس عنصر إصلاح وتوفيق، لا عنصر إغراء وتوهين للجماعة.

والوصف الثالث: الذى يلتحق به بأهل الإيمان الاعتصام بالله، والاعتصام به سبحانه هو التمسك بأوامره ونواهيه والالتجاء إلى كتابه وسنة رسوله، وهذا هو المذكور فى قوله تعالى: ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا** ﴿١٠٣﴾ ﴾ [**آل عمران**]

والاعتصام بالله يقتضى ألا يجد المؤمن ملجأ إلا فى جماعة المؤمنين، فلا يستنصر بغيرهم، ولا يجعل ولاءه لمن دونهم، فذلك شر بلايا النفاق.

الوصف الرابع: الإخلاص فى دين الله، بأن يجعل كل قلبه لله تعالى، ولا يجعل فى قلبه مكانا لغير الله تعالى، وأن يجعلوا طلبهم الدين لأجل الله تعالى لا لدنيا يصيبونها، ولا لهدف غير الإيمان يستهدفونه، فيطلبون الحق لوجهه، وينفذون كل

أوامر الدين لله، ويتحقق قول النبى ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب الشىء لا يحبه إلا لله»(١).

إذا تحققت هذه الأحوال دخلوا فى الجماعة المؤمنة، ولذا قال سبحانه:

﴿ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أى فأولئك الذين اتصفوا بهذه الأوصاف بسببها يخرجون من صفوف المنافقين إلى صفوف المؤمنين، فالإشارة فى قوله تعالى ﴿ فَأُولَئِكَ ﴾ للسابقين، وهم قد عرفوا بأوصافهم، فكانت الإشارة إليهم موصوفين بها، وكانت هذه الأوصاف هى السبب فى ارتفاعهم من دركة النفاق السفلى إلى درجة أهل الإيمان العليا، وذكر الله سبحانه وتعالى هذه المعية للمؤمنين لشرف الصحبة مع الأخيار الأبرار، بعد طلبهم النصرة من الأشرار الكفار، فهذا دليل على الرفعة فى الصحبة بعد الانخفاض فيها، كما ارتفعوا عند الله، والإشارة بالبعيد للدلالة على رفعة منزلتهم بالتوبة، وفى كل ذلك تحريض عليها وترغيب فيها فإن الله تعالى يحب توبة عبده، وهو الغفور الرحيم، العزيز الكريم.

وإنهم إذا كانوا مع المؤمنين، فإن لهم جزاءهم وقد وعد الله المؤمنين جزاء عظيما، ولذا قال سبحانه:

﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ والأجر هو الجزاء، وهنا إشارتان بيانيتان:

إحداهما ـ أن التعبير بـ «سوف» لم يكن استعماله فى القرآن، وهو أحكم الكلام للدلالة على مجرد التسويف الزمانى، بل هى لتأكيد الوقوع فى الأمر المستقبل، وكأن المعنى أنه من المؤكد أنه سينزل المؤمنون بمقام الرضا والجنات فى قابل أمرهم كما ظفروا بالرضا والنصر، والتأييد فى عاجلهم.

ثانيهما ـ تنكير الأجر إذ قال «أجرا عظيما»، فنكر الأجر ووصفه بالعظم، والتنكير هنا للتعظيم، فكأنه قد أكد عظم هذا الأجر مرتين مرة بما تضمنه معنى التنكير، ومرة أخرى بالتصريح بوصف العظم، وإن جزاء الله لعظيم أىَّ عِظَم.

---

(١) سبق تخريج ما فى معناه من حديث.

ولقد ذكر الله تعالى، أنه سبحانه يحب توبة عبده وجزاءه، ولا يرضى لعباده الكفر وعقابه، ولذا قال سبحانه:

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ الاستفهام هنا للنفى، والمعنى ما الذى يفعله الله تعالى راضيا به محبا له بعذابكم وآلامكم إن شكرتم نعمته، وأديتم حقها حق الأداء فآمنتم به، ومن الإيمان به تصديق رسله وإجابتهم وإطاعتهم؟! أى أنه سبحانه لا يفعل بكم شيئا من العذاب ولا الإيلام فى الآخرة إن كان منكم الشكر والإيمان، بل إنه سبحانه وتعالى مجازيكم شاكرا لكم توبتكم بعد الكفر، وطاعتكم بعد العصيان، ولذا قال سبحانه:

﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ أى أنه من صفات الله تعالى، وشأنه الدائم أنه مثيب الطائع، عليم بموضع طاعته، وما تخفى الصدور، فالآية ذيلت بما يدل على الثواب والنعيم لأهل الإيمان، ومن ينضم إليهم من التائبين، **وفى الآية الكريمة ثلاث إشارات بيانية:**

الأولى ـ التعبير بالاستفهام للإشارة إلى أن الله تعالى رتب الجزاء على العمل، وأنه يجب على عباده أن يعرفوا ذلك ويدركوه، وأنه ليس من المعقول مع حكمته تعالى، وكريم وعده ألا يعطى عاملا عملا طيبا جزاء عمله.

الثانية ـ تقديم الشكر على الإيمان، فى قوله تعالى: ﴿إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾.

ذلك أن الرجل الذى يتجه إلى الخير تكون نفسه مدركة للنعم التى أنعم الله بها على عباده، شاكرا لأنعمه، قادرا لها حق قدرها، فيكون ذلك سبيلا لطلب الحقيقة فيكون الإيمان، فالشكر يؤدى إلى الإيمان، والإيمان يؤدى إلى أعظم الشكر.

الثالثة ـ أن الله تعالت عظمته سمى ثواب الطائعين شكرا منه، وذلك إجلال للطاعة، وتشريف للمطيع، ومنة وفضل منه سبحانه فوق منته وفضله، وأن هذا تعليم لنا لنشكر للمحسن فضل الله، اللهم اهدنا إلى أن نشكر لك فى ضرائنا وسرائنا، إنك نعم المولى ونعم النصير.

﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾

فى الآيات السابقة كشف الله سبحانه وتعالى عن أوصاف المنافقين، وبيَّن ظواهر أحوالهم، ومجموع أمورهم، وما يرتكبون من سيئات واضحة معلمة، وما يخفون فى صدورهم من أحقاد مكنونة، وبيَّن مآل أمرهم إن استمروا فى غيِّهم يعمهون، وبيّن سبحانه وتعالى أن باب التوبة مفتوح، وأن الله تعالى لا يغلق باب الرحمة بالتوبة على أحد من عباده، ولو كانوا منافقين، فإن الله تعالى يحب التوابين، والتوبة عنده سبحانه تجبُّ ما قبلها من سيئات مهما تكن.

وفى هذا النص الكريم بين أن الجهر بالسوء من القول لا يكون إلا فى أحوال تقتضى ذلك، وقد وجد مقتضاه فى أهل النفاق، فليحترز المؤمن من الاسترسال فى الجهر بالسوء إلا عند أشد الحاجة إليه، ولذا قال سبحانه:

﴿ **لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ** ﴾ السوء هو ما يسوء الناس من أقوال وأفعال، سواء كانت الإساءة عامة أو خاصة، وسواء أكانت الإساءة إلى الإنسان أم إلى الفضيلة، فكل ما يمس المجتمع، ويترتب عليه شر وأذى، فهو من السوء، والمحبة شأن من شئون الله تعالى، لا تتشابه مع محبتنا، ولا مع ما يجرى بيننا من حب وبغض؛ لأن ذات الله تعالى منفردة بصفاته، لا تشابه ذات المخلوقين فى شىء: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴿١١﴾ ﴾ [**الشورى**].

والمحبة أكثر من الرضا، والرضا أكثر من الإرادة، فهذه كلها صفات للذات العلية مرتبة فى القوة، فالإرادة تتعلق بالخلق والتكوين، فما أراده الله تعالى يقع، وما لا يريده لا يمكن أن يقع، فلا يمكن أن يقع من أفعال الإنسان ما لا يريده رب العالمين، ولا يمكن أن يفعل الإنسان شيئا لا يريده العليم الخبير الذى لا تخفى عليه الأنفس، وما تكنّ الصدور.

أما الرضا فمعناه بالنسبة للذات العلية أن يكون العمل أو القول محل قبوله سبحانه وتعالى والمجازاة عليه، ولذلك يتصور أن يفعل العباد ما يغضبون الله به سبحانه وتعالى، وقد جاء فى القرآن الكريم عبارات سامية صريحة بأن الله تعالى يغضب على عباده لأفعال فعلوها، وأن الله تعالى لا يرضى عن بعض أفعال عباده، فلا يرضى من عباده الكفر، والرضا لا يكون إلا لأعمال المتقين وهو أعلى أنواع الثواب الذى يثيب الله تعالى به عباده، ولذلك قال سبحانه بعد ذكر نعيم الجنة: ﴿ ... **وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ** ... ﴿٧٢﴾ ﴾ [**التوبة**].

والمحبة مرتبة فوق الرضا، أو هى أبلغ الرضا، وقد وعد الله تعالى أهل الإيمان الحق الصادق بأنهم ينالون محبته، وهى أقصى درجات الرضا.

ومع أن المحبة من الناحية الإيجابية أقصى درجات الرضا، هى من الناحية السلبية، تكون فى مرتبة الغضب، فمعنى ﴿**لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ**﴾. أن الله تعالى يبغض الجهر بالكلام الذى هو سوء فى ذاته، ويسىء الناس، ويؤذى الفضيلة، فإن ذلك إعلان سيئ الأعمال، وقبيح الأقوال.

والجهر معناه النطق به فى إعلان لا خفاء فيه؛ ونشر هذا الكلام بين الناس، وإذاعته بين ربوعهم.

والمعنى الإجمالى للنص السامى أن الله تعالى يبغض الجهر بالأمر السَّيئ أو الأفعال السيئة. وكل إعلان للمنافق والفاجر من الجهر بالأمر المسىء هو من قبيل الجهر بالسوء من القول، فـ «مِنْ» هنا بيانية وهى بيان لنوع السوء بأنه من القول، وذلك يشمل كل إعلان للأعمال القبيحة، والترامى بها، فيشمل القذف والسباب وإعلان المعاصى والجرائم، وتفصيل القول فيها من غير حاجة إلى بيانها، ولا إقامة حق فى إعلانها، فإن ذلك كله من سوء القول وفاحشه.

وإن الإسلام فى سبيل تكوين رأى عام مهذب نهى عن إعلان الآثام والمفاسد الشخصية، ولقد قال النبى ﷺ: «أيها الناس من ارتكب شيئا من هذه القاذورات،

فاستتر فهو فى ستر الله، ومن أبدى صفحته أقمنا عليه الحد»[١] ويقول ﷺ: «إن من أبعد الناس عن الله منازل يوم القيامة المجاهرين، قيل: ومن هم يارسول الله؟ قال: ذلك الذى يعمل عملا بالليل قد ستره الله عليه، فيصبح يقول: فعلت كذا وكذا يكشف ستر الله»[٢].

وإن الجهر بالسوء يسهله، فتزداد الجرائم ويسهل ارتكابها لمن هو على استعداد لها، وكثيرا ما نرى الشبان يرتكبون جريمة معينة قد أخذوها من قصة أذيعت، أو نشرت، أو تردد ذكرها، فإن ذكر الشر يستهوى الشباب، خصوصا إذا قدم فى عرض منسق يحبب الاستماع إليه، فإنه يسرى فى النفوس سريان الطعام المسموم فى الأجسام.

وفوق ذلك فإن كثرة ذكر السوء والفجور يزيل استنكاره فى النفس، ويذهب بروعة الحق، وإن ذكر السوء لأهل السوء يثير عدوانهم ويجعلهم يتبجحون فى ارتكابه، ويباعد بينهم وبين الاستجابة لداعى الهدى، ذلك أن الناس إذا استتروا فى شرهم، وظنوا أن الناس لا يعلمونه كان كتمانه مسهلا لقتله فى نفوسهم، فإن أعلن وفقدوا حياءهم استمرءوا الشر وأعلنوه، وكل إعلان منهم تغليق لباب الهداية فى قلوبهم بيد أن الشر أحيانا يجب إعلانه لدفعه، إذا كان ثمة فريسة لهذا الشر، وتعدٍّ بالظلم، فإنه يجب دفعه، ولذلك ذكر سبحانه بعد أن قرر القاعدة العامة، وهى أنه لا يحب الجهر بالسوء استثناء حال الظلم فقال:

﴿**إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا**﴾ الاستثناء هنا عند بعض العلماء استثناء منقطع، فـ «إلا» هنا معناها لكن، والمعنى: لكن من ظلم له أن يجهر بالسوء لدفع

---

(١) موطأ مالك - الحدود فيمن اعترف على نفسه بالزنا (١٥٦٢) عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ أَنَّ رَجُلا اعْتَرَفَ عَلَى نَفْسِهِ بِالزِّنَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِسَوْطٍ، فَأُتِيَ بِسَوْطٍ مَكْسُورٍ فَقَالَ: «فَوْقَ هَذَا» فَأُتِيَ بِسَوْطٍ جَدِيدٍ لَمْ تُقْطَعْ ثَمَرَتُهُ فَقَالَ: «دُونَ هَذَا» فَأُتِيَ بِسَوْطٍ قَدْ رُكِبَ بِهِ وَلانَ، فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجُلِدَ ثُمَّ قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ آنَ لَكُمْ أَنْ تَنْتَهُوا عَنْ حُدُودِ اللَّهِ، مَنْ أَصَابَ مِنْ هَذِهِ الْقَاذُورَاتِ شَيْئًا فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللَّهِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يُبْدِي لَنَا صَفْحَتَهُ نُقِمْ عَلَيْهِ كِتَابَ اللَّهِ».

(٢) سبق تخريجه.

ظلمه، وحدود الجهر هو مقدار دفع الظلم، فإن أمكن دفعه بغير الجهر لا يجهر، وإن لم يمكن دفعه إلا بالجهر - جهر حتى يصل إلى حقه.

وقال بعض العلماء إن الاستثناء متصل، وتأويل الكلام أن الله تعالى لا يحب الجهر بالسوء إلا جهر من ظلم فإنه ليس بخارج عن محبة الله تعالى لأن دفع الظلم واجب ولازم، ولقد قال رسول الله ﷺ: «لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرا أو ليضربن بقلوب بعضكم بعضا، ثم تدعون فلا يستجاب لكم».

فدفع الظلم واجب، وإذا كان الجهر سبيله فهو واجب؛ لأن ما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو واجب، ولكن ما مدى الاستثناء الذى يسوغ الله سبحانه وتعالى به للمظلوم أن يجهر بالسوء، وأن يعلنه؟. نقول بالإجمال إن مداه هو منع الظالم من الاستمرار فى ظلمه وحمله على الانتهاء عن غيِّه، وإن ذلك يشمل الأحوال الآتية:

الأولى ـ أن يجهر الخصم بما ارتكب خصمه من مآثم فى حقه أمام القاضى، فإن الجهر فى هذه الحال لا يبغضه الله تعالى؛ لأنه إقامة حق، ودفع باطل، ولقد قال تعالى: ﴿ **وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ** ﴿٤١﴾ ﴾ [**الشورى**]

ولقد قال رسول الله ﷺ: «لىُّ الواجد ظلم يحل عرضه وعقوبته»(١) والمراد أن يغلظ له فى القول، ولا يقول القاضى قولا لينا إذا ثبت مُطله فى أداء الدَّين».

الثانية ـ إذا كان الحاكم ظالما، فإنه يجب توجيه اللوم الشديد إليه بالنقد من غير إسفاف، ولكن لا يقول الناقد إلا حقا، ويستر نقده، حتى يرعوى هذا من غيه وذلك إذا لم تُجدِ فيه الموعظة الحسنة، فإن كانت مجدية لا يصح الاتجاه إلى الجهر بمظالمه. ولقد قال النبى ﷺ: «أفضل المجاهدين رجل قال كلمة حق أمام سلطان جائر

---

(١) ذكره البخارى تعليقا: الاستقراض وأداء الديون - لصاحب الحق مقال، ورواه الترمذى: البيوع - مطل الغنى ظلم (٤٦٨٩)، وأبو داود: القضية - فى الحبس فى الدين وغيره (٣٦٢٨)، وابن ماجه: الأحكام - الحبس فى الدَّين والملازمة (٢٤٢٧)، وأحمد: مسند الشاميين (١٧٤٨٦) عن السويد ابن الشريد الثقفي.

فقتله»[١]، وإن ذلك من قبيل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإن نقد الفساد هو من قبيل الإنكار بالقول، وهو المرتبة الثانية من الإنكار، فقد قال ﷺ: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[٢].

الثالثة ـ الدعوة على الظالم، فإن هذه الدعوة يصح أن تكون جهرا. ومن ذلك دعوة النبى ﷺ على العرب الذين ناوءوه، فقد قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى دعائه: «اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف»[٣]. وخص ـ عليه الصلاة والسلام ـ أسماء بالدعاء عليهم، وقد أثر عن السلف الصالح الدعاء على من ظلمهم، وكان يوصى الحسن البصرى المظلوم بأن يقول فى ظالمه: «اللهم أعنى عليه، اللهم استخرج حقى منه، اللهم حل بينه وبين ما يريد من ظلمى».

الرابعة ـ أن يذكر المظلوم الظالم الذى ظلمه بالسوء فى مجالسه من غير كذب ولا بهتان، وقد روى عن بعض السلف أنهم ترخصوا فى ذلك، وأجازوا لمن شُتم أن يرد الشتم بمثله، ولكن إن افترى عليه لا يفترى لأن الكذب حرام لا يسوغه شيء، فلا تجوز المعاملة بالمثل فيه، وقد روى عن ابن عباس أنه قال: لا بأس لمن ظلم أن ينتصر ممن ظلمه بمثل ظلمه، ويجهر له بالسوء من القول. ولقد روى أن علىّ بن أبى طالب قال: (ادفعوا الحجر من حيث جاء، فإنه لا يدفع الشر إلا شر مثله).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه مسلم: الإيمان - بيان كون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من الإيمان (٤٩)، وابن ماجه: الفتن - الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (٤٠١٣)، وأحمد: باقى مسند المكثرين- مسند أبى سعيد الخدري (١١٠٦٨)، والنسائي: الإيمان وشرائعه (٥٠٠٨)، والترمذى: الفتن (٢١٧٢)، وأبو داود: الصلاة (١١٤٠).

(٣) متفق عليه؛ رواه البخارى: الأذان - يهوى بالتكبير (٨٠٤)، ومسلم: المساجد ومواضع الصلاة - استحباب القنوت فى جميع الصلاة إذا نزلت نازلة (٦٧٥). عن أبى هريرة رضى الله عنه. والحديث أطرافه فى البخارى تسعة وفى بعضها زيادة على بعض. فراجعه هنالك إن شئت.

هذه أحوال تُسوِّغ النطق بالسوء دفعا لظلم أهل السوء، وكذلك الجدل فى الحق، لا مانع من ذكر ما انغمس فيه أهل الباطل ولا يعد هذا جهرا بالسوء، بل هو كشف للسوء، وإن الأحوال التى يكون فيها دفع الظلم لا تعد على التحقيق جهرا بالسوء لمجرد الجهر، بل هى كشف للظالم، وإنهاء للظلم، ولذلك رجح بعض العلماء أن يكون الاستثناء منقطعا.

ومهما يكن من أمر الجهر بالسوء، فإن الله تعالى عليم بالبواعث، سميع لما يجهر به الجاهر، وما يحدث به نفسه، ولذلك ذيل سبحانه وتعالى النص بقوله تعالت كلماته: ﴿**وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا**﴾ أى أنه تعالى متصف بوصف السمع الكامل، والعلم المحيط الشامل، فهو سميع لما يجهر به الإنسان، وما تحدثه به نفسه، وماهو مطوىّ من خلجات وجدانه، وعليم بالبواعث التى تبعثه على المنطق، ومجازيه بقوله وعمله إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وهو عليم بكل أعمال الجوارح، وما يرتكبه العباد من خير وشر علما محيطا يليق بذاته العلية.

﴿**إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ**﴾ بعد أن ذكر سبحانه وتعالى ما لا يحبه من الجهر بالسوء وأشار إلى الترخيص بالنطق به لدفع الظلم أو للقضاء على منكر من الأفعال أو زور من الأقوال، بين سبحانه وتعالى ما يحبه من الخير الإيجابىّ والخير السلبى ويكون بالعفو، فمعنى قوله تعالى ﴿**إِن تُبْدُوا خَيْرًا**﴾ أن الله سبحانه وتعالى يحب الخير فى كل صوره، والخير هو عمل البر، والنفع الإنسانىّ العام، فإن عملتوه فإنكم تعملون ما يحبه الله، فإن تبدوه وتظهروه وتعلنوه، أو تخفوه وتكتموه، فهو مقبول مجزىٌّ عليه فى كلتا حاليه، فإن أظهرتموه للدعوة إليه، فإلى الخير تدعون، وأن أخفيتموه اتقاءً لله ومنعا للرياء. سترا على ما تعطون فنعمًّا تفعلون.

هذا فعل الخير الإيجابى، وفعل الخير السلبى هو العفو عن الإساءة، والصفح الجميل عن الناس، فإن ذلك مما يحبه تعالى. ولقد روى أحمد عن النبى ﷺ أنه قال: «ما نقص مال من صدقة، وما زاد عبد بعفو إلا عزا، ومن تواضع لله رفعه

الله»[١] وقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [**الأعراف**].

وقوله تعالى: ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا**﴾ موقعها من المعنى أنها تعليل لكلام مطوى تدل عليه إذ المؤدى: وما تفعلوا من خير وتبدوه أو تخفوه أو تعفوا عمن يسيء إليكم، فإنكم تقربون إلى الله تعالى، ويحبكم الله لأنه سبحانه عفوٌ دائما وقديرٌ على أخذ المسيء بإساءته، فتخلقوا بصفات الله تعالى، وله سبحانه المثل الأعلى.

وهنا ملاحظات ثلاث:

الأولى: أن الآية الكريمة تفيد أن إبداء الخير محبوب، فهل يدخل فى هذا الرياء؟ ونقول فى ذلك إن الفعل النافع إذا قصد به الرياء لا يكون خيرا، بل يكون شركا، فلا يدخل تحت عنوان إبداء الخير؛ لأن النبى ﷺ يقول: «من صلى يرائى فقد أشرك، ومن صام يرائى فقد أشرك، ومن تصدق يرائى فقد أشرك»[٢] فهذا فعل خارج عن نطاق الخير، فلا يلتفت إليه، إذ لا يدخل فى عمومه.

الثانية: أن العفو عن الأمر السَّيِّئ إنما يكون فى حال ما إذا كانت الإساءة تمس شخص من يعفو، وهو بهذا بذل حقا خالصا له؛ أما إذا كان الأمر السَّيِّء يتعلق بنظام فى الإسلام، فلا يصح أن يترك، بل لا بد أن يقاوم، ولا يقال لتاركه إنه عفا، بل يقال عنه إنه قصَّر وترك الواجب.

الثالثة: أن الإسلام دعا إلى الصفح الجميل، فقال الله لنبيه: ﴿... **فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ** ﴿٨٥﴾﴾ [**الحجر**] وهو الصفح من غير منّ. ولله تعالى ولرسوله المنّ والفضل.

---

(١) عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلا رَفَعَهُ اللَّهُ» رواه مسلم: البر والصلة - استحباب العفو والتواضع (٢٥٨٨)، والترمذى: البر والصلة (٢٠٢٩)، وأحمد: باقى مسند المكثرين (٨٧٨٢)، ومالك: الجامع (١٨٨٥)، والدارمى: الزكاة (١٦٧٦) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

والآية جمعت مكارم الأخلاق، وقد قال فى معناها فخر الدين الرازى: «اعلم أن معاقد الخير على كثرتها محصورة فى أمرين: صدق مع الحق، وخُلُق مع الخلق، والذى يتعلق بالخلق محصور فى قسمين: إيصال نفع إليهم، ودفع ضرر عنهم، فقوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ إشارة إلى إيصال النفع إليهم. وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ﴾ إشارة إلى دفع الضرر عنهم، فدخل فى هاتين الكلمتين جميع أنواع الخير، وأعمال البر». اهـ.

اللهم اهدنا لنفع الناس، وجنبنا ضرهم، واعف عنا فيما كان منا، واغفر لنا وارحمنا إنك غفور رحيم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ
بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ
وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ
أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ
حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ
يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾

ذكر الله سبحانه وتعالى أحوال المنافقين، وما كانوا يصنعون مع المؤمنين، وذكر سبحانه وتعالى ما تكنه نفوسهم وما هم عليه من تردد وتذبذب، ومع ذلك فتح الله سبحانه وتعالى باب التوبة لهم إن أرادوا أن يسلكوا المنهاج القويم المستقيم. ثم ذكر سبحانه وتعالى أن الجهر بالسوء إلا ممن ظلم لا يجوز، وأن إبداء الخير خير، وإخفاءه خير وأن الله تعالى مُجازٍ به. وجاءت هاتان الآيتان بين ذكر المنافقين، ثم ذكر الكافرين

من أهل الكتاب، وكثيرين من المنافقين منهم لبيان أن الجهر بالسوء لغير مصلحة لا يجوز، فإعلان سوء المنافقين كان ممن يظلمون ويتعدى إليهم شرهم، وفى هذه الآيات يبين الله تعالى حال بعض الكافرين وأسباب كفرهم، ومآلهم، وأحوال أهل الإيمان ونتائج إيمانهم فيقول سبحانه:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ ﴾

الكفر هو الجحود بالحق، والإيمان هو الإذعان له، والسير على مقتضاه، ومن يؤمن بحقيقتين متلازمتين لا تنفصل إحداهما عن الأخرى لابد أن يكون إيمانه بالحقيقتين معا، فمن كفر بإحداهما، لا يعد مؤمنا بهما لأنه لا يمكن فصل الواحدة عن الثانية، إذ اللازم يقتضى أن يوجدا معا، أو ينتفيا معا. ومن المقررات أن الإيمان بالرسالة الإلهية والإيمان بالله حقيقتان متلازمتان، فلا يمكن أن يتحقق الإيمان بالله من غير الإيمان برسله، ولا يمكن أن يتحقق الإيمان بالرسالة الإلهية إلا على وجه الكمال بأن يذعن لكل رسالة تجيء من الله تعالى.

فمن آمن ببعض النبيين وكفر ببعض آخر قامت الأدلة على نبوته لا يعد مؤمنا برسالة الله تعالى ولا يعد مؤمنا بالله تعالى؛ إذ إنه فصل الجزء الذى لا يتحقق إلا فى كل، وفصل الإيمان برسالة الله عن الله تعالى.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية صفتين لهم، ونتيجتين باطلتين: أما الوصفان فهما الكفر بالله ورسله، ومحاولتهم أن يفرقوا بين الله ورسله.

والكفر بالله تعالى هو هنا جحود رسالته الإلهية التى يبعث بها إلى خلقه؛ لأن جحود رسالة الرسل أو بعضهم مع قيام الدليل عليها جحود بالله الذى بعث بهذه الرسالة؛ لأن إنكار الرسالة الإلهية لنبى من الأنبياء عصيان لله وجحود به، وكفر بأصل الرسالات ومرسلها، إذ إن الإيمان بالله تعالى يستلزم الإيمان بأنه لم يخلق الناس سدى، والإيمان بعقابه وثوابه وحسابه والإيمان بأنه يرسل الرسل مبشرين ومنذرين، فمن أنكر رسالة رسول من الرسل فقد كفر بالله وكفر برسله؛ لأن الكفر برسول ينسحب عليه بقية الرسل، إذ إن ما ثبت من تكذيب لرسول، فقد كذب الباقين، فمن كفر بموسى فقد كفر بمحمد وإبراهيم وعيسى، وغيرهم من الرسل.

والوصف الثانى إرادتهم أن يفرقوا بين الله والرسل، بأن يعلنوا إيمانهم بالله خالق السموات والأرض، والإنكار لبعض الرسل، فإن ذلك تفريق بين الله ورسله، إذ إن علاقة الرسل بخالق السموات والأرض واحدة، ومن كفر ببعض الرسل، فإنه يفرق بين الله وأولئك الرسل الذين كفر بهم، فاليهود يفرقون بين الله ورسله؛ لأنهم لا يؤمنون بعيسى ابن مريم، ومحمد بن عبد الله، وهم بذلك يفرقون، وقد فسر بعضهم إرادتهم التفرقة بين الله ورسله أنهم يؤمنون بالله تعالى، وينكرون الرسالة الإلهية، وهو تفسير يحتمله النص، ولكنه بعيد لأن السياق يأباه.

وأما النتيجتان الباطلتان فهما قولهم نؤمن ببعض ونكفر ببعض، واتخاذهم بذلك سبيلا بين الإنكار المطلق، والإيمان الكامل، وإن ذلك القول متلازم مع الكفر بالله وبرسله إذ إن الإيمان بالله تعالى حق الإيمان، والتصديق بالرسالة الإلهية حق التصديق يستلزم، كما نوهنا الإيمان بكل الرسل؛ لأنهم جميعا أتوا بغاية واحدة، وهى إصلاح الخليقة فى ناحية رسالة كل رسول، وحثها على الجادة المستقيمة والإنذار والتبشير، ولا يصح لهذا أن يقال نؤمن ببعض الرسل ونكفر ببعض لأن الكفر بالبعض كفر بالكل، إذ هو جحود للغاية من الرسالة، وجحود بذات الرسالة.

وأما إرادتهم اتخاذ سبيل أى طريق وسط بين الإيمان الكامل بكل الرسل، والكفر الكامل بكل الرسل، فمؤداه أن يكونوا فى حال بين الإيمان والكفر. ولا شك أن هذه الحال ليست إيمانا بالله ورسله وليس بعد الإيمان إلا الكفر، فهم داخلون فى سلك الكافرين، سواء أكانوا مؤمنين بالبعض أم كافرين بالكل، ولذلك حكم الله تعالى بهذا الحكم الحاسم الفاصل ما بين الكفر والإيمان بقوله تعالى:

﴿ **أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا** ﴾ التعبير بالإشارة للإفادة إلى أن هؤلاء الذين قالوا ذلك القول، وجحدوا ذلك الجحود بسبب هذه الأقوال وتلك الأحوال كافرون كفرا لا مجال للشك فيه، وقد أكد ـ سبحانه وتعالى الحكم عليهم بالكفر بثلاثة مؤثرات:

أولها ـ الإتيان بكلمة «هم» الدالة على تأكيد الحكم، وقصرهم على الكفر وإثبات أنهم لا يخرجون عن دائرة الكفار يسارعون فيها ولا ينتقلون منها.

ثانيها ـ تعريف الطرفين وهم أولئك الجاحدون بالإشارة، والحكم بأنهم الكافرون أكد القول، وأفاد من قبيل المبالغة فى تأكيد الوصف بالكفر، كأن الكفر مقصور عليهم لا يخرج عنهم، وهم بذلك أوغل فى الكفر من الذين لا يؤمنون بكتاب ولا رسول ولا رسالة؛ إذ هم يسلِّمون بالأصل ويعرفونه، ويكفرون مع ذلك به، ولا يطبقونه.

ثالثها ـ التعبير بكلمة ﴿ **حَقًّا** ﴾، أى أن كفرهم ثابت قد ثبت وحق حقا، وقد قال الزمخشرى فى تخريج هذه الكلمة «أى هم الكاملون فى الكفر، وحقا تأكيد لمضمون الجملة كقولك هو عبد الله حقا أى حق ذلك حقا وهو كونهم كافرين، أو صفة لمصدر الكافرين، أى هم الذين كفروا كفرا حقا ثابتا يقينا لا شك فيه».

ولماذا كان ذلك التوكيد؟ والجواب عن ذلك أن التوكيد يكون حيث مظنة التردد فى عقول الذين قالوا ذلك القول، فقد حسبوا بقولهم وإرادتهم أنهم يرضونه بذلك فبين الله سبحانه أنه لا وسط بين الإيمان الكامل والكفر فى شىء، وخصوصا أن جحود هؤلاء ببعض الرسل انبعث من حقد دفين، وتفريقهم بين الأجناس، حتى فى مقام الرسالة، وقد قال تعالى: ﴿ ... **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴿١٢٤﴾ ﴾ [**الأنعام**].

وإنهم بهذا الكفر يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله؛ إذ إنها كانت فى اليهود وأشباههم الذين رفضوا محمدا، لأنه عربى، وليس بعبرى، وحيث كان التردد فى عقل وجب تأكيد الحق، ليزول التردد، ويتبع التابع عن بينة ويقين؛ وقد ذكر الله تعالى عقاب هؤلاء، وأمثالهم فقال: ﴿ **وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا** ﴾.

والمعنى هيأنا للكافرين الذين يندرجون فى جمعهم عذابا مهينا يذيقهم الهوان والذل، كفاء استكبارهم فى الدنيا، واعتزازهم بالباطل فيها، ويصح أن يقال إن كلمة (الكافرين) لا تعم كل الكفار، ولكنها تخص الذين ذكروا فى الآية السابقة؛ لأن اللفظ إذا أعيد معرفا كان المراد به المذكور أولا، ويكون تخصيصهم بالذكر، لبيان نتيجة ما ارتكبوا وما فرقوا به بين رسله سبحانه.

وهنا بحث لفظى فى لفظ «أعتدنا»، وهو تعبير قرآنى اختص القرآن به؛ لأن اعتد من العتاد، والتخريج اللفظى هيأنا لهم عتادا هو عذاب جهنم. وقد قال فى ذلك

الأصفهانى فى مفرداته: «العتاد ادخار الشىء قبل الحاجة إليه كالإعداد. وقوله تعالى: ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ قيل هو أفعلنا. وقيل أصله من أعددنا فأبدل من إحدى الدالين تاء».

وخلاصة المعنى أن هؤلاء الكافرين ادخر لهم عذابا مذلا جزاء استكبارهم.

هذا شأن الذين كفروا بالله ورسله، وفرقوا بينهم، وما يدخر لهم، ويقابلهم المؤمنون حقا وصدقا، وقال فيهم سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾.

وصف الله سبحانه وتعالى المؤمنين حقا وصدقا بوصفين: **الوصف الأول** الإيمان بالله تعالى ورسله أجمعين، لا فرق بين رسول ورسول، إذ الجميع يؤدون رسالات ربهم ويبلغونها، والثانى أنهم لم يفرقوا فى الإيمان بين رسول ورسول، بل إن الجميع فى موضع من نفوسهم، والإيمان من قلوبهم. ذلك أنه حق على المؤمن أن يؤمن بكل رسول أرسله الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) ﴾ [البقرة]

فإذا كان محمد خاتم النبيين فرسالته متممة للرسالات، وهو آخر لبنة فى صرح النبوة الإلهية.

وإذا كان المؤمنون حقا وصدقا هم الذين يذعنون لما أمر الله، ويصدقون برسالاته، ويستجيبون لدعوة رسول الله وهم يناقضون الذين فرقوا بين رسله، فجزاؤهم لذلك مختلف، ولذا قال سبحانه فى هذا الجزاء:

﴿ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ الإشارة هنا إلى الذين آمنوا الموصوفين بالصفات السابقة وتكرار ذكرهم بالإشارة للتوكيد بأن الإذعان الكامل من غير استعلاء، وجحود، وحقد، وعدم التفرقة بين الأنبياء وهو وحده الذى جعل لهم ذلك الجزاء، والأجر هنا هو الجزاء، وهى رحمة الله تعالى عليهم إذ جعل ذلك

الثواب المقيم، والنعيم الدائم، جزاء العمل، وهو أكبر من العمل، بل إن الأعمال ذاتها قد يكون فيها هفوات تستوجب الحساب ويتبعه العقاب، ولكن الله تعالى قرر فى كتابه الكريم: ﴿ ... **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** ﴿١١٤﴾ ﴾ [هود:]

ولذلك ذُيلت بقوله الآية تعالى: ﴿ **وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ للدلالة على أن ذلك الثواب هو من فضل الله وسعة رحمته، وإن ذلك لأنه متصف بالغفران الدائم والرحمة الدائمة.

وقد أكد الله سبحانه وتعالى الجزاء والثواب بالتعبير بسوف الدالة على تأكيد الفعل فى الزمن المستقبل. اللهم اغفر لنا وارحمنا فأنت خير الراحمين.

يَسْـَٔلُكَ
أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟
مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ
ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ
ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾
وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا
وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾

بين سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة أحوال بعض أهل الكتاب الذين آمنوا ببعض النبيين وكفروا ببعض، واعتبروا بهذا كافرين بالله تعالى؛ لأن من كفر برسول، فقد كفر بالرسالة الإلهية، ومن كفر برسالة الله تعالى؛ فقد كفر به، ثم بين سبحانه وتعالى حقيقة الإيمان واصفا الذين آمنوا بالله ورسوله، ولم يفرقوا بين أحد من رسله موازنا بذلك بين الإيمان والكفر فى الحقيقة وفى النتيجة، وأن الكافرين أعد الله لهم عذابا أليما، وأن المؤمنين لهم أجرهم نعيم مقيم، وغفران ورحمة، ورضوان من الله

أكبر، وفى الآيات التالية يبين الله تعالى لجاجة اليهود فى كفرهم وإعنات الرسول المبعوث لهم، ولغيرهم، وهو خاتم النبيين محمد ﷺ، ومن هذه اللجاجة ما قاله الله سبحانه وتعالى عنهم بقوله:

﴿ **يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ** ﴾ أهل الكتاب هنا هم اليهود، بدليل ما جاء فى السياق بعد ذلك من آيات، وكقوله تعالى: ﴿ **وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ** (١٥٧) ﴾ [النساء] وإن هؤلاء اليهود متعنتون، لا يسألون النبى دليلا لكون الدليل الذى قدمه، وهو القرآن الكريم غير ملزم، ولكن يتعنتون، فيطلبون إعناتا، ولجاجة فى العناد والكفر، وقد طلبوا دليلا قريبا، وهو أن ينزل عليهم كتابا من السماء.

وقد اختلف أهل التأويل من السلف الصالح، فقال بعضهم إنهم سألوا أن ينزل على النبى كتاب شامل مكتوب كما نزلت التوراة مكتوبة جملة واحدة، وقال آخرون إنهم طلبوا أن ينزل كتاب خالص فى قرطاس يدعوهم إلى الإيمان بمحمد ليكون حجة الله تعالى عليهم، وقال آخرون من السلف إنهم طلبوا أن ينزل ذلك الكتاب الداعى إلى الاستجابة الى النبى ﷺ إلى بعض كبرائهم.

والحق كما قال ابن جرير الطبرى إنهم طلبوا كل هذا، فقد طلبوا أن ينزل القرآن مكتوبا جملة واحدة كالتوراة وذلك ليشككوا فى حقيقته، وفريق آخر منهم طلب أن ينزل من السماء كتاب خاص يقرءونه داعيا لهم بالإذعان. وفريق ثالث طلب كتابا يُنزل على بعضهم، فالمطالب الثلاثة وجدت، ولو أجيبوا إلى ما طلبوا ما ضمنا إيمانهم؛ ولأن التعنت لا يقلعه شىء، وقد قام الدليل القاطع المثبت، وهو القرآن المعجز، ولقد قال تعالى فى سورة الأنعام: ﴿ **وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ** (٧) **وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ** (٨) **وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ** (٩) ﴾ [الأنعام]

فالمتعنت لا يقنعه دليل مطلقا، وإن ماضى هؤلاء الكافرين ينبىء عن حاضرهم، ولذا قال تعالى: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ إن الذين سألوا موسى من بنى إسرائيل هم الذين التقى بهم، وأخرجهم من استعباد فرعون إلى حيث الحرية والعزة.

وسياق النص القرآنى يفيد أنه منسوب إلى اليهود والذين عاصروا النبى ﷺ، فكيف ينسب إلى الخلف ما قاله السلف؟ والجواب عن ذلك أنه سبحانه ينسب القول إلى جنسهم، لا إلى آحادهم، ولا إلى طوائف منهم، وإذا نسب القول إلى الجنس جاز أن يخاطب به الحاضرون وخصوصا أن التشابه فى الجمود والتعنت قائم بين السلف والخلف، فهم يحملون مثل ما وقع من أسلافهم، وإن كان الأول أشد إعناتا؛ لأنه أكبر، ولما أفاض الله به عليهم من نعم على يد موسى عليه السلام - ولكن دأبهم الجمود، فحاضرهم كماضى أسلافهم، لا يهمهم قوة الدليل، إنما يهمهم إعنات الرسول، واتخاذ فعلات للإنكار بعد أن ثبتت على يد موسى - عليه السلام - البينات الحسية وتكاثرت، حتى وصلت إلى تسع آيات بينات، ومع ذلك طلبوا طلبا غريبا، فلم يطلبوا أن يجيئهم كتاب كما طلبوا منك، بل طلبوا أن يروا الله سبحانه وتعالى جهرة، أى بالعين، وأن يكون أمامهم معاينا، ويطلب إليهم أن يصدقوا موسى، وهو سؤال لا تتصور إجابته فى الدنيا، فالله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يرى فى الدنيا، وقد روى فى ذلك أن النبى ﷺ سئل هل رأى ربه؟ فقال «إنه نور فأنى أراه»(١) وقد عاقبهم الله سبحانه وتعالى على ذلك عقابا شديدا، ذكره بقوله سبحانه:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ الصاعقة - فسرها بعض العلماء بأنها النار التى تنزل، وهى التى يقرر علماء الكون أنها تنشأ من احتكاك سحابة موجبة بأخرى سالبة، فيتكون من احتكاكهما ذلك اللهب، وأنها أصابت هؤلاء فبُهِتُوا لها، فغشيهم من

---

(١) عَنْ أَبِى ذَرٍّ قَالَ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: «هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ»؟ قَالَ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ» [رواه مسلم: الإيمان - نور أنى أراه (١٧٨)، والترمذى: تفسير القرآن - ومن سورة النجم (٣٢٨٢)، وأحمد: مسند الأنصار - حديث أبى ذر رضى الله عنه (٢٠٨٨٤)].

الذهول ما غشيهم حتى صاروا كالموتى من عظم الإغماء الذى أصابهم، وذلك لا يعارض قوله تعالى فى أول سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [البقرة]

وقال بعضهم: الصاعقة ما يصيب الإنسان من حال يترتب عليها موته أو إغماؤه إلى درجة الموت، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ... فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزمر]

وقد قال الراغب الأصفهانى فى مفرداته. «إن الصاعقة على ثلاثة أوجه: **أولها** الموت كقوله تعالى: ﴿ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزمر]

وقوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾.

والثانى: العذاب، كقوله تعالى: ﴿ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾ [فصلت].

والثالث: أن الصاعقة هى الصوت الشديد من الجو ثم يكون منه نار، وينتهى بأن الصاعقة هى فى الأصل بهذا المعنى، ثم تكون منه الآثار فهو سبب الموت، أو يكون إنذارا».

ولذلك نرجح التوجيه الأول الذى ذكرناه وهو تفسيرها بالنار التى تجلجل بصوت رهيب مفزع، قد يترتب عليه الموت، وهو فى ذاته عذاب شديد، وقد يسأل سائل: إن الصاعقة لها سبب طبيعى، وهو احتكاك سالب بموجب، فكيف يكون عقابا أو إنذارا، أو معجزة؟ ونقول إن الأسباب الطبيعية لا تمنع الإرادة الإلهية، فالله سبحانه وتعالى سير الأكوان، وهى تحت قدرته وإرادته، فهو الذى يُسيِّر السحاب، والرياح، فإذا أراد جلت قدرته إنزال عذاب أو إنذار قوم أرسل الرياح المسخرات بأمره، فكانت منها الصاعقة أو الرعد، أو المطر الغزير الذى يكون غيثا ولا يكون غيثا، وقد صرح الله سبحانه وتعالى بأنه ينزل بالأقوام من الآفات بمقدار جرمهم وذلك لا يمنع تحقق الأسباب الطبيعية فمسير الكون هو خالقه، ومسبب الأسباب، وكل شىء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال، وقد قال تعالى فى أهل مصر عندما أيدوا فرعون فى طغيانه:

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف]

ومع هذه البينات اتخذ السابقون من بنى إسرائيل العجل معبودا، ولذا قال تعالى:

﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾ هذا النص الكريم فيه بيان إمعانهم فى الكفر والجحود، فهم بعد ما جاءتهم البينات أى الحجج المبينة للحق، المثبتة له الدامغة، وبعد أن أنقذهم الله سبحانه وتعالى من جبروت فرعون وطغيانه، واستعباده لهم، وبعد أن رأوا من الآيات ما رأوا، اتخذوا شكل العجل الذى صور من ذهب معبودا لهم، وإطلاق العجل على هذا التمثال الجامد لهم، من قبيل إطلاق اسم الشىء على شبهه فى الصورة والهيكل، فهو ليس عجلا حقيقة، ولكنه صورة، وإن اتخاذ العجل بقية من بقايا الوثنية التى كانت تستولى على قلوبهم، ففى مصر كانت عبادة البقر، وفى مصر كانت عبادة نوع من الأوثان فاستمكنت الوثنية من قلوبهم حتى نسوا عقولهم وتفكيرهم، وما آتاهم الله تعالى من عزة، وما قام عليهم من برهان، ولذلك ذكر الله تعالى عنهم أنهم قالوا اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، فقد قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف].

ولقد نبهوا إلى ضلالهم فى عبادة هيكل العجل، فتنبهوا، وتابوا، وأقلعوا عن عبادته، فعفا الله تعالى عنهم؛ لأن التوبة تجب ما قبلها، والإيمان بعد الكفر يذهب بآثار الكفر. ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنفال]

ولقد كان ذلك التمرد المتوالى مع ما آتى الله نبيه موسى من حجج باهرة قاهرة، ولذا قال سبحانه:

﴿ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴾ السلطان هو القدرة وهو السلطة وقد أعطى الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام القوة التى تدفع الباطل، وتزيل رواءه المضلل فأعطاه المعجزات الباهرات البينة الواضحة، التى تبين الحق، وأعطاه القوة التى غلب بها فرعون طاغية الدنيا فى عصره، ولهذا ألقاه فى اليم وخرج ببنى إسرائيل، وأعطاه القوة التى بها أخضع أولئك المتمردين من بنى إسرائيل على الحق، الذين تعودوا العصيان، وأعطاه القوة فأنزل عليه التوراة، وهى وحدها سلطان مبين؛ لأنها بيان الحق، والحق فى ذاته قوة، والتوراة هى ميثاق الله تعالى، وفوق ذلك أخذ الله تعالى ميثاقا بمقتضى الفطرة، وميثاقا على الطاعة، كما فى التوراة وقد قال تعالى:

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ ﴾ هؤلاء اليهود فى ماضيهم، لا يتجهون إلى الحق اتجاه المؤمن المذعن، ولكن يحملون عليه حمل الملجأ، فلا تنتظروا أيها المؤمنون بمحمد ﷺ ورسالته أنهم يستجيبون له؛ لأن ذلك لم يكن من طبعهم فهم فى ماضيهم لم ينفذوا التوراة ولم يذعنوا ويأخذوا على أنفسهم ميثاقا بتنفيذ أحكامها إلا بعد أن هُدِّدُوا تهديدا حسيا بأن العذاب واقع بهم لا محالة حسا ونظرا، فقد رفع الله تعالى فوقهم الطور، ليقدموا عهدا بالطاعة. فمعنى قوله تعالى:

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ ﴾ أى بسبب الميثاق الذى يحملون عليه حملا، وهو ميثاقهم الذى كان يجب تقديمه طوعا واختيارا، فالميثاق أخذ بعد الرفع، وإلى هذا يومىء قوله تعالى فى آية أخرى: ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [الأعراف].

فالميثاق هو أحكام التوراة، وحملهم على الخضوع المطلق لله تعالى، وطاعته فيما يأمرهم به من غير تمرد ولا عصيان، وقد صرح سبحانه بأنه أمرهم بما فيه خضوع تعبدى، لكن يتعودوا الطاعة، فذكر سبحانه وتعالى أمرين هما:

﴿ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ ﴾ ادخلوا باب المدينة مطأطئى رءوسكم بهيئة الساجدين أمارة الخضوع حسا، وهو دليل على الخضوع معنًى بالإذعان لأوامر الله تعالى، وفى الآية تصريح بالطاعة المطلقة الذى يتضمنه الأمر

بالدخول سجدا مطأطئى الرءوس فقد قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ ... ﴿٥٨﴾ ﴾ [البقرة].

ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا، وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة أى خاضعين قد ذهب عنا الكبرياء.

والمدينة أو القرية قيل هى بيت المقدس، وقيل غيرها، وقد أبهمها الله، ولم يوجد من السنة الصحيحة ما يبينها، فلنترك أمرها، ولا ينقص ذلك الهدف القرآنى من سياق هذه القصة، وهى أنهم أمروا بالطاعة المطلقة.

والأمر الثانى الذى أُمروا ـ ذكره الله تعالى بقوله ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ أى لا تتجاوزوا الحدود التى أمركم بالتزامها يوم السبت، وهى ألا تصطادوا الحيتان فى ذلك اليوم، وتكرر قوله تعالى ﴿وَقُلْنَا﴾ لبيان تأكيد الأمر ونسبته اليه سبحانه وتعالى: وقد اختبرهم سبحانه وتعالى اختبارا، فقد كانت الحيتان تأتيهم يوم السبت واضحا، وتختفى فى غيره، كما قال تعالى: ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأعراف].

﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ أخذ الله سبحانه وتعالى عهدا موثقا كامل التوثيق شديدا فى قوته وفى موضوعه وأضاف سبحانه وتعالى الأخذ إلى ذاته العلية تقوية له، وتأكيدا، فإن ذا الجلال والإكرام العليم الخبير هو الذى أخذه، وهو الذى يتولى أمرهم إن نكثوا فى أيمانهم، وأنه سيأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وغلظ الميثاق كما أشرنا فى قوة توثيقه، فقد أخذه بعد أن رفع الجبل عليهم كأنه ظلة، وأمرهم بالطاعة المطلقة، وشدته فى موضوعه، فقد كلفهم تكليفات شديدة، لإفراطهم فى الفساد، فكان السبيل لفطم نفوسهم عن الشهوات، وتربيتها على الضبط والعمل الصالح أن ينص على تحريم أمور كثيرة، ذلك أن النفس التقية تمتنع من ذاتها كثيرا من غير أوامر أو تكليف. أما النفوس المنحرفة، فتحتاج إلى النص على تحريم

الكثير مما يفعلون من غير أن ينالهم تهذيب شخصى من الضمير والوجدان وقد أشار سبحانه إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأنعام].

اللهم ارحمنا، وقنا شر الشهوات وطغيانها، إنك بكل شىء عليم.

فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾

كانت الآيات السابقة فى بيان غلظ قلوب اليهود، وعنادهم وامتناعهم عن قبول الحق، وأن حاضر اليهود فى عصر النبى ﷺ كماضيهم مع موسى ـ عليه السلام ـ يتعنتون فى طلب الدليل، ولا يهتدون إلى الحق إذا قامت عليهم البينات، حتى إنهم ليطلبون من موسى ـ عليه السلام ـ أن يريهم الله جهرة عيانا، وقد أنزل بهم من الشدائد ما يدفعهم إلى الخضوع، فنزلت بهم الصاعقة وارتفع الجبل عليهم، وقد خضعوا ولا يكادون، وأخذ عليهم الميثاق، ولكنهم لم يلبثوا أن نقضوه، وفى هذا النص الكريم يبين سبحانه وتعالى ما ارتكبوا من مظالم، وعواقب ذلك عليهم، ولذا قال تعالى:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ذكر الله تعالى فى هذه الآيات الظلم الذى وقع منهم، فذكر مظالم كثيرة لهم، فهم نقضوا الميثاق، وكفروا بالحجج والبينات وقتلوا الأنبياء، ونسبوا سبب الكفر إلى غيرهم، وكذبوا على مريم البتول، وادعوا أنهم قتلوا المسيح، وصدوا عن سبيل الله، وأكلوا الربا وقد نهوا عنه. . . إلى آخر ما كفروا به.

هؤلاء هم بنو إسرائيل، دائما ينقضون المواثيق والعهود، ولا يراعون إلا ولا ذمة، ويكفرون بآيات الله، ويقتلون الأنبياء، ويظلمون أنفسهم، فيشدد الله عليهم الأحكام، فيحرم عليهم الطيبات التى كانت مباحة لهم، وقد حقت عليهم اللعنة بخطيئاتهم التى اكتسبوها، وقولهم ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أى هى أوعية للعلوم مملوءة مغلفة، فلسنا فى حاجة إلى علم غير الذى عندنا، ولن نقبل شيئا مما تدعونا إليه يا محمد، ورغم العلم الذى وعيناه واستوعبناه فإن قلوبنا غُلف، عليها أغطية تجعلنا لا نفقه ما تقول، فأرح نفسك، وأرحنا معك، فلن نستمع إليك ولن يصل إلى قلوبنا شىء مما تدعو إليه.

﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ والحق، أن الله سبحانه وتعالى، لما رأى أنهم لا يهتدون، ولا يعطون التفاتا للدعوة، ويدرءون حجة الرسل، ويدفعون براهينهم بباطل من عندهم جزاهم على كفرهم هذا بأن طبع على قلوبهم، وختم عليها، فهم لذلك لا يهتدون سبيلا، ولا يؤمنون إلا قليلا.

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ لقد كفروا بالمسيح من قبل، وأتوا ببهتان عظيم، فاتهموا مريم العذراء البتول، بأن لها علاقة بيوسف النجار، ويوسف هذا كان أحد الصالحين من بنى إسرائيل، وقد خطب مريم، ورغب فى أن يتزوجها، وعندما ولدت المسيح عليه السلام، صدَّقها، ووثق ببراءتها وطُهرها، وبقى معها يرعاها هى وابنها، ولكن اليهود كفروا ورموا مريم ويوسف ببهتان عظيم، ونحن المسلمين نؤمن بطهارة مريم، ونؤمن بعيسى نبيا ورسولا، فويل بعد ذلك للمكذبين.

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ هذه إحدى جرائمهم الكبرى، ولكن هل قولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم يعد جريمة؛ والجواب عن ذلك أن ما يدل عليه بطريق التضمن هو جريمة، والقول ذاته جريمة؛ وذلك لأن القول يدل على أنهم أرادوا قتله، واتخذوا كل السبل لذلك، فدسوا عليه عند الرومان، وكذبوا عليه وافتروا، وحاولوا أن يسلموه ليصلب، وسلموه فى زعمهم، ولكن الله سبحانه وتعالى أنقذه بإلقاء الشبه على أحد الذين دبروا القتل، وكل هذه جرائم، ومن المقرر فقها وقانونا أن من شرع فى ارتكاب جريمة واتخذ كل الأسباب وفعل فعلها، ولكن لم تتم بأمر ليس فى إرادته يعد مجرما، وظالما يستحق العقاب فكان القول مبنيا على إجرام، ثم القول ذاته إجرام؛ لأنه تهجم بالكذب على مقام الرسول المبعوث لهم، ثم هم قالوا هذا القول، وقد قامت البينات على صدق رسالته وعلى أنه لم يمت، وقوله ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ أهى من مقول اليهود أم هى من وصف الله تعالى لمن قالوا فيه؟ يجوز الأمران، وعلى الأول يكون كلامهم فيه نوع من السخرية بالرسالة والرسول كأنهم يقولون إن الله تعالى لم يحمه منهم، وعلى الثانى يكون المعنى أنهم قالوا فيه ما قالوا، وأرادوا به ما أرادوا، وقد قامت الأدلة على أنه رسول الله، وسينزل بهم العقاب على ما فعلوا وأرادوا وقالوا:

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴿١٥٧﴾ ﴾

﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ فما ذهبت روحه ـ عليه السلام ـ بقتل أنزلوه ﴿وَمَا صَلَبُوهُ﴾. وما كان صُلِب لأنه لم يكن قُتِل، ولكن شبه الأمر عليهم، فظنوا المقتول المصلوب هو المسيح، وما كان هو، بل كان المصلوب المقتول غيره، فخيل إليهم أنه قتل وصلب، وما كان كذلك. وقد يسأل سائل: لماذا ذكر نفى الصلب بعد نفى القتل مع أن نفى القتل يقتضى ألا يكون صُلِب؛ لأن الصلب لا يكون إلا لمقتول؟ والجواب عن ذلك أن هذا تأكيد فى النفى، ولأن النصارى واليهود يدعون أنه صُلِب، فلابد من النص على نفى الصلب، ليكون ردا على هذه الدعوى، ولو اقتصر على نفى القتل ما كان التصريح برد الدعوى، ورد الدعاوى لا يكتفى فيه ما تضمن عن التصريح، ولو نفى الصلب فقط ما اقتضى نفى القتل، فكان النسق البليغ مقتضيا نفيهما معا.

وقد نسب القتل المنفى إليهم مع أن التاريخ والأناجيل تثبت أن القتل المنفى والصلب كان من حاكم الرومان، ولكن بتحريض اليهود؛ وذلك لأنهم هم الذين ألحوا فى طلب القتل حتى إن الرومانى يلقى عليهم تبعة قتله، والمحرِّض قاتل، والشاهد الكاذب قاتل، وكل متسبب يعد قاتلا، وهؤلاء قاموا بكل ذلك، فقد دبروا شهادات الزور، وحرَّضوا وتسببوا فكانوا بهذا قاتلين كفعل الجبناء، ولكن الله تعالى أنقذه منهم ومن الرومان معا.

والتشبيه لهم بأن خلق الله تعالى شبهه على أحد الذين خانوه، ودبروا القتل، وقد جاء ذلك فى إنجيل برنابا الذى عثر عليه فى خزانة أحد البابوات فى آخر القرن الخامس عشر، فقد جاء فى هذا الإنجيل الذى لا يوجد ما يدل على أنه ليس فى قوة أناجيلهم: (إن يهوذا الأسخريوطى الذى كان عينا على السيد المسيح عليه السلام قد ألقى الله تعالى عليه، شكل السيد المسيح فقبض عليه على أنه هو، فقد قال برنابا فى هذا: (الحق أقول: إن صوت يهوذا ووجهه وشخصه بلغت من الشبه بيسوع أن اعتقد تلاميذه والمؤمنون به كافة أنه يسوع، كذلك خرج بعضهم من تعاليم يسوع معتقدين أن يسوع كان نبيا كاذبا، وإنما الآيات التى فعلها

بصناعة السحر؛ لأن يسوع قال إنه لا يموت إلى وشك انقضاء العالم، لأنه سيؤخذ فى ذلك الوقت من العالم) ثم يبين أن يسوع رفع إلى السماء، ولما علم أن بعض المتبعين ضلوا طلب إلى الله تعالى أن ينزله إلى الأرض فنزل بعد ثلاثة أيام؛ ويقول برنابا: (ووبخ كثيرين ممن اعتقدوا أنه مات وقام قائلا: أتحسبوننى أنا؟! والله كافر بالله؛ لأن الله وهبنى أن أعيش حتى قبيل انقضاء العالم، كما قد قلت لكم. الحق أقول لكم أنى لم أمت، بل يهوذا الخائن، احذروا لأن الشيطان سيحاول جهده أن يخدعكم ولكن كونوا شهودى فى كل إسرائيل وفى العالم كله، لكل الأشياء التى رأيتموها وسمعتموها»[1].

ومن هذا يتبين معنى أنه خُيِّلَ لهم أنهم قتلوه، وما قتلوه، وأنهم قد اعتراهم الشك من بعد ذلك فى أمره، ولذا قال تعالى:

﴿ **وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ** ﴾ ولقد اختلف اليهود والمسيحيون فى شأن السيد المسيح، فمنهم من أنكر أنه نبى، ومنهم من زعم أن فيه عنصرا إلهيا مع العنصر الإنسانى، ومنهم من زعم أنه ابن الله تعالى وأن النبوة ليست نبوة ألوهية، إنما هى نبوة ثقة ومحبة ورحمة، ومنهم من قال إن الذى ولدته مريم هو العنصر الإنسانى، وفاض عليه من بعد العنصر الإلهى، ومنهم من قال إن مريم ولدت العنصرين، ومنهم من قال إن كلام عيسى وإرادته هى من العنصر الإنسانى، ومنهم من قال إن الإرادة وليدة العنصرين.
وهكذا كان الاختلاف، وكل كون طائفة وحزبا، كما قال تعالى: ﴿ **ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ** ﴾ إلى أن قال تعالى: ﴿ **فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾** ﴾ [مريم].

ولا يزالون يختلفون حول حقيقة المسيح وصلبه، ومع أن اليهود هم الذين سعوا بلا ريب لقتله، ولكن ردهم الله تعالى على أعقابهم خاسرين، وأبطل الله مكرهم وكيدهم، مع هذا تجد الآن المجمع المسكونى المسيحى قام باقتراح قسيس

(١) كتاب محاضرات فى النصرانية للإمام أبو زهرة.

ألمانى يدرس تبرئة اليهود من دم المسيح، وأيد ذلك الزعم كبير أساقفة إنجلترا وهم بذلك يضربون بنصوص أنـاجيلهم عُرض الحائط، وإن هذا مصـداق لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ فهم فى ريب دائم، ولا يؤمنون بشىء مما يقولون ويزعـمون، وما هم يتبـعون الا الظن، فيظنون ويتوهمـون، ثم يحكمون بالظن والوهم.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أكد الله سبحانه وتعـالى نفى قتل السيد المسيح الذى حاوله اليهود، فـقال تعالت كلماته: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾.

وهنا تأويلان لكلمة ﴿يَقِينًا﴾ ـ التأويل الأول: أنها وصف لمحذوف، والمعنى وما قتلوه قتـلا قد استيقنوا به وتأكدوه، وهذا فيـه ترشيح للاختلاف والشك الذى اعتراهم. التأويل الثانى: أنها تأكيد للنفى، والمعنى وما قتلوه حقا وصدقا، فاليقين منصب على النفى، أى أن نفى كونه قتل أمر مسـتيقن مؤكد، وليس ظنا كظنكم، ولا وهما كوهمكم.

وقوله تعالى ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ إضراب بيـانى فيـه رد لزعمهـم القتل، والمعنى بل إنه لم يقتل، وأن الله رفـعه إليه، وظاهر القول أن الرفع كـان بجسده وروحه، لا بروحه فقط، وبهذا جاء التفسـير المأثور، وعليه أكثر المفسرين، وأيدته السنة، وإن كـانت أخبار آحـاد، وقد فـسر بعض العلمـاء الرفع بأنه رفع الروح، وأخذوا ذلك من قـوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران]. فبمـقتضى النسق الظاهر يكون الرفع عـقب الوفاة. وقد ذيل الله سبـحانه وتعالى الآية بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

وفيـه وصف الله تعالى الدائم بأنه العـزيز الرفيع الجناب الذى لا يلجـأ إليه أحد إلا أعـزه، وأعلى قدره، وحماه، كـما فعل مع ابن مـريم وغيره من أنبـيائه عليهم السلام، وهو الحكيم الذى يضع الأمور فى مواضعها.

﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾

«إن» هنا النافية، والمعنى ما من أحد من أهل الكتاب اليهود أو النصارى، أو بعبارة أدق الذين يسمون أنفسهم نصارى أو مسيحيين إلا ليؤمنن به حق الإيمان، ويخضعون حق الخضوع قبل موته ـ عليه السلام ـ، فالضمير فى موته يعود إلى المسيح ـ عليه السلام ـ، وهذا يسير على أن عيسى سيعود، ويحكم بشريعة النبى ﷺ، ويؤمن به أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وهناك تخريج آخر، وهو أن الضمير فى (موته) يعود إلى أحد المطوية فى الكلام ومقدرة، والمعنى ما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى عند موت أى كتابى؛ لأنه عند حشرجة الموت يتنبه الشخص لما أنكر وجحد، فيؤمن، كما كانت حال فرعون إذ قال عندما أدركه الغرق: آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل. وإن عيسى ـ عليه السلام ـ سيكون شهيدا بالحق يوم الحق يشهد على اليهود بما كفروا به، ويشهد على الذين يقولون إنهم نصارى، وأنهم كفروا بـه فادعوا أنه إله أو ابن الله، وأن كلامهم فى هذا باطل، وأنه عبد الله ورسوله.

وهنا نريد أن نشير الى موقف الإسلام، ومن يقولون أنهم نصارى ـ من المسيح عليه السلام: هم يقولون أنه قتل وصلب ليطهر الخليقة من ذنب أبيهم آدم، وأن الله اختار ابنه ليكون فداء، وأما الإسلام فإنه يقول أن الله نجاه، ورفعه إلى المنازل العليا.

ولا نريد أن نقول إنهم يرمون الله تعالى بالجهل إذ سكت أزمانا طويلة ـ حتى بدا له أن يجعل ابنه فداء، ولا نريد أن نقول إن العنصر الإلهى كيف حل فى مريم البتول، ولا نريد أن نقول إن الله عفا عن آدم، وإن لم يعف فإن العقاب يكون عليه ولا يكون على غيره، لا نريد أن نقول إن هذا كله مخالف لكل معقول، ولكن نقول كيف يتصور أن يكون الفداء للخليقة بإنزال ابنه إلى الأرض ليقتله بعض ذرية آدم الذى عصى؟!! إن المعقول أن يكونوا قد أضافوا إلى قولهم جريمة أخرى هى قتل ابن الله بل إنها جريمة أشد وأنكى، وإذا قيل لهم ذلك

القول قالوا إن الدين له منطق غير منطق العقل. ولكن عيسى ابن مريم، الحق فيه ما قاله القرآن ولكنهم يمترون. ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ [الإخلاص]

•

فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟
حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
كَثِيرًا ۝١٦٠ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ
بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٦١ لَّٰكِنِ
ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ
أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ
وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٦٢

في قلوبهم قسوة، وفي نفوسهم جفوة، وعقولهم غُلْف لا تنفتح للحق، ولا تذعن له، ظهرت آياته وقامت بيناته، أتتهم آيات الحق والمعجزات فكذبوا بها وطلبوا غيرها، وقالوا أرنا الله جهرة، ورأوا الجبل يعلو عليهم، فقبلوا ميثاق الإيمان، ثم نقضوه، وقتلوا بعض الأنبياء لغلظ قلوبهم، وانطماسها، وغفلتها عن الحق، ورموا مريم البتول ببهتان وكذب، ومحاولتهم قتل عيسى ابن مريم رسول الله، وافتخارهم لقتله وما قتلوه، فهذه مظالم تتلوها مظالم، ولا بد من تربية نفوسهم على الحق، وتهذيبها لتذعن له، والنفس الشرهة الشرسة لا يهذبها إلا الحرمان أبدا، عسى أن تنقشع عنها غياهب المادة فترى، ولذا قال سبحانه:

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ الظلم هنا خاص بالكفر الذى ذكرته الآيات سابقا، كفروا بمواثيق الله، ولم يذعنوا للحق، إذعانا

ظاهرا إلا بعد تهديد غليظ، ثم نقضوا ما عاهدوا الله تعالى عليه وقتلوا الأنبياء وكذبوا على الأبرياء.

فالظلم إذن هو هذا الكفر الذى أوغلوا فيه إيغالا. ولا شك أن ما جاء بعد ذلك ظلم بين، فالصد عن سبيل الله ظلم، وأخذهم الربا ظلم، وأكلهم أموال الناس بالباطل ظلم، وكل واحدة من هذه الجرائم التى أركسوا فيها ظلم وذنب، ولذلك صح أن تذكر كل واحدة منها منفردة، وإن كانت تدخل فى عموم كلمة ظلم. ولكن عند اجتماعها مع هذه الجرائم تخصص كل كلمة بما ذكر أولا أنهم ارتكبوه، ودل على غلظ أكبادهم وقسوة قلوبهم، وكفرهم الصريح وهو أشد أنواع الظلم، وإن الشرك لظلم عظيم.

وقد ذكر سبحانه وتعالى العقوبة بقوله تعالى:

﴿ **حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا** ﴾ هذا هو حكم الله تعالى الذى قرره تهذيبا وتأديبا لهم، وفطما لنفوسهم عن الشهوات، ولقلوبهم التى استغرقتها المادة، والنفوس إذا فطمت تتهذب، وقد تذهب قسوتها. حرم الله سبحانه وتعالى أمورا كانت حلالا لهم، وهى بتكوينها من الطيبات التى أحلها الله تعالى، وليست من الخبائث التى يحرمها الله تعالى، فهى فى أصل تكوينها طيبات من شأنها الحل، ولكن حرم بعضها عليهم تهذيبا وتربية لكى تذهب عن قلوبهم بعض القسوة، وبعض الأنانية التى استولت عليها، والتنكير فى قوله تعالى: «طيبات» فيه إشارة إلى أنه لم تحرم كل الطيبات، بل بعض منها، وقد بينه سبحانه وتعالى بقوله تعالى: ﴿ **وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦)** ﴾ [الأنعام].

وإنه يلاحظ أن هذه المحرمات من الطيبات من شأن الإكثار منها أن يوجد شحما فى الجسم واسترخاء، وحيث كان الجسم كذلك تضعف الهمة، وحيث ضعفت الهمة، كانت محبة المادة، والكسب الرخيص، وطلب من غير الله، وقد

كانوا كذلك، وقد كانوا لا همة لهم إلا فى الكسب الرخيص ولا همة لهم فى دفع اعتداء، فقد كانوا يقولون لموسى: ﴿ **فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ** ﴿٢٤﴾ ﴾ [**المائدة**]، وهمتهم الكبرى فى الإيذاء لخمول قلوبهم بقدر خمول أجسامهم.

وكان فى فطمهم عن الشحوم، وما يزيد البدن ترهلا، تهذيبا لنفوسهم، وتقوية لأبدانهم، وفتح باب الهمة العليا لهم.

ومن المظالم التى ارتكبوها صدهم أنفسهم عن طريق الحق، وصدهم غيرهم ومنع غير اليهود من أن يدخلوا فى ديانة موسى، ولذا قال سبحانه: ﴿**وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا**﴾ أى صدا كثيرا فى ذاته أو صدا لناس كثيرين.

وقد ذكر سبحانه وتعالى بقية الأسباب التى أوجبت ذلك التحريم فقال:

﴿**وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ**﴾ كان الظلم الأول موضعه القلب والاعتقاد، وما ينبعث من أفعال شاذة فيها اعتداء على رسل الله تعالى وأنبيائه، فالاعتداء فيها كان على جنب الله تعالى والفساد كان فى القلوب، وفى الأعمال التى تتعلق بها. أما الظلم هنا فهو واقع على العباد.

ذلك أن ضعف همتهم فى الكسب، وعدم الاتجاه إلى العمل المثمر المنتج جعلهم يتجهون إلى الكسب الفاسد غير المنتج وذلك بالربا، وأكل مال الناس بالباطل، فأما الربا، وهو الزيادة فى نظير الزيادة فى الأجل فهو كسب الخبيث، وغير منطقى، لأنه كسب بالنقد، والنقد لا يلد النقد كما قال أرسطو، وهو كسب بالانتظار فالزمن هو العامل فيه، والكسب بالانتظار عمل الكسالى الجبناء؛ لأنه يجيئهم من غير عمل، ومن غير تعرض للخسارة وهو فى الغالب نوع من البطالة، ويؤدى إلى القمار والمراهنات، ولذلك تقترن هذه الآفات الاجتماعية بالتعامل بالربا، وتكون فى أكثر أحوالها ممن يتعاملون به، حيث لا مخاطرة كالتى تكون فى التجارة أو الزراعة. ويندر أن تجد يهوديا فى أى بلد من البلاد يشتغل

بالزراعة، ولكنهم يتخذون لأنفسهم صفة الوسطاء التى لا تحتاج إلى همة، ولا تحتاج إلى شجاعة.

وحيث كانت المعاملات اليهودية كان معها أكل أموال الناس بغير الحق الذى فيه أخذ وعطاء، ونفع وانتفاع، بل تكون معاملاتهم قائمة على الاحتكار، والرشوة كيفما كانت تسميتها، وكيفما كانت صفتها، والمخادعات والاحتيال، والنصب الماهر المستور، وغير ذلك من التعامل الذى لا شرف فيه.

وقد بين سبحانه وتعالى عقابهم بقوله:

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أى بسبب هذه المظالم فى الدنيا لا يكتفى بحرمانهم الجزئى فيها، بل لابد للكافرين من عقاب شديد مؤلم فى الآخرة، وقد ذكر وصف الإيلام فى العذاب، للإشارة إلى أنهم إن كانوا يتمتعون فى الدنيا كما تتمتع الأنعام، ويرتعون كما ترتع، فذلك إلى أمد قصير.

إن أولئك الماديين الذين فسدت ضمائرهم وضعفت عقائدهم، وأصبحوا لا يؤمنون إلا بالدنيا، ويقولون إن هى إلا حياتنا الدنيا نلهو ونلعب وما نحن بمبعوثين.. يكون منهم دائما الاستهانة بحقوق غيرهم وينشرون اللهو والعبث والمجون، وتكون الدنيا متعتهم وتكون هذه المتعة غايتهم، ومطلبهم، فلا يذكرون أن وراء هذه المتعة آلاما، ووراءها عذاب أليم، فليذكروا ذلك، وإن ربك لبالمرصاد.

وليسوا جميعا على هذا النحو، ولذلك قال فى العقاب للكافرين منهم، فكل طائفة فيهم الخير والشر، واليهود مع ما كانوا عليه فى الماضى كان منهم المؤمنون، وإن كانوا قليلا، ولذا قال سبحانه:

﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾.

الراسخون فى العلم هم الذين أدركوا حقائقه وصدقوها، وأذعنوا لها، وثبتت فى قلوبهم ثباتا لا يكون معه ريب يزعزعه أو شبهة تفسده، أو هوى يعبث به، وقد

قال الراغب فى مفرداته فى معنى الرسوخ: «رسوخ الشىء ثباته ثباتا متمكنا، ورسخ الغدير نضب ماؤه، ورسخ تحت الأرض، والراسخ فى العلم المتحقق فيه الذى لا يعرضه شبهة، فالراسخون فى العلم هم الموصوفون بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات]، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾.

وإن الله سبحانه وتعالى الحكم العدل تكون أحكامه على مقتضى عدله، فهؤلاء اليهود، وإن كثر جحودهم فيهم العلماء المحققون الراسخون، وإن كانوا مختفين فى لجة من جحود اليهود، هؤلاء الراسخون فى العلم الدينى، والعلم برسالته، وسائر رسائل النبيين هم والمؤمنون سواء، فهم يعتقدون كل ما يعتقده المؤمنون من صدق رسالة النبى محمد ﷺ، وصدق سائر الرسالات الإلهية.

وهؤلاء قد ضموا إلى صفوف المؤمنين، بل إنهم صاروا منهم، وإنما ذُكروا كأنهم صنف قائم، باعتبار أنهم من اليهود، ولم يكونوا كالمنحرفين البارزين، وهؤلاء اليهود لم يكفروا بموسى كما لم يكفر سائر المؤمنين بموسى، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ أى أنهم يؤمنون بالرسالة المحمدية وكتابها ورسالات الرسل السابقة وكتبها، فأولئك الراسخون فى العلم من بنى إسرائيل هم والمؤمنون لم يخرجوا على موسى، بل آمنوا به أوثق إيمان؛ لأنهم آمنوا بالرسالات كلها.

وقد يقول قائل: إن الله تعالى ذمَّ اليهود عمومًا، ثم خصَّ الراسخين بالثناء، فلم كان التعميم ثم التخصيص؟ والجواب عن ذلك أن أولئك الراسخين لم يكونوا هم الظاهرين منهم، بل كان الشر هو الطافح على سطحهم، فكان من أجل وصفهم عموما بالشر؛ لأن الجماعة توصف بالشر إذا اختفى الخير فيها، ثم كان الظاهر هو الشر، وكان من إنصاف الله تعالى أن ذكر أولئك العلماء المغمورين فى وسط جماعة الأشرار، وبين حقيقتهم، وانضمامهم إلى جماعة المؤمنين.

هذه حقيقة المؤمنين ومن معهم من الراسخين فى العلم من أهل الكتاب، ثم بين من بعد أعمالهم، وإيمانهم بالغيب، فقال:

﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ ذكر فى هذا النص الكريم أعظم أعمال الخير التى يقوم بها المؤمن الصادق فى إيمانه، وهى قسمان: عبادة هى تطهير النفس وتهذيبها، وهى الصلاة، فإن إقامة الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتهذب الضمير. والصلاة عمود الدين، ولب اليقين، وتهذيب الوجدان، وتجعل المؤمن يألف ويؤلف، وتصرفه إلى الخير، ولذلك ذكرت على سبيل التخصيص ونصبت حيث الظاهر، لتقدير فعل يدل على الاختصاص، والمعنى أَخُصُّ الصلاة بالذكر؛ لأنها ذكر الله تعالى الأكبر، وبذكر الله تطمئن القلوب، وتصفو النفوس وتهذب الضمائر.

والقسم الثانى: عبادة هى معونة اجتماعية للمؤمنين، فهى عطاء بنية العبادة، وهى تومئ إلى التعاون بين المؤمنين، بحيث يعين القوى الضعيف، والغنى الفقير، وكل امرئ فى حاجة أخيه وعونه كما قال عليه الصلاة والسلام: «الله فى عون العبد، مادام العبد فى عونه أخيه»[1]، وكل امرئ مهما يكن يحتاج إلى غيره فى ناحية، ويمد الغير بالحاجة من ناحية أخرى.

وقد ذكر سبحانه وتعالى بعد ذلك لب اليقين، ونور الايمان وما يكون الرسوخ فى العلم والعقيدة؛ فقال سبحانه:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ فالايمان بالله جل جلاله، وإدراك معنى صفاته، والإذعان له، واعتقاد أنه فوق كل الوجود وما فيه وأنه القاهر فوق عباده،

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم: الذكر والدعاء - فضل الاجتماع على تلاوة القرآن (٢٦٩٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه، والترمذى: الحدود - ما جاء فى الستر على المسلم (١٤٢٥)، وأبو داود: الأدب - فى المعونة للمسلم (٤٩٤٦)، وابن ماجه: المقدمة - فضل العلم (٢٢٥)، وأحمد: باقى مسند المكثرين (٧٣٧٩)، وابن ماجه: القراءات - ما جاء فى نزول القرآن على سبعة أحرف (٢٩٤٥).

ذلك الإيمان بضعف كل شيء، وأنه لا قادر حق القدرة سواه - هو الذى يتربى به القلب فيؤمن، والجوارح فتذعن، والنفوس فتصفو.

والإيمان باليوم الآخر هو إيمان بالغيب، وهو أخص عناصر الإيمان، وهو الذى يجعل المؤمن يعرف حقيقة الدنيا، ويصبر على سرائها وضرائها، ولا تذهب نفسه حسرات عند الحرمان، ولا يطغى ويغتر عندما يعطيه، ويعلم أنه مجزى بالصبر، محاسب على ما أنعم الله تعالى به عليه.

وقد بين سبحانه من بعد ذلك جزاء هؤلاء المؤمنين، فقال تعالت كلماته:

﴿**أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ أى أولئك الذين نالوا هذه الخصال كلها، فآمنوا بكل الأنبياء وتهذبت ضمائرهم بالصلاة، وتعاونوا فيما بينهم بالزكاة، وآمنوا بالله تعالى حق الإيمان، وصدقوا البعث والنشور، وصبروا فى السراء والضراء، هؤلاء المتصفون بتلك الصفات يستحقون بسببها جزاء عظيما.

وقدأكد ذلك الجزاء بثلاثة مؤكدات:

أولها ـ «السين» فى قوله ﴿**سَنُؤْتِيهِمْ**﴾؛ لأنها لتأكيد الوقوع فى المستقبل.

وثانيها ـ إسناد العطاء إلى الله تعالى القادر على كل شيء، وهو لا يخلف الميعاد.

ثالثها ـ تنكير الأجر، ووصفه بالعظمة، فهو أجر عظيم لا يجرى فى خيال البشر، ويعلمه خالق البشر.

اللهم اجعلنا ممن تغفر لهم، فينالون رضاك يا رب العالمين.

۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾

الآيات السابقات بينت أحوال القلوب إذا أظلمت، والنفوس إذا انحرفت وعصت أمر ربها، وجعل حال بنى إسرائيل فى ماضيهم وحاضرهم مثلا واضحا بينا، فقد مالت قلوبهم عن الحق بعد أن جاءتهم البينات، وما من آية أتتهم لتزيدهم إيمانا إلا ازدادوا بها كفرانا، وما تركوا جريمة إلا ارتكبوها باسم أنهم أبناء الله تعالى وأحباؤه، ومع ذلك الزعم يقتلون أنبياء الله ويعصون الآخرين من رسله، وهم يعاملون محمدا ﷺ بما عاملوا به من سبقه من الأنبياء، غدروا بعد أن عاهدهم ووفى لهم، وحاولوا قتله غدرا، واشتركوا مع أعدائه لقهره، ولكن الله تعالى منعه منهم، ومكنه من رقابهم.

وبعد أن ذكر سبحانه ما يدل على شدة جحودهم، أشار سبحانه إلى أنه لا يلتفت إليهم، وأنه ليس بدعا من الرسل، بل هو كمال السلسلة من النبوة التى

اختارها الله تعالى من البشر، لتكون حجة الله تعالى إلى يوم القيامة: فقال عز من قائل: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾.

هذا النص مربوط فى المعنى بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ ... ﴿١٥٣﴾﴾ [النساء].

وقد قالوا غير ذلك فى آية أخرى فأنكروا الرسالة الإلهية جملة من بعد موسى، وقالوا: ﴿... مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ... ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام] مبالغة فى إنكار رسالة النبى ﷺ، ففى هذه الآيات وما إليها بيان بوحى الله تعالى إلى النبى ﷺ وأنه مثل بقية الرسل، فما كان بدعا من الرسل، بل هو فى تلقى رسالة الله كسائر الرسل. ولذا قال تعالى:

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ والوحى فى الأصل الإعلام الخفى، والإشارة والإيماء، والإلهام، وغير ذلك من المعانى التى تدل على أنه إعلام خاص، لا يكون بطريق الإعلام الظاهر، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴿٥١﴾﴾ [الشورى] فالوحى على هذا نوع من خطاب الله تعالى لرسله ويقابله الكلام من وراء حجاب، وإرسال ملك من الملائكة بالخطاب.

والوحى هنا يعم الأنواع الثلاثة من كلام الله تعالى لرسله، كما يدل السياق على ذلك.

والكلام سيق لبيان المشابهة والمشاكلة بين وحى الله تعالى لنبيه الكريم الذى هو آخر لبنة فى صرح النبوة والرسائل الإلهية، وبين الوحى للرسل السابقين، وقد أكد سبحانه وتعالى المشابهة بنسبة الإيحاء إليه، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، وبـ «إنَّ» المؤكدة، فقال: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾.

وقد ابتدأ سبحانه وتعالى بذكر نوح ـ عليه السلام ـ، لأنه الأب الثانى للخليقة، ولأنه أول نبى معروف فى القرآن بعد أبى البشر، ولأن فى ذكره معنى

التهديد للذين يجحدون ويحاربون الرسالة الإلهية: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح]

فذكره تذكير بتهديده، واستجابة الله تعالى لدعائه. وقد ذكر سبحانه وتعالى نبيين من بعده فى الزمان الطويل الذى كان بينه وبين إبراهيم أبى الأنبياء من بعده، ثم قال سبحانه وتعالى من بعد:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ﴾ وقد ذكر سبحانه وتعالى كلمة «وأوحينا» لتأكيد الإيحاء، وللإشارة إلى وجود فترة زمنية طويلة بين نوح عليه السلام وإبراهيم، فإن التكرار فى الذكر إيحاء الى التباعد فى الزمن؛ ولأن هنا مفارقة بين الأنبياء الذين جاءوا بعد نوح، والمذكورين، لأن أولئك جميعا من ذرية إبراهيم وإن تفاوتت مراتبهم، واختلفت أماكنهم.

وإن القارىء يلاحظ أمرين:

أولهما ـ أن كل نبى من هؤلاء الذين ذكرهم الله تعالى فى هذا النص الكريم يختص بصفة؛ فإبراهيم أبو الأنبياء، وإسماعيل أبو العرب، وإسحق أبو أنبياء بنى إسرائيل ومثله يعقوب، وقد اختص بالصبر على فراق ولده، وحبيبه، والأسباط، وهم أولاد يعقوب ـ عليه السلام ـ جمع سبط، وهو ولد الولد ـ مثل للغيرة البشرية تعترى الشباب فى فورته وحدته، ثم يثوب إلى رشده بعد أن يكتمل عقله، وتكتمل نفسه، وقد أوحى الله تعالى إليهم، وبلغوا مرتبة الأصفياء المهديين، ولعل الوحى إليهم كان من قبيل الإلهام، لأنه لم يكن لهم رسالات بشرائع خاصة، وعيسى عليه السلام كان روحانيا فى حياته كلها، ولد من غير أب، وعاش طول حياته يدعو إلى الروح، والخروج من سلطان المادة، فله بين الأنبياء خواصه، وهو من البشر الذين خلقهم الله تعالى آية للعالمين، وأيوب عليه السلام له صفة الصبر على المرض الأليم، وقد قال تعالى فيه: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ

رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء]. ويونس عليه السلام إذ تخلى عنه الصبر فهذبه ربه فى الدنيا، ثم صار من المخلصين وقد قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الصافات].

وقد ختم سبحانه ذلك الفريق من النبيين بذكر داود فقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ أى كما أعطينا داود كتابا خاصا هو الزبور، والقراءة المشهورة بفتح الزاى، وقراءة حمزة بضمها أى «زبورا»(١)، وعلى الأول يكون معنى زبورا بمعنى الزبور أى المكتوب، وعلى الضم يكون جمعا لزبر بكسر الزاى، والزبر هو الشيء المكتوب، وعلى أى القراءتين فالمعنى أعطيناه كتابا مكتوبا يقرأ ويرتل.

ويظهر أن كتاب الزبور لم يكن فيه بيان للأحكام؛ لأن التوراة كانت شرائعها هى النظام المتبع، بل هو حِكَمٌ ومَوَاعِظ، وقد قال فيه القرطبى: «الزبور كتاب داود، وكان مائة وخمسين سورة ليس فيها حكم ولا حلال ولا حرام، وإنما هى حكم ومواعظ».

ولقد أعطى الله سبحانه وتعالى داود صفتين تبدوان بين الناس متعارضتين، إحداهما ـ أنه كان رجل حرب وجلاد، ورجل حكم وفصل بين الناس. والثانية ـ أنه كان طيب النفس متواضعا متطامنا، فكان لا يأكل إلا من عمل يده، ولذلك كان مثلا للنبوة التى تحكم وترشد وتتواضع وتقود الجيوش، وهو الذى كان تحت يده كل خزائن ملكه، ويعف عن أن يمد يده إليه، ويأكل من عمل يده، كما قال النبى ﷺ فى بيان حاله: «إن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده»(٢) فهو

---

(١) قرأها بالضم حمزة وخلف وقرأ الباقون بالفتح. غاية الاختصار برقم (٧٩٥).

(٢) رواه البخارى: البيوع - كسب الرجل وعمله بيده (٢٠٧٣)، وأحمد: باقى مسند المكثرين (٢٧٣٧٧) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

النبى الملك القائد الذى أدخل نفسه فى زمرة العمال؛ إذ كان لا يأكل إلا من عمل يده.

﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ هذا بيان إجمالى يقرر أن الله تعالى أرسل رسلا كثيرة، قد قص بعضهم على النبى ﷺ، والآخر لم يقصه، والقص تتبع الأثر يقال قصصت أثره، ثم أطلق على الأخبار المتتابعة، ونرى هنا أن (قَصَّ) متعدية، مفعولها المذكور من أخبارهم، والمعنى على هذا فى النص تتبعنا آثارهم وأخبارهم التى يكون فى ذكرها عبرة لأولى الألباب، وليكون ضرب الأمثال للنبى ﷺ فى صبرهم، وإيذاء أقوامهم لهم، وإن الرسل الذين قصهم الله تعالى على نبيه من قبل كان فى السور المكية، فإنها مملوءة بأخبارهم وفيه ذكرى النبوات الأولى السابقة على نبوة النبى ﷺ. وإن أكثر هؤلاء الذين قص الله تعالى أخبارهم ممن كانوا فى البلاد العربية أو يجاورونها، أو كانت له صلة بالنبى ﷺ فى نسب، أو كان الذين يدَّعون اتباعهم يجادلون النبى ﷺ، ويمارون فى دعوته.

وليست النبوة مقصورة فى هؤلاء، إنما هناك نبوات ورسالات أخرى كانت فى الأمم البعيدة مثل الصين والهند، وغيرها من الأراضى التى سكنها أقوام كثيرون، وليس لنا إلا أن نفرض أن رسلا بعثوا إلى هؤلاء الأقوام؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة] ولا شك أن تركهم من غير نبى مبعوث ترك لهم سدى، وذلك ما نفى الله تعالى فى استنكار أن يقع، وقد قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر].

ولذلك قال تعالى فى هذا النص الكريم الذى نتكلم فى معناه ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ﴾ ونصبت «رسلا» على الاشتغال أى نصبت بفعل قد تضمن معناه الفعل الذى ولى المنصوب، والمعنى قصصنا رسلا من قبل: ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ﴾ ويكون الابتداء بذكر الرسل والاهتمام بهم لأنهم المقصودون، وأخبارهم وقصصهم جاء تبعا لهم وختم الله النص بقوله تعالى:

﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً ﴾ هذا تخصيص لموسى عليه السلام بالذكر، ولم يذكر فى ضمن من ذكروا من السابقين؛ وذلك لأنه هو الذى نزلت عليه التوراة التى كانت شريعة لمن جاء بعده، ولأن اليهود الذين جحدوا بآيات الله كانوا يدَّعون الأخذ بشريعته، ولأنه نزل به اختبار شديد بسبب بنى إسرائيل الذين كانوا محل رسالته، وأخيرا لأنه اختص من بين المذكورين بأن الله تعالى كلمه، وقد جاء الصريح بأنه كلمه فى هذا النص، وفى غيره ومن ذلك قوله تعالى فى أول سورة طه: ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ [طه].

وإن هذا يدل على أن الله تعالى متصف بصفة الكلام، والمعتزلة من الفرق الإسلامية ينكرون نسبة صفة الكلام لله تعالى، ويذهب فرط غلو بعضهم إلى أن يفسروا قوله تعالى ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً ﴾ بأنه كَلَّم من الكَلْم لا من الكلام، أى أن الله تعالى اختبر موسى ـ عليه السلام ـ اختبارات شديدة كانت كالكلام والجروح وتلك مغالاة فى تفسير القرآن الكريم بالمذهبية، وقد أنكره الزمخشرى - وهو منهم - وسماه من بدع التفاسير. والحق أن كَلَّم من الكلام، وقد أكد تكليم الله تعالى لموسى بالمصدر، والظاهر من الكلام إذا أكد، كان غير قابل للمجاز ولا للتأويل، وأنه يجب تفسير القرآن بظواهره، وخصوصا الظواهر المؤكدة ولا تطغى الآراء المذهبية على المعانى القرآنية، فالقرآن منبع الحق، ونور المتقين.

﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ فى هذا النص الكريم بيان لعمل الرسل، والحكمة من بعثهم، وقد أرسل هؤلاء مبينين الحق داعين إليه، يبشرون الطائعين بحسن العاقبة فى الدنيا والآخرة، وينذرون العاصين بسوء العقبى، وإن واتاهم نفع فى الدنيا، فالعذاب الأليم يستقبلهم فى الآخرة.

وكان بعث الرسل لكى يكون الذين يعصون على علم بما يستقبلهم والذين يطيعون على بينة بأوامر ربهم ويكون الذين يعذبون ليس لهم عذر من جهل،

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾. أى لكى يسقط كل اعتذار للعصاة فى عصيانهم بعد البيان الحكيم والإرشاد المبين فمن ضل فعن بينة، والله سبحانه برحمته وفضله ومنه يسمى ذلك حجة عليه. ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء].

وقد قال المعتزلة: إن لله دائما الحجة على خلقه بالعقل الذى أودعه خالقهم، وهو هاد مرشد، ولكن إرسال الرسل رحمة من الله تعالى، ولذا قال الزمخشرى فى تفسير النص: الرسل منبهون من الغفلة وباعثون على النظر كما يرى علماء أهل العدل والتوحيد (أى المعتزلة) مع تبليغ ما حملوه من تفصيل أمور الدين، وبيان أحوال التكليف، وتعليم الشرائع فكان إرسالهم إزاحة للعلة وتتميما لإلزام الحجة لئلا يقولوا لولا أرسلت إلينا رسولا فيوقظنا من سنة الغفلة وينبهنا لما وجب الانتباه له.

والحق أن الناس لا يهتدون فى جملتهم إلى الشرائع الصحيحة، بل هم بعدها مراتب منهم من يهتدون بمجرد بيان الحق، ومنهم من لا يقنعون إلا بالبرهان الملزم، ومنهم من لا يطيعون الا بالتهديد ومنهم عصاة جائرون بائرون.

وقد ختم سبحانه الآية بقوله ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أى أنه القادر الغالب على كل شىء وهو الحكيم، الذى يدبر الأمر بحكمته وعزته.

﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ جحد أهل الكتاب وكفروا برسالة النبى ﷺ وطلبوا اليه أن يأتى بشهادة من عند الله، وعينوا الشهادة بأن تكون كتابا كما قال تعالى ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ... ﴿١٥٣﴾﴾ [النساء] فرد سبحانه وتعالى عليهم بقوله تعالى ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ فالاستدراك هنا عن مستدرك من كلامهم وجحودهم، فالمعنى إذا كانوا لا يقرون بالحق، ويذعنون له، فالله تعالى شاهد بالحق وأى بينة أجل من بيان الله تعالى تلزم المنكرين أنى يكونون، والشهادة هى قول الحق المبنى على اليقين القاطع، وشهادة الله أقوى وثيقة فى هذا الوجود،

وكانت شهادته بالإعجاز فى القرآن المحكم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وقد أنزله الله تعالى بعلمه، وإرادته وحكمته، فهو حجة النبى ﷺ وشهادة الله تعالى بالصدق. وشهادة الملائكة تبع لشهادة الله تعالى، وشهادتهم تكون يوم القيامة، يوم الحساب والعقاب، فشهادة الله تعالى للنبى وعليهم، وشهادة الملائكة عليهم يوم الحساب والعقاب.

وقد ختم سبحانه وتعالى الآية بقوله ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أى أنه لا عبرة بإنكار المنكرين بعد شهادة الله تعالى، ففيها عزة الحق وخفض الباطل، ولم تذكر هنا شهادة الملائكة لأنها تبع لشهادة الله تعالى، وفى ذكر المتبوع غناء عن التابع، والله سبحانه وتعالى على كل شىء شهيد.

إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا
﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا
لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ
وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾

فى الآيات السابقة كان الكلام فى أحوال اليهود، وسائر الكافرين، وبين سبحانه كيف كانت تأتيهم المعجزات القاهرة، والبينات الباهرة، ومع ذلك يستمرون فى إنكارهم، ويلجون فى عنادهم، ويطلبون آيات أخرى، والمآل الكفران، حتى إن بعضهم فى الماضى ليسألون موسى أن يريهم الله جهرة، وبعضهم فى عصر نزول آية يطلب آية أخرى، والنبى يتحداهم بالقرآن أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله ولو مفتراة، وهو يجادلهم بالتى هى أحسن. وقد بين سبحانه أنه تعالى أرسل الرسل ليقيم الحجة، ويختار من عباده للرسالة من يشاء،

وإنكارهم لا يجديهم ولا يهديهم، ولا ينجيهم، بل إن العقاب يوم القيامة يترقبهم، وإنهم بقدر لجاجتهم فى الإنكار يبتعدون عن طريق الهداية، وأوغلوا فى طريق الغواية، حتى يصلوا فى طريق جهنم إلى نهايته، وأنهم لخالدون فيها، وقد قال سبحانه وتعالى:

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالاً بَعِيداً** ﴾ «صدَّ» يستعمل متعديا، ومصدره «الصد»، وقد تستعمل كلمة «صَدَّ» لازما، ويكون مصدرها الصدود، وقد جاء فى مفردات الأصفهانى معنى الصد: «الصد والصدود قد يكونان انصرافا عن الشيء، وامتناعا، نحو ﴿ **يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً** ﴿٦١﴾ ﴾ [**النساء**]، وقد يكون صدا ومنعا نحو: ﴿ **وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ** ﴿٢٤﴾ ﴾ [**النمل**] ونحو: ﴿ **الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴿١﴾ ﴾ [**محمد**] وكما قال تعالى: ﴿ **وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ** ﴿٨٧﴾ ﴾ [**القصص**]».

والصد هنا فى هذا النص الكريم بمعنى التعدى، فمعنى النص السامى، إن الذين جحدوا بالحق إذ جاءهم ولا يكتفون بانصرافهم عن الإذعان والإيمان، بل يصدون غيرهم، ويمنعونهم من الحق بإثارة الشبهات، وإيقاد الفتن بين المؤمنين، يوغلون فى الضلال، ويسيرون فى طريقه سيرا بعيدا..

ويتضمن ذلك المعنى أمورا:

أولها ـ أن الكفر بطبيعته انصراف عن الحق وصدود عن طريقه، ولذلك فسرنا كلمة ﴿ **وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ بمعنى منع غيرهم من سلوك الأقوم والهادى إلى الحق الذى لا ريب فيه، وإن الذى يصد غيره قد ابتدأ بصد نفسه، فالمضل لغيره هو فى ذات نفسه ضال، فإن الإضلال من ثمرات الضلال، ولا يضل الناس إلا ضال، وقد ضل مرتين إحداهما بإنكاره للحق، والثانية بمحاولته إضلال غيره.

وثانيها ـ أن الضلال البعد عن الطريق المستقيم فمن ضل فقد بعد عن الحق، ومن أضل غيره فقد بعد عن الحق بمقدار أوسع، وهكذا كلما سار فى التضليل،

وفتنة المهتدين، وإيذائهم وإثارة الشبهات بينهم فهو يسير موغلا فى البعد عن الطريق المستقيم، وهذا معنى قوله قد ضلوا ضلالا بعيدا.

ثالثها ـ أن قوله تعالى ﴿**قَدْ ضَلُّوا ضَلالاً بَعِيداً**﴾ فيه استعارة تمثيلية؛ لأن فيه تشبيه حال الذين يمعنون فى الغى والفساد وإنكار الحقائق عندما يلحفون فى الإنكار، وإثارة الشبه بحال الذين يسيرون فى بيداء، وقد ضلوا الطريق، وساروا على غير هدى، فكلما ساروا بعدوا عن الجادة، وكان سيرهم ضلالا بعيدا لا يهتدون من بعد، إذ لا يجدون من يهديهم إلى سواء الصراط.

الأمر الرابع ـ أن النفس البشرية قد هداها الله تعالى النجدين طريق الحق، وطريق الباطل، وألهمها فجورها وتقواها، فإذا اتجهت إلى الخير سارت فيه، وكلما كثرت خيراتها زاد فضلها، وإذا انحرفت عن الطريق السوى، أو سارت فيه، فإذا نبهت من قريب عادت إلى الفطرة والحق، وأمامها الأمارات والعلامات المبينة المرشدة، وإذا لم تنتبه من قريب، سارت فى الشر، وبمقدار سيرها تأخذ أمارات الحق تختفى أمامها، حتى تنطمس فلا ترى. ولذلك لا يكون ثمة أمل فى العودة إلى الجادة، لأنه قد اختفت فى النفس أمارات الحق، وانطفأ نوره ولذا قال سبحانه:

﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا**﴾ الظلم هنا ظلم النفس وظلم الغير، وأولئك الذين كفروا ولجوا فى كفرهم، واسترسلوا فى جحودهم قد ظلموا أنفسهم بأن أبعدوها عن طريق الهداية وطمسوا نور الحق فيها وارتكبوا من المآثم ما ترددوا به فى مهاوى الرذيلة. وظلموا غيرهم بأن أثاروا الشبهات ليضلوهم، وأوقعوا بهم الأذى ليفتنوهم، والوصفان لطائفة واحدة من الناس، فهم اتصفوا بالجحود المطلق، والظلم، وهى الطائفة الموصوفة بالأوصاف السابقة، فالأوصاف الأولى كانت الكفر، والصد عن طريق الحق، والأوصاف الثانية هى الكفر والظلم، فالكفر مشترك، والاختلاف فى الصد، والظلم، وهما متلاقيان، لأن الإعراض عن الحق ظلم للنفس ومنع الغير من الحق ظلم له، كما

أن الأذى والفتنة فى الدين ظلـم لا ريب فيه؛ لأنه تضييـق على حرية الاعتـقاد، وإكراه فى الدين ولا ظلم أبلغ من سلب الحرية الدينية، وإرهاق المؤمن فى إيمانه.

وإن الذين يوغلـون فى الجحـود والظلم لا ترجى لهـم توبة، وإذا كـانت توبتهم لا ترتجى، فالغفران لهم لا يرجى؛ لأن الغفـران نتيجة التوبة من الجاحدين الظالمين، ومـا كانت التـوبة للذين يعملون السـيئـات، وتستـغرق نفـوسهم، ولا يتجهون إلى الله قط، ولذلك قال تعالى: ﴿**لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ**﴾ اللام فى قوله تعالى: ﴿**لِيَغْفِرَ لَهُمْ**﴾ هى التى تسمى فى اصطلاح النحويين لام الجحود، أى لام النفى المطلق، أى النفى الذى يكون ناشئا عن طبيـعة موضوعة، وعلى ذلك يكون المعنى لم يكن من حكمـة الله تعالى، وتدبيـره الحكيم أن يغفر لـهم؛ لأن حالهم تنفى الغفران إذ تـنفى سببه، وهو الإقلاع عن الكفـر والظلم، والندم على ما وقع منهم، وإذا كان ذلك لا يتحقق، فالنفى المؤكد، والجحود المطلق لاستحقاق المغفرة مؤكد، إذ لا يقابل جحودهم بالله إلا جـحود الغفران لهم، وإن الهداية إلى الحق تبتدئ بالاتجاه السليم إلى طلبه، والسير فى طريقه المستقيم، وأولئك الذين أوغلوا فى الشر وساروا فى طريقه، أو غابوا فـى صحرائه وبعدوا عن الجادة لا يمكن أن يهديهم الله تعالى إلى الطريق المستـقيم، لأنهم بعدوا عنه بعدا شديدا، ولا يمكن أن يسمعوا نداء الحق؛ لأنه لا يصل إليهم صوته، وقد اختفت من قلوبهم أماراته، فهداية الله تعالى إنما تكون لمن لم يبـعد عن طريق الخير، ولا تكون إلا إذا اتجهت النفوس إلى طلبـه، ولـم تحط بها الخطايا ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ (١١)**﴾ [**الرعد**].

والآية الكريمة تتضمن بيان حقائق:

الأولى ـ أن الظلم وإرهاق النفس بالإكـراه أشد الموبقات التى توبق أعـمال العبيد، وترهقهم، وإن ظلم العباد لا يغفره الله تعالى إلا إذا عفا الذين وقع الظلم عليهم، ولذلك ذكر امتناع الغفران مقرونا بالظلم، ومسببا له، وثمرة مترتبة عليه.

والثانية ـ أن هداية الله تعالى تكون للنفس الصالحة لقبولها، فهى استجابة من الله تعالى لمن يطلبها، ولا يطلبها من أركس فى الشر إركاسا، فمن طلب الهداية نالها، ومن تنكب سبيلها سلب الله تعالى عنه هدايته.

الثالثة ـ أن التوبة أساس الغفران، والتوبة ندم على الذنب، وإقلاع عنه، واعتزام على عدم العودة.

﴿ **إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا** ﴾ الاستثناء هنا من ختام الآية السابقة، أى أن الله تعالى لا يوصلهم إلى طريق إلا طريق جهنم، ويكون معنى الهداية التوصيل، وليس التوصيل إلى جهنم فيه نوع من الهداية، بل هو التردى فى الهاوية، وكان التعبير عن الهداية من قبيل المشاكلة اللفظية، وفيه نوع من التهكم فى مثل قوله تعالى: ﴿ **فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** (٢٤) ﴾ [**الانشقاق**].

وفى الكلام تنبيه إلى أن أعمالهم تنتهى بهم لا محالة إلى جهنم، وعذابها الشديد، فإذا كانوا ممن يظنون أنفسهم فى سعادة فى الدنيا، فسيجدون الألم الشديد، ﴿ **ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** (٣) ﴾ [**الحجر**].

وقد ذكر سبحانه أنهم خالدون فى جهنم أبدا، فأكد سبحانه العذاب بأنه عذاب خالد دائم، فوصفهم بأنهم خالدون على وجه التأبيد، وقد وصفهم بالخلود الدائم فى العذاب ولم يصف العذاب، للإشارة إلى أنهم متلبسون به ولتصوير الآلام التى تنزل بهم، وأنهم لإخلاص لهم منها، بل هى ملازمة لهم ملازمة الوصف للموصوف.

وقد قال الأصفهانى فى معنى الخلود: الخلود هو تبرى الشىء من اعتراض الفساد، وبقاؤه على الحالة التى هو عليها، وكل ما يتباطأ التغيير والفساد فيه تصفه العرب بالخلود.. ويقال خلد يخلد خلودا قال تعالى: ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ** (١٢٩) ﴾ [**الشعراء**].

والخلد اسم للجزء الذى يتبقى من الإنسان على حالته.. وأصل المخلد الذى يبقى مدة طويلة.. والخلود فى الجنة بقاء الأشياء على الحالة التى عليها من غير اعتراض الفساد عليها. قال تعالى: ﴿ **وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً** ﴾.

والأبد قال فيه الراغب: «مدة الزمان الممتد الذى لا يتجزأ، وأبد يأبد بقى أبدا، ويعبر به عما يبقى مدة طويلة»، وإن تفسير الخلود على ما ذكره الراغب يقتضى بقاء الناس يوم القيامة بأبدانهم من غير أن يعتريها فساد ولا فناء ولا تحلل أجزاء، فأهل الجنة يبقون بقاء تمتع ونعيم وأهل النار تبقى أجسامهم فى شقاء وعذاب أليم، لا تبليها النار ولا يفنيها العذاب، ولا يذهب بالحساسية فيها توالى الاكتواء، ﴿ **كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً** (٥٦) ﴾ [**النساء**]. والأبدية معناها الدوام، كما دل على ذلك مجموع النصوص القرآنية، وإن تأكيد الخلود بالأبدية يدل على بقاء العذاب والنعيم.

ذيَّل الله سبحانه وتعالى الآيات بهذا ليبين لهم أن الله تعالى غالب على كل شىء، وأن عذابهم أمر يسير عليه، لإبطال زعمهم فى أنهم لا يقدر عليهم أحد، ذلك أن كل طاغية من طغاة الدنيا سبب طغيانه واسترساله فى شره ظنه أن لن يقدر عليه أحد، مع أن الله تعالى هو القاهر فوق عباده، اللهم أبعد عن خلقك طغيان الطاغين، وغرور المغترين، وأرزق المؤمنين الأمن والاطمئنان.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ
ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ
فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧٠
يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ

عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ
ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ
وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ
وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾

كان كل الكلام السابق فى شأن الذين لجوا فى الإنكار من إليهود حتى لقد سألوا أن يأتى لهم النبى ﷺ بكتاب من السماء يقرءونه، وكان حاضرهم فى عصر النبى ﷺ كماضيهم، وفى هذه الآيات بيان منزلة الرسول محمد ﷺ، وأنه يخاطب الناس جميعا برسالته، ويدعوهم إلى شريعته، وإشارة إلى طائفة أخرى من أهل الكتاب غالوا فى تقدير رسولهم، وهم النصارى، فإذا كان إليهود قد لجوا فى الإنكار والجحود بالنسبة لرسولهم الذى أنقذهم من فرعون وطغيانه، الذى كان يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم. فالنصارى قد غالوا فى تقدير رسولهم حتى جعلوه إلها، وجعلوا الآلهة ثلاثة استرسالا فى المغالاة فى تقدير المسيح عيسى - عليه السلام -، وهو برىء مما يقولون.

﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ**﴾ الخطاب للناس أجمعين: أهل الشرك وأهل الكتاب، والعرب والعجم، والأبيض والأسود، والقريب الدانى، والبعيد القاصى، فهى رسالة عامة، لا تختص بجنس، ولا لون، ولا إقليم، فإذا كان موسى يخاطب بنى إسرائيل، فمحمد ﷺ يخاطب الناس أجمعين.

وذكر الرسول معرفا بالألف واللام لمعنى كمال الرسالة فيه، فهى للتعيين بالكمال المطلق، أى أنه رسول الأجيال اللاحقة، ولا رسالة من بعده، فالتعريف

هنا للكمال المطلق فى الرسالة، وكان كمالها فى عمومها، وفى كمال الشريعة التى جاءت بها، وصلاحيتها لكل الأزمان والأقطار والأمصار، ورسالتها فوق ذلك فيها الأحكام الخالدة من كل الرسالات السابقة، فمن آمن به فقد آمن بالرسالات كلها، ومن كفر برسول من السابقين، فقد كفر برسالته، فرسالته هى جماع الرسائل، وهى أوسطها وأشملها وأمثلها.

وقد أكد الله سبحانه وتعالى فضل رسالته وكمالها وعمومها بثلاثة أمور:

أولها ـ فى قوله تعالى ﴿**قَدْ جَاءَكُمُ**﴾ أى بعث هذا الرسول الأمين الكامل فى معنى الرسالة وأدائها. قد جاءكم أيها الناس جميعا، فهى رسالة جاءت لصالحكم جميعا، أى لصالح البشرية كلها، لا لجزء من أجزائها.

ثانيها ـ التعبير بقوله تعالى ﴿**بِالْحَقِّ**﴾ أى مقرونة بالحق مصاحبة له، متلبسة به، فهى حق ثابت مستقر موافق لفطرة البشر أجمعين، لا يأتيه باطل قط، وما كان حقا ملائما لفطرة البشر لا بد أن يكون عاما، شاملا لا يختص بمكان، ولا بزمان، ولا بعصر من العصور.

ثالثها ـ قوله تعالى: ﴿**مِن رَّبِّكُمْ**﴾ أى أن رسالة محمد ﷺ جاءت من ربكم الذى خلقكم، وقام على أموركم الذى يعلم ما فيه نفعكم، وما فيه خيركم، ولا يرضى لعباده إلا النفع لعمومهم.

ولذلك كان الإيمان بهذه الرسالة والإذعان لها أمرا واجبا لمصلحة الناس أجمعين، فقال سبحانه:

﴿**فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ الفاء هنا للإفصاح عن شرط مقدر، وتقدير الكلام: إذا كان ذلك الرسول هو الكامل فى رسالته التى جاءت بالحق تلازمه ويلازمها، وفيها مصلحة لكم لأنها من عند ربكم، فآمنوا خيرا لكم، أى فأذعنوا للحق وصدقوه، واعملوا به خيرا لكم. وهنا أمران لفظيان فيهما توضيح المعنى وكشف لبعض أسرار البلاغة القرآنية.

أولهما ـ فى قوله «فآمنوا» فلم يقل آمنوا به، بل أطلق الإيمان للإشارة إلى أن الإخلاص وحده، وهو الإذعان للحق، وعدم التمرد عليه لسبق الإلحاد والإنكار ـ هو الذى يفتح القلوب للحق، وتصديق ما أنزله الله تعالى على رسوله الأمين ﷺ.

ثانيهما ـ قوله تعالى: ﴿**خَيْرًا لَّكُمْ**﴾ ونصبت كلمة «خيرا» وصفا لمحذوف تقديره آمنوا إيمانا هو خير لكم، أو مفعولا لمحذوف وتقديره آمنوا قاصدين خيرا لكم، ويصح أن تكون خبرا لكان المحذوفة فى فعل شرط وجوابه، والمعنى إن تؤمنوا يكن خيرا لكم، وذلك مثل (كل امرئ مجزى بعمله إن خيرا فخير، وإن شرا فشر).

ومهما يكن فإن النص الكريم يبين أن الإيمان فيه الخير المطلق؛ لأنه الحق، ولأنه من عند رب العالمين.

هذا فضل الايمان وما فيه من خير، وأما الكفر، فإنه الضرر كله للعباد، ولا يرضى سبحانه وتعالى الكفر لأنه لا يرضى ما يضرهم، وأما هو سبحانه فإنه لا يضره شىء من كفرهم لأنه المالك لكل شىء، مالك لكل السموات من أفلاك ونجوم ومدارات، وما تحوى من كائنات، وما فى الأرض مما هو على ظاهرها وما فى باطنها، فهو المالك والسلطان القاهر، فلا يضيره كفر العباد، وإن كان لا يرضاه، ويرضى إيمانهم، وإن كان لا ينفعه، وهذا تقريب لمعنى قوله تعالى:

﴿**وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾ هذا ختام النص الكريم فيه وصف الله الدائم بالعلم المحيط الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء وبالحكمة وحسن التدبير والإبداع فى ملكوت السموات والأرض، إذ يسير الكون بنظام محكم التقدير والتدبير، وبنواميس وأسرار كونية لا يعلمها إلا العليم الخبير الذى خلق كل شىء فقدره وأحسن تقديره، وأنه كان من مقتضى علمه ألا يخفى ضلال الضالين، ولا هداية المهتدين، وكان من مقتضى حكمته، أن يجزى بالكفر عذابا، وبالإيمان نعيما، وأن يجعل من عباده الشكور المهتدى، ومنهم من ضل وغوى.

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ ﴾ نهى فى هذا النص الكريم عن الغلو فى الدين، والغلو هو تجاوز الحد سلبا أو إيجابا، وقد تجاوز إليهود الحد فى شأن عيسى ـ عليه السلام ـ، فأنكروا رسالته لعنة الله عليهم، واتهموا أمه البتول، وغالى فيه النصارى، حتى أخرجوهُ من مرتبة البشرية مع أن البشرية واضحة فيه، وفى ولادته، وفى حياته، وفى كونه لحما ودما يحيا ويموت، ويأكل ويشرب، كما يأكل سائر البشر، وإذا كان الغلو فى شأن عيسى وقع من إليهود، ومن النصارى، فإنه يصح أن يكون الخطاب موجها إلى الفريقين، باعتبار أن الغلو وقع مستمرا، فيكون النهى عن الاستمرار، ولكن سياق القول يدل على أن أهل الكتاب المخاطبين فى هذه الآية هم النصارى لأنه سبحانه وتعالى يقول: ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا ﴾ إلى آخره، فالسياق فى خطاب النصارى ومغالاة إليهود بشأن عيسى قد سبق بيانها آنفا.

ولقد أردف الله سبحانه النهى عن المغالاة بتجاوز الحق، وبالأمر بالحق، فقال تعالى: ﴿ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ ﴾.

أى لا تقولوا يا معشر النصارى على الله إلا الحق الثابت القائم على الدليل المقنع، لا على الوهم البعيد، وفى هذا النص السامى إشارات إلى معان، فإن أقوالهم التى قالوها غير الحق هى افتراء وكذب على الله تعالى، وكذلك عدى القول فقال على الله؛ لأن القول يتضمن معنى الافتراء، وفوق ذلك إنها لا تعتمد على الحق الثابت، وتناقض الدليل الواضح، والبرهان القاطع قائم فى أن عيسى ولد، والإله لا يولد، وعيسى كان يأكل ويشرب، والإله ليس كذلك، وقد زعموا أنهم قتلوه، والإله لا يُقتل، وزعموا أنه قتل افتداء للخليقة عن عصيان آدم لله تعالى، وليس من المعقول فى أى منطق أن يفتدى الله الخليقة عن عصيان أبيها بتمكينهم من قتل ابنه فى زعمهم، فإن ذلك القتل جريمة أشد وأشنع، وإذا كانت الأولى تحتاج إلى فداء، فالثانية لا يغنى عنها فداء، ولكن هكذا سوغ الوهم لهم.

وإذا كان ما قالوا باطلا، لا يمت إلى الحق بسبب، فالحق هو ما قرره الله تعالى فى قوله تعالت كلماته.

﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ صدر الكلام بأداة القصر، وهى «إنما» ومعنى القول ليس المسيح عيسى ابن مريم إلا رسول الله أرسله لهداية الحق، وهو قد نشأ بكلمته، ونفخ بروح منه فى مريم، فكان من بعد بشرا سويا، وهو فى إيجاده آية قدرة الله تعالى على الخلق من غير تقيد بالأسباب التى تجرى بين الناس، فهو سبحانه خالق الأسباب والمسببات بديع السموات والأرض وليس له ولد: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾ [الإخلاص].

ولا بد أن نتعرض بقليل من البيان لثلاث عبارات: **الأولى** ـ التعبير بـ ﴿الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ والثانية ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ والثالثة ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ فقد تعلقت الأوهام بالعبارتين الأخريين، فوجب بيانهما، مع أن فى الأولى إزالة لأوهامهم.

أما العبارة الأولى، وهى ﴿الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ فإن الله تعالى قد ذكر أنه المسيح، وأنه عيسى، وأنه ابن مريم، فأما الأول فهو الاسم الذى يذكر به فى القرآن، وذكر بجواره عيسى للإشارة إلى أنه شخص ككل الشخوص فيه إشارة إلى بشريته، والتصريح بالبشرية فى قوله تعالى «ابن مريم» فهو مولود خرج من رحم أنثى، كما يخرج الأولاد من أمهاتهم، وإذا كان لم يخرج من صلب أب، فإنه قد خرج من رحم أم، وحسبنا ذلك دليلا على البشرية المطلقة، وفى ذكر الأم من غير ذكر أب دليل على أنه لا ينتسب إلى أب قط، فليس ابن يوسف النجار، وليس ابن الله، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

والعبارة الثانية، وهى ﴿كَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ فإن الكلمة هنا قد تكون مجملة، ولكنها ذكرت فى آيات مبينة، ذكرت فى مواضع مختلفة من القرآن الكريم، فقد قال تعالى فى شأن خلق عيسى عليه السلام: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ

مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾ [مريم].

هذا ما جاء فى سورة مريم، وقد جاء فى سورة آل عمران: ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾ [آل عمران]

وقال فى شأن خلق عيسى من غير أب: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ [آل عمران].

وبهذا يتبين أن الله سبحانه وتعالى خلقه بكلمة منه، وهو «كن»، كما خلق آدم، وكان عيسى بهذا كلمة الله لأنه خلقه بها، فقد خلق من غير بذر يبذر فى رحم أمه، فما كان تكوينه نماء لبذر وجد، وللأسباب التى تجرى بين الناس، بل كان السبب هو إرادة الله وحده، وكلمته «كن» وبذلك سُمِّى كلمة الله. وتعلق النصارى بأن كون عيسى كلمة الله دليل على ألوهيته، وما كانت الكلمة من الله إلها يعبد، فضلا عن أنه سمى بذلك؛ لأنه فعلا نشأ بكلمة، لا بمنى من الرجل يمنى، بل كلمته التكوين ألقاها (أى أوصلها) إلى مريم فكان التكوين لعيسى.

والعبارة الثالثة ﴿وَرُوحٌ﴾ وهذه أيضا من العبارات التى تعلقت بها أوهامهم، إذ قد فتحوا باب الوهم فيها حتى غشى عقولهم، فحجبها، فظنوا أن هذه الكلمة تدل على معنى الألوهية فى عيسى.

وإن تتبع هذا اللفظ فى القرآن يدل على أنه يراد به أحيانا الروح التى ينشئها الله تعالى فى الأبدان، وينفخ بها فيها، وتكون بمعنى الملك جبريل عليه السلام، وتكون بمعنى رحمة، وليس فى ذلك ما يدل على الربوبية أو الألوهية فيمن تقال فيه أو يسمى باسمه، وقد قيل المعنيان الأولان فى شأن عيسى وشأن أمه، فقد قال

فى شأن أمه مريم البتول: ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنبياء] وهو جبريل ـ عليه السلام ـ، وقد ذكرنا من قبل قوله تعالى: ﴿ ... فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ ﴾ [مريم].

وعلى ذلك يكون معنى قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أى أنه سبحانه أنشأه بروح مرسل منه، وهو «جبريل الأمين»، وقد يقال أنه نشأ بروح منه سبحانه، أى أنه أفاض بروحه فى جسمه كما أفاض بها على كل إنسان، ولقد قال تعالى: ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [السجدة] والأول أولى.

وعلى ذلك يكون معنى قوله ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أى أنه نشأ بنفخ الله تعالى الروح فيه من غير توسيط سلالة بشرية، ونطفة تتشكل إنسانا، وذلك بالملك الذى أرسله وهو جبريل وقد تمثل لها بشرا سويا.

ولكن قد يسأل سائل لماذا سماه الله تعالى روحا، ونقول فى الإجابة عن ذلك أن عيسى سمى روحا باعتباره نشأ من الروح مباشرة، ولأنه غلبت عليه الروحانية، وإن كان بشرا كسائر البشر، يأكل ويشرب، ويمشى فى الأسواق، ولهذا المعنى سمى روحا، (ومن) هنا للابتداء أى أن الروح مرسل من عند الله تعالى، ونافخ بإذنه.

وبهذا الكلام يزول الوهم الذى سلطه الله على عقول الذين غالوا فى المسيح ـ عليه السلام ـ غلوا بعيدا، فنحلوه ما ليس له. وما ليس من شأنه، وجعلوه إلها، وابن إله، ومنهم من جعل أمه مريم إلها، إلى آخر ما توهموا.

ولقد لج الوهم ببعضهم فظن أن فى القرآن الكريم ما يدل على ما توهموا، فقد قالوا إن فى القرآن ما يدل على أن عيسى ـ عليه السلام ـ مؤيد بروح القدس، فقد قال سبحانه: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴿٨٧﴾ ﴾ [البقرة].

ونقول فى إزالة هذا الوهم إن روح القدس الذى ذكر فى القرآن عدة مرات فى مقام التأييد لعيسى هو جبريل ـ عليه السلام ـ، وقد ذكر بالنسبة لمحمد ﷺ، فقد قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [النحل].

وإذن لا لبس ولا التباس، ويجب أن تفسر بذلك روح القدس التى جاءت فى الأناجيل بالنسبة لعيسى، فقد جاء فى إنجيل متى: «ولما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا، وجدت حبلى من الروح القدس» وبالتفسير المعقول المتفق مع نص القرآن يكون الحبل بنفخ من روح القدس جبريل، وقد جاء فى الإنجيل ما يدل على أن روح القدس هو جبريل ـ عليه السلام ـ: «وهذا الرجل كان بارا تقيا ينتظر نفسه إسرائيل والروح القدس»، وجاء فى الإصحاح الثانى من إنجيل متى آية ٢٦ (وكان قد أوحى إليه بالروح القدس).

وإذا كان الحق فى عيسى ـ عليه السلام ـ أنه رسول الله، وأنه تعالى خلقه من غير طريق الأسباب المعتادة، إذ خلقه بكلمة، وأنه روح جاءت من قبل الله إذ نفخ جبريل الروح فى مريم فكان منها الحبل، وأنه غلبته روحانية، إذا كان كذلك، فيجب الإيمان بالحق، وإزالة الأوهام، وكذا قال سبحانه:

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾ أى إذا كانت تلك حقيقة المسيح، وليس بابن إله، فآمنوا بالله وحده لا شريك له فى العبادة، ولا فى السلطان، وليس معه ثان ولا ثالث، وليس بوالد ولا ولد، وآمنوا بالرسالة الإلهية، وآمنوا بالرسل الذين سبقوا عيسى والرسول الذى جاء من بعده، ولا تكفروا بأحد منهم ولا تغالوا فتقولوا ثلاثة، ولذا قال سبحانه: ﴿وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ﴾.

وعبر سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ﴾ بدل قوله «ولا تؤمنن بثلاثة أو لا تصدقوا بثلاثة، أو لا تزعموا ثلاثة»؛ لأن أمر الثلاثة قول يقولونه، فإن سألتهم عن معناه قالوا مرة الأب والابن وروح القدس أى أنهم ثلاثة متفرقون،

ومرة يقولون ثلاثة أقانيم، والذات واحدة، فإن أردت تفسيرا لمعنى الثالث، قالوا كلاما لا يمكن أن تقبله العقول المستقيمة.

وإن الدارس لتاريخ النصرانية من غير تحيز لهذه الأوهام أو متحيز عليها يرى أنها فى ابتدائها ديانة توحيد خالص، وأنه ما كانت ألوهية المسيح عندهم رائجة، ولا يعتنقها الأكثرون، بل كان الأكثرون على أن الله إله واحد ليس له ولد ولا والد، واستمر الحال كذلك إلى أن أراد قسطنطين أن يدخل فى المسيحية، وقد كان وثنيا، ولكنه أراد أن يدخلها بعد أن يحرفها، فعقد مجمع (نيقية) سنة ٣٢٥ ميلادية، وقد ادعى أن انعقاده للرد على أريوس الذى أنكر ألوهية المسيح، فكان المجتمعون أكثر من تسعمائة، وقد كانت الكثرة منكرة ألوهية المسيح، والذين قالوا ألوهية المسيح ٣١٨ فاكتفى بهم وأعلنوا الألوهية، وعلى رأسهم أسقف الإسكندرية، ودخل قسطنطين فى المسيحية من بعد قرارهم، وقد استنكر أكثر المسيحيين ما قرره مجمع نيقية، ولذلك انعقد فوره مجمع (صور) ورفض دعوى ألوهية المسيح بالإجماع، ولكن استخدمت القوة والإرهاب لتشتيت المجتمعين، وأخذت القوة تعلن الألوهية، وتخفى الوحدانية.

ولم يكن إلى ذلك الوقت أحد يقول إن روح القدس إله، حتى دعا أسقف الإسكندرية إلى عقد المجتمع القسطنطينى الأول سنة ٣٨١، فقرر ألوهية روح القدس.

وبذلك قالوا ثلاثة، وبتوالى العصور، وإخفات صوت المخالفين، وتقرير التثليث وتثبيته سيطرت الأوهام، واستقر الأمر على ثلاثة.

وقد نهى الله سبحانه وتعالى عن أن يقولوا ثلاثة، وأكد سبحانه وتعالى النهى بقوله: ﴿**انتَهُوا خَيْراً لَّكُمْ**﴾ وفى التعبير بـ «انتهوا» دليل على أنهم لم يعتنقوا ما يدعون اعتقادا جازما، بل إنهم إن فكروا غيروا، فكان الأمر بالانتهاء، وقال انتهوا خيرا لكم، أى انتهوا يكن الانتهاء خيرا لكم؛ لأنكم تخرجون من حيرة الأوهام إلى تفكير العقول، وتدركون الحق، وتذعنون له، وتكونون مؤمنين

بالمسيح حقا وصدقا، والاطمئنان إلى حكم العقل خير من حيرة الوهم والشك، وفى انتهائهم رضا الله والجزاء فى الآخرة.

﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ أى أن المعبود بحق ليس إلاواحدا، وهو الله تعالى ذو الجلال والإكرام، ووحدانيته تكون فى الذات والصفات والعبودية، فليست ذاته الكريمة كذات المخلوقات، وهو وحده سبحانه الجدير بالعبودية والألوهية فلا معبود سواه، وهو وحده الخالق للكون، وقد تنزه سبحانه عن أن يكون له ولد؛ لأن هذه صفات المخلوقين، وذاته تعالى واحدة ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، لأن كون أحد ولده يقضى الاتصال بالمخلوقين ويكون مثلهم، وهو الخالق لهم ولكل شيء، فكيف يكون المخلوق ولدا. وكيف يكون البشر متولدا من الله تعالى الخالق له المنشئ المكون المربى، ولذا قال سبحانه وتعالى:

﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ كل ما فى السموات من بروج ونجوم وكواكب، وما فى الأرض من أحياء على ظهرها، ومعادن وفلزات وكنوز فى باطنها، وما فى البحار من أحياء، ومن جواهر ولآلئ، هو ملك لله تعالى، فعيسى ابن مريم وأمه وغيرهما مملوكان لله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم]. والله سبحانه هو المدبر للكون الذى وكل إليه أمره، ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ أى أن الله تعالى هو الذى قد وكل إليه أمر الكون، وتدبيره ظاهره وباطنه، وما ظهر منه للناس، وما خفى عليهم، وكفى بالله وكيلا ليستقيم الأمر فيه، وليسير على سنن مستقيم لا اضطراب فيه ولا اختلاف. اللهم أنت بديع السموات والأرض لا نؤمن إلا بك، ولا نعبد إلا إياك، ولا نرجو الخير إلا منك، اللهم إنك أنت مانح النعم ومجريها، ولا يرجى سواك.

لَّن يَسْتَنكِفَ
ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ
وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ
إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ
ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا
يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾

ذكر الله سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة مغالاة النصارى فى تقدير السيد المسيح ـ عليه السلام ـ، وأنهم رفعوه إلى مرتبة الألوهية، وقالوا بألسنتهم إن الله ثالث ثلاثة من غير أن يحددوا معنى الألوهية فى الاثنين اللذين زادوهما فى أقوالهم، ومن غير أن يميزوا علاقة الثلاثة بعضهم ببعض، إلا أن يقولوا المسيح ابن الله، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، ودفعهم إلى ما يقولون أن عيسى ولد من غير أب، وأنه كان إنسانا روحانيا، فزعموا أنه ليس كغيره من رسل الله تعالى، واستنكفوا أن تكون علاقته بالله تعالى (الخالق لكل شىء) كعلاقة سائر العباد من حيث إنه مخلوق لرب العالمين، وفى هذه الآية يبين سبحانه أن علاقة المسيح ـ عليه السلام ـ بربه علاقة عبد بخالقه، وأنه لن يترفع عن هذه العلاقة، ولذا قال سبحانه.

﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ ومعنى النص الكريم: لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولن ينزل من مرتبته أن يكون من عبيد الله تعالى، فإن ذلك وضع للأمور فى مواضعها، إذ هو مخلوق لله تعالى. روى أن وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ: لم تعيب صاحبنا؟ فقال عليه السلام: ومن صاحبكم؟ قالوا: عيسى (عليه السلام) فقال النبى ﷺ: وأى شىء أقول؟

قالوا: تقول إنه عبد الله ورسوله. فقال لأمير القوم: «إنه ليس بعار أن يكون عبدا لله، قالوا: بلى»[١].

وهنا بحثان لفظيان نريد أن نلم بهما بعض الإلمام.

أولهما ـ التعبير بـ «لن» فإن هذا التعبير النافى فيه تأكيد للنفى، وفيه بيان استمراره وفيه فوق ذلك إشارة إلى أن المنفى هو الأمر الذى لا يتصور العقل غيره، فلا يتصور العقل أن يترفع المسيح عن أن يكون عبدا لله، لأنه هو الذى خلقه، وهو الذى سواه، وهو الذى جعل له كل الصفات التى امتاز بها على غيره من الناس فى عهده، إن الكمال للإنسان فى أن يحس بعبوديته لله تعالى وحده، فذلك ليس عارا كما ذكر الرسول ﷺ؛ لأن شكر المنعم هو كمال الإنسان، والمنعم بنعمة الوجود، ومجرى النعم هو الله سبحانه وتعالى، فالعبودية له سبحانه شكر وهى كمال الصلة بين الله تعالى وخلقه.

وثانيهما ـ أصل معنى يستنكف، أنها فى مغزاها لن يأنف أويترفع، ولكن فى أصل اللغة لها أصول ثلاثة.

أولها ـ أنها مشتقة من التنزيه، فالفعل الثلاثى لها (نكف)، دخله السين والتاء فيقال نكفت من الشيء واستنكفت منه، وأنكفته أى نزهته عما يستنكف منه، وروى فى الحديث أن النبى ﷺ سئل عن معنى سبحان الله فقال ـ عليه السلام ـ «إنكاف الله عن كل سوء»[٢] بمعنى تنزيهه عن كل سوء، ويكون معنى «لن يستنكف»: لن يتنزه عن أن يكون عبدا لله، فالعبودية ليس للبشر أن يتنزهوا عنها، بل عليهم أن يخضعوا لها.

ثانيها ـ أنها مأخوذة من نكفت الدمع إذا نحيته بأصبعك عن خدك سترا

(١) ذكره هكذا بلفظ «روى»: الزمخشرى، والنسفى، والرازى، والآلوسى، والبيضاوى، سببا لنزول الآية الكريمة.

(٢) النهاية فى غريب الحديث (نكف).

لمظهر البكاء، ومنه الحديث: «ما ينكف العرق عن جبينه»(١) أى ما ينقطع، ومنه الحديث: «جاء بجيش لا ينكف آخره»(٢). ومعنى (لن يستنكف) أى لن ينقطع أن يكون المسيح عبدا لله. وقد اختار ذلك الزجاج، وارتضاه الزمخشرى فى الكشاف.

ثالثها ـ أنها مأخوذة من النكف وهو العيب، ويكون المعنى «لن يعاب المسيح أن يكون عبدا لله» وكلها معان متلاقية.

وعطف سبحانه على المسيح - عليه السلام ـ الملائكة فقال: ﴿**وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ**﴾ أى لا يستنكف المسيح عن أن يكون عبدا لله، ولا يستنكف أيضا الملائكة المقربون إليه سبحانه كجبريل وإسرافيل وميكائيل، وحملة العرش فإن هؤلاء على روحانياتهم الكاملة، ومع أن الله تعالى خلقهم من غير أب ولا أم لا يترفعون، أن يكونوا عبيدا لله تعالى؛ لأن الله تعالى خلقهم وهم المدركون لجلاله وكماله: ﴿**لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ۝﴾ [**التحريم**].

ولقد أخذ الزمخشرى من هذا النص أن الملائكة المقربين أعلى درجة من الأنبياء وقال فى ذلك: ولا من هو أعلى قدرا وأعظم خطرا وهم الكروبيون الذين حول العرش كجبريل وميكائيل وإسرافيل ومن فى طبقتهم، فإن قلت من أين دل قوله تعالى ﴿**وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ**﴾ على أن المعنى ولا من فوقه، قلت من حيث إن علم المعانى لا يقتضى غير ذلك، وذلك أن الكلام سيق لرد مذهب النصارى وغلوهم فى رفع المسيح عن منزلة العبودية، فوجب أن يقال لهم لن يترفع المسيح عن العبودية، ولا من هو أرفع منه درجة، كأنه قيل لن يستنكف الملائكة المقربون من العبودية فكيف بالمسيح! ويدل عليه دلالة ظاهرة بينة تخصيص المقربين لكونهم أرفع الملائكة درجة وأعلاهم منزلة، ومثاله قول القائل:

وما مثله ممن يجاود حاتم ۞ ولا البحر ذو الأمواج يلتج ذاخره

(١، ٢) السابق.

ولا شبهة فى أن مقصده بالبحر ذى الأمواج ما هو فوق حاتم فى الجود، ومن كان له ذوق فليذق مع هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة] حتى يعترف بالفرق المبين.

وينتهى من هذا إلى أن الملائكة المقربين أفضل من عيسى - عليه السلام -، وعيسى من أولى العزم من الرسل، فالملائكة أفضل من النبيين.

وقد خالفه فى ذلك كثير من العلماء، وردوا عليه بردود لا تسقط مقدمة الدليل وهو كون النص يفيد الترقى من المفضول إلى الأفضل، فالمسيح مفضول، والملائكة المقربون أفضل، ولكنها تبطل النتيجة فى ذاتها، وهى كون الملائكة أفضل؛ ذلك لأن الحديث فى الملائكة المقربين، فكيف تكون النتيجة أوسع وتعم الملائكة أجمعين، المقربين ومن دونهم؟.

وعندى أن الترقى قائم، ولكن فى المعنى الذى سيق له الكلام، ذلك أن النصارى غلوا غلوا كبيرا فى المسيح؛ لأنه ولد من غير أب، ولأنه جرت على يديه معجزات كثيرة، ولأنه روحانى المعانى، فبين الله سبحانه وتعالى أنه مع كل هذا لن يستنكف أن يكون عبدا لله، ولا يستنكف من هو أعلى منه فى هذه المعانى وهم الملائكة الذين خلقوا من غير أب ولا أم، وأجرى على أيديهم ما هو أشد وأعظم من معجزات، ومنهم من كان الروح الذى نفخ فى مريم، وهم أرواح طاهرة مطهرة، فكان الترقى فى هذه المعانى، وهم فيها يفضُلون عيسى وغيره، وبذلك تكون الآيات بعيدة عن الأفضلية المطلقة، فلا تدل على أفضلية الملائكة على الرسل فى المنزلة عند الله تعالى ورضوانه، وتكون الآية بعيدة عن موطن الخلاف، والترقى دائما يكون فى المعانى التى سيق لها الكلام دون غيرها، وليس المتأخر أعلى فى ذاته من المتقدم وأفضل، ولكنه أعلى فى الفعل الذى كان فيه كقول القائل لا تضرب حرا ولا عبدا، فالتدرج هنا فى النهى عن الضرب، لأنه إذا كان ضرب العبد غير جائز فإن ضرب الحر من باب أولى غير جائز.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾

بين سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة جحود المشركين وأهل الكتاب للرسالة المحمدية، وبين بطلان قولهم، والإفك فيما يزعمون من تدين، وأن المسيح ـ عليه السلام ـ كان موضع المغالاة، فاليهود غالوا فى إنكار رسالته، وزعموا أنهم قتلوه وما قتلوه وما صلبوه، وما مكنهم الله تعالى من أن يقتلوه، كما قتلوا نبيين من قبله، وغالى فيه النصارى فادعوا له الألوهية، بعد أن بين سبحانه وتعالى ذلك أخذ يبين المنهاج المستقيم، والدين الحق الذى لا يأتيه الباطل، وليس فيه غلو فى أمر من الأمور، بل فيه النور والحجة والبرهان، ولذا قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ الخطاب عام لأهل العقول من الناس أجمعين كافرهم وملحدهم، ومشركهم ويهودهم ونصاراهم والمؤمنين بالله ورسله، وما أنزل على رسوله الأمين محمد ﷺ.

والبرهان الذى جاء رب العالمين الناس به هو النبى ﷺ، وقيل إنه القرآن، وقيل إنه القرآن والنبى ﷺ، وقد ذكر الزمخشرى الأقوال الثلاثة على أنها محتملة، ويصح أن يكون آخرها أجمعها وهو أولى بالاعتبار لهذا، وتوجيه القول على أن النبى ﷺ هو البرهان، أن شخصه الكريم من يوم مولده إلى أن قبضه الله تعالى إليه برهان صدق الرسالة التى كان يدعو إليها، ويهدى الناس بها، ذلك أنه نشأ يتيما من أبيه وأمه ومع ذلك لم يتدلَّ إلى ما يتدلى إليه اليتامى، فلم يقع منه

ما يتهافت فيه الذين حرموا عطف الأب وحنان الأم، ولم يتجه إلى ما يتجه إليه الغلمان فى حياته الأولى، بل كان الجد يغلبه، حتى لقد قال فيه جده وهو لم يبلغ الثامنة من عمره: (إن ولدى هذا سيكون له شأن)، لما رآه من مخايل الذكاء والجد، والعزوف صغيرا عن المعابث، ولما بلغ سن الشباب بدا فيه الكمال وظهر واضحا فى كل حياته، فلم يكذب قط، ولم يخن قط، ولم يقع منه ما يقع من الشباب من مجون، ولم يشرب خمرا أبدا مع شيوعها فى الجاهلية، والتفاخر بها، ولم يلعب الميسر مع الانغمار فيه، ولم يرتكب ما يخل بالمروءة، ولم يسجد لصنم، بل تاجر، ولم يكن إلا أمينا فى تجارته كما كان أمينا فى عامة شئونه، حتى لقد لقب فى العرب بلقب الأمين، فكان إذا ذكر هذا اللفظ لا يطلق إلا إليه، كما يحمل الكَلَّ، ويحمى الضعيف، ويعين على نوائب الدهر، كما وصفته زوجه أم المؤمنين خديجة، ولما بعثه الله تعالى رحمة للعالمين، كان أوضح ما يوصف به الخلق العظيم، والعطف الكريم، والجزم فى الدعوة إلى الحق من غير وناء، ولا كسل، إذا سالم كان الوفى فى عهده، وإذا حارب كان العدل فى حربه، وإذا خاصم كان الشريف فى خصومته، وإذا تكلم كان العف فى قوله، وإذا عامل كان السمح فى معاملته، وإذا خطب كان كلامه فصل الخطاب، أوتى جوامع الكلم، كلامه حكم، وعمله سلم، وشرعه صلاح للناس فى الدنيا والآخرة.

وإذا كان الرسول ﷺ له ذلك السمو، فشخصه برهان الصدق، ودليل الحق، وكثيرا ما كان يراه الرائى، فيسمع قوله، فيحكم بصدقه من غير أن يطلب دليلا من غير شخصه الكريم. رآه أعرابى فاسترعاه منظره الكريم، فقال: من أنت؟. قال الرسول الكريم: أنا محمد. فقال الأعرابى الذى يتكلم بما يسمع: «أنت الذى تقول فيك قريش أنك كذاب، لا، ليس هذا الوجه وجه كذاب»[(١)]. ثم آمن به بعد أن علم ما يدعو إليه.

---

(١) نقل الآلوسى هذه الرواية عن الفتوحات المكية باب (١٧٢، ٢٧٧). روى نحو هذا عن عبد الله بن سلام فى مصنف ابن أبى شيبة، ومسند الشهاب للقضاعي.

هذا تخريج قول الذين قالوا إن البرهان هو النبى ﷺ، وهم كثيرون من التابعين.

وأما قول الذين قالوا إن البرهان هو القرآن الكريم، فهو واضح لأن القرآن هو معجزة النبى ﷺ الدالة على صدق رسالته، ولكن الذى يقتضى توضيحه هو قوله تعالى بعد ذلك:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً﴾ فإنه واضح أن المراد منها القرآن؛ لأنه المنزل من رب العالمين، وهو النور الواضح الهادى إلى الرشاد، ويجاب عن ذلك بأن القرآن الكريم فيه المزايا الثلاث، فهو الحجة القائمة، والمعجزة الدائمة، وهو تنزيل من رب العالمين، وهو نور يهدى للتى هى أقوم، وإن النور المبين فى القرآن، ما اشتمل عليه من أحكام شرعية خالدة تنير السبيل وتوضحه لمن يسلك سبيل المؤمنين، فهى نافعة فى الدين مبينة الحق، ومن اتبع أحكام القرآن هدى، ومن خالفها هوى.

وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً﴾. أنزلنا إليكم مواعظ وقصصا وأحكاما شرعية هى كالنور فى هدايته وإرشاده وبيانه للأشياء فهى مبينة للطريق المستقيم، والنهج القويم، والحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه.

ولا يتغير المعنى اذا قلنا إن البرهان هو النبى ﷺ، فإنه حينئذ يفسر قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً﴾. بأنه القرآن، والمعنى والمؤدى فيهما، لا يختلف.

وهنا مباحث لفظية لا بد من الإشارة إليها بعبارات موجزة موضحة.

أولها ـ التعبير بقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾. فى قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ﴾ فيه تقوية لمعنى البرهان؛ لأن ذلك الدليل إذا كان قد جاء من عند علام الغيوب الذى خلق السموات والأرض وما فيهما، لابد أن يكون برهانا صادقا مقنعا لطالب الحق، مفحما لأهل الباطل الجاحدين، وقد زكى معنى التأكيد التعبير

بقد وبالمجىء فى قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم﴾ أى أنه أتاكم كالأمر المحسوس المؤكد الذى يرى ويحس، فهو قائم بين أيديكم وحجة عليكم.

ثانيها ـ إسناد الإنزال إلى الذات العلية ذات الجلال والإكرام فى قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ فأسند إليه تعالى للإشارة إلى أنه تعالى المرجع وكما أن المآب إليه.

ثالثها ـ وصف الشرائع والقصص والمواعظ التى نزل بها القرآن بأنها نور مبين واضح، أى أنه لا يخفى إلا على من أنفت حواسه، وفسدت مشاعره، وأصيب بعمى البصيرة، وكان عليه غشاوة، لا يرى معها النور الواضح المبين.

وإن الناس الذين خوطبوا بذلك الخطاب الإلهى قسمان، فريق آمن واهتدى، وانتفع بالنور الذى جاء الرسول به، وفريق ضل وغوى، ولم ينتفع بالنور الذى حمل مصباحه المزهر محمد ﷺ، وقد بين سبحانه وتعالى الفريق الذى اهتدى فقال تعالت كلماته:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ ذكر الله سبحانه وتعالى وصفين للذين اهتدوا وزادهم هدى. أول هذين الوصفين أنهم آمنوا بالله تعالى، وثانى هذين الوصفين أنهم اعتصموا به، فلا يلجأون إلا إليه، ولنتكلم فى كل من هذين الوصفين، ومقامهما من اتباع الحق، والاهتداء بهديه.

أما الإيمان بالله فمعناه الإيمان بعظمته وجلاله، والإحساس بأنه فوق كل شىء، وهو القاهر فوق عباده والإذعان له، والمحبة لذاته الكريمة واجبة على الإنسان، وأن يذكره دائما كأنه يراه، كما فى الحديث، «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك»(١)، والإيمان بالله تعالى يقتضى اعتقاد الوحدانية، وأنه لا منشئ للكون سواه، ولا يعبد بحق غيره، ويقتضى أن يحب الوجود؛ لأن الله تعالى خالق الوجود، ويقتضى ألا يحب شيئا إلا ابتغاء مرضاة الله، كما قال النبى

---

(١) سبق تخريجه.

ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب الشيء لا يحبه إلا الله»[1] فالإيمان بالله تعالى يقتضى الإخلاص المطلق لذاته العلية، وإذا وجد ذلك الإخلاص اتجه اتجاها مستقيما، وإذا اتجه ذلك الاتجاه أشرق عليه بنور الحكمة، وطلب الحق لذات الحق، وتجرد من تدرن النفس بالهوى، والشهوة، وبذلك يكون للحق، ولا يكون منه إلا الحق، لأنه أخلص للحق جل جلاله.

وأما الاعتصام بالله تعالى، فإن معناه ألا يجد لنفسه عاصما من الناس إلا هو، ولا ملجأ يلجأ إليه الا هو، ولا معاذ له إلا رب العالمين، وبهذا يعلو عن طاعة المستكبرين، ويتجافى عن الخضوع لذوى السلطان إلا بالحق، فلا يذل ولا يخضع، ولا يجبن، ولا ينافق، ولا يكذب، ولا يكون فيه إلا السلوك الفاضل، ولا يكون إلا المجتمع الفاضل المؤمن بالله، وبالحق لا يخشى فى الله لومة لائم، ولا يدهن فى كلامه، ولا أفعاله، ولا يخاف إلا الله تعالى الواحد الأحد الفرد الصمد، الذى يخضع لكل شيء، تبارك وتعالى بيده الملك وهو على كل شيء قدير.

ولقد ذكر سبحانه وتعالى جزاء هؤلاء، فقال تعالت كلماته:

﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ هذا جزاء الذين آمنوا بالله واعتصموا به، وهو جزاء مكون من ثلاثة أجزاء: رحمة وفضل، وهداية إلى الطريق المستقيم الذى لا عوج فيه ولا أمت.

ولكن ما هى الرحمة، وما هو الفضل، وما هى الهداية، ثم أهذا الجزاء فى الدنيا أم هو فى الآخرة؟ أم هو فيهما معا؟ لم يبين النص الكريم مكان ذلك الجزاء المؤكد، وعندى أن هذا الجزاء فى الدنيا والآخرة.

وعلى هذا يكون معنى **الرحمة فى الدنيا** أن يكونوا فى سعادة واطمئنان وهدوء بال؛ لأنهم فوضوا أمورهم للعلى الأعلى الذى ليس كمثله شيء، وهو العلى الحكيم، وركنوا أنفسهم إلى الملجأ الأعصم، والركن الأمكن، فاطمأنوا

---

(١) سبق تخريج ما فى معناه.

بالله تعالى، وبذكره، وبامتلاء قلوبهم به، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد]، ولا شك أن شقاء الناس فى الدنيا سببه انحرافهم عن الجادة وانشغالهم بأمور توجد بلبالا مستمرا، واضطرابا دائما، من خصومات، وأحقاد، وحسد، ولجاجات، ومن شأن المؤمن أن يعلو عن سفساف هذه الأمور، فيكون فى راحة واطمئنان بال، وكل آفة بالجسم تهون بجوار الاطمئنان بالله، وكل نعيم مادى دنيوى يذهب به القلق وعدم الاطمئنان.

هذه رحمة الدنيا، أما **رحمة الآخرة**، فهى النعيم المقيم، وجنات عدن خالدين فيها أبدا.

هذه الرحمة بنوعيها، ومعانيها، أما الفضل، فأصل معناه الزيادة، وهو يطلق على الزيادة فى الإحسان، والزيادة فى العطاء، والزيادة فى المنزلة.

والفضل فى الدنيا هو علو المنزلة والسلطان العادل والتمكين لهم إذا كانوا على جادة الايمان لم يجانبوها، كما قال تعالت كلماته: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [القصص]

يؤمنون بالله تعالى ويعتصمون به، وينصرونه وينصرهم، ويمكن لهم فى الأرض، ويمن عليهم بالعزة، وإذا وجدت الذين يحملون شعار أهل الايمان فى ذلة ومغلوبين على أمرهم بعد أن قامت دولة الحق، فاعلم أن ذلك لأنهم جانبوا طريق الإيمان، وضعف إيمانهم بالله، والأخذ بأوامره. ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد].

هذا هو الفضل فى الدنيا، وأما **الفضل فى الآخرة**، فهو رضوان الله تعالى، والرفعة فى الدرجات، والقرب منه سبحانه، وذلك هو الفضل العظيم.

والجزء الثالث هو **الهداية إلى الصراط المستقيم**، وهو فى الدنيا السبيل إلى الآخرة؛ وذلك لأن الإيمان بالله تعالى حق الإيمان يضىء فى القلب، فيعرفه السبيل القويم، الذى يوصل إليه تعالى، فمن آمن بالله فقد اهتدى إليه، ومن

اعتصم به وبأوامره واجتنب نواهيه، فقد سلك طريقه، ومن سلك طريق الحق فى الدنيا، كـان فى الآخرة أهدى، ومن ضل طريق الحق فى الدنيا وغوى، فـهو فى الآخرة فى الهاوية.

وفى الآية بعض مباحث لفظية تؤدى إلى توضيح معانى النص الكريم.

أولها ـ أن السين فى قـوله تعالى: ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ للتأكيد، والسين وسوف فى القرآن يدلان على توكيد الوقوع فى المستقبل.

ثانيها ـ الضمير فى قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ﴾، يعود على لفظ الجلالة، ذلك أن الهداية إلى الله تعـالى هى ثمرة الإيمان به، وطريق النجاة، وبهـا يهتدى المؤمنون إلى أقوم سبيل، وصراط الله تعالى طريقه الذى يوصل إلى الغاية.

ثالثها ـ إعراب «صراطا مـستقيمـا» لقد قال بعض العلماء إنها مـفعول ثان ليـهدى، وآخـرون قـالوا إنهـا مفـعـول لفعـل محـذوف، وتقـدير الكلام هكذا ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ﴾ ويعرفهـم طريقا يوصل إلى أعلى الغايات، وكان قـوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ اشتمل على جـزءين ساميين ـ **أولهما** ـ الهداية إلى الله وهو نعمة فى ذاته، لأنه معرفة الله تعالى حق معرفته.

وثانيهما ـ معرفة الطريق المستقيم الذى يوصل إلى الحق، وتلك نعمة أخرى تفضل بها مانح النعم ومجريها رب العالمين.

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ
لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا
إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ
وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ
يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

ابتدأت سورة النساء ببيان أحكام للأسرة، وختمت كما بدأت ببيان أحكام للأسرة، بدئت ببيان أحكام الزواج، وإباحة تعدد الزوجات فى الحدود التى رسمها الله تعالى لعباده ثم فصل القول فى المواريث ثم فصل القول فيمن يصح الزواج منهن، ثم كان من بعد ذلك الكلام فى علاقات آحاد الأمة، ثم فى علاقات الناس بعضهم على بعض، وكأنما كان الانتقال من الأسرة التى هى النواة الأولى للبناء الاجتماعى إلى المجتمع الصغير فى حقوق الجوار وما يتصل به، ثم إلى المجتمع الكبير فى الأمة وعلاج الآفات الاجتماعية فيه، وعلى رأسها النفاق والمنافقون.

ثم انتقلت إلى علاج العلاقات الإنسانية العامة، وضرورة الحرب إن اعتدت الرذيلة على الفضيلة؛ لأن فضيلة الإسلام إيجابية عاملة لا سلبية خاملة، وتكلمت عن فساد الأمم والجماعات، وسببه التعصب للباطل، وسيطرة الأوهام والغلو فى الأحكام مبينة قصة الذين اجترءوا على الحق وأصله وأهله من اليهود، والذين غلوا غلوا خرج بهم عن كل معقول ومقبول، وهم النصارى الذين غلوا فى دينهم، ورفعوا المسيح إلى مرتبة الألوهية، وزعمهم أنه ابن الله.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ﴾. وكان ختام السورة ببعض أحكام الميراث تذكيرا بأمرين:

أولهما ـ أن الأسرة هى الخلية الأولى التى يتربى فيها النزع الاجتماعى بكل ضروبه، وكل شعبه وأنه لا يوجد مجتمع صالح إلا بأسر صالحة، وفساد الأسرة فيه فساد المجتمع.

ثانيهما ـ أن أحكام الأسرة مستمدة من الله تعالى من غير توسط أحد كبيرا كان أو صغيرا، وأن مخالفة أحكام الله تعالى ضلال ليس بعده ضلال، ولذا ختمت السورة بأن بيان الله تعالى لمنع الضلال، كما سنتلو من الآية الكريمة إن شاء الله تعالى.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ﴾ رويت روايات كثيرة فى الاستفتاء الذى وقع من الصحابة، رضى الله عنهم، ويظهر أن السؤال فى ميراث الإخوة

والإخوات قد كثر، ولذلك تعددت الروايات، وتعدد أشخاص المستفتين. وأوضح الروايات ما رواه البخارى ومسلم وأصحاب السنن الأربعة وأحمد عن جابر بن عبد الله قال: «دخل علىَّ رسول الله ﷺ، وأنا مريض لا أعقل، فتوضأ ثم صب علىَّ، فقلت: إنه لا يرثنى إلا كلالة فنزلت آية الفرائض»(١) وقد فصل القول النسائى والبيهقى فى سننهما فقد ذكرا عن جابر قال اشتكيت فدخل النبى ﷺ على فقلت: يا رسول الله أوصى لأخواتى بالثلث؟ قال: «أحسن». قلت: بالشطر؟ قال: «أحسن». ثم خرج ودخل على فقال: «لا أراك تموت فى مرضك هذا، إن الله أنزل وبين ما لأخواتك، وهو الثلثان»(٢)، فكان جابر يقول: «نزلت هذه الآية: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ﴾ فىَّ». وتسمى هذه الآية آية الصَّيف؛ لأنها نزلت فى الصيف، وسماها النبى ﷺ آية الصيف، ولقد قال عمر رضى الله عنه: «إنى والله لا أدع شيئا أهم إلى من أمر الكلالة، وقد سألت رسول الله ﷺ، فما أغلظ لى فى شىء ما أغلظ لى فيها، حتى طعن بأصبعه فى جنبى أو فى صدرى، ثم قال: «يا عمر، ألا تكفيك آية الصيف التى أنزلت فى آخر سورة النساء»(٣).

والاستفتاء طلب الفتيا، أو الإفتاء، والإفتاء الإجابة السريعة التى تكون جديدة بالنسبة للسائل الطالب لها، وأصل الفتيا من الفتاء والفتى والفتاة الطرى الشباب المقبل على الجديد فيها، وأطلق على العبد فتى، وعلى الأمة فتاة لسرعة استجابتها لحاجة مولاها.

والكلالة كما جاء فى مفردات الراغب الأصفهانى وغيره من المعاجم وكتب التفسير والفقه اسم لما عدا الولد والوالد من الورثة.. وروى أن النبى ﷺ سئل

---

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى: المرضى وضوء العائد للمريض (٥٦٧٦) وأطرافه سبعة كلها بلفظ مقارب، ومسلم: الفرائض (١٦١٦) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه.

(٢) رواه أبو داود: الفرائض - من كان له ولد وليس له أخوات (٢٨٨٧)، وأحمد: باقى مسند المكثرين (١٣٨٨٦).

(٣) جزء من حديث رواه مسلم: المساجد ومواضع الصلاة.

عنها فقال: «من مات وليس له ولد ولا والد»(١) فجعلها عليه الصلاة والسلام اسما للمتوفى الذى يرثه غير ولده ووالده، وهى تطلق بهذا المعنى، وتطلق على الوارث غير الوالد والولد، وقد ورد اسم الكلالة فى الميراث مرتين فى سورة النساء، أولاهما ـ فى آيات المواريث، وهى قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ [النساء]

وقد فسر النبى ﷺ الكلالة هنالك بأولاد الأم، وانعقد الإجماع على ذلك، وأما الكلالة هنا ففسرت بأولاد الأب الأشقاء أو لأب أى العصبات وانعقد الإجماع على أن الميراث يكون للأشقاء، فإن لم يكن أشقاء فإنه يكون للإخوة لأب، على ذلك انعقد إجماع المسلمين ترجيحا لقوة قرابة الأبوين على الأب الواحد.

وقد بين الله ميراث الكلالة من العصبة بقوله تعالى:

﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ الأخت هنا هى الأخت الشقيقة أو الأخت لأب، فإنها ترث النصف إذا لم يكن للمتوفى ولد، والولد يشمل الذكر والأنثى، فالأخت الشقيقة أو لأب لا تأخذ النصف إذا كان ثمة ولد ذكر أو أنثى، وكذلك الأخت لأب، وإن كانوا عند عدم وجود الولد الذكر أو الأنثى إخوة ذكورا وإناثا، فإن الميراث يقسم بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين وإن كانت عدة من الأخوات الشقيقات أو لأب إذا لم يكن أشقاء فإنهن يأخذن الثلثين، لقوله تعالى:

(١) عن أبى بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «مَنْ مَاتَ وَلَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلاَ وَالِدٌ فَوَرَثَتُهُ كَلاَلَةٌ» فَضَجَّ مِنْهُ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثُمَّ رَجَعَ إِلى قَوْلِهِ. (عبد بن حميد). جامع الأحاديث (ج١٢، ص١٩٢). وفى كنز العمال (ج١، ص٣٠٢) من مسند أبى بكر الصديق: إذا مات الرجل وليس له ولد ولا والد فورثته كلاله.

﴿فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾ قد أشرنا إلى تقسيم الميراث اذا كان مع الأخوات الشقيقات أو لأب إذا لم يكن أشقاء أخ شقيق أو لأب، وأما اذا تعددت الأخوات من غير أخ يكن عصبة ويقاسمهن للذكر مثل حظ الأنثيين، فإنهن يأخذن الثلثين، لا يزدن عليه مهما يكن عددهن.

وقد يقال إن النص الكريم جاء فى حال ما إذا كانتا اثنتين، ولم يبين حال الأكثر من ثنتين، ونقول أن ذلك فهم من دلالة النص أو قياس الأولى فى ميراث البنتين، فإنه جاء النص فى ميراث البنتين فى قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ [النساء]

فذكر فى هذا النص السامى أنهن إن كن فوق اثنتين يأخذن الثلثين، وهن أقرب إلى المتوفى من الأخوات فبالأولى الأخوات إذا كن أكثر من اثنتين لا يأخذن أكثر من الثلثين؛ لأنهن لسن أقوى قرابة من البنات، فحذف من هنا ما بان بالمفهوم من الآيات الأولى، وكذلك حذف من الآية الأولى ما يفهم بدلالة النص من هذه الآية، فإن آية البنات قد نص فيها على ميراث الأكثر من ثلثين ولم ينص فيها على ميراث الثنين؛ وذلك لأنه إذا كان الاخوات اثنتين أخذن الثلثين، فبالأولى البنات لأنهن أقرب من الأخوات نزلت فى آية الأخوات ما يفهم من آية البنات، وترك من آية البنات ما يفهم من آية الأخوات وذلك من الإعجاز.

وقد بين النص القرآنى حال ميراث الإخوة والأخوات الشقيقات أو لأب إذا لم يكن لهن ولد ذكرا كان أو أنثى، ولم يبين حال ما إذا كان ثمة ولد، فبقى على الأصل وهو لا يستحق شيئا فى حال ما إذا كان الولد ذكرا؛ لأنه لم يرد أثر عن النبى ﷺ يورث الإخوة أو الأخوات عند وجود الولد الذكر، وفوق ذلك فإن

الولد الذكر يكون عصبة بنفسه، وهو أقرب رجل ذكر، فيكون مقدما على غيره بمقتضى النص النبوى، أما إذا كان الولد أنثى، فقد ورد الأثر عن النبى ﷺ بأنه ورَّث البنتين الثلثين وأعطى الأخ الباقى[١]، وروى ابن مسعود أنه أفتى فى مسألة كان فيها بنت وبنت ابن، وأخت فأعطى البنت النصف وبنت الابن السدس تكملة للثلثين، وأعطى الأخت الباقى تعصيبا، وذكر أن ذلك قضاء رسول الله ﷺ، وكان أبو موسى الأشعرى قد رد على البنت وبنت الابن، فلما ذكر ابن مسعود له عدل عن رأيه، وقال: لا تسألونى وهذا الحبر بينكم»[٢] وروى أن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ يرى أن تعطى البنت وبنت الابن نصيبهما، ثم يرد الباقى عليهما بنسبة نصيبهما.

والشيعة لا يورثون الإخوة والأخوات مطلقا عند وجود الأولاد ذكورا كانوا أو إناثا، لعموم النص القرآنى الذى يثبت أن ميراث الإخوة والأخوات هو بمقتضى الكلالة، والكلالة تقضى ألا يكون هناك والد ولا ولد، فإذا كان هناك ولد كانت الحال كما لو كان هناك والد، والإخوة والأخوات لا يرثون عند وجود الوالد، فكذلك لا يرثون مطلقا عند وجود الولد. ولم يصح عندهم حديث ابن مسعود، وإذا فرض وكان رواته ثقات فإنهم لا يعارضون النص القرآنى الذى اشترط ألا يكون ولد، واشترط ثانيا أن يكون ميراث الإخوة والأخوات ميراث كلالة، ولا يرثون إذا كان ثمة ولد.

---

(١) روى الترمذيّ: الفرائض (٢٠٩٢)، وأبو داود: (٢٨٩١): وابن ماجه: (٢٧٢٠) والدارقطنيّ عن جابر بن عبد الله أن امرأة سَعْد بن الربيع قالت: يا رسول الله، إن سعدا هلك وترك بنتين وأخاه، فعمد أخوه فقبض ما ترك سعد، وإنما تنكح النساء على أموالهن؛ فلم يجبها فى مجلسها ذلك. ثم جاءته فقالت: يا رسول الله، ابنتا سعد ؟ فقال رسول الله ﷺ: «ادع لى أخاه» فجاء فقال (له): «ادفع إلى ابنتيْه الثلثينْ وإلى امرأته الثمن ولك ما بقي». وفى رواية الترمذيّ وغيره: فنزلت آية المواريث. قال: هذا حديث صحيح.

(٢) سبق تخريجه.

ويفترق الشيعة الاثنى عشرية عن جمهور الفقهاء بالنسبة لميراث الإخوة والأخوات فى أصلين يتفرع عنهما الكثير من المسائل، الأصل الأول أن البنت حيث وجدت ولو منفردة عن الابن استحقت الميراث كله إن لم يكن زوج ولا أم ولا أب كما ينفرد الابن بذلك، ولا تستحق الإخوات والأخوة شيئا، وكذلك لايستحق بنات الابن شيئا، سيرا على قاعدتهم من أن البنت كالابن تستحق الميراث كله إذا انفردت، تأخذ النصف فرضا، والباقى ردا، وتحجب أولاد الأب فروض، فإنها تأخذ الباقى ردا.

الأصل الثانى - أن الأخت الشقيقة إذا استحقت النصف، فإن الأخت لأب، والأخ لأب لا يستحقان معا شيئا. بل تأخذ النصف فرضا، والباقى ردا، وتحجب أولاد الأب والجمهور على أن الأخت الشقيقة تأخذ النصف فرضا، والأخت لأب تأخذ السدس تكملة للثلثين إذا لم يكن أخ شقيق أو لأب، وإذا كانت أخت شقيقة أو أخوات، وليس معهن أخ شقيق، وكان هناك أخ لاب، فإن الباقى يكون للأخ لأب هو وأخته التى لاب للذكر مثل حظ الأنثيين وإذا كان أخ شقيق يحجب الأخوة والأخوات لأب.

هذا ما اقتضى التفسير أن نذكره، وهناك فروع كثيرة تركناها لكتب الفقه فى السنة والشيعة.

﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ هذا النص الكريم يبين أن الله سبحانه وتعالى هو الذى تولى شرح بيان أحكام الميراث، وحسب الميراث فضلا أن يكون تأكيده وتوثيقه ببيان الله تعالى.

وقد ذكر النص الكريم لماذا تولى القرآن الكريم بيانه فقال سبحانه «أن تضلوا» أى خشية أن تذهبوا إلى طرق ضالة بأمور ثلاثة - إما بإهمال الميراث جملة بألا تعطوا أحدا من الورثة شيئا، كما حاول أن يفعل الشيوعيون فأضعفوا الأسرة، وأضعفوا النشاط الإنسانى، والإقبال الاختيارى على العمل، وتركوا ذرية ضعافا لا يجدون ما يقيم أودهم، وإذا كانت الدولة ترعاهم فى بعض الأحيان، فعلى نقص بين واضح.

وإما يجعل الحرية للمورث يوصى بماله لمن يشاء من غير قيد، وفى ذلك ضلال أى ضلال، إذ يترك ورثته ضياعا، ويعطى المال غيرهم.

وإما بحرمان من يشاء وإعطاء من يشـاء، وفى ذلك إثارة للبغضاء والعداوة بينهم.

وقد قرر العلماء فى كل بقاع العـالم أن أعدل نظام للميراث هو نظام القرآن الكريم، ولكن وجـد من بيننا من يحاربه، بل وجـد من يزعمـون أنهم مفـسرون للقرآن من يدعى نـسخه، وصدق رسـول الله تعالى إذ يقـول: «إن الفرائض أول علم ينسى»[1] وقد ذيل الله تعـالى الآية بقوله ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وفى هذا إشارة إلى أن شرعه أحكم شـرع، لأنه شرع من يعلم كل شىء، من يعلم الماضى والقابل، والعـدل على أتم وجوهه، والمصلحـة المستقـرة الثابتة التى لا تعـبث بها الأهواء ثم هو عليم بمن يخالفه ويعصيه، ومن يطيعه ويرضى حكمه.

وتجب الإشارة هنا إلى أمر بيانى يقتضى تمام التـفسير ذكره هو أن الله تعالى يقول ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ﴾ وهنا لم يبين فى السـؤال موضع الاستفتاء، ولكن الإجابة بينته فاستبان، ويلاحظ أنهم سألوا النبى ولكن الله تولى الإجابة هو، فقال ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾ ونجد فى مثل هذا المقـام يقول الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ﴿٢٢٠﴾﴾ [البقرة].

ولم يسند الأمر إلى ذاته العلية كما أسـنده هنا فما السر؟ السر فى ذلك هو تأكيد أن شـرع الميراث منسوب للذات العلية، وهو الذى يتـولى الشرح، وإذا كان النبى ﷺ يتولى الشرح عنه فى كـثير، فهنا قد تولى هو توثيقـا للحكم وتأكيدا له وتربيـة للمهـابة. ويلاحظ أن أحكام الميـراث كلها أسندها الـعلى الحكيم، العليم الخبير لنفسه، فـابتدأ آياتها فى أول السورة بقوله تعالى ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ ﴿١١﴾﴾ [النساء] وختـمهـا بأن الميراث كله وصـية الله تعالى، فقال تعالت كلماته: ﴿... وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء].

---

(١) سبق تخريجه.

سورة المائدة

تمهيد

هذه سورة المائدة جاءت بعد سورة النساء، وسميت سورة المائدة لأنها اشتملت فى آخرها على طلب الحواريين من عيسى ابن مريم - عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم - أن ينزل عليهم ربهم مائدة من السماء، واستجاب عيسى عليه السلام لما طلبوا فطلب من الله تعالى قائلا كما أخبر القرآن الكريم عنه: ﴿ ... **اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** (١١٤) ﴾

وقد نزلت بعد فتح مكة، وهى سورة مدنية، وإن قال الأكثرون: إن آية:

﴿ ... **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ... (٣) ﴾ إنها نزلت والنبى ﷺ واقف بعرفات، فى حجة الوداع؛ لأنها نزلت على أى حال بعد الهجرة.

وهى من آخر القرآن نزولا، وقد اشتملت على أحكام شرعية كثيرة، وابتداؤها يدل على ما فيها، فقد ابتدأت بوجوب الالتزام بالتكليفات التى كلف الله عبيده إياها، وما يعقده العبد مع الناس، ثم أردفت ذلك ببيان الحلال من الذبائح، والحرام منها، مع الإشارة إلى تحريم الصيد فى الحرم من المحرمين، واحترام الشعائر فى الحج.

ثم أشارت من بعد ذلك إلى تمام الشرع الإسلامى، وكماله، وتكلمت السورة الكريمة من بعد ذلك فى العلاقات بين المسلمين وأهل الكتاب من الناحية الشخصية، وإباحة ذبائحهم، وحل نسائهم.

وبعد أن بينت هذه المباحات من الطيبات، أخذت تتجه إلى غذاء الروح بعد غذاء الجسم، وهو الصلاة، وما يجب أن يتقدمها، وأن العبادات لا يريد الله تعالى منها بعباده الضيق والحرج، ولكن الطهارة النفسية.

﴿ ... مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ... ﴿٦﴾ ﴾

وإن الطهارة فى الصلاة لها غاية اجتماعية عالية، وهى حسن التعامل، وإقامة العدالة؛ ولذلك أمر من بعد هذا بإقامة العدالة مع العدو، ومع الولى على سواء، ثم ذَكَّر المؤمنين بأن العدالة هى التى تحمى المجتمعات، وأن الله تعالى حماهم عندما هَمَّ قوم أن يبسطوا أيديهم بإيذائهم، ثم ذكَّرهم ببنى إسرائيل أنهم عندما نقضوا الميثاق الذى أخذه الله تعالى عليهم بإقامة العدل لعنهم الله تعالى، وجعل قلوبهم قاسية قد غلقت عن الحق، وأغلفت على تحكُّم الهوى، فأخذوا يحرِّفون الكتب ويحذفون منها ما لا تهوى الأنفس، وكذلك فعل النصارى حتى ادَّعوا الألوهية للمسيح عيسى ابن مريم، فكفروا، واسترسلوا حتى ادَّعى اليهود والنصارى أنهم أبناء الله تعالى وأحباؤه، ثم وجه الله تعالى الخطاب من بعد للذين عاصروا النبى ﷺ يدعوهم إلى الحق، ويقيم الحجة عليهم بهذه الدعوة القائمة.

وإن الذل يفسد القلوب، ويُذهب النخوة، وكذلك كان الأمر بالنسبة لليهود، فقد ذكرت السورة الكريمة أنهم بعد أن ضربت عليهم الذلة فى مصر أراد موسى -عليه السلام- بأمر ربه أن يجعل منهم قوما ذوى بأس، فأراد أن يقودهم ليدخلوا الأرض المقدسة، ولكنهم آثروا الاستنامة، فأخذوا يتيهون فى الأرض أربعين سنة.

وإن النفس البشرية إذا دخلها الحسد فسدت، وصارت العداوة بدل المودة فى موضع كان يجب أن تسوده المحبة، وقد ذكر الله تعالى فى هذه السورة خبر ابنى آدم إذ قتل أحدهما الآخر؛ لأنه قُبِلَ قربانُه، ولما أخذه الندم بعد فوات وقت العمل

حار فى مواراة جثة أخيه، حتى تعلَّمها من غراب أخذ يبحث فى الأرض ليوارى جثة غراب مثله.

وإذا كان الحسد حتى فى العبادات يؤدى إلى القتل؛ فلذلك شرعت عقوبة القصاص، كما ذكر النص القرآنى فى هذه السورة الجامعة.

وإذا كان الحقد البشرى فى الجماعات هو الذى يؤدى إلى أشد الجرائم فتكا بها، فقد ذكر سبحانه عقوبات شديدة تناسب الجرائم العنيفة الشديدة، فذكر سبحانه عقوبة الذين يحاربون النظام، وينقضُّون على الشرع ويزعجون الآمنين، ويقطعون الطريق على السابلة(١)، وقد ذكر سبحانه وتعالى - بعد ذكر عقوبة قطع الطريق المغلظة بطبيعتها - ذكر سبحانه أن طلب الحق والجهاد فى سبيله، وتثبيت النظام الإسلامى ووضعه فى نصابه، هو الوسيلة الكبرى للتقرب إلى الله تعالى.

وذكر من بعد عقوبة الذين يهددون الأمن بقوة قاهرة ظاهرة، وحكم الذين يهددون الأمن فى خفية، ويزعجون الناس فى مآمنهم، فذكر عقوبة السرقة، وهى قطع اليد.

وبعد بيان هذه العقوبات الزاجرة للجرائم المنبعثة، والتى يسوق إليها الحقد والحسد أخذ يبين سبحانه حال أهل الكتاب من اليهود، وما فسدت به قلوبهم من حقد أثر فى قولهم واعتقادهم، وأوجد النفاق فى قلوبهم، وجعل أعمالهم إثما مستمرا، وأنهم لم ينفذوا أحكام التوراة فى جرائمهم، وأرادوا أن يفروا منها إلى أحكام الإسلام زاعمين أنها تخفف عنهم، وقد بيَّن سبحانه أحكام التوراة التى نزلت على موسى، ووجوب أن يخضعوا لها، كما يجب أن يخضع أهل الإنجيل لما جاء فى الإنجيل، ومنها التبشير بمحمد ﷺ، وأشار سبحانه وتعالى إلى أن لكل أمة جعل -سبحانه- شرعة ومنهاجا مؤقتا، حتى جاءت شريعة محمد ﷺ.

وإنه بعد نزول القرآن لا حكم إلا له؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ **وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا**

---

(١) السابلة: أبناء الطريق المختلفة في الطرقات. الصحاح. سبل.

فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

وإن الحقد الذى سكن قلوب الذين يخالفونكم من أهل الكتاب لا يسوغ لكم أن تتخذوا منهم نصراء، فإن بعضهم نصراء لبعضهم، وإن الذى يرضى أن يكونوا أولياء عليه يكون منهم، وإن من يفعل ذلك يكون مرتدا عن دينه خاذلا له، ومن يرتد عن دينه لا يخسر الله تعالى به شيئا، بل سيخلفه فى الإسلام قوم يحبهم الله ويحبونه، بعد أن زال فساد المنافقين المرتدين.

وبَيَّنَ سبحانه وتعالى أن الولاية للَّه وحده وأن اليهود يتخذون الإسلام هزوا ولعبا، وأنهم يسارعون فى الإثم والعدوان متنقلين فى دركاتهما، وأن الذى أفسدهم أنهم لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، وأنهم لم يقيموا التوراة والإنجيل، وقد أمر الله نبيه فى وسط ذلك الغبار الذى يثيرونه أن يبلغ ما أنزل إليه، وقد بَيَّنَ سبحانه بعد ذلك أنه من يخلص لله يدخل الجنة؛ لأنه لا محالة سيدرك ما جاء به محمد ويؤمن به، ولقد بين سبحانه كفر الذين ألَّهوا المسيح، وقالوا: إن الله -تعالى- ثالث ثلاثة، وبَيَّنَ أنه يجب أن يرجعوا إلى الله تعالى، ولكنهم غلوا فى دينهم، فغلا النصارى فى شأن المسيح فقدسوه وألَّهوه، وغلا اليهود فى الطعن فيه، وهموا بقتله، وادَّعوا أنهم قتلوه.

وقد بين سبحانه وتعالى بعد ذلك مراتب أعداء المؤمنين، فذكر أنه فى المرتبة الأولى فى العداوة اليهود والمشركون، والنصارى أقرب مودة من غيرهم، وذكر سبحانه حال النصارى فى عهد النبى ﷺ، وقد كانوا يسارعون إلى الإيمان إذا سمعوا الحق كما قال تعالى:

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾

بعد هذا البيان المعجز، الذى ابتدأ بذكر آثار الحسد والحقد فى ابنى آدم إذ قربا قربانا، ثم ما أدى إليه الحقد من كفر وطغيان، وطمس للحقائق، ومعاندة

لأوامر الله تعالى، وفساد للنفوس، بعد هذا أخذ يبين سبحانه إباحة الطيبات، وأنه لا يصح تحريمها على النفس، وأن من يحرمها على نفسه بيمين فليحنث وَلْيُكَفِّرْ، وتكفير اليمين عتق رقبه أو إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم، فمن لم يجد شيئا من هذا فليصم ثلاثة أيام.

وإذا كان الله تعالى أباح الطيبات، فقد حرم الخبائث، وأول الخبائث الخمر والميسر، وإن الخمر أم الخبائث، وأم الجرائم، وإنه ليس على المؤمنين إثم فيما يتناولون من طيبات إنما الإثم فيما يتناولون من خبائث.

وقد بين سبحانه أن من الطيبات ما يحرم فى بعض الأوقات، لا لذاته، بل للمكان الذى يكون فيه، والحال التى يكون فيها، فحرم الصيد فى البيت الحرام للمحرمين، وأن المنع مقصور على صيد البر، ولا يشمل صيد البحر؛ وإن ذلك لمكانة البيت، ولمكانة الإحرام، وقد ذكر سبحانه وتعالى مقام البيت ومكانته.

وأن الخبيث من الأشياء ومن الأشخاص لا يستوى مع الطيب، وندد سبحانه بالذين يحرِّمون بعض الطيبات على أنفسهم لأوهام توهموها، وأفكار جاهلية اعتنقوها.

وأن الذى يقوم بالواجب ويبين الخير ويدعو إليه لا يكون مسئولا عمن يضل من بعد.

وفى وسط أحكام الحلال والحرام أخذت السورة تبين سببا من أسباب الملكية، وهو الوصية فى السفر، وطريق إثباتها.

بعد ذلك أخذ يبين الضلال الذى وقع فيه الذين ادَّعوا المسيحية وهو ألوهية المسيح، مع ذكر معجزاته عليه السلام، ومنها أنه يخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله، وأنه أخرج الموتى بإذن الله تعالى، وأنه نزلت عليه المائدة من السماء.

ومع هذه المعجزات الباهرة كفر به من كفر، وشهد الحواريون بأنه رسول من عند الله، وغالى غيرهم فزعموا أنه وأمه إلهان، ومنهم من زاد غيرهما.

وقد ذكر سبحانه وتعالى أنه سيخاطب عيسى يوم القيامة عن هذا الذى افتروه على المسيح، ونذكر هذه المجاوبة بالنص.

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾

هذه نظرات كليلة فى سورة المائدة، ولننظر فى ذكر معانيها.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾

هذه أول آية من السورة، وهى تأمر المؤمنين بأن يوفوا بالعهود التى أخذت عليهم بمقتضى الإيمان، وهى الطاعة لله تعالى ولرسوله، والقيام بالتكليفات الشرعية، فالعقد هو كل ما يلتزمه المؤمنون، سواء أكان فى الأحكام التكليفية أم من العهود التى يلتزم بها العباد، وبذلك تشمل ما يعقده الإنسان مع غيره من عقود واجبة الوفاء، وما يتبادلان فيه الالتزام، كالبيع والإجارة، وغيرهما، وتشمل ما يلتزمه المؤمن من صدقات، وما يلزمه الوفاء به بحكم الإيمان، فإن الإيمان ميثاق يلتزم فيه العبد بالطاعة، فإذا عصى فقد نقض ذلك الميثاق، وذلك كما كان

يفعل اليهود من نقض للمواثيق المؤكدة، وإن الأصل اللغوى لمعنى كلمة عقد أنه ربط لطرفى شيء، ومنه العقدة، وقد أطلق على الربط بين كلامين كالعقود القائمة، وأطلقه القرآن كما فى هذا النص على كل الأحكام الواجبة الطاعة لها؛ لأنها تشمل معنى الربط؛ لأن المؤمن بمقتضى إيمانه قد عاهد الله تعالى على طاعته، والأخذ بكل ما يأمر به، وبكل ما ينهى عنه، وقد جمع الراغب الأصفهانى معنى كلمة عقد فقال: «العقد: الجمع بين أطراف الشيء، ويستعمل ذلك فى الأجسام الصلبة كعقد الحبل، وعقد البناء، ثم يستعار للمعانى فيقال نحو عقد البيع والعهد وغيرهما، يقال: عاقدته، وعقدته، وتعاقدنا، وعقدت يمينه...».

والعقد على هذا: كل ارتباط يرتبط به المؤمن بموجب النقل أو بموجب العقل، وهو ما يدركه بالبديهة وأدنى نظر، سواء أكان بينه وبين نفسه بمقتضى إيمانه وخُلقه وإنسانيته، أم كان بينه وبين غيره، وكل هذا واجب الوفاء بحكم الله تعالى، فأوامر الله تعالى ونواهيه واجبة الوفاء، وعقود الإنسان مع غيره واجبة الوفاء إلا أن يكون فيها مخالفة لأمر الله تعالى ونهيه، فكل اتفاق على خلاف ذلك رد على صاحبه، ولا وفاء فيه، لقول النبى ﷺ: «المسلمون عند شروطهم إلا شرطا أحل حراما أو حرم حلالا»[1] ولقوله ﷺ: «كل شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل، ولوكان مائة شرط»[2] ولأن تنفيذ العقود التى تتضمن خلاف ما جاء عليه الشرع يكون تنفيذها نقضا لعهد المؤمن الذى يجب تنفيذه، وهو طاعة

(١) ذكره البخاري تعليقا: الإجارة - أجر السمسرة بلفظ: "المسلمون عند شروطهم" وأخرجه الترمذي: الأحكام - فى الصلح (١٣٥٢) عن عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ الْمُزَنِيُّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ إلا صُلْحًا حَرَّمَ حَلالا أَوْ أَحَلَّ حَرَامًا، وَالْمُسْلِمُونَ عَلَى شُرُوطِهِمْ إلا شَرْطًا حَرَّمَ حَلالا أَوْ أَحَلَّ حَرَامًا» قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٢) ذكره البخاري تعليقا: بَاب الْمُكَاتَبِ وَمَا لا يَحِلُّ مِنْ الشُّرُوطِ الَّتِي تُخَالِفُ كِتَابَ اللَّهِ، ورواه ابن ماجه: الأحكام - باب المكاتب (٢٥٢١) عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، كما رواه أحمد بلفظ مقارب: مسند الأنصار - باقي المسند السابق (٢٥٢٥٨) عن عائشة رضي الله عنها.

الله تعالى ورسوله، وعهد الله تعالى أولى بالوفاء؛ ولأن عقود الناس تستمد قوة الوفاء من أمر الله، فلا يصح أن تكون على خلافه.

فالعقد: معناه فى اللغة العربية ضم طرف إلى طرف، وربطهما ربطا محكما. يقال: عقد الرجل طرفى الحبل أو الحبلين إذا ربط أحدهما بالآخر، وضده الحل أى فك هذا الربط، وسمى الإيجاب والقبول عقدا لأنهما يضمان إرادتى المتعاقدين، ويربطان أحدهما بالآخر.

والعقد معناه فى استعمال القرآن الارتباط، والعقود والعهود والمواثيق والمعاهدات والمحالفات والتعهدات والاتفاقات والالتزامات كلها فى استعمال القرآن والاصطلاح الشرعى ألفاظ متقاربة المعنى المراد بها الارتباطات، سواء أكانت ارتباطات بين أفراد أو حكومات أو جماعات، وسواء أكانت ارتباطات على عمل أو على كف عن عمل. والفروق التى يقررها علماء القانون الدولى لهذه الألفاظ لا تعرف فى الاصطلاح الشرعى.

والإيفاء بالعقد معناه تنفيذ ما يقتضيه والقيام بما يوجبه وافيا تاما غير منقوص، والإيفاء بالعقد والوفاء به والتوفية به ألفاظ مترادفة معناها واحد.

والمعنى بالإجمال: يا أيها المؤمنون نفذوا ارتباطاتكم، وقوموا بما تعاقدتم على القيام به وافيا تاما. وقد ذكر سبحانه العقود التى أمر بالإيفاء بها بصيغة العموم ولم يخصصها بنوع لتشمل كل ارتباط يرتبط به المؤمن، سواء أكان ارتباطه مع ربه أم ارتباطه مع نفسه أم ارتباطه مع فرد آخر، وسواء أكان ارتباط جماعتهم أو حكومتهم على عمل، أو كف عن عمل؛ ولهذا قال المحققون من المفسرين: العقود التى أمر الله المؤمنين أن يوفوا بها تشمل أربعة أنواع:

الأول: العقود التى عقدها المؤمن مع ربه بسبب إيمانه. فكل من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد التزم لله بأن يطيعه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وإحلال ما أحله وتحريم ما حرمه. فهذا عقد بين المؤمن وربه. وسبب الالتزام فيه إيمانه. وإلى هذا أشار الله سبحانه بقوله: ﴿ **وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ**

عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ... ﴿٧﴾ ﴾، وبقوله: ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الرعد]

الثانى: العقود التى عقدها المؤمن مع نفسه بسبب حلفه على أن يفعل فعلا أو يكف عن فعل، أو نذره أن يفعل فعلا أو يكف عن فعل؛ فكل من حلف على فعل أو كف عن فعل أو نذر فعلا أو كفا عن فعل فقد التزم أن يبر بيمينه، وأن يوفى بنذره. وسبب الالتزام يمينه أو نذره. وإلى هذا أشار الله سبحانه بقوله: ﴿ ... وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ... ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحج].

الثالث: العقود التى يعقدها الأفراد بعضهم مع بعض من بيع وإجارة ورهن وشركة ومضاربة وزواج ونحوها؛ فكل من ارتبط مع غيره بعقد فعليه أن ينفذ موجب هذا العقد ولا يخل بشىء مما يقتضيه، وسبب الالتزام عقده بإرادته واختياره.

الرابع: العقود التى تعقدها الحكومة الإسلامية مع غيرها من الحكومات فى السلم والحرب، فإذا تعاقدت دولة إسلامية مع أية دولة على أحكام عسكرية أو مدنية، دفاعية أو هجومية، إيجابية أو سلبية، فعلى الحكومة أن توفى بعقودها، وتنفذ التزاماتها.

فالله سبحانه أمر المؤمنين بأن يوفوا بكل الارتباطات التى يرتبطون بها أفرادا أو جماعات أو حكومات، مع ربهم، أو مع أنفسهم، أو مع أبناء نوعهم.

قال الإمام أبو بكر الرازى المعروف بالجصاص المتوفى سنة (٣٧٠هـ) فى كتابه فى تفسير آيات الأحكام: العقد ما يعقده العاقد مع نفسه على أمر يفعله هو، أو ما يعقده مع غيره، ويسمى اليمين على المستقبل عقدا؛ لأن الحالف قد ألزم نفسه الوفاء بما حلف عليه من فعل أو ترك. وكذلك العهد والأمان، لأن معطيه قد ألزم نفسه الوفاء به. وكذلك كل شرط شرطه الإنسان على نفسه فى شىء يفعله فى المستقبل فهو عقد. وكذلك النذر وإيجاب القرب وما جرى مجرى

ذلك. وقد اشتمل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ على كل ذلك، وعلى إلزام الوفاء بالعهود والذمم التى نعقدها لأهل الحرب وأهل الذمة والخوارج وغيرهم من سائر الناس؛ وعلى إلزام الوفاء بالنذور والأيمان. ثم قال: ومتى اختلفنا فى جواز عقد من العقود أو فساده أو فى صحة نذر ولزومه صح الاحتجاج على جوازه ولزومه بعموم قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾.

وإذا تعارض الإيفاء بعقد من هذه الأنواع الأربعة مع الإيفاء بعقد آخر منها، وجب على المؤمن أن يوفى بعقده مع ربه، ولا يجب عليه أن يوفى بعقده مع نفسه أو مع غيره إذا كان إيفاؤه بعقد منهما يخل بإيفائه بعقد ربه. فإذا حلف على ما فيه مخالفة أمر ربه فليحنث فى يمينه وليوف عقده مع ربه ولا يوف بما حلف عليه؛ ولهذا ورد فى الحديث «من حلف على شىء ورأى غيره خيرا منه فليأت الذى هو خير منه وَلْيُكَفِّر عن يمينه»(١). وإذا عقد عقدا أو شرط شرطا يقضى بتحليل محرم أو تحريم حلال أو التزام بباطل شرعا فعليه أن يوفى بعقده مع ربه ولا يوفى بما يخالفه من عقود وشروط؛ ولهذا ورد فى الحديث: «المسلمون عند شروطهم إلا شرطا أحل حراما أو حرم حلالا»(٢).

وقد خاطب الله المخاطبين فى أمرهم بالإيفاء بالعقود بوصف الإيمان ليشير إلى أن الإيفاء بالعقود مما يقتضيه الإيمان، وفى هذا حث على امتثال الأمر والإيفاء بالعقد. وهذا الذى أشار إليه القرآن صرح به رسول الله ﷺ فى سنته إذ عدَّ الوفاء بالعهود من شعائر الإيمان وآيات المؤمن، ففى الحديث: «آية المؤمن ثلاث: إذا حدث صدق، وإذا اؤتمن أدَّى، وإذا وعد وفَّى»(٣) وكما ذكرهم بإيمانهم فى بدء هذه السورة إذ أمرهم بالإيفاء بالعقود جملة، ذكرهم بإيمانهم فى

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

أمرهم بكل عقد فصَّله فيها. ففى تفصيل ما حرمه قال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ** ... (٢) ﴾.

وفى تفصيل التطهر لأداء الصلاة وهى عماد الدين قال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ** ... (٦) ﴾.

وفى تفصيل عماد الدنيا وهو الشهادة بالقسط فى إقامة حقوق الله قال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ** ... (٨) ﴾.

فالمقصود بهذا إشعار المؤمنين بأن إيفاءهم بالعقود جملة وتفصيلا هو من مقتضى الإيمان، وأن نكث العهود والإخلال بما تقتضيه العقود لا يتفق والإيمان. فالمؤمن حقا يوفّى بالتزاماته لربه ولنفسه ولغيره. ومن هنا نفهم معنى الحديث: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن»(١).

وإن من أوائل الأحكام الشرعية ما أحله الله تعالى، وما أحله سبحانه قيده بقيود، ولذا قال تعالى:

﴿ ... **أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ** ... (١) ﴾ ابتدأ الحكم ببيان الحلال من الأطعمة، لسببين: **أولهما**- أن العرب كانوا يحرمون فى الجاهلية على أنفسهم بعض الحيوان لأوهام ورثوها، لم يأت بها دين، ولم يتصورها عقل، وليس للتحريم سبب يدركه أهل العقول. **ثانيهما**- أن النص جاء للإباحة مع القيد، فهى حلال بشرط ألا تكون مما يتلى تحريمه، وسيبينه الله تعالى من بعد، والتحريم سببه أحد أمرين: أولهما- ذاتى فى ذات الحيوان كالخنزير والميتة، وما يشبه الميتة من التى تردت فى منخفض من الأرض فنفقت، أو نطحت فهلكت، والثانى- عرضى بحال معينة كتحريم الصيد، فالنص لإباحة مقيدة مع ذكر القيد بالإشارة إليه ثم بيانه.

---

(١) متفق عليه، وقد سبق تخريجه.

والبهيمــة: اسم لكل حيوان أعجم، لإبهامه من جـهة نقص النطق، وعدم تمييزه.

والنعم فى أصل الإطلاق العربى يكون على الإبل والبقر والغنم، واشتقاقها من النعمة؛ لأنها من نِعَمه سبحانه وتعالى التى أنعم الله بها، كما قال تعالى:

﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ ﴾ [النحل].

ويصح أن يكون مـثل الإبل والبقـر والغنم كل حيـوان أو طير يتـغذى من النبات، ولم يرد نص بتحريمه فيدخـل الظبى وحمار الوحش وغيرهما من آكلات الأعشاب، كما يدخل الطير غير سباعه، وغيرها.

﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ ﴾ البهيمة فى اللغة العربية: هى كل ذات أربع من الدواب. والأنعام هى الإبل والبقر والغنم ذكورها وإناثهـا، وقد بينها الله سبحانه فى سورة الأنعام بأنها ثمانيـة أزواج: من الضأن اثنين (الكبش والنعجة) ومن المعز اثنين (الـجَدْى والعنز) ومن الإبل اثنين (الجمل والناقـة) ومن البقر اثنين (الثور أو الفحل والبقرة أو الجاموسة). فهذه هى الأنعام فى لسان القرآن.

ولما أمر الله المؤمنين بأن يوفوا بالعقود أخذ يفصل لهم العقود التى أمرهم أن يوفوا بها، وبدأ بأولهـا وأحقها بالإيفاء وهى عقودهم مع ربهم بمـقتضى إيمانهم، وبدأ من هذه العقود ببـيان ما أباح لهم أكله والانتفاع به من الحيـوان، وما حرمه؛ لأن هذا الأكل والانتفـاع أكثر مـا يعرض للإنسان، وأكـثر ما يحـتاج إلى معـرفة حكمه، ولأن أهل الجاهلية كانوا قد جاروا وظلموا فى حكمهم فى الأنعام، وبنوا تحريمهم لما حـرموه منها، وتحليلهم ما أحلوه منهـا على نزعات وثنية، وأوهام لا يصح أن يبنى عليـهـا تحريم ولا تحليل؛ فـجعـلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعـام نصيبا، فقـالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا، فما كـان لشركائهم فلا يصل إلى الله، وما كـان لله فهو يصـل إلى شركائهم. وقـالوا هذه أنعام وحرث حِـجْرٌ لا يطعمهـا إلا من نشاء، بزعمهم، وأنعام حرمت ظهـورها، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افـتراء عليه، وقالوا مـا فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكـورنا ومحرم

على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء. وجعلوا من الأنعام بحيرة وسائبة ووصيلة وحاميا.. وهكذا ساروا فى تحريم الأنعام وإحلالها على ما تقتضيه وثنيتهم، لا على ما تقتضيه مصلحتهم. فالله سبحانه بدأ عقوده مع المؤمنين ببيان أنه أباح لهم الأنعام كلها إلا ما يتلو عليهم تحريمه منها. فهو سبحانه بدأ ببيان ما فيه قضاء على وثنيات الجاهلية، وبما فيه إشعار المؤمنين بكمال النعمة عليهم، إذ أباح لهم الأنعام كلها والانتفاع بها بكل وجوه الانتفاع، ولم يقيد هذه الإباحة بما كانت تقيده به أهل الجاهلية من قيود وشروط لا تقوم على أساس من المصلحة، وإنما تقوم على أوهام وأباطيل لا يصح أن يبنى عليها تحريم ما رزق الله به عباده من الطيبات، بل قيدها باستثناء ما فيه ضرر بصحة الإنسان أو دينه. وعلى النفع والإضرار يبنى التحليل والتحريم. ومن هذا نفهم الحكمة فى أن الله سبحانه قال: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ﴾ ولم يقل أحلت لكم الأنعام؛ لأنه أراد سبحانه التنبيه إلى أن الأنعام أحلت بوصف أنها بهيمة؛ وكل الأنعام ذكورها وإناثها متحقق فيها هذا الوصف، فكل الأنعام حلال لكم. وإضافة لفظ بهيمة للأنعام لتأكيد عموم الأنعام التى أحلت، وللإشارة إلى أن التفريق بين بعض الأنعام وبعضها - مع أنها كلها بهيمة - ظلم وحظر لما لا مبرر لحظره. وفى سورة الحج: ﴿... وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ... ﴿٣٠﴾﴾ [الحج]

﴿إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ هذان استثناءان من العموم الذى دلت عليه ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ﴾ لأن معناها أحلت الأنعام كلها لكم جميعا. استثنى سبحانه من الأنعام التى أحلت الأنعام التى يتلو على المؤمنين آيات تحريمها فى قوله سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ ... ﴿٢﴾﴾ [المائدة] وفى قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ... ﴿٣﴾﴾ [المائدة] وفى قوله: ﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ... ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام].

• واستثنى سبحانه ممن أحلت لهم بهيمة الأنعام المحرمين بالحج أو العمرة أو بالحج والعمرة، والموجودين بأرض الحرم سواء أكانوا محرمين أم غير محرمين بقوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾.

والإحرام بأحد النسكين أو بهما معا معناه فى الشرع نية النسكين أو أحدهما نية مقرونة بشعار من شعائر الحج كالتلبية أو سوق الهدى. فمن أحرم أى نوى أحد النسكين واتخذ شعاره لا يحل له ما دام محرما أن يصطاد الأنعام ولا غيرها من حيوان البر، سواء أكان الصيد من أرض الحل أم من أرض الحرم. ولا يحل له الأكل والانتفاع بما اصطاده وهو محرم. وأما صيد البحر والأكل منه فهو حلال للمحرم؛ قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ... (٩٦)﴾.

فالمحرم لا يحل له صيد البر؛ سواء أكان فى أرض الحل أم فى أرض الحرم. وأرض الحرم لا يحل الصيد فيها للمحرم وغير المحرم.

فمعنى ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ أى محرمون، أو فى أرض الحرم، أى وأنتم فى حرمة الإحرام أو حرمة الأرض الحرام. ولله الحكمة البالغة فى هذين الاستثناءين؛ فإنه استثنى مما أحل ما يتلو على المؤمنين من المحرمات دفعا للضرر عن دينهم وأجسامهم. وسيتبين فى تفصيل المحرمات أن تحريم كل محرم منها إنما هو لدفع أذى دينى أو بدنى. واستثنى ممن أحل لهم فريقين: المحرمين بأحد النسكين؛ لأنه أراد أن يكون إحرام المحرم شعار السلام والأمان، وتجنب العدوان حتى على الحيوان؛ ومتى عرف المحرم أنه لا يحل له الصيد تجرد من أسلحته وآلاته وانصرف عن التفكير فى إزعاج آمن أو مطاردة ضعيف، والموجود بأرض الحرم مطلقا؛ لأنه أراد أن تكون أرض الحرم أمنا حتى للصيد ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا ... (٦٧)﴾ [العنكبوت].

وقد استثنى سبحانه وتعالى من التحليل ما يتلى من بعد ذلك، وهو ما اشتمل عليه قوله تعالى من بعد: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا

أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ ... ﴿٣﴾ ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ المعنى: إن الله يحكم الحكم الذى يريده، لا الحكم الذى تهواه النفوس، أو الحكم الذى توارثه الخلف عن السلف. فهو سبحانه إذا حكم بإيجاب الإيفاء بالعقود، وحكم بإحلال بهيمة الأنعام، وحكم باستثناء بعض الأنعام مما أحله، وحكم باستثناء الفريقين ممن أحل لهم، إنما يصدر فى حكمه عن إرادته. وسنته فى إرادته بيَّنها سبحانه بقوله: ﴿ ... يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ... ﴿١٨٥﴾ ﴾ [البقرة]

وبقوله: ﴿ ... مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ... ﴿٦﴾ ﴾ فأحكامه التى ذكرها مصدرها إرادته، وهو ما يريد العسر ولا الحرج بحكمه، لا فى تحريمه المحرمات، ولا إحلاله المباحات، وإيجابه الواجبات، وكل ما أمر به أو نهى عنه أو شرعه.

ونرى أن «يحكم» تعدت من غير الباء فلم يقل تعالت كلماته: «إن الله يحكم بما يريده» بل قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ وذلك لتضمن الحكم معنى حد الحدود، والمنع عن الموبقات، فكان التعدى بغير الباء.

وقد جاء فى تفسير القرطبى: أن «هذه الآية مما تلوح فصاحتها وكثرة معانيها على قلة ألفاظها لكل ذى بصيرة بالكلام، فإنها تضمنت خمسة أحكام: الأول: الأمر بالوفاء بالعقود، والثانى: تحليل بهيمة الأنعام، الثالث: استثناء ما يتلى بعد ذلك، الرابع: استثناء حال الإحرام فيما يصاد، الخامس: ما تقتضيه الآية من إباحة الصيد لمن ليس بمحرم. وحكى النقاش: أن أصحاب الكندى قالوا له: أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن، فقال: أعمل مثل بعضه، فاحتجب أياما كثيرة، ثم خرج فقال: والله ما أقدر، ولا يطيق هذا أحد، إنى فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة، فنظرت، فإذا هو قد كلف بالوفاء ونهى عن النكث، وحلل تحليلا عاما، ثم استثنى استثناء بعد استثناء ثم أخبر عن قدرته وحكمته ـ فى سطرين،

ولا يقدر أحد أن يأتى بهذا إلا فى أجلاد»[١] اللهم انفعنا بكتابك، واهدنا بهديه، واملأ قلبنا بنوره وعلمه إنك أنت العليم الحكيم.

ومن قرأ سورة الأنعام المكية ووقف على ما كان عليه أهل الجاهلية من تحريم وتحليل بناء على الأهواء والشهوات والتقاليد الوثنية، يفهم الحكمة البالغة فيما ختمت به هذه الآية من قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ أى لا يحكم الحكم الذى تقتضيه الأهواء؛ وإنما يحكم الحكم الذى تقتضيه الحكمة والعدالة والمصلحة فى الدين والدنيا؛ وهذا يوجب على المؤمن أن يتقبل أحكام الله بالإذعان والتسليم؛ لأن مصدرها إرادة الحكَم العدل اللَّطيف الخبير.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾

فى الآية السابقة أشار سبحانه وتعالى إلى ما أحل من طيبات، وأشار إلى مكان البيت الحرام وحرمته، وأنه لا يحل صيده والإحرام قائم، وأن الله تعالى يحكم بما يريد، وهذا حكمه وأمره، وما على المؤمن إلا الطاعة فيما أمر به، وفى هذه الآية يبين سبحانه وتعالى ما يجب، وقد بيَّن الحرمات التى تجب صيانتها ومن تتعلق بهم، وقد ذكر أمورا لا يصح إحلالها، وهى شعائر الله تعالى، والشهر

(١) أجلاد أي مجلدات.

الحرام والهدى والقلائد، والذين يقصدون البيت. وقد ابتدأ بأولها، فقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ ..** ﴾

النداء لأهل الإيمان الصادقين فى إيمانهم الذين يعملون بما يأمر، وينتهون عما ينهى، وتصدير الكلام بهذا النداء لبيان ما كان محرما فى الحج وما يدعو الإسلام إلى الاستجابة إليه من مقتضيات، والإحلال معناه أن يخالف أمر الله تعالى فما يكون حراما منهيا عنه فى الحج يفعله ويستحله، وما يكون مأمورا به لا يستجيب له، وشعائر الله تعالى فى هذا المقام المراد بها مناسك الحج، وما حرمه فيه من ثياب فى أثناء الإحرام، وما أمر به من أمور فيه من السعى بين الصفا والمروة والطواف بالبيت الحرام، والوقوف بعرفة، ورمى الجمار وسائر الأفعال، فإن هذه كلها شعائر لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ **ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ** (٣٢) ﴾ [**الحج**]. وكما قال تعالى فى بعض هذه المناسك: ﴿ **إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ...** (١٥٨) ﴾ [**البقرة**].

وسميت أعمال الحج شعائر، وهى جمع شعيرة، كما سميت مشاعر جمع مشعر، وهى أمور معلمة محسوسة مرئية، تدل على اتجاه القلوب إليه سبحانه وتعالى، فكان الإحرام مقترنا بمظهر حسى وهو ألا يلبس مخيطا، وأن يجهر بالتلبية، وكان الطواف وهو عمل حسى يدل على الاتجاه إلى ضيافة الرحمن، والإقامة بجوار بيته العتيق - أول بيت وضع - وفى ذلك اتصال دائم بين الرسالة الإلهية؛ إذ إن الذى بناه أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، فكان الطواف به رمز الوحدة فى الرسالة الإلهية، وأن آخرها متصل بأولها، وأنها سلسلة متصلة الحلقات تُتم كل واحدة جزءا حتى أوفت على الغاية برسالة نبينا محمد ﷺ.

وكذلك السعى بين الصفا والمروة والوقوف بعرفة فى المشهد الإسلامى الأكبر، ورمى الجمار، كما فعل إبراهيم عليه السلام من قبل، وذلك مظهر للتطهر التام، والخروج من وسوسة الشيطان، ورميه والإعراض عنه.

والأمر الثانى الذى لا يحل، ونُهِىَ المسلمون عن إحلاله، هو الشهر الحرام، والمراد النهى عن القتال فيه، والشهر مفرد أريد به الجمع، وذلك أنه أشهر أربعة كما قال تعالى فى سورة براءة:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [التوبة].

وهذه الأشهر لا يحل القتال فيها، فلا يبدأ المسلمون القتال فيها، ولكن يدافعون إن اعتدى عليهم فيها، ولهم أن يطلبوا الهدنة إن جاءت فى أثناء القتال فيها، فإن كان الذين يقاتلونهم لا يؤمنون بها استمر القتال، إذ لا مناص منه، وقد ادَّعى كثيرون أن منع القتال فى هذه الأشهر نسخ، ولا نجد دليلا يدل على النسخ، بل الأدلة تدل على دوام التحريم بل الأدلة متضافرة على استمرار تحريمها؛ لأن ذلك جاء فى سورة المائدة، وهى من أواخر القرآن نزولا، ولأن النبى ﷺ ذكر التحريم فى خطبة الوداع ولعل الذين ادَّعوا النسخ أخذوه من الحروب الإسلامية، والواقع أن المسلمين كانوا مضطرين للاستمرار.

والأشهر الحرم هى: ذو القعدة وذو الحجة، والـمُحَرَّم، ورجب - الذى بين جمادى وشعبان - والأشهر الثلاثة الأولى فيها الحج والذهاب إليه والعودة منه، ورجب فيه العمرة، والتحريم ليكون الطريق آمنا فى مدة الحج.

﴿وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ﴾ الهدى جمع هَدْيَة، وهو ما يُهْدَى، ويراد به هنا ما يهدى إلى البيت الحرام ليذبح فى الحج، وإحلاله المنهى عنه ذبحه فى غير موضع الحج، كما قال تعالى:

﴿... وَلا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ... ﴿١٩٦﴾﴾ [البقرة] كما أن من إحلاله اغتصابه أو منعه من أن يصل إلى البيت الحرام، والقلائد جمع قلادة، وهى ما تُقَلَّد به الهدى، ومن الفقهاء من خصها بالبدن (الإبل والبقر) فلا يقلد سواها، والنهى عن إحلال القلائد قد اختلف المفسرون فى معناه، وأحسن ما

قيل هو ما قرره الزمخشرى وهو: أن النهى عن إحلال القلائد هو النهى عن إحلال الهدى الذى حمل القلادة، وكان ذكرها بعد ذكر الهدى عامة من قبيل ذكر الخاص بعد العام، وكان المعنى لا تحلوا الهدى، ولا تحلوا القلائد بشكل خاص، وذلك لأن إحلال الهدى الذى أشعر وأعلم بالقلادة يكون أشد نهيا، إذ إنه اعتداء على ما أعلن بالحس أنه خصص للبيت الحرام، ولم يكتف بالنية وحدها، فما خصص بالنية قد يخفى، وما خصص بالحس لا يخفى، وذكر الزمخشرى وجها آخر، وهو أن النهى عن إحلال ذات القلائد، وإذا كانت القلائد لا يحل الاعتداء عليها فأولى بذلك الحيوان الذى يحمل شعارها، ومهما يكن من التخريجين فالنهى ثابت عن إحلال الهدى وشعاره.

وإن سوق الهدى وذبحه من مناسك الحج وفيه توسعة على سكان البيت الحرام، وإجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿ **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧)** ﴾ [إبراهيم].

ولكن هل يغنى عن الهدى وذبحه فى منى ما يُقَوَّم به من نقود؟ لقد أجمع الفقهاء على أنه لا تغنى قيمته عنه، ما دام يستطيع الرجل أن يهدى. وقد جعل الله تعالى الصيام بدل الهدى لمن لا يجد، فقال تعالى:

﴿ **... فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ... (١٩٦)** ﴾ [البقرة].

ولقد ثارت مناقشات حول استبدال الذبح بقيمة الهدى، لأن الناس لا يأكلون كل ما يذبح فيتلف، ووراء ذلك فشو الأوبئة ونحوها، وهذا فوق ما تنشره الدماء من أدواء.

ونقول فى الجواب عن ذلك: إن هذا من ضيق عقل الإنسان، لا من شريعة الديان، والقرآن أمر بالذبح، ولم يقل أحد من الصحابة أو من جاء بعدهم: إن قيمة الهدى تغنى عنه، وكان يجب أن يفكر المفكرون فى الانتفاع باللحم والدم من

غير أن يتعرضا للفساد والإفساد، وذلك بادخار اللحم، بالتثليج أو نحوه ليمد سكان الحرم الشريف باللحم أكثر العام. لا فى موسم الحج وحده، وأن تقام المدابغ لدبغ الجلود، فتكون مصدر ثروة، والدم يصنع منه أحسن الأوانى، والنار تطهره، ولكن العقول تتسع فى كل شئون الحياة، فإذا جاءت إلى أوامر الإسلام ضاقت، وذلك من ضعف الإيمان.

﴿وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ المراد الذين يقصدون البيت الحرام لأداء الحج، وقد قال بعض العلماء: إن هؤلاء الذين ينهى عن إحلالهم (بمعنى منعهم) هم من كانوا من المشركين يقصدون البيت الحرام يبتغون التجارة ورضا الله تعالى بزعمهم، وقد نسخ هذا بقوله تعالى بعد ذلك: ﴿... إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ... (٢٨)﴾ [التوبة].

ولكن سورة المائدة من آخر القرآن نزولا، وقد قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: «المائدة من آخر القرآن نزولا، فأحلوا حلالها وحرموا حرامها» وقال الحسن البصرى: ليس فيها منسوخ. وعلى ذلك نقول: إن آمِّين البيت (أى القاصدين له حجا) هم من المؤمنين، ومعنى إحلال هؤلاء منعهم من الحج لحرب أو نزاع أو بغى، بل يجب أن يكون مفتوحا للجميع، وإذا كان الله تعالى قد جعله آمنا فقد فتحه لكل المؤمنين يقصدونه، وليس لأحد أن يمنعهم، فلا يحل لأحد أن يمنع أو يُصعِّب على الناس دخول البيت الحرام.

وقد بيَّن سبحانه مقصد هؤلاء الذين يؤمون البيت، وهو أنهم يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا، وفسر بعض العلماء الفضل بأنه التجارة، أى أنهم يبتغون من رضوان الله تعالى غرضا من أغراض الدنيا، وهو التجارة، وقد يكون فى التجارة جلب أرزاق لسكان الحرم، فالتجارة غير ممنوعة، ولكن القصد الأسمى هو رضوان الله تبارك وتعالى، فهو العبادة التى يكون لها القصد الأول فى البيت.

وفسر آخرون الفضل بالثواب، فالذين يقصدون البيت حاجين أو معتمرين يطلبون الثواب من الله تعالى، وهو النعيم المقيم، ويطلبون ما هو أكبر منه وهو رضوان الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿**يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ** ﴿٢١﴾﴾ [التوبة].

وهذا هو الذى نختاره، فإن المقام مقام طلب الثواب، لا مقام طلب المال، ولكل مقام ما يناسبه.

وإن الآية تومئ إلى مناسك الحج والقيام بها، وقد ذكرت الآية السابقة أنه لا يحل الصيد مع الإحرام، وهذه الآية بينت ما يجب على المؤمن من القيام بشعائر الحج، وفتح أبواب مكة لمن يريدها من المؤمنين، وذكرت الآية الكريمة متى يباح الصيد، فقال سبحانه: ﴿**وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا**﴾.

معنى الإحلال الخروج من الإحرام بالحج أو العمرة أو هما معا بأن يلبس الملابس كاملة، ويقص شعره وأظافره وغير ذلك مما كان يحرمه عليه الذى هو فيه من الحج مع لبس لباسه، والقيام بمظاهر النسك، والاتجاه إلى الله تعالى، والشعور بأنه فى ضيافته عند بيته الحرام.

وإذا تحلل ذلك التحلل أبيح له ما حرمه الإحرام عليه، ومن ذلك الصيد، والأمر بالإحلال هنا ليس للطلب، فليس الصيد بمطلوب، ولكنه مباح، وقد جاءت صيغة الأمر بعد النهى، فكانت للإباحة، وهى كذلك فى كل صيغة «افعل» بعد النهى غالبا، مثل قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ** ... ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة].

وذلك بعد أن نهى عن البيع عند النداء للصلاة من يوم الجمعة فى قوله تعالت كلماته: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴿٩﴾﴾ [الجمعة].

وقد روى فى ذلك قول النبى ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، ألا فزوروها»(١).

والخلاصة أن هذا النص الكريم فيه إباحة الصيد بعد الخروج من الإحرام بعد أن كان محرّمًا فى أثناء الإحرام.

ولقد ساد الإسلام أرض العرب بعد أن كانت حجة الوداع، ولكن قد بقيت بعض الإحن فى النفوس، ونفس المؤمن يجب أن تكون طهورا لا يعيش فيها الحقد، ولا حب الانتقام؛ ولذا نهى الله تعالى عباده المؤمنين عن أن يدفعهم البغض السابق لقوم لأنهم صدوهم عن المسجد الحرام، أن يمنعوهم كما منعوهم، فإن ذلك يكون اعتداء من أهل الإيمان؛ ولذا قال سبحانه:

﴿ **وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا** ﴾ يجرمنكم معناها يحملنكم؛ لأن «جَرَمَ» فى هذا المقام وما يشبهه معناها حمل حملا قاطعا، يقال جرمنى كذا على بغضه، أى حملنى عليه حملا قاطعا، ومن ذلك قول الشاعر:

ولقد طعنت أبا عيينة طعنة   جَرَمَت فزارة بعدها أن يغضبوا

أى حملت فزارة على أن تغضب.

والشنآن: البغض الشديد، يقال شَنِئْت الرجل أشْنأ شنآنا وشَنْأ أبغضه،والمعنى. لا يحملنكم البغض الشديد لقوم بسبب أنهم صدوكم، أى منعوكم من دخول المسجد الحرام أن تعتدوا عليهم بأن تصدوهم، فالجاهلية والشرك يبرران ذلك الصد، والإسلام لا يبرره، لأنه اعتداء على البيت الحرام، واعتداء على شعائر الله سبحانه وتعالى.

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم: الجنائز- استئذان النبي ﷺ ربه (٩٧٧)، ولفظه عَنْ ابْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا، فإنها تزهد فى الدنيا وتذكر الآخرة».

وقد يقال: إن الاعتداء كان وهم فى الجاهلية، وقد أسلموا، فكيف يتصور أن يعاملهم المؤمنون بما كان منهم فى الجاهلية مع أن الإسلام يَجُبُّ ما قبله؟ والجواب عن ذلك أن جرح النفس قد يستمر أثره، فنهى الله تعالى المؤمنين عن أن يكون منهم ما يكون مجاوبة لما كان من آلام نالتهم بسبب صد المشركين لهم فى الجاهلية، وخصوصا أن فى بيان ذلك بيانا لأن كل صد عن المسجد الحرام اعتداء على شعائر الله، سواء كان ذلك قبل الإسلام أم كان سببه هوى النفس والشيطان، ومشاحة بين المسلمين أنفسهم كما حدث فى عصور سابقة، وكما يحدث الآن مهما تكن الأسباب.

وهنا قراءتان لابد من ذكرهما، ـ أولهما، قراءة ﴿**أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾ بفتح الهمزة، وهذه تشير إلى أن الصد كان فى الماضى، والاعتداء مجارمة لما كان فى الماضى، والقراءة الثانية (إن صَدُّوكُمْ) بكسر الهمزة[1]، ومؤداها أنه إذا كان فى المستقبل من يصدكم عن المسجد الحرام، فلا تعاملوه بالمثل وتصدوه؛ لأن ذلك اعتداء.

والنص الكريم يدل على أن كل اعتداء حرام سواء أكان بالصد عن المسجد، أو كان بغيره فما حرم الصد إلا لأنه شعبة من الاعتداء.

﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾ إن الاعتداء والتعاون على البر والتقوى ضدان، وعندما يُذْكَر أمر يَرِدُ على الخاطر ضده؛ ولذا أمر الله تعالى بالتعاون على البر والتقوى بعد النهى عن الاعتداء. والبر: التوسع فى فعل الخير للناس والطاعة لله تعالى وتطهير النفس من أدرانها، وهذا إذا لم تذكر التقوى؛ فإذا ذكرت التقوى معه، كما فى هذا النص الكريم، كان البر هو الطاعة الظاهرة ونفع الناس، وإسداء المعروف لهم، وكانت التقوى تصفية النفس وتطهيرها وإخلاصها لله تعالى، وقد قال فى ذلك أبو الحسن الماوردى: «ندب الله

---

(١) (إن صدوكم) بكسر الهمزة، بها قرأ ابن كثير وأبو عمرو، وقرأ الباقون بفتح الهمزة. [غاية الاختصار- سورة المائدة (٧٩٧). ج ٢، ص٤٦٩].

تعالى إلى التعاون بالبر وقرنه بالتقوى له؛ لأن فى التقوى رضا الله تعالى، وفى البر رضا الناس، ومن جمع بين رضا الله تعالى ورضا الناس فقد تمت سعادته، وعمت نعمته» والإثم: أصله اللغوى الأفعال المبطئة عن الخير المانعة له، ثم أطلق على كل ما يفسد النفس ويفسد العمل، ويكون فيه العصيان، ومجافاة الخير، وقرب الشر، وإن الإثم إذا لم يتعد إلى غيره كان على نفسه، وإن تعدى على غيره كان عدوانا، وقد قال تعالى: ﴿**وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا** (١١١) **وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا** (١١٢)﴾ [**النساء**].

وقد نهى سبحانه عن التعاون على الإثم والعدوان، فنهى عن الإثم الذى تكون مغبته على صاحبه أو تفسد قلبه، وعن العدوان على غيره.

والتعاون: معناه تبادل المعونة، ويكون فى الخير بمد يد المعونة فى الشدائد، وكل يجود بما عنده لأخيه، فالعالم بعلمه، والشجاع القوى بدفاعه عن الضعيف، وأن يكون المؤمنون يدا على من سواهم، ومنع الظالم من ظلمه، وإرشاد الضال، ومنع الآثام. وهذا تعاون أفرادى عام، وله أشكال كثيرة، والتعاون الجماعى بتعاون الأسرة، وتعاون الحى، وتعاون الأمة، وتعاون الجماعة الإنسانية، وكل ذلك حثَّ عليه الإسلام، ومن التعاون تأليف جماعات له، والنبى ﷺ أوجد أعظم تعاون جماعى وذلك بالإخاء فى الإسلام.

وقد ذيل الله سبحانه النص الكريم بقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾.

وهذا إنذار لمن يتعاونون على الإثم والعدوان وترهيب لغيرهم (وقد أكد الله -تعالى- هذا المعنى بثلاث مؤكدات «إنَّ» الدالة على التوكيد)، وبذكر لفظ الجلالة، والوصف بالشدة.. اللهم قنا غضبك، وامنحنا رضاك، إنك أنت الغفور الرحيم.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣)﴾

فى الآية السابقة بَيَّن سبحانه تحريم الصيد فى وقت معين ومكان معين، وحال معينة، وهذا فى البيت الحرام وفى الأشهر الحرم المخصصة للحج، كما قال تعالى: ﴿**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ** ... (١٩٧)﴾ [**البقرة**].

وفى هذه الآية بَيَّن سبحانه وتعالى المحرمات من الحيوان الذى كان فى أصله حلالا، ولكن كان التحريم فيه سببه مقترنا بهلاكه، مما يهلك بموت من غير ذبح، وكذلك بعض أجزائه، وبَيَّن تحريم حيوانات أخرى وبعض الأفعال التى تقترن بالذبح عند الذين أباحوا الميسر لأنفسهم، ولذلك قال تعالى:

﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ**﴾ هذه الآية تبين تحريم أربعة أنواع، هى الميتة وما هو فى حكمها مما يقتل ودمه لا يخرج منه، والثانى الدم، والثالث لحم الخنزير، والرابع ما أهل لغير الله به وما ذبح على النصب، وحرم مع هذا فعلا يقترن بالذبح، وهو الاستقسام بالأزلام، أى قسم اللحم بطريق الأزلام، وهى الأقداح التى تستعمل فى الميسر، أو كانت تستعمل عند العرب.

والميتة: الحيوان الذى يموت، وكلمة «الميتة» وصف والموصوف هو الجثة، فإن كل جثة لا تجرى فيها الحياة تكون ميتة، والمراد من الميتة هنا ما يموت من غير فعل فاعل، والميتة غالبا تكون مستقذرة فى ذاتها تعافها النفس وينفر منها الطبع، وهى رجس قذر، يكون فيه تعفن، أو على الأقل يسارع إليه التعفن، وهى فوق أنها خبث يكون فى الغالب سببه مرضًا قد اعترى جسمه، وقد يكون بجرثومة تبقى بعد الموت أمدا غير قصير، ولأن الميتة يكون دمها فيها وقد فسد؛ ولذلك كله حرمت، فهى قذارة وفيها ضرر كبير.

والدم الذى جاء النص الكريم بتحريمه هو الدم المسفوح، الذى نص عليه فى قوله تعالى فى سورة الأنعام: ﴿**قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ** ... ﴿١٤٥﴾﴾ [**الأنعام**] والمراد بالمسفوح: الذى يسفح ويراق من الحيوان، وإن غلظ وتماسك من بعد ذلك، فالدم الذى يكون جامدا بأصل خلقته وتكوينه كالكبد والطحال يكون حلالا، كما ورد عن النبى ﷺ أنه قال: «أحلت لنا ميتتان حلالان: ودمان حلالان الكبد والطحال، والسمك والجراد»(١).

وكان تحريم الدم لأنه ضار، إذ إنه يعسر هضمه، وسريع التعفن، ويحمل كثيرا من جراثيم الأمراض، ولا يمكن تنقيته من هذه الجراثيم كاللبن إذ يغلى. وإن دم الحيوان السليم قد ينقل إلى الإنسان محفوظا مصونا من غير أن يتعرض للهواء فيزيده قوة أو يعوضه عما فقده، ولكنه لا يمكن أن يكون غذاء يتناول بالفم، ويمر على الجهاز الهضمى، إذ إنه لا يكون قابلا للتمثيل فى الجسم فوق ما يسرى إليه من جراثيم تفسده وأن النفس الفطرية تعافه.

---

(١) رواه ابن ماجه: الأطعمة - الكبد والطحال (٣٣١٤)، وأحمد: مسند المكثرين من الصحابة (٥٦٩٠) عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ؛ فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ فَالْحُوتُ وَالْجَرَادُ، وَأَمَّا الدَّمَانِ فَالْكَبِدُ وَالطِّحَالُ».

ولحم الخنزير: حرام لأنه مستقذر، تعافه الفطرة كالميتة والدم، إذ إنه يلازم القاذورات ويتغذى منها، ولهذا المعنى حرمت البهائم الجلالة التى تأكل الجلة وتتغذى بها، فقد روى عن ابن عمر أنه قال: «نهى رسول الله ﷺ عن أكل الجلالة وألبانها»(١) وهذا النهى للكراهة عند بعض الأئمة، وللتحريم عند الآخرين، وقالوا: لا تؤكل حتى تحبس، وكان ابن عمر يحبس الدجاجة ثلاثا، ولا يرى بأكلها بعد ذلك بأسا.

وإن المقصد من ذلك ألا يأكل المؤمن إلا طيبا لا خبث فيه.

وإن كون لحم الخنزير ضارا فهو أمر قد قرره الطب، فلحمه يولد كثيرا من الديدان، كالدودة الوحيدة والشعرة الحلزونية التى تجىء إليه من أكل الجرذان الميتة، وإنه عَسِر الهضم لا تكاد النفس تستسيغه، والجهاز الهضمى لا يهضمه، وإن الذين يستطيبونه قد فسدت أذواقهم، والعادة هى التى سهلت استساغته، وكثير من المستقذرات تسهل العادة تناولها، وقد وصفه القرآن الكريم بأنه رجس، وقد صدق فيه الوصف، فهو ضار ضررا بليغا، ومستقذر استقذارا شديدا مهما يقل فيه الذين فسدت أذواقهم.

﴿**وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ**﴾ الإهلال: هو رفع الصوت، وأصله رفع الصوت عند رؤية الهلال، ثم أطلق على رفع الصوت لأمر يدعو إلى رفعه، ومنه أهلَّ فلان بالحج إذا رفع صوته بالتلبية والدعاء فى كل مكان يناسب ذلك، وعند البيت الحرام، والإهلال لغير الله عند الذبح أن يذبحوا باسم صنم من الأصنام، وإن ذلك فيه عبادة لغير الله تعالى، فنهى عن أكل ما يذبح لذلك منعا لهذا العمل الذى هو شرك بالله تعالى، وكان النهى عن الأكل لأنه ذريعة إلى المنع المطلق.

والتحريم فى هذا ليس لذات الحيوان، بل لما صحبه من عمل فيه شرك بالله تعالى، وفسوق عن أمره سبحانه وتعالى.

---

(١) رواه الترمذي: الأطعمة- في أكل لحوم الجلالة وألبانها (١٨٢٤)، وأبو داود: الأطعمة (٣٧٨٥)، وابن ماجه: الذبائح - النهي عن لحوم الجلالة (٣١٨٩)، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

ولذلك كان تحريم الميتة والدم والخنزير؛ لأنها رجس، وهذا حرِّم لأنه فسق وإشراك، وهذا مؤدى قوله تعالى: ﴿**قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ** ... ﴿١٤٥﴾﴾ [**الأنعام**].

وإن الذبيحة إنما تحرم إذا كان قد ذكر غير اسم الله تعالى عليها، وإنها حلال إذا ذكر اسم الله تعالى عليها، ولكن إذا لم يذكر اسم الله تعالى عليها، ولم يذكر غيره، وكان الذابح مسلما، وكان الذبح فى مكان لا يبدو أن فيه تقربا لغير الله تعالى أتكون الذبيحة حراما أم لا تكون؟.

قال بعض الفقهاء: لا تحل لقوله تعالى: ﴿**وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ** ... ﴿١٢١﴾﴾ [**الأنعام**] فإذا لم يذكر اسم الله، فذلك من مواضع النهى.

وقال آخرون: إن موضع التحريم هو فيما أهل لغير الله به، والآخر على أصل الحل، ويدل على ذلك القصر فى التحريم فى قوله تعالى: ﴿**قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا** ... ﴿١٤٥﴾﴾ [**الأنعام**]. وبقصر النهى فى قوله تعالى: ﴿**وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ** ... ﴿١٢١﴾﴾ [**الأنعام**] على حال ما إذا ذكر غيره وما كان قبل النهى وبعده يزكى تفسيره بذلك، وسنبين ذلك عند الكلام فى هذه الآية إن شاء الله تعالى.

﴿**وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ**﴾.

المنخنقة: هى التى تموت بخنق إما باختناقها من وثاقها، أو يخنقها غيرها ويتركها حتى تموت.

والموقوذة: هى التى وقذت بحجر، أو تضرب بعصا حتى تموت من غير تذكية شرعية، فالوقذ الرمى، والضرب الشديد.. وما يرمى بالسهم، فيموت أيعد موقوذا أم لا يعد؟ روى أن النبى ﷺ قال: «إذا رميت بالمعراض (السهم الذى قد يصيب بعرضه لا بحده) فخزق فكُلْهُ وإن أصابه بعرضه فلا تأكله، فإنه

وقيذ»(١) ومؤدى الحديث أن السهم إن اخترق الجسم وأسال الدم يؤكل المضروب وإلا فإنه لا يؤكل، فالعبرة إذن بإسالة الدم، فإن أساله أكله، وإلا فلا يؤكل.

والمتردية: هى التى تموت بسبب سقوطها من مكان مرتفع فى مكان منخفض، كالتى تسقط من جبل فى هاوية، أو تسقط فى بئر فتموت.

والنطيحة: هى الحيوان الذى يموت من نطح أو اصطدام، فهى فعيلة بمعنى مفعولة، كذبيحة بمعنى مذبوحة، وقد كان العرب يأكلون كل هذه الأصناف الأربعة، فجاء الإسلام وحرمها، والحقيقة أنها من نوع الميتة؛ لأنها تموت ودمها محبوس فيها لم يخرج منها، ويصح أن تدخل فى عموم الميتة؛ ولذلك جاء الاقتصار على ذكر الميتة فى قوله تعالى:

﴿**قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ... ١٤٥**﴾ [**الأنعام**]

وهى بلا شك داخلة فى عموم كلمة الميتة.

وما أكل السبع: المراد به ما افترسه ذو ناب وأظفار من سباع الحيوان كالأسد والنمر والذئب والثعلب والضبع، وغيرها من الحيوان، فما افترسه حتى مات يكون حراما سواء أكل منه أم لم يأكل، وذلك لأنه افترسه ليأكله، فأطلق اسم السبب وأريد المسبب، ولإطلاق السبب هنا معنى، ذلك أنه افترسه ليأكله، فيخرج بذلك الكلب المعلَّم الذى أطلق ليصطاد لصاحبه وسمى عند إطلاقه، فهو يفترس لا ليأكل، بل لمن أطلقه، وقالوا: إنه إذا افترسه ليأكله هو بأن أكل أكثره فإنه لا يحل الباقى لمن أطلقه.

وقد استثنى من المحرمات السابقة حال التذكية الشرعية، وهى الذبح أو ما يشبهه مما يريق الدم، ويصفيه؛ ولذا قال تعالى: ﴿**إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ**﴾ أى أن المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما افترسه السبع إذا أُدرك وهو حى، وذُكى التذكية

---

(١) رواه البخاري: الذبائح والصيد - صيد المعراض (٥٤٧٦). والوقيذ والموقوذ: ما يقتل بغير أداة حادة. راجع أطرافه في البخاري ومسلم، من رواية عدى بن حاتم رضى الله عنه.

الشرعية وأريق دمه، فإنه يكون حلالا . . بسبب هذه التذكية، فهو وما ذُكى ابتداء وهو قوى قادر - على سواء[١]؛ لأن التذكية الشرعية وهو حى هى سبب الحل، وقد تحقق فى الحالين.

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ **النصب**: اسم مفرد لحجر كان ينصب فيعبد، وتصب عليه دماء الذبائح، ويشرح اللحم ويوضع عليه، وكانوا يفعلون ذلك تقربا إليها، أو ليتقربوا عن طريقها، فنهى الله تعالى عن أكل ما يذبح على هذه الحجارة قطعا لدابر الوثنية والأفعال التى تؤدى إليها، وتحريم هذا هو من قبيل تحريم ما أهل لغير الله تعالى، فالمعنى فيهما واحد، والتحريم ليس لذات الشىء المذبوح، ولكن لما اقترن بالذبح من آثام وفسوق عن أمر الله تعالى.

والفعل الذى حرمه الإسلام من غير أن يتعرض لتحريم اللحم هو ما جاء فى قوله تعالى:

﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾ فقد وصفه سبحانه وتعالى بأنه فسق، والأزلام جمع زلم، وهو القدح من أقداح الميسر، وهى عشرة أقداح، منها ثلاثة غفل ليس فيها ما يدل على مقدار يؤخذ، وسبعة فيها مقادير تبين مقاديرها، فإذا عقر الجزور[٢]، قسم على مقدار ما يشتمل عليه من أجزاء ثم ضربت الأقداح، فمن يخرج له منها قدح يأخذ بمقدار ما يشتمل عليه، وبذلك يطلب كل واحد نصيبه من الجزور بهذا القمار، وقد وصف الله تعالى ذلك الفعل بأنه فسق، أى خروج على المبادئ الإسلامية، والتحريم منصب على الفعل، وليس منصبا على اللحم، وعلى ذلك إذا كانت الذبيحة قد ذكيت بالطريقة الإسلامية، وذكر اسم الله تعالى عليها، فإنها تكون حلالا، والتقسيم بهذه الطريقة يكون حراما.

---

(١) وهو قوي قادر: أي الحيوان قبل أن يصيبه ما أصابه، ما دام ذكي التذكية الشرعية قبل موته.
(٢) الجزور: البعير. ذكرا كان أو أنثى. الصحاح (جزر).

﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ اليوم المعرف بأل التى هى للحضور، هو يوم عرفة؛ ذلك أن الآية كلها نزلت فى يوم عرفة، وفيها بيان المحرمات، وقد ذكر سبحانه وتعالى عقب بيان هذه المحرمات بيانا قاطعا بين حياة جاهلية فيها أخباث، وحياة إسلامية نظيفة نزيهة ببيان قوة الإسلام، وعلوه فى الأرض، وإذلال الشرك، وذهاب سطوته فى أرض العرب، ومعنى قوله تعالى: ﴿يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ﴾ أنهم يئسوا من القضاء عليه، وتغيير حقائقه، وسيطرة الشرك على المؤمنين، وقد قال النبى ﷺ فى حجة الوداع يوم عرفة، وهو يعرض الحقائق الإسلامية، ويشهد الله تعالى على تبليغها: «إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه»[1] ويأس الشيطان هو يأس أوليائه من المشركين من أن يتغلبوا على ذلك الدين المكين الثابت، وإذا كان المشركون قد يئسوا من السيطرة، ووهنت قواهم، فإنه لا تجوز مسايرتهم فى أى أمر من الأمور؛ ولذا قال سبحانه ﴿فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ والخشية: خوف يشوبه تعظيم لما يخشى منه، والمعنى لا تجعلوا للكافرين مكانا للهيبة أو الخوف أو التعظيم، فقد ضعفوا واستكانوا، وإنما الخشية كلها لله الذى نصركم وأنتم أذلة، وأعزكم وقد كنتم مستضعفين فى الأرض، وخشية الله توجب طاعته، والأخذ بكتابه وسنة نبيه، وأن تباعدوا بينكم وبين ما كان فى الجاهلية، وما عليه عادات الجاهليين، وأن تأخذوا بمبادئ الإسلام وحده، وأنه قد كمل الدين بيانا وعزة وسلطانا؛ ولذا قال تعالى:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ هذه الآية آخر آيات القرآن الكريم نزولا، وقد نزلت فى عرفة فى حجة

---

(١) روى الترمذي: الفتن - دماؤكم وأموالكم (٢١٥٩) عن عَمْرِو بْنِ الأَحْوَصِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ لِلنَّاسِ: «أَلا وَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ مِنْ أَنْ يُعْبَدَ فِي بِلادِكُمْ هَذِهِ أَبَدًا، وَلَكِنْ سَتَكُونُ لَهُ طَاعَةٌ فِيمَا تَحْتَقِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ فَسَيَرْضَى بِهِ» قَالَ أَبُو عِيسَى: وَفِي الْبَاب عَنْ أَبِي بَكْرَةَ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَجَابِرٍ وَحِذْيَمِ بْنِ عَمْرٍو السَّعْدِيِّ وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. ورواه ابن ماجه: المناسك - الخطبة يوم النحر (٣٠٥٥) عن عمرو بن الأحوص بنحوه.

الوداع، وقد مكث رسول الله ﷺ بعد هذه الآية واحدا وثمانين يوما ثم قبضة الله تعالى إليه، وفى هذا النص الكريم ذكر حقائق ثلاثا وهى: إكمال الدين، وإتمام النعمة، والرضا بالإسلام دينا.

ومعنى أكملت دينكم: أكملت بيان ما آمركم به وما أنهاكم عنه، وبينت ما يحل لكم وما يحرم عليكم، وأكملت الكتاب الذى تضمن شرعى، والذى هو حجتى عليكم، والحجة لكم فى أمر دينكم، وأوضحت فيه الأدلة التى ترشدكم إلى تعرف ما تكون فيه حاجتكم، وما تعرفون منه بالاستنباط والتفكير مما تحتاجون إلى معرفته من أمر دينكم، وخلاصة القول: إن إكمال الدين هو إكمال بيانه.

ومعنى إتمام النعمة: هو إتمام النصر، وإتمام السلطان، وذلك بفتح مكة، والسلطان فى العرب، وإزالة دولة الأوثان، وجعل الكلمة العليا هى كلمة التوحيد.

ومعنى ورضيت لكم الإسلام دينا: رضيت الاستسلام لأوامرى والانقياد لما شرعت لكم من أحكام، وما يجب عليكم التزامه من فرائض ومعالم وحدود ﴿**دِينًا**﴾: أى أمرا تدينون به وتطيعونه ولا تخرجون عنه، وهذا ما قرره ابن جرير، ويصح أن نقول: إن المعنى رضيت لكم التسليم بكل ما اشتمل عليه القرآن وما دعا إليه النبى ﷺ دينا تطيعوننى بمقتضاه، والمعنيان متقاربان، وان اختلف التعبير، وعبر هنا بكلمة (رضيت) مع أن الأمر هنا أمر إيجاب وتكليف، وذلك للإشارة إلى أن المؤمن الذى يبلغ درجة المحبة لله تعالى يطيعه؛ لأن فيه مرضاته من غير نظر إلى التكليف الذى يتضمن الثواب والعقاب.

وقد جاء فى تفسير ابن جرير الطبرى: «فإن قال قائل: أو ما كان الله تعالى راضيا الإسلام لعباده إلا يوم أنزل هذه الآية؟ قيل لم يزل الله راضيا لخلقه الإسلام دينا، ولكنه جل شأنه لم يزل يصرف نبيه محمدا ﷺ وأصحابه فى درجات الإسلام ومراتبه، درجة بعد درجة، ومرتبة بعد مرتبة، وحالا بعد حال، حتى أكمل لهم شرائعه ومعالمه، وبلغ بهم أقصى درجات مراتبه، ثم قال حين أنزل هذه

الآية: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾ بالصفة التى بها اليوم، والحال التى أنتم عليها منه اليوم دينا، فالزموه ولا تفارقوه، أى هذا الرضا كان ذكره أنسب عند الكمال. وإن كان مصاحبا للشرع فى مواضع نزوله.

وقد يسأل سائل لماذا ذكر الله سبحانه وتعالى قوله تعالت كلماته: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فى وسط آية محرمات الأطعمة، ومحللاتها كما سيجىء، ونقول إن ذلك تنبيه إلى يوم نزول هذه الآيات، باعتبارها آخر القرآن نزولا، فكان التنبيه إلى اليوم وهو يوم عرفات؛ لأنه ذكرى الكمال، وذكره فى جملة معترضة أدعى إلى التنبيه والتذكير.

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ التحريمات السابقة كلها فى حال الاختيار، أما فى حال الاضطرار، بأن يكون الشخص مضطرا للأكل ليدفع عن نفسه الموت جوعا، فإنه فى هذه الحال يجوز الأكل. والمخمصة: المجاعة التى تورث ضمور البطن، وقد فسر النبى ﷺ حال الضرورة التى تبيح بعض هذه المحرمات بأن يجىء الصبوح والغبوق، ولا يجد ما يأكله، أى يجىء اليوم كله، ولا يجد طعاما يأكله(١)، وشرط رفع الإثم عن تناول المحرم للضرورة ألا يتجاوز حد الضرورة؛ لذلك قال تعالى ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ﴾ أى مائل إليه راغب فيه يتجاوز حد الضرورة، وهذا يتلاقى مع قوله تعالى فى سورة البقرة: ﴿... فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ ... (١٧٣)﴾ [البقرة].

ومعنى النص الكريم: فمن اضطر إلى تناول المحرم، وهو فى حال جوع شديد وهوغير طالب لهذا المحرم، ولا يتجاوز حد الضرورة، فإن الله تعالى يرفع عنه الإثم؛ لأن الله تعالى غفور رحيم، فهو رحيم بعباده؛ ولذا جعل الضرورة مسوغه للمحذور، وهو غفور يغفر الذنوب ويفتح باب التوبة لعباده.

اللهم ارحمنا واغفر لنا، ولا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا.

---

(١) سبق تخريج ما في معناه من حديث.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ
﴿٤﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾﴾

كانت الآية السابقة فى بيان المحرمات، وبعضها كانت العرب تستبيحه، فالخنزير كان مستباحا عند العرب، وكذلك أنواع الحيوان الذى لا يذكى تذكية تهرق دمه، وتنقى اللحم والعظم من أوضاره، فكان ذلك التحريم دافعا لأن يتأثم بعض المسلمين، ويسألوا عن المحلل من الأطعمة واللحوم، بعد ذكر المحرم، وقد سألوا عن ذلك، كما يدل النص الكريم ﴿**يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ**﴾.

يتضمن السؤال معنى القول، كأن تأويل الكلام هكذا: يسألونك قائلين: ماذا أحل لنا؟ وكان التفاتا من الحاضر إلى الغائب للتنبيه ولتوجيه الذهن؛ ولأن فى السياق حكاية عنهم، كما يقال: أقسم فلان ليفعلن كذا، فتضمن الحكاية جعل للتحدث بضمير الغائب موضعا؛ ولو كان الحديث بضمير الحاضر لكان له موضع أيضا، ولكن نسق القرآن أبلغ وأقوم، وأدعى للتنبيه والالتفات، وقوله تعالى: ﴿**مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ**﴾ يصح أن نعتبر ماذا كلها اسم استفهام مبتدأ خبره جملة أحل لهم، وقد اختار ذلك الزمخشرى فى الكشاف، فقال: «و«ماذا» مبتدأ، و«أحل لهم» خبره، كقولك أى شىء أحل لهم» وموضوع السؤال هو ما أحل لهم من

مطاعم؛ لأن الآية السابقة كانت فى محرمات المطاعم، فكان السؤال عما أحل منها بعد أن بين ما حرم منها من خبائث، وقد أشار سبحانه وتعالى إلى أن طريق التحليل هو التذكية الشرعية؛ ولذا كان الجواب فى المطاعم الحلال، وبعض طرق التذكية، فقال تعالى:

﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ أمر الله تعالى نبيه أن يتولى الجواب؛ لأن النبى ﷺ هو المبلغ للرسالة، وهو المبين لهم والمرشد، وهو المرجع، ومما يتفق مع مقام الرسالة أن يكون هو المجيب، ولكن إذا كان اتجاه الناس إلى ربهم والضراعة تكون الإجابة منه سبحانه من غير توسط أحد؛ ولذا قال تعالى:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ... ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة] أمر الله تعالى أن يجيب هو سؤالهم الخاص بالحلال والحرام؛ لأنه يتعلق ببيان رسالته التى بعث بها، وعمله الذى يتولاه، وهو بيان الشرع للناس، والطيبات التى أحلت ـ هى غير المحرمات التى حرمت، وما تستطيبه النفوس، ولا تستقذره وتعافه، وبعض الفقهاء ومنهم المالكية فسروا الطيبات بالحلال الذى لم يحرم فى نص من كتاب أو سنة، من غير نظر إلى أن الناس يستطيبونه أو لا يستطيبونه، وبعض آخر من الفقهاء ومنهم الإمام الشافعى قالوا: إن الطيب هو الذى تستطيبه النفوس ولا تستقذره، ولم يثبت تحريمه بنص، وعلى ذلك لا يحل ما نص على تحريمه؛ لأنه خبيث قذر جاء النص بتحريمه؛ ولا يحل أيضا المستقذر الذى تعافه النفوس، كالخنافس وشبهها من هوام الأرض، ومثلها كل حيوان أو طعام يثبت ضرره بالإنسان طبيا أو يستقذره طبعيا؛ لأن هذا الدين دين الفطرة، فما تعافه النفوس المستقيمة لا يكون حلالا، وعندى أن هذا هو المعنى المستقيم.

وقد بين سبحانه فيما أحل صيد الكلب ونحوه من الفهود والطيور؛ لأن ذلك كان من مواضع سؤالهم، فقال:

﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ وبعض المفسرين قال: إن فى الكلام محذوفا دل عليه السياق، وهو كلمة «صيد»، والمعنى أحل لكم الطيبات، وأحل لكم صيد ما علمتم من الجوارح .. وبعض العلماء لا يقدر محذوفا، بل يجعل الخبر هو الجملة الطلبية: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ويكون قوله تعالى: ﴿مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ حالا بعد حال، وصاحب الحال، ضمير الخطاب فى قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم﴾ حال كونكم ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ معلمين، وتقدير الكلام يكون هكذا.. وأحل لكم ما أمسكن لكم من صيد الجوارح؛ وذلك لأن الخبر محل الفائدة، ودخلت الفاء الخبر؛ لأن الجملة طلبية، ولأن ما موصولة، والفاء تدخل فى خبر الموصول، مثل قوله تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ... ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام] لتضمن الموصول أحيانا معنى الشرط.

والتكليب تعليم الكلاب ـ ومما يشبهها ـ الصيد، فهو اسم فاعل اشتق من الكلب، أو أخذ من الكلب باعتبار أن الكلب طيع ألوف أقرب الحيوان إلى تعلم الصيد، وقد قال تعالى ما يفيد تعليم كل حيوان له مثل خواص الكلب فى الطاعة والمهارة، والاستعداد للتعلم، فقال تعالى: ﴿مِّنَ الْجَوَارِحِ﴾ وهذا يعم كل حيوان يمكن أن يعلم الصيد، والجارح معناه الكاسب، أى الحيوانات التى من شأنها أن تكسب صيدا كما يكسب الإنسان، أو معناه: الذى يخدش الجسم بالجروح، فإن ذلك لا يستغنى عنه الصيد، إذ إنه لا يمكنه أن يسيطر على الحيوان غالبا إلا إذا جرحه بأنيابه، وهذا هو الذى نختاره.

وقوله تعالى: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ﴾ حال على اعتبار أن من مبتدأ، خبره ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾، وهى حال بعد حال كما أشرنا، وذلك الذى اخترناه، وعلى تقدير محذوف، والمعنى: صيد ما علمتم من الجوارح، تكون جملة تعلمونهن مما علمكم مستأنفة.

ومعنى هذه الجملة السامية: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ أى أنكم تعلمونهن مما علمكم الله تعالى بإلهامكم تعليمهن والانتفاع بهن فى الصيد، ومن للتبعيض، أى تعلمونهن جزءا مما أودعه الله عقولكم، أى تعلمونهن وسائل التحايل، والسبل المختلفة للاصطياد، وقد أودع الله غرائزهم القابلية للتعلم، وما أودعها إلا لتنتفعوا بها فى التعليم. وقد اتفق العلماء على أن الصيد بالكلاب يجوز، ويحل ما تمسكه، وقال الجمهور: إن مثل الكلاب كل حيوان يصنع صنيع الكلب. وكل طير كذلك؛ لأن قوله تعالى ﴿مِّنَ الْجَوَارِحِ﴾ يعم كل حيوان يصنع صنيع الكلب، وكان التعبير بمكلبين؛ لأن الكلاب أكثر الحيوانات استعمالا لذلك، كما أشرنا من قبل، وقال بعض الفقهاء: إنه لا يحل إلا صيد الكلاب، والأول أظهر وأوضح.

وقد استنبط الإمام مالك من هذا النص أن الكلاب طاهرة، وليست نجسة، وقال: كيف يحل صيدها وينجس لحمها؟ ورد بهذه الآية الخبر الوارد عن النبى ﷺ الذى جاء فيه «إذا ولغ الكلب فى إناء أحدكم فليغسله سبعا أولاهن بالتراب الطاهر»[1] والجمهور على أن حل صيده لا يستوجب طهارته.

والأمر فى قوله تعالى ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ للإباحة، ومعنى قوله تعالى: ﴿أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾، أى أمسكنه محبوسا عليكم، ولأجلكم، وقد روى عن النبى ﷺ: «إذا أرسلت كلبك المعلم فاذكر اسم الله، وإن أمسك عليك وأدركته حيا فاذبحه، وإن أدركته قد قتل، ولم يأكل منه، فكله»[2]، فإن أخذ الكلب ذكاة.

(١) رواه النسائى: المياه - تعفير الإناء بالتراب (٣٣٧) وبنحوه رواه البخارى: الوضوء (١٦٧) ومسلم: الطهارة (٤١٨) كما رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه وأحمد بألفاظ مقاربة.

(٢) عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّه ﷺ: «إِذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ فَاذْكُرْ اسْمَ اللَّه، فَإِنْ أَمْسَكَ عَلَيْكَ فَأَدْرَكْتَهُ حَيًّا فَاذْبَحْهُ، وَإِنْ أَدْرَكْتَهُ قَدْ قَتَلَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنْهُ فَكُلْهُ، وَإِنْ وَجَدْتَ مَعَ كَلْبِكَ كَلْبًا غَيْرَهُ وَقَدْ قَتَلَ فَلا تَأْكُلْ، فَإِنَّكَ لا تَدْرِي أَيُّهُمَا قَتَلَهُ، وَإِنْ رَمَيْتَ سَهْمَكَ فَاذْكُرْ اسْمَ اللَّه، فَإِنْ غَابَ عَنْكَ يَوْمًا فَلَمْ تَجِدْ فِيهِ إِلا أَثَرَ سَهْمِكَ فَكُلْ إِنْ شِئْتَ، وَإِنْ وَجَدْتَهُ غَرِيقًا فِي الْمَاءِ فَلا تَأْكُلْ». رواه مسلم: الصيد والذبائح - الصيد بالكلاب المعلمة (١٩٢٩).

وعلى هذا قال الشافعى وأحمد: إذا أكل منه الكلب لا يحل؛ لأنه لم يمسك على من أرسله، إنما أمسكه على نفسه، وقال الإمام مالك: ما دام قد عاد به ولو مأكولا منه، فقد أمسكه على صاحبه، وقد روى ذلك عن بعض الصحابة، كعبد الله بن عمر، وسعد بن أبى وقاص، وأبى هريرة، وسلمان الفارسى، وقد وردت أحاديث تفيد أنه يأكل منه صاحبه، وإن أكل الكلب منه.

والحنفية فصلوا تفصيلا حسنا فى تفسير قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ فقالوا: إن عاد بأكثره فقد أمسك على صاحبه، وإن عاد بأقله، فقد أمسك على نفسه، وبذلك يقع النهى عن الأكل الذى ورد عن النبى ﷺ فكان تفصيلهم تفسيرا لقوله تعالى: ﴿أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾.

والأحاديث الواردة فى الباب تشترط كلها أن يذكر اسم الله تعالى عند الإرسال ليقوم الصيد مقام الذبح، وهذا هو قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

ثبت من الأحاديث - وقد روينا بعضها - أن ذكر اسم الله تعالى يكون عند الإرسال، لا عند الأكل، وإن التسمية عند الإرسال تقوم مقام التسمية عند الذبح، وإن الإرسال مع التسمية على من أرسله يكون كالتذكية الشرعية إلا إذا أدرك حيا، فإنه لا بد من التذكية؛ لأن قيام التسمية والإرسال مقام التذكية لتعذرها، ،إذا جىء به حيا فإن التذكية ممكنة فلا يغنى عنها ما يقوم مقامها، عند عدم إمكانها، والواو فى العطف لا تقتضى ترتيبا ولا تعقيبا، وذكرت آخرا لأنها من تقوى الله تعالى، فكان اقترانها بالأمر العام بالتقوى من التنسيق البيانى الحكيم، وهو الذى يتناسب مع الذكر الحكيم.

واختلف العلماء فى التسمية عند الإرسال كاختلافهم فى وجوب التسمية عند الذبح، فقال الظاهرية: إنها واجبة حملا للأمر هنا على الوجوب، ولقوله تعالى فى مقام آخر: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ... (١٢١)﴾ [الأنعام] وقال الشافعى: إنها مستحبة هنا، وقريب من ذلك قال الحنفية: إلا أن يكون الترك

عـمدا، وقـال المالكية: إنهـا إن تركت عـمدا لا تؤكل؛ لأنه لا يبـين أن الصيـد للمرسل إلا إذا قصد ذلك، وتركـها عمدا، ينافى القصد، وإن تركت سـهوا فإنها تؤكل، لأن الحيوان المخـصص للصيد يكون إرساله المقصـود منه الأكل ولا يقصد سواه، إلا أن يقصد اللعب أو اللهو، وعندئذ يكون الترك عمدا لا نسيانا.

وقد ذيَّل الله سبحانه وتعالى الآية بالأمر بالتقوى والتذكير بالحساب، وذلك لتذكـير الناس عند الطعـام بأن يكونوا فى ظل تقـوى الله تعالى بألا يسـرفوا فى الطعام فيفـسدوا أجسامهم، وألا يتعدوا القـدر المطلوب، أو لا يأكلوا حق الغير، وما يكون محرما، لتعلـق حق الناس؛ ولذلك يقول الله تعالى بعد الأمر بالأكل: ﴿ ... وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأعراف].

ويقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ الظاهر أن هذه الآية وما قـبلها من آيات، من قـوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ﴾ نزلت فى يوم واحد؛ ولذلك كان قوله ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ﴾ إلى آخره.. هو ذات اليوم فى قـوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ﴾، وقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ...﴾ فهـو يوم واحد؛ لأن المعـرفة إذا أعيدت معرفة كان المقـصود واحدا، وهذا الكلام السامى كله نزل يوم عرفة، وهو تسجـيل لأحكام باقية إلى يوم القـيامة، والطيبـات هى ما ذكر فى الآية السـابقة، وهى الحلال غـير المستـقذر طبعـا وفطرة، وطعام الذين أوتوا الكتـاب حل أيضا، والجمهور قـد اتفقوا على أن الطعام هو الحيوان الحـلال لقوله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ... ﴿٩٦﴾ ﴾، ولقوله تعالى: ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴾ [آل عمران]، ولقوله تعالى: ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا ... ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الأنعام]

وقد قال بعض الشيعة: إن المراد من الطعام هنا هو البُر، وغيره من الحبوب، والأطعمة غير الذبائح، أما الذبائح فلا تحل خشية ألا يذكروا اسم الله تعالى عليها، وفى الغالب يذكرون غيره.

والجمهور على حل ذبائح أهل الكتاب إذا أهريق الدم، وقد اتفق الجمهور على حل هذه الذبائح، والخلاف عندهم فيما عدا الذبائح التى ثبت حلها بالنص، وأما غير الذبائح فهو قسمان: القسم الأول: ما لا عمل لهم فيه كالفاكهة والبر، وهو حلال بالاتفاق، والقسم الثانى: ما لهم فيه عمل وهو قسمان أيضا: أحدهما: ما يحتمل دخول النجاسات فيه كاستخراج الزيوت من النباتات أو الحيوانات، وهذا قد اختلف فيه الفقهاء، فمنهم من منعه لاحتمال النجاسة ومن هؤلاء ابن عباس؛ لأن احتمال النجاسة ثابت، وهو يمنع الحل، وقد تبع هذا الرأى بعض المالكية، ومن هؤلاء الطرطوشى، وقد صنف فى تحريم جبن النصارى، ويجرى مجرى الجبن الزيت، وعلى هذا الرأى يجرى مجراها السمن الهولاندى وما شابهه. ولكن الجمهور على جواز ذلك ما دام لم يثبت أنه اختلط بهذا النوع من الطعام نجاسة.

والمحرم ما ثبت أنه قد دخله نجاسة، بأن دخله أجزاء من الخمر أو الميتة أو الخنزير، أو غير ذلك من المحرمات.

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الإحصان يطلق على أربعة معان: **الإسلام**، ولا موضع له هنا؛ لأن الكلام فى غير المسلمات. والثانى، التزوج، ولا موضع له هنا أيضا، لأن المتزوجة لا تحل مسلمة أو كتابية، والثالث، **العفة**، والرابع، **الحرية**، وهذان المعنيان لهما موضع القول، فبعض الفقهاء قرر أن المراد بالمحصنات من أهل الكتاب العفيفات، ويكون الوصف للترغيب فى طلب العفة، والعمل على الانتقاء والاختيار، وعلى هذا

الرأى يصح الزواج من الكتابيات، سواء أكن حرائر أم كن إماء، ويروى فى ذلك أن النبى ﷺ تزوج مارية القبطية، وهى أَمَة(١).

وبعض الفقهاء ومنهم الشافعية قالوا: إن المراد بالمحصنات من أهل الكتاب الحرائر، فلا يحل من نساء أهل الكتاب إلا الحرائر، وقد ذكر هذا بقوله تعالى:

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ... ﴿٢٥﴾﴾ [النساء]

فقيد زواج الإماء هنا بأن يكنَّ من المؤمنات، كذلك قيد زواج الكتابيات هنا بأن يكنَّ من الحرائر.

والشيعة يمنعون زواج الكتابيات، على اعتبار أنهن يشركن فى عبادتهن، والله تعالى يقول: ﴿وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ... ﴿٢٢١﴾﴾ [البقرة] ولكن إجماع غير الشيعة قد انعقد على إباحة الزواج من الكتابيات.

وقد ذكر سبحانه وتعالى وجوب المهور لهن، فقال تعالى: ﴿... إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ... ﴿٥﴾﴾

أى إذا آتيتموهن مهورهن، وسمى المهر هنا أجرا، لتأكيد وجوبه، وقد قال تعالى من قبل: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ... ﴿٤﴾﴾ [النساء] أى عطاء، فذكر الأجر فى هذا المقام لكيلا يكون ثمة استهانة بأى حق من حقوقهن، كما أكد العمل على عفتهن بقوله تعالى: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ أى طالبين بهذا الزواج الإعفاف، والصون لأنفسكم وأنفسهن، وحماية عرضكم وعرضهن، فمعنى الإحصان هنا العفة، بأن يجعل نفسه فى حصن من الزنى، ويجعلها فى حصن

---

(١) عن ابن عباس قال: لما ولدت مارية القبطية إبراهيمَ ابن النبي ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «أعتقها ولدُها». رواه الدارقطني (٤١٤٨) ج٤، ص١٣٢. قال ابن هشام: وأما إبراهيم فمن مارية القبطية التي أهداها له المقوقس صاحب إسكندرية من كورة أنصنا.

مثله، والسفاح الزنى، والمسافح كالمسافحة الذى يرتكب الفحشاء مع أى امرأة يلقاها، فيقضى معها الفحشاء. واتخاذ الخدن، أى اتخاذ الخليلة، وأن يختص بامرأة وتختص به من غير عقد نكاح مدة أو من غير مدة، وهذه هى المتعة بعينها التى تبيحها بعض الطوائف، وهى بقية من بقايا الجاهلية، والمعنى طالبين حصن الزواج غير طالبين الزنى العلنى أو السرى والله محيط بكل شىء.

وزواج الكتابيات قد يغرى بالانحراف عن الدين كما نرى فى عصرنا؛ ولذا كان عمر ينهى عنه كبار الصحابه كطلحة بن عبيد الله؛ ولذا حذر سبحانه من الكفر بعد هذه الإباحة فقد قال تعالى: ﴿**وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾.

أصل الحبط: هو تلف الدابة من كثرة ما تتناول من طعام لا يناسبها، والإيمان هنا الشرائع والأحكام، والكفر بها الاستهانة بها وعدم الأخذ بما تدعو إليه، والمعنى: ومن ينحرف عن دينه، ولا يؤمن ويذعن لأحكام الإسلام فقد تلف ما كان يعمله من خير؛ وذهب، وهو فى الآخرة من الخاسرين، ولم يقل سبحانه فى هذا المقام - ومن يكفر بالله - بل قال: ﴿**وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ**﴾ للإشارة إلى أن الإغراء بإفساد الدين من جهة النساء يبتدئ بالأعمال، ثم ينتهى إلى العقيدة، وهو سبحانه الذى يقى النفوس من الزلل، ويحفظها من الشر، اللهم احفظ قلوبنا فلا تزيغ، ونفوسنا فلا تنحرف، وعقولنا فلا تضل، إنك سميع الدعاء.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ

أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾

كانت الآيات السابقات؛ فى بيان ما يحل وما يحرم من الأطعمة، ومن يحل من النساء، وذلك يتعلق بغذاء الأجسام وتبعتها، وإن هذه الآية الكريمة لبيان غذاء الروح، وهو الصلاة، ففى الأوليات غذاء الأبدان، وفى هذه غذاء النفوس، وفوق ذلك إن هذه الآية بيان للوضوء والاغتسال، وما يقوم مقامهما، وهذان يكونان من نتائج الغذاء والزواج، فكان التلازم بينهما ثابتا؛ لأن نواقض الوضوء والجنابة إنما تكون من نتائج الطعام فى هذه الدنيا، ومن نتائج متعة الزواج بما يكون بين الزوجين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ﴾ النداء للمؤمنين، والمنادى به الاستعداد للصلاة، بأخذ وسيلتها، وهو الوضوء والاغتسال إن كان ما يوجبها. وكان النداء بوصف الإيمان للإشارة إلى أن الصلاة ركن الإسلام الركين، حتى إن بعض الحنابلة قرر أن من تركها عامدا، وداوم على تركها لا يكون مسلما، وأجمع المسلمون على أن من أنكر فرضية الصلوات الخمس بركعاتها يكون كافرا، ولا يدخل فى زمرة المسلمين. كشأن من ينكر أمرا من الدين بالضرورة.

وقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا﴾ فى ظاهرة أن القيام إلى الصلاة سابق على الوضوء على أن الوضوء سابق على الصلاة، وقد أجاب عن ذلك الزمخشرى فى الكشاف بجوابين:

أولهما ـ أن المراد من القيام إرادة القيام، وعلل التعبير عن إرادة الفعل، بكلمة تدل على الفعل بأن ذلك من قبيل المجاز؛ لأن إرادة الفعل سبب الفعل، وقد يطلق المسبب ويراد السبب، كمن يقول إن فلان أسكرنى أى سقانى السكر، وفوق ذلك إن الفعل يوجد بالقدرة عليه، وإرادته له. وقصده إليه وميله له وخلوص دواعيه، وإن هذا كله يسوغ أنه يعبر عن الإرادة مع القدرة والقصد بذات الفعل، كقوله تعالى: ﴿... **كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ** (١٠٤)﴾ [**الأنبياء**].

والجواب الثانى ـ أن قوله تعالى: ﴿**قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ**﴾ معناه: تهيأتم لها واستعددتم، يقال: قام للأمر إذا تهيأ له وأخذ الأهبة للاستعداد له، والدخول فيه، ويرشح لهذا المعنى فى نظرنا التعدية بـ «إلى»؛ إذ مؤداه استعددتم وتهيأتم متجهين للصلاة، وذلك لا يكون بأدائها، إنما يكون بأخذ الأهبة لها، والسير إليها.

وإن هذا النص الكريم: ﴿**قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ**﴾، وما اشتمل عليه من عبارات يفيد أمرين بظاهره:

أولهما: أن الوضوء، وهو يشتمل على الأركان الأربعة وغسل الوجه واليدين ومسح الرأس،وغسل الرجلين لا بد فيه من القصد إليه وإرادته، وعلى ذلك تكون نية الوضوء بالقصد إليه لأجل الصلاة، باعتبار أن قصده لأجل الصلاة، لا للنظافة ونحوها - لا بد منها لتحقق الوضوء لأنه للتهيئة لأجل الصلاة.

وقد قال مالك والشافعى؛ وأحمد والليث بن سعد؛ وإسحق بن راهويه، وأئمة آل البيت: إن النية ركن من أركان الوضوء ومعناها القصد إلى الصلاة بالوضوء طالبا رضا الله تعالى، وقد فسرها البيضاوى بقوله: «النية عبارة عن انبعاث القلب نحو ما يراه موافقا لغرض من جلب نفع أو دفع ضر حالا أو مآلا، والشرع خصصه بالإرادة المتوجهة نحو الفعل لابتغاء رضا الله تعالى، وامتثال حكمه».

وعلى ذلك تكون النية المطلوبة فى الوضوء عند الذين قرروها - القصد إلى الوضوء مبتغين رضا الله تعالى، ويستدلون على فرضيتها فى الوضوء بأن الوضوء عمل من أعمال القربات، والنبى ﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»(١).

وقال أبو حنيفة وأصحابه: إن النية فى الوضوء ليست بفرض، لأن الوضوء ليس عبادة مقصودة، ولكنه وسيلة للعبادة، والنية شرط فى العبادة نفسها باعتبارها المقصد، وليست فرضا فى الوسيلة، بل الوسيلة تتحقق بمجرد تحقق الغسل للأعضاء المذكورة والمسح للرأس، فمن حصل منه هذا، ولو لم يقصد العمل لأجل الصلاة يتحقق الوضوء، ويستدلون على أن الوضوء وسيلة للعبادة بظاهر الآية، إذا كان النص الكريم: ﴿**إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ**﴾ فهو شرع سبيلا لعبادة ووسيلة، وليس غاية.

والأمر الثانى الذى يفيده ظاهر النص ﴿**إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ**﴾: وهو أن الوضوء واجب عند التهيؤ والقيام لكل صلاة، فالوضوء واجب لكل صلاة، وبذلك قال الظاهرية، فقالوا: إن الصلاة واجبة لكل مفروضة، وأخذوا فى ذلك بظاهر النص الكريم، ولكن الثابت فى السنة غير ذلك، فقد روى عن النبى ﷺ أنه كان يتوضأ لكل صلاة، فلما كان يوم الفتح مسح على خفيه فصلى الصلوات الخمس بوضوء واحد، فقال له عمر رضى الله تعالى عنه: «صنعت شيئا لم تكن تصنعه» فقال ﷺ: عمدا فعلته»(٢). ومعنى ذلك أنه ﷺ فعله عمدا فى هذه الجموع الحاشدة ليبين أنه ليس بفرض أن يتوضأ لكل صلاة. فدل هذا على أن

---

(١) متفق عليه وقد سبق تخريجه.

(٢) رواه الترمذي: الطهارة - يصلي الصلوات كلها بوضوء واحد (٦١)، والنسائي: الطهارة- الوضوء لكل صلاة (١٣٣)، عن بريدة بن الحصيب، كما رواه أبو داود وأحمد وابن ماجه بلفظ: «عمدا صنعته».

الوضوء لكل صلاة ليس بمطلوب على جهة الفرضية، وقد ادعى بعض الناس أن الوضوء لكل صلاة كان فرضا ثم نسخ وإن هذا الكلام منقوض؛ لأن سورة المائدة من آخر القرآن نزولا، ولأن أحاديث الآحاد لا تنسخ القرآن، ولأن الآية ليست قاطعة فى وجوب الوضوء لأجل كل صلاة.

والذى نراه أن الآية فى الذين قام بهم موجب الوضوء من إحداث ما ينقض الوضوء السابق، والدليل على ذلك قوله تعالى:

﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا ﴾ فدل هذا بصريح اللفظ على أن موجب التيمم هو إحداث الحدث الموجب للوضوء، إذا لم يكن الماء، فيقوم التراب مقام الماء، وهذا يدل على أنه لا يكون الوضوء واجبا للصلاة إلا إذا حدث نقض للوضوء السابق، والآية بيان واحد يتمم بعضه بعضا.

﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ ولنذكر هذه الأركان ركنا ركنا وقبل ذلك نذكر أمرين:

أولهما: أنه فى قوله ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ فيها قراءتان إحداهما بفتح اللام على حذف فعل، والمعنى: امسحوا برءوسكم واغسلوا أرجلكم، والثانية ـ قراءتها بكسر اللام عطفا على قوله تعالى: ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾[1] والمعنى: هو الغسل لا المسح، بحمل القراءة الثانية على القراءة الأولى، ويكون السبب فى عطفها على الرءوس، للإشارة إلى وجوب عدم الإسراف؛ لأن الرجلين مظنة الإسراف فى الماء، فعطف وجوب الغسل فيها على وجوب المسح لمنع الإسراف، بحيث يكون الغسل ليس بعيدا بُعدا تاما عن المسح.

---

(١) ﴿وأرجلكم﴾ قرأها بالفتح: ابن عامر، ونافع والكسائي، ويعقوب وحفص، وأبو زيد عن المفضل عن عاصم، والأعشى إلا النقار، وقرأ الباقون بالجر. غاية الاختصار -سورة المائدة- (٧٩٩).

والغسل إسالة الماء على العضو، وإمراره عليه، والمسح إمرار اليد المبللة بالماء عليه.

والأمر الثانى: الترتيب بين هذه الأركان بحيث يُغسل الوجه أولا ثم اليدان ثانيا، ثم من بعدها مسح الرأس، ثم غسل الرجلين، وقد قال الجمهور بوجوب ذلك؛ لأنها ذكرت مرتبة فى القرآن، وعمل النبى ﷺ كان على ذلك الترتيب دائما، والنبى هو مفسر القرآن، ولو كان الترتيب غير لازم لخالفه النبى ﷺ ولو مرة واحدة.

وقال أبو حنيفة وأصحابه: الترتيب ليس بفرض؛ لأن الآية كان العطف فيها بالواو، والواو لا تقتضى ترتيبا ولا تعقيبا.

ومما يتصل بهذه أيبتدأ فى غسل الأيدى والرجلين باليمين وجوبا، أم أن ذلك سنة؟ الجمهور الأعظم على أن التيامن سنة وليس بفرض، ومذهب الشيعة وجوب التيامن فى الطهارة.

والموالاة فى الوضوء، قد ذهب الأوزاعى ومالك وأحمد إلى وجوبه، وذهب الشافعى وأبو حنيفة إلى سنيته، وعندى أن الموالاة هى الأمر المعقول، وأنه إذا قطع المتوضئ وضوءه بعمل أجنبى، وجب استئنافه مبتدئا بأوله.

ولنذكر كل ركن، ونبدأ بالأول وهو غسل الوجه، وهو معروف، ولكن الفقهاء يذكرون له تعريفا، وحدا، فحده من أعلى تسطيح الجبهة إلى أسفل اللحيين طولا، ومن شحمة الأذن إلى شحمة الأذن عرضا.

وموضع النظر عند الفقهاء هو فى وجوب غسل الوجه أيجب غسل الظاهر والباطن فيه، وبعبارة أوضح أيدخل فى الغسل المضمضة والاستنشاق، أم أنهما سنتان زائدتان؟ قال أحمد بن حنبل وإسحق بن راهويه وأبو ثور وابن المنذر، وبعض فقهاء الشيعة إن المضمضة والاستنشاق من غسل الوجه، والجمهور على أنه لا يدخل فى غسل الوجه إلا ظاهره، وقول أحمد ومن معه.

والبدان ينتهيان إلى المرفقين، والمرفقان: ملتقى عظم العضد بعظم الذراع، وهل يدخل المرفقان فى الوضوء فيجب غسلهما. قال ابن جرير الطبرى وبعض الفقهاء: إن غسل المرفقين ليس بفرض ولكنه سنة؛ لأن الغاية فى قوله تعالى: ﴿إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ تحتمل أن يدخل المرفقان فى الوجوب، وتحتمل ألا يدخلا، ولا وجوب مع الاحتمال، ولكن الاحتياط فى الغسل؛ ولذا كان سنة. وقال بعض الفقهاء: إنهما داخلان فى وجوب الغسل، وبنى ذلك على أن ﴿إِلَى﴾ بمعنى مع، وعلى ما قرره سيبويه مع بعض علماء اللغة من أن ما بعد «إلى» إذا كان من نوع ما قبلها دخل فى الحد، وإلا لا يدخل، وعلى ذلك يكون المرفقان داخلين؛ ولأن النبى ﷺ لازم فى وضوئه غسل المرفقين، ولم يعرف أنه غسل اليدين من غير المرفقين؛ ولأن جعل ما قبل المرفقين حدا، لا يكون أمارة واضحة، والأمارات يجب أن تكون معلمة مادية واضحة.

والكعبان هما الجزءان البارزان فى أعلى القدم، والخلاف فى دخولهما هو كالخلاف فى دخول المرفقين، والحجة واحدة.

والمسح يكون فى الرأس ، لقوله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ وقد اتفقوا على أن مسح الرأس كله مطلوب، ولكن على أنه سنة عند الجمهور، وعند مالك مطلوب على وجه الفرضية.

والشافعى قال: إن المطلوب مسح بعض الرأس؛ لأن الباء للبعضية، وقال الثورى والأوزاعى والليث: يجزئ بعض الرأس ويمسح المقدم، وعلى هذا أحمد والناصر والباقر والصادق من أئمة آل البيت، وقال أبو حنيفة: يمسح ربع الرأس مستدلا بما روى من أن النبى ﷺ أتى كناسة قوم فبال وتوضأ ومسح فى وضوئه على ناصيته(١)، والناصية تساوى ربع الرأس.

(١) عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَانْتَهَى إِلَى سُبَاطَةِ قَوْمٍ فَبَالَ قَائِمًا فَتَنَحَّيْتُ فَقَالَ: «ادْنُهْ فَدَنَوْتُ حَتَّى قُمْتُ عِنْدَ عَقِبَيْهِ فَتَوَضَّأَ فَمَسَحَ عَلَى خُفَّيْهِ» رواه مسلم: الطهارة - الرخصة في ذلك (١٣)، كما رواه البخاري: الوضوء-البول قائما وقاعدا (٢٢٤) بغير زيادة «فمسح على خفيه». والسباطة: موضع رمي التراب والأوساخ. وقد رواه أصحاب السنن بمثل رواية مسلم.

وبعد بيان الوضوء بيَّن سبحانه الاغتسال وموجبة فقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾.

كلمة جنب: وصف للرجل والمرأة، والجمع والمفرد، فيقال: رجل جنب وامرأة جنب ونساء جنب، وهو لفظ مشتق من الجنابة وهى ما يكون بسبب الاتصال بين الرجل والمرأة، وسمى ذلك جنابة لأنه يجنبهما الصلاة، ولما يكون من معنى التقارب بينهما بحيث يكون أحدهما بجنب الآخر، وفى حكم الجنابة بهذا المعنى الحيض والنفاس، ومعنى النص الكريم: أنه لا بد من التطهر من الجنابة عند القيام للصلاة والاستعداد لها، والتطهر: هو الاغتسال وهو العناية بصب الماء على كل جزء يمكن أن يصل إليه، فالمضمضة والاستنشاق لا بد منهما فى الوضوء، وتوصيل المياه إلى منابت الشعر بالنسبة للرجال لازم باتفاق الفقهاء، أما بالنسبة للنساء فقد قال بعضهم ومنهم الحنفية قالوا: إنه إذا كان للمرأة ضفائر لا تحل عند النساء دفعا للحرج، ولكن تحل عند الرجال(١)، وعلى أى حال لا بد من صب الماء صبا، ولا يكتفى بالمسح.

والتعبير بكلمة «فاطهروا» فيها إشارة إلى وجوب العناية فى تعميم الماء وإشارة إلى أن النجاسة المعنوية عمت كل أجزاء الجسم، فوجب أن تكون الطهارة عامة لكل أجزاء الجسم.

وإن غسل الجسم عند توافر سببه، وهو التماسّ أو الحيض أو النفاس - فيه إنعاش للجسم وتعويض بعد الإنهاك الشديد، فوق ما فيه من نظافة، واستمرار لها باستمرار موجبها.

وبعد أن بيَّن سبحانه وجوب الوضوء والتطهر بالماء ذكر ما يحل محل الماء إن لم يوجد أو تعذر استعماله، فقال تعالت كلماته:

---

(١) روى مسلم: الحيض - حكم ضفائر المغتسلة (٣٣٠) عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي امْرَأَةٌ أَشُدُّ ضَفْرَ رَأْسِي فَأَنْقُضُهُ لِغُسْلِ الْجَنَابَةِ؟ قَالَ: «لا. إِنَّمَا يَكْفِيكِ أَنْ تَحْثِي عَلَى رَأْسِكِ ثَلاثَ حَثَيَاتٍ ثُمَّ تُفِيضِينَ عَلَيْكِ الْمَاءَ فَتَطْهُرِينَ».

﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً ﴾ ذكر فى هذا النص أمورا أربعة اثنان من الرخص المسقطة لاستعمال الماء، واثنان من الأسباب الموجبة لاستعمال الماء مع عدم وجوده من غير مرض أو سفر، أما الأمران المرخصان لعدم استعمال الماء، فهما المرض الذى يضره الماء كالأمراض الجلدية، أو يمنع من الوصول إليه أو استعماله، كبعض الأمراض التى توجب عدم الحركة أو تمنعها، فهاتان رخصتان تسوغان استعمال التراب بدل الماء، والسفر رخصة لذلك، لأنه مظنة عدم وجود الماء، أو لأنه إذا وجد فلحاجة بدنية أخرى غير الوضوء، وهى تقدم عليه لأنها تدفع الموت عطشا أو احتماله، والله غفور رحيم.

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى قاعدة لتسويغ التيمم، وهى ما إذا حدث المسبب الموجب ولم يوجد الماء، فقال:

﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً ﴾ واللفظان الكريمان كنايتان عن أمور يستهجن ذكرها فى بليغ الكلام، فمعنى جاء أحد منكم من الغائط كناية عن كل نواقض الوضوء التى تخرج من السبيلين، والغائط: هو الأرض التى يذهب إليها الرجل ليقضى حاجته. ومعنى لامستم النساء: كناية عما يكون بين المرء وزوجته مما يوجب الاغتسال، وهى كناية قرآنية علَّم الله سبحانه وتعالى الناس منها حسن التعبير وعدم الرفث فى القول. وهنا إشارتان بيانيتان: إحداهما: فى التعبير بـ «أو» فى قوله: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم﴾ بدل الواو، إذ إن «أو» فيها معنى الإضراب والانتقال من الخاص إلى العام، وكأنه قيل إذا كنتم فى مرض أو سفر لا يمكن معهما استعمال الماء بيسر وسهولة أو بشكل عام حدث ما يوجب الوضوء أو الاغتسال، فلم تجدوا ماء فتيمموا إلى آخره ـ الثانية: أن قوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾ بلفظ المفرد إشارة إلى وجوب الذهاب إلى قضاء الحاجة فرادى، والعودة فرادى للاستتار.

﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ التيمم: القصد، والصعيد: التراب الذى يكون على ظاهر الأرض أو نحوها، والطيب: الذى لا نجاسة فيه، والتيمم لا بد فيه من النية باتفاق الفقهاء، وله ركنان: أحدهما: مسح الوجه، والثانى: مسح اليدين إلى الرسغين أو إلى المرفقين على الخلاف فى ذلك، ويكون التيمم بضربة واحدة، وقيل بضربتين، وقد ذكرنا ذلك فى مثل هذه الآية فى سورة النساء، وبينا ما يتعلق بمعانى التيمم فى هذه الآية.

﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذا الكلام يفيد النفى المؤكد بأنه ليس فى الدين حرج، أى ضيق ومشقة، وقد تأكد النفى بنفى الإرادة، وهى نقيض نفى الوقوع، وبحذف موضوع الإرادة، وهذا يقتضى عمومه والمعنى لا يريد الله سبحانه أى أمر فيه مشقة أو ضيق لكيلا يترتب عليه أن يكون عليكم حرج وضيق فى الدين، وتأكد النفى باللام فى قوله: ﴿لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم﴾ فهى التى تسمى لام الجحود أى النفى المؤكد، والمعنى: ما كان من أمر الله تعالى فى عباده أن يجعل الدين عليهم فيه مشقة مجهدة أو ضيق وحرج؛ ولذا شرع التيمم بدل الوضوء، وغير ذلك مما ييسر العبادات ويسهلها، كما قال تعالى: ﴿... يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ... ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة] ولكن يريد الله لكم طهارة الجسم من الأرجاس، وليرحض عنه الأوساخ، وطهارة النفس وتزكيتها بالإخلاص لله تعالى، وليتم نعمته عليكم بالتيسير والتسهيل والمداومة على الطاعات، والتأليف بالعبادات بين جماعتكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أى يعدكم ذلك الإعداد الطاهر النزه فى الجسم والروح لتكون حالكم حال من يرجى منه شكر النعمة، والاستمرار على طاعة الله وتنفيذ أوامره.. اللهم اجعلنا من عبادك الشاكرين.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٧ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٨﴾

ذكر الله سبحانه وتعالى ما به غذاء الأبدان، وهو كل طيب لا خبث فيه، ثم أشار إلى ما فيه غذاء الأرواح وطهارة الأبدان، وهو الصلاة والوضوء لها، والاغتسال عند الإقدام عليها، فذكر الأطعمة الحلال، وذكر ما به بقاء الجنس البشرى، وهو الزواج، ثم الوضوء وأركانه، والاغتسال والتيمم، وبعد أن ذكر ذلك الغذاء الفردى من جسم وروح ذكر الثمرة الطيبة لذلك، وهى بناء مجتمع إنسانى سليم، أساسه الثقة والعدالة، وابتدأ سبحانه وتعالى بذكر نعم الله، ثم بذكر العدالة التى هى قوام هذا الوجود الإنسانى، فقال تعالى:

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذى وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ الخطاب فى هذه الآية للذين آمنوا، فهو امتداد للسياق الذى كان يتعلق بالصلاة، وما قبله من بيان الحلال والحرام كان يتعلق بالذين آمنوا، فالآية الكريمة سائرة على هذا النسق البيانى الرائع، والأمر فى الآية لطلب تذكر أمرين جليلين، وهما نعمة الله تعالى التى أنعمها على المؤمنين، وهى آلاء جليلة عظيمة، وتشمل نوعين من النعم، عامة وخاصة، فالعامة تعم الناس جميعا مشركهم ومؤمنهم، وهى نعمة الوجود، وتسخير الكون بكل ما فيه لبنى الإنسان، والخاصة ما أسداه الله تعالى إلى المؤمنين، إذ هداهم وإذ كانوا قليلا فكثَّرهم، وكانوا متفرقين

فجمعهم، وكانوا أذلاء فأعزهم، وكانوا فقراء فأغناهم، وكانوا مستضعفين فى الأرض، فمكَّن لهم فيها بمنه سبحانه وفضله، كما قال تعالى: ﴿ ... **فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ** ... ﴿١٠٣﴾ ﴾ [**آل عمران**].

والأمر الثانى الذى ذكرهم الله تعالى به هو الميثاق الذى عقدوه مع الله تعالى، والميثاق فى اللغة: هو العقد الموثق المؤكد بيمين الله تعالى، وقد كان العهد من جانبهم يوجب عليهم السمع والطاعة فيما يأمرهم به الله تعالى، وفيما ينهاهم عنه، فالعهد فيه التزام من جانبهم، وهو السمع والطاعة، ووعد من جانب الله تعالى بأن يوليهم نعمه، ويهبهم النصر من لدنه، وهو العزيز الحكيم، وقد أكد سبحانه وتعالى ذلك العهد، بقوله: ﴿**الَّذِى وَاثَقَكُم بِهِ**﴾ أى الذى عقده سبحانه وتعالى معكم، وتبادل معكم توثيقه وتأكيده؛ إذ إن واثق تقتضى المبادلة، فالله تعالى ذو الجلال والإكرام هو الذى تولى ذلك الميثاق.

والمفسرون يتكلمون فى الميثاق ما هو؟ قيل: هو الميثاق الذى أخذ بمقتضى الفطرة، ولكن ذلك الميثاق لا يخص المؤمنين، بل يعم البشر، وقيل: إنه الميثاق الذى كان بين النبى ﷺ وأهل يثرب فى العقبة(١)، ولكن هذا يخص الأنصار، ولا يعم المؤمنين، والحق أنه الميثاق الذى كان التواثق فيه على أساس التزام المؤمنين بالسمع والطاعة، كما عين النص الكريم موضوعه إذ قال سبحانه: ﴿**إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا**﴾ أى فى الوقت الذى التزمتم فيه بالسمع والطاعة، وقد اختار ذلك ابن جرير (وهو قول ابن عباس) وقال فى اختياره: «وأولى الأقوال بالصواب فى تأويل

---

(١) عن عُبَادَةَ بْن الصَّامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ شَهِدَ بَدْرًا وَهُوَ أَحَدُ النُّقَبَاء لَيْلَةَ الْعَقَبَة أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابه: «بَايِعُوني عَلَى أَنْ لا تُشْرِكُوا بِاللَّه شَيْئًا وَلَا تَسْرِقُوا وَلَا تَزْنُوا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَان تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْديكُمْ وَأَرْجُلكُمْ وَلَا تَعْصُوا في مَعْرُوف فَمَنْ وَفَى منْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّه وَمَنْ أَصَابَ منْ ذَلكَ شَيْئًا فَعُوقبَ في الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَه وَمَنْ أَصَابَ منْ ذَلكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ إِلَى اللَّه إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ» فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلك. رواه البخاري: الإيمان - علامة الإيمان (١٨)، ومسلم: الحدود (١٧٠٩).

ذلك قول ابن عباس وهو أن معناه: واذكروا أيها المؤمنون نعمة الله تعالى عليكم التى أنعمها بهدايته للإسلام، وميثاقه الذى واثقكم به، يعنى وعهده الذى عاهدكم به، حين بايعتم رسوله محمدا ﷺ على السمع والطاعة له فى المنشط والمكره، والعسر واليسر إذ قلتم: سمعنا ما قلت لنا، وأخذت علينا من المواثيق، وأطعناك فيما أمرتنا به، ونهيتنا عنه» . . . إلخ.

وكان التذكير بهذين الأمرين ليقوم المؤمنون بحقهما، فيما يتعلق بمعاملة الغير، وفى علاقتهم بالناس من حيث إقامة العدالة لذات الله تعالى لا يريدون إلا وجهه الكريم، وليكون القسط والميزان أساس أعمالهم.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بنعمه عليهم وميثاقه الذى واثقهم عليه، على أساس السمع والطاعة، طلب إليهم أمرا آخر هو أساس الاستجابة للميثاق، وهو تقوى الله تعالى بأن يستشعروا دائما عظمته، ويتخذوا وقاية لأنفسهم من معصية الله تعالى، فإن التقوى هى أساس الطاعة، وهى لب الاستجابة لما جاء فى ميثاق الله تعالى، وهو أعلى ميثاق فى الوجود، لا ميثاق يدانيه إلا إذا كان مشتقا منه، بأن يكون أساسه السمع والطاعة لله فى المنشط والمكره، وفى العسر واليسر، وإن التقوى لله موضعها القلوب، وهى التى تحرك الجوارح، فلا طاعة إلا إذا انبعثت من القلب عن طواعية ورضا واطمئنان؛ ولذا قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وتكرار ذكر الله تعالى لإشعار المؤمنين برقابته، وإلى أنه فوقهم ومطلع عليهم، ومراقبتهم بجلاله وعظمته سبحانه وتعالى، والله تعالى عليم علما لا يدرك كنهه بكل شىء بما تخفيه وما تكنه الأفئدة. وذات الصدور هى: الأمور الملازمة للصدور التى تخفيها ولا تظهرها، فهى بالنسبة للصدور كالصاحب بالنسبة لصاحبه يلازمه ولا يبعد عنه، ولا ينكشف. فهى من ناحية أنها لا تخرج من الصدر تعد مصاحبته، ويعبر عنها بذات الصدر، كما يقال: فلان ذو مال. أى ملازم له.

وذكر إحاطة علم الله تعالى فى هذا فيه إشارة إلى وجوب تطهير القلوب من الدنس، وتنظيفها من الشر، حتى لا تربد به وتطمس، وفيه تنبيه إلى أنه من يريد السمع والطاعة عليه أن يتجه إلى قلبه، ويشعر بأن الله عليم به، مطلع عليه، لا تخفى عليه خافية.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ معنى النص الكريم: يأيها الذين اتصفوا بالإيمان بالله والخضوع، وكان ذلك الإيمان عنوانهم الذى يعرفون به، وشرفهم الذين يتشرفون به، كونوا قوامين لله، أى اجعلوا أنفسكم وإحساسكم ومشاعركم مطبوعة على أن تقوم لله ولأجل محبته سبحانه وطلب رضاه، لا لهوى النفس ومنازع الشهوات، وكونوا شاهدين بالحق، لا تطلبون سواه، وهذا هو المعنى الجلى المقرب لما اشتمل عليه النص الكريم، وهو أعْلى من أن تتسع عبارتنا لمعناه.

وهنا ملاحظات بيانية يجب اعتبارها والإشارة إلى كمال الحكمة فى عمومها:

الأولى: ﴿كُونُوا﴾ فهو أمر بالكينونة بأن يجعلوا القيام لله تعالى، والاعتبار به، والأخذ بهديه جزءا من كيانهم، وذلك بأن يستمروا على الطاعة ويديموا عليها، فإن الدوام على الفعل والاستمرار عليه يجعل النفس تنطبع به، ويكون جزءا منها، فالأمر بـ «كونوا» يتضمن الاستمرار والدوام، وأحب الأعمال إلى الله تعالى ما أمكن الاستمرار عليه، ليكون عادة للنفس بمنزلة الطبيعة، فالعادة طبع ثان، ولقد قال النبى ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»[(١)].

ثانيهما: قوله تعالى: ﴿قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ فإن قوام معناها: من يبالغ بالقيام بالشىء وإتقانه والإتيان به على الوجه الأكمل، وكونه لله تعالى معناه أن تكون تلك المبالغة فى الفعل لأجل الله تعالى، لا شىء سواه، وهذا يتضمن «أمرين»

---

(١) سبق تخريجه.

أحدهما: أن يعمل الشخص على إتقان ما يعمل والمبالغة، فإن كان عبادة أتى بها على أكمل وجوهها، فالصلاة تكون كاملة، وكذلك الصوم .. إلخ. وهذا يشمل ما يعمله الإنسان فى الحياة، سواء أكان عبادة أم كان أمرا من أمور الدنيا، وقد ورد أن النبى ﷺ قال: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه»(١).
وثانيهما: أن يكون ذلك لله، بأن يكون أصل العمل لله، وأن يكون إتقانه لله تعالى، فيتجه فى كل الأعمال إلى الله تعالى، فالعامل فى المصنع يعمل لله إن قصد بذلك نفع عباده، والتاجر كذلك، وإذا قصد بأعماله وجه الله، وما فيها من خير للعموم كان فى عبادة مستمرة، وليست العبادة مقصورة على الصلاة والصوم والحج، بل كل عبادة إذا قصد بها وجه الله تعالى، ولقد قال النبى ﷺ: «لا يؤمن أحدكم، حتى يحب الشيء لا يحبه إلا لله»(٢).

الثالثة: فى قوله تعالى ﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ فإن شهداء تدل على الحضور، وعلى الإثبات وأداء الشهادة، وعلى الحكم وهى فى النص الكريم تشمل كل هذا، فالمعنى: لا يحكمون إلا بالقسط أى العدل، ولا يشهدون إلا بالعدل ولا يشهدون الزور، ولا يحضرون، إلا مايكون قسطا وعدلا، وما يكون قسطاسا مستقيما لاتحيُّف فيه ولا انحراف، والمؤدى أن يكون حضورهم فى القسط، ونطقهم بالقسط، وحكمهم بالقسط، وعملهم بالقسط، فلا يكون إلا للخير، وفى سبيل الخير دائما.

وعبر بالقسط، لأنه شامل للخير كله، ولأن العدل ميزان الخير، ولذا قال من بعد: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾.

الجرم فى أصل معناه اللغوى: القطع، فيقال جرم الثمار أى قطعها، ثم أطلق على الكسب، وغلب على الكسب الآثم، ومنه أجرم بمعنى ارتكب إثما، لأنه كسبه، وقد يتضمن معنى الحمل مع اشتماله على معنى الكسب الآثم، وهذا هو القريب من المعنى هنا، فمعنى ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ﴾ لا يحملنكم حملا آثما

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريج ما في معناه من حديث صحيح.

شنآن قوم ألا تعدلوا، والشنآن: البغض الشديد مصدر شنأه بمعنى أبغضه، والمعنى لا يحملنكم البغض الشديد لقوم على ألا تعدلوا معهم، بل أعطوهم حقوقهم، ومكنوهم مما يستحقون، وفى صدر هذه السورة يقول سبحانه: ﴿ ... **وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا** ... ﴿٢﴾ ﴾ [المائدة] والمعنى هناك: أنه لا يصح أن يحمل البغض بسبب الصد عن المسجد الحرام على الاعتداء، ففيها أمر بعدم الاعتداء ـ أما هنا، فإن فيها أمرا بالعدالة حتى مع الأعداء، فالعدالة نظام هذا الوجود الإنسانى، وبجمع الآيتين، يكون المعنى المقرب لمراد الله سبحانه أنه لا يصح أن يكون البغض الشديد حاملا على الاعتداء، ولا أن يكون البغض الشديد حاملا على منع الحقوق، بل يعطى كل ذى حق حقه، ولو كان عدوا مبينا، فالحق ليس منحة من شخص لشخص يسلبه إن أبغض، ويعطيه إن أحب، بل إن التكمين منه واجب مقدس أمر الله سبحانه وتعالى به، وحث عليه، وقد روى فى الحديث القدسى: «يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى، وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا»[1]. ولا ينتظم الوجود الإنسانى بغير العدل، وقد روى الطبرانى عن جابر بن عبدالله أن النبى ﷺ قال: «إذا ظُلم أهل الذمة كانت الدولة دولة العدو»[2] ومعنى هذا الحديث: أنه لا يصح أن يظلم غير المسلم الذى يعيش مع المسلمين، والدولة إذا ظلمت رعاياها من غير المسلمين لا تكون دولة الإسلام بل تكون دولة الأعداء.

وازنوا بين حكم الإسلام وحكم الأقوياء فى هذا الزمان الذين يستبيحون كل شىء من غير حريجة من أخلاق أو دين.

﴿**اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ**﴾ الضمير فى قوله «هو» يعود إلى العدل الذى تضمنه قوله تعالى: ﴿**اعْدِلُوا**﴾ وقوله تعالى من قبل: ﴿**وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ**

(١) جزء من حديث قدسى طويل سبق تخريجه من رواية مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) عن جابرِ بنِ عبدِ الله قالَ: قـالَ رسولُ الله ﷺ: «إِذَا ظُلِمَ أَهْلُ الذِّمَّة كَانَت الدَّوْلَةُ دَوْلَةَ العَدُوِّ، وإِذَا كَثُرَ الزِّنَا كَثُرَ السِّبَا، وَإِذَا كَـثُرَ اللُّوطِيَّةُ رَفَعَ الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ يَدَهُ عَنِ الخَلْقِ فَلا يُبَالِي في أَيِّ وَادٍ هَلَكُوا». رواه الطبراني.

أَلاَّ تَعْدِلُوا﴾ والمعنى: اعدلوا، فالعدل أقرب للتقوى، وفى النص انتقال من النهى إلى الأمر، ففى النص الأول نهى عن أن يحملهم البغض على عدم العدل، وفى هذا النص أمر بالعدل، ولا شك أن النص الأول يتضمن الأمر بالعدل؛ لأن النهى عن الشيء أمر بنقيضه، فالنهى عن الظلم أمر بالعدل، فكان ثمة تكرار مؤكد، وكان مع التكرار فائدة وهى طلب معالجة النفس، ومحاولة ترويضها على العدل، فإن قوله تعالى: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا﴾ فيه أمر بعلاج النفس، وحملها على البقاء فى دائرة الاعتدال، وتقوية للإرادة، حتى لا يستولى عليها الغضب، فتجمح وفى الجموح سير وراء شيطان الغضب، ووراء ذلك منع الحقوق، والظلم. وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ فيه بيان قرب العدالة من التقوى، مع أن العدل من صميم التقوى، فلماذا عبر بالقرب من العدالة مع أن العدالة فى ذاتها تقوى مؤكدة، وخصوصا فى حال المغالبة النفسية والبغض الشديد؟ والجواب عن ذلك أن قلب المؤمن فى معاملته مع غير المؤمن قد تعتريه حال يرى فيه أن من التقوى ألا يعطيه حقه؛ لأنه فى ميدان القتال يستبيح ماله ويستبيح دمه، فيظن حال السلم كحال الحرب، ويظن ذلك قريبا من التقوى، فبين له القرآن الكريم أن القرب من التقوى أن يحسن معاملته، وأن يعطى كل ذى حق حقه، فذلك دفعا للخاطر بمثله، أو بما يقرب إليه المعنى فى التعبير، ولأن كمال التقوى بعيد المنال، وأنها إذا كانت مطلوبة، فإن الله يعفو عن كمالها، ويكتفى منا بقربها؛ ولذلك قال ﷺ: «لن يشاد أحد هذا الدين إلا غلبه، ولكن سددوا وقاربوا»(١) فالله جل جلاله غفور رحيم يطلب منا المقاربة بعد أن نسدد ونقارب ولقد طلب سبحانه منا أن نسدد، فقال تعالى:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أمرنا الله تعالى بالتقوى فى كل الأمور فى ذات أنفسنا بأن نراقب الله فى كل عمل نعمله، فلا نعمل إلا طيبا، ولا نقول إلا طيبا، ولا نأكل إلا طيبا، ونخشى الله حق خشيته، ونقوم بعبادته

(١) سبق تخريجه، وهو صحيح رواه البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه.

مسددين مقاربين، ونتقى الله فيما بيننا، ونكون عباد الله إخوانا، ويكون التعاون الحكم بيننا، ونتقى الله تعالى فى مخالفينا، فلا يكون منا عليهم اعتداء ولا ظلم، بل تقريب وائتلاف، وإن كان منهم اعتداء دفعناه من غير أن نتجاوز حد الدفع.

وقد ذيل الله سبحانه وتعالى الأمر بالتقوى، بما يدل على علم الله تعالى بكل أعمالنا، حتى خلجات صدورنا، وما يحوك فى قلوبنا، فقال سبحانه: **﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾**. أى أن الله جل جلاله عليم علما دقيقا، فالخبرة: هى العلم الدقيق الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء، عليم، هذا النوع من العلم بكل ما نعمل، وما ظهر منه وما بطن، وهو يجازينا بما نعمل، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، ومن ينوى الخير، فهو محتسب له، ومن ينوى الشر، ويعدل عنه اختيارا لا يحتسب عليه إثم.. اللهم وفقنا لتقواك، واهدنا لما يرضيك، وقربنا ولا تباعدنا إنك عليم حكيم.

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ
ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ
ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ
فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

بين الله سبحانه وتعالى غذاء الأبدان بطيب الأطعمة، وغذاء الأرواح بالصلاة، فذكر مقوماتها، ثم ذكر سبحانه وتعالى، التكليفات الشرعية التى هى

بناء الجماعات الإنسانية، وأنها ميثاق الله تعالى واثق به عباده، فوعدهم بالثواب عليه، وتعهدوا موثقين العهد بالسمع والطاعة، والاستجابة لما كلفوا القيام به، ثم بين سبحانه وتعالى أن أساس العلاقات الإنسانية العامة العدالة، وليس الحب والبغض: فإنهما يسيران أحيانا وراء الهوى، والهوى فساد، والعدالة صلاح، وهى التقوى، وما يقرب إليها ويدنى منها، وفى الآية الآتية وما يليها بين سبحانه جزاء المهتدين، وعقاب الكافرين، وهو الوعد الذى وعد به عباده، ويبين سبحانه أنه لا يصح أن تؤدى قوة أهل الإيمان إلى ترك العدل، وذكرهم سبحانه بحالهم أيام كانوا مستضعفين فى الأرض، وهم المشركون أن يبسطوا أيديهم بالأذى فكفها سبحانه وتعالى عنهم، فقال:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ هذا هو الوعد الذى وعد الله تعالى به عباده المؤمنين، وهو الذى واثقكم به من جانبه، جل جلاله، فى نظير السمع والطاعة والاستجابة لما أمر الله تعالى به ونهى عنه.

وإن ذلك الوعد إنما يستحقه الذين قاموا بما ألزمهم به الميثاق، وهو الإيمان والطاعة، إذ قالوا سمعنا وأطعنا، وقد عبر الله تعالى عن السمع والاستجابة للسماع والإنصات للأدلة والإذعان لها بالإيمان، فالإيمان: هو العماد الذى يقوم عليه الميثاق الذى التزمه المؤمنون، والطاعة لأوامر الله تعالى ونواهيه هى التى عبر الله تعالى عنها بقوله تعالى:

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وما من مقام ذكر فيه المؤمنون بالمدح إلا اقترن به قيامهم بالعمل الصالح؛ لأن العمل الصالح ثمرته، ومثل الإيمان من غير عمل صالح يقدمه المؤمن كمثل شجرة جرداء لا تثمر ثمرا ولا تظل مستظلا، والأكثرون من العلماء على أن الإيمان ناقص إذا لم يصحبه عمل؛ لأن الإيمان يزيد وينقص عند كثيرين ويزيد ولا ينقص عند آخرين، وعند هؤلاء يكون الإيمان من غير عمل إيمانا غير كامل.

والعمل الصالح الذى هو الطاعة، والذى هو استجابة لأوامر الله تعالى ونواهيه هو العمل الذى يكون فيه نفع للناس، ودفع للفساد فى الأرض، وليس فيه ما يسوء أهل الخير، وقد جاء فى كتاب غريب القرآن للأصفهانى: «الصلاح ضد الفساد، وهما مختصان فى أكثر الاستعمال بالأفعال، وقوبل فى القرآن تارة بالفساد، وتارة بالسيئة قال تعالى: ﴿... **خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا** ... ﴿١٠٢﴾﴾ [**التوبة**]، وقال تعالى: ﴿... **وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا** ... ﴿٨٥﴾﴾ [**الأعراف**].

وقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ فى مواضع كثيرة... وإصلاح الله تعالى الإنسان يكون تارة بخلقه إياه صالحا، وتارة بإزالة ما فيه من فساد بعد إصلاحه، وتارة بالحكم له بالصلاح...».

وإذا كان عمل الصالحات هو استجابة المؤمن لأمر الله ونهيه، أو تنفيذ لقول المؤمنين: «سمعنا وأطعنا» فمؤدى ذلك أن الله تعالى لا يكلف عباده إلا ما فيه صلاح أمورهم ورفع الفساد عنهم، فما من أمر كلف الله تعالى عباده أن يقوموا به إلا كان فيه صلاح لهم ومنفعة، وما من أمر نهاهم عنه إلا كان فيه مفسدة، وعلى مقدار ما فى الشيء من نفع تكون قوة المطالبة به، وعلى مقدار ما فيه من شر يكون مقدار النهى عنه، وبذلك يتبين أن الشرع الإسلامى كله جاء لخير العباد وصلاحهم، والرحمة بهم، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴿١٠٧﴾﴾ [**الأنبياء**] وعلى ذلك لا يصح لمؤمن بالله واليوم الآخر، أن يقول: إن نصوص القرآن أو السنة جاءت بأحكام فيها مضرة؛ فإن ذلك أقصى العناد، وغاية ما يريده أهل الفساد، وما يبتغيه الذين يريدون أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم.

وقد ذكر سبحانه وتعالى ما وعد به الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فقال: ﴿**لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾. فهذا النص الكريم هو بيان للوعد الذى وعد الله تعالى به عباده المؤمنين، فذكر الوعد بهما فى قوله تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾. ثم ذكر البيان، وفى ذكر البيان بعد الإبهام فضل تمكين للإعلام،

وتثبيت للمعرفة، والوعد الذى وعد الله تعالى به يتكون من أمرين عظيمين: أحدهما مغفرة عظيمة، والثانى أجر عظيم، أما المغفرة فمعناها: ستر الذنوب وإخفاءها، وإخفاء الذنوب من الله تعالى معناه ألا يقيم لها وزنا ويعفو عنها ويكفر السيئات ولا يجازى عليها، وأما إخفاؤها فى الدنيا، فذلك لأن العمل الصالح يلقى فى النفس نورا فيذهب أعتامها؛ إذ إن المرء إذا ارتكب سيئة نكتت فى قلبه نكتة سوداء، فإذا استمرت السيئات ولم يكن ثمة عمل صالح، تكاثرت النكت السوداء حتى يربد القلب ويسود، وإن كان العمل الصالح أشرق النور فاختفت السيئات، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ ... **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** ... ﴿١١٤﴾ ﴾ [**هود**].

ونكرت كلمة «مغفرة» للدلالة على عظمتها، وأنها مغفرة عظيمة لا تحيط بها المدارك البشرية.

هذا هو الأمر الأول، أما الأمر الثانى: فهو الأجر العظيم، وهو الثواب، وسماه الله تعالى أجرا، أى أنه استحقاق على عمل صالح، وذلك كان من الله تكرما وفضلا، فكل شىء بفضل الله تعالى، وهو ذو الفضل العظيم.

﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ**﴾ بعد أن ذكر سبحانه جزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات ذكر سبحانه الذين كفروا وكذبوا بآيات الله تعالى، وهذا النص الكريم يشتمل على وصف الذين لم يؤمنوا، وجزائهم.

وإن أولئك الذين لم يؤمنوا يتصفون بوصفين: أولهما: الكفر، وثانيهما: تكذيب آيات الله تعالى القائمة حجة على رسالة الرسول الذى أرسل إليهم، وقد ذكر الكفر سابقا على تكذيب الآيات مع أن الظاهر أن الكفر نتيجة لهذا التكذيب؛ وذلك لأن الكفر هنا معناه: جحود القلب، وطمس معالم الإدراك فقلوبهم غلف، قد غطيت عنها الحقائق، وغاب عنها الفهم الصحيح، والإنكار يكون مرتكزا فى النفس، فلا تذعن ولا تصدق، وإذا كانت النفوس على هذا النحو، فإنه يكون التكذيب لكل ما تدل عليه الآيات الحسية، والمعجزات القطعية؛ لأن

القلب قد شاه وفسد، فلا يرى الحقائق ويكذب بها، كما أن العين إذا شاهت وعشيت أصبحت لا ترى النور المبصر، وإن عمَّ صاحبَها، وإن التكذيب بالمعجزات أكبر ما يكون عن فساد فى الإدراك، إذ يكون لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، وكان التكذيب جرما عظيما؛ لأنه تكذيب بآيات الله تعالى التى كانت للدلالة على الرسالة، والإذعان للحق، فلم يفعلوا، وكان الجزاء ما عبر عنه سبحانه بقوله تعالى: **﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾**.

أى أولئك الذين كان منهم الكفر والجحود ثم التكذيب للآيات، وقد جاءت معلمة واضحة بسبب ذلك كانوا الملازمين للجحيم، أى النار المتأججة الشديدة اللهب التى تشوى الأجسام والوجوه شيا، فمعنى أصحاب الجحيم: الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه الذى لا يفترق عنه، وكلاهما جدير بصاحبه.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) ﴾ هذا متصل بالأمر بالعدالة مع الأعداء كالعدل مع الأولياء، ففى هذا النص أمر بالتذكير بحال ضعفهم عندما كانوا يلتمسون العدالة، ليعتبروا بماضيهم، ويتخذوا منه عبرة لحاضرهم، فيتذكروا حال الضعف فى حال القوة، ليعلموا نعمة الله تعالى عليهم، ولكى يعدلوا مع غيرهم كما كانوا يلتمسون العدل إذ كانوا مظلومين يتخطفهم الناس، وينزل بهم البأس.

فالآية تدعو إلى التذكير بنعمة الله ليشكروها، ولكيلا يشتطوا مع غيرهم، وبسط اليد معناه بالقوة والأخذ والسيطرة والصولة، وقد قال تعالى: ﴿ ... **وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ ... (٢)** ﴾ [**الممتحنة**] فالبسط هنا بسط للصولة والقوة، والسيطرة، ومعنى النص الكريم: يأيها الذين أذعنوا للحق واستمسكوا به، واستجابوا لأمر ربهم تذكروا نعمة الله التى أنعمها عليكم إذ هم قوم أن يمتدوا بيد الأذى ويبسطوها، فكفها عنكم وبدلكم من بعد الضعف قوة،

ومن بعد الذلة عزة، ومن بعد أن كنتم تُظلَمون، وتُرامون بالسوء، صرتم يطلب الإنصاف منكم.

وقد أكد سبحانه وتعالى أنه هو سبحانه الذى رد الأذى وتدبير الشر، فقال مكررا كلمة الأيدى ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ وفى ذلك إشارة إلى أنه سبحانه هو الذى قضى على موضع قوة أعدائهم، ومناط شدتهم، وهى الأيدى التى يكون بها البطش والصولة.

ولقد تكلم مفسرو الأثر وغيرهم فى سبب نزول هذه الآية، وخصصوا، واللفظ عام، فقالوا: إن يد البطش والغدر كان قد هم بها ناس للاعتداء على شخص النبى ﷺ، والاعتداء عليه اعتداء على المسلمين، وكف الاعتداء عنه نعمة على كل المسلمين، وقالوا فى ذلك روايات مختلفة تنتهى إلى خبرين:

أولهما: أنه روى من حديث جابر وغيره أن رجلا من بنى محارب قام على رأس رسول الله ﷺ فى وقت الراحة ومعه السيف، وقال للرسول من يمنعك؟ قال الرسول ﷺ: «الله» فوقع السيف من يده، فأخذه النبى ﷺ وقال: «من يمنعك منى»، فقال الرجل: كن خير آخذ. قال الرسول ﷺ: «تشهد أن لا إله الا الله، وأنى رسول الله» قال: «أعاهدك ألا أقاتلك، ولا أكون مع من يقاتلونك، فخلى سبيله، فجاء إلى قومه، وقال: جئتكم من عند خير الناس»(١).

ثانيهما: أن النبى ﷺ ذهب إلى بنى النضير ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير، يطلبون منهم الإعانة على دية رجلين قتلا، وكان للنبى ﷺ عقد مع بنى النضير عهدا على ألا يحاربوه، وأن يعينوه على الديات، فلما طالبهم بحكم هذا العهد أظهروا القبول، وأخفوا الغدر، فقالوا: نعم يا أبا القاسم قد آن لك أن تأتينا وتسألنا حاجة اجلس حتى نطعمك، ونعطيك الذى سألتنا،

---

(١) رواه بهذا اللفظ أحمد باقي مسند المكثرين - باق المسند السابق (١٤٧٦٨)، ورواه البخاري: الجهاد والسير - من علق سيفه (٢٩١٠)، ومسلم: الفضائل - توكله على الله تعالى وعصمة الله تعالى له (٨٤٣) عن جابر رضي الله عنه بنحوه.

فجلس بجانب جدار لهم، وقال لهم حُيى بن أخطب: لا ترونه أقرب منه الآن؛ اطرحوا عليه حجارة فاقتلوه، فهمُّوا أن يطرحوا عليه صخرة، وقد أُعلم النبى ﷺ بنية الغدر، إذ أعلمه جبريل، فانصرف قبل أن ينفذوا ما دبروا(١).

هاتان روايتان فى أسباب النزول، ويكون القوم هم الذين دبروا قتل النبى ﷺ فرادى وجماعات، ويكون كف أيديهم نعمة عظيمة على أهل الإيمان.

والذى نراه هو تذكير المؤمنين بما هَمَّ به الأقوام من الاعتداء على النبى ﷺ فى هاتين الواقعتين، ومن قبلهما بتدبير قتله يوم الهجرة النبوية، ومن الاعتداء على المؤمنين فى غزوة أحد، ومن تضافر العرب فى الجزيرة العربية على الذهاب إلى المدينة قصبة الإسلام، واقتلاعها فى غزوة الأحزاب، وقد كف الله سبحانه وتعالى فى كل هذا تلك الأيدى المبسوطة بالشر، فلا تخصيص فى النص، بل يترك على عمومه.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ بعد التذكير بهذه النعمة التى جعلت للمؤمنين كيانا مستقلا عزيزا كريما ينتصف من الظالمين، ولا يظلم أحدا أمر الله سبحانه وتعالى بالتقوى، وتقوى الله تعالى هى: الشعور بعظمته، والإحساس بجلاله، وامتلاء القلب به، واطمئنانه إليه، ورجاء ثوابه، وخشية عذابه، وعبادته كأنه يراه كما ورد فى الأثر: «اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(٢).

هذه كلمات تقرب معنى تقوى الله تعالى، وهى تتضمن ذكر النعمة، وتتضمن شكرها، وهى فى الشكر نص، ولا يكون الشكر من غير تذكر.

وقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله تعالت كلماته: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وفى هذا طلب الله تعالى من عباده المؤمنين أن يتوكلوا عليه،

---

(١) سبق تخريجه بهذا اللفظ.

(٢) سبق تخريجه.

ولا يتوكلوا على سواه، وقد صيغ الطلب فى صيغة الخبر، للإشارة إلى أنه حال ملازمة للمؤمنين لا ينفصلون عنها؛ لأن من تقوى القلوب ألا يعتمدوا إلا على علام الغيوب، فالتوكل على الله وحده فى السراء والضراء، فى الشدة وفى الضعف من لب عبادته سبحانه وتعالى.

والتوكل على الله ليس هو التواكل وترك العمل، بل هو الأخذ فى الأسباب، ثم الاعتماد فى الوصول إلى النتائج على الله تعالى وحده، فإن الأسباب لا تنتج وحدها، ولكن لا بد من فضل الله تعالى بالتوفيق، ولطف التقدير.

وفى الجملة الكريمة: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إشارات بيانية واضحة منها ذكر لفظ الجلالة، فإنه يشير إلى عظمة من يعتمد عليه إذ يعتمد على منشىء الوجود ومسيره ومبدعه، وفيها لفظ ﴿عَلَى﴾ فإنه يشير إلى علو من يعتمد على الله وسموه، وعدم ذلته لمخلوق، ومنها تقديم الجار وما بعده، فإنه يشير إلى الاقتصار فى التوكل على الله، فلا يتوكل على غيره؛ لأن ذلك لا يخلو من شرك؛ ولأن التوكل من العبادة، والعبادة لله وحده، ومنها لفظ الفاء التى ربطت الكلام، ولا تخلو من معنى السببية، فإنها تدل على أن من ثمرات التقوى التوكل على الله تعالى.

هذا ونكرر أن التوكل على الله تعالى حق التوكل يوجب العمل ﴿... رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝٤﴾ [الممتحنة].

وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ
إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ

وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾

فى الآيات السابقة بَيَّنَ سبحانه طيبات ما أحل الله تعالى، وهى تصور متعة الجسد التى تكون حلالا، سواء أكانت طعاما يؤكل أم كانت تتعلق بما يكون بين الرجل والمرأة، ثم بَيَّنَ طهارة الأجساد والقلوب، بالصلاة وما يتقدمها من وضوء وتيمم، وذلك لتكون متعة الجسد فى دائرة الطهارة والسمو، فيتهذب الفرد وينمو، ويقوى، وبذلك يكون قوة فى بناء المجتمع الإنسانى الذى يبتدئ بمجتمع الأمة أو القوم من غير تعصب ظالم، ولا انحراف لغير غاية فاضلة، وبين سبحانه وتعالى أن العدالة هى نظام العلاقات الإنسانية، وهى التى تنسقها، وكل تنسيق لا يبنى عليها هو مِعْول هدام، ينقض القائم، ويفسد الصالح، والعدالة الحقيقية لا تفرق بين عدو مشنوء مبغض، وولى محبوب مقرب، وذكر المؤمنين من بعد ذلك بأوقات ضعفهم، حتى لا يشتطوا فى أوقات قوتهم، ومن بعد ذلك وثق الله سبحانه وتعالى هذه المبادئ الإنسانية العالية التى هى شريعة النبيين أجمعين، وإن يخالفوها ينقض بنيانهم، وتذهب وحدتهم أوزاعا؛ ولهذا ذكر أخذ الميثاق بها على بنى إسرائيل وكيف نقضوه، فقال تعالى:

﴿**وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا**﴾ الميثاق: أصله من وثق، وهى تدل على معانٍ فيها الاطمئنان، فيقال: وثقت به، أى اطمأننت إليه، ومنها الشد، وربط شيئين، ومنه قوله تعالى: ﴿ ... **فَشُدُّوا الْوَثَاقَ** ... ﴿٤﴾ ﴾ [**محمد**] ومنها ربط الكلامين ربطا موثقا، ومنه هذه الكلمة السامية ميثاق

الله تعالى، وهى تتضمن معنى التشديد فى العهد؛ لأنه مأخوذ مع الله سبحانه وتعالى، وأى عهد أقوى وأوثق من عهد يكون بين العبد والرب؟ ويتضمن ميثاق الله تعالى معنى الاطمئنان، والثقة؛ لأن الاعتماد فيه على الله سبحانه وتعالى، وهو المعاذ الذى يعاذ به، ويلجأ إليه سبحانه وتعالى.

وميثاق الله تعالى الذى أخذه على بنى إسرائيل هو التكليفات التى كلفهم إياها، من صلاة وزكاة، وطاعة للرسل فى المنشط والمكره، والسلم والحرب، يروى فى ذلك عن ابن إسحاق قال: «أُمر موسى أن يسير ببنى إسرائيل إلى الأرض المقدسة وقال: إنى كتبتها لكم دارا وقرارا ومنزلا، فاخرج إليها وجاهد مَنْ فيها من العدو، فإنى ناصركم عليهم، وخذ من قومك اثنى عشر نقيبا، من كل سبط نقيبا يكون على قومه بالوفاء منهم على ما أمروا به، وقل لهم: إن الله يقول: إنى معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى...».

فالميثاق كما تدل الروايات يتضمن التكليفات كلها، وأخصها الجهاد، وموضوعه يبينه الله تعالى بالنص فى قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ﴾.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ أن الله سبحانه وتعالى اختار منهم اثنى عشر رئيسا على حسب بطونهم، ليوقعوا الميثاق، أو ليتلقوا العهد، فالبعث أصل معناه: الإثارة ثم أطلق على الإثارة التى يتبعها فحص، ثم اختيار، والنقباء جمع نقيب، وأصل النقب: الخرق فى الجدار ونحوه، ويقال: نقب عليهم صار نقيبا لهم، أى رئيسا مختارا بما يشبه الانتخاب الطبعى، أى أن رياسته بمقتضى التكوين الفطرى فهو رئيس، وإن لم يعين بسلطان، ويقول ابن جرير فى تفسير معنى النقيب: «النقيب فى كلام العرب كالعريف على القوم غير أنه فوق العريف، يقال منه نقب على بنى فلان فهو ينقب نقبا، فإذا أريد أنه لم يكن نقيبا فصار نقيبا، قيل قد نقب نقابة».

وفسر بعض العلماء النقيب بمعنى الأمين، وإن هذا التزامى لتفسير النقيب على النحو السابق؛ لأنه لا يكون له المنزلة السابقة إلا إذا كان أمينا له سابقات فى

المكارم والمعارف والصدق والأمانة؛ إذ إن هذه الصفات هى أسس السيادة على الناس، والسيادة بغير ذلك تكون نوعا من العلو والجبروت، ولا تكون نقابة سامية.

ومؤدى القول أن الله تعالى أخذ عليهم الميثاق بالطاعة، والإذعان بما أمرهم به، وبأنه كان فى سبط من أسباطهم الاثنى عشر نقيب له عليهم فضل النقابة والشرف يدعوهم إلى تنفيذ ميثاق الله تعالى، والقيام على عهده، وكان ذلك لأن بنى إسرائيل توالت عليهم القرون، وهم فى حكم فرعون وقهره، وقد استمر العذاب والهوان، وانحلت إرادتهم وعزائمهم، وأصبحوا لا يؤمنون بفضيلة ولا عقيدة، فكان لا بد من مذكِّر مستمر من بينهم، ومحرض دائم منهم، ومثل من بينهم تكون عيانا مستمسكة بالخلق والدين، حتى تتربى إرادتهم، وتقوى عزائمهم، ألم تر أنهم مع إنقاذ الله تعالى لهم على يد موسى عليه السلام، وفلق البحر لهم حتى صار كل فرق كالطود العظيم، ومع توالى البينات الشاهدة المثبتة للرسالة والوحدانية قالوا لموسى: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، فالحس قد استولى عليهم، والمادية قد استغرقتهم؛ ، لذلك كان مع ميثاق الله تعالى الذى واثقهم به النقباء الذين كانوا فيهم مع الرسول موسى عليه السلام، وأخيه هارون الذى شد أزره فى رسالته. وفى النص الكريم إشارتان بيانيتان:

إحداهما: أن الله تعالى نسب الميثاق إليه جل جلاله بلفظ الجلالة لزيادة توثيقه، ولعظيم توكيده، ثم التفت بنسبته بعث النقباء إليه من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم العظيم؛ لبيان عظم مقام النقباء، فإسناد بعثهم إليه سبحانه هو الذى بينهم وهو الذى كونهم.

والإشارة الثانية يتضمنها قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ**﴾ وهنا كان الالتفات إلى لفظ الحاضر مرة ثانية، وذكر معية الله تعالى تفيد أمرين، أولهما: أن الله تعالى يعلم حالهم من طاعة أو عصيان عِلْم المصاحب لهم، فإنه لا يخفى عليه أمرهم، وإنه محاسبهم على تنفيذ العهد والميثاق، وإنه سبحانه وتعالى يجزى

بالحسنة الحسنى وبالسيئة السوءى. والأمر الثانى: أنه إذا كان جهاد، فالله تعالى معهم مؤيدهم بنصره، إن اعتزموا ونصروه.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ ذكر القول ونسبته إلى الله سبحانه وتعالى، وذلك فضل تأكيد بالمعية والمصاحبة، والمراقبة والمناصرة؛ لأن الله تعالى هو الذى أخبر بذلك عن نفسه.

﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ هذا بيان الميثاق الذى واثقهم الله تعالى به، وقد ذكره سبحانه وتعالى مؤكدا بالقسم فضل تأكيد؛ إذ إن التأكيد بالقسم تبعه لغة التأكيد باللام، والتأكيد بالنون التى تدخل هى واللام فى الجواب، وهو هنا قوله تعالى: ﴿لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾.

وقد فهم بعض المفسرين أن قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ﴾ داخل فى مقول القول فى قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ فيكون ذلك خير تأكيد للعهد بالنسبة لله تعالى، وهو جواب القسم، وعندى أن هذا النص استئناف بيانى فيه بيان موضوع الميثاق، فهو عهد بين العبد وربه، كان الالتزام على بنى إسرائيل، هو ما اشتمل عليه النص الكريم، وما وعد الله تعالى هو ما جاء فى قوله سبحانه: ﴿لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾.

والالتزام الذى أوجبه ميثاق الله تعالى عليه يتصل بتهذيب النفوس، والتعاون الاجتماعى، والجهاد والإيمان، وقد ذكره سبحانه وتعالى فى خمسة أركان:

أولها: ما قاله سبحانه فى صدر العهد: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ﴾ فالصلاة هى الركن الأول من الميثاق الربانى الإلهى، وابتدئ بذكرها؛ لأنها طهارة النفوس، وتزكية القلوب، وبها تربية الضمير الذى يكون جماعة مؤتلفة، وإقامتها تنهى عن الفحشاء والمنكر وتربى فى النفس روح الخير، والإحساس بعظمة الله تعالى، ولا يمكن أن يكون الوفاء بالميثاق الإلهى من غير إقامة الصلاة؛ فإنها ركن كل دين

وروح التدين الصحيح وقوامه، وعبر بإقامتها دون أدائها، فقد قال: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ﴾؛ لأن الصلاة التى تأتى بثمراتها هى الصلاة الكاملة، التى يأتى بها صاحبها مقومة غير ملتوية يتجه فيها بالنية إلى الله تعالى، ويخلص فيها، لا التى تكون رئاء الناس، أو تؤدى على وجه العادة، لا على وجه العبادة.

الركن الثانى: من أركان ميثاق الله تعالى على بنى إسرائيل، وهو ميثاقه على خلقه عامة لا على بنى إسرائيل، هو إيتاء الزكاة، وإذا كانت الصلاة تربية القلوب وتهذيب الوجدان ليندمج المؤمن فى جماعته، فالزكاة فريضة تعاونية لسد خلة الضعفاء، ولإيجاد تعاون بين الغنى والفقير، فلا يكون الغنى مملوء الجيب، والبطن، والفقير فارغ الجيب، أخمص البطن، فهى التعاون الكامل، وهذا يدل على أن الزكاة ليست فى الإسلام فقط، بل هى فى كل الأديان السماوية، وهى جزء من الميثاق الدينى فى كل الرسالات السماوية، فليس لأهل دين سماوى أن يفر منها باسم أنها ليست فى دينه، وإذا كانت النظم تختلف أحيانا فى بعض الشرائع عنها فى الآخر، فالأصل ثابت وهو مشترك فى الجميع، ولعل الصلاة أيضا قد تختلف أشكالها، ولكن لبها ثابت فى الجميع، وليس لأهل دين أن يغير فى أمر الله تعالى.

الركن الثالث: ذكره الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَآمَنتُم بِرُسُلِي﴾ والإيمان بالرسل معناه: الإذعان والتصديق، فمن ميثاق الله تعالى على بنى إسرائيل وغيرهم الإيمان برسل الله تعالى بتصديقهم، والإذعان لما يدعون إليه فلا يقبلون لبعضهم البعض، ويرفضون الآخرين، فيؤمنون ببعض الكتاب، ويكفرون ببعض؛ لأن رسالة الله واحدة، ورسل الله تعالى جاءوا جميعا بشرع واحد فى أصله، وإن اختلف فى بعض فروعه، وقد أضاف سبحانه وتعالى الرسل إليه، فقال: ﴿وَآمَنتُم بِرُسُلِي﴾ لتأكيد معنى رسالة هؤلاء الرسل، وللإشارة إلى أن عدم الإذعان لهم، والتصديق بهم تمرد على الله تعالى، وتكذيب، فمن يطعهم فقد أطاع الله تعالى، ومن يعصهم فقد عصاه سبحانه، فإضافة الرسل إليه سبحانه وتعالى لتعظيم شأن رسالاتهم، وبيان آثار طاعتهم ومغبة عصيانهم.

وقد يقال: إن الإيمان بالرسل مقدم على طلب إقامة الصلاة، وطلب إيتاء الزكاة، فلماذا أخر فى الذكر عنه؟ وإن الجواب عن ذلك: أن الميثاق مفروض أنه بعد الإذعان لرسالة موسى عليه السلام، فكان أخذه ثمرة من ثمرات تلك الرسالة، فهناك إيمان ضمنى مقدر فى ثنايا القول، وإن لم يكن مذكورا، وإن الإيمان بالرسل المذكور من بعد هو الإيمان بالرسل الذين يجيئون من بعد موسى، كعيسى ومحمد صلى الله تعالى عليهما وسلم، حتى لا يحسبوا أن الرسالة مقصورة على موسى، وأنهم لا يؤمنون إلا بها، وأن يقولوا: أن غيرهم ليسوا على شيء فإن فعلوا يكونوا بذلك قد نقضوا الميثاق الذى واثقهم الله تعالى.

والركن الرابع من أركان ذلك الميثاق القدسى: عبر الله تعالى عنه بقوله تعالى: ﴿**وَعَزَّرْتُمُوهُمْ**﴾ أى قويتموهم ونصرتموهم، فذلك فتح باب الجهاد الواجب لنصرة الرسل، ونصرة الحق دائما، فالتعزير هو النصر، ويطلق على العقاب المانع من الضرر، ويقول صاحب المفردات: إنها من باب واحد، فيقول فى ذلك: التعزير النصرة مع التعظيم قال تعالى: ﴿... **وَتُعَزِّرُوهُ** ... ﴿٩﴾﴾ [**الفتح**] ﴿ **وَعَزَّرْتُمُوهُمْ**﴾، والتعزير ضرب دون الحد، وذلك يرجع للأول، فإن ذلك تأديب، والتأديب نصرة، لكن الأول نصرة بقمع ما يضره بالدفاع عنه، والثانى نصرة بقمعه عما يضره، فمن قمعته، فقد نصرته، وعلى هذا الوجه قال ﷺ: «انصر أخاك ظالما أو مظلوما، قال قائل: أنصره مظلوما، فكيف أنصره ظالما؟ فقال ﷺ: «كفه عن الظلم»(١).

والخلاصة، أن التعزير فى الآية النصرة مع التوقير والتعظيم، وعدم التهجم عليهم أو الاستهزاء بهم أو السخرية منهم.

---

(١) عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: «تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنْ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ» رواه البخاري: الإكراه - يمين الرجل لصاحبه إنه أخوه إذا خاف عليه (٦٩٥٢)، وأحمد: مسند أنس (١١٥٣٨) كما رواه بلفظ: «تكفه عن الظلم» الترمذي: الفتن (٢٢٥٥) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

والركن الخامس: هو ما عبر عنه الله بقوله: ﴿**وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا**﴾ والمراد من إقراض الله تعالى فى هذا المقام هو الإنفاق فى سبيل الله تعالى عندما تحتاج نصرة الحق إلى جهاد فى سبيله، وإعطاء الضعفاء الذين هم عيال الله تعالى فى هذه الأرض، فمن أعطاهم ابتغاء مرضاة الله تعالى فقد أعطى الله سبحانه وتعالى، ومن إقراض الله تعالى قرضا حسنا القيام بما طالب به من طاعات، بأداء ما عليه من واجب؛ لأن من يفعل ذلك ابتغاء مرضاته سبحانه فكأنما أقرض الله قرضا حسنا، والله سبحانه سيضاعفه فى الأداء له أضعافا كثيرة.

وهنا نجد إشارات بيانية تستوجب ذكرها إجمالا من غير تعرض لتفصيل:

الأولى: أن الله سبحانه وتعالى سمى القيام بالواجبات، والإنفاق فى سبيله، وإعطاء المحتاجين - إقراضا له تعالى، وهو الغني، والناس هم الفقراء، وكانت تلك التسمية تحريضا على هذه الخيرات، وتشريفا لمقام القائم؛ وإعزازا لعمله، وكانت التسمية فوق ذلك تأكيدا للجزاء؛ لأن المقترض لا غني فى الوجود سواه، فهو وحده القادر على الجزاء، وأتى تأكيدا للجزاء على الحسنة بأقوى من هذا، وقد صرح سبحانه وتعالى بمضاعفة الأداء فى آية أخرى، فقال سبحانه: ﴿**مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴿٢٤٥﴾﴾ [**البقرة**].

الثانية: أن «قرضا» فى قوله تعالى: ﴿**وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا**﴾ المراد بها العطاء؛ أى الشيء الذى قدمه العبد، وإن كان فى إعرابه يصح أن يكون مفعولا مطلقا، ونرى أنه مفعول به(1).

الثالثة: أن الله تعالى وصف القرض بأنه حسن، والحسن فى كل شيء يناسبه، ففى الوجوه تَنَاسُبُهَا، وإشراقها، وفى الأشياء تناسقها وتآلفها؛ وفى الأعمال خلاصها من شوائب الرياء والنفاق، وهو فى القرض الاتجاه به إلى الله

---

(١) ويكون مفعولا به على معنى (عطاءً) كما بين الإمام رحمه الله تعالى.

تعالى وطلب مرضاته، والشعور بالشكر له سبحانه، فهو المنعم وهو المعطى، وهو صاحب الفضل العميم.

وقد بَيَّنَ سبحانه بعد ذلك ما وعد به، فقال تعالت كلماته:

﴿لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ هذا جواب القسم الذى أقسم به رب العالمين، منشىء هذا الوجود، وهو يتضمن ما وعد الله به بنى إسرائيل إذا قاموا بما يوجبه الميثاق عليهم، وهو يتضمن أمرين أحدهما: غفران ما ارتكبوا من سيئات، وثانيهما: جزاء ما فعلوا من خيرات، وقد عبر سبحانه وتعالى عن الغفران بقوله: ﴿لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أى لأسترن ما قدموه من أعمال هى سيئة فى ذاتها، وهى سيئة لهم، ولمجتمعهم، ومعنى تكفيرها سترها، فلا تفضح بالعذاب؛ إذ العذاب كشف لها، وإعلام بها، والغفران ستر وعطاء، وقد أكد سبحانه الغفران بلام القسم والنون المؤكدة توكيدا شديدا.

وعبر سبحانه وتعالى عن الجزاء بقوله: ﴿وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ وأكد العطاء بمثل ما أكد الغفران، وقد قدم سبحانه الغفران على الثواب؛ لأن الغفران تطهير، والتطهير مقدم على غيره، أو كما يقول العلماء: «التخلية مقدمة على التحلية».

﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أى أنه من يجحد بآياته ونعمه وآلائه وبيناته بعد ذلك الميثاق الغليظ الذى أخذ عليهم، والوعد الأكيد الذى وعدهم الله به فقد بَعُدَ عن السبيل المستوية المُعَبَّدَة المسلوكة، وسار فى متاهات الضلال التى لا هداية بعدها، فمعنى سواء السبيل الطريق المستوية التى توصل، ومعنى ضلالها البعد، وهذا إنذار لله تعالى بعد الميثاق بأنه هو الطريق السوى، فمن حاد عنه، فقد ضل وغوى، وقد كانوا كذلك.

اللهم اهدنا، ووفقنا لاتباع سبيلك السوى، إنك الهادى والنصير.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾

أخذ الله سبحانه وتعالى على بنى إسرائيل الميثاق أن يقوموا بالتكليفات التى كلفهم إياها، وألزمهم بمقتضى هذا الميثاق أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، وأن يقوموا بالخير الذى رغبهم فيه سبحانه بأن سماه إقراضا له، وهو المنعم بكل شىء الغنى الحميد، ووعدهم سبحانه بأن من يقوم بحق الميثاق يستر سبحانه وتعالى سيئاته، ويدخله جنات النعيم الدائم الذى لا يحول ولا يزول، وأوعدهم بأن من يكفر بالميثاق ينال جزاء الضالين، وأشار لهم بأن الميثاق هو الطريق المستقيم، وأن الخروج عن منهاجه هو الضلال المبين، ولكن ذكر بعد ذلك أنهم اختاروا الضلالة على الهدى ونقضوا الميثاق، وضلوا وبعدوا عن طريق الحق، فطردوا من نعمة الإيمان، واستولى الشيطان على قلوبهم؛ ولذا قال سبحانه:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ أى بسبب نقضهم الميثاق الذى أخذ عليهم، والتزاموا بأحكامه طردهم الله تعالى من رحمته، وذلك

لضلالهم عن طريق الهداية؛ لأن من ترك طريق الله الذى سنه، فقد ضل، وبهذا الضلال المبين طردوا من طريق الرحمة، وهو الطريق المستقيم الذى يوصل إلى جنات النعيم، فمعنى لعناهم: طردناهم، والطرد هنا هو السير فى متاهات الضلال، وفى ذلك تشبيه لحال من يسلك سبيل الضلال بعد أن فُتح له باب الهداية، وأرشد إلى الطريق المستقيم بحال من يكون فى مكان آمن مستقر فيه، قد مكن له فى الإقامة ومهد له، ثم طُرد منه مذءوما مدحورا مبغوضا مكروها.

وإنهم إذا ساروا فى طريق الغواية، وتركوا منهاج الهداية تفسد مداركهم، فيطمس على عقولهم، وتجمد قلوبهم فلا تلين لحق، ولا يدخل إليها نور؛ ولذلك قال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً**﴾ أى جعلنا قلوبهم غليظة صلبة كالحجارة، منزوعة منها الرأفة والرحمة؛ وذلك لأنهم لما مردوا على العصيان والمخالفة صلبت قلوبهم، فأصبحت لا تنفتح لإدراك حق، كما قال فى شأن هؤلاء اليهود عندما أخذوا فى طريق العصيان: ﴿**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾**﴾ [البقرة].

والقراءة المشهورة عند البصريين هى: ﴿**وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً**﴾ وهناك قراءة أخرى وهى مشهورة عند الكوفيين، وهى: (وجعلنا قلوبهم قَسِيَّة)(١) وقد خرجها بعض المفسرين على معنى القراءة السابقة، بيد أن فيها مبالغة؛ لأنها على وزن فعيلة فهى تدل على تمكن صفة القسوة فيهم، وذكر ابن جرير الطبرى لهذه القراءة وجها آخر، وقال: «إنما القسية فى هذا الموضع القلوب التى لم يخلص إيمانها، ولكن يخالط إيمانها كفر، كالدراهم القسية، وهى التى يخالط فضتها غش من نحاس أو رصاص» ثم قال رضى الله عنه: «وأولى التأويلين فى ذلك بالصواب،

---

(١) قرأها بغير ألف: حمزة والكسائي، وجبلة عن المفضل عن عاصم. وقرأ الباقون بالألف. غاية الاختصار (٨٠٠).

تأويل من تأول فعيلة من القسوة، كما قيل نفس زكية وزاكية، وامرأة شاهدة وشهيدة؛ لأن الله تعالى جل شأنه وصف القوم بنقضهم ميثاقهم وكفرهم به ولم يصفهم بأى شىء من الإيمان، حتى تكون قلوبهم موصوفة بإيمان يخالطه كفر، كالدراهم القسية التى يخالط فضتها غش» والحق عندى أن كلتا القراءتين قرآن، وما دامت متواترة فالجمع بينهما ضرورى، والجمع بجعل إحداهما تأتى بمعنى ليس فى الأولى يكون أولى وتكون كلتاهما متممة للأخرى، وبالجمع يكون المعنى: وجعلنا قلوبهم قاسية؛ لأنه اختلط فيها الزيف بأصل الإيمان، فعندهم إيمان بالله من غير إذعان لأحكامه، ولا تصديق لرسله، ولا قيام بالتكليفات، والزيف أكثر من الأصل، والنحاس أكثر من الفضة، فصلبت.

وإن قسوة القلب وفساده يترتبان على الانحراف عن الطريق السوى الذى عبر عنه بالطرد؛ لأن من ضل الطريق كلما سار فى الضلال تاه عن الحق وغاب عنه؛ ولأن القلب كلما أركس فى الشر أربد وأظلم، وصارت غشاوة من الباطل تغطيه فلا يدرك، وتحجره فلا يلين.

وهنا بحث لفظى، وهو فى قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾ فإن الفاء هنا تسمى بفاء الإفصاح، وهى تفصح عن شرط مقدر تقديره: فإذا ضلوا ونقضوا الميثاق، فبسبب ذلك يُطردون من طريق الرحمة ومنهاج الاستقامة، و «ما» زيدت فى الإعراب لتأكيد معنى السببية بين نقض الميثاق والضلال.

﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ أى يحيلون بالكلام عن الموضع الذى نزل فيه ولأجله، والمعنى المقصود منه إلى طرف بعيد عن لبه، وعن معناه، فالحرف للشىء طرفه الذى يبعد عن قلبه وعن قطبه الذى يدور حوله، والتحريف كما جاء فى عبارات المفسرين قسمان، قسم يغيرون به معانى الكتاب، فيتجهون بها إلى أمور ربما يحتملها الكلام، ولكن لا يحتملها إلا على بعد من موضوعها، كبعد طرف الشىء عن قطبه، وقسم آخر يغير ذات الكلام بزيادة ألفاظ فيه تذهب بأصل المعنى، أو بحذف ألفاظ يذهب بالمقصد من القول، وقد كان من اليهود القسمان،

فهم غيروا معانى الكتاب الذى أنزل وأبعدوه عن معانيه التى قصدت من سَوْقِه، وأريدت من شرعه، وهم غيروا وبدلوا فى عباراته حتى تذهب تكاليف الكتاب وتطمس معالم أحكامه، ومن ذلك مثلا أنه جاء فى كتبهم تحريم الربا بمثل هذا الكلام (أخاك لا تقرض بالربا) فزادوا كلمة الإسرائيلى: (أخاك الإسرائيلى لا تقرض بالربا) وبذلك تغير المعنى تغيرا جوهريا، والكلم: المراد بها الكلام، فهو اسم جمع يدل على الجمع بحذف التاء، كشجر وشجرة، وتمر وتمرة.

وجاء قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ ثمرة لقسوة القلوب والطرد بالضلال؛ وذلك لأنهم لما ضلوا وفسدت قلوبهم واختلط فيها الزيف بالجوهر حتى غلب الزيف، ماتت ضمائرهم، وصاروا كذابين يكذبون على الله تعالى، وعلى الناس، فيغيرون معانى التنزيل، ويزيدون فيه وينقصون على حسب هواهم وشهواتهم، وارتكبوا بهتانا عظيما.

ومع التحريف الذى قصدوه، وشوهوا به التوراة التى نزلت على رسولهم قال الله تعالى عنهم: ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ والنسيان معناه الترك، أو الغفلة عنه. وقد جاء فى مفردات الراغب الأصفهانى ما نصه: «النسيان ترك الإنسان ما استودع إما لضعف قلبه، وإما عن غفلة، وإما عن قصد، حتى ينحذف عن القلب ذكره» وهذا يستفاد منه أن النسيان ترك عن غفلة أو ترك عن قصد، وقد يكون النسيان سببه أمر خارج عن إرادة الناس، كأن يخفى عدو قاهر ما عند الشخص فيتركه مكرها.

وقد كان عند اليهود - قبحهم الله - الأنواع الثلاثة، فهم قد أصابتهم الغفلة عن كتابهم بسبب فساد قلوبهم، وهم قد تركوا بعضه، وجعلوه مهجورا؛ لأنه لا يتفق مع أهوائهم، وقد نزل بهم من الشدائد ما ضيع كتبهم، ولم يبق منها إلا القليل، كما فعل ذلك بختنصر معهم، حتى إذا عاد جمعهم لم يبق من كتبهم إلا متناثرا، لا يكون مجموعا متناسقا.

وهنا لفظان نقف عند المعانى التى يشيران إليها: أولهما: معنى «حظ» فنقول: الحظ هو النصيب الكبير الذى يعد محظوظا من يأخذه، وهذا يدل على أن الجزء الذى نسى هو جوهر الدين ولبه، وحسبك أن تعلم أن التوراة التى بأيدينا ليس فيها ذكر لليوم الآخر، وما يكون فيه من نعيم مقيم وعذاب أليم، وثانى اللفظين: هو «مما ذكروا به» فإن ذلك يشمل تعاليم موسى وتعاليم الأنبياء من قبله، وكل هذا نسوا الحظ الأكبر منه.

﴿وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ الجماعات الإنسانية تتوارث عادات وأخلاقا، حتى تصير كأنها طبائع وجِبِلَّة، فالكلام فى بنى إسرائيل الذين سبقوا عصر النبوة، ولكن الذين عاصروا النبى ﷺ يحملون الصفات التى كان أسلافهم عليها؛ ولذلك اعتبروا منهم أو مثلهم، فخاطب الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بأنه ﷺ يرى فى الحاضرين صورة السابقين، ويرى فيهم طائفة منهم، وإن تباعدت الأزمان، وإذا تخالفت الشخوص لا تتخالف الصفات؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أى أن صفاتهم مستمرة وهم بذلك مستمرون، فلا تزال تطلع على طائفة خائنه منهم خيانة أسلافهم، فيهم قسوتهم، وفيهم ضلالهم، وفيهم انحرافهم. و﴿خَائِنَةٍ﴾: وصف لمحذوف تقديره بقية خائنة، أو طائفة خائنة، أو نفوس خائنة منهم، وفسر بعض المفسرين خائنة بمعنى خيانة، والمعنى على ذلك لا تزال تطلع على خيانة، والمؤدى واحد؛ لأن الاطلاع على فرقة أو بقية خائنة اطلاع على الخيانة، والاطلاع على الخيانة اطلاع على قوم متصفين بها، وفى الكلام إشارة إلى أن هؤلاء اليهود فى ماضيهم قد خانوا الله تعالى، وخانوا أنفسهم بنقضهم الميثاق الذى أخذ موثقا مؤكدا عليهم، فلا تعجب إذا كانوا قد خانوا العهد معك، ونقضوا الحلف الذى حالفوك عليه، على أن أمنك أمنهم، وأمنهم أمنك، وأن تكون العلاقة بينك وبينهم حسن الجوار، والمودة الحسنة.

ولما كان اليهود منهم أمة مقتصدة، وأن كثيرا منهم ساء ما يعملون، استُثْنِيَ أهلُ الخير من أن يكونوا خائنين، كسائرهم، فقال: ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ ولقد أجمع المفسرون على أن هذا القليل منهم: اليهود الذين دخلوا فى الإسلام، وآمنوا بمحمد ﷺ وما جاء به، ويصح أن نعد منهم عددا قليلا محدودا من اليهود قد خالفوا سائرهم عندما كانوا يهمون بنكث العهد مع النبى ﷺ، فهؤلاء، وإن لم يسلموا يصح أن يستثنوا من الذين يخونون وينكثون العهد، ولقد أمر الله تعالى نبيه بأن يأخذ الناس بالعفو والصفح الجميل، ولذا قال تعالى:

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ العفو معناه فى مثل هذه: عدم مقابلة الإساءة بمثلها، والتجافى عنها، وتركِ المؤاخذة عليها، والصفح معناه: ترك المؤاخذة، وترك اللوم والتثريب، بل ترك العتاب عليها؛ ولذلك قالوا: إن الصفح أعلى رتبة من العفو، وقال فى ذلك الراغب الأصفهانى فى مفرداته: وهو - أى الصفح - أبلغ من العفو؛ ولذلك قال تعالى: ﴿... فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا ... ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة] وقد يعفو الإنسان ولا يصفح ولكن لا يمكن أن يتحقق صفح من غير عفو، إذ العفو ترك المقابلة بالمثل ظاهرا، وقد يكون فى النفس شىء، أما الصفح فإنه يتناول السماحة النفسية، واعتبار الإيذاء كأن لم يكن، فى المظهر والقلب.

والإحسان يطلق على الإتقان، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿... إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف] ويطلق على الإنعام على الغير، ومن ذلك قول القائل: «أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم» والإحسان فى هذه الآية يشمل المعنيين، والإحسان فوق العدل؛ لأن العدل مع غيرك إعطاؤه الحق الذى له، والإحسان إعطاؤه الحق وزيادة، ومعنى النص الكريم: إذا كانوا على هذه الصفة التى ذكرناها فلا تعاملهم بمثل أخلاقهم، بل عاملهم بأخلاق النبوة التى تدعو إلى الحق، وإلى صراط مستقيم، فاعف عنهم ولا تؤاخذهم بذنوبهم، فلا تعاملهم بالمثل إلا دفاعا عن الحوزة واصفح الصفح الجميل، ولا تجعل فى قلبك غلا ولا

ضغنا، حتى يخلص قلبك من كل ما يعكره، لتصفو الدعوة، وإن الله تعالى يحب الذين يتقنون أعمالهم بسلوك سبيل الدعوة الصحيحة، وأخذ الناس بالرفق، ومعاملتهم بالتى هى أحسن، والإنعام عليهم بالعفو، وخلوص النفس من كل الشوائب بالصفح الجميل.

ولكن من هم الذين يستحقون ذلك العفو والصفح، أو بعبارة أخرى من الذين أمر النبى ﷺ بالعفو عنهم والصفح الجميل لهم. قال بعض المفسرين: هم العدد القليل الذين استثناهم الله تعالى بقوله تعالت كلماته: ﴿**إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ**﴾.

وإنا نرى أن ذلك، ولو أنه مستقيم مع سياق اللفظ هو غير مستقيم فى سياق المعانى؛ لأن هؤلاء لم يسيئوا ولم يكونوا خائنين، حتى يكون للعفو والصفح موضع.

وقال بعض المفسرين: إن الذين أُمر النبى ﷺ بالعفو عنهم هم اليهود جميعا، ولكن نُسخ هذا بقوله تعالى: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ** ... ﴿٢٩﴾﴾ [**التوبة**] وهؤلاء منهم، ولكن يرد عليه بأن النسخ لا يصار إليه إلا إذا لم يمكن الجمع.

وقال آخرون: إن المراد اليهود ولا نسخ؛ لأن العفو والصفح كان بمساكنتهم وبقبول الجزية منهم مع معاشرتهم للمسلمين على أن يكون لهم مالهم وعليهم ما عليهم، وفى ذلك النظر وجاهة.

والذى نراه أن الأمر بالعفو والصفح عام لليهود، لكى يؤدى النبى ﷺ واجب الدعوة، وكذلك الشأن فى كل داع إلى دعوة؛ لأنه إذا كانت النفس يشوبها الغضب والألم والإحن ويبدو ذلك فى اللسان، فإنه لا تستقيم الدعوة، ولا تقوم الحجة على من يدعوهم؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ** ... ﴿١٢٥﴾﴾ [**النحل**] ويقول سبحانه: ﴿**وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴿٤٦﴾﴾ [**العنكبوت**] ولا يمكن أن يكون ذلك قد

نسخ؛ لأن سورة المائدة من آخر القرآن نزولا؛ ولأن التوفيق غير متعذر، ولأن الأمر بالعفو والصفح لا ينافى القتال، لأنه إذا اعتدت طائفة وجب فلّ شوكتها، وقد اعتدت قينقاع وخانت الحلف، ولا يمكن ائتمانها فى وقت قتال، فوجب إجلاؤها، وكذلك بنو النضير، واستحقت قريظة ما نزل بها، وما كان ذلك إلا دفاعا عن النفس، وتأمينا لما وراء الظهر، وفى غير هذه الأحوال الاستثنائية يكون العفو والصفح واجبا ليؤدى النبى ﷺ واجب التبليغ، ولا يعمل الأمر بالعفو عند موجب القتال للدفاع؛ إذ إن ذلك يكون إلقاء بالنفس إلى التهلكة، ويطبق الأمر بهذا الشكل فى عصرنا، فاليهود الذين يخربون فى ديارنا تُكَفّ أيديهم ويُخرجون منها، وغيرهم نعاملهم بالخلق الحسن إلا أن يظاهروا الأشرار فيهم، وقليل من لم يظاهروهم.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ فى الآيات السابقة بَيَّنَ الله الميثاق الذى أخذ على بنى إسرائيل، ونقضوه، ونسوا حظا مما ذكروا به، وفى هذا النص الكريم يذكر سبحانه وتعالى الميثاق الذى أخذ على قوم عيسى عليه السلام، وهو يشمل ما جاء به ذلك النبى الكريم، والرسول الأمين ﷺ من بيان وحدانية الله تعالى، وأنه ليس بوالد ولا ولد، وأنه ليس له صاحبة، ومن إحياء للتوراة الحقيقية ووصاياها وتكليفاتها، وقد صدَّق الصادق منها.

ولكن النصارى نسوا حظا مما ذكروا، أى نسوا قدرا كبيرا هو لب الديانة المسيحية، وهو التوحيد، وكثير من وصايا عيسى عليه السلام، وما دعاهم إليه من تسامح وحب للسلام.

وسبب نسيان حظ أى نصيب كبير مما ذكروا به هو اضطهاد النصارى اضطهادا شديدا فى عهد الرومان، حتى ضاعت كتبهم، ولم يعرف شىء منها إلا قليل غير سليم بعد مائتى سنة من ترك المسيح هذه الدنيا، ثم ظهرت هذه الأناجيل التى يتدارسونها، ولا يزالون يغيرون ويبدلون فيها على حسب الطبعات

المختلفة، بعد أن دخل قسطنطين إمبراطور الرومان فيها، وغير وبدل فى مجمع نيقية الذى انعقد فى سنة ٣٢٥ ميلادية، وقد ذهب لب الديانة وهو التوحيد.

وهنا نكتة بيانية أساسها بيان السبب فى أن الله تعالى عبر عنهم بقوله تعالت كلماته: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ ولم يقل النصارى للإشارة إلى أن ادعاءهم النصرانية التى هى الدين الذى دعا إليه المسيح عليه السلام قول يقولونه بأفواههم ولا يتبعونه بقلوبهم؛ إذ هجروا لب تعاليم المسيح، وهو الوحدانية.

﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ «الفاء» هنا للسببية أى أنهم بسبب نسيان كتبهم، وذهاب مصدر دينهم اختلط الباطل بالحق فيما يعتقدون فتفرقوا شيعا، وكانت بينهم العداوة، فمن قائل إن المسيح إله وهو ابن الله، ومنهم من قال إنها بنوة نعمة، ومنهم القائلون بالحق وهم الذين أنكروا ألوهيته كأريوس وأتباعه، ثم الذين قالوا بالألوهية اختلفوا أَوَلَدَتْ مريم اللاهوت من الناسوت، أم ولدت الإنسان فقط، ثم اختلفوا فى الإرادة التى تكون من المسيح أتكون منهما أو من أحدهما، وكل فرقة تكفر الأخرى وتعاديها وتضطهدها وترميها بالكفر، حتى إن الملكانيين كانوا يذيقون اليعقوبيين سوء العذاب، ولم ينقذهم من أيديهم إلا الحكم الإسلامى العادل الرشيد، وكانت العداوة فى العصور الأخيرة بين الكاثوليك والإنجيليين، وأريقت فيها الدماء، وإن تلك العداوة ستستمر إلى يوم القيامة. وهنا بحث بيانى وهو التعبير بأغرينا، فإن الإغراء من الغراء وهوما يلصق به، والمعنى كان الالتصاق والارتباط الذى يربطهم عداوة ظاهرة بالجدل أو المحاربة، وبالكراهية المستكنة بالنفس وهى البغضاء، أى البغض الشديد الذى يسكن القلب، ولا علاج له، وقد بَيَّنَ الله سبحانه وتعالى عاقبتهم بقوله:

﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ أى أنهم يستمرون فى ريبهم يترددون، وفى عداواتهم يلجون، حتى يوم القيامة، وفى هذا يخبرهم الله تعالى الخبر العظيم بنتيجة ما كانوا يعملون ويصنعون من غير تفكير ولا تدبر، وسوف

هنا لتأكيد الخبر، وبيان أنه وإن تأخر آت لا محالة.. اللهم ألهمنا قول الحق والنطق به، وقنا شر أهل العداوة والبغضاء من عبيدك، إنك سميع الدعاء.

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾

بَيَّنَ الله سبحانه وتعالى الميثاق الذى أخذه على بنى إسرائيل، وقد وثقه بشهادته سبحانه وتعالى، وبعث اثنى عشر نقيبا عليهم يمثلون أسباطهم، ومع ذلك نقضوه، فطردهم الله من رحمته، فقست قلوبهم إذ مردت على العصيان، وأطفأت النور الذى جاء إليهم من الله تعالى، فحرفوا الكلم عن مواضعه، وأهملوا العمل بالباقى وجعلوا شرع الله تعالى نسيا منسيا، وامتلأت نفوسهم بالخيانة، وابتلى الله تعالى محمدا ﷺ بذريتهم التى ورثت عنهم أخلاقهم ومروقهم عن الحق، مروق السهم من الرمية، ثم كان من الذين نسبوا أنفسهم للنصرانية بعض ما كان من اليهود، فنسوا حظا من الكتاب الذى جاء به عيسى عليه السلام إليهم، وأطفأوا نور الحق الذى جاء به فى قلوبهم، وتفرقوا فيما

بينهم، وأغريت بسبب هذا التفريق العداوة والبغضاء بينهم، بعد هذا بيّن لهذين الفريقين وغيرهما الطريقة المثلى، والصراط المستقيم فقال سبحانه:

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ الخطاب لليهود والنصارى الذين نسوا فى الماضى حظا مما ذكروا به وحرفوا فى الماضى الكلم عن مواضعه، والذين طردوا أسلافهم من طريق الحق لنقضهم الميثاق، وقست قلوب الماضين منهم.. وقد انتقل البيان القرآنى من الكلام عن ماضيهم إلى مخاطبة الحاضرين الذين يجرى فى أوساطهم ما كان يجرى فى أوساط الذين تقدموهم، فالالتفات من الكلام عن الغائب إلى مخاطبة الحاضر؛ لأن البيان للحاضرين والتكليف القائم للقائمين، وإن كان يجرى فى أوساطهم ما كان يجرى فى أوساط ماضيهم، ولكن لا بد من أنه يجهر بالحق فى أوساطهم، فهم مخاطبون بما جاء به محمد ﷺ.

وقد أفرد الكتاب، والنصارى واليهود لهم كتب وأسفار لا كتاب واحد، وكان الإفراد لأحد أمرين أو لهما معا ـ أول الأمرين ـ أن الكتاب يطلق ويراد به الجمع، لأن (أل) هنا للجنس، كما يقال: السوق، أو: أهل العلم، ويراد العلوم. وثانى الأمرين: أن العرب كانوا قسمين: أميين لا يقرءون، أو ليست الكتابه رائجة عندهم، وأهل كتابة وعلم بالكتاب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾ [**آل عمران**] فالأميون هنا العرب الذين لم تكن الكتابة والقراءة كثيرة عندهم.

وعلى ذلك تكون كلمة «أهل الكتاب» ليست مقابلة فقط للمشركين وعبدة الأوثان، بل هى مقابلة للأميين.

وأهل الكتاب الذين صاحبهم الكتاب وكانوا له كالأهل الذين يرتبطون فيه. وفى نداء اليهود والنصارى فائدتان:

إحداهما: ما يمتازون به عن المشركين بالعلم، وأنهم ليسوا أميين، بل هم مدركون عمن دونهم.

والفائدة الثانية: تقريعهم ولومهم بأنهم مع أنهم معروفون بعلمهم بالكتابة ومصاحبتهم لهم قد أخفوا كثيرا.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ فيه ما يومئ بأنهم مختصون بالخطاب، مع أن النبى ﷺ بُعث للناس أجمعين عربهم وعجمهم، وأسودهم وأبيضهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ... ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ] ولكن كان الإيماء بالاختصاص لما يتضمنه البيان الذى من بعد ذلك، من أنه يبين كثيرا مما كانوا يخفون، فكان هذا نوع اختصاص لهم، وإن كان القرآن قد جاء لعامة المكلفين لا فرق بين كتابى وأمى، ولا بين من كانت له ديانة سماوية ومن لم يكن له بلاغ من قبل، وكان التعبير بقوله تعالت كلماته بـ ﴿جَاءَكُمْ﴾ بدل «بُعِثَ لكم» للإشارة إلى أنه يحاضرهم ويخاطبهم ومعهم جاء إليهم يرونه ويراهم، وإضافة رسول إلى الله تعالى فى قوله سبحانه ﴿رَسُولُنَا﴾ فيه إشارة واضحة إلى أن البيان من الله سبحانه وتعالى، وكأن المعنى، ولكلام الله تعالى المثل الأعلى: قد جاءكم يحاضركم ويخاطبكم رسولنا الذى ينطق باسمنا، ويتحدث عنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون..

﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ هذا النص الكريم صريح فى أنهم كانوا يخفون أمورا من علم الكتاب الذى نزل على موسى، وما جاء به عيسى عليهما السلام، وقد قال تعالى فى شأنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾﴾ [البقرة].

وهنا نتساءل ما الذى أخفوه وبينه القرآن، والجواب عن ذلك: هو كل ما جاء فى القرآن من تكليفات دينية تتصل بالفطرة الإنسانية، ولا تختص بقوم دون قوم، مثل الصدق، وحسن المعاملة للناس، وإعطاء الناس حقوقهم لا فرق بين

جاهل وعالم، وأمى وغير أمى، وقوم وقوم وجنس وجنس، وتحريم الربا وأكله من القريب والبعيد، والقصاص العادل والعقوبات الزاجرة، وقد قال بعض العلماء: إن الذى أخفوه هو عقوبة الرجم، ويروى ذلك ابن جرير الطبرى فيقول بسنده: إن نبى الله تعالى أتاه اليهود يسألونه عن الرجم، واجتمعوا فى بيت قال: أيكم أعلمكم؟ فأشاروا إلى ابن صوريا فقال: أنت أعلمهم، قال: سل عما شئت، قال: أنت أعلمهم قال: إنهم يزعمون ذلك، فناشده بالذى أنزل التوراة على موسى، والذى رفع الطور، وناشده بالمواثيق التى أخذت عليهم حتى أخذه أَفْكَل(١)، فقال: إن نساءنا نساء حسان، فكثر فينا القتل فاختصرنا فجلدنا مائة.

وقد يكون هذا مما أخفوه، ولكن لا يمكن أن يكون كل الذى أخفوه، فإن الله تعالى يقول: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ﴾ ولا يمكن أن يكون الشىء الواحد كثيرا، بل إن الكثرة تقتضى التعدد، وأنهم أخفوا كثيرا، فقد أخفوا البشرى بالنبى ﷺ، وحرفوا القول لكيلا تُعلم للناس، وأخفوا العلم بما يكون بعد الموت من بعث ونشور، والحساب والثواب والعقاب والجنة، والنار وما فيها من عذاب أليم، حتى إنك تقرأ التوراة التى بأيدينا، فلا تجد ذكرا للحياة الآخرة، وما يكون من جزاء على ما عمل المرء، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وأخفوا تحريم أكل الربا من كل إنسان، وحرفوه وقصروا المنع على أكل الربا من الإسرائيلى، وأخفوا محاولتهم عبادة الأوثان عقب إخراجهم مستنقذين من فرعون، وهكذا فقد أخفوا كثيرا، وبين الله تعالى فى القرآن الكريم كثيرا مما يتصل بلب الرسالة الإلهية.

هذا بعض مما أخفوا، وهذا بعض مما بين الرسول الكريم ﷺ وأنه سبحانه بَيَّنَ الجوهر الذى أخفوه وهو كثير؛ لأنه لب الرسالة الإلهية.

ولقد قال تعالى: ﴿وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ أى يترك كثيرا ما كنتم تخفون من غير بيان إذا لم يكن فى تركه إهمال لحقيقة دينية، ويكون فيه افتضاح لأمركم كادعائكم أن لوطا عليه السلام زنى بابنتيه، وكادعائكم أن داود أحب امرأة قائد

---

(١) الأفكل: بوزن الأرنب: الرِّعْدة.

فأرسله إلى الميدان ليخلو له وجه زوجته، وغيره مما اشتملت عليه توراتكم التى ألفتموها، وفيها الحق والباطل، وفى التعبير بكلمة «العفو» إشارة إلى أن هذا الترك يتضمن معنى الصفح والغفران إن أحسنتم فى حاضركم؛ لأنه ترك لأمر فى ذكره مضرة وتحقير لكم.

وقال الحسن البصرى: إن معنى ﴿وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ أى لا يؤاخذكم عليه، ولا يعاقبكم لأجله إن أحسنتم فى حاضركم، وإن النسق البيانى يقتضى أن يكون موضع الترك مقابلا لموضع البيان، والمقابلة تقتضى أن يكون الترك الكثير كالبيان الكثير، وكل ذلك داخل فى عموم ما كانوا يخفونه ولا يبينونه، وذلك هو الظاهر المتفق مع السياق، وغيره ليس متفقا مع السياق.

﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ هذه الجملة بيان للجملة السابقة؛ ولذلك كان الفصل بينهما لكمال الاتحاد، إذ الثانية فى معنى الأولى مع وصف جديد فيه بيان الحقيقة؛ لأنه إذا كان مجىء الرسول فيه بيان المختفى، وكشف المستور، فهو نور، وبعثه نور، وقد سجل ذلك النور فى كتاب مبين، أى واضح فى ذاته مبين للشرع الشريف، ولما أخفاه أهل الكتاب وطمسوه من معانى الوحدانية الخالصة، ومن الشرائع المحكمة، وفى هذا النص تأكيد لمعنى الرسالة عن الله تعالى التى ثبتت بقوله تعالى ﴿رَسُولُنَا﴾ وفى هذا النص تصريح بأن ما يجىء به الرسول من نور كاشف هاد، وكتاب مسجل للشريعة هو من الله تعالى، وقد صرح بذلك فى قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾.

وللمفسرين فى بيان معنى ﴿نُورٌ﴾ و﴿كِتَابٌ﴾ كلام أساسه أن النور يجب أن يكون غير الكتاب؛ لأن العطف بينهما يقتضى التغاير بين حقيقتهما، إما من حيث الذات، أو من حيث الوصف، أو النتيجة، فإن الشىء الواحد قد يكون له وصفان متغايران، وبمقتضى هذا التغاير يكون العطف.

وقد خَرَّجَ بعض المفسرين العطف على أساس التغاير فى الذات، فـفسروا النور بالرسول الكريم ﷺ فهو نور الأنوار، كما عبر الآلوسى(١)، والكتاب بأنه القرآن الكريم، فهو سجل الإسلام لا يغادر شيئا منه إلا بَيَّنَه، إما بالتفصيل، أو بالإجمال الذى بينته السنة.

وفسر آخرون النور بأنه القرآن الكريم، كما فسر الكتاب المبين به على أساس المغايرة من حيث الأثر والبيان، فالقرآن نور؛ لأن فيه بيان الحق الذى لا تنكره العقول، والشرع الجامع الذى أتت به كل الرسائل، وهو من ناحية أخرى الشيء المكتوب المسجل الباقى إلى يوم القيامة لا يعتريه تغيير ولا تبديل، فالمغايرة فى العطف مغايرة وصف وأثر لا مغايرة ذات، إذ القرآن المبين نور، وكتاب مكتوب مسجل باق إلى يوم القيامة. وقد اختار هذا الوجه الزمخشرى ولم يذكر غيره.

والذى نراه فى تفسير النص السامى، هو أن هذا فيه بيان لعمل الرسول ﷺ، وهو أنه أتى بعلم كاشف هو نور، فرسالة محمد ﷺ نور فى ذاتها، وأتى بكتاب معجز دال على رسالته، ومشتمل على شريعته، وهو حجته إلى يوم القيامة.

وقد بين سبحانه وتعالى الغاية الكبرى من رسالته إلى أهل الأرض، ومن النور الذى جاء به الرسول والكتاب الذى أنزله، فقال:

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ﴾ هذه هى الثمرات التى ترجى من الرسالة الإلهية إلى أهل الأرض، وكونها نورا يهتدى به السارى، وفيه شريعة قائمة فى كتاب محفوظ إلى يوم القيامة، وهذه الثمرات ثلاث أولها: هداية إلى الحق، وإخراج من الظلمات إلى النور، ويهدى به الله سبحانه إلى صراط مستقيم لا عوج ولا أمت.

---

(١) قال الألوسي في تفسيره (ج٦، ص٩٦) ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ﴾ عظيم وهو نور الأنوار والنبي المختار ﷺ.

أما الأولى- فقد عبر الله سبحانه وتعالى عنها بقوله تعالت كلماته: ﴿**يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ**﴾ والضمير فى قوله تعالى: ﴿**بِهِ**﴾ يعود إلى مجموع ما ذكر، أو يعود إلى القرآن وحده، والظاهر ذلك؛ لأن الضمير يعود إلى أقرب مذكور، وفى عود الضمير إلى القرآن تضمين لكل ما ذكر؛ لأن القرآن هو وعاء الشريعة، وحجة النبى ﷺ القائمة إلى يوم القيامة، وهو مصباح النور المحمدى الذى لا ظلام فيه، وقد ذكر سبحانه من يهتدى بالقرآن، وموضع الهداية، فليس كل إنسان أهلا لهداية القرآن والانتفاع به، فإن من يهتدى لا بد أن يكون فيه عقل يدرك لم تظله غشاوة رانت عليه، وبصيرة نافذة، وقلب قد استقام لطلب الحكمة، وقد ذكر سبحانه أن الذى يهتدى بالحق والنور الكاشف من اتبع رضوانه، واتباع رضوان الله تعالى: طلبه ذلك الرضوان، ومعنى طلب ذلك الرضوان: أن يكون قلبه مخلصا لطلب الحق، لم يرنق قلبه بغرض باطل أو أهواء مردية، أو انحراف فى طلب عن الغاية، بل يتجه اتجاها مستقيما إلى الحق لا يبغى سواه، ولا يطلب إلا رضوان الله تبارك وتعالى، فإن الإخلاص يجعل العقل يشرق، والقلب يمتلئ بالحكمة.

وأما ما يهتدى إليه فهو سبل السلامة، والصفاء وعدم وجود البغضاء، فالسلام هو: السلامة من كل أدران الحقد والحسد، والسلامة من كل ما يؤدى إلى البغضاء والعداوة، وسبلها هو: الأعمال الصالحة، فيعمل للدنيا بأخلاق مستقيمة، ونفس لا يخالطها فساد، ولا تستولى عليه الشهوات، فيكون مع الناس فى أمن وسلام، وفى الآخرة يكون فى دار السلام، كما قال تعالى فى شأن المتقين المهتدين: ﴿**لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِندَ رَبِّهِمْ ... (١٢٧)**﴾ [**الأنعام**] وكما قال تعالى: ﴿**تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤)**﴾ [**الأحزاب**].

وأما الثانية- فقد عبر عنها تعالى بقوله: ﴿**وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ**﴾ ومرجع الضمير هنا هو مرجع الضمير فى الجملة السامية السابقة، فالقرآن والنور والهداية المحمدية كل هذا يخرج الناس من ظلمات الباطل إلى النور

الواضح بإذن الله تعالى وبعلمه وتقديره، فالإذن هنا معناه العلم والإرادة، أى أن ذلك الإخراج من ظلمات الضلالة إلى نور الهدى بعلمه تعالى وإرادته، وإرادته لا تكون إلا على مقتضى حكمته فى خلقه، وهو العزيز الحكيم، اللطيف الخبير، السميع البصير، تعالت أسماؤه الحسنى.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى الضلال بالجمع والنور بالإفراد؛ وذلك لأن طرق الشيطان مختلفة، وكل طريق منها ظلمة فى ذاته، فالشرك ظلمة، والبغضاء ظلمة، والمعصية ظلمة، وأكل مال الناس بالباطل ظلمة، ووأد البنات ظلمة، واسوداد الوجه بالكآبة عند ولادة المرأة ظلمة، والظلم ظلمات قد تعددت فنونه، وتباينت أقسامه والنور والقرآن والهدى المحمدى هو الذى يكشف هذه الظلمات، وينير الطريق للخروج، بإذن الله تعالى وعلمه وإرادته يخرجهم النور من هذه الظلمات المتكاثفة.

وأما الثالث- فقد قال تعالى: ﴿**وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ والمعنى أن الله تعالى يهدى طالب إلى طريق مستقيم لا التواء فيه، والهداية فى الحقيقة من الله تعالى، فهو الذى يهدى ويرشد، والمهتدى هو من يطلب الحق إرضاءً لله تعالى، ونسبت الهداية إلى القرآن؛ لأنه الذى اشتمل على ما فيه الهداية من أحكام، وفضائل، وبيان لمعنى الرسالة الإلهية؛ ولأنه هو المعجزة الكبرى للنبى ﷺ، والطريق المستقيم هو دين الله تعالى القيم، دين التوحيد، دين الإسلام والتسليم والتفويض لله تعالى بعد القيام بالعمل، وهو دين الخير فى الدنيا والآخرة، فمن اتبعه فقد رشد، ومن تركه فقد ضل، وهو وإن تعددت أنواع العمل طريق واحد موصل للغاية من أقرب اتجاه، وهو طريق الله تعالى، وقد قال تعالى: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾**﴾ [**الأنعام**](١).. اللهم اهدنا صراطك المستقيم.

---

(١) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَخَطَّ خطًا وَخَطَّ خَطَّيْنِ عَنْ يَمِينِهِ وَخَطَّ خَطَّيْنِ عَنْ يَسَارِهِ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِي الْخَطِّ الأَوْسَطِ فَقَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ» ثُمَّ تَلا هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾. رواه ابن ماجه: المقدمة - اتباع سنة رسول الله ﷺ (١١).

لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ
ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ
أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى
ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾
وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ
فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن
يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

ذكر الله سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة أن اليهود حرفوا الكلم بتبديل عبارات التوراة، وتحريف معانيها وتفسيرها بغير ما يراد منها، ثم بإخفائهم كثيرا مما اشتملت عليه من أحكام تكليفية، ثم تحللهم من أحكام الباقى، وأن النصارى مثلهم نسوا حظا مما ذكروا به، بل أهملوا لب الدين، وحقيقة التوحيد فيه، وتفرقوا فرقا مختلفة وأغريت بينهم العداوة والبغضاء، فكان فى الماضى التذبيح بين الملكانية واليعقوبية، وكان من بعد ذلك ما كان بين غيرهم، حتى تركوا الدين من حياتهم، ولم يبق منه عندهم إلا ما يعاند الوحدانية، ويضطهدون به أولياءها وأنصارها، وقد جاء الإسلام منذ تبليغ النبى ﷺ به، يبين كثيرا مما أخفوا، وحقيقة الرسالة التى تنزل من الله تعالى لخلقه، والتى هى لب اليهودية الأولى، ونصرانية المسيح عليه السلام، وفى هذه الآيات المتلوة يبين سبحانه لب ما غيروا فقال تعالى:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ لقد اتفق النصارى على أن يسوع عندهم فيه عنصر إلهى، وفى عصور الإسلام الأولى كان النسطوريون منهم يقولون: إن المسيح ليس ابن الله تعالى فى الألوهية، ولكنها بنوة النعمة، وقد ذهبت هذه الفرقة فى عبر التاريخ، أو تكاد، فلا تكاد تسمع ذلك الصوت الآن إلا عند بعض الموحدين الذين ظهروا فى طائفة البروتستانت، ولكنهم عدد نادر، لا يعترف بهم على أنهم نصارى.

وإذا كان الأمر المعروف عندهم أن يسوع ابن الله، وفيه عنصر آلهى، فقد قالوا: إن الألوهية قد حلت فيه، ولازم ذلك القول أن يكون هو الله، أو هو إله يعبد، ومهما يكن فقد قالوا باتحاد عنصر الألوهية فيه، وقد قال فى ذلك البيضاوى: «هم الذين قالوا بالاتحاد منهم، وقيل لم يصرح به أحد منهم، ولكنهم لما زعموا أن فيه لاهوتا، وقالوا لا إله إلا واحد، لزمهم أن يكون هو المسيح فنسب إليهم لازم قولهم» وذلك بلا ريب ينتهى إلى القول بأنهم يعتقدون أن المسيح هو الله، وإن لم يصرحوا بذلك، فهو لازم قولهم باتحاد عنصر الألوهية فيه مع الله.

وإن ذلك الكلام تخريج على أن النصارى مذهب واحد فى اعتقاد الألوهية، وأنه ابن الله، وبذلك يكون قوله تعالى فى هذه السورة سورة المائدة:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ ... (٧٣)﴾ متلاقيا مع هذا النص الكريم، فهنا صرح بلازم قولهم، وهنالك صريح بذات قولهم.

والحقيقة أن النصارى اليوم - وهم لا يزالون يغيرون ويبدلون - يصرحون بأن الأقانيم ثلاثة، وأنها شىء واحد، وينتهون إلى أن المسيح هو الله، والله هو المسيح، والله هو روح القدس، فقد قال الدكتور «بوست» فى تاريخ الكتاب المقدس: «طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية الجوهر: الله الآب، والله الابن، والله الروح القدس، فإلى الآب ينتمى الخلق بواسطة الابن، وإلى الابن الفداء، وإلى الروح القدس التطهير، غير أن الثلاثة أقانيم تتقاسم جميع الأعمال

على السواء، أما مسألة التثليث فغير واضحة فى العهد القديم، كما هى فى العهد الجديد».

ومن هذا الكلام يتبين أن النصارى يصرحون بأن الابن هو الله، ولا يكون الكلام بطريق اللازم لقولهم، بل بطريق الصريح منه، فهم يصرحون بأن الله هو الابن، كما أن الله هو الأب، كما أن الله هو روح القدس.

وذكر الله سبحانه وتعالى الإخبار عن المسيح بأنه الله؛ لأن فيه إشارة واضحة إلى بطلان العقيدة، لأن المسيح وُلِد، ورئى يتحدث مع الناس، وأكل وشرب، وقتل وصلب فى زعمهم! فكيف يكون هو الله تعالى؟!.

والحقيقة أن فكرة ألوهية المسيح عليه السلام ما سادت الفكر النصرانى إلا فى عهد قسطنطين، وقبل ذلك كان الأكثرون موحدين، ولكن وجد بجوارهم من بقايا الفلسفة الأفلاطونية الحديثة من زعم أن القوى المسيطرة على الوجود ثلاثة، ولننقل لك ما قاله ابن البطريق المسيحى فى كتابه «تاريخ البطارقة» قال فى مجمع نيقية الذى أعلن ألوهية المسيح ما نصه:

«كتب الملك قسطنطين إلى جميع البلدان، فجمع البطارقة والأساقفة، فاجتمع فى مدينة نيقية ثمانية وأربعون وألفان من الأساقفة، وكانوا مختلفين فى الآراء والأديان.. فمنهم من كان يقول: إن المسيح وأمه إلهان من دون الله، وهم البربرانية، ويسمون «المريميين».. ومنهم من كان يقول: إن المسيح من الآب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية.. ومنهم من كان يقول لم تحبل به مريم تسعة أشهر وإنما مر فى بطنها كما يمر الماء فى الميزاب؛ لأن الكلمة دخلت فى أذنها، وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها، وهى مقالة إليان وأشياعه.. ومنهم من كان يقول: إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت، كواحد منا فى جوهره، وان ابتداء الابن من مريم، وأنه مصطفى ليكون مخلصا للجوهر الإنسى صحبته النعمة الإلهية، وحلت فيه بالمحبة والمشيئة؛ ولذلك سمى ابن الله، ويقولون: إن الله جوهر قديم واحد، وأقنوم واحد، ويسمونه بثلاثة

أسماء، ولا يسمونه الكلمة، وهى مقالة بولس الشمشاطى بطريك أنطاكية وأشياعه، ومنهم من كان يقول: إنهم ثلاثة آلهة لم تزل صالح وطالح وعدل بينهما، وهى مقالة مرقيون اللعين وأصحابه، وزعموا أن مرقيون رئيس الحواريين، وأنكروا بطرس، ومنهم من كان يقول بألوهية المسيح، وهى مقالة بولس الرسول ومقالة الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفا».

وذكر فكرة أرتوس، وكانت شائعة، وهى إنكار ألوهية المسيح، والإيمان بالوحدانية، واختار قسطنطين من (٢٠٤٨) الثمانية والأربعين والألفين عدد (٣١٨) الذين قالوا بألوهية المسيح، وبذلك ساد هذا القول بسلطان قسطنطين.

وإن ذلك القول بلا ريب باطل، فالله سبحانه وتعالى هو الخالق، وهو الذى يحيى ويميت، وقد أمر الله نبيه بالرد عليهم بأمر محسوس.

﴿**قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا**﴾ أمر الله تعالى رسوله محمدا ﷺ أن يرد عليهم ادعاءهم، بإثبات القدرة لله تعالى، فإن صفة الله الذى يعبد لأجلها أساسها القدرة على الإنشاء وعلى الإفناء من غير قيد يقيدها ولا مانع يمنعها، فإذا كان المسيح لا يملك أن يدفع عن نفسه الإعدام، فهو أولى بألا يستطيع الإنشاء ولا الإفناء.

والمعنى: قل لهؤلاء الذين يدعون الألوهية للمسيح: من يملك من دون الله أمرا يستطيع أن يمنعه سبحانه بأى قدر من قدرته تعالى إن اتجهت إرادته العالية إلى إهلاك المسيح وأمه، وفى الجملة السامية إشارات بيانية:

منها- فى قوله: ﴿**فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا**﴾ لأن (يملك) معناه يتضمن معنى يمنع، أى من يمنع من قدرة الله وأمره شيئا، وتنكير كلمة «شيئا» للتصغير، أى قدرا ولو كان ضئيلا.

ومنها ـ أن التعبير بـ «يملك» يستفاد منها أن قدرة الله تعالى قدرة من يملك، وليست قدرة مستعارة أو مأخوذة من غيره.

ومنها ـ أن ذكر الإهلاك فى هذا المقام فيه دلالة مادية فى زعمهم على بطلان ما يدعون؛ لأنهم زعموا أن عيسى أهلكه الرومان بتحريض وشهادة الزور من اليهود لعنهم الله، فكيف يكون إلها، وهو لا يملك حماية نفسه، مع أن وصف الإله يوجب أن تكون قدرته على الإهلاك والإبقاء ثابتة.

ومنها ـ أنه ذكر المسيح مضافا إلى أمه، على أنه متولد منها، فكيف يكون من الفانى الإله الباقى، وهو ابن الله فى زعمهم، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

وإن الذى يستمسكون به بالباطل فى هذا الزعم الباطل أنه خلق من غير أب، وقد رد سبحانه وتعالى زعمهم فى قضية عامة بقوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ**﴾.

هذه الجملة السامية مع إبطالها لزعمهم فى مقام الحال من الجملة السابقة، فهى مؤيدة لمعنى القدرة على الإبقاء والإهلاك والإحياء، ورادة على زعمهم أن عيسى خلق من غير أب، فيكون ابنا لله، تعالى الله عند ذلك. والمعنى أن لله سبحانه وتعالى الملكية التامة للتصرف فى السموات بطبقاتها المختلفة، والنجوم ومداراتها وما بين السماء والأرض من فضاء تجرى فيه السحب بأمره، ويطير فيه الطير، ويسبح فيه، ثم ما يصنعه الإنسان من طائرات تقطع أجواء الفضاء، كل ذلك مملوك ملكية تامة لله تعالى، ولا توجد ملكية تامة فى شىء من الأشياء إلا لله سبحانه وتعالى، فكل مالك من الناس ملكيته نسبية، وليست تامة أو مطلقة، بل هى مقيدة.

وإرادته سبحانه وتعالى مطلقة فى خلق الأشياء؛ ولذلك قال تعالى: ﴿**يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ**﴾. وهذه الجملة فى مقام الثمرة والنتيجة لما قبلها من قدرة مطلقة لا حد لها، ومن ملكية مطلقة لا قيد يقيدها، فهو يخلق ما يشاء ويريد، فيخلق ذكرا أو أنثى فهو يجعل لهذا ذكرانا، ولهذا إناثا، ويجعل من يشاء عقيما، ولا قيد يقيد إرادته، فى طريقة الخلق والتكوين، فيخلق الناس من أب وأم، ويخلق آدم من غير أب ولا أم، ويخلق عيسى من أم، ومن غير أب.. وهكذا.

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هو قادر على كل شىء فى هذا الوجود، يفعل به ما شاء، يفنيه ويبقيه على ما يشاء، وقد وجد كل شىء بالقدرة والإرادة، لا بالعلية والسببية، فلا يقال: إن الأب سبب للابن، فإن وجد له من غير أب فالله سبحانه أبوه، لا يقال ذلك؛ لأن الله تعالى لا يتقيد بالأسباب، فهو خالق الأسباب وخالق المسببات وخالق نواميس الكون، وكل ما فيه، وهو القاهر فوق عباده، فهو خالق عيسى وليس أباه، وإن النصارى واليهود مع أنهم يخطئون فى جنب الله، ولا ينزهونه كمال التنزيه، ولا يطيعونه يزعمون أنهم أبناء الله تعالى وأحباؤه؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾.

اليهود يعلنون للناس أنهم شعب الله المختار، والنصارى يعلنون أنهم هداة هذا الوجود، وأنه لا سلامة إلا فى دينهم على الوضع الذى وضعوه، وعلى الزعم الذى زعموه، وبذلك يعتبرون أنفسهم أبناء الله وأحباءه، وعلى هذا يكون المراد بالبنوة بنوة مزية الاتصال بالله أكثر من اتصال غيرهم به، وأن الاتصال اتصال إيمان به وإدراك له، وأنهم اختصوا بنعمة المحبة، فالبنوة بنوة الاتصال والمحبة، ويكون عطف أحباء من قبيل عطف التفسير المشير إلى معنى البنوة.

وهناك احتمال آخر، وهو أن تكون البنوة هى البنوة التى زعمها اليهود لعزير إذ قالوا: عزير ابن الله، وهم أتباعه وشيعته، وزعم النصارى أن المسيح ابن الله، وهم أتباعه، فهم أبناء الله بهذا الاتباع، وقد قال الزمخشرى فى توضيح هذا الاحتمال: «أبناء الله أى أشياع ابنى الله عزير والمسيح، كما قيل لأشياع أبى خبيب، وهو عبدالله بن الزبير، وكما يقول رهط مسيلمة: نحن أنبياء الله، ويقول أقرباء الملك وذوو حشمه نحن الملوك؛ ولذلك قال مؤمن آل فرعون: ﴿... لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ... ﴿٢٩﴾﴾ [غافر].

وفى الحق أن كلا من اليهود والنصارى ادعو أن لهم صلة خاصة بالله، وأنهم دعاة الحق، وأنهم وحدهم أحباب الله، وأهل الاتصال به؛ ولهذا رجح الأول.

﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ الفاء هنا فاء الإفصاح؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، والمعنى إذا كنتم كما زعمتم أحباء الله تعالى وأبناءه فلم يعذبكم إن ارتكبتم ذنوبا تؤثمكم؟ فأنتم كسائر الناس تذنبون، ولو كنتم متصلين بالله أكثر من غيركم ما أذنبتم، ولو أذنبتم ما عُذِّبتم، وفى كتبكم التى بأيديكم أنكم تعذبون على ما تقترفون من آثام. وقد أقر اليهود بأن العذاب سيقع بهم، إذ قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ... (٨٠)﴾ [البقرة] وإن النصارى يقرون بأنه سيُدَيِّن الناس يوم القيامة، ويجازى المحسن على ما أحسن، والمسىء على ما أساء.

وقد رد الله سبحانه أصل الادعاء بقوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ أى أن صلة الله تعالى بكم هى صلته بخلقه، وأنتم بعض منهم، فلا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، فهو يغفر لمن يشاء، واقتضت حكمته الغفران له لتوبته ولصغر ما ارتكب، ووازن حسناته بسيئاته، وأن الحسنات يذهبن السيئات، ويعذب من يشاء بمقتضى حكمته؛ لأن الخطيئة أحاطت به، ولم يقلع عما ارتكب وأساء، والله عليم حكيم، وغفور رحيم.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ هذه الجملة من تتمه الرد عليهم، ويحتمل أن تكون من كلام النبى ﷺ الذى أمر أن يقوله، ويحتمل أنها من كلام الله تعالى تأكيدا لحكمته تعالى وكمال سلطانه، وقد تأكد الرد بقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أى أنه سبحانه وحده هو الذى تصير إليه أمورهم يوم القيامة، وهو الذى يعلن حينئذ محبته لمن استحق محبته بالطاعة والتقوى، ويكون مآله إلى الجنة والنعيم المقيم، ولن تكون للذين غيروا وبدلوا فى دينه وأشركوا به - تلك المحبة التى ادعوها، ولا ذلك النعيم الذى وعد به، وسيكون العذاب لمن عصى أمر ربه، وغالى فى تقديس عباد الله تعالى وأشرك به، والله هو الذى يتولى الفريقين بعدله وحكمته..

اللهم اجعلنا من أهل محبتك ورضوانك وإذا لم نستحق، فاجعلنا من أهل غفرانك.

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٩﴾

بينت الآيات السابقات حال أهل الديانتين السابقتين على الإسلام، والذين يذكرون أنهم يتبعون رسولين من أولى العزم من الرسل، وهما عيسى وموسى عليهما السلام، وكيف نسوا حظا مما ذكروا به، وكيف أخفوا كثيرا مما ذكروا به، وكيف انحرفوا عن أصل التوحيد الذى هو لب الدين ودعوة كل النبيين الذين بعثوا من رب العالمين، ثم ادعوا مع ذلك التغيير والتبديل والانحراف أنهم الأقربون إلى الله تعالى، وقد رد الله تعالى عليهم قولهم، فبين سبحانه أنهم بشر ممن خلق، وأنه لا فضل لهم على أحد إلا بالاستجابة لأمر الله تعالى، وفى هذه الآية التالية يبين سبحانه مقام الرسالة المحمدية وأنها جاءت فى إبانها، وفى وقت الحاجة إليها، فقال عز من قائل:

﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ**﴾ الفترة هى الزمن بين زمنين متغايرين فى الحوادث، ويكون فيها سكون عما يكون فى هذين الزمنين، وقد قال الراغب الأصفهانى فى معنى الفترة: «الفتور سكون بعد حدة، ولين بعد شدة، وضعف بعد قوة قال تعالى:

﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ**﴾ أى سكون خالٍ عن مجىء رسول الله ﷺ وقوله تعالى ﴿... **لا يَفْتُرُونَ** ﴿٢٠﴾﴾ [**الأنبياء**]،

أى لا يسكنون عن نشاطهم فى العبادة، وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «لكل عمل شرة، ولكل شرة فترة، فمن فتر إلى سنتى فقد نجا، وإلا فقد هلك»(١) فقوله عليه الصلاة والسلام: «ولكل شرة فترة» إشارة إلى ما قيل: للباطل جولة ثم يضمحل، وللحق دولة لا تذل ولا تقل، وقوله: من فتر إلى سنتى أى سكن إليها، والطرف الفاتر فيه ضعف مستحسن».

ويستفاد من ذلك الكلام القيم أن الفترة سكون بين عملين بارزين، فهى سكون بين زمنى عمل، ولا شك أن عدم وجود رسالة فى زمن بين رسالة مضت، ورسالة آتية، وهو سكون نسبى فى الزمن بينهما، وإن كان العمل واجبا بالشريعة السابقة، حتى تنسخها الشريعة اللاحقة، ويكون التكليف منها.

وهنا مباحث لفظية تشير إلى نواحى البيان العالى فى النص الكريم:

المبحث الأول- فى التعبير بقوله تعالى: ﴿**قَدْ جَاءَكُمْ**﴾ بدل أن يقال «جاء إليكم» لأن التعدية بغير «إلى» فيها معنى الملاحقة والملازمة، وأنه لا مناص من اتباعه، ففرق بين أن يقال جاء إليه، وأن يقال جاءه، لأن الثانية تضمن الملازمة، وأنهم لا يستطيعون الخروج عما جاء به إلا إذا أذنبوا.

الثانى- وإضافة كلمة الرسول إلى الذات العلية فى قوله تعالت كلماته: ﴿**رَسُولُنَا**﴾ إشارة إلى معنى قدسية هذه الرسالة ومكانتها، وأنها ممن لا تسوغ مخالفته، ولا الخروج عن طاعته.

الثالث- ابتداء الخطاب بقوله: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ**﴾ تنبيه لهم بأن مصاحبتهم للكتاب، وكونهم أهل معرفة يوجبان عليهم الطاعة، والاستجابة، لأنهم عرفوا رسالة الله تعالى إلى خلقه، وأنه ما خلقهم عبثا، ولا يتركهم هملا، وأنهم إن

---

(١) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةً وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ فَمَنْ كَانَتْ شِرَّتُهُ إِلَى سُنَّتِي فَقَدْ أَفْلَحَ، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ» رواه أحمد: مسند المكثرين (٦٧٢٥).

خالفوا ما جاءهم به الرسول يكون اللوم لهم أشد، إذ يكون عصيانهم عن بينة ومعرفة.

الرابع- فى قوله: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ فالفعل «يبين» قدَّر له بعض العلماء مفعولا وتقديره: يبين لكم الأحكام، والتكليفات، والأوامر الخالدة، وبعض العلماء لا يقدر له مفعولا، على أساس أنه منزل منزلة اللازم، وعلى هذا يكون المعنى: جاء رسولنا بالبيان الكافى المشرق الكاشف للظلمة التى وقعتم فيها، وبذلك يشمل كل التكليفات، وكل ما تشتمل عليه رسالة محمد ﷺ، وذلك البيان كان بالقرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، وقد روى عن قتادة أنه قال فى هذا المعنى: «﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ وهو محمد ﷺ، جاء بالفرقان الذى فرق الله به بين الحق والباطل، فيه بيان الله تعالى، ونوره وهداه، وعصمة لمن أخذ به».

الخامس ـ فى قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ يقول الزمخشرى: إن الجار والمجرور متعلق بقوله تعالى: ﴿جَاءَكُمْ﴾ أى جاءكم على فترة من الرسل، وعندى أن المتعلق يكون بأقرب فعل، وهو «يبين»، والمعنى يبين لكم على فترة من الرسل، أى بعد فترة لم يكن فيها بيان، وقد جاء الرسول الكريم بهذا البيان، ويزكى هذا قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾

ويفسر كثيرون من المفسرين أن قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ﴾ معناه حين فترة، وعندى أن تفسيرها بظرف آخر، وهو «عند»، يكون أدق؛ لأن الرسالة كانت نهاية الفترة، فهى كانت عندهم فى نهايتها، ولم تكن فى حينها ووقتها، والتعبير بقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ﴾ فيه معنى فوقية الرسالة على الفترة، وعلوها عليها كعلو البيان على الجهل، والنور على الظلمة، وفيه لوم؛ لأنه يشير إلى أنه لا يسوغ لهم أن يجحدوا رسالة محمد ﷺ، لأنهم ينزلون من الأعلى إلى الأدنى.

﴿أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ المقصود الواضح من هذا النص هو بيان أن حكمة مجىء الرسول هو قطع العذر على من يحتج بالجهل، وعدم معرفة

أوامر الله تعالى ونواهيه، فالمعنى على هذا هو أن رسولنا قد جاءكم يبين لكم الطريق المستقيم وطريق الحق القويم لكيلا تقولوا: ما جاءنا من بشير يبشر بالخير عند الطاعة، وينذرنا بالعذاب عند المعصية، بل إن الله تعالى قطع العذر عليهم وأبلغ الحجة، فلا عذر لجاهل، ولا اعتذار لمتجاهل.

وهذا التعبير: أن تقولوا ما جاءنا من بشير ... مثله قوله تعالى: ﴿ ... يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [النساء] كثير فى القرآن الكريم، وفيه يكون التعليل مقتضيا تقدير محذوف، فإن قولهم بنفى البشير لا يمكن أن يكون علة لإرسال الرسول إلا بتقدير محذوف ويقدره الكوفيون بتقدير لا النافية محذوفة، فيكون المعنى جاءكم رسولنا يبين لكم لئلا تقولوا: ما جاءنا من بشير، أو كيلا تقولوا: ما جاءنا من بشير، وقد اختار الطبرى ذلك التقدير، ويقدره البصريون بمصدر محذوف مناسب، ككراهة أن تقولوا أو اتقاء أن تقولوا، والمعنى على ذلك، جاءكم رسولنا يبين لكم كراهة أن تقولوا، أو اتقاء أن تقولوا، وقد اختار هذا التقدير الزمخشرى.

والحق عندى: أن الآية الكريمة واضحة، ومدلولها بين، لا إبهام فيه، والمراد منها جلىّ، وهو قطع العذر عليهم وإنما هذه التقديرات تخريجات نحوية لتستقيم قواعد النحو، لا ليستبين معنى الآية، فهى بينة واضحة.

والبشير: المبشر الذى يدعو إلى الحق، ويبين الثمرات الحسنة لمن تبعه فى الدنيا والآخرة، ففى الدنيا يبين أن المصالح تتحقق فيما يدعو إليه، وأن العزة الحقيقية تكون لمن اتبعه، والحياة الكريمة الفاضلة تكون لمن أخذ به، وفى الآخرة يبين جزاء الإحسان من جنات تجرى من تحتها الأنهار، ونعيم مقيم لا يبلى، والنذير هو الذى يبين العواقب السيئة لمن يخالف الحق، إذ يكون فى اضطراب لا اطمئنان معه، وانزعاج لا أمن معه، ويعيش فى آثام مبطئة، وأوزار مثقلة، وفى الآخرة يكون العذاب الأليم، والمقت والسخط من الله تعالى.

و«من» في قوله تعالى: ﴿مِنْ بَشِيرٍ﴾ لتأكيد النفى، والتنكير فى بشير ونذير للتصغير لا للتكبير، وإنما كان للتصغير لأن النفى بعمومه شامل، والمعنى: ما جاءنا أى بشير ولو صغيرا، ولا نذير ولو كان ضئيلا، فقد حرمنا من الهداية وما حرموا منها.

﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ الفاء هنا تفصح عن كلام مقدر قبلها، قد يكون شرطا، وقد يكون غير شرط، والمعنى لا عذر لكم، وقد قطع السبيل عليكم، فقد جاءكم الرسول الذى أرسلناه مبشرا بالحق وغايته وثمرته فى الدنيا والآخرة، ومنذرا من يرتكبون المعاصى بالهوان وسوء العقبى، والاضطراب فى الدنيا، والعذاب الأليم، فعليكم أن تطيعوا، ولا تحسبوا أن الخير أمانى تتمنى، من غير عمل يعمل.

لقد روى فى السنة عن ابن عباس أنه قال: «دعا رسول الله ﷺ يهود، فرغبهم وحذرهم فأبوا عليه، فقال لهم معاذ بن جبل، وسعد بن عبادة، وعقبة بن وهب: «يا معشر يهود اتقوا الله، فوالله لتعلمن ـ أنه رسول الله ﷺ لقد كنتم تذكرونه قبل بعثه، وتصفونه لنا بصفته، فقال وهب بن يهوذا: إنا ما قلنا لكم هذا وما أنزل الله من كتاب من بعد موسى، ولا أرسل بشيرا ولا نذيرا بعده. فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية».

وسواء أصح هذا سببا للنزول أم لم يصح، فإن الآية قد سيقت لقيام الحجة عليهم فيما ينكرون، وأنهم مأخوذون بما يدعون إليه، فإن قاموا بحق الإسلام، واستجابوا للرسول ﷺ فقد نجوا، وإلا فقد هلكوا، والتنكير هنا للتعظيم فى شأن الرسول ﷺ، ولتعظيم بشارته وإنذاره، والمعنى قد جاءكم بشير ونذير هو أعلى المبشرين المنذرين، لأنه خاتم النبيين؛ ولأنه آخر لبنة فى صرح النبوة، ولأن تبشيره وإنذاره قائمان إلى يوم القيامة، فلا نبوة بعده، ولا وحى ينزل على أحد من بعده فرسالته خالدة باقية، وبشير ونذير وصفان، وقد عطف ثانيهما على الآخر لتغايرهما فى المعنى والمؤدى وإن كانا وصفين لشخص واحد، كما قال تعالى:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً ... ﴿١١٩﴾﴾ [البقرة] وكان التعدد لمعنى آخر؛ لأن التبشير عمل غير الإنذار، وكلاهما وظيفة النبوة، فكان العطف بالواو لهذا المعنى، فليسا وصفين ذاتيين ولكنهما وظيفتان متغايرتان للرسالة.

وإن هذا الخطاب لأهل الكتاب وبخاصة اليهود مع ما فيه من بيان الحقائق، وضع الاعتذار فيه تهديد، وفيه إشارة لسلطان الله تعالى؛ ولهذا ختم الآية الكريمة بهذا النص الكريم: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

كان هذا ختام الآية الكريمة، وفيه إشارة إلى أمور ثلاثة:

أولها ـ أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يختار الرسل، ويختار معجزاتهم، وعلى ذلك لا يصح لأحد أن يدعى أنه رسول، ولا يأتى أحد من بعده إلا إذا أخبر هو عن إرادته العالية، كما هو الشأن بالنسبة لمحمد ﷺ أما موسى عليه السلام، فلم تكن رسالته خاتمة الرسائل، ولو كان حيا ما وسعه إلا اتباع محمد.

ثانيها ـ أن تغير المعجزات فى دائرة قدرة الله تعالى، فهو خالقها، وهو الذى يختارها بحكمته بما يناسب كل رسول، وليس لمن كانت الرسالة موجهة إليهم أن يختاروا على الله تعالى، فهو المريد المختار، الذى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

ثالثها ـ أن الله تعالى هو وحده القادر على تنفيذ ما أمر به رسوله من تبشير وإنذار، فهو المعطى، وهو المعاقب، وهو المانح وهو المانع، وسيكون العقاب الشديد نازلا بهم إن عصوا، وليس بأمانيهم ولا أمانى أهل الكتاب.

اللهم اغفر لنا ونجنا من عقابك، ولا تحرمنا من رحمتك وعفوك إنك أنت العفو الغفور.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟
نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا
وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟
ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ
فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ
وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا
فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾

فى الآيات السابقة بين الله تعالى لجاجة أهل الكتاب فى عنادهم وطغيانهم، ونقضهم العهود التى وثقت عليهم، ولَعْنَ الله تعالى لهم وطردهم من رحمته، ومكان العز لهم، وأشار إلى أن محمدا ﷺ لا يزال يرى طائفة من أخلاف الحاضرين تسير على خطة السابقين من خيانة، وتظهر بما اتسموا به من قسوة جعلت قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة، وذكر سبحانه للنبى ﷺ ما كان منهم لنبى الله موسى عليه السلام الذى أجرى الله تعالى على يده إنقاذهم من فرعون الذى كان يذبِّح أبناءهم ويستحيى نساءهم، ويسومهم سوء العذاب، ولقد قال شيخ المفسرين ابن جرير الطبرى فى معنى هذا:

«وهذا من تعريف الله لنبيه محمد ﷺ بتمادى هؤلاء اليهود فى الغى، وبعدهم عن الحق، وسوء اختيارهم لأنفسهم، وشدة خلافهم لأنبيائهم، وبطء إنابتهم إلى الرشاد مع كثرة نعم الله عندهم، وتتابع أياديه وآلائه عليهم، مسليا بذلك نبيه محمدا ﷺ، عما يحل به من علاجهم، وينزل به من مقاساتهم فى ذات الله تعالى، يقول الله تعالى له ﷺ: لا تأس على ما أصابك منهم، فإن الذهاب عن الله تعالى والبعد عن الحق من عاداتهم وعادات أسلافهم.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ هذا النص وما يليه فيه عزاء للنبي ﷺ ليصبر على ما يصيبه من المشركين وأهل الكتاب عامة، ومن اليهود خاصة، ففيها بيان لما أصاب موسى عليه السلام، وهو من أولى العزم من الرسل، فى سبيل الدعوة، مع ما أجراه الله تعالى على يديه من نعم وآلاء، ومع ذلك جبنوا عندما دعاهم إلى الحق، وكان منهم أعداء له، فمهما ينزل بالنبى من الكفار عامة واليهود خاصة يجب أن يصبر عليه، صبر المتوقع له، الذى ينتظره، كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ... ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف].

ومعنى النص الكريم: اذكر يا محمد حال موسى مع قومه، بعد أن رأوا الآيات المحسوسة، وبعد أن نزل عليهم من النعم والآلاء، وحال قومه معه. لقد دعاهم إلى الجهاد بقوله: ﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ ابتدأ بالنداء بقوله: ﴿يَا قَوْمِ﴾ تذكيرا لهم بما يربطهم من رابطة الدم والقرابة التى تجعله منهم، يهمه ما يهمهم، ويسعده ما يسعدهم ويعزه ما يعزهم، فوق أنه رسول الله تعالى إليهم، وهو بهذا يقربهم إليه، ليقرب إلى نفوسهم، والتذكير كان بنعمة الله تعالى عليهم التى توجب عليهم الطاعة، وقد ذكر سبحانه وتعالى نعما ثلاثا بقوله تعالى:

﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ نعم ثلاث بينات واضحات، فالنعمة الأولى أنه سبحانه جعل فيهم أنبياء، أى أنه سبحانه بعث فيهم أنبياء منهم يهدونهم ويرشدون، وكانوا كمصابيح فى ديجور الظلام، ونورا فى عمياء الضلالة، ولا منة أجل من الهداية والسير فى طريق الحق، ولا نقمة أشد من نقمة الضلالة والسير فى طريق الفساد.

والتنكير فى قوله تعالى: ﴿أَنبِيَاءَ﴾ للكثرة، اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء كثيرين، ويكون ما اختصوا به هو كثرة الأنبياء قبل موسى وبعده، ولا يقال: إن الأنبياء كانت فيهم وحدهم؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ ... وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر] ويقول سبحانه: ﴿ ... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ

رَسُولاً ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء] والنعمة الثانية عبر سبحانه عنها بقوله تعالت كلماته: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾.

ويلاحظ أنه فى النعمة الأولى قرر سبحانه وتعالى أنه جعل فيهم أنبياء، أى جعل بعضا منهم أنبياء، أما النعمة الثانية، فقد قال سبحانه: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ أى لم يجعل الملك فى بعضهم، بل جعلهم جميعا ملوكا، ولقد أوّل ذلك بعض العلماء بأن المراد جعل فيهم زعماء منهم مسيطرين على أمورهم، موجهين لشئونهم، كما طلبوا ذلك من بعد، فقد قال الله تعالى عنهم:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... ﴿٢٤٦﴾ ﴾ [البقرة].

والمراد أن يبعث عليهم كبيرا يتبعونه فى القتال، ويظهر أن ذلك كان منهم من بعد موسى ومن قبله، والقائد إذا كان من الشعب أو من الجماعة كانوا جميعا ملوكا ومسيطرين على أمورهم؛ لأنه ينفذ إرادتهم، ويسير مع إحساسهم، ويعمل لمصلحتهم ما ظهر منها وما بطن.

وقد يفسر الملك بأنه خروجهم فى عهد موسى من ربقة العبودية التى فرضها عليهم فرعون، فقد صارت لهم إرادة حرة، وتوجيه لعامة أمورهم، واختيارهم لحكامهم، وبذلك صاروا ملوكا، وفوق ذلك قد أوتوا رغد العيش وصاروا أحرارا فى بيوتهم، بعد أن كان فرعون يذبِّح أبناءهم، ويستحيى نساءهم، وفى الآثار أن الرجل إذا كان له مايكفيه وأهله بالمعروف كان ملكا. سأل رجل عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال عبدالله: ألك امرأة تأوى إليها؟ قال: نعم، قال ألك مسكن تسكنه؟ قال : نعم، قال : فأنت من الأغنياء،

فقال إن لى خادما، قال: فأنت من الملوك، وقد روى أن النبى ﷺ قال: «من كان له بيت وخادم فهو ملك»[١] قد آتى الله سبحانه وتعالى بنى إسرائيل الحرية، ومنع ذلهم، ومنحهم رغد العيش، وبذلك جعلهم ملوكا بموسى عليه السلام.

النعمة الثالثة ـ هى النعم التى أفاضها الله تعالى عليهم وقد عبر سبحانه وتعالى عنها بقوله تعالى حاكيا ﴿**وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ**﴾.

والعالمون: جمع أريد به العقلاء من أهل هذه الأرض، ويفترق عن مفرده بأن المفرد يطلق على كل من هو على ظهر الأرض أو فى باطنها من جماد ونبات، وحيوان وإنسان، بل إنه يشمل الأرض، والسموات قاصيها ودانيها؛ ولذلك يقول العلماء: إن المفرد هنا أعم من الجمع؛ لأن الجمع لا يشمل إلا العقلاء، بينما المفرد يشمل كل شىء، والمفرد هو العالم.

وقد قال العلماء: إن المراد هو العالمون فى زمانهم، أما من جاء بعدهم، فقد أعطاهم الله تعالى ما هو أكثر وأبعد أثرا، وذكر الزمخشرى هذه النعم، فقال: ﴿**مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ**﴾ من فلق البحر، وإغراق العدو، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، ويصح أن يضاف إلى ذلك إنقادهم من أذى فرعون.

وهذه نعم منها ما أخذها غيرهم ومنها ما اختصوا بها كفلق البحر اثنى عشر فرقا كالطود العظيم، وإنزال المن والسلوى، فهذه قد اختصوا بها دون العالمين، وإن لم يكن أكبر مما أعطاه غيرهم من نصر مؤزر.

﴿**يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِى كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ**﴾ كان تكرار النداء من موسى عليه السلام لعظَم التنبيه، وخطر ما يدعوهم إليه، وعظم شأنه، وكان تكرار كلمة «يا قوم» للإشارة إلى أن فيما يطلبه منهم عزهم جميعا ورفعة أقدارهم، وقد قيلت أقوال كثيرة فى الأرض المقدسة، وقد اتفقوا على أن معنى

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (ج٦، ص١٠٨) عن زيد بن أسلم.

التقديس البركة والنماء، فهى مباركة، ولكن ما هى هذه الأرض التى عناها موسى عليه السلام بطلبه، وأصح الأقوال وأولاها هو مـا قاله ابن جرير الطبرى إذ قال: «وأولى الأقوال عندى بالصـواب أن يقال هى الأرض المقـدسة، كمـا قال نبى الله تعالى مـوسى صلى الله تعالى عـليه وسلم؛ لأن القول فى ذلـك بأنها أرض دون أرض لا تدرك حقيقته إلا بالخبر، ولا خـبر بذلك يجوز قطع الشهادة به، غير أنها لن تخرج من أن تكون الأرض التى ما بين الفرات وعـريش مصر، أى أنها تشمل سيناء والشامات كلها بما فيها فلسطين والأردن ولبنان».

ولا شك أن هذا الكلام جدير بالأخذ؛ لأن هذه الأرض المقدسة طُلب منهم أن يدخلوها بعد أن اجـتازوا البحر الأحـمر، وعبـروه إلى سيناء، وسمى بعضـها الوادى المقدس، كمـا قال تعالى مخـاطبا موسى: ﴿... **إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى** ﴿١٢﴾﴾ [**طه**] وقد خصصها الأكثرون بأرض إيلياء بيت المقدس وما حوله.

وقد قـرر الله سبـحانه أنه كـتب لهم أن يدخلوا بقوله تـعالى: ﴿**كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ**﴾ وهنا نجد المـفعول غـير مذكـور، إلا أن المحذوف قـد وجد ما يـدل عليه، والمعنى كتب لكم أن تدخلوها، أى قدر لكم أن تدخلوها، وفرض عليكم دخولها لإنقاذكم من الأهـوال التى نزلت بكم فى أرض مصر مـن فرعون وأعـوانه، وقد تعدى فعل كـتب باللام، ولم يتعد بعلى للإشارة إلى أن ما فـرضه عليهم إنما هو لأجلهم، ولحفظهم، وللإشارة إلى أنه واقع لمنع ضياعهم.

ولا يصح أن يقدر المفعول ضميرا، كـما نهج بعض المفسرين، فيكون تقدير القول «كتبهـا لكم»، لأن مؤدى ذلك أن تكون لهم دائما، مع أن النص الكريم لا يقتضيه ولا يصرح به، إذ الذى يصرح به أنه سبحانه قدر لهم أن يدخلوها، لا أن يكون قد كتبها وسجلها لهم.

وقد تمسك شُـذَّاب اليهـود بأن الله تعالى قـد كتب لهم أرض الميـعاد، وأن ذلك مذكور فـى الكتب المقدسة عندهم، والحقـيقة أن الله تعالى كـتب عليهم أن يدخلوا بعد أن خرجوا مصر ليجدوا فـيها مأوى لهم، وإنما الأرض لله يرثها عباده الصالحون، وليسوا منهم.

﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ توقع موسى عليه السلام أن يتخاذلوا إذ يدعوهم إلى العزة والنصر، فنبههم إلى ما يؤدى إليه التخاذل عن الدخول، وهذا التعبير «ارتد على دبره»، كتعبير «نكص على عقبيه»، وكتعبير «ولوا الأدبار» استعارة تمثيلية فيها تشبيه حال من يرجع عن الجهاد بعد أن توافرت أسبابه بحال من يتراجع سائرا بظهره إلى الوراء بدل أن يسير بمقدمه إلى الأمام، وهذا التعبير يصور قبح التخاذل حسا ومعنى.

ولقد كان رجوع بنى إسرائيل ـ إذا لم يعملوا على دخول الأرض المقدسة ـ أن يعودوا إلى حكم فرعون، ويخسروا ما كسبوا من عزة وكرامة وحرية ويذهب عنهم، فإن البقاء على العزة يحتاج إلى مشقة الحصول عليها، ولئن ارتدوا عن العزة بعد نيلها، فإنهم الخاسرون، إذ لا يرضى بالعذاب الهون إلا الأخسرون.

وإن بنى إسرائيل كانوا قد ضعفت همتهم، وماتت عزائمهم؛ ولذلك أجابوا دعوة العزة بقولهم:

﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ صح ما توقعه موسى عليه السلام منهم، وما نهاهم عنه؛ إذ إن روح التردد والهزيمة قد ملك قلوبهم، واستولى على نفوسهم، فقرروا له أنهم لن يدخلوا؛ لأن فيها قوما جبارين، والجبار فى اللغة يطلق على الطويل القوى، والمتكبر، والعاتى، وهو مأخوذ من نخلة جبارة إذا كانت طويلة لا ينال تمرها، وقد جاء فى لسان العرب (الجبار من النخيل، وهو الطويل الذى فات يد المتناول، ويقال جبار إذا كان طويلا عظيما قويا تشبيها بالجبار من النخل) وجاء فى مفردات الراغب أن الجبار من جبر، وهو الإصلاح بقهر وقوة.

ويكون على هذا معنى جبارين أنهم قوم غلاظ شداد عندهم قدرة على القهر، وقد قيل فى الأخبار أنهم بنو عناق الذين يسكنون أمامهم فى أدنى الأرض المقدسة إليهم، وهم أولو قوة، وأولو بأس شديد ولعلهم الذين قال تعالى فيهم:

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ۝ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦﴾ [الإسراء].

امتنع بنو إسرائيل عن القتال وأكدوا المنع بثلاثة تأكيدات:

أولها ـ فى ندائهم بقولهم يا موسى فإن ذلك النداء فيه نوع من التذليل والاستغاثة، ليسكت عنهم.

ثانيها ـ وصفهم لخصومهم بأنهم جبارون أى أقوياء قاهرون، وأول الوهن الذى يعترى النفوس أن يشعر المجاهد بضعفه أمام خصمه.

ثالثها ـ أنهم أكدوا النفى بقولهم «لن ندخلها» فهذا التعبير بـ «لن» فيه تأكيد للنفى، وجعل غاية النفى أن يخرج هؤلاء منها، وهم أقوياء فمن يخرجهم، فكأن هذا نفى مؤبد. وهم لا يريدون قتالا، ؛ولذلك قالوا من بعد ذلك النفى ﴿فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾.

وهذا يدل على أنهم لا يريدون قتالا، بل لا يريدون دخولا؛ لأن احتمال خروجهم بعيد؛ ولذلك كان التعبير بإن الشرطية التى تفيد الشك فى الخروج، والتعبير بالوصف فى قولهم: ﴿فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ يدل على إرادة الدخول من غير عمل يعملونه، ومن غير معاناة ومجاهدة.. اللهم هب المسلمين العزة والقوة وأبعِد عنهم الوهن الذى هو داء الضعفاء، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾

الكلام موصول فى شأن بنى إسرائيل عندما طلب إليهم موسى -عليه السلام- أن يدخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله عليهم أن يدخلوها، فقد أجابوا راهبين خائفين بأن فيهم قوما أشداء عمالقة، وأنهم لن يدخلوها ما دام هؤلاء، وهم يتكلون على الله تعالى فى إخراجهم، كأن الله تعالى يخرجهم من غير عمل يعملونه وذلك لأن خنوعهم لحكم فرعون أمات فيهم روح الهمة والنخوة والمغالبة، ولأنهم أحرص الناس على الحياة، أى حياة كانت، كما قال تعالى: ﴿ولَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ ... ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة] ومع هذا التخاذل فى جماعتهم كان فيهم من يريد أن يتقدم، ولكنهم نادرون، وليسوا كثيرين؛ ولذلك قال الله فيهم:

﴿قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا﴾ هذان رجلان من بنى إسرائيل أعطيا نعمة الصبر وقوة الإيمان، قد خالفا الذين قالوا: لن ندخلها حتى يخرجوا، وقد ذكر المفسرون اسم الرجلين، كما جاء فى التوراة، والآية لا تحتاج فى فهمها إلى اسميهما، ولكن تحتاج إلى معرفة أوصافهما، ومؤدى قولهما، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى لهما وصفين: أحدهما ـ أنهم من الذين يخافون، وثانيهما ـ أن الله أنعم عليهما.

أما الأول ـ فقد قال تعالى فيه أنهم «يخافون» ولم يذكر الأمر المخوف، ولذلك كان للعلماء فى تقدير المفعول تخريجان: أحدهما ـ أن يقدر المحذوف فى الذكر هو الله سبحانه وتعالى، والمعنى يخافون الله ويتقونه، ويرجحون تقواه، والخوف من عصيانه على الخوف من أعدائه، ولو كان ذوى بطش شديد، أو جبارين فى الأرض، فكل قوة مهما عظمت تصغر بجوار قوة الله تعالى. والتخريج الثانى ـ أن يكون المعنى يخافون الأعداء ويقدِّرون قوتهم، ولكن أنعم الله تعالى عليهم بطاعة الله تعالى.

وذكر الزمخشرى وجها آخر، وقد تبعه فيه الكثيرون، وهو أن المراد من الذين يخافون هم بعض الجبارين، والاسم الموصول موضوعه الجبابرة، والضمير محذوف يعود إلى بنى إسرائيل، ويكون المعنى على ذلك أن رجلين من الجبارين الذين يخافهم بنو إسرائيل ويرهبونهم، قالوا ادخلوا عليهم، ويكون على هذا التفسير معنى أنعم الله عليهما أنه أنعم عليهما بنعمة الإيمان.

وقد رجح ذلك الزمخشرى بأمرين: أولهما ـ أن هناك قراءة بضم الياء «يُخافون»(١) وهذا يتعين أن يكون المراد اثنين من الجبارين، وإحدى القراءتين تكون مفسرة للأخرى، والثانى ـ (أنعم الله عليهما) فإن الظاهر منها فى هذا المقام هو نعمة الإيمان، وذلك لمن يكونون غير مؤمنين وقد صاروا مؤمنين، ولكن ذلك الأمر غير مؤكد؛ لأنها ليست مقحمة على التفسير الأول، بل لها معناها، وهو أن الله أنعم على الرجلين اللذين قالا الحق من بنى إسرائيل بنعمة الصبر، وقوة العزيمة والهمة، فوق نعمة الطاعة وتجنب المعصية.

﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾. هذه مقالة الرجلين اللذين أنعم الله تعالى عليهما فيما حكى الله تعالى عنهما، أراد ذانكم الرجلان أن يزيلا خوف بنى إسرائيل من أهل هذه الأرض إذ إنهم أجسام ليس فيها قلوب قوية،

---

(١) ليست في العشر المتواترة.

وقد ذكر ابن جرير الطبرى ما يصور أنه مقالتهم، فقال: «قالوا لجماعة بنى إسرائيل: إن الأرض مررنا بها وجسسناها صالحة رضيها ربنا فوهبها لنا، وإنها لم تكن تفيض لبنا وعسلا، ولكن افعلوا واحدة، ولا تعصوا الله ولا تخشوا الشعب الذين بها، فإنهم جبناء مدفوعون فى أيدينا، إن حاربناهم ذهبت منهم، وإن الله معنا فلا تخشوهم».

ويظهر أن هذه العبارات مصدرها إسرائيلى؛ لأنها تتقارب مع نصوص التوراة التى بأيديهم، ومهما تكن صحة النسبة فى هذه الأقوال، فإن الآية الكريمة لها مدلولها بعباراتها التى حكاها سبحانه وتعالى عنهم، فإن معنى قوله تعالى:

﴿**ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ**﴾ أى فإذا دخلتموه فإنكم غالبون، ادخلوا مفاجئين لهم فاتحين عليهم الباب، فإنهم عندئذ يصيبهم الذعر، وتأخذهم الفجاءة، ويتحيرون، فتأخذهم السيوف، وتكونون أنتم الغالبين، وفى العبارة ما يفيد تأكيد الغلب؛ لأنه عبر عن الغلب بالجملة الاسمية، وإن التى تؤكد القول.

ولا شك أن غزو قوم فى دارهم فجاءة يؤدى إلى هزيمتهم، ولقد قال فى ذلك بطل الحروب على بن أبى طالب: «ما غزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا».

﴿**وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ قوة النصر تعتمد على أمرين: أولهما ـ عمل حاسم وعزم أكيد، وثانيهما ـ تأييد من عند الله، وتوكل عليه وتفويض إليه، وقد بين الرجلان كما حكى سبحانه عنهما العمل الحاسم، وهو الدخول المفاجئ، والثانى هو التوكل على الله تعالى وحده حق التوكل، وألا يعتمد على أحد سواه، وألا يرجى النصر إلا منه، ولذلك قدم الجار والمجرور فى قوله تعالى: ﴿**وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا**﴾ أى على الله وحده توكلوا أى هو وحده النصير: ﴿... **وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** (١٢٦)﴾ [**آل عمران**]. وإن التوكل الحق لا يكون إلا من قلب مذعن مؤمن بالله مخلص له، مجيب لما يأمر وينهى؛ ولذلك قرن التوكل بقوله: ﴿**إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾.

وفى ذلك إشارة إلى أن مقتضى الإيمان أن يعملوا ويجيبوا، وأن يدعوا وساوس الخوف، وأن يشعروا بأن الله معهم، وهو فوق كل جبار، وفى ذلك حث على العمل الحاسم، والعزيمة الثابتة.

﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا﴾ بعد تلك العبارات القوية المثيرة للهمم والعزائم التى نادى بها من الصفوف رجال منهم أو من أعدائهم، أنعم الله عليهم أجابوا بإجابتهم الأولى، وهى أنهم لن يدخلوا فيها، حتى يخرجوا منها، ولكنهم زادوا على الإجابة الأولى تأكيدا، وتهجما على مقام الله سبحانه وتعالى. أما التأكيد فهو إضافة كلمة «أبدا»، وإذا كانت كلمة «لن» فيها معنى تأكيد النفى فكلمة «أبدا» فيها معنى تأبيد النفى ما داموا على قيد الحياة.

﴿... فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ وهذه الكلمة فيها استهانه بأمر الطاعة، واستخفاف بمقام الألوهية والرسالة، وخروج عن معانى الإيمان السليم؛ لأن الله تعالى لا يعمل أعمال البشر ويقاتل، ولكن ينصر ويخلق والقتال من أعمال العباد، كما يقول رجل لآخر: يأمرك الأمير بالذهاب بالجند والقتال، فيجيبه: قاتل أنت والأمير، ففى ذلك استهزاء بالأمير، وخروج عليه، وفى كل ذلك استخذاء من قوم جبناء؛ ولذلك ختموا كلامهم بالقعود عن القتال والثبات فى أماكنهم: ﴿إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾، وإن هذا الوصف الذى وصفوا به أنفسهم يدل على الخسة؛ لأن القعود غير البروز، والقاعد مخذل، والمجاهد عامل والقعود فى وقت وجوب النشاط هذا للعمل الصالح هو وصف ذم، كما قال وصفا لأمثالهم: ﴿... وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [التوبة]. وقال تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ... ﴿٩٥﴾﴾ [النساء]

ويقول الحُطيئة:

دع المكارم لا ترحـــــل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى[(١)]

فهم قد وصفوا أنفسهم بأقبح ما توصف الجماعات الطامحة:

ولقـد أحس موسى القـوى الأمـين بالعبء الذى ألقى على هذه الجـماعـة وتخاذلها عن حمله، فتقدم إلى ربه بالمعـذرة يرجو بها المغفرة، فقال ما حكاه الله تعالى عنه:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي﴾ ابتدأ موسى عليه السلام قوله بالاتجاه إلى ربه الذى خلقه ورباه وكـوَّن جسمه ونفـسه، وذلك بالضراعة إليـه، وبيان أنه أعلم بحاله، وأنه فى طاعته لا يخرج عنها، ثم قرر المعذرة، وهو أنه لا يملك من أمرهم شيئا، وإنما الأمر كله إلـى الله تعالى، وأنه لا يستطيع أن يجعل من ضعف نفوسـهم قوة، ولا من استخـذائهم عزة، ولا من تقاعـدهم همة، ولا يملك إلا نفسـه وأخاه، فهو لا يضـمن إلا إياهما، وهما وحدهمـا لا يملكان الدخول إلى هذه الأرض، والمراد بأخيه سيدنا هارون عليـه السلام، وقد أكدت المعذرة بـ «إنَّ» وبالقصر، وعبر عن هارون بأخيه للإشارة إلـى قوة إحساسه بأنه معه فى طاعة ربه وعدم عصيانه فيما أمر[(٢)].

وإذا كانت تلك حاله، فـهى مفترقة عن حال الذين مـعه؛ ولذلك الافتراق عنهم ما حكاه الله تعالى: ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

---

(١) في البيت أمران يـراد منهما التوبيخ، أو التحـضيض. ومعنى الطاعم الكاسي: من كـفي طعامه وكساءه، فاكتفى ولم يسع للمكارم.

(٢) عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: شَهِدْتُ مِنْ الْمِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ مَشْهَدًا لأَنْ أَكُونَ صَاحِبَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عُدِلَ بِـهِ؛ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَدْعُو عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ: «لا نَقُولُ كَمَا قَـالَ قَوْمُ مُوسَى: ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَـاتِلا﴾ وَلَكِنَّا نُقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ شِـمَالِكَ وَبَيْنَ يَدَيْكَ وَخَلْفَكَ»، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَشْرَقَ وَجْهُهُ وَسَرَّهُ، يَعْنِي قَوْلَهُ.
رواه البخاري: المغازي (٣٩٥٢).

الفرق معناه الفصل بين شيئين أو شخصين فصلا حسيا أو معنويا، كما قال تعالى: ﴿ ... لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ... ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [البقرة].

والمراد هنا والله أعلم؛ اجعل بيننا وبينهم فارقا فى الحكم وهو العدل بيننا وبين هؤلاء الفاسقين؛ لأننا لا نرضى بما يفعلون، ولسنا معهم فى الإحساس وهذا التخاذل، فلسنا منهم فى هذا، وليسوا منا فى شىء وافصل بيننا وبينهم فى الآخرة، كما فصلت فى الحكم بيننا وبينهم فى الدنيا، والمؤدى من قول سيدنا موسى هذا هو أنه يبرئ نفسه منهم، ومن عملهم وخذلانهم، والفاسق هو الخارج المنفصل بالحس أو المعنى، والمعنى: افرق بيننا وبين هؤلاء الذين خرجوا عن الطاعة، وعن مناط العزة، ورضوا بالذلة والهوان.

ولا شك أن هذه الجملة تدل على ألم موسى، واستنكاره لما هم عليه، فقال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾.

القول هنا هو قول الله تعالى، كما يدل على ذلك الحكم الذى حكم به، فإنه لله تعالى وحده، وكما يدل عليه من بعد ذلك قوله: ﴿فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

والفاء فى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ﴾ هى فاء الإفصاح، أى التى تفصح عن شرط مقدر، والمعنى: أنهم إذا كانت حالهم كذلك من الخور، وضعف العزيمة، والخوف من أعدائهم فإنهم لا يدخلون الآن لضعف بأسهم وشكيمتهم، فإنها محرمة عليهم تحريما واقعيا، لا تحريما حكميا تكليفيا يتيهون فى الأرض، أى يكونون فى الأرض تائهين متحيرين يضطرب عيشهم وحياتهم، ولا يستقر مقامهم، بل يعيشون فرادى هائمين على وجوههم، حتى يتربى البأس فى قلوبهم.

هذا خلاصة معنى النص الكريم، وهو يدل على أن الله تعالى بسنته التى سنها سبحانه وتعالى فى الكون لا يمكنهم من أن يدخلوها إلا إذا غيروا، وبدلوا حالهم من بعد الضعف قوة، ومن بعد الخور عزيمة: ﴿ ... إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ

حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ (١١) ﴾ [الرعد]

إن بنى إسرائيل من بعد أن بعث الله تعالى إليهم من أنفسهم سيدنا موسى عليه السلام كانت كل انتصاراتهم على فرعون بأمور خارقة للعادة، وحياتهم كلها لا تخلو من خارق، فقد أنقذوا بالبحر ينفلق اثنى عشر فرقا، وشربوا الماء بالعصا يضرب بها الحجر فينبثق منه اثنتا عشرة عينا لكل إنسان مشربهم، ويشكون الجوع، فيجىء إليهم المن والسلوى. وبذلك استرخت نفوسهم، والله سبحانه وتعالى لم يجعل - فيما سنه فى الكون - الأمم تعيش من غير كفاح، وطلب للعزة بجهاد وعمل. فكلفهم سبحانه أن يدخلوا الأرض المقدسة، وهو يعلم حالهم، وبماذا يجيبون، وكان لا بد أن يربيهم على الكفاح بعد الاسترخاء، وعلى طلب العزة بأنفسهم بعد الاستخذاء، فكان لا بد من البلاء بتركهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض، ويعيشون فى الأخبية وينتقلون طلبا للماء والكلأ، ويحيون حياة خشنة.

ولقد قرر ابن خلدون فى مقدمته إن الأمم كلما تحضرت استرخت منها العزائم حتى يغزوها من يعيشون فى شظف العيش ويسيطرون عليهم، حتى يصيبهم الرفه، ويفكهوا فى نعيمه، فيصيبهم ما أصاب من سبقوهم.

كان التيه الذى عاش فيه بنو إسرائيل أربعين سنة لتربى فيهم قوة البأس والعزيمة، ويستهينوا بالصعاب، فيذللوها ويتغلبوا عليها: ﴿**فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ**﴾ هذا تطمين لموسى عليه السلام، وبيان استجابة معذرته، وإزالة لما علق بنفسه من هم بسبب فعل قومه، وعصيانهم لأمر ربهم، ومعنى أسى حزن حزنا عميقا، يُحدث هما وغما، ومن ذلك قول امرئ القيس:

وقوفا بها صحبى علىَّ مطيهم ... يقولون لا تهلك أسى وتجمل

اللهم هب لأمة الإسلام القوة والعزة والمنعة، وطلب إعزاز الإسلام بالجهاد بالنفس والمال، وألا يرهَبوا عدوَّ الإسلام، ويطيعوا قول الله تعالى ويستمعوا إليه: ﴿**وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩)**﴾ [آل عمران].

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾

هذا النص القرآنى فيه تعليل لما كان من اليهود من قبله من بسط أيديهم بالأذى للنبى ﷺ ونقضهم المواثيق، وقتلهم للنبيين، وادعائهم الكاذب الفضل على الناس، فإن علة ذلك هو الحسد الكمين فى نفوسهم والحسد قديم فى الخليقة قدم الإنسان فيها، فهذا أحد ولدى آدم يحسد أخاه، حتى فى العبادة التى تقتضى تنقية النفوس وتقوى القلوب، وذلك دليل على كمون الحسد فى بعض النفوس مما لا علاج له إلا الصبر على الذين تصيبهم هذه الآفة، كما صبر الأخ الذى قتله أخوه، فإذا كان فى النصوص بيان لآفة الحسد، ففيها أيضا بيان لحلية الصبر والصفح والرضا بما يقدره رب العالمين من أذى المؤذين، والإخلاص لله تعالى. وكل هذا فيه عزاء للنبى ﷺ يدعوه إلى الصبر، كما قال تعالى: ﴿ **وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ** ﴿١٢٧﴾ ﴾ [النحل].

وكما أن فى النص تعليلا لما سبقه ففيه تمهيد لما يلحقه، فإنه سيجىء بعد ذلك عقوبات رادعة للذين يعيثون فى الأرض فسادا، ويخرجون، ويقتلون الأنفس البريئة، ويزعجون الآمنين بالسرقات والاختطاف، ففى هذا النص يبين قسوة المعتدى ليتبين استحقاقه هو وأمثاله من عقاب ردعا وزجرا، ونكالا يمنع غيرهم من العبث؛ ولذلك كانت الآية التى أعقبت هذا النص فيها بيان لسببيته فى شرعية

العقاب الرادع، فقال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة].

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ ابنا آدم، يقول المؤرخون وبعض المفسرين فيهما، كما جاء فى التوراة: هما هابيل التقى، وقابيل الباغى، ويقول أكثر المفسرين: إنهما ولدا آدم من صلبه، ولكن الحسن من التابعين قال: إنهما من بنى إسرائيل، ولعل مما يشير إلى ذلك قوله تعالى من بعد: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ .. إلخ.

ولا يهمنا أن نعرف من هما، ولكن الذى يهمنا أن نعرف أن ما يومئ إليه النص من حقائق، والقصص صادق وواقع، ولكن نترك ما تركه القرآن ولا نهيم فى إسرائيليات صادقة أو كاذبة، والنص القرآنى واضح فى مقصده من غير حاجة إلى ما يوضحه من خارجه، ويقول سبحانه: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾. ومعناه اذكر خبر ابنى آدم ذكرا متتابعا منسقا يشبه الكلام العظيم المتلو، وأصل التلاوة القراءة المتتابعة الواضحة فى مخارج حروفها، والمصورة للمعانى فى وقوفها، والمؤدى: أخبرهم بخبر الابنين بعناية، وأخبرهم بهذا الخبر الصادق خبرا قد لبسه الحق، وصار حليته، ومظهره وحقيقته، والنبأ هو الخبر العظيم ذو الشأن الذى يستدعى دراسة وعناية، ولا شك أن خبر ابنى آدم (خبر له شأنه) بما فيه من قتل الأخ لأخيه من غير جريمة ارتكبت، ولا شر وقع، ولا اعتداء، بل بسبب العبادة الخالصة لوجه الله تعالى، فما كان سبب الاعتداء إلا ذلك؛ ولذا ذكر سبحانه وقت الجريمة، وهو سببها، وباعثها، مما يدل على أن القلب الخبيث لا يدفعه فعل الخير المقبول إلا إلى الأذى الممقوت، فقال:

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ﴾ أى اذكرهما ذكرا حقا صادقا فى الوقت الذى قربا فيه قربانا، وكانت نتيجة القربان تقبلا حسنا من

أحدهما وعدم تقبل من الآخر، فكان من وراء ذلك الاعتداء الشنيع من الذى لم يقبل قربانه، والقربان العبادة التى يتقرب بها إلى الله تعالى، وهى تطلق فى أكثر أحوال العبادة على الذبائح التى يتقرب إلى الله تعالى بذبحها، كذبح الهدى فى مكة.

والتقبل معناه القبول بقوة من القابل سبحانه، فهو قبول ورضا وترحيب، وقد ذكر اللفظ فى الإثبات لمعنى القصد الطيب والنية الحسنة من الابن الصالح، وذكر اللفظ فى النفى بقوله سبحانه: ﴿**وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ**﴾. للمقابلة بين النفى والإثبات؛ لأن قربان ذلك الآثم لم يقبل أصلا، فنفيه منصب على أصل القبول، لا على وصفه.

وكان عدم قبوله لسوء نيته، ولنقص تقواه؛ ولأنه قصد الخبيث من ماله وأراد به التقرب؛ ولأنه قصد المباهاة والفخر، ولم يقصد وجه الله، ولأن قلبه متأشب بالآثام كما تبين من سوء فعله وخبثه، وعدم رحمته من بعد ذلك، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى أن أحدهما لم يتقبل قربانه، ولم يبين سبحانه كيف عرف أنه لم يقبل، ولقد ذكر العلماء كلاما فى هذا، فقيل إن القربان تنزل عليه نار فتأكله، والآخر لا تنزل عليه نار، وقد علم القبول بهذه الأمارة، وقال آخرون: إن ذلك كان بوحى أوحى إلى نبى هذا الزمان، وعندى أن ذلك كان برؤيا صادقة أو بحال المتصدق فى نفسه، وقد علم من حاله أن تصدقه غير مقبول، وقد يكون بإخبار نبى الزمان إن كانا غير ولدى آدم الصلبيين[1].

وكانت نتيجة ذلك أن كان بين الأخوين تلك المجاوبات الكلامية ثم الجريمة الكبرى التى هى أعظم ما ظهر من جرائم فى الوجود الإنسانى، ولنذكر المجاوبة بين التقى المؤمن العادل السمح، والفاجر الباغى الظالم الحاسد، قال: ﴿**لأَقْتُلَنَّكَ**﴾. تلك كلمة الظالم الآثم الذى خلا قلبه من كل شعور بالحق، فلم

---

(١) روى البخاري ومسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا لأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ».

يشعر بالعدالة فى ذاتها، ولم يشعر بالرحم الواصلة بينهما ولم يشعر بحق الحياة التى خلقها الله تعالى وأودعها كل نفس ولم يشعر بحرمة الدم، وبأن القتل أعظم جريمة فى هذا الوجود الإنسانى، وقد أكد عزمته الآثمة، وإصراره عليها من غير خور ولا ضعف؛ ولذلك أكدهما أولا بالقسم المطوى فى القول، والذى تدل عليه اللام، وهى مؤكدة أيضا بنون التوكيد الثقيلة، وكانت المجابهة الآثمة لأخيه بذلك الخطاب المواجه، ولم يستر نيته، فكان التبجح السافر الذى أدى إليه الفجر فى القول، والإجرام فى العمل، والكسب الآثم.

وإن هذا يدل على تصميمه على القتل، وهذا النص الموجز يبين روح الإجرام فى المجرمين الذين يريدون السوء بالأخيار فى المجتمع، وكلما زاد خير الأخيار، أوغل المجرمون فى الشر والإيذاء، حتى أنهم ليستمرئون الشر، كما يستطيب الأخيار حب الخير، وإن هؤلاء آفة الجماعة الإنسانية، ومن تظهر مآثمه منهم تحق عليه كلمة العقاب زجرا وردعا، وتهذيبا للمجتمع وتطهيرا له، فالذين يذهب بهم فرط رأفتهم إلى الاعتذار لهم آثمون فى حق جماعتهم، راضون بأن يعيش الشر فى قلوب الآثمين.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ تلك أول كلمة نطق بها التقى البر فى مجاوبة اعتداء أخيه، أو الجهر بنية الاعتداء، وهى فى ذاتها اعتداء، فقد قال كلمات أربعة، كل واحدة منها تنبئ عن إيمان مكين عميق، وتلك هى الأولى، وهذه الكلمة تفيد السبب فى القبول، وترشد أخاه إلى تطهير قلبه، وإلى الاتجاه إلى ربه، وإلى الاستشعار بخشيته، وفى تلك الكلمات الطيبة معان كريمة.

فهى أولا تفيد قصر القبول بلفظ ﴿إِنَّمَا﴾ على المتقين، والقصر نفى وإثبات، أى أن التقوى هى سبب القبول، فإن وجدت كان القبول، وإن لم توجد انتفى القبول، وتفيد ثانيا أن عدم القبول إنما يكون من نفس المتصدق، لا من أمر خارجى فالجزاء على قدر النية، فالتقوى دائما من القلوب.

وتفيد ثالثا تـوجيه أخيه الفاسد إلى الإقـلاع عن ذنبه بموضع الداء فى قلبه، وأن عليه أن يُطب له، والتقوى التى اعـتبرت سببا للجزاء الطيب، تتـضمن خشية الله تعالى، وامتلاء القلب بطلب رضاه، وتتضمن اتقاء الذنوب والآثام، وتتضمن احترام حـق الإنسان على أخيه الإنســان، فهى كلمة جامـعة لكل معانى الفـضيلة الدينية والخلقية والاجتماعية.

﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ تلك هى الكلمة الثانيـة، وبسط اليد مدُّها بالاعـتداء، ونرى فى هذا النص قـسما ينبئ عن الطيـبة والخلق السمح فى مـقابل قسم ينبئ عن الشـر ونية الأذى والتصمـيم عليه، وهذا يصور ما بين الأخـيار والأشرار من تضاد، فـهو يؤكد هنا سلامـة القلب وسلامة العمل، أقسم الأول على القتـل، وأقسم الثانى على عدم الرد[1]، وقد أكد نـفيه بهذا القسم، وبالتعبير بالجملة الاسمية فى جوابى القسم؛ لأن جواب القسم:

﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ وقد أكد النفى بأمور ثلاثة: أولها ـ التعبير بالوصف، فهـو ينفى عن نفسه وصف بسط اليد لأجل الاعـتداء؛ لأن ذلك ليس من شأنه ولا من رغبـاته، والثانى ـ التعبـير (باليد) للإشارة إلى أن مـا بينهما من رابطة الرحم الموصـولة عنده تمنعه من أن يمـد إليه يده بالأذى، والمؤكـد الثالث ـ التعبير ﴿لِأَقْتُلَكَ﴾ فيه أن هذه الجـريمة تنفر منها الطبائع السليـمة، ولا ترضى بها العقول المستقيمة، وخصوصا إذا كان يريد قتله.

وقد أقسم الأول على الفـعل فقال ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ وردد كلامه فى نيـة الاعتداء بالفعل أيضا؛ لأن موضـوع القول هو ذلك الفعل الذى كان ثمرة للنية الخـبيثة من فاعله، أما النفى الذى كان من الشاب الطيب، فقد كان عن نفى الوصف، أى أنه لا يقع منه ذلك الفعل، ولا يمكن أن يقع.

---

(١) وهو القسم المفـهوم من اللام الموطئة له في ﴿لأقتلنك﴾، و﴿لئن بسطت﴾ أي: أُقـسم لأقتلنك. أُقسم لئن.

ويثير الفقهاء بحثـا فى هذا الموضوع، وهو حول ما قرروه من أن الدفاع عن النفس عند محاولة الجانى للقتل أمر مشـروع لا يتجافى مع التقوى، ويقرر الحنفية أن الشخص إذا تأكـد أنه مقتـول إذا لم يدفع عن نفسه ولو بالقـتل، يكون الدفاع واجبـا حفظـا لنفسـه، ويكتفى الأكـثرون من الفـقهـاء بالقول بأن الدفـاع يكون مشـروعا، ولا يكون لازمـا، وسواء أكـان هذا أم ذاك، فإنه ليس من التـقوى أن يقف المجنى عليه مكتوف اليد لا يدافع.

وقد أجاب جمهور الفقهاء بأن التقوى فى هذا المقام اختيارية، أى أنه يختار أى الطريقين. فإمـا أن يدفع الشر وإما أن يكون عبدالـله المظلوم، ولا يكون عبد الله الظالم، وليس فى كليهما ما ينافى التقوى، أما الحنفية الذين قالوا: إن الدفاع عن النفس واجب، فـقد قالوا: إن السكوت واعـتباره من الـتقوى كـان شرع من قبلنا، أما شرعنا فهو واضح فى قوله تعالى: ﴿... **فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ** ... ﴿١٩٤﴾﴾ [**البقرة**] ونقول: إن موقف ولدى آدم خارج عن موضـوع الخلاف؛ لأن موضوع الخـلاف هو فى دفع الصائل الذى يجىء ليـقتل، فإنه يجب دفعه، حـتى لا يستشرى شره، أما هنا فأخ يـهدد أخاه بالقتل، ولو أنه هدده بمثل ما هدده بـه لدخلا فى ملحمـة، ولا يدرى أيهما الـغالب، ويكون هذا داخلا فى مـعنى قوله ﷺ: «إذا التقى المسلمـان بسيفـيهمـا فالقاتل والمقـتول فى النار»، قالوا: هذا القـاتل يا رسول الله، فمـا بال المقتول، فقـال ﷺ: «إنه كان حريصا على قتل صاحبه»[1] على أن فى الصبر أجرا وقد قال تعالى: ﴿**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ** ﴿١٢٦﴾﴾ [**النحل**] فهذه القضية خارجة خروجا تامـا عن موضع الخلاف، وخصوصا أن الأمر بين أخوين، لا بين صائل يضرب بالسيف ابتداء من غير فرصة للموازنة والتفكير.

﴿**إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ**﴾ هذه هى الكلمة الثالثة، وهى تنبئ عن الباعث الذى جعله يقف ذلك الموقف السلبى ويتخلى حتى عن الدفاع عن نفسه، والباعث

---

(١) متفق عليه؛ رواه البخاري: الإيمان.

عليه هو خوف الله تعالى، وفى ذلك إشعار لأخيه الذى يهم بقتله بأن يقف موقفه ويخاف الله تعالى الذى يقبل الطاعات ويرد المعاصى، وهو عليم بكل ما فى الصدور، وهو شهيد على حركات الجوارح والأعضاء والقلوب، لا يخفى عليه شىء فى الأرض، وفى النص الكريم إشارات بيانية، يحسن التنبيه إليها:

الأولى ـ تأكيد خوف الله بذكر (إنَّ) المؤكدة للقول.

الثانية ـ ذكر الله تعالى جل جلاله بلفظ الجلالة، للإشعار بأنه هو وحده، صاحب السلطان على نفسه، ولا سلطان سواه فلا يدفعه غضب أو حب انتقام إلى مخالفة أمره.

الثالثة ـ وصف الله جل جلاله بأنه رب العالمين، أى منشئ الكون ومن فيه، وهو يتعهدهم بالنماء والتغذية والتربية، فقتل النفس التى حرم الله تعالى قتلها هدم لما بناه الله تعالى، وتخريب فى الأرض، ونشر للفساد.

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ تبوء هنا معناها: ترجع ويلازمك الإثم ملازمة من يقيم فى مكان ويبوء إليه، وهنا نتكلم عن معنى «إثمى وإثمك» روى عن ابن عباس أن المعنى إثمى أى إثم قتلى، فهى تشبه إضافة الفعل إلى المفعول، أى الإثم الذى ترتكبه فى شأنى بقتلك إياى، وإثمك الأصلى الذى عوق صدقتك عن أن تقبل، فترتكب إثمين، وتضيف إلى ذنبك الأصلى ذنبا آخر، فلا تكون قد خلعت نفسك من المعاصى، بل أركست نفسك فيها، وزدتها.

وهذا الذى نختاره وهو معنى مستقيم، وروى عن الحسن أن المعنى أن يحمل يوم القيامة ما عسى أن يكون التقى قد ارتكبه من إثم، فوق آثامه الأصلية.

والزمخشرى يقول فى تفسير هذه الآية: **﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾**.

أن تحتمل إثم قتلى لك لو قتلتك وإثم قتلك لى ثم يقول (المراد بمثل إثمى) وروى ذلك عن مجاهد، وإنى أرى فى هذا تكلفا، والواضح هو ما روى عن ابن عباس رضى الله عنه.

وهنا قد يسأل سائل أكان من التقوى أن يريد أن يتحمل غيره الأوزار، ونقول: إن ذلك بيان للنتيجة لامتناعه عن مقاومة أخيه، فهو إذ أراد الامتناع عن بسط يد الأذى لأخيه فكأنه أراد النتيجة المحتومة لذلك، وهى أن يبوء بإثم نفسه وإثمه، فإن إرادة السبب كأنها إرادة للمسبب.

وقد ختم كلامه السمح بتبصير أخيه بالنتيجة النهائية، وهى أن يكون من أصحاب النار الملازمين لها الذين لا يخرجون منها يوم القيامة، ثم يبصره بأن ذلك جزاء الظالمين، وأنه فى فعلته التى يهم بفعلها، يكون ظالما داخلا فى زمرة الظالمين.. اللهم جنبنا الظلم وأهله، وإنك نعم المولى ونعم النصير.

فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾
فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى
سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا
ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ ﴿٣١﴾

الآيات المتلوة استمرار فى بيان قصة ابنى آدم التى ضربها الله تعالى مثلا للشر كيف يستحكم فى النفس وينتصر على نوازع الخير والمحبة فيها، وإن فيها مغالبة بين الخير والشر بين أخوين، وكان الشر معتديا، والخير مسالما وكان الخير فى قلب الشرير ينازع الشر، حتى انتصر الشر فى قلبه، وقد كان أخوه الخيِّر يرجو

أن تثور فى قلب أخيه الشرير نوازع الرحـمة والمودة والأخوة الواصلة، ولا تقطعها جفوة الحسد العارضة، وقـد قال ﷺ: «إن الله ضرب لكم ابنى آدم مثلا، فخذوا من خيرهما ودعوا الشر»(١).

ولقد تمت جريـمة الأخ الآثم، ولكن بعد مجـاوبات نفسية انتهـت بانتصار الشر، ولذلك قال تعالى:

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾ هذا النص الكريم يدل على أمـرين: أحدهمـا ـ أن قابيل الذى قـتل أخاه، ولو أنه أكـد عَزْمَتَـه على الاعتـداء بقوله: «لأقتلنك» كـانت نفسه يتـردد فيهـا عاملان: الأول عـامل الود والرحم الواصلة، والثانى عامل الحسد والضغن، وثانيهمـا ـ أن أخاه فيما ساقه من قول كان يريد أن ينمى فى نفـسـه روح المودة والأخـوة لتنتـصر عـلى الأخرى؛ ولذلك مـا تحـرك لمقاومته، بل تحرك لمراجعته ليثوب إلى نفسه.

ومعنى كلمـة «طوّعت» قال فيهـا مفسرو السلف مـعانى تدل على أن هناك مقـاومة فى داخل شعوره قـبل أن يقع فى الجريمة، وقـد فسر مـجاهد «طوعت» شجعت، وفـسرها بعض التابعـين بسهّلت ووسَّعت، وبعضـهم بزيَّنت وحسنت؛ وكلها يشـير إلى أنه كـانت هناك معركـة فى داخل نفسـه بين الخيـر والشر، بين الإقدام على الجريمة، والإحجام عنها، حتى انتصرت، وقرأ الحسن بدل «طوعت» «طاوعت» وهذه الصيغـة تدل على المشاركة، وهو يدل على معنى المقـاومة؛ وقد صور السـيد رشيد رضـا فى تفـسير المنار مـعنى المغالبة فى النفس تصـويرا حسنا فقال:

«إن هذه الكلمـة (طوعت) تدل علـى تكرار فى حـمل الفطرة على طاعـة الحسد، الداعى إلى القتل، كتذليل الفرس والبعـير الصعب، فهى تمثل لمن يفهمها

---

(١) روى ابن جرير عن الـحسن مُرْسَـلاً، وعن بكر بن عبـد اللَّه مُرْسَلاً قـالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ضَرَبَ لَكُمْ ابْنَيْ آدَمَ مَـثَلاً، فَخُـذُوا خَيْرَهُمَـا وَدَعُوا شَرَّهُـمَا» أورده السيـوطي في الجامع ج٢، ص٢٥٨ (٥٣٧٩).

ولد آدم الذى زين له حسده لأخيه قتله، وهو بين إقدام وإحجام يفكر فى كل كلمة من أخيه الحكيم، فيجد فى كل منها صارفا له عن الجريمة، ويدعم ما فى الفطرة من صوارف العقل والقرابة، فيكر الحسد من نفسه الأمارة بالسوء على كل صارف من صوارف نفسه اللوامة، فلا يزالان يتنازعان، ويتجاذبان حتى يغلب الحسد ويجذبه إلى طاعته».

وإن فى النص الكريم إشارة إلى هذه المعانى من حيث التردد، فقد عبر عن المقتول بقوله: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾. والمعنى: أن الأخوة، والاطمئنان إلى القرابة كانا يعارضان دواعى القتل، وعبر عن الجريمة بقوله فقتله، مما يدل على أن التطويع للحسد بعد المغالبة ترتب عليه أقوى شر فى هذا الوجود، وهو إزهاق النفس التى حرم الله قتلها من غير جريمة إلا أن يكون قبول الله لقربانه جريمة عند الحاسدين.

والنص القرانى مع كل ما سبق فيه إشارة إلى شناعة الجرم فى ذاته من حيث الباعث عليه ومن حيث الصلة بين القاتل والمقتول، ومن حيث ذات الفعل، فإنه أكبر جريمة إنسانية فى هذا الوجود، ولكل هذه المعانى أشار القرآن الكريم بأوجه تعبير، وأدق الألفاظ، وهو سر الإعجاز، وفيه بلاغة الإيجاز مع الوضوح، وإشعاع المعانى بالنور من ثنايا الألفاظ.

﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أى فصار من الخاسرين بعد تلك الجريمة الكبيرة التى تحيط بها الشناعة من كل أطرافها، والتعبير بأصبح هيأ لها المقام فى الكلام؛ لأن «أصبح» تدل على أنه كان مدركا لما ارتكب عندما أشرق نور الصبح، كأنه وقت الحيرة أو إرادة الارتكاب فى ظلمة من عقله وقلبه، وفى ديجور من الظلام يشبه ظلام الليل، حتى كان الصبح المنير الذى أراه الأمور على وجهها، وأدرك فى ذلك الضوء الذى جاء عند الصباح مقدار الإثم فيما فعل.

والخسران الذى لحقه هو خسران القلب المؤمن إذا أربد بالمعاصى، وطغى عليه الشر، حتى غلبه، وأركس فى مهاوى الشر بسبب ضغن نفسه، وامتلاء قلبه

بالحسد، وأحس بأنه خسر أخاه الطيب الطاهر العفيف، وأحس بغضب الله تعالى، وذلك هو الخسران المبين، وهكذا صار ممن غلبت عليه شقوته، وامتلأت نفسه بالحسرة على سوء ما فعل.

وهنا إشارة بيانية، وهى فى التعبير بقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

فإن مؤداه أنه صار فى زمرة الخاسرين الذين كسبوا السيئات وأركست نفوسهم فى مهاوى الخسران، وأصبحوا، ولا منجاة لهم، ولا بقاء؛ لأنهم نزلوا إلى قاع الهاوية، بارتكاب أعظم الجرائم بإصرار وتصميم.

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ هذا الكلام يتضمن معانى سبقته، ولم يذكرها القرآن الكريم، لأنها تفهم من المعنى والسياق من غير حاجة إلى الذكر، ولا يدرك المعنى ولا يستقيم إلا بتقديرها، وذلك أن القاتل بعد أن ارتكب الجريمة، وأحس بالخسارة الشديدة التى نالته، لم يرد أن يترك أخاه تنهشه السباع، أو تنقره جوارح الطيور، ولا أن يترك جسمه ملقى، وألهم بالفطرة أنه لا بد من مداراة جسمه، وستره، وإبعاده عن الأنظار، لأنه بعد موته صار جسمه كله سوءة يسوء النظر إليها، ولا تألف الطباع السليمة رؤيته، فالمراد بالسوءة الجسم كله بعد موته؛ لأنه يسوء النظر، وخصوصا بعد أن تتحول حاله ويتعفن، وقد استيقظت الأخوة فى نفسه، بعد أن خبت أمدا ارتكب فيه جريمته.

اتجه الأخ القاتل لمواراة جثة أخيه أى سترها، وقد أراد الله تعالى أن يعلمه ذلك، فبعث غرابا، ومعنى بعثه أنه أفهمه أن يفعل ذلك، وقد رأى ذلك الغراب الملهم غرابا آخر ميتا، وأراد أن يستره عن الأنظار، فأخذ يبحث فى أرض أى يثيرها ويحفرها برجليه، حتى أوجد حفرة تسع الغراب الميت، فوضعه فيها، فكان هذا إعلاما للقاتل بالطريق التى يوارى بها جثة أخيه.

وقد فهم بعض المفسرين من الآية أنه لم يكن ثمة غراب قد مات، أو قتله صاحبه، ولكنه رأى الغراب يبحث فى الأرض عن شىء من الأشياء ليدفنه؛ لأن

من عادة الغربان حفر الأرض لدفن الأشياء، فلما رأى قاتل أخيه الغراب يحفر الأرض اهتدى إلى حفر الحفرة التى ألقى فيها جثة أخيه القتيل.

والكثيرون من المفسرين على أن غرابين تناقرا فمات أحدهما، فدفنه الآخر بحفر حفرة فى الأرض.

والحق أن الآية الكريمة نصت على أن الغراب قد أخذ يبحث فى الأرض، حتى حفر حفرة، دفن فيها شيئا أو طيرا ميتا، ولم تتعرض لكون المدفون طيرا أو غير طير، ولا لكون الطير مات بقتل الدافن، أو مات بسبب آخر، والآية الكريمة بينة واضحة المقصد من غير فرض واحد من هذه الفروض بعينه، وما دامت الأخبار التى لا مناص من قبولها لصدقها غير موجودة فليس لنا أن نفرض واحدا من هذه الفروض بعينه، والفرض الواحد الذى يقتضيه بيان الغرض والمغزى هو أن نفرض أن الغراب أخذ يحفر فى الأرض، حتى أتم حفرة وضع فيها شيئا، فعلم القاتل الجهول أن ذلك هو الطريق لدفن أخيه.

وأصل كلمة «يبحث» معناها كشف أو دق الأرض أو حفرها، وقد جاء فى مفردات الراغب الأصفهانى: «البحث» الكشف والطلب فيقال بحثت عن الأمر، وبحثت كذا، قال تعالى: ﴿**فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي**﴾.

وقيل بحَثَت الناقة الأرض بأرجلها فى السير إذا شددت الوطء تشبيها بذلك.

والمعنى: أن الغراب أخذ يدق بمنقاره مثيرا للأرض، حتى حفر حفرة فيها، ثم دفن ما شاء أن يدفنه، وأنه دأب فى ذلك وقتا طويلا بدليل التعبير بقوله ﴿**يَبْحَثُ**﴾ بالمضارع بدل الماضى، لأن فى التعبير بالمضارع إشارة إلى حال استمرت لا إلى واقعة وقعت فقط، فالتعبير بالمضارع عن أمر مضى لبيان أن الفعل مكث وقتا وكان مجال استمرار.

وفى كل هذه الأمور التى كانت بعد قتل أخيه ما يثير العبرة، وإذا كان الغراب قد أراه كيف يوارى سوءة أخيه، فإن ضميره قد استيقظ، وأصبح لا يستطيع كيف يوارى سوءة فعله التى فتحت باب القتل والقتال إلى يوم القيامة؛ ولذلك صرح القرآن بأنه اعتراه الندم، ولكن فى غير مندم؛ لأن الجريمة قد وقعت، ولا منجاة منها؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿**قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي**﴾.

أخذ القاتل تعتريه الحسرة بعد الفعلة التى فعلها، واكتسب بها ذلك الجرم الشديد البليغ الأثر فى هذا الوجود، وقد كانت حسرته للفعل الذى ارتكبه، للعجز الذى لحقه، ولصغر نفسه أمام الطائر، وهو الذى أبى واستكبر؛ لأن الله قبل قربان أخيه، ولم يقبل قربانه، وطغى على أخيه وتجبر.

والويلة والويل البلية والفضيحة، والألف فى قوله تعالى: ﴿**يَا وَيْلَتَىٰ**﴾، هى مقلوب ياء المتكلم، مثل الألف فى قوله تعالى: ﴿... **يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ** ... ﴿٨٤﴾﴾ [**يوسف**]. والمعنى يا «يا وليتى» أى يا فضيحتى وبليتى أقبلى فهذا وقتك، لأنى قد نزلت بى أسبابك، وهذا النداء يستعمل للتحسر وإظهار الألم النفسى، وإن هذه البلية والفضيحة اللتين نزلتا به، ويتحسر منهما، ويناديهما، وهما بين جنبيه انبعثا من قلبه، ومن فعلته التى فعلها، ومن جهله وغبائه، وعدم التفاته إلى ما يجب عليه بالنسبة لجثمان أخيه الذى كان سببا فى جعله جثة هامدة، بعد أن كان لسانا نقيا وقلبا تقيا، وأخا مباركا. وقد صوَّر جهله بهذا الاستفهام التقريرى الذى يصور جهله، وغفلته وحسرته، وقد حكاه الله تعالى عنه بقوله: ﴿**أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي**﴾.

والمعنى: أنه يقرر عجزه عن أن يكون مثل هذا الغراب، ولكنه قال ذلك بصيغة الاستفهام للتقرير والتثبيت وللحسرة على ما وقع منه، وللأسى والألم، ولذلك عبر باللفظ ﴿**أَخِي**﴾ الذى كان يوجب المودة والمحبة بدل الحسد، وما أدى إليه من قتله، وشطر لحمه، وهو جزء أبيه، فقال سوءة أخى، وحسرته ليست

للعجز، عن مواراتها التراب وغفلته، ولكن لذلك ولأصل الجريمة بالذات، ولذلك كان التعبير بأخى، وإن هذه أولى درجات الندم، إذ إن أولى الدرجات فيه أن يحس بعظم الجريمة التى ارتكبها، وأثر الإثم الذى فعله، فقد فعل ما فعل بعد ترديد الفكرة مرتين، ولكنه ما إن فعل حتى رأى أثر الجريمة مجسما، وبذلك كانت الحسرة، ثم كان الندم؛ ولذلك قال سبحانه بعد ذلك:

﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ بعد أن رأى جثة أخيه بين يديه، وغفل عن أن يواريها، وأحس البلية التى وقع فيها من رؤية جثمان أخيه الطيب ملقى، وهو عرضة لسباع البهائم وسباع الطير تنهشه ـ أدرك مقدار الشر الذى ارتكبه، ومن المقررات العلمية أن أول إحساس بهول الجريمة أن يرى المجرم الفريسة التى افترسها، سواء أكان ذا قربى أم لم يكن ذا قربى، فما بالك إذا كان المقتول لم يرتكب إثما، بل فعل برا، ولم يكن منه شر وأذى، بل كان منه عظة وإرشاد.

وإن ذوى الخبرة من رجال التحقيق يستخدمون رؤية المقتول سبيلا لاعتراف القاتل، فإنه بمجرد رؤيته تضطرب أعصابه، ويتخلى عنه ثباته وإصراره على الإنكار، وإن لم يصرح بالاعتراف، فإن قرائن الارتكاب تتكون من اضطراب ظاهر، ومن سرعة نبض، ومن اصفرار وجه، وذلك سبيل لأخذ الاعتراف الصريح، لأن صوت الفطرة المستنكر يستيقظ ويتحرك، ويظهر فى حركات الجوارح، وخلجات اللسان، واضطراب الأعصاب، وسرعة النبض، ولذلك كانت الندامة التى اعترت أول حاسد وأول قاتل، وقد صار من النادمين، أى أنه دخل فى زمرة النادمين، بعد أن كان فى زمرة المترددين الحاقدين الحاسدين الباغين.

وإن هذا الندم لا يعد غافرا للذنب، وإن كان أول طريق للتوبة هو الندم على الفعل الذى وقع، كما قال النبى ﷺ: «التوبة ندم»(١) كما روى الإمام أحمد والإمام البخارى رضى الله عنهما، وإنما كان ذلك الندم ليس من التوبة لأنه

---

(١) «الندم توبة»، رواه أحمد: مسند المكثرين - مسند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (٣٥٨٨)، وابن ماجه: الزهد- ذكر التوبة (٤٢٥٢).

استجابة لصوت الفطرة، والتوبة المقبولة تكون ابتغاء مرضاة الله تعالى، وتكون فى غير الاعتداء على العباد.

وبعد، فإن سبب هذه الجريمة الكبرى التى فتحت باب القتل والقتال هو الحسد، والحقد، وهما يأكلان القلوب، ويشعلانها بالشر، كما تشعل النار الحطب، وإن ذلك الحسد كان فى العبادة وقبولها، وذكر الله تعالى هذا النوع من الحسد ليبين أن الحسد كيفما كان الباعث عليه شر يؤدى إلى أقبح الشرور والآثام، وإذا كانت أول جريمة فى البشرية سببها الحسد، فإن ذلك تنبيه إلى أن الباعث على أكثر جرائم هذا الوجود الإنسانى هو الحسد المقيت، فالكفر بالنبيين، وخصوصا نبينا محمدا ﷺ كان سببه الحسد، وأكثر الجرائم بين الآحاد سببها الحسد، والحسد دائما يكون على فضل فى المحسود، وعجز فى الحاسد، وقى الله العاملين شر الحاسدين.

مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾

يتنازع النفس الإنسانية نزوعان: نزوع الخير ونزوع الشر؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس]. وقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد] أى: أودع الله تعالى نفسه العلم بالخير والاتجاه إليه، وأودعها الشر والاتجاه إليه، فمن غلبت عليه نزعة الشر كان من الأشرار، ومن غلبت عليه نزعة الخير كان من الأخيار الأبرار، وكل ميسر لما خلق له، وما

يتجه إليه، وقد أودعه الله سبحانه وتعالى مع ذلك عقلا به يميز الخير من الشر، والطيب من الخبيث، ويعتبر بماضيه وحاضره، وحاضر غيره وقابله. ولا بد من زواجر اجتماعية تنبه الضال، حتى لا يستمر فى ضلاله، وتوضح له بالعيان عقبى الشر، وثمرة الخير.

وهذان أخوان أحدهما غلب عليه الخير، حتى أنه لم يبسط يده ليقتل أخاه،مع أنه رأى بوادر الشر، والثانى غلبه الشر، حتى أنه ليستعديه الحسد على أخيه، فيقتله، ولقد ذكر الله تعالى فى سابق الآيات ما كان من ابنى آدم، ويذكر هنا ما سنه من نظم ليرى فيها النازعون إلى الشر ما يردعهم، فقال تعالى:

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أى من جرَّاء هذه الجناية التى ارتكبها أحد ابنى آدم، ودلالتها على تغلغل الشر فى نفوس بعض الناس، واستعدادهم لأن تكون منهم الجريمة فى كل وقت وحين، كان لابد من رادع زاجر مانع، وهو العقاب ـ فـ «أجل» هنا معناها جناية، وقد فسرها كذلك اللغويون فى معاجمهم، فذكر ذلك ابن منظور فى لسان العرب، وذكره الأصفهانى فى مفرداته، فقال: والأجل الجناية التى يخاف منها آجلا، فكل أجل جناية، وليس كل جناية أجلا، يقال فعلت كذا من أجله، قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، أى من جراء ذلك، وقد فسر الأجل بالجناية أكثر المفسرين، وقد حقق الطبرى الأصل اللغوى واستشهد بقول الشاعر:

وأهل ضبـاء صـالح بينهم قد احتربوا فى عاجل أنا آجله(١)

يعنى بقوله: أنا آجله أى أنا الجارُّ عليهم ذلك والجانى.

وقد أشار الأصفهانى إلى معنى جدير بالنظر وترديده، وهو أن الأَجْل هو الجناية التى يخاف منها آجلا، أى تكون لها عواقب وخيمة على الأشخاص، أو على الجماعات، أى الجناية التى لا تنتهى مغبتها بوقت وقوعها، بل يكون لها آثار

---

(١) قد استعمل الشاعر التورية فعبر بـ (آجله) في مقابل (عاجل)، وأراد المعنى البعيد.

مؤجلة بعدها، إن لم تعالج تلك الآثار. وكذلك كانت جريمة أحد ابنى آدم، فإنها جناية قد فتحت باب القتل والقتال إلى يوم القيامة، وهى جناية دلت على مكنون النفس البشرية الذى استتر فيها من غلبة الحق والحسد على بعض النفوس، حتى طغت على كل عناصر الخير فيها، فهى جناية آجلها وخيم كحاضرها، ولذلك قال النبى ﷺ: «لا تُقتل نفس ظلما، إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه كان أول من سن القتل»(١).

و(من) هنا للسببية، أى سبب هذه الجناية كان ما شرعه الله تعالى من شريعة القصاص الخالدة الباقية لدفع الشر إلى يوم القيامة، وعبر عن السببية بـ «مِن»، لبيان الابتداء فى الحكم، فمع كون من أجل ذلك دالة على السببية وتشير إلى ابتداء الحكم، وأنه مقترن بما وقع من جريمة كان لها آجل هو شر إن لم تقمع النفوس وتردع الأهواء المتغلبة الطاغية.

وهنا معانٍ بيانية تجب الإشارة إليها:

أولها ـ فى الكلمة السامية «كتبنا»، فانها تدل على تقرير العقاب، وتسجيله حتى لا يقبل المحو، فإن الواجب الذى يكتب يكون مسجلا على القراطيس، ويبقى أثر الكتابة باقيا غير قابل للنسيان، وفيها إضافة الفرضية والكتابة إلى الله تعالت قدرته، وجل جلاله، وتقدست ذاته، وفى ذلك إشارة إلى عظمة المكتوب المفروض، وهو شريعة القصاص فهى شريعة عظيمة تمد المجتمع بحياة هادئة مطمئنة، إذ تحميه من أوضاره أن تتغلغل فى كيانه ومن شراره من أن يتحكموا فى خياره.

---

(١) عَنْ عَبْدِ اللَّه (أي ابن مسعود) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إلا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا؛ لأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ». متفق عليه؛ رواه البخاري: أحاديث الأنبياء - خلق آدم صلوات الله عليه وذريته (٣٣٣٦)، ومسلم: القسامة والمحاربين والديات والقتل- بيان إثم من سن القتل (١٦٧٧).

ثانيها ـ أن الله تعالى خص بنى إسرائيل بالذكر مع أن القصاص شريعة عامة لم يخل منها دين من الأديان السماوية بل لم تخل منه شريعة وضعية على انحراف فى تطبيقه، أو إهمال فى العدالة فيه، والنفوس التى انحرفت عنه فى الأيام الأخيرة قد غلب عليها هواها، فغلبت عليها شقوتها، وعرَّضت الجماعات فيها لأعظم المخاطر من عدوان الأشرار. فلماذا خص الله تعالى بنى إسرائيل بالذكر مع أنه مفروض قبلهم، ومفروض بعدهم، والجواب عن ذلك نتلمسه، ولا نجد نصا يدل عليه، ونقول فى ذلك والله أعلم بمراده: إن التوراة فيما بقى منها هى الكتاب الذى اقترن هو والإنجيل بالقرآن زمنيا، فالقرآن جاء مهيمنا عليها، ومصدقا للصادق منهما، فذكر بنى إسرائيل دليل على أنه مفروض علينا بحكم الاقتران الزمنى، وبحكم أن هذا المبدأ الخالد قرره القرآن، وجدده فى مثل قوله تعالى: ﴿ **وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ** ... (٤٥) ﴾ [المائدة]

وفوق ذلك ما يزال هذا المبدأ باقيا فى التوراة ولم يندثر فيها، مع أنهم حرفوا ما حرفوا، والأنبياء الذين سبقوا يعقوب، وليست كتبهم قائمة فى أيدى الناس فى عصر التنزيل، كما بقيت التوراة مع تحريفهم فيها الكلم عن مواضعه ـ وكانت شريعة القصاص باقية بعد هذا التحريف.

ثم إن بنى إسرائيل قد كتبت عليهم شريعة القصاص كما كتبت على غيرهم من قبلهم ومن بعدهم، ومع ذلك هم أشد الناس إسرافا فى قتل الأبرياء والأطهار، وما أشبههم فى قتلهم أنبياءهم ودعاة الحق بقابيل الذى قتل أخاه هابيل، فهو قتله لما ظهر فيه من خير، وهم قد قتلوا أنبياءهم، لأنهم دعوهم إلى الخير.

ثالثا ـ أن الله تعالى عندما بين شريعة القصاص، قد ذكر الباعث عليها، وحكمتها، وما يؤدى إليه تنفيذها، واكتفى ببيان ذلك مكتفيا بما فصلته شرائع النبيين فيها، وما أتت به من بينات؛ ولذلك قال تعالى:

﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ هذا هو ما كتبه الله تعالى، وهو أن من قتل نفسا بغير حق شرعى مبيح لها، فكأنما قتل الناس جميعا، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا، وقد بين القرآن الكريم متى يكون القتل بغير حق مشيرا بإيجازه المعجز إلى القتل بحق، فبين أن القتل بغير حق، هو ألا يكون فى نظير نفس، فالقتل قصاصا لا يكون إلا بالحق ولكن بعد أن يقرر القضاء أنه يجب القصاص، أو يمكَّن ولى الدم من القصاص، وكذلك القتل لمنع الفساد فى الأرض، كقتل الذين يعتدون على الجماعات المؤمنة، ويرهقونهم فى تدينهم، أو من يرتدُّون ليفسدوا عقائد المؤمنين، أو الزنادقة الذين يفسدون العقائد، أو أهل الدعارة والفساد من أهل الحرابة الذين يخرجون على الجماعات ويحاربون النظم التى قررها الشرع الشريف، وهكذا، فإذا كان القتل لغير هذين الأمرين، فهو قتل بغير حق، ومن فعل ذلك فكأنما قتل الناس جميعا.

ولقد تكلم العلماء فى معنى هذا التشبيه، وكيف يكون قتل الواحد بغير حق مشابها لقتل الناس أجمعين، قال بعض العلماء: إن المراد نفس الإمام العادل؛ وذلك لأن قتل الإمام العادل الاعتداء فيه ليس على شخصه وحده، ولكن على كل من يسعدون بحكمه ويظلهم عدله، فمن قتله فكأنه قتلهم، إذ يصير أمرهم بورا من بعده، وتضطرب أحوالهم، وذلك قتل للجماعة؛ لأن تفريق الجماعة وحل رباطها هو موت لها، ومع سلامة ذلك التفكير، فإن قصر القتل المفسد على قتل الإمام لا دليل عليه؛ ولذلك كان الأولى التعميم بدل التخصيص والإطلاق بدل التقييد، إذ لا دليل من مخصص أو مقيد، فالأولى هو تفسيرها بالعموم، ويبقى مع ذلك التشبيه سليما، لا شبهة فيه، ووجه الشبه الذى جعل قتل النفس الواحدة كقتل الناس جميعا يكون من نواح:

الأولى ـ أن من قتل نفسا فقد استباح حق الحياة المصون المحترم الذى حماه الإسلام، ومن استباحه فى نفس واحدة فقد استباحه فى نفوس الناس جميعا،

وقد أشار إلى هذا المعنى ابن كثير، فقال فى تفسيره للقرآن العظيم: من قتل نفسا واحدة بغير سبب من قصاص أو فساد فى الأرض واستحل قتلها بلا سبب ولا جناية، فكأنما قتل الناس جميعا. . . وعن أبى هريرة قال: (دخلت على عثمان يوم الدار، فقلت: جئت لأنصرك، وقد طاب الضرب يا أمير المؤمنين، فقال: يا أبا هريرة، أيسرك أن تقتل الناس جميعا، وإياى معهم؟ قلت: لا، قال: فإنك إن قتلت رجلا واحدا فكأنما قتلت الناس جميعا، فانصرف مأذونا لك مأجورا، غير مأزور، قال فانصرفت ولم أقاتل). وروى عن سعيد بن جبير أنه قال: من استحل دم امرئ فكأنما استحل دم الناس جميعا، ومن حرَّم دم امرئ، فكأنما حرم دماء الناس جميعا.

الثانية ـ أن وزر من قتل نفسا واحدة، كوزر من قتل ألفا.

الثالثة ـ أن عقاب قتل نفس كعقاب قتل الأنفس، وهو فى الدنيا بالقصاص العادل، وفى الآخرة بعذاب جهنم، كما قال تعالى:

﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا** ﴿٩٣﴾ ﴾ [النساء] وإذ ا كان قتل نفس واحدة كقتل الناس جميعا، فإحياؤها كإحياء الناس جميعا؛ ولذا قال سبحانه: ﴿**وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا**﴾. فى هذا النص السامى نتكلم عن أمرين: أولهما ـ معنى إحياء النفس، وثانيهما ـ معنى تشبيه من أحيا نفسا فكأنما أحيا الناس جميعا. أما الجزء الأول وهو معنى الإحياء، فقد ذكر العلماء له معانى كثيرة، منها أن إحياءها بمعنى تحريم قتلها على نفسه، والامتناع عن انتهاك حرماتها، ولكن ذلك أقرب إلى المعنى السلبى، اللهم إلا أنه يقال: إنه كب نفسه عن ذلك الفعل الأثيم عندما تساوره قوة الشر دافعة خاملة له، فإن الكف حينئذ ليس عملا سلبيا، بل هو عمل إيجابى، ومنها أن معناها: من أنقذ إنسانا كان مشرفا على الهلاك فى حرق أو غرق، أو مصاولة إنسان أو حيوان، فإن ذلك إحياء له، ولكن مع سلامة هذين المعنيين لا يمكن أن يكون تشبيه من يفعل ذلك سلبا أو إيجابا بإحياء الناس جميعا واضحا،

لأنه إحياء لفرد، اللهم إلا أن يقال إن مجرد حماية حق الحياة أو احترامه فى فرد هو احترام أو حماية له فى الناس أجمعين.

ولقد قال بعض المفسرين: إن المراد بإحياء النفس حماية نفس الإمام، ومعاونته على دفع شرور البغاة، والخارجين عليه، وإن ذلك سير على أن قتل النفس الذى يكون قتلا للجميع هو قتل الإمام، وقد بينا أنه غير الأولى.

والحق الذى نراه أن المراد بإحياء النفس، هو بالتمكين من القصاص؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ** ... ﴿١٧٩﴾ ﴾ [**البقرة**].

فإحياء النفس المقتولة بالقصاص لها ممن اعتدى وقتلها، وقد وجدنا الآلوسى ذكر ذلك الرأى فقال:

«وقيل المراد، ومن أعان على استيفاء القصاص فكأنما . . . إلخ[1].

وبهذا يتبين بوضوح الأمر الثانى، وهو أن من أحيا نفسا قد قتلت بالتمكين من القصاص لها فقد أحيا نفوس الناس جميعا، بأن يوجد الردع العام عن القتل والاعتداء، فتحيا النفوس، وينقمع الأشرار، وهذا ما أشار إليه ما تلونا من قوله تعالى: ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ** ... ﴿١٧٩﴾ ﴾ [**البقرة**].

﴿**وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ**﴾ يخبر الله سبحانه وتعالى أن الله تعالى أرسل الرسل لبنى إسرائيل يبينون لهم الحقائق التى يقوم عليها بناء المجتمع السليم الذى تحمى فيه الدماء والأعراض، والفضيلة الإنسانية، والتى تشتمل على ما كتبه الله تعالى من أجل اعتداء أحد ابنى آدم على أخيه من غير ظلم وقع منه ولا باعث على ما ارتكب إلا الحسد والحقد.

---

(١) قال الآلوسي (ج٦، ص١١٧): «﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أي تسبب لبقاء نفس واحدة موصوفة بعدم ما ذكر من القتل والفساد إما بنهي قاتلها عن قتلها. أو استنقاذها من سائر أسباب الهلكة بوجه من الوجوه ﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾، وقيل: المراد ومن أعان على استيفاء القصاص فكأنما إلخ». اهـ أي: فكأنما أحيا الناس جميعا.

وقد ذكر سبحانه وتعالى أنه أرسل الرسل بالبينات، وهى الشرائع البينة الواضحة التى تحمل فى نفسها دليل صلاحها، وتوضح غاياتها ومراميها، ومعها الدليل القاطع المثبت لصحة الرسالة من معجزات باهرة، وخوارق صارخة، وقد أكد سبحانه بعث هؤلاء الرسل وسلامة ما يدعون إليه بمؤكدات ثلاثة:

أولها ـ باللام وقد، إذ قال: ﴿**وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا**﴾. وقد مؤكدة للخبر، واللام مؤكدة لما بعدها.

ثانيها ـ بالتعبير بأن الرسل جاءتهم ، أى لاصقوهم وصاروا قريبين منهم يخاطبونهم ويحاجونهم ويبينون لهم، ولا يدعون أمرا فيه التباس إلا أزالوا لبسه، ومنعوا الاشتباه عليهم.

وثالثها ـ أنه سبحانه أضاف الإرسال إلى ذاته العليا، وفى ذلك بيان قدسية الرسالة، وفوق ذلك هى فى ذاتها فيها حقائق واضحات منيرة للحق فى ذاتها، فلها بذلك شرفان: شرف ذاتى من حقائقها، وشرف إضافى من مُنزلها.

ولكن الآيات والنذر إنما تغنى من يذعنون للحق ويؤمنون، والبينات مهما تكن نيِّرة لا يدرك نورها إلا ذو البصيرة المستنيرة، وليس بنو إسرائيل من هذا الصنف؛ ولذا قال سبحانه:

﴿**ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ**﴾ كان العطف بـ «ثم» للإشارة إلى بعد ما بين البينات الواضحات التى جاءت بها الرسل، ونتيجتها فى قلوبهم، فهى فى ذاتها أمر بين ولكن نتيجتها لم تكن كحقيقتها طيبة مثمرة فى قلوبهم، بل كانت كالبذر الطيب يلقى فى أرض سبخة لينبت قليلا، ويخرج حبطا[1] فى أكثرها، ولم يحكم سبحانه على اليهود جميعهم بأنهم كانوا جميعا مفسدين، بل حكم على كثير منهم ذلك الحكم، كما قال تعالى: ﴿ ... **مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ** ﴿٦٦﴾ ﴾ [المائدة].

---

(١) الأرض السَبِخة: أي ذات ملح ونزّ (البور). والحَبَط: أن تأكل الماشية فتكثر حتى تنتفخ بطونها ولا يخرج عنها ما فيها. الصحاح.

وقد وصف سبحانه وتعالى كثيرا منهم بأنهم مسرفون، أى مفسدون، لأنهم قتلوا المخلصين، وعصوا أوامر الله، وعاثوا فى الأرض فسادا، ونشروا الشر فى العالم، حتى إنك لا تجد فسادا إلا إذا كانوا مصدره، فهم الذين نشروا الربا والمجون والعبث والخمور، وكل ما هو شر فى الأرض، والإسراف: هو الفساد مأخوذ من السُرفة، وهى: الدودة التى تأكل الشجر، والإسراف حتى فيما أصله خير يقلبه إلى شر وفساد، وقد أكد الله تعالى إسراف اليهود فى الشر بـ «إنَّ» وباللام فى قوله: «لمسرفون»، وبالجملة الاسمية.. وقى الله المسلمين شرهم، وألبسهم لباس الذل والخوف إلى يوم القيامة، وهدانا جميعا للخير، إنه الهادى إلى قصد السبيل.

إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٤

يبين الله سبحانه وتعالى عقب اعتداء أحد ابنى آدم على أخيه، أنه سبحانه وتعالى بسبب ما استكن فى النفوس من نوازع الشر والخير، وأن بعض النفوس يغلب الشر عليها، فتغلب عليها الشقوة وأنها لا بد لها من زاجر يزجرها، ورادع يردعها، فتقرر القصاص الذى تكون فيه حياة الجماعة، والأمن من شرور أهل

الفساد الذين غلب عليهم الشر، وبين سبحـانه أن من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جمـيعا، وأن من أحياها فكأنما أحيا الناس جـميعا، وأن صور الفساد الذى يبيح الدم صونا للجمـاعة، وحفظا للحياة الهادئة المطمئنة ـ كثيرة، ولكن أبلغها فى الفساد، وأبعدها فى الشر مدى هو الانتقاض على الجماعة بارتكاب جرائم القتل والعدوان، من غيـر تأويل، والسرقة، والاتفاق الجنائى على ذلك؛ ولذلك ابتدأ بهذا سبحانه فقال تعالى:

﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ هذا النص الكريم يبين جريمة كبيرة هى جمـاع لعدة جـرائم، وهى جريمـة الذين يحاربون النـظام القائم ويخـرجون جماعات ذات قوة وشكيمة ويرتكبون جـرائم القتل والنهب والسرقة، لا فى خفية بل فى إعلان، معتصـمين بقوة مانعة لهم، وقد اتفقوا جمـيعا على ارتكاب القتل والسرقة وتهديد الآمنين.

وجريمـة هؤلاء أقوى من جريمة القـتل المجرد؛ لأن جريمة القـتل المجرد، ليست فى ذاتها تهـديدا للأمن، وإن كان إهمال عقوبتـها يؤدى إلى تهديد الأمن، أما هذه فإنها تهـديد مباشر للأمن، فالأولى اعتـداء ابتداء على الأفراد، أما هذه، فهى اعتداء ابتـداء على الجماعة، لأنها تترصد السابلـة فى الطريق، فتقطع عليهم السبيل.

وقبل أن نخـوض فى بيان هذه الجـرائم، وكلام الفقـهاء، وأهل الخـبرة فى معناها، ونذكر عـقوبتها فى ظل القرآن الكريم والسنة النبـوية الشريفة؛ نتكلم فى معانى الألفاظ، ونتكلم على ثلاث عبارات..

أولها ـ فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ﴾ فقد كان التعبير بـ «إنما»، وهى من أوائل أدوات القصر والتـخصيص، وذكر هذه الكلمات فى مقـام بيان العقاب الذى سارع ببيانه سبحانه هو لتأكيـد العقاب، ولبيان أنه عقاب لا هوادة فيه، وأنه لا يحل محل ذلك العقـاب غيره من دية أو مال، ولا يدخله عـفو، لأنه حد من حدود الله تعالى، بل هو أعظم الحدود، لأن جـريمته أشد الجرائم خطرا، إذ هى

مقوضة لبنيان الجماعة، وهادمة للأمن، وكان معنى التخصيص واضحا، إذ هى عقوبة ليس لها بديل من سواها، أى لا جزاء للجريمة ولا كفاء لها إلا ذلك العقاب.

العبارة الثانية ـ هى قوله تعالى: ﴿**يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾. ومعناها: يحاربون شرع الله ورسوله بالانتقاض على أحكامه، ومقاومة الحكام الذين يقومون على حفظ الأمن، ويقاومون الجرائم، ويكون المؤدى أن الله سبحانه وتعالى ليعتبر كل من يهدد أمن الجماعة، ويعتدى عليها بالقتل والسرقة والنهب، ويمنع السابلة محاربا لله تعالى ولرسوله، لأنه يشيع الجرائم، ويناصب أحكام الشرع ومن يقومون على تنفيذه وأنهم يقومون بكل الجرائم مجتمعين متفقين، فيكون لهم صولة تعطيهم وصف المحاربين، وكان التعبير بمحاربة الله ورسوله من نوع المجاز؛ لأن الذى يقوم بالسلب والنهب وقتل السابلة يؤدى عمله إلى نقض النظام والاطمئنان، فهو إن لم يقصد بفعله المحاربة هو يؤدى إليها، أو يقال إن ذات الفعل محاربة، فلا يكون مجازا، لقول النبى ﷺ: «من حارب مسلما على ماله فهو معاد لأولياء الله تعالى محارب لله».

والعبارة الثالثة- ﴿**وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا**﴾. السعى: هو الحركة السريعة المستمرة، وقوله تعالى: ﴿**فَسَادًا**﴾. هو من قبيل التمييز، أى أن سعيهم لأجل الفساد لا لأجل الخير، وفى ذلك الكلام إبهام بعده بيان، فيكون فيه تأكيد فى البيان، فذكر السعى مبهما ثم بين بأنه من نوع الفساد، لا من نوع الخير. وإن أولئك الذين يحاربون النظام، وعقوبتهم التى ذكرها الله سبحانه وتعالى بقوله تعالت كلماته: ﴿**أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا**﴾. إلى آخر الآية الكريمة ـ هم الذين يعبر عنهم فى الفقه بقطَّاع الطريق، ويسمى فعلهم قطع الطريق، ويسمى الحرابة، ويُعَنْوَنُ له بذلك فى الفقة الإسلامى، والعقوبة المذكورة فى النص الكريم خاصة بهم.

وقد التبس - على بعض من لا دراية له بأحكام العقوبات فى الفقه الإسلامى - هؤلاء بالبغاة، والتبس على بعض آخر أمر هؤلاء بأمر الخوارج، والواقع أن الذين ينقضون النظام أقسام ثلاثة متمايزة متغايرة، فالبغاة: هم الخارجون ذوو القوة والمنعة الذين يخرجون على الإمام العادل بتأويل، أى بوجه مسوغ لهم الخروج، كأولئك البغاة الذين خرجوا على الإمام على كرم الله وجهه، والذين وصفهم النبى ﷺ بقوله لعمار بن ياسر رضى الله عنه: «تقتلك الفئة الباغية»(١) وهذه تقاتل حتى تسلم، كما قال تعالى: ﴿ ... **فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ⁅٩⁆ ﴾ [**الحجرات**].

وهؤلاء البغاة لا يستبيحون من الأموال والدماء إلا معسكر السلطان، إذ هم لا يحاربون غيره، ويحسبون أنهم يحسنون صنعا.

والخوارج: هم الذين خرجوا على الإمام العادل بتأويل، ولكنهم لا يستبيحون معسكر السلطان فقط، بل يعتبرون مخالفيهم فى الرأى كافرين، بل يعتبرونهم مشركين، وهؤلاء يعاملون معاملة البغاة، يقاتلون حتى يفيئوا فإذا كانت الفيئة فالإصلاح والقسط، ورد القضب إلى أجفانها.

وقطاع الطريق، أو أهل الحرابة: وهؤلاء مجرمون يخرجون لارتكاب جرائم السلب والنهب والقتل، وسائر الموبقات، بلا تأويل يتأولونه، ولا تفسير يفسرون، بل يرتكبون ما يرتكبون إثما وعدوانا مقصودا، ولا يقصدون إلا العدوان، كالعصابات الإجرامية التى نراها معتصمة فى بعض الجبال أو الكهوف، وكالعصابات التى تزعج الآمنين بقوة إرهابية.

فهى إذن أقسام متمايزة متغايرة، وما لأحد من بعد أن يخلط، فيجعل حكم واحدة لأخرى، ولا وصف واحدة لأخرى.

---

(١) رواه مسلم: الفتن وأشراط الساعة - لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل (٢٩١٦) عن أم سلمة رضي الله عنها، وأحمد: مسند الأنصار - حديث أم سلمة زوج النبي (٢٦٠٢٣).

إن النص الكريم ينطبق كل الانطباق على الذين يخرجون بقوة، ويقطعون على السابلة الطريق وتكون لديهم القدرة على المنع، ولا يكون للمعتدى عليه من يحميه من خطرهم ما داموا قد تعرضوا فى طريقه، فهم حيئئذ يعدون قطاع طريق، ويعد عملهم حرابة، ولكن اختلف الفقهاء من بعد ذلك فى أمور أربعة من حيث انطباق النص القرآنى. . . هذه الأمور الأربعة، هى: الأول- المكان الذين يعدون باتخاذه مقاما لهم قطاع طريق، والثانى - فى طريقة إجرامهم، والثالث - فى عددهم وقوتهم، والرابع - فى الجرائم التى اتفقوا على ارتكابها، أو اعتزموا ارتكابها، أهى القتل والسلب فقط أم تشمل كل المعاصى كالزنى، وشرب الخمر، وتناول ما يشبهها وغير ذلك.

أولا- المكان الذى يتخذه قطاع الطريق، فإنه يجب أن يكون فى داخل الدولة الإسلامية لأنهم من رعاياها، ولأن قطع الطريق على جماعة المسلمين من غير المسلمين هو الحرب الحقيقية، وليس هو الحرابة التى تتلاقى معها فى الاشتقاق؛ وتختلف عنها فى حقيقتها، فإن الحرب قد اختصت بمدافعة الأعداء من خارجها، أما هذه فقد اختصت بمحاربة الفساد فى داخلها، والحرابة بهذا المعنى: الخروج على المارة لأخذ المال على سبيل المغالبة، ولو بالقتل على وجه يمنع المرور، ويقطع الطريق سواء أكان القطع بسلاح أم بغيره مثل العصا والحجر والخشب ونحوها، لأن قطع الطريق يكون بكل ذلك.

واختلف الفقهاء فى المكان الذى يتحقق به هذا أيمكن أن يكون فى داخل المدينة أو القرية أم لا يتصور إلا فى خارج الأمصار كالصحارى والجبال، والبرارى من المزارع الشاسعة، لقد قال أبو حنيفة: إن قطع الطريق لا يتصور فى داخل المصر، إذ يمكن الإغاثة عند الاستغاثة، ويد السلطان مبسوطة فى داخل الأمصار والقرى.

ومالك والظاهرية لا يشترطون لقطع الطريق مكانا معينا، فحيث تتحقق إخافة المارة فهى حرابة لا فرق بين أن يكون ذلك فى الفيافى والقفار، أو فى

القرى والأمصار، فحيث لا يأمن السابلة الطريق، ولا يجدون من يسعفهم بدفع الشر عنهم فإن الحرابة تتحقق.

وهناك رأى ثالث، وهو أن الأمصار والقرى تصلح مكانا لقطاع الطريق ليلا، ولا يصلح نهارا إلا الصحارى والحق الذى نراه متفقا مع مرمى النص الكريم وغايته أنه حيث تحقق الوصف، وهو محاربة الله ورسوله بمحاربة الآمنين وحيث كانت القوة، وحيث كان سلطان الشر، فإن الحرابة تتحقق، وأننا نراها عيانا بيانا فى مدن أمريكا وأوربا فالعصابات المخربة التى تحارب الأمن هنالك، وتغير على الآمنين تتخذ أوكارها فى وسط الأمصار، وإن خفيت عن الأنظار.

وننتقل بعد ذلك إلى الأمر الثانى: وهو عددهم ونوعهم، وإنا نقول: إن الذى عليه كثرة الفقهاء أن العبرة فى الأمر هو فى قوة الإخافة لا فى مقدار عدد المنفذين، ولا فى نوعهم أهم ذكور أم إناث، فلو أن واحدا استقر فى كهف، ومعه سلاح مدمر، وكل من يمر من الضعفاء، أو من لا حول لهم ولا سلاح استلب ماله أو نفسه فإنه يعد قاطع طريق، ولو أن جمعا فيهم ذكور وإناث تعاونوا على الإثم والعدوان وقطعوا الطريق على الآمنين وقاموا بالاستلاب غير مراعين حرمة مال، ولا عصمة دم، فإنهم قطاع طريق محاربون.

ثالثا- طريقة الإجرام أتكون بالمجاهرة والعصيان أم تكون ولو بالاختفاء، قال جمهور الفقهاء: إنه لا بد من المجاهرة بالعصيان، والظهور علنا، حتى يتحقق معنى الحرابة، وحتى يتحقق معنى التسليم، وقال مالك: إنه تصح المحاربة بالاختفاء، كالاتفاق على القتل غيلة، والاستيلاء على الأموال بالهجوم على مكامنها خفية كالعصابات التى نسمع عنها، ويراها شبابنا على شاشة الخيالة (السينما)، والإذاعة المرئية (التليفزيون)، وقد حرر القرطبى فى تفسيره رأى الإمام مالك، فقال: «والذى نختاره أن الحرابة عامة فى المصر والقفر، وإن كان بعضها أفحش من بعض، ولكن اسم الحرابة يتناولها، ومعناها موجود فيها، ولو خرج بعصا فى المصر يقتل بالسيف، ويؤخذ فيه بأشد ذلك، لا بأيسره، فإنه سلب

غيلة، وقتل الغيلة أقبح من قتـل المجاهرة، ولذلك دخل العفو فى فعل المجاهرة، ولم يدخل فى قتل الغيلة».

وإن الذى نميل إليـه هو مذهب مـالك بلا ريب، لأن معنى المحـاربة، وهو إزعاج الآمنين ثابت فى الاختفـاء، بل هو أمكن، كما هو ثابت فى المجاهرة، بل أشد وأحكم.

رابعا- بالنسبـة لجرائم المحـاربة أهى مقصـورة على الاعتـداء على الأموال والأنفس؟ قال جمهور الفقـهاء ذلك، وقال مالك رضى الله عنه، كل اتفاق على ارتكاب المعاصى يعد من قـبيل الحرابة، فالاتفاق على الزنى أو فـتح بيوت له يعد من الحرابة، ويستحق عقابها، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقبل أن نترك الكلام فى الجريمة لا بد من الإشارة إلى أمرين: أولهما ـ أنه لا بد فى اعتبار هذا الفعل جريمة أن يكون القائـمون به مكلفين تكليفا شرعيا بأن يكونوا بالغيـن عقلاء، لأن الفـعل لا يوصف بأنه جريمة أو مـعصيـة إلا إذا كان الفاعل مكلفا تكليـفا شرعيا، فإذا قام بالعـمل صغار لا يعدون قطاع طريق، وإذا كانوا مميزين، فإنهم يؤدبون، أو يعزرون على أن يكون تعزيرهم تأديبا، ولا يكون عقابا على ما هو مـقرر فى باب التعزير، وإذا كانوا مجـانين، فإنهم يحجزون فى المصاح أو نحوها، ولا يعزرون، لأن عقابهم يكون تعذيبا، إذ لا تبعة يتحملونها، ولا يصلحون للتأديب لفقد عقولهم.

ثانيهما ـ أيعدون محاربين، ولو لم يرتكبوا جريمة من جرائم قطع الطريق، فلم يسرقوا، ولم يقتلوا، ولـكن اتخذوا مكانا قصيا لكى يرتكبوا الجرائم مـتفقين على الفعل، وقصدوا الفعل، ولم يفـعلوا، إما لأنهم لما يبدأوا، وإما لأن الأحوال لم تواتهم.

وبذلك يكون مجرد الاتفاق والأهبة للتنفيذ يعد جريمة فى ذاته؟ الظاهر من أقوال الفقهاء ذلك، وسيتـبين، وبذلك يكون الاتفاق الجنائى فى الشريعة له مكانه من العقاب.

والآن نتصدى لبيان العقاب الذى ذكره الله سبحانه وتعالى، فقد قال سبحانه:

﴿أن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ﴾ هذه عقوبات أربع قد ذكرت كلها معطوفة بأو التى تفيد التخيير فى الجملة، ولنتكلم فى كل واحد منها بتفسير معناه اللغوى: التقتيل هو القتل، ولكنه ذكر بصيغة التضعيف، وهى تدل على الشدة فى القتل، وذلك بعدم التجاوز عن الذين ارتكبوا ما يوجبه، وتفيد التكرار، أى أنه يقتل من يرتكبونها مهما يكن عددهم، فمن استحق القتل قتل ولو كانوا مائة قد قتلوا واحدا، ولأن التضعيف يفيد الاستمرار فى التقتيل ما داموا قد استمروا فى الجريمة، فكلما كان منهم قتل قتلوا، ولإثبات أنه لا يقتل المقتول فقط، بل يقتل هو ومن يعاونه، ومن اتفق معه على جريمة من غير تفرقة بين مباشر، ومحرِّض وراض قد اتفق معهم على جريمة الخروج، و«التصليب» الصلب على مكان مرتفع يرى بعد القتل، وصيغة التضعيف تفيد التشديد فى العقوبة، وإثبات أنه لا هوادة فيها، ولا مناص منها، وتكرارها، واستمرارها، ويصلب الشخص ثلاثة أيام عبرة وردعا، وتقطيع الأيدى والأرجل من خلاف معناه أن لا تكون اليد والرجل المقطوعتان من جانب واحد، بل تكونان من جانبين مختلفين، فإذا قطعت اليد اليمنى تقطع الرجل اليسرى، فمعنى من خلاف، أى من جانب خلاف الجانب الآخر، ومعنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ﴾. قال بعض الفقهاء: المراد نفيهم من الأرض التى اتفقوا فيها على الإجرام إلى أرض أخرى، ليتفرقوا، ولا يجتمعوا على ذلك الشر الذى ارتكبوه أو هموا بارتكابه، وفسر الإمام أبو حنيفة النفى بالحبس؛ لأن فيه إبعادا وتفريقا، وهو أمنع لتجمعهم، وأوغل فى تفرقهم.

ذلك هو عقاب الدنيا، أما عقاب الآخرة، فهو العذاب العظيم؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أى أن ذلك العقاب الرادع الزاجر فيه كسر شوكتهم، وإذلالهم وقهرهم، وهو بذلك خزى لهم، إذ إنه كشف جريمتهم، وأذلهم وأخزاهم، وجعلهم عبرة لغيرهم، وأى خزى أشد من أن يُرَوْا مقطوعين من خلاف، أو يراهم الناس مصلوبين، أو يحبسوا، أو يبعدوا فى أقاصى الأرض فهو خزى نالهم، وفيه عبرة لغيرهم.

هذا هو عقاب الدنيا، أما عقاب الآخرة، فهو عذاب عظيم، شديد، عظيم فى شدته جزاء ما اقترفوا وإن ذلك العقاب ثابت لهم ما استمروا على غيهم، فإن تابوا فهى تجبُّ ما قبلها؛ ولذا قال سبحانه:

﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أى أن العقاب لمن استمروا فى جريمتهم، حتى غُلِبوا، واستمكن الحاكم من جمعهم، وصاروا فى قبضة يده، ولكن من تاب قبل ذلك فإن العفو يشملهم والرحمة تعمهم من الله الغفور الرحيم.

انتهينا من الكلام فى عقوبات الذين نصبوا أنفسهم لمحاربة الأمن فى الدولة والخروج على النظام من غير تأويل يتأولونه، ولا غاية دينية يحققونها، بل خرجوا قاصدين الإجرام لأجل الإجرام، ومحاربة الآمنين وإزعاجهم، وبينا من الذين ينطبق عليهم وصف الحرابة، واختلاف الفقهاء فى ظل معانى الآية الكريمة، وفسرنا الآيتين تفسيرا لفظيا، ولكن لم نتكلم فى معنى التخيير فى قوله تعالى: ﴿أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ﴾، ولم نتكلم فى حقيقة التوبة ومعناها فى هذه الآية الكريمة، كما لم نتكلم عن آثارها، وعن نوع العقوبة أهى حد من حدود، أم هى قصاص، وما أثر ذلك بالنسبة للتوبة وفى الحكم، ولا يتم جلاء ما اشتملت عليه الآيتان الكريمتان من أحكام إلا بالتعرض لهذه الأمور فى إيجاز من غير إطناب.

ونبتدئ بالتخيير الذى دلت عليه «أو» فى النص الكريم، أيقصد به التنويع بتنويع العقوبة على حسب الجرائم، فإذا قَتلوا قُتلوا، وإذا سرقوا قطعت أيديهم

وأرجلهم من خلاف، وإذا سرقوا وقتلوا قتلوا وصلبوا، وإذا تجمعوا واتفقوا على ارتكاب الجرائم من غير أن يرتكبوا بالفعل كان النفى من الأرض، أم تقصد حقيقة التخيير بأن يكون الإمام مخيرا غير مقيد بنوع فى حال، وبنوع آخر فى حال أخرى يرتكبون فيها جريمة معينة، بل ترك الأمر لتقديره، وهو ينظر إلى مقدار الترويع بما يتناسب مع قوة الجناة من غير نظر إلى نوع ما ارتكبوا من جرائم، ولا إلى مقداره إنما ينظر إلى مقدار الزجر والردع.

ولقد قال بالقول الأول، وهو أن «أو» لتنويع العقوبات بتنوع الجرائم بعض الصحابة والتابعين وجمهور الفقهاء، وقال بالقول الثانى بعض التابعين، ومالك والظاهرية.

لقد روى عن ابن عباس أنه قال: (إذا قتلوا وأخذوا المال قُتلوا وصُلبوا، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا نفوا من الأرض، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا نفوا من الأرض) وبهذا القول أخذ الشافعى وأحمد وأبو حنيفة، وبذلك تكون العقوبات أربعة أقسام، مقسمة على أقسام الارتكاب، والحجة لهذا الرأى الآثار المروية عن الصحابة، والفقه فى الموضوع أن هذه العقوبات لجرائم مختلفة المراتب، فيجب أن تكون تابعة لقوة الجريمة، وليس من المعقول أن جريمة الاتفاق والإرهاب تتساوى مع الإرهاب والقتل بالفعل، أو الإرهاب والقتل والسلب، أو الإرهاب والسلب بالفعل، فالعدالة توجب ذلك التنويع وعلى ذلك يكون التخيير المأخوذ من كلمة «أو» هو لتنويع العقاب وليس لمطلق التخيير، وإلا كان مؤدى التخيير أنه يجوز للإمام أن يكتفى بنفى الجناة إذا قتلوا أو سرقوا، وأن ذلك باطل بالإجماع؛ لأن السرقة توجب القطع، فكيف بالسرقة الكبرى التى يكون فيها ذلك التجمع الآثم، وإذا كان التخيير لا يمكن أن يفسر بالتخيير المطلق لهذا المعنى، فإنه يجب أن يفسر بالتنويع، لأن تفسيره بغيره يؤدى إلى ذلك الوجه الباطل، وما يؤدى إلى الباطل باطل، وإن التخيير المطلق فى العقوبات إذا كان السبب الموجب للعقاب واحدا،

ككفارة اليمين، فإن السبب هو الحنث وهو واحد، وكان التخيير فى الكفارة بين العتق، وإطعام عشرة مساكين أو كسوتهم، أما إذا اختلف السبب، فإنه لا بد أن يكون التخيير للتنويع، والعقوبات هنا قد اختلفت أسبابها، فإن منها القتل، ومنها السرقة، ومنها الجمع بينها، ومنها مجرد الإرهاب والإزعاج، ولا يمكن أن تكون العقوبة واحدة لكل من هذه الجرائم، فلا بد من أن تختلف باختلاف أسبابها، وتكون لذلك «أو» لترتيب العقوبات تبعا للجرائم، ويذكر الكاسانى أنه روى خبر عن النبى ﷺ فى هذا، فقد قالوا: أنه لما قطع أبو بريدة الأسلمى بأصحابه الطريق على أناس جاءوا يريدون الإسلام، فقد قال ﷺ: «إن من قَتل قُتل، ومن أخذ المال ولم يقتل قطعت يده ورجله من خلاف، ومن قتل وأخذ المال صلب، ومن جاء مسلما هدم الإسلام ما كان قبله من الشرك»(١). ويكون هذا النص النبوى معينا أن «أو» ليست لمجرد التخيير ولكن للتنويع، وقد وردت الصيغة التى تدل بظاهرها على التخيير، فقد قال تعالى: ﴿... **قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا** (٨٦)﴾ [الكهف].

ولا شك أن اللفظ، وإن كان ظاهره تخيير ذى القرنين بين أى الأمرين يختار، ولكن لا يمكن أن يكون له الحق فى أى الأمرين من غير مرجح لأحدهما فى الاعتبار، ومنطق العدل الذى أوجبه الله على ذى القرنين والحكام العادلين أن يعذب من أبى وفسق عن أمر ربه ليرتدع غيره وينزجر، وأن يتخذ الأمر الحسن والرفق مع من استقام أو ترجى استقامته.

وعلى ذلك لا تكون «أو» ممحضة للتخيير، ولكنها تحتمل التخيير والتنويع، وقد ورد النص النبوى والآثار الصحاح عن الصحابة الذين تلقوا علم النبوة عن

---

(١) روى ابن جرير الطبري (ج٦، ص١٣٢) عن ابن عباس، قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ﴾ قال: إذا حارب فقَتل، فعليه القتل إذا ظُهِر عليه قبل توبته. وإذا حارب وأخذ المال وقَتل، فعليه الصلب إن ظُهِر عليه قبل توبته. وإذا حارب وأخذ ولم يقتُل، فعليه قطع اليد والرجل من خلاف إن ظُهِر عليه قبل توبته. وإذا حارب وأخاف السبيل، فإنما عليه النفي.

الرسول ﷺ بما يفيد أنها للتنويع فى العقوبات تبعا لقوة ما ارتكبوا، لا لمجرد التخيير للإمام(١).

وهذا هو الرأى الأول الذى يقوم على أن التخيير هنا ليس مطلقا، ولكنه منوع تبعا لقوة الجريمة، أما الرأى الثانى فهو يقرر أن «أو» للتخيير المطلق، وأن الإمام له الحق فى اختيار أى عقوبة من هذه العقوبات، فإما أن يقتلهم لمجرد إزعاجهم للآمنين، ليجتث من أول الأمر شأفتهم، كما أن له أن يقتل السارقين، وأن يصلبهم ولو لم يقتلوا، والتخيير هنا فيه إجازة مطلقة لولى الأمر ليعالج الجريمة، بما يراه أقرب إلى المصلحة وإقامة الأمن على أسس سليمة.

ووجهة ذلك الرأى أن «أو» الأصل فيها أنها للتخيير، ولا يعدل عن الأصل إلا لما يوجب العدول، ولم يوجد ما يوجب العدول، وما ورد منسوبا للنبى ﷺ، ومن أقوال الصحابة فهو علاج لأحوال وقعت، والتخيير لا يمنع ولى الأمر من أن يختار التنويع، فإن اختاره فهو من حقه، ويدخل فى باب الإذن المطلق بالتخيير، فإذا اختار أن يقتل من قتل ويصلب من قتل وصلب، ويقطع فقط من سرق فهو من حقه، وليس عمل النبى ﷺ إلا من هذا القبيل إن صح ما نسب إليه(٢)، وهذا التنويع ليس ملزما بأصل النص، ولكن قد تلزم به المصلحة، إن رأى أن ذلك هو طريق الردع.

---

(١) انظر السابق.

(٢) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَدِمَ أُنَاسٌ مِنْ عُكْلٍ أَوْ عُرَيْنَةَ فَاجْتَوَوْا (أي أصابهم داء البطن) الْمَدِينَةَ، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِلِقَاحٍ وَأَنْ يَشْرَبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا، فَانْطَلَقُوا، فَلَمَّا صَحُّوا قَتَلُوا رَاعِيَ النَّبِيِّ ﷺ، وَاسْتَاقُوا النَّعَمَ، فَجَاءَ الْخَبَرُ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ فَبَعَثَ فِي آثَارِهِمْ، فَلَمَّا ارْتَفَعَ النَّهَارُ جِيءَ بِهِمْ، فَأَمَرَ فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ وَسُمِرَتْ أَعْيُنُهُمْ وَأُلْقُوا فِي الْحَرَّةِ يَسْتَسْقُونَ فَلَا يُسْقَوْنَ. قَالَ أَبُو قِلَابَةَ (الراوي عن أنس): فَهَؤُلَاءِ سَرَقُوا وَقَتَلُوا وَكَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَحَارَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. [رواه البخاري في ثلاثة عشر موضعا أولها: الوضوء - أبوال الإبل (٢٣٣)، ومسلم: القسامة والمحاربين والقصاص (١٦٧١)] كما رواه أصحاب السنن وغيرهم وله طرق.

وإنه على هذا الرأى جمع من التابعين منهم عطاء وسعيد بن المسيب ومجاهد، والحسن البصرى والنخعى، وأبو الزناد، وهو مذهب الإمام مالك والظاهرية كما قلنا.

وإن الفقه فى التفرقة بين الرأيين أن الرأى الأول يحد جرائم معينة ويعتبرها موضوع قطع بفعلها أو بالشروع فيها، وهى القتل والسرقة، وأن الجرائم لا تخلو عن ذلك؛ ولذلك كانت العقوبات مترددة بين القطع والقتل، وأنه قد يكون ثمة تغليظ إذا ارتكبت الجريمتان معا، وإن كان الشروع بالتجمع واتخاذ الأسباب، فإن العقوبة تكون بمنع الجريمة من الوقوع باتخاذ أسباب الوقاية بالنفى من الأرض بالتغريب أو زجه فى غيابات السجون؛ ولذلك كان التنويع، وكان تخريج «أو» على ذلك الأساس، ليكون التكافؤ بين الجريمة والعقوبة، وإن لم تكن جريمة كانت الوقاية.

أما الرأى الثانى - فهو يتجه إلى أن عقوبة الحرابة لذات الحرابة والسعى فى الأرض بالفساد، ومنع الناس من السير والاستمتاع بأموالهم، وحرياتهم الشخصية، وظاهر هذا الرأى أنه لا ينظر إلا إلى ذات الحرابة التى هى التخويف والإرهاب، ولا ينظر إلى الجرائم التى ارتكبوها فعلا؛ ولذلك يعمم الجرائم ولا يقصرها على القتل والسرقة كالرأى الأول، ويرى أن العقوبات فى جملتها هى لعلاج ذلك الشر، وحسم مادته، والقضاء على التفكير لمن يهم بمحاكاة من وقعوا فيه؛ ولذلك يجب إطلاق يد ولى الأمر، واعتبار تلك العقوبات فى يده كالدواء بين يدى الطبيب يختار من أصنافه ما يراه أنجع فى علاج الآفة التى أصابت الجسم الاجتماعى.

وإنا نرى الرأى الأول بالنسبة لتنويع العقاب، ونرى الرأى الثانى بالنسبة لتعميم الجرائم التى تفسد المجتمع الإسلامى، فإذا كانت عصابة تعمل لجمع الرجال على النساء، وتخطف النساء لذلك الغرض، أو كانت عصابة لتجميع المواد المخدرة المحرم دينا وقانونا تناولها فإنهم يكونون كقطاع الطريق، ويدخلون فى باب الحرابة.

ونتكلم من بعد ذلك عن عقوبة الحرابة، أهى من قبيل الحدود أم من قبيل القصاص؟ لقد نص الفقهاء بالإجماع على أنها من قبيل الحدود، فهى حد من حدود الله تعالى، وليست قصاصا؛ ولذلك لا يصح العفو عنهم، وأنهم لا بد مأخوذون من تلك العقوبات التى قررها القرآن الكريم، فإن إقامة الحدود من العبادات بالنسبة لولى الأمر، ولا يصح أن يتخلى عن العبادة بأى صورة من الصور، ولأنهم قد وصفهم الله تعالى بأنهم يحاربون الله ورسوله، ووصفهم سبحانه بأنهم يسعون فى الأرض فسادا، وهم بذلك يعتدون أبلغ اعتداء على الجماعة المؤمنة، وكل ما يكون اعتداء على الجماعة يكون اعتداء على حق الله تعالى، والحدود عقوبات لأجل حق اللـه تعالى؛ ولأن هذه العقوبات حد تجب إقامته على ولى الأمر كان قابلا للتوبة؛ ولذلك قرر الله تعالى فيه قبول التوبة، فقال تعالت كلماته: **﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾**.

وقد تكلمنا فى معنى هذه الآية الكريمة، وبقى أن نتكلم فى أمرين: أحدهما ـ كيف تكون التوبة قبل القدرة عليهم، وثانيهما ـ عن آثار هذه التوبة.

أما عن الأمر الأول، وهو حقيقة التوبة فى هذا المقام. . فنقول إن التوبة العامة تقتضى ثلاثة أمور: اثنان منها نفسيان، والآخر مادى، والنفسيان أن يعترف بالذنب ويندم عليه، وأن يعتزم ألا يعود إليه من بعد توبته. وأما الأمر المادى، فهو الإقلاع عنه بالفعل.

وبتطبيق هذا على توبة قطاع الطريق لا يتعرض الفقهاء للناحية النفسية بل إن ذلك أمره إلى اللـه تعالى، ولكن يتجهون إلى الأمر المادى الذى يدل ظاهره على المعنى الباطنى، وإن هذا الأمر المادى يتحقق بأمرين، أو بأحدهما أولهما ـ بأن يُؤمِّن الناس قطاع الطريق، ويتركوا المكان الذى يباشرون فيه جريمتهم، وثانيهما ـ أن يقدموا الطاعة لولى الأمر، وهنا يجىء نظر الفقهاء أيكتفون بالأمر الثانى وهو تقديم الطاعة أم لا بد من الأمرين معا؟ اختلف الفقهاء فى ذلك ففريق

قال: تحقق أحد الأمرين كاف، وهو تقديم الطاعة، أو ترك السلاح ومغادرة المكان إنما لا بد من إفادة دالة على إنهاء قطع الطريق. وفريق قال: لا بد من إلقاء السلاح وتأمين الناس وتقديم الطاعة.

ومهما يكن من أمر الاختلاف، فقد كان الاتفاق على أنه لا بد من إنهاء قطع الطريق بالفعل، وتأمين الناس، وإلقاء السلاح.

وأما الأمر الثانى المتضمن لآثار التوبة فقد قد فرض الفقهاء حالين للتوبة قبل القدرة عليهم:

إحداهما ـ أن تكون التوبة قبل أن يرتكبوا أى جريمة غير مجرد الحرابة، فلم يقتلوا، ولم يسرقوا، ولم يزنوا، بل أنابوا إلى الحق قبل أن تسلط عليهم سيوفه. وهؤلاء لا عقوبة عليهم، لأن الحرابة قد عدلوا عنها، وهم فى فسحة غير مضطرين إذا كانت قبل القدرة عليهم، ولم يتعلق بهم حق لآدمى، وحق الله تعالى موضع عفوه ورحمته؛ ولذلك قال: ﴿**فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾. فهذا النص الكريم يقرر أن الله تعالى قد عفا عنهم، ولأن الحرابة من غير تنفيذ الجرائم أو واحدة منها يعد شروعا، أو نية للسيئة قد هموا بها، وقد عدلوا مختارين عنها بغير قوة غالبة منعتهم.

والحال الثانية ـ أن يكونوا قد ارتكبوا جرائم لها حدود، ولها قصاص كأن يكونوا قد قتلوا، أو سرقوا، أو زنوا على مقتضى مذهب مالك الذى أدخل فى الحرابة الاتفاق على ارتكاب أى معصية من غير قصر على القتل والسرقة، فإذا كان شىء من هذه المآثم ثم تابوا قبل القدرة عليهم، فهل يسقط حق القصاص، وهل تسقط الحدود؟

قال جمهور الفقهاء: إن ما ارتكبوه من الجرائم التى تثبت حق القصاص لا يسقط؛ لأن القصاص من الحقوق التى يغلب فيها حق العبد، وحقوق العباد لا تسقط إلا أن يعفو صاحبها. وفى هذه الحال تنتقل العقوبة من حد إلى قصاص، ولا بد من أن تستوفى شروط القصاص؛ بأن يطالب ولى الدم، وله أن يعفو، وله

أن يقتص، وفى حال العفو تجب الدية أو ما يتفقان عليه من المال عملا بقوله تعالى: ﴿ ... فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ... (١٧٨) ﴾ [البقرة] وأثر التوبة قبل القدرة فى هذه الجريمة أنها كانت قبلها حدا لا يقبل السقوط، وبعدها صارت قصاصا يقبل العفو من صاحبه، وإذا ارتكبوا ما يكون فى أصله جريمة حد، كالسرقة، والزنى عند مالك، وتناول المخدرات والمسكرات واتخاذ أوكار فى الكهوف والصحارى لنشرها وسلب أموال الناس فى سبيلها، فإنه لاحد عند من يدخلها فى الحرابة.

وإن ذلك يحتاج إلى بعض البيان.

فنقول: إن الفقهاء اتفقوا على أن السرقة تدخل فى الحرابة فإذا سرقوا ثم تابوا، فإن الحد يسقط، ولكن يجب رد المال إلى صاحبه؛ لأن الحد يقبل السقوط بالتوبة، ولأن الله تعالى قد وعد بغفران ما ارتكبوا إذا تابوا فحق وعد الله وأما حق العبد فإنه لم يدخل فى الوعد ابتداء، ولأن الحرابة وهى الجريمة الكبرى قد غفرت، فيغفر ما فى أطوائها من حدود هى فى ذاتها دونها.

وأما الحدود الأخرى من حدود المسكرات والمخدرات والقذف والزنى إذا ارتكبوها فى أثناء حرابتهم، فهل تسقط؟ لقد قال الإمام مالك: الذى جعلها تدخل فى ضمن أعمال المحاربين، ويعاقبون من أجلها، ويعدون محاربين، ولو قصروا عملهم على ارتكابها، كالعصابات التى تتجر فى أعراض النساء، وتسمى فى لغة العصر. (الاتجار فى الرقيق الأبيض)، قال مالك فيها: إن التوبة تجبها، لأنها داخلة فى الحرابة وهى حقوق الله تعالى، وقد وعد سبحانه بغفرانها إذا ارتكبوها وتابوا قبل القدرة عليهم، وهى حقه، وهو سبحانه غفور رحيم.

وقال الشافعية: لا تسقط؛ لأنها غير داخلة فى الحرابة، والتوبة هنا تكون توبة خاصة بها، ولا تكون توبة الحرابة شاملة لها، فإن تابوا عنها توبة خاصة - والأصغر يدخل فى الأكبر - بها قبلت ما عدا القذف، وقال أبو حنيفة: لا تقبل عنها توبة ولو خاصة، وقال الحنابلة: تدخل التوبة عنها فى ضمن التوبة عن الحرابة، لأنها أصغر منها.

هذه أحكام قطاع الطريق الذين سماهم القرآن الكريم محاربين لله ولرسوله، وسمى الفقهاء عملهم حرابة، وقد تكون العقوبة شديدة فى مظهرها، ولكن لو وزنت بالجرائم، ونظر فيها إلى الأثر لكانت منطقية وضرورية، وسل الذين تنفطر قلوبهم شفقة على المجرمين، كم ترتكب العصابات فى أمريكا من جرائم قتل، وجرائم سرقات، وإفساد للضمائر، وإشاعة للرشوة وتهديد للأمن حتى تقف الحكومات مكتوفة أمامهم، سلهم ليوازنوا بين العقوبة العادلة، والجريمة الظالمة، سلهم إن كانوا يدركون وينطقون والله هو العزيز الحكيم، وشرعه هو العدل الرحيم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾

فى الآيات السابقات بيَّن سبحانه ما أوغر به الحسد أحد ابنى آدم، حتى قتل أخاه، إذ قربا قربانا، فقُبل من أحدهما فحسده أخوه، فقتله بعد أن كانت منازعة نفسية انتهت بأن طوعت نفسه له قتل أخيه فقتله، وبهذا صور القرآن أصل الجرائم البشرية والبواعث عليها، وهو الحسد الذى يربى الضغن فى النفوس وحب الاستعلاء بأى طريق الذى يسهل الظلم للقريب والبعيد من غير أى حريجة مانعة، ومن غير نفس لوامة وازعة، ولقد أشار من بعد ذلك إلى جرائم الآحاد، وجرائم

الجماعات، وبين أنه إذا لم يكن وازع النفوس كافيا، فلا بد من ردع بعقوبات زاجرة فيها إيلام للآثمين، ونكال يجعل غيرهم يفكر فيما يترقبه من عقاب إن حدثته نفسه بالآثام، فإنه لم يكن له من نفسه واعظ، كان له من العقاب أعظم رادع.

ثم بين سبحانه الطريق لمحاربة الآثام فى النفس قبل أن يظهر الشر ويطفح على الألسنة والجوارح، فقال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ النداء موجه للمؤمنين بوصف أنهم مؤمنون؛ لأن مقتضى الإيمان أن يربوا أنفسهم على الخير، وينزعوا منها نوازع الشر، وقد ذكر سبحانه وتعالى الطريق لتربية النفس وتغليب جانب الخير فيها على جانب الشر، وجانب الصلاح على جانب الفساد، وتلك الطريق المثلى مكونة من نقط ثلاث يتكون منها الخط المستقيم الموصل للغاية الفضلى، وهذه النقط الثلاث هى التقوى، وابتغاء الوسيلة، والجهاد فى سبيله، والغاية الحسنى هى الفلاح فى الدنيا والآخرة، ولنشر بكلمة موجزة إلى معانى التربية فى كل نقطة من هذه النقط.

﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى: اجعلوا بينكم وبين غضب الله تعالى وقاية، بحيث تكون نفوسكم فى حصن لا يدخل إليها الشر وهى فيه، وهذا الحصن هو التقوى التى تملأ القلب بذكر الله تعالى، فلا تحس النفس إلا به سبحانه مسيطرا على كل ما فى هذا الوجود، وتحس به رقيبا لا تخفى عليه خافية من خلجاتها، يعلم ما يخفى كل إنسان وما يعلن، وما يسر به وما يجهر، فيتجه إليه سبحانه وتعالى كأنه يرى ربه فى كل عمل يعمله، فإن لم يكن يراه سبحانه فإنه يراه، كما قال النبى ﷺ: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(١).

---

(١) سبق تخريجه.

ولا شك أن النفس إذا امتلأت بالتقوى ذلك الامتلاء، جانبها الهوى والحقد والحسد، وحب الاستعلاء الباطل، وصار صاحبها ممن ينطبق عليهم قول الله تعالى فى أوصاف أهل الإيمان: ﴿... **لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا** ... ﴿٨٣﴾﴾ [**القصص**].

﴿**وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ**﴾ هذه هى النقطة الثانية من الخط المستقيم الذى لا عوج فيه، فالنقطة الأولى ملء القلب بذكر الله تعالى وخشيته، وجعلها دائما فى إحساس برقابته، وإنه يترتب على إدراك هذا الجزء من الخط المستقيم الوصول إلى النقطة الثانية، وهى طلب ما يتوسل به إليه لنيل رضاه وإدراك حق طاعته، فالوسيلة: هى ما يتوسل بها إلى رضا الله تعالى، وهى طاعته راغبا فيها محبا لها قاصدا إليها، وزكى لذلك طلبها بقوله تعالى: ﴿**وَابْتَغُوا**﴾ أى اطلبوا رضاه وطاعته سبحانه طلب من يحبه ويبغيه لثواب، وتلك أعلى الدرجات، ومن دون ذلك له فضل كبير ما دام قد طلب رضا الله تعالى.

فالوسيلة على هذا هى الطاعة برغبة، ولقد قال فى ذلك الأصفهانى:

«الوسيلة التوصل إلى الشئ برغبة لتضمنها لمعنى الرغبة قال تعالى: ﴿**وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ**﴾. وحقيقة الوسيلة إلى الله تعالى مراعاة سبيله بالعلم والعبادة، وتحرى مكارم الشريعة، وهى كالقربة، والواسل: الراغب إلى الله، وعلى هذا التفسير اللغوى القرآنى يكون معنى الوسيلة: الطاعة والتقرب إلى الله تعالى وطلب مرضاته. وقد جاءت بهذا المعنى فى آية أخرى هى قوله تعالى: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ** ... ﴿٥٧﴾﴾ [**الإسراء**]. وعلى ذلك تكون النقطة الثانية من صراط الحق وخط الإيمان المستقيم هى الطاعة وطلب رضا الله تعالى وحده.

وهنا مسألة لفظية نشير إليها، وهى تقديم الجار والمجرور فى قوله جل جلاله: ﴿**وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ**﴾.

وإن التقديم هنا للقصر، والتخصيص، والمعنى اطلبوا برغبة وشدة إلى الله وحده الوسيلة إليه والتقرب، فلا تطيعوا سواه إلا فى ظل طاعته، ولا تتقربوا إلى غيره إلا فى ظل طلب رضاه، فإنه لا تقرب لسواه، ولا محبة إلا لأجله، كما قال النبى ﷺ: «حتى يحب الشيء لا يحبه إلا الله»(١) فالحب لله والبغض لله هما أقوى دعائم الإيمان، وأن المؤمن يتوسل إلى الله تعالى بالقربات التى شرعها، حتى يكون سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويمتلئ قلبه ونفسه بنوره، فيكون ربانيا.

وإنه قد جاء فى العبارات الإسلامية معنى للوسيلة على أنها درجة من أعلى الدرجات فى الجنة، بل أعلاها، وهذا المعنى متلاق مع أصل المعنى، وهو التقرب إلى الله والتوسل إليه وحده بالطاعات، ولقد كان من الدعاء الذى يردد فى الآذان ما رواه البخاري: فقد روى عن جابر بن عبدالله أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته حلت شفاعتى له يوم القيامة»(٢). وروى مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علىَّ، فإنه من صلى على صلاة صلى الله تعالى عليه عشرا، ثم سلوا الله لى الوسيلة، فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الوسيلة حلت له الشفاعة»(٣).

---

(١) سبق تخريج ما في معناه من حديث.

(٢) رواه البخاري: الأذان - الدعاء عند النداء (٦١٤)، وبلفظ: «إلا حلّت»: الأذان - الدعاء عند الأذان (٦٨٠) عن جابر رضى الله عنه.

(٢) رواه مسلم: الصلاة - استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه (٣٨٤)، والترمذي: المناقب - في فضل النبي ﷺ (٣٦١٤)، والنسائي: الأذان - الصلاة على النبي ﷺ (٦٧٨)، وأبو داود: الصلاة - إذا سمع ما يقول المؤذن (٥٢٣)، وأحمد: مسند المكثرين - مسند عبد الله بن عمرو (٦٥٣٢).

﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ هذه هى النقطة الثالثة من الخط المستقيم، وهو الصراط القويم، وهو الجهاد فى سبيل الله تعالى، وسبيل الله هو الطريق المستقيم الذى ينتهى إلى الغاية العليا من شرائع النبوة، وهو السبيل الذى يكون فيه صلاح الإنسان، ودفع الفساد فى هذه الأرض، وإقامة مجتمع فاضل بين العالمين، يسعى فى ظله التقى البر، ويستمتع فيه الفاجر من غير عدوان ولا فساد، والجهاد: معناه بذل أقصى الجهد فى تحقيق تلك الغاية الإنسانية العليا، وهى الإصلاح فى الأرض، ودفع الفساد عنها، وإقامة الحق، وخفض الباطل، وسيادة الفضيلة ودفع الرذيلة.

والجهاد ذو شعب، الأولى جهاد النفس، ومغالبة الأهواء والشهوات، ومقاومة نزعات الشيطان، ومراقبة النفس، وسماه النبى ﷺ الجهاد الأكبر، والشعبة الثانية من شعب الجهاد، العمل على تكوين رأى عام فاضل يحث على الخير، ويقاوم الشر، ويمنع الظلم، ويقيم العدل ويحمل الظالمين على الجادة المستقيمة، ويصح أن يسمى ذلك جهادا داخليا؛ لأنه حماية للأمة من الآفات الاجتماعية، ووقاية لها من الشر الذى يقع فيها، فهو جهاد لحماية المجتمع من آحاده كما أن الشعبة الأولى حماية للفرد من آفات نفسه.

والشعبة الثالثة من شعب الجهاد العمل على حماية المجتمع من الظلم الخارجى، ونشر لواء المحبة والمودة بين الشعوب، وجعل العدل يسود العلاقات الدولية، ومدافعة الظالمين، وذلك النوع من الجهاد ذو ثلاث شعب، أولاها ـ نصر الحق بين العالم بالدعوة إليه باللسان والقلم، ومقاومة الشر من أن يستشرى بالدعاية للحق والعدل ودفع الظلم، والثانية ـ مد الضعفاء بأسباب الحياة ومعاونتهم، والثالثة ـ مقاومة الظلم بالحرب العادلة دفعا للظالمين، كما قال تعالى: ﴿... وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة].

ولقد قال النبى ﷺ: «جاهدوا المشركين بأنفسكم وألسنتكم وأموالكم»(١).

(١) سبق تخريجه.

وإن نقطة الجهاد هى آخر الخط المستقيم، وهى نهايته، وفيها غايته، وهى تحقيق مجتمع فاضل، والثمرة المرجوة من هذا هو الفوز والفلاح؛ ولذا قال سبحانه: ﴿**لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾.

إن تلك هى الثمرة المرجوة لهذه النقط الثلاث التى تكوِّن ذلك الخط المستقيم المنير، وهو سبيل الله تعالى سبيل الفوز والنجاح، وأطلق، فلم يقيد بفلاح الدنيا، ولا بفلاح الآخرة؛ ولذلك كان شاملا، فإن الإنسانية إذا تهذبت نفوس الآحاد فيها، فاتخذت وقاية تمنعها من سخط الله تعالى، وإذا اتجهت إلى طلب رضاه والعمل فى طاعته سبحانه، وصارت لا تعمل إلا لله تعالى وابتغاء مرضاته، وجاهدت لإعلاء كلمة الحق فى شتى نواحيه، وترابطت برباط المودة والمحبة والعدل والفضيلة - إذا كانت الإنسانية كذلك علا ابن الأرض فى هذه الأرض، وعم الصلاح واندفع الفساد، وتحققت خلافة الإنسان فيها.

والرجاء فى قوله تعالى: ﴿**لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ من الناس لا من الله، أى أن المؤمنين إذا اتقوا الله وطلبوا مرضاته وجاهدوا فى سبيله، كانت حالهم حال من يرجو الفوز، بل إن عليهم أن يرجوه، لأنهم ساروا فى طريقه، وأنه يتميز رجاء المؤمنين حينئذ عن خيبة الكافرين الذين لم يسيروا فى ذلك الخط المستقيم؛ ولذا ذكر سبحانه حالهم فى مقابل حال المؤمنين، فقال سبحانه:

﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا**﴾ فى هذا النص الكريم يبين سبحانه المقابلة بين جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين، فالمؤمنون يفوزون فى الدنيا بنعيم الاطمئنان، والإحساس بالرضوان من الله تعالى، ونصره سبحانه، وتأييده، وفوز الآخرة بالنعيم المقيم، أما الكافرون فإنهم إن نالوا ظاهرا من الحياة الدنيا، يستقبلهم فى الآخرة عذاب مقيم دائم مستمر وإنه لو وزنت الدنيا بحذافيرها، وكل ما فيها بعذاب يوم القيامة، ما ساوت شيئا فى جانبه وإنهم لو ملكوا الدنيا بما فيها، وأرادوا أن يقدموه فداء لأنفسهم من عذاب القيامة، ما قبل منهم ذلك، بل يرد عليهم ما يقدمون.

وإن الله سبحانه وتعالى قد ذكر كفر الكافرين مؤكدا بـ «إنَّ»، وذكر الموصول للإشارة إلى أن الكفر الثابت المؤكد الذى لم يقترن بالتوبة والانخلاع منه بإيمان يجب الكفر هو سبب لعذاب وهول يوم القيامة صوره الله سبحانه وتعالى بقوله:

﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ والافتداء تخليص النفس، والعمل على الحفاظ عليها بمال أو أى نفيس يبذل فى سبيل ذلك الخلاص، والمعنى الجملى: لو ثبت أن الذين كفروا يقدمون كل ما فى الأرض تخليصا لأنفسهم ومثله معه فى قيمته وكمه ما قبله الله تعالى منهم؛ لأن الجزاء الذى ادخره الله تعالى لهم من عذاب أليم يتكافأ مع ما فى الدنيا مضافا إليه مثله، وهم لو ملكوا كل ذلك لقبلوا أن يقدموه، فكيف وهم لا يملكون إلا قدرا ضئيلا لا يساوى ذرة صغيرة فى هذه الدنيا، والله لا يتقبل ذلك الفداء مهما يكن قدره؛ لأنه قرر العذاب المؤلم المؤكد، وقد أكد نفى القبول بقوله تعالى: **﴿مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾** أى ما قبل منهم بأى قدر ولو كان ضئيلا، وكان من تأكيد النفى بصيغة التقبل، والمراد هنا من التقبل تكلف القبول، أى أنه لا يمكن القبول، ولو بطريق المحاولة والمعاناة.

وقد أكد سبحانه وتعالى العذاب بقوله تعالى: **﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** أى أن الذين يملكونه فى الآخرة بدلا فى مقابل ما كانوا يملكون فى الدنيا عذاب مؤلم مستمر لا يزول ولا يفارقهم، وهم يريدون أن يخرجوا منه، وهو ملازمهم لا يفارقهم؛ ولذا قال سبحانه: **﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾**.

صور الله سبحانه وتعالى حالهم بهذا النص الكريم، وهو أنهم اجتمع لهم العذاب الشديد المؤلم، والرغبة فى الخروج منه، ولكنه أمر لازم غير قابل للانفصال عنهم، فهم يريدون راغبين ملحفين أن يخرجوا من النار وعذابها الشديد، وكلما نضجت جلودهم بدلهم الله تعالى جلودا غيرها، وهم يريدون

الخروج منها ولو بالموت والفناء، ولكنهم ليسوا بخارجين منها، وقد عبر سبحانه وتعالى عن رغبتهم بالفعل، فقال سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ﴾.

أى أنهم يريدون أن يقع الخروج على أى صورة كان، فهم يطلبون الخروج من العذاب، ولو كان بعده الموت، وقد نفى الله تعالى الخروج بنفى الوصف، لا بنفى الفعل فقال: ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ﴾ أى أنه ليس من شأنهم أن يخرجوا، ولا يصح أن نثبت لهم وصف الخروج، لأن العذاب هو الجزاء الحق الوفاق لما ارتكبوا، فلا يسوغ أن يقع الخروج منه أبدا، وقد أكد سبحانه بقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

هذا النص الكريم يفيد دوام ذلك العقاب من غير زمن محدود، بل هو دائم ملازم ثابت، وهنا نصان كريمان متقابلان: أولهما ـ قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قد وصف فيه العذاب صراحة بأنه مؤلم، وجاء الثبات من صيغة اللفظ بوزن فعيل، ثانيهما ـ هذا النص وقد وصف بالإقامة والاستمرار والدوام صراحة، وفُهِم الإيلام من التعبير بكلمة «عذاب».

ولا شك أن العذاب المؤلم الدائم هو الجزاء لمن فرط فى أمر دنياه، وجعلها رجسا وفسوقا، فقد اشترى هذه الحياة الفانية، بالحياة الباقية، فكان حقا أن يجعل الله تعالى جزاءه أن يحرمه من كل ما فى الحياة الآخرة من الخير، ويذيقه وبال أمره جزاء وفاقا لما قدمت يداه، واجترح من سيئات.. اللهم اكتب التوبة لنا، ولا تؤاخذنا بما يفعل السفهاء منا، واغفر لنا وارحمنا، إنك أنت الغفور الرحيم.

وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ
أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ

عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾

بين الله سبحانه وتعالى مقدار الإثم فى الاعتداء على أنفس الآحاد، وذكر سبحانه وتعالى أن من قتل نفسا، فقد اعتدى على حق الحياة عند كل الناس، ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾. ومن أحياها بالقصاص لها، فكأنما أحيا الناس جميعا؛ لأنه يمكن للناس من حياة رافهة هادئة، فيها أمن وفيها استقرار واطمئنان، كما قال سبحانه فى آية أخرى، ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ... ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة] ثم ذكر سبحانه وتعالى، الجريمة الكبرى فى الاعتداء على الجماعة وخرق حرمات النظام، والانتقاض على الحكام الذين يقيمون الحق والعدل والشرع، وارتكاب القتل والسرقة والاعتداء على الأموال والأنفس والأعراض، وانتهاك الحرمات من غير أى حريجة دينية، وبين أنهم ينالون أقسى العقاب، لأنهم يرتكبون أفحش الجرائم وأفجرها.

وقد ذكر سبحانه وتعالى أن العقوبات لا تكفى وحدها لإيجاد مجتمع فاضل، بل لا بد من تهذيب الأرواح بالتقوى وطلب الوسائل الفاضلة، والغايات العالية، وأن يعرفوا أن عقاب الدنيا يهون بجوار عقاب الآخرة، وقد بين بعد ذلك العقوبة المقررة للاعتداء على الأموال، بعد أن ذكر عقوبة الاعتداء على الأنفس منفردة، ثم اجتماع الجرائم بالاعتداء على الأنفس والمال، والخروج على النظام.

وقد توسطت بين هذين النوعين من العقوبة آية الأمر بالتقوى وتذكر الآخرة وما فيها، لأن فى ذلك بيانا بأن الصلاح الأول للمجتمع هو اجتثاث الجريمة من

النفس بزرع التقوى، ولأن القرآن ليس كتاب قانون تسرد فيه العقوبات سردا، بل هو كتاب هداية وتهذيب وإرشاد وتوجيه إلى الطريق المستقيم، تذكر فيه العقوبة على أنها علاج للجريمة فى المجتمع، ثم يذكر مع العقوبة المادية العلاج النفسى والروحى، وهو أجدى وأقوى وأبعد أثرا، وقد ذكر سبحانه وتعالى عقوبة المال فى أغلظ جرائمه وهو السرقة، فقال تعالى:

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ الواو هنا فى معنى الواو العاطفة، إذ هى عطفت حكما مقررا لازما، وهو قطع أيدى السارقين، على جزاء المحاربين، وكان ما بينهما من طلب المؤمنين بالتقوى وطلب القربى إلى الله تعالى فى معنى الجملة المعترضة بين معطوف ومعطوف عليه، ولها معناها السامى، وهو بيان العلاج النفسى التهذيبى بجوار العلاج المادى الجزائى.

والمعنى فرض عليكم، فيما فرض، حكم السارق والسارقة، كما فرض عليكم من قبل حكم الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا، وقد ذكر سبحانه وتعالى ذلك الحكم بقوله تعالت كلماته: ﴿فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾. والفاء هنا للربط بين الكلام، وهى فى معنى بيان السببية الرابطة بين الجريمة والعقوبة، فهى تبين أن سبب قطع الأيدى هو السرقة وكونهم قد اتصفوا بها، وكان ثمة تجانس بين الجريمة والعقوبة فاليد التى امتدت بالأخذ سرقة هى التى تصير موضعا للعقاب، وهو القطع.

وقد بين سبحانه وتعالى الباعث على ذلك العقاب، كما ذكر السبب، فالسبب المباشر هو السرقة، والحكمة أو الوصف المناسب هو ما اشتمل عليه قوله تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ﴾ أى أن ذلك العقاب هو كفاء لما كسبا من فعل شىء له آثار سيئة، وإن ذلك العقاب نكال أى زجر من الله تعالى لمنع هذه الجريمة وتقييد الأيدى، حتى لا ترتكبها.

وظاهر الأمر أن قطع اليد لا يمكن أن يكون كفاء لليد المقطوعة، ولكن عند النظر الدقيق يتبين أن المقابلة ليست بين ذات المقدار المسروق، وبين اليد

المقطوعة، إنما المقابلة بين الأثر الذى يكون للفعل الذى يفعله السارق وبين العقاب، فإن السرقة فى حى أو قرية تفزع أهل القرية أجمعين، فيندفعون إلى جلب الحراس ووضع المغالق وإحكام الأبواب، فوق ما يكون بين الناس من اضطراب؛ إذ يفقدون الأمن والاطمئنان، وتستيقظ أعين الحكام، ويزداد عدد القائمين على الأمن، فالمقابلة ليست بين ذات الفعل والعقاب، بل المقابلة بين أثر الفعل، وما يعقبه من انزعاج، وليست العقوبة مقصودة فقط لذلك الجزاء، بل هى مقصودة لما يعقبها من خوف الفاسدين، وفزع المجرمين، فيقل الإقدام عليها، بل لا يكون، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿**نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ**﴾. فالعقاب عادل فى ذاته؛ لأنه مناسب لأثر الجريمة، وإصلاح لأنه يؤدى إلى ذهاب الجريمة أو تقليلها. .

ونريد أن نقف للكلام فى أمرين فى معنى نكال، وفى السرقة التى تعد جريمة توجب قطع اليد.

ونقول: إن معنى كلمة نكال الزجر والمنع، فهو منع للغير من الارتكاب، وقد جاء فى مفردات الراغب الأصفهانى فى أصل معنى كلمة نكال واشتقاقها: يقال نكل عن الشىء ضعف عنه وعجز، ونكلته قيدته، والنكل قيد الدابة. وحديدة اللجام لكونهما مانعين، والجمع الأنكال، قال تعالى: ﴿**إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيمًا** ﴿١٢﴾﴾ [**المزمل**]. ونكلت به إذا فعلت ما ينكل به غيره (أى يمنع غيره من أن يفعل فعله) قال تعالى: ﴿**فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا** ... ﴿٦٦﴾﴾ [**البقرة**]. وقال: ﴿**جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ**﴾.

وقال ﷺ: «إن الله يحب النكل على النكل أى الرجل القوى على الرجل القوى»(١).

---

(١) جاء في النهاية في غريب الحديث جزء٤، ص١٧٦ (نكل) «إن الله يُحب النَّكَلَ على النَّكَل»، قيل: وما ذاك؟ قال: «الرجُل القويُّ المُجَرَّب المُبدِىء المُعيد، على الفرس القويّ المُجرَّب» النَّكَل بالتحريك: من التَّنكيل، وهو المنع والتَّنحِيَة عمَّا يريد.

وإن هذا التحليل اللغوى يفيد أن معنى قوله تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ﴾. أن هذا العقاب فيه جزاء للجريمة وكفاء لها، وقد أشرنا إلى معنى ذلك، ويفيد أن هذا العقاب منع من الارتكاب، فإنه ينكل بالجانى، لكيلا يقع فى الفعل غيره، أى لكى يكون ذلك التنكيل سببا فى أن ينكل الغير عن الفعل.

والآن نتكلم عن معنى السرقة التى توجب قطع اليد، وهنا ننتقل من المعنى اللغوى للكلمة، إلى المعنى الشرعى المستمد من أقوال النبى ﷺ ومن المأثور عن صحابته، ومما فهمه السلف من فقهائنا الأمجاد، رضى الله تبارك وتعالى عنهم.

لقد اتفق علماء الشريعة على أن السرقة أخذ المال على سبيل الاستخفاء، وهذا معنى فقهى يلتقى مع المعنى اللغوى، ولكن الفقهاء زادوا قيدا فى هذا المعنى، وهو أن يكون الأخذ من حرز مثله، أى يكون المال محرزا مصونا محفوظا معنيا بحفظه العناية التى تليق، وقد قال الفقهاء رضى الله عنهم: إن الأخذ على سبيل الاستخفاء هو ركن السرقة، وكون الأخذ لمال محرز محفوظ حفظا يليق بمثله شرط لاستحقاق العقوبة المحدودة التى ذكرها الشارع الحكيم.

وإذا كانت السرقة لا يتحقق ذكرها إلا إذا كان الأخذ على سبيل الاستخفاء، فإنه لا يكون المغتصب سارقا، ولا يكون المختلس سارقا، وقد فرقوا بين المختلس والسارق فقالوا: إن السارق يكون مختفيا غير معلوم للمسروق منه، أما المختلس فإنه لا يكون مختفيا، بل يكون ظاهرا ولكن يأخذ فى غفلة من صاحب المال، والجمهور على أن الاختلاس لا يعد من السرقة فلا تقطع فيه اليد، ولقد خالف الجمهور إياس بن معاوية القاضى، وأوجب القطع على اعتبار أن فيه نوع استخفاء، وإن كان فى العمل، ولم يكن فى الشخص، وأن لذلك الرأى وجاهته من ناحية العمل، ومن ناحية المعنى.

ولقد روى عن الإمام أحمد بن حنبل: أنه عد من السرقات جحود العوارى[(١)] والودائع؛ لأنه ثبت أن المخزومية التى قطع النبى ﷺ يدها، كانت تجحد ما تستعيره من الناس[(٢)].

وإن ذلك غير الرواية الراجحة عن الإمام، بل إن الرواية الراجحة مع الجمهور، والحق هو أنها لا تعتبر سرقة وإلا اعتبر جحود الحقوق سرقة موجبة للقطع؛ لأنه لا فرق بين جحود العوارى والودائع، وجحود الديون وسائر الحقوق المالية. وإن الفارق بين السرقة وجحود العوارى كبير، فإن السرقة أخذ، وهذه منع للحقوق، والفرق بين المنع والأخذ كبير، وهذه أخذت بتمكين من المالك، والسرقة أخذ بغير تمكين من المالك.

هذا هو أصل معنى السرقة فى ذاته، وهذا القدر قد اتفق عليه العلماء فى الجملة، وقد اختلف العلماء من بعد فى الشروط الواجبة للحد، ولنذكر بعض هذا الاختلاف:

* فقد اشترط أكثر أهل العلم لتحقق السرقة الموجبة للقطع أن يأخذ المسروق ويخرج به من مكان حرزه، ومقتضى تحقق السرقة مع هذا الشرط، أن يدخل ويأخذ مستخفيا، ويخرج من المكان الذى فيه المال إلى خارجه فإن ضبط قبل أن يخرج به لا يقام عليه الحد. وقد خالف فى اشتراط الخروج بالشىء من حرز - إبراهيم النخعى التابعى، وفقهاء أهل الظاهر.

* وقد اشترط الحنفية وبعض الفقهاء أن يكون الدخول إلى مكان الحرز بغير إذن صاحبه، فلو كان بإذنه وسرق لا تقطع يده، فالضيف إذا سرق من مضيفه لا تقطع يده؛ لأنه دخل بإذنه، فلم يحدث هتك حمى الحرز وكأن هؤلاء يشترطون

---

(١) العواري: جمع عارية، وفي القاموس المحيط (عور): والعَارِيَّةُ، مُشَدَّدَةً وقد تُخَفَّفُ، والعَارَةُ: ما تَدَاوَلُوهُ بَيْنَهُم. الجمع: عَوَارِيُّ، مُشَدَّدَةً ومُخَفَّفَةً.

(٢) عَنْ سَعِيد بْنِ الْمُسَيَّبِ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ اسْتَعَارَتْ حُلِيا عَلَى لِسَانِ أُنَاسٍ فَجَحَدَتْهَا فَأَمَرَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ فَقُطِعَتْ. رواه النسائي: قطع السارق - ما يكون حرزا وما لا يكون (٤٨٩٢).

مع الشرطين السابقين أن يتحقق معنى هتك حمى الحرز، وهو موضع الأمانة التى تنتهك حرماتها.

* ويظهر أن الكثيرين من الفقهاء يشترطون مع ذلك أن يكون المكان المسروق منه فى وسط الأحياء العامرة فى المدائن أو القرى، ليتحقق معنى الحرز والمحافظة، وكذلك قرروا أن البيوت التى تكون فى البساتين أو الطرق أو الصحراء وليست فى العمران إذا لم يكن بها أحد وسرقت مع اتخاذ المغاليق، وضبط الأبواب، لا يكون ثمة قطع يد؛ لأن من ترك متاعه فى مكان خال من الناس والعمران لا يعد حافظا له، وإن أغلق بابه وأحكم الإغلاق.

بينا فى هذا معنى السرقة الموجبة للقطع من حيث ذات الفعل، وبقى أن نتكلم فى محل السرقة،، وهو المال المسروق، فليس كل مال يؤخذ ولو كان محرزا ومحفوظا، وبين الناس، يعد أخذه موجبا للقطع، وقد قالوا: إن المسروق يجب أن يكون مالا متقوما، لا شبهة فيه، ولا قصور فى ماليته بأن يكون مما يتموله الناس، ويعدونه لأغراضهم المختلفة، ويتنافسون فى طلبه، وعلى ذلك لا يصح أن يكون المال من توافه الأموال كالتراب والطين وما يشبههما مهما تبلغ قيمته.

ولا بد أن يكون المال المسروق مملوكا لمن سرق منه ملكية قطعية لا شبهة فيها، فلا قطع فى أخذ مال مباح، ولا فى المال الذى كان أصله مباحا، وامتلك بالإحراز كالماء والصيد(١).

وهناك نوعان من المال قرر الفقهاء أنه لا يقطع من أخذهما استخفاء من حرز مثلهما:

---

(١) روى الترمذي: الحدود - ما جاء في درء الحدود (١٣٢٤) عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ادْرَءُوا الْحُدُودَ عَنْ الْمُسْلِمِينَ مَا اسْتَطَعْتُمْ فَإِنْ كَانَ لَهُ مَخْرَجٌ فَخَلُّوا سَبِيلَهُ، فَإِنَّ الإِمَامَ أَنْ يُخْطِئَ فِي الْعَفْوِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُخْطِئَ فِي الْعُقُوبَةِ». وَفِي الْبَاب عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو.

أولهما ـ أموال بيت المال، فقد قرر الأكثرون أنه لو أخذ مسلم من بيت المال لا يقطع، ولنترك الكلمة لابن جرير فى هذا الموضوع فهو يقول: «لا قطع على من سرق من بيت المال إذا كان مسلما، ويروى ذلك عن عمر وعلى رضى الله عنهما، وبه قال الشعبى والنخعى وأصحاب الرأى، وقال مالك وحماد يقطع بظاهر الكتاب (أى النص وهو ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾) ولنا ما روى ابن ماجه بإسناده أن عبدا من رقيق الخمس (أى الخمس المخصص لبيت المال من الغنائم) سرق من الخمس، فدفع إلى النبى ﷺ فلم يقطعه، وقال: «مال الله سرق بعضه بعضا»[1]، ولأن له فى المال حقا، فيكون شبهة تمنع وجوب القطع، كما لو سرق من مال له فيه شركة. ونرى أن الذين أقاموا الحد طبقوا النص باعتبار أن السرقة قد تحققت، فوجب تحقيق العقاب، وأن هذا المال مال الله ومال الله تعالىٰ أوجب أن تراعى حرمته، ولأن إهمال الحد فيه معنى إباحته، وذلك لا يجوز.

والذين لم يقيموا الحد، وهم الأكثر عددا بنوه على أساس أن لكل مسلم حقا فيه، فهو مال الجماعة كلها، وإذا كان كذلك فللآخذ حق أو شبهة حق، والحدود تسقط بالشبهات.

وإن الرأى الذى يوجب الحد أحرى بالقبول، حتى لا تكون أموال الأمة نهبا للناس ينالونها من غير أى حريجة دينية، ويحسبون أنهم يأخذون حقا لهم، وإن لم يكن مقسوما، فالأولى بالحماية مال الله حتى لا تمتد إليه الأيدى الآثمة، ولعل النبى ﷺ لم يقم الحد على الرقيق الذى كان غنيمة إذ أخذ منها؛ لأن الحرز لم يكن ثابتا بالنسبة له، وللرفق بالرقيق الذى لم يكن على علم بالشرع وما يجب عليه، ولأن حماية مال الدولة أوجب رعايته، لأن ما سرقه من حيث القيمة دون ما ينقص من قيمته بقطع يده، وفوق ذلك نتلف جزءا من بيت المال بإتلاف جزء

(١) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ عَبْدًا مِنْ رَقِيقِ الْخُمُسِ سَرَقَ مِنْ الْخُمُسِ، فَرُفِعَ ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ يَقْطَعْهُ، وَقَالَ: «مَالُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ سَرَقَ بَعْضُهُ بَعْضًا». رواه ابن ماجه: الحدود - العبد يسرق (٢٥٩٠). والخمس أي خمس الغنائم المفروض لله ورسوله.

آخر، فيكون الإتلاف مضاعفا، وليس هذا متفقا مع ما عرف عن النبى ﷺ من حكمة، ولعل قوله ﷺ: «مال الله سرق بعضه بعضا»[١] يشير إلى هذا المعنى إشارة واضحة.

ويجب التنبيه هنا إلى أنه إذا لم يقم الحد عند من لا يقيمونه تجب عقوبة شديدة، وإن لم تكن قطع اليد، ولتكن الجلد أو الحبس، أو النفى من الأرض، أو ما يراه ولى الأمر عقابا رادعا، ونكالا مانعا.

ثانى الفرعين من المال الذى لا يكون فيه قطع - كل مال يكون للسارق نوع شركة فيه أو يكون بين السارق والمسروق منه صلة تجعل لكل واحد منهما حقا فى مال الآخر، وذلك يشمل ما يأتى:

(أ) سرقة أحد الأصول من الفروع، فإنه لا قطع فيها، لأن للأب أو للأم أو الأصول نوع شركة فى مال الفرع، كما قال ﷺ: «أنت ومالك لأبيك»[٢] وكما ورد عنه: «الولد كسب أبيه»[٣] وكل أصل أب أو أم.

(ب) إذا سرق أحد الزوجين من الآخر لا قطع؛ لأن ثمة شركة أدبية بين الزوجين توجد ما يشبه الشركة المالية؛ ولأن مال أحد الزوجين غير محرز بالنسبة للآخر، وفى هذا الموضع خلاف كثير، ذلك القول فى عمومه أرجحها وأقواها.

(جـ) لا يقطع الفروع إذا سرقوا من مال أصولهم لمعنى الشركة الذى بيناه فهو من الجانبين، وقانون التساوى فى المعاملة يوجب ألا يقطع الفرع إن سرق من الأصل، كما لا يقطع الأصل إن سرق من الفرع.

---

(١) السابق.

(٢) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَجُلا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي مَالا وَوَلَدًا وَإِنَّ أَبِي يُرِيدُ أَنْ يَجْتَاحَ مَالِي. فَقَالَ: «أَنْتَ وَمَالُكَ لأَبِيكَ» رواه ابن ماجه: التجارات - ما للرجل من مال ولده (٢٢٩١).

(٣) عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ وَإِنَّ وَلَدَ الرَّجُلِ مِنْ كَسْبِهِ». رواه الترمذي: البيوع - الحث على الكسب (٤٤٤٩).

(د) سرقة الأرحام المحارم بعضهم من بعض فإنها عند الأكثرين من الفقهاء فيها شركة أوجبتها القرابة، وجعلت المحرمية مقياسا بهذه القرابة التى توجد الشركة المالية من بعض نواحيها.

وهكذا نجد الحد يضيق تطبيقه إذا كان للسارق نوع حق فى المال المسروق، ولو كان ضعيفا، وأنه كلما اتسع نطاق الموانع لإقامة الحد ضاق تطبيقه، وإننا لو أردنا أن نقيم حد السرقة فى حال أجمع الفقهاء على وجوب إقامته فيها لوجدنا العدد يضؤل ويضيق النطاق، حتى إننا نجد أنه فى كل عشرة آلاف حالة سرقة لا تقطع يد واحدة، وإنها كافية للردع والزجر فى ألوف الألوف، وقد ثبت أن ما دونها لا يزجر مثلها، ولو فى هذا النطاق الضيق، والله عزيز حكيم يضع العقاب فى موضع الداء، فيحسمه القليل، ولا يحتاج فيه إلى الكثير، إنه خبير بما يعملون.

وإن الفقهاء الذين قرروا أن السرقة لا بد أن تكون من حرز، وأن يخرج بها السارق من الحرز، وألا يكون قد دخل ذلك بإذن أهله بأن يكون منتهكا للحرمات، قد قرروا كما رأيت إعفاء السارقين من العقاب إذا كانت الأموال لهم شبه حق فيها، وذلك كأموال بيت المال عند الأكثرين وأموال الآباء والأبناء، وأموال الأقارب بعضهم مع بعض والزوجة مع زوجها.

كذلك قرروا أن بعض الأموال لا يجرى فيها قطع اليد، كالأموال التى تكون مباحة، ونالها بالاستيلاء مالكها، فقد قال الأكثرون: إنه لا قطع فيها، وأجمعوا على أن مال المحوز إذا سرق لا قطع فيه، وذلك لأن الشركة الطبيعية لا تزال قائمة ولو بطريق الشبهة ما دام المالك هو المستولى.

ولقد قال بعض الفقهاء: إنه لا قطع فى الأموال غير القابلة للادخار أى التى يتسارع إليها الفساد، كاللحم والفاكهة الرطبة واللبن والخضر غير القابلة للادخار؛ وهكذا، فقد قال أبو حنيفة ومالك والثورى: لا قطع فى هذه الأموال، والشافعى وأحمد ومن تبعهم أجازوا القطع فى هذه الأمور.

وهكذا يجرى الخلاف فى بعض الشروط وفى بعض أنواع الأموال، وقد اتفقوا على أن سرقة ما يحرم تناوله أو استعماله لا توجب قطع اليد، فسرقة الخمر أو الخنزير، ولو كان يملكها غير مسلم لا توجب القطع باتفاق علماء المسلمين، وسرقة أدوات اللهو والمجون وما لا يتخذ فى حلال خالص لا توجب القطع.

وإنك إذا تلمست الصور التى اتفق الفقهاء على وجوب القطع فيها بالنسبة للشروط الواجبة للاستيفاء فى الفعل، وفى الأموال تجد تلك الصور نادرة، لا تقع فى كل خمسمائة سرقة واحدة متفق على وجوب القطع فيها، ويزيد ندرة الصورة المتفق عليها اختلاف الفقهاء فى نصاب السرقة.

وقد اتفق الفقهاء فى الجملة على أن اليد لا تقطع إلا إذا بلغ المسروق قدرا من المال، فقد اتفق الرواة على أن النبى ﷺ قطع يد السارق فيما قيمته مجنّ، (وهو ما يتقى به المقاتل ضربات العدو) فقد روت السيدة عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قطع فى ثمن مِجَنٍّ وقد قدرته رضى الله عنها بربع دينار[(١)].

واختلف العلماء من بعدها فى قيمته، والأكثرون على أن قيمته ربع دينار، فأقل مقدار تقطع فيه يد السارق ما قيمته ربع دينار، ولكن الحنفية قدروا النصاب بعشرة دراهم، كما روى عن ابن مسعود: أنه لا قطع فى أقل من دينار أو عشرة دراهم، ولأنه قد اختلف فى تقدير المجن، فقيل قيمته أربعة دراهم، وقيل قيمته ربع دينار، وقيل قيمته دينار، والاحتياط يوجب الأخذ بالأكثر وتقدير أم المؤمنين عائشة اجتهاد منها يعارضه اجتهاد عبدالله بن مسعود، فيؤخذ به؛ لأنه أكثر احتياطا.

---

(١) عن عَائِشَةَ أَنَّ يَدَ السَّارِقِ لَمْ تُقْطَعْ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ إلا فِي ثَمَنِ مِجَنٍّ حَجَفَةٍ أَوْ تُرْسٍ. [متفق عليه؛ رواه البخاري: الحدود - والسارق والسارقة (٦٧٩٢)، ومسلم: الحدود - حد السرقة ونصابها (١٦٨٥)].

وعَنْ عَائِشَةَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تُقْطَعُ الْيَدُ فِي رُبُعِ دِينَارٍ فَصَاعِدًا». [متفق عليه؛ رواه البخاري: الحدود - السابق (٦٩٨٩)، ومسلم: السابق (١٦٨٤)].

هذا وهناك ملاحظة لفظية يجب اعتبارها، والوقوف عندها وقد وقف بعض الباحثين عندها، وهو أن الله سبحانه وتعالى عبر عن الذى يستحق القطع بقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾.

فقد قرر بعض الباحثين أن كلمة «السارق»، و«السارقة» وصفان وليسا فعلين، والوصف لا يتحقق فى الشخص إلا بالتكرار، فلا يقال لمن ظهر منه الجود مرة أنه جواد، ولا لمن وقع منه الكذب مرة ولم يتكرر كذاب، ولا للفاسق الذى لا يقول الحق، والمنافق الذى يخفى ما لا يبريه إذا صدق مرة أنه صادق أو صدوق، إنما تقال هذه الأوصاف لمن يتكرر منه فعلها، حتى تكون اسما له وعنوانا يعرف به.

وبتطبيق هذا القول على من تقع منه السرقة لا يكون مستحقا للقطع إلا من تكررت منه السرقة، وعلى حد تعبير القانونيين يكون ذلك العقاب للسارق العائد.

ويزكى هؤلاء الباحثون نظرهم ـ أولا ـ بأنه ثبت فى أخبار المخزومية التى سرقت وأمر النبى ﷺ بقطع يدها(١) أنها كانت معتادة السرقة، لأنها كانت معروفة بأنها لا ترد الودائع التى تودعها، ولا العوارى التى تستعيرها، فكان الأمر بالقطع من النبى ﷺ واقعا على امرأة قد اعتادت الاعتداء على الأموال بجحود الودائع والعوارى والسرقات.

وثانيا ـ أنه روى عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه . . لما أراد قطع يد شاب سرق قالت له أمه: اعف عنه يا أمير المؤمنين، فإن هذه أول مرة، فقال عمر

---

(١) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّتْهُمُ الْمَرْأَةُ الْمَخْزُومِيَّةُ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا: مَنْ يُكَلِّمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَكَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ» ثُمَّ قَامَ فَخَطَبَ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا ضَلَّ مَنْ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ الضَّعِيفُ فِيهِمْ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ﷺ سَرَقَتْ لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا». [متفق عليه؛ رواه البخاري: الحدود - كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان (٦٧٨٨)، ومسلم: الحدود.

لها: (إن الله أرحم من أن يكشف ستر عبده لأول مرة) ويظهر أن الإمام عمر رضى الله عنه يرى أن القبض على السارق متلبسا ووجود شهود يشهدون يدل على التكرار.

وثالثا - بأن كثيرين من الفقهاء اعتبر توبة السارق قبل إقامة الحد عليه تسقط الحد، فلا يقام عليه، ولا تكون التوبة عند التكرار، بل يكون موضعها عند الارتكاب الأول، ولنتكلم فى موضوع التوبة فقد قال تعالى:

﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الفاء هنا للإفصاح عن شرط مقدر، والمعنى إذا كان قطع اليد هو العقوبة الرادعة، فإن التوبة تجبها وتقطعها فى الدنيا والآخرة، أو فى الآخرة فقط، فمن أقلع عن الذنب وأحس بالندم على ما ارتكبه، واعتزم على ألا يعود إليه، فإن الله سبحانه وتعالى يقبل توبته، وعبر سبحانه وتعالى عن قبوله توبته بقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾. أى أنه جلت قدرته، وتعالت عظمته يقابل عمله القلبى فى التوبة، والعمل الخارجى بالإصلاح ومنع الإفساد، بعمل من جانبه سبحانه وهو أنه يتوب عليه، أى يعينه على التوبة ويقبلها، فقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ يتضمن ثلاثة معان - أولها - المعاونة على التوبة إذا أخلص العبد، وخلص العمل له سبحانه، وأصلح فى الأرض بعد الإفساد فيها. وثانيهما - قبول التوبة، وثالثها - تطمين التائب بتأكيد القبول.

وذكر سبحانه أن التوبة الخالصة لا بد أن تقترن بالإصلاح؛ لأن الإذعان القلبى لا يكون كاملا وناميا إلا إذا اقترن به العمل الصالح؛ لأنه يزكيه ويسقيه.

والتعبير بقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِ﴾ إشارة إلى أن السرقة خاصة وارتكاب الذنوب عامة ظلم كبير، وقوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحَ﴾. فيه إشارة إلى أن السرقة إفساد فى الأرض والأمانة إصلاح أى إصلاح.

وقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية بإثبات رحمته، وأنه سبحانه من صفاته الثابتة الغفران فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. أى أن الله يتوب على عبده إذا أذنب؛

لأن من صفاته أنه غفور كثير الغفران يتجاوز عن السيئات، ويكافئ على الحسنات؛ لأن ذلك مقتضى رحمته، وهو الرحيم الدائم الرحمة، وقد أكد سبحانه ذلك فضل تأكيد بـ «إن»، وبإعادة لفظ الجلالة.

وقد أشرنا من قبل إلى أن كثيرين من الفقهاء يقولون: إن التوبة تسقط الحد، وكانت هذه الآية الكريمة: ﴿**فَمَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ**﴾ من شواهد ذلك.

والقول الجلى فى هذا أن التوبة قبل الترافع إلى السلطان إذا صحبها رد المسروق إلى مالكه تمنع إقامة الحد بالاتفاق، ولكن الخلاف القائم بين الفقهاء فى التوبة إذا كانت بعد الترافع وإثبات السرقة، فقد قال أبو حنيفة ومالك: إن التوبة لا تسقط الحد؛ لأن الأمر بالقطع عام يشمل التائب وغير التائب، والتوبة المنصوص عليها فى هذه الآية هى ما يكون بعد إقامة الحد وقطع اليد، فقد قال النبى ﷺ: «إذا قطعت يد السارق فتاب سبقته يده إلى الجنة، وإن لم يتب سبقته يده إلى النار» وفوق ذلك فإن التوبة فى السرقة كالتوبة فى الزنى لا تسقط (الحد)(١)، ولقد أقام النبى ﷺ حد الزنى، وقال فى امرأة أقام عليها الحد: «لقد تابت توبة لو قسمت على سبعين من أهل المدينة لوسعتهم»(٢). وفوق هذا وذاك الحد كفارة للذنوب فى الدنيا والكفارات تجب مع التوبة.

---

(١) عن مُحَمَّد بن الْمُنْكَدِر رضيَ اللَّهُ عنهُ: «أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَطَعَ سَارِقًا، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَحُسِمَ، ثُمَّ قَالَ: تُبْ إِلى اللَّه، قَالَ: أَتُوبُ إِلى اللَّه، قَالَ: اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيْه، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّ السَّارِقَ إِذَا قُطِعَتْ يَدُهُ وَقَعَتْ فِي النَّار، فَإِنْ عَادَ تَبِعَهَا، وَإِنْ تَابَ اشْتَلاهَا ـ يَعْنِي: اسْتَرْجَعَهَا ـ». [الجامع للسيوطي ج٢١، ص٤٣١ (٢٠٠١١)].

(٢) عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ أَتَتْ نَبِيَّ اللَّه ﷺ وَهِيَ حُبْلَى مِنْ الزِّنَى فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّه أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْهُ عَلَيَّ، فَدَعَا نَبِيُّ اللَّه ﷺ وَلِيَّهَا فَقَالَ: «أَحْسِنْ إِلَيْهَا فَإِذَا وَضَعَتْ فَأْتِنِي بِهَا»، فَفَعَلَ فَأَمَرَ بِهَا نَبِيُّ اللَّه ﷺ فَشُكَّتْ عَلَيْهَا ثِيَابُهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَرُجِمَتْ ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهَا، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: تُصَلِّي عَلَيْهَا يَا نَبِيَّ اللَّه وَقَدْ زَنَتْ؟ فَقَالَ: «لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ، وَهَلْ وَجَدْتَ تَوْبَةً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا لِلَّهِ تَعَالَى». [رواه =

وقال أكثر الشافعية والحنابلة: التوبة تمنع إقامة الحد وأقاموا على ذلك الأدلة الآتية:

أ - قوله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ﴾. وهذا النص مقترن بقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾. فكان مخصصا للعموم فى الأمر بالقطع، وإلا ما اقترن به.

ب - أن الله تعالى اعتبر التوبة مانعة من إقامة حد الحرابة(١)، والحرابة فيها جرائم سرقة وقتل وسرقاتها كبيرة، فكيف تقبل التوبة فى السرقات الكبرى، ولا تقبل فى الصغرى.

جـ - ما ورد فى الآثار الصحاح مما يثبت أن التوبة تجب ما قبلها، وقد قال ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له».

د - أن التوبة السريعة تدل على أن النفس لم تدنس بالرجس، وقد قال تعالى فى تحقيق هذا المعنى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ... ﴿١٧﴾﴾ [النساء].

والذى نراه فى هذا الموضوع أننا نأخذ برأى الإمامين أبى حنيفة ومالك فى الذين يعدون عائدين، فإن هؤلاء لا تقبل منهم توبة. ولا تأخذ العدالة فيهم رأفة، أما الذين لم يكونوا عائدين، فإن التوبة تعفيهم من العقاب إقالة لعثرتهم، ونأخذ فى أمرهم برأى أكثر الشافعية والحنابلة.

وإذا كان لنا أن نطالب بإقامة حدود الله، وهو واجب علينا، فإننا إذا طالبنا بإقامة حد السرقة نطالب به فى الحدود الآتية:

= مسلم: الحدود - من اعترف على نفسه بالزنا (١٦٩٦)، كما رواه الترمذي: الحدود (١٤٣٥)، والنسائي: الجنائز (١٩٥٧)، وأبو دود: الحدود (٤٤٤٠)، وابن ماجه: الحدود (٢٥٥٥)، وأحمد: أول مسند البصريين (١٩٣٦٠)، والدارمي: الحدود (٢٣٢٥)].

(١) إشارة إلى قوله تعالى في سورة المائدة (٣٤): ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقد سبقت.

أولها ـ أن يقام الحد على السراق العائدين ليكونوا عبرة المعتبرين.

الثانى ـ ألا يقام الحد إلا فى الحال التى اتفق الأئمة على إقامتها فيه، فلا يقام الحد، وبعض الأئمة لا يرى إقامته.

الثالث ـ ألا توجد أى شبهة فى الإثبات أو فى غيره، والله سبحانه بكل شىء عليم، ولقد قال سبحانه:

﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ بعد أن بين سبحانه وتعالى العقاب الذى ينزل بالمفسدين فى الأرض محاربين أحكام الله تعالى والنظام الذى يقرره الإسلام، وبين أن باب التوبة مفتوح، لمن يريد الإصلاح، ويقلع عن الإفساد ـ ذكر سبحانه وتعالى أن تلك هى أحكام العليم الحكيم، صاحب السلطان القاهر الذى هو فوق كل سلطان، وأن كل ذى سلطان مهما يكن اتساعه وسطوته، فهو فى ملك الله تعالى، وأن ما يكون من عقاب أو غفران فهو من واسع حكمته، ومن شمول رحمته؛ ولذلك قال سبحانه مبينا سلطانه مخاطبا كل أهل للخطاب، أو مخاطبا النبى ﷺ ابتداء، ومخاطبا غيره اتباعا، وهذا ما نرجحه؛ ولذلك أردف هذا النص الكريم بقوله تعالى: ﴿ ... **لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ** ... (٤١) ﴾ [**المائدة**] كما سنتكلم فى الآيات الآتية بمعونته تعالى ومشيئته.

وقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ**﴾. هذا التعبير السامى من قبيل الاستفهام الإنكارى الذى يؤكد ما فى مضمونه ويبعده عن كل احتمال، ويقال إنه للنفى، فهو نفى للجهل، ونفى الجهل تأكيد للعلم، والمعنى أبحثت الأدلة، ودرست الكون وما فيه، والخلائق ومبدعها فعلمت أن أحدا له ملك السموات والأرض غير الله، وإذا كان بحثك وتنقيبك واستدلالك قد أدى بك إلى نفى العلم بأحد له ملك فى السموات والأرض غيره فالدليل نفسه هو الذى يؤكد علمك بأنه وحده صاحب السلطان المطلق فى السموات والأرض.

وإذا كان سبحانه وتعالى هو صاحب الملك المطلق، والحكم الذى لا معقب له فى السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم، فهو وحده المنفرد ببيان العقاب الرادع، والتجاوز السمح حسب ما يرى بحكمته؛ ولذلك قال سبحانه:

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ وإذا كان سبحانه وتعالى هو صاحب السلطان المطلق، فإنه لا يسأل عما يفعل وليس وراء ما يأمر به معقب من أحد، فهو يعذب من يشاء عقابا رادعا فى الدنيا، ليمنع غيره من أن يقع فى الشر، كما وقع هو، ويغفر لمن يسلك طريق التوبة، والأمر فى كل ذلك إلى مشيئته هو وحده، وهو العليم الخبير اللطيف بعباده، الذى لا يكون معه إلا ما فيه خيرهم، وإن علا على إدراكهم، وعسر على فهمهم، فمشيئته مطلقة تعلو حكمة ما يفعل ـ على عقولنا ومداركنا.

ولقد كانت مشيئة الله تعالى مقترنة بقدرته، ولذلك قال سبحانه:

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو سبحانه قادر على كل شىء، فكل ما فى هذا الوجود خاضع لإرادته وقدرته وسلطانه، لا يخرج عنه شىء، ولا يعجز عن شىء؛ اللهم أظلنا برحمتك وعفوك وغفرانك، إنك على كل شىء قدير.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ
لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ
قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ
هَادُوا۟ ۛ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ
ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ
يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ
وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ
أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى
ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

بعد بين الله سبحـانه وتعالى حسد أحد ابنى آدم لأخيـه وكيف أدى الحسد والحقد إلى أن يقتل الأخ أخاه، بين سبحانه وتعـالى ما هو نتيجة للحقد، من قتل النفوس، وقيام المجرمين بالشر فرادى وجماعات، وآثار هذه الجرائم فى المجتمع، وبين أشد أنواع جرائم الفتك والاعتداء فى الجماعة وهى الحرابة، ثم ذكر السرقة، وهى فى مـعنى الحرابة؛ لأنـها سطو على الأمن، وإزعـاج للناس، وجـعلهم فى اضطراب مستمـر وبلبال دائم، وهمّ مقيم، وذكر عقوبتهـا الزاجرة، وآثارها الملقية بالأمن والاستقرار فى النفوس.

وبعد هذا البيـان من آثار الحقد، والحسـد فى الجرائم الحسيـة ونشرها، ذكر سبـحانه أثر الحقـد والحسد فى الجـرائم المعنوية والاعتقـادية، وهى التى يجمعـها جحود الحـق حسدا وحقدا واسـتكبارا، كحسـد أحد ابنى آدم على أخيـه إذ حقد واستكبر، وذكر حقد اليهود والمنافقين على النبى ﷺ وحسدهم له ولقومه على ما آتاهم الله من فـضله، فـأرسل فى العـرب رسولا يدعـو إلى الحق وإلى صـراط مستـقيم، وقد كان سيـاق قصة ابنى آدم مبينـا استمكان الحقد والحـسد فى نفوس الأشرار، وإذا علم ذلك النبى ﷺ فـلا ينبغى له أن يحزن على مـا يصيبه نتـيجة للحقد والحسد؛ ولذلك قال سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ النداء إلى النبى ﷺ والنداء لـه عليه السـلام بـ **﴿يَا أَيُّهَا﴾** - التى تدل على نداء البـعيـد مع أنه من الله قريب وهو له مـجيب؛ لبـيان الشـأن العظيم لما يدعوه إليه ويناديه لأجله، وللموضوع الذى ينبـهه إليه، وهو حال الذين يخاطبهم وتدبير الدعوة على مقتضى حالهم، وتوقع ما يقع منهم.

وقد قال فخر الدين الرازى: إن نـداء الله تعالى له عليه السلام يكون بـ «يا أيها النبى» ما عـدا موضعين: أحدهما - هذا الموضع، والثـانى - فى قوله تعالى: ﴿يأيها الرسول بلغ مـا أنزل اليك﴾. وقال إن النداء: **﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾** فيه زيادة تشـريف لـلنبى ﷺ؛ لأن الرسـالة أخص مـن النبـوة، والحق أن النداء بـالنبـوة

وبالرسالة كلاهما فيه تشريف للنبى ﷺ بدرجة واحدة، لأن فى كليهما بيان صلته بالله تعالى بها، ولكنا نرى أن النداء بـ «يا أيها الرسول» ونهيه، ويبلغ رسالته التى شرفه الله تعالى بها ولكنا نرى أن النداء «يا أيها الرسول» يناسب ما يطلبه الله تعالى منه، وهو تبليغ الرسالة؛ إذ يقتضى أن يلاقى الأخيار والأشرار، وأن يتوقع من الأشرار ما قد يثير النفس فإن لج به الألم ذهبت نفسه حسرات، ولا يتفق ذلك مع العزمة الواجبة لأداء الرسالة.

وقد كان النهى منصبا لا على ذات الحزن ، بل قال سبحانه: ﴿**لا يَحْزُنكَ**﴾ أى لا تجعلهم يدخلون الحزن على نفسك باستعظام ما يفعلون، وبذلك يندفع الاعتراض القائل أن الحزن ألم نفسى يدخل على النفس إجبارا من غير استئذان، والنهى عنه ليس نهيا عن أمر للنفس فيه اختيار، بل هو نهى عن أمر للإرادة فيه سلطان بالصبر وضبط النفس، وتوقع الأمور قبل وقوعها فمن توقع النائبات قبل وقوعها يخف وقعها، ويسهل احتمالها، وأولئك الذين يسارعون فى الكفر يتوقع منهم الشر فلا يحزن الرسول عند وقوعه، فمعنى النهى فى قوله تعالى: ﴿**لا يَحْزُنكَ**﴾ يتضمن أمرين:

أولهما ـ قبل وقوع شر أولئك المنافقين يتوقعه، فلا يحزن إذا وقع، وثانيهما ـ ألا يبقى أى أثر من ألم لوقوع الشر، والمعنى الضمنى لهذا النص: لا تعبأ بما يصنع هؤلاء مما من شأنه أن يحزن، فلا ينبغى أن تحزن.

وقوله: ﴿**الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ**﴾ معناه: الذين يتنقلون بحركات سريعة فى دركات الكفر فينحدرون من دركة إلى دركة ويوغلون فيه إيغالا من غير مواناة ولا تدبر ولا تفكر، وهذا سر التعدية بـ «فى» دون «إلى»؛ لأن التعدية بـ «إلى» تفيد الدخول فيه بعد أن لم يكن، أما التعدية بـ «فى» فإنها لا تفيد الدخول بعد أن لم يكن، بل تفيد الانتقال فى مداخله من حال إلى أسوأ منها فى سرعة من غير تفكير.

وهذا يزكى معنى النهى عن أن يكون منهم ما يحزن النبى ﷺ؛ لأنه لا يتوقع من الكفار الذين مردوا على النفاق إلا الإيغال فيه، والازدياد فى الشر.

وقد بين سبحانه نوع هؤلاء الناس، فقال تعالت كلماته: ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾. ﴿مِنَ﴾ هنا بيانية، فهى تدل على أن ما بعدها بيان للذين يسارعون فى الكفر متنقلين فى دركاته موغلين فى الجحود، وقد كان أول وصف يدل على جحودهم الشديد، وإمعانهم فى الضلال والتضليل هو أنهم يقولون: «آمنا» بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم،وقوله تعالى بأفواههم متعلق بقوله تعالى: ﴿قَالُوا﴾.

وقدم قوله تعالى ﴿آمَنَّا﴾ على قوله تعالى ﴿ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ للإشارة إلى مسارعتهم بقول الإيمان وإعلانه وذكره، إمعانا فى التضليل والنفاق، ولأن قول الله تعالى ﴿ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾، ولو أنه متعلق بكلمة ﴿قَالُوا﴾ فيه حكم على ادعائهم الإيمان والحكم يتأخر دائما عن واقعة الحكم، فالواقعة قولهم ﴿آمَنَّا﴾، والحكم من الله تعالى بأنه إيمان بالأفواه، لا بالقلوب فهو إعلان عن الإذعان، ولقد أكد سبحانه وتعالى ذلك الحكم بقوله تعالى: ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ أى لم تذعن للحق وتسلم به وتخضع له قلوبهم، وليس المعنى لم تصدق قلوبهم؛ لأن الإيمان ليس هو المعرفة المجردة، بل إنه إذعان وخضوع لما تقتضيه المعرفة ويقينها، فإن من أولئك يهودا كانوا يعرفون محمدا كما يعرفون أبناءهم، ولكن معرفتهم هذه صحبها تمرد على الحقائق، وعبث، وسير فى الجحود،فلا يمكن أن يتحقق الإيمان منهم، وإن كانت لديهم المعرفة بالحقائق، إذ لم يذعنوا لها، والتعبير بالأفواه بدل الألسنة ـ إشارة إلى تزيين كلامهم فقط حتى صار الفم كله يشترك فى ادعاء الإيمان لا طرف اللسان فقط.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ هى داخلة فى البيان الذى دلت عليه «من» الأولى، وعلى ذلك يكون هؤلاء داخلين فى الذين يسارعون فى الكفر، فإنهم فريقان، فريق المنافقين، وفريق اليهود الذين

تميزوا بهذا الاسم، وإن اشتركوا معهم فى معنى النفاق، ويكون قوله تعالى ﴿مِنَ﴾ بعد ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾ وصفا للفريقين معا، لأنه يجمعهم المسارعة فى الكفر، هذا أحد مخرجين للآية الكريمة، وهو يتفق مع إحدى القراءتين[١]، وهى التى لا يكون فيها الوقف عند قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ بل تكون القراءة متصلة. والقراءة الثانية أن يكون الوقف عند قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ ويكون قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾. استئنافا لفريق آخر، ويكون قوله تعالى ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾، وصفا لليهود، ويكون المعنى أن الذين يعاندون النبى ﷺ فريقان: أحدهما ـ منافق يعلن الإيمان، ويبطن الكفر وسبب جحودهم أنهم مردوا على النفاق، وضعفت نفوسهم، وانحل موضع اليقين فى قلوبهم لسماع الباطل من القول، والزور من الدعاوى، حتى اختلط عندهم الحق بالباطل، وفقدوا التمييز بينهما بسوء ما يصنعون، وكلا الفريقين يلتقى عند مصب الجحود والنكران، والمسارعة فى الكفر، وإن كان قوله تعالى: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾. غير متجه إلى اليهود من حيث النسق البيانى على القراءة الثانية فإنه من حيث التضمن والواقع ينطبق عليهم وصف المسارعة على الكفر، والتنقل فى دركاته.

وفى الحق، إن القراءتين[٢] مقصودتان من حيث المعنى، والقراءة الأولى معناها مقصود بالنص، والقراءة الثانية (كذلك) وكلتاهما قرآن يتلى ويفهم، ويراد معنى، كُلا ومنفردا.

وقوله تعالى: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾. هو وصف للفريقين على إحدى القراءتين، أو على مجموع القراءتين، وسمّاع صيغة مبالغة من سامع، أى من صفاتهم التى صارت فيهم خصلة من خصالهم أنهم كثيرو سماع الكذب، قد استمرأته قلوبهم وأسماعهم، يجدون لذاذة فى الاستماع، ويصل إلى قلوبهم

---

(١) عبر بالقراءة، وأراد الوقف (في أثناء القراءة).

(٢) أي الوقفين. والقراءات المتواترة توقيفية من عند الله تعالى.

فيفسد موضع التفكير والتدبر، كأولئك الذين يلقون بأسماعهم فى الخرافات، فيتقبلونها كأنها حقائق ثابتة لا مجال للريب فيها عندهم، فهم بهذا ضالون، وتكون اللام فى قوله تعالى: ﴿لِلْكَذِبِ﴾، للتعدية، أو لتقوية التعدية، وأن السماع منصب على الكذب، وقال بعض اللغويين: إن اللام للتعليل أى سماعون لأجل أن يكذبوا، وأحسب أن التخريج الأول أقرب إلى القبول؛ لأن ذلك وصف لهم، فهو غير معلل، وهو يدل على فساد قلوبهم من داخلها، لا من أمر خارج فقط، وقد بين سبحانه الذين يستمعون إليهم، والذين يغذون قلوبهم المملوءة بالصديد والدم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أى أنهم يكثرون سماع الباطل ويكثرون من سماع قوم آخرين لم يأتوك لهم تأثير فيهم، فاجتمع فيهم فساد الباطن الذى جعلهم لا يستمرئون إلا سماع الشر، ووجود من يستغلون فيهم ذلك الضعف القلبى، فيعملون على استهوائهم إلى الباطل، والتعبير بـ «قوم آخرين»، فيه إشارة إلى أن أولئك الذين يستمعون إليهم بعيدون عن سلطان الدعوة الإسلامية، إذا كان البعد حسيا، أو بعيدون عن قبول قوله إذا كان البعد معنويا، وكلاهما يشمله القول.

وفى الجملة: إن فى هذا تسلية للنبى ﷺ من حيث إن الذين يسارعون الكفر من المنافقين واليهود إذا كانوا يتنقلون فى دركات الجحود، ولا يستمعون إليك، فلأنهم يجيئون إليك وقلوبهم مملوءة بالباطل، والإيمان الصافى يحتاج إلى آنية صافية من كدرة الهوى، وأخباث الشر، وإذا كان فيها شىء من ذلك فإشراق الإيمان قد يذهب به إذا لم يكن ثمة تغذية له من كلام الآخرين، واستمراء الباطل.

وقد وصف الله الذين يمرقون عن الحق مروق السهم من الرمية ويدعون إليه بقوله تعالت كلماته: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾ الكلم اسم جنسى جمعى لكلمة، فهو معناه كلام، والتحريف أصله من

الحرف، وهو طرف الشىء، ومعناه إمالة الكلام عن معناه، وإخراجه عن أطرافه وحدوده، والتحريف يكون على ضروب شتى فيكون بتغيير الألفاظ والزيادة فيها والنقص منها، وذلك تحريف فى اللفظ والمعنى، وإما أن يكون التحريف بتفسير الكلام بغير ما تدل عليه الألفاظ، وتوجيه المعانى إلى غير مقاصدها، ويكون التحريف بإدخال احتمالات فى الألفاظ، وهى غير قابلة لها، وقد قال الأصفهانى فى هذا المعنى: «وتحريف الكلام أن تجعله على حرف من الاحتمال يمكن على الوجهين» وقد خرج على هذا المعنى النص الكريم الذى نتكلم فى معناه.

واليهود حرفوا التوراة بكل أنواع التحريفات، فزادوا فيها كلمات ليغيروا المراد فيها، ففى تحريم الربا زادوا كلمة «أخاك الإسرائيلى» ليجعلوه محرما بين الإسرائيليين فقط. وحذفوا منها عبارات، وأتوا بقصص مكذوبة كقصص ابنتى لوط، وحملوا ما بقى من عبارات من غير زيادة فيها أو نقص على غير معانيها، أو جعلوها محتملة لغيرها، ورجحوا غير الظاهر على الظاهر، وحذفوا منها ما كان فيه التبشير بمحمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾. أى من بعد استقرار مواضعه، وبيان حلالها وحرامها، وفى آيات كثيرة كان التعبير القرآنى، يحرفون الكلم عن مواضعه، أى يصرفونه عن مواضعه بزيادة أو نقص، والتعبير هنا هو قوله تعالت كلماته: ﴿مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾. أى من بعد استقرار أحكامه وهو مناسب للمقام هنا؛ لأن الموضوع، كما تدل الآيات التالية مسوقة لتغييرهم فى الأحكام، ومحاولتهم العبث بها.

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى ما كان يقوله القوم الآخرون الذين يسمعون لهم؛ فهم يعطونهم معلومات محرفة باطلة عن التوراة وما فيها، ويقولون للسامعين لهم: إن أوتيتم هذا فخذوه، أى إن آتاكم النبى ﷺ بمثل هذا الذى هم عليهم فإن لهم أن يقبلوه، وأن هذا كقول الله تعالى فيهم حاكيا عنهم قوله:

﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ ... ﴿٧٣﴾﴾ [آل عمران] وإن هذه الحال هى أبلغ الضلال الذى ينال العقول، وهو الفتنة التى تعتريها؛ ولذلك قال سبحانه:

﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾. الفتنه هنا هى: الضلال واستهواء النفوس إليه، وذلك أن الفتنه تطلق بمعنى الاختبار الشديد، والوقوع فى البلايا والشدائد والنوازل، وأن هؤلاء قد اختبرت نفوسهم بما سلط عليهم من باطل ودعوات إليه، وسقطوا فى الاستجابة لهذا الشر، فكانت هذه هى الفتنة التى وقعوا فيها باختيارهم، واستهوتهم الأهواء المردية، ووقعت بهم البلايا الشديدة، وقد أراد الله تعالى أن يقعوا فيها باختيارهم، فالضلال باختيارهم وسلوكهم سبيله، وتجانفهم عن طريق الحق، والله تعالى أراد لهم ما اختاروا.

وقد بين الله تعالى أن النبى ﷺ لا يملك أن يزيل عنهم ذلك الضلال لأن من يرد الله فتنته وضلاله بكتابة ذلك عليه، وتسجيله فى لوحه المحفوظ، فلن يملك أحد دون الله شيئا فى ذلك، فلا يستطيع تغييره، وأنت يا نبى الله لا تستطيع التغيير فلا تحزن لضلالهم، ولا تهتم لما يقعون فيه: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ... ﴿٥٦﴾﴾ [القصص]. ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾.

إن هؤلاء الذين أركست نفوسهم فى الشر والضلال، حتى صار النفاق دأبهم، وتحريف القول بعد استقرار مواضعه طريقهم، واستمراؤهم للكذب يستمعون إليه وصفهم - أولئك المتصفون بهذه الصفات لم يرد الله تعالى أن يطهر قلوبهم، ذلك أن قلوبهم اكتسبت سيئات تراكمت وتكاثفت، حتى أربدت، وخالطها الشر وأصبح ملاصقا لها كأنه جزء من كيانها، والله سبحانه يأخذ بيد من يرتكب الشر عن جهالة، أما من اكتسبت نفسه الخطايا وأحاطت به، فإنه سبحانه وتعالى يتركه، لينال جزاء ما كسبت يداه؛ ولذا قال سبحانه:

﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هؤلاء هم الذين فتنوا فى دنياهم بوقوعهم مختارين فى بلائهم، فأولئك المنافقون والذين هادوا لهم - بسبب ماوصفوا - خزى فى الدنيا وعذاب عظيم فى الآخرة، يبلغ من الإيلام والأذى ما لا يدرك كنهه ولا يعرف حقيقته إلا رب العالمين، وما أعطانا من علم فى كتابه الحكيم، وعلى لسان رسوله الأمين.

وأما الخزى فى الدنيا، فهو الذل الدائم المقيم مهما يكن من مظاهر القوة، ذلك أن النفاق وحده ضعف فى النفس واضطراب فى العقل، وكشف لحاله مهما يكن عنده من قدرة على الإخفاء والتستر، فإن ثوب النفاق شفاف دائما، وذلك فوق ما يتسم به من جبن وخور إن لم يكن معلوما لكل الناس فإنه يكون معلوما بينه وبين نفسه، وهم يحسبون أنهم يستهزئون بالناس، والناس يعلمونهم، والله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون.

واليهود لا يعيشون إلا فى كنف غيرهم من الناس أو على خداع الناس، وحسبهم ذلك خزيا وعارا.

وقانا الله تعالى شر هذا الخزى، ووقى المسلمين من شر النفاق والمنافقين، وحمى الأمة الإسلامية منه، وهو العليم بذات الصدور.

سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾

الكلام مستمر فى بيان أوصاف الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم، ولم تؤمن قلوبهم، والذين غلبت عليهم الشقوة والضلالة، حتى صاروا لا يخضعون إلا لأهواء قوم لم يشرق فى قلوبهم نور الإيمان، ولم تطمئن قلوبهم ببرد اليقين للإذعان للحقيقة بعد أن يعرفوها.

وقد انتقلت الآيات من التعميم إلى التخصيص، فخصت اليهود بوصف آخر غير أنهم سماعون للكذب بأنهم أكالون للسحت.

﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ هذا وصف للذين يسارعون فى الكفر عامة وفى اليهود خاصة، وهم مرنوا على سماع الباطل واستمرءوه وأضافوا إلى ذلك وصفا من بابه، وهو أنهم يستمرئون المال الخبيث الذى ينبت من باطل، وإذا كانت آذانهم تستمرئ باطل القول وزوره، فأفواههم وذممهم تستمرئ أكل أموال الناس بالباطل، والسحت كما يفهم من مصادر اللغة وآثار التابعين والصحابة، كل كسب يكون بطريق آثم، ومن ذلك الرشوة والربا، وأخذ الأجور فى الشفاعات، وقد سئل عبدالله بن مسعود عن السحت، فقال: الرجل يطلب الحاجة للرجل فيقضيها فيهدى إليه هدية فيقبلها[١]، وإذا كانت الهدية فى مقابل قضاء الحاجات سحتا، فماذا يكون كسب الجاه والمال والمناصب، وما تدر عليه من مال بطريق النفاق والفتاوى الباطلة فى الدين، ولقد قال النبى ﷺ: «كل لحم أنبته السحت فالنار أولى به»[٢].

وذكر الطبرى الأصل اللغوى لكلمة سحت، فقال: «وأصل السحت[٣] كَلَبُ الجوع، يقال: فلان مسحوت المعدة، إذا كان أكولا، لا يلفى أبدا إلا جائعا،

(١) عَنْ أَبِي أُمَامَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ شَفَعَ لأَخِيهِ بِشَفَاعَةٍ فَأَهْدَى لَهُ هَدِيَّةً عَلَيْهَا فَقَبِلَهَا، فَقَدْ أَتَى بَابًا عَظِيمًا مِنْ أَبْوَابِ الرِّبَا» [رواه أبو داود: البيوع - الهدية لقضاء الحاجة (٣٥٤١)، وأحمد: باقي مسند الأنصار (٢١٧٤٨)]. أوردته لغلبة الغفلة عنه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) كما في جامع البيان ج٦، ص١٤٠.

وإنما قيل للرشوة السحت تشبيها بذلك، كأن بالمسترشى من الشره إلى أخذ ما يعطاه من ذلك - مثل الذى بالمسحوت - المعدة من الشره إلى الطعام، يقال منه: سحته، وأسحته لغتان محكيتان عن العرب... ومنه قوله تعالى: ﴿... فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ... ﴿٦١﴾﴾ [طه]. وتقول العرب للحالق: «اسحت الشعر، أى استأصله».

ونرى أن ابن جرير ذكر الرشوة فقط هنا، وإن كان السحت يشمل أكل مال الناس بالباطل، ولو كان هدية فى نظير مسعى حميد كما ذكرنا عن ابن مسعود، وقد روى عن مسروق التابعى أنه شفع لرجل فى حاجة، فأهدى إليه جارية فغضب غضبا شديدا، وقال: لو علمت أنك تفعل هذا ما كلمت فى حاجتك، ولا أكلم فيما بقى من حاجتك، سمعت ابن مسعود يقول: «من شفع شفاعة ليرد بها حقا، ويرفع بها ظلما فأهدى له فقبل فهو سحت».

وإن هذا الكلام المروى يبدو منه أمران: أحدهما أن كل أكل لمال الغير بالباطل يعد سحتا سواء أكان برضاه أم كان بغير رضاه. وثانيهما - أن الصحابة والتابعين لهم بإحسان كانوا لفرط إيمانهم بالحق ووجوب نصرته يرون أن نصرة الحق ودفع الباطل يجب أن تكون لله، وأنه لا يصح أخذ أجر فى نظيرها، ولو كان هدية تعطى فى مسمحة ومحبة، حتى لا يرنق قول الحق بغرض من أغراض الدنيا، وحتى لا يستغل الجاه، ولكى تعلو معنويات الأمور، ولا تسيطر مادياتها.

وإن اليهود قد اشتهروا بالسحت، وخصوصا فى الحكم، وقد أرادوا من النبى ﷺ أن يحكم بينهم بشرعته رجاء أن يكون فى حكمه ما هو أخف من حكم ما عندهم، لا طاعة لحكمه، وخصوصا للحق عنده؛ ولذا قال سبحانه:

﴿... فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ يومئ هذا النص الكريم إلى أنهم سيتحاكمون إليه، وقد تحاكموا إليه بالفعل لا طلبا للحق والعدل، ولكن رجاء التخفيف عمن أرادوا التخفيف عنه، وروى فى موضوع التحاكم الذى ذهبوا إلى النبى ﷺ ليحكم فيه عدة روايات تنتهى إلى خبرين:

أولهما ـ أنهم كانوا يقيمون حد الزنى، إلى أن زنى منهم شاب ذو شرف، فقال بعضهم لبعض: لا يدعكم قومه ترجمونه، ولكن اجلدوه، فجلدوه، وحملوه على إكاف حمار؛ (برذعة) وجعلوا وجهه قبل ذنب الحمار، ثم زنى بعد ذلك وَضِيعٌ ليس له شرف وليس له من يحامى عليه، فقالوا: ارجموه، ثم وجد من بينهم من استنكر تلك التفرقة، فقالوا: كيف لم ترجموا الذى قبله، ولكن اصنعوا بهذا مثل ما صنعتم بسابقه، ثم قالوا: سلوه لعلكم تجدون عنده رخصة.

وكأنهم استثقلوا إقامة الحد، وأرادوا أن يترخصوا، ويقبلوا حكم النبى ﷺ فبين لهم النبى ﷺ أنه حكم توراتهم يجب أن ينفذ، وأنه لا يصح الفرار من هذا الحكم، وإن ذل الأمم يكون إذا غيرت الأحكام فيها لأجل الأقوياء، وبدلت على حسب الأهواء.

ثانيها ـ أن اليهود ما كانوا يعدلون فيما بينهم، ولا تتكافأ دماؤهم فى نظرهم، فكانت قريظة إذا قتلت قتيلا من بنى النضير كانت تَجِب الدية كاملة فى حال وجوب الدية، وإذا قتلت النضير من قريظة كانت نصف الدية لشرف فى الأولى ونقص فى الثانية، ويروى أنهم كانوا إذا قتل رجل من بنى النضير قرظيا لا يقتل به ووجبت الدية، وإذا كان المقتول نضيريا قتل به، فكانت فى عصر النبى ﷺ وهو بينهم دماءٌ، فتحاكموا، فحكم بالتسوية، لأن ذلك هو العدل، وهو حكم التوراة.

وقد خير الله تعالى نبيه فى أن يحكم بينهم أو يعرض عنهم، ولماذا كان ذلك التخيير، وإقامة العدل واجبة، وقد مكن من إقامته بتحكيمهم؟ والحقيقة أن النبى ﷺ كان مخيرا ذلك التخيير، ليتعرف أمرهم، فإن كانوا يريدون الحق ويطلبونه ويذعنون له استجاب للأمر وحكم، وإن كان يعلم أنهم جاءوا مغرضين فى قلوبهم مرض، لا ينفذون إلا ما يتفق مع أهوائهم وليسوا خاضعين لسلطانه - ينفذ فيهم الحق الذى يراه، أما الذين يكونون تحت سلطانه وينفذ الحق فيهم، فإنه لا تخيير بل يقضى بينهم، وكذلك الأمر من بعده ﷺ، ولذلك قرر الفقهاء أن

الذميين فى المعاملات المالية والزواجر الاجتماعية خاضعون للأحكام الشرعية، ولا يجيز الحاكم فى الحكم بينهم بشرع الله تعالى؛ لأن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، أما رعايا الدول الأخرى الذين يقيمون فى ديارهم ويربطهم بالمسلمين الجوار وميثاق عدم الاعتداء، كما كان الشأن فى يهود المدينة فى أول أمرهم، قبل أن تظهر خيانتهم، ويضطر النبى ﷺ إلى إجلائهم.

وهنا ملاحظة لفظية، وهى فى قوله تعالى: ﴿فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ﴾. لماذا كان التعبير بـ «إن» الدالة على الشك ولم يكن التعبير بـ «إذا» الدالة على التحقيق، مع أنهم جاءوا إليه فعلا؟ والجواب عن ذلك أن الشك كان بالنسبة لحالهم، فهم كانوا مترددين فى التحاكم إلى النبى ﷺ، وهم بعد الحكم لم ينفذوا، فحالهم حال شك ابتداء وحال شك انتهاء، وعدم إذعان فى الحالين؛ لأن فى قلوبهم، كما قال تعالى فى أشباههم: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ... (٥٠)﴾ [النور].

ولقد زعم بعض العلماء أن الحكم الشرعى كان هو التخيير عند تحاكم غير المسلمين ثم نسخ، وصار الحكم لازما، والحق أن التخيير لا يزال قائما بالنسبة لغير المسلمين الذين يطلبون حكم الإسلام من الحاكم المسلم لينفذوه فى ديارهم، والتخيير ليتعرف الحاكم حالهم، فيحكم حتما إن كانوا طلاب حق، وله أن يرفض إن كان فى قلوبهم مرض، ولا ضرر من الإعراض؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾.

وإنه فى حال الإعراض يصاب أولئك الذين يريدون الحكم لهواهم لا للحق فى ذاته - بخيبة أمل قد تحرك فيهم عناصر الضغينة والمقاومة، وإشاعة قالة السوء عن النبى ﷺ فبين الله سبحانه وتعالى فى ذكره الحكيم أنه لا تضره هذه الأفعال، وقد نفى سبحانه وتعالى الضرر نفيا مؤكدا بـ «لن»؛ لبيان أنهم لا طاقة عندهم فى أن يضروه، وكان نفى الضرر فى هذا المقام له مغزاه؛ لأن احتكامهم إليه ﷺ فيه نوع من المسالمة والإذعان فى الظاهر لما جاء به النبى ﷺ، وهو إعلان للتصديق،

فإذا أعرض، فقد يكون ثمة احتمال الضرر الذى ينال الدعوة الإسلامية، وشدة لجاجتهم فى الباطل، فنفى الله سبحانه وتعالى ذلك الضرر؛ لأن الإعراض يكون حيث يدرك النبى عليه الصلاة والسلام أنه لا مجال لأن ينفذوا ما يحكم به، وأنهم يريدون أن يطوعوا أحكامه لأهوائهم، أو يتأولوها بغير المقصود منها، فيكون أكرم للدعوة، وأكرم لمقامه عليه الصلاة والسلام أن يذرهم فى غيهم يعمهون، والله سبحانه وتعالى غالب على أمرهم.

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ القِسط هو: النصيب بالعدل الذى لا وكس فيه ولا شطط، وتوصف به الأعمال الطيبة، فقد قال تعالى: ﴿... لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ... ﴿٤﴾﴾ [يونس]. وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ ... ﴿٩﴾﴾ [الرحمن].

والقَسْطُ أخذ نصيب غيره، والإقساط إعطاء غيره نصيبه غير منقوص؛ ولذلك قال العلماء: إن القاسط هو الظالم، ولذا قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن]. والمقسط هو العادل، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. والمعنى الجملى للنص الكريم: إن اخترت أن تحكم بينهم لرجاء أن ينفذوا الحكم ويذعنوا له، فلا تتبع أهواءهم واحكم بالعدل والقسطاس المستقيم، وذلك العدل بين الله تعالى حكمه، وشرع لزومه فى كتبه المقدسة فإذا كان هناك زنى فالقسط أن يحكم بالحد، لا فرق بين شريف وضعيف، وقادر وغير قادر، بل الجميع أمام الحق على سواء، فالقسط هو إعطاء كل ذى حق حقه، وتنفيذ حدود الله تعالى بالمساواة، فلا يعفى منها شريف دون ضعيف، فإن فى هذا هلاك الأمم، وذل الشعوب.

وقد ذيل النص الكريم بقضية عامة شاملة، وهى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. وفى ذلك تزكية للعدل وتأكيد لطلبه، فقد أكد الكلام بالجملة الاسمية، وبـ «إنَّ» المؤكِّدة، وبتصدير الكلام بلفظ الجلالة، وببيان أن محبة الله تعالى لا تكون إلا للعادلين المقسطين الذين لا يجورون، وكان التعبير بـ «إنْ» فى

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم﴾. وهى تفيد الشك فى اختياره عليه الصلاة والسلام الحكم بينهم لأنهم ليسوا طلاب حق وإنصاف بل يريدون الحكم كما يهوون، والدليل على أن اليهود ليسوا طلاب حق أن التوراة التى بأيديهم فيها الحكم صريح فى الموضوع الذى تحاكموا فيه.

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾
الاستفهام هنا للتعجب واستنكار حالهم، أى أن حالهم حال مستنكرة. عندهم النص الصريح فى القضية التى يتحاكمون فيها، ومع ذلك يلتمسون الحكم فى غير ما عندهم رجاء أن يكون على ما يهوون ويبتغون، وإن كان غير ما يؤمنون فهم ممن اتخذ إلهه هواه، وممن يريدون أن يتبع الحق أهواءهم، لا أن تكون أهواؤهم تابعة للحق تسير فى مداره، ولا تخرج عن إطاره، والتعجب والاستنكار يتجهان إلى أمرين:

أولهما- أنهم يتحاكمون إلى النبى ﷺ مع أن الحكم عندهم فى التوراة صريح لا مجال للريب، فلماذا يعدلون عن تنفيذ ما عندهم إلى طلب شىء عند النبى عليه الصلاة والسلام، إلا أن يكونوا مؤمنين بصدق ما جاء به، وذلك لم يكن منهم.

والأمر التالى- الذى هو موضوع الاستنكار والعجب أنهم يطلبون من النبى عليه الصلاة والسلام، ثم يعرضون من بعد بيانه لهم. فهم متناقضون فى جملة أحوالهم يطلبون الحكم ممن لا يؤمنون بدعوته، مع أن الحكم صريح فيما يؤمنون ثم يعرضون عن الحكم الذى يتلاءم مع ما عندهم.

ويلاحظ أن القرآن الكريم يقرر أن التوراة فيها حكم الله فى المسألة التى يختصمون إلى النبى عليه الصلاة والسلام فى أمرها، فهى تصديق للتوراة فى تلك الجزئية، وهى إقامة حد الزنى دون غيرها، فليس لأحد أن يحتج بأن القرآن يقر أحكام التوراة التى كانت بأيدى اليهود فى عصر النبى عليه الصلاة والسلام والتى بأيديهم فى هذه الأيام، فإن تصديق ما بأيديهم فى جزئية من الجزئيات لا يقتضى

تصديقها فى كل ما جاء بها مما فى أيديهم، فقد نسوا حظا مما ذكروا به، وحرفوا الكلم عن مواضعه ولا شك أن التحريف لم يتناول الجميع، بل لا تزال فيها أثارة مما نزل على موسى.

ومن المباحث اللفظية فى النص الكريم التعبير بـ «ثم»، وبقوله تعالى «من بعد ذلك»، فى قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾.

فإن التعبير بـ «ثم»، والبَعدية والإشارة للبعيد للتفاوت النفسى المنطقى الكبير والتراخى المعنوى بعد الاحتكام إلى النبى عليه الصلاة والسلام والإعراض عن قوله بعد أن بين حكم التوراة فيما يحتكمون، ولكن المنافق المبطل فى مفارقات مستمرة بينه وبين الحق، والمنطق السليم، والعقل المستقيم.

﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ فى هذا النص الكريم نفى لصفة الإيمان المطلق عن اليهود وأشباههم ممن يجعلون الحق تبعا لأهوائهم، والله سبحانه وتعالى ينفى صفة الإيمان بأى عقيدة أو مذهب؛ لأن الإيمان يقتضى طلب الحق وإدراكه والإذعان له وهذه ليست صفات هؤلاء، فهم لا يطلبون حكم الحق بل يطلبون حكم الهوى، وأركسوا فى الأهواء فلا يدركون، وبعدوا عن المنهاج المستقيم فلا يذعنون، فهم لا يؤمنون بالتوراة وإلا أذعنوا لحكمها، ولا يؤمنون بما جاء به النبى عليه الصلاة والسلام لأنهم جحدوا قوله وناوءوه، وناصبوه العداء فهم لا يؤمنون بشىء.
والإشارة فى قوله تعالى: ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ إليهم بأوصافهم كلها من أنهم لا تستمرئ أسماعهم إلا الكذب، ويأكلون أموال الناس بالباطل، ويتميلون بالحق، ويفرقون فى الحكم بين القوى والضعيف ومن كان هذا شأنهم لا يمكن أن يدخل شيء من الإيمان قلوبهم.. اللهم احفظ الناس من شرهم، وهبنا الإيمان الصادق والإذعان للحق.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

ذكر سبحانه فى الآيات السابقة ما عليه اليهود من أنهم كانوا سماعين للكذب، وأنهم يأكلون السحت، وأنهم لا يتبعون الحق فى أحكامهم، بل يجعلون الحكم تبعا لأهوائهم يفرقون فى الأحكام بين الشريف والضعيف، والغنى والفقير، والقوى المستعلى، والضعيف المستخذى، وأنهم جاءوا إلى النبى ﷺ فى بعض قضاياهم راجين أن يكون عنده ما يرضى أهواءهم، فكشف الله سبحانه وتعالى خبيئة نفوسهم، وبين أن الحكم عندهم ثابت فيها، وأن الإسلام لم ينسخه، وقضى عليه الصلاة والسلام به أو أشار عليهم باتباع ما عندهم فى هذه المسألة إن كانوا طلاب حق، ثم بين سبحانه أن التوراه التى بأيديهم لا يزال بها ذلك لم يغيروه.

وقد بين سبحانه وتعالى من بعد ذلك مقام التوراة فى الأحكام التى قررتها لليهود، وتململوا بها، وخرجوا عليها، وكان ذلك من أسباب ضياعهم، وقساوة قلوبهم. فقال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾.

فى هذا النص الكريم بيان لشرف التوراة قبل أن يحرفوها ومكانها من الحق، فبين سبحانه شرفها الذاتى، وشرفها الإضافى، بين أنها منزلة من عند الله

تعالى، فقال تعالت كلماته: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ﴾ هو سبحانه وتعالى المنزل لها، وأكد ذلك الشرف بـ ﴿إِنَّا﴾، وبإضافة ذلك التنزيل إليه تعالت كلماته، وتقدست كتبه.

وبين سبحانه وتعالى شرفها الذاتى بما اشتملت عليه من هداية ونور، والهداية أو الهدى ما اشتملت عليه من بيان الأحكام فى المعاملات والزواجر الاجتماعية وما يرشد إلى التطبيقات العملية، وأما النور فهو ما تشتمل عليه من مواعظ مبصرة، وأخلاق منيرة للحق، مقومة للسلوك مكونة للرأى العام الفاضل، وعبادات مطهرة للنفوس منيرة للقلوب، وبذلك تكون الهداية ما يتعلق بمعاملات الناس وتنظيم الجماعة والنور ما يتعلق بالعقيدة والعبادة والمواعظ، وسائر ما يتصل بالتوجيه النفسى وتطهير القلوب.

وقد فسرت الكلمتان بغير ذلك، فقد فسر الزمخشرى كلمة «الهدى» بأنه: يهدى إلى الحق والعدل، و«النور» بما فيه بيان ما استُبْهِمَ من الأحكام، والمؤدى على التفسيرين هو الرد على اليهود، وبيان وجه العجب فى قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ﴾ بأنهم لو كانوا طلاب حق فالتوراة عندهم فيها الهداية إلى العدل وهى كاملة فى بيانه وتوضيحه، لا تحتاج إلى مبين، ولا إلى موضح.

ويجب أن ننبه هنا إلى أن التوراة التى فيها هذه الأوصاف من أنها منزلة من عند الله، وأنها هدى ونور ـ إنما هى التوراة التى لم يحرفوها، ولم يزيدوا عليها أو ينقصوا منها، فإنها دخلت فيها الزيادة والنقص عندما ضُربت أورشليم(١) بأيدى التتار والرومان، وحرقوها، فلا يحتج بهذا الكلام للتوراة التى بأيدى اليهود وغيرهم فى هذه الأيام، فقد نسوا حظا مما ذكروا به، وزادوا ما لم ينزل من عند الله.

﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ﴾ التوراة الصادقة التى أنزلت من الله تعالى لم تكن شرائعها معطلة بل كانت ثابتة معمولا بها، والذين

(١) أورشليم: بيت المقدس بالعبرانية.

كانوا يعملون هم النبيون الذين جاءوا من بعد موسى، فقد كانت التوراة الشريعة التى ينفذون أحكامها، ولم يكن عندهم ما ينسخ شريعة التوراة أو يبدل أحكامها أو بعض هذه الأحكام، ولقد وصفهم الله تعالى بأنهم: ﴿الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ أى أخلصوا لله ولتنفيذ أحكامه، وأذعنوا للحق، ولا يحاولون أن يجدوا منه مناصا بتأويل، أو بإرادة تخفيف لشريف، وتشديد على ضعيف، وفى ذلك تعريض بما كان من اليهود من جعلهم للضعيف حكما صارما، وللشريف تهاونا ظالما، فإن خُلق النبيين الإخلاص وهو الإسلام والانقياد وتنفيذ حكم الله تعالى بقلب سليم، فذكر وصف الإسلام للنبيين، لبيان ما أوتوا من شرف الإذعان، وللإشارة إلى أن تنفيذ الأحكام من غير عوج ولا التواء هو خلق كل النبيين، ويقول بعض العلماء: إن ذلك تشريف لمعنى الإسلام إذ هو خلق الفضلاء، وخلق النبيين الصديقين، ويقول الإمام ناصر الدين بن المنير الإسكندرى فى ذلك: «إن الصفة قد تذكر للعظم فى نفسها، ولينوه بها إذا وصف بها عظيم القدر، كما يكون تنويها بقدر موصوفها، فالحاصل أنه كما يراد إعظام الموصوف بالصفة العظيمة قد يراد إعظام الصفة بعظم موصوفها. . . فكذلك والله أعلم جرى وصف الأنبياء فى هذه الآية بالإسلام تنويها به، ولقد أحسن الناظم فى مدحه عليه الصلاة والسلام، إذ قال:

فلئن مدحت محمدا بقصيدتى فلقد مدحت قصيدتى بمحمد

فيقرر ذلك العالم الجليل أن وصف النبيين بالإسلام تنويه بشأنه، وإعلاء لقدره؛ إذ إن النبيين هم المصْطَفوْنَ الأخيار، فالصفات تعلو بهم، وهم قد علوا باختيار الله تعالى لهم.

وحكم هؤلاء الأنبياء الذين جاءوا من بعد موسى بالتوراة التى نزلت عليهم كان لليهود، فكانت فاصلا بينهم مقيمة الحق فيهم، فما بال اليهود يتململون من حكمها، ويخرجون عن سمتها، ويطبقونها على الضعفاء، ويعفون من أحكامها الزاجرة الأقوياء، إنما أهلكهم ذلك الجور، وهم لا يعيشون إلا فى أزمان الجور، وحيث كان العدل أذلتهم أخلاقهم، وأركستهم أهواؤهم.

﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ وهذا النص يبين أن التوراة ما كان يطبق أحكامها النبيون فقط، حتى لا يقال لسنا كالنبيين، وإن تطبيقها مقصور عليهم، ولكن الذين يطبقونها من غير النبيين يتصفون بصفتين: الإخلاص، والاتصال الروحى بالله، حتى يكون سمعهم الذى يسمعون به، وبصرهم الذى يبصرون به، والصفة الثانية: العلم الدقيق العميق، والإحاطة الكاملة بعلم الكتاب، بحيث لا يكونون ممن يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض وهؤلاء هم الربانيون والأحبار.

والربانيون هم المنسوبون إلى الرب، وقد قال فى تفسير هذا اللفظ الأصفهانى فى مفرداته: «والربانى قيل منسوب إلى الربان، لفظ فعلان من فعل يبنى، نحو عطشان، وسكران، قلما يبنى من فعل، وقد جاء نعسان، وقيل هو منسوب إلى الرب الذى هو المصدر وهو الذى يرب العلم كالحكيم، وقيل منسوب إليه، ومعناه ربَّ نفسه بالعلم، وهما متلازمان؛ لأن من رب نفسه بالعلم فقد رب العلم، ومن رب العلم فقد رب نفسه، وقيل هو منسوب إلى الرب أى الله تعالى، فالربانى كقولهم إلهى، وزيادة النون كزيادته فى قولهم لحيانى وجسمانى، قال على ـ رضى الله عنه ـ: «أنا ربانى هذه الأمة».

وخلاصة ذلك الكلام: أن كلمة ربانى إما منسوبة إلى الرب بمعنى تربية النفس وتهذيبها، وجعلها خاضعة لله تعالى ولمقتضى العلم والتهذيب، فهو قد صفى نفسه من أدران الهوى، وإما منسوبة إلى الرب الخالق المبدع المتصرف، أى أن الشخص قد جعل نفسه خالصا لله تعالى كإلهى، أى أنه عابد عبادة جعلت لكل شىء فى نفسه لله تعالى، والمعنيان وإن افترقا فى التصريف والاشتقاق متلاقيان فى المؤدى؛ إذ المؤدى أن الربانيين هم الذين صفوا نفوسهم، حتى كانت لله تعالى خالصة لا تزيفها الأهواء ولا الشهوات، فالحق ملء قلوبهم، ولا يشغلها غيره[1]، والأحبار هم العلماء جمع حَبْر، أو حِبْر، وهما لغتان، وهو مأخوذ من

(١) أي لا يشغل قلوبهم غير الحق.

معنى التزيين والتحسين؛ لأن الحبر هو الأثر الحسن ذو الرونق، ويكون المعنى: الذين يجمعون العلم ويدرسونه ويزينونه بالقول الحسن والتطبيق الجيد،أو هو مأخوذ من الحبر مادة الكتابة لعنايتهم بتدوين علمهم وعرضه للناس، وإبقائه أثرا خالدا من بعدهم، والمفسرون على أن الربانيين والأحبار نوعان قد طبقوا حكم التوراة فالأولون صفت نفوسهم وربوها بالعلم والعبادة، والآخرون جمعوا العلم ورتبوه وعرضوه، وعلى هذا التفسير الذى يجعلهم نوعين متغايرين، نوجه القول فيه بأن الذين قاموا على التوراة صنفان: أحدهما ـ جمع علمها واستخرج ينابيعها، وأحاط بها، وآخرون طبقوها فى الأقضية، أى أن الفقهاء وهم الأحبار قدموا خلاصة ما علموا نقيا محبرا تحبيرا جيدا، والآخرون وهم الربانيون طبقوه مجردين أنفسهم من كل شهوة وهوى، فالضعيف عندهم قوى، حتى يأخذوا الحق له والقوى منهم ضعيف حتى يأخذوا الحق منه، كما يفعل الربانيون من أمة محمد أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وغيرهم رضى الله عنهم، وقدم الربانيون على الأحبار؛ لأنهم الذين يطبقون العلم على العمل، والمقام فى الآية هو مقام التطبيق، فالعمل الواضح هو عمل الربانيين؛ لأنهم الذين يحكمون بحكم التوراة، وقد خص الله تعالى الفريقين بقوله تعالت كلماته: ﴿**بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ**﴾.

«الباء» هنا متعلقة بـ «يحكم»، أى أن النبيين والربانيين والأحبار يحكمون بما فى التوراة لأنهم حُمِّلوا أمانة حفظ كتاب الله، بحيث لا يضيعونه، ولا يهملون أحكامه، وقد يقال إنها متعلقة بالربانيين والأحبار، على معنى أنهم أوتوا هاتين المنزلتين منزلة الربانية والعلم بسبب أنهم حملوا أمانة الكتابة وقاموا، و«استحفظوا» بالبناء للمجهول فيه بيان أنهم بمقتضى ما مُنحوا من صفات عهد إليهم أمر المحافظة على كتاب الله المنزل على نبيه، والمراد بكتاب الله هنا التوراة، وعبر عنها بكتاب الله تعالى للإشارة إلى منزلتها إبان نزولها قبل تحريفها، وإلى شرف من يقومون بحفظها، وإلى مكان التكليفات والأحكام التى اشتملت عليها، والاستحفاظ هو الحفظ المطلوب؛ إذ إن السين والتاء للطلب، والمعنى: أن الربانيين

والأحبار حفظوا كتاب الله تعالى بإلهامهم طلب الحق والعلم وتوجيههم نحو الخير، وكان حفظهم مؤكدا؛ لأنه استجابة لطلب الله تعالى الخبير، وحفظ الكتاب بعلم ما اشتمل عليه، ومنعه من الضياع والتحريف، وتنفيذ الأحكام التى يأمر بها، وطاعته فيما ينهى.

وكان أولئك الربانيون والأحبار شهداء، أى رقباء يحافظون على نصوصه كاملة، ويشهدون بصدق ما نزل من عند الله، ويردون المحرف، وكانوا أيضا رقباء على تنفيذه، بحيث ينفذ من غير عوج.

﴿فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ الخشية هى الخوف مع تعظيم المخشى ومحبته، فليست مرادفة لمعنى الخوف؛ لأن الخوف أعم من أن يكون من مرهوب معظم محبوب، أو مرهوب مبغض ذميم، أو فيه مهانة لا عظمة فيه؛ ولذلك عبر عن الأخيار بالنسبة لله تعالى بالخشية دون الخوف، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿... إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ... (٢٨)﴾ [فاطر]. وقوله تعالى: ﴿... وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ... (١١)﴾ [يس]. وقال سبحانه: ﴿... وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١)﴾ [الرعد].

و«الفاء» فى قوله تعالى: ﴿فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ هى للإفصاح، والمعنى: إذا كان الكتاب قائما وثابتا، ونفذه السلف والخلف إلى ما بعد عصر النبيين، فلا تخشوا الناس، والتعبير عن خوف الناس وملامتهم بالخشية من قبيل المشاكله اللفظية، فى مقابل قوله تعالى: ﴿وَاخْشَوْنِ﴾. أى أن الله تعالى هو وحده الجدير بأن يخشى، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ ... (٣٩)﴾ [الأحزاب].

والخطاب موجه إلى اليهود المعاصرين للنبى ﷺ وعلمائهم، وفى الكلام يكون التفات إذ انتقل الكلام من أخبار الأخيار منهم إلى خطابهم، والمعنى: لا تخافوا ملامة الناس ولكن اخشوا الله تعالى وحده، فلا تمالئوا الأقوياء وتركنوا إليهم، بل اجعلوهم جميعا سواء مع غيرهم من الضعفاء كما كان يفعل النبيون

والربانيون، الذين اقتفوا أثر النبيين ويكون معنى ﴿وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً﴾. لا تستبدلوا بأحكام آياتى، فتتركوها هاجرين لها معرضين عنها، فى نظير رشوة أو ممالأة، فإن ما يكون ثمنا لترك الآيات قليل مهما يكن مقداره، ومهما يكن اعتباره، فآيات الله تعالى أغلى ما فى الوجود؛ لأنها هدايته.

ولكن الخطاب «لا تخشوا»، و«اخشوا» ربما يكون أعلى من أن يكون لليهود الذين عاصروا النبى عليه الصلاة والسلام فقد وصفهم الله تعالى بأنهم سماعون للكذب أكالون للسحت؛ ولذلك أحيلُ إلى ما روى عن الحسن البصرى من أن الخطاب للمؤمنين، فهم الجديرون بخشية الله تعالى، وهم الجديرون برفعة هذا الخطاب، وربما كان ما روى عن ابن مسعود من أن الخطاب عام للناس أجمعين هو الأسلم، وهو ما تدل عبارة صاحب الكشاف.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ الإشارة فى قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ للذين لا يحكمون بما أنزل الله، فهى إشارة تفيد أن النتيجة سببها الفعل، وهو تجنب حكم الله تعالى، وقد أكد سبحانه الحكم بالكفر عليهم بهذه الإشارة وبالجملة الاسمية، وبالفاصل (هم)؛ وبالقصر إذ هم مقصورون على الكفر، والكفر مقصور عليهم قصرا إضافيا، بمعنى أنهم بلغوا فى الكفر أقصاه، حتى لا يعد كفر غيرهم بجوار كفرهم شيئا مذكورا.

وهل يعد كل من يحكم بغير حكم الله تعالى الذى أنزله على رسله كافرا؟ يظهر لى أن الذى يحكم بغير حكم الله مستهينا به مستنكرا له، وقد يبلغ به الاستنكار درجة التهكم عليه يعد كافرا؛ لأن ذلك جحود وإنكار أو استهزاء بآيات الله إن كان يعلم أنها من عند الله تعالى، ويستنكر مؤداها، ومن جحد أحكام القرآن فقد كفر، وقد قال فى ذلك عبدالله بن عباس: «من جحد حكم الله كفر، ومن لم يحكم به وهو مقر فهو ظالم فاسق» وبذلك يكون هذا النص واردا فيمن حكم بغير حكم الله تعالى منكرا.. اللهم املأ قلوب قومنا بالإيمان حتى يألفوا حكم الله، ويرتضوا كتابه حكما بينهم، ولا يجدوا حرجا فى حكمه، إنك خير الحاكمين.

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾

هذا وصل لما ابتدأه الله سبحانه وتعالى من بيان مكانة التوراة التى أنزلت على موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم، إذ قد بين سبحانه وتعالى أن التوراة فيها هدى ونور، وأنها قد طبقت أزمانا، وأن الذين طبقوها أنبياء موحى إليهم، وفقهاء استخلصوا أحكامها، وأرشدوا الناس إلى معانيها مؤمنين بها، ونفذها ربانيون يحكمون بالحق مبتغين مرضاة الله تعالى، ولا يبغون عن الحق حولا.

وفى هذه الآيات يبين الله تعالى من شريعة القصاص، فقد قال تعالت كلماته: ﴿**وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ**﴾.

ومعنى النص الكريم أننا فرضنا وقررنا حكما مكتوبا خالدا غير قابل للمحو فى أى عصر من العصور أن النفس مقابلة بالنفس تؤخذ بها، وتكون بدلا، النفس مأخوذة بالنفس، أو أن النفس عنها، فالباء هنا للمقابلة، كمقابلة بين الثمن والبيع، فكما أن المقابلة تكون فى البيوع تكون فى النفوس إذا اعتدت، وتصير نفس الجانى كأنها شىء من الأشياء وهو الذى أهانها.

وقوله تعالى: ﴿**النَّفْسَ بِالنَّفْسِ**﴾ يبين أن النفس بعمومها من غير تخصيص مقابلة بالنفس بعمومها من غير تخصيص، فالعبرة بالتساوى فى الإنسانية، وفى النفس الآدمية، فلا تفاضل بين نفس غنى وفقير، ولا نفس أمير وخفير، فالنفس بالنفس إن كان اعتداء، ونفس المرأة كنفس الرجل على سواء، ولا التفات لقول

الشذاذ الذين قالوا: إن نفس المرأة دون نفس الرجل، وبمثل قول هؤلاء الشذاذ كان يقول بعض الطوائف من اليهود، كما أخبر ابن عباس رضى الله عنه، وكان ذلك النص الكريم للرد عليهم، وبيان الحق الذى جاءت به التوراة التى أنزلت على موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وإن نفس الحر كنفس العبد بمقتضى ظاهر هذا النص الكريم، لأن كليهما يشترك فى وصف الآدمية، وبذلك جاء الحديث النبوى الكريم: «من جوع عبده جوعناه، ومن قتله قتلناه»(١) فإن هذا الحديث صريح فى المساواة بين نفس الحر ونفس العبد، ولو كان القاتل له مالكه الذى يملكه.

وإن هذا غير رأى جمهور الفقهاء إذ إنهم ينظرون إلى مالية العبد، ولا ينظرون إلى آدميته، وأما الذين قرروا أن السيد يقتل فى نظير العبد، وأن العبيد يقتص لهم من الأحرار بمقدار ما أجرموا، فإنهم نظروا إلى آدميته والمساواة فى النفس الإنسانية من غير نظر إلى كونه مملوكا أو مالكا، ومن غير نظر إلى كونه رقيقا أو حرا.

ولنا أن نقرر أن المساواة فى الدماء بين الأحرار والعبيد هى الأمر الذى يتناسب مع مقاصد الإسلام إذ إن مصادر الإسلام وموارده تقرر منع ظلم العباد الذين كتب عليهم الرق، ولا شك أن أبلغ الظلم أن يقتلوا، والنبى عليه الصلاة والسلام فى أحاديث كثيرة أوصى بالرحمة بهم، ولا شك أنه من الرحمة بهم احترام نفوسهم، وصيانة دمائهم، وأن الرق أمر عارض بالنسبة للعبيد، ولا يصح أن يكون الأمر العارض مزيلا للمعنى الإنسانى الأصيل، بل هو ثابت فيهم لا يزول.

والنصوص العامة المتضافرة مثبتة وجوب القصاص فى الأنفس من غير تفرقة بين نفس حر ونفس عبد، فالله تعالى يقول: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي**

---

(١) سبق تخريجه.

الألْبَاب ... ﴿١٧٩﴾ [البقرة]. ويقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ... ﴿١٧٨﴾**﴾ [البقرة].

والمقابلات التى جاءت فى الآية من بعد، إنما هى لبيان اتحاد الأنفس ولنفى ما كان عليه أهل الجاهلية من تفرقة بين النفوس. بدليل تضافر الفقهاء على قتل الأنثى بالرجل، والرجل بالأنثى خلافا لبعض الشذاذ.

وقد قال عليه الصلاة والسلام: «المسلمون تتكأفا دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم»(١). ومن التكافؤ فى الدماء أن يقتل الحر بالعبد المسلم. وقال عليه الصلاة والسلام: «دماؤكم وأموالكم حرام عليكم»(٢). ولم يفرق بين عبد وحر، ولو كان الحر لا يقتل بالعبد، يكون ذلك فى معنى إباحة دماء بعض المسلمين، وفوق ذلك ما ورد بالنص على أن المالك يقتل إذا قتل مملوكه الذى رويناه من قبل، والذى قرر أن العبد إذا قتله مولاه قتل به.

وقد استدل جمهور الفقهاء بما روى من أن على بن أبى طالب قال: «إن رجلا قتل عبده عمدا متعمدا فجلده النبى ﷺ مائة ونفاه عاما ومحا سهمه من المسلمين»(٣)، وما روى من أن عمر - رضى الله عنه - قال: لو لم أسمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يقاد المملوك من مولاه، ولا الوالد من ولده»(٤)، لأقدته منك يخاطب من قتل عبده.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) جزء من حديث رواه البخاري: العلم - رب مبلغ (٦٧)، ومسلم: القسامة والمحاربين - تغليظ تحريم الدماء والأموال والأعراض (١٦٧٩).

(٣) عَنْ عَلِيٍّ و عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَتَلَ رَجُلٌ عَبْدَهُ عَمْدًا مُتَعَمِّدًا فَجَلَدَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِائَةً وَنَفَاهُ سَنَةً وَمَحَا سَهْمَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. رواه ابن ماجه: الديات - هل يقتل الحر بالعبد (٢٦٦٤). والسهم النصيب من الغنيمة.

(٤) روى أحمد: مسند العشرة (٩٩) عَنْ مُجَاهِد قَالَ: حَذَفَ رَجُلٌ ابْنًا لَهُ بِسَيْفٍ فَقَتَلَهُ، فَرُفِعَ إِلَى عُمَرَ فَقَالَ: لَوْلا أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لا يُقَادُ الْوَالِدُ مِنْ وَلَدِهِ لَقَتَلْتُكَ قَبْلَ أَنْ تَبْرَحَ».

وما روى من أن أبا بكر وعمر قالا: من قتل عبده جلد مائة، وحرم من سهم المسلمين. هذا ما استدل به جمهور الفقهاء، ونرى أنه لا يقف أمام عموم النص، وأمام النص الخاص الذى رويناه، وفوق ذلك هو وارد فى قتل المالك المملوك، وقد عارضه النص الصريح.

ولهذا نرى الأخذ بالمبدأ الإسلامى العام الذى يقرر حقوق العبيد على مواليهم ويحدد حقوق الموالى، وليس منها إباحة دمائهم.

﴿وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ﴾ هذا النص فيه القصاص بين الأطراف، فالعين تفقأ بالعين، أى أنها فى مقابل العين أيضا، فـ «الباء» هنا باء المقابلة التى تدل على أن شيئا فى مقابل شيء، وهى تدخل على المتروك، فالنفس المجنى عليها تؤخذ بها النفس الجانية، والعين المجنى عليها تؤخذ بها عين الجانى، وكذلك أنف الجانى تؤخذ بالجدع فى نظير أنف المجنى عليه، وكذلك أذن الجانى تصلم(١) فى نظير أذن المجنى عليه، وكذلك سنه بسنه، ومثل هذه فى الحكم اليد باليد والرجل بالرجل، والإصبع بالإصبع، وهكذا كل طرف من الأطراف يمكن أن يجرى فيه القصاص، فالقصاص ليس مقصورا على ما اشتمل عليه النص من العين والأنف والأذن والسن، بل يشمل هذا وغيره مما يمكن أن يتحقق فيه معنى القصاص، وقد أيدت ذلك النصوص القرآنية، فالله تعالى يقول: **﴿... فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ... ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة]**.

ويقول سبحانه: **﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل]**.

وهنا يجرى القول فى تساوى الأعضاء بالنسبة للأشخاص، فأشخاص النساء كالرجال، والأحرار كالعبيد على النحو الذى بينا من حيث قاعدة المساواة المطلقة

(١) أي تقطع أذنه، والصَّلْم الاستئصال، والأصلم: مقطوع الأذن، وهي صلماء، والجمع: صُلُم. [الوسيط - صلم].

فى الإنسانية المعتدى عليها، وقد خالفنا بذلك النظر جمهور الفقهاء بالنسبة للمساواة بين الأحرار والعبيد، ووافقنا جمهورهم فى المساواة بين الذكر والأنثى، وقررنا أن الذين خالفوا فى ذلك من الشذاذ، كالطائفة التى قالت ذلك من بنى إسرائيل، بل جاء النص الكريم الذى نتصدى الآن للكلام فى معناه يرد الحق إلى نصابه، ويبين أصل الحكم فى التوراة التى نزلت على موسى.

وجمهور الفقهاء على أن من يجرى القصاص فيه فى النفس يجرى القصاص فى الأطراف بالنسبة له، فأطراف المرأة كأطرف الرجل على سواء بينهما فإذا فقأ عين امرأة تفقأ عينه، وإذا كسر ثنية امرأة تكسر ثنيته.

وقد خالف فقهاء الحنفية جمهور الفقهاء، فلم يقرروا المساواة بين أطراف الرجل وأطراف المرأة، وبنوا ذلك على قياس عندهم قرروا فيه، أنه يلاحظ فى الأطراف المنافع، ولا شك عندهم فى منافع الأطراف عند النساء دون منافع الأطراف عند الرجال.

وفى الحق أن رأى الحنفية بنوه على قياس فى معان ارتأوها، فقالوا: إن العبرة فى الأطراف بمنافعها، ومنافع أطراف المرأة دون منافع أطراف الرجل، وإن الرأى لا يقف أمام عموم النصوص والنصوص العامة لا تخصص بالقياس، على أن القياس فى ذاته غير سليم؛ لأن من المنافع المؤكدة ألا يكون الجسم شائها، والتشويه أضر بالمرأة من الرجل.

وقبل أن نترك الكلام فى القصاص فى النفس والأطراف لا بد أن نشير إلى أمور ثلاثة:

أولها ـ أن جمهور الفقهاء قرروا أن الجماعة تقتل بالواحد، وقد يقول قائل: إن ذلك لا يتفق مع معنى القصاص الذى أساسه التساوى، فلا تساوى بين الواحد والجماعة، وبذلك قال بعض الفقهاء، والحق ما عليه الجمهور؛ لأن كل واحد من الجماعة قد اشترك فى القتل، فيسمى قاتلا، وقد أزهق نفسا فتؤخذ بها نفسه،

ولأنه اعتدى على حق الحياة، فكان الجزاء أن تؤخذ حياته، ولأن من قتل نفسا فكأنما قتل الناس جميعا، وقد قال سبحانه: ﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ... ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة].

وإن القصاص شرع للزجر العام، ولحفظ الدماء، ولو أعفى الشركاء فى القتل من القصاص لكان من السهل على من يريد قتل إنسان أن يشرك معه غيره، فلا يكون قصاص من أحدهما؛ ولذلك شدد عمر وغيره من الصحابه فى ضرورة قتل الجماعة بالواحد، وقد روى أن رجلا قتله جماعة بصنعاء، فاقتص عمر - رضى الله عنه - منهم، وقال - رضى الله عنه - «لو تمالأ أهل صنعاء عليه لقتلتهم به».

ثانيها - أن المساواة فى الأطراف من حيث السلامة لازمة للقصاص، فلا تقطع السليمة فى مقابل المعيبة، ولكن لا يشترط التساوى من حيث القصر والطول، ولا من حيث الضعف والقوة، ما دام كلتا الجارحتين سليمة.

وحيث يتعذر التساوى لا يكون القصاص بل تكون الدية، ويجب مع ذلك التعزير شفاء لغيظ المجنى عليه.

ثالثها - أن بعض الذين لا يدركون الأمور على وجهها يقولون: إن القصاص فى الأطراف يكثر المشوهين، ويقلل المنافع، ويضعف إنتاج الأمة، والجواب عن ذلك أن القصاص فى الأطراف من شأنه أن يقلل التشويه ويكثر النفع؛ لأنه إذا علم المعتدى أنه سيقطع طرفه إن قطع طرف غيره، وأنه ستفقأ عينه إذا فقأ عين غيره، فإنه سيكف عن الاعتداء، وبذلك تصان الجوارح جميعا، فلا يكون إيذاء، وبذلك يقلل عدد المشوهين ولا يكثر، ويكثر النفع ولا يقل.

﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ والجروح غير قطع الأطراف المتميزة التى يجرى فيها التماثل، مثل الشجاج بكل مراتبها، ومثل الجروح فى أجزاء الجسم، وفصل بعضها عن بعض، والقصاص المقاصة، أى العقوبة بما يساوى الجريمة وما أنزلت

من أذى، والمعنى هنا أن الجروح ذات قصاص أى يجرى فيها القصاص بالمساواة بين الجريمة وعقوبتها على أن تكون من جنسها وفى الموضع الذى كان فيه الجرح، فإن تعذر التساوى فإنه تكون دية الجريمة ويعبر الفقهاء عن العويض بالأرش.

والتعزير مع هذا ثابت شفاء لغيظ المجنى عليه، ومنعا لإهدار الدماء بالثارات، وتبادل الأذى.

والقصاص يجرى فى الجروح إذا أمكنت المساواة على ما أسلفنا، ومهما يكن فالقصاص متى أمكن، ولو بالتقارب أولى، فإن المساواة من كل الوجوه غير ممكنة، فإن الأجسام متفاوتة، وآثار الجروح فيها متفاوتة، والأذى فيها غير ثابت المقدار حتى يقاس بالأشبار.

ولا شك أن القصاص الممكن، والتعزير مع الأرش(١) إن لم يكن هو أقرب إلى العدالة، وإلى حقن الدماء، واحترام الأنفس والمحافظة على الكرامة الإنسانية والمساواة هو الأردع للجناة، فإن من يعرف أنه ستُشَج رأسه إذا شج رأس غيره لا يقدم على الأذى، بل يتردد، وأنه كلما كانت العقوبة من جنس الجريمة كان ذلك مع عدالته أشد زجرا وتأثيرا، وإنه من يوم أن تغيرت العقوبة عن الجريمة استهين بالأنفس والأطراف، وأهدرت الدماء.

وهناك أمر اختلف فيه الفقهاء: أيجرى القصاص فى الضرب، كما يجرى فى الجروح؟ الظاهر ذلك من روح الشريعة وما تومئ إليه نصوصها وهو ما كان يسير عليه السلف الصالح رضى الله عنهم، وقد قاله بعض الحنابلة والظاهرية،

---

(١) الأَرْشَ: ما يؤخذ عوضا عن كسر أو جرح. روى البخاري: الصلح - الصلح في الدية (٢٧٠٣) عن أنس أَنَّ الرُّبَيِّعَ وَهِيَ ابْنَةُ النَّضْرِ كَسَرَتْ ثَنِيَّةَ جَارِيَةٍ وَطَلَبُوا الْعَفْوَ فَأَبَوْا فَأَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ فَأَمَرَهُمْ بِالْقِصَاصِ فَقَالَ أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ: أَتُكْسَرُ ثَنِيَّةُ الرُّبَيِّعِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لا تُكْسَرُ ثَنِيَّتُهَا، فَقَالَ: «يَا أَنَسُ كِتَابُ اللَّهِ الْقِصَاصُ» فَرَضِيَ الْقَوْمُ وَعَفَوْا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ» زَادَ الْفَزَارِيُّ عَنْ حُمَيْدٍ عَنْ أَنَسٍ: فَرَضِيَ الْقَوْمُ وَقَبِلُوا الأَرْشَ.

ولكنّ الكثيرين من الفقهاء لا يلزمون بالقصاص فى الضرب واللطم، بل يجرون فيه التعزير، وقد يكون بالتوبيخ. أو بالحبس أو بالضرب، وحجتهم أن الضرب واللطم لا يمكن أن يجرى فيه القصاص، بل المماثلة متعذرة، وحيث تعذرت قام التعزير مقامه فى العقاب، والتعزير يكون على حسب تقدير القاضى المفوض إليه أمره.

وإننا نختار القصاص؛ لأنه الأقرب إلى العدالة، ولأنه يشفى غيظ المجنى عليه، ولأنه هو الذى دعا إليه السلف الصالح وكانوا يسيرون على أساسه، وقد أيد ذلك النظر ابن القيم فقال رضى الله عنه:

«إن ضمان النفوس والأموال مبناه على العدل، كما قال تعالى: ﴿ **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا** ... ﴿٤٠﴾ ﴾ [**الشورى**]، وقال سبحانه ﴿ ... **فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ** ... ﴿١٩٤﴾ ﴾ [**البقرة**]، وقال عز من قائل: ﴿ **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ** ﴿١٢٦﴾ ﴾ [**النحل**]، فأمر بالمماثلة فى العقوبة والقصاص، فيجب اعتبارها بحسب الإمكان، والأمثل هو المأمور به، فهذا الملطوم المضروب قد اعتدى عليه، فالواجب أن يفعل بالمعتدى كما فعل به، فإن لم يمكن كل الواجب كان ما هو الأقرب والأمثل، وسقط ما عجز عنه العبد من المساواة من كل وجه، ولا ريب بأن لطمة بلطمة وضربة بضربة فى محلها بالآلة التى لطمه بها، أو بمثلها، أقرب إلى المماثلة المأمور بها حسا وشرعا من تعزيره بغير جنس اعتدائه وقدره وصفته، وهذا هَدْيُ رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين ومحض القياس» ثم يقول:

«فهذه سنة رسول الله ﷺ، وهذا إجماع الصحابة، وهذا ظاهر القرآن، وهذا محض القياس فعارض المانعون هذا كله بشىء واحد، وقالوا: اللطمة والضربة لا يمكن فيها المماثلة، والقصاص لا يكون إلا مع المماثلة، ونظر الصحابة أكمل وأصح، وأتبع للقياس، كما هو أتبع للكتاب والسنة، فإن المماثلة من كل الوجوه متعذرة، فلم يبق إلا أحد أمرين: قصاص قريب إلى المماثلة، أو

تعزير بعيد عنها، والأول أولى؛ لأن التعزير لا يعتبر فيه جنس الجناية ولا قدرها، بل يعزر بالسوط أو العصا، وقد يكون من لطمة أو ضربة بيده، فأين حرارة السوط ويبسه إلى لين اليد، وقد يزيد وينقص، وفى العقوبة بجنس ما فعله تحرٍّ للمماثلة بحسب الإمكان، وهذا أقرب إلى العدل الذى أمر الله تعالى به وأنزل به الكتاب والميزان، فإنه قصاص بمثل ما نزل بذلك العضو فى مثل المحل الذى ضرب به بقدره، أو يزيد قليلا أو ينقص قليلا، وذلك عفو لا يدخل تحت التكليف».

سقنا هذا الكلام مع طوله لأن فيه توضيحا للنظرة الإسلامية السليمة فى المساواة والتماثل بين الجريمة والعقوبة، وإن ترك تلك السنة إلى التعزير أدى إلى التفاوت بين الناس فى العقاب، وذلك ما لا يقره الكتاب ولا السنة ولا يؤيده قياس، بل يؤيده أعراف فاسدة، وأخذٌ ظالم بنظام الطبقات المفرِّق.

﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ الكفارة ستر الذنوب، بألا يحاسب عليها بين يدى الله تعالى، بل يغفرها الله تعالى له ويسترها فلا يظهرها، بل تكون عند الله تعالى من التائبين المنيبين إليه سبحانه، تقدست ذاته، وتعالت صفاته.

وهذا النص يفتح باب التسامح من المجنى عليه، وهذا يدل على أن العقوبة لم يقصد بها الانتقام المجرد، بل قصد الزجر، وإشعار الجانى بأن سوط العقاب مسلط عليه؛ ولذلك دعا القرآن الكريم إلى العفو إن كان له موضعه، فقال تعالى: **﴿... فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ... (١٧٨)﴾** [البقرة].

فكان فى هذا النص تحريض على العفو بذكر الأخوة الرابطة، وكان النبى ﷺ كلما حكم بالقصاص دعا إلى العفو، ولكن بعد أن يعطى لولى الدم أو المجنى عليه زمام الأمر وتمكينه من القصاص ليشفى غيظه، ويردع الجانى بجعل حياته أو جسمه رهن إشارته.

وفى قوله تعالى: **﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ﴾** الضمير يعود إلى القصاص، والمعنى من تصدق بهذا القصاص على الجانى، فإنه صدقة كسائر الصدقات، والصدقة كما

قال عليه الصلاة والسلام «تطفئ الخطيئة، كما يطفئ الماء النار»[1] وإذا كان العفو صدقة فهو كفارة ساترة للذنب مذهبة للعقاب، ويرجى معها الثواب، وقد قال تعالى: ﴿ ... إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ... ﴿١١٤﴾ ﴾ [هود].

ومذهب الإسلام فى إلزامه القضاء الحكم بالقصاص وفتح باب العفو - توسط بين ما جاء فى التوراة من القصاص، وما جاء فى المسيحية من عفو، فكان المسلمون أمة وسطا.

ويلاحظ أن العفو أو التصدق بالقصاص يسقط حق المجنى عليه، ولكن لا يسقط حق المجتمع من ضرورة العمل على منع ارتكاب الجرائم، فلولى الأمر أن يحكم بتعزيره إذا عفا ولى الدم، والتعزير عقوبة غير مقدرة يراها ولى الأمر رادعة.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ختم سبحانه وتعالى الآية الكريمة بهذه العبارة، وفيها إشارة إلى أن هذا القصاص حكم الله تعالى الذى لا يتغير ولا يتبدل؛ ولذلك كان فى شريعة موسى عليه السلام، وفى شريعة النبيين من بعده، وجعلها القرآن الكريم شريعته، وفيه إشارة إلى أن العدالة التى أوجبتها المساواة بين الجريمة وعقوبتها من غير هوادة من أخذ المجرم بجريمته إذا أصر عليها ولى الدم أو المجنى عليه ـ هى حكم الله تعالى الخالد الباقى المنزل على رسله.

ونجد النص هنا يحكم بأن من لم يحكم بما أنزل الله تعالى يكون ظالما، وفى الآية السابقة نص على أنه كافر، والسبب الذى يظهر لنا فى ذلك أن الآية الأولى كانت تذكر ما اشتملت عليه التوراة من هداية ونور، فكان الذين لا ينفذون أحكامها مع ما هى عليه منكرين لتلك الأوصاف العالية التى اشتملت عليها من غير تبديل، فكانوا بذلك كافرين، أما هذه الآية فإنها تشتمل على أحكام عملية، فعدم الأخذ بها يتضمن ظلما؛ لأنها عدل فى ذاتها، ومشتقة من قانون الفطرة

---

(١) سبق تخريجه.

الإنسانية . . وفق الله تعالى المسلمين للعمل بشريعته، والأخذ بكتاب الله وسنة رسوله فبهما عزُّوا، وبهما يعتزون إن شاء الله تعالى.

وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾

ذكر الله سبحانه وتعالى ما يتعلق بالتوراة من وجوب التزام أحكامها، وتنفيذها، وأنه قد نفذت تلك الأحكام على يد النبيين، وطبقوها على أكمل وجوه التطبيق، وجاء من بعدهم العلماء الذين فقهوا معانيها ودونوا فقهها، والقضاة الذين خلصوا أنفسهم من أدران الهوى، وسلطان الشهوات، حتى صاروا ربانيين يقومون على الحق والقسط، ويشهدون الله على ما يفعلون، فهم شهداء الله تعالى، لا يخضعون لغيره، ولا يريدون إلا رضاه، ولا يبتغون غير سبيله سبيلا.

وفى هذا النص الكريم يذكر سبحانه أن عيسى ـ عليه السلام ـ جاء من بعدهم يصدق ما بين يديه من التوراة، وأتى معه بالإنجيل وفيه أحكام مقررة للتوراة، أو ناسخة أو مبينة، وأن على أهل الإنجيل الذين نزل عليهم وخوطبوا به أن يطبقوه، حتى تأتى الأحكام الخالدة المقررة الثابتة إلى يوم القيامة التى نزلت بها شريعة القرآن كما ستدل على ذلك النصوص القرآنية التالية.

﴿**وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ**﴾ أى أرسلنا من بعد الذين حكموا بالتوراة من النبيين كداود وسليمان ومن قبلهما ومن بعدهما

– بعيسى ابن مريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ مقتفيا آثارهم مصدقا لما بين يديه من التوراة... وهنا بحوث لفظية تتبين من ذكرها معانى النص الكريم:

أولها ـ فى معنى «قفينا»، فقد قال علماء اللغة ومفسرو البيان: إن «قفَّى» معناه عقَّب، ويقال قفَّيته بكذا أى أتبعته به، وهنا نجد المفعول محذوفا، فلم يكن النص قفيناهم بعيسى ابن مريم، وحذف لأن كلمة ﴿عَلَىٰ آثَارِهِم﴾ تدل على المحذوف، إذ إن المحذوف هو النبيون السابقون الذى يحكمون بالتوراة، وكلمة «على آثارهم» تدل على أنهم هم الذين اقتفيت آثارهم.

وذكر كلمة «على آثارهم» تدل على أن عيسى ـ عليه السلام ـ لم يكن بدعا من الرسل، بل سبقه آخرون سلك مسلكهم فى إقامة التوراة وما بقى منها غير منسوخ بحكم ما جاء فى الإنجيل، وآثار أولئك النبيين هى الحكم الخالص لله الذى اتبعوه فى تنفيذ أحكام التوراة، فآثارهم معنوية وليست مادية.

وقال علماء الاشتقاق فى اللغة: إن كلمة قفى مأخوذة من القفا، وهو مؤخر الرقبة، يقال: قفا أثره إذا جاء من ورائه واتبعه فى سيره حسا، ثم صار يطلق على السير وراءه معنى، كالشأن فى كثير من الألفاظ التى تدل على معان حسية، فإنها تنتقل من بعد إلى مدلولات معنوية.

ثانى الأمور البيانية ـ هو فى ذكر عيسى فى القرآن مقرونا بكلمة «ابن مريم»؛ لأن ذلك يتضمن ولادته الحسية منها، وأنه قد تكون جسمه من جسمها كسائر كل المولودين من أمهاتهم، وفى ذلك إشارة إلى أنه محدث ككل المحدثات، وأنه كان من بعد أن لم يكن، وأنه لا نسب له إلا من جهة أمه البتول عليها وعليه السلام، فليس له أب، وليس ابن الله تعالى، بل هو ابنها وحدها، ولا نسب له إلا إليها.

ثالثها ـ قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾. وتصديق سيدنا عيسى للتوراة، لأنها كتاب فى أصلها منزل من عند الله تعالى، فعيسى عليه

السلام يصدق أصل نزولها، وينفذ أحكامها إلا ما جاء نسخه فى الإنجيل منها، ولو سايرنا الواقع عند النصارى فى هذه الأيام لكان لذكر كلمة التصديق فى هذا المقام معنى أعمق من مجرد التصديق بأصل النزول، بل بالتنفيذ، لأن الإنجيل ليس فيه أحكام عملية كثيرة، فأحكام الأسرة كلها مأخوذة عند النصارى من التوراة، وليس ثمة نص قاطع فى الأناجيل التى بين أيدينا يغاير ما جاء فى التوراة من أحكام تتعلق بالأسرة، ولا بأحكام العقوبات من حدود وقصاص، ولقد رويت عبارات عندهم منسوبة للمسيح ـ عليه السلام ـ تدل على العمل بأحكام التوراة، مثل قوله عليه السلام: «ما جئت لأنقض الناموس» وهو التوراة، ولعل التعبير بآثارهم يدل من بعد أو قرب على معنى هذا التصديق العملى، فضلا عن التصديق الاعتقادى والقولى.

وكلمة «بين يديه» تعبير قرآنى، للدلالة، على أن التوراة كانت حاضرة قائمة وقت مجىء عيسى ـ عليه السلام ـ وعلمها عنده، وهو علم خال من التحريف والتبديل، أوحى الله تعالى به إليه، ولفظ بين يديه فى دلالته على الأمر المهيأ القائم من الاستعارات الرائعة، ومضمونها أن الأمر معلوم علما يقينا لعيسى ابن مريم عليه السلام كعلم المحسوس يكون موضوعا بين يديه.

ومن الفروق الدقيقة أن الله تعالى عبر عن مجىء عيسى بالإنجيل بقوله تعالت كلماته: ﴿**وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم**﴾. وعندما أخبر عن مجىء محمد ﷺ بالقرآن قال تعالت كلماته: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ** ... ﴿٤٨﴾﴾ [**المائدة**]. فهو ليس منفذا، ولكن هو مسيطر وحاكم على ما سبق من كتب.

﴿**وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ**﴾ عقب السيد المسيح ـ عليه السلام ـ الأنبياء الذين نفذوا أحكام التوراة، وطبقوها تطبيقا دقيقا من غير هوادة، ولا ظلم، ولا شطط مع الضعفاء، ومحاباة للأقوياء، وقد أعطاه الله تعالى قوة فى رسالته، فأعطاه كتابا هو الإنجيل، وهو البشارة برحمة الله

تعالى، والبشارة بمجيء نبى الرحمة محمد ﷺ والتعبير بـ «آتيناه الإنجيل» فيه إشارة إلى تقوية ما جاء به، وإشارة إلى أنه ليس كل ما فى التوراة نافذا وإن كان جله نافذا، وخصوصا ما يتعلق منه بتنظيم المجتمع فى كل درجاته من الأسرة الصغرى إلى الأسرة الكبرى، وهى الإنسانية فى أقاليم الأرض، فالإنجيل قد جاء بشريعة متممة لما جاء فى التوراة من غير نقض لها.

وقد وصف الله سبحانه الإنجيل بأوصاف ثلاثة، وبين أنه مشتمل على أمرين، وجملة ما ذكر القرآن الكريم - تعالت كلمات الله - أن فيه خواص خمسا؛ وهى أن فيه هدى، وأن فيه نورا، وأنه مصدق للتوراة، وأنه هو ذاته هدى، وأنه موعظة للمتقين.

ولنتكلم بكلمات موجزات فى معانى كل خاصة من هذه الخواص، لتتبين المغايرة بينها، ولتتميز كل خاصة عن أخواتها وإن كانت متقاربة فى معانيها، ومتلاقية فى غايتها:

والخاصة الأولى ـ أن فيه هدى؛ أى أنه اشتمل على الهدى، وهو الدلالة الحق على تنزيه الله تعالى ووحدانيته، وأنه المستحق للعبادة وحده، وأنه ليس بوالد ولا ولد، وأن عيسى هو ابن مريم وحدها، ونسبه إليها، وليس له لله تعالى نسبة إلا أنه خلقه بكلمة كن فيكون، فهو بهذا المعنى كلمة الله تعالى، وقد ألقاها إلى مريم، وروح القدس وهو جبريل الذى بلغها، وفيه بيان أن عيسى ـ عليه السلام ـ رسول الله تعالى وقد خلت من قبله الرسل.

وهذه الهداية تقرير للحقيقة الثابتة من مبدأ الوجود؛ لأنها تدل على صفات منشئ هذا الوجود.

أما الخاصة الثانية ـ فهى أنه مشتمل على نور مرشد موجه هاد، فإذا كانت الخاصة الأولى مقررة لأمر ثابت قد وقع، فالخاصة الثانية مثبتة لأمر آخر يتعلق بالمستقبل، وهو أنه يضىء وينير لتمييز الحق من الباطل، وبين ما جاءت به رسالة

المسيح من دعوة البشر إلى الخير وإلى صراط مستقيم فالإنجيل بإضافة هذه الخاصة إلى سابقتها يكون مشتملا على أمرين: أولهما - تقرير للحقيقة الثابتة الخالدة، وهى وحدانية الله تعالى فى الإنشاء والتكوين، والذات والعبادة. وثانيهما ـ أنه مرشد إلى مكارم الأخلاق ومنير العقول لإدراك المستقبل، ويدخل فى ذلك بشارته بالنبى ﷺ وهو «البارقليط» كما جاء فى نسخة متى، وكما قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿... وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ... ﴿٦﴾﴾ [**الصف**].

والخاصة الثالثة ـ وهى وصف لذات الإنجيل، وقد ذكرها سبحانه بقوله تعالى: ﴿**مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ**﴾. أى أن الإنجيل قد كان بذاته مصدقا للتوراة من حيث صدق نسبتها إلى الله تعالى قبل تحريفها، وقبل أن ينسوا حظا منها. ولا تكرار فى وصف التصديق؛ لأن ما ذكر أولا كان وصفا لعيسى ـ عليه السلام ـ إذ قال سبحانه: ﴿**وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا**﴾. وأما ما ذكر هنا فهو وصف للإنجيل نفسه، وكأن التصديق من جانب عيسى ـ عليه السلام ـ للتوراة جاء من ناحيتين، من عيسى، ومن الإنجيل ذاته، وتلاقى التصديقين يفيد إقرار أكثر أحكام التوراة الاجتماعية والقانونية، ويفيد أن رسالة الرسل متصلة موصولة، حتى يختمها محمد رسول الله ﷺ، فهو خاتم النبيين، وآخر لبنة فى صرح الرسالات الإلهية.

والخاصة الرابعة ـ وهى من صفاته الذاتية أنه هو ذاته هدى، وسبب وصفه بهذا الوصف بعد ذكر أنه قد اشتمل على هدى ونور هو استمرار الهدى له، وللإشارة إلى أنه منزل من عند الله تعالى، وهو بهذا الوصف يكون فيه دلالة ذاتية على الحق، ولأنه بشارة بنبى يرسل من بعد عيسى اسمه أحمد، وكان الهدى فى هذا المقام وصفا ذاتيا؛ لأنه مأخوذ من اسمه؛ إذ إن الإنجيل معناه البشارة، ولعله سمى إنجيلا؛ لأنه الكتاب المنزل الذى كان فيه البشارة المباشرة بمحمد ﷺ بعبارات إن لم تكن صريحة فهى واضحة كالصريحة.

والخاصة الخامسة ـ أنه «موعظة للمتقين» والموعظة هى التذكير بما يرق له القلب، وتصفو به النفس ويستقيم به العمل، فقد قال الخليل بن أحمد فى تفسير الوعظ: (هو التذكير بما يرق له القلب) والإنجيل كان كذلك؛ لأنه توجيه بنى إسرائيل ومن كان على شاكلتهم من الماديين الذين أركستهم المادة واستولت على قلوبهم ـ إلى الحياة الروحية، والتهذيب النفسى، وجعل الروح هى المسيطرة من غير ترك لحظوظ الدنيا المباحة التى لا تستغرق النفس.

ومن أجل ذلك وصف بأنه موعظة، ولكن لا يستفيد منه إلا الذين امتلأت نفوسهم بالخوف ورجاء ما عند الله، وهم طالبو الحق المهتدون، لأنهم هم الذين يستفيدون من العلم الذى يلقى، فالنفوس أقسام ثلاثة: قسم يطلب الحق، ويثمر فيه بيانه، وقسم يجمد على ما عنده، ويكون صلدا لا ينفذ العلم إلى قلبه، إذ تحول بينه وبينه غشاوة من الباطل فهو أغلف، وقسم متردد حائر، تسيره الأجواء التى تحكمه وتسيطر عليه، ولا شك أن الذى يستفيد من المواعظ هو طالبها المتقبل لها، الذى تتشبع نفسه منها، وأولئك هم المتقون، وأما القسم الثالث، فإنه ترجى له الهداية رجاء غير محقق، وإن مثل العلم النافع لمثل الغيث لا ينتفع منه إلا الأرض الطيبة التى تخرج نباتها بإذن ربها، والعلم لا ينتفع به إلا القلوب الطاهرة التى لم ترنقها أغراض الدنيا وأهواؤها.

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾. فى هذا النص الكريم قراءات نذكر منها قراءتين فى قوله: «وليحكم»: أولاهما ـ قراءة حمزة بكسر اللام وفتح الميم[1]، وتكون اللام للتعليل، ويكون فى مقام العطف على ما سبق، لأنه فى معنى التعليل، ويكون المعنى على هذه القراءة: (وآتينا عيسى ابن مريم الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين. وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل فيه)، وأهل الإنجيل هم من عاصروا المسيح عليه السلام، ومن

(١) قرأها بكسر اللام وفتح الميم حمزة، وقرأ الباقون بإسكان اللام والميم. غاية الاختصار - أبوالعلاء الهمذاني العطار ج٢.

جاءوا بعدهم حتى بعث محمد ﷺ، إذ يجب العمل بشريعته حتى يجيء ما ينسخها، فالعمل واجب بشريعة الإنجيل من أهل الإنجيل، فلما جاءت شريعة محمد عليه الصلاة والسلام صاروا أهل شريعة محمد ﷺ.

والقراءة الثانية بسكون اللام، وسكون الميم على أن اللام للأمر[1]، وسياق الكلام على هذا يوجب تقدير محذوف، وهو (قلنا) مثلا ليكون متقابلا مع أهل التوراة الذين قال تعالى فيهم: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ... ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة]. فالمعنى: وقلنا ليحكم أهل الإنجيل. وعلى هذا التقدير يكون العمل بالإنجيل سابقا على نزول القرآن.

وإذا لم تقدر كلمة قلنا، فإن الكلام لا يدل على بقاء شريعة الإنجيل للنصارى؛ وذلك لأنه بعد بعث محمد ﷺ صاروا هم أهل القرآن؛ لأنهم هم الذين يخاطبون برسالته، ومعهم غيرهم من الخليقة، فكل الذين يدركون نبيا هم أهل رسالته التى يخاطبون بها، لا فرق بين قريب دان، وبعيد قاص، وأيضا فإن شريعة محمد ﷺ قد نسخت ما يخالفها مما سبقها، إذ شريعة القرآن هى المهيمنة على ما عداها، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾. وهذه الهيمنة توجب العمل بما أقره من الكتب السابقة، وبطلان العمل بما نسخه منها. الإنجيل الذى له تلك الأوصاف السابقة هو الذى لم يجرِ فيه التحريف، وهو خاص بالحكم فيما قبل البعث المحمدى.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ فى هذا النص الكريم الحكم على من لم يحكم بما أنزل الله تعالى بالفسق، أى الخروج عن جادة الحق، والسنن المستقيم والخلق الكريم، وكان الحكم بالفسق هنا مناسبا لمواعظ الإنجيل الذى نزل على عيسى وهدايته؛ لأن تعريف القرآن الكريم له فيه إشارة إلى ما اشتمل من أخلاق روحانية قويمة، وهداية سليمة، والمناسب لمن لم يحكم به أن

---

(١) السابق.

يكون فاسقا خارجا شاذا تاركا لمعانى الإنسانية الروحانية العالية، وهنا بحث لفظى يتكون من عناصر ثلاثة.

أولها ـ أن التعبير بـ «مَن» يدل على الجمع هنا بدليل قوله تعالى: ﴿**فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾؛ لأن أولئك إشارة إلى الجمع، وهم ضمير الجمع، وكأن التعبير بالموصول للدلالة على أن الحكم الفردى كالحكم الجماعى، فكل من تتحقق فيه الصلة، وهو ألا يحكم بما أنزل الله تعالى - يكون فاسقا آحادا أو جماعات.

ثانيها ـ أن المراد بالحكم يشمل حكم القضاء وحكم العمل، فمن لم يعمل بما جاء فى الإنجيل، وهو من أهله فقد فسق عن أمر ربه.

ثالثها ـ أن النص يفيد أن علة استحقاقه لوصف الفسق هو أنه لا يحكم بما أنزل الله تعالى.

والحكم بالفسق شرطه ألا يكون ثمة جحود لما أمر الله وإلا كان كفرا.. اللهم ثبتنا على قول الحق والعمل به، واكتبنا فى عبادك الصالحين.

وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ
بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا
عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ
عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ
وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ
ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾

هذا تتميم لما ذكره سبحانه وتعالى من كتب، وبيان تعاقب الرسل المعروفين ذوى الشرائع التى سنت الأحكام وعبّدت المناهج، فقد ذكر سبحانه وتعالى أنه أنزل التوراة وشرع ما فيها من أحكام، وأن على أهل التوراة أن يحكموا بها، ثم أعقب الإنجيل التوراة، وأتى بأحكام يجب تنفيذها، وأكد ما اشتملت عليه التوراة مما لم يجئ نسخ بها، وأتم الله سبحانه وتعالى البيان بذكر رسالة محمد ﷺ، وبه تمت الرسالة الإلهية، وكملت شرائع الله تعالى، وقد قال تعالت كلماته:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ فى هذا النص السامى، نجد بعض إشارات بيانية تشير إلى مكانة القرآن بين الكتب السماوية، وتبدو هذه الإشارات فى ثلاث نواح:

الناحية الأولى ـ أنه سبحانه لم يقل وقفينا على آثارهم بمحمد أو نحو ذلك، بل بين سبحانه أنه أنزل الكتاب، وفى ذلك إشارة إلى معنى استقلاله، وأنه لم يكن فيه تبعية لغيره من الكتب، بل هو مستقل بالمكانة منفرد بها من غير تبعية أيا كان نوعها، وأيا كان مقدارها، وذكر الكتاب دون ذكر النبى ﷺ صراحة للإشارة إلى مكانة الشريعة الإسلامية وكتابها الكريم الباقى والخالد إلى يوم القيامة، وهو معجزة النبى ﷺ، وإذا ذكرها سبحانه فى مقام الإكبار والتفخيم يكون بيانا لمكانة الرسالة المحمدية، وبيان أن حجتها أقوى الحجج، وأشدها تثبيتا، وأبقاها فى هذا الوجود، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى الكتاب من غير تعريف سوى ذلك، و(أل) كما قال علماء اللغة للعهد، وفى ذلك إشارة إلى كماله، أى أنه «الكتاب» الذى هو جدير باسم الكتاب، بحيث إذا أطلق اسم الكتاب لا ينصرف إلا إليه؛ لأنه الفرد الكامل من بين الكتب فى هذا الوجود.

وقد زاده الله تعالى شرفا فنسب الإنزال إليه سبحانه، وفى ذلك تأكيد لمنزلته العالية السامية.

الناحية الثانية – من الإشارات البيانية المبينة لمكان القرآن ـ هو بيان أنه سجل الرسالات السابقة، والشاهد بصدقها فهو مصدق لكل الكتب السابقة،

المنزلة قبل تحريفها، وفيه دلائل نبوة الأنبياء السابقين، ومعجزاتهم، والكتاب الآخر فى قوله تعالى: ﴿**مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ**﴾. هو جنس الكتب السماوية السابقة، فـ (أل) فيه للجنس، أى أنه فى القرآن الكريم الدلائل المثبتة لصدق ما يصح أن يسمى كتابا سماويا من الكتب السابقة بما فيها الإنجيل والتوراة والزبور، ويصح أن يكون (أل) للعهد أيضا، وهو العهد الذكرى، إذ ذكر من قبل كتابان من الكتب السماوية وهما التوراة والإنجيل، وعبر عنهما بالكتاب باعتبار الجنس، ولأن كليهما متمم للآخر، فهما فى معنى كتاب واحد.

والناحية الثالثة مما يدل على مكانة القرآن ـ هو أنه يهيمن على الكتب السابقة، فقد قال تعالى فى مقامه بالنسبة لغيره من كتب السماء: ﴿ **وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**﴾. والمعنى أنه حاكم بصحة ما فيه، وشاهد بصدقه، ومقرر لمعانيه الباقية التى لم يعترها نسخ، وفوق ذلك يتبين الصحيح الذى نزل، ويشير إلى المحذوف الذى حذفه الأخلاف، إذ نسوا حظا مما ذكروا به، وهناك قراءة بفتح الميم، ذكرها الزمخشرى فى الكشاف[1]، ويكون المعنى أنه (مهيمَن) عليه أى مراقَب محفوظ، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴿٩﴾﴾ [**الحجر**]. وقد وضح الزمخشرى المعنى على هذه القراءة بقوله رضى الله تعالى عنه: «أى هُومِنَ عليه بأن حفظ من التغيير والتبديل، كما قال تعالى: ﴿**لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ** ... ﴿٤٢﴾﴾ [**فصلت**]. والذى هيمن عليه الله عز وجل أو الحفاظ فى كل بلد، لو حُرِّفَ حَرْفٌ منه أو حركة أو سكون لتنبه له كل أحد، ولاشمأزوا رادين ومنكرين».

أى أن الله تعالى هيمن عليه وحفظه إلى يوم الدين، والحفَّاظ للقرآن جيلا بعد جيل هم بتوفيق الله تعالى شاهدون مانعون لكل تغيير وتبديل؛ لأنهم يحفظونه فى صدورهم، ولا يتركونه للقرطاس الذى قد يرد عليه المحو والإثبات والتغيير والتبديل، وبذلك اختص القرآن بالصيانة من بين الكتب السماوية، وهو

(١) وهذه القراءة ليست في العشر المتواترة.

قد حفظه بنصه وقراءاته، وطريق تلاوته، فالله سبحانه وتعالى هو الذى رتله ترتيلا، بتعليم النبى ﷺ ذلك كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان].

﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ الفاء هنا للإفصاح؛ لأنها تومئ إلى شرط مقدر، والمعنى على هذا: إذا كان الكتاب قد أنزل إليك من لدن الله العلى القدير عالم غيب السموات والأرض، وأنه يهيمن على الكتب السابقة ومحفوظ بحفظ الله تعالى إلى يوم الدين؛ فاحكم بين اليهود والنصارى ومن يعاصرونك من الناس بهذا الذى جاء به، لأنه نزل لتحكم به أنت ومن يتولى الحكم من بعدك، ولم يقل سبحانه وتعالى لتحكم به، بل ترك الضمير، وعبر بالموصول للإشارة إلى أن السبب الموجب للحكم أنه منزل من عند الله، إذ إن الموصول إذا كان فى ضمن حكم تكون الصلة هى علة الحكم، والسبب فيه، وعلى ذلك يكون حكم القرآن وهو حكم الله تعالى الذى لا يختلف باختلاف العصور، ولا يتغير بتغير الأوقات؛ لأنه شريعة الله الذى هو بكل شىء عليم، يعلم الناس وما يصلح لهم فى ماضيهم وقابلهم، وهذا يفيد أن اليهود الذين عاصروا النبى ﷺ ومن جاءوا بعدهم مخاطبون بشريعة القرآن، وأنه نسخ ما قبله من الشرائع، إلا ما جاء النص بوجوب العمل به كالقصاص، أو ما لم يثبت أنه نسخ، والمعول فى الحالين هو القرآن وما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام، ولقد روى أنه عليه السلام ذكر أن موسى لو كان حيا ما وسعه إلا الإيمان به عليه الصلاة والسلام. ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ الضمير فى قوله تعالى: ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ يعود إلى اليهود الذين تحاكموا إلى النبى ﷺ، وأرادوا أن يحكموا بما لم ينزل من عند الله، مع أن الحكم عندهم فى التوراة التى بأيديهم منصوص عليه، ولم ينسخه القرآن الكريم، وكان مما بقى وهو القصاص العادل.

وقوله تعالى: ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ فيه إشارات بيانية نتكلم فيها، وذكرها فيه بيان معنى النص الكريم.

أولاها ـ قوله تـعالى: ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾. أكثـر العلماء قـالوا: إن قوله تعالى: ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾. متضمن مـعنى لا تنحرف، بدليل أنه تعدى بعن فى قوله تعالى: ﴿عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾. والمعنى فى الجملة لا تتـبع أهواءهم منحرفا عما جاءك من الحق، وهو مـا نزل به القرآن الكريم؛ ولذلك نرى أن قوله تعالى: ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾. لا تضمين فيـها، بل قوله تعالى: ﴿عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾. يتعلق بحـال محذوفة، والمرمى من هذه الجـملة السامية أن الخروج عـما أنزل الله تعالى باتـباع أهوائهم الفاسـدة المردية فيـه انحراف عن الحق، وخـروج عن الجادة المستقيمة، وبعد عن الإنصـاف فى ذاته، وكذلك الشأن فيمن يعدل عن حكم الله تعالى اتباعا لأهواء الناس، وإرضاء للشهوات والرغبات المنحرفة.

الإشارة البيانيـة الثانية- فى قوله تعالى: ﴿عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾. فيه إشارة إلى أن الذى يبتلـى بأمثال هؤلاء اليـهود ومن سار على طـريقهم فى هذه الأرض يكون بين أمرين؛ إمـا أن يطيع الهوى والشهوة وفيـهما الفسـاد، وإما أن يطيع ما جاء من عند الله، وفيه العدل والهدى والرشاد، وأى الطريقين أهدى للوصول إلى الصلاح الذى لا فساد يعكره.

الإشارة الثـالثة ـ فيـها بيان أن ما يحكم بـه النبى ﷺ هو الحق والعدل فى ذاته، وبذلك يكون حكم النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ قـد تأيد بأمرين: أحدهما ـ أنه الحق فى ذاته الذى لا مرية فى أنه العدل والأمر الثابت الذى لا تجوز مخالفته فى ذاته، ثانيهـما ـ أنه جاء من عند الله الذى لا يعـزب عن علمه مثـقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، وهو بكل شىء عليم.

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ الخطاب لليـهود والنصارى والمسـلمين وغيرهم من الـذين أوتوا كتابا نزل بشريعـة من عند الله تعالى، ويكون فى الكلام التفات، فقـد كان الخطاب للنبى ﷺ والمتحدث عنهم أولئك الذين اتبـعوا وحرفوا الكلم عن مواضعـه، والمعنى على هذا لكل نبى من الأنبياء السابقين شـرعة يسير نحوها، ويتجـه إليها، ومنهاج واضح بين يسيـر فى طريقه، ولا يلتوى عنه، ولا

يخرج منه، فإن ما عداه متاهات لا يلتفت إليها، والذين يعاصرونه هم الذين يخاطبون بشرعته، ويسيرون فى منهاجه، فالذين نزل فيهم القرآن مخاطبون بما جاء فى القرآن، وشرعته ومنهاجه لهم؛ لأن شرعة الأنبياء السابقين ومنهاجهم قد انتهيا بمبعث محمد ﷺ وبقى من شرائعهم ما يقره القرآن، وما جاء النص بإقراره.

وتفسير الشرعة قد اتفق الفقهاء على أن المراد بها الشريعة، وهى ما جاء من أحكام تكليفية يجب العمل بها أمرا ونهيا وندبا وإباحة، والمنهاج على هذا هو الطريق الواضح لتنفيذها، وبيان مجملها، وتفصيل أحكامها الجزئية؛ ولذلك روى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن الشرعة هى النصوص التى تجىء فى أصل الكتاب المنزل، والمنهاج هو ما يبينه النبى الذى أنزل عليه الكتاب، وفصل به الأحكام الجزئية[١].

هذا كله على أساس أن ضمير الخطاب قد وجه إلى اليهود والنصارى ممن كان لهم كتاب منزل، وقد يرد على هذا أن الرسالة الإلهية واحدة، فكيف يجىء فيها الاختلاف، وقد قال تعالى: ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ** ... ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى].

ونقول فى الإجابة عن ذلك: إن الوحدة الجامعة بين الرسالات الإلهية هو ما يتعلق بالعقيدة من إيمان بالوحدانية ونفى للوثنية، وإيمان باليوم الآخر، وما يجرى فيه من حساب وعقاب، ونعيم وجنات تجرى من تحتها الأنهار، وجحيم وسعير إلى آخر ما ورد فى الغيبيات. أما الشرعة التى يجىء فيها الاختلاف فهو الأوامر والنواهى، وبعبارة عامة فهى التكليفات من حلال وحرام، فقد يشدد الله تعالى على بعض الأقوام لغلظ قلوبهم، ويخفف على آخرين، كما قال تعالى:

---

(١) ذكر البخاري تعليقا: الإيمان (بَاب قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ سَبِيلا وَسُنَّةً.

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأنعام] .

والمنهاج يختلف، فمن الأنبياء من دعا دعـوته، وكان فريسة لاعتداء أعدائه من غـير أن يقـاوم بالسـيف، ومنهم من شـرع له أن يدفع الاعـتداء بالسـيف، وهكذا . . .

هذا الكلام كله على أساس أن الخطاب موجه إلى أهل الكتاب الذين سبقوا بكتاب أنزل عليـهم، ونسخته شـريعة القرآن، وقـد جاء بعض المفسرين فـقرر أن الخطاب لأمة محمـد ﷺ، أى للمسلمين فى حاضر أمرهم وقـابله، وقد ذكر هذا الرأى ابن كثـير فى تفـسيره، فـقد قال: «وقـيل المخاطب بهـذه الآية هذه الأمة، ومعناه لكل - جعلنا القرآن - منكم أيتها الأمة شرعة ومنهاجا، أى هو لكم كلكم تقتدون به» ومؤدى هذا الكلام جعلنا القـرآن شرعة ومنهاجا لكل منكم، أى واحد منكم، فليس المضاف إليه المحذوف من بعد كل الأمم بل الآحاد، أى أن كل واحد من أمة مـحمد ـ عـليه الصلاة والسـلام ـ مخاطـب بتكليفات الشـريعة، وتنفـيذ منهاجها المستقيم، الذى لا عوج فيه ولا أمت.

والعلماء على التخـريج الأول وهو ظاهر اللفظ ولا يخرج المعنى عن ظاهر اللفظ الذى يتبادر ويتجه إلى غيره إلا لعيب بيانى فى الظاهر، ومعاذ الله تعالى أن يكون ذلك فى كلام الله جل وعز.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ فعل المشـيئة محذوف دل عليـه ما بعده، وهو جواب لو، والمعنى لو شاء سبـحانه أن يجعلكم أمة واحدة لجعلكم كذلك، والمعنى على هذا لو شاء تعالى أن يجعل الإنسانية كلها أمة واحدة، يصلحـها شرع واحد، وتتفق بالتـكليفات الموجهة، لاتفـاق الإنسانية الموحدة، لفعل سبحانه وتعالى، ولكنه سبحانه وتعالى عاملكم معاملة المختبر لكم بما آتاكم من مواهب مختلفـة، وفيما ينزل عليكم من خيرات السمـاء، وفيما تجود

الأرض من زروع وثمرات، وفى اختلاف الأجواء، والإرادات الإنسانية ليتم التكليف، ويكون الاختبار.

وبيان ذلك أن الناس يختلفون أمما وعناصر، وقد توزعتهم أقاليم الأرض، فقوم تعالج قلوبهم الغليظة بما يفطمها عن شهواتها، ويجعلها فى جادة الاعتدال، وأخرى تعالج بالتخفيف ليحيى موات النفوس فيها، وثالثة تعالج ببعض الحرمان، ورابعة بالاعتدال، وهكذا كانت الشرائع السابقة علاجا لأهواء النفوس التى تعامل معاملة المختبرة بتنازع الإرادات وسيطرة الأجواء، ومنازع الأهواء، ومضطرب الأحوال، فمن سلك الجادة وصل إلى الحق، ومن خالف كان له جزاء مخالفته، ولما جاءت رسالة محمد ﷺ ومعها القرآن كان العقل البشرى فى طريق الكمال، وكانت بكلياتها صالحة لكل زمان، وكان الابتلاء قائما فى منازعة الهوى، ومغالبة النفس الأمارة بالسوء، والتى ألهمت فجورها وتقواها.

وإن الابتلاء فى الماضى والحاضر بالتخالف فى الطبائع، وتخالف جزئيات الشرائع، وبعد رسالة محمد ﷺ كالتخالف فى الإرادات والمنازع، وفى كل هذا الابتلاء، والنجاح فى هذا الامتحان الفطرى هو بطلب الخيرات؛ ولذا قال سبحانه: ﴿**فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**﴾.

إذا كان الله سبحانه وتعالى يعامل الناس فى الماضى والحاضر معاملة الذين يختبرهم وهو العليم بحالهم، ومآل أمورهم، وهم يشعرون بكمال اختيارهم، وأنهم يختارون، ويتخيرون، فإن عليهم أن يحسنوا الاختيار ويسرعوا إلى الخير.

واستبقوا فى أصل معناها: التسابق، ولكن لتضمنه السبق والابتدار تعدى من غير إلى، كما فى قوله تعالى: ﴿**وَاسْتَبَقَا الْبَابَ** ... ﴿٢٥﴾﴾ [**يوسف**]. أى حاول كل واحد منهما الابتدار والوصول إلى الباب قبل الآخر، ومرمى النص أنه ليس لليهود أن يقولوا: نتبع شرعنا، بل عليهم أن يبتغوا الخير، ويسرعوا إليه، وهو فى ذاته معلوم ببداهة العقول تدركه من غير عوج، وفوق ذلك فإن الدليل قد قام بما لا يقبل الشك على رسالة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهى الخير كله،

فليتركوا اللجاجة فى هذا الأمر، وقد كانوا يتطاولون على المشركين بمبعثه، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به.

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أى إليه وحده جل جلالة، وعظم ملكه مرجع الناس أجمعين من أهل الملل والنحل قبل القرآن والذين استمروا بعده فهم جميعا سيلقون الله تعالى يوم لا ملك إلا ملكه، ولا سلطان إلا سلطانه ويخبرهم بالخبر العظيم الشأن، والنبأ الخطير الذى كانوا يتساءلون عنه فى الدنيا، فيعلمهم بالصدق، وفى ضمن هذا الصدق جزاء ما عملوا إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، فهو إنباء القول والعمل، حيث تجزى كل نفس ما كسبت، ففى هذا النص إنذار لمن بغى وعصى، وتبشير لمن أطاع وعدل واتقى، اللهم أحسن إلينا ووفقنا فى أعمالنا، واغفر لنا ذنوبنا، واجعل نتيجة الابتلاء خيرا لنا برحمتك وعفوك إنك أنت الغفور الرحيم العفو الكريم.

وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ
أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ
بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم
بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ
ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

فى الآيات السابقة ذكر سبحانه الأحكام فى الكتب السماوية وأن اتباعها واجب لمن أرسلت إليهم، وقد أشار إلى أحكام خالدة، ومنها شريعة القصاص؛ لأنها شريعة العدل والمساواة، إذ فيها أن العقوبة كفاء الجريمة وأن العقوبة من جنس الجريمة، فمن أجرم فإن فعله يطوى فى ثناياه استحقاقه للعقوبة على ما ارتكب، وله المثلات فيما ارتكب.

ثم ذكر سبحانه أن التوراة لأهل التوراة، وأن الإنجيل لأهل الإنجيل، ولكل شرعة ومنهاج، أما القرآن فهو المهيمن على الجميع، ويجب أن يسود حكمه الجميع بلا استثناء ولو كان لكل شريعة ومنهاج، وقد أمر بالحكم به بين اليهود، وبين جميع الناس، لا فرق بين يهود وغيره، ولا بين أبيض وأسود، ولقد كرر سبحانه وتعالى الأمر بالحكم بالكتاب، فقال تعالت كلماته:

﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾. وكان تكرار الأمر بالحكم لتأكيده فى مقام يستدعى التأكيد، لأنه جاء فى الكلام ما ربما يوهم أن لكل قوم شريعة خاصة بهم، وأن حكم القرآن وما نزل على النبى ﷺ ليس له صفة العموم فكان ذكر الأمر بالحكم مرة أخرى نفيا لهذا الوهم، وتأكيدا لمعنى عموم شريعة القرآن، وأن منهاج القرآن الكريم هو منهاجهم وأنهم قوم محمد - عليه الصلاة والسلام - وأن شريعة موسى وعيسى قد انتهت بنزول القرآن، يبقى منها ما يبقى ويشتمل عليه، ويبين ما انتهى حكمه بنزول القرآن الحكيم، وأنه لو كان موسى حيا ما وسعه إلا أن يتبع النبى ﷺ(١).

وهنا بحث لفظى فيه تقريب لمعنى النص الكريم، ذلك هو بيان المعطوف عليه فى قوله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم﴾ فلذلك عدة تخريجات كلها تتلاقى فى تأكيد الأمر بالحكم بما أنزل الله تعالى.

أول هذه التخريجات أن تكون «وأن احكم» معطوفة على الكتاب، وتفسير الكلام على هذا التخريج أن يكون المعنى فيه وأنزلنا إليك الكتاب، وقولنا أن احكم - أى أنزلنا الكتاب، وقد اقترن به الأمر بأن تحكم بين الناس به، وبما أنزلناه عليك من وحى أوحى به إليك.

ثانى هذه التخريجات أن تكون «أنْ» مصدرية، وقد جوز الزمخشرى دخول «أنْ» على أى فعل، ويكون المعنى: وأنزلنا إليك مع الكتاب والحكم بما أنزل الله تعالى، فما كان كتابا معطلا لمجرد التلاوة، بل كان شرعا معلوما متبعا مأمورا

---

(١) سبق تخريجه.

باتباعه، وكان دخول «أنْ» المصدرية على الفعل الأمر، للدلالة مع المصدرية على الطلب وتأكيد معناه، وهى معطوفة على: «بالحق».

ثالث هذه التخريجات هو أن تكون «أنْ» هى المخففة من الثقيلة وضمير الشأن اسمها محذوف، أى الحال والشأن أن تحكم به بينهم، وتكون معطوفة على الكتاب، و«أنزلناه» بمعنى أعلمناك، لأن العلم هو الغاية.

وقد كان النهى عن اتباع أهوائهم فيه إشارة إلى أن الحكم إما أن يكون بما أنزل الله تعالى وأعلمه بحكمته وهدايته، وإما أن يكون اتباعا لأهواء الناس ورغباتهم، وذلك لأن القوانين البشرية تتبع الأعراف الاجتماعية للناس، وما تواطئوا عليه وما ارتضوه لذات أنفسهم، وقد يكون ظلما طبقيا، وقد يكون هضما لحقوق ذوى الحقوق التى اكتسبوها بما ينمى ثروة الجماعة ويزيد خيراتها، وشرع الله تعالى مخالف لحكم الهوى والشهوة وهو الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال.

﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ هذا أمر موجه للنبى ﷺ وهو موجه إلى الأمة الإسلامية، ولعل توجيه الخطاب للنبى ﷺ وهو المعصوم الذى يوحى إليه، ليكون تحذيرا لغيره؛ إذ غيره أولى أن يَغُره الغرور، وتفتنه الفتن، من شهوات مسيطرة، وأهواء متحكمة، وبذلك يكون الخطاب لجميع المخاطبين بالقرآن الكريم فى كل العصور، ومختلف الدهور؛ لأنه إذا كان النبى عليه السلام يجب أن يحذر من أن يُفتن فلا ينفذ أحكام الإسلام فى الحكم بين الناس، فغيره الحذر عليه أوجب، وأشد إلزاما.

والفتنة هنا معناها وقوع البلاء والشدة بعدم الحكم بما أنزل الله، ولقد قال فى معنى هذا النص وما يشبهه الأصفهانى فى مفرداته: «وقال تعالى: **﴿وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن﴾** أى يوقعونك فى بلية وشدة فى صرفهم إياك عما أوحى إليك».

فالفتنة المراد بها هنا النتيجة المترتبة عن ترك الحكم بما أنزل الله تعالى، وأنه ليسبق تلك النتيجة إغراء من جانب الذين يتبعون أهواءهم، ويحاولون أن يكون

الحق تبعا لما يهوون، لا أن يكون هواهم تبعا للحق، وكان إغراؤهم من الفتنة لأنه يؤدى إلى وقوع الشدائد، ولأن الإغراء، كيفما كانت صورته فيه اختبار للنفوس، فالهداية البالغة أقصى الحكمة ترد الإغراء كيفما كانت صورته، وضعفاء النفوس أو العقول يفترون، فيقعون فى البلية والشدة، وفى التفسير المأثور، أن بعض أحبار اليهود، قال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه، فأتوه، فقالوا: يامحمد، إنك عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وسادتهم وإنا إن اتبعناك اتبعنا يهود، ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين قومنا خصومة، فنحاكمهم إليك، فتقضى لنا عليهم، ونؤمن ونصدقك، فأبى ذلك رسول الله ﷺ، فأنزل ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾.

وإننا نرى فى عصرنا بعضا من هذا الصنف، فلا تزال تطلع على طائفة منهم يقولون: إن التشدد فى الأخذ بأحكام القرآن وما جاء به محمد ـ عليه السلام ـ ينفر الناس من الإسلام، ويبعدهم منه، وإنا لنسمع كلام هؤلاء وليسوا من غير المسلمين بل المسلمون تتلوى بذلك ألسنتهم، فمنهم من ينفر من تحريم الإسلام للربا، لأنه ضد الاقتصاد، ومنهم من يمنع إقامة حدود الله، ويقولون: إن ذلك يتنافى مع الحضارة، وينفر الناس من الإسلام . . . يرددون ذلك فى مجالسهم، ويقولونه وهم على الأرائك متكئون، ويغمزون فى القول لمن يتشدد، وجاراهم مع الأسى بعض من يتكلمون باسم العلم الإسلامى، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد حذر الله تعالى النبى ﷺ، وبالأولى المؤمنين من أن يفتنوا عن بعض ما أنزل الله تعالى، وتشديد التحذير من الفتنة فى البعض، يتضمن التحذير من الفتنة فى كل ما أنزل الله تعالى، إذ الفتنة فى الكل أشد إيجابا للتحذير من الفتنة فى البعض، هذا وإن الفتنة فى بعض ما أنزل الله تعالى تؤدى إلى الفتنة فى كل ما أنزل الله سبحانه؛ لأن ما أنزل الله سبحانه وتعالى وأوجب الأخذ به مرتبط الأجزاء متماسك، فإذا حلت عروة منه انحل سائره، كالبنيان المرصوص، وإذا تهدم جزء منه تداعت لبناته وانهار البنيان، وصار أجزاء منثورة لا تربطها رابطة.

وإن الوقائع بين أيدينا مُعْلمةً شاهدة، فمن يوم أن ترك المسلمون أمورهم لحكام يعصون، ولم يلتفتوا إلى ما يدعوهم إليه ما أنزل الله تعالى على نبيهم ﷺ ذهب حكم الإسلام، وتداعت أركانه، وصار المسلمون مستضعفين فى الأرض، ودينهم يدعوهم إلى أن يكونوا ذوى بأس شديد، أشداء على غيرهم رحماء بينهم.

ومن أجل ذلك جاء التحذير من الفتنة فى البعض لكيلا يستسهل ويستصغر، فيجىء الأكبر، وهو حل عرا الإسلام عروة، عروة، وقد حذر الله سبحانه من عاقبة الذين يعرضون عن أن يحكموا بما أنزل على نبيه، فقال تعالت كلماته:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ ظاهر السياق أن الضمير فى قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ إلى آخره يعود على اليهود، ومن لَفَّ لَفَّهم ممن يسيرون فى الحكم على هواهم، وعاصروا النبى ﷺ، وعندى أن الضمير يعم كل من يخاطبهم القرآن، وهم أمة محمد ﷺ فى كل الأجيال، وفى كل الأزمان، وإن كان اليهود وغيرهم ممن عاصروا النبى ﷺ داخلين فى حكم عموم الأمة ابتداء، والمعنى فإن أعرضوا عن تنفيذ حكم الله تعالى، فإنه سينزل بهم من الشدائد ما يتناسب مع جعل شرائع الله تعالى معطلة لا يقام العدل الذى تتضمنه، بل يكون حكم الهوى، وحسب ذلك فسادا(١).

---

(١) عَنْ عَبْد اللَّه بْنِ عُمَرَ قَالَ: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّه ﷺ فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللَّه أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلا فَشَا فِيهِم الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلافِهِمْ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّة الْمَئُونَة وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنْ السَّمَاءِ وَلَوْلا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّه وَعَهْدَ رَسُولِه إِلا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ». رواه ابن ماجه: الفتن - العقوبات (٤٠١٩).

وهنا يتكلم العلماء في بعض الذنوب التي سببت ما أصابهم الله تعالى، وما هي هذه الإصابة التي يصيبهم الله تعالى، وقد ذكروا وجهين، وأرى وجها ثالثا.

الوجه الأول - ما ذكره الزمخشري: أن هذه الذنوب التي هي بعض ذنوبهم، إهمالهم لحكم الله تعالى، واختيارهم حكما جاهليا يخضع للهوى، لا للعدل، والإصابة التي يصيبهم بها هي هذا الذنب الذي ارتكبوه، وما يترتب عليه من ظلم يقع، وشر لا يدفع، لتنفيذ حكم الله مع أنه طاعة وهو العدل، والعدل إذا ساد عاشت الجماعة كلها في أمن وسلام، ورحمة واطمئنان، وعدم تنفيذ حكم الله هو الظلم والاضطراب والفساد.

الوجه الثاني - هو ما ردده أكثر المفسرين من أن الذنوب التي ارتكبوا بعضها يعاقبهم الله تعالى عليها بالشدائد تنزل بهم، ومن أعظم هذه البلايا أن يعم الفساد، وتصير أمورهم فوضى، لا ميزان يضبطها ولا قسط يقيمها، وتكون الجماعة متدابرة متنازعة.

الوجه الثالث الذي اختاره، أن عدم تنفيذ العدل أو عدم الخضوع لأحكام الشرع هو في الواقع ثمرة لمفاسق تسبقه، فالنفس تتردى في مهاوي الرذائل، وتحيط بها الخطايا، ويتحكم فيها الهوى، وتصير أمة للذات والشهوات فتتمرد عن حكم الله تعالى، ويكون ذلك نتيجة لإصابتهم بذلك الذنب الكبير الخطير، وهو الإعراض عن حكم الله، وهو ذاته إصابة وكارثة، لأنه العدل والقسطاس، وأي جماعة تعرض عن العدل والقسطاس مآلها الخراب والدمار، وذهاب القوة، وإصابتها بالذلة، فلا عزة إلا عزة الحق، ولا ذلة إلا في الظلم.

وإننا رأينا هذه الحقيقة ثابتة، فأولئك الذين يتمردون على حكم القرآن والسنة قد مست نفوسهم معاص جعلتهم يستبيحون المحرمات من زنى وشرب للخمر، وإدمان في الربا، أو بناء الاقتصاد عليه، وهذه الذنوب هي التي منعتهم من إطاعة حكم الله، وإن الله يصيبهم بنتائج ذلك وهو الخراب الناشئ من

الظلم، والفساد الذى يعم وأولئك كثيرون، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾.

هذا النص فيه عزاء للنبى ﷺ من تمرد الناس على حكم العدل وحكم الحق، وعزاء لكل داع للخير من بعده، لكيلا ييئس داعٍ؛ لأنه يحسب أن الخير يسير بمنطق مستقيم فى النفوس، كما هو فى ذات نفسه، فالله سبحانه وتعالى ينبه دعاة الخير إلى أنهم لا يتوقعون الاستجابة من الأكثرين، كما قال تعالى لنبيه: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف]. وقال سبحانه: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ... ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام]. ولأن دعوة الخير لا تجد الاستجابة بيسر، وكانت جهادا، وكانت تعبا، وعلى الداعى ألا تذهب نفسه حسرات إذا لم يجد الأكثرين يجيبونه، وليعلم أن دعوة الحق لها صدى يسمع فى الأجيال وإن كانت لا تسمع فى زمان صاحبها.

والفسق معناه فى الأصل خروج اللب عن قشرته التى تحميه من الفساد، وأطلق على الخروج عن الحق والتمرد عليه؛ لأن الحق هو الذى يحمى النفوس، ويكلؤها من عفن الرذيلة وفسادها، ومؤدى الكلام أن الذين ينغضون رءوسهم عن سماع الحق ودعوته، وعن الخضوع لحكمه ليسوا عددا قليلا ولكنهم كثير، وقد أكد سبحانه وتعالى كثرتهم بـ «إنّ»، وبـ «اللام» فى خبرها، والله سبحانه هو الهادى إلى سواء السبيل، وقد استنكر سبحانه فعل الفاسقين، ولو كانوا كثرة كاثرة، فقال تعالت كلماته: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾.

هذا استفهام إنكارى توبيخى، أى أنه إنكار للواقع الذى يقع من الفاسقين عن أمر ربهم، وعن الحكم الذى يحكم به الله تعالى، والفاء هنا هى التى تفصح عن شرط مقدر، أى إذا كانوا يخرجون فهم يبغون حكم الجاهلية، وقدمت الهمزة على الفاء؛ لأن الاستفهام له الصدارة فى الذكر دائما، ولو كان استفهاما إنكاريا لاستنكار الواقع، وسوق الكلام بشكل الاستفهام الإنكارى فيه تأكيد لمعنى ابتغائهم حكم الجاهلية، ثمة تأكيدان آخران، لارتضائهم الحكم الجاهلى: **أولهما** ـ تقديم

المفعول على الفعل، وفى ذلك إشارة إلى أنهم بإعراضهم عن حكم القرآن لا يبتغون ولا يريدون إلا الحكم الجاهلى، أى أنه لا يخضع الشخص إلا لأحد نوعين من الحكم حكم القرآن، **والثانى** حكم الجاهلية - وقد يقال: بينهما ثالث، وهو حكم العقل والقسطاس، ونقول: إن من يبنى حكم العقل والقسطاس لا يمكن أن يتولى عن حكم القرآن، إنما يتولى عن حكم القرآن من يريد حكم الهوى والشهوة، وحكم العقل وحكم الشهوة نقيضان لا يجتمعان.

والتأكيد الثانى لارتضائهم حكم الجاهلية - هو التعبير عن رضاهم عنه بقوله تعالى: ﴿**يَبْغُونَ**﴾؛ لأن البغى هو الطلب بشدة تؤدى إلى الظلم.

وإنه لا وسط بين حكم الجاهلية وحكم القرآن؛ لأن حكم القرآن هو العدل وهو النظام، وهو المساواة فى الحقوق والواجبات، لا يعفى من حكمه شريف، ولا حاكم، وليس فيه مَن ذاته مصونة لا تُمس، بل الجميع أمام الله تعالى على سواء، وأما حكم غير القرآن ففيه التفاوت بالطبقات، وفيه السيطرة التى لا يسوغها منطق ولا عدل، ولا نظام، وفيه أكل أموال الناس بالباطل، كالربا، وسائر أنواع السحت، وقد قال بعض التابعين: من حكم بغير الله فهو حكم الجاهلية.

وقد جاء فى التفسير الأثرى لابن كثير المحدِّث والمؤرخ ما نصه:

«ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله تعالى المشتمل على كل خير الناهى عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء، والاصطلاحات التى وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، كما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيزخان الذى وضع لهم «الياسق»، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها عن شرائع شتى من اليهودية والنصرانية، والملة الإسلامية وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت فى بنيه شرعا متبعا يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله. . . .

وما أشبه «الياسق» الذى وضعه جنكيزخان بـ «قانون نابليون» وما جاء بعده من قوانيننا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى القدير.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ الاستفهام هنا إنكارى فيه إنكار للوقوع ، أى أنه بمعنى النفى المؤكد، كأنه استفهم عن أن يكون ثمة من هو أحسن حكما من الله، فأجيب بالنفى المؤكد الذى لا يتصور فيه أن يكون من هو أحسن حكما، والمعنى لا أحد أحسن حكما من الله لقوم يوقنون، وهنا يرد سؤال هو لقد ذكر أنه لا أحد أحسن حكما من الله لقوم يوقنون، مع أنه سبحانه أحسن حكما لمن يوقنون ومن لا يوقنون، إذ هو العدل والمصلحة. وبها ينتفع البر والفاجر، والسليم والسقيم، فهو الخير الوارف الظلال، فلماذا القيد بقوله تعالت كلماته: ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؟. والجواب عن ذلك يتكون من جزءين: أولهما ـ أن أولئك هم الذين ينتفعون به، فكان الأحسن لهم والأقوم، أما غيرهم فهم قوم بور، وهم فى غيهم يعمهون.

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾

فى الآيات السابقات ذكر سبحانه وتعالى كتب اليهود الأولى، وكتب النصارى الأولى التى لم يعرها تغيير وتبديل، وبين أن القرآن هو الحاكم المهيمن على ما جاء قبله من الكتب، وأنه الحاكم عليها، وأنه المتبع ولا شريعة من الله سواه، بعد أن نزل على محمد ﷺ، وأن الذين يتبعون غيره خارجون عن مبدئه، ويبغون حكم الجاهلية، إذ فارق ما بين حكم الجاهلية وحكم العدل هو الحكم بالهوى، وإذا كان ما مضى من آى كريمة قد تعرض لعلاقات الكتب فكان من المناسب أن يبين القرآن الكريم علاقة الجماعة الإسلامية بغيرها من الجماعات اليهودية والنصرانية، فجاء قوله تعالى ناهيا:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ**﴾ الأولياء جمع ولى، والولى يطلق بمعنى الودود المحب، أو الصديق، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿... **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** ﴿٣٤﴾﴾ [**فصلت**]. ويطلق بمعنى النصير الحافظ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ... ﴿٢٥٧﴾﴾ [**البقرة**].

وهو فى هذا النص الكريم يجمع بين النصرة والمحبة، والتوفيق والهداية، ويطلق الولى بمعنى من يتولى الأمر، ومن يكون صاحب الولاية، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا** ... ﴿٥٥﴾﴾ [**المائدة**]. وما المراد من اتخاذ الأولياء المنهى عنه فى هذه الآية؛ يفسره الزمخشرى بأنه الاستنصار والمودة والمحبة، ونفسره بأن يجعلوا ولايتهم لغيرهم فى الانتماء، والنصرة، ويقبلوا أن يكونوا هم أهل ولايتهم التى ينتمون إليها، وينضوون تحت لوائها، فهى مثل قوله تعالى: ﴿**لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ** ﴿٢٨﴾﴾ [**آل عمران**]

وهذا الرأى يؤيده ما جاء فى سبب النزول، وتذكره كتب التفسير وهو أن بعض الأنصار كان يتولى بعض اليهود لما كان يرى فيهم من عدد كثير، وما عندهم

من سلاح. فتبرأ منهم لما نهى عن أن يكون عليه أو له أولياء غير المؤمنين. واستمر على ولايتهم بعض المنافقين، فدل هذا على أن المراد بالولاية هنا الاستنصار بهم، والاندماج فى ولايتهم، ولو سرا.

وهنا يرد سؤال أيجوز لنا أن نتخذ منهم بطانة ومعاونين؟ والجواب عن ذلك أنه لا يجوز، وقد ورد بذلك النص القرآنى، فقد قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾**﴾ [آل عمران]

ولقد كان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ينهى عن أن يستخدم غير المسلمين فى الدولة الإسلامية، ويروى فى ذلك أن أبا موسى الأشعرى كان له كاتب نصرانى، فأرسل إليه أمير المؤمنين عمر ينهاه عن ذلك، وجاء فى آخر كتابه: (لا تقرِّبوهم إذ أقصاهم الله) فرد عليه أبو موسى يقول له: (لا قوام للبصرة إلا به). فكتب إليه عمر مرة أخرى كلمة موجزة: (مات النصرانى والسلام) وقد فسر الزمخشرى تلك الكلمة الموجزة بقوله: (يعنى أنه قد مات، فما كنت تكون صانعا حينئذ فاصنعه الساعة، واستغن عنه بغيره).

والسؤال الثانى الذى يرد؛ أيجوز للمسلم أن تكون بينه وبين غير المسلم مودة؟ أم يجب التباعد عنه ما أمكن؟ ونقول فى الجواب عن ذلك :إنه قد ورد فى هذا نصان يبدو أنهما بادى الرأى متعارضان، أولهما ـ قوله عليه الصلاة وأتم التسليم: «لا تراءى ناراهما»(١) أى لا تجمعهما نار يستدفئان بها أو يستضيئان بضوئها، أى لا يجتمعان على مودة واصلة. والثانى ـ قوله تعالى: ﴿**لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾**﴾ [الممتحنة]

---

(١) عَنْ قَيْسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ سَرِيَّةً إِلَى قَوْمٍ مِنْ خَثْعَمَ فَاسْتَعْصَمُوا بِالسُّجُودِ فَقُتِلُوا، فَقَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِنِصْفِ الْعَقْلِ وَقَالَ: «إِنِّي بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ مَعَ مُشْرِكٍ» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلا لا تَرَاءَى نَارَاهُمَا». [رواه النسائي: القسامة - القود بغير حديدة (٤٧٨)، وأبو داود: الجهاد - النهي عن قتل من اعتصم بالسجود (٢٦٤٥)].

والتوفيق بين النصين أن الأول جاء فى الذين يشاقون الإسلام، ويتآمرون عليه، والثانى بصريحه جاء فى الذين لم يأتمروا بالإسلام وأهله.

ونقول فى ذلك: إن غير المسلمين أقسام ثلاثة:

القسم الأول ـ يعيشون مع المسلمين ويسالمونهم، ولا يعملون لحساب غيرهم، وهؤلاء لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وتصح موادتهم، كنص الآية الكريمة: ﴿**لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ**﴾.

والقسم الثانى ـ الذين يقاتلون المسلمين، ويدبرون لهم المكايد، وهؤلاء لا تجوز موادتهم، وقد قال سبحانه فى ذلك: ﴿**لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)**﴾ [المجادلة]. وقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩)**﴾ [الممتحنة].

القسم الثالث ـ طائفة لم تعلن المجاهرة بالعداوة، ولكنهم فى قلوبهم يتمنون فى ذات أنفسهم خذلان المسلمين، ونصرة غيرهم، فظاهرهم مع المسلمين، وقلوبهم مع أعدائهم وهؤلاء نعاملهم بما عامل به النبى ﷺ المنافقين، نسالمهم، ولا نكشف خبيئة نفوسهم، ولكن نأخذ حذرنا منهم.

ومهما تكن أحوال المخالفين فإنه لا تجوز الاستعانة بهم فى خاصة شئون الدولة الإسلامية حتى لا يكون منهم بطانة لا تألوننا خبالا، وقد علل سبحانه النهى عن توليهم بقوله تعالت كلماته: ﴿**بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**﴾.

أى أن السبب فى منع المؤمنين من أن يستنصروا بهم أو يجعلوا منهم أولياء عليهم أو لهم، أنهم لا يوالون المسلمين فى ذات أنفسهم بل تكون نصرتهم فيما

بينهم، فالنصارى أولياء ونصراء لإخوانهم النصارى، واليهود أولياء ونصراء لليهود، فكل طائفة تنحاز ولايتها إلى أهل دينها، فالنصارى منحازون فى الولاية إلى النصارى واليهود منحازون إلى اليهود.

ويصح أن نفسر النص بأنهم يوالى بعضهم بعضا أى اليهود يوالون النصارى ضد المسلمين، فكلتا الطائفتين تتولى الأخرى.

ويظهر لى أن الآية تدل على المعنيين، فالنصارى يوالى بعضهم بعضا واليهود كذلك، وهما دائما إلبٌ على المسلمين كما نرى فى عصرنا الحاضر، فالعالم المسيحى كله يؤيد اليهود فى اغتصابهم أرض الإسلام ووضعها تحت أيدى اليهود ومع أنهم يدعون عدم التعصب، يتعصبون ضد المسلمين ويؤيدون قيام دولة على أساس الدين.

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ إن من يجعل نصرته منهم ويخضع بالولاية لهم فهو منهم. روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنه أن النص يفيد التشبيه أى أنه مثيلهم فى معاداة الإسلام وأهله .

ولكن كثيرين من المفسرين يعتبرونهم منهم حقيقة، ولا تشبيه فى القول ولا تمثيل، فيقولون: إن من اتخذ منهم نصراء وحلفاء وأولياء دون أهل الإسلام، فإنه منهم فى التحزب على الله تعالى، وعلى رسوله والمؤمنين وأن الله تعالى ورسوله منهم بريئان، ويقول فى تقرير هذا المعنى ابن جرير: «ومن يتول اليهود والنصارى دون المؤمنين فإنه منهم، فإن من تولاهم ونصرهم على المؤمنين، فهو من أهل دينهم وملتهم، فإنه لا يتولى متول أحدا إلا وهو به وبدينه، وما هو عليه راض، وإذا رضيه ورضى دينه فقد عادى ما خالفه وسخطه، وصار حكمه حكمه».

وإن ذلك التولى بلا ريب ظلم للنفس. وظلم للمسلمين، ومن أركست نفسه فى هذه الضلالة حتى صار لا يطيق تركها، فقد استضعف نفسه، وظلمها، ثم ظلم المؤمنين، وبعد عن هداية أهل الإيمان ،وارتضى حكم الطاغوت ولذلك

ذيَّل الله سبحانه وتعالى النص بقوله تعالت كلماته : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ .

وهذا النص بعمومه يشير إلى أن أعداء الإسلام ظالمون مهما يكن تعدادهم،وأن من يواليهم هو من القوم الظالمين، ولا تدخل الهداية قلبه؛ لأنه مرد على النفاق، ولأنه استضعفت نفسه والمسلمين، ولأنه لم يعمر الإيمان قلبه فكان قلبه ظلمات متكاثفة لا يدخل من خلالها نور ،ولا حق مبين ،وقد صور سبحانه من يوالونهم، فقال:

﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾

بعد أن أشار سبحانه إلى أن الذين يجعلون نصرتهم من قبل المخالفين، وولايتهم لهم، ويقبلون أن يكونوا لهم تبعا - أخذ يبين أنه من بين الصفوف الإسلامية من ينتمون إليهم بقلوبهم، وهم بين المسلمين بمظاهرهم سواء أكانت هذه الظاهرة لها صلة بالخضوع الظاهرى والحقيقى كضعاف المسلمين، أم كانوا لايخضعون لمبادئ الإسلام بأى نوع من الخضوع كالمنافقين الذين لا يذعنون إذعانا ضعيفا أو غير ضعيف بل يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم.

وهنا نقف أمام العبارات السامية ونحاول أن نذكر بعض ما تشير إليه من بيان، ونتعرض فى ذلك لأمور بيانية:

أولها ـ قوله تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم﴾ .

الفاء تفصح عن شرط مقدر، مؤداه أنه إذا كان الذين يتولونهم منهم، فإنك واجدٌ من بين صفوف المسلمين من فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم . . . إلى آخره. والتعبير بقوله تعالى: ﴿فَتَرَى﴾. تصوير للحال الواقعة من أولئك الضعفاء فى إيمانهم، والمنافقين فى قلوبهم ـ بأنها كالمرئية الظاهرة التى لا تخفى على ذى البصيرة المدركة، وفى هذا تسلية للنبى ﷺ، وتنبيه للحال الواقعة ليعالجها بهداية الله تعالى، وما آتى به الرسول ﷺ من حكمة، وليحتاط عليه الصلاة والسلام منهم، وليهيمن على توجيه قلوب الضعفاء، وتربية من يصلح منهم للتربية على

الإيمان، ممن لم يرشدوا ولم تمس بشاشة الإسلام نفوسهم، ولم تشرب قلوبهم حبه.

ثانيها ـ التعبير بقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾. وفى التعبير السامى، إشارة إلى أن الذين يعطون لهم حق الولاية والنصرة دون المؤمنين، سبب هذا الأمر منهم هو أن فى قلوبهم مرضا، ومرض القلوب يكون إما من خور العزيمة، وعدم الإحساس بالقوة الدافعة لأن ينتصروا مما يقع عليهم من أذى، وإما من النفاق.

والمسارعة. المبادرة، وتعدى الفعل هنا بـ «فى» مع أن المبادرة تتعدى بـ «إلى»، والحكمة فى ذلك الإشارة إلى أنهم لا يدخلون ابتداء فيهم، بل إنهم فيهم بقلوبهم من قبل، فالمسارعة انتقال من حال إلى حال فى صفوفهم أى أنهم منغمرون فيهم دائما، ولا يخرجون عن دائرتهم.

ثالثها ـ أنهم فى مسارعتهم وبقائهم على الولاء لهم والانتصار بهم يقولون بأفواههم: ﴿نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾. الدائرة ما يصيب الجماعات من شدائد ونوازل بسبب أعدائهم، ويقول الواحدى فى أصل معناها: الدائرة من دوائر الدهر كالدولة، وهى التى تدور من قوم إلى قوم، والدائرة هى التى تُخشى كالهزيمة والحوادث، ومقتضى كلام الواحدى أن الدائرة كالدولة، إذ تتداول بين الناس، كما قال تعالى: ﴿... وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ... (١٤٠)﴾ [آل عمران]. والدائرة تدور بين الناس والجماعات، بيد أن الدولة تتداول بالقوة والسلطان والعزة، والدائرة تدور بالهزيمة والجائحات، فهى تدور بين الناس من جماعة إلى جماعة، ومن يخشى الدائرة من الجزع والهلع يتوقع الأذى والشر، ولقد قال الشاعر فى معنى الدائرة:

ترد عنك القدر المقدورا ... ودائرات الدهر أن تدورا

وإن أولئك المتصفين بهذه الصفات من مرضى القلوب لا يثقون بنصر الله، أو على الأقل حالهم ليست حال المطمئن إلى نصر الله، لخور نفوسهم، وضعف

إيمانهم، أو امتلاء قلوبهم بالنفاق، وإن إنهاء هذه الحال يكون بالنصر المؤزر، ولذا يقول سبحانه فى توقع النصر المؤزر، والفتح المبين: ﴿**فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ**﴾. الفتح يطلق بمعنى التوسعة، كما قال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ** ... (٩٦)﴾ [**الأعراف**]. ويطلق بمعنى الفصل بين الحق والباطل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿... **رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ** ... (٨٩)﴾ [**الأعراف**]. ويطلق بمعنى الظفر والنصر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا** (١)﴾ [**الفتح**].

والفتح هنا يراد به المعانى الثلاثة، فهو السعة بعد الضيق، والفصل بين حق صادق، وباطل طاغ، والنصر والظفر.

ومعنى الرجاء من الله تعالى الوعد القاطع؛ لأنه من القادر على كل شيء الذى لا يصعب عليه شيء، والتعبير بالرجاء لتعليم المؤمنين ألا ييئسوا من رحمة الله ونصر المؤمنين؛ لأنه وليهم وناصرهم، فالله تعالى يعد المؤمنين، وهو الذى لا يعجزه شيء فى السماء ولا فى الأرض، فالله سبحانه وتعالى ينبه المؤمنين إلى رجاء النصر والسعة والفصل بينهم وبين أعدائهم وذلك كله من الله تعالى.

﴿**أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ**﴾ والأمر الذى يجيء من عند الله هو خضد شوكة غير المؤمنين، حتى يرجى نصره، ولا يخشى من الدوائر أو تزول دولتهم.

ومعنى النص الكريم أن الله سبحانه وتعالى قد وعد المؤمنين بالفتح القريب الذى يرجوه المؤمنون، وأنه سبحانه وتعالى سينجز وعده الذى وعد به عباده الصالحين، وعندئذ تكون العزة لله ولرسوله والمؤمنين، ويكون الندم والحسرة على ضعفاء الإيمان، ولذا قال سبحانه:

﴿**فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ**﴾ وعند الفتح، أو الأمر الذى يزيل سلطان من يستنصر بهم مرضى القلوب يفرح المؤمنون بنصر الله، ويصبح الذين أسروا فى أنفسهم خذلان المؤمنين، ورجاء ما عند غيرهم نادمين على ما

أسروه، وخيب الله ظنهم فيهم، إذ رجوا ما عند الناس، ولم يرجوا ما عند الله، ورضوا بنصرة الطاغوت، وتركوا نصرة الله تعالى، وهنا نتكلم فى أمرين:

أولهما ـ معنى الندم على ما أسروه، أن الندم فى هذه هو الظن الفاسد الذى وقعوا فيه، وخيبة الأمل فيما يرجونه، فليس ندمهم كندم التائب الذى يرجع إلى الله، وإنما ندمهم كندم المغيظ المحنق الذى كان يتوقع ـ أمرا فتبين له غيره.

الأمر الثانى ـ أن الله عبر عن ندمهم بالوصف لا بالفعل للإشارة إلى أن هذا الندم حال دائمة مستمرة تتضمن الحسرة والغيظ، والألم المستمر.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ ذكرنا ما حكاه الله عن المنافقين وضعفاء الإيمان، وفى مقابلة قول الأولين مرضى القلوب الذين استولى عليهم اليأس من رحمة الله تعالى، كان ما قاله أهل الإيمان قبل النصر وبعده، فقبله كان الرجاء يغمرهم، وبعده كان الفرح يملؤهم، ويندِّدون بحال مرضى القلوب، ويستنكرون فعلهم فقد حكى سبحانه استنكار حالهم بقوله:

﴿أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ أى هذه حال أولئك الذين أقسموا بالله بأقصى طاقة ما عندهم من إيمان، أنهم لمعكم، أى أن هؤلاء مرضى القلوب أعلنوا مقسمين بأقصى الأيمان، بأن يكونوا مع المؤمنين والرسول فى ولايتهم ونصرتهم، ومعاونتهم، وقد أكدوا ذلك بعدة تأكيدات بأقصى الطاقة فى القسم وتوثيق الكلام، وأكدوه بـ «إن» وبـ «اللام» المؤكدة، ومع هذه التوكيدات ما كانوا صادقين، بل كانوا خادعين، لأنفسهم وللمؤمنين، كما قال سبحانه: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [البقرة]. ولايمكن أن ينجح من يكون هذا شأنه، ولذا قال سبحانه:

﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ تحتمل أن تكون هذه مما حكاه الله تعالى عن المؤمنين، ونميل إلى أنها من كلام الله تعالى، وهو حكم الله تعالى عليهم بثمرة ما كان من فساد قلوبهم، وهو إن ما يتوهمونه وما يعملون على

أساسه، ومن امتناعهم عن أن يكون ولاؤهم للمؤمنين وموالاة غيرهم دونهم - مآله الفشل والحبوط، وأن الله هو العزيز الذى ينصر من ينصره، ويعز من يعتز به، ومن يعتز بغيره يذل ويهون، وبذلك أصبحوا خاسرين، ولقد قال الزمخشرى: إن الجملة فى معنى التعجب، أى ما أعجب حبوط أعمالهم وما أعجب أن أصبحوا خاسرين، وهذا الكلام على أساس أن الجملة محكية عن المؤمنين، ونميل أنها حكم الله تعالى وهو العلى الحكيم، اللهم أعزنا بعزة الإسلام، وامنع عن قلوبنا الولاء لأهل الكفر والطغيان.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾

فى الآيات السابقة نهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن أن يتخذوا من اليهود والنصارى نصراء يستنصرون بهم، ويعطونهم حق الولاية عليهم، فيجعلون الولاء لهم، وهم أعداء الإيمان وأعداء المؤمنين، وإن أظهروا الولاء لدولة الإيمان فهم فى قلوبهم لا يألونهم خبالا، وإن ذلك موضوعه علاقة دولة الإسلام بغيرها من الدول التى تعاديها، ولا يدخل فى هذا الذميون الذين يعيشون فى ظل الإسلام والمسلمين إلا إذا مالئوا الأعداء، فإنهم يكونون قد نقضوا العهد الذى عاهدوا المسلمين عليه.

وفى هذه الآيات، يومئ سبحانه وتعالت كلماته، إلى أن الذين يوالون دولة معادية للإسلام وأهله يسيرون فى طريق الردة؛ لأنهم تركوا ولاية الله

والرسول والمؤمنين، وولايتهم هى الحق، وهم حزب الله، وحزب الله تعالى هم الغالبون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ﴾ الارتداد معناه الرجوع من غير هداية وإرشاد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ... ﴿٢٥﴾﴾ [محمد]. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿... وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ ... ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة].

فالارتداد فى الآية الكريمة التى نتكلم فى معانيها السامية معناه الخروج عن الدين، ويسمى ذلك ردة؛ لأنه انصراف عن الحق بعد أن اهتدى، ورجوع إلى الظلام بعد أن خرج إلى النور، وهو كمن يرتد على أدباره غير مبصر الطريق الضال الذى يسلكه لأنه لا يواجهه.

وفى النص إشارة إلى أمرين ـ أولهما ـ أن فيه إيماء إلى أن العرب فيهم من سيرتد بعد إيمان، وذلك قد كان، فإنه بعد أن انتقل النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى ارتدت قبائل عربية ولم تبق مساجد تقام فيها الصلوات إلا مسجد المدينة ومكة وعبدالقيس، وقد تصدى لهم الصديق، وأصحاب رسول الله ﷺ، حتى أزالوا شوكة الردة، وخيَّرهم الصديق بين سلم مُخزية أو حرب مُجلية، فاختاروا السلم لتوالى هزائمهم الأولى، وكان منهم من اشترك فى الفتوح الإسلامية التى كانت من بعدها كلمة الله هى العليا فى المشرق والمغرب، وفتح الله معها قلوب الناس، فدخلوا فى الإسلام أفواجا، أفواجا.

وإن الآية الكريمة تومئ ثانيا إلى أن تولى الكفار أعداء الإسلام واتخاذ النصرة منهم على المؤمنين، وجعل الولاية لهم دون المؤمنين طريق إلى الارتداد؛ لأن من يعتز بغير عزة الله تعالى ينقص من إيمانه بمقدار موالاته لأعداء الله تعالى، واستمراره فى الموالاة وإعطاء الولاية، ولقد قال سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ... ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة].

وهنا يسأل سائل عن أمرين: أولهما ـ ما الموالاة التى تجر إلى الارتداد؟ وثانيهما ـ ما حقيقة الردة؟ ونقول فى الإجابة عن السؤال الأول ـ إن الموالاة التى تفضى إلى الارتداد مراتب أعلاها أن يستنصر بهم على أهل الإيمان، كما كان يفعل بعض الملوك فى الماضى، وكما فعل بعض الوزراء الذين مالئوا التتار على المؤمنين، حتى تمكنوا من أهل بغداد وغيرها من المدائن الإسلامية تقتيلا وتذبيحا، وهذه المرتبة أحسب أنها فى ذاتها ردة، وليست ذريعة إليها فقط.

المرتبة المتوسطة - أن يواليهم فى أوطانهم، ويستنصر بهم ويجعل ولايته لهم من غير معاونة لهم على أهل الإيمان، ولا تمكين لهم من رقاب المؤمنين، وتكون هذه للمستضعفين فى أرضهم، وهؤلاء قد يفيض بهم الاستضعاف إلى أن يكونوا منهم، وبذلك يسيرون فى طريق الخروج عن الدين.

المرتبة الأخيرة ـ أن نقدس تعاليمهم، ونحول مجتمعنا الإسلامى بما يشبه مجتمعهم، حتى يكون ما عندهم أمرا غير قابل للمناقشة، وما عندنا ولو كان من هدى الإسلام يكون قابلا للنقض، بل للاستهانة ووضعه دبر الآذان مما نراه من بعض المثقفين الآن فى الديار الإسلامية، الذين لا يتبعون أعداء المسلمين ويقلدونهم فى الصناعات والعلوم الكونية، بل يقلدونهم فى أهوائهم وشهواتهم ومجونهم، ومعابثهم، ويحسبون ذلك تقدما، وما هو إلا ارتداد إلى الحيوانية البهيمية، والأدهى من ذلك أن يعتبروا قوانينهم محكمة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، ويجعلوا شرع الله هملا مطويا فى زوايا النسيان.

والجواب عن السؤال الثانى وهو تعرف حقيقة الردة، أن الردة مراتب أيضا.

أعلاها ـ إنكار ما جاء فى كتاب الله تعالى، وإنكار الوحدانية والرسالة، وإنكار كل أمر علم من الدين بالضرورة ككون الصلوات خمسا، وكفرضية الزكاة والحج إلى آخر ما يُعَدُّ إطار الإسلام؛ من يخرج عنه قد خرج عن الإسلام، ومن ذلك أحكام الزواج والطلاق.

ووسطها ـ إهمال الأحكام القرآنية، واستبدال غيرها بها، وزعم صلاحية غيرها، وعدم صلاحية الأحكام القرآنية، ومن ذلك قول الذين يقولون: إن أحكام القرآن خاصة بزمان نزوله دون غيره، وإن للناس أن يبدلوا فيها ما شاء لهم التبديل.

وأدناها ـ تقليد غير المسلمين فيما عندهم من شر، وجعل القرآن وآدابه، والسنة وما اشتملت عليه أمرا مهجورا.

وإن المرتبة الاولى تبيح قتل معتنقيها، والأخريان يحبس أصحابهما، ويمنعوا من الجهر بنحلهم، وذلك لولى الأمر، وإن ذا النورين الإمام عثمان ـ رضى الله عنه ـ قال: «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»[1] وإن الله وعد.

وإن وعده لصدق أنه إذا ارتد عن الإسلام من يرتد، فيكون من بعدهم من يعتز الإسلام بهم، ويرفعون شأنه، ولذا قال تعالت كلماته: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

هؤلاء هم الذين وعد الله بأنهم سيزيدون عدد المؤمنين، إذا خرج من صفوفهم المنافقون، والذين يوالون أعداء الله، وإن (سوف) هنا لتأكيد وقوع الأمر فى المستقبل، والتعبير ـ بـ ﴿يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ﴾ فيه إشارة إلى أمرين: أحدهما ـ أن الله سبحانه الذى خلقكم، وهو ولى المؤمنين هو الذى يأتى بهؤلاء الأقوام الذين يحبهم ويحبونه. . .، وثانيهما ـ أنهم يكونون قوما متحدة مشاعرهم وأحاسيسهم، قد كانت قوميتهم نصرة الله ورسوله بنصرة الدين الحكم، ولذا عبر عن هؤلاء بأنهم قوم، أى عنصر قوى متآزر وحدته مكونة من الإيمان، ولا يكونون تابعين لغير دين الله تعالى.

وقد وصف الله تعالى أولئك الذين يأتى بهم فى المكان الذى أخلاه المرتدون بأربع صفات هى من نعم الله تعالى عليهم، أولها ـ أن الله تعالى يحبهم وهم

(١) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية: ج٢، ص٩٤.

يحبونه، وإن محبة الله تعالى للمؤمنين أعلى ما يصل إليه أهل الإيمان من نعمه، ومحبة المؤمنين لله أعلى درجات الطاعة والإيمان.

ومحبة الله تعالى لعباده التي تليق بذاته الكريمة المنزهة عن مشابهة الحوادث، هي أعلى درجات الرضا، فهي ليست الجزاء على النعيم وحده، ولا الغفران وحده، ولكنها مع الرضوان أكبر من ذلك، وقد قال تعالى في جزاء المؤمنين الخالصين لله تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢)**﴾ [التوبة].

وعندى أن مكافأة الله تعالى لعباده بفضل منه ثلاث مراتب: المرتبة الأولى ـ الغفران والنعيم المقيم، والمرتبة الثانية ـ رضاه سبحانه وتعالى، والمرتبة الثالثة ـ وهى أعلى درجات المحبة، وهى الرضوان الكامل، ومحبة الله حال تليق بذاته العلية.

هذه محبة الله تعالى، ومحبة العباد له سبحانه - الإحساس بتجاه النفس إلى الله تعالى، والشعور بأنه ملء نفسه وقلبه، وأنه لا يدخل فى قلبه شىء غير عظمة الله تعالى وجلاله، فلا يحس بأن فى الوجود غيره، وأن تلك المحبة ثمرتها القريبة الدانية الطاعة المطلقة لله ولرسوله، فلا يكون محبا من يعصى حبيبه، ولذا قال الله تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١)**﴾ [آل عمران].

فالمحبة لله وطاعته، والقيام بالتكليفات الشرعية أمران متلازمان، فالطاعة لازمة للمحبة، وليس بصحيح ما يجرى على ألسنة بعض مدعى التصوف، من أن المحبة لله إذا وصلت إلى أعلى درجاتها، سقط التكليف بالأعمال الظاهرة، بل إن المحبة البالغة تزيد الطاعة تثبيتا، وأحب خلق الله تعالى لله، وأكثرهم محبة له سبحانه هو محمد رسول الله ﷺ، وما قصَّر فى تكليفه قط، ولا يتصور منه ذلك، وقد طالبه الله تعالى بأكثر مما طالب به غيره، فقد قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا**

الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٢﴾ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴿٦﴾ ﴾ [المزمل].

الصفتان الثانية والثالثة ـ هما اللتان ذكرهما سبحانه وتعالى بقوله تعالت كلماته:

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ والمعنى السامى لهذين الوصفين الكريمين أنهم أرقاء على المؤمنين فى معاملتهم يخفضون جناحهم، كما قال تعالى فى رفق الولد للأبوين: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ... ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء]. فهى ذلة حانية لأن خفض جناح الأخ لأخيه غير المتحكم فيه هى من قبيل التآلف العاطفى، لا من قبيل الخنوع الذميم.

ومعنى قوله السامى: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. أنهم ينظرون إليهم نظرة العزيز الغالب لا نظرة الذليل الخانع، فهم لا يتملقونهم، ولا يترضونهم فى غير مرضاة الله، و (عز) فى أصل معناها غلب، كما قال تعالى: ﴿ ... وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [ص]. أى غلبنى فى الخطاب، وسيطر على الخصومة.

وهنا يرد سؤال لماذا تعدت كلمة أذلة على المؤمنين بـ «على» دون اللام، وقد أجاب الزمخشرى فى الكشاف عن ذلك بقوله: «فيه وجهان: أحدهما ـ أن يضمن الذل معنى الحنو والعطف، كأنه قيل عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع ـ والثانى ـ أنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم، ونحوه قوله عز وجل: ﴿ ... أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ... ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح].

وخلاصة القول، أن هؤلاء المؤمنين يعاملون إخوانهم برفق ومحبة وبشاشة وعطف، ويعاملون أعداء الإسلام بغلظة وخصوصا فى الميدان، كما قال سبحانه: ﴿ ... جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ... ﴿٧٣﴾ ﴾ [التوبة]. وقد جاء فى

الآثار فى صفة الرسول ﷺ إنه «الضحوك القتال»[١] فهو ضحوك لأوليائه قتال لأعدائه.

الصفة الرابعة بينها سبحانه وتعالى بقوله: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾.

المجاهدة المغالبة وبذل الجهد، وهو أقصى الطاقة، فى سبيل الله أى: فى سبيل رفعة كلمة الحق ونصر دينه وإعلاء شأنه، وكل مجاهدة فى إعلاء حق وخفض باطل هى فى سبيل الله؛ لأن طريق الله تعالى هى طريق الحق إيا كان موضعه، وأيا كان باعثه؛ لأن شرع الله تعالى يدعو إلى الحق، وإلى صراط مستقيم.

وإن الجهاد تتنوع ضروبه، وتختلف أساليبه، فقد يكون بالسيف لإعلاء كلمة الله، ورد الأعداء عن أهل الإيمان، وقد يكون ببذل المال لنصر الدين والحق، وإعلاء كلمة أهل الإيمان، وقد يكون باللسان ببيان الحقائق الإسلامية، وتأليب الناس على المشركين، ولقد قال ـ عليه السلام ـ «جاهدوا المشركين بأنفسكم وألسنتكم وأموالكم»[٢].

وإن الجهاد فى الحق يوجب على المجاهد ألا يخشى غير الله، ولذلك وصف الله سبحانه أولئك المجاهدين بأنهم: ﴿وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾. أى لا يخافون لوما قط من أى لائم كائنا من كان، واللومة هى المرة من اللوم، وكان التعبير باللومة دون اللوم للمبالغة فى نفى الخوف لأنها منكَّرة، ومن تصدر عنه منكَّر، أى لا يخافون أى لومة سواء أكانت شديدة أو كانت رقيقة، ومن أى لائم سواء أكان كبيرا أم كان صغيرا، وسواء أكان ينفع ويضر أم كان لا خير فيه، هذا ما ذكره المفسرون، ونلتمس وجها آخر للتعبير، باللومة، وهو أن التعبير بفعل المرة يفيد وقوع اللوم، لا مجرد توقعه، أى أن هؤلاء لا يخافون اللوم الواقع، بل

---

(١) ذكره ابن كثير في التفسير: ج٣، ص١٢٣، وقال في ج٤، ص٢٠٨.

(٢) سبق تخريجه.

يتحملونه مع ما فيه من ابتلاء واختبار قد يكون شديدا، وقد حبب الله تعالى لعباده الجهاد فى سبيل رفع الحق، فقد جاء على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام: «أفضل الجهاد كلمة حق أمام سلطان جائر»(١) وقال عليه السلام: «ألا لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده، فإنه لا يقرب من أجل ولا يباعد من رزق أن يقول بحق»(٢). وقال عليه السلام: «لا يحقرن أحدكم نفسه، بأن يرى أمرا لله فيه مقال فلا يقول فيه»(٣).

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ الإشارة فى هذا النص السامى، إما أن تكون لكل ما سبق من إيمان صادق، ومحبة من الله ورضوان منه، ومحبة من العبد ومعها الطاعة المطلقة لله ولرسوله، وتعاطف وتراحم بينهم، وشدة على أعدائهم وجهاد فى سبيله، وإما أن تكون لأقرب مذكور، وهو الجهاد فى سبيل الله، واطراح لوم اللائمين وعدم الالتفات إليهم، وإنه على الاحتمالين ذلك من فضل الله تعالى، الذى يصطفى من عباده من يكون أهلا لذلك، ويعمل بإرادته ليصل إلى هذه، وكانت هذه الصفات من فضل الله تعالى؛ لأن الإخلاص لله تعالى، والفناء فى محبته نعمة لا يدركها إلا من يذوق حلاوتها، والتآلف بين المؤمنين والتعاطف والبر فضل كبير تعتز به الأمم، والوقوف أمام الأعداء، والجهاد فى سبيله، والرضا به، والعمل فيه فوز عظيم لأنه حماية للحوزة، ومنع للذلة.

وقد ذيل سبحانه وتعالى النص بقوله تعالت كلماته: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

---

(١) رواه النسائي: البيعة - فضل من تكلك بالحق عند إمام جائر (٤٢٠٩)، وأحمد: أول مسند الشاميين - حديث طارق بن شهاب (١٨٣٤٩).

(٢) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلا لا يَمْنَعَنَّ أَحَدَكُمْ رَهْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ بِحَقٍّ إِذَا رَآهُ أَوْ شَهِدَهُ؛ فَإِنَّهُ لا يُقَرِّبُ مِنْ أَجَلٍ وَلا يُبَاعِدُ مِنْ رِزْقٍ أَنْ يَقُولَ بِحَقٍّ أَوْ يُذَكِّرَ بِعَظِيمٍ». رواه أحمد: باقي مسند المكثرين - مسند وأبي سعيد الخدري (١١٠٨٢).

(٣) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لا يَحْقِرَنَّ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ أَنْ يَرَى أَمْرًا لِلَّهِ عَلَيْهِ فِيهِ مَقَالا ثُمَّ لا يَقُولُهُ، فَيَقُولُ اللَّهُ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَقُولَ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: رَبِّ خَشِيتُ النَّاسَ، فَيَقُولُ: وَأَنَا أَحَقُّ أَنْ يُخْشَى». رواه أحمد: باقي مسند المكثرين - مسند أبي سعيد الخدري (١٠٨٦٢).

أي والله سبحـانه وتعالى جل جلاله واسع الفضل والجود والرحـمة، يجود بفضله على من يشاء مـن عباده، وهو عليم بمواضع الفضل ومن يستـحقه ومن لا يستحقه، وأطلق الوصف لله تعالت ذاته المقدسة للإشارة إلى السعة فى كل شىء، فهو يوسع فى الرزق لمن يشـاء، وييسر من يشاء للجهاد بنفـسه أو بلسانه أو بماله، وهو يسع الناس جميعا برحمته، اللهم اجعلنا فى سعة رحمتك.

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ
يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ
ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾
وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ
لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا
بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ
هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ
عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ
مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾

الكلام السـامى موصـول فى بيان نهى المؤمنين عن أن يـتخذوا نصـراء من اليهـود والنصارى وسائر الكفـار، وفى هذا النص الكريم يبين سبـحانه أن هؤلاء

اليهود والنصارى لا تصح موالاتهم لا للأسباب السابقة من أنهم يوالى بعضهم بعضا ولا يوالونكم، ومن أنه لا يواليهم إلا من يكون فى قلبه مرض، ومن أن موالاتهم تؤدى إلى استحسان ما عندهم، وإن ذلك يؤدى إلى الارتداد، ولا من أن موالاتهم مناقضة لولاية الله ورسوله والمؤمنين، وهم الأولياء حقا وصدقا، لا تصح موالاتهم لهذه الأسباب فقط، بل لها ولأمر واقع منهم، مستمر فيهم، وهو الاستهزاء بدينكم، واللعب به، والعبث المستمر، ومن يواليهم وهم على هذه الحال، فقد تخلى عن دينه وإيمانه، ولقد قال تعالى:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الولى هنا النصير الموالى، وولى الأمر الكالىء الحامى، والأنيس الذى يرجى فى الشدائد، ويرجع إليه فى الكروب، والملجأ والمعاذ.

وقد قصرت الولاية على هؤلاء بأداة القصر «إنما»، والمعنى أن الله تعالى ورسوله والمؤمنين الصادقين فى إيمانهم الذين لم يعترهم زيغ ولا ضعف، ولا استخذاء واستكانة للذل، واستسلام للأعداء، ولا ولى للمؤمن غير هؤلاء، فلا يصح للمؤمن أن يطلب بأى صورة النصرة من غيرهم؛ لأن قلوبهم مهما يكونوا مطوية على ضغن شديد، وحقد مستمكن، وهم لا يريدون بالإسلام وأهله إلا الهوان، بل الفناء.

وفى هذا النص عبرة للمعتبرين الذين يرتمون فى أحضان أعداء الإسلام، ويوالونهم، وهم الذين يؤذون المسلمين، ويخرجونهم من ديارهم، ويظاهرون على إخراجهم، والنبى عليه السلام يقول: «المسلم أخو المسلم لا يحقره، ولا يظلمه، ولا يسلمه، ولا يخذله»(١).

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ هذه أوصاف المؤمنين الجديرين بأن يكونوا مع الله ورسوله فى ولاية المؤمنين، وقد ذكرت لهم أوصافا

---

(١) متفق عليه، وقد سبق تخريجه، واللفظ لمسلم.

ثلاثة: كل واحد منها يومىء إلى معنى اجتماعى يدخل فى تكوين الجماعة الربانية التى لا تعمل إلا لله، ولا تقوم إلا له، الوصف الأول إقامة الصلاة، أى أداؤها مقومة كاملة لا اعوجاج فيها، لتؤدى غايتها وهى تربية الوجدان الاجتماعى الذى يكون معه الإيثار، والسيطرة على الأهواء المردية المخزية، وهى الصلاة التى قال الله تبارك وتعالى فيها: ﴿... **إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ** ... ﴿٤٥﴾﴾ [**العنكبوت**].

والوصف الثانى أنهم يؤتون الزكاة، أى يعطونها سمحة بها نفوسهم، راضية بعطائها قلوبهم يحسبون أن عطاءها مغنم لا مغرم، وذلك هو التعاون المادى المنبعث من القلب. وإذا كانت الصلاة مبعث التآلف الروحى، فالزكاة مظهر التعاون المادى الخالص.

والوصف الثالث ذكره سبحانه وتعالى بقوله: ﴿**وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾.

لقد قال كثير من المفسرين: إن هذه الجملة حالية من قوله تعالى: ﴿**وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ**﴾. أى أن إعطاء الزكاة يكون فى حال الركوع، ويقولون: إن سبب ذكر ذلك أن إمام الهدى عليا أعطى صدقة وهو راكع، ولا نرى ذلك؛ لأن ذلك قطع للصلاة وانصراف عنها، ولا يكون ذلك من على كرم الله وجهه، وثانيا ـ أن اللفظ، ومؤدى ذلك أنه يكون محمودا من المؤمنين أن يؤدوا زكواتهم وهم يركعون ركوع الصلاة.

والذى نراه أن الركوع هنا ليس هو ركوع الصلاة المفروضة، إنما هو الخضوع المطلق لله تعالى فى كل أعمالهم، فى مصانعهم، ومتاجرهم ومزارعهم، وسياستهم، بحيث يكون كل شىء لله تعالى؛ ويتحقق فيهم قول النبى عليه السلام: «لا يؤمن أحدكم، حتى يحب الشىء لا يحبه إلا لله»(١). سبحانه فى الغدوات والروحات.

---

(١) سبق تخريج ما في معناه من حديث صحيح.

جاء فى مفردات الأصفهانى ما نصه: والركوع يطلق بمعنى الخضوع لله.

«الركوع: الانحناء، فتارة فى الهيئة المخصوصة فى الصلاة، كما هى، وتارة فى التواضع والتذلل، وإما فى غيرها». والله أعلم.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ الحزب معناه: الجمع المتضافر المتآزر القوى الذى يمانع ويقاوم، سواء أكان فى الخير أم كان فى الشر، وحزب الله تعالى حزب الخير، ولا خير أعلى مما يجتمع عليه.

ومعنى النص الكريم: من يجعل نصرته من الله ورسوله وولاءه لهما، وأمره إليهما، فإنه سيكون حزب الله المتضافر على الخير، وسيكون هو الغالب إن شاء الله، وهنا إشارتان بيانيتان ننوه عنهما:

إحداهما - أن قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾. يومئ إلى مقدر محذوف من القول بُيِّنَ فى المعنى، وهو أن الذى يتولى الله ورسوله يكون من حزب الله القوى المتضافر على الخير، وإن حزب الله وجماعته هم الغالبون.

الثانية - أنه فى قوله: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ﴾. لم يذكر اسم الرسول ﷺ، وفى ذلك إشارة إلى أن الرسول لا يعمل إلا بأمر من الله، فيكتفى هنا بذكر الله؛ لأنه المسيطر الغالب القاهر فوق عباده، اللهم اجعل ولايتنا لله تعالى ولرسوله وللمؤمنين، اللهم اجعلنا من حزب الله دون غيره.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ النداء للمؤمنين بالوصف الذى ميزوا به، واختصوا به دون الناس، وهو مناط رفعتهم وجامع وحدتهم، وإذا كان الدين هو الجامع لهم فالذين يسخرون منه، ويستهزئون به يصيبونهم فى صميم ما عليه يجتمعون، وبه يعملون، وفى سبيله قدَّموا، ويقدمون الفداء، والمعنى: يا أيها الذين اتصفوا بالإيمان، لا تتخذوا نصراء وأحبابا أولئك الذين يسخرون من دينكم بجعله لعبة يلعبون بها، ومسلاة يتسلون فى عبثهم بها، ويستهزئون به مستخفين، فهذا النص تحريض على عدم الانتماء إليهم

بذكر ما هو سر اجتماعهم، وفيه إشارة جلية إلى أنهم لا يمكن أن يكونوا نصراء يريدون العزة لهم؛ لأن ما به عزتكم واجتماعكم يتخذونه سخرية يلهون به ويعبثون.

وهنا مباحث لفظية فى بيانها تقريب لمعنى النص السامى.

أول هذه المباحث ـ التفرقة بين الهزء واللعب؛ فهما فى النص الكريم معطوف أحدهما على الآخر، وبمقتضى هذا العطف هما متغايران، وإن كانا ينتهيان إلى معنى واحد، وهو السخرية بالاستهزاء، والعبث، فهم يسخرون من الدين، ويسخرون من أهله، ويستهزئون بأهله، ويتعابثون به ويلعبون بحقائقه.

والهزء معناه المزح فى خفة، أو المزح فى مقام الجد للسخرية بموضوعه، والعبث به، وقد يكون بالقيام بظاهر بعض الأعمال، وهو يخفى نقيضها، كما قال سبحانه وتعالى عن المنافقين ﴿ **وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ** ﴿١٤﴾ ﴾ [البقرة].

وعلى هذا يكون معنى الاستهزاء أو الهزء مشتملا على معانى الاستخفاف والتهكم، والمزح العائب.

واللعب أصل معناه من لعاب الطفل، ويقال عن الطفل لعب بفتح العين إذا سال لعابه، ومعناه - على العموم - العمل الذى لا يقصد به نفع، ولا طلب ثمرة، بل يقصد به مجرد إزجاء الفراغ، والتسلية.

والمعنى الجملى للفظين: أنهم يسخرون من الدين باتخاذه موضع استهزاء ومزح، وموضع لعب وعبث لا يقصدون نحوه بشىء إلا بما يقصد به اللاعب للعبته وهذا أبعد ما تكون عليه الاستهانة، فهل يجوز لمؤمن أن يقبل موالاة هؤلاء، وهو لايزال على صفة الإيمان.

وقد وصف عملهم بأنهم اتخذوا الدين هزوا، أى جعلوه هزوا ولعبا، أى جعلوه مستهزئا يمزحون به ولعبة يلعبون بها، وقد قدر بعض العلماء محذوفا، وهو أن يكون موضع استهزاء ولعب.

المبحث الثانى من المباحث اللفظية ـ قوله تعالى:

﴿مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾ و ﴿مِّنَ﴾ هنا بيانية فيها بيان لأولئك الذين يستهزئون ويلعبون بدين الله دين الحق، وهم اليهود والنصارى، وعبر عنهم بـ «أوتوا الكتاب»؛ لأن أصل شرعهم ينتمى إلى كتاب منزل، وإن حرفوا فيه الكلم عن مواضعه وغيروا وبدلوا ونسوا حظا مما ذكروا به، وهم كفار، وليس كفر أعظم من كفر، إلا أن تكون بقية علم عندهم، وهى لا تجعل لهم مقاما أدنى فى الكفر، ولو كانت تجعل فى الإمكان التلاقى فى بعض المعلومات الدينية التى لم يعبثوا بها.

وقد تكلم العلماء فقال الأكثرون: إن الكفار هم المشركون، وأطلق عليهم الكفار دون إطلاقه على أهل الكتاب، وقد علله بعضهم بأن كفرهم أشد، وعندى أنهم جميعا كفار، لقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝١﴾ [البينة]. وليس كفرهم أعظم من كفر أهل الكتاب؛ لأن كفرهم عن جهل، وكفر المشركين عن علم، ولا يمكن أن يكون الجهل عنصرا مشددا، والعلم عنصرا مخففا، ولكن ذكروا بوصف الكفار؛ لأنه لا وصف لهم غيره، إذ لم يؤتوا بكتاب.

على أننا نرى أن عطف الكفار على أهل الكتاب من باب عطف العام على الخاص، فكلمة كفار تشمل كل كافر بمحمد ﷺ، على أنه خص أهل الكتاب بالذكر، لأنه الموضوع من الأصل فى عدم موالاة المؤمنين لليهود والنصارى، ثم عمم الحكم على الجميع ممن كفروا بمحمد ﷺ.

المبحث الثالث ـ فى قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وكان الأمر بالتقوى فى هذا المقام؛ للإشارة إلى أن ذلك هو الحصن الحصين الذى يغنى عن طلب الأولياء؛ لأن معنى التقوى اتخاذ الله سبحانه وتعالى وقاية دون شر الأشرار إذ إن النصرة لا تكون إلا منه، وهو المعاذ، والملجأ والناصر والولى، ولأن اجتلاء النفس بتقوى الله تعالى وخشيته تجعل كل قوى مهما تكن

سطوته لا يصل إلى إضعاف قلب المؤمن، ولأن اتخاذ غير الله تعالى وليا ينافى تقوى الله، واستشعار عظمته وجبروته سبحانه.

وقد بين سبحانه أن ذلك وصف أهل الإيمان، ولذلك قال سبحانه: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. وقد أخذ سبحانه يبين بعض أوقات استهزائهم، قال سبحانه:

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ هذا تصوير لبعض مواضع استهزائهم، ولعبهم بالدين، وقد صور الله حالهم فى أمر واقع، وهو عند النداء للصلاة، أى نداء المسلمين بالصلاة، وهو الأذان، وليس مجرد النداء، وكان موضع استهزائهم الصلاة، والدعوة إليها بالأذان، فالضمير فى قوله تعالى: ﴿تَّخَذُوهَا هُزُوًا﴾ يعود إلى الصلاة ومقدمة الصلاة وهو الدعوة إليها، وقد روى أنهم اتخذوها هزوا ولعبا، فمنهم من كان يتخذ النداء أداة استخفاف بمحاكاة صوت المؤذن، واللعب بتقليده تهكما وتعابثا، ومنهم من اتخذ شكل الصلاة الإسلامية موضع تعابث وسخرية واستهزاء.

فقد روى الإمام أحمد ـ رضى الله تعالى عنه ـ فى مسنده أن عبدالله بن محيريز وكان يتيما فى حجر أبى محذورة، وقد كان أبو محذورة من مؤذنى رسول الله ﷺ وقد سأله ابن محيريز عن تأذينه لرسول الله ﷺ فقال: سمعنا صوت المؤذن، ونحن متنكبون، فصرخنا نحكية، ونستهزئ به فسمع رسول الله ﷺ فقال: «أيكم الذى سمعت صوته قد ارتفع، فأشار القوم كلهم إلىّ، وصدقوا، فأرسلهم، وحبسنى إليه، وقال: «قم فأذن» ثم علمه الرسول عليه السلام الأذان وقال له: «بارك الله فيك، وبارك عليه» فهداه الله تعالى، وصار مؤذن رسول الله ﷺ بمكة، وهكذا ابتدأ كافرا مستهزئا بالأذان ساخرا منه، وانتهى مؤمنا صادقا مؤذنا لرسول الله ﷺ(١).

---

(١) رواه النسائي: الأذان - كيف الأذان (٦٣٢)، وابن ماجه: الأذان والسنة فيه - الترجيع في الأذان (٧٠٨)، وأحمد: مسند المكيين - أحاديث أبي محذورة المؤذن رضي الله عنه (١٤٩٥٥).

وروى أن اليهود كانوا إذا قامت الصلاة صلوا مع المسلمين استهزاء ونفاقا، ومنهم من كان يقول للرسول عندما يرى الركوع والسجود: يا محمد لقد ابتدعت شيئا لم يسمع فيما مضى، فإن كنت نبيا فلم خالفت فيما أحدثت جميع الأنبياء، وكانوا مع ذلك يتضاحكون ويتخذون من شكل الصلاة الإسلامية موضوعا لسخرياتهم وعبثهم، ولقد علل الله تعالى ذلك بقوله سبحانه:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ﴾ الإشارة هنا إلى ما كان منهم من استهزاء وسخرية واتخاذ الأعمال الإسلامية لعبة يتلاعبون بها، والمعنى: أن هذا الذى كان منهم سببه أن أحلامهم قد سفهت، وصاروا لا يدركون الأمور على وجهها فلا يفكرون فى الأمور تفكير العقلاء الذين يتدبرون بعقولهم، وقد قام لديهم البرهان العقلى القاطع، والدليل الساطع على أن ما جاء به محمد لا يقبل الإنكار لمن يفكر بعقله، ويتدبر فى مبادئ الأمور وعواقبها.

ولماذا كان اليهود وبعض النصارى على هذه الشاكلة يتصرفون تصرف من لا عقل عنده، إذ يطمسون الحقائق، ويسخرون مما لا سخرية فيه؟ الجواب عن ذلك أنه قد طمس على قلوبهم، والحقد قد ران على مداركهم، فأصبحوا لا يدركون ما يوجبه العقل السليم، والفكر المستقيم، ولا شيء يذهب بلب اللبيب وإدراك العقل السليم أكثر من الحقد، ذلك بأن تمنى الشر، وحسد غيره على ما فى يده من نعمة، وما آتاه الله تعالى من خير يلقى حجابا على عقله فلا يدرك، وعلى قلبه فلا يؤمن ولذا قال سبحانه من بعده:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ نقم منه معناه عاب عليه أمرا، وأنكره، ومنه الانتقام بمعنى العقاب، وذلك لأن العقاب لا يقع إلا من أمر ينكره المعاقب ويعيبه، فيتبعه العقاب، فهو نتيجة الاستنكار لمن يقدر على العقاب، ويرى فيه حكمة توجبه.

والاستفهام هنا استفهام إنكارى لنفى الواقع، فهو توبيخ مؤكد بالاستفهام، والمعنى أن الله تعالى يأمر نبيه الأمين أن يسألهم موبخا منكرا عليهم أنهم لا

يعيبون عليه إلا أنه والمؤمنين معه آمنوا بالله ورسوله حق الإيمان، وأن أكثرهم فاسقون، وهنا بعض مباحث لفظية نذكرها لتقريب معنى النص السامى الكريم.

المبحث الأول ـ كيف يعيبون الإيمان مع أنهم كافرون، وإنما يحسد على الإيمان من يدركه، ويعرف مزاياه ويحقد على المؤمن؛ لأنه حرم منه، والجواب عن ذلك أن أهل الكتاب يعرفون الرسالة والرسل، ومنهم موحدون يدركون معانى التوحيد، وهم يحسدون المؤمنين على ذلك، وخصوصا اليهود والمنافقين، وقد قال تعالى فيهم: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ ... (٨٩)﴾ [النساء]. وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩)﴾ [البقرة].

فهؤلاء الكافرون من أهل الكتاب يستنكرون على المؤمنين إيمانهم، والباعث على ذلك أمران: أحدهما ـ حسد مستكن فى قلوبهم، وهم يرون أن النبوة نعمة كانوا يرجونها فيهم، فكانت فى غيرهم، وأن الإيمان نعمة وخير، وهم يحسدون الناس دائما على ما آتاهم من فضله، وقد قتلهم الحسد، وأفسد مداركهم.

الأمر الثانى الذى بعثهم على النقمة على أهل الإيمان أنهم يرونهم فى قوة نامية، وهم فى خسة هاوية، وهم كفار منزعجون، وأولئك مؤمنون مطمئنون.

المبحث الثانى ـ إن فى النص الكريم حصرا لسبب النقمة على المسلمين، ولذلك كان الاستثناء فى قوله تعالت كلماته: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾.

المبحث الثالث ـ أن إيمان المؤمنين شامل للرسالات الإلهية كلها، فهم يؤمنون بما أنزل على محمد ﷺ وما أنزل من قبله، واليهود كانوا يأخذون على المؤمنين أنهم يؤمنون بكل الأنبياء، ومنهم من قتلوهم، ومنهم من حاولوا قتله، ولم يستطيعوا أن ينالوا منه، وقد روى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن

بعض زعماء اليهود ذهبوا إلى النبى ﷺ يسألونه عما يؤمن به فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ أومن بالله وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط، وما أوتى موسى وعيسى، وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون» فلما ذكر عيسى ـ عليه السلام ـ جحدوا نبوته، وقالوا: لا نؤمن بمن آمن به».

المبحث الرابع ـ أن الله تعالى قال: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾. ولم يقل سبحانه وأنتم فاسقون؛ إنصافا للذين يقتصدون منهم، وقد قال تعالى: ﴿... مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة]. وقال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [آل عمران]

وإن الأكثرين منهم فاسقون، بل إنه يكون منهم ما هو شر من الفسق فى ذاته، فيقعون مع الفسق فى أشد مظاهر الخسة، ولذا قال سبحانه فيهم:

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾ أمر الله تعالى نبيه أن ينبههم إلى عظيم شرهم، والاستفهام هنا للتنبيه، الخطير فى ذاته، والتنبىء به ذكره مؤكدا.

والإشارة عند الأكثرين إلى ما نقمه اليهود على النبى ﷺ والمؤمنين معه من أنهم يؤمنون بالرسالات الإلهية كلها لا فرق بين رسول ورسول، ولو كانوا هم قد قتلوه أو حاولوا قتله، والمثوبة فى أصل معناها الجزاء الثابت على العمل، سواء أكان شرا أم كان خيرا، ولكن شاع استعمالها فى الخير، وهى فى لغة القرآن لا تكون إلا فى الخير كالثواب فإنه مقابل العقاب.

وهنا يرد سؤالان: أولهما ـ كيف يكون الإيمان شرا، ويوجد ما هو أعظم شرا منه؟. وكيف يعبر عن جزاء الشر بالمثوبة؟. والجواب عن السؤالين: إن فى التعبير عن ثمرات شرهم بالمثوبة من التهكم بهم، والازدراء بتفكيرهم، وإن التعبير

عن الإيمان، وهو خير، بالشر من قبيل المشاكلة لتفكيرهم، كأنه قيل إذا كنتم تنقمون على رسول الله ﷺ إيمانه وتحسبونه شرا لا خير فيه فشر منه عاقبة ومآلا ما أنتم عليه من لعن وطرد من رحمة الله، ومن وقوع فى غضبه ومن مسخكم قردة وخنازير.

وقيل: إن الإشارة إلى فسقهم، ومؤدى الكلام على هذا أن هناك ما هو شر من فسقهم وجحودهم، وهو ثمرة فعلهم، وتلك الثمرة هى اللعن والطرد من رحمته، ومسخهم قردة وخنازير، وكأن قوله: ﴿أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ فيها حكم بالفسق الدائم المستمر فى اليهود الذى يتوارثونه جيلا بعد جيل، حتى صار ذلك كالجبلة فيهم والغرائز الموروثة، وقوله تعالى:

﴿أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ بيان لثمرة فسقهم. ولكن الظاهر هو الأول؛ لأن المقابلة واضحة فى هذا النص الأخير، إذ فيه مقابلة ما عليه أهل الإيمان بما آل إليه أمرهم.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى حالهم فى الدنيا والآخرة، فقال تعالت كلماته:

﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ المقابلة هنا بين من آمنوا بالله ورسله، وبين من أنزل بهم سبحانه ما أنزل، وقد ذكرهم مقرونين بما أنزله سبحانه، ومعنى من لعنه الله، أنه طردهم من رحمته، رحمة الإيمان وإدراك الحق والقرار والاطمئنان فى الدنيا، وضرب الذلة عليهم إلا بحبل من الناس، وإن استقروا زمانا فإلى طرد مستمر، هكذا كان ماضيهم، وهكذا يكون حاضرهم إن شاء الله تعالى، وإنهم فى الآخرة فى السعير يدوم عليهم عذابها.

والأمر الثانى ـ الذى ينزله تعالى بهم هو غضبه عليهم، وسيعاملون فى الدنيا والآخرة على مقتضى حكمته فى غضبه وعدم رضاه.

والأمر الثالث ـ أن الله سبحانه وتعالى جعل منهم القردة والخنازير، وقد سار المفسرون على الأخذ بظاهر اللفظ، وقالوا: إن الله تعالى مسخهم قردة

وخنازير حقيقة، بل أفرط بعضهم فزعم أن القردة والخنازير خلفوا نسلا لهم، ولكن الحقيقة أن القردة والخنازير كانت قبلهم، وقوله تعالى: ﴿**وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ**﴾ مبالغة فى المشابهة بينهم، حتى كأنهم الأصل فى هذين النوعين من الأحياء.

ومع أن المفسرين قد أخذوا بظاهر الألفاظ من غير تأويل، قد روى عن مجاهد الذى تلقى التفسير عن ترجمان القرآن ابن عباس أن المراد بمسخهم قردة وخنازير مسخ قلوبهم، فصاروا فى نزواتهم، واستيلاء الشهوات على نفوسهم وعبثهم بكل مقدرات القيم الخلقية كالقردة، كما صاروا فى قذارات نفوسهم، وتطلبهم للقذر من المكاسب كالخنازير إذا يطلبون القذارات يأكلونها، وتنمو أجسامهم عليها.

وقد قال ابن كثير فى تفسيره ما نصه عن مجاهد: «فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين، فقال: مسخت قلوبهم، ولم يمسخوا قردة، وإنما هم مثل ضربه الله تعالى: ﴿... **كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا** ... (٥)﴾ [**الجمعة**]. وهذا سند جيد عن مجاهد وهو قول غريب (الجزء الأول من تفسير ابن كثير ص ١٠٥ طبع التجارية).

وعندى أنه لا غرابة، وإن كان الأكثرون يستغربونه، وإنه قد وردت أحاديث قد تفيد هذا، فقد روى عن ابن مسعود أنه قال: «سألنا رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير أهى من نسل اليهود؟ فقال ﷺ: «إن الله لم يلعن قوما قط فمسخهم فكان لهم نسل، ولكن هذا خلق كان فلما غضب الله تعالى على اليهود فمسخهم جعلهم مثلهم»(١).

---

(١) رواه أحمد: مسند المكثرين - مسند عبد الله بن مسعود (٣٧٣٩).

وإنه قد يستفاد من الحديث أن المثلية فى النفوس لا فى الأجساد، وهذا هو الذى نميل إليه، واللفظ يحتمله ولذا نختاره.

والأمر الثالث الذى منى الله تعالى به اليهود أنهم عبدوا الطاغوت، والطاغوت فعلوت من الطغيان وهم يعبدون الطغيان دائما، فهم يعبدون الحاكم الطاغى، ويكونون أدواته، وهم يعبدون المال الطاغى المأخوذ من غير حله، وهم يعبدون الهوى ويتخذون هواهم إلها يعبدونه.

وقد سجل الله سبحانه وتعالى الحكم مؤكدا فقال سبحانه:

﴿أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أى أولئك المتصفون بالفسق الذى أنزل الله تعالى عليهم سخطه، وقرر طردهم من رحمته، ومسخ قلوبهم حتى صارت قلوبهم كقلوب القردة والخنازير، وعبدوا الطغيان، ولم يؤمنوا بالحق، هؤلاء شر مكانا، أى مكانهم فى الدنيا شر مكان إذ يأكلون من المحرمات، كما تأكل الخنازير من القاذورات، وهم فى ذلة، ولو أوتوا قوة وسلطانا بسبب اتصالهم بأشرار الأرض، فهم فى ذلك بالتبعية، وهم أبعد عن الطريق السوى المستقيم، فهم فى ضلال مستمر، وإن سكنوا واطمأنوا أياماً فسيذيقهم الله تعالى وبال أمرهم، ويحق الله الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون.

وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا
وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ
﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ
ٱلسُّحْتَۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ
وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ
يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾

ذكر سبحانه وتعالى فى الآية السابقة بعض صفات اليهود، وضعف من يواليهم، ويركن إليهم، إذ يركن إلى الذين ظلموا فتمسهم النار، وذكر طبائعهم الحيوانية التى تشبه الخنازير فى شراهتها، والقرود فى نزواتها، بين بعض ما يترتب على هذه الدخيلة من مظاهر فى أعمالهم، وأولها النفاق فى أقوالهم، وأكلهم سحت المال فى معاملاتهم، ومسارعتهم إلى كل معصية وعدوان، ولذا قال سبحانه:

﴿**وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ**﴾ الخطاب للنبى ﷺ والمؤمنين، وقد كان ذلك يتكرر منهم استهزاء وسخرية أو نفاقا، ومخادعة أو الأمران معا، كان ذلك يتكرر منهم، ولم يكن مرة أو اثنتين، بل كان يتكرر من غير عدد، ولذلك قال سبحانه فى أحوالهم: ﴿**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴿٧٦﴾ **أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ** ﴿٧٧﴾﴾ [البقرة]. وقال سبحانه وتعالى فيهم: ﴿**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ** ﴿١٤﴾ **اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ** ﴿١٥﴾﴾ [البقرة].

وكان الخطاب للنبى والمؤمنين ليذكرهم بصفات المنافقين واليهود، وليؤكد لهم أنهم لا يصلحون أن يكونوا أولياء لكم؛ لأن الولى النصير أو المحب يجب أن يفتح قلبه لك، ويخلص لك الود، ويمحض لك المحبة، واليهودى ومحبته للناس نقيضان لا يجتمعان، فلا تتخذوا منهم معشر المؤمنين أولياء؛ لأنه لا ولاء لمنافق، ولا محبة من حقود حاسد، وقد كان ذلك تصويرا لحالهم، فى نفاقهم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم، وقد صور ذلك سبحانه بقوله تعالت كلماته: ﴿**وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ**﴾. أى أنهم كانوا على ما هم عليه عندما دخلوا وعندما خرجوا دخلوا كافرين، وقد قال النحويون: تكون للتكثير أو للتقليل عندما تدخل على المضارع، وتكون للتقريب أو التحقيق عندما تدخل على الماضى،

ورأى أن أكثر استعمال القرآن الكريم لها للتحقيق، لا للتقليل ولا للتكثير، ولذلك يقول سبحانه: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾ [الأحزاب]. ويقول تعالت كلماته: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ... ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام]. وواضح أن ﴿قَدْ﴾ فى الماضى للتحقيق فى قوله تعالى حكاية عن قول سيدنا المسيح يوم القيامة: ﴿... قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ... ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة].

ألا ترى أن قد دخلت على علم الله تعالى وهو مؤكدا إذا حصل موضوعه.

و ﴿قَدْ﴾ هنا قال المفسرون للتقريب، أى أنها قربت الماضى من الحال القائمة، والجملة الماضوية لا تكون حالا إلا إذا جاء معها قد، ليكون معنى التقريب قائما، وهو تقريب الحال القائمة من الماضى المستقر، والمعنى أنهم دخلوا كافرين، وخرجوا كافرين.

وأرى أن ﴿قَدْ﴾ هنا للتحقيق، وتأكيد المعنى، والباء للمصاحبة، والمعنى دخلوا مصاحبين لكفرهم المؤكد وخرجوا مصاحبين للكفر المؤكد، وقد تأكدت حالهم الأولى بالتعبير بقد، وتأكدت حالهم وهى الخروج بالكفر بقد وبهم، فكان تأكيد مصاحبتهم للكفر وهم خارجون أقوى من تأكيدها وهم داخلون، وهذا للإشارة إلى أنهم ما دخلوا بقلب سليم، بل دخلوا مخادعين منافقين، ودخولهم على هذه النية المحتسبة عليهم تزيدهم كفرا ونفاقا، لأنهم كلما لاح دليل زادهم عنتا، وزادهم كفرا على كفرهم، والتعبير بـ (هم) الدالة على القصر فيه إشارة إلى أنهم مقصورون فى خروجهم على الكفر ليس لهم حال سواه، وذلك فضل تأكيد.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ صدر الله سبحانه وتعالى النص الكريم بلفظ الجلالة لتربية المهابة، ولبيان أنه الناصر والولى الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض، ولا فى السماء، وأن تدبيره فوق كل تدبير، وعلمه فوق كل علم،

وأفعل التفضيل ليس على بابه، لأنه لا يوجد من يكون علمه من جنس علمه، حتى يكون علم أكبر وأعظم، بل المراد ـ والله سبحانه وتعالى العليم ـ أن الله تعالى يعلم ما يخفون علما لا يدانيه علم، وليس فوقه علم، وهو أعلى ما يتصور من علم، فعبر بأفعل التفضيل تقربيا لا تحقيقا.

والتعبير بقوله تعالت كلماته: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾. بالجمع بين الماضى والمستقبل يفيد أنه يعلم بما كتموه فى الماضى، وما يكتمونه فى الحاضر والقابل، فهو سبحانه يعلم ماضى أمرهم، وحاضره، ومغيبه، ولفظة كانوا على هذا المعنى تفيد العلم المستمر.

بعد ذلك بين الله سبحانه أخلاقهم بعد أن بين معاملتهم لأهل الإيمان فقال تعالت كلماته: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

فى هذا النص توجيه النبى ﷺ إلى ما عليه كثير من اليهود من مفاسق ومفاجر وعدوان، وقد كانت عبارات التنبيه موجهة واضحة وموضوعها بيِّن يُرى بالعين أو بما يشبه العين لوضوحه، فأنت ترى الكثيرين منهم يخوضون فى الشر خوضا، لا يرعوون، ولا يجتنبون سوءا بل يقدمون على كل حرب وشر.

وحكم الله تعالى عدل دائم، وينبه سبحانه إلى العدل فى الأحكام، فهو سبحانه لم ينبه النبى ـ عليه السلام ـ إلى أنهم جميعا فيهم الشر مستحكم، بل فى الكثير، لا فى الكل ولا فى القليل، ومعنى المسارعة فى الإثم والعدوان المعاجلة وعدم التردد، فهم لا يترددون فى ارتكاب الإثم والعدوان، وربما يترددون كل التردد فى الخير ونفع الناس لذات النفع، والتعدية بفى تشير إلى أنهم مغمورون فى الآثام يتنقلون فيها مسارعين من حال إلى شر منه، فهم يرتعون فيها دائما.

وقد تكلم العلماء فى معنى الإثم والعدوان، فقال بعضهم: الإثم هو الكذب، والعدوان هو تعدى حدود الله تعالى، والاعتداء على محارمه.

ولكن ابن جرير الطبرى فسر الإثم بالمعاصى، والعدوان بالتعدى، أو ما يتجه نحو ذلك.

والذى نراه أن الإثم كما هو الأصل اللغوى له فى الجملة هو ما يبطئ عن الخير، والكذب إثم لأنه يبطئ عن فعل الخير، فالإثم هو ما عند اليهود من تباطؤ عن الخير، وعصيان للأوامر التى يكون فى أدائها نفع الناس، والنص يبين أن هؤلاء يعملون أعمالا من شأنها أن تبطئ عن فعل الخير، ويعوقونه، وهم مع ذلك يعتدون على غيرهم، فهم محرومون من الخير سلبا وإيجابا لا يفعلونه ويفعلون نقيضه، والله تعالى من ورائهم محيط.

وإنهم لفساد نفوسهم، واستيلاء الشر على قلوبهم فسدت مداركهم، حتى أنهم يحسبون أن ما يفعلونه من آثام وعدوان هو خيرا، وهو فساد فى الأرض عظيم، ولذلك عبر سبحانه عن عملهم السوء فى عجلة وتسرع من غير موأناة بالمسارعة مع أن أكثر استعمال المسارعة فى الخير، كما قال تعالى: ﴿**وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** ﴿١٣٣﴾﴾ [**آل عمران**]. وكما قال تعالى: ﴿... **وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ** ... ﴿١١٤﴾﴾ [**آل عمران**].

وقوله: ﴿**نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ** ... ﴿٥٦﴾﴾ [**المؤمنون**]. وذلك لأنهم يحسبونه خيرا فعبر عنه باللفظ الذى يدل على الخير، إذ إنهم لفساد قلوبهم يأثمون ويؤذون ويحسبون أنهم يحسنون صنعا، وأوضح اعتداءاتهم على الناس أكلهم أموالهم بالباطل، ولذلك قال سبحانه عاطفا على سوء عملهم: ﴿**وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ**﴾.

السحت: ما يستأصل من قشور الأشياء، وسحته معناه استأصله، والسحت والإسحات الاستئصال، كما قال تعالى: ﴿... **فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ** ... ﴿٦١﴾﴾ [**طه**]. وقد أطلق السحت على كل محظور؛ لأنه يستأصل أخذه كل علاقة اجتماعية تربط الناس بعضهم ببعض وتفسد أمورهم، كالربا، والرشوة، وأخذ الأموال بالغش والتزوير والنصب، والاحتكار الآثم الذى قال فيه النبى ﷺ: «المحتكر خاطئ» أى آثم.

وإن اليهود لانقطاعهم عن الاتصال الأدبى بالناس، والتألم لآلامهم، كانوا يعتبرون الناس وأموالهم نهبا مقسوما لهم دون غيرهم، فكانوا يأكلون أموال الناس؛ لأن من عداهم أميون، وهم المختارون، فكانوا يقولون: ما علينا فى الأميين.

وإن اليهود بسبب بغضهم الشديد الذى توارثوه جيلا بعد جيل، قد انفصلوا عن الناس بقلوبهم، وقد عاشوا مضطهدين فى وسط النصارى أذاقوهم الويل والذل أكؤسا، فكوّنوا الجماعات السرية ليفتكوا بالوحدات الاجتماعية، وليفسدوا العلائق بينها، وما من دعوة مخربة إلا كان اليهود دعامتها، وأخذوا يكتنزون الأموال بالطرق المحرمة، فهم الذين نشروا الربا فى الأرض، وهو من أخبث أنواع السحت واتخذوا الرشوة سبيلا لبسط سلطانهم فى الأرض، واتخذوا الاحتكار ذريعة لتجويع الناس، والناس جميعا فى نظرهم أعداؤهم، واتخذوا النصب والاحتيال والغش والخديعة ذريعة لأكل أموال الناس بالباطل، وإن تظاهروا بفضيلة مالية، لكى يكتسبوا من هذا المظهر، وبذلك أفسدوا الضمائر وهتكوا حمى الفضائل، وأزالوا أو حاولوا أن يزيلوا كل المقومات الخلقية، ليفسدوا المجتمعات، ويزيلوا كل القيم، وإن الذلة تلاحقهم إن شاء الله تعالى، وقد حكم سبحانه على أعمالهم بقوله تعالت كلماته: ﴿**لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾.

ذلك حكم صارم قاطع يذم أعمالهم، والله سبحانه وتعالى حكم ذلك الحكم القاطع على أعمالهم باستحقاقها للمذمة؛ لأنها مخالفة لأوامر الله تعالى ونواهيه، وهى شر فى ذاتها، وهى مقوضة لكل مقوم للأخلاق والفضائل والعلاقات الإنسانية.

والحكم على ما كان منهم وما هم مستمرون فيه من عمل، ولذلك عبر بالماضى والحاضر، فذكر كان بلفظ الماضى، و (يعلمون) بلفظ المضارع الدال على الحال والمستقبل، ومؤدى ذلك الجمع، أى أن ذلك كان منهم فى الماضى وهو مذموم، واستمروا عليه فى الحاضر والمستقبل، وذلك أشد شرا، وأوغل فسادا.

وقد أكد سبحانه ذلك الحكم بـالقسم، وباللام الموطئة للقسم، وبكلمة بئس الدالة على شدة الذم.

والله سـبـحانـه وتعالى يتـولى الناس، ويـدفع عنهم شـرهم، ويرد عنهم كيدهم، وإنهم منذ أخرجوا من مصـر مستنقذين على يد كليم الله تعالى موسى - عليه السلام - ونفوسهم فى الشر، يبـدو منهم وتتوالى مقاومة الناس لهم، ولذلك قد تولد معـه إحساس بالكمال دون الناس، حتى توهموا أنهم الشـعب المختار فى هذه الأرض، ولكى يفرضوا سلطانهـم لم يجدوا سبيلا إلا المال، فأكلوه سـحتا، وأنفقوه سـحتا وتوارثوا ذلك خلفا عن سلف، حتى إن المستـقرئ لتاريخ الأمم لا يجد جمـاعة من الناس تشابه حاضرها بماضيـها، تشابه حاضر اليهـود بماضيهم، حتى إن القرآن الكريم كان يخاطب الحاضرين منهم بأعمال الماضين؛ لأنهم مثلهم تماما وعلى شاكلتهم، وهم غير قابلين للتغير.

وما عندهم من بقية من التوراة كتابهم، لا يغير طباعهم، فلا يتكون عندهم رأى عام إلا من تعالـيم السابقين، وعلماؤهم يجـارونهم، ولا يبينون لهم، فكان رأيهم العام فاسـدا لشيوع الفسـاد فيه، وعدم وجود من يـرشدهم إلى الصواب، ولذا قال تعالى:

﴿لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ﴾ الربانيون هنـا هم العلماء الذين يحاولون أن يكون علمـهم لله، ويتصلون بربهم حتى ينسـبوا إليه ولا يكون لهم وصف إلا نسـبتهم إليـه سبـحانه، يزعمـون ذلك فى أقوالهم ويظـهرونه فى أعمالهم، والأحبار هم الفقهاء أو العلماء الذين يفسرون أحكام الكتاب، ويعرفون الناس بشـئون دينهم، وقـد يكون من يجمـع بين الوصفـين، ولكن لكل وصف جانب من العمل.

و ﴿لَوْلا﴾ هنا للحض على الفـعل فى المستقبل، والـتوبيخ فى الماضى على عدم فعله، وهو هنا للتوبيخ على تقـصيرهم فى الماضى وتخاذلهم عن أدائه، وإلا ما كـان ذم حالهـم، واستنكار أمـرهم، والمعنى: هلا كان من هؤلاء الذيـن كان

يتبعهم اليهود ويستمعون إليهم، ويستجيبون لهم من يرشدهم إلى الحق ليتبعوه وينهاهم عن الظلم ليجتنبوه، وقد اتخذوا أولئك الأحبار والربانيين وسطاء بينهم وبين الله ليتعرفوا حكمه عن طريقهم، ولكنهم لم يفعلوا.

ولقد كان الموضع الذى كان ينبغى أن ينهوا عنه هو قولهم الإثم وأكلهم السحت، فالنهى الواجب منصب على أمرين: أحدهما ـ قول الإثم، أى القول المبطئ المانع من الخير، والثانى ـ أكل السحت، والأمران جماع الرذائل ـ فإن الذى يدفع إلى الشر قول ذميم يحرض على الفساد ويدفع إليه، ويجرئ الناس عليه، ويتضمن ذلك ارتكاب الشهوات، بكل أجزائها، لأن أول الشر استحسانه، واستحسانه يكون غالبا بالقول المشجع عليه والدافع له، ثم استمرءوا من بعد ذلك بقوله يزينه ويزكيه، ويكون من بعد ذلك ممن زين له سوء عمله فرآه حسنا.

والأمر الثانى ـ طمع لما فى أيدى الناس وحسد على ما آتاهم الله من فضله، ووراء ذلك أكل لمال الناس بالباطل، وشره لما فى أيديهم، واتخاذ المال ذريعة لإفساد ذات البين بينهم، والتحريض على الشر، والتحكم المرذول.

ولعل ذكر نهى الأحبار للعامة عن السحت تعريض بهم؛ لأنهم كانوا لا يتعففون عن الرشا بكل أنواعها، كما أن ذكر النهى عن قول الإثم تعريض آخر بأحوالهم، فإن من قول الزور تحريف الكلم عن مواضعه، والنطق بالزور فى الشرع، وكان يقع منهم، ولذلك ذم سبحانه صنيعهم، وهو لا يخلو من فساد حكمهم وتغيير حكم الشرع لهوى الأقوياء منهم، فقال تعالت كلماته: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾. ذم الله تعالى صنيعهم، وهو عملهم الشر بدقة وإحكام، لا بمقتضى الغرائز الحيوانية من غير تفكير، وفى الماضى، وما هم عليه فى الحاضر، وما يكون منهم فى المستقبل.

وهنا يتكلم المفسرون فى التفرقة بين ذم أعمال اليهود عامة من دهماء وغيرهم بقوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. وذم أعمال الربانيين والأحبار بقوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

وخلاصة هـذه التفرقة: أن العـمل يكون عادة بانبعاث شـهوة من طمع في مال، أو لذة جسد، أما الصنيع، فإنه يكون بمهارة وتدبير وتعرف للغايات والنتائج ولو كانت آثمة، وأن الصنيع يكون بالعمل وغيره، ومن أحسن من قال في التفرقة فخر الدين الرازي في تفسيره الكبير، فقد قال موضحا ما ذكره الزمخشري وغيره، والمعنى أن الله تعالى استبعد من علماء أهل الكتاب أنهم ما نهوا سفلتهم وعامتهم عن المعاصي، وذلك يدل أن تـارك النهي عن المنكر بمنزلة مرتكبـه؛ لأنه تعالى ذم الفـريقين في هذه الآية على لفظ واحـد، بل نقـول: إن ذم تارك النهي عن المنكر أقوى؛ لأنه تعالى قـال في المقدمين على الإثم والعدوان وأكل السـحت: لبئس ما كـانوا يعملـون، وقال في العلمـاء التـاركين للـنهي عن المنكر: لبـئس ما كـانوا يصنعون، والصنع أقوى من العمل؛ لأن العمل إنما يسمـى صناعة إذا صار مستقرا راسخا مـتمكنا فجعل جرم العـاملين ذنبا غير راسخ، وذنب التـاركين للنهي ذنبا راسخا، والأمر في الحقيقة كذلك، لأن المعصية مرض الروح، وعلاجه العلم بالله وبصفـاته، وبأحكامه، فإذا حصل هذا العلم ومـا زالت المعصية كـان مثل المرض الذي شرب صاحبه الدواء فما زال».

وإن هؤلاء الربانيين والأحبار لم يكن ما أخذ عليهم هو السكوت عن النهي فقط، بل إنهم رتعوا فيـما رتع فيه غيرهم، وبذلك ضلوا، وكانوا سببـا في فساد الجمع كله، ولعنهم وطردهم كمـا قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة].

ولقد قال ابن عـباس في هذه الآية: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ إنها أصعب آية في كتاب؛ لأنها تبين إثم الذين يقصرون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما عصام الأمـر، ومانعا الإثم، وبهما صلاح الجمـاعة الإنسانية، روى الإمام أحـمد أن رسول الله ﷺ قـال: «ما من قوم يكون بين أظهـرهم من يعمل بالمعـاصي وهم أعز منه وأمنع، ولم يـغيـروا إلا أصابهم الله بعـذاب من عنده».

وروى يحيى بن معمر أن الإمام على بن أبى طالب خطب فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس إنما هلك من كان قبلكم بركوبهم المعاصى ولم ينههم الربانيون والأحبار فلما تمادوا فى المعاصى أخذتهم العقوبات، فأمروا بالمعروف انهوا عن المنكر قبل أن ينزل بكم مثل الذى نزل بهم واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يقطع رزقا ولا يقرب أجلا».

وإن ما توقعه إمام الهدى على - كرم الله وجهه - قد وقع، فإن الذين يتخذون من المؤمنين مكان الأحبار باسم الإسلام، قد سكتوا عن النهى عن قول الإثم، بل منهم من أيد المنكر، بعد أن ارتضاه ومنهم من مالأ فى دينه، يحسب أن قول الحق قد يقطع رزقا، أو يضيع أملا، وبذلك وقعت معاص من غير استنكار، وترك الواجب فى استهتار، ولا منادى بالحق، اللهم وفقنا لقول الحق واعف عنا واغفر لنا وارحمنا، وأنت خير الراحمين.

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟
بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا
مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ
وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ
وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ
سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟
ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن
فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ
سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

بين الله سبحانه وتعالى أحوال اليهود ومعاملتهم للمؤمنين، وهى تدل على مقدار حقدهم على أهل الإيمان وتعصبهم ضدهم، ونفاقهم فى ذات أنفسهم ومعاملتهم للمؤمنين بالخداع، واستهزائهم بالحقائق الإسلامية، واتخاذهم الدين هزوا ولعبا.

وفى هذه الآية يبين سبحانه حالهم فى جنب الله تعالى، وأنهم إن أعطوا أشروا وبطروا النعمة، وإن منعوا كفروا، وقالوا قالة لا تليق بذات الله تعالى، وإن هذا ليس هو الطريق الأمثل لمن أوتوا الكتاب وبلغوا رسالات النبيين، ولذا قال سبحانه:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أصل الغل: توسط الشيء وتدرعه، والغل ما يفيد به الشخص ويجعل الأطراف وسطه، وقيل للبخيل هو مغلول اليدين، ومن ذلك ما حكاه الله سبحانه وتعالى عن اليهود أنهم قالوا يد الله مغلولة، وهى تحتمل عدة معان متلاقية فى مؤادها، وإن اختلفت فيما يقرر سبب قولهم لعنهم الله، فقد قيل: إنهم لما علموا أن كل شيء مقدر بقدر، وأنه سبحانه وتعالى قضى كل شيء فقدره تقديرا تهجموا بهذا القول غير الكريم، فقالوا: إن يد الله مغلولة، أى فى حكم المقيدة، وقيل: إنهم كانوا يرون المؤمنين الصادق إيمانهم فى غير ثروة، وهم يعتمدون على الله، فقالوا مقالتهم، وقيل: إنهم بسبب كفرهم وإيذائهم للمؤمنين وتغير الأحوال قتر عليهم فى الرزق، فلم ينسبوا ذلك إلى أسباب واقعة، بل قالوا مقالتهم فى شأن ربهم.

والذى نراه أن اليهود فى هلع دائم وطمع، وحسبوا أن الفقر لا ينالهم أبدا، فإن أعطوا خيرا نسبوه لأنفسهم وحيلتهم وعلمهم، وإن لم يعطوا اتهموا ربهم، وذلك غير شأن المذعنين لله المؤمنين به الذين يعلمون أنه يعطى ويمنع، ويعز ويذل بحكمة وتقدير.

ولفظ: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ مجاز عن البخل، وهو من قبيل الاستعارة التمثيلية إذ شبهت حال من قبضت يده عن العطاء، فلا يعطى بحال من غلت يده،

وربطت على وسطه، فلا يستطيع تحريكها، وعبر باليد؛ لأنها هى التى يكون بها العطاء، ولقد قال تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء].

وليس المراد باليد الجارحة، بل الكناية عن المنع والإعطاء، وقد قال فى ذلك الزمخشرى: (غل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود) ومنه قوله تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾. ولا يقصد من يتكلم به إثبات يد ولا غل ولا بسط حتى يستعمله فى قليل لا يعطى بيده عطاء قط، ولا يمنعه إلا بإشارته من غير استعمال يده وبسطها وقبضها، ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاء جزيلا لقالوا: ما أبسط يده بالنوال؛ لأن بسط اليد وقبضها عبارتان وقعتا متعاقبتين، وقد استعملوه حيث لا تصح اليد كقوله:

جاد الحمى بسط اليدين بوابل شكرت نداه تلاعه ووهاده

وقد فُسرت اليد المنسوبة لله تعالى بالمعنى المجازى المناسب فى كل آية فى القرآن الكريم على ما اختاره الغزالى وغيره، حتى أنه قال فى قوله تعالى: ﴿... يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ... ﴿١٠﴾﴾ [الفتح]. بالسلطان والقوة، كما يقال وضع الأمير يده على المدينة، ولو كان مقطوع اليدين، والكلام فى هذه المسألة مشهور فى كتب علم الكلام.

﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ هذه الجملة معناها الدعاء عليهم، وهذا تعليم من الله لنا بأن ندعو على من فسدت قلوبهم، وذهب بهم الطمع والجشع إلى نسيان ما يجب لذات الله العلية، وما ينبغى، فقالوا كلمتهم التى قالوها، وهى تدل على استهانة بالحقائق وذات الله سبحانه، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، فعلمنا الله أن ندعو عليهم بغل اليد، وبالطرد وهو دعاء مستجاب ما داموا على هذا الحال من الأثرة المردية التى تنسيهم حقائق التدين والإيمان.

والدعاء عليهم بغل الأيدى معناه الدعاء عليهم بالشح المرير الذى يجعلهم مبغضين للناس، منحرفين عن طريقهم مطرودين من المجتمع، ويصح أن يفسر

قوله تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾. بالدعاء عليهم بالغل الفعلى بأيديهم بأن يمنعوا عن العمل الحر، ويعيشوا أسارى أو كالأسارى فى ذل، ويكون التعبير من قبيل الجناس بالمشاكلة اللفظية، وإنا نميل إلى هذا، ويرشح له التعبير بأيديهم؛ لأن العرف اللغوى جرى على أن التعبير بالأيدى يفيد البطش، والتعبير بالأيادى يفيد النعمة، فيقال لفلان الأيادى على فلان، ولا يقال له الأيدى عليه، والمعنى على هذا الدعاء عليهم أن تغل أيديهم الباطشة فلا يقووا على غيرهم بل يكونون أسارى أو كالأسارى، وما ينالون من قوة ظاهرة أحيانا، فليست منهم، وهى إلى حين، وما كان ذلك إلا من فساد غيرهم.

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ هذا رد عليهم، وبسط اليد هنا مجاز عن الجود والفيض والإنعام من الله تعالى على خلقه، وعبر هنا بالمثنى، فقال سبحانه ﴿يَدَاهُ﴾، للإشارة إلى كثرة الفيض والإنعام، والعطاء العميم كأنه يعطى بيدين لا بيد واحدة، ولكن إذا كانوا لم يدركوا فيض نعمته، فإنهم لم يدركوا معنى حكمته فإن الله تعالى يبسط يديه بالعطاء على الطريقة التى يراها، وبالحكمة التى يريدها، ولذا قال تعالى: ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾.

وهذه الجملة السامية تدل على أمرين: أحدهما ـ عموم عطائه. وثانيهما ـ أن شكل العطاء يختلف، فأحيانا يكون لبعض الناس عميما ليختبرهم بكثرة العطاء، وليحاسبوا عليه وتكون النعمة الكثيرة ابتلاء، وأحيانا يعطى حينا ويمنع حينا ليذوقوا النعمة بعد فقدها، ويختبر صبرهم وإيمانهم، كما قال تعالى: ﴿... وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ... (٣٥)﴾ [الأنبياء].

والمؤمن الصادق الإيمان يصبر فى الإعطاء والحرمان، والكافر يطغى بالعطاء بالعطاء ويكفر فى الحرمان، ولقد قال تعالى فى وصف النفس البشرية: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١)﴾ [هود].

ولقد بين سبحانه وتعالى بعد أخلاق اليهود، ومن يشاكلهم من أهل الكتاب، فقال:

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ فى هذا النص الكريم يبين سبحانه وتعالى عدم رجاء الإيمان من أكثر اليهود، ذلك أن اليهود ليسوا طلاب حق، فيهتدوا إن بدت معالمه، وظهر نوره، بل هم قوم أكل الحقد قلوبهم، واستولى الحسد على نفوسهم، فهم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، فإذا جاءهم النور ممن يحسدونهم لا يزيدهم ذلك إلا بغيا وظلما وكفرا.

وقد أكد سبحانه وتعالى فساد قلوبهم بالقسم المطوى باللام الموطئة له، وبنون التوكيد الثقيلة لكى ينتفى الرجاء فى إيمانهم، وليعاملهم النبى ﷺ ومن بعده من المؤمنين على أساس مكنون نفوسهم، وخبايا أحاسيسهم، والطغيان: الظلم الذى يتجاوز كل حد معقول، والذى يبعث عليه الشره وفساد النفس، وزيادة الطغيان، وسببه أن ما أنزل إلى النبى جاء على غير ما يريدون، وأنهم حاسدون، وزيادة بالكفر بالإصرار عليه، وبزيادة مقدار ما يكفرون به من آيات، وبالعناد واللجاجة التى استولت عليهم.

﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾. ﴿بَيْنَهُمُ﴾ يعنى فى جمعهم؛ لأن البين هو الفاصل الذى يكون بين شيئين، ويطلق البين ويراد به ما يلقى أمام الشخص، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿... مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ... ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف]. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ... ﴿١﴾﴾ [الحجرات]. وقوله تعالى: ﴿... فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ... ﴿١٢﴾﴾ [المجادلة].

والعداوة هى البغضاء المعلنة التى يناوئ فيها المبغض من يبغضه جهارا، والبغضاء هى الكراهية المستكنة والمعلنة، وعندى أنهما معنيان مختلفان، فالعداوة المناوأة الظاهرة، والمقاومة المعلنة، والبغضاء هى الكراهية التى تكون فى القلب،

فهما معنيان متغايران، وإن كانا متلازمين أحيانا، فلا عداوة من غير بغضاء، ولكن قد يفترقان فتوجد البغضاء من غير إعلانها، أى من المناوأة والمقاومة.

والضمير فى قوله تعالى: ﴿بَيْنَهُمُ﴾ يعود على اليهود؛ لأن الحديث عنهم، ولا يدخل فيه النصارى، وقد فهم بعض المفسرين أنه يعود على اليهود والنصارى، والعداوة بين الفريقين مستحكمة إلا عند الذين تحللوا من نصرانيتهم وكادوا يكونون يهودا فى أعمالهم.

والواضح أن الضمير يعود على اليهود وحدهم، وقد ألقى الله تعالى بينهم العداوة والبغضاء فقد افترقوا على أكثر من سبعين فرقة، كما ورد بذلك الحديث الصحيح، فمنهم الجبرية والقدرية، والمشبهة ومنهم من ينكر البعث، ومنهم الربانيون والقراءون، وبينهم العداوة مستحكمة، وهم ينكرون أن يكون اليهود من غير بنى إسرائيل، حتى إنهم لا يعترفون بيهودية من يدخل فى دين موسى من غيرهم، فيعادون السامرة الذين لم يكونوا من أصل إسرائيلى.

ويصح أن نفسر قوله تعالى: **﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾**. بأن تستقبلهم بين أيديهم العداوة والبغضاء كالبين فى قوله: ﴿... **مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ** ... (٩)﴾ [**يس**]. وفى قوله تعالى: ﴿... **لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ** ... (١)﴾ [**الحجرات**].

والمعنى على هذا ألقينا بين أيديهم عداوة وبغضاء تكون منهم للناس، ومن الناس لهم ذلك بأن ما فى نفوسهم من حسد لجوج، ومادية شرسة، وأثرة حاقدة. جعلتهم فى عداوة مستمرة مع الناس، وجعلتهم مبغضين إليهم دائما، فهم مكروهون من الناس كارهون لهم يعادونهم ويبغضونهم ولا تجد فى قلب أحد محبة لهم، ولو كانوا يناصرونهم أحيانا؛ لأن نصرتهم لأنفسهم ليكونوا آلة ينفذون بها مآربهم، والله سبحانه وتعالى من ورائهم محيط.

﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ إن هؤلاء اليهود لحسدهم المستمر للناس، ولكراهيتهم لهم يثيرون الحروب بين الناس، فهم يثيرونها على غيرهم إذا

كانت فيهم قوة، أو أحسوا أن فيهم قوة، أو اتخذوا ذريعة للإيذاء، وإذا لم يكن فيهم قوة ولم يحسوها، كان عملهم إيقاظ الأحقاد بين الشعوب، وإثارة العداوات التى تعقبها الحروب، هذا شأنهم الدائم المستمر يدفعهم إلى إثارة أسباب الحروب.

والتعبير بقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾.

يجرى على ما كان عليه العرب من أنهم كانوا إذا أرادوا حربا بالإغارة على غيرهم إما انتقاما أو اعتداء أوقدوا نارا يسمونها نار الحرب، ومهما يكن ما عند العرب من عبارات فى هذا، فإن التعبير مجاز، إذ عبر عن إثارة الحروب بإيقاد نارها، باعتبار أن الحروب فى ذاتها وبما تشتمل عليه من مذابح بشرية تشبه النار المستعرة. وإن اليهود يوقظون الأحقاد ويثيرون الفتن، ويوقدون نيران الحروب، والله من ورائهم محيط وإنما يطفئ ما يوقدون ويحبط ما يدبرون.

﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ وإنهم إذ يثيرون الفتن، ويشعلون الحروب، لا يقصدون إلا السعى فى الأرض فسادا فكلما مكن لهم فى الأرض أفسدوا ولم يصلحوا، وإذا علوا أفسدوا ولم يصلحوا، حتى إذا طغوا وبغوا أرسل الله عليهم شدائد جزاء لفسادهم، ولقد قال تعالى فى بيان ما قرره كتابهم وهو التوراة والقرآن بشأنهم: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإسراء].

وهذا النص الكريم يفيد أولا ـ أنهم دأبوا على الفساد من بعد موسى ومن جاء من النبيين كداود وسليمان، وأن نتيجة هذا الفساد كانت وبالا عليهم، فجاء

بختنصر، وأزال سلطانهم ثم جاء من بعده الرومان فأزالوا سلطانهم، وجعلوهم أذلاء فى الأرض.

وتدل ثانيا ـ على أن الرسول ﷺ اجتثهم من بلاد العرب[1]، وتدل ثالثا ـ على أنهم سيدخلون المسجد الحرام كما دخلوه أول مرة، وتدل رابعا ـ على أنهم سيفسدون فيه كشأنهم، إذ يتبرون ما علوا تتبيرا، وتدل خامسا ـ على رجاء رحمة الله تعالى بعباده المسلمين إذا عادوا إلى التقوى فيعود سبحانه وتعالى عليهم بالنصر، لأن اليهود دائما مفسدون. وقد ختم الله سبحانه وتعالى النص الكريم بقوله تعالت كلماته: ﴿**وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾.

فالله تعالى لا يحبهم كما يزعمون ويتوهمون إذ يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه؛ لأنه سبحانه وتعالى يحب من يعمر الأرض، ولا يفسدها، وأولئك تجار الحروب يفسدون ولا يصلحون، ألم تر أنهم يمنعون كل صلح بين الناس ليتمكنوا من الكسب فى صناعة أدوات الحرب، وليستعيدوا مهمتهم فى إفساد ما بين الناس.

﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ**﴾ كان الحديث من قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴿٥١﴾ ﴾ [**المائدة**]. فى شأن أهل الكتاب ومن يتخذهم أولياء دون اليهود، ثم ذكر سبحانه وتعالى أحوال اليهود الذين كان بعض أهل الكتاب والمسلمين يواليهم فعلا ويستنصر بهم، وبينت أحوالهم لكى يبتعد المؤمنون عنهم، وفى هذا النص الكريم يبين سبحانه أن باب الإيمان مفتوح غير مغلق، فمن دخله كفَّر عن نفسه سيئاته، فكفرها الله عنه، ومعناه: لو أن أهل الكتاب آمنوا بالله وحده، وصدقوا رسوله الذى بعث رحمة

---

(١) قال عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لأُخْرِجَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ حَتَّى لا أَدَعَ إِلا مُسْلِمًا» رواه مسلم: الجهاد والسير - إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب (١٧٦٧).

للعالمين، وجعلوا بينهم وبين الباطل وقاية وخافوا عقاب الله تعالى ورجوا ثوابه، وتوقعوا حسابه، وامتلأت قلوبهم بخشية الله تعالى، لو فعلوا ذلك لكفَّر تعالى عنهم سيئاتهم أى لسترها، ولرفعها عنهم؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات، ولأن الله غفور رحيم يقبل التوبة من عباده، وأنه لا تذهب السيئات عنهم فقط، بل إنه سبحانه يثيبهم فى الآخرة، فيدخلهم جنات النعيم، فيدخلهم يوم القيامة الجنات التى تكون محل النعيم، وهذا جزاؤهم فى الآخرة. أما الدنيا فقد قال فيه سبحانه:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ﴾
الضمير يعود إلى أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى، وقد عبر عنهم فى الاسم الظاهر بأهل الكتاب للإشارة إلى أن لهم فضل علم يهديهم إلى الحق إن أخلصوا، وطلبوه صفوا غير مكدر بشىء من الأهواء والأحقاد وحسد الناس على ما آتاهم الله تعالى من فضله لو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل بإدراك ما فيهما من غير عوج فى التفكير وتنفيذ ما اشتملا عليه من أوامر ونواه، ولم يحرفوا فيهما الكلم عن مواضعه، وأقاموا ما أنزل إليهم من ربهم، وهو القرآن الكريم لو فعلوا ذلك وقاموا بما خوطبوا به حق القيام لأتاهم الرزق من كل ناحية من السماء ومن الأرض، وقيل المراد برزق السماء ما يفيض من غيث وما فى الأرض هو الزروع والثمار مما تخرجه الأرض، وما يستنبط من معادن وفلزات.

وإن خير الأقوال أن يقال: إن المراد أن بسطه بالرزق يأتيهم من كل ما يحيط بهم، ويعمهم الخير، كما يعبر عن شدة العذاب بأنه يأتيهم من فوقهم ومن أسفل منهم، كما قال تعالى: **﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ... ﴿٦٥﴾﴾ [الأنعام]**

وفى النص الكريم بضع إشارات:

أولها ـ التعبير عن القرآن بـ «ما أنزل إليكم من ربكم» ففيه إشارة إلى أنهم مخاطبون به، وأنه منزل إليهم مع غيرهم، وليسوا خارجين عن التكليف الذى دعا إليه.

الإشارة الثانية ـ أن ما جاء فى التوراة والإنجيل حقا هو من عند الله تعالى، وأن القرآن مصدق لما جاء قبله.

الإشارة الثالثة ـ أن إقامة الشرع تأتى بالرزق الرغيد لمن أخذ بالأسباب واعتمد على الله تعالى حق الاعتماد، ويجب أن يعلم أن الرزق الحسن لا يتنافى مع مجهود الابتلاء.

﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ وإن هذا النص الكريم يشير إلى أنه لا يخلو جنس من خير فهؤلاء الكتابيون الذى كان فيهم اليهود لا يخلون من خير قد يدفعهم إلى الهداية وسلوك الحق المستقيم، فهؤلاء الكتابيون منهم أمة مقتصدة، والأمة: الجماعة من الناس الذين يجمعهم دين أو فكر أو مكان أو جنس أو نحو ذلك، ويقول الخليل بن أحمد: وكل شيء ضم إليه سائر ما يليه يسمى أمة، والاقتصاد من القصد، وهو استقامة الطريق، فالاقتصاد طلب الطريق المستقيم الذى يوصل إلى الهداية والحق، والمعنى على هذا: منهم جماعة مستقيمة الإدراك تدرك الحق وتذعن إليه، وهى قليلة فيهم، وليست كثيرة، وإن هؤلاء لاستقامة طريقهم وحسن إدراكهم يصلون إلى الحق، ويؤمنون ويتقون، وبجوار هؤلاء كثير منهم تسوء أعمالهم، ويكون من حالهم ما يثير العجب من عظم ما فيها من سوء، فإن كلمة ساء تدل على التعجب من كثرة سوئهم، اللهم اهدنا إلى الحق واجعلنا من أهل القصد والإيمان.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ
مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ
مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ
ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ
وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ
إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ
﴿٦٨﴾

فى الآيات السابقة ذكر سبحانه تعالى مواقف اليهود من رسالة محمد ﷺ وامتناع أهل الكتاب عن الإيمان بما جاء به تعصب من عندهم، وإن اختلفوا فى معاملتهم، فمنهم من نافق وكذب وغدر، وألب عليه الجموع، وحرض المشركين وحالفهم، ومنهم من اقتصد فى المخالفة، وبعض هؤلاء أحسن المعاملة مع الاختلاف ولم يمالئ عليه الأعداء والمشركون من وراء هؤلاء وأولئك يحاربون، ويحاولون أن ينتهزوا الفرص للانقضاض على المسلمين، فكان البلاء شديدا، حروب وفتن يريدون إثارتها، وخبال يقصدون إليه، ولذلك أمر الله نبيه بأن يمضى فى تبليغ الرسالة غيير ملتفت لما يدبرون إلا بمقدار إحباطه، مطرحا عداوتهم وبغضاءهم، فالله تعالى عاصمه منهم، ولذا قال تعالت كلماته:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾. النداء للنبى ﷺ بوصف الرسالة لتشريفه بهذا الوصف الكريم، ولأنه مصطفى لها: ﴿ ... **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ... ﴿١٢٤﴾ ﴾ [**الأنعام**].

وللتمهيد لما يأمره به من التبليغ، وأن يصدع بأمر الله لا يراقب أحدا، ولا يخاف من عدو؛ لأنه يبلغ ما أنزل الله تعالى إليه، وقد زكى سبحانه وتعالى الأمر بالتبليغ ووثقه بقوله: **﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾**.

بما أنه منزل إليك من الله تعالى، فأنت الأولى بالتبليغ دون غيرك، والمسئول عن إعلام الناس بما أنزل الله تعالى، وإنك إذ تبلغ الرسالة فى حماية الله تعالى وكلاءته، ولذلك قال تعالت كلماته: **﴿مِن رَّبِّكَ﴾**.

أى الذى خلقك ونماك وقام على رعايتك وهو الذى يحميك، ويدفع عنك السوء والشر، ويبلغك مبلغ الحق من نشر الرسالة ليؤمن من يؤمن عن بينة، ويكفر من يكفر عن بينة: ﴿ ... **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا** ﴿١٥﴾ ﴾ [**الإسراء**].

وقوله: ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾.

(ما) فيه دالة على العموم، وهى بهـذا العموم تدل على معنى (جميع)، أى بلغ جميع ما أنزل إليك من ربك، أى لا تخف شيئا ولا تكتم شيئا.

ولقـد روى أن النبى ﷺ قال: «إن الله تعـالى بعثنى برسـالته فـضقت بـها ذرعا، وعرفت أن الناس يكذبونـنى، واليهود والنصارى وقريش يخـوفوننى، فلما أنزل الله هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾. زال الخوف»[١].

فالرسول ﷺ بلغ الشريعة كلها غير منقوصة، وما كتم شيئا، ولقد قالت أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله تعالى عنها ـ وعن أبيها: من قال: إن محمدا كتم شيئا من رسالة الله تعالى فقد أعظم الفرية[٢]، ولقد قال عليه السلام: «تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدى أبدا كتاب الله تعالى، وسنتى»[٣].

ولو كان قد ترك شـيئا لمن بعده، لكان قـد ترك تبليغ الرسالة، ولكن ذلك محال لقوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾.

أى إن لم تبلغ كل ما أنزل عليك فمـا بلغت الرسالة؛ ذلك لأن ترك بعض الرسالة ترك لها، فمن كلف تبليغ كتاب لواحد، فأسقط منه أسطرا لا يعد قد بلغ الكتاب، ومن يؤمر بتبليغ كلام فيحذف بعضه لا يعد قد بلغ الرسالة؛ لأن الرسالة فيما هو عند الناس كلٌّ لا يقبل التجزئة، فكيف تقبل رسالة الله تعالى إلى خلقه، تجزئة فـينقل بعضهـا، ويكتم بعضـها، وقد عبـر عن هذا المعنى الزمخـشرى فى

(١) روى الحميدي (٨٨٨) ج٢، ص ٣٩٠ عن عمه أبي الأحوص عوف ابن مالك الجشمي عن أبيه. وفي مسند اسحاق بن راهوية (٤٣٩) عن رسول اللـه ﷺ قال: «إن الله أرسلني برسالة فضقت بها ذرعا، وعلمت أن الناس مكذبي فأوعدني أن أبلغها أو يعذبني».

(٢) متفق عليه؛ رواه مسلم: الإيمان - معنى قول الله عز وجل: ﴿ولقد رآه..﴾ (١٧٧)، والبخاري بنحوه: تفسير القرآن - ﴿ياأيها الرسول..﴾ (٤٦١٢).

(٣) رواه الحـاكم في المستـدرك (٣٢٤) والبيـهـقي (٢٠٧٨٠)، والدارقطني (٤٥١١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الكشاف، فقال: «ذلك أن بعضها ليس بأولى بالأداء من بعض، وإذا لم تؤد بعضها فكأنك أغفلت أداءها جميعا، كما أن من لم يؤمن ببعضها كان كأن لم يؤمن بكلها؛ لإدلاء كل منها بما يدليه غيرها، وكونها كذلك فى حكم شيء واحد، والشيء الواحد لا يكون مبلغا، وغير مبلغ، مؤمنا به، وغير مؤمن به» أى أن تبليغ بعض الرسالة وترك بعضها معناه ترك وجوب الإيمان به فترة بعد وفاة الرسول، وذلك غير معقول فى ذاته، وغير مقبول فى هذا الشرع الشريف؛ لأن الله تعالى عندما تأذن بموت رسوله قال تعالت كلماته: ﴿... **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ... ﴿٣﴾﴾ [المائدة].

وإنه يجب التنبية إلى أمور ثلاثة:

أولها ـ أن النبى ﷺ ما انتقل إلى الرفيق الأعلى حتى أتم الرسالة بيانا، وقد يقول قائل إن الشريعة منها ما هو ثابت بالنص، وهذا بلا ريب قد تم بيانه قبل وفاة النبى ﷺ، وقسم قد ثبت بغير النصوص، فكيف يكون قد تم بيانه،؟! والجواب عن ذلك أن تبليغ الشريعة كان ببيانها، وليس معنى البيان أن يبين حكم كل جزئى من الجزئيات، بل معنى البيان أن تبين الأحكام الكلية والجزئية التى يحتاج بيانها إلى نص، والجزئيات التى لا تبين يكون من الكليات ما يدل عليها بوجود العلة أو الغاية التى يثبت أن الشارع الحكيم أرادها، ولذلك يقول الإمام الشافعى فى الرسالة الأصولية: البيان إما نص قائم، وإما حمل على نص قائم، ولا شك أن كل حكم لا نص عليه يثبت الحكم فيه بالحمل على نص قائم، سواء أكان الحمل بطريق القياس، أى بإثبات الحكم غير المنصوص عليه فى موضعه بالقياس على الحكم المنصوص عليه، فى موضع يشبهه، ووجه الشبه العلة المؤثرة فى الحكم، أم كان الحمل بطريق وجود المصالح ودفع المضار المتفق مع مقاصد الشرع، وغايات أحكامه، وذلك موضع اجتهاد الفقهاء.

الأمر الثانى ـ أنه يجب التنبيه إلى أن الذين يأخذون ببعض أحكام الشريعة مؤمنين بها، ويطرحون الآخر وراءهم ظهريا يحسبون أن ما اطرحوه ليس من

الشرع ينكرون تبليغ النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ للرسالة كاملة، وذلك انحراف يؤدى إلى الكفر والعياذ بالله.

الأمر الثالث ـ فى قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ فكيف يكون الشرط والجزاء فى معنى واحد؛ لأن الشرط ظاهر معناه أنك إن لم تقم بالتبليغ كاملا صادعا بالحق، فما بلغت الرسالة أى أنك إن لم تبلغ فما بلغت، وجزاء الشرط يجب أن يكون معنى مترتبا على الشرط، وذلك يقتضى المغايرة بينهما، فلا يمكن أن يكونا شيئا، وظاهر النص أنهما شىء واحد.

وقد أجيب عن ذلك بجوابين:

الجواب الأول ـ أن المعنى أنك إن لم تقم بأداء الرسالة كلها بأن تركت بعضها، فإنك تكون كمن ترك الرسالة كلها، وقد اعترض على ذلك الفخر الرازى بأن ترك بعض الرسالة لا يمكن أن يكون كترك كلها، والجرم فى ترك بعضها ليس كالجرم فى تركها كلها، وإنى أرى أن اعتراض الإمام فخر الدين الرازى غير وارد، لأن ترك جزء من الرسالة من غير تبليغ يكون تركا للرسالة ذاتها، ولذا عبر فى الجزاء بقوله تعالت كلماته: ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ أى إن لم تفعل بتبليغها كاملة فما أديت واجب التبليغ، وجرم الجزء كجرم الكل إذا كان يتعلق بالاعتقاد فمن أنكر بعض ما يجب الإيمان به يكون كمن ينكر كله إذ يكون ممن يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض.

الجواب الثانى ـ أن يكون الكلام من قبيل بيان أن الشرط ذاته يكفى أن يكون فيه كمال التخلى عن التبليغ، والمعنى على هذا أنك لم تقم بالتبليغ فحسبك أنك تخليت عما يجب عليك أن تفعله، وهو عملك كرسول ـ وإن التبليغ يقتضى جهودا وبلاء، وتعرضا للأذى، وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى ذلك، وبين أنه فى حماية الله تعالى، وكفالته، ولذا قال سبحانه:

﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ العصم: الإمساك، ويتضمن الإمساك الحماية، ومنع الأذى، وجاء فى مفردات الأصفهانى: عصمة

الأنبياء حفظه إياهم أولا بما خصهم به من صفاء الجوهر، ثم بما أولاهم من الفضائل الجسمية والنفسية ثم بالنصرة، وبتثبيت أقدامهم، ثم بإنزال السكينة عليهم وبحفظ قلوبهم وبالتوفيق قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾.

ومعنى العصمة من الناس على هذا ألا يُمكَّنوا منه - عليه السلام - ومن دعوته، ومن نفسه، فأوهامهم لا تعلق بنفسه ونفاقهم لا يؤثر فى دعوته، وخلافهم وعنادهم لا يمنعان الحق من أن يصل إلى قلوب أهل الهداية والإيمان، ولجاجتهم فى الكفر لا تثنيه عما يدعو إليه، ويستمسك به، وما يثار عليه من حروب لا تهزمه ما دام هو ومن معه آخذين فى الأسباب ناصرين لله وللحق.

وليس معنى عصمة الله تعالى أن يكون الوصول إلى الحق هينا لينا سهلا، بل إنه لا بد من الجهاد، ولا بد من نزول البلاء بل بتوالى الابتلاء، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة].

فالعصمة هى عصمة النفس والجسم من القتل، والدعوة من أن يعوق طريقها ويقضى عليها، وإن كان الأذى البدنى يقع كشج رأسه وكسر ثنياته، وغير ذلك مما كان يفعله المشركون واليهود معه عليه السلام.

والناس لا يختصون بالمشركين واليهود، بل المراد السلامة مع الجهاد، من كل ما يكون من الناس عامة إذ لا دليل على التخصيص، وكان ممن آذوا النبى عليه السلام كسرى فارس، وما كان من هؤلاء ولا هؤلاء وقد عصمه تعالى منه.

وقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالت كلماته: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ والهداية التى ينفيها هذا النص الكريم هى الوصول إلى الحق، لأن الجحود قد ران على قلوبهم بما كسبوا من شر، وما اجترحوا من سيئات، وما لجت به نفوسهم من عناد، وهم لا يصلون إلى النيل من الحق وتعويق الدعوة،

وعبر عن الكافرين بالقوم للإشارة إلى أنهم مهما تعددت أجناسهم وتباينت عناصرهم يلتقون عند غاية واحدة، وهى معاندتك والكفر بما جئت به، فهم بذلك التآلف فى الإنكار صاروا كأنهم قوم متحدون.

وإذا كان الكفر قد جمعهم فإنه لا يفرق بينهم كون بعضهم كتابيا، وبعضهم أميين، فلا فضل للكتابيين على الوثنيين فى الكفر، ولا شرف بكونهم أهل كتاب ما داموا لم يؤمنوا به ولم يقيموه، ولذا قال تعالى:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ كان أهل الكتاب فى البلاد العربية يستعلون على من فيها من أهل الوثنية، لأن عندهم علما من السماء، بأنه سيكون منهم نبى ينصرهم ويؤيدهم، ولأنهم يتبعون نبيا من الأنبياء، وأنه كما حكى الله سبحانه وتعالى عنهم، إذ قال تعالت كلماته: ﴿ ... **وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴿٨٩﴾ ﴾ [البقرة].

وكانوا يسمون العرب أميين توهينا لشأنهم، ولبيان شرفهم بالعلم عليهم، فأمر الله تعالى نبيه أن يبين لهم أنهم لا يمكن أن يكونوا أعلى شأنا من الوثنيين إلا إذا اتبعوا الكتب التى جاءت لأنبيائهم، والكتاب الذى يخاطبون به وهو القرآن؛ لأن شرفهم وفخارهم بهذا العلم، فلا بد أن يقيموه، ويعطوه حقه، وإلا فهو حجة عليهم، وليس حجة لهم، وهو موضع مؤاخذة، وليس سببا للمفاخرة.

وأمر الله تعالى نبيه بأن يتولى هو خطابهم؛ لأن الجدل والمعاندة كانت منهم له، ومعنى قوله تعالى: **﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا﴾** إنكم معشر أهل الكتاب لستم على شىء مما يعلو به الإنسان من علم أو دين أو خلق أو فضل، حتى تقيموا التوراة والإنجيل، وما أنزل عليكم من ربكم، وهو القرآن؛ لأنكم تعتزون بعلم الكتاب فلا شىء لكم من الاعتزاز والفضل إلا إذا أقمتم ما تعتزون به، فلتنفذوا ما جاء فى التوراة والإنجيل والقرآن، وبذلك تحققون السبب، فيتحقق المسبب، وهنا إشارتان بيانيتان. .

إحداهما - التعبير بقوله تعالى: ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ بالتعبير بـ «على» بدل «الباء»، وذلك أن حالتهم كانت حال استعلاء على غيرهم فكان المناسب أن يعبر بحرف الاستعلاء وهو «على»؛ لنفى ذلك الاستعلاء، والتعدية بالباء تفيد أن النفى منصبّ على ذواتهم، وإنما النفى منصب على استعلائهم.

الثانية - التعبير عن القرآن بما أنزل إليكم من ربكم، فلم يقل حتى تقيموا التوراة والإنجيل والقرآن - كان فيه تصريح بأنهم مخاطبون به، وأنهم ممن أنزل لأجلهم، وإلى ذلك يشير قوله - عليه الصلاة والسلام - «لو كان موسى حيا ما وسعه إلا أن يؤمن بما جئت به»(١).

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْراً﴾ قد تكلمنا فى معنى هذا النص الكريم، وما فيه من توكيد، وذكرنا أن القرآن المنصف لا يحكم على الجميع بالشر، وفيهم أخيار، ولذلك كان حكمه على الكثرة لا على القلة، وإن طغيانهم هو ظلمهم للحقائق، وإفراطهم فيما يطغون به على أهل الإيمان، وأشرنا إلى علة ذلك وهى حقدهم، وحسدهم، وأن النعمة تجىء إلى المحسود، فتزيد الحاسد حقدا وضغنا.

ولكن لِمَ كرر القول هنا وقد ذكر آنفا؟ والجواب عن ذلك أن كلام اليهود الذى حكاه الله تعالى عنهم كان فى جنب الله مما يدل على إيغالهم فى الكفر والإنكار، وأنهم حاقدون على النبى ﷺ فلا يزيدهم ما أنزل عليه إلا طغيانا وكفرا، أما هنا فقد جاءت عقب الأمر الجازم بوجوب التبليغ وتعميمه - بالنسبة للموضوع، وبالنسبة للأشخاص فيبين سبحانه لنبيه - عليه السلام - أنه مع التبليغ لا يرجو الإيمان: ﴿ ... إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ ... ﴿٤٨﴾ ﴾ [الشورى]. ولذلك قال سبحانه بعد ذلك:

﴿فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ الأسى: الحزن، وحقيقته اتباع الفائت بالغم والألم، والمعنى لا تأس على إصرار الكافرين على كفرهم، ونزول اللعنة والعذاب

(١) سبق تخريجه.

بهم، لا تتأسف لذلك، لأنك قد بلغت، ولأنه يجب أن تتوقع منهم الكفر والجحود؛ لأن كثيرا منهم لا يزيدهم ما أنزل إليك إلا طغيانا وكفرا، ولأن تبعة الخطيئة عليهم دون غيرهم، ولأن الإيمان والهداية كما يريد الله، لا كما تريد أنت ﴿ **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴿٥٦﴾ ﴾ [**القصص**].

اللهم اهدنا للإيمان، واهد المسلمين للإيمان، فلا عزة لهم إلا به، وإنك أنت العزيز الحكيم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾

فى الآيات السابقة أشار سبحانه إلى استعلاء اليهود والنصارى لأنهم أهل كتاب جاءت إليهم الرسل بالتعليم والتوجيه فبين سبحانه وتعالى أن الاستعلاء بالإذعان، واتباع ما جاء إليهم والإيمان به، وفى هذه الآية يبين سبحانه وتعالى أن الناس جميعا فى النجاة سواء، لا فرق بين يهودى ونصرانى، وعبدة للكواكب، فالإيمان يجبّ ما قبله، ويسوى بين المؤمنين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى فى هذا يبين سبحانه أن أساس النجاة وذريعة الثواب، ومنع العقاب الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح واستشعار خشية الله واتقاء عذابه، وإطاعة ما أمر، والانتهاء عما نهى عنه وزجر. ولا ينظر فى ذلك إلى سابق ما كانوا يتدينون، ولا إلى ما كانوا ينتحلون من نحل؛ فكما أنه لا تفرقة أمام الله تعالى بالجنسية لا تفرقة أيضا بالنحلة والملة إذا كانوا ينتهون إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، ولذلك أكد سبحانه وتعالى أن الذين آمنوا بما جاء به محمد، والذين هادوا أى اليهود، والصابئين والنصارى، من كان منهم يؤمن بالله واليوم الآخر ويعملون صالحا، لا خوف عليهم من عقاب ولا مؤاخذة عليهم فيما فرط من ذنوب إذ الإيمان يجبّ ما قبله، ويمحو ما سبقه مما ارتكبوا، فهذا النص الكريم كما يفيد التسوية بين النحل السابقة إن استقاموا على الجادة، والتقوا عند منجاة الإيمان يفتح أيضا باب الرجاء، ويقرب التوبة. وهنا أصناف أربعة هم الذين آمنوا، واليهود، والصابئون، والنصارى.

فالذين آمنوا هم الذين أذعنوا للحق، وآمنوا بما جاء به محمد ﷺ وصدقوه، وأطاعوه، واليهود هم بنو إسرائيل الذين هم شر البرية بأعمالهم إن إقلعوا عنها، فباب الرحمة مفتوح يدخله كل عباد الله تعالى.

والصابئون أو الصابئة طائفة ظهرت فى بلاد المشرق، وقد قيل فيها: إنهم يعبدون الكواكب، وبعضهم قال: إنهم يقدسونها من غير عبادة، ولا يخرجهم ذلك عن الشرك؛ لأن تقديس ما لا سبب لتقديسه نوع من العباده، وإن لم تكن بالصلاة.

وقد حدث أن ادعوا الدخول فى النصرانية فى عهد المأمون، فإنه التقى بهم فى إحدى الغزوات، فسألهم من أى أهل الذمة أنتم؟ فقالوا: صابئة، فقال: لا بد أن تدخلوا فى دين من الأديان السماوية أو أخرجكم من ديار الإسلام؛ لأنه لا عقد ذمة إلا مع أهل دين سماوى، (وذلك أحد الآراء الفقهية وأشهرها) فاختار الأكثرون منهم أن ينتحلوا اسم النصرانية، ومنهم من بقى على عبادة الكواكب،

وإن أظهروا غير ما يعتقدون، ومنهم من خلط بين النصرانية، وما بقى لهم من بقايا تقديس الكواكب، وهم أكتم الناس لعقائدهم، ولا تزال بقية باقية منهم فى تخوم العراق، ولا يستطيع أحد أن يجزم بحقيقة اعتقادهم.

والنصارى، وهم طوائف مختلفة، تجمعهم ألوهية المسيح، والتثليث، ومتفرقون فيما وراء ذلك ما بين كاثوليك أو ملكانية، وأرثوذكس أقباط، وطوائف غربية، ونساطرة وما رون، وغيرهم.

والنص الكريم كما تلونا هو هكذا: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى**﴾ ونرى أن «الصابئون» مرفوعة، وظاهر السياق أن تكون بالنصب، فتكون والصابئين وهذه قراءة ابن كثير، وقراءة الآخرين بالرفع، ولذلك تكلم المفسرون فى هذه القراءة التى يقرأ بها الأكثرون. وقد خاضوا فى ذلك لأجل التخريج النحوى، وليس لأحد أن يخطئ القراءة من الناحية اللغوية، إلا أن يكون كجهلة بعض المستشرقين الذين يحسبون أن قواعد النحو حاكمة على القرآن، وذلك من فساد النظر؛ لأن القرآن فوق النحو، إذ النحو يستقى منه، وهو لا يخضع لما يقرره النحويون، بل هم الذين يخضعون له، وأن القرآن قد ورد بذلك فهو قد دل على أن العطف على اسم إن بالرفع جائز، ولو كان الخبر متأخرا، ولا يحتاج إلى شاهد سواه، وأنه هو الشاهد الأول على سلامة التعبير من الوجهة العربية، ومع ذلك قد جاءت شواهد من كلام العرب بوجوب رفع المعطوف على اسم (إن) قبل وجود الخبر، فقد قال ضابئ بن الحارث:

فمن يك أمسى بالمدينة رحله ... فإنى وقيارٌ بها لغريب

وترى أن العطف بالرفع على اسم إن جاء قبل الخبر، وهو مذهب بعض النحويين، ويرجحه القرآن الكريم إذ جاء فيه ذلك، وهو خير شاهد.

وقد أخذ النحويون يخرجونه على مقتضى قواعدهم، المانعة عند الذين يمنعون، فقال بعض المخرجين: إن الخبر ليس هو خبر الصابئين، إنما الصابئون مبتدأ خبره محذوف تقديره كذلك، وقال غيرهم: إن أسم (إن) أصلها مبتدأ

دخلت عليه إن، فروعى معنى الابتداء فيه فرفع على هذا المعنى، وكل هذه تخريجات، النص فوقها، ولا عبرة بها لأنها لا تحكم على القرآن، بل إن العطف بالرفع جائز، وقوله تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ﴾ بعد ذلك خبر للجميع.

ومهما يكن من تخريجات أكثر النحويين وتجويز غيرها فإن القرآن أبلغ كلام فى الوجود لا بد أن يكون فى عدوله عن النصب الذى هو ظاهر السياق إلى الرفع معنى قائم بذاته. فما هو ذلك المعنى؟ قالوا: إن الصابئين أشد إيغالا فى الكفر من اليهود والنصارى، فكان لا بد من تنبيه خاص بهم؛ ليكون ذلك تأكيدا لمعنى قبول التوبة والغفران؛ لأنهم إذا كانوا يغفر لهم وهم على هذه الحال من عبادة الكواكب، وعدم وجود كتاب، وكتمانهم اعتقاداتهم، فأولى ثم أولى أن يغفر لمن دونهم من ذلك الجحود، وهم اليهود والنصارى، ولأن الصابئين يشير بيان الغفران لهم إلى قبول توبة المشركين إذا آمنوا بعد شرك، كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنفال].

وقد بين سبحانه خبر إن وهو جزاء الإيمان بعد كفر، فقال سبحانه: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

هذا هو الخبر، وفيه جزاء الإيمان وما تطلبه حقيقته، فذكر سبحانه أمورا ثلاثة هى الإيمان بالله تعالى وذلك يتضمن الإيمان بوحدانيته، وأسمائه الحسنى، وأنه الخالق وحده، والمهيمن على الوجود وحده، وأنه الأزلى الذى ليس له ابتداء، والباقى الذى لا يعروه الفناء، وأنه لا يشبه أحدا من خلقه، وليس كالأشياء، لا يُحس، ولا يحتويه مكان، وهو منزه عما تتصف به الحوادث إلى آخر كل ما يقتضيه التنزيه، وليس بوالد ولا ولد، وليس له كفوا أحد، والإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بالبعث والنشور، والحساب والعقاب والثواب، وإنها جنة أبدا، أو نار أبدا، وأن الإنسان مجزى بعمله، وإن خيرا فخير أو شرا فشر: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة].

وذكر النص القرآنى، أمرا ثالثا، وهو العمل الصالح الذى يلقى الله تعالى وهو قائم به، مستمرا عليه، وهذا وإن لم يكن ركنا من أركان الإيمان، ولكنه شرط لما جاء بعد ذلك من عدم الخوف والحزن، فإن المرتكب لا يمكن أن يكون فى أمن من غضب الله، بل يكون حزينا على ما ارتكب، وإن قوى الإيمان إن عمل يكون عنده برد اليقين، والمؤمن الصادق يغلب الخوف على الرجاء، ولو كان طاهرا مطهرا، فكيف لو كان مرتكبا.

وقد يقول قائل: لماذا لم يذكر الإيمان برسالة النبى ﷺ مع أنه ركن من أركان الإيمان، فشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله تعالى هى لب الإيمان!.

والجواب عن ذلك: أن الإيمان بالرسالة المحمدية التى قامت عليها الأدلة من المعجزات الباهرة ثمرة الإيمان بالله ولازمة له، فلا يمكن أن يكون مؤمنا بالله من يكذب رسوله الذى قامت الشواهد والأمارات على صدق رسالته، والإيمان بالله يقتضى الإيمان بصدق كل ما جاء فى كتابه المنزل الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهكذا فإن الإيمان بالله تعالى يقتضى الإيمان بالرسالة والرسل والإيمان بما جاءت به الكتب المنزلة.

وجزاء هذا الإيمان الصادق والعمل الصالح ألا يكون المؤمن فى خوف من قابل حياته فى الآخرة، فلا يخاف عذاب يوم القيامة؛ لأن الإيمان هو الحصن الذى يلوذ به الخائفون، ولا يحزن على ما كان منه فى كفره، وإنه فى الجنة لا همَّ، ولا حزن ولا عذاب.

وقد تكلم العلماء فى أمرين لا بد أن نتكلم فيهما:

أولهما ـ أن الله تعالى ابتدأ طوائف الذين يغفر لهم أن آمنوا بالمؤمنين فقال سبحانه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾، وجاء الخبر من بعد: ﴿**مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ**﴾، فكيف ينطبق هذا الخبر على الذين آمنوا، وهم قد سبق إيمانهم، فلا يحتاج إلى

تجديد، ولو كان الخبر مقصورا على الذين هادوا والصابئين والنصارى لكان له موضعه ظاهرا، لأنهم غير مؤمنين.

وقد أجاب العلماء عن ذلك بجوابين: أحدهما ـ أن الذين آمنوا قد يراد بهم الذين أعلنوا الدخول فى الإسلام وإن لم تذعن قلوبهم، ولكن هذا الجواب لا نرتضيه لأن المنافقين ومن لم يذعنوا للحقائق الإسلامية لا يسمون مؤمنين، اقرأ قوله تعالى: ﴿**قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ** ... ﴿١٤﴾﴾ [**الحجرات**].

الجواب الثانى ـ أن معنى آمن بالنسبة لهم استمرار الإيمان، وبالنسبة لغيرهم إنشاؤه، ونرى فى هذا الجواب نوعا من دلالة اللفظ على معنيين متقاربين فى موضع واحد، إذ يراد الإذعان، والاستمرار عليه، وإنى أرى أن الخبر ليس للحكم بقبول الإيمان فقط، بل إنه خبر فى معنى الشرط والجزاء فيه إثبات أن الإيمان مناط النجاة والثواب، وذلك ينطبق على المؤمنين ومن يدخلون فى الإيمان.

الأمر الثانى ـ هو دخول الفاء فى قوله تعالى: ﴿**فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾. وقد قيل فى ذلك: إن الموصول فى (من آمن) فى معنى الشرط، والفاء تدخل فى خبر الموصول كما تدخل فى جواب الشرط.

﴿**لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً**﴾ فتح الله تعالى باب القبول على اليهود والنصارى والصابئين، وقد أخذ سبحانه يبين كيف فتح الباب لهم من قبل ولكن غلقوه على أنفسهم، وقد ذكر سبحانه فى هذا النص أمرين: أولهما ـ أنه تعالى أخذ عليهم الميثاق، والثانى ـ أنه أرسل رسلا ليسهل تنفيذ هذا الميثاق.

والميثاق عقد موثق مشدد فيه، كما يشد الوثاق، وهو مؤكد بيمين الله تعالى، والله تعالى قد أخذ هذا الميثاق على بنى إسرائيل بأن يقوموا بالتكليفات التى يكلفهم إياها، ولم يذكر هنا موضوع الميثاق، وقد ذكره فى مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى، فترك هنا بيانه حملا عليها، ومن نصوص ميثاق الله تعالى على بنى إسرائيل قوله تعالى:

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ وقد أكد الله سبحانه فى الآية الكريمة التى نتكلم فى معانيها (أخذ) ، باللام وبـ «قد»، وبإضافة الأخذ إليه فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

ومع أخذ الميثاق المؤكد، لم يتركهم هملا، بل أرسل إليهم الرسل من عنده ليؤكدوا الميثاق، ويبينوه ويعاونوهم على تنفيذه، وقد جاءت كلمة ﴿رُسُلاً﴾ بالتنكير، وهو هنا للتكثير، أى أرسلنا إليهم رسلا كثيرة، ولم تكن نتيجة الميثاق وإرسال الرسل محمودة لهم، بل كانت منهم نكرا، ولذا قال سبحانه:

﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ لقد كان الحكم الذى ارتضوا حكومته هواهم وشهواتهم، فما يوافق هواهم اتبعوه، وما لا يوافق هواهم ردوه، فاتخذوا بذلك إلههم هواهم وضلوا عن علم، ووقعوا فى الشر، فلم يجعلوا العقل والميزان هو الحكم الذى يقبلون ما يقبله، ويردون ما يرده، وإنه ترتب على تحكيم الهوى وسيطرته عليهم أن كذبوا فريقا واكتفوا بالتكذيب، وأن قتلوا فريقا.

وهنا بعض مباحث لفظية تبين منها معنى النص الكريم:

أولها ـ عدم وجود جواب الشرط، وهو «كلما»، فقال الزمخشرى: قام مقامه فريقا كذبوا وفريقا يقتلون، أو هو فى الحقيقة جواب الشرط، لأن المعنى كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم كذبوا فريقا وفريقا قتلوه، وبعضهم قال: إن الجواب محذوف تقديره، و«استكبرتم»، وأخذه من قوله تعالى فى آية أخرى: ﴿... أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة].

وإن الأوضح هو ما قرره الزمخشرى؛ لأن قوله ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ تصلح جوابا، فلا حاجة إلى تقدير، وأما الآية الأخرى فقد جاءت الفاء فى قوله:

﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ فكانت الجملة غير صالحة لأن تكون جواب شرط، فكان لا بد من التصريح بجواب الشرط.

المبحث الثانى ـ أن الله سبحانه وتعالى قسمهم فريقين فريقا كذبوه، وفريقا قتلوه، ولا شك أنه مع القتل التكذيب، ويكون المعنى على هذا أن هناك فريقا اكتفوا بتكذيب الرسول، وفريقا آخر ذهبت بهم اللجاجة فى العناد وعداوة الهادين إلى أن يقتلوه.

والمبحث الثالث ـ التعبير عن التكذيب بالفعل الماضى فقال: ﴿ فَرِيقًا كَذَّبُوا﴾. وعن القتل بالمضارع: ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾. وقد علل ذلك الزمخشرى بأن المضارع يدل على استخضار الجريمة البشعة التى ارتكبوها، وهى أن يقتلوا هاديهم ومرشدهم، وهناك تعليل آخر، وهو أنهم على استعداد لأن يقتلوا خاتم الهداة محمدا ﷺ، وقد هموا ولم ينالوا.

﴿وَحَسِبُوا أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ الفتنة أصل معناها إدخال الذهب النار لتظهر جودته، وأطلقت الفتن فى لغة القرآن على الشدائد التى تنزل ليختبر قلب المؤمن، فإن صبر ظهر إيمانه قويا شديدا، وإن خار ووهن كان من ضعفاء الإيمان ولقد قال تعالى: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝٢ ﴾ [العنكبوت].

واليهود لما أنعم الله تعالى به عليهم إذ أخرجهم من قسوة فرعون، ونجاهم بفلق البحر، حتى مروا، وغلقه على فرعون وقومه، حتى غرقوا، وهم ينظرون وأعطاهم من بعد ذلك المن والسلوى وغير ذلك ما أجزله تعالى عليهم من خير، حسبوا أن الإيمان جلب لا سلب فيه، وهناءة لا يرنقها تعب، ولذلك حسبوا ألا تكون فتنة تنزل بهم، ولكن الله أنزل عليهم هزائم تتلوها هزائم واختبرهم بقحط ينزل بهم، حتى يصقل إيمانهم، وكان ذلك الحسبان منهم لانغمار نفوسهم بالشهوات، لأنها تعمى وتصم، وترين على البصر بغشاوة فلا يرى، وتضع على الآذان وقرا فلا تسمع.

ولذلك رتب الله تعالى على حسبانهم ألا فتنة تنزل أن عموا عن إدراك الحق، فلم يصلوا إليه، وأن صموا عن سماع الهادى فلم ينصتوا إليه، وبذلك سدت عليهم منافذ الإدراك، فلا عقل يدركون به إذ غشيته الشهوات حتى أعمته وجعلت عليه غشاوة ولا وعى يستمعون به إلى صوت الهداية.

وقد نزلت بهم شدائد صقلت نفوسهم كالشدائد التى أنزلها التتار بهم، فاستيقظت مداركهم وسمعت الحق آذانهم، وجاء الأنبياء أمثال داود وسليمان فأنقذوهم، ولكن ما إن أحسوا ببحبوحة النعمة حتى استولت عليهم الشهوات فعموا وصموا ولكن كانت بقية صالحة، وهنا مباحث لفظية نذكرها؛ لأنها تقرب إلينا معنى النص الكريم.

الأول ـ أن قوله تعالى: ﴿أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ بنصب النون فى تكون، وقرئ بضمها[1]، والقراءة الأولى على أساس أن «حسب» بمعنى الظن الغالب، والثانية على أساس أن «حسب» بمعنى علم، والقراءتان متواترتان، وهما تنتهيان إلى أنهم ظنوا، ثم لغلبة الشهوات وسيطرتها تحول الظن إلى يقين أو كاليقين.

الثانى ـ أن معنى: ﴿عَمُوا وَصَمُّوا﴾ فيه تشبيه حالهم فى غلف قلوبهم واستيلاء الشهوات عليهم وعدم إدراكهم الحق بأنفسهم وعدم استماعهم للداعية بحال الأعمى الذى لا يبصر، ولا يستمع إلى من يدعوه ليسير فى الطريق القويم.

الثالث ـ أن المفسرين أرادوا أن يفسروا متى كانت التوبة التى يسترشدون فيها ثم الصمم الذى يلى الرشاد وقالوا فى ذلك أقوالا كثيرة، وعندى أن توبتهم بشديدة تنزل بهم، يخرجهم الله منها، ثم عودتهم إلى ما كانوا عليه متكررا.

---

(١) ﴿ألا تكونُ﴾ (بالرفع). قراءة أبو عمرو،، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف، والمفضل، ولكن قرأ عاصم والباقون بالنصب. غاية الاختصار - برقم (٨١٢).

الرابع ـ أن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ فيه معنى التراخى المعنوى لبعد ما بين التوبة والعمى والصمم. وكثير منهم بدل من الضمير؛ وفى هذا إشارة إلى تأصل الصمم والعمى حتى صاروا أهلا لأن يحكم على الجميع بسببهم ولكن عدل الله أخرج المهديين منهم.

بهذا ختمت الآية، وهى تدل على أن الله جل جلاله عليم بما كان منهم علم من يبصر، وهو مجازيهم بأعمالهم، وهو فوقهم، وهو بكل شىء محيط.

لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ
ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟
ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ
ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾
لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ
إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ
إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾
مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ
ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ
ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ
يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾

بين سبحانه ضلال اليهود وما كان ضلال فكر، بل ضلال قلب، ذلك لأنهم عرفوا الحق، ولكن حقد قلوبهم وحسد نفوسهم منعهم من الإذعان للحق الذى تبين لهم، وأدركوه، وطمس الله عليهم فجعل قلوبهم غلفا لا ينفذ الحق إليها، وبعد ذلك ذكر ضلال النصارى، وكان ضلالهم ضلال العقل الذى انحرفوا به تحت تأثير وثنية قديمة، أو فلسفة واهمة سيطرت فى زمانهم. فكان الضلال ضلال فكر انحرف فاعتنقوا غير المعقول، وآمنوا بما هو مستحيل، ولا عجب فى ذلك إذ استهوت العقول أفكار منحرفة شردتهم عن الجادة المستقيمة، وقد أخذ سبحانه يصور كفرهم فقال تعالت كلماته:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أكد الله سبحانه وتعالى كفر الذين قالوا إن الله - تعالى الله عما يقولون - هو المسيح ابن مريم، ويظهر أنه كان من هؤلاء الذين انحرفت عقولهم من زعم أن الله تعالى حل فى جسم فكان هو المسيح، مع أنهم يقرون أن مريم ولدته، وأن منهم وهم الأكثرون من يقولون: إنه ابن الله قد حلت فيه الألوهية، وهم بهذا الاعتبار قد قالوا: إن الله هو المسيح باعتبار أن الألوهية حلت فيه، وأنه الإله أو ابن الإله.

وحقيقة ـ هذه النصرانية التى انحرفت عن أصل الديانة ـ المسيحية التى جاء بها المسيح، أنه بعد أن ترك المسيح هذه الدنيا تعرض المسيحيون لاضطهادات شديدة استمرت نحو ثلاثة قرون كانوا فيها يفرون بدينهم ويختفون وتحرق كتبهم، حتى صار أصل العقيدة معرضا لمنازع مختلفة، ولكن التوحيد هو السائد الغالب، وما أن رفع الاضطهاد عنهم، حتى تعرضوا لفتنة أشد من الأذى البدنى، فتعرضوا لأذى فى العقيدة ذاتها، وهو أشد وأنكى، إذ أدخلت الوثنية فى النصرانية بتأثير قسطنطين ملك الرومان، ولنترك الكلمة لابن البطريق النصرانى يتكلم عن الأهواء التى دخلت فى عقول المسيحية، فقد قال عن «مجمع نيقية» الذى أعلن ألوهية المسيح، والذى انعقد لمنع دعاية الوحدانية التى حملها أسقف اسمه أريوس، ويتبعه فى فكرته أكثر المسيحيين قال ذلك النصرانى:

(بعث الملك قسطنطين إلى جميع البلدان فجمع البطارقة والأساقفة، فاجتمع فى مدينة نيقية ثمانية وأربعون وألفان من الأساقفة مختلفين فى الآراء والأديان، فمنهم من كان يقول إن المسيح وأمه إلهان من دون الله وهم البربرانية، ومنهم من كان يقول إن المسيح من الآب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية عنها، وهى مقالة سابليوس وشيعته، ومنهم من كان يقول لم تحمل به مريم تسعة أشهر وإنما مر فى بطنها، كما يمر الماء فى الميزاب؛ لأن الكلمة دخلت فى أذنها، وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها، وهى مقالة إليان وأشياعه. ومنهم من كان يقول: إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منا فى جوهره، وإن ابتداء الابن من مريم، وإنه اصطفى ليكون مخلصا للجوهر الإنسى صحبته النعمة الإلهية، وحلت فيه بالمجد والمشيئة، ولذلك سمى ابن الله، ويقولون إن الله جوهر قديم وأقنوم واحد، ويسمونه بثلاثة أسماء، ولا يؤمنون بالكلمة ولا بروح القدس، وهى مقالة بولس الشمشاطى بطريرك أنطاكية وأشياعه، ومنهم من كان يقول إنهم ثلاثة آلهة لم تزل صالح وطالح وعدل بينهما، وهى مقالة مرقيون اللعين وأصحابه، وقد زعموا أن مرقيون هو رئيس الحواريين، وأنكروا بطرس. ومنهم من كان يقول بألوهية المسيح، وهى مقالة بولس الرسول، ومقالة الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفا).

هذه هى الأهواء والآراء التى كانت تذكر فى الجماعات المسيحية وظهرت عندما زال الاضطهاد، وحل محله الأمن، ولم يذكر ما كان يقرره أريوس الذى انعقد المجمع لإنهاء دعوته، والحق أن دعوة أريوس كانت هى البقاء على الوحدانية، فقد قرر كتاب تاريخ الأمة القبطية أن دعوة أريوس كانت منتشرة وكانت عامة وكان السائد عند الكثيرين إنكار ألوهية المسيح، فقد كانت كنيسة أسيوط على هذا الرأى، وكان للرأى الأصيل رأى أريوس مشايعون فى فلسطين ومقدونية والقسطنطينية.

ولكن أُريدَ تحويل المسيحية من التوحيد إلى الوثنية قبل أن يدخل فيها قسطنطين فانتقل للرأى الذى يتفق معها وهو ألوهية المسيح، فأعلن موافقته على

رأى ٣١٨ (ثمانية عشر وثلاثمائة) من جمع عددهم ثمانية وأربعون وألفان، واضطهد من عداهم، وقامت منازعات بين الوحدانية والوثنية، حتى اختفت أصوات الوحدانية فى الأوساط النصرانية.

﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ فى هذا النص الكريم بيان لحقيقة الدعوة التى دعا إليها عيسى ـ عليه السلام ـ ونفى نفيا مطلقا ادعاءاتهم الألوهية له فقد كانت دعوته التى كان موطنها بنى إسرائيل، وانبثق نورها، من أوساطهم إلى غيرهم من الناس، هى إلى التوحيد فى العبادة إذ لا ألوهية سواه، وزكى التوحيد بقوله: ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾. فإن هذا النص يمنع الألوهية من نواح ثلاث: الناحية الأولى ـ إثبات أن الله هو ربه الذى خلقه ونماه، وأنشأه كما أنشأ غيره، والناحية الثانية ـ التسوية بينه وبين غيره من الخلق فى التكوين والإنشاء والتربية، فهو فى هذا لا يفترق عن أحد من البشر، والناحية الثالثة أنه لا يمكن أن يكون فيه عنصر الألوهية؛ لأن الله تعالى رباه ونماه، كما كان بالنسبة لغيره، وليس مما يسوغ للإله أن يأكل ويشرب وينمو كسائر البشر. فذاته العلية منزهة عن الأحداث، ولا يليق بها الاحتياج.

وفى النص الكريم إشارة إلى جريمة من جرائم بنى إسرائيل، وهى أنهم كذبوا المسيح عليه السلام ـ وناوءوه كما ناوءوا محمدا، إذ كفروا بالمسيح مع أنه رسول إليهم، وهموا بقتله، وادعى النصارى أنهم قتلوه، وإن هذه الدعوه التى نادى بها المسيح بين ظهرانيهم وفى قوم لم تجد أرضا خصبه فى أوساطهم، وحرضوا على المسيح عليه السلام واستمر الاضطهاد للنصارى، حتى غيرت وبدلت لهم فى ذلك يد فعالة، وعليهم من وزرها قسط كبير.

وقد حذر المسيح من الشرك، فقال ناهيا محذرا:

﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ ظاهر السياق أنه من كلام السيد المسيح ـ عليه السلام ـ لبنى إسرائيل الذين كانوا أول من وجه إليهم دعوته، ويصح أن يكون ذلك الكلام مستقلا عن كلام السيد

المسيح، وأنه تقرير لمقام الوحدانية فى العبادة، وأنه لا عبادة من غير وحدانية، وأن الشرك ينفى العبادة، بل تكون ضلالا والإشراك بالله يتناول ثلاث شعب. إشراك فى الذات، فيجعل ذات الله تعالى كذات الحوادث، وإشراك فى الخلق، فيحسب المشرك أن لغير الله تعالى أثرا فى الخلق والتكوين، وإشراك فى العبادة.

والنصارى قد أشركوا فى هذه النواحى كلها فحسبوا أن الله تعالى ليس منزها حتى يتصف بصفات الحوادث، زعموا أن الله تعالى يكون له ولد، كما يكون لغيره ولد، وأن هذا الولد شاركه فى الخلق والتكوين وأنه يعبد معه، بل لا تكاد تجد ذكرا لعبادة الله تعالى من غير إشراك غيره .. ﴿ ... **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴿١٣﴾ ﴾ [**لقمان**].

وجزاء ذلك الشرك أن الله تعالى يحرم به الجنة، بمنعه منها فلا يدخلها، وهذه عقوبة سلبية، فالحرمان عقاب ومنع النعيم عقاب، وهناك عقوبة إيجابية، وهى دخول النار، وإذا كانت الجنة محرمة فمكان إيوائه النار يدخلها ويخلد فيها أبدا، وإنها للجنة أبدا، وللنار أبدا.

ولا يمكن أن ينجيهم من العذاب أحد، ولذلك قال تعالى: ﴿**وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ**﴾. أى أنه ليس لظالم من الظالمين نصير قط فالتعبير بقوله: ﴿ **مِنْ أَنصَارٍ**﴾. أى أنه لا نصير قط لا من كبير يخاف، ولا من صغير يرجى.

﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ**﴾ فى الآية السابقة ذكر الله كفر من قالوا إن الله هو المسيح أو ما يؤدى إليه من القول بأن المسيح ابن الله، وفى هذه الآية يذكر كلاما آخر للمسيحيين، وهو قولهم إن الله ثالث ثلاثة، ويبدو من ظاهر الكلام أن عند النصارى طائفتين إحداهما تقول إن المسيح هو الله، أو ابن الله، فيكون إلها بهذا الاعتبار، والواقع أن النصارى تقرر عندهم التثليث من قبل نزول القرآن، وبعث النبى ﷺ، ومن ذلك التاريخ تتميز به عقيدة النصارى، وشعارهم الصليب رمزا إلى صلب المسيح فى زعمهم الذى فنده القرآن الكريم على أن التثليث عندهم لم يجئ دفعة واحدة، فقد تقررت ألوهية المسيح على أنه

ابن الله فى زعمهم فى مؤتمر نيقية الذى ذكرناه والذى انعقد فى سنة ٣٢٥، وبعد ذلك بنحو ست وخمسين فى مجمع القسطنطينية تقررت ألوهية روح القدس، وفرض ذلك الرأى بقوة السلطان كما فرض الرأى الأول الخاص بألوهية المسيح بقوة السلطان، وكان المسيحيون يجتمعون لرده.

ويلاحظ فى مجمع القسطنطينية أمران أحدهما ـ أن الذين حضروا ذلك المجمع ١٥٠ من رجال دينهم، وما كان هذا ليمثل النصارى أجمعين، ولكن فرض رأى أولئك الذين سموهم أساقفة على النصارى جميعا، وأسكت كل صوت يخالفه، ولقد كان ذلك المجمع كسابقه مفاجاة لعامة النصارى؛ لأنه ليس بإله عندهم وقد أعلن ذلك مقدونيوس وكانت مقالته ليست هى الشائعة بين النصارى، حتى جاء ذلك المجمع القسطنطينى فأتم التثليث.

ثانيهما ـ أن الذى دعا إلى عقده بطريق الإسكندرية، كما أنه هو الذى كان رئيس مجمع نيقية وإن لم تكن له الرياسة فى المجمع الأخير، وأن الذى دعا إلى تقرير ألوهية روح القدس هو هذا البطريق، وقال كما نقل كتاب تاريخ البطارقة لابن البطريق:

(ليس روح القدس عندنا بمعنى غير روح الله، وليس روح الله شيئا غير حياته، فإذا قلنا إن روح الله مخلوق، فقد قلنا إن حياته مخلوقة، وإذا قلنا إن حياته مخلوقة، فقد زعمنا أنه غير حى، وإذا زعمنا أنه غير حى فقد كفرنا به).

وأن هذه السلسلة التى ساقها تنقض لبناتها إذا قلنا روح القدس ليست روح الله، ولكنها جبريل الأمين الذى خلقه، وبذلك تنقطع حلقات السلسلة، حلقة حلقة.

وروح القدس فى زعمهم هى الروح العامة التى تنشر الحياة بين الأحياء، ومما يسترعى النظر، أن الذى قاد فكرة ألوهية المسيح وروح القدس هو بطريق الإسكندرية التى كانت تسودها فى ذلك الإبان الأفلاطونية الحديثة التى كانت خلاصتها، أن الإله الأكبر هو العقل الأول، وقد نشأ عنه العقل الثانى، نشوء

المعلول عن علته، أى أن وجودها متصل، وعرفوا روح القدس بالتعريف النصرانى الذى ذكرناه، وبذلك تلتقى نصرانية النصارى مع فلسفة الإسكندرانية الواهمة وقائد الدعوة لألوهية المسيح وألوهية روح القدس هو هو بطريق الإسكندرية، فليعرف النصارى زمان ابتعادهم عن اتباع المسيح ـ عليه السلام ـ وسببه والمصدر الذى انحرفوا إليه ومن أوردهم مورده غير العذب.

هناك إذن عند النصارى تثليث، وأن الله تعالى ثالث ثلاثة، وأن الله تعالى قد حكم بأنهم كافرون، فقد قال سبحانه مؤكدا القول: ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ**﴾. فمن الخطأ الفاحش ما يقال إن الله تعالى عبر عن النصارى واليهود بأنهم أهل كتاب، فليسوا كفارا.. فقد أكد سبحانه وتعالى كفرهم أولا بتكفيرهم لأنهم زعموا أن المسيح هو الله، ويقررون أن الله ثالث ثلاثة، وأكد كفرهم فى الحالتين باللام وبقد، فكيف يسوغ المؤمن أن يقول إنهم غير كافرين.

والنصان الكريمان واردان على موضوع واحد، وهو النصارى، فالنص الأول وهو: ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ**﴾ موضوعه هو ذات موضوع النص الآخر: ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ**﴾ وكل آية من الآيتين تبين ناحية من نواحى اعتقادهم، واكتفى فى الآية الأولى بزعمهم فى المسيح عليه السلام، لبيان مقدار افترائهم عليه ومناقضهم لمن ينتسبون إليه، وأنهم لا يصح أن يسموا مسيحيين، لأنه برىء منهم، وذكرت الثانية لبيان حقيقة اعتقادهم.

﴿**وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾.

بعد أن بين سبحانه وتعالى كفر من يقول بالتثليث بيّن سبحانه وتعالى العقيدة الصحيحة، فقال سبحانه ذلك النص الحكيم، ومؤداه نفى الألوهية نفيا مطلقا عن غير إله واحد، والصيغة تفيد استحالة أن يكون الإله، غير واحد، لأنه لا ينتظم الكون والسماء والأرض، ومن فيهما كما جاء فى قوله تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢)**﴾ [الأنبياء]

وكما أن فى النص تقريرا لعقيدة التوحيد المستقيمة، فيه أيضا توبيخ موجه إليهم على مخالفتهم المعقول، ومجانبتهم ما يقره أهل العقول، ولذلك حذرهم سبحانه عن أن يسيروا فى طريق الغى وأن يعودوا إلى الحق، فقال سبحانه:

﴿ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هذا تحذير من الله سبحانه لهم عن أن يستمروا فى هذا القول الكاذب على الله تعالى، وعلى رسوله المسيح ـ عليه الصلاة والسلام ـ ومعنى الانتهاء يتضمن أمرين: أن يعدلوا عن ذلك القول وألا يعتقدوه ولا يؤمنوا به، ولم يكتف بالانتهاء عن العقيدة، ولكن الله سبحانه ذكر انتهاء عن القول للإشارة إلى أن هذا كلام يقولونه، ولا يمكن أن يكون عقيدة يعتنقونها، لأنه كلام لا يتفق مع العقل، وقد كذبهم عيسى ـ عليه السلام ـ بما قرره فى دعوته، وبين أن الشرك ظلم عظيم، وأن من يشرك بالله مأواه جهنم، وحرم الله تعالى عليه الجنة.

والخلاصة: أن هذا الادعاء قول يرددونه معا فيلحدون به وهو باطل، إذ كيف يولد ويكون إلها، وقد هددهم بالعذاب الشديد يمسهم، وهنا إشارات بيانية:

الأولى ـ التعبير «يمسهم» إذ المراد أنه يصيب جلدهم، وهو موضع الإحساس فيهم، أى أن العذاب المؤلم مستمر؛ إذ يمس جلدهم، ويصيب موضع الإحساس فيهم.

الثانية ـ أن من هنا بيانية أى يمسهم ذلك العذاب ما داموا مصرين على قولهم وكذبهم، وقال: ﴿الَّذِينَ﴾. وعبر بالظاهر دون الضمير للإشارة إلى سبب العذاب وهو كفرهم؛ لأن التعبير بالموصول يشير إلى أن الصلة هى سبب الحكم.

الثالثة ـ أن الله سبحانه وتعالى أكد العذاب الشديد ينزل بهم بالقسم المطوى الذى دلت عليه اللام، والنون المؤكدة، وتنكير عذاب، ووصفه بالألم الشديد؛ لأن التنكير هنا للتعظيم والتكثير.

﴿أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بعد أن حذرهم سبحانه من الاستمرار على قولهم الإفك، وإدعائهم على المسيح ـ عليه السلام ـ رغبهم فى الإيمان بعد الترهيب من العذاب الأليم، وأن كتاب الله سبحانه وتعالى يجمع بين الترغيب والترهيب، ليؤمنوا خوفا من عذاب الله تعالى أو طمعا فى ثوابه، أو لهما معا، سيق الكلام لهذا، وليبين أن باب المغفرة مفتوح لمن استغفر، وطلب الغفران.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلا يَتُوبُونَ﴾ الاستفهام للدلالة على أمور ثلاثة: أولها ـ توبيخهم على ما كان منهم وأنه يستحق التوبة والاستغفار، وثانيها ـ فيه تعجب من بقائهم على حالهم من الإفك والإصرار عليه من أنه لا يقبله عقل، ولا يذعن له مصدق، بل لا يتصوره متصور. ويدل ثالثا على تحريضهم على التوبة، أى الرجوع إلى الله تعالى، وما تقره العقول، ولا تنبو عنه الأفهام، وعلى طلب الغفران عما سلف منهم من قول، وإن باب الغفران مفتوح، ولذلك ذيل الله سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالت كلماته: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. والله جل جلاله المعبود، ولا معبود بحق سواه يغفر الذنوب لمن تاب ورجع إليه وهو رحيم بعباده لا يرضيه أن يشقوا، وأن رحمته سبقت عذابه وأنه سبحانه ليفرح بتوبة عبده أكثر من فرح العبد بقبولها؛ لأن الله تعالى يريد بعبده الصلاح والإصلاح، ولا يريد له الفساد والإفساد، وإذا تاب العبد انقلب من الفساد إلى الصلاح.

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ فى هذا النص الكريم (تسجيل) لحقيقة عيسى ابن مريم وأمه، وأن ما اختصا به لا يمكن أن يجعلهما إلهين من دون الله كما قالت البربرانية وغيرها من فرق النصارى، وكما حكى الله تعالى عنهم وعن عيسى عليه السلام فى قوله تعالى له: ﴿... أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ... (١١٦)﴾ [المائدة].

وأن النص الكريم الذى نحن بصدد ذكر معانيه، فيه بيان أن عيسى وأمه ليس فيهما ما يجعلهما مختصين بصفات ليست فى غيرهما فعيسى عليه السلام

ليس إلا رسولا وقد خلت أى مضت من قبله الرسل فإبراهيم كان رسولا، ومن قبله كان نوح رسولا، وهؤلاء مضوا، ولم يدعِ الألوهية لهم أحد كما نحلتموها يا معشر النصارى للمسيح ـ عليه السلام ـ وإذا كان له معجزة خارقة للعادة بإحياء الموتى، فأولئك كانت لهم معجزات لا تقل عنها تأثيرا، ولا تقل عنها فى ذاتها. وقد قال الزمخشرى فى ذلك وتبعه من بعده: (ما هو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله جاء بآيات من الله تعالى كما جاءوا بأمثالها أن أبرأ الله الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى على يده، فقد أحيا سبحانه وتعالى العصا وجعلها حية تسعى وفلق بها البحر وشق على يد موسى، وإن خلقه من غير ذَكَر فقد خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى).

ونزيد على ما قاله الزمخشرى أن معجزة كل نبى بما يناسب عصره، فعصر سيدنا عيسى كان عصرا يؤمن بالأسباب المادية، وكان فى عهده الفلاسفة الطبيعيون، الذين لا يؤمنون بغير الأسباب التى يرونها، فكانت معجزات عيسى عليه السلام خرقا حسيا صارخا لهذه الأسباب، فولادته كانت بغير السبب المعروف، إذ كان من غير أب، وما كانوا يحسبون أن الأكمه الذى ولد أعمى يبصر، وما كانوا يعلمون أن البرص يشفى منه، فشفاه الله تعالى على يديه، وما كانوا يرون الحياة ترد بعد الوفاة، فأحياها الله تعالى على يديه، كما أجاب لإبراهيم عندما دعا ربه قائلا: ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾** ﴾.

جاء عيسى ـ عليه السلام ـ فكانت حياته وآياته كلها داعية لبطلان ذلك الاعتقاد بأنه لا شىء إلا الأسباب والمسببات. ولكنهم تمكنوا من اتباعه من بعده بثلاثة قرون، فأخرجوهم من اتباعه، وأعادوهم إلى الأسباب والمسببات، وأخرجوه من البشر، وزعموا أنه إله.

وأمه لا تخرج عن أنها مخلصة صادقة تابعة للنبيين من قبله وله عليه السلام، والصدِّيق هو الذى لا يقول إلا صدقا، ولا يكذب، ويصدق الحق ويدعو إليه، ويستمر عليه، فالصديق هو الصادق فى قوله وعمله والمصدق للحق المذعن له إذا جاءه، وقال الأصفهانى فى مفرداته: (الصديقون هم قوم دون الأنبياء فى الفضيلة) فهم المرتبة الأولى بعد الأنبياء.

ويلاحظ أنه عند ذكر عيسى فى القرآن يذكر أنه «المسيح ابن مريم» تأكيدا لبشريته، لأنه يرى بالحس مولودا بعد أن لم يكن، وأن ولادته من مريم البتول فكيف يتركون المحسوس إلى أوهام، وحياتهما تدل على البشرية، ولذا قال سبحانه:

﴿كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ ذكر الله تعالى هنا بيان خواصهما الآدمية الحيوانية بعد بيان منزلتهما عند الله تعالى، إذ إن الأول رسول، والثانية صديقة، ولا تتجاوز منزلتهما عند الله تعالى ذلك، وهما فى الحياة المادية كسائر الأحياء من الأناسى يأكلان الطعام ويعملان على ذلك، وهما لهذا محتاجان إلى غيرهما، والإله لا يحتاج لغيره، ويقول الزمخشرى فى ذلك: (إن من احتاج إلى الاغتذاء بالطعام، وما يتبعه من الهضم، والنقض - لم يكن إلا جسما مركبا من عظم ولحم وعروق وأعصاب وأخلاط وأمزجة مع شهوة وقرم وغير ذلك مما يدل على أنه مصنوع مؤلف مدبر كغيره من البشر!!) ولكنهم مع كل هذا تركوا الأعراض التى تدل على الآدمية وأماراتها، ولذلك قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ﴾. أى انظر يا محمد إلى الأدلة على آدميته التى هى قائمة، وكيف بيناها، وصرفنا لهم القول الذى يدل على الحقيقة، ولكنهم ماديون يؤمنون بالمادة وأسبابها، ولذلك انصرفوا عن الحق وعن الإيمان، وخضعوا لأوهام، ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾. وقد عبر بـ «ثم»، للدلالة على بعد بين ما تدل عليه الآيات وحالهم، ثم على بُعد ما يقولون عن الحق، إذ يرون بالحس إنسانا يولد، ثم يفرضونه إلها بزعمهم؛ والإفك الصرف عن الحق، يقال:

أفكه يأفكه إذا صرفه عن الأمر أو الحق، ولذلك يقال للكذب إفك؛ لأنه صرف عن الحقيقة، والمعنى الجملي انظر كيف ينصرفون عن الحق لأوهام لا يعقلونها مع قيام الأدلة الحسية على بعضها، ولكن ذرهم في غيهم يعمهون. اللهم لا تصرفنا عن الحق بأوهامنا، إنك سميع الدعاء.

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾

الكلام موصول بما قبله؛ لأن أولئك النصارى يعبدون عيسى ـ عليه السلام ـ ومنهم من يعبد معه أمه، ويقولون هما إلهان من دون الله، ومنهم من يعبد ثلاثة ويجعل الله تبارك وتعالى ثالثهم، تعالى الله سبحانه وتعالى عن ذلك الوهم الباطل، والكذب الفاحش، وقد بين سبحانه وتعالى أن عيسى ـ عليه السلام ـ وأمه الصديقة بشر كسائر البشر، يحتاجون إلى غيرهم، وهما آدميان يأكلان، ويفعلان كل ما هو من مقتضيات الإنسانية ومظاهرها.

وقد بين مع ذلك كيف يعبدون مع هذه الحال، فقال لنبيه، قل لهم: **﴿أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا﴾**. الاستفهام هنا إنكارى لإنكار الواقع، والتعجب مما وقع منهم، وإنكار الواقع، توبيخ على سوء الفعل، وسوء التقدير، فهم يعبدون بشرا أو حجرا ويتركون عبادة الله تعالى، كما فى قوله تعالى: **﴿مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا﴾** للعموم، وهى بهذا العموم تشتمل على ما يعبد من حجر وغيره، ولعدم اقتصاره على عيسى وأمه ذكر بلفظ (ما) الدال على العموم، لا بلفظ (من) الدال على العقلاء.

ومعنى لا يملك ضرا ولا نفعا: أنه لا يملك المرض والسقم، ولا البلاء ولا الشدائد، كما لا يملك النفع بدفع الضر، ولا جلب الخير، ولا إنزال الغيث، ولا إرسال الرياح مبشرات بين يدى رحمته، ولا غير ذلك مما ينفع الوجود كله.

وهنا لا بد أن نتعرض لأمرين: أولهما ـ كيف يقال إنهم يعبدون من دون الله مع أن المشركين يقولون: **﴿... مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ... ③﴾** [**الزمر**].

والنصارى يعبدون ثلاثة أو اثنين على اختلاف طوائفهم ولم يتركوا عبادة الله ونقول: أن من يشرك العبادة مع الله تعالى لا يقال إنه عبدالله؛ لأن عبادة الله تعالى تقتضى أن تخلص العبادة له سبحانه، وألا يعبد سواه بأن يفرده بالعبادة وحده إذ لا يستحق العبادة معه أحد، ويقال حينئذ إنه عبد ما دون الله تعالى، إذ كانت عبادته ضد عبادة الله تعالى.

ثانيهما ـ أنه قد يقول بعض الجاهلين إن من الناس من يضر ومن ينفع، ونقول: إنه نفع جزئى، وضرر جزئى، ولا يكون إلا بإرادة الله سبحانه وتعالى، ولو اجتمع أهل الأرض على أن يضروك بشىء لم يكتبه الله تعالى عليك، لم يضروك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم يكتبه الله تعالى لك لم ينفعوك، وقد ذيل الله سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالت كلماته: ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

أى أنهم يتركون عبادة الله تعالى وحده وهو العالم بكل شىء الذى لا يغيب عن علمه شىء فى الأرض ولا فى السماء، وهو العالم علم من يسمع ويرى، وهو بهذا العلم المحيط الدقيق الذى أحاط بكل الوجود يكون هو وحده الذى يضرهم وينفعهم، يتركونه ليعبدوا ما لا ينفع ولا يضر، ولكنه ضلال العقول.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ الغلو: تجاوز الحد، وهو فى الدين التعصب له، والتشدد فيه، وتجاوز الحد فى أداء ما يطلب كالانهماك فى العبادة كما كان يفعل بعض المتشددين فى دينهم الذين نهاهم النبى ﷺ، وقد ورد فى الأثر: «لن يشاد أحد هذا الدين إلا غلبه، ولكن سددوا وقاربوا»(١) وكما نهى النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ قوما عكفوا على العبادة، وتركوا نساءهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما بال أقوام تركوا النساء وقاموا الليل وصاموا النهار وإنى أقوم وأنام وأصوم وأفطر ولم أنقطع عن النساء»(٢).

وإن هذا النوع من الغلو، وإن كان غير محمود ولا مستحسن فى الإسلام، لا يمكننا أن نعده غير حق فى أصله، لأن أساسه حق، وإن غالوا فيه وربما يقول كثيرون إنه غير الحق.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه أحمد: باقي مسند المكثرين باقي المسند السابق (١٣١٢٢). ورواه البخاري بنحوه: النكاح- الترغيب في النكاح (٥٠٦٣)، ومسلم: النكاح - استحباب النكاح لمن تاقت إليه نفسه (١٤٠١).

ونعود إلى النص الكريم. أمر الله تعالى نبيه أن ينادى أهل الكتاب، ويخاطبهم بقوله: ﴿لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾، والمعنى لا تتجاوزوا الحد، وتشددوا فى دينكم غلوا غير الحق، فكلمة غير الحق وصف لمحذوف، والوصف كاشف لأن الغلو دائما غير الحق عندهم، لأنه مجاوزة للحد، وكل مجاوزة للحد لا يمكن أن تكون حقا، وقد قال الزمخشرى أن من الغلو ما هو حق، كالغلو فى التنزيه، ومنها ما هو غير حق كالغلو الذى وقع فيه النصارى من الإفراط فى تقديس عيسى وأمه، يصح أن يكون (غير الحق) منصوبا على أنه حال من الدين نفسه أى لا تغلوا وتشددوا فى التمسك بدينكم، وتمنعوا أنفسكم عن أن يدخلها النور حال أن دينكم هو غير الحق.

وفى الجملة النص لمنع تشدد النصارى واليهود فى التمسك بدينهم غير الحق، والامتناع عن قبول الهداية التى جاءت إليهم، وهم فى هذا التشدد يتبعون الأهواء، ولا يتبعون الحق، وهم مقلدون لمن ضلوا وأضلوا.

﴿وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ الهوى معناه الميل إلى ما فيه شهوة ولذة، وخير الناس من كان هواه ولذته فى طاعة الله تعالى، ولقد قال النبى ﷺ فيما روى فى الصحاح: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به»[1] ولكن كلمة الهوى لا تكاد تستعمل فى القرآن إلا فى مقام الذم فى الاتباع، جاء فى تفسير فخر الدين الرازى ما نصه: قال الشعبى: ما ذكر الله تعالى لفظ الهوى فى القرآن إلا ذمه قال تعالى: ﴿... وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ... ﴿٢٦﴾﴾ [ص]. ﴿... وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه]. ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾﴾ [النجم]. ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ... ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية]. وقال أبو عبيدة: لم نجد الهوى إلا فى موضع الشر، لا يقال: فلان يهوى الخير، إنما يقال يريد الخير ويحبه.. وقيل سمى الهوى هوى؛ لأنه يهوى بصاحبه فى النار، وأنشد فى ذم الهوى:

---

(١) سبق تخريجه.

إن الهوى لهُوَ الهوان بعينه فإذا هويت فقد لقيت هوانا

جملة القول فى ذلك أن الهوى يطلق ويراد به تجنب حكم العقل، والاتجاه إلى حكم الشهوة والإحساس من غير نظر إلى منطق العقل وما يدعو إليه الدليل، وسواء السبيل: وسط الطريق، والمراد أنهم ضلوا عن الحق، وهو دائما بين الإفراط والتفريط، فهم ضلوا عن القصد والحق والاعتدال.

ولنتكلم فى معنى النص الكريم، أن الله تعالى فى علمه وحكمته ينهى أهل الكتاب عن الاستمرار فى الاتباع لقوم قد ثبت ضلالهم قديما، وكانوا من قبل فى ضلال بعيد، وهم عبدة الأوثان، ومن كان على شاكلتهم ممن اخترعوا آلهة على هواهم لا على منطق استقاموا عليه، ولا على نور من السماء اهتدوا بهديه، وقد سلكوا مسلكهم، فأدخلوا الوثنية فى دينهم واتبعوا فلسفة ضالة مضلة.

وهؤلاء الذين اتبعوا أهواءهم، وضلوا بسبب ذلك أضلوا خلقا كثيرا، حتى شاع بينهم الانحراف عن الطريق، فكانت وثنية اليونان والرومان والفلاسفة هى التى أضلت خلقا كثيرا، فالضلال الأول هو ضلال الوثنية من قبل وهى التى أضلت النصارى، والإضلال هو سيطرة ذلك على من سيطروا عليهم، والضلال الأخير هو عدم خضوعهم لحكم النبى ﷺ وتركهم سبيل المؤمنين الذى كان فيه القصد والاعتدال فتأثرهم بأهواء من ضلوا من قبل وأضلوا جعلهم يأخذون طريق الضلال الأخير، وهو عدم الأخذ بهداية الرسول ﷺ: ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ**﴾ أى لعن الله تعالى الذين كفروا من بنى إسرائيل بأن طردهم من رحمته، وجعلهم مظهرا للحسد والبغض فى هذه الأرض، وكأن الحق على غيرهم من الناس فى جبلتهم الأولين، وقد مسخوا أنفسهم، وشوهوا أخلاقهم فلعنهم الله تعالى، وهنا مسائل لا بد من الإشارة إليها:

الأولى ـ لماذا بنى (لُعِنَ) الفعل للمجهول ولم يذكر الفاعل؟ والجواب عن ذلك أن الفاعل معلوم، وهو الله تعالى؛ لأن داود وعيسى نبيان يتكلمان عن الله

تعالى، فما ينطقان عن الهوى، وهما لا يملكان الطرد من رحمة الله تعالى، وأن فى البناء للمجهول فوق ذلك إشعارا بأن اللعن يستحقونه من سوء أعمالهم، ثم إن البناء للمجهول فيه إشارة إلى عموم اللاعنين مع الله سبحانه وتعالى؛ إذ يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون إلا الذين تابوا.

الثانية ـ أن اللعنة منصبة على الذين كفروا، وليست على عمومهم، وذلك من إنصاف الله فى أحكامه، وإن كان الذين آمنوا بنسبتهم للذين كفروا عددا قليلا، كما قال تعالى: ﴿ ... مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [المائدة]. وأنه واضح أن من أسباب لعنتهم كفرهم مع عصيانهم؛ لأن التعبير بالموصول يفيد أن الصلة من أسباب الحكم.

والثالثة ـ أن الله تعالى ذكر أن اللعن جاءهم على لسان داود وعيسى ابن مريم، وهما نبيان جاءا بعد موسى ـ عليه السلام ـ وأحدهما كان نبيا مجاهدا محاربا، قادهم إلى مواطن الظفر، ومع ذلك لعنهم الله على لسانه، والثانى كان رسولا مسالما ومع ذلك لعنهم بأمر الله تعالى، فهم ملعونون فى الحرب والسلم على سواء.

ولقد جاء فى بعض كتب التفسير عن ابن عباس رضى الله عنهما ـ أن أهل إيليا عندما كان اليهود بها ودنسوها، لما اعتدوا يوم السبت، قال داود عليه السلام: اللهم ألبسهم اللعن مثل الرداء، ومثل المنطقة على الحقوين، ولما طلبوا المائدة، وقال الله تعالى: ﴿ ... إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ... ﴿١١٥﴾ ﴾ [المائدة]. قال عيسى عليه السلام: اللهم عذب من كذب بعد ما أكل من المائدة عذابا لم تعذبه أحدا من العالمين.

وإن الذى يبدو لنا أن هذا بيان لما نزل بهم من لعن مستمر جاء هذا اللعن على لسان داود ومن جاء بعد حتى كان عيسى، فكان لعن الكافرين عاما، يستوى فى ذلك من كان يجاهد بالسيف، والحرب، ومن كان يجاهد بالسلم، فلعنهم الله إلا أن يتوبوا.

﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ هذا بيان لسبب اللعن والطرد من رحمة الله تعالى يوم القيامة، فلم يكن لعنهم لذواتهم، وإنما لأعمالهم وإيذائهم، فجملة أعمال أولئك الذين كفروا من أهل الكتاب عصيان الله سبحانه وتعالى، أمرهم بعبادة الله وحده، فكان منهم إشراك، وأمرهم بالإيمان باليوم الآخر فكان منهم من أنكره، وأمرهم بإطاعة النبيين ففريقا كذبوا، وفريقا يقتلون، وأمرهم بألا يعتدوا يوم السبت فاعتدوا، وأمرهم بألا يأكلوا الربا فأكلوه، وهكذا كانت أعمالهم نكرا وعصيانا، وكان أشد عصيانهم أن اعتدوا على خلق الله تعالى، فكانوا حاقدين على كل مخلوق سواهم، وبالغوا فى إعنات الناس أن اشتدوا بمعونة غيرهم، وبالغوا فى الإفساد وإيقاد الفتن إن ضعفوا عن المقاومة الظاهرة.

والعصيان لله وأخصه الاعتداء هو سبب الطرد من رحمة الله، وعموم العصيان يدخل فيه كل سبب الطرد واللعن فلا يوجد سبب غيرهما.

وقد عبر عن العصيان بالماضى للإشارة إلى قرار العصيان فى طبائعهم ونفوسهم، وثباته فيها، وعبر عن الاعتداء بالمضارع؛ لأنه مستمر قائم، وبذلك كان الجمع بين الماضى والمضارع للدلالة على الثبات والقرار والاستمرار، ونسب العصيان إليهم جميعا، والاعتداء إليهم جميعا، لأنه كان من بعضهم، وأقره سائرهم أو سكت عنه باقيهم، فكان منهم وقوعا ورضا، ولذا قال سبحانه:

﴿كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ هذا النص فيه معنى التفسير للآية السابقة، لأنه يبين عموم العصيان والاعتداء فيهم، لأن الاعتداء فى الكثير يقع من بعضهم، فكيف ينسب إلى كلهم، وفى هذا النص إشارة إلى أن سبب فساد الأمم فى عمومها هو السكوت على المنكر فيها، والمنكر هو الأمر القبيح فى ذاته وينهى الشارع عنه، والتناهى يطلق بإطلاقين، وهو الانتهاء عن الفعل الآثم، ومعنى النص على هذا: أنهم يعصون الله تعالى ما أمرهم ويصرون عليه، ويستمرون على فعلهم، فلا يتوبون ولا يرجعون، ولكن ليس هذا هو الظاهر المشهور.

والإطلاق الثانى لمعنى التناهى أن ينهى بعضهم بعضا إذا وقع المنكر فيهم وهو الظاهر، والتناهى عن المنكر يشتمل على ثلاثة معان كلها داخل فيه:

أولها - أن يوجد فيهم ناه عن الشر يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، سواء أكان الناهى عددا كبيرا، أم كان عددا قليلا، فليست الكثرة مطلوبة، إنما المراد الوقوع منه.

ثانيها - أن يمنع الفعل قبل وقوعه أو يقلله بدفع الكثير منه.

ثالثها - أن يستنكره؛ لأن السكوت عنه رضا، وبذلك يدفع الاعتراض الذى أورده بعض المفسرين وهو كيف يتصور النهى عن الفعل بعده، فنقول: إن النهى عن المنكر بعد وقوعه إنما هو استنكاره، لأنه يمنع الفعل فى المستقبل.

وقد نسب الفعل إليهم أجمعين إذ وقع من بعضهم، وسكت عنه سائرهم ولذا قال سبحانه: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾. وقد أكد سبحانه وتعالى نسبة الفعل إليهم باللام والقسم المطوى، وذمهم ذما مؤكدا، فالفعل بئس يدل على الذم، والذم كان منصبا على الفعل رجاء إيمانهم، وقد روى ابن مسعود أن النبى ﷺ قال: «من رضى عمل قوم فهو منهم، ومن كثَّر سواد قوم فهو منهم»(١).

والآية تدل على أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قوام الأمم، ولا صلاح لهم إلا إذا قاموا بحقه، فالأمم تصلح بالأمر بالمعروف، وتفسد بتركه، ولذلك اعتبره القرآن خاصة الأمة الإسلامية، وبه خيرها، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ... ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران].

---

(١) رواه الديلمي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. جامع الأحاديث (٢٢٩٦٩) ج٧، ص٣٤٩.

وقد قال عليه الصلاة والسلام: «والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم»(١). ويقول عليه الصلاة والسلام: «إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم، وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه»(٢). ولقد تنبأ رسول الله ﷺ بأن ضياع المسلمين عندما يختفى فيهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فقد روى أنس بن مالك، أن بعض صحابة رسول الله ﷺ سألوه قائلين يارسول الله: متى يترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؟ قال ﷺ: «إذا ظهر فيكم ما ظهر فى الأمم قبلكم». قالوا: يارسول الله، وما ظهر فى الأمم قبلنا؟ قال ﷺ: «إذا كان الملك فى صغاركم، والفاحشة فى كباركم، والعلم فى رذالكم»(٣).

فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو عصام الأمة وهو مكون الرأى العام الفاضل، ويقال: إن الأمة كلها تعصى إذا ظهر العصيان، ولم تستنكره.

﴿ترَىٰ كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذا عمل من أعمال اليهود تذهب بهم بغضاؤهم، وحقدهم على المؤمنين إلى أن ينضم كثيرون منهم للمشركين، فالمراد بالذين كفروا أولئك الذين كفروا بالوحدانية، وبلغوا غاية الكفر وأقصاه، وذلك يدل عليه التاريخ، فقد ذهب قوم من اليهود، وألبوا على النبى ﷺ المشركين، ووالوهم، والتولى الموادة والمناصرة والانضمام إليهم، وفى كل حرب دخلها النبى ﷺ كان اليهود مع عهودهم الموثقة مع المؤمنين يوالون المشركين زاعمين أنهم فاتحو المدينة، فبنو النضير خانوا العهد وبنو قريظة وبنو قينقاع كذلك.

---

(١) رواه أحمد: باقي مسند الأنصار- حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه (٢٢٧٩٠).

(٢) رواه أحمد: مسند الشاميين - حديث عدي بن عميرة الكندي (١٧٢٦٧).

(٣) تَفْسِيرُ مَعْنَى قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «وَالْعِلْمُ فِي رُذَالَتِكُمْ» إِذَا كَانَ الْعِلْمُ فِي الْفُسَّاقِ.

والحديث رواه ابن ماجه: الفتن - قوله تعالى: ﴿عليكم أنفسكم﴾ (٤٠١٥)، وبنحوه رواه أحمد: باقي مسند المكثرين (١٢٥٣١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

وفسر بعض العلماء الذين كفروا بالجبابرة من الملوك الكافرين، فهم يتولون كل ذى قوة، ولو كان جبارا عاتيا، وينسب ذلك الرأى إلى محمد الباقر بن على زين العابدين، وفيه غرابة، وإن كان معناه سليما:

﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (بئس) كما ذكرنا تدل على الذم، و(ما قدمت) أيديهم هو ما قدموه من عصيان وعدم التناهى عن المنكر، والاعتداء وتولى المشركين والجبابرة، وقد أكد سبحانه وتعالى الذم بالقسم واللام، والتعبير بما قدمت أنفسهم يشمل الفعل والقول، والحقد والحسد والمظهر فى هذا الذم ينالهم أمران خطيران، أحدهما - سخط الله تعالى وحسب ذلك شرا فى مآلهم، وأنهم مخلدون فى العذاب، وقد أكد سبحانه عذابهم بكلمة - هم - وتقديم (فى العذاب)، وتخليده، وقد بين سبحانه أن ولاية المشركين والجبابرة أمر مذموم لأنه ضد الخير، فقال:

﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ إن أولئك اليهود يحسبون أنهم يؤمنون بالله، وأن لهم أنبياء جاءوا إليهم، وكتبا خوطبوا بها، فيبين الله سبحانه وتعالى أنهم لو كانوا يؤمنون بالله حق الإيمان وأنه واحد أحد فرد صمد، وأن له رسالة بعثها، وأن لهم نبيا خاطبهم عن الله تعالى ما تركوا ولاية الموحدين، واختاروا ولاية المشركين الذين لا يوحدون الله ولا يؤمنون بنبوة نبى مرسل، ولا بكتاب منزل ولكنهم حاقدون حاسدون متمردون على الحق إشباعا لأهوائهم، ولذلك ختم الآية بقوله:

﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ استدراك فيه بيان لحالهم، وسبب تركهم موالاة المؤمنين، فذكر أن كثيرا منهم خارجون متمردون على الحق بسبب ما فى قلوبهم من حقد وحسد، ونرى إنصاف القرآن بينا واضحا إذ لم يرمهم جميعا بالفسوق عن أمره، وقد أكد فسوق الأكثرين بوصفهم بالفسق، وكأنه وصف مستمر لهم، وليس حالا عارضا، اللهم اهدنا فيمن هديت، واشف قلوبنا من الغل والحسد.

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ
وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ
قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾
وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ
ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ
ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ
وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ
ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ
وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

كان ما تقدم من آيات من قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ...** ﴿٥١﴾﴾ [المائدة]. فى شأن المؤمنين فى معاملتهم لأهل الكتاب، وقد ذكر أحوالهم مع المؤمنين، وخص اليهود بالذكر؛ لأن عداوتهم لأهل الإيمان كانت مستحكمة، وإيذاءهم للمؤمنين كان مستمرا، ولقد كان القرآن الكريم منصفا للحقيقة كشأنه دائما ـ عندما فرق بين النصارى من جانب واليهود والمشركين من جانب، ولذلك قال سبحانه: ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً**﴾.

في هذا النص الكريم يؤكد سبحانه وتعالى بالقسم وبنون التوكيد - أن أشد الناس عداوة للمؤمنين اليهود والذين أشركوا، والخطاب للنبى ﷺ وإذا كان الخطاب له - عليه الصلاة والسلام: فإن كلمة: ﴿لَتجِدَنَّ﴾. فيها معنى توكيد العداوة، لأن النبى ـ عليه السلام ـ يجدها محسوسة واضح فى المعاملات التى تقع بينه وبين اليهود، وبينه وبين المشركين، وما كان من النصارى معه، ويكون من شدة العداوة، وقرب المودة هو ما كان من معاصرى النبى ﷺ من اليهود والذين أشركوا، والذين قالوا إنا نصارى.

ويصح أن يكون الخطاب لكل أهل القرآن الذين يقرءونه ويخاطبون بأحكامه وآياته، من الذين آمنوا، ويلاحظ هنا عدة أمور:

أولها ـ أنه سبحانه ذكر اليهود قبل الذين أشركوا؛ لأن عداوة اليهود منشؤها الحقد والحسد اللذان قد يرسخان فى النفس اليهودية، وهما دائما فيها ما دام اليهود على هذه الحال التى أركسوا أنفسهم فيها، وقد عبر عنهم بالوصف، ولم يقل الذين هادوا للإشارة إلى أن العداوة حال دائمة مستمرة مستحكمة، حتى أن النبى ﷺ يقول: «ما خلا يهودى بمسلم إلا هم بقتله»(١) ومع أن اليهود أقرب فى الاعتقاد من النصارى؛ تجد النصارى فى الماضى كانوا أقرب، والقرب فى الاعتقاد سببه الشائع بينهم هو الوحدانية، أما النصارى فإن الشائع بينهم هو التثليث ولكن العداوة لا تتبع القرب أو البعد فى الاعتقاد، بل تتبع مقدار الحسد والبغض، وفوق ذلك، فإنه من المقرارت فى علم الآراء والمعتقدات أنه كلما تقاربت العقيدتان تنازعتا، وكان التناحر أشد، لطمع كل طائفة فى أن تأخذ الأخرى إليها، وقد عبر

---

(١) رواه ابن النجار عن أبي هريرة رضي الله عنه. جامع الأحاديث (١٩١٦٤) ج٦، ص٣٣٧. وفي كنز العمال - متفرقات الأحاديث (١١٢٥٩) ج١، ص٧٦١: ما خلا يهودي بمسلم قط إلا حدث نفسه بقتله. وفي كشف الخفا (٢٢١٠): - ما خلا يهوديان بمسلم إلا هما بقتله.
رواه الثعلبي وابن مردويه وابن حبان في الضعفاء عن أبي هريرة مرفوعا. وفي رواية ابن حبان: «يهودي» و «هَمّ»، بالإفراد.

سبحانه عن المشركين بـ «الذين أشركوا»؛ للإشارة إلى أن الشرك قريب الزوال منهم، وهو السبب، أما اليهود فالسبب هو الحقد وليس قريب الزوال، إذ استكنّ فى قلوبهم أن كل مخالف لهم فى دينهم عدو لهم يحقدون عليه، ولأنهم كانوا يريدون أن تكون النبوة دائما فيهم لا تخرج عنهم.

الأمر الثانى ـ أن العداوة مقابلة بالمودة، فالأمر ليس خلافا فى الاعتقاد، بل هو المودة أو العداوة فليس لقرب الاعتقاد أو بعده أثر فى العداوة، وعلى هذا كان اليهود أشد عداوة من النصارى، والنص يومئ إلى أنهم أكثر عداوة من الذين أشركوا بتقديم اليهود، لأن المودة لم تقطع من كل الوجوه بين النبى عليه السلام والمشركين من قريش، بل إن ما كان يفرقه الاعتقاد يقابله مودة الرحم، وإن كانت حروب.

الأمر الثالث ـ لماذا عبر عن النصارى بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾. وقد أجاب عن ذلك بعض المفسرين بأنه تشريف للنصارى، لأن عيسى ـ عليه السلام ـ عندما قال: ﴿... مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ... ﴿١٤﴾﴾ [الصف]. فقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾. تذكير بهذا الموقف الكريم فى مقابل قول اليهود عندما دعاهم موسى إليى دخول الأرض المقدسة فقد قالوا: ﴿... فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة]. هذا كلام بعض المفسرين ولكن يلاحظ أن الذين قالوا نحن أنصار الله هم الحواريون، والذين كانت بينهم مودة المسلمين ليسوا هم أن أولئك هم الحواريون الذين سلمت عقيدتهم، أما الذين يتحدث عنهم فهم كانوا من أهل التثليث ثم تاب الله تعالى عليهم، ولقد ذكرهم بهذا العنوان: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾. فى مقام الذم، فقد قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ... ﴿١٤﴾﴾ [المائدة].

ولأجل هذا لا نقول إن التعبير بقالوا إنا النصارى فيه تشريف، إنما هو بيان أن هؤلاء يقولون أنهم نصارى، ولكنهم ليسوا نصارى عيسى ـ عليه السلام ـ وإن كانوا من بعد ذلك قد اهتدوا.

الأمر الرابع ـ من هم اليهود الذين هم أشد عداوة، ومن هم النصارى الذين كانوا أقرب مودة؟ قال بعض المفسرين: إن المراد منهم الذين عاصروا النبى ﷺ وقد كانوا كذلك حقا، ولكن قال ابن جرير: إن الوصف عام، فاختار أن هذا الكلام ينطبق على كل أقوام كانوا بهذه المثابة.

وعندى أن النصارى ليسوا النصارى فى عهد النبى ﷺ فقط، بل كل من ينطبق عليهم وصف المودة فى كل عصر، ومن لا ينطبق عليهم، فهم إلى اليهودية أقرب، وإليها أدنى، وقد قال سبحانه: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ**﴾. فى هذا الكلام بيان السبب، فى قرب المودة الذى كان بين المؤمنين والنصارى فى عهد النبى ﷺ أن توافرت الأسباب، ولم يكن القسس والرهبان دعاة عداء وبغضاء؛ والقسيس هو عالم النصارى بأحكام دينهم، والمتفحص أحوالهم، والمرشد لهم، وأصله من «قَسَّ» بمعنى تتبع، فالقسيس لا يترك الإرشاد، والرهبان جمع راهب كركبان جمع راكب، وتطلق كلمة رهبان على المفرد، كما تطلق على الجمع، وهو الرجل الزاهد المتبتل المنصرف للعبادة فى زعمهم، وهو يقوم بعمل القسيس فى العبادة، بيد أنه ينفرد عنه بالانصراف الكلى عن الدنيا ويتخصص للعبادة والإرشاد والتوجيه.

ولا شك أن حال القسيسين والرهبان فى عصر النبى ﷺ كانوا كذلك، وكانوا القائدين للاهتداء بهدى الإسلام، فقد أخذوا بالكثيرين من نصارى الجزيرة العربية، واتبعوا الإسلام، واستمعوا إلى دعوة النبى عليه السلام، وأن هذا النص ينطبق على كل قسيس يدعو بدعاية الحق، ويكون ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

وفى ذلك الكلام تعريض باليهود الذين تركهم أحبارهم وعلماؤهم فى غيهم يعمهون، فكانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، ولم ينههم الربانيون والأحبار عما ارتكبوا من جرائم، وما امتلأت به قلوبهم من غل وحقد.

وهناك مع ما كان القسيسون والرهبان عليه وصف آخر هو السبب فى إيمان الكثيرين منهم فى الجزيرة العربية، ثم الشام ومصر من بعد ذلك، وهو أنهم: ﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾. وقد جعل ذلك سببا قائما بذاته، وأكد سبحانه وتعالى سببيته بـ «أن» وبالجملة الإسمية، وعبر سبحانه فى خبر الجملة الإسمية بالفعل المضارع لتصوير حالهم فى عدم الاستكبار، وأن الاستكبار هو داء اليهود الدوى، وهو داء المشركين فاليهود يحسبون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم من صنف فوق الناس، وأن الجميع دونهم، فذهب بهم غلواؤهم إلى الكفر والضلال، وقتل الأنبياء وتكذيبهم، والمشركون ما كفروا بما جاء به النبى ﷺ، إلا أنهم رأوا العبيد والفقراء والضعفاء هم الذين يتبعونه، فذهب بهم اعتزازهم بالباطل ألا يتبعوه، وقالوا مقالة قوم نوح له: ﴿... وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ... ﴿٢٧﴾﴾ [هود]. ونصارى الجزيرة العربية ومن شاكلهم جانبوا الكبر، فقربوا من الحق، وقد بين سبحانه حالهم فى اتباع الحق.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ الرسول هو محمد ﷺ، ما أنزل إليه هو القرآن، وأنهم لإيمانهم بالحق، وإخلاص قلوبهم، واطمئنان نفوسهم إلى الحق وقد طلبوه بمجرد أن سمعوا القرآن فتحت نفوسهم له وكأنهم كانوا يطلبونه، وأولئك طائفة من نصارى الشرق منهم من كان يؤمن بأن عيسى رسول الله وأن الإنجيل بَشَّرَ بمحمد ﷺ فلما سمعوا القرآن وسمعوا محمدا، وعندهم صفاته فاضت الدموع من عيونهم فرحا به، إذ قد استشرفوا له فوجدوه فكان بردا وسلاما، وقد يكون مع المشارقة من النصارى طائفة من المثلثين وهو الظاهر، كانوا يحسون أنهم فى ضلال، وظلام متكاثف من الأوهام، فلما رأوا النور تمشوا إليه.

ومعنى قوله: ﴿تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ أن الدمع ينزل من عيونهم فائضا عما تمتلئ به بسبب الحق الذى عرفوه، ومقتضى الكلام أنهم كانوا فى حيرة حتى وجدوه، وأثلجت نفوسهم به، وقد قال الزمخشرى فى

توجيه الكلام من الناحية البلاغية: «معناه تمتلئ عيونهم من الدمع حتى تفيض؛ لأن الفيض أن يمتلئ الإناء أو غيره، حتى يطلع ما فيه من جوانبه فوضع الفيض الذى هو من الامتلاء موضع الامتلاء، وهو من إقامة المسبب مقام السبب، أو قصدت المبالغة فى وصفهم بالبكاء، فجعلت أعينهم كأنها تفيض بأنفسها أى تسيل من الدمع من أجل البكاء». هذا كلام الزمخشرى فى التحرير البلاغى لمعنى تفيض أعينهم، وعندى أن الكلام مبالغة فى تأثرهم بدعوة النبى ﷺ واستقامة قلوبهم وعقولهم نحو الحق،وسرورهم به، ومن السرور ما يكون مظهره انبثاق الدموع من العين.

وقد أكد الكلام بأنه لم يعبر عنه بالإخبار، بل عبر عنه بالرؤية المبصرة التى هى أقوى أسباب العلم الحسى، وصور حالهم فى التعبير بالمضارع، وقوله تعالى: ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾.

معناه أن سبب البكاء هو ما عرفوه من الحق، وهذا يدل على أمرين: أولهما: أنه تحقق لديهم ما وجدوه من أوصاف النبى ﷺ. ثانيهما: أنهم كانوا لنفاذ بصائرهم، وعظم مداركهم يحسون بأنهم كانوا فى ضلال، فعرفوا الطريق، وكانوا فى ظلام فاستناروا وكانوا فى حيرة فاطمأنوا.

وإن هذا ينطبق على كل نصرانى طالب للحق، لم يطمس الله على بصيرته.

وبعد أن بين سبحانه حالهم المرئية ذكر قولهم بعد اهتدائهم فقال تعالت كلماته:

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ حكى الله سبحانه وتعالى قولهم وقد اتجهوا فيه إلى الله تعالى معترفين بربوبيته وحده، وأنه على كل شىء قدير، ومقرين بالإيمان الصادق المنبعث من قلوبهم، وطلبوا من الله تعالى أن يكتبهم من الذين شهدوا بالحق، وشهدوا برسالة النبى ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ

جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ... ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة].

وكما قال تعالى: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الحج]

وهؤلاء الذين آمنوا لا يجدون غرابة فى أن يؤمنوا إنما الغرابة فى ألا يؤمنوا، ولذلك حكى الله عنهم قولهم: ﴿ وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [المائدة].

الاستفهام هنا إنكارى فيه معنى التعجب، وهو إنكار للوقوع، فهو بمعنى نفى أن يحدث منهم عدم الإيمان لأن موجب الإيمان قد وجد، وهو الإيمان لله تعالى جل جلاله، والحق الذى جاء إليهم وخوطبوا به، ولا يوجد أى مانع يمنعهم من الإيمان، فالسبب قد تحقق ولا مانع، والاستفهام بمعنى النفى، وهو داخل على نفى، ونفى النفى إثبات، فمعناه إصرار على الإيمان، وقوله تعالى: لا نؤمن بالله، حال مما دخل عليه النفى، وصاحب الحال هو: «نا».

والكلام يومئ إلى أنه كان هناك اعتراض، وكان كلامهم للرد على هذا الاعتراض، والتاريخ يثبت أنه كان اعتراض على من آمنوا من هؤلاء النصارى، والمنطق النفسى للجماعات فى قديمها وحديثها أن تستنكر من يغير دينه إلى دين الحق الذى ارتآه، وهؤلاء من الذى قال تعالى فيهم: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ ... ﴿١٩٩﴾ ﴾ [آل عمران]. وقال فيهم سبحانه: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [القصص]، ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القصص].

وإن إيمانهم هذا وإذعانهم للحق فى وسط إنكارهم لم يجعلهم يجزمون بالجزاء فى الآخرة، بل كانوا حقا كصادقى الإيمان يطمعون لا فى الجزاء وحده بل يطمعون فى أن يكونوا مع أهل الإيمان الذين يجمعهم الصلاح فى الأعمال، ولذا قال سبحانه عنهم: ﴿**ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين**﴾. فهم لقوة إيمانهم يستصغرون ما عملوا، ويطمعون فى أن يدخلهم ربهم الذى خلقهم وأنماهم، وكفلهم برحمته وعنايته أن يدخلوا فى ضمن الذين اختارهم الله تعالى واصطفاهم، وهم قوم الله وحزبه، وهم الصالحون المصلحون، والمؤمن المخلص يستقل عمله بجوار أنعم الله تعالى عليه، فهو لا يستكثر بتقواه، ولا يمن بعبادته، وليس حالهم كحال الذين يمنون على الله تعالى إذ قال تعالى: ﴿**يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴿١٧﴾﴾ [**الحجرات**]

ولقد كان ما أعده الله تعالى أكثر مما طمعوا، وإذ أعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار، ولذا قال تعالى: ﴿**فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ**﴾.

فى هذا النص الكريم إجابتهم إلى ما طلبوا، وهو إجابة الله العزيز الكريم، وهو أكبر مما طلبوا، لقد كانوا يطمعون أن يكونوا من القوم الصالحين وأن يكتبوا مع الشاهدين، فأجابهم بالجزاء الأوفى وهو ما أعد الله تعالى لعباده المتقين، كانوا يطمعون ويرجون، فسمى سبحانه ما أعطاهم جزاء وفاقا، وكانوا يطلبون أن يكونوا مع الصالحين، فسماهم الله تعالى محسنين، أى مجيدين متقين مخلصين.

فكان الجواب هو جواب الحكيم الكريم الذى يقول تعالت كلماته: ﴿**هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ** ﴿٦٠﴾﴾ [**الرحمن**]. والثواب الرجوع بالشئ إلى حالته الأولى، وكان ثواب العمل من قبيل الرجوع إلى أصل العمل، أى أن ما ينالهم من جنات النعيم، أى من المقام الذى ينعمون، وإنما عاد إليهم من أعمالهم،

وذلك كرم من الله تعالى إذ جعل جزاءهم من العمل ذاته، وهو ذو الفضل العظيم، وذلك هو الجزاء لمن يحسن.

وجعل سبحانه وتعالى الثواب على القول؛ لأنه يدل على الإخلاص، وعلى الإيمان الصادق، والعمل الطيب، فالجزاء على هذا كله الذى دل عليه القول الطيب.

هذا جزاء أولئك الذين آمنوا وصدقوا الله تعالى، أما جزاء الذين كفروا وجحدوا فهو ما ذكر سبحانه وتعالى بقوله: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ**﴾.

ذكر سبحانه وتعالى جزاء الذين استمروا على كفرهم فى مقابل جزاء الذين آمنوا وطمعوا فى رحمة الله تعالى، وأدركوا الحق فأذعنوا له، وكان جزاء الكافرين أنهم صاروا أصحاب الجحيم، أى الملازمين لها الذين لا يفارقونها، والجحيم هى النار المتأججة التى لا تنطفئ، وقد استحق ذلك العقاب بسببين:

أولهما ـ كفرهم وجحوددهم بالحقائق الثابتة التى جاءتهم والتى تدركها العقول السليمة، فهم قد استحقوه بكفرهم بها مع أن النفس السليمة تذعن لها من غير تردد، لأنها هى التى تتفق مع العقل والفطرة المستقيمة.

الثانى ـ أنهم كذبوا بآيات الله تعالى أى الأدلة والمعجزات التى ساقها رب العالمين لتأييد النبى المرسل الذى أرسل إليهم، فهم لم يؤمنوا بهذه المعجزات، ولم يصدقوها.

فكانوا حائرين بائرين، إذ لم يدركوا الحق فى ذاته وهو متفق مع العقل المستقيم، ولم يتقبلوا الأدلة القاطعة التى سيقت إليهم للدلالة على الحق الذى لم يدركوه.

وهذان السببان هما اللذان من أجلهما كان العقاب، ولذلك عبر بالموصول الذى يدل على أن الصلة هى سبب الحكم، وعبر بالإشارة، وهى تدل على أن المشار إليه هو سبب الحكم.

وكلمة الذين كفروا تشمل من كـانوا من أهل الكتاب ومن كانوا من غيرهم لأن السبب فى ذلك الجـزاء الأليم يتحقق فى النوعـين: إذ كلاهما كـفر بالحق لما جاءه، وكـلاهما كذب آيات الله تعالى التـى ساقها للدلالة على رسـالة الرسول، وحيث تحقق السبب تحقق المسبب لا محالة، وهو العذاب الأليم الدائم.

هدانا الله إلى الحق، وإلى صراط الله العزيز الحميد.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ
وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ
بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ
فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ
أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ
ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ
أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٨٩﴾

اعتبر القرآن الذين قالوا إنا نصارى أقرب مودة للذين آمنوا، وزاد أن السبب فى ذلك أن فيـهم قسيسـين ورهبانا، وذكر فى نص آخـر أن فيهم رأفة ورهبـانية ابتدعوها، والرهبانية تـقتضى التقشف والحرمان من أكثر طيـبات الحياة، والإسلام لم يأت بهـذا، بل جاء شـريعة وسطا بيـن المادية الشرسـة العنيفـة، والروحانيـة

المتخلصة من حاجات الجسم تخلصا، بل الإسلام أباح الطيبات وحرم الخبائث، ولم يقرر أن تعذيب الجسم من القربات، وقرر أن المشقات تحتمل إذا كان من الممكن الاستمرار عليها، ولذلك جاء النص الكريم بإباحة الطيبات بعد الإشارة إلى الرهبانية فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ النداء موجه للذين آمنوا بوصف أنهم مؤمنون، أى أنه ليس من الإيمان أن تحرموا الطيبات التى أحلها الله تعالى من لحم طرى، وسمك شهى، وشراب سائغ، وزوجات هن زهرات هذا الوجود، فالطيبات هى المشتهيات الحلال، التى تستطيبها النفس ولا تمجها، فإنها بناء الجسم ومصدر قوته على الجهاد، وتطلق الطيبات على ما كان طريق كسبها حلالا لا خبث فيه، وكلمة (ما أحل الله لكم) إشارة إلى أن الله تعالى أحلها، فتحريمها معاندة لله، ويدخل فاعل ذلك ضمن من يشملهم قوله تعالى: **﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ... ﴿١١٦﴾﴾** [النحل].

ومعنى تحريمها أن يأخذوا على أنفسهم ميثاقا بألا يتناولوها، فليس التحريم فى معنى الترك المجرد، فقد يتركها؛ لأنه لا يستسيغها، أو يتركها لمرض، أو يتركها عفوا من غير سبب، أما تركها بعهد يعهده وميثاق يأخذ نفسه به فهذا هو التحريم.

وروى فى سبب نزول هذه الآية حديث نبوى شريف نذكره مع طوله نسبيا لأنه يبين معنى هذه الشريعة السمحة.

روى أن رسول الله ﷺ جلس يوما فذكر الناس ووصف القيامة، فرق الناس، وبكوا واجتمع عشرة من الصحابة ـ رضى الله تعالى عنهم أجمعين ـ فى بيت عثمان بن مظعون الجمحى، وهم على ـ أكرم الله وجهه ـ، وأبو بكر ـ رضى الله عنه ـ وعبد الله بن مسعود، وأبو ذر الغفارى وسالم مولى أبى حذيفة وعبدالله بن عمر والمقداد بن الأسود، وسلمان الفارسى، ومعقل بن مقرن،

وصاحب البيت واتفقوا على أن يصوموا النهار، ويقوموا الليل، ولا يناموا على الفرش، ولا يأكلوا اللحم ولا الودك، ولا يقربوا النساء والطيب ويلبسوا المسوح، ويرفضوا الدنيا، ويسيحوا فى الأرض، وهَمَّ بعضهم أن يجبَّ مذاكيره، فبلغ رسول الله ﷺ فأتى دار عثمان بن مظعون فلم يصادفه، فقال لامرأته أم حكيم: أحق ما بلغنى عن زوجك وأصحابه، فكرهت أن تنكر، إذ سألها، وكرهت أن تبدى على زوجها، فقالت: يارسول الله إن كان قد بلغك عثمان فقد صدقك، وانصرف رسول الله ﷺ فلما دخل عثمان أخبرته بذلك، فأتى رسول الله ﷺ هو وأصحابه فقال عليه الصلاة والسلام أنبئت أنكم اتفقتم على كذا وكذا!!! قال: نعم يارسول الله، وما أردنا إلا الخير، فقال رسول الله ﷺ: «إن لأنفسكم عليكم حقا، فصوموا وأفطروا، وقوموا وناموا، فإنى أقوم وأنام وأصوم وأفطر، وآكل اللحم والدسم، وآتى النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى» ثم جمع الناس وخطبهم فقال: «ما بال أقوام حرموا النساء والطعام والطيب والنوم وشهوات الدنيا، أما إنى لست آمركم أن تكونوا قسيسين ورهبانا، فإنه ليس فى دينى ترك اللحم والنساء ولا اتخاذ الصوامع، وأن سياحة أمتى الصوم، ورهبانيتهم الجهاد، اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وحجوا واعتمروا وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصوموا رمضان، واستقيموا، فإنما هلك من كان قبلكم بالتشديد، شددوا على أنفسهم، فشدد الله عليهم، فأولئك بقاياهم فى الديار والصوامع»(١) وإن هذا الحديث يدل على أمرين:

أحدهما ـ أن التشدد فى الدين يعجز صاحبه عن الاستمرار عليه، ولو كان الناس جميعا رهبانا، يزهدون فماذا يكون المآل أتبقى الدنيا أم تنتهى إلى الانقراض.

الثانى ـ أن هذا الدين هو دين الحياة لا يقطع العابد عن الحياة، ولكن يجعله يعيش عاملا فيها غير منقطع عنها، وأن التفاضل بين المؤمنين باستقامة النفس،

---

(١) رواه أبو داود: الحسد (٤٩٠٤) عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

وسلامة العبادة، وكثرة النفع للناس، كما قال عليه السلام: «خير الناس أنفعهم للناس»(١) ولقد قال فى هذا المعنى الحسن البصرى واعظ العراق: إن اللهَ تعالى أدب عباده فأحسن أدبهم قال الله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ... ۝٧﴾ [الطلاق].

ما عاب الله قوما وسع عليهم الدنيا، فتنعموا وأطاعوا، ولا عذر قوما زواها عنهم فعصوه، وإن شرط إباحة الحلال، ومنع تحريمه ألا يكون ثمة اعتداء، ولذا قال تعالى:

﴿وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ والاعتداء له شعبتان إحداهما ـ تكون بالإسراف فى البذخ، والتعالى والتفاخر فإن ذلك يؤدى إلى استيلاء الشهوات على نفسه، وذلك يؤدى إلى الضلال إذ يكون عبد شهوته، وتنماع إرداته، ولذلك قال تعالى فى آية أخرى: ﴿... وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ۝٣١﴾ [الأعراف] وقد قال ﷺ: «كلوا واشربوا والبسوا فى غير سرف ومخيلة»(٢).

والشعبة الثانية ـ أن ينحرف فيعتدى على حقوق الناس ويتناول المحرم، ويتجاوز ما شرعه الله تعالى إلى ما لم يشرعه.

وإن هذا النص كان سلبيا بمنع أن يحرموا على أنفسهم، والنص الثانى إيجابى.

﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ الأمر هنا للإباحة، وقال بعضهم: إنه للندب، وبعضٌ يرى أنه واجب على المؤمن ألا يترك أمرا أباحه الله تعالى تركا مطلقا، ولا يكن قد حرم ذلك على نفسه، والتحريم

---

(١) عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن إلف مألوف، ولا خير في من لا يألف، وخير الناس أنفعهم للناس» [رواه القضاعي في مسند الشهاب (١٢٩) ج١، ص١٠٨].

(٢) سبق تخريجه.

منهى عنه بقوله تعالى: ﴿لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾. والرأى عندى أن يكون الأمر للإباحة المستحسنة؛ لأن النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»(١) وقد زكى سبحانه وتعالى الطلب الإباحى أو الندبى بأمور أربعة:

أولها ـ أنه جعله مما رزقه الله سبحانه وتعالى؛ وأن الله لا يرزق إلا ما يكون فى تناوله خير، ولقد كان بعض التابعين يحرم على نفسه الفالوذج، فرد الحسن ذلك بأن الله تعالى رزقه إذ قال رضى الله تبارك وتعالى عنه: «لعاب النحل بلباب البر مع سمن البقر هل يعيبه مسلم».

الأمر الثانى ـ أن الله وصفه بأن يكون حلالا قد أحله الله تعالى ولم يحرمه، فإن إحلال الله تعالى نوع من ضيافته سبحانه وتعالى على رزقه، وأنى يسوغ لمؤمن أن يرفض ضيافة الله سبحانه وتعالى، فإذا رزقك الله ثوبا حسنا وأباحه لك؛ لأنه كسب طيب لا خبث فيه، فاعلم أنه هدية الله تعالى أهداها إليك فإن اخترت خشن الثياب بدلا منه فقد رفضت هدية الله تعالى، وقد روى أن النبى ﷺ نهى عن الكبر، وذكر أنه لا يدخل الجنة متكبر، فقال بعض الصحابة: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا، ونعله حسنا، فهل هذا من التكبر، فقال ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس»(٢).

الأمر الثالث ـ أن الله تعالى وصف الرزق بأن يكون طيبا، والطيب يشمل وصفين أحدهما ـ أن يكون طريق كسبه طيبا، لا خبث فيه، فقد يكون الشىء فى

(١) رواه أحمد: باقي مسند المكثرين- مسند أبي هريرة (٨٠٥٤)، كما رواه الترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص: الأدب - ما جاء إن الله تعالى يحب أن يرى نعمته على عبده (٢٨١٩).

(٢) رواه مسلم: تحريم الكبر وبيانه (٩١) عن ابن مسعود رضى الله عنه. وبطر الحق: دفعه وإنكاره. والغمط: الاحتقار والتعالي.

ذاته لم يحرمه الله تعالى، ولم يمنع استعماله، ولكن طريق الحصول عليه كان خبيثا، فالمال الذى اشتراه به كان كسبه خبيثا، كأن يكون من ربا أو سحت أو نحو ذلك من أسباب الكسب الخبيث، والوصف الثانى ـ الذى تشمله كلمة الطيب أن يكون مرغوبا فيه، فإن كان طعاما يكون بحيث لا تعافه نفس المتناول، فإن كان كذلك لا يطلب منه أكله؛ لأن ما تأكله وأنت تشتهيه فقد أكلته، وماتأكله وأنت لا تشتهيه فقد أكلك.

الأمر الرابع ـ هو أمره سبحانه وتعالى بتقوى الله تعالى، وقد زكى طلب التقوى بارتباطه بالإيمان بالله تعالى إذ قال تعالت كلماته: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ**﴾. وجه التزكية ذكر لفظ الجلالة الذى يربى المهابة بالقلوب، وبيان أن الإيمان يقتضى التقوى، وأكد الإيمان بالله بالجملة الإسمية.

والتقوى أن يلاحظ الشخص حق الله تعالى وحق الناس فيما يتناوله من طيبات، وألا يدفعه ذلك إلى الغرور والتعالى، والتفاخر والاستطالة على الناس، وألا يدفعه طلب الحلال إلى نسيان الحمد والشكر، فى كل ما يتناوله، ويناله، وأن يقوم بحق الله تعالى، وحق الناس، وأن ينعم بالنعمة، ويصبر إذا أزالها، ويكون من المتقين الصابرين المذكورين فى قوله تعالى: ﴿**وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠)**﴾ [هود].

فالنعم تحتاج إلى صبر، وإعطائها حقها من الشكر، والنقم تحتاج إلى صبر.

﴿**لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ**﴾ كان الذين يحرمون على أنفسهم ما أحله الله تعالى يتخذون الأيمان ذريعة لذلك، فيحلفون ألا يأكلوا أو ألا يأتوا النساء، أو أن يقوموا الليل ويحرموا أنفسهم من متعة النوم وهكذا، فبين الله تعالى فى هذه الآية تحلة هذه الأيمان، وأنه يجب

عليهم، أو يسوغ لهم الحنث فى هذه الأيمان، لقول النبى عليه الصلاة والسلام: «من حلف على شئ فرأى خيرا منه فليحنث وليكفر»(١).

اللغو هو من لغا العصفور وهو صوته، أطلق على كلام من لا يعتد به ولا يلتفت إليه، كما قال تعالى فى أوصاف المؤمنين: ﴿... وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [الفرقان] ﴿... وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان].

ولغو اليمين الذى لا مؤاخذة عليه بنص القرآن قال بعض الفقهاء ومنهم الشافعى: أنه ما لا يقصد به الحلف، بل يجىء فى مجرى الكلام، مثل لا والله بلى والله، وروى ذلك عن عائشة رضى الله عنها، ويزكى ذلك التفسير قوله تعالى فى آية أخرى: ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ... ﴿٢٢٥﴾﴾ [البقرة].

والذى يقابل ما كسبت القلوب هو ما لا تكسبه القلوب، وقال الحنفية: هو أن يحلف على شىء مضى على أنه كما قال ثم يتبين أنه غيره، فعلى حسب اعتقاده لا يكون عليه شئ، وهذا التفسير مأثور عن مجاهد رضى الله عنه، وعلى ذلك تكون المعقدة مقابلة للغو.

وظاهر الآية الكريمة أن معقدة الإيمان هى الحلف على الامتناع عن فعل فى المستقبل أو الإصرار على فعل؛ لأن ذلك هو الذى يسير مع السياق من التحريم على النفس، وأصلها من العقد، وهو فى الحسيات جمع أطراف الشىء، وفى المعنويات جمع أطراف الكلام، وصيغة التفعيل تدل على توثيق الكلام وتأكيده وقرئ بالتخفيف(٢)، وهى فى معنى التضعيف.

والذى يظهر لنا وسط اختلاف الفقهاء فى التفسير أن اللغو ما لا يقصد به اليمين، وما لا تكسبه القلوب، ولا يوثَّق به الكلام بالامتناع، عن الفعل، أو

(١) سبق تخريجه.

(٢) ﴿عَقَدْتُمُ﴾ بالتخفيف، قرأ بها عاصم (غير حفص والمفضل)، وحمزة، والكسائي، وخلف. وقرأ ابن ذكوان بالألف﴿عاقدتم﴾. وقرأ الباقون بالتشديد. غاية الاختصار - برقم (٨١٣).

توكيد إيقاع الفعل فى المستقبل، لا مؤاخذة عليه، إنما المؤاخذة على ما تكسبه القلوب إذا حنث فى يمينه فعدل عما اعتزم، كمن يعدل عن تحريم ما أحل الله، ولذا قال سبحانه:

﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ الكفارة من الكفر وهو الستر، فالكفارة ستر الخطيئة وستر الخطيئة عند الله تعالى إزالة أثر الاعتداء، والضمير يعود على الحنث المقدر فى القول، فكفارته أى كفارة خبثه، ولا مانع من أن يعود على الحالف إذا حنث، ويظهر لنا ذلك؛ لأن التكفير يكون عن الشخص، ولا يكون على اليمين، ولا على الحنث فيه إلا على اعتبار أنه محو لسيئة الحالف فى الحنث، وعدم البر بيمينه.

وقد خير الحالف إذا حنث بين أمور ثلاثة يختار إحداها، وهو سيختار الأيسر عليه اقتداء بالنبى ﷺ إذ قالت عائشة فى أخلاق النبى ﷺ: «ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما»(١) فالواجب هو واجب مميز بين ثلاثة وليس واحدا منهم بأولى من الباقين إلا أن يكون أيسرهما عليه، فإن كان من تجار الأقمشة كانت الثياب أيسر عليه.

والأمر الأول المميز فيه الطعام، وقد عبر سبحانه بإطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم، فما المراد بالأوسط، وما نوع الواجب أهو الإطعام بالفعل؟ أم يشمل التمليك الذى يكون به الإطعام، وهل العدد مقصود لذاته، أى لا بد أن يكون المطعومون عشرة لا ينقصون؟.

أما كلمة أوسط، ففيها رأيان: أحدهما ـ رأى كثيرين من المتقدمين.

أن المراد أمثل ما يطعمون به أهليهم، لأن الأوسط فى كثير من الاستعمالات هو الأمثل، قال تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ۝٢٨﴾ [القلم].

---

(١) متفق عليه؛ رواه مسلم: الفضائل - مباعدته ﷺ للآثام واختياره (٣٣٢٧)، والبخاري بنحوه وفيه زيادة: الحدود - إقامة الحدود (٦٧٨٦).

أى قال أمثلهم فكرا ونظرا، ويزكى هذا أن إطعام عشرة مساكين يقابل بالكسوة وعتق الرقبة، ولا يتصور المقاربة إلا إذا كان أمثل الطعام لديهم، ومؤدى ذلك التصوير أن يكون أولئك الفقراء فى ضيافة من حنث فى يمينه، يستضيفهم؛ لأن رب البيت يقدم لضيفة أمثل ما يستطيعه من طعام.

وقال آخرون: إن الأوسط هو المتوسط الذى يعد المتوسط فى طعامه، فليس هو أقل ما يأكله أهله ولا أكثر بل يكون بين ذلك قواما، وقد اختار هذا الرأى ابن جرير، والأكثرون من الفقهاء.

وإن الإطعام يكون بالتمكين من ذلك، وهو الأصل، وخصوصا عند من يفسر الأمثل بالأوسط، وفى هذه الحال يقدم لهم وجبتين من الطعام ليستطيعوا الاعتماد عليها طول اليوم، وإذا لم يكن الإطعام متيسرا، ملكهم من أنواع القوت ما يقابل ذلك؛ والأكثرون على أنه يقدم نصف صاع من بر، واختلافهم فى مقدار الصاع، لا فى أصل التقدير.

والأكثرون من الفقهاء على أنه لا بد من إطعام عشرة، وقال الحنفية: إذا أطعم واحدا عشر مرات يغنى عن إطعام العشر؛ لأن القصد إمداد الفقراء بحاجات تغنيهم، وليست العبرة بمغايرة الأشخاص ولا بالعدد فى ذاته، والكسوة يلاحظ فيها أن تكون سابغة فى الجملة، ولقد قال مالك وأحمد: لا بد أن يدفع إلى كل واحد منهم من الكسوة ما يصح أن يصلى فيه رجلا كان أو امرأة كل بحسبه.

وعندى أنه يترك تقدير الكسوة إلى ما يليق بالمعطى مع ملاحظة أن يكون سابغا.

والرقبة أيشترط فيها أن تكون مؤمنة؟ لقد ورد عتق الرقبة موصوفا بأن تكون مؤمنة فى كفارة القتل خطأ، فالأكثرون من الفقهاء جعلوه وصفا فى كل تكليف بعتق الرقبة؛ لأنه قد اتحد الموضوع، واتحاد الموضوع يكفى فى حمل المطلق على المقيد، ولأن المعنى فيه تحرير رقاب المؤمنين، ولأن الصدقات تكون للمؤمنين، وقال الحنفية: لا يحمل المطلق على المقيد إلا إذا اتحد الموضوع والسبب، وعتق

الرقاب فى ذاته قربة إلى الله تعالى، والرأى عندى أنه لا يعتق غير مؤمنة إذا كان يملك مؤمنة.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ﴾ الفاء هنا تفصح عن شرط مقدر، والمعنى إذا لم يكن عنده ويريد أن يحنث ولم يجد فصيامه ثلاثة أيام، وثلاثة الأيام يصومها تطهيرا لنفسه، ولتقوى إرادته، وتشتد عزيمته، فالصوم طهرة للنفس، ويزكى العزيمة الصادقة والتجرد الروحى، ولكن أيشترط أن تكون الأيام الثلاثة متتابعة، قال كثيرون: لا يشترط أن تكون متتابعة؛ لأن النص لم يشترط ذلك، ولأن التيسير يتحقق بعدم شرط التتابع، والنبى عليه السلام، يقول «يسروا ولا تعسروا»[1]، وقال أبو حنيفة رضى الله عنه: إن التتابع شرط؛ وذلك لأنه لا يمكن تحقق أنها ثلاثة أيام إلا متتابعة، ولا يتصور أن يكون قد كفر عن يمينه إذا كان يصوم فى كل عام يوما، ولأن ذلك رأى كثير من الصحابة منهم عبدالله بن مسعود. ونحن نختار ذلك الرأى، وقبل أن ننتهى من الكفارة لا بد من أن نتعرض لأمرين:

أولهما ـ أيسبق الحنث الكفارة ولا كفارة إلا بعد الحنث أم تجوز الكفارة قبل الحنث؟ قال الأكثرون بالأول لأن السبب هو الحنث، وما دام لم يتحقق فإنه لا كفارة، وقال آخرون: يجوز أن تتقدم الكفارة عند نية الحنث، وتقوم النية مقام الحنث بالفعل.

ثانيهما ـ إذا حلف على شىء فرأى خيرا منها يجب عليه أن يحنث قال الظاهرية ذلك لقول النبى ﷺ «من حلف على يمين فرأى خيرا منه فليحنث وليكفر»[2] وقال غيرهم: لا يجب، ونحن نرى أن يوازن بين مقدار الضرر الذى سيترتب على الاستمرار، والخير الذى يجلبه الحنث، فإن رجح الثانى وجب الحنث.

---

(١) متفق عليه؛ رواه البخاري: العلم – ما كان النبي ﷺ يتخولهم (٦٩)، ومسلم بلفظ: «وسكنوا ولا تنفروا»: الجهاد والسير – الأمر بالتيسير وترك التنفير (١٧٣٤).

(٢) سبق تخريجه.

﴿ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ذلك الذى تقدم هو سائر أيمانكم أى ماحى إثمها شرعه الله تعالى لكم رجاء أن تشكروه إذ خفف عليكم وسهل لكم فعل الخير إذا امتنعتم عنه ووثقتموه بيمين، فسهل لكم سبيل الخروج بكفارة سهلة ميسرة، فقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ متصل بقوله: ﴿ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾، فسهل لكم الحنث بذلك التفكير السهل.

وحفظ الأيمان يتحقق بألا يكثر منها، ولا يكون مهينا ينطبق عليه قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [القلم] وألا يمتنع عن الخير بالحلف، فلا يجعل الله تعالى عرضة ليمينه، وأن يصون يمينه فلا يحلف إلا لإرادة الخير، والله هو المستعان.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾

بين سبحانه أنه لا يصح تحريم الحلال، وطالب بتناوله، وأنه ليس من الإسلام تعذيب الجسم فى سبيل تطهير الروح، بل إن الروح القوى لا يكون إلا فى الجسم السليم الذى يستوفى حاجة الحياة الطيبة التى لا إثم فيها، وإن المحللات لا تحصى عددا، والمحرمات من الأطعمة تحصى، وهى محصورة.

والمحرمات تكون لأحد أمرين إما لخبث فى ذاتها، كالخمر والخنزير والميتة، وإما لاقترانها بما يمس العقيدة، مما يدعو إلى الإشراك، ومن الأشياء ما تكون محرمة لأن الفعل الذى قارنها كان محرما، كالذى يكسب بالميسر، فيحرم سدا للذريعة، وقد ذكر سبحانه بعض المحرمات من الصنفين، فقال تعالت كلماته:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ الخمر بمعنى المصدر هو الستر، ولذلك يقال لما يستر به الرأس عند النساء خمار، والخمر بمعنى الاسم ما يخمر العقل ويستره، ويمنعه من التقدير الصحيح، والفقهاء اختلفوا فى تعريف الخمر الذى جاء فى القرآن تحريمها بالنص، فقال بعضهم: إنها ما يتحقق فيها المعنى اللغوى الأصيل، فهى تكون لكل مسكر يخمر العقل ويستره، وبعض الفقهاء قال: إنها اسم المسكر المتخذ من ماء العنب والتمر لما روى عن النبى ﷺ «الخمر من هاتين الشجرتين النخلة والعنبة»(١) وقال بعض الفقهاء إنها لا تكون للمطبوخ، بل تكون للنَىء.

وقال الحنفية: إن الخمر المذكور تحريمها بالنص فى القرآن الكريم هى النيء من ماء العنب إذا غلا واشتد وقذف بالزبد، فهذه هى الخمر الذى جاء بتحريمها النص القرآنى.

وما جاء من الأشربة المحرمة، فقد ثبت تحريمها بالقياس؛ لأنها تشترك مع الخمر المحرمة بالنص فى علة التحريم، وهى الإسكار فحرمت لإسكارها لا لورود النص بها.

---

(١) رواه مسلم: الأشربة، والترمذي: الأشربة - ما جاء في الحبوب التي يتخذ منها الخمر (١٨٧٥). كما رواه النسائي، وأبو داود، وابن ماجه وأحمد.

هذه هى الخمر الواردة فى القرآن وكلام الناس فيها، والميسر هو القمار، وهو يشمل كل كسب بطريق الحظ المبنى على المصادفة من كل الوجوه، وهو يكون للعب على المال: فالنرد على مال للكسب قمار، والشطرنج على المال قمار، وهكذا، وتحريم الميسر لذات الفعل، فالفعل فى ذاته حرام، والكسب عن طريقه حرام؛ لأنه سحت، وأكل لمال الناس بالباطل.

والأنصاب تطلق عند عرب الجاهلية بإطلاقين: أحدهما ـ نصب من الحجارة كانت تعبد، أو تقدس.

والإطلاق الثانى: حجارة مقدسة كانت تخصص للذبح تقربا للأصنام.

والأزلام جمع زلم، وهى السهام التى كانوا يتقاسمون بها الجزور أو البقرة إذا ذبحت، فسهم عليه واحد، وسهم اثنان وهكذا إلى عشرة، وقد حرم القرآن القسمة بذلك لأنها من الميسر.

وقد جمعت هذه الأمور كلها مع تحريم الخمر؛ لأنها متجهة جميعها إلى الخبائث، فالخمر ومعها الميسر كانا مقترنين فى التحريم؛ لأنهما عادة كانا مقترنين فى الواقع، فيندر أن يلعب الميسر من لا يشرب الخمر، وشارب الخمر المدمن عليها يمتد به الإثم، حتى يتناول الميسر أيضا.

والأزلام كانت تتخذ لقسمة الذبائح بالميسر، فيسحب الشخص الزلم، ويكون له من اللحم بمقدار ما يعلمه السهم، فإن كان واحدا أخذه، وإن أكثر أخذه بمقدار ما يعلمه.

والنصب جمعت مع هذه؛ لأنها أصنام وهى الأصل فساد فى العقيدة، أو لأنها مقدسة لا تؤكل الذبيحة إلا إذا ذبحت عليها، فكان جمعها مع الخمر والميسر لصلتها بالميسر، ولأنها نوع من تحريم ما أحل الله تعالى لغير سبب معقول لا من الشرع ولا من العقل، فهى ذات صلة وثيقة بالآية التى قبلها.

وكان جمع هذه الأشياء مع ما سبق لأن لها مصدرا من الطبع واحدا، وحكما من الشرع واحدا، وهو أنها رجس، ومن عمل الشيطان، والرجس كل ما استقذر،

وهو يطلق أولا على الأشياء القذرة التى تعافها ولا تستطيبها النفس أو أن عواقبها وبيئة، وتطلق بالإطلاق الثانى على الأعمال السيئة التى لا يقبلها العقلاء، ولا مبرر لها عند أهل البصر والإدراك، والخمر مستقذرة فى ذاتها لأن النفس لا تستطيبها شرابا، ولولا العادة ما تعودها الناس لعدم مساغها، ونتيجتها مستقذرة لأنها تفقد الشخص الإدراك، يكون قذر العمل، يأتى بما لا يستحسنه العقلاء، وهى مستقذرة؛ لأنها ضارة بالجسم أبلغ الضرر وأشده، فهى تفسد الكبد، وتضل العقل، ولقد حرمها بعض الجاهلين على نفسه، ولما قدمت له قال: (لا أتناول ضلالى بنفسى) وهى تثير النزوات والشهوات، ويروى أن أعرابية جاءت إلى مكة، فأسقيت الخمر، فلما ثملت قالت: أنساؤكم يشربن الخمر، فلما قيل لها: نعم. قالت: إن نساءكم لزوانٍ.

والخمر أم الخبائث؛ لأنها تسهل كل الخبائث، فما من شر يريد أن يقدم عليه الشخص، ويتردد فى ارتكابه إلا سهلته الخمر، فهى تميت النفس اللوامة، أو على الأقل تضعف صوتها، وتخدر الوجدان، وهو الإحساس بما فى العمل الذى يعمله من خطر، ومن أجل ذلك كله حرمت.

ولا يقال إنها حرمت للإسكار فقط، حتى لا يزعم ناس أنها حلال له؛ لأنه لم يسكر، فذلك قول باطل أولا ـ لأن النص قاطع فى التحريم، وكل اجتهاد مع النص اجتهاد فاسد، وثانيا ـ لأن كون الشيء مسكرا لا ينظر فيه إلى الجزئيات بل النظر فيه إلى شأنه، ولا تخرم القاعدة الكلية بشذوذ جزئى. وثالثا ـ لأنها تميت الضمير والوجدان أو تخفت الصوت اللائم، وتذهب بالحياء وهو عصام الأخلاق والمجتمع السليم.

والميسر مستقذر؛ لأنه يؤدى إلى الشحناء وأكل أموال الناس بالباطل، واتخاذ الأنصاب مستقذر لأنه لا يتفق مع العقل ولا يدعو إليه الفكر المستقيم، وهو من ضلال العقول وفساد النفوس، والأزلام لون من ألوان الميسر، وشكل من أشكاله، وهو قذر بكل صوره، وبكل أشكاله.

وإذا كان ذلك كله رجسا، فلماذا يتناوله العقلاء؟ فأجيب بأنه من عمل الشيطان الذى يحسن القبيح، ويقبح الحسن.

﴿فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الضمير فى: ﴿ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ يعود على كلمة رجس، والفاء للإفصاح عن شرط مقدر، وتقدير الكلام هكذا: إذا كان تناول هذه الأشياء، رجسا ومن عمل الشيطان، فاجتنبوه لتنالوا الفوز والفلاح أو لترجوا الفوز والفلاح، فمعنى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أى لترجو الفوز والفلاح، فلا فوز لقوم يضلون عقولهم بأنفسهم، ويفرون من واجباتهم بالخمر يشربونها، وبالموبقات يتسلون بها وبإضلال عقولهم وضياع تفكيرهم.

و«اجتنبوه» معناها اجعلوه فى جانب وأنتم فى جانب، وهو أقوى من «لا تشربوها» فى الدلالة على التحريم؛ لأن «اجتنبوها» لا تدل فقط على تحريم الشرب، بل تدل على تحريم الشرب مع جعلها فى جانب، وابتعاد، وهى تتضمن النهى عن الشرب، ومجالسة الشاربين، لأن مجالسة الشاربين لا يتحقق فيها الأمر بالاجتناب، بل إن الاجتناب يتضمن النهى من المرور على الحانات أو غشيانها.

وقد زكى التحريم للخمر والميسر بأمرين باقترانهما باتخاذ الأنصاب والأزلام، ووصف الجميع بالقذارة الحسية المعنوية، وثانى الأمرين ببيان بعض الآثار من إلقاء العداوة والبغضاء، والصد عن ذكر الله فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ﴾.

البغضاء: البغض الشديد، وهو يقطع الصلات، ويثير الأحقاد، ويجعل الناس قلوبهم شتى، وإذا أعلنت البغضاء كانت العداوة المستحكمة، والمنابذة والشحناء، فالعداوة أخص من البغضاء، لأنها بغضاء معلنة متنابذة، أما البغضاء المجردة فتكون مستكنة لا تظهر، وإن كانت آثارها عنيفة مثيرة للنفور مربية للأحقاد والأضغان.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ﴾ فيه قصر، أى قصر إرادة الشيطان فى الخمر والميسر على إثارة العداوة والبغضاء وإلقائهما فى الأنفس، والعلاقات الاجتماعية بين الناس بعضهم مع بعض، وهذا يفيد أمرين: أولهما ـ أن الخمر والميسر لا يدفع إليهما عقل مدرك مدبر، ولكن يدفع إليهما شهوة نفسية جامحة هى من تحريكات النفس الأمارة بالسوء.

وثانيهما ـ أنه يترتب عليهما الفرقة المادية بين الناس بالعداوة التى تقام بينهم، وبالبغضاء التى تولد فيهم الإحن المستمرة.

وليست العداوة والبغضاء هما فقط عمل الشيطان، بل له عمل آخر أشد وهو أنه يصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وفى الواقع أن كلا الأمرين متلازمان، فحيث كان الصد أى الإبعاد عن ذكر الله وعن الصلاة، كان إلقاء العداوة والبغضاء فى القلوب؛ لأنه إذا وجد الإعراض عن ذكر الله وعن الصلاة كانت الأنانية، ولا شئ يقطع ما بين الناس، ويثير العداوة والبغضاء أكثر من الأثرة ومجانبة الإيثار.

فالخمر والميسر تناولهما يؤدى إلى أمرين أولهما ـ العداوة والبغضاء، وثانيهما ـ الصد عن ذكر الله تعالى وعن الصلاة، أما أداؤها إلى العداوة؛ فلأن الخمر إذا شربت غاب العقل الظاهر، وظهر العقل الباطن، وكشف السكران كل مستور، وبين كل ما فى الأنفس، وانطلقت الألسنة، بما لا يصح الكشف عنه، وقد يبادله الآخر مثل قوله فتكون الشحناء، وتكشف الأستار، وينبش المقبور من الأمور، ووراءه تولد الإحن ونزول المحن، وإن الرجل ليكون كاتما لنفسه لا يتكلم، فإذا سكر انطلق لسانه بكل شيء، وقد يفترى على الحرائر، ويكشف ما فى السرائر، وتنزل بالجماعة المحن.

وأما الميسر فإنه يولد حقد القلوب، وإحساس كل بأن الآخر له متربص ومتحفز، ولأمواله طالب متوثب، وهذه الأمور بارزة للعيان غير محتاجة إلى بيان.

وأما صدهما عن ذكر الله تعالى فلأن الخمر تميت النفس اللوامة، وتخدر الوجدان، وتربط الإنسان بأعلاق الأرض وتكون النفس الأمارة بالسوء، وتوجد فى النفس انشراحا وهميا، وسرورا كاذبا، تجعله فى لهو، واللهو وذكر الله نقيضان لا يجتمعان، وكل لهو باطل إلا ما يكون تمهيدا للاستجابة لأمر الله تعالى ونهيه؛ وما يصد عن ذكر الله تعالى يصد عن الصلاة؛ لأنها ذكر لله تعالى، واستحضار لعظمته تعالت قدرته.

والميسر لا يشغل عن الله وعن الصلاة فقط، بل يشغله عن أهله وعن أولاده، وعن عمله الذى يكتسب منه، بل عن ثيابه التى يكسو نفسه بها فهو غمرة طاغية لا ينقذه منها إلا إطاعته أمر الله تعالى ونهيه.

﴿**فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ**﴾ الفاء هنا للإفصاح عن شرط مقدر، مؤداه إذا كنتم قد علمتم ما فى الخمر والميسر من مضار وصوارف عن الله تعالى. وما يؤديان إليه من شحناء وبغضاء، وما يفسدان به الجماعات أفأنتم بعد ذلك منتهون عنهما تاركون لهما أم أنكم ما زلتم فى غيكم تعمهون، سادرين عن أمر الله تعالى، فالاستفهام هنا للإنكار، ومؤداه: انتهوا عما أنتم فيه، ولقد أجاب الكثيرون من أصحاب رسول الله: انتهينا.

وفى التعبير بالانتهاء والأمر به إشارة إلى تمهيدات سابقة للتحريم، فقد استنكرها القرآن الكريم من أول نزوله، فلم يعتبرها رزقا حسنا، كما قال تعالى: ﴿**وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا** ... (٦٧)﴾ [**النحل**]. فجعل السكر وهو الخمر مقابلا للرزق الحسن، ثم جاء التحريم غير الحاسم فى قوله تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ** ... (٢١٩)﴾ [**البقرة**].

والنتيجة تنتهى إلى التحريم لأن ما كثر ضرره وقل نفعه يكون حراما ،ثم حرمت فى أثناء النهار وطرفا من الليل، وذلك فى قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ** ... (٤٣)﴾ [النساء].

وهكذا كان الإشعار بالتحريم، ولكن لم يكن انتهاء حتى جاء التحريم الحاسم الخالى من كل ظن، فكان لابد من الانتهاء.

وجاء فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنه نزل تحريم الخمر، وهى من خمسة: العنب والتمر والعسل الحنطة والشعير، والخمر ما خامر العقل»(١) وترى الرسول عدَّد خمسة ثم عمم: وهى ما خامر العقل.

هكذا أمر الله وهكذا أمر رسوله، قد قال تعالى:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾ الواو هنا قال بعض المفسرين: إنها عاطفة على قوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. ويكون قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ﴾ فى مقام التعليل للنهى، وقوله (فهل أنتم منتهون) فى مقام تأكيد النهى أو تأكيد معناه، ويكون الكلام كله فى مساق واحد، ويكون قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ فى مقام تأكيد المنهيات السابقة وغيرها، وكان ذلك كله لمقام تأثر العرب بالخمر، وتعلقهم السابق بها، فاقترن بها الأمر بالإطاعة، وتحميلهم التبعة، والأكثرون لم يذكروا أن الواو عاطفة، ومفهوم كلامهم أنها استئنافية، والمؤدى واحد؛ لأن فى ذكرها عقب تحريم الخمر بالأمر العام بالطاعة تأكيدا للنهى وتوثيقا له.

وأمر سبحانه بإطاعة الله، ثم أمر بإطاعة الرسول مع أن إطاعتهما واحدة. لقوله تعالى: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ... ﴿٨٠﴾﴾ [النساء]. ولأن النبى يتكلم عن الله سبحانه وتعالى، فقد قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم]. وكرر سبحانه الأمر بالطاعة لتأكيد الدعوة إلى الطاعة، وتشريف الرسول، وتأكيد رسالته بذكر طاعته بجوار طاعة الله تعالى:

---

(١) رواه البخاري: تفسير القرآن - قوله تعالى: ﴿إنما الخمر﴾، ومسلم: التفسير - في نزول تحريم الخمر (٣٠٣٢).

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ نبههم الله سبحانه وتعالى إلى وجوب طاعة الله وطاعة رسوله، وأن يحذروا غضب الله تعالى وعذابه، واقتران الحذر بوجوب الطاعة فيه تنبيه إلى ضرورة اجتناب الخمر التى تصد عن ذكر الله تعالى، وتميت الضمير، وتخفت صوت الوجدان، وتسهل الاندفاع وتمنع الحذر.

وفى هذا النص الكريم تأكيد لمعنى التحذير السابق، وتنبيه إلى سوء العاقبة، والمعنى: إن أعرضتم عن الطاعة، وتجنبتم الحذر، ووقعتم فى المحظور، وغفلهم عن المأمور به فقد وقعتم فى الخطيئة، وستحاسبون عليها حسابا عسيرا، واعلموا أنه على رسولنا البلاغ الواضح المبين للحقائق والواجبات، فقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ مبنى عن جواب شرط مقدر ينبئ عن تحملهم وحدهم لتبعة إجرامهم ومعاندتهم لربهم مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ... ﴿٩٧﴾﴾ [البقرة]. أى فإنه عدو لله؛ لأنه نزله على قلبك بإذن الله، فالرسول مبين للحق، وليس مسئولا عن إيمان من يبين لهم، كقوله تعالى: ﴿... إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾ [الرعد]. وكقوله: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية]. وفى إضافة الرسول إليه فى قوله: ﴿عَلَىٰ رَسُولِنَا﴾. تشريف للرسول وتوكيد لإقراره سبحانه، وبيان أن الرسول ما ينطق إلا عنه، وأن عصيانه عصيان لله تعالى، وفى التعبير بقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا﴾. تنبيه بصيغة الأمر، ليتعظوا ويتحملوا تبعة أعمالهم، ويكونوا فى حذر مستمر، والله الهادى.

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا﴾ كان بعض المؤمنين يحرمون على أنفسهم بعض المباحات، ويحسبون أن ذلك من الورع والتقوى، وقد بين النبى ﷺ خطأهم، ونزل القرآن الكريم بتحريم ذلك عليهم، وجاء فى مطوى الكلام تحريم الخبائث لا تحريم الطيبات، وفى هذا النص الكريم بيان أنه لا إثم فى تناول المباحات؛ لأن العبرة بالإيمان وتقوى القلوب،

فالخبر فى الإيمان وفى القلب لا فى ترك المباحات، وهذا يشير إلى أن الآيات حكمها عام، وهو كذلك، وإن كان لها سبب فالعبرة بعموم اللفظ.

والأكثرون من المفسرين على أن سبب نزولها أنه لما نزل تحريم الخمر المشدد فيه، والتحذير منها، وقد كانت من قبل فى مرتبة العفو، وقد كان هناك من المؤمنين من يشربها، حتى كان منهم من استشهد فى الجهاد، وفى بطنه خمر فتساءل بعض المؤمنين عمن شربها ومات، وعمن كان يشربها من الأحياء، كما تساءل بعض الذين كانوا يصلون إلى بيت المقدس عن صلاتهم قبل تغيير القبلة إلى الكعبة، فنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. كما نزل هنالك قوله تعالى: ﴿... وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة]. وقد وصف الله سبحانه وتعالى الذين لا جناح عليهم فى شربهم فى الماضى بأنهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وكلمة: «طعموا» معناها ذاقوا، وهى تطلق على المشروب، والمأكول، كما قال تعالى فى شأن النهر الذى حرم القائد شربه: ﴿... وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي ... ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة] وقد ذكر سبحانه وتعالى بعد نفى الإثم قوله تعالى: ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. ففهم بعض الناس أن ذلك شرط لنفى الإثم، أى لا إثم بالشرب مع التقوى وعمل الصالحات، ونقول فى الجواب عن ذلك:

أولا ـ إن المراد بتقوى الله تعالى امتلاء القلب بخشيته، وقد ذكر سبحانه وتعالى فى أوصاف الخمر والميسر أنهما يلقيان بالعداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله تعالى فإذا كان الإثم قد رفع عن التناول لأنه كان قبل التحريم، فهل يرفع الإثم عن العداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله تعالى وعن الصلاة؟ إنه لا تقوى مع التناول.

وثانيا ـ إن فى هذا الشرط تحريضا على الإيمان وتقوى الله تعالى، والامتلاء بهيبته.

وكرر الله تعالى التقوى، فقال تعالت كلماته: ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا وَّآمَنُوا﴾. لبيان أنه يجب استمرارهم على التقوى، وحث غيرهم عليها، وكان التعبير بـ «ثم» لتأكيد معنى الاستمرار على التراخى، وهناك معنى يفيده التكرار، وهو تأكيد أن الماضى مهما يكن لا يؤثر فى الحاضر، إذا كان الحاضر نقيا، وقد تأكد هذا بقوله سبحانه:

﴿ثُمَّ اتَّقَوْا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ العطف بـ «ثم» هنا هو أيضا لتأكيد معنى الاستمرار مع الزمن، والتقوى كما قلنا هى امتلاء القلب بالخشية، وهذا للحث عليها، ولتشريف الذين يستمرون عليها، والإحسان إن اعتبرناه متعديا يكون مؤداه الإحسان إلى غيرهم بالمعاونة، وفعل الخير وإسدائه، والجود بالمال وغيره، ويصح أن يكون لازما والمراد الإحسان فى ذات أنفسهم، كما قال النبى عليه السلام: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(١) وهذا أعلى مراتب التقوى وهو ما نراه، والله جل جلاله يحب المحسنين لأنهم قريبون منه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

(١) سبق تخريجه من رواية البخاري ومسلم، وهو المعروف باسم حديث جبريل الشهير.

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾

ذكر سبحانه وتعالى أشياء محرمة لذاتها لأنها مستقذرة، خبيثة فى ذاتها، وفى نتائجها، وهناك محرمات لمكانها وحال التناول لها، وليست فى ذاتها حراما، ومن ذلك المحرمات فى الحج أو فى الإحرام بشكل عام، سواء أكان للحج أم كان للعمرة أم كان لهما ـ وبعد أن أشار إلى بعض المحرمات لخبثها، ولذاتها وهى الخمر، ذكر سبحانه وتعالى المحرمات لمكانها وحال التناول لها، فقال سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ البيت الحرام فى واد غير ذى زرع كما قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ فيما حكاه الله تعالى عنه إذ قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم]

وكان على المسلمين أن يعملوا على توفير الطعام لهم، حتى تتحقق إجابة ذلك الدعاء، إذ فرض الله سبحانه وتعالى الحج إلى ذلك البيت المطهر، ففرض الحج إليه كما قال تعالى: ﴿... وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ... ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران].

فكان الناس يذهبون إليه من كل فج عميق، وإذا كان من مقاصد الحج التوسعة على المقيمين فى هذا البيت، لا يصح أن يكون وجودهم سببا للتضييق عليهم ولو كان الصيد مباحا، وهم يسكنون البادية، ومن موردهم الصيد، ولو فتح باب الإباحة للمحرمين لكان من المتصور أن يستنفذوا كل عام أكثر الصيد

الذى يكون حول مكة، فيجيئوا بالحرمان بدل التوسعة، وبالضيق عليهم بدل الترفيه، فكان لا بد من منع المحرمين من قتل الصيد، حتى لا يكون أهل مكة فى ضيق، فوق ضيق المكان، وبعده عن الزرع والثمار.

النداء فى النص القرآنى الكريم للذين آمنوا؛ لأنه من مقتضيات الإيمان ذلك الخطاب، ولم يكن تحريم الصيد للمحرمين لهذا فقط، بل لاختبار النفس المؤمنة، ولتعويدها الصبر، ولتربية العزيمة؛ إن العزيمة تتربى فى صغار الأمور، كما تتربى فى كبارها، وإن كبارها تحتاج إلى قوة جسمية، وإرادة نفسية، أما الأمور الهينة اللينة، فإنها تحتاج إلى عزيمة روحية، ولذا قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة]. وإنه يكفى المنع من شىء ليطلبه الممنوع منه، وفى الأمثال: كل ممنوع متبوع، وجاء فى ذريعة الأصفهانى أنه ورد فى بعض الآثار أن الناس لو منعوا من البعر لفتوه، وقالوا ما حرم علينا إلا لشىء فيه.

والكلام فى قوله تعالى: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ﴾. اللام هى التى تدل على القسم، والنون هى المؤكدة، والمعنى لنعاملنكم معاملة المختبر، الكاشف لحقيقة نفوسكم، وعزائمها، وإراداتكم وتصميمكم، وصبركم النفسى، وكان ذلك الاختبار النفسى الكاشف لعزائمكم فى أمر صغير فى واقعه، كبير فى معناه، فموضوع الاختبار عبر عنه سبحانه وتعالى بقوله تعالت كلماته:

﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ وهذا الموضوع للاختبار يتسم بأمور ثلاثة: أولها - أنه شىء قليل لأن التنكير هنا للتقليل، كما يدل عليه ما بعده، والثانى - أنه بعض الصيد، والثالث - أنه قريب منكم يغرى النفس، ويحرضها على فعل المنهى عنه؛ إذ إن أيديكم تستطيع تناوله إذ كان قريبا صغيرا، وتستطيع رماحكم أن تناله إذا كان كبيرا أو بعيدا بعدا نسبيا. وإن الاختبار الذى يجعل النفس فى مشقة هو فى هذا القرب، فالاختبار ليس فى أمر يشق على الأجسام كالجهاد إذ يحتاج إلى قوة جسم، ومهارة، وفن عقلى، ولكن الاختبار فى أمر

هين لين، ولكن فيه مشقة على النفس، وجهاد النفس عن شوقها وعن شهوتها لا يقل عن جهاد الجسم المرن، والعقل المدرب الماهر، ولعل ذلك جهاد أكبر.

وإن الذى ينجح فى ذلك البلاء يكون ممن يخاف الله تعالى فى غيبه عنه، وفى مشهده له، بل إنه يحس دائما بمقام المشاهدة[1]، فلا يحس بأنه غيب عن الله تعالى قط، ولذلك قال تعالت كلماته: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾. أى ليظهر الله تعالى فيمن يخافه بالغيب، ولكن ما الغيب وما حال من يخافه، قال بعض المفسرين: إن المراد غيب يوم القيامة، أى أن من يحرم الصيد وأشباهه على نفسه، ويعقد عزيمته على ذلك يظهر إيمانه بالآخرة وهى مغيبة عنه، ويخافها لأن نفسه تكون من النفوس الصابرة المبتعدة عن أهواء الدنيا، فلا تغمرها شهواتها، فتنفذ طيبة إلى الآخرة، وقال بعض المفسرين: إن المراد غيب الله تعالى أى أن من تكون له تلك العزيمة القوية فيكون ممن يراقب الله تعالى دائما، فيعبد الله كأنه يراه، فالله فى قلبه دائما يخافه ويتقيه، ولا مانع من الجمع بين المعنيين.

﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الاعتداء تجاوز الحد ومخالفة أوامر الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿... وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ... (١)﴾ [الطلاق].

ومعنى النص الكريم: ومن تجاوز ما أمر الله تعالى بعد إعلامه بأنه اختبار من الله لتربية نفسه وتهذيبها وإشعار بمخافة الله تعالى، وهو غائب بأن يمتلئ قلبه بالإيمان به، ويطيع الله كأنه يراه، من اعتدى بعد هذا فهو يعاند الله تعالى ويكابره، ومن يكون قلبه ممتلئا بالمكابرة والمعاندة، فإن الإيمان لا يسكن قلبه، ويكون له عذاب أليم.

---

(١) مقام المشاهدة: «أن تعبد الله كأنك تراه»، ومقام المراقبة: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك». وكلاهما إحسان كما في حديث جبريل الشهير. والمداومة على الثاني توصل إلى المقام الأول لمن وفقه الله تعالى.

وقد يقول قائل: إن الله تعالى ذكر جزاء من قتل الصيد متعمدا فقال تعالى على ما سنتلو إن شاء الله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ وذلك ليس عذابا أليما، ويجاب عن ذلك: بأن ذلك ليس مجرد جزاء للذنب الذى ارتكبه كله، ولكنه جزاء دنيوى يعود به على الذين فى بيت الله، أما الجزاء الأخروى، فإن الله مستقبله به يوم القيامة، وفوق ذلك أن ما ذكره تعالى فى جزاء القتل للصيد، إنما هو جزاء الفعل والعذاب الأليم جزاء المكابرة والمعاندة التى تدل على نقص الإيمان، بل تدل على عدم الاستسلام لله تعالى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ الخطاب للمؤمنين بوصف الإيمان، فالإيمان يقتضى ألا يقتلوا الصيد وهم محرمون، وقوله: ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ معناه وأنتم محرمون، فكلمة حرم جمع لحرام، وحرام قد تكون وصفا للمحرِم، فيقال: رجل حرام، وامرأة حرام إذا نوت الحج واتخذت شعاره، وجمع حرام حرم، والمحرم أو الحرام هو الذى يؤدى الحج أو العمرة، واتخذ شعارهما، إذ يصبح ما كان حلالا له بإطلاق، مقيدا فى إحلاله، ويكون عليه مشاعر يجب أداؤها.

والنهى منصب على قتل الصيد، فما هو الصيد المحرم، وهو بلا ريب صيد البر، كما خصصت ذلك الآية من بعد، فقد قال تعالى من بعد ذلك:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ فمن هذا النص يتبين أن التحريم مخصوص بصيد البر، ويخرج منه صيد البحر، وذلك لأن البحر بعيد عن الحرم، والمحرم قد يحرم فى منطقة قد تكون فيها بحار، فتحريم صيد البحر يكون إجهادا وحرجا وضيقا من غير فائدة تعود على المقيمين حول البيت الحرام.

والنهى منصب على الصيد نفسه لا على قتله؛ لأن التحريم يتجه إلى محاولة صيد الحيوان، لا إلى قتله فقط، وقد دل على ذلك قوله تعالى من قبله: ﴿... غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ... (١)﴾ [المائدة].

وقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾.

وأجيب عن ذلك بأن الغاية هو القتل للأكل غالبا، فعبر عن السبب وأريد المسبب، والقتل منهى عنه بالذات.

ولكن ما هو الصيد المحرم أيقع على كل حيوان برى، فيحرم صيده من غير قيد يقيده؟ لقد ورد عن النبى ﷺ أنه استثنى من تحريم الصيد الفواسق، فقال - عليه السلام - فيما رواه الصحيحان «خمس من الدواب ليس على المحرم فى قتلهن جناح، الغراب والحداة والعقرب، والفأرة، والكلب العقور»[1] وهذه رواية مالك عن نافع عن ابن عمر، ورواية عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال: «خمس فواسق يقتلن فى الحل والحرم: الغراب والحدأة، والعقرب والفأرة والكلب العقور..»[2].

وقد اتفق الفقهاء على أن قتل هذه غير ممنوع.

وقد جرى الخلاف فيما وراء ذلك، وكان أساس الخلاف هو أن النص معلل واختلفوا فى تعليله، ففريق قال: ليست ثمة علة إلا الأذى، وعلى ذلك يكون محرما صيد ما عدا هؤلاء، إلا إذ كان مؤذيا بالفعل فيحرم الوحش إلا إذا كان قد ساور المحرم، وقال بعض الفقهاء: إن كل حيوان لا يؤكل ومن شأنه مساورة الإنسان لإيذائه كالنمر والأسد وغيرهما يباح صيده، واختلفت الروايات والأقوال فى المذاهب فقيل: لا يباح صيد أى حيوان إلا ما جاء النص بإباحته، وما يساور الإنسان فعلا ليؤذيه، وقيل: يباح ما من شأنه المساورة، وقيل: إنه يباح صيد كل ما لا يؤكل، وهو قول الشافعى، وإنا نميل إلى هذا القول؛ لأن التحريم معلل، وليس تعبديا خالصا، والحكمة واضحة، وهى منع التضييق على أهل الحرمين الشريفين؛ ولأن الصيد فى غالب أحواله لا يتجه إلا إلى ما يؤكل فيندر من

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه مالك: المناسك - ما يقتل المحرم في إحرامه (٧٩٨) عَنْ ابْنِ عُمَرَ، ويروي عن عائشة كما صرحت بذلك رواية البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها.

يصطاد ثعلبا أو ضبعا، ولأن القياس يثبت على الغراب والحدأة فهى حيوان لا يؤكل، وهذا هو الذى نراه معقولا، وهل يباح لحم ما يصطاد للمحرم إذا اصطاده غير محرم؟ لقد اختلف الفقهاء فى ذلك، وأساس الاختلاف، الاختلاف فى **ذات الممنوع، أهو الأكل أم الصيد؟**.

قال كثيرون من الصحابة والتابعين منهم ابن عباس: إنه يحرم على كل حال؛ لأن الصيد ذريعة إلى الأكل، وليس تحريم الصيد لذاته، ولكن لكيلا يكون أهل مكة فى ضيق.

وقال آخرون: يحل ما دام لم يتول الاصطياد، وقد قال ذلك على بن أبى طالب، وعثمان بن عفان، وجمع من الفقهاء.

القول الثالث: أنه إذا صيد لأجل المحرم كضيافته ونحوه فإنه يحرم، لا يكون كاصطياده.

والقول الرابع: أنه إذا لم يعاون المحرم فى الصيد، ولو بالإشارة فهو حلال.

وهذا الذى نميل إليه؛ لأنه إذا كان قد عاون فى الاصطياد، ولو بالرأى فقد اصطاد، وإذا لم يكن شىء من ذلك، فهو حلال، وإلا امتنعت الضيافات، وكان الناس فى حرج وضيق السبيل إلى تبادل المودة، وهى مطلوبة فى الإسلام.

﴿وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ المتعمد أن يكون عالما بالتحريم أو أن يكون من شأنه العلم بالتحريم؛ إذ يكون مقيما فى دار الإسلام، وأن يكون قد قصد القتل ولم يقصد سواه وإلا فلا، كأن يساوره سبع يريد قتله، فيضربه، فيصيد صيدا، أو يرى عن بعد سبعا مفترسا ثم يرى شبحا يظنه هو فيتبين أنه غيره، فلا يعد فى هذه الحال متعمدا الصيد ويكون فعله خطأ.

وعلى ذلك يكون ما عدا من اشتملت عليه هذه القيود خطأ، ويكون الخطأ قسمين: خطأ فى الفعل بألا يريد الصيد فيقع الصيد كالصورة السابقة، أو خطأ

فى القصد بأن يكون القصد ذاته غير سليم إذ يصوب سهمه على شبح فتبين أنه صيد.

وعلى ذلك يكون الجزاء لأجل التعمد، ولا جزاء فى الخطأ.

ولكن الفقهاء اتفقوا على أن محظورات الصوم خطؤها كعمدها يوجب الفداء فكيف يعتبر الخطأ؟ ولقد أجاب عن ذلك ابن جرير، بأن جزاء الصيد ثبت بالكتاب، وجزاء الخطأ ثبت بالسنة، وقد أخرج الشافعى وغيره عن عمرو بن دينار أنه قال: رأيت الناس جميعا يغرمون فى الخطأ، وبعض الفقهاء قال: إن جزاء العمد ثبت بالنص وجزاء الخطأ ثبت بالقياس أى أنه ثبت قياس الخطأ على العمد.

وعندى أن النص الظاهر فى أن الجزاء مقيد بأن يكون القتل عمدا، وكل جزاء فى حال الخطأ البحث فيه يكون إهمالا لقيد العمدية، ولذلك تقيد العمدية، بما يشمل الخطأ فى القصد وغيره، فالعمدية القصد إلى الصيد ولو كان ناسيا لأنه محرم، أو جاهلا أنه محرم، وبذلك يكون سريان النص مع ما ورد من آثار فإن الأثر الوارد عن النبى ﷺ كان فيه الصائد ناسيا إحرامه، فقد روى أنهم وهم فى الحج عنَّ عير (حمار وحشى) فحمل عليه أبو اليسر، فطعنه برمحه فقتله، فقيل له قتلته وأنت محرم، فأتى الرسول ﷺ فسأله عن ذلك فنزلت الآية[1]، وعلى ذلك اعتبر أبو اليسر قاتلا عمدا، وقد كان ناسيا أنه محرم، وذلك لمجرد أنه قصد القتل من غير نظر إلى أى ناحية نفسية أخرى، وبذلك يكون التوفيق بين الكتاب والسنة، وإنهما لمتوافقان، فالناسى يعد عامدا، وقاصد غير الصيد يكون مخطئا.

وقد ذكر سبحانه وتعالى أن الجزاء يكون بالمماثلة بين الصيد، وحيوان يقاربه فى الحجم من النعم، وهى الإبل والبقر والغنم، وهكذا فسر بعض الفقهاء المماثلة، وقصرها على ذلك أكثر الفقهاء، وهو ظاهر النصوص؛ لأن الله تعالى

(١) ذكره الآلوسي في التفسير: ج٧، ص٢٣.

قرر أنه يحكم بالمماثلة ذوا عدل من المؤمنين، ولأنه قرر احتمال العجز عن المثل، فجعل بدله كفارة إطعام مساكين، فإن لم يجد يكون عدل ذلك صياما، ولأنه قرر أنه إذا وجده يرسله هديا إلى الكعبة.

وقال أبو حنيفة: إن المثل يكون بالقيمة، ولا شك أن ذلك القول قد يشكل ظاهرا مع ما ورد من نصوص إلا أن يقوّم الصيد، ويشترى بالقيمة هديا، فقد جزى بمثل ما قتل من النعم، والخلاصة أن القيمة تكون تعويضا يخير فيه بين أن يشترى هديا أو طعاما، فإن لم يستطع فالصوم.

وقد بين سبحانه طريق معرفة الجزاء ومآله وأنواعه فقال سبحانه:

﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ الهدى اسم لما يذبح فى الحج مهدًى إلى فقراء مكة، والنص صريح فى أن الهدى يبلغ إلى الكعبة، وكونه يكون هديا يصل إلى الكعبة يشير إلى حكمة منع الصيد فى البيت الحرام، وهو أن الحجيج الكثيرين إذا أبيح لهم الصيد قطعوه عن أهل مكة، وجعلوهم فى ضيق وحرج.

وذوو العدل من المسلمين هم أهل الشهادة ذوو الخبرة الدقيقة فى تقدير الحيوان، بحيث يكونون ممن يصفقون فى أسواق النعم، أو من أهل المعرفة بها الذين يعلمون الأسعار بملاحظة مكانها وزمانها.

وهذان الحكمان يعينان المماثلة، سواء أكانت المماثلة بتوسط القيمة، أو كانت بالمماثلة فى الهيئة والحجم ونحو ذلك، وذلك لأن الحنفية يقررون أنه فى القيميات، أى التى لا تتعلق وحداتها - تكون المماثلة بتعرف القيمة، ولا سبيل غير ذلك، فلا يمكن أن يكون الحيوان مماثلا للحيوان إلا بتعرف قيمتهما.

وإذا قدرت القيمة اشترى بها هديا، وبلغ الكعبة، وذبح هنالك تعويضا، وإذا تعذر شراء الهدى، أو تعذر الوصول إلى الكعبة تصدق به على المساكين، بحيث يكون لكل مسكين نصف صاع من بر، أو صاع من الذرة أو الشعير أو

قيمة ذلك، فإن تعذر على المعتدى شيء من هذا لفقره كان عليه أن يصوم يوما لكل إطعام المساكين، ولا شك أن التخيير هنا ليس على حقيقته، إنما هو ترتيب مراتب على حسب القدرة على كل رتبة، فالأصل بلا ريب شراء هدى، وذبحه عند الكعبة، فإن تعذر ذلك كان الطعام، فإن تعذر كان الصيام، وقوله تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ﴾ أى ما يساويه من الصيام على أساس أن يكون لطعام المساكين وجبتين - صوم يوم، وقدرت الوجبتان بنصف صاع من بُر أو قيمته، أو صاع من غيره أو قيمته.

هذا هو الظاهر عند الحنفية، وروى عنهم أنهم قالوا بالتخيير إذا عرفت القيمة بين الذبح عند الكعبة، وبين إطعام المساكين، وبين الصوم، وعندى أن الترتيب حسب القدرة أوضح، وذلك هو رأى أحمد وزفر.

والمذاهب الأخرى تتلاقى فى الجملة مع المذهب الحنفى بيد أنها تعتبر المماثلة فى الأوصاف، وعندى أن المذهب الحنفى أوضح وأسهل تطبيقا، وأدق فى تعرف المثل، وقد اضطروا إليه عند استبدال الطعام بالذبح، إذ لا يعرف مقدار الطعام إلا بمعرفة القيمة.

﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ الوبال: العاقبة السيئة، ومعنى ليذوق أى ليدرك عاقبة الأمر الذى وقع فيه إدراك من يحسه ويذوقه؛ وذلك لأنه عمل على حرمان ناس من أن يذوقوا طعاما شهيا، كانوا ينالونه، فعليه أن يغرم نفسه مثله من طعام يذوقه فى نظير ما حرمهم منه، فالعقاب من جنس الاعتداء: ﴿... فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ... ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة: ١٩٤]. وأن ما كان منهم من قبل، فإنه موضع عفو، لا يحاسب الله تعالى عليه فى الدنيا ولا فى الآخرة، فمعنى قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ أى أنه سبحانه لا يطالب بتعويضه منهم؛ لأنه سلف ومضى منهم قبل التحريم، ولا يطبق القانون إلا على ما يجيء بعده، ولذلك قرر مؤكدا، أن العقاب يكون لما يقع بعده وللعائدين، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾.

أى من عاد بعد تحريم الله للصيد فإن الله تعالى ينتقم، ونرى أن «الفاء» وقعت فى جواب الشرط فى غير ما سوغ فيه دخول الفاء، وأولوا لذلك وقدروا محذوفا بجعل الجملة اسمية، وبعضهم جعل «من» اسما موصولا، والفاء تدخل فى خبر الموصول، والحق أن القرآن فوق قواعد النحويين، وقد ورد دخول الفاء فى شرط من؛ فقد قال تعالى: ﴿**وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا** ﴿١١٢﴾﴾ [طه].

وقواعد النحويين غالبة تلزم الناس، ولا تلزم القرآن. والعود هو تكرار قتل الصيد، وذلك يدل على الاستهانة بأمر الله ونهيه، فيستحق صاحبه النقمة، ونقمة الله تعالى أشد النقم، ولذا قال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ**﴾ أى والله تعالى غالب فوق العباد، لا يترك الأشرار يرتعون، فهو ذو انتقام كما أنه الرحيم، بل إن انتقامه من رحمته؛ لأن الرأفة بالأشرار ليست من الرحمة، ولذلك قال بعض العلماء: إن القاصد إلى الصيد معاندا لا تقبل منه الكفارة، ويكون عذابه يوم القيامة لاستهانته بأمر الله ونهيه.

﴿**أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا**﴾ فى هذا النص الكريم نجد الله تعالى بين فيه ما حرم، وما حلل للمحرم، فأحل صيد البحر وطعام صيد البحر الذى يجوز أكله، وحرم عليهم صيد البر ما داموا محرمين مستمرين على الإحرام، فالحلال فى كل الأوقات والأماكن، والحرام فى حال معينة محدودة فهو ذكر لنعمة الله تعالى وفيه إشارة إلى حكمته فيما حرم، وأباح سبحانه أن يصطاد الصائد من البحر، وأن يطعم منه، فأبيح الفعل والأكل لكم، والمتاع الانتفاع، ومعنى السيارة: المسافرون السائرون الذين لا يستقرون فى مكان معلوم، فلكم أن تأكلوا لحما طريا من البحار لأنكم عابرو السبيل، والحرام فيما يتعلق بالبر حال الإحرام لكيلا تضيقوا على سكان مَن حول البيت الحرام.. وختم الله تعالى الآية بالأمر بالتقوى والتذكير بالاجتماع أمام الله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾. وفى هذا تذكير بتقوى الله، حتى يعلموا أن الدنيا مهما يكن متاعها لها نهاية، وأن الإنسان محاسب على ما يتناول يوم

الحشر، أى يوم الجمع من غير تفرقة، والله وحده، هو العالم القادر المنتقم الجبار الرءوف الرحيم.

جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ
قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟
أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ
شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا
تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ
وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾

كانت الآيات السابقة تقرر منع الصيد، وتؤكد المنع، وذكرنا أن ذلك ليس تعبديا فقط، بل فيه حكمة ومعنى ذلك أن الذين حول الكعبة يسكنون واديا غير ذى زرع عند بيت الله المحرم، وكانت دعوة إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم، وقد استجاب الله تعالى دعاءه، ولكى يتحقق لهم الرخاء منع الصيد عن أولئك الذين جاءوا إليهم حاجين أو معتمرين، حتى لا تستنفد كثرتهم ما حول مكة من صيد يمدهم باللحم طول العام، وفى هذا النص الكريم الذى نتكلم الآن فى معناه إشارة بينة إلى هذا المعنى، فقد قال تعالت كلماته:

﴿ **جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ** ﴾
نتقدم قبل الكلام فى معنى النص إلى بعض نواح لفظية تمهد للكلام فى المعنى:

أولها ـ أن ﴿ **جَعَلَ** ﴾ إما أن نفسرها بمعنى خلق أو شرع الأحكام أو بمعنى صيَّر، وعلى الأولين تكون متعدية إلى مفعول واحد، ويكون المعنى على هذا خلق

الله تعالى الكعبة، وهى البيت الحرام وشرع لها تلك الأحكام التى تصونها وتصون شجرها وحيوانها لتكون قواما للناس فى معاشهم ومعادهم، ويكون فيها نهوض لمقاصدهم وغاياتهم، وتروية لمتاجرهم، وليرزقوا بين الناس، وعلى أن ﴿جَعَلَ﴾ بمعنى صير يكون قوله تعالى: ﴿الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ مفعولا ثانيا، ويكون المعنى صير الله تعالى الكعبة بيتا محرما، لتكون قياما للناس.

الثانى ـ من النواحى اللفظية هو فى كلمة «الناس» أيراد بهم العرب الذين يعيشون حول الكعبة، ويتحقق بذلك الاستجابة لدعوة إبراهيم، أم يراد بهم الناس عامة الذين من شأنهم أن يحجوا إلى ذلك البيت؟ ويكون المعنى على الثانى، جعل الله الكعبة لها تلك المكانة لتكون قياما لكل الناس الذين يفدون إليها وهم المسلمون عامة؛ إذ يتعارفون فيها، ويتبادلون المودة الإسلامية الرابطة، ويوثقون الصلات الإنسانية والدينية والخلقية، يتراحمون فيما بينهم، ويحسون بالتجرد الروحى، والضيافة الربانية، وفى ذلك كله قيام لهم، وليس القيام هو القوام المادى فقط، بل المادى والروحى والخلقى.

الثالث ـ فى قوله تعالى: ﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ﴾. الشهر الحرام قيل ذو الحجة، ونرجح أن المراد أربعة الأشهر الحرم، والهدى ما يساق، وأخصها ذات القلائد، وهو ما يوضع عليها من شعارات من قلادة من بعض الأشجار تدل على أنها للبيت الحرام كما قال تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ ... (٣٦)﴾ [الحج].

ويكون معنى القلائد على هذا ذوات القلائد ويذكر بعض العلماء أن معنى القلائد هى ذات القلائد التى قرر الشارع أن توضع إشعارا لها بأنها للحج، وفى ذلك تكريم للبيت، وإعلاء، وإشعار لمكانته القدسية وذلك عائد على الناس عامة وعلى أهل مكة خاصة، وسيقت هذه الكلمات: ﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ﴾ لبيان أنها قيام للناس.

وعلى ذلك تكون نعم الله تعالى بالبيت الحرام أربع:

أولها ـ البيت ذاته، وما منح من قدسية، وكان الناس يحسون بالأمن، حيث يتخطف الناس فى كل مكان، كما قال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [العنكبوت] وفى ذلك الوقت الذى لم يكن بالبلاد العربية حكومة تفرض سلطانها فى أى مكان، قد ألقى الله تعالى فى قلوب العرب بمهابة البيت حتى كان الرجل يلقى قاتل أخيه أو قاتل أبيه فلا يمسه بسوء، وحرم على المحرم الصيد، حتى يتوافر الخير طول العام لأهلها.

الثانية ـ الشهر الحرام، والمعنى فيه هو الجنس على رأى كثيرين، وهو ما نختاره إذ كان الناس يتقاتلون فإذا جاء ذلك الشهر امتنعوا عن القتال، فتعود القضب إلى أجفانها وتهدأ النفوس بعد ثورتها، وتقر بعد اضطرابها، والأشهر الحرم هى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب الذى بين جمادى وشعبان، فيتمكن الناس من زيارة البيت الحرام آمنين مطمئنين حتى يتحللوا.

الثالثة ـ نعمة الهدى يساق إلى الكعبة من حيث الحجيج يحرمون، وقد يكون ذلك من أماكن بعيدة، فخير الأرض يصل إليهم موفورا، وخيرهم لا تمتد إليه يد مجرم.

الرابعة ـ نعمة القلائد. وقد جاء فى تفسير فخر الدين الرازى فى بيان وجه النعمة فيها: (والوجه فى كونها نعمة أن من قصد البيت فى الشهر الحرام لم يتعرض له أحد، ومن قصده فى غير الشهر الحرام، ومعه هدى وقد قلده، وقلد نفسه من لحاء شجرة الحرم لم يتعرض له أحد، حتى أن الواحد من العرب يلقى الهدى مقلدا، أو يموت جوعا فلا يتعرض له البتة).

﴿ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ الإشارة للقيام، جعل الله تعالى ما شرعه للكعبة والحج من محرمات وشعائر، ومن تحريم الصيد، ومن الهدى جعل كل هذا لتعلموا أن الله تعالى يعلم ما فى السموات وما فى الأرض. . . . وهنا توجد عدة أمور تثير النظر.

أولها ـ لماذا كانت تلك الشرائع المتعلقة سبيلا لمعرفة علم الله لما فى السموات وما فى الأرض؟.

وثانيها ـ عند عطف الأرض على السموات كرر ما فى المعطوف والمعطوف عليه.

وثالثها ـ لماذا قرن علم الله تعالى بما فى السموات والأرض بعلمه تعالى بكل شىء، ولماذا تكون أحكام الحج والكعبة سبيلا لمعرفة علم الله تعالى العام المحيط بكل شىء.

والجواب عن هذه الأمور هو أن ما شرعه الله تعالى لمكة وما حولها وما فيها دليل على أن الله تعالى يعلم ما فى السموات وما فى الأرض؛ لأن مكة فى أرض جدبة لا ماء فيها ولا شجر، وأنها جبال لا ثمرة فيها، وأنه لا خير يرجى من طبعها، كما قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿ **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ** ... ﴿٣٧﴾ ﴾ [**إبراهيم**]. فالسماء لا تجود عليها بغيثها منتظما والأرض لا تجود عليها بإخراج إنزالها من معادن وفلزات سائلة وغير سائلة، فجعل الله سبحانه وتعالى الحج إليها. وحرم على المحرمين ما حرم من صيد ليبقى لهم ما عندهم من وفر فى الحيوان المتأبد، ولتحمل من الأراضى الخصبة والغنية والتى فيها الثروات إلى تلك الأرض الجدبة؛ فينقل سبحانه من الفيض إلى الغيض ليعم الخير، وكانت بمكة كعبة للمسلمين، لأنها أرض لا ترام من غاصب، ولا تراد من ظالم، ثم هى فى وسط الأرض حتى قال علماء الأرضين: إن بيت الله تعالى الحرام فى وسط أرض الله الواسعة، فهى نقطة الارتكاز فى قطرها.

وقد يقال إن أرض العرب فيها البترول وفيها الزرع، ونقول إن ذلك بعيد عنها بمئات الأميال، بل ربما تجاوزت الحسبة الألف، فبينها وبين البترول البيداء الجرداء، فكان المتفهم لذلك التشريع لا بد أن يؤمن بعلم الله بما فى الأرض والسماء.

والجواب عن السؤال الثانى، هو أن تكرار (ما فى) فى قوله تعالى: ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ فيه إشارة إلى دقة العلم، وأنه لا يغادر صغير ولا كبيرة إلا أحصاها، وتقديم السموات على الأرض؛ لأن السموات فيها مصدر الرزق، كما قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات].

والجواب عن السؤال الثالث، فى كل جزء من شرع الله تعالى فيما شرعه يدل على أنه صادر عن العليم الخبير، فشريعة الله تعالى فى الميراث تدل على أنه من عند الله تعالى العليم، وشريعته فى تكريم البيت الحرام وما حرم فيه من صيد البر، وما أبيح من صيد البحر وطعامه وتحريمه القتال فى الشهر الحرام، وإيجابه سوق الهدى وغير ذلك من شعائر الحج، ومباحاته ومحظوراته دليل على علم الله تعالى العزيز الحكيم الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ كان النهى عن قتل الصيد وهم حرم سهلا على نفوس الأتقياء شديدا على نفوس الأشقياء الذين يسيرون وراء أهوائهم، وكل أمر ممنوع متبوع، وقد ابتلاهم الله تعالى بالصيد تناله أيديهم ورماحهم، وهم قريبون منه وهو قريب منهم فكان لا بد من شكائم قوية تحكم النفس وتمنعها من الانطلاق وراء إشباع الرغبات، وهى على مقربة منها، والإرادة الحازمة المسيطرة على هوى النفس صبر قوى وضبط للنفس، وقد نبه سبحانه إلى العقاب الشديد للمخالف، كما نبه إلى رجاء الرحمة والغفران لكى يكون الصبر على رجاء الله سبحانه وتعالى وخوفه، فيخشى عقابه، ويرجو رحمته وثوابه، فالمؤمن فى خوف، وقد روى أن رسول الله ﷺ قال: «لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لتعادلا»(١). فهذا النص لتقوية إرادة المؤمن، والآية فيها عبارات تنبئ عن التشديد، فيما اشتملت، فابتدأت بالأمر الحازم ﴿اعْلَمُوا﴾ وفى ذلك تنبيه شديد وإيقاظ للضمير، ليكون ما ينبه إليه من بعد، أوثق فى القلب وأشد تثبيتا، ثم أكد الخبر بـ «أن» فى بيان فى ذكر الله تعالى وصفه بشدة العقاب، وصفه بالغفران

---

(١) جاء في الدرر المنتثرة (٣٧٤) ج١، ص٦٨٠.

والرحمة، ثم تكرر ذكر لفظ الجلالة لتربية المهابة فى النفس، وتوكيد شدة عقابه سبحانه، وتوكيد غفرانه ورحمته.

والغفران ستر الذنوب، والرحمة الثواب، وأن ذلك عدل الله تعالى فلا يستوى من يحسن ومن يسىء، وبعد أن نبه الناس إلى الخير والسداد على ألسنة الرسل، قال سبحانه:

﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ فى هذا النص السامى ترشيح وتقوية لمعنى الإنذار والتبشير فى النص السابق، وفى هذا النص ما يفيد بالمعنى الضمنى أن الرسول عليه التبليغ، وأنه لا تبعة عليه بعد التبليغ، وأن المكلفين بعد تبليغه تكون تبعة الشر على الذين بلغوا، وجزاء الخير لهم، وأن الحساب بعد ذلك لله تعالى، وإنه لمحاسبهم على الشر إن فعلوه، ومجازيهم على الخير إن أدوه، ويقبل توبة العصاة إن تابوا وذلك بغفرانه ورحمته، وأن ذلك الجزاء على الخير خيرا وعلى الشر شرا يكون من عليم خبير، لا تخفى عليه خافية، فهو يعلم ما تخفيه السرائر وتكتمه، ويعلم ما يظهر على الجوارح وتعلنه، فهو يعلم السر وأخفى، يعلم ما يبدونه وما يكتمونه، والخير له جزاؤه والشر له عقابه.

﴿قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ أمر الله تعالى نبيه أن يذكر لهم أن الخير والشر لا يستويان، وأن الخبيث والطيب لا يتساويان، فلا يمكن أن يكون معاملة أهل الخبيث كمعاملة أهل الطيب، وأمر الله تعالى نبيه أن يقول ذلك، ويبينه للناس على أنه جزء من رسالته يبينه للناس ويعرفهم به أو يذكرهم إياه وهو ما ترتضيه الفطر السليمة وتدركه العقول المستقيمة، وهو بيان لطبائع هذا الوجود.

والخبيث هو الأمر المستقذر، إما لأنه فى ذاته قذر تعافه النفوس والطبائع السليمة، وإما لأن سبب الحصول عليه خبيث، فجاءه الخبث من سببه، إذ انسحب السبب على المسبب فلوثه، وإما لأنه مخل بالمروءة، فالمستقذر هو

الخبيث، وهو حسى، وأدبى، والطيب ما يكون حسنا فى ذاته وفى طريق كسبه، وترضاه النفوس المستقيمة والعقول المدركة، وتأتى الشرائع بإباحته.

وإذا كانت تلك هى القاعدة الإنسانية العالية، والعادلة، فإنه لا بد من عقاب المسىء، وثواب المحسن، ولكن الباطل له لجاجة وفيه كثرة؛ لأنه مجاوبة للذائذ الشهوات، وما يستلذ يكثر، وما يطاوع الهوى يزيد، وما يكون فيه صبر وضبط نفس يقل، وإن كان طيبا، ومهما يكثر الشر لن يتساوى مع الخير، ولذا قال سبحانه: ﴿**وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ**﴾. أى ولو أثار نفسك وعجبك واسترعى نظرك كون الخبيث كثيرا، إن الشر مهما يكثر لا يمكن أن يستحسن شرعا أو ترضى به الأخلاق، ولا يمكن أن ينقلب بالكثرة مساويا للخير بل إنه كلما كثر، وجبت مقاومته، بشدة وبمقدار كثرته، تكون شدة المقاومة، وذلك فرق ما بين شريعة الله تعالى وقوانين العباد، فإن قوانين العباد، تستمد قوتها من الكثرة، وعرف الناس، ولو كان فاسدا، أما شريعة الله، فهى للخير المحض، وإذا كثر الشر لا تتبعه، بل تقاومه، ولا ترضى به، لأنها جاءت لنشر الخير، ولا يمكن أن ترضى، وإلا ما كانت رسالات الرسل، ولا جهاد الأنبياء والصديقين والشهداء الصالحين، ولذلك أمر سبحانه بمقاومة الشر مهما كثر، فقال تعالت كلماته:

﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ قال الله تعالى فى الآية السابقة: ﴿**لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ**﴾. وأن هذه الجملة السامية تصلح الكبرى لقياس طويت صغراه، وهى مفهومة من قوله تعالى: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾. إذ الكلام يكون هكذا ولكلام الله تعالى المثل الأعلى الذى لا يصل إلى مثله البشر.. لا مساواة بين الخير والشر، والله يعاقب على الشر، ويثيب على الخير، والنتيجة لهاتين المقدمتين، أن الأشرار سيعاقبون، والأخيار سيثابون لا محالة، ولازم هذه النتيجة أن يحذر الناس فيرجوا ثواب الله ويخافوا عقابه، وذلك الحذر يكون بتقوى الله تعالى بامتلاء القلب بخشيته، والعمل على اتقاء عذابه؛ ولذا قال:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أى إذا كان كل امرئ مجزيا بعمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر، فاملأوا قلوبكم بتقوى الله وخشيته وملاحظة أنه يعلم ما تبدون وما تكتمون، فاعبدوه كأنكم ترونه، فإن لم تكونوا ترونه، فاعلموا أنه يراكم، وهو يعلم سركم وجهركم، فإن خشية الله تعالى فى أعمالكم على هذا النحو يُرجى منها الفلاح والفوز؛ لأنها سبب لذلك، فالرجاء فى: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ من العبيد، لا من الله؛ لأنه سبحانه يرجى ولا يرجو إنه بكل شىء عليم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٠١ قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ١٠٢﴾

فى الآيات السابقة بين الله تبارك وتعالى أنه لا يصح أن نحرم ما أحل، وإذا حرمناه بأيمان أقسمنا بها - بين سبحانه وتعالى تحلة أيماننا. ثم أشار من بعد إلى ما حرمه، وهو ما يكون مستقذرا فى ذاته، أو يكون تحريمه مؤقتا بزمان ومكان، وليس تحريمه على التأبيد، ولكن العرب كانوا يحرمون على أنفسهم حلالا من الطيبات بأوهام يتوهمونها من غير تنزيل جاء بتحريمها، وليس فى ذاتها ما يستقذر، وجنسها يحللونه ولا يحرمونه، ثم كان من المؤمنين من يسأل عن هذه الأمور فبين سبحانه أنه لا أمر ولا نهى إلا ما جاء به القرآن، وأنه لا يجوز أن يتقدموا بأسئلتهم حتى يبينه القرآن فكل حكم يكون فى وقته المعلوم لتستأنس فيه القلوب بأحكام الشرع جزءا جزءا حتى يتمة الله تعالى قبل أن يقبض رسوله إليه ولذلك قال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ كان المسلمون الأولون كثيرى السؤال للنبى ﷺ عن أحكام ،يسألونه عن أمور يشددون بها على أنفسهم، ويسألونه عن أمور تتجافى عن مبادئ الإسلام، ولكن لم يئن وقت تحريمها ـ لأن الإسلام شريعة عامة خالدة، وقد ابتدأ مخاطبا العرب بهذه الأحكام، ومنها من لم يكن عندهم أنس بتحريمها فاحتاجوا إلى التدرج، حتى يشربوا روح الإسلام، فينزل عليهم التحريم، وقد استأنست قلوبهم ببعض معالى الإسلام، ولقد كان منهم مخلصون يطلبون الحق فى الأمور، ولا يلتفتون إلى مبادئ التدرج فى الشرع، ومنهم غير مخلصين يريدون الإعنات، ومنهم بين أولئك وهؤلاء من يظهرون بألسنتهم التفقه والذين طلبوا التشديد. وقد سكت النبى ﷺ ليطلب الناس ما يتيسر لهم، وما يمكن أن يكون أقواهم قادرا على أشده، ويروى أنه عندما فرض الحج فى القرآن الكريم إذ قال تعالى: ﴿... وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ... (٩٧)﴾ [آل عمران]. وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الله كتب الحج فحجوا» فسأله عندئذ أعرابى قائلا «أكل عام يارسول الله» فقال عليه السلام: «ويحك، ماذا يؤمنك أن أقول نعم، ولو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت لكفرتم، ألا إنما أهلك الذين من قبلكم أئمة الحرج، والله لو أنى أحللت لكم جميع ما فى الأرض، وحرمت عليكم منها موضع خف لوقعتم»(١).

كانت هذه الأسئلة تقع من المسلمين الأولين، والذى نراه خاصا بالآية التى نتكلم فى معناها الأسمى ما كان يجرى على الألسنة من أسئلة خاصة بأمر الشرع الذى لم ينزل فيه إباحة ولا تحريم كالخمر التى حرمت تحريما قاطعا بعد أن أشرب المؤمنون حب الإسلام، ونبذوا عادات الجاهلية التى لا تتفق مع مبادئه، ونحسب أن هذه هى موضوع الآية الكريمة.

---

(١) مسند الشاميين (٩٦٥) ج٢، ص٨١ عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه. ورواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن جيد.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ والمعنى على هذا السياق لا تسألوا عن أحكام أمور لم يجئ حكمها المبتوت فى الإسلام، وشرع الله تعالى فيما كتب فى علم الله العلى الحكيم أنها محرمة، ولو أبدى سبحانه هذا التحريم لهم لساءهم ذلك البيان لعدم الفهم، ولأنهم لا يزالون متأثرين ببعض أحكام الجاهلية، كالخمر، فإن الشرع الإسلامى كرهها، ولو سئل عنها، فإنه لا يمكن أن يصرح بإباحتها، ولا يمكن إلا أن يكون بتحريمها، والتحريم القاطع قبل خلع الربقة الجاهلية تماما يسوء بعض النفوس، وهذا معنى قوله تعالى:

﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ ولو أنهم تركوا السؤال حتى نزل القرآن بالحكم فى ميقاته الذى وقته الله تعالى ما كان فى الحكم مفاجأة تسوء؛ لأنه يكون بعد إشراب القلوب بأخلاق الإسلام، ولذا قال سبحانه:

﴿وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ والمعنى الظاهر من هذا أن القرآن عندما ينزل بها تحريما ومنعا أو إجازة وإباحة تكون النفس المؤمنة قد استعدت لتلقيها كما تهيأ الأرض الخصبة للزراعة فيجيء البذر والماء فى إبانهما فتنبت نباتا حسنا بإذن ربها، وإن نزلت فى القرآن كان السؤال فى وقته وفى موضعها استفساراتها، ويكون بيان النبى ﷺ تفسيرا، وعبر فى حرف الشرط بـ «إن» للإشارة بقلة السؤال؛ لأن البيان يكون كاملا من كلامه تعالى ومن سنة النبى ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ الضمير فى عنها قال أكثر المفسرين: إنه عائد على الأسئلة التى تضمنها قوله تعالى: ﴿لا تَسْأَلُوا﴾. ولكن ذلك التضمين ليس بواضح، والأولى عندى أن نقول: إن الضمير يعود على الأشياء نفسها؛ لأن الضمير فى «عنها» يعود إلى الأشياء، وبمقتضى النسق البيانى لن يعود الضمير إلى شيء، ولذلك العفو عن الأشياء مغزاه الشرعى؛ لأن الناس قد يتساءلون عن هذه المحرمات قبل تحريمها، فيتساءلون عن الخمر قبل تحريمها، ويتساءلون عن تحريم زواج المؤمنة بالكافر قبل التحريم، وعن التبنى قبل التحريم، وعن زواج امرأة

الأب قبل التحريم، وقد أجيب عن كل هذا، عفا الله عما سلف، فالمعنى عفا الله عن هذه الأشياء قبل التحريم، وبهذا يتحقق معنى العفو، وهو رتبة بين المباح والمطلوب، وأن الأشياء التى كان مسكوتا عنها أمدا طال أو قصر فى الإسلام ثم حرمت بعد ذلك لا يمكن أن تكون مباحة؛ لأنه لا تنطبق عليها حقيقة المباح؛ إذ إن حقيقة المباح أنه يكون متساوى الضرر والنفع بالنسبة للمتناول؛ ويرجح أحدهما التناول؛ أو الحاجات الشخصية؛ ولا يقال عن شى حرمه الشارع تحريما قاطعا لا شبهة فيه إنه متساوى النفع والضرر؛ وما دام لم يوجد ما يثبت طلب الكف عنه، فإنه يكون فى فترة السكوت مع كونه ضارا قد عفا الله تعالى عنه.

﴿**وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ**﴾ هذا ختام ذلك النص، ختم بهذين الوصفين للذات الكريمة للإشارة إلى أن جعل هذه الأشياء القبيحة فى ذاتها كالخمر والتبنى وزواج امرأة الأب فى موضع العفو، ما دام لم ينزل شرع بتحريمها لا يكون إلا من غفور يغفر الذنوب، ولا يحاسب إلا أن يكون نذير يمنع وينذر بالعقاب، كما قال سبحانه: ﴿ ... **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً** ﴿١٥﴾ ﴾ [**الإسراء**].

وكان وصفه سبحانه وتعالى بالحلم، وهو فيما يتعلق بالعباد التأنى وأخذ الأمور بالتؤدة والروية، وبالنسبة لله تعالى علم الحكيم الذى يقدر لكل وقت ما يقتضيه، وللناس ما يصلحهم فى معاشهم ومعادهم، فهو يؤخر التحريم، حتى تستأنس القلوب ويستمكن الإيمان، وهو لا يأخذ بالهوادة ما يتعلق بأصل الإيمان كالتوحيد وترك الشرك، بل يبتدى به من غير موااناة، ويقول لنبيه: ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ** ﴿٩٤﴾ ﴾ [**الحجر**]؛ لأنه لب الدين، ليس فيه هوادة، ولا لأحد فيه إرادة.

﴿**قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ**﴾ هذا قصص للعبرة ساقه لأولئك الذين كانوا يتعرفون أحكام الأشياء قبل ميقاتها ويتلهفون على معرفة حكم الله فى أمور كانوا يريدون بيان الحكم فيها، وكان موجب ذلك السؤال والتلهف على معرفة الحكم أن يستجيبوا لداعى الله تعالى بالأمر والنهى، ولكنهم بعد أن

جاء الحكم المقرر الثابت تركوه هاجرين له، بل منكرين وجاحدين، فليست العبرة بتعجل المعرفة إنما الاعتبار للإيمان به، وأخذ الأنفس بتنفيذه، والمبادرة بالاستجابة.

والضمير فى قوله تعالى ﴿سَأَلَهَا﴾ يعود إلى الأشياء على تقدير السؤال عن حكمها، وسأل تتعدى بنفسها، كما تتعدى بـ «عن»، وقد كان سؤالهم قبل الميقات الذى عينه الله تعالى، ثم لما حان الميعاد جاء التحريم، مع أنهم كانوا يسألون قبل الميقات جحدوه وكفروا به، وفى الكلام مقدر محذوف دل عليه السياق، وهو أنهم سألوا فى غير الموعد، ثم نزل الحكم فى الموعد، فأصبحوا كافرين، وفى الكلام بعض إشارات بيانية، يتقاضانا البحث ذكرها.

الأولى ـ حذف إنزال التحريم، وحذفه لأنه ليس العبرة فيه، إنما العبرة فى أنهم سألوا ولجوا فى السؤال ثم لما جاء التحريم كفروا.

الثانية ـ التعبير بـ «ثم» الدالة على التراخى؛ لأنه يدل على التباعد المعنوى بين اللجاجة فى السؤال ثم الجحود والكفر بعد ذلك كأنهم كانوا يريدون حكما على هواهم، فلما جاء بما لا يهوون كفروا.

الثالثة ـ التعبير بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾. فكلمة أصبحوا تدل على أنهم كانوا مؤمنين، والتحريم حولهم من الإيمان إلى أشد الجحود، إذ صاروا كافرين، أى أن الكفر صار وصفا لهم، ولم يكن حالا عارضة لهم والله الهادى إلى سواء السبيل.

مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟

حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

كان العرب يحرمون على أنفسهم أنواعا من النعم، ويحسبون ذلك دينا يتبع، ويتقرب به إلى منشىء الخلق من غير دليل، ولكنه وَهْمٌ سيطر عليهم، واستمكن فى قبائل مختلفة منهم، فبين الله تعالت كلماته أن هذا ليس من شرع الله فى شيء ولا سبب له إلا وهم مسيطر، ونسبوه إلى الله تعالى افتراء عليه، ولأنهم لا يعقلون ما ينبغى فى التحريم والتحليل لأن التحليل لذات الشيء، وقد خلقها الله تعالى طيبة، وكان كسبها طيبا، والتحريم، إما لأذى فى ذات الشيء، أو أن فيه أذى لغيره كتحريم الصيد فى ميقات الحج.

وقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ﴾ معنى «جعل» هنا أنشأ وشرع، والمعنى ما أنشأ الله تعالى شرعا فى التحريم فى شيء من البحيرة والوصيلة والسائبة والحام، أى هذه الأشياء ما شرع الله تعالى أحكاما خاصة بنعم متصفة بهذه الأوصاف، بل هى وسائر النعم سواء، والتفرقة بينها وبين غيرها من وهم كان عندهم، لا من حقيقة ثابتة تدركها العقول، ويظهر أن العرب كانوا متفقين فى الجملة على تحريم هذه الأنواع فلا يأكلونها أو لا يأكلها العامة منهم؛ إذ تنذر للكهنة، وذلك على اختلاف القبائل فى أماكن بلاد العرب، ومع اتفاقهم على أصل التحريم بالنسبة لهذه الأشياء، قد اختلفت الروايات فى حقيقتها، واختلف اللغويون باختلاف الروايات فى حقيقة معناها. ويظهر أنه ليس اختلاف رواية أو اختلاف روايات متعارضة، إنما هو اختلاف قبائل العرب، وليس لنا أن نحصى

الروايات عدا ونراجح بينها، فنحن نميل إلى تصديقها جميعا، على أنها اختلاف بين القبائل، والمهم فى القضية أنهم يحرمون بأوهامهم، ويفرقون بين النعم بأخيلة وأوهام من غير أى أصل دينى ثابت.

ولنكتف فى تقريب هذه الأصناف برواية واحدة، وبلغوى واحد، وهو الراغب الأصفهانى، فالبحيرة عنده هى الناقة الى تلد عشرة أبطن فتبحر أذنها أى تشق، وتترك ويسيبونها فلا تركب ولا يحمل عليها، وقد قال تعالى فى ذلك:

﴿**مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ**﴾ وذلك ما كانوا يجعلونه بالناقة إذا ولدت عشرة أبطن شقوا أذنها، فيسيبونها، فلا تركب ولا يحمل عليها، والسائبة عندهم هى التى تسيب فى الرعى فلا ترد عن حوض، ولا علف، وذلك إذا ولدت خمسة أبطن، وواضح أن الفرق بينها وبين البحيرة فى المزايا أن ركوبها والحمل عليها لايمنع، بينما يمنع فى البحيرة.

والوصيلة هى: الشاة التى تلد توءمين ذكرا أو أنثى، قالوا وصلت أخاها، فلا يذبحونه من أجلها كما لا يذبحونه، والحام هو كما قيل الفحل إذا ضرب عشرة أبطن يقال حمى ظهره، فلا يركب.

هذه تعريفات موجزة من بين الروايات المختلفة ذكرنا هذه الرواية لنقرب معناها، وكان تقديسها أو تكريمها لمعنى الولاد فيها، وأن بعضهم كان ينذرها نذرا لآلهتهم، وبعضهم كان يبيحها للكبراء دون الضعفاء ويحسبون ذلك دينا، وما هو إلا افتراء على الدين، ولذا قال سبحانه:

﴿**وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ**﴾ أصل الفرى معناه: القطع، والافتراء فى القرآن الكذب القاطع، فمعنى افتروا على الله الكذب، قالوا كذبا مقطوعا بأنه كذب، وما ذكر الافتراء إلا مقترنا بالكذب للإشارة إلى أنه كذب مقطوع بأنه كذب، ومعنى النص الكريم: أن الله تعالى لم ينشىء فى شرعه شيئا من البحيرة والوصيلة، ولكن الذين كفروا بسبب كفرهم وضلالهم قد قالوا بهتانا فحرموا على أنفسهم ما أحل الله، ونسبوا التحريم بهتانا

إلى الله تعالى، وما دفعهم إلى ذلك إلا أوهام مسيطرة على أكثرهم فلا يعملون عقولهم، ولا يفكرون فى أمورهم تفكير العقلاء، بل أوهامهم هى المتحكمة فيهم، ولذا ختم سبحانه وتعالى النص بقوله تعالت كلماته ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾.

ومع هذا الضلال المبين لايستجيبون لداعى المرشد الهادى الذى يدعوهم إلى ما أنزل الله، ولذا قال سبحانه:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ ما كان بالنسبة للحلال والأطعمة صورة مما هم عليه من الأوهام، وهى وإن لم تكن فى ذاتها أمورا كبيرة تدل على عقل جامد لا ينفذ إليه الحق السائغ الذى تستقيم عنده العقول، وترتاح إليه، فإن صغائر الأمور تدل على النفوس التى تتردى فى كبارها، وأولئك لجمود تفكيرهم وطمس بصائرهم إذا قيل لهم تعالوا، أى تساموا واعلوا بتفكيرهم لتدركوا ما أنزل الله تعالى من قرآن يتلى، وما بين به النبى ﷺ من نيرات واضحات، إذا قيل لهم أعرضوا بجانبهم، تولوا وقالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا، وتلك حجة كل ضال مقلد لمن سبقوه وترك كل هداية مرشدة، والامتناع عن الإصغاء إلى الحق.

ولم يذكر الفاعل فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا﴾ وذلك لكثرة الدعاة وتكرار الدعوة، فالله يدعوهم إلى الحق، والنبى ﷺ يدعوهم، والمؤمنون بأقوالهم ولسان حالهم يدعونهم، والدعوة لهم مكررة ليست واحدة حتى يذكر قائلها، ويندد الله سبحانه وتعالى عليهم بقوله:

﴿أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ والمعنى أيقولون حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا، ويقلدونهم، ويتبعونهم، ويغلقون باب الهداية عليهم ولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا من الدين، ولا من الحلال والحرام، ولا يهتدون إذا بين لهم الطريق، أى ولو كانوا حائرين بائرين لا يدركون الحق فى ذاته ولا يهتدون إليه إذا أرشدوا وبين لهم.

ولقد كان النبى ﷺ شديد الرغبة فى هدايتهم، حتى خاطبه ربه بقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء].

وكان كذلك المؤمنون، فبين الله أنهم غير مسئولين عن إيمانهم بعد أن يرشدوهم، فقال تعالت كلماته: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾.

كان المؤمنون يعجبون من حال الكفار كيف يتبعون آباءهم على غير بينة وكيف يستمرون فى غيهم، ومنهم ذوو قربى، فكانوا يرشدونهم، ويجزعون لإصرارهم، فبين الله تعالى فى هذا النص الكريم أنهم بعد البيان ليس عليهم إثمهم، بل عليهم أن يلزموا بعد التوجيه أنفسهم، ومعنى قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾. احفظوا أنفسكم وصونوها عن الاتباع من غير تفكير، فلا تقلدوا آباءكم من غير بينة، واهتدوا بهدى الله، ولا يضركم ضلال من ضل واستمر على غيه بعد أن أرشد إلى وجه الحق، ولكن لم يدخل قلبه بل استمر على ضلاله القديم؛ فهذا النص الكريم يفيد أمرين: أولهما ـ أن يحفظوا أنفسهم، ويقوها شر التقليد المردى، ويعملوا على أن تبقى الهداية منيرة سبيلهم عامرة قلوبهم بها. وثانيهما ـ أنه لا يضرهم ضلال الضالين، ما داموا قد تجنبوا طريق الغواية هم، وأرشدوهم إلى الحق.

ولعل ظاهر الآية يوهم أنه لا يضر ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، مادام لا يضر المؤمن ضلال من ضل، وقد ظهر ذلك الفهم الخطأ فى عهد صديق هذه الأمة أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه، فقال: إنكم تقرءون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وتضعونها فى غير موضعها، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم ينكروه يوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب»[1] والآية ليس فيها دليل ناه عن الأمر

---

(١) رواه بنحوه أحمد: مسند العشرة – مسند أبي بكر رضي الله عنه (١). ورواه بلفظ مقارب جدا: ابن ماجه: الفتن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤٠٠٥).

بالمعروف والنهى عن المنكر، والآيات الآمرة بهما، والأحاديث الواردة فيهما لا تزال قائمة ولا ينسخها وهم يسبق إلى ذوى الأوهام من غير نص يدل عليه، ولقد سئل النبى ﷺ عن مقام هذه الآية بالنسبة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقال عليه الصلاة والسلام: «بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شرا مطاعا، وهوى متبعا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذى رأى برأيه، فعليك بخاصة نفسك ودع العوام، فإن من ورائكم أياما الصابر فيهن مثل القابض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون كعملكم»(١) وروى عن بعض التابعين أنه قال: كنت فى حلقة فيها أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فقلت أنا: أليس الله تعالى قال فى كتابه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾. فأقبلوا على بلسان واحد، وإنى لأصغرهم سنا، وقالوا: أتنزع آية من القرآن لا تعرفها، ولا تدرى ما تأويلها؟! فتمنيت أنى لم أكن تكلمت، وأقبلوا يتحدثون، فلما حضر قيامهم، قالوا: إنك غلام حديث السن، وإنك نزعت آية ولا تدرى ما هى، وعسى أن تدرك ذلك الزمان، إذا رأيت شرا مطاعا وهوى متبعا، وإعجاب كل ذى رأى برأيه، فعليك بنفسك لا يضركم من ضل إذا اهتديت.

وخلاصة المروى عن آثار رسول الله ﷺ والذين اتبعوهم بإحسان أن الآية لا تمنع القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، بل القيام به واجب محكم وإنه لا يتم الاهتداء المنصوص عليه فى الآية إلا بالقيام بهذا الواجب الخطير، وإنه لا يترك إلا بحقه، وذلك إذا كان النداء بالحق يورث الفتن عندما يكون الهوى مطاعا والشر متبعا ولا يستطيع منادى الحق، أن يجد مصيخا(٢) وقوله يزيد حدة الخلاف، ولا يكون سماع لذوى الكيس والرشد، ولقد قال عبدالله بن المبارك: إن هذه الآية أوكد فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ لأن الخطاب لجماعة

(١) رواه الترمذى: تفسير القرآن - ومن سورة المائدة (٣٠٨٥) وقَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ. كما رواه أبو دود: الملاحم - الأمر والنهي (٤٣٤١)، وابن ماجه: الفتن (٤٠١٤)، وفيه زيادة: «ورأيت أمرا لا يَدان لك به» أي لا قدرة لك به.

(٢) مصيخا: مستمعا. القاموس - صيخ.

المؤمنين، ومؤداها احفظوا أنفسكم معشر جماعة المؤمنين، ولا يهمكم ضلال غيركم من الأمم، ولا يجعلكم تغيرون أموركم إلى فساد، ولا شك أن من حفظ جماعة المؤمنين القيام بذلك الواجب العظيم.

وفى الحق إن القيام بهذا الواجب هو خاصة الأمة الإسلامية كما قال تعالى: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ** (١١٠) ﴾ [**آل عمران**]. ولا يصح أن يُتخلى عنه، وليس فى مصادر الشريعة ولا فى مواردها ما يسوغ التخلى، وأن ترك القول فى أيام الفتن الطحياء(١) التى يكون القول مؤديا إلى زيادة فى الفتن والاتهام، فلا يجدى قول، ولا يهدى فكر إلى الرشاد، فيكون السكوت أولى من الكلام، حتى تهدأ عجاجة الفتنة، وتعود القلوب إلى جنوبها، ويوجد السميع، ولكن فى هذه الحال يكون الإنكار القلبى، وإرشاد القابلين للإرشاد، فى غير ضجيج ولا عجيج والله سبحانه وتعالى راد الحق إلى نصابه، والقضب إلى أجفانها، وهو بكل شىء عليم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ
بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا
عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ
فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ
فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ
وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ

(١) من الطيح وهو الهلاك كما في «العين»: وطوَّحْتُ به: حَمَلْتُ على رُكوبِ مَفازةٍ يُخافُ هلاكُه فيها. قال أبو النَّجْم: يُطوحُ الهادي به تطويحًا.

أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ
ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ
مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ
أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ
أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

فى الآيات السابقة ذكر سبحانه وتعالى أحكام الطيبات وأنه لا يجوز تحريمها، وأن المشركين يحرمون على أنفسهم ما أحل الله تعالى، ويدعون أن تحريم ذلك دين متبع، وقد بين سبحانه وتعالى بطلان ذلك، وبين سبحانه وتعالى أن على المؤمنين أن يحفظوا أنفسهم، ويلتزموا الهدى، وألا ينحرفوا عن الحق، وفى هذه الآيات المقبلة بيان طريق من طرق الإثبات وهو الإثبات بالشهادة، والجملة السابقة كانت لبيان الحق فى عامة صوره وأحواله، وهذه الآيات فى صورة منه وهى أدق الصور، وهى التى تكون بعد الوفاة، لقد قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ قال فخر الدين الرازى فى الربط بين هذه الآية وما قبلها: «اعلم أنه تعالى لما أمر بحفظ النفس فى قوله تعالى: **﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾** أمر بحفظ المال فى قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾**»، وموضوع هذه الآية أدق الموضوعات فى باب الإثبات، وقد قرر علماء القانون الوضعى دقة الإثبات فى موضوعها، وهو الوصية التى تكون فى سفر، ويموت صاحبها فى هذا السفر، وإنهم قد تساهلوا فى طرق الإثبات فيها تحققا من صحة الوصية والأموال ومآلها، حتى لقد قال بعض القانونيين: إنه تثبت الوصية بالكتابة على الرمل لمن حضرته الوفاة، وهو نائم على ذلك الرمل؛ وذلك لأن الإثبات فى هذه الحال التى مات فيها صاحب الوصية من غير أن يتمكن من أن يكتب وصيته صعب.

ولهذا شدد الإسلام فى ضرورة كتابة الوصية، والشخص قوى معافى، حتى لا يدركه الموت قبل أن يتمكن، حتى أن عبدالله بن عمر ليقول: (لا يحل لمؤمن إلا أن يبيت ووصيته مكتوبة قد وضعها تحت وسادته).

الخطاب فى قوله تعالى للمؤمنين بقوله تعالت كلماته: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ للإشارة إلى أنه من مقتضيات الإيمان العناية بالوصية، ونقلها وتنفيذها بالعدل، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ ... (١٨٢)﴾ [البقرة].

والشهادة على الوصية نصابها اثنان ذوا عدل منكم والعدالة هى الصدق فى القول والأمانة على المال والقيام بأوامر الدين، والانتهاء عن منهياته، بحيث لا يجاهر بمعصية، ولا يرتكب منكرا إلا اللمم كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ ... (٣٢)﴾ [النجم] والقيام على الوصية يكون بتنفيذها كاملة موفورة، والمحافظة على الأموال، ونقل إرادة صاحب تلك الأموال.

وإنه لا يتوافر العدل فى كل الأحوال فى الوصية، فإنه قد يكون الموت فى سفر، ولا يتوافر العدل من المؤمنين، فقد يكون المصاحب للمتوفى من غير المؤمنين، أو من غير العدول، ففى هذه الحال يتساهل وتقبل شهادة غير المسلمين، ولذا قال سبحانه:

﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ ما المراد بهذا المغاير؟ وذلك يستدعى بلا ريب تفسير (منكم) فقد قال بعض العلماء: إن منكم معناها من قبيلتكم، أو من أقاربكم، ويكون من غيركم معناه من غير قبيلكم أو من غير ذوى قرابتكم، والجميع فى دائرة أهل الإيمان، ويتمسك هذا الفريق بأنه لا تقبل شهادة غير المؤمن، فلا يمكن أن يكون المراد من غيركم الكافرين؛ لأن الكافر لا تقبل شهادته على المؤمن عندهم.

وقد قال آخرون: إن المراد بقوله تعالى ﴿مِّنكُمْ﴾ هو أن يكون الخطاب للمؤمنين؛ لأن النداء فى الذين آمنوا لا فى قبيل منهم، إذ النداء لهم قاطبة لا لفريق منهم، ولذلك يكون الاثنان اللذان من غيرهم من غير المؤمنين، ومقتضى هذا التخريج أن تقبل شهادة غير المسلمين فى هذه الحال، وقد أجازها جمع من التابعين منهم سعيد بن المسيب وابن سيرين، ويحيى بن يعمر، وعكرمة، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والشعبى، وإبراهيم النخعى، وقتادة، وشريح القاضى، وهذا رواية عن أحمد بن حنبل، وقد قرروا أن شهادة غير المسلم على المسلم تقبل فى حال السفر، وعلى أن تكون الشهادة فى وصية كما نص القرآن الكريم، وذلك لمقام الضرورة، ولمنع ضياع الحقوق ما أمكن ولأن ذلك يشبه التحرى، ويكون المراد من العدالة الاشتهار بالصدق والأمانة، ومنهم من يكون كذلك، وإن أصاب الضلال اعتقاده، وثانيا لأن قبول شهادتهم استثناء فيقتصر على موضع الوصية، فيقتصر على مورد النص، وهى تقييد الحال بحال السفر، وتقييد الموضوع بأن يكون فى الوصية.

وهنا إشارات غير لفظية:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ﴾. المراد به إذا سافرتم؛ لأن المسافر يضرب فى الأرض، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾. أى نزل بكم، وسماه سبحانه وتعالى مصيبة؛ لأنه بطبيعته يؤلم أو يصحبه أو يقارنه أو يسبقه آلام نفسية، ولأنه حق ليس بمحبوب وخصوصا لمن يموتون حتف أنفسهم، ولا يموتون استشهادا فى سبيل الله تعالى، ورجاء لقائه، ولأنهم يفدون بموتهم جماعة المؤمنين؛ فالثمن الذى أخذوه أغلى من الموت الذى قدموه.

الثالثة ـ أنه عندما ذكر سبحانه الاثنين من غير المؤمنين لم يذكر العدالة ولكن المفروض أن يكونا صادقين اشتهرا بالأمانة، ولكن لم تذكر العدالة؛ لأنه لا يمكن أن يكون غير المؤمن عدلا عدالة مطلقة، بل تكون مقيدة.

هذا، ويلاحظ أن الأئمة الثلاثة مالكا والشافعى وأبا حنيفة وأصحابه لا يقبلون شهادة غير المسلم على المسلم مطلقا في سفر أو حضر، فى وصية أو غير وصية، ويظهر أنهم يسيرون على التخريج الأول.

وقد بين سبحانه طريق أداء الشهادة، فقال: ﴿**تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ**﴾ الضمير فى قوله تعالى: ﴿**تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ**﴾ يعود على الشاهدين ذوى العدل من المسلمين أو من غيرهما، والحبس الإمساك لأداء الشهادة اللازمة حتى تؤدى، والصلاة كما يفسر التابعون الذين تلقوا تفسير أصحاب رسول الله ﷺ يراد بها صلاة العصر؛ إذ يكون وقت استجمام النفس، واستحضار عظمة الله تعالى، وطيب الجو، والفقهاء يعتبرون من السنة سماع الشهادة بعد صلاة العصر، حيث تكون النفوس قارة مطمئنة، وإذا كانا غير مسلمين، فإنهما يسمعان بعد صلاتهم.

وهذا حكم عام، ويلاحظ أن شهود الوصية لهم صفتان: إحداهما ـ صفة الشاهد العدل المخبر عن الواقع الناطق بالصدق فيه الذى يشهد على مثل الشمس عيانا، الصفة الثانية ـ أنهما وصيان للميت أمينان على ماله، يحافظان عليه، حتى يصل إلى أهله، ويسلم إليهم موفورا غير منقوص، ولذلك كان حقا عليهما أمانة الله تعالى، ولذلك كان أى ريب فيهما يؤدى إلى ضياع المال وحق المتوفى، وحق ذويه، ولذلك شرع القسم إن كانت ريبة أى ريبة كانت، ولو كانت نفسية ليس لها مظاهر مادية، ولذا قال: ﴿**فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ**﴾ وهذا النص الكريم يفيد أن الحبس بعد الصلاة والقسم على صدق القول لا يكون إلا حال الارتياب، وبهذا يرد قول الذين يقولون: إن الشهود لا يستقسمون، أولا ـ لأن هؤلاء ليسوا شهودا من كل الوجوه، لأن لهم صفة أنهم أوصياء، والأوصياء يحلفون إن كان ثمة ريبة فى تصرفهم، وثانيا ـ لأن الحال حال استثنائية فيجب ما أمكن الاحتياط، والحلف عند الارتياب، فلا بد من توثيق القول بالوثائق، لكى يكون الاطمئنان بدل الشك والارتياب، وبين سبحانه تتميما للاستيثاق صيغة اليمين، فقال:

﴿لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الآثِمِينَ﴾ الشراء يطلق بمعنى البيع، والمعنى لا نبيع يمين الله تعالى الذى أقسمنا به، ولا عهدنا الذى عاهدناه بهذه اليمين بأى ثمن كائنا ما كان وبأى قدر كان، فالضمير يعود على القسم بالله المفهوم من قوله تعالى: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أى ولو كان الذى يستفيد من شهادتنا ذا قرابة قريبة، فكلمة قربى لا تطلق إلا على القرابة القريبة التى تحمل غير الأتقياء على الكذب فى الشهادة، ومن موضوع القسم، والتغليظ فيه عدم كتمان الشهادة، وكتمانها هنا يشمل ثلاث صور من الكتمان: أولاها- أن يخفى بعض الحق، وثانيها ـ أن يخفى بعض الموصى به فلا يذكره كله، والصورة الثالثة ـ لمن لا ينقل كلاما للموصى يحرر إرادته. ومن مؤكدات القسم أن يقولوا مع قولهم فى القسم «لا نكتم»: ﴿إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الآثِمِينَ﴾.

وذلك بأن يقروا على أنفسهم بالإثم إن حادوا أو كذبوا فى يمين الله، أو قالوا غير الحق الذى كانوا أوصياء عليه، وقد أكدوا الإثم على أنفسهم فى إيمانهم بمؤكدات أربعة: أولها ـ التعبير بالجملة الاسمية، ثانيها ـ التوكيد بـ «إنا» ـ ثالثها ـ اعتبار الحكم على أنفسهم بالإثم نتيجة منطقية لأعمالهم، ولإخفائهم الحق، ورابعها ـ أن يخرجوا من زمرة الأبرار الأطهار ويدخلوا فى زمرة الآثمين الأشرار، وأ الأمر بالنسبة للذى غيب فى التراب، وهو لا ينطق بما يريد، ويبين ما عليه حاله وماله يوجب الاحتياط فيهما قبل الشهادة، والتحرى على أمره بعد وفاته، فعسى أن يكون حق قد ضاع شيء، وقد تبين سبحانه حال العثور عليه، فقال:

﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ﴾ عثر الرجل يعثر عثرا إذا وقع على أمر لم يكن معلوما من قبله، ولم يقع عليه غيره ممن يهمهم، ويقال: أعثرت فلانا على أمر أطلعته عليه، وكل من اطلع على أمر كان خفيا يقال: قد عثر عليه، والعثور على الشيء يكون فى الغالب العلم الذى لم يكن له مقدمات عنده، بل ربما يكون الإطلاع عليه بالمصادفة.

والأمر فى هذه الحال الذى يموت فيها المورث يكون محل جهل إذ يموت فى سفر، ولا طريق للعلم إلا عن طريق هذين الشاهدين اللذين لهما مع الشهادة صفة الوصية، والعثور يكون بمثل الاطلاع على شىء من ماله عندهما لم يكن قد جرى ذكره على لسانهما، ومعروف عند ورثته أنه كان يملكه، أو يظهر عليهما يسار مفاجئ ويتبين من قرائن الأحوال أنه كان من ماله، أو يظهر من كتب أرسلها المتوفى قبيل وفاته تدل على ما كان يملكه عند الوفاة، ولم يذكرا فى شهادتهما وهكذا يكون العثور على شىء لم يكونوا يعلمونه.

ومعنى قوله تعالى استحقا إثما ـ أى أنهما خانا فى الأمانة، فلم يقوما بحق الوصاية، وكذبا فى الشهادة فلم يصدقا، وحلفا يمينا غموسا تغمس صاحبها فى النار، فاستحقاقهما للإثم بسبب ذلك الكذب وتلك الخيانة، والحلف الكذب، وقوله تعالى: ﴿**اسْتَحَقَّا إِثْمًا**﴾ تتضمن كل هذه المعانى وغيرها، والإثم هو هذه المعانى كلها، والعثور على ما يتضمن ضياع حقوق الورثة، وذهاب أموالهم، وما قالوه فيه بخس لما يستحقون، وضياع لما يملكون، إذ قوله تعالى حين الوصية أى حين إخبار المتوفى بأمواله وإيصائهم بالمحافظة عليها، وتوزيعها بين مستحقيها وإذا كانت جناية هؤلاء على المستحقين للتركة، فالقول قول المستحقين يدلون به، ولذا قال سبحانه: ﴿**فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا**﴾. أى فشاهدان آخران يقومان فى إحقاق الحق، وإظهار الحقيقة، وبيان ما خفى من إرادة المتوفى وأمواله وما له من حقوق وعليه من واجبات مقام الأولين، وهذا التعبير من ألطف التعابير بعد ظهور الإثم، إذ إنه ينبئ عن التعاون بين هؤلاء الآثمين، والأبرياء فى إظهار الحق، إذ إن المجنى عليهم يقومان مقام من جنوا.

وقد بين سبحانه مَن الذين يختار منهم الآخران اللذان يقومان، فقال سبحانه: ﴿**مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ**﴾ فى هذا النص السامى بيان من يختار منهم، وكيف يختاران، والضمير فى قوله تعالى ﴿**اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ**﴾ يعود على الإثم المذكور فى من استحقا إثما، وهو الفاعل؟ والمعنى أن الذى يكون منهم الآخران

الذين استحق الإثم عليهم أى حقت آثاره ومغبته عليهم وهم الورثة، وهذا على قراءة الفعل بالبناء للمعلوم، ومعناها - كما رأيت - الذين حقت عليهم مغبة الإثم ونتائجه، وهم المستحقون للمال بعد وفاة المتوفى بوصية المورث أو بوصية الله تعالى بالميراث، وهناك قراءة بالبناء للمجهول(١)، ومعناها الذى استحق عليهم أى أخذ منهم بمقتضى الشهادة الباطلة، والمؤدى فى القراءتين واحد.

ذكر النص أنهما الأوليان بالنطق بالحق لأجل الورثة، إما لأنهم أقرب الورثة أو لأنهما أرشدهم، أو ألحق بمحبتهم.

ومعنى النص الكريم على هذا أن اللذين شهدا المتوفى عند وفاته هما أولى الناس بذكر الحقيقة، وإن كان ارتياب يحبسان بعد الصلاة ويستقسمان قسما موثقا، فإن ظهر ما يدعو إلى تكذيب شهادتهما فى كلها أو فى بعضها، كان للمستحقين للتركة حق الشهادة ويختار أولاهما بالتحدث عن المتوفى، وهذا معنى (أوليان)، وهى خبر لمبتدأ محذوف، وتدل على طريقة الاختيار، وإن هؤلاء لأن المال يئول إليهم لا يقبل قولهم إلا بيمين لأنهم بمنزلة المدعى عليه بكلام الأوصياء الذين يكذبونهم، ولذا قال سبحانه:

﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾
الفاء هنا للإفصاح عن شرط مقدر، وتقديره إذا كانا يتقدمان لإحقاق الحق فلابد أن يقسما بالله، وهنا إيجاز معجز، إذ يقسمان بالله تعالى على الختل(٢) فى الأمانة وعلى ما يريان أنه الحق، ثم يقسمان مع ذلك على أمرين أولهما ـ أن شهادتهما أحق بالقبول من شهادة الآخرين لصدقها، ولظهور الخيانة فى قولهم، ولأنه فقدت قوتها لعدم الأمانة، وثانيهما ـ أن يقسما على أنهما ما اعتديا، بأخذ

---

(١) قرأها بالفتح ﴿اسْتَحَقَ﴾ حفص، والأعشى عن أبي بكر عن عاصم (غير النقار، وجبلة)، وقرأ الباقون بالضم، أي: ﴿اسْتُحِقَّ﴾. أفدته من غاية الاختصار - برقم (٨١٧).

(٢) فيقسمان على (عدم) الختل. والختل: الخديعة. من: خَتَلَه يَخْتِلُه ويَخْتُلُه خَتْلاً وخَتَلاناً: خَدَعَه. كما في القاموس: ختل.

ما ليس بحقهما، وكان التعبير بنفى الاعتداء؛ لأنهما مطالبان. والمطالب يخشى اعتداؤه؛ لأن كذبه يتضمن اليمين الغموس، ويتضمن الأخذ بغير حق، فيكون اعتداء، ولقد أكد الله سبحانه وتعالى عليهم عدم الاعتداء بأن يقولوا: ﴿**إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ وذلك فيه تأكيد لعدم الاعتداء، وبيان أن شهادتهما أحق من شهادة الأولين، إذ لو لم يكونوا صادقين لكانوا ظالمين، وقد أكدوا ظلمهم بأربعة مؤكدات: أولها - الجملة الإسمية، وثانيها - بأن المؤكدة، وثالثها - بإثبات أن الحكم بالظلم له مقدماته فيكون منطقيا، ورابعها - دخولهم فى زمرة الظالمين، وخروجهم من طائفة الأبرار الأخيار.

وإن ذلك كله تقريب للحق، وبعد عن الباطل، ولا يمكن أن يكون الحق مؤكدا من كل الوجوه، بل لا بد من التقريب دون التحديد، ولذلك قال سبحانه:

﴿**ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ**﴾ الإشارة فى ذلك إلى النظام كله الذى نظمه القرآن الكريم، والنسق الحكيم من الشهادة التى يقوم بها الوصيان تكون ابتداء من أهل التقوى، ويعتمد على تقواهم وعدالتهم، فإن أمسكا بعد الصلاة، وأخذت عليهما الأيمان المغلظة ويتعرف الأمر من ورائهما، ولا يترك من غير تحريات كاشفة، فإن عثر على أن الشهادة فيها إثم أو غير حق استشهد غيرهما من الذين ينقص حقهم بشهادتهما، واختير أولى الناس من المستحقين بالقول، ذلك النظام كله أقرب إلى أن يؤدى الشاهد الشهادة على وجهها، إما لأنه يريد الحق لذات الحق، أو لأنه يخاف أن الأيمان الشاهدة الجارية على لسان غيره بعد يمينه تعلن كذبه على الأشهاد، وخيانته بين الجموع والآحاد، فمعنى ترد أى تترك أيمانهم، وتطرح ويعاد القول إلى غيرهم بعد تكذيبهم.

والنص يومئ إلى أنه إذا عثر على كذب بعد شهادة الأقربين ترد الشهادة على من يليهم حتى لا يضيع حق قط.

ولقد يروى الرواة قصة فى هذا الموضوع ويذكرونها على أنها سبب النزول، وإنا نذكرها؛ لأنها موضحة للوقائع، جاء فى تفسير ابن كثير «عن ابن عباس عن تميم الدارى فى هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾. قال: برئ الناس منها غيرى وغير عدى بن بدار، وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام (أى إسلامهما) فأتيا الشام لتجارتهما، وقدم عليهما مولى لبنى سهم يقال له بديل بن مريم بتجارة ومعه جام من فضة يريد به الملك، وهو أعظم تجارته فمرض فأوصى إليهما، وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله، قال تميم: فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم واقتسمناه أنا وعدى، فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إلى أهله ما كان معنا، وفقدوا الجام فسألونا عنه، فقلنا ما ترك غير هذا، وما دفع إلينا غيره قال تميم: فلما أسلمت بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة تأثمت من ذلك فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر، ودفعت إليهم خمسمائة درهم، وأخبرتهم أن عند صاحبى مثلها، فوثبوا عليه، فأمرهم النبى ﷺ أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل المدينة فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾. إلى قوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا﴾ فقام عمرو بن العاص، ورجل آخر منهم فحلفا، نزعت الخمسمائة من عدى بن بداء»[1] وهكذا... وقد ختم الله تعالى بيان ذلك الحكم الشرعى بقوله تعالت كلماته:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ختم الله تعالى بيان ذلك الحكم الشرعى الدقيق بأمرين، وذكر أمر كلى، أما الأمر الأول فهو الأمر بالتقوى بأن يملأوا قلوبهم بخشية الله تعالى ومهابته، واتقاء عصيانه، وجعل وقاية بينهم وبين عذابه، وذلك أمر لازم لكل مؤمن، وخصوصا لمن يودعون أسرار الناس، الذين لا يستطيعون دفع الكذب والباطل عنهم.

---

(١) رواه البخاري: الوصايا - باب: ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة﴾ (٢٧٨٠)، ورواه مطولا، الترمذي: تفسير القرآن - ومن سورة المائدة (٣٠٥٩) عن ابن عباس عن تميم الداري.

والأمر الثانى - هو ما قرره بقوله سبحانه: ﴿وَاسْمَعُوا﴾ أى اسمعوا قول الحق وعوه، واعملوا به ولا تيئسوا، ولا يأخذكم السأم عن أن تسمعوا كل قول حتى تصلوا إلى الحق الذى تبتغونه.

وأما الأمر الكلى فهو أن الله سبحانه وتعالى لا يهدى القوم الفاسقين، ومعنى عدم هدايتهم أنهم بسبب ما اكتسبوا من سيئات الفسق، وما أحاطت به خطيئاتهم أصبح الحق لا يدخل إلى قلوبهم، فلا يهتدون لأن الفسق صار شأنا من شئونهم، ولا يمكن أن تلتقى الهداية مع الفسق فى قلب من فسق عن أمر ربه. اللهم جنبنا الباطل وأهله، إنك سميع مجيب.

۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾

الكلام من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ... ﴿٥١﴾﴾ [المائدة]. كان فى أهل الكتاب، ومعاندة اليهود، وتحريف

النصارى عقيدة المسيح عليه السلام، ثم بين سبحانه علاقة المسلمين بالمشركين واليهود، ومن جاورهم من النصارى، وبين أن الأخيرين كانت علاقتهم بالمسلمين مودة، وذكر الرهبان عندهم، وبين بهذه المناسبة إباحة القرآن للطيبات، وأشار إلى تحريمه للخبائث فى ذاتها بتحريم الخمر، ثم أشار إلى ما حرم من مكان معلوم ووقت معلوم ثم ذكر مكانة الكعبة، وما حرمه المشركون على أنفسهم من غير حجة ولا سلطان مبين، ثم تكلم عن شهادة أوصياء الميت إذا مات غريبا وكان المناسب بعد ذلك أن يتكلم عن حال الناس بعد أن يجمعوا يوم القيامة، ومقالة الرسل لمن بعثوا إليهم، وأخصهم عيسى ـ عليه السلام ـ الذى ادعيت أولوهيته، فقال تعالت كلماته:

﴿**يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ**﴾ قال كثيرون من المفسرين، وعلى رأسهم إمام البلاغة الزمخشرى: إن هذه الآية غير مقطوعة عن سابقتها من ناحية السياق اللغوى؛ لأن ﴿**يَوْمَ**﴾ متعلق بقوله سبحانه: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا**﴾: أى اتقوا الله تعالى واسمعوا الحق وأنصتوا إليه يوم القيامة يوم يجمع الله الرسل، ويسألهم عن إجابة أقوامهم لدعواتهم الحق، ويصح أن تكون متعلقة بقوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾. والمعنى، والله سبحانه وتعالى لا يهدى القوم الفاسقين إلى ما فيه نعيم يوم القيامة، يوم يجمع الله الرسل ويسألهم؛ لأن اليوم ليس بيوم تكليف ولكنه يوم جزاء، ويكون الفسق شاملا للكفر؛ لأن الكافر فاسق عن أمر ربه.

وبعض المفسرين، قطع الآية عما قبلها واعتبرها إنذارا مبتدءا، وقالوا إن قوله سبحانه: ﴿**يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ**﴾. متعلق بمحذوف مقدر هو ـ اذكر ـ لأهل الكتاب يوم يجمع الله الرسل. . . . فى هذا اليوم المشهود يقول الله تعالى مخاطبا رسله الأكرمين بالتجلى عليهم:

﴿**مَاذَا أُجِبْتُمْ**﴾. والمعنى أى إجابة أجبتموها؟ وذكر بالبناء للمفعول، ولم يذكر أقوامهم، فلم يقل ولله المثل الأعلى أى إجابة أجاب أقوامكم، تحقيرا

لأولئك الأقوام، إذ جهلوا مع أسباب العلم، وكفروا مع قيام ذرائع الإيمان، ولأن الصلة بينهم وبين رسلهم قد قطعت يوم القيامة، فلا ينالون شرف الاتصال بهم، إذ الاتصال كان للهداية وقد حرموها.

وكانت إجابة الرسل: ﴿لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ أى إنك أنت وحدك العالم علما ليس فوقه علم؛ لأن التعبير بصيغة المبالغة:

﴿عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ أى لكل ما يغيب عن الناس أجمعين، وما يغيب عنهم.

ولكن لماذا نفوا عن أنفسهم العلم، مع أن عندهم بعض العلم؟ وقد أجيب عن ذلك بأنهم علموا أن المقصود استنكار حال من بعثوا إليهم وتوبيخهم، فساروا على مقتضى السياق، وقالوا: لا علم لنا فى هذا بل أنت الأعلم، وقيل فى الجواب عن هذا: إنهم كانوا فى حال ذهول، فنفوا عن أنفسهم العلم فى حال ذهولهم، وقيل فى الجواب أيضا: إنهم استحقروا علمهم بجوار علم الله تعالى، وقيل: إن علمهم كان بمن عاصروهم لا بمن جاء بعدهم، وقد جاء فى الكشاف فى توضيح الجواب الأول ما لا يغنى عنه التلخيص، فقال ـ أى الزمخشرى ـ رضى الله عنه:

(فإن قلت: كيف يقولون لا علم لنا، وقد علموا بما أجيبوا؟ قلت: يعلمون أن الغرض من السؤال توبيخ أعدائهم، فيكلون الأمر إلى علمه وإحاطته بما منوا به منهم وكابدوا من سوء إجابتهم إظهارا للتشكى، واللجأ إلى ربهم فى الانتقام منهم وذلك أعظم على الكفرة، وأفتّ فى أعضادهم، وأجلب لحسرتهم وسقوطهم فى أيديهم، إذا اجتمع توبيخ الله تعالى وتشكى أنبيائه عليهم، ومثاله أن ينكب بعض الخوارج على السلطان وخاصة من خواصه نكبة قد عرفها السلطان، واطلع على كنهها، وعزم على الانتصار له منه، فيجمع بينها، ويقول: ما فعل بك هذا الخارجى، وهو عالم بما فعل به يريد توبيخه وتبكيته، فيقول له: أنت أعلم بما فعل بى، تفويضا للأمر إلى علم سلطانه، واتكالا عليه، وإظهارا للشكاية، وتعظيما لما حل منه، وقيل: من هول ذلك اليوم يفزعون ويذهلون عن الجواب،

ثم يجيبون بعد ما تثوب إليهم عقولهم بالشهادة على أنفسهم، وقيل معناه: ساقط مع علمك ومغمور؛ لأنك علام الغيوب، ومن علم الخفيات لم تخف عليه الظواهر التى فيها إجابة الأمم لرسلهم، وقيل: لا علم لنا ما كان منهم بعدنا، وإنما الحكم للخاتمة، وكيف يخفى عليهم أمرهم، وقد رأوهم سود الوجوه موبخين).

ولقد كان الذين أرسل إليهم منهم من حرَّف الدعوة، وجحد بعضها، ومنهم من آمن، ولكن الذين حرفوا من المسيحيين لم يحرفوا الدعوة فقط، بل تكلموا فى شخص المسيح عليه السلام، وأخرجوه من البشرية فى زعمهم وافتروا له الألوهية، ولذلك خصه الله تعالى بذكر ما يكون له يوم القيامة، وما أجرى من معجزات على يديه:

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ «إذ» هنا بدل من يوم يجمع الله الرسل، أى اتقوا الله واسمعوا يوم الجمع، ووقت أن يخاطب عيسى - عليه السلام - بهذا الخطاب، وعيسى - عليه السلام - بعث فى قوم لا يؤمنون إلا بالمادة، وبالأسباب الظاهرة، ويسندون كل أمر فى هذا الوجود إلى سبب يعلمونه، لا يؤمنون بالروحانيات، ويكفرون بما لا يعلمون بالأسباب، فجاء عيسى - عليه السلام - روحانيا ظاهر الروحانية، وجاء من غير أب ليكون شخصه خرقا للأسباب، ولتكون مظاهر حياته دافعة للمادة، يخاطب الله عيسى - عليه السلام - بقوله تعالى: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾. وفى هذا النداء إشارة إلى أنه ابن مريم لا ابن أحد سواها فقد ولد من غير أب، والإله أو ابن الإله لا يمكن أن يكون متولدا، ولا يمكن أن يكون محدثا ومخلوقا، فهذا النداء فى ذاته مع بيان حقيقة سيدنا المسيح عليه السلام رد عليهم وعلى افترائهم فى وقت لا يستطيعون فيه تمويه الباطل وتزيينه بقول الزور والبهتان الآثم.

وقد ذكر سبحانه وتعالى عيسى ـ عليه السلام ـ فى ذلك اليوم المحشود، وما كان التذكير إلا للمبطلين الذين افتروا عليه، وهو سرد لنعم الله تعالى على عيسى وأمه، وأنه مخلوق من فضل الله، وما أعطى من خواص فبفضل من الله تعالى، وهو مانحها ومعطيها، وما دام هو المانح، وهو المعطى، فلا فضل لعيسى على أحد إلا بفضل من أعطى، ولا يمكن أن يكون له ولدا أو قرينا.

وابتدأ سبحانه بتذكير نعمته عليه وعلى أمه، ونعمته على والدته مشهورة فى القرآن قد ذكرها سبحانه وتعالى فى سورة آل عمران فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٣ - ٣٧] إلى أن قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران].

كانت السيدة مريم - على هذا النسق المتلو - مصطفاة من قوم مصطفين أخيار أطهار وكفلها نبى، وخاطبتها الملائكة حتى قال الأكثرون إن فيها نبوة ولا يعلم أن أنثى كانت من الأنبياء غيرها.

ونعمة الله تعالى على سيدنا عيسى ذكرها الله تعالى بقوله تعالى:

﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ نعمتان ذاتيتان كانتا مع شخص المسيح ـ عليه السلام ـ وليس فيهما أمر كسبى، بل فيهما خلق روحانى، أما الأولى، وهى التأييد بروح القدس فلها تخريجان أو هما معا، أولهما ـ أن الله تعالى أيده بطبيعة روحانية مطهرة فى وقت سادت فيه المادية

وسيطرت، فخلق الله تعالى فيه تلك الطبيعة الروحانية، فمعنى قوله روح القدس روح الطهارة والنزاهة والكمال الذى اتسم به، وأى نعمة أجل من هذه النعمة، والتخريج الثانى أن معنى أيدناه بروح القدس أيدناه بجبريل عليه السلام، فقد عبر فى القرآن بروح القدس وأريد به جبريل، كما قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ ... (١٠٢)﴾ [النحل].

وعندى أن الأمرين يجوز جمعهما، وكلاهما صادق فعيسى عليه السلام كان روحانيا مطهرا، وكان مملوءا بالروح المطهرة، وأيده جبريل هو وأمه، كما قال تعالى، فى تبشيرها بالمسيح عليه السلام وولادته: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)﴾ [مريم].

هذه نعمة التأييد، وهناك نعمة أخرى هى فى ذاتها نعمة، ولذا ذكرت منفصلة مقرونة بكلمة «إذ» أى اذكر ـ وهى أنه تكلم فى المهد، أى تكلم وهو مولود، فالمهد مكان تربية الطفل عقب ولادته، وذلك تأييد لبراءة مريم البتول

وذكر كلامه وهو كهل، عندما استوى رجلا مكتملا، للإشارة إلى أن كلامه وهو فى المهد يشبه كلامه وهو رجل مكتمل، وتلك حكمة الله تعالى، وبيان أن الأسباب لا تتقيد بها إرادة الله تعالى.

﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ كان ما سبق هداية ربانية صرفة، وتأييدا لصدق أمه وبراءتها، وإرهاصا بنبوته، وهو منحة ليس لكسب العبد فيه إرادة، وهذه النعمة الأخيرة التى جاء بها ذلك النص الحكيم هى نعمة للعبد فيها كسب، وللإرادة البشرية فيها مكان فوق أنها جميعا لله تعالى، ولذلك أضاف سبحانه التعليم إليه، فالتعليم منه سبحانه، والتعلم من عيسى عليه السلام، والكتاب، يفسره بعض العلماء بالكتابة، فلم يكن عيسى عليه السلام أميا، بل كان قارئا لأن معجزاته الكبرى لم يكن كتابا منزلا من عند الله يتحدى به البشر أن يأتوا بمثله، ولأنه لم يكن فى قوم أميين، بل كان فى قوم فيهم علم الكتابة وفيهم الدراسة والبحث ولهم فلسفة.

وفسر الكتاب بعض العلماء بما سبقه من كتب النبيين كزبور داود وما جاء عن أخبار سليمان وإبراهيم عليه السلام وإسحاق ويعقوب والأسباط.

ويصح أن يراد الأمران، وهو ما نختاره، فالله سبحانه وتعالى قد ألهمه تعلم الكتابة وقرأ بها كتب النبيين وأخبار من سبقوه.

والحكمة هى فى العرف الأدبى العام العلوم النافعة، والكلام المحكم الدقيق العميق الذى يكشف للناس عن أسرار هذا الوجود، ونفوس الناس، ويوجهها إلى الخير، ويدخل فى الحكمة على هذا كل التعليمات المرشدة الهادية إلى مكارم الأخلاق، وقد كان سيدنا عيسى ـ عليه السلام ـ نبيا حكيما مرشدا أمينا.

وعلم الله تعالى رسوله الأمين التوراة التى نزلت على موسى والإنجيل الذى نزل عليه صلوات الله تعالى وسلامه عليه، ولماذا ذكر سبحانه وتعالى التوراة مع أنها قد تكون داخلة فى ضمن الكتاب الذى علمه أولا، ونقول فى الجواب عن ذلك، بأن التوراة تحتمل الدخول فى الكتب المذكورة أولا، وتحتمل أن يقصد

بالكتاب الثقافة العامة الدينية وما كان شائعا من أفكار مدونة فى عصره، وبذلك لا تشتمل التوراة، وتحتمل اشتمال كلمة الكتاب الذى يراد به الجنس على التوراة، ويكون تخصيصها بالذكر مقترنة بالإنجيل، للإشارة إلى أنهما متلازمان وأن الإنجيل الذى جاء به عيسى ـ عليه السلام ـ متمم للتوراة التى جاء بها موسى عليه السلام، وأنه منفذ لأحكامها إلا ما جاء به الإنجيل ناسخا لها.

بعد هذا التعليم الذى علمه لعيسى ـ عليه السلام ـ أخذ سبحانه وتعالى يذكر بعض معجزاته، وهى كبراها، فقال:

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ كل معجزاته ـ عليه السلام ـ كانت من جنس طبيعته التى فطره الله تعالى عليها، لقد كانت ولادته خارقة للعادة؛ إذ خلقه الله سبحانه وتعالى من غير أب يلقى النطفة فى رحم، بل ولد من أم من غير أب، لبيان أن الله تعالى لا تحكمه الأسباب التى تجرى فى مجرى العادات، إنما هو سبحانه خالق الأسباب والمسببات فعال لما يريد، لا تخضع إرادته لسلطان سبحانه وتعالى، فمعجزات عيسى كلها بيان لأن الله تعالى فوق قاعدة السببية التى كانت مسيطرة فى ذلك العصر المادى الذى كان لا يذعن إلا للأسباب والمسببات المادية.

وهذه المعجزة باهرة قاطعة فى أن الخالق لهذا الكون لا تحكمه الأسباب، إذ إن الناس يجدون أسباب الخلق هو التوالد بأن تحمل الأنثى من ذكر، وتلد، ثم يكون الحى من بعد ذلك، فيكون من خرق الأسباب أن يكون الحى بإجراء الحياة على يد مخلوق لله تعالى، فقد أذن لعيسى ـ عليه السلام ـ أن يصور من الطين كهيئة الطير، فمعنى «خلق» هنا هو تصويره جسدا من الطين، وجعله على شكل طائر، ثم نفخ فيه بإذنه سبحانه، فيكون طيرا بإذن الله تعالى.

وذكرت كلمة (بإذنى) عند تصوير شكل الطير، وعندما صار طيرا؛ للإشارة إلى أن كل ذلك من عند الله، وأنه الخالق وليس عيسى هو الخالق، ولكنه سبحانه وتعالى أجرى الخلق على يديه.

﴿ وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ﴾ الأكمه هو المولود أعمى، ويقال لمن طمست عينه بفقء أو نحوه: كمهت عيناه، والبرص داء إلى الآن لم يوجد له دواء بشفيه وقد يوجد دواء يجعله أسهل احتمالا مع بقائه.

وقد كان سيدنا عيسى يبرئ الأكمه بإذن الله تعالى فيجعله مبصرا، وذلك يشبه إيجاد الحياة فى غير الحى؛ لأن إيجاد البصر فى غير المبصر، والمولود غير مبصر، وغير قابل للإبصار بحكم الأسباب الطبيعية يعد إنشاء وإيجادا، ويقاربه علاج البرص، لأنه بدوامه يشبه الذى يكون جبلة، وإذا كانوا لا يعرفون سببا للشفاء فالله تعالى خالق الأسباب أجرى الشفاء على يدى عيسى عليه السلام، لأنه سبحانه فعال لما يريد، وكان معجزة لعيسى عليه السلام.

وهناك معجزة رابعة، وهى إحياء الموتى، وقد ذكرت هذه المعجزة فى سورة آل عمران على لسان عيسى ـ عليه السلام ـ بما حكاه الله تعالى عنه بقوله: ﴿ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ... ﴿٤٩﴾ ﴾ [آل عمران]. والمذكور هنا هو قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ﴾ والنصان يتلاقيان فى المؤدى، وإن اختلفا فى اللفظ، فالأول يفيد أن سيدنا عيسى عليه السلام قد أجرى الله تعالى على يديه إحياء الموتى إذا لم يكن قد دفن، وذلك ما يدل عليه النص الأول، والثانى يدل على أنه قد أجرى الله تعالى على يديه إحياء الموتى بعد دفنها ووضعها فى قبورها، فقد كان عليه السلام يجرى الله تعالى على يديه إخراجها من القبور أى أنها تحيا فى قبرها، وتخرج إلى الوجود فى حياة.

وإحياء الموتى بعد الدفن أو قبل الدفن غير تصوير الطين طيرا ثم النفخ؛، لأن هذا إيجاد للحياة فى جماد، والثانى إعادة للحياة وقد ذكرت كلمة (بإذنى) فى كل هذا، لبيان أن العمل ليس لعيسى، وإن جرى على يديه، إنما هو لله سبحانه وتعالى خالق كل شىء.

وقد كان موجب هذه البينات الباهرة القاهرة أن يؤمنوا، ولكن بنى إسرائيل فيهم عناد وطغيان فكفر كثيرون، وهموا بأذى عيسى ـ عليه السلام ـ فكانت نعمة

الله تعالى عليه أن يكفهم عنه، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

لا تزيد الحجة المتعنت إلا طغيانا وكفرا، وكلما قويت الحجة تحركت في نفسه عوامل الحسد والحقد، فأوجدت ضغنا فيطمس الله تعالى على بصيرته، فلا يدرك.

جاءهم عيسى - عليه السلام - بالبينات أى الحجج المبينة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، فناوءوه العداوة؛ لأنه كانت لهم الرياسة الدينية، وهذه الحجج إن اتبعوا ما توجبه حسبوا أن الرياسة تذهب منهم، فقاوموها، ولا يمكن أ ن يقاوم صاحب الحق إلا بالباطل، ولا يمكن أن يقاوَم صاحب الحجة والبرهان الساطع إلا بالباطل، لذلك قاوموا بطرق ثلاثة كلها شر، حاربوه بتأليب الناس ودعوة أتباعهم إلى الإعراض عنه، وحاربوه ثانيا بالأذى ينزلونه به، والتحريض عليه، والائتمار به، ولكن دعوته كانت تنفذ إلى القلوب من غير حجاب، وذلك لأن الله كف عنه أذاهم، ولما يئسوا منه خلصوا إلى الطريق القاتل، وهو الدس عند ذوى السلطان، وكانت نعمة من الله تعالى عليه أعظم وأوضح، فقد نجاه الله تعالى من أيديهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ... (١٥٧)﴾ [النساء]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ... (١٥٨)﴾ [النساء].

كف الله تعالى الأذى عن سيدنا عيسى - عليه الصلاة والسلام - وقد كفروا مع ظهور هذه الآيات الباهرة التى فيها البرهان القاطع الذى لا يقبل جدلا، أشار الله تعالى إلى ما اتخذوه من تعلات بقوله تعالت كلماته: ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

أى إذا كانت هذه البينات ظاهرة، فهى لا ترفع اللجاجة من الذين كفروا وجحدوا؛ لأن الذين يكفرون بالحق عندما يجيئهم يسارعون بالكفر، ثم يحاولون أن يوجدوا ما يبرر كفرهم، كشأن كل من يحكم بالباطل يسارع إليه؛ لأنه غاية

مراده لـه، ثم يتلمس التعـلات لكفره، أو بعـبارة أخـرى يحكمون بالبـاطل، ثم يحاولون سـماع الشهادات البـاطلة التى تؤيد ذلك البـاطل، لقد قـالوا إن كل ما فعله عـيسى ـ عليه السـلام ـ من تصوير الطير والنفخ فـيه بالحياة، وإبراء الأكـمة والأبرص وإحيـاء الموتى - ما هو إلا سحـر مبين، أى بيـن واضـح مع أنه أمور واقعة مـحسوسة، وليست تمويهـا باطلا خادعا، ولا تخييــلا غير واقع، مما يدل على أن المبطل اللجـوج لا يقنعـه دليل مـهـما يكـن، اللهم اجعـلنـا مع الحق، وللحق.

وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى
وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ
ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن
يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا
وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾
قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ
خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ
مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ والوحى معناه الإلهام ويكون على أقسام: وحى بمعنى إرسال جبريل إلى الرسل عليهم السلام. ووحى بمعنى الإلهام كما فى هذه الآية؛ أى ألهمتهم وقذفت فى قلوبهم؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ ... ⑦﴾ [القصص]، ووحى بمعنى الإعلام فى اليقظة والمنام. قال أبوعبيدة: أوحيت بمعنى أمرت، ﴿وإلى﴾ صلة؛ يقال: وحى وأوحى بمعنى؛ قال الله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ⑤﴾ [الزلزلة].

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ ما تقدم من الأعراب ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ ﴿أَن يُنَزِّلَ﴾ يستطيع بمعنى يطيع؛ كما قالوا: استجاب بمعنى أجاب، وكذلك استطاع بمعنى أطاع. وقيل المعنى: هل يقدر ربك، وكان هذا السؤال فى ابتداء أمرهم قبل استحكام معرفتهم بالله عز وجل؛ ولهذا قال عيسى فى الجواب عن غلطهم وتجويزهم على الله ما لا يجوز: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أى لا تشكو فى قدرة الله تعالى.

وهذا فيه نظر؛ لأن الحواريين خلصان الأنبياء ودخلاؤهم وأنصارهم كما قال: «من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله». ومعلوم أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جاءوا بمعرفة الله تعالى وما يجب له وما يجوز ما يستحيل عليه وأن يبلغوا ذلك أممهم؛ فكيف يخفى ذلك على من باطَنَهُم واختص بهم حتى يجهلوا قدرة الله تعالى؟ إلا أنه يجوز أنه يقال: إن ذلك صدر ممن كان معهم، كما قال بعض جهال الأعراب للنبى ﷺ: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط(١)، وقيل: إن القوم لم يشكوا فى استطاعة البارى سبحانه لأنهم كانوا مؤمنين عارفين عالمين، وإنما هو كقولك للرجل: هل يستطيع فلان أن يأتى وقد علمت أنه يستطيع؛ فالمعنى: هل يفعل ذلك؟ وهل ييجيبنى إلى ذلك أم لا؟ وقد

---

(١) عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا خَرَجَ إِلَى حُنَيْنٍ مَرَّ بِشَجَرَةٍ لِلْمُشْرِكِينَ يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ يُعَلِّقُونَ عَلَيْهَا أَسْلِحَتَهُمْ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «سُبْحَانَ اللَّهِ! هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» رواه الترمذي: الفتن - ما جاء: لتركبن سنن (٢١٨٠).

كانوا عالمين باستطاعة الله تعالى لذلك ولغيره علم دلالة وخبر ونظر فأرادوا علم معاينة كذلك؛ كما قال إبراهيم ﷺ: ﴿... رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ... (٢٦٠)﴾ [البقرة] على ما تقدم، وقد كان إبراهيم عَلِم لذلك علْمَ خبر ونظر، ولكن أراد المعاينة التى لا يدخلها ريب ولا شبهة؛ لأن علم النظر والخبر قد تدخله الشبهة والاعتراضات، وعلم المعاينة لا يدخله شيء من ذلك؛ ولذلك قال الحواريون: ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ كما قال إبراهيم: ﴿... وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ... (٢٦٠)﴾ [البقرة].

﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى اتقوا مغاضبه وكثرة السؤال؛ فإنكم لا تدرون ما يحل بكم عند اقتراح الآيات؛ إذ كان الله عز وجل إنما يفعل الأصلح لعباده. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أى إن كنتم مؤمنين به وبما جئت به، فقد جاءكم من الآيات ما فيه غِنى.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ نُصب بـ «أنْ». وقوله: ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ عطف كله، بينوا به سبب سؤالهم حين نُهوا عنه. وفى قولهم: ﴿نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ وجهان: أحدهما ـ أنهم أرادوا الأكل منها للحاجة الداعية إليها؛ وذلك أن عيسى عليه السلام كان إذا خرج اتبعه خمسة آلاف أو أكثر، بعضهم كانوا أصحابه، وبعضهم كانوا يطلبون منه أن يدعو لهم لمرض كان بهم أو عِلّة، إذ كانوا زَمْنَى أو عميانا، وبعضهم كانوا ينظرون ويستهزئون. فخرج يوما إلى موضع فوقعوا فى مفازة، ولم يكن معهم نفقة فجاعوا وقالوا للحواريين: قولوا لعيسى حتى يدعو بأن تنزل عليهم مائدة من السماء، فقال عيسى لشمعون: ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فأخبر بذلك شمعون القوم فقالوا له: قل له: ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ الآية. الثانى ـ ﴿نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ لننال بركتها لا لحاجة دعتهم إليها، وقولهم: ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ يحتمل ثلاثة أوجه: أحدها ـ تطمئن إلى أن الله تعالى بعثك إلينا نبيا. الثانى ـ تطمئن إلى أن الله تعالى قد اختارنا لدعوتنا. الثالث ـ تطمئن إلى أن الله تعالى قد أجابنا إلى ما سألنا؛ وقيل: أى تطمئن بأن الله قد قبل صومنا وعملنا. ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ بأنك رسول الله. ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ لله بالوحدانية، ولك

بالرسالة والنبوة. وقيل: ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ لك عند من لم يرها إذا رجعنا إليهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا﴾ اللهم أصلها يا الله، والميمان فى «اللهمَّ» بدل من «يا»، ﴿رَبَّنَا﴾ نداء ثان، ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ المائدة الخُوَان الذى عليه الطعام؛ لا تكون المائدة حتى يكون عليها طعام، فإن لم يكن قيل: خِوان، وهى فاعلة من مَادَ عبده إذا أطعمه وأعطاه؛ فالمائدة تمد ما عليها أى تعطى، وقوله تعالى: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيداً﴾، ﴿تَكُونُ﴾ نعت لمائدة وليس بجواب.

﴿عِيدًا لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ أى لأول أمتنا وآخرها؛ فقيل: إن المائدة نزلت عليهم يوم الأحد غدوة وعشية؛ فلذلك جعلوا الأحد عيدا. والعيد واحد الأعياد؛ وإنما جمع بالياء وأصله الواو للزومها فى الواحد، ويقال: للفرق بينه وبين أعواد الخشب، وقد عيَّدوا أى شهدوا العيد؛ وقيل: أصله من عاد يعود أى رجع فهو عود بالواو، فقلبت ياء لإنكسار ما قبلها، مثل الميزان والميقات والميعاد؛ فقيل ليوم الفطر والأضحى: عيدا لأنهما يعودان كل سنة. وقيل: سمى عيدا للعود فى المَرَح والفَرَح، فهو يوم سرور الخلق كلهم؛ وقيل: سمى عيدا لأن كل إنسان يعود إلى قدر منزلته؛ ألا ترى إلى اختلاف ملابسهم وهيئاتهم ومآكلهم فمنهم من يضيف ومنهم من يضاف، ومنهم من يَرحَم ومنهم من يُرحَم. وقيل: سمى بذلك لأنه يوم شريف تشبيها بالعيد: وهو فحل كريم مشهور عند العرب وينسبون إليه، فيقال: إبل عيدية؛ قال: * عِيدِيَّةٌ أُرهِنَت فيهَا الدنانيرُ *

وقرأ زيد بن ثابت ﴿لأُوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ على الجمع. قال ابن عباس: يأكل منها آخر الناس كما يأكل (منها) أولهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ هذا وعد من الله تعالى أجاب به سؤال عيسى كما كان سؤال عيسى إجابة للحواريين، وهذا يوجب أنه قد أنزلها ووعده الحق، فجحد القوم وكفروا بعد نزولها مُسِخوا قِردة وخنازير. قال ابن

عمر: إن أشدّ الناس عذابا يوم القيامة المنافقون ومن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾. واختلف العلماء فى المائدة هل نزلت أم لا؟ فالذى عليه الجمهور - وهو الحق - نزولها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾. وقال مجاهد: ما نزلت وإنما هو ضَرْبُ مَثَلٍ ضَرَبَه الله تعالى لخلقه فنهاهم من مسئلة الآيات لأنبيائه. وقيل: وعدهم بالإجابة فلما قال لهم: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ﴾ - الآية. واستغفروا الله وقالوا: لا نريد هذا؛ وهذا القول والذى قبله خطأ، والصواب أنها نزلت. قال ابن عباس: إن عيسى بن مريم قال لبنى إسرائيل: «صوموا ثلاثين يوما ثم سَلُوا الله ما شئتم يُعْطِكم» فصاموا ثلاثين يوما وقالوا: يا عيسى لو عملنا لأحد فقضينا عملنا لأطعَمَنا، وإنا صمنا وجُعنا فادع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء، فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها، عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات، فوضعوها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم.

وعن ابن عباس وأبى عبد الرحمن السُّلَمىّ كان طعام المائدة خبزا وسمكا. وخرّج التِّرمذىّ فى أبواب التفسير عن عمّار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزلت المائدة من السماء خبزا ولحما وأُمروا ألا يَخونوا ولا يَدّخِروا لغدٍ فخانوا وادّخروا ورَفعوا لغدٍ فَمُسِخوا قِرَدة وخنازير»(١).

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا

(١) سنن الترمذي: تفسير القرآن - ومن سورة المائدة (٣٠٦١).

﴿قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾

الكلام إلى الآن فى محاسبة الناس يوم القيامة ومجاوبتهم بشأن عيسى ابن مريم من حيث إنهم نحلوه ما ليس فيه، وادعوا ما لم يقله، فادعوا عليه الألوهية هو وأمه فكانت المجاوبة حول هذه الفرية التى افتروها، وذلك الوهم الذى توهموه وادعوه على المسيح عليه السلام.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ العطف هنا على قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ ... ﴿١٠٩﴾﴾ [المائدة]. فإن هذا كله صورة للمجاوبة التى تكون يوم القيامة بين الرسل، وأقوامهم، ومن بعثوا إليهم بشكل عام، وخص عيسى ـ عليه السلام ـ فى هذا المقام بالمجاوبة؛ لأنه كان أكثر الرسل افتراء على شخصه النبوى الكريم، إذ ادعوا عليه الألوهية، وكان نداؤه بذكر: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ للإشارة إلى الولادة الطبيعية التى تنفى أن يكون إلها أو ابن إله، أو فيه عنصر الألوهية بأى وضع من الأوضاع؛ لأن الألوهية والبشرية نقيضان لا يجتمعان، فلا يمكن أن يكون البشر فيه ألوهية، ولا الإله فيه بشرية، ومعنى (اتخذونى)، اجعلونى، والتعبير باتخذونى أو اجعلونى يدل على أنه ليس له حقيقة، بل هو فى ذاته اتخاذ بما لا أصل له.

والاستفهام للتقرير، أى ليقر عيسى ـ عليه السلام ـ بخلافه، ذكر الحقيقة فى ذلك اليوم الذى لا تجزى نفس عن نفس شيئا، والذى يتقرر الجزاء وليس وقت العمل، فيه توبيخ لهم، وتكبير لذنوبهم، وبيان لافترائهم، وعظمه وهو من قبيل إحضار أعمالهم وأقوالهم، وبذلك يرد الاعتراض الذى يورده العلماء إذ يقال كيف يسأل الله تعالى عيسى وهو سبحانه وتعالى يعلم أنه لم يقل شيئا من هذا، ولا

يمكن أن يدعى لنفسه ما ادعوه له؟ فالسؤال ليقر فى المشهد العظيم بكذبهم وافترائهم على الله سبحانه وتعالى، وفى ذلك أبلغ توبيخ، وتجسيم لذنبهم وأوهامهم، وافترائهم على الله سبحانه وتعالى. والذين قالوا: إن عيسى وأمه إلاهان هم البربرانية من طوائف النصارى، ولم يستنكره غيرهم، فكأنهم أقروه، والذين لم يقروه، قالوا: إن الله ثالث ثلاثة الآب والابن وروح القدس.

والذين قالوا: إن عيسى وأمه آلهان من دون الله لم ينفوا ألوهية الله إذ لم يعرف عنهم أنهم نفوها، حتى يقال عنهم: إنهم قالوا: إن عيسى ابن مريم وأمه إلهان من دون الله أى غيره، والجواب عن ذلك أن من لم يؤمن بوحدانية الله تعالى بل أشرك غيره معه لا يقال: إنه آمن بالله، واعترف بألوهية الله سبحانه وتعالى؛ لأنه لا يعبد إلا الله وحده، أو نفسر ﴿**مِن دُونِ اللَّهِ**﴾ أى خلاف الله فكأنهم قالوا: إن هناك اثنين مع الله تعالى.. تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

وقد بين الله تعالى إجابة عيسى ـ عليه السلام ـ بقوله:

﴿**قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ**﴾ سبحانك معناها تنزيها لك عن هذا القول وتقديسا، وهى منصوبة على أنها مصدر لفعل محذوف، وتصدير سيدنا عيسى فى ذلك اليوم المشهود - كلامه بذلك للدلالة على أنه أمر لا يليق فى ذاته، فلا يمكن أن يصدر عن عاقل يعى ما يقول ويدركه، ففيه نفى مطلق للشرك وبيان للنزاهة والتقديس، وأنه هو الذى يسبح له وحده ثم بعد هذا التنزيه المطلق الذى كان نفيا مطلقا، أخذ ينفى عن نفسه هذا الكلام المحال، فنفى عنه بأنه ليس من شأنه أن يقول مثل هذا القول، بل ذكر استحالة أن يصدر عنه، وقال: ﴿**مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ**﴾. وفى هذا تأكيد للنفى من وجوه ثلاثة:

أولها ـ أنه نفى أن يكون شأنه ذلك القول، فلا يمكن أن يصدر عنه، فهو لم ينف القول فقط، بل نفى احتمال أن يقول، ونفى احتمال القول أقوى فى الدلالة من نفى المقولة.

ثانيها ـ أن كلامه يدل على أن ذلك غير معقول فى ذاته، فكيف يقول.

ثالثها ـ أنه أثبت أنه مستحيل قوله لأنه ليس بحق. ﴿**إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ**﴾.

هذه الجملة تأكيد لنفى ما سئل عنه، وهو أنه قال: ﴿**اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ**﴾.

إذ إنه لو كان قد حصل لعلمه الله تعالى، وما دام لم يعلمه، فهو لم يقع، ولا يمكن أن يقع؛ لأن الله لا يغيب عن علمه شىء فى الأرض ولا فى السماء، وفى هذا النص فوق دلالته على عدم الوقوع بأبلغ تعبير إثبات شمول علم الله تعالى، وإنه بكل شىء محيط، وقد زكى هذا المعنى الجليل بقوله: ﴿**تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ**﴾. ففى هذا النص إثبات قصور علم الإنسان بجوار علم الله تعالى، وإثبات أن علم الله تعالى شامل لمطويات القلوب، وعلم الإنسان مقصور على ما يظهر من الجوارح فالله يعلم ما يخفى فى الصدور، والإنسان لا يعلم إلا ما هو ظاهر محسوس، أو ما يكشف عنه الظاهر المحسوس، فلا يعلم ما الخفى إلا ما يظهره الجلى، والنص يدل على نفى الألوهية من جهة ثالثة؛ لأن علم الله شامل لكل شىء لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء، وعلم عيسى من النوع القاصر الذى لا يحيط إلا بالمحسوس أو ما ينبئ عنه المحسوس، فهو نفى للألوهية من طريق العلم، ثم هو موازنة من جهة ثانية بين نفس الإنسان المكشوفة لخالقه، وذات الله تعالى التى لا يعلم البشر عنها إلا وحدانيتها، وما يعلمه للإنسان منها.

وقد أكد عيسى علم الله تعالى المحيط الذى يعلو عن الصفات البشر بقوله:

﴿**إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ**﴾ أى إنك يا صاحب الجلالة تقدست أسماؤك تعلم الأمور المغيبة عن حسنا، والمكنونة فى المستقبل علما دقيقا لا يخفى منه شىء عليك، ولذلك عبر بصيغة المبالغة الدالة على الكثرة، وعلى الدقة وعلى الإحاطة

التامة الكاملة وأنه سبحانه وتعالى يعلم ما بطن كعلمه بما ظهر، فإن ما ظهر وما بطن هو بالنسبة لنا نحن بنى الإنسان، وأما بالنسبة لله تعالى فإن الجميع مكشوف غير مستور.

وقد أكد علم الله تعالى للغيب بأربعة مؤكدات: أولها ـ بـ «إنّ» المؤكدة.

ثانيها ـ بالضمير المؤكد فى قوله تعالى: ﴿أَنتَ﴾.

وثالثها ـ بصيغة المبالغة التى تعد مبالغة بالنسبة للعبيد، ولكنها حقيقة فوق ما نتصور بالنسبة لله تعالى العليم الحكيم، وإن هذا أقصى ما تتسع له لغتنا القاصرة عن التعبير عن الحقائق الإلهية.

رابعها ـ جمع الغيوب، فلم يفرد الغيب، بل قال الغيوب بكل أنواعها ما وقع فى الماضى، وما يقع فى المستقبل وما يتعلق بالكائنات كلها الروحانى منها والمادى، والكل خلقه سبحانه، من طيور فى الهواء، وأسماك فى الماء، وملائكة، وجن، وإنس، وهكذا كل ما هو غيب فى ذاته، أو بالنسبة للبشر، أو لطوائف منهم.

﴿**مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ**﴾. هذا الكلام السامى فى تأكيد القول الأول، وهو إثبات تنزيه الله تعالى، وأنه ما دعا إلا إلى الوحدانية، ولقد كان كل هذا فى مقام التوبيخ وإثبات الحجة عليهم، وعقابهم على كفرهم، وافترائهم على الله تعالى ربهم، وعلى عيسى ابن مريم رسوله سبحانه إليهم.

والجملة السامية السابقة فيها إثبات استحالة أن يكون قد قال «اتخذونى وأمى آلهين»، فهى تفى بالدليل، وهى هذه الجملة السامية فيها نفى، وإثبات. فيها نفى القول الذى نسبوه بهتانا إليه، وفيه إثبات ما قاله، ولم يقل سواه، ولذلك كان فيه قصر بالنفى والإثبات، فهو يذكر أنه دعا إلى التوحيد المطلق، وفيه إثبات أنه لا يمكن أن يدعو إلا إلى التوحيد المطلق، وذلك لثلاثة أمور:

أولها ـ أنه هو الذى أمر ربه، ولم يؤمر بغيره، وهو رسول من عند الله، ولا يمكن أن يكون الرسول قد أدى الرسالة على وجهها إلا إذا بلغ ما أمر به دون سواه، ولذا قال عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾.

ما أمرتنى أن أقوله وأبلغه، وإلا أكن غير مؤد للرسالة.

ثانيها ـ أنه لم يكتف ببيان أنه أدى ما أمر به إجمالا، بل ذكر حقيقة ما دعا مفسرا غير مجملا، إذ قال: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾. فإن هى المفسرة، فهو يفسر ما أمر به وهو بين لا إبهام فيه.

وثالثها ـ أنه أقام الدليل على استحقاقه وحده للعباده سبحانه: ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾. أى أنه هو المستحق للعبادة لأنه هو وحده الذى خلقنى، فأنا مخلوق، فكيف أكون إلها، وهو الذى خلقكم وحده فكيف تعبدون غيره؟!، وفى هذا التعبير أثبت وحدانية الخلق والتكوين ووحدانية الذات، كما أثبت تصريح اللفظ وحدانية العبادة.

وقد أكد عليه السلام أنه بلغهم تلك الحقائق، فقال كما حكى عنه ربه: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾. أى كنت مشاهدا لهم رقيبا عليهم تعلم ما حاولوه من الزيغ والتحريف مدة بقائى فيهم، فما تركت تنبيههم إلى التوحيد فى العبادة والذات والصفات والتكوين مدة إقامتى بينهم، ولما تركت الدنيا كنت أنت الرقيب.

﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فى النص الكريم السابق ذكر ـ عليه السلام ـ شهادته عليهم وهو حى، قائم برسالته مؤد لها على وجهها، وفى هذا النص يذكر انتهاء مهمته بوفاته، ويفوض أمرهم إلى ربهم فى ألطف تعبير وأدق إشارة.

والفاء للتفصيل كما تدل على الحالية والبعد به، والمعنى عند حد وفاتى ومن قبلها، ومن بعد كنت أنت وحدك الرقيب عليهم العالم بحالهم وأنت على كل شىء عالم بحالهم تعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.

وفقنا الله لما يحب ويرضى.

إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ
وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ
يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾
لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

الكلام العظيم موصول فى حديث السيد المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام يوم يجمع الله تعالى الرسل يوم القيامة.

ولقد كان من المجاوبة بين الله تعالى، وبين السيد المسيح ـ عليه السلام ـ فى شأن الأوهام التى توهمها من يدعون النسبة إليه، وذكرت هذه الأوهام كأنها واقعة فى زمن المسيح ـ عليه السلام ـ وهى قد وقعت من بعده ولم يحضرها، ثم المجاوبة تكون من بعد ذلك، إذ إنها تكون يوم القيامة يوم يجمع الله تعالى الرسل، ويسألهم عما كان من شأن إجابات أقوامهم، واختص سبحانه وتعالى بالذكر عيسى لما ذكرنا من أنه أشد الأنبياء افتراء عليه إذ ادعوا أنه ابن الله وأن الله ثالث ثلاثة، وذكرت أخبار يوم القيامة ـ كأنها حاضرة لتحضر بين يدى النصارى الذين ادعوا ما ادعوا بالصيغة الإنكارية التى تكون من المسيح عليه السلام - يوم، ليتبينوا أن المسيح ـ عليه السلام ـ برىء منهم، ومما يتكلمون به حول ذاته النبوية البشرية.

وخلاصة تلك المجاوبة:

أن العلى القدير سأله سؤال العالم بالجواب ﴿**أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ**﴾، وكان الجواب بالنفى؛ لأن الله تعالى يعلم أنه لم يقع وما

كان لهم أن يعتقدوا فى السيد المسيح ـ عليه السلام ـ أو أمه ألوهية؛ لأنهما كانا يأكلان الطعام، ويمشيان فى الأسواق، وذلك شأن البشرية، لا شأن من يكون إلها.

وقد تضمن الجواب تأكيد النفى بأنه ليس من شأنه، ولا يحق له؛ لأنه بشر مخلوق لله سبحانه وتعالى، فالبشرية لا تتخلى عنه، وأنه لا يمكن أن يكون إلها، يشارك الله تعالى فى خلقه، فالله خالقه، ولا يمكن أن يكون المخلوق كالخالق، ولأن الله تعالى هو الذى يربه بعد خلقه، وهو الذى علمه الحكمة، وهو الذى جعله يتكلم كما يتكلم الراشدون فى المهد، فكان كلامه فى المهد ككلامه وهو كهل، أى رشيد قد اكتملت رجولته، واستوى خلقه، وهذا يدل على أن السيد المسيح ـ عليه السلام ـ عاش إلى أن بلغ سن الكهولة، فقد بلغ أشده، وبلغ أربعين، وإن كانت كتب النصارى الحاضرين تومئ إلى أنه لم يصل إلى الأربعين.

وقد ذكر سيدنا عيسى ـ عليه السلام ـ أنهم فى رقابة الله تعالى من بعده، يعلم حالهم، ومآل أمرهم وانحرافهم عن الجادة التى أرشدهم إليها الله تعالى على لسان نبيه الأمين عيسى ـ عليه السلام.

وأنه هو تعالى الذى شاهد أعمالهم، وأنه محاسبهم بها مجازيهم عليها، والأمر فى شأنهم إليه، وأمورهم مفوضة إليه، وهو العزيز الحكيم، والغفور الرحيم، فإن شاء أخذهم بذنوبهم كاملة، وإن شاء عفا عن بعضها، وإن شاء تغمدهم برحمته وغفرانه إن تابوا، وآمنوا بالله وحده وآمنوا بمحمد ﷺ، ولذلك قال تعالى حكاية عن بقية كلام عيسى فى ذلك المشهد العظيم. ﴿**إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾.

وإنا نجد فى هذا النص الذى يذكر الحال يوم القيامة ينبئ عن رأفة المسيح عليه السلام، ورفقه، ورغبته فى ألا يكون الناس فى عذاب إلا أن تكون تلك إرادة الله تعالى، فالنص تفويض لله تعالى، وهو يشبه فى هذا طلب إبراهيم أبى

الأنبياء عليهم السلام الغفران لأبيه كما حكى الله سبحانه وتعالى عنه بقوله تعالى: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الشعراء].

فالمسيح ـ عليه السلام ـ يحكى الله تعالى عنه فى ذلك اليوم المشهود قوله:

﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ أى إن تعاقبهم العقاب الشديد فهم عبادك تملكهم، ولا حق لهم عندك، وهم قد أذنبوا، فبحكمتك وعزتك كان عقابهم، وإن تغفر لهم وتستر سيئاتهم وتصفح عنهم فإن ذلك جائز منك، وهو صفح الغالب القاهر، الذى يضع الأمور فى مواضعها وأفعاله فى دائرة الحكمة والتدبير المصون عن العبث.

وهنا قال العلماء: كيف يسوغ أن يطلب عيسى ـ عليه السلام ـ فى المشهد العظيم الغفران للكفار الذين أشركوا بالله تعالى، فجعلوا عيسى وأمه إلهين وقالوا إن الله ثالث ثلاثة، وقالوا إن المسيح ابن الله؟ وقد أجابوا عن ذلك بإجابات مختلفة أدقها ما قيل من أن الغفران للكفار جائز عقلا، وليس مستحيلا، ولقد كان طلب عيسى عليه السلام؛ الغفران لهم من قبيل طلب إبراهيم ـ عليه السلام ـ الغفران لأبيه، فهو ناتج من فرط الشفقة، والرأفة، على أن عيسى ـ عليه السلام ـ ما طلب الغفران، بل فوض الأمر لرب العالمين تعالت حكمته، وإذا كان ما يناقش فى هذا المقام فهو أنه فرض جواز الغفران، ونحن نرى أن ذلك الفرض يتفق مع النسق التاريخى الذى وقع، وذلك بأن نفرض أن المسيحيين الذين أشركوا منهم من كان على ضلاله القديم بعد أن بلغته الدعوة المحمدية، ومنهم من استمر على غيه بعد أن تبلغه الدعوة المحمدية إلى التوحيد، وتبين حقيقة الدعوة المسيحية كما جاء بها الإسلام، وهؤلاء الأخيرون لا مساغ لفرض الغفران لهم شرعا؛ لأنهم أشركوا الأولون فقد كانوا على فترة من الرسل وكانوا على جهالة عمياء لا تسمح لهم أن يعرفوا حقيقة دعوة المسيح عليه الصلاة والسلام، وذلك أنه قد نزل بهم بعد المسيح ـ عليه السلام ـ من الاضطهادات والشدائد والكوارث ما جعلهم يستخفون بدينهم، ويفرون بها، ولا شوكة لهم، وقد قارنت هذه الشدائد المسيحية

فى نشأتها من بعده وفى تكونها وليدا وفى تدرجها، واستمرت هذه الشدائد نحوا من ثلاثة قرون، نزل فيها أشد ما ينزله الإنسان بأخيه الإنسان حتى أنه كان يتخذ منهم مشاعل تسير فى موكب الإمبراطور الرومانى نيرون، إذ تطلى أجسامهم بالقار، وتشعل فيها النيران، ويسار بهم فى موكبه.

ولم يكشف عنهم البلاء إلا بعد أن اختفت المصادر الحقيقية لدينهم، وادعى التثليث تدريجيا، وما كان عندهم من علم يعلمونه ويحاسبون به، وهؤلاء أحسب أن فرض عيسى غفران الله تعالى كان فرضا سليما يتفق مع عزة الله تعالى وحكمته، وشمول علمه.

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بعد أن ذكر سبحانه من مغيبات الأمور اليوم الذى يجمع الله الرسل وأقوامهم، وتكون المجاوبة بين عيسى وربه، وهو الحق الذى بعث به، وفيها بيان مقامه ممن افتروا عليه الكذب، وضلوا فى افترائهم وإذا كان ذلك فيه إشارة إلى العذاب الذى يستقبل أولئك المفترين على الرسول والذين جاءتهم المعجزة الباهرة التى لايمارى فيها إلا من ران على قلبه. بين سبحانه جزاء الذين يذعنون للحق، وسماهم سبحانه الصادقين وأن الذى ينفعهم هو صدقهم، والصدق شعبة مما طلبه الحق، ولكنه سبحانه جعله شعار المؤمنين، وذلك لأن الصدق هو وصفه الإيمان الذى يلازمه، ويروى فى ذلك أن النبى ﷺ سئل: «أيكون المؤمن جبانا؟ فأجاب عليه السلام: يكون المؤمن جبانا. وسئل أيكون بخيلا؟ فأجاب عليه السلام: يكون بخيلا، وسئل أيكون كذابا؟ فقال: لا يكون المؤمن كذابا»(١). فالكذب والإيمان نقيضان لا يجتمعان، والإيمان يلازمه الصدق، وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة]. والصدق يلازمه الإخلاص، ويكون معه القرب من الله تعالى، ولقد

---

(١) رواه مالك: الموطأ - وحدثني مالك أنه بلغه أن عبد الله (١٨٦٢).

قال عليه الصلاة والسلام: «إن الصدق يهدى إلى البر، والبر يهدى إلى الجنة، ولايزال الرجل يصدق حتى يكتب عند الله صديقا»(١).

وإن الصدق ذو شعب ثلاث، أقربها الصدق فى القول، فلا ينطق إلا بالحق، ولاينطق إلا بما يجول بصدره، ولايمارى ولايداهن، ولا يرفث فى قول، والثانية صدق النفس فلا يغش نفسه، ولايخدعها، بل يحاول أن يطلع على عيوبها ويعالج هذه العيوب، ولا يخدع نفسه ليكذب عليها، والثالثة، صدق الإنصاف، فلا يغمط غيره، ولا يحقد ولا يحسد، ولا يضغن، وينصف أعداءه من نفسه.

ومن كانت هذه حاله ينفعه صدقه؛ لأنه صدق القول والنفس والعمل، له جزاؤه فى الجنة جنات تجرى من تحتها الأنهار، وفى ذلك النعيم خالد خلودا أبديا لانهاية له، وفوق هذا الجزاء المادى الحسى، هناك جزاء معنوى وهو رضوان من الله، وهو أكبر من كل جزاء، ولذلك رضى الله عن الصادقين فهم مقربون إليه زلفى، وهم لايرضون بربهم بديلا ولا شريكا فى عبادة أو قربى، أو استعانة أو استجابة، فالله ملء قلوبهم يعبدونه كأنهم يرونه.

وإن ذلك هو الفوز العظيم الذى لافوز يماثله أو يقاربه.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فى هذا النص الكريم بيان للحق الذى لا مجال للريب فيه، وبيان لسلطان الله تعالى على كل ما فى السموات وما فى الأرض، وأنه ذو سلطان فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، وهو القادر على كل شىء يريده، لا يعجزه شىء فى السماء ولا فى الأرض، وفى الكلام إشارات بيانية نذكرها.

الأولى - إثبات أن الله وحده هو الجدير بالألوهية، والمستحق للعبادة، لأنه ذو السلطان الكامل المالك لكل شىء.

---

(١) رواه مسلم: البر والصلة - قبح الكذب وحسن الصدق (٢٦٠٧)، والبخاري: الأدب - ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ (٦٠٩٤).

الثانيـة ـ أن تقديم لفظ الجـلالة يفيـد وحدة سلطانه وملكـه وقدرته أى أنه وحده المالك لكل شىء.

الثالثـة ـ ذكر السموات والأرض، والتـصريح بما فيـهن للإشارة إلى أن كل شىء فيهن مـخلوق له سبحانه، ولـيس فوقه أحد فلا يقـال: إن أحدا له سلطان بجوار سـلطانه وإن المعجـزات التى تجرى على أيدى بعض النبـيين من خلـقه هو الذى خلقه على يديه وليس النبى خالقها.

الرابعة ـ إثبات أنه قـادر على كل شىء لا يتقيد بالأسباب والمسـببات، لأنه على كل شىء قدير، وهو خالق الأسباب.

الخامسة ـ تقديم الجار والمجرور يفيـد كمال قدرة الله تعالى على الأشياء إنه حميد مجيد، سميع بصير عزيز حكيم.

سورة الأنعام

تعريف:

سورة الأنعام قالوا إنها نزلت بعد سورة الحجر، وإن عدد آياتها خمس وستون ومائة آية كلها نزل بمكة ما عدا عدة آيات قالوا: إنها نزلت بالمدينة هى الآيات ٢٠ و٢٢ و٩١ و٩٢ و١١٤ و١٤١ و١٥١ و١٥٢ و١٥٣- وهى آيات نزلت فى بيان أحكام تتعلق بالحلال والحرام من التكليفات العملية، وهى لهذا كانت أنسب بالمدينة؛ ذلك لأن ما يتعلق بالعقيدة قد اختص بمكة؛ إذ كان فيه بيان الوحدانية فى الذات وفى الصفات والخلق والإنشاء والعبادة والألوهية، وأنه لا إله إلا هو، وبيان رسالة الله وأخبار الرسل السابقين، وما جاءوا به، وما نزل بأممهم، وما جاء من أحكام بمكة كان أكثره على ألسنة الأنبياء السابقين وما كانوا يدعون إليه أقوامهم، فدعوة شعيب -عليه السلام- إلى الإيفاء بالكيل والميزان، ونهيهم عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وغير ذلك. أما القرآن المدنى، فقد نزلت به الأحكام التكليفية العملية؛ لأنه قد كونت دولة للإسلام، فكان لا بد من نظم تقيمها، وأحكام تنظم علاقات آحادها، وقد ابتدأت العبادات بالصلاة المفروضة فى مكة لمناسبتها للألوهية، ومعانى العبودية، ثم أُكملت فى المدينة ليتكون رأى عام فاضل، ومجتمع متضافر متعاون.

ابتدأت السورة ببيان استحقاق الله تعالى وحده للحمد؛ لأنه خالق السموات والأرض وحده، وجاعل الظلمات والنور، وبيان أن أصل خلق الإنسان من طين، وبيان كمال سلطان الله تعالى فى خلقه، وعلمه بالسر وما يخفى، وبيان آيات الله تعالى فى كونه، وتلقى الجاحدين، وما كانوا يكذبون به الحق، إذ يجيئهم ويستهزئون به لإعراضهم عن الآيات البينات المثبتة الموضحة الكاشفة.

وإن كان المشركون لم يؤمنوا لإعراضهم عن البينات، فقد أنذرهم سبحانه بعاقبة أمرهم، ببيان عاقبة من سبقوهم بعد جحودهم، وأشار سبحانه وتعالى إلى طموس مداركهم، وجحود نفوسهم، وعدم تلقيهم للنور والهداية، وأنه لا يجدى معهم توجيه، ولا دليل حتى أنهم لو نزل إليهم من السماء كتاب فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الجاحدون: إن هذا إلا سحر مبين، كما قال الجاحدون برسالة عيسى- عليه السلام- عند إحيائه الموتى، وإبرائه الأكمه والأبرص، ونزول المائدة، قالوا: إن هذا إلا سحر مبين.

وأن الجاحدين شأنهم الاستهزاء بالحق إذ جاءهم، وأن على النبى أن يتأسى فى استهزائهم به بما كانوا يفعلون مع الأنبياء السابقين، وبين سبحانه وتعالى سوء عاقبتهم.

ولقد بين سبحانه من بعد ذلك طائفة من ضلال تفكيرهم باستهزائهم عند ذكر خالق السموات والأرض، ويتولى- عليه الصلاة والسلام- الإجابة مبينا أن الله كتب على نفسه الرحمة، وأن من رحمته أن يجمع الناس يوم القيامة، بيّن ثواب المحسن وعقاب المسيء ثم بين سبحانه وتعالى ملكه لكل شيء وسلطانه الذى فوق كل شيء، وإذا كان الله مالك كل شيء وفاطر السموات والأرض - لا يمكن أن يتخذ الرسول وليا نصيرا غيره سبحانه، وأن يكون أول من يسلم وألا يكون من المشركين، وأن يخاف عذابه إن عصى، ولا فوز إلا لمن يصرف عنه عذاب يوم القيامة.

وإذا كان سبحانه يملك كل شيء، فهو كاشف الضر إن مس الإنسان، وهو القادر على النفع، وهو القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير، وإذا كان المشركون يستمرون على عنادهم فالله هو الشاهد الحكيم بين الرسول وبينهم، وشهادته أكبر شهادة، وأن هذا القرآن أوحى به إلى الرسول لينذر به المشركين ومن يبلغه دعوة النبى ﷺ، وإن كنتم أيها المشركون تشهدون أن مع الله آلهة أخرى فالنبى ﷺ لا يمكن أن يوافق على هذه الشهادة، بل لا بد أن يكذبها.

وأن أهل الكتاب الذين أوتوا علما بالرسالات يعرفون الرسول كما يعرفون أبناءهم، ومع ذلك لا يؤمنون لأنهم غيروا دينهم أو كتموه، ولا أحد فى هذا الوجود أكثر ظلما ممن افترى على الله الكذب، أو كذب بالدلائل القائمة الثابتة الدالة على الحق، ولا يمكن أن يفلح ظالم بكتمان الحق أو إظهار الشرك.

وقد بين سبحانه حال المشركين يوم القيامة، وأنهم لهول يوم القيامة ينكرون أنهم كانوا مشركين.

ومن هؤلاء المشركين من يكون على قلوبهم مثل الأكنة عند الآيات البينات، ولا يؤمنون بأى آية، وإذا جاءوا يجادلون قالوا عن الآيات: إن هى إلا أساطير الأولين، وهم يبتعدون عن الحق، وينهون غيرهم عن اتباعه، وهم فى الحالين هالكون بما يفعلون.

ثم يصور سبحانه حالهم فى الآخرة فيقرر أنها مفارقة لحالهم فى الدنيا؛ إذ يبدو لهم ما كانوا يخفون، وهم بذلك قد خسروا خسرانا مبينا وجاءتهم الساعة بغتة من حيث لا يحتسبون، وأن الدار الآخرة هى دار البقاء، والحياة، وكانوا يتوهمون أنه لا حياة بعد الدنيا، والدنيا بجوارها لهو ولعب، وذكر سبحانه عزاء النبى ﷺ بالرسل قبله إذ جحدوا، ثم لا مناص من أن يبلغ النبى ﷺ وألا يكبر عليه إعراضهم مهما تكن حالهم.

وليعلم أن الذين يستجيبون لدعوته الذين يسمعون ويتعظون هم الأحياء حقا، والآخرون موتى وسيبعثهم الله، ويعاقبهم، وهم الذين لا يسمعون، ويطلبون آيات أخرى غير التى أعرضوا عنها، وقد ذكرهم سبحانه بأن الأحياء جميعا من الحيوان والطيور أمم، والكتاب المحفوظ يحوى كل شىء.

وبين سبحانه أن الذين يعرضون عن الآيات صم لا يستمعون إليها، وبكم لا ينطقون بالحق، ويعيشون فى ظلمات لا يبصرون، ولقد ذكرهم سبحانه بندائهم لله تعالى فى حال شدتهم أو موتهم أو قيامهم أيدعون غير الله، وبين سبحانه أنه

يختبر الأمم بالضر يصيب أجسامهم، وبالبؤس يصيب نفوسهم، ولقد زين لهم الشيطان سوء أعمالهم فظنوه حسنا، وأنهم كما نسوا ما ذكِّروا به اختبروا بالنعمة، ثم أخذوا بغتة، وهم لا يشعرون، وقطع دابرهم بسبب ظلمهم، وذكرهم سبحانه بأنه إذا أخذ سمعهم وبصرهم لا يدركون، وذكر أنه يصرف لهم الآيات، ويوجههم إلى الحقائق الثابتة عساهم يفقهون الأمور على وجهها. وقد بين سبحانه عمل الرسل وهو التبشير للمتقين والإنذار للمكذبين، وأن محمدا ﷺ لا يقول لهم: عندى خزائن الله أصرفها كما أشاء، ولا يقول لهم: إنه يعلم الغيب، ولا يقول لهم: إنه ملك، بل إنه يتبع ما يوحى إليه، والناس مختلفون بعد ذلك فى تلقى نور الوحى، وجزاؤهم على حسب حالهم فلا يستوى المحسن والمسىء كما لا يستوى الأعمى والبصير.

وإن الإنذار يكون أثره فى قلوب الذين يخافون يوم القيامة وما يكون فيه من هول.

وإنه يجب أن يكرم أهل الإيمان، ولا يطردوا لفقرهم أو ضعفهم، فإنه من فتنة الناس بعضهم ببعض أن يوفق للحق الضعفاء، ويكذبه الأقوياء ليقولوا أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا، ويجب على النبى ﷺ أن يرحب بالمؤمنين ويبين الحق لهم، وأن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة، وهى العدالة وجزاء الحسن بالحسن، والعفو عن السيئ الذى ارتكب بجهالة، وأمر الله نبيه أن يتخذ من نفسه قدوة حسنة، فيقول: إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دونه وألا أتبع أهواءكم، وأنه على بينة من ربه، وأنه ليس بيده العذاب الذى يستعجلونه، ولو كان عندى لقضى الأمر الذى بينى وبينكم والله أعلم بالظالمين.

وإن الغيب كله عند الله تعالى، فعنده سبحانه مفاتحه لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما فى البر والبحر، ويعلم ما نكسب بالنهار ويتوفانا بالليل، ويستمر الإنسان بين الليل والنهار، حتى يُقضى أجل مسمى، ثم يكون المرجع إلى الله تعالى. وأنه سبحانه فوق هذا العلم المحيط، له القوة الكاملة، فهو القاهر فوق

عباده، وهو الذى يحفظ عباده، والمرجع إليه سبحانه، وهو المنجى من كل سوء، وهو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو ينزل بكم ما هو أشد، فيجعلكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض، وأن قومك قد كذبوك وما تدعو إليه وهو الحق، ولكل خبر عظيم مستقر يستقر عنده، ولست عليهم بوكيل مسئول عما يسيئون به. وإنك واجد منهم لجاجة فى الإنكار، فذكِّر، ولا تقعد معهم إذ يخوضون فى آياتنا، وما عليك ولا على من معك من المتقين من حسابهم من شيء، فذرهم؛ لأنهم اتخذوا دينهم هزوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا، ولكن ذكِّرهم فقط حتى لا يسقطوا فى الشر إلى أقصى درجاته، وينالوا من بعد ذلك عذاب الجحيم، وقل لهم: أندعوا من دون الله ما لا يضرنا ولا ينفعنا، ونرد على أعقابنا بعد ذلك إذ هدانا الله كالذى أصابته حيرة باستهواء الشياطين له فى الأرض، فيدفعه الشيطان إلى التردى، ويدعوه أصحابه إلى الهدى، وهو حائر، وأن الهدى هدى الله، وأمرنا أن نسلم لرب العالمين وأن نقيم الصلاة، وأن نؤمن بالله وهو الذى خلق السموات والأرض ويوم يقول: كن، فيكون، وقوله الحق، وله الملك يوم القيامة، وهو الحكيم الخبير، عالم الغيب والشهادة.

ولقد بين سبحانه وتعالى قصة الخليل إبراهيم أبى الأنبياء وأخبار ذريته، وفى هذه القصة بين سبحانه كيف يكون إدراك العقل لله سبحانه ووحدانيته، مستمدا ذلك من الفطرة السليمة- رأى الخليل بفطرته أن الأصنام لا يمكن أن تكون آلهة، وخاطب أباه بذلك، واعتبره ضلالا، ثم اتجه إلى تعرف الإله الأوحد، ظنه فى كوكب، ولكنه أفل فزال، والإله لا يزول، ثم ظنه القمر إذ رآه بازغا، ولكنه أفل أيضا، واعتبر نفسه تسير فى ضلالة، وأنه إن لم يهده ربه الذى يؤمن بوجوده ليكونن من الضالين، فلما رأى الشمس بازغة قال: هذا ربى؛ لأنها أكبر، فلما أفلت أدرك أن الله تعالى لا يكون أمرا محسوسا، فقرر البراءة من الشرك واتجه إلى الخالق الذى تدل آثاره على وجوده، ومخالفته لمخلوقاته، فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)﴾

[الأنعام] وأخذ بعد هذه الهداية يحاجُّ قومه ويحاجُّونه ويذكر لهم أن أوثانهم لا تضر ولا تنفع، فليسوا موضع خوف منه، وهم الجديرون بأن يخافوا؛ لأنهم يشركون بالله ما لم ينزل به حجة تدل على صحة الإيمان بهم، ثم قال: ﴿... **فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** (٨١)﴾ [**الأنعام**]. لا شك أن أحق الفريقين بالأمن الذين لم يخلطوا إيمانهم بشرك، وتلك حجة الله تعالى الذى أجراها على لسان إبراهيم- عليه السلام- وأجراها من بعده على ألسنة الأنبياء من بعده، وعلى نوح من قبله. وقد ذكر سبحانه وتعالى الأنبياء من ذريته، وقد آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة، وكان من أقوامهم من آمن، ومنهم من كفر، فإن يكفر المشركون من العرب الذين بعث إليهم محمد ﷺ فغيرهم مؤمن؛ وهم يقاومون الشرك. وقد بين سبحانه وتعالى العبرة فى قصصهم، فقال: ﴿**أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ** (٩٠)﴾ [**الأنعام**].

وقد بين سبحانه وتعالى بعد قصة إبراهيم أن الذين يشركون ما قدروا الله حق قدره، وقد نفوا رسالة الله تعالى، فسأل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى، وقد كان يعرف أن لليهود كتابا، وقد بين أن اليهود يخفون بعضه وهو كثير ويظهرون بعضه، ولا يصح أن يقتدوا بآبائهم؛ لأنهم علموا ما لم يعلموا من قبل، ولم يعلمه آباؤهم.

وذكر سبحانه بعد ذلك منزلة القرآن، وهو أنه كتاب مستمر بهدايته واتباعه، وأنه نزل على محمد الذى علمتموه أمينا عدلا لا يكذب، ولا أحد أظلم ولا أكذب ممن يدعى أنه أوحى إليه، ولم يوحَ إليه بشىء... ومن قال: سأنزل مثل ما أنزل الله من المشركين وأشباههم، وصور سبحانه وتعالى حال الظالمين، وهم فى غمرات الموت باسطى أيديهم بالمنجاة، ويقال لهم: اليوم أخرجوا أنفسكم بما كنتم تقولون على الله غير الحق، وكنتم عن آياته تستكبرون، وأنهم سيذهبون إلى الله مجردين عن الأتباع والنُّصَراء، وتركوا ما مكنوا فيه من أموال وبنين وأولياء وراء ظهورهم، وكانوا كما خلقهم أول مرة، وليس معهم الشركاء الذين

زعموا أنهم يشفعون لهم: ﴿ ... لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الأنعام].

بعد هذه الأدلة الساطعة، والقصص المذكِّر، والتوجيه المنبه، بين سبحانه أنه وحده المنشئ على غير مثال سبق، فهو الذى يفلق الحب فيكون منه النبات، ويفلق النوى فيكون منه الشجر، وهو يبدع الحياة فى هذا النبت الجامد، ويخرج ذلك البذر الجامد من الأغصان الرطيبة، وهو الذى يخرج الإصباح من الظلام، ويجعل الليل سكنا واطمئنانا بعد كدح النهار، وهو الذى يجعل الشمس والقمر بحسبان، وكل ذلك بتقديره، وهو العزيز العليم، وهو الذى زين السماء بالنجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البحر، وذلك ليكون أمارة وجوده ووحدانيته لقوم يعملون عقولهم، ولا تتسلط عليهم أوهامهم، وبعد أن بين ذلك التوجيه العام فى خلقه؛ اتجه إلى بيان خلق الإنسان فأنشأ بنى الإنسان من نفس واحدة، واستقر فى هذا الوجود، وأودع الأرحام ودائعها، وتلك آيات لمن يؤمن، وينفذ ببصيرته إلى حقائق الأمور، وبين من بعد ذلك، الثمرات التى تكون من التقاء السماء بمائها بالأرض فيكون أطيب الثمار، وأطيب الزرع، وما فيه من عجائب، وبين تنوع الخلق، فأشار سبحانه إلى النخيل والأعناب والزيتون والرمان، والمتشابه، وغير المتشابه، وما يكون من ثمرات، وفى كل ذلك لمن يؤمن بالحق ويذعن للحقائق.

ومع كل هذه الآيات البينات التى يدركها من يعقل، ويصل إلى الحقائق فيها من يفقه، ويذعن لها من يؤمن بالحق ولا يمارى فيه- مع كل هذه الآيات وجد من جعلوا له شركاء من الجن وهو الذى خلقهم، ومن يحمقون، فيدعون أن لله بنات وبنين سبحانه وتعالى عما يصفون. إنه سبحانه خلق السموات والأرض كيف يكون له ولد ذكر أو أنثى وليست له صاحبة، وإذا كان الله تعالى خالق كل شىء فهو وحده المستحق للعبادة وحده، وهو سبحانه المنمِّى لكل شىء بعد خلقه.

وقد بين بعد ذلك بعض صفاته، فهو لا تدركه الأبصار؛ لأنه غير محسوس، وهو يدرك الأبصار، وهو العالم علما دقيقا لكل شيء، وأن كل ما سبق؛ فيه ما يبصركم بالحق، والتبعة عليكم بعده، فمن أبصر فلنفسه، ومن عمى فعليها، وما أنا عليكم بحفيظ، وإن هذا كله تصريف فى القول المعجز، ليؤمنوا وليقولوا: درست على ربك. ومن بعد ذلك أمر الله تعالى نبيه الكريم بأن يتبع ما يوحى إليه، وأن يعرض عن المشركين، والله تعالى هو الذى كتب عليهم الكفر، وما كان النبى ﷺ حافظا يمنع عنهم الكفر، ولا حاميا يدافع عنهم.

ولقد علم الله المؤمنين الحكمة بأن ينظروا إلى مآلات أقوالهم ولو كانت حقا، فلا يسبوا ألهة المشركين حتى يندفعوا فيسبوا الله تعالى ظالمين جاهلين، ثم هم معاندون، يقسمون أنهم إن جاءتهم معجزة غير القرآن يؤمنوا، فردهم سبحانه بأنه يختار من الآيات ما يكون مناسبا وله الحكمة، والله سبحانه هو مقلب القلوب، فليتركوا فى ضلالهم وعمايتهم بعد البيان المرشد الحكيم.

وأن هؤلاء كتب الله تعالى عليهم الشقوة إلا أن يرحمهم فيتركوا ما هم فيه من ضلالة، فلا تجدى فيهم الآيات إلا أن يشاء الله تعالى، فلو أنزل الله تعالى عليهم الملائكة، وكلمهم الموتى معلنين بعثهم، وجمع عليهم كل شيء يكون فى المستقبل ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله، والله سبحانه وتعالى قد اختبر الأنبياء فجعل لهم من شياطين الإنس والجن أعداء يزخرف بعضهم لبعض القول ويغرونهم، ولو شاء الله تعالى ما فعلوه، فذرهم وما يفترون، وأنه لتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالغيب والآخرة، بل لا يفهمون إلا ما بين أيديهم، وبذلك يقترفون الآثام التى يقترفونها لأنهم يقولون إن هذه الحياة الدنيا هى وحدها الحياة.
وأنه لا يمكن أن يكون للمؤمن حكم غير الله؛ لأنه هو الذى أنزل الكتاب مبينا فيه كل شيء وأهل الكتاب يعرفون ذلك، ولا يصح أن يكون ذلك موضع شك، وأنه ببيان القرآن تمت كلمة ربك صدقا وعدلا، وهو السميع العليم، ولا يجوز التقليد للآباء والبيئات، فإنه إن يطع النبى من فى مكة أو بلاد العرب يضل عن

سبيل الله؛ لأن سبيل الله تعالى هى الحق والعقل، وهم يتبعون الظن ويخرصون، وربك أعلم بمن يضل عن سبيله، وهو أعلم بالمهتدين.

وإن من شركهم أن يذبحوا الذبائح باسم الأصنام فنهى الله تعالى المؤمنين عن أن يأكلوا مما لم يذكر اسم الله تعالى عليه، بل إنهم يأكلون ما ذكر اسم الله تعالى عليه، ولا يصح أن يوجد ما يمنعهم إلا من يكون فى حال اضطرار، والله أعلم بالمعتدين، وعلى المؤمنين أن يذروا ظاهر الإثم وباطنه، وألا يأكلوا مما لم يذكر عليه اسم الله تعالى، ولا شك أن المشركين سيجادلون فى تحريم هذا وإحلال غيره، وعلى المؤمنين ألا يطيعوهم، وإلا كانوا مشركين مثلهم، وإنه لا يتساوى الميت مع الحى، وكذلك لا يتساوى الضال الذى هو كالميت مع المؤمن الذى يحيا حياة طيبة وله نور يمشى به فى الظلمات، ولكن زين لهم سوء أعمالهم. وإنه ليس بغريب أن يناوئ محمدا ﷺ أكابر من قريش، فإن كل قرية يكون فيها أكابر مجرميها، يمكرون فيها ويسيطرون عليها، والعاقبة عليهم وما يشعرون، وهم يحسدون رسل الله تعالى فيطلبون أن يؤتوا مثل ما أوتى رسل الله، وذلك شرط لإيمانهم، والله أعلم حيث يجعل رسالته، وسيصيبهم صغار بسبب إجرامهم وعذاب شديد بسبب كفرهم ومكرهم السيىء لخفض كلمة الله تعالى. ومن يرد الله تعالى الخير له يشرح صدره للإيمان، ومن يرد غير ذلك منه يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء من شدة ضيق صدره وتوالى أنفاسه، وبذلك يكون عليه الرجس وعلى الذين لا يؤمنون، وهذا صراط الله تعالى مستقيما قد فصلنا الآيات وبيناها لقوم يذكرون.

ولقد بين سبحانه وتعالى اختصاص المؤمنين، فذكر أن لهم دار الأمن والاطمئنان والسلام عند ربهم الذى خلقهم وهو وليهم، وذلك جزاء عملهم، وإن الله تعالى يوم يجمعهم جميعا يناديهم يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس، وأولياؤهم من الإنس يقولون قد استمتع بعضنا ببعض، وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا، فذكر سبحانه أن النار هى المثوى الذى ينتهون إليه، وكذلك يمكن بعض

الظالمين من بعض بسبب مـا كانوا يكسبونه، ثم فى هذا الجـمع الجامع ينادى رب البرية ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ... ⦗١٣٠⦘﴾ [الأنعام] ويذكرهم بمن بعث إليهم من رسل يذكرون لهم آيـاته سبحـانه، وينذرونهم لقاء يومهـم هذا، فيشـهدون على أنفسـهم، ولكن غرتهم الدنيا وزخرفـها، وأطغاهم أن الله تعـالى لا يهلك القرى بسبب ظلمـها، وأهلهـا غافلون. ولكل درجات بسـبب أعمالـهم، والله لا يترك عمل عامل، وهو الغنى ذو الرحـمة إن شاء يذهبهم، ويستخلف من بـعدهم قوما غيرهم، وما وعـد به سبحانه آت لا محالة لأنه لا يعجزه أحـد، وأمر الله نبيه أن يدعو قـومه إلى أن يعـملوا ما فـيه رفـعة مكانتهـم واجعل نفسك قـدوة لهم فى العمل، وستعلمون من تكون له عاقبة الدار.

وذكر سـبحـانه وهما من أوهامـهم إذ جعلوا لله تعـالى مما خلق من الإبل والبقر والغنم نصيبا وجزءا لما يزعمون آلهة، فما يجعلونه للشركاء يكون لهم، وما يكون لله لا يصل إليـه، ويصل إلى شـركـائهم، وساء مـا يحكمـون به فى هذه القضية وغيرها.

ومنهم من كـان قـد زيـن لهم الشـيطان قـتل أولادهم بوهـم للآلهـة التى يزعمـون، فأردوهم، ولبـسوا عليـهم دينهم ولو شاء ربك مـا فعلوه وهو افـتراء فذرهم أيها الرسول بعد أن بينت، وحرموا على أنفسهم بأوهامهم، فجعلوا بعض الأنعام للأكل والحرث وأنعـام لا يطعمها كل الناس، وأنعام ممنوعـة، وأنعام حرم ركوبها، وأنعـام يأكلونها من غير ذكـر اسم الله، وكل ذلك افتراء سيـجزيهم الله تعالى عليه، وقالوا: مـا فى بطون هذه الأنعام للذكور منا، ويحرم على أزواجنا، وإن يكن ميتـة فهم فـيه شركاء وسـيجـزيهم الله تعـالى على ذلك، إنه حكيم عليم.

وكانوا يقتلون أولادهم سفها بغير علم، ويحرمون ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين.

ولقد بين سبحانه أنه أباح الطيبات وهو الذى خلقها وأنشأها للناس، فذكر أنه أنشأ جنات معروشات كالأعناب وغير معروشات كالبرتقال وغيره، والنخل والزرع مختلفا أكله من قمح وشعير وفول وبقول والزيتون والرمان متشابها آحاده وأنواعه وغير متشابه، وخلق ليؤكل، كلوا من ثمره، وآتوا ما عليه من زكوات يوم حصاده ولا تسرفوا فى الأخذ حتى لا تطغوا إن الله لا يحب المسرفين، وبعد أن بين النعم فيما تخرجه الأرض بين نعمه، فمن الأنعام حمولة تحملكم من أرض إلى أرض أنتم وأمتعتكم وتتخذون من جلودها وأشعارها وأوبارها فرشا، ولا تتبعوا خطوات الشيطان فى طعامها وتحريم بعضها، وتحليل بعضها، فسبب التحريم ليس متحققا فيها، فهى ثمانية أزواج؛ من الضأن اثنين، ومن المعز اثنين، ومن الإبل اثنين، ومن البقر اثنين، فما سبب التحريم الذى تبتدعونه فى بعضها فهل فى الذكورة، فتحرموا كل الذكور؟ أم فى الأنوثة فتحرموا كل الإناث؟ أم فيهما فتحرم كلها؟ وأنتم تحرمون بعض الذكور دون بعض، فلا مبرر للتحريم، والتحريم ظلم وافتراء، ومن أظلم ممن افترى على الله ليضل الناس بغير علم، إن الله لا يهدى القوم الظالمين، ثم أمر رسوله بأن يبين المحرمات من الأنعام وهى: الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وكل هذا رجس قذر، وما أهل لغير الله وهو فسق، وذلك كله حرام على المختار فمن اضطر غير متعدّ، ولا متجاوز حد الضرورة فإن الله غفور رحيم، ثم بين سبحانه ما حرمه على اليهود لغلظ قلوبهم، فذكر أنه حرم عليهم كل ذى ظفر من البهائم، وحرم من البهائم شحومها إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا أو ما اختلط من الشحوم بالعظم، وكان تهذيبا لنفوسهم الشرهة، وجزاء لبغيهم.

وذكر سبحانه أن المشركين يكلون شركهم إلى تقدير ربهم، أى يأثمون، ولا يحملون أنفسهم إثمهم، وكذلك كل الفاسقين حتى يروا بأس الله تعالى يوم القيامة- وهل عندهم علم سوّغ أن يحملوا غيرهم إثم فعلهم، فيحرموا ما حرموا؛ إن يتبعون إلا الظن الكاذب والوهم، والله عنده الحجة البالغة، وهاتوا

شهداء يشهدون أنه حرم ما حرموه على أنفسهم، فإن شهدوا فلا تشهد معهم، ولا تتبع أهواء الذين كانوا بأدلة الله يكذبون، ولا يؤمنون بالآخرة، وهم بربهم يعدلون، ويجعلون معه شركاء.

وبعد أن ذكر سبحانه ما حرموه على أنفسهم، وبطلان ادعائهم أمر رسوله أن يبين لهم ما حرم عليهم وهم فيه واقعون وهو ﴿... أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢)﴾ [الأنعام].

وقد بين سبحانه بعد ذلك أن هذا هو صراطه المستقيم، عليهم أن يتبعوه، ولا يتبعوا السبل، فتفرق بهم عن سبيله، فغيرها مثارات الشيطان، وطرائقه، وتلك وصيته رجاء أن تتقوه فاتبعوها؛ ويبين سبحانه أن هذه المحرمات جاءت فى شريعته ﷺ وفى كتابه، وقد سجلت فى القرآن، فكانت شرعا لله، فاتبعوها واتقوا الله لعلكم ترحمون، ولا تعرضوا عنها بأن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين هم اليهود والنصارى من قبلنا ونحن غافلون عن دراستهم، أو تعرضوا قائلين لو أنزل علينا الكتاب لكنَّا أهدى منهم فها هو ذا أنزل عليكم من ربكم فيه بينة وهدى ورحمة، وإنكم من بعد تظلمون بتكذيبكم بآيات الإعجاز فيه، وتصدفون عنها، وجزاؤكم على ذلك الظلم سوء العذاب.

هذه حجج قاطعة فإذا كنتم تعرضون عنها، فهل تنتظرون أن تأتيكم الملائكة أو يأتى ربك، أو يأتى بعض آيات ربك القاصمة لظهوركم، ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ﴾ وهو يوم القيامة ﴿... لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨)﴾ [الأنعام].

وإن الذين فرقوا دينهم من اليهود والنصارى وكانوا شيعا لست منهم فى شىء، إنما أمرهم إلىَّ ثم أنبئهم، بما كانوا يفعلون، ثم بين سبحانه الجزاء فجزاء الحسنة عشرة أمثالها، وجزاء السيئة مثلها، وطالبه ﷺ أن يكون قدوة فأمره أن يقول: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ... (١٦٤) ﴾ [الأنعام]. وبين أن كل نفس وما تفعل، فلا تزر وازرة وز أخرى، ولا تكسب كل نفس إلا عليها، وإلى الله مرجع الجميع، فينبئهم بما كانوا فيه يختلفون.

وبين سبحانه منزلة الإنسان فى هذا الوجود، فقال تعالت كلماته: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٥) ﴾ [الأنعام].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ
وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) هُوَ الَّذِي
خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ
تَمْتَرُونَ (٢) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ
وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣) وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ
آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ
لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٥) أَلَمْ
يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ
نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ
تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا
آخَرِينَ (٦) ﴾

كان ختام السورة السابقة إثبات سلطان الله تعالى الكامل، وقدرته الشاملة، وأنه لا يعجزه شىء فى السماء ولا فى الأرض، إذ قال سبحانه: ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠) ﴾ [المائدة]. وفى هذه الآية يبين سبحانه السبب فى كمال سلطانه، والمظهر الأعظم لكمال قدرته، وهو خلق

السموات والأرض وخلق الإنسان، فإن هذا من أسباب السلطان الكامل على السموات والأرض ومن فيهن، وهو مظهر كامل لكمال قدرته سبحانه وتعالى، وهذا قوله تعالى:

﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ** ﴾

الحمد معناه اللغوى: الثناء على المحمود بالفعل الاختيارى الذى يقوم به، فلا يحمد على فعل كان بالجبلة والتسخير، إنما الحمد يكون ثناء على فعل اختيارى، الحمد بمعنى الثناء مراتب، أدناه الثناء على العباد فى أعمالهم الاختيارية. واستعماله فى القرآن فى الثناء على العباد قليل إلا إذا كان فى التنديد بطلبهم للحمد مثل قوله تعالى: ﴿ ... **وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا** ... (١٨٨) ﴾ [**آل عمران**]. وأعلى من هذا مرتبة الثناء على الله تعالى بما هو أهله، وذكر صفاته، والإحساس بجلائل نعمه، ولهج لسان العبد بهذه النعم.

والمرتبة العليا شكر هذه النعم والخضوع المطلق له سبحانه، والقيام بحق عبادته، وإفراده بالعبودية، وإن ذلك هو المطلوب من العباد، وهو أعلى الشكر، وقد قال سبحانه: ﴿ ... **لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ** ... (٧) ﴾ [**إبراهيم**] والشكر امتلاء القلب بذكر الله تعالى وذكر نعمه، وشكرها، وهو الذى طالب به القرآن الكريم كما قال تعالى: ﴿ ... **اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ** ... (٤٧) ﴾ [**البقرة**] و«أل» هنا للاستغراق، والمعنى أن المستحق لكل أنواع الحمد ومراتبها هو الله تعالى، فهو المستحق للعبادة، وهى أعلى درجات الحمد، وهو الجدير بكل حمد، دون غيره، وإذا كان ثمة حمد للعباد فهو إن كان على خير أسدوه كان حمد الله تعالى لتوفيقهم وعونهم، وإن كان الدافع على الثناء غير الخير، فهو ليس بحمد، وإنما هو كذب وافتراء على الحق وتعاون على الشر. وقد ذكر سبحانه أسباب ذلك الحمد الذى بلغ أعلى درجاته، فقال تعالت كلماته:

﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ هذا وصف لله سبحانه وتعالى يثبت كمال حق العبودية له وحده، وأنه لا يستحق الحمد الكامل سواه، ولقد يقول الصوفية: إن العبودية لله تعالى ثلاث مراتب: أولاها- أن يعبدوه لذاته، والثانية- أن يعبدوه لصفة من صفاته كصفة الخلق والتكوين، والثالثة- أن يعبدوه لتكمل نفوسهم، ويحسوا بفضل الطاعة، وهذا النص يفيد أن حمد الله تعالى؛ لأنه خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، والحق أن المراتب الثلاث لا تباعد بينها، فمن يعبد الله لذاته، فإن ذاته تعرف بصفاته، ومن يرى شرفه فى عبادة الله وحده، فهو يتسامى.

والقول الجملى- أن الذكر لخلق السموات والأرض لبيان سلطان الله تعالى وقدرته واستحقاقه وحده الألوهية؛ بدليل قوله سبحانه بعد ذلك: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

وهنا بعض المباحث اللفظية التى نتعرض لها؛ لأنه يكون تقريبا لمعانى الإعجاز فى النص:

المبحث الأول- التعبير فى خلق السموات والأرض بـ «خَلَقَ»، وفى الظلمات والنور بـ «جَعَلَ»، فنقول: الخلق معناه الإنشاء الابتدائى هنا، والجعل يتضمن معنى تكوين شيء من شيء أو شيئين، وقد يتضمن الخلق ذلك المعنى بقرينة؛ وهنا المتبادر من المعنى أن الله تعالى أنشأ السموات والأرض إنشاء، وجعل منها الظلمات والنور، فمن اختفاء الشمس عن الأرض يكون ظلام الليل، ومن بزوغ الشمس على الأرض يكون النور، وذلك كله بجَعل الله تعالى، وبأصل التكوين والتقدير من العزيز العليم.

المبحث الثانى- لماذا جمع «الظلمات» وأفرد «النور»؟ والجواب عن ذلك: أن النور واحد، من نتائجه الكشف والظهور، وتعدد أسبابه لا يغير حقيقته، أما الظلمة فإنها متنوعة بتنوع أسبابها.. فهناك ظلمة الليل، وهناك ظلمة المحابس،

وهناك ظلمة القبور، وهناك ظلمة الغمام، وهى تتغير حقائقها بتغير أسبابها، ثم ثمة إشارة إلى أمر معنوى، وهى أن ظلمة الإدراك تتعدد حقائقها، فهناك ظلمة الانحراف، وظلمة الأهواء والشهوات وطمس القلوب، والنور واحد، ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ... (١٥٣)﴾ [الأنعام] فالنور فى هذا واحد.

المبحث الثالث- لماذا أفردت الأرض وجمعت السموات مع أنه قد وردت نصوص تعتبر الأرض سبعا كالسموات؟ والجواب عن ذلك: أنه فى كثير من المواضع تفرد وتجمع السماء فى مثل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (٣٠)﴾ [الأنبياء] وإنما تعدد السموات لعظمها، ولإحاطتها بالأرض، ولما فيها من الآيات البارزة، ولتزيينها بالنجوم، ولأنه لم يعلم أن الله تعالى قد عُصى فيها، ولأن طبقاتها متمايزة ينفصل بعضها عن بعض، والأرض طبقاتها متصلة.

المبحث الرابع- ما الذى كان العطف عليه فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ولماذا عطف بـ «ثم»؟ أما الجواب عن الجزء الأول فهو أن الله سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، وهو وحده يستحق الحمد، ثم مع ذلك يجعل الذين كفروا بسبب ضلالهم مثلا يعدلونه به، وهو أصنامهم، أو ما يزعمون من آلهة، والتعبير بـ «ثم» للبعد بين الحقيقتين، فالحقيقة الأولى التى توجب توحيد الله تعالى وحده، والثانية- ما يقع من هؤلاء الكافرين على غير بينة ولا إدراك، ولقد قرر الله تعالى الحقيقة الثابتة، فقال عز من قائل:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾

بعد أن ذكر جلت قدرته خلقه لهذا الكون وما فيه، وسلطانه على السموات والأرض ومن فيهن، بين سبحانه خلق الإنسان الذى يؤمن ويكفر، ويأثم ويفسق، ويهتدى لأمر ربه، ،والذى حارت البرية فيه،كما قال أبو العلاء المعرى:

والذى حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

ذكر أن الله تعالى خلقه، أى أنشأه من طين فلا يصح أن يستكبر، ويستغلظ على الهداية، وليذكر أصله، فأصله من طين، ولا يزال رب البرية يربه وينميه من الطين، فغذاؤه نبات أو حيوان يرجع إلى الطين، وفى ذكر هذا الأصل إشارة إلى أمرين جليلين: أولهما- عظمة الخالق وإبداعه الذى يجعل من صلصال من حمأ مسنون ذلك الإنسان الحى المتفكر المتدبر الذى يختار الشر فيغوى، ويختار الخير فيهتدى، والإشارة إلى تذكير الإنسان إلى أصل خلقه، لكيلا يستكبر ولا يغتر ولا يستعلى، وإذا كان أصله من الطين، فليس عجبا أن يعود كما بدأ: ﴿ **قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ** (٢٩) ﴾ [**الأعراف**] ﴿ **مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ** ... (٥٥) ﴾ [**طه**] .

وإن الله سبحانه وتعالى، قد خلق الإنسان من الطين، أى خلق أصله من طين، ثم توالد وتناسل من بعد ذلك، وعمر الأرض ما شاء أن يعمرها حتى كان منهم من نسى أصله الطينى، وقد قدر سبحانه لكل إنسان أجلا، ولبنى الإنسان جميعا- أجلا- أما الأول- فقد أشار إليه سبحانه وتعالى: ﴿ **ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً** ﴾ أى عمرا تكون له نهاية فى هذه الدنيا، وعقبى هنالك فى الآخرة، وكان العطف بـ «ثم» للإشارة إلى الأطوار التى يمر فيها الإنسان، والأطوار التى يمر بها الجنين، وللتفاوت بين الحقيقة التى نراها ونحسها والغيب الذى لا نعرفه، مما قدره الله تعالى إذ يقول سبحانه: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ** ... (٣٤) ﴾ [**لقمان**] .

هذا هو أجل العمر، وقال سبحانه بعد ذلك: ﴿ **وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ** ﴾ وما هذا الأجل المسمى عنده، ولا يعلم به أحد الآن يصح أن يكون الأمد الذى يكون بين الوفاة، وبعث من فى القبور، ويصح أن يكون ما قدر للإنسان فى هذه الأرض من وجود، والأمران متلاقيان، فالزمن الذى يكون بين وفاة كل واحد، والبعث

من القبور، والحساب والثواب أو العقاب، ثم الذى تنتهى به الدنيا، وهو مغيب؛ لأن الساعة علمها عند الله قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (١٨٧)﴾ [الأعراف].

ووصف هذا الأجل الثانى بأنه مسمى عنده يفيد اختصاص علمه سبحانه وتعالى بذلك، كما أشارت الآيات التى تلوناها، وقدم ﴿أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ على قوله تعالى: ﴿عِندَهُ﴾؛ لأن الأجل المسمى هو المبتدأ، وما بعده خبر، والمبتدأ مقدم حقيقة، ولأن الأجل هو المتحدث عنه باعتبار أن موضعه لا يعلمه إلا الله تعالى، وسوغ الابتداء بالنكرة؛ لأنها موصوفة، والموصوف المنكر يصح أن يكون مبتدأ لأنه معرف بنوع من التعريف، وتأخير ﴿عِندَهُ﴾ ليس فقط؛ لأن الأجل هو المبتدأ- بل لأن ﴿عِندَهُ﴾ متعلقة بكون التسمية عنده فالعندية ليست لذات الخبر، إنما هى للوقت المسمى الذى اختص الله تعالى به، فكان الأنسب أن يكون المسمى مقترنا بالعندية التى هى متعلقه.

وإذا كانت الآجال ترى مقدرة، فكل حى ينتهى بالموت لا محالة، فكان الأجل الذى لا يعلمه إلا الله تعالى لا ريب فيه أيضا، ولكن بعض الناس فى ريب وشك؛ لأنهم مربوطون بالمحسوس؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ أى أنه مع ما ترون، وتعلمون من أن الإنسان يموت كما ترون، وأنه من طين، مع ذلك تمترون، أى تشكون وتجادلون فى شككم، والأدلة قائمة، وكان العطف بـ «ثم» لتباعد ما بين الحقائق الثابتة وأسبابها، والامتراء هو التردد الذى ينتهى إلى محاجة ومجادلة، وقد ينتهى إلى شك، ثم إلى إنكار، وكان الخطاب لكل المخاطبين بالقرآن مؤكدا بـ «أنتم»، للإشارة إلى أن النفس البشرية حسية، وهى تأخذ أحكامها على الغائب الخفى من المحسوس الجلى. فكان الخطاب للجميع

ليخلعوا من نفوسهم عوامل التردد، ويتجهوا إلى تصديق العليم الحكيم القادر على كل شيء.

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾

بعد أن أشار سبحانه وتعالى أنه الخالق لكل شيء أشار سبحانه إلى البعث وذكر من قبل ذلك أنه الخالق ذو السلطان المطلق فى هذا الوجود يسيطر عليه بجلاله، وألوهيته، واستحقاقه للألوهية وحده، وهو العالم فيه بكل شيء، فلفظ الجلالة يتضمن معنى الألوهية الحق، ومعنى الوحدانية والعلم والقدرة والإرادة، والسلطان الكامل الذى لا يدانيه سلطان، فمعنى قوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ يتضمن خضوع كل من فيهن له سبحانه، وسيطرته الكاملة وقدرته وعلمه، واستحقاقه للعبودية؛ والألوهية وحده.

والضمير فى قوله: ﴿وَهُوَ﴾ يعود على المستحق للحمد الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، والذى خلق الإنسان من طين، وإنه بذلك يكون مستحقا للحمد، ويكون هو المسيطر فى الكون الذى أنشأه وفى الإنسان الذى صوره من طين، وسخر له ما فى السماء والأرض.

وقد ذكر وصفان جليلان فيهما تذكير وتبشير وإنذار.

أولهما- أنه يعلم ﴿سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ فإنه يعلم ما تظهره الجوارح وما تخفيه السرائر، يعلم ما يجرى على الإنسان وما تخفى الصدور، فإن حاسب على ما يفعلون، فحسابه حساب اللطيف الخبير الذى لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء أنى يكون، وهو مجاز على ذلك إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وهو من بعدُ الغفور الرحيم.

الوصف الثانى- أنه يعلم ما يكسبون من خير أو شر، ولكل ذلك حسابه من هنا إلى يوم القيامة.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾

قد وصف الله الذين كفروا بأنهم بعد قيام الدلائل التى تدركها الفطرة السليمة على وحدانية الله تعالى يجعلون عديلا لله فى وحدانيته، ويشركون فيه، ومع أن الآيات الفطرية تدل أن خلق الإنسان إلى فناء فى الدنيا ثم إلى بقاء، وإنها للجنة أبدا، أو للنار أبدا وقد بين من بعد أن الذين طمست فطرتهم فلم تدرك الحق لذات الحق لا تجدى معهم البراهين مهما قويت، ولا الآيات مهما بينت، فبين أنهم معرضون كمن يرى ضوء الشمس فيضع غشاوة لكيلا يراها، ومن يسمع الحق فيضع أكنة على أذنه، وما تأتيهم أية حجة إلا أعرضوا عنها، وهنا بعض المباحث اللفظية التى تقرب معنى الآية الكريمة:

الأول- أن (ما) فى قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ﴾ لعموم النفى ﴿إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾. واستغراقه، أى لا توجد أى آية.

الثانى- التعبير بقوله تعالى: ﴿مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ فيه (من) تبعيضية، والمعنى فيه ما يأتيه آية (من) بعض آيات ربهم الذى خلقهم وذرأهم من العدم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا، وهو الذى يكلؤهم ويرعاهم - إلا كانوا عنها معرضين.

المبحث الثالث- أن قوله تعالى: ﴿إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ فيه إثبات أن الإعراض عن الحق دأبهم وصفة ثابتة فيهم لا يتخلون عنها، ودل على ذلك النفى والإثبات، ثم التعبير بـ «كانوا» الدالة على الدوام والاستمرار، ثم التعبير بالوصف والمعنى الجملى: لا تأتيهم معجزة قاطعة فى الإثبات من عند خالقهم إلا تلقوها معرضين عن مغزاها، تاركين مؤداها.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ إذا كانوا لا تأتيهم آية بينة مثبتة الرسالة إلا استقبلوها بإعراض كأنه عادة لهم، وشأن من شئونهم، فلا بد أن يكذبوا بالحق الذى جاء به النبى ﷺ وهو ما اشتملت عليه الرسالة المحمدية، فهم قوم بور؛ لأن الناس أقسام ثلاثة: قسم يهتدى إلى الحق

عندما يدعى إليه؛ لأنه يدرك ببصيرته، إذ هى مشرقة مخلصة تستجيب للفطرة؛ لأن الحق فى فطرتها، وفى ثناياها. وقسم يقبل الحق، ويستمع إلى آياته ودلائله ويهتدى به. وقسم على قلبه غشاوة يعرض عن الحق، وعن أدلته، وهؤلاء لا علاج لهم إلا بالسيف يقاتلون به، أو بالعذاب الشديد ينزل بهم فى الآخرة.

وأنهم لم يكتفوا بتكذيب الحق إذ جاءهم على لسان الرسول ﷺ، وبما اشتمل عليه القرآن الكريم من حقائق ثابتة بل تجاوزوا إنكار الحق إلى الاستهزاء بأهله، والسخرية بمعتنقيه؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ**﴾ فإن هذا النص الكريم يشير إلى إخبار بالاستهزاء مطوى قد أغنى عن ذكره ما بعده فى ثنايا القول الحكيم، وإن هذا تهديد بأنه سينزل بهم عذاب شديد هو نتيجة وثمرة لاستهزائهم، وكأنه لحتميته نبأ عن القرآن الذى كان به هذا الاستهزاء، وفى الكلام إشارات بيانية تؤكد أنهم مخاطبون بالرسالة ومعاقبون على الإعراض.

الأولى- فى قوله تعالى: ﴿**لَمَّا جَاءَهُمْ**﴾ وأنه نزل بساحتهم وصار قريبا منهم ففى هذا تنبيه على أنهم المخاطبون بحجيته، وأنه بينهم مستمر دائم لا يتوانى عن تذكيرهم مهما فروا، حتى يكون ضلالهم عن بينة، ومن بعد فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليها.

الثانية- تأكيد ما ينزل بهم نتيجة لسخريتهم بـ «اللام» وبـ «سوف»، وبأنه يأتيهم فينزل بساحتهم، وذلك تأكيد لوقوعه.

الثالثة- التعبير عن العذاب بأنه أنباء ما كانوا به يستهزئون، والنبأ هو الخبر العظيم، وقد وضح ذلك الزمخشرى فى الكشاف فقال: فسوف تأتيهم أنباء الشىء الذى كانوا به يستهزئون، وهو القرآن، أى أخباره وأحواله، بمعنى سيعلمون بأى شىء استهزءوا، وسيظهر لهم أنه لم يكن بموضع استهزاء، وذلك عند إرسال العذاب عليهم فى الدنيا أو يوم القيامة أو عند ظهور الإسلام وعلو كلمته.

وقد بين سبحانه لهم العبرة بما نزل بمن سبقوا، ومن مجاورتهم ديارهم، فقال:

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾.

القرن: الجماعة المقترنة التى تعيش فى زمن واحد، والاستفهام داخل على فعل محذوف دل عليه سابق الكلام ولاحقه، والمعنى المقرب: أيعرضون ذلك الإعراض عن المعجزات التى تبين لهم الحق، ويستهزئون ذلك الاستهزاء لأهل الحق، ولم يروا بأن ينظروا نظرة تدبر وتفكر العدد الكثير من القرون الذين أهلكناهم من قبل، وكانوا أشد قوة، وآكد منهم، والاستفهام هنا إنكارى لإنكار الواقع فهو للتوبيخ؛ لأنهم فعلا أعرضوا واستهزأوا ولم يتدبروا ويتبصروا، والآية الكريمة تنبههم إلى وجوب التبصر والتدبر، وتذكرهم بما يستقبلهم إن استمروا على غيهم، وهى فوق ذلك دليل على كمال قدرته على تنفيذ إنذاره، وقد ذكّر الله تعالى لأولئك الأقوام الذين أهلكهم الله تعالى فى سبيل بيان العبرة:

أولا- بأنهم مكنوا فى الأرض بما لم يمكن للمشركين الذين عاصروا محمدا ﷺ فقال تعالى: **﴿مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾** أى جعلنا لهم مكانا فى الأرض لم نمكن لكم مثله، أى لم نمكنه لكم، وذلك كناية عن سعة السلطان، وقيام الصنائع، وكثرة العمران، وثبات حكمهم، واستقرار أمرهم، فأنتم معشر المشركين لم يكن لكم شىء من ذلك، وأنى يكون مكانكم بجوار مكان فرعون، وأنى يكون سعة عمرانكم بجوار سبأ فى مسكنهم الذى كان فيه جنات عن يمين وشمال.

وثانيا- أن الله جعل لهم العيش رغدا، ورغد العيش كان غيثا من السماء فأرسل عليم السماء مدرارا، والمراد من السماء هنا جهة العلو؛ ولذا أفردت فقال تعالت كلماته: **﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾** أى أرسلنا عليهم السحب تنزل دارّة الماء، ويصح أن نقول: إنه أرسل ما فى السماء من السحب، أو اعتبرت السحب

الماطرة فإنها سماء باعتبارها فى وجهة العلو، وفى التعبير بـ «أرسل» بدل «أنزل» إشارة إلى معنى الغوث والإمداد المستمر الدائم، والعرب لم يكن مطرهم كثيرا، بل كان غيثا، يجىء الفينة بعد الفينة.

وثالثها- بالأنهار تجرى من تحتهم؛ ولذلك قال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ**﴾ فى التعبير بـ (جعل) معنى التحويل، أى حولنا أمطار السماء إلى أنهار تجرى من تحتهم أى تحت سلطانهم يسيرون مجاريها كما يريدون، فكان الماء عندهم غدقا ولم يكن ذلك عند العرب، فبأى شىء يفترون ويستعلون، وماذا صنع سبحانه بهؤلاء؟ قال:

﴿**فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ**﴾.

الفاء هنا للتفصيل، والبيان بعد الإجمال، لقد أشار سبحانه إلى ما نزل بهم، وهنا يبين سبحانه أنه أهلكهم بسبب ذنوبهم، والإهلاك بسبب الذنوب له مظهران:

أحدهما- أن الذنوب ذاتها تهلك أمما، إذ تشيع فيهم الترف والغرور والفساد فى الأرض، وبذلك تنحل وتضمحل، وتذهب قوتها.

المظهر الثانى- إهلاك الله تعالى الأمم عقابا على أوزارها، وإن الأمم إذا هلكت بسبب فسادها، جاء جيل يصلح أمرها، ويزيل أسباب الفساد، ويجدد المتخرب، وهو الجيل الذى ينشئه الله على آثار المفسدين، وهو غير الجيل السابق؛ ولذلك كان التنكير وكان الوصف بـ (آخرين).

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾

وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾

كانت الآيات السابقة تبين إعراض الذين كفروا عن آيات الله تعالى، وهى المعجزات التى يأتى بها الأنبياء لإثبات أن رسالاتهم من عند الله سبحانه وتعالى، وأن المشركين يعرضون عن القرآن الكريم، ويطالبون بآيات أخرى ويحسبون أن المسوغ لكفرهم نقص فيها، لا نقص فيهم بعدم الاذعان للحق، وأن الناس قسمان: قسم يذعن للحق إذا قامت بيناته، وهذا يكفيه ما اختاره الله سبحانه وتعالى دليلا على رسالة من بعثه الله تعالى؛ لأنهم طلاب حق يتعرفون دليله، ويذعنون إليه.

والقسم الثانى- استولت عليهم أهواؤهم وشهواتهم، وسدت مسالك النور فى قلوبهم، فهم فى لهو وإعراض، وهؤلاء لا تزيدهم قوة الدليل إلا إصرارا، وهؤلاء لا يذعنون للحق مهما تكن قوة الدليل، وهم الذين قال الله تعالى فيهم:

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾.

أى إن هؤلاء لا ينقصهم الدليل، ولكن ينقصهم التوجه، وأخذ أمر الدين بعناية وتفكير واتجاه سليم لطلبه، فإن الاتجاه المخلص يجعل النفس تشرق، وتمتلئ بالحكمة، فيقنعها الدليل، وهؤلاء المغرضون ينقصهم ذلك الاتجاه المستقيم ، الذى يملؤهم بالنور، ويشرق فى قلوبهم طلب الحكمة والنزوع إليها، وعلى ذلك لا تجدى فيهم الآيات مهما تكن قوة الدليل وحسيته.

وفى النص القرآنى مقامات بيانية تقرب معناها السامى، وإن كان بينا فى ذاته . .

الأول- ﴿**وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ**﴾ (لو) هنا حرف امتناع لامتناع، أى أن الله سبحانه يمتنع عن أن يفعل ذلك؛ لأنه عبث لا يليق أن يصدر عن ذاته العلية؛ إذ لا ثمرة له، فلن يؤمنوا مهما تكن قوة الدليل، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (١٥)**﴾ [**الحجر**]. فالكلام القرآنى فى مضمونه هنا يحكم بأن الهداية السامية لا تفتح لها قلوبهم المعرضة المتحيرة المركسة فى الضلالة.

وقوى سبحانه وتعالى امتناع هدايتهم، إذا جاءتهم آية بأن لو نزل عليهم مكتوب من السماء محفوظ فى قرطاس متضمن معنى رسالة الله تعالى، ولمسوه بأيديهم للدلالة على العلم الحسى الذى لا ريب فيه ولا شك - لا يؤمنون، فتأكدت لديهم رسالة الله تعالى بأمور ثلاثة بهذا المكتوب الذى وضع فى غلافه، وبلمسه بالحس، وبكون اللمس بكل الأيدى والجوارح.

المقام الثانى- أنهم لا يقابلون ذلك بالتصديق والإقبال والإذعان، بل ينتحلون الأعذار لكفرهم، ولا يجدون مساغا إلا ادعاء السحر يلجأون إليه، مع أن السحر تخييل وتسكير للإبصار، وهذا فيه لمس بالأيدى، فلم يقتصروا على الرؤية حتى يقولوا: إنما سكرت أبصارنا، بل نحن قوم مسحورون، ومع ذلك يبهتون الحق، ويجابهون الواقع ويقولون مؤكدين: ﴿**إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ**﴾.

الثالث- أن الله تعالى حكم سبحانه بعدله وإنصافه بأن ذلك قول الذين كفروا منهم، ففى ذلك إشارة إلى أمرين:

الأول- الإشارة إلى أن الذين يقولون هم الذين كفروا، وأن هناك فى مقابلهم مؤمنين يذعنون للحق، ويصدقون الآيات.

الثانى- أن السبب هو الكفر والجحود والإعراض، فلا يؤمنون بآية مهما تكن قوتها فى الدلالة، لإعراض القلوب وعدم اتجاهها إلى الحق، بل إنها مظلمة معتمة لا يدخل إليها النور مهما يكن وضاء.

الرابع- أنهم لفرط جحودهم وإغلاق قلوبهم يؤكدون أنه سحر مع اللمس بالأيدى، وقد أكدوا حكمهم الباطل أولا- بالنفى والإثبات، أى أنه مقصور على أنه سحر، ثانيا- بالإشارة إليه، وذكروا أنه بين واضح.

ثالثا- والمعنى الجملى أنه لا تجدى فيهم معجزة ولا دليل، ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ** (١١١) ﴾ [**الأنعام**].

﴿ **وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ** ﴾.

﴿**لَوْلا**﴾ هنا للتخصيص، أى أنها فى ظاهرها لحضهم النبى ﷺ على طلب الملَك، وجاء بالبناء للمجهول؛ ليكون الطلب لمن أرسل الرسول، وأنهم يعلقون الإجابة على إنزال الملك، والحقيقة أنهم يتعنتون، والنص القرآنى يفيد أنه وجد منهم من طلب ذلك فعلا، وأسند القول إلى المشركين؛ لأن التعنت فى الصورة الشاملة لهم فما يصدر عن بعضهم تعنتا، إنما يصدر فى المعنى عن جمعهم؛ لأن الباعث واحد.

ويروى محمد بن إسحاق فيقول: (دعا رسول الله ﷺ قومه إلى الإسلام وكلمهم فأبلغ إليهم فقال زمعة بن الأسود بن المطلب، والنضر بن الحارث بن كلدة، وعبد بن عبد يغوث، وأبى بن خلف بن وهب، والعاص بن وائل بن هشام: لو جعل معك يا محمد مَلَك يحدث عنك الناس؛ ويُرى معك).

فمـا طلبوا أن ينزل عليه ملك لا يرونه، لأنه كـان ينزل عليه جبـريل الأمين على قلبه ليكون من المنذرين؛ إنما كان مطلبـهم أن يكون مع النبى ﷺ ويخاطبهم بالشهادة له بالتأييد والنصرة فيما يدعو إليه.

وقد رد عليهم خـالق الكون بردين يبينان سذاجة تفكـيرهم -أولا- وعنتهم ومعاندتهم للحق - ثانيا.

الأول- يقـول الله تعـالى: ﴿ **وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ** ﴾ والمعنى القريب إلينا، أننا نحن الـله العلى القدير القاهر فوق عـباده لو أنزلنا ملكا لقضى الأمر أى لانتهى أمـر الدعوة، وألزمتهم نتيجتها فى الدنـيا، ولعوقبوا على تكذيبـهم عاجلا، ولا يكون العـقاب آجـلا فى الآخرة، بل يكون فى هذه الحـياة وترون أثر تكذيبـهم، ولا (تنظـرون) أى لا تمهلون إلى اليـوم الآخـر، ولا ينطبق عليكم قول الله تعالى: ﴿ **قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ** (١٤) ﴾ [**الأعراف**] فقضاء الأمر إنهاء أمـر الدعوة بالهلاك، ولكن دعـوة محمـد جهاد مسـتمر، لا ينتـهى أمرها بإهلاك المعاندين، كـما تحققت دعوة نـوح فى قومه: ﴿ **وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا** (٢٦) ﴾ [**نوح**] إنما دعوة محمد ﷺ جهاد بالحق، ومغالبة للباطل، حتى يدفع الباطل بالحق فيدمغه فإذا هو زاهق، وهى صورة باقية واضحة فى الجهاد إلى يوم القيـامة؛ لأنها شريعةدائمة لدفع الناس بعـضهم لبعض، ولولا ذلك لفسدت الأرض، وإذا كانت شريعته هى خاتمة الشرائع تكون للبقاء، فإنها لا تنتهى بمجرد معاندتها فى ابتداء أمرها.

وإن الله سبـحانه وتعالى قـد أهلك ولم يُنظِر كمـا فعل مع قوم عـاد وقوم لوط، وقوم شـعيب؛ لأن الله تعالى لم يقـدر أن يكون منهم مجاهدون مغـالبون للباطل إلى يوم القيامة، فجعلهم عبرة المعتبرين.

الأمر الثانى- الذى رد به طلبهم المتعنت كان بقوله:

﴿ **وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ** ﴾.

إذا كان الرسول يكون معه ملك، فإن المغزى أنهم يريدون أن يكون الرسول ملكا- ولو جعل الله بدل الرسول البَشَرى رسولا من الملائكة، لكان الأمر الطبيعى لكى يختلط بهم، ويخاطبهم، ويوجههم أن يجعله سبحانه وتعالى رجلا يكون له مظاهر البشر، ويندمج فيهم ويدعوهم، وحينئذ لا تكون جدوى فى اختياره ملكا بدل أن يكون رجلا؛ لأنه سيختلط عليهم، ويقولون كيف يكون رجل هو الذى يدعو، وما يعترضون به على النبى محمد ﷺ هو عين ما يعترضون على ذلك الملك الذى لا يكون فى مظهره إلا رجلا كمحمد ﷺ، فمعنى قوله: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم؛ إذ يقولون إذا رأوا الملك فى صورة رجل هذا رجل، وليس بملك ونحن نطلب ملكا، وعلى ذلك يكون الدليل على أنه ملك هو القرآن المعجز الذى يتحدى به كما يتحدى به النبى ﷺ فلا جدوى، ولقد قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥)﴾ [الإسراء].

ونرى أن الرد الأول فيه بيان سنة الله تعالى فى هداية خلقه، وأن الشريعة التى يريد الله تعالى لها البقاء لا تنقضى بالإفناء لمن تلقوها وينقضى الأمر، والرد الثانى يثبت أن طلبهم لا نتيجة له، وأنهم ليسوا طلاب حق، بل متعنتون مستهزئون، لا يريدون الحق أو الدليل عليه؛ ولذا قال سبحانه:

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

فى هذا النص الكريم تسلية للنبى ﷺ، فيما كان فيه من بلاء وابتلاء، لقد ابتلى من المشركين بالإنكار والمعاندة، وطلب آيات، ولا يقصدون إلا المهاترة، وقد سبق إنكارهم كل دليل يساق إليهم، ساق لهم القرآن دليلا، وتحداهم أن يأتوا بسورة منه، فطلبوا آيات أخرى، وجاءهم بدليل حسى يدل على أنه مبعوث من رب العالمين، وهو الإسراء والمعراج فاتخذوه سبيلا للإنكار، ولم يتخذوا منه حجة للإثبات، وابتلاه ﷺ باستهزائهم والسخرية منه، واتخاذهم القرآن مهجورا. فبين

سبحانه أن ذلك شأن الدعاة إلى الحق المجاهدين فى سبيله فهم ينالهم الاستهزاء وتواليهم أسباب الإيذاء، فلا ينتظر أن يجيب الأقوام بمجرد دعوتهم، بل ينالهم والمؤمنين أسباب الإيذاء المتوالى، والاستهزاء المستمر، وكذلك الشأن فى كل دعوة جديدة، فليس محمد رسول الله ﷺ بدعا من الرسل فيما يلقاه، فكلهم استهزئ بدعوته.

وقد أكد سبحانه الاستهزاء بهم فى قوله: ﴿**وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ**﴾ أكده سبحانه بـ «قد» وبـ «اللام».

وإن الله لا يترك الظالمين يعيشون فى الأرض فسادًا ويؤذون أهل الإيمان؛ ولذلك لا بد أن ينزل بهم عقاب هذه السخرية فى الدنيا والآخرة؛ ولذلك قال سبحانه:

﴿**فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ**﴾.

(الفاء) هنا فاء السببية، أى بسبب هذا الاستهزاء نزل ما نزل من عذاب بأمر الله وبأيدى المؤمنين، وقال الراغب الأصفهانى: إن (حاق) مأخوذة من (حَقَّ) قلبت فيها إحدى القافين حرفا لينا كالتظنن تقلب إحدى النونات ياء، فيقال (التظنى) وهذا المعنى يشير إلى أن ما يحيق بهم من نتائج السخرية هو حق عليهم يؤخذون به.

والأكثرون من علماء اللغة: على أن حاق بمعنى أحاط، ولا تكون إلا فى الشر، والمعنى أحاط بهم الأثر المؤلم لهم لسخريتهم. وهنا إشارتان بيانيتان:

أولاهما- أن الله ذكر أنه يحيق بالذين سخروا ولم يقل بالساخرين للإشارة إلى أن ما يصابون به من العذاب إنما هو بسبب سخريتهم؛ لأن التعبير بالموصول يفيد أن الصلة هى علة الحكم، وللإشارة إلى أن العذاب نتيجة السخرية.

ثانيتهما- أنه تعالى قال: ﴿**فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ**﴾ وإنما الذى حاق هو العذاب لا ذات السخرية، ويقول العلماء: إن ذلك مجاز

علاقته السببية، فهو عبر بالسبب وأراد المسبب، وإن ذلك يفيد أن العذاب ملازم لهذه السخرية لا ينفصل عنها، فحيث كانت كان عذابها لا محالة.

والعذاب الذى ينزله الله تعالى بالساخرين قسمان: عذاب بهلاك أو بآفات سماوية، كما أرسل على فرعون وقومه الجراد والقُمَّل والضفادع والدم آيات مفصلات، والآخر بأن يمن على أولئك الذين يُسخر منهم بالقوة والنصر والتأييد، على كل من المستهزئين الساخرين، كما كان الأمر بالنسبة للمشركين الذين كفروا برسالة محمد ﷺ.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

أمر الله تعالى نبيه بأن يذكرهم بحال من سبقوهم، وأن يروا آثارهم حسا، ثم يتدبروا فيها فكرا، ليعرفوا أين ذهب هؤلاء، فيستفيدوا من ذلك ثلاث فوائد:

الفائدة الأولى- أن يعرفوا أن هذه الحياة التى يعيشون فيها ليس لها دوام، بل إن لها انتهاء، وأنها لا تبقى فيها باقية.

والفائدة الثانية- أن أولئك الأقوام قد مكن لهم فى الأرض بما لم يمكّن لهم، وما منعهم ملكهم الواسع، وقوتهم الظاهرة من أن يؤخذوا كما يؤخذ أضعف الضعفاء، وأن النهاية واحدة لا فرق فيها، فالدنيا عرض زائل.

الفائدة الثالثة- أن الله عذبهم بالإهلاك فى الدنيا بسبب طغيانهم؛ لأن الله تعالى لم يرد أن يجعل منهم حماة لشريعة خالدة، فسيجدون فى سيرهم أرض ثمود، وأرض عاد وما فيهما من بنيان قُوِّض عليهم، وأرض قوم لوط، وقد جعل الله تعالى عاليها سافلها، فإذا كانوا يطلبون من النبى ﷺ أن يستعجل لهم العذاب مستهزئين، فها هى ذى المَثُلات، والعبر، فليعتبروا، وإلا فهم قوم بور، لا يتعظون ولا يعتبرون.

وفى النص بحوث لفظية:

أولها- أن الله أمر نبيه أن يخاطبهم هو؛ لأنهم يستهزئون به ﷺ فكانت المجاوبة منه لهم، وطلب السير، من قبيل الطلب المندوب، أو اللازم، والنظر كذلك من قبيل الطلب، والمراد النظر بالرؤية والإبصار ثم بالتدبر والتفكير، فليس إبصارا مجردا، ولكنه إبصار وتفكير، ولو كان إبصارا مجردا لكان مقيدا بالغاية منه وهو التفكير والتدبر.

ثانيها- الحكمة فى العطف بـ «ثم» بدل (الفاء)، والمقام مقام (الفاء) كما فى قوله تعالى: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ** (٦٩)﴾ [**النمل**] فإن السياق هنالك يجعل النظر مسببا عن السير، ومترتبا عليه، أما هنا فالسير مطلوب فى ذاته، ويجىء النظر المطلوب أيضا كأنه غير مقصود من السير، وكأنه أمر بدهى هو نتيجة للسير، ولم يربط بالسببية بينهما فكان التعبير بـ «ثم» المفيدة للتراخى، وهذا تصريف الله تعالى فى آياته: ﴿... **كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ** (٥٨)﴾ [**الأعراف**].

ثالثها- معنى «كيف» هنا «حال»، أى انظر حال عاقبة المكذبين بعد موتهم أين البطش الذى كانوا يبطشونه والجبروت الذى كانوا يطغون به، وأين المال والبنون وما كانوا يغترون به؟

وذكر الله تعالى ﴿**عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾، ولم يقل تعالت كلماته عاقبة المستهزئين؛ لأن التكذيب هو الأصل الذى ترتب عليه الاستهزاء وذكر السبب يتضمن ذكر المسبب.

﴿**قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِّلَّهِ**﴾ أمر الله تعالى نبيه أن ينبههم إلى خلق السموات والأرض ومن فيهن، والمجاوبة بينهم وبين النبى ﷺ فيمن خلقهم، ومن يملك من فيهن ومن له السلطان، وقد نقلهم من أمر حسى يستطيعون أن يروه، ويعتبروا به إلى أمر فكرى هو ثمرة للتفكير فى الإنسانية

كلها، والاستفهام يتضمن معنيين: أولهما- التنبيه إلى أن الله تعالى يملك السموات والأرض ومن فيهن من أقوياء وضعفاء، ومن إنس وجن، ومن ملائكة أطهار لا يعصون الله تعالى ويفعلون ما يؤمرون، ومن أخيار فى الأرض وأشرار، فالجميع فى قبضة يده سبحانه وتعالى، ولا أحد فوق سلطانه، والمعنى الثانى- تبكيتهم، وبيان أنهم ومن هم أقوى منهم فى قبضة يده سبحانه.

ونميل إلى أن الاستفهام للتنبيه، فإنه من أمثل الطريق لتقرير الحقائق، السؤال ثم الإجابة؛ ولذلك كانت الإجابة بأمر الله تعالى نبيه أن يقول: ﴿قُل لِّلَّهِ﴾ فكانت هذه الإجابة تقريرا للحقيقة الثابتة التى يدركها العقل السليم، وهى مما يوجبه الإيمان، وتقرره الفطرة وبداهة العقول.

وقد ذكر عدله ثم ذكر رحمته من بعد، وأشار إلى أن العدل والرحمة متلازمان، فقال سبحانه:

﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾

ومعنى كتب الله تعالى على نفسه أنه أوجب تفضلا وتكرما من غير إلزام من أحد ألزمه الرحمة بعباده، فهو الذى يمدهم بنعمه محسنهم ومسيئهم، وخيِّرهم وشرِّيرهم، وهو الذى يكلؤهم بالليل والنهار، ولقد روى الشيخان عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «لما قضى الله تعالى الخلق كتب كتابا فوضعه عنده فوق العرش إن رحمتى سبقت غضبى»(١) ولهذه الرحمة لم يسارع بإنزال الهلاك على العصاة ممن بعث إليهم محمداً ﷺ، عسى أن يخرج من ذرية المشركين من يعبد الله سبحانه وتعالى، ويخلص فى إيمانه.

ومن مظاهر رحمته أن يعاقب المسيء، ويثيب المحسن، فإن ذلك هو العدل وفيه رحمة، فحيث كان العدل كانت الرحمة، فهل يستوى الذين يعملون والذين

---

(١) رواه بهذا اللفظ أحمد: مسند المكثرين - مسند أبى هريرة (٧٤٧٦)، ورواه البخارى: التوحيد - وكان عرشه على الماء (٧٤٢٢) بلفظ مقارب من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

لا يعملون، وهل تستوى الظلمات والنور، وهل يستوى الأخيار والأشرار. إن عقاب العاصى رحمة بالعموم، وإن لم يكن رحمة بذات العاصى فهو لا يستحق الرحمة؛ ولذا قال النبى ﷺ: «من لا يَرحَمْ لا يُرْحَم»[1] ولقد ذكر سبحانه أن من مقتضى رحمته أن يجمع الناس يوم القيامة ليوم لا ريب فيه، يجازى فيه المحسن بإحسان، ويعاقب فيه المسىء؛ فقال تعالت كلماته: ﴿**لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ**﴾ فهذه الجملة استئنافية لبيان نوع من العدل، وهو أن يثاب المحسن، ويعاقب المسىء، ويحاسب كل على ما قدم من عمل فى هذه الدنيا، إذ هو رحمة بالخلق، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى أن القصاص فيه رحمة كبيرة، فقال تعالت كلماته: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ** ... (١٧٩)﴾ [**البقرة**] والقصاص بكل ضروبه فيه حياة ورحمة.

وهنا بعض إشارات بيانية:

الأولى- أن الله أكد جمع الناس يوم القيامة، وذلك بـ «اللام» الدالة على قسم مطوى فى القول، وبنون التوكيد الثقيلة.

والثانية- تعدية الجمع بـ «إلى» دون «فى»؛ للإشارة إلى أن الجمع نهايته تكون يوم القيامة، فهم يحشرون فى القبور، والجمع مستمر فى ذلك.

الثالثة- إثبات أن ذلك اليوم لا شك فيه عند أهل الدراية والمعرفة ومن يشك فيه فهو ليس ذا إدراك سليم، وإذا كان بعض الناس يشك فيه، فليس ذلك إلا من سقم الإدراك، وفساد الفطرة، وينبغى ألا يشك فيه مدرك، فالبديهة تقول إن الله تعالى لم يخلق الكون عبثا، ولم يخلق الإنسان عبثا، بل خلقه ليفنى ثم ليبقى من بعد ذلك، ومن خلق فى الابتداء قادر على الإعادة فى الانتهاء، وبين سبحانه بعد ذلك الحال الواقعة للذين يكفرون بالله وبالرسالة وباليوم الآخر، وأن شرهم متكاثف يردف بعضه بعضا.

---

(١) متفق عليه رواه البخارى فى كتاب: «الأدب»: رحمة الولد وتقبيله (٥٥٣٨)، ومسلم فى كتاب «الفضائل» رحمته ﷺ بالصبيان والعيال (٤٢٨٢).

﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾.

عبر عن الكفار بالرسالة المحمدية، والوحدانية واليوم الآخر بالذين خسروا أنفسهم، وجعل الكفر نتيجة للخسران، فالخسران يبتدئ، والكفر نهايته، أو هما متلازمان، فالخسران سابق ولاحق لأنه يترتب على الكفر خسران متضافر.

والخسران الذى يسبق الكفر، وهو خسران الفطرة، فلا يكفر بالدليل القاطع إلا من يخسر فطرته وخسران الإدراك السليم؛ لأنه لا يكفر بوجود الله إلا من ينسى أن كل أثر له مؤثر، وكل موجود له موجد، وخسروا عقولهم إذ سيطرت الأوهام عليهم، فأشركوا مع الله أحجارا تحطم، وأوثانا تصنع، ونجوما تأفل، وخسروا نفوسهم فصارت معوجة، وخسروا قلوبهم فصارت مظلمة، وإذا كانت كل مداركهم قد سدت فهم لا يؤمنون؛ لأن الإيمان يحتاج إلى قلب مخلص، وعقل مدرك، وإذعان للحق إذا بدت معالمه، وظهرت أماراته، وإنهم بعد الكفر يزيدون خسرانا، إذ كل إنكار للحق خسران فى ذاته؛ لأنه نزول عن مرتبة الإنسانية السامية.

وقد قال تعالى: ﴿فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ وعبر بالمضارع للإشارة إلى أنهم لا يكون الإيمان شأنا من شئونهم، ذلك لأن من امتلأت نفسه بالأوهام وصارت عشا لها، وضلت عقولهم لا يمكن أن تذعن لشيء، بل هى دائما مضطربة حائرة تنتقل من ضلال إلى ضلال، ومن متاهة إلى مثلها، كمن يضل فى بيداء كلما أوغل زاد ضلالا ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ... (٨)﴾ [آل عمران].

وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ
﴿١٣﴾ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ
وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا
تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ
رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ
رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ
فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ
قَدِيرٞ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٨﴾

بين سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة سلطانه فى خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، وإحاطة علمه سبحانه ومعرفته للسر والجهر، وتلقى المشركين لبيان تلك الحقائق مع الإعجاز الدال على صدق الأخبار النبوية بالتكذيب والاستهزاء، والإعراض عن البينات من الآيات، وطلبهم آيات أخرى، وبين سبحانه أنه ما دام الإعراض، وما دام الجحود مستوليا على نفوسهم، فلن تجدى معهم آية؛ لأن ما سيق إليهم كاف، ولأنهم يكذبون حسهم ما دام إنكارهم سابقا لتلقيهم، وقد ضرب لهم سبحانه الأمثال بما وقع للسابقين، ونبههم سبحانه إلى ملكيته لكل ما فى السموات والأرض، وفى الآيات التى نتكلم فى معناها بيان لسلطانه وعلمه الكامل بكل ما فيها، وما ينبغى أن يكون أثرا لعلمه سبحانه وتعالى بذلك، فقال تعالى:

﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

(سكن) هنا من السكون بمعنى الاستقرار، والمعنى ولله سبحانه وتعالى كل ما استقر وأقام فى السموات وفى الأرض من حيوان وجن وما احتويا من نبات وجماد وبحار وجبال ووهاد ومعادن ولآلئ، والتعبير بـ «ما» فى قوله: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ﴾ للدلالة على العموم.

وقد يراد السكون الذى هو ضد الحركة، لأنه لا سكون إلا معه حركة، إذ إن السكون معنى نسبى لا يتحقق إلا إذا كان معه حركة، وإذا كان الله تعالى، يعلم السكون لكل ما فى السموات والأرض فهو سبحانه يعلم الحركة والسكون، وأنه لا مانع من أن يراد المعنيان معا، إذ يعلم سبحانه كل ما استقر فى السموات والأرض، ويعلم حركاتهما وسكناتهما.

ويعلم ذلك فى الليل والنهار، ويملك كل ذلك، فالنص الكريم يدل على ملكية الله تعالى لكل ما فى السموات والأرض عامة، بلا استثناء ويعلم ما فى كل الأماكن، وفى عموم الأزمان، بلا استثناء ليل ولا نهار.

وهو مع هذه الملكية الكاملة يديرها بعلم كامل، ويهيمن عليها بقدرة قاهرة، وإرادة مسيطرة، وعلم دقيق لذلك قال سبحانه: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى يسمع دبيب النمل من غير أذن، ويعلم كل ما كان أو سيكون من غير مشابهة فى سمعه وعلمه للمخلوقات ﴿... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١)﴾ [الشورى]، لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء.

وفى هذا النص الكريم إشارة إلى أنه سبحانه وتعالى يملك الناس وما حولهم لا يخرجون عن قدرته، وهو المهيمن عليهم، إن شاء خسف بمن يخالفه، وأهلكهم، ولم يجعل من الكافرين ديَّارًا، وأنه عليم بما يكون من الطائعين، فيجزيهم ويهديهم، وما يكون من العصاة، فيعاقبهم ويرديهم، وفيه إنذار للمشركين.

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ﴾.

إذا كان الله سبحانه وتعالى وهو الذى يملك كل من فى السموات والأرض من إنس وجن وملائكة وغير ذلك، وهو المسيطر عليها ليلا ونهارا، وهو الذى فطر السموات والأرض، وأنشأهما على غير مثال، فإن الله سبحانه هو الحق والنصير، وهو المعبود، وإن أولئك المشركين يريدونك أن تعدل عن اتخاذ الله تعالى وليا ونصيرا، ومعاضدا، ومؤيدا، وأن تتخذ أحجارا لا تسمع ولا تبصر، ولا تضر ولا تنفع، ولذلك أمر الله تعالى نبيه أن يخاطبهم مستنكرا ما هم فيه من اتخاذهم غير الله أولياء، وجاعلا الاستنكار منه ﷺ، والاستنكار بالنسبة لرسول الله ﷺ استنكاراً للوقوع فهو بمعنى النفى عنه ﷺ، أى لا يمكن أن يقع منه ﷺ، وبالنسبة لهم استنكار لما يقع منهم فهو توبيخ، والاستنكار لأعمالهم واقع ضمنا، فى استنكار النبى ﷺ على نفسه أن يقع منه ذلك، والنبى ﷺ ينفى وقوعه منه، ويوبخ من عملوا ذلك.

والمعنى قل يا محمد لهؤلاء الذين أشركوا بالله غيره فى العبادة وادعوا أن الأوثان تقربهم إلى الله تعالى زلفى - أنا لا أتخذ غير الله وليا، وقدم فى الاستفهام كلمة ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ﴾ لأن ذلك موضع الشناعة عليهم فى الاستنكار؛ إذ إنه موضع الغرابة أن يكون غير الله متخذا وليا، فكان ذات الاتخاذ غريبا فى ذاته، والإشراك فى ذاته ترك لعبادة الله وعدم اتخاذه وحده وليا ونصيرا؛ لأن الولاية الحق هى لله وحده، فاتخاذ أى ولى معه ترك لولاية الله تعالى، والولى يطلق بمعنى النصير، وبمعنى المعبود، وبمعنى الصديق الحميم، وهو هنا بمعنى النصير المعبود، فلا يُسْتنصَر إلا الله، ولا يُعبد سواه، وقد ذكر سبحانه على لسان نبيه الكريم عملين له سبحانه يوجبان أن ينفرد وحده بالعبادة:

أحدهما- ما ذكر سبحانه وتعالى: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى منشئهما على غير مثال سبق، ابتداء حيث لم تكونا من قبل، وقد قال مجاهد التابعى تلميذ ابن عباس: (سمعت ابن عباس رضى الله عنهما يقول: كنت لا أدرى ما

فاطر السموات والأرض، حتى أتانى أعرابيان يختصمان إلى فى بئر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرتها، يقول: أنا ابتدأتها -أى ابتدأ- بشقها).

ونقول: إنه ليس بمعقول أن يكون ابن عباس جاهلا بالمعنى المفهوم من السياق، ولكن لعله كان لا يعلم أصلها فى اللغة، وكيف كانوا يستعملونها؛ حتى التقى بالأعرابيين، فوضح لديه أصل الاستعمال.

وفطر السموات والأرض يوجب أن تكون الولاية لله وحده؛ لأنه الخالق لهذا الوجود والذين يشركونهن معه، لا يملكن لأنفسهن ضرا ولا نفعا، فكيف نتصور ولاية لهن بجوار ولاية الله الخالق المنشىء.

الأمر الثانى- أن الله لا يحتاج، وغيره يحتاج، فهو يُطْعِم كل من فى هذا الوجود، ويمده بأسباب الحياة والنماء ولا يطعمه أحد، وهذا على قراءة ﴿**وَلا يُطْعَمُ**﴾ بالبناء للمجهول، وهناك قراءة بالبناء للمعلوم، والمعنى فيها أنه يطعم من يشاء بالرزق الموفور، ولا يطعم من يشاء بالتقتير عليه فى الرزق.

﴿**قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾.

كما أمر الله تعالى نبيه بأن يستنكر أن يتخذ غير الله وليا، وهو الذى أبدع ذلك الوجود، وكل ما فيه يحتاج إليه، وهو لا يحتاج إلى أحد، وكنى عن هذا الاحتياج بإطعام غيره إذ أشد الحاجة تكون إلى الطعام، بعد هذا أمر الله تعالى نبيه بأن يقول إنه أُمِر أن يكون أول من أسلم، وفى ذلك بيان أن الإسلام مطلوب من الجميع وأن النبى ﷺ أول من يُؤمر بالإذعان لله تعالى والخضوع له، وفى بيان أمر النبى ﷺ بذلك مع أنه بالبداهة أول من خوطب بالإسلام، وأمر بما اشتمل عليه، كان أمر النبى ﷺ بذلك؛ ليكون أسوة حسنة لهم، كما قال سبحانه: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ... (٢١)**﴾ [**الأحزاب**]. ولأن الاقتداء دعوة حسية، ولأن فى الإنسان نزوعا إلى التقليد، واتباع المهتدين، والتعبير بقوله تعالى: ﴿**أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ**﴾ تعبير بالحال الواقعة من النبى ﷺ، بأن يكون فى

حال أول من ينشئ الإسلام ويذعن لله سبحانه وتعالى، وكأنه يقول لهم: أنا منكم، وأُمرت أن أكون أول من يخترق الحجزات لأذعن لله الواحد الأحد الفرد الصمد، ثم قال تعالى: ﴿**وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ أى أنه كما أمر أن يكون أول المذعنين لأوامر الله تعالى المخلصين له، نهى أن يكون من المشركين، بأن يكون فى صفوف المشركين الذين يجعلون مع الله تعالى غيره معبودا، وأن أخرج من صفوف المشركين وإن كانوا قومى وعشيرتى، وفيهم الأقربون، وهنا نثير ثلاثة أمور نقرب بها معنى النص الكريم:

أولها- كيف تعطف الجملة الإنشائية على الجملة الخبرية، إذ إن الأولى أمرت، والثانية- ولا تكونن من المشركين؟ وقد أجاب عن ذلك العلماء بإجابات مختلفة، والذى نراه أن الجملة الأولى ظاهرها إخبارية، ولكن لتضمنها معنى الأمر كانت فى معنى الجملة الطلبية الإنشائية، فإن نسق الكلام هكذا (كن أول من أسلم ولا تكونن من المشركين).

الثانى- لماذا كان النهى عن الشرك بعد الأمر بأن يكون أول مذعن لمطالب الإيمان بالواحدانية، والجواب عن ذلك أن النهى هو عن أن يكون من المشركين بأن يتبرأ منهم، ومن إشراكهم، ويخرج من صفوفهم، ولو كانوا قومه وعشيرته القربى، وإذا خرج من صفوف أهل الكفر كان فى حزب الله، وحزب الله تعالى هم المفلحون.

الثالث- لماذا كان الالتفات من الإخبار الظاهر فى قوله تعالى: ﴿**أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ**﴾ إلى الخطاب فى قوله تعالى: ﴿**وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾؟ والجواب عن ذلك أن الخطاب فيه توكيد معنى النهى عن الشرك، وكلتا الجملتين للخطاب كما خرجنا فى الأمر الأول، والله تعالى هو وحده الذى يملك الأمر والنهى.

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

هذا أمر ثالث من الله سبحانه وتعالى لنبيه الأمين ﷺ أن يبين حالا من أحواله ﷺ، يكون فيها تنبيه لهم، وتحذير من أن يبقوا على الشرك، ويستمروا على عصيان الله تعالى، فيأمره تعالى بأن يقول لهم: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ﴾ فذكر هذه الحال من النبى ﷺ تنبيه لهم إلى أنهم فى مقام من يخاف عذاب يوم عظيم.

ففى هذا النص إنذار لهم بأن عذاب يوم عظيم ينتظرهم، وأنه يجب أن يخافوه، ويتقوه، بأن يقلعوا عما هم فيه من الوقوع فى أسبابه، وهو العصيان، وأكبر العصيان الشرك، وأنذروا بأدق تعبير، وأنصف تصوير، وأبلغ بيان إذ جعلت حال النبى ﷺ من الخوف من عذاب الله إن عصى منبهة إلى الاقتداء، والتفتيش عما هم فيه من معصية.

وفى الموضع كلام فى عصيان الأنبياء أيتصور وقوعه؟ ونقول إن الأنبياء معصومون عن العصيان، ولكن الخوف من العصيان يعتريهم؛ لأنهم لفرط إحساسهم بعظمة الله وإيمانهم بحسابه وعقابه وثوابه، ورقابتهم النفسية لله يكونون دائما فى خوف ووجل، لا لتوقع العصيان، ولكن رهبة من الديان.

ولأن العصيان الجلى غير متوقع عبر بـ (إن) التى لا تدل على الوقوع، فقال ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ وهنا فوق التعبير بـ (إن) التعبير بـ (ربى) فإنه يستبعد عصيان الرب الخالق المنمى الكالئ، الذى هو فوق كل شيء.

واليوم العظيم هو يوم القيامة، وكان عظيما، بما فيه من أمور، من تجلى الله سبحانه وتعالى، وحسابه وعقابه، والتنكير للتعظيم، فهو ذو عظمة متكررة، ولعظمة ذلك اليوم وعذابه قال تعالى:

﴿مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾.

الضمير الذى يعتبر نائب فاعل يعود على عذاب يوم القيامة العظيم، وهناك قراءة بالبناء للفاعل(١)، ويكون المفعول محذوفا، والضمير يعود إلى ربى أو إلى الله المذكور تعالى فى قوله: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾. إلى آخره، ويكون المعنى على هذه القراءة من يصرف الله تعالى عنه هذا العذاب العظيم فى ذلك اليوم فقد رحمه، وعلى أى حال فالضمير فى قوله تعالى: ﴿فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ يعود على الله، ولهذا اختار ابن جرير الطبرى قراءة البناء للفاعل، إذ يكون الصارف الدافع للعذاب هو الرحيم، فالنسق يكون واضحا.

و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ من إضافة الوقت إلى الوقت أى ذلك فى يوم ذلك الوقت وهو يوم القيامة، وكان ذلك رحمة من الله لأن العذاب يكون عظيما، وذهاب العذاب ودفعه رحمة، ومع ذلك فهناك الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار، والنعيم المقيم، فالرحمة إيجابية وسلبية، فالسلبية دفع العذاب، والإيجابية الهداية؛ فإنها فى ذاتها رحمة، ثم ما يعقبها من جزاء. ثم ما هو فوق ذلك وهو رضوان الله تعالى.

وذلك كله من الرحمة المتنوعة المتعددة وهو الفوز المبين الواضح الذى لا يمارى فيه إلا جهول.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ﴾.

المس يطلق على ما ينزل بالإنسان من ضر، مثل قوله تعالى: ﴿... **قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ** ... (٢٤)﴾ [**آل عمران**]. وقوله تعالى: ﴿... **مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ** ... (٢١٤)﴾ [**البقرة**] ومثل قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ**

---

(١) ﴿من يَصرِف﴾ بفتح الياء، وكسر الراء: قراءة عاصم - غير حفص- وحمزة، والكسائى، وخلف، ويعقوب. [غاية الاختصار ج٢، برقم (٨٣٣)].

الضُّرُّ ... (١٢)﴾ [يونس] والضر هو الأمر المؤلم الذى ينزل بالمرء من ضيق فى الرزق، أو مرض فى الجسم، أو هزيمة فى حرب أو نحو ذلك، فإذا مسَّك أيها النبى ﷺ ضر من هذا النوع الذى تتأثر به فى دعوتك، فلا يكشف عنك هذا الضر -لتستمر فى تبليغ رسالته- إلا الله تعالى، بعد أن تتخذ الأسباب، وظاهر هذا الكلام أن الخطاب يكون للنبى ﷺ ويكون لتقويته فى تبليغ دعوته، وتأكيد ولايته، واستعانته به سبحانه وتعالى وحده.

ويصح أن يكون الخطاب لكل مؤمن قارئ للقرآن، أو لكل من هو أهل للخطاب، وفيه بيان أن الناس جميعا فى سلطان الله، فما يصيبهم من نفع فبتقديره، وما يصيبهم من ضر فبتقديره وإرادته، وهو الكاشف لهذا الضر إن أراد ذلك كله مع الأخذ بالأسباب؛ لأن الأسباب لا تعمل وحدها، إنما لا بد معها من إرادة الله تعالى والتوكل عليه؛ ولذلك كان الله تعالى يأمر بالتوكل عليه بعد الأخذ بالأسباب؛ لأنها وحدها لا تعمل إلا مع التفويض، كما أن النوم والتواكل لا يجديان، والتوكل فى هذه الحال تواكل وليس اعتمادا على الله سبحانه وتعالى، وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيه المقابلة بين الخير والضر، وأن الأول يكشفه الله، والثانى بقدرة الله تعالى، والتعبير بالمس فى الأمرين من قبيل التشاكل اللفظى، والكل تحت سلطان الله تعالى وقدرته، والخطاب للنبى ﷺ أو لكل من هو أهل للخطاب الذى يتلو القرآن الكريم، أو يستطيع تلاوته، وكشف الضر: إزالته، ومس الخير: نفعه، ولماذا عبر عن الضر بأن الله كاشفه، وعن مس النفع بقدرة الله تعالى؟ ونقول فى الإجابة: إن من نزل به ضر يكون إحساسه بزواله، فعبر عن زواله بكشف الله تعالى، وأما النفع فإنه يكون صاحبه فى حال تستوجب الحمد والثناء وطلب البقاء فيناسبه إثبات قدرة الله تعالى.

وإن كشف الضر والنفع كله بقدرة الله تعالى، ولقد قال النبى ﷺ: «لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت»(١) وقال الله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ... (٢)﴾ [فاطر].

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

معانى هذه الآية الكريمة جامعة لكل سلطان الله على عباده فى السماء والأرض، فهو الغالب على كل شىء لا إرادة لأحد مع إرادته، وإرادته، فوق كل إرادة، فهو المسيطر سيطرة كاملة على عباده، والفوقية المذكورة فى النص الكريم هى فوقية سلطان لا فوقية مكان، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، فلا جبار له إرادة عند سلطانه سبحانه، ولقد قال ابن كثير فى معنى النص جملة رائعة، فقد قال: (يقول تعالى: إنه مالك الضر والنفع، وإنه المتصرف فى خلقه بما يشاء لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه وهو القاهر فوق عباده، أى هو الذى خضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة، وعنت له الوجوه، وقهر كل شىء ودانت له الخلائق).

وإنه بهذا السلطان القاهر يدبر كل شىء بحكمته، وعلمه الدقيق المحيط، الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء، فبحكمته الظاهرة وبعلمه المحيط وقدرته القاهرة يسير الكون وما فيه ومن فيه إنه على ما يشاء قدير.

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا

(١) جزء من حديث متفق عليه؛ رواه البخارى: القدر - لا مانع لما أعطى الله (٦٦١٥)، ومسلم: المساجد ومواضع الصلاة (٥٩٣).

تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ
أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ
﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ
ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ
رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ
عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾

فى الآيات السابقة بين الله تعالى أنه خالق السموات والأرض، وفاطرها على غير مثال سابق، وكيف خالف المشركون الفطرة الإنسانية، والعقل المستقيم، وأشركوا بأحجار فى عبادة الله لا تنفع ولا تضر، وبين سلطانه تعالى، ثم ذكرهم سبحانه بنوازل تنزل بهم، فهو الذى يكشف الضر إن نزل، وهو الذى يسوق الخير بفضل قدرته ومنته. وفى هذه الآيات يذكرهم سبحانه بإشراكهم مع قيام المعجزة القاطعة بأنه سبحانه وتعالى هو الله وحده، فالآيات السابقة كانت فى الآيات الكونية المثبتة للوحدانية، والآيات اللاحقة تثبت الوحدانية بالدلائل السمعية المثبتة للوحدانية والتى ثبت صدقها بالمعجزة القاطعة، وهى القرآن الكريم؛ ولذا قال تعالى:

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾.

فرض النص الكريم أن خصومة بين محمد ﷺ، وهو الداعى إلى الوحدانية، والمشركين الذين يرتعون فى الوثنية، وأن هذه الخصومة تحتاج إلى شاهد يشهد، وأنه لابد من شاهد يفصل، وحاكم يحكم ويقضى، فأمر الله تعالى

نبيه فى بيان رائع حكيم، أن يسأل المشركين عن أى شيء فى هذا الوجود أكبر وأعظم وأقوى وأزكى شهادة بحيث تقبل شهادته ولا ترد، وكان الكلام فى صيغة الاستفهام تنبيها إلى جلال الشاهد، وتنبيها إلى سلامة دعوى محمد ﷺ ليدركوا حقه وضلالهم، ثم نبههم إلى الإجابة السليمة للسؤال التنبيهى التى لا تقبل مراء ولا جدلا، وهو أن أكبر شهادة هى شهادة الله سبحانه وتعالى، الذى خلق الكون وهو الذى يحوط كل ما فيه بالحياطة الكاملة، والتهذيب والتربية، فقال تعالت كلماته: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ﴾ فى هذه الخصومة التى فرضتموها، هى خصومة الباطل اللجلج مع الحق الأبلج، وقد تكلم الزمخشرى فى بيان لفظى بلاغى، فذكر أن فى النص الكريم توجيهين:

أحدهما- أن الإجابة تنتهى عند قوله: ﴿اللَّهُ﴾ وأن ما بعد ذلك تقرير للشهادة، فـ ﴿شَهِيدٌ﴾ يكون جملة جديدة؛ لأنه خبر لمبتدأ محذوف، ويكون المعنى على هذا التخريج قل الله ذو الجلال والإكرام، والعزة وصاحب الإنعام فى هذا الوجود، وهو كاف، وهو أكبر شهادة، ولا شهادة بعد شهادته، وهو يشهد بالحق وبالوحدانية، يشهد بما جاء فى القرآن بعد أن شهد بما خلق وأنشأ، ثم بين أنه هو شهيد فى هذه الخصومة.

والتخريج الثانى- أن الإجابة تكون فى نهايتها عند ﴿شَهِيدٌ﴾، فالمعنى قل إن الله تعالى شهيد، فـ ﴿شَهِيدٌ﴾ تكون خبرا للفظ الجلالة ابتداء، وكلاهما توجيه ليؤكد معنى الشهادة فى النص القرآنى.

ولماذا كانت شهادة الله تعالى أكبر شهادة؟ لأنها التى تتفق مع العقل، ولأنه المنشئ، ولأنه الباقى وكل شيء هالك إلا وجهه.

وما الدليل على شهادة الله تعالى؟ نقول: هى بيناته، وهى التى ينطق به بها القرآن الذى قام الدليل على أنه من عند الله تعالى العزيز الحكيم؛ ولذلك جاء ذكر القرآن الناطق بالحق، فقال تعالى:

﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾.

هذا النص فيه المعجزة التى تدل على صدق الرسول ﷺ، وهو يشتمل على شهادة الله القولية بأنه واحد أحد ليس بوالد ولا ولد، وأنه القادر على كل شيء وأنه القاهر فوق عباده، وهو أمر حسى يتلى عليهم ليلا نهارا، ويقرأ عليهم جهارا، وكان معجزا ببلاغته، وما فيه من علم، وما فيه من قصص صادق، وما فيه من شرائع منظمة للعلاقات بين الناس فى أسرهم ومعاملاتهم، واجتماعهم، وعلاقات الإنسانية بعضها ببعض، ولقد قال ﷺ فى إثبات أنه المعجزة التى تحدى بها الناس أن يأتوا بمثلها فعجزوا عجزا مبينا: «ما من نبى إلا أوتى ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحى به إلىَّ، وإنى لأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»(١).

ولماذا كانت معجزة النبى ﷺ قرآنا يتلى، وتولى سبحانه حفظه من التحريف والتبديل إلى يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر].

والجواب عن ذلك أن معجزات الأنبياء السابقين كانت تقع ولا يعلم بها على اليقين إلا الذين عاينوها وشاهدوها، والذين من بعدهم لا يعلمونها إلا بالخبر الذى لا شك فيه. أما شريعة محمد ﷺ فإنها باقية خالدة إلى يوم الدين فلا بد أن تكون معجزاتها قائمة حاملة معنى الإعجاز والتحدى ما دامت الشريعة قائمة خالدة، فلا بد أن يكون القرآن الكريم حجتها خالدا بخلودها.

والنص القرآنى الذى نتكلم فيه اشتمل على أمور ثلاثة:

أولها- بيان أنه المعجزة المثبتة لصدق النبى ﷺ وقد ذكر ذلك بالإشارة، إذ قال: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ ﴾ وقد ثبت بالتحدى عجزهم عن أن يأتوا بمثله.

---

(١) متفق عليه، وقد سبق تخريجه من رواية البخارى ومسلم، عن أبى هريرة رضى الله عنه.

ثانيها- أنه مشتمل على الإنذار للمشركين والمخالفين والعصاة إن استمروا على غيهم، ولم يستجيبوا لنداء ربهم، ودعوة نبيهم إلى الوحدانية والفضيلة، وتكون مجتمع سليم نقى.

ثالثها- أن النص يتضمن أن القرآن حجة وإنذار لكل من بلغه سواء خاطبه النبى ﷺ أم بلغه، وقد بين ذلك قوله تعالى: ﴿**لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ**﴾ أى أن من بلغ القرآن فهو مخاطب به، سواء أكان من العرب أم كان من العجم، وكأنه خاطبه النبى ﷺ، ولقد روى أنه ﷺ قال: «بلغوا عن الله تعالى، فمن بلغته آية من كتاب الله تعالى فقد بلغه أمر الله»(١)، وروى عن جمع من التابعين أنهم كانوا يقولون: (من بلغه القرآن فقد أبلغه محمد ﷺ).

وإن هذا النص يستفاد منه أمران:

أولهما- أن من لم يبلغه القرآن ولا يعلم عنه شيئا، فإنه لا يعتبر قد بلغته الدعوة الإسلامية، وإثمه على الذين تقاصروا عن تبليغها وبيانها.

ثانيهما- أنه لا معذرة لمن يعرف القرآن، فى الكفر بالحقائق الإسلامية.

ولكن كيف التبليغ بالقرآن، والعجمة سائدة فى هذا الوجود سواء أكانت إنجليزية أو فرنسية أو غيرهما؟

والجواب عن ذلك أنه يجب فى سبيل الدعوة إلى الإسلام؛ التى هى فرض كفاية على المسلمين؛ يأثم المسلمون جميعا إن لم يكن دعاة إلى الإسلام- يجب عليهم أن تفسر طائفة مخلصة مؤمنة فاهمة القرآن تفسيرا موجزا تبين معانيه، ويترجم ذلك التفسير إلى كل لغة أعجمية.

﴿**أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لاَّ أَشْهَدُ**﴾.

---

(١) رواه ابن جرير عن قتادة مرفوعا. وهو مرسل. [جامع البيان ج٧، ص١٠٣]، وأخرج البخارى (٣٣٨٦) عن عبد الله بن عمرو أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «بلِّغوا عنى ولو آيةً، وحدِّثوا عن بنى إسرائيل ولا حرجَ، ومن كذَبَ علَيَّ مُتعَمِّداً فليتَبوأْ مَقعدهُ منَ النار».

شهادة الله التى فصل بها فى القضية، ونطق بها القرآن الكريم؛ ولذا أحيل بيانها إلى القرآن فى قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ وفى هذا النص السامى يقابل بينها وبين شهادتهم وما يتبعه النبى- عليه الصلاة والسلام- أيتبع الله تعالى العلى الحكيم أم يتبع أهواءهم؟! معاذ الله أن يتبع الهوى بل إنه يتبع الهدى. والاستفهام هنا إنكارى لإنكار الواقع، فهم وقع منهم ذلك، وتأكد وقوعه ولم ينكروه؛ ولذلك كان تأكيد وقوعهم بأن قال تعالت كلماته: ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ فهو إنكار لهذا الأمر الواقع منهم وقوعا مؤكدا، وإنكار الواقع توبيخ، فالاستفهام هنا يتضمن معنى تقرير ما وقع منهم وتوبيخهم عليه، وعبر بتشهدون للإشارة إلى قوة الضلال فى نفوسهم إذ إنهم مع ضلال الفكرة الوثنية يعتقدونها أشد الاعتقاد؛ لأن الشهادة لا تكون إلا بالعلم اليقينى، فهم يؤمنون بـ (تشهدون) بالشرك أى بأن مع الله آلهة أخرى، وتسمية الأوثان التى يشركون بها مع الله تعالى آلهة؛ لأن ذلك فى زعمهم، فليست آلهة ولا يمكن أن تكون آلهة، إذ هى أوثان أو أشياء أو أشخاص لا يكون منها نفع ولا ضرر، وليست مفيدة فى ذاتها، وهم يعبدونها، فهى بزعمهم آلهة.

ووصفت بـ ﴿أُخْرَى﴾ مع أنها جمع، وكان الظاهر أن توصف (بأُخَر) ليوصف الجمع بالجمع، ولكن لأنها مشتركة فى وصف جامع وهو أنها أحجار فهى فى المعنى شيء واحد؛ لذا وصفت، فهى فى المعنى واحد ، وكذا وصفت بما يوصف به الواحد لا بما يوصف به العدد، والوصف بـ (أخرى) فيه إشارة إلى بطلان عبادتها.

وإنه من المبالغة فى التوبيخ والتنديد أن يأمر الله تعالى نبيه بألا يشهد بما يشهدون، بل يشهد بشهادة الحق، فيقول تعالى: ﴿قُل لاَّ أَشْهَدُ﴾.

وفى أمر الله تعالى له بالقول مع التنديد لهم والتوبيخ لهم ما يدعو إلى الاقتداء والتأسى به ﷺ وهو العاقل الصادق الأمين المعروف بذلك بينهم جاهلية وإسلاما، وإن ذهبت اللجاجة ببعضهم إلى إنكار المعروف بلسانه لا بقلبه.

﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

هذا تقرير وتأكيد لمعنى الجملة السابقة وهى لا أشهد وتحتمل أن تكون داخلة فى مقول القول، ويكون مقول القول لا أشهد وإنما هو إله واحد، ويحتمل أن تكون جملة مبتدأة، والفصل فى الأول يكون لأنها بيان لما قبلها، وفى الثانية يكون لابتداء الكلام، وإن كان فى المعنى فيه تقرير لما سبقه.

والضمير (هو) يعود على الله تعالى، **وهذا النص السامى تضمن أمرين:**

أولهما- وحدة الله تعالى، وقد نص عليه بقوله تعالى: **﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾** وهذا يفيد قصر الألوهية على الله تعالى فلا يعبد سواه سبحانه، ويفيد مع ذلك أنه لا يتصور أن يكون المعبود بحق غير واحد؛ لأن المنشئ المكون المدبر واحد، ولا يتصور بمقتضى النظر إلا أن يكون المعبود واحدا.

الأمر الثانى- التصريح ببراءة النبى ﷺ مما يعبدون من أوثان يشركون بها مع الله تعالى: **﴿وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾**. فى هذا النص تنديد شديد بعبادة الأوثان؛ لأن الرجل العاقل يتبرأ منها، ولا يليق أن يعبدها، وقد أكد براءته بـ(إن)، وبالوصف (برىء) وبأن ذلك انتحال منهم، وليس ألوهية فى شىء.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾.

الذين آتاهم الله سبحانه وتعالى الكتاب هم اليهود والنصارى أوتوا التوراة والإنجيل، وهم بما عندهم من الأخبار والأنباء عن المرسلين يعرفون محمدا ﷺ ورسالته، وبعثه وصفته ومهجره، ويؤمنون بالله تعالى ويوحدونه، ولا يشركون، يعرفون هذه الحقائق كما يعرفون أبناءهم الذين هم من أصلابهم فهو عندهم بمرتبة اليقين، وقد وردت الآثار بذلك.

ويروى فى ذلك أن كفار مكة قالوا للنبى ﷺ: ما نرى أحدا يصدقك فيما تقول، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أنه ليس لك عندهم ذكر فأرنا من يشهد أنك رسول الله، وروى ابن جرير بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما

أنه قال: جاء النحـال بن زيد وقردم بن كعب فقالوا: يا محـمد! ما نعلم مع الله إلها غـيره، فقال رسـول الله ﷺ: «لا إله إلا الله تعالى، بهـذا بعثت وإلى ذلك أدعو»(١).

فهذا النص الكريم ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ شهادة ثابتـة بعد شهادة الله تعالى التى حكاها النبى ﷺ عنه جل جلاله، وبعد شهادته ﷺ، وهى شهادة النبيين السالفين أجمعين.

والضمير فى ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ على من يعود؟ قـال الأكثرون من المفـسرين: إنه يعود إلى النبى ﷺ، ويؤيد ذلك سبب النزول المذكور أولا، وهو المروى عن النبى ﷺ عن طريق الكلبى، وهو يؤيد الوحدانية ويؤكد الشهادة بها من قبل تأييد النبى ﷺ فى صدق رسالته.

وجوز ابن جـرير الطبرى عودة الضـمير على الله تعـالى، ويؤيده أنه أقرب ظاهر مذكور فى الآية، كـما يؤيده رواية ابن عباس فى شـهادة أهل الكتاب الذين شهـدوا بالتوحـيد، وهو ظاهر، وإن كـان لا يظفر بالكثـرة التى يظفر بـها الرأى الأول.

﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾.

ختم الله تعـالى النص ببيان خـسارتهم لأنفسـهم، وإركاسهم أنفـسهم فى الفساد، ويترتب فقد الإيمان، وعلى هذه الخسـارة الفادحة التى فقدوا بها أنفسهم كأناس لهم إدراك وفهم فـى ربط للمسببات المنطقـية باسمهـا، وإن المشركين كانوا يؤيدون نحلتهم بتـكاثر معتنقيـها، فذكـر لهم القرآن الكريم أن الله تعالى يشـهد ببطلان كلامهم وقام الدليل على صدق شـهادة الله -تعالى- بالكتاب الموحى به، والذى قام الدليل على صدقـه بالتحدى به، وعجزهـم عن أن يأتوا بمثله، وشهادة النبى ﷺ وقد علموا أنه الصادق الأمين وإن لجَّ قادتهم فـى الخصومة حتى فجروا

(١) رواه ابن جرير الطبرى، فى جامع البيان : ج٧، ص١٠٤.

فيها، وشهدت الكتب السابقة والذين يعتنقون ما فيها، فلماذا يكذِّبون ويشركون فماذا بعد الحق إلا الضلال، وأى خسارة نفسية أكثر من الفُجر فى الخصومة، واللجاجة فى البهتان حتى أصبحوا لا يتصور الإيمان منهم.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾.

الاستفهام هنا إنكارى للنفى وفيه توبيخ للمشركين، هو حكم على أمر واقع، ومعنى القول: لا أحد أظلم من الذى قصد إلى الفرية على الله تعالى، أو كذب الحجج القائمة، أو كذب ما جاء فى القرآن الكريم من آيات بينات، ومعنى النص أن المشركين كذبوا على الله تعالى بكل عقائدهم، وبذلك بلغوا أقصى درجات الظلم الذى لا يوجد أعلى منه، إذ بلغوا أقصى غايات الكذب الذى يبهت العقلاء والأمناء الصادقين، وقد قال الزمخشرى فى بيان كذبهم على الله تعالى: (جمعوا بين أمرين متناقضين، فكذبوا على الله تعالى بما لا حجة عليه، وكذبوا بما ثبت بالحجة البينة والبرهان الصحيح، حيث قالوا: لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا، والله أمرنا بها، وقالوا: الملائكة بنات الله، وهؤلاء شفعاؤنا عند الله، ونسبوا إليه تحريم البحائر والسوائب، وذهبوا فكذبوا القرآن والمعجزات وسموها سحرا ولم يؤمنوا بالرسول ﷺ).

هذه بعض أكاذيبهم على الله تعالى التى بلغوا بها أقصى درجات الكذب، وبها استحقوا أن يكونوا هم، ومن يشابهونهم أكثر الناس افتراء، وأظلم الناس فى هذا الافتراء، وخلاصتها أنهم كذبوا على الله تعالى بأن ادعوا عليه سبحانه ما لم يكن، وكانوا فى ذلك مرتكبين لأعظم بهتان، وكذبوا بآياته، والآيات قسمان: آيات هى المعجزات، ومنها التى تحدى بها الأنبياء، والآيات الكونية، وقد كذبوا الاثنين، وكفروا بآيات الله تعالى فى آيات الكون الدالة على إبداع خلقه، وأنه سبحانه هو الخالق وحده، وهناك الآيات القرآنية قد كذبوا بها فلم يؤمنوا.

ولا يمكن أن يفوزوا وهم على هذا الظلم؛ ولذلك ختم الله تعالى الآية بقوله تعالت كلماته: ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ فالظلم وخصوصا ظلم الكذب يفسد النفس، ويفسد العقل ويفسد العمل.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾

الكلام هنا متصل بما قبله، ذلك أن ختام الآية السابقة هو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ وذلك يومئ إلى أن الله لا يوفقهم للخير فى الدين؛ لأنهم خسروا أنفسهم ولم يؤمنوا، ولأنهم أظلم الناس بافترائهم على الله، وتكذيبهم لآيات الله، ويوم يحشرهم أى يجمع الناس جميعا لا يُستثنى منهم أحد، يكون الخسران المبين، والعذاب الأليم، والحرمان من النعيم.

وفى الآية الكريمة قراءتان ذكرهما الزمخشرى، أولاهما- قراءة حفص بالنون فى (نحشر) و(نقول)(١)، ومعناها ظاهر بين لا يحتاج إلى تخريج أو تأويل، وثانيهما- بالياء فى (يحشرهم) وفى (يقول)، ويكون الضمير فى الأمرين يعود إلى الله تعالى، وهو مذكور عن قرب فى الآية السابقة.

والحشر مؤكد بكلمة ﴿جَمِيعًا﴾، وهذا التأكيد يمنع احتمال التخصيص، ويكون الضمير يعود على الناس أجمعين، وأن الذين يعاقبون ويحاسبون هم الذين أشركوا؛ ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ والعطف بـ «ثم» كان لتعدد الوقائع قبل هذا الخطاب الموجه للمشركين خاصة، والذين اختصوا بالخطاب فيه؛ لأنه لا شركاء يزعمونهم آلهة مع الله إلا عند الذين أشركوا، فهناك أمور تقع يوم القيامة قبل هذا الخطاب وكان تقدير القول هكذا: يوم نحشر يكون الحساب، وتحضر كل نفس ما كسبت، ويكون لكل امرئ كتابه، ويحصى عمله من خير وشر، ثم نقول للذين أشركوا: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ الشركاء هم

---

(١) ﴿ويوم يحشرهم. .ثم يقول﴾ بالياء فيهما [الأنعام (٢٢)] وهى قراءة يعقوب، وقرأ بها عنه روح ورويس غاية الاختصار.

الآلهة التى زعموها آلهة مع الله تعالى، فإضافة الشركاء إليهم لأدنى ملابسة، أى لمجرد العلاقة النفسية والفكرية التى نحلتها عقولهم السقيمة فى إدراكها لهم، وهل كانوا غائبين عنهم، حتى يبحث عن مكانهم، لعل ذلك يكون، ولعل حالهم من أنهم لا قوة لهم، وليس لهم الشفاعة المقربة، ولا النصرة القادرة، يعتبرون كأنهم شىء معدوم يسألون عنه، وما كان سلطانهم إلا بزعمهم الفاسد فى الدنيا، وقد رأوا الحقائق عيانا، وكشفت الأمور لهم، فغاب عنهم سلطان تلك الآلهة المزعومة.

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾.

أصل معنى الفتنة، إدخال المعدن النار ليزول عنه الخبث الذى يعلق به، وأخص المعادن الذهب، ففتنته إدخاله فى النار لتعلم جودته، ثم أطلقت على الاختبار والعذاب والبلاء، والمصيبة والكفر والإثم والألم والضلال.

وفى النص الكريم قراءتان: إحداهما- ضم تاء (فتنتُهم)[١]، والمراد من الفتنة الاختبار الشديد بهول ما رأوا، والمعنى على هذه القراءة وهى قراءة حفص: وكان من أثر الاختبار والهول الشديد الذى رأوه يوم الحشر والحساب، أن نسوا ما كانوا عليه من شرك، وقالوا مقسمين: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ أى أنهم أقسموا بالله غير صادقين فى الحقيقة، ونادوا الله بـ (ربنا) معترفين بربوبيته وحده، ويكون ذلك من فرط الهول والشدة وعظمة ما رأوا من صدق الحقائق، حتى كذبوا أنفسهم.

والقراءة الثانية بفتح التاء وبالياء فى يكن[٢]. ويعتبر اسم (يكن) هو (أن قالوا)، وقد رجح هذه القراءة ابن جرير الطبرى، وقال فى معناها: (ثم لم يكن

---

(١) قرأ ﴿فتنتُهم﴾ بالرفع - ابن كثير وابن عامر، وحفص والمفضل كلاهما عن عاصم، وقرأ الباقون بنصب التاء.

(٢) ﴿ثم لم يكن﴾ بالياء - قراءة حمزة والكسائى، ويعقوب، وخلف، والمفضل عن عاصم، وقرأ الباقون بالتاء.

قيلهم عند فتنتنا إياهم اعتذارا مما سلف منهم من الشرك بالله إلا أن قالوا: والله ربنا ما كنا مشركين، فوضعت الفتنة موضع القول لمعرفة السامعين معنى الكلام. وإنما الفتنة الاختبار والابتلاء، ولكن لما كان الجواب من القوم غير واقع هنالك إلا عند الاختبار وضعت الفتنة التي هي الاختبار موضع الخبر عن جوابهم واعتذارهم).

وخلاصة المعنى الذي يقرره ابن جرير أن الفتنة الاختبار، وأنها بهذا المعنى هي السبب للقول، والقول هو المسبب ويكون التخريج هكذا لم يكن القول المتسبب عن الفتنة إلا أن قالوا إنا كنا مشركين، فعبر عن المسبب بالسبب لبيان شدة الهول وما يترتب عليه.

﴿ **انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ** ﴾.

النظر هنا ليس هو نظر البصر، ولكنه نظر القلب والتأمل والتفكير والاعتبار، والنظر القلبي إنما هو إلى حالهم وما كانوا عليه من فزع واضطراب بسبب يوم القيامة الذي تزلزل فيه: ﴿ ... **وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ** (٢) ﴾ [**الحج**] فهذا التصوير لحالهم بعد رؤيتهم هول يوم القيامة، إذ قالوا غير ما كان منهم كاذبين اعتذارا عما كان أو إنكارا، أو نسيانا للهول الذي هم فيه إذ ساروا سكارى لا يعون، وهذا هو الذي نختاره فكذبهم بإخبارهم غير الواقع كان غفلة وذهولا؛ ولذا قال: ﴿**وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ**﴾ أي غاب عن ذاكرتهم فنسبوا ما كانوا يفترونه من قول فيشركون مع الله غيره في العبادة، فـ (ما) اسم موصول بمعنى (الذي)، وما أنساهم إلا الهول حتى أخبروا بغير ما وقع منهم، اللهم نجنا من كرب يوم القيامة وما فيه.

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ

لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ
إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن
يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ
فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾
بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ
وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ
بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا
بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾

الكلام موصول فى المشركين الذين تقوم لديهم الدلائل القاطعة على وحدانية الله تعالى، وسلطانه تعالى عليهم فى الدنيا، وإثبات رسالة النبى ﷺ ١ بالمعجزة التى تحدى العرب فيها أن يأتوا بمثلها، وبيان ظلمهم، ثم بين سبحانه بعض حالهم يوم القيامة، وكيف يغيب عنهم ما كانوا يفترونه، وفى هذه الآيات يبين حالهم عند تلقى الدعوة المحمدية.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾.

الأَكِنَّة جمع كنان، وهو الغطاء، والمعنى أنه لا يصل الحق إلى قلوبهم لوجود ذلك الغطاء الحاجز المانع من أن يصل نوره إلى قلوبهم، بل إنه لا يصل إلى مسمعهم، فقد جعل الله تعالى فى آذانهم وقرا، والوَقْر، بفتح الواو ثقل السمع، وهذا النص كناية عن كمال الإعراض، فهم لا يصل إليهم القرآن،

وقد تفاهموا فيما بينهم على الإعراض ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦)﴾ [فصلت]. وإذا وصل إلى سمعهم فهنالك غشاوة على قلوبهم تمنعهم من أن يشرق فيها نوره، وعلى ذلك لا يكون لاستماعهم جدوى وفائدة، وهنا يسأل سائل، إذا كان منع الهداية من الله تعالى بالغشاوة على قلوبهم والختم عليها، وبالوقر فى آذانهم فلا يسمعون سماع تبصر، وطلب للهداية فماذا يكون عليهم من تبعة يحاسبون عليها حسابا عسيرا بالعذاب الأليم، والجواب عن ذلك أن الله سبحانه وتعالى يسير الأمور وفق حكمته العليا، فمن يسلك سبيل الهداية يرشده، وينير طريقه، ويثيبه، ومن يقصد إلى الغواية، ويسير فى طريقه تجيئه النذر تباعا إنذارا بعد إنذار، فإن أيقظت النذر ضميره وتكشفت العماية عن قلبه فقد اهتدى وآمن بعد كفر، ومن لم تجد فيه النذر المتتابعة ولم توقظ له ضميرا، ولم تبصره من عمى، فقد وضع الله تعالى على قلبه غشاوة، وفى آذانه وقرا.

وقوله: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ المصدر المكون من (أن) وما بعدها مضاف إلى مصدر محذوف يقدر على ما يناسب المقام من وضع غلاف يمنع النور، ووقر يمنع السمع، فيكون التقدير كراهة أن يفقهوه أو لمباعدة أن يفقهوه، ومعنى يفقهونه أن يدركوه إدراكا عميقا، ينفذون فيه إلى لبابه، وغاياته، فليس المراد مجرد الفهم والمعرفة، بل المعرفة النافذة التى تصل إلى اللب وتستولى على القلب.

وإن سبب ذلك كله هو الإعراض المطلق الذى سيطر على كبرائهم، وسبق الكفر إلى قلوبهم ومعارفهم، ومع هذا الإعراض، وبسببه يحكمون من غير أن يفقهوا فيقول ما حكاه الله عنهم.

﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

والكافر بالحق المعرض عن الأدلة يسبق كفره إيمانه، فالكفر سابق على التثبت والاستدلال، فهو متجه إلى الإنكار ابتداء؛ ولذلك وصف الله تعالى الذين

مردوا على الجحود والإنكار، وقال فيهم: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ والآية الدليل المعجز على رسالة الرسول، فالآية كما يقول العلماء لعموم النفى، أى أنهم لا يؤمنون بأى رسالة يرونها مهما تكن قوتها ظاهرة، ومهما تكن دلالتها قاهرة؛ لأن العناد والجحود يقهر كل حجة ويمنع سلطانها على القلب؛ إذا ختم عليه، حتى لا ينفذ النور إليه، فإذا كفروا بالقرآن فذلك شأن الذين طبع الله على قلوبهم، وجعل فى آذانهم وقرا، وعلى قلوبهم أكنة، وعلى أبصارهم غشاوة؛ ولذلك قالوا فى معجزة النبى ﷺ إذا جادلوا كما حكى الله تعالى عنهم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾، ويلاحظ هنا أن الله تعالى يقول: ﴿إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ فيه إشارة إلى أنهم كانوا بعداء عن النبى ﷺ من قبل ثم جاءوه، ولم يكن مجيئهم إذعانا لحق، ولا طلبا لحقيقة، ولكن كان تحديا للرسول ومبالغة فى الإنكار، واستهانة بالقرآن الحكيم وهو الآية الكبرى؛ ولذا قال الذين كفروا: إن هذا إلا أساطير، والأساطير جمع أسطارة أو أسطورة، والمعنى ما هذا إلا أخبار الأقدمين. **وهنا إشارتان:**

أولاهما- أنهم ما جاءوا يطلبون الحق، ولكن جاءوا يجادلون، تقال للتسلية. ومنها ما يكون غير صادق، والجدل فى أكثر أحواله تمويه، وليس طلب حق.

والثانية- أن الذين كفروا يقولون ما هى إلا أساطير الأولين بسبب كفرهم فكفرهم سابق لرفضهم المعجزة.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

إن المشركين لا يكتفون بالإعراض عن الحجج الثابتة والبينات القاطعة، ولا يكتفون بالافتراء على الآيات تتلى عليهم، والاستهانة وقولهم إن هى إلا أساطير الأولين، لا يكتفون بذلك، بل يتعدى شرهم إلى غيرهم فهم ينهون الناس عن اتباع محمد ﷺ والقرآن الكريم هو آيات بينات، فهم لا يهتدون، ويمنعون الهداية عن غيرهم ينهونهم، ويثيرون السخرية عليهم إن اتبعوا الهدى واستقاموا على

الطريقة المثلى، وينأون عن النبى، أى يبتعدون عن النبى ﷺ، ويتجافون مجلسه، فهم يقومون بأعمال ثلاثة كلها انحراف عن الصراط المستقيم واتباع للغواية: أولها- الإعراض عن آيات الله تعالى وتكذيب النبى ﷺ، وثانيها- أنهم ينهون الناس عن اتباع الحق، فهم ضالون مضلون، والثالث- أنهم لكى يباعدوا بينهم وبين الحق، ولا يجعلون سبيلا لقلوبهم يجتهدون فى ألا يلتقوا بالنبى ﷺ، فيتجافوا عن مجالسه لكيلا يكون منه منفذ للحق إلى قلوبهم، ففيهم غواية ولجاجة.

وفى هذا التفسير يكون الضمير فى (عنه) فى الحالين يرجع إلى النبى ﷺ وما جاء به.

وبعض المفسرين التابعين لبعض التابعين جعل الضمير فى ينهون فى الحالين يعود إلى عشيرة النبى ﷺ وأعمامه وكانوا عشرة، فهم للعصبية التى كانت قائمة يذبون عن النبى ﷺ وينهون المشركين عن أن ينالوه، وفى الوقت ينأون عن إجابته، ولعل أوضح مثل لذلك أبو طالب، فقد كان يمنع النبى ﷺ من أذاهم، ويمتنع عن اتباعه مع أنه فى قرارة نفسه كان يظنه على حق، ولقد روى عنه شعر فى ذلك، فقد روى أنه قال:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسَّد فى التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة ... وابشر بذاك وقر منه عيونا
ودعوتنى وزعمت أنك ناصح ... ولقد صدقت وكنت ثَمَّ أمينا
وعرضت دينا لا محالة إنه ... من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذارى سبة ... لوجدتنى سمحا بذاك مبينا

وإن الأول هو المقبول المعقول؛ لأن القرآن لا ينزل فى حكم الآحاد إلا إذا كان يؤدى إلى عموم، والأول أظهر وهو عام فيؤخذ به.

وإنهم فى إصرارهم وعنادهم ولجاجتهم فى كفرهم ونهى الناس عن الاتباع، بل فتنتهم - يسيرون فى طريق الفساد والضلال ولا يهلكون أحدا إلا أنفسهم؛ لأن

الدعوة إلى الحق ماضية، فإن عوقها معوق فإلى حين؛ إذ الضالون لا يشعرون أنهم يسيرون فى طريق الهاوية، ولو شعروا بها لتجنبوا، وكذلك أهل الضلال دائما.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ذكر الله تعالى حال المشركين فى الدنيا فى لجاجتهم فى الكفر، بإعراضهم عن الآيات البينات، وجحودهم للنبوة، ونهيهم غيرهم عن اتباعه ومجافاتهم له، وكان لابد من المقابلة بين هذه الحالة المنحرفة المتجافية عن الهداية، وحالهم يوم القيامة إذ يعرضون على النار، ويقفون عليها، فذكر سبحانه مخاطبا النبى: إنك أيها النبى لو اطلعت عليهم ورأيت حالهم إذ وقفوا على النار واطلعوا عليها ورأوها تستقبلهم بلهيبها وسعيرها - لرأيت هولا عظيما يدفعهم لأن يتمنوا أن يعودوا إلى الدنيا ولا يكذبوا بآيات خالقهم ومنشئهم وكالئهم وحاميهم ويكونوا من المؤمنين، وفى الآية الكريمة إشارات بيانية، بذكرها نقرب ما فى الآية من بلاغة رائعة:

الأولى- التعبير بـ (إذ) التى تدل على الماضى بدل (إذا) التى تدل على المستقبل، وذلك لتأكيد الوقوع، وليستبين المستقبل حاضرا قائما، ويتصور على أساس أنه موجود لا على أنه سيوجد.

الثانية- أنه عبر بـ (على) بدل (فى) للإشارة إلى أن مجرد الاطلاع عليها، والعلم بها بالعيان يلقى فى النفس بهولها وشدتها، فما بالك بالوقوع فيها.

الثالثة- أن (لو) شرطية والجواب محذوف وتقديره- لو رأيتهم فى هول وفزع وشدة فتمنوا أن يعودوا ويصلحوا.

الرابعة- أن التمنى كان بالنداء لصيغته وهى (ليت) كأنه يقول: (يا ليت) أقبلى فهذا وقتك الذى نستغيث بك فيه؛ إذ لا نملك إلا التمنى فهو أداتنا الوحيدة، وإن كانت أداة العاجزين.

الخامسة- أن قوله تعالى: **﴿وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾** فيه قراءتان- إحداهما- بنصب الباء والنون على أنها جواب التمنى بإضمار محذوفه، والثانية- بضمها على تقدير محذوف[1]، وتقدير الكلام هكذا: ليتنا نرد ونحن لا نكذب، ونكون أول المؤمنين، ويكون فيها فضل توكيد بذكر وعدهم بعدم التكذيب، وبأن يكونوا من المؤمنين.

السادسة- توكيد إيمانهم بأنهم يخرجون من صف أهل الشرك والكفر إلى صف المؤمنين الصادقين.

﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

(بل) هنا للإضراب، والرد على ما يتمنونه، والغاية التى يريدونها، والمعنى أن أولئك لا يتمنون الذى يتمنونه لأجل الهداية، بل ذلك لهول ما يرون والفزع لما يستقبلهم، ولأنه بدا لهم الأمر الذى كانوا يخفونه، ويصح أن يكون الإضراب هنا للانتقال من مقام تمنيهم إلى مقام آخر، وهو بيان أنهم لو عادوا فى الدنيا وخلقت فيهم الشهوات والأهواء وعبثت بهم، واستولت عليهم لعادوا لما نهوا عنه.

وما الذى بدا لهم وكانوا يخفونه من قبل؟ اختلف المفسرون على آراء كلها محتملة، وهى تنتهى إلى رأيين:

أولهما- ما كانوا يخفونه فى طوايا نفوسهم وأعمالهم فى الدنيا قد بدا عيانا لهم، وأحسوا فيه بقبح ما فعلوا، فبدا لهم ما كانوا يخفون من مفاسد، وبدا أن كفرهم ليس لنقص فى الاستدلال، ولكن لعناد، ولإعراض بدا لهم ما كانوا عليه من عنجهية جاهلية، وأنها جوفاء فى الآخرة، وأنها التى دفعتهم إلى الكفر، وليس نقص الدليل، وبدا لهم أن إعراضهم عن الآيات لم يكن لنقصها، ولكن لنقص فى نفوسهم وإذعانهم.

---

(١) ﴿ولا نكذبَ.. ونكونَ﴾ بالنصب فيهما - قراءة حمزة ويعقوب وحفص.

التأويل الثانى- أن الذى بدا لهم هو عذاب الآخرة، وهولها، وشدائدها، وقد كانوا ينكرونها، فظهر ما كانوا يجحدون، ولكن كيف يكون ذلك قد أخفوه، وهل الإنكار المعلن إخفاء؟ والجواب عن ذلك أن الفطرة الإنسانية توجب التصديق إذا قام الدليل، وأن المعاندة حيث قام الدليل إخفاء لما يقتضيه. وقد قال تعالى: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ...** (١٤)﴾ [النمل]. فجحودهم كان إخفاء لموجبات الإيمان، وأن شهوة السلطان والعصبية، وغلبة الدنيا والفساد عليهم جعل الحق يختفى عليهم، ويخفونه هم بالمعاندة والمكابرة، والمماراة، فلما كانت الآخرة، وكانت القيامة بأهوالها بدا ما كان مختفيا، وأخفت الأهواء والمعابث، وظهرت الحقائق وأحسب أن المعنيين مستقيمان، ولا مانع من جمعهما، فالنص يعمهما.

ولقد ادعوا فى تمنياتهم أنهم يعودون ليكونوا فى ضمن المؤمنين، ولا يكذبوا بآيات ربهم الذى خلقهم وكونهم وحماهم، فبين سبحانه أنهم لو ردوا إلى الدنيا بزخارفها وعصبياتها، وأهوائهم وشهواتهم، وحب الغلب لعادوا لما نهوا عنه من الإعراض عن الآيات، والمكابرات فى المعجزات، والاستهانة بالإيمان والمؤمنين، ووقعوا فى كل المخابث التى كانت منهم، وذلك لأن السبب فى الجحود هو سيطرة الهوى والشهوة والعصبية الجاهلية، فإن عادوا إلى الدنيا بمتعها البراقة فسيستولى عليهم بريقها، ويكون منهم ما كان أولا.

ولقد أكد الله سبحانه كذبهم فى أمنياتهم ونتائج تمنياتهم فقال: ﴿**وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**﴾ والكذب هنا خاص بما يمكن أن يقع منهم، وما أرادوا فى تمنيهم الأمانى، فتمنياتهم كاذبة لا يمكن أن تحقق، ولو عادوا لكان منهم ما وقع أولا؛ إذ إنهم يعودون بما كانوا يحملون من ركائز فى نفوسهم، فالتكذيب لما يكون منهم فى المستقبل، وقد أكد سبحانه تكذيبهم بـ «أن» وبالجملة الإسمية، وباللام المؤكدة.

﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ .

الحياة التى تسمى حياة فى نظرهم ولا شىء سواها حياة الدنيا، هذه الجملة تفيد ثلاث فوائد:

أولها- نفى وجود أى حياة غير الحياة التى يعيشونها، ولو كانت هذه الحياة هى الدنيا وليست العالية القويمة.

الثانية- أنهم ينسبون الحياة إليهم لاستمتاعهم فيها وما فيها من لهو ينغمسون فيه، وعبث يعبثونه.

الثالثة- إنكارهم صراحة لبعثهم وتأكيد النفى بالباء، وبالجملة الاسمية.

لقد قالوا ذلك القول فى الدنيا بلا ريب، ولكن كلمة (قالوا) فى هذا النص؛ أهى معطوفة على كلمة (لعادوا)، وقولهم هذا يكون على فرض عودتهم، وهذا هو الظاهر، ويكون قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ جملة اعتراضية مؤكدة لمعنى عودتهم إلى ما كانوا عليه إن عادوا إلى الدنيا؛ إذ هى تكذيب ادعاء أنهم لا يكذبون بآيات ربنا، ويكونون من المؤمنين.

ويصح أن تكون (وقالوا) كلام سيق مستأنفا للمقابلة بين حالهم التى يرونها فى الآخرة؛ إذ يرون الهول عيانا، وقد ينكرون البعث، ويؤكدون الإنكار له، وها هم أولاء يرونه، ويتمنون ما يتمنون.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا ﴾ .

ولو ترى إذ وقفوا على النار كانت فى بيان ما يستقبلهم من عذاب مادى رهيب يقرع إحساسهم قرعا شديدا مزعجا، وفى هذا الموضع، ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ هى بيان عقاب معنوى توبيخى، وبيان كذبهم فى الدنيا وكفرهم بآيات ربهم، ولو ترى يا محمد أو لو ترى يا قارئ القرآن إذ وقفوا أى حبسوا مطلعين على تجلى ربهم، وسلطانه وكمال عزته البارزة لهم التى حاولوا إخفاءها فى

أنفسهم فى الدنيا، وإن لم تكن خفية فى ذاتها، لقد تجلى عليهم ربهم بسؤال المستنكر لحالهم فى الدنيا، وبحجتهم فى قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أى هذا البعث الذى تعاينونه وتشهدون أهواله ثابتا بالحق، فقوله (بالحق) متعلق بمحذوف، وأو نقول إن (الباء) زائدة، ويكون المعنى أليس هذا البعث هو الحق الذى لا ريب فيه، وتكون (الباء) لتأكيد معنى الإنكار الذى هو بمعنى النفى، وقد دخل على نفى، ونفى النفى إثبات، ولقد كانت إجابتهم مصدقين؛ لأن الواقع يحملهم على التصديق والإذعان لما يدعو إليه رب العالمين بقولهم كما حكى ربهم؛ (بلى) وبلى لنفى ما يكون بعد الاستفهام، أى لنفى (ليس هذا بالحق)، نفى ما تضمنته ليس النافية هو تصديق أنه الحق، وإذا كان ذلك ثابتا بحكم قولهم وعيانهم، فلا بد أن يتجلى الله تعالى عليه بذكر ما يستحقون، فقال تعالت كلماته: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أى فانغمسوا فى العذاب ذائقين لآلامه محسين بها، فالذوق هنا كناية عن الإحساس الشديد بعد الانغماس فيه، والأمر هنا أمر تكوينى يحكى الواقع الحق، وقد يكون مع ذلك أمر قولى لا اختيار لهم فيه، بل إنه مجاب بالاضطرار، و(الباء) هنا للسببية أى بسبب كفرهم بالبعث، وإنكارهم له، و(الفاء) فى قوله: (فذوقوا) فاء الإفصاح، أى إذا كنتم تفترون أنه الحق فذوقوا عذابه بما أنكرتم. اللهم هبنا الإيمان بالغيب وامنحنا اليقين.

قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ
بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ
عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا
لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣٤ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٥﴾

الكلام موصول فى الكفر باليوم الآخر وأثره النفسى والاعتقادى، وما يترتب على الكفر باليوم الآخر جحود النبوات، ولقد ابتدأ سبحانه بما يتصل بما قبله، فقال تعالى: **﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾**.

بين الله سبحانه وتعالى فى هذا النص أن الذين يكذبون باليوم الآخر تصيبهم خسارة، وخسرانهم أولا لأنهم يفقدون العزاء الروحى الذى يصيب كل إنسان مما يعانى فى الحياة، فلو كانت الحياة الدنيا لا حياة بعدها يكون الشقاء النفسى المقيم لكل من يصيبه ألم فيها، أو يقع فى نفسه أنه فى شقاء لأنها فيها السعادة فى زعمه، ولأنه بفقد معانى الإنسانية؛ إذ يكون كالحيوان الذى يأكل ليعيش، ويعيش ليأكل فيفقد كل المعنويات العالية، ولأنه ثالثا، يرتع فى الشهوات الموبقة، ولأنه رابعا يكون فى تناحر مستمر، إذ لا يخشى الله ولا يرهب عقابه، وأخيرا يخسر بتلقى العذاب الذى يقع عليه يوم تقوم القيامة، وعبر عن قيام القيامة واليوم الآخر بلقاء الله تعالى تشريفا لذلك اليوم، ولأنه له الولاية الحق فى ذلك، فلا ولاية ولو ظاهرية لغيره ولا ملك لغيره ولو كان ظاهريا، وفيه ترغيب فى الإيمان باللقاء، وترهيب من تكذيبه، وإنهم إذ يكذبون يستمرون فى ضلالهم حتى تجيئهم الساعة بغتة أو فجأة من غير أن يكونوا على أهبة لها، وهنا يرد للنظر أمور.

أولها- ما معنى (حتى تأتيهم الساعة)، أى ما مقام (حتى) أهى للغاية أم للتفريع؟ وإذا كان للغاية فمن أين الابتداء؟ يقول الزمخشرى: إنها متعلقة بـ(يكذبون) أى أنهم يستمرون فى تكذيبهم وغلوائهم حتى تجيء إليهم الساعة وهم فى غيهم يعمهون.

ثانيها- ما المراد بالساعة؟ واضح أنها القيامة فذلك تعبير قرآنى عنها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ** ... (٣٤)﴾ [**لقمان**].

وسميت القيامة ساعة؛ لأنها تحمل أشد الأهوال، ولأنها فاصلة بين نوعين من الحياة، حياة فانية وأخرى باقية، حياة عمل، وحياة جزاء.

الثالثة- الساعة تجيء من غير علم بوقتها للجميع فكيف تكون بغتة للذين كذبوا بلقاء الله دون غيرهم، والجواب عن ذلك أن الذين آمنوا بلقاء الله تعالى يتوقعونها، وإن لم يعلموا وقتها، أما الذين كذبوا فهم يكفرون بها فيفاجأون بها، وإن الذين آمنوا يرجون لقاء ربهم، ويرجون رحمته، وأما الذين كفروا بلقاء الله تعالى فلا رجاء عندهم.

أولئك الذين تجيئهم القيامة ولقاء ربهم بغتة ويرون العذاب، تصيبهم حسرة، أى غم شديد، وقد قال الأصفهانى فى تفسير الحسرة ما نصه: (الحسرة الغم على ما قاله والندم عليه كأنه انحسر عنه الجهل الذى حمله على ما ارتكبه، وانحسرت قواه إذا انحسرت قواه من فرط غم أو أدركه إعياء عن تدارك ما فرط منه).

والتفريط هو الإهمال وعدم العناية والغفلة عما يجب للأمر.

والضمير فى قوله تعالى﴿**فِيهَا**﴾ يعود إلى الحياة عند بعض العلماء ولكن ليس لها مذكور سابق إلا أن يكون ما ذكروه من قبل، وقولهم: ﴿... **إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ** (٢٩)﴾ [**الأنعام**]، والحق فى نظرى أنه يعود إلى

الساعة وتفريطهم فيها هو عدم التفاتهم لها، وغفلتهم عن ذكرها، فكانوا يعملون غير مرتقبين لها، بل غافلين عنها.

ونادوا الحسرة مضافة إليهم قائلين ﴿يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾؛ لبيان أنهم فى حال غم وحزن، وينادون حسرتهم التى تلازمهم كأن هذا وقتها ولا وقت ألزم وأنسب لها من هذا الوقت.

﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾.

الوزر الحمل الثقيل، وسمى به الإثم والذنب؛ لأنه أثقل الأحمال النفسية التى تنوء به القوة، والجملة استعارة تمثيلية لما يثقلون به يوم القيامة من أثقال الآثام، فقد شبهت حال من يحمل الآثام الثقال الكثيرة بحال من يحمل الأحمال الثقال على ظهره وينوء بها؛ لأن كليهما ثقيل، الآثام لوباءتها وعذابها، وقد رشح سبحانه للمشبه به فى قوله تعالى: ﴿أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ فإن هذا بيان لسوء ما يحملون، وقد ابتدأ بـ ﴿أَلا﴾ الدالة على التنبيه، ثم التعجب من شدة ما يحملون، وساء وأساء: تستعمل للتعجب، فمعنى ﴿سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ ما أسوأ ما يزرون وما يحملون لسوء عاقبته، وما وراءه من عذاب.

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾.

فى هذا النص تكون المقابلة بين الحياة الدنيا والآخرة، أو الحياة العاجلة والحياة الآجلة، أو بالأحرى بين من يطلب الحياة الدنيا من غير نظر إلى ما وراءها من حياة أخرى، ومن يطلب الحياة الآخرة، وأيهما أمثل؛ ولذلك كان حصر الحياة الدنيا فى أنها لهو ولعب، فإن هناك حصرا بالنفى والإثبات، فهى مقصورة على اللهو واللعب، وذلك لمن يطلبها من غير نظر إلى ما وراءها من حياة أخرى، فإنه حينئذ لا ينظر إلا إلى لذائذها وشهواتها، ولا تكون حينئذ إلا لهوا ولعبا، واللهو واللعب هما الاشتغال بما لا يجدى فى ذاته، ولكن قد يختلفون فى حقيقتهما مع قربهما فى المعنى، فاللعب العمل الذى لا مقصد منه إلا تزجية الفراغ وقضاء الوقت، وقد يكون عبثا، واللهو طلب ما يلهى عن الجد من الأمور من ملاذ

وأهواء وشهوات، والفرق بينهما غير محدود، بل هما متقاربان يستعمل أحدهما فى موضع الآخر، ومهما يكن فإن الاشتغال بكل واحد منهما لغير غاية مجدية مذمة لا تجوز من عاقل، وإذا قصد بأحدها الاسترواح حتى يقوى على الجد من غير سأم ولا إملال فربما لا يكون قبيحا.

وإن قصر الحياة على اللهو واللعب إنما هو لمن أهمل ما وراءها، أما من عنى بما وراءها وقام بالجد من الأمور، فإنها الطريق إلى الآخرة، وهى طريق الذين يتقون.

وكانت المقابلة للدلالة على موضوع القصر؛ فإن الذين يتقون هم من الذين يعيشون فى الدنيا، ولكن لم تكن لهم كل شىء، بل ما نظروا إليها إلا ليطلبوا الآخرة بها والله على كل شىء قدير.

وقوله: ﴿وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

فى هذه مقابلة بين الذين يطلبون الدنيا لذاتها، والذين يطلبون بها الآخرة؛ إذ الأولون تكون عندهم لعبا ولهوا، والآخرون تكون عندهم جدا، يطلبون ما فى الدنيا لغاية وراءها، ولا يطلبونها لذاتها، وهذه المقابلة فهمت بالصراحة فى الكلام بشأن الأولى، وهو الخسران، وفهمت بذات المقابلة فى الثانية، وهناك مقابلة أخرى، وهو أن عاقبة الآخرين خير، وهذه فهمت بصراحة فى الثانية، وبالمقابلة ذاتها فى الأولى وهو الخسران أيضا، وقد أكد الله تعالى الخيرية لأهل التقوى فأكد باللام المؤكدة، ثم خاطب الله تعالى الناس فقال تعالت كلماته: ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام هنا للحث على التفكر والتدبر، والمقابلة بين اللذات العاجلة السريعة الفانية، واللذات الآجلة الدائمة الباقية.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

﴿قَدْ﴾ هنا للتحقيق وتأكيد العلم، وقد حاول بعض العلماء أن يجعلها للتكثير، ولكن التحقيق جاء من موضوعها لا من ذاتها، وإنى أقول إنى لا أعلم أنها جاءت فى القرآن داخلة على المضارع إلا بمعنى التأكيد، وكتاب الله تعالى فوق ما يقرره علماء النحو واللغة.

وإن النبى ﷺ كان يحزنه أن القوم لا يؤمنون، ويفترون الكذب عليه، ولقد نهاه الله تعالى عن أن يلج الحزن فى نفسه لعدم إيمانهم، فقال تعالى: ﴿... **فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ** ... ⑧﴾ [**فاطر**] وقال تعالى: ﴿**لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ③﴾ [**الشعراء**]. ولقد كان يحزن النبى ﷺ كفرهم، وما يقولون فى هذا الكفر من رميهم له بالكذب والافتراء، وأنه ساحر، وأنه مجنون، وأن كتاب الله تعالى أساطير الأولين، ولقد ذكر الله تعالى أنهم لا يكذبون النبى ﷺ، و(الفاء) هنا تكشف عن محذوف يفيد السببية، تقديره مثلا فلا تحزن لأنهم لا يكذبونك، ﴿**وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ**﴾، والجحود نفى ما فى القلب ثبوته، وإثبات ما فى القلب نفيه أى عدم الإذعان للحق، وقد قامت أدلته، وكثير من العرب كانوا يعتقدون صدق محمد ﷺ، ولكنهم يمارون فى الحق، ولا يذعنون، ويجادلون فى آياته، وقد روى أن طاغوت الشرك أبا جهل عوتب فى أنه صافح النبى ﷺ مرة فقيل له فى ذلك فقال: إنى لأعلم أنه النبى، ولكن متى كنا لبنى مناف تبعا؟!

وهذا على أساس أن الجحود فى الآية منصبّ على نبوة النبى ﷺ إذ يعرفون صدقه، ولكن لا يذعنون له، فيكونون جاحدين، وهناك تخريج بيانى آخر، وهو أن الجحود منصب على آيات الله تعالى وليس تكذيبا، فهو تعزية للنبى ﷺ من جهة أنهم لا يكذبونه، ولكن يقرّون فى ذات أنفسهم، ولكن يجحدون بشهادة ربهم على صدقه، فهم أشد وبالا.

وهنا إظهار فى مقام إضمار إذ إنه سبحانه وتعالى قال: ﴿**وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ**﴾ ولم يقل (ولكنهم) وذلك لبيان سبب الجحود وهو الظلم

المستقر فى نفوسهم، وفيه فوق ذلك تسجيل الظلم عليهم، وهم بذلك مستحقون للعقاب.

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾.

هذا تنبيه للنبى ﷺ وحث على الصبر، والانتظار لما وعد من النصر المؤزر، فالله سبحانه وتعالى يبين أنه ليس أول المكذبين، بل سبق إلى ذلك الرسل الصادقون الداعون، ولقد أكد الله سبحانه وتعالى الخبر بـ (اللام) وبـ (قد) لتأكيد التسلية، ولتأكيد طلب الصبر، وتأكيد الوعد بالنصر، ولم يكن التكذيب للرسل سببا للحزن، بل كان طريقه شحذ العزيمة بالصبر، وبتحمل الأذى، وبترقب النصر، والعمل عليه، فمع العزيمة المعززة بالصبر النصر، وليس مع اليأس قوة، فالصبر كان نتيجة التكذيب؛ ولذا كان العطف بالفاء التى تفيد الترتيب والتعقيب، وقوله ﴿كُذِّبُوا وَأُوذُوا﴾ للبناء للمجهول وهو مع (ما) يكون المصدر المؤوَّل منهما- فما للموصول الحرفى أى المصدرية، والمراد الصبر على تكذيبهم وإيذائهم، ودل على أن موضع الصبر هو تكذيبهم وإيذاؤهم، وكانوا صابرين حتى أتاهم نصر الله تعالى وأنه مع الصبر الأجر، ولقد قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)﴾ [البقرة]. فالنصر إن شاء الله آت لا محالة، وهوالعزيز الحكيم القادر العليم.

﴿وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾.

كلمات الله تعالى هى كلمات النصر الذى وعد الله تعالى به نبيه ﷺ ووعد به المرسلين، من قبله، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]، وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١)﴾ [المجادلة].

ومعنى تبديل كلمات الله تعالى أن يتخلف وعد الله، فلا يكون النصر المبين ما دامت الأسباب بأمر الله وتوفيقه مهيأة، وإنه وعد الله تعالى من كلمات الله لا

تبديل فيها ولا تغيير ما دام الإيمان يملأ القلوب، والصبر يؤيد النفوس ويأخذون بالأسباب، فإن تغيرت النفوس فليس ثمة موضوع لوعد الله تعالى: ﴿... إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ (١١)﴾ [الرعد].

وفسر بعض العلماء كلمات الله تعالى بما هو أعم من النصر، وهو شرائعه، وآياته وتوحده، وصفاته، ونصره أى أنه إذا كان النبى ﷺ يشفق على رسالته أن يعروها تغيير بسبب تكذيبهم وإيذائهم فلا مبدل لكلمات الله تعالى، ونحن لهذا نميل.

ولقد أكد سبحانه العظة والتسلية فى أنباء المرسلين، فقال تعالت كلماته: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ولقد جاءك فيما قص عليك من قصص النبيين وأخبارهم وأنبائهم ما فيه العظة الكاملة، وفيه المثُلات لأقوامهم والنصر لهم، وكما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ ... (١١١)﴾ [يوسف].

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ﴾.

بين الله سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة من أول السورة أنهم متعنتون طلبوا أن يكون مع الرسول ملك، وبين الله سبحانه فى ذلك أنهم معرضون عن الآيات، وأن الكفر قد سبق إلى قلوبهم، فانسدت عليهم كل مسالك الإيمان، فلا يشرق فيهم نور اليقين، ولو نزل عليهم قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها، وأنهم معرضون عن الحق، وإن الآية التى نزلت عليك كافية لإيمانهم إن أرادوا إرشادا، وابتغوه، ولم يبتغوا غيره.

وإن النبى ﷺ كان حريصا على إيمانهم، وكان يكبر عليه إعراضهم عن الدعوة الحق التى يدعو إليها، والحجة الدامغة التى يثبت بها صحة دعوته، وكأنه

يود إيمانهم حتى ولو كان يتحقق بآيات أخرى، فالله سبحانه وتعالى يبين له أنه لا جدوى فى آية جديدة؛ لأنهم سيعرضون عنها لا محالة، ويكون المعنى: إن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أى مسلكا عميقا فى جوفها، أو سلما أى مرقاة ترتقى بها إلى السماء لتأتيهم بآية فلن يجدى ذلك؛ لأنهم لا يريدون حجة لنقص الحجة التى بين أيديهم، ولكن يريدون العنت ولو جاءتهم آية ما آمنوا، فالنص الكريم لبيان أنه لا سبيل لإيمانهم إلا أن يجمعهم الله على الإيمان، ويقذف بالحكمة فى قلوبهم، والله تعالى لم يكتب ذلك، إنك لا تهدى من أحببت، ولكن الله يهدى من يشاء.

﴿**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾.

إن النبى ﷺ كان حريصا على أن يؤمن كل الذين يدعوهم إلى دعوته، ويظن أن الحجة وحدها كافية لاستجابتهم، فبين سبحانه وتعالى أن حكمته اقتضت أن يكون فى الوجود أشرار وأخيار من الناس، حتى يبتلى الأخيار بالأشرار، وأن سنته فى خلقه اقتضت أن يكون فى الخلق إبليس يوسوس فى صدور الناس ويكون الكفاح بينهم، وأن يبلوهم بالشر والخير فتنة. ولو شاء سبحانه أن يكونوا جميعا مهديين لجمعهم على الهدى والتقوى، ولكنه لم يشأ، كما قال تعالى فى آية أخرى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝٩٩**﴾ [**يونس**].

وما دامت إرادة الله تعالى لا بد أن يكون فى عباده أخيار يصدقون ويؤمنون، ومعرضون جاحدون، فادع إلى سبيل الله وانتظر أن يكون المناوئ والمجيب، ولا تكونن من الجاهلين بحكمة الله تعالى، وليس الجهل بأمر شرعى حتى لا يكون محلا للنهى، إنما هو تنبيه إلى أمر تكوينى، كان التنبيه للنبى ﷺ مؤكدا، وهو تنبيه لغيره بالأولى.

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ
يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ
قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا
مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ
مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾
وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ
يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ
أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ
تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا
تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾

الكلام فى شأن المشركين وعرض الآيات عليهم، وطلبهم آيات أخرى، وهم معرضون عن كل الآيات بقلوبهم لأنها فى أكنة، ولا يسمعون الحق لأن آذانهم فيها وقر لانصرافها، وقد أكد سبحانه وتعالى ذلك وذكر وجوب اليأس من المشركين الذين يعرضون عن آيات الله مدعين أن ما سيق لهم لا يكفى لإقناعهم، فقال تعالى:

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾.

الاستجابة هنا هى الإجابة بعد التفكر والإمعان وتقدير الأمر، فهى إجابة محكمة دقيقة، وهذا ما تدل عليه (السين)، فهى إجابة بعد استقراء الدليل على

وجوبها، وقد حصر سبحانه وتعالى الاستجابة بأنها لا تكون إلا للذين يسمعون ولا يعرضون، وينفذون إلى لباب ما يستمعون إليه، ولا ينأون عنه، وفى الكلام تشبيه الذين يعرضون عن الدين ولا يستمعون سماع وعى وإدراك وتفهم بحال الصم الذين لا يسمعون؛ لأن السمع لا قيمة له إذا لم يصل بصاحبه إلى التفهم والهداية.

وقد قال تعالى من بعد ﴿وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾، وقيل: إن الموتى هم موتى الأحياء الذين لا يدركون الحق، ومعنى بعثهم إيمانهم وهدايتهم، أى أن الله تعالى قادر على هداية موتى التفكير الذين لا يستجيبون، وقيل المراد بالموتى الكفرة الأموات، ومعنى البعث ليس الإيمان، إنما المراد أنه سبحانه وتعالى سيبعثهم ثم يحاسبهم على كفرهم، والرأى عندى أن تكون كلمة الموتى على حقيقتها والبعث على حقيقته، ويكون نسق النص الكريم هكذا: إنما يستجيب للحق ويذعن له الذين لا يعرضون عن الآيات، ثم بين بعد ذلك حال الذين لا يجيبون بإثبات قدرة الله بأن الله تعالى سيبعثهم مع الموتى، ثم يكون الحساب والعقاب ويرون ما لم يؤمنوا به، ويستمعون إلى ما أعرضوا عنه وكفروا، ولذا قال سبحانه من بعد ذلك: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ أى ثم إليه وحده يعودون راجعين ليجازيهم المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ولا يستوى المحسن والمسيء.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

فقد دأبوا على الإنكار، لأنهم دأبوا على الإعراض ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤)﴾ [الأنعام] ﴿... وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ... (٢٥)﴾ [الأنعام]، ولكنهم مع ذلك الإعراض يدعون أن إنكارهم لنقص الدليل، وليس للعنت ومجرد الجحود. ولقد كرروا القول فى ذلك، وما أرادوا معجزة مطلقة بل معجزة حسية تلفت أنظارهم وقد ذكر القرآن الكريم بعض ما طلبوا، فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ

تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣)﴾ [الإسراء].

قالوا بصيغة الطلب الذى يشبه التمنى والتحريض فعبر بـ (لولا) الدالة على التحريض والتمنى، وكأنهم يتمنون الإيمان بتمنى الآية وهم فى ذلك منحرفون عن الغاية، وقالوا لولا أنزل عليه، أى على النبى ﷺ وذلك التنزيل آت من قبل ربه وعبروا بالمجهول وبربه وهما يفيدان أن الطلب ليس منه، ولكنه من ربه، فإذا كان رسولا من عنده، فليجب ذلك الطلب الذى نتمناه، ونكون من بعده مؤمنين.

وقد رد الله سبحانه وتعالى بأمرين:

أولهما- أنه سبحانه قادر عليه فهو المالك للسموات والأرض ومن فيها، وهو القادر على أن ينزل عليهم تلك الآية، فلن يعجزه شىء فى الأرض، ولكن الآيات التى تكون مع النبيين لإثبات رسالتهم تكون على مقتضى حكمته، وتكون مناسبة لشريعتهم فتكون خالدة بخلودها.

الأمر الثانى- الذى أجابهم سبحانه وتعالى هو أن أكثرهم لا يعلمون، وهذا يفيد أنه سبحانه وتعالى مع قدرته على ما يطلبون لن يجيبهم، لأنهم لا يعلمون أنهم لا يؤمنون، ولو جاءهم بالآيات؛ لأنهم سبقوا إلى الإنكار والجحود. فيكفرون بهذه الآية كما كفروا بالقرآن، ولأن القرآن حجة فى ذاته وهو أقوى حجة تناسب شريعة محمد ﷺ؛ لأن الآيات المادية وقائع حسية تنتهى بانتهاء زمنها، ولا يعرفها إلا الذين يرونها، أما القرآن فهو باق خالد معجز فى كل الأعصار والدهور فناسب شريعة خالدة باقية إلى يوم القيامة.

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾.

ذكر فى الآية السابقة بيان قدرة الله تعالى على أن ينزل أى آية يريدونها، ولكنه لا ينزلها؛ لأنهم لا يعلمون ولا يفهمون ما يناسبهم، والله تعالى لا يسير

وراء أهوائهم، وفى هذه يؤكد قدرته وعلمه، وسعة إحاطته بالأحياء جميعًا، وقد قال الزمخشرى فى ذلك: (الغرض من ذكر ذلك سعة الدلالة على عظم قدرته ولطف علمه، وسعة سلطانه وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس المتكاثرة الأصناف، وهو حافظ لما لها وما عليها مهيمن على أحوالها لا يشغله شأن عن شأن، وأن المكلفين ليسوا بمخصوصين بذلك دون من عداهم من سائر الحيوان).

ومؤدى هذا الكلام إثبات أن علم الله تعالى الواسع كان من مقتضاه ألا يجيب ما طلبوا؛ لأنهم لا يعلمون المآل، وهو يعلمه، كما يعلم كل حيوان من دابة تدب، وطائر يطير، ويعرف ما يحتاج إليه وما لا يحتاجه، لقد بين الله سبحانه وتعالى عظم خلق الحيوان، وأنها جماعات وطوائف مخصوصة، كل طائفة تكون جنسا قائما، وقد فسرها الأصفهانى بقوله: (قوله تعالى: **﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾** أى كل نوع منها على طريقة قد سخرها الله عليها بالطبع، فهى من ناسجة كالعنكبوت، وبانية كالشرنقة، ومدخرة كالنمل، ومعتمد على قوت وقته كالعصفور والحمام، إلى غير ذلك من الطبائع التى يخصص بها كل نوع. والنص فيه تعميم للأنواع كلها لأن اجتماع (ما)، و(من) يدل على الاستغراق للجماعات والآحاد معًا، فهى فى علم الله تعالى جماعات وأجناس وطبائع مختلفة مثلكم- وقوله تعالى: **﴿وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾** لإفادة التعميم فى أن علمه تعالى يشمل الطائر فى الجو، كما يشمل الدابة التى تدب فى الأرض، والطائر الذى يطير، فذكر الذى يطير بجناحيه يدل على علم الله تعالى على ما فى الأرض من دواب تدب، وأسماك ولآلئ تسبح، وما فى الجو من طيور تطير، وكل هذه أجناس ذات طبائع مختلفة، وذكر الجناحين فى الطير لتوجيه الأنظار إلى الإبداع فى الصنع مع جمال التكوين والقدرة.

وفى ذلك بيان لقدرة الله تعالى، وبيان لأن الإنسان لا يصح أن يعلو ويستكبر فأمثاله من الأحياء عدد كثير، وليس عدداً قليلا.

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

ما تركنا شيئًا لم يحص فى الكتاب أى فى المكتوب المسجل بعلم الله وهو اللوح المحفوظ، فالكتاب هو اللوح المحفوظ، وقد ذكر ذلك صراحة فى آية أخرى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦)﴾ [هود]. أى مفصح ذاكر لأسمائها وأعدادها وأنواعها. وهذا أوضح تفسير لمعنى ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ وقال بعض المفسرين: الكتاب هو القرآن ومعنى التفريط أنه لم يغادر شيئا من الأحكام إلا بينه. وأسرف آخرون فقالوا: إن القرآن ما ترك علم شيء قط من الشرائع أو غيرها من الأشياء والأحياء.

والأبين هو ما ذكرناه أولا- لأنه المتفق مع النصوص الأخرى، وثانيًا لأنه المناسب لذكر الأحياء. ولقد ذكر الله تعالى من بعد ذلك أن كل الأحياء يحشرون إلى ربهم، فقال تعالت كلماته: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أى يجمعون إلى ربهم الذى خلقهم من عدم، والتعبير بـ «ثم» للإشارة إلى أنهم أعداد لا تحصى فى علمنا، وجمعهم ليس يسيرًا فى ذاته، وإن كان بالنسبة لله تعالى أمرًا ميسرًا، وفيه أيضًا بيان لبعد الموت عن البعث والقيامة، وإشارة لاستغراقهم جميعا.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم﴾.

هذا النص السامى يبين أن الذين لم يسارعوا إلى الحق استجابة لعناصر الانحراف والجحود فى نفوسهم، واتباعًا للهوى لا يهتدون؛ لأنهم سدوا على أنفسهم مسارب النور إلى الحق، وقد شبه سبحانه وتعالى حالهم بحال الصم والبكم الذين يسيرون فى الظلمات، فإنهم لا يبصرون طريقًا للهداية يسيرون فيه؛ إذ إنهم فى ظلمات حالكة متكاثفة فلا يبصرون، ولو كان بصرهم سليما، فهؤلاء لا يجذبهم دليل ولا يهديهم برهان، ولا يمكن أن يستجيبوا لمن يهديهم، لأنهم بكم لا ينطقون، ولايمكنهم أن يستجيبوا لداعى الهداية، لأنهم لا يسمعون إذ هم

صم وبكم، فالكلام فيه استعارة تمثيلية إذ شبهت حال الجاحدين الذين يعرضون عن كل آية بحال الصم البكم الذين يعيشون فى الظلام من حيث لا نور يهديهم، ولا سبيل لأن يهتدوا.

وقد بين سبحانه وتعالى أن ذلك بعلم الله تعالى وإرادته، وأنه لا تخرج حركة عن حركة إلا بإذنه فهدايته المهتدين بمشيئته، وضلال الضالين بمشيئته، فلا يخرج شيء فى الوجود من غير مشيئته، ومعنى ﴿مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ أى من يشأ الله تعالى له أن يكون فى ضلال يضلله بأن يجعله يسير فى طريق غوايته، فيعرض عن الآيات ويصاب بستار يحول بينه وبين الحق من ذات نفسه لا من أمر خارج عنه، بل باختياره الغواية فيتركه الله يسير فى طريقه الذى رسمه لنفسه، ومن يشأ الله تعالى له الهداية يسير فى طريق مستقيم يوصله إلى الحق والهداية.

وهنا أمر نشير إليه، هو أن الهداية والضلال ليسا إجباريين لا اختيار للعبد فيهما، كما يقول الجهمية ومن يسيرون فى طريقهم، وليسا للعبد من كل الوجوه، كما يقول المعتزلة، ومن يسيرون فى فجهم، وإنما الأمر أن للعبد اختياراً فى الطريق الذى يسيره، والله تعالى يوفقه فيه، فإن كان خيراً خطا فيه إلى الغاية، وإن كان شراً سار حتى الهاوية.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾.

﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ استعمال قرآنى أراد العلماء أن يخرجوه على مقتضى قواعدهم النحوية، من حيث الإعراب، وكيف يكون وضع الحروف، وكلمة أرأيت فى القرآن والاستعمال العربى تستعمل للتنبيه والتحريض على الرؤية والنظر، فهو استفهام للتنبيه مؤداه أرأيت كذا فإن لم تكن رأيته فانظره، فهو تنبيه، وحث على الإمعان فيه والتأمل، وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ فيه جمع بين خطابين أحدهما مفرد، وظاهره أنه خطاب للنبى ﷺ وهو التاء، وهو فاعل الرؤية أو على حد قول النحويين التاء فاعل، والثانى - خطابهم بالكاف، والظاهر الذى يبدو بادى

الرأى أن الخطاب لهم بالقصد؛ ولذلك جاء بعده ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ﴾، وكان خطاب النبى ﷺ لتنبيهه ﷺ إلى خطابهم وإجابتهم، ويكون المؤدى بيان ضعفهم أمام الحوادث، والمسلمات وصغارهم واستغاثتهم بالله وحده، وأنهم لا يدعون سواه، وتنبيه النبى ﷺ إلى ذلك.

هذا ما يبدو لنا من معنى هذا الاستفهام البليغ الذى هو من آيات الإعجاز، ولا حاجة فيه إلى أن نقول: إن الكاف حرف أو اسم، ولا أن نقول الخطاب بأيهما أبالتاء وحدها أم بالكاف وحدها. والحق أنه بهما معًا فالتاء للنبى ﷺ، والكاف للمشركين، وفى التاء تنبيه إلى ما يكون منهم من إجابة.

والخطاب موجه إليهم للإجابة عن سؤال معين إن أتاكم عذاب الله الدنيوى من زلزال مدمر أو خسف يجعل عالى الأرض سافلها، أو عاصف شديد، أو فاجأتكم الساعة أى القيامة ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾ أى أتدعون غير الله من أحجار تجتلبونها أو نار توقدونها وتعبدونها، أو شمس تقدسونها؟ لا أحد غير الله سبحانه، إذن فلِمَ تعبدون غير الله؟! وهم لا يملكون ضرا ولا نفعًا، وعلق سبحانه وتعالى الإجابة على الصدق لكى يكون الجواب لا تمويه فيه بل يكون صادرًا عن حقيقة واقعة لا عن أوهام يتوهمونها، ويحسبونها، بل عن عقل مدرك صادق خالص من الأوهام والأهواء والأخيلة الفاسدة. ولقد أكد سبحانه الإجابة السليمة بقوله تعالى:

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾.

انتهى الكلام السامى بقوله تعالى: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى تتحرون الحق وتدركونه. وقد أجاب سبحانه وتعالى عنهم بالإضراب عن تفكير أوهامهم وهو أنهم لا يدعون سواى؛ ولذا قال سبحانه: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ قيل للإضراب الانتقالى عن تفكيرهم وأوهامهم، وتقديم المفعول على الفعل والفصل بقوله: ﴿إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ للقصر، أى لا تدعون إلا إياه، إذًا لا تفكرون فى غيره،

وذلك دليل على أن المشركين مهما يضلوا يتجه تفكيرهم فى الشدائد إلى القوة الخفية الخالقة فى هذا الوجود، وهو الله سبحانه وتعالى خالق الكون ومسيره، فهو مجيب المضطر إذا دعاه، وأن الله يكشف أى يزيل الضر، وكأن الشدة غطاء غامر محيط، وإزالته كشفه، ففى هذا التعبير استعارة فيها تشبيه حال إزالة الشر، بحال كشف غطاء غامر مؤلم، بجامع إزالة الضر فى كل، وإظهار السلامة، والفاء هنا لترتيب الفعل على الدعاء وسرعة الإجابة.

وإن الله تعالى يكشف الضر إذا لم يكن فى ذلك مفسدة وكان فيه خير، وكانت الرحمة تفرضه، كما قال تعالى: ﴿... **كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ** ... (٥٤)﴾ [**الأنعام**]؛ ولذا قال سبحانه: ﴿**إِن شَاءَ**﴾ أن يتفضل عليكم بهذا الكشف، ويرحمكم ولم يكن فى هذا مضرة، ولا إغراء بالفساد، ولا إيذاء لغيره، فعمله تعالى فى دائرة الحكمة والنفع، وإن لم يكن فى ذلك إلزام، فإنه سبحانه وتعالى ﴿**لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** (٢٣)﴾ [**الأنبياء**].

وظاهر أن كشف الشدة إنما يكون فى شدائد الدنيا، وهى التى تتعلق بها المشيئة إن شاء أنزلها وأبقاها لحكمة، وإن شاء أزالها وأنظرهم؛ كما كان يفعل مع قريش، أما ما يجىء بعد الساعة من حساب وعقاب المشركين فإن الله لا يكشفه عن المشركين، إذ يقول سبحانه: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ... (٤٨)﴾ [**النساء**]. فلا يمكن بمقتضى وعيده سبحانه أن تكون عقوبة الشرك يوم القيامة موضع كشف أو إزالة.

وقوله تعالى: ﴿**فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ**﴾ الكلام متعلق فيه بالمشيئة، وأريد به السبب، ذلك أن السياق يستفاد منه أن الكشف عن الدعاء، والحقيقة أن الكشف عن الضر الذى سبب الدعاء والله سبحانه وتعالى كاشفه، ومزيل ضرهم.

وإنهم فى هذا الحال يتركون أحجارهم؛ لأنهم فى هذه الحال تستيقظ مداركهم، فلا يلتفتون إلى أوثانهم إذ يرونها لا تنفع ولا تضر، بل ربما يكون

البلاء حاطمًا لها، ومنكسًا، فيتركونها أو أن شدة الهول تجعلهم ينسون ما علق بأوهامهم عنها ولا يكون أمامهم إلا الحقائق الثابتة.

ويكون هذا النسيان سببا للترك وعدم الالتفات؛ ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ أى تغيب عن ذاكرتكم فتتركونها لأنها لا حول لها ولا قوة، ولا يذكرون إلا خالق الكون، ورب الوجود كله، وهو الحى القيوم، ولكن نسيانهم قد يستمر، وقد يذكرونها بعد الشدة.

ويجب أن نذكر هنا أن المشركين من قريش لم تكن قد ذهبت بهم اللجاجة فى المادة إلى ألا يؤمنوا بالروح، فهم مع إشراكهم بالله تعالى كانوا يحسون بمقتضى الفطرة أن هناك قوة روحية تسير الأمور الكونية؛ قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (٦٣)﴾ [العنكبوت]، اللهم ألهمنا شكرك ولا تنسنا ذكرك.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ
إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ
(٤٢) فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ
وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا
نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ
حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤)
فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٥)

الكلام فى أحوال المشركين مع النبى ﷺ ومجابهتهم له وسوق العبر لهم، وفى هذا النص الكريم بيان أحوال النبيين مع أقـوامهم، وأحوال الأمم فى الضراء والبأساء، ومقدار انتفاعهم بها والعبرة فى ذلك؛ ولذلك قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾

فى هذا النص بيان لعلاج الله تعالى للأسقـام النفسية للأمم التى تتعصى على الهداية، وعلى الاستقامة على الحق إذا دعوا إليه، فليس الناس جميعًا طلاب حق يتبعونه إذا هدوا إليه، ولا يستمعون إلى الحجة إذا سيقت إليهم، بل يعاندون ويكابرون، فهؤلاء يحتاجـون إلى علاج دنيوى، وذلك بالشدائد تنزل بهم؛ لأن الجحود والمبالغة فى الإنكار سببهما الاغـترار بالدنيا وما فيها من متع، ولا علاج لغرور الجدة إلا بالحرمان منها ليـذوقوا طعم المر بعد أن ذاقوا رطب العيش، ولا علاج لغرور الصحة إلا بالمرض حينا، ولا لعلاج للقوة إلا بالضعف. وعسى أن يكون هذا بصوره المختلفة باختلاف الداء مؤديا إلى شفاء النفس، والاتجاه بها إلى الهداية، وقد عـالج الله تعالى حالهم بأمرين: أخذهم بالبـأساء، وهى البؤس الشديد، والبؤس هو الفقـر وضيق العيش حتى يكون ضنكا، وذلك يكون للأمم بالأزمات تجتاحها، وبجفاف النبات، وبالجوائح المبيدة وغيرها مما يصاب به اقتصاد الأمم، والثانى الضراء بالمرض تـصاب به الأجسام وبالأوباء المرضيـة تتفشى بين الجماعات.

ولقد فعل الله تعـالى ذلك بفرعون وقومه عندمـا أصابه هو وهم الغرور وطغوا فى البلاد. وقد قال تعالى فى ذلك بعد أن سخروا بكل آية: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ(١) وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦)﴾ [الأعراف].

---

(١) قال المؤلف - رحمه الله -: القمل: حشرة تأكل الزرع تشبه دودة القطن، ولعلها هى.

وإن الآلام علاج النفوس المغرورة بزخارف الدنيا، ومتاعها إن كانت صالحة للعلاج، وقد يستعصى الداء ويصعب العلاج، وإن الله تعالى عالج الأمم بالآلام عساهم يخضعون، ويبتعد الغرور عن نفوسهم؛ ولذا قال سبحانه: ﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ**﴾ أى لعلهم يخضعون ويتطامنون وتذهب كبرياؤهم إذ يحسون بضعفهم وإنه حيث كان الإحساس بالضعف قربت النفس من الإيمان فالإيمان إذعان وخضوع، ومن جنسهما التضرع والتطامن والبعد عن الغرور، وعن الاستكبار على الحق، والرجاء هنا يفيد المقاربة بين إصابة الكاذبين بالبأساء والضراء. والخضوع للحق. فالمراد من الرجاء لازمه، وهو القرب من الحق، والإذعان له.

﴿ **فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾.

البأس هنا الشدة. وهى أكثر ما تكون فى شدة الحرب. ولأواء القتال، ويطلق على شدة الفقر والبؤس فى العيش، و(لولا) هنا للنفى مع تمنى الوجود فهى لنفى تضرعهم مع تمنى أن يكونوا قد تضرعوا، والتمنى هنا معناه ينبغى، كأن المعنى هكذا لم يتضرعوا وكان ينبغى أن يكون البأس الشديد مؤديا إلى ضراعتهم؛ لأنه يشعرهم بضعفهم أمام قدرة الله تعالى الغالب القاهر فوق كل شيء. لكن الإحساس بالضعف الذى دل عليه نزول البأس عليهم - ولا قبل لهم - وجد مانعان يمنعان أثره. فإذا كان قد وجد سبب الضراعة فقد وجد المانع منها. والمانع منها أمران:

أحدهما- قسوة القلوب. وقد عبر سبحانه وتعالى عن ذلك بقوله تعالى: ﴿**وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ** ﴾ وكان ذلك الاستدراك للإشارة إلى أن الضراعة وقسوة القلوب لا يجتمعان ولو نزلت الشدائد، وإن ضرعوا فإلى أمد محدود، ثم تعود إليهم أحوالهم.

والسبب فى أن القسوة والضراعة نقيضان لا يجتمعان أن القسوة غلظ فى النفوس والطباع وإن بعض النفوس لتقسو حتى تكون كالحجارة أو أشد قسوة، وإن

من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منهـا لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله.

والضراعة رقـة فى القلب ورأفة فى النفس، وإحسـاس بآلام الغير وآلام النفس فلا يكون القاسى ضارعا ولو كان جبانا، إذ الضراعة علو مع رأفة ورحمة وطمأنينة والقسـوة غلظة، وقد يكون الجبان غليظا، بل فى أكثر الأحوال هو كذلك.

الأمر الثانى الذى يمنع الضراعة- تزيين الشيطان العـمل للنفس. وقد عبر سبحانه عنه بقوله تعالى: ﴿**وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ إن الشيطان قد يراد به هنا النفس الأمارة بالسوء التى تزين السوء فتجعله كالحسن وما هو بحسن، وإن هذا التزيين النفسى لعمل السوء للنفس لا يجـعل الآثم يحس بإثم ما ارتكب. والضراعة توجب الإحساس بذلك الإثم، حتى يـتجه إلى ربه تائبًا توبة نصوحا، ومن أول درجات هذه التوبة أن يحس بإثم ما فـعل. ثم يندم عليه. ثم يعتزم ألا يفعل، ولا يمكنه أن يكون ذلك ممن زين له سوء عمله فيراه حسنا وما هو بحسن.

وفى التعبير بقوله تعالى: ﴿**وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ ناحية بيانية رائعة ذلك أن عبـر بزين لهم الشيطان سوء ما يعـملون.. ولم يقل حسن لهم الشيطان. كمـا يجرى على الألسنة فلان يحسن القبـيح؛ لأن القبيح لا ينقلب حسنًا، والسيئ لا ينقلب، ولكن السيئ أو القبيح بتـمويهات وتزيينات يظن معها أنه حسن. وما هو إلا تمويه باطل، وإنهم إن لم يهذبوا بالشدائد اختبروا بالنعم، فقال تعالى:

﴿ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ**﴾.

الفاء لتفصيل ما كان منهم وبيان ما ترتب من عواقب قريبة وأخرى بعيدة، فإنهم إذا لم يتضرعوا بسبب قسوة قلوبهم وأنهم زينت لهم أعمالهم - كان لذلك

عواقب. وكانوا بتلك القسوة وتزيين السوء ناسين لما ذكروا به. فقد ذكروا بالبأساء والضراء وبسبب قسوة قلوبهم تركوا ما ذكروا به والنسيان هنا ليس هو مجرد الترك، إنما هو نسيان آثار الضراء والبأساء، فإن الضراء والبأساء لكى تنتجا آثارهما الحقيقية من الضراعة يجب أن تتركا آثارًا فى القلوب تكون مذكرة بانتظام دائم لهما ولكن القسوة والغرور، والعجب والاستكبار محت تلك الآثار المذكرة فكان النسيان، وعاد الاغترار والاستكبار.

والله تعالى فى هذه الحال التى أصابهم فيها النسيان يقول: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أى أن الرزق وأسباب القوة والاغترار والاستكبار تأتيهم وتسهل لهم، فكانوا فى سعة فى كل شىء، وقوله هذا: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فيه استعارة تمثيلية لمعنى تسهيل كل شىء حتى يكونوا فى بحبوحة وسعادة مادية وعدم خوف، واطمئنان إلى المستقبل، أو نقول إن النص القرآنى كناية عن هذا المعنى؛ لأن من يفتح له باب كل شىء، يكون لا محالة فى سعة مادية واطمئنان مادى.

وهذا المعنى فيه اختبار للنفس غير المؤمنة بالنعمة بعد أن اختبرها بالنقمة. كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩٥)﴾ [الأعراف]، وإن هذا الذى ذكره النص القرآنى بالنعمة بعد النقمة هو اختبار شديد؛ ولذا روى عقبة بن عامر أن النبى ﷺ قال: « **إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج**. ثم تلا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾».

وروى عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أراد الله تعالى بقوم بقاء أو نماء رزقهم فتح باب القصد والعفاف، وإذا أراد بقوم اقتطاعا فتح باب الخيانة**».

وإن هذا الفتح والرزق الواسع إلى حين ليـذوقوا النعمة ثم الحـرمان منها فجأة؛ ولذا قال سبحـانه:

﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾.

إنهم إذ يكونون فى فرح مما أعطاهم الله تعالى أخذهم الله تعالى بالحرمان أو أصابهم بالموت المفـاجئ أو الخراب الجائح فى وقت لم يتوقـعوه، بل كانوا يتوقعون المزيد من النعم ويحسبون أنها حق مكتسب لا يمحى ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾، أى فى غم وكمد وحزن ويأس وحيرة بعد الفرحة.

وهنا تعبيران جليلان جديران بالالتفاف.

أولهما - أنه عبر عن إعطاء الله النعمـة بما أوتوا - أى بالبناء للمجهول؛ لأنهم يحسبون أن ذلك بعلمهم وقدرتهم وحدهم. كما جاء على لسان واحد من أمثالهم وهو قارون ﴿... إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨)﴾ [القصص].

الثانى- أن الله أضاف الأخذ إلى ذاته العلية إذ قال: ﴿أَخَذْنَاهُم﴾ لأنهم لا ينكرون ذلك وينسبونه إلى ربهم.

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

الفاء هنا للتفريع على ما قبلها، و﴿دَابِرُ الْقَوْمِ﴾ أى آخر. والدابر هو الآخر وإذا قطع الدابر، فإن معنى ذلك أن القطع سرى من الأول حتى وصل إلى الدابر، وإطلاق الدابر بمعنى الآخر جاء فى كلام العرب، ومن ذلك قول بعضهم: «إن من الناس من لا يأتى الصلاة إلا دابرا» أى آخـر الوقت والدابر تجىء بمعنى الأصل. والمؤدى واحد فى النص الكريم، أى قطع الذين ظلموا عن آخرهم، وذلك بسبب

ظلمهم، وظلمهم كان لأنهم أشركوا بالله تعالى: ﴿... إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان]، ومن كان يشرك برب العباد لابد أن يظلم العباد، فمن الذى يتقوه من بعده. وظلموا أنفسهم؛ لأنه سبقت العظات والمعاملات ولم يعتبروا فاستحقوا ما نزل بهم.

وقد ختم الله تعالى النص بقوله: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعلمنا الحمد لله عند زوال الظالمين، فهلاك الظلمة والطغاة نعمة تستوجب الحمد والثناء، ويقول فى ذلك الزمخشرى: «﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إيذان بوجوب الحمد عند هلاك الظلمة، وأنه من أجلِّ النعم وأجزل القيم».

ونظير هذا النص الكريم قوله تعالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ... ﴿٥٩﴾﴾ [النمل]، ووصفه سبحانه بـ ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ إيذان بأن القضاء على الذين ظلموا بعد أن اختبروا بالبأساء والضراء، ثم بالسراء والنعماء هو من تقدير الربوبية، وتدبيره سبحانه رب العالمين.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم
مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ
ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ
بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا
نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ
فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا
يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾

فى الآيات السابقة بين الله تعالى ما عامل به الأمم السابقة بعد أن جاءتهم رسلهم بالبينات، فاختبرهم سبحانه وتعالى بالبأساء تنزل بهم، والضراء تمس أحياءهم، رجاء أن يعرفوا ضعفهم بجوار قدرة ربهم، وأن تربى الشدائد نفوسهم، فمن لم يتجه إلى الله، ويكفر بعد كشف الضراء عنهم، ويقسو قلبه وينسى ما ذكر به من شدائد، يختبره بالنعمة، يفرحون بها، ويذوقون حلاوتها، ثم ينزل بهم الحرمان ويأخذهم بغتة بالشدائد ويكون ذلك أقسى من الأول إذ يتحيرون ويقطع دابرهم، وفى هذه يبين لهم سبحانه نعمة الله عليهم فى الخلق والتكوين، ويذكرهم باتجاههم إليه إن أخذ سمعهم وأبصارهم وختم على قلوبهم أفلا يدركون، فقال تعالى:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾.

فى الآيات السابقة - كما قلنا - كان ذكر ما ينزل حولهم ثم يصيبهم، فالدمار ينزل حولهم ثم يصيبهم، وهنا ذكر ما ينزل بحواسهم وكيانهم قائم لم ينقص، ففى هذا النص بيان قدرة الله تعالى فى أنفسهم وفى أجزائهم وحواسهم، وامتلاكه لهذه المداخل التى تكون إدراكهم وهى السمع والبصر والفؤاد؛ كما قال تعالى فى آية أخرى: **﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١)﴾** [يونس] ومعنى أخذ الله سمعهم وأبصارهم والختم على أفئدتهم، أن يصبحوا لا يسمعون حقيقة ولا يبصرون حقيقة، ولا يفقهون فيسلبهم سبحانه الفهم والإدراك، وواضح أن أخذ السمع والبصر يكون بعدم السماع والإبصار؛ لأن هاتين الحاستين تسمعان وتريان، وأخذهما فَقْدُ عملهما- ولكن الأفئدة شيء يخفى لا يؤخذ بل هو باق، ولكن يغشى عليه، فليس الجنون ذهاب العقل، وإنما الجنون ستر العقل فلا يدرك الأمور على وجهها، ولذلك عبر عن فقد الإدراك بالجِنة؛ لأن العقل يُستر ولا يذهب كما يذهب السمع والبصر؛

ولذلك قال سبحانه: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ أى وضع غشاوة على قلوبهم، فتصبح كالشىء المختوم لا ينفذ إليه شىء من الإدراك، وذلك بلا ريب هو أعلى دقة فى التعبير تليق بمقام القرآن الكريم فى البيان الذى لا يصل إليه أحد من البشر، والتعبير بقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ الاستفهام فيه للتنبيه، كأنه سبحانه وتعالت كلماته يقول أرأيتم. أى إن لم تكونوا قد رأيتم ذلك فَرُوه وعوه، وأدركوا ما وراء ما يدل عليه.

وقوله تعالى: ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ الاستفهام فيه لإنكار الوقوع الثابت بالدليل الذى لا مجال لإنكاره، والضمير فى (به) يعود إلى المأخوذ، وهو السمع والبصر والفؤاد، وقام الأخذ والختم مقامه من قبيل قيام السبب مقام المسبب، و(يأتيكم) معناه برده عليكم، وعبر سبحانه بـ (يأتى) للإشارة إلى أنه يكون كالجديد، والنص يشير إلى أنهم وحواسهم فى يد الله سبحانه وتعالى، ويشير إلى أمر آخر، وهو أنه تعالى قادر على إعادة السمع والبصر والإدراك، وهى أجزاء جسمكم المدركة المصرفة، أفلا يكون قادرا على إعادتكم فى البعث كما بدأكم أول مرة، إنكم ترون من يذهب سمعه كأن فى أذنيه وقرا ثم يسمع، ومن يذهب بصره ثم يبصر بعمل الله، ومن يصاب بجنة ثم يفيق، وكل ذلك من الله تعالى، إن ذلك محسوس، فلماذا لا يقيسون عليها عودة الأجسام بعد بلاها كما بدأكم تعودون.

﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ الخطاب للنبى ﷺ لبيان حال المشركين، وأنهم لا تؤثر الحجة فيهم مهما تكن واضحة نيرة ملزمة، والتصريف: التغيير، وهو يكون فى ذات الآيات يتعددها من آية كونية إلى آية قرآنية، فالتعدد صورها، فتعدد فى صور الآيات الكونية من عواصف عاتية إلى مطر صاخب إلى خسف للديار، ومن آيات قرآنية زاجرة ضاربة للأمثال مبينة للمثلات، إلى تذكير بقدرة الله تعالى فيما تحيط بهم، وتذكير بأنفسهم، ومع هذا التصريف المتتابع، والآيات الواضحة المنوعة تجدهم صادفين؛ ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ أى

يعرضون، ولا يجيبون من الصدوف بمعنى الإعراض، وأصل الصدوف الميل عن الجانب؛ لأن أصله الصّدَف بمعنى الجانب، فمن يصدف يميل عن هذا الجانب أو يجعله حاجزًا دون الإيمان، وقد عبر فى العطف بـ «ثم» للدلالة على التراخى المعنوى بين الآيات وتتابعها والإعراض، وقد أكد سبحانه وتعالى الإعراض منهم بضمير الفصل؛ لأن وقوعه غريب فى ذاته بعد تلك الآيات البينات.

﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾.

الخطاب للنبى ﷺ فى قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾، وللنبى ﷺ وللمشركين فى قوله: ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ وقد ذكرنا تخريج هذا اللفظ على ما يقوله النحويون واللغويون فى البحث السابق، فارجع إليه، ﴿بَغْتَةً﴾ أى مفاجأة، و﴿جَهْرَةً﴾ أى جهارا، وقد ذكرت الجهرة فى مقابل البغتة؛ لأن البغتة بمقتضى المعتادة تكون فى خفية ولا إعلان فيها من قبل، أو على الأقل تجىء من غير ترقب ولا انتظار، فهى خافية على من نزلت عليهم؛ ولذلك قابلتها جهرة، ولقد فسر الزمخشرى احتمال بغتة أن تكون بمعنى ليلا، وجهرة بمعنى نهارا، وهو معنى مقارب؛ لأن المفاجأة تكون بالليل، والعلنية تكون بالنهار عادة.

وعذاب الله تعالى يجىء من غير ترقب. كحال الذين قالوا ﴿عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ فقال سبحانه: ﴿... بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤)﴾ [الأحقاف].

وقوله تعالى: ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ الاستفهام هنا إنكارى لإنكار الوقوع، أى لا يهلك إلا القوم الذين تجمعوا على الظلم، وتحزبوا وتضافروا عليه، وتعاونوا على إثمه. وهنا مباحث لفظية موضحة:

أولها- لماذا كان النفى بالاستفهام؟ الجواب عن ذلك للتنبيه، كأنه كان سؤال وكانت إجابة، وذلك تأكيد للنفى فضل تأكيد.

ثانيها- أن سبب الهلاك هو الظلم، فقد ظلموا بسبب الشرك، وظلموا بعدم الطاعة، وظلموا أنفسهم بضلالها، والظلم وخيم العاقبة.

ثالثها- أن الكلام فيه حصر الهلاك فى الظالمين مع أن الفتنة تعم ولا تخص، كما قال تعالى: ﴿ **وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ ...** (٢٥) ﴾ [الأنفال]. ونقول فى الجواب عن ذلك: إن الله لا يهلك الظالمين إلا إذا ساد الظلم، فبعضهم وقع منهم الظلم فعلا، والآخرون سكتوا عنه فكانوا ظالمين بسكوتهم، وقد قال تعالى فى شأن بنى إسرائيل: ﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** (٧٩) ﴾ [المائدة] ولقد ورد فى الأثر: إن الله لا يعذب العامة بظلم الخاصة، إلا إذا رأوا المنكر وسكتوا عنه. أو كما قال رسول الله ﷺ(١).

﴿ **وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾.

التبشير هو الإخبار بالبشرى، وهى الخبر السار، والإنذار هو الإخبار بالسوء فى المستقبل تحذيرا وإعذارا، فالتبشير وعد بما يلقى فى النفس السرور والاطمئنان، والإنذار وعيد بالعذاب، والجزاء المماثل للإثم، وقصر الله تعالى المرسلين على الإنذار والتبشير؛ لأنه ليس عليهم أن يحملوا الناس على الهداية إن لم يهتدوا، ولا يتحملوا وزر العصاة إن عصوا أمر ربهم، إنما الثواب لمن أطاع، والعذاب لمن عصاه، وذكر سبحانه وتعالى ذلك بالنص؛ لأن النبى ﷺ كادت نفسه تذهب عليهم حسرات حتى يؤمنوا، وقال تعالى له: ﴿ **لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** (٣) ﴾ [الشعراء] فالله سبحانه بين له أنه لا يهدى من أحب، وأنه ليس عليه هدايتهم وأن رسالته غايتها الإنذار والتبشير كسائر المرسلين، وأنه بعد تبليغ الرسالة يكون الخير لهم، والتبعة عليهم.

---

(١) عن عدي، قال رَسُولَ اللَّه ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لا يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِعَمَلِ الْخَاصَّةِ حَتَّى يَرَوْا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوهُ فَلا يُنْكِرُوهُ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَذَّبَ اللَّهُ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ». رواه أحمد: مسند الشاميين - حديث عدى بن عميرة الكندى رضى الله عنه (١٧٢٦٧).

﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أى فمن أذعن للحق، وآمن بما جئت به، وجعل هواه تبعا لما تدعو إليه فله الجزاء الأوفى، ودعم الإذعان الحق بالعمل الصالح، فالإيمان من غير عمل أجوف أجرد لا ينتج بذاته، ومن آمن وعمل صالحاً فإنه لا يحزن على ما فاته فى الماضى، بل يطمئن بذكر الله، ولا يخاف من المستقبل لأنه يرجو ما عند الله تعالى.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

أولئك هم المقابلون للذين أذعنوا للحق وعملوا عملا صالحًا، وهؤلاء كذبوا بآيات الله، ويراد بالتكذيب للآيات الإعراض عن الأدلة القاطعة المثبتة لوحدانية الله تعالى من كونيات ظاهرة، ومعجزات قاهرة، وآيات قرآنية بينة واضحة باهرة، فلم يكن تكذيبهم للنبى ﷺ فقط، بل كان تكذيبهم للأدلة الواضحة التى تشبه الحس المرئى والبارز المحسوس، وهذه الآيات هى التى ساقها الله لهم، وهو خالق الكون ومدبره، وقال فى عقوبتهم: ﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أى يصيبهم العذاب بسبب فسقهم، أى خروجهم عن الحق، وإنكارهم لما يوجب العقل الإيمان به، وأردفوا كذلك بفعل الموبقات، فإذا كان المؤمنون قد أذعنوا للحق، وزكوه بالعمل الصالح، فأولئك أنكروا الحق، ودعموا الإنكار بارتكاب الموبقات والزور من الأعمال، وعبر سبحانه عن إصابة العذاب وإدخالهم جهنم بـ «يمسهم»؛ لأن موضع الإحساس بالألم هو الجلد، فمسه بالعذاب هو الإيلام الشديد، اللهم قنا عذاب النار...

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ

أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟
إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ
﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ
وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ
عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾
وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ
عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾

فى الآيات السابقة كان بيان الله سبحانه وتعالى للآيات الكبرى تتابع عليهم آية بعد آية، وهم معرضون، والله تعالى يذكرهم بسلطانه فى الأرض وفى السماء وفى أنفسهم، وبين أن من يشركونهم مع الله لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، ولا يدفعون عنهم شيئًا لو أخذ الله تعالى سمعهم وأبصارهم وختم على قلوبهم، ولا يملكون أن يدفعوا العذاب إذا أتاهم بغتة أو جهرة، ولم يبين علاقتهم بالمؤمنين وكلامهم فى النبى ﷺ وحوارييه، وفى هذه الآيات يتكلم فى ذلك، فيقول الله تعالى:

﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾.

كان المشركون يستكثرون أن يكون محمدا نبيًّا مرسلا، ولم يكن من الأغنياء العظماء فى أموالهم، بل كان يتيما فقيراً، فقد قالوا: ﴿ ... لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف] وحسبوا أن النبى يجب أن يكون

محدِّثا عن الغيب، وقد ذكر النبى ﷺ أنه لا يعلم الغيب، وأمره الله تعالى أن يقول: ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨) ﴾ [الأعراف]. وقد كانوا يقولون إنهم يريدون ملكًا رسولا. وقد أخبر تعالى عنهم: ﴿ ... مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ ... (٧) ﴾ [الفرقان].

وقد تولى الله سبحانه وتعالى ردهم فى هذه الآيات، وأمره بأن يقول لهم: ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أمره الله تعالى بأن يحدد مضمون الرسالة، ولا يتوهموا أن الرسالة تقتضى أن يكون الرسول مالكًا للأموال والخزائن، ولا أن يكون عليما بالغيب، وأن الرسول لم يدع شيئًا من ذلك، وإن الرسول ليست له خاصة إلا أنه يبشر وينذر، وأنه يوحى إليه من رب العالمين ، وأنه مع من يدعوهم يتبع ما يوحى إليه من ربه.

إن الرسالة الإلهية يضعها الله تعالى فى عباده المصطفين الأخيار من البشر، ﴿ ... اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ... (١٢٤) ﴾ [الأنعام] وإن محمدًا ﷺ ما تطاول بفضل مال ولا ثروة، ولا غنى، ولكنه كان فقيراً بين الفقراء قريبا منهم متدانيا إليهم يخفق قلبه معهم، ويحس بآلامهم، وكان من البشر، ليخاطب البشر، ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾ [الأنعام]. وإن التفرقة ليست بالغنى والفقر، وإنما التفرقة بالهداية والضلال، والعلم والجهل؛ ولذا قال سبحانه فى التفرقة بين من استبصر وأدرك ولو فقيراً، وبين من ضل وغوى، ولو كان غنيا.

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ ﴾.

أمر الله تعالى نبيه بأن ينبههم إلى أنه لا يستوى العالم والجاهل والمهدى والضال، والرشيد والسفيه، وكان أمر الله تعالى بذلك لنبيه، وتكرار الأمر بأن يقول لهم ما يقول؛ لفضل التنبيه، ولتقوية الإيمان بأنه يتكلم عن ربه، ولأنه الذى يتولى محاجاتهم، والاستفهام هنا لنفى الوقوع مع التنبيه إلى هذا، والمراد من

الأعمى غير المدرك للحقيقة وغير المهتدى، ومن طمس الله تعالى على بصيرته فأصبح الحق لا يصل إليه، والمبصر من أدرك كل هذا، ففى الكلام تشبيه الضلال بالعمى، وإدراك الحق والإذعان له والاهتداء بالبصر؛ لأنه يعيش فى نور البصيرة، والأول يعيش فى ظلام الجهل والضلال.

وقدم العمى فى الذكر على البصر؛ لأن المشركين يدعون أنهم مع ضلالهم وجهلهم، وبعدهم أعلى من أتباع النبى ﷺ من المؤمنين، وذلك لكثرة أموالهم، وقلة أموال المؤمنين، فبين سبحانه أنهم لا يمكن أن يساووهم فضلا أن يعلوا عليهم؛ لأن الأعمى ولو غنيا، لا يساوى المبصر ولو فقيرا، وكان عليهم بدل أن يفضلوا أنفسهم على المؤمنين لفقرهم أن يتفكروا ويتدبروا فى أسباب الفقر والغنى، وأسباب الفضل وأسباب العلو، وأن يتعرفوا الهدى والضلال، وأن يتدبروا فى حاضر أمرهم وقابله، وأن يعتبروا بالعظات والأمثال التى تساق إليهم، وأن يكشفوا عن أنفسهم غمة الاغترار والإعراض عن الحق، وألا يكونوا فى غيهم يعمهون؛ ولذا قال تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ الفاء هنا موضعها قبل الاستفهام، ولكن الاستفهام له الصدارة فقدم عليها عن تأخير فى نسق الكلام، والمعنى أنه كان يترتب على عدم المساواة بين الأعمى البصير أن يتدبروا ويتفكروا، والاستفهام للتحريض على التفكير.

﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

الكلام السابق فى المشركين، وإعراضهم عن الآيات وختم الله تعالى على قلوبهم مع توالى الآيات والنذر عليهم وإعراضهم، وقد يتوهم متوهم أن الإنذار لا جدوى منه، ولكن ليس الناس جميعا كذلك، بل فيهم من تؤثر فيه الموعظة ويجدى فيه الإنذار، والحق أن الناس قسمان: قسم تعتريه الرهبة من الغيب، ويخاف الحشر إن ذكر به، فلم يكن فيه اغترار يقسو به قلبه، ويصرفه عن المنذرات والاستماع إلى داعى الحق، وصنف غلبت عليه شقوته لا تجدى فيه موعظة، ولا

يرهب الغيب وما فيه؛ لأنه يَعْمَه في غيه، وهم في غفلتهم ساهون، وهؤلاء لا يجدى فيهم النذير، وهم الذين ختم الله على قلوبهم، وعلى سمعهم وأبصارهم غشاوة، وقد ذكر الزمخشرى أن الذين يخافون أن يحشروا منهم المسلمون الذين يؤمنون بالبعث والنشور، ولكن تتقاصر أعمالهم، فيجديهم النذير، ومنهم أهل الكتاب الذين لم يفسدهم الغرور، ومنهم بعض المشركين الذين لم يطمس على قلوبهم، بل لا يزال فى قلوبهم نافذة ينفذ منها الندم، فإن علموا بالحشر خافوه فآمنوا، ومن المشركين من يؤمنون بالحشر، ولكن يظنون أن الشركاء الذين يبتدعونهم يشفعون لهم، فإذا أعلموا الحق فيه اتبعوه، وما ذكرناه فى تقسيمنا يعم هذه الأنواع وغيرها.

والضمير فى به يعود إلى ما أوحى إلى النبى ﷺ وهو القرآن الكريم، وقد ذكرنا ضروب الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم، ويلاحظ بعض أمور:

أولها- أن الإنذار للجميع فلا يختص الذين يخافون دون غيرهم، ولكن الذين ينتفعون به هم الذين يخافون الحشر، وما وراءه من حساب وعقاب.

ثانيها- أن العنصر المميز بين أهل الخير وغيرهم هو الخوف والخشية من الله فأولئك يكون فيهم رأفة، ومع الرأفة يتفتح القلب للهداية، ويدخله النور، ومع الغلظة يكون الظلام، وكأن الغلظة حجارة قوية تجعل ما وراءها فى ظلام دامس.

ثالثها- أن الغرور باعتقاد شفيع يشفع أو ولى يناصر من دون الله تعالى يسدُّ مسالك النور والهداية، فلا بد أن يكون كل الإحساس لله سبحانه وتعالى.

رابعها- أن الإنذار فى هذه الحال يجعل للتقوى مكانا، فيكون الرجاء فيها، وهو من العبد لا من الرب، ولذا قال: ﴿**لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾.

﴿**وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**﴾.

جاء النهى من الله تعالى بألا يطرد أهل التقى ولو كانوا عبيداً أو فقراء، فإن هؤلاء يقوم بهم عمود الدين، وإذا كانت الضلالة لا تساوى الهداية، والعمى لا

يستوى مع البصر، فإنه لا يصح أنه يطرد الفقراء لرجاء إجابة الأغنياء، ولا يطرد الضعفاء لرجاء إجابة الأقوياء، يروى عن ابن مسعود أنه مر الملأ من قريش بالنبى ﷺ، وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد رضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء الذين مَنَّ الله عليهم من بيننا؟ أنحن نكون تبعًا لهؤلاء؟ فلعلك إن طردتهم أن نتبعك.

وروى عن خباب بن الأرت فى قوله تعالى: ﴿**وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ**﴾ إلى قوله: ﴿**فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ قال: جاء الأقرع بن حابس التميمى، وعيينة بن حصن الفزارى فوجدوا النبى ﷺ قاعدًا مع بلال وصهيب وعمار وخباب فى أناس من الضعفاء من المؤمنين؛ فلما رأوهم حوله أتوه، فقالوا: إنا نحب أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف لنا العرب به فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك، فنستحى أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعْبُد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت، فنزل قوله تعالى: ﴿**وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم**﴾.

هذا ما قيل فى سبب نزول هذه الآية، والنص يومىء إلى هذا المعنى، فقد قال تعالى، كما سنتلوا: ﴿**وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا**﴾.

نهى الله النبى عن أن يطرد هؤلاء الضعفاء، وإن كان النبى ﷺ يميل إلى تأليف قلوب الأقوياء للدخول فى الإسلام لينال بقوتهم قوة، ولكن الله تعالى بين أن القوة فى الإيمان، لا فى غطرسة المتغطرسين وإن أولئك وإن كانوا ضعفاء فقراء فإنهم أقوياء بعزة الإيمان وبعزة الحق ولا تفرقة بين أتباع الأنبياء بالطبقية، إنما التفرقة بقوة الإيمان والتقوى كما قال تعالى: ﴿ ... **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ... (١٣)﴾ [الحجرات]. وإن الرفعة بين أتباع الأنبياء بالإيمان والعبادة.

وقد ذكر الذين نهى النبى ﷺ عن طردهم بأنهم يدعون ربهم بالغداة والعشى، ومعنى يدعون يعبدون مخلصين؛ لأن العبادة دعاء، والدعاء: التضرع الخالص، وهو مخ العبادة، وهو لبها، ولذلك عبر عن العبادة بالدعاء- وبالغداة

والعشى: المراد فى الصباح والمساء، أى أنهم فى عامة أوقاتهم ذكروا الله تعالى ربهم الذى خلقهم وكلأهم وحماهم، يريدون وجه الله، لا يقصدون عرضا من أعراض الدنيا، وينصرفون إليه تعالى لا يريدون إلا ذاته الكريمة ولا يقصدون سواه، فكيف يطرد هؤلاء لأجل ناس لا يعرفون إلا عرض الدنيا وإن الله تعالى قد أمر النبى ﷺ بأن يكون مع هؤلاء، فإنهم قوة، والإيمان يملأ النفس قوة؛ لأنها قوة الصبر؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨)﴾ [الكهف].

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

جاء هذا النص الكريم بعد قوله تعالت كلماته: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أى يقصدون بعبادتهم ذاته العلية ولا يقصدون شيئًا سواها، مهما يكن، وإن الله تعالى يتولى حسابهم بالجزاء، وما يعود عليك من حسابهم شىء ولا يعود عليهم من حسابك شىء فهم عباد مجزيون بأعمالهم، كما أنك يا محمد مجزى بعملك، فليس لك أن تطردهم، وهذا التعبير ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ يشبه ما نقل عن نوح -عليه السلام- فى قول الله تعالى: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣)﴾ [الشعراء].

ويؤدى التعبير على هذا أن هؤلاء آمنوا بربهم وحسابهم عند ربهم، وما علىَّ من حسابهم من شىء، كما لا يحاسبون على عملى، فكل له عمله، فكيف أطردهم؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أى فإن طردتهم استجابة لغيرهم وأنت لا تتحمل مغبة أعمالهم، ولا ما هم فيه كنت من الظالمين؛ إذ لا وزر كان منهم يستوجب الطرد إلا مسارعتهم للإيمان بما جئت وتلكؤ غيرهم، إن ذلك لظلم عظيم إن كان، ولا يمكن أن يكون من محمد ﷺ.

وهناك تخريج آخر، لقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ بأن المعنى ما عليك شيء من حساب رزقهم إن كانوا فقراء وما من حسابك فى الفقر والغنى عليهم من شيء، أى إنك أنت هاد ومرشد، داع إلى من يقرب منك ومن يجيب، وسواء أكان فقيرًا أم كان غنيا، فكيف ترد فقيرًا مهديا لفقره وتقرب غنيا غير مهدى لغناه فإن تطردهم من بعد فإنك تكون من الظالمين، ومعاذ الله أن يكون ذلك منك.

إن الضعفاء أول من يتبع الأنبياء؛ لأنهم غير مشغولين بالمال والبنين وزخارف الحياة، وضجاتها، ولجاجة القوة وخصوصًا ما يكون منها على غير أساس من الأخلاق، فنفوسهم تكون أقرب إلى الفطرة والاستقامة؛ ولذلك كان غالب الذين اتبعوا النبى ﷺ من الضعفاء والعبيد، وكل الذين يحسون بآلام الحياة الدنيا، ورجاء حياة أخرى، ولقد سأل هرقل ملك الرومان أبا سفيان ابن حرب الذى كان قائد الشرك إبان ذاك عمن يتبع النبى ﷺ أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقال: بل ضعفاؤهم، فقال هرقل: فكذلك أتباع الرسل(١).

وإن هذا بلا ريب اختبار لنفوس الأقوياء فقوله: (فتنا) معناها اختبرنا، وكان فتنة لهم من ناحيتين: الناحية الأولى أن جاههم مع كبريائهم سيكون حاجزًا لا يسهل دخول الإيمان فى قلوبهم. الثانية سيجدون أن الذين يسبقونهم إلى الإسلام هم الضعفاء، فيكون ذلك صعوبة نفسية أخرى لا تسهل دخول الحق إلى قلوبهم، ويقول قائلهم الضال: ﴿... لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ... (١١)﴾ [الأحقاف] ومن يجتاز هاتين الصعوبتين من الأقوياء يكون إيمانه أرسخ من الجبال كأبى بكر الصديق، وعثمان بن عفان، وحمزة بن عبد المطلب، وعمر بن الخطاب،

---

(١) راجع هذا الحديث، فى صحيح البخارى: بدء الوحى - باب بدء الوحى (٧)، ومسلم: الجهاد والسير - كتاب النبى ﷺ إلى هرقل ملك الروم (١٧٧٣) فيما رواه عبد الله بن عباس رضى الله عنهما عن أبى سفيان رضى الله عنه. وهو حديث طويل.

وعبدالرحمن بن عوف، وغيرهم من الأقـوياء ذوى الوجاهة فى الجاهلية والوجهاء عند الله والناس فى الإسلام.

والكاف فى قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا﴾ للتشبيه، وقد شبهت الصورة الكلية لاختبار الله تعالى لخلقه، أو على الحقيقة مـعاملته معاملة المختبر لهم شبهت تلك الصورة بهذه الحـالة القائمة، التى آمن فيها الضـعفاء وسبقوا بهـا الأقوياء، وصار لهم فضل السبق، والتشبيه للتـقريب والتوضيح، واللام فى قوله تعالى: ﴿لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا﴾ للعاقبـة أى: وما كانت هى الباعث على الاخـتبار، ولكن كانت عاقبة ونتيجة الاختبار.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾.

يثبت الله سبحانه وتعالى هذا النص بثلاثة أمور:

أولها- أن الفـضل ليس بالغنى، ولا بالجـاه ولا بالقوة فى الدنيـا، ولكن بمقدار شكـر الله تعالى على مـا أنعم، والإنسان فى الوجـود محفـوف بنعم الله تعالى تحـوط به من يوم خروجه إلى الحـياة إلى وقت مـفارقتهـــا، وواجب عليه الشكر لها فشكر الـنعم واجب بمقتضى العقل والنقل، وبمقدار شـكر النعمة يكون الفضل.

ثانيـها- أن أولئك الذين يسـارعـون إلى الإيمان بوحـدانيـة الديـان، هم أصحـاب الفضل؛ لأنهم هم الذين يسـارعون إلى الشكر، ودعوة الله وعـبادته، والإذعان له.

ثالثـها- أن الله هو وحـده العالـم بمن يستـحق الفـضل وبمن يشكره وهو المستـحق للفضل منه، وأفـعل التفضـيل على غيـر بابه، والمراد أنه سبحـانه يعلم الشاكرين علماً ليس فوقه علم، فهو وحده العليم، السميع البصير.

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَـٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾.

السلام والسلامة بمعنى واحد. ومعنى «سلام عليكم» سلمكم الله فى دينكم وأنفسكم؛ نزلت فى الذين نهى الله نبيه ﷺ عن طردهم؛ فكان إذا رآهم بدأهم بالسلام وقال: «الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرتى أن أبدأهم بالسلام» فعلى هذا كان السلام من جهة النبى ﷺ. وقيل: إنه كان من جهة الله تعالى، أى أبلغهم منا السلام؛ وعلى الوجهين ففيه دليل على فضلهم ومكانتهم عند الله تعالى. وفى صحيح مسلم عن عائذ بن عمرو أن أبا سفيان أتى على سلمان وصُهَيْبٍ وبلال ونفر فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها؛ قال: فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟! فأتى النبى

ﷺ فأخبره فقال: «يا أبا بكر لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك» فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه أغضبتكم؟ قالوا: لا؛ يغفر الله لك يا أخي[(١)]؛ فهذا دليل على رفعة منازلهم وحرمتهم كما بيناه في معنى الآية. ويستفاد من هذا احترام الصالحين واجتناب ما يغضبهم أو يؤذيهم؛ فإن في ذلك غضب الله، أي حللو عقابه بمن آذى أحدا من أوليائه. وقال ابن عباس: نزلت الآية في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي - رضي الله عنهم - وقال الفُضَيل بن عيَاض: جاء قوم من المسلمين إلى النبي ﷺ فقالوا: إنا قد أصبنا من الذنوب فاستغفر لنا فأعرض عنهم؛ فنزلت الآية. وروى عن أنس بن مالك مثله سواء.

قوله تعالى: **﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾** أي أوجب ذلك بخبره الصدق، ووعده الحق، فخوطب العباد على ما يعرفونه من أنه من كتب شيئا فقد أوجبه على نفسه. وقيل: كتب ذلك في اللوح المحفوظ **﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾** أي خطيئة من غير قصد. قال مجاهد: لا يعلم حلالا من حرام ومن جهالته ركب الأمر، فكل من عمل خطيئة فهو بها جاهل. وقيل: من آثر العاجل على الآخرة فهو الجاهل. **﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** قرأ بفتح «أنَّ» من «فأنَّه» ابن عامر وعاصم، وكذلك **﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ﴾**. وقرأ الباقون بالكسر فيهما[(٢)]؛ فمن كسر فعلى الاستئناف، والجملة مفسرة للترجمة؛ و«إنَّ» إذا دخلت على الجمل كُسِرت وحكم ما بعد الفاء الابتداء والاستئناف فكُسِرت لذلك. ومن فتحهما فالأولى في موضع نصب على البدل من الرحمة، بدل الشيء من الشيء وهو هو فأعمل فيها «كتب» كأنه قال: كتب ربكم على نفسه أنه من عمل؛ وأما «فأنه غفور» بالفتح ففيه وجهان؛ **أحدهما**- أن يكون في موضع رفع بالابتداء والخبر مضمر، كأنه قال: فله أنه غفور رحيم؛ لأن ما بعد الفاء مبتدأ، أي فله غفران الله. **الوجه الثاني** -

---

(١) رواه مسلم: فضائل الصحابة - من فضائل سلمان وصهيب وبلال رضي الله عنهم (٢٥٠٤)، وأحمد: أول مسند البصريين - حديث عائذ بن عمرو رضي الله عنه (٢٠١١٧).

(٢) ﴿أنه.. فأنه﴾ بفتحهما (أي بفتح الهمزة في الموضعين): ابن عامر، وعامر ويعقوب. ووافقهم نافع وأبو جعفر في الأول، وقرأ الباقون بالكسر فيهما.

أن يضمر مبتدأ تكون «أنَّ» وما عملت فيه خبره؛ تقديره: فأمره غفران الله له، وهذا اختيار سيبويه، ولم يُجِز الأول، وأجازه أبو حاتم. وقيل: إنَّ «كتب» عمل فيها؛ أى كتب ربكم أنه غفور رحيم. وروى عن على بن صالح وابن هرمز كسر الأولى على الاستئناف، وفتح الثانية على أن تكون مبتدأة أو خبر مبتدأ أو معمولة لـ «كتب» على ما تقدّم. ومن فتح الأولى - وهو نافع - جعلها بدلا من الرحمة، واستأنف الثانية لأنها بعد الفاء، وهى قراءة بيِّنة.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ التفصيل التبيين الذى تظهر به المعانى؛ والمعنى: وكما فصّلنا لك فى هذه السورة دلائلنا ومحاجتنا مع المشركين كذلك نُفصّل لكم الآيات فى كل ما تحتاجون إليه من أمر الدين، ونبين لكم أدلتنا وحججنا فى كل حق ينكره أهل الباطل.

وقال القُتَبى: ﴿نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ نأتى بها شيئا بعد شىء، ولا ننزلها جملة متصلة، ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ يقال: هذه اللام تتعلق بالفعل؛ فأين الفعل الذى تتعلق به؟ فقال الكوفيون: هو مقدّر؛ أى وكذلك نفصل الآيات لنبين لكم ولتستبين؛ قال النحاس: وهذا الحذف كله لا يحتاج إليه، والتقدير: وكذلك نفصل الآيات فصلناها. وقيل: إن دخول الواو للعطف على المعنى؛ أى ليظهر الحق وليستبين، قرئ بالياء والتاء[(١)]. «سبيل» برفع اللام ونصبها، وقراءة التاء خطاب للنبى ﷺ، أى ولتستبين يا محمد سبيل المجرمين. فإن قيل: فقد كان النبى ﷺ يستبينها؟ فالجواب عند الزجاج - أن الخطاب للنبى ﷺ خطاب لأمته؛ فالمعنى: ولتستبينوا سبيل المجرمين. فإن قيل: فلم لم يذكر سبيل المؤمنين؟ ففى هذا جوابان؛ أحدهما - أن يكون مثل قوله: ﴿... سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ... (٨١)﴾ [النحل] المعنى؛ وتقيكم البرد ثم حُذِف؛ وكذلك يكون هذا المعنى ولتستبين سبيل المؤمنين ثم حذف. والجواب الآخر- أن يقال: استبان الشىء واستبنته؛ وإذا بان

(١) (وليستبين) بالياء: عاصم (غير حفص)، وحمزة والكسائى وخلف، وقرأ الباقون بالتاء.

سبيل المجرمين فقد بان سبيل المؤمنين. والسبيل يذكر ويؤنث؛ فتميم تذكره، وأهل الحجاز تؤنثه؛ وفي التنزيل ﴿... وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ ... (١٤٦)﴾ [الأعراف] مذكر ﴿... لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ... (٩٩)﴾ [آل عمران] مؤنث؛ وكذلك قرئ ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ بالياء والتاء؛ فالتاء خطاب للنبي ﷺ والمراد أمته.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾.

قيل: «تدعون» بمعنى تعبدون. وقيل: تدعونهم في مهمات أموركم على جهة العبادة؛ أراد بذلك الأصنام. ﴿قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ فيما طلبتموه من عبادة هذه الأشياء، ومن طرد من أردتم طرده. ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ أي قد ضللت إن اتبعت أهواءهم ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ أي على طريق رشد وهدى.

وقرئ «ضَلَلْتُ» بفتح اللام وكسرها وهما لغتان. قال أبو عمر بن العلاء: ضَلِلتُ بكسر اللام لغة تميم، وهي قراءة يحيى بن وثاب وطلحة بن مصرف، والأولى هي الأصح والأفصح؛ لأنها لغة أهل الحجاز، وهي قراءة الجمهور. وقال الجوهري: والضلال والضلالة ضد الرشاد، وقد ضَلَلتُ أَضِلُّ، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ... (٥٠)﴾ [سبأ] فهذه لغة نجد، وهي الفصيحة، وأهل العالية يقولون: ضَلِلْتُ بالكسر أَضَلّ.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي دلالة ويقين وحجة وبرهان، لا على هوى؛ ومنه البينة لأنها تبين الحق وتظهره. ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ أي بالبينة لأنها في معنى البيان؛ كما قال: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ ... (٨)﴾ [النساء]. وقيل يعود على الرب، أي كذبتم بربي لأنه جرى ذكره. وقيل: بالعذاب. وقيل: بالقرآن. وفي معنى هذه الآية والتي قبلها ما أنشده مصعب بن عبد الله بن الزبير لنفسه، وكان شاعرا محسنا رضي الله عنه:

أأقعدُ بعــد ما رجفتْ عظامى وكان المــوتُ أقــربُ ما يَلِينى
أُجادلُ كــلَّ مُعتــرِضٍ خَصِيمٍ وأجعــل دِينَــه غَرَضًــا لدِينى
فأتركُ ما علمــتُ لـرأى غيرى وليس الرأىُ كالعــلم اليقــين
وما أنا والخصــومةُ وهْى شىءٌ يُصرَّفُ فى الشَّمال وفى اليَمِين
وقد سُنَّــت لنــا سُنَنٌ قِــوام يَلُحْنَ بكــلِّ فَجٍّ أو وَجِين(١)
وكــان الحقُّ ليــس به خفــاءٌ أغَرَّ كغُــرَّة القَــلَق المبــين
وما عـــوِضٌ لنا مِنهــاجُ جَهْمٍ بمنهــاج ابــنِ آمــنةَ الأمــين
فأمَّا ما علمــتُ فقــد كفَانى وأمَّا مــا جهــلتُ فجنِّبُــونى

قوله تعالى: ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أى العذاب؛ فإنهـم كانوا لفرط تكذيبهم يستعجلون نزوله استهزاء نحو قولهم: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ... (٩٢)﴾ [الإسراء]، ﴿... اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ ... (٣٢)﴾ [الأنفال]، وقيل: ما عندى من الآيات التى تقترحونها. ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ أى ما الحكم إلا لله فى تأخير العذاب وتعجيله. وقيل: الحكم الفاصل بين الحق والباطل لله. ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ أى يقص القصص الحق؛ وبه استدل من منع المجاز فى القرآن، وهى قراءة نافع وابن كثير وعاصم ومجاهد والأعرج وابن عباس؛ قال ابن عباس: قال الله عز وجل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ... (٣)﴾ [يوسف]. والباقون ﴿يقْضِى الحقَّ﴾ بالضاد المعجمة، وكذلك قرأ على - رضى الله عنه - وأبو عبد الرحمن السُّلَمى وسعيد بن المسيِّب، وهو مكتوب فى المصحف بغير ياء(٢)، ولا ينبغى الوقف عليه، وهو من القضاء؛ ودل على ذلك أن بعده ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ والفصل لا يكون إلا

(١) الوجين: شط الوادى.

(٢) قال الفخر الرازى «يقض» بغير ياء لأنها سقطت لالتقاء الساكنين، كما كتبوا ﴿سندع الزبانية﴾ ﴿فما تغن النذر﴾.

قضاء دون قَصَص، ويُقوِّى ذلك قوله قبله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ ويقوى ذلك أيضا قراءة ابن مسعود (إن الحكم إلا لله يقضى الحق) فدخول الباء يؤكد معنى القضاء. قال النحاس: هذا لا يلزم؛ لأن معنى «يقضى» يأتى ويصنع فالمعنى: يأتى الحق، ويجوز أن يكون المعنى: يقضى القضاء الحق. قال مكىّ: وقراءة الصاد أحب إلىّ؛ لاتفاق الحرميين وعاصم على ذلك، ولأنه لو كان من القضاء للزمت الباء فيه كما أتت فى قراءة ابن مسعود، قال النحاس: وهذا الاحتجاج لا يلزم؛ لأن مثل هذه الباء تحذف كثيرا.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أى من العذاب لأنزلته بكم حتى ينقضى الأمر إلى آخره. والاستعجال: تعجيل طلب الشىء قبل وقته ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ أى بالمشركين وبوقت عقوبتهم.

۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ

﴿رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَـٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾

فى الآيات السابقة ذكر الله تعالى آمرا نبيه أن الله على بينة ويقين من أمر ربه، وذكر أن المشركين يستعجلون ما ينذرهم الله تعالى، ويذكر الله تعالى ما نزل بغيرهم، والنبى يترك الأمر لحكم الله يفصل بينه وبينهم، والفصل الحق يقتضى علما واسعا، وتنفيذه يقتضى قهرا غالبا، وسيطرة كاملة، فذكر سبحانه اختصاصه بالعلم الكامل، والقدرة القاهرة، والسيطرة الكاملة؛ ولذا قال سبحانه:

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾.

المفاتح جمع مِفْتح، وهو المفتاح فيقال مفتح ومفتاح بمعنى واحد، وقيل من بعض النحويين: إن مفاتح جمع مفتاح، إذ يجوز نحويا حذف الياء، كما يقال فى محاريب جمع محراب، محارب بحذف الياء، وهناك قراءة، (وعنده مفاتيح الغيب) والمعنى واحد فى القراءتين، وقال بعض المفسرين: إن المراد خزائن الغيب أى الأسرار المكنونة فى علم الله تعالى.

والأكثرون على المفاتح هى جمع مفتاح، وهو ما يتوصل به إلى ما يكون بداخل الشىء، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ لا يتوصل إلى غيبه أحد إلا من ارتضى من رسول، فإنه يعطيه غيبا بما اختزنه فى علمه المكنون إن أراد وبمقدار يقدر حسب المصلحة والحكمة كما أعطى عيسى ومحمدا صلوات الله وسلامه عليهما.

والغيب ما غيب واستتر، والكلام فيه استعارة تمثيلية تشبه بحال علم الله بالغيب واستتاره عن الناس -إلا من أراده- بحال من يكون معه مفاتيح خزانة لا يصل إلى ما فيها سواه، وقد تأكد علم الله تعالى بالغيب وحده، وأنه لا يعلم أحد إلا من جانبه، بأمرين: أولهما- التقديم، فقال سبحانه: ﴿وَعِندَهُ﴾ بتقديم

الظرف للقصر، الأمر الثاني- بالقصر الصريح، بنفى العلم عن غيره وإثباته له وحده إذ قال سبحانه: ﴿لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾، ثم بين دقة علمه بالمغيب وعمومه، فقال تعالت كلماته: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أى أنه سبحانه يعلم ما فى البر من حيوان يدب، وطائر يطير، وكهرباء، وفضاء، وحرارة ونظم كونية رتبها سبحانه وسخرها لابن الأرض، حتى وصل إلى جوف الفضاء وارتقى إلى الكواكب والنجوم، كما علمهن على ظهر الأرض؛ ولذلك عبر سبحانه وتعالى بالبر، ولم يعبر بالأرض، ليشمل التعبير الأرض، وما فوقها، وما بينها وبين السماء من فروج، ويعلم سبحانه أحياء البر، وكيف يكونون، لأنه خالقهم، وذلك تقدير العزيز العليم.

ويعلم ما فى البحار من أسماك وجواهر ولآلىء، والجاريات المنشآت فى البحر، وفى البحر عالم، ولسير البحار نظم، ولاستعمالها قوانين نظمها بإرادته الحكيمة رب العالمين، وخالق السماء والماء، وكلها مسخر للإنسان، يستعملها فى العمارة والبناء، وفى التخريب والفساد، وكل ذلك بتمكين الله تعالى: ﴿... لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ... (٢)﴾ [الملك].

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

هذا نوع تفصيل بعد إجمال، وقد اختير ما يكون ظاهره تحت أنظار الناس، وأسراره فى علم الله تعالى العليم الخبير اللطيف البصير، وقد ابتدأ بالأوراق التى تسقط، فقال سبحانه: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا﴾ و(من) هنا الدالة على عموم العلم، وعلم الله ليس كعلمنا الظاهر المبنى على البصر، إنما علمه هو العلم بأصل تكوينها، وسير نموها، فهو يعلم الأشجار التى علقت بها كيف غرست، وكيف كونت، وكيف نمت جذورها وتفرعت فروعها وتهدلت أغصانها، وكيف تكونت أوراقها، وأندت بالحياة حتى اخضرت وازدهرت، ثم كيف جفت وسقطت فذلك بعض علم الله تعالى، وهو علم بغيبها، ولا يعلم ذلك العلم سواه؛ لأنه

هو الذى برأها، ونماها وربَّها، وفى الجملة هو الكامل العلم بالغروس والأشجار، ثم ذكر من بعد ذلك علمه الكامل بالزروع، فقال: ﴿وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ﴾ أى يعلم حال الحبة التى تلقى فى جوف الأرض، وهو ظلماتها، وعبر عن داخل الأرض بظلمات وهو ظلمة واحدة؛ لأنه ظلمة متكاثفة متكاثرة بسبب جهل الإنسان ما يجرى فى باطنها من أسباب لا يدركها الإنسان إلا بعد أن تظهر، فهو لا يعرف كيف ينتفع من الماء، وكيف تمد بالغذاء من أرض صالحة، وسماد مخصب، وكيف تتنوع فى نموها، وهى تسير السير الفطرى الذى سنه الله سبحانه وتعالى، أى أكد أن الله وحده هو الذى يعرف كيف يتكون من الحبة نبات يستوى على سوقه وكيف يشتد ويغلظ سوقه ليعجب الزراع.

فالنص الكريم جمع فيه تكوين الأشجار والغروس، وتكوين الزروع والحب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ... (٩٥)﴾ [الأنعام] وبعد أن بين سبحانه علمه بإنشاء الغروس والزرع بين سبحانه وتعالى علمه الكامل بثمرات الغروس والنباتات فى ضمن علمه الكامل بالرطب واليابس، فقال تعالى: ﴿وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ وتفسير العلماء للرطب يتجه إلى اتجاهين: أولهما- تفسير الرطب واليابس بما يناسب الورق والحبة، وهو ما يكون ثمراً. للأشجار رطبا أو جافا من عموم الثمار كالموز والتفاح، والقصب، وغير ذلك، وفيه توجيه للنعمة التى أنعم الله بها على عباده فوق إحاطة علمه، وقدرته فى التكوين والإبداع.

وبعض المفسرين يرى أن الرطب واليابس فى كل الوجود، فهو يعلم اللين والجامد فى كل شىء، فهو يعلم ما فى باطن الأرض من فلزات ومعادن كريمة، ومعادن سائلة، وما يكون فى باطن الأرض من أحجار نباتية وغير نباتية وسائلة وجامدة.

وإنى أرى ذلك الرأى وأختاره ليكون ذلك تقريبا لأكبر قدر من النعم التى أنعم الله تعالى بها على عباده.

ويقول سبحانه مؤكدا تمام العلم الذى لا يغيب عنه شيء: ﴿إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أى أنه ثابت لا تغيير فيه ولا تبديل فهو عالم بكل شيء علما ثابتا كالمكتوب البين المسجل فى كتاب واضح، لا يخفى منه خافية، وعلى ذلك فكونه فى كتابه مبين موضح، وواضح هو فى ذاته كناية عن الثبات والاستقرار لمعنى المعلم المؤكد، وقال بعض المفسرين: إن ذلك الكتاب هو اللوح المحفوظ المشتمل على علم الله تعالى المكنون فى الغيب.

وبعد أن أشار سبحانه وتعالى إلى تمام علمه بالأشياء أشار إلى قدرته سبحانه وتعالى، وعلمه بالإنسان، وما يكون منه، فالله يعلم بما يسر، وما يظهر، فهو سبحانه يعلم ما ظهر وما بطن، ويعلم السر وأخفى؛ ولذا قال تعالى من بعد:

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾.

الضمير يعود على الله تعالى ذى الجلال، وهو سبحانه الذى يتوفاكم بالليل، والمراد إنامتكم، ولم يعبر بتسكنوا فى الليل وهو يتضمن معنى النوم؛ لأن السياق لبيان قدرة الله تعالى، وسلطانه عليهم، وكونهم فى قبضة يده، وأنه يحصى عليهم أعمالهم، فكان التعبير بالوفاة عنه أنسب، والنوم يعتبر من قبيل الوفاة ،كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ... (٤٢)﴾ [الزمر]. فالموت الأكبر هو قضاء النحب، والموت الأصغر هو النوم، ولقد شبه النبى ﷺ عند إنذار عشيرته بأمر ربه: «والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون وإنها لجنة أبدا، أو لنار أبدا»(١).

وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ الجَرْح هو إصابة الأعضاء والأجسام بما يدميها، ويطلق على الكسب، والمراد هنا الكسب خبيثا أو طيبا، وسميت سباع

(١) رواه ابن عساكر ج٢، وذكره القرطبى بلفظ «كما تنامون فكذلك تموتون وكما توقظون فكذلك تبعثون» ج٨ ص٥٧٠٥.

البهائم جوارح؛ لأنها تجرح، وتكسب قُوتها بجراحتها، وسميت الأعضاء العاملة فى جسم الإنسان جوارح؛ لأنها هى التى تكسب، وهى التى تجرح، والمراد - والله تعالى أعلم- أن الله تعالى يعلم ما جرح الناس بالنهار، فيعلم خفايا نياتهم فى أعمالهم، ويعلم ما يكسبون من خير وشر، ويعلم ما يخفون وما يبدون، وفى ذلك إنذار وتبشير فهو إنذار لمن يكتسبون الشر، وتبشير لمن يكسبون الخير، وأحسب أن استعمال ﴿جَرَحْتُم﴾ الذوق البيانى يجعلها أقرب إلى استعمال الشر، ولكن الأولى هو التعميم، والله سبحانه وتعالى أعلم بالمراد.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ الضمير يعود إلى النهار، ويكون الكلام متصلا بالتوفى بالليل، فالسياق يتوفاكم بالليل، ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فى النهار بعد الليل؛ ولذلك قال الشوكانى فى تفسيره: إن الضمير يعود إلى الليل، لابتداء النهار والمؤدى واحد، وإن كان ثمة اختلاف فى توجيه السياق والإعراب، وكان التعبير بـ «ثم» لتفاوت ما بين مظهر الليل ومظهر النهار، والتفاوت ما بين أعمال النهار وأعمال الليل.

إن تداول الليل والنهار مستمر، فليل يعقبه نهار، ونهار يعقبه ليل لنهاية واحدة، وهو قضاء أجل مسمًّى عند الله تعالى، وإن كان لا يعلمه إلا الله تعالى لأنه سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤)﴾ [لقمان].

﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾. إنه بعد أن يقضى الأجل المسمى، يكون المرجع إلى الله وحده، فلا سلطان لغيره، ولا يرجع إلى أحد سواه، ودل على هذا القصر تقديم الجار والمجرور، فإنه دل على القصر، والتعبير بـ «ثم»؛ لأن هناك تفاوتا زمنيا، بمقتضى الأجل المسمى الذى يطول ويقصر، ولتفاوت ما بين ما يكون فى الحياة الدنيا من لهو وعبث وتفاخر، وتقوى أحيانا، ثم قال

سبحانه: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ والتعبير بـ «ثم» أيضا لتفاوت ما بين الحياتين، وليتبين الإخبار بالعمل العظيم، وإخبار الله تعالى بما كانوا يعملون يتضمن أمرين: أولهما- أن العمل يكون مبينا لهم كأنه حاضر أمامهم يشاهد ويبصر، لا يخفى منه شيء صغيرا أو كبيرا. وثانيهما- الجزاء عليه وسمى جزاء عمل العامل عملا له؛ لأن الجزاء عادل مساوٍ لاستحقاقه كأنه هو، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره.

وبعد أن بين سبحانه بكل شيء، وبكل إنسان، وأن لكل جزاءه على قدر عمله. بين قدرته القاهرة، فقال تعالى:

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ﴾.

هذه تبين قدرة الله تعالى، وكمال سلطانه على كل شيء، فهو سبحانه وتعالى قد قهر له كل شيء وذل، ولا يخرج عن سلطانه أحد؛ وكل شيء فى سلطانه وفى إرادته لا يقع شيء فى الكون، ولا يخرج دون أمره، وقوله تعالى: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ كناية عن علو إرادته ولا إرادة لمخلوق فوق إرادته، أو يقال إنها استعارة تمثيلية فيها تصوير علو الله تعالى على كل شيء فى الوجود سلطانا وتذليلا بمن يكون فوق كل شيء حسا، وفى الحقيقة ذلك مجاز مشهور لا يحتاج إلى تقدير تشبيه أو نحوه، كقولنا: الأمير فوق رؤسائه، أو فوق رعيته، وقد انحرف انحرافا كبيرا الذين قالوا: إن ثمة فوقية حسية، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

وإنه من قهره وسلطانه، وكونه فوق الكل أرسل على الناس حفظة، والتعبير بـ (أرسل) لتناسق الكلام إذ إن الذى يسيطر على كل شيء وفوق كل شيء يناسبه فيمن يسخره من خلقه على خلقه أن يكون بـ (أرسل)، و(حفظة) جمع حافظ. مثل كتبة جمع كاتب، وسفرة جمع سافر، وهؤلاء الحفظة يحفظون العباد، ويحوطونهم، ويكتبون ما يكون منهم، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

ولقد ذكر سبحانه هذا المعنى فى عدة آيات: من كتابه، فقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١)﴾ [الانفطار] وقال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ... (١١)﴾ [الرعد]. وقال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)﴾ [ق].

وإن هذه الرقابة والمحافظة لأولئك تستمر، حتى الوفاة؛ ولذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ «حتى» هنا للغاية، والمعنى تستمر هذه الحال حتى يجىء أحدهم الموت، وعبر بالماضى لتحقق المجىء مثل قوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ... (١)﴾ [النحل] أو تكون حتى تفريعية أى إن تلك الرقابة لأجل الحساب كما يدل الكلام، وقوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ أى ملك الموت ومن معه، وهنا يلاحظ أن ذكر مجىء الموت قدم على ذكر الوفاة، والمراد من مجىء الموت تقدير نهاية الأجل؛ ولذلك عبر بـ ﴿أَحَدَكُمُ﴾ ولم يقل، حتى إذا ماتوا؛ والوفاة قد جاءت بعد الإحصاء الدقيق من الحفظة؛ ولذلك قال من بعد ذلك: ﴿وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ﴾ أى لا يهملون، ولا يتركون شيئًا مما فعل، بل كل ما عمل مهيأ له يجده حاضرا بعد وفاته.

﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾.

وإنه بعد أن يموتوا يردون إلى الله تعالى معروضة أعمالهم محصاة إحصاء دقيقا يردون إلى الله تعالى مولاهم الحق، وفى هذا النص بضعة مباحث نشير إليها ففيها تقريب لمعنى النص الكريم.

أولها- التعبير بـ «ثم»، والتراخى هنا لبيان مكانة الحساب والرد على الله تعالى؛ لأن الالتقاء بحساب الله أمر ذو خطر عظيم لما كانوا يفعلون غير متوقعين بعد ذلك من وقائع تزلزل قلوب الفاسقين، وتطمئن لها قلوب المؤمنين.

وثانيها- أنه عبر عن الرد للحساب بالرد لله تعالى ذى الجلال، وذلك يشير إلى خطورة الأمر، ودقة الموقف، وجلال الحساب.

وثالثها- أن الله تعالى عبَّر عن ذاته الكريمة؛ أنه مولاهم الحق، أى ذو الولاية الحق، فلا ولاية لمن اتخذوهم أولياء، بل إنهم ينسونهم، وينكرونهم، كما قال تعالى: ﴿**هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ** ... (٤٤)﴾ [الكهف] و(الحق) يصح أن نقول إنها وصف لمولاهم، أى هو الولى الحق الذى لا يصدق على غيره أنه ولى قط، أو نقول إنها بالحق الثابت وبالعدل الذى لا يظلم ربك فيه أحدا.

وقوله تعالى: ﴿**أَلَا لَهُ الْحُكْمُ**﴾، «ألا» فيه للتنبيه وتقديمه له على الحكم للإشارة إلى أنه وجد له الحكم، ولا حكم لأحد سواه فليترقبوا جزاء ما عملوا، والحساب قائم ومؤكد؛ ولذا قال من بعد: ﴿**وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ**﴾ أى أنه لا يوجد حاسب فى سرعة حسابه وهذا يؤكد الحساب وما يترتب عليه من ثواب وعقاب، وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ... (٤٨)﴾ [النساء]. ويثبت أن حساب الله سريع؛ لأن الله يعلم كل شىء قبل أن يقدموا عليه إن الله بكل شىء عليم.

قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن
ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ
لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ
ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا
مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم
بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾

فى الآيات السابقة بين الله سبحانه وتعالى عموم علمه، ما خفى منه وما ظهر، وما جدَّ وما يجد، حتى إن الورقة تسقط يعلمها، والحبة تنبت فتكون فى علمه بكونها وحالها، يعلم الرطب واليابس من الثمرات، وهو الذى نظم الوجود بمقتضى هذا العلم المحيط، هو الذى يعلم الوفاة بالليل، والصحو بعد، وما يكسب بالنهار من خير نافع، وشر ضار، وأنه المسيطر على كل شىء، وأن المرجع والمآب إليه، وعنده الحساب السريع، والحكم العادل.

وفى هذه الآيات، يبين نعم الله تعالى عليهم، إن ادلهمت بهم كارثة يضرعون إليه، وبين أنه إذ كان هو وحده الملجأ عند الكارثة تكرثهم فهو القادر على أن ينزل بهم البأساء والضراء، ومع هذه النعم السالفة، ومظاهر القدرة الباهرة يكذبون بالحق إذ جاءهم، وأنباء الرسالة ثابتة مستقرة لا تتخلف، وأنه إذا كان الناس فيهم أطهار وأشرار، فعلى الأطهار ألا يخوضوا فى فتن الأشرار، وقد ابتدأ سبحانه بقوله:

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

كان المشركون يعرفون الله سبحانه وتعالى، ولكن لا يؤمنون به، ولا يخصونه بالعبادة بل يشركون معه الأوثان، ويقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، وكذلك أكثر الوثنيين، يعرفون أن قوة خفية تسير الوجود، ولكنهم يعبدون أشياء حسية يحسبون أن روح الألوهية تحل فيها، وهم فى غيهم يعمهون.

فلا عجب، إذا كان المشركون عندما تشتد بهم الشديدة لا يتجهون إلا إلى خالق الكون ومنشئه ومسيره والقيوم عليه سبحانه وتعالى، ولقد أمر الله تعالى الرسول الكريم أن يوجه أنظارهم إلى أنه لا يذكر فى الشديدة إلا الله سبحانه وتعالى، وأنهم يذكرونه حيث تكون الكريهة، وحيث يكون الخطر، فأمره بأن يوجه إليهم الاستفهام ليقروا بهذه الحقيقة: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ والاستفهام إنكارى تقريرى بمعنى لا أحد ينجيكم من ظلمات البر والبحر، وأنتم

تقرون بذلك إذ تدعونه تضرعا وخفية، فلا تلجأون لغيره ولا تجدون منجاة إلا من عنده، والظلمة هنا الشدة، فهى مجاز، شبهت فيه الشدة والكرب بالظلمة؛ لأن النفس فيها تتحير، وتشده فتبلس، فتكون كأنها لا ترى ولا تعرف وجه الخروج؛ ولذلك يقال لليوم الشديد الذى يملؤه الكرب: يوم مظلم، ويقولون: نهار ذو كواكب، أى أنه لشدته يكون كأنه ليل ترى فيه الكواكب، وفى شدائد البر والبحر تكون غمة حقيقية، فقد يكون غيم شديد، لا رؤية فيه، أو ريح عاصف وإعصار، وقد يكون الخسف الذى يلقى فى ظلمات الأرض، وقد يكون اصطخاب الأمواج بالأذى، وهكذا فتجتمع ظلمة الشدة، والظلمة الحقيقية وقد تكون الشدة حيرة، يضلون فيها الطريق فتبتلعهم الصحراء، أو تكون إذا ركبوا البحر، فضلت فيه المحجة[1]، أو ألقتهم الريح لا يهتدون ولا يجدون المنجاة، فكل هذه ظلمات متكاثفة.

وإن حالهم أنهم لا يلجأون إلا إليه ولذا قال سبحانه عنهم: ﴿**تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً**﴾ أى أنكم فى حال الشدة، تتجهون إليه سبحانه وتعالى بقلوبكم ونفوسكم، ولا تجدون ملجأ منه إلا إليه، ويظهر ذلك الالتجاء القلبى ضراعة وتذللا يجرى على ألسنتكم ولا تجدون سبيلا للامتناع عن الجهر بالضراعة والتذلل لله تعالى، وتسليم الوجه له، فالتضرع دعاء الله تعالى مستسلمين له جهرا، والخفية خنوع النفس، واتجاهها قلبيا إليه سبحانه، وقد صور الله تعالى ضراعتهم، بقوله: ﴿**لَئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ**﴾.

هذا قسم يقسمونه، ويؤكدون به ما هم عليه من الالتجاء إلى الله؛ ولذلك كان التوكيد بالنون الثقيلة وباللام، وموقع هذه الجملة مما قبلها أنها تفسير للضراعة التى جهروا بها أو هى تفسير بمعنى (تدعون) فهم يدعون الله تعالى، بمعنى أنهم فى سريرة أنفسهم وضراعة قولهم، يقسمون بأن الله تعالى إن أنجاهم من هذه الكروب الكاربة، والشدائد الشديدة، ليشكرونه حق شكره، وشكر الله تعالى

(١) المَحَجَّةُ: الطريق.

بالعبادة، وتخصيصه بها؛ لأنهم إن أشركوا معه غيره فى العبادة لا يعدون عابدين؛ إذ إنه حيث أفرد بالالتجاء، لا يتصور إلا أن يفرد سبحانه وتعالى بالعبادة.

ويصح أن يكون قوله تعالى عنهم: ﴿لَئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ مقولا لقول محذوف تقديره قائلين لئن أنجيتنا من هذه.

ومع أنهم وعدوا بالشكر أى إخلاص العبادة لله تعالى، فهل وفوا بذلك؟ إنهم لم يفوا؛ إذ إنها حال إذعان فى الشدة، فإذا نجوا عاد إليهم جحودهم، وغرتهم أنفسهم وأمانيهم.

﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾.

أمر الله تعالى نبيه الكريم أن يبين لهم أن الله تعالى مستجيب لضراعتهم عند تضرعهم، والتجائهم إليه خفية، ووعدهم بأن يخلصوا عبادتهم لله ويشكروه على نعمائه المتضافرة المتكاثرة التى نعيش فى ظلها دائما، وإن كان تعالت حكمته يعلم أنهم غير موفين لعهدهم وأنهم ناكثون فى أيمانهم، كما حكى سبحانه وتعالى عن طبيعة الإنسانية المنحرفة، إذ قال تعالت كلماته: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ... (١٢)﴾ [يونس].

وإن الله تعالى بين أنه لا ينجيهم مما يعرض لهم من شدائد من خارجهم، وما لا قبل لهم به وحسب، بل ينجيهم من ذلك، وينجيهم من الكروب التى تعترى نفوسهم من ضراء تنزل بهم،أو مرض يحل بأجسامهم، ومن كل شىء يكربهم ويلقى غمة النفس عليهم؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾. ولقد فسر الأصفهانى فى مفرداته الكرب فقال: الكرب الغم الشديد ﴿... فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦)﴾ [الأنبياء] والكربة كالغمة. وأصل ذلك من كرب الأرض وهو قلبها بالحفر، فالغم يثير النفس إثارة، ويصح أن يكون ذلك من كربت

الشمس، أى دنت للمغيب، ويستفاد من هذا أن الكرب غمة شديدة تصيب الإنسان من أمر نفسى يثير النفس، ويجعلها فى قلق وحيرة واضطراب نفسى، ويقيم عليها، كمرض عزيز أو موته، أو ضرر أو فقد مال أو خسارة فى تجارة، فالله تعالى هو المنجى منه، وبهذا تبين أن الله تعالى هو الذى ينجى خلقه من كل شىء، فهو القائم على كل شىء، ومع هذا الخير العميم، ومع استجابة الله تعالى لضراعتهم، والتجائهم إليه، وإنجائه لهم بالفعل بعد أقسموا إن نجاهم يشكرونه أى يعبدونه وحده؛ لأنه الذى أنجاهم، وخلصهم مما هم فيه، مع هذا بمجرد أن يعودوا إلى الاطمئنان والاستقرار يشركون، ويحنثون فى أيمانهم، ويعودون إلى ما كانوا عليه، بل إنهم يستمرون فى غيهم يعمهون، وإنه كما قال بعض المفسرين: الأصل فى السياق أن تكون حالهم حال من لا يشرك، فكان مقتضى الضراعة أن ينفى الله شركهم بعد قسمهم على الشكر والعبادة، ولكن عاد إليهم جحودهم؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ أى أن إذعانهم العارض لم يكن ساكنا فى نفوسهم، بل هو أمر عارض، بسبب يزول بزواله، ولم يكن إذعان الذين خلصوا بنفوسهم، ويلاحظ بعد إشارات بيانية:

أولها- التعبير بـ «ثـم» ففيه إشارة إلى التفاوت الكبير بين حال ضراعتهم، وحال كفرهم، أو بعبارة أدق استمرار حالهم.

الثانية- أنه سبحانه عبر بالجملة الاسمية، وذلك تأكيد لشركهم الذى كان نقيض شكرهم الذى وعدوا به ونكثوا فى وعدهم.

الثالثة- أنه عبر بالفعل المضارع الذى يصور حالهم ويدل على استمرارهم.

وبعد أن بين سبحانه وتعالى كمال سلطانه فى النعم يمنحها ليرغبوا فى الإيمان والإذعان، ذكر سبحانه قوته فى القهر والعذاب.

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ .

بعد بيان قدرته على كشف الكروب بين سبحانه وتعالى قدرته على إنزال الشدائد؛ جزاءً لهم بما كسبت أيديهم، فهو كاشف الضر، وهو منزل العذاب، كل يسير على مقتضى حكمته، وعلى ما يصلح به الإنسان، ويستقيم عليه أمر العالم كما قدر رب العالمين: ﴿ ... وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ۝٩﴾ [الرعد].

وقبل أن نتكلم فى معنى القدرة القاهرة، نذكر كلمة فى ناحية بيانية، وهو لماذا أمر الله تعالى نبيه فى التنبيه إلى ضعفهم، وقدرته سبحانه وتعالى، وصدر الكلام بكلمة ﴿قُلْ﴾ فى بيان ضعفهم، واستجابته لضراعتهم، واستعلائه بقدرته عليهم؟ ونقول فى الإجابة عن ذلك فيما يبدو: إن تصدير الكلام بـ «قل» فيه تنبيه؛ فضل تنبيه، وفيه بيان مقام النبى ﷺ أنه هو الصلة بينهم وبين ربهم، وأنه المبعوث إليهم من قبله، وأنه هو الذى يخاطبهم عنه سبحانه فى كشف الضر عنهم، ورفع الغمة إن نزلت بهم، وهو منذرهم بالعذاب الشديد.

والخطاب هنا لمن؟ أهو للمشركين فقط الذين وعدوا بالشكر ثم أشركوا؟ أم هو خطاب للناس أجمعين؟ ظاهر السياق هو الأول لأنه الخطاب، ولكن موضوع الخطاب يعم، ولا يخص المشركين، ولأن مفسرى السلف والآثار الواردة عن الرسول ﷺ تومىء إلى أن المؤمنين يدخلون فى عموم الخطاب، وإنا نميل إلى هذا العموم.

والنص الكريم يفيد عموم العقاب؛ لأن العذاب الذى ينزل من فوق يعم الجميع، كذلك العذاب الذى يجىء من تحت الأرجل يجيئ عاما لا خاصا، فإذا كانت صواعق، أو إعصار شديد وصواعق، أو سيل عارم كل هذا يعم ولا يخص، وكذلك الخسف الذى تمور به الأرض مورا، والزلازل المدمرة، والبراكين الحارقة كل هذا يعم ولا يخص ينزل بالمؤمنين مع الكافرين، وقد عبر الله سبحانه وتعالى عن هذه الأمور بعبارتين جديرتين بالنظر فيهما:

أولاهما- التعبير بـ ﴿يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ﴾. فإن البعث معناه الإثارة، وعبر بيبعث للإشارة إلى أن الله تعالى هو الذى يثير عليهم ذلك العذاب وعبر بـ (يبعث) بدل ينزل عليهم، لأن البعث والإثارة تعنى أن النزول يكون من علٍ، ولأن البعث والإثارة فيهما معنى الإيجاد لما ليس بموجود.

ثانيتهما- التعبير عن ذلك بكلمة ﴿عَذَابًا﴾ ففيها الإشارة إلى أنه فى معنى الجزاء على بنيان واقع، أو أن الذين نزل بهم أكثرهم يستحقون، وهو على أية حال أمر مقصود، وقد أشار الله تعالى فى آيات أخرى إلى أن الكوارث قد تكون عقابا على ذنوب سلفت، أو طغيان استحكم كقوله تعالى فيمن ينفقون من غير إيمان: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)﴾ [آل عمران]. ومثل قوله فيما نزل بقارون وداره فى حال طغيانه: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦)﴾ [القصص]. إلى أن قال سبحانه عنه: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١)﴾ [القصص].

فدلت هذه النصوص على أن الله تعالى ينزل عذابا كونيا، لغرور أو طغيان أو فسق عن أمر ربهم.

وقد ذكر سبحانه وتعالى أنواعًا ثلاثة من العذاب الذى يبعثه:

الأول والثانى أن يبعث عذابا من فوق أو من تحت، ﴿أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾.

ومعنى العـذاب الذى ينزل من فوق، أطلقـه الكثيرون من العلمـاء على ما ينزل من السـماء؛ ببـعث وإثارة من الله من صواعق وإعـصار وريح فـيهـا صرٌّ، وحاصب من السماء، وحجارة من سجيِّل تجـعلهم كعصف مأكول، وغير ذلك مما ينزل الله مـن علٍ، والعـذاب الذى يكون من تحت الأرجـل مما يكون من الأرض التى يفترشـونها من خسف فى الأرض وميـد فيها، وبراكـين وزلازل، وغير ذلك من آفات الأرض التى تقرض الزرع.

وعـبر عـما يجـىء من الأرض بقوله تعـالى: ﴿مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ وذلك للإشارة إلى قربه الـشديد منهم، وإلى أنه يكون فى مقـام استـقـرارهم، فيكون ميد الأرض من تحت أقدامـهم حيث هم مستقرون فـيها، وللإشارة إلى أنهم أول من يصابون بـهذا العذاب، ولا منجـاة منه، إلا أن يكون لله تعالى فى مـنجاتهم إرادة.

وروى عن ابن عباس أنه فسر العذاب من فوقهم بفوقية معنوية، وهم الأئمة المفسدون، والحاكمون العابثون، ومن هم تحت أرجلهم بالرعاع الأقربين يهرفون بما لا يعرفون ويتـبعون كل ناعق يدعو إلى هواه ويقـفون على ما يريد[1]، فعلى هذا النظر تكون الفوقية والتـحتية ليست حسية، وإن لذلك الكلام وجهـا من الحقيقة، فإن أشـد ما تصاب به الأمم أن تتـحكم فيهم أئمـة الفساد، وأن يجـدوا تابعا من الذين لا يعرفون كيف يرادون، أعلى الخـير أم على الشر، وعلى ورد الماء العذب الذى يسقى النفوس، أم على مناقـع الأوباء الخلقية والاجتماعـية، فإن ذلك يفنى الأمم فى وحـدتها واجـتمـاعهـا، وإن تخـريب السمـاء وتخريب الأرض يسـرع تعويضه، وإقامة بديل له، أما تخـريب النفوس وإشاعة الرذيلة فلكى تخرج الأمة

(١) روى ابن جرير الطبرى فى جامع البيان - ج٧، ص١٤١، أن ابن عباس كان يقول فى هذه: قُلْ هُوَ الْقَادِرُ على أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ فأما العذاب من فوقكم: فأئمة السوء. وأما العذاب من تحت أرجلكم: فخدم السوء.

منه لا بد من تبديل الأقوام وتغيير واستبدال نفوس بنفوس، وذلك يحتاج إلى زمن طويل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ⑪﴾ [الرعد] .

وإنى أرى أن العذاب الذى ينزل من فوق، والذى يجىء من تحت الأرجل، كلا الأمرين يشمل الحسى، ويشمل المعنوى بولاة السوء، وتحكم السفلة ومن لا يفقهون، ويتبعون كل ناعق، ولا يميزون بين الخبيث وغيره، لا على أن ذلك من الجمع بين الحقيقة والمجاز، بل على أن ذلك تفسير لكلمة العذاب، بما يعم ولا يخص حسيا أو معنويا.

والنوع الثالث من العذاب الذى تصاب به الأمم، وهو الداء العضال الذى أصاب أهل الإسلام، هو التفرق والتباين ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ .

هذا عذاب للأمم، يحل وحدتها، وينثر جمعها، وهو أشد أنواع العذاب، عندما يتفاقم، ويكون الهوى المتبع، والشح المطاع وإعجاب كل امرئ وكل جماعة بنفسها وطريقتها ﴿... كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ⑬⑤﴾ [المؤمنون] فعندئذ تنفك العرا، وتنحل الأواصر، ويقوم المنكر، ويذهب المعروف، ولا سماع لصوت الحق.

و(يلبسكم) المذكورة فى الآية من لبَس بفتح الباء يلبس، وهى تتضمن معانى ثلاثة: أولها- الستر، فالحقائق تستر عمن يُلَبَّس عليه، فلا يراها، وثانيها- الخلط، فيختلط الحق بالباطل، والذين يقعون فى هذا اللبس (يلبسون الحق بالباطل) فلا يكون وضوح يفرق بين الحق والباطل، وثالثها- وجود غشاوة على القلوب تحجب عنها بسبب التعصب لما يعتقده، فيزين له سوء عمله، فيراه حسنا، ويرين على قلبه فلا يدرك.

وقوله تعالى: ﴿يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ شِيَع هنا حال، أى يخلطكم حال تشيع جماعتكم، فتكون كل جماعة شيعة قائمة بذاتها منفصلة عن سواها- وأصل كلمة شيعة من شيعت النار بالحطب: قويتها، فالشيعة من يتقوى بها فى حدة وحرارة، وينتشرون عنها منادين بها، وقد تستعمل فى معنى التجمع للخير، كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣)﴾ [الصافات] وقوله ﴿... هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ... (١٥)﴾ [القصص] ولكن كثيراً ما تكون فى التشيع لغير الحق، وما يكون فيه تعصب شديد فتكون كأنها وقود يقوى النيران؛ نيران الحقد والحسد والبغضاء.

ومعنى الجملة السامية ﴿يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ أنه سبحانه يخلطكم، وتلتبس الأمور، ولا تميزون بين الخبيث والطيب، وتكونون قوما بورا، وذلك الضلال يصحبه انقسامكم شيعا متفرقين توقد بينكم نيران البغضاء والعداوة، وتفترقون فيما بينكم، فلا تكونون أمة واحدة تجمعها وحدة جامعة، ولكن تكون طرائق متفرقة، وأخلاطا غير متجانسة ولا متمازجة.

ولا تكون العلاقة فيها مودة واصلة ورحمة عاطفة، بل تكون العداوة المستحكمة، كل شيعة تتربص بالأخرى الدوائر فى غير هوادة، ولا نفوس قارة، بل فى نفوس فاترة، وهذا مؤدى قوله تعالى: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ أى تكون العلاقة أن يذوق كل جماعة شدة الجماعة الأخرى، أى يكون بأسهم بينهم شديدا، فقوتهم تكون على أنفسهم، ولا تكون على غيرهم، وعبر سبحانه عن البغضاء والعداوة بأن يذيق بعضهم بأس بعض، وذلك تصوير بيانى يشبه الإصابة بالبأس بذوقه واستطعامه للإشارة إلى أنهم يستطعمون العداوة بينهم، ويستطيبون البأس الشديد الذى يحكمهم كمن يستطيب طعاما شهيا، وذلك ينبئ عن فساد أمرهم، واضطراب حالهم، وقلب طباعهم، حتى إنهم يستمرئون العداوة كأنها طعام مرىء.

إن كل بلاء يهون إلا بلاء التشيع، وقد ابتلى الله تعالى به أهل الإيمان، روت الصحاح بآثار متضافرة أن أمة محمد ﷺ ستبتلى بهذا البلاء[(١)]. روى ابن جرير أن النبى ﷺ قال: «إن الله زوى لى الأرض، حتى رأيت مشارقها ومغاربها، وإن ملك أمتى سيبلغ ما زوى لى منها، وإنى أعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإنى سألت ربى ألا يهلك قومى بسنة عامة (أى بأزمة وجوع) وألا يلبسهم شيعا، ولا يذيق بعضهم بأس بعض، فقال: يا محمد: إنى إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإنى أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة عامة، ولا أسلط عليهم عدوا ممن سواهم فيهلكوهم بعامة، حتى يكون بعضهم يهلك بعضا، وبعضهم يقتل بعضا وبعضهم يسبى بعضا» فقال النبى ﷺ: «إنى أخاف على أمتى الأئمة الضالين، فإذا وضع السيف في أمتى لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة»[(٢)]. اللهم إن هذه دلائل، قد رأيناها، وأضلنا الضالون من الأئمة، حتى صار بعضنا يأكل بعضا، اللهم ارفع مقتك وغضبك عنا، وأجرنا من شر ذنوبنا، وعواقب أعمالنا، وتب علينا، إنك أنت التواب الرحيم.

﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾.

يأمر الله تعالى نبيه بأن ينظر فى تصريف الله تعالى آياته البينات، وهو توجيه لما فى القرآن الكريم من توجيه حكيم، وإعجاز يتحدى به الإنسانية كلها، فالسورة كلها تصريف فى التوجيه، وفى كل بيان جده، ألم تره نبه إلى علمه المحيط الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة فهو يعلم ما فى البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة فى ظلمات الأرض، ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين، وهو الذى يتوفى الأنفس حين موتها، والتى لم تمت فى منامها، وهو

---

(١) من ذلك ما روى الترمذى: تفسير القرآن - ومن سورة الأنعام (٣٠٦٦) عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِى وَقَّاصٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فى هَذه الآيَة: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَا إِنَّهَا كَائِنَةٌ وَلَمْ يَأْتِ تَأْوِيلُهَا بَعْدُ» قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ. كما رواه أحمد فى مسند العشرة (١٤٦٩).

(٢) ورواه مسلم: الفتن وأشراط الساعة - هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض (٢٨٨٩) بلفظ مقارب.

الذى يرد إليه الأمر كله، ثم بين أنه وحده الذى يلجأ إليه المشركون، إذا اشتدت الشديدة، وحلت الكريهة، وهو القادر على أن ينزل إليهم البلاء، ويذيقهم كئوس الاختبار.

هذا تصريف فى القول المحكم الصادق ليدركوا الأمور على وجوهها بعد أن يوجهوا إليها، رجاء أن يفقهوا ويدركوا، فالرجاء هنا فى قوله تعالى: ﴿**لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ**﴾ هو فى حالهم إذا كانوا يعتبرون، وفيما هو من شأن ذلك التصريف فى القول الحكيم، ويفقهون معناها يدركون لب الحقائق، وتنفذ بصائرهم إليها، والله سبحانه هو الحكيم الخبير العليم.

وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ
نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ
ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ
ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾
وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن
ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾

بين الله سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة أنه سبحانه وتعالى هو الذى يلجأ إليه عند الشدة، وأنهم يلجئون إليه ويدعونه تضرعا وخفية فى ظلمات البر والبحر، وأنه هو وحده المنجى، ولا منجى سواه، وأنه سبحانه منزل الشدائد، وهم بعد زوال الغمة بدل أن يوفوا بعهودهم ويشكروا نعمة الله باختصاصه بالعبادة، كما اختص بالإنجاء والابتلاء - يشركون غيره ممن لا يضر ولا ينفع، وفى هذه يقرر موقفهم من الحق، وخوضهم فى أمره بالباطل مما يدل على أن

سبب ضلالهم أنهم لا ينظرون فى قضية العبادة نظرة جادة تتكافأ مع مقدار الجلال فى الحقائق الدينية والمعانى الإلهية؛ ولذلك لا تنفذ بصائرهم، ولا تهتدى قلوبهم، بل هم فى غى دائم حتى يسترشدوا فيرشدوا ويطلبوا الحق فيهتدوا.

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾.

مع هذا التصريف فى بيان الآيات، بذكر النعمة التى يلجأون إلى طلبها دون سواه، وبيان القدرة الكاملة الشاملة، وبيان أنه الذى ينزل الابتلاء، والعذاب الدنيوى ليقيسوا عليه من بعد العذاب الأخروى، كذبت قريش قوم النبى ﷺ وتكذيبها مع قيام البينات الصادقة، ومع حالهم من الاستسلام، وطلب النجاة منه عند الشدة، يدل على إدراك ناقص أولا- لأن مناقضة الشخص لحاله أو لبعض أحواله دليل على غفلته عن إدراك الحقائق كاملة، وعن نسيان الوقائع، ويدل أيضا على جحود مستحكم ومقاومة للحق مع قيام الأدلة، وشهادة الآيات، ويدل على تغلغل التقليد فى نفوسهم، حتى إنه يضع على أعينهم غشاوة، وإن كان البصر قائما، فلهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها.

وقال بعض المفسرين: إن قوم النبى ﷺ هم أمته الذين بعث فيهم لا فرق بين عربى وأعجمى، ولا أبيض وأسود ،ولا شرقى ولا غربى، فأولئك قومه ﷺ.

ونحن نميل إلى ما عليه الجمهور من المفسرين؛ لأن الأمة أعم من القوم، فى أصل الدلالة اللغوية، وإنما ذكر الله تعالى قوم النبى ﷺ من قريش؛ لأن النبى ﷺ كان حفيا بأن يؤمنوا حريصا على إيمانهم، حتى إنه عندما كان الأذى بشتى ضروبه، قال: اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون، وقال: «وإنى لأرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله»(١)، وللإشارة إلى عموم الدعوة إلى هذه الدعوة، وإنه

---

(١) قَالَ عَبْدُ اللَّه بن مسعود كَأَنِّى أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَحكى نَبِـيا مِنْ الأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِـهِ وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِـى فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ». متفق عليـه؛ البخارى: أحاديث الأنبياء - حديث الغار (٣٤٧٧)، ومسلم: الجهاد والسير - غزوة أحد (١٧٩٢). =

إن وجد من يرد دعوته من قومه، ويشددون فى بلائه، فسيجد المستجيب من غيرهم، وإن الهداية قد تكون من خارج قومه ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ... (٥٦)﴾ [القصص] .

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ فيه إشارة إلى أنهم لا دليل عندهم ولا موجب، لأنه الحق الثابت الذى قام الدليل عليه، وشهدت له البينات، وقام من أنفسهم دليل صدقه، فالواو ما يسمى فى عرف النحويين واو الحال، أى أنى يكذبون ذلك التكذيب، والحال أنه حق ثابت، وذلك لشدة العناد؛ إذ إن الدليل قائم، والقربى بينك وبينهم ثابتة ومع ذلك جحدوا بها، وإن استيقنتها أنفسهم، ولست مسئولا عن كفرهم، وقد بينت وبلغت، وما عليك إلا البلاغ.

وإذا كان قومك يكذبون بالحق، وقد ظهرت دلائله، وبرقت بوارقه، فقل لهم إنك إذ بلغْت، وبينت، لست مسئولا عنهم، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ وأمره ﷺ من قبل الله تعالى لتأكيد أن عليهم وحدهم تبعة تكذيبهم، وأن النبى ﷺ مهما تكن صلته بهم من قرابة ورحم موصولة من جانبه، لا يتحمل تبعة ما يفعلون، بل كل امرئ بما كسب رهين، ولا تزر وازرة وزر أخرى، وما على الرسول إلا البلاغ، والوكيل هنا المتكفل بأمورهم، الموكول إليه شئونهم الذى شملت كفالته عليكم، فليس بذى رقابة ومسئولية عنهم، وقد قال الراغب فى معنى وكيل: وكيل فعيل بمعنى مفعول قال تعالى: ﴿... وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (٨١)﴾ [النساء] أى اكتف به أن يتولى أمرك، ويتوكل لك، وعلى هذا: ﴿... حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)﴾ [آل عمران]. ﴿... وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (١٠٧)﴾ [الأنعام] أى بموكل عليهم، وحافظ لهم، كقوله تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ (٢٢) إِلاَّ مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ (٢٣)﴾ [الغاشية] وعلى هذا قوله تعالى: ﴿قُل لَّسْتُ

= وأما قوله ﷺ «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم...» فهو فى حديث الأخشبين، وهو متفق عليه رواه البخارى: بدء الخلق - ذكر الملائكة (٣٢٣١)، ومسلم: الجهاد والسير - ما لقى النبى ﷺ (١٧٩٥).

﴿عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أى لست بموكل بكم حافظ عليكم لأحملكم على الجادة، بل علىّ التبليغ فقط، وأنتم مسئولون عما تكذبون وتقترفون؛ ولذا حملهم سبحانه التبعة، وأنه واقع بهم ما أنذرهم، وأن إخبارهم بما يكون فى اليوم الآخر واقع لا محالة:

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

النبأ هو الخبر العظيم الذى يكون ذا فائدة، وله واقع مصدق يفيد علما يقينيا، أو علما ظنيا، ولذلك يقال عن الأخبار المتواترة أنها أنباء، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ... (٤٩)﴾ [هود] ومستقر هى مصدر مسمى بمعنى استقر، أو اسم زمان بمعنى زمان يستقر.

ومعنى الاستقرار مأخوذ من القرار بمعنى الثبوت والتحقق والوجود، فالمؤدى اللفظى للنص الكريم لكل خبر عظيم، بالإنذار أو التبشير؛ زمان يكون فيه، ويتحقق مضمونه، والمؤدى العام؛ أن أولئك الذين كذبوا بالحق لما جاءهم، قد جاءتهم الأنباء بالنذر، وجاءت المؤمنين الأنباء بما سيجدون من نعيم مقيم، وجنات عدن خالدين فيها، وإنه نبأ فى الدنيا، أو فى الحاضر، وتحققه ومستقره فى القابل، وستجدون حقيقته ثابتة معلومة علم اليقين بالمشاهدة المحسوسة، وكذلك قال تعالى: ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أى من المؤكد، أنكم ستعلمونه علم اليقين والاستقرار والوجود.

وقد يرد سؤال؛ أليس فى ذكر القرآن الكريم وإنذار النبى ﷺ ما فيه العلم اليقينى أو ما من شأنه تكوين العلم اليقينى؛ فلا علم أعلى منه، كما قال تعالى بعد هذه البينات: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ... (١٤)﴾ [النمل]؟ والجواب عن ذلك أن العلم الذى قامت أسبابه بإنذار الله تعالى الصادق صدقا لا يرتاب فيه عاقل هو علم الإخبار، أما العلم الذى يكون عند نزول العذاب، فهو علم المعاينة والمشاهدة، والنزول بهم، حيث لا مجال للمراء، ولا للمباهتة والتكذيب.

وقوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أهى من قول النبى- عليه الصلاة والسلام- المأمور به فى قوله تعالى: ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ ظاهر السياق أنها من مقول

النبى -عليه الصلاة والسلام- الذى أمر به، ويكون إجراء الإنذار على لسان النبى ﷺ فيه فضل من التشديد بسبب المواجهة والمخاطبة، وفوق ذلك له صلة بنفى أنه ليس وكيلا عليهم، فوضت أمورهم إليه، إنما التبعة عليهم وحدهم، ويصح أن يكون قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ﴾. كلام من الله تعالى، ويكون حكما منه تعالى بما سيجرى عليهم وكله من الله وإليه يعود.

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾.

كان المشركون الذين خاطبهم النبى ﷺ بالدعوة إلى الوحدانية. بعد أن أنذر وبشر، وصدع بأمر ربه؛ يتخاطبون فيما بينهم، لا يظلهم طلب الحق، ولا تدفعهم إرادة الحقيقة، وإنما يسود حديثهم اللجاجة فى الجحود، ومعاندتهم للنبى ﷺ واستهزائهم بضعاف المؤمنين، وتدبيرهم أساليب تعذيبهم، فحالهم ليست حال من يستمعون إلى الحق؛ إذ دعوة الذين يلجُّون فى الخصومة والمعاندة تزيدهم تشديدا فى موقفهم، وصم آذانهم؛ ولذلك لا يكون من الخير تذكيرهم فى هذه الحال الجاحدة لأنها تزيدهم إصرارا وجفاء وبعدا وعنادا.

والخوض أصل معناه فى اللغة المرور فى الماء، والشروع، والانغمار فى موجاته، ثم استعمل فى الانغمار فى الأحاديث والأقوال باعتبارها تغطى الفكر، وتسيطر عليه كما يغطى الماء الخائض فيه. جاء فى تفسير الشوكانى ما نصه: (الخطاب للنبى ﷺ، أو لكل من يصلح للخطاب، والخوض أصله فى الماء ثم استعمل فى غمرات الأشياء التى هى مجاهل تشبيها لغمرات الماء، فاستعير من المحسوس إلى المعقول، وقيل هو مأخوذ من الخلط وكل شى خضته فقد خلطته، ومنه خاض الماء بالعسل وخلطه، والمعنى إذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا بالتكذيب والرد، والاستهزاء فدعهم، ولا تقعد معهم لسماع هذا المنكر العظيم، حتى يخوضوا فى حديث مغاير).

وإن جلوس النبى ﷺ مع هؤلاء لا يتصور أن يكون لمجرد المسامرة، ولكن لأجل رسالته. والدعوة فى هذا الخوض المعاند، لا تجدى كما ذكرنا، وإن الأمر

بالأعراض عنهم فى حال العناد أمر للنبى ﷺ ولخاصته المؤمنين، وعامتهم، فعلى المؤمنين ألا يغشوا مجالس المبتدعة فى أثناء تقرير ابتداعهم، وإعلان انحرافهم، فإنه لا جدوى فى إرشادهم وهم فى هذه الحال، وأن المؤمنين معرضون بكثرة الجدل معهم لأن تسرى إليهم عدوى تفكيرهم، فإن الأفكار الفاسدة تعدى كما تعدى الأجسام المريضة الفاسدة، وقد شكا بعض الحنابلة أنهم لكثرة مجادلتهم مع الزنادقة سرت إليهم بعض طرق تفكيرهم.

﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

إن النبى ﷺ كان حريصا على دعوة المشركين، فبين الله تعالى كما ذكر آنفا أنهم إذا خاضوا فى الآيات التى هى دلائل الرسالة، واستهزءوا بها وألحوا فى جحودها، ولجوا فى استمساكهم بما هم عليه لا يزيدهم ذكر الحق إلا لجاجة وعنادا وطغيانا إذ كلما جاءتهم آية ودلائل أخرى زادتهم كفرا، كما قال تعالى: **﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥)﴾** [التوبة]. فنكران الحق لا يزيد الظالمين إلا خسارا، ويدفعهم إلى اللجاجة.

ولذلك كان النهى فى الآية السابقة، ولكن دعاة الحق فى قلوبهم ميل إلى ذكره، وهداية الناس إليه، فقد يدفعهم ذلك إلى أن يعاودوا الدعوة إليه وذكره عند الخائضين منكرين مستهزئين؛ ولذلك كان النص الكريم مكررا النهى فى حال النسيان بسبب الرغبة فى الدعوة إلى الهداية وقوله: **﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾** هى «إن» الشرطية مؤكدة بـ «ما» ويصحب التأكيد بما التأكيد بالنون الثقيلة لغة وبيانا فى (ينسينك)، وهذا من مواضع وجوب التأكيد، والمعنى إن أنساك الشيطان، نسيانا مؤكدا فقعدت معهم، فلا تقعد بعد التذكر معهم؛ لأنهم ظالمون، ولأجل بيان بعض مرامى النص نتكلم فى النواحى الآتية:

الأولى - أن التأكيد إنما هو فى النسيان، وأن السبب هو الشيطان، وإذا كان الشيطان هو السبب فى الوسوسة التى أدت إلى ذلك النسيان فإنه يجب التوقى منه ومحاربته، وعدم الأخذ بما يدعو إليه، والتوبة والإقلاع عما دعا، ولكن هل الشيطان بمعنى إبليس يسيطر على نفس النبى ﷺ فينسيه ما يجب عليه، وإن الذى نعلمه، وهو مقرر أن إبليس نزعت من قلبه علقته، فهو لا يؤثر فى نفس النبى ﷺ ولكن الطبيعة الإنسانية هى التى تعترى الإنسان فينسى، فكيف ينسب نسيان النبى إلى الشيطان؟ وقد أجيب عن ذلك بأن المراد بالخطاب فى هذا المقام من يخاطب من الأمة، فليس للنبى ﷺ ولكن اللفظ للنبى ﷺ فلا بد أن يدخل فيه ابتداء بمقتضى السياق، وإن كان الأمر يعم كل داع، والجواب الذى نرتضيه أن الشيطان ليس هو إبليس هنا، إنما هو ما يعترى النفس الإنسانية، من غفوات، أو سهو وهو جائز على النبى ﷺ فى غير بيان الأحكام، والتبليغ عن الله تعالى، فإن النسيان فى هذا يتنافى مع مقام الرسالة من الله تعالت قدرته، وسمت حكمته. وعبر عن النسيان بنسبته إلى الشيطان للإشارة إلى وجوب توقِّيه.

الثانية- أن النهى جاء بعد التذكر، فلا نهى فى حال النسيان لأنه رفع عن الأمة الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه، وقال سبحانه: ﴿**فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾ عبر سبحانه وتعالى عن الذكر بالذكرى، ومعنى الذكرى كثرة الذكر، والتحرى له، والحرص عليه، وذلك فيه إيماء إلى وجوب التحرز من النسيان ما أمكن، حتى لا يزداد الداعى تعبا، ويزداد المدعو لجاجة، فلا دعوة إلى الحق مع الإعراض عنه واللجاجة فى الإعراض.

الثالثة- أن النص الكريم منع من القعود مع القوم الظالمين. أى تجمعوا وتحزبوا، وهم مستمرون فى ظلمهم بكفرهم، وإصرارهم عليه، ولجاجتهم، واستهزائهم، ففى النص وصف لهم بالظلم، وأنه السبب فى عدم القعود معهم.

وإن دعاة الباطل يتخذون لهم أوكارا، لا يجالسهم فيها إلا من هم على شاكلتهم، فيجب الابتعاد عنهم.

﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ الباعث لأهل التقوى على الجلوس والاستماع إلى الظالمين، وهم يخوضون فى الآيات البينات الثابتة الدالة على صدق محمد ﷺ منكرين، جاحدين مستهزئين، لاجّين فى عنادهم هو رغبتهم الملحفة فى الهداية فأشارت الآية الكريمة أنه لا رجاء فيهم، ولا غضاضة على أهل التقوى فى ذلك؛ لأنهم ما عليهم إلا التذكير، وما عليهم من تبعات أعمالهم شىء إنما تبعات أعمالهم عليهم.

وهذا النص الكريم الذى نتكلم فى معناه يبين أن الذين يتقون الله تعالى حق تقاته، ويجعلون بينهم وبين غضبه سبحانه وتعالى وقاية ليس عليهم تبعة عن أعمال الذين يخوضون فى آيات الله تعالى، فالمراد من حسابهم أى أعمالهم المحسوبة عليهم، فهو من إطلاق المصدر على اسم المفعول باعتبار أن العمل هو السبب فى الحساب، وهو من إطلاق اسم المسبب، وإرادة السبب، والمعنى ما دمتم قد أديتم واجب الإرشاد والتذكير، فما عليكم من تبعة أعمالهم من شىء. ولقد قال فى معنى ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ الأصفهانى ما نصه: وقوله تعالى: ﴿... مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ ... (٥٢)﴾ [الأنعام] فنجد قوله تعالى: ﴿... عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ... (١٠٥)﴾ [المائدة] أى أن المعنى ما دام أهل التقوى قد أدوا، فلا حساب عليهم، ولا ينالهم أذى من حسابهم، وقوله: ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ «من» هنا للدلالة على عموم النفى واستغراقه، أو تأكيد استغراقه، أى ما عليكم أى قدر -ولو ضؤل- من تبعات أعمالهم ما دمتم قد ذكرتموهم العاقبة لما هم عليه، فالواجب عليكم التذكير، ولذا قال سبحانه:

﴿وَلَكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

هذا النص الكريم يبين ما على النبى والمتقين من بعد إلا التذكير الثابت الدائم المستمر، وفى أوقات يرجى فيها الإنصات والالتفات، والعناية بما يلقى عليهم، وذلك التذكير لرجاء أن يكونوا فى حال من يتوقع إيمانهم، والتذكير بذاته موجب للإيمان إذا زالت الموانع، وأشد الموانع أن يسبق الجحود، وأن تغلف القلوب، فالرجاء فى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ليس من الله تعالى، ولكن لتصوير حالهم إذا استقامت قلوبهم، وخلصت من الشر والجحود نفوسهم، وهو أنه يرجى إيمانهم، ولكنهم أحلوا محل الرجاء الجحود، والإصرار على الكفر، والعناد.. وقانا الله شر ذلك، وجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟
دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ
أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ
وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ
أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ
مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ
كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ
يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ

وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

بين الله سبحانه وتعالى قدرته القاهرة، وأنه الملجأ فى الكرب، ومع ذلك كانوا يخوضون، ويعبثون، والله يأمر نبيه بأن يعرض عنهم ولكنهم يستمرون فى استهزائهم بالمتقين إذ كانوا ضعفاء فيسخرون منهم، وبذلك اتخذوا دينهم الذى كان يجب عليهم أن يعتنقوه لعبا، وذلك من غرورهم بالحياة، وظنهم أن الحياة الدنيا هى الباقية، أو لا حياة بعدها؛ ولذا قال تعالى بعد أن أمر نبيه بالإعراض عن مجالسهم قال آمرا له:

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾.

«ذَرْ» بمعنى اترك، وقال علماء النحو: إن «ذر» و«دع» لا ماضىَ لهما، ولكن لهما مضارع وأمر، ولكن وجدنا فى أساس البلاغة للزمخشرى أن ماضيها حى يستعمل، فقد جاء فيه إذا قيل للقوم: ذروا هذا، قالوا: وذرناه.

والمعنى أعرض عن الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا، والدين المضاف إليهم هو عبادة الأوثان التى عبدوها كأنهم اتخذوها لعبا ولهوا، واللعب هو الفعل الذى ليس مقصد يقره أهل العقل، واللهو ما يتلهى به، ويشغل به عن الأمر الجاد المنتج المثمر، الذى يكون له غرض مقصود مطلوب، فهؤلاء فى اتخاذهم الأوثان التى يصنعونها ولا تنفع ولا تضر آلهة تعبد كأنهم يلعبون إذ يعملون عملا لا يقره أهل

العقل والإدراك، ويلهون لأنه عبث يعبثون به، ولا غاية له عند أهل الفكر والمنطق؛ ولا على أن يفسر الدين بما هم عليه من عبادة الأوثان.

ويرد على ذلك التفسير أن هذا ليس جديرا بأن يسمى دينا، ولو كان مضافا إليهم.

ورأى بعض المفسرين أن المراد من دينهم الإسلام؛ لأنه الدين الذى جاء إليهم، وهم مخاطبون به، ومكلفون أن يتبعوه، فهو دينهم الذى جاء به رسول منهم، وهو الذى ارتضاه لهم أن يكون دينا، وقد اتخذوا ذلك الدين لعبا ولهوا، إذ لم يفهموا ما هم عليه، ومعنى اتخاذه لعبا ولهوا أنهم سخروا بمن اتبعه، وتهكموا على أهله، وأخذوا يخوضون فيه لعبا فى مجالسهم، ولهوا عن الحق، يزكى ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ** ... (٦٨) ﴾ [الأنعام]. وقال تعالى: ﴿ **وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا** (١٤٠) ﴾ [النساء].

وإن هذا اللعب وذلك اللهو وتعابثهم بالمؤمنين سببه هو غرورهم بالحياة الدنيا، وفهمهم لها أنها غاية الوجود ونهايته؛ ولذلك قال تعالى عاطفا على قوله تعالى: ﴿ **اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا** ﴾. أى خدعتهم هذه الحياة، وما اتخذوه فيها من مباهج غير ملتفتين للحياة الآخرة، ولا مؤمنين بها، ولا بالبعث والنشور، ﴿ **وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ** (٣٢) ﴾ [الأنعام].

خدعوا بالحياة الدنيا، فكان منهم ما كان من العبث بالحقائق الدينية والسخرية بأهلها؛ ولذا أمر الله تعالى نبيه - وإن ذلك فيه معنى التهديد لهم - بأن يتركهم فى غيهم حتى يفاجئوا بمآلهم، ولكن مع ذلك أمر الله تعالى نبيه

رحمة بهم، أن يذكرهم دائما رحمة لمن يهتدى، ويطلب الحق، ويشغل به نفسه، فقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾.

الضمير فى «به» قال أكثر المفسرين: أنه يعود على القرآن، والقرآن فى حضور كل ذهن فكأنه مذكور يعود الضمير عليه، وأميل إلى أن الضمير الذى يعود إلى الدين الذى هم مكلفون أن يأخذوا به، ويتبعوا هديه، وإن الله تعالى مع أمره نبيه أن يتركهم فلا يلتفت إلى هزلهم وعبثهم واستهزائهم بالمؤمنين، أمره بأن يستمر فى تذكيرهم بالدين تبليغا لرسالته التى أنزلت عليه، ولا يأخذنه الأذى الذى ينزلونه به وبمن معه، فذلك هو ما يصيب دعاة الحق، ولكن يجب مع الإعراض عن لعبهم ولهوهم أن يستمر فى دعوته ومثله معهم كمثل المربى الكامل الذى لا يهمه عبث تلاميذه، يعرض عنه، ولكن يستمر فى هدايته لهم.

وذكر بالدِّين كراهة أن تبسل نفس بما كسبت، والابتسال: معناه فى اللغة الإسلام إلى الهلاك، وأن تؤخذ بسوء ما اختارت.

والمعنى الجلى لا تشغل نفسك بلهوهم وعبثهم، ولا يمنعنك ذلك من أن تستمر فى تذكيرهم، حتى لا يسلموا إلى الهلاك ويمنعوا من الخير، ويكون نصيبهم جهنم وبئس المصير، وإنك منذر، ولكل قوم هادٍ.

وإنه فى هذه الحال لا منجاة لهم منها، فلا ينقذهم منها ولى يناصرهم، ولا شفيع يشفع لهم، إذ هى الهلاك الدائم والعذاب المستمر؛ ولذا قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾ وإذا أسلموا إلى الهلاك فى جهنم لا يكون لهم من غير الله ولى يناصرهم أو يواليهم بمقتضى القرابة أو العصبة التى كانوا يتنادون بها، أو شفيع يشفع، ويترضى عنهم، وإن يقدموا ما يستطيعون من فداء لا يقبل منهم فلا ولاية ولا شفاعة ولا فدية من عذاب أليم، فالعدل: هو الفداء الذى يعادل ما ارتكبوا، ويخرجون به من النار والعذاب، ومعنى ﴿وَإِن تَعْدِلْ﴾، وإن تقدم فداء؛ يكون عدلا، لا يؤخذ منهم.

وقوله تعالى: ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أى من غيره، والتعبير بقوله «من دون» إشارة إلى أنه مهما يكن فى نظرهم فهو دون الله، والله هو العلى المسيطر على كل شىء.

وقد بين بعد ذلك هذا العقاب الذى لا مناص منه، ولا منجاة ولا خلاص، فقال تعالت قدرته: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

والإشارة إلى الذين يخوضون فى آيات الله تعالى، الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا، وكانوا يسخرون من الذين آمنوا وهم يذكرون بالدين الذى بعث به رسوله إليهم، وقد كانوا بفعلهم هذا ﴿أُبْسِلُوا﴾ أى أسلموا أنفسهم للهلاك والبوار، وأتوا إلى النار، ذلك بما كسبوا من عبث وكفر، وعتو، واستهانة، وعبر سبحانه بقوله: ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ للإشارة إلى أنهم قد فعلوا ذلك يريدون الكسب، فكان ذلك العذاب، فهم اشتروا العذاب والضلالة بالهدى، وهذا العذاب شديد يحيط بكل أجسامهم، النار فى بطونهم وفى جلودهم، لهم شراب من حميم أى ماء يغلى يدخل بطونهم، فيمزق أمعاءهم، وهو نار فى جوفهم، ونار تكوى جلودهم ﴿... كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ... (٥٦)﴾ [النساء]. ولهم بذلك عذاب أليم وذلك العذاب بما كانوا يكفرون أى بسبب كفرهم المستمر الذى كان يتجدد، فكانوا يحدثون كل وقت من مظاهر ما أوجب استحقاقهم لهذا الألم؛ فمرة يسخرون من النبى ﷺ ومن معه، ومرة يؤذون المستضعفين من المؤمنين، ومرة يقطعون عنهم الميرة[1]، ويقاطعونهم وأهلهم، ومرة يؤذون النبى ﷺ، وأخرى يخوضون فى آيات الله تعالى، ويتخذون الدين الذى بعث به رسول منهم لعبا ولهوا، فهو كفر مستمر متعدد الوجوه أساسه الجحود، والآيات قائمة.

(١) المِيرَةُ، بالكسر: جَلَبُ الطَّعامِ. القاموس المحيط (مير).

وإن ذلك كله الأصل فيه ضلال استهواهم، وهو عبادة أحجار لا تضر ولا تنفع، قد صنعوها بأيديهم ثم عبدوها بقلوبهم؛ ولذا قال الله تعالى: **﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا﴾**.

الله سبحانه وتعالى يأمر نبيه بأن يقول مصورا ضلالهم، وفساد تفكيرهم فى أن يعود محمد وأصحابه إلى عقيدتهم، فيقول: **﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا﴾**.

ذلك أن قريشا بذلوا ما بذلوا فى سبيل حمل محمد ﷺ على أن يرجع عن دعوته، عرضوا عليه المال، وعرضوا عليه الإمرة عليهم، وعرضوا عليه كل ما يظنون أنه يرغبه فى العود إليهم، كما يتصورون، ليرتاحوا فى ذات أنفسهم حاسبين أن ما يدعوهم إليه يضرهم فى عصبيتهم وجاهليتهم، وأنه يمنعهم مما كان عليه آباؤهم.

فالله أمر نبيه أن يستنكر ما يدعونه إليه، ويبين فى استنكاره بطلان ما يعتقدون، وأنه انحدار فى الإنسانية، وذلك من الجدل الحكيم، والدعوة إلى الإسلام فى رفق وتواضع، فيقول: **﴿أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا﴾** أى لا يملك نفعا ولا ضرا، ولا يملك من أمره شيئا، ولا يملك موتا ولا حياة، وإن هذا إهمال لحكم العقل، نترك عبادة ما يضر وينفع، وهو مالك كل شىء وهو القاهر فوق عباده، وهو الذى نلجأ إليه فى شدائد البحر والبر، كيف نترك عبادته إلى ما تدعونا إليه من أوثان لا تنفع ولا تضر، وإن الله تعالى قد هدانا إليه سبحانه، وإن ما تدعوننا إليه نكسة بعد تقدم، ورجعة بعد الهداية؛ ولذلك قال تعالى فيما أمر به نبيه: **﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾** أى أنرد إلى الضلال بعد الهدى، وإلى الباطل بعد الحق، وإلى الظلمات بعد النور، وعبر سبحانه وتعالى عن ذلك بقوله وأن نرد على أعقابنا. العقب ما وراء القدم، أى أنرجع مدبرين على أعقابنا، منكسين بعد أن أبان الله الحق واهتدينا بهديه، وامتلأت قلوبنا بوحدانيته فى العبادة، فلا نعبد سواه.

وقوله تعالى: ﴿أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا﴾ وقد فسر الزمخشرى (ندعو) بنَعْبُد، وهو حسن، ويصح أن نفسر (ندعو) بكل دعاء بالعبادة وبالاستغاثة، وبالاستعانة فى النصر، وغير ذلك مما يدعون به أصنامهم. وقدم نفى النفع على نفى الضرر؛ لأن نفى النفع أجلب للترك، إذ إن من يدعو إنما يدعو لنفعه لا للضرر ولذا قدم عليه.

والاستفهام هذا إنكارى بمعنى النفى، أى لا ندعو ما لا ينفعنا ولا يضرنا، وهو نفى فيه معنى التوبيخ لمن يدعو ما لا ينفعه ولا يضره.

وقد صور الله تعالى حالهم فى دعوتهم إلى الباطل من اهتدى، ومن تنزل عليه أسباب الهداية كحال الشياطين التى تستهوى الضال بدعوتهم إلى ما لا هداية فيه؛ بجوار أن له أصحابا يدعونه إلى الطريق اللاحب(١)، والسير فيما فيه النجاة فقال تعالى: ﴿كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا﴾.

استهواه أى طلب هواه واستولى عليه يوجهه كيف شاء، كالذين يصنعون ذلك بالنوم، والاستيلاء على الحس، والشياطين هم الذين يضلون، ومن ذلك الأوهام التى تعترى من يسير فى صحراء قفراء يتلمس المرشد فى مهامه الأرض(٢)، فيسمعه الوهم نداء يسير به فى طريق الضلال، وسماهم الله تعالى شياطين تستهوى الأنفس، فيسيرون وراء هذه الأوهام والضلال كما قال المفسرون، وفى الوقت نفسه له أصحاب يدعونه إلى الطريق المستقيم، وهو حيران متردد بين دعوة الأوهام والدعوة الحق، فهو تشبيه حال المؤمن الذى يرى الأوهام ويرى الهادى.

(١) لحب: اللَّحْبُ: الطريق الواضح، واللاحب مثله. ويقال أيضًا: لَحَبَ، إذا مرَّ مرًا مستقيمًا. الصحاح للجوهري (لحب).
(٢) المَهْمَهُ: المفازةُ البعيدة الأطراف، والجمع المَهامِهُ. الصحاح للجوهري.

وهذا تصوير من الله تعالى لحال من يترك الحق إلى أوهام، ويكون حيران أى مترددا بين الضلال والهدى، وبين النور والظلمة.

وقد أمر الله تعالى نبيه أن يقول لهم بعد هذا التشبيه البين المبين: ﴿**قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ أى إن هدى الله تعالى هو وحده الهدى أى لا هدى غيره، وقد بين سبحانه أن الهدى هو حق الله وحده، بالعبارة الدالة على القصر، وهى تعريف الطرفين، وضمير الفصل، الذى يدل على أنه لا هداية غير هداية الله، ومن عُدِم هذه الهداية فهو فى ضلال مبين.

ولقد قال تعالى فيما ترتب على أن الهداية من الله وحده: ﴿**وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ أى أمرنا من الله تعالى الهادى إلى سواء السبيل بألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا، وأن نكفر بالجبت والطاغوت، وأن نطيع الله تعالى الذى أحل لنا الطيبات وحرم علينا الخبائث، وأن نكون ربانيين وذلك لنسلم، اللام لام العاقبة أو لام كى للتعليل، ونسلم أى نخلص، ونكون لله تعالى حده، وقد أسلمنا وجهنا لله مخلصين له سبحانه.

وهنا كان البناء للمجهول لأن الآمر معلوم، وهو فى صدورنا وأطواء نفوسنا، ولم تذكر المأمورات، ولكن ذكرت نهايتها وغايتها، وهو أن نسلم لرب العالمين الذى خلقنا وربانا، ويقوم على عامة أمورنا وخاصتها، وهو الحى القيوم.

ويلاحظ أن الله تعالى أمر نبيه أن يقول أندعو ما لا ينفعنا ولا يضرنا، وكل ما كان من بعده بصيغة المتكلم ومعه غيره، وذلك لأن النبى ﷺ كما أمره ربه، كان يتكلم ومعه المؤمنون المخلصون الذين لاقوا الشدائد فى مكة حتى هاجر منهم إلى الحبشة من هاجر، وقد آذاهم المشركون يريدون ردهم على أعقابهم بعد إذ هداهم الله.

فالله تعالى أمر نبيه بأن يقول هذا القول عنه وعنهم، ليلقى اليأس فى قلوب المشركين من أن يعود أحد إلى الشرك بعد الوحدانية، وإلى الكفر بعد أن ذاقوا حلاوة الإيمان.

وقد قال من بعد أن ذكرنا ما قرره النبى ﷺ ومن معه من المؤمنين: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

حكى النبى ﷺ أمر الله تعالى بالصيغة التى أمره الله تعالى بها، فقال: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ وهذا عطف على معنى (لنسلم)، أى أمرنا سبحانه بأن نسلم لله رب العالمين، وأمرنا أن نقيم الصلاة ،وكان الأمر بإقامة الصلاة بصيغة قول الله تعالى، لا قول النبى ﷺ لمكانة الصلاة فى الدين، فإنه لا دين من غير صلاة،فهى عموده، وهى لُبه، وهى مظهره ودلالته، والوحدانية أظهر ما تكون فى الصلاة فهى عبادة الله وحده لا يشرك به شيئا فيها، إلا أن يرائى، فهذه ليست صلاة.

وطلب الله تعالى من المؤمن إقامة الصلاة بأن يأتى بها مقومة كاملة فى أركانها الظاهرة، ومعانيها من خشوع وخضوع ، يتحقق فيها قوله تعالى: ﴿... إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ... (٤٥)﴾ [العنكبوت].

وأورد سبحانه وتعالى إقامة الصلاة بالأمر بالتقوى فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ أى اجعلوا بينكم وبين الله تعالى وقاية بينكم وبين غضبه بإطاعته حق الطاعة فيما يأمر وينهى، وأن يملأ نفسه بتقواه دائما، فيذكره فى سره وعلانيته، ويملأ قلبه بخشيته، ويحس بأنه يراه دائما، ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، يحس بأنه مع الله دائما، وبذلك يتربى فيه معنى الربوبية.

وذكر تعالى ما يربى التقوى فى النفس، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أى وآمنوا بأنكم إليه تحشرون وهذا التعبير السامى يتضمن ثلاث حقائق يجب الإيمان بها:

الحقيقة الأولى- البعث وأن الناس يجتمعون بين يديه سبحانه وتعالى، وأن الإيمان بالبعث هو سر الإيمان وهو علو بالنفس الإنسانية إلى المرتبة السامية فلا يكون آكلا شاربا فقط يقول: ﴿إِنْ هِىَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧)﴾ [المؤمنون] بل يعلو بإنسانيته يفعل الخير، ويرجو الجزاء.

الحقيقة الثانية- أن الملك لله وحده، وأنه فى هذا اليوم هو الحكم وحده، فهو مالك يوم الدين، وقد دل النص السامى على ذلك بقوله: ﴿**إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾ بتقديم «إليه» على الفعل أى إليه وحده تحشرون، فالمصير إليه سبحانه.

الحقيقة الثالثة- الحساب والعقاب والثواب فهو نهاية الحشر فتجزى كل نفس ما كسبت.

وقد ذكر سبحانه ما يدل على البعث والنشور بكمال قدرته فقال تعالت حكمته: ﴿**وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ**﴾ أى خلق سبحانه وتعالى السموات والأرض وما فيهما، بالأمر الثابت وهو الحق، أى خلقه قائما على الحق والحكمة، وأنه قدر وجود هذا الكون بحكمته، وما خلقه ليفنى وينتهى، بل خلقه ليبقى، ويستمر، وهذا كقوله تعالى: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥)**﴾ [المؤمنون]. بل إنكم راجعون وستبقون إما فى نعيم مقيم وإما فى عذاب خالد وقال القرطبى: معنى بالحق، أى بكلمة الحق، وهى كن، وما ذكرناه أوضح.

ثم بين سبحانه وتعالى أن بعثهم ليس شيئا عسيرا ولا بعيدا ولا غريبا، بل إن البعث يكون بكلمة هى الحق فقال تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ**﴾. أى هذا القول الثابت الذى هو حق فى ذاته، وهو كن فيكون أى أنه بقوله تعالى: كن، فإنه يكون كل شىء قد حضر فيجمع ما بعث من القبور، ويخرج الناس أشتاتا، مهما يكونوا وأينما يكونوا، كما قال تعالى: ﴿**قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً (٥٢)**﴾ [الإسراء] فيوم يقول كن فيكون يكون البعث الكامل.

وقد قال سبحانه وتعالى إن قوله هذا هو الحق الذى لا ريب فيه، وإنه آت لا محالة؛ ولذا قال: ﴿**قَوْلُهُ الْحَقُّ**﴾ وهو مبتدأ خبره ﴿**يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ**﴾ أى

الظرف الذى تعلق بالخبر، ووصف سبحانه وتعالى ذلك بالحق لما أحاطه من إنكار وجحود، واستغراب وعجب، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ... (٥)﴾ [الرعد]، وأن الله تعالى يذكر حال ذلك اليوم الذى يقول سبحانه وتعالى قوله الحق ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ يكون الملك الثابت الدائم الذى لا يشاركه فيه أحد؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ والصور كما يقول القرطبى - قرن من نور ينفخ فيه بقدرة الله تعالى فيكون الجمع مما بعث فى القبور من بعده الحساب والعقاب أو الثواب كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١)﴾ [المؤمنون].

وقد وصف الله تعالى ذاته الكريمة بما يدل على أنه يعلم كل ما يفعله الذين يبعثون، فقال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أى يعلم ما غيَّب، وما يشهد ويحضر، أى يعلم ما تسرون وما تعلنون، ويكافىء الناس على ما عملوا إن خيرا فخير، وإن شرا فشر وكل امرىء بما كسب رهين.

وإن ذلك كله على مقتضى حكمته وعلمه الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماء ولا فى الأرض؛ ولذا ختم سبحانه وتعالى النص الكريم بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

إيمان إبراهيم بعد تفكير وتأملاته فى الكون

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ۖ إِنِّي
أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ
مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾
فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ
لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا
رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ
الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا
أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾
إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

كان الكلام فى الآيات السابقات فى الأصنام، وأنها لا تنفع ولا تضر، وأنها لا تملك من أمر نفسها شيئا، حتى تملك من أمر غيرها، ممن يدعونها واقعين تحت أوهام تضافرت وتكاثرت عليها السنون حتى صارت كأنها حقائق فى زعمهم، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى كيف أنكرها أبو العرب الذى يعتزون بنسبهم إليه، وأنه عدها ضلالا مبينا، وخاطب بذلك أباه مستنكرا، ورؤية الحقائق بارزة من لسان شخص يكون أشد أثرا، وأنقى فكرا وأبعث على الاعتبار.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾.

«إذ» ظرف للزمان، والمعنى اذكر لهم ما كان فى الماضى من موقف أبيهم إبراهيم -عليه السلام- من الأصنام، إذ قال لأبيه الذى كان يحبه، ويؤثره، مستنكرا ما كان منه من عبادة: أتتخذ أصناما آلهة؟، وهو استفهام إنكارى للتوبيخ، ولم يمنعه مقام الأب من أن يوبخه على عظيم ما يرتكب مستنكرا فعله: أتتخذ أصناما مصنوعة صنعتها أنت وأمثالك أتتخذها آلهة تعبد، أى أتتخذ من صناعتك آلهة معبودة، إن ذلك ضلالا مبينا تصنعه الأوهام فى العقول حتى تجعل غير المعقول اعتقادا، ولذا قال لأبيه الذى كان يحبه: ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ﴾ إنى أراك مع قومك ﴿فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾، أى بين واضح، والتعبير باسم الفاعل (مبين) للمبالغة فى وضوح الضلال أى الضلال مبين لنفسه موضح لها، إذ كيف تصنع بيديك حجرا، ثم تعبده، هذا إجمال كلامه لأبيه، ولقد فصل الله سبحانه وتعالى مقالته لأبيه، فى آية أخرى، فقال تعالى حكاية للمجاوبة التى كانت بينهما: ﴿... إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨)﴾ [مريم].

اعتزل قومه وأباه، وكان فى بلد يعبد أهله النجوم، ولهم علم بها فانصرف إلى تعرف حال النجوم التى يقدسونها، ويجاريهم فى تقديسها، حتى تبين له ولهم أنها غير جديرة بالتقديس والربوبية؛ لأنها متغيرة وتأفل وتختفى ثم تظهر، وذلك ليس شأن الإله الخالق المنشئ المبدع.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كهذا الإلهام الذى ألهمه إبراهيم صغيرا من إنكاره الأصنام، نرى إبراهيم سر الوجود نريه (ملكوت): أى ملك، وزيدت الواو والتاء للمبالغة فى ملك الله تعالى، وأنسب أنها للمبالغة فى سر الملك، وهو دلالته على الخالق المنشىء ليعلم ويعرف، ويحكم بالحق، وقال تعالى: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾، الواو للعطف على فعل مفهوم من مضمون الكلام السابق، إذ تقدير القول نرى إبراهيم سر الملك فى السموات والأرض، وما يدل عليه ليعرف الله تعالى، وليكون من الموقنين الذين يعرفون الحق، ويجزمون به من دليله، ومن المعاينة التى تكشف عما غيب، لتَعَرُّف الغيب من مظاهر الحس.

قد أخذ إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- وهو بعد لم يبلغ أشده كما تدل على ذلك الأخبار الصحاح يتعرف الإله على ما يجرى عليه علمهم، وما يقدسون، لقد كانوا يقدسون الكواكب أو يعبدونها ويسمون أصنامهم بأسمائها، أخذ يتتبع النجوم والكواكب، يتعرف خواصها فى ظهورها، وخفائها، وذلك فى الليل، لأنه وقت ظهورها، إذ ضوء الشمس يخفيها، ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ مسايرة لهم فى تفكيرهم واعتقادهم، أى على حسب ما تدعون وما تعبدون، ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ واختفى، وجده قد تغير من حال ظهور إلى حال اختفاء، وليس ذلك شأن الرب القائم على كل شىء؛ ولذا أثبت لهم لأول وهلة أن هذا لا يمكن أن يكون ربا وقال مبينا بغض هذه الحال، وأنه لا يعبد ما يكون على هذه الشاكلة، ﴿قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾، وإذا كنت لا أحبها فإنى لا أعبدها؛ لأن العبادة محبة، وإذا فقدت المحبة فلا عبادة.

واتجه إلى كوكب آخر وهو القمر، فقال الله تعالى عنه: ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا﴾ أى باديا فى أوله- ﴿قَالَ﴾ مسايرا لهم ومتجها فى الظاهر اتجاههم أو ظانا: ﴿هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ﴾ تبين أنه لا يصلح إلها، وأراهم رأى العين أنه لا يصلح إلها ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾.

ولقد قال المفسرون أو الكثير منهم: إنه ما قال فى واحدة هذا ربى مؤمنا بذلك أو ظنا له، وإنما قاله مسايرة لهم فى اتجاههم ليبين من وراء ذلك بطلان ما يعتقدون على أساس أن تساير مجادلك فيما يعتقد، ثم تبين نتيجة قوله، وأنه ينتهى إلى غير الحق فتأخذه معك إلى الحق برضا واختيار، أو بقطع وإفحام.

وقال بعض آخر من المفسرين: إنه يتلمس الإله الذى يعبد بحق، بفطرته المستقيمة المدركة التى أدرك بها أنه لا يمكن أن يكون ما يجرى عليه الأفول إلها، فهو عندما قال: هذا ربى على النجم وقد كان يظنه ربا، فلما أفل عدل عن وصفه بالربوبية.

وهذا ما نراه؛ لأنه يتفق بعد ذلك مع قوله عندما رأى بزوغ القمر وأفوله إنه علم أنه ضال إن اعتمد على تفكيره من غير أن تلمسه نعمة الهداية من الله الذى علم مظاهر ألوهيته، وتلمسها فيما يعتقد قوم أبيه فى الكواكب والنجوم، والشمس والقمر، وقال: ﴿**لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ**﴾ أقسم أنه أصبح فى حاجة إلى هداية من ربه يهتدى بها فى هذا الديجور، فاللام لام القسم، واللام الأخيرة فى جوابه، وأكد أنه يكون من الضالين الذين لا سبيل عندهم إلى الهداية إلى الحق فى الألوهية، إن لم يهده ربه الذى لا يعرفه، ويريد أن يعرفه.

وإن هذا الكلام يدل على أنه يعلم أن له ربا هو الذى أنشأه ورباه، ويقوم على حفظه وصيانته، ولكن ما هو؟ لقد تلمسه فى كوكب ساطع من الكواكب فى دُجُنَّة الليل البهيم كأهل بلده، فلم يجده، وتلمسه فى القمر فلم يجده، فاتجه طالبا الهداية إليه، وإن كان لم يعرفه فى النجوم.

ثم عاوده طلب المعرفة فى الشمس الساطعة التى هى ضياء الوجود، وتمده بالدفء والحرارة ﴿**فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ**﴾ تتبع الكواكب متدرجا إلى القمر، ثم تدرج إلى الشمس التى تمد الوجود كله بالنور فى النهار، والدفء فى الليل والنهار، وتمد الأحياء من

حيوان ونبات، وأشجار بعناصر الحياة، اتجه إليها، فلم يجد فيها معنى الإله الذى لا يتغير ولا يتبدل؛ ولذا رفض شرك أولئك الذين يعبدون الكواكب، ويظنونها قادرة على كل شيء، وابتدأ من أصغرها إلى أكبرها، وقال عليه السلام: ﴿**إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ**﴾ لا أعبده، ولا أشركه مع القادر سبحانه.

انتهت نظرات إبراهيم الناشيء. وسياق المؤرخين يدل على أنه فى ذلك الإبان كان ناشئا، ولم يكن قد بلغ أشده - اتجه إلى رفض عبادة النجوم، والأصنام التى تسمّت بأسمائها، واتجه إلى خالق الكون وما فيه، ومن فيه، وإنه قد آمن بأن له موجدا لا محالة، وبطل أن يكون كوكبا أو نجما، أو قمرا أو شمسا، فلم يبق إلا أن يكون موجودا واجب الوجود، وليس واحدا مما رأى.

ولذا اتجه إليه وحده، لا على أنه قد عرف ذاته، ولكن عرف وجوده وكفاه ذلك معرفة؛ ولذا قال الله تعالى عنه: ﴿**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ إنى وجهت نفسى، وعبر عن ذلك بوجهه؛ لأن الوجه هو الذى يواجه به، ويتجه به إلى ما يتجه، ولأنه مظهر الخضوع والطاعة وبه يكون السجود، فكان الوجه له مظهر يجعله صالحا لأن يعبر به عن الجسم كله.

اتجه إلى الخالق لأنه عرفه مما خلق، والأثر يدل على المؤثر، و(فطر) معناها أنشأه وأوجده على غير مثال سبق، وهذا يدل على أن الفطرة السليمة تدرك بذاتها من فطرها؛ ولذا قال تعالى فى دين الحق: ﴿... **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** (٣٠)﴾ [الروم].

وإن بعض العلماء كالظاهرية يرون أن إدراك الله تعالى بدهيٌّ يدرك بالبداهة، لا بالبرهان ذلك أن إبراهيم- عليه السلام- أدرك الله تعالى بفطرته بعد أن أبعد عنها ضلال الوثنية، ولأن أوهام الوثنية غشاء صفيق يحول بين الفطرة وإدراكها السليم.

وقد صنع الشاب إبراهيم- عليه السلام- صنيع المدرك الفاهم، فأخذ يزيل هذه الأوهام بعقله الصافى النافذ إلى الحقائق؛ أزالها عن نفسه، وأزالها عن غيره، ولكن آمن، وغيره لم يزلها من عقله الذى لصقت به، فلما زالت الأوهام اتجه فورها إلى ربه الذى أنشأ هذا الوجود، واستدل من هذا الوجود الممكن إلى وجود الله تعالى الكامل الموجود الأول والآخر والظاهر والباطن، والقادر على كل شيء سبحانه.

وقد وصف نبى الله إبرهيم بقوله: ﴿حَنِيفًا﴾ أى متجها ناحية الحق وحده دون غيره، فهو الحق وإن لم أَرَه وهو الكمال وإن لم أحسه بالجارحة فقد أدركته بعقلى وقلبى، وهو ملء نفسى.

وقد ختم بقوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ نفى أن يكون من المشركين، فذكر ضمير المتكلم فى موضع النفى، وقد نفى أن يكون فى عداد المشركين الذين أشركوا النجوم مع الله أو الأصنام التى تسمت بأسمائها، وبذلك انخلع من الشرك وأهله، وصار حجة للمؤمنين على الكافرين.

بين العقل والأوهام

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾

انتهى إبراهيم بعد أن تعرف الكواكب وأحوالها، وأن واحدا منها لا يمكن أن يكون الذى يعبد، وأن الأصنام لا تنفع ولا تضر اتجه إلى خالق الكون، واعتزل الشرك، وقال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ... ﴿٤٨﴾﴾ [مريم]. وبعد هذا أخذوا يحاجونه فى أمر أصنامهم وقوتها وهددوه بأنه سيصيبه منها ضرر، وهو يقول لهم: إن كانت تكيد وتضر، فكيدونى ولا تنظرونى.

والمحاجة التى أقاموها بينهم وبينه كانت محاجة بين اثنتين أحدهما اعتمد على الهداية والعقل، والثانى اعتمد على الخرافة والوهم، ولقد قال تعالى:

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ والمحاجة أن تكون مناظرة، ويقدم كل واحد من المتناظرين حجته ويدلى ببرهانه، وقد عجب إبراهيم -عليه الصلاة السلام- أن يحاجوه فى الله تعالى منكرين له، وقال: ﴿أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾. والاستفهام إنكارى لإنكار الواقع، وإنكار الواقع توبيخ، فهو يوبخهم ويؤيسّهم من نتيجة المحاجة فيقول ﴿وَقَدْ هَدَانِ﴾ أى أنه لا مطمع لكم فى أن أعود إلى عبادة الأصنام وقد هدانى الله تعالى ووفقنى لأن أدرك أنه وحده المعبود بحق، ولا معبود سواه.

وتدل الآية الكريمة على أن أوهامهم زينت لهم أن أصنامهم قادرة على إنزال الأذى فخوفوه من الأذى، وقد ذكر سبحانه وتعالى محاجتهم لإبراهيم -عليه السلام- فى مواضع من كتابه العزيز، فقد قال تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦)﴾ [الأنبياء].

وجاء فى محاجتهم: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢)﴾ [الشعراء].

هذه عبارات من المحاجة التى أثبت بها أنه سبحانه وتعالى هداه، ولا يصح أن يتوهموا أنه يعود إليهم بعد أن هداه الله وقد هددوه بأن تصيبه آلهتهم بأذى رجاء أن يخاف ويسكت عن أصنامهم وفحطمها، وجعلها جذاذا إلا كبيرها. ولكنه قد اعتصم بالله تعالى، وهو يرى أنها لا تضر ولا تنفع، وهكذا نجد العقل والهدى فى صدام مع الوهم والضلال؛ ولذا قال لهم فى إدراك عقلى مستقيم:

﴿وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ أى إننى لم يستول علىّ الوهم كاستيلائه عليكم، فأخاف مما تشركون عبادته مع الله تعالى، فأنا أعلم أنها لا تضر ولا تنفع، وهى أحجار صماء، تنقل من مكان إلى مكان فكيف أخاف منها، كيف أخاف من حجر لا يسمع ولا يبصر، تصنعونها بأيديكم وتعبدونها بأوهامكم.

وقد كان إبراهيم حريصا فى إجابته، ويخشى أن يصيبه قدر، فيتوهمون أن ذلك من سر آلهتهم، فقطع عليهم- عليه السلام- أسباب ذلك، وقال مطمئنا إلى قضاء الله تعالى: ﴿إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّى شَيْئًا﴾ هذا استثناء يدل على أمرين:

أولهما- تفويضه لله تعالى فى كل أموره، وأنه راض بما يقدره الله تعالى له، يتقبل ما يأتى به، وأنه وحده الذى يفعل ما يشاء.

ثانيهما- الرد عليهم فى أن أصنامهم تستطيع أن تفعل شيئا، إنما الأمر كله لله وحده، هو الذى يصيب بالضرر إن شاء وهو الذى ينزل الخير من سحائب رضوانه إن شاء.

وأنه قادر على ذلك، وهو القادر وحده، وهو العليم بكل شىء يضع الأمور فى مواضعها، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، وكل شىء على مقتضى علمه بما كان، وما سيكون؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ وهو تمييز محول، ومعناه: وسع علم ربى كل شىء، وفى تأخير التمييز إيهام مؤقت للتشويق، وبذلك يثبت فى النفوس علم الله تعالى فضل ثبوت.

وذكره لله تعالى بوصف «ربى» للدلالة على أنه يستشعر معنى الربوبية دائما، فهو الذى رباه، وهو الذى يحميه ويحفظه من كل ضر وسوء، إلا أن يكون ذلك من حكمة أرادها، وهو العليم الخبير.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾ الهمزة للاستفهام، والفاء للإفصاح، والمعنى إذا كان الأمر كله بيد الله تعالى وأن أحجاركم لا تنفع ولا تضر، أفلا

تتذكرون الأمور، وتعرفونها على وجهها، والاستفهام هنا للتحريض على التذكر، ولقد كان حالهم مع إبراهيم، كحال قوم هود مع نبيهم فقالوا له: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ... (٥٦)﴾ [هود].

إن حال هؤلاء الذين ساروا وراء الأوهام عجب، يخوفون نبى الله تعالى من أن يصيبه سوء من أحجارهم التى لا تضر ولا تنفع كما هو مشاهد بالحس ومدرك بالعقل، ومع ذلك لا يخافون أن ينزل بهم مقت من الله تعالى الذى يملك الوجود كله، آلهتهم، وغيرها.

ولذا قال تعالى على لسان إبراهيم - عليه السلام: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾.

الاستفهام هنا للتعجب من المفارقة التى كانت منهم، وهى مفارقة عجيبة يخوفون إبراهيم من أن تصيبه آلهتهم بسوء، ومع ذلك لا يخافون هم من إشراكهم بالله ما لم ينزل به سلطانا، والعجب من ناحيتين:

أولاهما- أن أصنامهم لا تملك نفعا ولا ضرا، والله تعالى يملك كل شىء يملك النفع والضر، والإنقاذ من أسباب الضرر.

وثانيتهما- أنهم يخوفون إبراهيم - عليه السلام - ولا سبب للتخويف ولا يخافون، وقد توافر سبب الخوف، وقوله تعالى: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ قالوا: السلطان هو الحجة، وقد ورد السلطان بمعنى الحجة فى آيات من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ... (٢٣)﴾ [النجم].

و﴿مَّا﴾ دالة على الأصنام التى صنعوها، و ﴿مِن سُلْطَانٍ﴾ لاستغراق النفى، أى ما لم ينزل به سلطانا أى سلطان كان، والتعبير عن الحجة هنا بالسلطان، إشارة أولا إلى أنه لا دليل يسوغ عبادتها، وثانيا أنها: لا قوة لها، ولا سلطان لها، حتى تصيب بسوء أو بنعمة، إنما هى أوهامكم التى جعلت لها تلك الصفة.

وقد رتب الله تعالى على هذه الحال أن قال تعالى: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. الفاء هنا فاء الإفصاح الذى يفصح عن هذا الشرط المقدر، أى إذا كنتم تلجأون إلى من لا يضر ولا ينفع، وتحسبون أنه يمس من لا يعتقد به، وإبراهيم يلجأ إلى الله تعالى الذى يملك كل شىء، فأى الفريقين أحق بأن يكون فى أمن لا خوف أهو الذى يلجأ إلى الله القادر على كل شىء أم الذى يلجأ فى عبادته إلى أصنام لا تضر ولا تنفع؟ وعلق سبحانه وتعالى الحكم على العلم؛ لأنه لا حكم من غير علم؛ ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى إن كنتم تدركون الأمور على وجهها، ولا تسيطر عليكم الأوهام التى تضل ولا تهدى، وقال فى أداة التعليق التى تفيد الشك فى العلم، لا اليقين فيه، وإنه لا ريب الحكم واضح بين، وهم الذين يعبدون الله وحده، ولا يلجأون إلا إليه فى خوفهم.

ولذا قال تعالى فى بيان الفريق الآمن: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾. إذ الأمن من الخزى فى الدنيا، ومن عذاب الله تعالى فى الآخرة، يكون لفريق الإيمان، وهم الذين يؤمنون بالله تعالى ولا يخلطون إيمانهم بأى ظلم، ولا يعبدون مع الله غيره، ولا يقدمون أى شىء إلا بأمره، و «لبس» هنا معناها خلط.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ هنا فسره النبى ﷺ بالشرك، روى أنه لما نزلت هذه الآية ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: أينا لم يظلم نفسه، فقال ﷺ: ليس الذى

تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾(١).

وكان الشرك ظلما، لأنه تجاوز الحد المعقول، إذا كان الظلم تجاوز الحد، فالشرك أشد الأمور تجاوزا للحد، وقد فسر الزمخشرى الظلم بالمعصية سيرا على مذهب من أن مرتكب الكبيرة غير مؤمن، وقد نرى تفسيره من غير أن ننتهى إلى نهايته؛ لأن العصاة وإن كانوا يدخلون فى أهل القبلة ليسوا فى أمن من العذاب إنما يعذبون بمقدار ذنوبهم إلا أن يتغمدهم الله تعالى برحمته.

وقال بعض المفسرين: إن الظلم الذى يعد شركا ما يلبسون به إيمانهم وهو الذى يقرره عباد الأوثان من أنهم يؤمنون بأن الله خالق السموات والأرض ولكنهم يجعلون الأوثان مع الله لأنهم يقربونهم إلى الله زلفى، كما جاء فى قوله تعالى: ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣)﴾ [الزمر] وإن هذا التفسير ينتهى إلى أن الشرك هو الظلم، ولكنه يبين لنا لماذا عبر الله تعالى بقوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ أى بشرك، فإنه يكون هذا التعبير ردا على المشركين الذين يقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، فإنهم يكونون مشركين فى عبادتهم، ولو كانوا معتقدين أن الله وحده هو الذى خلق السموات والأرض، وأنه وحده الذى ينجى من ظلمات البر والبحر، وأنه وحده الذى يكشف الضر، وأنه وحده الذى يلجأ إليه، وإنهم مع هذا الاعتقاد مشركون أوثانهم مع الله تعالى فى العبادة، ومناط الشرك هو الإشراك فى العبادة، وخلوص النفس فى العبادة لله وحده هو الوحدانية الحق، وقد قرر الله تعالى أن الأمن لهؤلاء الذين لم يخلطوا إيمانهم بشرك؛ ولذا قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ الإشارة إلى الموصوفين بالإيمان الذى لم يخالطه ظلم أو شرك،

---

(١) متفق عليه رواه البخارى. ورواه أحمد. وفى آخره زيادة: «إنما هو الشرك». مسند المكثرين - مسند عبد الله بن مسعود رضى الله عنه (٣٥٧٨).

بسبب هذين الوصفين كان لهم الأمن من أن يصيبهم فى الدنيا سوء، وإن كان يصيبهم نصب وتعب فى الحياة الدنيا، وينالون الأمن المطلق فى الحياة الآخرة والنعيم المقيم فيها، ورضوان الله تعالى، وأى أمن أعلى من هذا؟

ووصفهم الله تعالى بوصف فيه راحة النفس واطمئنان البال وهو نعمة الهداية فإنها وحدها نعمة لا يحس بها إلا المهتدون.

انتهت محاجة إبراهيم لقومه الذين كانوا يعبدون الأوثان والكواكب والنجوم، وقد كانت محاجة بين حكم العقل، وحكم الأصنام، وانتهت المحاجة ببيان أن الأمن والهداية فى جانب الحق، ولقد قال سبحانه وتعالى إن حجة إبراهيم هى حجة العقل، وهى الجديرة بأن تنسب إلى الله، ونسبها الله سبحانه وتعالى إليه. فقال تعالى: ﴿**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ**﴾.

الإشارة فى قوله: ﴿**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا**﴾ هى الإشارة للبعيد، وهى تبتدئ من وقت أن جنَّ الليل فرأى كوكبا فظنه ربه، ثم لما أفل نفر منه، وأنكر أن يكون ربا، ولما رأى القمر بازغا ظن هذا ربه، فلما أفل أحس أنه ضال إذ يتبع النجوم والكواكب فى أفلاكها ثم رأى الشمس، فبهره ضياؤها وحجمها، فظنها ربه فلما أفلت علم أن ربه ليس كوكبا، ولا نجما مهما يعظم حجمه، وأن ربه هو خالق الشمس والنجوم، والوجود كله، ثم من بعد ذلك حاجه قومه فأفلج عليهم، الإشارة إلى كل هذا فكانت للبعيد، ولعظم الفكر وقوة الاستدلال مع البعد كانت الإشارة للبعيد، وأضاف الله سبحانه وتعالى الحجة إلى ذاته العلية إعلاء لمكانتها، ولصدقها، وتشريفا لمن أجراها على لسانه وقلبه، وقوله تعالى: ﴿**آتَيْنَاهَا**﴾ أى أعطيناها له بإلهام الفطرة السليمة، والعقل الحنيف الذى لا يميل إلا للحق، ولا يتجه إلا إليه، وكانت هذه حجة قوية، أفلج[1] بها على قومه، وقامت حجة

---

(١) من الفَلْجُ: الظَّفَرُ، والفوزُ. كما فى القاموس.

عليهم فيما يفعلون ويتوهمون، ويزعمون ثم يعتقدون الباطل الذى ليس فيه حق، ولا شبهة حق، إنما البهتان العظيم، والظلم العظيم للحقائق.

وإن الله تعالى اختار إبراهيم أبا الأنبياء لتقوم به الحجة؛ لأنه لم يخلق الناس فى الفكر والعلم على سواء فمنهم الهادى المرشد، الذى اختاره الله تعالى ليكون رسول الحق إلى الناس، ورسوله إليهم، ومنهم الضال الذى يطلب الهداية ومنهم من أركس فى الشر، وختم الله على بصيرته وسمعه وبصره، فلا يدرك حقا، ولا يستمع لداعى الحق؛ ولذا قال تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ الدرجات المراتب العالية فى الهداية والتوفيق، وعبر سبحانه وتعالى بالمضارع «نرفع» لتجدد الرفعة المستمرة، فالوجود الإنسانى يستمر الخير فيه بوجود الهداة المرشدين، والمستمعين الأخيار الذين يستمعون فيقولون سمعنا وأطعنا، وبجوار هؤلاء أولئك الذين يستمعون طيب القول، فيقولون سمعنا وعصينا، وبذلك يتفاعل الخير والشر فى هذه الحياة، وسيق لبيان العاقبة للمتقين، قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٢٦٩)﴾ [البقرة].

وقد ختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾. إن الله الذى رباك وقام على نفسك وعلى عقلك، وهدى الأنفس فجورها وتقواها، وعلمك ما لم تكن تعلم، عليم بكل شىء، حكيم يضع كل شىء بميزان، وله فيما يشاء ويختار الحكم والعبر البالغات، تبارك الله رب العالمين.

أبو الأنبياء

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا
هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ
وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾
وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾
وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ
وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى
بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ
فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾

بعد أن بين الله تعالى هداية إبراهيم -عليه السلام- والتفكير المستقيم الذى هداه إلى ربه، وأن الله رفعه بذلك الإدراك المستقيم، ليكون هاديا مرشدا، ذكر الله سبحانه وتعالى ذريته من النبيين الهداة المهديين من بنى إسرائيل، ومن العرب، وأشار سبحانه إلى من سبقه من النبيين، فذكر نوحا، وهو من قبله.

لم يستطع إبراهيم المقام فى قومه بعد أن بلغ ما بلغ من الإدراك، وبعد أن اتسعت الهوة بينه وبينهم عندما جعل أصنامهم جذاذا وألقوه فى النار، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ

التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلايَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٧) قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ (٧٠) ﴾ [الأنبياء].

رأى إبراهيم ذلك، وأنه لا مقام له بينهم، ولا قبل له بتحويلهم، فهاجر واعتزلهم، وأخذ يطوف فى الآفاق فذهب إلى بلاد الشام، وإلى مصر، وأخذ رسول التوحيد يبث التوحيد فى كل ركن، ولا يصاحبه إلا امرأته ومعه ابن أخيه لوط عليهما السلام.

عوضه الله تعالى عن هذا الانفراد فى هذا التطواف أن وهب له إسحاق ويعقوب، ومن جاء من ذريتهما، وأن جعل من ذريته إسماعيل ويونس ولوطا.

وإذا كان قد عاش مفردا داعيا إلى الله تعالى بين الوثنيين فى الأرض فقد عوضه عن هذا الانفراد بأن جعل فى ذريته النبوة والحكمة، وقد قال تعالى فور اعتزاله لقومه، وهجرته عنهم: ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) ﴾ [مريم]. وإن هذه المهمة لم تكن فور اعتزالهم، بل بعد أن جاهد داعيا إلى الوحدانية فى وسط المدينة حينما كان فى

بلاد المشرق وبعد أن بلغ الكبر، فقد قال تعالى حكاية عنه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩)﴾ [إبراهيم].

ولقد ذكر سبحانه وتعالى فيمن وهبهم له من الأنبياء خمسة عشر نبيا، وذكر نوحا من قبله؛ لأنه أبو الخليقة بعد آدم -عليه السلام- فهو الأب الثانى.

ولقد ذكر الله تعالى طائفة من أنبياء الله تعالى من ذرية إبراهيم بلغ عددها كما ذكرنا خمسة عشر نبيا، كان لكل منهم مزية خصه الله تعالى بها، وذكر رسالة نوح من قبل.

وإن الأنبياء الذين ذكرهم القرآن الكريم فى هذه الآيات من ذرية إبراهيم أولا: إسحاق ويعقوب، لأن إسحاق أول أنبياء بنى إسرائيل، وهو الأب الأول لهم، ويعقوب الذى يسمى إسرائيل، وينسبون إليه، وجاء الرسل والأنبياء من بعده، وقال تعالى عنهما ﴿كُلاًّ هَدَيْنَا﴾ أى أعطى الله تعالى كل واحد منهما هداية قائمة بذاتها؛ لأن كل واحد كان نبيا مبعوثا، وتلك مكرمة لإبراهيم أن جعل ابنه وحفيده نبيين كل له هداية وبعثة.

بعد ذلك ذكر الله تعالى ذريته من غير ترتيب زمنى، ولا ترتيب فى المكانة، وتلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض، ومن غير تفرقة بين أولى العزم من الرسل، وغيرهم، بل ذكرهم القرآن فيما يبدو مجموعات ظاهرة تجمع كل مجموعة منها صفة بارزة فيها.

المجموعة الأولى- بعد ذكر نوح وإسحاق ويعقوب الذين كان لكل واحد منهم هداية بعثه الله تعالى بها، وإن تلاقت الهدايات كلها؛ لأنها من الله تعالى موحد الشرائع، وهم: داود وسليمان، وأيوب ويوسف، وموسى وهارون وهذه المجموعة تمتاز بالصبر، وهو واضح فى حياة كل نبى منهم، فداود وسليمان كانا خليفتين فى الأرض، ولهما ملك شرقى وغربى، والملك العادل يحتاج إلى صبر حكيم بالامتناع عن الظلم، وهو شهوة الملوك وداؤهم، وإن الصبر على نعمة

يحتاج إلى أفق أوسع من الصبر فى الشديدة، فتحرى الأحكام، وتعرف أسبابها وغاياتها يحتاج إلى عقل أريب[١] مدرك ونفس هادية مؤمنة.

وكان داود وسليمان، من رجال الحرب الذين لقوا بأسها وشدتها، والصبر فى البأس أمر واضح بين، وأيوب -عليه السلام- صبر على الضراء إذ نادى ربه رب إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين، وقد ضرب به المثل فى الصبر على الضراء لكل من يصيبه ضر، حتى لقد قالوا فى أعلى درجات الصبر، إنه صبر أيوب، فقد صبر من غير أنين ولا شكوى، مع الرحمة والمحبة لمن عاشره فى ضرائه.

ويوسف -عليه السلام- كان عبدا صابرا، صبر على كيد إخوته، وإظهارهم البغض والعداوة، ثم صبر على نعمة السلطان بعد ذلك، فاجتمع له نوعان من الصبر، صبر على البأساء والشديدة حتى إنه ليسترقّ، وصبر عن هوى الشيطان وكف لشهوة النفس، وإنه رأى برهان ربه فى أدق المواقف انفعالا نفسيا، وتعرض لمهاوى الشهوات، ﴿**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ... (٢٤)**﴾ [يوسف]. وصبر على السجن مع الإحساس بالبراءة، وصبر على كيد النساء مع الكتمان من غير إفحاش، ولا تفحش، ابتلاه الله بترغيب النساء، فتقبل السجن عن أن يكون تحت إغرائهن: ﴿**قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣)**﴾ [يوسف].

وهكذا نجد المغالبة بين الإغراء الجارف، والصبر والعزيمة، وضبط النفس من الشاب القوى الجميل، ولقد هيأ الله تعالى من بعد ذلك لهذا الشاب القوى أن يجلس على عرش مصر، فيكون الصبر على العدل، وتنظيم سياسة الاقتصاد، ومدافعة أهواء الناس، مع الصبر على البعد عن الأقارب، وعن أبيه الصابر الشفيق

(١) الأَرِيبُ: العاقلُ. ورَجُلٌ أَرِيبٌ من قوم أُرَباء. لسان العرب.

الرفيق، ثم يكون بعد ذلك الصبر الكريم عن حب الانتقام، والعفو الذى تطيب به النفوس، فيقول لإخوته: ﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢)﴾ [يوسف].

وموسى وهارون، وكانا من عباد الله الصابرين، صبرا على أذى فرعون لقومهما، كان يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم، وصبر موسى كليم الله الذى عاش فى بيت فرعون عدو قومه، فصبر على مجابهة أهله، حتى اجتذب بصبره وتحمله من آمن من آل فرعون، وكان على رأسهم امرأته الطيبة الطاهرة.

وصبر كليم الله تعالى على بنى إسرائيل بعد أن خرج من أرض فرعون، صبر على فساد قلوبهم، فكان يعالجه بصبر المؤمن التقى الهادئ، وصبر على كفرهم، وعاود دعوتهم إلى الإيمان، وصبر عندما اتخذوا العجل إلها، وصبر عليهم وهم يقولون اجعل لنا إلها، كما لهم آلهة.

دعاهم إلى القتال ليدخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله تعالى أن يدخلوها، فقالوا له: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون.

ثم كان القتال بهؤلاء المستخذين الضعفاء فى أنفسهم، الأقوياء فى أبدانهم تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى، وإنى أحسب أن صبره عليهم، كان كصبر أيوب، وإن اختلف الشكلان، والنوعان، ولكن كليهما صبر.

وختم سبحانه الآية بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أى كهذا الجزاء من الهدى نجزى المحسنين، وحيث كان الإتقان والإحسان كان الصبر.

والمجموعة الثانية- تمتاز بالروحانية والزهادة فى الدنيا إلا ما يكون للحلال الصرف وهم زكريا ويحيى وعيسى، وإلياس، فزكريا هو الذى كان قائما على المسجد الأقصى، وهو الذى ربى مريم البتول ﴿... وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ... (٣٧)﴾ [آل عمران].

ويحيى ابنه الذى كان إجابة دعوة أبيه زكريا إذ نادى ربه نداء خفيا، فأجاب الله نداءه ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩)﴾ [آل عمران].

وعيسى كانت ولادته معجزة، وكانت حياته كلها معجزة، وقد أتى بالبينات، كان ينفخ فى الطين كهيئة الطير فيكون طيرا بإذن الله، وينادى الموتى فيخرجون من قبورهم بإذن الله، ويبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، وينبئهم بما يأكلون ويدخرون فى بيوتهم، وإلياس كان قليل الطلب للحياة وملاذها كإخوانه من أولئك ذوى الأرواح الطاهرة، وإنه حيث كانت المادة كان النزاع فى الأرض، وحيث غلبت الروحية كان الصلاح فى الأرض، وكان منع الفساد؛ ولذلك قال تعالى عقب ذكر هذه المجموعة الطاهرة التى امتلأ قلبها بنور الله والروح الزاهدة.

وقد وصفهم الله تعالى بوصف الصلاح الكامل، لأنه ذهبت عنهم كل أدران المادية الداعية إلى النزاع فى الأرض ﴿كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾، أى كل واحد من هؤلاء من الصالحين الداخلين فى جماعتهم وهم وجهاء فى الدنيا والآخرة.

المجموعة الثالثة- هى ذرية إبراهيم من العرب، وهم إسماعيل بانى الكعبة مع أبيه، وابنه البكر، والذبيح الذى فداه الله تعالى بذبح عظيم، وقد قال: يا أبت افعل ما تؤمر، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين، واليسع ويونس، ولوط وكان ابن أخيه، فكان من ذريته بهذا الاعتبار.

وكان من صلب إسماعيل محمد ﷺ، وبهذا كان لهم فضل فوق كل فضل سبقه؛ لأنه اجتمع فى محمد ﷺ الصبر والإقدام فى موطن الإقدام، والروحانية بما لا يقل عن روحانية عيسى؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أى أن كل واحد من هؤلاء كان له فضل على العالمين بفضل الله تعالى، والله ذو فضل عظيم.

وهناك مجموعة رابعة من الأنبياء لم يذكرهم الله تعالى من ذرية إبراهيم، ولكنهم من ذوى قرابتهم، أو من جنس الأنبياء، وإن لم يكن لهم من قرابة إلا أخوة الأنبياء، فقد قال تعالى فيهم: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾. أى جعلنا أنبياء أخلصوا وجوههم لله من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم كإدريس -عليه السلام- وشعيب وهود، وصالح، وغيرهم، وقد اجتبيناهم أى اصطفيناهم، واخترناهم للرسالة الإلهية، وهديناهم إلى صراط مستقيم من الحق لا اعوجاج فيه، ولا التواء، والصراط الطريق كما ذكرنا من قبل، ولقد قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ... (١٥٣)﴾ [الأنعام] والصراط المستقيم هو صراط الحق جل جلاله، ومن سار فيه لا يضل ولا يغوى.

وإن ما عليه أولئك النبيون من صبر فى النعماء والضراء، والقوة والضعف، والشدة والرخاء، ومن سيطرة للروح على الجسد، وجعله خادما لمطالب الحياة، والعزة التى لا ذلة فيها، والتواضع الذى لا ضعة فيه، هذه هى الهداية تؤخذ من أخلاق النبوة، هذا هدى الله تعالى؛ ولذا قال تعالى بعد قصص الأنبياء السابقين: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

الإشارة هنا للتقييد، وهو ما ذكر من إحسان الأنبياء وروحانيتهم، وما فعلوا من خير هو هدى الله تعالى المنسوب إليه؛ المطلوب من العباد من اتباع النبيين، يختار الله من عباده من يهديه، إذا سار فى طريق الخير، واتبع سواء السبيل فإنه إن اتجه إلى الله هداه الله، وإن اتجه إلى الشيطان، أكسبه الله تعالى فضلا، وفى نفسه أسباب الهداية، ولكنه طمسها بإغواء الشيطان.

وقد قال تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ فالجميع عبيد لله تعالى يهدى إلى الحق من كتب الله له الهداية على النحو الذى بيناه وإن هؤلاء، وصلوا إلى ما وصلوا بالوحدانية ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. «لو» كما يقول النحويون: حرف امتناع لامتناع، أى امتناع الجواب لامتناع الشرط، أى لو أشركوا، وهو ممتنع عليهم لاختيار الله، لحبطت أعمالهم وهو أيضا ممتنع لامتناع الشرط،

وحبوط الأعمال بطلانها حتى كأنها لم تكن أى يذهب ما فى الأعمال من الخير ولسلبت منهم الهداية، فالشرك يمحو كل خير، ويذهب بكل عمل نافع، وما يفعله المشركون من خير يكفرونه.

والشرط هنا مع امتناعه وامتناع الجواب للتحريض على الوحدانية، وترك الشرك تركا تاما، وبيان أنه يحبط كل عمل يظن فيه الخير، ألا ترى أنه يحبط عمل الأنبياء، وهداهم، فكيف لا يحبط عمل من دونهم، فالنص تقبيح للشرك أيًّا كانت صورته، وحث لهم على فعل الخير، وحمايته بالوحدانية.

ولقد بين الله سبحانه وتعالى ما آتى به النبيين من فضل، فقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾. الإشارة إلى الأنبياء الذين ذكر الله تعالى بعضهم بأسمائهم، ورتب جموعهم من حيث الغالب على أوصافهم، و(آتاهم) معناها أعطاهم.

والكتاب هو الكتاب المنزل، والمراد جنس الكتاب، وليس كتابا معينا كالقرآن أو التوراة، ومعنى أوتوه أنهم أوتوا علمه، وعلموه، ونشروه وتوارثوا ما اشتمل عليه، فيشمل الذين أوتوه من - نزل عليهم، ومن جاءوا داعين إلى ما فيه، والتكليفات التى اشتمل عليها، كبعض الأنبياء الذين لم ينزل عليهم كتاب، ولكن بينوا الكتاب الذى جاءوا لبيانه، كأيوب ويوسف، وسليمان، ويشمل الذين أوتوا - من عملوا به وأقاموا دعائمه من أتباع النبيين المخلصين الذين لم يغيروا ولم يبدلوا ولم يحرفوا، ولم يبدوا قراطيس يبدونها، ويخفون كثيرا منها.

والحكم، وهو الفصل بين الحق والباطل والظلم والعدل، والصالح والفاسد، ويدبرون الأمور على الهدى، والشرع.

والنبوة، وهى الإنباء عن الله بخطاب منه سبحانه، وما كان خطابه سبحانه إلا أن يكلم من وراء حجاب، أو يوحى إليه أو يرسل رسولا. وقد أفرد الله سبحانه وتعالى النبوة بالذكر مع أن ما مضى يتضمنها، وذلك لشرفها باتصالها

بالله تعالى وللتصريح بالأنبياء الذين لم ينزل عليهم كتاب، ولبيان مكان العلم الذى أوتوه واتبعوه، وأنه عن الله العلى الحكيم، وليرتب الحكم على الكفر بها إذ كان من العرب من كفر بالنبوة، وقال: ما أنزل الله على بشر من شيء.

ولذلك قال تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾.

الإشارة إلى هؤلاء الذين أنكروا النبوة، وكان من المشركين من قريش وغيرهم من كانوا يجابهون النبى ﷺ بإنكار أصل النبوات، وأن تكون مع النبى رسالة فى قرطاس من الله سبحانه وتعالى أو يكون معه ملك، كما سيذكر الله تعالى من بعد ذلك، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ... (٩١)﴾ [الأنعام]، وسيجىء الكلام فى هذه الآية قريبا إن شاء الله تعالى.

كان المشركون ينكرون أصل النبوة، فالإشارة فى قوله تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ﴾ هو الإشارة إلى قوم النبى ﷺ الذين أنكروا نبوته، وحاربوا رسالته، وآذوه هو والمستضعفين من المؤمنين، وصابرهم حتى كانت الهجرة وهذه السورة مكية، فتعينت الإشارة إلى من ناوءوا الرسول ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ﴾ شرط جوابه: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ ومعنى وكلنا، عهدنا إلى قوم من بعد كفركم يحفظونها، ويصونونها، وينقلونها للأخلاف من بعدهم جيلا بعد جيل، فيقال: وكلت فلانا بهذا الأمر أى عهدت به إليه يقوم عليه، ويحافظ.

وهؤلاء الأقوام الذين وكل الله بهم أمر النبوة المحمدية، ليسوا كافرين بها، بل يؤمنون ويصدقون، وقدم الجار والمجرور وهو (بها) على (كافرين)، للاهتمام، والتنبيه.

وإن هذا النص، فيه تبشير للنبى ﷺ ومن معه من المؤمنين بأن عهد الظلم والإيذاء سيأتى بعده عهد النصرة والقوة، وفيه تبشير للنبى ﷺ بأن هذا سينتشر

بين الناس، وستخالف فيه الأقوام، ولن يكون مقصورا على العرب، بل يتجاوزهم إلى الفرس والرومان والشام ومصر، وسيعتنقه الأبيض والأسود، وكل من له فى الدعوة إليه فضل عظيم.

وأكد الله سبحانه وتعالى ذلك بـ (قد)، وأكد إيمان أولئك الذين سينصرونها بأنهم ليسوا بها بكافرين فنفى عنهم الكفر نفيا مؤكدا مستغرقا شاملا.

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًاۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى الأنبياء من ذرية إبراهيم ومن قبله، وما اختص به بعضهم من الصبر وشكر النعمة، والعدالة فى القوة، وبعضهم من الزهد، والروحانية، وبعضهم من الصدق فى القول والوعد، بين الله تعالى أن أولئك الأنبياء نالوا هدى الله، وصبروا على أقوامهم، وأنه حق على محمد خاتم النبيين أن يقتدى بهم فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾.

الإشارة إلى ما كانوا عليه من صفات الصبر والشكر والزهد والصدق والتوحيد، ومجالدة المنكر، والصبر على أذى المعاندين، فالإشارة إلى أشخاصهم المتصفين بهذه الصفات العليا، وهى أساس هداية الله، وأسند سبحانه وتعالى الهدى إليه تشريفا لمعناها، وبيان أنه اختارها، واختيار الله تعالى يوجب اتباعها، والسير فى طريقها؛ ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ الهاء هى هاء السكت تكون عند الوقف على المحذوف حرف العلة منه بالجزم تعويضا لذلك المحذوف، وينطق عند الوقف، وقال بعضهم لا ينطق بها إذا لم يقف، ولكن الحق أنه ينطق بها فى الأحوال كلها؛ لأنها مكتوبة فى المصحف الإمام، ولا يوجد فى هذا المصحف ما لا ينطق به.

والاقتداء الموافقة فى سلوك الطريق الذى سلكوه، والهدى الذى اتبعوه، والمنهج الذى نهجوه، و(الفاء) هنا لترتيب ما بعدها على ما قبلها؛ لأنه إذا كان ذلك الهدى من الله فإنه يجب اتباعه، والاقتداء بهم فيه وتقديم (بهداهم) على (اقتده) للاختصاص، ومؤداه الاقتداء بهذا الهدى دون غيره، إذ إن الهدى هدى الله فلا هداية إلا هدى الله.

(هُداهم) كما أشرنا التوحيد، وألا تشركوا بالله شيئا، وما جاءوا به من شرائع أبدية لا تتغير بتغير الأزمان، وبما اتصفوا به من صفات الصبر، والشكر والروحانية، والزهد، والصدق والأخلاق الكريمة، وإن الاقتداء يوجب الدعوة إلى هذا الهدى.

وإن هذا الكلام السامى يفيد أن الأنبياء الذين تختلف مراتبهم، وخواصهم، وصفاتهم كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ... (٢٥٣)﴾ [البقرة]. قد أمر النبى ﷺ بالاقتداء بهم جميعا فى صفاتهم كلها مجتمعة، فهو يكون بهذا الاقتداء جامعا لكل ما عندهم منهم؛ لأنه خاتم الأنبياء، ولأنه مخاطب للأجيال كلها، وأرسل للناس كافة بشيرا ونذيرا، فكان هو وشريعته صالحين لكل

الأجيـال؛ لأنه وشرعـه جمعـا كل ما عند الأنبـياء السابقـين من صفـات فاضلة ومراتب من التكليفات عالية.

وإذا كان ذلك مقام رسـالته، فقد أوجب الله سبحانه وتعـالى الدعوة إليها: لأنهـا الكمـال البشـرى، وأنه لا يريد منهـم جزاء ولا شكورا؛ ولذا قـال تعـالى مخاطبا نبيه: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ لا أريد منكم أى أجر من مال أو جاه أو سلطان لقد ظنوا بادئ رأيهم أنه يريد مـالا فعرضوا عليـه مالهم، أو يريد السلطان فيـسودوه عليهم، فـبين الله لنبـيه أن يقول لهم إن شـيئا من أعـــراض الدنيا لا يريدها، ولكن يريد الإصـلاح والتـذكـير باللـه واليوم الآخـر ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾.

إن المقصــود من إنزال الله تعالى القرآن عـلى نبيه الكريم ليس مـالا يأخذ، ولا سلطانا يفرضه، ولا سيادة يطلبها وإنما جاء للذكرى والموعظة والهداية للعالمين أى للعقـلاء أجمعـين، فهو ذكرى لهـم بما فيه صلاحـهم، وقيام أمـرهم، ونشر العدالة، وذكرى لهم باليوم الآخر، وما فيه من حساب وعقاب، وذكرى ربهم بأن يكونوا دائمـا ذاكرين، أى تذكـر دائم لله تعالى، وفى ذكـر الله طب للقلوب من أدوائها.

وإن ذكر هؤلاء الأنبـياء ونسبتـهم إلى إبراهيم- عليه السلام- تذكيـر لعرب مكة ومن حولها بالنبوة الأولى نبوة نوح أولا، ونبـوة إبراهيم أبيهم الذى ينتسبون إليه ثانيا، وتعليمهم أن الله يرسل أنبـياء ورسلا، ولا يصح أن يكفروا بإرسال الله تعالى، والعرب وقت بعث النبى ﷺ كان كلامهم ينبئ عن أنهم لا يؤمنون برسالة ولا رسول، وجابهوا النبى ﷺ منكرين أصل الرسالة مسـتغربين لها، قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ ... (٢)﴾ [يونس]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤)﴾ [الإسراء].

وأنكر اليهود أن يكون محمد رسولا زاعمين أن الرسالة فيهم.

ولذلك نزل قوله تعالى ردا على كل من أنكر أن يرسل الله بشرا رسولا، وعلى من أنكر أن تكون الرسالة فى غير بنى إسرائيل؛ ولذا قال تعالى: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ**﴾.

قَدَرَهُ أن تَعَرَّف مقداره بكيل أو وزن أو قياس، ولما صارت تطلق على العقلاء كانت بمعنى تقدير المعانى، والمعنى هنا ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ**﴾ ما علموه حق العلم، وما عظموه حق التعظيم، إذا اعتقدوا أن الله لا يبعث بشرا رسولا؛ لأن ما خلق هذا الوجود الإنسانى عبثا، بل بعثه ليتحمل الأمانة التى حملها بمقتضى فطرته، وليكون خليفة فى الأرض وما كان ليبعثه، ويتركها من غير بشير ونذير، يرشده إلى الحق، وينذره لكيلا يقع فى الآثام، فكان من مقتضى الحكمة الألهية أن تكون الرسالة الإلهية ليهدى الرسول ويرشد، وينذر، ويجنب الإثم والشر ﴿... **وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ** (٢٤)﴾ [فاطر] وقال تعالى: ﴿**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا** (١٥)﴾ [الإسراء].

أنكر المشركون الرسالة الإلهية، وأنكر اليهود أن تكون فى العرب، فرد الله تعالى كلامهم بالحجة الباهرة وأمر النبى ﷺ بأن يورد الحجة على لسان رسولهﷺ، وكذلك كل أمر يرد الله به على باطل المعاندين يأمر رسوله أن يتولى هو الرد عليهم، بما أوحى الله تعالى به، وهذا ما يلاحظه المتتبع لكتاب الله تعالى بترك الرد على باطلهم للنبى ﷺ بأمره وبيانه.

قال الله تعالى آمرا نبيه: ﴿**قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ**﴾. أى بينا واضحا كالنور فى تكليفاته ومعانيه، ليكون مصدر الهدى للناس، يعلمون التكليفات والعقائد السليمة منه، ويرشدهم إلى ما ينفعهم فى الدنيا والآخرة، إن أطاعوه، وأخذوا بما فيه، واهتدوا بهديه.

ولقد قال سبحانه بعد ذلك: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ﴾. والقراءة المشهورة بالتاء فى (تجعلونه)، و(تخفون)[١]، وهناك قراءة صحيحة متواترة، بالياء فى الاثنتين.

وقد اختلف فى هذه الآية أنزلت بمكة، وهو الأصح، أو نزلت بالمدينة، والخطاب فيها ابتداء لليهود الذين غيروا وبدلوا ونسوا حظا مما ذكروا به، والقراطيس هى الصحائف من التوراة المكتوبة أبدوا بعضها، وأخفوا أخرى، وعلى بـ «مِن» أن الآية مكية، تكون قراءة الآية سائرة على مقتضاه، فيكون الاحتجاج بنزول الآية نقضا لعموم نفيهم إذ قالوا: ما أنزل الله على بشر من شىء فقد نفوا مؤكدين بمن أى بأى شىء، والنفى العام ينقض بإثبات أى جزء من المنفى، والجزء الذى ذكره القرآن هو نزول التوراة، وقد كانوا يعرفونها، وإن لم يقرأوها، ويتسامعون بينهم بها، وإن لم يتداولوها؛ لأنهم قوم أميون،وكانوا يلتقون باليهود، ويعرفون أنهم أهل كتاب دونهم؛ وذلك لأن أهل مكة كانوا تجارا يذهبون إلى اليمن وإلى الشام فى متاجرهم فيمكن الاحتجاج عليهم بما عند اليهود إذ يعلمونهم، والمعنى أنه ثبت أن اليهود نزل عليهم كتاب هو فى أصله نور وهدى، وذلك ينقض قولكم ما أنزل الله على بشر من شىء، وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى التوراة بالإكبار؛ لأنه كتاب من عند الله تعالى، ذكر سبحانه وتعالى ما فعله اليهود فيها مزقوها، وجعلوها قراطيس ابدوا بعضها، وأخفوا كثيرا، وليست الكثرة بمقدار ما أخفوا، ولكن بقيمته، وكان فيما أخفوا البشرى بمحمد ﷺ الذى ينكرون؛ وإن الرسالة التى أنكرتم أصلها، وألزمتم بها - فيها خيركم، وفيها رفعكم من مرتبة الأمية إلى العلم، وفهم الحقائق الدينية؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ﴾ وعلى أن الآية مكية مع قراءة التاء، يكون على أنه بعد إثبات نزول التوراة الذى ينقض نفيهم يكون هناك التفات من الحديث عن الغائب إلى الحضور لتوبيخ اليهود على صنيعهم، فكان ثمة احتجاجان فى

(١) (يجعلونه .. يبدونها.. ويخفون)، بالياء غيبا - ابن كثير، وأبو عمرو، وقرأ الباقون بالتاء.

النص القرآنى احتجاجا على المشركين من أهل مكة بنقض النفى العام عندهم بنزول التوراة التى تفيد أنه كان من البشر رسول من أولى العزم من الرسل، واحتجاج على اليهود الذين غيروا وبدلوا أو احتجاج على العرب، وتوبيخ وتنديد بعمل اليهود.

هذا كله على أن الآية نزلت بمكة، أما على أنها مدنية فيكون الخطاب ابتداء لليهود الذين كانوا يجادلون النبى ﷺ فقد روى عن ابن عباس أن اليهود قالوا فى القرآن: ما أنزل الله كتابا، ويكون قوله تعالى: ﴿**تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً**﴾، توبيخا شديدا لهم، ولوما عنيفا على تغيير فى كتابهم وإنكار الحقائق الاعتقادية التى اشتمل عليها، وعلمتم بهذا الكتاب ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم، وافتريتم بأنكم أهل علم بكتاب، وجحدتم حقوق غيركم بانتمائكم إلى هذا الكتاب، وقلتم ما علينا فى الأميين من سبيل، وإن كنتم بذلك ظالمين.

وتفسيرها على هذا واضح بين، وكونها آية مدنية فى سورة مكية لا يمنع، فإن العبرة بكون السورة مكية بالأغلب الكثير، لا بالنادر القليل، وقد قال بعض الناس: إنها نزلت مرتين مرة فى مكة وأخرى فى المدينة، وأودعت فى سورة مكية؛ لأنها نزلت فيها أول مرة، وعلى قراءة (يخفون) و(يجعلون)؛ يكون التفات عن اليهود تحقيرا لأمرهم، ومبالغة فى توبيخهم على ما حرفوا وبدلوا.

سألهم الله تعالى على لسان رسوله الأمين ﴿**مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَى**﴾ ولكن الجواب لم يجئ إلا فى آخر الآية الكريمة، وكان الجواب الكريم الذى أمر الله نبيه أن يقوله: ﴿**قُلِ اللَّهُ**﴾ أى الذى أنزله الله تعالى القادر على كل شىء الذى لا يبعد عن سلطانه شىء فى هذا الوجود، وإذا كان قد أنزل التوراة فهو منزل القرآن، قال الله تعالى لنبيه: ﴿**قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**﴾، قل لهم ﴿**اللَّهُ**﴾ بإيجاز، ولا تزدهم، ليتفكروا أو يتدبروا بما فيه أمرهم إن كان فيهم عقل غير عابث، ﴿**ثُمَّ ذَرْهُمْ**﴾ أى اتركهم ﴿**فِى خَوْضِهِمْ**﴾ فى القول الذى لا

يعرفون مرماه، ولا يدركون نهايته، ولا يصلون إلى مؤداه لاعبين، فقوله تعالى: ﴿يَلْعَبُونَ﴾ حال من ضمير ذرهم.

وقد ذكر الله تعالى ذلك الكتاب الذى أنكروه، فقال تعالت كلماته: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ الإشارة إلى الكتاب وهو القرآن ذكر الله تعالى أمورا ثلاثة، بعضها فيه معنى التعليل، وبعضها فيه تعليل بالغاية، وأولها أنه ﴿مُبَارَكٌ﴾، ومعنى البركة النماء والزيادة، وإن القرآن مبارك فى معانيه فهو يشمل كل علوم الدين والأخلاق، وفيه ذكر للكون، وفيه بيان العقيدة الإسلامية، وفيه أسماء الله الحسنى، وفيه أوصاف الله الذاتية، وثبوت الكمال المطلق لله تعالى، ونفى كل ما لا يليق بالله، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وفيه كل أصول التكليفات الدينية، وفيه القصص الحق عن النبيين، وعن الأمم التى خالفت أنبياءها وكيف كان مصيرها، وإن معانيه وما كشفه ألفاظه تذهب فى العقول إلى مذاهب من الإدراك لا نهاية لها، وكلما أمعن القارئ فى ألفاظه وعباراته أشعت منها نورا مبينا، وذكرا حكيما، حتى قال بعض الناس إن للقرآن ظاهرا وباطنا، إذ كلما أمعن فيه بالنظر، أدرك ما لم يكن من قبل، وهو يوجه الأنظار إلى علم الأكوان بإشارات لامحة، وعبارات واضحة.

ومهما نتكلم فى معانى القرآن، فلن ندرك الغاية، ولا نقاربها، وهذا يصور معنى أنه مبارك الأمر الذى فى القرآن أنه مصدق الذى بين يديه، ونجد اللفظ عاما لكل ما بين يديه من أخبار الأنبياء السابقين وأخبار أقوامهم، والعبر، والمثلات فيهم، فهو سجل النبوات، ومعجزات الرسل، وكان كذلك ليعلم بها من يعلم، ومن عنده العظة والاعتبار، كما قال تعالى: ﴿... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ (١٣)﴾ [آل عمران] ومصدقا للكتب السابقة من التوراة والإنجيل والزبور.

كان القرآن لذلك كله ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ والخطاب للنبى ﷺ، وأم القرى هى مكة؛ لأنها فى البلاد العربية فإنها الأصل لها، وذلك لأن بها البيت الحرام التى يتخطف الناس من حولهم وإذا جاءوا إليها كانوا آمنين، فهى الملجأ من كل مخوف، ولأن الناس يحجون إليها، ولأنها كانت وسط التجارة فى البلاد العربية، ولأن بها قريشا ذرية إبراهيم -عليه السلام- وقد قال بعض العلماء: إنها جغرافيا تعد فى وسط العالم، لذلك سميت بأم القرى.

وإنذار أم القرى هو إنذار أهلها، وإطلاق المكان وإرادة أهله هذا كثير فى القرآن، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧)﴾ [العلق] وما كانت البقع والمبانى لتنذر إنما ينذر أهلها.

﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من مساكن سواء أكانت لأهل المدر أم كانت لأهل الوبر، بل يمتد ما حولها إلى الفرس والشام وما وراءه والرومان وغير ذلك، للدلالة على عموم الرسالة المحمدية، ولقد قال النبى ﷺ: «كان كل نبى يبعث لقومه، وبعثت للأحمر والأسود»(١). ولقد قال تعالى فى عموم رسالة النبى ﷺ بالقرآن: ﴿... وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (١٩)﴾ [الأنعام] وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢)﴾ [الفرقان].

وهكذا نجد الآيات الكثيرة الدالة على عموم الرسالة المحمدية، وهو خاتم النبيين، فلا نبى بعده، وما كان الله تعالى ليترك عباده سدى من غير نذير يرهب بسوء عاقبة الشر، وبشير يبشر بحسن العاقبة لأهل الخير.

---

(١) عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: بُعِثْتُ إِلَى الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ، وَكَانَ النَّبِيُّ إِنَّمَا يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَلَمْ تُحَلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مِنْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ فَلْيُصَلِّ حَيْثُ أَدْرَكَتْهُ». رواه أحمد: باقى مسند المكثرين - مسند جابر رضى الله عنه (١٣٨٥٢). وأصله عند البخارى ومسلم بنحوه.

وإن القرآن يؤمن به من يدرك حقيقة الدين، وحقيقة الدين أن يعلم الإنسان أنه لم يخلق عبثا، وأن الحياة الآخرة هى الحياة الباقية، وأن الدنيا سبيل لها، وأن نعيمها هو الباقى.

ولذا أخبر تعالى أن الذين يؤمنون بالآخرة هم الذين يؤمنون بالقرآن فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ ذلك أن الذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون بالحق والخير؛ لأنهم يرون أن الحياة الدنيا فيها التنازع بين الخير والشر، بين النفس اللوامة، والنفس الأمارة، ولا بد أن ينتصر الخير، لأنه الفطرة، ولا يكون ذلك إلا بحياة أخرى، ولأن الذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون بحكمة الإيجاد والتكوين، ولا يمكن أن تكون نتيجة الحياة النهائية هى تلك المغالبة وذلك التناحر، وفوق ذلك أن الإيمان بالغيب يجعل النفس مستسلمة لله تعالى راضية بما عنده، وما أعده لها من نعيم، فلهذا كان الإيمان بالآخرة والإيمان بالقرآن العظيم متلازمين لا ينفصلان، فمن آمن بالآخرة آمن بالقرآن، ومن آمن بالقرآن آمن بالبعث والنشور والقيامة واليوم الآخر.

وإن كمال وصف المؤمنين بالقرآن أن يكونوا صالحين غير مفسدين، وألا يعملوا إلا معروفا، ولا يقع منهم منكر، وذلك بالصلاة التى هى عمود الدين لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتملأ النفس بذكر الله، وبذكر الله تطمئن القلوب، ولذا قال تعالى: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ وتقديم الجار والمجرور لبيان أن اختصاص الصلاة بالمحافظة يؤدى إلى كل الخير، والمحافظة عليها بإقامتها مستوفية الأركان حسا ومعنى، وامتلاء النفس بخشية الله تعالى، وأدائها فى أوقاتها فإنه بهذا يكمل الدين، ويتم الإيمان.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى
ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ
مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ
تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ
وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ
كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ
وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ
لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

بين الله تعالى منزلة كتابه الكريم وذكر أنه الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد بدأ سبحانه وتعالى بذكر ظلم من يفترى عليه سبحانه، ويدعى أنه أوحى الله تعالى إليه، ولم يوح إليه بشىء، فقال تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ .

الاستفهام فى قوله تعالى **﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾** هو للإنكار بمعنى النفى، وفيه من التنديد بالذين يفعلون ذلك أشد التنديد، وقد ذكر سبحانه افتراءهم على الله بنفيهم إنزال الرسل، وقولهم: **﴿... مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ... (٩١)﴾** [الأنعام] والآن يبين أنهم لا يقفون موقف الإنكار، بل يبهتون ويكذبون ويفترون، وذكر سبحانه طوائف ثلاثة ترتكب فى حق الله تعالى أشد الظلم لأنفسهم

بتضليلها وإيغالها فى الشر وظلم الناس بنشر الباطل بينهم وتضليلهم، وظلمهم للحقائق الدينية.

أولى هذه الطوائف التى افترت على الله تعالى كذبا، أى اختلقت على الله كذبا، والافتراء هو اختلاق الكذب، وهو يتضمن معنى الكذب، ولكن صرح بالكذب، لبيان شدة افترائهم، واختلاقهم، وكلامهم الباطل الذى ليس له أصل من الحق أو الحقيقة كعبادتهم الأوثان، وادعاء أنهم يقربونهم إليه زلفى، وكادعاء النصارى أن لله ولدا، وأنه إله، وكتحريم المشركين بعض النعم على أنفسهم، وتحريم البحيرة والموصولة، وغير ذلك، وكافترائهم على الله بأنهم أولياؤه وأحباؤه، فهؤلاء فى أشد أحوال الظلمة.

الطائفة الثانية- تلك التى تدعى أنه أوحى لها، ولم يوح إليها بشىء كبعض المقربين من النصارى مثل بولس الذى كان وثنيا، وادعى بعد ذلك دخوله فى دين المسيح وحوَّله من وحدانية، إلى وثنية، وادَّعوا أن من سموهم رسلا أوحى إليهم وتجلى لهم روح القدس، وغير ذلك من الأوهام الباطلة، والأكاذيب التى ما أنزل الله بها من سلطان، وكبعض الأعراب الذين كانت منهم نواة الردة الذين ادَّعوا أنه يوحى إليهم كما يوحى إلى محمد ﷺ.

الطائفة الثالثة- التى ادَّعت أن القرآن لا يعجز، وأنها ستنزل مثل ما أنزل الله تعالى من قرآن، وقد أخبر تعالى عنهم، فقال: ﴿ **وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ** (٣١) ﴾ [الأنفال].

هؤلاء الطوائف الثلاث هم أظلم الناس؛ لأنهم كذبوا على الله تعالى، وأضلوا أنفسهم وأضلوا الناس وكان كلامهم افتراء، وإن هذا النوع الذى يبهت الناس بالباطل هو الذى نشر الأديان الباطلة والأوهام الكاذبة، وما من عقيدة باطلة تنتشر إلا بظلم هؤلاء، ومن تبعهم.

وإن هؤلاء مآلهم جهنم وبئس المصير، وقد صور الله تعالى حالهم، وأرواحهم تنتزع من أجسامهم، والأيدى تبسط إليهم بالعذاب الشديد العتيد المهيأ

لهم، فقال تعالت كلماته: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ والغمرات الشدائد، جمع غمرة أى شِدَّة، وأصلها الشىء الذى يغمر الأشياء فيغطيها، وإطلاقها على الشدائد من قبيل أنها مغمورة فيها لا تكاد تخرج منها؛ ولهذا قد أحاطت بها، كما يغمر الماء الغريق، فيحيط به من كل جوانبه، وغمرات الموت شدائده التى تكون عند الاحتضار أو عقبه، يحسّ فيها بغمرة شديدة عند الموت، وإذ يقبر، والقبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار[1]، وإنهم فى هذه الحال التى يحتضرون، وبعد موتهم؛ الملائكة تبسط أيديهم بالشدة والعذاب المهيأ لهم، ولذا قال تعالى: ﴿وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ تقول لهم بلسان الحال ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ يقال بسط يده بالعطاء وبسط يده بالحرب، والبلاء والشدة، وذكرت فى القرآن كثيرا بمعنى الشدة، ولذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ... (١١)﴾ [المائدة]. وقول المعتدى عليه من ولدى آدم: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨)﴾ [المائدة] فمعنى قوله تعالى: ﴿وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ أى بالضرب والعذاب الذى لا مناص منه، ولا يمكنهم التخلص منه ولا الخروج، والملائكة يقولون لهم بالقول أو بلسان الحال: ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ أى أنه قد أحيط بهم فلا خلاص لهم، ويقال أخرجوا أنفسكم إن استطعتم إلى الخروج سبيلا، فهو مصيركم ونهايتكم، وما صرتم إليه، بأعمالكم المتكافئة بالشر التى حبط فيها كل خير، لأنه قد طمس على بصائركم.

وقال بعض المفسرين: إن قوله تعالى ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ خطاب لهم حال الاحتضار كأنه يقال لهم سلموا أنفسكم لنا وقد علمتم أن هذا اليوم هو ساعة الأداء لما كسبتم وما قدمتم فتأخذوا جزاءه، وقالوا: إن هذا تشبيه لحالهم بحال المدين الذى يلازمه غريمه، فلا يستطيع الهرب منه حتى يؤدى الدين الذى عليه، ونرى أن الأول أوضح، وأبين، والنتيجة واحدة.

---

(١) رواه الترمذى: صفة القيامة والرقائق والورع - باب منه (٢٤٦٠) من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ فيه أداة شرط وهى (لو)، وفعل شرط، والجواب غير مذكور يدل عليه التعبير بغمرات الموت، وبسط الملائكة، وحالهم من أنهم لا يستطيعون حولا ولا طولا، ويكون الجواب: لرأيت ثم رأيت هولا شديدا هو جزاءً وفاقا لما قدموا من سوء، وفعلوا من شر.

وقد ذكر الله الجزاء فقال: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ اليوم فيما يظهر هو ما بعد القيامة من عقاب، وعذاب الهون هو العذاب الذى يكون هوانا، وذلا، واستحقاراً لأمرهم، وإضافة العذاب إلى الهوان إضافة تدل على أن الهوان ملازم للعذاب، فقد استكبروا على الحق، وقالوا غير الحق، فكانت العقوبة من جنس الجريمة، ولقد قال سبحانه فى سبب ذلك: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾. أى السبب فى العقاب أمران جمع الله فيهما الظلم كله:

أولهما- أنهم كانوا يقولون على الله غير الحق، فيشركون به، ويقولون إنه ثالث ثلاثة، ويقولون: المسيح إله، ويحلون ويحرمون بغير ما أنزل الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ تَقُولُونَ﴾ تدل على استمرار قولهم، وعدم انقطاعه عنهم، وإصرار عليه؛ لأن (كنتم) تدل على الاستمرار، والمضارع يدل على تجدد القول آنا بعد آن. تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

ثانيهما- أن الآيات البينات الهادية من معجزات دالة، ومن دلائل أخرى فكانوا يعرضون عنها، ويستكبرون، ويظنون أن الالتفات إليها فيه هوان عليهم، وكبرياؤهم منعهم عن الالتفات إلى الحق، فاستكبروا وتجبروا، وخاب كل جبار عنيد وكان الاستكبار متضمنا الإعراض عن الآيات؛ ولذا عدى بـ «عن» التى تدل على التجاوز والإعراض إذ قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أى كنتم تستكبرون معرضين عن آياتنا الدالة؛ ولأنها قاطعة على الحق وفيها الهداية، ولكن لا تهتدون استكبارا وإعراضا، فنالوا جزاءهم.

ولقد بين الله تعالى جزاءهم الذى أشار إليه فى الآية السابقة، بينة وقد زالت عنهم أسباب الطغيان والكبرياء. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فرادى جمع فريد كأسارى جمع أسير، أى جئتم منفردين عن النصراء الذين كنتم تعتزون بهم، فما لكم من نصراء، وذهب عنكم افتراؤكم وما كنتم تقولون نحن أعز نفرا، وذهبت عنكم أموالكم التى كانت تعزكم، وتدفعكم إلى الاستكبار والتطاول بها، وتقولون معتزين نحن أكثر مالا، ذهب عنكم كل هذا وجئتم إلى الله بأنفسكم منفردين، وقد روى ابن عباس عن النبى ﷺ فى موعظة له: «أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غُرْلاً»(١) (أى غير مختونين). قال تعالى: ﴿... كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء].

وإنكم تكونون فى هذه الحال، كالحال التى بدأ خلقكم بها ولذا قال تعالت كلماته: ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى تعودون ضعفاء كما خلقكم من ضعف أول أمركم؛ إذ خلقكم ضعفاء لا تقدرون على شيء ولا تملكون شيئا، وفى النص إشارة إلى حجة البعث على الذين ينكرونه، ويستغربونه، إذ مؤداها أنه خلقكم ابتداء بقدرته، ويعيدكم بقدرته، ومن كان قادرا على الإنشاء، هو على الإعادة أقدر، وهو العزيز الحكيم.

وإن كل ما كانوا يملكونه من مال ونسب، وعبيد، وصولة، وسلطان يكون وراء ظهورهم وقال تعالى فى ذلك: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ خولناكم أى مكناكم من أموال وأنعام، وسلطان، وراء ظهوركم، أى جئتم إلينا، وقد خلفتموه وراء ظهوركم فلا يمكن حينئذ أن تعتزوا بشيء منه، وقوله تعالى: ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ تشبيه لحالهم فى أنهم لا يأخذون شيئا معهم كمن ترك ما يملك وراء ظهره، وذهب تاركا له، أو من ولى الأدبار من اللقاء فقد كانوا يغترون

---

(١) جزء من حديث متفق عليه، رواه بهذا اللفظ مسلم: الجنة ونعيمها وأهلها - فناء الدنيا وبيان الحشر (٢٨٦٠)، والبخارى بنحوه: أحاديث الأنبياء - (٣٣٤٩) عن ابن عباس رضى الله عنهما.

بأموالهم، وأصبح لا يعرف ماله، فضلا عن أن يغتر به كما كان فى الدنيا، ولم يعد المال إلا لحفظ الحياة بالقوت والكساء والصدقة، كما قال النبى ﷺ فيما رواه مسلم أنه قال: «يقول ابن آدم: مالى مالى، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت، وما سوى ذلك فهو ذاهب، وتاركه للناس»(١)، تذهب عنهم كل قواتهم الذاتية التى غرتهم واستكبروا بها عن آيات الله تعالى، وغرتهم فى الحياة الدنيا، فاغتروا بها، وغرهم بالله الغرور.

ولقد ذكر سبحانه بعد ذلك حالهم مع ما كانوا يعبدون من دون الله تعالى بغير الحق، فقال تعالى:

﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾.

أى أنهم فى اليوم الآخر حيث الحساب، ثم العقاب لا يرى معهم شفعاؤهم، أى الأصنام التى زعموها، تقربهم إلى الله زلفى إذ كانوا يقولون ﴿... مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ... (٣)﴾ [الزمر] أى ليكونوا شفعاء لنا يقربوننا إلى الله تعالى، ولقد قال تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمْ﴾، ولم يقل تركتموهم وراءكم ظهريا؛ لأن المال والأنصار والعصبيات كان لها وجود، أما هذه الأحجار فلا وجود لها، وليس لها لسان تنطق، فقال سبحانه وما نرى هؤلاء الشفعاء؛ لأنهم لم يكن لهم وجود فى الدنيا إلا بزعمهم، فهم موجودون فى أوهامهم، ولا وجود لهم فى ذاتهم إلا أنهم حجارة، ولقد قال تعالى فى أوصاف هؤلاء الشفعاء فى زعمهم: ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ «الذين» وصف للشفعاء وهم حجارة، وكان الموصول بعبارة «الذين» التى تكون للعقلاء إجراء على لفظ الشفعاء لا على حقيقتهم، والزعم هو الاعتقاد الباطل الذى ليس له أساس من العقل أو النقل، والزعم هو أنهم شركاء الله تعالى فيكم بالنسبة للنفع والضرر، والجزاء عقابا أو ثوابا، وقدم قوله تعالى: ﴿فِيكُمْ﴾ إشارة إلى أن الزعم

---

(١) سبق تخريجه.

الذى زعمتموه فيكم أنتم، وفى أوهامكم، ولا يتجاوزكم إلى غيركم ممن لم يسقط فى مزاعمه مثلكم.

وإن السبب فى أنه تعالى لا يراهم (معهم) أنه لا وجود لهم، وأن الشيطان الذى سول لهم عبادتهم يتبرأ منهم كما يتبرأ المتبوعون عن التابعين فى قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)﴾ [البقرة].

كذلك هنا كان الشفعاء الذين غابوا، ولم يُروا قد انقطع ما بين هؤلاء وأولئك، لأنه كان وهما ولم يكن هناك سبب يربط بينهم، فلما انكشف الأمر يوم القيامة تقطعت الحبال الواهية التى كانت تربطهم، فقال تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أى تقطعت الصلة التى كانت بينكم التى خلقها وهمكم، والآن قد تكشف لكم الحق البين، وهم أنهم لا وجود لهم إلا ما كان من أوهامكم، فإذا زالت فُقدَ الذى بينكم، ثم أكد الله تعالى هذا المعنى، فقال تعالت كلماته: ﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أى غاب عنكم الزعم الذى كنتم مستمرين عليه مجددين له آنا بعد آن.

آيات الله فى الكون وتوليد الأشياء من الأشياء بقدرته

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾

ذكر الله سبحانه وتعالى كيف اهتدى إبراهيم - عليه السلام- إلى ربه مما خلق في الكون، وكيف استدل بالوجود على من أنشأ الوجود كله، وهو رب العالمين ثم ذكر سبحانه السموات، ورد على من أنكر أن يبعث الله بشرا رسولا، ذكر بعد ذلك الكون، وما فيه من توالد الأشياء بعضها من بعض بقدرته، وبعلمه وإرادته التي كان بها الخلق والتدبير فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾.

ويروى عن ابن عباس وبعض التابعين أن قوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ أن معناها خالق الحب والنوى، وفالق في أصل معناه بمعنى فاطر أو يلتقيان في معنى واحد، وهو الشق، فمعنى فلق أي شق، ثم كان من الشق الإيجاد، وفاطر تطلق بمعنى خالق، كقوله تعالى فاطر السموات والأرض أي خالقهما، و«الحب» هو ما ينتجه الزرع كالقمح والشعير والذرة، و«النوى» هو ما يكون في الثمار، كالتمر، والمشمش، والخوخ، وغير ذلك من الثمرات.

ووجه الإعجاب في خلق الحب والنوى هو التوجيه إلى أن هذا الحب يكون منه ذلك الزرع الأخضر، الذي تغلظ سوقه ويقوى، وإن هذا النوى يكون منه النخيل الباسق والدوحات العظام، ويكون منه ذلك الشجر المثمر المعروف، كما قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٣٥)﴾ [يس].

وقد ضعف ابن جرير، تفسير «فالق» بمعنى خالق؛ لأنه لا يوجد (فلق) بمعنى (خلق)، ولكن الزجاج جوَّز ذلك، وأكثر المفسرين على أن الفَلْق ليس معناه الخلق أنما معناه الشَّق، وإن الله تعالى يشق الحب ليخرج منه نبات أخضر فذلك إشارة إلى التوالد الذي يتولاه الله تعالى، فيشق الحب فيكون منه الزرع الذي يكون منه حب. . ، متراكب كثير، ويخرج من الحبة الواحدة، زرع فيه حب كثير، والنوى يشق فيكون أشجار باسقة، وثمرات طيبة، ويكون من النواة، ثمر فيه نوى كثير، وثمرات ناضجة كثيرة.

وقد ذكرنا أن هذا رأى الأكثرين، وهو ينتهى إلى معنى الخلق، ولكنه خلق عن طريق التوالد الذى يتولاه الله سبحانه وتعالى فيتولد بخلق الله وتكوينه من الحب الذى يبدو جامدا - زرع أخضر، وحب متراكب، ويتولد من النواة التى تبدو كأنها جماد لا حياة فيها - شجر عليه ثمر، وفى الثمر نوى، فهو توجيه من الله تعالى إلى خلق خاص، لا مجرد خلق النواة والحبة، ولكن ما يتولد عن النواة والحبة من نوى وحبوب.

وإذا كانت الحياة تخرج من هذا الجامد الذى يبدو بادى الأمر أنه لا حياة فيه، فيخرج منه؛ ولذا قال تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ .

هذه الجملة السامية الأكثرون على أنها فى معنى التفسير لفالق الحب والنوى، ويكون قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ أى يخرج من ذلك الزرع، وذلك الشجر، وهما من الأحياء من الحب والنوى اللذين هما كالجماد الذى لا حياة فيهما فى مظهرهما، وبذلك لا يقال كيف تعد الحبة ميتة، أو النواة كذلك، وهما يطويان فى أنفسهما بذرة الحياة، ولا يعدهما علماء النبات من الأموات.

وقوله تعالى: ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ أى أن هذا الحى، وهو الزرع والشجر، يخرج منه الذى يشبه الجماد، وإن كان فيه أصل عنصر الحياة، فقوله تعالى: ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾، معطوف فى الظاهر المتبادر على (يخرج)، وقالوا إنه يجوز عطف اسم الفاعل، على الجملة المصدرة بفعل مضارع؛ لأن اسم الفاعل فى معناه.

وقد يسأل سائل لماذا عبر بالمضارع، ثم عبر باسم الفاعل؟ ونقول فى ذلك: أن التعبير باسم الفاعل يدل على تصوير الفعل، وهو الحياة، وتجددها آنا بعد آن، فيبتدئ بنبت، ثم يخضر ثم يكون له سوق، فهو يصور تدرج الحياة فيه بحكمة الله تعالى، وكذلك فى النواة فالحياة فيها تبتدىء مما يشبه النبت، ثم تكون عودا فشجرة، أما الحبة أو النواة التى تجىء من الزرع أو الشجرة، فإنها تكون نهاية التجديد، وتظهر دفعة واحدة؛ ولذا كان التعبير باسم الفاعل.

وختم الله تعالى الآية التى موضوعها فى التكوين بالتوليد، بقوله تعالى ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ الإشارة إلى ما ذكره سبحانه من فلق الحب والنوى، وتوليد الحياة منهما، وإن كانت مطوية فيهما، وكانت الإشارة للبعيد لعلو المنزلة السامية لذات الله ذى الجلال والإكرام.

وكانت الإشارة بخطاب الجمع إذ قال: ﴿ذَلِكُمُ﴾ وذلك لأن ثمة خطابا للناس الذين أشركوا بالله تعالى، والفاء فى قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ﴾ لترتيب ما قبلها على ما بعدها، فهى لتعريف الذات العلية بأنها التى فلقت الحب والنوى، وأنها تحيى الموتى، فترتب على ذلك استنكار موقف المشركين، وتعريف الذات العلية، وقال تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فالفاء للإفصاح عن شرط مقدر مطوى فى إذا كانت الذات العلية هى التى خلقت، وتحيى وتميت، فكيف تؤفكون، أى تصرفون عن عبادته وحده سبحانه وتعالى إلى الشرك: وتؤفك، وتأفك وأفك بمعنى صرف، وأحسب إنها صرف فيه إفك وكذب على الله، فالمعنى كيف تصرفون كاذبين على الله تعالى، مفترين عليه بعبادة غيره، سبحانه وتعالى عما تشركون.

وإن الله تعالى خلق الأرض وأحياها بالنبات والشجر وغذاها بالماء، وقد أظلها بالسماء، وإذا كان قد فلق الحب، فأخرج منه النبات، والنوى فأخرج منه الثمر، فقد فلق السحاب، فانشق؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ﴾ الإصباح هو شروق الفجر، وذلك بأن يشق الخط الأبيض ظلام الليل.

والذين قالوا: إن معنى ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ خالقهما، قالوا هنا أيضا إن معنى ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ﴾ أى خالق الإصباح بعد إظلام الليل، والذين قالوا، وهم الأكثرون: إن معنى فلق شق، وإن معنى ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ﴾ شق الظلمة، بخيط الفجر الأبيض الذى يتسع شيئا فشيئا حتى يعم النور الوجود، فكان النهار المضىء الذى يكون فيه العمل والسعى فى الحياة، وطلب الرزق، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) ﴾ [النبأ].

وإن الإصباح كما ترى هو دخول النهار، أو إيذان بدخوله؛ ولذا عطَفَ عليه الليل، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا﴾ أى تسكن فيه النفوس والأجسام بعد طول النصب واللغوب؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣)﴾ [القصص]. فالليل تسكن فيه النفوس وتقر، ويرجع المرء إلى أهله وولده، وهى مسكنه، ومطمأنه، وفى النهار يبتغى الرزق فى الأرض، وإن الليل فى أحواله طولا وقصرًا، والنهار كذلك طولا وقصرا يتبعان الشمس والقمر، كما يتبعان فى أصل وجودهما الشمس؛ ولذلك قال تعالى بعد الليل والنهار ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ عطف على ﴿جَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا﴾ و﴿حُسْبَانًا﴾، لحساب الأيام والسنين والأشهر، فبالشمس تعرف الأيام، ونعرف ساعاتها، فإن شروقها وغروبها يحدد عدد ساعات الليل والنهار ودرجاتهما، واختلاف أقاليم الأرض فيها طولا وقصرا حتى يقل النهار فى بعض الأرض ويكون الأكثر ليلا، ويتناسب الليل والنهار فى بعض الأرض، وبالشمس تعرف مناطق الأرض على حسب تسلط نورها وأشعتها على الأرض، وتكون الفصول الأربعة من صيف وخريف وشتاء وربيع.

والقمر تقدر به الأشهر القمرية بالأهلة، وتعرف أيامها بحال الهلال؛ ولذا قال تعالى فيما تلونا من قبل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ... (٥)﴾ [يونس]. وقوله تعالى: ﴿... بِحُسْبَانٍ (٥)﴾ [الرحمن] أى بحساب دقيق لا يتخلف عن مواقيته فى كل بقعة فى الأرض على حالها، لا يتقدم ميقاتها ولا تتأخر حتى ينفخ فى الصور، فيصعق من فى السموات.

والفرق بين الحساب والحسبان، أن الحساب مقدر بعد وقوع ما يحسب وما يعد، أما الحسبان فإنه يحسب ويقدر قبل الوقوع.

ويلاحظ أنه إن ذكر التوالد فى النبات والإحياء والإماتة ذكر الشمس والقمر، لأثرهما فى إنبات النبات ووجود الأشجار، وحياة الأحياء، فالشمس

توجد الحرارة التى تمد الأحياء بالنماء والدفء، ومن الحرارة إيجابا وسلبا يكون المطر، ولقد ختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، أى وهو القادر الغالب صاحب السلطان المطلق والملك التام فى هذا الكون، وهو العليم بما يكون فيه، وما يجرى وما يدبر.

وقد ابتدأ سبحانه ببيان سلطانه سبحانه فى الأرض، وما يتوالد فيها من أحياء، ثم ذكر ما يؤثر فيها وفى أهلها فى الليل والنهار وما جعل من الشمس والقمر بحسبان، بعد ذلك ذكر السماء، وما يكون فيها، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾.

خلق الله تعالى النجوم فى السماء، وهى ذات أبراج كمطالع الشمس والنجوم، ولكل نجم مدار خاص به، يظهر فى إبانه، واتجاهه يهدى السائرين فى البر، فيهتدون به، ويعرفون به أهم متجهون إلى الشرق أم إلى الغرب وهل هم متجهون إلى الشمال أم إلى الجنوب، فيهتدون فى الحيرة، ويصح أن يراد بها فى ظلمات البر بالاهتداء بها فى حيرة البر، وظلمات البحر بالاهتداء بها فى ظلمات البحر.

ويصح أن يراد بذلك ظلمات الليل فى البر والبحر، فإن الناس فى نهارهم يهتدون بالشمس فى شروقها وغروبها ومن ذلك يعرفون الاتجاه إلى الجنوب أو الشمال، أما فى ظلمات الليل فالنجوم ليس بكونها منيرة، إنما بمسارها فى اتجاهها.

هذه إحدى فوائد النجوم، أما المزايا الأخرى فأهمها أنها والأرض دلالة على منظم حكيم مبدع فقد قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ (١١)﴾ [ق].

قوله تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أى بينا الآيات مفصلة واضحة لقوم يعلمون ويعرفون حقائق هذا الوجود ويعلمون مصالحهم.

وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

بعد أن أشار سبحانه وتعالى إلى خلق النبات من الحبَّات، والشجر من النواة - بين خلق الإنسان فى الأرحام فـقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾.

اتجه المفسـرون إلى اتجاهات فى تفسيـر قوله تعالى: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ فمنهم من نظر إلى أن قوله تعالى: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ تتجه إلى أصل التكوين الإنسانى فـى أصلاب الآباء، وأرحام الأمـهات، فقـال: معنى مـستـقر أى مكان استقـرار وهو رحم الأم، ومستودع، أى مكان الوديعة الإلهـية فى أصلاب الآباء، فهو بيان لأدوار النطفة حتى تخرج من المستودع الذى أودعه الله تعالى فيها، وهو الأصلاب إلى المقـرِّ الذى أقرها الله فـيها لتنمـو فتكون نطفة فـى قرار مكين، ثم تكون النطفة علقة، ثم تكون مـضغة، ثم تكون عظاما، فيكسـو العظام لحما، ثم

يصير بشرا سويا، فتبارك الله أحسن الخالقين، والنفس الواحدة هى نفس آدم أبى البشر.

وكما أشار سبحانه إلى فلق الحبة فتكون خضرة، وفلق النواة فتكون نخلا باسقا، وأشار هنا إلى خلق الإنسان حتى يصير إنسانا مكتملا.

واتجه آخرون إلى الاستقرار فى الحياة، والاستيداع فى النهاية إلى باطن الأرض، فالمستقر هو الدنيا والوجود فى هذه الأرض، والمستودع القبر، الذى يودع فيه حتى يكون البعث والنشور، وذلك كقوله: ﴿... **وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ** ... (٣٦)﴾ [البقرة] والأكثرون من الصحابة والتابعين على الاتجاه الأول، وهو أوضح، وأقرب تبادرًا للذهن، وإنى أرى أنه لا مانع من أن تكون فى الاثنين، واللفظ يحتملهما، ويكون فى الأول بما يشبه العبارة وفى الثانى بما يشبه الإشارة، فالعبارة سيقت لأصل التكوين، كما سيق أمر الحبة والنواة، وما جاء بعدها لذلك، ودلت بالإشارة على أنه استقرار إلى أمد، وبعده الاستيداع فى القبر، حتى يوم البعث، فتأتى كل نفس بما كسبت، وختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿**قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ**﴾ أى ينفذون إلى أسرار الوجود من وراء مظاهره؛ لأن فَقِه ليس المراد بها مجرد العلم، إنما المراد بها العلم الذى يشق المظهر ليصل إلى سر ما وراءه، وقد علل الزمخشرى أنه ختم الآية التى تدل على الاهتداء بالنجوم بقوله تعالى: ﴿... **قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** (٩٧)﴾ [الأنعام]، وهنا ختم بقوله: ﴿**قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ**﴾ بأن الاهتداء حسى يرى فهو آية بينة محسوسة لا تحتاج إلى النظر، والانتفاع والاهتداء، وأما الثانية، فإن الآيات فيها سر الوجود الإنسانى الذى يتدرج فيه الحى من نطفة تجىء من الأصلاب، وتودع فى الأرحام حتى تكون بشرا سويا.

وليس الفقه هو الفهم المجرد، إنما الفقه هو شق الحقائق حتى يصل إلى لبها وغايتها، فقوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ**

طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢)﴾ [التوبة].

وبعض الكتاب قال: إن العلم أعلى درجة من الفقه؛ لأن الفقه مطلق الفهم، والعلم هو المعرفة عن دليل قاطع يؤدى إلى اليقين، ونحن إلى قول الزمخشرى نميل، ونرى أنه هو الذى يتفق مع (فقه)، ومن غير الزمخشرى أكثر إدراكا منه.

بعد أن بين الله تعالى كون الإنسان، وتدرجه فى الخلق من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات وتدرجه فيها إلى أن صار إنسانا فى أحسن تقويم، ذكر سبحانه وتعالى نعمة الماء فى هذا الوجود، وما يخرج به فى الأرض من حبوب وثمار تتشابه فى شكلها، ولا تتشابه فى طعمها، فهى متشابهة وغير متشابهة، فقال تعالى كلامه: ﴿وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

أخبر الله عن ذاته العلية أنه هو الذى أنزل من السماء ماء، فهو وحده الذى أنزل من السماء الماء فلم ينزل إلا بقدرته؛ وهو وحده الذى يثير السحاب حاملة المطر الذى ينزل ماء على الأرض، فنزوله من السماء، هو نزوله من السحاب؛ لأن السماء ما تعلو فوق الأرض، وسماها الله تعالى سماء؛ لأنها تغطى الناس بالغمام الذى يتكاثف فيصير ماء يهطل على الأرض مطرا، ولقد التفت البيان القرآنى السامى من الغيبة إلى التكلم، فقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أضاف الإخراج إلى ذاته العلية بصيغة المتكلم لبيان عظيم فضله، وأن إخراج النبات والنخيل والأعناب، والزيتون والرمان، وغيرها من أنواع الثمر والمطعومات بإرادته، وتخيره وتشكيله لها سبحانه وتعالى، وقوله تعالى: «به» أى منه، وبه وعن طريقه ولقد قال تعالى: ﴿... وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ... (٣٠)﴾ [الأنبياء].

وإن النص الكريم يفيد أن الله تعالى أنزل الماء وهو فى ذاته نعمة، لأن منه حياة الأحياء من نبات وحيوان وإنسان كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ

﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الواقعة] والنعمة الثانية أنه أخرج الله تعالى به نبات كل شيء أى كل صنف من أصناف النبات من قمح، وشعير، وذرة، وأرز، وسمسم، وغير ذلك من أنواع الحبوب والبقول، وغيرها وهو منوع مختلف وإن اتحدت الأرض واتحد السقى؛ ولذا قال تعالى فى آية أخرى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ... ﴿٤﴾﴾ [الرعد].

ولقد فصل الله تعالى أدوار الإنبات فقال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾، أى يخرج الله تعالى خضرا، أى أخضر، غضا طريا ذا شعب، ومن هذا الأخضر الغض يخرج بعظيم قدرته حبا جامدا متراكبا أى يركب بعضه بعضا فى نظام رتيب متسق بقدرته تعالى كالسنبلة فى القمح والأرز، والكوز فى الذرة، وغيرها من الأنواع المختلفة، كيف تبدأ خضرا مزهرة فإذا نضجت وصارت حطاما أو قريبا من ذلك أتت بنبات نافع يكون مطعوما يغذى الأبدان، وهنا نجد عجيب قدرة الله تعالى فلقت الحبة الصلبة، وجعلت منها عودا أخضر غضا، ثم جعلت من هذا العود الأخضر وقد صار ثمارا حوى حبا متراكبا صلبا.

وقد ابتدأ سبحانه وتعالى بذكر النبات؛ لأنه يكون منه الغذاء والكساء من العرى، كالقطن، والكتان، والتيل، وغيرها مما يكون اللباس والكساء للناس.

وبعد ذلك بين سبحانه الثمرات التى تكون من النوى، وابتدأ منها بالنخيل؛ لأنه يجىء منه التمر، وهو إن كان فاكهة هو أيضا غذاء، وقد كان غذاء عند العرب يشبه أن يكون رئيسيا.

فقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ طلع النخل هو أول ما يبدو من ثمر النخل فيبدو فيه شق، فإذا شق كان العزق، وهذا العزق هو القنوان، وهو الذى بعد التمر يكون عرجونا، وتكون الشماريخ.

وفى هذا بيان نعم الله تعالى فى التمر، وهو عطف على الكلام السابق عطف جملة على جملة، ولم يقل سبحانه وتعالى، وأخرجنا النخل، وإن كان قد

أخرجه فعلا من النوى، ولكنه صار كالأرض يخرج منه مثل ما تخرج الأرض من نبات، وقد قدر إخراج الله لهذا القنو من الطلع، كإخراج النبات من الأرض، فإخراج القنو كإخراج النبات من الأرض بقدرة الله تعالى، و«قنوان» جمع قنو، و«دانية» أى قريبة تتناولها الأيدى، وقد ذكر الدانية لأن نعمتها أقرب، ولأنه يظهر أن النخل القصير يكون طيب الجنى، ويظهر أن هذا النوع هو النخل الذى أكرم الله به السيدة البتول مريم عندما ولدت المسيح قال تعالى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥)﴾ [مريم].

وقد ذكر الله تعالى النخل والتمر عقب الحَب؛ لأن التمر كما ذكرنا يكون غذاء، وكما يقول علماء النبات إنه غذاء كامل.

وقد ذكر سبحانه وتعالى بعد ذلك الأعناب، والزيتون والرمان فقال تعالى: ﴿وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾.

وقوله «جنات» معطوفة على «نبات كل شيء» أى أخرجنا جنات من أعناب، وأعناب جمع عنب، والجنات جمع جنة، وهى الأرض ذات الأشجار الملتفة المتكاثفة التى تجنّ الأرض وتظلها، وعبر عن الأعناب بالجنات؛ لأنه إذا نما وترعرع، وأقيمت له العرائش كان جنة ساترة للأرض وحديقة غناء، تظهر خضراؤها، وتُجَنُّ أرضها، وذكرت الأعناب بعد النخيل؛ لأنه كان كثيرا فى أرض العرب، ولأنه فاكهة كانت أطيب الفواكه عندهم، ولأنه غذاء ودواء من عجمة وهو نواه.

ثم ذكر سبحانه وتعالى الزيتون والرمان، معطوفين على (نبات كل شيء) والتقدير فى كل هذا أخرجنا بالإسناد إلى الذات العلية، لبيان قدرته العظيمة وإرادته الحكيمة، وآلائه على العرب وغيرهم.

وكان النخيل وطلعه بمقتضى السياق يكون معطوفا على (أخرجنا)، ولكن الاختصاص عندهم بالأهمية، ولأنه أكبر الأشجار المثمرة وأعلاها، فكان موجب الاختصاص أن يتغير الإعراب.

وقال تعالى: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾.

المشتبه والمتشابه بمعنى متقارب كمستوٍ ومتساوٍ، وهنا فى تفسير مشتبه وغير متشابه اتجاهان فى الفهم:

أحدهما- أن ثمار الزيتون قد يكون متشابها فى الحجم والطعم، وقد يكون غير متشابه، وذلك دليل على أن الأمر باختيار الله تعالى جعل هذا متغيرا فقد يخلق التمر متشابها فى حجمه وطعمه، وقد يخرج غير متشابه فى ذلك؛ وكل بإرادة الله تعالى.

واتجاه آخر- وهو أن تتشابه الثمرتان فى أنهما من شجرة واحدة، ولكن لا تتشابهان فى الطعم أو اللون والرائحة كما ترى فى ثمر الرمان، فقد تكون رمانتان من شجرة واحدة، ولكنهما مختلفتان فى الحجم، وطعم الثمر ولونه، ويقول بعض العلماء: إن شجر الزيتون والرمان تتشابه فيهما الأوراق، ويختلف ما ينتجانه والحق أن الوجهين الأولين يمكن الجمع بينهما بأن يكون التشابه فى العدد والحجم، وألا يكون تشابه قط، وقد قال تعالى: ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾.

«الينع» النضج، والمعنى انظروا نظرة اعتبار واستبصار إذا أثمر كيف يبتدئ الثمر خيوطا رفيعة، ثم تغلظ شيئا فشيئا نامية متدرجة فى نموه، حتى تصل إلى حال النضج، فإنه يكون متغير الأحوال كما يبتدئ الجنين نطفة، ثم علقة ثم مضغة حتى يصير خلقا سويا، كذلك انظر إلى الثمر، كيف يسير فى نموه حتى يصير ناضجا طيبا.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

الإشارة إلى ما تقدم من إنزال الماء من السماء، وإخراج نبات كل شىء منه، والنخيل وطلعه من قنوانه، وتدرجه من حال إلى حال، والأعناب والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه، الإشارة إلى هذا كله وما فيه من عجائب أن فيه آيات بينات على قدرة الله تعالى فى تكوين الأثمار وتوالدها، وإذا كان الله تعالى

متصرفا فى الوجود ذلك التصرف فهو الذى خلقكم، وهو قادر على إعادتكم كما بدأكم أول مرة، وقال تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ لأن أهل الإيمان هم الذين يدركون حكمة الله تعالى فيما خلق، وهم الذين يذعنون للحقائق إذا بدت آياتها.

وخاطب بالإشارة بالجمع بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ﴾ للتنبيه وتوجيه أنظار الجمع إلى ما فى هذا الخلق أو التكوين من عِبَر، تعالى الله العلى القدير.

الوثنية وادعاء البنوة لله

وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ
وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا
يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ
وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾
ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ
فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ
ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

بعد أن بين سبحانه وتعالى آياته فى خلق الأشياء وتوالده وإثبات قدرته القاهرة، وإرادته العلية، وأنها تقتضى الإيمان بالله تعالى منشئ هذا الكون وما فيه ومن فيه، وأنه الحى القيوم القائم عليه يمسكه، ويمسك السموات والأرض أن تزولا. ولئن زالتا لا يمسكهما أحد من بعده.

مع هذه البينات ظهر أولئك الذين يشركون بالله تعالى وذكر سبحانه وتعالى أنهم يشركون الجن، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ أى أن الشركاء هم الجن، أى أنهم عبدوا الجن بجوار عبادة الله تعالى، وقد يسأل سائل إن المشركين قد عبدوا الأصنام، ولم يعبدوا الجن، فكيف يقال إن الشركاء لله الجن، وقد قال فى محكم آياته أنهم اتخذوا الأنداد، والأنداد التى حسبوها أندادا لله هى الأصنام.

وقد اتجه المفسرون فى إجابة هذا السؤال اتجاهين: أولهما- أن الشياطين، وهم من أتباع إبليس وهو رأس الجن هم الذين سولوا لهم عبادة الأوثان، وزينوها لهم، وقد جاءت بذلك النصوص القرآنية الكثيرة، من ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١)﴾ [يس]. ويقول الله تعالى على لسان الملائكة: ﴿... سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ (٤١)﴾ [سبأ]. ويقول تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (١١٨) وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (١١٩)﴾ [النساء].

وإنه ما من شرك إلا والشيطان وراءه، والشيطان من الجن؛ إذ هو تابع لإبليس، وهو من الجن، كما قال تعالى: ﴿... إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ... (٥٠)﴾ [الكهف]. هذا هو قول الأكثرين.

الاتجاه الثانى- روى عن ابن عباس والكلبى أنهما قالا: إن الذين كانوا يعبدون الجن هم الثنوية من المجوس الذين كانوا يقولون إن الوجود يحكمه إلاهان إله الخير، واسمه يزدان وإله الشر واسمه أهرمن.

ولقد قال ابن عباس: إن موضوع الآية الزنادقة، وقد رجح فخر الدين الرازى ذلك الرأى، ولنترك الكلمة له، فقد قال: (هذا مذهب المجوس، وإنما قال ابن عباس هذا قول الزنادقة لأن المجوس يلقبون بالزنادقة؛ لأن الكتاب الذى زعم زرادشت أنه نزل عليه من عند الله سمى بالزند والمنسوب إليه يسمى زندى، ثم عرب فقيل زنديق، ثم جمع فقيل زنادقة، واعلم أن المجوس قالوا: كل ما فى هذا العالم من الخيرات، فهو من يزدان، وكل ما فيه من الشرور فهو من أهرمن؛ وأهرمن، هو إبليس بلغة القرآن، والقرآن قال إنه من الجن، فمن قال بهذا المذهب، فهو يعتبر إبليس وذريته من الجن شركاء لله تعالى فى معنى الألوهية، وبذلك تتحقق شركة الجن).

وفى الحق: إن الآية تشمل بعمومها عباد الأوثان والزنادقة؛ لأن كليهما عبدا الشيطان، وإبراهيم- عليه السلام- عندما نهى أباه عن عبادة الأوثان قال له: ﴿يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤)﴾ [مريم].

وعلى ذلك يكون المشركون والمجوس قد أشركوا الجن فى عبادة الله تعالى، سواء أكان ذلك بأن سولوا لهم عبادة الأحجار، فتكون عبادة الأحجار عبادة للجن، أم عبدوا الجن مباشرة كالثنوية.

ولقد قال تعالى بعد أن ذكر هذه الشركة الوثنية قال تعالى: ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ أى أن الله تعالى خلقهم، فهم مخلوقون، حادثون ولا يصلحون أن يكونوا معبودين؛ لأن المعبود بحق هو القديم الذى لا أول له، والباقى الذى لا آخر له، ولأنه ليس من العقل فى شىء أن يشترك الخالق مع المخلوق.

ثم ذكر سبحانه وتعالى افتراءات المشركين ومن لف لفهم، فقال تعالى: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وخرقوا معناها اختلقوا القول، وافتعلوا، كان الرجل إذا كذب فى النادى، قالوا خرق ورب الكعبة أى اختلق، فالمعنى: اختلقوا أن يكون لله بنون أو بنات، ومن الناس من قال الملائكة بنات الله، وقد تردد ذلك على ألسنة المشركين وعلى ألسنة اليهود.

ومن الذين خرقوا القول بأن لله تعالى بنين - الهنود والبوذيون، وأخذ عنهم النصارى بنوة عيسى، واليهود قالوا عزير ابن الله، فادعاء البنوة لله تعالى قد أخذ به اليهود، ثم سار وراءهم اليهود والنصارى، وكل من افترى على الله تعالى ذلك الافتراء.

ولقد قال تعالى إن ذلك قول ليس له أصل قام عليه، ولكنه جهالة، فقال تعالت كلماته: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أى أنه ادعاء ليس له أساس، من أين أوتوه. بل عن أوهام توهموها، وجهل مبين بمعانى الألوهية، ويدل على فساد فكر وضلال فهم، واستهواء نفس ممن سيطر على نفوسهم. والله تعالى منزه عن ذلك.

وختم الله تعالى الآية بما يدل على التنزيه، وعلو المقام الإلهى عن ذلك فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ وهى مصدر يدل على التسبيح وتنزيه الله العلى الكريم عن ذلك ﴿وَتَعَالَى﴾ أى تسامى سبحانه وتعالى عما يشركون.

ولقد بين سبحانه وتعالى استحالة أن يكون له ولد، فقال تباركت آياته: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾.

وكلمة (بديع) فعيل بمعنى اسم الفاعل، أى مبدع السموات والأرض، وهى تقتضى معنيين: أحدهما- أنه أنشأها على غير مثال سبق، والثانى- أنه لم يكن قبلها شيء يحتذى، فقد أنشأها من العدم إنشاء، فهو خالقها، قبل أن لم تكن ومن كان منشئا لهذا الوجود بإرادة مطلقة لا يمكن أن يكون وجود الأشياء لديه بنظام الأسباب والمسببات، فلم تكن الأشياء كإيجاد العلة للمعلول، بل هو إنشاء الموجد للموجود.

وإن من كانت هذه الحال حاله لا يمكن أن يكون له ولد.

وقد بين الله سبحانه وتعالى استحالة ذلك من وجهة الأسباب العادية التى تقتضى أن يكون الوالد له امرأة تلد منه؛ ولذا قال تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾.

«أنى» من أين يكون له ولد، أو كيف يكون له ولد، ولم تكن له صاحبة، أى امرأة يعقب منها الولد، كما تزين ذلك عقولكم الواهمة، ونفوسكم المطوقة بآفة الوهم والضلال، إنه ثبت أن الله واحد أحد لا شريك له، فى السموات والأض، فكيف يقولون ذلك الوهم، لقد ضل الذين قالوه أولا كالبراهمة، وضل الذين قالوه من بعدهم متبعين لهم، وضل الذين يتبعونهم اليوم.

لقد قال النصارى الذين أخذوا من البراهمة والبوذية: إن مريم البتول ولدت عيسى، وأقروا بأنها ولدته بعد أن حملت به تسعة أشهر، وجاءها المخاض، كما يجىء كل امرأة تلد، وألجأها إلى جذع النخلة، وولدته ووضعته فى مزود، ثم عاش كما يعيش الناس، ثم ادعوا له بنوة لله تعالى ثم ألوهية زعموها فمن أين أتت إليه الألوهية وقد عاش بشرا سويا، يأكل كما يأكل الناس؟.

لقد زعموا لفرط وهمهم أن مريم البتول- عليها السلام- ولدت الإنسان والإله، وزعم بعضهم مخففًا فساد القول الأول أنه ولد إنسانا، ثم فاضت عليه الألوهية والبنوة معا، ﴿... **كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا** (٥)﴾ [الكهف].

ولقد قال الله تعالى مؤكدا نفى البنوة عن ذاته العلية: ﴿**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ أى أنه سبحانه وتعالى خالق كل شىء فهو غير محتاج لأحد؛ لأنه خالق الوجود كله، والبنوة ثمرة الاحتياج لتكون امتدادا للوالد، والله تعالى الخالق للوجود كله فكيف يحتاج لولده، ولكنها الأوهام المسيطرة، وكل عقيدة تشتمل على أن شخصا له بنوة أو ألوهية عقيدة أساسها الوهم الباطل، وأصحابها يعيشون فى أوهام، وشيوعها دليل على فسادهم وفساد من يتبعونهم.

وقد قال تعالى مؤكدا معنى خلقه وقدرته بسعة علمه وإحاطته بكل شىء علما، فقال تعالى: ﴿**وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ فالخلق والتكوين هو بمقتضى العلم والحكمة والإرادة.

ولقد أكد سبحانه وتعالى حقيقة ربوبيته، وألوهيته بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ الإشارة فى «ذلكم»، إلى ما ذكر من فلق الحب والنوى وإنشاء النبات والأشجار والأنفس، والتوالد، والنزاهة المطلقة عن الشريك والولد، وانفراده سبحانه وتعالى بالخلق والتكوين والقيام لكل شيء والعلم بكل شيء وهذه أوصاف الوحدانية، وإذا كان واحدا فى ذاته العلية، وواحدا فى إنشائه للكون، فهو الجدير بالعبادة وحده وكل عبادة لغيره تكون باطلة بطلانا مطلقا؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ﴾ أى ذلك المعبود بحق وحده، وهو ذو الجلال والإكرام، والإشارة بالخطاب للجميع (ذلكم) للإشارة إلى التكليف العام بعبادة الله تعالى وحده، وقد ذكر سبب الألوهية الكاملة، فقرنها بوصفين يزكيان معنى الألوهية: أولهما- الربوبية الكاملة؛ الذى يربى الناس والأشياء، يربها ويرعاها ويحفظها، الوصف الثانى- أنه خالق كل شيء، ولا شيء فى الوجود إلا وهو الخالق له والقائم عليه، والمدبر لأمره، والكالئ له، وهو على كل شيء وكيل.

وقد قال تعالى: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ أى أنه إذا كان هو وحده الخالق، وهو وحده المدبر فاعبدوه وحده، لا شريك له، فهذه نتيجة للمقدمات الواقعة السابقة، ومن عبد غيره، فإنه قد سبق إليه وهم، وهو عبد للأوهام وليس مؤمنا بالله.

وبعد أن بين الله سبحانه وتعالى أنه خالق كل شيء بين أنه خلقه، وهو يحافظ عليه؛ ولذا قال جلت قدرته، وعظمت حكمته: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ «وكيل» هنا من وكل إليه الأمر ليحفظه ويصونه فمعنى وكيل هنا قائم على الأشياء كلها ليحفظها ويصونها، ويدبر أمرها إلى أن يقضى فيها قضاءه وكان أمرا مفعولا، فهو الإله القائم على كل شيء سبحانه.

وإن الله سبحانه وتعالى منشيء الوجود نحس بآثاره، وننعم بنعمه ولا نراه، فهو خفى الألطاف ظاهر بنعمه وآثاره؛ ولذا قال تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾.

«الأبصار» جمع بصر، والبصائر جمع بصيرة، والبصر يعلم بالرؤية البصرية. والبصيرة تعلم بالرؤية القلبية، والإدراك العقلى، والخشوع، والاتجاه الروحى، والتعلق بالذات العلية؛ ولذا قال تعالى: ﴿... **فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** (٤٦)﴾ [الحج].

والإدراك هو: الرؤية المحيطة بالشىء من كل جوانبه، فالرؤية البصرية لا ترى إلا الجانب الذى يكون مقابل العيون، أما الإدراك فهو الإحاطة بكل الجوانب، من كل ناحية، ومعنى قوله تعالى: ﴿**لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ**﴾ لا تحيط الأبصار بكل جوانب عظمته وجلاله، وعندئذ ننتقل من الرؤية البصرية إلى ما تنتجه الرؤية من تأمل وتفكير؛ ذلك أن الرؤية البصرية رؤية للمحسوس، ثم بعد رؤية المحسوس يكون التفكير فيما توجهه هذه الرؤية، فاذا رأيت منظرا جميلا، فالرؤية تريك هذا المنظر، فتستريح نفسك، وتستروح معانى من الإحساس بالجمال، فإذا علا إدراكك. فإنك تفكر فى بديع الصنع، وحسن هندسة التناسق، ثم أطياف الألوان، ثم مهارة الصانع، فهذا هو الإدراك بالإبصار، فالإدراك بالإبصار هو المعانى التى تومىء بها الرؤية، ويوجه إليها النظر المستقيم.

وقوله تعالى: ﴿**لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ**﴾ هو كناية عن التفكير والعلم الذى ينتج عن البصر، وقد نفى الله تعالى الإدراك، وهو يتضمن نفى الرؤية البصرية ابتداء؛ لأن الرؤية البصرية فى الدنيا إنما تكون فى مكان متميز متحيز، والله سبحانه وتعالى ليس له مكان، ولا يحده شيء فى الوجود، وسع كرسيه السموات والأرض وهو السميع العليم.

وفوق ذلك لا يمكن للعقل البشرى أن يدرك الحقيقة الإلهية؛ لأنه أعلى وأجل وأعظم من أن تصل إليه المدارك، ونحن ندرك آياته، ولا نعرف كنه ذاته، تبارك الله العلى الحكيم، هذ معنى نفى إدراك الأبصار، وما تؤدى إليه، وما يمكن أن يؤدى إليه مضمون هذا النفى، ثم قال تعالى: ﴿**وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ**﴾ أى يعلمها علما محيطا، وسع علمه كل شيء لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه

مثقال ذرة فى السماء والأرض، يعرف ما تراه الأعين، وما تدركه، وما تؤدى النظرة من تأملات نفسية، فهو العليم بخواطر النفوس وخلجات الأفئدة، وهو اللطيف الذى يعلم أدق علم، الخبير الذى يعلم دقائق كل شىء.

وقد تكلم العلماء فى هذا المقام فى رؤية الله فى الآخرة وفى الدنيا، فقال الأكثرون: إن الله تعالى يرى يوم القيامة بكيفية لا نعرفها، يراه الأبرار وقد أخذوا ذلك من ظاهر قوله تعالى: ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)** ﴾ [القيامة] وإن ذلك من جزاء المتقين، ولا يراه المجرمون أخذا من ظاهر قوله تعالى: ﴿ **كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥)** ﴾ [المطففين]. ومن ظاهر قوله تعالى: ﴿ **... وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ ... (٧٧)** ﴾ [آل عمران].

وأما فى الدنيا، فإن الله لا يُرى فيها؛ لأن الرؤية تقتضى التحيز فى مكان، والله تعالى منزه عن ذلك، وقد طلب موسى- عليه السلام- رؤية ربه فقال: ﴿ **... قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ ... (١٤٣)** ﴾ [الأعراف]. فدلت هذه الآية على أن الرؤية فى الدنيا غير ممكنة.

وهنا يثار سؤال هل رأى النبى ﷺ ربه فى المعراج؟ بعض العلماء زعم أنه رآه، ولا يوجد نص قاطع يدل على ذلك، ولكن وردت آثار كثيرة، تدل على نفيه، فقد سئل النبى ﷺ: أرأيت ربك؟ قال: «إنه نور، فأنَّى أراه»(١).

وروى مسلم فى صحيحه بسنده إلى مسروق عن عائشة رضى الله تعالى عنها قال: كنت متكئا عند عائشة فقالت: يا أبا عائشة (كنية مسروق) ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية، قلت: ما هن؟ قالت: من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية - وكنت متكئا، فجلست - فقلت: يا

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الإيمان، والترمذى فى تفسير سورة ٥٣ (النجم) وأحمد بن حنبل، ج٥ ص١٥٧، ص١٧١، ١٧٥.

أم المؤمنين أنظرينى، ولا تعجلينى ألم يقل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣)﴾ [التكوير] ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣)﴾ [النجم] فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ إنما هو جبريل لم يره على صورته التى خلق الله عليها غير هاتين المرتين.. فقالت: أو لم تسمع أن الله عز وجل يقول: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ أو لم تسمع أن الله عز وجل يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ... (٥١)﴾ [الشورى] قالت: ومن زعم أن رسول الله ﷺ قد كتم شيئا من كتاب الله فقد أعظم الفرية، والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ... (٦٧)﴾ [المائدة]. قالت: ومن زعم أنه يخبر بما يكون فى غد فقد أعظم الفرية، والله تعالى يقول: ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ ... (٦٥)﴾ [النمل].

هذا بالنسبة لرؤية الله تعالى فى الدنيا، وأما فى الآخرة فالأمر فيها إلى الله تعالى، وهو على كل شىء قدير.

البينات لا يدركها الجاحدون

﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾

بعد أن ذكر الله تعالى أنه خالق كل شيء ووجه الأنظار إلى تصريف الله تعالى في الكون مما ذكر الله تعالى في الآيات السابقة، ووجه الأنظار إلى ما فيها من دلائل على أنه وحده هو الخالق، وأنه ليس كمثله شيء وأنه وحده المستحق للعبادة - قرر أن هذه آيات تبصِّر ذوى العقول الواعية، والقلوب الخاشعة المبصرة فقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ﴾ والبصائر جمع بصيرة، والبصائر هنا هى الآيات التى ساقها الله تعالى مبصّرة للمدارك هادية للقلوب، وهى التى بسببها يدرك أهل البصر النفسى الذى لا غشاوة عليه، وعلى ذلك يكون فى الكلام مجاز، إما أن نقول فيه: إنه شبه سبحانه وتعالى الآيات التى تبين الحق بالبصائر التى تدركه وتعرفه، وتستبينه، وجامع التشبيه أنها تبين بنفسها، كما تدرك البصيرة الحق بفطرتها، أو نقول: إن الآيات سبب لنور البصائر، فأطلق المسبب وأريد السبب، وهو آيات الله تعالى فى الكون وفى أنفسنا وفيما يحيط بنا، وما نراه من توالد الأحياء بعضها من بعض بقدرته تعالى.

وإن هذه الآيات علامات الحق ودلالاته، فمن أدركها فقد نجا، ومن لم يدركها فقد بغى على نفسه وأضلها؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ

فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ الإبصار هنا ليس هو النظر الحسى، إنما هو الإدراك الحقيقى، الذى يدرك معنى الآيات وما تدل عليه، فهو المجاز الذى يشبه فيه الإدراك والخضوع للحق البين بإبصار الأمور الحسية التى ترى بالأعين من حيث وضوح الدلالات فى كل، بل إن دلالات الآيات على ما تدل عليه أقوى.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ فشبه سبحانه الإعراض عن آيات الله تعالى، بمن عمى فلا يبصر، وأضاف الله سبحانه البصائر إلى الذات العلية بلفظ (ربكم) للإشارة إلى أنه صاحب النعم المتوالية عليهم التى توجب شكرها، والإيمان بها، وتبصر ما تدعو إليه الآيات.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ ظاهر ذلك أنه من النبى ﷺ، ولم يكن ثمة حاجة إلى أن يقول الله تعالى لنبيه: قل: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾؛ لأن الكلام منزل من عند الله تعالى، والنبى ﷺ يخاطب به العرب، والقرينة دالة على أن ذلك من النبى ﷺ لقومه الذى هو رءوف بهم، ولكنه ليس بحفيظ عليهم، ثم إن هذا النص السامى، وهو ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ هو كالنتيجة المنطقية لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ أى فالتبعة عليكم. كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (١٠٨)﴾ [يونس].

يقول تعالى حكاية عن قول النبى ﷺ كما أمره ربه: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ قدم الجار والمجرور؛ لأن نفوسهم ستهمهم؛ ولذلك قدم خطابهم على الوصف، وقد أكد سبحانه النفى بالباء، وأكده بالجملة الاسمية، والمعنى وما أنا بحفيظ عليكم من أن تتدلوا فى العذاب بإنكاركم بآيات ربكم، وكفركم بالله بعد أن بدت الدلائل القاطعة، والأدلة البينة، الواضحة، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧)﴾ [الرعد] ولقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ... (٨١)﴾ [النمل] فلا مسئولية على الرسول فى ضلالهم.

صرف سبحانه وتعالى الآيات الكونية، وصرف سبحانه وتعالى الآيات فى كتابه تعالى فى معانيها وفى مبانيها فمرة يكون بالأمر أو النهى أو الاستفهام، والبيان أحيانا بالإيجاز المعجز، وأحيانا بالإطناب المفصل، فى نسق يعلو عن البشر، وذلك ليعلموا مقدار الإعجاز، وليستبينوا الحق من عباراته السامية، وتوجيهاته الهادية، ولكن كذبوا عليه وافتروا، وقالوا علَّمه إنسان؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ﴾ (الآيات) هنا فيما يظهر لنا؛ الآيات القرآنية، والتشبيه فى قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ﴾ أى مثل هذا التصريف فى ذكر الآيات فى الخلق والتكوين وتوليد الأحياء، وبيان الوحدانية بأدلتها من خلق الله تعالى، كذلك التصريف فى الآيات الدالة على التوحيد - نصرف فى الآيات القرآنية، من إيجاز وإطناب، واستفهام وإنكار، وتوكيد للقول، وإرسال فى البيان وغير ذلك، ليدركوا مقام القرآن، وقال تعالى: ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ وفى قراءة (دارست)، الواو فى قوله تعالى: ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ معطوفة على فعل محذوف يؤخذ من سياق القول، كأن يكون التقدير أو كذلك نصرف الآيات لتصلوا إلى ما فيها من إعجاز إن كنتم تعقلون، وليقولوا دارست غيرك أو درست ذلك على غيرك، فقد كان الكافرون يدعون ذلك، واللام هنا ليست للتعليل، ولكنها لام يسمونها لام العاقبة، أى لتكون العاقبة عند الكافرين أن يقولوا دارستها مع أهل الكتاب أو درست عليهم وأعانوك، وهذا كما جاء فى آيات كثيرة عن افترائهم، كقوله تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ④﴾ [الفرقان]، وقوله: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ⑤﴾ [الفرقان] وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ⑩③﴾ [النحل]. وقرئ (دَرَسَتْ) بفتحتين، ومعناها مضت وتكررت، كقولهم: سمعنا هذا من قبل.

وإن الله تعالى أمر نبيه أن يعرض عن المشركين، وإنه يعتبر بحقائق القرآن المؤمنون؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. واللام هنا للتعليل أى نبين لمن

ينتفعون بعلمه وعظاته وبيناته، وإن نفع هؤلاء لمؤكـد به يوجب بيانه، فمهما يضل الضالون الجاحدون، فإن القرآن لا يزيدهم إلا خسارا، أما المؤمنون فهو شفاء لهم وهداية، كما قـال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا (٨٢)﴾ [الإسراء].

وقوله ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أى لقوم يعلمـون علما متـجددا بنزول القرآن فـهو يزيدهم علما كما يزيد غيرهم خسارا.

إن الأدلة على صـدق دعوة النبى ﷺ قـائمة لا يمـارى فيـها إلا جَـحُود، وآيات الله تعالى هى البصائر لمن عنده قلب يذعن للحق إذا تبين، وقد قامت دالة على وحدانيـته، وإذا كان الجاحـدون ينكرون دلالات الوحدانية فى العبـادة، فلا تلتفت إليهم، وامض لما أمرك الله تعالى؛ ولذا قال تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ الأمر للنبى ﷺ ابتداء، ولمن اتبعه فى الغاية والمآل، اتبع أيها النبى ما أوحى إليك، وهو القرآن؛ لأنه رأس مـا أوحى الله به إلى نبيه الأمين، وعبـر بالموصول «ما» دون ذكر الاسم الشريف، لبيان سبب الاتباع، وحقيقة القرآن، وهو أنه وحى من الله تعالى، فاتباعه هو اتباع الله تعـالى، وشرف القرآن بشرف من أنزله، فقد التقى فيه شرفان جليلان:

أولهما- شرف ذاتى وهو أنه الكتاب الكامل الـذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفـه، وأنه المعجز الذى لا يسـتطيع أحد أن يأتى بمثلـه، وأنه النبوة فمن حفظه فقد حفظ النبوة بين جنبيه.

ثانيهـما- شرف إضـافى، وهو أنه الكتاب الوحيـد الذى ينسب إليه، وإذا كانت سـبقته كـتب أخرى فهو جـامعها، وهو سـجل النبوات قبله، فيـه الشرائع السماوية كلها من غير تفريط فى واحدة منها.

وقوله تـعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ تقوية لـلاتباع بأنه من الله ذى الجـلال والإكرام الذى رَبَّ هذا الوجود ونماه وعلمه وكونه، فـهو أوحى إليك من ربك الذى يعرف ما يشتمل عـلى مصالح العباد فى معاشـهم ومعادهم، فى حياتهم الدنيـا، وفيما يوصل إلى الآخرة.

واتباع ما أوحى إلى النبى ﷺ يكون باتباع ما يدعو إليه من وحدانية الله تعالى التى هى ملاك الأمر كله واتباع أوامره ونواهيه، والإيمان بأنه يحل الطيبات، ويحرم الخبائث، وأن ما أحله تعالى فيه الخير والنفع العام والمصلحة فى الدنيا والآخرة، وما يحرمه هو الفساد، ويؤدى إلى الهوان فى الدنيا والآخرة.

وقرن الله تعالى الأمر باتباع ما أوحى إلى النبى ﷺ بقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ومعنى الإعراض عنهم ليس هو السكوت عن دعوة الحق بينهم والإصرار عليها، فإن قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤)﴾ [الحجر] وإنما معنى الإعراض أن يعرض عن سخريتهم بالضعفاء من المؤمنين، والجحود الذى يدأبون عليه وادعاء الأباطيل عليه من أنه علمه بشر، أو أنه دارسه مع أحد، ويعرض عن إلحاحهم فى النكران، يعرض عن كل هذا ويمضى فى دعوته، ولا يهمه لغو اللاغين وعبث العابثين وخوض الخائضين الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا، يعرض عن هؤلاء المشركين الذين اندفعوا فى ذلك بسبب شركهم.

وإن ذلك الإعراض عنهم؛ لأنك دعوتهم وتدعوهم، ولست مسئولا عن إيمانهم، ولا معاقبا على كفرهم ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧)﴾ [الرعد] وإن إشراكهم بتقدير الله تعالى وبعلمه، وإنهم ساروا فى طريقهم إلى الشرك، وسهلوا سبيلهم إليه، ولو شاء سبحانه ما مكنهم من الشرك، ولكن لأن الله تعالى خلق الإنسان، وأعطاه قدرة يرى بها الخير والشر كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً (٣٥)﴾ [الأنبياء] لهذا الاختيار الذى ركبه الله تعالى فى نفوسهم من خروج على سلطانه تركهم فى غيهم يعمهون؛ لأنهم سلكوا طريقا واختاروه.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ أى لو كانت مشيئة الله تعالى تعلقت بعدم شركهم ما أشركوا وما كانوا مشركين، وإذا كان ذلك قدر الله تعالى الذى قدره، وتدبيره الذى دبره، ودخلوا الشرك باختيارهم فأعرض عن أذاهم وسخريتهم، واتجه إلى الدعوة، واستمر فيها مع ملاحظة أنك لست كفيلا بإيمانهم، إنما أنت منذر.

وقد أكد الله سبحانه وتعالى أن النبى ليس مسئولا عن كفرهم، ولا مطالبا بإيمانهم، إنما هو منذر ومبشر، فقال تعالى:

﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

وما جعلناك حفيظا عليهم بمنعهم من الشرك ودفعهم إلى الإيمان، و(حفيظ) صيغة مبالغة من حفظ، أى ما جعلناك (حارسا) على إيمانهم تمنعهم من الخروج منه، وتحملهم على الدخول فيه، وقدم (عليهم) بيانا لاهتمامه بشأنهم بمقتضى الحراسة الحافظة، التى نفاها الله تعالى عنه، فالله تعالى لم يجعله كذلك، ولكن جعله فقط مبشرا ونذيرا، وهاديا بإذنه وسراجا منيرا، وقد أكد سبحانه وتعالى عدم مسئولية النبى ﷺ بقوله: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أى ما أنت قد فوض أمرهم إليك بتوكيل وكلته فتُدبر أمرهم وتوجههم إلى حيث تريد، إنما أنت منذر، وذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ (٥٦)﴾ [القصص].

والله تعالى هو الذى ينظم علاقة الرسول بمن بعث إليهم وهى الدعوة، فمن أجاب فقد أحسن، ومن أعرض عن ذكر الله تعالى فقد طغى وكفر، وليس على الرسول تبعة كفرهم، والله تعالى هو المجازى.

النهى عن سب الآلهة، وقاعدة سدّ الذرائع

(١٠٧) وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ
يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا
لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ (١٠٨)

﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾.

نهى الله تعالى عن سب الأوثان والأصنام، وكل ما كانوا يعبدون من دون الله تعالى، حتى لا يسبوا الله تعالى عدوانا وظلما واعتداء على الحق بجهل وبغير علم وإدراك سليم؛ إذ سووا بين الله تعالى وآلهتهم، فالفاء فاء السببية أى بسبب سب المؤمنين الحق لأصنامهم، يسبون الله تعالى ظلما وجهلا بغير الحق، وعبر عن أصنامهم بالموصول الذى يكون للعاقلين بقوله: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ جريا على زعمهم من أن لهم فكرا وعقلا وإن كانوا لا يعقلون.

وهنا نسأل عن معنى السب أهو الشتم أم مجرد ذكرهم بأنهم لا يضرون ولا ينفعون، وأنها أحجار لا تضر ولا تنفع، لا يمكن أن تكون من السب أن يقال إنهم لا يضرون ولا ينفعون، فقد ذكر فى القرآن كثيرا أنهم لا يضرون ولا ينفعون، فقد قال تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا (٧١)﴾ [الأنعام] وحكى الله تعالى عن خليله إبراهيم أنه قال لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢)﴾ [مريم]. والقرآن الكريم المنزل من رب العالمين لا يكون فيه سب ولا شتم، وإنما يكون فيه ذكر الحقائق الثابتة التى لا مجال للريب فيها.

وعلى ذلك لا يمكن أن يكون وصف الأوثان بأنها لا تضر ولا تنفع سبا؛ لكنه لكى يمنع العرب من عبادتها، لا بد من وصفها بحقيقتها ومآلها، ولقد قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ (٩٨)﴾ [الأنبياء].

إنما السب هو شتم الأوثان مثل: «لعنها الله»، و«قُبِّحت آلهتكم» من غير ذكر أوصافها.

ولكن قد يقال: إن المشركين عدوا ذلك سبا، فقد قالوا أو قال وفدهم عن النبى ﷺ لأبى طالب، لقد سفه أحلامنا، وسب آلهتنا، ونقول: إننا نفسر كلام الله تعالى، وما علينا أن نفسر كلامهم، فليسموا ذكر الحقيقة سبا كما يشاءون، ولكن السب ليس كما يقولون.

﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أى يترتب على سب ما يدعونه من دون الله بالباطل سب الله تعالى ظلما وعدوانا جهلا، وقد فسرنا السب بأنه الشتم، وليس من الشتم وصف الأوثان بأنها لا تنفع ولا تضر؛ لأن القرآن الكريم وصفها بذلك الوصف والقرآن ليس فيه شتم ولا سب، وما كان النبى ﷺ فحاشا ولا سبابا؛ ولذلك يجب أن يفسر السب بغير ذلك، ولقد استنبط العلماء من الآية أنه يجوز ترك الحسن إذا أدى إلى معصية، وهو ما يسمى فى الفقه «سد الذرائع» أى منع ما يؤدى إلى الفساد اتقاء إليه، ولو كان فى ذاته حسنا، وإنه يوازن بين الفعل وما يؤدى إليه، فإن كان الضرر الذى يؤدى أكثر من النفع الذى يكون من الأمر، قدم دفع الضرر الكثير على النفع القليل، بل إن القضية الأصولية «دفع الضرر مقدم على جلب المنفعة».

وإن ذلك أصل ثابت قد قررته هذه الآية الكريمة، وقد قال الإمام الزمخشرى فى ذلك: (فإن قلت: سب الآلهة حق وطاعة فكيف صح النهى عنه، وإنما يصح النهى عن المعاصى، قلت: رُبَّ طاعة علم أنها تكون مفسدة، فتخرج عن أن تكون طاعة فيجب النهى عنها؛ لأنها معصية، لا لأنها طاعة، كالنهى عن المنكر، وهو من أجلِّ الطاعات، فإذا علم أنه يؤدى إلى زيادة الشر، انقلب إلى معصية، ووجب النهى عن ذلك، كما يجب النهى عن المنكر، فإن قلت: فقد قال الحسن: لو تركنا الطاعة لأجل المعصية لأسرع ذلك فى ديننا، قلت: ليس هذا مما نحن بصدده لأن حضور الجنازة طاعة، وليس بسبب لحضور النساء؛ فإنهن يحضرنها، حضر الرجال أم لم يحضروا، بخلاف سب الآلهة).

وقد كان كلام الحسن ردا على ابن سيرين إذ امتنع عن السير فى الجنازة؛ لأن فيها النساء.

ويلاحظ على كلام الزمخشرى أنه عد سب الآلهة طاعة، كأن الدين أمرنا بسب الآلهة!! إن القرآن ومحمدا ﷺ لم يأمرانا بسبٍّ قط، وقد قلنا إن وصف

الآلهة بأنها لا تنفع ولا تضر ليس سبا، ولا يمنع أن يقال بيانا للحقائق، وإبعادا لهم عن عبادتها، وليس سبا منهيا عنه، ولو أدى إلى قول القبيح، إنما النهى عن سب الأوثان؛ لأنها ليست هى العاصية، ولما يؤدى إليه السب.

ومهما يكن تعليقنا على قول الإمام الزمخشرى فإن مسألة سد الذرائع ثابتة، والآية الكريمة توحى إليها وتحث عليها، وإنه من المقررات ما يفضى إلى المعصية يعد معصية، ولو كان أصلها مباحا.

﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾.

أى كذلك الذى نراه من اندفاع المشركين إلى سب الله تعالى، وهو العلى الحكيم، إذا كان السب لآلهتهم كذلك الأمر زَيَّن الله تعالى بمقتضى سنته فى الأحياء أن فى كل أمة أى طائفة من يُحَسَّن لها عملها، حتى تظنه الحق وما هو إلا الباطل الصراح، ومن زين له سوء عمله فظنه حسنا، فإن عليه مغبته؛ وعليه تبعة ذلك الظن الفاسد وذلك العمل الظالم، وتزيين الله تعالى لكم ذلك سنة الله تعالى فى خلقه، ليس مؤداه أنه يبرره، ويرضى عنه، فإن بيان الله تعالى هنا هو بيان لسنة الوجود، وليس ذكرًا للعقاب والثواب، والتكليف، وإنه مختار فيما يفعل ومرده إلى الله تعالى فى العقاب والثواب؛ ولذا قال تعالى:

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

أى أنه إذا كان قد زين لهم سوء عملهم فرأوه حسنا فى الدنيا، فإنهم راجعون إلى ربهم يوم القيامة، والتعبير بـ «ثم» للدلالة على البعد الزمانى فى نظرهم، والبعد بين ما زين لهم من الشر، وما يستقبلهم من جزاء؛ وفاقا لما عملوا من شر، وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾ فيه تقديم الجار والمجرور على ربهم، للدلالة على الاختصاص، أى المرجع إلى الله وحده، وهو الذى يتولى جزاءهم على ما قدموا من شر، والتعبير بـ (ربهم) إشارة إلى كفرهم بالنعم التى أوْلاهم؛

إذ إنه هو الذى خلقهم ورباهم ونماهم وأمدهم بآلائه من وقت أن كانوا أَجِنَّة فى بطون أمهاتهم إلى أن رُمِسُوا[١] فى قبورهم.

النبأ: الخبر الخطير، ينبئهم أى يخبرهم بما كانوا يعملون، وهو إنباء مقترن بالجزاء، فهو إنباء بأعمالهم وجزائها، فيجزَوْن ما كانوا يعملون، أى أن الجزاء موافق للعمل، وأعدل العدل أن يكون العقاب مأخوذا من الجريمة نفسها، والله يتولى المحسنين.

الكافر الجاحد لا يؤمن بمعجزة

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ
لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا
جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ
يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

إن النبى ﷺ قد جاءهم بالمعجزة الكبرى، وهى القرآن، وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله، وعجزوا عن أن يأتوا بسورة من مثله ولو مفتراه، وكان يكفى ذلك برهانًا على رسالة النبى ﷺ ولكنهم لم يؤمنوا، وأعنتوا فى الطلب، وأرادوا آيات أخرى، فطلبوا أن ينزل عليه كتاب فى قرطاس من عند الله، ولن يؤمنوا حتى يروه، وطلبوا أن ينزل ملك من السماء مع هذا القرطاس، وهكذا من طرق الإعنات المختلفة، ولم يقدروا القرآن -المعجزة الكبرى- حق قدره، ولم يعدوه آية كافية، وهو أقوى الآيات، وهو المناسب لشريعة خاتم النبيين ومخاطبة الأجيال إلى

---

(١) رُمِسوا : دفنوا، ورمس الميت دفنه، والرَّمْس: تراب القبر. الصحاح.

يوم القيامة، ووعدوا قاسمين بأشد الأيمان وأغلظها أنه لو جاءتهم آية ليؤمنن بها.

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾.

جهد الأيمان، رُوِى أنه الحلف. ذلك أن العرب كانوا يعرفون الله تعالى، ويعلمون أنه الخالق، وأنه ليس كمثله شيء، ولكن يعبدون معه غيره، فإذا حلف بغير الله لم يكن هذا الحلف أشد الأيمان، فإذا حلفوا بالله كان ذلك أشد الأيمان، وهذا روى فى التفسير المأثور.

وإننا نرى أن القَسَم الذى يعد جهد أيمانهم هو أغلظها وأشدها أيا كانت صيغته وأيا كان المحلوف به، وإن كان القسم بالله فى ذاته هو أغلظ الأقسام وأشدها، ولا يمنع أن يكون غيره غليظا شديدا فى زعمهم الوثنى، وجهد: بمعنى الشاق وهو نائب عن مفعول مطلق محذوف[1]، أو هو مصدر بمعنى اسم الفاعل، ومعناه جاهدين، وهو حال من أقسموا، واللام فى (ليؤمنن) لام جواب القسم، ونرى من هذا أنهم يؤكدوا أيمانهم إذا جاءتهم آية أى معجزة، وكأنهم لا يعتبرون ما جاءهم من معجزة قاهرة لا يعدونها آية؛ لأنهم قوم ماديون، ويريدون آية مادية كما طلبوا أن ينزل عليهم كسفا من السماء، أو تفجر الأنهار تفجيرا، ولقد قال الله لنبيه: ﴿قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾ ينزلها بحكمته وإرادته، وهو الذى يقدر مناسبتها ويقدر الهداية بها، وهو منزلها، فالأمر إليه، وفى ذلك إقناع وإنذار.

ولكن أهم صادقون فى أيمانهم أنهم إذا جاءت الآية التى تكون على الوصف الذى طلبوه؟ إنه لا دليل من ماضيهم المتعنت أنهم يؤمنون إن جاءت؛ لأن كفرهم ليس فى نقص الدليل، ولكنه جحود ولا يزيدهم الدليل إلا شدة فى الجحود، وعتوا واستكبارا؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿يُشْعِرُكُمْ﴾ أى يدريكم ويعلمكم علما يكون كالشعور الحسى ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ﴾، وقرئت بفتح همزة (أن)، ويكون المعنى ما يدريكم أنها إذا جاءت الآية كما يطلبون لا يؤمنون، ويكون هذا إيذانا بأنهم لا يؤمنون، ولو جاءتهم هذه الآيات التى يطلبونها، لأنهم جاحدون ابتدءوه وهم يصرون عليه فهم لا يؤمنون؛ لأن الجحود غلب عليهم فغلبت عليهم شقوتهم، وكما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧)﴾ [الأنعام].

لقد سبق إليهم الجحود فاستقر فى قلوبهم، فلا يرجى إيمانهم ، وهم فوق ذلك بسبب جحودهم، ومسارعتهم إليه فى قلق فكرى ونفسى دائم، يغيرون تفكيرهم حيثما كان موجب له، ولكنه تغيير فى دائرة الجحود.

وقرىء بكسر (إن)[1] ويكون المعنى: وما يشعركم، أى وما يدريكم، ويكون على معنى الاستفهام، وما يدريكم أنهم صادقون فى عزمهم، وأنهم مريدون تحقيق أيمانهم الذين جهدوا فيها، ثم قرر سبحانه أنهم لا يؤمنون فقال تعالت كلماته: (إنها إذا جاءت لا يؤمنون) إنهم ليس لهم عزم صادق؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

وإن الجاحد لا يكون مستقرا على قرار، ولا على نظر، بل هو مضطرب النفس والفؤاد والنظر فهو ينظر إلى التى تلوح أماراته، فتبهره بيناته، وهو لجوج فى جحوده، فيكون متحيرا بين جحود مستكن قار، ونور تبدو آياته، وهذا قريب من معنى ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ أى أن قلوبهم غير مستقرة وأبصارهم أى

(١) ﴿إنها إذا جاءت﴾ بكسر الهمزة، قراءة ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وخلف، وأبو بكر غير يحيى، وأبو زيد غير المفضل، والسراج عن حماد، ونصير وقتيبة غير النهاوندي. غاية الاختصار.

مداركهم، وقد شبهت المدارك بالأبصار المبصرة، فهم متقلبون فى تفكيرهم ولا إيمان عندهم تستقر عنده القلوب، لا يفكرون ولا يتدبرون، ويستمرون على جحودهم كحالهم عندما لم يؤمنوا بالقرآن أول مرة، إذ جاءهم، أو كما كانت حالهم قبل أن يقسموا، وهذا تأكيد لأنهم لا يؤمنون بعد القسم الذى أقسموه جهد أيمانهم.

وقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾ معطوف على (يؤمنون) كما عطف عليه «ونذرهم فى طغيانهم يعمهون».

﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

أى نتركهم فى طغيانهم الظالم، وهو تمردهم على آيات الله تعالى، واقتراحهم على الله أن يأتى بآية أخرى، مما يدل على أنهم لا يريدون إيمانا، إنما يريدون أن يظهروا أنهم على استعداد لقبول ما يجىء من آيات يقترحونها، وما كانوا يريدون بذلك إلا تعلة لكفرهم، بأنهم لم يقتنعوا بالقرآن دليلا، ومهما يؤت لهم من آية لا يؤمنون بها، إنه قد سبق جحود نظرهم وفى الأدلة المقدمة لهم، فهم قضوا بكفر، وأدلة الأيمان تقرع حسهم قرعا.

﴿يَعْمَهُونَ﴾ معناها يترددون فى باطلهم والبينات القائمة على بطلانه، فهم يترددون متحيرين، ولا منجاة لهم إلا بإيمان صادق مذعن، وأنى يكون لهم، وقد غلب عليهم طغيانهم الظالم الأثيم، فلا سبيل لأن يصل الحق إلى نفوسهم إذ قد غلفها الجحود، فكان على قلوبهم غشاوة فلا يهتدون.

۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا

شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ
ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ
﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ
وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ
أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ
وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ
فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا
وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾

ذكر الله سبحانه وتعالى أنهم لا يؤمنون بالآيات، ولو أقسموا جهد أيمانهم بأنهم يؤمنون إذا جاءهم ما يطلبون من آيات؛ لأنهم قد سبق جحودُهم تفكيرهم، وأن أفئدتهم ومداركهم متقلبة وأنهم مترددون بسبب طغيانهم، وفى هذه الآيات يبين سبحانه أنهم لا يؤمنون إلا أن يشاء الله تعالى ولو نَزَّل إليهم الملائكة وكلمهم الموتى، وحشر عليهم كل شيء.

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً﴾.

إن هؤلاء لا يؤمنون، ولو جاءتهم كل آية. فليس هناك حاجة إلى دليل فوق ما تقدم من أدلة، فإنه لا ينقصهم الدليل، ولكن ينقصهم القلب المؤمن الذى يذعن، وقد كتب الله تعالى عليهم الجحود؛ لأنهم لا يؤمنون، ولو أننا أجبناهم إلى كل ما طلبوا على أقصى مداه - ما أجابوا إلى الإيمان إلا أن يشاء الله، فيقول الله تعالى العليم بالنفوس ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ﴾ وقد طلبوا أن

يكون من يبلغهم ملك من الملائكة ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة- والتعبير بـ «نَزَّلنا» يشير إلى أنه لو نزل إليهم الملائكة ملكا بعد ملك، لكي يؤمنوا، وقد طلبوا ذلك. وكلمهم الموتى من قبورهم أو خرجوا من القبور ليدلُّوا بالفعل على البعث الذى أنكروه، ولو حشر عليهم كل شىء قبلا أى قبيل بعد قبيل، كما فسر مجاهد عن ابن عباس، لأن قبُلاً جمع قبيل.

وقرئ قِبلاً بكسر القاف(١) بمعنى مقابلة، أى عاينوهم معاينة وقابلوهم مقابلة، ويصح الجمع بين القراءتين بأن يكون المعنى، وجمعنا كل شىء من المعجزات والناس المبعوثين وعاينوهم جماعة بعد جماعة ورأوهم بالعيان والمقابلة - لو كان ذلك ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله، وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ معناها ما كان من شأنهم أن يؤمنوا إلا أن يكون تعالى شاء ذلك، فكل شىء بمشيئته سبحانه وتعالى.

وإن هذا النص السامى يفيد أنهم بجحودهم وإصرارهم عليه، وإنكارهم للمعجزات لو سيقت لهم لن يؤمنوا؛ لأن الله تعالى لم يشأ لهم الإيمان، فكتب عليهم الضلال لسوء ما يفعلون، ويجحدون، وتدل فى سياقها على أنه لا جدوى عندهم فى تكاثر الأدلة، وما عندهم يكفى لقوم يؤمنون.

وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ (لكن) للاستدراك عما يقتضيه السياق من أنهم يطلبون ويؤكدون أنه إذا جاءتهم آية يؤمنون، فيبين أنهم بجحودهم لم يشأ لهم الإيمان فلا يجدى دليل، فهو استدراك على ما زعموا من أن كفرهم لنقص الآيات، وينسون مشيئة الله تعالى التى كانت لجحودهم وهى أنهم لا يؤمنون، وإن ذلك بجهلهم أن الله قد كتب عليهم الكفر بسبب جحودهم، ويجهلون أن ما عندهم من دليل وبينات فيها ما يوجب الإيمان، وهذا معنى، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ الحق، ولا يذعنون له ولا يرضون به، وأن الله

---

(١) ﴿قِبَلا﴾ بكسر القاف وفتح الباء، قراءة نافع وأبو جعفر يزيد بن القعقاع وابن عامر، وقرأ حمزة والكسائى وخلف بالضم فيهما ﴿قُبُلا﴾. غاية الاختصار (٨٦٠).

تعالى قد كتب على أكثرهم الكفر، وأنهم لا يؤمنون، والتعبير بالمضارع يفيد استمرار جهلهم، وتجدده آنا بعد آن.

وإن هؤلاء المعاندين قد نصبوا أنفسهم لعداوة النبى ﷺ، ومقاومة دعوته، وهم وأشباههم من أعداء النبيين الذين قاوموا الدعوة؛ ولذا قال تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ**﴾.

إن النبى ﷺ كان يصابر المشركين ويتحمل أذاهم هو وأصحابه، ويتحمل معاندتهم له، لا يرضون القرآن دليلا على نبوته، وقد عجزوا عن أن يأتوا بمثله أو بعضه، وأقروا صاغرين بعجزهم، ولكن لم يمتنعوا هم عن معاداته بالباطل متخذين كل ذريعة سبيلا لباطلهم.

والله تعالى يثبت فؤاد النبى ﷺ بأن ذلك كان للنبيين من قبله، وكان مألوفا، وهو سنة الله تعالى فى رسالاته فقال تعالى: ﴿**كَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا**﴾ أى كذلك الذى تراه من عداوة نفر من المشركين ولجاجتهم فى العداوة، حتى لا يتركوا بابا من أبواب الكيد إلا سلكوه، ولا مسلكا من مسالك الإعنات إلا اتخذوه، كذلك جعلنا لكل نبى عدوا من شياطين الإنسان والجن، وشياطين الإنس هم أولئك الذين ناصبوك العداوة، وشياطين الجن هم أعوان إبليس الذين يوسوسون، ويأمرون بالسوء والفحشاء ويسولون كل قبيح، ويزينونه، ويسمونه بغير اسمه، فهؤلاء يدفعون النفس الأمارة بالسوء، وأولئك يستجيبون لهم، ويفترون بوسوستهم، ولذلك قال تعالى: ﴿**يُوحِي**﴾ الوحى: الخطاب الخفى أو التوجيه الخفى، كما قال الله تعالى: ﴿**وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ** ﴿٦٨﴾﴾ [النحل].

فالوحى هنا هو التوجيه الخفى الذى يوسوس فى الناس فيلقى فى نفوسهم بتغريرهم، بزخرف القول، فيوهم بأن الكفر إكرام للآباء، وأن تقليدهم تعصب لهم، وأن الانطلاق من كل القيود الخلقية مروءة، وأن المعاندة هداية، وأن إهمال حكم العقل هو الاتباع، وهذا معنى قوله: ﴿**يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ**

غُرُورًا﴾، أى يلقى فى نفوسهم تحسين الباطل بأقوال باطلة، ولكنها مزخرفة بزخرف يكون غرورا للنفس الضالة، فتتدلى به.

وهكذا يجىء تضليل النفوس فى الآحاد والجماعات بزخرف القول، فتسمى الحقائق بغير أسمائها فيسمى الجحود طلبا للدليل، ويسمى الشجاعة فى الحق تهورا، ويسمى الإفساد حرية، ويسمى الاستبداد شورى، والشورى طغيانا، ولذلك كان بعض الحكماء يرى أن إصلاح الأخلاق يكون أولا بتصحيح الألفاظ، وإن هذه العداوة للأنبياء من شياطين الإنس والجن بإرادة الله تعالى، ولذا قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾.

أى إن هذه إرادة الله تعالى اختيارا، وليبلغ النبيون أعلى مراتب الإنسانية بجهادهم فى الدعوة إلى الله، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾. معناه لو أراد الله تعالى ما فعلوه، أى شياطين الإنس والجن، ولكنهم فعلوه ليكون التنازع بين الخير والشر، ولأن الله تعالى مكن لإبليس الذى قال: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾ [ص] ولو أراد الله ما تمكن، ولو شاء الله تعالى ما خلقه.

وإذا كان ذلك أمرا ثابتا بالنسبة للنبيين أجمعين، فتقبله وأعرض عنهم، ولا تأس على القوم الفاسقين؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أى فاتركهم وأكاذيبهم من إنكارهم حجية القرآن، ودلالته على النبوة، وافتراءهم على أنفسهم بحلفهم أنهم يؤمنون لو جاءتهم، وافتراءهم عليك من أنك تعيب أحلامهم، وتسفه آباءهم، وأنت تنطق بالحق وترشدهم وتهديهم سواء السبيل.

وقوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾، (الواو) واو المعية، و(ما) اسم موصول، أى أعرض عنهم واتركهم هم وما يفترونه، هذه هى النتيجة بالنسبة للنبى ﷺ، وهى أن يتركهم فى غيهم يتحيرون، أما النتيجة بالنسبة لهم ولأمثالهم فقد ذكرها الله تعالى بقوله تعالى:

﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾.

(الواو) هنا عاطفة على نتيجة الجملة السابقة؛ لأن نتيجة يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا أن يفتروا، فكان العطف عليه ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ فالإغواء بزخرف القول غرهم فأفسدهم وأفسد من هم على شاكلتهم، وهم الذين لا يؤمنون بالآخرة، وتصغى معناها تميل، أى تميل قلوب أولئك الذين لا يؤمنون بالآخرة، ولم يقل الجاحدون بالآيات، بل ذكر الذين لا يؤمنون بالآخرة؛ ليشير إلى سبب الكفر وهو عدم الإيمان بالآخرة، ذلك أن الإيمان بالآخرة مقياس الإيمان، وهو ما يفصل قلب المؤمن عن قلب الكافر، فقلب الكافر لا يتسع إلا لما هو مادى محسوس، ولا ينظر إلى ما هو مغيب مستور، فهو لا يؤمن بأن وراء الحياة التى يعيشها حياة أخرى فيها جزاء ما يكون فى هذه الحياة؛ ولذلك كان من أوصاف المتقين كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ... (٣)﴾ [البقرة] فالإيمان بالغيب إيمان بسر الوجود وغايته ونهايته، وإنه لا نهاية لها بالقبور، أما الكافرون الجاحدون فيقولون كما حكى القرآن ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧)﴾ [المؤمنون].

﴿وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾.

ليميل أولئك الذين لا يؤمنون بالآخرة إلى زخرف الشيطان، وتغرير بالغرور، يحسبون أنه الغاية فهو سبيلهم وإذا رضوه عملوا بمقتضاه، وارتكبوا من الآثام ما هو غايته ونهايتهم، وهذا معنى قوله: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ والاقتراف معناه الاكتساب، وهو أكثر ما يكون فى اكتساب ما لا يحس وما ليس بخير، وأصل مادة «قرف» أن يقول ما ليس بحق يقال قرفتين إذا رميتنى ما ليس فىّ، فهو فى القول الرمى بالباطل، وفى الأفعال اكتساب ما فيه إثم أو ما تكون عاقبته إثم.

وإن هذا النص الكريم يبين كيف يبتدئ الشر فى النفس:

فهو يبتدئ أولا: بالميل إليه واستحسانه، وكما يقول الدارسون للنفس الإنسانية: أول الشر استحسانه. **وثانيا**: بالرضا به خلقا وقولا، فالرضا أغلى من الميل المجرد فى مراتب الإدراك النفسى، والقلبى. **وثالثا**: بالعمل على مقتضى ما مال إليه وارتضاه؛ ولذا ختم الآية بقوله جل كلامه عن الشبيه والمماثل، ﴿**وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ**﴾ أى ليرتكبوا من المعاصى ما شاءوا أن يرتكبوا حتى يكون اقتراف المعاصى وصفا ملازما لهم لا يفترقون وهناك بقراءة اللام بالسكون فى قوله تعالى ﴿**وَلِيَقْتَرِفُوا**﴾ ويكون الأمر للتهديد، والإشارة إلى فساد طواياتهم، كأنه وراء الرضا الارتكاب، فليرتكبوا، كقوله ﷺ: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت»(١) كأنه لا حاجز بين الإنسان والشر إلا الرضا به، فإذا رضى فقد زال وفتح باب الشر فليلج فيه. وهذا يدل على التهديد والإنذار ببلوغ نهاية الشر، والوصول إلى غايته، فليفعل ما يشاء والعاقبة والمآل إلى الله، وهو يستقبلهم بعذاب جهنم وبئس المصير.

إن الكافرين يريدون آية غير القرآن، والله تعالى هو الذى اختار القرآن آيته الكبرى ومعجزته الخالدة الباقية فإذا كان يستمع إليهم، فقد اختارهم حكاما على آية الله تعالى التى اختار، وذلك أمر منكر لا يرضاه مؤمن، ولا يرضاه محمد ﷺ؛ ولذا قال الله تعالى على لسان نبيه الأمين:

﴿ **أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً** ﴾

(الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وقد كان ما قبلها طلب آيات، وقسم منهم بأنها إذا جاءت ليؤمنن بها، وكأنهم بذلك يريدون أن يجعلوا من أنفسهم حكاما على آيات الله تعالى على الآية الكبرى وهى القرآن فينكر النبى ﷺ بأمر ربه أن يكونوا حكاما على آيات الله غير الله.

---

(١) رواه البخاري: أحاديث الأنبياء - حديث الغار(٣٤٨٣). كما رواه أبو داود وابن ماجه وأحمد ومالك. أما أبو داود فقد رواه بلفظ: "إذا لم تستح".

وقدمت همزة الاستفهام على الفاء؛ لأن الاستفهام دائما له الصدارة، و(حكما) معناها حاكم، بيد أن حُكْمه دائما حقا صوابا، والحاكم قد يكون صوابا وربما يكون غيره، وقد يكون حقا وربما يكون غيره، والمعنى الجملى: أتقولون فى القرآن ما تقولون، وتطلبون آيات أخرى غير القرآن، وتريدون أن يكون غير الله تعالى حكما، وإنها فى هذا المقام أهواؤكم.

وهنا إشارات بيانية:

أولاها: أن الاستفهام إنكارى بمعنى النفى، أى لا أبتغى غير الله تعالى حكما، وقد قدم غير الله حكما، لمزيد استنكار ذلك، وإنه غير معقول وغير جائز، وغير مقبول فى ذاته.

الثانية: أن الابتغاء من (بغى) بمعنى طلب، ومن موضع الاستنكار أن يرضى بغير الله حكما، فضلا عن أن يبتغيه، ويطلبه طلبا مشددا فيه، كما يريدون أن يطلب النبى ﷺ، والله تعالى هو الذى ارتضى له هذه الآية، وهى القرآن الكريم.

ولذا قال تعالى على لسان النبى: ﴿**وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً**﴾ وهذه الجملة حالية، أى كيف أبتغى غير الله تعالى حكما فى آياته وقد أصدر حكمه، وأنزل إليكم الكتاب مفصلا مبينا معرفا بالأحكام المطلوبة، والأحكام المنهية فى بلاغة، تحداكم أن تأتوا بمثلها فعجزتم عجزا مبينا.

وقوله تعالى: ﴿**أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ**﴾ أى آتاكم آيته؛ الكتاب الكريم مفصلا مبينا حجة باهرة، وقد شهدت له الكتب السابقة والأنبياء السابقون؛ ولذا قال تعالى:

﴿**وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ**﴾

فالله سبحانه وتعالى يبين أنه كتاب مجيد يعلمه السابقون من الأنبياء، وهو كتاب أزلى أبدى، علم أمره السابقون وسيبقى فى الخلود إلى يوم الدين، وقد

جاءت كتب أهل الكتاب بالشهادة له فهو معجزة أزلية ثابتة، وقد قال تعالى فى بيان ذكره فى الكتب السابقة هو ورسوله الأمين: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ (١٥٧)﴾ [الأعراف] فهو كتاب الخليقة الذى يشتمل على كل الحقائق الشرعية.

ولقد قال تعالى رادا على أى شكوك وارتياب: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤)﴾ [يونس].

وإن الشك ليس من النبى ﷺ، ولكنه شك من المشركين أداهم إليه جحود الحق وقد عرفوه ولقد قال بعد ذلك فى هذه الآية.

﴿فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾

الامتراء: الشك، والنهى مؤكد بنون التوكيد الثقيلة، والفاء للإفصاح عن شرط مقدر فإن تقدير القول إذا علمت أنه حكم الله تعالى، وأن الكتب السابقة شاهدة على الصدق، فلا تكونن من الممترين والنهى للنبى ﷺ، بظاهر القول، وهو لأمته التى يدعوها إلى الإسلام، وإلى أولئك الذين تهجموا بطلب آيات أخرى، وليس النهى للنبى ﷺ فى الحقيقة؛ لأن النهى عن فعل يكون حيث يتوقع وقوعه، ولا يمكن أن يكون ذلك من النبى ﷺ، لأنه الذى نزل عليه القرآن، فلا يمكن أن يكون منه امتراء إنما يكون من غيره، وإنما ذكر موجها إليه ﷺ، لإعلاء شأن القرآن، ولبيان مكانته، وأنه فوق ارتياب المرتابين، ولأنه إذا كان النبى ﷺ منهيا عن الامتراء، وهو من نزل عليه القرآن فغيره أولى بالنهى.

وإن نزول القرآن والتحدى به، وعجزهم عن أن يأتوا بمثله، وتقدير الله تعالى بأنه لا يؤتى بمثله قط إذ قال تعالت كلماته: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ

عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء] وإذا قد نزل القرآن الآية الكبرى، فقد تمت كلمة الله فى ذلك؛ ولذا قال سبحانه:

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾

كلمة الله تعالى حكمه وتدبيره، وما قرره، كما نقول فى الكلام الجارى: قال فلان كلمته أى ما قرره وانتهى إليه فمعنى ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بعد أن ذكر شأن الكتاب مقترفا بما يقترحون من آيات يسترون بها جحودهم وكفرهم فقُرِّرت وسجلت، فالقرآن هو المعجزة التى اختارها حجة للنبى ﷺ، على المشركين، ومن يجىء بعدهم من أجيال يخاطبهم القرآن الكريم إلى يوم الدين، وكما تحدى العرب يتحداهم أن يأتوا بمثله.

وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ﴾ قرئت بقراءة أخرى بالجمع لا بالمفرد بـ (كلمات ربك)[1] وإسنادها إلى الرب فى القراءتين للدلالة على أنه سبحانه وتعالى هو الذى يعلم ما يناسب الأقوام والشرائع من معجزات النبوات، فهو يختار لكل نبى وشريعته، ما يناسبهما.

وقوله تعالى: ﴿صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ أى قررت كلمة الله تعالى فى القرآن حال كونه صدقا وعدلا أن كل ما فيه عن الله تعالى صدق لا ريب فيه، وما فيه من أحكام هى العدل والقسطاس المستقيم، ثم أكد الله تعالى تمام كلماته، فقال تعالت حكمته:

﴿لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ أى تمت وتقررت كلمة الله الصادقة فى القرآن، وأنه العدل والقسطاس ولا مبدل لكلماته، أى فإن الله تعالى لا يبدل كلماته لأنها الصدق والعدل المستقيم، ولا يمكن أن يكون هناك مبدل لكلمات الله تعالى

(١) ﴿كلمت﴾ على الإفراد، قراءة عاصم وحمزة والكسائي وخلف، ويعقوب، وقرأ الباقون ﴿كلمات﴾ بألف بعد الميم على الجمع. غاية الاختصار.

غيره؛ لأنه القادر علـى كل شيء، وليس فى الوجود أحد له إرادة بجوار إرادة الله سبحانه وتعالى، وليس فى قدرة مخلوق أن يغير على الله تعالى.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وقد ختـمت الآيات الكريمة بذكر الله تعـالى بهذين الاسمين من أسماء الله الحـسنى وهو أنه السميع العليم بكل شيء علم من يسمع ويرى بغيـر كيف ولا مماثلة لعلمنا وأنه عليم علمـا مطلقا ختمت الآيات الخـاصة بالمعجزات لتـأكيد أن الله تعالى هو الذى يـختار بعلمه المحيط بكـل شيء ما مثله يؤمن عليه البشر لكل نبى، وهو الحكيم الخبير فـيما يختار، فليس لأحد أن يختار عليه، وهو الـذى يقدر كل شيء، ﴿... وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩)﴾ [الرعد].

الاتباع يكون عن بينة

وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧)

إن قـوة الحق ليست بكثـرة من يقـولون، وإنما قوته بـقوة دليله، فـلا تطع الأكثرين لأنهم الكثرة، بل أطعهم لقوة ما عندهم من دليل، فالآية تدعو إلى اتباع العقل والمنطق واليـقين، وليس اتباع الكثرة لأنهـا كثرة، وقد ذكـر الله تعالى عن كثرة ضلت، وقلة اهتدت، فقال تعالى مثلا لذلك: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١)﴾ [الصـافات] وقال تعـالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣)﴾ [يوسف].

ولقد قال تعالى فى الآية التى نتكلم فى معناها:

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

هذه الآية تدل بجملتها وظاهر ألفاظها أن الله تعالى يقول لنبيه الأمين: إنك تضل لو أطعت من فى الأرض واتبعت كثرتهم، وإذا أريد بالأرض أرض المشركين من بلاد العرب، فالمعنى يكون محدوداً بحدود الكثرة العربية الذين كانوا فى ذلك الوقت مشركين، فإن تطع أكثرهم يضلوك عن سبيل الله تعالى؛ لأنهم مشركون والشرك ضلال، فإن أطعتهم دخلت فى ضلالهم، ويكون معنى القول نهى لمن مع النبى ﷺ من أن يتبعوا المشركين فى ضلالهم لأنهم الأكثرون، فالكثرة لا تعطى الدليل قوة، ولا تتبع اليقين دائما، بل إن أقوالهم تعتمد على الظن، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ (٢٣)﴾ [النجم] و(إن) هنا نافية بمعنى (ما)، أى إنهم لا يتبعون إلا الظن فيظنون الأمر ظنا، ثم يعتقدونه اعتقادا، كما قال تعالى عن أمثالهم: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (٣٢)﴾ [الجاثية] وأكد هذا ببيان طريق ظنهم فقال تعالى: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ والخرص مأخوذ من خرص النخل؛ ليعرف ما تحمل من بلح، فيقال: خرص النخل يخرصه إذا حزره، ولا يمكن أن تكون نتيجة الخرص علما قطعيا تبنى عليه عقيدة، أو يؤخذ به رأى سليم فى أى أمر من الأمور، وأقصى ما ينتهى إليه ظن لا قطع فيه.

فالمعنى: إن هم إلا يظنون، وإن هم فى سبيل ذلك لا يتبعون إلا الخرص الذى لا ينتهى إلى يقين قط.

هذا الكلام خرجناه على أن الأرض المراد بها أرض الشرك، ويكون المقصود طاعة المشركين، ولكن الأرض لو يراد منها الأرض الواسعة أرض الله تعالى، ويكون المراد إن تطع الناس فيما يرون ويبتغون يضلوك عن سبيل الله تعالى، وليس الحق دائما مع الكثرة، بل قد تكون الكثرة على غير الحق، بل إنه ثبت من التحليل للعقلية الجماعية أنها لا تدرك ما يدركه المتفكر فى خاصة نفسه، وذلك

لأن الجماعات تغلب عليها العاطفة الجماهيرية، ولا يكون مجال لتمحيصها، ولعل هذا هو ما يرمى إليه النص القرآنى فى وصف تفكير أكثر من فى الأرض، إذ يقول سبحانه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾.

ومهما يكن فإن الآية الكريمة تدل على أمرين:

أولهما- أن الاتباع عن غير بينة لا يجوز، بل إنه يجب النظر والبحث، وأن اتباع الجماعات من غير دراسة لا يجوز، وأن الجماعات يغلب على تفكيرها الحدس والتخمين، ولا يسودها التفكير والدرس العميق والمنطق السليم.

ثانيهما- أن قوة الآراء ليست بكثرة معتنقيها، وإنما بقوة ما فيها من دليل، وإنه يترتب على ذلك أن التقليد لا يجوز.

وقد يقول قائل إن الكثرة تغلب فى الآراء عند الشورى، فلا يغلب رأى القلة، وإن كان معقولا، فكيف رأى الكثرة غير صحيح.

ونقول فى الإجابة عن ذلك: إن أساس الشورى الرضا بالعمل، ورأى الكثرة اتباعه هو الدليل على النزول على رضا الجماعة، والنبى ﷺ نزل على رأى الكثرة عند الشورى فى حرب أحد، ولو كان رأيه غير ذلك.

إذا كان الناس يضلون فى تفكيرهم الجماعى، فلا تطعهم لأنهم يظنون ظنا، والظن لا يغنى من الحق، فإن الله هو الذى يعلم من يضل، ومن يهديه، ولذلك قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ﴾.

أكد الله سبحانه وتعالى أنه هو وحده الذى يعلم علما لا يدانيه علم بمن يضل عن سبيله، وهنا أمور بيانية نشير إليها:

أولها- أن الله سبحانه وتعالى عبر بـ ﴿رَبَّكَ﴾ وهو إشارة إلى كمال علمه الخاص بالأنفس؛ لأنه ربها الذى كونها، وربها وقام عليها، ووجهها إلى النجدين، نجد الخير ونجد الشر.

ثانيها- أن ﴿أَعْلَمُ﴾ بصيغة أفعل التفضيل، وليست على بابه؛ لأنها إذا كانت على بابه تكون موازنة بين علمه تعالى وعلم غيره، وعلم غيره لا يوزن به علم الله تعالى، إذ هو علم نسبى، وعلم الله تعالى علم إحاطة شاملة، ومعنى «ربك أعلم»، أنه سبحانه وتعالى يعلم من يضل، ومن يهتدى علما ليس فوقه علم ولا يصل إليه علم كائنا لمن كان.

ثالثها- أن قوله: ﴿مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِه﴾ فيه حرف جر حذف دل عليه قوله تعالى بعد ذلك ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾، فـ ﴿مَن﴾: على حد تعبير النحويين منصوب بنزع الخافض.

رابعا- أن قوله تعالى: ﴿يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ﴾ عبر بالمضارع للدلالة على بقائه فى الضلال مع تجدده، كلما جاء تارة يضل عنه، ويزداد إيغالا فى الضلال، ومعنى «عن سبيله»، أى عن طريق الهداية، والوصول إلى الحق المبين.

خامسا- أن الله سبحانه وتعالى أكد علمه الذى لا يصل إليه علم؛ بـ «إنَّ» الدالة على التوكيد، وبالجملة الاسمية، وبضمير الفصل، الذى يدل على تأكيد الخبر.

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ العطف على «هو» فى الجملة السابقة، وتكرر ضمير الفصل تأكيدا للإسناد، وعبر بالصفة بالنسبة لمن لم يضلوا، تأكيد لهدايتهم، وأنهم بسلوكهم طريق الحق، قد أنار الله تعالى قلوبهم، فكانوا مهتدين بهدايته.

الله أحل الطيبات

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾
وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ
لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ

بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾
وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ
سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ
اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ
أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

نهى الله تعالى عن اتباع المشركين خاصة، والجماعات من غير نظر عامة، وقد أشار سبحانه وتعالى إلى الضلال الذى كانوا يتبعونه فكانوا يأكلون ما ذبح باسم أصنامهم، وما ذبح على نصبها، وكانوا يحرمون على أنفسهم بعض الأنعام، ويزعمون أن تحريم ذلك من الله؛ لذلك أباح الله تعالى للمؤمنين أن يأكلوا مما ذكر عليه اسم الله، وألا يأكلوا مما لم يذكر عليه اسم الله، وألا يحرموا على أنفسهم إلا ما حرم الله، فقال تعالى:

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾. (الفاء) هنا لترتيب ما بعدها على ما قبلها، إن كنتم قد نهيتم عن اتباع المشركين فى تحريمهم وتحليلهم، وتحريمهم بعض ما أحل الله - فكلوا مما ذكر اسم الله تعالى عليه.

وقد دلت هذه الجملة السامية على أمرين:

أولهما- إباحة ما ذكر اسم الله عليه تعالى عند ذبحه، فإن الذبح بإنهار الدم يكون تطهيرا له من الخبث الحسى، وذكر الله تعالى يكون تطهيرا معنويا من خبث الوثنية.

ثانيهما- أن كل الأنعام مباح أكله بعد تذكيته مع ذكر اسم الله تعالى عليه، فلا يحرم المؤمن شيئا مما حرمه المشركون، وإنه رد على بعض المشركين الذين

استباحوا الميتة، فقد روى النسائى فى سننه أن بعض المشركين قالوا: كيف نحل ذبيحة الإنسان، ولا نحل ذبيحة الله؟[١] يقصدون أن الميت ذبيحة الله تعالى، وذلك غلط فاحش، وكذب على الله، فالذبح إنهار الدم وإزالة ما يكون فيها من خبائث تضر الجسم، والميتة ليس ذبحا، وفيها بقاء الدم بخبائثه فى الجسم.

وقال تعالى: ﴿**إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ**﴾ أى إن المؤمن لا يتبع المشركين، ولا يحرم إلا ما حرم الله تعالى، ولا يحل إلا ما أحل الله، وقوله تعالى: ﴿**إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ**﴾ فيه توكيد وصفهم بالإيمان بقوله: ﴿**كُنتُم**﴾ الدالة على البقاء والاستمرار على وصف الإيمان، وأكد سبحانه وتعالى الإيمان بوصفهم به.

وهنا يثار بحث: هل تناول المباح يعد من الإيمان؟ ونقول فى الجواب عن ذلك: إن تناول المباح له جانبان، جانب التناول، وهو مباح بالجزء، فيجوز للإنسان أن يأكل نوعا، وألا يأكل آخر، فيجوز أن يأكل اللحم، وأن يأكل الطير، أو يأكل السمك، فكلها حلال طيب، ولكن لا يجوز أن يمتنع عنها جملة، فهى مباح بالجزء مطلوبة بالكل، فلا يجوز أن يمتنع عن كل المباحات، والجانب الثانى أن يحسب أن الامتناع عن بعض المباحات تعبد، كأن يمتنع عن اللحم من غير ضرورة جسمية كبعض الذين يسمون أنفسهم نباتيين، فإن هذا يكون ممنوعا لغير ضرورة أو حاجة، فإنه يدخل فى النهى فى قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ... (٨٧)**﴾ [**المائدة**]، وقال تعالى مستنكرا من حرم بعض اللباس من غير نص والطيبات من الرزق، فقال تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ... (٣٢)**﴾ [**الأعراف**].

ولذا قال تعالى: ﴿**وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ**﴾.

(ما) هنا للاستفهام الإنكارى، وهو بمعنى التوبيخ للمشركين إذ حرموا على أنفسهم ما لم يحرم الله من بعض الأنعام كالسائبة والبحيرة والحام؛ وذلك لأنه

---

(١) رواه النسائى: الضحايا - تأويل قول الله عز وجل: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾ (٤٤٣٧)عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ قَالَ: خَاصَمَهُمْ الْمُشْرِكُونَ فَقَالُوا: مَا ذَبَحَ اللَّهُ فَلا تَأْكُلُوهُ، وَمَا ذَبَحْتُمْ أَنْتُمْ أَكَلْتُمُوهُ؟!

إنكار للواقع، وإنكار الواقع توبيخ، والمعنى أى حجة لكم فى ألا تأكلوا ما ذكر اسم الله تعالى عليه، لا دليل، فأنتم تحرمون على أنفسكم ما أحل الله لكم، وتنسبون التحريم لله سبحانه وتعالى وذلك افتراء على الله تعالى، وكذب عليه، كما قال تعالى فى هذا الشأن إذ حرموا ما حرموا مدعين أنه من عند الله: ﴿... قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ (١٤٨)﴾ [الأنعام].

﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ أى تحرمون على أنفسكم ما أباحه الله تعالى وقد فصل لكم ما حرم عليكم، أى بينه، فإنه حرام، وقد ذكر تفصيل ما حرم الله تعالى، فيما يأتى من سورة الأنعام فقال تعالى: ﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤٥)﴾ [الأنعام].

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ فيه قراءتان متواترتان، قراءة بالبناء للفاعل بفتح الفاء والحاء(١)، ويكون المعنى تحرمون عليكم بعض الأنعام التى ذكر عليها اسم الله عند ذبحها، وأنتم تعلمون ما بينه الله من محرمات أباحها للضرورة، ولم يكن المنع فيها إلا فى حال الاختيار، ولا منع فيها فى حال الاضطرار.

ويكون التوبيخ على أنهم علموا تحريم الله وأن ما عداه حلال، ومع ذلك حرموا ما حرموا من تلقاء أنفسهم. والمعنى على قراءة البناء للمجهول بضم الفاء والحاء(٢) يكون المعنى تحرمون ما تحرمون بغيا، وقد علم بالتفصيل ما حرم عليكم،

---

(١) ﴿فَصَّل﴾ بالفتح، ﴿ما حُرِّم﴾ بالضم، قراءة عاصم وحمزة والكسائى، غير حفص والمفضل كلاهما عن عاصم. غاية الاختصار (٨٦٣).

(٢) ﴿فُصِّل .. حُرِّم﴾ بضم الفاء والحاء، قراءة ابن عامر، وابن كثير، وأبو عمر والمفضل. وقرأ الباقون، وهم نافع وأبو جعفر وحفص ويعقوب: ﴿فَصَّل .. ما حَرَّم﴾. المرجع السابق.

أى إن المحرم كان معلوما من الله، وهو تحريم أيضـا بمقتضى الفطرة السليمة؛ لأنه لا تستبينه النفوس السليمة، ولا الأذواق التى تعاف الرجس القذر.

﴿وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ المعنى: إن كثيـرا من الناس تسيطر عليهم الأوهام، حتى تزين لهم الضلال، فيـتوهمون أنه حق، وما هـو إلا الباطل والهوى هو الذى يخرج الوهـم،ويحكمـون من غير علم.

وقوله ﴿لَّيَضِلُّونَ﴾ فيها قراءتان إحداهما- بفتح الياء[1] والمعنى أن كثيرا من الناس يضلون فى ذات أنفسـهم بأهوائهم التى تسيطر عليهم بغـير علم، بل بوهم توهموه، وحكموا على مقتضاه من غير علم أوتوه، وينسبون ذلك إلى الله، والله تعالى برىء منه؛ لأنه مفترى عليه.

وهناك قراة أخـرى بضم الياء، ويكون المعـنى: إن كثيـرا من الناس يُضلون غيرهـم تبعا لأهوائهم التى تجعلهم يتـوهمون تحريما فى أشـياء بغير مـا حرم الله تعالى، وينسـبون ذلك لله تعـالت قدرته بغـير علم علموه من قـبل الله سبـحانه وتعالى.

وإن القراءتين متـواترتان كل منهما قرآن كـريم، فكل واحدة قرآن، ويكون بين القراءتين أنهم يضلون بأهوائهم فى ذات أنفسهم، حتى استمكن الضلال منهم فأضلوا غيرهم، فهم يضلون ويضلون بغير علم.

وهذا فيه تنبيه للمؤمنين، بأن يجـتهدوا فى عدم اتباع المشركين الذين ضلوا وأضلوا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾.

وإن هؤلاء اعتـدوا على الله فكذبوا عليـه، واعتدوا على الناس فـأضلوهم واعتدوا بتحـريم ما لم يحرم عليهم، فكما أن الاعتداء يكـون بتحليل ما حرم الله تعالى، فالاعتداء أيضا يكون بتحريم ما أحل الله.

---

(١) ﴿يُضلون﴾ بضم اليـاء، قراءة عـاصم وحمـزة والكسائى وخلف غـير المفـضل، و ﴿يَضلون﴾ بفتـحها ابن كـثير وأبو عـمرو. وقرأ البـاقون وهم نافع وأبو جعـفر وروح - بفتح اليـاء. غاية الاختصار (٨٦٤).

وأفعل التفضيل على غير بابه، والمراد أن الله تعالى يعلم علما، ليس فوقه علم بمن يعتدون، وعبَّر سبحانه وتعالى بالوصف ﴿بِالْمُعْتَدِينَ﴾ على أن الاعتداء صار وصفا لهم، إذ اعتدوا فأشركوا، واعتدوا فحرموا على أنفسهم ما لم يحرم الله تعالى من الطيبات.

وقد أكد سبحانه علمه باعتدائهم بذكر أنه رب كل شيء، والرب يعلم بمن خلق وربى، وأكده بضمير الفصل: «هو» وهو يدل على أنه وحده العليم بالمعتدين، وأكده بـ «إنَّ»، وهذا فيه إنذار شديد للمعتدين.

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ الإثم هو ما يبطِّئ عن الخير، وأطلق على كل شر إثم، وعلى كل مخالفة لأمر الله تعالى إثم، وقد عد النبى ﷺ أن الإثم يبتدئ من القلب؛ ولذا قال فيما رواه مسلم: « البر حسن الخلق، والإثم ما حاك فى نفسك، وكرهت أن يطلع عليه الناس»(١).

وقد جاء ذلك النص السامى فى هذا الموضع الذى يذكر فيه إباحة الذبائح التى ذكر فيها اسم الله للإشارة إلى أن الأساس فى الذبائح وغيرها، هو ترك الآثام، فذكر اسم غير الله إثم ظاهر وهو شرك واجب تركه، وإن بجوار ترك الإثم الظاهر إثم باطن، وهو ما يتعلق بالنفس من حقد وحسد، ورغبة فى الشر، والدس، والنميمة، والغيبة، والهم بالشر، بحيث لا يكون التخلف عنه بقدرته، بل يكون بأمر خارج عن إرادته، والشرور قسمان: شرور ظاهرة كالقتل والزنى والقذف وشرب الخمر والسرقة، وقطع الطريق، والمجاهرة بالمعاصى، وشر خفى وهو أن تركس النفس فى الآثام، فلا يكون فى النفس، إلا عزم على الشر، أو إخفاء الضغن على الناس، وألا ينوى الخير، وأن يفعل الأمر الحسن مُرائيا، وأن يزكى ويصلى مُرائيا، وذلك هو الشرك الخفى، كما قال ﷺ : «من تصدق يرائى فقد أشرك»(٢).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

وقد حرم الله الإثم الظاهر والخفى، فى هذه الآية، فقال تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ... (١٢٠)﴾ أى اتركوا الإثم فى ظاهره وباطنه، وعبر عن الإثم الخفى بباطنه؛ لأنه مستور فى باطن النفس غير معلوم، والإثم واحد فى الحالين، ظهر أو بطن، ولقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا (٣٣)﴾ [الأعراف].

وفى هذه الآية سمى الإثم فواحش؛ لأنه زيادة عن الفطرة زيادة فاحشة، فما من معصية إلا كان فيها خروج فاحش على الفطرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ هذا هو الجزاء الذى كتبه الله تعالى، لمرتكبى الآثام ما ظهر منها وما بطن، والذين يكسبون الإثم، سواء أكانوا يكسبونه بجوارحهم الظاهرة، أم يكنُّونه فى نفوسهم مع اعتزاله، والحرص عليه، ﴿سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ و(السين) هنا لتأكيد الوقوع فى المستقبل، وعبر سبحانه وتعالى بالموصول للإشارة إلى أن الصلة سبب الجزاء، وأن الجزاء يعم كل من يفعل، وكسب الإثم ارتكابه بقصد وإصرار عليه، وإغلاق باب التوبة، والكسب يجعله يسكن فى النفس حتى يصير لونا من ألوانها، أو تعزيزه والملكة فيها، فلا يقال إنه كسب السوء، من يفعله مرة أو مرتين عن جهالة ثم يتوب من قريب.

وقال تعالى فى الجزاء: ﴿سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ والاقتراف الكسب، ويطلق كثيرا على الكسب الآثم، وقد يطلق فى قلة على كسب الخير، كما فى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣)﴾ [الشورى].

﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ أباح الله أن نأكل مما ذكر اسم الله عليه، فقال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ وندد بالذين لا يأكلون مما ذكر اسم الله ممن يحرمون بعض الأنعام؛ لأنهم حرموا ما أحل الله تعالى لهم.

وفى هذه يبين تحريم ما ذكر عليه غير اسم الله، كأن يذبح على النصب، ويذبح باسم صنم من الأصنام أو شخص من الأشخاص تقديسا له، وتقربا عن طريقه، فإنه لا يحل، كما قال فى آية أخرى فى المحرمات من الذبائح ﴿... أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ... (١٤٥)﴾ [الأنعام].

وفى هذه الآية الكريمة أكد سبحانه أن الإهلال عند الذبح لغير الله تعالى فسق، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ وقد أكد سبحانه وتعالى أنه فسق بـ (إن) المؤكدة، و(اللام) المؤكدة، والجملة الإسمية.

وقد تكلم الفقهاء فى هذا الموضوع موضحين موجهين الآيات الكريمة غير مخالفين لها.

ذلك أن أمرين نُصَّ عليهما:

أولهما- إباحة ما ذكر عليه اسم الله تعالى، وإن ذلك مباح بالاتفاق لأنه منصوص عليه، ولأن الله وبخ الذين لا يأكلون ما ذكر عليه اسم الله، ولأنه يكون قد حرم ما أحل الله تعالى.

ثانيهما- أن الله تعالى نص على النهى عن أكل ما أهل به لغير الله، وأكد النهى بـ (إنَّ) ذلك فسق أى خروج على الدين، ولكن بقيت حال لم ينص عليها نصا صريحاً، وهى الحال التى يترك فيها اسم الله تعالى سهوا أو عمدا.

قال بعض العلماء: إنه فى حال العمد يكون الأكل غيرحلال، وقيل ولو كان سهوا، وحجتهم فى ذلك، أن الله تعالى أباح ما ذكر عليه اسم الله تعالى، فكان بمفهوم المخالفة لا يباح ما لم يذكر اسم الله تعالى عليه، ولأنه نص على تحريم ما لم يذكر اسم الله تعالى عليه، وإن النبى ﷺذكر أن المباح هو ما أنهر دمه وذكر عليه اسم الله تعالى عند ذبحه، ولأن النبى ﷺ ذكر أن الصيد لا يحل إلا إذا ذكر اسم الله تعالى عند إرسال السهم أو الكلب الصائد، فقد روى فى الصحيحين «إذا أرسلت كلبك المعلَّم، وذُكر اسم الله عليه فكلوه»(١)، هذا نظر

(١) سبق تخريجه.

متفق مع النصوص المذكورة فى هذه الآية، ويتفق مع الأحاديث الواردة فى هذا الباب.

وقال آخرون من الفقهاء: إن المحرم هو ما ذبح بأنه لغير الله تعالى ويباح غيره لتلاقى الآيتين فى المعنى، إذ إنه ذكر فى تحريم المطعومات أن ما أهل لغير الله هو المحرم، فقد قال تعالى: ﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ... (١٤٥)﴾ [الأنعام]، فمعنى ﴿مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أى ذكر غيره، والدليل على ذلك الآية الأخرى، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾، والضمير يعود إلى الأكل مما لم يذكر عليه اسم الله، أى الذبيحة، ولا يمكن أن يكون فسقا إلا إذا كان ثمة ذكر لغير الله تعالى.

وفوق ذلك فإنه من المقررات الشرعية أن ذبائح أهل الكتاب حلال أكلها، فقد قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ (٥)﴾ [المائدة].

وهكذا نرى فريقا حرم ما لم يذكر عليه اسم الله سواء أتركه عمدا أو سهوا، وآخرون قالوا: يحل، سواء أتركه عمدا أو سهوا، وهناك قول وسط بين القولين المحل والمحرم، فقال: إن لم يذكر اسم الله سهوا، فإنها تحل، وإن تركه عمدا لا تحل الذبيحة، وهذا الرأى أقرب إلى روح الإسلام؛ لأن من لم يذكر اسم الله سهوا، فإنه قد رفع الخطأ والنسيان، وما كان بإكراه، وأما من تركه عمدا فقد أعرض عن ذكر الله، وذلك إثم لا يبرره شىء.

ونحن نميل إلى هذا الرأى.

﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ الظاهر أن الشياطين هنا هم شياطين الإنس يوسوسون إلى أصدقائهم ليجادلوا المؤمنين فى أمر ما أبيح من

الأطعمة وما لم يبح، فقد روى أن بعض المشركين كما روينا من قبل كان يقول للمؤمنين: ما ذبحه الله لا تأكلونه، وما ذبحتموه تأكلونه، وإنهم يفعلون ذلك ليثيروا جدلا بين المؤمنين؛ ليشككوهم في أمر دينهم، والجدل في غير موضع الجدل إثارة للريب والشكوك وإثارة الريب تضعف الإيمان بالحق، وتفتح الأبواب للباطل، وإذا فتحت الأبواب للباطل في القلوب ضلت الأفهام وارتابت العقول والنفوس؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ أي إن سايرتموهم في جدلهم، وفتحتم لهم صدوركم، فإنهم يجرونكم إلى طاعتهم، وإن أطعتموهم إنكم لمشركون مثلهم، وهنا قسم مقدر في القول، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ هو جواب القسم بدليل وجود (اللام)، وبدليل أنه لم توجد (الفاء) إذ لو كانت جوابا للشرط لجاء بالفاء.

وهذا تأكيد لإشراك المؤمنين إن سايروهم في الجدل في أمور ليست موضع جدل، فالجدل -كما قلت- يولد الريب. اللهم اكف أمة محمد شر جدل أهلها، وامنحها الإيمان بما تقول، وما تدعو إليه.

الإيمان حياة والشرك ظلمات

أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا

﴿يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ
ءَايَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ
أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا
صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

كانت الآيات السابقات فى أحوال المشركين من إشراك بالله إلى سيطرة الأوهام عليهم، حتى حرموا على أنفسهم ما أحل الله تعالى، وفى هذه الآيات يبين سبحانه وتعالى أن الشرك موت نفسى كمن يموت موتا حسيا، وأن الهداية حياة بعد الموت، وأنها نور، وأن الشرك ظلمات متكاثفة بعضها فوق بعض تبتدئ بالأهواء، وهى ظلمة، ثم بالأوهام، وهى ظلمة، ثم تنتهى بالشرك وهو ظلمات.

شبه الله تعالى حال من يكون فى جهل ثم يتجه إلى الهداية كحال من يكون ميتا فيحييه الله ويجعل له نورا يمشى به فى الناس، ليهتدى به، ثم نفى أن يكون ذلك الحى المهدى بعد الجهل الذى هو الموت نفى أن يكون مثله كمثل من يعيش فى ظلمات من الجهالة والضلالة لا يمكن أن يخرج منها، وهذا معنى قوله تعالى:

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾.

(الواو) عاطفة، هذه الجملة عطفت على ما قبلها من ذكر أوهام المشركين، وطلبهم آيات وتحريمهم ما أحل الله، وإحالة الإثم منهم ظاهرا وباطنا، وهذه الآية هى بيان للفرق بين المؤمن والمشرك، والاستفهام إنكارى لإنكار الواقع، فهو نفى للمشابهة، والمعنى لا يستوى من يكون ميتا بالجهالة فأحييناه بالإسلام والهداية

والمعرفة وجعلنا له إدراكا ومعرفة يمشى بها فى الناس هاديا لهم يرشدهم ويسترشد بهم، كمن مثله من نشأ فى الظلمات لا يخرج منها، بل يتردى فيها يتحرك فى جنباتها، ولا يخرج، وعبر سبحانه عن عدم خروجه من الظلمات بقوله ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾، أى أنه أَلِفَ الظلمات، وصار لا يمكن أن يخرج منها، فعبر باسم الفاعل أى صار مثل المقيم فى الظلمات، وأكد سبحانه وتعالى نفى الخروج بالباء وبالوصف، فهو مرتكس فى الظلمات ليس بخارج منها.

فلا يستوى -بمقتضى هذا النفى- المؤمن والمشرك، كما لا يستوى النور والظلمة، كما لا يستوى المبصر والأعمى، وهذا كقوله تعالى فى آية أخرى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ (٢٠) وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ (٢٣)﴾ [فاطر].

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كهذه الحال التى صاروا بها فى ظلمات ليسوا بخارجين منها، لأنهم استمرأوا الظلام وألفوه، واستطابوا الإقامة فيه لا يخرجون - مثل هذه الحال زين للكافرين ما كانوا يعملونه من إنكار، وبقاء فى الباطل، حتى حسبوا أن ما هم عليه، هو الحق الذى لا يأتيه الباطل.

وقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ﴾ بالبناء للمجهول للإشارة إلى أنه لم يكن لهم من عقل أو فكر أو هداية، إنما زين لهم بأهوائهم وأوهامهم، فضلوا ضلالا بعيدا، و«ما» هنا موصول بمعنى الذى، و«كانوا» دالة على استمرار عملهم، وسيكون ما زينته لهم أوهامهم وبالا عليهم يوم القيامة.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾.

كان النبى ﷺ يعارَض، ويُمكَر به، ويُدبر له وللمؤمنين زعماء مكة وكبراؤها، وذوو البيوتات الكبيرة فيها، يؤذون النبى ﷺ، وضعفاء المؤمنين، وكانوا هم الذين يدبرون ما يقال توهينا لأمر الدعوة، وإدحاضا لقول الحق،

ينسَون ما كان عليه النبى ﷺ من أمانة قربته منهم، وجعلته الثقة فيهم، ويقولون مرة كذاب، ويقولون أملاه عليه قوم آخرون، ويقولون ثالثة: إنه مسحور، وما كان يدبر ذلك القول إلا إذا كانوا بحكم وصفهم الجاهلى أشرافا وأكابر، فبين تعالى أن ذلك شأن أعداء النبوات، ويكون أكابرهم مجرميهم ويمكرون بالنبى ومن معه؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾.

الأكابر جمع أكبر، وهو الذى بلغ أعلى العلو فى قومه على حسب مقياس العلو عندهم، وكذلك، أى كالحال التى ترى من ذوى البيوتات فى قومك جعلنا فى كل قرية، أى مدينة عظيمة، أكابر مجرميها يمكرون ويدبرون وقوله تعالى: ﴿أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ الظاهر منها أن «أكابر» مضافة إلى «مجرميها»، أى صيرنا فى كل قرية مجرميها، ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ أى يدبرون ما يقاومون به الأنبياء، ويعارضون، ويكون المؤدى الذين يعارضون الأنبياء فى القرى أى المدن هم الذين يمكرون المكر السيىء فيها، وهذا كقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥)﴾ [سبأ].

وإن مقياس الكبر عندهم هو النسب وكثرة المال والقوة الظاهرة، وليست الأخلاق الفاضلة والعقيدة السليمة والشرف الذاتى الذى لا يكتسب بالنسب، ولكن يكتسب بالخلال الكريمة الفاضلة.

ومعنى ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾، أى ليدبروا الأمور العامة كما يحبون، أى يسيطرون على الفكر العام، فلا يكون الرأى العام عندهم فاضلا، وإنما يكون فاسدا أثيما.

﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أى إن عاقبة التدبير الفاسد الأثيم يعود عليهم بالوبال؛ لأنهم يريدون إعلاء الرذيلة بتدبيرهم وإنكار الحق بتفكيرهم،

وشيوع الشرك بتقليدهم لآبائهم، وإن ذلك يؤدى -لا محالة- إلى الهلاك، ومصداق قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الإسراء]. وهكذا لا يحيق المكر السيىء إلا بأهله، وقد قال تعالى أيضا: ﴿ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزخرف].

مكر هؤلاء أن يحرضوا على معارضة الرسول، وأن يلقنوا الناس ما يردون به على دعوة الحق التى جاء بها النذير من قِبَل الله تعالى، وأن يزيدوا معارضة الحق وأن يثبتوهم على الشرك.

﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله كما يكون؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾، أى أن مآل مكرهم عائد بالوبال عليهم، وقد أكد سبحانه أن مآل الوبال على أنفسهم، لا على النذير الذى أنذرهم، أكد ذلك بالنفى ثم الإثبات وذلك فيه معنى القصر، أى أن المكر فى عاقبته لا يكون إلا عليهم، فهم فى حقيقة الأمر يمكرون بأنفسهم، لا بغيرهم.

وما يشعرون بتلك العاقبة؛ لأنهم سادرون فى غيهم، لا يرشدون ولا يفكرون، عميت عليهم أمورهم، فلا يشعرون بمغبة ما يفعلون، ولا بنتيجته، وإنهم إذ يقاومون أمر الله ونهيه اللذين حملهما نبيه المرسل - يقاومون مالك كل شيء والعليم بعواقب الأمور.

وكان مكرهم بأنفسهم؛ لأنهم يضللونها، ويزيدونها ضلالا، إذ إن كثرة التدبير للدفاع عن الضلال يزيد الضال ضلالا، والخاسر خسرانا، وإن عاقبة كل ذلك عليهم، إذ سينالون جزاء ذلك، وسيحملون أوزارهم، وأوزار الذين يضلونهم بمكرهم، وسوء تدبيرهم.

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ سمعوا القرآن الكريم، وهو يتلو عليهم قصص النبيين وآياتهم التى أجراها الله تعالى على

أيديهم من أخبار كسفينة نوح وإغراق قومه، وأخبار موسى، وتسع آيات بينات جاءت على يده، وأخبار شعيب وصالح ولوط وهود، وما جرت من آيات حسية نزلت لهم ليؤمنوا، ونزلت بهم إذ كفروا، والمشركون متعنتون دائما ليسوا طلاب هداية، ولكنهم طلاب إعنات، وإرهاق ليبرروا جحودهم، ومظهر إعناتهم أن يطلبوا آيات وحسبوا أو أظهروا أن آية القرآن- وهو المعجزة الكبرى- لا تكفيهم(١)، وقد طلب منهم أن يأتوا بمثله فعجزوا وبدا عجزهم عيانا، ومع ذلك أخذوا يمارون، ويطلبون آيات، أو تأتيهم آية مثل ما أوتى الرسل أنفسهم. ومع أنهم لم يؤمنوا بالقرآن، ولم يعرفوا الرسل إلا عن طريقه، طلبوا آيات كآيات الرسل الذين لم يؤمنوا بهم وقالوا ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾.

قالوا مؤكدين النفى بـ (لن) بأنهم لا يؤمنون، ﴿حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾، أى حتى نؤتى من المعجزات مثل ما أوتى رسل الله.

أى أنهم إذا جاءتهم آية بينة تدل على رسالة النبى ﷺقالوا مؤكدين النفى، لن نؤمن حتى نؤتى الآيات التى أوتيها رسل الله تعالى، أى حتى ينزل علينا كما نزل عليهم، أو تكلمنا الملائكة كما كلموهم، وجاء ذلك على لسان بعض المشركين الذين يمكرون فى أم القرى، وقد قال تعالى عنهم، إنهم يريدون أن يكونوا كالرسل لهم صحف منشرة ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً (٥٢)﴾ [المدثر].

وروى أنه عندما دعا النبى ﷺ قومه فى مكة، وأبلغهم أنه رسول من رب العالمين، قال الوليد بن المغيرة: لوكانت النبوة حقا لكنت أولى بها منك، لأنى أكبر منك سنا وأكثر منك مالا، وقال أبو جهل: والله لا نرضى ولا نتبعه حتى يأتينا وحى كما يأتيه.

---

(١) راجع كتاب (المعجزة الكبرى) للمؤلف - طبعة دار الفكر العربى. وقد نصح الإمام رحمه الله تعالى فى المقدمة بقراءته كتقدمة لهذا التفسير.

وهذا يدل على أنهم طلبوا أن يكونوا أنبياء مثل الأنبياء، ورسلا مثل الرسل قال هؤلاء المشركون إنهم لا يؤمنون إلا إذ أنزل عليهم الذى ينزل على الرسل، فبين الله تعالى أن هذه رسالة يختار الله تعالى لها من يشاء بحكمته وعلمه الذى أحاط بكل شيء، فقال تعالت كلماته:

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ الله ذو الجلال والإكرام، والعلم والقدرة على كل شيء أعلم حيث يجعل رسالته، وأفعل التفضيل ليس على بابه، وكذلك كل أفعل تفضيل يوصف به الله تعالى؛ لأنه لا توجد مفاضلة بينه وبين أحد من خلقه فى أى وصف من الأوصاف، ومعنى أفعل التفضيل فى العلم بالنسبة لله تعالى على هذا أن الله تعالى يعلم مواضع الرسالة علما ليس فوقه علم قط؛ لأنه علم الله العليم بما كان وما سيكون، وما هو كائن إلى يوم الدين.

وقوله تعالى ﴿حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (حيث) ظرف مكان، أى الموضع من خلقه الذى يرتضيه ويصطفيه رسولا فهو الذى يربيه على عينه، ويشب على التقوى والعفة والأمانة، والخلق الكريم، حتى صح له أن يقول: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى»(١).

وإن ذلك لبين لهم لو كانوا لا يجحدون بالحق إذا بدت لهم بيناته، وظهرت آياته، ولقد كان من أوسطهم نسبا، فكان فى الذؤابة من قريش(٢)، وكان أكرمهم خلقا وأطيبهم نفسا، وأعفهم وأشدهم أمانة، حتى كان يقال: الأمين، وسموه بهذا الاسم، فكانوا إذا أطلقوا كلمة (الأمين) لا تنصرف إلا إليه عليه الصلاة والسلام، وكانوا يرضون حكمه، إذا جاء الأمر بالاحتكام فعندما اختلفوا فيمن يضع الحجر الأسود بعد أن بنوا الكعبة ارتضوا أن يكون الحكم أول من يدخل

---

(١) ذكره السيوطى فى الجامع الصغير: ج١، ص٢١.

(٢) الذؤابة: الشعر المضفور، واستعير هنا للدلالة على الصدارة، وأنه كان موضع الشرف والتباهى فيهم. صلى الله عليه وسلم.

البيت، فكان الأمين أول من دخل البيت، فقالوا مطمئنين راضين هذا الأمين، وطابت نفوسهم بحكمه.

فالله تعالى العليم الحكيم، قد وضع رسالته فى خيرهم بإقرارهم فكيف يمارون من بعد ذلك، ويقول قائلهم كبرا وعلوا فى الأرض: أنا أولى، ويقول آخر: نريد أن نؤتى مثل ما أوتى الرسل، قالوا ذلك استكبارا فكان عقابهم صغارا، وعذابا أليما، ولذا قال تعالى:

﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾.

الصَّغار: هو الضيم والذل والهوان، فقد كانوا الأكابر الذين أجرموا، فكان العقاب الهوان، وكان عقاب الإجرام الذى ارتكبوه واستمرءوه وداوموا عليه العذاب الشديد.

وقوله تعالى: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ فيه (السين) لتأكيد الوقوع فى المستقبل القريب، والتعبير بالموصول فيه فائدتان بيانيتان، أولاهما- أنها تفيد أن الصلة هى سبب هذا العذاب الشديد، والثانية- تسجيل الإجرام عليه، وأنهم كانوا فيما يمكرون مجرمين، ولم يكونوا أشرافا كراما، كما هو شأن الأكابر الذين يستعلون بأنسابهم.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ أى بسبب مكرهم السيء، وهذا يفيد أن الكلام فى موضوع الأكابر المجرمين الذين ذكروا فى الآية السابقة؛ ولذا قالوا إن (الواو) فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ واو عاطفة على قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾.

اللهم أبعدنا عن الإجرام وأسبابه، وعن الطغيان وبواعثه.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾

بين الله تعالى فى هذه الآية أن الناس صنفان صنف سلك طريق الهداية فهداه الله تعالى وشرح صدره للإسلام، فدخله مطمئنا نيِّر القلب، وقسم قد كتب الله تعالى عليه الشقوة، فضاق صدره ولم يدخل النور قلبه، وهذا بعض ما يشير إليه النص السامى.

﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾.

هذا قسم المهديين الذين كتبهم فى عباده المؤمنين، وإنه قد فهم القسمان فهمًا إجماليا من حال الجحود عند الوثنيين وتدبيرهم الأذى للمؤمنين، ففهم أن هناك فريقين فريق اهتدى وآمن، وفريق كفر وجحد وأنزل الأذى، وفى هذا يبين الله كيف يدخل الإيمان القلوب، وكيف يكون الصد عن سبيل الله.

والفاء مترتبة على ما فُهم من أن الناس فريقان فهى لبيان الحال النفسية، ولتفصيلها فمن يرد الله أن يهديه فالأمر أولا لهداية الله تعالى وإرادته، وإنه لا بد أن يكون من حال النفس ما يجعلها تتجه إلى الهداية، فلا تكون معوجة بل تكون إرادة العبد مستقيمة خالصة نقية من الشوائب، ويكون الاتجاه مستقيما، فتكون إرادة للهداية، ويريد سبحانه أن يهديه مع اختياره من غير إجباره، و﴿يَشْرَحْ﴾ معناها يُوسِّع؛ لأن معنى (شرح) فى اللغة: التوسعة، والصدر القلب، وفى

العبارة مجاز، شبه اتساع القلب للحقائق بالشرع الحسى، وكل تعبيرات القرآن عن المعانى النفسية بالألف الدالة على المحسوسات، من قبيل المجاز، يستعان به على بيان الأمور المعنوية، وقد سئل النبى ﷺ من عبد الله بن مسعود قال: هل ينشرح الصدر؟ فقال النبى ﷺ: «نعم يدخل القلب نور»، فقال ابن مسعود: فهل لذلك من علامة؟ فقال ﷺ: «التجافى عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزول الموت»(١).

وإن هذا يدل على أن شرح القلب، يكون بتوسعة المدارك وفهم قيمة هذه الحياة الفانية وإدراك أنها قنطرة للحياة الباقية، ومن غُمَّ عليه ذلك فهو من الفريق الثانى الذى قال الله تعالى فيه:

﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾.

ليس الإضلال من غير عمل من جانب من أراد الله تعالى إضلاله، إنما يكون بعمل من جانبه قد كتبه الله تعالى عليه، بأن تهوى نفسه فى طريق الضلالة بالميل إليها، والرغبة فيها، والحرص على طريق يدفعه إليه الغرور ونسيان الآخرة، وأن يعتقد أنه لا حياة إلا الدنيا وما فيها.

وإنه إذا سار على هذا النحو أراد الله تعالى له الضلال، والكل بما كتبه الله تعالى عليه، وإنه إذا أراد الله ضلاله على هذا النحو الذى بيناه، جعل صدره ضيقا حرجا، أى أن قلبه لا يتسع لغير ما ختم عليه، كما قال تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ⑦﴾ [البقرة]. فالله تعالى يضيِّق صدره، وفى هذا أيضا مجاز، لأنه تشبيه للأمر المعنوى، وهو الإعراض عن الحق، وابتعاده عنه بالضيق الحسى، وإسناد الضيق إلى الصدر من ترشيح الاستعارة وتقويتها.

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٠١٠٤)، والحاكم في المستدرك (٧٩٣٥)، ج٤، ٣٤٦.

وقوله تعالى: ﴿حَرَجًا﴾ قرئ بالفتح(١)، على أنه اسم جنس جمعي لحرجة، وهي الأشجار الملتفة التي لا تسمح أن ترعى فيها راعية، والحرجة هي الشجرة التي تكون مختفية بين الأشجار لا يصل إليها.

وقرئ (حَرِجا) بكسر الراء(٢) بمعنى الضيق، وهي تأكيد للضيق أي ضيقا شديدا لا يمكن أن تدخله الهداية، وعلى تفسير الحرج بالفتح على اسم جنس جمعي للحرجة قيل إن الإمام عمر رضي الله عنه هو صاحب هذا التفسير.

فقد روى أنه سأل رجلا من الأعراب من أهل البادية عن الحرجة. فقال هي الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية، ولا وحشية ولا شيء، فقال عمر رضي الله عنه، وكذلك قلب المنافق لا يصل إليه خير.

وعلى هذا التفسير، يكون في الكلام تشبيه، أو استعارة، وهو تشبيه قلب الكافر في أنه لا ينتفع به، ولا يصل إليه بالحرج، وهو الشجر الملتف الذي لا ترى الأرض من تحته، ولا تصل إليه راعية ولا وحشية ولا شيء، لأنه لا ينتفع به في شيء.

﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾.

هذا تشبيه آخر للكافر، (يصَّعد) أصلها يتصعد، وقلب التاء صادا، وأدغمت الصاد في الصاد، وقرىء يَصَّاعد(٣) وأصله تصاعد، وكان التصريف ما ذكرنا في يصعد، وهما بمعنى واحد، وتزيد تصاعد على تصعد؛ في أنها تدل على محاولة الصعود بعد الصعود، وذلك أثقل.

---

(١) ﴿حَرَجا﴾ بالفتح، كلهم إلا نافع وأبو جعفر وأبو بكر. غاية الاختصار (٨٦٦).
(٢) ﴿حَرِجا﴾ بكسر الراء، نافع وأبو جعفر وأبو بكر. السابق.
(٣) ﴿يصَّاعد﴾ بتشديد الصاد وبالألف، قراءة أبو بكر والمفضل عن عاصم، وقرأها ﴿يصْعد﴾ بالتخفيف ابن كثير، وقرأ الباقون بالتشديد بغير ألف ﴿يصَّعَد﴾. غاية الاختصار.

والمعنى أنه شبهت حال الكافر فى جهده، وثقل الإيمان عليه، بمخالفته الفطرة بذلك - بحال من يحمل عبئا ثقيلا، ويريد أن يصّاعد إلى السماء فينوء به حمله ولا يصل.

وإن ذلك يدل على أمرين: أولهما- أنه مهما يكن الجحود فإن الفطرة تقاومه، وتجعله عبئا ثقيلا، ومن يحارب الفطرة، فإنه يبوء بخسران مبين.

ثانيهما- أنها تشير إلى أن الضيق الشديد الذى جعله الله تعالى فى قلب الكافر يجعله غير قادر على الرقى إلى الحقائق السماوية التى جاء بها الإسلام.

﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿كَذَلِكَ﴾ الإشارة إلى حال المشركين التى أركسوا، والتشبيه هو تشبيه الرجس الذى ينزل بهم، و﴿الرِّجْسَ﴾ أصل معناه الفتن أى الأمر القذر، الذى تستقذره النفوس وتعافه، وفيه بيان أن الكفر أمر قبيح تعافه العقول المستقيمة، وكيف تدرك العقول أن حجرا يصنع بأيديهم وهو لا يضر ولا ينفع يعبدونه.

والمعنى لهذه الحال التى رأيناها فى الكافرين، ووصف الله تعالى الكافرين بقوله: ﴿الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ وذلك وصف لهم بأقل أوصافهم، وهو أنهم لا يؤمنون، النفى نفى للمضارع، وهو أنه يدل على الدوام المتجدد آنا بعد آن، أى يتكرر، بتكرار الآيات التى لا تزيدهم إلا كفرا.

﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

بعد أن بين الله تعالى شرح صدر المؤمن لنور الحق، وضيق صدر الكافر، حتى لا يدخل النور قلبه، بعد ذلك بيَّن الصراط المستقيم، والصراط هو الطريق والخط المستقيم.

والإشارة فى قوله تعالى: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ﴾ إشارة إلى ما أوحى للنبى ﷺ مما نزل عليه من الدين والقرآن، وقال سبحانه وتعالى: ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ وهى حال من اسم الإشارة، وهو حكم من الله تعالى بأنه مستقيم، لا عوج فيه، ولا

التـواء، والخط المستـقيم يصل إلى الحـق بأقل طريق، وقال تعـالى إن ذلك الحق واضح نيِّر مـسلوك، ولذا قال تعـالت كلماته: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ﴾ أى بينا الأدلة القـائمـة على صدقـه، أو يراد من الآيات القـرآنيـة أى بيناها ووضـحناها لقـوم يذكـرون، من شأنـهم التذكـر والإدراك السليم، فلم يطمـس على قلوبهم، ولم تضيق عن الحق صدورهم، والله تعالى يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

الجزاء

لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾

بعد أن ذكر الله سبحانه حال الناس فى الـدنيا بين مهدى كتبت له الهداية، وبين شقى كتبت له الغواية، وبين من هداه الله إلى الصراط المستقيم صراط الله، أخذ يبين سبـحانه جزاء كل من الفريقين، وابتدأ سبـحانه بمن هداه الله تعالى إلى صراط العزيز الحميد، فقال تعالى:

﴿لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

الضمير فى (لهم) يعود على من فصل لهم الآيات، فتذكرها، إذ يقول سبحانه: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ فقال سبحانه وتعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ والسلام معناه الأمن، ودار السلام هى الجنة، وسميت دار السلام لأنها دار الأمن من الخوف، فلا يخافون أحدا، ولا يحزنون على شىء فاتهم فيها، وهى دار إقامة وفيها النعيم المقيم، وغيرهم فى العذاب، وهم فيها يتمتعون بأمرين أولهما النعيم الدائم الذى لا يخافون فيه انقطاعا.

ثانى الأمرين أنهم يكونون عند ربهم، فهم يلقون الله تعالى، وهو وحده نعيم نفسى لا يعدله نعيم، وهو الذى ربَّهم فى الدنيا، ويربهم فى الآخرة، فهم فى رحمته فى الدنيا، وقد قاموا بالشكر، وفى رحمته فى الآخرة لاستحقاقهم الأجر، فالشكر منهم، والأجر من الله تعالى متقابلان، وهما البيع الرابح.

وأكد الله تعالى الأمر الثانى وهو قربهم من الله تعالى فقال تعالى:

﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

(الولى) الموالى والنصير، والحبيب، والله سبحانه وتعالى هو ذلك كله بالنسبة للمؤمن الطائع الذى سلك طريق الله تعالى المستقيم، وتذكر الله تعالى فى الدنيا، فى سره وجهره، فى ظاهره وباطنه، فهو وليه إذ أخرجه من الظلمات إلى النور وهو وليه إذ شرح قلبه للإسلام وهو وليه إذ وقاه الله تعالى ضر النفس بالانحراف والظلم، ثم هو وليه إذ لقيه فى الآخرة ووقاه عذاب الجحيم.

وقد تكرم الله سبحانه وتعالى- وهو مجرى النعم- بأن جعل نعيم الجنة جزاء، وهو المتفضل، وله المن والفضل، فقال تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى أنهم استحقوا دار السلام عند ربهم وولايته بالذى عملوا فى الدنيا وداوموا عليه، وكان يتجدد عملهم بتجدد شعورهم بنعمة الله تعالى عليهم، ذلك الفضل من الله، والله يختص برحمته من يشاء، وهو ذو الفضل العظيم.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ﴾.

بين الله الجزاء الخاص بالمؤمنين أولا؛ لأن بيان جزاء الطاعة أعظم أهمية من جزاء العذاب؛ ولذا بينه سبحانه وتعالى أولا، لمكان التبشير، والله تعالى قدم التبشير على الإنذار رجاء الطاعة.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ (الواو) تصل الكلام السابق بالكلام اللاحق، وإن (الواو) قد تكون عاطفة على ما فُهِم من الكلام السابق.

(ويوم) مفعول متعلق بفعل معناه اذكر لهم يوم يحشرهم الله جميعا، ويخاطبهم سبحانه بهذا الخطاب ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم﴾، والمراد - والله أعلم- قد شددتم فى طلب الكثرة من الإنس لتضلوا، فالسين والتاء للطلب، وخبر الله تعالى بطلب استكثارهم يدل على أنهم نالوا هذه الكثرة، فأغووها، كما قال تعالى فى كتابه العزيز؛ عن إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)﴾ [الحجر].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢)﴾ [يس].

والجن هنا هم إبليس وجنده من الشياطين كما تدل على ذلك الآيات الكريمة، وكما يدل على قسمه بأن يغويهم أجمعين إلا عباده منهم المخلصين، ولم يَرُدَّ الجن، أو لم يذكر الله تعالى جوابا لهم؛ لأن ماضى قولهم يدل على فعلهم، فلم يكن سبيل لأن يردوا، وقد توعدوا المؤمنين وجاهروا بعصيان ربهم، فلم يبق إلا أن ينالوا الجزاء راضين أو ساخطين ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ﴾ المغرورين، لأنهم لم يكونوا قد رأوا العذاب بما ذكر سبحانه وتعالى بقوله: ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾.

قالوا غير مدركين عاقبة أقوالهم ظانين أنهم فى لهو كلهو الدنيا، أو لعب كلعبها، أو قائلين بلسان الواقع الذى هم فيه، فهم قالوا بلسان الحال، لا بلسان المقال، وقد نطقت أيديهم وجوارحهم بما كانوا يفعلون، ﴿رَبَّنَا﴾ شاعرين بمعانى الربوبية الكاملة التى لم يشعروا بها فى الدنيا، ﴿اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾، أى انتفع بعضنا ببعض انتفاع متعة وبهجة، استمتعنا بإغرائهم، فاجترفنا من اللذات والشهوات، والأحقاد، والعداوات، ووجدوا هم متعة فى إغرائنا، وإغوائنا، وتلهينا، وتعابثنا، وكأنهم يجدون متعة فى متعتنا، ولذة فى لذاتنا، كانت هذه حالهم، ونريد أن نذكر إشارة بيانية فى التعبير بقوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ فإن التعبير بالحشر، يشير إلى أمرين أولهما- أنه يجمعهم غير مختارين ولا مريدين، وثانيهما - أنه يشير إلى كثرتهم، وأن الكثرة الكاثرة لم تمنعه تعالى من جمعهم وحسابهم، ومؤاخذتهم على ما فعلوا، ولقد قال تعالى فى جزائهم:

﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾.

قال جل جلاله بلسان الفعل والمقال: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾ أى محل إقامتكم الدائم الخالد الذى لا ينتهى، فله ابتداء وليس له انتهاء، و(المثوى) اسم مكان من ثوى يثوى بمعنى أقام إقامة دائمة لا يخرج منها مختارا، فالغالب فيها الإقامة الاختيارية، وقد عبر بها هنا تهكما عليهم، كأنهم اختاروا بأفعالهم؛ إذ قد اختاروا أسبابها، ومن اختار بابا فقد اختار الدخول فيه، وإن التعبير بـ (خالدين) يدل على البقاء الدائم بمشيئة الله تعالى الخالدة، وبإنذاره بذلك فى عدة من آياته.

ولكنه قال سبحانه وتعالى مستثنيا: ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ فهل هذا الاستثناء يدل على أن النار لها نهاية، تنتهى بمشيئة الله تعالى وأنه لا خلود فيها؟ وكذا قال بعض العلماء ونسب هذا القول إلى ابن تيمية، وقرره ابن القيم فى كتابه حادى الأرواح.

ونحن نرى أنه قول يناقض الآيات الكثيرة الواردة فى خلود الجنة وخلود النار، وأن الحياة الآخرة ليست إلى فناء، وإنما هى دار البقاء، ولا دار بعدها ينتقل إليها الناس، والنبى ﷺ فى خطبته التى أنذر فيها عشيرته الأقربين، وصدع فيها بأمر ربه، قال: «إنها للجنة أبدا، أو النار أبدا، وإنى لنذير لكم بين يدى عذاب شديد»(١)، وإن الله تعالى يقرر الخلود، ولا يترك أجسامهم تبلى من العذاب إذ يقول تعالت كلماته: ﴿... **كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ** ... (٥٦)﴾ [النساء].

وقوله تعالى: ﴿**إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ**﴾ لا يدل على أنه عذاب غير أبدى؛ لأنه صرح فى النص بأنهم خالدون فيها، ولأنه صرح سبحانه وتعالى بكلمة أبدا فى كثير من آياته، فيقول سبحانه: ﴿**خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا** ... (٢٢)﴾ [التوبة]، ولأن كلمة ﴿**إِلَّا مَا شَاءَ**﴾ تدل أن الأمر إلى مشيئته عذابا وغفرانا، وأنه شاء العذاب، وأنه: توعد بالتأبيد، وهو لا يخلف الميعاد، وذكر المشيئة هنا للدلالة على أنه شاء ذلك، وأنه يمكن أن يشاء غير ذلك، ولقد قال الزمخشرى إمام البيان فى ذلك: «يخلدون فيها فى عذاب النار الأبد كله إلا الأوقات التى ينقلون فيها من عذاب النار إلى عذاب الزمهرير، فقد روى أنهم يدخلون واديا فيه من الزمهرير ما يميز بعض أوصالهم من بعض، فيتعاوون ويطلبون الرد إلى الجحيم، أو يكون من قول الموتور الذى ظفر بوتره، ولم يزل يحرق عليه أنيابه، وقد طلب أن ينفس من خناقه؛ أهلكنى الله إن نفست عنك إلا إذا شئت، وقد علم الله أنه لا يريد إلا التشفى منه بأقصى ما يقدر عليه من التعنيف، والتشديد فيكون قوله: إلا إذا شئت من أشد الوعيد، مع تهكمه بالموعد لخروجه فى صورة الاستثناء الذى فيه إطماع».

هذا تخريج حسن فى الثانى لا فى الأول؛ لأن الأول يفيد أن ثمة عقابا بالبرد الشديد.

---

(١) سبق تخريجه.

والذى نراه ما قلناه من قبل، وهو بيان أن العذاب بمشيئته سبحانه، وإنه إن شاء رفعه، ولكن لم يشأ فبقى الخلود على مدلوله.

ولا يقال إن مشيئة الله تعالى فى عدم التخليد تتحقق فى عصاة المسلمين، إذ عقابهم على سيئاتهم وما يفعلوا من خير فلن يكفروه، ويرد هذا أن الكلام فى الكافرين بدليل وصف الخلود، إذ يقول سبحانه خالدين فيها.

ومن الغريب أن ابن القيم الذى ساق الأدلة غير الصحيحة فى أن العذاب غير دائم، قال إن نعيم الجنة دائم، وأنه لا مرية فيه، مع أنه جاء فى سورة «هود» الآية الخاصة بنعيم الجنة والاستثناء بالمشيئة أيضا، فقد قال تعالى: ﴿**وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨)**﴾ [هود].

وقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالى:

﴿**إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ**﴾.

ختم هذه الآية الكريمة بذلك الكلام، وهو يؤيد مشيئة الله المطلقة التى دل عليها الاستثناء ﴿**إِلاَّ مَا شَاءَ**﴾ فإن مشيئة الله تعالى تسير على مقتضى ربوبيته التى ربت الإنسان وأتمت عليه بالنعمة، وحكمته التى تقدر الأمور والأشياء والأشخاص، وأنه ما خلق هذا الوجود عبثا، كما قال تعالى: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥)**﴾ [المؤمنون] وأن تدبيره للوجود بمقتضى علمه الذى أحاط بكل شىء، تعالى الله علوا كبيرا وتنزهت ذاته وعلت حكمته، وسع كل شىء علما.

﴿**وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾.

إن الولاء يُصْلح، ويُفْسِدْ، فإذا كان الولى صالحا صلح به من والاه، وإذا كان فاسدًا أفسد من والاه، وقوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا**﴾ التشبيه فيه هو تشبيه حال الناس فى تأثير بعضهم فى بعض بالفساد، بحال تولى

شـيـاطين الجن أو شـيـاطين الإنس يغـرونهم بـالفـسـاد، ويحـسب أولئك أنهم يستمتـعون، أو يستمتع بعضهم ببعض، وكـلمة (نولى) ما المراد منها أهى الولاية بمعنى السلـطان، ويكون المعنى، وكـذلك نجـعل بعض الظالميـن ولاة على ظالمين مثلهم، فيـفسد الأمر ويضطرب الحال، ويكون الفـساد فى الأرض، بدل الصلاح فيـها، وهذا يفيد أن ظلم الولاة يكون بسـبب ظلم الرعية فـيما بينها، كـما روى «كيفـما تكونوا يولى عليكم»[1] وأن فساد الرعيـة يؤدى إلى ألا يحكمها إلا راع ظالم، فإنهم يتـعاونون على الظلم والعدوان، ولا يتـعاونون على البر والتـقوى، وإن الوالى الظالم يجد العون على ظلمه من الرعيـة نفسها، وهذا منهى عنه بقوله ﷺ: «من أعان ظالما سلط الله تعالى عليه ظالما»[2] وقد رأينا ذلك، وإنه إذا كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، منع ظلم الرعية، ولقد قال النبى ﷺ: «لتأمرُنَّ بالمعروف ولتنهَوُنَّ عن المنكر ولتأخذُنَّ على يدى الظالم، ولتأطُرُنَّه على الحق أطْرا، أو ليضربَنَّ الله قلوب بعضكم ببعض، ثم تدعون فلا يستجاب لكم»[3].

ووجه الشبه فى الظلم بين الراعى والرعية بالتولى بين الجن والإنس، بإغراء الأولين وتلقى الآخرين وأن كليهما ظالم.

هذا إذا فسرنا التوليـة بمعنى السلطان، سلطان الظالم من الحكام على الرعية الظالمة الفاسـدة، ويرشح لهذا المعنى قـوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى بما كانت الرعيـة تكسب من ظلم فى نفسها، وظلم فى معـاملاتها وفساد فـيما بينهم يفسـدون ولا يصلحون، فيـجىء حكام على شاكلتـهم فيتـشاكلون فـيما بينهم، يحكمون بمثل أخلاقهم.

---

(١) جاء فـي كشف الخفـا: ج٢، ص١٨٤ بلفظ: «كـما تكونوا يولى عليكم» وقـال في الأصل رواه الحاكم، ومن طريق الديلمي عن أبي بـكرة مرفوعا، وأخـرجه البيهـقي بلفظ: «يؤمَّر عليكم»، وذكر أيضا أنه رواه الطبراني.

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخه عن ابن مسعود رضي الله عنه، رفعه، وفيه ابن زكريا العدوي. متهم بالوضع. كما في المقاصد. وراجع أيضا: كشف الخفا ج٢، ص٣١٥.

(٣) رواه أبو داود : الملاحم - الأمر والنهي(٤٣٣٦)، كما رواه الترمذي أحمد وابن ماجه بنحوه.

وقد يكون معنى تولية الظالمين بعضهم بعضا، بمعنى الولاء النفسى، والتشاكل الخلقى، فكما أن الإغراء يكون من الجن للإنسان، فكذلك يكون الإغراء بالشر بوسوسة الولى لوليه، كالصديق للصديق، وإن الأولياء الظالمين يسرى بينهم الظلم سريان المرض بين المرضى، فإن السلامة لا تنتقل بالعدوى، ولكن العدوى تنتقل من المرضى، ومثل الظالمين كمثل المرضى يسرى الظلم فيهم، فيتظالمون، ويتبادلون الظلم، ويسرى من بعضهم إلى بعض.

وعندى أن الآية الكريمة تحتمل التخريجين، ولا مانع من الجمع بينهما، والتشابه قائم فى الحالين.

يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾

بعد أن بين الله تعالى أنه سبحانه وتعالى يكشف يوم الحشر استغواء الجن لأوليائهم من الإنس، واستكثارهم من ذلك، وشعور الإنس بأنهم انتفعوا انتفاع متعة لا انتفاع مصلحة، بعد ذلك بين تقصيرهم جميعا، وأنهم مخاطبون جميعا بهذا التقصير، وأنهم خوطبوا جميعا بالرسل، فما استجابوا للحق فقال تعالى:

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾.

(المعشر) الجماعة العامة، يا جماعة الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم... والخطاب للجن والإنس معا، وقدم الجن: لأنهم الذين كان منهم الاستغواء، والإنس استجابوا لاستغوائهم، فهم أساس الشر، إذ هم الذين وسوسوا بالشر، وهم الذين دعوا إليه وأغووا به؛ ولذا قدموا عند اللوم على إهمال دعوة الرسل، أولا، والإنس كان لومهم؛ لأنهم أطاعوهم، فالمُضل منزلته في الضلال أقوى من منزلة من استجاب للتضليل اختيارا، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ فيه استفهام إنكارى لإنكار الوقوع، وفيه معنى التوبيخ والتأكيد، والمعنى قد أتتكم رسل منكم.

والرسل، أَهُمْ من الإنس والجن، أم من الإنس فقط؟ والأكثرون على أنهم من الإنس فقط، أولا- لأن الله تعالى لم يذكر رسلا من الجن قط، ولو كان منهم رسل لذكرهم، وثانيا- لأن إرسال الرسل كان لما صنعه إبليس مع آدم إذ وسوس له أن يأكل من الشجرة، فكان الهبوط، وكانت الهداية بالرسل لقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨)﴾ [البقرة]. وثالثا- أنه جاء النص بأن الرسل ذوو الكتب المنزلة، وجاء على لسان الجن؛ أنهم خوطبوا بما جاءوا به، فقد قال تعالى عنهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٣٢)﴾ [الأحقاف]. ورابعا- أن الله تعالى ذكر الأنبياء وكلهم من الإنس، فذكر أعدادا كبيرة، ثم قال تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ (٧٨)﴾ [غافر]. ولم يذكر ولا بالإشارة أن فى الجن رسلا أرسلهم.

لهذا رجح الأكثرون أو اختاروا أن الرسل ليسوا من الجن، ولكن قال بعض العلماء إنه كان من الجن رسل، أخذها من هذه الآية، وهى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ

﴿يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ فالتعبير يشير إلى أن من الجن رسلا؛ لأن الرسل من الفريقين، ولأن قوله تعالى(منكم) قريب من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)﴾ [التوبة].

وقد أجيب عن ذلك بأن هذا لا يقتضى أن يكون من كل فريق رسول، بل إن الظاهر أن يكون الرسول من جماعة الجن والإنس معا، وبذلك يسوغ أن يكون من أحدهما دون الآخرين ما دام ينطبق عليه أنه من جماعة الإنس والجن فهما جماعة المكلفين، وضربوا لذلك مثلا قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢)﴾ [الرحمن]. فذكر سبحانه أنه يخرج من البحرين اللؤلؤ والمرجان مع أنه لا يخرج من الماء العذب اللؤلؤ والمرجان بل يخرجان فقط من الماء الملح، ولكن عبر عنهما بقوله تعالى (منهما)- لأنه ذكر البحرين، وهو يخرج منهما، وإن كان لا يخرج إلا من أحدهما.

وإن أولئك الرسل، يقصون آيات الله تعالى الدالة على الوحدانية، وأنه قادر على كل شيء؛ ولذا قال تعالى:

﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾. (يقصون) من القصص، أو قص الأثر، والآية الكريمة تحتملهما، والمعنى على الأول، يذكرون لكم آياتى التى جاءت على أيدى الأنبياء السابقين، فكل رسول يتقدم بالآيات التى أجراها الله تعالى على يديه، ويذكر آيات من سبقوه من الرسل السابقين له، فمحمد ﷺ تقدم بالمعجزة الكبرى وهى القرآن، وكان معه آيات أخرى من خوارق العادات، وإن لم يُتحدَّ بها، وذكر الآيات التى جرت على يد عيسى -عليه السلام- من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله تعالى إلى آخر ما جاء فى القرآن الكريم من آياته، وذكر فى القرآن معجزات موسى -عليه السلام- من العصا، وفلق البحر، وانفجار الماء من الأحجار، وغير ذلك من المعجزات الباهرات الدالة على رسالة الله تعالى، وعلى قدرته القاهرة، وآياته الباهرة.

فالأنبياء قصوا آيات الأنبياء، قصوها في مجموعهم، لا في آحادهم، وبذلك كانت الآيات بين يدى الجن والإنس معلومة ظاهرة بينة تدعوهم إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وتنذرهم بلقاء ربهم في ذلك اليوم فلم يتعظوا، ولم يعتبروا، وكان ذلك اللقاء الذى وراءه الحساب والعقاب.

هذا إذا خرَّجنا كلمة ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ على معنى القصص، وإذا خرجناها على معنى قَصٍّ الأثر، أى تتبع الأثر واستدل، يكون المعنى في نظرنا أن الرسل عليهم السلام يتتبعون آيات الله فى الكون، من سماء ذات أبراج، وأرض ذات جبال، وماء ينزل من السماء إلى الأرض فينبت كل شيء، ويكون منه كل شيء حى، ورياح تجرى بإذن الله، وسحاب مسخر بين السماء والأرض، وغير ذلك من آيات الله، قَصَّ رسل الله تلك الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى أولا، وعلى قدرته القاهرة التى تقدر على الإعادة كما قدرت على الإنشاء، وكما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩)﴾ [الأعراف]. وإنه من بعد ذلك كان الإنذار باللقاء، والإنذار باللقاء ليس بذات اللقاء، ولكن بما وراءه من حساب وعقاب، ودخول جهنم والعياذ بالله من نارها وشرها.

هذا ما نراه في معنى القص، ونرى أن الآية تحتمل المعنيين، ولا مانع من الجمع بينهما بأن يكون المعنى ذكر قصص آيات النبيين التى جرت على أيديهم، وتتبع الأنبياء لآيات الله فى الكون الدالة على وحدانيته وكمال قدرته، هذا ما يقوله الله تعالى للجن والإنس فى ذلك المشهد الرهيب، فبماذا يجيبون؟

﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾.

ومعنى (شهدنا) أقررنا، فإن الشهادة تكون بمعنى الإقرار، وبمعنى الإثبات، وبمعنى الحكم، وهى هنا بمعنى الإقرار المبنى على المعاينة والرؤية، فهو إقرار مؤكد بالمعاينة والمشاهدة لا بمجرد الإخبار عن أمر مغيب، وأكدوا الإقرار بأنه على أنفسهم، وهذا الإقرار موضوعه أن الرسل قد أتوا إليهم، وأشارت الآية إلى أنهم شهدوا على أنفسهم بمجىء الأنبياء ولم يؤمنوا بهم، ولم يصدقوهم، وأشار

سبحانه إلى السبب فى عدم صدقهم، فقال تعالت كلماته: ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾، أى غرهم ما فيها من متع، تسلط بها الجن على الإنس فضلوا وأضلوا، ولذا قال سبحانه بعد ذلك عنهم:

﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾.

كانت الشهادة الأولى على أنفسهم بأنهم جاءتهم الرسل، ثم ذكر ما يشير بأنهم لم يؤمنوا بالرسل، إذ غرتهم الحياة الدنيا، فدلاهم بغرورها، (واستجابوا لغواية الأبالسة)؛ ولذا كان تكرار الشهادة والإقرار، وإذا كانت الشهادة الأولى إقرارًا بأن الرسل دعتهم إلى الحق، فالشهادة الثانية إقرار بأنهم دعوا إلى الحق وكفروا به؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ وهى إقرار على أنفسهم بالكفر، وهى شهادة تنطق بها ألسنتهم وجوارحهم وقلوبهم، كما قال تعالى فى آية أخرى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ (٢٤)﴾ [النور].

ولقد اعترض بأنه ذكر أنهم يكونون فى حال فتنة، ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا: والله ربنا ما كنا مشركين، وقد أجيب عن ذلك بجوابين:

أولهما- أنهم كانوا فى اضطراب من هول الموقف، فمرة ينكرون، وذلك بسبب ما فتنوا به، وما أخذت به نفوسهم المضطربة الحائرة.

وثانيهما- أنهم فى حال الإنكار كانوا فى اضطراب، ولم يكن كشف لهم المكتوب عليهم، والمسجل عليهم فى كتابهم فقد كتب عملهم فى سجل، كمن يكون فى حساب وتحقيق فى القضاء فينكر ابتداء، فإذا عرض عليه فعله المسجل اضطر إلى الإقرار؛ لأنه يحس بأنه لا مناص من أن يقر، والله أعلم بما يكون فى يوم القيامة.

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾.

(ذلك) الإشارة إلى إرسال الرسل، وقصهم للبينات، وآيات الله، وذكر يوم القيامة، كل هذا ليكون نذيرا لأهل القرى حتى يهلكهم الله تعالى بظلمهم، وهم

غافلون والقرى المدائن الكبيرة، وقيل: إن الإشارة إلى شهادتهم على أنفسهم بمجيء الرسل، وشهادتهم على أنفسهم بأنهم كفروا بهم، فإذا كان قد ثبت ما ارتكبوا من جرائم وذنوب، ثبت بإقرارهم، فالحجة قد قامت عليهم، فلا ظلم ولا شبه ظلم.

وهنا إشارتان بيانيتان

إحداهما- أن الله تعالى ذكر هلاك القرى، والهلاك نازل على أهلها، ولكنه ذكر القرى، وحذف الأهل للإشارة إلى عمومه وشدته، وأنه لا قبل لهم به.

الثانية- أنه نص على المحذوف في قوله، (وأهلها غافلون)، فكان المحذوف هنالك مذكوراً هنا، ونفى الله تعالى الغفلة عنهم عند نزول الهلاك بهم إذ أنذروا بالرسل والآيات، كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً** (١٥) ﴾ [الإسراء] وكما قال تعالى: ﴿ **وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ** (٢٤) ﴾ [فاطر] وقال تعالى عن أخبار جهنم: ﴿ **كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ** (٨) **قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ** (٩) ﴾ [الملك].

وقد نفى الله تعالى أن يهلك القرى قبل الإنذار؛ بقوله تعالى: ﴿**ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ**﴾ نفى -سبحانه وتعالى- عنه وصف الإهلاك باسم الفاعل من غير إنذار تأكيداً للنفى، ومنعا للظلم.

وقوله تعالى ﴿**ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن**﴾ (أنْ) مخففة من الثقيلة، وهنا ضمير محذوف هو ضمير الشأن، والمعنى أنه ليس من شأن ربك أن يكون مهلكا للقرى.

والظلم المنفى، أهو نفى الظلم عن الله، أى أن الله تعالى لا يهلك القرى وأهلها غافلون ظالما لهم بعدم الإنذار، كقوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ** (٢٩) ﴾ [ق] وكقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا** (٤٤) ﴾ [يونس] أى أن الله سبحانه وتعالى مهلك قرى المشركين، ولكى يكون الهلاك عدلا لا ظلما كان الإنذار.

وهناك تخريج آخر ذكره ابن جرير، وهو الظلم منهم، والمعنى أنه ما كان ربك مهلك القرى بظلمهم وإشراكهم، وهم لم ينبهوا بمنع ذلك الظلم.

وقوله ﴿وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ حال من القرى، والمعنى ما كان الله ليهلكهم حتى ينذروا، ويبين لهم الحق، حتى يهتدوا عن بينة أو يضلوا عن بينة، والله الهادى إلى سواء السبيل.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾.

ولكل من المكلفين درجات فى القيام بما كلفوه من أعمال، فمنهم من يحسن، ويبلغ أقصى درجات التقوى فيكون له فى الجنة على مقدار ما فعل، ومنهم من يفعل دون ذلك فيغفر الله تعالى ما شاء أن يغفر، ورحمته سبحانه وتعالى قد سبقت غضبه وعذابه، فيعطى بمقدار ما عمل، وكذلك العصاة درجات، فمن أطاع الكبراء له عذاب يناسب طاعتهم، أى أن الطاعة لها مراتب، والعصيان له دركات، والمنافقون فى الدرك الأسفل من النار، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٩)﴾ [الأحقاف].

ويكون المعنى على الدرجات فى الخير والشر، وأهل الخير درجات، وأهل الشر دركات متفاوتة، على مقدار شرهم وإن كانوا جميعا منغمرين فيه، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨)﴾ [النحل].

وقد ذكر بعض المفسرين أن هذه الدرجات فى العذاب فقط؛ لأن الآيات فى تهديد الكافرين وإنذارهم لا فى جزاء المؤمنين ودرجاتهم.

وعندى أن الآية فيها تبشير للمؤمنين، وأنهم درجات، وإنذار للكافرين وإنهم فى دركات جهنم طبقات، والآية الكريمة تفيد أن الدرجات مما عملوا أى

مأخوذة من أعمالهم، فإن كانت خيرا فخير، وإن كانت شرا فشر، فهى مشتقة منها، ومن جنسها.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

إن هذه الأعمال يعلمها الله تعالى لا يخفى عليه شىء فى الأرض، ولا فى السماء، فهو جزاء لما يعملون، جزاء من يعلم كل شىء، ولا يخفى عليه شىء، ولذا قال تعالت كلماته: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ عبر سبحانه وتعالى بنفى الغفلة عنه -سبحانه وتعالى- نفيا مؤكدًا، بمؤكدات ثلاثة أولها -التعبير بالجملة الاسمية، وثانيها- دخول (الباء) التى تدل على استغراق النفى. ثالثها- التعبير بـ (ربك)؛ لأن الرب هو الذى ربَّ النفوس والأخلاق فهو أعلم الوجود بها، وأخبرهم بأحوالها، فجزاؤه جزاء من يضع العقاب فى موضعه، والثواب فى مكانه.

وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾

إن الله سبحانه وتعالى أشار إلى أن الكافرين يجحدون، وقد قامت الآيات حجة عليهم تدعوهم إلى الوحدانية، وأنه لا يعبد إلا الله، وثبت أنهم يعاندون، ويردون الآيات، ويكذبون رسل الله سبحانه وتعالى، وقد أوتوا بالبينات من

ربهم، وما من نبى إلا أوتى ما مثله آمن عليه البشر. وفى هذه الآية الكريمة يبين سبحانه وتعالى أن الله غنى عن العباد، فلا يستفيد من عبادتهم إن عبدوه مخلصين، ولا ضير عليه من كفرهم، إن كفروا، ولكن الله تعالى برحمته بهم، يريد لهم الحق، ولا يرضى لعباده الكفر، ولذا قال تعالى:

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾.

(الواو) عاطفة عطفت هذه الجملة على ما قبلها، وصدرها بقوله تعالت كلماته: ﴿وَرَبُّكَ﴾ أى خالقك، ومربيك وقد تولاك بربوبيته كما تولى الوجود كله بربوبيته، وهذا ترشيح لمعنى أن الغنى من لا يحتاج فيكون فى غناء عن غيره، ومن هو قائم على الوجود لا يحتاج لأحد فى الوجود، وقد ذكر سبحانه أنه الغنى وحده، فكل من فى الوجود يحتاج لغيره والله تعالى لا يحتاج إلى أحد، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وقد عرّف الله سبحانه وتعالى الطرفين فى قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ﴾ وتعريف الطرفين يدل على القصر أى لا غنى فى الوجود سواه، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥)﴾ [فاطر].

ووصف الله سبحانه وتعالى بعد تأكيد أنه الغنى وحده، وأن كل من فى الوجود فقراء إليه - بأنه ذو الرحمة أى أنه صاحب الرحمة وحده، و(ذو) بمعنى صاحب، فهو الرحيم رحمة مطلقة بعباده، ورحمة غيره رحمة نسبية، تليق بالمخلوقات، أما الله تعالى فرحمته واسعة، وسعت كل شىء، خلق الكون والناس برحمته، وخلق العقلاء وكفلهم برحمته، وأنزل من السحاب ماء مدرارا برحمته، وخلق من الماء كل شىء حى برحمته، وجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا برحمته، وخلق الموت والحياة برحمته، وخلق البعث والنشور برحمته، وأنشأ السمع والأبصار والأفئدة برحمته.

فإذا كان هو الغنى وحده، فهو الرحمن الرحيم، والقادر على كل شىء؛ ولذا قال تأكيدا لقدرته وفقر العباد إليه.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ﴾.

إن الذين يعاندون الله تعالى، ويحادون رسوله ومن اتبعه من المؤمنين، ويحادون الله بمحادة عباده المؤمنين. الله لا يحاده شيء فى الوجود، فإنه ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ لا تكونون فى الوجود، وذلك بإماتتكم أو إفنائكم ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ﴾ من الخلق، ومعنى (يستخلف) يكون خلفا لكم فى الأرض ما يشاء من عباده، وجاء الكلام للدلالة على العموم، والمعنى أنكم وجدتم بمشيئة الله، ويذهبكم بمشيئته، ويجعل خلفا لكم من يشاء فأنتم فى حياتكم ومماتكم، وحياة من بعدكم ومماته بمشيئته سبحانه، وهذا كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨)﴾ [محمد]. وكما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ... (١٣٣)﴾ [النساء] وقد أقام سبحانه الدليل على الإذهاب والاستخلاف بحالهم هم، فقال تعالى:

﴿كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾.

أى أنتم لستم أول المخلوقين ولا آخرهم، فقد كنتم ذرية لمن سبقوكم، وهم قوم آخرون، وستكون من بعدكم ذرية، وقوله تعالى: ﴿كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ تشبيه لحال الذين يخلفونهم بحالهم، فهو قياس حالهم على حال من يجيئون بعدهم، فإذا كنتم قد نشأتم من ذرية من سبقوكم، فمن يخلفونكم ينشئون من ذريتكم. والخلاصة: الله غنى عنكم، وهو يرحمكم، والوجود يتوالد بعضه من بعض بقدرة الله تعالى والأجيال متعاقبة فإن كنتم جيلا كافرا، سيجىء من بعدكم جيل مؤمن، والله على كل شىء قدير.

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

إن أشد إنكارهم كان فى البعث، وكان هو العجب الغريب عليهم، فقد كانوا يعتقدون أن الله خالق كل شىء، وأنه ليس كمثله شىء، ولكن يعبدون ما يعبدون من الأوثان ليقربوهم إلى الله زلفى فى زعمهم وما كانوا يؤمنون

بالبعث، ولا فى الجزاء بعده، ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٥﴾ [الرعد].

وإن البعث يكون بعده الحشر والحساب، ثم العقاب أو الثواب، وقد ذكرهم الله تعالى بالبعث، بذكر ما يكون فيه مما وعد الله تعالى به، وأوعد، وقد ذكر آخر ما يكون فيه وهو العقاب على كفرهم، والثواب لغيرهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ (ما) هنا اسم موصول بمعنى الذى، وقد حذف الضمير من الصلة، والمعنى إن الذى توعدونه لآت، فأكد سبحانه وتعالى إثبات ذلك الذى أوعدوا به بـ (إنَّ)، وبالجملة الإسمية، وباللام، فى قوله تعالت كلماته ﴿لَآتٍ﴾ وكان الكلام بالبناء للمجهول، لمزيد التهديد بإبهام الوعيد، وعدم ذكره، ليذهب فيه العقل كل مذهب، وبعدم ذكر من أَوْعد وهو معلوم، ليزدادوا خوفا، فيضعفوا عن المقاومة، ويؤمن من كتب الله تعالى الإيمان له، ويستمر فى غيه من كتب الله العقاب له.

وإن الله تعالى قادر على كل شىء فهو قادر على إعادتهم، كما هو قادر على إنزال العقاب بهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ نفى الله تعالى قدرتهم على إعجاز الله تعالى عن الإعادة، فإنه قادر عليها كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝٢٩ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۝٣٠﴾ [الأعراف] وكما قال تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١﴾ [الإسراء].

ونفى سبحانه وتعالى قدرتهم على الامتناع عن عقابه، فهو مالك يوم الدين، وهو المسيطر وحده ﴿... لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝١٦﴾ [غافر].

وهنا فى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ إشارات بيانية:

أولاها- فى النفى المؤكد، فقد أكده بذكرهم وخطابهم، وبذكر الضمير (أنتم)، وباستغراق النفى بذكر (الباء)، وبأن النفى منصب عليهم، أى ليس من شأنهم أن يعجزوا لأنهم ضعفاء، والضعيف لا يعجز أحدا، كما قال تعالى: ﴿... **وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا (٢٨)**﴾ [النساء].

الإشارة الثانية- أنه لم يذكر فى النفى من يعجزونه، فلم يذكر الله تعالى إعلاء لاسمه الكريم عن أن يكون مظنة عجز أو أن يعجزه أحد، إذ إعجازه مستحيل، ونفى أمر هو مستحيل فى ذاته غير سائغ، فى سنة البيان.

الثالثة- نفى عموم الإعجاز من أى نوع هو، ولقد قال ﷺ: «يا بنى آدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى، وما أنتم بمعجزين»(١).

وإنهم يستمرون فى طريقتهم من معاندة محمد ﷺ، وجحودهم وإيذائهم له عليه الصلاة والسلام ولأصحابه الذين اتبعوه مخلصين مسلمين وجوههم لله تعالى، وقد هددهم سبحانه وتعالى بأمر النبى ﷺ لهم أمر تهديد لقوله: ﴿**قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ**﴾.

وقد أمر الله تعالى نبيه الأمين أن يتولى هو القول التهديدى، وهو اعملوا على مكانتكم، والمكانة: الطريقة، أو الأمر الذى مكنوا منه، والأمر هنا للتهديد بالإشارة إلى عاقبة ما يفعلون، كقول النبى ﷺ: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت»(٢)، فالأمر (اصنع) للتهديد بأن يفعل متحملا تبعة ما يفعل ونتيجته، فإن كنتم تزعمون أنكم على حق فاعملوا وسترون العاقبة، وإنى عامل على ما أدعو إليه، وهو الحق الذى لا ريب فيه، ولكل وجهة هو موليها، فكونوا كما تريدون لأنفسكم.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم، وخرجه الحافظ العراقي: الإحياء: ج٤، ص٤٣٧.

(٢) سبق تخريجه.

وإنه فى هذا المقام المهدد المنذر الذى يحملهم الله سوء ما يعملون - يأمر نبيه بأن يناديهم نداء يقربهم ولا يبعدهم ويدنيهم ولا يجافيهم، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ﴾ فأمره تعالى بأن يناديهم بما يربطه بهم، وهو أنهم قومه الذين تربطهم رابطة النسب، فيحب خيرهم، وإنهم إن كذب الناس جميعا لا يكذبهم، فهو يناديهم بنداء المحب الذى لا يعادى ولكن يذكرهم بالحقائق التى لا تقبل مداجاة[1]، ولا مواربة، وكأنه إذ يحملهم تبعة ما يعملون لا يبعد عنهم بل يدنيهم، ليهديهم، فالهادى لا بد أن يكون قريبا من أنفس من يتصدى لهدايتهم، ولقد ذكر من بعد ما يشير إلى العاقبة، وأنهم سيعلمونها علم البيان، فقال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾.

(الفاء) هنا لترتيب ما بعدها على ما قبلها، و(سوف) هنا لتأكيد الوقوع فى المستقبل، أى سوف يعلمون بالعيان لا بالخبر من له عاقبة الدار، و(العاقبة) النهاية التى تعقب ما يسبقها من أسباب تؤدى إليها، و(عاقبة الدار) المراد بها نهاية هذه الدار، وعاقبتها تكون لمن، والدار هنا قد تراد بها مكة وما حولها مما يسيطرون عليه، أو البلاد العربية، أو الدار الدنيوية على العموم.

أى سوف تعلمون من تكون له فى النهاية، وفى عاقبة الأعمال الدار والسلطان، فالمراد من تكون له العاقبة فى الدار والسلطان، وينصره الله تعالى حيث يكون لأهل الحق السلطان.

ويصح أن يراد الآخرة، وعندى أنه يراد الداران، أما الدار الآخرة، فأمرها إلى الله تعالى، وقد أشار سبحانه وتعالى أن النعيم المقيم يكون للمؤمنين، والجحيم يكون للكافرين.

وأما فى الدنيا - وهذه الآيات قد نزلت بمكة - فإنه قد آل أمر البلاد العربية من اليمن إلى حدود الشام إلى المؤمنين فى عصر النبى ﷺ، وصارت الكلمة للمؤمنين، وحقت كلمة الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

---

(١) المداجاة: المداراة. الصحاح (دجى).

ويوم يقوم الأشهاد (٥١) يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار (٥٢) ﴾ [غافر] وقال تعالى: ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز (٢١) ﴾ [المجادلة].

هذه عاقبة الدار فى الدنيا والآخرة، ولقد ختم الله تعالى الآيات بقوله: ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾.

الضمير ضمير الشأن، أى إن الله والشأن وسنة الله تعالى فى خلقه لا يفلح الظالمون، أى لا يفوز الظالمون، والتعبير بالوصف يشير إلى أن الظلم هو سبب الخسران، وإنه وإن بدا الظلم قويًا غالبًا فائزًا فإلى حين، والعاقبة للعادلين المنصفين المقيمين للحق، وللظلم صور شتى: ظلم فى العقيدة، وظلم فى العمل، وظلم فى الحكم وظلم فى المعاملة بين الناس، فإن الظالم لا يفوز فى نهايته، وإن فاز فى بعض الأمور العرضية، والله هو الحكم العدل.

تحريم ما أحل الله

وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن
نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ
ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟
يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ
خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن
مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ
حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ
سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ
قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

إن فساد الاعتقاد يؤدى إلى فساد الأعمال، فحيث فسدت العقيدة، اتجهت النفس تحت تأثير الأوهام إلى مفاسد كثيرة، فالأوهام التى تفسد الاعتقاد تفسد أيضا الحياة، فتحت تأثير أوهام الوثنية أفسدوا حياتهم، فحرموا على أنفسهم بعض ما أحل الله، وقتلوا أولادهم حاسبين أن ذلك يرضى أوثانهم، ونذروا للأوثان بعض الزرع والنعم ولله نصيب، فكما سووا بينها وبين الله فى العبادة، أو زادوهم، فكذلك سووا بينه وبينها فى النذر وتحيفوا فى تنفيذها لله ولم يتحيفوا على الأوثان، ولذا قال تعالى:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾.

(الواو) تصل هذا الكلام بما سبقه من جحودهم وكفرهم وعنادهم بباب آخر من مفاسدهم مترتب على فساد عقيدتهم، وخضوعهم لحكم الأوهام فخضعوا بحكم الأوهام فى الأصنام أيضا، أن جعلوا بهواهم ومن غير دليل من الشرع أو النقل عندهم - جعلوا من الحرث والأنعام وهى الإبل والبقر والغنم، جعلوا نصيبا لله ينفقونها فى الضيافات، وإعانة الفقراء، وجعلوا شيئا آخر أو نصيبا آخر لآلهتهم ينفق لسدنتها وخدمتها، مع أن الجميع ملك لله تعالى، فقالوا: هذا لله، وهذا لشركائنا، أى لآلهتهم، وعبر تعالى عنهم بـ (شركائنا)، أى من جعلناهم شركاء لله تعالى باعتقادنا أو ظننا أو نسبناهم شركاء لله تعالى.

وهنا إشارات بيانية ننبه إليها:

أولاها- أن التعبير بـ(ذرأ) أى خلق متولدا من الحب، وانفلاق النوى، فالله سبحانه وتعالى هو الذى ذرأ النبات، وذرأ الثمار، وعبر عنه تعالى بالحرث، وهو نبت الأرض لإنتاج الزرع وهو سبب عادى لإخراج الزرع من الأرض، فأطلق السبب وأريد المسبب، فأطلق الحرث على كل ما أخرجت الأرض من زروع وثمار.

الثانية- التعبير بقولهم (نصيبا) وهو قدر ذكروه مجهولا، ولم يعرفوه ليتصرفوا فيه بما يشاءون، وهو المالك لكل شىء، فالأصل أن يكون كله لله تعالى، ويعطى بحكم الله لا بحكم الهوى كل ذى حق حقه، فهو مقسم الأرزاق وهو الخالق لكل شىء، ولكنهم يذكرون نصيبا، ويعينونه بأنفسهم، وعلى حسب ما تهوى.

الثالثة- قولهم (هذا لله بزعمهم) التعبير (بزعمهم) فى هذا، والزعم معناه الكذب. أو الظن الذى لا دليل عليه يفيد أمرين:

أولهما- أن ذلك التقسيم فاسد فى ذاته لأنهم لا يملكون تقسيم الأرزاق، بل الذى يملكها؛ لأنه هو بارئها، وهو الله تعالى، ولكنهم يتهجمون على الله، فيقسمون بأهوائهم وأوهامهم، ومع ذلك يغيرون ولا ينفقون بأمر الله فى أوجه البر فيعتدون.

ثانيهما- أن الله تعالى عبر عن أصنامهم بـ (شركائنا) لأنهم لا يقبلون أن يقولوا لأوثاننا أو أصنامنا، والله تعالى والحق لا يقبل أن يقال عنهم آلهة، فعبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ أى للشركاء الذين قلنا إنهم شركاء لله تعالى، وإضافة الشركاء إليهم، لأدنى ملابسة، ولأنهم ابتدعوها، وما أنزل الله بها من سلطان ولكنهم لا ينفذون ما قرروا فلا يعطون لله ما قرروه، بل يطففون، ولكنهم كما قال الله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ﴾.

إنها قسمة ضيزى، فينقصون مما هو لله فى زعمهم، ويزيدون ما هو لشركائهم، فما يكون لشركائهم يخصصون لها شيئًا غير منقوص، وما يكون لله لا يخصصونه له كاملاً، ويقولون الله غنى، وهؤلاء فقراء محتاجون، والله لا يحتاج لشىء، فإذا كان ما خصص للأوثان لا يكفى سدنتها وخدمتها، وما ينفق حولها لا يكفيها أخذوا من نصيب الله ليسدوا كل حاجاتها فى نظرهم، وكله إنفاق فى باطل، لا خير فيه.

وقد روى أنهم كانوا فى الحرث، عندما يخرصون ما ينتج، كل زيادة عما خرصوه يكون للأوثان، ولا يكون لله، وإذا كان الماء الذى يسقى به نصيب أوثانهم قد ذهب إلى حرث الله عدوه حرثا للأوثان، وإذا كان الماء المخصَّص لحرث الله ذهب إلى حرث أوثانهم جعلوا الخارج لأوثانهم، ولوكان قد سقى بماء الله تعالى، وهذا قد روى عن ابن عباس فقد روى عنه رضى الله عنه أنه قال فى تفسير هذه الآية: إن أعداء الله تعالى كانوا إذا حرثوا حرثا أو كانت لهم ثمرة جعلوا لله منها جزءا، وللوثن جزءا، فما كان من حرث أو ثمرة أو شىء من نصيب الأوثان حفظوه، وأحصوه وإن سقط شىء مما سمى للصمد ردوه إلى ما جعلوه للوثن، وإن سبقهم الماء الذى جعلوه للوثن، فسقى شيئا مما جعلوه لله جعلوا ذلك للوثن وإن سقط شىء من الحرث والثمرة التى جعلوها لله فاختلط

بالذى جعلوه للوثن - قالوا هذا فقير، ولم يردوه إلى ما جعلوه لله، وإن سبقهم الماء الذى جعلوه لله فسقى ما سمى للوثن - تركوه للوثن.

تلك إذن قسمة باطلة فى مآلها، وفى أصلها، ولعل الذى جعلهم يفرطون فى حق الله تعالى، أنهم ماديون، يؤمنون بالمادة وحدها، فظنهم فى الوثن ما ظنوا، وهم يرونه ويلمسونه أنساهم الله تعالى فنسوا أنفسهم، فكل شىء يذهب من نصيب الوثن إلى نصيب الله يردونه حرصا عليه، وكل ما يجىء إلى نصيب صنمهم من نصيب الله يحسبون أن الوثن أراده، فيسقطونه، فضلوا بذلك ضلالا بعيدا.

وختم الله تعالى الآية بقوله تعالى:

﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

(ساء) فى معنى التعجب، أى ما أسوأ ما يحكمون به، أى أنه أبلغ الأحكام إساءة، فهو حكم سيىء فى ذاته، وعندى أن الحكم السيىء أشد من الحكم الظالم؛ لأن الحكم الظالم قد يكون فى تطبيقه ظالم، أما الحكم السيىء فإنه فى أصله فاسد، وفى تطبيقه ظالم وفاسد.

﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾.

إن الوثنيين تحكمهم أوهام باطلة يتوهمونها، وتسيطر عليهم أهواء ينسبونها إلى أوثانهم الذى سماهم الله شركاءهم، أى الشركاء التى زعموها شريكة لله تعالى فى عبادته سبحانه.

وكما موهوا عليهم فأرادوا تحت سلطان الوهم أن يجعلوا من الحرث والنسل نصيبا لله، ونصيبا لشركائهم كذلك زيَّن لهم شركاؤهم أى أوثانهم فى أوهامهم قتل أولادهم.

(زينوا) أى حسنوا وجعلوه كأنهم زينة لهم، يتباهون بها، **﴿شُرَكَاؤُهُمْ﴾**، ونقول فى معنى الشركاء: أهم الأوثان أم شياطين الجن الذين تغلغلوا فى

نفوسهم، وشاركوهم فى إرادتهم؟ إن قلنا إنهم شياطن الجن الذين وسوسوا لهم، وزينوا لهم قتل أولادهم. كما زينوا لهم أن يجعلوا لله نصيبا مما ذرأ من الحرث والأنعام، فالآيات تسير من غير تأويل لظاهرها.

وإن قلنا: إن الشركاء هى الأوثان التى جعلوها شركاء لله تعالى فى عبادته فإنها أحجار فكيف تحسن أو تزين، وهى لا تعقل، ولا تتكلم، ولا تضر ولا تنفع، ونقول إن أوهامهم نحوها من أنها تضر وتنفع وأنهم يريدون إرضاءها، وقد توهموا أنها تطالبهم بذلك، فإن هذا يكون هو التزيين، فوهمهم نحوها هو الذى زين لهم قتل أولادهم، وقدم (قتْل) وهو المفعول على الفاعل وهم (شركاؤهم) لأنه أبلغ فى التشنيع، والقتل هو الأمر الذى لا يبرر.

وقال تعالى: ﴿لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ﴾ فعبر سبحانه بقوله: ﴿لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فلم ينسب إلى كلهم، بل نسب سبحانه إلى كثير منهم، وذلك إنصاف القرآن الكريم فى حكاية أفعال العباد، وقتل الأولاد كان عند كثيرين منهم، وقد نص القرآن الكريم من شناعتهم فى ذلك فى الكثير من آياته، ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩)﴾ [النحل].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ (٩)﴾ [التكوير].

وكان بعضهم إذا وصل أبناؤه عددا من الأبناء نذر قتل أحدهم، كما يروى عن عبد المطلب أنه نذر إذا وصل عدد أبنائه إلى عشرة قتل واحدا منهم، فكانت القرعة على عبد الله أبى النبى محمد ﷺ.

وكان منهم من يقتل أولاده من إملاق أو خشيته، كما قال تعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ (١٥١)﴾ [الأنعام] وقال تعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ (٣١)﴾ [الإسراء].

فالذين يدعون إلى منع النسل الآن خشية الإنفاق أو للإملاق يدعون بدعوة الجاهلية لعنهم الله وأخزاهم.

وقد ذكر الله تعالى ما توسوس به الأنفس، والأوهام المسيطرة، ونهاية ما تؤدى إليه فقال سبحانه:

﴿لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾.

(اللام) للتعليل أو ما يسمونها لام كى، وهى مع كونها تعليلا هى بيان نتيجة قتل أولادهم، ذلك أن النتيجة أن يوقعوهم فى الردى هو الهلاك، فمآل قتل الأولاد سواء أكان بالوأد، أم كان بالقتل خشية الفقر، أو للفقر، وقد يكون ذلك بالعمل على منع النسل، بالعزل أو نحوه، مما سماه النبى ﷺ «الوأد الخفى»[1] فإن ذلك يؤدى إلى منع نسل الأمة، ومنع نسل الأمة هلاك لها، وفناء تدريجى لقوتها، فالولد قوة، والعرب يعتزون بكثرة النفر.

وقال تعالى: ﴿وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ أى ليخلطوا دين إسماعيل الذى كان الحنفية كدين أبيه إبراهيم، بأوهام كاذبة، وبذلك يفسدونه، وقد أفسدوه بالشرك، وأفسدوه أيضا أن أدخلوا فيه ما ليس من الدين ولا بأمر من الله ونهيه، كما فعلوا فى جعل نصيب الله تعالى مما ذرأ من الحرث والأنعام، ومن قتل الأولاد، فإن هذا خلط ما ليس بالأصل الدينى، وبذلك ضلوا سواء السبيل.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾

إن الله سبحانه وتعالى قدر لهم الضلالة، إذا ستروها، وتركوا الهداية، وسلكوا سبيلها فاختارها الله تعالى لهم، بعد أن اختاروها لأنفسهم، وإن الله لا يظلم الناس شيئا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون، وإذا كان الله تعالى قد كتب عليهم ذلك، فعن مشيئته صدر فعلهم، ولو شاء ألا يفعلوه ما فعلوه، ولكنه شاء

---

(١) رواه مسلم: النكاح- جواز الغيلة، وكراهة العزل (١٤٤٢). عن عائشة رضي الله عنها. كما رواه الترمذي وأبو داود وأحمد ومالك وابن ماجه.

لهم؛ لأنهم اختاروه. وإذا كان تعالى قد شاءه لهم فقد افتروه، وقد أنذرت، وما عليك جناح إذا استمروا على غيهم فذرهم أى فاتركهم مع ما يفترونه، يرتعون فى غيه، وما أنت إلا نذير.

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾.

هذا كلام موصول بما قبله مما ترتب على العقيدة الفاسدة؛ إذ إنه متى فسدت العقيدة فسد الفكر وضلت الأفهام، فلا يصد عن القلب الذى امتلأ بالعقيدة إلا باطل، وكان أظهر مظاهر بطلان العقيدة الفاسدة ما يتعلق بالحرث والأنعام، فإن فرط أوهامهم فى الأوثان أثر فى حرثهم وأنعامهم، يعطون لها الأكثر ويبقون الأقل.

وقالوا بأفواههم جازمين فى قولهم مشيرين: **﴿هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾**، أى محجورة وممنوعة ليس لأحد أن يأكل منها، فمعنى حجر محجورة ممنوعة، فهى حجر بمعنى محجور كذبح بمعنى مذبوح ونقض بمعنى منقوض، أى أنهم يشيرون إلى ناحية من الزرع والثمار فيمنعونه، وإلى قدر من الأنعام فيمنعونه، وقرروا أن الأصل فيه المنع، حتى يكون منهم الإذن بأخذه لمن شاءوا، ولكن المنع يكون لمن، ولأجل من؟ قالوا: إنه يمنع لأجل الأوثان تكون لخدمتهم وسدانتهم ومن يكون حولهم، ومن بقى ينفق منهم على من نريد، ويرون أنه ينتفع منه رجالهم دون نسائهم.

ومهما يكن فإنهم يقررون أنه ممنوع لا يقربه أحد إلا من يشاءون، وهذا مؤدى ما قال الله عنهم: **﴿لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ﴾**.

وهنا عبارتان نقف عندهما قليلا.

أولاهما- **﴿لاَّ يَطْعَمُهَا﴾** أى لا ينال منه أى قدر، ولو بالذوق، إلا من نشاء.

الثانية- **﴿بِزَعْمِهِمْ﴾** فإنه بزعمهم أى بافترائهم وظنهم، وهى تدل على أن المنع كان على زعم فاسد منهم، لا على حق اعتمدوا عليه، ويدل أيضا على أن

إطعامهم من يشاءون مبنى على زعم باطل كاختيار الرجال على النساء، وكاختيار خدام الأوثان على غيرهم.

وقد ندد الله تعالى بهذا العمل فى قوله تعالى: ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ** (٥٩) ﴾ [يونس].

وإنهم لضلالهم مع علمهم بأن الله تعالى خالق كل شىء وأنه ليس كمثله شىء ما يتخذونه حلالا من طعامهم لا يذكرون اسم الله تعالى، فهم آثمون فيما يحرمون، وآثمون فى تناول ما أحل الله تعالى، ولذا قال تعالى:

﴿ **وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ** ﴾ كما حرموا على أنفسهم بعض الحرث والنسل؛ حرموا ركوب بعض الحيوان، ولا يذكرون اسم الله تعالى فى الأنعام التى يأكلونها، فمن الأنعام التى حرموا ظهورها، أى لا تركب مهما كانت الحاجة إلى ركوبها ولو كان هناك من يريد ركوبها يعنى قد انقطع، ولا يستطيع: البحيرة والحام، فالبحيرة هى التى نتجت منها خمسة أبطن، وكان آخرها ذكرا،فإنها تبحر أى تشق أذنها، وأعفوا ظهرها من الركوب والحمل، وذاتها من الذبح، ولا ترد عن ماء، ولا تمنع من مرعى.

والحام هو الفحل من الإبل يضرب عشرا ونتج، فإذا بلغ ذلك قالوا هذا حام، أى حمى ظهره من الركوب، وقد بينا هذه فى سورة المائدة فى ربع (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما). عند تفسير قوله تعالى: ﴿ **مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ** (١٠٣) ﴾ [المائدة].

يحرمون هذا بأوهام سيطرت على أفهامهم، ويقولون هذا من عند الله، وما هو من عند الله أن هذا افتراء افتروه فارتكبوا إثمين؛ إثم تحريم ما أحل الله من الأنعام أكلا وحملا، وإثم افترائهم على الله تعالى بإسناد التحريم إليه، فضلوا ضلالا بعيدا.

وإذا تناولوا ما أحل الله تعالى ارتكبوا إثما من نوع آخر، وهو ألا يذكروا اسم الله تعالى عليها، وهو الذى خلقها وأحلها، وأنعم بها؛ وإنهم إذ لا يذكرون اسم الله تعالى يذكرون أسماء الأوثان، وكان كل ذلك افتراء على الله تعالى، ولذا ختم الله تعالى الآية بقوله تعالى فى كلامه العظيم:

﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

أى أن الله تعالى سيجزيهم أشد الجزاء، و(السين) لتأكيد الوقوع فى المستقبل، وسيكون جزاء وفاقا بسبب ما كانوا يفترونه، أى يقصدون الكذب فيه، فقد افتروا على الله وأشركوا، وافتروا على الله تعالى وأحلوا ما حرم الله تعالى ونسبوا التحريم إليه، فكان ذلك بهتانا وإثما مبينا.

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾.

الكلام موصول فى بيان ما حرموه على أنفسهم أو بعضهم من الأنعام، وما فى بطون هذه الأنعام هى من الإناث؛ لأن الذكور لا يكون فى بطونها شىء يناله الرجال دون النساء، وما فى بطونها الذى يحرم على النساء ويباح للرجال خالصة قيل هو اللبن، وقيل هو الحمل، وأرى أنه يشمل الأمرين، وإن كان قوله تعالى: **﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً﴾** أى إن تجىء به فهم فيه شركاء أى يشترك الذكر والأنثى، يرجح أو يقرب أن المراد الأجنة فى الظاهر، ولكنه لا يمنع أن يكون ما فى البطون يشمل الألبان والأجنة معا، وخصت الأجنة بأنها إن نزلت ميتة اشتركوا فيها جميعا.

والإشارة فى قوله تعالى: **﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾** إشارة إلى نوع معين من إناث الأنعام، وقد قال مفسرو السلف إنها البحيرة والسائبة التى لا ترد عن حوض ماء ولا مرعى، إذا ولدت خمسة أبطن، فإن هذه يكون لبنها، وما فى بطنها من حمل للذكور دون الإناث إن نزل حيا وإن نزل ميتا فهم فيه شركاء بمعنى اشترك فيه الذكور والإناث.

وروى أن لبن الوصيلة والسائبة كان الرجال يشربونه والنساء لا يأخذن منه شيئا، والوصيلة والسائبة لا يذبحان بل تتركان حتى تموتا، فإذا ماتت إحداهما أكل منه الرجال والنساء.

وإنه يجب إن ننبه هنا إلى أنهم فى هذا الإفك الذى يأفكونه يجعلون للمرأة من الطعام الشىء الذى يعاف، ويجعلون للرجل الطيب من الطعام، ولا يحرمونه مما يخص النساء.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ﴾ (التاء) لتأكيد الوصف بالخلوص، فهى تاء للمبالغة، كالتاء فى علامة ونسَّابة، وليست تاء التأنيث؛ لأنها خبر لما فى البطون، وبدليل ما بعدها، وهو محرم على أزواجنا، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء.

هذا ضلال جاءهم من أوهامهم فى أوثانهم وفساد اعتقادهم؛ فإن فساد الاعتقاد يجعل العقل عشا للأوهام وتضل به الأفهام، وقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالت حكمته:

﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ الوصف الذى جعل سببا للجزاء، هو الظلم الذى افتروه فى جعل بعض الحرث والنعم لله، والطغيان فى نصيب الله تعالى وقتل الأولاد من كثير منهم، وتحريمهم بعض الحرث والنسل إلا من يريدون أن يطعموه، وفى الغالب يحبسونه لأوثانهم إلا من يكون فيما حولهم، هذا هو الوصف، وطغوا فى الظلم فى ذاته، وشرك فى الباعث عليه، وظلم لأنفسهم، وإن قوله تعالى: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ قالوا: إن معناه سيجزيهم بوصفهم، فوصفهم منصوب على نزع الخافض وكان حذف (الباء) فيه بيان أن الجزاء، هو على قدر هذا الوصف، وهو الظلم المبين الذى لا يمكن إلا أن يكون من الشرك وما حوله.

وختم الله تعالى الآية بقوله تعالت حكمته: ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أى أن ذلك الجزاء الحكيم هو من وصفين لله تعالى وهو أنه (حكيم عليم) يضع الأمور

بمقتضى حكمته وإرادته، وبمقتضى علمه الذى أحاط بكل شىء، وأنه يعلم ما يخرصون، وما تجيش به نفوسهم، وما تنبعث منه أفعالهم، وهو السميع العليم.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

هذا حكم الله تعالى فيهم فى الدنيا والآخرة، فقد خسروا أنفسهم وأولادهم وأموالهم فى الدنيا، ونالوا العذاب الدائم فى الآخرة بافترائهم على الله بزعمهم أن ذلك بأمر من الله، أو رضا منه، والافتراء على الله تعالى عاقبته عذاب أليم، وقوله تعالى: ﴿سَفَهًا﴾ أى بخفة عقول وجهل، ولا علم ولا سبب للعلم.

وأى سفه وخفة عقل وعدم تفكير أقبح من أن يقتلوا أولادهم من إملاق أو خشية إملاق، وفى الوقت نفسه يحرمون بعض أموالهم على أنفسهم، كتحريمهم البحيرة والسائبة والحام والوصيلة، إنه جهل مبين، وعقل سفيه، لا إدراك فيه، وينسبون ذلك إلى الله من غير علم.

إن الخسارة فى الدنيا واضحة، خسروا أولادهم الذين هم فلذات أكبادهم بوأدهم أو قتلهم من إملاق أو خشية إملاق، وخسروا أموالهم التى حرموها على أنفسهم بأوهامهم، وأنفقوها إسرافا وبدارا على خدمة أوثانهم، وخسروا إيمانهم، إذ أشركوا بالله وافتروا، وأنهم حرموا بالوهم الفاسد، وزعموا أن ذلك تحريم من الله تعالى، وخسروا الحق فى ذاته، وأثموا إثما عظيما، مع قتل الأولاد.

﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ هذا هو الأمر الثانى الذى خسروه، أو كان فيه خسرانهم، بأن رزقهم رزقا، فجعلوا منه حراما، فخسروا ولم ينتفعوا بنعمة الله التى أنعمها، وافتروا على الله، فقالوا بزعمهم الكاذب: إن الله تعالى هو الذى حرمها، وبذلك حكموا أوهامهم فخسروا عقولهم، وسيطرت عليهم أوهام بثها فيهم الشياطين فهم فى تحريم ما رزقهم ارتكبوا إثمين: إثم التحريم، وإثم نسبته إلى الله تعالى افتراء عليه، ولذلك كان الخسران فى الدنيا، والعقاب فى الآخرة، والضلال المبين، ولذا قال تعالى:

﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

حكم الله تعالى عليهم حكمين وأكدهما: أولهما- الحكم عليهم بأنهم وقعوا في الضلال والبعد عن الحقيقة، وقد أكد الضلال بقد، لأن قد تكون في القرآن للتحقيق، سواء أدخلت على الماضي أم على المضارع فلا يكاد في القرآن استعمالها إلا للتحقيق، فلا تكون للتقريب، ولا تكون للتكثير أو التقليل.

فالله قد أكد ضلالهم، وأي ضلال أشد من أن يقتلوا أولادهم للإملاق، وفي الوقت نفسه يمنعون ما رزقهم فيقعون في الإملاق.

الحكم الثاني أنه سبحانه حكم بأنهم ما كانوا مهتدين، فبين في الحكم ضلالهم وبين في الحكم أنه ليس من شأنهم أن يهتدوا، ولذلك نفى وصف الاعتداء، وأكد ذلك النفي بالجملة الإسمية، وبنفي الوصف عنهم.

ونقول هنا إننا بينا أن الخسران في الدنيا والآخرة، وهو في الدنيا واضح بين، وفي الآخرة مؤكد، وقد رأينا بعض المفسرين يقولون إن الخسارة هي في الآخرة لا في الدنيا، واستدل بقوله تعالى في سورة يونس: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)﴾ [يونس].

ولكنا لا نراها تدل على أن الخسارة في الآخرة فقط، وفوق ذلك إن الآية السامية التي نتكلم في معناها السامي، قد شملت قتل الأولاد وتحريم ما رزق الله تعالى افتراء، أما هذه الآية التي ساقها المفسر الفاضل فإنها في اتخاذ الولد ونسبته إلى الله بدليل الآية التي قبلها، إذ يقول الله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ (٦٩)﴾ [يونس]. إلى آخر الآية الكريمة.. فكان بمقتضى النسق البياني للقرآن أن يكون العقاب الأخروي. أما في الآية التي نتكلم في معناها فواضح أنهم خسروا في الدنيا بقتل أولادهم سفها بغير علم، وتحريم ما أحل الله تعالى وافتراءً على الله تعالى.

وإنه من أقبح ما يتصور الإنسان من سفه الأحلام قتل أولادهم، وخصوصا وأد البنات، إنهم خسروا بذلك خسرانا مبينا.

وقد جاء فى تفسير القرطبى: روى أن رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ، كان لا يزال مغتما بين يدى رسول لله، فقال له رسول الله ﷺ: ما لك تكون محزونا، فقال يا رسول الله: إنى أذنبت ذنبا فى الجاهلية، فأخاف ألا يغفره الله، وإن أسلمت، فقال ﷺ: أخبرنى عن ذنبك، قال: يا رسول الله إنى كنت من الذين يقتلون بناتهم، فولدت لى بنت فتشفعت إلىَّ امرأتى أن أتركها، فتركتها، حتى كبرت وأدركت، وصارت من أجمل النساء، فخطبوها، فدخلتنى الحمية، ولم يحتمل قلبى أن أزوجها أو أتركها فى البيت بغير زوج، فقلت للمرأة: إنى أريد أن أذهب إلى قبيلة كذا فى زيارة أقربائى، فابعثيها معى، فسرَّت بذلك، وزينتها بالثياب والحلى، وأخذت علىَّ المواثيق بألا أخونها، فذهبت إلى رأس بئر، فنظرت فى البئر ففطنت الجارية أنى أريد أن ألقيها فى البئر، فالتزمتنى، وجعلت تبكى وتقول: يا أبت أيْش تريد أن تفعل بى، فرحمتها، ثم نظرت فى البئر فدخلت علىَّ الحمية، ثم التزمتنى وجعلت تقول: يا أبت لا تضيع أمانة أمى فجعلت مرة أنظر فى البئر، ومرة أنظر إليها أرحمها، حتى غلبنى الشيطان، فأخذتها وألقيتها فى البئر معكوسة، وهى تنادى فى البئر: يا أبت قتلتنى، فكنت هناك حتى انقطع صوتها، فرجعت، فبكى رسول الله ﷺ، وأصحابه وقال: «إن الله لرءوف، لو أمرت أن أعاقب أحدا بما كان فى الجاهلية لعاقبتك»(١).

هذه قصة مثيرة، ولا بد أنها كانت تقع من الجاهليين، سواء أصحت هذه الرواية بالذات أم لم تصح، فكيف لا تكون الخسارة فى الدنيا بهذا الطيش الجاهل، رحم الله أمثال هذه الفتيات.

---

(١) ذكره القرطبي في التفسير: ج٤، ص٢٥٣٣ - طبعة الشعب. ورواه الدارمي في سننه: المقدمة - ما كان عليه الناس قبل مبعث النبي ﷺ (٢).

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾
وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾

ذكر الله تعالى أحوال أولئك الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم، وحرموا على أنفسهم ما رزقهم الله من بهيمة الأنعام ونسبوا التحريم إلى الله تعالى افتراء، ثم ذكر سبحانه من بعد ذلك بطلان التحريم من خلق الله تعالى للنبات والنعم، مع ذكر نعمته فى النبات والأشجار مما كان يدعوهم إلى التوحيد، والإيمان بالله وحده بدل أن يشركوا به، ويفتروا على الله بأوهامهم، فقال تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾.

الضمير يعود على الذات العلية، و(أنشأ) معناها خلق، وعبر هنا سبحانه وتعالى بكلمة (أنشأ) لبيان أنهم لم ينشئوها؛ فإن إشراف أصحابها عليها يجعلهم يتوهمون أنها نشأت بفعلهم، وإشرافهم فهم الذين غرسوا غرسها، وهم الذين بذروا حبها، وهم الذين حرثوا أرضها، وهم الذين رعوها وسقوها وأبرأوها، وسمدوها إلى غير ذلك. فنبههم الله سبحانه وتعالى أنه الذى أنشأها، ونماها، وأنزل لها الماء الذى يحييها، فإن الماء يسير من جذورها، ويعلو بقدرة الله، ثم

ينحدر وينزل، حتى يصل إلى أعلاها، فتكون غصون الأشجار، وأوراق الزروع والثمار، وترى فيها ريِّق الماء، إذا سقيت، وما ذلك إلا بتصريف الحكيم.

إن الذى أنشأ الأشجار، وأنشأ الزروع والثمار هو الله تعالى، فما كانت الأرض لتخرج الغرس وحدها، ولتخرج الزروع والثمار وحدها، وإنما يخرجها الله تعالى فهو الله تعالى الذى ينشئها.

وقوله تعالى: ﴿مَّعْرُوشَاتٍ﴾، أى لها ما يشبه العرش يقام على سيقان، كما فى الكروم التى تقام على سيقان من الخشب، وأحيانا شبه العروش من غير ما يقام عليه إلا جذور الأشجار، كأشجار البرتقال وغيره مما يشبهه، فإنك إذ تراها متلاحمة تكون كالمعروشات القائمة على العروش، وغير المعرشات، كالأشجار التى تعلو وحدها.

﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾.

خص هذه بالذكر، لما لها من أهمية فى حاجة الناس، فالنخل قوت وفاكهة، والزرع فيه غذاء الإنسان والحيوان، والحيوان فيه غذاء الإنسان، وكل هذه من نعم الله تعالى ما أنشأناها، ولكن أنشأها خالق هذا الوجود فهو الذى يتولاها فى نموها من حبة فلقها، أو نواة شقها، إلى أن تصير نباتا غلظ سوقه، أو نخلة عالية، والزيتون والرمان متشابها فى ورقه، فورق الرمان كورق الزيتون يتشابهان، ولكن ثمرتهما مع التشابه فى الورق والأغصان لا تتشابهان.

وقوله تعالى ﴿مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ﴾، الأكل الطَعْم، وتناوله، فهو مختلف فى ذوقه وإن تشابه نموه، وعناصر الأرض التى يتغذى منها، والأسمدة التى تنميه واحدة.

وإن هذا التنويع فى التكوين وإشباع الحاجات الإنسانية يدل على فاعل مختار فعال لما يريد، ولنستعرض فى هذا المقام كلمات كتبها القرطبى فى تفسيره، فقد قال رحمه الله تعالى:

وفى هذه الآية أدلة ثلاثة أحدها- أن التغيرات لا بد لها من مغير. الثانى- على المنة سبحانه وتعالى علينا، فلو شاء إذ خلقنا ألا يخلق لنا غذاء، وإذا خلقه ألا يكون جميل المنظر طيب الطعم، وإذا خلقه كذلك ألا يكون سهل الجنى، فلم يكن أن يفعل ذلك ابتداء؛ لأنه لا يجب عليه شىء. الثالث- على القدرة فى أن يكون الماء الذى من شأنه الرسوب يصعد بقدرة الواحد علام الغيوب من أسافل الشجرة إلى أعاليها، حتى إذا انتهى إلى آخرها أنشأ فيها أوراقا ليست من جنسها، وثم خارج، من صفته الجرم الوافر، واللون الزاهر، والجنى الجديد، والطعم اللذيذ، فأين الطبائع وأجناسها، وأين الفلاسفة وأناسها، هل فى قدرة الطبيعة أن تتقن هذا الإتقان، أو ترتب هذا الترتيب العجيب، فلا يتم ذلك فى العقول إلا لحى عالم قدير مريد، فسبحان من له فى كل شىء آية، ونهاية.

وإن هذا الكلام كما ترى يتجه إلى أمرين هما أساس التوحيد: أولهما- أن الله تعالى خلق كل شىء بإرادته المختارة، وثانيهما- أنه قائم على هذا الوجود، وأنه وحده الذى يَرُبّهُ، ويدبر أمره، وهو الحى القيوم الذى لا يماثله أحد فيه، ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فسبحان الله رب العرش عمَّا يصفون.

﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾.

قوله تعالى: **﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾** الأمر فيه للإباحة؛ لأن الأكل من جنس الثمر ليس بواجب، ولكنه مباح، وقوله تعالى: **﴿إِذَا أَثْمَرَ﴾**، إشارة إلى وقت الإباحة، فهو إباحة وإرشاد بألا يأكل قبل أوان الإثمار فإن ذلك قد يضر ولا ينفع؛ لأن الفج من الثمار يضر الأجسام ولا يفيدها، فوق ذلك أنه إتلاف لا فائدة فيه.

﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ أهو الأمر فيه للندب أم للوجوب، ومن المؤكد أنه ليس للإباحة؛ لأن التعبير بحقه، يفيد أن الإيتاء لصاحب الحق، والإيتاء لصاحب الحق فى المال لا يمكن أن يكون مخيرا فيه بين الإعطاء والمنع، وقد اختلف الفقهاء؛ أهو واجب فتكون زكاة المال قد ثبتت قبل الهجرة، مع أن الثابت أن

الزكاة فرضت بعد الهجرة فى السنة الثانية، كذلك قال بعض الفقهاء، أو زعموا أن الآية مدنية.

والحق أن هذا الحق فى المال ثبت فى مكة، ولكن لم تشرع الزكاة التى تعد فريضة، ومصارفها التى جمعها ولى الأمر إلا فى المدينة، حيث قامت الدولة الإسلامية التى تجمعها، أما فى مكة حيث ثبت الإسلام ثبتت الصدقات حقا للفقراء والمساكين والسائل والمحروم، فلقد قال تعالى فى سورة المعارج وهى مكية وصفا للمؤمنين ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلاَّ الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦)﴾ [المعارج]. فالصدقات كانت مفروضة فى الأموال، وخصوصا فى الزروع والثمار، وإن كان ولى الأمر لا يجمعها، لأنه لم يكن للمؤمنين دولة تجمعها، إذ كانوا مستضعفين فى الأرض، فلما كانت السنة الثانية بعد الهجرة نظمت وعمت الأموال التى يكون لها نماء بالفعل أو القوة، وإن حق الفقراء فى الزروع والثمار كان معروفا قبل الهجرة، ونظم الجمع، وعمم بعدها.

واقرأ ما جاء فى قول الله تبارك وتعالى فى ابتلاء أهل حديقة: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَن لاَّ يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢)﴾ [القلم].

إن هذه الآيات الكريمة تدل على أنه قبل الهجرة كان المؤمنون يشعرون بأن فى الزرع والثمار حقا للسائل والمحروم كانوا يشعرون بذلك مؤمنين بهذا الحق.

وإن الآية الكريمة تدل على هذا وتدعو إليه، وتحث عليه، وهذا الحق كان المؤمنون يقومون به ويؤدونه من غير أن يجمعه حاكم، ولا يتولاه ولى للصدقات؛ لأنه لم تكن الدولة الإسلامية هى المهيمنة فى مكة، فلما كانت الهجرة فى السنة الثانية وجد نظام جمع الزكاة، ونظام صرفها، وتولت الدولة جمعها وصرفها.

ولذا نقول إن الآية مكية، ولا نسخ فيها بعموم ولا خصوص، وحكمها داخل فى فرضية الزكاة الذى ثبت فى المدينة تنظيمه، ولذا نرجح أن الأمر هنا للوجوب.

وقوله تعالى: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ أى يوم صرمه وقطعه، وسماه الله تعالى حق الزرع فقال (حقه) أى الحق الواجب فيه، فالصدقة حق المال، وواجب فيه أى أن المال ينتفع منها، فهى تزكيه وتنميه وتطهره، وهى أيضا حق السائل والمحروم، فهى حق الفقير لتسد حاجته، وحق المال لتطهره وتنميه، ويكون طيبا.

﴿وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾.

هذا عطف على قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ فالعطف على إباحة أكل الثمار، فهو إذ أباح أكل الثمار وأمر بإعطاء حق المال يوم قطعه، لقد نهى عن الإسراف، والإسراف معناه الإنفاق فى غير موضعه أو الأكل من غير حاجة، كقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١)﴾ [الأعراف] وإن النهى عن الإسراف ظاهر فى أنه منع من الإسراف فى الأكل فى الثمر، إذا أثمر، بأن يأكلوا فوق طاقتهم، أو أن يبيعوه وينفقوا ثمنه إسرافا وبدارا، أو أن يوزعوه على من يستحق ومن لا يستحق، أو إعطاء الكثير لمن يستحق القليل، وبعض المفسرين يعمم النهى عن الإسراف، فيمنعه على من يأكل الثمار إذا أثمرت، وعلى إيتائه حقه يوم حصاده، ومن الإسراف فى ذلك أن يدع قرابته فقراء ويعطى غيرهم، فابدأ بنفسك ثم بمن تعول، وقالوا: إن النهى عن الإسراف

يشمل الولاة الذين يجمعون الصدقات، ويأخذون أكثر من حق الله فيه، ولقد روى أن النبى ﷺ قال: «المعتدى فى الصدقة كمانعها»[١].

وقد ختم الله النهى عن الإسراف ببيان سببه، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ أى النهى سببه أن الله جل جلاله لا يحبه، فيغضب الله تعالى ممن يسرف بمجاوزة حق الإنفاق، وبوضع المال فى غير موضعه، وبأخذ الصدقات مسرفا فى الأخذ؛ لأنها إذا أخذ منها أكثر من حقها، فهو كمانعها، والله رءوف رحيم.

﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾.

(الواو) عاطفة على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ أى: وأنشأ لكم من الأنعام حمولة وفرشا وطعاما ولحما طريا، فهى ذكر لآلاء الله تعالى ونعمه فى خلقه إذ هيأ لهم أسباب الهناء التى أحل فيها طيباته ومكنكم منها.

و (الأنعام) جمع نعم، وهى الإبل والبقر والغنم، وما شاكلها مما يؤكل، وينتفع به الإنسان، وجعل الله تعالى منه (حمولة)، وهى ما يحمل عليها، و(فرشا) وهى ما يذبح بأن يفرش ويذبح، وما يتخذ من أصوافها وأوبارها وأشعارها فرشا، وهذه تشمل النعم التى تذبح، والغنم والعجول التى لا تبلغ القدرة على حمل الأشياء، بل تذبح ويؤكل لحمها، وتسمى العجول، والغنم فَرْشا؛ لأنه يفرش ويذبح كما ذكر، ولأنها قريبة من الأرض، وقد جعلها الله فراشا، وقد قال تعالى فى ذلك: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [يس]. ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا

---

(١) رواه الترمذي: الزكاة - ما جاء في المعتدي في الصدقة (٦٤٦)، وابن ماجه: الزكاة - ماجاء في عمال الصدقة (١٨٠٨)، ورواه أبو داود: الزكاة (١٥٨٥) بلفظ: «المعتدي المتعدي في الزكاة...». عن أنس بن مالك.

لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [النحل]. وهكذا كانت آيات الله تعالى تتلى، مبينة نعمة الله فى الأنعام يتخذ منها حمولة، ومنها فرش يذبح، ومنها فرش يفرش من أصوافها وأوبارها وأشعارها متاعا إلى حين انتهاء الدنيا.

ولأن الفرش منها الغنم، ونسل الأنعام الذى يذبح، قال تعالى بعد ذلك: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾.

والمعنى إذا كان الله تعالى قد خلقها فرَشا يذبح، فكلوا منه، لأنه رزق الله، ورزق الله تعالى يُقبل لأنه عطية الله، ويُشكر عليه، فلا تجعلوا مما رزقكم الله حلالا وحراما كما يفعل الذين يتبعون خطوات الشيطان، والأمر هنا للإباحة، والترغيب فى تناول الحلال، وقد قلنا إن أوامر الإباحة تكون فيها الإباحة بالجزء وهى مطلوبة بالكل، فليس للإنسان أن يمتنع عن المباحات، ويترك تناولها، ولا يتركها كلها.

وقد كان بعض العرب يتصدقون بأكثر ما ينتج غرسه، فنهى الله تعالى عن الإسراف وقال: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾.

﴿وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

الخطوات ما بين الأقدام، والمراد النهى عما يوسوس به الشيطان، وتجنبه بألا يسير سيره الذى يزين به الشر، وفى الكلام مجاز مشهور، والمجاز المشهور تنسى فيه العلاقة والقرائن، وكأنه حقيقة، ومؤدى المجاز تشبيه من يطيع الشيطان فيما يوسوس بالسائر وراء إنسان يتبعه خطوة خطوة، لا يحيد عن طريقه، ولا يترك طريق الشر الذى يسير فيه. وقد علل سبحانه وتعالى النهى بأنه عدو بيِّن العداوة وبيانها ببيان آثارها ونتائجها، وليس معنى (مبين) أنه بيِّن واضح عند السير وراءه، إنما هو بين فى نتائجه وغوايته.

واتباع خطواته هو ما كان عليه الجاهليون فيما رزقهم الله تعالى فحرموا بعضه، بغير ما حرم الله، حرموا السائبة والوصيلة والحام بغير ما أنزل الله،

وجعلوا لله نصيبا مما خلق، وللشيطان نصيبا فى الأوثان التى زينها لهم، وزين لهم قتل أولادهم، وزين لهم أكل الميتة، وما ذبح على النصب، وما أهل لغير الله تعالى به، وهو فسق، وخروج عن طاعة الله الذى يلجأون إليه فى الشدة، والبأساء والضراء.

ولقد أخذ سبحانه وتعالى يبين ضلالهم فيما يحرمون على أنفسهم بوسوسة الشيطان، وينقض زعمهم فقال:

ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾

نهى الله تعالى بالنسبه لما رزق الله تعالى - المكلفين أن يتبعوا خطوات الشيطان، وما يزينه للذين يفتحون قلوبهم لوسوسته، وآذانهم لسماع دعاته وأتباعه، وقد زين لهم أن يحرموا بعض الثمرات والزروع ويجعلوا جزءا لله، وجزءا لأوثانهم، وتطيش فيعتدون على ما جعلوه لله، ويحمون ما جعلوه لأوثانهم وحرموا بعض الأنعام، حرموا الوصيلة والسائبة والحام والبحيرة، وقد بينا ما يريدون من هذه الألفاظ من مسميات فى موضعها فى سورة المائدة فى ربع

(جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس) عند الكلام فى معنى قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ ... (١٠٣)﴾ [المائدة] وفى هذه الآية وما بعدها يبين الله تعالى أنه لا سند من عقل ولا نقل جعل بعض هذه الأنعام محرما، فقال تعالى:

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ﴾.

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ عطف على ﴿أَنشَأَ﴾، أو مفعول لفعل محذوف، وإذا كان التأويل فهى منصوبة، والأزواج جمع زوج، والزوج يطلق على كل فرد يقابله فرد آخر، ويقال لكل واحد منهما زوج، ويقال لمجموعهما زوج، وعدّ الله تعالت كلماته، ثمانية: اثنان من الضأن ذكر وأنثى، واثنان من الماعز ذكر وأنثى، واثنان من الإبل، فحل، وناقة، واثنان من البقر ثور وبقرة، والضأن ذكره كبش، وأنثاه نعجة، والماعز ذكره تيْس أو جدى، وأنثاه معزة.

فهذه هى ثمانية أزواج عدا، وقد سلك القرآن فى احتجاجه عليهم مسلك الجمع والإفراد، فبين أن التحريم فى الرزق يكون لخبث فى ذاته اقتضى تحريمه، وأن التحريم يكون من الله تعالى مانح الأرزاق والوجود، وقد ادعوا تحريمهم لما حرموا بوسوسة الشيطان أنه من الله تعالى، متتبعا تحريمهم، فقال تعالى: ﴿آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ﴾ أى كل زوج من المحرمات حرم الذكرين منها كالكبش والجدى فتحرم الذكور كلها، ولكنكم لم تحرموها كلها، بل خصصتم بعضها ﴿أَمِ الأُنثَيَيْنِ﴾ منها فحرم النعجة والمعزة، وكان يجب أن تحرم كل الإناث، ولكنكم حرمتم بعضها، وتركتم الآخر، وعلى ذلك لا يكون التحريم بسبب فى ذاتها أو ما اشتملت أرحام الأنثيين أى المواليد ذكورا وإناثا فيحرم الجميع، ولكن خصصتم فلا يكون سببه التحريم لذاتها، ولا بسبب من النقل، فبينوا ما اعتمدتم عليه من العلم إن كنتم صادقين؛ ولذا قال تعالى:

﴿نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وإنه بعد البيان الصادق الذى ذكر أولا، يكون قوله تعالى: ﴿نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ﴾ من قبيل التهكم بهم؛ إذ لا دليل عندهم، وطلبه بعد بطلان وجوده تهكم به أو تعجيز لهم، والعجز عن إقامة الدليل فى وقت الاحتجاج تسليم بالمدعى بحكم المنطق المستقيم والتفكير القويم.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ التعليق بـ (إنْ) فيه إشارة إلى أنهم لا صدق عندهم وأنهم يفترون على الله تعالى فيما يدعون، وقوله تعالى: ﴿نَبِّئُونِى﴾ النبأ الخبر العظيم، وهذا عظيم فى زعمهم.

﴿وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ﴾.

هذه هى أربعة الأزواج بعد الأربعة الأولى فتكون عدتها ثمانية، قال تعالى: ﴿قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ﴾ أحرم الفحل من الإبل والثور من البقر، أم حرم الأنثيين من الأربعة، فحرم الناقة من الإبل، والبقرة من البقر، فإن كان التحريم للذكرين يشمل الذكور كلها، فإن التحريم على الإناث شمل الإناث كلها. أما وقد حرمتم بعضها دون بعضها، فإنه لا يمكن التحريم لأمر ذاتى فيها، ولا لأمر نقلى، فلا دليل من عقل ولا نقل.

وإذا كان التحريم للمواليد كلها ذكورا وإناثا، وهى ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، فإنه بمقتضى عموم القول. يكون التحريم لجميع المواليد من البقر والإبل، ولكنكم تحرمون بعضها دون بعض، فلا يمكن أن يكون التحريم لخبث فيها؛ لأن الخبث إن كان سبب التحريم، فهو يعم ولا يخص، فلا يمكن أن يكون التحريم بسبب فى ذاتها، ولا لنقل نقلتموه، وإن ادعيتم ذلك فأنتم تكذبون على الله فى ذلك، ولا دليل عندكم على التحريم من قبل الله، بل هو اتباع الشيطان، وتزيينه لكم حتى صار ذلك هواكم، وغلبتكم الأوهام؛ ولذا قال تعالى:

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا﴾ طالبهم الله تعالى أن يأتوا بعلم يقينى جازم من النقل يدل على تحريم ماحرموه، وقد جاءت النصوص بإباحة الجميع، ثم عدل متهكما عليهم بأن ذكرهم بأنهم قد يدعون أنهم شاهدوا وعاينوا، ولذلك قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ﴾ و(أم) فيها معنى الإضراب عما طلب أولا، ثم ذكر أنهم قد يدعون أنهم كانوا حاضرين إذ وصاهم الله تعالى، والله علم من وصى بهذا، وهذا تهكم عليهم، فإنهم ينكرون الوحى، ولا يدعونه لأنفسهم أنهم أوحى إليهم، ولكنها وسوسة الذى أوجد فيهم أوهاما زينت لهم ما فعلوا. وهكذا نجد النص القرآنى سلك سبيل الاستقراء والسير والتقسيم فاستقرأ معهم سبب التحريم وإن كان الذكورة فهى تعم الذكور، وإن كان الأنوثة فهى تعم الإناث، وإن كانت الولادة فهى تعم المواليد، ولكنهم يخصون، فطالبهم بدليل من علم، فما عندهم، فسألهم أهم عاينوا ووصاهم الله فهم بلا ريب كاذبون، وهذه هى نتيجة الاستدلال، فهم كاذبون على الله تعالى، ولذا قال سبحانه بعد ذلك: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

الفاء لترتيب ما بعدها على معنى ما قبلها، والمعنى إذا كانوا قد كذبوا على الله تعالى، وادعوا أن الله حرمها، فهم ظالمون مفترون ومن أشد ظلما ممن يفترى على الله كذبا ليضل الناس، ومن استفهامية، وهى للإنكار، لإنكار الوقوع، إذ معناه، لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا، أى قصد الكذب على الله تعالى بادعاء أن الله تعالى حرم بعض ما رزقهم الله، وهو لم يحرم، وفى ذلك مع النفى توبيخ لهم، لأنهم فعلوا ما استنكر أشد الاستنكار. وإن ظلمهم مركب من أمرين، أولا لأنهم كذبوا على الله وقصدوا الكذب، والثانى أنه أضل الناس بهذا الكذب على الله، فقال إنه تحريم من الله، وليس من الله فى شىء إلا أوهامهم الضالة.

وذلك الظلم والإضلال أوضح ما يكون فى كبرائهم الذين أضلوا ضعفاءهم، وقد ختم الله سبحانه الآية بقوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ إنه سبحانه وتعالى بعد أن بين ظلمهم فى تحريم ما أحل الله تعالى لهم، وجعلوا ما رزقهم سبحانه منه حلالا ومنه حراما وظلمهم فى الكذب على الله تعالى بادعاء أن التحريم كان بأمره، وظلمهم للناس بإضلالهم بغير علم، ذكر سبحانه قضية عامة وهى أن الله لا يهدى الظالمين؛ لأن الظالم إذا سلك سبيل الظلم والتضليل استمرأه واستطال على الناس، وركبه الطاغوت، وأظلمت نفسه، وأصاب قلبه ظلام لا نور فيه، فلا يهتدى ولا يَرْعَوى، وقد بين الله تعالى، وأكد أن الظالمين لا يهتدون فقال ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وقد أكد ذلك بالجملة الإسمية، و(إنَّ)، وبنفى الهداية عن القوم الظالمين، وكان نفى الهداية من الله تعالى عن القوم الظالمين لأنهم بسيرهم فى طريق الظلم قد سدوا باب الهداية عن أنفسهم، وذكر سبحانه نفى الهداية عن القوم الظالمين دون أن ينفيه هنا عن الواحد للظالمين؛ لأن الظالمين يعاون بعضهم على الظلم، فيتكون منهم رأى عام ظالم يبرر الظلم ويرتضيه، ويشجع عليه، ويتعاونون فيه على الإثم والعدوان بدل البر والتقوى، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾

في هذه الآية حصر لما حرمه الله تعالى من الأنعام، وبيان أن الله تعالى لم يحرم ما حرموه على أنفسهم من الأنعام، وقد أمر النبى ﷺ أن يتولى هو البيان فيما أوحى إليه به؛ لأنهم كانوا يجابهون النبى ﷺ بتحريم ما يحرمون غير متحرجين فى ادعاء التحريم على الله تعالى، ويفترون على الله الكذب وكانوا ظالمين، ولا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا.

وإن المتتبع لآى الله تعالى يجد أن كل أمر يجرى فيه الجدل، أو يثيرون هم فيه الجدل يأمر الله تعالى نبيه بأن يتولى البيان بلسانه مع بيان الله تعالى.

﴿لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ أى فيما أوحاه الله تعالى، وإنما بنى للمفعول، لبيان نفى وجود الوحى نفيا مطلقا بغير ما هو مذكور، فالبناء للمفعول هنا. لعموم نفى عدم الوجود، وفيه إشارة إلى أن ما حرموه غير معقول إن سمى به وحى مطلقا.

وقال ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾، أى على آكل يأكله، وعبر سبحانه بقوله تعالى ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ بدل (آكل يأكله)؛ لأن الطعم تذوق واستطابة، والأكل قد يكون أكل غير مرغوب فيه، أو ما ليس له ذوق يستطاب، ففى هذا إشارة إلى أنهم يحرمون طيب اللحوم والمطعومات.

﴿إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾.

الميتة الحيوان الذى يموت، وينحبس دمه فيه، ويدخل فى معناه المنخنقة، والموقوذة التى وقذت بالحجارة حتى ماتت، والمتردية التى تردت فى حفرة أو بئر، والنطيحة التى نطحت من أخرى حتى ماتت، فإن هذه تدخل فى عموم كلمة ميتة إن توسعنا فى معناها، بأن قلنا: إن الميتة ما لم تذك بالذبح، وإنهار الدم، ومهما يكن فإنها فى المعنى قريبة من الميتة.

والدم المسفوح هو الدم السائل، وقد تبين أنه سريع الفساد، وتسارع الميكروبات إليه، والدم المسفوح خرج به الدم الذى يكون بعد الذبح فى جوار

اللحم، أو مخالطا له، والكبد والطحال، فإن النبى ﷺ فيما روى عنه سماهما دما، كما روى أنه قال: «أحلت لنا ميتتان ودمان: الكبد والطحال، والسمك والجراد»[(١)]، والخنزير هو الدابة المعروفة، وهو محرم فى الديانات الثلاث: اليهودية والنصرانية والإسلام، واستباحها اليهود والنصارى بعد تحريف دينهم عن موضعه، وبعد أن نسوا حظا مما ذكروا به.

وقد ذكر سبحانه وتعالى سبب التحريم فقال: ﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ أى قذر، فهو قذر فى ذاته، وهو قذر فى غذائه فهو يتغذى من الأقذار، فيتغذى من العذرة، ولحمه رجس إذ إنه مقشش[(٢)] فيه ميكروبات. أخصها الدودة، ولاحظ كثيرون أنه حيث يكثر آكلوه يكثر مرض السرطان، ولو تنبه العلماء إليه وبحثوا لحمه لوجدوا بعد الحيرة الطويلة أن هذا الداء العضال تكمن جرثومته فيه؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ وهو أصدق القائلين وإذا كان الخنزير فيه رجس حسى، ومن أجله حرم أكله، فإن الله تعالى قد حرم ما فيه رجس معنوى، وقرنه به، وهو ما أهل لغير الله به، ولذا قدم كلمه (فسقا) مقارنة لكلمة (رجس) لأنهما يلتقيان فى المعنى؛ لأن هذا الخنزير رجس حسى، وهذا الفسق رجس معنوى، فهما من باب واحد.

وقوله تعالى: ﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أى أنهم ذبحوه لا باسم الله، بل باسم أوثانهم، وكانوا حريصين على ذلك كل الحرص؛ لأنهم قدموا غير الله فى ذبحهم، فقصدهم التقرب لآلهتهم فيه.

وهنا يثار بحث، فإن الآية تدل على أن ما أهل لغير الله يكون حراما، وبمفهوم المخالفة ما لم يهل لغير الله به يكون حلالا، وعلى ذلك يكون ما لم يذكر عليه اسم الله تعالى، ولم يهل به لغير الله يكون حلالا؛ وقد قررنا أنه إن

---

(١) رواه أحمد: مسند المكثرين (٥٦٩٠)، وابن ماجه: الأطعمة - الكبد والطحال (٣٣١٤). عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) قشّش: أكل ما في المزابل. القاموس المحيط.

لم يذكر اسم الله تعالى، نسيانا فإنه يؤكل المذبوح، وإن ترك عمدا، ففيه نظر، ما دام لم يذكر غير الله تعالى.

وهناك بحث آخر، وهو أن ثمة محرمات قد وردت بها آثار كسباع البهائم فإنها وردت الآثار بتحريمها وسباع الطيور، وبعض خشاش الأرض، كالحية والعقرب، وغيرها، وكالحمر الأهلية التى حرمت فى غزوة خيبر.

والآية تفيد القصر، أى قصر المحرمات على المذكور، كما تفيد إباحة غيره؛ لأن القصر كما هو مقرر فى علم البيان نفى وإثبات، فقد أثبت التحريم فى هذه الأشياء الميتة والدم المسفوح، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، وثبتت الإباحة بالنص الذى أفاد القصر فيما عداها، وقد ثبت أن بعض ما عداها كان حراما. وهذا يتناقض مع القصر.

وقد أجيب عن ذلك بعدة إجابات:

أولها- أن هذا القصر خاص بالأنعام، وما كان يشبهها من البهائم كالخنزير، فإن النص سيق للرد على المشركين الذين حرموا بعض الأنعام وافتروا على الله تعالى بالكذب، فكان الرد بهذا القصر الذى يفيد تحريم ما نص عليه، وأن غيره مباح، وغيره هو ما يتعلق بالأنعام، وقد يرد على هذا أن التحريم كان فيه الخنزير، وهو لا يشبهها، فمجيئه لا يدل على أن الكلام فى الأنعام فقط، ونقول إن مجيئه لا يمنع أن الإباحة فيما عدا المنصوص عليه كان فى الأنعام فقط، فلا يدخل فى مدلول نفى التحريم غير الأنعام، بل يبقى سكوتا عنه حتى يجىء نص فيحرمه، وإلا فهو فى مرتبة العفو أو الإباحة، هذا تخريج للقصر، ونعتقد أنه لا يمنع تحريم سباع البهائم وسباع الطير، وخشاش الأرض وهذا عندى أوضح التخريجات وأقربها.

والتخريج الثانى تخريج الزمخشرى - وهو أن الاستثناء منقطع بمعنى لكن، وأنه لا قصر حتى يكون الكلام مشتملا على نفى وإثبات نفى التحريم وإثبات

الإباحة، إنما هناك نفى لتحريم ما حرموا، ويكون مؤدى التخريج هكذا: قل لا أجد محرما علىَّ فى ما تحرمون على طاعم يطعمه، فهذا النفى رد عليهم،لكن أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير أو أهل لغير الله فهو حرام، وعلى ذلك لا يكون قصر فيه نفى وإثبات للإباحة، ولكن فيه تحريم فقط، تحريم بالرد، وتحريم بالاستدراك. هذا كلام قاله الزمخشرى.

ونقول لإمام البلاغة: إنه تخريج لا يستقيم مع النسق البيانى الذى يليق بكتاب الله العظيم.

والتخريج الثالث- أن الآية لم تدل على الإباحة المطلقة، إنما أخذت الإباحة بالمفهوم، ولا يؤخذ بالمفهوم حيث يكون نص، وهناك نصوص تمنع.

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

هذا التحريم مؤكد فى حال الاختيار، لا فى حال الاضطرار، فمن كان فى حال ضرورة لا يجد ما يطعمه، وقد تعرض للهلاك جوعا وهو غير باغ ولا معتد، فإن الله تعالى يغفر له أكله، وقد قلنا إن حد الضرورة قد بينه النبى ﷺ إجابة لمن سأله- إذ قال له: «أن يجىء الصبوح والغبوق ولا تجد ما تأكله»(١).

(والباغى) له تخريجان:

أولهما- أن الباغى، هو من خرج باغيا على الحاكم العادل ظالما له، أو من خرج لمعصية، فإنه لا ينتفع بهذه الرخصة، وذلك يكون سيرا على قاعدة: إن من ارتكب معصية لا تكون المعصية سببا لنعمة الرخصة، كمن يرتكب جريمة وهو سكران بمحرم، فإنه لا يعفى من الجريمة بسبب السكر، وذلك مبدأ مقرر عند بعض الفقهاء وخصوصا فقهاء العراق.

والثانى- أن الباغى الطالب لهذا المحرم المشتهى له، كأن يكون مضطرا فلا يجد إلا خنزيرا، يشتهيه ويأكله باغيا له طالبا.

---

(١) سبق تخريجه.

و (العادى) هو لـه هذان التفسيران أيضـا، فخرجـه بعض الناس على أنه الظالم بمعصية أوقعته فى هذه الضرورة فإنه عاص لا يستمتع بنعمة الرخصة.

والثانى- أن العادى أى المتجاوز لحد الضرورة.

وأميل إلى أن الباغى المشتهى الطالب للميتة أو الخنزير، وأن العادى هو المتجاوز لحد الضرورة، فإن رحمة الله تعالى فى الدنيا، تتسع للأشرار كما تتسع للأخيار والحساب عند الله، وعسى أن يغفر الله لهم، وننبه هنا إلى أمرين:

أحدهما- معنوى، وهو أن هذه المحرمات ما حرمت إلا لأنها خبائث، والله حرم الخبائث، وإن فيها إفسادا للجسم الإنسانى وإضرارا به، وإن الضرورة وشدة الجوع قد تذهب بأوضار الأخباث التى فى هذه المحرمات، وإن ضررها يقل بالنسبة للجائع جوعا شديدا يؤدى إلى الهلاك، وإن كان ثمة ضرر من بعد، فإنه أخف مما يترتب على الامتناع، ولذلك كانت الرخصة مقيدة بألا يتجاوز حد الضرورة؛ لأنه إن تجاوزه غلب الضرر، واشتد أثر الجراثيم المفسدة للجسم التى تحتوى عليها هذه المحرمات.

وثانيهما- وهو بيانى ومعنوى أيضا، وهو قوله تعالى: **﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** أثر لجواب الشرط المحذوف أو سبب له، فإن المقدر هكذا، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه، كما ذكر فى آيات أخر، أما هنا فلم يذكر، ولكن ذكر سببه، وهو فإن ربك غفور رحيم فالسبب أن الشارع الحكيم هو ربكم الذى خلقكم وربَّكم، وقام على أمر حياتكم، وأنه غفور يغفر الإثم ويستره، وأنه رحيم لا يرهقكم وإن هذا يدل على رفع الإثم سببا بسببه.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ بعد أن بين الله ما أحل للمسلمين وما حرم، وأنه فتح باب إباحة الطيبات بإطلاق فكل طيب حلال، وقد استنكر فى عدة آيات كريمات على من حرم الطيبات التى أحلها الله، ونهى عن تحريم الطيبات، وقال تعالت كلماته: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا (٨٧)﴾** [المائدة].

بعد هذا بين سبحانه وتعالى أنه قد يحرم طيبات هى فى ذاتها طيبات، ولكنها تزيد أدواء بعض النفوس، فيكون التحريم خاصا بمن حرم عليهم، ولا يكون عاما لكل الناس، كالدواء يكون غير جائز للأصحاء، ولكنه لازم للمرضى.

واليهود أصيبوا بالتخمة والترهل، وأدى ذلك إلى خمول وكسل، ومع الخمول والكسل، يكون القعود، ودعاهم سيدنا موسى إلى أن يدخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لهم أن يدخلوها، لا أن يملكوها لهم دون سائر الناس، قالوا له متخاذلين بسبب ترهل أجسامهم: **﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢)﴾** [المائدة].

ويقولون أيضا: **﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤)﴾** [المائدة].

كان لا بد من علاج لترهل أجسامهم وذهاب النخوة من نفوسهم. أما الثانى فرباهم على اليأس بأن يعيشوا فى الأرض تائهين فى صحرائها، فقال تعالى: **﴿... فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ ... (٢٦)﴾** [المائدة] وأما الأول وهو ترهل الأجسام وكسلهم، فقد عالجه سبحانه بأن حرم عليهم ما يؤدى إلى ترهل الأجسام من شحوم، ولحوم تربى الدهن فى الأجسام، وتثقل عليهم حركاتهم. ولذا قال سبحانه.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ حرم الله تعالى على اليهود كل ذى ظفر من الأنعام. وذو الظفر - كما قال ابن جرير رضى الله تعالى عنه - كالبهائم التى لم تكن مشقوقة الأصابع كالإبل، والطير والأنعام والأوز والبط، والحيتان.

ويلاحظ أن هذه المحرمات تمتاز بكثرة الشحم، فالإبل لها سنام كله شحم، والأوز والبط هى شحوم قليل لحمها، وذو الظفر كما ترى قد فسرت به، وكل حيوان لم تنفرج أطراف أرجلها، وكان التحريم لهذا المعنى الذى ذكرناه، وفطما لنفوسهم، وفطم النفوس يعطيها قوة إرادة، ويجعل للعقل سيطرة على أفعالهم.

﴿ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا ﴾.

هذا هو القسم الثانى مما حرمه الله تعالى، وقد نص على الشحوم مما يدل على سبب التحريم فى الماضى فوق أنه يقال إن أكل لحوم الإبل يقسِّى القلب، وقلوبهم قاسية.

وهنا نرى علاج الله تعالى لأجسامهم مع ملاحظة الرحمة بنفوسهم، فقد حرم سبحانه وتعالى الشحوم لما تؤدى إليه من ترهل، وضخامة، مع ضعف قوته وعزيمته، ومع قسوة النفس، وضعف الإحساس، ولكنه استثنى ما لا يستطيعون عليه صبرا؛ استثنى أولا ما حملت ظهور البقر والغنم لطيب طعامها، ولأنها ليست شحوما كثيرة، ولا تؤدى إلى الترهل الكثير، واستثنى أيضا سبحانه:

﴿أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾. (الحَوَايَا) جمع مفرده حاوية أو حَوْى، وهو ما تحوى واجتمع فى البطن، وتشمل المعدة والأمعاء، ومواضع اللبن وأبيح ما حملت من شحم، كما أبيحت هى، وذلك لصعوبة فصله وإخراجه، وكان ذلك تيسيرا وتخفيفا فى موضع التحريم، وتسهيلا للاستجابة إن كانوا طائعين.

وأن ذلك التحريم كان علاجا لأجسامهم، ولكسلهم، وفطما لنفوسهم، وتزكية لأرواحهم، وإرهافا لمداركهم وأجسامهم، ولذا قال تعالى:

﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ البغى هو الظلم، والظلم يشمل ظلمهم لأنفسهم بانطلاقهم فى أكل ما يشتهون، وتسمن به أجسامهم، ويشمل بغيهم على غيرهم بالاعتداء والفحشاء، ويشمل ارتكابهم المعاصى ما ظهر منها وما بطن، ودلت الإشارة فيه إلى ما حرمه تعالى عليهم وفطم به نفوسهم الشرهة، وهذا كقوله تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ (١٦١) ﴾ [النساء].

وإن هذا التحريم كان تطهيرا لنفوسهم وتقوية لأجسامهم، وجزاء دنيويا على ما اقترفوا من طغيان.

وإن الإسلام أحل لهم الطيبات كلها، وقد قال الله تعالى ذلك عند بشارته بالنبى الأمى، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ ... (١٥٧)﴾ [الأعراف]. والله تعالى ولى النعم.

وختم الله تعالى الآية بقوله تعالى:

﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ الصدق معنى جامع لكل المعانى العالية، والصدق هنا هو الإخبار بالحق الذى لا مرية فيه، وكيف نشك فى خبر حكاه الله رب العالمين، ويشمل العدل فى الجزاء الذى جازى به بنى إسرائيل على طغيانهم، وعتوهم ويشمل صدق الدواء الذى عالج ترهلهم، وإفسادهم لأجسامهم بشهواتهم، وإفراطهم إلى غير حد محدود، وقد أكد الله سبحانه وتعالى صدقه فى خبره وعدالته وعلاجه لأدواء جسمهم ونفوسهم بمؤكدات ثلاثة، أولها- الجملة الاسمية، وثانيها- (إنَّ) المؤكدة، وثالثها- اللام، والله تعالى هو العلى الكبير.

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ
بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ (١٤٧) سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟
لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ
كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا
قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا
ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ
فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩)

إن الله سبحانه وتعالى فى حكمته البالغة لا يجعل الكافر فى يأس من مغفرته، ولا يطمع فى أن ينجو من عقابه إن أصر على معصيته، ولم يتب وهو فى عافية وقوة، ولذا قال تعالى:

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾.

يخاطب الله نبيه الكريم بقوله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ كافرين برسالتك، فلا تجعلهم فى يأس من أن يتوبوا، وينتهوا من كفرهم إلى إيمان بربهم، وقل لهم عن ربك فاتحا باب التوبة والإيمان من غير أن تؤيسهم ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ أى صاحب رحمة وسعت كل الوجود أنعم على الناس بالوجود، والنعم المترادفة لعصاتهم والطائعين فيهم، وقد فتح باب التوبة للعصاة، والثواب ثابت للطائعين.

وإنه مع هذه الرحمة الواسعة التى وسعت كل عاص يفتح باب التوبة له، والطائع بالثواب والنعيم المقيم، إنه سبحانه مع ذلك لا يترك العصاة المصرين من غير عقاب إذا استمروا على غيهم؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

البأس الشدة، والظاهر أن المراد هنا العذاب الأليم يوم القيامة، وعبر سبحانه بقوله: ﴿الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾، بلفظ القوم؛ لأن الإجرام يكون فى جماعة تتضافر على الشر ويتعاونون على الإثم والعدوان، ونادر أن يكون من واحد بمفرده، أو عدد متنافر غير متجمع متعاون على الشر. هذا وإن سنة الله تعالى فى كتابه الحكيم أن فتح التوبة مرغبا فيها، وأن يذكر بجوارها العقاب، كما قال تعالى: ﴿... وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ⑥﴾ [الرعد]. وكما قال عز من قائل: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ㊾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ㊿﴾ [الحجر]. وكقوله تعالت كلماته: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ⑫ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ⑬ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ⑭﴾ [البروج]. وكقوله سبحانه: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ③﴾ [غافر].

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾.

يبين الله سبحانه وتعالى ما يجول فى قلوب الذين أشركوا وما أبدوه وهو قول الذين يعتذرون عن كفرهم بإلقاء التبعة عنهم، وقولهم هذا لا يؤمنون به ولا يخضعون له، ولكنهم قوم خصمون، والمجادل المموّه يحتج بالحجة الباطلة وغير الباطلة.

إنه لو شاء الله ما أشركوا ولا آباؤهم، ولا حرموا من شىء، ولكنهم فى وسط هذا القول الظاهر ينسون حقيقتين:

الأولى- أنهم عصوا الله، وأشركوا به، وحرموا ما حرموا مختارين وغير مجبرين، وأنه على ذلك يكون حسابهم وعقابهم فى الآخرة ومؤاخذتهم فى الدنيا ببيان أنهم خارجون عن الحق ينحرفون عنه، وفوق ذلك حرموا ما حرموا، وادعوا من غير أى برهان أو حجة بأن التحريم من الله افتراء عليه.

الثانية- أنه ما كان الله تعالى ليتركهم فى غيهم إلا لأنهم اختاروا السير فى طريق الضلالة، فتركهم الله يسيرون فيه حتى بعدوا عن الحق بالضلال البعيد.

وإن ذلك دأب الخارجين، فخرج الذين من قبلهم بذلك القول الذين يلقون به الإثم عن أنفسهم وهو محيط بهم، لا يخرجون من دائرته، ولذلك قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾.

كهذا القول الذى سيقوله الذين أشركوا ما أشركنا نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء قال الذين سبقوهم بالشرك من قبلهم، فالشر مسلسل فيهم ما داموا قد غووا، والكفر كله ملة واحدة فى التفكير واستيلاء الهوى، وعدم تحملهم مسئولية فعلهم بإلقاء التبعة على غيرهم، ونفيها عنهم، واعتذارهم بأنهم لا يؤاخذون على ما يرتكبون من آثام، وذلك الشأن فى العصاة، يروى أنه حدث أن مرتكبا لما يوجب حدا سيق إلى عمر، فسأله لم ارتكبت هذا؟ قال: قضاء الله، فأقام عمر عليه الحد، وزاده أسواطا لأنه يحمل قضاء الله تعالى مسئولية عمله، ولقد قال

الإمام أبو جعفر الصادق بن محمد رضى الله عنه: أمرنا الله أمرا وقضى لنا أمرا، فلماذا نترك ما أمرنا، ونحمله على ما قضى لنا.

ذلك شأن الذين يفسقون عن أمر ربهم يلقون عن أنفسهم أوزارهم كاذبين بمثل هذه الاعتذارات وهم لا يؤمنون بها.

وإنهم استمروا على غيهم وعلى قولهم حتى ذاقوا عذاب الله تعالى، ولذا قال الله تعالت كلمته ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾.

وهذا يحتمل أن يكون بأس الله بقوة المؤمنين فى الدنيا، ويحتمل أن بأسه بعذابه الأليم فى الآخرة، وكيفما يكون العذاب فإن الله تعالى عبر بالماضى، وهو واقع فى المستقبل للدلالة على تأكد وقوعه، كما فى قوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ①﴾ [النحل].

وإن هذه الاعتذارات التى يسوقونها بأنه لو شاء ما أشركوا ولا حرموا بعض الأنعام افتراء على الله فهل عندهم حجة على أن شركهم برضا الله، وأن تحريمهم ما حرموا بأمره أو رضاه لا حجة عندهم، ولذا قال تعالى مفحما لهم رادا على افترائهم:

﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾.

قل يا محمد فى جدلهم مفحما لهم إن ادعاء رضا الله لا يكون بمثل ظنكم، ولكن يكون بعلم جاء إليكم من الله، فتحتجون بهذا العلم، لا بمجرد الظن والتخمين، وكثرة الكلام، والتهافت فيه، فهل عندكم من علم فتخرجوه لنا تحتجون به، وتسوغون كلامكم إن كان فيه ما يسوغ ما تزعمون.

والاستفهام للإنكار والتوبيخ، واستغراق النفى المتضمن له الاستفهام بـ(مِن) يفيد الاستغراق، أى هل عندكم من علم أى علم تزعمونه فتخرجوه لنا ليكون دليلا لكم؟.

وهذه الجملة السامية فيها إفحام، واستنكار، وتهديد وتوبيخ، وقد أكد الله تعالى أنه لا علم عندهم فقال: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾.

إنهم لا حجة لهم من علم أوتوه، ولا من دليل اعتنقوه، ولكن الظن الذى سبق إليهم، وتوهموه حقا لا شك فيه هو دفعهم، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا، فهو رجحان أمر فى نفوسهم جعلوه حراما، وذلك الظن لم يبنوه ولو على دليل ظنى مرجح، ولكن على خرص وتخمين سيطرت عليه أوهامهم ووجهتهم إليه، وهذا معنى أو قريب من معنى قوله تعالى: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾ و(إنْ) للنفى، و(إلا) للاستثناء، أى ما يتبعون إلا الظن، فهذه الكلمة السامية نافية أن يكون دليلا مقنعا أو ملزما باليقين، ولكنهم يتبعون ظنا ترجحه أوهامهم، وأكد أن الظن مبنى على أوهام بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾ أى ما هم إلا يخمنون تخمينا قائما على الأوهام المضللة، وقد ضلوا بذلك ضلالا بعيدا.

وقد التفت الله سبحانه فى خطابه الكريم من الغيبة إلى الخطاب لتكون المواجهة أرهب فى نفوسهم، وليفزعوا إلى الحق وليلتزموا قول الحق- ولكنهم لا يعلمون.

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

ساقوا كلاما كثيرا فى تبرئة أنفسهم من ذنب شركهم، وتحريمهم بعض ما أحل الله، وطولبوا بالحجة، فلم يجدوا عندهم ما يستدلون به، وتحداهم رب البرية أن يأتوا بعلم أى علم، وقد بهت أولئك الكفار، بما طلب إليهم أن يأتوا به، وفى هذه الآية الكريمة يبين الله أن عنده الحجة البالغة أى التى تبلغ بصاحبها أقصى الحق والاستدلال، فـ (بالغة)، معناها مبلغة صاحبها أقوى الأدلة، كقول الله تعالى: ﴿... عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧)﴾ [القارعة] أى مرضى بها، أو مرضية، وإن استعمال المشتقات بعضها مكان بعض هو من أبلغ البيان العربى.

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ الخطاب للنبى ﷺ، والفاء للإفصاح عن شرط مقدر، المعنى إذا لم يكن عندكم من علم أىّ علم بما تدعون، فالله تعالى عنده الحجة البالغة الموصلة للحق الهادية إليه.

وتلك الحجة البالغة هى هذا الخلق والتكوين والإنشاء وتوليد الأحياء بعضها من بعض، فكل هذا يدل على الخالق الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد، وليس كمثله شىء وهو السميع العليم، ولوكان معه آلهة كما يقولون لفسدت السموات والأرض، وهكذا كل ما فى الوجود يدل على أنه واحد سبحانه وتعالى، وأنتم معشر العرب تقرون أنه الخالق وحده ليس كمثله شىء، ولكن مع هذه الحجة التى لا يمترى فيها عاقل، وتقرون بها تشركون معه غيره فى العبادة، والألوهية، فضلت عقولكم، ولم ترتبوا على المعلوم نتيجته، بل حكمتكم من بعد ذلك الأوهام، وسيطرت. وتلك مشيئة الله تعالى ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى أن الله تعالى شاء لكم الضلالة لأنكم اخترتموها وسرتم فى طريقها بإرادتكم المختارة، فوصلتم إلى الضلال.

وهم فى قولهم معتذرين مبطلين: ﴿... لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ قد حسبوا أن مشيئة الله تستلزم رضاه، كما فهم بعض الفرق الإسلامية من بعد؛ ولذا قالوا ما قالوا، والحق أن المشيئة لا تستلزم الرضا، إنما الأمر هو الذى يستلزم الرضا والنهى يستلزم الغضب، فالهداية هى التى تستلزم الرضا؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

أى أن كل شىء فى الوجود تحت سلطانه وإرادته، وهو لو أراد أن تكونوا جميعا على هدى لكان ذلك، ولكنتم جميعا فى أعمالكم فى رضوان الله تعالى.

وإنما أراد أن يكون منكم المهديون الدعاة إلى الحق، المؤمنون به، وأراد منكم من يكون على غير ذلك ليتم الابتلاء والاختبار، وهذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً (٤٨)﴾ [المائدة]. مهتدين كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ

النَّاسَ أُمَّةً واحدَةً ولا يَزَالُونَ مُخْتَلفين (١١٨) إلاَّ من رَّحِمَ ربُّكَ ولذلكَ خلقهُمْ وتَمَّتْ كلمةُ ربّك لأَمْلأَنَّ جَهَنَّم مِنَ الْجِنَّةِ والنَّاسِ أجْمعين (١١٩)﴾ [هود] وكما قال لو شاء لجمعهم على الهدى وكما قال تعالى: ﴿ولَوْ شاءَ رَبُّكَ لآمَنَ من في الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا (٩٩)﴾ [يونس].

وإننا نؤكد هنا أن الإرادة والمشيئة، لا يستلزمان رضاه سبحانه، فإذا كان قد شاء ضلالة بعض عباد، فإنه لا يرضى من عباده الكفر.

ولذا لا يصح للمشركين، ولا لمن تكلموا في فلسفة أن يربطوا بين المشيئة والرضا، فقد نفى الله تعالى ذلك نفيا مؤكدا في الكثير من الآيات، وما ربك بظلام للعبيد.

قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

الكلام الكريم لا يزال فيما حرموه على أنفسهم مما أحله لهم وآتاهم من رزق، وقد طالبهم الله تعالى بما عندهم من علم أى علم بأن الله تعالى حرم هذا، فلم يكن علم أوتوه، ولكن أوهام سيطرت عليهم، والآن يطالبهم ليشهدوا أن الله حرم هذا ولذا قال تعالى:

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾.

(هلم) اسم فعل أمر بمعنى ادعوا أو هاتوا شهداءكم، أى الذين تعدونهم قدوتكم، والفضلاء فيكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا.

وإن هذا الكلام سائر مع سياق القول فى تحريم ما أحل الله من رزق فجعلوا منه حراما وحلالا، فقد بين الله سبحانه وتعالى فى الآية السابقة أنهم لا يستيقنون بشىء إن يظنون إلا ظنا، وأنهم يخرصون أو يكذبون، ولذلك دعاهم إلى أن يحضروا أماثلهم ليشهدوا أن الله تعالى حرم هذا، وإنهم حينئذ يرفضون، وذلك لأن أماثل العرب لا يشهدون كاذبين، وإن كانوا كافرين، وإنا لنذكر أن أبا سفيان- زعيم الشرك قبل الفتح المبارك لمكة - عندما سأله هرقل أجاب إجابة صريحة صادقة وهو متململ، وقال: لولا أنى أخشى أن تحفظ عنى كذبة فى العرب لكذبت. فما كان الأماثل منهم يسارعون إلى الكذب أو يرضونه. طلب الله أن يحضروا شهداء ليشهدوا أن الله حرم هذا، وإنهم لا يشهدون.

ولكن حال تكذيبهم للنبى ﷺ، واتباعهم أهواءهم، وسيطرة الأوهام عليهم قد تغلب عليهم نزعة الصدق، ولذا كان أمر الله تعالى الذى أمره بدعوتهم بأنهم إن شهدوا بالباطل، وليس بمستحيل على من أشرك فقد تدفعه لجاجة الكفر إلى أن يطمس معالم الحق فيكذب، إن شهدوا بغير الحق، **﴿فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾** أى فلا تصدقهم؛ لأن الهوى قد يغلبهم على سجيتهم، ومن يشرك لا يؤمن كذبه، ولو كان من أهل الصدق، ولذا قال تعالى: **﴿فَإِن شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾** أى فإن غلب عليهم فشهدوا بالباطل كما ذكر، فأنكر عليهم شهادتهم، ولا تشهد معهم، ولا تسايرهم، وهذا معنى قوله تعالى: **﴿فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾** أى فلا تسايرهم فى كذبهم الذى ينبعث من الهوى، ولذا قال تعالى من بعد.

﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

نهى الله تعالى نبيه الكريم، ونهيه نهى لكل الذين اتبعوه، ويتبعونه إلى يوم الدين، نهاه عن أن يتبع أهواءهم؛ لأن الهوى ذاته يضل، ولا يهدى، ومن جعل إلهه هواه، فقد ضل سواء السبيل.

ونص القرآن: ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ والمعنى الذى هو المقصود لا تتبع المشركين المفترين على الله تعالى الذين يحرمون ما يحرمون، ويفترون على الله الكذب. فيزعمون أنه الذى حرم، وعبر عن المشركين بقوله تعالى: ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ﴾ لأنه لازم لاتباعهم؛ لأن من اتبعهم، فإنما يتبع أهواءهم المنحرفة، وكيف يتردى مؤمن فى اتباع الهوى، والهوى مضل، ومُرْدٍ، وأنى يكون ذلك من نبى كريم، ومن أتباعه الكرام.

ولذلك كان النهى عن اتباع هواهم، وقد ذكر لهم أوصافا ثلاثة مع أنهم أصحاب هوى وليسوا أصحاب عقل:

الوصف الأول أو الحال الأولى من أحوالهم- أنهم كذبوا بآياتنا آى بآيات الله تعالى فى الكون الدالة على وحدانيته سبحانه وتعالى، فكذبوا الآيات الدالة على وحدانيته، ومعنى تكذيبهم هذه الآيات أنهم لم يعملوا بمقتضى ما تدل عليه من القدرة القاهرة، والإرادة المختارة، وكذبوا بالآيات الدالة على نبوة محمد ﷺ، وكذبوا بالآيات القرآنية، والأحكام التى نزل بها وحى الله تعالى على نبيه الأمين الكريم ﷺ.

والمكذب بالحق المعلوم الذى تبهر آياته البينات، لا يصح أن يتبع لأنه ضال مضل.

الوصف الثانى أو الحال الثانية- أنهم لا يؤمنون بالآخرة، ومن ينكر الآخرة ينكر حقيقتين لا ينكرهما مؤمن، ولا يقع فى هذا الإنكار إلا مادى لا يؤمن بالغيب، وهو لب الإيمان.

أولى هاتين الحقيقتين- إنكار البعث، ويقولون: إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا، وما نحن بمبعوثين، وهم بذلك يحسبون أن الله سبحانه وتعالى خلقهم عبثا، وأنه تركهم سدى، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥)﴾ [المؤمنون].

الثانيــة- أنهم ينكرون الحياة الـروحية، ولا يؤمنون إلا بالحـياة المادية، ومن كان كذلك لا يتبع.

الوصف الثالث- وهو الحال الثالثة، وهى نـتيجة للأمرين، وهى أنهم بربهم يعدلـون، أى يجعلون الأوثان، -وهى حـجارة- معـادلة للعبـادة مع ربهم الذى خلقهـم، وكونّهم، وربَّهم بربوبيتـه، أى أنه خلقـهم ولم يتركهم، بـل قام على تطويرهم من حياة إلى حياة، فـهو الحى القيوم القائم على كل شىء الذى يكلؤهم بالليل والنهار سبحانه الواحد القهار.

وتقديم ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ على ﴿يَعْدِلُونَ﴾، لبيان ضـلالهم فى مساواتهم الله ربهم بالأوثان، وهو تأنيب لهم، وبيان لضلال عقولهم.

وصـــايا الله

۞ قُلْ
تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ
شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ
إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ
مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى
حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾
وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ
وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا

وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

هذه وصايا عشر هى وصايا الله تعالى لبناء مجتمع إنسانى كامل، يقوم على أساس التعاون الإنسانى والمودة ودفع الأذى ووقاية المجتمع من الآفات، ورعاية الضعفاء.

ولقد قال ابن مسعود رضى الله تعالى عنه: من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التى عليها خاتمه فليقرأ هذه الآيات **﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾** إلى قوله تعالى: **﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾**.

هذا ما قاله ابن مسعود الصحابى الفقيه النافذ ببصيرته فى معانى القرآن الكريم، ومستخرج الأحكام من بين ما نص عليه وما ظهر، وما استكن من معانيه العالية.

وفى الحق إن هذه الوصايا الإلهية التى هى وصايا النبى ﷺ يقوم عليها بناء المجتمع الإنسانى السليم، وبها تحارب الآفات الاجتماعية التى تتردى بها الجماعات فى مهاوى التفرق والانحلال. فيها تطهر النفس والعقول من آفات الفكر، وتطهير المجتمع من التقاطع والتنابذ ومنع الاعتداء بأى نوع من أنواعه. وفيها، التعاون على حماية الضعفاء، وفيها إعطاء كل ذى حق حقه، وفيه إقامة العدل فى كل ضروبه الذى هو ميزان الحقوق والواجبات، وفيها الوفاء بالعهود الذى هو رباط الجماعات الإنسانية مهما تختلف أجناسها وشعوبها وقبائلها.

وإن شئت أن تقول إن فيها أكثر التكليفات الاجتماعية البانية والواقية، وهى متفق عليها فى كل الديانات السماوية، ومقررة فى كل الشرائع العادلة، وإن لم تكن فيها على هذا السمو الرفيع كما جاء فى القرآن.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.

خاطب الله نبيه ﷺ ليبلغ جوهر رسالة ربه بأن يقول لهم: ﴿تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أى أقبلوا أيها الناس أجمعين فى شتى الأرض أجناسا وشعوبا وقبائل، وأقبلوا بعقولكم وأنفسكم أبين لكم ما حرم عليكم، فالنداء بـ ﴿تَعَالَوْا﴾ دعوة لإقبالهم له بكل مداركهم وتفكير وتنبيه لعظم ما سيبينه لهم من وصايا وتكليفات، والتلاوة هى قراءة القرآن الكريم مرتلا متتابعا فى كلماته وأساليبه، والمراد هنا البيان لأن البيان؛ ثمرة تلك التلاوة المتتابعة الموضحة، فهذا تعبير بالمسبب عن السبب.

وقوله تعالى: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾، (ما) اسم موصول بمعنى الذى، أى أبين لكم الذى حرمه الله تعالى عليكم، ويصح أن تكون ما موصولا حرفيا، ويكون المؤدى تعالوا أتلُ تحريم ربكم تعالى عليكم.

وفى التعبير بقوله تعالى: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إشارة إلى أن ذلك من ربكم الذى خلقكم وربَّكمْ، وهذبكم، وهو العالم بالأمور كلها، وهو المحيط بما فيه خيركم، و﴿حَرَّمَ﴾، إنما هو فى الأمور الخمسة الأولى التى آخرها، ﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾، فإن هذه الخمسة محرمات ننتهى عنها وإذا شئنا الإحسان إلى الوالدين، أما الباقى فأكثره مأمورات من الوفاء بالكيل والميزان، وألا يقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن، فهو فى معنى الأمر فى معاملة اليتيم بالتى هى أحسن فى ماله، ثم إقامة العدل والوفاء بالعهد فهذه أوامر لا محرمات.

هذه الأوامر المذكورة فى الآيات نهيا أو طلبا هى تسعة إن جعلنا الوفاء بالكيل والميزان أمرا واحدا، وإن جعلناها أمرين تكون عشرة كاملة.

﴿أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ هذا هو الأمر الأول الذى حرمه الله تعالى، وهو أعظم الأمور، وأقواها أثرا لأنه يتعلق بخالق الكون ومنشىء الوجود، وأصل الاعتقاد الدينى، وهو أول الشريعة، وعليه اجتمعت كل الرسالات، كما قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ (١٣) ﴾ [الشورى].

فالواحدانية لب الإيمان، والله تعالى يجعل كل السيئات قابلة للغفران إلا الشرك، ولذا يقول تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ (٤٨) ﴾ [النساء].

وإن الوحدانية فيها تطهير للعقول من رجس الأوثان، والإذعان للإنسان والأوثان، وهى تربى العزة فى المرء، فلا يخضع إلا للواحد الأحد، الفرد الصمد، وذلك من يعبد غير الله، ومن يخضع لغيره، وأنه إذا كانت الوحدانية برا بالخالق، فإن الإحسان إلى الوالدين برٌ بمن جعلهم الله سببا ماديا فى وجود الولد ولذا قال تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.

هذا هو الأمر الثانى وهوالوصية بالوالدين، والوصية بهما هى الإحسان إليهما، والإحسان مرتبة أعلى من العدل، إذ هو فوق العدل فى الرحمة والرأفة، فهو عدل ورأفة ووفاء وبر، ولذلك كان الأمر بالإحسان بجوار الأمر بالعدل، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) ﴾ [النحل]. وقال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا (٢٣) ﴾ [الإسراء]. وإن الأمر بالإحسان يتضمن النهى عن الإساءة؛ إذ هو نهى عن الإساءة، وأمر بفضل العاطفة والمواساة والقرب، وإحسان الصحبة.

وإن الله تعالى أمر بالإحسان إلى الوالدين مقترنا بالنهى عن الشرك فى كثير من الآيات الكريمة، فقال تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ

إِحْسَانًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النساء]. وقرن الله تعالى شكر الوالدين بشكر الله وجمعهما معا، فقال تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [لقمان]. والإحسان إلى الوالدين شريعة النبيين أجمعين قد كلفها بنى إسرائيل، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴿٨٣﴾ ﴾ [البقرة].

فمن يعق الوالدين فهو فاسق عن أمر الله ونهيه.

﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ هذه هى الوصية الثالثة، وقد نزل سبحانه من إكرام الأصول والإحسان إليهم إلى الإحسان إلى الأولاد، ولم يذكر سبحانه الإحسان إلى الأولاد لأنه أمر فطرى تتقاضاه المحافظة على النفس، فالولد امتداد أبيه وما جاء القرآن بالأمر بالإحسان إلى الأولاد، ولكن أمر الإسلام بالقيام على تربيتهم ورعاية شئونهم ورزق أمهاتهم، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ ﴿٢٣٣﴾ ﴾ [البقرة].

ولكن كان فى وحشية الجاهلية من يئد بناته بغيا بغير علم، وكان من يفعل ذلك وغيره لإملاقهم، والإملاق الفقر من كثرة الإنفاق، وقد نهى سبحانه وتعالى عنه، فقال: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ﴾ أى من فقر بسبب الإنفاق عليهم، وهو متلاق فى المعنى مع قوله تعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ... ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء] فكأنه كان فى الجاهلية من يقتل أولاده لإملاق واقع بسبب الإنفاق، ومن يقتل ولده لأنه يتوقع الإملاق إن لم يقتله.

وقد نهى الله تعالى عن ذلك الإثم الجاهلى، وهو من إغواء الشياطين، ولعله كان يسهل على الذين يفعلونه معهم، أنهم يفعلون ذلك، وهم بعد فى المهد، أو عقب ولادتهم، فلم يكونوا تعلقوا بهم تعلق الآباء بالأولاد، وكانوا يفعلون ذلك سفها بغير علم، ولم يكونوا قد ذاقوا محبتهم؛ بالإلف، والتودد،

وقد قال تعالى فى بيان أن الفقر أو الإملاق لا يبرر؛ لأنهم لا يرزقونهم، ولكن يرزقهم الله، ولذلك قال تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ أى نحن نرزقكم معهم، كما رزقناكم وحدكم: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ... ⁽٦⁾﴾ [هود].

وقد فهم بعض العلماء من هذه الآية أن منع النسل لا يجوز بعزل أو نحوه، والعزل أن يلقى النطفة خارج الرحم، ولكن رويت آثار عن النبى ﷺ أنه رأى العزل، ولم يأمر به ولم ينه عنه[١]، ولكن جاء آخر الحديث فى هذا الباب، أن النبى ﷺ قال: «العزل هو الوأد الخفى»[٢].

وروى عن الصحابة أنه رأى أنَّ العزل ليس به من بأس، ولكنه خلاف الأولى، ورأى آخر منعه، والفقهاء بعد ذلك اختلفوا فيه، فمنهم من قال إنه مكروه، ومنهم من قال إنه حرام كالحنابلة وأهل الظاهر، والغزالى قال إنه لا يجوز إلا إذا كان ثمة عذر إليه، وفتح باب الأعذار على مصراعيه حتى لخشيت المرأة على جمالها، فإن زوجها يعزل عنها، ولكنه منع منعا مطلقا العزل أو حد النسل خوف الإملاق أو للإملاق، فإن ذلك يكون مصادمة للنص، ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق، والقول الفصل فى الحد من النسل المترتب على العزل ونحوه، أن جمهور الفقهاء لم يرضه، حتى إن الغزالى الذى فتح باب المبررات له، قال: إنه لا ينبغى.

ومهما يكن فإنه من المؤكد أن الذين قالوا ليس به من بأس قرروا أن ذلك بالجزء لا بالكل، أى أنه يكون لمن يريد ذلك أن يفعل، إذا كان له مبرر، على التوسعة فى المبرر عند الغزالى. ولكنه حرام بالكل، أى حرام أن يدعو أحد إليه،

---

(١) من ذلك ما جاء في باب العزل من صحيح البخاري ومسلم، ففي صحيح مسلم: النكاح- حكم العزل (١٤٣٨) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: ذُكِرَ الْعَزْلُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «وَلِمَ يَفْعَلُ ذَلِكَ أَحَدُكُمْ؟» وَلَمْ يَقُلْ: فَلا يَفْعَلْ ذَلِكَ أَحَدُكُمْ «فَإِنَّهُ لَيْسَتْ نَفْسٌ مَخْلُوقَةٌ إِلا اللَّهُ خَالِقُهَا».

(٢) سبق تخريجه.

أو تدعو الدولة إليه؛ لأن ذلك مناهضة للنص الكريم فى القرآن، وقوله: «تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة»(١).

وقد قرر مجمع البحوث الإسلامية المنعقد فى الأزهر سنة ١٩٦٥ أن الإسلام يرغِّب فى النسل؛ لأنه يقوى الأمة اجتماعيا، واقتصاديا، وحربيا، ويربى فى الأمة روح العزة والمنعة، وقرر أن تنظيم النسل حق للزوجين دون غيرهما، يستعملانه للضرورة، ومسئوليتهما عن الضرورة أمام الله وحده.

﴿وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾

هذه هى الوصية الرابعة،وهى تتصل بالأولاد عن قرب أو عن بعد؛ لأن أخص الفواحش هو الزنى وقد قال تعالى: **﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (٣٢)﴾ [الإسراء]**.

والفواحش: جمع فاحشة، والأصل فى الفحش الزيادة عن الأمر المعتدل، والفاحش هو الزائد عن المعقول، ولذا يقال غبن فاحش أى زائد عن الحد المعقول فى الصفقة؛ إذ لا يدخل فى تقويم المقومين، والفواحش هى المعاصى لأنها انحراف، وزيادة عن الفطرة وخروج عن منهاجها، وعن الطريق المستقيم، والظاهر ما يعلن، ويجهر به، والجهر بالمعصية فى ذاته حرام، وما بطن أى وما استتر ولم يجهر به، وهو إثم، ولكنه دون إثم المجاهرة،ومن يجهر بالمعاصى، فإن ما يفعله إثمان إثم الفعل وإثم المجاهرة، ولقد قال النبى ﷺ: «إن من أشد الناس بعدا عن الله المجاهرين» قيل: ومن هم، قال: «ذلك الذى يعمل عملا بالليل قد ستره الله فيصبح يقول فعلت كذا وكذا يكشف ستر الله»(٢)، ولقد قال ﷺ فيما رواه

---

(١) رواه أبو داود: النكاح - النهي عن تزويج من لم يلد من النساء (٢٠٥٠)، وأحمد: باقي مسند المكثرين (١٢٢٠٢). عن أنس رضي الله عنه.

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلا ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَيَقُولَ يَا فُلانُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ». متفق عليه : رواه البخاري: الأدب- ستر المسلم على نفسه (٦٠٦٩)، ومسلم: الزهد والرقائق - النهي عن هتك المسلم ستر نفسه (٢٩٩٠).

الشافعي: «يا معشر الناس من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فاستتر فهو فى ستر الله ومن أبدى صفحته أقمنا عليه الحد»(١).

ومن المعاصى ما يستتر استتارا؛ لأنه خلجات القلوب ولم يظهر فى العمل لا لعدول صاحبها، ولكنه فوجئ ما فوت عليه مقصده كمن بيَّت الاعتداء، أو الزنى، واتجه إلى الفعل، ولكن فات عليه ارتكابها لأمر خارج عن إرادته، فإنه يكون قد أبْطن معصيته، ولكن لم يُمكَّن من ارتكابها رغما عنه لا مريدا، فإن من الآثام ما يكون باطنا، وعليه الإثم، وكمن يهاجر إلى مكان لا يريد الهجرة لله أو لعمل صالح، ولكن يريد الفسق والفجور أو البغى، فإن هذا يكون فاحشة مما بطن. وهذا النص مثل قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ... (١٢٠)﴾ [الأنعام].

وقد يسأل سائل، إن هذا النص القرآنى وما يشبهه فيه نص على المؤاخذة على ما فى النفس وما يبطن، مع أن الحديث بأن الله تعالى لا يؤاخذ على ما يحدث المرء به نفسه، وقال عليه الصلاة والسلام: «من هم بحسنة فلم يفعلها كتبت له حسنة، ومن همَّ بسيئة فلم يفعلها لم يكتب عليه شىء»(٢)، فإن هذا حديث النفس أو همُّها، من غير أن تشرع بعمل، بل عدل من تلقاء نفسه.

وما فى النص السامى الذى نتكلم فى معناه هو من ارتكب الشروع، ولم يقتصر على حديث النفس ولا هم النفس والعدول، بل أراد الفعل وقصده، وأخذ فى الأسباب، ولكن لم يتم لأمر خارج عن إرادته.

---

(١) رواه مالك في الموطأ: الحدود- ما جاء فيمن اعترف على نفسه بالزنا (١٥٦٢).

(٢) رواه الإمام البخاري: الرقاق- من هم بحسنة أوسيئة(٦٤٩١)،وفي رواية: التوحيد(٧٥٠١). كما رواه مسلم: الإيمان- إذا هم العبد بحسنة(١٢٨)عن أبي هريرة رضي الله عنه. وعلى هذا فإن من هم بسيئة فلم يفعلها- ابتغاء مرضاة الله تعالى- كتبت له حسنة. والله أكبر.

﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾.

هذه هى الوصية الخامسة التى أوصى بها رب العالمين، وهى النهى عن قتل النفس التى حرم الله تعالى قتلها إلا بالحق، ويكون القتل بحق أى بسبب يوجب القتل.

وهذا النص يفيد تحريم قتل النفس أساسا، فهى على أصل المنع إلا أن يكون ثمة موجب لذلك؛ فإن ذلك يكون بحق لحماية النفوس العامة، وقد قال -تعالى- فى قتل قابيل أخاه هابيل حسدا وبغيا: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا (٣٢)﴾ [المائدة].

فالقتل حرام، إلا إذا كان ما يبرره فيكون بحق، ومن الحق الذى يوجب القتل، ويحل النفس، أن يقتل غيره أو أن يبغى، أو أن يحارب الله ورسوله وهم قطاع الطريق أو أهل الحرابة كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٤)﴾ [المائدة].

وهكذا نجد الحق الذى يبرر قتل النفس يكون لحماية النفس ذاتها، أو يكون صاحبها قد أباحها.

وإن النهى عن قتل النفس عام إلا إذا وجد ما يبرره؛ لأن الله تعالى حرم قتلها، فقوله تعالى ﴿الَّتِي حَرَّمَ﴾ قتلها فيه الصلة، وهى علة النهى، فقتلها منهى عنه؛ لأن الله تعالى حرمها، ولذا إذا أباح صاحبها نفسه بردة؛ أو محاربة للمسلمين، فإن الله تعالى لم يحرم قتلها، فلا نهى؛ لأنه مباح الدم.

وبذلك يتبين أن الله تعالى نهى عن قتل الذمى المعاهد، ومن دخل أرض المسلمين مستأمنا؛ لأن عهده عصم دمه، والله أعلم.

﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿ذَلِكُمْ﴾ الإشارة إلى المذكور من النهى عن الشرك والأمر بالإحسان إلى الوالدين، والنهى عن قرب الفواحش وهو نهى عن المقاربة لا عن الوقوع؛ لأنه نهى عن أن يدنو منها، فمن حام حول الحمى أوشك أن يقع فيها، والنهى عن القرب يدل على النهى عن الوقوع، والإشارة تشمل النهى عن قتل النفس، فهذا كله من وصايا الله سبحانه وتعالى، ووصايا الله تعالى جديرة بالاتباع، وجعل الخطاب فى الإشارة بـ (ميم الجمع) لعموم التوصية بهذه الأمور التى أشار إليها، وليتسق القول مع ﴿وَصَّاكُم بِهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أى لكى ترجوا دائما أن تكونوا متذكرين. وقوله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لعل فيه للرجاء والرجاء من العباد لا من الله تعالى.

والتوصية هى الطلب المؤكد من العباد.

﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾.

نهى الله تعالى أن يقربوا مال اليتيم أو يأخذوه، وكان التعبير بالقرب، ويكون بالأولى النهى عن أكله لأنه إذا كان النهى عن القرب إلا بالخصلة أو بالطريقة التى هى أحسن لإنمائه وحفظه وصيانته، ومنها الاتجار فيه إذا كان الوصى عليه أمينا قادرا ماهرا لقوله عليه الصلاة والسلام: «اتجروا فى مال اليتيم حتى لا تأكله الصدقة»(١)، كان أولى بالنهى أكله.

واليتيم هو الذى مات أبوه، والخصلة التى هى أحسن قال فيها بعض المفسرين، إنه المحافظة على أصوله وتثمير فروعه، ولو عَبَّر فقال المحافظة على الأموال الثابتة كالأرضين والدور والأغراس، وتثمير المنقول بكل طرق التثمير بالأمانة، ولا يأكلها، فإن التعبير يكون أوضح.

---

(١) سبق تخريجه.

وإنما كان النهى عن قرب ماله إلا بما يحفظه وينميه؛ لأنه فقد من يحميه، فَقَدَ الأب الحامى الذى يأخذ بيده إلى مدارج الحياة، يلاحظ جسمه، ويلاحظ ماله؛ إن كان له مال، وهنا لم يذكر إلا المال؛ لأنه مطمع الطامعين ومطلب الذين يأكلون أموال الناس أكلا لـمًّا.

وإن مال اليتيم هو جزء من مال الأمة؛ إن حوفظ عليه كان محافظة على جزء من ثروتها.

وإن المال أمانة فى يد وصيه، وفى رعاية الأمة مجتمعة ممثلة فى قاضيها، حتى يبلغ أشده، أى يبلغ السن التى يقدر فيها على المحافظة على ماله، والقيام على شئونه فى خاصة نفسه، وفى معاملته، والأشُد قيل جمع شَدّ، ككلب وأكلب، وقيل اسم لا مفرد له، والمراد ما ذكرنا وهو بلوغه حد القدرة على إدارة شئون ماله، وأدناه بلوغ النكاح بأن يكون قد بلغ السن التى يمكن أن يتزوج، وأن يبلغ رشدا، أو يؤنس منه الرشد، بعد بلوغه سن النكاح، قال تعالى: ﴿ **وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا** (٦) ﴾ [النساء].

وقد شدد الله تعالى فى الوصية باليتامى فى أموالهم وأشخاصهم لأنهم ضعاف، ولشدة الوصايا بالأيتام كان المؤمنون يخشون على أنفسهم أن يخالطوا اليتامى فيظلموهم أو يأكلوا مالهم فأمرهم الله تعالى أن يكون برهم بالمحافظة على أموالهم، ومخالطتهم؛ لأن المخالطة تقر بها نفوسهم، ويأنسون بها، فلا ينفرون من مجتمعهم، ولذا قال تعالى: ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ** (٢٢٠) ﴾ [البقرة].

وإن رعاية نفس اليتيم تجعله قريبا بنفسه إلى الناس، ولا ينشأ نافرا منهم؛ لأنه لا يجد الحماية والرعاية، وينشأ عدوا للجماعة التى يعيش فيها، ولذا قال

تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ ۝ ﴾ [الضحى] وقال ﷺ: «شر البيوت بيت يقهر يتيما، وخير بيوت المسلمين بيت يكرم فيه يتيم»(١).

هذا إصلاح فى الأسرة وهو إكرام اليتيم، وأوصى سبحانه وتعالى بالأمانة فى الجماعة، فهى رباط المودة فقال تعالت كلماته:

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾.

هذان هما الأمران السابع والثامن اللذان أوصى الله تعالى بهما فى ضمن عشر الوصايا، وهما الوفاء بالكيل فى المكيلات، والوفاء بالوزن فى الموزون بالقسط من غير بخس ولا شطط، ولا زيادة ولا نقص، بل للناس من وفاء الكيل بمقدار ما تطلب، وتعطيهم من الوزن بمقدار ما تطلب لو كنت طالب الكيل والميزان، وذلك على حسب الطاقة فى تحرى الحق فى مكيل غير منقوص، وموزون غير مبخوس؛ ولذا قال تعالى: ﴿لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ وإن الله تعالى إذ يطالب بالوفاء فى الكيل والميزان يذم المطففين لهما، فقد قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ ﴾ [المطففين].

وكان الأمر بالوفاء؛ لأنه المطلوب، فالزيادة غير مطلوبة إلا من أهل السماحة، والنقص محرم ممنوع.

وإن الوفاء فى الكيل والميزان يرمز إلى حسن التعامل فى الأمة، ومنع أكل أموال الناس بالباطل الذى يضعفها ويقتلها.

ولذا عقب الله تعالى النهى عن أكل أموال الناس بالباطل بالنهى عن قتل أنفسهم أى تفريق النفوس فى جماعتهم، فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝ ﴾ [النساء].

(١) رواه بنحوه ابن ماجه: الأدب - حق اليتيم (٣٦٧٩).

ولقد قال ابن عباس فيما روى عنه كلمة جامعة فى آفات الجماعات ونتائجها: (ما ظهر الغلول فى قوم قط إلا ألقى الله فى قلوبهم الرعب، ولا فشا الزنى فى قوم إلا كثر فيهم الموت، ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا قطع عنهم الرزق، ولا حكم قوم بغير الحق إلا فشا فيهم الدم، ولا ختر قوم بالعهد إلا سلط الله تعالى عليهم العدو)(١).

هذا وإن العدل فى الأمة ميزانها، ولذا قال تعالى:

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾.

أمر الله تعالى بالعدل فى القول، وأن لا نقول إلا عدلا، ولذا قال: **﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾** والعدل فى القول تحرى الحق فيه، فلا ينطق بأمر لا يكون حقا.

والعدل فى القول يشمل الحكم بين المتخاصمين، كما قال تعالى: **﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ (٥٨)﴾** [النساء]. وتشمل الفصل فى الخلافات بين الناس ، فلا يقول إلا الحق، لأن الحق يحسم النزاع ويقطع دابر الخلاف، ويشمل القول فى الشهادة، فلا ينطق إلا بما رأى وعاين، فإن الشهادة حكم أو هى طريق الحكم ودليله، وإذا قلت فى مباراة فكن عادلا، وإذا قلت فى امتحان فكن عادلا؛ لأن الامتحان تقدير كفاية فهى حكم.

والعدل ميزان الحق فى معاملات الناس وأحوالهم، والإسلام دين العدل، وإذا كان لكل دين سمة فسمة الإسلام هى العدل، ولذا قال تعالى : **﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠)﴾** [النحل].

ولذا كان العدل رابطة الجماعة وميزانها، وقال تعالى: **﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾** أى ولو كان الذى يقوم عليه العدل فى القول فى حكم أو شهادة، أو فصل فى

---

(١) الرواية موقوفة على ابن عباس في موطأ مالك: الجهاد - ما جاء في الغلول (٩٩٨). وختر العهد: نقضه.

خصومة، أو مباراة، أو امتحان، فإنما العدل حيث تتنازع العواطف، وتمتلك النفوس هو فعل الأبرار، وهو المقياس الذى تتفاوت به مراتب العدول.

وإذ كان العدل ميزان الترابط بين الجماعات فى الأمة، فالوفاء بالعهد ميزان العدالة فى الأمم، ولذا قال تعالى:

﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾.

هذه هى الوصية العاشرة من وصايا الله تعالى وهى تطلب من الناس أجمعين الوفاء بالعهد، وقوله تعالى: **﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾** قدم فيه **﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾** لأهمية الوفاء بعهد الله، ولمعنى الاختصاص، أى احرصوا على الوفاء بعهد الله دون غيره.

وعهد الله تعالى الذى يتجه إليه؛ ما عهده إلى بنى آدم من فطرة مستقيمة أنشأهم عليها، كما قال تعالى: **﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ (١٧٢)﴾** [الأعراف]. وإن تكليفات الله تعالى عهود عليهم.

والعهود بين العباد عهود الله تعالى عليهم؛ لأنهم عادة يوثقونها بأيمانهم، وقد قرر سبحانه وتعالى ذلك، وقال: **﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢)﴾** [النحل].

فهذه الآية تحث على الوفاء بما يكون من العهود بين الآحاد والجماعات، **وهى تدل على ثلاثة أمور:**

أولها- أن من وثّق عهده بالله فقد جعل الله تعالى كفيلا بالوفاء، والخيانة أو خفر العهد خيانة لله تعالى.

ثانيها- أن الوفاء بالعهد يقوى الأمة فيجعل الناس يثقون بها، وتلك قوة، ولذلك شبه الله تعالى من ينقض عهده بالحمقاء التى تنقض ما فتلته من غَزْل، فتجعله أنكاثا شعرا متفرقا.

ثالثها- أنه لا يصح أن تكون الرغبة فى زيادة الأرض والسلطان سببا لخيانة العهد؛ لأن ذلك ظلم وطغيان، وفقد لقوة أكبر وأعز من النكث فى العهد والخيانة فيه.

وصدق ما قاله ابن عباس فيما نقلنا (ما خفر قوم فى العهد إلا سلط الله تعالى عليهم عدوهم).

هذه وصايا الله سبحانه وتعالى، ويلاحظ أنه لم يذكر فى هذه الوصايا الصلاة والزكاة والصوم والحج، وهى من أركان الإسلام، والصلاة عمود كل دين، وكما قال النبى ﷺ: «لا دين من غير صلاة»[١] لأنها لب العبادة.

ولماذا لم تذكر الصلاة فى هذه الوصايا، مع أنها لا تقل طلبا فى الإسلام عما ذكر من الوصايا العشر؟ ونجيب عن ذلك بثلاثة أمور.

أولها- أن المطالبة بها ذكرت إجمالا فى قوله تعالى: ﴿**وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا**﴾ وقد ذكرنا أن أول عهود الله تعالى تكليفاته التى كلفها عباده.

ثانيها- أن هذه الوصايا مجمع عليها فى الأديان، وهى الأساس النفسى والعملى لتكوين الجماعات الفاضلة، وقد جاءت بها الأديان كلها، ورضيتها الشرائع الوضعية المستقيمة.

ثالثها- وهى أهمها، أن هذه الآية مكية، ولم تكن الصلاة ولا الصوم ولا الحج قد فرض، والزكاة لم تكن قد نظمت كما ذكرنا آنفا.

---

(١) رواه أبو داود: الخراج والإمارة - ما جاء في خبر الطائف (٣٠٢٦)، وأحمد: مسند الشاميين - حديث عثمان بن أبي العاص (١٧٤٥٤)، بلفظ: «لا خير في دين لا ركوع فيه». أي لا صلاة فيه.

وقد بين الله تعالى من بعد أن هذه الوصايا هى طريق الله الحق الذى بينه لعباده، فقال تعالى:

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ .

(الواو) واو العطف، فهى عاطفة هذه الآية على ما قبلها من الوصايا، و(أنَّ) مفتوحة، فهى ليست صدر جملة مبتدأة، بل مصدر منسبك مع ما بعدها، وعاملها (اتل)، واتل عليهم، وبين لهم أن هذا صراطى مستقيما لا عوج فيه، والصراط: الطريق، فطريق الله تعالى مستقيم، والمستقيم أقرب طريق يوصل إلى الحق، كما أن الخط المستقيم أقرب خط بين نقطتين.

والإشارة إلى ما يبينه الله تعالى من ضلال الذين يحرمون ما أحل الله، وبيان ما أحل وما حرم وبيان ضلال من قتلوا أولادهم سفها بغير علم، وما بينه الله تعالى من نهى عن الشرك، وطلب الإحسان إلى الوالدين، والنهى عن قتل الأولاد من إملاق، والنهى عن القرب من الفواحش والنهى عن قتل النفس التى حرم الله قتلها، والأمر بالإحسان إلى اليتيم ووفاء الكيل والميزان، والعدل فى القول والوفاء بعهد الله.

كل هذه المعانى، أو جماعها هو طريق الله تعالى وهو طريق مستقيم، وقوله تعالى ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ حال من اسم الإشارة.

والطريق المستقيم الذى هو صراط الله، والذى هو الخط الذى بينه الله تعالى لعباده يجىء بجواره سبل مختلفة هى مثارات الشيطان يضل بها عباد الله تعالى عن الطريقة المثلى، والمنهاج السوى الهادى.

ولقد روى ابن مسعود قال: خَطَّ رسول الله ﷺ خطا بيده، ثم قال ﷺ: «هذا سبيل مستقيم» وخط عن يمينه، وعن شماله ثم قال: «هذه السبل ليس

منهـا سبـيل إلا على رأسه شـيطان يدعو إليـه»، ثم تلا قوله تعـالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾»(١).

ومعنى قوله تعالى ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ أن هذه السبل التى هى مثارات الشيطان فيها أمران يخرجان بهما عن سبيل الله.

أولهما- أنها آثام لا استقامة فيـها بل هى معوجات مضلة. وثانيها- أنها مع مـا فيـها من إثم تبـعد عـن الحق وتتفـرق فى باطلهـا، فهى لا تلتـقى مع الخط المستقيم، وتتفرق بعضها عن بعض.

جاء فى سنن ابن مـاجه بسنده عن العِرْباض بن سارية قـال: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيـون ووجلت منها القلوب، فقلنا يا رسول الله إن هذه موعظة مودع فمـا تعهد إلينا، فقال: تركتكم على البيـضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك من يعش منكم فسيرى اختـلافا كثيرا فعليكم بما عرفتم من سنتى وسنة الخلفاء الراشـدين المهديين بعدى. عضوا عليـها بالنواجذ، وإياكم والأمور المحدثات، فإن كل بدعة ضلالة، وعليكم بالطاعـة وإن كان عبدا حبشيا، وإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما قيد انقاد»(٢).

اللهم إن اتباع السبل المتفرقة التى هى مثارات الشيطان، والتى على كل رأس منها شيطان هى التى فرقت أمتك وجعلت بـأسها بينها شديدا، اللهم فاهدها إلى صراطك المستقيم.

وإن هذا الصراط هو جماع التوصيات؛ ولذا قال الله تعالى:

﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ويصح أن نعد هذه الوصية العاشرة، وتكون الوفاء بالكيـل والميزان وصيـة واحدة، وهو أولى والإشارة إلى الصـراط المستـقيم

---

(١) رواه أحمـد: مسند المكثرين - مسند عـبد الله بن مسـعود رضي الله عنه (٤١٣١)، والدارمي: المقدمة- في كراهية الرأي (٢٠٢).

(٢) رواه ابن ماجه: المقدمة-اتباع سنة الخلفاء الراشدين(٤٤)، وأحمد: مسند الشاميين(١٦٦٩٢) من حديث الْعِرْبَاض بْن سَارِيَةَ رضى الله عنه.

وصى الله تعالى به، أى أمرنا بالوقوف على هدى الله فى هذا الصراط أمرا مشددا بألا نحيد عنه؛ لأن التفرق فيه يجعل أمرنا سددا بددا، لا تجمعنا فيه جامعة، ولا نسلك طريق هداية، ولذلك قرر بعد هذه التوصية المؤكدة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أى رجاء أن تمتلئ قلوبكم بتقوى الله تعالى، وأن تجعلوا بينكم وبين عذابه وقاية، ولعلكم أن ترجو رحمته بعد خوف عقابه، فإن الله غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا، ثم اهتدى.

الرسالة المحمدية حجة على المشركين

ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ
أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ
رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ
وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ
عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ
﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ
فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ
يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

بين الله تعالى صراطه المستقيم، وهو صراط القرآن العظيم، وقد أشرنا من قبل إلى أن هذه وصايا الأديان كلها، ومن بعد ذلك أشار سبحانه وتعالى إلى شريعة موسى مبينة مع شريعة القرآن ليعلم العرب أن ما جاء به النبى ﷺ وما نزل عليه من قرآن هو تكملة للرسالة الإلهية، فقال تعالى:

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾.

(ثم) هنا عاطفة على الصراط المستقيم، وما سبقه من وصايا، وفهم من التعبير بـ (ثم) هنا أنها لمجرد العطف على التراخى من غير ترتيب؛ لأن ما يتعلق بموسى عليه السلام سابق على شريعة محمد ﷺ قال الحافظ ابن كثير ذلك، وقال إنه ترقّ فى الخبر من الحاضر إلى الماضى، واستشهد بقول الشاعر:

قلن لمن ساد ثم ساد أبوه ثم من قبل ذلك قد ساد جده

ونحن نرى أن (ثم) هنا للترتيب والتراخى أيضا؛ لأن الترتيب والتراخى كما يكون فى المستقبل يكون فى الماضى، فهو قد ذكر الأب، ثم ذكر الجد، وذلك تراخٍ فى الزمن الماضى. وليس ذلك غريبًا فى استعمال (ثم)، فهو ترقٍ فى الذكر من الحاضر إلى الماضى، وفى الماضى ذلك التراخى، وإن ذلك يتلاقى مع قول أبى السعود: إن (ثم) تجىء للتراخى فى الإخبار مع الترتيب، كأن تقول: قابلتك اليوم، ثم بالأمس، ثم قبل ذلك، فإن استعمال (ثم) هنا فى موضعها.

ويكون معنى قوله تعالى: **﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾** إننا وصينا بالصراط المستقيم الذى هو صراط الله تعالى، وهوالقرآن الكريم، ثم من قبل ذلك آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن وتفصيلا.... أى أن هذه الوصايا العشر، قد آتيناها من قبل موسى، كما قال تعالى: **﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً (١٤٥)﴾** [الأعراف]. وكما قال تعالى: **﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا (٩١)﴾** [الأنعام].

وكما قال تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴿١٧﴾﴾ [هود]. وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا.

وفى الجملة: إن الله تعالى يقرر بهذا أن الشرائع السماوية فى الدعوة إلى الخير والنهى عن الشر ظاهره وباطنه وأن حديثها فى الوحى والتنزيل واحد.

وقال تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ﴾ أى تتميما وتكميلا لنعمة الهداية فلا شىء أتم من الهداية والتوفيق إلى الصراط وبيان الحق، ولأنه الكمال والتمام للخير جعله الله تفصيلا لكل شىء من شئون الهداية والتوجيه، فهو كتاب قد آتاه اللهتعالى موسى فيه كمال الخير وبيانه، ووصفه الله سبحانه وتعالى بوصفين كريمين.

أحدهما- أنه هدى فهو يهدى إلى الحق ويرشد الذى أحسن التلقى، وكان قلبه مفتوحا للحق ويدخل إليه، ويصل إليه، ولم ينطمس قلبه وبصيرته، ولم يكن على بصره غشاوة.

وثانيهما- أنه رحمة، ففيه تفصيل الخير، وبيان الوصول إلى الحق فى كل مسالك الحياة، والهداية ذاتها رحمة، والشريعة التى جاءت بها التوراة رحمة بمن بعث موسى عليه السلام لهم، وإن هذه الهداية والرحمة، الأخذ بها هو طريق لرجاء الإيمان باليوم الآخر، ولذا قال سبحانه ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

أى أن الله تعالى آتى موسى هذا الكتاب تتميما وتكميلا للذى أحسن التلقى، وشرح صدره لقبول الحق، وجعله الله تفصيلا للحق وبيانا له ،ونورا وهدى ورحمة - كان رجاء أن يؤمنوا بلقاء ربهم، فقوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ الرجاء فيها من العبيد لا من الله تعالى.

وهنا يسأل سائل، لماذا كان الرجاء فى الإيمان باليوم الآخر وبلقاء الله تعالى، ولم يذكر سبحانه وتعالى غيره مع أن الإيمان له عناصر غير مجرد الإيمان بلقاء الله تعالى؟ ونقول فى الإجابة عن ذلك، إن الإيمان بلقاء الله تعالى هو

الجامع لكل معانى الإيمان، فمن آمن باليوم الآخر لا يصعب عليه الإيمان بأى جزء من أجزاء الإيمان من بعد، ولذلك كان النكير من العرب والاستغراب فى الإيمان بالبعث والنشور.

وفى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ ذكر لقاء الله الذى خلقهم وربهم كناية عما يكون فى اليوم الآخر؛ لأن لقاء الله تعالى هو أعظم ما يكون فى يوم الدين.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾.

الإشارة إلى القرآن لأنه حاضر مهيأ كامل، وهو مبارك لأنه يشمل الخير والحق والفضل، وفيه مصالح الناس فى معاشهم، وفيه الشريعة الإنسانية الكاملة ما ترك صغيرة ولا كبيرة من أمر الدين إلا بينها وفصلها تفصيلا، ففيه ما يطهر الروح والجسم، وفيه ما يطهر الجماعة وينميها، وفيه ما يجمع الناس على الود والرحمة، وفيه ما يحقق العدالة والميزان فى هذا الوجود، فهو مبارك، وإنه لمستمر لكل من يتلقاه مهتديا بهدى الله تعالى، فهو حبل الله تعالى إلى يومه فهو مبارك فى كل نواحيه. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢)﴾ [الأنعام].

وإذا كان الكتاب له هذه البركة وهذه الهداية فإن اتباعه يكون واجبا ولازما، لمصلحتهم، فإن فيه النفع العميم؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾، (الفاء) تفصح عن شرط مقدر وجوابه الأمر (اتبعوه)، وقوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ كان لرجاء الخير منه، وقوله بعد ذلك: ﴿وَاتَّقُوا﴾ كانت للوقاية من العذاب، فالاتباع لرجاء النفع، والاتقاء لتجنب ما يترتب على المخالفة من عقاب بعد الحساب، فالأمران فيهما ترغيب فى الخير بالاتباع، وترهيب باتقاء نار جهنم عند الاختلاف والمعاندة، وختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

أى إذا اجتمع اتباع القرآن والأخذ بهدايته وشريعته، وكانت التقوى فى قلوبكم، فإن الرحمة ترجى لكم، ولذا قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أى رجاء أن تكون رحمة الله تعالى تعمكم، ورحمة الله وسعت كل شىء والرجاء من العبيد، لا من الله، ويصح أن نقول إن الآية فيها بيان أن الرحمة هى الغاية المرجوة للاتباع والتقوى.

وهنا يجب أن نلاحظ أن القرآن الكريم يذكر دائما شريعة موسى عليه السلام، وذلك لأن موسى أنزل عليه الكتاب وهو التوراة فيه بيان كل شىء وفيه ما كان عقابا لبنى إسرائيل، ولذلك عندما سمع نفر من الجن قالوا كما أخبر القرآن الكريم: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١)﴾ [الأحقاف].

وإنه كان من المشركين من يعتذرون عن عبادة الأوثان بأنه لم يجئ إليهم من يهديهم كاليهود والنصارى، فذكر الله سبحانه وتعالى أنه أنزل إليهم الكتاب المبارك لكى يقطع عذر جهلهم، فقال تعالى:

﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾.

المشركون كانوا يعتذرون عن وثنيتهم بكل تعلة سواء أكانت مقبوله أو مرذولة، فهم كانوا يرون اليهود والنصارى لا يعبدون الحجارة، وإن كان فيهم - خصوصا النصارى - من يقدسون بعض الأحجار كتمثال العذراء. فكانوا يعتذرون عن وثنيتهم بأنه لم يجئ كتاب يهديهم إلى الحق كهاتين الطائفتين.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ﴾ متصل بالآيات التى قبلها، فهى قطع الطريق عن تعلة متعللون، وهو أنهم لا كتاب يهديهم، فالمعنى وهذا كتاب مبارك خاطبناكم لئلا تقولوا معتذرين، أو فأنزلناه حجة عليكم، حتى لا تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين.

وقد اعتذروا باعتذارين:

أولهما- أنهم قالوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا، والطائفتان هما اليهود والنصارى، والكتاب المذكور هو فيما يظهر التوراة، فهى مصدر عند اليهود والنصارى، كما هو مقرر عند النصارى فى هذا الزمان، وقد قرروا قصر هذه الكتب على هاتين الطائفتين، بكلمة (إنما)، أى الإنزال مقصور على هاتين الطائفتين، ولم ينزل علينا، وما كنا لنكلف بكتاب لم ينزل علينا إنما نزل على غيرنا.

ثانيهما- أننا كنا عن دراستهم غافلين غير مهتمين بدراسة ما عندهم، ولا ظالمين ولكن غافلين عنه، ولأننا لا نعرف لغة الكتاب، ولم يبلغ إلينا.

وقوله تعالى: **﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾** (إنْ) هى المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، والمعنى أنه الحال والشأن كنا عن دراستهم غافلين لا نعرفها،ولم ننبه إلى معرفتها.

وقد أكدوا غفلتهم عنها بعدة مؤكدات.

أولها- (إنْ) المخففة فهى للتأكيد. ثانيها- (كنا)، وهى تدل على استمرار غفلتهم، ثالثها- الجملة الإسمية فهى تؤكد ثبوت الغفلة، رابعها- (اللام).

وكان تسجيل الغفلة عليهم وتأكيدها، لتأكيد عذرهم.

وقد بين الله تعالى أنه قطع عليهم عذرهم بإنزال القرآن الكريم فلا حجة لجهلهم من بعد بيانه، وإنه المبارك والنور، وفيه الهداية، وفيه الشريعة الكاملة.

﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾.

(أو) عاطفة على (أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين. . .) فإنزال الكتاب الكريم لكيلا يقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين، أو يقولوا لو أنا أنزل

علينا الكتاب لكنا أهدى منهم، فالآية السابقة اعتذار أو فى معنى الاعتذار عن شركهم وإيمان غيرهم، وهذا لبيان ما يرجون لأنفسهم من فضل لو أنزل عليهم كتاب مثل ما أنزل على غيرهم، بل إنهم يحسبون كما يحسب كل مفتر أنه لو جاء إليهم أمر من الأمور لعملوا بما يدعو إليه.

وإن المشركين قرروا ذلك كما حكى عنهم القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ (٤٢) ﴾ [فاطر].

أكدوا أنهم لو أنزل عليهم الكتاب لكانوا أهدى منهم فقالوا (لو أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم)، الكتاب المراد الذى أنزل على الطائفتين من قبلهم، ولكنه لم ينزل علينا، فلهم الهداية دوننا، و(لو) هنا حرف امتناع لامتناع، أى امتنع علينا أن نكون مثلهم لأنه لم ينزل علينا مثلهم.

أنزل الله تعالى الشرطية الأولى، وهى أنهم لم ينزل عليهم، فقال تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾.

وعبر عن الكتاب الكريم بقوله (بينة) إذ المعنى فقد جاءكم كتاب هو بينة، وعبر بهذا التعبير للإشارة إلى أنه بين فى ذاته، وهى بينة فيها ما يدل على صدق النبى ﷺ والدلالة على النزول من عند الله تعالى، فهو كتاب بيِّن يحمل فى نفسه دليل صدقه؛ لأنه حجة يتحدى بها، وقد تحداهم أن يأتوا بمثله فعجزوا عجزا مبينا.

و(الفاء) فى قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءَكُم﴾ للإفصاح عن شرط مقدر مضمونه فى كلامهم، أى فإذا كنتم تطلبون أن ينزل عليكم كتاب، فقد جاءكم.

وقد وصف سبحانه الكتاب بأربعة أوصاف.

أولها- أنه ﴿بَيِّنَةٌ﴾، أى هو بين فى ذاته، وفيما دل عليه من شرائع بينها وفصلها، وأحكم بيانها.

ثانيها- بأنه ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الذى خلقكم ويعرف ما يصلح أموركم، وينفعكم فى معاشكم ومعادكم.

وثالثها- أنه فيه الهداية إلى الصراط المستقيم وإصلاح نفوسكم، وهداية جمعكم.

ورابعها- أن فيه الرحمة بكم؛ لأن فيه الشريعة المحكمة وهى رحمة للعالمين، ولأنه هو نبى الرحمة، قد جاءكم القرآن بما تطلبون أو بما تتمنون، أو بما يكون فيه ادعاؤكم، فهل آمنتم؟ كلا، لم يؤمنوا، وكان كلامهم غرورا أو تغريرا، وهو ضلال فى كل أحواله، بل كذبوا بآيات الله، وانصرفوا عنها، ودعوا الناس للانصراف عنها، فضلوا وأضلوا وأشاعوا فساد الفكر والاعتقاد بين الناس، وهم بهذا أشد الظالمين، ولذا قال تعالى:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ إنهم بعد أن جاءتهم الرسالة مع الكتاب الذى ادعوا أنه لو أنزل عليهم الكتاب لكانوا أهدى الأمم أى أكثرها هدًى، فلما جاءتهم كذبوا بها، وكذبوا بآيات الله التى أقامها عليهم فى التصديق برسالة النبى ﷺ، كذبوا بالآيات الكونية الدالة على وحدانية الخالق فكذبوا بدلالتها على هذه الوحدانية، وكذبوا بآيات القرآن فلم يصدقوه، وهو آية كبرى، فكانوا ظالمين أشد الظلم، ولذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ (الفاء) للإفصاح عن شرط مقدر، أى أنهم إذا كانوا قد كذبوا الرسول الذى جاء ببينة من عند ربهم فقد ظلموا، والاستفهام هنا لإنكار الوقوع، أى النفى مع التوبيخ أى لا أحد أظلم ممن كذب بآيات الله تعالى، وصدف عنها فقد ارتكب **ظلمين فاحشين**:

أولهما- أنه كذب بآيات الله تعالى الدالة على كمال ربوبيته ووحدانيته وعاند الله تعالى فى رسالة نبيه وتكذيبه له، وإن ذلك ظلم وكفر، وضلال.

ثانيهما- أنه صدف عنها، أى أعرض عنها إعراضا شديدا، فانصرف عنها، وعمل على أن يصرف غيره عنها، فالصدف الانصراف عنها، وصرف الناس عنها

بتضليلهم، وإيذاء المهتدين لحملهم على الضلال والفساد، والتحريض على ضعاف المؤمنين، وإيجاد رأى عام ضال مضل، ولقد أنذر الله تعالى الذين أعرضوا عن الحق، ودعوا الناس إلى الإعراض وآذوا من لم يعرض عنه، وسلك سبيل المؤمنين، فقال تعالت كلماته:

﴿سَنَجْزِى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾.

(السين) هنا لتأكيد الوقوع فى المستقبل، وعبر بالسين الدالة على قرب الوقوع المؤكد؛ للدلالة على قرب الوقوع، وتأكده، وكل آت قريب ما دام مؤكد الوقوع.

وأسند سبحانه الجزاء إلى ذاته العلية، لتأكد وقوعه، فإن الله لا يخلف الميعاد عذابًا أو ثوابًا.

وعبر سبحانه وتعالى عن الظالمين بالاسم الموصول، وهو إشعار بأن الصلة هى السبب فى هذا الجزاء الشديد الذى وصفه سبحانه بأسوأ العذاب، أى عذاب وقعه يسوءهم، ويؤلمهم وهو فى ذاته سوء لا يكون إلا لمن تكون عاقبته السوءى، ولمن كان يفعل ما يسوء، ويكفر بالله تعالى، وذكر سبحانه السبب فى هذا العذاب الذى هو سوء فى ذاته، فقال: ﴿بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ أى بسبب استمرارهم على الصدف بإعراضهم، وحمل الناس على أن يعرضوا عن سبيل الله سبحانه وتعالى.

وهكذا نرى المشركين فى ضلال مستمر، فهم يضلون فى أقوالهم وأفعالهم، وشركهم، وقانا الله شر مآلهم.

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟

إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾

أتى الله تعالى بالبينات فكذبوها، وأرسل عليهم الرسل بمعجزات قاهرة فلم يصدقوها، وأرسل إليهم محمدا خاتم النبيين فكذبوه، فلم يبق إلا أن ينتظروا العذاب، وما يسبقه، والقيامة وما يتبعها من حساب وعقاب. منهم قد يئس الحق من أن يدركوه، ولذا قال تعالى:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾.

أكثر المفسرين على أن ذلك عندما يحين حين هذه الدنيا، والاستفهام إنكارى توبيخى، لا ينتظرون بعد هذا التكذيب إلا أن تأتيهم الملائكة تقبض أرواحهم، أو يأتيهم ربك أى أمر ربك، فهى من قبيل حذف المضاف والاكتفاء بذكر الله تعالى، وأمر الله شديد لا قبل لكم باحتماله، إذ يتغير الكون، وينفخ فى الصور **﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ﴾**، من تغيير كل شىء فى الكون إذ تقوم القيامة.

﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ﴾، ولم ينفعها خير لم تكن قد قدمته من قبل، وهذا قوله تعالى: **﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾**.

﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾، وهى ما يجىء يوم القيامة، وقد فسر النبى ﷺ بعض هذه الآيات، فقد روى أنه ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات، طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، ويأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم، وخروج الدجال، وثلاثة خسوف، خسف بالمشرق وخسف

بالمغرب وخسف بجزيرة العرب»[1] رواه أحمد، وصححه الترمذى، وقال حديث حسن صحيح.

وإذا كان ذلك اليوم المشهود يكون انتهى العمل وبقى الجزاء، تكون الدنيا قد انتهت وابتدأت الآخرة، فلا ينفع إيمان لأنه قد جاء بعد إبانة، وفات أوانه، فلا ينفع نفسا إيمانها؛ إن آمنت، إذ الإيمان يكون والنفس فى فسحة من مجىء هذا اليوم، أو إذا كانت كسبت خيرا فى إيمانها لا ينفع فى ذلك اليوم، فهو ليس يوم الكسب بل هو يوم الجزاء فلا إيمان يجدى، ولا ينفع كسب كسبه فى إيمان فى ذلك اليوم لأنه إذا كان الإيمان لا يجدى، فما يكتسبه فيه لا يجدى، (أو) فى معنى الواو هنا، ولكن عبر بها لتنويع عدم النفع، إذ لا ينفع إيمان، ولا ينفع كسب مع إيمان، إذ إن هذا هو يوم الجزاء.

هذا تفسير المفسرين، وقد خطر خاطر أذكره غير جازم به، ولكنى أذكره على أنه احتمال وذلك أن قوله تعالى: ﴿**يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ**﴾ أنهم لم تجئهم بينات النبى ﷺ وقد طلبوا أن تنزل عليهم الملائكة، ولو جعله الله ملكا لجعله رجلا، وللبسنا عليهم ما يلبسون، وطلبوا أن يروا الله كما طلب بنو إسرائيل أن يروا ربهم، وقالوا أرنا الله جهرة.

وطلبوا هم بعض آيات كونية، ومن ذلك ما حكى القرآن الكريم عنهم، إذ يقول تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥)**﴾ [الإسراء].

---

(١) كما رواه مسلم: الفتن وأشراط الساعة - في الآيات التي تكون قبل الساعة (٢٩٠١).

هذه آيات طلبوها، أن تسقط كسفا من السماء أو يأتى الله والملائكة قبيلا فالله تعالى يقول فى هذه الآية: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ﴾ هذه الآيات، أن تأتيكم الملائكة، أو يأتيكم ربكم أو بعض آيات ربكم لتؤمنوا، وقد كفرتم بكل الآيات، ثم هددهم بأن تأتيهم بعض آيات ربك فتكون القيامة، ولذا قال سبحانه آمرا نبيه أن يقول لهم: ﴿قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾.

قل يا محمد يا خير الخلق: ، انتظروا بعض آيات ربك التى تستقبلكم، فيكون الحساب والعقاب، وإنا منتظرون لنلقاكم فيكون الجزاء بعد الحساب وحينئذ ينزل العقاب بكم على كفركم، وينال المؤمنون الثواب لإيمانهم والله بكل شيء محيط، وإن ذلك جزاء المشركين. ومثل المشركين، الذين فرقوا دينهم، وكانوا شيعا وأحزابا فى دينهم من غير المشركين ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾.

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى المشركين وأحوالهم، وكفرهم بالآيات البينات أخذ يبين سبحانه وتعالى غير مشركى العرب من يهود ونصارى وصابئة، وقد تفرقوا فرقا مختلفة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾.

وقراءة حفص بتشديد الراء[1]، وهناك قراءة بالمد (فارقوا دينهم) وتكتب فى المصحف من غير ألف كشأن كثير من حروف المد فى القرآن كالسموات، ولقد قال على كرم الله وجهه: فرَّقوا حتى فارقوا.

وإن موضوع الآية الكريمة أهل الكتاب، فقد تفرقوا فى دينهم فرقا مختلفة قبل الإسلام فكان فى اليهود الأريسيون والصدوقيون، ومنهم من لا يؤمن بالآخرة، وكان منهم الربانيون والقرارون، وكل فرع بما عنده يشايع فرعه، ويعادى

---

(١) ﴿فرقوا﴾ هي قراءة العشرة غير حمزة والكسائي، وأبي غالب عن الأعشى عن أبي بكر عن عاصم. فقراءتهم: ﴿فارقوا﴾. غاية الاختصار (٨٨٢).

غيره، ومن النصارى السامرة الذين ليسوا من بنى إسرائيل، ولكن ينفون عنهم مع أنهم يؤمنون برسالة موسى عليهم، وإن لم يكونوا فى طغيان بنى إسرائيل.

والنصارى اختلفوا قبل الإسلام فيما بينهم فكان منهم الكاثوليك الذين يسمون فى التاريخ العربى الملكانية، والأرثوذكس الذين كانوا على فرق مختلفة، ومن بعد الأرثوذكس الأقباط، وكانوا يسمون فى التاريخ العربى اليعقوبيين وأرثوذكس اليونان والرومان، وغيرهم.

وكان منهم قبل الإسلام النسطوريون، وهكذا اختلفوا على غير جامع من الحقائق يجمعهم، وإن جمعهم اسم النصارى، ولذا قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) ﴾ [مريم].

فواضح من سياق القرآن الكريم وتاريخ النصارى واليهود أنهم اختلفوا وفرقوا دينهم شيعا، وقد أكد القرآن الكريم أن الاختلاف بعد أن جاء الحق بينا؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (٤)﴾ [البينة].

ولقد قال بعض المفسرين: إن موضوع الآية هم المبتدعة من أمة محمد ﷺ الذين فرقوا دينهم من خوارج وشيعة، ونهجوا غير منهاج السنة.

ولقد اختار الحافظ ابن كثير أن الآية الكريمة شاملة كل من يختلفون فى دينهم من أهل الكتاب الحاليين الذين فرقوا دينهم من بعدما أوتوه من علم جامع، والذين يفرقونه، ويحذون حذوهم من بعد ذلك فى أمة محمد ﷺ الذين يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية.

وأقول: إن الآية موضوعها أهل الكتاب فى مقابل الوثنيين الذين ضلوا مثل ضلال الوثنيين، ومظهر ذلك اختلافهم فى أصل دينهم ومروقهم من حقيقة ما أمر

به ربهم، وما فعلوه بعد ذلك من أمة محمد ﷺ يدخلون مدخلهم بالقياس أو الاتباع لهم فهم مثل ضلالهم.

والتشيع- هنا معناه الفرق التى يشايع كل واحدة منها زعيما يكون على الضلال فيتبعونه عن غير بينة وهداية.

ولقد حكم الله تعالى على هذه الشيع ببراءة النبى ﷺ: فقال تعالى: ﴿**لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ**﴾ أى أنك برىء منهم، لأنك لست منهم فى منازعهم ومفترقهم فى شىء ومن الاتصال، فقوله تعالى: ﴿**فِي شَيْءٍ**﴾ تأكيد فى نفى اتصاله بهم وتأكيد لمغايرته لهم فى دعوته، ويترتب على ذلك أن تبعة هذا الافتراق لا تعود إليك؛ إنما أنت نذير، ولكل قوم هاد، ولذا قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾.

بين سبحانه وتعالى فى هذا النص السامى أن أمرهم فى مصيرهم ونهاية أمرهم هو لله وحده، فهو الذى يتولاهم بالحساب، ومن بعده العذاب، و(إنما) هنا دالة على القصر، أى أن أمرهم إلى الله وحده، وفى ذلك من الترهيب بأمر الله تعالى ما فيه من إنذار بالهول الشديد والعذاب العتيد، ولذا قال تعالى: ﴿**ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾ الإنباء والتنبىء معناه الخبر الشديد الخطير، ومعنى إنبائهم بما كانوا يفعلون إنباؤهم بما ينتظرهم من العقاب بما كانوا يقولون، فينالون من بعد ذلك جزاؤه، ويصح أن يكون الإنباء بإنزال العذاب فعلا، فيكون الإبناء بالفعل لا بالقول، ويكون معناه أنه عذبهم بفعلهم لأن فعلهم هو الذى اقتضى العقاب، فهو سببه وملازمه لا يفترق جزاء بما كسبوا.

وفى التعبير بـ (ثم) إشارة إلى افتراق حالهم فى دنياهم عن حالهم فى أخراهم افتراقا بينا؛ لأن بينهم مسافة بعيدة اقتضت التعبير بما يدل على التراخى، والله أعلم.

ما أنعم الله به على من هداهم

﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ
فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي
إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ
﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ
نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾

ذكر الله تعالى أحوال الكافرين بالرسالة المحمدية، وعناد المشركين الذين عاندوا وكفروا بالآيات كلها، وأعقبهم بالإشارة إلى المتنابذين الكفار من أهل الكتاب وضلالهم.

وكان لا بد من بعد ذلك من أن يذكر النور بعد الظلام، فأخبر سبحانه وتعالى عن المهتدين، وأنه يضاعف الحسنات، ويعفو عن السيئات إذا صدق الإيمان، وكانت الهداية الغالبة فى أعمالهم وامتلأت بها قلوبهم؛ ولذا قال تعالى:

﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا﴾.

من جاء بالحسنة أى العمل الذى هو حسن فى ذاته واستحسنه الشرع الشريف، وحسنة: صفة موصوفها فعله حسنة فى ذاتها، ورآها الشرع حسنة نافعة للناس فيها معاونة أو فيها طهارة وتزكية روح وإعانة محتاج وإغاثة ملهوف، وغير ذلك مما هو فى أخلاق الناس أمر حسن، أو فيه نفع قصد به وجه الله تعالى، وجزاء الحسنة عشر أمثالها أى حسنات تساوى عشر أمثالها، أو هى عشر من هذه الحسنات، وفى قراءة (عشرٌ أمثالها)[1] برفع عشر وتنوينها، أى مقدار عشر هى أمثال هذه الصدقة، ويظهر أن ذلك هو الحد الأدنى، وتعلو الحسنة بعلو القصد فى النفس، وبعلو الموضوع بمقدار النفع والتعاون للإنسان، وقد ذكر سبحانه وتعالى أن جزاء الصدقة سبعمائة مثل، فقال تعالى، وهو أصدق القائلين: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾ [البقرة]. وذلك لأن الصدقة تتضاعف آثارها، وتكثر ثمراتها فهى تشبع نفسا جائعة، وتمنع تفككا واضطرابا، وتلقى أمنا وسلاما، وتزيل أحقادا وتوجد تعاونا مستمرا، والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه، وسماه الله تعالى قرضا لله تعالى، فقال ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ... (١١)﴾ [الحديد] وإن من يقرض موجد الوجود يكون بدله أضعافا مضاعفة، كمن يعطى ذا مروءة عطاء، فإنه يزيد فى بدله، فكيف بخالق الناس، ولله المثل الأعلى فى السموات والأرض.

وجزاء سيئة مثلها لا يزيد عنها، وقد يغفرها سبحانه، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا﴾ وَحَدَّ الله سبحانه وتعالى هنا الجزاء حدا لا يتجاوزه، فذكر أنه لا يجزى إلا مثلها، فنفى وأثبت، وذلك قصد للجزاء لا يعدوه، أما ما ذكر من جزاء الحسنة فذكر أنه عشر أمثالها، ولم يذكره سبحانه وتعالى حتى لا يعدوه بل هو حد أدنى يقبل الزيادة بحسب أحوال النفوس وبحسب موضوع الحسنة، وكلما كانت متصلة بالناس، لنفعهم تضاعف الجزاء كما جاء فى آيات الصدقات، والتعبير فى بعضها بأنها قرض لله سبحانه وتعالى، وهو

(١) ﴿عشرٌ أمثالُها﴾ هي قراءة يعقوب، وقرأ الباقون بالإضافة.

الغنى الحميد، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥)﴾ [فاطر].

ولقد جاءت الآثار عن النبى ﷺ بما يفيد أن فى معنى الآية من الحد بعشر أمثالها هو حد أدنى، فقد روى مسلم والإمام أحمد أن النبى ﷺ قال: «يقول الله عز وجل من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد، ومن جاء بسيئة فجزاء سيئة مثلها أو أغفر، ومن تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا، ومن تقرب ذراعا تقربت منه باعا، ومن أتى يمشى أتيته هرولة، ومن لقينى بِقِرابِ الأرض (أى بما يقاربها فى ملئها وحجمها) خطيئة لا يشرك بى شيئا لقيته بمثلها مغفرة»[(١)].

والسيئة الأمر الذى يسوء فى نفسه، ويسوء الناس، ويعصى به الله تعالى، وعبر عنه بالسيئة بأقبح ما يكون من معاصٍ، فإن أعلى المعاصى ما يكون إساءة للناس، وإيذاء.

وقد صرح الحديث بالنسبة لمن يهم بسيئة فلم يفعلها بأنه لا يكتب له شىء ومن همَّ بحسنة فلم يفعلها كتبت له حسنة؛ لأن النية الطيبة حسنة فى ذاتها، فالأعمال بالنيات.

ولقد تكلم ابن كثير فى بيان أحوال من يهم بسيئة فلم يفعلها فقد قسمها إلى ثلاثة أقسام باعتبار حال التارك لها بعد أن يهم، فقال رضى الله عنه: (اعلم أن تارك السيئة الذى لا يعملها على ثلاثة أقسام، تارك يتركها لله تعالى، فهذا تكتب له حسنة على كفِّه عنها لله تعالى، وهذا عمل ونية، ولذا جاء أنه يكتب له حسنة، كما جاء فى بعض ألفاظ الصحيح: «فإنه تركها من جرائى»؛ أى من أجلى[(٢)]، وتارة يتركها نسيانا وذهولا عنها، فهذا لا عليه ولا له؛ لأنه لم ينو

---

(١) رواه مسلم: الذكر والدعاء والاستغفار - فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله (٢٦٨٧). عن أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) كما في رواية مسلم: الإيمان - إذا هم العبد (١٢٩) عن أبي هُرَيْرَةَ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ: رَبِّ ذَاكَ عَبْدُكَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً - وَهُوَ أَبْصَرُ بِهِ - فَقَالَ: ارْقُبُوهُ فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِمِثْلِهَا وَإِنْ تَرَكَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً؛ إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّايَ».

خيـرا وما فعل شـرا، وتارة يتركهـا عجزا وكـسلا عنها بعـد السعى فى أسبـابها والتلمس بما يقرب منها، فهذا بمنزلة فاعلها).

وإن ذلك تقسيم حسن أخص ما فيه أنه يخرج ممن يهم بسيئة ولم يفعلها من هَمَّ وأخذ فى الشروع فى جريـمة، ولكن حال بينه وبينها أمر لا يستطيع مـدافعته فهو لا يكـون قد هم فقط، بل نوى الفعل واعـتزمه ولكن عجـز لأمر خارج عن إرادته.

ولقـد ختم العلى القـدير كلماته فى هذا الموضـوع بقوله تعـالى: ﴿**وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**﴾ إن الآيات عطاء وعـفو، فـالعطاء من فـضل الله تعـالى، والعفـو من رحمته، وهو الذى يعطى من يستحق، ويمنع عمن يستحق، وإن شاء غفر، وعلى ذلك لا يظلم أحدا شيئا؛ لا يمنع حقـا، بل يعفو ويصفح عن أهل الإيمان الذين لا يشركون به شيئا؛ وهو السميع العليم.

﴿**قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**﴾ أمر الله تعالى نبيه أن يبين أنه يسلك الخط المستقيم الذى هو الدين القيم، وأنه ملة إبراهيم ﴿**قُلْ**﴾ يا محمد أيها النبى الأمى العربى ﴿**إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾.

كان ذلك الأمـر للنبى ﷺ ليخاطب به العرب مـخبرا عن نفسـه الكريمة، وعمن اتبعه من المؤمنين - هدانى ربى الذى خلقنى، وربَّنى وقام على كل ما أقوم عليه، فهو القوام على كل نفس، والقائم على كل شىء، فوصف الربوبية فى هذا المقام للدلالة على أن الهداية منسـوبة إلى الخالق المكوِّن، فهى هداية حق لا ضلال فيها، ولا أوهام ولا أهواء عند الله سبحـانه وتعالى، وقد أكد أن الهداية من رب الوجود بـ (إن)، والهداية كانت إلى دين اتصف بأمور ثلاثة.

أولها- أنه صراط مـستقيم، أى طريق مـستقـيم موصل إلى الحق الذى لا ريب فيه من غـير التواء ولا اعوجاج، فليس فيـه تعقيد بل إنه الفطرة المستـقيمة، فطرة الله التى فطر الناس عليها.

الوصف الثاني- قوله تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ أى حال كونه دينا صحيحا، قيمًا و(قيم) مصدر قوم، وزن فعل، كعوج. وهو نقيضه، وقرئ (قيِّمًا)(١) أى هو فى ذاته قيِّم بلغ أعلى المنزلة فى الأديان، والقراءتان متلاقيتان فى المعنى وفى القراءة الأولى كان المصدر وصفا، وذلك فى معنى المبالغة فى أنه قيم وقويم، كقولك فلان عَدْل.

الوصف الثالث- وهو شرف إضافى، فالوصفان الأولان ذاتيان؛ لأنهما وصفان حقيقيان لأنهما مشتقان من ذات الدين، وذلك الوصف هو قوله تعالى ﴿مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ وذكر هذا الوصف ليبين للعرب الذين كانوا يتفاخرون بنسبهم إلى إبراهيم، وبأنه أبو العرب، ويدعون أنهم على ملة إبراهيم مع عبادتهم الأوثان، فالنبى ﷺ يبين لهم بإنه هو الذى على ملة إبراهيم، وليسوا هم على ملته فى شيء.

وهنا وصف ذاتى لهذا الدين جاء فى ثنايا ذلك القول. وهو قوله تعالى: ﴿حَنِيفًا﴾ أى غير منحرف إلى باطل بل هو مائل إلى الحق متجه إليه، فهو مستقيم متجه إلى الحق فحنيفا صفة للدين.

ثم بين سبحانه ردًّا على وثنية المشركين، فقال: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أى ليس لكم أن تفاخروا باتباعكم إبراهيم، فما كان إبراهيم من المشركين، ما كان إبراهيم أبوكم وأبو الأنبياء ممن دخل فى صفوف المشركين؛ بل أوابًا مؤمنا. وهذا كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣)﴾ [النحل].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١)﴾ [النحل].

---

(١) ﴿قيما﴾ بكسر القاف، وفتح الياء وتخفيفها، قراءة ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف، وقرأ الباقون ﴿قيِّما﴾ بفتح القاف، وكسر الياء وتشديدها.

ولقد كانت ملة إبراهيم عليه السلام سمحة لا ضيق فيها، ودين محمد عليه الصلاة والسلام دين سمح لا حرج فيه. ولقد قال تعالى: ﴿ **وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** (٧٨) ﴾ [الحج].

﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** (١٦٢) **لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** (١٦٣) ﴾ أمر الله تعالى نبيه بأن يقول قولة يكون بها كله لله تعالى ليس لأحد شيء فى نفسه أو جارحته، أمره بأن يكون كله لله، وإنه لكذلك، وخاطب من معه من المؤمنين ليكونوا ربانيين، وأن يخاطب بذلك المشركين ليتخلفوا عن الشرك والأوهام والأهواء، ﴿ **إِنَّ صَلاتِي** ﴾ أى دعائى وضراعتى، وعباداتى، ومنها الصلاة المفروضة، والنفل والتهجد لله وحده ليس لأحد فيها شركة أو نصيب، بل هى لله وحده لا شريك له ﴿ **وَنُسُكِي** ﴾ النسك العبادة، والنسك أيضا جمع نسيكة، وهى الذبيحة فى أضحية أو حج أو عمرة، قال بعض المفسرين: إنها هنا بمعنى العبادة، فيكون الكلام من عطف العام على الخاص، وتكون كلمة الصلاة المقصودة؛ الصلاة: فرضها ونفعلها، والتهجد بها، وخصت بالذكر، لأنها عمود الدين ولبه، ولا دين من غير صلاة.

وفسر ابن كثير النسك هنا بالذبائح فى الأضحى، والعمرة والحج، ذلك أن العرب كانوا يشركون ويدَّعون أنهم على ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ويهلون لغير الله، فبين لهم النبى ﷺ بأمر الله تعالى له بالبيان بأن يذكر أن ملة إبراهيم كانت دينا قيما يعبد الله وحده، ويذبح مهلا لله تعالى وحده، وروى ذكر اسم الله تعالى فى ذبيحة النبى ﷺ، فروى عن ابن عباس عن جابر أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين، وقال حين ذبحهما: ﴿ **إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** (٧٩) ﴾ [الأنعام][(١)].

---

(١) رواه ابن ماجه: الأضاحي - أضاحي رسول الله ﷺ (٣١٢١) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّه. كما رواه الترمذي وأبو داود وأحمد.

﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾ وإن تفويض الرسول عليه السلام لربه تعالى تفويض كامل، وملكية الله تعالى له ولعباده ملكية كاملة لا مثنوية فيها لله سبحانه وتعالى، ولذا أمره تعالى بأن يقول: ﴿مَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وهى تدل على أمرين:

الأمر الأول- أن النبى ﷺ فى حياته الدنيا، ومماته من بعدها، ثم حياته فى الآخرة لله تعالى هو المتصرف فيها المالك لها، فهو رب الوجود، ومالك يوم الدين، وهذا هو الفناء فى ذات الله تعالى على الوجه الإسلامى الحنيف المستقيم.

والأمر الثانى- أن (محيا) و(ممات) مصدران ميميان، بمعنى الإحياء المستمر، والممات من بعد، ثم الإحياء المستمر، والمعنى إحيائى فى هذه الحياة الدنيا المستمدة منك ولك- وإماتتى لك أنت الذى تحيينى وتميتنى، وحياتى الباقية الخالدة منك ولك، يارب العالمين.

وقرن القول السامى برب العالمين لبيان أنه القائم على الحياة وهو الذى بيده الموت والحياة من بعده، وهو الحى القيوم لا إله إلا هو العزيزالحكيم.

وأكد سبحانه وتعالى على لسان النبى ﷺ بقوله: ﴿لا شَرِيكَ لَهُ﴾ لا يشركك يا رب العالمين فى نفسى وفى حياتى ومماتى أحد من الناس، أو غير الناس، فكلى لك من غير شريك، فأنت المالك وحدك لى ولغيرى من كل ما فى الوجود.

ثم يقول ﷺ بأمر ربه: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ أى أول من أخلص دينه لله ووجهه لله، فالإسلام استقامة النفس واتجاهها إلى الله وحده، من غير إشراك وثن، وأمر الله تعالى نبيه بأن يقول هذا لقومه من المؤمنين والمشركين تحريض لمن آمنوا على البقاء، وتحريض للمشركين على خلع عبادة الأوثان، فالأولية هى لمن يخاطبهم النبى ﷺ ليحتملهم على الاتباع والاقتداء به، كمن يقول لآخر: ادخل هذا الباب، وأنا أمامك أول من يدخل.

فالأولوية على هذا بالنسبة لأمته ولمن بعث إليهم، وذكر تحريضا لهم على الاتباع والاقتداء، كما ذكرنا، وليست الأولية مطلقة، فإن الإسلام دين الأنبياء جميعا قبل النبى ﷺ ولقد قال تعالى فيما قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢)﴾ [يونس]، وقال تعالى فى إبراهيم: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢)﴾ [البقرة]، ولقد قال يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١)﴾ [يوسف].

وقال بعض العلماء: إن أولية إسلام النبى ﷺ أولية مطلقة، فهو كما قال ذلك القائل، أول الأنبياء إسلاما وآخرهم مبعثا، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

أمر الله تعالى نبيه أن يقول للمشركين فى سياق الدليل على أنه لا يعبد سواه، ولا رب سواه، والاستفهام هنا إنكارى لإنكار الوقوع لا يمكن أن يقع منى أن أبغى غير الله ربا، ويكون تقديم غير الله على الفعل. فى معنى القصر أى لا أبغى غير الله تعالى ربا أعبده،وعبر هنا بقوله (ربا)، ولم يعبر بكلمة (إلها) مع أن المقصود هوالعبادة، إذ المعنى أبغى غير الله إلها، وهو رب كل شيء، للإشارة إلى التلازم بين الربوبية والألوهية، إذ أنهم كانوا يعترفون بأن الله تعالى رب كل شيء وخالق كل شيء، ولكنهم يفرقون ذلك عن العبادة، فهم يعتقدون أن الله خالق كل شيء، ولكنهم يعبدون الأوثان، ويقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، فقوله تعالى ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ فيه إشارة إلى الربوبية والخلق والتكوين، والعبادة فالمعبود بحق هو الرب الخالق، لا هذه الأوثان التى تتوهمون فيها سرا وتقريبا، وما هى بشيء.

وقد أكد القصر فى العبادة على الله تعالى بقوله ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وكانت هذه مقدمة منطقية مؤداها، أنه خالق كل شيء، وخالق كل شيء هو المستحق للعبادة وحده؛ لأنه مالك كل شيء.

وإن التعبير بقوله تعالى ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ فى التعبير بـ (رب) مع ما أشرنا إليه من معنى التلازم بين الربوبية والعبودية فيه إشارة أخرى، وهو أنه لا يعبد غيره، ولا يتوكل إلا عليه؛ لأن الربوبية تقتضى ألا يلجأ المؤمن إلا إليه سبحانه وتعالى، وقد قال تعالى فى معنى ذلك، ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ... (٢٩)﴾ [الملك] وقال تعالى: ﴿... فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ... (١٢٣)﴾ [هود].

وإن كل امرئ بما كسب رهين، يحمل تبعات أعماله، ولا يحمل وزر غيره ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

قالوا إن المشركين كانوا يريدون من المؤمنين أن يرجعوا إلى دينهم الذى تركوه، وقالوا نتحمل وزركم ولا تتحملون آثاما، فالله رد قولهم بهذا، وما نحسب أن ذلك وقع، إن كان قد وقع، فالآية عامة لحقيقة رئيسة، و(الكسب) الفعل الذى يصدر عن شخص مؤمن بما يفعل، قد كسبته نفسه، وقام بها، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ لا تكسب أى نفس عملا إلا كانت مغبته ومآله عليها، تتحمل تبعته إن شرا، وتنال جزاءه إن كان خيرا وبذلك يكون النص محتملا الجزاء بنوعيه عقابا أو ثوابا.

ويصح أن الكسب هنا كسب الإثم، ويكون عليها بالعذاب، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، أى لا تحمل نفس وازرة وزر أخرى فكل امرئ بما كسب رهين، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى.

وإن جزاء الآخرة ثوابا وعقابا مبنى على ذلك، فلا يحاسب امرؤ بجريمة غيره، ولا يلقى عن شخص جرم ليلحق إلى غيره، والله تعالى علام الغيوب، وكل يحمل كتابه.

ولكن فى الدنيا عواقب للأعمال، قد تتعدى الفاعل، وقد قال تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ [التخريج] فإنه إذا عم الفساد وطم سيله، فسدت الجماعة وهلكت، ولا يكون أثره مقصورا على العصاة، بل يتعداه إلى غيرهم، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الإسراء].

وروى أن أم المؤمنين زينب بنت جحش سألت رسول الله ﷺ قائلة: يارسول الله أنهلك وفينا الصالحون، فقال عليه السلام: «إذا عم الخَبَث»(١)، والخبث هنا هو المعاصى وأشدها الظلم والفاحشة وما يوعز بها وإن عموم الفساد يكون من إهمال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فيعم العذاب، كما قال عليه الصلاة والسلام: «لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر ولتأخذن على يدى الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرا، أو ليضربن على قلوب بعضكم، ثم تدعون فلا يستجاب لكم»(٢) وإن عذاب يوم الدين لاحق بكل نفس كسبت، أو قصدت، ولذا قال تعالى:

﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾.

(ثم) هنا للتراخى والترتيب؛ لأن ذلك يوم الدين فيكون الجزاء العادل، ينال كل امرئ ما كسب أو قصد، فالله تعالى يجازى على التقصير فى بيان حدود الله ومنع العصاة، كما يجازى على ذات المعصية؛ لأن ترك الواجب معصية كارتكابها.

وقدم الجار والمجرور، لبيان أن المرجع إليه وحده فهو الذى يملك يوم الدين وحده، فيجازى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته عذابا أليما.

---

(١) متفق عليه؛ رواه البخاري: أحاديث الأنبياء - قصة يأجوج ومأجوج، ومسلم: الفتن وأشراط الساعة - اقتراب الفتن (٢٨٨٠).

(٢) سبق تخريجه.

وقال تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (الفاء) هنا لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى هو الذى إليه وحده مرجعكم، فلا يكون لأحد سواه الحكم فى هذا اليوم والقول النافذ له وحده، وهو حينئذ بقوله الطيب الصادق كبير بالحق فيما كانوا فيه يختلفون، فيعبد فريق الأوثان ويؤمن بالله آخرون، ويختلف النصارى فيما بينهم، واليهود يختلفون مع أنفسهم، وبينهم وبين أهل الحق من الناس ينبئ الله تعالى الناس بالحق، والباطل قولا وعملا، فيعذب المجرمين المبطلين، ويحسن إلى المحسنين، وكل امرئ، وما كسبت يداه.

وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾

بين سبحانه اختلاف المؤمنين، وما يجب أن يكونوا عليه متأسين بالنبى ﷺ، آخذين بهديه مخالفين ما عليه المشركين، وختم الآية التى قبلها بأن الله تعالى يحكم بين المختلفين يوم القيامة بعد ذلك بين سبحانه وتعالى أن الله تعالى هو الذى خلق الأجيال المتعاقبة الذى يخلف بعضها بعضا - وهى متفاوتة فقال تعالت كلماته:

﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾.

(الواو) هنا واو الفصل بيان الآيات، وهى تفيد أن الآيات مترابطة تبع بعضها بَعْضا فى نسق محكم متناسب يرتبط بعضه بعجز بعض.

الخلائف جمع خليفة، أى طبقة تخلف طبقة، وجيلا يخلف جيلا، وكل واحد منها يعد خليفة فى هذه الأرض، يسيطر سيطرة الإنسان عليها، إن ظالما،

وإن عادلا، وذلك تحقيق مستمر للخلافة التى جعلها اللهتعالى لآدم أبى البشر، إذ قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ... (٣٠)﴾ [البقرة].

وهنا بقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ﴾ أى صيركم أجيالا تخلف بعضها بعضا، وكل جيل خليفة فى الأرض يفسد بعضه، ويصلح بعضه، ويباح الفساد مع الصلاح، وينازعه حتى لا يعم ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١)﴾ [البقرة].

ولذا قال تعالى ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾.

الدرجات كما جاء بها التعبير فى القربات هى الدرجات العالية التى تكون سابقات كريمة، والمعنى رفع منكم درجات بالهداية والسمو، والرفعة إذا أطاعوا اتجهوا إلى الخير، وإعلاء منازل الإنسانية، ولو كانوا هم الفقراء أوالعبيد، أو المستضعفين فى الأرض، ولا يلزم أن يكون من الأقوياء أو الأغنياء وقد اختبر كلا، فاختبر الأغنياء ليشكروا واختبر الفقراء ليصبروا.

وقد وردت آيات كثيرة فى هذا التفاوت فى الدرجة، مع ملاحظة أن تفاوت الدرجات ليست بالغنى، فليس الغنى درجة، دونها حال الفقر، إنما الدرجات الرفعة عند الله تعالى بالعمل الصالح، ولو كان فقيرا أو ضعيفا تزدرية الأعين كما كانت حال المؤمنين الذين آمنوا بنوح -عليه السلام- والذى أمره الله -سبحانه وتعالى- أن يقول: ﴿وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِى أَنفُسِهِمْ إِنِّى إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١)﴾ [هود].

إنما التفاوت فى الدرجات بالقرب من الله والإيمان، ومثل هذا قوله تعالى:
﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً

وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥)﴾ [الزخرف].

فإن الدرجات فى هذه الآية واضح أن المراد منها الدرجات فى الرفعة، لا الدرجات فى المال، فالتفاوت فى المال لا يكون درجات للأغنياء على الفقراء، وقوله تعالى ﴿... لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ... (٣٢)﴾ [الزخرف] أى ليكون الحال أن يسخر الأغنياء الكافرون من الفقراء المؤمنين.

ولو كان المراد التفاوت بالمال، لكان اعتراض الكافرين مسلما به؛ إذ قالوا ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، أى فى المال وكثرته.

وإن المقصود من ذلك السياق أن نقول إن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ أن المراد برفعة الدرجات هو إيمان بعض المؤمنين ورفعتهم، وقد بين الله سبحانه وتعالى الحكمة من ذلك فقال: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَا آتَاكُمْ﴾ أى ليعاملكم معاملة من يختبركم فيما آتاكم من مال، أو رفعة معنوية دينية حيث يزدرى الكافرون الأغنياء المؤمنين الفقراء، فيضيفون كفرا إلى كفرهم، ويضيف أهل الإيمان إيمانا إلى إيمانهم بصبرهم على الأذى وليختبر الغنى فى غناه فيشكر أم يكفر، ويختبر الفقير فى فقره فيرضى ويصبر فيؤجر، أم يجزع ويكفر فيعاقب، فالغنى نعمة يختبر صاحبها، والفقر بأس يختبر صاحبه.

والعاقبة إما عقاب وإما غفران ورحمة، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ﴾ أى أن عقابه نازل لا محالة، ومؤكد أنه آت لا ريب فيه، وكل آت قريب، ووصف سرعة العقاب لله تعالى يؤكد نزوله بالعاصى من غير تردد فيه، فهو العادل الذى لا يبطئ فى إقامة العدل، ويسارع بإنزاله فليس المراد بالسرعة سرعة الزمان إنما المراد سرعة الإيقاع.

وإنه فى مقابل هذا غفور رحيم، يغفر لمن يشاء ورحيم بالخلق أجمعين ومن رحمته أن كان العذاب للعصاة، والمغفرة لمن لم يشرك به شيئا، وهذا كقوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الحجر]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ [الرعد].

اللهم اجعلنا أهلا لمغفرتك ورحمتك، وجنبنا سريع عقابك، واعف عنا وتجاوز عن سيئاتنا إنك أنت العفو الغفور.

سورة الأعراف

تمهيد:

هى سورة مدنية إلا ثمانى آيات من الآية رقم ١٦٣ إلى الآية ١٧٠، وسنتكلم فيها فى موضعها - إن شاء الله تعالى - وعدد آيات هذه السورة الكريمة ست ومائتان.

وقد ابتدأ الله تعالى هذه السورة بالحروف ﴿الٓمٓصٓ﴾، وقد تكلمنا فى هذه الحروف فى فواتح سور القرآن، وذكرنا أنها من المتشابه الذى اختص علم الله تعالى، وذكرنا حكمة ذكرها، وعند الله غيب أمرها.

ابتدئت السورة بذكر القرآن، والأمر باتباعه، ثم أشارت إلى أن يوم القيامة يجىء بغتة، فالقُرى يجيئها أمر الله بغتة وهم نائمون، وعندئذ يحس الظالمون بظلمهم إذ ذهب طغيانهم، ويبين الله - تعالى - أن اليوم يوم سؤالهم عما ظلموا، وتوزن أعمالهم بخيرها وشرها، والوزن يومئذ الحق، وقد ذكر سبحانه أن السبب فى طغيانهم أنه مكن لهم فى الأرض، وتمكن الشيطان منهم.

ويذكر سبحانه كيف يتمكن الشيطان، وساق - سبحانه وتعالى - قصة الخلق الأول، ليبين لهم عداوة إبليس وكيف أغوى آدم على مخالفة ربه، هو وزوجه حواء، وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين فدلاهما بغرور، وقد ذكر سبحانه عاقبة ذلك التدلى.

صرح بعد ذلك القصص الحكيم بالنهى عن الخضوع للشيطان إبليس ومن معه، فقال: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (٢٧)**﴾.

وبين ـ سبحانه ـ أنه كما دلى الشيطان آدم وزوجه بغرور حتى تسبب فى نزع لباسهم كذلك يغرى قريشا فيجعلهم يطوفون عراة، وإن ذلك هو عين الفساد، وأمر الله تعالى أن يأخذوا زينتهم ويلبسوا عند كل مسجد ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) ﴾.

ويبين ـ سبحانه وتعالى ـ ما أحله الله من طيبات وما أراد الشيطان أن يحرمه عليهم.

ويبين ـ سبحانه وتعالى ـ أن مقاومة الشيطان إنما هى باتباع الهدى الذى يجىء على ألسنة الأنبياء ﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) ﴾.

وبين ـ سبحانه وتعالى ـ أن الشيطان يغرى أتباعه بمعاندة هؤلاء الرسل كما أغرى كبيرهم آدم وحواء بمخالفة أمر الله تعالى.

ثم يذكر ـ سبحانه وتعالى ـ مآل الطاغين على الرسل بإغواء الشيطان يوم القيامة وكيف يتطارحون الضلال بين الغاوين ومن أغووهم من شياطين الجن والإنس ﴿ ...حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩) ﴾.

وبين ـ سبحانه وتعالى ـ جزاء الذين استكبروا عن الحق بإهواء الشيطان، وفى مقابلهم جزاء الذين آمنوا وأطاعوا الله، ولم يغوهم الشيطان، وأن لهم الجنة، ﴿ ...وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) ﴾.

وكان بين أصحاب الجنة أصحاب الأعراف، وقد نادوا الظالمين الذين يعرفونهم ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ

جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩) ﴾.

وأما أصحاب النار فقد ذكر الله ـ سبحانه ـ أنهم فى عطش شديد، ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله.

بين الله تعالى من بعد ذلك أن الذين عصوا واستكبروا قد جاءهم القرآن الكريم يهديهم، ويدعوهم إلى الحق، ﴿ **وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢)** ﴾.

ولكنهم كفروا به، وطغوا، وطلبوا معرفة مآله، فبين ـ سبحانه ـ أنهم يعرفون مآل ما اشتمل عليه بقول الذين نسوه من قبل ﴿ ... **قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣)** ﴾.

بعد هذا البيان الحكيم فى هذه السورة الكريمة وجه الله تعالى العقول إلى آياته فى الكون، فقال: ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥)** ﴾.

وينهى رب الكون عن الفساد فى الأرض، ويبين آياته ـ سبحانه ـ فى إرسال الرياح بشرا بين يدى رحمته، وأنه ـ سبحانه ـ يرسل سحابا ثقالا، إلى الأرض الميتة ليحييها.

ويقص بعد ذلك قصص أنبيائه، ليُسرِّى على محمد ﷺ بقصصهم، وليسوق العبر والمثلات للمشركين ليعتبروا ويستبصروا، فيذكر خبر نوح مع قومه، ويرمونه بالضلالة، كما رمى المشركون محمدا بها، ويعجبون من أن الله أرسل رسولا، كما تعجبت قريش من رسالته ﷺ، ويذكرهم بأن الله تعالى سينجى

محمدًا من شرهم كما نجَّى نوحا، ﴿ ...فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤) ﴾.

ويذكر من بعد نوح فى هذه السورة الكريمة خبر هود مع قومه عاد، وكيف رموه بالسفاهة كما رمت قريش محمداً ﷺ، وقد كان فيهم الصادق الأمين، وكيف كان ينصح لهم، ويذكرهم بما آتاهم الله - تعالى - من نعمة، وقد عجبوا أن جاءهم رسول منهم، كما عجبت قريش ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) ﴾ وقد وقع عليهم رجس وغضب، وقال لهم هود: ﴿ ...أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٧١) ﴾.

وذكر - سبحانه وتعالى - من بعد قصة هود قصة صالح مع قومه ثمود، إذ دعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده، وأتى لهم بمعجزة حسية هى الناقة، وقد ذكرهم بما نزل بعاد من قبلهم، وذكرهم بنعمة الله تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) ﴾ ولكنهم كفروا وعقروا الناقة، فأنزل الله تعالى عذابه الدنيوى، وتولى عنهم هود وقد أبلغهم رسالة ربه.

ومن بعده بعث الله لوطا إلى قومه، وذكر الله تعالى شذوذهم وأهلكهم الله تعالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤) ﴾.

وأرسل إلى مدين أخاهم شعيبا، وقص الله - تعالى - فى السورة قصصه مع قومه إذ دعاهم إلى الحق وإلى صراط مستقيم، وألا يفسدوا ولا يعتدوا ولا يصدوا عن سبيل الله، وقد آمنت طائفة، وطائفة منهم وهم الذين استكبروا، وحاولوا إخراج شعيب قائلين: ﴿ ...لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا ... (٨٨) ﴾، ولكن الله نجاه منهم، وقال لن نعود فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها.

وقال الذين كفروا للذين آمنوا ﴿ ...لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٩٠) ﴾ وقد أخذتهم بسبب عصيانهم الرجفة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . . ، فتولى عنهم شعيب وقال لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين.

وقد بين ـ سبحانه وتعالى ـ فى هذه السورة الكريمة سنته مع الذين يرسل إليهم النبيين أن يختبرهم بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون، ثم يختبرهم من بعد ذلك بالحسنة لعلهم يدركون، ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ ... (٩٥) ﴾ فإذا كفروا، ولم تردعهم الضراء، ولم يشكروا السراء، أخذهم العذاب بغتة وهم لا يشعرون.

ولقد ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ أن اهل القرى، لو أنهم آمنوا لأتتهم النعم من حيث لا يشعرون، ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) ﴾.

ولقد ذكر سبحانه فى هذه السورة المحكمة غفلة أهل القرى أى المدن العظيمة عن أن يأتيهم عذاب الله تعالى فى آياته سبحانه وتعالى، وأن الذين يرثون أرضها لا يهتدون، ولا يعتبرون بما كان منهم، ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢) ﴾.

ذكر بعد هذه العبرة التى بينها ـ سبحانه وتعالى ـ فى سنته فى الهداية، وعقاب من لا يهتدون قصة موسى وفرعون، ومعجزة موسى، بل معجزاته مع فرعون، طاغية الوجود الإنسانى فى مصر، بل لا يزال مثلا يضرب لكل طاغية فى الأرض.

تقدم موسى إلى فرعون يدعوه إلى الله تعالى، وتقدم بعصاه فحرض فرعون قومه أنه يريد أن يخرجهم من أرضهم بسحره.

جاءوا بكل ساحر عليم، وتقدم موسى بعصاه، قاهر موسى للسحرة ﴿ ... أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) ﴾.

فأمر الله تعالى موسى أن يلقى بعصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون، فخر السحرة ساجدين؛ لأنهم علموا أن ما جاء به موسى ليس سحرا.

عاقبهم فرعون وقال: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦) ﴾ وقد أخذت شيعة فرعون ترد على موسى كالشأن فى كل طاغية لا يطغى إلا بشيعة تحسن له الشر، وتفتح له الخير، قالوا لفرعون: ﴿ ...أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) ﴾.

ولكن بنى إسرائيل يتململون بموسى، ويقولون: ﴿ ...أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ ...(١٢٩) ﴾.

أخذ الله تعالى آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه، وأرسل الله عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات.

وإذا اشتد الأمر بهم ﴿ ...قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) ﴾، فأغرقهم الله تعالى، وجاوز الله ببنى إسرائيل البحر وأورثهم ملكا بعد أن كانوا مستضعفين فى الأرض.

ولكن بنى إسرائيل بعد أن جاوزوا البحر عادت إليهم وثنية الفراعنة ﴿ ...قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) ﴾،

وذكرهم الله الذى نجاهم من فرعون وملئه الذين كانوا يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم، ويسومهم سوء العذاب ﴿ ...وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١) ﴾.

واعد الله تعالى موسى أربعين ليلة ﴿ ...وَقَالَ مُوسَىٰ لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) ﴾.

ذهب موسى لميقات ربه ﴿ ...وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) ﴾، قبل الله توبة موسى وبين له اصطفاءه له ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ ... (١٤٥) ﴾ من أحكام شريعته عليه السلام، ويقول الله عن هذه الألواح: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ... (١٤٦) ﴾، وقد بين - سبحانه وتعالى جزاءهم فى الآخرة.

وفى غيبة موسى الأربعين ليلة ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ... (١٤٨) ﴾، . . وزين لهم الشيطان عبادة العجل التى تقبلها المصريون فى نفوسهم.

وإن الناس يضلون فإذا رأوا داعية الهداية ذهب عنهم ضلالهم فلما رأوا موسى سقط فى أيديهم ﴿ ...وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩) ﴾.

رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا، وقال: بئسما خلفتمونى من بعدى، وأخذ يعتب على أخيه هارون ﴿ ...وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ ... (١٥٠) ﴾.

أحس موسى بأنه تجاوز فى غضبه فاتجه إلى ربه ضارعا ﴿ ... رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١) ﴾ وذكر الله ما سينال الذين اتخذوا العجل ولم يتوبوا، وقال سينالهم غضب من ربهم وذلة.

وبعد أن ذهبت ضجة العجل وسكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفيها هدى ورحمة ـ واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقات الله، فلما أخذتهم الرجفة ﴿ ...قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ... (١٥٥) ﴾.

اتجه موسى وقومه ضارعين إلى الله تعالى، وقالوا: ﴿ ... إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) ﴾.

وذكر منهم ممن تتسع له رحمته: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) ﴾.

ويأمر الله ـ تعالى ـ في هذه السورة نبيه محمد ﷺ بعد أن ذكر البشارة به بأن يقول: إنه رسول الله تعالى إلى الناس جميعا ويدعوهم إلى اتباعه.

وتعود الآيات إلى قوم موسى ـ عليه السلام ـ فيذكر أن ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩) ﴾ ويذكر أنه ـ سبحانه وتعالى ـ قطعهم فى الأرض ﴿ ... اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ... (١٦٠) ﴾، ثم يذكر ـ سبحانه وتعالى ـ آياته منهم ونعمه عليهم، من ضرب الحجر بعصا ﴿ ... فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ... (١٦٠) ﴾، وأنه أنزل عليهم المن والسلوى، وأنه ظلل عليهم الغمام وأنهم لم يشكروا النعمة، بل كفروا بها.

ويذكر حالهم يوم السبت إذ حرم عليهم الصيد فيه ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ ... (١٦٣) ﴾.

ولقد يئس بعض المهتدين منهم من هداية إخوانهم فقالوا: ﴿ ...لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) ﴾، ولقد بين الله تعالى حال الذين نسوا ما ذكروا به، وأنه أنجى الذين ينهون عن السوء، وأصاب الذين ظلموا بعذاب بما كانوا يفسقون، ولقد ذكر الله حال بنى إسرائيل من بعد موسى، فقد بعث عليهم من يسومهم سوء العذاب، وقطعه فى الأرض أمما، وورث من بعدهم خلف يأخذون أدنى ما فى الكتاب وإن يأتهم عرض يأخذوه، ويقولون سيغفر لنا.

وإن بنى إسرائيل قد مردوا على العصيان وقد أخذ الله ـ تعالى ـ الميثاق ورفع الجبل فوقهم كأنه ظلة، وظنوا أنه واقع بهم وأخذ عليهم الميثاق، وهم تحت تأثير تلك الآية القاطعة، وقال خذوا ما آتيناكم بقوة، ولكنهم نقضوه ولم ينفذوه.

ولقد بين الله سبحانه أنه أخذ ﴿ ...مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ... (١٧٢) ﴾، ودل ذلك على أن التوحيد دين الفطرة وبين سبحانه أن هذه الآية الفطرية التى أودعها الأخلاف والذرية من ينسلخ منها يتبعه الشيطان ويغويه وتكون كل أعماله فى دائرة الشر، ﴿ ...كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ... (١٧٦) ﴾ وأسوأ الأمثال مثل الذين كذبوا بآيات الله ﴿ ...وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) ﴾.

وإن من يهديه الله فهو المهتدى، ولقد خلق الله لجهنم كثيرا من الجن والإنس، وهؤلاء لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك هم الغافلون.

وأخذ ـ سبحانه وتعالى ـ فى هذه السورة الكريمة يذكر الذين اهتدوا فى مقابل الذين كفروا وظلموا، وقال فى الذين كفروا: ﴿ ...سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) ﴾.

ووجه الله تعالى أنظار الناس إلى ملكوت السموات والأرض، وبين أنه ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦)﴾.

وذكر الله تعالى الساعة وأنه وحده هو الذى يعلمها ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (١٨٧) قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)﴾.

بعد ذلك بين الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلق الإنسان وزوجه ليسكن إليها، وصور سبحانه ضلال الإنسان بمن تحمل امرأته حملا خفيفا فمرت فلما ثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠)﴾.

وبين ـ سبحانه وتعالى ـ ضلال من يشركون وذكر أنهم يدعون فى عبادتهم أوثانا لا تضر ولا تنفع سواء أكانوا أحجارا أم غيرها وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٧) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (١٩٨)﴾.

ولقد دعا الله ـ تعالى ـ نبيه إلى ما يتجلى به فى الدعوة فقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ (٢٠٢) وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا

اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣) ﴾.

ولقد أوصى الله المؤمنين من ضمن وصيته لنبيه ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦) ﴾.

هذه إشارة موجزة إلى بيان ما اشتملت سورة الأعراف إجمالا، ثم نقدمها بين يدى ذكر معانيها، ولنبدأ من بعد ذكر ما يسعه إدراكنا من معانيها والله الهادى.

معانى السورة الكريمة

الٓمٓصٓ (١) كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ (٢) ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ (٣) وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ (٤) فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (٥)

﴿ الٓمٓصٓ ﴾ قد تقدم القول فى الحروف المفردة التى تبتدئ بها أوائل بعض السور، وهى من المتشابه الذى اختص به علم الله.

﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾.

كتاب خبر لمبتدأ محذوف، أو خبر ﴿آلمص﴾ على نظر بعض الذين قالوا: إنها اسم للسورة أو الكتاب، والتنكير هنا لبيان شرفه العظيم، أى أنه كتاب بالغ الغاية فى شرفه ورفعته ومؤداه؛ لأنه منزل من عند الله تعالى العالم بكل شىء،

والقادر على كل شيء العزيز الحكيم، وقال: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، أى أنه أنزل إليك وهو المعجزة التى تتحدى بها الخليقة أن يأتوا بسورة من مثله، فلا يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

والحرج الضيق، وأن يحس بأن الناس يجب أن يؤمنوا فلا يؤمنوا، كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)﴾ [الشعراء] وكما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦)﴾ [الكهف]، فحرص النبى ﷺ على إجابة الكافرين كان يجعله فى حرج نفسى، إذ إن المؤمن بالحق يكون دائما حريصا على إجابة الناس له، فإن لم يجيبوا ضاق بذلك صدره من غير مغاضبة ولا معاندة، كما هو شأن النبيين ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وقد قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢)﴾ [هود].

والمؤدى فى كل هذا أن النبى ﷺ كان يضيق من الإنكار لأمر صادق لا مرية فيه، فالله تعالى يبين له أنه ليس عليه إلا الإنذار.

وقوله تعالى: ﴿فَلا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾، الفاء هنا لترتيب ما بعدها على ما قبلها، والمعنى: هذا كتاب مبارك هاد مرشد، منير للحق، فإذا لم يجيبوا فلا يكن فى صدرك ضيق، فليس ذلك لنقص فيك أو فيه، وإنما هو لنقص فيهم وقد أنذرتهم، وحسبك ذلك وكفى.

وقد ذكر الله غاية الكتاب والرسالة فقال: ﴿لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فالغاية من الكتاب الخالد أنه معجز بذاته، ولتنذر به الذين يكفرون، بأن تبين بالكتاب عاقبة كفرهم، وسوء النتيجة التى تنزل بهم، وهى العذاب الأليم، وليس عليك تبعة كفرهم، إنما أنت منذر ولكل قوم هاد، وإنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء.

هذا بالنسبة لمن لم يؤمن، فهو لهم منذر مبين يحمل دليله فى ذاته، وبالنسبة للمؤمنين قال تعالى: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ والذكرى هى التذكير الدائم، فهذا الأمر ذكرى لكذا، أى مذكر دائم مستمر، يرجعون إليه، والقرآن ذكرى دائمة فيه التذكير الدائم برسالة النبى ﷺ، وفيه تذكير بالشريعة؛ لأن فيه كلياتها، وفيه تذكير بالرسل أجمعين؛ لأنه سجل معجزاتهم، وفيه تذكير دائم بالله تعالى وهو العلى الحكيم، وفيه الأوامر والنواهى، ولذلك قال تعالى:

﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٣)﴾.

إذا كان القرآن فيه ذكرى للمؤمنين، وإنذار للكافرين فاتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم مما يشتمل عليه القرآن الكريم، وما جاء به النبى ﷺ، فما أمركم به فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا، فكل ما أمر به فقد أمر به الله، فما كان ينطق عن الهوى ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ... (٨٠)﴾ [النساء].

وقوله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فيه إشارات بيانية:

الأولى: أن ما اسم موصول صلته أنزل إليكم من ربكم، والصلة تكون سببا للحكم أو الأمر، فاتبعوا ما جاء به القرآن والنبى. وسبب ذلك أنه أنزل من ربكم الذى هو أعلم بما فيه صلاحكم فى الدنيا والآخرة؛ لأنه ربكم الذى ذرأكم وإليه مرجعكم.

الثانية: أن قوله: ﴿اتَّبِعُوا﴾ فيه ملازمة لما أمر الله تعالى باقتفاء أثر النبى الذى أنزل إليه وأتباعه، وأتباعه أتباع لله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ... (٣١)﴾ [آل عمران].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فيه إشارة إلى أن فيه خيرهم فى الدنيا، وفيه صلاحهم فى الدنيا والآخرة، وفيه إشعار بكمال ما كلفوه.

﴿ولا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾. بعد الأمر بالاتباع للرسول فيما أنزل إليكم من ربكم، كان النهى عن اتباع غيره، فمعنى: ﴿وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾، أى غيره، ممن يوسوسون بغير ما أمر، وتشمل كلمة أولياء، كل من يأمرون بغير أمر الله تعالى من الشياطين الذين يوسوسون بالشر، فمن لم يتبع ما أنزل الله يتبع أولياء الشيطان، وأن أولياء الشيطان يضلون ولا يهتدون، وكذلك الحلفاء الذين يدعون إلى الشرك ويحرضون عليه ولا يناصرون على الخير ككبار المشركين، أمثال أبى جهل وأبى لهب وغيرهما ممن كانوا يدعون إلى الشرك ويحرضون عليه، وممن دون الله من أولياء، الذين يجرون إلى الأهواء، وهكذا يكون اتباع ما أنزل إليكم من ربكم هو الصراط المستقيم الذى قال تعالى فيه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ...(١٥٣)﴾ [الأنعام].

واتباع غير ما أنزل الله هو اتباع للسبل الضالة التى تتفرق بها عن الحق، وفى قوله تعالى: ﴿وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ تتضمن إشارة بيانية مؤداها أن قوله: ﴿وَلا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ النهى عن أن يتخذوا غير الله أولياء لهم فالله ولى المؤمنين كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ... (٢٥٧)﴾ [البقرة]، ﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أى أنه مع هذه البيانات ومع النهى المتوالى فى القرآن عن اتخاذ غير الله أولياء لا تتذكرون إلا قليلا، وقليلا مفعول لـ«تذكَّرون،» و«ما» دالة على قلة التذكر. والمعنى قليلا أى قلة تتذكرون أوامر ربكم وتتعظون بعظاته، ﴿... إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (١٩)﴾ [الرعد]، ويقول الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ (٩)﴾ [الأعلى].

وإن الله تعالى ذكر بالقرى التى كان هلاكها لعدم تذكرها ولنسيانها أمر الله تعالى، فقال تعالت كلماته:

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤)﴾.

إن سنة الله تعالى أن يأتى بعذابه الدنيوى، وهم لاهون غافلون؛ وذلك لأن كفرهم يجعلهم فى غفلة، وينسون معه بأس الله تعالى؛ لأنهم يكفرون به ولا يؤمنون، فيأتيهم من حيث لا يحتسبون ولا يتوقعون، وإن ذلك كان شأن كل الذين عتوا عن أمر ربهم؛ ولذلك قال مذكرا من لم يتذكر إلا بقارعات العذاب الذى ينزل بهم: ﴿ **وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا** ﴾ و«كم» هنا دالة على الكثرة من غير عدد. و«مِن» لعموم الاستغراق، ولتأكيد معنى الكثرة، والقرية المدينة الكبيرة؛ لأنها تقرى الناس وتجمعهم فيها، البأس هنا العذاب الشديد أو الهلاك، كما جاء لقوم لوط، ولقوم هود، ولقوم شعيب، والبيات الليل، ومعنى ﴿ **بَيَاتًا** ﴾ وهم بائتون، والمعنى: وكثير من القرى أهلكناها، فجاءها عذابنا بياتا ﴿ **أَوْ هُمْ قَائِلُونَ** ﴾، أى نائمون فى القيلولة من شدة الحر، أو مستريحون.

وإن المراد أنهم يحسبون أنهم فى أمن واطمئنان، فياتيهم العذاب بغتة وهم لا يشعرون.

وإن هذه سنة الله تعالى فى الكافرين يمهلهم ويجيئهم العذاب فى مأمنهم، ولقد قال تعالى فى ذلك: ﴿ **أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨)** ﴾ [الأعراف] كما قال: ﴿ **أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٤٧)** ﴾ [النحل].

وهكذا تكاثرت آيات الله تعالى فى كتابه العزيز تنبئ بأن الله تعالى يقصم الظالمين، وهم فى غفلة ساهون، حتى إذا أخذهم رأوا الويل.

وإن ذلك فيه إنذار للعرب بأنهم لا يصح لهم أن يأمنوا مكر الله، وإنه نازل بهم لا محالة، وإذا كان أمهلهم فلم ينزل بهم مثل ما نزل بغيرهم، فلأن الرسالة إليهم خالدة وأنها ليست لهم وحدهم، وإنما هى للأجيال كلها، وإن ما ينزل بهم

يكون بتوفيق الله لنبيه بعمل بشرى ينتصر به عليهم، أو بريح صرصر عاتية تهزمهم ولا تمحوهم.

وماذا كانت حال الذين أنزل الله تعالى عليهم بأسه فى قراهم وقد طغوا وبغوا وأثاروا الفساد، إنهم يحسون بظلمهم بعد أن فات وقت الإيمان، وقد قال الله تعالى فيهم: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥)﴾.

لقد قرعتهم هذه القارعة، وذهب غرورهم الذى دلاهم الشيطان به، وصغوا بعد أن استكبروا فنطقوا بالحق الذى أنكروه، وضرعوا إلى الله أن ينجيهم من العذاب الذى نزل بهم، ولات حين منجاة، بل إنهم يذوقونه وبال ما كسبوا، فهو جزاء لا فرصة معه لتوبة.

الدعوى هنا: الدعاء، كقوله تعالى: ﴿...وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾ [يونس].

ويصح أن تكون الدعوى هنا بمعنى الإقرار، وفى التعبير عن الإقرار بالدعوى مجاز؛ لأن كليهما فى مقام الخصومة، وإذ كانوا قد وضعوا أنفسهم فى مقام الخصومة مع الله تعالى بما افتروا من عبادة الأوثان وكذبوا عليه كان التعبير عن الإقرار بالدعوى للإشارة إلى أنهم قد خفضوا من دعاويهم وغطرستهم ولم يبق إلا أن يقروا خانعين، أغراهم الكفر ابتداء، وأذلتهم القارعة انتهاء.

«الفاء» هنا للإفصاح عن شرط مقدر، أى إذا كانت القرية قد نزل بها هذا العذاب الحاسم، ماذا كان جواب أهلها؟ فكان الجواب: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ﴾، ولتضمن الدعوى معنى الإقرار لم تلحق تاء التأنيث بالفعل «كان» وهنا نفى وإثبات، وذلك يتضمن معنى الاختصاص والقصر، أى أنه لا جواب لهم إلا الإقرار بالظلم، وإنه كان وصفا اتصفوا به فى كل ما قالوا من كذب على الله تعالى. فما كان قولهم: (ظلمنا)، بل كان قولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، وذلك تأكيد لظلمهم، فقد كان بالجملة الاسمية وبتصدرها بـ «إنا»، و«إنَّ» دالة على التوكيد، وتأكيد القول بـ «كنا» الدالة على الاستمرار، وبالوصف بالظلم الدائم، اللهم وفقنا للعدل، وجنبنا الظلم.

فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾

الفاء هنا عاطفة على ما قبلها، وهو إقرارهم بأنهم كانوا ظالمين، والذين أرسل الرسل إليهم هم الذين خوطبوا برسالاتهم، كقوله تعالى فى بيان سؤالهم: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [القصص]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ [المائدة].

أكد الله تعالى أنه سيسألهم بنون التوكيد الثقيلة، واللام الممهدة للقسم، أكد ـ سبحانه وتعالى ـ أنه سيسألهم، وهو سؤال العارف العالم بما وقع وما كان منهم، وما سيجيبون به، ولكن غاية السؤال أن يقروا بما كان منهم وما يستحقون ولنسألن الرسل الذين أرسل إليهم، وإجابة المرسلين إليهم لتسجيل الحجة عليهم، ولتكون الحجة قائمة عليهم بإقرارهم وقائمة عليهم بشهادة الرسل الذين بعثوا إليهم بأن الحق قد بلغهم ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ... ﴿١٤﴾﴾ [النمل] والسؤال فى هذه الحال نوع من بيان بطلان ما فعلوا، مع عدم قدرتهم على تغيير ما كان، وأنهم لا سبيل لهم لأن يتداركوا ما فات، فالسؤال لهم يلقى فى نفوسهم بالحسرات، وسؤال الرسل يلقى بحسرات أشد؛ لأنهم قاوموهم ومنعوهم من الحق وآذوا المؤمنين.

وأنهم بذلك يعلمون أنهم إن عذبوا إنما يعذبون باستحقاق جزاء ما ظلموا. ولقد روى عن عبد الله بن مسعود أن النبى ﷺ قال: «لن يهلك الناس حتى

يعذروا من أنفسهم»[١] ولقد أكد ـ سبحانه وتعالى ـ أنه لا سبيل لإنكارهم لأن الله تعالى يعلم غيب أمرهم إن أخفوه، فقال: ﴿**فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ** (٧)﴾.

الفاء عاطفة ما قبلها على ما بعدها، واللام لام القسم دالة هى والنون والقاف على التوكيد. و«نقص»: معناها نخبر خبر من يتقصى ويتتبع لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، والضمير فى «عليهم» يعود على من أرسل إليهم، ويحتمل أن يعود إليهم وإلى المرسلين معا، فيعلم المرسلون من الله ما كان يقع عليهم ويدركون أن الله كان عليما بالعنت الذى أعنتوه، يعلمون ذلك عند الحساب، كما علموه فى الدنيا بإطلاع الله تعالى عليه، فعلمهم فى الدنيا بالحساب والعقاب، كان علم إيمان بالغيب، ويقين من خبر الله، وعلمهم الآن بالحساب والعقاب والثواب علم معاينة. أما الكفار الذين أرسل إليهم فعلمهم يقينى بما أنكروا من قبل وهو علم بما جهلوا علم معاينة أو علم عقاب أنكروه، وبعث ونشر، وقد كابروا فيه.

وأكد الله تعالى قصصه الحق المتتبع بأمرين:

أولهما: قوله تعالى: ﴿**بِعِلْمٍ**﴾، أى أنه قصص لأعمالهم وأعمال رسلهم بعلم صادق ليس فيه حدس وتخمين. كما كانوا يدعون من علم من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، فهو يعلم الظاهر والباطن والأول والآخر.

ثانيهما: أنه علم من عاين وشاهد، وإذا قال تعالى: ﴿**وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ**﴾ أى كنا حاضرين حضورا مستمرا ما كنا غائبين فأخبرنا، ولكن كنا شاهدين، فعاينا، وليس علم الخبر، كعلم المعاينة والمشاهدة فى الصدق واليقين.

---

(١) رواه أحمد: باقى مسند الأنصار (٢٢٠٠٠)، وأبو داود: الملاحم ـ الأمر والنهى (٤٣٤٧).

وإن هذا العلم الذى ثبت بالعيان والشهادة هو الذى يبنى عليه الحساب والعقاب؛ ولذا قال تعالى: ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٨ ﴾.

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾، أى يكون الوزن للأعمال وزنا حقا ثابتا لا يميل إلى باطل، ولا يكون مبنيا إلا على الحق، و«الوزن» مبتدأ و«الحق» خبره، وتعريف الطرفين يكون دالا على القصر، أى أن الوزن يكون مقصورا على الحق لا يأتى بباطل، فهو مقياس دقيق يميز خير الأعمال من شرها، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾، موازينه جمع ميزان، أى من رجحت كفة موازينه بأن كانت أعماله فى كفة الميزان كبيرة ثقيلة، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون، أى أنهم المفلحون وحدهم لا يفلح غيرهم، وذلك لتعريف الطرفين، والإشارة إلى من ثقلت موازينه، وهنا يقال: أن الميزان واحد، فلماذا كان التعبير بالجمع بكلمة (موازينه)؟ فنقول فى الإجابة عن ذلك، إنه لتعدد الأعمال الموزونة يكون كل صنف منها قد ثقل فيها ميزانه، فيكون قد ثقلت موازينه.

وكذلك يقال فيمن خفت موازينه، وقد قال تعالى فيمن خفت موازينه:

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أى علت كفة أعمالهم لخفتها، فأولئك بسبب هذا خسروا أنفسهم، والتعبير هنا بقوله تعالى: ﴿خَسِرُوا أَنفُسَهُم﴾ وهى كناية عن أن العذاب ينزل ولا يخفف عنهم، وخسران نفوسهم فى هذا يشير إلى معان ثلاثة:

أولها ـ أنهم هم الذين كانوا بأعمالهم فى الدنيا عاملين على خسارتها، فلم تكن الخسارة لاحقة بهم من غيرهم.

ثانيها ـ أن العذاب خسارة للنفس أى خسارة، وأنهم هم الذين جلبوا لها هذه الخسارة الخالدة.

ثالثها ـ أنهم كانوا يحسبون فى ضلالهم فى الدنيا أنهم يكسبون بغطرستهم وكبريائهم واغترارهم بمظاهر القوة فبين الله تعالى أنهم الأخسرون أعمالا، وذلك عند ميزان الأعمال بميزان الخير والشر، لا بميزان الغرور والاستكبار.

وقوله تعالى: ﴿**بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ**﴾، أى أن هذه الخسارة التى خسروا بها أنفسهم بسبب أنهم كانوا مستمرين طول حياتهم الدنيوية مكذبين بآياتنا الدالة على وحدانية الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأضاف ـ سبحانه وتعالى ـ الآيات إليه للإشارة إلى عظم تكذيبهم، لأنهم يكذبون الآيات المنسوبة إليه ـ سبحانه وتعالى ـ فتكذيب أكبر من فى الوجود، ومنشئ الوجود، أكبر تكذيب وأكبر ظلم.

وقدَّم قوله تعالى: ﴿**بِآيَاتِنَا**﴾ على ﴿**يَظْلِمُونَ**﴾؛ لأن آيات الله هى محور الحق وميزانه وبرهانه، ونلاحظ هنا أن ظلم ويظلم تتعدى بنفسها من غير باء، وهنا تعدت بالباء، ونقول فى ذلك: إن ظلمهم كان لتكذيبهم بالآيات وكفرهم بها، فكان التعبير بقوله تعالى: ﴿**بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ**﴾ تضمن معنى التكذيب والكفر والظلم وذلك ضلال كبير؛ ولذا تعدى بالباء.

وهنا موضوع يجب أن نذكره وهو يتعلق بقوله تعالى: ﴿**وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ**﴾ وقوله تعالى: ﴿**فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ**﴾ ﴿**وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ**﴾ أيكون يوم القيامة وزن حقيقى حسى وموازين حقيقية حسية؟ أم هذه كناية عن إحقاق الحق وأن يعطى كل امرئ حقه، فلا يضيع لمحسن حسنة، ولا يحمل مسيء فوق إساءته.

نقول فى الجواب عن ذلك: إننا نؤمن الإيمان كله بأن يوم القيامة ونعيم الجنة وعذاب جهنم وغيرها من أحوال اليوم الآخر كلها حسى، ولكن نميل إلى قول ابن عباس إلى أن المذكور فى القرآن عن نعيم وطعام الذين كتبها الله تعالى

لهم مجازى مقرب، فإذا كان فيها فاكهة ورمان وخمر لذة للشاربين وعسل مصفًّى، وغير ذلك فإن ذلك مجاز مقرب وليس كطعامنا فى الدنيا، إنما هى فاكهة أعلى من فاكهتنا، وليس لها لغة إلا ما تقربه لغتنا؛ ولذا قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»(١).

بعد هذا نقول: إن قوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ أهو وزن محسوس بميزان محسوس يوم القيامة؟ فنقول مقلدين بعض المفسرين أن ذلك مجاز عن أن كل ذى حق يأخذ حقه بالحق لا ينقص ولا يزاد عليه شىء إلا أن يكون ذلك من رحمته تعالى وغفرانه.

وإنه يكون ثمة استعارة أو تشبيه، شبهت عدالة الله تعالى يوم القيامة، وهو لا يظلم شيئا بالميزان الذى توزن به الأشياء التى تخف الكفة فيها وتثقل؛ وذلك لدقة الحكم، ونسب ذلك القول إلى مجاهد والأعمش والضحاك.

وقد قال هذا أبو السعود فى تفسيره وذكره الغزالى فى كتابه: (المضنون به على غير أهله) إذ قال رضى الله تعالى عنه: «تعلق النفس بالبدن كالحجاب لها عن حقائق الأمور، وبالموت ينكشف الغطاء» كما قال تعالى: ﴿... فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق] ومما يكشف له تأثير أعماله مما يقربه إلى الله تعالى ويبعده وهى مقادير تلك الآثار، وإن بعضها أشد تأثيرا من البعض، ولا يمتنع فى قدرة الله أن يجعل سببا يعرف الخلق فى لحظة مقادير الأعمال بالإضافة إلى تأثيرها فى التقريب والتبعيد، فهذا الميزان المعروف، ومنه القبان للأقطان والإصطرلاب لحركات الفلك والأوقات، والمسطرة للمقادير والخطوط، والعروض لمقادير حركات الأصوات، فالميزان الحقيقى إذا مثله الله تعالى للحواس مثله بما شاء من هذه الأمثلة، فحقيقة الميزان موجودة فى جميع ذلك، وهو ما يعرف به الزيادة والنقص وصورته تكون مقدرة للحس عند التشكيل، وللخيال عند التمثيل، والله

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى: بدء الخلق ـ ما جاء فى صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٤٤)، ومسلم: الجنة وصفة نعيمها ـ باب (٢٨٢٤).

أعلم بما يقدره من صنوف التشكيلات، والتصديق بجميع ذلك واجب «من تفسير القاسمى». وفى مقابل ذلك الرأى المجازى الذى قاله من السلف مجاهد والأعمش والضحاك، وقاله الغزالى وأبو السعود، ونميل إليه، قول آخر، وهو أن كل ما ذكر عن اليوم الآخر من الميزان والصراط وغير ذلك حسى حقيقى يجرى على ظاهره؛ لأن المجاز حيث تتعذر الحقيقة، ولا تتعذر الحقيقة هنا، فلا مسوغ للتأويل، وعلى ذلك الأكثرون.

وهنا سؤال يعرض: كيف يكون الوزن، سواء أكان معنويا مجازيا أم كان حسيا، والله تعالى يعلم كل شيء.

وقيل فى الجواب عن ذلك: إن ذلك لإقامة العدل ولبيان حقيقة الأفعال، وليقروا بما كان منهم، والله عليم خبير قد أحاط بكل شيء علما.

﴿ **وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** ﴿١٠﴾ ﴾.

بين الله ـ تعالى ـ ما أنعم به على الناس أجمعين وثنيين ومؤمنين، طائعين وعاصين، فنعم الله تعالى الدنيوية تعم ولا تخص ﴿ ... **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ** ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم].

وقوله: ﴿ **مَكَّنَّاكُمْ** ﴾، أى جعلناكم ممكنين منها تفترشونها، وقد مهدها لكم تمهيدا وجعلها لكم مستقرا ومقاما تنتفعون بها، وجعل لكم من زروعها وثمارها ومعادنها، وما أودع أرضها من فلزات ما تتمتعون، وجعل ـ سبحانه وتعالى ـ لكم فيها معايش وهى جمع معيشة، والمراد ما تتعيشون مما أخرجت الأرض، كما قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴿٢١﴾ **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴿٢٢﴾ ﴾ [البقرة].

وإن المعايش التى جعلها لنا فى الأرض قد ذكر بعضها، من ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ**

وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا من ثَمَرِه إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِه وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١) وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٤٢)﴾ [الأنعام].

هذه بعض النعم التى اتخذ الإنسان منها معايش له.

وإن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ﴾ فيه توكيد من الله تعالى بهذا التمكين وذلك الاستقرار وذلك التأكيد اللفظى باللام وقد، وهو تأكيد للفعلين اللذين جاءا بعد ذلك.

وكان هذا التأكيد لتذكير الذين لا يؤمنون بفضل هذه النعم وحق شكرها ولكن الشاكرين قليلون فى عددهم بالنسبة للكافرين بها للذين لم يؤدوا حقها. ولذا قال تعالى: ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾، «قليلا» نائب عن المفعول المطلق لـ«تشكرون». و«ما» ليقوى معنى القلة، والمعنى تشكرون شكرا قليلا، أىَّ قلة بالنسبة لهذه النعم، إنه مهما يكن شكر المؤمنين فهو قليل بالنسبة لنعم الله تعالى، وهو ولى النعم.

وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟
لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾
قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ
وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ
فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ
﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ
صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ
وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ
ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

ذكر - سبحانه وتعالى - فى هذه الآيات وما يليها قصة خلق آدم ومعاندة إبليس، وقد سبق ذكرها فى سورة البقرة وليس ذكرها هنا تكرارا لما ذكر هناك أولا، فإنه إذا كررت بعض الوقائع، فإنه قد زيد هنا الفتنة التى فتن به الشيطان النفس البشرية فعلا، وهى تشابه مع ما أدى إليه الاندفاع وراء إبليس من بدء السورة، وأن آدم وحواء قد بدآ يخصفان عليهما من ورق الجنة، فقد فتن المشركين، حتى جعلهم يطوفون عراة كما أدت وسوسته لآدم وحواء إلى أن بدت لهما سوءاتهما.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾.

الخلق الإنشاء، والتقدير خلق الله تعالى الناس من الطين، فقال له كن فكان إنسانا، ثم صوره على هذا الشكل الإنسانى الذى جعله فى أحسن تقويم، و﴿ ثُمَّ ﴾ هنا ليست للتراخى الزمنى، فإن ذلك إنما يكون بالنسبة للحوادث، أما بالنسبة لله تعالى فلا تفاوت ولا تراخى؛ لأن الزمن لا يكون بالنسبة لله تعالى، إنما هو التفاوت بين حالى الخلق، وإن كان كلاهما يتم بقوله تعالى: ﴿ ... كُن فَيَكُونُ (١١٧) ﴾ [البقرة].

بعد أن تم خلق الإنسان الأول وهو آدم، كرمه الله تعالى بأن أمر الملائكة بأن يسجدوا، لعلمه بالأشياء، إذ علمه الله تعالى الأسماء كلها، وهذا قد ذكر فى سورة البقرة، ولم يذكره هنا، وعلى ذلك لم يكن تكرارا.

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾ ثم: هنا للتفاوت بين تقويم الخلق والتكوين والأمر بالسجود.

واستثنى من إطاعة الأمر فى السجود - إبليس، والاستثناء لأنه لم يسجد، سواء أكان الاستثناء متصلا؛ لأنه من جملة من كان مع الملائكة أم كان منقطعا، فإنه لم يسجد، مع أن الأمر بالسجود يشمله، فلم يكن منه سجود، سأله الله تعالى عما منعه من أن يسجد قائلا له تعالت كلماته: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ

أَمَرْتُكَ﴾ وسياق النص أن يكون: ما منعك أن تسجد إذ أمرتك، قال بعض المفسرين أن «لا» زائدة ونحن لا نرى أن فى القرآن حرفا زائدًا، ومن يقول ذلك يسرف فى قوله، ونقول فى ذلك أن: «منع فلانا من أن يؤذى» أى حماه، ويقال: «فلان فى منَعَة»، أى فى قوة حامية، سواء أكانت نفسية أم من جماعة، والمعنى على ذلك، ما منعك حاميا لك ألا تسجد إذ أمرتك، أى أنه وجد المقتضى للسجود، وهو أمر الله تعالى، وأمر الله واجب النفاذ للملائكة، ومن يكون معهم.

فكان جوابه: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ وذكر سبب الخيرية التى ادعاها، فقال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ وهو فى هذا غافل، ومدع ما لا دليل فيه على دعواه، أما غفلته، فهو أن الله تعالى خالق النار وخالق الطين وما فى خلقه تفاوت، فهما خلق الله تعالى، وهو الذى اختار النار له، واختار الطين لآدم، واختار أن يسجد إبليس النارى لآدم الذى هو من طين، فكيف يعترض عليه بخلقه، وإن هذا ضلال فى الفهم، وغفلة فى الإدراك؛ ولذا قال بعض العلماء: أشد العالمين غفلة إبليس. ودعواه أن الطين خير من النار، وأنه بذلك خير من آدم هذه دعوى لا دليل عليها، بل الدليل يناقضها؛ لأن الطين خلق الله منه الخصب، وكان من الخصب الزروع والثمار والأشجار والنخيل، وكل طعام أهل الأرض، والماء ينزل عليه غيثا فيكون منه ثمر كل شىء، وطعام الإنسان، والحيوان، والنار تدمر وتحرق، فإذا كان من الطين العمران، فمن النار الدمار، وكلٌّ خلق الله تعالى.

ولأن الباعث على قوله هذا التكبر، وليس الدليل؛ لذلك قال الله تعالى له: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾.

والهبوط هنا هبوط معنوى، إذ يخرج من الجنة إلى الابتلاء والاختبار، يمد الله تعالى له، ويختبر به الناس، فتكون العداوة، كما قال تعالى فى قصة سورة البقرة: ﴿... وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ... (٣٦)﴾ وقد ذكر ـ سبحانه ـ أنه

تكبر في غير موضع تكبر، وكذلك شأن المتكبرين دائما، فقال: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ أى فى الجنة، فليس من شأن هذا المكان الطاهر أن يكون فيه تكبر من مخلوق على مخلوق، ولذا قال ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ الصاغر هو الذليل، أو الأذل، من الإذلال؛ وهذه معاملة له بعكس ما يريد يبتغى لنفسه ابتغى الكبر فعاقبه الله تعالى بالإذلال، وشأن المتكبرين دائما أنهم يستعلون، فيذلهم الله، و«الفاء» فى قوله تعالى: ﴿فَاخْرُجْ﴾ تشير إلى أن سبب الأمر بالهبوط هو التكبر، والمعنى إذا كنت تتكبر ذلك التكبر فالأولى لنفسك أن تهبط فتكون من الصاغرين.

ولكن إبليس اللَّجوج لم يرد أن يترك جهلا محادته لله ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤)﴾.

أى أمهلنى فلا تعجل بموتى إلى يوم يبعثون، وقد ذكر من بعد ما يريد عمله من ذلك الإمهال وهو إضلال الناس، فأجابه الله تعالى ـ وهو العزيز الحكيم ـ إلى مطلبه ليتحقق اختيار الإنسان، وسلطان إبليس عليه أو على الأشقياء من خلقه ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥)﴾، وإبليس الذى كان فى غفلة قال من بعد ذلك مبينا لماذا كانت المهلة التى طلبها، قال إبليس: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦)﴾ الإغواء إيقاع الغى فى القلب، وهنا نجد أن إبليس يعترف بسلطان الله تعالى الكامل على العقول والنفوس، وأن الغفلة التى سترت مداركه، وأضلت تفكيره هى بإرادة الله تعالى وبعمل منه، وقوله تعالى عن إبليس: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ اللام لام القسم، و«أقعدن»: تأكيد لقصده الآثم ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ظرف مكان أى لأقعدن لهم فى صراطك المستقيم، وأضلهم، حتى لا يسيروا، فى هدى، بل يسيرون فى مسارات مختلفة يضلون فلا يهتدون سبيلا.

وبين إبليس أنه يحيط بالأشرار فلا يفلتون منه، فيقول: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧)﴾.

ومعنى ذلك أنه يحيط بهم بأعوانه، فيحيط بهم إحاطة الدائرة بقطرها، لا يفلتون منه، وهذا التصوير الحسى كناية عن الإحاطة النفسية التى لا يخرجون عن دائرتها، وينتهى من قوله بأنه سيضل الأكثرين؛ ولذا يقول: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾. وإذا كان قد استعلى واستكبر أولا فقد دفعه الاستعلاء إلى أن يضل باستمرار ويتحدى رب العالمين فى حماقة منه؛ ولذا قال الله تعالى طاردا له من رحمته: ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨)﴾ المذءوم المذموم المعيب المشنوء المبغض، والمدحور: المطرود الهالك، و«اللام» فى قوله تعالى: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ﴾ لام القسم، وهى لتأكيد العذاب النازل بهم، وتمتلئ جهنم منهم أجمعين، من إبليس ومن معه.

وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ
شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسْوَسَ
لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ
مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا
مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١)
فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا
يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۖ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا
عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢)
قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ
الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي
الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا
تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥)

كشف الله ـ سبحانه وتعالى ـ ما فى إبليس من خبث فى ذاته وإرادة الشر، وقصد إلى إغواء آدم وذريته.

اتجه ـ سبحانه وتعالى ـ إلى آدم يحذره، ويبين له ما بوأ له فى الجنة، قال سبحانه: ﴿ **وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩)** ﴾.

نادى الله ـ تعالى ـ آدم باسمه تكريما له، أباح له ليسكن هو وزوجه حواء الجنة، وأن يأكلا منها من حيث شاءا من ثمارها فى أى ناحية شاءا منها، ولكن حرم عليهما شجرة معينة، اختبارا لقوة أنفسهما، وإرادتهما، وردهما إغواء إبليس لهما، حيثما أراد، وبين أنهما إذا أكلا منها كانا من الظالمين لعصيان أمر ربهما ولضعف إرادتهما، وأول الظلم ضعف إرادة الظالم، وكان نهى الله تعالى لهما ألا يقربا هذه الشجرة، والنهى عن القرب نهى عن الأكل بالأولى، ولا نعلم ما هذه الشجرة فلا نحاول تعرفها ما دام الله تعالى لم يسمها، ولكن إبليس وجد الباب الذى يدخل منه ليوسوس لهما، فكان فى ذلك قوله تعالى: ﴿ **فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا** ﴾ فوسوس الشيطان وهو إبليس اللعين، وعبر عنه هنا بالشيطان لفساده وحركاته الفاسدة، والوسوسة: الصوت الخفى، وتطلق الوسوسة على حديث النفس، فيقال: وسوست إليه نفسه، أى حدثته بفعل معين. تحدث إليهما موسوسا بأن يأكلا من الشجرة، وكانت النتيجة أن بدت لهما سوءاتهما، وهى العورة التى يسوء النظر إليها، وكانت هذه نتيجة الوسوسة، ولأنها نتيجة تأكد وقوعها، جعلت كأنها الباعث على هذه الوسوسة إذ جاء باللام فى قوله: ﴿ **لِيُبْدِيَ لَهُمَا** ﴾ وكيف كانت الوسوسة؟

ذكرها الله تعالى متحدثا عنه مبينا: ﴿ **وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ** ﴾.

إنه يؤتى الإنسان من رغبة العلو والبقاء، وقد أتاهما الشيطان من هذه الناحية التى يبتغيها الإنسان بفطرته فقال كاذبا: ﴿ **مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ** ﴾ أى إلا لمنع أن تكونا ملكين ﴿ **أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ** ﴾ ويكون تقدير الكلام إلا كراهية أن تكونا ملكين والنفس الإنسانية طامحة إلى العلو وحب البقاء فكان ذلك السبيل لإغوائهما إلى الأكل وقد غرَّهما، ثم أراد أن يثبت لهما أنه ناصح لهما فأقسم بأنه لهما من الناصحين.

﴿ **وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١)** ﴾ والمعنى وأقسم لهما أنه من الناصحين، وذكر القسم بلفظ المفاعلة؛ لأنه أقسم لهما وأوقع فى أنفسهما أنه صادق فى قسمة وأكده بكل مؤكد حتى كأنهما صدقاه وبادلاه القسم، وأكد أنه من الناصحين وذلك بعدة مؤكدات، أولا: بالقسم الذى شدد فيه حتى وقع فى أنفسهما صدقه، كأنهما أقسما معه، وثانيا: بـ«إنّ» المؤكدة، والجملة الاسمية، وإدخاله فى زمرة الناصحين حتى وقعا فى مغبة تغريره؛ ولذا قال تعالى فى أثر هذه اليمين الفاجرة التى أقسمها.

﴿ **فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ** ﴾.

الغرور هو ظن الضار مصلحة، والباطل حقا. ودلاه من التدلية، وهى إلقاء الدلو فى البئر، وهى هنا إلقاء النفس فى الغرور، والمعاصى، والمعنى دلاهما فى المعاصى بالغرور الذى أوجده فيهما، فذاقا الشجرة التى نهاهما عن القرب منها، فلما ذاقاها بدت عوراتهما التى يسوء منظرها، ولما بدت أرادا أن يستراها فطفقا، أى أخذا يخصفان أى يقطفان من ورق الجنة ما يستر عوراتهما، وقد بدت لهما، وكانت من قبل مستورة عنهما، وبذلك ظهر لهما بينا ألم المعصية وأثرها، وناداهما ربهما وهما فى هذه الحال مذكرا بالنهى، فقال تعالى:

﴿ **وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴾.

ناداهما نداء منبها قويا قائلا لهما وهو ربهما الذى خلقهما، فسوى خلقهما، وهو يعرف ما تخفى نفوسهما يلومهما فى أمرين:

أولهما ـ أنه نهاهما ولم ينتهيا وقال لهما: ﴿ **أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ** ﴾ أى لقد نهيتكما عن تلكما الشجرة نهيا مؤكدا، ولكن أكلتما كما قال فى آية أخرى: ﴿ ...**وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ** (١٢١) ﴾ [طه].

الأمر الثانى ـ أنهما أطاعا الشيطان فى تغريره، وحسبا أنه ناصح، وقد بين الله تعالى أنه عدو واضح العداوة؛ ولذا قال: ﴿ **وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴾ أى لقد قلت مؤكدا القول: إنه عدو واضح العداوة فما كان لكما أن تغترا به، أحس آدم بغرور الشيطان الذى ظهر فى أثر العصيان، وأنهما بالعصيان ما صارا ملكين ولا صارا فى الخالدين.

فقالا نادمَين: ﴿ **قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** (٢٣) ﴾ اتجهوا معترفين بذنوبهم مقرين بخطئهما وقد أحسوا بأن مغبة العصيان وقعت فنادوا ربهم ﴿ **رَبَّنَا** ﴾.

وهنا حرف نداء محذوف، وهو نداء ضراعة وخشية: أى يا ربنا ظلمنا أنفسنا، وظلمهما لأنفسهما كان باديا لعيانهما عندما ذاقا الشجرة فقد بدت لهما سوءاتهما وأخذا يخصفان عليهما من ورق الجنة، وظلما أنفسهم بعصيان الله وذلك ظلم مبين، وظلمهما أنفسهما باغترارهما بالشيطان وقد قال لهما ربهما: ﴿ **إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴾ واضح العدوان.

كان هذا الإحساس العميق بظلم أنفسهما مصحوبا بضراعة إلى الله تعالى أن يغفر لهما ويرحمهما؛ ولذا قالا: ﴿ **وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ يطلبان المغفرة من الله تعالى ولا يكتفيان بها، بل يطلبان مع المغفرة أن يتغمدهما الله برحمته، ولئن لم تكن المغفرة والرحمة ليكونن من الخاسرين الذين خسروا أنفسهم بظلمهم لها وخسروا غفران الله تعالى ورحمته، وذلك هو الخسران المبين.

ولذا قال الله تعالى: ﴿ **قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ** (٢٤) ﴾.

ليست الجنة دار ابتلاء، إنما الأرض هى دار الابتلاء التى يتنازع فيها الخير والشر، والحق والباطل، والبر الفاجر، وهى دار الابتلاء فيها تتجلى عداوة إبليس ومن معه لابن آدم وذريته؛ ولذا أخرج آدم من الجنة ومعه زوجه، وأخرج إبليس مذءوما مدحورا قال الله تعالى: ﴿**اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**﴾ اهبطوا جميعا بعضكم لبعض عدو، فإبليس عدو لآدم وزوجه وذريتهما من بعدهما، ويكون بعض هذه الذرية لبعضهم عدوا لإغواء الشياطين، فالشيطان عدو لبنى آدم، وبإغوائه يكون بنو آدم بعضهم لبعض عدو.

ولكم أيها المذنبون وذريتكم فيها مستقر أى موضع استقرار ومتاع، تنتفعون بخيراتها وكل ما فيها أو ينتفع بعضكم، وكل ذلك إلى حين أى زمن محدود.

ثم بين الله تعالى حال الناس فى الدنيا فقال تعالت كلماته: ﴿**فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ**﴾، والمعنى فيها تعاقب الأحياء بعضهم من ذرية بعض، والأحياء يموتون ويخلفهم أحياء من بعدهم، والأموات يبعثون من قبورهم ثم تكون القيامة، ويجازى المحسن إحسانا والمسىء الذى أطاع الشيطان، يناله عذاب أليم، والله ولى المؤمنين الصادقين.

ما بين قصة خلق الإنسان فى سورة البقرة وقصته هنا

يبدو بادى النظر وظاهره، أن القصة هنا هى بحذافيرها المذكورة أولا فى البقرة، وأن ذلك تكرار فى القرآن. ونحن نرى أن كون الله خلق آدم، وأمر الله الملائكة أن يسجدوا، وامتناع إبليس عن السجود وطرده وهبوطه هو وآدم وزوجه من الجنة، مذكور فى القصتين، ولكن كان الاختلاف فيما وراء ذلك فذكر فى إحداهما ما لم يذكر فى الأخرى ومجموعهما يأتى بالقصة متكاملة الأجزاء، فيما تعرضت السورتان له، الثمرة من ذكر القصة مختلف فى كل واحدة عن الأخرى.

أولا - أن قررت أن ثمرتها عداوة إبليس لآدم من أصل التكوين، وحذرت الإنسان من أثر هذه العداوة، وبينت الآية الكريمة ما يترتب على هذه العداوة،

وذكرت بنى إسرائيل، وما وسوس به الشيطان فى نفوسهم، وكانوا أوضح مثل فى البشرية لتحكم إبليس فيهم، حتى كأنه هو - أى إبليس - وَهُم شىء واحد، لولا أنه من الجن، وهم من الإنس، وهم مع ذلك صورته الحية الواضحة، جعلهم الله تعالى عبرة المعتبرين من أهل الفضيلة.

والثمرة هنا فى هذه الآية هو تحكم إبليس فى العرب حتى جعلهم يطوفون عراة رجالا ونساء، كما حمل إبليس أبوى الإنسان على أن يأكلا من الشجرة، فبدت لهما سوءاتهما.

ثانيا - أن قصة البقرة فيها تعليم الله تعالى لآدم، وبيان استعداده لأن يعلم الأشياء كلها، واختبار الله تعالى للملائكة، ثم كان الأمر بالسجود نتيجة لأن آدم أنبأهم بأسماء ما جهل الملائكة أسماءهم، ولم يذكر ذلك فى هذه القصة، بل طوى وكان الأمر بالسجود فحذف من هنا ما ذكر هنالك مفصلا.

وفى قصة التكوين فى سورة الأعراف التى تتكلم فى معانيها، ذكرت الطريقة التى أزل بها إبليس الزوجين الكريمين، إذ قال لهما: ﴿**مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١)**﴾

ثالثا - وفى سورة البقرة بينت أنه أزلهما ولم تبين الطريقة التى أزلهما بها، فكانت القصة هنا موضحة لذلك، فهى متممة لها، وليست مكررة معها.

رابعا - فى هذه السورة ذكر ما ترتب على الأكل من الشجرة، من أن بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، فإن ذلك لم يذكر فى سورة البقرة وذكر هنا، وهو تتميم لما ذكر هناك.

وما ذكر هنا فيه بيان مشابهة ما دعا إليه الله تعالى من النهى عن عري العرب فى مكة بإغواء إبليس، فتشابه عمله مع ذرية آدم بما عمله مع آدم وزوجه.

خامسا - فى قصة التكوين فى الأعراف، أن آدم وزوجه قد أحسا بما صنعا، ﴿**قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣)**﴾ ولم يذكر

ذلك فى سورة البقرة إلا قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ... (٣٧)﴾، فكانت الآية متممة أو موضحة لما جاء فى سورة البقرة ولم يذكر فى سورة البقرة نداء الله تعالى للزوجين قائلا: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، وهكذا كان ما هنا متمما لما هناك.

سادسا - ذكر فى سورة البقرة إرادة الله تعالت حكمته أن يجعل خليفة وما قاله الملائكة فى هذا: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠)﴾ ثم بيان الله بتعليمه الأسماء كلها وبيان أنه أحق بخلافة الأرض منهم، ولم يذكر هذا هنا فى الأعراف.

وذكر هنا إغواء إبليس، وطريقته فى إغوائه وأنه يحيط بهم دائما من عن أيمانهم وعن شمائلهم، ولم يذكر هنالك فى سورة البقرة، وأنه بهذه الموازنة بين ما اشتملت عليه القصة فى السورتين يتبين أمران:

أولهما ـ أنه لا تكرار، بل كل قصة تكمل الأخرى، وتتكون قصة كاملة لا تتضارب الأجزاء فيها.

ثانيهما ـ أن الثمرة فى كل جزء مختلفة، وأن القرآن مَعين المعرفة لا يغيض أبدا.

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ

لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ
أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ
وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا
هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ
أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ ما كان فى خلق آدم وزوجه، وما وقع لهما مع إبليس، وكيف وسوس لهما، حتى ذاقا الشجرة فبدت لهما سوءاتهما.

ويبين فى هذه الآية أن الثياب نعمة أنعمها الله على عباده، ويقول الزمخشرى: إن هذه الآية استطراد لما جاء فى أصل التكوين، أى أنها فى معنى البيان والتفسير لكونهما أخذا يخصفان عليهما من ورق الجنة، والمعنى أن ذلك أمر فطرى، وقد قوى الله تعالى المعنى الفطرى، بأنه أنعم على الناس باللباس استجابة للفطرة وذلك صيانة للحياة.

ولا نحسب آن الآية استطرادية، بل الآيات تمهيد لبيان أن ما كان يفعله بعض العرب من الطواف عرايا، هو خروج على الفطرة، وهو خروج على الحياء الإنسانى، الذى جعل آدم وحواء يخسفان عليهما من ورق الجنة:

﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا ﴾.

النداء لبنى آدم جميعا؛ لأنه مجاوبة للفطرة الإنسانية التى جعلت أبوى البشر يخصفان عليهما من ورق الجنة؛ ولذا كان النداء إلى أولاد آدم، وفيه إشارة إلى تلك الفطرة السليمة، وإلى ذلك الحياء الفطرى الذى هو سمة الإنسانية الرفيعة، لا إلى تلك الإنسانية المسيخة، التى تظهر فى العرى الفاحش الذى يقره بعض الذين تبلدت مشاعرهم وأحاسيسهم.

﴿ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ ﴾ وذلك بإنزال المطر الذى ينبت منه النبات، وتأكل منه الأنعام، ويحيا به كل شيء حى فى هذه الأرض، ثم يكون من

النبات القطن والكتان، ويكون من الأنعام الأصـواف والأوبار والأشعار، مما يتخذ لباسا تستر به العورة.

فالله ـ سبحانه ـ يعبر بالسبب، وهو نزول الماء الذى يكون منه النبات وغذاء الجسم، ويكون من ذلك اللـباس الذى يوارى السوءة، وهى العـورة، وقد بينا أن السـوءة وهى العورة، وقـد بينا أن السوءة مـا يسـوء النظر إليه، ولا تقـره الفطرة السليمة.

وأقول: إن تفسيـر قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا﴾ بالمطر الذى يكون منه اللباس تفسيـر سليم، ولكن كلمة «أنزل»، كما تدل على نزول الماء كمـا فى قوله تعالى: ﴿... وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ... (٤٨)﴾ [الفرقان]، كمـا فى قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ... (٢٢)﴾ [البقرة] فإننى أرى أنها كـما تدل على ذلك، تدل أيضـا على الإنعام، فهـو سبحـانه أنعم بهذا اللباس الذى يوارى السوءة، فهو الذى أنزل علينا نعمه ظاهرة وباطنة.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَرِيشًا﴾ الريش والرياش لباس الزينة، وما تزين به البيوت من فـراش، وأطلق الريش على لباس الزينة، على أنه من قبيل التشـبيه بريش الطير الذى يتزين به، وتصيبه الحسرة إن خلع منه.

والمعنى أن الله تعـالى أنزل لبنى آدم، اللبـاس الذى يوارى السوءة، ولبـاس الزينة.

﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾.

إن اللبـاس الضـرورى هو الذى يوارى السـوءة، والريـش هو الزينة، وهو الرياش فى البيوت، وكل ذلك فى الأجسـام، وما يتصل بها من المسكن والمأوى، فللقلوب لبـاس يكسو باطن الإنسـان، وهو التقـوى؛ ولذا قال تعـالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾ وقد شبه فـى هذه الحال، ما يملأ النفس من تقوى سابقـة وإيمان قوى، وباللباس الذى يلازم الجسم ويسـتره ويتزين به، فإن التقوى سـتر لعيوب النفس،

ووقاية لها من غضب الله تعالى، وهى زينة القلوب ونورها المشرق؛ ولذلك قال فيها: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ فى ذاته، وخير عما سواه من زينة الناس، فإن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم.

وفسر بعض العلماء لباس التقوى، بأنه لباس الجهاد من لأمة[1] الحرب، واتخاذ الترس والدرع، وغير ذلك مما يدرع به المقاتل مجاهدا مدرعا، فإن هذا لباس تقوى من جهة أنه لا يكون إلا ممن امتلأت قلوبهم بتقوى الله، وباعوا أنفسهم له سبحانه وتعالى، وذلك أعلى درجات التقوى، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ... (١١١)﴾ [التوبة].

وذلك لا شك تحتمله الآية، ولكنه ليس الظاهر المتبادر منها، ونحن فى منهاجنا نتجه إلى الظاهر المتبادر وقد يصح لنا أن نقول: إن الآية تعم الأمرين والله تعالى أعلم.

وإن الله تعالى، إذ خلق لنا نعمة الكساء: ما يكون منه ساترا، وما يكون منه زينة؛ فإنه آية من آيات الله ونعمه يجب أن نتذكرها، ونعتبر بها فى كل تصرفاتنا، وخصوصا فى الحج، الذى هو منسك إبراهيم ـ عليه السلام ـ بانى الكعبة، وأبى العرب؛ ولذا قال تعالى فى ختام الآية: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

والإشارة بـ«ذلك» إلى نعمة الله تعالى فى إنزال الأمطار التى يكون منها الزرع والحرث والنسل ثم يكون منها للناس والرياش.

لقد حكم ـ سبحانه وتعالى ـ أنه من آيات الله فى إنزال المطر الذى كان منه كل شيء حى، والذى به أنشأ الله جنات معروشات وغير معروشات، فهذا كله من آيات الله تعالى ونعمه، التى توجب الشكر وتمنع الكفر، وهى مع ذلك، دالة على وحدانيته.

(١) اللأمة: لباس الحرب.

وختم الله سبحانه قوله العزيز بقوله: ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ** ﴾، الضميران يعودان إلى المشركين الذين كفروا بالله والذين يكفرون بنعمة الله، ويطوفون بالبيت الحرام عراة، وقد أنزل عليهم لباسا يوارى سوءاتهم وريشا يتزينون به، فلعلهم يتذكرون فينخلعوا عن هذه العادات انخلاعا.

والرجاء هنا منهم لا من الله تعالى، وقد مهد الله تعالى لهم من الأسباب، وذكر لهم من الآيات ما به يتذكرون.

﴿ **يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا** ﴾.

النداء للناس أجمعين، وكان النداء بقوله تعالى: ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ** ﴾ لهذا العموم، ولتذكير الأبناء بما كان للآباء من عداوة إبليس، وتهديده بإغوائهم، وأنه يقعد لهم الصراط المستقيم، وأنه وسوس لأبوى الآدميين.

قال الله تعالى ناهيا: ﴿ **لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ** ﴾ النهى للآدميين، والفاتن هو الشيطان ولم يوجه النهى إليه؛ لأنه تمرد على أمر ربه، وخرج مذءوما مدحورا، وكان النهى لبنى آدم مع أن الفاعل غيرهم؛ لأن معنى النهى حينئذ ألا يمكنوه منهم، وذلك بطاعة الله تعالى وحده ورد الأوهام والأهواء، فإنها باب الشيطان فإن سُدَّ باب الوهم والهوى، فقد سُدَّت مسالك الشيطان، واستقام فى النفس أمر الرحمن، فالحصن الذى يقى المؤمن فتنه الشيطان، هو الطاعة لأوامر الله تعالى، وتقوية العزيمة.. والإرادة وأن يكون للرحمن وليا ويتقى ولاية غير الله تعالى.

والفتنة معناها فى أصل اللغة: فتن الفلزات من الذهب والفضة والحديد والنحاس، لإخراج ما يكون فيها من مادة ليست من جوهرها. ثم أطلقت على كل شدة يتميز بها الخبيث من الطيب، وتختبر فيها الإرادات ويتميز فيها ذوو العزائم، ثم كانت للنتيجة وهى محاولة خداع النفوس بالإتيان بما يهد العزيمة

ويضعف الإرادة، بخداع النفس، وإرهاق الإرادة والطغيان على حكم العقل وإضعاف سلطانه.

وهى هنا من هذا القبيل، فالله تعالى ينهانا عن أن ننخدع بالشيطان، وله ماض فى إيذائنا وخدع أبوينا: آدم وزوجه حواء، اللذين كان منهما التناسل الإنسانى الدائم، إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها.

وقد عزز الله تعالى النهى عن الانخداع بابليس، بماضيه، إذ خدع آدم وحواء، فأتى نفوسهما من جهة ما هو فى فطرة الإنسان، من حب العلو والخلود، فقال لهما مقسما لهما: ﴿**مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ**﴾ ومن هذا الباب دخل إلى أنفسهما وأتباعه من بعده، يسلكون هذا الطريق ذاته فهم يأتون النفوس من قبل ما تحب وتشتهى، فالأهواء والشهوات الباب الذى يدخل منه الشيطان إلى النفوس، والسلطان والطغيان بابان مفتوحان من أبواب الشيطان.

وقد كان لوسوسة إبليس لأبوى الخليقة، أثران: ذكرهما الحق ـ سبحانه ـ فى كريم آياته الأولى:

أولهما: إخراجهما من الجنة. فقال فيها: ﴿**كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ**﴾ وهو ـ كما أخرجهما من جنة الله تعالى ـ يخرجكم يا بنى آدم، من جنة الطاعة وعزتها، إلى ذلة المعصية وغوايتها.

ثانيتهما: أنه ترتب على ذلك أن بدت لهما سوءاتهما، وصارا تحصنان عليها من ورق الجنة، كما قال تعالى: ﴿**يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا**﴾.

كذلك الشيطان ينزع عن المؤمن كل ما استكن فى قلبه من خير، ويكشف عورات الناس، وسوءات المجتمع الإنسانى.

وإن فى ذلك لإشارة واضحة إلى أن الشيطان الذى نزع لباس آدم وحواء هو الذى ينزع عن العرب لباسهم فى الطواف حول أقدس بيت الله فى الأرض، أول بيت وضع لعبادة الناس وهو البيت الحرام.

وإذا كان إبليس قد تراءى فى الجنة الأولى لآدم وحواء فدلاهما بغرور، فإن أتباعه لا يظهرون، ولكن يوسوسون؛ ولذا قال تعالى: ﴿ **إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ** ﴾.

إن إبليس يختفى ولكن له سلطان قوى على النفوس والقوة الخفية له هو وقبيله أى جماعته التى يجمعها، هذه القوة تبعث فى النفس بقدر لا يقل عن القوة الظاهرة التى كانت لأبوى الخليقة آدم وزوجه، وهذه القوة يؤثر بها فى نفوس الكبراء بإغرائهم بالسلطان وتسليطهم على الضعفاء فيكون على الضعفاء قوتان تسيطران على أنفسهم: قوة أصحاب السلطان الظالم، وقوة الشيطان والاستخذاء له فى نفوسهم. والمؤمن القوى يدفع الإغراءين ولا يستمع إلا لله سبحانه وتعالى، فإذا كانت هذه تسيطر، فقوة الحق عند أهل الحق أقوى، ولو كانوا عبيدا أو ضعفاء؛ لأنهم مؤمنون بالله ـ سبحانه وتعالى ـ وقد ذكر النبى ﷺ فى تأثير الشياطين الخفية وتأثير الملائكة «أن للملك لمة وللشيطان لمة، فأما لمة الملك فوعد بالخير وتصديق بالحق، وأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق»(١).

واللمة ما يلم بالقلب ويتصرف القلب والنفس بمقتضاه، فالقلب تتنازعه قوة الحق وهى من الله أو من الملك، وقوة الشر، وهى من الشيطان، وهو يرهب من الحق، ونتائجه، ويغرى بالهوى والشهوة.

وإن قوة الإيمان تدفع إغراء الشيطان، فالإيمان والتقوى حصنان للحق، والكفر والهوى حظيرة الشيطان؛ ولذا قال تعالى: ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾.

---

(١) رواه بنحوه الترمذى: التفسير ـ ومن سورة البقرة (٢٩٨٨) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

إنه إذا كانت التقوى قوية، تكون إرادتها للحق، وعزيمتها فى الخير عزيمة صادقة، لا يقوى الشيطان على قهرها، أما النفوس المضطربة بالباطل التى فسدت فطرتها، فإن الشيطان يجد السبيل لبث شروره وإغرائه وفتنته وخديعته فيها؛ فإنها لفساد فطرتها واضطراب فكرهم - تجد فيها الشياطين داعيتهم، وهذا معنى جعلهم أولياء للشياطين، فمعنى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾.

أى أنهم لإفساد فطرتهم المستقيمة وجعلها معوجة، والاعوجاج دائما، يفتح ثغرات لهذا الشر، وتلك الوسوسة التى بها يكون الشياطين أولياءهم، وإنما جعل الله تعالى الولاية ليست فى النفوس الإنسانية، وإنما جعلها للشياطين أنفسهم، فقال سبحانه: ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾؛ لأن الشياطين يفعلون والنفوس الإنسانية تتقبل، واعوجاجها يسهل دخول الشر فيها، والولى هنا هو الموالى والنصير المتصل، فالله - سبحانه - جعل الشياطين موالى وأحباء وأصدقاء للذين لا يؤمنون، الذين ليست قلوبهم مؤمنة مذعنة للحق؛ ولذا ذكر الفعل المضارع بقوله: ﴿ **لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾، أى لمن ليس من شأنهم الإيمان والإذعان للحق، فالكافرون أولياؤهم الشياطين والطاغوت.

وإن من إغواء الشياطين لبنى آدم، أن ينسبوا أفعالهم إلى الله، وإلى أتباع آبائهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا** ﴾.

أشرنا إلى ما كان يفعله المشركون فى الحج، وما كانوا فى هذا إلا متبعين لما كان عليه آباؤهم، وفى هذا يتبين ما جاء عن مفسرى التابعين فى هذا الموضوع.

الفاحشة: الأمر الزائد عما تقبله العقول المستقيمة، والاحتشام الإنسانى والحياء الخلقى، ولا شك أنهم بطوافهم عراة، يرتكبون أفحش الأعمال الخارجة عن حدود العقل، والاتزان، والحياء الفطرى.

ولقد روى مجاهد فى ذلك، أن المشركين كانوا يطوفون بالبيت عراة، فكانوا يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا، وكانت المرأة تضع على قُبُلها شيئا تستره به،

فأنزل الله تعالى: ﴿ **وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا** ﴾ وقد قال الحافظ ابن كثير في ذلك: وكانت العرب ما عدا قريشا، لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها، يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله تعالى فيها، وكانت قريش، وهمْ الحمس (جمع أحمس) يطوفون في ثيابهم، ومن أعاره أحمسي ثوبا طاف فيه، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه لئلا يتملكه أحد، ومن لم يجد ثوبا جديدا، ولا أعاره أحمسي ثوبا طاف عريانا، وربما كانت امرأة فتطوف عريانة فتجعل على فرجها شيئا يستره بعض الستر فتقول:

اليوم يبدون بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

«وأكثر ما كان النساء يطفن عراة بالليل، وكان هذا شيئا ابتدعوه من تلقاء أنفسهم».

وإن هذا الكلام يدل على أمرين خطيرين:

أولهما ـ أن ذلك كان يحدث من العرب مخالفا كل عرف، ومخالفا لكل تفكير سليم فما كان لِيرضى أحدًا مثل هذا، وهو أشد أحوال الفحش في الأفعال!

ثانيهما ـ ما يزعمون من أنهم لا يطوفون بثياب ارتكبت فيها معاص لهم.

وكأن قريشًا لا معاصي لهم، مع أن بعضهم ما كان يتحاشى المفاخرة بالمعاصي، فقد كان منهم من هو رجس في رجس. وإذا كان منهم من كان يمتنع من التدلي فيما يخدش مروءته كعبد المطلب، وأبي طالب، والعباس، فقد كان منهم أيضا من لا يمتنعون عن بعض المعاصي، كالربا ونحوه.

وإنهم إذ يفعلون هذه الفاحشة يبررونها بأمرين:

أولهما ـ أمر يتفق مع العقل الجاهلي، وهو أنهم يقولون: ﴿ **وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا** ﴾، ولو كانت فحشا، ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون.

الأمر الثانى - أنهم يفترون على الله، ويقولون: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ ويتأولون ذلك بأنه ما دام لم ينهنا عنها فقد أمرنا بها.

وهذا تفكير جاهلى، يقولون أمر الله بالشرك وبتحريم بعض الذبائح، وتحريم بعض ما تخرجه الأرض، ويقولون: ﴿... لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ...(١٤٨)﴾ [الأنعام] وهذا ما يبرر به المعاصى بعض الجاهلين فى هذا الزمان، وقد رد الله كلامهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾.

أمر الله تعالى نبيه بأن يواجههم بافترائهم على الله تعالى، ببيان أنه يستحيل على الله ما يفترون عليه؛ لأن الله تعالى له الكمال المطلق، ومن له الكمال المطلق لا يأمر بالفحشاء؛ لأنه لا يصدر عنه إلا ما هو كمال فى ذاته، ولا يتنافى مع عقل عاقل ويرضاه ذو ذوق سليم. وقال تعالى: ﴿لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ ولم يقل «ما أمر بذلك»، أو ما أمر بالفحشاء، بل قال نافيا الأمر بالفعل المضارع: ﴿لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ فلا يمكن أن يأمر بذلك لا فى الماضى ولا فى المستقبل، وليس من شأنه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وكان النفى بالمضارع؛ لأنه نفى لشأن الله ثم قال تعالى، كما أمر نبيه أن يستنكر قولهم: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾؟! الاستفهام هنا إنكارى لإنكار الواقع، أى لتوبيخهم على ما وقع منهم؛ لأنهم فعلا افتروا على الله افتراء، فقالوا ما لا يعلمون صدقه، ولم يصل إليهم عن الله تعالى أمره فيه وحُكمه.

وإن ذلك فوق أنه توبيخ لهم، واستنكار لفعلهم - فيه توجيه لهم لئلا يتكلموا إلا بعلم، وأن الشيطان لينفذ إلى ما يحكمون به بأوهامهم وأهوائهم. وتقديم قوله تعالى: ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ لبيان وجه الاستنكار الشديد، وهو أنهم يقولون على الله جل جلاله، فكان قولهم هذا أشد الافتراء.

ثم بيَّن سبحانه فقال بعد أن نفى أنه يأمر بالفحشاء:

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩)﴾.

ذكر الله تعالى فى الآية السابقة أن الله تعالى لا يأمر بالفحشاء، أى لا يأمر بالأمر الذى يفحش، فلا تستطيع العقول المستقيمة المدركة أن ترضى به.

وهنا يبين ما يأمر به سبحانه، فيقول: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾، وإن السياق يقتضى أن يكون ما أمر الله به نقيض الفحشاء، فالقسط هنا يفسر بأنه العدل، والعدل كل أمر فى ذاته مستقيم تقره العقول ولا ينكره الذوق السليم، فالعدل يشمل العدل فى الحكم، والعدل فى الأقوال والأفعال، والاعتدال فى كل ما يختار فى الأمور، فلا يمتد إلى الحرمان، ولا إلى الاعتداء، بله الإفحاش؛ ولذلك قال بعض المفسرين: إنه يشمل كل ما أمر الله به، فما يأمر إلا بما هو عدل، وما نهى إلا عما هو ظلم. وقال أبو مسلم فى تفسيره: إنه الطاعات كلها، والتعبير بالماضى فى «أمر» فيه تكذيب لافترائهما وأنه لم يأمر به الله سبحانه، فالله - سبحانه وتعالى - ما أمر بالفحشاء، بل أمر بالقسط، وما به تستقيم الأمور فى العقول.

ولقد صرح - سبحانه - بما يجب للمساجد، من تعظيم، لا أن يطَّوَّفوا عراة بالمسجد الأعظم، الذى كرمه الله تعالى، وتشد إليه الرحال؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾.

هذا أمر معطوف على خبر فى الظاهر، ولكن قالوا إن قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ﴾ هنا «أن» مطوية فى الكلام ومقصودة والسياق هكذا: «أمر ربى بالقسط وبأن أقيموا وجوهكم عند كل مسجد». وأقول إن: «أقيموا» معطوف على «أمر» لأن «أمر» يتضمن معنى الطلب، فهو عطف طلب على طلب.

وإقامة الوجه عند كل مسجد، هى الاتجاه إلى الله تعالى، مثل قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ... (٣٠)﴾ [الروم] والوجوه هى الذوات، أى اتجهوا إلى الله تعالى بكل أنفسكم عند كل مسجد، وكذلك ما يطلبه الله تعالى عند كل مسجد، مع توقير المساجد، وإعطائها حقها فى الاحترام والإجلال، فلا يصح أن يكون فيها عرى أو ما يكون رذيلة فى ذاته، أو ما يبعث على الرذيلة، وأن يكون

الاحتشام هو الزى الأكمل، وإقامة الذات لله تعالى أن تكون خالصة له سبحانه، ومستشعرة خشيته، وجلاله، وقرن هنا بالمسجد، لكرامة المسجد كما ذكرنا؛ ولأنه رمز الصلاة، فإقامة الوجه فى الصلاة بأن تكون مقومة فيها استحضار عظمة الله سبحانه فى قراءتها وأدعيتها وكل حركاتها، لا يعمر القلب فيها غير الله تعالى.

وقرن - سبحانه وتعالى - الأمر بإقامة الوجوه لله بالأمر بالدعاء مخلصين له الدين، فقال تعالى: ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، الأمر بالدعاء هو الأمر بالعبادة؛ لأن العبادة دعاء، والدعاء فى ذاته اتجاه إلى الله بضراعة وخشوع وخضوع، فقد أمر الله تعالى بمعاملة الناس بالقسط بين الناس، ثم أمر من بعد بإقامة الوجه لله تعالى بالانصراف إليها بذواتنا، بأن نجعل كل مشاعرنا، وخلجات قلوبنا لله تعالى، بحيث لا نحب إلا لله، ولا نبغض إلا لله، وأن نكون ربانيين فى أنفسنا، وعقولنا، وقلوبنا، ثم أمرنا من بعد أن نعبده وحده، قد خلصت قلوبنا له؛ ولذا قال: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ والدين هنا الطاعة، وكل العبادات. مخلصين له كل هذا، بحيث لا نشرك فى عبادته أحدا، فلا نعبد أحدا سواه، ولا نرائى فى عبادته، فالرياء فى العبادة هو الشرك الخفى؛ ولذا ورد أن النبى ﷺ قال: «من صلى يرائى فقد أشرك، ومن صام يرائى فقد أشرك، ومن تصدق يرائى فقد أشرك»(١).

وقد قرن - سبحانه وتعالى - هذه الأوامر بالتحذير من عصيانه، والتذكير بالبعث، وأنه وراء البعث القيامة والحساب والثواب أو العقاب؛ ولذا قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾.

وفى هذا النص دعوة إلى الإيمان بالبعث، وتذكير به، وهذا التذكير يحمل فى نفسه دليله، و«الكاف» دالة على التشبيه، والمعنى بهذا البدء بالخلق والتكون تعودون، أى يعيدكم كما بدأكم، ففى الآية ذكر للبعث، ودعوة إلى الإيمان به، والدليل عليه بقياس الإعادة على الإنشاء، وأنه أهون، والله على كل شىء قدير،

---

(١) سبق تخريجه

وأنه يكون من بعده الجزاء، فمن اهتدى فله الثواب، ومن ضل نزل به العقاب، ولذا قال تعالى:

﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٠) ﴾.

يبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن الناس عند عودتهم إلى فريقان: فريق هداه الله تعالى فى الدنيا وفريق كان من أولياء الشياطين، وحق عليه الضلالة.

و﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ ﴾ حال من (تعودون) فى الآية، أى يعودون فريقا هداه الله تعالى، وفريقا حقت أى ثبتت عليه الضلالة، والفريق الذى هداه الله قد اتخذ الطريق المستقيم سبيلا، ولم يتخذ طريقا عوجا، فإنه يُضل، والفريق الذى ثبتت وتقررت عليه الضلالة، هو الذى اتخذ الشياطين أولياء له يودهم ويحبهم؛ لأنه اتجه إلى المعاصى يشتار عسلها، وجعل قلبه موطنا للشيطان يسكنه، ويغويه ليحقق قسمه لله تعالى بقوله: ﴿ ... لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) ﴾ [ص].

ولقد بين النبى ﷺ فى أحاديث عدة أن الناس يولدون على الفطرة، والفطرة التى فطر الله الناس عليها مستقيمة دائما لا تخرج عن سنن الحق بمقتضى العهد الفطرى الذى أخذه على بنى آدم من ظهورهم وذريتهم، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا، وإن الشياطين هى التى تحولهم عن الفطرة إلى الضلالة، ولقد قال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه أو ينصرِّانه، أو يمجِّسانه»[(١)]، وروى مسلم فى حديث قدسى عن النبى ﷺ: «إنى خلقت عبادى حنفاء وإنهم أتتهم الشياطين، فاجتالتهم عن دينهم»[(٢)]، فالله سبحانه خلق الخلق، وهم يدركون بفطرهم أن لهذا الكون خالقا، وأنه وحده الذى انفرد بالخلق والتكوين، وذلك بمقتضى الميثاق الذى أخذ عليهم بمقتضى الفطرة والغريزة، كما أشرنا.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) جزء من حديث رواه مسلم: (٥١٠٩) من حديث عياض المجاشعى رضى الله عنه. ورواه أحمد (١٧٠٣٠) بلفظ (فأضلتهم عن دينهم).

وإن من يسلك طريق السعادة يتجنب الاستجابة للشيطان، ويستيقظ لفتَنه، فلا يمكنها من أن تسيطر عليه، وتستمكن من منازعه، وحتى مكن للشيطان من أن يصل إلى توجيه فكره، ونفسه، وإرادته، فقد اتخذه من دون الله وليا، وقد روى فى الصحيحين «من كان من أهل السعادة فيُيَسَّر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فيُيَسَّر لعمل أهل الشقاوة»(١).

والآية الكريمة تقول: ﴿فَرِيقًا هَدَى﴾ ولم يذكر الفاعل وهو الله تعالى، تكرما من الله تعالى، يشير إلى أن الهداية ابتداء باتجاه من الذى هداه الله تعالى، كما أن أهل الضلالة قد حقت وثبتت عليه الضلالة بعمل ممن ضل وغوى، وقال سبحانه فى أهل الغواية: ﴿اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أى أنهم فتحوا قلوبهم وسخروا عقولهم وإراداتهم للشيطان، فكان لهم وليا من دون الله؛ لأنهم هجروا فطرتهم، وهجروا أوامر الله تعالى ونواهيه، ومعنى ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ تعالى، أى من غير إطاعة الله.

ولقد قال تعالى فى الآية السابقة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾، وفى هذه الآية يقرر الله تعالى أن أهل الضلالة اتخذوا الشياطين أولياء، فالولاية ثبتت من الجانبين: الشياطين أرادوها للإغواء، وأهل الضلالة فُتِنوا بالإغواء، فاتخذوهم أولياء، وإنه لاتخاذهم الشياطين أولياء كان منهم ضلال فكرى، بهذا الاتخاذ؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ الضمير يعود على فريق الضلالة الذين حقت عليهم و﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ معناها يظنون متوهمين أنهم مهتدون، أى أنهم بسبب عملهم الإيجابى فى اتخاذهم الشيطان أولياء من دون الله تعالى انقلبت أفهامهم، وأركس إدراكهم، فزين لهم سوء أعمالهم فحسبوه حسنا، فظنوا بأوهامهم أنهم مهتدون، وهذا شر أنواع الضلال، بأن يسير المرء فى طريق الباطل، وهو يحسب أنه الحق والهداية.

---

(١) متفق عليه، وقد سبق تخريجه من رواية على رضى الله عنه.

وإن هؤلاء فى حسبانهم الغواية - محاسبون على ذلك؛ لأن الله بين الحق فأعرضوا، وعاندوا واستكبروا، فلم يطيعوه عنادا واستكبارا، حتى فسدت مداركهم، وضلت أفهامهم، فحسبوا الباطل حقا، والضلالة هداية ولا حول ولا قوة إلا بالله.

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾

هذه الآيات الكريمة تبين ما أحل الله تعالى وما حرم، وأن ما أحله الله تعالى طيب فإنه تعالى طيب لا يحل إلا طيبا، وما حرمه هو خبيث فى ذاته من أفعال وأشياء، وقد ابتدأ - سبحانه وتعالى - بإحلال ما كان العرب يحرمونه من ستر أنفسهم فى الحج عند الطواف بالبيت الحرام، فقال تعالى: ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** (٣١) ﴾ كان بعض العرب يطوفون عراة، كما بينا فى ذكر معانى الآيات السابقة، وإن الله تعالى قد أنعم علينا باللباس الذى يوارى سوءاتنا والريش من الثياب الذى نتزين به، لنبدو فى أقوم صورة، أو فى صورة لا تشنأها الأنظار، فقد ورد عن النبى ﷺ أنه قال: «إن الله جميل يحب الجمال»[1]؛ ولذا قال تعالى: ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا**

---

(١) رواه مسلم: الإيمان (١٣١) باب: تحريم الكبر وبيانه، وأحمد: مسند المكثرين من الصحابة (٢٦٠٠) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ النداء لبنى آدم يشمل الناس أجمعين لقوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ ﴾، فلماذا اختص النداء هنا بقوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ ﴾ ونقول فى الجواب عن ذلك الاستفهام المفروض أن ذلك للتذكير بحال آدم وزوجه عند إخراجهما من الجنة، وبدت سوءاتهما وأخذا يخصفان عليهما من ورق الجنة.

وقوله تعالى: ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾، معناه البسوا لباسا يكون فيه زينة وتجمل لكم، وقال تعالى: ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ ﴾ معناه تحروا أن تأخذوا لباسكم متزينين متجملين بها، عندما تدخلون أى مسجد، وإن ذلك لتكون المساجد نظيفة دائما، ويحسن فيها الطيب ليكون فيها أريج تطيب له الأنفس وتقبل عليه جموع المصلين، وإن ذلك يوجب أمرين.

أحدهما - ستر العورة باللباس السابغ الطيب الذى هو زينة فى ذاته، والعرى فيه ظهور للعورات، والعورات سوءات يسوء النظر إليها.

ثانيهما - أن يكون ثمة تجميل، وقد حسَّن النبى ﷺ التجمل عند دخول المساجد، وكان النبى ﷺ يتجمل فى ثيابه، ولا يتبذل فيها، وخصوصا فى المسجد، وعند استقبال الوفود.

ويقول تعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾، هذا أمر بالأكل وهو فى معنى الإباحة بالجزاء بأكل أى جزء، أو أى نوع فيأكل بُرا أو تمرا، أو شعيرا أو أرزا. ويجب بالكل، فلا يصح أن يحرم نفسه من الطعام، وإلا أودى بنفسه إلى الهلاك ولا يحرم على نفسه نوعا من الطعام دون نوع، كالذين يحرمون على أنفسهم أكل اللحوم فإنه يجب عليهم أن يتناولوها، حتى لا يقعوا فى النهى فى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ... (٨٧) ﴾ [المائدة].

ولقد روى الإمام أحمد بن حنبل أن النبى ﷺ قال: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا فى غير سرف ولا مخيلة»، والإسراف يكون فى ناحيتين:

إحداهما ـ أن ينفق مبذرا فوق طاقته، بأن يكثر من الضيفان فوق طاقته فإن ذلك تبذير منهي عنه، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ... (٢٧)﴾ [الإسراء].

والثانية ـ أن ينال من الطعام ما يثقل معدته وأمعاءه، وجسمه، ولقد قال النبي ﷺ فيما رواه النسائي والإمام أحمد: «ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنٍ؛ حسب ابن آدم أُكلات يُقِمْن صُلْبَه فإن كان لا محالة، فثلث طعامٍ وثلث شرابٍ وثلث لنفسه»(١).

وإن الإسراف في الطعام يختلف مقداره ونوعه باختلاف حال الطعام، فإن كان مريضا، فما يؤدي إلى زيادة مرضه إسراف، وإن كان قويا معافى فلا يتناول ما يؤدي إلى إتخامه، فإن زاد فقد أسرف، وقد قال تعالى في صفات المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧)﴾ [الفرقان].

وقد بغض الله تعالى الإسراف للناس ببيان أنه سبحانه لا يحبه ولا يرضاه لعباده فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ لأن الإسراف يؤدي إلى إضرار أبدانهم، وحرمان لغيرهم، وضياع لذوي الحاجة في الجماعة الإسلامية كما قال ابن عباس: ما من مسرف إلا ووراءه حق مضيع. وقد أكد ـ سبحانه وتعالى ـ بغضه للإسراف بنفي المحبة، ومحبة الله مطلب المؤمنين، ولقد كان من العرب من حرم زينة الله وأوجب العري عند الطواف فاستنكر الله تعالى فعلهم، وقال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾.

أمر الله تعالى نبيه الكريم بأن يستنكر ما كان من الذين حرموا زينة اللباس افتراء على الله تعالى كما كان يفعل المشركون، أو تزهُّدا كما فعل جهلة المتعبدين

---

(١) رواه أحمد: مسند الشاميين ـ حديث المقداد بن معدى كرب (١٦٧٣٥)، والترمذي بلفظ مقارب: الزهد ـ ما جاء في كراهية كثرة الأكل (٢٣٨٠)، وابن ماجه: الأطعمة ـ الاقتصاد في الأكل وكراهة الشبع (٣٣٤٩).

فقال: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ﴾ الاستفهام إنكارى لنفى الواقع لا لنفى الوقوع؛ لأنه وقع من المشركين، وإنكار الواقع توبيخ لهم على ما وقع.

وقد وقع فى هذا بعض العرب، فطافوا عراة فى المسجد الحرام، كما ذكرنا، وقد كان الأمر فى الآية السابقة يأخذ الزينة فى المسجد الحرام وعند كل مسجد، وفى هذه الآية يستنكر تحريم الزينة فى المساجد وغيرها، وهى آمرة باتخاذ الزينة أمْر إباحة، وكان النبى ﷺ يتجمل فى ثيابه، وإن كان يرقعها أحيانا[1]، وكان يحث أصحابه على أن يتخذوا أحسن الثياب حتى إذا أوشكت على البلى تصدقوا بها، وكان السلف من الصحابة والتابعين يعنون بثيابهم، وإذا كان قد روى عن عمر - رضى الله عنه - أنه فى مدة خلافته كان يلبس أحيانا ثوبا تعد رقعاته، فما ذلك لتحريم التجمل على نفسه، بل لمعنى فى الحكم الآمر نفسه، فهو يقول: لا أكون أمير المؤمنين إن لم أعش كأضعف المؤمنين.

وكان على بن أبى طالب إمام الهدى يعنى بثيابه ويتجمل بها، فلما ولى أمر المؤمنين كانت أول كلمة قالها: سأرفع من ثوبى ما كنت أجر.

وقوله تعالى: ﴿ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ﴾، أى أنه - سبحانه وتعالى - مكن عباده من إخراجها ونسجها، وأنشأ لهم مصدر وجودها، فهو - سبحانه وتعالى - هو الذى أنزل المطر بالماء العذب من السماء فكان النبات، وعاش بالنبات الحيوان، وكان من النبات القطن والكتان، وكان من الحيوان الصوف والوبر والشعر، وكان من كل ذلك اللباس والرياش، وما خلق ذلك عبثا، بل كان وفق ما سنه - سبحانه وتعالى - ولا يليق بمؤمن أن يرد إنعام الله، ولقد قال ﷺ: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»[2]. وكما استنكر القرآن الكريم الذى أنزله رب العالمين تحريم الزينة استنكر أيضا تحريم الطيبات، والطيبات هى الأطعمة التى تستلذ وتستطاب ما دامت لا تضر الأجسام، وهى ضد الخبائث كما قال تعالى: ﴿ ... وَيُحِلُّ لَهُمُ

(١) وذلك كما رواه أحمد: باقى مسند الأنصار - باقى المسند السابق (٢٥٥٢٧).

(٢) رواه الترمذى عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وقال: هذا حديث حسن. سنن الترمذى: الأدب - ما جاء فى أن الله يحب أن يرى أثر نعمته (٢٨١٩).

الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ... (١٥٧)﴾ فهى الطعام الطيب الهنىء المرىء الذى تقبل عليه النفس وتهنأ به وهو لا يعقبه ضرر: من لحم طرى، وسمك شهى، وغير ذلك مما يستطيبه الإنسان.

ولا يتم الطعام الطيب ويكمل إلا إذا كان طيبا فى طريق كسبه، فلا يكون قد أخذ من حرام لقوله عليه الصلاة والسلام: «من نبت لحمه من حرام فالنار أولى به»[(١)].

فالطيب من الطعام له خاصتان أولاهما ـ أن يكون مستطابا فى ذاته مريئا فى عاقبته، والثانية أن يكون من كسب حلال.

وإنه من المقررات العلمية أن يكون من غير إسراف كما ذكر الله تعالى فى الآية السابقة، ويجب أن يعالج العاقل نفسه، حتى لا تندفع إلى الإسراف؛ ولذلك يحسن ألا يأكل كل ما يشتهى ولو كان حلالا، بل يفطم النفس فى بعض الأحيان أو كلها لأمرين:

أولهما ـ أن ذلك تقوية للإرادة فلا يكون عبدا لبطنه، فلا يقع فى الإسراف المنهى عنه.

ثانيهما ـ أن التمكن من أكل الحلال أمر كله لا يدوم، فقد يصاب بالحرمان فيستعد له قبل الابتلاء به، فيكون قادرا على الصبر، وإن الله تعالى مكن الذين آمنوا من هذه الطيبات فى الدنيا فقال تعالى: ﴿**قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾.

أى أنها مباحة فى الحياة الدنيا للذين يستمتعون بحلالها من غير إسراف، ولا تقتير وقوله تعالى: ﴿**خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾، يحتمل أن يكون المعنى أن هذه المتع يشترك فى الدنيا معهم فيها غير المؤمنين، أما يوم القيامة وفى الآخرة فتكون خالصة للمؤمنين؛ لأنها تكون جزاء وفاقا لما قدموا فى الدنيا.

---

(١) سبق تخريجه.

ويحتمل أن المعنى أنها تكون فى الدنيا صادرة عن نفوس طيبة مؤمنة، وتكون خالصة لله تعالى، وخالصة من كل إثم، أما غير المؤمنين فإن تناولهم لهذه الطيبات قد يكون إثم مبطئ من الخير، فحبطت أعمالهم، والاحتمالان جائز جميعهما، فيكون المعنى خالصة يوم القيامة لهم، وخالصة من الآثام فى الدنيا، وختم الله ـ سبحانه وتعالى ـ الآية بقوله تعالت كلماته:

﴿**كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾، أى كهذا البيان الذى بينه تعالى فى هذا الشأن يفصل، أى يبين الآيات القرآنية والكونية لقوم من شأنهم أن يعلموا، فلا تغطى غواشى الأوهام والأهواء قلوبهم، فيدركون الحق ويعلمون بنور بصائرهم، ومن شأنهم أن يعلموا؛ ولذا عبر بالفعل المضارع والله تعالى أعلم.

﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٣)**﴾.

حرم المشركون أو بعضهم اللبس فى الطواف، وحرموا بعض الأطعمة، وأباح الله تعالى ذلك للمسلمين فى غير إسراف ولا لتفاخر، بل بتجمل وتستر، بعد ذلك بين الله ما حرمه على الناس، وتحريمه مستمد من الفطرة؛ ولذا أمر الله تعالى نبيه أن يبنى لهم ما حرم والفطرة تحرمه. قال عز من قائل: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ**﴾.

أمر النبى ﷺ بقوله ﴿**قُلْ**﴾؛ لأنه مبين شريعة القرآن، والمبلغ لها، وبين لهم قصر التحريم على الفواحش والإثم والبغى، والشرك والكذب على الله.

و﴿**إِنَّمَا**﴾: للقصر، أى أن التحريم مقصور على هذه المحرمات كلها، وأهل الشرك ما كانوا يتحرجون عنها بل ارتكبوها كلها، وقال سبحانه: ﴿**حَرَّمَ رَبِّيَ**﴾ للإشارة إلى أن المحرِّم هو رب الوجود ورب الإنسان الذى يعلم الفطرة، وفى ذلك إشارة إلى أن الذى حرم هذا، إنما حرمه متسقا مع الفطرة التى فطر الناس عليها، وهو رب كل شىء، والفواحش هى الأمور التى تفحش وتزيد على

الفطرة، وهى تشمل كل المعاصى، وخصوصا كبائر الذنوب فتشمل كل الموبقات المفسدة للنفوس والجماعات، وبذلك كل ما يجيء من إثم وبغى يدخل فى عمومها، ويكون ذكر الإثم والبغى، تخصيص بعد تعميم، فيكون العطف عليها من عطف الخاص على العام.

وقد نقول: إذا اجتمعنا خصص كل واحد بمعنى، فتخصص الفواحش بالمعاصى الصارخة التى تفسد النفس والمجتمع كالزنى، والخمر، والربا، وغير ذلك، وبعضهم خصصها بالزنى وما يتصل به من قذف للمحصنات وغير ذلك والفواحش على معناها العام والخاص يحرم ما ظهر منها وما بطن، وما يظهر منها وما يعلن، وجريمته جريمتان جريمة الفعل، وجريمة الإعلان، وما بطن ما استتر كاتخاذ الأخدان، ويشمل ما بطن فسق القلوب وذلك بالعزم على فعل هو شر فى ذاته، ولكن يحول دون تنفيذه أمر فوق إرادته فهذا يكون معصية، ولا يدخل فى ضمن حديث النفس الذى تجاوزه الله عن أمة محمد؛ لأنه حدث ونوى واعتزم التنفيذ ولكن حيل بينه وبينه بغير إرادته وعلى رغمه، وقد تكلمنا فى ذلك فيما مضى والإثم ذنب لا يتجاوز أذاه فاعله، فهو يبطئه عن فعل الخير، وآثامه على نفسه كشرب الخمر، وتناول الآفات التى تضر نفسه، ولا تتعدى إلى غيره، وإن كانت التفرقة بينهما فى بعض المجتمعات عسيرة، والبغى هو المعصية التى تتعدى إلى غيره، ووصفه سبحانه بقوله: ﴿وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ ولا يكون البغى إلا بغير الحق، وهو تنبيه إلى ما يتضمنه البغى فهو يتضمن إثم التعدى، وإثم أنه فعل غير الحق فهو تصريح بما هو قبيح فى ذاته.

ومن البغى أكل أموال الناس بالباطل فى الربا، والرشوة والسحت ومن البغى أكل مال اليتيم، ومن البغى النميمة والغيبة، وأشد البغى الحكم بغير ما أنزل الله، والحكم بين الناس بالباطل ومن أفحش البغى ظلم الحكام للرعية والغلظة عليها، وإرهاقها، وإيذاؤها فى حرياتها، ولقد قال ﷺ: «اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم فارفق

به»[١] هذا هو القسم الأول مما حرمه الله تعالى: وهذا القسم الآتى داء الشر؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾.

هذا أشد المحرمات، وهو محرم بأمر الله، ومحرم ببديهة العقول، حتى لقد قال العلماء: إن وحدانية الله تعالى أمر تصل إليه العقول بالبديهة أو النظر القريب.

قال تعالى: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ﴾، أى أن تجعلوا شريكا لله تعالى فى العبادة شيئا، أو حجرا، أو شخصا، لم ينزل الله به سلطانا، ويقول العلماء: إن السلطان هنا الحجة أو الدليل.

وأرى ما رأوا، ولكن فى التعبير عن الحجة بـ «سلطان» إشارة إلى معنى أن هذه الأوثان وما شابهها لا قدرة لها، ولا تثبت أن لها قوة تنفع وتضر، ومهما يكن، فإنهم يعبدونها بالأوهام المسلطة من غير سلطان من حجة أو دليل، ومن غير أن يعرفوا بالعيان أن لها سلطانا فى الأفعال أو التوجيه فى الكون، إنما هى الأوهام التى تصورها صالحة للعبادة مع الله تعالى لا شريك له.

إن من الأمور التى حرمها الله تعالى أن نقول على الله مفترين؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

هذا ثالث نوع من أنواع المحرمات، وهو الافتراء بأن يقولوا على الله ما لا يعلمون أن الله حكم به وقاله أو شرعه، كتحريم بعض الأحكام، وتحريم لبس اللباس فى الطواف، ويقولون أنه من عند الله، وما هو من عند الله. وكما قال الله ـ تعالى ـ فى الآية السابقة: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، فذلك افتراء، وهو من أشد الافتراء ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ... (٩٣)﴾ [الأنعام].

(١) رواه مسلم: فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر (١٨٢٨)، وأحمد: باقى مسند الأنصار ـ حديث السيدة عائشة رضى الله عنها (٢٤١٠١).

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ
فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾
يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ
ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ
فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ
بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ
رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ
قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

لقد فعل الناس ما فعلوا فى الدنيا منكرين ما أنكروا من بعث ونشور وحساب وعقاب، ومنهم من آمن بالله وبالبعث، وبإرادة الله تعالى الذى يختار ما يشاء، ويبتدئ من بعد ذلك بيان الحقائق لمن آمن واهتدى ولمن ضل وغوى كتابا منشورا ويبتدئ ذلك من البعث، وقد بين الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن الجميع إلى نهاية ومن بعدها البعث فقال تعالى:

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) ﴾، هذا بيان نهاية كل إنسان فى هذه الحياة الدنيا، فهو يعيش إلى أجل محدود قد عينه الله تعالى له، لا يتأخر ولا يتقدم، وأجل الإنسان هو نهاية حياته.

وقال ـ سبحانه وتعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾، ولم يقل لكل إنسان أجل مع أنه لكل إنسان أجل فعلا فلماذا اختار ـ جل جلاله ـ ذكر أجل الأمة تلك حكمة الله تعالى فيما يختار من بيان فى الذكر الحكيم، ونتلمس الحكمة فى ذلك، نقول: إنه ـ سبحانه وتعالى ـ ذكر الأمة، دون الآحاد بآحادها أولا ـ لأنه إذا كان للأمة بآحدها وجماعاتها أجل فأولى أن يكون للآحاد آجالها، ثانيا ـ ولأن الأمة

هى الجماعة التى يجمعها عصر وعادات وتقاليد، ويكون فيها توجيه إلى الخير أو إلى الشر، فهى جيل له أحواله، وعليه تبعاته، فالله ـ سبحانه ـ أخبرنا أن لكل جيل من الأجيال أجله الذى ينتهى عنده، ويذهب بأثقاله ويجىء من بعده جيل آخر له شأنه.

وقوله تعالى: ﴿لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ والساعة أقل من الزمان، والسين والتاء فى ﴿يَسْتَأْخِرُونَ﴾ للطلب، والمعنى لا يتأخرون، والتعبير بالسين والتاء هنا إشارة إلى أنه لا يتأخر، ولو طلبوا تأخيره، بما يقتضيه حب الحياة بالنسبة للعصاة فإنهم يتمنون الحياة، ولا يتمنون الموت أبدا.

﴿وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، «أى لا يُقَدَّم ولو طلبوا أن يقدموا؛ كأولئك المؤمنين الذين يستعجلون لقاء ربهم لا طلبا للموت ولكن رغبة فى الحياة الآخرة ولقاء ربهم، طمعا فى ثوابه، أو رغبة فى رضوانه.

والمعنى لكل أجل كتاب والموت بأى سبب من الأسباب هو نهاية الأجل الذى لا يتأخر ولا يتقدم فالموت بمرض، أو بقتل أو حرق أو غرق، أو استشهاد فى سبيل كلمة حق لأجل الله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ... (٧٨)﴾ [النساء].

وقدم قوله تعالى: ﴿لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ على ﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾؛ لأن الرغبة كثيرة، والرغبة فى التقديم قليلة والله يتولى الأنفس وهو بكل شىء عليم.

وإن من بعد انتهاء الآجال يكون البعث، ويكون بعد البعث الحساب على التصديق والتكذيب لما جاء به الرسل؛ ولذا قال عز من قائل: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥)﴾.

خاطب الله تعالى بنى آدم، وفى ذكر آدم ـ عليه السلام ـ نبيه وتذكير بما كان من إبليس لآدم ـ عليه السلام ـ وعمله على إغوائه وإغواء ذريته من بعده، وقوله:

﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ فيه «إن» الشرطية، و«ما» المؤكدة لمعنى الشرطية، وهذا تأكيد من الله تعالى بأنه سيرسل رسلا مبشرين ومنذرين، كما قال تعالى: ﴿...وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤)﴾ [فاطر]، وقوله: ﴿... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥)﴾ [الإسراء]؛ ولذا أكد الشرط مع «ما» بالنون. ومؤدى الآيات أن الله تعالى مرسل الرسل لا محالة ولكن ذلك ليس بواجب عليه تعالى، لا يجب عليه شيء، ومن الذى يوجب عليه شيئا، ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣)﴾ [الأنبياء] فالكمال كله له تعالى.

ورسل: جمع رسول، وقد أشار ـ سبحانه ـ إلى عملهم، وهو التبليغ عن الله تعالى بقوله تعالت كلماته: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ والقصص الإخبار والتكليف، وتوجيه الأنظار إلى الكون قصا وتتبعا، لا يترك أمرًا واجب البيان ولا يبينه والآيات تشمل لعمومها الآيات المبينة للأحكام التكليفية، والآيات الكونية الدالة على قدرة الله تعالى، وعلى وحدانيته فى الخلق والكون، والصفات العلية، وتشمل المعجزات الباهرة التى تدل على الرسالة.

وإن هذا القصص الحكيم، والذكر الذى يهدى ويرشد، هو كالمطر، تتلقاه بعض النفوس فتؤمن به، وتتلقاه أخرى فتكفر به؛ فالغيث ينزل فيأتى بالخصب والخير الكثير للمؤمنين، ولا ينبت نباتا، ولا يسقى حرثا فى الأرض الحدباء، قال تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

الفاء هنا للإفصاح عن شرط مقدر، والمعنى إذا جاءتهم الرسل بآياتى فمن اتَّقى وأصلح...، ونسب الله ـ سبحانه وتعالى ـ الهدى إليه ـ سبحانه وتعالى ـ تعظيما لمعناه، ولبيان أن الرسل يتكلمون عن الله: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ... (٨٠)﴾ [النساء]، ولبيان ما يترتب على ذلك، وهو نفى الخوف والحزن؛ ولذا قال تعالى: فلا خوف عليهم من عذاب، بل هم فى أمن وسلام؛ لأن الهداية أمن واطمئنان؛ ولأن الطاعة لا عقاب منها بل ثواب فلا خوف من عقاب. ولا

يحزنون، أى لا يصيبهم حزن، ولا ألم نفسى أو وجدانى، ولا تؤثر فيهم زوابع الحياة لأن نفوسهم مطمئنة بإيمانها، راضية بقضاء الله وقدره، كما قال تعالى: ﴿... أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)﴾ [الرعد]، فمن اهتدى فقد حصن نفسه بالأمن والرضا، فلا يخاف ولا يحزن.

وقد بين الله تعالى حال الذين لا يؤمنون بما جاءت به الرسل من الهدى والبينات فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦)﴾.

هنا ذكر للذين يعصون الرسل، ويكفرون بما جاءوا فى مقابل الذين اهتدوا بهديهم، وهو هدى الله تعالى، وقد ذكر الله تعالى وصفين لهما هما اللذان أديا بهم إلى عذاب الله تعالى وهما:

الوصف الأول - أنهم كذبوا بآيات الله تعالى كذبوا آيات التكليف فلم يؤمنوا بصدقها عن الله تعالى مع قيام الأدلة على صدقها، والبراهين الدالة على أن الرسل يتكلمون عن الله، فهم إذ يكذبون الرسل يكفرون بمن أرسلهم، ويكذبون بما تدل عليه الآيات الكونية من خلق السموات والأرض، وما يكون منها من زروع وثمار، وحياة كاملة، وما فى السماء من نجوم وبروج إلى آخر ما فى الكون من دلالات على أن خالقها واحد أحد هو الفرد الصمد.

الوصف الثانى - أنهم استكبروا عن آيات الله فحسبوا أن اتباع الرسل ينافى عزتهم، وينقص من كبريائهم، فأخذتهم العزة الواهمة بالإثم الحقيقى، وهنا نجد أن الله تعالى يقول: ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ فعبر هنا التجاوز وذلك للإشارة إلى المجاوزة للحقيقة، أى أن استكبارهم تجاوز بهم عن فهم الآيات وإدراكها لتضمين استكبروا معنى التجاوز، كان التعدى بـ «عن»، والسياق هذا مؤداه: استكبروا متجاوزين عنها تاركين لها ولقد ذكر سبحانه جزاءهم فقال: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

الإشارة هنا إلى الذين كذبوا آيات الله، واستكبروا معرضين عنها متجاوزين، والإشارة إلى الموصوف بصفات فيها إيماء إلى أن هذه الصفات هى السبب فى الجزاء، فهذا الاستكبار، وذلك التكذيب هو السبب فى هذا العقاب وهو دخول النار، وتخليدهم فيها، وأنهم لا خروج لهم منها، وقد أكد ـ سبحانه وتعالى ـ خلودهم فى النار بمؤكدات ثلاثة أولها ـ القصر، فقد قصرها عليهم بتعريف الطرفين، وتعريف الطرفين من أنواع القصر، فالمعنى أولئك وحدهم هم أصحاب النار، ثانيها ـ أنهم أصحاب النار أى الملازمين لها ملازمة الصاحب لصاحبه. ثالثها ـ التأكيد بضمير الفصل، إذ يقول سبحانه: ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ وتقديم «فيها» فى معنى قصرهم على النار، أى أنهم فيها لا فى غيرها خالدون.

وقد بين ـ سبحانه وتعالى ـ ظلم أولئك المكذبين للرسل المفترين على الله تعالى وما يكون لهم يوم القيامة فقال تعالت كلماته: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ﴾.

بعد أن بين الله الذين اتبعوا هدى الله، وما منحهم الله من فضله من اطمئنان وأمن ورحمة، وذكر الذين شقوا فكذبوا بآيات الله تعالى واستكبروا ـ وصف بعض أفعال المكذبين الكافرين ومآلهم، فقال: إنهم افتروا على الله الكذب، وهم بذلك ظالمون، وكذبوا بآياته، وذلك ظلم ثان عظيم، فقال تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾.

الاستفهام هنا إما للتعجب أو للإنكار، وعلى الأول يكون المعنى: أى ظلم أفحش وأشد من الكذب على الله تعالى، والافتراء عليه، بهذا أمر من شأنه التعجب منه، وإما على كونه للإنكار فيكون إنكار للواقع للتوبيخ على هذا الذى وقع منه، والتعجب أو الإنكار من أمرين: أحدهما ـ الافتراء على الله، وهو الكذب عليه عن جهل قاطع للحق، والثانى ـ تكذيب الآيات، وإن الافتراء على الله تعالى قد وقع من بعض، فمنهم حرم بعض الطعام الطيب ونسب ذلك إلى الله تعالى، ومنهم من زعم أن الملائكة بنات الله تعالى، ومن زعم أن الأوثان

تقرب إلى الله تعالى، فكل هذا افتراء عليه ـ سبحانه وتعالى ـ عما يقولون علوا عظيما.

وهذا ظلم عظيم بذاته يتعجب منه ويستنكر، والظلم الثانى التكذيب بآياته، ومعناها ألا يأخذ بما يهديه إليه من معجزات باهرات، وآيات فى الكون ظاهرات، ومنها آيات توجب الإيمان بها إيمانا بالرسائل الإلهية كآيات التكليف التى أنزلها الله تعالى على رسله، وعلى رأسها القرآن الكريم.

وهنا إشارتان بيانيتان:

الأولى ـ قوله: ﴿**افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا**﴾.. «افترى» هنا معناها قال قولا مخترعا له لم يكن له أصل وهو كذب فى ذاته، فالمعنى أنه فى حقيقته كذب، قد اخترعه أو افتراه كما فى قوله: ﴿... **إِفْكٌ افْتَرَاهُ** ... (٤)﴾ [الفرقان].

الثانية فى التعبير بأو بدل الواو، وهى للترديد، وهى تشير أن الافتراء على الله بمثل ما ذكرنا من اتخاذ الولد، وغير ذلك من المفتريات ظلم فاحش يستنكر ويتعجب منه، فليس الاستنكار منهما مجتمعين، بل من كل واحد منهما منفردا، ومجتمعا.

بعد ذلك بين الله تعالى ما يترتب على افترائهم وتكذيبهم، فقال تعالت حكمته: ﴿**أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ**﴾ الإشارة هنا إلى أولئك الذين ارتكبوا أشد الكذب نكرا، وأفحشه كفرا، وكما ذكرنا هذه الإشارة تفيد أن ذلك الوصف هو سبب ذلك الحكم عليهم.

و﴿**الْكِتَابِ**﴾ المراد به عند بعض المفسرين ما كتب لهم فى الدنيا من رزق، وما مكنوا منه من متع وما ينالون من مكاسب ومن سلطان، ومن بعد ذلك يأخذهم الله تعالى أخذ عزيز مقتدر، ولذلك ختم قوله تعالى بقوله: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ**﴾ فهذا الذى ينالهم هو فى الحياة الدنيا، وذلك كقوله: ﴿**قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)**﴾ [يونس]، ومثل قوله تعالى:

﴿ وَمَن كَفَرَ فَلا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٢٤) ﴾ [لقمان]، وهذا توجيه قول الذين فسروا الكتاب بما كتب فى الدنيا من رزق، وما كتب لهم من أجل.

ولكن يرد على هذا التعبير بـ ﴿ يَنَالُهُمْ ﴾ لا بـ «ينالون»، فالرزق والمتع إذا كانت هى المكتوبة ينالونها، وهذا يخالف التعبير بـ«ينالهم» إنما نيلهم بأمر يكون عقابا لهم لا متعة ينالونها ويقترفونها.

ولذا نرى أن الكتاب الذى هو كتب لهم فى الآخرة من حساب وعقاب، إذ يجدون كتابهم قد سجلت فيه أعمالهم وينالهم هذا النصيب من الكتاب الذى سجل ما فعلوا، والتعبير بـ«نصيبهم» من الكتاب تعبير دقيق يصور عدل الله تعالى فنصيبهم من العذاب هو نصيبهم فى أعمالهم، فجزاؤهم مشتق من أعمالهم، فكل نفس تجزى ما كسبت أى جزاؤها من كسبها، فلولا ما كسبت ما عذبت، فعقابهم جزاء وفاق لعملهم.

وإن ذلك الكتاب الذى سجلت فيه أعمالهم يأخذهم بنصيبهم منه من وقت قبض أرواحهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾.

«حتى» هنا على قول من يقول: إن النصيب هو الأرزاق والمتع والآجال تكون بمعنى «إلى» أو للغاية، أى أنهم يتمتعون بما كتب لهم حتى تجىء إليهم رسل الموت، الملك عزرائيل ومن معه فيما كلفه الله تعالى إياه، وكان جمع «الرسل» لهذا ومن قال ـ وهو ما نختار ـ أن الكتاب ما كتب عليهم من أعمال تنالهم بالعذاب عليها ـ تكون «حتى» تفريعية أى مبينة تفريعًا العذاب من أول نزولها بإحصائها عليهم من أول لقائهم فى الآخرة.

يقول لهم رسل الله تعالى التى تقبض أرواحهم: ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أى تدعون دعاء عباده تشركون بالله بهم، والاستفهام هنا للتعجيز والتوبيخ والتبكيت، وتذكيرهم بسوء ما كانوا فى دنياهم يفعلون.

وكقوله تعالى: ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾، أى يفيضون أرواحهم وقد توفوهم نصيبهم من الحياة الدنيا وبقى ما ينالهم من حساب وعقاب فى الحياة الآخرة.

ويكون جوابهم ما عبر الله عنه بقوله: ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾.

قالوا: ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾، أى غابوا غيبة من لا يستطيع أن يعودوا منها، وبذلك ثبت عجزهم وثبت لهم بهذا الإقرار أنهم لا يستطيعون أن ينفعوهم أو يضروهم وفى هذا اليوم العصيب الذى استقبلهم، ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ الشهادة هنا إقرار وحكم على أنفسهم أنهم كانوا فى حياتهم الدنيا كافرين بالحق وبالله وحسب ذلك دليلا عليهم، وعلى استحقاقهم كل عقاب ينزله الله تعالى بهم.

قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾

أشار ـ سبحانه وتعالى ـ إشارات بينات واضحات إلى ما أغرق فيه المشركون أنفسهم فى الدنيا، وبين ـ سبحانه وتعالى ـ طغيان أنفسهم، وفساد عقولهم،

وضلال تفكيرهم، وفى هذه الآيات يذكر ـ سبحانه ـ عاقبة أمرهم وهى دخولهم فى مجتمع أهل النار فقال تعالى:

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ﴾.

القائل هو الله تعالى ولم يصرح به بجوار الفعل؛ لأنه مذكور دائما فى الأفهام وفى القلوب فلا حاجة إلى ذكره ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ «فى» هنا قيل: إنها بمعنى «مع»، أى ادخلوا مع أمم قد خلت أى مضت من قبلكم فى النار، ونحن نرى أن «فى» معناها الظرفية كأصل وصفها، وإدخالها فى هذه الأمم فيه إشارة إلى أنها وليست غيرا عنها، والمعية قد توهم المغايرة، ولا مغايرة بل هم أمم فى ذواتهم، وهم أمة واحدة فى كفرهم، فإن فرقتهم الأجيال فقد جمعهم الضلال وجمعهم العقاب، والتكذيب لآيات الله تعالى، والمعاندة لأحكامه.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم﴾، أى مضت قبلكم منتحلة ما انتحلتم، مكذبة ما كذبتم من الحق والآيات، كاذبة على الله وغير مصدقة لآياته، ومستكبرة عنها.

وهذا النص يفيد أولا ـ أن الكفر كله ملة واحدة لا تفريق بينها، فالباطل قد جمعها والعقاب قد وحدها، ويفيد ثانيا أنه يتسلسل فى الأجيال جيلا بعد جيل، وبعد تفرقهم فى الأجيال تجدهم قد التقوا فى النار جميعا، وإن تنظر إلى تاريخ الملل والديانات الإنسانية تجدها أحيانا تتلاقى فى نوع واحد من الكفر، فتجد مثلا عقيدة التثليث فى الاعتقاد المزعوم من آلهة ثلاثة يوجد عند المصريين وعند البراهمة، وعند البوذية وعند الأفلاطونية الحديثة التى قبست من البرهمية والبوذية.. وعند النصارى الذين اتبعوا بولس، وقد قبسوها من البرهمية الذين قالوا فى «كرشنة» ما قاله هؤلاء فى يسوع عند بولس، وقبسوها أيضا من كلام البوذيين فى بوذا، فنحلوه ليسوع فى زعمهم، ثم قبضوا القبضة الكبرى من الأفلاطونية، وسموا ذلك نصرانية بعد أن انحرفوا عن المسيح ـ عليه السلام ـ الذى علمهم التوحيد واعتنقوه حتى غيروا وبدلوا.

وهكذا نجد فكرة وثنية عمت أجيالا، وكذلك عبادة الأوثان سيطرت على اليونان والرومان والعرب فى عصر واحد.

فإذا كانت هذه الأجيال والأمم من الإنسان والجن فإنها تدخل النار جميعا، يلحق التابع المتبوع، وقد جمعهم الشرك بالله تعالى ووحد بينهم العقاب، ولذا يقول ـ سبحانه وتعالى ـ يوم القيامة: ﴿ **ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم** ﴾، أى مضت من الإنس والجن، والنار متسعة للجميع.

و«مِنْ» فى قوله تعالى: ﴿ **مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ** ﴾ بيانية لبيان شمولها الضالين من الجنسين، الجن أتباع إبليس والإنس الذين أضلهم.

وفى هذا المجتمع الجهنمى يكون التابع والمتبوع، ولقد ذكر الله ـ تعالى ـ ما يكون بينهما فى ذلك المحشر:

﴿ **كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ** ﴾.

إن الله ـ تعالى ـ ذكر تلاحق هذه الأمم التى ضلت، وكان ضلالها واحدا، أو متقاربا مختلفا فى شكله، متحدا فى معناه؛ إذ كله وثنية وإشراك بالله تعالى، وكفر بالحقيقة الإلهية، وضلال أى ضلال فى فهم حقيقة خالق الوجود ومنشئه، وقال تعالى: ﴿ **كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا** ﴾ التى دخلت معها، أو التى سبقتها، وذلك يدل على النفرة التى تكون بينهما، فإن من أشد العقوبات النفرة النفسية بين المجتمعين فى واحد، ويدل أيضا على أن الاتحاد فى عقيدة ضالة جعل واحدا من المتحدين يلغيها ويلعن من يعتنقها؛ لأنه يحسب أنه هو الذى سهل دخولها عليه، ثم يلعن الأتباع المتبوعين؛ ولذا قال تعالى: ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا** ﴾ أى تلاحقوا فيها جيلا وراءه جيل، وسلفا وراءه خلف وآباءً وراءهم أبناءُ.

قال المتأخر للمتقدم، أو التابع للمتبوع: ﴿ **هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا** ﴾ وعبر الله تعالى عن ذلك بقوله: ﴿ **قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ** ﴾.

أى أن الأخلاف قالوا عن أسلافهم أعطهم يا رب العالمين عذابا مضاعفا عنا لأنهم هم الذين اتبعناهم فأضلونا، فالعرب كانوا يقولون نتبع ما كان عليه آباؤنا، أو نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ـ فكانوا ضالين بضلالهم والضِّعف هو المِثْل، والمعنى اجعل لهؤلاء الذين أضلونا عذابا زائدا بمقدار الضعف المماثل لعذابنا وكأنهم يريدون أن جريمتهم جريمتان: إحداها ما فعلوه وفعلناه، والثانية أنهم أضلونا فعليهم وزر مثل وزرنا وعليهم وزر آخر؛ لأنهم أضلوا. وقد رد الله قولهم بأنهم فعلوا مثل ما فعل أسلافهم فكانوا مضلين لمن بعدهم كما أضلهم من سبقوهم. وكذا قال تعالى: ﴿ **قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ** ﴾.

أى يقول لهم رب العزة لكل منكم أنتم التابعون والمتبوعون ضعف من العذاب مثل العذاب الذى نزل بكل منكم؛ لأن كلا منكم ضال ومضل، فالخلف ضلوا بسلفهم وأضلوا من بعدهم، فإذا كان منطقكم أن يزيد من أضل على من ضل فأنتم أضللتم ولكن لا تعلمون سريان الفساد من جيل بعد جيل، وكل يضل من بعده.

وإن الترامى بالضلال يتبادل بين التابع والمتبوع، وكل تابع هو متبوع لمن بعده، وقد ردت الطائفة الأولى على من بعدها فقالت، ﴿ **وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩)** ﴾.

وأولاهم هى المتبوعة أى هى السلف، والثانية الخلف، وهذه معان نسبية فكل جيل يكون طائفة أولى لمن يليه وتكون ثانية بالنسبة له، وهكذا تتعاقب الأجيال، وتتطارح الوزر، كل تطرحه على من سبقها والجميع فى ضلال مبين.

﴿ **وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ** ﴾ و«من» هنا للاستغراق أى ليس لكم علينا أى فضل يخفف العذاب، أو يوجب أن يثقل العذاب علينا فوق عذابكم؛ فأنتم ضللتم كما ضللنا والعذاب للضلال والعناد أو الكفر وقد شاركتمونا فى ذلك، وإذا كنا قد أضللناكم واتبعتمونا فى ضلالنا، فقد أضللتم غيركم، واتبعوكم فى ضلالكم كما اتبعتمونا.

و«الفاء» فى قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ تفصح عن شرط مقدر تقديره مثلا، فإذا كنتم قد ضللتم مثلنا، فما لكم علينا أى فضل يخفف لكم أو يزيد علينا.

ثم يسوق ـ سبحانه وتعالى ـ على لسان أولئك المتنابزين قولهم: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ «الفاء» لعطف ما بعدها على ماقبلها، وقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾، أى ادخلوا فى النار ذائقين لها محسين بآلامها، وعبر عن ذلك بالذوق، للإشارة إلى شدة آلامه، ومتاعبه.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، أى بسبب ما كنتم تكسبون من ظلم وعبث وفساد، فهذا هو الأصل فى سبب العقاب، وكل امرئ بما كسب رهين، لا فرق فى ذلك بين ضال، ومضل، ما دام قد وقع كلانا فى الضلال مختارا، ما دام له عقل يدرك وما دام قد أنذرته الرسل، وقامت بين يديه البينات، فإذا كان قد اتبع من قبله فعليه إثمه، وقد جاءه الهادى الرشيد، فلم يتبعه.

وقريب من هذه المراجعة بين التابع والمتبوع قوله تعالى فى سورة أخرى: ﴿... وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [سبأ].

وقد وصف الله تعالى فى بيان أن العذاب بالكافرين لا مناص منه، فقال تعالت كلماته:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

السماء فى الحس المكان الذى يجىء منه المطر، والخير والبركات، ولقد جعل الله تعالى السماء موطنا لذلك، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ... ﴿٩٦﴾﴾ وعندما يدعو الإنسان الله تعالى يتجه

إلى السماء ضارعا، والله تعالى لا مكان له؛ لأنه منزه عنه والسماء لأنها علو يتجه الناس إليها، لأنهم يريدون العلو، ويبتغونه، وإن المشركين الذين يكذبون بآيات الله لا يكون لهم رجاء؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾.

يلاحظ أن الله تعالى قال: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، قد عدى التكذيب بالباء، وهو يتعدى بنفسه، فيقال: كذبت هذا القول وكذبت هذا القائل، وكذبت الآيات كذلك، ولكن هنا تعدت بالباء، كما فى الآية السابقة، وذلك لتضمن التكذيب معنى الكفر، فالمعنى كذبوا رسلنا كافرين بآياتنا، واستكبروا عادلين أو متجاوزين عن اتباعها.

ذكر الله تعالى للكافرين بآيات الله تعالى جزاءين:

الجزاء الأول ـ أنه لا تفتح لهم أبواب السماء، والمعنى فى ذلك يحتمل أمورا يصح أن تراد كلها، الاحتمال الأول: أن المراد أن تغلق أبواب الرحمة فى الآخرة، وعبر عن ذلك بأبواب السماء؛ لأن الرحمة تكون فى كثير من الأحيان من السماء، فالشمس فيها، وهى مصدر النور والحرارة، والنجوم وبروجها، والقمر وضياؤه، ومنها المطر الذى يكون غيث ورحمة، وذكر أبواب السماء إشارة إلى أنهم سدوا على أنفسهم كل مصادر الرحمة والغفران؛ لأنهم سدوا كل سبل الخير على أنفسهم فى الدنيا، فحق عليهم هذا فى الآخرة. الاحتمال الثانى: أن يكون المراد أرواحهم، فأرواحهم لا تفتح لها أبواب السماء، بل تغلق دونها؛ لأنها أرواح خبيثة نتنة يتقزز منها أهل السماء والأرض إذ تكون أعمالهم الخبيثة قد أفسدت فطرتها.

والاحتمال الثالث: أعمالهم، فلا تتفتح لها أبواب السماء؛ لأنها فى بعثهم يجزون عليها، وإننا نرى أن تفتح أبواب السماء، لا يكون لهم؛ لأنهم لا يرحمون ولا يغفر لهم، وأرواحهم خبيثة وأعمالهم لا ترفع إلى علو السماء بل تهبط إلى أوهاد الأرض، والمراد فى كل الأحوال ألا تنالهم رحمة السماء.

الجزاء الثانى - أنهم لا يدخلون الجنة وأن ذلك مستحيل عليهم، كاستحالة دخول الجمل فى سم الخياط؛ ولذا قال عز من قائل: ﴿ **وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ** ﴾.

أى أنهم لا يمكن أن يدخلوا الجنة؛ لأنهم لم يعملوا لها، بل كان عملهم لجهنم، وشبه استحالة ذلك باستحالة دخول الجمل بضخامته فى سم الخياط، والخياط هو ما يخاط به، وهو (الإبرة) وسمّها هو ثقبها الضيق الذى لا يدخل فيه إلا الخيط الرفيع، وليس ميُسرا.

فهذا حكم الاستحالة كما يقول الرجل لامرأته: أنت طالق إذا قبضت على الشمس، فهذا نفى مؤكد للطلاق؛ لأنه علق على مستحيل.

وكذلك هنا فى المعنى لا يدخلون إلا إذا ولج، أى دخل الجمل فى ثقب الخياط، وذلك مستحيل، فلن يدخل الجنة إلا إذا تحقق هذا المستحيل ولن يتحقق، فهو نفى مؤكد لدخولهم، وبيان استحالته عليهم، وإذا لم يدخلوا الجنة، فإنهم يدخلون النار، وإنها للجنة أبدا، وللنار أبدا، قال تعالى:

﴿ **وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ** ﴾.

الواو واصلة هذا الكلام السامىَ بما قبله، والتشبيه معقود ما بين عذابهم، واستحالة الرحمة بهم، وبين ما أعده الله تعالى بالنسبة لكل من يجرم ويأثم فى حق الله تعالى، والمعنى فهذا الجزاء الذى علمتموه يجزى الله المجرمين، والإجرام ارتكاب الجريمة وهى بمعنى المعصية والذنب، بيد أن فى لفظها إشارة إلى الاعتداء على غيره، فالمعاصى قسمان معاصٍ هى الآثام، ولا يتعدى فسادها صاحبها ابتداء، وإن كان شيوع الفساد يضر بالرأى العام فيتعدى انتهاءً، ومعاصٍ تتضمن ابتداء معنى الاعتداء كالقتل والقذف والسرقة، وغير ذلك من المعاصى التى تتعدى ابتداء.

ولقد فصل الله القول فى عذاب الكافرين المكذبين لآيات الله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١)﴾.

المهاد: المكان الممهد للإقامة فيه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧)﴾ [النبأ]، وكما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا (١٩)﴾ [نوح].

وأحسب أن التعبير عن جهنم بأن لهم مهاد منها فيه نوع تهكم، أى أنه تعالى مهّد لهم جهنم بدل الراحة التى كانت لهم فى الدنيا، بتمهيد الأرض يتمتعون من خيراتها.

وغواش، جمع غاشية وهى الغطاء، وغطاؤهم هنا نار موقدة، فبعد أن كانوا يلتحفون بالرياش، ويفترشون الوسائد، صار مهادهم جهنم، وغطاؤهم نار مشتعلة تشتعل عليهم، ﴿...كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ... (٥٦)﴾ [النساء].

وخلاصة المعنى أن مهادهم أو فراشهم نار، وغطاءهم نار، والنار تحيط بهم يلتفون فيها وتشوى بها جباههم وجنوبهم، وكل أجسادهم، ولا منفذ منها إلا إليها، فلا يخلصون منها أبدا، وإن ذلك جزاء من كذبوا بآيات الله كافرين بها ظالمين، ولذا قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

أى كهذا الجزاء الذى جازى الله تعالى به الذين كذبوا بآياته واستكبروا، شأن الله تعالى فى جزاء الظالمين، فهو العادل القادر الذى لا يظلم أحدا.

والتعبير هنا بالظالمين، وفى الآية السابقة بالمجرمين؛ لأن الوصفين متحققان فيهما، فهم أجرموا فى حق المجتمع فأفسدوه؛ وظلموا أنفسهم، وظلموا الحقائق بما ارتكبوا من معاصٍ، وتعدوا الحدود، ومن تعدى حدود الله فقد ظلم نفسه، وكان ما ينزل بهم يوم القيامة جزاء وفاقا لما ارتكبوا، والله تعالى يتغمدنا بعطفه ومغفرته.

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾

وبعد أن بين ـ سبحانه وتعالى ـ ما ينزل بالمشركين أو الكافرين، عموما أخذ ـ سبحانه تعالى ـ يبين فى مقابله ما يناله المؤمنون من جنة ونعيم مقيم، وروح وريحان وزوال للأحقاد وغل للأنفس، وذلك نعيم فوق كل نعيم، ولذا قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴿٤٢﴾ ﴾ الواو هنا عاطفة، عطفت جزاء الصالحين على جزاء الكافرين من مشركين وكتابيين وصابئين ومجوس وغيرهم من براهمة وبوذيين.

وبالموازنة بين الجزاءين، يتبين الفرق بينهما فى الآخرة كالفرق بينهما فى الحياة الدنيا، فجزاء الآخرة هو ثمرة ما وقع فى الدنيا، إن خيرا فخيرا

وصف الله تعالى المؤمنين بوصفين هما صلة الموصول، **الأول** بقوله تعالى: ﴿**آمَنُوا**﴾ أى اعتقدوا اعتقادا جازما مع الإذعان لكل ما طالب به الله تعالى، وأحبوا الله تعالى، وقدموا أنفسهم له سبحانه:

الوصف الثانى ما عبر عنه - سبحانه وتعالى: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى كانت ثمرة إيمانهم واضحة فى أنهم صاروا قوما صالحين والصلاح وصف يقتضى أن يكون نافعا، وصالحا فى ذات نفسه، ليس فى قلبه فساد، ولا يسيطر عليه هواه، وأن يقوم بالعمل الصالح من طاعة لله تعالى فى أوامره ونواهيه، فلا يعصى الله تعالى، ولا يرتكب ما نهاه عنه، ولا يتخاذل عن القيام بما أمر به.

ولا تجد فى آيات الذكر الحكيم ذكر جزاء المؤمنين إلا كان هذان الوصفان الإيمان والعمل الصالح مذكورين معا فإن العمل ثمرة الإيمان، وغصونه، والشجرة تتغذى من الغصون، كما تتغذى من الجذر، فالعمل يثبت الإيمان، ويغذيه ويقويه.

وقد ذكر - سبحانه وتعالى - الجزاء، وهو خبر الموصول، فقال: ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الإشارة إلى المتصفين بهاتين الصفتين، وهما صلة الموصول، وذكرهما دليل على أنهما سبب هذا الاستحقاق، وقد أكد الله تعالى استحقاق الذين آمنوا وعملوا الصالحات للجنة بقصرها عليهم، وذلك بتعريف الطرفين، وبضمير الفصل «هم» فهم أصحابها الملازمون لها، وأكدها لهم بخلودهم فيها، والله تعالى ذو المن والإكرام.

وقد ذكرت جملة معترضة بين متلازمين، وهما المبتدأ فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾، والخبر فى قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾.

وكانت هذه الجملة التى توسطت بين هذين المتلازمين هى قوله تعالى: ﴿لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ والوسع هو ما يمكن عمله بيسر وسهولة، كما فسر بذلك معاذ بن جبل - رضى الله تعالى عنه -، والمعنى لا يكلف الله تعالى نفسا مؤمنة، واعترض بهذه الجملة السامية بعد كلمة «الصالحات»، لبيان أن القيام بالتكليفات الإسلامية سهل ميسر، وليس شاقا إلا على من عصى الله تعالى، فهو سهل فى

ذاته، لمن تكون له إرادة، لم يخالطها الهوى، ولم تسيطر عليها الشهوة، وإن النبى ﷺ قال: «بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا»(١).

ولقد روت عائشة ـ رضى الله عنها: «ما خير النبى ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن معصية»(٢).

وإن الله تعالى أنعم على المؤمنين يوم القيامة بهذا النعيم المقيم، وأنعم عليهم مع ذلك بنعمة المحبة، والرضا واطمئنان النفس؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾.

إن الجنة مكان طاهر مطهر اختاره الله تعالى سكنا لعباده الأتقياء الأطهار، وإنه فى مقامه لأطيب من أحب مسكن يختاره فى الدنيا، كما ورد فى الأثر.

وإنه لطهارته كان من فيه جميعا فى طهارة كاملة حسية ومعنوية، طهارة الأبدان وطهارة القلوب التى فى الصدور، وإن أشد ما يدرن القلوب الغل والحسد، والأحقاد الدنيوية، فإنها أمراض تصيب القلوب، لتجعل الإنسان فى هم مستمر، وعذاب مقيم، فكان من مقتضى النعيم الذى أنعم الله به على الأبرار أن يتم عليهم نعمته بأن يكونوا فى نعيم فى قلوبهم، كما أن أجسامهم فى نعيم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾.

ونزعنا: أى استخرجنا، والنزع أقوى من الاستخراج؛ لأن النزع إخراج ما هو متأشب(٣) بالقلب لا يسهل إخراجه، ولكن الله تعالى ينزعه نزعا، ويبقى القلب مصقولا بنور المحبة والمودة، فيتحابون ويتوادون، ولا يتباغضون، ولقد قال

(١) سبق تخريجه.

(٢) متفق عليه، وقد سبق تخريجه.

(٣) من التأشُّب، وهو التجمع من ههنا ههنا. لسان العرب- أشب.

النبي ﷺ: «الغل على باب الجنة كمبارك الإبل قد نزعه الله تعالى من قلوب المؤمنين»[١].

ورد في بعض الآثار أن أهل الجنة إذا سيقوا وجدوا عند بابها شجرة في أصل ساقها عينان، فإذا شربوا من إحداهما ينزع الله ما في صدورهم من غل فهو الشراب الطهور، واغتسلوا من الأخرى، فجرت عليهم نضرة النعيم، فلم يشعثوا، ولم يشيخوا بعدها أبدا، ولقد قال تعالى: ﴿ **وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا** ... (٧٣) ﴾ [الزمر].

هذا النعيم معنوى، وهناك نعيم حسى قال الله تعالى فيه: ﴿ **تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ** ﴾ أى أنهم فى غرفات تجرى الأنهار، وكأنها تجوس خلالها، فيكون منظر النهر العذب ينساب انسيابا، ومنظر الظلال والأشجار ينسرق[٢] من تحتها الماء، ويرزقهم الله تعالى أمرا معنويا هو الاطمئنان إلى الهداية، وفيها إدراك ما وصلوا إليه بفضل الله تعالى، وقد حمدوا الله تعالى على ما وصلوا إليه فى الدنيا، وأورثهم الله ثمراته فى الآخرة، فيقولون ما حكى الله تعالى عنهم: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ** ﴾.

إن قولهم هذا سرور وفرح واطمئنان إلى الغاية التى آل إليها أمرهم، ويقول صاحب الكشاف فى هذا: يقولون ذلك سرورا واغتباطا بما نالوا، وتلذذا بالتكلم به.. كما ترى من رُزق خيرا فى الدنيا، يتكلم بنحو ذلك، ولا يتمالك أن يقوله للفرح.

وقوله تعالى: ﴿ **وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ** ﴾ أى ما كان من شأننا ونحن لا نملك من أمرنا شيئا أن نرشد ونهتدى إلى الحق لولا أن هدانا الله تعالى،

---

(١) ذكره القرطبى، والثعالبى فى مستهل تفسيره لهذه الآية دون إسناد. ورواه البخارى بنحو: التفسير(٦٣٨٨) ـ ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ... (٤٧) ﴾ [الحجر].

(٢) أى ينساب بخفاء وفتور.

و«لولا» يقول النحويون عنها: إنها امتناع لوجود، ومعنى ذلك لولا هداية الله لامتنعت علينا، فهو يملك كل أمورنا هو الذى وفقنا وهدانا وأرسل إلينا الرسل هداة مرشدين إلى الحق؛ ولذا قالوا: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

النداء لم يذكر فيه المنادى أهو من وحى الله تعالى فى نفوسهم أم من الملائكة الأطهار، والميراث هو العطاء من الله تعالى، قد جعل هنا خلفا للعمل الصالح، فهو ملكية ثابتة بالخلافة عن العمل الدائم الذى كان مستمرا فى الدنيا، وهذا قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أى بالذى كنتم تعملونه مستمرين دائبين عليه ترجون رحمة الله وتخافون عذابه.

والتعبير بقوله تعالى: ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ والميراث عطاء بغير عوض فيه إشارة إلى أن الله تعالى هو الذى جعل ذلك النعيم عطاء للعمل، فليس العمل وحده منتجا للعطاء، إنما هو يجعل النعيم ميراثا للعمل، والفضل فى كل الأحوال لله تعالى صاحب المن والفضل، ولقد روى فى الصحيحين أن النبى ﷺ قال: «اعلموا أن أحدكم لن يدخله عمله الجنة قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل»[(١)]، وقد روت عائشة أم المؤمنين عن النبى ﷺ أنه قال: «سددوا وقاربوا وبشروا، فإنه لا يدخل أحدا الجنة عمله»[(٢)] اللهم اغفر لنا وارحمنا.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾.

إن الذين آمنوا بالبعث والنشور، والجنة والنار فرحون مغتبطون بأنه تحقق لهم وعد الله تعالى لهم بالجنة، وقد عاشوا فيها غير حاقدين ولا حاسدين،

(١) متفق عليه، وقد سبق تخريجه، وهذا لفظ مسلم عن أبى هريرة.
(٢) متفق عليه وقد سبق تخريجه.

حامدين الله تعالى على هدايتهم، وقد أرادوا أن يزدادوا سرورا باهتدائهم، وأن يعرفوا هذا الذى جاءهم وعد الحق، جاء مقابله للذين كذبوا بآيات الله تعالى واستكبروا عنها نالهم ما أوعدوا به من عذاب دائم خالد.

وقد نادى الملائكة مؤكدين إجابتهم التى لم يجدوا عنها حولا ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.

أى أعلم معلم من الملائكة بينهم، أى بين الفريقين اللذين يتبادلان ذلك الحديث ﴿أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، أى أن الحال المستقر الثابت لعنة الله والطرد من رحمته ومن نعيم الجنة للظالمين الذين ظلموا أنفسهم بتضليلها وكفرها وظلموا الحق بالكفر به، وظلموا الآيات الإلهية بتكذيبها، وظلموا الناس بأفعالهم.

ومثل هذا أو فيما معناه، قوله تعالى: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧)﴾ [الصافات].

ونلاحظ أن «قد» فى قوله تعالى: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ للتحقيق أن ذلك محقق لا محالة وقد عرَّف الله تعالى الظالمين الذين استحقوا لعنة الله، فقال عز من قائل: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥)﴾.

هذا بيان للظالمين، فذكر ـ سبحانه وتعالى ـ لهؤلاء ثلاثة أوصاف:

أولها ـ ﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى يعرضون عنها، ويمنعون غيرهم منها، كالسخرية ممن يؤمنون، واستضعافهم والتشكيك فى عقائدهم والغطرسة عليهم، وإيذائهم والاستخفاف بهم والإصرار على باطلهم، والتواصى بالباطل بينهم على مقاومة الهداة المرشدين وتهديدهم بالأذى، كما قالوا: ﴿... وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ... (٩١)﴾ [هود]، وهكذا. وسبيل الله تعالى هى الصراط المستقيم الموصل إلى الحق فهم يصدون عنه، وكأنهم يقفون على رأس الطريق يمنعون من يدخل فيه، فهم يترصدون أهل الهدى، ويردونهم.

الوصف الثانى ـ ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾، وعوج: مصدر موصوف به، ويبغون يطلبون بشدة كأنها أمر هو بغيتهم التى يبتغونها، والمعنى يريدون الصراط المستقيم معوجة متعرجة سبلا للباطل. إن الفطرة تتجه نحو الاستقامة، فلا تطلب إلا المستقيم الذى لا عوج فيه فهم يريدون تحويل فطرتهم وفطرة غيرهم عن طريقها، ويعبدون الأوثان، ويعلمون أنها لا تضر ولا تنفع، ولكنهم يعوجون بها فيقولون ﴿ ... مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ... (٣) ﴾ [الزمر]، وهكذا يتركون كل مستقيم، ويريدون كل معوج، وذلك لسيطرة الأوهام عليهم، وتسلط الأهواء والشهوات، والعصبية والغطرسة والعنجهية الجاهلية فيهم.

الوصف الثالث ـ وهو الذى ذهب بهم فى متاهات الضلال وقد ذكره الله ـ سبحانه وتعالى ـ بقوله: ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ أى أنهم لا يؤمنون بالبعث والنشور والحساب والعقاب، أو الثواب ويقولون: ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) ﴾ [المؤمنون].

وقد أكد ـ سبحانه وتعالى ـ كفرهم باليوم الآخر، وهو يبتدئ من البعث إلى أن توفى كل نفس ما كسبت بأن تنال جزاءها من النعيم أو الجحيم.

أكد كفرهم بعدة مؤكدات أولها ـ ذكر ضمير الفصل «هم»، فذلك يؤكد الحكم، وثانيها ـ تقديم الجار والمجرور، وهو قوله تعالى: ﴿بِالآخِرَةِ﴾ على ﴿كَافِرُونَ﴾ ففى ذلك تأكيد لكفرهم به، وثالثها ـ التعبير بالجملة الاسمية، فإنها تدل على استمرارهم على هذا الكفر، وأنهم جاحدون جحدا (لا مثنوية فيه)[1].

(١) لا مثنوية فيه، ولا استثناء بمعنى واحد، أى لا تحلل منه، من المثنوية فى اليمين.

وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ
رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ
لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ
أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ
الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ
وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ
اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ
﴿٤٩﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا
مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى
الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾

أشار - سبحانه - إلى ما عليه أهل الجنة من نعيم روحى بنزع الغل من قلوبهم، ونعيم حسى بكون الأنهار تجرى من تحتهم فى ظلال الجنة، وما كان بين أهل الجنة والنار من نداء، وهنا يبين أن بينهما حجابا حاجزا لا يمنع أن يصل صوت كل فريق إلى الآخر بدليل هذه المجاوبة، وقد قال تعالى فى ذلك: ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ ﴾ «وبينهما» أى بين أهل الجنة وأهل النار (حجاب) أى حاجز يمنع الاختلاط بينهما، والضمير فى «بينهما» يعود إلى الفريقين: فريق الجنة، وفريق السعير، وقد قال الله تعالى فى هذا السور الحاجز: ﴿ ... فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحديد]. وفى أعلى هذا السور أعراف وهى جمع عرف وهو أعلى السور، فالعُرف أعلى الشىء ومن ذلك عُرف الديك وعُرف الفرس.

على أعراف هذا السور الحاجز رجال، وإن التعبير برجال يفيد أنهم ليسوا من الملائكة؛ لأن الملائكة لا يعبر عنهم برجال فليسوا ذكورا ولا إناثا، ولكن من هم أولئك الرجال؟!.

اختلف المفسرون فى ذلك على أقوال كثيرة، فروى عن النبى ﷺ أنهم ناس استوت حسناتهم وسيئاتهم، فقد سئل رسول الله ﷺ: عمن استوت حسناته وسيئاته فقال: «أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون»، ومع أن الحديث مقوى بنص الآية إذ نصها ﴿**لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ**﴾ ولكن قال ابن كثير وهو من أهل العلم بالروايات: إنه حديث مرفوع، ولكن فيه غرابة.

هذا قول، وهناك قول آخر، وهو أنهم ناس من أهل الفضل فرغوا من أعمالهم فى الجنة، وأخذوا يتكلمون إلى الناس، ويتعرفون أمورهم، ويحكمون عليهم، وقد وقفوا على أطراف الصراط.

وقريب من هذا القول، قول من قال: إنهم قوم من المؤمنين نصبوا بفضلهم للشهادة على الناس، ومن بعد سنوازن بين القولين لنختار واحدا منهما.

ويقول الله تعالى فى أوصاف أهل الأعراف: ﴿**يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ**﴾، و«كلا» مضاف إلى محذوف، أى كل فريق من أهل الجنة وأهل النار بسيماهم، أى علاماتهم، فالسيما العلامة ويقولون: إن علامة أهل الجنة البياض، وعلامة أهل النار السواد، والله تعالى أعلم بسيماهم، وهم لا يكتفون بموقف التعرف، ولكن ينادون أهل الجنة وأهل النار، ونداؤهم لأهل الجنة مقصود؛ لأنهم مقصودون بالتحية والتكريم، وأما أهل النار فهم غير مقصودين، ولكن بالصرف إليهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿**وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ**﴾.

نادوا أهل الجنة مقبلين عليهم مهنئين مرحبين، ونداؤهم لهم ﴿**أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ**﴾ أن مخففة من أنَّ واسمها ضمير الشأن؛ أى أن حالكم وشأنكم سلام، أو أن قولنا لكم سلام، وهو تهنئة وأمن، ومشاركة لهم فى سرائهم بالقول، وهذا

قريب من قوله تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ⑩﴾ [يونس].

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾، الضمير فى قوله تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ يعود على أهل الأعراف وهو ظاهر السياق، وهذا يقتضى أنهم لم يكونوا قد تقرر لهم دخول الجنة، ولكن لأنهم لا تنزل بهم سيئاتهم إلى جهنم، ولم تنهض بهم أعمالهم إلى الجنة يطمعون فى الجنة، وإن هذا بلا ريب يعين فى ترجيح أن أهل الأعراف هم الذين لم تنهض حسناتهم حتى يدخلوا الجنة ولم تحبطهم (سيئاتهم) إلى النار.

فهم يطمعون فى الجنة، ويرغبون فيها، ولكن لم يدخلوا بعد فيها.

وإن ذلك هو التقسيم العادل الذى لا يكون إلا من الله، وهو أنه بعد أن توزن السيئات والحسنات بميزان الله وهو الوزن يومئذ بالقسط، منهم من ترجح حسناته فيكون للجنة، ومنهم من ترجح سيئاته فيكون فى النار وبئس المهاد، ومنهم من لم يرجح ميزانه.

وقد يرد على هذا أنهم فى مكان من الأعراف، فظاهر أنهم فوق الفريقين، ونقول: إن علوهم ليروا الفريقين، لا لمنزلة لهم فوق أهل الجنة.

وبعض العلماء يرى أن أهل الجنة لم يكونوا قد دخلوا الجنة بعد، فالضمير فى «دخلوا» يعود إليهم، والحق أن ذلك ليس متسقا مع السياق؛ لأنهم صاروا أصحابها، ويقتضى ذلك أن يكونوا دخلوا فيها، والله تعالى أعلم.

إن أهل الأعراف يقصدون إلى أهل الجنة قصدا؛ لأنها مطمعهم، ولكن لا يلتفتون إلى أهل النار لأنهم لا يريدون الاتجاه إليهم، ولكن قد تصرف أنظارهم إليهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ⑰﴾.

«التلقـاء» على وزن تفعال مـن اللقاء وهى هنا الناحـية، و«صرفـت» مبنى للمفعـول وجهل فاعله لعدم الحـاجة إلى ذكر من صرفهم، إنمـا المراد أنهم صرفوا بوجوههم تلقاءهم غير عامدين ولا قاصدين ولا متجهين، فهم يقع نظرهم عرضا على أهل النار فيقع بصرهم تلقاءهم.

وذلك لطمـعهم فى الجنة، ورغـبتهـم فى دخولها يـتجهـون إلى أهل الجنة عامدين مـستبشرين راجـين أن يكونوا معهم، أما نظرهم لأهل النار، فـهو عرض صُرفوا إليـه ولا يريدونه، والتعبيـر بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ﴾ إشارة إلى أن أبصارهم وقـعت على أهل النار، أو تلقاءهم من غـير إرادة، بل هى إرادة مَنْ صرفهم.

وإنهم إذا وقعت أنظارهم رأوا هول ما فيهم، فإذا كانوا قد فرحوا عندما رأوا المؤمنين فهم عندمـا وقعت أنظارهم على أهل النار، اعترتهم رهبـة، وخافوا على أنفسهم فقالوا: ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

عندما يرون النار متأججة فى الأجسام البشرية يأخذهم الهول، فيتجهون إلى الله تعالى قائلين: ربنا الذى خلقتنـا وكونتنا، وقمت فى الوجود علينا وأنت الحى القيوم لا تجعلنا مع القوم الظالمين الذين ظلموا أنفسهم وظلموا الحق وكذبوا طاعين بالآيات، واستكبـروا عن اتباع الأنبيـاء، وأنغضوا رءوسـهم عن الحق إذ دعوا، لا تجعلنا مع هؤلاء، لا تجعلنا فى هذه النار مثلهم فقد عَـتَوْا عُتُوًّا كبيرا، ودخلوا فى عذاب أليم اللهم قنا غضبك.

هذا ما قاله أهل الأعراف لأنفسهم، وضرعوا إلى الله حماية لأنفسهم، ولم يصبوا بالملامة يوجهونها لأهل النار، وطمعهم فى الجنة يلهمهم قول الحق.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

هذا الكلام موجه من أهل الأعراف لكبراء الشرك وزعمائه، الذين كانوا يعتزون بعصبيتهم وبأنهم أكثر وأعز نفرا، فإنهم كانوا يستكبرون عن أن يكونوا تابعين، وهم أهل الجاه الدنيوى، والكبرياء المادى، ينادونهم، لينبهوهم إلى ما يقولون لهم وقد قال الله تعالى فى ذلك: ﴿**وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ**﴾.

نادوهم ليستمعوا إليهم فى قول الحق، وقد كانوا ينادون أهل الجنة يعرفونهم بسيماهم، أما فى هذه المرة، فينادون: ﴿**رِجَالاً يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ**﴾، التى لم تغيرها النيران وإن كَبْتهم وسودتهم، وذكر الرجال هنا للإشارة إلى أنهم يخاطبونهم فرادى تقريعا وتذكيرا بسيئاتهم متفردين عن غيرهم.

﴿**قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ**﴾.

قال لهم وقد عرفوهم وعينوهم: ﴿**مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ**﴾، وهو العصبية الجاهلية التى كانت تجمعهم على العناد والغطرسة، ويتعاونون لا لإحقاق الحق، ولكن على الإثم والعدوان، ويدخل فيه قوة المال الذى يعتزون به والنفر الذى يستنصرون به ونظرهم لأنفسهم على أنهم أعلى من غيرهم واستكبارهم عن الإيمان بالآيات بتكذيبها.

ومن استكبارهم أيضا أنهم يرون أن أتباع النبيين ضعفاء فقراء عبيد فقط، كما قاله قوم نوح لنوح: ﴿... **وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ**... (٢٧)﴾ [هود].

فسألهم أهل الأعراف: هل أغنى عنكم هذا فلم يعذبكم الله تعالى، بل أنتم هؤلاء فى الجحيم تذوقون عاقبة ذلك، تريدون النجاة ولا منجاة.

ويلتفت أهل الأعراف إلى أهل الجنة، فيجدون الضعفاء الذين كانت تزدريهم أعين هؤلاء الطغاة فيخاطبونهم وهم فى النار بقولهم:

﴿ أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩) ﴾ هذا القول فيه بيان لمقام الإيمان، ودرك الكفر، لقد كانوا يسخرون منهم لفقرهم، ويحسبون أنهم أعلى منهم منزلة فى الدنيا، فيجب أن يكونوا أعلى منزلة فى الآخرة، وكانوا يقسمون بأن هؤلاء الفقراء أتباع النبيين لن ينالهم الله برحمة من عنده، أخذًا من حال الفقر وازدرائهم التى كانوا عليها فى الدنيا.

فأهل الأعراف رأوهم فى الجنة، فقالوا لأهل النار مشيرين إلى الضعفاء فى الدنيا، وهم فى الجنة أقوياء مستمتعون: ﴿أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾.

أهم الذين ترونهم رأى العين فى رحمة الله تعالى فى جنة الخلد، أهؤلاء والإشارة إليهم وهم فى الجنة تجرى من تحتهم الأنهار، ﴿أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾، أن الله لا ينالهم برحمة، والتنكير الذى جاء على ألسنتهم فى الدنيا لتصغير الرحمة، أى أنهم أقسموا أن الله تعالى لا ينالهم بأى رحمة مهما صغرت وضؤلت.

وذلك لأفن عقولهم، وضلال أفهامهم، إذ ظنوا أن من ينالون القوة والثراء فى الدنيا هم الذين ينالونها فى الآخرة إن كانت، وما كان قسمهم هذا إلا لازدرائهم، وتكريم الأنبياء لهم، ووعدهم بالثواب عند الله، وإن الله تعالى يجزيهم أحسن الجزاء فما كان قسمهم إلا تكذيبا للأنبياء الذين وعدوهم الحسنى فى الآخرة، وإن هذا التوسل على لسان أهل الأعراف نذير لما كان من أهل النار فى الدنيا وبيان أنهم فى ضلال مبين، وقد كان ضلالهم بالعيان المحسوس، لا بالحدس المتلمس.

وقد وجهوا بعد ذلك الخطاب لأولئك ملتفتين إليهم من التحدث عنهم إلى خطابهم فقالوا: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

ادخلوا أيها المخلصون الذين أخلصوا دينهم، وصبروا وصابروا الجنة بما فيها من نعيم حسى، وراحة نفسية، وطلب الدخول هنا تقرير للدخول؛ لأنهم دخلوا فعلا، وما كان دخولهم بعد الطلب، إنما كان قبله، كما ترى إنسانا فى أرض طيبة فينتفع وهو فيها، ويستحقها، تقول له: ادخلها وابق فيها.

﴿لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾ من شر يحيق بكم، ولا هم يغمكم، بل أنتم فى رَوح وريحان، ﴿وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ على الخير لكم، وحاضر نعيم، وسعادة، وقد نزع الله تعالى من قلوبكم الغل فأنتم تنعمون براحة البال والمحبة والتوادّ بينكم، فلا تنغص من حقد أو حسد، أو تباغض.

تنبيه: إن أهل الأعراف يحبسون عن دخول الجنة، ويرون ما عليه أهل النار، وما عليه أهل الجنة، ويقول فى ذلك الزمخشرى فى الكشاف: «فائدة ذلك بيان أن الجزاء على قدر الأعمال، وأن التقدم والتأخر على حسبها، وإن أحدا لا يسبق عند الله إلا بسبقه فى العمل، ولا يتخلف إلا بتخلفه فيه وليرغب السامعون فى حال السابقين ويحرصوا على إحراز قصبتهم، ولتصور أن كل أحد يعرف فى ذلك اليوم بسيماه التى استوجب أن يوسم بها من أهل الخير والشر، فيرتدع المسىء عن إساءته، ويزيد المحسن فى إحسانه، وليعلم أن العصاة موبخهم كل أحد حتى أقصد الناس عملا».

فإنك كما ترى أهل الأعراف لم يدخلوا الجنة، وهم يطمعون فيها ومع ذلك كان فيهم ذلك التوبيخ والتنديد بالعصاة ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾.

انتهت المجاوبة التى كانت بين أهل الأعراف وأصحاب الجنة التى لم يدخلوها، وكانوا يطمعون فيها، وهى دلت على أن الأعمال هى تدخل الجنة، وأن التقاصر عنها هو الذى يدخل غيرها.

وإن أهل النار كانوا فى شقاء، فعند أهل الجنة ما يشتاهون من لحم، وعسل مصفًّى، وحور عين، وأنهار تجرى. . أما أهل النار ففى حرمان مطلق من كل

هذا، ولقد صورهم القرآن الكريم يتقدمون طالبين الماء وبعض هذه الخيرات؛ ولذا قال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ ﴾ نادوهم مستصرخين من شدة العطش، وحرارة النار ﴿أَنْ أَفِيضُوا﴾، «أن» هنا تفسيرية؛ لأن المطلوب هو إفاضة الماء، فكان المعنى نادوهم: أفيضوا علينا الماء.

وإفاضة الماء التوسعة فى إعطائه، ويبدو أن أهل الجنة كانوا فى مرتفع تجرى فيه الأنهار والعيون، وأهل النار فى منحدر والماء يفيض من الأعلى إلى الأدنى، والمعنى لا يمنعونه بسدود، حتى يفيض عليهم مدرارا، وينهمر أنهارا.

والماء أهم شيء للأحياء، والصدقة به أبر الصدقات، وقد سئل النبى ﷺ عن أبر الصدقات فقال: الماء، وهل معنى هذا أن أهل النار كانوا محرومين من الماء حرمانا مطلقا؟ نقول لا، بل كان عندهم، ولكنه حميم، وغساق يمزق الأحشاء فلم يكن عندهم النمير العذب الذى تجرى به الأنهار وتنضح به العيون.

نادوهم، وفيهم آباء لمن ينادونهم، وأخلاء فى الدنيا، ولكن الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو، فهى قطيعة بين أهل النعيم وأهل الجحيم قطعوها فى الدنيا، فسجل الله تعالى عليهم ذلك فى الآخرة.

ولقد طلبوا مع الماء شيئا مما هو عند أهل الجنة من طعام شهى، وفاكهة ورمان ولذا قالوا: ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أى أعطاكم من خيرات من لبن سائغ للشاربين، وعسل مصفى، وخمر لا غول فيها ولا يصدعون منها، طلبوا هذا، ولكن ذلك حرام عليهم؛ ولذا أجاب أهل الجنة وقالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

قال أهل الجنة معتذرين عن عدم الإجابة، أو مقررين الوقائع التى غابت عن أهل النار تحت تأثير العطش الشديد، والحاجة الملحة إلى الطعام، وهو أن ذلك

جزاء الله تعالى، ووعده الذى وعدهم به وإن الله لا يخلف الميعاد، قالوا لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ذلك أن لكل نصيبه وجزاءه، وحسبكم ما تمتعتم به فى الدنيا آثمين ظالمين كافرين بالحق مستكبرين عن اتباعه مكذبين لدعاته.

والتعبير بالكافرين إشارة إلى أن سبب الحرمان هو الكفر، ولا خلاص لكم مما كتب عليكم بأعمالكم.

ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

هذا بيان للكافرين وأعمالهم فى الدنيا، وقد ذكر ـ سبحانه ـ ما ينزل بهم فى الآخرة، وأنهم فى شقاء جهنم يطلبون الماء العذب فلا يجدونه، بل يجدون حميما وغساقا، ويطلبون الطعام، فلا يجدون إلا شجرة الزقوم.

وقد ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ حالهم فى الدنيا ليبين عدالة ما يستحقون فى الآخرة، وأنه جزاء ما كسبوا. ذكر الله تعالى لهم وصفين خطيرين كانا السبب فيما ينالهم فى الآخرة:

أولهما ـ أنهم اتخذوا دينهم لهوا ولعبا، ودينهم هو ما خوطبوا به من الرسل الذين أرسلوا إليهم، إذ هو الدين الذى طلبوا بالقيام بحقه، فأعرضوا عنه، واتخذوه لهوا وهو ما يلهيهم عن الحق، ويموِّهون به الباطل، ويتعابثون به على الرسل وأتباعهم وازدرائهم، وقالوا هم أراذلنا، فكل هذا ألهاهم عن الحق، ولم يفكروا أن الدلائل الموصلة بل فكروا فى أهواء ضالة. واللعب هو الأعمال العابثة التى لم يكن لها حد مقصود بل ترفع إليه أهواء جامحة كشربهم الخمر ولعبهم بالميسر، واتخاذهم القِيان(١)، وانغماسهم فى حياة عابثة.

ثانيهما ـ أنهم غرتهم الحياة الدنيا بزخرفها، وشهواتها، وما ينالون منها، وظنوها الحياة التى لا حياة بعدها، فاغترارهم بهذه الحياة جعلتهم ينكرون البعث، ويقولون: ﴿... **أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ**... ۝٥﴾ [الرعد].

ولقد كانوا يتهكمون على هذه العقيدة، ويقولون متهكمين لاعبين: أرجع آباءنا، أرجع قُصَيًّا؛ فإنه رجل خير... وهكذا كانوا يعبثون بالحقائق؛ وذلك لأنهم قوم ماديون، لا يؤمنون بالغيب، ولا يؤمنون إلا بما يرون ويحسون. وقد نسوا الله تعالى، ونسوا مقدرته فى هذا الوجود، فكان أن تركهم كما تركوه.

ولذا قال تعالى: ﴿**فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ**﴾.

النسيان على الله تعالى لا يجوز؛ لأنه ـ سبحانه ـ لا يغفل عن شىء قلَّ أو جَلَّ، وكل شىء عنده فى كتاب أحصاه لا يتخلف عن علمه شىء، وأريد بالنسيان لازمه، وهو الترك بل بعض علماء اللغة يقول: إن الأصل فى معنى النسيان هو الترك، والمعنى فى قوله تعالى: ﴿**فَالْيَوْمَ**﴾ الذى تجزى فيه كل نفس بما كسبت نتركهم فى جهنم يريدون الماء فلا يجدونه إلا فى حميم، ويطلبون الطعام، فلا يذوقون إلا طعام الزقوم.

(١) القيان جمع قينة، وهى الجارية المغنية.

وقد ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ أن ذلك فى مقابل أمرين أو عقاب لأمرين:

أولهما ـ أنهم نسوا لقاء يومهم هذا مع كثرة النذر، ومع إرسال الرسل، ومع أنه يوجبه منطق الحياة، وأن الله تعالى لم يخلق الإنسان سدى، يأكل ويلعب كالحيوان، إنما هو مخلوق مدرك، وأن الدنيا فيها الخير والشر، وأنه لا بد للخير من أن ينتصر، ولا بد للشر من أن ينهزم، وأنه يتناسب مع علو مكانة الإنسان فى هذه الأرض.

ثانيهما ـ ما كانوا بآياتنا يجحدون «ما» هنا على تقدير الكاف، وهى معطوفة على قوله تعالى: ﴿**كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا**﴾، أى أن الله تعالى نسيهم، كما نسوا لقاء يومهم هذا، وكما كانوا بآياتنا يجحدون، وجحود الآيات إنكار ما تدل عليه من دلائل التوحيد، ومعاندتهم لله تعالى، وتكذيبهم لأنبيائه، فكان نسيان الله تعالى لهم وتركهم فى جهنم يصلونها، من مقابل نسيانهم، وجزاء لجحودهم. والله على كل شىء قدير.

ولقد بين الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنه ما تركهم هملا من غير كتاب يعلمهم ويهديهم ويرشدهم، فقال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** (٥٢)﴾.

ما تركهم رب العالمين سدى من غير هاد ولا مرشد، بل أعذر إليهم بإنزال كتاب قد فصله على علم بما يدل عليه من عظات، وما يوجههم إليه من آيات، فقال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ**﴾ أكد مجىء الكتاب لهم بـ«اللام» و«قد»، وقد عبر بأنه جاء إليهم ولم يقل أنزل عليهم؛ لأنه نزل على محمد ﷺ والرسول جاء به إليه على أنه معجزته الكبرى، وكلام الله تعالى الذى خاطبهم هم والأجيال القادمة إلى يوم القيامة، فالمراد من الكتاب القرآن، وجاء نكرة ومقامه التعريف؛ للإشارة إلى فخامته، وإلى أنه كتاب لا يتسامى إلى مثله كتاب.

ويقول تعالى: ﴿فَصَّلْنَاهُ﴾ بيناه ووضحناه، وأتينا بفصوله كاملة على علم بل اشتمل عليه من معرفة بالشرائع وأخبار النبيين، وتنبيه إلى أن يكون القرآن وآياته، للدلالة على وحدانية الله تعالى لا شريك له، وذلك كقوله تعالى: ﴿... كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢)﴾ [هود]، ولقد قال تعالى فى آية أخرى: ﴿... أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ... (١٦٦)﴾ [النساء].

وقد وصفه ـ سبحانه وتعالى ـ بوصفين جليلين:

أحدهما ـ أنه ﴿هُدًى﴾؛ وذلك لأنه معجزة هادية إلى الحق وصدق الرسول، وكل ما يشتمل هداية ببيان الشرائع والأحكام، وما فيه مصلحة الناس فى معادهم ومعاشهم، وما فيه تنظيم جمعهم، والسير بهم فى سبيل الخير.

وثانيهما ـ أنه ﴿رَحْمَةً﴾ لما فيه من أحكام كلها نفع وخير للمجتمع وفيها العدالة، وهى الرحمة الكاملة بالمجتمع، وفيه الأمانة وفيه شرعية القتال، وفيه رحمة ودفع للفساد، ﴿...وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١)﴾ [البقرة].

وإن رحمة الله وهدايته وعلمه لا تؤتى أكلها إلا فى قلوب مؤمنة غير جافية فهى التى ينبت فيها زرع الخير ويؤتى أكله؛ ولذا قال تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أى لناس من شأنهم الإيمان بالحق إذا جاءهم، ومن شأنهم الإذعان للحقيقة، يؤمنون بها إذا عرفوها، وهناك قلوب جافية طمس عليها، هى غلف لا يدخلها النور، ولا تصل إليها الهداية، وهذه ليس من شأنها أن تؤمن، ولو جاءتها الأدلة واحد بعد الآخر؛ لأن عليها غشاوة تمنع وصول النور، فالذين يجدون الرحمة والهداية فى القرآن هم الذين من شأنهم الإيمان بالحق إذا جاءهم؛ ولذا عبر بالمضارع الدال على الاستمرار، والله تعالى أعلم.

لقد كفر المشركون والكفار من أهل الكتاب، وانتظروا تحقيق ما يدل عليه من بعث وحساب وعقاب وثواب؛ ولذا قال تعالى:

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾.

إن الكفار من وثنيين وكتابيين لم يؤمنوا بالقرآن، ولا بما اشتمل عليه، يوجه الله تعالى إليهم سؤالا استنكاريا فقال: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ ﴾، و«النظر» هنا بمعنى الانتظار كقوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٢١٠) ﴾ [البقرة].

والاستفهام هنا إنكارى لنفى الوقوع، والمعنى لا ينتظرون إلا تأويله. والتأويل هنا معرفة المآل والعاقبة، أى لا ينظرون إلا أن يروا مآلهم وعاقبتهم، لقد أنكروا البعث وأنكروا الحساب والعقاب، فهل ينتظرون أن ينزل ذلك بهم واقعا لا فكاك عنه، حيث يأتيهم ما أنكروه من بعث، وحساب ومن ذلك عقاب وثواب. وإن تأويل القرآن كما قال ربيعة: لا يزال يجىء آنا بعد آن، فكل خبر فيه يتحقق حتى يجىء الخبر الأكبر، وهو البعث والنشور والحشر والميزان، والصراط وما أخبر به مما ينكرونه، ولا يؤمنون به.

وعلى ذلك لا تكون كلمة التأويل مرادا بها التفسير، إلا أن يراد هذا التفسير الواقعى الذى يكون يوم القيامة، وإنه عندم يجىء ذلك المآل الحق يتذكر الناسون، ويتنبه الغافلون، ويرون لنا عيانا ما أنكروه فى الدنيا جهارا؛ ولذا قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾، أى الذى نسوا تأويل الكتاب من قبل أى وهم فى الدنيا متذكرين قد ذكرتهم الزواجر وقرعت حسهم العقوبات ﴿ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾، أى قد جاءت هذه الرسل منذرة ومبشرة داعية إلى الحق، ولتتميم قولهم وعاندناهم وجحدنا بالآيات

وكذبناها. ويقرون الآن بالحق الذى أنكروه فيَنُصُّون على أن الرسل جاءوا بالحق، أى الأمر الثابت الذى لا يرد ولا ينكر، وأحسوا بغفلتهم عنه فى الدنيا وأن العذاب واقع بهم لا محالة، فيتجهون إلى طلب الشفعاء، فيقولون: ﴿فَهَل لَّنَا من شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾.

«الفاء» هنا لتفصل ما اعترى نفوسهم فى هذا الهول، ومع أن الله قد قال فى كتابه عن هذا اليوم لا يُقبل فيها شفاعة ولا عدل، مع ذلك طلبوا الشفعاء، أو رجوا أن تكون ثمة شفاعة، فقالوا: ﴿فَهَل لَّنَا من شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾، و«من» هنا لاستغراق الطلب، والمعنى هل يوجد لنا من شفعاء أى شفعاء كانوا، سواء أكانوا أولياء أم كانوا أعداء ولو شامتين، ولكنها أمنية لا تتحقق؛ ولا يمكن أن تتحقق؛ لأن الله تعالى نفى ذلك فى الدنيا، وهو لا يخلف موعده.

ولأنهم يئسوا من أن يكون لهم شفعاء قالوا أمرا آخر وهو أن يردوا إلى الدنيا، فيعملوا غير الذى عملوا فيقولون: ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

ولكنهم إذا عادوا إلى الدنيا سيطرت أهواؤها وغرتهم بغرورها فكانوا كما هم، ولقد قال الله تعالى فى آية أخرى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨)﴾ [الأنعام].

ولقد ختم الله تعالى الآية بتسجيل الخسارة عليهم، وتخلى أوليائهم عنهم فقال عز من قائل: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

أكد الله تعالى خسارتهم بقيد، فقد خسروا فى ذات أنفسهم إذ ضلوا، والضلال خسارة للنفس، وخسروا أنفسهم فأوقعوها فى الهلاك الذى يكون يوم تأويله، وخسروا الحق فكانوا من المبطلين، وخسروا أيضا أولياء لهم يناصرونهم، ولذا قال تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أى غابوا غيبة منقطعة لا يعرفون أين هم، وهم الأوثان التى كانوا يفترونها، فخسروا خسرانا مبينا، وعبر ـ سبحانه

وتعالى ـ عن الأصنام بما كانوا يفترونه؛ لأنهم لا وجود لهم إلا فى افترائهم، فصنعوها بأيديهم، وأضافوا عليها افتراء من عند أنفسهم معانى العبودية فكان ضلالهم كبيرا.

آيات الله فى الكون

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

بعد أن ذكر الله تعالى حال الكافرين يوم القيامة، وحال المؤمنين وبين حال كفرهم فى الدنيا الذى تأدّى بهم إلى العذاب فى الآخرة.

أخذ يبين ـ سبحانه وتعالى ـ آياته فى الكون التى تدل على أنه الواحد الأحد؛ لأنه الذى خلق الكون كله. والمشركون من العرب كانوا يعرفون ذلك، ويؤمنون به ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ... ﴿٣٨﴾ ﴾ [الزمر]، ولكنهم كانوا يعبدون الأوثان ويقولون: ﴿ ... مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ... ﴿٣﴾ ﴾ [الزمر].

ولقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾.

إن ربكم الذى خلقكم وبرأكم أخرجكم من بطون أمهاتكم هو الله ـ جل جلاله ـ وكمل كماله، الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام، و«ستة» أصلها «سدسة» فقلبت الدال تاء وأدغمت فى السين فصارت ستة؛ ولذا تجمع على «أسداس»، ومنه الوصف «السادس» جريا على مقتضى الأصل لبنية الكلمة. وقد أكد الله ـ سبحانه وتعالى ـ ذلك بـ«إنّ» الدالة على التوكيد وذكر لفظ الجلالة الذى يكسوا الكلام مهابة وجلالا، و«ربكم» مبتدأ، ولفظ الجلالة هو خبر القول، وقد وصفه الله[1] ـ سبحانه ـ بأنه الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام.

فما هى هذه الأيام، إن اليوم الذى نعرفه هو الذى يتم بدورة الأرض حول الشمس مرة، وهو يبتدئ من الغروب إلى الغروب، ولا يمكن أن يكون ذلك قبل السموات والأرض، وخلق الشمس والقمر والنجوم، قال بعض المفسرين: إنه ألف سنة كما قال تعالى: ﴿ ... وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) ﴾ [الحج].

وإن الذى يقدح فى ذهنى أن اليوم هنا هو دور التكوين للسموات والأرض، وقد أشار ـ سبحانه وتعالى ـ إلى ذلك بشكل يبين أدوار خلق السموات والأرض، فقال تعالى:

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) ﴾ [فصلت].

ونستطيع أن نحصى الأيام الستة من هذه الأدوار؛ فالأرض والسموات السبع قضاهن فى يومين، إذ قال: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ

---

(١) أى وصف الخبر، وهو لفظ الجلالة.

ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ... (12) ﴾ [فصلت] وهما اليومان نفسهما الذى قضى فيهما الأرض.

ثم كانت الأرض، كون ـ سبحانه وتعالى ـ القشرة الأرضية وجعل فيها رواسى، وبارك فيها، وقدر أقواتها، وجعل من الماء كل شيء حى فيها، وكان ذلك فى أربعة أيام سواء للسائلين.

فنحن نرى أن الأيام الستة هى أدوار التكوين الذى قدره الله تعالى فى خلقه، وهو العزيز العليم، وهو الأعلم بخلقه بعد أن خلق الله ـ سبحانه وتعالى ـ السموات والأرض فى ستة أيام أى فى ستة أدوار كونية، ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ أنه يدير أمرها ويشرف على وجودها، ويسيرها فى مدارجها، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾.

العرش: يطلق على كرسى الحكم كما فى قوله تعالى: ﴿ ... نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا ... (41) ﴾ [النمل]. وما قال تعالى عن يوسف ـ عليه السلام: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ... (100) ﴾ [يوسف].

واستوى بمعنى استقر، والعلو على هذا العرش.

ويقول علماء الكلام: إن للعلماء فى مثل هذا النص السامى ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ منهاجين: أحدهما يفسر، فيقول: إن معنى استوى استولى على عرش هذا الوجود، وصار له السلطان الكامل فيه؛ لأنه مالك كل شيء، ولا شيء لغيره فيه، فهو المالك وحده. والثانى يفوض، فيقول: إن الله ذكر أنه استوى على العرش، فنؤمن بذلك ولكن لا نحاول أن نبحث عن مدى هذا المعنى، كما قال الإمام مالك ـ رضى الله عنه: «الاستواء معلوم والكيف مجهول، والسؤال عن ذلك بدعة».

فهو يرى أننا نؤمن بالحقيقة، ولا نسأل عن كيفها، ونؤمن بنزاهة الله، فننزهه عن أن يكون له مكان، فإن ذلك شأن الحوادث، والله تعالى لا يماثل

الحوادث فى شىء، كما قال تعالى: ﴿ ... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١) ﴾ [الشورى].

وإنه ليبدو لنا غير مفتاتين، ولا مدعين، أن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ تعبير مجازى، قصد به استيلاء الله تعالى على حكم هذا الذى خلقه فهو تشبيه سلطان الله تعالى فيما خلق من السموات والأرض وما بينهما وتدبيره لهما، وتسييره أمرهما ـ بمن يستوى على عرش ملك يدبره ويسير أمره، ولله ـ سبحانه وتعالى ـ المثل الأعلى فى السموات والأرض.

بعد ذلك وجه الأنظار إلى ما يجرى بين الناس كل يوم من ليل ونهار، شمس وقمر ونجوم مسخرات بين السماء والأرض، فقال عز من قائل: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ يغشى الليل النهار أى يجعل الليل غاشيا للنهار؛ لأنه ظلام، والظلام هو الذى يغشى النور، وذلك فى الحس، فالظلام يجىء ويستر النور، والنور يعقبه، وكل ذلك فى ترتيب مستمر، وكأن كل واحد منهما يطلبه حثيثا(١)، ولا يتخلف، لا الليل يسبق النهار، ولا النهار يسبق الليل كما قال تعالى: ﴿لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس].

وقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أى خلقهما، فـ «الشمس» معطوفة على «السموات والأرض» ـ فى يومين، وقوله تعالى: ﴿وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ أى خلق الله ـ سبحانه وتعالى ـ النجوم مذللات بأمره، تسير فى مداراتها كل نجم يسير فى مداره باستمرار بأمر الله تعالى، وهذا يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا ... (٤١) ﴾ [فاطر] فكل شىء يسير بأمر الله تعالى، وهو على كل شىء قدير.

(١) حَثِيثا أى مُسْرِعا حَرِيصا. لسان العرب - حثث.

وقد أكد هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

«ألا» للتنبيه، وهى كثمرة، لما ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ من أمر خلق الكون، وما يسير عليه فله وحده الخلق ولو الإنشاء والتكوين، والآمر فيه والسلطان عليه والمسير له والمدبر لبقائه، لا إله إلا هو الحى القيوم.

فتبارك الله تعالى وعلت بركته ـ سبحانه وتعالى ـ على هذا الوجود، وهو أحسن الخالقين. وأفعل التفضيل ليس على بابه، أى أنه ـ سبحانه وتعالى ـ خلقه خلقا هو الكمال فى الحسن والتنسيق، ولا خالق سواه حتى يقال أن خلق الله تعالى أحسن من خلقه! إنه عزيز حكيم.

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥)﴾.

كان الأمر بالدعاء بعد أن بين أن الله تعالى خلق السموات والأرض، وأن الله صاحب السلطان فيها، والأمر بالدعاء يشمل دعاء الله تعالى وعبادته وحده سبحانه، فقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

ادعوا ربكم: اعبدوه، فالدعاء مخ العبادة. ادعوه وحده؛ لأنه ربكم الذى خلقكم، ويربكم ويربيكم، ويدبر أموركم، ولا تدعوا مع الله أحدا، وادعوه تضرعا، أى فى ضراعة وخضوع وتذلل إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ وخُفية «أى فى خفاء مستترين غير مجاهرين، ولا معلنين، فإن الإعلان قد ترفقه برياء، وإن الله لا يقبل الدعاء إلا أن يكون له وحده، فالعبادة له ـ سبحانه وتعالى ـ وحده لا يشاركه فيها أحد.

والدعاء كما قلنا يشمل العبادات من صلاة وصوم وأدعية فيها ذكر الله كثيرا، وقد حث النبى ﷺ كما أمر الله تعالى بأن يكون الدعاء خفية، وإن جهر لا يكون بإعلان وضجة، فقد روى البخارى عن أبى موسى الأشعرى قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر، فكنا إذا أشرفنا على واد هللنا وكبرنا ارتفعت أصواتنا،

فقال النبى ﷺ: «أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصَمَّ ولا غائبا، إنه معكم سميع قريب، تبارك اسمه، وتعالى جده»(١).

وإن المأثور عن الصحابة والتابعين أنهم كانوا يدعون الله تعالى، ويعبدونه متسترين إلا ما يكون فى جماعة، ولقد كانوا وهم فى أعمالهم يدعون الله تعالى بالتوفيق والعمل الصالح، حتى وهم فى المجاهدين يدرعون بالصبر، والالتجاء إلى الله تعالى ورجاء رحمته ونصرته، وهم فى خيرهم يتسترون ولا يجهرون، لأن الستر يجعله خالصا لله، مخلصين له الدين، روى عن الحسن البصرى أنه قال: «إن كان الرجل قد جمع القرآن وما يشعر به أحد، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل ليصلى الصلاة الطويلة فى بيته وعنده الزَّوْرُ وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقواما ما كان مع الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه فى السر، فيكون علانية أبدا، ولقد يجتهدون فى الدعاء، وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم؛ وذلك أن الله يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾؛ وذلك أن الله ذكر عبدا صالحا وحكى عنه فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ③﴾ [مريم].

وكان الدعاء «خفية» ذا فضل عظيم، لأنه مناجاة الله، وكأنه يُودِعُ ربه سرَّه وعلانيته، وهو مظهر المحبة، وهو بعيد عن كل رياء، ولأن النية مطلوبة قالوا: إن الإشارة فى الدعاء إلى السماء ليست مطلوبة، ونحن نقول: إن الدعاء الخفى أفضل من الدعاء الجلى، بيد أن الدعاء بالجهر قد يكون مطلوبا كالتلبية، وفى هذه الحال تجوز الإشارة بالأيدى لأن ذلك انفعال ضارع. وقد كان النبى ﷺ يدعو ويشير بيديه(٢)، وقالوا: إنه كان يدعو وهو

---

(١) متفق عليه؛ رواه بهذا اللفظ البخارى: الجهاد والسير- ما يكره من رفع الصوت فى التكبير(٢٩٩٢)، ومسلم بنحوه: الذكر والدعاء(٢٧٠٤). عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه.

(٢) من ذلك ما رواه البخارى: الحج- إذا رمى الجمرتين(١٧٥١).

على ناقتـه، فإذا مالـت أخذ بزمامـها بيد، واسـتمرت يده الثـانية الكريمـة ممتدة بالدعاء[١].

ويختم سبحانه الآية الكريمة بقوله: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

إنه ـ سـبحـانه وتعـالى ـ لا يحب الذين يعـتدون، أى يتـجاوزون الحـدود المحدودة عليهم، فـيعتدون على غيـرهم، أو يتجاوزون الأمور المفـروضة عليهم، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه، فـتعدى الحدود أمر لا يحبه الله تعالى، وقد يكون حراما، كالاعـتداء على حق غيره، وقد ذكروا أن ذكـر الاعتداء عقب طلب الدعاء يدل أن الاعتداء قد يكون فى الدعاء.

والاعتـداء فى الدعـاء كأن يقـضى وقتـه كله فى دعاء، ولا يقـوم بواجب الحيـاة، كأولئك الذين ينقطعون للعـبادة ويتركـون أمر الحيـاة ولا يدبرون أمرها، فذلك اعتداء فى الدعاء، وقد جـىء برجل للنبى ﷺ فقـالوا: هذا عابـدنا، فقال ﷺ: ومن يؤكله، قالوا: أخوه يؤكله، فقال ﷺ: أخوه خير منه. وكأولئك الذين ينقطعـون فى الزوايا، أو ما يسمـونه الخانقـاه، بحسـبان أنهم يدعون اللـه تعالى ويعبـدونه، فإن ذلك اعتـداء فى الدعاء وتجاوز لحـد المطلوب، وقد روى أن النبى ﷺ قال: «سيكون قوم يعتدون فى الدعاء»[٢]. ولعله سبحانه ينبئ بهؤلاء.

ولقد ذكر القرطبى وجوها فى الاعتداء فى الدعاء منها:

الجهر الكثير والصياح، ومنها أن يدعو الإنسان فى أن تكون له منزلة نبى أو يدعو فى محال، ونحـو هذا من الشطط، ومنها أن يدعو طالبا معـصية، ومنها أن يدعو ما ليس فى الكتاب والسنة.

---

(١) رواه النسائى: مناسك الحج- رفع اليدين بالدعاء فى عرفة(٣٠١١).

(٢) رواه أحمد: مـسند العشرة - مسند أبـى اسحاق سعد بن أبى وقـاص (١٤٨٦)،وأبو داود: الصلاة - الدعاء(١٤٨٠).

وفى بعض هذه الوجوه نظر، فالدعاء بطلبه المعصية معصية وليس بدعاء يدخل فى باب العبادة، وتجاوز المراتب الإنسانية شطط وليس بدعاء.

والله تعالى لا يستجيب إلا لما يكون حقا، ولا يقبل من الدعاء إلا ما يكون خالصا لله، ولا يكون قاطعا عن الحياة ومطالبها، فإنه لا رهبانية فى الإسلام.

ويقول ـ سبحانه ـ فى عمارة الأرض والدعاء مع الإصلاح:

﴿ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) ﴾.

ذكرنا أن من الاعتداء فى الدعاء، أن ينصرف عن العمل فى الدنيا كاسبا متكلا على الدعاء كما يفعل الرهبان، وإنما يجب مع ذكر الله أن يندمج مصلحا فى الأرض منتجا مثمرا فإن ذلك فيه إرضاء لله؛ لأن فيه خيرا للعباد ونفعا لهم، و«خير الناس أنفعهم للناس»[1].

وإن الله تعالى فى وسط الأمر بالدعاء نهى عن الإفساد فى الأرض، ويتضمن ذلك العمل فيها بالإنتاج والإنماء يقوله تعالى: **﴿ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ﴾**.

إصلاح الأرض: خلقها صالحة لأن يعيش عليها الإنسان فى زرعها وغرسها، ومستمتعا بكل حلالها وطيباتها، وقد أرسل الرسل منذرين ومبشرين، وهداة إلى الحق ومصلحين وعاملين للخير.

وإفسادها إشاعة الظلم، وإفساد ما تنتج، والتعدى التعاون على الإثم والعدوان وقطع الأشجار وحرق الثمار، وجاء فى القرطبى (تجارة الحكام من الفساد فى الأرض).

(١) سبق تخريجه.

ونرى أنه قد جاء النهى عن الفساد، ولم يجئ الأمر بالإصلاح؛ وذلك لأن الله تعالى تولى جعل الأرض صالحة لأن يعيش فيها أهلها آمنين مطمئنين بأن جعلها مهادا، وجعل الجبال أوتادا، وأنزل من السماء ماء فأخرج به ثمرات كل شيء: أخرج به حبا متراكبا، وغروسا ذات ثمار يانعة، فهو - سبحانه وتعالى - تولى ما به صلاح ذات الأرض، وأرسل الرسل تصلح ما بين الناس بالحق، وأجرى على أيديهم شرائع تهديهم إلى الرشاد، وتأخذهم إلى الحق إن استقاموا على الطريقة، وإذا عرفنا معنى الإصلاح الذى كان من الله تعالى فى الأرض، عرفنا معنى الإفساد الذى يكون بعد الإصلاح الأزلى الذى قرره الله تعالى فيكون الإفساد تخريب العامر، وقطع القائم وإهلاك الحرث والنسل، وتعطيل شرائع الله، وإشاعة الأخلاق الفاسدة، وإثارة الغرائز الفتاكة والقاتلة لكل فضيلة بين الناس، وفتح باب الرشا وأكل السحت.

وقوله: ﴿بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾، تقرير لواقع الأمور؛ لأن الفساد لا يكون إلا تقويضا لصالح، وإنه فى وسط تلك المعرفة القائمة بين الصلاح والفساد، مع الامتناع عن الثانى يكون الالتجاء إلى الله تعالى؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

أى ندعو إليه - سبحانه وتعالى - بدعاء: ربكم الذى خلقكم ويكلؤكم بعنايته وتدبيره وحكمته ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، أى خائفين من مغبة أعمالكم فى الحياة (الدنيا)، ومن آثارها فى اليوم (الآخر)، وطامعين فى غفرانه ورحمته التى وسعت كل شيء رحمة وفضلا. فمعنى ﴿خَوْفًا﴾ أى خائفين من عذابه، و﴿طَمَعًا﴾ أى طامعين فى غفرانه. وإن الله تعالى يقرن رجاءه بخوفه، ورحمته بخوف عذابه. قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر] وقدم - سبحانه وتعالى - الخوف على الطمع؛ بأنه يجب على المؤمن أن يغلب الخوف على الرجاء؛ لأن من غلب الخوف على الرجاء أمن

واحترس، وسار على الصراط المستقيم آمنا، وإن غلب الطمع، ربما انساق وراءه، وإذا انساق ربما سار فى غير الطريق السوى.

ولقد قرب الله تعالى رحمته لعباد، فقال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

المحسنون هم الذى أجادوا أعمالهم فى الدنيا، وبلغوا بها الكمال الإنسانى، وبالغوا فى أداء واجبهم، وزادوا عليه وأطاعوا ربهم فى كل ما أوجبه عليهم وألزمهم به.

ورحمة الله غفرانه (ذنوبهم)، والإنعام عليهم، وأن يكتب لهم الثواب بفضل منه وكرم، وقد قال تعالى فى دعاء الأبرار:

﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦)﴾ [الأعراف].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فيها إشارة إلى أن الله تعالى يعطى رحمته لمن يستحقها بغير حساب، ومن غير تسويف، والمسافة بين الرحمة وطالبها قريبة إن قدم لها العمل الصالح وعدم الإفساد.

وهنا بحث لفظى، يقول الله تعالى: ﴿قَرِيبٌ﴾ على أنها خبر لرحمة، وهى مؤنث لفظى لحقته التاء، وكان مقتضى السياق اللغوى أن يقول «قريبة» بدل «قريب».

خرج بعض النحاة ذلك على أن (رحمة) مؤنث مجازى، ولا يلزم فى خبره التأنيث، بل يجوز فيه التذكير.

وبعضهم قال بتقدير مكانها، فقال السياق: «وإن رحمة الله مكانها قريب» أى أنها سهلة فى الوصول إليهم؛ لأنه كلما قرب المكان كان الوصول إليها أسهل.

وخرج آخرون بأن الرحمة متضمنة معنى الثواب أو الغفران، وهو مُذكّر.

وهذه وغيرها تخريجات نحاة ليستقيم إعرابهم، أما كلام الله فهو فوق طرائق إعرابها وهو سليم منزه عن أى عيب بيانى.

وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

بين الله تعالى آياته فى الكون كيف خلق السموات والأرض فى ستة أيام، وبين - سبحانه وتعالى - وجوب الضراعة من بنى الإنسان كما يسبح له كل ما فى الوجود، وإن كنا لا نفقه تسبيحهم، ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، وفى هاتين الآيتين يعدد - سبحانه - على الإنسان ما سخر له فى الأرض، فقال عز من قائل: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ** ﴾ «الواو» هنا عاطفة على قوله تعالى: ﴿ **يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا** ﴾، أى أنه وقد أنعم بنعمتى الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات أنعم بالماء يسقى الأرض فتنبت نباتا طيبا، وهو - سبحانه وتعالى - الذى يوزعه فى الأرض، على حسب حاجة كل بلد إليه، وتوزيعه عادل صالح يحيى الأرض بعد مواتها.

﴿ **وَهُوَ** ﴾ الضمير يعود على الله تعالى جل جلاله، وتعالى كماله، يثيرها سبحانه، ثم يرسلها بقدرته ﴿ **بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ** ﴾، أى أمام رحمته مبشرة

الناس بأن السماء ستمطر، والمطر غيث يغيثهم، يشربون منه، وينبتون به زرعهم ويسقون به أنعامهم، وغرسهم، ويجنون به ثمارهم، فهى بشرا لهم، مبشرة لهم برحمة من الله ويكون المطر. وبشرا: جمع بشير، كقُلب جمع قليب، وأصلها «بُشُرا»، وسكنت للتخفيف، وهناك قراءة بالنون، لا بالباء، وبضم الشين، أى (نُشُرًا)[1]، وهى جمع ناشر، كما أن شُهُدًا جمع شاهد، والمعنى أن الرياح تنتشر، مبشرة بأن السحاب سيمطر مطرا يكون غيثا، وحول هاتين القراءتين قراءات أخرى يبلغ عددها سبعا، والفرق بينها فى الكلمة، ولا يؤثر اختلافها فى مضمونها. وهى تكون منتشرة معلمة بالبشرى بالماء الذى يحيى الأنفس، ويحيى موات الأرض.

ويقول سبحانه فى تحقيق البشارة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً﴾ حتى ثارت هذه الرياح فبخرت البحار فتكون منه الماء، وحملت السحاب، وتكاثفت الرياح.. و﴿أَقَلَّتْ﴾ أى حملت، ولا تقال كلمة ﴿أَقَلَّتْ﴾ بمعنى «حملت» إلا إذا كان سحابا ثقالا أى ممتلئة ماء.

وسحاب اسم جنس جمعى يفرق بينه وبين مفرده بالتاء أو بياء النسب كتمر، وتمرة، وبقر وبقرة، وعرب وعربى، وروم ورومى. والثقال جمع ثقيل.

امتلأت السحاب بالماء، وحملتها الرياح، ولم تنزل حيث كانت، بل إن الله تعالى المنعم الموزع لرحمته لا ينزلها إلا فى مواطن الحاجة إليها على ما مضت به حكمته، وعلى مقتضى علمه ـ سبحانه وتعالى ـ فهو الحى القيوم المدبر للوجود، ولأهل الأرض ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ أى سقنا السحاب، فالضمير يعود إليها، وهى تذكر وتؤنث، فأومأ ـ سبحانه وتعالى ـ إليها مذكرا. ساق: تتعدى بـ«اللام» وتتعدى بـ «إلى»، ومعنى سوقها دفعها، وتعديتها باللام هنا لمعنى الاختصاص

---

(١) قرأها: ﴿نُشْرا﴾بضم النون ابن عامر، و﴿نَشْرا﴾بفتح النون حمزة والكسائى وخلف والمفضل، و﴿بُشْرا﴾بباء مضمومة عاصم إلا المفضل،و﴿نُشُرا﴾بضم النون والشين نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب. غاية الاختصار: الجزء الثانى -برقم(٨٩٦).

بقسمة الله تعالى العادلة، فالمعنى سقناه إلى هذا البلد، ليكون مختصا بها حتى يحيى مواتها، فإذا ماتت أرض أخرى اختصصناها بما يحييها من غير تثريب(١) فسبحان الرزاق الحكيم.

والبلد الميت، هو الأرض الميتة التى لا ماء فيها، ولا ينتفع بها فى زرع أو غرس، ولا يوجد ما يأكل منه حيوان أو يحيا به إنسان، فيحيى الماء بعد مواتها بإذن الله العليم الحكيم الرزاق ذى القوة المتين.

وقال تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾.

إن السحاب الذى ساقه الله تعالى إلى البلد الميت يلقى حمولته من الماء بإذن الله وبأمره وبنعمته؛ ولذا قال: ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾ والضمير فى «به» يعود على البلد الميت، أى فأخرجنا بهذا البلد الميت، الذى لاينبت زرعا ﴿مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ من: هنا بيانية، أى أخرجنا كل الثمرات بهذا البلد الميت، أخرجنا حبا وزيتونا ورمانا، متشابها وغير متشابه، وأخرجنا نخلا وعنبا، وأخرجنا كل شىء، وجعلنا منه كلأ تأكل منه الإبل والبقر والغنم، وكل ذى كبد رطبة ينتفع بها، ويختبر بها.

فكان من هذه الأرض الموات تلك الحياة، وذلك الخَضِر من كل شىء، وإن ذلك يقرب لكم إعادة الأموات إلى الحياة؛ ولذا قال تعالى خاتما الآية الكريمة: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

أى كهذا الذى رأيتم من إخراج ثمرات كل شىء نباتا حيا، وغرسا مثمرا، وحبا متراكبا، وكلأ طعاما للنعم كهذا الذى شاهدتم، وتشاهدون كل يوم يخرج الله تعالى الأموات من قبورهم أحياء، فالتذكير بقدرة الله تعالى على البعث ثابت فى كل ما يشاهدون، يخرج الحى من الميت، ويخرج الميت من الحى.

---

(١) التثريب: كالتأنيب والتعيير والاستقصاء فى اللَّوْم، يقال: لا تثريب عليك.

فشبه الله تعالى إخراج الأموات من قبورهم وبعثهم، وإنشارهم بعد موتهم بإخراج النبات من الأرض الميتة أحياها. ولقد جاء فى بعض الأخبار أن الله عند إحياء الأموات ينزل المطر، أربعين يوما فيخرج الأموات أحياء كالنبات[1].

ولقد قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، أى رجاء أن تتذكروا، وأنتم ترون ذلك فى الأقوام، والبلدان. إنه عليم حكيم.

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨)﴾.

البلد: الأرض، وهى الأرض ذات التربة الخصبة المشتملة على كل ما يتكون منه النبات أو الغراس مع الماء والحرارة، وما تقتضيه طبيعة النبات، وما يكون غذاء له، والأرض الخبيثة أو البلد الخبيث ما تكون تربته غير منبتة كالحجارة أو ما يشبهها، وكالأرض التى تكون قريبة من المالح، فيكون ملحها مفسدا لطينتها وخصبها، وخبيثها حجارتها وسبخها، وكل ما لا ينبت، ومنه الرمال التى لا تحبس الماء، فالبلد الطيب يخرج نباته طيبا غزيرا كثيرا يشبع، ويرضى الزارع بإذن الله، والذى خبث لا يخرج إلا نكدا، أى القليل الذى لا يسمن ولا يغنى من جوع، فالنكد هو القليل، هو يصيب الزارع بنكد وغم وحزن، وكأنه ينبت ذلك النكد الذى لا طيب فيه ولا نفع منه.

وإن ذلك مثل لتقسيم الأرزاق، فمن الناس من رزقه الله تعالى أرضا طيبة تأتى له بالخيرات والثمرات، ومن الناس من اختبره الله بأرض خبيثة لا تخرج إلا

---

(١) وذلك كما ورد فى الصحيحين عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ.
[البخارى: تفسير القرآن - ﴿يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا﴾ (٤٩٣٥)، ومسلم: الفتن وأشراط الساعة- ما بين النفختين (٢٩٥٥)].

نكدا، وهذه تدعوه إلى أن يبحث عن أرض خير منها ﴿... فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ⁽١٥⁾﴾ [الملك]، وأن يبحث عن خيرات الأرض من باطنها مما اختزنته من معادن وفلزات وكنوز، وأحجار وماس، وكل ما له نفاسة، فكل أرض الله تعالى لا تخلو من خير.

وهذا معناه أنه لا يمكن أن يمحى الفقر والغنى أو يذاب ما بينهما من فروق كما يقول الجهلاء الذين لا يؤمنون بشيء، وقد نقص إدراكهم عن أن يصل إلى حقائق الوجود، وإن تزعموا وتحكموا، وحكموا بالباطل.

وإن بيان معانى هذه الآية المحكمة على أنها حقيقة تبين قدرة الله وتصريف خيرات الوجود بمقتضى علم الله تعالى، وتدبيره وحكمته، وأن بلاد الله فيها الطيب الذى يحييه خير الله، وينزل الماء فيه، وفيها الجدب الخبيث الذى لا ينبت إلا نكدا، وإن كان قد ضم باطنه خيرا آخر، لا فى الطعام والثمر والزرع، ولكن فى منافع الناس.

وقد رأى ابن عباس - رضى الله تعالى عنهما - أنه مثلٌ ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر، فالمؤمن كالبلد الطيب يخرج نباته وثماره بإذن ربه، فقلب المؤمن كالأرض الرطبة لا يكون منها ماهو طيب، وقلب الكافر خبيث كالبلد الخبيث الذى لا ينتج إلا نكدا، قبيحا وشرا.

وإنا نقول غير جامعين بين الحقيقة والمجاز، إن الآية تدل على تصريف الله تعالى، وتشير عن بعد إلى قلب المؤمن وقلب الكافر، وتقاربهما من البلدين، الأول من البلد الطيب، والثانى من البلد الخبيث.

وقد روى البخارى عن أبى موسى الأشعرى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير، أصاب أرضا، فكانت نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت فيها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا، وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما

هى قيعان، لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه فى دين الله، ونفعه ما بعثنى الله تعالى به فَعَلِمَ وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به»[1]، ولقد ختم الله تعالى الآية الكريمة بقوله تعالت كلماته: ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾.

التشبيه والإشارة هنا ﴿كَذَلِكَ﴾ الذى رأيت من تصريف القول من بيان نعمة الله على الوجود بخلق السموات والأرض فى ستة أيام، وبيان النعم فى الإنبات والإثمار، وإخراج كل ما هو نافع للأحياء، كهذا الذى رأيت نصرف الآيات، ونبينها فى تصريف محكم مقرب للنفوس، أى كهذا التصريف فى ذكر هذه الآيات، نصرف فى بيان الحقائق دائما، لقوم من شأنهم الشكر، وتقبل النعمة بالقيام بحقها؛ ولذا عبر بالمضارع الدال على تجدد الشكر المنبعث من النفس الإنسانية المؤمنة، والله غفور شكور.

القصص القرآنى

بعد الآيات الكونية التى ذكرها الله تعالى دالة على وحدانيته ـ سبحانه وتعالى ـ ساق أنباء الرسل، ودعوتهم إلى التوحيد، وتبليغهم رسالات ربهم فى إصلاح الإنسان، والقيام بحق ما أنعم الله به عليه، وأنباء من أرسلوا إليهم، وكفر من كفر، وعناده، وأخبر عن دعوة كل رسول وما أجيب به، وذلك لأمور كثيرة:

أولها ـ العبرة بأحوال السابقين والوثنيين الذين اعترضوا على الأنبياء، لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب.

---

(١) متفق عليه، وقد سبق تخريجه.

وثانيها ـ بيان ما نزل بالمشركين الذين كفروا بالله وكذبوا الأنبياء وعاندوهم وآذوا من اتبعوهم، من عذاب حتم عليهم، ومن خسف جعل عالى ديارهم سافلها، ومن ريح صرصر عاتية، وليعلم الوثنيون الذى يخاطبون النبى ﷺ أن الله تعالى يمهلهم ولا يهملهم، كما قال تعالى: ﴿**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ** ⁽٦⁾﴾ [الرعد].

وثالثها ـ أن الآيات مهما تكن شديده قارعة حسية لا تجعل من القلب الجاحد مؤمنا، فهؤلاء السابقون جاءتهم الآيات الحسية القارعة، ولكن لم تحمل الوثنيين على الإيمان، بل جحدوا وإن كانوا مستيقنين.

ورابعها ـ التسرية عن النبى ﷺ بأنه لم يكن أول من كُذِّب وجُحدت آياته بل كذبوا من قبل.

وخامسها ـ أن فى نبأ كل نبى من الأنبياء تساق الحجج على التوحيد، والتنبيه إلى آيات الله تعالى فى الكون.

وسادسها ـ أن فى القصص علم الأمم، وأخلاقها، وضلالها، وهداية من يُهتدى.

من نبأ نوح - عليه السلام -

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ

مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

ابتدأ نوح كلامه مع قومه مستدنيا قلوبهم، مقربا القول إلى نفوسهم، وكان إرساله إليهم، ولم يوجد ما يدل على أنه أرسل لغيرهم، كما قامت رسالة رسول الله محمد ﷺ إلى الناس.

قال عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ﴾ نادى بالرابطة التى تربطه بهم، وهى أنهم قوم الذين يستنصرهم، ويعتز بصلتهم ويريد الخير لهم، ويجب كل كمال لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ والجملة الأولى دعوة إلى عبادته لأنه خالق الكون ومنشئ الوجود، والجملة الثانية تدل على انفراده وحده بالألوهية، فهى نفى وإثبات؛ نفى أن يكون لهم إله غير الله، ولذا قال: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾، أى ليس لكم من إله غيره سبحانه، و«من» لاستغراق النفى، والمعنى: ليس لكم أى إله يعبد غيره؛ لأنه الخالق، ولأنه ليس كمثله شىء فى ذاته أو صفاته، فهو المعبود وحده.

وقد حذرهم من عصيان الله تعالى، والكفر به، وعبادة غيره، فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وفى هذا يظهر عطفه عليهم داعما دعوته بخشية ما ينزل بهم، ومع ذلك هو تهديد لهم بعاقبة إنكارهم. وقد أكد خوفه عليهم بكل مؤكدات القول، بـ«إن»، وبقوله ﴿عَلَيْكُمْ﴾، وتنكير العذاب، و﴿عَظِيمٍ﴾، وأنه لا يدرك جهته، ولا تدرك المشاعر الآن حقيقته. هذه هى الدعوة إلى التوحيد والترغيب فيها، والترهيب من عصيانها؛ فبماذا أجاب قومه؟.

قال الملأ من قومه، أى قال الكبراء والرؤساء والأشراف من قومه مستنكرين مستهترين: إنا نراك فى ضلال مبين، وكذلك نجد الكبراء فى كل قرية أكابر

مجرميها كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم. كانت إجابتهم إصرارا على غيهم، واستمساكا بما هم عليه، وعدوا غيره ضلالا وسفها: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾، أى إنا نراك فى بعد عن الهداية، والحق واضح. وقد أكدوا ذلك بـ«إنا»، وبأنهم يرونه كذلك، وإنه يستفاد من هذا أمران:

أولهما ـ أنهم يردون قوله، ولا يقبلونه ويعصونه، وأنهم يرون أن صاحبه فى ضلال واضح لا هداية معه، وأنهم بهذه الحال لا يمكن أن يجيبوه بل أن يفكروا فى إجابته.

وثانيهما ـ أنه يلاحظ أن ذلك من كبرائهم، كما ذكرنا، أما ضعفاؤهم فإنه لم تعرف لهم إجابة، لأنهم مغمورون غير مذكورين، كما كان الأمر من بعد ذلك للنبى ﷺ، إذ مكث وقت الدعوة المحمدية فى مكة، ما كان يتردد فى جنباتها إلا صوت أبى جهل وأبى لهب، والوليد بن المغيرة، ولا يتردد صوت عمار، وبلال وأبى بكر، وإن نوحا النبى الأمين، منهى عنهم ولا يرد عليهم، بل يقول فى أناة المؤمن: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يقول مبتدئا القوم بندائهم، بما يقربهم ويدنيهم لا بما يبعدهم، وينبئهم، يناديهم يا قومى يا من أنا منكم وقطعة من جمعكم يضيرنى ما يضيركم، ويؤلمنى ما يؤلمكم ثم يقول نافيا ﴿لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ﴾ أى ليس بى حال أضلتنى عن الحق، وكأنهم قصدوا من الضلالة أنه مسحور قد ضل عقله وغاب، فهو يقول ما بى ضلال، بل أنا برشدى الكامل وأنا فوق ذلك هاد مرشد متحدث عن الله تعالى؛ ولذا أردف نفى الضلالة بقوله: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والاستدراك من نفى الضلالة إلى مرتبة عالية، وذكر أنه رسول، قد أرسله الله تعالى رحمة بهم، وإنقاذا لهم من ضلالهم، وأضاف الرسالة إلى الله تعالى معبرا بقوله: ﴿رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أى الذى ربى الناس وكونهم، وهو القائم عليهم، والمصرف لأمورهم، وللوجود كله سبحانه وتعالى.

وإنه لهذا ما أرسل الرسالة إلا رحمة بكم، وهداية وتوجيها إلى الصراط المستقيم.

ثم بين الرسول الأمين واجبه وهو التبليغ والنصيحة، والدعوة إلى الهداية فقال الله تعالى عنه: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٢)﴾.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي﴾ وعبر عنها بصيغة الجمع للدلالة على أنها متعددة النواحى، فهى للتوحيد، وهو رأسها، وعمادها. وإصلاح الجماعة، ونشر الفضيلة، وتكوين الأسرة، وتنظيم المعاملات الإنسانية على أساس العدل ومنع البغى ولتعميم الإحسان، وإصلاح الأرض ومنع الفساد.

ولقد قال بعض العلماء: ما كانت بعثة نوح لقومه فقط، بل لجيله ومن يتبعه إلى أن يجىء من ينسخ شريعته، وأضاف الرسالات إلى ربه - سبحانه وتعالى - لأنه منزلها، ولأنه القائم على الوجود، والمربى له، والعالم بكل ما يصلحه، وذكر أمرين يقوم بهما بعد تبليغ رسالات ربه، وإعلانها لهم:

أولهما - أنه ينصح لهم، بمحض الحق مخلصا لهم، لا يأتى إلا بما فيه نفعهم، والخير العميم لهم، والنصيحة والنصح إخلاص النية من الغرض وقصد الفساد، نصحته ونصحت له، أى أخلصتها له.

ثانيهما - الإشارة إلى أنه عنده علم من الله لا يعلمونه؛ لأنه يخاطبه الله تعالى وحيا أو برسول من الملائكة أرسله إليه؛ ولذا قال فى تأكيد نصحه، وبيان صدقه، وأنه هاد مرشد: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ فاقبلوا نصحى وإرشادى، فإنه ليس منى، ولكن من الله ربكم ورب العالمين.

ولقد أدرك أنه يجوز أن يكونوا فى استغراب، وهو يريد هدايتهم، فيريد أن يزيل غرابتهم، فقال متقربا متحببا مخاطبا وجدانهم مزيلا استغرابهم:

﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣)﴾.

الواو هنا عاطفة ما بعدها على ما قبلها، فهى عاطفة كلام نوح ـ عليه السلام ـ الأخير على ما قبله، ولكنها أخرت فى الذكر عن الهمزة، وهو بهذا ينبههم إلى ما يزيل عجبهم واستغرابهم، فهو استفهام فى معنى النفى، أى لا يصح أن تعجبوا من ذلك فإن الله لا يَنزل، ويكلم الناس، ولا يُنزل الملائكة، ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ⑨ ﴾ [الأنعام] ولقد أزال عجبهم، وأمرهم بألا يعجبوا.

وموضع العجب الواهم هو ﴿ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ «أن» تذكير بالحقيقة المستكنة فى قلوبهم التى يطمسونها طمسا، حتى لا يذكروا، ﴿ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ ﴾، أى على لسان رجل منهم، أو أن «على» بمعنى «مع» أى: مع رجل منهم، وكذلك قال المشركون لمحمد ﷺ: ﴿ ... أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ⑨٤ ﴾ [الإسراء] ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ ... ⑦ ﴾ [الفرقان]، وقد بين الله الغاية من الرسالة التى جاء بها نوح ـ عليه السلام ـ وهى غاية الرسل أجمعين فقال: ﴿ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ بهذا الذكر الذى يثير العلم الذى تطمسونه فيذكركم به منذرا من عذاب، ومبشرا بثواب ﴿ وَلِتَتَّقُوا ﴾ ولتعملوا على أن تتخذوا من عملكم وقاية لكم من العذاب، ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾، أى ولترجوا أن يرحمكم الله باتباع ما أمركم به من توحيد، وإصلاح، فإن ذلك هو الرحمة الحقيقية بكم.

قال نوح ذلك متوددا متحببا، مخاطبا بما يجمعهم من مودة، ولكنهم نفروا من دعوته، ومن هدايته فكذبوه، ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾. الفاء: هنا للإفصاح، أو للترتيب، أى أنه ترتب على هذا الذكر، وهذه الدعوة الهادية الباعثة على العبرة أن كذبوه، وكان لا بد بعد هذا التكذيب القاطع للحق، والهادم لكل صالح أن يكون العذاب لمن طغى، والنجاة لمن هدى، أمره الله تعالى بأن يصنع الفلك، لينجى فيه من آمن من قوم نوح، وأن يغرق من عاند وكفر، فقال: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾، أى بسبب تكذيبهم؛ لأن الصلة فى الموصول هى سبب الحكم،

وقد أكد ـ سبحانه وتعالى ـ وصفهم بالضلال، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ عمين جمع عمٍ، وهو صفة مشبهة من عَمِى، فهم ضالون قد أعمى الله تعالى بصائرهم. وإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى الأفئدة التى فى الصدور.

هذا ما ذكره الله تعالى فى هذا الموضع من قصة نوح ـ عليه السلام ـ ونكتفى بالكلام هنا، ونتكلم فى باقى قصة نوح مع قومه فى مواضعها من القرآن الكريم، فلكل جزء منها عظة قائمة بذاتها.

وسيدنا نوح ـ عليه السلام ـ هو أبو الأنبياء بعد آدم، وقيل: إن إدريس أكبر منه، ولكن الظاهر من سياق القرآن للأنبياء، أنه أبو البشرية بعد آدم، والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم.

من قصة هود عليه السلام

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ
هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ
(٦٥) قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى
سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَٰقَوْمِ
لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٦٧)
أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوَعَجِبْتُمْ
أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ
وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ
فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ
(٦٩) قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ

يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ
﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ
أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم
مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ
ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا
وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

يدل ما ذكره ـ سبحانه وتعالى ـ هنا من قصة هود ـ عليه السلام ـ أنه جاء من بعد نوح ـ عليهما السلام ـ فقد قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ إلى آخر الآية الكريمة. يقول تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾، الواو عاطفة على قوم نوح، وهى على نية تكرار العامل أى وأرسلنا إلى عاد أخاهم هودا، وقدم قوم هود، وهم عاد؛ لأنهم كانوا فى عتو شديد. قال لهم هود الهادى المرشد: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾.

ابتدأهم بدعوة النبيين إلى التوحيد، وهى دعوة نوح من قبل، ودعوة من بعد عاد إلى أن تكون دعوة محمد ﷺ ﴿ قَالَ ﴾ لهم: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾، فـ «من» هنا لاستغراق النفى وانحصار الألوهية فى الله تعالى وحده، وحذرهم من الكفر كما حذر نوح إذ قال: ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾، وقال هود محذرا ومحرضا على أن يجعلوا لأنفسهم وقاية بينهم وبين العذاب، فقال: ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ والفاء للترتيب والتعقيب، وموضعها مقدم على الهمزة، ولكن الاستفهام له الصدارة، والمعنى، أنه يترتب على المطالبة بعبادة الله وحده أن تتقوا عذابه، وتخافوه، فهى تتضمن ذكر الخوف والتحذير من عذاب الله تعالى، وأن يجعلوا لأنفسهم منه وقاية، فأجابوه إجابة المتعنت المستخف.

﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦)﴾.

كان الذين يردون هم الكبراء البارزون، فيهم كشأن أعداء الأنبياء دائما؛ لأنهم الذين يخافون على سلطانهم، كما رأيت فى الذين عاندوا نوحا وكفروا به، وكما رأيت فى الذين عاندوا محمدا ﷺ. وكما نرى فى الذين عاندوا هودا أخا عاد، وقد بادروه بالطعن فى شخصه. قالوا فى شخصه: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ وأكدوا ذلك بـ«إنَّ» وباللام، أى: إنا لنراك فى خفة عقل وحمق وطيش وذلك استخفاف به، لأنهم ضالون. ودعاهم إلى الحق الذى لا ريب فيه. وأما طعنهم فى قوله، فهو قولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ والظن هنا هو العلم المزعوم عندهم، بدليل أنه أكدوا حكمهم بـ«إنّ» واللام، وكونه داخلا فى زمرة الكاذبين، وقد يطلق الظن بمعنى العلم، وهو هنا كذلك. أجاب هو إجابة النبيين:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧)﴾ ناداهم مدنيا مقربا لهم، بقوله يا قوم وقد اختاره الله على أنه أخ لهم، إذ قال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ﴾، ليس بى سفاهة فما خالفتكم، ودعوتكم إلى عبادة الله تعالى وحده لحمق أو سفه، وإنما لأنى أرسلت بذلك؛ ولذا قال: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أرسلنى إليكم، داعيا إلى عبادته وحده ثم قال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي﴾ من شرائع وأحكام فيها صلاحكم فى الدنيا والآخرة، وإنى مع الرسالة ﴿نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾، أى أنصحكم النصيحة بأمانة لا أغشكم ولا أخدعكم بل أدعوكم إلى سواء السبيل، وقد توقع استغرابهم من أن يكون منهم رسول، وقد ذكروا ذلك كما ذكروه من بعد لمحمد ﷺ، فالعقلية الوثنية الجاحدة واحدة، تختلف الأقوام، ولا يختلف المنزع.

قال لهم مقالة نوح:

﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾، وأنذرهم بالعذاب الشديد إن لم يؤمنوا، وذكرهم بما كان من قوم فرعون، ونعم الله تعالى فقال: ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾، أى يبين لكم عقاب الله، وإنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

ذكرهم بثلاثة أمور تدنيهم، وتجعلهم يشعرون بأن الله أنعم عليهم، وأعطاهم العبر ليعتبروا:

ذكرهم أولا - بأنهم خلفاء قوم نوح، وإن ذلك فيه عبرة لهم لأنهم كيف أغرقوا، ولم ينج إلا من حملته السفينة الربانية، وخلفاء جمع خليفة، أى أنهم خلفوهم فى سكنى أرضهم وأرسل هو إليهم، كما أرسل نوح من قبل.

وذكرهم ثانيا - بأن الله زادهم فى الخلق بصطة، أى قوة فى الجسم فكانوا عمالقة، وبصطة أصلها بسطة، وتكتب السين صادا، لاتصالها بالطاء، وهى ساكنة.

وذكرهم ثالثا - بنعم الله تعالى عليهم من زروع وثمار، فقال: ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ﴾ أى نعمه، واحدها «إلي» و«ألي».

ذكرهم بهذه الأمور الثلاثة رجاء أن يعتبروا ويتعظوا ويؤمنوا، وبذلك ينالون الفلاح والفوز؛ ولذا قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، أى لترجوا الفلاح والفوز بالصلاح فى الدنيا والنعيم فى الآخرة.

ولكنهم مع هذا التذكير الواعظ المرشد، لم يهتدوا، بل قالوا مجادلين: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

يستنكرون أن يجيئهم، ليدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده، و«نذر»، أى نترك ما كان يعبد آباؤنا. وهكذا يذهب بهم الغلو فى الكفر إلى درجة أن يعتبروا أمرًا نكرًا يستحق الاستنكار أن يعبدوا الله ويتركوا ما كان عليه آباؤهم، وهكذا قال المشركون، عند قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠)﴾ [البقرة] أنذرهم هود بعذاب شديد فتحدوه أن ينزله، وقالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ تحدوا هودا أن ينزل الله العذاب الذى هددهم به، وطلبوا من نبيهم أن ينزله كأن الأمر بينهم وبينه، وذلك للاستمرار على كفرهم وجحودهم، إذ إنهم لا يعتبرونه مرسلا من الله تعالى، ولقد وقع بهم ما استعجلوه، وقال لهم قبل وقوعه: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾.

وقد أنزل الله ـ تعالى ـ بهم عذابين أحدهما «الرجس»، وهو الضلال الذى أدى إلى هذا الكفر، و«غضب الله» وهو وحده عذاب من الله، وسيؤدى إلى العذاب الذى نزل بهم فى الدنيا والآخرة وإنه لقريب؛ ولذا: ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾.

وقد اشتمل كلام هود ـ عليه السلام ـ على أمور ثلاثة هى إشارات بيانية.

أولها ـ قوله: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ فهذا استفهام توبيخى على ما وقعوا من عبادة أشياء لا تنفع ولا تضر.

ثانيها ـ أنها لا وجود لها فى ذاتها إلا أن تكون أحجارا، ليس لها إلا أسماؤهما الباطلة التى سموا بها

ثالثها ـ أنه ما أنزل معها بحجة تسوغ عبادتها، أو قوة فيها تكون سلطانا لها.

وما كان من بعد هذا إلا العقاب، فنزل بهم عذاب ساحق أهلكهم الله تعالى، وأنجى الله تعالى هودا ومن معه من المؤمنين؛ ولذا قال تعالى: ﴿ **فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا** ﴾ وترى التشابه التام، بين ما لقى النبى محمد ﷺ من المشركين، وبين ما لقى نوح، وهود من قبله - عليهم الصلاة والسلام - وإن ذلك يجعل النبى ﷺ يصبر، ويحمل التبعة، وشدائدها فإن تلك سنة الله مع الدعاة، والذين يدعونهم، وما كنت بدعا من الرسل.

بيد أن الله تعالى أهلك المجرمين الذين يعصون الأنبياء، أما قوم محمد ﷺ فإنه - سبحانه - أمهلهم ليكون من أصلابهم من يعبد الله، وليجاهدهم على الحق هو ومن اتبعه إلى يوم الدين.

من قصة صالح - عليه السلام

نذكر من قصص الأنبياء فى هذا الموضع، ما قصه الله تعالى فى هذه السورة الكريمة، ونترك بقية قصص الله تعالى فيها إلى موضعها، وبمجموع ما يذكره سبحانه يكون خبر النبى من الأنبياء، ولكنه مفرق فى السور، كل جزء منه فى موضع عبرته، وإرادة مغزاه.

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ
مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن
رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ
فِي أَرْضِ اللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾
وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ
فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ

ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن
قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ
أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ
مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ
ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ
أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ
جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ
رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾

كان بعث صالح بعد هود، وكانت ثمود خلائف لعاد، قال الله تعالى:

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾، أى أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا، كما كان لعاد أخوهم هود، وذكر الأخوة فى هذا المقام فيه إشارة إلى أنه واحد منهم قد ربط بينهم برباط الأخوة، وكذلك كان يبعث الله تعالى لكل أمة رسولا منهم، كما بعث محمدا ﷺ من أنفسهم.

قال صالح لقومه: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾. هذه دعوة التوحيد، وهى دعوة النبيين أجمعين ودعوة الفطرة، ودعوة المنطق العقلى.

ولقد أردف دعوته إلى الله، ببيان أنه مرسل إليهم من الله تعالى، ومعه البينة الدالة على إيمانه؛ ولذا قال لهم: ﴿ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾، أى معجزة

مبينة من ربكم دالة على رسالته، هذه البينة هى: ناقة لكم آية، أى دليل على الرسالة، ويظهر أنها كانت لها أوصاف خاصة تميزها عن غيرها، قال بعض الناس: إن الله تعالى خلقها من حجر صلد، ولكن لم يثبت ذلك بسند صحيح عمن بين القرآن للناس، ولم يرد بسند صحيح شيء عن أوصاف هذه الناقة، ولكنها على أى حال كانت مميزة عندهم معروفة بشخصها لديهم، ولذا قال لهم: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أى: فاتركوها تأكل.

وأردف نبى الله صالح - عليه السلام - يبين لهم العبرة من أسلافهم عاد، ونبيهم هود - عليه السلام - قال لهم: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ أى اذكروا أنه جعلكم خلفاء لهؤلاء الذين كانوا أقوياء وطغوا، ورأيتم ما آل إليه أمرهم، من العذاب الذى نزل بهم جزاء عصيانهم، وسكنتم فى مساكنهم الذين ظلموا فيها أنفسهم، وقد بوأكم فى الأرض وثبتكم، وجعلكم مستمتعين مترفهين، فجعلتم من سهل الأرض قصورا بنيتموها، ونحتم الجبال فجعلتم منها بيوتا، وذلك أعلى درجات الترفة فى المسكن قصور فى السهول، وبيوت فى أكناف الجبل، فكانت لكم الوقاية من البرد والحرور.

وإذا كنتم تمكنتم من ذلك، فاذكروا آلاء الله تعالى ونعمه، وقوموا بحق شكرها، ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ لا تطغوا وتظلموا، فيؤدى ذلك إلى فساد، ولذا قال: ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، العثى والعثو، لغتان فى مصدر عثى، وهو الفساد، والمعنى لا تفسدوا فى الأرض ويستمر فسادكم حتى تكونوا مفسدين، وقوله مفسدين حال دالة على استمرار الفساد، هذا قول صالح - عليه السلام - وهو كلام يتضمن الدعوة الرفيقة الحكيمة إلى عبادة الله تعالى وحده، والتذكير بنعمه تعالى عليهم، وتحذيرهم من الإفساد، والاستمرار عليه بالإشراك والظلم وترك أمورهم فوضى، لا ضابط من دين ولا خلق.

وهنا نجد الكبراء وأشرافهم الذين يعارضـونه، والضعفاء هم الذين يتبعونه، ويتوجه الكبراء بالاستعلاء على المستضعفين، وقد قال تعالى عنهم:

﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ﴾ فيه أن قوله السامى: ﴿ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ﴾ بدل اشـتمـال، والمعنى أى قـال الملأ للمـؤمنين، وسبق بـقوله تعـالى: ﴿ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا ﴾ للإشارة إلى أن المجيبين هم الضعفـاء، وكذلك يسارع الضعفاء لاتباع النبيـين، لسلامـة فطرتهم، وعدم وجود الأهواء التـى توجب الإعراض، ولأنهم يرون فى الأوامـر النبـوية مـا يرفع الظلم عنهم، ولأنهم أقـرب إلى الحق دائمـا، فالمساكين أقرب إلى الاستجابة، وكـذلك كان أتباع محمد الأولين من أمثال بلال، وصهيب، وآل ياسر، وغيرهم من العبيد والفقراء.

قال المستكبرون مـن ثمود قوم صالح للمستضـعفين المؤمنين: ﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ كأنهم مستنكرون ذلك منهم، ويسـخرون منهم، فرد عليهم المؤمنون الرد القـاطع الحاسم قـائلين: ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ أكدوا إيمـانهم بالتعبير بالجملة الاسـمية، وبـ«إن» وبالقصر إذ قدموا ﴿ بِمَا أُرْسِلَ بِهِ ﴾، وهذا يفيد القصر أى أنهم يؤمنون به، ولا يؤمنون بالشرك، فلا يؤمنون بغير ما أرسل به.

وقال المسـتكبرون يحسبـون أنهم يغرونهم بتقليـدهم وحكى الله تعالى ذلك عنهم بقوله:

﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) ﴾ وقد أكدوا كـفرهم، كما أكد المؤمنون إيمانهم، وفى هذا إيماء إلى أنهم يجب أن يتبعوهم؛ لأنهم أهل القوة، ولكنهم لم يفـعلوا وإن آذوهم. استرسل المستكبـرون فى غيهم فأخـبر الله عنهم فقال: ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) ﴾.

تحدى هؤلاء صالحا، وتحدوا معه ربهم، أمرهم بالحفاظ على الناقة لأنها ناقة الله، فشرفها بالنسبة إليه سبحانه، وأمرهم بأن يجعلوا لها شربا ولهم شرب معلوم، وأن يتركوها تأكل فى أرض الله، فعقروها، أى ضربوا قوائمها وذبحوها وتحدوا نبى الله أن يأتيهم بالإنذار، إن كان من المرسلين، وعتوا: أى استكبروا بذلك التحدى.

وعظهم صالح أقوى الوعظ، وأبغه، فلم يتعظوا وتحدوه، فنزل بهم ما أنذرهم به فى الدنيا فأخذتهم هزة أرضية، زلزال شديد، فالتصقوا بالأرض، وهذا معنى قوله تعالى فى أمرهم: ﴿**فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ**﴾ أى الهزة الشديد بالزلزال، ﴿**فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ**﴾، أى هدمت مبانيهم، والتصقوا بالأرض، ميتين إلى يوم يبعثون.

وانتهت مهمة صالح بهذا التبليغ الحكيم، والنهاية المحتومة التى انتهوا إليها بتحديهم رسولهم وربهم، وقال صالح متأسيا، آسفا، ولذا قال تعالى عنه: ﴿**فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ**﴾ أى أعرض عنهم، ﴿**وَقَالَ**﴾ مخاطبا من بقى أو مخاطبا من مات، ولصق بالأرض كما خاطب محمد ﷺ أهل القليب من قتلى بدر(١)، قال لهم صالح: ﴿**يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ**﴾ بغلبة أهوائكم، واستكباركم، وعتوكم وفسادكم.

---

(١) عن ابْن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: اطَّلَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَهْلِ الْقَلِيبِ فَقَالَ: "وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقا" فَقِيلَ لَهُ: تَدْعُو أَمْوَاتًا؟ فَقَالَ: "مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لا يُجِيبُونَ". رواه البخارى: الجنائز- ما جاء فى عذاب القبر (١٣٧٠).

لوط - عليه السلام - وقومه

قال تعالى فى هذه القصة فى هذا الموضع، وقد كان لوط فى عصر إبراهيم، وله قرابة، وما بينه وبين إبراهيم نؤجله للبيان القرآنى فى موضعه.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

كان قوم لوط، أفحش الأقوام العربية فجورا، وانحرافا وإسرافا، فكانوا مع إشراكهم قد انحرفوا عن الفطرة وشذوا عنها؛ ولذا كان أول ما واجههم به نبى الله لوط أن ذكر لهم تلك الجريمة البشعة التى شذوا بها عن الفطرة، والإنسانية، والأخلاق العربية.

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَلُوطًا ﴾ مفعول لفعل محذوف، تقديره واذكر لوطا، وهو فى هذا يذكر مساوئ الشرك وأهله، فإذا أضلهم عبادة غير الله فهو انحراف فى الفكر والنفس يؤدى إلى أعظم الانحراف فى العمل: ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾، وذكر قومه يدل على أنه ليس دخيلا بينهم، بل هو من أسرتهم وجماعتهم، ولكنهم انحرفوا عن الإنسانية، قال لهم: ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن

﴿الْعَالَمِينَ﴾ الفاحشة: الأمر الزائد زيادة فاحشة بعيدة عن كل معقول، ما سبقكم بها أحد من البشر أى اخترعتموها لانحراف نفوسكم وعقولكم عن حكم الفطرة، فارتكبتم فاحشة لم يقع أحد من الناس قبلكم، وفسرها بعد ذلك الحكم القاسى الذى يليق بهم وأمثالهم من شواذ بنى الإنسان ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ أكد لوط - عليه السلام - فعلتهم النكراء، بـ «إنّ» وباللام. يأتونهم أى يضعون فيهم ما يوضع فى النساء، وعبرّ بالرجال لبيان مخالفة الفطرة بوضع ما هو للنساء فى الرجال، وهذه شناعة لا حدود لها، ويظهر أنها كانت معروفة عند اليونان والرومان ولكن ليست شائعة؛ ولذا وجد خالد بن الوليد عند فتح الشام مثل هذه فأرسل إلى خليفة رسول الله أبى بكر - رضى الله عنه - يخبره بأنه رأى عجبا، رأى الرجل يفترش الرجل كما تفترش النساء، فسأل عن هذه الحال، فاستشار الصحابة فى حكم هذه الحال والحد الواجب.

وقوله: ﴿شَهْوَةً﴾ مفعول مطلق لمحذوف تقديره، تشتهونهم شهوة من دون النساء، أى يكون منكم ما يكون للنساء، وهو فى الفطرة. وهذا بيان لعكسهم للفطرة، إذ يشتهون ما ليس موضع شهوة لانحراف نفوسهم وعقولهم، وإنسانيتهم، مُضْرِبا عن ذلك بالترقِّى فى أوصافهم بقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ وبل هنا للإضراب ببيان أوصافهم، فوصفهم بأنهم مسرفون فى البهيمية، إذ أتوا ما لا ترضى به البهائم، ومسرفون فى التفحش إذ خرجوا على سنة الإنسانية، ومسرفون فى هذه العادة الشاذة، فهم يُعرِضُون عن النساء، ويطلبون الرجال، ومسرفون فى أفعالهم، فإن من يشيع فيهم هذه الحال تكون كل أفعالهم شذوذا فى شذوذ، كما ترى الآن فى أمريكا، وما يشبهها ممن تقع فيهم هذه الحال، حتى إنه فى إنجلترا يعترف بأن للشاب أن يتزوج الشاب، وتحترم هذه العلاقة الشاذة.

ومعنى شيوع هذه العادة الشاذة فى قوم لوط، أنها كانت تقع ولا تستنكر، وكان ذلك كثيرا، وكان أكثرهم لا يتناهى عن ذلك، ولا يعده سبة وأمرا غير جائز، ويروى الحسن البصرى أنهم كانوا يفعلون ذلك فيمن يجيئون إليهم من

الغرباء. فهل أجاب قوم لوط بالارتداع؟ بل طلبوا إخراجه؛ لأنه يتطهر؛ ولذا قال تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢)** ﴾.

استمكن ذلك الفساد، حتى أصبحوا لا يطيقون أن يكون معهم من يتطهرون عن فعله، وقد أجابوا شاعرين بأنهم ليسوا على خير، وأنهم فى دنس لا يلتئم معهم من يتطهرون عن إثمهم، و«القرية» كما علمنا هى المدينة التى يجتمع الناس فيها.

أنزل الله تعالى على هولاء الذين رضوا بهذه المهانة الإنسانية، وذلك الشذوذ عذابا مهينا، بينه فى آية أخرى نستعيرها من موضعها فى هذا الموضع، فقد قال تعالى مبينا الحال عند نزول العذاب فى الدنيا: ﴿ **قَالُوا** ﴾ أى الملائكة ﴿ **... إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)** ﴾ [هود].

قال تعالى: ﴿ **فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤)** ﴾.

وهكذا عاقبهم الله تعالى بجعل أرضهم عاليها سافلها، وبحجارة نزلت عليهم؛ ولذا قال مالك إمام دار الهجرة: إن عقوبة الذين عندهم هذا الشذوذ الرجم؛ لأن الله تعالى رجمهم، سواء أكانوا محصنين أم كانوا غير محصنين. وقال أبو حنيفة: إن هذا فساد ولم يوجد له حد منصوص عليه فتكون عقوبته التعزير، وقال الشافعى: عقوبته كعقوبة الزنى فى حالتى الإحصان وعدمه، وروى عن على وأبى بكر وتبعهما بعض المجتهدين: الإحراق بالنار؛ لأن أبا بكر عندما أرسل إليه خالد كتابه الذى أشرنا إليه استشار الصحابة، فأشار علي بحرقهم بالنار فارتضاه.

وإن هذا الشذوذ نراه الآن ذائعا فى إنجلترا حتى أباحته قوانينها بالنص عليه، ويشتهر بينهم، حتى صار زواجا بين رجلين، كما أشرنا.

وهو فى أمريكا شائع ذائع، حتى رأينا من يشغل مناصب سياسية يقبض عليه متلبسا لا بأنه فاعل، بل على أنه مفعول به؛ ولذا شاعت عندهم السياسة المتبجحة التى لا تخجل قط!!

من قصة شعيب عليه السلام

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ
مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن
رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟
ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ
إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ
(٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا
وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُوا۟
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ
مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟
فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ (٨٧)

بعث الله ـ سبحانه وتعالى ـ بعد لوط صالح إلى مدين، أخاهم شعيبا، ولم يذكر فى القرآن الكريم معجزته التى ثبت بها أنه رسول الله، ولكن عدم ذكرها لا يدل على عدم وجودها، فإن كل نبى بعث ومعه ما مثله آمن عليه البشر، فما بعث نبى إلا ومعه حجته، وإن لم يكن من حجة فلا بد أن يطالبوه بها، وإذا كان القرآن الكريم لم يذكر معجزته فلم يذكر أنهم طالبوا بمعجزة دالة على الصدق ولكنهم جحدوا واستكبروا.

وما ذكره القرآن الكريم من رسالة شعيب ـ عليه السلام ـ يدعو على أنه دعا إلى ثلاثة أمور:

أولها ـ عبادة الله تعالى وحده، وهى لب الرسالة، وهى أول ما نادى به: ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ ناداهم: ﴿**يَا قَوْمِ**﴾ للإشارة إلى ما يربطهم به من نسب، وأنهم أولى بتصديقه، وأولى الناس بأن يَصْدُقُهم ولا يكذبهم، وقال: ﴿**قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ أى معجزة مبينة رسالته، وهذا دليل على أنه كانت مع هذا الرسول الأمين معجزة ملزمة تحدى بها، وعجزوا عن أن يأتوا بمثلها.

ثانيها ـ أنه جاء بإصلاح اقتصادى اجتماعى، ومظهره الوفاء بالكيل والميزان فى التعامل: ﴿**فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ**﴾ ومقتضى هذا الأمر بالوفاء فى الكيل والميزان فى كل ما يتعاملون فيه، ومقتضاه ثانيا ألا يبخسوا أى لا ينقصوا الناس أشياءهم أى حقوقهم، فلا يأكلوا أموال الناس بالباطل، ولا يرشوا الحكام، ولا يمطلوا الدين وهم قادرون، وأن يعطوا كل ذى حق حقه كاملا غير منقوص، ولا ممطول، ولا يكون تطفيف فيه على وجه ولا تصعيب فى الأداء.

ثالثها ـ ألا يفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها؛ ولذا قال ـ عليه السلام ـ فيما طلبه إلى قومه: ﴿**وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم**

مُّؤْمِنِينَ﴾ ، أى بالحق؛ ذلك أن إعطاء الناس حقوقهم كاملة غير منقوصة خير لكل جماعة؛ لأنها متوادة متراحمة، ويكون أداء الحقوق قوة لها فى نفسها وأمام أعدائها، فلا قوة لأمة إلا بإقامة العدل والقسطاس، وإعطاء كل ذى حق حقه من غير وكس.

ولقد كان منهم من يقطعون الطريق، ويحاربون أمن الناس، ومنهم من كان يمنع الذين يريدون أن يستمعوا إلى شعيب، وكان منهم المكاسون الذين يفرضون من أنفسهم ضرائب على الناس ليمروهم إلى مأمنهم، ففى سبيل منع الفساد، والتهيئة للقضاء على المفسدين قال لهم ـ عليه السلام: ﴿وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ «الصراط» الطريق المعبَّد المستقيم الذى يسير فيه السابلة وينتقلون فيه من مكان إلى مكان أو قرية إلى قرية أو مصر إلى مصر، لا تقعدوا فيه توعدون المارة، وتقطعون الطريق، وهذا هو القعود الحسى والمنع الحسى الواضح الأذى، وهناك منع معنوى، وهو ليس لمنع المارة وقتلهم، أو سرقتهم، ولكنه للصد عن سبيل الله بمنع الناس من الإيمان بالله وحده، يصدون بهذا عن سبيل الله تعالى من آمن ويبغونها عوجا أى معوجة لا استقامة، وهم يغفلون الأمرين بكل صراط مستقيم، يقطعون السبيل على المارة، ويصدون عن سبيل الله.

ويصح أن يفسر «الإيعاد» بإيذاء المؤمنين وتعذيبهم أو التهديد بتعذيبهم، كما يتبين من بعد. وصد من آمن، يراد به منع من هم بصدد الإيمان من أن يدخلوا فيه، وإيذاء من آمنوا، وإيعادهم بالعذاب الشديد. ويذكرهم بأمرين، بنعمة الله تعالى عليهم إذ كثر جمعهم بعد قلة، والثانية بعاقبة من أفسدوا من قوم نوح، وعاد وثمود، فقال لهم:

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ﴾ أى جعلكم كثيرين، ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ الذين أفسدوا فى دينهم، فأشركوا مع الله تعالى غيره، وأفسدوا

فى جمعهم، فلم يوفوا الكيل والميزان، وبخسوا الناس أشياءهم وأكلوا أموالهم، وظلموهم.

وقد استجاب ناس من قومه، فآمنوا، وعصى آخرون فجحدوا، فذكر القسمين، وأن الله تعالى هو الذى يحكم بينهم، فقال لهم ـ عليه السلام: ﴿ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) ﴾، وهذا فيه تبشير للذين آمنوا؛ لأنهم يعبدونه وحده؛ لأنه لا يمكن أن يحكم لصحة ما يقول الذين يشركون معه حجارة، وهو إنذار للذين لم يؤمنوا؛ لأنهم يشركون ويعبدون غيره وهو ـ سبحانه وتعالى ـ وحده خير الحاكمين، وأفعل التفضيل ليس على بابه، لأنه لا خير فى حكم سواه، فهو أحكم الحاكمين.

كان هذا ما بين شعيب وقومه، فماذا كان جواب قومه ؟، قد أشار ـ سبحانه ـ فى النص الكريم السابق إلى أن منهم من آمن، ومنهم من لم يؤمن وكان رأس من لم يؤمنوا، كبراؤهم، وقد قال تعالى فى موقف هؤلاء الكبراء:

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ
وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ
كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم
بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ
اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ
بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) وَقَالَ الْمَلَأُ
الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ
(٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١)
الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا

كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾

هكذا كانت دعوة شعيب الهادية المرشدة بعد أن بين لهم الحجة الدالة على رسالته، ولقد آمن بعضهم، وأعرض غيرهم، فماذا كان جواب قومه الذين يقودون الشرك منهم؟.

قال رؤساؤهم المسيطرون: ﴿**لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ**﴾، وإليك ذكر القرآن الكريم لأقوال هؤلاء: ﴿**قَالَ الْمَلأُ**﴾ أى الكبراء وسادتهم، ووصفهم - سبحانه - بأنهم الذين استكبروا وكذبوا بآيات الله تعالى وصموا آذانهم عن الحق: ﴿**لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا**﴾ أكدوا بالقسم بأن يخرجوهم من قريتهم، أو يعودوا فى ملتهم، مؤكدين الإصرار على الخروج بالقسم، أو الإصرار على العودة فى ملتهم.

فأجابهم شعيب نبى الله - عليه السلام - موبخا بأن ذلك ضد الحق، والحرية فقال: ﴿**أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ**﴾، أى تخرجوننا على الرغم منا، ولو كنا كارهين فعلتكم لأنها غير الحق، وأنها الباطل الذى لا ريب فيه.

ويؤكد لهم شعيب أن مطلبهم العود لن يكون أبدا، فهما حاولتم الإيذاء والتهديد فيقول - عليه السلام - لهم: ﴿**قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا**﴾ «قد» هنا للتحقيق كما هى فى كل استعمالات القرآن الكريم، سواء أدخلت على فعل ماض أم دخلت على فعل مستقبل ﴿**افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا**﴾ أن نعود إلى ملتكم أى كذبنا على الله تعالى كذبا مقصودا متعمدا إذا عرفنا الحق، واعتنقناه، ثم كفرناه، وأكد - عليه السلام - هذا المعنى بقوله: ﴿**بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا**﴾ أى بعد نجاتنا، وإخراجنا من الضلال إلى نور الهداية، ثم قال - عليه السلام - مؤكدا عدم العود: ﴿**وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا**﴾ أى ليس لنا بعد أن

رأينا النور وسرنا فيه، أن نعود إلى الظلمة، ﴿إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ أى إلا أن يريد ربنا وخالقنا لنا الضلالة بعد الهداية، ويكون ذلك بعمل منا، ثم صرح - عليه السلام - بالتفويض لله تعالى فقال: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ وعلما هنا تمييز محول عن مفعول، ومعناه وسع ربنا علم كل شىء، فهو يعلم ما كان وما يكون، وما هو كائن ثابت، ولذا لا يتوكل إلا على الله ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ وذلك رد لتهديدهم بالإخراج، فالله ربنا عليه توكلنا، ولن يغلبه تهديدكم، فإذا كنتم تستعينون بجبروتكم وكبريائكم، وغطرستكم، فنحن نعتمد على الله، ومع ذلك تذهب رحمة النبوة إلى تجنب العداوة والاتجاه إلى الله تعالى الذى يعلم الحق كله: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾، أى افصل بيننا وبين قدمنا بالحق، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾.

وقد ذكر - سبحانه - تهديد الكافرين للمؤمنين بالإيذاء فقال تعالى عنهم:

﴿وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٩٠)﴾.

انتقلوا من التهديد العام لشعيب ومن معه إلى تخصيص الذين اتبعوه بتهديد خاص، وواضح أنه للمؤمنين الذين آمنوا بالله تعالى استجابة لدعوة شعيب ليستغلوا ضعفهم، وهم الكبراء، مؤكدين خسارتهم بسبب اتباعهم لشعيب، وأكدوا تهديدهم بالقسم بما يقسمون به وبقوله ﴿إِنَّكُمْ﴾، واللام فى قوله تعالى: ﴿لَّخَاسِرُونَ﴾ ويترتب ذلك على الاتباع، بذكر الإيذاء باعتبار الخسران نتيجة للخسران.

وما كان الله ليذر المشركين يهددون المؤمنين، ويصدون عن سبيل الله، وهى سبيل الحق، ولذا أنزل تعالى بهم ما أوعدهم، وما تحدوا به شعيبا، أن يأتى به إن كان من المرسلين؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١)﴾.

الفاء هنا فاء السببية، أى أن ما قبلها سبب لما بعدها، أى أنه بسبب تكذيبهم وكفرهم وصدهم عن سبيل الله تعالى أخذتهم الرجفة، وهى زلزال شديد، هز ديارهم هزا عنيفا فتهدمت على أهلها، وصاروا مقيمين أمواتا تحت ركامها، وذهب تعالى بهم كافرين، وكأنهم لم يكونوا فيها، ولم يقيموا بأرضها؛ ولذا قال تعالى:

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢)﴾ لم يغنوا أى كأن لم يكونوا مقيمين فيها، فقد قطع دابر القوم الظالمين، وذلك بسبب تكذيبهم لشعيب وصدهم عن سبيل الله، وإن الله تعالى غالب على كل شيء.

لقد تهدد الكافرون المتغطرسون المؤمنين بأن يكونوا خاسرين إن استمروا على اتباعهم لشعيب، فذكر ـ سبحانه ـ أن أولئك المكذبين هم الخاسرون حقا وصدقا، فقد خسروا أنفسهم فكفروا وضلوا، وخسروا ديارهم فهدمت، وخسروا يوم القيامة، فكانوا حطب جهنم، وهم فيها خالدون.

وماذا كان من أمر نبى الله تعالى الذى كذبوه وهو شعيب فقال سبحانه: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أى أعرض عنهم عندما علم أنهم قد أصروا على الكفر إصرارا، وآذوا المؤمنين، أعرض عنهم ونزل بهم ما نزل، وعند إعراضه، قال لهم ـ عليه السلام ـ عند نزول البلاء عليهم، وقد توقعه فوقع ﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ كيف أحزن على قوم كفروا، وأصروا على كفرهم حتى ماتوا وهم كافرين.

وفى هذا الكلام من نبى الله شعيب إشارة إلى محبته لهم ابتداء، وطلب الهداية لهم، ولكنهم كفروا، فلم يحزن عليهم، وكان غريبا أن يحزن عليهم مع موتهم كافرين.

سنة الله فى الأمم

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ
أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ
بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ
ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩٥﴾
وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ
يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا
وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا
ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ
مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ
يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم
بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿١٠٠﴾
تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم
بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ
كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدۡنَا
لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾

بعد أن قص الله ـ سبحانه وتعالى ـ قصص نوح، وهود وصالح ولوط، وشعيب، أخذ يبين ـ سبحانه وتعالى ـ سنته فى الناس، ومعاملتهم لأنبياء الله،

وكيف يختبرهم بالشر والخير فتنة، وذكر هذه السنة سبحانه، ليعتبروا بالقصص، ويروا ما يصلح حالهم، وما يحملهم على السير فى طريق الخير، وليعلموا أن الله تعالى يختبر بالنعمة، ويعاقب من لا يشكر، وليروا بأعينهم سنة الله تعالى فى الظالمين، وما ينزله من عقاب دنيوى يحل بديارهم فوق العقاب الأخروى الذى يستقبلهم، فقال:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ﴾.

هذا بيان الله تعالى للأمة من الأمم إذا بعث فيها نبيها الذى يدعوها إلى الإيمان بالله تعالى وحده، ويدعوها إلى الخير الذى يصلحون به فى الدنيا والآخرة، ويقدمون على الله يوم القيامة بالعمل الصالح، فيجزيهم جزاءه وفقا لما قدموا، فيقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ﴾ أى فى مجتمع أمة من الأمم ﴿مِّن نَّبِيٍّ﴾ من هنا بيانية، والمعنى وما أرسلنا فى مجتمع كبير، فالقرية المجتمع الكبير الذى يقرى إليه الناس ﴿إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أى أن الله تعالى لا يرسل نبيا مؤيدا بالمعجزات، إلا يوطن النفوس به ـ عليه السلام ـ ببيان قدرة الله تعالى، فيأخذها ﴿بِالْبَأْسَاءِ﴾ وهى شدائد الفقر والحرمان والتعرض للطغيان من الحكام، ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾، وهى ما يصيب الأبدان من مرض شديد مختلف الأنواع، لا قبل لهم به، وإذا مسهم الضر دعوا الله تعالى، وضرعوا إليه، كما نزل بأهل مكة عند مقدم النبى ﷺ إلى هذا الكون الإنسانى.

وأَخْذ الله تعالى للقرى التى بعث فيها النبى بذلك؛ لأن الشدة تُولِّد فى قلب من عنده استعداد للإيمان الاتجاه إلى طلب النجاة، فتخضع النفس للحق إذا دعيت إليه، فإنه حيث الضعف أو الشعور به تنبع منابع الإيمان، وتتجه النفوس إلى الديان، وإن الله تعالى يختبرهم بذلك رجاء أن يضرعوا ويخضعوا، ويذلوا له ـ سبحانه وتعالى ـ وحده، فإنه وحده الخالق لكل شىء الذى يلجأ إليه عند هذه الشدائد.

ولذا قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ أى ليرجو الضراعة والخشوع لله تعالى، وحيث كانت الضراعة، كان انفتاح القلب للإيمان؛ لأن الضراعة أعظم العبادة، كما قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ... (٥٥)﴾. يختبرهم سبحانه من بعد الشدة بالنعمة؛ ولذا قال سبحانه:

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾.

﴿ثُمَّ﴾ هنا لبيان التراخى والافتراق بين ما كانوا عليه من بأساء أصابت أحوالهم، وضراء أصابت أجسامهم وما اختبرهم من نعماء عمتهم، فالفارق المعنوى والحسى بينهما عظيم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ أى جعلنا بدل السيئة فى مكانها الحسنة، والسيئة هى ما يسوء وهى هنا البأساء والضراء، لأنهما تسوءان، والحسنة هى هنا الخير الذى يفيض به عليهم بعد الشدة، وصور الله زيادة الخير بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَفَوْا﴾، أى كثروا، ونموا وزادوا، فالعفو يطلق بمعنى الكثرة وبمعنى اليسير، وبمعنى درس، وقدم.

وهى هنا بمعنى كثروا ونموا، وزاد الخير فيهم، فعندئذ لا يذكر الجاحدون أنه فضل الله تعالى ونعمته، وأنه إذا كانت الشدة توجب الضراعة، فالنعمة توجب الشكر، ولكنهم بدل أن يشكروا، يقولون ذلك لنا وهو ما كان لأسلافنا وآبائنا مستهم الضراء والسراء، وهكذا دواليك، نسوا الله، وحسبوها أمرا ينزل بهم خيرا بعد ضر، وإذا كانوا ضرعوا فى الشدة، فقد كفروا بالنعمة وهم يمرحون، وكذلك شأن الجاحد دائما كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ... (١٢)﴾ [يونس] كما قال تعالى فى شأن النفس الإنسانية: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١)﴾ [هود].

وهكذا شأن الكافر، تبئسه الشديدة، وتطغيه النعمة، فهو غير ثابت النفس، منكر لحكم الله تعالى، وأما المؤمن فقلبه مطمئن بالإيمان ثابت قار؛ ولذا قال ﷺ: «عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له»(١) فالنعم والنقم للمؤمن سواء في خيريتها؛ النقم تصقله وتهذبه والنعم يحس فيها بوجوب شكر المنعم، ولقد قال ﷺ: «إن المؤمن إذا أصابه السقم ثم أعفاه الله منه كان كفارة لما مضى من ذنوبه وموعظة له فيما يستقبل، وإن المنافق إذا مرض ثم أعفى كان كالبعير عقله أهله ثم أرسلوه فلم يدر لم عقلوه، ولم يدر لم أرسلوه»(٢).

إن الجاحدين أذلتهم المحنة، وأطغتهم النعمة وكفروا بالنبى الذى بعث لهم، ولم تُجْدِ فيهم الشديدة ذاقوها، ولا النعمة فاضت عليهم، بل زادتهم النعمة جحودا، وقالوا هكذا كان آباؤنا مستهم الضراء والسراء، فسنة الأولين تجرى علينا، ونسوا الله تعالى فأنساهم أنفسهم، وبينا هم يرتعون فيما أنعم الله عليهم لاهين عنه - أنزل بهم عذابه فقال: ﴿ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾.

«الفاء» هنا لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى أنه بسبب أنه لم تُجْدِ فيهم الشدة، وأغرتهم النعمة، عاقبناهم، فأخذناهم إلى الهلاك، بالرجفة أو بريح فيها عذاب شديد، أو جعلنا قريتهم عاليها سافلها، وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل، وكان ذلك بغتة، لم يتوقعوا وقوعه، بل جاءهم فجأة وهم لا يشعرون، أى لا يحسون بأنه سينزل بهم، وإن الفجاءة تكون شديدة على من لا يؤمن بالله تعالى؛ لأنها تأخذه وهو فى مرحه وعبثه، وذلك بخلاف المؤمن؛ ولذا قال ﷺ: «موت الفجأة راحة للمؤمن، وأخذه أسف للكافر»(٣).

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) ﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه الدارمي، وأبو داود بزيادة فيه، وراجع الفتح الكبير ١/ ٣٣٢، ومشكاة المصابيح ٢/ ٦١٢.

(٣) رواه أحمد: باقى مسند الأنصار- باقى المسند السابق(٢٤٥٢١).

إن الكون يسير على سنة الله وعلى نواميس محكمة يدبرها منشئ الكون وخالقه، والقيوم عليه بحكمته وإرادته المختارة، فهو الفعَّال لما يريد.

وإن من سنته - سبحانه وتعالى - أن يوزع الأرزاق علمى من يستحقها فى علمه المكنون، وهو العزيز العليم، وفى هذا النص الكريم يتبين أنه - سبحانه - يعطى القرى حسب إيمانها وتقواها، ويشير إلى أنه إن أمهل الظالمين قاطع عليهم خيرهم جزاء ما اكتسبوا.

يقول سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا ﴾.

﴿ وَلَوْ ﴾ يُسمُونها امتناع لامتناع، وهى داخلة على فعل مقدر تقديره: لو ثبت أن أهل القرى - أى المجتمعات الكبيرة - التى يقرى إليها الناس آمنوا بالله حق إيمانه، واتقوه حق تقاته لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض، وقوله تعالى: ﴿ لَفَتَحْنَا ﴾ جواب، و«اللام» دالة على الجواب، والمراد - والله أعلم - أنزلنا عليهم من السماء، وأنبتنا لهم النبات فى الأرض، على أن يكون ذلك بركة، أى خيرا كثيرا ناميا، فالظاهر إنزال المطر، وإنبات ثمرات كل شيء من عند الله تعالى.

والتعبير بـ«فتحنا»، تعبير مجازى، شبه فيه نزول المطر وانهماره بفتح السماء والأرض فشبه نزول المطر مدرارا من السماء عليهم بفتح باب يدخل فيه الناس أفواجا أفواجا، وذكر قوله تعالى: ﴿ عَلَيْهِم ﴾ قرينة على أنه المطر، وإن ارتباط الأرزاق بالتقوى والإيمان ذكره الرسل فى دعواتهم إلى أقوامهم، فقد قال نوح لقومه: ﴿ ... اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) ﴾ [نوح] وقال هود لقومه: ﴿ ... ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ... (٥٢) ﴾ [هود] ورسل الله تعالى لا يخدعون أقوامهم، بل إنهم الصادقون المبعوثون رحمة للعالمين. ولقد قال فى يونس وقومه: ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨) ﴾ [الصافات]، وقال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) ﴾ [يونس].

وهكذا نجد النصوص الكريمة تفيد أن مقت الله تعالى من الضراء، والشدائد تنزل بالعاصين كما قال سبحانه، وكما جرى على ألسنة أنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

ولقد رأينا ذلك رأى العين، فقد وجدنا رجالا كفروا بأنعم الله وساقوا أممهم إلى الفجور، والعصيان، فنزل عليهم غضب الله تعالى فى خذلان مستمر، ونكسة وراء نكسة.

وإنا لا نقول مقالة بعض الفلاسفة الذين يربطون الأخلاق الإنسانية بنظام الكون، فيقولون: إذا فسدت الأخلاق، اضطرب الكون، وانعكس الفساد فى سير الأفلاك، وفى السماء وفى الأرض، وهى الفلسفة الكونفوشيوسية.

لا نقول ذلك، ولكنا نرى أن الله تعالى ربط الكفر والعصيان بهلاك الأمم، وربط فتح الأرزاق بالتقوى والإيمان، لنؤمن به، ولكن لا نغالى مغالاة الفلاسفة.

ويجب أن ننبه إلى أن المؤمنين قد يختبرون بالشدائد والمكاره ليتبين صبرهم، ويحق جزاؤهم، ولذا قال تعالى: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ** (١٥٥)﴾ [البقرة].

فإن ذلك الاختبار للقوى المؤمنة فى تقواها، لا يمنع أن الله تعالى ينزل عليهم خيرهم، والعاقبة للمتقين.

بين الله تعالى أن أهل القرى لو آمنوا لفتح الله عليهم بركات من السماء والأرض، ولكنهم لم يفعلوا؛ ولذا قال: ﴿**وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ الاستدراك هنا من الوعد بفتح السماء والأرض بالبركات، فهم كذبوا ولم يؤمنوا، ولم يتقوا، فحق عليهم العذاب الشديد فى الدنيا والآخرة؛ ولذا قال تعالت كلماته: ﴿**فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ «الفاء» هنا لترتيب ما بعدها على

ما قبلها، أى بسبب هذا التكذيب أخذناهم بالرجفة أحيانا، وبإمطار الحجارة أحيانا، وبعذاب من رجز أليم.

وذلك بسبب ما كانوا يكسبون من كفر وجرائم إنسانية، واغترار بالحياة الدنيا.

ومع توالى العبر، ووقوع عذاب الله بالكافرين يفترون بالدنيا، ولا يحسبون حسابا لعذاب الله النازل بهم فى الدنيا؛ ولذا قال تعالى: ﴿ **أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ** (٩٧) ﴾ «الفاء» عاطفة ترتب ما بعدها على ما قبلها، وهى داخلة على ألف الاستفهام، ولكن قدمت ألف الاستفهام؛ لأن الاستفهام له الصدارة، والاستفهام إنكارى لإنكار الوقوع، أى ما آمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون.

إن الذين تأخذهم الدنيا بغرورها ينسون بأس الله تعالى، ولو كانوا يذكرونه ما غفلوا، وما نسوا أنه قادر على كل شىء، وفى أى وقت، فليس لهم أن يأمنوا أنهم مستمرون فى غيهم من غير أن يبغتهم الله ببأس شديد.

فهذا الاستفهام تنديد لهم بفعلتهم، فهم لا يأمنون هذا، ولكن حالهم توهم أنهم آمنوا، فالله تعالى ينبههم إلى أنه أمان الغافل الذى لايعرف أنه يعاند الله.

و﴿ **بَأْسُنَا** ﴾ أى الشدة التى تنزل بهم عقابا على جحودهم، وعبرة لغيرهم تجيئهم ليلا، وتجيئهم ضحى، والله محيط بهم، وقوله تعالى: ﴿ **بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ** ﴾ يشير إلى أن بأس الله تعالى يأتيهم وهم فى غفلتين، غفلة الليل والبيات فيه حيث الأمن والدعة والقرار، والغفلة الثانية ـ غفلة النوم حيث يكون النعاس قد غشيهم، وهم لا يفكرون فيما ارتكبوه من عناد وجحود لله تعالى الذى لا يغفل عنهم أبدا.

فهل أمنوا هذا، وهم لا يملكون شيئا بجوار قدرة الله تعالى: وإذا كانوا لا يأمنون بأس الله ﴿بَيَاتًا﴾، فإنهم لا يأمنونه ضحى؛ ولذا قال تعالى: ﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨)﴾.

«الواو» واو العطف دخلت على همزة الاستفهام، ولكن قدمت الهمزة فى السياق؛ لأن الاستفهام له الصدارة، والاستفهام هنا إنكارى، بمعنى نفى الوقوع مع التوبيخ، أى لا يؤمنون أن بأس الله وشدته التى تكون نكالا وعبرة، أن يأتيهم ضحى، فى النهار وضحاه، والشمس ساطعة تبين كل شىء وتكشفه، ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ سمى الله تعالى عملهم لعبا، واللعب هو العمل العابث الذى لا يقصد ضرا ولا نفعا، سمى - سبحانه وتعالى - عملهم لعبا لأنهم ما داموا لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر يكون عملهم كاللعب؛ لأن القصد الطيب هو أن يكون طاعة لله تعالى، وقد عصوه، فإن العمل الذى يخرج عن اللعب هو عمل الخير، ولا خير فى معصية، ولا خير يكون من جاحد، يشرك مع الله أحدا.

وإن الآيتين الكريمتين تفيدان أولا أنهم فى غفلة لاهون لايشعرون بعاقبة أعمالهم، وآثامها، وإنهم عمون غير مدركين. وتفيدان ثانيا أن بأس الله تعالى يأتيهم من حيث لا يحتسبون ليلا وهم نائمون، أو نهارا وهم يلعبون، وإن ذلك بتدبير الله تعالى، ولذا قال بعد ذلك:

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩)﴾.

«الفاء» هنا عاطفة يترتب ما بعدها على ما قبلها، لأنهم إذا كانوا لم تجدهم النقمة ولا النعمة، وبأس الله يأتيهم فى مأمنهم ليلا وهم نائمون، وضحى وهم يعملون عملا لا جدوى فيه فهو لعب أو كاللعب، فهم لا يأمنون.

ومكر الله تعالى تدبيره المحكم الذى يُنزل به العذاب السريع على من يستحقه، والأمن والطمأنينة لمن يستحقه، وهو الحكيم، وقد فسر بعض المفسرين بأنه العذاب، أو البأس الشديد، وهو تفسير بالنتيجة، إنما هو من الله التدبير

المحكم. والمكر قسمان: مكر سيئ وهو الذى يكون من الأشرار، ونتيجته شر، ومكر طيب وهو رد مكر الأشرار، ونتيجته طيبة، ولقد قال فى شأن قريش فى تدبيرهم للنبى ﷺ أن يثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه: ﴿ **وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** (٥٤) ﴾ [آل عمران] أى أنهم كانوا يدبرون لإيذاء النبى ﷺ، ويمكرون المكر السيئ الذى لا يحيق إلا بأهله، والله تعالى يدبر لنبيه نجاته منهم، وهجرته من أرضهم من غير إخراج، حتى يكون الفصل بينه وبينهم.

والاستفهام إنكارى بمعنى النفى والتوبيخ، فهم لا يأمنون مكر الله، ويوبخهم الله - سبحانه وتعالى - لأنهم غفلوا عن الحق، ونسوا تدبير الله تعالى المهلك لهم جزاء بما كسبوا، وبما كذبوا بآيات الله؛ لأنهم يأمنون مع ذلك العذاب الشديد ينزل بهم، وهذه غفلة شديدة، وعدم اعتبار بما كان لمن قبلهم؛ ولذا ختم الله - سبحانه وتعالى - الآية بقوله: ﴿ **فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾.

إن المؤمن يتفطن دائما لمقام قدرته تعالى بجوار قدرته، وإذا عصى يتوقع عذاب الله تعالى من عصيانه، ويتخوف ولا يأمن أن تنزل به العقوبة، وإن المؤمن لفرط حسه بمعصيته، وإيمانه بالله يخاف دائما عذابه، ولا يرجو إهماله وقد عصاه؛ ولذا كان من المبادئ الصوفية (تغليب) الخوف على الرجاء؛ لأن الخوف من غير إسراف على النفس من ورائه التقوى، والرجاء من غير أسبابه يفضى إلى الغرور، ووراء الغرور الاستهانة بأمر الله تعالى ونهيه.

والكافر يعصى، ويرى عصيانه حسنا، وينسى قوة الله، وأنه يعاند ويحارب أمره ونهيه، ناسيا أنه يعاند القوى القادر القهار الذى هو غالب على كل شىء، وأنه لا إرادة لمخلوق بجوار إرادته - سبحانه وتعالى - وعلى ذلك يأمن عذاب الله وتدبيره، وإن ذلك هو الخسران المبين؛ ولذا حكم الله تعالى بأنه: ﴿ **فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾.

وحكم الله تعالى بخسارتهم، مؤكدا الخسارة بالقصر، وأن الخسارة مقصورة عليهم، وخسارتهم فى أنهم خسروا أنفسهم فليسوا فى حال عقلية مدركة،

وخسروا أنفسهم بالاستمرار على غيهم، وخسروا بالعذاب الأليم الذى ينزل والله سبحانه هو الذى يقى المؤمنين شر الغفلة والنسيان وأمن عذاب الله، وجعلهم فى فطنة دائمة واعتبار بأمر الله ونهيه، وهو الهادى إلى سواء السبيل.

وقد حذر الله تعالى الذين يرثون الأرض بأسه الذى ينزل بهم؛ ولذا قال: ﴿ **أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ** (١٠٠) ﴾.

الواو عاطفة، وقدمت عليها همزة الاستفهام؛ لأن الاستفهام له الصدارة فى الذكر، وإن هذه عبرة القصص من ذكر أولئك الذين ذكر الله ـ تعالى بيانه ـ ذكرهم، وورث هؤلاء أرضهم.

والاستفهام إنكارى، للنفى، وهو حض للذين يرثون الأرض بعد أولئك الذى أنزل الله تعالى بأسه بهم، ومن الذين ورثوا الأرض أهل مكة، فهو تحريض لهم على النظر فى العبر من هذا القصص الذى ذكر فيه مآل الكافرين من قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وقوم شعيب، وآثارهم بجوار الأرض التى يقيمون فيها، فعليهم أن ينظروا ويعتبروا إن كانت لهم أبصار يعتبرون بها وعقول يهتدون بها.

وقوله تعالى: ﴿ **أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا** ﴾، معناه يتبين لهم، وقرئ بقراءة مشهورة متواترة: «أولم نهد»، بالنون بإسناد الهداية إلى الله، ومعنى القول الكريم على هذا: أولم نبين لهم هادين مرشدين معتبرين بالقصص، أن لو نشأ أخذناهم بذنوبهم، وأنزلنا عليهم البأس الذى نزل بغيرهم.

و«هدى» يتعدى بنفسه، فى المفعول الأول، وباللام أو «إلى» فى المفعول الثانى، فيقال: هديناه إلى الخير، أو: إلى الطريق، أو للطريق.

وهنا فى قوله تعالى: ﴿ **أَوَ لَمْ يَهْدِ** ﴾ فيه نهدى، أو يهدى متضمنا معنى يبين، وذكر لفظ الهداية للدلالة على أنه بيان للهداية الحقة.

وقوله تعالى: ﴿أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ و«أن» هنا مخففة من الثقيلة أى أنه الحال والشأن لو نشاء أصبناهم أى أنزلنا عليهم بأسنا، كما أنزلناه على من سبقوهم بسبب ذنوبهم التى ارتكبوها من شرك ومحاربة لله تعالى، وكفر بالمبادئ التى جاء بها النبيون معاندين جاحدين، وأسباب الصدق ثابتة، وطرائق الهداية قائمة.

وقوله تعالى: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾، أى الحال أننا نطبع على قلوبهم بخاتم الضلالة فلا يسمعون. وإن مغزى الكلام السامى فى هذا أن المشركين الذين كانوا يستعجلون العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ... ﴿٦﴾﴾ [الرعد] إنهم كانوا يستعجلون العذاب، وساق لهم الله من قصص الكافرين وما نزل بهم، ألم يبين لهم؟! وقد استدرك ـ سبحانه ـ فقال: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾، أى أن الله طبع على قلوبهم، فهم لا يسمعون القصص الحق، ولا يحاولون أن يدركوا مغزاه، وختم الله على قلوبهم، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، وفى هذا المعنى قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾ [طه]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام].

قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

الخطاب فى قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَى﴾ للنبى ﷺ؛ لأنه ﷺ قد جاء بالحق الذى يتفق مع الفطرة، فكان يجد الكفر والإنكار والعصيان ومعاداة الله ورسوله،

فتذهب نفسه عليهم حسرات، حتى قال الله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)﴾ [الشعراء]، فالله تعالى يبين له العبرة فى قصص النبيين، وأن أقوامهم كفروا بهم وعاندوهم، حتى جاء أولئك بأسُ الله، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، إنما أنت منذر، ولكل قوم هاد.

والقرى: المجتمعات الكبيرة التى قص الله تعالى قصصها من أخبار قوم نوح، وعاد وثمود، وآل مدين، وقوم لوط.

وقوله تعالى: ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا﴾ نتبع أخبارها بالقصص، والأنباء: هى الأخبار ذات الشأن الخطر التى تفيد العظة والاعتبار، والاطمئنان للنبى ﷺ.

هذه أخبارهم أو أنباؤهم ذات الشأن ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾، أى بالأدلة المعجزة الموجبة للإيمان، وأكد ـ سبحانه ـ أن الرسل جاءتهم بالبينات بقوله ﴿وَلَقَدْ﴾؛ لأن اللام للتأكيد، وقد للتأكيد، والتأكيد ليس لمجىء الرسل، إنما هو لمجيئهم بالبينات التى فيها الحجج القاطعة التى لا يرتاب فيها طالب للحق، وإنما يرتاب المرتابون الذين لا يؤمنون بحق، ولا يطلبون الهداية، ولا يخضعون للحق إن بدت أماراته، وظهرت بيناته.

وقد وصف الله تعالى حال الذين يصلون، ويختم على قلوبهم بالباطل، فذكر أنهم مبادرون بالإنكار والتكذيب من غير أن يفحصوا ما جاء به الرسول من أدلة فإذا سبق الإنكار والتكذيب تشبثوا بهما وقد حجبوا عن أنفسهم النور وكلما أمعنوا فى التعلق بما سبق إلى نفوسهم ازدادوا جحودا ولا تزيدهم الآيات إلا كفرا، وإعناتا.

ولذا قال تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ «الفاء» للإفصاح إذ تفصح عن شرط مقدر، وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾، أى ما كان من شأنهم أن يؤمنوا وقد سارعوا إلى التكذيب بمعنى قبل أن يفحصوا بميزان الفعل،

ويثبتوا، ولقد قال في ذلك ابن كثير في تفسيره والباء في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَذَّبُوا﴾ للسببية أي ما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد لهم، حكاه ابن عطية رحمه الله، وهو متجه حسن.

وذلك لأن أول خاطر يتعلق بالنفس، ويلتصق بالفكر، فيكون التخلي عنه محتاجا إلى جهد لا يستطيعه إلا الصابرون، وإن أولئك الذين يكذبون لأول وهلة من غير نظر يصلون إلى الحق بمجهودين أولهما الانخلاع مما سبق إليهم، والثاني التماس البينات بلب سليم، وفكر مستقيم قد خلا مما يعوقه.

ولقد بين تعالى أن هذا طريق إغلاق القلوب عن نور الحق ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾.

أي كهذه الحال التي رأيتموها من المسارعة بالتكذيب لأول وهلة والاستمساك بأهدابه، ليطبع الله على قلوب الكافرين، فلا يدخلها نور الحق، فهم سلكوا الباطل مسارعين إليه، قبل أن يتبعوا، فلما جاءهم الحق بالبينات فكان القلب قد أغلق على الباطل، فضلوا وما أضلهم الله، إذ هم الذين سدوا الطريق وإن أولئك الذين طبع الله تعالى على قلوبهم قد أفسدوا فطرتهم بإصرارهم على التكذيب، وخالفوا العهد الذي أخذ الله على بني آدم من ظهورهم ذريتهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢)﴾.

الفطرة الإنسانية توجب الإيمان، لو استقامت على طريقتها من غير وسوسة الشياطين؛ ولذا قال ﷺ كما في صحيح البخاري ومسلم: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبوه يهودانه، وينصرانه ويمجسانه»(١).

وروى مسلم بسنده أن رسول الله ﷺ قال: يقول الله تعالى: «إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم»(٢).

(١، ٢) سبق تخريجه.

وإن الله تعالى عهد إلى بنى آدم من ظهورهم ذريتهم أن يؤمنوا بالله، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) ﴾ هذا عهد الله على بنى آدم، وهم فى ضلال آبائهم، قبل أن يصلوا إلى أرحام أمهاتهم، وهذا يدل على أن الإيمان المذعن هو استجابة للفطر، ومن يكفر بالحق إذ جاءه إنما يحيد بالإنسان عن طريق الفطرة المستقيمة.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢) ﴾ الذين فسقوا عن أوامر الله تعالى ونواهيه التى جاء بها النبيون وكذبوا ليس لهم من عهد، يوفون به، حتى عهد الفطرة التى فطرهم الله تعالى، فهم خالفوا العهد الأول، وخالفوا كل عهد عاهدوه، حتى انحلت نفوسهم انحلالا، و«مِنْ» هنا لاستغراق النفى، أى ما وجدنا لأكثرهم أى عهد يحترمونه، وينفذونه، وأولها وأقواها عهد الفطرة الذى أخذه الله تعالى فى الأصلاب.

وإذا كانوا لا عهد لهم، وخالفوا فطرة الله التى فطرهم، فهو فاسقون خارجون عن قضايا العقل البديهية؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ إن هنا هى المخففة من الثقيلة وضمير الشأن اسمها، وقوله تعالى: ﴿وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾، والمعنى إنه أى الحال والشأن وجدنا. . .

واللام فى قوله ﴿لَفَاسِقِينَ﴾ لام التوكيد، واقعة فى خبر إن.

ونجد هنا حكم الله تعالى العادل، يحكم بالكثرة الغالبة، لا بالكلية الشاملة، فمنهم صالحون ومنهم فاسقون وإن الأمم لا توصف كلها بالفسوق؛ لأنها تفسق كلها، إنما توصف بالفسق؛ لأن كثرتها الغالبة المسيطرة، الفاسقة فهى الظاهرة البارزة، وهى المسيطرة على الجماعة، وهى التى توجد رأيا عاما فاسدا، يسوده الشر، ويختفى فيه الخير والله رءوف بالعباد.

موسى وفرعون وبنو إسرائيل

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ
فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾
وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾
حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم
بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ
جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ
عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ
لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ
عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾
قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ
بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ
لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ
لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن
نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟
أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾
۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا
يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟
هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾
قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾

ذكر الله تعالى أخبار الأنبياء الذين أشرك أقوامهم، ودعوة الأنبياء لهم فذكر نوحا وقومه، وما نزل بهم، وذكر عادا، ونبيهم هود، وثمود ونبيهم صالحا، وذكر لوطا وقومه وما كانوا عليه من مفاسد لم يسبقهم بها أحد من العالمين.

وقد بين ـ سبحانه وتعالى ـ سنته فى هداية الأقوام، وكيف يضلون.

ومن بعد ذلك ذكر موسى ـ عليه السلام ـ وأنه لقى أكبر طاغية فى عصره، وإن وجد من حاول محاكاته من بعده ومع موسى وفرعون ذكر لأحوال بنى إسرائيل، بعد أن أنقذهم موسى ـ عليه السلام ـ من فرعون الذى كان يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم.

وإن هؤلاء فى الزمن بعد من سبق ذكرهم فى القرآن من نوح إلى شعيب، وأكثر أولئك كانوا فى البلاد العربية. وموسى ـ عليه السلام ـ نشأ فى مصر، وبعث فى أرض مصر، وتقدم هو وأخوه هارون لدعوة فرعون.

قال تعالى:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) ﴾.

والتعبير بـ﴿ ثُمَّ ﴾ يدل على بعد الزمان والمكان ما بين هؤلاء الذين جاء ذكرهم من الأنبياء، وموسى ـ عليه السلام ـ فأولئك كانوا قبله بقرون وكانوا فى أرض العرب، وموسى فى أرض مصر، وأولئك خاطبوا أقوامهم فى صحراء أقرب إلى البادية ولم تعرف لهم حضارة، وموسى ـ عليه السلام ـ كان فى أرض فرعون، وفيها ملك ثابت، وإن لم يقم على الإيمان، وكانت مصر ذات علوم وفنون.

ويقول الله تعالى فى بعث موسى: ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ فلم يكن إلى فرعون وحده، بل كان إليه وإلى الكبراء من قومه فذكرهم مع أنه إذا ذكر جاءوا فى ذكره ضمنا، ونقول: إن كل ذى طاغوت لا يكون طاغوته من شخصه وحده،

بل منه ومن حاشيته فهم مطبوعون بطابعه، يزينون له ما يفعل، ويحسنونه ويؤيدونه، ويشجعونه، ولولا أنهم حوله ما طغى وبغى، أو ما كان طغيانه بالمقدار الذى وصل أو يصل إليه كل طاغية، ولقد رأينا بعض الطواغيت فى هذا الزمان يتخذ حاشية تعينه على الظلم، بل تطغى عليه وهو لا يشعر، رأينا ذلك رأى العيان؛ ولذا خص الله تعالى ملأ فرعون بالذكر، وسنجد من سياق القصص الحكيم فى أمر فرعون أنه ملأه كان يعاونه بالقول والفعل، ويسكت عن جرائمه من اعتراض دائما.

وقد نسب الله تعالى الظلم إليهم مع فرعون ولم يفرده بالظلم، فقال: ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ فلم يكن الظلم من فرعون وحده بل كان منه ومن هذا الملأ والشعب مأكول فيهما ومأسور بظلمهما.

والظلم يشمل ظلم الرعية، ويشمل الظلم فى العقيدة بالشرك، وإن الشرك لظلم عظيم، والظلم يؤدى الفساد، فالشرك فى العقيدة إفساد للعقل والفكر والنفس بالضلال، والضلال أبلغ أنواع الشرك، والشرك ينشأ من الأوهام ويؤدى إلى كثرة الأوهام والضلال، ألم تر أنهم كانوا يعبدون العجل، والظلم يؤدى إلى فساد الرعية بالخنوع والطاعة للظالم، والرضا بالهون، وفقد الحرية والاندفاع فى الظلم، حتى ساغ له أن يقول لهم: ما أريكم إلا ما أرى.

ولذا قال تعالى بعد أن ذكر الظلم: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ انظر يا محمد مآل الذين أفسدوا فى الأرض بشركهم وإرهاقهم للرعية، واستبدادهم إنى عاقبتهم أن أغرقوا فى اليم، ولم يُجْد فرعون وملأه أن قالوا: آمنا برب هارون وموسى.

فلننظر إلى ما كان من فرعون أكبر طاغية فى عصره، ويحاكيه الطغاة فى كل عصر، وقد كان فرعون جاهل فى أرض مصر، وسام أهلها سوء العذاب، لجنونه وحمقه وجهله، حتى أرداها فيما لم تترد فيه فى أى عصر من عصورها.

أيد الله موسى بمعجزات كثيرة، عدها الله تعالى آيات، أيده بالعصا، وباليد البيضاء من غير سوء والسنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم آيات مفصلات، وكانت هذه الآيات الكثيرة لإمعانهم فى الضلال والطغيان، وكانت كل آية تأتى فى حال تناسبها، ووقت الحاجة إليها.

موسى يواجه فرعون

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) ﴾.

«الواو» عاطفة على ﴿ بَعَثْنَا ﴾ وهذا الكلام تفصيل لمعنى بعثة موسى، واجه فرعون ومعه أخوه كما جاء فى سورة طه، وكما سيجيء فى هذه، وتقدما إليه، وهما فى وجل بَشَرى ﴿ قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) ﴾ [طه]، والطاغى يرهب لأنه لا قيد من حق أو دين أو إيمان أو خلق، ولكن الله أيدهما، فقال: ﴿ ...لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) ﴾ [طه].

تقدم موسى إذ علم أن الله معه، وهو فوق الجبارين قاهر فوقهم.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) ﴾ يُشعر فرعون بالخوف من الله كما شعر أولا بالخوف من فرعون حتى ثبته الله وإشعاره بالخوف بذكر الحق، وهو أنه رسول من الذى خلق الناس ورباهم وهو المسيطر على كل من فى الوجود، ولست المسيطر.

وقد جابه فرعون بأنه يخاطبه بالحق الذى لا ريب فيه، وأنه يطالب برفع الظلم عن قومه بنى إسرائيل، قال له: ﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ ﴾.

﴿ حَقِيقٌ ﴾: فعيل من الحق، وفيها مبالغة فى التمسك، أى حقا علىَّ ألا أقول على الله إلا الحق، أى أنه حق علىَّ ألا أقول على الله إلا أنه رب العالمين، وإنى لا أعترف لك بشيء مما تدعيه لنفسك، وهذه مجابهة لمن هو فى حال فرعون

الذى يقول: ما علمت لكم من إله غيرى، فهذا صدع بالحق من غير أى مواربة، وقال ذلك موسى، ولم ينتظره حتى يطلب دليلا، بل قال له موقنا مفحما ﴿**قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ أى قد جئتكم بحجة مثبتة مبينة من ربكم، وخاطبة بقوله: ﴿**مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ سالبا منه كل معانى الربوبية، وقاصرا لها على رب العالمين، فهو ربى وربكم، وأول طلب طلبه رفع الظلم القائم، وابتدأ بما يخصه فقال: ﴿**فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ الفاء للإفصاح عن شرط، أى إن كنت قد أرسلت إليك وملئك من رب العالمين، فأطلق معى بنى إسرائيل من الذل الذى هم فيه.

ونلاحظ بعض إشارات بيانية:

الأولى ـ أنه حصر الألوهية فى الله تعالى وأن فرعون ليس بإله، وأن الله وحده هو الإله الحق فى قوله: ﴿**أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ**﴾ أى فى ألوهيته وعدله، ولتكن أنت ما تكون.

الثانية ـ أنه أفرد الخطاب لفرعون فى قوله: ﴿**يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ**﴾، وجمع فى قوله: ﴿**قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ**﴾، وأفرده فى قوله: ﴿**فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾؛ لأنه بسلطانه أسرهم، وما كان ملؤه له إلا معاونين.

وجمعهم فى قوله: ﴿**قَدْ جِئْتُكُم**﴾؛ لأن الدعوة الموسوية، لهم جميعا، ولأنهم أعوانه المشاركون له فى ظلمه.

الثالثة ـ الإشارة بالرسالة بأنه حق عليه أن يبلغها صادقا.

أجابه فرعون، ولم يفرط عليه أو يطغى، كما توقع أولا؛ لأنه أحس برهبة الحق، ولأن الله تعالى ألقى فى روع فرعون مع طغيانه رهبة الحق، أجابه بقوله: وقال: ﴿**إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾، إن ذا الجبروت إذا وجد فى الموقف ما يرهبه اتزن فى القول ولم يشطط فى الخطاب، ومعنى قوله: إن كنت قد جئت إلينا بآية أى معجزة تدل على أنك رسول، أو على صحة ما تدعو

إليه، فأتنا بها إن كنت من الصادقين، أى إن كنت من زمرة الصادقين الذين لا يفترون ولا يكذبون.

أمر الله تعالى موسى ـ عليه السلام ـ بأن يجيب جوابا عمليا، والعمل يبهت الظالمين، ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) ﴾.

معجزتان من المعجزات التسع التى أيد الله تعالى بها موسى أمام فرعون الطاغية، لعنه الله تعالى، ولعن كل من حاكاه من الطغاة، أما المعجزة الأولى فإنها العصا، ألقاها على الأرض، وهى فى يده عصا، فإذا هى على الأرض حية تسعى، أذهلت وأفزعت، وأثارت العجب.

هذه هى الأولى، وقد جاءت على الصورة من انقلاب العصا إلى ثعبان واضح مبين، وذلك فى مظهره قريب من السحر، وقد كان أهل مصر اشتهروا بالسحر، فالسحرة علماؤهم وكهنتهم، وما كان فرعون يحكمهم إلا بهذه الأوهام، وكذلك تجد كل الطغاة الذين حاكوه وخصوصا فى مصر يستجلبون كل من يتعاطون السحر، ويقربهم زلفى إليهم.

وعلم السحرة ـ كما سيأتى ـ أن ما جاءهم به ليس من السحر فى شىء، وإن بدا أمام الناظرين فى صورته.

الآية الثانية أو المعجزة الثانية أنه أدخل يده فى جيبه، فخرجت من الجيب ساطعة البياض لها نور، ولها لمعان من غير سوء أى مرض، كما قال تعالى: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ... (١٢) ﴾ [النمل]، ولقد روى عن ابن عباس أنه قال: «كان ليده نور ساطع يضىء ما بين السماء والأرض» أفزع فرعون هذا، ولم يتكلم، ولكن تكلمت الحاشية متحدية الحق والرسالة، تأكيدا لولائهم، وتشجيعا على الإنكار، وما كان لهم أن يتكلموا عن بياض اليد؛ لأنه فوق ما يستطيعون وما يعلمون، وحاولوا إبطال الأولى؛ لأنها تتعلق بنوع علم

عندهم، والعاجز عن رد الحجة يختار ما يحسبه أسهل فى الاستدلال عليه فيتكلم فيه، ليشغل الناس عن الآخر، وما كان كلام الحاشية إلا تشجيعا على الإنكار؛ لأنهم طوعوا أنفسهم على العيش بجوار فرعون، وقد رأوا دعوة موسى اعتداء على ألوهية فرعون فى زعمهم، فسبقوه إلى الإنكار مرضاة له، حتى رموه فى البحر ﴿ **قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠)** ﴾.

اتجهوا إلى الإنكار سابقين فرعون ليرضوه بالإنكار، وليشجعوه عليه، ولم يكتفوا بتحريض فرعون، ورميه بأنه ساحر عليم بل أرادوا أن يحرضوا الشعب عليه، وشعب مصر، وإن لم يحافظ على حريته أمام فرعون يحافظ على استقلال بلده، وأن يحكمه حاكم من أهله، ولو كان مستبدا عاتيا، كفرعون؛ ولأن موسى من بنى إسرائيل جاءوهم من قبل استقلالهم، فقالوا يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره، أى يفقدكم استقلالكم ويجعلكم محكومين ببنى إسرائيل كما حكمكم الهكسوس من قبل، ﴿ **فَمَاذَا تَأْمُرُونَ** ﴾ أى فماذا ترون وتأمرون يا معشر شعب مصر، فدبِّروا الأمر لهذا الذى يفقدكم استقلالكم، وعبر عن ذلك بقولهم: ﴿ **يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ** ﴾ لأن من يفقد استقلاله يخرج عن أرضه، ويتسلمها من يتحكم فيها؛ إذ يتصرف فيها كما يشاء، وليس لأهلها فيها أمر، كأنما أخرجوا.

قال الممثلون للشعب، أو الحاضرون منه، أو من جمعوهم ليؤلبوهم على موسى وهارون.

﴿ **قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢)** ﴾ كان أمرا خطيرا ذلك الذى جاء به موسى، فما تعودوا من فرعون إلا أن يأمر وحده، وأن يطاع وحده فيجىء من تربى فى بيته، ويصدع بين يديه بالحق، يشتد فى دعوته، ويجىء الكبراء يحرضون الشعب عليه، إنه لأمر خطير، لم يعهدوه، فلابد أن تجمع الجموع لتتضافر فى مقاومته.

قال الذين تكلموا من الشعب: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أى أرجئه وأخاه، أى أجِّله زمنا، وأرجه أصلها أرجئه وأخاه، فحذفت الهمزة تخفيفا، والضمير يعود على موسى، وأخوه هو هارون الذى أرسله الله تعالى مع موسى ردءا له يعضده، ويعاونه - أرجئهما، أى أجلهما، وقيل أرجه بمعنى احبسه، ونرى أن ﴿أَرْجِهْ﴾ معناه تأجيلهما، والشعب أو المتكلمون باسمه كانوا أقرب إلى النصفة؛ لأنهم يقولون لا تتعجل أمرهما حتى ندرسه مع أهل الخبرة بالسحر ﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ﴾ فى قرى مصر وريفها ﴿حَاشِرِينَ﴾ اسم فاعل من حشر، أى جامعين الناس لمشهد عظيم، ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ أى يأتوك بالمهرة من السحرة، وعبروا عن أولئك المهرة، ووصفوا أيضا بأنه ﴿عَلِيمٍ﴾ مدرك لألاعيب السحر، وأفانينه، فهو عمليا ﴿سَاحِرٍ﴾، وعلميا ﴿عَلِيمٍ﴾ ذو خبرة.

تضافرت القوى ضد موسى وهارون، إذ جابها فرعون بإنكار ألوهيته الموهومة، وحرض ملؤه الناس بأنهما يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما.

اجتمعوا، وهنا يظهر الفرق بين المخلص الذى يدعو إلى الحق احتسابا لله، والمأجور الذى يطلب الأجر. استمع إلى قول الله تعالى عنهم: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾ ساوموه قبل أن يبدأوا يطلبون الأجرة، وهذا يدل على أنه مع طغيانه كان أرفق من بعض الحكام الذين حاكوه وساروا على طريقته.

أجابهم فورا: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾ ذكر لهم أجرين أحدهما مادى، والثانى معنوى، أما الأول فهو المال الذى طلبوه، والثانى رضاه عنهم، وتقريبه لهم؛ ولذا أكد الثانى بالجملة الاسمية وبـ «إنّ» وباللام، وبإدخالهم فى ضمن المقربين منه كحاشيته.

وهذا ما كان يعبر فى حكم الملوك بالرضا السامى، وعبر به الطغاة فى كل زمان بعد أن ضمنوا الأجر والقرب، إن كانوا هم الغالبين. اتجهوا إلى موسى فى المشهد العظيم:

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) ﴾.

خيَّروا موسى ـ عليه السلام ـ بين أن يبدأوا هم بإلقاء حبالهم وعصيهم أو ما معهم بشكل عام، وبين أن يلقى هو، وقدموا التخيير بإلقائه هو عن إلقائهم لأنهم يريدون أن يعرفوا ما عنده من طاقة ويقدروا طاقتهم على قدرها، وعبروا عن إلقائه بقولهم: ﴿ إِمَّا أَن تُلْقِيَ ﴾ معبرين بالفعل استهانة بإلقائه غرورا وتعصبا، وليرضوا فرعون بأنهم فوق موسى فى الحلبة، وعبروا عن أنفسهم بقولهم: ﴿ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴾ بالجملة الاسمية وتأكيدها بلفظ «نحن» وبقولهم «نكون»، وثوقا بأنفسهم وليثبتوا لفرعون أنهم الغالبون.

ولكن فطنة النبوة عند موسى جعلته يقدمهم عليه فى الإلقاء، ليعرف ما عندهم: ﴿ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) ﴾.

ألقوا حبالهم وعصيهم، والسحر لا يغير حقائق، فلا يجعل العصى والحبال حيَّات، ولكنه يؤثر فى الرائى فى نفسه؛ ولذا قال: ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ﴾ جعلوهم يرون غير الحقيقة، ﴿ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾ أى طلبوا رهبتهم بذلك السحر، وقد قلنا عند الكلام فى السحر: إنه نوع من استهواء النفس، والسيطرة عليها بحيث يجعله فى يد المستهوى، أو ما يعبر عنه بالتنويم المغناطيسى، فيغير إحساسها من محبة إلى بغض، ومن بغض إلى محبة؛ ولذلك قال الله تعالى عما يفعله الذين يسحرون: ﴿ ... يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ... (١٠٢) ﴾ [البقرة] فيغيرون حال المحبة بينهما بهذا الاستهواء.

فكل ما فعله السحرة الذين نازلوا موسى ـ عليه السلام ـ أنهم استطاعوا أن يموِّهوا على الأنظار، ويسحروا الأعين لا أن يغيروا حقائق الأشياء، فلم يجعلوا الحبل ثعبانا، ولكن العيون مسحورة، وأرهبوا الناس بعملهم وجاءوا فى هذا بسحر عظيم فى بابه الذى أتقنوه، إرادة الأجر من فرعون وإرضائه، ليكونوا من المقربين عنده.

عندئذ أثر الحس فى نفس موسى، وخاف ألا ينتصر، فأوحى الله إليه ﴿أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ ولقد صرح الله سبحانه فى آية أخرى بما أوجس فى نفس موسى خيفة فقال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ (٦٨)﴾ [طه].

فى وسط هذا المظهر السحرى، أوحى الله تعالى إلى موسى أن يلقى عصاه.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧)﴾، ألقى موسى عصاه، فإذا هى حية تسعى، وإذا هى تلقف وتبتلع حبالهم وعصيهم، ﴿تَلْقَفُ﴾ مضارع لقف بمعنى تلقم وتبتلع، وقد لقفت الحبال والعصى التى كان يراها الذين سحرت أعينهم حيات وأفاعى، وقد قال تعالى: ﴿تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾، أى ما يصرفون به أعين الناس كاذبين، وقد أطلق على الحبال والعصى، أنها ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾؛ لأنها مادة إفكهم وكذبهم وتمويههم، وتضليلهم.

وقد رأى السحرة أن هذا ما ليس بسحر؛ لأن يعلمون أن السحر لا يغير الأشياء، ولكن يموه على الأنظار، ولكن هذا يغير الأشياء، وليس تمويها على الأنظار، فأدركوا أن آيته تعالى حق، ولقد رأى بحس الأعين المستيقظة أن حبالهم، وعصيهم لا وجود لها، إذ ابتلعتها العصا.

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨)﴾.

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ أى ثبت وتبين وظهر، ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أى ظهر أنه كان باطلا، لا حقيقة، وأن آية الله فى العصا ثابتة لا ريب فيها.

وبدل أن يطلبوا أجرا وتقربا، غلبوا، وقال الله تعالى: ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩)﴾ غُلب أولئك السحرة، وعادوا صاغرين أذلهم الحق وغلبهم، وبعد أن كانوا يعتزون بسحرهم أحسوا بصغار الهزيمة يذهب بافتخارهم.

ولكنهم إذا كانوا قد خسروا المعركة، فقد ظفروا بما هو أعظم وهو الإيمان، إذ علموا أنها معجزة حقا وصدقا، وإن موسى وهارون صادقان بالبرهان والدليل، ولذا قال الله تعالى: ﴿ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) ﴾، أى ألقوا بأنفسهم خارين سجودا لله رب العالمين ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٢) ﴾، أى رب العالمين العاقلين، وذكر موسى وهارون على أنه ربهما لا للاختصاص به، بل لأنهما دعوا إليه.

فرعون يعذب السحرة الذين آمنوا

قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾

إن الطاغية لا يفكر إلا فى نفسه، ولا يحس بحق غيره إلا من زاوية استقامة الأمر لأهوائه وشهواته، لقد ثارت نقمة فرعون لأمور:

أولها ـ إنكار موسى ألوهيته.

ثانيها ـ تحديه بآياته، وكان يرجو ويتوهم أنه يقضى على موسى بحجته، فاستعان بالسحر والسحرة، فما أسعفوه بحجة، فكان الغلب عليه، فأثاره ذلك.

ثالثها ـ ثم كان من بعد ذلك أن من استعان لهم ليغلبوا موسى وهارون خذلوه.

رابعها ـ وأيدوهما، وآمنوا بهما، وتشايع بين الناس إيمانهم، فغلت بالشر نفسه، والمعاند لا تزيده الآيات البينات إلا كفرا، رأى فرعون ما رأى، فلم يؤمن؛

لأن نفسه لم تكن نفس مؤمن، بل طغى وبغى، وقد رأى ملكه يزول، وأوهامه تضمحل فطغى وبغى وآثر الملك والحياة الدنيا على الآخرة، واتجه إلى السحرة، يعذبهم، ويصب جام غضبه عليهم.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾.

يوبخهم على إيمانهم قبل إذنه، فالاستفهام إنكارى لإنكار الواقع، وإنكار الواقع توبيخ، وموضع التوبيخ أنهم آمنوا قبل أن يأذن لهم!!، وكان طاغوته قد سول له أنه ملك قلوبهم وألسنتهم فلا تتحرك إلا بإذنه، وقد رأينا ذلك من فرعون دونه عقلا، وفوقه طغيانا.

ولم يذهب إلى نفسه أنه حق أدركوه، وإيمانا صدقوا به موسى وهارون، بل حكم على أساس من وهمه أنه مؤامرة عليه، وهو الذى اصطفاهم واختارهم من بين رعيته وهم مختارون من الشعب فَموَّه على الشعب بباطله أنها مؤامرة عليه وعلى الشعب، فقال: ﴿ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ﴾، أى لتفرضوا على أهلها سلطانا غير سلطانها، فتفقد استقلالها، ولا تكون لها أرضها، ردف ذلك بالتهديد الشديد، والعذاب العتيد، قال: ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾، أى سننزل بكم عذابا تعلمونه بالعيان، لا بالبيان، و(سوف) هنا لتأكيد الكلام.

أصدر الحكم بخياله وهواه، لا بعقله والبرهان وهو أغلظ عقاب:

﴿ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) ﴾.

أقسم الطاغى بما يُقسم به عنده أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أى يقطع من جانب يدا، ويقطع من الجانب الآخر رجلا، وأقسم أيضا ليصلبنهم أجمعين، ولا يستثنى أحدا، وقد صرح فى آية أخرى بأنه يصلبهم فى جذوع النخل.

وهكذا يبتكر الطغيان هذا العقاب الشديد، روى الحسن البصرى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما: إن فرعون أول من عاقب بقطع اليد والأرجل من

خلاف والصلب. وقد كنا نقرأ ذلك ونعجب من أن يكون هذا من فرعون، ويرضى به الشعب المصرى، ولكن رأينا ما يقرب منه؛ من طاغية يحاكيه فى غير عصره، ورأينا من الشعب المصرى من يهلل ويكبر، ويعاون!!

هذا ما هدد به فرعون ونفذ واختص السحرة بذلك؛ لأنهم أول من تمرد عليه من الشعب، وخشى أن يسرى التمرد فشدد العقاب، وترك موسى وأخاه مؤقتا؛ لأنهما لم يكونا من المصريين، بل كانا من بنى إسرائيل، ومع ذلك سينتبه إليهم.

وماذا كان موقف من آمنوا عن بينة، وعرفوا الفرق بين السحر والمعجزة لقد قوى إيمانهم؛ لأن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب، سكن فيها، ولا يستطيع أحد ولو كان فرعون، ومن يحاكيه أن يخرجه من الصدور؛ لأنه وديعة القوى الجبار الرحمن الرحيم.

قالوا: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾.

﴿مُنقَلِبُونَ﴾ أى عائدون إلى ربنا، وهو القوى، فنحن قد لجأنا إلى ركن لا تقوى عليه أنت ومن معك ممن ألفناهم أتباع ظلم وظغيان، إنا عائدون إليه، وسيكون لنا النعيم الخالد، وهو يعوضنا من أذاك، وقد تحررت قلوبنا ورقابنا من طغيانك، يا من ألعن مَن فى هذه الأرض، ومعك من يحاكيك عن جهل (أو عن علم) فى غير عصرك.

ثم عللوا طغيان فرعون فقالوا:

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾.

أى ما أخذوا علينا إلا حقا، نقموه علينا هو أننا آمنا بالمعجزة أو هى من آيات الحق التى جاء بها موسى، وهى آيات ربنا.

وأعلنوا صبرهم على الأذى ضارعين إلى ربهم قائلين:

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ ربنا أفرغ علينا صبرا، أى أنزل علينا صبرا يملأ فراغ قلوبنا، وتوفنا مسلمين مخلصين لك يا رب العالمين.

الملأ من حاشية فرعون يحرضونه

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟
فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ
نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ
ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن
يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا
مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ
أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾

ذكرنا أن حاشية الطغاة لا تقف من الطاغى موقفا سلبيا، أو محايدا، بل إنهم يحرضونه مرضاة له، وطلبا لما ينفذه إجابة لهم، فهم لا يهمهم إلا أن يأخذوا منه ما يشبع نهمتهم، وليسوا مخلصين له يمنحونه النصيحة، إنما هم الممالئون له فى باطله، لم يكف الملأ والحاشية ما أنزله بالسحرة، أو ما هم أن ينزله بهم، بل نبهوه إلى موسى وقومه من بنى إسرائيل، وأرادوا اجتثاثهم من الأرض، قالوا محرضين:

﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ أى أتترك موسى وأخاه وقومه من بنى إسرائيل ومآل ذلك الترك أن يفسدوا فى الأرض بإشاعة التمرد عليك، والانتقاض على حكمك والخروج عليك، وذلك فساد أى فساد، فاللام فى قوله تعالى: ﴿لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ﴾ هى ما تسمى لام العاقبة، أى أتتركهم لتكون عاقبة الترك أن يؤلبوا الناس عليك، وينتفضوا على حكمك.

والاستفهام هنا إنكارى لإنكار الواقع، وهو بمعنى لا ينبغى لك أن تترك موسى وقومه يؤلبون عليك.

هكذا حرضوا فرعون على بنى إسرائيل ذلك التحريض الخبيث ليزدلفوا إليه، وكذلك الحاشية المفسدة تسبق إلى فكر الطاغى، ليتوهم إخلاصهم له، وما هم إلا الممالئون المنافقون الكذابون، ولم يكتفوا بالتحريض على بنى إسرائيل، بل علا التحريض إلى موسى، وجاءوه من جهة ما، فقالوا عن موسى: ﴿ **وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ** ﴾.

أى بتركك موسى، فيخرج عليك غير طائع لك، بل معاند، ومجاهر بالمخالفة وإنكار ألوهيتك، فى أول دعوته ويترك آلهتك، ولقد كان لأهل مصر عدة آلهة كبيرهم الإله رع، وقالوا: إنه يحل فى فرعون، وينتقل بينهم من سلف إلى خلف، والمعنى لا ينبغى أن تتركه وقد تركك بالخروج عليك، وعلى آلهتك المقدسة، وقال: إن الله واحد أحد.

استجاب فرعون الطاغى لهم، لأنها رغبته، وقد سبقوه إلى ذكرها، ممالئين مزدلفين إليه بالباطل. قال: ﴿ **سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ** ﴾.

قال سنقتل الأبناء ونترك النساء، وسمى تركه النساء استحياء لهن، وهو لا يحيى ولا يميت، تركهن ليكن جوارى وخدما فى البيوت، وأكد قدرته على ذلك وإذلاله لهم بقوله وإنا فوقهم، المسيطرون عليهم، الذين نستطيع استئصال من نحب، وإبقاء من نحب أذلاء مقهورين، وهنا قد يسأل سائل: لماذا ترك موسى وهو الرأس فلم يقتله وأخاه؟.

ونقول فى الإجابة عن ذلك: إن موسى تربى فى قصر فرعون، فكان له فيه أولياء، وكان على رأسهم امرأة فرعون، فكانوا يخذلونه عن أن ينزل به أذى، أو يقتله مثلا.

وإن لموسى لهيبة ورهبة فى نفس فرعون تمنعه من أن ينزل به ما يريد، وهو يرى الآيات تجرى على يديه وهو إن لم يؤمن بها أفزعته، وأرهبته.

وإن مثل أوليائه من آل فرعون، كمثل أبى طالب فى حمايته للنبى ﷺ من أذى قريش وأن ينالوا منه، وهكذا يؤيد الله تعالى رسله ببعض خلقه.

لم يكن لموسى وقد رأى الإرهاب لبنى إسرائيل إلا أن يثبتهم، فقال لهم: ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

أى اجعلوا استعانتكم بالله واتكلوا عليه، واصبروا على ما ينزل بكم، ولا تحسبوه الشر الذى لا ينتهى فإن ملك فرعون زائل، وطغيانه منته، ولن يخلد أو يبقى، فإنه ستزول دولته. والأرض تكون لمن يرثها من الصالحين، والعاقبة والنهاية للمتقين، قال ذلك تثبيتا لقلوب بنى إسرائيل، ومن اتبعه من المؤمنين: فقد حكى الله تعالى قولهم فقال: ﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩) ﴾.

كان بنو إسرائيل متململين من عذاب فرعون من قبل موسى - عليه السلام - ورجوا من مجيئه أن يرحمهم الله تعالى من عذابه على يد موسى - عليه السلام - وقد غلبه بالحجة الباهرة، وكان هو وقومه صاغرين أمام حجة الحق وقوته.

ومن يكون من عذاب يتلهف على الرحمة، ويطلبها سريعا، ولكن فرعون قرر استمرار عذابهم فقالوا متململين: قد أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا، قال: عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض.

طمأنهم موسى بأن الله لا يخلف وعده، وأنه وعده بهلاك الطاغية العاتى؛ ولذا قال: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ يتضمن كلام موسى الكليم - عليه السلام - أمورا ثلاثة:

أولها - رجاء هلاك فرعون؛ لأن الله أعلمه بذلك، وأن لذلك وقتا معلوما، لم يحن حينه، **ثانيها** - أنهم يرثون الأرض من بعده، وأنهم سيكونون مستقلين أحرارا ليس لأحد عليهم سلطان إلا الله، **ثالثها** - أنه قد تكون مخالفات، ومناقضات، ولذا قال: ﴿**فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**﴾، أى فيرى منكم عملكم أو يقدر لكم من الجزاء بمقدار عملكم، والله بكل شيء عليم.

وإن سياق القصص القرآنى قد يشير إلى أن فرعون عندما كان يقتل الأبناء، ويستحيى النساء - ما كان يستأصل، بل فرض فيهم هذه العقوبة يستعملها ما يشاء.

هذا، وإننا نرى آل فرعون وسكان مصر، لم يدفعوا طغيانه، وإن الله تعالى لا يأخذ العامة بظلم الخاصة إلا إذا رأوا الظلم ولم ينكروه، والمصريون لم ينكروا فعل فرعون؛ ولذا عاقبهم الله تعالى بعقوبات دنيوية مختلفة، فقال الله تعالى فى ذلك:

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ
بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾
فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ
يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ
لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ
الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ
فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ
الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ
كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي

إِسْرَآءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾

إن المصريين شاركوا فرعون فيما أوقع من مظالم ومآثم ببنى إسرائيل؛ لأنهم رأوا الظلم ولم ينكروه، فكانوا مسئولين، وما استمكن فرعون منهم ومن بنى إسرائيل إلا بهم، لأنهم لم يقولوا: ظلمت.

ولذا قال الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ ﴾.

وآل فرعون هنا ليسوا حاشيته ولا خاصته إنما هم أهل مصر جميعا؛ لأنهم أيدوه، ولو بالرضا، أو على الأقل بالصمت من غير نكير، والدليل على أنه أريد أهل مصر جميعا، أن السنين ونقص الثمرات لم يكن خاصا بفرعون وحاشيته؛ لأنه بلاء إذا جاء يعم ولا يخص، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾، أى آل مصر الذين هم آل فرعون، ومن يقوم بهم وبالحكم فيهم، وأخذناهم معناه اختبرناهم بالسنين، أى بالجدب والقحط، فيقال: أُصبت بالسنة، أى بالجدب والنقص والجوع. وقد أصابهم الله بسنين جدب وقحط، ونقص من الثمرات، ويقال: أخذنا فلانا بالرفق والإكرام، وأخذناه باللوم، والتأنيب بمعنى عاملنا، وتأويل القول أخذناه وضممناه معاملين له بالرفق أو معاملين له باللوم أو التأنيب. فأخذ الله آل فرعون معاملا بالسنين بحدبة تصيبهم، ونقص الثمرات، يختبرهم سبحانه بذلك لعلهم يذكرون، أى لعلهم يتذكرون أن هناك مدبرا غير فرعون، وأن الأمر ليس بإرادتهم ولا بإرادة فرعون، إنما هو بإرادة من خلق فرعون، وخلق الزرع والثمار، وأنشأها جنات معروشات، وغير معروشات ولكنهم لم يتذكروا لفنائهم فى فرعون وملئه، وكذلك أهل فرعون دائما، لا ينفصلون فى نفوسهم

عن حكامهم، وإن كانت قوتهم عليهم، يقودون إلى النكسات نكسة بعد نكسة، وهم من ورائهم راضون راغبون فيهم على سوءاتهم غير راغبين عنهم.

وكانت معاملتهم لموسى الهادى الرشيد، معاملة غير رفيقة يحملونه إثم ما ينزل بهم من شر، وما ينزل بهم من حسن يحسبونه استحقاقا لهم؛ ولذا قال الله تعالى فيهم: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣١)﴾.

﴿الْحَسَنَةُ﴾ هى الحال الحسنة التى يستحسنونها، ويستطيعونها، ويرون فيها مسرة لهم، لم يذكروا أنها من عند الله تعالى؛ أفاض بها عليهم من عنده، إنما يحسبون أنها جاءتهم لأنها لهم ويستحقونها وجاءتهم من غير معط؛ ولذا وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾، أى لنا نستحقها، ولا يتصورون معطيا يستحق الشكر، والطاعة، والرضا بما أعطى، وإذا جاءتهم السيئة، أى الأمر المسىء لهم من قحط وجدب وطوفان اطيروا بموسى ومن معه أى تشاءموا.

وأصل الطيرة فى الاستعمال العربى أنهم كانوا يزعجون الطير، فإذا اتجه إلى اليمين تيمنوا به وسموه السانح، وإذا اتجه إلى الشمال تشاءموا به وقالوا البارح.

ولقد جاء فى تفسير القرطبى ما يتعلق بالتطير «وكانوا يتطيرون أيضا بصوت الغراب، ويتأولونه البيْن، وكانوا يستدلون بمجاوبات الطيور بعضها بعضا على أمور وبأصواتها فى غير أوقاتها المعهودة على مثل ذلك، وهكذا الظباء إذا مضت سانحة أو بارحة، ويقولون: إذا برحت بالسانح بدل البارح، إلا أن أقوى ما عندهم كان يقع فى جميع الطير فسموا الجميع تطيرا من هذا الوجه، وتطير الأعاجم إذا رأوا صبيا يذهب به إلى المعلم بالغداة، ويتيمنون برؤية صبى يرجع من عند المعلم إلى بيته، ويتشاءمون بروية السَّقاء على ظهره قربة مملوءة مشدودة، ويتيمنون برؤية فارغ السِّقاء (مركبة) مفتوحة». وهكذا كما جاء فى ذلك التفسير، وعلى أى حال التطير فى اللغة العربية التشاؤم.

وإن المصريين قد قالوا هذا المعنى مواجهين موسى - عليه السلام - وعبر عنه بذلك التعبير العربى، وكأنه ترجمة لتعبيرهم فى لغتهم.

ولقد أجابهم بقوله كما حكى القرآن الكريم: ﴿ **إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ** ﴾، أى إن ذلك قضاء الله تعالى وقدره فيكم. وعبر عنه بطائركم تشبيها للقدر المحتوم بالطائر المشئوم؛ لأنه فى معناه لاحق بهم، فإن تَعُدُّوه شؤما فهو من سوء عملكم، وختم الآية بقوله تعالى: ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ أى لا يعلمون أن كل شىء عند ربك بمقدار، فيتشاءمون؛ ولذا نفى النبى ﷺ الطيرة، وقال: «لا عدوى ولا طيرة»(١) أى لا عدوى إلا بإذن الله تعالى العلى القدير.

ومع أن الله تعالى قد ابتلاهم ﴿ **بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ** ﴾ ويطمئنون إلى الله الذى هو منشئ العالم، وأنه ليس لفرعون أية ألوهية، ومع ذلك أصروا على كفرهم، ورموا موسى بأن هذا الابتلاء سحر يسحرهم به موسى، وأنهم لا يؤمنون؛ ولذا قال الله تعالى عنهم:

﴿ **وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢)** ﴾.

مهما تأتى من معجزة باهرة قاهرة، فإنها لا تعدو أن تكون سحرتنا بها، فما نحن بمؤمنين لك، أى بمسلمين لله بالحق الذى تدعو إليه، نفوا إيمانهم مؤكدين النفى بالباء الدالة على استغراق النفى، وبالجملة الاسمية وتقديم الجار والمجرور «لك» على «مؤمنين»، وقولك مؤمنين لك، أى إجابة لدعوتك منضمين لك، فلن نخرج عن صفوف الفرعونية الكافرة الجاحدة إلى صفك المؤمن المذعن لله تعالى.

نزلت عليهم آيات قاهرة أشد من الأولى بسبب إصرارهم على الكفر، وقد ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿ **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣)** ﴾ وأرسلنا: بمعنى أنزلنا قاصدين كأن هذه مرسلة من عندنا، والطوفان هو المطر الشديد، وفيضان النيل الطاغى الذى أغرق الزرع، وأهلك النسل، وهدم البيوت، وما كان لفرعون طاقة على إنجائهم والسيل قد طم، وحزب، وصار عبثًا، لا غيثًا.

---

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى: الطب - الفأل (٥٧٥٦)، ومسلم: السلام - الطيرة والفأل (٢٢٢٤)، وتتمة الرواية: «ويعجبنى الفأل الصالح الكلمة الحسنة».

والجراد، وهو الطير الصغير المعروف الذى يأكل الزرع، ويفسده، وخصوصا ما كان قوتا، فإنه يسلط على القمح، والشعير، والأرز، ويتعدى طعام الإنسان إلى طعام الحيوان.

وبعد البلاء فى زرعهم وحرثهم ونسلهم كان البلاء فى أجسامهم، فسلّط عليهم القمل، وهى دويبة صغيرة، وقال ابن عباس: القمل السوس، وهو يصيب الزرع المخزون لأكلهم فيصيبهم، وقيل: إنه القمل المعروف الذى هو داء فى الأجسام ومرض من الأمراض.

والضفادع جمع ضفدع، وهى الحيوان المعروف، كثرت وكثر ضجيجها حتى أزعجتهم، وأفسدت زرعهم وملأت أرضهم فكانت الحياة مع هذه الكثرة حياة شاقة شديدة لا تحتمل.

والدم، قالوا: إن النيل صار ماؤه دما، ومات السمك فيه، فأصبح لا يسقى، بل يميت، وإنا لا نعترض على ذلك التفسير، وقد روى عن بعض الصحابة، ولم نر فيه حديثا صحيحا، يذعن المفسر لمثله، ولكن صريح اللفظ أنه الدم، ولعل الله تعالى اختبرهم بذلك وقتا وإن لم يكن طويلا، ولكنه أراهم آياته مفصلات، ويصح تفسير الدم بمرض أصيبوا به كرعاف ونزيف وضغط.

ولقد قال الكثرة من المفسرين: إن الله تعالى اختبرهم أولا بالطوفان الذى خرب ديارهم، وأفسد زرعهم فدعوا الله أن يكشف ذلك عنهم، ودعا لهم موسى ووعدوه بأن يؤمنوا إذا كشف عنهم الضر، فكشف فلم يؤمنوا، فأصيبوا بالجراد فطلبوا أن يدعوا لهم فإذا كشف عنهم آمنوا، فكشف فلم يؤمنوا، ثم اختبرهم بالضفادع كذلك، وبالدم كذلك ولم يؤمنوا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين. والاستكبار عن الحق سبيل الضلال والوقوع فى الذل، وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ فيه تسجيل الإجرام والعتو عليهم، وقد أكد ـ سبحانه وتعالى ـ إجرامهم واستمرارهم على الإجرام، وسيطرة الأخلاق الفرعونية عليهم، وإنها فساد كلها،

يصيب النفس، فلا تنخلع منه، والنوازل تصيب نفوسهم، ولا تصل إلى أعماقها ولا تجتث الشر منها، ككل من امتلأت نفوسهم بالشر، فإنه يكون لونا من ألوانها لا تمحوه عظة ولا يدفعه بلاء.

ولقد قال تعالى فى ذلك:

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) ﴾.

﴿ الرِّجْزُ ﴾: هو العذاب، وهو يشمل ما سبق أو هو هو، وإن ذكر هذا يدل على أن طلبهم من موسى كان بعد أن نزل بهم الرجز جملة وتفصيلا وتوالى عليهم نزوله، وأن التجاءهم إلى موسى ـ عليه السلام ـ بعد ذلك التوالى.

أو نقول إن الله حكم عليهم بالاستكبار والإجرام، ثم بين بعد ذلك كيف كانوا مجرمين، وقد ذكر إجرامهم إجمالا، ثم فصل كيف كان ذلك العتو والاستكبار.

لما نزل بهم هذا الابتلاء آيات مفصلات وغيره، اتجهوا إلى موسى ـ عليه السلام ـ وكأن الشك قد عراهم بالنسبة لما كانوا عليه ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ أى بعهده عندك وإيمانك به، ووعده لك بالنصرة والتأييد ﴿ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾، طلبوا كشف الرجز من موسى، مع أنهم طلبوا أن يدعو ربه، ونسبوا إليه كشفه؛ لأنهم اطمأنوا إلى أن الله سيجيبه، ولأنهم تعودوا أن يكون الأشخاص هم ذوى السلطان، ولا سلطان إلا لشخص ﴿ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ﴾، أى لنؤمنن بما تدعو إليه مسلمين لك بالحجة والدليل وأن كلامك الحق، ومع إيماننا لنرسلن معك بنى إسرائيل، أكدوا إيمانهم بالقسم

ومؤكداته، وأكدوا إرسالهم بنى إسرائيل بالقسم ومؤكداته من نون التوكيد، ولام القسم.

ولعلهم كانوا فى ذلك صادقين فى أنفسهم، لوقع الرجز عليهم، ولإحساسهم بالضعف أمام جبروت الله تعالى الذى تخاذل أمامه جبروت فرعون، وطغيانه، ولكن الحق لم يصب قلوبهم، وليس لهم إذعان صادق، بل هو عارض عرض لهم، ولم يكونوا مؤمنين. وما هؤلاء الذين طلبوا من موسى ذلك الدعاء يظهر أنهم الكبراء والسادة من ملأ فرعون، ولعله كان معهم، أو طلبوه بأمره بدليل أنهم وعدوا موسى بأن يرسلوا معه بنى إسرائيل، فما كان يملك ذلك إلا فرعون وقادته وملؤه، والكبراء، معه ومع هذا القسم الذى أقسموه، ما وفوا، ولذا قال سبحانه:

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥) ﴾.

الفاء للإفصاح عن شرط مقدر تقديره إذا كانوا قد أقسموا ذلك القسم فقد نكثوا، فلما كشفنا عنهم الرجز إذا هم ينكثون فلا يؤمنون، ولا يرسلون بنى إسرائيل، والتعبير عن زوال الرجز بـ﴿ كَشَفْنَا ﴾ تشبيه له بالغمة التى تَغم عليهم، وتكشف.

وقوله تعالى: ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ ﴾ إشارة إلى أنه سينزل بهم ما هو أشد، فالإزالة للرجز لم تكن دائمة، بل هى إلى أجل محدود، فإن الله خبأ لهم فى قدره ما هو أشد وأقوى، وهو إغراقهم فى البحر؛ ولذا قال تعالى: ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾، أى جازيناهم بذنوبهم، وسمى الله تعالى عقابه لهم بأنه انتقام؛ لأنهم مردوا على الشر، وعقابه لهم استئصال، والله تعالى هو المنتقم الجبار فعاملهم

معاملة المنتقم؛ ولذا قال: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦)﴾.

أى عاملناهم معاملة من ينتقم ممن أعلن الحرب على الله ورسوله موسى ـ عليه السلام ـ اختبرناهم ثم كشفنا عنهم ما اختبرناهم به رجاء أن يتذكروا ويعتبروا، فما زادوا إلا ظلما واستكبارا وعتوا وفسادا، فليس لهم إلا أن ينزل بهم العذاب الأكبر، الذى يكون استئصالا، وهو الإلقاء فى البحر، واليم هنا البحر، وذلك بسبب تكذيبهم بالآيات التى توالت لهم آية بعد آية وغفلتهم عن مغزاها ومعناها، ولذا قال: ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾، أى أنها كانت لهم بمرأى العين والحس ولكنهم غفلوا عنها، واستهواهم الشيطان فضلوا.

بنو إسرائيل بعد الإنقاذ

وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ
ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ
ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ
يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾
وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ
أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ
قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ
مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا
وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم
مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ

أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

كان بنو إسرائيل مستضعفين فى أرض مصر، ومن يكون تحت فرعون يكون مستضعفا ذليلا ولو كان من أهلها، ولكن بنى إسرائيل استضعفوا لغربتهم، ولحكم فرعون.

خرجوا من ذل فرعون وملئه، وأورثهم الله تعالى مشارق الأرض ومغاربها بعد أن استضعفوا بذل فرعون، وأرهقهم ظلما خاصا بهم، وقد صار لهم بعد خروجهم من مصر مُلك عريض: شرق وغرب، وخصوصا فى حكم داود وسليمان، والملوك، ووصف الأرض بأن الله بارك فيها، ويشير هذا إلى أنها الأرض المقدسة، فقد أخذوا شرقها وغربها، وما أحاط بها، وكانت أرضا قد بارك الله فيها بالخصب، وأنها يجتمع فيها النبيون فى إسراء النبى ﷺ والمعراج.

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ وكلمة الله هى ما وعد به تعالى بنصرهم، إذ قال: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [القصص].

ووصف الله ـ سبحانه ـ الكلمة بأنها الحسنى ـ وهى مؤنث ـ لأن هذه الكلمة المباركة أوصلتهم إلى أحسن أحوالهم، وأبركها عليهم.

﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾، هذا ما كان لبنى إسرائيل، أما ما كان لفرعون وملئه، فقد دمر الله تعالى ما كان يصنع فرعون من بناء وما كان من جنات، وما كانوا يعرشون فيها زراعات وغروس تكون بالعرش والسقف على الأرض، فلا يرى سوداؤها من خضرائها، كما قال تعالى :

﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الدخان].

هذه نعم أنعم الله بها على بنى إسرائيل بسبب صبرهم على ظلم فرعون، وإنه لبلاء عظيم. ولكن هل قدروا النعمة حق قدرها، ذلك ما ستبينه الآيات التالية:

قال تعالى:

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١) ﴾.

أنهى الله تعالى قصص فرعون بهلاكه وابتدأ بقص قصص بنى إسرائيل، ونرى فى هذا القصص الحكيم ما أحدثوه بعد أن منَّ الله تعالى عليهم بإخراجهم من استعباد فرعون وظلمه لهم، ومعاينتهم الآيات الكبرى بفلق البحر بعصا موسى، وكيف عبدوا العجل، وكيف أرادوا أن يجعل لهم موسى إلها غير الله يعبدونه، وما استرسلوا فيه من كفر ومعاص، وقال الزمخشرى: ذلك ليعلم حال الإنسان، وأنه كما وصفه الله تعالى ظلوم كفار جهول كنود، إلا من عصمه الله تعالى: ﴿ ... **وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣)** ﴾ [سبأ].

يقول تعالى: ﴿ **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا** ﴾ جاوز بمعنى اجتاز، والبحر هو البحر الأحمر كما نسميه الآن، وكما كان يسمى بحر القلزم اجتازوه حتى وصلوا إلى اليابس ﴿ **فَأَتَوْا** ﴾ أى أقبلوا على قوم يعكفون، أى يقيمون على عبادة أصنام لهم، وقالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، إن المقام الطويل الذى أقاموه فى مصر هزع(١) فيهم الوحدانية التى كانت دين آبائهم، وإنهم وإن كانوا لم يعبدوا ما عبد

(١) هزع: هَزَعَه يَهْزَعُه هَزْعًا و هَزَّعه تَهْزِيعًا: كَسَّرَه فانْهَزَعَ أى انْكَسَرَ وانْدَقَّ. و هَزَّعَه: دَقَّ عُنُقَه. وانْهَزَعَ عَظْمُه انْهِزاعًا إذا انْكَسَرَ وقُدَّ. لسان العرب- هزع.

المصريون فقد لانت عقيدتهم، وصاروا مترددين لا يؤمنون بشىء ولذلك قالوا ما قالوا؛ لأنه لم يثبت فى قلوبهم التوحيد الذى جاءهم به موسى، وصاروا كالأعراب الذين قالوا لرسول الله محمد ﷺ آمنا، فأمر الله تعالى نبيه بأن يقول: ﴿ ... قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ ... (١٤) ﴾ [الحجرات].

والقوم الذين أتوا عليهم قيل إنهم كانوا بالسويس، إذ كانت أول يابسة جاءوا إليها، والله أعلم ما هؤلاء الأقوام، ولكن نستبعد أن تكون السويس؛ لأن ظواهر الأخبار تبين أنها كانت تحت حكم فرعون، وجزءا من مصر.

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، أى تجهلون العقائد السليمة، والعقائد الباطلة، والمتردد جاهل، غير مدرك، وإنهم خرجوا من حال كافرة إلى حال مؤمنة موحدة، ولما يدخل الإيمان قلوبهم.

وأكد لهم موسى ببيان بطلان هذه العبادة، فقال: ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ هالك ما هم فيه، والتعبير يتضمن معنى التخريب والفساد، كما قال تعالى: ﴿ ... وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧) ﴾ [الإسراء]، أى أنه عمل فاسد، لا أصل له من الحق، فهم فى ضلال ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقدم الخبر على المبتدأ لتأكيده الحكم بالبطلان على ما يعملون، ثم أخذ رسول الله ﷺ يوبخهم على ما طلبوا من ناحية بطلانه فى ذاته، ومن ناحية أنه كفر بالنعمة التى أنعم بها عليهم، فقال فى توبيخهم فى الأولى: ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا﴾، أى أطلب لكم إلها وحذفت اللام، وذلك توبيخ بالاستفهام الإنكارى، أى لا يمكن أن أفعل ذلك وأنا الذى دعوت فرعون إلى التوحيد، وبيَّن أن ذلك كفر بنعمة الله تعالى، وهو يزيد الأمر استنكارا فقال: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ﴾، أى جعل لكم فضلا ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بأن تولى هو إنقاذكم من ذل فرعون واستعباده. وهو دال على استنكار موسى بسبب ما أعطاهم الله من نعم لم ينعم بها أحد من العالمين، وهى آية عظيمة من آيات رب العالمين تدل على كمال توحيده، وأنه المتفرد بالإيجاد والخلق والتدبير، فقال: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾، أى اذكروا نعمة الله

عليكم، وآياته فيكم، إذا نجاكم من آل فرعون وذكر آل فرعون؛ لأن آل فرعون وحاشيته هم المعاونون المُحَسِّنون لما ارتكب من طغيان وظلم، والذين يسولون له كل ظلم، ويبررون ما يفعل من شر، وذكرهم ذكر له لأنه رأس الفساد، وغيره تابع له محسن، ومسول وهم كالشياطين حوله يشاركونه فى الإثم، ولا يعفى منه. ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾، أى يذيقونكم سوء العذاب، ثم بينه سبحانه بقوله:

﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

أى ويل شديد اختبرتم به أشد اختبار، فهل تكفرون بالله تعالى الذى نجاكم، وتشركون به.

تلقى موسى الألواح من ربه

وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ
وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ
مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ
سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ
رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ
إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ
رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ
قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾
قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي
فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

ذهب موسى إلى جبل الطور ليتلقى تعاليم ربه على موعد منه، وكانت المدة ثلاثين ليلة، أى ثلاثين يوما، وذكرت فى القرآن الليالى دون الأيام؛ لأن الأشهر القمرية أمارة ظهورها بالليل، إذ يبزغ القمر هلالا، ويتدرج فى النمو حتى يصير بدرا، وتعرف الأوقات من الشهر بمقدار الهلاك.

وقد قيل: لماذا ذكر الثلاثين ثم أتم الأربعين بعشر ليال أخر؟، فقالوا: إن موسى عندما ذهب إلى التجلى استشعر روحانية، وقالوا: إنه استنشق ريح المسك، فطلب تلك العشر الزيادة، فأتمها الله تعالى أربعين ليلة، والتصريح بالأربعين مع أن العدد مفهوم من ذكر العشر بعد ثلاثين، وذلك لبيان استجابته سبحانه لما طلب موسى، وذكر ذلك من شعائر الإنعام.

خلَّف موسى بنى إسرائيل، وفيهم عناصر متضاربة متباينة وهم أهواء مختلفة وفيهم تردد، كما ظهر عندما أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، فطلبوا أن يكون لهم إله كما لهؤلاء آلهة.

مع هذه الحال، خَلَفَهُ فيهم أخوه هارون، فهو رِدءُ موسى ومعينه وهو نبى، ولكن الذى تلقى التوراة أو الألواح هو موسى.

قال موسى لأخيه هارون ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾، أى كن خليفتى فى قومى، ترعاهم وتصلح أمرهم؛ ولذا قال فى تحقيق الخلافة: ﴿وَأَصْلِحْ﴾ أقم فيهم الحق، والعدل والإصلاح بينهم، فاحفظ وحدتهم وحارب دعاة التفرق؛ ولذا قال له: ﴿وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾، أى تجنب أن تساير المفسدين، بل اقطع عليهم الطريق، ولا تمكنهم من فسادهم، وكأنه بفطنة النبوة أدرك أنهم سيحدثون أحداثا من بعده ـ كما سيجىء ـ باتخاذهم العجل، وإن لم يكن قد توقع ذلك بالذات، ولكن توقع غيره وسبل الشيطان مثارات مختلفة.

ذهب موسى ـ كليم الله تعالى ـ إلى الجبل فى الميقات الذى وقته الله تعالى، وقيل: إنه ذو القعدة وعشر من ذى الحجة، والله أعلم بالميقات.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ استأنس كليم الله بربه وطمع الكليم فى أن يرى حبيبه ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾، أى افتح بصرى بالرؤية لأنظر إليك، أو تبين لى أنظر إليك.

قال الله الذى كلم موسى، وحسب موسى أن الرؤية كالكلام، وإن كان الكلام من وراء حجاب، وقد شجعه على طلب الرؤية أنه سمع الكلام، ومن سمع الكلام الجميل الجليل طمع فى رؤية من يكلمه.

قال الله ـ تعالى ـ له: ﴿لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾.

لن للنفى، المؤكد، وقال الزمخشرى: إنها للنفى المؤبد، أى لن ترانى أبدا، وهذا على مذهبه من أن رؤية الله تعالى غير ممكنة، ونحن إذا قلنا: إنها لتأبيد النفى، فإن ذلك موضوعه فى الدنيا، أما فى الآخرة، فأمرها عند علم الله وهو العليم بما فيها، والحياة فيها غير الحياة فى الدنيا، وما يكون مستحيلا فى الدنيا، أو ما يُرى كذلك لا يكون مستحيلا فى الآخرة والله بكل شىء عليم، وفسر بعضهم قوله تعالى: ﴿لَن تَرَانِي﴾، أى لن تستطيع رؤيتى.

وقد استدل الجماعة على أن رؤية الله ممكنة وإلا ما طلبها موسى، وقد علقها الله تعالى على استقرار الجبل وهو أمر ممكن فهى ممكنة.

ولنترك الأقوال فى ذلك، فليس القرآن موضع جدل، وهو منزه عن ذلك، وفوق جدال المتجادلين.

قال تعالى: ﴿لَن تَرَانِي﴾ وقد علمت قول الناس فى ذلك، ثم كان الاستدراك تلطف لموسى، وتقريب له لمعنى نفى الاستطاعة، فقال: ﴿وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾، والجبل أقوى وأشد وأضخم من موسى فإن استقر حين تجلى الله وبزوغ النور الإلهى فسوف ترانى، ولكنه إن لم يستقر فإنك لن ترانى.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ أى فلما ظهر نور الله على الجبل متجليا له ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾، أى مستويا بالأرض، وكان لذلك ما يثير الفزع فى نفس موسى ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾، كأنما أصابته صاعقة، وغشى، ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ أحس بأنه طلب ما ليس له، وما هو فوق طاقته البشرية، وما لا يتحقق فى الدنيا ـ استغفر ربه، وسبحه، فقال: ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

تاب موسى من هذا الطلب الذى تبين له أن الله لا يجيبه فى الدنيا، وما كان ذلك خطيئة ارتكبها، ولكنه خطأ لا ذنب، ولكن النفس المؤمنة التى تحس تستكثر خطأها، وتستقل صوابها، أحس أنه ذنب يتاب منه، وما هو بذنب، وكذلك استتابة المرسلين تكون من أخطاء تغتفر، بل لا حساب عليها، ولكن يعظم أمرها فى نفوسهم فيتوبون.

وأكد ـ عليه السلام ـ استغفاره، وكمال إيمانه فقال: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أى ببعدك عن الشبيه، وأنك منزه عن كل نقص، وأول المؤمنين بأنك لا تُرَى فى هذه الدنيا.

وقد استجاب الله تعالى لاستغفاره وتوبته النصوح وقال تعالى:

﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)﴾.

نادى الله تعالى نبيه موسى، ويبين ما ميزه به على أهل جيله، وعلى كثير من الأنبياء ناداه ﴿يَا مُوسَى﴾ وفى النداء بالاسم نوع إدناء وتقريب، وإبداء للمحبة، والدنو منه. ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾، أى اخترتك مفضلا لك على الناس، فـ﴿صْطَفَيْتُكَ﴾ متضمنة معنى التفضيل، ولذا تعدى بـ﴿عَلَى﴾، وقوله: ﴿بِرِسَالاتِي﴾، وهى جمع رسالة، وجمعت لشمول شريعة التوراة التى نزلت على موسى ـ عليه السلام ـ من عقائد التوحيد والتنزيه وشرائع الزواجر الاجتماعية من قصاص وحدود، وشرائع مدنية فى معاملات الناس وتحريم الربا، وأحكام الأسرة؛ وبعبارة أعم فى التوراة شرائع كثيرة جامعة ضمت رسالات. وقوله تعالى: ﴿وَبِكَلامِي﴾، أى بكونى اختصصتك من بين الأنبياء بأن كلمتك من وراء حجاب، وليس ذلك دليلا على فضله المطلق عليهم، بل هو من هذه الناحية وليس فضلا من كل النواحى.

وقال تعالى بعد بيان اختصاص موسى بأنه كليم الله، واختياره للرسالات كاملة وإن لم تكن النهائية ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ (الفاء) هنا فاء الإفصاح، أى فإذا كنت قد اخترتك من بين الناس بالرسالات وبكلامى، فخذ ما أعطيتك، واقنع به، ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ الذين تظهر النعم عليهم، ولا تطلب الزيادة على ذلك بالرؤية، فإن هذا ليس لك.

وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا

وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾

ذكر الله - سبحانه وتعالى - ما أرسله الله لموسى من رسالات فقال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ الألواح هى ما اشتملت عليه التوراة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ﴾، فسر بعض رواة الحديث بأن الله تعالى كتب على هذه الألواح، فقد ذكر الترمذى أنه قبض عليه جبريل بجناحه فمر به فى العلا وأدناه حتى سمع صريف القلم حين كتب الله تعالى له الألواح.

وإنا لا نرد خبرا إذا ثبتت صحته عن الرسول، ولا نعلم مقدار صحة هذا، وإن الذى نراه فى هذا أن ﴿كَتَبْنَا﴾ معناه فرضنا وشرعنا شرعا ثابتا مقررا ومفروضا فى الألواح، وقد تكون قد ألقيت عليه مكتوبة فى الألواح.

وقوله: ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ «مِنْ» فيها بيانية، أى كتبنا له كل شىء فى أمر الشرع من حيث العقيدة، ومن الشرائع المختلفة. وتكون موعظة، وتفصيلا لكل شىء فيها بيان لنوع ما فى هذا الذى كتب وفرض، ففيه العظة والاعتبار بما فيها من أصل التكوين، والإخبار عن الأنبياء الذين سبقوه، وفيه تفصيل أحكام الشرائع تفصيلا مبينا موضحا، لا يخفى على الذين يدركون، ويطلبون الحق.

وقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أى يختاروا أحسنها، وكلٌّ حسنٌ، وأحسن، أى اطلبوا الأحسن فيها، فإذا كان واجبا فيه تخيير، فاختاروا الأحسن، فإذا خيرتم بين العقاب والعفو فاختاروا العفو، أو نقول: إن الأحسن وصف للتكليفات كلها، إذ كلها بلغ الأفضل فى ذاته، وأفعل التفضيل ليس على بابه بل المراد الأخذ بها كلها، لأن كلها أحسنها، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا

أُنزِلَ إِلَيْكُم ... ﴿٥٥﴾ [الزمر]، وقوله: ﴿ ... يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ...﴿١٨﴾ [الزمر]، أى يتبعون الحسن وهو القرآن أحسن القول.

وقوله تعالى: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾، أى خذها بعزم صادق على تنفيذ أحكامها من غير هوادة، والمراد بالأخذ بقوة لازمها، وهو العمل بقوة وصدق، والأمر لموسى هو أمر لأمته، وصرح بأمر حسن بلغ أعلى درجات الحسن، كما ذكر فقال: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ وأشار - سبحانه - إلى أنه سيكون من يفسق عنها من قومه، وذلك ببيان أنه سيُرى موسى وخاصته الفاسقين ومكانهم، فقال تعالى: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أى: الفاسقين من بنى إسرائيل، ومؤدى القول: ستعلم منازلهم وفسقهم ودرجاته.

ويصح أن يقال سقين: ﴿دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ هى دار فرعون ومن سبقه من الفاسقين، وعندى أن التخريج الأول أوضح، ويؤكده قوله تعالى بعد ذلك:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

التكبر فى الأرض بغير الحق ولا يكون التكبر بحق قط، وهذا وصف كاشف لبيان مضرة الكبر وفساده أن التكبر يجعل المتكبر لا يفكر إلا فى نفسه وما يستعلى به على الناس، فإذا غمره كبره فى هذا لا يرى إلا من ورائه، فلا يتجه نظره إلى ما يجب عليه، بل يتجه إلى ما يحسبه حقا له، وبذلك ينصرف عن الخير منصرفه فيصرفه الله عنه، وهذا قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، فصرْف الله تعالى للمتكبرين نتيجة حتمية لانصرافهم لغمرتهم فى الكبر، فهو سبب هذه النتيجة وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، هو كشف لحقيقة المستكبرين من الطغاة والحكام، وكل المفسدين فى الأرض.

ولقد صور الله تعالى تفكيرهم فقال فى نظرهم إلى الحق وإلى الباطل تعالت كلماته: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا﴾؛ لأن قلوبهم صرفها هواهم عن الحق، فصارت متدرنة بالباطل لا تستسيغ الحق. إن كل آية، أى آية مهما تكن

واضحة الدلالة بينة الهداية ﴿لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ لايصدقون بها، لأنهم عميت عن الحق أبصارهم، وأصبحوا فى صمم عنه، فإن القلب إذا أعمى كره الحق، وغفل عن آياته، ومثل ذلك آل فرعون، جاءتهم العصا فكفروا بها، وجاءت يد موسى بيضاء تلمح بالنور، فأعرضوا، وأصابهم الله بالعذاب، وأصاب أنفسهم وأموالهم وزروعهم، ورأوا آيات فيهم رأى العين، وخضعوا بالحس لله، ولكن ما زالت قلوبهم كافرة فاتجهوا إلى الله رب موسى وربهم، وطلبوا إلى موسى أن يدعو الله ليكشف عنهم، فلما كشف ذهب نور الإيمان، وبقى ما استقر فى نفوسهم بسبب الكفر.

وقال تعالى فى تصوير نزوعهم إلى الباطل: ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ إن الرشد يحتاج إلى عزيمة وقوة نفس، وسيطرة على الشهوات، وحمل على الإيثار، ومنع للأثرة، والذين يستكبرون ويطغون فيهم أثره، وفيهم شهوات مستحكمة، وهو غالب، وكما قال محمد خاتم النبيين ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات». فلهذا إذا رأى المكذبون سبيل الرشد الذى يعطى لله وللناس حقوقهم فإنهم لا يتخذونه سبيلا لسلوكهم، وطريق حياتهم لأنه يحتاج إلى بصيرة مدركة، وعزيمة صادقة، وإرادة عاقلة.

﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾، أى إن يروا سبيل الضلال وهو الغى يتخذوه مسلكا لهم؛ لأنه سبيل الأثرة والهوى والشهوات والطغيان فهو يتفق مع نزعة التكذيب لآيات الله تعالى، والغفلة عن هدايتها، والاستكبار الذى أعماهم عن التأمل فيها، وتعرف أسرار الله فى مكنونها.

ولقد ذكر الله تعالى سبب ذلك الضلال الذى يحولهم من الرشد إلى الغى، فقال سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾.

الإشارة فى ﴿ذَلِكَ﴾ إلى الحال التى آلوا إليها من استحسانهم للشر وسبيله، واستهجانهم للخير وطريقه ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، أى بسبب أنهم كذبوا بآيات الله؛ سارعوا بتكذيب آيات الله، فاجتالهم الشيطان عنها، وساروا منحرفين عنها غافلين عن معانيها، ومن سار فى طريق منحرفا عن الخط المستقيم أوغل فى الانحراف حتى يضل ضلالا بعيدا، وكلما أمعن فى السير أمعن فى الضلال، حتى لا تكون هداية، أخذهم الكبر فكذبوا بآيات الله ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾، ففسدت نفوسهم وأذواقهم حتى صاروا يذوقون المر فيحسبونه حلوا، وفسدت مداركهم، فصاروا لا يفرقون بين الخير والشر، ولا بين الحسن والقبيح، فإن رأوا سبيل الرشد لا يختاروه وإن رأوا سبيل الغى اختاروه وهكذا إيفت مشاعرهم، وضلت أفهامهم، وإنما يستقيم الفكر إذا استقامت النفس.

ولقد قال تعالى فى جزاء الذين كذبوا بآيات الله، فقال عز من قائل:

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧)﴾.

هذا النص السامى وصف عام لكل المكذبين لآيات الله ولقائه وأخصّ من ينطبق عليهم المشركون الذين كفروا بمحمد ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ﴾.

أنكر هؤلاء أمرين وكذبوهما. **أولهما** ـ آيات الله تعالى أى معجزاته القاهرة الباهرة، فلم يؤمنوا بموجبها ولم يصدقوا ما تدعوا إليه من إيمان، وأهملوها، وافتاتوا عليها، فقالوا: سحر مبين، وكذبوا بدلائل الوحدانية فيها فغفلوا عن إدراك ما تهدى إليه.

وثانيهما ـ كذبوا بلقاء الآخرة، أى بلقاء الله تعالى فى الآخرة، أو كذبوا بلقاء الآخرة بأن كذبوا بالبعث وما يعقبه، وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نلهو ونلعب، وما نحن بمبعوثين، وحسبوا أن الإنسان يترك سدى، ونزلوا به عن مكانته

التى خلقه الله تعالى عليها، وجعل الملائكة يسجدون له خاضعين، وحسبوا أن الله خلقهم عبثا، وأنهم إليه لا يرجعون.

وبسبب هذا التكذيب لهذين الأمرين أصدر الله تعالى الحكم، فقال: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾، أى بطلت أعمالهم فلا ثواب لهم على عمل، ولو كان فيه نفع ظاهر أو ظاهره النفع؛ وذلك لأن الأعمال ثوابها بحسب القلوب، وما دامت القلوب ممتلئة بالشرك، مدرنة بتكذيب الحق فلا خير فيها، ولا خير منها، فإن إشراق الحكمة لا يكون إلا من قلب سليم.

ومع أن أعمالهم تكون باطلة لا ثواب فيها، إلا أن عليهم العقاب فيما يرتكبون؛ ولذا قال تعالى: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

الاستفهام هنا إنكارى لإنكار الوقوع بمعنى النفى، وفيه معنى تأكيد النفى بمعنى أنه لا يتصور إلا أن يجزون بعملهم، فهو نفى فيه معنى حصر العقاب فيهم.

وفى قوله تعالى: ﴿يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا﴾ فيه بيان عدل الله تعالى فى جزائه، فالجزاء من العمل ذاته، فهو الذى يقرره، وكأن الجزاء هو ذات العمل لتساويهما وتلازمهما، إنه العليم العدل الحكيم.

عبادة العجل فى بنى إسرائيل

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ
عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ
سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ
فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا
رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

عاشر بنو إسرائيل أهل مصر زمانا فأثروا فيهم بأخلاقهم، وإن الضلال يعدى كما تعدى الأمراض البدنية، وقد سرت إليهم عدوى تقديس العجل، وعبادته، كما انحلت عقيدة الوحدانية منهم، وقد أكدها موسى ـ كليم الله عليه السلام ـ ولكنهم لما رأوا قوما عكفوا على أصنام لهم طلبوا من نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ إلها كما لهم آلهة.

وقد ذكر الله تعالى عبادتهم العجل فى آيات كثيرة، وكان يذكرها فى أكثر الأحيان بالإشارة العابرة، بيانا لضلالهم، وفى هذه يذكرها ـ سبحانه وتعالى ـ ببعض التفصيل، ويذكر وقتها وهو أنه كان، وقد غاب موسى لتلقى الألواح، ومناجاة ربه، فجاءهم، وقد اتخذوا العجل، صنعوه من حلى صناعة محكمة وعبدوه، صنعوه بحليهم، وجعلوه على صورة جسد عجل، ومهارتهم فى الصناعة التى اشتهرت بها مصرفى ذلك الإبان، وضعوه فى وضع إذا مرّت الريح فى موضعه من الخلف صار له صوت يشبه خوار البقر وادّعوه إلهًا، ولنتلُ الآيات الكريمة فى ذلك: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ﴾، أى فعل بعضهم ذلك وسكت عنه سائرهم، فنسب الفعل إلى كلهم، فقد كان فيهم هارون، وما كان ليرضى ولم يسكت، حتى استضعفوه وكادوا يقتلونه وفيهم صفوة من الفضلاء، كان منهم النقباء.

وقوله: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾، أى صنعوا من حليهم، جمعوها وصهروها، وصنعوها على شكل عجل، يعبدونه كما يعبده المصريون و﴿جَسَدًا﴾ أى جسما، ﴿لَّهُ خُوَارٌ﴾، أى صوت كصوت خوار البقر، لما مهروا فى صناعته وفى وضعه، والجسد لم يكن فيه حياة ككل الأجسام، وقد فهم بعض الناس من كلمة جسد أنه كان فيه حياة، والحقيقة أن كلمة جسد تكون بمعنى جسم فى كل دلالاتها، وسواء أكان فيها حياة أم لم تكن، وإن استعمال جسد فى التعبير عن الجسم كثير فى القرآن، ولقد قال الأصفهانى فى مفرداته: «والجسد كالجسم، ولكنه أخص، وقال الخليل: لا يقال الجسد لغير الإنسان من خلق الأرض ونحوه، وأيضا فإن الجسد ما له لون، والجسم يقال لما لا لون له كالماء والهواء، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨)﴾ [الأنبياء].. وقال: ﴿... عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ... (٨٨)﴾ [طه]، وقال تعالى: ﴿...وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤)﴾ [ص].

والخلاصة أن الجسد بمعنى الجسم، وأنه لا يشترط فى الجسد أن تكون فيه حياة، وأنه يطلق على الجماد. وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ... (٨)﴾ [الأنبياء]، أى ما جعلناهم جمادا لا يحتاج غذاء، بل جعلناهم أحياء يأكلون الطعام، ويمشون فى الأسواق. ولقد بين الله تعالى بطلان عبادة العجل وبيان أنه ليس بحى فقال تعالت كلماته: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ﴾، وفى آية أخرى فى غير هذه السورة، فقال تعالى فى سورة طه: ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا (٨٩)﴾.

وإن ذلك دليل على أنه لا حياة فى هذا الجسد، وإنما هو جماد قد ذكر القرآن أصله وهو الحلى، ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ فقد ظلموا الحق بعملهم على خلاف التوحيد، وظلموا أنفسهم بعبادة ما صنعوه بأيديهم، وظلموا موسى الذى أنقذهم من طغيان فرعون، وكذبوا آيات الله تعالى الدالة على وحدانيته وأفسدوا تفكيرهم الذى هدى موسى إليه.

ولقد كان من المفسرين أو أكثرهم من أخرجوا كل بيان للقرآن على أنه من خوارق العادة، فزعموا أن العجل كان جسدا حيا، وسرت إليه الحياة من أن السامرى الذى صنعه، أخذ قبضة من أثر فرس جبريل، ووضعها فى صناعته، فجعلته حيا له خوار، وزعموا أن ذلك يؤخذ من قول السامرى الذى حكاه القرآن عنه إذ قال: ﴿ ... **فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦)** ﴾ [طه]، فزعموا أن قول السامرى فقبضت قبضة من أثر الرسول: أى جبريل. قبض السامرى قبضة من أثر فرسه فوضعها فى صناعته.

وهذا تأويل بعيد عن الحقيقة، وعن مدلول الألفاظ.

أولا - لأن الرسول، «أل» فيه للعهد، ولا بد من رسول مذكور فى السياق أو معهود حاضر فى الذهن وهو موسى، وأثره هو شرعه، ونبذه إهماله وتركه، وهو التوحيد.

ثانيا - أنه اعتبر ذلك مما سولت به نفسه الشيطانية.

ثالثا - أن جبريل ما كان طريق خطاب الله لموسى، إذ قال: ﴿ **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً** ...(٥١) ﴾ [الشورى] فكان كلام الله تعالى لموسى من وراء حجاب كما قال تعالى: ﴿ ...**وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤)** ﴾ [النساء]، وإن قوله تعالى عن السامرى أنه قال: ﴿ ...**بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ** ... (٩٦) ﴾ [طه] أى فى صناعة الحلى التى لم يكن غيره ذا بصر بها.

وأخيرا إنه لا حاجة إلى هذا التكلف والإغراب والتقدير.

وتخريج الآية على ما بينا ابتداء هو المعقول الذى لا يحتاج إلى تأويل به، ولا إلى تقدير كلام مطوى بلا دليل.

وخلاصته أن السامرى اتخذ من الحلى شكل عجل، وبمهارة الصناعة وتمكين الرياح من أن تدخل منافذ فيه كان له صوت يشبه صوت البقر وهو الخوار، فعبدوه، وقبض قبضة من أثر موسى وهو التوحيد فنبذه وأهمله.

أدركوا أنهم ضلوا، ولقد حكى الله ذلك فقال: ﴿ **وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩)** ﴾.

وكلمة ﴿ **سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ** ﴾ تستعمل حال الندم، ومثله أسقط فى أيديهم، والأفضل سُقِط، وخطأ بعضهم أسقط، وهو مردود لكونه استعمال قرآنى، قيل: إن العرب لم تسبق إليه، ومعناه اللفظى سقط تفكيرهم من رءوسهم إلى أيديهم، وصار فيها وذلك أن من يقع فى خطأ يندم عليه يضرب كفٌ على كف، وأحيانا يعض على بنانه، وهذا الكلام يدل على أن فى الكلام كناية عن الندم لأنه ذكر اللازم الحسى له.

وقد سجل الله تعالى ندمهم بذكر سببه، فقال: ﴿ **وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا** ﴾، أى علموا علم اليقين أنهم ضلوا ووقعوا فى الضلال، فقلدوا أتباع فرعون فيما صنعوا، وأحسوا بأنه لا منجاة لهم إلا أن يرجعوا إلى ربهم، ويتضرعوا إليه، وقالوا: ﴿ **لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا** ﴾ رجوا الرحمة، والرحمة تكون بالغفران، فالغفران هو الرحمة وهى لازمة، وذكر الشىء ولازمه.

وجواب القسم ﴿ **لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ والخسران خسران تفكيرهم بسبب ضلالهم، وخسران الحق، والخسران المبين بشركهم، ولا منجاة من ذلك إلا برحمته وغفرانه.

وهذا الندم أكان بعد حضور موسى من الميقات ولومهم وتأنيبهم، أم كان بعده؟ والظاهر هو الثانى. وقد قال فى حال موسى ـ عليه السلام ـ عندما رجع:

﴿ **وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ** ﴾.

أخبر الله ـ سبحانه وتعالى ـ موسى أخبارهم، ولما رجع ظهر غضبه عليهم، فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ﴾، أى أنه غضب غضبا شديدا؛ لأن التعبير بغضبان تدل على امتلاء النفس بالغضب؛ لأن صيغة فعلان تدل على الامتلاء كسكران وشبعان، ونحوها، و﴿أَسِفًا﴾ أى حزينا، أى أنه غضب لهذا الأمر الشاذ، ولما تفكر فى الحال حزن حزنا شديدًا، فالأسف: الحزن. كقول يعقوب: ﴿...يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ... (٨٤)﴾ [يوسف]، أى أنه فى حال الحزن الذى لا حزن وراءه.

قال لهم: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾، أى بئس ما صنعتم خلفى من بعدى وفى غيبتى أى خلفتمونى بشر، وهو جدير بالذم، وكان ذلك فى غيبتى، فكأنهم خانوه مرتين مرة بهذا العمل الفاسد الضال المشرك، ومرة بأنهم انتهزوا فرصة غيبته وفعلوا ما فعلوا، فكانوا آثمين، إثمين، إثم العمل، وإثم أنهم خانوه فى غيبته، وقال: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أردتم العجلة فى أمر ربكم وذلك خروج عن حدودكم.

﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾، التى تلقاها عن ربه مكتوبة مفروضة جانبا، لا أنه رماها حتى تكسرت كما زعم بعض المفسرين. بل ألقاها جانبا ليفرغ لمناقشة الذين غيروا وبدلوا من بعده، ومن سكتوا عن تغييرهم، وأول مسئول سأله هو أخوه هارون، قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ أكثر المفسرين على أنه فى غضبه، قد أخذ لحية أخيه وقبض قبضة من شعره يجره إليه، وقالوا: إن ذلك كان متعارفا عندهم، أو لأنه أراد مناجاته، أو أراد أن يسر إليه أمر الألواح، أو أراد نصحه، ونرى ذلك بعيدا عن روح النص؛ إنما الظاهر أنه أراد لومه لوما شديدا؛ بحسب أنه قصَّر عن مَقْدِرة بدليل رد هارون: ﴿ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي﴾. ويصح لنا أن نقول على هذا إنه يصح أن يكون أخذ اللحية وجر الرأس لا يراد به حقيقته إنما يراد به لازمه، وهو إلقاؤه التبعة عليه لأنه خلفه عليهم، ونهاه عن أن يتبع القوم المفسدين، وأن ذلك كناية عن هذا؛ لأن ذلك يكون عند اللوم الشديد، وقد اعتذر

لأخيه بأنهم استضعفوه، أى عدوه ضعيفا، أو طلبوا موضع الضعف فيه، وهو أنه ليس المسئول الأصلى، وإنما هو ردءٌ لأخيه، وقد غاب الأصل، فاستضعفوا خليفته، وقال: ﴿وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ أى شدد النكير عليهم حتى كادوا يقتلونه، أى قاربوا أن يقتلوه، ﴿فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ طلب من أخيه أمرين: أولهما، ألا يتمادى فى مؤاخذته فيشمت الأعداء بهارون وهو المداوم على نصرته، وعرض نفسه معه لأذى فرعون الطاغية، الثانى: ألا يجعله فى عداد الظالمين، بأن يعتبره ممن عبدوا العجل، أو تهاونوا فى استنكاره، فإنه قد قام بحق الخلافة عن أخيه، ولكنهم وقعوا فيما وقعوا فيه بأمر لا قبل له فى دفعه، وهو له مُنْكِر.

ولقد كان موسى - عليه السلام - شديد الغضب، لكنه كان سريع الفيئة؛ ولذا قال راجعا إلى الحق فى أمر أخيه معلنا الرضا. فقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

طلب الغفران لنفسه لأنه يحس كما يحس الأبرار بقصور نفسى من تقصير حقيقى، ولأنه ألقى التبعة على أخيه، وما قصر أخوه، وأن يغفر لأخيه، إذا كان لم يحملهم على الجادة، ولم يمنعهم عن غيهم، ثم يقول: ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ التى كتبتها للمؤمنين، ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

وهنا إشارة بيانية فى القول فإن هارون قال ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ وهو نداء استعطاف واسترحام، وخصت الأم بالذكر؛ لأنها مجتمع الحنان والرفق والمودة بين أولادها.

جزاء الذين اتخذوا العجل

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾

غضب موسى، وغضب له ربه؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

أكد سبحانه وتعالى أن الذين اتخذوا العجل بأن صنعوه بأيديهم، وعبدوه من دون الله فاتخذوه إلها تقليدا وعماية عن الحق، وعن الإيمان بالآيات البينات، حكم الله تعالى عليهم بسبب اتخاذهم العجل فقال: ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

السين فى سينالهم لتأكيد ما ينزل بهم و﴿غَضَبٌ﴾ حال تقوم بالذات العلية، وهى غير غضبنا، وإن مظهره عذاب شديد، وبعد عن رحمته ﴿... وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ... (٧٧)﴾ [آل عمران] وذلك إذا لم يتوبوا إليه، كما تدل على ذلك الآية التالية لهذه.

وينالهم مع الغضب ذلة، وهى ذلة المبطل إذا ظهر الحق، وتضرب عليهم الذلة إلى يوم القيامة إن لم يتوبوا إلى ربهم، ويرجعوا إليه.

وإن ذلك جزاء المجرمين؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾، أى كهذا الذى ينالهم حتما من غضب الله الذى يكون أثره العذاب الشديد، والبعد عنه، والذلة تكون جزاء المجرمين الذين مردوا على الإجرام والمخالفة والعصيان، أى صار الإجرام وصفا ملازما لهم، لا يخرجون منه ولا يتركهم؛ لأنهم لا يتوبون، وقد فتح الله تعالى باب التوبة مما يدل على أن ذلك العقاب هو لغير الذين يتوبون ويعملون الصالحات.

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٥٣)﴾.

«الواو» عاطفة واصلة بين هذه الجملة وما قبلها، و﴿السَّيِّئَاتِ﴾ جمع سيئة، وهى ما يسوء الناس، وهو قبيح فى ذاته ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا﴾ «ثم» هنا

للترتيب والتراخى لبعد ما بين السيئة والتوبة؛ لأن السيئة فعل قبيح لا يرضى الله - سبحانه وتعالى - والتوبة رجوع إلى الله، فالمنزلتان متباعدتان تباعد البعد من الله بالسيئات، والقرب منه بالتوبة، وقوله تعالى: ﴿ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا ﴾ يوحى إلى أن التوبة لا تكون بعيدة الزمن، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ... ﴿١٧﴾ ﴾ [النساء].

﴿ آمَنُوا ﴾، أى أذعنوا للحق، فكأن التوبة لها ثلاث خطوات هى الشعور بالذنب والندم، ثم التوبة، ثم الإذعان لحقائق الإيمان بحيث لا يعودون لمثلها أبدا.

وقد وعدهم الله تعالى بقبول التوبة فقال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، أى إن ربك الذى خلقك وكونك من بعد هذه التوبة النصوح ﴿ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ إن هذا بيان لقبول التوبة ببيان وصف قابلها، وهو أنه غفور للذنوب قابل للتوب، وأنه رحيم بعباده يريد لهم التوبة، ولا يريد لهم العقاب إلا أن يصروا إصرارا.

وفى هذا النص تأكيد بقبول التوبة بالتأكيد بالجملة الاسمية، وبوصف الربوبية، وبوصف الغفران والرحمة، وبـ «إن» وباللام فى قوله: ﴿ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

وإن الله تعالى فى القرآن الكريم حيث يذكر العقاب يذكر التوبة وقبولها حتى لا ييئس المذنب من غفرانه، فينساق فى معاصيه وهو يقنط من غفران الله ورحمته، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر].

موسى بعد الغضب ينظم الدعوة للإيمان

وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾

كان الغضب أمرا عارضا لموسى بسبب أن قومه انتهكوا حمى التوحيد، وأشركوا بالله، ولم يغب عنهم إلا أربعين ليلة، فاستطالوها وعجلوا به مخالفين أمر ربهم، وبعد أن هدأ الغضب، إذ أقام أمر الله ونهيه، وقد كان سريع الفيئة كما روينا أى سريع الرضا، وكذلك شأن النبيين لا يلج بهم الغضب؛ حتى لا يشغلوا عن الدعوة إلى الحق الذى بعثهم الله تعالى لإقامته.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ﴾ يدل على أنه عارض زال فعاد الواجب قويا قائما، بعد زواله ﴿أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا﴾، أى فى المكتوب فيها، وهو الأصل الثابت الذى كتب بأمر الله تعالى، وكأنه ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذى كتبه ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾، أى فى نسختها الأصلية.. ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾، أى

هداية إلى الحق فى وسط دياجير الباطل والظلمات ورحمة بشريعتها التى اشتملت عليها، فالشريعة فى التوراة بأخذها على أيدى الظالمين وإقامة العدل، يكون ذلك رحمة، فالعدل فى ذاته رحمة، كما جاء فى القرآن الكريم: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ... (١٧٩) ﴾ [البقرة].

وإن هذه الهداية وتلك الرحمة إنما ينتفع بها الذين يرهبون الله تعالى ويخافونه، والذين يخافون الظلم ويجتنبونه، والذين فى قلوبهم رأفة بالناس، ويخافون أن يؤذوهم ويتجنبون الأذى، ويخافون عذاب الله، ولذا قال تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾.

أى إن الهدى والرحمة للذين هم يخافون الله تعالى ويرهبون عذابه، فإنه مع رهبة رب العالمين يكون الاتعاظ والازدجار، والانتفاع بالهداية، وتلقى الرحمة، واستحقاقها. وقوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ فيه تأكيد لرهبتهم لله بعدة مؤكدات: أولها ضمير الفصل ﴿ هُمْ ﴾ وثانيها: تقديم ﴿ لِرَبِّهِمْ ﴾، أنهم لا يرهبون إلا ربهم، ولا يخافون غيره، وثالثها: فى قوله ﴿ لِرَبِّهِمْ ﴾ فاللام هنا تفيد زيادة الرهبة، إذ إن ﴿ يَرْهَبُونَ ﴾ تتعدى بنفسها دون اللام، فذكر اللام لتقوية التعدى أى لتقوية الرهبة، وهكذا لا ينتفع بما اشتملت عليه من الهداية إلى الطريق، والرحمة بالانتفاع بنظمها إلا هؤلاء؛ لأن هذه الرحمة لا ينتفع بها إلا الذين يخافون الله تعالى ويرجون ثوابه ويخافون عذابه فيكونون منه دائما على حذر، فينجون.

بعد أن ذكر الله تعالى الميقات الذى واعد الله موسى عليه، وما كان من عبادة العجل، ولوم موسى لأخيه على عبادة بنى إسرائيل العجل، بين الله ـ سبحانه ـ اختيار موسى لسبعين من رجال بنى إسرائيل يمثلونهم، وكأنه اختار بنى إسرائيل كلهم، فقال تعالى:

﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا ﴾.

اختار موسى سبعين رجلا لميقات الله تعالى الذى واعده موسى ـ عليه السلام ـ وكأنهم صحبوه فى هذا الميقات، ولكن انفرد بمكالمة الله موسى ـ عليه السلام.

وقد طلبوا أن يروا الله تعالى جهرة، ويظهر أن موسى ـ عليه السلام ـ طلب أن ينظر الله تعالى تمهيدا لأن يروه، فقال الله تعالى لن ترانى، ﴿... **فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا** ... (١٤٣)﴾ وكانت رجفة فى الأرض خر من أجلها موسى صعقا، وأخذتهم الرجفة.

وانتهى من هذا إلى أن الذهاب للميقات واحد، ذهب موسى ومعه سبعون رجلا اختارهم ممثلين لبنى إسرائيل، وهذا ما يمكن أخذه من ظاهر السياق القرآنى، وهو أن الميقات واحد.

ولكن يذكر محمد بن إسحاق أن هذا ميقات آخر، وهو أن موسى عندما رأى من عبادة العجل ما رأى، أخذ ميقاتا من ربه، ليذهب هؤلاء السبعون معه، ويستغفروا ربهم، فقالوا: ﴿... **لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ** ... (٥٥)﴾ [البقرة]، فصعقوا.

وإن هذا الكلام مقبول فى ذاته، ولكن لا نجد له سندا صحيحا من سنة وليس فى الكتاب إشارة واضحة إليه ولعله يرشح لهذا النظر قوله تعالى: ﴿**أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا**﴾ ولكنه لا يقطع؛ لأنه ربما يشير إلى أن طلب الرؤية ذاته كان تعديا وسفها، ولذا استغفر عنه، على أن الاستفهام للإنكار، أى لإنكار الوقوع من الله تعالى أى أنت يارب العالمين لا تهلكنا بما فعل السفهاء منا، أى بما يكون بسبب خفة أو تسرع.

وهنا إشارات بيانية:

الأولى ـ أن الله تعالى يقول: ﴿**وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا**﴾ وسبعون بدل من ﴿**قَوْمَهُ**﴾ بدل بعض من كل، ولكنه يشير إلى أن اختيارهم هو اختيار لجميعهم، لأنهم يمثلونهم، وكأنهم هم أنفسهم.

الثانية ـ في قوله تعالى: ﴿**قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ**﴾ نادى الله بعنوان الربوبية أنه لوشاء أهلكهم وأهلك موسى معهم، وذكر نفسه معهم؛ لأن السبب، وهو طلب رؤية الله تعالى، قد اشترك فيه موسى، وتلك مساواة منصفة من كليم الله تعالى موسى مع غيره.

الثالثة ـ أن الله تعالى هدى موسى لأن يستنكر بنفسه طلبه الرؤية، وظنه أن ذلك سفه أو تسرع، ولكنه ليس بذنب مقصود، وإنما دقة الحس بالإيمان جعل يظن أن ذلك سفه يدخله في جملة السفهاء؛ ولذا قال هذا، وقال من قبل: ﴿**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي**﴾.

الرابعة ـ من الإشارات البيانية، قوله تعالى: ﴿**لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ**﴾، أي من وقت الميقات وأنا معهم ثم قال موسى: ﴿**إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ**﴾، الفتنة: الاختبار، وهي مضافة إلى الله تعالى، ومعناها إنك تعاملنا معاملة من يختبرنا في أنفسنا، تهدي بها من تشاء ممن يعتبرون بالعبر، ويؤمنون بقدرتك، ويطيعونك فيما تأمر به وتنهى عنه، ويضل في هذا الاختبار الحكيم، فلا يدرك عظمتك وجلالك، فيضل عن الطريق ﴿**أَنتَ وَلِيُّنَا**﴾ أي أنت ناصرنا ومعزنا، ومتولي أمورنا، والقريب منا العفو الغفور.

﴿**فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ**﴾.

الفاء هنا للإفصاح عن شرط مقدر، أي إذا كنت ولينا وناصرنا، والقريب الداني منا برحمتك وعفوك، فاغفر لنا ذنوبنا وارحمنا وأنت خير الغافرين.

فإذا كان منا مخالفة فأنت خير الغافرين، و﴿**خَيْرُ**﴾ هنا للتفضيل، ولكنه في غير بابه، والمعنى أنت غفار بقدر لا بتصور أن يكون فوقه قدرة، ولا يفاضل بينه وبين غيره.

﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ .

هذه ضراعة إلى الله تعالى إلى أن يوفقهم للخير، وألا يجعلهم من الأشقياء، دعوا ربهم أن يكتب لهم فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة، وحسنة الدنيا هى الحال الطيبة التقية النقية الطاهرة التى تكون غايتها إرضاء الله تعالى، والبعد عن معصيته وفى الآخرة، والدعوة إلى الكتابة فى الدنيا، دعوة إلى العمل الطيب، فحسنة الدنيا عمل صالح ونفع وخير، وأن يكونْ مصدر خير دائم، وفى الآخرة تكون الحسنة جزاء يكون وفاقا للعمل.

ولقد ذكر الله تعالى حسنة الدنيا، وطوى فى الذكر حسنة الآخرة؛ لأنها ليست عملا، بل هى جزاء على عمل فى الدنيا ثمرة الأولى، فمن حسنت دنياه وكانت للخير، حسنت آخرته، وكانت نعيما مقيما.

﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ... (١٥٦) ﴾ وهو لمن اختار النفس والهوى، ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ وذلك لمن اختار طريق الحق والهداية كما قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) ﴾ [الشمس]، وقال تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) ﴾ [البلد] أى نجد الخير، ونجد الشر.

وقد أسند العذاب إليه وإلى مشيئته سبحانه لعظم العقاب، ولبيان أنه حق، وأنه من عند الله، وقد كتب العدل على نفسه كما جاء فى الحديث القدسى(١)،

---

(١) عَنْ أَبِى ذَرٍّ عَنْ النَّبِىِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: « يَا عِبَادِى إِنِّى حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِى وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلا تَظَالَمُوا». جزء من حديث طويل رواه مسلم وقد سبق تخريجه.

فهو العدل وهو خير الفاصلين، وقدم الله تعالى ذكر العذاب على الثواب؛ لأنه يكون لمخالفى الفطرة وللتحذير قبل التبشير، ليختار المكلف نجد الخير .

وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ العموم فيها عموم كامل صادق، وقال سبحانه وتعالى: ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ ولم يقل كل شخص، للإشارة إلى أن الرحمة شاملة عامة للأشياء والأشخاص، فشريعته عدل ورحمة وإرساله الرسل عدل ورحمة وخلقه الكون وما فيه من شمس مشرقة مضيئة للكون، وقمر منير، ونجوم ذات بروج، وسحاب ورياح مرسلات رحمة، وهكذا كل ما سخره الله تعالى للإنسان، وما مكنه منه رحمة به.

هذه إشارة إلى معنى العموم الذى اشتمل عليه ذلك النص السامى، وما ترمى إليه رحمته، وإن نعيم الجنة رحمة من الله، وقد كتبها الله تعالى للذين يؤمنون بالله وبالآخرة؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾.

الفاء هنا لتفصيل بعض العام، والسين لتأكيد المستقبل، و«أكتبها»، أى أسجلها غير قابلة للمحو، وذكر أعمال أو أوصاف من يستحقونها، فكانت خصالا ثلاثا:

الأولى ـ التقوى واستشعار مخافة الله، وأن يتخذوا وقاية بينهم وبين الشر، وذلك بتهذيب أنفسهم بالعبادات المهذبة للنفس، التى يستشعر فيها المؤمن خشية الله تعالى، وابتدأ ـ سبحانه وتعالى ـ بها لأنها أساس قوة الخير، وهى روح التدين، وعمران القلب بذكر الله تعالى.

الثانية ـ الائتلاف مع المجتمع الإسلامى بالمعونة والبر، وأشار بذلك إلى إيتاء الزكاة، فهى أساس التعاون الاجتماعى، وهو سبحانه يذكرها بجوار التقوى، وهى

الكلمة الشاملة لأكثر العبادات تقريبا لله ـ سبحانه وتعالى ـ وإن التعاون الإنسانى قرين العبادات، بل هو منها، وأقربها عند الله ـ سبحانه وتعالى.

الثالثة ـ أنهم يؤمنون بآيات الله تعالى وحدها، يؤمنون بالمعجزات ولا يؤمنون بما يحيط به المشركون أنفسهم مما يثيرونه من أهواء ومفاسد وجحود، ولذا قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ وقد قدم فيه الجار والمجرور على كلمة يؤمنون للدلالة على أنه لايصح أن يؤمن بغيرها، والإيمان بآيات الله إيمان بما دلت عليه، وهدت إليه من إيمان بالوحدانية، وحدانية الله تعالى بألا يشرك به شيئا، وأكد سبحانه وجوب هذه الخصلة بثلاثة مؤكدات.

أولها ـ أنه كرر الموصول، فإن التكرار تأكيد، فقال: ﴿ **وَالَّذِينَ** ﴾.

وثانيها ـ التعبير بالجملة الاسمية.

وثالثها ـ بضمير الفصل، وأخيرا بذكر كلمة ﴿ **يُؤْمِنُونَ** ﴾، فإن التعبير بالمضارع يفيد استمرار الإيمان وتجديده بالزيادة آنا بعد آن. جعلنا الله تعالى ممن كتب له رحمته برحمته وغفرانه.

النبى الأمى المبشر به فى التوراة والإنجيل

ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ
فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ
عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ
ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ
عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟

ﭐلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

إن ذلك القصص القرآنى فيه تسلية للنبى ﷺ، وشد لعزيمته، وعزاء للنبى ﷺ بكفر الأقوام الذين كفروا بالأنبياء قبله كقوم نوح وصالح وهود، وموسى من بعد هؤلاء، وفى هذه الآيات الكريمات مع العزاء الربانى وشد العزم المحمدى، بيان أن النبى ﷺ مبشر به فى التوراة والإنجيل، وأن اليهود الذين يعاندون محمدا ﷺ مخاطبون، وأنه إليهم جميعا، وأن اتباعه واجب عليهم، وأنهم ينحرفون عن دين موسى - عليه السلام - إن لم يؤمنوا به، وبهديه الذى جاء إلى الخليقة الإنسانية كلها به.

ولذا قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾ بدل اشتمال من قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أو تكون منصوبة على التخصيص، ويكون المعنى أن الذين كتب الله تعالى عليهم الرحمة؛ الذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم به يؤمنون، ويخص - سبحانه - الذين يتبعون النبى الأمى الذى يجدونه إلى آخر الآية الكريمة، وكان تخصيص الذين يتبعون النبى ﷺ؛ لأنهم يؤمنون بكل الأنبياء، ولأنه خاتم النبيين، ولأن شريعته هى الشريعة الخالدة الباقية إلى يوم الدين، وهو خاتم النبيين، فكان أتباعه جديرين بالتخصيص، ولأنهم شهداء على الناس مكلفون تبليغهم والنبى ﷺ شهيد عليهم، وهو مبلغهم والشاهد عليهم

بوجوب التبليغ، ونشر الإسلام، والدعوة إليه، من أجل هذا خصوا بالبيان بين الذين كتب الله تعالى لهم الرحمة.

وقوله تعالى: ﴿الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾ نقول فى الكلام فى معناه: الرسول هو المرسل من قبل واحد إلى واحد أو جماعة، والرسول فى القرآن الكريم هو المرسل من الله تعالى لخلقه لتبليغ شريعته وبيان التكليف الذى كلف الناس إياه، والنبى الذى أنبأه الله تعالى، وشرفه بتلقى وحيه، وإن وصف النبى ﷺ بالرسالة والنبوة فيه للملزوم واللازم، فإن الرسالة تلزمها النبوة فى المعنى القرآنى؛ لأنه لا يعد رسولا إلا إذا كان نبوة عن الله، وقد تلقى العلم عن الله جل جلاله بوحى، أو يكلمه من وراء حجاب أو يرسل رسولا.

وذكرها ـ أى وصف الرسالة والنبوة ـ مع هذا التلازم فيه إشارة إلى التبليغ، وإلى أنه يُنبأ من الله تعالى، والأمى نسبة إلى الأم، أى أنه جاء فى العلم والكتابة كما ولدته أمه، أو نسبة إلى أمه؛ ذلك أن العرب لم يكونوا أهل علم وكتاب، فلم تغلب عليهم العلوم والكتابة، وإن كان فيهم من يعرفون الكتابة وبعض العلوم، ولذا كان يطلق عليهم الأميون، وذكر القرآن الكريم ذلك الوصف لهم، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ... ②﴾ [الجمعة].

ولقد كان النبى ﷺ أميا لا يقرأ ولا يكتب لتكون الحجة عليهم قاطعة بنزول القرآن الذى فيه علم الأولين والآخرين، وهو لا يمكن أن يكون من أمى قط، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ④⑧﴾ [العنكبوت].

ولقد حاول الذين لا يرجون للإسلام وقارا أن يكذبوا فيدعوا أن النبى ﷺ كان يعرف القراءة والكتابة ليشككوا فى القرآن، وقد حاول بعض المتحذلقين من المسلمين أن يقول فى هذه المقالة الكاذبة فردهم القرآن الكريم ردا عنيفا؛ لأنهم يسايرون الكفار الكذابين.

هذه أوصاف ثلاثة. ووصف رابع ذكره الله تعالى بقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾، وهذا الوصف يدل على أمر بالنص، وهو أنهم يجدون النبى ﷺ مذكورا مكتوبا فى التوراة والإنجيل، ويدل على أمرين آخرين:

أولهما ـ وحدة الديانات السماوية فهى تدعو إلى دين واحد، قد تتغاير بعض الفروع، ولكن الأصل واحد. كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ... (١٣)﴾ [الشورى].

وإن اليهود والنصارى قد حرفوا القول عن مواضعه، وغيروا وبدلوا، ولا يزالون يغيرون، ويبدلون على حسب أهوائهم، وقد ظهرت فى مصر طبعة لإنجيل متى فيها تغيير عن سوابقها، ولا تكاد تجد نسخة مكتوبة فى مصر، تتلاقى فى كل أجزائها مع التى جاءت من بعد، يغيرون لفظا بدل لفظ، ويزيدون قيدا أو شرطا، ولا يلمح ذلك القارئ العادى بادئ ذى بدء حتى يخفى ذلك على عامتهم بل بعض خاصتهم.

لقد ذكر النبى ﷺ بالاسم وذكر بالوصف، فغيروا الاسم وأحاطوه بما يجعله مبهما مع ملاحظة اختلاف اللغة العربية على اللغة العبرية.

ولكن الأوصاف لم يستطيعوا تغيير كثير منها، وهم يحاولون التغيير، ولنأت بنصين أحدهما من التوراة، والثانى من الإنجيل، وهما لم تمتد إليهم أيدى التبديل والتحريف ونرجو ألا يغيرا من بعد.

ما فى التوراة ـ جاء فى الإصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية: «جاء الرب من سيناء، وأشرق لنا من سعير، وتلألأ من جبل فاران، وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم».

وصريح أن إشراق الرب من سيناء هو إنزال التوراة، وإشراقه من سعير ـ وهى موضع بالناصرة ـ إنزال الإنجيل، وإشراقه من فاران، وهى مكة أو ما

حولها، لأنها التى نزل بها إسماعيل، كما جاء فى التوراة نفسها فقد جاء فيها: «أنجبت هاجر ابنا لإبراهيم وكان هذا الابن قرة عينها وبهجة قلبها ولكن سيدتها سارة حاولت إذلالها فاستجارت بزوجها إبراهيم لكنه تركها لسيدها بقوله لها: هو ذا جاريتك، فاشتدت بها إيلاما وإيذاء حتى هربت ترجو النجاة مما ألم بها، فقابلها ملاك الرب فى الطريق فقال: مالك يا هاجر، وقال لها شدى بابنك لأنى سأجعله أمة عظيمة، وفتح عينيها، فأبصرت بئر ماء، فذهبت وملأت القربة، وسعت بالغلام فكان الله مع الغلام فكبر وسكن فى برية فاران».

وإشراق الرب فى فاران إذن هو إنزال القرآن (راجع رسالة بشرى زخارى ميخائيل بعنوان: محمد رسول هكذا بشرت الأناجيل).

وجاء فى إنجيل يوحنا وهو بعض ما فى الأناجيل - التبشير بلفظ «الفارقليط»، ففى الإصحاح الرابع عشر من هذا الإنجيل جاء النص التالى على لسان المسيح: «إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى وأنا أطلب من الآب، فيعطيكم فارقليط آخر، ليثبت معكم إلى الأبد، وهو روحُ الحق الذى لا يطيق العالم أن يقبله لأنه ليس يراه، ولا يعرفه وأما أنتم فتعرفونه، لأنه مقيم عندكم، وهو ماكث فيكم».

وجاء فى الإصحاح السادس عشر من هذا الإنجيل «لكنى أقول لكم الحق، إنه خير لكم أن أنطلق؛ لأنه إن لم أنطلق لا يأتكم الفارقليط، فأما إذا انطلقت أرسلته إليكم، فأما إذا جاء فهو يبكتُ العالم على خطيئته وعلى بر، وعلى دينونة. أما على الخطيئة فلأنهم لايؤمنون بى».

راجع المرجع السابق فهو يبين أن مجىء الفارقليط هو مجىء محمد ﷺ وصدق الله تعالى: ﴿**الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ**﴾ وقد ذكر الله تعالى ما يقوم به الرسول النبى الأمى، فقال: ﴿**يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾.

هذا أحد أمور أربعة خص الله تعالى رسالة محمد ﷺ بها، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وصف عام للشريعة الإسلامية، فكل أمر تأمر به من الحلال، وتكلف الناس أن يقوموا به هو من الأمور التى تقرها العقول، وتعرفها، إذ المعروف الأمر الذى ترضاه العقول، وتراه صالحا مصلحا للناس، تقره وتعرفه بفطرتها، ودين الفطرة يأمر بكل ما يستقيم مع الفطرة، فالعبادات كلها، ومنها الزكاة تقرها الفطرة، والعقل المستقيم، والوفاء بالعهود، وجهاد الأشرار لحماية الفضيلة، وإقامة الحدود، والقصاص من المعتدين تقره الفطرة ويؤيده العقل.

وكل أمر نهى عنه الإسلام هو من الأمور التى لا تقرها العقول، وتتجافاه، فالزنا والسُّكر، وقذف الأطهار، والاعتداء على الأنفس والمال، ومحاربة العدل، ونصرة الظالمين والرضا بظلمهم أمور تنكرها العقول السليمة وتجافيها. وقد سئل أعرابى أسلم: لماذا آمنت بمحمد؟ قال: ما رأيت محمدا يقول فى أمر افعل والعقل يقول لا تفعل، وما رأيت محمدا يقول فى أمر لا تفعل والعقل يقول افعل.

والأمر الثانى الذى ذكره القرآن مما يفعله النبى ﷺ ودعا إليه فى رسالته ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾، والطيبات هى الأمور المستحسنة فى ذاتها، من أطعمة طيبة مريئة، هنيئة، لا تفسد الأجسام ولا تضر العقول، ولباس حسن من غير إسراف ولا مخيلة، ولذَّات طيبة فى حدود الخُلق والمروءة، وتصرفات طيبة لا اعتداء فيها، ولا نكث وخيانة، وغير ذلك مما هو طيب فى ذاته، وحصل عليه بطريق طيب أحله الله تعالى ولا اعتداء فيه ولا اغتصاب.

﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ وهى الأشياء الخبيثة فى ذاتها التى تضر الأجسام، كالخنزير والميتة والدم المسفوح أو تضر العقول كالخمر، أو تلقى بالعداوة بين الناس كالميسر والبغضاء أو الاعتداء على حق غيره بالسرقة والاغتصاب أو القتل، فكل هذه خبائث تدخل فى باب الفحشاء والمنكر والبغى، وكذلك أكل أموال الناس بالباطل كالربا ونحوه.

والأمر الرابع ذكره سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ﴾ والإصر هو الثقل، والمراد ثقل التكليفات فلم تكن تكليفاتهم يسيرة، بل كان فيها شدة وكان فيهم غلظة فى طباعهم، وقسوة فى نفوسهم، فكان تشديد التكليف عليهم تهذيبا لهم، وكفا لشَّره فى نفوسهم، فكان لابد لفطمهم عن بعض الطيبات، كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ... (١٦٠)﴾ [النساء]، أى هى فى أصلها حلال.

وقال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦)﴾ [الأنعام].

ومما رفعه سبحانه وتعالى: ﴿وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ والأغلال جمع غل، وهو ما يوضع فى العنق فى مخنقة ليثقل ويوضع كذلك تقييدا لحركته وإثقالا عليه، والمراد هنا ما وضع من قيود فى الحلال عليهم تهذيبا كتحريم الصيد يوم السبت، ومنع بعض المحللات فى ذاتها، ولكنها حرمت عليهم تربية لهم.

والأغلال مجاز عن هذه القيود التى شدد الله بها على نفوسهم لقمعها عن الإسراف فى الشهوات، شبهت هذه القيود بالأغلال الحسية؛ لأنها ثقيلة على النفوس المستقيمة، ولكنها علاج للنفوس المريضة السقيمة، وإن شريعة النبى الأمى جاءت موائمة للفطرة السليمة جاءت لليسر، دون العسر، وكانت عزاءً للإنسانية كلها لا فرق بين أحمر وأسود، وهى الباقية ما بقى الإنسان.

وإذا كان محمد ﷺ قد جاء برفع الآصار فإن الواجب تأييده ونصره؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

الفاء هنا للإفصاح عن شرط مقدر يتضمن الكلام المتقدم فحواه، ومؤدى القول إذا كان هذا النبى الأمى ينعم الله على يده عليكم تلك النعم، وهو قد جاء بالحق فى ذاته، ورفع عنكم الآصار والأغلال؛ فعزروه أى فوقروه وأيدوه،

وانصروه على من يعادونه، فإن نصرته تأكيد للحق، وشكر للنعمة، وقيام بواجب الحق على أهله.

وكلا الأمرين واجبان بالنسبة للنبى الأمى، وهناك واجب أعظم، وهو جماع الإيمان، وفيه تنفيذ أحكام الرشاد، وهو ما قال الله تعالى: ﴿ **وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ** ﴾، أى أنزل من عند الله تعالى ومصاحبا لدعوته، مؤيدا لرسالته وهو المعجزة الكبرى الخالدة، وهو القرآن، والتعبير عنه بالنور فيه استعارة فقد شبه بالنور؛ لأنه مبين للحقائق مزيل للجهالات، دافع للأوهام، كما أن النور يزيل غياهب الظلام.

واتباع القرآن اتباع لصراط الله المستقيم الذى لا عوج فيه، وهو الخلاصة الإلهية للرسالة الإلهية، وهو سجل النبوات جميعا، فيه أحكامها، وأخبارها، ومعجزاتها.

وقد حكم الله سبحانه وتعالى على الذين قاموا بهذه الصفات بأنهم الفائزون فى الدنيا باتباع الحق، وأن حياتهم كلها فاضلة وأن تكون حياتهم فى الآخرة نعيما مقيما، ورضوانا من الله العزيز الحكيم، وهو أكبر الفوز العظيم؛ ولذا قال تعالى: ﴿ **أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾.

والإشارة إلى الصفات، يفيد أنها علة الحكم وسببه، أى بسبب هذه الصفات ينالون الفلاح فى الدنيا والآخرة؛ لأن الهداية والاستقامة فلاح لا يدركه إلا من استقامت إلى الحق نفوسهم.

وقد أشار - سبحانه وتعالى - بالبعيد للدلالة على بعد الشرف، وعلو المنزلة، وقد قصر الله تعالى الفلاح عليهم، بتعريف الطرفين، وبضمير الفصل، أى أنهم المفلحون، ولا يفلح سواهم، والقصر قصر حقيقى، إذ إنهم سلكوا الصراط المستقيم، ومن لم يسلك سبيل الله فقد سلك مثارات الشيطان، وهذا فرق ما بين الهدى والضلال.

وإذا كان ذلك طريق الفوز عند الله، وفى الحياة الدنيا والآخرة فإن الإنسانية كلها مخاطبة بها، ولذا قال تعالى آمرا نبيه بخطاب الناس كافة بهذه الشريعة السمحة البيضاء.

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) ﴾.

إن شريعة النبى الأمى هى شريعة الناس جميعا لا فرق بين أحمر وأسود وأصفر، ولذلك أمره الله تعالى أن يخاطب بها الناس جميعا؛ ولذلك كان الخطاب بقوله: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** ﴾ لا فرق بين قبيل وقبيل وجماعة وجماعة، فما كان ما اشتملت عليه رسالتى علاجا لجماعة ظهرت فيها أمراض نفسية واعتقادية ولكن لصلاح البشرية أينما كانوا، وكما قال تعالى على لسان نبيه: ﴿ ... **لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ** ... (١٩) ﴾ [الأنعام].

ولذا نادى الناس، ولم يختص بندائه المؤمنين، بل عم بندائه الناس، وأكد هذا التعميم بقوله تعالى: ﴿ **جَمِيعًا** ﴾ وبأن الرسالة إليكم معشر الناس أجمعين. وإن الرسالة السامية ذات خطر وشأن، وتجب طاعتها، والاستجابة لها، وذلك لأنها من الله تعالى: ﴿ **الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ فله ملك الكون والسلطان وهو مالك كل شىء فهذا الوصف، لإلقاء مهابة الرسالة فى نفوس الناس، فهى رسالة من ملك السموات والأرض، وله السلطان المطلق فيها، ولا يوجد سلطان مطلق فى الوجود لغيره، وهو العزيز الرحيم.

وهو لا يملك السموات والأرض وما فيهما من أكوان فحسب، بل يملك كل حى فيها من نبات وحيوان وإنسان، وهو الذى يملك الحياة والموت؛ ولذا قال تعالى: ﴿ **يُحْيِي وَيُمِيتُ** ﴾.

وإذا كان له الملك هو مالك كل شيء، ومالك الحياة والموت لكل الأحياء، فإنه الجدير بالعبادة، وحده وهو الذى يكرم رسوله، فمكانة الرسول مستمدة من مكانة من أرسله، ولذا قال تعالى: ﴿ **فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ** ﴾ الفاء هنا لربط ما قبلها بما بعدها برابطة السببية، أى ما ذكر من كمال سلطانه فى الكون جماده، والأحياء فيه.

والإيمان بالله تعالى هو الإيمان بوجوده، وأنه الخالق الفاعل المختار، وأنه صاحب السلطان فى الأكوان والإنسان، وأنه المعبود وحده بحق، ولا معبود بحق سواه، وبعبارة أعم الإيمان بالله وبوحدانيته فى الخلق والتكوين والذات والصفات والإيمان بالله تعالى إلها معبودا.

والإيمان بالرسول: التصديق به رسولا من رب العالمين، والإيمان بصدق ما يدعو إليه، وأنه من عند الله العليم الحكيم واتباعه فى كل ما جاء به، والاقتداء به، واتخاذه أسوة فى العمل الصالح الذى يهدى إليه، ووصفه سبحانه بثلاثة أوصاف تفيد كماله فى رسالته.

الوصف الأول: أنه النبى أى الذى يخبر عن الله تعالى، وأن ما يدعو إليه هو ما كلفه الله إياه ﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ... (٨٠)** ﴾ [النساء].

والوصف الثانى: أنه الأمى، الذى ينطق بالفطرة وبالوحى، وأن حاله تدل على صدق معجزته، وأنه لا علم عنده إلا ما علمه الله تعالى رب العالمين، وإن ما معه من كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه تنزيل من عزيز حميد.

والوصف الثالث: ما ذكره ـ سبحانه وتعالى ـ بقوله: ﴿ **الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ** ﴾ وإيمانه بالله هو ما ذكرنا، وإيمانه بكلماته هو الإيمان بالقرآن، فهو

كلمات الله التامة الكاملة التى لا يعادلها أو تقارب أى كلام من البشر، والذى تحدى الناس أن يأتوا بسورة منه فعجزوا فقامت عليهم الحجة.

ورجح بعض المفسرين أن كلمات الله تعالى لا تخص القرآن وحده، وإن كان أكملها، وأبقاها، إنما يشمل الكتب التى نزلت على النبيين من قبل من التوراة والإنجيل والزبور، وغيرهما مما لم يذكره الله ـ سبحانه وتعالى ـ وإن هذا يدل على أن رسالة كل الأنبياء واحدة.

وذكر الإيمان بالله وبكلماته فى هذا الموضع للدلالة على أنها رسالة واحدة، وهى الإيمان بالله وأنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذى ليس بوالد ولا ولد.

وإذا كان النبى ﷺ على هذه الأوصاف السامية التى اختصه الله تعالى بها فإن الإيمان به واجب، واتباعه اتباع لأمر الله ونهيه؛ ولذا قال تعالى: ﴿**وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾، الفاء لربط ما قبلها بما بعدها بالإفصاح عن سببيتها لرجاء الاهتداء، والرجاء من العباد لا من الله تعالى؛ لأن الله تعالى لا يرجو إنما يرجو عباده، يرجون بالإيمان بالنبى ﷺ واتباعه أن يهتدوا إلى الحق والبر، فيهتدوا إلى الجنة وهى نعم الجزاء الأوفى.

والآية دليل على عموم الرسالة المحمدية، وأنه ـ عليه السلام ـ بعث للألوان كلها، وكما قال ﷺ: «كان كل نبى يبعث فى قومه، وإنما بعثت فى الأحمر والأسود»[(١)].

وروى مسلم عن النبى ﷺ قال: «والذى نفسى بيده لا يسمع بى رجل من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى، ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار»[(٢)].

---

(١) رواه أحمد: باقى مسند المكثرين - مسند جابر بن عبد الله (١٣٨٥٢).

(٢) رواه مسلم: الإيمان - وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم(١٥٣)، وأحمد بنحوه: باقى مسند المكثرين(٢٧٤٢٠).

عود إلى بنى إسرائيل

وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾
وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ
إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ
فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ
مَّشْرَبَهُمْۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ
وَٱلسَّلْوَىٰۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ وَمَا
ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ
قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ
شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ
لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾
فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟
يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

إن القرآن الكريم ينصف القلة من الكثرة، فإذا كانت الكثرة طاغية عاتية، وفيهم قلة هادية مرشدة؛ يذكر القرآن الكريم أهل الخير من بينهم، وإن طغى الشر فى جمعهم، وصار الفساد هو المظهر فيهم.

ولذا قال تعالى فى وسط بيان مآثم اليهود: ﴿**وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ**﴾، أى ومن هؤلاء الذين كانت فيهم عبادة العجل، وكان منهم من قالوا: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، من هؤلاء جماعة كأنهم أمة وحدها منفصلون

بشعورهم وعقولهم عنها؛ ولذلك عبر بأمة من حيث إنهم قد اجتمعوا على طاعة الله وطاعة رسوله موسى، وذكرهم منتسبين إلى موسى، إشارة إلى اتباعهم له، وأنهم قومه الحقيقيون الجديرون بنسبتهم إليه، وهم منه وهو منهم وذكر الله تعالى لهم وصفين هما كمال فى كمال:

أولهما ـ أنهم يهدون بالحق، أى أنهم فى وسط انحراف بنى إسرائيل إخوانهم وبنى جلدتهم ونسبهم يدعون بالحق، أى يعلنونه ويدعون إليه، ويؤمنون به غير محرفين، والهداية بالحق كلمة جامعة للدعوة بكل ما هو خير، يهدون إلى التوحيد، وهو الحق أو من الحق، ويدعون إلى طاعة موسى وهى حق، ويدعون إلى شكر نعمة الله التى أنعمها عليهم، ،ويذكرون آلاء الله تعالى عليهم، ونجاته‍م من فرعون، ويعبدون الله وحده .

الوصف الثانى ـ ذكره الله تعالى بقوله: ﴿**وَبِهِ يَعْدِلُونَ**﴾، أى بالحق وحده يزنون كل شيء، فيزنون كل قول وفعل يكون فى جماعتهم بميزان الحق وحده لا بميزان الهوى والشهوة، فإنها والحق نقيضان لا يجتمعان. وقدم الجار والمجرور للدلالة على قصر الحكم على الحق وحده لا يحكمون بغيره، ولا يتجهون لسواه، وهذا النص الكريم مثله قوله تعالى: ﴿**لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ** (١١٣)﴾ [آل عمران]، وقوله تعالى: ﴿... **مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ** (٦٦)﴾ [المائدة].

وهكذا شأن الكتاب الحكيم لا يدغم الخير فى الشر، بل يخص الخير بالذكر، ويخرجه من وسط ظلمات الباطل.

وقد أخذ ـ سبحانه وتعالى ـ يعرض من بعد ذلك قصص الذين انحرفوا عن الحق من بنى إسرائيل، ومنعوا وصول الحق إلى قلوبهم.

وقد ذكر بعض هذا القصص فى آيات أخر، ولكنه سيق لا لأجل التكرار، بل لأنه تكملة لعبرة جديدة تساق، ولا تذكر مقطوعة عن أصلها، ولأن الذى لم

يذكر فى الماضى لا يتم بيانه إلا بربطه بما مضى من القول، ليكون الكلام بينا ولتكون العبرة واضحة بينة.

ابتدأ سبحانه وتعالى بذكر تقسيمهم إلى أسباط، وشعب بنى إسرائيل فقال تعالت حكمته:

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾.

قلنا: إنه ليس فى القرآن قصة مكررة تكرارا كاملا من غير زيادة، إنما الذى فى القرآن يكون التكرار لخبر لم يذكر فى القصة فى موضع، ويذكر فى الموضع الآخر، ويقتضى إعادة أجزاء ذكرت ليكون التناسق بين القصة فى أصلها وفى أحداثها، وكذلك الأمر فى قصة أسباط بنى إسرائيل، فلم يذكر تقسيمهم من قبل هذه الآيات فى القرآن، وفى هذه ذكر خبر التقسيم، وحكمته، ذلك أن بنى إسرائيل قطعة جماعية واحدة، فرقها الله تعالى أقساما ليعنى كل قسم بنفسه، ويندمج من بعد ذلك فى المجموع بالتأليف، فإن الجماعات لا تصلح بمجموعها ابتداء، إنما تصلح بأجزائها أولا ثم تنضم الجماعات الصغيرة أو الأجزاء بعضها إلى بعض، وتتآلف صالحة متعاونة على البر والتقوى غير متعاونة على الإثم والعدوان؛ ولذلك كان فى سنة الاجتماع إصلاح المجتمعات الصغيرة فى القرية أو أحياء المدينة، لتتآلف مع المجتمع الأكبر، كما فعل النبى ﷺ فى الأمة الإسلامية التى ابتدأ بها المجتمع فى المدينة، وكما قوى الإسلام مجتمع الأسرة، ليكون بتآلفه قوة المجتمع الأكبر.

قسم الله تعالى بنى إسرائيل أسباطا، لتتعاون كما يتعاون أقارب القاتل خطأ فى دفع الدية.

والأسباط جمع سبط وهو الفرع من فروع بنى إسرائيل، وقال بعض الكتاب: إنه بمنزلة القبيلة فى العرب، ولكن على أساس التعاون والمناصرة، لا على أساس المعاداة بين القبائل والعصبية، كما هو فى جاهلية العرب.

وقوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾ فيه إشارتان بيانيتان:

إحداهما ـ فى التعبير بكلمة ﴿قَطَّعْنَاهُمُ﴾ فإنها تدل على كمال الصلة بينهم، وأنهم كقطعة واحدة، قطعت أجزاؤها وهى متجاذبة يجذب بعضها بعضا لا نفور بينها ولا تنافر، بل تواصل وتراحم بينهم، ولكن ليصلح كل أمره فى خيره ويلتقى الجميع على مودة ورحمة.

وثانيتهما ـ أن قوله: ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ عبر بالجمع الدال على تأنيث المعدود مع أن أسباطا ليست جمعا لمؤنث، بل جمع سبط، وهو ولد الولد ولكن قالوا إنه ـ سبحانه وتعالى ـ بعد ذلك قال: ﴿أُمَمًا﴾ على أنها بدل، أى أن هؤلاء الأسباط أمم فلوحظت كلمة أمم، وهى غاية التقسيم، وهى جمع أمة وهى مؤنث لفظى.

وذكر ـ سبحانه وتعالى ـ التعبير عن الأسباط بالأمم لمعنى التعاون بين كل سبط كأنه أمة مجتمعة متحيزة متعاونة فى الخير، ثم من بعد ذلك يكون التعاون بين أمة بنى إسرائيل، وهى الجماعة الكبرى لهم. ولقد ذكر سبحانه أحكاما ذكرت من قبل على أنها نعمة فى ذاتها، وتذكر الآن على أنها اجتمعت لطلب النعمة، واجتمع بعضها على الكفر بها، فذكر ـ سبحانه ـ ما طلبوه، وذكر ـ سبحانه ـ ما أكرمهم به رفعا للألم عنهم.

وأول أمر طلبوا وهم فى هذه الصحراء المجدبة الاستسقاء أى طلب الماء لشربهم فقال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ انبجست أى انفجرت، وكلمة انبجست تدل على أن الانفجار كان من حجر، لا من تراب سهل، وهو موضع من مواضع الإعجاز؛ لأن خروج الماء من الأرض السهلة كثير معهود، ولكن خروجه من الحجر هو أمر خارق للعادة وكانت المعجزة الأخرى أنها انفجرت عيونا على قدر عددهم، وهو اثنتا عشرة عينا، فكان إخبارا بأن كل سبط له عين قائمة بذاتها.

وقد قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ معناها أنه علم كل سبط من الأسباط المكان الذى يشرب منه فلا يتزاحموا على مشرب واحد، فيأخذ كل الماء براحة من غير مشاحة ولا تزاحم.

والنعمة الثانية ـ أن الله تعالى ظللهم بالغمام ليدفع حر النهار ووهج الشمس، فقال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾.

والنعمة الثالثة ـ أن الله أطعمهم فى وسط هذه الأرض المجدبة التى لا زرع فيها ولا ثمر، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ وقد ذكرنا معناهما فى سورة البقرة، وكيف تململوا منها مع طيبها، وجودة غذائها، وأمرهم سبحانه أمر إباحة بأن يأكلوا منها طيبة، فقال تعالى: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ و«من» هنا بيانية والمعنى كلوا طيبات ما رزقناكم، والمغزى وصفها بأنها طيبة كلها، ومن البيانية دالة على كمال طيبها، وكمال الإنعام بها.

ولكنهم كفروا بالنعمة ولم يقوموا بشكرها، وما ظلموا الله بكفر النعمة، ولكن ظلموا أنفسهم بهذا الكفر لأنه انهواء لنفوسهم، وحط من كراماتهم، وتسهيل للذلة عليهم؛ لأن الطاعة عزة، والعصيان ذلة لذوى النفوس المدركة؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، أى لم يظلموا إلا أنفسهم، ولذا قدم الجار والمجرور على الفعل، وتأكد ظلمهم لأنفسهم وحدها بـ«كانوا» الدالة على الاستمرار باستمرار عصيانهم، والله تعالى هو العدل الحكيم.

وقد ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ ما كان منهم من الكفر بهذه النعمة، فقال:

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١)﴾.

طلبوا أن يغيروا نوع الطعام الذى أنزله تعالى عليهم، وقالوا: لن نصبر على طعام واحد، وهو الذى كان فى الصحراء إذ أنزل عليهم المن والسلوى، فأمرهم الله تعالى أن يدخلوا قرية فيها الطعام الذى يريدونه وقال لهم: ﴿اسْكُنُوا هَذِهِ

﴿الْقَرْيَةَ﴾ التى فيها أنواع من الأغذية فيها فومها وقثائها، وسائر بقلها، وقال لهم مبيحا لهم الطيب منه: ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾، أى مكان للنبت شئتم، مما تنبت الأرض، من طعام مختلف ألوانه.

وأمرهم ـ سبحانه ـ وقد مكنوا من العيش الذى يريدونه رغدا أمرين:

أحدهما أن يقولوا حطة، والثانى أن يدخلوا ساجدين.

ومعنى حطة: دعاء الله تعالى أن يحط عنهم ذنوبهم التى ارتكبوها، من عبادتهم للعجل، وطلبهم أن يكون لهم آلهة، كما لهؤلاء آلهة، ومن كفرهم بنعم الله، ومن قولهم لموسى: ﴿... لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ... (٥٥)﴾ [البقرة] وأمرهم سبحانه على لسان موسى ـ عليه السلام ـ أن يكونوا مع ذلك خاضعين خاشعين ساجدين، وهذا ما دل عليه قوله: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾، أى ادخلوا باب المدينة سجدا، أى خاضعين خاشعين، أى طالبين فى ضراعة غفران الذنب.

وقد سرنا فى هذا على أن القرية قرية تحقق فيها ما طلبوه من ألوان الطعام، ولكن بعض المفسرين ذكر أنها الأرض المقدسة أو بيت المقدس، فما مقدار قولهم من الصحة؟

لقد ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى سورة المائدة ما يفيد أنهم لم يدخلوها فى حياة موسى ـ عليه السلام ـ بل دخلوها من بعده فقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (أى أن تدخلوها) ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا

فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦) ﴾.

وإن هذه الآيات الكريمة تومئ إلى أن دخول الأرض المقدسة رغبوا فيه فى عهد موسى، ولكن لم يدخلوها فى عهده ـ عليه السلام ـ ولكن دخلوها فى عهد الأنبياء من بعده.

والآيات الكريمة التى نتكلم فى معانيها السامية تومئ إلى أن طلب دخول القرية كان فى عهد موسى ـ عليه السلام ـ لأنه متناسق مع ما قبلها وما بعدها.

ولذا نميل إلى أن هذه القرية غير الأرض، وإن الأرض المقدسة ذكرت بعنوان الأرض المقدسة، لا بعنوان القرية فإنها ليست ككل القرى.

وقوله تعالى: ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ﴾ جواب فعل الأمر فى قوله: ﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾. وقد زادهم الله تعالى نعمة فوق نعمة الغفران، وهى نعمة الثواب، والرحمة بنعيم الجنة، فقال تعالى: ﴿ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ والسين لتأكيد الزيادة للمحسنين وهم الذين يؤدون واجبهم، ويخلصون لربهم.

ولكن لم يغفر الله لهم خطاياهم، لأنهم لم يطيعوا وعصوا عابثين بأمر ربهم؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢) ﴾.

طالبهم الله تعالى بأن يقولوا وهم يدخلون: حطة، أى حط علينا ذنوبنا، فبدلوا ذلك الأمر المعنوى الذى كلفهم الله تعالى، وهو غفار لمن تاب، بدلوه بما يدل على ماديتهم، واستغراق الملاذ الجسمية، فقالوا: «حنطة» أى طعاما، فماضيهم كحاضرهم لا يطلبون إلا المادة ولا يبغون غيرها سبيلا ولا مطلبا، وكأنهم يستخفُّون بأمر الله تعالى، وطلب غفرانه، ويطلبون ما تهوى أنفسهم، فلا يطلبونه، كما تقول لرجل اطلب مغفرة الله، فيطلب مأكلة لا مغفرة.

وذلك كفر يضاف إلى كفرهم، ولذا قال سبحانه وتعالى:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾.

أى أن الله تعالى عاقبهم عقوبة دنيوية بعذاب أنزله الله تعالى بهم من السماء بأن أرسل عليهم حاصبا يتعبهم ويعذبهم ولا يبيدهم، وقيل لطاعون أصابهم، والله أعلم بما أنزل بهم، وما دام سبحانه لم يبينه، فلنعلمه ولا نفصله؛ لأنه سبحانه لم يفصله، وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ أى بسبب ظلمهم، واستمرارهم عليه، فلا يرعوون عن عيهم، ويلاحظ هنا أمران:

أولهما ـ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ نسب تبديل القول إلى بعضهم دون كلهم، فقال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ وكأنهم كانوا صنفين ظالما وعادلا، فبدل الظالم ولم يبدل العادل، ولكن فى العذاب ذكرهم جميعا، ولم يذكر بعضهم، فهل طغى ظلم الظالمين على غيرهم كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ... (٢٥)﴾ [الأنفال]. الظاهر ذلك؛ لأن العادلين رأوا ولم يَنْهَوْا، ولا يأخذ الله العامة بظلم الخاصة إلا إذا رأوا الظلم ولم ينكروا.

وثانيهما ـ أن الذى ذكر فى سورة البقرة فى هذه القصة: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ... (٥٩)﴾ [البقرة]، ولم يذكر منهم، وقال تعالى: ﴿...بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩)﴾ [البقرة]، وهنا ﴿بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾.

وإنه بمجموع الآيتين يستفاد أن الذين بدلوا كانوا الكثرة، فحكم بما يعم لأنه الغالب، وفى الثانية نسب الظلم إلى بعضهم، وإن كانوا الأكثر عددا، والأقوى صوتا.

والتعبير فى سورة البقرة بالفسق يدل على الانحراف العقلى والنفسى والخروج عن الحق، وفى هذا الموضع بالظلم وهو الإيذاء بالفعل للنفس، والكفر، وهما متقاربان من حيث إنه يلزم كل واحد الآخر.

يوم السبت

وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ
حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ
حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ
لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾
وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ
عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾
فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ
وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾
فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾

الخطاب للنبى ﷺ مأمورا بأن يسأل اليهود الذين عاصروه ـ عليه السلام ـ عما كان من أسلافهم، ويقرونه ويرضونه، ولقد ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ اعتداءهم فى يوم السبت، وظلمهم فيه. وفى هذه الآية الكريمة يذكر اختبارهم بالحيتان تجىء فى هذا اليوم، ولاتجىء يوم لا يسبتون؛ أى فى يوم لا يكون يوم السبت، وذلك ليعاملهم الله معاملة المختبر لهم حتى يتميز الخبيث من الطيب، وحتى تظهر حالهم، ومقدار قوة إيمانهم، وما تخبئه نفوسهم، وما تنطوى عليه جوانحهم.

﴿ وَاسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾، أى بجواره، يقال حضره إذا قاربه وداناه، فمعنى حاضرة البحر مشرفة عليه دانية منه على سيفه، وقد سجل الله تعالى فى هذه الآية أمورا ثلاثة:

أولها ـ أنهم كانوا لا يحترمون السبت، ولا يلتزمون حدوده، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿**إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ**﴾، أى فى الوقت الذى كانوا لا يلتزمون حدوده، بل يعدونه ويتجاوزون ما أمروا فيه.

وثانيها ـ إن الله تعالى يكشف حالهم، ويعاملهم معاملة المختبر لهم، ﴿**إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ**﴾ «سبتهم» فيه إضافة اسم اليوم إليهم لأنه اليوم الذى فرض عليهم ألا يقوموا بالصيد، وقوله: ﴿**وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ**﴾، أى لا يكونون فى يوم السبت، أى لا يدخلون فى السبت الذى يمنعون فيه من الصيد، والمعنى أنهم فى يوم السبت تأتى حيتان السمك ﴿**شُرَّعًا**﴾، أى شارعة معلنة نفسها، اختبارا لهم، ويوم لا يكون الصيد محرما عليهم لا يأتون.

وقد اختبرهم الله تعالى ليكشف حالهم، ويهذبهم بأمرين: بتحريم الصيد يوم السبت ليفطموا شهواتهم ويقرعوا نفوسهم الشرهة، والمسلطة عليهم، وثانيا - بأن تأتيهم حيتان السمك شرعا، لتثور شهوتهم ويقمعوها إن كانت فيهم إرادة، فإن لم تكن ربوها وهذبوها، وقدعوها عن شهواتها استجابة لأمر ربهم؛ فالنفس الشرهة التى تسيطر عليها الشهوة لابد من فطمها.

وثالثها - أن الله تعالى ذكر أنهم كانوا يعدون فى السبت، فمنهم من كان يتناول المحرم فى السبت غير متأثم ولا متحرج ومنهم من يحتال، وقالوا: إنه كان يحفر حفرة بجوار البحر، ويعمقها فإذا جاءت حيتان السمك شرعا يوم السبت نزلت فى هذه الحفر، فإذا جفت بعد قطع الماء عنها لا تستطيع الخروج، فيأخذونها بأيديهم، وتلك حيلة تفوت معنى تقوية النفوس وتربيتها، وهم بذلك يعدون يوم السبت، لأنهم يخرجون بذلك عن الابتلاء الذى يكشف الله به نفوسهم.

ولقد قال تعالى فى حكمة تحريم الصيد يوم السبت، وإتيان حيتانهم شرعا فيه: ﴿**كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ**﴾، أى كهذا الذى صنعناه معهم من تحريم

السبت ومجىء الحيتان فيه - نعاملهم معاملة المبتلى المختبر لتهذب نفوسهم وتربى إرادتهم، وذلك بسبب استمرارهم على الفسوق، وانحراف النفوس وخضوعها لشهواتها، ولأجل تعويدهم ضبط النفس، والصبر على الحرمان، فإن الصبر نصف الإيمان.

وإن الله تعالى وصاهم، ودعاهم إلى الهدى، وشرع لهم ما يصقل نفوسهم ويهدى قلوبهم ولكن كتبت عليهم الشقوة فلم يهتدوا، ولقد شعرت بذلك أمة منهم، فقال - سبحانه وتعالى - عنها: ﴿**وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا**﴾.

الأمة هى الجماعة المؤتلفة التى تجمعها فكرة واحدة وشعور متحد، بحيث يوائم كل واحد فيها من معه، و«إذ» ظرف زمان ماض، والمعنى اذكر يا محمد ذلك الوقت الذى هم فيه بلغ اليأس من اهتدى منهم حتى قالت منهم جماعة مهدية يائسة من إيمانهم، منكرة وعظ من يعظهم: ﴿**لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا**﴾، والوعظ بيان الحق مقارنا بمغبة الباطل ذاكرا ما ترتب على الباطل من أذى لأهله، وهلاك لمن استمسكوا بالباطل استمساكا وتركوا الحق وانحرفوا عنه، والعاقل من اتعظ والجاهل من يأبه ولا يتعظ. يستفهم هؤلاء المهديون مستنكرين، أو متعرّفين الغاية؛ لم تعظون قوما قد تضافروا على الشر، وتقرر هلاكهم وهم على ضلالهم، وبعد هذا الهلاك يعذبهم عذابا شديدا، ما الباعث على ذلك؛ فيجيبهم فريق ممن اهتدوا وهم الواعظون: ﴿**قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ**﴾، أى يجب علينا أن نعظ لنعتذر إلى ربنا بأننا قمنا بحق بيان الهدى والنور، وليكون استحقاقهم الهلاك على الضلال بعد بينة أقيمت وحق أعلن، ونقدم هذه المعذرة إلى ربنا عن ضلالهم.

وهذا كله على أساس أن المستفهمين مهديون وهو الأنسب لمعنى الآية، وفرض بعضهم أن المستفهمين هم الذين وقعوا فى الضلالة، وكأنهم يقولون إنكم

تحسبون أننا هالكون ومعذبون، ونحن مصرُّون، فاتركونا بضلالنا، حتى نلقى جزاءنا بزعمكم، ويكون الاستفهام لإنكار الواقع، وتوبيخ الواعظين على وعظهم.

وإن ذلك تحتمله الآية الكريمة، ولكنا نميل إلى الأول، وقد قسم القرطبى فى تفسيره اليهود إلى ثلاثة أقسام، ونسب التقسيم إلى جهود المفسرين، فقال: «قال جمهور المفسرين: إن بنى إسرائيل افترقت ثلاث فرق، وهو الظاهر من الضمائر فى الآية؛ فرقة عصت وصادت (أى يوم السبت). وفرقة نهت واعتزلت، وفرقة اعتزلت ولم تنه ولم تعص، وأن هذه الطائفة قالت للناهية: لم تعظون قوما - تريد العاصية - الله مهلكهم، فقالت الناهية موعظتنا معذرة إلى الله».

وإن هذا تقسيم حسن، وإن الذين اعتزلوا، ولم ينهوا، وإن اهتدوا وأطاعوا، لم تتم طاعتهم وهدايتهم لأنهم لم ينهوا العاصين، وكمال هدايتهم فى نهيهم، فالتناهى عن المنكر مطلوب من الذين اهتدوا. ولقد قال تعالى: ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩)**﴾ [المائدة].

وإن المعذرة التى قام بها الناهون يرفعونها إلى ربهم تقربا إليه بقول الحق والدعوة إليه، والقيام بحق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ورجاء أن يتقوا أو يخافوا العذاب، ويتوبوا إلى الله، ويقلعوا عن الذنوب التى وقعوا فيها؛ ولذا قال تعالى عنهم: ﴿**وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾ ويكون الرجاء من هؤلاء، على حقيقة الرجاء؛ لأنه من المكلفين فى شأن مكلفين.

وإن ذكر الذين لاموا الناهين، وإجابة هؤلاء فيها دعوة للنبى ﷺ إلى الاستمرار على دعوته ومداومة موعظته، ولو كان المشركون يعاندون، ويصرون على شركهم ﴿ **... إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ... (٧)** ﴾ [الرعد]، فعليه أن يستمر على دعوته، ولو كانت حال موئس من الاستجابة فإن الله تعالى قد يغير من حال إلى حال.

وقد عصوا أمر ربهم، وذكروا بموعظة قومهم فنسوا ما ذكروا، ومنهم من لم ينس فقط، بل استكبروا عاتين عن أمر ربهم، وقال تعالى فى مؤاخذتهم فابتدأ بمن عتوا فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥)﴾.

«الفاء» هنا لارتباط ما بعدها بما قبلها، أو للإفصاح عن شرط مقدر تقديره وإذا كان النهى من الناهين وتقدير المعذرة لرب العالمين، فقد كان استقبالهم لذلك، بين قوم نسوا ما ذكروا، ومن ذكروهم.

والنسيان غفلة العقل عن تذكر ما نبه إليه، وقد يكون غفلة النفس عن إدراك ما ذكرت به، والنسيان غفلة النفس عن الحق بعد التذكير به، والمعنى حينئذ: ولما غفلوا عن الحق وأهملوه تاركين له كان أولئك بين يدى الحق ـ فريقين: فريق نهى وذكر، وفريق غفل الحق وأهمل، وذكر ما يستحق كل فريق:

فقال فيمن ذكر ونهى: ﴿أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾، أى عن الفعل الذى هو سيئ وليس بحسن فى شىء، فهو سيئ فى ذاته، وسيئ إلى الناس فيفسد جماعتهم، وإلى النفوس فيمرسها بالباطل، والحق فينكره، وتسوء عقباه بالعذاب يوم القيامة.

أنجاهم الله تعالى لأنهم اهتدوا، ودعوا العصاة إلى الهداية فقاموا بالمعروف ونهوا عن المنكر، وأما الذين نسوا الذكر وغفلوا عنه وأهملوه فإن الله تعالى قال فيهم: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

بئيس مشتق من البأس، وهو الشدة والقوة، فالعذاب البئيس هو العذاب الشديد العنيف فى ذاته الذى يلقى بالبؤس فى ذاته.

وعبر الله تعالى عن الذين نسوا ما ذكروا به بـ ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ لأنهم إذ نسوا ما ذكروا به استمرءوا الشر الذى وقعوا فيه، وأدى بهم ذلك إلى ظلم أنفسهم والناس والحق، فكانوا ظالمين، وكان العقاب الشديد البأس فى ذاته بسبب ذلك

الظلم لأن صلة الموصول فى ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، وهذا الظلم هو سبب العقاب الشديد.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أى: أخذناهم من مراقدهم مصحوبين بعذاب شديد، فالباء للمصاحبة كقول القائل لمن أساء أخذناه بالعقاب، أى أخذناه مصاحبا للعقاب.

وذكر ـ سبحانه وتعالى ـ سبب ذلك الأخذ الشديد، فقال: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، أى بسبب استمرارهم على الفسق الذى كان يتجدد ويستمر، والفسق الخروج عن الحق.

وقد وصفهم الله تعالى بوصفين؛ وهما الفسق والظلم، والفسق هو الانحراف والخروج من نور الحق، والظلم ما ترتب على ذلك من إيذاء أنفسهم وإيذاء غيرهم.

ولقد ذكر ـ سبحانه ـ أن أولئك الظالمين عتوا عن أمر ربهم، وبذلك خرجت نفوسهم عن أن تكون نفوسا آدمية، تدرك الحق وتعمل به، إلى خنزيرية شهوانية، تنزو نزو القردة، وتغلظ غلظ الخنزير، حتى لا تسمع هاديا، ولا تجيب داعيا.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦)﴾.

العتو: الاستكبار وتجاوز الحد فى الظلم، مستكبرين سادرين فى الباطل صادين عن الحق جاعلين الدعوة إليه دبر آذانهم، لم يكن ثمة سبيل لهدايتهم، فكان اليأس منهم، ويقول تعالى فى نتيجة ذلك: ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ وقلنا هنا هى مقالة التكوين، أى جعلنا نفوسهم نفوس قردة نارية لا تجدى فيها موعظة، ولا تهتدى بهداية، فهى كنفس القرد فى شهواته ونزواته وانسياب نفسه فى الشر من غير اعتبار بموعظة، ولا إدراك الحق ولا إيمان.

وقوله: ﴿خَاسِئِينَ﴾، أى مطرودين لا يسمع لهم ولا يلتفت إليهم، وهنا شبههم بالقردة، وفى آية أخرى شبههم بالقردة والخنازير فقد قال تعالى: ﴿...وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ... (٦٠)﴾ [المائدة] ومن بيانية أى جعلناهم قردة وخنازير.

وإنهم بسبب فساد نفوسهم، وتجردهم من الإنسانية المهدية جعلهم الله تعالى أذلة فى الأرض فأذن الله تعالى لهم بمن يسومهم سوء العذاب.

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

فى هذا القصص عبرة لأولى الأبصار، وفى أخبار بنى إسرائيل العبرة الكبرى، إذ تقلبوا فى النعيم، وعوقبوا بالنقم - فلم يشكروا النعمة، ولم تردعهم النقمة، وضلوا ضلالا بعيدا، ولذلك ساق الله تعالى أخبارهم للنبى ﷺ لتكون سلوانا له فى معاندة المشركين الجاحدين، وتذكير النبى ﷺ بأحوالهم كثير فى القرآن الكريم.

﴿وَإِذْ﴾ فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ هى دالة على الوقت، ومتعلقة بمحذوف تقديره اذكر، أى اذكر أيها النبى ذلك الوقت وتذكر أحداثه، واعتبر به فى قومك وغيرهم ممن ناوءوك ويناوئونك ويعاندونك ويحاربونك، وتذكر هذه الأحداث من بنى إسرائيل، واعتبرها فى بنى إسرائيل الذين عاصروك، ويعاندونك ويتمالأون مع المشركين فى عداوتك ومحاربتك.

و﴿تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾، معناها آذنهم بقوة وشدة، فتأذن بمعنى أذن بشدة، ولشدة الإيذان والإعلام كانت متضمنة معنى القسم؛ ولذلك كان فيها لام القسم، وفيها نون التأكيد التى تلازم جواب القسم ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾ جواب القسم أو فى معنى جواب القسم ﴿عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾، وعدَّى بـ «على» دون «اللام» للإشارة إلى علوه عليهم وتغلبه وسيطرته، وأنهم يكونون دونه وهو فوقهم مستعليا قاهرا.

و﴿يَسُومُهُمْ﴾ يعنى يذيقونهم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾، أى العذاب الذى يسوؤهم، ويؤذيهم، ويكون عاقبة سوء لهم، وبئس المصير، وقد صدق وعد الله تعالى فإنه قد سيطر عليهم وعذبهم فى الأرض من الشرق بختنصر والكلدانيون، ومن الغرب الرومان قبل بعث المسيح وبعده، وكانت الذلة مفروضة عليهم، واصطنعوا مع الرومان النفاق وهو صنيع الأذلاء، فنمُّوا على السيد المسيح عند سادتهم ونجى الله تعالى عيسى من الفريقين الغالب والمغلوب والقاهر والمقهور، وأذاقهم الرومان من بعد أن دخلوا فى النصرانية، أكؤسا من الذل والهوان، واستمروا فى أوربا أذلاء مقهورين يتَّسمون بالخسة والهوان، حتى هان الأوربيون فى أنفسهم مثلهم، ولقد صدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ④ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ⑤ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ⑥﴾ [الإسراء].

وقد يقول قائل: إن لهم فى هذه الأيام غلبا، فهم يسيِّرون دفة الأمور فى الأرض الجديدة، وإن كانوا عدداً قليلا، وهم يتحكمون فى مال الدنيا وخيراته، وهم قد اقتطعوا من أرض العرب قطعة طاهرة مقدسة.

ونقول فى ذلك: إنها فترة صغيرة فى حكم الزمان، وعرض من أعراض الحياة الفاسدة فى الأرض، وهم الأذلاء وإن بدوا فى غطرسة، فمن يستمد القوة من غيره ذليل، ولو حكم وملك، ولقد قال تعالى: ﴿ **ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ** ... (١١٢) ﴾ [آل عمران].

ولقد صدق الله إذ يقول: ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ** ﴾، أى إن العقاب الذى ينزله تعالى سريع مؤكد وقوعه، والسرعة هنا تطوى فى ثناياها معنى الشدة؛ لأنه يفجؤهم من حيث لا يحتسبون، ويجيئهم من حيث لا يتوقعون فيكون أشد وأقسى.

وإنه ـ سبحانه وتعالى ـ بجوار عذابه للمعاندين الكافرين المستكبرين تكون رحمته ومغفرته للمؤمنين المتقين؛ ولذا يقول تعالت كلماته: ﴿ **وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾، أى أنه يغفر الذنوب جميعا برحمته، وقد أكد غفرانه ورحمته بالجملة الإسمية، وبإن، وباللام فى خبر إن، وكذلك كان تأكيد العقاب.

وقد تفرق بنو إسرائيل فى الأمم، وكان منهم الصالحون، ومنهم القاسطون؛ ولذا قال تعالى: ﴿ **وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ** ﴾.

إن الله تعالى كتب على المعاندين من بنى إسرائيل الذلة إلى يوم القيامة، وحكم فيهم القاهرين من المغول، والرومان، وأهل أوربا، حتى ضلوا بهم، ومن أخذهم برفق أخذوه بالعنف والدس اللئيم. أشار ـ سبحانه ـ إلى أنه كان من بعد موسى أخيار صالحون، وأشرار فاسدون، فقال: ﴿ **وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا** ﴾، أى فرقناهم فى الأرض أمما، أى جماعات منفصلة عن غيرها، كأنها أمم قائمة بذاتها،

والتعبير بـ ﴿قَطَّعْنَاهُمْ﴾ يدل على أنهم وإن دخلوا فى أمم أخرى فى الأرض متصلون بعضهم ببعض، وكذلك الأمر فى شأنهم كما نراهم حتى اليوم، وإن هذه الجماعات التى تفرقت كانت فى الماضى ﴿مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ﴾ قائمون بالحق آخذون به مهتدون بهدى الكتاب الذى نزل على موسى - عليه السلام - ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾، أى دون الصلاح، أى ليسوا صالحين، وعبر سبحانه بقوله: ﴿دُونَ ذَلِكَ﴾ للإشارة إلى أن الصالحين فى المنزلة العليا مهما يكن حالهم من فقر أو غنى، وأن غير الصالحين فى المنزلة الدنيا مهما كانوا من سطوة ومهما يكونوا من غنى وقوة، فالصلاح له العلا، والفساد له المنزلة الدنيا مهما يكن حال أهله.

ويذكر - سبحانه وتعالى - أنهم وهم متفرقون فى الأرض إنما يختبرهم سبحانه بالحسنات، فإن شكروها كانوا صالحين، وإن كفروها كانوا فى المنزلة الدون، ويختبرهم بالأمور التى تسوء فإن صبروا أُجروا، وإن جزعوا فإن اعتبروا اهتدوا، وإلا فهم فى ضلال بعيد، وذلك كقوله تعالى: ﴿... وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ... (٣٥)﴾ [الأنبياء].

والحسنة هى الحال الحسنة كالخصب وتوفير الرزق، والاطمئنان. والسيئة الحال التى لا تسر، بل تسىء كالجدب والآفات، والله - سبحانه وتعالى - هو الحكيم الخبير.

وإن ذلك الاختبار بالحسنة والسيئة وتوالى الأمرين، والضراعة فى حال النقمة، رجاء أن يوفوا قدره وأنه هو الذى ينفع ويضر، وأنه هو القادر على كل شىء، وإذا عرفوا ذلك وآمنوا به رجعوا إلى الحق ورجعوا إلى ربهم واهتدوا؛ ولذا قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، أى أن الله - سبحانه وتعالى - عاملهم معاملة من يريد أن يرجعوا إلى جنابه الأعلى وساحته العليا، فيهتدوا بعد بُعْدٍ عنه سبحانه. كان هؤلاء فيهم الصالحون ومن هم دون ذلك، وكلما تقادم العهد وطال بينهم وبين موسى - عليه السلام - قست قلوب الأكثرين؛ ولذا كان الأكثرون من

الأخلاف فيهم الشر أوضح، وقال تعالى فى ذلك: ﴿ **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ** ﴾.

إن الذين سبقوهم كان منهم الصالحون، ومنهم دون ذلك، أما الذين جاءوا من بعدهم فالشر قد غلب فيهم وظهر على سطح جماعتهم، واختفى الخير، وإن كان موجودا فهو فى كِن غير ظاهر، وصار جوهم العام فاسدا، والعبرة فى فساد المجتمعات أن يكون الفساد هو الظاهر، والحق مختفيا وإن كان موجودا وقائما، ولكنه مغلوب.

﴿ **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ** ﴾ - الخلف بالسكون العقب الذى لا خير فيه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩)** ﴾ [مريم].

وقد قال الله تعالى فيهم أمورا تثبت وهن اعتقادهم وفساد أعمالهم:

ذكر أولا أنهم ورثوا الكتاب أى جاءهم علم الكتاب، وهو التوراة، بالوراثة لا بالتلقى، فلم يفتحوا له صدورهم ولكن جاء إليهم من غير أن يتدارسوه ويتقبلوه، والشىء الموروث الذى لا يقوم عليه وارثه يكون حجة عليه، ولا ينتفع به.

وذكر ثانيا نظرهم إلى هذا الكتاب ونظرهم إلى الدنيا وعرضها، إذ ينظرون إليه على الغرض المقصود، والمطلب المنشود؛ ولذا قال سبحانه عنهم: ﴿ **يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى** ﴾ - أى يأخذون عرض هذا العيش الأدنى وهو أدنى معيشة فى الحياة، أى يطلبون أدنى ما فى الحياة من متاع، ويطلبون المتاع الأدنى وهو الحرام، ويستمرئونه فيأكلون السحت والرشوة والربا ويتناولون الحياة فى صورتها المحرمة، ويحسبون أن الاستغفار يمحو ما فيها من عصيان، ولا يتوبون توبة نصوحا، إذ إن من أركان التوبة النصوح ألا يعود إلى الذنب الذى اقترفه، ولكنهم يعودون؛ ولذا

يقول سبحانه: ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾، وهكذا يتوالى أخذ الآثام والاستغفار عنها، ولا توبة ولا إقلاع من قلوبهم.

وإن التعبير عن متع الحياة التى يأخذونها بقوله تعالت كلماته: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى﴾، والأدنى هو مذكر دنيا، أو دنيا مؤنث أدنى، والعرض هو الأموال التى ليست دراهم ولا دنانير، ولكنها أهون من ذلك فهم يتخذون عرض الأدنى من الأموال، إما لضآلتها وإما لخبثها وخبث كسبها كالميسر، والربا والرشوة والسرقة. يفعلون ذلك ويقولون: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾، وكأنهم متأكدون من ذلك من غير توبة ولا استغفار. ويتوالى ذلك منهم، كما حدث فى عصور ضعف الإيمان، إذ يقولون: إن الذنوب تغفر ولو أصروا عليها.

ولقد روى فى ذلك عن معاذ بن جبل أنه قال: «يبلى القرآن فى صدور أقوام كما يبلى الثوب، يقرأونه لا يجدون له شهوة ولا لذة. يلبسون جلود الضان على قلوب الذئاب، أعمالهم طمع لا يخالطه خوف، إن قصروا قالوا سنبلغ، وإن أساءوا قالوا سيغفر لنا، إنا لا نشرك بالله شيئا»(١).

وهكذا تكون الحال، إذا ضعفت القلوب والهمم وضعف الإيمان، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ينسون المواثيق التى أخذت عليهم؛ ولذا يوبخهم القرآن الكريم.

وإن كل المحرمات هى العرض الأدنى فى هذه الحياة؛ لأن الله ما حرمها إلا لخبثها، ولأنها أدنى طرق الكسب، فالكسب الطيب يكون من كرام الرجال، ومن العرض الطيب، وليس الأدنى.

وقد بين الله تعالى أنهم كان فى نفوسهم خبث، وطلبوا خبث الكسب والأدنى فى الحياة مع أنهم أخذت عليهم المواثيق بأن لا يقولوا على الله إلا الحق؛ ولذا قال تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾.

---

(١) رواه الدارمى هكذا موقوفا على معاذ بن جبل: فضائل القرآن- تعاهد القرآن (٣٣٤٦).

الاستفهام للإنكار بمعنى النفى والتوبيخ، وقد دخل الاستفهام على المنفى بـ«لم» ونفى النفى إثبات، فالمعنى قد أخذ عليهم ميثاق الكتاب، وهذه الصيغة فيها تأكيد لأخذ الميثاق بإقرارهم كأنهم سئلوا ذلك، وأجابوا بالإيجاب، ولأنه يتضمن استنكار وقوعهم فى مخالفة الكتاب وترك الأخذ بميثاقه، أى أحكامه المؤكدة الموثقة عليهم التى توجب الطاعة ﴿**أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ**﴾ أى فحصوه وعلموه وأدركوا مغازيه وما يرمى إليه، ويدعوهم الله فيه، فما فعلوا ذلك عن جهالة بل قد قدمت لهم أسباب العلم كاملة، وإذا كانوا قد أهملوا الأخذ بها بعد بينة تجعلهم يحملون التبعة كاملة غير منقوصة.

ويلاحظ هنا بعض عبارات تشير إلى حقائق ثابتة:

أولاها ـ أن الميثاق الذى أخذ عليهم ألا يقولوا على الله إلا الحق مع أن ما فسقوا به عن أمر ربهم أمور عملية، وخلاصتها أنهم يأخذون بالعرض الذى هو أدنى وهو عمل لا قول، ونقول فى الإجابة عن ذلك:

أولا ـ أنه ساد فيهم الكذب على الله والادعاء عليه كقولهم: ﴿ ... **نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ** ... ⟨١٨⟩ ﴾ [المائدة]، وذلك بلا ريب غير الحق، قالوا على الله تعالى كذبا وافتراء عليه، فخالفوا الميثاق الذى أخذ عليهم بألا يقولوا على الله إلا الحق.

وثانيا ـ أن فعل الباطل يسبقه قول باطل يحسنه، فالنفس المنحرفة يبتدئ انحرافها فى الفكر، فيدفع إلى القول الباطل يزين الفعل الباطل، والذين يغيرون الشرائع يبتدئون بتزيين مخالفتها وتسهيلها فيقولون أولا على الله غير الحق، ثم يفعلون الباطل المنهى عنه، فالقول ذريعة العمل.

ثانيها ـ أن العصاة دائما يغرهم الغرور، فيغلب عليهم الطمع من غير عمل على الخوف الذى يدفع إلى العمل، فهؤلاء بنو إسرائيل طمعوا فى الله دائما حاسبين أنه لا يعذبهم وأهملوا أمره ونهيه، وكانوا مثلا للفاسدين، فكان من التربية للنفس المؤمنة أن تغلب الخوف من العذاب، على رجاء الثواب.

هؤلاء اختاروا الدنيا، وأخذوا بأدنى ما فيها، وهى خبائثها ومحرماتها، فكانوا أشد لهجة من غيرهم، بل من بعض الذين لم ينزل عليهم كتاب سماوى به مواثيق أخذت عليهم وتدارسوه.

ونسوا الآخرة، وما فيها من نعيم مقيم لمن أطاع، وعذاب أليم لمن ضل وغوى، وقد ذكَّر الله تعالى بها فى مقام نسيانها فقال تعالى: ﴿**وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ**﴾، أى أنها فى أعلى درجات الخير للذين يتقون الله وامتلأت قلوبهم بذكره، فأعرضوا عما نهى عنه، وطلبوا ما أمرهم به.

وخاطب الله بنى إسرائيل بما يدل على أن غوايتهم وأهواءهم أفسدت عقولهم، فصاروا لا يدركون، فقال تعالى: ﴿**أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾ الفاء هنا لترتيب إنكار أن يعقلوا على ما يفعلون، وأخرت عن همزة الاستفهام؛ لأن الاستفهام له الصدارة بحكم تنسيق القول العربى، والمعنى فأنتم لا تعقلون؛ لأن الاستفهام إنكارى توبيخى، فهو تأكيد لحضهم على التفكير، وتوبيخ على عدم التفكير فى عواقب أمورهم، وإن العذاب يستقبلهم بسوء ما يفعلون.

هذا شأن العصاة منهم، وهم الأكثرون؛ إذ فعلوا الشر، ولم يستنكر أكثرهم، ولقد ذكر من بعد ذلك الصالحين بعد أن ذكر فضل الدار الآخرة على الحياة الدنيا، فقال: ﴿**وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠)**﴾.

إذا كان عصاة بنى إسرائيل قد استهانوا بأحكام التوراة، معرضين عنها إهمالا، فتقاتهم قد استمسكوا بها؛ لأنها العروة الوثقى لهم، وقال تعالى فى استمساكهم بها: ﴿**وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ**﴾ وفى قراءة «يُمْسكون» بتسكين اللام وكسر السين، وقالوا إن معنى يمسكون به: يستمسكون به، وفى اللغة: مسك به واستمسك به، وتمسك به كل بمعنى واحد.

وأقول مع الاتحاد فى جملة المعنى أظن أن مَسَّكَ به فيه قوة فى التمسك، ليست فى مَسَكَ به، بل أكثر من استمسك؛ لأنها تتضمن الأخذ به، والعمل بما فيه والإذعان لأحكامه من غير إهمال ولا نسيان، ودعوة إلى مسكه والعمل به من دون غيره، واستنكار لمن لا يمسك به.

ومعنى التمسيك به، الإذعان لأحكامه، والدعوة لهذا الإذعان، والعمل به مخلصين غير متحايلين لتركه، وإلقاء المعاذير عند ترك العمل به.

والتمسيك به كما ذكرنا يتضمن معنى الدعوة إلى الاستمساك، وبالأولى يستمسك الممسك فيعتقد، ويؤمن ويدعو.

وقد ذكر أعظم أعمال الطاعة بعد التمسك بالكتاب، فقال: ﴿**وَأَقَامُوا الصَّلاةَ**﴾ أى أتوا بها مقومة على وجهها الأكمل، وتكون الصلاة على الوجة الأكمل إذا كان ذكر الله، واستشعار خشيته فى كل ركن من أركانها، واختصها الله تعالى بالذكر؛ لأنها ركن الدين، ولبه، ولا دين من غير صلاة كما ذكر النبى ﷺ، ولأنها سبيل للابتعاد عن المنكرات التى كان بنو إسرائيل يفعلونها، وقد قال تعالى فى القرآن كتابه الخالد الباقى إلى يوم القيامة: ﴿... **إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ** ... (٤٥)﴾ [العنكبوت].

وقد ذكر الله تعالى جزاء هؤلاء الذين يمسكون بالكتاب، فقال: ﴿**إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ**﴾ والمعنى لا نضيع أجرهم.

ولكن هنا إشارات بيانية لا بد من التنبيه إليها:

الأولى ـ أن الله تعالى ذكر الجزاء بطريق الاقتضاء، فوصف ذاته العلية بأنه لا يضيع أجر المصلحين، وقد أصلحوا فاستحقوا أجره الذى لا يضيعه أبدا، فهو إعطاء مع ذكر داعيه.

الثانية ـ أنه ذكر ـ سبحانه ـ ما يليق بذاته وهو أنه لا يضيع أجر من أحسن عملا.

الثالثة ـ أنه أظهر فى موضع الإضمار، مصرح بقوله: ﴿**الْمُصْلِحِينَ**﴾ بدل قوله لا يضيع أجرهم، وذلك لأمرين؛ أولهما ـ أنه للدلالة على أن ذلك شأن من شئون الله العلى الأعلى، وثانيهما ـ الإظهار للإشارة إلى السبب فى الجزاء وهو الإصلاح، أى كونهم مصلحين.

وفى التعبير بقوله: ﴿**الْمُصْلِحِينَ**﴾ إشارة إلى أن تمسيكهم للكتاب يتجاوز الإمساك إلى الدعوة إليه كما أشرنا.

أخذ الميثاق عليهم وعلى الإنسانية

وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ
خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾
وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ
عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ
ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

ميثاقان يذكرهما الله تعالى، واحد منهما خاص ببنى إسرائيل لأنه يتعلق بميثاق التوراة، والثانى يتعلق بميثاق الإنسانية كلها.

والأول قال الله تعالى فيه: ﴿**وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ**﴾.

نتقنا معناها رفعنا، ولكن يظهر أنها لا تكون إلا فى رفع الثقيل الذى لا يستطيعه إلا الأقوياء، فمن الألفاظ العربية ألفاظ تحمل فى نفسها قوة المعاناة فى دلالتها، فلا نقول: نتقت العصا، أو نتقت السيف، ولكن قد تقول: نتقت الجبل، أو نتقت أطنان الحديد. ولقد نتق الله الجبل وعلا عليهم، وكأنه ظلة من ظلال السحاب فوق رءوسهم، ولأنه جبل أو جِرم كبير ثقيل ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾، أى واقع نازل بهم قاصد رءوسهم. والله يقول: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾، أى خذوا التعاليم فى الحلال والحرام، وما كلفتموه عامة بقوة، أى بتقبل منكم، ورضا به، واطمئنان إليه واذكروا ما فيه أى اذكروه وتدبروه، وعوا ما فيه، واعملوا به لعلكم تتقون، والرجاء منهم، أى راجين بذلك أن تتقوا السيئات. بل إن تتقوا شر أنفسكم الأمارة بالسوء، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ ... (٦٣)﴾ [البقرة]، وقد يسأل سائل: لماذا كان رفع الجبل مع إعطائهم الميثاق بقوة؟ الظاهر أنهم ترددوا فى قبوله وتلكأوا كشأنهم دائما فى قبول الحق المنزل والعمل به، فأتى موسى ـ عليه السلام ـ معجزة حسية قاهرة تلزمهم، ولا يحيرون جوابا فيها، فكان نتق الجبل، وكانت هذه المعجزة الرهيبة الدافعة إلى الإيمان، المانعة من كل تردد، وقد جاءت الآثار بما يفيد ذلك: روى ابن كثير أن موسى ـ عليه السلام ـ قال لهم: هذا كتاب تقبلونه بما فيه، فإن فيه بيان ما أحل لكم وما حرم عليكم، وما أمركم وما نهاكم، قالوا: انشر علينا ما فيها ـ أى الألواح ـ فإن كانت فرائضها وحدودها يسيرة قبلنا. قال: اقبلوها بما فيها. قالوا: لا حتى نعلم ما فيها، كيف حدودها وفرائضها، فراجعوه مرارا، فأوحى الله تعالى للجبل، فانقلع، فارتفع إلى السماء حتى إذا كان بين رءوسهم والسماء فقال لهم موسى: ألا ترون ما يقول ربى عز وجل؟! فأخذوا التوراة وهو الميثاق بهذه القوة الدافعة.

وإنه مع هذا الدليل المادى الحسى القارع نجدهم غيروا وبدّلوا وانحرفوا عما أمرهم به الله ـ سبحانه وتعالى ـ وقد أردف ـ سبحانه وتعالى ـ ذلك ببيان ميثاق الفطرة التى فطر الله الناس عليها، فقال تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) ﴾ .

«إذْ» ظرف للزمن الماضى، والخطاب للنبى ﷺ، وهو تذكير بأن الفطرة الإنسانية توجب الإيمان بأن الله رب هذا الوجود وحده، وأنه هو الذى خلقه، وهو واحد بذاته وبصفاته، وقد حتم تعالى ذلك بالفطرة الإنسانية.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ ﴾ عبر عن ذى الجلالة بربك بالإشارة إلى معنى الربوبية التى تملأ نفس النبى ﷺ وقد أدركها قبل النبوة بالفطرة الإنسانية الكاملة، فنفر من عبادة الأوثان، وعبد الله تعالى وحده، وقال إنه الديان وحده.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ﴾ ومن بنى آدم: عطف بيان على قوله تعالى: ﴿ مِن بَنِي آدَمَ ﴾ وهذا بيان لنوع من أخذ من ذريتهم، وهم بنو آدم، وهذا مبين عموم الذين ينتسبون إلى آدم أبى الخليقة، وقوله تعالى: ﴿ مِن ظُهُورِهِمْ ﴾، أى وهم فى أصلاب آبائهم، قبل أن يصلوا إلى أرحام أمهاتهم، وهذا يدل على أن ذلك من وقت الإنشاء، فوقت إنشاء الآدمى من وقت أن يكون فى صلب أبيه.

وقوله تعالى: ﴿ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ منصوبة على أنها مفعول أخذ، ومؤدى القول أن لربك أخذ الذرية من التى هى من الأصلاب وهى فى الأصلاب ذلك العهد، أو ذلك الإقرار الذى كان بحكم الفطرة. قال لهم ربهم: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ وهو تفسير لمعنى الأخذ.

الهمزة للاستفهام، والاستفهام هنا إنكارى بمعنى النفى، و(لست) للنفى، وقالوا: إن نفى النفى إثبات، والمعنى أنا ربكم الحق، وجيء بذلك النحو من القول لتأكيد الإيجاب كأنه سألهم، وأجابوا بالإثبات، أى بإثبات الربوبية. وقد أجابوا على هذا السؤال مثبتين موجب نفى النفى، قالوا: بلى، وهى تثبت ما بعد النفيين، أى أنت ربنا، وقالوا: ﴿ شَهِدْنَا ﴾، أى أقررنا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾، أى حملهم على الإقرار على أنفسهم، أو اتخذ منهم شهداء على أنفسهم فاستجابوا وشهدوا على أنفسهم فهى شهادة الفطرة الإنسانية السليمة بالربوبية لله تعالى.

وقد بين ـ سبحانه ـ حكمة هذا الميثاق فقال تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ أن تقولوا: مضاف إليه لمضاف محذوف تقديره: كراهية أن تقولوا إنا كنا عن هذا غافلين، فإنه فى فطرتكم التى خلقكم الله تعالى عليها، ولن تغفلوا عما فطركم الله تعالى عليه، إلا أن تطمسوا فطرتكم بالأهواء والأوهام التى تطمسون عليها، فلا تدرك، وتحولون بينكم وبين نورها الهادى المرشد.

وإن هذا الذى ذكره الله تعالى من أخذ ذرية بنى آدم من الأصلاب فيه تصوير محكم دقيق لتكوين الفطرة الإنسانية على الإقرار بمعنى الربوبية والتوحيد، لسلامة التكوين وأنه سوى خلقه فأحسن تسويته، وأنه صوره فأحسن صورته وقد قال بعض المفسرين: إن هذه المجاوبة مجاز، إذ شبهت حال خلق الإنسان مفطورا على الإيمان بهذه المجاوبة، ونحن نقول تبعا لهذا التخريج: فهذا الأخذ فيه تصوير لتكوين الفطرة، ولقد قال تعالى فى الإسلام ودعوة الله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم].

وإن محمدا ﷺ آمن بفطرته، وهجر الأوثان بعقله، وإبراهيم أبو الأنبياء فكر بفطرته، حتى اهتدى إلى ربه، وقال بعد اهتدائه: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا ... ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام].

ولقد قال النبى ﷺ فيما رواه مسلم: «يقول الله تعالى: إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين، فاجتالتهم عن دينهم»[1].

(١) سبق تخريجه.

وروى الطبرى بسنده أن رسـول الله ﷺ قال: «كل نسمـة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها فأبواها يهودانها، أو ينصرانها»[(١)].

قلنا: إن الله تعالى ذكـر قصة الفطرة الإنسـانية لكيلا يكون اعتـذار لمنحرف لأنه يخالف الفطرة، وأيضا لكيلا يحتج بأنه يتبع آباءه فقال تعالى:

﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣)﴾.

«أو» هنا عاطـفة على قوله تـعالى: ﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ ومـقتـضى السيـاق أن يكون المعنى كـراهية، إن تقـولوا إنا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا وكنا ذرية من بعدهم.

والمعنى أخذ عليكم الإقرار، وأنتم ذرية ليتـبين أن فطرتكم تناديكم بالإيمان فلا تـعتذروا بأن آبـاءكم كانوا مـشركيـن، وأنتم اتبعـتمـوهم، فإن أوخذتم فـإنما تؤاخذون بشـركهم، ولكن أخذ عليكم من قـبلهم بالإيمان، فأنتم مسئولون عن عهدكم الذى عاهدتم الله تعـالى عليه أولا، لا عن تقليدكم لآباكم، وإنه لا يصح هذا التقليـد وفيكم فطرة الإيمان، أتتبـعون آباءكم ولو خالفوا الفطرة الـتى شهدوا فيها بأن الله وحـده هو المعبود بحق هو أنكم بمقتضى الفطرة مؤمـنون فلم تتبعون آباءكم فى كل حال، ولو كانوا لا يعقلون شيئا ولا يهتدون، وخالفوا سنة الفطرة. فإن خالفوها، فإن ذلك لا يخليكم من الإقرار الذى أخذ عليكم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ﴾ فيها ما يوهم أن شركهم كـان بالوراثة، وأنهم لهم تبع، فكما ورثوهم فى أجسامـهم ونسبهم، فقد ورثوهم فى اعتقادهم.

ولذا قال الله تعالى عنهم: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على مـا قبلها، وهى مـؤخرة عن تقديم لأن الاسـتفهـام له الصدارة، وهو

(١) جزء من حديث رواه أحمد: مسند المكيين- حديث الأسود بن سريع (١٥١٦٢).

استفهام إنكارى لأنهم ينكرون مؤاخذتهم، إنما المؤاخذة على من سبقوهم، فالله تعالى بمقتضى سياق الآيات الكريمة يبين أنهم مسئولون ومؤاخذون، هم يقولون إنا تبع لمن سبقونا ولا نؤاخذ بفعلهم وقد سرنا مسارهم، فالله ـ سبحانه ـ يبين لهم أنهم مؤاخذون بمقتضى الفطرة، وكان الواجب عليهم أن يعرفوا أنهم مأخوذ عليهم ميثاق بإقرارهم بأن الله وحده ربهم، وما كان لهم أن يتبعوهم. بعد ذلك ختم الله تعالى هذه ببيان تصريفه للآيات وتفصيله فيقول تعالى كلامه العزيز:

﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤) ﴾.

أى كهذا البيان الذى فصل الله تعالى هذه الآيات وبينها من تصوير الحال فى الخلق والتكوين؛ يفصل الله ـ سبحانه وتعالى ـ الآيات ويقربها ببيان أصل الخلق والتكوين، وأن الذين يضلون هم المنحرفون عن أصل الفطرة. يبين البيان كذلك دائما ليهتدوا ويدركوا الحق، ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ إلى أصل فطرتهم التى فطرهم الله تعالى، ويعودون إلى التوبة وإلى الإنابة إلى ربهم. بعد هذا البيان وضرب الأمثال من ماضيهم، وبيان سوء حاضرهم.

مثل من خالف الفطرة، وخضع للشيطان

وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ

﴿ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى لمن تهديه فطرته إلى الحق، ولمن يرى الآيات بينة واضحة تغمره بنورها، وتسبغ عليه كما يسبغ الثوب على لابسه، فينسلخ منها ويخلعها ويتبعه الله تعالى الشيطان فيكون من الغاوين، وقال تعالى فى ذلك: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥)﴾.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾، أى اذكر لهم نبأ الذى آتيناه آياتنا. والنبأ الخبر ذو الخطر والشأن، وكان خطره وشأنه فى أنه قد جاءته الآيات بينة قد غمرته بالنور، وصارت كأنها اللباس السابغ، الذى لا يفارقه، ولكنه تعمد أن يخرجها من ملابسه وجسمه، وينسلخ: أى يخرج منها كما تخرج الذبيحة من إهابها.

وإنه إذ فعل ذلك يكون قد سلك سبيل الضلال وسار فيه، ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ أى فجعله الله يتبع الشيطان؛ لأنه إذا انسلخ من الآيات السابغة المنيرة قد اتجه إلى الضلال، فأتبعه الله للشيطان وصار تابعا له؛ لأنه ترك رحمة الرحمن بترك آياته، ومن ترك رحمة الله، أدخله الله تعالى حظيرة الشيطان، وصار من أتباعه.

وإن فى هذا النص القرآنى المصور لمن يغوى ويضل عدة مجازات، تبدو فيما يأتى:

أولا ـ أنه شبه الآيات النيرة الدالة بالثياب السابغة التى تلازم الشخص، ولا تنفك عنه حتى يخلعها.

وثانيا ـ أنه شبه تركها وعدم الأخذ بها بالانسلاخ منها، فشبه تركه لها بالانسلاخ والذى هو خاص بسلخ الشاة الذبيحة فيتعرى كما تتعرى الشاة.

وثالثا ـ أنه عبر عن اتباع الهوى، والتردى فى مهالكه بـ ﴿**فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ**﴾ لأن السبب هو سيطرة الهوى، والهوى هو باب الشيطان الذى يدخل منه إلى القلوب، فعبر باسم المسبب وأراد السبب وهو اتباع الهوى.

وإن اتباع الهوى أو الشيطان يؤدى إلى الضلالة لا محالة، ولذا قال تعالى: ﴿**فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ**﴾، أى من الضالين، فغوى معناها ضل بسبب اتباع الشهوات.

وقد قلنا: إن هذا مثل من تحيط به آيات الله التى تدعم فطرته التى فطر الناس عليها، فلا يلتفت إلى دلالتها، ويتركها منسلخا عما تدعو إليه كما ينسلخ اللابس من ثوبه الذى يستره، ويجمله، وينحط إلى مهاوى الشيطان.

هذا، وإن كتب التفسير فى هذه الآية مملوءة بأساطير يهودية لم تثبت بسند صحيح يصلح تفسيرا للقرآن، ولذلك ضربنا عن ذكرها صفحا؛ ذلك أنهم زعموا أن قوله تعالى: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ**﴾ يتعرض لقصة شخص معين، فاستعانوا بالإسرائيليات، ليعلموا من هو. والحقيقة أنه ليس بشخص معين، إنما هو تصوير لمن تأتيه الآيات السابقات بالنور فيتركها.

وزعموا أن قوله تعالى: ﴿**فَاقْصُصِ الْقَصَصَ**﴾ ففهموا من هذا أنها قصة لها أشخاص ورجال وحوادث، فاستعاروها من بنى إسرائيل، وهذا لا يساعده النص، إنما النص فى قصص المثل ذاته؛ ولذلك قال تعالى: ﴿**ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾. وسنتكلم فى هذا إن شاء الله تعالى.

وقد صور الله تعالى حال ذلك الذى تأتيه آيات الله نيرة سابغة فينسلخ منها فقال تعالى:

﴿**وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث**﴾.

أى إن ذلك الذى انسلخ من آيات الله تعالى، وقد أسبغها الله تعالى عليه لو شاء الله لرفعه بها إلى أعلى الدرجات لو سلك سبيله، واتجه إليه ولم ينسلخ عنها؛ ولذا قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ﴾ لو شئنا له أن يهتدى رفعناه بها إلى مقام المؤمنين الصادقين، لو كان قد سلك سبيلنا ولم يرفض نعمة البيان وإسباغ الآيات، ولكنه أخلد إلى الأرض وسكن فيها بنزواتها وأهوائها وشهواتها، واتبع هواه، فلم يسيطر على شهواته، وكان عبدا لها، فاستوى عنده البينات والظلام، ولذلك مثله الله تعالى بالكلب الذى يندلع لسانه لاهثا دائما، فقال تعالت كلماته: ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾.

أى إن حاله كحال الكلب المندلع لسانه، إن تحمل عليه بأن تهيجه ينبح مندلعا لسانه، وإن تتركه من غير تهييج ينبح مندلعا لسانه أيضا.

أى إن أولئك الذين ينسلخون من الآيات التى ينعم الله تعالى عليهم ببيانها يستوى عندهم البيان والترك بل إنهم يضلون دائما، إن ضلالهم فى حال البيان أشد وأوغل، فالجامع بين المشبه والمشبه به هو البقاء على حال سوء دائما، سواء أكان البيان أم لم يكن.

وقد شبههم الله تعالى بالكلب، فى أقبح صوره، وهى الحال التى يكون فيها خارج اللسان يسيل فيها لعابه، وهى أقبح مناظره؛ ولذا قال تعالى: ﴿ ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾، أى تلك الحال التى قصصناها وبيناها، حال الذين كذبوا بآياتنا نقدوا تفكيرهم وتقديرهم للأمور، فلم يعرفوا الفرق بين النور الذى تجىء به الآيات هادية مرشدة، وبين الظلام الذى يعمهون فيه متحيرين، وكانت حالهم لحال هذا الحيوان فى أقبح صوره.

إذا كانت هذه حالهم، ومآل أمرهم، ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ ﴾ الفاء كما ترى للإفصاح، ومعنى اقصص: اذكر حالهم وخبرهم، فإنه يصور حالهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾، أى لعل هذا التصوير الذى تقصه عليهم يحملهم على التنبه فى

حالهم العقلية التى ينزلون فيها إلى الحيوان الذى لا يدرى الفرق فيما يعمل، فيتفكرون ويتدبرون الآيات ولا ينسلخون منها.

ولقد بين الله تعالى سوء حالهم، فقال:

﴿سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧)﴾.

ساء تستعمل أحيانا بمعنى التعجب، فيكون المعنى ما أسوأه مثلا هذه الحال، وتكون ﴿مَثَلاً﴾ تمييز، وهو يدل على المتعجب منه، أى أن حالهم بلغت أقصى أحوال السوء فى الضلال، ومجافاة الحق، وجعلهم النور ظلاما والهدى ضلالة وأنهم فى ذلك لا يضرون غير أنفسهم، فالله يغضب عليهم والرسول ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ يظلمون أى يستمرون على ظلمها باستمرارهم على تكذيب آيات الله الهادية المرشدة، وانسلاخهم عنها.

وإن الله ـ سبحانه ـ تركهم فى غيهم؛ لأنهم سلكوا سبيل الغى، وتركوا سبيل الرشد، فحقت عليهم كلمة الضلال؛ ولذا يقول الله تعالى:

﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨)﴾.

«مَنْ» اسم شرط، أى الذى يهديه الله تعالى فهو المهتدى وحده، وليس معنى ذلك أنه ليس مختارا فى سلوك طريق الهداية، فإن الله عدل، لا يظلم أحدا، إنما يكون بين يديه طريق الرشد، وطريق الغى، فيختار طريق الغى، فيصل إلى نتيجته ويختار الله ما اختاره لنفسه، وإن كان غير راض عما اقترف، ويقترف من سيئات، ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وإضلال الله تعالى لا يتنافى مع اختياره؛ لأنه اختار سبيل الغى، والفساد، فسار فيه بإذن الله واختياره، وإن كان الله تعالى غير راض، فالله تعالى أراد له الشر إذ سلك طريقه، ولكنه لا يرضى لعباده الكفر.

وهنا إشارتان بيانيتان:

أولاهما ـ فى قوله تعالى: ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ فيه تعريف الطرفين، فيفيد القصر، والمعنى لا يهتدى غيره، فالهداية من الله تعالى.

ثانيتهما - أن الله تعالى قال: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وفى هذا النص السامى الإشارة إلى الموصوفين بتكذيبهم لآيات الله، والإشارة إلى الأوصاف تفيد أنها سبب الحكم.

وقوله تعالى: ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ تفيد تأكيد الخسارة وقصرها عليهم، وذلك لضمير الفصل «هم»، وخسارتهم فى أنهم خسروا نعيم الآخرة، وخسروا بضلالهم وفقدهم التمييز بين الحق والباطل، والضلال والهداية، وخسارتهم بتركهم نعمة الله تعالى فى آياته، وخسارتهم رضوان الله، وهو أكبر.

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ
لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ
بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾
وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي
أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ
يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾

أكد الله تعالى أنه خلق الخلق من ذريات آبائهم، وعلم أنهم لا يهتدون، بل يدخلون فى الضلالة، ومن ورائها الكفر، ومن وراء الكفر جهنم، وليس معنى ذلك أنه أجبرهم على الكفر الذى يلجئهم إلى جهنم إجبارا، بل معناه أنه كتبه عليهم فى علمه الذى أحاط بكل شىء، ولا يعزب عنه شىء فى الأرض ولا فى السماء، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ علم ما يكون منهم فهو ـ سبحانه ـ يعلم ما كان وما سيكون عالم الغيب والشهادة، وهو السميع العليم.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ﴾.

أكد الله تعالى ذلك بـ«قد»، وهى للتحقيق دائما، وباللام، وذرأنا معناها، خلقناها من ذرية، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا ...(١٣٦) ﴾ [الأنعام] ذرأ ليست بمعنى خلق كأى خلق، بل معناها أنه خلق من ذرية.

وقوله تعالى: ﴿ لِجَهَنَّمَ ﴾، أى أن مآلهم إلى جهنم؛ لأنهم يختارون الضلالة، فيكفرون فتكون جهنم مآلهم وبئس المصير، ووصفهم سبحانه بأنهم كثيرون من الجن والإنس، فليس الضلال بقليل فى الأرض، وإنه لكثير، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ...(١١٦) ﴾ [الأنعام]، وقد ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ حال الذين كتب عليهم أن يكونوا لجهنم فقال: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾، أى لهم قلوب لا ينفذون بها إلى الحق فيذعنوا له، وهذا معنى فقهها، ولهم أعين لا يبصرون آيات الله فى الكون من شمس لها ضياء، وقمر له نور، وسماء ذات أبراج، ورياح تحمل السحاب المطر، يساق إلى بلد ميت فيحييه، ولهم آذان لا يسمعون بها نداء الحق فيجيبوه، وآيات الله تتلى فلا يدركوها، ويسمعون صوت المنادى «الله أكبر» وكأنهم لا يسمعون.

وقد يقال: إن هذا مثل للضالين وتصوير لهم، فهم كمن لا عقل له ولا بصر ولا سمع، وقد قال تعالى فى ذلك: ﴿ أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾.

إن فرق ما بين الحيوان والإنسان هو العقل والتدبير، وترتيب النتائج على المقدمات، والنظر إلى المستقبل على ضوء الماضى والحاضر، فإذا فقد ذلك فقد صار كالأنعام فى أنفسها، ولذلك قال سبحانه: ﴿ أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ ﴾ والإشارة إلى الذين لهم قلوب لم يدركوا بها إدراكا نافذا إلى ما وراء. وأوتوا أبصار لم يعرفوا عظمة الكون وخالقه منها، وأوتوا سمعا، لم يستمعوا به إلى المواعظ النيِّرة، والزواجر الزاجرة.

هؤلاء ما دام لم ينتفعوا بهذه المواهب، يصيرون كالأنعام؛ لأن ما أعطاهم سبحانه من مواهب جعلوه هملا فكأنهم لم يعطوه كالأنعام، ويقول سبحانه: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ لأن من أعطى شيئا ولم ينتفع به أضل ممن لم يعط شيئا.

هذا هو الحكم الأول عليهم، والحكم الثانى هو أنهم غافلون عن الأمور التى يجب عليهم إدراكها، فقال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ عما يجب التنبه إليه ليقوموا بواجبهم وليستعملوا ما وهبهم تعالى من هبات مميزة مدركة، وأكد الله ـ سبحانه وتعالى ـ الحكم بغفلتهم بالجملة الاسمية، وبضمير الفصل، وبقصر الغفلة عليهم بتعريف الطرفين، أى أنه لا غافل غيرهم، لأنهم غفلوا عن أهم ما يجب أن ينتبهوا له.

ولقد ذكر الله سبحانه وتعالى فى عدة آيات معانى هذه الآية فيما يناسبها فقال تعالى: ﴿... وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ... (٢٦)﴾ [الأحقاف].

وقد شبههم سبحانه بالأنعام فقال عز من قائل: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً ... (١٧١)﴾ [البقرة] وهكذا كل من يعطل المواهب التى وهبها الله تعالى له.

وإن المشركين كانوا يعبدون غير الله تعالى، وينكرون صفات الله تعالى التى تجعله وحده المستحق للعبادة، ولذا قال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠)﴾.

تطلق الأسماء ويراد المسميات، والأسماء هنا يراد بها صفات الذات العلية التى لا يماثلها صفات الحوادث، كما قال تعالى: ﴿... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١)﴾ [الشورى] مثل القاهر القادر المريد السميع البصير، والغفور

الرحيم الرحمن، فإن هذه وأشباهها أسماء الله تعالى، وهى أيضا صفاته وهى ليست شيئا غير ذاته، إنما هى مبينة لها، معرفة بها، فنحن نعرفه سبحانه بهذه الصفات التى هى أسماؤه سبحانه وتعالى، وبعدد الأسماء أو الصفات لا يقتضى تعدد المسمى، أو الموصوف، ولقد سمع مشرك قول المؤمن فى وصف الله تعالى بأنه الغفور الرحيم، فقال جاهلا أو متجاهلا: إن محمدا يدعو إلى إله واحد، فما باله يذكر إلهين. وهذا إلحاد فى أسمائه سبحانه، فالموصوف لا يتعدد بتعدد الوصف، والمسمى لا يتعدد بتعدد الاسم، وقد روى الترمذى وغيره أن لله تعالى تسعة وتسعين اسما، أى وصفا، وقد ذكر ابن كثير هذه الأسماء التى بلغت هذا العدد فقال: (وهو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلى، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوى، المتين، الولى، الحميد، المحصى، المبدئ، المعيد، المحيى، المميت، الحى، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالى، المتعالى، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرءوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغنى، المغنى، المانع، الضار، النافع، النور، الهادى، البديع، الباقى، الوارث، الرشيد، الصبور).

وقد رويت هذه الأسماء فى الصحاح بأحاديث مختلفة، والله قد اتصف بكل هذه الأسماء.

وصف أسماء الله تعالى بالحسنى، وهى مؤنث أحسن، وأفعل التفضيل ليس على بابه، والمعنى أنها بلغت أقصى درجات الحسن والكمال؛ لأنها صفات المتصف بكل كمال.

وقد قال تعالى: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ الفاء للإفصاح، أى إذا كانت الأسماء هى صفات الكمال المطلق، فادعوه بها أى نادوه فى دعائكم وضراعتكم إليه بها.

﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾، أى يتخذون الإلحاد والشرك فى أسمائه، وذلك بالزيادة فيها بما لايليق بالذات العلية أو يغيروها بما لا يليق بذاته، كالمعطلة والمشبهة الذين يفسرونها بما يشبه الحوادث، أو ينقصون منها تبعا لأهوائهم، وقوله تعالى: ﴿ذَرُوا﴾ أى اتركوهم بمعنى لا تقيموا لقولهم وزنا، ولا تتبعوا ما يقولون

ثم ذكر الله تعالى جزاءهم فقال: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ السين هنا لتأكيد وقوع الفعل فى المستقبل، وقد قدروا الباء، أى: سيجزون بما كانوا يعملون.

وإن حذف الباء فيه إشارة بيانية، وهو توافق الجزاء مع العمل، حتى لكأن الجزاء هو العمل ذاته، لاتحاد السبب والمسبب، فكان جزاء وفاقا للعمل لا يزيد عليه، وقد يغفر له متغمدا له برحمته.

وقد ذكر الله تعالى الضالين ممن ذرأ من الجن والإنس، وأنهم كثيرون، وليسوا قليلا ذكر المهتدين، فقال تعالى:

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١)﴾.

ليس الناس جميعا أشرارا، بل إنه من رحمة الله تعالى بعباده أن كان الوجود لا يخلو من الأخيار الذين يقاومون أهل الشر، ويدفعون شرهم ﴿...وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١)﴾ [البقرة].

وقد ذكر الله تعالى فى هذه الآية أخيار الناس فقال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾، أى من الذين خلقناهم من الجن والإنس من ذريتهم أمة طائفة مجتمعة على الهدى والخير يؤم كل واحد منها الجماعة، ويعينها ويقصدها بخير،

﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ أى اهتدوا، ويهدون غيرهم بالحق، أى هداية مصحوبة بالحق، ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ أى بالحق وحده يعدلون فى كل أمورهم، ففى حياتهم عدل بالحق، وفى شئونهم العامة والخاصة عدل بالحق، وفى كل ما يباشرون من أعمال يبتغون الحق ولا يريدون سواه، فحياتهم كلها عدل وحق. وفى تقديم الجار والمجرور فى قوله تعالى: ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ قصر؛ أى لا يعدلون بغيره، بل يزنون به الأعمال والأشياء والصلات كلها، فهو ميزان الوجود الإنسانى، وبه قامت الإنسانية الفاضلة.

وقد بين الله تعالى ما يعامل به الذين يكذبون بآياته، ويعادون أولياءه، ويعاندون الحق، فقال:

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ
كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ
هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ
أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا
هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

كان ما قصه ـ سبحانه ـ من قصص لنوح وهود وصالح وشعيب، وموسى وما كان من قومه ومعاناته فى سبيل هدايتهم وبث الإيمان فى قلوبهم؛ تسلية للنبى ﷺ وبيان ما يلقاه أولو العزم من الرسل من عند الكافرين والضالين.

ومن بعد ذلك أخذ ـ سبحانه وتعالى ـ يبين حال المشركين الذى يدعوهم النبى ﷺ فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم ﴾ هذا حكم عام بالنسبة للمكذبين بالآيات، لا يأخذهم سبحانه بمجرد تكذيبهم، بل يمهلهم ويغدق عليهم الرزق حتى إذا تمادوا فى شرهم، ولم تهدهم النعمة، ولم يحسوا بشكرها أخذهم الله تعالى من حيث لا يحتسبون، فهو يختبرهم بالآيات فيها العبر، ثم يختبرهم بالنعم.

ومعنى ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم ﴾ نأخذهم درجة بعد درجة نازلين إلى الهاوية من حيث لا يشعرون؛ من مكان لا يشعرون فيه أنهم كلما أنعم عليهم بنعمة وكفروها يسيرون إلى الهاوية وهم لا يشعرون، إن الله يختبر المكذبين لآياته الكونية وما تدل عليه، والمكذبين لمعجزات النبوة كالقرآن، وسائر آياته لأنبيائه، يختبرهم بالنعيم أحيانا يذوقونه ثم يحرمون منه.

ولقد قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥) ﴾ [الأنعام].

وإن ما يكون عليه الكافرون من ملاذ وزخارف لا يصح أن يكون علامة الرضا، بل هو فى أكثر الأحوال علامة السخط، وقد قال تعالى: ﴿ وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥) ﴾ [الزخرف]، وإن ذلك من إملاء الله تعالى، ليزدادوا ضلالا وفتنة. ولقد أكد الله تعالى ذلك فقال: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) ﴾.

فى هذا النص السامى يبين سبحانه عاقبتهم، وهى العذاب الشديد الذى يستدرجون إليه فيقول: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ﴾، أى أطيل عليهم الأمن، أى أتركهم ملاوة من الزمن يستمتعون فيها، كما تستمتع الأنعام، وهم سادرون فى طغيانهم

وكفرهم، وكلما أمعنوا فى لذاتهم وشهواتهم وما مكنوا منه؛ ازدادوا إثما، حتى إذا امتلئوا آثاما بما كسبت أيديهم أخذوا أخذ عزيز مقتدر، وما أفلتوا من عقاب شديد؛ ولذا قال تعالى مبينا ما بيته لهم: ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾، هو التدبير للأشرار معاملة لهم بمثل تدبيرهم وشرهم، وإيذائهم لأهل الإيمان ﴿مَتِينٌ﴾، أى غليظ شديد مأخوذ من متن الجسم وهو الجانب القوى فى عظامه.

وإنه قد قالوا: إن هذه الآية نزلت فى كبراء قريش الذين كانوا يؤذون المؤمنين وخصوصا ضعفاءهم، فالله تعالى يبين لهم أنهم مأخوذون وسينتقم الله تعالى منهم، وقد أخذهم الله تعالى بذنوبهم فى موقعة بدر، أَخَذ الذين بالغوا فى إيذاء النبى ﷺ أخذ عزيز مقتدر.

ونقول: إن عموم الآية يشمل هؤلاء وغيرهم ممن يظهرون مغترين، يقولون فى غرورهم نحن أكثر أموالا وأولادا، فالله تعالى يمهل ولا يهمل.

وإن اغترار المشركين بالمال والنفر يمنعهم من التفكير فى مآل أمرهم، والداعى إلى الحق وماضيه؛ ولذا قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١٨٤)﴾.

لقد كان النبى ﷺ الأمين الصادق فى قريش، وعاش بينهم أربعين سنة كان يعرف بينهم بالأمين، وإذا ذكر اسم الأمين لا ينصرف إلا إليه، يحكم بينهم فى خلافهم إذا تنازعوا، ويرتضون حكمه إيمانا بعقله وكمال تدبيره، فلما دعاهم إلى الحق وترك عبادة الأوثان قالوا مجنون، وقد رد الله قولهم بقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (٢٢)﴾ [التكوير].

ولما رموه بهذا دعاهم الله أن يتدبروا ما يقولون، ويوازنوا بين قولهم هذا وما عرفوه من قبل، حتى يدركوا الحق وينفوا قولهم فيه، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ أى يقولون هذا القول، ولم يتفكروا، ويعلمون أنه ما بصاحبهم من جِنة، فالتفكر ليردوا عقولهم إلى ماضى قولهم فيه من أنه العاقل الأمين فى

شبابه، حتى إذا بلغ أشده وبلغ الأربعين قالوا فيه ما قالوا، وإن نتيجة التفكر والموازنة أن ينتهوا إلى الحكم بأنه ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾. وعبر الله تعالى بقوله: ﴿مَا بِصَاحِبِهِم﴾ من فيه إشارة إلى مصاحبته أربعين سنة فى صحبة كريمة عاقلة أمينة يرجعون إليه فى أمورهم المهمة ويشركهم فى فعل الطيبات أنَّى اتجهوا إليها.

وإن ما دفعكم إلى هذا الوصف الذى ينافى ماضيه وحاضره إنما هو أنه جاء بالحق بشيرا ونذيرا وهاديا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أى ذاكر لكم عاقبة الكفر، وهو العذاب الشديد، مبين لكم ذلك وموضحه.

والاستفهام هنا إنكارى للتوبيخ؛ لأنهم اندفعوا فى رميه بالجنون من غير أن يتفكروا.

وقد وردت آيات كثيرة فى هذا المعنى فقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦)﴾ [سبأ].

فالله تعالى فى هذه الآية يدعوهم إلى أن يتفكروا مجتمعين وفرادى، ومتذاكرين وستنتهون إلى أنه ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾، إنه الكامل فيكم صبيا وشابا ورجلا مكتملا، ولكنه العناد قد جركم إلى إنكار ما هو ثابت ثبوتا لا مجال للريب فيه، وبعد أن دعاهم الله تعالى إلى التفكير فى أمر النبى الصادق الأمين، دعاهم إلى النظر فى الكون ليؤمنوا بالله وحده، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥)﴾.

عقيدة الإيمان الإسلامية شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وأنه الصادق الأمين، وقد بين سبحانه فى الآية السابقة أن صدق محمد ﷺ ثابت عند المشركين لصحبته لهم قبل أن ينادى بأنه رسول رب العالمين، ولم تتغير حاله

بعد الدعوة وليس به جنون كما ادعيتم ولكنه حمل الرسالة بالإنذار والتبشير لكم فلا مسوغ لكم فى تكذيبه، وقد علمتم من ماضيه فيكم أنه الصادق، وتأيد صدقه بالمعجزة الباهرة القاهرة فيكون كل ما جاء به حق .

وإنه إذا ثبتت المعجزة، وإنها ثابتة لا محاله، فقد ثبت كل ما جاء به ودعا إليه من التوحيد، وألا يشركوا بالله شيئا.

وقد أخذ - سبحانه وتعالى - يثبته بالأدلة الكونية، وقد دعاهم - سبحانه - إلى النظر فى الكون، وما خلق من شىء فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ الملكوت صيغة مبالغة فى الملك، وهى تدل على كمال السلطان وقوة الملك، وأن كل شىء فى هذا الملكوت لا يسير إلا بأمر الله تعالى ونهيه - سبحانه وتعالى - والاستفهام للتعجب من أمر المشركين الذين هبط حالهم إلى عبادة حجر لا ينفع ولا يضر، وهو ملقى ككل الحجارة الملقاة ولا ينظرون إلى الكون العظيم وخالقه، لا ينظرون إلى السماء وأبراجها والشمس وضوئها، والقمر ونوره، وتعاقب الليل والنهار، ولا إلى الأرض وسهولها وأوتادها ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾، والأشياء التى خلقها الله تعالى من حيوان، وجماد وفلزات فى باطن الأرض، لا ينظرون إلى ذلك ويسجدون للصنم، ويجعلونه إلها كخالق هذا الكون، وخالق الوجود كله! إن هذا قصور فى الفكر والعقل، وضلال فى القول والعمل، وخبط فى العبادة من غير إدراك.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ الفعل فيها عطف على فعل محذوف تقديره أيشركون بالله أصناما، ويجعلونها أندادا له - سبحانه وتعالى - ولم ينظروا إلى خلق الله وعظم هذا الخلق، والأثر يدل على المؤثر، والمخلوق يدل على الخالق سبحانه، وهذا الكلام فيه دعوة إلى النظر فى الكون، ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ فى السماء والأرض، فقد قال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ... (١٠١)﴾ [يونس]، وقال تعالى: ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩)

وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) ﴾ [الغاشية]، وقال تعالى: ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) ﴾ [الذاريات].

وهكذا يجب ابتداء النظر إلى الكون وما فيه، وإلى النفس الإنسانية وما هى، وممّ تكونت، ولقد أمر الله تعالى فى الآية بالنظر إلى مآل الإنسان، وأنه داع إلى الاعتبار، ولا يمكن أن يكون قد خلق عبثا، فقال تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾، و«أنْ» هنا مخففة من «أنّ» الثقيلة، وإنها ضمير الشأن، أى: وأنه الحال والشأن أن يكون قد اقترب أجلهم.

والله ـ سبحانه وتعالى ـ يذكرهم بضرورة النظر إلى الموت، وإلى أن الأجل الذى أُقِّت لحياتهم انتهى، وهذا التذكير فيه فوائد:

أولاها ـ أن غرور الحياة يدفع إلى الطغيان فيها، فينهوى إلى ضلالها، فإذا ذكر بالموت علم أنها فانية فيقل طغيانه وغروره بها وتلك نافذة إلى الإيمان.

ثانيها ـ أن تذكر الموت يدفع إلى التفكير فى قيمة الحياة فإذا عرف قيمتها عرف قيمة الدنيا؛ ولذلك كان بعض الصالحين إذا عزى فى وفاة قال: اللهم انفعنا بالموت، لأنه عبرة وفيه إنذار بالنهاية فإن لم يؤمن باليوم الآخر، فالحياة تكون لغير غاية.

ثالثها ـ أن التفكير فى الموت والنظر فيه يدفع إلى الإيمان باليوم الآخر، وأن حياته ليست عبثا كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾ [المؤمنون].

إنها آيات الله البينات، فيها عبرة وعظة لقوم يؤمنون.

ولقد قال تعالى من بعد ذلك فى استفهام تعجبى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ الفاء هنا للإفصاح عن شرط مقدر تقديره إذا لم يؤمنوا بالله الخالق المنشئ المدبر، وآياته الدالة عليه ولا فى الموت النازل بهم لا محالة، إذا لم يؤمنوا بذلك، فبأى حديث يحدَّثون به يؤمنون.

والاستفهام إنكارى توبيخى، هو نفى لإيمانهم بأى حديث مهما يكن، وذلك فيه توبيخ، وفيه إثبات أن أمثال هؤلاء لا يؤمنون بشىء وفقدت قوة الإيمان بأى أمر، ومن فقد أصل الإيمان بالأشياء فهو حائر بائر ضال لا يهتدى؛ ولذا قال الله تعالى بعد ذلك: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

إن من لا يؤمن بشىء كتب الله تعالى عليه الضلالة؛ لأنه سلك طريق الغى، واتخذه سبيلا، فسار فيه من غير تبصر، وبذلك كتب الله تعالى عليه الضلال، وعبّر عنه بأن الله أضله، فإن الله لا يكتب الضلالة إلا لمن سار فى طريقها، واختار سبيل الغى، ولم يختر سبيل الهدى، وإن من يكتب الله تعالى عليه الضلالة ـ لا هادى له لأنه ارتكس فى الشر، ولم ينقذه الله تعالى منه، لأنه اختاره، ولذا قال تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ﴾، أى من سار فى طريق الغى، حتى بلغ نهايته فقد أضله، ومن كتب الله تعالى عليه الضلال فلا هادى له؛ لأن الضلالة استمكنت فى نفسه وتغلغلت فى أطوائها(١)، فلا مدخل للنور فى قلبه الذى ختم الله تعالى عليه.

وإن الله يتركه فى ضلاله، وقد قال تعالى: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، أى يتركهم الله تعالى فى ﴿طُغْيَانِهِمْ﴾، أى ظلمهم الطاغى الذى تجاوز كل حد، فطغيانهم يكون ظلما لأنفسهم، وظلما للناس وعُتُوا عليهم واستكبارا فى الأرض، ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أى يتحيرون ويترددون، والتحير أو التردد هنا فى موضعه؛ لأنهم خالفوا الفطرة وقاوموها، فهم فى حرب معها، وإذا كانت الحرب داخلية نفسية فإن الإنسان يكون فى حيرة مستمرة بين فطرة تدعوه إلى ألا يطغى ولا يظلم، وبين حال قائمة قصدها، وهى ما عليه من طغيان وعتو، والله ـ سبحانه ـ لطيف بعباده، ولىّ لمن اهتدى ولم يخالف فطرته التى فطر الناس عليها.

---

(١) يعنى ما تنطوى عليه. من الطى وهو ضد النشر. لسان العرب-طوى.

الساعة

﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧) قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)﴾

يقول ابن كثير: إن هذه الآية مكية، وإن كانت فى سورة أكثرها مدنى، وإن لذلك موضعا فيما نقول عن السائل من هو؟ فقيل: إن السؤال من يهودى ليعجز النبى ﷺ، وعلى ذلك يرجح كون الآية مدنية، وقيل ـ ويرجحه الحافظ ابن كثير ـ إن السائل من قريش قالها استبعادا لوقوعها، واستعجالا لها لأنه لا يؤمن بها، كأنه يقول للنبى ﷺ: إن كنت صادقا فبين متى تجيء كما قال تعالى: ﴿**يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (١٨)**﴾ [الشورى]، وقال تعالى عن كفار قريش: ﴿**وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٧١)**﴾ [النمل].

ونقول: إن السؤال عن الساعة يرد على خاطر المؤمن والكافر، فالكافر يسأل مستبعدا، والمؤمن يسأل لأنه مؤمن بها، والعقل طُلَعَة يريد أن يعرف زمانها، وتعرف المجهول المستور غاية من غايات العقول، تتطلع لمعرفته.

سؤالهم ذكره الله تعالى بصيغة ﴿**أَيَّانَ مُرْسَاهَا**﴾ المرسى: اسم زمان أو مكان، ويطلق على مرسى السفن، ونهاية مسير المركب إلى الأرض اليابسة.

والمعنى يسألون عن وقت تنتهى إلى المرسى الذى ترسى إليه أو إلى الزمن الذى ترسى إليه، وتنتهى عنده، فشبه زمن وجودها بالمرسى الذى ترسى عنده السفن، ويكون المعنى على هذا أيان ينتهى الزمن إليها، وأى قدر من الوقت يمضى حتى نعرف منتهاها.

أجاب النبى ﷺ بقوله الذى أمره به ربه ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾، أى إن علمها عند ربى وحده لا يعلمها أحد سواه، ولذلك عبر ـ سبحانه ـ بـ«إنما» الدالة على القصر، ولقد صرح الله تعالى بهذا القصر، وقال تعالى على لسان نبيه الكريم: ﴿لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ﴾، أى لا يوضحها فى وقتها إذ يجىء إلا الله، فاللام هنا بمعنى «فى»، كما قال تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ ... (٧٨)﴾ [الإسراء]، أو تتعلق بمحذوف، ويكون السياق هكذا لا يوضحها ذاكرا لميقاتها إلا الله تعالى.

﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وقد وصفها الله تعالى بأنها تثقل على النفوس؛ لأنها تشتمل على وقت الحساب، والكافر يحس بعظم ما ارتكب، والمؤمن لا تزين له أعماله فيحسبها كلها حسنة فهو مُشفق منها، والمغتر بما عمل من أعمال حسنة فهو مشفق منها، ثم هى عندما تجىء يختل نظام الكون ويضطرب، فإذا جاءت انشقت السماء، وانتثرت الكواكب والنجوم، وكورت الشمس، وسيرت الجبال، فثقلت على النفوس وصعب احتمال ما يصحبها.

وإنها تكون حيث لا علم بها، ولا توقع لها؛ ولذلك قال: ﴿لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً﴾ إلا مباغتة لا تتوقعون مجيئها، وذلك يزيد فى ثقلها.

وقد ذكر النبى ﷺ أشراطا لها، تنذر بقربها، ولكنها لا تعين ميعادها، وإذا جاءت لا تنفى أن مجيئها كان بغتة، فالأشراط مقربة للزمان، وليست معينة له.

ويقول الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ وقالوا: إن «حفى» معناها عالم، وعُدِّى بـ«عن» على معنى كأنك عالم شيئا عنها، وقد فسرها عبد الله بن

عباس بأنه (كأن) بينك وبينها مودة تتقاضاك أن تعرف الكثير عنها، فإنه يقال فى العربية إن فلانا حفى بفلان أى بينه وبينه مودة تقتضى أن يعرف عنه الكثير مما عنده، والمؤدى واحد، وهو أن سؤال النبى ﷺ لأنهم يحسبون أنه عالم به أو ﴿ حَفِيٌّ ﴾ ومَعْنىٌّ بأن يعرف عنها ما يُعرف.

وذكر السؤال عنها مرة أخرى لاختلاف متعلق السؤال، فالسؤال فى الأول لمعرفة ميقاتها، وتكرار ذكر السؤال لبيان ظنهم بأن النبى ﷺ حفى بمعرفة شيء عنها.

وهكذا التكرار فى القرآن لا يعد تكرارا؛ لأن ذكر اللفظ المكرر يكون ذكره لمقصد آخر، غير المقصد، وقد أشرنا إلى ذلك عند الكلام فى قصص القرآن الكريم.

ولقد قال الزمخشرى: فإن قلت لم كرر ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ وإنما علمها عند الله؟ قلت للتأكيد، ولما جاء به من زيادة ﴿ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ وعلى هذا تكرار العلماء الحذاق فى كتبهم لا يخلون المكرر من فائدة زائدة.

ولقد أمر الله تعالى نبيه بأن يقول لهم ما أمره به أولا، وهو: ﴿ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ﴾ وذلك لتأكيد اختصاص علم الله تعالى بها، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ... (٣٤) ﴾ [لقمان].

وإنما جهَّل الله تعالى العلم بالساعة لكى يقدم الناس على أعمالهم جاهدين مثمرين مستغلين الأرض مخرجين خيراتها، ولو علموا زمانها، لقلت همتهم، وضعفت عن الإنتاج والإثمار عزيمتهم، والإسلام لا يريد أن يفتُروا فى أعمال الحياة والعبادة وأن يتموا أعمالهم، ولا يبطلوها، ولقد ورد أنه إذا جاءت، والرجل

قد أخذ يزرع فسيلة فعليه أن يتم ما بدأ[(١)] ثم ختم الله ـ سبحانه ـ الآية بقوله تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ الاستدراك هنا عما وهمه الناس من أن العلم بميقات الساعة ينفع ولا يضر، ولذا قال أكثر الناس لا يعلمون حكمة القادر الحكيم العليم، فيما يبين ويترك بيانه لميقاتها، والله ـ سبحانه وتعالى ـ بكل شيء عليم.

ولقد بين ـ سبحانه وتعالى ـ أن النبي ﷺ لا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله تعالى عليه، ولم يطلعه عن ميقات الساعة، فقال تعالى: ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨) ﴾.

بعد أن بين الله ـ تعالى ـ أمر الساعة وأن علمها عند الله وحده، أمر النبي ﷺ أن يبين لهم أنه بشر رسول وأنه لا يملك لهم أن يأتي بها قبل أن يقدِّر الله تعالى؛ لأنه لا يملك في نفسه لنفسه شيئا، لا يملك لنفسه نفعا يجلبه ولا ضرا يدفعه، بل إنه يجري عليه ما يجري على البشر، فلا يملك أن يغير في أمر الساعة شيئا، فليس لهم أن يسألوه عنها ويطلبوا منه ميقاتها، ولقد قال تعالى مثل ذلك في آية أخرى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) ﴾ [يونس].

﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ ﴾.

---

(١) عن أَنَس بْن مَالِك قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنْ قَامَتْ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ". رواه أحمد: باقي مسند المكثرين(١٢٥٦٩). الفسيلة: صغار النخل.

وإن هذا النص بما فيه من رد على أسئلتهم فيما يتعلق بالساعة فيه تأكيد لبشرية النبى ﷺ وأنه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله تعالى، فأنا تحت سلطانه وظله، لا أملك إلا ما يملّكنى، وما لا يملكنى ممنوع على لا سلطان لى فيه، وإن علم الغيب لله وحده، فعلم الساعة له وحده، وأنا لا أعلم الغيب، وإنما علمه عند الله عالم الغيب لا يُطلع أحدا عليه، ولذا قال النبى ﷺ بأمر من ربه: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ لطلبت الكثير من الخير ونلته، فكنت أستنصر فى الحروب فى غير مكيدة ولا تدبير، ولدفعت أمر الشرك، ولجعلت الأرض خصبة إن كانت جدبا، ولكنى أفوض أمرى إلى، إن أعطانى فبإحسانه، وإن منعنى فبحكمته وهو العليم.

﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾، ولو كنت أعلم الغيب ما مسنى السوء فما يمسنى ضر، ولا أنهزم فى حرب، ولا أغلب فى أمر، إنما أنا كسائر البشر أغالب أهل الشر وأنازعهم، وأنال منهم، وربما ينالون منى.

وإنما ما اختصصت به هو الرسالة وحدها، وأن الله يكلفنى؛ ولذا قال: ﴿إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، أى أنه مقصور على الرسالة لا يتجاوزها، ولا يعدوها، فهو نذير للكافرين، بشير للمؤمنين ﴿إِنْ﴾ فى الآية نافية، فهى نافية إلا ما ثبت بعد الاستثناء، إلا وهو الرسالة من الله ينذر بها الكافر، ويبشر بها المؤمن.

وإنما ينتفع بالبلاغ المحمدى بالإنذار والتبشير ـ المؤمنون، فهم الذين يخافون عذابه إن أنذروا، ويجيبون نداءه ويستبشرون برحمته إن أطاعوا، والله سبحانه هو الهادى إلى سواء السبيل.

النفس الإنسانية

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم
مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا
تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا
ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾
فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى
ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ
﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾
وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ
أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن
كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾

بين الله تعالى أن الفطرة الإنسانية تتجه إلى الإيمان بالله تعالى، وأنها شهادة النفس الإنسانية، وأنها العهد الذى أخذه الله تعالى على الناس وهم فى ظهور آبائهم، وقد بين كيف انحرفت، وتوالت هذه الانحرافات، وصارت الخلائف تتجه إليها فى ذرياتهم، وكأنها حيلة وليست كذلك. يقول الله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾، أى أن الناس جميعا يرجعون إلى نفس واحدة فى جنس واحد؛ ولذلك كانوا متجانسين ملتقين فى طبيعة واحدة مهما تختلف أجناسهم أو تتباين شعوبهم وقبائلهم، فهم من جنس

واحد، أو نقول النفس الواحدة هى نفس آدم وجعل الله تعالى زوجها من جنسها أو منها ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾، ليأنس روح كل منهما بصاحبه والمؤدى فى التخريجين واحد، وهو التجانس التام بين النفسين، النفس التى انبعثت منها زوجها والزوج المنبعث. وقوله تعالى: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ توضح التجانس، سواء أذكر ابتداء، أم كان ذكر بانتهاء القول، أى سواء أفسرنا النفس بالوحدة الجنسية، أم فسرنا النفس بآدم وحواء.

وقوله: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أى ليستأنس ويطمئن، ويمتزج روحاهما، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ... (٢١)﴾ [الروم].

ويلاحظ هنا من الناحية البيانية أنه ـ سبحانه وتعالى ـ ذكر النفس فى السياق بالسياق مرة بأنها مؤنثة الضمير عليها مؤنثة فقال: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ فلما بين الله ـ سبحانه وتعالى ـ ثمرة ذلك التجانس، وهو التلاقح بين الذكر والأنثى ليبقى الوجود، وليكون ذلك التجانس منتجا أقصى غايته، قال: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا﴾ بيَّن حينئذ الذكر والأنثى، وأن الذى تغشى عند اللقاء المنتج بينهما هو الذكر، وأن التى تُغشى هى الأنثى، وبذلك تكون الثمرة الإنسانية هى نتيجة ما بينهما؛ ولذا عاد الضمير مذكرا، فتغشى معناها: كان بينهما ما أوجبته الفطرة.

ولقد ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ مراتب الشعور بالحمل الذى يكون نتيجة لذلك التغشى فذكر مراتب ثلاثة:

المرتبة الأولى ـ مرتبة الحمل فى أوله، وهى مرتبة تردد وتعرُّف، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا﴾، أى سهلا محتملا، ولم يمنعها من عمل، وكان من صفات هذه المرحلة أنها لم تعقها عن عمل، ولم تمنعها من أداء واجباتها المنزلية؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾، أى كانت تنتقل به، فـ«الباء»

بمعنى «مع»، أى أنها كانت مع هذا الحمل الخفيف تروح وتغدو وتتقلب فى أمور بيتها وفى شئونها.

المرتبة الثانية ـ هى أن يثقل حملها، وتشغل به، ولا تفكر هى وزوجها إلا فيه، وفى هذه الحال يشركها زوجها فى شعورها، ورجائها ويضرع هو وهى إلى الله تعالى أن يجعله ذرية صالحة؛ ولذا قال تعالى فى هذه المرحلة: ﴿ **فَلَمَّا أَثْقَلَت** ﴾ أى صارت تحمل حملا ثقيلا، ونسب الإثقال إليها دون الجنين، مع أنه هو الذى أثقل؛ للإشارة إلى أن الأنس بالجنين، والفرحة به والرغبة فى استقباله تنسيها ثقله، فليس ثقيلا على نفسها، وإن أثقل جسمها.

وفى هذه المرحلة كما أشرنا يشترك الزوج والزوجة فى شعور واحد وهو الدعاء له بالسلامة. وهنا لا يذكر إلا هو؛ ولذا قال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ** ﴾ يشتركان فى الدعاء؛ لأنه يلتقى شعورهما، شعور الأبوة، وشعور الأمومة، ولا تفكير إلا فى سلامته من الآفات، ومعنى صالحا، أى أن يولد قويا مستقيما فى تكوينه سويا فى خلقه، ليس به آفة من آفات الخلق والتكوين. يدعون ربهما مقسمين بالله: لئن آتيتنا مولودا قويا سويا لنكونن من الشاكرين. والشكر هو شكر النعمة بالقيام بحقها، وعدم الكفر بها.

والمرتبة الثالثة ـ أن يفصل عنها، ويلقى عنها ثقلها، ويكون حق الوفاء بعهدهما قد جاء ميقاته، ويلاحظ أنهما عندما ضرعا إلى الله تعالى؛ عبر عن ذلك بـ﴿ **رَبَّهُمَا** ﴾ ـ لأنه الخالق المربى المدبر، وهو الذى يُلجأ إليه سبحانه.

ولكن هل وفيا بحق العهد واليمين:

يجيب الله تعالى عن ذلك بقوله عز من قائل: ﴿ **فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠)** ﴾.

من شأن المشركين أنهم فى الشدائد يرجعون إلى الله تعالى خائفين طامعين، يرجونه خوفا وطمعا، وإن هؤلاء عندما أثقل الحمل اعتراهم شعوران: أحدهما

الخوف من أن يضر ذلك بالأم، والطمع فى أن يكون منهما ولد سوىّ الخلق والتكوين يفرح به وييسر، ولا ملجأ يلجأ إليه إلا الله، ولا مأمن إلا عنده، فلما ذهب الخوف، وتحقق الطمع تركا الضراعة وراءهم ظهريا، وبدت سوءات الشرك فى نفوسهم، وسيطر الجحود عليهم، والكفر والبهتان حكما أمورهما، وقد صور الله تعالى هذا المعنى السامى بقوله: ﴿ **فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا** ﴾ كان يقرّان بأنه المعطى وحده، فلما أعطاهما ولدا سليم الجسم سوى البنية جعلتم ثمة شريكا فى خلقه وتكوينه، فزعمتم أن ما تدعون من دونه له دخل فى تكوينه وخلقه فزعمتموهم بأوهامكم أنهم شركاء لله فى الخلق والتكوين.

وهكذا نفس من يضل عن سبيل الله، ويسير فى طريق الغواية، وتستولى عليه الوساوس، إذا كان فى شديدة يستولى عليه الخوف والذعر فيستقيم تفكيره، فإن اطمأن وذهب عنه الخوف لا يهتدى بل يضل.

﴿ **فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾، أى تسامى قدر الله تعالى، وتعالى علوه عما يشركون. «ما» هنا إما مصدرية، والمعنى تعالى قدره عن إشراكهم، وطغيان الأوهام على نفوسهم، أو «ما» موصولة بمعنى «الذى»، ويكون المعنى: تعالى الله بذاته العلية الذى لا يماثله شىء فى الأرض ولا فى السماء أن يكون له مماثل من هذه الأوثان التى لا تضر ولا تنفع.

وإن هذه قصة تصور حال الإنسان فى أمور ثلاثة:

أولا ـ أنه وزوجه من جنس واحد مؤتلف متجانس فكلاهما متمم لصاحبه، وكلاهما من خلق واحد، وتكوين واحد، وخلقا متقابلين متكاملين.

وثانيا ـ تصور أنه حال الخوف والطمع لا يلجأ إلا إلى الله، فهو الذى يشبع حاجته، وهو الذى يرجى وحده فى الشدة.

وثالثا ـ فى أنه إذا ذهب الخوف غلبته الأوهام، وسيطرت عليه.

يقول القفَّال في هذه القصة: لما آتاهما ولدا صالحا سويا جعل الزوج والزوجة لله شركاء فيما آتاهما؛ لأنهم تارة ينسبون ذلك الولد إلى الطبائعيين كما هو قول الطبائعيين، وتارة إلى الكواكب كما هو قول المنجمين، وتارة إلى الأصنام والأوثان كما هو قول عبدة الأصنام، وذلك الأخير أكثر ما كان عند العرب؛ ولذا قال تعالى: ﴿ **أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٢)** ﴾.

إن مقياس الألوهية هو الخلق والتكوين، فإن كان الله هو الخالق المكوِّن فهو المالك لما خلق وكوَّن، وهو وحده المستحق للعبادة، سبحانه وتعالى، والله تعالى مالك السموات والأرض وخالقهما، وخالق الإنسان فكيف يعبد غيره؟!؛ ولذا قال تعالى مستنكرا ما عليه الضالون: ﴿ **أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١)** ﴾، الاستفهام إنكارى لإنكار الواقع بمعنى التوبيخ، أى أتشركون بالله فى العبادة ما لا يخلق شيئا وهو ذاته مخلوق، وننبه هنا إلى ثلاثة أمور:

أولها ـ أنه هنا ذكر شركهم ولم يذكر من يشاركونه، وهو الله، تساميا لاسم الله تعالى عن أن يذكر مقارنا بالأوثان.

ثانيها ـ أنه ـ سبحانه وتعالى ـ ذكر أنهم لا يُخلقون. والله خالق كل شىء وهم مخلوقون. والله خالق وليس بمخلوق.

ثالثها ـ أنها لا تضر ولا تنفع ولا ينصرون أحدا، ولا ينصرون أنفسهم، والله تعالى غالب على كل شىء ينفع ويضر وينصر من ينصره، إنهم لو كانت لهم عقول ما أشركوا مع الله أحدا أو شيئا من هذه الأوثان أو غيرها.

وكل مقدمات هذه الفارقات ثابتة بالبداهة لله جلت قدرته، والأوثان ثابت كل ما سلب عنهم. قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤)** ﴾ [الحج].

وقد كان إبراهيم - عليه السلام - يقول لأبيه: ﴿ ... يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) ﴾ [مريم]، وجاء إبراهيم وكسر الأوثان جذاذا إلا كبيرا لهم فلم يستطيعوا نصرا، قال تعالى فى ذلك: ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) ﴾ [الأنبياء].

﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) ﴾، أى إن هذه الأصنام فوق أنها لا تضر ولا تنفع، ولا تنصر أحدا، ولا ينصرون أنفسهم إذا رامها عدوها السوء لا تجيب نداء، ولا ترد دعاء، ولذا قال تعالى:

﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَتَّبِعُوكُمْ ﴾ وهذا لا يخلو من تهكم؛ لأن الأحجار لا تعقل ولا تدرك، فلا يتصور منها ضلال أو هداية، إنما ذلك لصاحب العقل الذى يرشد أو يضل، وأصل العقل ليس قائما فيهم.

وإنه سواء عليكم أقلتم أم لم تقولوا فهم لا يسمعون قولا، ولا يردون قولا، ولذا قال تعالى: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴾.

أى أنه يستوى دعوتهم بألسنتكم أم صمتكم عنهم، وعبر فى الجملة الأولى بالفعل الماضى ﴿ أَدَعَوْتُمُوهُمْ ﴾؛ وعبر عن المعادلة الثانية بالجملة الاسمية ﴿ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴾؛ لأن الأصل هو الصمت، ولأن الصمت أولى؛ لأنه هو الجدير بالأخذ فى هذا المقام، إذ القول لغو، وصون اللسان عن اللغو أولى، ولأن الأوثان غير جديرة لأنها أحجار، والخطاب شأن العقول.

ساق كتاب السير والصحاح أنه روى أن معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ ابن جبل - رضى الله عنهما - وكانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله المدينة، فكانا يعدوان فى الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ليعتبر قومهما بذلك، ولم يؤثروا لأنفسهم، فكان لعمرو بن الجموح - وكان سيدا فى قومه - صنم يعبده، ويطيبه، فكانا يجيئان فى الليل، فينكسانه على رأسه ويلطخانه

بالعذرة فيجىء عمرو بن الجموح فيرى ما صنعا به فيغسله ويطيبه ويضع عنده سيفا، ويقول له: انتصر، ثم يعود لمثل ما صنعوا، ويعود لمثل صنيعه أيضا حتى أخذاه مرة فقرناه مع كلب ميت ودلياه فى حبل فى بئر هناك، فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل، وقال:

تا الله لو كنت إلهـا مُسْتَدَنْ

لم تك والكلب جميعا فى قَرَن

هذه صورة من صور الوثنية.

ولقد أدرك عمرو بن الجموح الدين الحق فأسلم وحسن إسلامه واستشهد يوم أحد.

تدرج الله تعالى مستنكرا لعبادتهم من أدنى حال متصورة لهم إلى أعلاها، فذكر أنها أحجار لا تضر ولا تنفع ولا تستطيع لأحد نصرا ولا تنصر نفسها، ثم صور لهم أنها تنادى فلا تجيب لأنها لا حياة فيها، إنما يجيب النداء للأحياء ولو كانت تنعق، ثم تدرج إلى تصور أنها من الأحياء، فإنها لا تستجيب للدعاء، فقال تعالت كلماته:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) ﴾.

الخطاب للمشركين من أول الحديث فى عبادتهم الأوثان، والله ـ سبحانه وتعالى ـ يتدرج فى تصويره لما يعبدون من أحجار لا تنفع ولا تضر ولا تسمع، وليس فيها حياة إلى فرض أن فيها حياة، وفى هذا الفرض البعيد لا يعلون عليكم معشر المشركين، بل ينهدون إلى أن يكونوا عبادا مثلكم والمعبود يجب أن يكون أعلى منكم لتسجدوا له، فكيف تعبدون مثلكم، ولماذا تختارونه للعبادة وهو على أكثر تقدير له ـ مثلكم؟!.

والحق أنه دونكم لأنه أصم لا يسمع، أبكم لا يتكلم، قد محيت منه آية الإبصار فلا يرى. ولقد تحداهم أن يدعوهم، فإن استجابوا كان لكم أن تدعوا ما تدعون زورا وربما تعدون فى العقول؛ ولذا قال تعالى: ﴿**فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ فى دعواكم الألوهية. والأمر للتحدى أو للتعجيز لا للطلب ولا الإباحة.

وهنا ملاحظات بيانية:

الأولى ـ أنه سبحانه وتعالى قال عن الأحجار: ﴿**عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ**﴾ وكيف يقال إنها عباد، وكيف يقال: إنها مثل المشركين، وكيف يتحدث عنها كأنها جمع مذكر سالم؟. والجواب عن هذا أن الواضح هو بيان مثليتها فى أنها مخلوقة مثلهم، وعلى الأقل هى متماثلة مع المشركين فى أنها خلق لله لا تُعبد كما لا يعبدون، فكيف يعبدونها، وهذا القدر كاف لاستنكار عبادتها، وتسميتها عبادا من حيث إنها خاضعة لله، فلله يسجد طوعا أو كرها كل ما فى السماء والأرض من أجرام.

والبعض يزعم أن للجماد روحا ﴿... **وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ**... (٧٤)﴾ [البقرة]. وعود الضمير عليها كضمير جمع العقل مجاراة لهم فى تفكيرهم، إذ جعلوها من العقلاء فعبدوها.

الثانية ـ لام الأمر فى قوله تعالى: ﴿**فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ**﴾ ما موضعها من القول؟ نقول: إن موضعها أنها لام الأمر؛ يطلب إليهم رب العزة أن يأمروهم ليستجيبوا، أى أن الأمر بالاستجابة ليس من الله تعالى؛ لأن الله تعالى لا يطلب الاستجابة ممن لا يجيب، بل الأمر يكون من غيره ممن يعبدها وليكون التعجيز والتحدى كاملا.

وبهذا التخريج يكون طلب الاستجابة من المشركين لا من الله تعالى.

الثالثة ـ أن سياق القول يدل على أن الاستجابة غير ممكنة؛ ولذا كانوا غير صادقين، وبذلك ينتهى التحدى بالتعجيز والعجز، فعجزوا أن يثبتوا صدقهم.

ولقد بين الله من بعد ذلك أنها أدنى خلقا ممن يعبدونها فقال تعالى:

أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

إن الآية السابقة، ذكرت أنهم عباد أمثالهم، وقد خرجنا معناها على ذلك، ويكون قوله: ﴿**أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا**﴾ وتكون الآية هنا تنزيلا لهم عن مقام المماثلة إلى ما دونها، فأنتم لكم أجسام مصورة؛ لكم أرجل تمشون بها، وأيد تبطشون بها ولكم آذان .

وأُنسينا عند الكلام فى معانى الآية السابقة أن نذكر قراءة (إنْ) بالتخفيف بمعنى النفى، ويكون المعنى: «ليس الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم» فتكون لنفى المماثلة بينهم، بل إن المشركين فى الخلق والتكوين أكمل وأعلى فكيف يعبد الأعلى من هو أدنى منه مقاما، وأقرب منه إلى الإكرام. ويكون قوله تعالى: ﴿**أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا**﴾ الآية بيانا لهذه الأفضلية، ومنع المماثلة. وأن قوله تعالى: ﴿**أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ**

آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ لاستفهام كله للإنكار بمعنى نفى الوقوع، أى ليست لهم أرجل، ولا أيد، ولا آذان. وجاء النفى بصيغة الاستفهام لتأكيده بالدعوة إلى الالتفات لهم، ثم الحكم ينفى هذه الجوارح عنهم، ومن عنده هذه الجوارح أكمل بلا ريب فى الخلق والتكون والآخر أدنى منه.

وقد ذكر المشى بالنسبة للرجل، والبطش بالنسبة لليد، والسماع بالنسبة للأذن مع أنه إذا انتفى وجود الرجل انتفى المشى لا محالة، وكذا السمع واليد، فلماذا ذكرت هذه الصفات مع أن نفى الأصل ينفيها، ذكرت للدلالة على قوة العابدين لهم، وضعف هذه المعبودات، فكيف يعبد القوى الضعيف، وكيف يعبد القادر غير القادر، وكيف يعبد من أوتى الحركة الجماد الذى لا يتحرك، ولا يستطيع أن يدفع الباطش به أن يبطش.

ومع هذا الضعف الدال على الزراية بمن يعبدونها، كانوا يخوفون النبى ﷺ منهم، كما خوف من قبل قوم نوح وعاد وثمود أنبياءهم. فقد قال تعالى عن هود إذ هددوا عاد: ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦)﴾ [هود].

كانوا يخوفون النبى ﷺ منها، كما كانوا هم يخافون، ولقد تحداهم الله تعالى أن ينزلوا هم وأوثانهم بالنبى ما يخوفون فيكون ذلك بيان لعجزهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنظِرُونِ﴾.

إن كنتم تخافونهم، وتخوفون محمدا فقل يا محمد: ادعوا شركاءكم، أى من جعلتموهم شركاء لله، فالإضافة لأدنى ملابسة، أى الشركاء الذى هم شركاء فى زعمكم أى هم شركاء فى زعمكم أنتم ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾، أى دبروا لى وأعلنوا الحرب، وقد يطلق الكيد ويراد به الحرب. تقول كتب السيرة فى بعض سرايا النبى

ﷺ: (عادوا ولم يلقوا كيدا)(١)، أى حربا. والمعنى أعلنوها حربا مدبرة ﴿فَلا تُنظِرُونِ﴾، أى لا تؤجلونى لحظة من زمان، هذا تحد أمر الله تعالى به نبيه، وبيان لضعف ما يعبدون ـ وإنما هى الأوهام، ووساوس الشيطان هى التى تفرض فيهم قوة، وما هم بشىء فضلا عن أن يخوِّف عاقل مدرك بهم.

ولئن كانت لهذه الأصنام قوة، أو لكم أنتم معشر العابدين لها ـ قوة، فقوتكم من الشيطان وهو وليكم والله ولى المؤمنين، وأين أولياء الشيطان من أولياء الله؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦)﴾.

﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ﴾ الولى هو الحبيب الموالى، والنصير، والمظل بالرعاية، وكل هذا يتضمنه ولاية الله لنبيه فهو حبيبه وناصره، ومن يعيش فى ظله، ومن يفيض عليه برحمته وهدايته، ومن يكون الله تعالى وليه لا يضار، ومن يرومه رد عليه.

وقد أكد النبى ﷺ ولايته لله بالجملة الاسمية، و«إنّ» المؤكدة. والكلام يفيد القصر، أى إن ولايتى لله تعالى وحده، لا ولاية لأحد سواه، هنالك الولاية لله الحق، وإنه نعم المولى ونعم النصير.

وقد ذكر بعد ذلك أن الله تعالى هو منزل القرآن، وهو جدير بأن يحفظه كما وعد، وكما ذكر، وأن يؤيد من بلّغه رحمة للعالمين، فقال تعالى: ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ وصلة الموصول علة فى الحكم أو مؤكد لمعنى القول، أى أن الله تعالى ناصر محمدا ﷺ؛ لأنه صاحب الولاية المطلقة؛ ولأنه رسوله، وصاحب الكتاب المبين الذى يمارى فيه الضالون، فالله ناصره.

وأمر ثالث يوجب عون الله تعالى، ونصرته، وهو أن الله تعالى من شأنه أن يتولى الصالحين، أى يتعهدهم برعايته وتأييده وتوفيقه، ولا يتولى المفسدين.

وفى هذا الكلام إشارتان بيانيتان:

إحداهما ـ الحكم على النبى ﷺ بأنه من الصالحين الذين يصلحون فى الأرض ولا يفسدون، وأن عبدة الأوثان مفسدون، قد أفسدوا فى تفكيرهم وفى اعتقادهم، وأفسدوا وأضلوا باتباعهم الأوهام، وبعبادتهم من لا ينفع ولا يضر.

والثانية ـ أن الله تعالى ناصرٌ الصالحَ على الفاسد، ويتولى الصالحين برعايته، وأنه ـ سبحانه وتعالى ـ لن يضيعهم أبدا، وأن النصر فى النهاية للفضيلة لا للرذيلة، وللحق لا للباطل، وهو يتولى عبادة المخلصين دائما.

وإذا كان الله ناصر المؤمنين، فالشيطان ولى الكافرين؛ ولذا قال تعالى:

﴿ **وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ** (١٩٧) ﴾.

﴿ **وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ** ﴾ الخطاب للمشركين، وقد ذكر معناه آنفا، وكرر القول فيه لبيان الحق الذى ينكرونه، ولتثبيت القول فى نفوسهم، ليخرج منها الوهم، فإن القول إذا قيل فتح خطأ فى النفس، فإذا تكرر عمقه، ولا يزال يتعمق حتى يستكن فيها، فإذا كتب الله تعالى له الهداية استرشد، وعلم أنها أوهام، وإن لم يهتد فمآله الضلال. إن الأوثان لا تضر ولا تنفع فلا تستطيع نفعا، ولا تنصر نفسها. ثم قال الله تعالى: ﴿ **وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ** (١٩٨) ﴾.

الخطاب للنبى ﷺ وأصحابه، والمتحدث عنهم المشركون فإنهم مع هذه البراهين ومع هذه الأدلة الحسية التى تفيد أنها لا تضر ولا تنفع، وأنها دون من يعبدها حسا ومشاهدة، وأنهم لا ينصرون أحدا ولا ينصرون أنفسهم، مع كل هذا عاكفون على أصنامهم يعبدونها، وإذا سمعوا دعوة الحق أعرضوا عنها، ولذا قال تعالى: ﴿ **وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لا يَسْمَعُوا** ﴾ أى لا يسمعوا سماع وعى وإدراك وتأمل، بل هم معرضون، وشبهت حالهم فى عدم تدبر القول، وتعرف ما فيه بعدم السماع، باعتبار أن سماعهم الحسى لا جدوى فيه، إذ لا يتدبرون، بل على

قلوبهم أقفالها، وصور - سبحانه وتعالى - حالهم فقال عز من قائل: ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴾، أى أنهم بعد أن يستمعوا إلى الهدى مشدوهين متحيرين، يأخذهم نور الحق حيث يفكرون ويتدبرون ولكن لا يلبثون أن يغلبهم التقليد وزيف الباطل، فيترددون وتصيبهم حيرة بين ماضٍ ألفوه، وحق بزغ نوره فغلب ضياؤه فعميت أعينهم عن أن ترى .

وقد صور الله - سبحانه وتعالى - بهذه الجملة السامية ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴾، أى تراهم ينظرون إليك، وما تدلى به من بينات باهرة، وأمارات للحق ظاهرة، ﴿ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴾ أى إبصار تأمل وتدبر فى آياته، فهم المبصرون الذى لا يرون، والناظرون الذين لا يعرفون ما ينظرون إليه، فهم فى حيرة أدت إلى ضلالهم.

وهذا استعارة تمثيلية، فقد شبهت حالهم التى يلوح لهم فيها الحق ولا يعرفونه، ويبرق لهم النور ولا يعرفونه، بحال الذين ينظرون ولايبصرون، لأنها رؤية لا ترى الحق ولا تضع أيديهم عليه، فهم فى ضلال مبين، والله - سبحانه وتعالى - يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

الدعوة إلى الله

خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ
بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ
ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟
فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ
لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ

﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

بعد أن بين الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن البراهين العقلية لا تجدى معهم، وأن الأدلة الحسية لا ترشدهم، وأنهم فى الغى يعمهون فيه ـ أمر الله تعالى نبيه أن يستمر فى دعوة الحق فى رفق، وحكمة، وأن يبين مكارم الشريعة فى ذاتها، فإنها بما فيها من صلاح ودفع فساد، وهداية داعية لنفسها من غير برهان ولا دليل، مع التأليف[1]، كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ... ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل]، وكما قال ﷺ: «تآلفوا النفوس»[2]. والآيات الكريمة تبين:

أولا ـ جماع مكارم الأخلاق فى قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾.

وثانيا ـ تبين علاج النفس إذا عراها نزغ الشيطان وفساده بالغضب أو الجهل والحمق، وهو الاستعاذة من الشيطان الرجيم، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾.

فالالتجاء إلى الله فى أزمات النفس فيه النجاة، كالالتجاء إليه سبحانه فى الكروب.

وثالثا ـ أن ذكر الله تعالى يبصر القلب بعماه إذا ضل، وما ضل الذين ضلوا إلا بتركهم لذكر الله، وقد بين ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾.

---

(١) أى مع تأليف القلوب بالمال والخلق الحسن.

(٢) انظر كنز العمال: ج٤، ص٤٩(١٠١٥٨).

ورابعا ـ وتبين أن عدوى الشر تجىء من إخوان السوء، وهم الذى يمدون فى الغى ويجعلون الضال يسير شاردًا عن هداه. وقد بين ـ سبحانه وتعالى ـ ذلك بقوله: ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ (٢٠٢) ﴾.

وخامسا ـ أن ضلال الضالين إنما يكون بإغوائهم بطلب آيات يريدونها ويريدون أن يجتبيها لهم، ومصداق هذا قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣) ﴾.

هذه آيات بينات وهى تكشف معانيها من غير تبيين مبين، ولا تفسير مفسر، فهى كتاب مبين واضح، ولكن ما نذكر من بيان ليس تفسيرا، إنما ذكر لنسق القرآن الحكيم، وضرب فى ناحية من إعجازه الذى لا تتطاول إليه الأعناق، فهى تنهد إليه وتتسامى ولا تسمو، وتحاول ولا تصل.

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) ﴾.

العفو هو الزائد الميسَّر الذى يسهل أخذه، ويسهل إعطاؤه، ويسهل القيام به، فالنص داع لمن يعطى بأن يعطى السهل الذى يمكن المداومة عليه من غير ضيق وتبرم، كما قال تعالى: ﴿ ... وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ... (٢١٩) ﴾ [البقرة]، ويقبل من الناس القليل، ولا يكلفهم ما لا يطيقون من قول أو عمل، ويفعل اليسير من العبادات الذى يمكن المداومة عليه، ولقد كان النبى ﷺ يقول: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»(١). وكان يقول ﷺ: «إن الله يحب الديمة من الأعمال»(٢). وإن العفو السهل اليسير يسهل المداومة عليه، والاستمرار فى عمله، واقبل من الناس ما يسهل عليهم ولا تكلفهم شططا، واجعل العفو دائما شعارك، لا تشتط فى الطلب، ولا تعاسر الناس بل خذهم برفق؛ فإنك إن فعلت كسبت خيرهم، واجتنبت شرهم، وكنت أليفا مألوفا.

---

(١) متفق عليه، وقد سبق تخريجه من رواية البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها.
(٢) سبق تخريجه.

هذا هو الأمر الأول، أما الثانى فهو قوله تعالى لنبيه: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾، أى أمر بالأمر الحسن فى ذاته الذى تألفه العقول، ويألفه الناس، ويدركونه، وإن هذا يجمع كل ما أمرت به الشرائع الإلهية فى معاملات الناس، وفى اجتماعهم، ولقد روينا فى عدة مناسبات قول الأعرابى الذى سئل لماذا آمنت بمحمد فقال: ما رأيت محمدا يقول فى أمر افعل، والعقل يقول لا تفعل، وما رأيت محمدا يقول فى أمر لا تفعل، والعقل يقول افعل.

وإن هذا النص الكريم يدل قطعا على أن كل ما أمر به النبى ﷺ وجاء به القرآن أمر متفق مع ما تأتى به العقول، وما أمر به هو حسن فى ذاته، وما نهى عنه قبيح فى ذاته، وقال بعض العلماء: إن ما كان حسنا فى ذاته فهو من أمر الله، وما كان قبيحا فى العقل فقد نهى الله عنه.

وقد أسرف ناس على أنفسهم وعلى الله فظنوا أن ما يستحسنونه أو يقبحونه فلهم أن يمنعوه، وإن أباحه الله، ولهم أن يوجبوه، وإن منعه الله: ﴿... كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ⑤﴾ [الكهف].

وقوله فى الأمر الثالث: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ أى أهل الحمق والجهل، الذين لا يهتدون بهدى، ولا يسمعون مرشدا، بل يعملون على إيذاء الداعى، ويستهزئون بالمرشد، وهؤلاء ليس لهم إلا أن يعرضوا عن هؤلاء، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ... ⑤⑤﴾ [القصص]، وكقوله تعالى: ﴿... وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ⑥③﴾ [الفرقان].

ولما نزلت هذه الآية قال جبريل للنبى ﷺ: «إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك وتعطى من حرمك، وتصل من قطعك»[1].

(١) رواه الحاكم فى المستدرك: ج٢، ص٥٦٣ برقم(٣٩٦٢).

وفى الحق إن هذه الآية جمعت محاسن الأخلاق وبينت محاسن الشريعة، وحكمت بين الناس ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

النزغ الإفساد، ومن ذلك قول الله تعالى على لسان يوسف ـ عليه السلام ـ مخاطبا أبويه: ﴿ ... وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ... (١٠٠) ﴾ [يوسف]، ويظهر لى من استعمال القرآن الكريم أن النزغ يكون إفساد ما بين من يجب الارتباط بهم بالمودة، وإسناد النزغ إلى الشيطان؛ لأنه يكون من وساوسه التى تكبر السيئات وتصغر الحسنات.

وقد قالوا: إن النزغ والنغز والهمز والوسوسة بمعنى واحد، وقد قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) ﴾ [المؤمنون].

وإن العلاج من نزغات الشيطان هو الاتجاه إلى الله تعالى أن ينزع من النفس أضغانها، وهمزات الشيطان فيها ليرتاح نفسيا، وليكون خيرا للناس، ويفتح قلبه لهم، وينبسط بالسرور للقائهم. ومعنى استعذ بالله، أى اجعل الله تعالى معاذك وملجأك، فإن الالتجاء إليه مُطْمَأن النفوس، ومكان استقرارها، ومن علا إلى ملكوت الله تعالى أحس بعلو عن الضغن وحسك الصدر، وأحس بأنه ربانى لا ينزل إلى موضع التحاسد والتباغض.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ ﴾ فيه «إن» مدغمة فى «ما» الدالة على توكيد ما بعدها. والمعنى إن ينزغنك بشدة وقوة نزغ مصدره الشيطان، فاستعذ بالله، ولأن ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ ﴾ فيها توكيد ألحقت به نون التوكيد الثقيلة، وكانت فى معنى القسم، وقوله: ﴿ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ ﴾ بتقديم الجار والمجرور يكون تأكيد أن النزغ من الشيطان وحده، فلا يكون إلا منه، وفى ذلك حض على مقاومته، والاستعانة على مقاومته، بكل ما يدفع شره، وفى ذكر أنه من الشيطان وحده بيان أنه شر مفسد ما بين الناس دائما.

وإذا كان الشيطان ينزغ دائما، فالمعاذ به هو الله، وهو وحده القادر على دفع الشر؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، أى هو وحده السميع العليم، وذلك يزكى معنى الالتجاء إليه ـ سبحانه وتعالى ـ وحده فهو ﴿عَلِيمٌ﴾ بما تخفى النفوس، وما تظهره الألسنة، وهو سميع أى عليم علم من يسمع ومن يبصر.

ومن كان له الصفات العليا فهو الجدير بأن يلجأ إليه لتطهير النفوس من أدرانها.

وهذا النص كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢) وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦)﴾ [فصلت].

ولقد قال رسول الله ﷺ: «إنكم لا تسعون الناس بأموالكم، ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق»(١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١)﴾:

إن المؤمنين الصادقين فى إيمانهم لا تتمكن منهم نوازغ الشيطان فيقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾ ومعنى ﴿اتَّقَوْا﴾ جعلوا وقاية لأنفسهم من خوف الله والحرص على طاعته، بسبب ذلك ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾، أى إذا أصابهم إصابة تمس إحساسهم ومشاعرهم ﴿طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك(٤٣٢)ج١، ص٢١٢، ورواه أبو يعلى والبزار، وزاد: «وَحُسْنُ الخُلُقِ». وانظر: مجمع الزوائد (٢٧٦٢١).

وفى قراءة (طيف من الشيطان) أى غضب، أو خيال يمس الوجدان من الشيطان بأن همز الشيطان فى نفوسهم فسرعان ما يستيقظ وجدانهم العامر بتقوى الله تعالى فيتذكرون الله ويرجون ثوابه، ويخافون عقابه سبحانه، فإذا غشاوة الشيطان تزول عنهم، ويرجعون إلى ربهم، وكما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾.

والتعبير بالموصول يفيد أن الباعث على ذكر الله تعالى، وحضوره فى القلب واستيلائه على الإحساس والشعور بالواجب أنشأته التقوى.

والطيف والطائف معناه الغضب، ومنهم من فسره بإلمامة الشيطان، ومنهم من فسره بالهم والذنب، ومنهم من فسره بالذنب.

وإن الطائف يحتمل كل ذلك، وربما يشملها جميعا، وهى من الشيطان. وقد يكون طائفٌ من الرحمن كما فى قصة أصحاب الجنة التى قال الله تعالى فيها: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) ﴾ [القلم].

فالطائف يطوف من الشيطان بالغضب أو الذنب، أو الهم بالذنب، أو نحو ذلك.

ومعنى النص الكريم أن الذين اتقوا ربهم إذا هموا بالشر أو أرادوه سرعان ما يرجعون فيتوبون فيقبل الله تعالى منهم. وينطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ... (١٧) ﴾ [النساء].

وإن أهل التقوى لا يكونون بعيدين من ربهم، بل هم على مقربة منه، قلوبهم عامرة بذكره، فإن أصابتهم غمزة، فغفلوا، فسرعان ما يتنبهون، وسرعان ما يبصرون ويثوبون.

وقال تعالى فى التعبير عن تنبههم للمعصية عندما تساورهم أسبابها: ﴿ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ عبر أولا بالمفاجأة للناظر لحالهم، وطائف الشر يطوف بهم، فهو

يفاجأ بقطع السير إلى الرذيلة، والمفاجأة بأنهم يبصرون، والإبصار هنا هو يقظة الضمير وقوة الوجدان وسيطرة النفس على أهوائها، وشبهت هذه الحال بالبصر الدائم المستمر، الحارس على النفس أن تنفعل لداعى الشيطان، وعبر بقوله: ﴿هُم مُّبْصِرُونَ﴾ بالتعبير بالجملة الاسمية، للإشارة إلى دوام البصر بالحقائق وإدراكها، وتغلبها على الأهواء والمنازع.

هذه هى النفس من داخلها تدفع شرورها وتعالج أسقامها، وإن الذين يجعلونها فى معركة مستمرة وهم الذين يقاومون الفطرة، حتى إبصار الضمائر المستيقظة، هم إخوان السوء، وعشراء الشر؛ ولذا قال ـ سبحانه وتعالى ـ بعد ذلك: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ (٢٠٢)﴾.

أشار الله ـ تعالى ـ فى الآية السابقة إلى ما فى المؤمن التقى من حراسة على النفس من أن يتدلى إلى الشر تدليا، فإذا جاءها طائف تذكروا الله وعظمته، وآياته الباهرة، فيدركون بفطرتهم كما يدرك المبصر بنصره، فلا يتردى فى معصية، ولا يصل إلى أقصاها.

ولكن لا يكون العيب من ذات نفوسهم، بل يكون من إخوان السوء الذين يزينون له سوء الأفعال فيحسبها حسنة، ويكون ممن زين له سوء عمله فرآه حسنا، فأولئك هم الذين يقاومون فطرة المؤمن ويحاولون طمس النور فيها، ويزيدونها سيرا فى الغى إن سارت فيه، فبينما الحقُ يذكرهم، إخوان السوء يمدونهم فى الغى، ولذا قال تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾.

الإخوان هم الذين يرتبطون معهم بصلة نسب، أو صلة مودة أو صلة جوار أو يتصلون بهم بأى صلة إنسانية ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾، أى يسيرون يمدونهم بكل أسباب الطغيان والعتو. ويقال مده فى عمله وزينه له وحسنه، ولذا كانت قراءة الأكثرين بفتح الياء وضم الميم، ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ والمد التزيين والتحسين والتشجيع، والغى هو الضلال والفساد، وكل ما يؤدى إلى الوقوع فى مراتع الهوى.

وإنه توجد موازنة حكيمة، بين نفس متقية مؤمنة هدايتها من نفسها إذا جاءها الشر أو طائف منه قاومته بذكر الله وبصيرة المؤمن، وبصبر الإيمان.

والنفس الأخرى نفس شقية أغواها السوء، فلما طاف عليها طائف الشر، زينته وأغرى النفس إخوان السوء وزينوه وحسنوه، فأصرت على طائف الشر بتزيينهم، وتشجيعهم ومدهم، فهم فى طغيانهم يعمهون وأن يستمروا على تحسين الشر، ولا ينهون تحسينهم وتزيينهم. فهم فى غمرة من الشر لا تنتهى، ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ﴾ أقصر معناها أنهى، و﴿ثُمَّ﴾ هنا للدلالة على تَراخى الزمن واستمراره، فهى فى موضعها، والمعنى ثم بعد استمرارهم فى غيهم وضلالهم ﴿لا يُقْصِرُونَ﴾، أى لا ينتهون بل دائمون.

وهكذا الشر يستمر مع مقاومة الفطرة باستمرار دعاة الغى وأنصاره، وكان مدهم وتزيينهم مستمرا يغذى شجرة الشر، كما يغذى الماء القذر النبات الخبيث الذى لا يكون إلا نكدا.

فالشر يتغذى بدعاة الشر، وينمو ويغلظ سوقه بهم، والفساد لا يستشرى فى جماعة ويعمها بالشر إلا بالبيئة الفاسدة وبالرأى العام الفاسد المرذول، فإخوان السوء يمدون بالغى وسواء أكانوا آحادا، أم كانوا جماعات، وكلمة إخوانهم تنطبق عليهم.

وإن من يرد إصلاح جماعة لا يصلح آحادها ابتداء إنما يصلح نية الإخوان الذين يسيطرون على جوها العام أولا، ثم يصلحون الآحاد، فيصلحون بالجولة الأولى.

وإنك إن علوت من رذائل الأفعال إلى فساد العقول، تجد إخوان السوء هم الذين يمدون فى فساد العقول بعبادة الأوثان والكفر بالآيات؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣)﴾.

الشيء الغائب معظم مذكور بالخير فى زعم الذين يسيرون وراء الأوهام، ولا يحكمون الحقائق فى ذاتها، فكل مستور تتوهم فيه الأوهام، وتحاط به، وكذلك كان إخوان السوء يجيئون إلى تضليل الناس من وراء ما يستتر عنهم، فالغيب عن الناس لم تجئ من ورائه إلا الأباطيل.

بين أيدى الناس معجزة باهرة قاهرة تحداهم النبى ﷺ أن يأتوا بسورة فعجزوا، ثم تحداهم أن يأتوا بسورة مفتراة فعجزوا، ومع ذلك طلبوا هم وإخوان الغى فيهم أن يأتيهم بآية غائبة لم تأتهم، فما دامت لم تأتهم فلها قدسية، فقال الله تعالى عنهم: ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا ﴾.

أى إن الذى أغراهم بطلبها أنه لم يأت بهذه الآية، ولو سايرهم بمنطق تفكيرهم لتأدى بهم أنه إذا جاءتهم الآية وصارت حاضرة مهيأة بين أيديهم طلبوا آية أخرى وقالوا لولا اجتبيتها، وهكذا تتوالى الطلبات عبثا؛ لأن من لايؤمن لا يقنعه بشىء.

والأولى الوقوف عند حال معينة فاطمة للنفس، عن متطلباتها، والوقوف عندها. وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا ﴾ لولا بمعنى هلا للحض على الإتيان بآية معينة طلبوها بذاتها، ﴿ اجْتَبَيْتَهَا ﴾، أى اخترتها، وهى آية حسية، وقد جاءت من قبلهم مثلها فكفروا، وإذا كانت الجملة شرطية فمؤداها أنهم مطالبون بما لم يأتهم آية بعد آية، وما هذا شأن المؤمنين، فالدليل إذا كان مقنعا، فهو كاف وحده.

ولقد أمر الله تعالى نبيه بأن يرد عليهم بقوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

هذا هو الجواب الذى أمر الله تعالى به نبيه أن يجيبهم على الطلب الذى دفع إليه أوهامهم الباطلة وهو مكون من أجزاء ثلاثة:

الجزء الأول عبر النبى ﷺ بقول: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ﴾ وخلاصته أن الآية يختارها لى ربى لا أبدى عليه، ولا أعين له، وقد قصر الآية

على مـا يوحى به الله، وحصـره بـ«إنما» أى ليس لى أن أقـترح عليـه آية لم يأت بهـا، وبين الدليل على وجـوب الطاعـة فيـمـا اخـتار، فـهـو ربى الذى خلقنى وأرسلنى، وهو أعلم بما يصلـح دليلا لرسـالتى وما لا يصلح، وهو وحـده الذى يوحى إلى فليس لى أن أقتـرح عليه، وإن كفـرتم بآياته فقد كـفـرتم به، وفى هذا الجزء برهان صدق الآية التى تحداهم بها.

الجزء الثانى وصف الآيات. فقال تعالى: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ البصائر جمع بصيـرة وأصلها من البصر وهـى الرؤية والنظر ثم الإدرك والفهم ثم أطلقت على مـا يؤدى إلى الإدراك أو هو آلتـه، فإطلاق البـصائـر على الآيات من قبـيل المجاز؛ لأنها سبب إدراك الحقائق الربانية، والسـبيل إلى معرفة الله تعالى وقدرته، ورسالاته الإلهية، فهى من قـبيل إطلاق اسم السبب، وإرادة المسبب، وهو إبصار الحقائق الربانية، ومعرفتها.

وإذا كانت هى بصائر آتية من قـبل الله تعالى فهو الذى يجتبيـها ويختارها، ويريدها، وهـى من ربكم الذى خلقـكم وبرأكم، وهو أعلم بمـن خلق وربَّ وبرأ وهو اللطيف الخبير.

والجزء الثـالـث قاله تعـالى فى وصف هذه الآيات، وهو الذى قالـه بقوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

هذان وصفان وصف الله تعالى آياته، وأخصهـا القرآن، ففيه أمران جليلان ذا شأن فى الرسالات الإلهية:

أولهما ـ فيه هدى يهدى إلى الحق، وإلى صراط مسـتقيم، فهو يبين الهدى من الضلالة، والنور من الظلمـات بما اشتمل عليه، وبدلالته الذاتيـة، وبإعجازه، وبأنه يهدى إلى الطيب من القول، ويهدى إلى الصراط الحميد.

وثانيهما ـ أن فيه الرحمة بما اشتمل عليه من شريعة حكيمة تصلح أمور الناس، وتذهب عنها الفساد، فهى بما شرعت من النظم فى الأسرة، ومعاملات بين الناس، ومنع لأكل أموالهم بينهم بالباطل.

وإن هذه الهداية وتلك الرحمة لقوم من شأنهم الإيمان؛ ولذا قال تعالى: ﴿**لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ فوصفهم بالجملة التى يتصدرها الفعل المضارع للدلالة على إيمانهم المستمر، المتجدد آنا بعد آن على وجه الدوام.

وذلك لأن شأن المؤمن أن يتجدد إيمانه، فيقوى بالعمل المستمر والمتجدد، فإن العمل الصالح يجدد الإيمان، فلو كان العمل فهو للإيمان كالماء العذب الفرات يغذى الإيمان كما يغذى الماء الزرع.

قراءة القرآن عبادة، وجزء من أكبر عبادة

وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ
فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ
فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ
وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ
لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾

بين الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى الآية السابقة أن الآية التى تحدى بها العرب أن يأتوا بمثلها هى بصائر مبينة للناس الحقائق الدينية، ومثبتة لصدقها، وهى هدى ورحمة، وهى القرآن، ولا يمكن أن ينتفع بها بعد إعجازها بأن ينتفع بهدايتها ورحمتها إلا إذا قاموا بحقها عند قراءتها بالاستماع إليها، والإنصات لها، وتدبر

ما جاء فيها من تكليف هو رحمة للعالمين، ومواعظ، وعبر وقصص فى ذكر الأولين؛ ولذا قال تعالى بعد ذلك: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)﴾.

القراءة للقرآن عبادة من القارئ؛ لأنه يتلو كلام الله تعالى، وأى منزلة فى القربى إلى الله تعالى أعلى من أن يكون متحدثا بحديث الله فهو يتكلم بكلام خالق الوجود، وتجرى على لسانه عباراته جل وعلا، ويرطب لسانه بأطيب كلام، فهو عبادة؛ ولذلك وجب أن يكون متطهرا من الجنابة ويحسن أن يكون على طهارة كاملة. إن قراءة القرآن سمو إلى المكان الأعلى والمقدس الأقدس لمن تدبر موقفه عند القراءة ومقامه.

والاستماع إلى القراءة عبادة، إذا استشعر بأن الله تعالى يخاطبه بالقرآن من أعلى الملكوت، وهو إن يستمع يناهد إلى مقام رب العزة فيستمع إليه، أكاد أرى أن هذا مقام طهر، لايستمع إليه من به نجاسة من جنابة وإذا كان الفقهاء لم يصرحوا بهذا فإنى أراه مقتضى مقام الطهر لمستمع أطهر قول فى الاستماع افتعل من السماع أى طلب سماعه، والإقبال عليه، وتلقيه بقوة وتقبله وتقبل معانيه؛ ولذا قال بعض المفسرين: إن الاستماع هو تدبر المعانى، والاستبصار بها، وإدراك مراميها ومغازيها، فليس المراد مجرد السماع، بل السمع فى تدبر وتفهم وتذكر واعتبار.

وقال تعالى: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾ الإنصات معناه السكوت للاستماع والمراعاة، والإصغاء، فمعنى ﴿أَنصِتُوا﴾، أى هيئوا أنفسكم للاستماع وأعدوها وراعوا ما تسمعون، وكان الإصغاء تقدمه للاستماع، بأن يفرغ النفس له، ويقدم عليه، كأنه مقدم علمى صاحب الكلام، وهو رب العالمين، ألم تر الناس وهم يقدمون على استماع كلام عظيم من عظماء الأرض فى سلطانه، يستعدون وينصتون فكيف بكلام مالك الملك ذى الجلال والإكرام والإنعام.

القرآن قراءته عبادة، والاستماع إليه مع التدبر والتأمل وتعرف أسراره عبادة، وهو جزء من أكبر عبادة (وهى الصلاة)؛ ولذا قال تعالى: ﴿ ... فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ... ⟨٢٠⟩ ﴾ [المزمل].

وقال بعض العلماء: إن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾ نزلت للقراءة فى الصلاة.

ونقول: إنها عامة، ولو نزلت فى مقام خاص؛ لأن الأصوليين يقولون العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ولقد قال تعالى فى ختام هذه الآية الكريمة: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، أى رجاء أن ترحموا بطلبكم للقرآن، وتدبر آياته والإنصات إليه، والأخذ بتكليفاته، ومواعظه، فهو رحمة، ومنه الرحمة، وهو نور وبرهان.

والرجاء من العباد والله تعالى يعاملهم معاملة من يرجو وهو القادر العليم.

وإذا كان تدبر القرآن والاستماع إليه وتلاوته رحمة، فذكر الله تعالى هو أصل الرحمة، فقال: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ⟨٢٠٥⟩﴾.

القرآن هو الذكر الحكيم، وهو الذكر الأكبر، وهو خير أوراد المؤمنين؛ ولذلك بعد الأمر بالقراءة والاستماع إليه مع الإنصات رجاء الرحمة أمر ـ سبحانه وتعالى ـ بدوام الذكر لله تعالى، بأن يكون الله تعالى حاضرا فى نفسه أطراف الليل وآناء النهار لا يغفل عن ذكره ـ سبحانه وتعالى ـ وأن يكون حاضرا فى قلبه فى كل وقت يعمر قلبه، ويملأ نفسه؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾.

فالذكر يبتدئ بامتلاء النفس بالله يعمر قلبه دائما، وأن تكون فى حال تضرع وتذلل لله تعالى، فالذلة لله تعالى هى عين العزة، والتكبر فى حق الله تعالى هو عين الذلة، وإن كان لا يشعر؛ لأن من ذَلَّ لله استعلى على الناس بأمر الله تعالى، ومن تعالى على جانب الله استعان بأحط الناس قدرا فكان ذليلا، وسبحان من له العزة والكبرياء فى السموات والأرض.

وذكر الله تعالى يكون فى حال خوف من عقابه؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَخِيفَةً﴾، أى حال خوف فإن الخوف من الله يطهر النفس، ويجعلها لا تستحسن ما تقدم، بل تستصغر ما تقدم وتطلب المزيد من الخير فترضى الله تعالى أو تنال رضوانه، وهو أكبر جزاء، وإن الخوف يوجب استصغار شأن العبيد، ومن عز عند الله كانت له العزة، ومن عز عند العبيد كانت له الذلة، ومن خاف من الله لا يخاف الناس.

وإن الذكر لله الأصل فيه القلب، ولكن يكون مع القلب ذكر اللسان، بحيث لا يسمع إلا نفسه؛ ولذا يقول تعالى فى حال الذاكر لله: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾.

وإن الله ـ سبحانه ـ حد النطق باللسان فجعله دون الجهر من القول، أى لا يرفعه جاهرا، ولا يخفضه خافتا ولكن لا بد من ذكر اللسان؛ لأن ذكر اللسان، يسد منافذ الشيطان، فحركة اللسان المقصودة تضبط النفس نحو ذكر الله تعالى: ويجعل ذكر النفس ثابتا، وعمرانها بالله قائما لا يُنسى وحدَّ الله تعالى الوقت فقال: ﴿بِالْغُدُوِّ﴾ أى فى غداة اليوم، ﴿وَالآصَالِ﴾، وهى جمع «أصيل»، كـ«يمين» و«أيمان». إن الذكر يكون وقت الغدو أى وقت الصفاء، والآصال أى وقت استرواح النفس من عناء عمل الناس، وبعض العلماء يقول: إن تحديد هذين الوقتين لدوام الذكر آناء النهار وطرفا من الليل، أى يكون فى ذكر دائم، ويقرب هذا قراءة «وبالإيصال» أى من الغدوة وأصلا الذكر دائما ما دام صاحيا.

وقد يقول قائل: كيف يكون وقت المعاش والقيام بالصناعات؟ نقول: يجب دوام ذكر الله تعالى وهو فى عمله؛ لأن العمل عبادة والذكر عبادة ولا مانع من أن يجتمعا، فيكون عاملا عابدا، مجدا ذكر الله، وينطبق على هذا قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب الشيء لا يحبه إلا الله»(١) فهو يعمل لينفع الناس ويقصد ذلك، وهذه عبادة؛ لأن النبى ﷺ يقول: «خير الناس أنفعهم للناس»(٢).

(١، ٢) سبق تخريجه.

سورة الأنفال

تمهيد

هذه السورة مدنية، وقالوا: إن سبع آيات منها مكية، وعباراتها السامية تنبئ عن أنها مكية، وهى تبتدئ من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال] فإن هذه الآيات السبع مكية، تدل عليها عباراتها وزمانها، ولكن لأنها متصلة بالهجرة أضيفت إلى سورة مدنية.

والأنفال سميت بأولها، وهو ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ ﴿١﴾﴾ [الأنفال] فسميت بهذا الاسم، وإن هذه السورة تشتمل على أعمال من أجلٍّ ما قام فى الإسلام، ففيها كان يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان، وبهذا اللقاء كان الفرق بين عزة الحق وذلة الباطل، وفيها تشريع الأنفال والغنائم، وفيها حكم الأسرى، ومتى يكون الأسر، وفيها إعداد العدة، وفيها الوفاء بالعهد، ومتى ينقض.

وقد ابتدئت السورة بذكر الأنفال، وما يؤخذ من الحرب، وبين الله تعالى أنها فى الأصل لله تعالى ورسوله، ليقوى بها الجيش، ويتخذ منها العدة والأهبة، وكان ذلك إيذانا بما يجيء بعد ذلك من يوم الفرقان.

ابتدئت السورة بالإشارة إلى ما كان من تساؤل حول الأنفال، ثم تكلمت بعد ذلك عن الاستعداد للالتقاء يوم الفرقان، وكانت أول العدة طاعة الله ورسوله، وامتلاء القلوب بهيبة الله، وبيان أن المؤمنين المجاهدين إذا ذكر الله وجِلَت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا، ويتوكلون على ربهم إذا أعدوا العدة، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، وإنَّ ذكر الماضى وإرادة تغييره يكون

بالعمل والجهاد، وإنه يجب الصبر على فراق الأحبة، ومنع المجادلة في الحق، قال تعالى: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۝ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝﴾.

ثم يملأ الله تعالى قلوب المؤمنين إيماناً وهو من عدة النصر، ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ۝﴾.

ويبين من بعد ذلك الالتجاء إلى الله واستغاثته فاستجاب بإمداد الملائكة الروحى الذى جعله الله تعالى بشرى لهم ولتطمئن قلوبهم.

ورزقهم الله الأمان فناموا، والنوم آمنين قوة، وأنزل الله تعالى من السماء ماءً ليطهرهم به، ويذهب عنهم رجس الشيطان، ويوحى رب العالمين إلى الملائكة أن يثبتوا الذين آمنوا فيثبتوهم، وألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب، وصار المؤمنون على استعداد للقتال يضربون فوق الأعناق، ويضربون منهم كل بنان؛ لأنهم عاندوا الله ورسوله وساقوه فليذوقوا ذلك البأس ومن بعد النار.

ثم يكون التحريض على القتال والثبات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ۝ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝﴾.

وإنه بعد انتهاء المعركة التى كانت فيصل الحق بين قوة الإيمان والكفر، بَيَّن الله أن ذلك كان بفضل الله للمؤمنين، وأنه هو الذى رد كيد الكافرين، ووهن تدبيرهم، وأنه سبحانه هو الذى جاء بالفتح وأمر من عنده، وأنه مع إرادة الله تعالى للنصر، لن تغنى عنهم فئتهم من الله سبحانه، وإن ذلك من طاعة المؤمنين لله وسماعهم لأوامره، وأنهم لا يقولون سمعنا وعصينا.

وقد بين الله بعد ذلك أن شر الدواب الذين آتاهم الله عقولا، فأصموا آذانهم عن الحق وتردَّوا فى الباطل تردِّيا، وليعلموا أن الله هو المسيطر على القلوب

به يهتدون، ويتركهم إن ساروا فى طريق الغواية فيضلون، وبيّن أن الفتن إن جاءت تعمّ ولا تخصّ، وأن أشد الفتن أن يخونوا الله ورسوله ويخونوا أماناتهم، وأن التقوى حصن القلوب، وهى فرقان ما بين الحق والباطل، وبها يفرق بينهما.

ويذكر الله تعالى بعد ذلك ما كان فى آخر إقامتهم بمكة إذ يدبرون لمحمد حبسه أو قتله، أو يخرجوه، ويمكرون، والله سبحانه يدبر له أمر هجرته، ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾.

ويذكر بعض ما كان المشركون ينالون بالباطل من القرآن، وما تلجّ به عداوتهم فيقولون مستهينين بالحق الذى يدعوهم الله تعالى إليه: ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾، وذلك أبلغ التحدى والاستهانة بالحق فبدل أن يقولوا اللهم إن كان هذا هو الحق فاهدنا إليه، يقولون متحدين ﴿ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ ﴾، ولكن الله تعالى ما كان ليعذبهم والنبى ﷺ فيهم قائم بدعوته.

ثم يفرق الله تعالى بين المؤمنين الذين ينفقون فى سبيل الله والكافرين الذين ينفقون ليصدوا عن سبيله، وأن مآلهم جهنم، ويفتح الله تعالى لهم باب الرجاء والمغفرة إن ينتهوا، وإن نهاية القتال هو انتهاء الفتنة فى الدين ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠) ﴾.

فى هذه السورة من أولها إلى هذه الآية، بيان القتال، وأن النصرة فيه بالتأييد من الله العزيز الحكيم والإيمان الصادق المستجلب لهذا التأييد، فهو قوة المسلمين، وضعف المشركين من كفرهم، وأنهم ينفقون ليصدوا عن سبيل الله تعالى.

بعد ذلك يتكلم الله تعالى فى توزيع الغنائم، فيقول: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) ﴾.

ويبين الله مواقع القتال يوم بدر الذى انتهى بالنصر المؤزر، وإذ يربى الله تعالى قوة روح المؤمنين برؤية الأعداء فى المنام قليلاً، ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ... ﴿٤٣﴾﴾ وإنه فى رؤية العيان تستقلونهم لتتقدموا، ويستقلونكم لأنكم فعلا قلة، وذلك ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً .. ﴿٤٤﴾﴾.

ويدعو الله تعالى إلى الثبات مكررا له؛ لأن الثبات فى الصدمة الأولى هو قوة الصبر كما قال النبى ﷺ : «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**»(١).

ويدعو مع الثبات إلى ذكر الله تعالى؛ لأنه عدة الأتقياء، وينهى عن التنازع حتى لا تذهب القوة، ولا يكن خروجكم بطرا بالمعيشة ورجاء الترف أو رئاء الناس فإن هذه هى مفاسد الجهاد، ولا يصح أن يزين الشيطان لكم ويركبكم ويقول لكم: ﴿لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ .. ﴿٤٨﴾﴾ وإذ التقى الجمعان قال إنى بريء منكم.

وعندئذ يجد المنافقون سبيلاً إلى جموعكم، ويقولون: ﴿غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ .. ﴿٤٩﴾﴾، فاطرحوا الشيطان وغروره، وتوكلوا على الله، وإن الملائكة يضربون وجوه الكافرين وأدبارهم عند موتهم، وقد ضرب الله تعالى الأمثال بآل فرعون إذ أخذهم الله بذنوبهم، وإذ كذبوا، وإن الله تعالى: ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ .. ﴿٥٣﴾﴾.

ومن بعد ذلك يعود إلى الجهاد، والوقوف أمام الأشرار وحربهم، والاستعانة بالعهد لمن يقدم عهدا، إن وفوا ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ .. ﴿٥٨﴾﴾ وإنه يجب أن يكون المؤمنون على حذر واستعداد ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ وأنه مع وجوب الاستعداد والإعداد، ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ .. ﴿٦١﴾﴾

(١) متفق عليه، من حديث أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ، وقد سبق تخريجه.

ولا تنس التحريض على القتال، فيتجمع العهد مع الوفاء، والاستعداد للسلم وللحرب معا، ولابد مع ذلك من تأليف قلوب المؤمنين، فإنه أقوى أسباب النصر، وإن القوة المعنوية مع ائتلاف القلوب تضاهى الألوف ﴿و إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا .. (٦٥)﴾.

وإن أُدخل فيكم ضعف بوجود المنافقين فيكم، وضعاف الإيمان فإنه ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦)﴾.

وقد بين الله بعد ذلك وقت الأسر، وهو بعد الإثخان فى الأرض، وعتب الله على نبيه والمؤمنين أن كان لهم أسرى وأخذوا فدية، فقال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٩) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٠)﴾.

هذا إذا أرادوا، وإن يريدوا خيانة الرسول فقد خانوا الله من قبل.

وبعد ذلك بين الله تعالى ولاء المؤمنين فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢)﴾.

وقد بين سبحانه أن الكافرين بعضهم أولياء بعض، فلا تربطنا بهم ولاية، وإلا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير.

وقد ذكر سبحانه بعد ذلك ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُوْلَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥)﴾.

هذه إشارات إلى ما اشتملت عليها سورة الأنفال، ولولا أنها سميت بذلك لقلنا إنها سورة من سور الجهاد، والله سبحانه وتعالى أعلم.

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾

الأنفال: جمع نَفَل بفتح الفاء، وهو هنا الغنائم، وسميت أنفالا ؛ لأن النفل هو الزيادة، لأنها ليست فى مقابل، حتى تكون أجرة للمحارب كالمرتزقة من الجنود فى هذا الزمان، وإنما أجر المجاهد عند ربه، وثوابه ورضوانه أعظم، فهى زيادة على ثواب الجهاد، وقد جعلت الغنائم من خواص الرسالة المحمدية.

ويطلق على الغنيمة، وقد يطلق على كل ما يؤخذ من العدو من غير قتال كالفيء، وقد يطلق على ما نفله النبى ﷺ من خمس الله ورسوله لبعض المؤمنين، ومنه ما كان يعطى للمؤلفة قلوبهم، ومهما يكن ما يعطى من نفل غير ما يكون فى الجهاد، فإن الظاهر المراد من الأنفال الغنائم التى غنمت فى غزوة، فقد جاءت قريش بخيلها ورجلها، وكثير من مالها، فآل ذلك كله للمؤمنين المنتصرين، فأخذ كل من المجاهدين ما عده حقا له دون غيره، وثبت فى الصحاح بعض الاختلاف، إذ لم يكن ثمة منهاج يتبع، ولم يكن لهم بهذه الغنائم فى الإسلام مثال يحتذى، فيروى الإمام أحمد فى مسنده عن عبادة بن الصامت أنه قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ، فشهدت معه بدرا، فالتقى الناس فهزم الله تبارك وتعالى العدو، فانطلقت طائفة فى آثارهم يهزمون ويقتلون، وأكَبَّت طائفة على العسكر؛ يحوزونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ حتى لا يصيب

العدو منه غِرَّة، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم لبعض قال الذين جمعوا الغنائم: نحن جمعناها وحويناها فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا فى طلب العدو: لستم بأحق بها منّا، نحن نفينا عنها العدو وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: لستم بأحق بها منا، نحن الذين أحدقنا برسول الله ﷺ وخفنا أن يصيب العدو منه غرة، واشتغلنا به فنزل قوله تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ**﴾[1]، ولقد حاول بعض المجاهدين أن يأخذ من الغنيمة قبل قسمتها، فيروى الإمام أحمد عن سعد بن أبى وقاص قال: «**لما كان يوم بدر قتل أخى عمير، وقتلت سعيد بن العاص وأخذت سيفه، وكان يسمى الكتيفة، فأتيت به نبى الله ﷺ فقال: اذهب فاطرحه فى القبض -وهو المكان الذى تجمع فيه الغنائم- قال فرجعت وبى ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخى، وأخذ سلبى قال: فما جاوزت إلا يسيرا حتى نزلت ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ﴾ إلى آخر الآية**»[2].

لم يكن بالمسلمين عهد بالغنائم ولا تقسيمها، فاختلفوا فى ذلك، فأنزل الله تعالى أنها لله تعالى ورسوله يضعانها حيث تكون القسمة العادلة التى تجمع بين العدل والمصلحة، وقد أخذها رسول الله ﷺ وقسمها حيث أراه الله.

وهل قسمها قسمة الغنائم المنصوص عليها فى قوله تعالى: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ**﴾ إلى آخر السورة!!

يرجح بعض الرواة أنه لم تكن نزلت آية الغنائم فقسمها النبى ﷺ بين المحاربين بالسوية، ورجح الحافظ ابن كثير أنه قسمها قسمة الغنائم فى قوله تعالى: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ......**﴾.

---

(١) مسند أحمد: باقي مسند الأنصار- حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه (٢٢٢٥٦).

(٢) رواه أحمد: مسند العشرة المبشرين- مسند أبي إسحاق سعد بن أبي وقاص (١٥٥٩)، كما رواه مسلم: السير والجهاد (١٧٤٨).

واستأنس لذلك بما روى عن على - كرم الله وجهه- أنه كانت له شارفتان أخذهما من الخمس؛ بمقتضى الآية الكريمة.

ولقد قال الزمخشرى: إن من الخلاف فى الأنفال، أن المهاجرين طلبوها دون الأنصار؛ لأنها بدل عما اغتصب من أموالهم عند الهجرة، ولكن ذلك لا سند له من الرواية، فلعله قياس قاسه الزمخشرى، ولعل عنده رواية ولم يذكر نقلها.

بعد الإجابة عن التساؤل عن الأنفال، وكانت بادرة خلاف، وإن كان قد حسمه الإيمان والجهاد واحتساب النية لله، وأن الأمر آل إلى أعدل العادلين وأحكم الحاكمين.

ولكن الله تعالى دعا إلى الادراع بالتقوى، حتى يسد منافذ الخلاف ومثارات الشيطان فقال آمرا بكل ما يقضى على الخلاف فى موطنه، فقال تعالى:

﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾.

أمرهم سبحانه بأمور أربعة وقاية من النزاع، وإبقاء للمودة :

أولها - التقوى، فإن القلوب إذا امتلأت بالتقوى لم يكن للشيطان منفذ، ولم يكن للخلاف موضع، و(الفاء) فى قوله تعالى: ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ** ﴾ فاء الإفصاح؛ لأن المعنى إذا كان الأمر فى القسمة لله ورسوله، ففرغوا أنفسكم لتقوى الله، ولا تشغلوا أنفسكم بالمال وتقسيمه، فقسمة الله هى العدل والمصلحة معا، وهى العدل والحق والنظام.

وثانيها - فى قوله تعالى: ﴿ **وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ** ﴾ وهى الأمر الذى يربطكم، فليس المراد البين نفسه، إنما المراد ذات الرابط، وهو كما قلنا المودة الواصلة، ومعنى إصلاحه رعايته، وتعهده، بأن تكون المودة ملاحظة فى كل ما يربطنا، فيكون الإيثار بدل الأثرة، والمحبة الموصولة بدل الحرص المفرق.

الأمر الثالث والرابع - طاعة الله ورسوله بألا تجعلوا لأنفسكم إرادة بجوار إرادة الله، وأن تجعلوا الله ملء أسماعكم، وطاعة رسوله هى سنة حياتكم.

وقد بين سبحانه أن ملاحظة هذه الأمور هى نور الإيمان وموجبته، ولا إيمان إلا كانت معه هذه الأمور؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أى إن كان الإيمان حالة نفسية ملازمة لكم.

وقد قال الزمخشرى: «جعل التقوى وإصلاح ذات البين وطاعة الله ورسوله من لوازم الإيمان وموجباته؛ ليعلم أن كمال الإيمان موقوف على التوفر عليها».

وبعد أن ذكر المؤمنين الكاملين أخذ سبحانه وتعالى يبين صفاتهم فقال تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾.

ذكر الله بعد أن ذكر موجبات الإيمان من إصلاح ذات البين والتقوى والطاعة ذكر سبحانه صفات المؤمنين، فذكر صفتين معينتين، وعملين تدفع إليهما قوة الإيمان.

أول الأمرين الأولين- ذكره الله تعالى بقوله تعالت كلماته: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، الوجل الخوف منه والفزع إليه، فالله سبحانه هو مالك الوجود من استحضر عظمته وجلاله وكبرياءه وملكوته خافه وفزع إليه فى الملمات، وركن إليه مطمئنا إلى ساحته العظمى، فهو المخوف المحبوب المرجو فى الملمات؛ ولذا جاءت هذه الآية تقول: إن القلوب توجل لذكره، أى ترهبه وتحس بعظمته، وتعتمد عليه وحده، وتطمئن بالالتجاء إليه، كمن يخاف رجلا عظيما، فيرهب قوته، وفى الوقت ذاته يطمئن إليه؛ ولذلك قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد]، فهو المخوف الذى يركن إليه.

وقال تعالى جامعا بين وجل المؤمن واطمئنانه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر].

وثانى الأمرين- ﴿**وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا**﴾ أى إذا قرئت عليهم الآيات القرآنية زادتهم إيماناً، فكل آية فيها نور مبين، والإيمان استضاءة بالنور، فكلما تعددت مشارق النور عم الضياء وازداد النظر إبصارا، كذلك آيات الله تعالى، كلما تليت عليهم آيه أضاءت القلب وازداد نور الإيمان فازداد إيمانًا، فزيادة الإيمان بزيادة الدليل وكثرته، وكل آية تقوى ناحية من نواحى الإيمان، ﴿**وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾**﴾ [التوبة].

وهناك مسألة تثار، وهى زيادة الإيمان ونقصه، ونحن ممن يقولون إن الإيمان يزيد بتضافر الأدلة، وكثرة الآيات الموحية، فإنها تقويه وتثبته، وتزيل الريب والشبهات، وليست زيادة الإيمان إلا قوته ودعمه بالأدلة، وكل آية فى القرآن دليل قائم بذاته.

وهناك أمر ثالث يتعلق بالأمرين السابقين، وهو التوكل؛ ولذا قال تعالى: ﴿**وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ التوكل على الله تعالى حق توكله يتحقق بعد اتخاذ الأسباب فى ثلاثة أمور:

أولها- أن يحس بأنه مهما يكمل إعداد أمره فإنه لا ينتج ثمرته إلا بإرادة الله تعالى، فمن يظن أن الأسباب وحدها تنتج الأثر فقد ضل؛ لأنه توهم أنه يؤثر فى الإيجاد، وذلك وَهْمٌ يفسد العقول.

ثانيها- أنه يفوض أموره لله تعالى وحده.

ثالثها- ألا يعتمد على أحد سواه؛ ولذا قال تعالى: ﴿**وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ فقدم الجار والمجرور على الفعل أى لا يتوكلون على أحد سواه، وبهذا يكون التوكل عبادة من العبادات.

هذه الأحوال النفسية للمؤمن، أما الأمور للعملية المدفوعة بأمور نفسية فهى إقامة الصلاة والإنفاق مما رزق الله تعالى:

﴿**الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾.

وهاتان صفتان أو عملان لهما مظهر عملى، ولهما مظهر نفسى إيجابى:

أولاهما - إقامة الصلاة؛ أى الإتيان بها مقومة على وجهها من أداء الأركان الحسية مستوفاة، وأن تكون مصورة للمعانى الروحية من خضوع وخشوع، واستحضار لصفات الربوبية بأن يكون قائما بحق الله فيها كأنه يراه، مستشعرا الإحساس بأنه فى حضرة الله تعالى جل جلاله، وبذلك تتحقق للصلاة خاصيتها، وهى أنها تجانب المرء من فعل السوء، كما قال: ﴿**إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ** ... ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت]، فليست الصلاة نقر كنقر الديكة، ولكنها تجرد لله تعالى، وانصراف، وقضاء وقت فى حضرته.

والتعبير بالمضارع فى قوله تعالى: ﴿**يُقِيمُونَ الصَّلاةَ**﴾ يفيد المداومة عليها فى أوقاتها من غير تخلف؛ لأن التعبير بالمضارع يفيد التجدد المستمر الدائم، والمحافظة عليها من غير انقطاع.

وإن الصلاة فريضة عملية مهذِّبة تجريدية لله سبحانه وتعالى، وهى فريضة اجتماعية، لتأليف مجتمع متحاب متواد مترابط بصلات من الرحمة والتعاون، يجمعه الإلف الروحى والطهر والإخلاص والالتقاء عند الله تعالى فى كل يوم خمس مرات.

ومهما يكن فالأساس فى أمر الصلاة أنها تهذيب روحى، وتأليف اجتماعى على الطهر، واجتماع على الألفة والمودة والرحمة. أما الزكاة فهى تعاون اجتماعى، وقد ذكر النبى ﷺ أنها مغنم لا مغرم، لأنها تغنى الفقراء، وتدفع الآفات الاجتماعية الناجمة عن الفقر، ولقد قال تعالى: ﴿**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾ أى أن الزكاة من رزق الله تعالى، لا منّ فيها، فالله هو المعطى وهو المنفق وهو الآمر وهو المكلف، فتقديم الجار والمجرور، لبيان الاختصاص أو القصر، أى أن الإنفاق مما أعطاه الله دون غيره، وفيه من الاهتمام بأنه من رزق الله الذى رزقه للأغنياء ليعطوا منه للفقراء، فالمال مال الله، والجميع عباد الله، فهو يأخذ من مال الله ويعطى عباد الله. وإن الله اختبر بعض الناس بالمال وجعلهم مستخلفين، كما

قال تعالى فى آية أخرى: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۝٧﴾ [الحديد] وأمرهم بالعطاء، واختبر بعض الناس بالفقر، وأمرهم بالصبر والعمل واحتمال البلاء.

ولقد حكم الله تعالى للمؤمنين الذين وجلت قلوبهم عند ذكر الله، والذين يزداد إيمانهم إذا تليت آيات الله تعالى، والذين بعد إحكام العمل، لا يتوكلون إلا على الله، حكم الله تعالى لهم بما كتب فقال:

﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾.

حكم الله تعالى لهم بأنهم المؤمنون حقا، أى إيمانا حقا صادقا ثابتا، وفى النص الكريم ما يدل على القصر، أى أنهم وحدهم دون غيرهم المقصور عليهم وصف الإيمان، أى لا مؤمن على وجه الكمال غيرهم، وهذه شهادة من الله تعالى بانفرادهم بكمال الإيمان، وكفى بالله شهيداً.

وقد وصفهم الله تعالى بثلاثة أوصاف هى صفات الكمال للمؤمنين:

أولها- أن لهم عند الله درجات، والدرجات لا تذكر إلا للدرجات العليا، ومعنى ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ﴾، أن السبق عند الله، وأنهم علوا على الناس بهذه الدرجات فهو بيان للتشريف كما نقول- ولكلام الله المنزلة - لفلان مكانة عندى فأى درجة أعلى من درجات عند الله.

الوصف الثانى- أن لهم مغفرة أى أنه غفار الذنوب وقابل التوب يغفر لهم وذلك تقريب من الله تعالى لهم، فإنه تعالى يتجاوز عن سيئاتهم إذا تابوا وأنابوا، وتلك منزلة مقربة، وتثبت أنهم قريبون منه تبارك وتعالى.

والثالثة- رزق كريم، والرزق عطاء الله تعالى، وهو رزقان: مادى ومعنوى، فأما المادى: فهو عطاء الله فى الدنيا، بحيث يغنيه عن الناس لا يجعل حاجته عند أحد، بل تكون حاجته عند الله، والمال نعمة لمن أحسن تحصيله، فلم ينله إلا من حلال، ولم ينفقه إلا فى حلال، والنبى ﷺ قد ورد أنه قال: «**نعم المال الصالح للمرء الصالح**»(١).

---

(١) رواه أحمد: مسند الشاميين - حديث عمرو بن العاص عن النبى ﷺ (١٧٠٩٦).

والمعنوى: هو رضا الله تعالى وتغمده برحمته فى الآخرة، بالنعيم المقيم وإبعاده عن العذاب الأليم، فهذا رزق، ومن الرزق المحامد، وأن يقول أهل التقى فيه الخير، ولا يقولون إلا خيرا، ومن الرزق الكريم ألا يوفق لعمل السوء، ولا يوفق إلا للخير.

ووصف الرزق بالكريم يفيد أنه لا يكسب إلا بشريف الأعمال، ولا يتدلى فى طلبه إلى حيث الأشرار، والمعنى أنه يرزق من خير، ولا ينفق إلا فى خير، ولا يكتسب إلا من مكان كريم، والله يرزقه من حيث لا يحتسب.

مقدمات يوم الفرقان

كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ
مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾
يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ
وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا
لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ
وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ
﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

الآيات بعضها متصل ببعض، فهذه الآيات متصلة بما قبلها فى النسق والبيان والموضوع، إذ كلها فى مقدمات غزوة بدر، والسير النفسى حتى تصل إلى نهايتها، وقوله تعالى:

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾.

ما موضع «كما» فى التشبيه، ذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى عدة تفسيرات كلها تحتملها الآية، فذكر أنها متصلة باختلافهم فى الأنفال، وأن الله تعالى انتزعها من أيديهم على رغبتهم فيها كذلك ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ بالأمر الثابت ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ يقول الطبرى فى توضيح هذا المعنى: «ومعنى هذا أن الله تعالى يقول: كما أنكم لما اختلفتم فى المغانم، وتشاححتم فيها، فانتزعها الله تعالى منكم وجعلها إلى قَسْمِهِ، وقَسْمِ رسول الله ﷺ فقسمها على العدل فكان هذا هو المصلحة التامة لكم، وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة، وهم النفير الذين خرجوا لنصر دينهم، وإحراز عيرهم فكان عاقبة كَراهتهم للقتال بأن قدره الله لكم، وجمع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد رشدا وهدى ونصرا وفتحا، كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦)﴾ [البقرة].

وخلاصة المعنى أن الله يختبركم الآن كما اختبركم فى الغنائم، فقد أخذها منكم وتولى النبى ﷺ قسمتها بالعدل والمصلحة، كذلك اختبركم، فأخرج النبى ﷺ لذات الشوكة والمصلحة ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾.

ونرى أن هذا التخريج مؤداه أن الله اختبركم بمنع نفوسكم من المشاقة فى المال ترويضا على الصبر على هوى النفس، وقمعها عن شهواتها استعدادا للقتال كذلك اختبركم بحمل أنفسكم على ما تكره ابتلاء بالصبر على المكاره، كما اختبركم بالصبر على رد هوى النفس، فكلاهما لابد منه للجهاد.

ويذكر ابن جرير وجهًا آخر، فيقول: «قال آخرون معنى ذلك: كما أخرجك ربك من بيتك بالحق على كره من فريق من المؤمنين، كذلك هم كارهون للقتال، فهم يجادلونك فيه من بعد ما تبين لهم أنه الحق».

ومؤدى هذا أنهم وجد فيهم حال تردد أو على الأقل كراهية للقتال مرتين: مرة عندما أخرجك ربك من بيتك بالحق وهو الأمر الثابت الذى قامت الدواعى إليه وكان ذلك للعير، ومرة أخرى عندما تعين القتال، وصار الأمر للنفير لا

للعير، وإنى أميل إلى التخريج الثانى لأنه يساوق اللفظ ولا يحتاج إلى تأويل، ولا تأباه الألفاظ، ومؤداه أنه كما وجد فريق من المؤمنين كاره للخروج من بيتك لتتبع العير، وجدت كراهية القتال عند إرادة الحرب، ويكون قوله تعالى: ﴿**كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ**﴾ متعلقا بقوله تعالى: ﴿**يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ**﴾.

ونقف هنا عند أمرين: أولهما- أن الله تعالى ذكر الحق بالحق مرتين:

أولاهما- ﴿**كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ**﴾ أتى بالأمر الثابت الذى هو الحق فى ذاته، والحق فى رفع شأن الدين، والحق فى مصلحة المؤمنين، والحق فى أنه أمر الله تعالى وإرادته، وأن النبى ﷺ ما أراده من ذات نفسه، وإنما أراده الله تعالى له، وهو ربه الذى خلقه ورباه وهو أعلم بمصالحه ومصالح المؤمنين والإسلام، وإعزازه تعالى كلمة الحق، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هى العليا.

ثانيهما- عندما ذكر الجدال فى قوله تعالى: ﴿**يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ**﴾.

والحق هنا هو أمر القتال فقد فرت منهم العير التى خرجوا إليها ليأخذوها، وبدا لهم النفير، فبدل أن يلقوا عيرا ينقلوها، لقوا جيشا يقاتلونه، وذلك هو الحق الثابت الذى فيه الشوكة إن انتصروا، والصبر عند الصدمة، وقد جادلوا فى هذا مع أنه صار أمرا لا مناص منه.

وفى الحق كانت قوة الكفر مسيطرة، وما كان للمؤمنين قِبَلٌ بها لولا تأييد الله تعالى ونصرته، فالخوف كان لا بد منه، وليس الشجاع هو الذى لا يخاف، إنما الشجاع هو الذى يقدر قوة عدوه ويخافها، ولكن يدبر للقائها، ويعمل على التغلب عليها، ولقد كان جدلهم فى هذا منشؤه المحافظة على النفس كجدلهم حول الغنائم فمنشؤه الرغبة فى الموت.

وقد قال الله تعالى فى تصوير خوفهم وتقديرهم للّقاء: ﴿**كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ**﴾ فقد شبه سبحانه وتعالى حالهم بحال من يساق إلى الموت، وهو مشدوه ناظر إليه، متوقع له كأنه يراه رأى العين، وأنه نازل به لا محالة.

ولقد تجسم لديهم الخطر، كأنه نازل بهم لا محالة، ولا منجاة منه، وإن رضوا بالفداء فالله سبحانه وتعالى يبين لهم أن ثَمَّة خطر، ولكن ثمة أيضا وعد الله تعالى بالنصر والتأييد وثمة الإيمان الثابت الذى تزلزلت معه الجبال ولا يتزلزل.

وإن الله تعالى يدعوهم فى هذا إلى الصبر والاطمئنان إلى وعد الله تعالى وإن النبى ﷺ كان يبث فيهم روح الاطمئنان والأمن، ولكنه كان يريد أن يتثبت من اعتزامهم اللقاء وطلبهم للنصر، وطاعتهم له.

ويروى الحافظ ابن كثير وأصحاب السِّير الصحاح أنه لما بلغ النبى ﷺ خبر فرار العير إلى سيف البحر، ومجيء جيش المشركين وكان النزال لابد منه أراد ﷺ أن يتثبت من جيشه فاستشار من معه وأخبرهم عن قريش.

فقال أبو بكر، فأحسن القول، ثم قام عمر فقال فأحسن.

ثم قام المقداد بن عمرو، فقال: امض يا رسول الله لما أمرك الله به فنحن معك، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿**فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ** ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد (مدينة بالحبشة) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. فقال رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بخير.

ثم قال رسول الله ﷺ: «**أشيروا علىَّ أيها الناس**»، وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم كانوا عدد الناس، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمامنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، وكان رسول الله يتخوف من ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى

عدوهم من بلادهم، فلما قال رسول الله ﷺ ذلك. قال سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله قال: «أجل». قال: فقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله كما أمرك الله، فوالذى بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر ، فخضته لخضناه معك، ما يتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن نلقى بك عدونا غدا، إنا لصُبُر عند الحرب صُدُق عند اللقاء، ولعل الله تعالى يريك منا ما تقر به عينك، فسرْ بنا على بركة الله تعالى، فَسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه، وقال: «سيروا على بركة الله»(١).

انظر إلى حكمة القائد المحنك لا سير إلا بعد أن يعرف أن إرادة جيشه قد اجتمعت على الحرب.

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ۝٨ ﴾.

لقد أراد الله تعالى أن يعز الإسلام، ويضع الحواجز المانعة من أن يستمر الشرك فى غيه، لقد طاوَلَهُ النبى ﷺ، وصابَرَهُ فى مكة، وتحمل أذاه حتى كون الله للإسلام شوكة فى المدينة دار الإيواء والنصرة، فكان لا بد من بعد ذلك من وضع حد للطغيان، ووقف للفتنة فكان لابد من القتال. كانت عير لمكّة تذهب إلى الشام وتمر على المدينة أو على مقربة من المدينة وكانت فيها أموال كثيرة لقريش، فأراد النبى ﷺ أن يأخذها المسلمون بدل الأموال التى أخرجوا منها، ولأنه لا سلم بينهم، ولأنهم أباحوا دماء المسلمين فى مكة وأموالهم، فكان حقا أن تباح دماؤهم وأموالهم، خرج نحو ثلاثمائة لمصادرة العير، فانفلت بها المشركون وعلى رأسها أبو سفيان، ولكنه كان قد أرسل إلى مكة يستنفرها لتحمى عيرها، فنفرت بجيش كبير اتجه إلى بدر، ومع أن العير قد نجت فقد أصر الحمقى من المشركين على غزو المدينة، ونسوا الآل والرحم فكان اللقاء أمرا لابد منه.

(١) البداية والنهاية: ج٤، ص٦٠، وتاريخ الطبري: ج١، ص٩٥٤، وقصص الأنبياء: ج١، ص٣٦٠ .

ولقد كان بعض المؤمنين، وخصوصا الذين أخذت أموالهم يودون العير، ولم يريدوا القتال لأنها غنيمة أتت إليهم، وأنفلهم الله إياها، ولأن القتال كره لهم، والنفس المؤمنة رقيقة تكره الدماء، وكما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] وإن كان خيرا فى مثل حال المشركين معهم ولذلك كانوا يودون العير، لا الحرب، وتلك هى الفطرة، وقال تعالى:

﴿وإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾.

وعد الله تعالى إحدى الطائفتين إما طائفة العير وإما طائفة النفير، والطائفة هنا الجماعة، والمراد هنا جماعة العير يأخذونها بما معها من مال، أو جماعة الحرب يقتلون ويأسرون فيهم، ويغنمون أموالهم، ولكن فيها الشوكة والقوة وإذلال المشركين.

وهم يودون السهلة الهينة الخالية من الدماء، ولكن ليس فيها شوكة، ويختار الله تعالى لهم ما فيه الشوكة.

وعبر عن القوة بالشوكة على سبيل المجاز؛ لأن نتيجة الحرب ستكون رهبة للمشركين تجعلهم يتحفظون فى معاملة المسلمين، ولا يقدمون على إيذائهم إلا إذا أقدموا على أمر خطير يشوكهم قبل أن ينالوه، فلا يكون طُعمة تؤكل أو تُنتهز الفرص لأكلها.

وقد عبر الله سبحانه وتعالى عن إرادتهم العير بقوله تعالت كلماته ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ﴾ أى تودون العير وهى تعطيكم مالا، ولا يكون لكم بأخذها قوة ترهبهم، فهى ما لا حماية ولا عزة فيها، وعبر سبحانه وتعالى عن إرادتها بقوله: ﴿وَتَوَدُّونَ﴾ أى تحبون مائلين للعير، للمعانى التى ذكرناها.

وفى هذا التعبير إشارة إلى معنى من معانى العتب، وتنبيه إلى أن الواجب هو طلب القوة، لمن كان المشركون يستضعفونهم، فيبدل الله تعالى من خوفهم أمنا، ومن استضعافهم قوة، وتمكينا فى الأرض؛ ولذلك يقول الله تعالى:

﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾.

عبر الله تعالى بقوله يودون فى جانبهم، وعبر بقوله ﴿يُرِيدُ اللَّهُ﴾ دون «يود» للإشارة إلى أن ذلك من جانب الله إرادة، وإرادة الله نافذة وهى المصلحة وهى الخير، وكان التعبير فى جانبهم بقوله: ﴿ وَتَوَدُّونَ ﴾ للإشارة إلى أنه مجرد ود، ولم يصر إرادة، وكيف يريدون ما لم يرد الله تعالى، وكيف وهم المؤمنون حقا وصدقا، وإرادة الله إعلاءً لهم، وميلهم ميل إلى ما هو أدنى.

وقد عبر سبحانه عن إرادة الشوكة والقوة بقوله: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾ أى أراد سبحانه وتعالى ذات الشوكة، ليقوى الحق ويثبته ويؤيده ويؤكده، وليكون له الكلمة العليا، وتكون كلمة الذين كفروا هى السفلى، فمعنى إحقاق الحق إعطاؤه حقه من التأييد والتثبيت والنصر والاستعلاء على الباطل وخفض نقيضه. وذكر الله تعالى نتيجة إحقاق الحق وليقطع دابر الكافرين؛ وذلك لأن نصر الحق وإعلاءه خَبْصٌ[1] للكفر شيئا فشيئا، حتى تذهب قوته ليجتث من أرض العرب اجتثاثًا، وعبر سبحانه وتعالى عن ذلك بقوله تعالت كلماته: ﴿ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ الدابر هو الخلف، وعبر بذلك كناية عن أن لا يبقى من الكافرين من يجهر بكفره، ويعاند الله تعالى، ويستعلى عليه، وذلك فيه تشبيه للكفر بالجيش الذى يولّى مدبرًا، ويقاتل بقناه[2] حتى يقضى عليه بقطع أدباره والقضاء عليه.

هذا ما أراده الله تعالى، وذلك ما كانوا يودونه، وقد أراد الله تعالى لهم العزة، فكان النصر المؤزر، وكانوا قليلاً فكثّرهم الله، وقوله: ﴿ بِكَلِمَاتِهِ ﴾، أى بالقرآن الذى هو حجة، فالتأييد تأييد للقرآن الكريم.

ثم أكد سبحانه معنى تأييد الحق، فذكر أنه سنة الله فى تأييد الإيمان، وإبطال الشرك وهو الباطل: فقال عز من قائل:

(١) أي القضاء عليه شيئا فشيئا، من خبص خبصا: مات. لسان العرب.
(٢) أي يَسلب سلاح العدو ويُقاتل به.

﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾.

(اللام) هنا لام العاقبة، وهى تدل على الباعث على القتال، و(الحق) هنا هو الدين الثابت، و(الباطل) هو الشرك المفترى، والمعنى لتكون عاقبة القتال الذى هو الحق المؤيِّد للحق الذى أراده الله، وهو ذات الشوكة أن يثبت الحق ثبوتاً دائماً مستمرا ما دام أهل الإيمان مستمسكين، ويبطل الشرك وهو الباطل مستمرًا، ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾ ولو كان ذلك رغم المجرمين الذين يجرمون فى الأرض فيفسدون فيها ولا يصلحون ونجد هنا أن المجرمين مكرهون على قبول بما يقع، ولو كان وبالاً.

وعبر هنا بالمجرمين، وفى الآية السابقة بقطع دابر الكافرين، وذلك لتنوع عنادهم وتعدد صوره، فهم كافرون لجحودهم مع قيام البينات، وهم مجرمون مفسدون لفتنتهم المؤمنين، فإذا كان الكفر تعدياً على أنفسهم، وهم به كافرون، فالفتنة تعد على غيرهم، وهم بها مجرمون.

والحق الذى أحقه الله وثبته هو الجهاد وطلب ذات الشوكة، ولذا اقترن بها قطع دابر الكافرين، والحق الثانى هو الدين الحق، وتثبيته وإبطال الباطل، وهو منع الفتنة، كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

المعركة

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ
مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ
وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ
عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ
الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾
إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ

سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾

كان النص القرآنى السامى يحث المسلمين على أن يطلبوا الجهاد، بطلب الطائفة ذات الشوكة، والنبى ﷺ أمامهم يستحثهم ويستوثق منهم، حتى لا تغلبهم الدنيّة فى دينهم، وقد ظهر أنهم يودون غير ذات الشوكة، حتى إذا دنت الواقعة كان مع الاستعداد بالقلوب، والاطمئنان كان لابد من الالتجاء إلى الله تعالى ليكون الغوث، وليكون النصر، فهم مؤمنون، وليسوا مغرورين؛ ولذلك لابد من الالتجاء إلى الله، وخصوصا من الرسول الذى أحس بأن عليه العبء الأكبر، فاستغاث هو ومن معه بالله، وكان هو أظهرهم.قال تعالى :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾ .

والاستغاثة طلب الغوث، و « إذ » ظرف يكون للماضى، وهو هنا للماضى المتصل بالحاضر، كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ..﴿٨﴾﴾ وجاء المضارع بعدها لتصوير الاستغاثة وأنها كانت التجاءً متجدداً مستمرا لله تعالى.

وقد روت السنّة استغاثة النبى ﷺ، وقد كانت ضراعة له سبحانه وتعالى، وروى مسلم والإمام أحمد، وغيرهما من الصحاح عن عمر بن الخطاب أنه قال: «لما كان يوم بدر نظر النبى ﷺ إلى أصحابه، وهم ثلاثمائة ونيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبى ﷺ القبلة، وعليه رداؤه وإزاره، ثم

قال: «**اللهم أنجز لى ما وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض أبدًا**» فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه، ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا نبى الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك»(١).

هذه هى استغاثة رسول الله ﷺ، وهى استغاثة من معه، فهو إمام الصلاة استغاثته استغاثة لهم، كما أن الإمام قراءته قراءة للمأمومين، وإن النبى ﷺ عندما اتجه إلى الاستغاثة اتجه إلى القبلة، وكأنها صلاة، يمم وجهه فيها شطر المسجد الحرام.

وقد استجاب الله تعالى لاستغاثة نبيه، فقال تعالى: ﴿**فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ**﴾.

(الفاء) للعطف الدال على الفورية، أى أن الإجابة كانت فور الدعاء، وكذلك دعاء النبيين ومن معهم من الصديقين والشهداء والصالحين.

والاستجابة بالسين والتاء هى شدة الإجابة كأحسن ما تجاب به الاستغاثة؛ لأنها استغاثة لله تعالى فهى إيمان لأجل قوة الإيمان وعزة المؤمنين، وقرنت الإجابة بما يدل على قوتها، فهى من ربكم الذى يكلؤكم، ويرعاكم، وذكر الاختصاص فى قوله سبحانه: ﴿**لَكُمْ**﴾، أى الإجابة لكم أنتم من ربكم ولا إجابة لغيركم لأنكم على الحق، وتدعون للحق.

وفسر سبحانه وتعالى الاستجابة بقوله: ﴿**أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ**﴾ هنا ثلاث قراءات فى (ألف)، فقرئ بـ (أَلْف)، ويكون الإمداد بألف من الملائكة على قدر عدد المشركين، فإنه إذا كان عددكم ثلاثمائة ونيفا وعددهم ألف، فقد أمدكم الله تعالى بألف من الملائكة، فيكون العدد فى الحسبة متساويا أو تزيدون.

(١) رواه مسلم : الجهاد والسير- الإمداد بالملائكة في غزوة بدر(١٧٦٣)، والترمذي: تفسير القرآن- ومن سورة الأنفال(٣٠٨١)، وأحمد: مسند العشرة- أول مسند عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٢٠٨) عن ابن عباس، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم.

وهناك قراءة أخرى بـ (آلُف)، جمع ألف، على وزن أفعُل، وبذلك لا يكون العدد محدودا بل بألوف، وذكر الزمخشرى قراءة ثالثة وهى (آلاف)، والرسم الإملائى العثمانى القرآنى غير المنقوط والمشكول يحتمل القراءات الثلاث.

و«مردفين» أى متتابعين، مشتقة من أردف، وهى لغة فى ردف وتقرأ بفتح الدال وهى قراءة (١)، والمعنى أنهم جاءوا وقد أردف بعضهم ببعض.

وهنا تقرر أن الله تعالى أمدهم بألف أو عدد من الألوف، وذلك أمر لا ريب، ولا تناقص بين الإمداد بآلاف، أو بآلاف، فالمراد جنس الألف لا تعيين العدد.

ولكن كيف كان الإمداد، جاء فى روايات لم نرها فى صحاح السنة أنهم صوروا بالإنس، وكان بعض الناس يرى سيوفا لا يرى حاملوها.

ولكن الثابت فى الصحاح أنه كان إمداداً من غير أن يتعرض لبيان أنهم كانوا بصور إنسانية أم لم يكونوا، وهذا ما نراه.

وإذا لم تكن ثمة صور أو أجسام إنسانية ، فإننا نقرر أنه كان إمدادًا روحيا، ومن الإمداد الروحى شحذ العزائم وطمأنينة نفوسهم، وإبعاد الشياطين ومنازع الشيطان، وهذا بلا ريب من إمداد الله بالملائكة، فهو حقيقة ثابتة، وإنه يؤيد أن الإمداد روحي- آمنا بحقيقته وجهلنا كيفيته- قوله تعالى:

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ ﴾.

الضمير يعود إلى المصدر المشتق من (ممدكم)، أى أن ذلك الإمداد كان روحانيا فيه بشرى أى تبشير لكم بالنصر وإنه آت لا ريب فيه، وفيه أمن للقلوب، ولتدخل الحرب مع رجاء النصر ، فرجاء النصر والاطمئنان إليه مع أخذ الأهبة

(١) (مردَفين) بفتح الدال، قراءة نافع وأبي جعفر ويعقوب، وقرأ الباقون بالكسر. غاية الاختصار- الهمداني(٩٢٩).

نصر على النفس، وابتداء النصر اطمئنان النفس فلا تفزع، ولا تهاب، ولا تخور؛ ولذا قال سبحانه، ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُم﴾، فلا تجزع فتقدم فى غير خوف ولا وجل، وإنه وحده الناصر فما كان الإمداد بالملائكة ، والإخبار به إلا لتطمئن القلوب.

وإنه بعد اتخاذ الأسباب لا يكون النصر ﴿إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ العزيز الحكيم أى الغالب الذى يدبر لكل شىء وبأمره سبحانه وتعالى.

وفى الآيتين الكريمتين إشارات بيانية تليق بكتاب الله معجزة الوجود الإنسانى كله:

أولاها - تأكيد الإمداد بالملائكة تلك القوى الروحانية التى تبشر وتطمئن فقد أكدها بالتوكيد بأن فى قوله تعالى: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم﴾ وبإضافة الإمداد إليه سبحانه، وهو القوى القهار الغالب على كل شىء.

وثانيها - بالجملة الاسمية الدالة على البقاء والاستمرار.

وثالثها - الحد بألف الذى يوازى عدد المشركين أو يزيد، وهو على القراءات الأخرى أضعاف عدد المشركين.

ومن الإشارات البيانية- ضرورة الاعتماد على الله بعد أخذ الأهبة، وإعداد العدة، فقد قال تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ فقد قصر النصر مهما تتوافر أسبابه على أنه من عند الله فلا نصر إلا منه، والقصر بالنفى والإثبات فنفى وجود أى نصر إلا أن يكون من عند الله، ووصفه سبحانه وتعالى بما يزكى هذا القصر، فهو العزيز الذى لا يغلب، وهو الحكيم الذى يدبر الأمور بحكمته ومن مقتضاها أن ينصر الحق ويخذل الباطل، فهو وحده ناصر الحق دائما، وتأكيد ذلك بـ (إن) والجملة الاسمية.

وبين لله تعالى أنه أفاض الأمن والاطمئنان، فقال تعالى:

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾.

يقال: غشَّاه، بمعنى غلبه النوم، و(غَشَّى) كـ (أغْشَى) يجوز فيها التعدية بالتضعيف وبالهمزة، كقوله تعالى: ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [يس] وكقوله تعالى: ﴿ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النجم].

وغشاهم الله تعالى بالنعاس أى وضعه على عيونهم كأنه غشاء من نعاس. ونعاس مفعول ثان.

و﴿ أَمَنَةً ﴾ مصدر أمن، والمعنى غشاهم الله تعالى بالنعاس آمنين، أى لأجل أن يكون ذلك أمنا لهم من الخوف، أى للدلالة على أمنهم واطمئنانهم، فإن النعاس أمن وقرار، وبُعد عن الهم، فمع القلق السهر، ومع الأمن النوم.

وإن النعاس عند الإقدام على أمر مهم يقوى النفس، ويشحذ العزيمة، ويذهب القلق والاضطراب، وهو أمارة الاطمئنان، وقد أنعم الله تعالى على المؤمنين، ليلتقوا بالأعداء آمنين مطمئنين راجين النصر، مُحسِّين بتأييد الله، ومحسين بأن الحق معهم، ولقد قال علي -كرم الله وجهه- فى ليلة بدر: «ما كان منا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ».

والنعمة الأخرى التى ثبت الله تعالى بها قلوبهم نزول المطر، فقد قال تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ فقد كان المشركون فى مكان فيه ماء، ولم يكن عند المؤمنين ماء فغلب عليهم الظمأ، فوسوست فى بعضهم الوساوس، فأنزل الله سبحانه وتعالى الماء حتى سال الوادى، وملأوا الأسقية وسقوا الركاب، واغتسلوا من الجنابة فجعل الله ذلك الماء طهورا، وثبت به الأقدام إذ لبَّد الله به الأرض، ويقول الحافظ ابن كثير: «وذلك أنه كانت بينهم وبين القوم رملة فبعث الله تعالى المطر عليها فضربها حتى اشتدت وثبتت عليها الأقدام».

وهذا قول الله تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ ﴾.

فالماء الذى أنزله الله تعالى سقوا منه، وكان طهورا أذهبوا به رجز الشيطان وهو الجنابة، وطهُروا حسا ومعنى، وربط الله تعالى به على قلوبهم، وثبتهم

وأذهب عنهم وساوس الشيطان، ولبدَّ به الأرض وثبتت عليها الأقدام، فلا تغوص في الرمال، وإن هذا الماء كان وبالا على المشركين فقد انهمر حتى دعثر[1] عليهم الأرض وصارت الأرض لا تقوى على تحمل أقدامهم.

هذا كله تأييد حسى من الله اقترن به اطمئنان وذهاب القلق، والطهر، وهو يزيد النفوس اطمئنانا.

وقد كان بجوار ذلك تثبيت الله تعالى بالملائكة فقد قال تعالى:

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾.

موقعة الفرقان هي موقعة الحق أيدها الله، واتخذت كل الأسباب لها، والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء، أيدهم الله تعالى **أولا** بالمدد من الملائكة الذى كان بشرى واطمئنانا، وأيدهم **ثانيا** بأن الله مع المؤمنين والملائكة، وأيدهم **ثالثا** بأن أمر الملائكة بأن يثبتوا الذين آمنوا، وأيدهم **رابعا** بأن ألقى الرعب فى قلوب الكافرين، وأيدهم **خامسا** بأن كان الضرب فوق أعناقهم، والضرب فى الأيدى التى تقتل.

﴿إِذْ﴾ فى قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ ﴾ هى للماضى المتصل بالحاضر، والمضارع للدوام المتجدد، أى اذكر أيها النبى ومن معك، وحى الله تعالى المستمر الذى لا ينقطع إلى الملائكة أن الله معكم أيها الملائكة فى تأييدكم للمؤمنين فهو سبحانه جل جلاله فى ملكوته الأعلى معكم فى تأييد المؤمنين وتثبيت قلوبهم، ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ و «الفاء» هنا للإفصاح عن شرط مقدَّر، والمؤدى: إذا كان الله معكم فى هذا التأييد فثبتوا الذين آمنوا، أى قووهم معشر أرواح الله، واملأوهم بروحانيتكم لتمتلئ قلوبهم بروح من عند الله، وإحساس بعظمته، وجبروته وقوته وعزته ليطلبوا العُلا والعزة ولا يذلوا.

وقد التفت سبحانه من خطاب الملائكة إلى خطاب المؤمنين، ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ﴾ وهذا معناه اضربوا الرءوس، فما فوق العنق هو الرأس، والبنان

(١) الدَّعْثَرَةُ بفتح الدال: الهدم و المُدَعْثَرُ المهدوم . الصحاح- دعثر.

الأيدى، والمعنى أن اضربوا رءوسهم، فإنها موطن الشيطان، واقطعوا أيديهم، فإنهم يبطشون بها وآذوا المؤمنين وعذبوهم، وفتنوهم عن دينهم.

والمعنى لا تأخذكم بهم رأفة، فرد الاعتداء يكون بمثله، فاقتلوهم وأضعفوا قواهم يشفِ الله بذلك صدور قوم مؤمنين.

وإن ذلك جزاء بما ارتكبوا، ولمحاربتهم الله ورسوله؛ ولذا قال تعالى:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

الإشارة إلى الرعب الذى ألقاه الله فى قلوبهم، وإلى إمداد الملائكة للمؤمنين وإلى تثبيت الملائكة لقلوب المؤمنين، وإلى الغلب فى المعركة، وأمر الله للمؤمنين أن يضربوا رءوسهم وأطرافهم، كل ذلك لأنهم شاقوا الله ورسوله، أى صاروا فى شق، والله ورسوله فى شق آخر، يحادون الله ورسوله، ويغالبونهم حاسبين أنهم الغالبون، و «الباء» فى قوله تعالى: **﴿بِأَنَّهُمْ﴾** للسببية أى بسبب أنهم حادوا الله ورسوله، وما دام الأمر أمر مغالبة، فالله هو الغالب، وذكر الله ورسوله، وكان يكفى ذكر الرسول أو ذكر ربه، والجواب عن ذلك الإشارة إلى أن محاربة الرسول محاربة لله، وأن طاعة الرسول طاعة لله **﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾** [النساء: ٨٠] وإلى أن عصيان الرسول محادة لله سبحانه وتعالى، وأظهر فى موضع الإضمار: فقال: **﴿وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾**، ولم يقل من «يشاققهما» وذلك لبيان عظيم ما يقترفون، فهو تنديد بهم، وتكرار لعظم جرمهم.

وقوله تعالى: **﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾** بيان لشدة العقاب فى الدنيا والآخرة، وهى دالة على جواب شرط محذوف هذه علته، والمعنى فإن الله منزل عقابه الشديد بهم فى الدنيا؛ لأنهم يغالبون الله ورسوله، ونسوا أن الله تعالى غالب على كل شىء.

وسماه الله عقابا لهم، للإشارة إلى أنهم ليسوا فى مقام المغالبة لله، بل إنهم فى مقام من يؤدبون ويعاقبون، ويُردون خاسئين.

وإن عقاب الدنيا والتنكيل بهم فيها، لكيلا يستشرى الشر، ولكيلا يُغْروا بالمؤمنين، ولكيلا يكون على المؤمنين حرج، ولكى ينالوا جزاء ما فعلوا، ولأن السابقين كان ينزل العقاب الدنيوى بهم بخاسف أو بريح صرصر عاتية، أما أمة محمد ﷺ فإن الله تعالى يفنى الأشرار، ويبقى الأخيار.

كان عقاب الدنيا لذلك، وهذا لا يمنع عقاب الآخرة، وهو الأوفى جزاء؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴾.

الإشارة إلى هذا العذاب الأليم، وأتى بكاف الخطاب للجمع، تأكيداً لعموم الخطاب للكافرين، وأنهم جميعا يخاطبون بذلك حتى يتوبوا، فإن تابوا فقد انتهوا والله قابل للتوب شديد العقاب.

وذلك كما قلنا إشارة إلى العذاب، والإشارة استحضار له، و«الفاء» فى قوله تعالى: ﴿ فَذُوقُوهُ ﴾ فيها إشارة إلى العذاب الدنيوى الذى «يذوقونه» وهى للإفصاح أى إذا كان هذا عذابكم فذوقوه، والتعبير بذوقوه إشارة إلى آلامه وقد ذاقوها وأحسوها، فقد ذاقوا النكال وذاقوا القتل، وذاقوا الذل بعد الاستكبار، وذاقوا عذاب الهون بما كانوا يكسبون.

وإنهم مع ذلك لن يفلتوا من عذاب الآخرة، فإذا النار لاحقة بهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴾ وفى العبارة ما يوحى بأنه العذاب المعد لهم، وكأن عقاب الدنيا أمر عرضى ليس هو الجزاء الحقيقى لهم، إنما كان لمنع استمرار شرهم، وإنهاء فسادهم، ولمنع الفساد فى الأرض.

﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) ﴾ [البقرة].

ولذا أكد جزاء الآخرة، لأنه الأصل الثابت، فقال: ﴿ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴾ فأكده **أولا**- بـ «أن» الدالة على التأكيد، **وثانيا** بالجملة الاسمية الدالة على الاستمرار والدوام، **وثالثا** - بتقديم الجار والمجرور الدال على اختصاصهم بعذاب النار، ورابعا ببيان أن الكفر هو السبب؛ لأنه عبر بالوصف، وذلك دليل على أن الكفر هو السبب فى عذاب النار..

اللهم اكفنا شره، واقبل من حسناتنا ما يمحو سيئاتنا، فإنك قلت قولك الحق: ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود: ١١٤].

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ
دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ
بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾
فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ
إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ
ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ
وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ
فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٩﴾

هذه معركة الإيمان والكفر، وإن شئت فقل معركة الله ورسوله مع الكافرين؛ لأن المؤمنين اتخذوا الأسباب، لأنهم توكلوا على الله واستغاثوا به، ولأنه لم يكن فيهم ضعفاء الإيمان أو المنافقون، فكانت معركة الله حقا وصدقا، وهو ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

يبين الله تعالى أن أول النصر الثبات، وألا يفر من الميدان؛ ولذا شدد سبحانه وتعالى فى منع الفرار، لأن الفرار أول الهزيمة، ولأنه خور فى العزيمة، ولأنه والصبر نقيضان لا يجتمعان ولا معذرة فى فرار قط، ولأن يقتل الرجل وهو مقبل بصدره، خير من أن يقتل وهو مدبر بظهره.

وقال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا ﴾.

النداء للمؤمنين بوصف كونهم مؤمنين، والإيمان صبر وفداء، فالنداء بالذين آمنوا تحريض على الصبر واللقاء والثبات، وذكر لقاء الكافرين، وهم كانوا يتمنون لقاءهم لينتصروا لله منهم، وليردوا كيدهم، فكان نداء أهل الإيمان بعنوان الإيمان تحريضا على الثبات والمجاهدة، وكان ذكر لقاء الكافرين تحريضا أشد؛ لأنهم الذين آذوهم وأخرجوهم من ديارهم وظاهروا على إخراجهم؛ ولذا كان النهى بعد التمهيد، فقال: ﴿ فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ﴾ و«الفاء» واقعة فى جواب الشرط، وعبر سبحانه وتعالى عن النهى عن الفرار بقوله تعالى: ﴿ فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ﴾ ومعنى تولى الدبر، أى أن يتركوا ظهورهم للسيوف تضرب فى أدبارهم، وذلك منظر هو من أقبح المناظر وأقبح تصوير للفرار من الميدان بضرب السيف فى دبره وقفاه، وإن من يُقتل فى صدره لا يُقتل إلا بعد أن يَقْتُل من الأعداء، أما من يُقتل فى ظهره، فإنه يذهب دمه عبيطا(١)، لا يثأر لنفسه.

وقد قال تعالى: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾.

ذكر مفردا فارا؛ للإشارة إلى وجوب التضافر والتآزر، وألا ينفرد بقرار، وألا يكون إلا فى جماعة.

وقد استثنى الله تعالى من الذين يتركون الميدان طائفتين لا تُعدان فارتين، بل تُعدان متقاتلين.

أولاهما- المتحرفة لقتال، والثانية - المتحيزة إلى فئة.

المتحرفة معناها المائلة، والمتحيزة هى التى تتجه إلى حوزة جماعة من جماعة المسلمين.

(١) ذهب دمه عبيطا أى خالصا طريا.

والمتحرفة المراد بها المائلة فى القتال غير تاركة، ولكنها آخذه بضرب من ضروب الحيلة والخديعة، وقد ضرب لذلك الحافظ ابن كثير مثلا، فقال: «ذلك الذى يظهر أنه يميل إلى الفرار حتى إذا اطمأن محاربه انقض إليه غرة وقتله، والمتحيز إلى فئة الذى يلجأ إلى فئة يحسبها تحتاج إلى قوة فينضم إليها مقويا صفوفها».

وهاتان الطائفتان لا تعتبران فارتين ولا موليتين الأدبار؛ ولذا نقرر أن الاستثناء منقطع، بمعنى لكن، أى لكن المتحرف أو المتحيز لطائفة لا يعدان مولين الأدبار.

وقد يكون الفرار أمراً ضروريا إذا كان العدو أغلب، ولكن الفرار لا يكون بتولية الأدبار، بل يكون بتدبير الانسحاب ويكون بالتراجع، من غير أن يولوا ظهورهم للأعداء، يضربون فى أدبارهم، كما فعل القائد العظيم خالد بن الوليد هذا عندما آل إليه أمر القيادة بعد قتل زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبدالله ابن رواحة، فقد رأى أن أمامه جيشا يعد بمئات الألوف، ومعه ثلاثة ألوف، فقد أخذ يتراجع، ويوهم الأعداء أنه قد جاءه مدد حتى عاد إلى المدينة وسماهم بعض المجاهدين فرارين، وسماهم النبى ﷺ «العكارين»(١) أى الكرارين.

وإن الفرار فى الزحف من أكبر الكبائر، فقد قال ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات، قيل يارسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»(٢).

---

(١) رواه الترمذي: الجهاد- ما جاء في الفرار من الزحف (١٧١٦). كما رواه أبو داود في سننه: الجهاد- التولي يوم الزحف (٢٦٤٧). وبنحوه رواه أحمد: مسند المكثرين- مسند عبد الله بن عمر ابن الخطاب رضي الله عنهما (٥٣٦١).

(٢) متفق عليه؛ رواه البخاري: الوصايا- قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النساء] (٢٧٦٧)، ومسلم: الإيمان- بيان الكبائر وأكبرها(٨٩). عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد تكلم العلماء فى الفرار، فأجازه بعضهم إذا كان العدو كثيفا، والمؤمنون قلة، وهم مأكولون لا محالة، ونحن لا نجيز تولية الأدبار مطلقا، لأنه تمكين من رقاب المؤمنين، وإذهاب للبأس، ولكن نجيز التراجع المنظم كما فعل القائد العظيم خالد، إن تولية الأدبار إذلال للمؤمنين وتمكين من القتل الرخيص وليس هو التراجع الحكيم؛ لأن المتراجع يحمى صدره، والمولى الأدبار يمكنهم من ظهره.

وقد بين الله سبحانه فى النهى عن الفرار جزاء من يولهم يومئذ دبره، فقال تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾ أى يوم الزحف ولى مدبرا مضطربا ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أى رجع مغضوبا عليه من الله تعالى، فغضب عليه، والواجب أن يطلب رضوانه، ﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ﴾، أى الذى يأوى إليه جهنم ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

وبعد ذلك بين الله سبحانه وتعالى أن النصر بيد الله، وأنه سبحانه هو الذى يهزم المشركين، وهو الذى يرميهم فقال تعالى:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وفق الله المؤمنين فى هذه الغزوة، كانوا قلة فأراهم المشركين كثيرين، ورأوا المشركين قليلا وهم كثيرون، وسهل الله السبل للمؤمنين فألقى فى قلوبهم الرعب وأمدكم بالملائكة، فملأكم روحانية وجعلهم الله بشرى لكم، واطمأنت قلوبكم، وغشاكم النعاس، وأنزل عليهم الماء فثبَّت به الأقدام وطهر رجز الشيطان.

أمدهم الله تعالى بهذا فكان النصر، وقد قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩] فكان النصر من عند الله، وكما قال تعالي: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣] ولما أصابهم الغرور، وحرمهم الله من نصره ابتداء ولوا الأدبار، وقال الله تعالى فى ذلك: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥] لهذا التوفيق

وذلك التأييد الذى تكاثر فى غزوة بدر نسب الله تعالى النصر إليه سبحانه، والقتل إليه والرمى إليه، فقال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ نفى سبحانه أنهم قتلوهم، لأنهم لم يكونوا المسلطين عليهم من أنفسهم إنما سلطهم الله تعالى عليهم، وهو الذى أرداهم، و«الفاء» مترتبة على ما قبلها ما دام الله تعالى هو الذى هداهم وحرضهم، وأيدهم بنصره، وبملائكته ثم قال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ إما أن نقول إن القتل حق لله تعالي؛ لأنه هو الفاعل المختار، وإن نظرنا إلى الأسباب العادية نقول: إنه من قبيل إطلاق المسبب وإرادة السبب، فلأن الله تعالى هو السبب فى القتل أسند القتل إليه.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾.

قال بعض المفسرين على أن المراد من الرمى هو الرمى بالنبال المريشة التى تصيب المقاتل، ويكون من قبيل إطلاق المسبب وإرادة السبب؛ لأن الله تعالى هو السبب إذ هو الموفق، وهو المؤيد، وهو الممد بالملائكة وهو سبحانه وتعالى ملقى الرعب فى قلوب المشركين.

وقال بعض المفسرين: إن النبى ﷺ عندما التقى الجمعان قبض قبضة من التراب، ورمى بها المشركين، وقال: «شاهت الوجوه»[1]، فاضطربت الأبصار، وزاغت القلوب.

فقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ أى فلَسْت أنت الذى رميت إنما الله تعالى هو الذى رمى؛ ولذلك أفرد النبى ﷺ بالخطاب لأنه هو الذى رمى.

وإنى أميل إلى التفسير الأول لأنه هو الأوضح، ونحن نميل إلى الواضح من الآراء.

---

(١) انظر صحيح مسلم: الجهاد والسير- غزوة حنين (١٧٧٧).

وإن الله سبحانه وتعالى فعل ذلك، ليؤيد المؤمنين بنصره، ﴿ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا ﴾ أى ليعامل المؤمنين معاملة المختبر الذى يبليهم بلاء حسنا، أى بلاء نتيجته حسنة دائما، وذلك بأن يكلفهم، وأن يتخذوا هم الأسباب للنصر المؤزر، والعزة والرفعة، وأن تكون كلمة الله على أيديهم هى العليا، وهو العزيز الحكيم، ولقد قال سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أى إن الله عالم علم من يسمع، ومحيط بكل شيء علما.

وإن الله تعالى إذ ينصر المؤمنين ذلك النصر بإرادته وتقديره هو الذى يوهن شأن الكافرين فالله ناصر المؤمنين، وهازم الكافرين؛ ولذا قال تعالى:

﴿ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾

الإشارة إلى نصر الله تعالى وما كان من تأييده حتى شرف الله تعالى ذلك القتل والقتال بأن نسبه إليه سبحانه، وأتى بضمير الخطاب للجمع، لإعلام الجميع بذلك النصر، وخبر اسم الإشارة محذوف معلوم من الكلام، أى ذلك النصر المؤزر ثابت لكم وحسبه نعمة أنعم بها عليكم، فالنصر وحده له فرحة شديدة، فتقبلوا نعمة الله فيه، وعطف على هذا النصر أمر آخر جليل فى ذاته وهو ثمرة النصر، وهو قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾ فموهن معطوف على ما يفهم من الكلام السابق وهو فوق بشرى النصر بشرى إضعاف وتوهين شأن المشركين وكيدهم، لقد كانوا أصحاب القوة والسطوة، والسلطان والشرف فى البلاد العربية وكانوا يستطيلون بكل ذلك على المؤمنين، فلما جاء النصر المبين لتلك الفئة الصغيرة واستطالت عليهم ونالت النصر دونهم وهنوا فى أنفسهم، وإذا وهنوا فى ذات أنفسهم وهن كيدهم للمسلمين، وهو تدبيرهم، وتأليبهم العرب عليهم، وحربهم، وصاروا يرهبونهم بعد أن كانوا يستضعفونهم، ويرون فيهم العزة.

فهذه الحرب المقدسة كان لها ثمرتان دانيتان:

إحداهما - النصر فى ذاته، وأن صارت كلمة الله هى العليا وكلمة الشرك هى السفلى، وتلك نعمة أنعم الله تعالى بها عليهم.

الثانية- أنه انتهى عهد الاستهانة بالمسلمين واستعلاء المشركين عليهم ووهن أمر الكافرين لديهم فكانت تلك هى الضربة القاصمة التى كسرت أنفتهم وكبرياءهم.

وعبر الله تعالى بالكافرين لبيان أن الكفر هو السبب فى وهنهم ، والله من ورائهم، قال الله تعالى:

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

بعد أن ذكر الله تعالى غزوة بدر الكبرى، أو (يوم الفرقان) كما سماها القرآن الكريم، أخذ يشير سبحانه وتعالى إلى المغزى الأمثل فيها، وهو الطاعة لله ورسوله، فهو كان أساس النصر، وتخاذل النصر فى أحد، لنقصان فى الطاعة للرسول ﷺ، وفى هذه الآيات يبين الله تعالى مقصد الحرب عند الفريقين، ومقام طاعة الله تعالى فيها.

قال تعالى: **﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾**.

الاستفتاح السين والتاء لطلب الفتح، وهو النصر أو الفصل بين الحق والباطل، كقوله تعالى: **﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴾** [الأعراف: ٨٩].

وهل استفتح المشركون، أى أيُعد الخطاب للمشركين، أم يعد الخطاب للمؤمنين؟، إن الخطاب فى الآيات السابقة لهذه الآية للمؤمنين مثل **﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾**، وقوله تعالى: **﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾** وهكذا تجد الآيات السابقة المخاطب فيها المؤمنون، والمتحدث عنهم بالغيبة الكافرون، وكان مقتضى السياق ذلك، كما هو فيما بعد هذه.

لكن طائفة من المفسرين قالوا: إن الخطاب للمشركين، لأنهم استفتحوا فعلا بالله الذى كانوا يعلمونه، وإن لم يوحدوه فى العبودية، ولقد ذكر الزمخشرى وابن كثير وابن جرير عدة صور من عبارات استفتاحهم فيروى أنهم عندما أرادوا أن ينفروا لحماية العير، ومحاربة النبى ﷺ تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهم

انصر قِرانا للضيف، ووَصلنا للرحم، وفكَّنا للعانى إن كان محمد على حق فانصره، وإن كنا على حق فانصرنا.

ويروى أنهم قالوا: اللهم انصر أعلى الجندين، وأهدى الفئتين، وأكرم الحزبين، ويروى أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم أينا كان أفجر وأقطع للرحم فأحْنه، أى فأهلكه.

هذه صور للاستفتاح المروى، وإن صح أن الاستفتاح كان منهم فلعلها جميعها قد وقعت منهم والاختلاف اختلاف عبارات لآحادهم لا لجمعهم.

وقوله تعالى: ﴿ فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾، قال الزمخشرى: إنه تهكم عليهم، من حيث إن الفتح كان على غير ما يرغبون، وقد يقال: إنه أريد الحد، لأنكم إذا كنتم تستفتحون طالبين الفصل بينكم وبين محمد ﷺ فها هو ذا الفصل، فاخضعوا له ولكنهم لا يطلبون حقا، ولا يخضعون للحق، وإن تنتهوا بالإيمان بالحق بموجب استفتاحكم ووعدكم فهو الإيمان وهو خير لكم، وإن تعودوا إلى الباطل ومحاربة محمد ومن معه نَعُدْ إليهم بالنصر، ولن تغنى عنكم جماعتكم وكثرتكم شيئا، ولو كثرت، وإن الله تعالى مع المؤمنين دائما بنصره وتأييده، وقد رأيتم مرات هذا النصر وذلك التأييد، فصارت كلمتهم هى العليا والله عزيز حكيم.

هذا هو توجيه القول الكريم على أساس أن الخطاب للمشركين، وهو ظاهر لا يقاومه إلا سياق الآيات السابقة قبلها وبعدها.

وأما تخريج القول الكريم على أن الخطاب للمؤمنين فإنه يؤيد سياق الخطاب، ويكون المعنى إن تستفتحوا أيها المؤمنون، بأن تتضرعوا إلى الله تعالى طالبين الفتح والنصر، وتستغيثون به، فقد جاءكم النصر فعلا، ومعه الغنائم التى طلبتموها وأردتموها، وقد علمتم أن ذلك بفضل الطاعة، والامتناع عن العصيان ﴿ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أى إن تنتهوا إلى الطاعة، وإصلاح ذات بينكم وتقوية جمعكم، فهو خير لكم، ﴿ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ ﴾ أى إن تعودوا إلى المشاحنة والخلاف

على الغنائم والمنازعة نعد لكم بالخذلان والفشل، كما قال تعالى: ﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦] ولا تغنى الكثرة شيئا مع الاختلاف لأن الاختلاف لا يكون فيه القوة على العدو، ولكن يكون بأسهم بينهم شديدا، فحربهم على أنفسهم لا على أعدائهم، وقد أكد الله سبحانه وتعالى ذلك فقال: ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾.

أكد سبحانه وتعالى النفى بـ «لن»، وأنه لا يغنى أى شىء ولو قليلا، وثالثا أنه لا يغنى مع الكثرة. وإن الله سبحانه وتعالى علام الغيوب ، يخبر بما سيكون يوم أحد، فقد كانت معهم قوة، وسابقة نصر، ولكن لم يطيعوا واختلفوا على الغنائم فلم ينتصروا، ولا نقول انهزموا، بل كان الأمر بينهما.

ذالكم تخريجان، ونحن نرى أن الأقرب إلى سياق الآيات، وإلى سياق الأمر بالطاعة، وإلى الانسجام البيانى المعجز، أن نقول: إن الخطاب للمؤمنين تحذيرا وإنذارا.

وختم الله تعالى الآية بقوله تعالت حكمته وكلماته: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ «أنَّ» مفتوحة الهمزة للدلالة على أنها متعلقة بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ ويكون هذا قرينة على أن الخطاب للمؤمنين وليس للكافرين، وهناك قراءة تقول: إن «إنّ» مكسورة.

والتعبير بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ سواء أكانت أن مكسورة أو مفتوحة يدل على أمرين:

أحدهما- أن الله تعالى مع المؤمنين، ينصرهم، ويكون الفتح فى جانبهم ومعهم دائما، والثانى- أن ذلك يكون إذا تخلقوا بأخلاق المؤمنين، ولم يتفرقوا، حتى لا يفشلوا فتذهب ريحهم.

وبعد أن أشار سبحانه إلى أن قوة المؤمنين فى طاعتهم لله ورسوله واستمساكهم وتعاونهم وتضافرهم أقر بالأمر الجامع بينهم، وهو الطاعة فقال:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾

النداء فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بالبعيد لعموم النداء ولأهمية ما يدعوهم إليه سبحانه، وهو الدفاع عن المؤمنين والضعفاء، والشيوخ والنساء والذرية، ناداهم بطاعة الله ورسوله، والنداء من النبى ﷺ، وهو الذى يجاب فمقام الله تعالى لا يتطاولون إليه، وإنما يخاطب رسوله.

وذكر الله تعالى (رسوله) هنا للدلالة أولاً- على أن من يطع الرسول يطع الله تعالى، وثانيا- لأنه هو الذى ينصر، وهو الذى يعز ويذل، فإجابته اعتزاز بمنشئ الوجود كله، وثالثا- لأنه المسيطر علينا وعليهم كما كان النبى ﷺ يقول فى دعائه عند الدخول فى حرب: «اللهم إنهم عبادك ونحن عبادك» لهذا ذُكِر الله تعالى قبل ذكر الرسول، والنبى ﷺ هو الذى يتولى دعوتهم.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾

«ولا تولوا» بتخفيف إحدى التاءين، وهناك قراءة بثبوت التاءين معا (ولا تتولوا). والتوالى الإعراض، أو الانصراف، والمعنى لا تنصرفوا، وأنتم تسمعون القول، والانصراف وهم يسمعون القول، يتضمن معنيين: أولهما- أن يكون التولى نفسيا، فهم يكونون سامعين ولكن غير واعين، وغير منفذين، ولا نقول غير مطبقين، ولكن نقول غير مقدرين القول قدره.

وثانيهما- أن يعرضوا عن النبى ﷺ فيعرضوا حسيا، وهو يتكلم، وهم يسمعون، وخلاصة المؤدى أن النص يطالب بثلاثة أمور:

أولها - سماعهم سماع وعى وعناية بالقول بفهمه، وتعرف مراده.

ثانيها - ألا يعرضوا عـن القول فكرا أو نفسا، وأن يكونوا مـعه بقلوبهم، وكل جوارحهم.

وثالثها- الطاعة المطلقة فيما لا رأى فيـه، ومراجعة النبى ﷺ فيما رأى فى حرب، أو مكيدة، كـما شاور النبى ﷺ فى منزل الحرب فى غـزوة بدر الصحابى حُبـاب بن المنذر رضى الله عنه. وهنا إشـارة بيانية لابد من ذكـرها، هى أن الله تعالى طالب بطاعة الله ورسـوله، وعندما نهى عن الإعراض أعاد الضمـير مفردا فقال: ﴿**وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ**﴾.

والجواب عن ذلك أن طلب الطاعة لهما لما ذكرنا، ولكن النبى ﷺ هو الذى خـاطبهم وهو المتـحدث بـاسم ربه عنهم، ولا يتصـور أن يكون التـولى عن الله تعالى، بل التولى عنه ﷺ، وإن نسبـة التولى منهم لله تعالى لا تليق، وإن كانت غير ممكنة.

والنهى عن التـولى، وهم فى حـال يسمـعـون فيـها؛ ولذا قـال: ﴿**وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ**﴾ فهـو دعوة إلى حسن الاستـماع؛ ولذا قال تعالى مـؤكدا هذا المعنى: ﴿**وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ**﴾.

أى لا يكن حـالكم كـحـال الذين يقـولون بأفـواههم سـمـعنا، ﴿**وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ**﴾ أى سمعنا، ولم نع ما نقول ولم نتدبره، ونتفكر فيه ونعمل على تنفيذ ما طلبه القائل، فهم سمعوا بآذانهم، ولم يسمعوا بقلوبهم.

وإن هذا النص يؤخذ منه بالتضمن أن **السماع أقسام ثلاثة:**

أولها - سـماع تفـهم وتدبر وإدراك وتنفـيذ على بصـر وعلم، وهذا الذى يطلبه الله تعالى والنبى ﷺ، وهو الذى ذكرناه آنفا.

والثانى- سمـاع من غير تدبر وإدراك وتبـصر، وهذا ما ينهـاهم الله تعالى عنه، وهو إن لم يكن نفاقا فهو غفلة عن الحق، وليس سماع وعى وإنصات.

والثالث- سماع أهل النفاق الذين يقولون: سمعنا وعصينا، أو الذين يحرفون القول عن موضعه.

ومهما يكن فهذان القسمان الآخران سماع كَلا سماع. اللهم اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

سماع الحق

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

إن الله تعالى أعطى الإنسان أدوات الفهم التى تميزه عن الحيوان، وتجعله كونا مستقلا قائما بذاته، وما ذلك إلا ليحتل المكانة التى هيأها الله تعالى له فى هذا العالم بين العالمين فقال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴿٧٨﴾﴾ [النحل]. فالسمع لمعرفة ما أمر الله، والبصر لمعرفة آيات الله فى كونه، والأفئدة ليدرك وليفهم ويعلم، وهذا شكرها.

وإنه إذا فقد ما خصه الله تعالى به من هذه النعم فقد نزل من درجات الإنسانية إلى حضيض الحيوانية، وكان شر الدواب في هذا الكون؛ ولذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴾.

الدواب جمع دابة وهى ما يدب على وجه الأرض من النملة إلى الحشرة إلى ما فوق ذلك، وإنه إذا عبر عن الإنسان بأصغر ما ينطبق عليه اسم الدواب والحيوان كان ذلك تحقيرا له واستهانة بأمره من زعيم يرفع ويخفض إلى حيوان لا يملك من أمره شيئا، تدعكه الأرض بالأقدام، وهو حيوان كله آفات، ليس بكامل بل هو أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق، وهو لا يعقل فليس فيه قلب يفقه، ولا عقل يعقل، إنه شائه[1] فى ذاته، ناقص فى كونه، وإن كان ذا رواء؛ لأن تقدير الإنسان ليس بشكله وصورته، ولكن بقلبه وعمله.

وفى الكلام استعارة تمثيلية شبه فيها من لا يسمع الحق ولا يدركه، ولا يبصر الآيات ولا يتأملها، ومن لا يفقه الحق ولا يدرك بالدابة التى لا تسمع مواطئ الأقدام، فتطؤها، ومن لا ينطق مستغيثا، فتدقه الأمور دقا، ومن لا يعقل ما يضره، فيكون فريسة الكل، وجامع التشبيه هو عدم الفائدة من هذه الحواس فهى إذا كانت ذات فائدة فى ذاتها فإنه لا يستفيد منها، ومن لا يستفيد من شىء فوجوده وعدمه سواء.

وإن تشبيه الكافر بالدابة هو أصغر تشبيه له، وقد قال تعالى فى تشبيهه: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً (١٧١) ﴾ [البقرة]. وكقوله تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ (١٧٩) ﴾ [الأعراف].

وإنهم لو سمعوا لا يجيبون؛ ولذا قال تعالى:

﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾.

هذا ترشيح للاستعارة التى قوامها تشبيه حالهم فى أنهم لا يسمعون سماع تدبر، ولا يبصرون بصر تأمل، بمن لا يسمعون ولا يبصرون فهذا النص تقوية للتشبيه؛ لأنه قرينة تساعد المشبه به.

---

(١) شائه: قبيح. كما في القاموس.

وإن الله تعالى بكل شيء عليم، فهو سبحانه يعلم ما كان وما سيكون، وهو قد قدر كل شيء بعلمه، وقد قدر سبحانه فى علمه أنهم لا يهتدون؛ لأنهم لم يسلكوا طريق الهداية، ولن يسلكوه، وذلك لا ينافى اختيارهم، كما قال الإمام على - كرم الله وجهه - وفسر قَدَر الله بعلمه الواسع المحكم.

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ «لو» هى حرف امتناع لامتناع، أى امتنع إسماع تعالى لهم الكلام إسماع تدبر وإدراك لما فيه من تهديد وإنذار وتبشير، وامتنع ذلك لأنه لم يعلم خيرا فى السماع، والمعنى لو علم الله أنه سيترتب على سماعهم تدبرهم وتفكرهم، وأنه سيترتب خيرٌ كالعظة والاعتبار- لأسمعهم.

ولبيان أن من كتب الله تعالى شقوتهم لا جدوى معهم فقال: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ ولو سمعوا سماع تدبر، وإمعان وإدراك ما صبروا على الحق، بل إن قلوبهم فى ريب دائم مستمر، واضطراب لا استقرار معه، فالحق يحتاج البقاءُ عليه إلى صبر، ودوام تأمل وتفكر؛ فليس الإيمان واقعة تمرٌّ، بل هو حال مستمرة دائمة، يغذيها التدبر، ويقويها طول التأمل، وهؤلاء، إن سمعوا وتفكروا حينا، لا تستمر بشاشة الإيمان فى قلوبهم.

ولذا قال تعالى فى جواب الشرط: ﴿لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ وهذه صورة حال المعرضين بعد أن كاد يدخل نور الإيمان قلوبهم، التولى أن يولى جنبه بدل وجهه ولإظهار أنه معرض شبهت حالهم وقد أعرضوا عن الحق وتركوه بحال الذين يديرون وجوههم وهم معرضون، غير مقبلين.

والله يدعوهم إلى الحق، ويناديهم ليجيبوه؛ ولذا قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾.

النداء للذين آمنوا، والنداء للبعيد؛ لعموم النداء، ولأن أداة البعيد أنسب فى هذا المقام والنداء هو قوله تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ والاستجابة معناها

الإجابة، والسين والتاء للطلب، ومعنى ذلك أن المنادين يطلبون إجابة أنفسهم، أى يسعون لأن يجيبوا؛ لأن الإجابة لمنفعة أنفسهم، لا لمنفعة من يجيبونه فالخير عائد إليهم، وذكر الرسول بجوار إجابة الله تعالى للدلالة على أن إجابة الرسول إجابة لله تعالى، ولبيان أن الرسول هو الذى يوجه الخطاب عن ربه لذا عاد الضمير بلفظ المفرد.

والاستجابة لأمر عظيم، وصفه الله تعالى بأنه ﴿ يُحْيِيكُمْ﴾ فقال: ﴿**إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾ والأمر الذى يحيى الناس جميعا؛ لأنه يعم كل المؤمنين -هو العقيدة، وما اشتمل عليه القرآن من أوامر ونواهٍ، وأمر بمعروف ونهى عن المنكر، فإن العقيدة وما اشتملت عليه من توحيد بها إحياء للعقول والنفوس بإدراك الحق، وإنقاذها من الأوهام، والبعد عن مزالق الشيطان، والشريعة بما فيها من أحكام زاجرة، وأحكام مصلحة ورابطة للعلاقات الإنسانية على أكمل وجوه التعاون، فى كل هذا حياة للجماعات؛ ولذا قال تعالى: ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا**﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام] فجعل الهداية حياة، وجعل الشرك موتا، أو عيشا فى الظلمات.

وبعض المفسرين قال: إن المراد بما يحيى هنا الجهاد؛ لأن الجهاد فى طلب الحق به حياة الأمم، فما تركت أمة الجهاد إلا أماتها الذل، وما اعتزت أمة بالجهاد إلا وُهبت الحياة، كما قال خليفة رسول الله ﷺ: (اطلب الموت توهب لك الحياة)، وكما قال الأستاذ الشيخ محمد عبده: (إن موتا فى سبيل الحق هو عين البقاء، وحياة فى ذلة هى عين الفناء).

وإن الحق أن يكون ما يدعو إليه النبى ﷺ من الشريعة كلها من عدل وتعاون وأمر بمعروف، ونهى عن منكر، وجهاد فى سبيل الله، وهو أعلاها، وهو سنام الحق وعزته.

ويقول سبحانه وتعالى حاثًا على القيام بالحق ومحاربة الهوى:

﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ**﴾

ذكر الزمخشرى فى تفسيره أن هذا التعبير السامى يحتمل ثلاثة تفسيرات:

أولها- أن الله تعالى مالك للإنسان فى أفكاره ومشاعره، فهو موجه قلبه إلى ما يريده الله تعالى، فالله مالك كل شيء، وهو الموجه إليه فى مصيره، أى أنه هو الذى يحول المرء وقلبه واتجاهه، فهو لا يملك من أمره شيئا، وقالوا: إن هذا يفسر قول النبى ﷺ مخاطبا ربه: «**أنت مقلب القلوب**»[1]، ويظهر أن الزمخشرى المعتزلى لا يرتضى هذا؛ ولذلك يقول إنه قول بعض الجَبْرِية، وذلك غير مذهبه، ويقول تعليقا على ذلك: إن الله لا يوجه جبرا ولكن يوجه من سار فى الخير إلى ما سار فيه، ومن سار فى غيره إلى نهايته.

والاحتمال الثانى- وهو الذى أختاره، أن المعنى أن الله بأوامره ونواهيه يحول بين المرء وقلبه، أى بين المرء وما تهواه نفسه، ويشتهيه قلبه من لذائذ هذه الدنيا، وشهواتها، فالشريعة قامعة للنفوس كابحة للأهواء.

وإننا نرى ذلك حقا من غير أن نقرر بطلان السابق، كما أشار الزمخشرى.

والاحتمال الثالث - أن يراد قرب العبد من الله، وأنه أقرب إليه من حبل الوريد وأنه بينه وبين قلبه، كما قال الله تعالى: ﴿ **ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر].

وإنه لا مانع من الجمع بين هذه الاحتمالات فليست متعارضة، ولا شبه متعارضة، فيصح أن يراد أن الله مالك كل شيء، وأن شريعته فاصلة بين المرء وأهوائه، وأن الله تعالى قريب منه مجيب دعاءه إذا دعاه، وأنه رقيب عليه يراه.

---

(١) روى الترمذي: القدر- ما جاء في أن القلوب بين إصبعي الرحمن- ٢١٤٠- عَنْ أَنَسٍ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: "يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوب ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ" فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّه آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: "نَعَمْ إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّه يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ" قَالَ أَبُو عِيسَى: وَفِي الْبَاب عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ وَأُمِّ سَلَمَةَ وَعَبْدِ اللَّه بْنِ عَمْرٍو وَعَائِشَةَ وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ. كما رواه أحمد: مسند المكثرين- مسند أنس بن مالك رضي الله عنه(١١٦٩٧).

ثم بين الله سبحانه أنه راجع إليه سبحانه، فقال منذرا، مبشرا: ﴿ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾.

الضمير ضمير الشأن ، والمعنى، وأنه الحال والشأن تُحشرون، أى تجمعون مهما يكن جمعكم، ومهما تداخلت أجزاؤكم فى الأجسام، ولو كنتم فى حجارة أو حديد، أو خلق مما يكبر فى صدوركم، فأنتم مجتمعون، والتعبير بـ (تُحشرون) يفيد الجمع مهما يكن العدد، ومهما تتناثر الأجزاء أو يتباين كونها.

وقدم الجار والمجرور للدلالة على أن الناس جميعا يحشرون إليه وحده، وهو الذى أنذر وبشر، وأنه منفذ ما وعد، وما أوعد.

فهذه الجملة السامية تربى مهابة اللقاء، وتؤكده، وإنه لقاء بالغفور الرحيم العزيز الحكيم المنعم الجبار.

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾.

إن ظلم الجماعات لا تقف مغباته عند من يرتكبون الظلم، بل يتجاوز إلى الإفساد فى الجماعة نفسها، فمن أشاع الفاحشة فى الذين آمنوا بأن جاهر بها مرتكبا لها، أو أشاع قول السوء فى الجماعة- إنما يدعو إليها، محرضا عليها ولو كان ما يرتكبه ليس كثيراً، ولكن المجاهرة بها دعوة إليها، وتحريض عليها؛ ولذلك كان النبى ﷺ يدعو إلى الاستتار، فيقول فيما روى الشافعى: «يا معشر الناس من ارتكب شيئا من هذه القاذورات، فليستتر، فهو فى ستر الله، ومن أبدى صفحته أقمنا عليه الحد»[1].

ومن أجل هذا حث الله تعالى على اتقاء الفتن، وهى الذنوب، أو الذنوب التى تختبر بها الجماعات ومن شأنها أن تشيع أو تفسد رأيها العام، كما نرى فى عصور الانحلال وشيوع الفساد، وشيوع الدعوات المنحرفة، ويكون فيها الهوى

(١) سبق تخريجه.

متبعا، والرأى منحرفا، أو الفتن تموج كموج البحر، كما رأينا فى بغى معاوية ومن معه على إمام الهدى عالم المسلمين، وحامل سيف الحق علي بن أبى طالب كرم الله وجهه.

يقول تعالى: ﴿ **وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً** ﴾ ومعنى اتقوا: اجعلوا بينكم وبين الفتن التى تعم آثارها وقاية، وذلك بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتنوير العقول وتثقيف القلوب. وتطهير الرأى العام من شيوع الأقوال الباطلة، فإنها تفسد الأفكار ولا تجعلها متجهة صوب الحق، بل تتميع العقول، ويكون شحٌّ مطاع وهوى متبع ، ولا يكون التفكير الدقيق لما يقال، بل يتبع كل فاسق.

وإن الوقاية تكون بأمرين: أولهما- العدل، وثانيهما- الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ولذا قال النبى ﷺ: «**لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يدى الظالم ولتأطُرُنّه على الحق أطرا، أو ليضرِبَنَّ الله بقلوب بعْضِكم، ثم تدعون فلا يستجاب لكم**»[(١)] .

وقوله تعالى: ﴿ **لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً** ﴾ هى جواب لشرط محذوف أو فى معنى جواب الأمر، وهو ﴿**اتَّقُوا**﴾، والمعنى: إن تتقوها، لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة. ودخلت نون التوكيد الثقيلة؛ لأن جواب الأمر فى معنى الأمر، ونون التوكيد تدخل الأمر فتؤكد جوابه، وذكرت الصلة فى الموصول للإشارة إلى السبب وهو الظلم الذى يعم، ولا يخص، وأظهر الظلم ليتبين أنه السبب، وأن السبب فى عموم الفتن أو الذنوب، أو الفساد فى الأمة بعمل الطاغين، وعدم الخصوصية أن ظلم الخاصة تكون نتيجته على الجميع؛ لأنه لا يوجد من ينهاهم، وقد أمروا بأن ينهوهم بل أن يحاجزوا بينهم وبين الظلم كما أشرنا، وكما روينا عن النبى ﷺ، وقد قال ﷺ: «**لا تؤخذ العامة بظلم الخاصة**

(١) سبق تخريجه.

إلا إذا رأوه ولم ينكروه»، فلا يعترض على عموم الفتنة بقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ** ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام] فالعامة لا يؤخذون بوزر غيرهم إنما يؤخذون بتقصيرهم، وإنه إذا كان الفساد من بعضهم، فأثر الفساد يعم، فإذا شاع العبث، ونتأ برأسه غير مبالٍ بشيء فإن الجماعة كلها مسئولة؛ لأنها لم تأخذ على يد من يدعو إلى الشر، ويعلنه جهارا، ورضيت من المتسلطين ما يفعلون أو لم يستنكروا، ولم يقاطعوا أعمال المنكَرين، ومن يدفعونهم أو يشجعونهم، فكانوا وهم على سواء. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وإنه لا يكفى أن يكون الأخيار غير مرتكبين ما يرتكبه الأشرار، بل إنه يجب أن يقوموا بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإن الفتنة الكبرى التى وقعت بعد مقتل الإمام عثمان -رضى الله عنه- وظهور البغى السافر فى عهد إمام الهدى عليّ وقعت آثاره على المؤمنين، ولنترك الكلمة للإمام الزمخشرى فى تفسيره فقد قال ناقلاً: «روى أن الزبير قال: نزلت فينا وقرأناها زمانا، وما نرانا من أهلها، فإذا نحن المعنيون بها». وعن السدى: نزلت فى أهل بدر فاقتتلوا يوم الحلبة، وروى أن الزبير كان يساير النبى ﷺ يوما إذ أقبل عليٌّ -رضى الله عنه- فضحك إليه الزبير، فقال رسول الله ﷺ: «**كيف حبك لعلي**»؟ فقال: يا رسول الله بأبى أنت وأمى إنى أحبه كحبى لولدى أو أشد حبا. فقال: «**فكيف أنت إذا سرت إليه تقاتله**»[(١)] .

ولقد كان ما انتهى بأن ذهبت الشورى فى الإسلام، وصارت مُلكا عضوضا، صالحا أو طالحا، ولكن فقد الحكم قوة الأمة، وأهمل قوله تعالى: ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ** ... ﴿٣٨﴾﴾ [الشورى].

ولم يبق إلا أن نعلم أن الله أنذرنا بعقابه فقال: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ وإنا قد علمناه، ولم نرتدع عن غينا، ونسلك طريق ربنا، علمناه وآمنا به، ورأينا بعضه، وهو عقاب الدنيا، فتفرق جمعنا، وتقطع الأمر بيننا، وتحكّم الأعداء فينا وصرنا نهبا مقسوما، وصار أكثر حكامنا يرتمون فى أحضان من لا

(١) ذكره بهذا اللفظ الرازي في التفسيرج١٥، ص٤٧٣، والزمخشري في الكشاف: ج٢، ص ١٥٢ .

يرجون للإسلام وقارا، ويفسدون تفكير المسلمين، وما يلقانا يوم القيامة أشد هولا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الإسلام قوة للمؤمنين إن آمنوا به

وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ
أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم
مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ
(٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ
عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا
اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ
لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)

إنه لكى تشعر الجماعات والأفراد بنعمة الحاضر يجب أن تعرف الماضى، وأن تكون صورته حاضرة دائما فى حاضرها، وكذلك إذا عرفت ما كان فى ماضيها من خير أدركت ما عساه يكون حاضرها، ومن حكمة الله وسنته دائما أن يجعل الماضى نوراً للحاضر، أو يكون فيه عبرة للمعتبر ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ (١١) ﴾ [الرعد].

يذكر الله سبحانه وتعالى ما كان بالمؤمنين من ضعف ليذكروا ما هم فيه من قوة ونعمة، وليشكروه على ما أعطاهم وعلى ما آتاهم، فيقول: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ﴾.

«الواو» عاطفة على قوله تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ الوقت هنا «إذ» مفعول به، وليست مفعولا فيه، فالذكر ليس ظرفه الوقت، وإنما ذات الوقت هو المذكر، والوقت إذا كان فى الوقت يكون مظروفا فيه لا يعدوه، وأما إذا كان هو المقصود فيكون الذكر لذات الوقت، وما كان فيه من أحداث وأحوال.

والمعنى: اذكروا فى زمن العزة زمن الذلة، وصور الله سبحانه وتعالى الحال فقال: ﴿إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ أى: عدد قليل فإن الإسلام إذ نشأ كان عدد المسلمين قليلا، وكان المشركون يستذلونهم، ويستضعفونهم ويؤذونهم، مرة بالسخرية والاستهزاء، ومرة بالضرب والأذى، ومرة بوضع الحجر المحمى على ظهورهم، حتى كانوا يضطروهم إلى أن ينطقوا بكلمة الكفر، وقلوبهم مطمئنة بالإيمان، ولم يسلم النبى ﷺ من الأذى، حتى إنه ليرمى عليه فرث الجزور وهو يصلى، ومع هذا الاستضعاف فى الأرض غير مستقرين فى أنفسهم وأموالهم فهم فى خوف وفزع واضطراب؛ ولذا وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ والتخطف معناه: سلبهم أو سلت أموالهم سريعا من غير تلبث، والتخطف هو موضع الخوف، ولا يكون معه استقرار أبدا، فلا يأمن التاجر، ولا العامل، ولا الزارع، لا على ماله، ولا على نفسه؛ ولذلك كانت منهم الهجرة إلى الحبشة، وقد بين الله نعمته بالإيواء والتأييد بالنصر، والرزق من الطيبات.

فقال سبحانه: ﴿فَآوَاكُمْ﴾ بالهجرة إلى المدينة حيث الإخوة بالمدينة الذين آووا ونصروا وعوضوكم عن نصرة القرابة والنسب التى عقّها الشرك أُخُوَّة الإيمان، وآثروكم على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة وقال: ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ﴾ فجعل لكم الغلب والقوة، وكان يوم الفرقان، إذ جعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا، وأعزكم بعد ذلك، وصاروا هم - أى الكفار- يخافون الاختطاف

العادل، وسلبهم الله تعالى الأمن والاطمئنان. وقال: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أى الطعام الطيب فى ذاته، والطيب فى طريق الحصول عليه، فوجدتم فى المدينة الزرع والثمار بدل الجدب، وأعطاكم من غنائم المشركين حلالاً طيباً، ثم قال سبحان: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أى رجاء أن تشكروه على ما أنعم.

ونجد أن الخطاب للمؤمنين ليشكروه على ما أنعم من نعم نالوها بإيمانهم، واتجه بعض المفسرين إلى أن الآية تبين نعمة الإسلام على العرب، بعد أن دخل الناس فى الإسلام أفواجا، أفواجا، ولا يقتصر الإيواء والنصر على ما كان بعد الهجرة مباشرة، بل يعم ما شمل العرب من خير عميم، وجاء ذلك فى أقوال بعض التابعين، فقد روى عن قتادة السدوسى فى هذه الآية أنه قال: (كان هذا الحى من العرب أذل الناس ذلا، وأشقاها عيشا، وأجوعها بطونا، وأعراها جلودا، وأبينها ضلالا، من عاش منهم عاش شقيا، ومن مات منهم زوى فى النار. يؤكلون، ولا يأكلون، والله ما نعلم من حاضر أهلٍ يومئذ من كانوا شرا منزلا منهم حتى جاء الإسلام، فمكَّن به فى البلاد، ووسَّع به فى الرزق، وجعلهم ملوكا على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا الله على نعمه، فإن ربكم منعم يحب الشكر، وأهل الشكر فى مزيد من الله).

وإن هذا ليس رأيا مغايرا للتفسير السابق، ولكنه حكم بعموم النعمة على العرب أجمعين، لا للذين هاجروا وجاهدوا، وأيدهم الله تعالى بنصر النبى ﷺ، بل بكل العرب؛ إذ رفعهم من جهل إلى علم بالإيمان، ومن شظف العيش إلى عيش رفيع، حتى لقد قال خليفة رسول الله ﷺ: (والله ليتألمن من النوم على الصوف الأذربى كما يتألم أحدكم من النوم على حسك السعدان)، ولقد حذر الله تعالى من أسباب الفساد عندما يفيض الخير فقال عز من قائل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أمر الله تعالى المؤمنين بأن يذكروا فى الرخاء الشدة، وفى الكُثر يذكرون القل، وفى العز يذكرون الذل، وفى حال الاعتزاز يذكرون الاستضعاف ليعرفوا النعمة، وحقها، وقد ذكر بعد ذلك ما يصون رفعة الأمم والآحاد، فذكر أنه الأمانة؛ ولذا حث عليها بالنهى عن الخيانة.

والتفسير اللغوى لكلمة «خان» هو أن معناها نقص؛ ولذا يقال لنقيضها، «وفّى» فيقال خان الأمانة، بمعنى نقضها، ويقال وفَّاها أى أداها على وجهها، والنهى عن خيانة الله وخيانة رسوله فهى واحدة، لأن ما يطلبه الله يطلبه رسوله، ولكن ألحق جلاله مع النبى أو النبى مع الله؛ لتأكيد المعنى فى أن من أطاع الرسول فقد أطاع الله، ولبيان أن الرسول لا يطلب إلا ما يطلبه الله تعالى؛ ولأن يبين أن نصرة لرسول نصرة لله، ومحبة الرسول محبة لله ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ** ... ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران]، وأن خيانة الرسول خيانة لله تعالى.

وخيانة الله ورسوله، تشمل عدم إطاعة الشرع، ومخالفة نواهيه، وترك الجهاد، وإفشاء أسرار المؤمنين، وإعلان ما أمر الله بكتمانه، والغلول فى الغنيمة قبل قسمتها، والكيد لجماعات المسلمين، واتخاذ بطانة من غيرهم، وموالاة أعداء الحق، وفى الجملة مناوأة أهل الحق سرا وباطنا، فهذه كلها خيانة لله ورسوله، وعدم رعاية الأمانات، ومناصرة الظالم، ومعاونته على الظلم وعدم مراعاة الأمانات، وفى الجملة تشمل خيانة الله ورسوله كل خيانة للشريعة، سواء أكانت تتعلق بالآحاد والجماعات، وقوله: ﴿**وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ عطف على خيانة الله ورسوله، والمراد ﴿**أَمَانَاتِكُمْ**﴾ الأمانات التى عهد إليكم بالقيام عليها، وأدائها فى وقتها ويكون النهى عن خيانتها وارد من ناحيتين:

الناحية الأولى: من جهة أن خيانتها خيانة لله ولرسوله؛ لأن الله تعالى أمر بأداء الأمانات إلى أهلها، فقال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا**

وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴿٥٨﴾ [النساء] ومن أن شريعة الله التى بلغها محمد ﷺ تأمر بأداء أمانات العباد إلى أصحابها.

والناحية الثانية من أمانات العباد: حق العباد، وديوان ظلم العباد لا يُغفر إلا برد مظلمة ظلم الطاغين، وقد أكد الله تعالى النهى وغلَّظه بقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى تجحدون الأمانة وأنتم تعلمون وجوبها، أو تنكرونها، وأن تعلمون أمرها، وأن أداءها واجب عليكم.

ونرى من هذا أن خيانة الله ورسوله والناس أجمعين منهى عنها، وأن عمومها لا يمنع أنها قد تكون اقترنت فى نزولها بحوادث وقعت من بعض الصحابة.

فقد روى أن أبا لُبابة كان بينه وبين بنى قريظة صلات، فلما حكَّم النبى ﷺ سعد بن معاذ فيهم أشار إليهم أبو لبابة بألا يحكِّموه، وأشار إليهم بأن حكمه الذبح، فأحس بأنه خان رسول الله ﷺ فربط نفسه فى سارية المسجد، ونذر ألا يأكل حتى يحله رسول الله، فمكث تسعة أيام خر على أثرها مغشيا عليه فتاب الله تعالى عليه، وحل وثاقه فقال: إنه نذر أن ينخلع من كل ماله، إن تاب الله عليه، فاكتفى رسول الله ﷺ بثلث ماله(١).

وروى أنها نزلت عندما أرسل حاطب بن أبى بلتعة إلى المشركين يخبرهم بسير النبى ﷺ وقد أمرهم النبى ﷺ بالكتمان، فخان المسلمين بهذا الإخبار(٢). وفى الحق إن الآية عامة لهذه الأحوال وغيرها.

وإن خيانة الأمانة سببها الهوى، ومسيِّر الهوى ودافعه فتنة المال والولد؛ ولذا قال تعالى ذاكرا سبب الخيانة ليكون الحذر:

---

(١) رار أحمد: مسند المكيين-حديث أبي لبابة (١٥٣٢٣) وانظر مسند الإمام أحمد: مسند الأنصار- باقي مسند عائشة رضي الله عنها(٢٤٥٧٣).

(٢) انظر البخاري: الجهاد والسير- الجاسوس(٣٠٠٧)، ورواه مسلم: فضائل الصحابة- من فضائل أهل بدر(٢٤٩٤).

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾.

سبحان منزل القرآن، أنزله نظاما وشرعا محكما، وحكمة منزلة، هو أمرنا ألا نخون، وعلمنا كيف نحارب نوازع الخيانة فى نفوسنا، ونعالج منابع الفساد فينا، وهدانا السبيل لأن نربى أنفسنا؛ طلب إلينا ألا نخون، ثم بيَّن موضع الداء وهو فتنة المال والولد.

والأمر فى قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أمر تعليم وعلم، وهذا العلم هو أن المال والولد فتنة، والفتنة هنا المراد بها الاختبار والامتحان من فتن الفلز إذا صهره بالنار لإخراج الفلز مما يعلق من مفاسد.

وإنه بمقدار توقِّينا لفتنة المال يكون بعدنا عن الخيانة، ولقد قالوا: إنه كان لأبى لبابة الذى ذكرنا أنه شعر بأنه خان الله ورسوله إذ أشار لليهود بأن الحكم الذى سيصدره معاذ هو الذبح، كانت له أموال عند اليهود يخاف ضياعها ففتنة المال أغرته بأن يقدم على الخيانة، وأن يطهر نفسه ذلك التطهير الشديد، بأن يحاول الانخلاع من كل ماله، فيخفف النبى ﷺ بأن يجعله فى الثلث.

وفتنة المال أشد فتنة، ويقول الله تعالى : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ... (٤٦) ﴾ [الكهف]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ... (١٤) ﴾ [التغابن].

وقدم المال على الولد؛ لأن المال فى أظهر أحواله متعة خالصة، والولد متعة، وتكليف، وما لا تكليف فيه يكون أوضح وأظهر استمتاعا؛ ولذلك طلب المال الجميع. والأبوة متعة، ولكن معها تكليف ورعاية، والذين تفتنهم الدنيا تغرهم الأمور الظاهرة، وتعوق متعتهم الأمور القابلة، وإنه حيث فقد الشخص إحدى المتعتين المال، أو الولد، اشتدت الأخرى؛ ولذا كانت متعة الولد تشتد عند الفقراء، ولا تكون عند الأغنياء، كقوتها عند الفقراء، وتلك الفطرة.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ فيها قصر الأموال والأولاد على الفتنة، ومن ناحيتها تجد الخيانة مسرب الشيطان إلى النفوس، فالآية تحذرنا من هذه الفتنة، والحذر لا يكون بترك المال والأولاد، إنما الحذر ألا نطلب المال إلا من الحلال، وألا تدفعنا عاطفة الأبوة إلى الشطط ومجاوزة الحد.

وإنه يجب محاربة المتعة حتى لا تشتط بالإنسان بطلب متعة أبقى وأدوم وأهدى سبيلا، ولذا علمنا الله تعالى الإيمان بأن عند الله أجرًا عظيما، إذا قاومنا فتنة المال والولد، والمقاومة ليست بالحرمان كما أشرنا، ولكن بالحذر، وألا نتعدى حدود الله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا ...﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة]، ولذا قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وذلك أجر مقاومة الفتنة، والوقوف بالمحبة للمال والولد، عند الحد الذى لا تكون معه خيانة، ولا تجانف لإثم.

وقد أكد الله تعالى أجر الله الذى يتكافأ مع مقاومة الخيانة بسبب متعة المال والولد أولا: بالتعبير بالجملة الاسمية. وثانيًا : بـ (أنَّ)، وثالثًا: بتنكير أجر، فإن معنى هذا التنكير الكبر إلى درجة، ورابعًا: بوصفه بأنه عظيم وذلك لتحصين نفسه بهذا الأجر الذى لا يقارن قدره.

وإن تقوى الله تعالى هى السبيل لمقاومة الشر، وجعل فارقٍ بيِّن يجعل النفس تلتزم الجادة ولا تحيد عنها؛ ولذا قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

يحصن الله تعالى نفس المؤمن ليكون دائما بعيداً عن الخيانة، وقد حصنها بما أعد من أجر عظيم للمؤمنين الأمناء الذين شروا أنفسهم لله تعالى، وأعدها بتربية التقوى فى النفس، حتى تكون فى حال خوف من عذابه، كما ترجو ثوابه؛ لذلك ناداهم سبحانه وتعالى مبينا خواص التقوى، فذكر أنها تنير الطريق، فلا

تضل العقول، فيقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾.

ثلاثة أمور تترتب على التقوى مجاوبة لنفس المتقى، وهى الفرقان، وتكفير السيئات، والغفران.

أما الأول وهو الفرقان، فهى كلمة جامعة لمعانى الفصل بين النور والهدى، والحق والباطل، والواضح النيِّر وما فيه إشباه وإبهام، والطاعة والعصيان.

وتطلق كلمة الفرقان على كل ما يؤدى إلى هذه المعانى، فتطلق على النصر؛ لأنه يعلى الحق، ويخفض الباطل، ويفرق بين العزة والذلة، وتطلق على البيان؛ لأنه يفرق بين الحق والشبهات، ويشهر الحق ويعلنه، وينشر الاسم والصيت فى الأرض.

وكيف تكون التقوى تعمر النفوس، وتطهر القلوب، وتنير الأبصار، وفى الحكمة الشرقية أن القلب إذا عمره الإخلاص وقذف الله فيه بالحكمة، فاستقام اللسان واستقام العمل، واستقام السلوك ولم ينحرف عن الجادة، وحينئذ لا يشتبه أمر من الأمور، وتكون المشتبهات ضاحيات نيرات إما إلى الهدى، وإما إلى الضلال.

هذا هو الفرقان، وهو أولى ثمرات التقوى، وهو جامع للخير، إذ هو جامع للعلم النافع الهادى.

والثانى: هو إن الله تعالى يكفر عنه السيئات، وتكفير السيئات معناه إزالة آثارها فى النفس، فإن النفس إذا أذنبت نكتت فيها نكت سوداء تتوالى حتى يرباد القلب، وتكفير السيئات إزالة هذه النكت السوداء، أو ما علق منها، حتى يصير القلب أملس كالمرآة، وإن التقوى تفعل ذلك؛ لأنها تجلو صدأ القلوب ويمتلئ القلب بذكر الله تعالى، فيعبده كأنه يراه، ويحس بعظمته تملأ نفسه، وتنير سبيله.

والثالث : فمن بعد تطهير النفس من السيئات بتكفيرها، يكون الغفران وستر الذنوب، وتكون الرحمة الشاملة، ولقد ختم الله تعالى ذلك بقوله تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾ لأن ذلك كله من فضل الله تعالى ﴿ **وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾.

ذكرنا الله تعالى بما كان عليه المؤمنون فى مكة، إذ كانوا عددا قليلاً مستضعفين فى الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس، وقد بين أشد ما دبروه، وهو ما أعقبه الهجرة، ليتذكروا شدتهم فى رخائهم ولذا قالوا: إن تسع آيات مكية جاءت لهذا التذكير ومنها قوله تعالى.

المكر لأبلغ الإيذاء

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ
ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا
قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ
أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا
هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ
وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

فى هذه الآية يذكر الله سبحانه وتعالى ما كانوا يبيتونه للنبى ﷺ قبيل أن يهاجر، وإن النبى ﷺ كان يدبر للهجرة من قبل ذلك، فقد أخذ يعرض نفسه على

القبائل، حتى وجد قبل الهجـرة بما يقارب سنتين الأوس والخزرج، فأخذ يدبر أمر الهجـرة إليهم فى يثرب، ويعـد العدة لذلك ويهـيئ المُتبوَّأ، ويتم الرسـالة، بلاغا وتبيينًا، وقـد هاجر من هاجر قبل ذلك إلى الحبشـة، وهاجر إلى المدينة من يحفظ القرآن ويعلم الإسلام فهل كانت الهجرة فرارًا من الإيذاء وطلبا للأمن؟.

لا شك أن فرار الذين هاجروا إلى الحبشة كان من الأذى والفتنة فى الدين، وينطبق عليهم قولـه تعالى : ﴿ **الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ** ... ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج].

أما هجـرة النبى ﷺ فمـا كانت فرارًا من الأذى بل كـانت نظاما لتـأسيس دولة، ولأنه نظام يجب أن يتحقق، ولأن الإسلام جاء لإقامة دولة تحكم بأمر الله ونهيـه، وتقيم العدل، وترفع الجور، ومـا كانت تتمكن من ذلك، وهى خـاضعة لعبـدة الأوثان، بل كان لابد من الهـجرة حـيث تكون القوة، وحيث يـتمكن من إقامـة الدولة، وقد اختـار الله تعالى من الأرض أرضـا ينتشر مـنها خبـر الدعوة المحمدية فى كل ربوع البلاد العربية، فكانت أرض البيت الحرام، وقد مكث محمد ابن عبـد الله ﷺ ثلاث عشرة سنة يدعـو، دخل خلالها فـى دينه بعض قريش، وبعض القبائل، وعرف العرب دعوته، حـتى إذا تكونت الجماعة التى كانت النواة الأولى، مهَّد لإنشاء الدولة، فسافر إلى المدينة مهاجرًا.

وبينما هو يعد العدة، أو أعدها ومهَّد الأرض وعبَّد المقام -كانوا يفكرون فى الإيذاء، ولذا لا نقـول هاجـر فـرارًا، بل كـان الاتفـاق الزمنى، وهم يفـرغـون جعبتهم، وقد أفرغوها، وراشوها[١]، ولم يجدوا موضوعا لفعلهم.

(١) راش السهم، راش سهمَه يَرِيشه رَيْشاً إذا ركَّب عليه الرِّيشَ، إشارة إلى كماله واستقامته. لسان العرب- ريش. والمعنى أنهم استعدوا لما هموا به من قتل النبي ﷺ.

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

(إذ) ظرف وقائعه فى الماضى، وهو متعلق بمحذوف تقديره اذكر، أى اذكر يا محمد ومن معك الوقت الذى بلغ الأذى أقصاه، وهم يمكرون، ويدبرون ويحكمون، ويتجادلون فى أنجع طريق لسد الطريق على دعوتك، أيحبسونك، أو يقتلونك أو يخرجونك، وقد اجتمعوا، ويقول الله تعالى مشيرا إلى آرائهم ﴿لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ و(يثبتونك) معناها يحبسونك فيمنعونك الحركة أو يقتلوك أو يخرجوك.

ولنضرب بكلمة موجزة، لقد ثبت بإسناد صحيح أن الملأ من قريش اجتمعوا فى دار ندوتهم ليتشاوروا فى أمر النبى ﷺ وقد صار على أمر عظيم عليهم، خالفهم وسفه أحلامهم وعاب آلهتهم فتقاولوا فى أمره ماذا يصنعون أيثبتونه أى يمنعونه من الحركة بالحبس، أم يقتلونه، أم يخرجونه.

قال قائل منهم: احبسوه فى وثاق ثم تربصوا به ريب المنون، حتى يهلك كما هلك من قبله، فلم يرتضوا هذا رأيا، وقال قائلهم: والله ليخرجنه أصحابه فليوشكن أن يثبتوا يأخذونه من أيديكم فيمنعونه منكم. قال قائل منهم: أخرجوه من بين أظهركم، فتستريحوا منه، فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع وأين وقع، وكان أمره فى غيركم.

فقال قائل: ما هذا لكم برأى، ألم تروا حلاوة قوله وطلاقة لسانه وأخذه القلوب بما تسمع من حديثه، والله لئن فعلتم ليجتمعن عليه، ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم.

وقال أبو جهل: والله لأشيرن عليكم برأى ما أراكم أبصرتموه بعد، لا أرى غيره؛ قالوا: وما هو؟ قال تأخذون من كل قبيلة غلاما شابا وسطاً نهداً، ثم يعطى كل غلام منهم سيفا صارما ثم يضربونه ضربة رجل واحد فإذا قتلوه تفرق دمه فى القبائل كلها، فما أظن هذا الحى من بنى هاشم يقوون على حرب قريش كلها، فإنهم إن رأوا ذلك قبلوا العقل واسترحنا.

قبلوا ذلك الرأى واستطابوه وهموا لتنفيذه، واجتمعوا حول داره لينفذوا الخطة، وأتوا بالشباب الأنهاد، ولكن الله تعالى كان يدبر لرسوله ورسالته، ولقد جاء سيف الحق علي كرم الله وجهه ونام مكان النبى ﷺ، وخرج النبى ﷺ وهم مصطفون حول الدار وقبض قبضة من الرماد وقال: «**شاهت الوجوه**»[(١)]، ويروى أنه تلا قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ** ﴿٩﴾﴾ [يس][(٢)].

هذا تدبيرهم ومكرهم، وإنه فى هذا الوقت الذى كانوا يمكرون فيه، كان الله يدبر فيه لرسوله ولرسالته، فكان يدبر أمر هجرته، وابتدأت بهجرة كبراء الصحابة كعمر رضى الله عنه، وأبى عبيدة، وغيرهما من كبار الصحابة، وكان النبى ﷺ يحتجز أبا بكر لصحبته، فكان له فضل الصحبة فى الغار.

وسمى تدبير الله تعالى مكرا من قبيل المشاكلة اللفظية، كقوله تعالى: ﴿**فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ**... ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة] فدفع الاعتداء ليس اعتداء.

والله تعالى ﴿**خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾ أى خير من يدبر، وينظم ويحمى نبيه ورسالته لأن تدبيره سبحانه وتعالى خير، ولا يمكن إلا أن يكون خيراً وهو نافذ ومنتج ومؤد إلى غاية هى خير غاية.

وقد ترتب على تدبير الله أن قامت دولة الإسلام وظهر فى الوجود أفضل مدنية كانت للفضيلة ونشأت بالفضيلة، وقد ذكر الله استهزاء الكافرين بآيات الله تعالى، وكيف يتلقون آيات الله بأهمال وسخرية فقال: ﴿**وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ**﴾.

---

(١) رواه أحمد: مسند بني هاشم- بداية مسند عبد الله بن عباس رضي الله عنهما(٢٧٢٥).
(٢) رواه أحمد: مسند بني هاشم (٣٢٤١).

نزلت هذه الآية فى مكة، وهى تتلى فى سورة أكثرها نزل بالمدينة لتذكرهم بما نزل بهم من المشركين بمكة إذ كانوا يستهينون بأمرهم، ويستضعفونهم، وقد امتد أمر استهانتهم إلى الحجج القارعة، مع عجزهم عن أن يأتوا بمثله القرآن، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا﴾ هذا تصوير لبعض أحوالهم عند سماع تلاوة القرآن، فأحيانا كانوا يتناهون عن الاستماع وقالوا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت] وأحيانا يطلبون آيات، وأحيانا لا يعيرون القرآن التفاتا ويعلنون الاستهانة به.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ عبَّر بالمضارع لتصوير حالهم وتجددها آنا بعد آن والتلاوة: الترتيل بالقراءة آية تلو آية فى نغم هو ترتيل الله تعالى، ولا يجيبون بالتأمل والتفكير والتدبر فيما يتلى، بل يعاجلون القارئ كأنهم يطلبون أن يسكت ولا يقرأ قائلين: سمعنا، كما تقول لمتكلم لا تريد منه الاستمرار: سمعنا، سمعنا، أى أقصر، وكأنهم يتأففون، ثم يردون قائلين، ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا﴾.

أى لو شئنا أن نقول مثل هذا الكلام لقلناه، ولكنا لم نُرِدْه، وهذا كلام يحمل فى نفسه دلالة على عجزهم أن يأتوا بمثله، ولقد تحداهم القرآن أن يأتوا بعشر سور، فما أتوا، تحداهم أن يأتوا بسورة فعجزوا واعتذروا بأنهم لم يأتهم تأويله، فتحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله مفتريات فعجزوا، أفبعد هذا التحدى الشامخ والسكوت الخانع والعجز الخاضع يقول قائلهم: لو شئنا لقلنا مثل هذا؟!! تلك غطرسة كاذبة، ونفخة جوفاء.

ويردفون كذبهم بكذبة أخرى فيقولون: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (إن) هنا نافية، أى ما هذا الكلام إلا أحاديث الأولين التى يسمر بها ويقصدونها قطعا للفراغ، والأساطير جمع أسطورة وهى الأخبار التى يخترعها القصاصون وغيرهم فى سمرهم ولهوهم.

وقد روى أن قائل هذا هو النضر بن الحارث، وكان يتخذ مجلسا بعد النبى ﷺ يقص فيه أخبار ملوك الفرس، وأمرائهم، ونسب القول إلى كلهم؛ لأنهم ارتضوه وقبلوه وصدقوه. وكل ذلك كان بهتانا وكذبا.

ولقد ذكر الله سبحانه وتعالى أنهم قالوا ذلك ورد قولهم، فقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ۝ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ ﴾ [الفرقان].

وإن هؤلاء المشركين لا يريدون الحق ليتبعوه، بل هم فى ضلال، وإنهم يضلون ضلالا بعيداً، وقد حكى الله تعالى حالهم، ودعاءهم الساخر الماجن:

﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

إن هذه الجملة السامية الحالية تنبئ عن أن هؤلاء قد أركست نفوسهم فى الشرك إلى درجة أنهم يتمنون أن يعيشوا فيه، وألا يفكروا فى تغيير ما بأنفسهم.

يقول الله تعالى عنهم يقولون: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ...﴾ هذا أقصى أحوال الجحود والإنكار، حتى إنه ليتوقع شر ما يتمناه المرء إذا كان ذلك صدقا، فيقول: إن كان هذا هو الحق وحده ولا حق سواه، فخيرٌ لنا أن تنزل علينا حجارة من السماء أو تأتنا بعذاب أليم من جنس هذا العذاب، فهو ينكر أولا، ويعده شر الأحوال ثانيا، ويصر عن إنكاره، ولو بدت دلائل الحق ثالثا.

وفى ذلك فوق هذا الجحود الذى لا حد له سخرية وتهكم، وأنه يستحيل فى نظره أن يكون حقا. وهنا إشارتان بيانيتان رائعتان:

الأولى- قولهم: ﴿إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾، فيها قصر الحق على هذا، وهو التوحيد، والإيمان بما جاء به محمد ﷺ، فالإنكار واقع على قصر الحق، وكأنهم يريدون أن يكون ما هم عليه حقا وهو الباطل الذى لا ريب فيه.

الإشارة الثانية- أنهم يقولون فى الجواب المترتب على هذا الشرط، ﴿ **فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ** ﴾ فذكر السماء؛ لأنه المناسب للإمطار، وليكون أشد؛ لأنه يكون حجارة تنصب على الرءوس انصبابا كانصباب الماء، ولأنه كما قال الزمخشرى، يكون سجِّيلا، كالحجارة التى نزلت بأصحاب الفيل، التى حمى الله تعالى بها بيته الحرام من أبرهة الذى أراد هدم البيت.

وإن ذلك النص السامى، كما هو أقصى الجحود والتهكم هو أقصى ما يدل على الحمق والجهل، يروى فى هذا أن معاوية بن أبى سفيان دخل عليه رجل من سبأ، وقال له: إنكم قوم تجهلون وليتم عليكم امرأة، فقال الرجل: أنتم أجهل؛ لأنكم قلتم: ﴿**اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾، ولم تقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا.

والجواب لمثل معاوية حق؛ لأنه هو وأبوه كانا ممن يظن أنهم قالوا ذلك، وإن أسلموا من بعد وكانوا من المؤلفة قلوبهم وأخذوا مئات من النوق.

إنهم يستعجلون العذاب قبل أن ينزل، وقد بين الله تعالى استحالة ذلك على مقتضى السنة التى سنها الله تعالى مع الرسل وأقوالهم، وهى أن الله تعالى لا يعذبهم والرسل بينهم يدعون، ولذا قال عز من قائل: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾.

هذا النص السامى فيه بيان أن الله لا يعذب الأقوام، والرسول يدعوهم حتى يكون اليأس من إيمانهم كما فعل الله تعالى مع قوم نوح، لقد قال تعالى عند إنزال العزم فيهم ﴿ **لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ**... (٣٦)﴾ [هود].

و (اللام) فى قوله تعالى: ﴿ **لِيُعَذِّبَهُمْ**﴾ هى التى يسميها علماء النحو لام الجحود أى تكون لتأكيد النفى، والمعنى: ما كان من شأن الله العلى الأعلى أن

يعذب المشركين، وأنت فيهم تدعو، ويفشو الإيمان فيهم وقتا بعد آخر، وهؤلاء بهذا الدعاء الذى يجحدون به يستعجلون العذاب، والله فوق أهوائهم وله فى خلقه سنة ولن تجد لسنة الله تعالى تبديلا، ولقد كان النبى ﷺ يقول: «**أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله تعالى**»[(١)].

ثم يقول سبحانه: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾، قال بعض العلماء إن العذاب الذى يعم يكون الجميع مستحقونه، فإذا كان فيهم من يستغفر لا يعمهم العذاب، فمعنى ﴿**وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ أى بعضهم يستغفر وعبر بما يدل على الجميع للإشارة إلى أنه ينبغى أن يكون ذلك، وقيل إن المراد قولهم فى الطواف: غفرانك. وقيل المراد توبتهم إن تابوا.

وينقدح فى نفسى أن الأقرب للمعنى أن نقول، ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ بمعنى يدخلون فى دين الله تعالى فوجا بعد فوج، إذن لانقطع السبيل على المستغفرين الذين يجيئون تباعا بإنزال العذاب، بطلب المستعجلين خضوعا لأهوائهم وضلالهم.

وقد نفى الله عن ذاته العلية الشأن، فقال تعالت كلماته: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ**﴾ فنفى اسم الفاعل وهو نفى الوصف القائم بالذات العلية، ﴿**إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴿٢٠﴾﴾ [المزمل].

---

(١) متفق عليه؛ رواه البخاري: بدء الخلق- ذكر الملائكة (٣٢٣١)، ومسلم: الجهاد والسير- ما للقي النبي صلى الله عليه وسلم(١٧٩٥).

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ
عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ
بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ
أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ
عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ
يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ
الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ
فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾

إن الله سبحانه وتعالى رد استعجالهم للعذاب، كما استعجل المشركون إسلافهم العذاب، فأنزله تعالى، أما المشركون الذين بعث فيهم محمد ﷺ، فما بعث لهم وحدهم، بل بعث للأحمر والأسود، والأبيض والأصفر، فما كان لينهى رسالته بكفر أهل مكة وإصرارهم على الشرك ومعاندة الحق، بل لا بد من تبليغ رسالة ربه، وأن يعرفها الكافة فقد أرسل إليهم، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ...** ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ] ولذلك قال: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ على ما ذكرنا ولكنْ هناك عذاب لهم ينزل بهم فى الدنيا، أساسه منازعة الحق للباطل، وإزالة مثارات الشيطان أمام شرع الرحمن، ولابد أن يخلو وجه الناس للحق، فكان لابد من مغالبتهم بالقتال، وهو بعون الله تعالى عذاب لهم، وهذا هو العذاب الذى قرره الله تعالى لهم فى قوله تعالى:

﴿**وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾.

هذا تعجب من عدم تعذيب الله لهم بالمغالبة، ومنازعتهم ما وضعوا أيديهم عليه بالباطل، وأقاموا أصنامهم فيه، وليسوا أهلا لولايته.

والاستفهام للتعجب من مناقضة حالهم لما يجب لحرم الله الآمن، والمعنى أى أمر ثبت لهم حتى يقيموا فى الحرم ولا يعذبهم يمنعهم منه، وهم يحاربون شعائره، وذلك بصدهم عن سبيل الله، وعن المسجد نفسه فهم يمنعون النبى ﷺ من أن يؤدى المناسك، ويمنعون ضعاف المؤمنين بإيذائهم، ويصدون الناس معنويا بوضع الأصنام على الكعبة بناء إبراهيم، وينتهكون المحارم، بحمل الناس على الطواف عرايا رجالا ونساء، حتى إنهن ليسترن سوءاتهن بأكفهن، هذا كله صد عن البيت.

فكيف لا يعذبهم الله بمغالبتهم على الاستيلاء على البيت، والحال أنهم لا يقومون على حرمات البيت، وهو المسجد الحرام الذى جعله الله حرما آمنا، والناس يتخطفون من حوله.

والتعذيب، كما أشرنا هو مغالبتهم لنزع البيت من تحت أيديهم، ووضعه فى يد أولياء الله ولكنهم يدعون أنهم سدنته، أو أنه بأيديهم مفاتيحه، من عهد إبراهيم، وقد أجاب الله تعالى عن ذلك بأنهم ليسوا أولياءه، أى ليسوا حُماته، أو القائمين عليه؛ وذلك لأن ولايتهم إنما هى بالخلافة عن إبراهيم بانيه ورافع قواعده، وما كان مشركا.

وإنهم إذ أشركوا، وصدوا الناس عن المسجد الحرام، ومنعوا غير العرايا، قد فقدوا صفة الخلافة عن إبراهيم الذى جاء بالحنيفية السمحة، قد فقدوا الحق فى هذه الولاية. ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ أى ما استمرت لهم هذه الولاية، لأن «كان» تدل على الاستمرار وفيها نفى لهذا الاستمرار.

والولاية الحق تكون لمن كانوا على ملة إبراهيم السمحة؛ ولذا قال: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ﴾ هذا قصر للولاية على الموحدين المؤمنين الذين بلغوا ذروة

الإيمان، وهى التقوى، ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ أنفسهم وضلالهم فلا يستحق الولاية المؤمن فقط، بل المؤمن الذى يتقى الله ويحفظ حرمات بيته، قال عز من قائل: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة].

وإن هؤلاء المشركين لا يعرفون شيئا مما يليق بهذا البيت العتيق الذى هو أقدس بيت فى هذه الأرض؛ لذا ذكر سبحانه، كيف يتعبدون فى هذا البيت عابثين، غير مؤمنين.

﴿وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

كانوا يصفرون ويصفقون، ويضعون خدودهم على الأرض، وهم على هذه الحال، ويسمون هذه الحال صلاة، فهى فى حقيقتها ليست صلاة إبراهيم، ولا صلاة مطلقا، ولكنهم سموها صلاة، وعدوا أنفسهم بها مصلين، وتجاوزوا كل معقول، وعدوا أنفسهم أولياء البيت الحرام، وهم يصدون الناس عنه، ويتحكمون فيه، وفيمن يغدون إليه إجابة لدعوة إبراهيم من كل فج عميق.

يقول تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾ أى ما كان دعاؤهم عند البيت أو ما كان ما يسمونه صلاة، سولتها لهم نفوسهم عند البيت، أى عند ذلك المكان المقدس الذى كان أول بيت وضعه الله للناس الذى قال الله تعالى فيه ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ... ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران]، إما كانت إلا مكاء وتصدية وذكر كلمة البيت، وأن هذه التى سموها صلاة كانت عنده، ليتبين عبثهم بهذا البيت المقدس، وليتبين عبثهم فى هذا المكان الذى ادعوا أنهم أولياؤه، والمكاء كرُغاء وخُوار وغُثاء ويعنى الصفير، فوزنه فُعَال، وفعله مكَا يَمْكُو إذا صَفَّر، والتصدية مأخوذة من الصدى، والمراد التصفيق؛ لأن التصفيق ترديد للصدى. وقد

روى ذلك عن أبى حاتم، وابن عمر، وقال ابن عباس: كانت قريش تطوف بالبيت عراة، وتصفق، والمكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق.

ويروى أنهم كانوا يفعلون ذلك، ليخلطوا بذلك على النبى ﷺ صلاته.

وإن الزمخشرى يقول: إن الله تعالى سمى فعلهم ذلك صلاة تهكماً عليه، وقد جاء فى الكشاف ما نصه: «فإن قلت ما وجه هذا الكلام قلت هو نحو قوله:

وما كنت أخشى أن يكون عطاؤه أدَاهِمَ سودًا أو محدرجةً سُمْرا

والمعنى أنه وضع القيود والسياط موضع العطاء، ووضعوا المكاء والتصدية موضع الصلاة، وذلك أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء وهم يشبكون أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون، وكانوا يفعلون ذلك إذا قرأ الرسول ﷺ».

وخلاصة القول أن نقول: إن تسمية عملهم صلاة على زعمهم، أو نقول مقالة الزمخشرى: إنه تهكم على فعلهم، فسمى صلاة تهكما، كما يسمى وضع الأيدى فى القيود، وهى الأداهم، والسياط وهى المحدرجة السمر- عطاء، وذلك إهانة للبيت، وتحقيراً له، لا يعقل أن يصدر من أوليائه فليسوا له.

هذه تصرفاتهم فى البيت، وهى صغار شديد لأمره، لا يليق ببيت إبراهيم، بيت الله العتيق، ولذا قال تعالى:

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

وفى هذا الكلام التفات إليهم وتوجيه الخطاب لهم، لأن مخاطبتهم بالعقاب يجعله أوقع فى النفوس وأدعى للرهبة، والفاء فاء الإفصاح؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، إذ يكون الكلام تقديره: إذا كانت هذه صلاتهم وإذا كان هذا فسادهم، فذوقوا العذاب بسبب كفركم.

وهنا إشارات بيانية يجب التنبيه إليها.

الأولى - التعبير بـ (ذوقوا العذاب) فإنه مجاز عن نزوله بهم بحيث يمس إحساسهم، وكأنه يذاق مذاقا مؤلما ولا يخلو ذلك من تهكم بهم، كما يقول الله تعالى: ﴿ **فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴿٣٤﴾ ﴾ [التوبة].

الثانية - قوله تعالى: ﴿ **بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ** ﴿٣٥﴾ ﴾ ، فإنها تدل على استمرار الكفر، وأن هذا الاستمرار هو السبب فى ضلالهم، فإن كنتم وكان فيها دالة على الاستمرار.

الثالثة - أن التعبير بالمضارع يفيد تصوير حال كفرهم المتجدد المستمر، فكل ساعة تمر وهم كافرون تجديد للكفر، وحيث يتجدد الكفر يتجدد سبب العذاب، وقانا الله تعالى منه.

وإن المشركين بذلوا، وسيبذلون كل مال للصد عن سبيل الله؛ ولذا قال سبحانه:

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ** ﴾ .

هذه الآية أقرب إلى الظن أنها مدنية، ولكن نقبل ما يقرره القراء، وهى أنها مكية عند بعضهم، وهى لا تتغير بوصف المكية أو المدنية، فكله كلام الله تعالى لا يتغير بميقات نزوله، ونحسب أن ما فى سورة الأنفال مما نزل بمكة، قد انتهى إلى ما قبل هذه الآية.

كتب الصحاح التى تكلمت فى أسباب النزول تجمع على أن سبب نزول هذه الآية أن قريشا بعد أن عضتهم الحرب فى بدر، وأرادوا أن يثأروا لأنفسهم جمعوا مالا لينفقوه فى حرب أخرى يعدون لها، ولكن قال الضحاك: إنه عنى بالآية المطعمون الذين كانوا يطعمون يوم بدر، وكانوا اثنى عشر رجلا.

والمذكور فى سيرة محمد بن إسحاق أنه لما أصيبت قريش يوم بدر، ورجع فلهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان لعيره، مشى رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر فكلموا أبا سفيان، ومن كانت له فى تلك العيرة تجارة فقالوا: «يا معشر قريش إن محمدا قد وتركم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا أن ندرك منه ثأرا بمن أصيب منا» ففعلوا، وقد ذكر ذلك عن ابن عباس، رضى الله تعالى عنهما.

وأيا كانت الأخبار فى ذلك وإنها لصادقة، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وإن الله تعالى الرحيم الرءوف بعباده، لا يجعل المؤمنين فريسة لأموال المنافقين ينفقونها للصد عن سبيله، فينصروا بأموالهم وينخذل أهل الحق، فصد هؤلاء عن سبيل الله.

إن الله تعالى يؤكد أن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فلا يتحقق لهم قصدهم فيقول: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً** ﴾.

أكد الله سبحانه الإنفاق لهذه الغاية وهى الصد عن سبيل الله، وذلك يجعل كلمة الشرك عالية، ويخضد شوكة المسلمين دعاة الحق، ويمنع الرسول ومن اتبعه من الدعوة، وفى سبيل حرب أهل الإيمان، وقد أكد الله تعالى أنهم سينفقونها بهذه النية الفاسدة، فالسين هنا لتأكيد الوقوع فى المستقبل، وقد كرر النص الكريم الإخبار بالإنفاق، والأول للغرض من الإنفاق، وهو أنه للصد عن سبيل الله فهو بيان للنية الخبيثة، والقصد الفاسد.

والثانى لبيان أنه لا نتيجة لهذا الإنفاق، بل يكون عليهم حسرة، وسيغلبون.

والفاء فى قوله تعالى : ﴿ **فَسَيُنفِقُونَهَا**﴾ لبيان وقوع ما يريدون من غير أن يترتب عليه ما يحبون.

و(ثم) هى للعطف والترتيب، وكان التعبير بـ (ثم) لبيان بُعد ما يقع عما يريدون، فهم أرادوه سرورا لأنفسهم بتحقيق الصد عن سبيل الله، وهزم الحق، وكانت النتيجة ليست سرورا بل حسرة؛ لأنهم لم يحققوا ما أرادوا وكانت الهزيمة، وهى حسرة ثانية، وكان نصر المؤمنين، وأن يكونوا هم المغلوبين.

ولا شك أن هذه الأمور التى ترتبت بعيدة عن الغاية التى أرادوها، فكان التعبير بـ (ثم) لهذه المفارقة بين النتائج التى حققت، والمبعث للإنفاق.

والتعبير بالموصول فى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ إيذان بأنهم يغالبون الله - وهم الكافرون - بأموالهم، والله هو القاهر فوق عباده.

هذه عقوبتهم فى الدنيا، وهى إنفاقهم وإحباط عملهم، وذهاب ذلك حسرات عليهم، وأن يكونوا مغلوبين ما داموا ينازعون أهل الحق ويصدون عن سبيل الله.

أما فى الآخرة فجهنم وبئس المصير؛ ولذا ختم الله تعالى الآية بقوله تعالت كلماته: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ**﴾ أى والذين كفروا بسبب كفرهم يذهبون إلى جهنم يحشرون فيها، وقدم الجار والمجرور للدلالة على الاختصاص، أى أنهم يحشرون إلى جهنم وحدها، والتعبير بيحشرون يومئ إلى كثرة أهل جهنم، وإلى أنهم يكونون فى ضيق محشورون. اللهم قنا عذاب النار.

وإن المؤمنين فى جنة ونعيم مقيم.

وكان الكافرون فى جهنم ليتميزوا بعقابهم، ولذا قال تعالى:

﴿**لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾.

الآية متصلة بالآية التى قبلها، فاللام متعلقة بقوله تعالى: ﴿**يُحْشَرُونَ**﴾ فى آخر الآية السابقة، أى أن الله تعالى يحشر أولئك الكافرين فى جهنم دون غيرها

يمسهم فيها النصب واللغون كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها، كان ذلك الحشر ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ والخبيث هو الكافر، والطيب هو المؤمن، وأظهر فى موضع الإضمار، فلم يقل ليميزهم عن المؤمنين؛ وذلك لبيان أن الكافر خبيث فى عقله وفكره وعمله واعتقاده، ولبيان أن المؤمن طيب فى نفسه واعتقاده وعمله وخير كله، ولبيان أن الخبث لا ينتج إلا الحشر فى جهنم، وأن الطيب لا ينتج إلا خيرا، وهذا النص يفيد بإشارة القول ولمح البيان أن جزاء الطيبين نعيم مقيم.

وإن الخبيث يجتمع بعضهم إلى بعضه، يضم الخبيث إلى الخبيث ويتراكم عليه، حتى يكادوا يكونون عليه لبدا، وقد عبر الله تعالى عن ذلك بقوله تعالت كلماته: ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا﴾ تعبير يتناسب مع تكاثف شيء كله خبيث، أى يجعل الله تعالى الخبيث الحاضر فوق الخبيث الغابر، فوق ما سبقه، فنظمه جميعا بعضه لبعضه، وفى هذا إشارة إلى أن فى جهنم مكانا للجميع، وإن كان مزدحما متراكما، وإشارة إلى تلاحق الحاضرين مع من يقلدونهم، وإشارة إلى تميزهم على الطيبين، أو تميز الطيبين عنهم، وإن هذا كله ينبئ عن الخسارة المطلقة التى لا كسب فيها؛ ولذلك قال تعالى:

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

الإشارة إلى الذين أنفقوا ليصدوا عن سبيل الله، ومن كان إنفاقهم حسرة عليهم، والذين حشروا إلى جهنم، وكانوا قد حملوا الخبث، أى أولئك الذين كان منهم هذا وجوزوا ذلك الجزاء- هم الخاسرون، وفى الكلام قصر بتعريف الطرفين، أى أولئك هم الخاسرون وحدهم خسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

وإن الله دائما يفتح باب الرحمة، ويذكر العذاب.

﴿ قُل لِّلَّذِينَ
كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ
فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ
لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ
ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ
فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

إن الذنوب مهما تكبر، فباب التوبة مفتوح فما أنزل الله الرسل ليحصوا عدد الذين أساءوا، بل للدعوة إلى الحق، وقد يكفرون فالدعوة تستمر لهدايتهم، ومن يستجب منهم تَجُبّ استجابته ما كان منه من قبل؛ ولذلك كان الباب مفتوحا، ولذا أمر الله نبيه- مع كفرهم- أن يقول لهم: ﴿ **قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ** ﴾.

يأمر الله نبيه بأن يقول لهم فى شأن الذين كفروا متحدثا عن مآلهم إن ينتهوا عما هم فيه من كفر ومشاقَّة للمؤمنين ومحاربة للحق -يغفر لهم ما سلف من أعمالهم، ويدخلون فى الإسلام طاهرين مبتدئين حياة جديدة هى طهر وتقى ونقاء. وهناك قراءة بالخطاب، ورويت عن ابن مسعود: «إن تنتهوا يغفر لكم ما قد سلف» ولكن القراءة المشهورة الأولى، ويكون المعنى قل مخاطبا لهم إن تنتهوا يغفر لكم ما قد سلف.

والتعبير بالذين كفروا فى موضعه؛ لأنهم متلبسون بالكفر، ومع تلبسهم بالكفر، إن ينزعوه من إهابهم ويلبسوا لباس الإيمان وينتهوا من أرجاسه يغفر لهم ما قد سلف؛ لأن الإسلام يجُبُّ ما قبله، وعبر عن الإيمان بعد الكفر بـ «الانتهاء» للإشارة إلى أن الفطرة هى الإيمان، وأن الكفر عارض على النفس وهو حال قابلة للانتهاء، وإذا انتهت عاد الطهر والنقاء.

وقال تعالى: ﴿ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ من حرب وإيذاء، ولبس الحق بالباطل، وكل ما كان منهم من جرائم فى جنب الله، فالله غفور رحيم، وما ارتكبوا من زور وربا موضوع، وكل دماء الجاهلية موضوع، فكل هذا داخل فى قوله تعالى ﴿ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾.

وقرر الفقهاء أن الحربى إذا أسلم لم تبق عليه تبعة من حقوق الله تعالى، لأنه إذا غفر الشرك فما دونه أولى بالغفران، إلا ما كان من حقوق العباد كديون عليه، أو أكل مال بالباطل أو نحو ذلك، والذمى إذا أسلم فإن الحدود تقام عليه وحقوق العباد تجب على العباد؛ لأن ذلك يلزمه بمقتضى عقدا الذمة، والإيمان يؤكد الالتزامات ولا يسقطها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ﴾ ظاهر النص إن يعودوا إلى الكفر بعد الإيمان فإن معاملة الكافرين تعود إليهم، فمعنى ﴿فَقَدْ مَضَتْ﴾، أى فقد تقررت سنة الأولين، وهى معاداتهم لله تعالى، منزل بهم ما نزل بالأولين من إخضاعهم للحق بالمحاربة وتنكيس رءوسهم، وإقامة الحق، أو تدمير ديارهم بزلزال مدمر أو حاصب من السماء، وإن سنة الأولين إما سلم مخزية، أو حرب مجلية، كما فى بدر، أو ريح عاصف أو سيل عالٍ.

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

الفتنة فى الدين: إيذاء المؤمن لمنعه من اعتقاد ما يراه الحق، أو من الاستمرار عليه، وحمله على تركه بعد اعتقاده، كما يفعل المشركون فى مكة مع المؤمنين، وكما فعل أصحاب الأخدود الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البروج].

ومن الفتنة فى الدين أن يمنع الداعى إلى الحق من الدعوة إليه، وأن يمنع تعريف الناس بهذا الحق. وكان الناس يفتنون فى دينهم بعد دعوة محمد ﷺ إلى الحق، فكانوا فى مكة يفتنون، وقتل فى الشام من أسلم من العرب، وحيل بين

الدعوة الإسلامية، وأن تصل إلى الناس ، والقتال يستمر إلى أن يزول سببه، وأن يكون الدين كله لله تعالى بأن يطلب الرجل الدين خالصا لا إرهاق ولا ضلال، بل يعتقد ما يعتقدا مخلصا لله طالبا وجه الله والحق لا يبغى سواه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾، وإنه إذا طلب الدين كله لله سبحانه وتعالى، لا يفكر فيه كله إلا من هو لله مخلص مستقيم فإنه لا يمكن أن يكون مشركا، بل لابد أن يكون مؤمنا بالله الواحد الأحد الذى ليس بوالد ولا ولد، فإنه حينئذ يسلم كل أمر فى وجهه لله تعالى بعيدا عن تأثير الملوك والرؤساء، وتضليل المضلين، هذا هو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾، أى يكون التدين كله لله تعالى.

إن نهاية القتال تكون بانتهاء الفتن فى العقيدة، وأن يكون طلب الدين، وقد قال تعالى: ﴿ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ والمعنى إن انتهوا عن الشر والاعتداء والفتنة فى الدين، والإيذاء فى الاعتقاد، فإن الله تعالى: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أى أنه مراقب نفوسهم وعليم بما تخفى صدورهم، وما يجيش بنفوسهم، وفى هذا بيان علم الله الكامل، وتهديد لهم إن عادوا، كما فيه تبشير لهم إن استقاموا على الطريقة، وفى آية يقول الله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [البقرة].

﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

فى الآية السابقة فتح الله تعالى باب التوبة للكافرين ليخلصهم الله تعالى من الشرك الذى أركسوا فيه، وأشار سبحانه إلى أنه أمر عارض على نفوسهم، يستطيعون أن يرحضوه عنها، كما يرحض الوسخ على الثوب الأملس، وبين أن القتال لإزالة الفتنة فى الدين، حتى يكون الدين لله.

وبعد هذا ذكر ولاء الله تعالى للمؤمنين، وأنه وليهم وناصرهم إن أعرض المشركون، فقال تعالى: ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا﴾ أى أعرضوا ونأوا بجانبهم بعد أن فتح لهم باب الغفران، أو أن يقول: إن استمروا على إعراضهم وتنائيهم عن الحق فإنه هو مولاكم، فلا تخافوهم، وإن الله غالبكم عليهم لأنه مولاكم وناصركم، فقال

تعالى: ﴿ أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ ﴾ ليس هو الجواب، إنما هو علة الجواب بل الجواب فأنتم الغالبون، وقوله تعالى: ﴿ أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ ﴾ أى أنه مولاكم أنتم دون غيركم، والولاية للحق، ومعنى مولاكم أى وليكم وناصركم، وأنتم وحدكم حزب الله.

ومن كان الله وليه فلن يهزم، من كان الله ناصره، فلن يغلب ﴿ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المائدة] ولذا قال تعالى ﴿نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ ونعم من الألفاظ التى تقال فى مقام المدح، والمدح بالنسبة لله تعالى الشكر، والثناء على الله بما هو أهله، فنعم هو وليا مواليا، ونعم الله نصيرا غالبا.

قسمة الله فى الغنائم

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ
وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن
كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ
يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ
أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ
أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ
وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ
هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ
لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

هذا تعليم الله تعالى بشأن توزيع الغنائم، فالله سبحانه وتعالى تعهد الحرب من وقت الإعداد لها إلى الإقدام عليها إلى اللقاء فيها حتى الانتهاء، ثم علمنا

توزيع غنائمها ليكون التوزيع حكما شرعيا نخضع له، فلا نختلف ولا نتأثر، وقسمة الله تعالى هى العادلة وغيرها قسمة باطلة، وقسمة ضيزى لا صلاح فيها، ولا خير.

قال تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ... ﴾ «ما» فى قوله تعالى هى اسم موصول بمعنى (الذى) والمصدر المنسبك من أن وما بعدها، مفعول لـ(اعلموا)، أى اعلموا كون الذى غنمتموه: خمسه لله ولرسوله إلى آخر النص الكريم.

والغنيمة ما يؤخذ بغير مقابل، ولكن بجهد، وخصت فى عرف القرآن بما يؤخذ فى الحرب من العدو؛ لأنه يؤخذ بغير مقابل، لأنه أبيح دم العدو وماله، إذ الحرب تبيح دماء العدو وأمواله، ولكنها لا تؤخذ إلا بجهد، وصار ذلك حقيقة عرفية قرآنية.

ولكن أنطلق الغنائم على كل ما يستولى عليه فى الحرب، سواء أكانت أرضا يستولى عليها، أم كانت أموالا منقولة، كالذهب والفضة والثياب والمطبوعات، أم كانت جوارى وأناسى؟.

تجرى الأقلام على ذلك، ولذلك لاقى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مخالفة بادئ ذى بدء عندما منع قسمة الأرضين عن الفاتحين، وخالفه الأكثرون حتى إذا قرأ عليهم قوله تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحشر].

وعندما تلا عليهم أمير المؤمنين عمر هذه الآيات خروا صاغرين ووافقوا على ما قال، **وقد دل هذا على أمرين:**

أولهما- أنهم عدُّوا الفيء من الغنائم، إذ أجروا على الغنائم حكمه، وكذلك قال بعض فقهاء الصحابة والتابعين فعدوا الأنفال والفييء والغنائم مؤداها واحد، وإن اختلفت أسماؤها.

ثانيهما - أن الغنائم لا تكون إلا فى المنقول الذى ينقل من حيز إلى حيز كالعروض والذهب والفضة والأوانى والثياب ونحوها، وقد قال ذلك الرأى بعض الصحابة، جاء فى تفسير القرطبى: «لم يختلف العلماء»، فى أن قوله تعالى: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ**﴾ ليس على عمومه، وأنه يدخله الخصوص فمما خصصوه بإجماع أن قالوا :سلَب المقتول لقاتله إذا نادى به الإمام، وكذلك الرقاب أعنى الأسارى الخيرة فيها إلى الإمام بلا خلاف .... ومما خص به أيضا الأرض، والمعنى ما غنمتم من ذهب وفضة وسائر الأمتعة. وأما الأرض فغير داخلة فى عموم هذه الآية.... ولو كانت الأرض ما بقى لمن جاء بعد الغانمين شيء، والله تعالى يقول: ﴿**وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ** ﴿١٠﴾﴾ [الحشر] بالعطف على قوله: ﴿**لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ** ... ﴿٨﴾﴾ [الحشر] قال: أو إنما يقسم ما ينقل من موضع إلى موضع.

نقلنا هذا الكلام، لبيان أن من علماء الصحابة من قال: إن الغنائم ما يؤخذ وينقل، والأراضى لا تنقل ويستولى عليها، فلا تعد عليها، ولنضع الحجارة فى أفواه الذين يقولون: إن الإمام عمر رضى الله عنه عارض النص بالمصلحة عندما عارض نصا، ولما اعتمد على المصلحة وحدها لم يجد من يوافقه من الصحابة إلا من كان له مثل علمه، وبصره بالنصوص كعلي بن أبى طالب عالم الصحابة رضى الله عنهم أجمعين.

قوله تعالى: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ**﴾ - من - فى قوله تعالى: من شيء، بيانية

لبيان عموم ما يغنم قليلا كان أو كثيرا، أى قدر من الغنيمة يغتنم يُخَمَّس قليلا كان أو كثيرا، وهذا دليل على أن هذا التقسيم من الله تعالى لا يجوز لأحد أن يقسم غنائم الحروب العادلة كما يهوى، بل إنها أموال الله تعالى يتولى تقسيمها ولى الأمر بتقسيم الله تعالى، لا بمجرد الهوى يعطى من يشاء ويمنع من يشاء، كما كان يفعل ملوك الأمويين والعباسيين، حتى جاء الأتراك فطم سيل الفوضى، وضاع حكم الله تعالى، وصار أمر المؤمنين فرطا.

وقوله: ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ أن ومصدرها مفعول لفعل محذوف، تقديره: ثبت والمعنى ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾، فقد ثبت وتقرر وحكم الله أن لله خمسه... وللرسول.

هذا تقسيم جعل الخمس أولا لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، فهو خُمْس مُخَمَّس إلى خمسة أخماس، وأربعة الأخماس الأخرى تقسم على الغانمين، ولم يصرح بتوزيعها؛ لأنها معلومة بحكم الغنم الذى قام به الفاتحون، فهى تقسيم بين محصورين، وهم: الله ورسوله، وفقراء الأمة وضعفاؤها، والفاتحون، فإذا ذكرت حصة أحد الفريقين فقد علمت حصة الفريق الآخر، كما قال الله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ... (١١) ﴾ [النساء] ويعلم بذلك أن الأب حصته الباقى وهو الثلثان.

فإذا علم أن فريق الله ورسوله والضعفاء نصيبه الخمس، فأربعة الأخماس تكون للفاتحين.. ولنتكلم فى **حصة الله ورسوله والضعفاء**.

قالوا: إنها مقسمة إلى خمسة أقسام، فالأول للرسول، وهو لله تعالى، والله ورسوله خمسهما واحد، والثانى لذوى القربى، والثالث من خمس الله ورسوله - للضعفاء ولليتامى، والرابع للمساكين، وهم الفقراء الذين سكَّنتهم الحاجة، ولا قوت عندهم، والخامس لابن السبيل، وهو الذى انقطع عن ماله فى سفره، فإنه يعطى من ذلك الخمس، ما يكفيه حتى يعود إلى أهله.

وهنا ملاحظة بيانية - ترتب عليها حكم فقهى، هى أن نصيب الرسول والضعفاء، ذكر فيه أنه لله، فلماذا ذكر الرسول بجواره؟ والجواب عن ذلك الإشارة إلى أن ما كان للرسول، إنما هو للقربات، ولأن الرسول هو لسان الحق، وهو ينطق باسم الله، ولأن ما خص به الرسول ليس لذاته، ولكن جعل تحت يده ينفق منه على الكعبة، وعلى المؤلفة قلوبهم ويرضخ منه لمن لا سهم له من الفاتحين كالعبيد والنساء فهو ليس له خاصة، بل يسد به ما عساه يكون مكملا للقسمة ومهما يكن فإنه ينفق فى الحاجات العامة للمسلمين.

هذا تخريج بعض العلماء، فخمس الله ورسوله والضعفاء يقسم إلى خمسة.

وبعض العلماء يقول: إن لله فى هذا الخمس، كإصلاح الكعبة والقيام على سدانتها، ويظهر أن مثل ذلك المرافق العامة.

وأما ما يخص الرسول ﷺ فينفق منه على أزواجه، وعلى من يرضخ لهم ونحوهم مما يتعلق بالجهاد بالنسبة.

وقوله تعالى: ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾، قال العلماء: إن المراد بهم ذوو القرابة للنبى ﷺ من بنى هاشم وبنى المطلب، وقال رواة السيرة: إنه لم يعط كل بنى عبد مناف، فلم يعط بنى نوفل، ولا بنى عبد شمس من الأمويين؛ وذلك لأن بنى المطلب كانوا يناصرون النبى ﷺ فى الجاهلية، وكانوا مع بنى هاشم، ولما قاطعت قريش بنى هاشم انضم إليهم فى شعب أبى طالب بنو عبد المطلب فرضوا مختارين أن ينزل بهم ما نزل ببنى هاشم، فى الوقت الذى لم يشرك أبو لهب إخوته فى بلائهم وروى أن عثمان بن عفان، وجبير بن مطعم لما أعطى بنى المطلب ذهبا إلى رسوله ﷺ، وقالا له: هؤلاء إخوتك من بنى هاشم لا ينكر فضلهم لمكانك الذى جعلك الله منهم، أرأيت إخواننا بنى المطلب أعطيتهم وحرمتنا، وإنما نحن وهم

بمنزلة واحدة، فقال رسول الله ﷺ: «إنهم لم يفارقونا فى جاهلية ولا إسلام، وإنما هاشم وبنو المطلب شىء واحد» وشبك بين أصابعه(١).

وإنهم يأخذون بالنصرة والقرابة فهم واسوه فى الشدة، فكان أن يواسوا فى الغنيمة؛ لأنهم نصراؤه، ولم يسلموه إلى المشركين وقت أن رامه أولئك المشركون بالسوء.

ولقد كانوا يأخذون ورسول الله حى، ومن بعده يستحقونه لهذا السبب لأنهم نصراء رسول الله، ولأنهم لا يأخذون الصدقة لأنها أوساخ الناس، ويأخذون سهمهم بالسوية بينهم غنيهم وفقيرهم على سواء، ولا يسقط سهمهم بوفاة النبى ﷺ لأنهم لا يستحقون شيئا بالفقر، فبقى ذلك السهم لهم بالنصرة، والقرابة.

أما سهم النبى ﷺ، فإنه يسقط ويكون فى يد ولى الأمر ينفقه حيث كان ينفقه الرسول ﷺ. والشافعى يبقى سهم ذوى القربى غنيهم وفقيرهم على سواء غير إنهم لاستحقاقهم بمقتضى القربى كان التوزيع على نحو قريب من الميراث، بأن يكون للذكر مثل حظ الأنثيين.

وإن الأسهم الثلاثة الأخيرة تكون لليتامى والمساكين وابن السبيل لكل سهم، ولا يعدو أصحاب سهم على آخر. وقال الإمام مالك رضى الله تعالى عنه: بعد سهم الله ورسوله وذوى القربى يكون الأمر فى الأسهم الثلاثة الأخرى مفوضا لرأى الإمام إن شاء أعطى كل ذى سهم سهما، وإن شاء لم يعط واحدا، ولكنه لايخليها منها.

وعلى الأسهم ستة يقدر لله سهم يكون للكعبة، وقد روى أن الرسول ﷺ كان يأخذ الخمس، فيقبض منه قبضة، فيجعلها للكعبة، وهو سهم الله تعالى، ثم

(١) رواه النسائي: قسم الفيء- باب(٤١٣٧)، وأحمد: أول مسند المدنيين رضي الله عنهم أجمعين- حديث جبير بن مطعم(١٦٢٩٩). وهو عند البخاري: المناقب- مناقب قريش(٣٥٠٣).

يقسم ما بقى على خمسة[1]، وقد جاء فى الكشاف لجار الله الزمخشرى: وقيل إن سهم الله تعالى لبيت المال، وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان على ستة أسهم، لله وللرسول سهمان، وسهم لأقاربه حتى قبض، فأجرى أبو بكر -رضى الله عنه- الخمس على ثلاثة، أى اليتامى والمساكين وابن السبيل. وروى عن عمر ومن بعده من الخلفاء. وروى أن أبا بكر منع بنى هاشم، وقال: إنما لكم أن يعطى فقيركم، ويزوج أيمكم، ويخدم من لا خادم له منكم، أما الغنى منكم بمنزله ابن السبيل لا يعطى غنى من الصدقة، ولا يتيم موسر.

وخلاصة هذا القول أن رأى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ألا يعطى من بنى هاشم ، ويظهر أن مثلهم بنو المطلب ألا يعطى إلا ذوو الحاجة، يزوج الأيم، ويخدم من لا خادم له، ويكون ذلك من سهم ذوى القربى، وأن سهم النبى ﷺ يسقط بقبض الله تعالى له، ويكون تحت يد ولى الأمر.

وعند من يقول: إن لله سهما، يكون تحت يد ولى الأمر من المؤمنين.

وإنه بالاتفاق لا يأخذ اليتامى والمساكين وأبناء السبيل من أسهمهم إلا بسبب الفقر لأن الصيغة نفسها تومئ إلى أن شرط الأخذ هو الحاجة.

بقيت أربعة الأخماس، فنقول: إنها تصرف للغزاة، وقد روى فى طريق توزيعها إنها تقسم أسهما، فيكون للراجل سهم، وللفارس الذى له فرس ثلاثة أسهم؛ سهم للمقاتل، وسهم للفرس، وسهم للقائم على علف الفرس وتدريبه وملاحظته، وهذا روى فى الصحيح، وهو مذهب الحنفية.

وروى أن للفارس سهمين اثنين فقط؛ سهمًا للفرس، وسهمًا لصاحبه، ولكن الأصح سندا الذى يتفق أكثر الرواة عليه هو الأول، تشجيعا للعناية بعدة القتال وتوفيرها إذ يقول الله تعالى: **﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ ... ﴿٦٠﴾﴾** [الأنفال].

---

(١) ذكره الزمخشري في كشافه: ج٢، ١٥٨، والآلوسي: ج١٠، ص٢، وأبو السعود: ج٤، ص٢٢ عن أبي العالية رضي الله عنه.

وإن البرذون[١] من الخيل عند الحنفية، وعند الأوزاعى لا يعد البرذون خيلا، والحق ما قاله الحنفية فإنه لا فرق فى المعنى بين الخيل والبرذون (راجع الرد على سير الأوزاعى لأبى يوسف). **وإنه يجب التنبيه إلى أمرين:**

أولهما- أن ذلك التقسيم للغنائم هو عمل الله تعالى، يروى أن رسول الله ﷺ أخذ وبرة من جنب البعير ثم قال: «لا يحل من غنائمكم مثل هذا إلا الخمس، والخمس مردود عليكم»، ولقد قال ﷺ فيما رواه أبوالدرداء وقد تناول وبرة بين أنملتيه: «إن هذه من غنائمكم، وإنه ليس لى فيها إلا نصيبى معكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم؛ فأدوا الخيط والمخْيط، وأكبر من ذلك وأصغر، ولا تغلوا فإن الغلول نار وعار على أصحابه فى الدنيا والآخرة، وجاهدوا الناس فى الله تبارك وتعالى القريب والبعيد، ولا تبالوا فى الله لومة لائم، وأقيموا حدود الله فى الحضر والسفر، وجاهدوا فى سبيل الله فإن الجهاد باب من أبواب الجنة عظيم ينجى الله تبارك به من الغم والهم»[٢].

ثانيهما- أن هذه الغنائم ليست سلبا ولا نهبا، كما ادعى بعض الكذابين من كتَّاب الفرنجة، إنما هى مغانم النصر، ومغارم الاعتداء، وإنما حرب المسلمين للمعتدين رد لاعتدائهم، وسلوا جيوش أوربا فإنها لا تكتفى بما يؤخذ من أموال المغلوب نتيجة للغلب، بل إنها بعد الصلح تأخذ كل ما تغنم، وتفرض عليه ما أنفقته فى الحرب، وأنى هذا من عدل الإسلام الذى لا يفرض أن ثمة مجرمى حرب، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين.

ويقول سبحانه: ﴿**إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ**﴾ الشرط هنا متعلق بقوله: ﴿**فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ**﴾، أى الخمس يكون لله وللرسول... إن كان الإيمان شعاركم، وكنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، فإن ذلك الإيمان يجعلكم تعطون حق الله وحق الرسول، وحق ذوى القربى واليتامى والمساكين طيبة بذلك نفوسكم مطمئنين

(١) البِرْذون: وجمعه براذين، دابَّة الحمل الثقيل.

(٢) رواه أحمد: باقي مسند الأنصار- حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه(٢٢١٩١).

بذلك، فلا تأخذوا حق الله ولاحق الضعفاء، كما قال رسول الله ﷺ: «**ابغونى فى ضعفائكم، إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم**»(١).

وإن الإيمان بالخمس الذى لله ورسوله وللضعفاء هو من الإيمان بالله، ولقد قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا الخمس، من الغنائم»(٢) ، فجعل رسول الله ﷺ أداء خمس الله ورسوله والضعفاء من الإيمان.

وإن هذا يدل على أكمل التعاون؛ لأن خمس الله ورسوله لسد حاجة بيت المال، ولإعانة الضعفاء.

وقوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ** ﴾ فى هذا النص تذكير بيوم بدر وأن النصر كان من عند الله وبفضل معونته وتأييده، ففى هذا اليوم كان تأييد الله، إذ بشرتهم الملائكة، وألقت فى أرواحهم بالاطمئنان والبشرى وأن وهبهم الأمن ومعه النعاس، وأن ثبت لهم الأرض بالأمطار، وأن طهرهم من الرجس، وأن ثبت أقدامهم، وما كان النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم.

ويوم الفرقان هو اليوم الذى فرّق الله به بين الحق والباطل، فـ «ال» للعهد، وفسره الله تعالى بأنه يوم التقى الجمعان، جمع الحق بقيادة محمد رسول الله ﷺ، وتأييد الله سبحانه وتعالى، وإمداده بالملائكة، (وجمع الباطل)، فقول تعالى: ﴿**يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ**﴾ بدل من يوم الفرقان.

ثم ذيل الله تعالى الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ وفى هذا إشارة إلى الله تعالى القادر على كل شىء هو الذى نصركم، وهو الذى

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري: العلم- تحريض النبي وفد عبد القيس (٨٧)، ومسلم: الإيمان- الأمر بالإيمان بالله ورسوله(١٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قهـر عدوكم مع كثـرة العدد والعُدَد، وهو الذى بدَّل من ذُلِّكم عـزا، ومن عزهم خـذلانا، وهو الذى دمغ البـاطل فـأزهقـه، وهو الذى حق الحق بكلمـاته وأبطل المجرمون.

فإذا كان نصركم بتأييد الله، وتؤمنون به حق إيمانكم فلا تستكثروا حق الله والضعفاء فى الغنائم إن كنتم مؤمنين

﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾.

ذكرت فى الآية السابقة الغنائم التى أخذت فى بدر، وكيف توزع، واختص الله تعالى بالذكر الخمس على الضعفاء، والذى ذكر باسم الله ورسوله.

ولكى تقى النفوس شحـها، أشار سبحانـه إلى أن النصر كان من عند الله، وفى هذه الآية: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا ...﴾ يبين سبحانه وتعـالى أن الموقعة كلها كانت بـتدبير الـله تعالى، ولم تكن بتـدبيرهم، ولا بتـدبير المؤمنين، ولـو تواعد الفريقان لاختلفا فى الميعاد.

وإذ فى قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم﴾ متعلقة بمحذوف معناه: اذكر يا محمد أنت ومن معك إذ أنتم بالعدوة الدنيا، وقد جئتم لمصادرة العير، لم تريدوا نفيرا، ولكن تريدون عـيراً، وقـد أفلتت منكم، وهى أسـفل منكم، أى أسـفل من المدينة عند سيف البحر، فجاءكم جيش هو بالـعدوة الدنيا، وقد قال بعض المفسرين: إن (إذ) بدل من يوم الفرقـان، وذلك جائز، ولكن نخـتار ما ذكـرنا؛ لبعد مـا بين البدل والمبدل منه، ولأن تعلقها بمحـذوف تكون ابتداء لكلام مستقبل فيـه عبرة واضحة، وبيان لأن النصر من عند الله العزيز الحكيم استقـلالا، ولأن ذكر يوم الفرقان لبيان التذكير به والإيمان بما فيه.

و ﴿الْعُدْوَةِ﴾ أعلى الجانب، و﴿ الدُّنْيَا ﴾ مؤنث أدنى، والبعد والقرب بالنسبة للمدينة، و﴿ الْقُصْوَى ﴾ مؤنث أقصى، وهو القاصى عن المدينة ، ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾، الركب هو العير الذى كانت فيه مـتاجر قريش، وخرج المسلمون لأخذها

بدلا من الأموال التى اغتصبها المشركون منهم وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم بغير حق، ومن المقرر فى قانون العدل والإنصاف أن من ظفر بعين ماله أو بمثله ممن اعتدى عليه واغتصبه كان له أن يأخذه، فلا يذهب حق صاحب الحق هدرا، ولأن المشركين إذ أهدروا حقوق المسلمين وأموالهم واستباحوا دماءهم، فقد أباحوا دماء أنفسهم، وأموالهم وما على المؤمنين من سبيل إن استباحوها، فذلك قانون الحرب بسبب العداوة والبغضاء التى آثارها المشركون.

كان المؤمنون بالناحية القريبة من المدينة، وكانت العير أسفل عند سيف البحر، وقد كان ذلك لقاء بغير تدبير كامل مقدر مقصود، بل هو لقاء توفيقى من الله تعالى.

وقد جاء فى سيرة محمد بن إسحاق «بعث رسول الله ﷺ حين دنا من بدر علي بن أبى طالب وسعد بن أبى وقاص والزبير بن العوام فى نفر من أصحابه يَتَحَسَّسُون له الخبر، فأصابوا سقاة لقريش غلاما لبنى سعيد بن العاص، وغلاما لبنى الحجاج، فأتوا بهما رسول الله ﷺ فوجدوه يصلى، فجعلوا يسألونهما: من أنتما، فيقولون: نحن سقاة لقريش، بعثونا نسقيهم من الماء، فكرهوا خبرهما، فضربوهما حتى أزلقوهما، قالا: نحن لأبى سفيان فتركوهما، وقال ﷺ: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما صدقا والله إنهما لقريش: أخبرانى عن قريش، قالا: هم وراء الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى. فقال رسول الله ﷺ: كم القوم؟ قالا: كثيراً، قال: ما عدتهم لهم؟ قالا: لا ندرى، قال: كم ينحرون كل يوم؟ قالا: يوما تسعا ويوما عشرا، فقال رسول الله ﷺ: عدتهم ما بين التسعمائة إلى الألف.

هذا خبر يؤكد نزول جيش المشركين بالعدوة القصوى على كثيب من الأرض، والمؤمنون بالعدوة الدنيا، وهنا نجد سؤال الزبير وسعد وعليّ كان على العير؛ لأن رسول الله ﷺ كان -وهم- خارجا للعير، ولذلك كذبا الغلامين إذ لم يخبراهما عن العير الذى كان بحراسة أبى سفيان، والنبى يسأل عن قريش.

والعير كما ذكرنا كان من أسفل المدينة عند سيف البحر، كما أشار القرآن الكريم.

وإن قصة خروج جيش المؤمنين، وجيش المشركين، والعير، هى كما أشار القرآن الكريم، خرج جيش الإيمان وكان قليلا لمصادرة عير لقريش وقد أفلتت منه، وهى ذاهبة إلى الشام، فترصدها المؤمنون، وهى عائدة، وأحس بذلك أبوسفيان قائدها، فمال بها نحو سيف البحر، وأخبر قريشاً بنجاتها ولكنها كونت جيشا لحمايتها، وأصروا على الذهاب إلى بدر، حيث كان الترصد للعير، ليفرضوا هيبتهم فى البلاد العربية، وإنهم لم يتخاذلوا، ولم يضعفوا، فكان اللقاء بتوفيق الله تعالى أو توقيفه، وإرادته، ليعز الله الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون.

﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾

أى أن ذلك اللقاء الذى انتهى بذلك اللقاء الذى كان فرقانا بين الحق والباطل لم يكن بميعاد على حرب، ولا اتفاق ابتداء على معركة، **﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾**، أى لتخلف بعضكم، فيختلف الميعاد، فالمؤمنون ابتداءً ما أرادوه: لقلة عددهم، ولقلة ما عندهم من عدة ولسطوة قريش فى أرض العرب، فقد يودون غير ذات الشوكة تكون لهم، والمشركون ظهر التردد فيهم، فبنو زهرة تركوا جيش الشرك، وبعض بنى هاشم تركه، ومن جاء منهم إلى الحرب كالعباس ما كان مريدا، بل كان متورطا، وما فى قلوبهم من هيبة النبى ﷺ وما اعتراهم من العلم بأن الله معه، ولو لم يؤمنوا به، وخصوصا ما أفزعهم من خروجه من بين ظهرانيهم، وهم يترصدونه يوم الهجرة، فهم كانوا يتهيّبون لقاءه، وإن كانوا يعاندونه، ويقاومونه.

ولكن الله أوجد هذا اللقاء، وإن ابتدأ غير مقصود من الفريقين المتقاتلين؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً ﴾ أى ليقضى الله تعالى أمرا وحققه، وهو إعزاز الإسلام، وإحقاق الحق وإبطال الباطل، و «كان»، أى قرره الله تعالى وثبته على أن يكون واقعا ثابتا مفعولا ، ويصح أن تفسر (كان) بمعنى صار أى

صار مفعولاً، ولقد قال كعب بن مالك: إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد.

أغراهم الله تعالى بالعير ليخرجوا، وأراد المشركون أن يحموا عيرهم فالتقوا وتحقق ما أراد الله. ثم قال تعالى:

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ (اللام) هنا لام العاقبة، والمعنى لتكون نتيجة ذلك اللقاء أن يهلك الذين هلكوا عن بينة وحجة قائمة، وهو أن الله تعالى ناصر المؤمنين وغالب الكافرين، وأن الله تعالى مؤيد جنده، ويستشرف المستشرفون إلى نصر الله، ﴿ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ أى حجة ونور وهداية أن يكون الحق غالبا، وأن يظهر الله دينه، ولو كره المشركون.

ويصح أن يكون الهلاك والحياة مجازيين، ويراد من الهلاك الكفر، ومن الحياة الإيمان، ويكون المعنى وليكفر من يكفر عن بينة ظاهرة، وهى بيان أن الله ناصر المؤمنين ويحيا المؤمنون بالإيمان عن بينة برجاء النصر.

وللزمخشرى فى هذا كلام قيم ننقله، قال رضى الله تعالى عنه: (فإن قلت: ما فائدة هذا التوقيت وذكر مراكز الفريقين وإن العير كان أسفل منهم؟ قلت: الفائدة فيه الإخبار عن الحال الدالة على قوة شأن العدو وشوكته، وتكامل عدته تمهد أسباب الغلبة له وضعف شأن المسلمين، والثبات فى أمرهم، وأن غلبتهم فى مثل هذه ليست إلا صنعا من الله سبحانه، ودليلا على أن ذلك أمر لم يتيسر إلا بحوله وقوته وباهر قدرته، وذلك أن العدوة القصوى التى كان المشركون فيها كان فيها الماء، وكانت أرضا لا بأس بها، ولا ماء بالعدوة الدنيا وهى خَبَارٌ (أى لينة مسترخية) تسوخ فيها الأرجل ولا يمشى فيها إلا بتعب ومشقة، وكانت العير وراء ظهور العدو مع كثرة عددهم، فكانت الحماية دونها تضاعف حميتهم

وتشحذ فى المقاتلة عنها نياتهم، ولهذا كانت العرب تخرج إلى الحرب بظعنهم وأموالهم ليبعثهم الذود عن الحريم، والغيرة على الحرب على بذل جهيداهم فى القتال وألا يتركوا وراءهم ما يحدثون أنفسهم بالانحياز إليه، فيجمع ذلك قلوبهم، ويضبط هممهم، ويوطن نفوسهم على ألا يبرحوا موطنهم، ولا يخلوا مراكزهم ويبذلوا منتهى نجدتهم، وقصارى شدتهم، وفيه تصوير ما دبّر سبحانه من أمر وقعة بدر ليقضى الله أمرا كان مفعولا من إعزاز دينه، وإعلاء كلمته، حين وعد المسلمين إحدى الطائفتين مبهمة غير مبينة، حتى خرجوا ليأخذوا العير راغبين فى الخروج، وشخص بقريش مرعوبين مما بلغهم من تعرض رسول الله ﷺ لأموالهم حتى نفروا ليمنعوا عيرهم، وسبب الأسباب حتى أناخ هؤلاء بالعدوة الدنيا، وهؤلاء بالعدوة القصوى ووراء العير يحامون عليها حتى قامت الحرب على ساق وكان ما كان) وهذا القول من عيون ما اشتمل عليه الكشاف من دقة معنى، وبلاغة لفظ، وتسامٍ لإدراك سر القرآن، وسر الأحداث.

ولقد ختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أى أن ذلك كله تدبير من الله، وهو من مقتضى علمه الشامل الذى هو علم من يسمع من غير أذن، ومن يبصر من غير عين جارحة؛ لأنه ليس كمثله شىء وهو السميع البصير.

وقد أكد سبحانه علمه بالجملة الاسمية، وبـ «إنّ» المؤكدة، وباللام فى قوله: «لسميع»، وبصيغة فعيل، فسبحان من وسع كل شىء علما.

وإن الله تعالى يبين أنه سبحانه هو الذى جمع بين المؤمنين والمشركين فى هذه المعركة فأغرى المؤمنين بالعير، وحرك قريشا لحماية عيرها، وهو الذى سهل اللقاء على الفريقين فأطمع المشركين فى المؤمنين، وسهل للمؤمنين اللقاء بهم ليحقق ما أراد سبحانه وهو إعزاز الحق، وإذلال الباطل، فقال تعالى:

إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا
وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ
يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ
فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ
تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً
فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾
وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ
وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ
خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾

إن اللقاء كما قررنا، وكما أرشدنا الله تعالى كان بجمع الله بين الفريقين، وتلاقيهما، والنصر أيضا والإقدام كان بإرادة الله تعالى وهدايته.

وإن أول النصر ألا يهاب المؤمن عدو الله وعدوه بل يقدم وهو مدرع بأمرين أولهما - إرادة النصر، والثانى - الصبر، وقد هيأ الله تعالى الأمرين، فقال تعالى:

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾.

أما الصبر فقد أمر به فى آيات كثيرة، وقد أمر بالثبات، كما سيأتى فى الآية الأخرى، وأما إرادة النصر فتكون بالإقدام، وذلك برؤية النبى ﷺ فى المنام الأعداء قليلين، ورؤية النبى ﷺ وحى، وقد قال ﷺ: «الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءا من الوحى»(١).

ومعنى رؤيتهم عددا قليلا، أنه ﷺ رآهم فى حال يستهين بها، فلم يتكاثروا عليهم، ولم يتضافروا على المؤمنين، ورأى المؤمنين ظاهرين بارزين كأنهم كثيرون، وكأن أولئك قليلون من قوة الغلب، ومظاهرتهم عليهم، أو أنه يستتر عنه فى منامه أكثرهم، فيستبشر النبى ﷺ بالنصر، ويفهم النبى ﷺ من تأويل رؤياه أنه سينصر أهل الإيمان، فما يفهم أن العدد قليل، ولكن يفهم أن الرؤيا الصادقة النصر المبين لا محالة، وذلك لا ينافى أن النبى ﷺ قدَّر عددهم بما بين تسعمائة وألف، وقد كانوا كذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً﴾ إذ مفعول لفعل محذوف أى اذكر يامحمد لأصحابك ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً﴾ و «قليلا» مفعول مطلق لموصوف محذوف أى عددا قليلا، ويقوم هنا الوصف مقام الموصوف.

وإن الله تعالى أرى النبى ﷺ العدد قليلا، ليقدم المؤمنون واثقين، فالثقة بالنصر تزيدهم قوة، وتدفعهم إلى الإقدام، ولا يصيبهم رهق ولا خوف، فيتقدمون واثقين بالنجاة.

ويقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ﴾، أى لو أراكهم الله عدداً كثيرا قويا لأصابكم الفزع ووراء الفزع العجز، وهذا معنى الفشل، فالفشل هو العجز، ﴿وَلَتَنَازَعْتُمْ﴾ لاختلفتم فى الخروج، ولكان فيكم من يخشى عاقبة الحرب مع قلة العدد، ومع قلة العدة، ومع قلة ما يحملكم، فلقد كنتم فى قلة من الأمرين، ومع الاختلاف التنازع فى الفكرة ثم التنازع من بعد ذلك فيما بينكم وبين أنفسكم.

---

(١) انظر مسلم: الرؤيا: باب-(٢٢٦٤).

وقوله تعالى ﴿وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ﴾ مؤداه الاختلاف فى أمر القتال؛ أتقدمون عليه مع إحساسكم بالقلة وضعف العدة أم تمتنعون عنه لهذا الإحساس. وعبر عنه بالتنازع لقوة أسباب الخلاف، فإنها فى باب القتال أمر خطير.

وقد درأ الله تلك الأسباب عن أعينكم بما رآه النبى ﷺ من رؤيا صادقة كان تأويلها نصركم، ولقد كان النبى ﷺ، يطمئن المؤمنين بعد أن تقرر القتال، فبعد أن أخذ رأى الأنصار فى القتال وقال قائلهم: «امض لما أمرك الله فإنا صدق فى الحرب صبر عند اللقاء، قال النبى ﷺ: «**إنى لأرى مصارع القوم**»(١).

ويقول سبحانه: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾، الاستدراك من الكلام السابق، وسلم الله تعالى من الفشل والجزع والتنازع، وكان اللقاء يوم الجمعين مع النصر المؤزر، الذى جعل المؤمنين أعزة، بعد أن كانوا مستضعفين يتخطفهم الناس، ثم ختم سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالت كلماته: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ذات الصدور هى ما يكون فى الصدور مما يدفعها إلى الإقدام، أو يثبط فيها العزائم، أو يلقى فيها بالخور والخوف، فالله تعالى عليم بها، وبما يدفع الهمم، ويقوى القلوب، ويمنع الفشل والنزاع، فيطب لأدوائها بما يقيها الهلع والفزع ويطمئن القلوب، ويبعد عنها مخاوفها، إنه عليم حكيم.

هذا ما أودعه قلب القائد الحكيم، وأودعه قلوب المؤمنين بتلك الرؤيا الصادقة التى أراه إياها.

وقد كان الجيشان تحت عنايته سبحانه، ليقدم كل منهم على القتال غير خانع ولا خائف؛ ليبدى كل واحد منهما ما عنده من قوة، وليعلم كل منهما كيف كان نصر الله للمؤمن، وخذلانه للكافر مع أنه أبدى كل ما أوتى من قوة.

فقال سبحانه:

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾.

---

(١) انظر البداية والنهاية: ج٤، ص٦٠، وسنن النسائي الكبرى، ج٥، ص١٨٦، وفي مجمع الزوائد(٨٧٩٩) وراجع رواية مسلم: الجهاد والسير- غزوة بدر(١٧٧٩).

قد كان من أمر الله تعالى وتوفيقه أن يُرى المؤمنين المشركين عددهم قليلا، وأن يقلل عدد المؤمنين فى نظر الكافرين، كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران].

وإن الحكمة فى أنهم فى نظر المؤمنين عدد قليل واضحة؛ لأن الله تعالى ألقى فى قلوب المؤمنين بأسا وقوة جعلتهم يستصغرون عددهم، ويستهينون بقوتهم لكى يقدموا من غير وجل مع الإيمان بالله وبالنصر، وقد رأوهم كذلك قلة، إذ صغر أمرهم فى نظرهم، ولم يجدوا كثرتهم، والعين قد تخطئ فى العدد بالكثرة أو القلة فقد كان المشركون عدداً كبيرا، قد قدر النبى ﷺ عددهم، ولكن المؤمنين عندما التقوا بهم لما ألقاه الله تعالى فى روع المؤمنين من قوة بأس وإقدام رأوهم قليلا، لا للهمة التى بدت من المؤمنين كحمزة، وعلى، والزبير، وابن رواحة، وسعد بن معاذ، فقد كانوا يفرون من سيوف هؤلاء حتى لم يروا فى الميدان إلا عدداً قليلا.

وأرى الله تعالى جيش المؤمنين قليلا فى نظر المشركين عند اللقاء ليستهينوا بهم، ويغتروا بقوتهم فيسترخوا فى القتال، حتى إذا غطتهم قوة المؤمنين، ورأوا فيهم شدة البأس أرادوا المقاومة بعد الاستهانة والاسترخاء فلم يجدوا، وأخذت صفوف المسلمين المتراصة تحصدهم حصدا، وقد كانت رؤية عدد المسلمين قلة من الكافرين حقيقة، ولكنها سيطرت عليهم الاستهانة، فقتلت منهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ فيه متعلق بفعل محذوف تقديره اذكروا إذ... وفى ذلك تذكير بفضل الله فى هذه المعركة، إذ قواكم وسلطهم عليكم، وأذهب عنكم الفزع منهم، وثبت أقدامكم، وهنا إشارتان بيانيتان:

إحداهما- أنهم لم يكونوا قليلا، بل كانوا عددا كثيراً، ولكن الله تعالى جعل أبصارهم ترى ذلك الكثير قليلا، فالله تعالى هو الذى يخلق الأبصار، فهو

يجعله قليلا، ويجعله كثيرا، ولا تغير فى الحقائق إنما التغير فى الإدراك لحكمة علمها اللهّ وقدرها، وكان النصر بسببها وهو ينصر من يشاء بإذنه.

الثانية- قوله تعالى: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ - فقوله «في أعينهم» فيه إشارة إلى أن هذا التقليل فى أعينهم هو من إرادة الله تعالى؛ لأنه استهانة منهم أدت إلى استرخاء فى القتال، فالله سبحانه وتعالى ما جعل المؤمنين قلة، لأنهم فعلا كانوا قلة، ولكن عمل الله جعلهم يجعلون من أمر قتالهم أنهم قلة فقاتلوهم على أنهم عدد قليل فاستهانوا وتهاونوا، وكان النصر المؤزر.

وقال تعالى: ﴿ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً ﴾ أى ليحقق الله بقضائه المحتوم أمرا كان مفعولا أى صار واقعا ثابتا، وهو النصر بفضل الله، وتأييده، فقد حقق الله تعالى كل أسباب النصر فهيأ الأسباب المادية من النعاس الآمن، وأنزل المطر الذى لبد الأرض، وهيأ الأسباب النفسية من بشارة الملائكة، ومن تقليلهم فى أعينهم.

وختم الله تعالى بقوله: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾، أى إلى الله وحده ترجع الأمور يوم القيامة، فهذا هو نصر الله عليهم فى الدنيا بتوفيقه سبحانه، وتهيئة كل الأسباب المؤدية إلى النصر، وفى الآخرة الأمور كلها إليه سبحانه. وتقديم الجار والمجرور دليل على أن الأمور لا ترجع إلا إليه سبحانه وهو يجازى المحسن إحسانا، وللمسئ العاقبة السوءى.

وقد بين سبحانه من بعد ذلك أن الثبات هو القوة، وقد ذكرنا أنه عبرة النفوس فى القتال فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

الفئة الجماعة من الناس، والتعبير بفئة يفيد بأنهم قد فاء بعضهم إلى بعض، وتجمعوا لغرض أن ينالوا منكم، وكأن هذه الآية وما بعدها. تعد المؤمنين للقاء أشد عن لقاء بدر؛ لأن لقاء بدر كان لأجل حماية المال، واللقاء من بعد لأجل

الثأر، ولأجل إلقاء السطوة والسلطان، وهو أعنف من المال، وإذا كان الله تعالى قد استقبل القتال فى بدر بعدم الفرار فقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾** [الأنفال]، فإنه سبحانه يستقبل القتال الجديد، بطلب الثبات، والذكر لله، والطاعة لله ولرسوله، ومنع التنازع، وقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾**.

أمران جليلان عند اللقاء، وهما الثبات، وذكر الله. واللقاء لم يبين فيه من الذى ابتدأ باللقاء، وظاهر القول أن المشركين هم الذين جاءوا إلى ديارهم والتقوا بهم، ولقد قال النبى ﷺ «**لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**»، ثم قام النبى ﷺ، وقال: «**اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم**»(١).

أمر الله تعالى بالثبات بأن يلاقوهم ثابتين فى أماكنهم، فإنهم إن لم يثبتوا ضُربوا فى أقفيتهم، فيتمكن منهم العدو، فيقتلون، ولا ينالون من عدوهم منالا، وإن ثبتوا لا يقتل واحد من المؤمنين إلا إذا قتل عددا من المشركين، وحيث كان الفرار كانت الهزيمة لا محالة، وقد أمر بذكر الله كثيرا فإن النصر ليس بالسلاح ولا التخطيط فقط، بل مع ذلك بأمرين فى القلوب:

أولهما- الثبات، فلا تضطرب الصفوف ولا يصيبها الخلل فترجف الأفئدة ولا تضيع الثقة بين الجند .

وثانيهما- ذكر الله تعالى، فإن ذكر الله يجعل القلوب تطمئن، وإن ذكر الله يملأها إيمانا ويقينا، ورجاء فى النصر. وإن ذكر الله يذهب فزع القلوب، ويساعد على الثبات، وإن ذكر الله يذكر بوعده بالنصر فهو يزيده أملا بالنصر،

(١) متفق عليه؛ رواه البخاري: الجهاد والسير(٢٩٦٦)، ومسلم: ومسلم: الجهاد والسير- كراهة تمني الموت (١٧٤٢). عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه.

وإن ذكر الله إذا جهر به فى الميدان ازداد المؤمنون حماسة، وألقى بالرعب فى قلوب المشركين، وإن ذكر الله يجعلهم لا يشغلهم عن الله شاغل، وتكون أجسامهم وقلوبهم لنصره، و ﴿ كَثِيرًا﴾ مفعول مطلق أى اذكروا الله ذكرا كثيرًا بحيث لا تتوقفوا عن ذكره مهما تشتد الحرب، وتلتحم السيوف وتتلاقى بالحتوف وقال تعالى: ﴿ لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أى راجين بثباتكم وذكر ربكم أن تفوزوا بالنصر، فالرجاء من الناس لا من الله؛ لأن الله تعالى يعلم الغيب فى السماء والأرض، ويعلم ما كان وما يكون.

وإن طاعة القائد والاتحاد أولى دعائم النصر؛ ولذا قال عز من قائل:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ .

إن الله سبحانه وتعالى يأمر بطاعته ورسوله فى هذه الحرب التى أمر الله تعالى فيها بالثبات وذكر الله كثيرا، والأمر بطاعة الرسول فى الحرب أمر بطاعة القائد؛ لأن الرسول ﷺ فى الحروب التى قامت فى عهده كان هو القائد، وطاعة القائد واجبة لأنه المُنَظِّم، وإذا كان ذلك وواقعة أحد التى خولف فيها القائد فكانت القتلة فى المسلمين، وإن لم يكن الانهزام كما تصور بعض الأقلام، فيكون ذلك من الله تنبيها لما يقع، وهو علام الغيوب، وإن طاعة الرسول ﷺ فى الحروب هو بكونه قائدا فيكون أمراً بطاعة القائد، فإن طاعته إذا كان دربة مخلصاً من أسباب الانتصار.

وطاعة الله هى لب الاستقامة، وطهارة القلوب، وهى التى تكون بها قوة الإيمان، وقوة الإيمان دعامة الانتصار، وهى قوة الجهاد، ودعامة الصبر، وتلك عناصر الجهاد الحق فى سبيل الله تعالى.

وذكر تعالى بعد الأمر بطاعته ورسوله- النهى عن التنازع، والنهى عن التنازع يكون أولا بالنهى عن الخلاف، فإن الخلاف يؤدى إلى النزاع، والنزاع يؤدى إلى التنابذ والتدابر، وأن يكون كل فريق جمعاً منفصلاً عن الآخر، ويكون بأسُهم

بينهم شديدًا، وإن الأثر الواضح للتنازع هو الفشل؛ ولذا قال تعالى: ﴿ فَتَفْشَلُوا﴾ الفاء للسببية تدل على أن ما بعدها سبب لما قبلها، أى أنه بسبب ذلك التنازع يكون الفشل، والفشل هو العجز، بحيث كان النزاع كان العجز عن عمل جماعى؛ لأن العمل الجماعى يجب أن تتضافر فيه القوى، ويكون كل جزء من الجماعة متعاوناً مع الجزء الآخر، فتتحد القوى، وتتلاقى نحو هدف معين يجمعها.

وإنه وراء الفشل ذهاب القوة، ويطمع فيهم الطامعون؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أى قوتكم، ويفسر الزمخشرى الريح بالدولة، ويقول رضى الله تعالى عنه: (والريح الدولة شبهت فى نفوذ أمرها وتمشّيه بالريح وهبوبها)، فيقال: هبت رياح بنى فلان إذا دالت له الدولة ونفذ أمره، ومنه قوله:

يا صاحبى ألا لاحىَّ بالوادى إلا عبيد قعود بين أزراد[1]

أتنظران قليلاً ريث عقلهم أم تعدوان فإن الريح للعادى

ولقد قال قتادة لم يكن نصراً إلا بريح يبعثها، وكان ذلك مناسباً فيكون الفشل فيه ذهاب للريح التى تكون القوة، ولقد روى أن النبى ﷺ قال: «**نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدَّبور**»[2].

حذرهم الله تعالى من ثلاثة أمور أولها: مخالفة الله ورسوله بالعمل بغير أمر الله ونهيه، والثانى: من مخالفة الرسول ﷺ القائد، ومخالفة كل قائد رشيد، والأمر الثالث: من التنازع، فإن الاختلاف مضيعة الجيوش، ومهلكة الأمم.

وقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالى: ﴿ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، وفى هذا النص الكريم يدعو الله تعالى إلى الصبر؛ لأنه قوة الجهاد، وقوة الطاعة، ويربى العزيمة، ويمنع الاختلاف، إذ إن الاختلاف ينشأ عن الجزع

---

(١) الزرد: والزَّرْد مثل السَّرْد وهو تداخل حلق الدرع بعضها في بعض لسان العرب- زرد.
(٢) سبق تخريجه.

أو عن الطمع، والصبر علاج الجزع والطمع معًا؛ إذ الجزع ضعف فى الإرادات وخور فى العزيمة، والطمع يتنافى مع ضبط النفس، وضبط النفس لا يكون إلا مع الصابرين، والله تعالى مع الصابرين.

وقد رفع الله تعالى الصابرين إلى أعلى المراتب عند الله، فذكر أنه سبحانه فى آية أخرى أنه يحب الصابرين، والحب أعلى من الرضوان؛ لأنه يتضمن رضا الله وأكثر منه، وهو أن يكون محبوبا عند الله؛ لأن الصبر تحمل المشقة فى طاعة الله، وقد أكد الله محبته للصابرين بالجملة الاسمية وبـ (إنَّ) المؤكدة، وبفعل المضارع الدال على تجدد المحبة كلما صبروا، وإن محبة الله -تعالى- غاية المؤمنين الصادقين.

وإن ذلك الصبر يكون بإخلاص النية لله تعالى، وألا تكون الحرب بطراً ورئاء الناس، بل تكون لله سبحانه وتعالى؛ ولذلك حظر الله تعالى من الحرب بطرا ورئاء الناس فقال تعالت كلماته:

﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

إن الإيمان قوة الجهاد، وإخلاص النية لله تعالى هى خشيته، والمؤمنون كانوا يجاهدون طالبين مرضاة الله ومحبته، وكانوا يصبرون ويصابرون، وقد حثهم الله على طاعته ورسوله، وأن يمتنعوا عن النزاع، وقد جنبهم أن يكونوا كالمشركين الذين يحاربون مفاخرين، قد بطروا معيشتهم، ولا يهمهم إلا المراءاة بالقتال، والصد عن سبيل الله؛ ولذا قال تعالى: **﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾** البطر كفر النعمة والتقوية بها على معاصى الله، والاستعلاء بها على الناس، والرئاء مصدر راءى يرائى، يقصد به الظهور أمام الناس مفاخرا مباهياً، لا يقصد به رفع حق ولا خفض باطل، ولا إغاثة ملهوف، ولا نصرة مظلوم، بل يقصد الغلب لمجرد الغلب، وقد خرجوا من ديارهم لهذا الغرض وهو البطر ورئاء الناس؛ ولذا قالوا: إن بطرا ورئاء الناس مفعولان لأجله، أى العلة الباعثة للخروج من ديارهم هى البطر والمفاخرة والاستعلاء على الناس، وإذا كان لهم غرض آخر يظهر من أعمالهم، فهو الصد عن سبيل الله تعالى باستعلائهم، وإرهاب الناس

وبيان أن لهم القوة فى بلاد العرب، فيرهبهم المؤمن ويخافهم من يريد الإيمان، وبذلك يصدون الناس ويدفعونهم عن سبيل الله تعالى، وهو الصراط المستقيم، وسبيل الحق.

ومعنى النهى عن مشابهتهم بهؤلاء فى قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ أن يخرجوا من المدينة لأجل الحق ونصرته، لا للبطر والاستعلاء والمفاخرة.

ولقد كان المشركون قد خرجوا لذلك، أو انتهى الأمر فى خروجهم فى بدر إلى تمحض لذلك، لقد خرجوا ليحموا عيرهم، ولكن أبا سفيان انفلت بالعير عن طريق بدر، وعبر بها سيف البحر، وقد أرسل إليهم بنجاة العير، وكان حقا عليهم أن يعودوا أدراجهم إذ قد نجت عيرهم، وسلمت أموالهم، فذهب الباعث على خروجهم، وعاد بنو زهرة منهم، وتلكأ الباقون من عقلائهم، وترددوا وأرادوا حقن الدماء، وقالوا: نقاتل أبناء عمومتنا من غير حاجة إلى قتال؟! وغلب رأى السفهاء منهم، ووقف «أبو الحكم» الذى سمى فى التاريخ الإسلامى «أبا جهل» وقال: «والله لا نرجع عن قتال محمد، حتى نرد بدرا فنشرب فيها الخمور، وتعزف علينا القيان، فإن بدرا موسم من مواسم العرب، وسوق من أسواقهم حتى تسمع العرب بمخرجنا، فتهابنا آخر الأبد»، وقد انساقت قريش وراء هذا الناعب، فكانت المعركة ولم يشربوا الخمر، بل ذاقوا كأس المنون، وكان الحِمَام بدل المُدَام، وناحت عليهم النواحى بدل غناء القيان.

ونرى أنهم ما اضطروا إلى الحرب، بل بطر النقمة، والاستعلاء بالقوة والصد عن سبيل الله، وأن يكون الشرك هو الغالب، مع أن الله تعالى هو القاهر.

وقد بين الله قدرته وأنه القاهر فوقهم، فقال تعالى فى ختام الآية الكريمة: ﴿**وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ**﴾ وصدَّر الجملة السامية بلفظ الجلالة لبيان قدرة الله العالية وتربية المهابة فى نفوسهم، وقدَّمْ ﴿**بِمَا يَعْمَلُونَ**﴾ لبيان اختصاصه سبحانه بالعلم بما يعمله وإحاطته، والجملة السامية تهديد لهم، لأن هذا العلم الجزاء الوفاق لعملهم.

أولياء الشيطان

وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ
ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ
ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ
عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ
إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ
ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ
وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾
وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ
وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ
بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾

إن الشيطان ولى الكافرين يخرجهم من النور إلى الظلمات، ومن الحق إلى الباطل؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾.

(الواو) عاطفة هذا الكلام على ما قبله، والضمير فى لهم يعود إلى الذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس، وفى هذا النص بيان أنهم ما دفعوا إلى ما فعلوا يوم بدر حتى كان نصيبهم الردى والهزيمة النكراء - إلا لوسوسة الشيطان، فالذى حرضهم على ذلك الخروج هو ما زين فى نفوسهم من أن لهم الغلب.

و(إذ) ظرف للماضى متعلق بمحذوف، أى: اذكر يا محمد إذ زين لهم الشيطان أعمالهم، وقال لهم لا غالب لكم اليوم من الناس، وقوله تعالى: ﴿زَيَّنَ﴾ أى حَسَّنَ لهم ذلك، بأن وسوس فى نفوسهم حُسْنَهُ وأوهمهم الشيطان بوسوسته فى النفس أنهم أوتوا القوة كلها، وأنه لا غالب لهم اليوم من الناس، وأن لهم بحيرا من أوهامهم فليس هناك شيطان ظهر لهم، وقال ما قال، إنما هى وسوسة الشيطان، وهو يجرى فى الإنسان مجرى الدم، فهو زين لهم بوسوسته، كما زين بها عبادة الأصنام، وكما زين لهم تحريم ما أحل من بحيرة وسائبة ووصيلة وحامٍ، زين لهم بوسوسته أنهم لا غالب لهم من الناس، وزين لهم بأوهامه التى بثها فيهم أنه مجير وجار لهم يجيرهم من أى ضيم ينزل بهم، كما تلاقى الخربان تبدد ذلك كله، ورأوا الأمر عيانا، وأنه لا منجاة لهم، ورأوا أنه أوهمهم ما لم ير، وإن الحقائق بدت لهم واضحة .

الكلام تصويرىّ يحكى قصة إغرائه، وتزيينه لهم أنهم الأقوياء وكأنه يحدثهم، فيدليهم بغرورهم، وبث فيهم القوة الزائفة، ويوهمهم أنه جار ولا جوار، وأنه لما اشتدت الشديدة قال: إنى برئ منكم، وإنى أرى ما لا ترون، وكل هذا تصور لما جاش فى نفوسهم، وإنا نميل إلى هذا.

وقد جاء فى السير وفى بعض الأخبار فى مقابل ما ذكرنا أن إبليس تمثل فى صورة رجل من العرب، روى محمد بن إسحاق عن عروة بن الزبير: لما أجمعت قريش المسير ذكرت الذى بينها وبين بنى بكر من الحرب، فكاد ذلك أن يثنيهم، فتبدى لهم إبليس فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم، وكان من أشراف بنى كنانة فقال: أنا جار لكم أن تأتيكم لنا بشىء تكرهونه فخرجوا سراعا، قال محمد ابن إسحاق : فذكروا لى أنهم كانوا يرونه فى صورة سراقة بن مالك فلا ينكرونه، حتى إذا كان يوم بدر والتقى الجمعان كان الذى رآه حين نكص- الحارث بن هشام أو عمير بن وهب، فقال: أين سراقة ؟! ونظر عدو الله إلى جنود الله من الملائكة

قد أيد الله بهم رسوله والمؤمنين فنكص على عقبيه، قال: إنى برئ منكم إنى أرى ما لا ترون، وصدق الله، والله شديد العقاب.

وقد روى مثل هذا عن السدى والضحاك والحسن البصرى ومحمد بن كعب، وقدر رأى ذلك النظر الحافظ ابن كثير بما ورد من آيات فى شأن تغرير إبليس لأهل الضلال، فتلا قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحشر]. ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم].

ذانكم الرأيان اللذان أخذ فيهما بظاهر الألفاظ، واعتمدا على روايات فى رواتها نظر، والذى أخذ فيه بمعنى الألفاظ وإنا نؤمن بصدق قصص القرآن، ولكنا فى هذه الآية نميل إلى النظر إلى أنها خير تصوير لاستمكان الشيطان من قلوب الكفار، وتحكمه فيها، وسد ينابيع الإدراك فى نفوسهم، ونميل إلى ذلك؛ لأن خبر إبليس وتمثله بصورة سراقة لم يثبت بسند صحيح يفسر به القرآن، ولأننا نفسر القرآن بما يبعده عن الغرائب، وبما هو مأنوس للناس من غير تكذيب لأخباره، والله أعلم، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ﴾ أى الجماعتان المتقاتلتان ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾، نكص معناها رجع على عقبيه، تصوير لارتداده متقهقرا سائرا على العقبين، وهو خائف مضطرب، ويتبرأ من لحق أغراهم، وقد رأى الشدة آخذة بهم، وذلك تصوير لما يكون فى نفوسهم، وسيكون يوم القيامة محسوسا، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ﴾ أى إنى أعلم ما لا تعلمون وقد أضلهم، وقد غرهم الغرور، ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ يعلن أنه يخاف الله والله شديد العقاب.

وبذلك يصور لهم كيف ضلوا بوسوسته، وكيف تعرضوا للعقاب بتزيين ومثله فى هذا التصوير كمثل من يدلى بإنسان فى هاوية حتى إذا تردى فيها أخذ يعيره فى هذا التردى، وما فعله إلا بتزيين وتحسينه فهو المجرم الأصيل.

هذا حال الكفار، وقد كان من الذين يجاورون النبى ﷺ من كانوا إخوان الشياطين كالكافرين، وكانوا أخبث نفسا وأفسد قلوبا، وهم المنافقون ومن فى قلوبهم مرض، وقد قال فيهم:

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ﴾.

عندما انتصر المسلمون فى غزوة بدر وصارت لهم قوة ترهب أعداء الله وجد من ينافق بأن يظهر الإيمان ويبطن الكفر، لقد كان سكان المدينة منهم الذين آمنوا بالله ورسوله وأيدوه، ومنهم اليهود، ومنهم الوثنيون فلما صارت للإسلام شوكة وعزة وقوة - ظهر النفاق، وأولئك كانوا مع المؤمنين فى المظهر، ومع أعداء الله - تعالى- فى حقيقة نفوسهم، وكانوا يبثون الخبال فى المؤمنين، فقال تعالى فى أولئك المنافقين: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أهما وصفان لطائفة واحدة، وهم الذين وصفوا بالنفاق، فلهم وصفان أحدهما النفاق، والثانى أن فى قلوبهم مرضا، وقد وصفهم الله تعالى بذلك، فقال: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ... (١٠)﴾ [البقرة]، والعطف عطف أوصاف، لا عطف موصوفين لقولهم:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة فى المزدحم

أو نقول: إن هناك موصوفين، وهم المنافقون الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، والطائفة الثانية هم الذين فى إيمانهم ضعف، فهم آمنوا على حرف ولما يدخل الإيمان فى قلوبهم.

وقد بدا لى نظر لم أطّلع عليه، ولكن له شواهد، وذلك أن الذين فى قلوبهم مرض اليهود، ذلك أن فى قلوبهم مرض الحسد، وهو أشد أدواء القلوب، وهو فى اليهود دائما، فالمراد بالمنافقين الذين يقولون: إنهم مؤمنون ويبطنون الكفر، والذين فى قلوبهم مرض اليهود.

والوقائع التاريخية تؤيد ذلك أن المنافقين كانوا يقولون غرَّ هؤلاء دينهم، أى أوقعهم فى غرور، فظنوا أنفسهم الأقوياء، وليسوا من القوة فى شىء وقال اليهود

من بنى قينقاع: (لقد غر هؤلاء دينهم، وغرهم انتصارهم، لئن لاقونا فسيجدننا الناس) وكان منهم اعتداء على المسلمين حتى أجلاهم النبى ﷺ، هذا ما سبق إلى خاطرنا، وهو ينطبق على المنافقين واليهود، والشواهد التاريخية تؤيده، والله أعلم.

ولقد قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ التوكل هو التفويض إلى الله تعالى بعد أخذ الأسباب وتهيئة ما يكون سببا للنصر، ثم يتجه إلى الله تعالى معتمداً عليه مفوضا الأمور إليه، فإن الأسباب لا تعمل وحدها بل تعمل بإرادة الله، وهذا فرق ما بين التوكل والتواكل، إذ أن المتواكل لا يتخذ الأسباب.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ليست جواب الشرط وهو قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ بل هى سبب جواب الشرط قام السبب مقام المسبب، والمعنى ومن يتوكل على الله حق توكله، فإن الله ناصره، وهو الغالب، لأن الله معه، وهو عزيز وحكيم ينصر من ينصره وهو على كل شيء قدير.

هذه نتائج النفاق وضعف الإيمان ومرض الحسد فى الدنيا، أما فى الآخرة فعذاب أليم، يبتدئ من وقت قبض أرواحهم؛ ولذا قال تعالى:

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

تصور هذه الآية الكريمة هول عذاب الجحيم، وتبين أنه من وقت أن تتوفاهم الملائكة الذين أمرهم الله بذلك، والتوفى مصدر توفاه، معناه أوفاهم الله أجلهم فى الدنيا، وانتهوا به، و إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

و(لو) فى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ ..﴾ حرف امتناع لامتناع، وهى هنا لتصوير حالهم والعذاب يستقبلهم إذ تتوفاهم الملائكة إذ تتوفاهم الملائكة المأمورة

بذلك آجالهم، وهنا فعل شرط حذف جوابه، لبيان هوله، وأن تذهب فيه النفس كل مذهب من حيث إنه لا يدرك كنهه، ولا تتصور حقيقته فى الدنيا، والمعنى لو عاينت الذين كفروا، وأرواحهم تقبض ثم ما يجيء بعد ذلك رأيت هولا عظيما، لا تدركه عقول أهل الدنيا ولا تحيط به أفهامهم، كقوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾** ﴾ [البقرة].

ويقول الزمخشرى: إن (لو) إذا دخلت على المضارع جعلت معناه ماضيا، فمعنى لو ترى: لو عاينت ورأيت الذين ظلموا إلى آخره، وكان التعبير بالمضارع لتصوير الماضى حاضرا مرئيا مهيئا ليتصور ما يكون ويراه كأنه حاضر، والتعبير بالذين كفروا لبيان أن السبب فى هذه الشدة التى يكونون عليها هو كفرهم، وهو مقابل لطغيانهم وتمردهم وعنادهم للحق فى الدنيا، فإنه بسبب ذلك الطغيان، يكون الإذلال والخسران والهوان.

وقد صور حالهم فقال: ﴿**الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ**﴾ وهذا تصوير لحال ذلهم الذى يقابل اغترارهم واستكبارهم عن الحق، فتضرب الوجوه التى تكون بها المواجهة، وضرب الوجوه لا يكون لمن يعاملون بالصغار والهوان، وهذا عقاب معنوى شديد، وأدبارهم، أى يركلون بالأرجل فى أدبارهم كما تضرب بالأيدى وجوههم، فهم فى مهانة تحيط بهم، أو أن المهانة والذلة تحوط بهم من الأمام والخلف، وذلك تصوير لذلهم بعد الغطرسة، والاستهانة بهم بعد الغرور.

وذلك بلا ريب عقاب معنوى، بالتحقير، فى مقابل تكريم المؤمنين الذين كانوا يقولون: ﴿ **وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ﴿٢٧﴾** ﴾ [هود].

وقد بين بعد ذلك العذاب المعنوى فقال: ﴿**وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ**﴾ وهى معطوفة على قوله تعالى: ﴿ **يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ**﴾ وذلك بتقدير فعل محذوف تقديره، ويقولون لهم ذوقوا عذاب. . ، أو تقول: إن هذا فعل أمر فى معنى

الخبر، ويكون ويذوقون عـذاب الحريق، وعبر سبحانه وتـعالى عن إصابة العذاب لهـم بقوله : ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ للإشـــارة إلـى أن العــذاب لا يكون إلا بالإحساس به، فهم فى إحساس دائم به، يذوقونه ويحسون به، وكلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب.

والحريق هو النار المحترقة التى لا يطيقها إحساس محس إلا أن يكون عذابا.

وإن التعبير بقوله: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ لا يخلو من تهكم بهم؛ لأنهم فسقـوا وذاقوا من الهوى ما ذاقـوا، فكأنه يقال لهم: كما ذقتـم المتع والشهوات، فذوقوا الحريق، وكأنه يبشرهم.

وقد قال بعض المفسرين: إن ذكر ضـرب الوجوه، وضم الأدبار إليهم تذكير لهم بشهوتهم التى كانوا منغمسين فيها وأنهم يضربون فيها، كما وقعوا فى المفاسد بها والله تعالى أعلم.

وقد بين سبحانه وتعالى عذابه مربوطا بسببه فقال:

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

الإشارة إلى مـا سينزله اللـه بالذين كفـروا، من العذاب الشديـد والعذاب الأليم، والباء للسببية والمعنى العذاب الشـديد بسبب ما قدموا من إيذاء للمؤمنين، ومعانة لرب العالمين، وجحود بالآيات وتكذيب لكتـاب الله ورسله، وعبر سبحانه وتعالى عن ذنوبهم التى تضـافرت وتكاثرت بقوله: ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ مع أن الذنوب تكون بالألسنة وقـول الباطل كما تكـون بالأيدى؛ لأن الأيدى بها البطش الظاهر، وبها أوذى المؤمنون، وبها نكل بالضعفاء، وحملها للأسلحة فى الحروب، وإن التعبير عن الكل باسم الجزء مجاز مرسل مشهور، إذا كان للجزء مكانة خاصة فى الحكم، كـقولهم عن الجـاسـوس: العين؛ لأن العـين لهـا مظهر خـاص فى التجسس.

والمراد بما قدموا من أعمال وما قالوا به من أقوال، وإن هذا الجزاء عدل لاظلم فيه، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت]، وقال سبحانه فى هذه الآية ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ والواو هنا للعطف، أى أن ذلك العذاب كان بسبب ما قدموه، وبسبب أن الله تعالى ليس بظلام للعبيد، أى أنهم ينالون جزاء ما اقترفوا والعادل يعطى كل إنسان ما يستحق، ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا الْمُسِيءُ... ﴿٥٨﴾﴾ [غافر]، فذلك يتحقق عدل الله الكامل، وينتفى عنه الظلم سبحانه إنه علىٰ قدير.

ولو كان الله تعالى سوى بين المجرمين والمحسنين، لكان ثمة شائبة ظلم، والله منزه عن ذلك، ومعاذ الله أن ينسب إليه، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، فيه تقرير العذاب، وتثبيته، وفيه تبريره.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ نفى للظلم الكثير المتكرر، فهل معنى ذلك بمفهوم المخالفة أن الظلم القليل، ليس بمنفى عنه سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا؟.

والجواب عن ذلك أن النص الكريم ينفى أصل الظلم عن رب العالمين، وإنما النفى بصيغة المبالغة للإشارة إلى أن المساواة بين المحسن والمسىء ظلم كبير ولا يفعله إلا ظلام للعبيد، وقيل: إن الظلم بصيغة المبالغة لكثرة المستحقين للعقاب، فلو لم يعاقبهم لكان ظلاما، والله تعالى ليس بظلام.

ومن هذا النص الكريم يفهم أن العدل يوجب أمرين أولهما ألا يعاقب المحسن، فإن عقابه ظلم، وثانيهما أن يعاقب المسيىء ولا تأخذ الناس به رأفة، لأنه لم يرحم الناس، ويقول ﷺ «**من لا يرحم لا يُرحم**»(١).

وقد أخذ سبحانه يقص بعض القصص عن الظالمين وعقابهم.

---

(١) سبق تخريجه.

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ
فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢)
ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا
مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَدَأْبِ آلِ
فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم
بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤)﴾

بين الله تعالى فى الآيات السابقة أن الله تعالى يعاقب المشركين عقابين؛ عقابا فى الدنيا وهو أن ينتصف للمؤمنين، وأن ينصرهم، وأن يجعل الكافرين الأذلين، وكلمة الله هى العليا، وكلمة الكفر هى السفلى، ويبدل المؤمنين من خوفهم أمنا.

العقاب الثانى هو عقاب الآخرة، وإن عقاب الدنيا قد يكون بأسباب يوفق إليها، وقد يكون من الله تعالى يكون بمعجزة أو بأمر خارق للعادة كإغراق فرعون، والنصرة بالريح، وكلاهما من أمر الله تعالى، ومن توفيقه، وقد ذكر الله طواغيت مكة بطاغوت فرعون، وقد أدال الله تعالى منه، فقال تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

الكاف للتشبيه والمشبه ما فعله بالمشركين، وما ارتكبوه بالنسبة للمؤمنين، والمعنى أن الله تعالى لتشابه أفعال مع أعمال فرعون وآله أنزل بهم ما أنزله بفرعون، لقد طغوا وبغوا فى البلاد وأكثروا فيها الفساد، فأخذهم بذنوبهم أى أنزل بهم عاقبة ما فعلوا، فأصابهم بالرجس وأرسل عليهم الضفادع والدم آيات مفصلات.

وقوله ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ الدأب مصدر دأب دُءوبا، أى فعلوا مثل ما فعل آل فرعـون دائبين مستـمرين عليه من تذبيح أبنائـهم، واستحيـاء نسائهم، وإيذاء موسى وقومه، ومن قطع أيدى السحرة وأرجلهم من خلاف، إذ آمنوا بربهم، ومن طغيانه وملئه فـى البلاد، وادعائه الألوهية وطغيانه على أهل مـصر، وقوله لهم ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد.

تشابهت أفعال المشركين مع أفعال فرعون وملئه الذين دأبوا عليها، واستمروا قائمين بها، فكان حقا عليهم أن ينتظروا لهم مـثل ما آل إليه أمر فرعون، وقد بين سبحانه وتعـالى أنه أخذهم بذنوبهم فقال: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ الباء للسببية وأخذهم معناها أخـذهم أخذ معذب مكافئ بما فـعلوا، فالأخذ يتضـمن عقابهم على ما فعلوا، وهو القوى القادر، كما قال تعالى فى آية أخرى: ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [القمر] وقـوله تعالى بذنوبهم، أى أخذهم بالعـقاب بسبب ذنوبهم التى ارتكبـوها فى حق الناس من تألـه، ومن تعذيب، وإفسـاد للعقـول بالضـلال، والنفوس بالإرهاق والأذى، ويصـح أن تكون الباء للإلصـاق، ويكون المعنى أخذهم مصاحبين لذنوبهم فيذكرون جرائمهم، إذ ينزل بهم العذاب.

وقـد ذيل الله تعـالى النص الـكريم بقـوله تعـالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

وهذا فى مقـام التعليل لقـدرته تعالى على الأخذ الشـديد لفرعون وأشـباه فرعون، وإن طغـوا وبغوا، وقد وصف الله جل جلاله بوصـفين يدلان على شدة الأخذ والعـذاب؛ الأول وصف ذاتى معنوى، وهو القـوة، فهو ذو القـوة المتين، والوصف الثانى ، وهو أن عقابه شديد مـتناسب مع الذنوب، ومثل فرعون وملئه ذنوبهم كبيرة شديدة قوية، فلابد أن العقاب من جنسها، وهو جزاء وفاق لها.

وأكد الله تعالى هذين الوصفين بعدة مؤكدات فأكده بتصويره الجملة بوصف الجلالة، وهو يلقى بالرهبـة والهيبـة، وبكون الجملة إسميـة، وبـ «إنّ» التى تؤكد القول. . وقانا الله تعالى شر عذابه ومنحنا رحمته، إنه هو الغفور الرحيم.

وإن ما ينزل بالطغاة من أخذ لهم إنما هو من نفوسهم التى غيروها، وشوهوا فطرتها بمظالمهم، لذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد]، وقال الله تعالى فى معنى هذه الآية:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

الإشارة إلى ما فعله الله سبحانه وتعالى بالمشركين من أهل مكة، إذ عجَّل لهم عذاب بتنكيل المسلمين بهم، وغيَّرهم من سطوةٍ فى أرض العرب وجاه وسلطان إلى أن يغلبوا على أمرهم، ويذلوا بعد عزة، وإلى ما فعله سبحانه بآل فرعون ومن قبلهم من قوم نوح وعاد وثمود، وآل مدين، فإن هؤلاء غيروا نفوسهم، وطمسوا فطرهم ، فغير الله تعالى نعمته، فانتزع منهم ما كانوا فى زرع فاكهين فيه.

والمعنى كان هذا الذى أنزله بالكافرين بآيات الله تعالى قد وضع نظما حكيمة فى هذا الوجود الإنسانى، ﴿بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، أى أن نظام الله تعالى فى الإنسان أنه أنعم عليه نعما لها واجب وكما أنها له حق وعليها واجب، وأن الفطرة الإنسانية تدرك حق كل نعمة، وتفسد هذه الفطرة بالاتجاه إلى الشر، وذلك تغيير وطمس لنور الفطرة، والمعنى أن الله تعالى لا يغير نعمة أنعمها على قوم، إلا إذا غيروا ما بأنفسهم، و«ما» هنا موصولة بمعنى الذى، والذى بأنفسهم هو نور الفطرة، وإخلاصها، وما أخذه الله تعالى على ظهور بنى آدم ذربتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا: بلى، فهذا العهد المودع فى الفطرة وهو التوحيد هو الذى يغيرونه بأنفسهم، فكفار قريش كانت لهم القوة لأنهم كانوا يدينون بديانة إبراهيم، ولكنهم غيروا ما بأنفسهم فشوهوا الفطرة، وأشركوا بالله أحجارا لا تضر ولا تنفع، وزاد تغييرهم لما فى أنفسهم بأن جاءهم رسول من ربهم يدعوهم إلى التوحيد فعاندوا، وكفروا بآيات الله تعالى، فأزالهم من سطوتهم، إلى حيث يغلبون على أمرهم.

وكذلك آل فرعون ومن قبلهم آتاهم نعمة المال والسلطان فغيروا ما بأنفسهم من موجبات الفطرة وكفروا بالله وعبدوا غير الله، فغير الله النعمة، وأزال أموالهم، وأغرقهم فى اليم، وكانوا عبرة المعتبرين، وهذه سنة الله فى الأكوان وفى الناس.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ جملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً. . . .﴾ ولذلك كانت «أن» هى المفتوحة وليست المكسورة، والمعنى ذلك التغيير بسبب «أن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم، وأن الله سميع عليم» أى بسبب ما سنه الله، وبسبب بأن الله تعالى سميع يسمع همسات القلوب، وخواطر النفوس وما يختلج فى الأفئدة، فهو يعلم النفوس إذا تغيرت، عليم بكل ما يجرى فى الوجود، وما تتحرك به الجوارح، وما يعلمون من أمور مغيبة على الناس فإنها لا تغيب عن الله.

وإن هذا النص يدل على أمرين جليلين:

أولهما - أن النفوس الإنسانية هى التى تتعلق بها الأحكام، ويجرى الله تعالى أمره على ما فى هذه النفوس من خير أو شر.

ثانيهما ـ أن النصر والتأييد من الله تعالى بالقوة إنما هو باستقامة النفوس، فإن استقام ما فيها استقام الأمر وكان النصر والتأييد، وبعد أن بين سبحانه وتعالى أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا الذى بأنفسهم، ذكر الطغاة، وما يقضى به عليهم فقال تعالت كلماته:

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾.

التشبيه منعقد بين المشركين وآل فرعون والذين من قبلهم، كما هو فى الآية السابقة، بيد أنه فى التشبيه صرح سبحانه بما لم يصرح به فى الآية السابقة، ففي هذا التشبيه صرح سبحانه بأن أخذهم كان بالإهلاك الذى لا بقاء معه، وفى هذا التشبيه صرح بإغراق آل فرعون، ولم يصرح بذلك فى التشبيه السابق، وفى هذا

التشبيه بأنه كان مع الكفر والتكذيب لآيات الله كان الظلم للناس فلم يكتفوا بكفرهم، وتكذيبهم لآيات الله، بل ظلموا أحكامهم، ولم يتخذوا العدل صراطا مستقيما وظلموا مخالفيهم، وظلموا رسلهم مع رعيتهم، والقول الجملى أن التشبيه الأول كان تقريبا ما بين الظالمين من مناهج ومسالك، والثانى فيه معنى تعيين وجه الشبه.

قال تعالى فى أوصاف المشركين وآل فرعون ومن قبلهم ﴿ **كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ** ﴾ أى أنهم جاءتهم المعجزات الباهرة القاطعة، فجاء فرعون تسع آيات مفصلات، فكذبها أى كذب ما تدل عليه من وحدانية الله تعالى فى الخلق والتكوين والذات والألوهية، والمشركون كذبوا ما تدل عليه المعجزة الكبرى وهى القرآن فوق ما تدل عليه الخوارق الأخرى من وجوب الإيمان بالرسالة.

وهذا التكذيب سبب الكفر، فإذا كان قد ذكر فى التشبيه الأول - بأن السبب فى العذاب هو الكفر، فقد صرح فى هذا بأن سبب الكفر هو إصرارهم على التكذيب كأنه لا رقيب عليهم ولا حسيب.

وعبر سبحانه فى التكذيب بأنهم كذبوا بآيات ربهم، ونسبة الآيات المكذبة إلى ربهم تفيد فائدتين:

إحداهما- بيان فظاعة التكذيب؛ لأنهم كذبوا بآيات ربهم الذى خلقهم وكونهم وربهم وهو العليم بما يناسبهم من أدلة.

والثانية- أن هذه الآيات من المتفضل عليهم بنعمة الوجود والتنمية، وإعطائهم القوة التى طغوا بها.

ويقول سبحانه: ﴿ **فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ** ﴾ (الفاء) عاطفة لربط ما بعدها على ما قبلها، أى أنه بسبب تكذيبهم أهلكهم الله تعالى بسبب هذه عقابا من الله تعالى، ولأن الذنوب المتضافرة يترتب عليها الهلاك لا محالة.

وفى الكلام التفات من الغيب إلى الحاضر، والإسناد إلى الله تعالى، بإسناد الإهلاك إليه سبحانه وتعالى؛ لبيان تأكد الوقوع لأنه من الله تعالى القاهر فوق عباده العزيز الحكيم، ولتربية المهابة فى النفس، وللتذكير بالرهبة من الله تعالى.

وقد خص آل فرعون بذكر هلاكهم فقال: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ اختص آل فرعون بذكر هلاكهم؛ لأن فرعون كان أشهر ملوك عصرهم، وأشدهم طغيانا عن رعيته، وأرهبهم، وأظلمهم، فذكره للعرب وقد أهلكه الله تعالى بالغرق أرهب لنفوسهم، وأشد على غرورهم، وأردع لطغيانهم، وفوق ذلك أغرقه الله تعالى بأمر خارق للعادة لم يكن فى حسبانهم، إذ انفلق البحر فكان كل فرق كالطود العظيم ثم انطبق عليهم بما لم يعهدوا، ولم يحسبوا، فهو يذكر المشركين بأن الله تعالى يأتيهم من حيث لم يحتسبوا، وأنه سيهزمهم من حيث لا يشعرون، بل يحسبون فى أنفسهم أنهم الغالبون، ويوسوس لهم الشيطان بأنهم لا غالب لهم وقد وصف الله تعالى العصاة جميعا بأنهم ظالمون، فقال تعالى: ﴿وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أى كل الذين كفروا برسل الله، وآيات ربهم كانوا ظالمين.

فـ (كلٌّ) مضاف إلى محذوف يعم حكم الله تعالى عليه بأنه ظالم، وأكد ذلك الحكم بـ (كان) الدالة على استمرار الظلم، وبالجملة الإسمية، وقد ظلموا أنبياءهم بتكذيبهم مع أن الحق واضح أبلج، وظلموا أنفسهم لأنهم ارتضوا الضلالة بدل الهداية، وظلموا المؤمنين لأنهم آذوهم، وسخروا منهم، وظلموهم لأنهم حاربوهم، وهم فاجرون فى حربهم، وظلموهم لأنهم أشاعوا عنهم السوء، وهكذا أحاط الظلم بهم، والظلم ظلمات يوم القيامة والله منتقم جبار.

لا عهد للمشركين

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾
ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ
وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم
مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن
قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾

فى هذه الآيات البينات يبين ما عليه الذين كفروا من إصرارهم على الكفر، ونقضهم للعهد، وما ينبغى لهم من معاملة، وأنه إذا وجدهم فى الحرب للمسلمين فيه غلب أن يضربهم ضربة قاسمة ليشرد الذين من ورائهم من قومهم أو يصيبهم الرعب، فلا يجتمعون عليه رهبا وخوفا، وإنه يجب توقع الخيانة منهم ومن كان يخاف خيانته، ينبذ عهده، ويتقى أذاه، وقد ابتدأ سبحانه بوصف الكفر، كيف يتدلى الكافر من مرتبة الإنسانية إلى مرتبة الدواب الحقيرة التى هى أدنى الحيوان إلى أن قال تعالى:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾.

«الدواب» جمع دابة، وهى كل ما يدب على وجه الأرض من حشرات إلى قردة وخنازير، إلى كلاب وحمير وخيل، إلى الإنسان، والتعبير عن الذين كفروا بالدواب حط من إنسانيتهم؛ لأنهم أغفلوا مداركهم وصاروا كأقل الحيوان ذكرا، ومكانا.

وليسوا فقط أحط الأحياء، بل هم أحط من أحطها، فهم شر الدواب، وهم فى الدرك الأسفل من الحيوانية، وأحط ما فى هذا الدرك.

يقول تعالى مؤكدا القول: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فحكم الله تعالى بأنهم أشد الحيوانات شرا، من الحشرات التى تدب إلى الإنسان الذى خلقه الله تعالى فسواه فى أحسن تقويم، وشرهم الشديد؛ لأنهم أوتوا عقولا فشوهوا إدراكها، وأوتوا فطرة سليمة، فرضوا أن يعبدوا حجارة هى أحط من أحط الحشرات وجودا؛ لأن الحشرة فيها حياة وأوثانهم لا حياة فيها، وهم شر الأحياء لأن كل شىء حى فيه نفع، وإن كنا لا نحصيه، وهم شر لأنهم ظالمون ولا نفع فيهم، وهم شر لأنهم يعاندون الخير ويعاندون الحق ويؤيدون الشر، وإذا كان مقياس الخير والشر هو النفع فى الخير، والفساد فى الشر- فالذين كفروا بمقتضى هذا القياس سلب منهم كل خير، واتسموا بكل شر، فكانوا شر الأحياء.

ثم قال تعالى: ﴿فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ «الفاء» تفيد السببية والمعنى هم سبب كفرهم لا يؤمنون والنفى نفى متجدد للإيمان، أى أنه قد تلبس بهم الكفر فلا يؤمنون قط، وعبر بالمضارع لتجدد كفرهم آنا بعد آن، وتلك حالهم، ونفى الله عنهم الإيمان بإطلاق، فلم ينف الإيمان بالله والرسول فقط، بل نفى الإيمان بإطلاق فهم لا يؤمنون بحق إلا فى ظل أهوائهم وشهواتهم، ولا يؤمنون بفضيلة، ولا يؤمنون بحق الإنسان على أخيه بل يؤمنون بالجبت والطاغوت، لا يؤمنون إلا بالشيطان، فعقولهم كلها للشر، ونفوسهم سكنها الشيطان يعاضدون الظلم، ويؤيدون الباطل، فكانوا بهذا شر الدواب عند الله، أى فى حكم الله تعالى خالق الحياة والأحياء.

وأوضح سبحانه إيذاءهم للناس بأنهم لا يرتبطون بعهد مع الناس قط، فهم لا يشعرون بحق لغيرهم ولو بعقد التزموه أو عهد أبرموه فهم جائرون بائرون فى تفكيرهم وإنسانيتهم؛ ولذا قال تعالى:

﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ﴾.

﴿الَّذِينَ﴾ فى هذه الآية بدلا من ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فى الآية السابقة، فهذا وصف من أوصافهم، وحال من أحوالهم، وأوضح ما كان ذلك فى اليهود الذين جاءوا النبى ﷺ فى المدينة فهم الذين عاهدوا النبى ﷺ ونقضوا عهده؛ ولذلك يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ وإذا كانت واضحة فى اليهود، ولم يكن للمشركين إلا عهد الحديبية، وقد نقضوه، فيصح أن يكونوا عاهدوا النبى ﷺ ونقضوه، ولكن لم يتكرر نقضهم؛ ولذا نقول: إن البدل فى الذين عاهدتهم ليس بدل كل من كل، بل بدل بعض من كل.

واليهود عاهدوا النبى ﷺ وتكرر النقض فقد عاهدهم النبى ﷺ أول إقامته عهد تعاون على البر والتقوى، ونقضه بنو قينقاع عقب وقعة بدر الكبرى، ثم أبرموه مرة ثانية بنو النضير حتى اضطر النبى ﷺ إلى إجلائهم، حتى يقيم فى المدينة (والجنة تجاوره)، ثم كانت الممالأة للمشركين، ومكانتهم للمشركين، والنبى

فى الشديدة فى غـزوة الأحزاب، وقـد تألّبت عليه الجزيرة العـربية كلهـا وتحزبت عليه، وقـد جاءوا ليقتلعـوا الإسلام من المدينة فرد الله الذين كفـروا بغيظهم ولم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال.

ثم قال تعالى: ﴿ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ﴾ أى هؤلاء الذين ينقضـون العهد، فى كل مرة يعاهدون الرسول ﷺ «لا يتقون» وقـد أطلق عدم الاتقاء فلم يذكر أنهم يتقون الله، أو يتقون أذى الناس، أو يتقون نقض فهو سبحانه أطلق عدم الاتقاء، أى من صفاتهم التقـوى وتقدير الأمور، وتقدير معنى الوفاء بالعـهد، فإنه لا يصح نقض العهـد لأى سبب؛ لأنه يفقـد الثقة، وفقـد الثقة يؤدى إلى ضـعفهم، ولقـد قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النحل].

ولا شىء يضـعف الجـمـاعات أكـثـر من النكث فى العـهـود؛ لأن الناس لايثقون، ويكونون جمـيعا إلبا لبعض، وتعد فاسـدة الأخلاق، ولا تكون لها قوة أبدا.

وقـد رأيـنا ذلك فى الدول فى الماضـى، ونراه الآن؛ ولذا يقـول تعـالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء].

وإذا كان الكافرون لا يثقون فى عهد عهدوه، ولا ينفعون بل يضرون، فلابد لحملهم على الحق من القوة الغالبة، والقهر الذى يرهبهم؛ ولذا قال تعالى:

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

«الفاء» عاطفـة، وهى فاء السببـية، أى أن ما قبلها سـبب لما بعدها، أى أن هؤلاء الكفار لا يفعلون خيرا، وليس منهم إلا الأذى المنكر، ولا يُمنع شرهم بعهد يقدمونه، فإنه يجب قمعهم بالشر إذا وجدوا فى حرب حتى لا يجتمعوا على شر؛ لأن اجتماعهم إيذاء فلابد من إرهابهم.

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ (إن) مدغمة فى (ما)، و (ما) زائدة لتوكيد القول، ولذا جاء فى الفعل نون التوكيد وجوبا. أو قريبا من الوجوب، والتأكيد للفعل، أى إن تأكدت من وجودهم، فلا تجعلهم يفلتون من يدك، واضربهم الضربة القاسمة التى تفزع من خلفهم فيشردون، بدل أن يكونوا مجتمعين للشر، فضرب من يقع فى اليد من الأشرار ضربات قاسمة يجعل من خلفهم ممن هم على شاكلتهم مشردين غير مجتمعين، ومعنى ﴿ تَثْقَفَنَّهُمْ ﴾ تجدهم فى ثِقاف، أى حال ضعف تقدر فيها عليهم، وذلك من قوله ثقفته أى وجدته.

وقوله تعالى: ﴿فِي الْحَرْبِ ﴾، أى انساقوا إليك محاربين، وقدرت عليهم فاغلظ عليهم واضربهم الضربات القاسمة التى تجعلهم نكالا لغيرهم، فلا يستمرئون الشر بعد ذلك، وقال تعالى: ﴿ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ أى شرد بضربهم والتنكيل بهم مَن خلفهم، فإذا رأوا الهوان ينزل بمن هم على شاكلتهم جزاء غيهم، فإنهم لا يجتمعون لحرب أهل الحق بعد ذلك؛ إذ إن ضرب الذين جاءوا للحرب وأخذهم بالسوق والأقدام يجعلهم لا يجتمعون على قتال لأهل الحق، فلا يهاجمون المؤمنين من بعد ذلك؛ ولذا قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أى رجاء أن يعتبروا بغيرهم، ويذكروا مآلهم الذى يستقبلهم بما يرون فيمن تقدَّموهم، إن فى ذلك لذكرى لمن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾.

«إما» هنا كما فى قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ هى «إنْ» الشرطية مؤكدة بلفظ «ما»؛ ولذا أكدت بالنون الثقيلة، ويكون تأكيدا للشرط، فهو تأكيد للخوف، والمعنى إن خفتم خوفا مؤكدا توافرت أسبابه، حتى يكون توقع الخيانة أمرا ثابتا قامت أماراته وبدرت بوادره، ﴿ فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾ أى اطرح عهدهم وانبذه نبذا ظاهرا معلوما تكون وهم على سواء، لا يربطكم، ولتأكد الخوف قال بعض المفسرين: إن معنى الخوف هنا العلم.

وقد فسرنا كما ترى معنى ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾، أى لتكونوا معهم على سواء أى متساوين تُحُللون من العهد ويتحللون ويكون الاستعداد من الجانبين، وقيل: إن معنى ﴿ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أى يكون النبذ معلوما مشهورا.

وإن النبذ يقتضى أن يكون ثمة عهد قد خانوه، أو هموُّا بأن يخونوه، وتأكد لديكم هذا، وتلك هى الأمانة التى أودعها الله تعالى أوامره للمؤمنين، بأن يكون أشرافا فى الوفاء بعهودهم، فإذا توقعوا الخيانة متأكدين لها، فإنهم لا يَسْبقون بالخيانة، بل يَنّبُذون ويُعلمونهم بأن لا عهد.

وإن الخيانة لها صورتان:

الصورة الأولى- صورة الذين يتوقعون الخيانة ومتأكدين من وقوعها قبل أن تقع، وفى هذه الحال يعلنون ترك العهد واعتباره كأن لم يكن ليستعدوا.

الصورة الثانية- أن يغدر المتعاهدون بالفعل، كما غدر المشركون فى صلح الحديبية، فقد كان العهد يجيز لمن يدخل فى جانب محمد أن يدخل فلا يعتدى عليه، فدخلت خزاعة فى عهده، فاعتدت عليها قريش، وقد رأينا ذلك فى الدول فى الماضى، ونراه الآن، ولذا يقول تعالى: ﴿**وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً** (٣٤)﴾ [الإسراء] فكان الاعتداء بل الخيانة بالفعل.

وقد زال العهد بذلك، فكان متحللا؛ ولذا غزا الغزوة الكبرى بفتح مكة من غير نبذ، إذ هم قد نبذوه من قبل لا بالقول بل بالفعل.

وقد كان الصحابة قبل أن ينقضوا هذا العهد بالفعل، يحذرون النبى ﷺ من نقضهم ويخافونه، فكان النبى الوفى الأمين يقول: «وفوا لهم واستعينوا الله عليهم».

وإن ذكر الخوف من الخيانة يقتضى أن هناك عهدا عاهده ﷺ أو من جاء بعده، ويخاف من نقضه فإنه لا خيانة إلا فى عهد مبرم.

ونقول: إن الخيانة قد تكون بحرب يعدُّونها، وينقضون بها السلم الذى كان بحكم العلاقات الأدبية أو السلمية، ويريدون أن يخونوا المسلمين ويأخذوهم، فإنه

إذا تأكد المسلمون نبـذوا هذا السلم الذى كان أصل هذه العلاقة وكـانوا معهم على سواء.

ولا يقال: إن النبذ بُنى على الخوف من الخـيانة، والخوف ظن، ولا يبنى أمر قطعى على أمـر ظنى- لأننا قلنا: إنه خـوف مؤكد بدت بـوادر الخيانة، وظـهرت أماراتها، والقائد المدرك لا ينتظر حتى تقع الخيانة، بل يسـارع بنبذ العهد، ويستعد لهم، ويحلهم من العهد، كما أحل نفسه، حتى لا يؤتى من غرة.

فعن عمرو بن عبسـة أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من كان بينه وبين قـوم عهد فـلا يشد عـقدة، ولا يحلهـا حتى يمضى أمـدها أو ينبذ إليـهم على سواء**»(١).

وقد قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ**﴾ هذا النص السامى فيه تعليل للنبذ على سواء، أى أن النبذ على سواء إعلام بإنهاء العقد، ليكون معلوما مشهورا، ولا يقع المؤمنون فى خيانة؛ لأن الله تعالى لا يحب الخائنين، فالنص يمنع عن الخيانة، بالنبذ على سـواء، وإلا لو هجموا سواء على دمـائهم قبل النبذ فقـد خانوا، والله تعالى لا يحب الخـيانة وقد أكد نفى مـحبة الله تعالى للخـيانة بالجملة الاسـمية، وبـ«إنّ»، ونفى المحبة أبلغ فى الـنهى؛ لأن محبة الله مطلوبة فإذا كـانت الخيانة لا تؤدى إليها فهى منهى عنها نهيا شديدا مؤكدا.

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

(١) رواه الترمذي وصـححه: السير- مـا جاء في الغدر(١٥٨٠)، وأحمد: مـسند الشاميين(١٦٥٦٧) وأول مسند الكوفيين(١٨٩٤٣)، وأبو داود في الجهاد- الإمام يكون بينه وبين العدو عهد(٢٧٥٩).

هاتان آيتان في بيان قوة الإيمان وأهله، وأنه لا يعجزه شيء مادام مؤمنا بالله ومستعينا به سبحانه، ومادام يستعد ويأخذ في أسباب القوة، ولقد كان المشركون يتوهمون الغلب لمجرد أن يسبقوا في أمر أو يفوزوا فيه أو يفلتوا من مصادرة عيرهم، فبين الله تعالى أنهم إن نجوا مرة لا يعجزوا الله تعالى ورسوله والمؤمنين، ولذا قال تعالى: ﴿ **وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ** ﴾.

«الواو» للاستئناف، و«لا» ناهية، والنهي عن الحسبان والظن هو نهي عما ينبغي؛ لأن الحسبان لا يقع عليه النهي إنما المراد- فيما يظهر والله أعلم- لا ينبغي لهم أن يحسبوا أنهم سبقوا أي فازوا، إذا سبقوا إلى عيرهم وأخذوها وأفلتوا بها فإنهم لا يعجزون، ولم يذكر في الآية ما سبقوا فيه أو ما فازوا به، بل أطلق نفي ظنهم أنهم سبقوا أي نوع من السبق، أو فازوا بأي نوع من الفوز، فالمعنى أنهم لا يظنون أنهم يسبقون بأي سبق، فحياتهم فارغة أبدا، لأنهم ليست لها غاية، لأن أي سبق لهم فهو لغو، وأن نهايتهم واحدة إن استمروا على كفرهم، وإن الله تعالى غالب، والنصر للمؤمنين وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ** ﴾ قرئت بكسر (إنَّ)، وتكون الجملة مستأنفة في معنى تعليل نهيهم عن حسبان أنهم سبقوا على المعنى الذي ذكرناه، لأنه ما دامت النهاية للمؤمنين وأنهم لا يعجزون، فالهزيمة لاحقة بهم مهما سبقوا، ومهما يفوزوا في حركات ليست هي النهاية، والله من ورائهم محيط حتى يوم القيامة.

وهناك قراءة بفتح أن[1]، أي أنهم لا يعجزون، وتكون هنا لام التعليل محذوفة، ومفهومة من مطوى الاسم: ولا تحسبن الذين كفروا سبقوا أنهم لا يعجزون، وكثيرا ما تحذف لام التعليل؛ لأنها مفهومة من سرد القول، والمعنى الجملي للنص السامي أنهم مهما يسبقوا ويفوزوا فإن الغلب عليهم، ولا تحسبنهم معجزين من المؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿ **لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ...** ﴿٥٧﴾ ﴾ [النور]، وقوله تعالى: ﴿ **لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ** ﴿١٩٦﴾ **مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ...** ﴿١٩٧﴾ ﴾ [آل عمران].

---

(١) قراءة (أنهم لا يعجزون) بها قرأ ابن عامر، وقرأ الباقون بكسر الهمزة. غاية الاختصار(٩٣٨).

إنهم لن يعجزوا الله، ومهما ينالوا من سبق فلن يعجزوا الله عن أخذهم من نواصيهم بالهزيمة فى الدنيا، والعذاب فى الآخرة.

ولكن هزيمة الدنيا لا بد لها من أسباب يقوم بها العباد بتوفيق الله تعالى، والتوكل عليه سبحانه بعد الاستعداد بالعدة، وأخذ الأهبة والعزيمة والصبر؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾.

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ هذا أمر تكليفى وهو فرض كفاية على الأمة الإسلامية يجب على الأمة كلها أن تتعاون فى إعداد هذه القوة، بالدربة، والتعليم والرمى، وكل ما يربى الجند القوى.

فلا بد من التربية على الجندية، وإعداد عدة القتال، وذلك بالمستطاع بل بأقصى ما يستطاع، ومن هنا بيانية فى قوله **﴿مِّن قُوَّةٍ﴾** وهى تدل على عموم القوى، فأعدوا كل ما يمكن أن يكون قوة فى الحرب من دربة على الرمى بالسهام، ولقد كان النبى ﷺ يقول: **«ألا إن القوة الرمى»**[1] ، كما روى عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ، وقد كان الراوى نفسه وهو عقبة راميا حتى لقد مات وعنده سبعون قوس رمى، ومن القوة الحصون، ومن القوة المنجنيق، وهكذا كل ما يكون سببا للقوة، ومنها من الماضى النار الإغريقية، ولم تكن معروفة عند العرب، وإن وجدت فى الحروب الإسلامية.

فكل قوة مستطاعة يجب على الأمة أن تتضافر على إيجادها، وإلا أثمت كلها، ولم ينج من الإثم فقيرها وغنيها ولا قويها أو ضعيفها، فالقادر بقدرته، والضعيف بلسانه.

وقوله تعالى: **﴿وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾** معطوفة على **﴿مِّن قُوَّةٍ﴾**، ورباط الخيل جماعة الخيل خمسة فأكثر، وقيل رباط جمع ربيط، وقيل رباطا مصدر -رابط،

---

(١) رواه مسلم: الإمارة - فضل الرمي(١٩١٧). كما رواه الترمذي، وأبو داود، وابن ماجه، والدارمي.

وأطلق على الخيل؛ لأن المرابطة تكون بها، ومهما يكن فالمراد من رباط: الخيل المجتمعة، وخصت الخيل بالذكر؛ لأنها كانت قوة الحرب، فى العرب، وربط الخير بنواصيها، فكانت رمز القوة، ولقد قال النبى ﷺ: **«الخيل ثلاثة لرجل أجر ولرجل ستر، ولرجل وزر، فأما الذى له أجر فرجل ربطها فى سبيل الله، ورجل ربطها تغنيا وتعففا ولم ينس حق الله فى رقابها، ولا فى ظهورها فهى له ستر، ورجل ربطها فخرا ورياء فهى له وزر»**(١) .

وقوله تعالى: ﴿ **تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾ ترهبون أى تخيفون، وتفزعون، وتربون فى نفوس أعدائكم المهابة، وتلقون فى قلوبهم الرهبة وسمى الكفار عدو الله؛ لأنهم كفروا به وكذبوا آياته، وسماهم «عدوكم» لأنهم يريدون بكم الأذى، ويناصبونكم العداوة لإيمانكم وكفرهم.

وقال تعالى: ﴿**وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ**﴾ وقوله: ﴿ **مِن دُونِهِمْ** ﴾ أى من غيرهم، أى من غير الذين يجاهرون الآن بعداوتكم من المشركين واليهود وغيرهم ممن يلاقونكم من الرومان الذين يعاصرونكم، ويشير بهذا إلى الذين يجيئون بعد ذلك الذين لا يعلمهم المسلمون فى عصر النبى ﷺ، ومن والاه والله تعالى يعلمهم؛ لأنه علام الغيوب، وإن الله تعالى يشير بذلك إلى الأخلاف الذين يجيئون بعد ذلك، فإنه بمجرد أن انتشر الإسلام فى الأرض ودخل الناس فى الدين أفواجا، صار المسلمون فى مذأبة من الأرض، فأوربا أرادت أن تنقض على الإسلام من الشرق والغرب. . . . والتتار أخذوا ينقصون على المسلمين الأرض من أطرافها.

وكان لابد من قوة تقهر وترهب هؤلاء، وتلقى مهابة المسلمين فى قلوبهم، ولكن مع ذلك لم يستجيبوا لنداء الله، ولم يعدوا ما استطاعوا من قوة، وإن ذلك الاستعداد كان يوجب أولا - أن يكون لهم مصانع تصنع لهم الأسلحة لا أن

---

(١) سبق تخريجه.

يستعينوا بأسلحة من غيرهم، إن شاء أعطى وإن شاء منع، وفى عطائه ومنعه يعمل لمصلحة نفسه، ولا يريد بالإسلام خيرا.

ويوجب ثانيا: أن ينافسوا الناس فى اختراع الأسلحة ليدفعوا أذاهم، وإلا كانوا - وهم هم المرهوبون - يُرهَبُون ولا يُرهِبون، يَخافون، ولا يُخيفون، وتتبدد قواهم ضياعا.

ويوجب ثالثا: تعاونهم جميعا فى ذلك، حتى لا يؤكلوا فى الأرض.

وقد كان عكس ذلك، فتقطعت وحدتهم، وضرب الناس بهم فى افتراقهم فتوزعتهم الأرض، وأكلتهم ذئابها، وصيروا الخير لغيرهم دونهم، وصاروا لأعداء الله وأعدائهم ما يصنعون به السلاح ليستعمل لإرهابهم، وإرهاب كل من يعاونهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله..

هذا وإن إعداد عدة الحرب، والحرب ذاتها تحتاج إلى المال، ولذا قال تعالى:

﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾.

إن الحرب تحتاج إلى نفقات، وإعداد العدة يحتاج إلى نفقات، وفى أيامنا تحتاج العدة إلى الإنفاق من الدولة والجماعات، ولقد كان من أصحاب رسول الله ﷺ من يخرج من ماله كله للجهاد فى سبيل الله، كأبى بكر، ومنهم من كان يخرج من نصف ماله كعمر، ومنهم من كان يجهز جيشا بأسره كذى النورين عثمان بن عفان، وأنى لنا بأمثال هؤلاء من أمراء المسلمين وملوكهم، وعندهم المال الوفير من أكناز الأرض.

ومن لا ينفق ألقى بنفسه وبقومه فى التهلكة، ولقد قال تعالى فى الإنفاق فى الحرب: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ... (١٩٥)﴾ [البقرة].

﴿وَمَا تُنفِقُوا﴾ و«ما» هنا شرطية، أى أن تنفقوا فى سبيل الله تعالى، وسبيل الله تعالى هو الجهاد ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أى بالبركة فى رزقكم وبتيسير الرزق لكم وتسهيل سبل الحياة، والنماء فى أموالكم، وبعد ذلك الجزاء فى الآخرة، وهى خير

وأبقى، وأوفى وأتمّ بهذا التفسير الدنيوى والنماء فى هذه الحياة، والجزاء فى الآخرة لا يظلمون لا تُنقصون شيئا مما قدمتم.

السلم

وَإِن جَنَحُواْ
لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾
وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ
بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ
مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ
ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ
ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾

إن الإسلام ما جاء للحرب، بل جاء للسلام، وهو يقول: ﴿**وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...** ﴿٩٤﴾﴾ [النساء]، فهو دين السلام، وما كانت الحرب إلا لتأييد السلام، وليكون على العدل، وقال تعالى: ﴿**وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة].

وما حارب النبى ﷺ المشركين إلا بعد أن فتنوا الناس عن دينهم، وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم، وشرَّدوا المؤمنين، فكان لابد من القتال ليقدعوهم، ويمنعوهم من هذا الظلم، فإذا جنحوا للسلم، وامتنعوا عن الفتنة، فقد زال سبب القتال، وعاد الأمر إلى أصل السلام الذى هو أساس العلاقة الإنسانية بين المسلمين وغيرهم؛ ولذا ﴿**وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ**﴾.

﴿جَنَحُوا﴾ أى مالوا، والضمير يعود إلى المشركين الذين وقعت الحرب بينهم وبين النبى ﷺ والذين كانوا يريدون الغارة على النبى ومن معه من المؤمنين الوقت بعد الآخر، والذين يخاف النبى ﷺ خيانتهم من وقت لآخر، وإنهم إن كانوا كذلك ينبذ إليهم على سواء، والسَّلم تكون بفتح السين كما فى هذه الآية، وتكون بكسرها، كما فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٠٨)﴾ [البقرة].

والسَّلْمُ هو السلام، وهى مؤنثة كنقيضها، وهى الحرب، ولذا عاد الضمير عليها مؤنثا فى قوله تعالى: ﴿ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ومؤدى هذا النص السامى أنهم إذا مالوا إلى السَّلْم، ولم يقولوه بظاهر من القول، بل قالوه مطمئنين إلى أنه أصلح لهم، فإنه لا مضارة منه عليهم، ولا على المسلمين.

ومؤدى ذلك أن الإسلام يكون فى قوة وعزة وغلبة أو أقرب إلى الغلب، فإنه يجب على المؤمنين، ولو كانوا هم الأقوياء الغالبين أن يميلوا إلى الصلح كما مالوا، فالإسلام لا يريد الغلب لذات الغلب، فليست فروسية، إنما يريد دفع الأسرى وتسهيل الدعوة، وإزالة كل العقبات المانعة للدعوة، فإن كان ذلك بسلم فهو أولى بالأخذ والاتباع.

وقد لوحظ فى الدعوة المحمدية أنها تقوى فى السلم العزيمة، ولا تضعف، فقد حصل فى فترة الحديبية أنه دخل الناس فى الإسلام بعدد يعد أضعاف ما دخل فيه المسلمون من وقت البعثة المحمدية إلى وقت عهد الحديبية.

وإنه واضح من النص الكريم أن الذين جنحوا إلى السلم هم المشركون، وأن المسلمين كان فيهم الغلب والقوة، وقد نهى الإسلام بنص القرآن عن أن يعرض المسلمون الصلح على المشركين، وهم فى صلفهم لا يبدون ميلا للسلام، ولذا قال تعالى: ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ... (٣٥)﴾ [محمد].

وإن التقدم بطلب الصلح فى هذه الحال خنوع فى وقت القوة، والصلح فى هذه الحال يمكنهم من معاودة الحرب، والاستعداد لها.

فالصلح، أو السلام لا يكون إلا حيث تكون شوكة العدو قد خضدت، وفلّت حدتها، فهو صلح حيث تُؤْمَن الحرب من بعد؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أى اجعل اعتمادك على الله تعالى وتوقع الأمن الدائم، وأن يتجهوا إلى الحق فى هدأة السلم وأن يؤمنوا، ولقد رأوا قوة الإيمان، وخذلان الشرك.

وإن الله تعالى حامى دينه، وعاصم نبيه، وناصر أوليائه، وهو سميع لكل ما يقولون، عليم بكل ما يفعلون؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

إن الإسلام يتشوق للسلم إن كانت الحرب، كما يتشوق الجراح المخلص لإنهاء جراحة بالشِّفار اضطرته حال الجسم لإقامتها. فمثل الحرب فى نظر الإسلام كمثل الجراحة التى يقطع بها جسم فاسد، يخشى أن يسرى فساده؛ ولذلك إذا جنح العدو للسلم كان على المؤمن أن يبادر إلى المجاوبة على السلم بسلم غير متردد، ولا متوانٍ؛ لذلك قال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ فهذا النص فيه أمر بمنع التردد، لشك يقوم فى نية الصلح أو السلم، إذ السلم خير كله، ولا يمنع الخير، لظن الخديعة، ولذا قال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ﴾ جعل سبحانه فعل الشرط إرادة الخديعة لا الخديعة نفسها، وعبَّر فى حرف الشرط بـ «إن» الدالة على الشك، لبيان أنه يجب إبعاد إرادة الخديعة والخديعة نفسها ليقدم على السلم بقلب سليم، وإرادة معتزمة مع اليقظة والحذر، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ (٧١)﴾ فالإقدام على السلم يكون من غير دخل، ولا تردد فى العزيمة مع الحذر.

وجواب الشرط هو قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ أى أن الله تعالى كافيك وعاصمك من الناس بقوته وقدرته القاهرة الظاهرة، وقد أكد الله تعالى عصمته لنبيه وأنه عاصمه من الناس بـ «إنَّ»، وبتعريف الطرفين، وهو يفيد قصر العصمة على الله تعالى وحده، أى أنه وحده هو العاصم لك من الناس، ومن يحاول أن يخدعك، فإنما يخدع الله، والله بكل شىء عليم.

وقد أيد الله تعالى عصمته بحاضر نصرته، والماضى نور للحاضر، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

إن الله تعالى وحده هو الذى أيدك بالنصر المؤزر كما كان فى بدر، فأيدك بالملائكة، وأيدك بالاطمئنان فى المعركة، وأيدك بما كان من إلقاء الرعب فى قلوبهم، وإذ يريكموهم فى أعينكم قليلا، وأيدكم بالكلمة، وقد أثنى الله تعالى على المؤمنين فقال تعالى: ﴿ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ فالمؤمنون اجتمعوا ولم يختلفوا، واعتزموا ولم يترددوا، وانتظموا فى صفوف كالبنيان، وأمدهم بالصبر ولم يهنوا ولم يحزنوا.

وما ذلك كله إلا بفضل من الله العزيز الحكيم، وإن أعظم أسباب النصر بعد تأييد الله تأليف القلوب، ولذا قال سبحانه فى فضل نعمة التأليف:

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

«التأليف» إيجاد ألفة بين الجماعات، بحيث تألّف كل واحد من الجماعة صاحبه، كالألفة التى أنشأتها المؤاخاة بين المؤمنين، وهو غير الاتحاد؛ لأن الاتحاد الاجتماع على أمر بالرأى والنظر، وقد لا يأتلف واحد صاحبه، وذلك قد يكون يجمع على فكرة أو حزب، ولا يشترط فيه تلاقى قلوب الاجتماع، وائتلاف النفوس، وإن ذلك لا يستطيعه إلا الله، لقد ألف الله تعالى بين المؤمنين والمهاجرين حتى كان الأنصار يؤثرون على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة، وألف بين الأنصار بعضهم مع بعض، حتى زال ما بين الأوس والخزرج ما كان بينهما من حروب، وامتزجت نفوس القبائل المهاجرة، حتى زالت من بينهم العصبية الجاهلية.

وإن تأليف القلوب لا يمكن أن يجىء إلا من عمل مقلب القلوب، ومؤلف الأرواح، وقد بين الله استحالة ذلك إلا من الله فقال: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ كما أن خلق شىء من العدم لا يكون إلا من خالق

الوجود، وكما أن الزرع لا يخرج من كمئه إلا من الله، وكما أن الله يذرأ الإنسان كهذه كلها يكون التأليف بعد النفور، والمودة بعد العداوة كذلك خلق الله تعالى هذا التأليف فى النفوس؛ لتكون الجماعة القوية المتألفة المتآزرة التى يكون فيها البنيان يشد بعضه بعضا،وإن ذلك مستحيل من العبيد، وقد بين الله استحالة ذلك، فقال تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أى لو ملكت كل ما فى الأرض جميعا، وأنفقته طالبا بهذا الإنفاق أن تؤلف القلوب، ما استطعت لأنك لا تستطيع أنت ومن أن تخلقوا ذبابا، والتأليف لا يملكه إلا الخالق، فهو ليس فى مقدور أحد من العباد، ثم قال: ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ الاستدراك، ارتقاء فى القول من قدرة الإنسان العاجز، إلى ما يملكه الخالق القادر.

وإن هذا التأليف كما قلنا هو الذى أوجد الجماعة الإسلامية الأولى التى كانت الخلية التى بذرت فيها بذرة الإسلام، فنمت وترعرعت، وكانت قوة الإسلام وقد قال الزمخشرى فى معنى ذلك التأليف: (التأليف بين قلوب من بعث إليهم رسول الله ﷺ من الآيات الباهرة؛ لأن العرب لما فيهم من الحمية والعصبية، والانطواء على الضغينة فى أدنى شىء وإبقائه بين أعينهم إلى أن ينتقموا لا يكاد يأتلف منهم قلبان، ثم ائتلفت قلوبهم على اتباع رسول الله ﷺ واتحدوا، وأنشأوا يرمون عن قوس واحد، وذلك لما نظم الله من ألفتهم، وجمع من كلمتهم، وأحدث بينهم من التحاب والتواد وأماطه عنهم من التباغض والتماقت، وكلفهم من الحب فى الله والبغض فى الله، ولا يقدر على ذلك إلا من يملك القلوب فهو يقلبها كما يشاء، ويصنع فيها ما أراد، وإنه إذا كان للنبى ﷺ خوارق عادات غير معجزة القرآن فهذا أشد خوارق العادات وضوحا وبيانا.

وإن الآية تدل على تأليف قلوب العرب الذين كانوا أول من خوطب بالرسالة، يستوى فى ذلك المهاجرى والأنصارى والأوسى والخزرجى،بهذا نما الإسلام قويا عزيزا غالبا بقوة الله وقدرته).

وقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله: ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فهو عزيز يخلق العزة وأسبابها، عالم يجمع القلوب بحكمته وتدبيره، وهو الذى أحاط بكل شىء علما.

وفيه إشارة إلى أمرين:

أولهما- أن ائتلاف القلوب والتحاب والتواد، والبعد عن التباغض والتنابز هما عماد العزة، والتدبير الحكيم.

وثانيهما- إنه لا غلب ولا سلطان إلا بالتآلف، وإن يصير المجتمع كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا.

اللهم أعد للمسلمين ائتلافهم، واجمعهم على محبتك ومحبة رسولك، وأزل ما بينهم من بغضاء وعداوة وأبدل بهما محبة وولاء، إنه لا يقدر على ذلك إلا أنت، كما ألفت القلوب ابتداء، فأعدها بعزتك وحكمتك إنك سميع مجيب الدعاء.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

النداء للنبى ﷺ، وكان النداء بـ «يا» التى تكون للبعيد، لبعد الشرف فى موضوع النداء وهو الاعتماد على الله والالتقاء بحمايته ، وبكلاءته سبحانه.

والكلام السابق فى هذه الآية وما قبلها للتحريض على الجنوح للسلام إن جنحوا معتمدا على الله، آمنا من أن يخدعوه؛ لأن الله تعالى منه وكالته، والمؤمنون معه يؤيدونه وينصرونه، وإنه بنعمته سبحانه ألف بين قلوبهم، وما كان يمكن لأحد أن يؤلف قلوبهم، وتلك إحدى خوارق العادات، وهنا تصرح الآية الكريمة بأن الله وحده عاصم نبيه ومن معه.

﴿حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ معنى حسبك عاصمك وكافيك وحاميك، ولقد قال شاعر:

إذا كانت الهيجاء وانشقت العصا فحسبك والضحاك سيف مهند

أى إذا كانت الهيجاء تكاد تحبك مع الضحاك سيف مهند.

و«الواو» فى قوله ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ﴾ هى واو المعية، والمعنى عاصمك وكافيك مع المؤمنين ذلك، أن النبى خاف من الحروب على من معه من المؤمنين أن يُخانوا أو يخدعوا، فبين الله أنه حاميه وعاصمه هو ومن معه من المؤمنين، فلن يأخذهم من مأمنهم، لأن الله معهم.

ويصح أن تكون الواو عاطفة «من اتبعك من المؤمنين» على «الكاف» فى «حسبك»، ويجوز العطف على الضمير المجرور من غير إبرازه بضمير منفصل، ويكون المعنى حسبك أنت ومن معك من المؤمنين.

والمعنيان واضحان من حيث المؤدى، ولكن الأخذ بأن الواو للمعية أولى؛ لأنها تدل على الصحبة، والتصريح به هنا يقوى الكلام ويؤيده.

وقوله: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يشير إلى حكمة العصمة والكفاية، وهو كونهم الذين اتبعوا النبى ﷺ فى دعوته، ونصرته، وإنهم بذلك قوة الرسالة، فهم قوة الدين الحق، وكان الله تعالى عاصمهم كما وعد نبيه بأنه عاصمه من الناس كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ... ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة].

وإن الله تعالى إذ يأمرنا بالسلام، إن جنحوا، ويزيل كل شك فى أن يأخذوا المؤمنين على غِرَّة يأمر النبى ﷺ بأن يجعل المؤمنين على حذر ويستعدوا للحرب إن جالوا جولة ثانية، وذلك بأن يحرضهم على الاستعداد للقتال، وأن يقووا وحدتهم، وجماعتهم وأن يعلموا أنهم لن يُغلبوا من قلة.

إن الفئة المؤمنة لها قوتان: قوة الإيمان، والعدد المناسب، وقوة الألفة فوقهما، فيكونون بهذه القوة محاربين أشداء؛ ولذا قال تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ
يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ
ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ
صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ
بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾

هذا بيان تحذير الله تعالى لنبيه إذا جنحوا للسلم، فلا تُغمد السيوف فى أجفانها، ولا يسترخون، ويسكنون فإن المشركين إن جنحوا للسلم مدة، وجنح المسلمون استجابة للسلام يكونون على حذر دائم، فعساهم يأخذون المسلمين على غرة فيجب أن يكون المسلمون على استعداد دائم يستجيبون لكل هيعة[1]، ويكونون مستعدين للنفير دائما، كما قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا** ﴿٧١﴾ ﴾ [النساء]. ولذا أمر الله نبيه بأن يبث فيهم روح القتال دفاعا عن الحق، كما يبث فيهم الإيمان، فإنه لا بد لهم من شوكة ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ** ﴾ أى حثهم وبث فيهم روح الحمية، وإعداد العدة والاستعداد للحرب وإن يأخذوا الأهبة للقتال، ويدربوا أولادهم، فإن الكفار لا أمان لهم، ولو جنحوا للسلم؛ لأن الاستعداد وقاية من أن ينقضُّوا على المؤمنين انقضاضا.

ولقد كان من الحض على القتال أن يبين لهم أنهم بإيمانهم أشد بأسا، وأكثر عزما، فإن كانوا فى العدد كثير، فهم بالإيمان أكثر وأغلب، وأقوى وأثبت، وبالصبر والعزيمة أعظم وأشد.

---

(١) الهيعة: الصوت عند حضور العدو.

وقوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ إلى آخر ما ذكر من أعداد؛ أهو إخبار من الحكيم الخبير، ويتضمن الحض على الإيمان والصبر، أم هو أمر بالثبات مع هذا العدد، وعلى أنه أمر يكون ما فى النص تكليف بألا يفر مائة من ألف، ولا عشرون من مائة، فإذا التقى عشرون فى سرية بمائة لا يفرون منهم، ويعودون أدراجهم لمكاثرتهم بالعدد، بل عليهم أن يقاتلوهم صابرين فى قتالهم، وإذا التقى مائة بألف، لا يفرون منهم لكثرتهم، بل يقاتلون مريدين النصر والعزة، وعندما تكاثر المجوس على المسلمين، وخاف عمر رضى الله عنه على المسلمين لم يأمرهم بأن يعودوا، بل اعتزم أن يخرج إليهم، ويتقدم صفوفهم، ويذهب للقتال، واستشار الصحابة فى ذلك فمنهم من وافقه، ولكن عليا اعترض ومنع، وهو أخبرُهم بالجهاد فى سبيل الله، فقال رضى الله عنه: «كن قطبا، واستدر رحى الحرب بالعرب، فإنك إن خرجت فما تَدَعْ وراءك من العورات أشد، وأما كثرة العدد، فإنا ما كنا ننتصر بالعدد، بل بالنصر والمعاونة».

هذا على قول من قال: إذ ذكر الأعداد للأمر بألا يكون الفرار من أقل من هذا العدد.

وابتدأ بذكر العشرين؛ لأن السرية عادة لا تكون فى أقل من العشرين.

وقال بعض المفسرين، والنص يحتملها: إن ذلك للإخبار عن قوة النفوس بالصبر والإيمان، وأن الواحد بها بعد كعشرة ممن لم يؤتوا الإيمان والصبر وعزة الحق، ونفوسهم بوار من هذه القوى كلها، وهذا النحو من القول فيه تثبيت للقلوب، فإن جنحت فعندها من مدخر من هذه القوى، ما تقابل بها الخيانة إن كانت، وإن حاربوا ولم يسالموا ولم يجنحوا إلى سلم- كانت القوى واقفة تدفع الباطل بالحق فإذا هو زاهق وللكافرين الويل مما يصفون، وإنه إذا كان القول للإخبار، فإن الأمر يجىء نتيجة للخير، إذ إن مقتضى إخبار الله المحيط بكل شىء علما بذلك الخبر الذى لا يتطرق إليه الشك- أن يكون الوجوب عليهم بمقدار ما منحهم الله تعالى من هذه القوة التى منحهم الله إياها، فالوجوب على مقدار

الاستطاعة، والاستطاعة كانت عظيمة؛ فالواجب عظيم. ينتهى الأمر بأن المؤمنين عليهم أن يعدوا العدة من قوة المادة والدربة وأن يعدوا أقوى عدة، وهى الصبر والعزيمة والاعتزاز بعزة الله تعالى وعزة الحق.

وهنا أمور تجب ملاحظتها هنا فى هذه الآية التى تثبت القلوب:

أولها- أنها تثبت أن المؤمنين إن كانوا أقوياء بالوحدة المؤلفة الجامعة للقلوب والمشاعر، يكون العشرون غالبين لمائتين، فإذا كان الرجل بالرجل، فلِقُوَّة النفس والائتلاف تسعة رجال وحدها، فيكون الواحد بعشرة، وبذلك يتبين فضل الصبر والوحدة المؤتلفة التى لا تفرق فيها.

ثانيها- أن الله تعالى وصف العشرين بالصبر، وترك ذكره فى المائة، وهو ملاحظ فيها، ولم يذكر اعتمادا على ذكره فى الأول، وذلك شأن الكلام البليغ فكيف يكون الشأن فى أبلغ كلام فى الوجود.

ثالثها- قوله تعالى فى آخر الآية: ﴿**يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ وهو وصف أيضا للمائتين، أى أنهم من الذين كفروا، وذكر الوصف بالموصول للدلالة على الكفر هو سبب الضعف كما كان الإيمان والصبر هما بسبب القوة فينا، فعلينا أن ندرع بالصبر والإيمان دائما، لأنهما قوتنا، وعزتنا.

وقد علل الله سبحانه هزيمة الكفار بقوله تعالت كلماته: ﴿ **بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ**﴾ أى سببًا لذلك التفاوت فى القوة الذى كان مظهره التفاوت العددى، بأن كانت العشرون الصابرة تعادل منهم، السبب فى ذلك «أنهم قوم لا يفقهون» أى لايدركون إدراكا ينفد إلى الحقائق، وإلى لب الأمور، فإنهم بذلك ضلوا، فلم ينفذوا إلى الحق فيؤمنوا به، ولم ينفذوا إلى إدراك قوة الحق فظنوا أنهم يغلبونه بالكثرة الكاثرة، ولا تغنيهم فى الشديدة فتيلا، ولم ينفذوا إلى سبب الغلب، فغرهم الغرور.

والله سبحانه وتعالى يعبِّر عن الجماعة التى يجمعها هوى «بالقوم» لأنه لا قوة لهم إلا كونهم قوما، جمعهم جامع من هوى أو غرور، وضلال.

ذكر الله تعالى مدى جهاد المؤمنين إن كانوا جمعا قد تحلى بالقوة التى قوامها الصبر والألفة، والعزة من الله، وقد ذكر قوتها إذا عراها ضعف، والضعف يكون بأن يعروها ما يناقض أسباب القوة.

فقال تعالى: ﴿**الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾.

كان هذا التناسب فى العدد الذى ذكره القرآن من أن العشرين الصابرين فيهم كفاية لمائتين، كان ذلك فى حال القوة المؤمنة، وتلك القوة تقوم على الاتحاد والائتلاف، وعلى قوة الإيمان بالنصر والتأييد من الله تعالى وعلى قوة العزم والتوكل عليه سبحانه، وعلى الرغبة فى إحدى الحسنيين النصر أو الاستشهاد، وفيه حياة، فمن كانوا على هذه الحال كانوا الأقوياء حقا وصدقا.

أما إذا كان الضعف فقد خفف الله النسبة؛ ولذا قال تعالى: ﴿**الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا**﴾.

وقوله تعالى: ﴿**خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ**﴾ فيه إشارة إلى أن التناسب العددى فيه تكليف بالثبات لما يناسبه من عدد، فالعشرون مكلفون أن يثبتوا أمام مائتين وقد ذكرنا أن ذلك مطلوب، إما بالقصد الصريح، أو بالتضمن وقد بين معنى القوة، فلنشر إلى معنى الضعف، وهو ألا يكون الائتلاف قويا، وألا يكون العزم صادقا وأن يكون فيهم ضعفاء الإيمان ومنافقون، وقد بدا ذلك واضحا فى غزوة أحد، فقد كان فى جيش تردد فى الخروج من المدينة ابتداء، وكان فى بعضهم ميل إلى المادة، وكان فى بعضهم ضعفاء الإيمان، وكان فيهم منافقون، ولم يكن فى بعضهم صدق، وكان الصادقون قوته؛ ولذا فى أول الأمر همت طائفتان أن تفشلا، والله وليهما.

ولذلك لم يكن النصر المؤزر كما كان فى بدر؛ إذ لم يكن الأقوياء الذين غير بهم وجه القوة فى البلاد العربية هذا هو الضعف، وذاك هو العزة، وخفف الله التكليف فى تناسب العدد فى حال الضعف، فجعل المائة تغلب مائتين. وقال تعالى فى ذلك: ﴿ **فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ أى أن التكليف يكون بأنه إذا كان مائة لا يجوز أن يفروا من مائتين، بل عليهم أن يثبتوا، وإن كان ألف يجب أن يثبتوا أمام الألفين.

والتخفيف هو تخفيف التكليف، وتخفيف التكليف لا يمكن أن يعد نسخا، وقد يعد ترخيصا من عزيمة وهى الأصل، ولم يقل: ألف صابرة، أى لم يذكر وصف الصبر، اكتفاء بذكره أولا، وذلك شأن الكلام البليغ موجز حيث يوجد ما يدل على المضمون.

وذكر المائة فى مقابل المائتين، كما ابتدأ فى الآية الماضية ذكر العشرين ابتداء، وذلك من التخفيف؛ لأن العشرين مع القدرة عدد مناسب للسرايا ونحو ذلك، فلا يرسل فيها إلا الأقوياء، ولا يرسل فيها من يكون فيه ضعف، إلا بعدد كثير، فكان ذكر المائة كحد أدنى، لجماعة فيهم ضعف.

ومع قلة التناسب فى العدد فى حال وجود الضعف، لا يكون النصر بقوتهم الذاتية، إنما يكون النصر بإذنه أى بتوفيقه وتوجيهه، وهو لازم فى كل الأحوال فى حال القوة، وإن كان هناك ضعف، وصرح به هنا لأنه واضح بأنه من أسباب النصر، أو سببه فى حال ما إذا كان ضعف.

ومن الناس من شغف بإثبات النسخ فى القرآن فيفرضون النسخ لأوهى معارضة لفظية، كما فرضوا النسخ فى آيات الصيام، ولا معارضة بين آياته، وكما فرضوا النسخ بين الآيتين، وكان المعنى بين الآيات واحدا يكمل بعضه بعضا، كذلك ادعوا النسخ هنا، فافترضوه لمجرد التخالف التقديرى بين الآيتين، وادعوا أن الثانية ناسخة للأولى مع أنه لا تعارض بين الآيتين، إن الأولى ذكرت ذلك

العدد فى حال القوة، والتآلف بين المؤمنين، والثانية خفف فيها العدد الأول لحال الضعف، والجهة منفكَّة بينهما.

وهكذا بيَّن أو مسلم الأصفهانى ونفى أن يكون النسخ بينها سيرا على مبدئه الذى انتهى إليه أنه لا نسخ فى القرآن قط، وأن القرآن ينسخ غيره، ولا ينسخ حكمه أبدا.

ولقد ادُّعى الإجماع بأن الثانية نسخت الأولى، ولكنه ليس إجماعا، ولكنه قول قيل، وقبله كثيرون من علماء الأصول وساروا فى دراسة الموضوع فى الآيتين على أن ثمة نسخا.

والحق أن الآيتين حكمهما خالد دائم إلى يوم القيامة، وهو أنه فى حال القوة يكون العشرون كفء المائتين وفى حكم الضعف بالأسباب التى ذكرناها، أو بعضها - يكون المائة فى مقابل مائتين.

ولقد قال تعالى فى نصر المائة أمام مائتين، والألف أمام الألفين: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وفى الواقع كان نصر إنما هو بإذن الله، ولكن ذكر هنا، ولم يذكر فى الآية الأولى للإشارة إلى أن الضعف والتخاذل لا يكون معه نصر إلا إذا كان ثمة إذن الله، للحث على منع التخاذل والتنازع والتردد، واتقاء كل أسباب الضعف والله يؤيد من يشاء بغير حساب.

وختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ والمعنى فى ذلك: والله تعالى بجلاله وقوته وتأييده مع الصابرين، وهذه المعية السامية تجعل الصابر مطمئنا إلى النصر لا محالة لسببين:

أولهما- أن الله معه، ومن يكون الله معه تكون معه القوة كلها، فلا تقف أمامها قوة فى الأرض فكيف يغلب، إنها تدرأ العجز، وتغلب القوة، بل يجعل من الضعف قوة فيكون النصر.

ثانيهما- أن الصبر يقرب من الله؛ لأن فيه ضبط النفس عن الهوى، وعن الجزع يوم الفزع، والقرب من الله لشد العزائم، وتثبيت القلوب.

وإن الله تعالى يحب الصابرين، والمحبة أعلى من الراضى الذى هو أكبر الجزاء، فالمحبة أكبر من الرضوان.

قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ** ﴿٦٥﴾ **الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴿٦٦﴾ ﴾.

كانت غزوة بدر غزوة مباركة إذ انتصر فيها المسلمون قتلوا سبعين، وساقوا من المشركين سبعين أسيرا من كبار قريش، وكان المقتولون مثلهم من كبار قريش، وكان النبى ﷺ يميل إلى الإبقاء على الأسرى، سيراً على سنته فى الدعوة من أنه يريد الإيمان للمشركين مع حياتهم، ولا يريد قتلهم كافرين فما كان يحارب لأجل كفرهم، ولكن كان يحارب لتنفذ الدعوة وتستمر رجاء إيمان الإجماع، وذلك سبب الميل فى إبقاء الأسرى.

والله تعالى عاتب نبيه لا على إبقاء الأسرى، بل عاتبه لأنه أسر، وليست له قوة قاهرة مستمرة، عاتبه لأنه فى أول واقعة التقى بهم، وأسر منهم، بل كان قتلهم فى الميدان، وإثقالهم بالجراح وهو الإثخان، حتى تكون له قوة قاهرة قاصمة، ويأسر فَيَمُنَّ أو يفدى.

الأسرى

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾

كان النبى ﷺ يريد أن يستبقى المقاتلين من أعدائه رجاء أن يكونوا للحق أو أن يكون من ذريتهم من يعبد الله تعالى، كان يقول ﷺ فى حروبه لقواده: «لأن تأتونى بهم مؤمنين، خير من أن تأتونى بنسائهم وذرياتهم سبايا مأسورين»(١)، فكان يحب الإبقاء على مقاتليه بدل إبادتهم، ولذا كان لا يبيد الخسيس، فلما انهزم المشركون أسر منهم بدل أن يقتلهم، وقد كره سعد بن معاذ الأمر عندما وقع، وقد كان يحرس عريش النبى ﷺ، وذكر ذلك وقال للنبى ﷺ: إن هذه أول واقعة بيننا وبين المشركين فما أحب أن أأسر قبل أن نثقلهم بالجراح، وجاء القرآن الكريم بذلك النظر فقال تعالى:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

أى ما ساغ لنبى، أمره الله تعالى بالجهاد لجعل كلمة الله أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض حتى يثقلهم بالجراح بحيث لا يستطيعون أن يقفوا للحرب مرة ثانية، فالإثخان المبالغة فى الجراح، حتى يثقلوا عن استئناف القتال، وتكون المعركة شافية لا تبقى من باقية، وذلك حتى لا يتجمعوا لكم من بعد فى وقت قريب، كما فعلوا فى أُحُد، وحتى لا تُثقلوا أنتم بإطعام الأسرى، وقد يكون ذلك عليكم عسيرا، وإطعامهم لا بد منه، ولذا يقول تعالى فى أوصاف المؤمنين: **﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾** [الإنسان]، ولكى يسبد باب الخديعة والنفاق، كما حدث من بعض الأسرى.

لهذا كان النفى الذى يتضمن نهيا مؤكدا، عن أن يكون للنبى ﷺ أسرى، والآية كما تضمنت النهى عن أخذ أسرى قبل أن يثخن فى الأرض، ويُثقل العدو حتى لا يتحرك إليه عن قريب، لما نهى عن ذلك نهى عن أخذ الفدية، فى حال عدم الإثقال؛ ولذلك قال تعالى: **﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾** أى تريدون عرض الدنيا بالمال تأخذونه، وقد برروا أخذ الفداء بأن يكون قوة للمؤمنين، والله سبحانه وتعالى يريد الآخرة، أى يريد ما يكون نصرا غالبا مؤزرا يؤدى إلى إرضائه سبحانه.

وقصة إشارة النبى ﷺ بالفداء كانت بشورى أشار بها بعض كبار المؤمنين الصديقين، وإليك الخبر كما جاءت به كتب السنة والسيرة فى أصح أخبارها.

لما كان يوم بدر جىء بالأسرى، وفيهم العباس فقال رسول الله ﷺ: «**ما ترون فى هؤلاء الأسرى**»، فقال أبو بكر: قومك وأهلك استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم، وقال عمر: كذبوك وأخرجوك وقاتلوك ؛ قدِّمهم فاضرب أعناقهم.

وقال عبد الله بن رواحة: انظر واديا كثير الحطب فأضرمه عليهم.

فدخل رسول الله ﷺ، ولم يرد عليهم مسغيا، ثم خرج رسول الله ﷺ وقال: «إن الله ليلين قلوب رجال منه حتى يكون ألين من اللبن ويشدد قلوب

رجال حتى تكون أشد من الحجارة، ومثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم]، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى إذ قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة].

ومثلك يا عمر مثل نوح إذ قال: ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح]، ومثلك يا عمر مثل موسى عليه السلام إذ قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس].

اختار النبي ﷺ أخذ الفداء، لأنه أرفق، ولأنه رأى فيه تقوية للمؤمنين، بالمال يأخذه منهم، وتقوية للمؤمنين بتعليم الأميين من الصحابة إذ كان من يقرأ ويكتب من الأسرى وليس معه مال، تكون فديته بتعليم بعض المؤمنين، ولقد منَّ على العاجزين عن الأمرين ممن رجا فيه خيرا.

نزلت هذه المعاتبة بعد ذلك، فبكى النبي ﷺ، وبكى معه صاحبه في الغار، وصدِّيق هذه الأمة، وقالوا: «إن القرآن نزل برأى عمر»(١).

ونحن نرى أن القرآن نزل برأى سعد بن معاذ، وروى أنه وافق سعدا الفاروق عمر، وعبد الله بن رواحة؛ لأن العتاب ابتداء ما كان متجها إلى أخذ الفداء، إنما كان متجها ابتداء إلى أخذ الأسرى قبل أن يثخن فى الأرض، أما الفداء فلا لوم فيه، وقد جاء به القرآن فى نظام الأسرى، فقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴿٤﴾﴾ [محمد].

وهنا يسأل سائل لماذا لم يعلم الله رسوله الحق قبل أن يقع فى الخطأ بدل أن يتركه يخطئ، ثم يعتب عليه والجواب عن ذلك أن حكمة الله تعالى فى أقواله وأفعاله بالغة، فإن فى ذلك تعليم لنا ومنع لغرورنا، إن هذا يبين أن هذا النبى

(١) البداية والنهاية: ج٤، ص١٠٤، وأصح ما روي في ذلك ما رواه مسلم: الجهاد والسير- الإمداد بالملائكة في غزوة بدر (١٧٦٣).

المختار المصطفى إذا تُرك فى أمر قد يقع فى الخطأ والوحى ينزل، أو تعرَّض للخطأ، وإن كل إنسان عُرضة للخطأ، وإن العقل يعجز عن إدراك الحقائق كاملة، وبيان فساد حكم الطغاة الذين ينفردون بالحكم، ويحسبون أنهم لا يخطئون، وبجوارهم فئة المنافقين الضالين المضلين الذين يأكلون السحت مما يتساقط من أموالهم التى هى سحت كلها، إن هذا رسول الله وسيد الخلق المصطفى إذا ترك من غير وحى فى أمر تشريعى، كان عرضة للخطأ وقد أخطأ فكيف بكم أيها الطغاة الذين قمتم للشر وقام بنيانكم على الشر.

ثم ختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أى أنه هو العزيز الذى أعطاكم العزة والرفعة فى هذه، وجعل لكم قدرة على الأسر بعد أن كنتم قليلين مغلوبين يتخطفكم الناس فى الأرض، وقد فعل ذلك بمقتضى حكمته.

ثم بين سبحانه أنهم معفوون من خطئهم، فقال تعالت كلماته:

﴿لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

الآية كسابقتها فى موضوع الأسرى وأخذ الفداء عنهم، وعتب الله على النبى ﷺ فى شأنه وأخذ الفداء عنهم.

و «لولا» فى قوله تعالى: ﴿لَوْلا كِتَابٌ﴾ حرف شرط امتناع لوجود، أى امتناع الجواب لوجود الشرط، أى امتنع أن يمسكم عذاب عظيم بوجود كتاب سبق، والكتاب الذى سبق هو الذى عهد إلى بنى آدم ألا يعذبهم حتى يبين، (فلا عذاب إلا إذا سبقه بيان)، وهو أيضا ألا عقاب على الخطأ فى اللفظ كما قال النبى ﷺ: «**رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**»(١)، والعهد أيضا لا عقاب على الخطأ فى الرأى، وأن المخطئ فى الاجتهاد له أجر، ومن له أجر فى أمر ليس عليه عقاب فيه، فلا يجتمع الأجر والعقاب، فلوجود الكتاب كان العفو، وهذا الشرط وجوابه يومىء إلى أن أخذ أسرى هو فى ذاته موضع مؤاخذة، ولكن

(١) سبق تخريجه.

لم يكن العقاب لهذا الكتاب الذى أشرنا إليه، فالنص يومئ إلى أن أخذ الأسرى لولا ما حف به- لكان محل العقاب.

وعبر سبحانه وتعالى عن العذاب بقوله تعالى: ﴿ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فعبر عن العذاب بـ (مسَّكم)؛ لأن عذاب النار يمس الجلد، ونكر العذاب ببيان أنه عذاب شديد، ووصفه بأنه عظيم، لأنه على قدر الذنب الموقع يكون العذاب، والذنب لو وقع كان فى الحرب، والحرب إما هزيمة وانتصار، ويجب ألا يكون فيها تراخٍ، ولا أخذ بالهوادة، بل إنها أخذ بالصرامة والصرامة فى الحرب تمنعها، ويرهبها الناس، فلا يقعون فى أسبابها.

وقوله تعالى: ﴿فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ من المال يوهم أن أخذ المال وحده هو السبب فى هذا العقاب، والحقيقة أن ذلك جزء من السبب وإن لم يكن جوهر السبب؛ لأن السبب الأصلى هو أخذ الأسرى، وتبع هذا الأخذ إن اختار النبى ﷺ أخذ الفداء تيسيرا عليهم، واستبقاء لهم عسى أن يتوبوا، وقد دخل فى الإسلام أكثرهم واستمر على الكفر أقلهم، والتيسير فى الدعوة مطلوب لقول النبى ﷺ للمجاهدين: « **يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا**»[1].

وقلنا: إن أخذ المال جزء من سبب المؤاخذة؛ لأن المؤاخذة هى على الأسر وما تبعه من أخذ الفداء أو إن شئت فقل إذا إن السبب أخذ المال فى هذا الأسر الذى لم يسغ.

وقد قال الرازى: إن بعض المفسرين قال إن قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ﴿٤﴾﴾ [محمد] نسخت: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ إلى آخرها، والحق أنه لا نسخ، بل الآيتان متلاقيتان متضافران فى الدلالة على معنى واحد وهو أنه لا أسر إلا عند الإثخان، وإذا كان الأسر فى موضعه ووقته، فالإمام يخير بين المَنّ من غير فداء، والفداء بالمال، أو مبادلة

(١) سبق تخريجه.

الأسرى كما بادل النبى ﷺ أسرانا بأسراهم ، فتلك شريعة محكمة باقية خالدة لا تغيير فيها ولا تبديل.

ولقد بين الله للنبى ﷺ أنهم كانوا فى غناء بالغنائم عن أن يأخذوا فداء، ولذا قال: ﴿**فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾.

(الفاء) فاء الإفصاح، فهى تفصح عن شرط مقدر، أى تقديره مأخوذ من حالهم عند أخذ الغنائم، والتقدير هكذا إذا كنتم تريدون تقويتكم بالمال، وما تأخذونه منكم، فعندكم الغنائم، ولذا قال: ﴿**فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾.

ومعنى الأكل هنا الأخذ، كما فى قوله تعالى: ﴿**وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ** (١٨٨)﴾ [البقرة]، أى لا تأخذوه، وعبر عن أخذ المال بالأكل، لأن الأكل هو الأمر الضرورى الذى يؤخذ لأجله المال ابتداء، فعبر عن الشىء بأهم مسبباته، وذلك من المجاز المرسل السائغ، كقوله تعالى: ﴿**إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا** (٣٦)﴾ [يوسف]، أى أعصر عنبا يكون سبب الخمر.

وقوله تعالى: ﴿ **مِمَّا غَنِمْتُمْ** ﴾ المراد بها الغنائم التى وزعت بحكم الله تعالى فى قوله تعالى: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ...**﴾ إلى آخر النص الكريم العادل، وعلى ذلك يكون المراد هذه الغنائم، وذكره (من) للدلالة على نصيب المجاهد منها، والمعنى على هذا ما كان لكم أن يكون لكم أسرى ولم تثخنوا فى الأعداء، لتكون الغاية أن تأخذوا منهم ما تتقون به، فإنه يكفيكم ما تأخذون من الغنائم حلالا، لا لوم فيه ولا عتاب، وإنه لكثير يغنيكم عما يكون فيه لوم أو عتاب تأخذونه من فداء الأسرى فى أمر جاء فى غير وقته ومن غير مبرراته.

وقال بعض المفسرين: إن النص لإباحة تناول الفداء باعتباره من الغنائم، واللوم فى أصل الأمر، وإنا نرى أن الأظهر للأوضح الذى يتفق مع العتاب على أخذ الفداء مع الأسر، ويكون النص تأكيدا للعتب وتدليلا على وجوبه.

ويقول الله تعالى بعد ذلك: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ....﴾ أى اجعلوا بينكم وبين الوقوع فى المحظور وقاية، فلا تفعلوا ما يغضبه. وارجوا رحمته ومغفرته ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أى كثير المغفرة يرحم الناس بمغفرته، وقد أكد سبحانه وتعالى مغفرته ورحمته، بصيغة المبالغة أو الصفة المشبهة فى ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وبالجملة الاسمية، وبـ (إنَّ) المؤكدة «اللهم اغفر لنا وارحمنا».

وقد أمر الله تعالى نبيه بأن يتجه إلى الأسرى يرشدهم ويهديهم ويطيب نفوسهم، فيقول تعالى.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

يظهر أن ذلك العتب كان والأسرى لا يزالون بالمدينة أو أكثرهم، وكانوا قد دفعوا الفداء؛ وذلك لأنه سبحانه أمر نبيه بأن يخاطبهم هذا الخطاب وعبر بأنهم لا يزالون فى أيدى المسلمين أو بعضهم.

خاطب الله نبيه بأن يقول لهم كلمة رحيمة هادية تقرب القلوب، ولا تجفيها، قال سبحانه لنبيه: ﴿قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَىٰ﴾، أى لا يزالون تحت سلطانكم، وقريبين منكم ﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ﴾ أى إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا، وهو رجاء الإيمان منكم، أو قرب احتماله، يؤتكم خيرا مما أخذ منكم أى يؤتكم إيمانا وأن تكونوا فى صفوف جيش الله ومع المؤمنين، فيكون الإيمان، وهو خير مطلق، وفضل عميم ويؤتكم من خير الغنائم أكثر مما أخذ منكم.

وهذا تحريض على الإيمان، وقوله تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ﴾ من غنائم غنمها المسلمون، ومن فدية افتديتم بها أنفسكم، وقد روت صحاح السنة أن ممن شملهم خطاب النبى ﷺ العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ. ويقول بعض المفسرين: إن الآية نزلت فيه، ونحن نقول: إنها تشمله فيمن كان معه من الأسرى الذى أخذت منهم غنائم فى القتال، وأخذت فدية فى الأسر، وقد عوض من الأمرين خيرا مما أخذ منه.

روى عن العباس رضى الله عنه من طريق الزهرى: بعثت قريش فى فداء أسرهم، ففدى كل قوم أسيرهم، وقال العباس رضى الله عنه- وكان فى الأسرى: قد كنت مسلما، فقال رسول الله ﷺ: **«الله أعلم بإسلامك فإن يكن كما تقول فإن الله يجزيك، وأنا ظاهرك»** (فقد كان علنيا وقد كان ممن ضمن طعام جيش مكة فى بدر) فافْدِ نفسك وابنى أخيك نوفل بن الحارث، وعقيل بن أبى طالب وحليفك عتبة بن عمرو، وعبد الله» قال: ما ذاك عندى يا رسول الله قال ﷺ: «فأين المال الذى دفعته أنت لأم الفضل؟».

قلت لها: إن أصبت فى سفرى هذا فهذا المال الذى فيه لبَنِى الفضل، وعبدالله، وقثم.

قال العباس: والله يا رسول الله إنى لأعلم أنك لرسول الله، إن هذا لشىء ما علمه أحد غيرى وغير أم الفضل.

فاحسب لى يارسول الله ما أصبتم منى عشرين أوقية من مالى، فقال رسول الله ﷺ: «لا، ذاك شىء أعطانا الله تعالى منك، ففدى نفسه وولدى أخويه، وحليفه»(١).

وقد قال: عوضنى الله عن أربعين أوقية أربعين عبدا فى الغزوات، وأعطانى زمزم، وما أحسب أن لى بها جميع مالى، وهكذا عوض الله تعالى كل من آمن من بعد ذلك وغزا مع النبى ﷺ الغزوات فأصاب من خير وآتاه الله تعالى مع ذلك الإيمان والإخلاص، ومن قبل منهم فى الجهاد، أعطى خيرا من كل هذا فضل الشهادة وإن فضلها لعظيم.

ثم ختم الله تعالى الآية الكريمة بقوله: ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، أى أنه سبحانه وتعالى مع هذا العطاء المضاعف لما أخذ منكم يعطيكم شيئا غير قابل للتعويض وهو من فضل الله ورحمته وهو غفران ما أسلفتم من كفر وجحود ومعاندة لله تعالى، فهو الغفور الذى يغفر ما سبق بأبلغ درجات الغفران ويرحمكم أبلغ الرحمة.

---

(١) رواه أحمد: مسند بني هاشم-باقي المسند السابق(٣٣٠٠).

هذا حال الأسرى إن آمنوا واستبدلوا بالكفر إيمانا، والأكثرون منهم كانوا كذلك، ومنهم من خانوا ما عاهدوا النبى ﷺ، فمن عاهد النبى ﷺ على ألا يدعو الجموع ضد، فمنَّ النبى ﷺ من غير فداء، فعاد ورفع عقيرته بالدعوة ضد النبى ﷺ وألب الناس عليه داعيا لأخذ الثأر؛ ولذا قال:

وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

الزمخشرى لا يعد الضمير يعود على الكفار الذين يخونون العهود فى المستقبل، والذى خانوا عهد الله بارتدادهم، ويذكر أنه ربما يعود على الأسرى الذين عاهدوا النبى ﷺ على أن يكفوا ألسنتهم عنه فلم يكفوها وألبوا الناس، وهؤلاء خانوا.

ويلاحظ أن الله تعالى يقول: ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ أى وسوست لهم شياطينهم بالخيانة وأرادوها، فإن أرادوها فخذ حذرك ولا تأس عليهم، فقد خانوا الله تعالى وكفروا به وأشركوا به الأوثان وهموا أن يقتلوك، فأمكن الله تعالى أهل الإيمان منهم، وأعلنوا بذلك كلمة الحق والإيمان.

وإن مضمون النص يجعلنى أميل إلى أن الضمير لا يعود على الأسرى، ولا يعود على من ذكر الإيمان وردده من المشركين وأظهروا أنهم يريدونه تقربا للمسلمين.

وإنما أميل إلى الذين جنحوا للسلم، وأمر الله نبيه أن يجنح ولا يمنعه أن يحاولوا خديعته؛ لأن الله حسبه، وفى هذه الآية بين الله تعالى لنبيه أنه يجب أن يستمر غير ملتفت لهم إن أرادوا خيانة بعد أن جنحوا للسلم، ولكن أرادوا خيانتك، وألا يهتم لخيانتهم فى ذاتها، وألا يأسى على خيانتهم بعد أن جنحوا للسلم والله تعالى ينبه نبيه بأنهم إن أرادوا خيانتك بأن هموا بالانقضاض على المؤمنين، فإنهم قوم من طبعهم الخيانة فقد خانوا الله تعالى من قبل بأن عبدوا الأحجار والأوثان وهموا بأن يقتلوا الرسول، أو يحبسوه أو يخرجوه، وخانوا الله

تعالى بخيانة أهله فلا تأس عليهم، والله من ورائهم محيط؛ ولذا ختم سبحانه الآية الكريمة بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى عليم بخبايا نفوسهم، وما تحدثهم به خواطرهم، وبنزعات نفوسهم، وقد رتب لهم سبحانه ما يصلح لهم بمقتضى علمه وحكمته، فهو حكم من يضع الأمور فى مواضعها، ويدبر لك بحكمته، فلا تخش وبالهم، والعاقبة للمتقين.

ولاية المؤمن للمؤمن وولاية الكافر للكافر

إِنَّ الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓا أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا
وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي
الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا
وَجَٰهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓا أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنۢ
بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُوا الْأَرْحَامِ
بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

المؤمنون أمة واحدة، وولايتهم واحدة، فلا ولاية للمؤمنين إلا من المؤمنين، ولن يجعل الله للمؤمنين على الكافرين سبيلا، وأكد الله تعالى هذه الولاية ومنع غيرها، فقال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران:٢٨]، وقد نهى الله تعالى عن كل مدارة للكافر يكون فيها نصرة له، وانتصار به، أو اتخاذه بطانة يعرف منها أسراره وخفايا أموره، فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴿١١٨﴾﴾ [آل عمران].

وعندما هاجر النبى ﷺ كان المؤمنون فريقين مؤتلفين متوادين متحابين قد عقد النبى ﷺ المؤاخاة التى قد صارت سنة يجب اتباعها إلى اليوم.

ولقد أكد سبحانه وتعالى الولاية بينهم مع افتراق كقبائلهم وفخوذهم وبطونهم فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا ﴾ وصف الله المهاجرين بأنهم آمنوا إيمانا لقوا فيه الأسى والعذاب فما وهنوا وما ضعفوا وما استكانوا، وصبروا وصابروا، وبأنهم هاجروا، أى تركوا ديارهم وأسرهم وأموالهم وخرجوا من ديارهم وهى الحبيبة إليهم، فنالوا فضل الهجرة بترك الأحبة فى سبيل الله، وما هاجروا للسياحة والراحة بل خرجوا ليحملوا مشقة أعظم مما يحملوا؛ ولذا قال تعالى فيهم: ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ جاهدوا الهوى فى النفس والركون للراحة، وحملوا السيوف مقاتلين فى سبيل الله، وبذلوا أموالهم التى كسبوها بكدهم من كسبهم بعد الهجرة بعد أن فقدوا أموالهم التى كسبوها قبل الهجرة، وكان من هؤلاء من يخرج من كل ماله لله ورسوله، ومنهم من يحمل من ماله نفقات جيش، كما حمل عثمان نفقات جيش العسرة.

وكل ذلك فى سبيل الله تعالى لا يرجون إلا ما عند الله، وهؤلاء أولياء لمن يماثلون خيرا، وهم الذين آووا ونصروا وتحلوا بما تحلى به إخوانهم المهاجرون،

فآمنوا الإيمان الكامل، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله، وإذا كانوا قد نقصوا عن إخوانهم فضل الهجرة، فقد عُوِّضوا عن ذلك بفضل الإيواء والنصرة، يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

هؤلاء الأطهار قرر الله تعالى أن بعضهم أولياء فقال سبحانه وتعالى فى خبر «إنَّ» ﴿**بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**﴾ الولاية محبة ومودة ومناصرة، وقد اجتمعت كل هذه الأحوال فى ولاية المؤمنين المهاجرين، والأنصار فقد اجتمعت فيها المودة، فتوادوا وتحابوا، وتناصروا وجاهدوا جميعا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله.

ولقد جمعت المؤاخاة معنى المودة والمحبة والإيثار وجمع الجهاد معنى النصر، والتعاون بالجهاد فى سبيل الله، وإن هذه الولاية كانت تتضمن مع ما ذكرنا معنيين آخرين:

أولهما ـ أنهم يقتسمون الغنيمة بالسوية على النظام الذى قرره الله تعالى فى الغنائم، لا فضل لأنصارى على مهاجرى، ولا فضل للمهاجر على الأنصارى، ولما أعطى رسول الله المؤلفة قلوبهم، وجد بعض الأنصار، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**إنها لعاعة**[1] **مال تألفت بها قلوب قوم، وتركتكم لدينكم**»، ودعا للأنصار دعوة ختمها بأنه من الأنصار لولا الهجرة، «**ولو سلك الناس شعبا وسلك الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار**».

ثانيهما- أن هذه الولاية التى كلّلها رسول الله بالمؤاخاة كانت تثبت الميراث بين المهاجرين والأنصار إذا مات أحدهما من غير قريب مسلم، فالمؤاخاة تثبت الميراث، كأنها تحل محل بيت المال.

---

(١) اللُّعاعة : البقية اليسيرة من الشيء، ونص الرواية عند أحمد: باقي مسند المكثرين- مسند أبي سعيد الخدري (١١٣٢٢) .

هذه الولاية بين المهاجرين والأنصار، والإيمان وحده من غير هجرة يوجد ولاية الإيمان لا موجد ولاية قسم الغنيمة والميراث بالمؤاخاة؛ ولذلك نفى هذا النوع من الموالاة عن الذين يؤمنون ولم يهاجروا نعمة الجهاد المشترك بين المهاجرين والأنصار و نعمة المؤاخاة؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ﴾.

عندما شاع أمر الإسلام، وذاع فى البلاد العربية مع استمرار الدعوة والجهاد قد آمن ناس ولم يهاجروا وقد رغَّب الإسلام فى هجرتهم، ليكثر بهم جمع أهل الإيمان، وليكون الجهاد متكاملاً أمام أهل الشرك، ولكى لا يستضعف المشركون يستخذى المؤمنون لقلتهم وضعفهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧)﴾ [النساء].

وقد ذكر الله تعالى فى هذه مقدار ولايتهم، وهى ثابتة لأنها ولاية الإيمان، ولكن لا تكون لهم ولاية قسمة الغنيمة، ولا الولاية التى تثبت بالإخاء، ولذا قال تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أى ليس لكم من ولايتهم في الغنائم أى شيء. وهذا النص يومىء إلى أنه يحسن بهم أن ينضموا لجماعة المؤمنين ويتناصروا.

ولقد جاء فى تفسير الحافظ ابن كثير ما نصه: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميرا على سرية أو جيش أوصاه فى خاصة نفسه بتقوى الله، وبمن معه من المسلمين خيرا، وقال: «**اغزوا باسم الله فى سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال أو خلال فأيتهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم: ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأعلمهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين وأن عليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا واختاروا ديارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله تعالى**

الذى يجـرى على المؤمنين، ولا يـكون لهم فى الفيء والغـنيـمـة نـصـيب إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا - أى الإسـلام- فادعهم إلى إعطاء الجزية. فإن أجابـوا فاقبـل منهم وكف عنهم، فإن أبوا - أى الإسـلام والجزية- فـاسـتـعن بالله وقاتلهم»(١).

هذه رواية مسلم، وظاهـر أن الولاية المنفية هى ولاية الاشـتراك فى قسـمة الغنائم وما يترتب على الإخاء، أما الإيمان فولايته قائمة ثابتة وهى ولاية النصرة، ولذا قال تعالى:

﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ .

إن هذه ولاية الإيمان وهى تـوجب النصرة على أساس أن المؤمنـين جميـعا إخوة، كما قال تعالى: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾** [الحجرات].

فحيـثما كان المؤمـن فهو فى ولاية المؤمنين مهـما تختلف الديار، وتتـباعد الأقطار، ولذلك إذا استـنصر المؤمن؛ أى طلب النصر- وجـبت نصرته، فـالسين والتاء للطلب أى طلب النصرة، فى دفع عدو داهم، أو فى حرب عادلة؛ ولذا قال تعالى: ﴿ **فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ**﴾ والاستجابة لطلبه، وقـد استثنى الله حالا واحدة، وهى أن يكون ثمة ميـثاق، أى عقد موثق بمواثيـق الله تعالى، وميثاق وزن مـفعال من (وثق)، فأصله (مِوْثاق) قلبت الواو ياء لوقوعهـا ساكنة بعد كسرة، والمعنى عليكم النصر، أى فـإن دعوكم فعليكم الإجـابة إلا أن يكون النصر الذى تنصَرونهم فـيه يكون على قوم بينكم وبينهم ميثاق، أى لا تنصـروهم على قوم لهم ميثاق، ولكن يجب أن تدفعوا عنهم كل من يعتدى عليهم، ولو كان بينكم وبينهم ميثاق، لأنهم ينقضـون الميثاق بمجرد أن يـعتدوا على مؤمنين، فـلا عهد مع الاعـتداء على أهل الإيمان.

(١) مختصرا من حـديث طويل رواه مسلم: الجـهاد والسيـر- تأمير الإمـام الأمراء على البـعوث ووصيـته (١٧٣١).

وإذا كان فى المؤمنين غير المهاجرين ضعف، واستضعفهم أعداء الإسلام أيان كانوا، وجبت نصرتهم، ويقول فى ذلك ابن العربى فى تفسيره فى أهل الميثاق إلا أن يستنصروكم على قوم بينكم وبينهم عهد فلا تنصروهم عليهم ولا تنقضوا العهد، حتى تتم مدته إلا أن يكونوا -أى المسلمون- أسراء مستضعفين فإن الولاية معهم قائمة والنصرة لهم واجبة حتى لا تبقى منا عين تطرف، حتى تذهب إلى استنقاذهم إن كان عددنا يحتمل ذلك، أو ينزل جميع أموالنا فى استخراجهم حتى لا يبقى لأحد منا درهم.

وقد ختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ أى أن الله العلى الكريم الغالب على كل شىء مطلع كما يطلع ذو البصر على ما تعملون، ومكافئكم عليه، وقدَّمْ « بما تعملون » على « بصير » لمزيد الاهتمام، والحساب على مقتضى علمه سبحانه وتعالى بما يعملون.

هذه حدود ولاية المؤمنين، ولقد ذكر سبحانه وتعالى ولاية الكفار بعضهم مع بعض، وعدم ولايتنا معهم، فقال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ**﴾.

إذا كان المؤمن لا يوالى إلا مؤمنا، ولا تكون له المحبة والولاية إلا لمؤمن مثله، فلا تكون ولايته لغيره، ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**﴾ أنهم لا يكونون إلا أولياء لأنفسهم، فالمسلمون ولايتهم للإسلام، والكفار لا يتولون ولا يصح لمسلم أن يتولاهم كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ (٥١)**﴾ [المائدة]، والولاية هنا النصر، أى أن الكافر نصير الكافر، ولا يصح أن ينصر المسلم الكافر، والنص يتضمن ذلك المعنى، أى أنه لا تناصر بين المسلم والكافر، ولا تناصر إلا بين الكافر والكافر.

وقوله تعالى: ﴿**إِلاَّ تَفْعَلُوهُ**﴾ الضمير هنا يعود على التناصر بين المسلم والكافر بأن يستنصر المسلم بالكافر أو ينصر المسلم، ونفيه مفهوم ضمنا من

اختصاص الولاية للمؤمن بأن تكون مع مؤمن، واختصاص الولاية للكافر بألا تكون إلا لكافر، و﴿ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ﴾ هي «إنْ» المدغمة في «لا» النافية، ففعل الشرط (لا تفعلوه)، ومعنى إلا تفعلوه أي إن لا تتقوا تناصركم معه، تكن فتنة في الأرض وفساد كبير، والمعنى إنْ كنتم تتناصرون بهم فتستنصرون بهم وتنصرونهم تكن فتنة في الأرض وفساد، لأن نفي النفي إثبات، ومؤدى ذلك: إن كنتم لا تتباعدون عن المناصرة فيهم تكن فتنة في الأرض وفساد كبير.

وذلك حق؛ لأن أقبح الفتنة أو أشدها أن يكون ولاء المؤمن للكافر، بأن يكون للولي ناصرا، ومستنصرا فإن ذلك يفتن المسلمين عن دينهم، ويجعلهم في ولاء للكافرين، والله تعالى يقول: ﴿لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴿١٣﴾﴾ [الممتحنة]، فتوليهم فتنة تفتن المؤمن عن دينه وفي خلقه، وتجعل تعاونه مع الكفار، وفيه فساد كبير ففيه قوة للكفر، وضعف للإيمان وأي فساد أكبر.

وإن الفساد الذي أصاب المسلم الآن، والفتنة التي يموج فيها المؤمنون، إنما هي من ولاء المؤمنين للكافرين كما ترى ذلك في ساحة المسلمين منذ ضعفوا، فقد ازدادوا ضعفا بهذا الولاء، وكان أمر المسلمين إلى بوار، ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

جمع الله تعالى في هذه الآية الذين كانوا دعامة الإسلام، وعليهم هَدْى الرسول ﷺ قام بنيانه، وشيدت أركانه، وهم المهاجرون والأنصار، فالمهاجرون ابتدأ بهم تكوين الجماعات الأولى التي صبرت وصابرت وتلقت الصدمة الأولى من المشركين، ويقول ﷺ : «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**»(١)، فهم الذين

---

(١) سبق تخريجه.

تلقوها من عتاة المشركين الذين قابلوا أهل الحق بالأذى من أمثال أبى لهب، وأبى جهل، والوليد بن المغيرة، وغيرهم، وهم الذين هاجروا إلى الحبشة فراراً بإيمانهم، ومنهم من هاجر إليها مرتين، وهم الذين لاقوا العنت، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله، ومنهم من اضطروه تحت العذاب أن ينطق بكلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان، ومنهم من مات بعض أسرته تحت حر العذاب.

ثم فى آخر الأمر هاجروا إلى المدينة، فاستقبلهم إخوانهم بالترحاب وآووا ونصروا.

والأنصار هم الذين آووا ونصروا، وأعزوا كلمة التوحيد وأغلوها وأعلوها، فإذا كان المهاجرون هم الذين أظلوا شجرة الإسلام ابتداء، فالأنصار هم الذين حموا ثمرتها وقامت دولة الإسلام فى أرضهم وحراستهم، وإذا كان المهاجرون قد لاقوا العنت فى مكة فقد لقوا الإيواء فى المدينة، وإذا كانوا هم دعامة الإسلام فالأنصار دولته، وفى رحابهم قامت المدينة الفاضلة التى أقامها محمد ﷺ فى ديارهم وإذا كان المهاجرون قد جاهدوا ابتداء بالصبر والمصابرة، فقد كان جهادهم فى المدينة مع إخوانهم الأنصار بذلك وبالقتال فى المدينة، والفريقان اختارهم الله للتأليف حتى تكونت منهم أطهر جماعة رأتها الإنسانية وأقواها؛ ولذا قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾.

الإشارة إلى السابقين، والإشارة إلى الموصوف إشارة إلى أوصافه، وجعلها مناط الحكم، أى أولئك الذين هاجروا بعد الإيمان، وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا هم المؤمنون حقا، أى إيمانا ثابتا صادقا حقا تلاقت أقوالهم وقلوبهم وأعمالهم.

وفى الكلام قصر، أى من كانوا على هذه الصفات هم وحدهم المؤمنون حقا، أى لا يؤمنون حقا غيرُهم، ومن هم على صفاتهم، وفيهم قوة الإيمان مثلهم، أى ذلك هو الإيمان حقا وصدقا ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦)﴾ [المطففين].

ولقد كرر الله تعالى الثناء على المهاجرين والأنصار فى كثير من محكم آياته، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ .. (١٠٠)﴾ [التوبة].

ويقول تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ... (١١٧)﴾ [التوبة].

وقال تعالى فى توزيع ما أفاء الله على رسوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ (٩)﴾ [الحشر].

وهكذا ترى قوة الإيمان، والجهاد ونصرة الرسول، والإيثار فكانوا بذلك المؤمنين حقا وصدقا، وقد ذكر الله تعالى ما كتب من خير فى الدنيا والآخرة، بعد أن ذكر أنهم المؤمنون حقا، قال: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وهذا يتضمن جزاءين:

أولهما- المغفرة السابقة ووراءها الرحمة والنعيم المقيم.

ثانيهما- رزق كريم واسع فى الدنيا بعد المشقة التى تحملوها والله واسع عليم.

هذا شأن المهاجرين الذين آمنوا والذين آووا ونصروا، وقد ذكر بعد ذلك شأن الذين يهاجرون ويؤمنون من بعد، فقال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾.

باب الإيمان مفتوح، وباب الهجرة مفتوح، وميدان الجهاد متسع للجميع، فلم يغلق على المجاهدين الأولين، ويحكم الرِّتاج على من بعدهم، لا بل هو مفتوح، وهذه الآية الكريمة تلحق الذين يؤمنون من بعد ويهاجرون بالأولين الذين هم المؤمنون حقا، ولهم مغفرة ورزق كريم(١).

يقول تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ**﴾ أى من بعد نزول هذه الآيات الكريمات، ويفعلون فعل من سبقوهم فيهاجرون ويجاهدون معكم لا فرق بينكم وبينهم فى الميدان فأولئك منكم، ومثل هؤلاء أبو موسى الأشعري، ومن معه من الأشعريين؛ ولذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنكُمْ**﴾ أى أولئك يصيرون جزءا منكم لهم حكمكم، ولهم ثناؤكم، لا تعلون عليهم لأنهم منكم، فالمهاجر الأول والذين آووا ونصروا لهم فضلهم، ويلحق بهم فى الفضل والثناء والجزاء من آمنوا من بعد وأبلوا مثل بلائهم، ولم

---

(١) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "سَتَكُونُ هِجْرَةٌ بَعْدَ هِجْرَةٍ، فَخِيَارُ أَهْلِ الأَرْضِ أَلْزَمُهُمْ مُهَاجَرَ إِبْرَاهِيمَ، وَيَبْقَى فِي الأَرْضِ شِرَارُ أَهْلِهَا، تَلْفِظُهُمْ أَرَضُوهُمْ تَقْذَرُهُمْ نَفْسُ اللَّهِ، وَتَحْشُرُهُمُ النَّارُ مَعَ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ". رواه أبو داود: الجهاد - في سكنى الشام (٢٤٨٢)، وأحمد: مسند المكثرين- مسند عبد الله بن عمرو بن العاص(٦٨٣٢).

يتخلفوا عنهم فى الفضل وإن تخلفوا فى الزمن، وهو لا حساب فيه عند الله ما دام الإيمان والجهاد والهجرة قد تحقق فيهم.

هذا ولاء المؤمنين بعضهم مع بعض، وكهدى القرآن لا يمحو ولاء الفطرة ولا يمحو الولاء العام، ولاء الأسرة لأنه يدعمه ويقويه، ولذلك جاء ولاء الأسرة بعد الولاء العام، فقد قال تعالى: ﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾.

أى فى حكم كتاب الله تعالى، ومقررات الإسلام الثابتة، فالأسرة لا تفنى بجوار الإيمان ولكن تقوى دعائم المجتمع الإسلامى.

سورة التوبة

تمهيد:

وهي مدنية وعدد آياتها ١٢٩ويقولون إلا الآيتين الأخيرتين فمكيتان.

وفى المصحف أنها نزلت بعد المائدة، ولكن الثابت أن آية ﴿ ... **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ... (٣) ﴾ [المائدة] نزلت فى عرفة فى حجة الوداع، وأن براءة نزلت فى حجة الصديق رضى الله عنه، وصلى بها على بن أبى طالب، فهى قبل المائدة، وقالوا: إنها نزلت فى تبوك، وفيها أخبار المسلمين والمنافقين فى هذه الغزوة مما يدل على أنها مقارنة لها فى الزمان، وتسمى «الفاضحة»؛ لأنها فضحت المنافقين، وتسمى «البَحُوث» لأنها بحثت أسرار المنافقين وكشفتها، ولم تبدأ بـ «**بسم الله الرحمن الرحيم**» كغيرها من السور.

وقالوا فى ذلك: إن الصحابة لم يفصلوا بينها وبين سورة الأنفال بالبسملة، وذلك لأن القرآن الكريم كتب ما كتب فيه بالتوقيف لا بالرأى، ووضعت آياته وسوره بالتوقيف، وقد اتبع زيد بن ثابت والجماعة الذين كانوا معه ما رسمه رسول الله ﷺ من سوره ونزل عليه من آياته ووضع كل آية فى موضعها من سورتها، ولم يضع «**بسم الله الرحمن الرحيم**» بين الأنفال وبين براءة، والكتابة سنة متبعة ثابتة بالتوقيف، هذا لا مجال للريب فيه فقد ثبت بالتواتر.

وقالوا فى الحكمة فى عدم كتابة البسملة: فمنهم من قال إن البراءة امتداد للأنفال فموضوعهما فى الحرب والعهود، وتلك حكمة واضحة بينة، وقال بعضهم إن الرحمة والسلام اللذين تدل عليهما البسملة، لا يتناسبان مع ما اشتملت سورة براءة من نقض للعهود، وتهديد بالحروب، وكشف للنفاق.

ونحن نرتضى التعليل الأول؛ لأن الحرب بكل صورها ما دامت إسلامية عادلة، فهى رحمة بالناس، ﴿... وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ ... (٢٥١)﴾ [البقرة].

والسورة الكريمة قد اشتملت على العهود الموثقة، ونقض المشركين لها والبراءة ممن ينقضونها، وبيان أن الجهاد سياحة المؤمن، كما صرح الرسول ﷺ(١) ولذا قال فى الفراغ من الجهاد ﴿فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ... (٢)﴾، وإعلان البراءة من الشرك وأهله، وأوجب سبحانه مع هذه البراءة الوفاء للمشركين الذين لم ينقصوكم شيئا من عهودكم.

وإن القتال محرم فى الأشهر الحرم، فإذا انسلخت كان القتال لغير أهل العهد، وتتبع المشركين فى كل مكان، وكل ذلك مع ملاحظة النجدة، وإجارة من يريد الجوار، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ (٦)﴾.

ثم بين سبحانه أنه لا يصح الاعتماد على عهود المشركين، لأنهم لا يبرون بعهودهم، واستثنى سبحانه الذين تفرض فيهم الاستقامة على أحد الاحتمالين، ولذا قال تعالى: ﴿...فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ... (٧)﴾.

وإن استقامتهم المفروضة تكون والمسلمون أقوياء ﴿...وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً ... (٨)﴾، وإن ماضيهم ينبئ عن حاضرهم إذ كانوا يصدونكم عن المسجد الحرام.

وأنهم إذا تابوا فإخوانكم فى الدين، وإن استمروا على الكفر ونكثوا الأيمان فقاتلوا أئمة الكفر، إنهم لا أيمان لهم، وأمر سبحانه وتعالى وقد استمروا على عداوتهم والنكث على عهودهم أن على المؤمنين أن يقاتلوهم، وقال تعالى:

(١) عَنْ أَبِى أُمَامَةَ أَنَّ رَجُلا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِى فِى السِّيَاحَةِ، قَالَ النَّبِىُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ سِيَاحَةَ أُمَّتِى الْجِهَادُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى". رواه أبو داود: الجهاد- النهى عن السياحة(٢٤٨٦).

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ⑭ ﴾.

وإن هذا الخزى يذهب غيظ قلوبهم، والهزيمة تجعله يتبدد. وإن الجهاد فريضة محكمة يعلم الله تعالى به المجاهدين علم واقع يرونه.

بعد ذلك اتجه سبحانه وتعالى إلى عمَّار البيت المشركين وبيان أنهم ليس لهم أجر؛ لأن عمارة المساجد شرطها الإيمان ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ⑰ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُوْلَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ⑱ ﴾. وذلك إشارة إلى عمارتهم المساجد، فإنه لايفيدهم ما داموا مشركين، ولذا قال تعالى: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ⑲ ﴾.

بعد أن بين الله أنه لا يستوى المؤمن والكافر. بيَّن جزاء الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وأولئك هم الفائزون، يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم، خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم.

ثم بيَّن سبحانه أن هؤلاء يجب أن يكونوا لله سبحانه وتعالى، فبيَّن أنه يجب عليهم ألا يتخذوا آباءهم وإخوانهم أولياء من دون الله إن استحبوا الكفر على الإيمان، ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ㉔ ﴾.

وذكَّرهم سبحانه وتعالى بنصرهم فى مواطن كثيرة، وذكَّرهم سبحانه بيوم حنين إذ أعجبتهم كثرتهم فلم تغنِ عنهم شيئا، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت،

ثم ولوا مدبرين ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ﴾.

قد كسرت الأصنام، ولكن كان المشركون يدخلون المسجد، فأمر الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨) ﴾.

وقد أمر سبحانه من بعد ذلك بقتال الكافرين سواء أكانوا يهودا أم نصارى أم مشركين حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

وبيَّن أن اليهود قالوا عزير ابن الله فكانوا كالمشركين، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله فكانوا مثل المشركين فى أن أشركوا فى عبادة الله المخلوقات.

وزادوا بأن اتخذوا أحبارهم ورهبانهم وسائط فى العلم عن الله فاتخذوهم أربابا، ﴿ ...وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) ﴾. وبين سبحانه مساوئ الأحبار والرهبان فى أكلهم أموال الناس بالباطل.

ثم ذكر سبحانه مآل هؤلاء يوم القيامة: ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) ﴾.

بعد ذلك ذكر سبحانه عدة الشهور وهى اثنا عشر منها أربعة حرم، لا يحل فيها القتال لأنها أشهر الحج أو الانتقال إلى بيت الله الحرام، وكذلك العُمرة، وهى ذو القعدة وذو الحجة، والمحرم، ورجب (مُضَر) الذى بين جمادى وشعبان فهو شهر عمرة مُضَر. فألحق بأشهر الحج.

وحرم الله تعالى النسىء ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ... (٣٧) ﴾ وإن ابتداء الحرب فى الأشهر الحرم لا يجوز، ولكن إذا كان القتال ﴿ ...فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) ﴾.

بعد ذلك أمر الله تعالى بالقتال ، ولامهم على التثاقل عنه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) ﴾ وبين سبحانه وتعالى عذاب من لا ينفرون فى سبيل الله فإنه يستبدل قومًا غيرهم.

وبيَّن أنهم إن لم ينصروا النبى ﷺ فإن الله ناصره: ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ... (٤٠) ﴾ وصرح الله تعالى بوجوب النفور إلى القتال خفافا وثقالا.

بعد ذلك أشار الله سبحانه وتعالى إلى تخذيل المنافقين للمؤمنين كما فعلوا فى غزوة تبوك، فقد عوَّقوا وخذلوا، ولم ينفروا مع المؤمنين وقال تعالى فى ذلك: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَّتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) ﴾.

ولقد عفا الله جل جلاله عن نبيه أن أذن لهم بالتخلف، ولو لم يأذن لتبين نفاقهم ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) ﴾.

وأخذ سبحانه وتعالى يبين أحوال المنافقين فهم لنفاقهم وريبهم لم يستعدوا للقتال، وأن الله كره انبعاثهم، وقيل اقعدوا مع القاعدين، وإن قعودهم فيه خير لأهل الإيمان: ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ

الأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩) ﴾.

إنهم يخذلون النبى فيأمر الله نبيه بأن يقول لهم: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) ﴾.

وبين الله تعالى لنبيه أنهم يتربصون للمؤمنين الموت والخذلان ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ (٥٢) ﴾.

وقد منع الله نبيه أن يقبل منهم نفقة فى حرب؛ لأن مالهم سحت، ولا يجدى فى الحرب إلا المال الطيب الذى ليس فيه خبيث، ﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) ﴾.

وبين سبحانه وتعالى حالهم فى أيمانهم الكاذبة، ويبين أنهم يخافون ويفرقون، ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧) ﴾.

وإن منهم لمن يعرض بالنبى فى الصدقات ليعطى منها ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩) ﴾، ولقد بين الله سبحانه وتعالى مصارف الصدقات فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) ﴾.

ولقد كان المنافقون يؤذون النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بكل أنواع الأذى، فكانوا من إيذائهم قولهم: ﴿ ... أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) ﴾.

ومن اختلاق المنافقين الكذب أنهم يحلفون ليرضوا المؤمنين، والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين، يحادون الله ورسوله ومن يحاد الله فله نار جهنم، هم يرون أدلة قائمة ويعلمونها، ولكن لا يذعنون للحق إذا تبين لهم، ويحذرون أن تنزل سورة تخبرهم بما في قلوبهم، ﴿ ...قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) ﴾، وقد ذكر سبحانه وتعالى ضلال المنافقين وأنهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف.

ثم بيَّن الله تعالى العذاب الشديد الذى يلقاهم، وأنهم كالذين من قبلهم استمتعوا بخلاقهم كما استمتع الذين من قبلهم بخلاقهم وخاضوا فى الفتن كما خاضوا، ثم بيَّن لهم العبرة فى قوم عاد وثمود، وقوم إبراهيم وأصحاب الأيكة والمؤتفكة أتتهم رسلهم بالبينات، ونزل بهم ما نزل، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

ثم بيَّن سبحانه وتعالى علاقات المؤمنين فى مقابل علاقات الكافرين والمنافقين فقال: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) ﴾ وبين من بعد ذلك ما وعد الله به المؤمنين من جنات ونعيم خالدين فيها ورضوان من الله أكبر وذلك هو الفوز العظيم.

وأمره الله بأن يجاهد هؤلاء المنافقين والكافرين ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) ﴾.

ولقد كان المنافقون يفترون على النبى ﷺ ويثيرون الفتنة بالقول على المؤمنين، ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٧٤) ﴾.

وبيَّن سبحـانه وتعالى أخلاق النفاق، إذ يعـاهدون الله لئن آتاهم من فضله ليـصدقن وليكونن من الصـالحين، فلمـا آتاهم من فـضله بخلوا به، وتولوا وهم معرضون، وبذلك زادوا نفاقا لأن نفوسهم تمرست به.

وإن أولئك المنافقين حـياتهم سخرية بالمؤمنين، فالذين يطوعـون أنفسهم فى الجهاد والذين لا يجدون إلا جهدهم يلومـونهم، ويسخرون منهم، ولقد كان النبى ﷺ ككل رسول يطلب لهم الهداية، وككل قائد يسـتغفر لهم لكى يقربوا بدل أن تبعد نفوسهم.

ولكن الله تعالى بين أنه لن يغفر الله لهم ﴿ **اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** (٨٠) ﴾.

وإذا خرج النبى لجـهاد عام، كـما فى غزوة تبـوك تخلفوا وفـرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله، ﴿ ...**وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ** (٨١) ﴾.

بعد ذلك كـشف الله أمر النفـاق وأمر الله تعـالى نبيـه أن يقول: ﴿ ...**لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ** (٨٣) **وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ** (٨٤) ﴾ وإنهم كلمـا نزلت سورة تدعـو إلى الجهـاد ﴿ **اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ** (٨٦) **رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ** (٨٧) ﴾.

وقد بيَّن الله سبـحانه وتعالى حال الرسول والذين معـه يجاهدون بأموالهم وأنفســهم، وبيَّن حكم ذوى الأعـذار فقال تـعالى: ﴿ **لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى**

الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) ﴾ .

وقد بيَّن بعـد ذلك أن الذى يؤاخذ الذين يستأذنونك وهم أغنـياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف، وطبع الله على قلوبهـم فهم لا يعلمون ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لاَّ تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) ﴾. ومن مظاهر النفاق كـثرة الحلف ولذا قـال الله تعالى: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦) ﴾ .

بعد ذلك بيَّن الله تعـالى أحوال الأعراب، وهم الذين وجد المنافقـون فيهم مرتعا خصبا، فذكر أنهم ﴿ ...أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) ﴾ .

وقد أنصف الله تعالى بعض الأعراب وهم الذين آمنوا، ﴿ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٩) ﴾ .

وقد ذكر سبحانه وتعالى السابقين من المهاجرين والأنصار الذين كانوا دعامة الإسلام وقوته ﴿ ...رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) ﴾ .

عاد سبحـانه وتعالى إلى حديث المنافقين فذكـر أن أكثرهم حول المدينة وفى المدينة الذين مـردوا على النفـاق وتربوا عليـه، وعلى رأسـهم عـبد الله بن أُبى ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ

نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢) ﴾ .

وقد أمر الله تعالى بعد ذكر المنافقين أن تؤخذ الزكاة، فهى كاشفة النفاق، ونماء المؤمنين وطهارتهم. ثم فتح باب التوبة للآثمين وحث على العمل: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤) وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) ﴾. وبيَّن سبحانه وتعالى أن من الذين خوطبوا بالدعوة مرجون لأمر الله إما أن يعذبهم وإما أن يتوب عليهم والله عليم حكيم، وأن المنافقين الذين حول المدينة قد اتخذوا مسجدا يتلقون المعلومات من أعداء الله والرسول، والذى سمى مسجد الضرار، وقال الله تعالى فيه: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠) ﴾ .

وبعد هذه الآيات التى ذكرت المنافقين، ومن يدورون حول فلكهم، ومن يتقربون منهم ـ ذكر الله تعالى المؤمنين الصادقين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴿ ...يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) ﴾ .

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى بعد ذلك أوصافهم البرة، فقال سبحانه: ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢) ﴾ .

وقد ذكر الله تعالى أنه ما كان لنبى أن يستغفر للمشركين، ولو كانوا أولى قربى، وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه، وإن الذين اهتدوا ما كان الله ليضلهم بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون إن الله بكل شىء عليم.

وقد بيّن سبحانه سلطانه فى ملك السموات والأرض، ثم بيّن سبحانه توبته على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، والمهاجرين الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم.

وكان من المؤمنين الصادقين من تخلفوا فى غزوة تبوك من غير عذر من الأعذار التى ذكرها القرآن فرباهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم - وهو خير المربين - بالإعراض عنهم حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم.

وقد أمر الله المؤمنين الصادقين بأن يلتزموا. وقد وضع سبحانه وتعالى مبدأ ثانيا مقررا فقال: ﴿ **مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١)** ﴾ وإن الله خفف على المؤمنين بألا ينفروا جميعا، بل ينفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون.

ثم أمر بجهاد الذين يلونهم من الكفار؛ لأنهم يحادونهم فقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣)** ﴾.

وقد ميز الله تعالى بين المؤمنين والمنافقين عند نزول آيات الله تعالى فقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) ﴾.

يقول سبحانه فى المنافقين ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ (١٢٧) ﴾.

وختم الله تعالى السورة بأنها رحمة فى جهادها، وكشف المنافقين بهاتين الآيتين اللتين قيل عنهما أنهما نزلتا بمكة، وهما قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩) ﴾.

معانى السورة الكريمة

قال تعالى:

بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾
فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى
ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ
إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ
وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟
أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ

﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾

براءة، مِن برئ منه إذا خلص من تبعته وعهدته، وبرئ براءة من عهده إذا تخلص من تبعاته و﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ① ﴾، أى لا تبعة بالنسبة للذين عاهدتم، فعهودكم رد لا يؤخذ بها.

وقالوا: نسبت العهود للذين آمنوا على أنهم هم الذين عاهدوا لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هو الذى عاهد باسمهم، كما يتعهد رئيس الدولة باسم رعاياها والمنتمين إليها، إذ هم بمقتضى عهدة الحكم هم الذين فوضوا إليه، وأسند العهد إليهم، والبراءة من العهد إلى الله تعالى، لأن هذه البراءة حكم شرعى بنقض العهد مع المشركين الذين نقضوا عهودهم، واستمروا على شركهم، وكانوا إلبًا على المسلمين، حتى غلبوا على أمرهم، وكان ذلك فى حرب المؤمنين مع أهل الطائف، وكان قد قرب زمان الأشهر الحرم، فأنهاها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ومع أن العهود المطلقة غير المحدودة بمدة قد انتهت، وبرئ الله ورسوله منها، فإن لهم أربعة أشهر، الحرب فيها حرام لا تُبتدأ فيها، وأن الأربعة الأشهر هى الحرم، بدليل أن الله جعل نهايتها انسلاخ الأشهر، فقال: ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ... ⑤ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ... ② ﴾ والفاء هنا لتفصيل ما يكون بعد البراءة من العهد، فذكر سبحانه أنهم فى أمان من القتال لمدة أربعة أشهر هى الأشهر الحرم، وكلمة ﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى سيروا فيها آمنين من القتل والقتال، ولمدة أربعة أشهر، ولكن اعلموا أنكم لا تعجزون الله تعالى، فلا تحسبوا أنكم أمنتم إلى النهاية ولذا قال تعالى: ﴿ ... وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ

... ﴿٢﴾ عن أن ينالكم عذابه فى الدنيا والآخرة، فاطمئنوا فقط فى أربعة الأشهر الحرم، وقد بينها النبى ﷺ فذكر أنها ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان، وتلك الثلاثة الأولى أشهر الحج والذهاب إليه والأوبة منه ورجب الذى بين جمادى الآخر وشعبان[1] شهر عمرة فإذا كان الله ترككم تسيحون فى الأرض فلستم بمعجزى الله و﴿... وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾﴾ أى منزل بهم الخزى بإنزال الهزيمة بهم، وإضعاف شوكتهم، وذهاب تطاولهم، وسيطرتهم على البلاد العربية.

وإنه لكى تتجلى هذه الآيات نقتبس كلمة من الصحاح، والسورة تبين نزول هذه الآيات ومواقيت نزولها ـ فتح النبى ﷺ مكة سنة ثمان، وأناب عنه فى الحج هذا العام عتاب بن أسيد، وفى سنة تسع امتنع عن أن يحج بنفسه؛ لأن المشركين كانوا يحجون، وكانت قريش يحجون عرايا، فلم يرد أن يراهم كذلك فى الحج، وأناب أبا بكر عنه فى الحج هذا العام، وقد نزلت سورة براءة فى شهر شوال من هذه السنة، فأمر النبى ﷺ عليا أن يبلغهم أربعين آية من أولها، وقيل أقل من ذلك، فأتبع أبا بكر عليا بها، فلما دنا عليّ من أبى بكر وهو راكب العضباء ناقة رسول الله ﷺ سمع رغاءها فوقف وقال: هذه ناقة رسول الله ﷺ فلما لحق به عليّ قال أبو بكر: أمير أم مأمور، قال عليّ: بل مأمور، فلما كان يوم التروية اليوم الثامن من ذى الحجة خطب أبو بكر، وحدثهم عن مناسكهم، وقام عليّ رضى الله عنه وقال: إنى رسول رسول الله إليكم، فقالوا: بماذا، فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية. وعن مجاهد ثلاث عشرة آية، ثم قال أمرت بأربع: ألا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة، وأن يتمم إلى كل ذى عهد عهده.

(١) عَنْ أَبِى بَكْرَةَ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ النَّبِىِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الزَّمَانُ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَته يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّموَاتِ وَالأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ: ثَلاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ وَرَجَبُ مُضَرَ، الَّذِى بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ».

عندئذ قال من حضر من المشركين: يا عليّ، أبلغ ابن عمك أنّا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا، وأنه ليس بيننا وبينه عهد إلا طعن بالرماح وضرب بالسيوف.

وإن هذا يدل على أنهم ابتدأوا بنبذ العهد، وأن الله ورسوله عندما برّأنا من العهد كانوا هم المبتدئين بالنبذ، فكانت البراءة من عهودهم مجاوبة لهم فى نبذها، وأباح الله تعالى أن سيحوا فى الأرض أربعة أشهر ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الواو عاطفة (أذان) على (براءة)، وبراءة هى براءة الله من الذين عاهدهم النبى ﷺ والمؤمنون من المشركين لنكثهم عهدهم، كما أعلنوا ذلك لعليّ رسول رسول الله ﷺ، ولأنهم لا أيمان لهم، ولا عهد لهم.

أما الأذان فهو الإعلام، وهو بمعنى الإيذان، كالعطاء بمعنى الإعطاء وهو إعلام الناس جميعا مع من كان معاهدا ونكث، ومن لم يكن عاهد من المسلمين، وهو إعلام بالبراءة من المشركين، ولذا كان موضوع الإعلام أن الله برىء من المشركين وَرَسُولُهُ، فلا عهود لهم إن نكثوها ولا عهود لمن لا عهد له من قبل، إلا إن استقاموا عليه ولم يظاهروا على المؤمنين.

﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ بالفتح على تقدير الباء، والمعنى إيذان بأن الله برىء من المشركين، وحذف الباء قبل أنَّ. وهذا كثيرا فى كلام العرب، وقرئ بكسر (إن)[١] لأن الإيذان يتضمن معنى القول و(إنَّ) تكسر بعد القول.

﴿وَرَسُولُهُ﴾ بالرفع معطوفة على اسم، وهو لفظ الجلالة، وإن ذلك جائز إذ يعطف على اسم بالرفع إذا كان الخبر قد تم، ويقول الزمخشرى: إنه يعطف على الضمير المقدر فى (برىء)، وهو اختلاف لفظى لا جدوى فيه من حيث المعنى.

(١) ليست فى العشر المتواترة.

وإن الإعلام الذى أعلمه الله ورسوله للمشركين هو ما روى عن علي رضى الله عنه: «فقد روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال: كنت مع علي بن أبى طالب حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ببراءة - فقال: ما كنتم تنادون به؟ قال: كنا ننادى أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن ولا يطوف بالبيت عريان، وما كان بينه وبين رسول الله عهد فإن أجله أو أمده إلى أربعة أشهر، فإذا مضت الأربعة الأشهر فإن الله بريء من المشركين، ورسوله، ولا يحج إلى هذا البيت بعد العام مشرك»[١] والرواية الراجحة التى تتفق مع المعنى القرآنى هى أن يتم لكل ذى عهد عهده، لا أن يكون أربعة أشهر لا يزيد عليها، كما ستبين ذلك الآية الآتية.

ويوم الحج الأكبر قيل هو يوم عرفة، ورجح الأكثرون أنه يوم النحر[٢]؛ لأنه وإن كان الحج عرفة لا يتم به الحج، وإنما يتم الحج بالطواف الركن، وهو طواف الإفاضة، ويوم النحر يتوسط بين عرفة وهذا الطواف، ولأن الروايات تضافرت على أن عليا آذن يوم النحر، وقال ذلك عند العقبة.

وسمى الحج الأكبر فى مقام العمرة؛ لأنهم يسمونها الحج الأصغر، ولأنه فى يوم النحر تكون أكثر أعمال الحج قد أديت، وقال الحسن البصرى: إنه اجتمع فى الحج فى السنة التاسعة المشركون والمؤمنون، وقال: وقد وافق عبادة أهل الكتاب ولم يتفق ذلك قبله ولا بعده.

ونسبة هذا القول إلى التابعى المؤمن الحسن البصرى وجدته فى الكشاف للزمخشرى وأنا أشك فى نسبته إليه أو نسبة ما قاله عن اتفاق الحج مع عبادة أهل الكتاب، وتسميته بالحج الأكبر لذلك؛ لأن عبادة أهل الكتاب لا عبرة بها عند أهل الإيمان ولا عند الله، فإنه بعد بعثة النبى ﷺ وجب عليهم اتباعه فيما أتى به من عبادة كما قال ﷺ: **«لو كان موسى بن عمران حيا ما وسعه إلا اتباعى»**[٣].

---

(١) سبق تخريجه. وسيأتى بعد.

(٢) ومما يؤيد ذلك ما رواه البخارى: الصلاة- ما يستر من العورة(٣٦٩)، ومسلم: الحج(١٣٤٧)عن أبى هُرَيْرَةَ قَالَ: بَعَثَنى أَبُو بَكْرٍ فى تلْكَ الْحَجَّةِ فِى مُؤَذِّنِينَ (يَوْمَ النَّحْرِ) نُؤَذِّنُ بِمِنًى أَنْ: " لا يَحُجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ".

(٣) سبق تخريجه.

وبراءة الله ورسوله من المشركين تتناول عهودهم التى نكثوا فيها، وتتناول شركهم، وتتناول طريقة حجهم وفيها إيماء بمنعهم، ولقد صرحت به الآية الكريمة من بعد، إذ قال تعالى: ﴿ ... إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ... (٢٨) ﴾ وقد فتح الله تعالى باب التوبة والرجوع إلى الله تعالى.

ولذا قال تعالى: ﴿ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب، وكان الالتفات لأنه فيه انتقل من البراءة منهم إلى تقربهم إليه بفتح باب التوبة لهم بخطاب الله تعالى لهم مبشرا إن تابوا منذرا إن استمروا فى غيهم، فإن تبتم عن الشرك وعن الطواف عرايا وعن عداوة الرسول فهو خير لكم، أى فالرجوع إلى الله تعالى هو خير لكم إذ تطهرون عقولكم ونفوسكم، ومجتمعكم، وما ورثتم عن جدكم إبراهيم.

﴿ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ﴾ أى إن أعرضتم عن سماع الحق والاستجابة له، والإذعان، وإسلام الوجه فيجب أن تضعوا فى علمكم أنكم تحادون الله تعالى، وأن الله تعالى غالب ولا يمكن أن تعجزوه فهو مالك السموات والأرض، وهو القاهر فوق عباده، فلن تعجزوه فى الدنيا والآخرة، وقد كان الالتفات بالخطاب فيه تربية المهابة، وهى تزيد الإنذار قوة.

ثم قال فى بيان عذابهم فى الدنيا والآخرة: ﴿ ... وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) ﴾ أى مؤلم فى الدنيا والآخرة، ففى الدنيا بالهزائم المتوالية وفى الآخرة بالجحيم.

وفى الكلام إشارتان بيانيتان:

أولاهما: أن التبشير يكون بالخبر السار، فإذا ذكرت فى الأخبار المفزعة المؤسفة، فذلك لا يخلو من تهكم واستهزاء، ومن هذا قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ... بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

الثانية: فى التعبير بالموصول فى قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ فإنه يشير إلى أن العلة فى عذابهم الأليم هى كفرهم، فإن تابوا فنعيم مقيم.

وإن الله العادل الحكيم قد استثنى من المشركين من لهم عهود راعوها حق رعايتها فقال: ﴿**إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤)**﴾.

الاستثناء فى قوله تعالى: ﴿**إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾، قال الزمخشرى: الاستثناء من ﴿**فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ**﴾. ورأى أن الاستثناء من الذين تبرأ الله تعالى من عهدهم ونبذه إليهم فى قوله تعالى: ﴿**بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ (١)**﴾، فكان الاستثناء من هؤلاء أى أن الله برىء من عهد هؤلاء؛ لأنهم خاضوا فى عهدهم ونقضوه، وقد رأيت أنهم بادروا بالنقض عندما أخبرهم عليّ كرم الله وجهه أنه لا يدخل البيت الحرام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان... فبادروا بنقض عهودهم، وقالوا ليس بيننا وبين ابن عمك إلا الطعن بالرماح، والضرب بالسيوف.

أما الذين وفوا بعهودهم ولم ينقضوا شيئا منها، ولم يظاهروا عليكم أحدا فعهدهم باق مستمر، وليس الكفر وحده؛ فقد كان التعاقد وهم كفار وهذا قوله تعالى: ﴿**إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا**﴾ والتعبير بـ(ثم) للدلالة على دوام وفائهم، وأنهم مع كونهم عرضة للنكث والنقض كإخوانهم المشركين ضبطوا أنفسهم ولم ينكثوا فى عهدهم، ولم ينقصوا المسلمين - مع بغضهم لأهل الإيمان - شيئا من شروط العهد، بل وفوا به حق الوفاء، والوفاء جدير بالوفاء من أهل الإيمان كما قال تعالى: ﴿... **وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤)**﴾ [الإسراء]، وكما وصفهم الله تعالى بأنهم لم ينقصوكم شيئا مما عاهدوا عليه - ذكر وصفا دالا على الوفاء والمبالغة فيه، فقال تعالى: ﴿**وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا**﴾ أى لم يعاونوا أحدا من أعدائكم بأن يكونوا فى ظهره يدفعونه إلى اللجاجة فى عهدكم كما فعل بنو النضير وقريظة، وغيرهم من أعداء

الله الذين عاهدوا النبى ﷺ ثم ظاهروا المشركين، وعاونوهم، وأظهروا عورات المؤمنين .

وهناك فى قوله تعالى: ﴿لَمْ يَنقُصُوكُمْ﴾ بالصاد المهملة قراءة أخرى بالضاد المعجمة(١)، أى لم ينقضوكم شيئا من النقض، ولو فى جزئية من جزئيات العهد أى وفوا وفاء كاملا لا نقض فيه.

وقال تعالى: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ (الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى أنهم إن وفوا ولم ينقصوا ولم يظاهروا عليكم فأوفوا لهم، وأتموا عهدهم إلى مدتهم. وأضاف العهد إليهم باعتبار أن متعة الانتفاع بالعهد لهم، وأضاف المدة إليهم لأنهم الذين ينتفعون بهذه المدة كما انتفعوا بالعهد ذاته، ثم ختم الله تعالى الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿... إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤)﴾ أى الذين يتقون الله تعالى بأن يجعلوا بينهم وبين عذاب النار وقاية، ومن التقوى الوفاء بالعهد، فهى تعليل للاستثناء، وتمام العهد أن الوفاء فى العهد من تمام التقوى، ومن فضل الأقوياء.

هذا شأن الذين وفوا بعهودهم، أما الذين لم يوفوا بعهودهم فإنهم يسيحون أربعة أشهر يحرم فيها القتال، وبعد ذلك يكون القتال.

قال تعالى:

فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ
فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ
وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾
وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ
كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

(١) ليست فى العشر المتواترة.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾﴾

قوله: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ يقال: سلخت الشهر إذا صرت فى آخر أيامه، أى إذا مضت الأشهر الحرم وانتهت، والأشهر الحرم يقول الزمخشرى: إنها التى حرم فيها القتال من وقت الحج الأكبر وهى من عشرة ذى الحجة، وهى أربعة تنتهى بعشرة من ربيع الأول، ولم يذكر أنها الأشهر الحرم الأربعة المذكورة فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ... (٣٦)﴾ وقد بينها النبى ﷺ بأنها ثلاثة سرد، وواحد فرد، الثلاثة ذو القعدة، وذو الحجة والمحرم، والواحد الفرد رجب الذى بين جمادى وشعبان.

والأكثرون على أن الأشهر الحرم فى هذه الآية هى هذه الأربعة التى بينها النبى ﷺ، وانسلاخها أى يكون القتال فيما عداها، سواء أكانت بعد انتهاء الثلاثة السرد أم بعد انتهاء رجب، أى لا قتال فى الثلاثة، ويجوز القتال بعدها إلى رجب، ثم يستأنف بعد رجب؛ وذلك ليكون الطريق إلى الحج مأمونا، ولتكون بين المتقاتلين هدنة ترجع فيها القضب إلى أجفانها، وتستيقظ العقول، ولقد قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ... (٢١٧)﴾ [البقرة].

ويقول تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ لأنه قد أصبح دمهم مباحا، فقد نقضوا العهد، ولم يدخلوا فى الإسلام، وقد تحدوا الله ورسوله، وأشركوا، والعلاقة فى أصلها كانت حربا انتهت بالعهد فنقضوه، وقد أعطاهم مهلة ساحوا فيها فى الأرض آمنين، ولم يحدثوا توبة ورجوعا إلى الحق، فلم يبق إلا القتال. وقوله تعالى: ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ يشمل الحل والحرم؛ لأنهم ممنوعون من المسجد الحرام، وهم مقاتلون، والله تعالى يقول: ﴿... وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ... (١٩١)﴾ [البقرة].

﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أى شدوا الوثاق، فقد أثختنموهم، وغلبتم عليهم فلكم أن تأسروا منهم من تشاءون، ﴿وَاحْصُرُوهُمْ﴾ أى امنعوهم من التقلب فى البلاد، وعن ابن عباس: أى امنعوهم من المسجد الحرام لا يدخلوه؛ لأن النبى ﷺ بأمر ربه قرر ألا يدخلوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا.

ثم قال تعالى: ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أى فى كل ممر، يعنى اتخذوا القتل والتتبع المستمر لهم فى كل ممر، وكل مرصد «ظرف» أى اقعدوا لهم فى كل مكان مترصدين لهم، لا ينجون منكم ما داموا على كفرهم، والله تعالى يفتح باب التوبة دائما، ولذا قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ التوبة هنا ترك الشرك، وذكر الله التوبة، وذكر بعدها إقامة الصلاة؛ وإيتاء الزكاة؛ لأن هذا يجعل الإيمان صادقا من غير نفاق وفيه خضوع لأوامر الله تعالى واتباع لأوامره، ونواهيه، ولأنه لابد للإيمان من شواهد. وقال فى جواب الشرط ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ أى افتحوا الطريق أمامهم، ولا ترهقوهم بقتل ولا أسر، ولا منع من البيت، وعن ابن عباس: دعوهم وإتيان المسجد الحرام.

وختم الله تعالى الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أى إن الله تعالى كثير المغفرة وكثير الرحمة، وقد أكد الله سبحانه وتعالى غفرانه ورحمته بـ «إنَّ» الدالة على التأكيد، وبالجملة الاسمية، وبصيغ الصفة المشبهة الدالة على الدوام والاستمرار لغفرانه ورحمته.

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ (٦) ﴾.

لقد أرسل محمد ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ داعيا إلى الحق وصراط مستقيم، ولم يرسل للقتال والغلب، وما كان القتال إلا لمنع الفتنة فى الدين، وتأمين الدعوة، ولذلك فتح الباب للدعوة فى كل الميادين، فى الحرب وفى السلم، فى العهد وفى نكث العهد على سواء، فأولئك الذين نكثوا عهودهم وأبيحت دماؤهم ـ يقتلون حيثما كانوا، وإذا جاء أحدهم يطلب جوار التجارة أو رسالة، أو لمجرد الأمان فإنه يجاب، ويكون فى أمن المؤمنين، حتى يسمع كلام الله ويفهمه ويتدبره، ثم يبلغ مأمنه، ولذا قال سبحانه: ﴿ **وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ** ﴾ ولقد قال النحويون إن كلمة (أحد) فاعل لفعل محذوف يفسره ما بعد (أحد)، ولأن (إنْ) لا تدخل على الاسم، فيقدر لها فعل، ويكون نسق القول، وإن استجارك أحد من المشركين، وهنا يسأل السائل لِمَ قُدِم أحد، واحتجنا لسياق النحو إلى هذا التأويل، والجواب عن ذلك، أن الاهتمام لهذا الترك أولا لا للاستجارة فى ذاتها؛ لأنه المقصود إذ هدايته مطلوبة أولا وبالذات، وليست الاستجارة هى المطلوبة، والاستجارة طلب الجوار بأن يعيش فى أمن دولة، والجوار هذا أمان مؤقت حتى يسمع كلام الله ويتفهمه ويتعرف معنى الوحدانية، وبطلان الشرك، ويسمعه النبى ﷺ تعاليم الإسلام من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وأعمال الخير والوفاء بالعهد والتراحم وغير ذلك من مبادئ الإسلام، وكلام الله تعالى إما أن نفسره بالمعنى الخاص، وهو القرآن الكريم، وسماع تلاوته وتفهم معانيه ومراميه، وذلك خير فى ذاته، وهو سجل الإسلام فى كلياته، وإما أن نفسره بمعناه العام وهو الإسلام؛ لأن أوامر الإسلام ونواهيه كلها ترجع إلى كلام الله تعالى لأنها منه، وما كان محمد ينطق عن الهوى.. ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ﴾ [النجم].

وبعد أن يسمع كلام الله تعالى، إما أن يؤمن وذلك خير، ويكون من المؤمنين، وإما أن يستمر على ما هو عليه، وهنا سيتبين الخلق المحمدى الإسلامى بأمر الله، ولذا قال تعالى آمرا نبيه ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ والعطف بـ (ثم) هنا فى موضعه إذ إن معناه أن يسمع ويتفهم ويتدبر ويعلم، ويعطى فرصة من الوقت يراجع نفسه فيها بين خير يرتجى، والبقاء على ما هو عليه، فإن اختار الخير، فقد اختار لنفسه، وإن اختار الأخرى فلا إكراه فى الدين، والمأمن هو مكان الأمن له حيث داره وأهله، وقوله تعالى: ﴿أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ معناه توصيله إلى حيث أمنه؛ بأن يصحبه أحد من المؤمنين حتى لا يدركه أحد فيقتله بمقتضى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾.

وإن ذلك لتقريب المشركين وتأليف قلوبهم، فلا يقرب إلى الإيمان شيء إلا تأليف القلوب بالمودة والحسنى، وليتمكن كل مشرك من أن يتعلم الإسلام ومبادئه، فالنبى هاد، ولم يجئ بالحرب إلا لمنع الشر من أن يستشرى ويفسد، ولذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ﴾ الإشارة إلى الأمان وسماع القرآن سماع وعى وتدبر واتباع للأحسن، وكله حسن، بسبب أنهم جماعة جاهلة، والجاهل يُعَلَّم فلا يسأل عن جهله حتى يعلَّم، والتعبير بـ (قوم) إشارة إلى أنهم جماعة جمعهم الجهل فكانوا كالقوم.

ولا شك أن هذا الجوار أمان مؤقت أعطاه الله تعالى نبيه عليه السلام باعتباره إمام المسلمين، فيُعطاه كل إمام من بعده، وقد أعطاه النبى ﷺ لكل واحد من المؤمنين، فقد قال ﷺ: «**المؤمنون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم**»(١) أى إن أقل المؤمنين شأنا يستطيع أن يؤمِّن من يشاء من المشركين، فكل بالغ عاقل ذكرا كان أو أنثى له أن يعقد عقد الأمان، والعبد له ذلك، وكان أبو حنيفة لا يجيز أمان العبد؛ لأنه يجوز عنده أن يؤسر شخص ويسلم فيؤمن من كان معه،

---

(١) سبق تخريجه.

ولكنه بلغه من بعد عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله تعالى ـ عنه أن عبدا أمَّن أهل حصن فأجاز أمانه، فكان من بعد ذلك يجيز أمان العبد إذا خرج للقتال مع مالكه، والله نعم المعين، ولقد روى عن سعيد بن جبير أنه جاء رجل من المشركين إلى على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ فقال: «وإن أراد الرجل بعد انقضاء الأجل أن يأتى محمدا ليسمع كلامه أو يأتيه لحاجة قتل؟ قال: لا؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾.

قال تعالى فى عهود المشركين:

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) ﴾.

بين الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية استبعاد أن يوفى المشركون بعهودهم، أو على الأقل بيَّن أنه لا يصح للنبى ﷺ ومن معه أن ينتظروا الوفاء من المشركين؛ لأنهم خانوا الله ورسوله، ومن يخُن الله ورسوله فهو قد استمرأ النفاق، والنفاق والوفاء بالعهد نقيضان لا يجتمعان، ومن أمارة المنافق أنه إذا وعد أخلف.

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ ﴾ الاستفهام للتعجب والاستنكار بمعنى النفى، فهذا إنكار للوقوع، أى كيف يتوقع عند الله ورسوله أن يفوا بعهدهم لهما، وإذا كانوا كذلك فليس من المعقول أن يوفى الله تعالى لهم بعهد؛ لأن العهود توجب حقوقا وواجبات متبادلة، فمن توقع عدم الوفاء وتأكد له النكث فى العهد، فليس عليه وفاء.

وقد نفى الله بهذا أن يكون عند المشركين وفاء بعهد لله ولرسوله، وبالمثل لا يتوقعون الوفاء بعهد نكثوا فيه من جانبهم، ولكن كان من المعاهدين من المشركين من يتوقع الوفاء، فهؤلاء لا يرد إليهم عهدهم، ولذلك استثناهم الله سبحانه وتعالى، وهو العادل فى قوله وحكمه فقال تعالى: ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ وهم عند ابن كثير أهل الحديبية، وقد وفى النبى ﷺ حتى

نقضوا العهد فأعانوا بنى بكر، وكانوا فى حلفهم على خزاعة، وكانوا فى حلف النبى ﷺ، واستغاثوا بالنبى ﷺ فأغاثهم وفتح، ولكن يلاحظ أن وقائع العهود كانت بعد فتح مكة، ولذا يجب أن يكون هؤلاء غير أهل الحديبية، ويجب أن تكون عهودهم بعد الفتح، وقد ذكر الزمخشرى أن منهم بنى كنانة وبنى ضمرة.

الاستثناء هنا فى معنى المنقطع، لأنهم مغايرون للأولين الذين كان منهم النكث، ولذلك ذكر الزمخشرى أن الاستثناء هنا بمعنى (لكن)، فهو استدراك وليس استثناء متصلا، وقد بين الله تعالى طريق معاملتهم فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ و«ما» هنا شرطية دالة على دوام الاستقامة فى الوفاء بالعهد إذا أقاموه على وجهه من غير خيس[(١)] فيه، ولا نقض لأى جزء من أجزائه، ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ أى فأقيموا العهد، والعهود كما قلنا حقوق وواجبات متبادلة.

وإن الوفاء بالعهد من التقوى، إذ هو يُرضى الله، ويقوى الأمة، وهو من أفضل الأخلاق، ولذا ختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

وهنا إشارة بيانية، وهى قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ﴾ فلماذا تكررت العندية مع أن ما يكون عهدا عند الله يكون عهدا عند النبى ﷺ. ونقول: إن تكرار العندية للإشارة إلى مقدار نكثهم للعهد، فهم نكثوا عهد الرسول، وتلك جريمة، ونكثوا عهد الله وهو العليم بذات الصدور، العليم بكل شىء.

---

(١) الخَيْس: نقض العهد، وعَنْ أَبِى رَافِعٍ قَالَ: بَعَثَتْنِى قُرَيْشٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُلْقِىَ فِى قَلْبِى الإِسْلامُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّى وَاللَّهِ لا أَرْجِعُ إِلَيْهِمْ أَبَدًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّى لا أَخِيسُ بِالْعَهْدِ، وَلا أَحْبِسُ الْبُرُدَ(جمع بريد، وهم الرسل) وَلَكِنْ ارْجِعْ فَإِنْ كَانَ فِى نَفْسِكَ الَّذِى فِى نَفْسِكَ الآنَ فَارْجِعْ» قَالَ: فَذَهَبْتُ ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِىَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَسْلَمْتُ، قَالَ بُكَيْرٌ: وَأَخْبَرَنِى أَنَّ أَبَا رَافِعٍ كَانَ قِبْطِيًا. رواه أبو داود: الجهاد(٢٧٥٨)، وأحمد: باقى مسند الأنصار-حديث أبى رافع رضى الله عنه (٢٣٣٤٥).

ويقول تعالى فى إثبات أنهم لا يصدقون فى عهد ما داموا ينكثون:

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

(كيف) هنا للاستفهام الإنكارى مع التعجب، وهى داخلة على ما دخلت عليه (كيف) السابقة. أى كيف يكون للمشركين عهد عند الله ورسوله والحال أنهم ﴿ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً ﴾...

يقال ظهر عليه إذا غلبه وانتصر عليه، وظَهَر الحائط أى علاه، وكقوله تعالى فى السدّ فى سورة الكهف: ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ ﴾.

و(الإلّ) يطلق بمعنى الحلف والعهد، ويطلق بمعنى الرحم والقرابة، ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ﴾ بأن ينتصروا عليكم لا يراعوا رحما ولا قرابة، ولا جامعة بينكم وبينهم، ﴿ وَلا ذِمَّةً ﴾، أى عقدا تربطون به دينكم، فهم يرضونكم بأفواههم لا بقلوبهم.

والمعنى الجملى، كيف يكون لهم عهد عند الله وعند رسوله وحالهم أن ذلك عهد لكم وأنتم أقوياء غالبون ظاهرون عليهم، فإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم رحما واصلة، ولا عهدا عاهدوه، فإن ذلك العهد كان لإرضائكم لا للوفاء، وهم ينقضون ذلك العهد عند أول فرصة يفترصونها، ويحسون فيها القوة، ولا عهد لذليل، وهذا عهد الأذلاء يعقدونه للإرضاء لا للوفاء، ولذا ختم الله تعالى الآية بقوله تعالى، وتعالت كلماته ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ فما أعدل الله تعالى فى كلماته، نسب الفسق وعدم انضباط النفس وانحلالها بحيث لا تصبر على العهد - إلى أكثرهم لا إلى كلهم، ولكن هذا الأكثر هو الغالب فيهم الذى أفسدهم وجعل فيهم رأيا عاما فاسدا، لا وفاء فيه ولا إيمان بحق ولا بعهد.

ولقد وصف الله تعالى عهدهم بوصف يدل على أنه عهد لا يبعث عليه إلا النفاق، فيقول عز من قائل: ﴿ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ ﴾ وهذا معنى

مصور لما انبعث به عهدهم، فهو عهد للإرضاء بالقول الذى ينقصه القلب ولا يؤيده، فهم يحاولون فيه الإرضاء بالأفواه فقط، وتأبى قلوبهم أى تمتنع عن الموافقة على ما تنطق ألسنتهم، وكيف يكون هذا عهدا عند الله علام الغيوب، وعند رسوله الذى يعرف قلوبهم من لحن القول، ولقد وصفهم تميم بن مقبل فى شعره، فقال:

أفسد الناس خلوف خلفوا　　　قطعوا الإلّ وأعراق الرحم

وقال حسان بن ثابت رضى الله عنه :

وجدناهمو كاذبا إلُّهم　　　وذو الإلّ والعهد لا يكذب

أوصاف المشركين فى عهودهم

قال تعالى:

﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟
عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ
فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾
فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ
فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟
أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓا۟
أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾

إن الصفة العامة فى المشركين أنهم غرتهم الحياة الدنيا والأمانى فيها، والأهواء ومتاع الحياة الدنيا، فكان الوصف العام أنهم اشتروا بآيات الله ثمنا

قليلاً، وآيات الله تعالى الدلائل الدالة على وحدانيته، إذ هو الذى خلق كل شىء بديع السموات والأرض، وأنه الواحد الأحد الفرد الصمد، وأنه وحده الجدير بأن يعبد ولا معبود بحق سواه، وقد بعث الله تعالى محمدا رسولا، مبشرا ونذيرا، ومعه القرآن الحجة الكبرى القائمة إلى يوم القيامة، كانت هذه الآيات كونية ومتلوة تدعوهم للإيمان، وعدم الشرك، ولكنهم تركوها، ولم يلتفتوا إليها، واستبدلوا بها هواءهم، ومتعهم من سلطان غرَّهم، وذلك ثمن بخس قليل لا يساوى شيئا بجوار ما تركوه من حق خالد.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾، أى باعوها بثمن هو عرض من أعراض الدنيا وهو قليل بجوار الحقائق الخالدة التى فيها الصلاح فى الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾، أى إنهم بسبب اختيارهم ذلك الثمن القليل، وتركهم ذلك الحظ الوفير من الحق وسلامة الفكر، والهداية والرشاد، قد عدلوا عن الطريق، وصدوا أنفسهم عنه، وصرفوا غيرهم منه، فصدوا عن السبيل القويم والهدى المستقيم.

ولقد بين سبحانه وتعالى الحكم الصادق عليهم، فقال تعالت كلماته: ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى إنهم بهذا العمل الذى تركوا فيه الآيات التى تلوح بالحق وتبينه قد ساء فعلهم الذى استمروا عليه، وهو يتجدد آنا بعد آن فهو فعل مستمر. ونلاحظ هنا ثلاثة أمور.

أولها: أن قوله تعالى: ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ فيه استعارة تمثيلية إذ شبه حالهم فى تركهم الحق الواضح البين الذى يأتى بأطيب النتائج والثمرات، بمن يترك بضائع قيمة فى مقابل ثمن بخس لا يجدى ولا يغنى.

ثانيها: بيان أن ترك الوفاء بالعهد لاتباع الهوى والخيانة وهو خسارة لا كسب فيها.

ثالثها: أن قوله تعالى: ﴿سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فيه معنى التعجب، أى ما أسوأ ما كانوا يعملون، وأن الفعل المضارع يدل على تجدد حالهم الفاسدة، و﴿كَانُوا﴾ دالة على دوام هذه الحال فيهم.

ثم بين سبحانه حالا عامة مستمرة فيهم فقال تعالى: ﴿لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠)﴾.

وهنا نجد النص السامى التفت من الخطاب إلى الغيبة؛ إذ كان فى الآيات ﴿لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً﴾، وهذا النص السامى ﴿لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً﴾ وذلك الوصف يؤذن بالعلة، أى أن السبب فى أنهم لا يرعون رحما، ولا عهدا، هو الإيمان، فالإيمان الحق والإذعان لله تعالى وتوحيده هو السبب فى أنهم لا يراعون فيكم رحما واصلة، ولا مودة راحمة، ولا عهدا يعاهدونكم فيه، إنه إيمانكم هو الذى صرفهم إلى النكث فى العهود.

وإنه إذا كان الحق هو الذى جعلهم ينكثون فى عهودهم ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾.

الإشارة فى (أولئك) إلى أوصافهم فى أنهم لا يراعون قرابة ولا عهدا، يقطعون القرابة وينقضون الميثاق، والإشارة إلى هذه الأوصاف تومئ إلى أنها علة الحكم، وهو الحكم عليهم بالاعتداء، فقد اعتدوا على الحق فى ذاته، واعتدوا على القرابة التى لم يراعوها حق رعايتها، ونكثوا فى أيمانهم، وذلك أعظم اعتداء.

وقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ فيه تأكيد الاعتداء من وجوه:

أولها ـ فى التعبير بالإشارة المتضمن لصفاتهم التى هى سبب الحكم.

ثانيها ـ ضمير الفصل الذى يؤكد الحكم.

ثالثها ـ القصر بالحكم بأنهم المعتدون وحدهم؛ لأن تعريف الطرفين يدل على الاختصاص، أى أنهم اختصوا بالاعتداء، وليس بمعتد عليهم من لا يأخذ بعهدهم.

ومع هذا الاعتداء فإن باب التوبة مفتوح لم يغلق، ولذا قال تعالى:

﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) ﴾.

(الفاء) هنا لترتيب نسق القرآن. وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ وقد قرن إقامة الصلاة وأداء الزكاة؛ لأنها أمارات الإيمان العملية، ولكى يخرج الكافر مما كان عليه لا بد من مظهر عملى دال على الخروج مما كان عليه، فإنه كان يسجد للأوثان، ويتصدق على سدنتها، فكان حقا أن يكون منه نقيض ذلك بأن يسجد لله بإقام الصلاة، وأن يتصدق على الفقراء، ولذلك اشترط أبو حنيفة للإيمان ألا يكون منه ما يدل على بقائه على دينه الجديد.

فكانت إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة دليلا على انخلاعه من دينه القديم، وأن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة تثبت الإيمان، وبيان الإذعان الكامل لما أمر الله تعالى به، ونهى عنه.

وعندما كانت الردة عقب انتقال النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى كان أبو بكر لا يقبل من المرتدين مجرد التوبة والإنابة إلى الله تعالى، لا يقبل التوبة إلا إذا كان معها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وكان منهم من أقام الصلاة، ولم يعط الزكاة، فلم يقبل منهم أبو بكر واعتبرهم لا يزالون على ردتهم، وذلك أولا: لأنه قرن كل توبة بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. وثانيا لأن إعطاء الزكاة أمارة الخضوع للدولة الإسلامية، وعدم التمرد عليها، ولذا قال رضى الله عنه ردا على من لم يعط الزكاة «سلم مخزية أو حرب مجلية». وذلك حق لكى تقوم الدولة الإسلامية موطدة الأركان ثابتة الدعائم غير مضطربة ولا مزلزلة، وجواب الشرط ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ هو قوله تعالى: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أى فقد دخلوا فى الإسلام، وصاروا إخوانكم، وعبَّر بقوله تعالى: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ للإشارة إلى أنهم دخلوا فى الأخوة الإسلامية، وهى عهد الله الجامع الذى لا تفرق فيه، ولا تتجافى القلوب بل تتواد وتتراحم بعرى الإيمان الوثيقة.

ولقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «من فرق بين ثلاث فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة: من قال: أطيع الله ولا أطيع الرسول، والله تعالى يقول: ﴿... أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ... (٥٩)﴾ [النساء]، ومن أقام الصلاة ولم يؤد الزكاة والله تعالى يقول: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ... (٤٣)﴾ ومن فرق بين شكر الله وشكر والديه والله تعالى يقول: ﴿... أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ... (١٤)﴾ [لقمان][(١)].

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: **«من فارق الدنيا على الإخلاص لله وعبادته لا يشرك به شيئا، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة فارقها والله عنه راضٍ، وهو دين الله الذى جاءت به الرسل، وبلغوه عن ربهم»**[(٢)].

وقد ختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، أى نبين آيات الله لقوم يعلمون، أى من شأنهم أن يعلموا الحقائق، ويدركوا مراميها وغاياتها.

وبعد أن بين الله سبحانه حال الذين ينخلعون من عبادة الأوثان، ويتوبون لله ويرجعون إليه ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، بين ما يعامل به الذين يستمرون فى غيهم، وينقضون عهودهم ويطعنون فى الدين وما يعاملون به، فقال تعالى:

---

(١) ورد فى الصحيحين عن أبى هُرَيْرَةَ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا تُوُفِّىَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنْ الْعَرَبِ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّى مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ» فَقَالَ: وَاللَّه لأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاة وَالزَّكَاة، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِى عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهَا، قَالَ عُمَرُ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ: فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلا أَنْ قَدْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ أَبِى بَكْرٍ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ. رواه البخارى: الزكاة- وجوب الزكاة(١٤٠٠)، ومسلم: الإيمان- الأمر بقتال الناس حتى يقولوا(٢٠).

وروى الترمذى: البيوع- ما جاء فى كراهية الفرق بين الأخوين، أو بين الوالدة وولدها(١٢٨٣)، كما رواه أحمد والدارمى.

(٢) رواه ابن ماجه فى سننه: المقدمة- فى الإيمان (٧٠).

﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ (١٢) ﴾.

النكث: النقض للشيء المفتول بفكه بعد أن أحكم فتله، وقوله: ﴿أَيْمَانَهُم﴾ أى عهودهم، وذكرت الأيمان وهى جمع يمين بدل العهود؛ لأنها تقوى وتوثق بالأيمان، ولأن نقض يمين أشد شناعة وأدل على انحلال النفس والذمة، وبُعد الثقة فيهم، وقال تعالى: ﴿مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ الذى عاهدوه ووثقوه بأيمان الله. ولم يكتفوا بنكث الأيمان ونقض العهود، بل طعنوا فى دينكم وبسب النبى ﷺ بالطعن فى عقيدة التوحيد التى هى من الدين.

وإن موضوع الآية فيه تخريجان أحدهما: أن موضوعها الذين دخلوا فى الإسلام، وارتدوا ونقضوا أيمانهم. ويقول الزمخشرى فى ذلك: صاروا إخوانا فى الدين ثم رجعوا فارتدوا عنه ونكثوا ما بايعوا عليه من الأيمان، والوفاء بالعهود وقعدوا يطعنون فى دين الله ويقولون ليس دين محمّد بشىء فهم أئمة الكفر وذوو الرياسة والتقدير فيه.

وعلى ذلك يكون الذين نكثوا هم الذين كانوا قد أعلنوا التوبة ثم ارتدوا بعد إسلام.

وإنا نرى أن هؤلاء غير الذين تابوا وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وكانوا إخوانا للمؤمنين، وإنما موضوع الآية قوم آخرون نكثوا عهودهم التى وثقوها بالأيمان، ولم يكتفوا بذلك، بل أخذوا يطعنون فى الدين، ويفترون عليه الافتراءات المختلفة.

وإن هؤلاء يقاتلون، ولذا قال تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ وأظهر فى موضع الإضمار، ولم يقل فقاتلوهم، وكان ذلك الإظهار لبيان أن هؤلاء أئمة الكفر وقادته ودعاته، والمحاربون للدعوة الإسلامية، وإن ذلك يسوغ قتالهم لمنعهم من أن يفتنوا المؤمنين فى دينهم.

وبين سبحانه وتعالى السبب فى قتالهم فقال: ﴿إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾، أى إنهم لا عهود لهم، ولو وثقوا بالأيمان فلا أيمان لهم، وقرئ بكسر الهمزة (لا إيمان لهم)(١)، أى أن نفوسهم منحلة لا يجزمون بشىء ولا يذعنون لشىء، لا بعهد قطعوه على أنفسهم، ولا غيره، بل هم جائرون بائرون ليس عندهم شرف الوفاء العربى، والاحتفاظ بالكلمة.

ثم قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ أى رجاء أن ينتهوا عن غيهم، ويقمعهم إرهاب السيف، ومن لم تقنعه الحجة والبرهان والآيات تتلوها الآيات، فالحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس.

هذا وقد استنبط الفقهاء من هذه الآية بأن الذّمى أو الحربى إذا طعن فى الإسلام يقتل، فليعتبِر الذين حماهم الإسلام من ذل الرومان، وقد دأبوا على الطعن فى النبى ﷺ، والقرآن والإسلام حتى صار الإسلام غريبا فى بلاده، اللهم هب للمسلمين حاكما ينفذ القرآن، وقد كان الصحابة يقتلون من يسب النبى ﷺ ولو بالتعريض.

يروى فى ذلك أن رجلا فى مجلس على كرم الله وجهه قال: ما قتل كعب ابن الأشرف إلا غدرا، وكان النبى ﷺ أوصى بقتله فأمر عليا بضرب عنق قائل ذلك القول.

وقاله آخر فى مجلس معاوية فما فعل شيئا، فقام محمد بن مسلمة فقال: أيقال هذا فى مجلسك وتسكت!!، والله لا أساكنك تحت سقف أبدا.

ولا عجب، فعليّ فارس الإسلام، وقامع الكفر، ومعاوية الطليق ابن الطليق، وقد ابتدأت غربة الإسلام فى عهده، اللهم أعز الإسلام وآوه بعد غربته.

---

(١) قراءة (لا إيمان) بكسر الهمزة، أول موضع للقراءات المتواترة فى سورة التوبة، وبها قرأ ابن عامر، وقرأ الباقون: (لا أيمان) بفتح الهمزة. غاية الاختصار فى قراءات العشرة أئمة الأنصار- الهمذانى العطار- تحقيق الدكتور أشرف محمد فؤاد طلعت- مكتبة التوعية الإسلامية[ج٢، ص٥٠٧، برقم (٩٧٤)].

قتال المشرك عبادة

قال تعالى:

﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

هذه الآيات الكريمة تحريض على قتال المشركين الذين لم يوفوا بعهودهم، وآذوا النبى وأصحابه بمكة وأرادوا إخراج الرسول، وبدءوهم بالقتال.

فقالى تعالى: ﴿أَلا تُقَاتِلُونَ﴾ و(ألا) أداة تحريض، وأصلها همزة الاستفهام دخلت على (لا) النافية، والاستفهام إنكارى بمعنى نفى الواقع، فالمعنى قاتلوا قوما كانت منهم هذه الأفعال. قال الزمخشرى فى معنى (ألا) دخلت الهمزة على (لا تقاتلون) تقريرا بانتفاء المقاتلة، ومعناه: الحض عليها على سبيل المبالغة.

وقد بين الله تعالى أسباب الحض على القتال من أعمال المشركين الذين قاموا بها، فذكر هذه الأعمال على أنها مبررة لوجوب القتال، ووبخهم على السكوت مع هذه الأعمال، وهى النكث فى العهد فقال: ﴿أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ نقضوا عهودهم، ويشير سبحانه إلى نقضهم معاهدة الحديبية، فقد نقضوها بمعاونة بنى بكر الذين كانوا فى عهدهم مع خزاعة الذين كانوا فى حلف

النبى ﷺ ،فكان ذلك نقضا للعهد، ونقض العهود مفسد للعلاقات، وقاطع للمودة التى أنشأها العهد، ومن ينقض العهد لا حرمة له بهذا العهد، ومن يرضى بأن ينقض عهده فى حليفه، فهو يرضى بالذلة ولا يرضى بالمذلة عزيز كريم.

وهموا بإخراج الرسول فهم فى مكة آذوا المسلمين وعذبوا الضعفاء، وسخروا من الشرفاء، حتى خرجوا مهاجرين إلى الحبشة مرتين، وقد كان هذا الإيذاء المتوالى إخراجا للمؤمنين، ولقد قال تعالى: ﴿ ... **يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ**... ﴿١﴾ ﴾ [الممتحنة]، وإن هذا الاستفزاز الشديد الذى لقيه النبى وأصحابه كان لإخراجهم من مكة، كما قال تعالى: ﴿**وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا** ... ﴿٧٦﴾ ﴾ [الإسراء]. ثم كانت إرادة الخروج واضحة على أنها إحدى الخصال التى عرضوها فى ندوتهم إذ يقول الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال].

والحال الثالثة التى كانوا عليها وكانت، أنهم الذين بدأوا أول مرة، أى بدءوا بالمنابذة والمحاربة أول مرة من الاعتداء، ولم يذكر أنهم بدءوا بالقتال؛ لأنهم بدءوا العداوة التى كان القتال من صورها. لقد ابتدءوا بالعداوة عندما جاءهم الرسول بالقرآن نور الله تعالى وبرهانه، فبدل أن يجادلوه بالتى هى أحسن صدوه، وآذوه، وفتنوا المؤمنين فى دينهم، والفتنة أشد من القتل، ثم أغروا به سفهاءهم، وحالوا بينه وبين الدعوة، وبين إقامة دولة إسلامية، وبدأوا بالقتال فى غزوة بدر الكبرى، فبعد أن نجا عيرهم صمموا على القتال، وأن يجيئوا إلى بدر بالخمور والقيان، والقتال.

ثم هم الذين بدأوا بالقتال ونقضوا صلح الحديبية بإعانتهم لبنى بكر على خزاعة وقتلهم فى البيت الحرام، كان منهم كل هذا: نكث للعهد، وإيذاء شديد فى الماضى وفتنة، وقتال ابتدأوه فى عدة مرات، فهل يسكتون عليهم ألا يقاتلونهم، ثم حرضهم الله تعالى أبلغ تحريض، فقال ﴿**أَتَخْشَوْنَهُمْ**﴾ أى أيمنعكم

من قتالهم أنكم تخشونهم، أى تخافونهم فزعين من قتالهم. ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ والله أحق أن تخافوه وتفزعوا من غضبه، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أى إن كان الإيمان شأنا من شئونكم، وصفة من صفاتكم، فإن المؤمن لا يخشى إلا الله، ولايقدر فى أموره كلها إلا رضا الله والخوف من غضبه وعذابه.

وقد صرح سبحانه وتعالى من بعد ذلك التحريض الذى يثير الهمم، ويثبت أن قتالهم حق على كل مؤمن - بالأمر بالقتال وذلك بعد أن بين أنه حق كامل.

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥)﴾.

بعد أن بين الله تعالى بواعث القتال من نكث العهد، وإخراج النبى والمؤمنين، وبدئهم بالفتنة، والفتنة أشد من القتل، وبدئهم بالقتال، إذ هاجموا فى بدر من غير ضرورة تلجئهم، ولا حاجة تدفعهم إلا أن تكون كراهة لدينكم، وبدئهم بمعاونة بنى بكر على خزاعة.

بعد هذا بين ثمرات القتال: فقال تعالت كلماته: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ وذلك بالإثخان فيهم، وصرح بقوله بأيديكم، أى أنها عذاب لهم تتولونه أنتم، فقوله (بأيديكم) يراد بأنفسكم، وهذا مجاز مرسل علاقته الجزئية، وعبر بالأيدى لأنها هى التى بها البطش،وهى التى تحمل السيوف والرماح والنبال.

وكان العذاب فى الدنيا بأيدى أهل الحق لردع أهل الباطل، وكسر شوكته، ولكيلا يستشرى الشر، وتستعلى الرذائل وتنخفض الفضائل ﴿... وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ... (٤٠)﴾ [الحج] لهذا كان لا بد من عذاب الدنيا، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم.

﴿وَيُخْزِهِمْ﴾ بالأسر، والتتبع فى الأرض، وذهاب سطوتهم وقوتهم، وانخلاع العرب من ربقتهم، وذهاب سلطانهم المادى والأدبى.

﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾، فإن النصر بيد الله، ﴿... وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ... ⁽⁴⁰⁾﴾ [الحج]، ونصرة العبد لله بإطاعة أوامره، ومنها الأمر بالقتال، وجعل كلمة الله هى العليا، وكلمة الكفر هى السفلى، ولا يكون النصر من الله إلا إذا اتخذت أسبابه من العبد واحتسب النية.

﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾. ذلك أن قلوب المؤمنين إذا رأت الكفر ناتئ الرأس، ولم يكن من يقمعه، ويرد كيده فى نحره عراها الشك أو التردد، أو محاولة تَعَرُّف الحكمة فى إهمال الكفر، وتركه فى عنفوانه وإيذائه، فإذا نصر الله المؤمنين شفيت صدور قوم مؤمنين، وخرج ذلك التردد، وذهبت عنها تلك الحيرة، فالله ـ بقتال المؤمنين لأهل الكفر ـ يشف تلك الصدور المؤمنة من تلك الحيرة الممضة التى قد تثير الريب، ومن ذلك الحزن والموجدة، وفيه إشارة إلى الوعد بالفتح.

﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ الضمير فى قوله غيظ قلوبهم يعود إلى الذين تحتاج صدورهم إلى شفاء بنصر مؤزر يدفع الباطل ويزهقه، ويرفع الحق ويعليه، والغيظ انفعال النفس بالألم من رؤية الباطل عاليا والحق مستكينا أو مستخذيا، فإذا انتصر الحق وعلا، ذهب ذلك الغيظ، واستقامت النفس على سواء الصراط، وارتاحت الضمائر المؤمنة.

وعبر الله فى الغيظ بقوله تعالى: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ لأن الغيظ ليس داءً، ولكنه حال عارضة من أمر قابل للزوال، والنصر يزيله وفيه إشارة إلى حصول الوعد.

أما التردد والحيرة، وبوادر الشك، فأمراض تلازم النفوس المريضة فعبر عن زوالها بالشفاء؛ لأنها أمراض الإيمان، والله هو الذى يشفيها، ويودعها الاطمئنان.

وإن الحرب التى تختبر فيها النفوس، ويذهب فيها غرور الذين يغترون بأصنامهم، ويحسبون أنها تنصرهم فى الشديدة وتغيثهم فى الكريهة من شأنها أن تجعل النفوس تفكر فيما هى عليه، وفيما عليه الذين يحاربونها، فيعرفون الغث

من السمين، والحق من الباطل، ويتعرفون ما عليه آلهتهم التى يزعمونها، وما نصر به الإله الحق أولياءه المؤمنين فيهتدون بعد ضلالة، ولذا قال الله إن من آثار الحرب التى يدك فيها الشر أن يتوب الله على من يشاء من عباده، فقال تعالى: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ أى أنهم يحسون بقوة الحق، وضعف ما هم عليه من كفر، وضلال فى الأوثان فيتوبون أى يرجعون إلى الله بعد أن بعدوا عن الإيمان، والآية تشير إلى أن هذه التوبة فيض من الله عليهم وصلوا إليها بعد أن ذهب غرورهم بما هم عليه من عبادة الأصنام.

وختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يعلم النفوس وما يهديها، وما يوجهها، إلى الحق، حكيم يضع الأمور فى مواضعها، ويدبرها بحكمته، وهو العزيز الحكيم.

قال الله تعالى:

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۖ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا﴾ . .

(أم) هنا للإضراب الانتقالى من باب فى الجهاد وتحريض عليه إلى باب الاختبار بالجهاد وتمحيص المخلصين من غير المخلصين، والهمزة فى «أم»

للاستفهام التوبيخي على حسبانهم وظنهم أنهم يتركون من غير تمحيص، واختبار وكشف المجاهدين من غيرهم، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) ﴾ [العنكبوت]، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) ﴾ [البقرة] وكقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ... (١٧٩) ﴾ [آل عمران].

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾ لما للنفى فى الحاضر مع توقع الوقوع فى القابل، ونفى العلم هو نفى المعلوم؛ لأن الله عليم بكل شىء بما كان، وما يكون، والمراد نفى العلم بالجهاد واقعا، وإن كان متوقعا، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) ﴾ [آل عمران].

وإن الجهاد جهادان: جهاد بلقاء الأعداء، واشتجار السيوف، وجهاد آخر بتنقية الصفوف من الأعداء والدُّخول ومنع الولاية لغير المؤمنين، ولذلك عطف ﴿الَّذِينَ جَاهَدُوا﴾، وهو وصف آخر بقوله: ﴿لَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ الوليجة الحاشية البطانة، أى جاهدوا ولم يتخذوا من الله والرسول والمؤمنين وليجة أى بطانة يسرون إليهم بالمودة، وتكرار لا لتأكيد البعد عن أن يتخذوا من غير هؤلاء بطانة لهم.

و(وليجة) من ولج بمعنى دخل، ومعنى وليجة: دخيلة مودة وبطانة من دون الله، وهم يحادون الله ورسوله والله تعالى يقول: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ... (٢٢) ﴾ [المجادلة]. ولقد قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا

بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ... ﴿١١٨﴾ ﴾ [آل عمران].

وقد ضعف شأن المسلمين من وقت أن اتخذ ملوك بنى أمية ومن جاء بعدهم من اليهود والنصارى بطانة كانت تدس بين المؤمنين، وتثير الفتن، بينهم حتى أدخلوا فى الدين ما ليس منه.

ولقد ختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أى إن الله عليم علما دقيقا بما تعملون من ظواهر أيمانكم وبواطنها.

ولقد حرم الله تعالى على المشركين أن يدخلوا المسجد الحرام من بعد العام التاسع، وربما كان منهم من يدعى أنه يعمر المسجد الحرام فنهى عن ذلك أيضا، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُوْلَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ أى ما ساغ وما استقام للمشركين أن يعمروا مساجد الله، وعمارة المساجد بإقامة الشعائر فيها، وتشييد بنيانها، وهنا قراءتان قراءة «مسجد» الله تعالى وهو البيت الحرام؛ لأنه أول بيت بنى للعبادة وهو أعظم المساجد، وإذا ذكر المطلق انصرف إلى الفرد الأعظم، وبيت الله الحرام هو الفرد الأعظم فى المساجد، وهناك قراءة أخرى بالجمع «مساجد الله» وهى قراءة حفص، وبها قرئت (مساجد)، وتخرج على أن المراد المسجد الحرام، والجمع؛ لأن كل بقعة منه مسجد ولأنه إمام المساجد، فهو قبلة المسلمين، وكل مسجد له تابع. أو يراد جنس المساجد كما تقول: فلان لا يقرأ الكتب تريد جنس الكتب لا تريد واحدا بعينه، وإنه ليس للمشركين عمارة المساجد؛ لأن عمارة المساجد إقامة الشعائر فيها كما ذكرنا وعمارتها بعبادة الله وحده، وليس من عبادتها إحاطتها بالأصنام، والطواف عراة، وغير ذلك من المحدثات التى ليست من العبادة فى شىء.

وقوى الله سبحانه وتعالى نفى أن يعمروا المساجد بقوله تعالت كلماته ﴿شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾ أى حال كونهم شاهدين على أنفسهم بالكفر أى بعبادة الأصنام وهو كفر لا ريب، فإن هذه الحال مناقضة تمام المناقضة للعمارة الحقة للمساجد بأن يعبدوا الله حق عبادته، ولا يشركوا به شيئا، وقد بين الزمخشرى هذه المناقضة فضل بيان فقال: غفر الله تعالى له: «ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متناقضين عمارة متعبدات الله تعالى مع الكفر بالله تعالى وبعبادته، ومعنى شهادتهم على أنفسهم بالكفر ظهور كفرهم، وأنهم نصبوا أصنامهم حول البيت، وكانوا يطوفون عراة ويقولون: لا نطوف عليها بثياب قد أصبنا فيها المعاصى، وكلما طافوا بها شوطا سجدوا للأصنام».

وإنه لما التقى الأسرى من قريش بالمهاجرين أخذ هؤلاء يعيرونهم بأنهم قطعوا الرحم، فقال علي كرم الله وجهه لعمه العباس يعاتبه لقتال ابن أخيه محمد ﷺ، وقطيعة الرحم، وأغلظ فى القول فقال العباس: «تذكرون مساوئنا ولا تذكرون محاسننا، فقال علي: ألكم محاسن؟ قال نعم: إنا لنعمر المسجد، ونحجب الكعبة، ونسقى الحجاج ونفك العانى.

وقيل إن هذا سبب نزول هذه الآية، وفى الحق إنه كان فى الجاهلية بعض أعمال ولكن يذهب بها كلها الشرك، فمن يعمل ابتغاء مرضاة الله الواحد غير مفاخر، ولا معتز بعصبية يكون عمله لله ولا يكون مشركا أحدا بالله فى عبادة قط، ومن يعمل مفاخرا معتزا بعصبيته، غير معتز بالله، فعمله فى هباء، ولذلك قال تعالى: ﴿أُوْلَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾، الإشارة إليهم متصفين بالكفر البادى من كل أعمالهم من عبادة الأصنام، والطواف عراة، وما يكون من أعمالهم فيه بعض النفع خلطوا به نية المفاخرة، والعصبية الجاهلية، والإشارة إلى الصفات تفيد سبب الحكم، وهو حبوط أعمالهم ودخولهم النار، وحبوط الأعمال بطلانها وعدم إنتاج ثمرتها، والحبوط يفيد البطلان الذى يكون ناشئا من ذات العمل، فبطلان أعمالهم ناشئ من ذاتها؛ لأنها لا تصحبها النية الطيبة المؤمنة بالله تعالى ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ

خَالِدُونَ﴾ قدم الجار والمجرور (فى النار) لاختصاصهم بالنار لا يدخلون غيرها وتأكد ذلك الحكم بضمير الفصل (هم).

هذا وإن المساجد كما أشار الله سبحانه وتعالى بيوت الله، ولا تعمر إلا بالعبادة الخالصة لله. وهى مأوى المؤمن فى الدنيا، ولذا قال ﷺ فيما رواه معاذ ابن جبل رضى الله عنه «إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية، فإياكم والشعاب، وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨)﴾(١).

(إنما) للحصر، فهى أداة من أدوات القصر، والمعنى: «لا يعمر مساجد الله إلا من آمن بالله...» والعمارة كما ذكرنا بالعبادة فيها حق العبادة، بأن يعبد الله وحده لا شريك، وأن يقوم بترميم وإصلاح ما وهى منه، وإذا كان المشركون يفعلون ذلك فإنهم بإشراكهم يبطلون ما صنعوا، وإن العمارة للمساجد نوعان أحدهما: معنوى، وهى عمارتها بالعبادة وإقامة شعائر الدين، والثانى: مادى، وهى ترميم ما يحتاج الترميم وتنظيفها وإضاءتها بالمصابيح، وغيرها مما يتصل ببنائها، وإنه لا يفعل الأمرين إلا الموحدون الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويغشونها لإقامة الدين وجمع المسلمين وسماع القرآن الكريم، ومواعظ رب العالمين، وهدى الرسول الأمين.

ويلاحظ أنه ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر، فالإيمان بالله الواحد الأحد هو الدين أو لبه، والإيمان باليوم الآخر هو فيصل الإذعان والتمرد، وفيصل الإيمان بالغيب والجحود به؛ إذ لا يكفر به إلا من لا يؤمن إلا بالمحسوس.

---

(١) رواه أحمد: مسند الأنصار ـ حديث معاذ بن جبل. رضى الله عنهم (٢١٥٢٤).

وقد يسأل سائل: لماذا لم يذكر الرسول والإيمان به؟ والجواب عن ذلك أن الإيمان بالله يوجب أن يؤمن بالرسالة الإلهية، فالإيمان بالله يستلزم لا محالة الإيمان بالرسول الذى بعث رحمة للعالمين، ولأن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هى التى جاء بها الرسول الكريم، وهو الذى علمه الرسول، فالعمل بها يتضمن لا محالة الإيمان بالرسول، فهذا عمل يتضمن علما؛ ولأن الإيمان بالله يقترن به دائما الإيمان بالرسول فكان الإيمان بالرسول معلوما من غير إعلام، وبينا من غير بيان.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ ومعنى الخشية الخوف المقترن بالخضوع والخشوع، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ أى لم يخش خوف خضوع وتذلل ومحبة إلا الله، فلا يخاف غيره من رئيس يرهب، أو صنم يعبد ولا يذل لكبير، ولا لصنم، ولا يخضع لأحد غير الله.

قال الزمخشرى: فإن قلت: كيف قيل ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ والمؤمن يخشى المحاذير لا يتمالك ألا يخشاها. قلت: الخشية والتقوى فى أبواب الدين، وألا يختار على رضا الله رضا غيره لتوقع مخوف، وإذا اعترضه أمران أحدهما حق الله، والآخر حق نفسه فيؤثر حق الله على حق نفسه، وقيل كانوا يخشون الأصنام ويرجونها وأريد نفى ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰ أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، و(أولئك) إشارة إلى صفات هؤلاء من إيمان بالله واليوم الآخر، وإقامة الصلاة وإيتاء للزكاة، وألا يخشوا إلا الله، والإشارة إلى الصفات إيماء إلى أن هذه الصفات هى السبب فى رجاء الهداية.

ومؤدى ذلك أولا: أن المشركين ليس لهم أن يكونوا من المهتدين؛ لأنهم لم يؤمنوا بالله ولا باليوم الآخر، ولا يخشون غير الله، ولا يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة.

والرجاء من هؤلاء المؤمنين لأنهم قدموا ما يسوغ هذا الرجاء، وذكر الرجاء لمنع الاغترار، فإن الاغترار قد يدلى بالغرور، فيفسد التقرب، ولقد قال بعض الصوفية: إن معصية أورثت ذلا وانكسارا خير من طاعة أورثت دلا وافتخارا.

وإن الآية تشير إلى فضل عمارة المساجد بالعبادة، وتنظيفها من الأوساخ الحسية والمعنوية بالمنع من لغو الحديث فيها، وعن النبى ﷺ «يأتى فى آخر الزمان ناس من أمتى يأتون المساجد فيقعدون فيها حلقا، ذكرهم الدنيا وحب الدنيا، لا تجالسوهم، فليس لله بهم حاجة»(١) وقال عليه الصلاة والسلام: «الحديث فى المساجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش»(٢)، وقال عليه السلام فى حديث قدسى عن ربه: «إن بيوتى فى أرضى المساجد، وإن زوارى فيها عمارها، فطوبى لعبد تطهر فى بيته ثم زارنى فى بيتى، فحق على المزور أن يكرم زائره»(٣)، وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «من ألف المسجد فقد ألف الله»(٤)، وقال عليه الصلاة والسلام: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان»(٥)، وعن أنس رضى عنه: من أسرج فى مسجد سراجا لم تزل الملائكة وحملة العرش تستغفر له ما دام فى ذلك المسجد ضوؤه.

---

(١) رواه الطبرانى في الكبير، وفيه: بزيغ أبو الخليل، ونسب إلى الوضع. كما فى مجمع الزوائد (٢٠٤).

(٢) ذكره أهل التفسير، منهم الرازى، وأبو السعود، والألوسى، والزمخشرى، دون إسناد.

(٣) «رواه الطبرانى عن ابن مسعود».

(٤) رواه الطبرانى فى الأوسط عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه. كنزالعمال: ج١٠- ص ١٤٨٨، وذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب: ج١-ص١٣٧ برقم(٤٩٨)، وضعَّفه بابن لهيعة.

(٥) رواه ابن ماجه: المساجد والجماعات- لزوم المساجد وانتظار الصلاة(٨٠٢)، والدارمى: الصلاة- المحافظة على الصلوات(١٢٢٣)، كما رواه الترمذى: الإيمان(٢٦١٧) بلفظ(يتعاهد)، وأحمد: باقى مسند المكثرين(٢٧٣٠٨) بلفظ «المسجد».

وقد نقلنا هـذه الأخبار فى آداب المسـجد، وعمـارته ونظافتـه وإضاءته من الكشاف للزمخشرى، وهى تدل على أمرين: أولهما: أن عمارة المسجد تكون أولا بالعبادة فيه، وبعده عن لغو الحديث، وثانيهما: العناية به وبإسراجه.

فضل الإيمان والجهاد

قال تعالى:

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ
الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾
يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا
نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ
عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

كان المشركون بمكة يفاخرون دائما بأنهم سدنة البيت الحرام يسقون حجيجه، ويعمرونه بالتنظيف والتشييد، والقيام على شئونه وما يحتاج إليه من عمارة، وهم أهل جواره الذين يـستقـبلون الناس ويتطاولون على الناس بهذه المكـانة، حتى إنه ليروى أن العبـاس بن عبد المطلب رضى الله عنه كان يقول قبل إسـلامه أو قبل أن يظهـر إسلامـه لابن أخيـه علي بن أبى طالب: تذكـرون مسـاوئنا ولا تذكـرون محاسننا، كنا نسقى الحجيج ونعـمر البيت، ونطعم الطعام، ونأوى العانى. بل إنه

يروى أن بعضهم قال لليهود الذين كانوا يمالئونهم على النبى ﷺ: أينا خير أنحن الذين نقوم بالسقاية والسدانة، ونطعم الطعام، أم محمد؛ فيقول لهم اليهود الذين لم يجر على ألسنتهم قول الحق قط: أنتم.

يقول الله تعالى موبخًا مستنكرا ﴿**أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ والمعنى أصيرتم سقاية الحاج، أى جنس الحاج وهم الحجيج، وعمارة المسجد الحرام، أى تنظيفه والقيام على بنائه وتشييده، كإيمان من آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله.

وقال أكثر المفسرين: إن فى الكلام تقديراً لمحذوف تقديره: أجعلتم أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، وقالوا إنه يدل عليه قراءة (سُقَاة)[1] بضم السين وهى جمع ساقٍ، ويكون المعنى على هذه القراءة: أصيرتم سقاة الحجيج، وأهل عمارة البيت الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر، وجاهد فى سبيل الله تعالى، والاستفهام إنكارى توبيخى متضمن النفى وأن ما صنعوا لا ينبغى لأهل العقول المدركة، والآيات تتلى عليهم بالحق المبين ليتدبروه فينكصون عنه، ويسمرون بهجر القول، ويتفاخرون بشعر العرب، كما قال تعالى: ﴿**قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ (٦٧)**﴾ [المؤمنون]، أى يهجرون القرآن، وكانوا يسمرون بالأساطير والخرافات ويهجرون القرآن هجرا.

وقد أجاب سبحانه وتعالى عن الاستفهام التوبيخى مبينا الحق ﴿**لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ**﴾ فمقامهم عند الله مختلف مقام المجاهد المؤمن بالله واليوم الآخر، مقام عالٍ، لا يناصى، ومقام المشرك الذى يكتفى من الشرف بالسقاية والعمارة المادية، ويظن ذلك مقربًا إليه زلفى، وهو يشرك بالله فى عبادته الأنداد. إنهم تركوا الجوهر وناقضوه، وأخذوا بمظهر باطل لا يغنى عن الحق شيئا.

---

(١) ليست فى العشر المتواترة.

وقد بين جزاء الأعلياء المفضلين من بعد، وبين هنا ضلال المشركين، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ والظالمون هم المشركون، وقد سمى الله الشرك ظلم، لأن المشرك ظلم الحق فعبد أوثانا لا تضر، وظلم العقل المدرك فطمسه، وظلم نفسه فتردى بها فى مهاوى الضلال، وطمس الحق، وإن الله لا يهدى الذين أركسوا أنفسهم فى هذا، لأنهم لم يسلكوا نجد الحق والعقل والإدراك السليم.

وهنا إشارة بيانية، وهى أن سياق الآية فى ظاهره من غير تقدير جعل المناظرة بين سقاية الحاج وعمارة البيت الحرام ومن آمن. . . . . والمعنى إيمان من آمن، ولكنه ذكر من آمن. . . وذلك لبيان الإيمان قائما فى أصحابه محسوسا مرئيا، لأنه تزكية ظاهرة، ودعوة عملية إليه كقوله تعالى: ﴿... وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ... (١٧٧)﴾ [البقرة] إلى أخر آية البر.

وبعد أن بين الله تعالى أن الظالمين بسبب ما سلكوا يستمرون فى غيهم يعمهون، بين جزاء الهداة الذين جاهدوا بعد أن آمنوا وهاجروا.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠)﴾.

هذا النص الكريم، هو الحكم الذى أصدره الله تعالى فى قضية الموازنة بين الإيمان والجهاد وبين سقاية الحاج، وعمارة البيت، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ﴾.

ذكرهم سبحانه وتعالى بأنهم أعظم درجة، وأفعل التفضيل ليس على بابه؛ لأنه إذا كان على بابه يكون مؤداه أن الذين اكتفوا بالسقاية والعمارة لهم درجة عظيمة عند الله، وإن لم تكن الدرجة الأعظم، إذ الحقيقة أنهم ما داموا على الشرك ليست لهم عند الله أية درجة، بل إنهم فى الحضيض الأوهد، ولا درجة لهم عند الله قط، وإذا كان أفعل التفضيل ليس على بابه، فمعناه أنهم عند الله فى درجة عظيمة، لا تطاولها درجة، وعبر بأفعل التفضيل لما كان من مقابلة لفظية.

وهذه الدرجة العظيمة التى لا تفضل عنها درجة قط؛ لأنهم كانوا فى أوصاف عالية تجعلهم رجال الله ورجال الحق ـ **أولها** ـ أنهم آمنوا، والإيمان فى وسط الشرك الغامر والوثنية الغالبة فيه جهاد النفس، ومغالبة الباطل، ونور العقل، ومقاومة الجاهلية وعصبيتها، وطغيانها، وشرورها وآثامها، ومع هذا كله تكون رفعة الدرجة، إذ بمقدار تلك المغالبة النفسية يكون علو الدرجة.

والوصف الثانى ـ أنهم هاجروا، إذ إن ذلك الوصف يتضمن نداء الإيمان بالرضا بترك الأهل وصرم القرابة والدعة والراحة، وتحمل الأذى، والخروج بالإيمان نقيا طاهرًا من أرجاس الجاهلية وعصبيتها، والخروج من جو الجاهلية المعتكر بالعصبية والضلال إلى جو النور والإيمان.

والوصف الثالث ـ أنهم جاهدوا فى سبيل الله، أى طريق الله الحق بأموالهم وأنفسهم، فلم يكن إيمانهم سلبيا بل كان إيمانا إيجابيا، آمنوا بالحق، وضحوا فى سبيله بالأهل والولد، ثم دعوا إليه محاربين الباطل، جاهدوا أنفسهم أولا بتخليصها من أدران الشرك وأوهامه، وصابروا على الأذى بعد أن صبروا عليه وقدموا أموالهم مجاهدين، وأنفسهم فى اشتجار السيوف والرماح، واستجابوا لقول الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم: «جاهدوا المشركين بأنفسكم وأموالكم وألسنتكم»(١).

وقد حكم الله تعالى لهم فقال: ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ الإشارة إلى أوصافهم، وفيه دلالة على أن هذه الأوصاف هى سبب ذلك الفوز، وقد بين سبحانه أنهم المختصون بالفوز دون غيرهم؛ لأن تعريف الطرفين وضمير الفصل دلاًّ على أنهم المختصون بالفوز، ولا فائز إلا من عمل عملهم، وحمل أوصافهم، فهم رجال الله تعالى حقا، وقد بين الله تعالى جزاءهم فى الآخرة فقال تعالت كلماته:

---

(١) سبق تخريجه.

﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) ﴾.

البشرى: الخبر السار، ولا تطلق على غيره إلا تهكما، كقوله تعالى: ﴿ ...وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) ﴾. وقوله تعالى: ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ ﴾ بيان للفوز الذى حكم به سبحانه وهو أعدل الحاكمين، والبشرى تتضمن الرحمة، والرضوان من الله تعالى، وقد نكرا وهما مضافان إلى رب هذا الوجود للدلالة على الفخامة والعظمة، فهى لا يدرك كنهها ولا تحد حدودها، وهى من الله تعالى واسع الرحمة الذى وسعت رحمته كل شىء، والرضوان من الله وهو أعظم من كل ثواب مادى، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿ ...وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ... (٧٢) ﴾ أى أنه أكبر من كل نعيم؛ لأنه الرضا من الله تعالى، وهو نعمة لا يشعر بها إلا من يحس بعظمة الله وجلاله، ويفنى فى ذاته العلية، حتى إن الصوفية ليقسمون العبادة إلى ثلاث مراتب، المرتبة الدنيا: مرتبة من يعبد الله اتقاء عذابه، والثانية: من يعبد الله رجاء ثوابه، والعليا: من يعبد الله رجاء رضاه.

﴿ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾، وهى غير الرحمة؛ لأن الرحمة ضد الشقاء، وهى وحدها نعمة؛ لأن الخروج من الضلال إلى الهدى والشعور بالحق وأنه اهتدى إليه وخرج من الضلال إلى نور الهداية هو وحده رحمة ونعمة، فأول جزاء للمؤمن من يأخذه من الإيمان نفسه، فيشعر باستقرار لا اضطراب فيه.

وبعد هذا الشعور والإحساس برضا الله تعالى تكون الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار، ويكون للذين يدخلونها من أهل الحق والإيمان نعيم مقيم، أى ثابت دائم.

وقد أكد سبحانه ثوابه بقوله تعالى: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) ﴾ الخلود نعمة فوق نعمة الجنة ذاتها، فإن الإحساس بدوام النعمة نعمة، وليس فى مقابل الدنيا الفانية، وأكد الله سبحانه وتعالى خلود الجنة ودوام نعيمها

بقوله تعالى: ﴿أَبَدًا﴾ فهى دائمة لا بقدر الدنيا، كما توهم بعض الذين لا يدركون حقائق نعم الله، إنما هى باقية أبدا ما شاء الله تعالى أن تبقى.

وقد بين الله تعالى بعد ذلك أن عند الله تعالى ما هو أكبر من ذلك، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ والعبادة تحتمل أن عند الله جزاء آخر غير ما ذكر وتحتمل أن الله تعالى يبين أن ذلك أجر عظيم، وقد نكر أجر للدلالة على أنه أجر لا يحيط به عقل أهل الدنيا، ولذلك نرجح الاحتمال الأول وهو أن وراء الجنة وخلودها، ونعيمها أجرا أعظم من ذلك، مثل هذا تجليات الله على عباده يوم القيامة. إنه هو العزيز الرحيم.

الله أولى بالمؤمنين من أنفسهم وآبائهم وأبنائهم

قال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ
وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ
وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن
كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ
وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ
تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ
فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾

كان المؤمنون فى أول الإسلام قلة، ولا يكون للقلة قوة إلا إذا تضامت وتوالت، وجعلت الولاية لأنفسهم دون غيرهم، ولذلك كانت الهجرة واجبة حتى تتجمع قوة الحق وتتآزر وتكون لها ولاية مستقلة عن ولاية أهل الشرك ومناصرتهم، والولاية هى النصرة والسلطان وأن تكون الموالاة لدولة مسلمة.

روى الزمخشرى، عن ابن عباس أنه كان قبل فتح مكة من آمن لم يتم إيمانه إلا بأن يهاجر، ويصارم أقاربه الكفرة، ويقطع موالاتهم، فقالوا: يا رسول الله، إن نحن اعتزلنا من خالفنا قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشائرنا، وذهبت تجارتنا، وهلكت أموالنا، وخربت ديارنا، ولقينا ضائقة. فنزلت الآية. وإن صحت هذه الرواية فإن الآية يكون المخاطب بها الذين آمنوا أولا ثم هاجروا، ولكن مع ذلك فحكم الآية عام؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولقد قال الله تعالى: ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨) ﴾ [آل عمران]، ولقد قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ... (٥١) ﴾ [المائدة] اللهم إنا برآء ممن جعل نصرته عندهم، فإنه منهم.

ولقد روى أن النبى ﷺ قال «لا يطعم أحدكم طعم الإيمان حتى يحب فى الله ويبغض فى الله، حتى يحب فى الله أبعد الناس، ويبغض فى الله أقرب الناس إليه»(١).

ولقد قال تعالى: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) ﴾ [المجادلة].

---

(١) ذكره أبو السعود فى تفسيره: ج٤، ص٥٤، والزمخشرى فى الكشاف: ج٢، ص١٨١، برقم (٤٥٣).

وفى الآية الكريمة إشارات بيانية بليغة:

الأولى: قد اقتصر الله تعالى فى الآية على الآباء والإخوان، ولم يذكر الأبناء، لأن الآباء والإخوة تكون منهم النصرة، والاعتزاز، أما الأبناء فإنهم تبع لآبائهم؛ ولأنه لا تأثير للابناء على آبائهم، ولأنه يندر من كان يسلم، وأبناؤه مستمرون على الكفر؛ لأن تأثير الآباء على الأبناء يمنع من أن يتغذوا بلبان الشرك، ومن النادر إيمان أبى بكر، وبعض ولده مشرك حتى اشترك فى غزوة بدر مع المشركين.

الثانية ـ فى قوله تعالى: ﴿**إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ**﴾ هذا شرط لمنع الولاية عنهم والانتصار بهم، ونصرتهم و﴿**اسْتَحَبُّوا**﴾ معناها أحبوا بشدة وتعصب؛ لأن السين والتاء للطلب، أى طلبوا محبة الكفر حتى أحبوه، فكانوا مبالغين فى الكفر متعنتين فى عداوة المؤمنين، فمن والاهم فقد والى أعداءه الكافرين.

الثالثة ـ أن الله تعالى حكم بالظلم على من يتولاهم فى قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ (مَنْ) شرطية، وهى اسم، والتولى جعلهم أولياء له ونصراء، وقال تعالى: ﴿**مِّنكُمْ**﴾ للإشارة إلى أنه ترك ولاية الحق إلى الباطل، لأن منكم تدل على أن الأصل هو ولايتهم لكم، وقوله تعالى: ﴿**فَأُوْلَئِكَ**﴾، الإشارة إلى انفصالهم عنكم، وحكم عليهم سبحانه بالظلم وقصره عليهم؛ وذلك لأنهم ظلموا أنفسهم بترك أوليائهم الحقيقيين كما قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا** ... (٥٥)﴾ [المائدة] فتركوا ولاية الله وإخوانهم المؤمنين، فكانوا ظالمين إذ استنصروا بمن لا ينصرونهم، وليس فى قدرتهم أن ينصروهم من دون الله، ولأن موالاة الشرك شرك ﴿... **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** (١٣)﴾ [لقمان].

إن الجهاد تجرد لله تعالى، وصدق رسول الله ﷺ إذ جعل المجاهد كالراهب متجردا من أهله وماله، وسكنه وتجارته، فقال عليه الصلاة والسلام: «لكل أمة

رهبانية، ورهبانية أمتى فى الجهاد»(١) وإنه، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)﴾.

الخطاب للنبى ﷺ آمرا أمته بالجهاد محرضًا على التجرد له، والانقطاع له، لا يشغله قلبه إلا أن ينتصر لله ورسوله ويعتز بأهل الإيمان ﴿إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ والعشيرة هى الجماعة المتناصرة المتوالية، وهم الأقربون، ومن يدانونهم، ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أى اكتسبتموها مقتطعين لها؛ لأن الاقتراف معناه الاقتطاع ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾، أى ثمينة لها أوقات تخشون ألا تروج فى وقتها، ﴿وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾، أى ترضون مناخها، وحدائق ترعونها، ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، أى تؤثرون المعيشة الرافهة الفاكهة عن طاعة الله ورسوله ﴿وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ فى سبيل الله تنالون به العزة، وتبعدون به الذلة ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ أى ترقبوا، حتى تنزل المذلة إن استرخيتم تحت ظل النعيم، وعند الاسترخاء والاستنامة للراحة يكون القعود عن الجهاد، ولقد توقع خليفة رسول الله ذلك، إذ قال رضى الله عنه: «لتألمن على الصوف الأزربى كما يتألم أحدكم من النوم على حَسَك السَّعدان»، ولقد كان ذلك عندما وجدوا الدمقس والحرير، وجلسوا على عرش كسرى، وجاءتهم غنائم من الأندلس والصين، عندئذ كان الترفه والتنعم، والارتماء فى أحضان القيان، وكثرت الأغانى، ورق الذوق، وحين كان ذلك لا تكون عزيمة، ولقد قال الزمخشرى فى ذلك: هذه آية شديدة وهى قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، كأنها تنعى على الناس ما هم عليه من رخاوة لهذا الدين، واضطراب حال اليقين، فلينصف أورع الناس وأتقاهم من نفسه هل يجد عنده من التصلب فى ذات الله والثبات على دين الله ما يستحب له دينه على الآباء والأبناء والإخوان والعشائر والمال والمساكن وجميع حظوظ الدنيا، ويتجرد منها لأجله أم يزوى الله

(١) سبق تخريجه.

عنه أحقر شيء منها لمصلحة، فلا يدرى أى طرفيه أطول، ويغريه الشيطان عن أجلِّ حظ من حظوظ الدين فلا يبالى كأنما وقع على أنفه ذباب فطيَّره.

هذه حال الناس فى عهد الزمخشرى، يوم تقاتل المسلمون، واستبدل الملوك بالجهاد فى سبيل الله القتال بينهم فصار بأسهم بينهم شديدا، ونسوا الجهاد حتى جاءهم من لا يرحمهم. جاء الصليبيون من أوروبا وجاءهم التتار من الصين ففرقوهم شذر مذر.

ولقد توقع رسول الله ﷺ ذلك، فقال: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها»، قالوا أومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: «بل أنتم كثير، ولكن غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من قلوب عدوكم المهابة، وليرزقنكم الوهن» قالوا: وما الوهن؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت»(١) اللهم حبب إلى قلوبنا الإيمان، وأن يكون الله ورسوله وجهاد فى سبيله أحب إلينا من آبائنا، وأبنائنا، وإخواننا وأزواجنا وعشيرتنا، وأموالنا، وتجارتنا، ومساكننا، وكل حظوظنا، فإن ذلك إن كان، فقد وُهبت العزة وصارت تحت أقدامنا حظوظ الدنيا.

يوم حنين

قال تعالى:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ

(١) رواه أحمد: باقى مسند الأنصار- ومن حديث ثوبان رضى الله عنه(٢١٨٩١)، ورواه أبو داود فى الملاحم- تداعى الأمم على الإسلام (٤٢٩٧) ولفظه: «وليقذفن فى قلوبكم الوهن».

بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ
عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا
وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾
ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾

المواطن جمع موطن، وهو مكان الحرب، الذى توطن فيه النفوس على القتال، وهو كما قال الزمخشرى: ومواطن الحرب، مقاماتها، ومواقفها، قال الشاعر:

وكم موطن لولاى طحت كما هوى   بأجرامه من قلة النيق منهوِى[1]

والمواطن الكثيرة: بدر، وجلاء بنى قينقاع والنضير، وقريظة والأحزاب، والحديبية، وخيبر، وفتح مكة، وذكر أيضا أحد، فما انهزم المسلمون ولكن أصابهم قرح، ومؤتة، فالمسلمون فيها قتلوا من الرومان مقتلة عظيمة، وما فروا، ولكن عادوا ليستعدوا أمام مائتى ألف، ثم عاودوهم من بعد فى تبوك فمنّ الله تعالى على المسلمين، أو بالأحرى المؤمنين ـ بالنصر فى هذه المواطن، وقد هداهم الله تعالى إليه وأمدهم بالملائكة؛ لأن قلوبهم كانت مستعدة لتجلى الملائكة، وإمدادهم بهم.

وذكر سبحانه يوم حنين؛ لأن قلوب الكثرة من المسلمين لم تكن مستعدة لهذا التجلى الملائكى، وعبر سبحانه بيوم حنين، ولم يعبر بغزوة حنين؛ لأن هذه الغزوة كان لها دوران: دور يوم حنين وهو الذى جرح فيه المسلمون، والدور الثانى الذى انفرد به المهاجرون والأنصار فكان النصر وكان تأييد الملائكة.

---

(١) قلة النيق: سفح الجبل.

والعبرة كانت فى يوم حنين إذ أعجبتهم كثرتهم، أى أدخلت فى نفوسهم العجب كثرتهم، وقالوا لن نغلب اليوم، وقد حسبوا أن النصر بالكثرة العددية، ولذا قال تعالى: ﴿**فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا**﴾ أى فلم تغن عنكم شيئا من النصر، بل كانت الكثرة سببًا فى الهزيمة، وإن لم تكن هى النهاية، وصور الله سبحانه وتعالى هذه الهزيمة المؤقتة بقوله تعالى: ﴿**وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ**﴾ أى أنه سدت عليكم المسالك، إذ نزلوا بوادى حنين، ولم يستطيعوا، وتسلط مع ضيق المسالك الخوف، إذ كان فيهم من لم يمرسوا بقتال الإيمان، وربما كان منهم من أسلم ولما يدخل الإيمان قلبه، قال تعالى: ﴿**ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ**﴾ والخطاب للمجموع فإن الذين فعلوا ذلك ليسوا هم المؤمنين من المهاجرين والأنصار، إنما أكثر من فعل ذلك من الطلقاء وأبناء الطلقاء، الذين بلغ عددهم فى ذلك الجيش نحو ألفين، وفيهم من أسلم بعد الحديبية، ولم يكن فيهم إيمان الأنصار والمهاجرة.

والتعبير بـ﴿**ثُمَّ**﴾ للإشارة إلى البعد المعنوى بين إرادة النصر والفرار، وقوله تعالى: ﴿**وَلَّيْتُم**﴾ إشارة إلى أنهم عند الصدمة الأولى أعرضوا عن القتال، وفروا مدبرين تاركين أقفيتهم للعدو، تعمل فيها سيوفهم.

هذه إشارات إلى يوم حنين، ولنذكره ببعض التفصيل ليعلم مَن الذين ولوا، ويتبين مَن الذين أجرى الله تعالى النصر على أيديهم.

«حنين» واد بين مكة والطائف، وأساس القصة أن النبى ﷺ وقد فتح الله عليه مكة، وأسلم الأكثرون وأطلق الطلقاء بلغه أن هوازن وثقيفا تعد العدة لقتاله؛ لأنهم توقعوا أنهم الأدنون الذين يجىء إليهم جيش الحق، وجمعوا جيشا كثيفا، عدته أربعة آلاف على أرجح الروايات، من هوازن وثقيف، وانضم إليهم بنو سعد ابن بكر، وأوزاع من بنى (هلال)، وقد أقبلوا ومعهم النساء، والولدان، والأموال من النعم والشاة وجاءوا بقضهم وقضيضهم.

خرج إليهم رسول الله ﷺ بالجيش الذى كان معه لفتح مكة، وانضم إليهم من الطلقاء ألفان فكانت عدته اثنا عشر ألفا .

ولم يكونوا جميعا من المؤمنين أمثال الذين قاتلوا فى بدر وأحد، والمغازى الإسلامية التى قاتل فيها المؤمنون، بل كان فيهم المؤلفة قلوبهم الذين دخلوا فى الإسلام وهم حديثو عهد به.

جاءت هوازن مدفوعة بحمية الدفاع عن النفس، وجاء المسلمون ولم يكونوا على قلب رجل واحد، بل كان فيهم من توسوس له نفسه أن يغدر بمحمد ﷺ، وقد بادر أهل الطائف فرشقوا المسلمين ومن معهم بالنبال، وأصلتوا فى الوادى الذى يسمى حنينا، وجاء النبى ﷺ، وكانت هوازن ومن معها قد كمنت فى جنبتى الوادى وهجمت على المسلمين الذين دخلوا فى بطن الوادى هجمة رجل واحد، واضطرب المسلمون، ولم يعرف أحد أحدا، وبذلك ضاقت عليهم الأرض بما رحبت إذ قد تهيأت هوازن ومن معها فى مضايق الوادى وأحنائه.

ورسول الله ﷺ فى ناحية من الأرض قد ثبت، وثبت معه المؤمنون، من المهاجرين والأنصار، وأخذ ينادى المسلمين، ولكن انكفأ بعضهم على بعض، وكما قال الحافظ ابن كثير فى تاريخه: «انحط بهم الوادى فى عماية الصبح، وثارت فى وجوههم الخيل فشدت عليهم، وانكفأ الناس متهربين لا يقبل أحد على أحد، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين يقول: «أيها الناس هلم إلىَّ أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله»، فلا شىء، وركبت الإبل بعضها بعضا، فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك قال: «يا عباس، اصرخ يا معشر الأنصار»، فأجابوه: لبيك لبيك ذَهب الأنصار فى هذا المضطرب مجيبين رسول الله ﷺ.

كان رسول الله ومعه بعض أهله الأدنين، معه عمه العباس، وهو آخذ بلجام دابته، وابن عمه أبو سفيان بن الحارث، وابنه جعفر، وعلى بن أبى طالب، وأسامة بن زيد، وأيمن بن عبيد، وربيعة بن الحارث، والفضل بن عباس وقثم بن العباس، فهؤلاء عشرة من أقارب رسول الله الأدنين ومعهم وزيرا النبى ﷺ.

كان هؤلاء الثابتون وعلى رأسهم رسول الله ﷺ الذى كان إذا حمى الوطيس أحاطوا به واتقوا حر القتال بالإيواء إليه، والنبى ينادى المؤمنين، والعباس

جهير الصوت يصرخ فى المؤمنين داعيا أهل البيعة التى كان بعدها الهجرة، فلما أحاط بالنبى ﷺ المهاجرون والأنصار من الأوس والخزرج تغير وجه القتال وتجرد أهل الإيمان للمشركين، بعد أن ماز الله الخبيث من الطيب، وانفصل الذين لا يزال فى قلوبهم رجس، أو أسلموا، ولما يؤمنوا.

وهذا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦)﴾.

﴿ثُمَّ﴾ هنا فى معناها؛ لأنه كانت مدة بعد الاضطراب وعادت السكينة، ولبعد ما بين الاضطراب والفزع والسكينة، وقد أنزلها برحمة منه، بعد أخذ النبى ﷺ فى جمع أسبابها، وتلافى أسباب الفشل، واتخاذ أسباب النصر بأن جمع المؤمنين الذين لهم سابقات فى النصر وانحازوا إليه واتخذهم قوة الحق واتقاء الهزيمة. وأضاف سبحانه وتعالى السكينة والاطمئنان إليه سبحانه؛ لأن ما يكون من الله لا يتغير ولا يحول، ولا يتبدل فهى سكينة ثابتة قائمة، تؤتى ثمارها وغايتها.

وقال سبحانه: ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ بتكرار ﴿عَلَى﴾ للدلالة على أن السكينة عامة ولم تخص، وتأكيدها بالنسبة للمؤمنين، وعبر سبحانه بالمؤمنين، ولم يقل المسلمين للإشارة إلى أن هذه السكينة كانت خاصة بالذين آمنت قلوبهم، واطمأنت بالإيمان نفوسهم.

وقد أيد الله المؤمنين بالملائكة مبشرة بالنصر القريب، وأن لهم الفوز والغلب، والجنود الذين لم يروهم هم الملائكة الذين ملئوا قلوبهم بالطهر والعزم والصبر، وتلك أدوات الحرب، فالأداة الأولى للحرب الطهر والإيمان والعزم والصبر والتوكل على الله تعالى، وألا يغتر المجاهد بعدة، ولا عدد.

ولقد روى أن رسول الله ﷺ والشديدة شديدة، أخذ حصيات ورمى بها وجوه الكفار ثم قال: «انهزموا ورب محمد»، ويروى أنه قال: «شاهت الوجوه».

ثم قال تعالى: ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عذب الله الذين كفروا فى هذه المعركة بأن هزمهم هزيمة، وقد لاح برق الانتصار فى أولها، ولكن كان الزعم القاصم الذى صك الآذان صكا عنيفا، وأشد ما يكون على النفس وقعا، أمل النصر، ثم وقع الهزيمة من بعد، وفوق ذلك فقد كان النصر بقتل ذريع داهم مستمر.

ولقد ساقوا أموالهم كلها ليثور حماسهم برؤيتها، فغنمها المسلمون جميعها، فكأنهم ساقوها ليأخذها المسلمون غنيمة باردة، وساقوا نساءهم وأولادهم ليزدادوا حماسة برؤيتهم، فسباهم المسلمون وأذلوهم بسبيهم فكأنهم كانوا يعدون المائدة للمؤمنين.

هذا هو العذاب الدنيوى، هزيمة وقتل، وإذلال بالسبى، وأخذ الأموال غنائم غير مردودة، وإذا كان السبى قد رفق بهم النبى ﷺ فى أمره، فالمال قد وزع بين المجاهدين، وأخذ منه المؤلفة قلوبهم ما أخذوا.

وختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (ذلك) الإشارة إلى ما ارتكبوا من تدبير، وأن ذلك رد كيدهم فى نحورهم فقد دبروا وبيتوا، ووضعوا الكمائن، وساقوا أموالهم ونساءهم وذرياتهم فجازاهم الله تعالى ذلك بأن هزمهم، وغنمت أموالهم، وسبيت نساؤهم، وذلك بسبب كفرهم.

ولقد فتح الله سبحانه وتعالى باب التوبة لمن يشاء من عباده عساهم بعد أن رأوا أن أوثانهم لا تضر ولا تنفع، وبعد أن عركتهم الحرب وهزموا فيها، وغنمت أموالهم وصاروا فى رحمة محمد ﷺ وهى من رحمة الله تعالى فعساهم يهتدون، ولذا قال تعالى:

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾ هنا للبعد بين كفر عنيف، وتوبة ضارعة راجية، ﴿يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ أى يرجع على عباده بالتوبة، والإقلاع عن الشرك والرجوع

إلى الله سبحانه وتعالى. ﴿مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أى من بعد بيان أنهم لم يغنهم غرورهم وانهزامهم هزيمة منكرة وسبى نسائهم وأموالهم، وكرم النبى ﷺ فإنه يروى أنهم جاءوا أو جاء كبراؤهم بعد ذلك مستسلمين يريدون سباياهم وأموالهم، وكان النبى ﷺ قد فرق بعض السبايا أو كلها فى المقاتلين من المسلمين.

جاء ناس منهم إلى النبى ﷺ فبايعوه على الإسلام، وقالوا: يا رسول الله أنت خير الناس وأبر الناس، وقد سبى أهلونا وأولادنا، وأخذت أموالنا، وكان السبى يومئذ يعدون بالألوف فقام النبى الكريم الرءوف برحمة من رب العالمين، فقال: «إن عندى ما ترون، إن خير القول أصدقه: اختاروا إما ذراريكم ونساءكم، وإما أموالكم». قالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئا.

فقام الرسول بين أصحابه وقال لهم: «إن هؤلاء جاءوا مسلمين، وإنا خيرناهم بين الذرارى والأموال، فلم يعدلوا بالأحساب شيئا، فمن كان عنده شىء وطابت نفسه أن يرده فشأنه، ومن لا فليعطنا وليكن فرضا علينا، حتى نصيب شيئا، فنعطيه مكانه»، قالوا: رضينا وسلمنا.

فقال عليه الصلاة والسلام: «إنى لا أدرى لعل فيكم من لا يرضى، فمروا عرفاءكم فليرفعوا ذلك إلينا»، فرفعت إليه العرفاء أن قد رضوا[1].

وهذا الخبر وقبله الآية الكريمة يدل على أمور:

أولها ـ أن المغرور إذا هزم، وتبين أن غروره لم يجده شيئا، وأنه ضعيف أمام الحق ارعوى، وتغير تفكيره إذ تغيرت حاله من غرور نفسى إلى اقتناع بأن أوهامه باطلة، فيتجه إلى الحق، لقد كان أهل الطائف من ثقيف وهوازن أشد الناس اغتراراً بقوتهم، ومالهم، وكانت فيهم غلظة وجفوة دون غيرهم من العرب فلما عضتهم الحرب فكروا فى أمرهم مسترشدين.

---

(١) صحيح مسلم: الجهاد والسير- غزوة حنين (١٧٧٥)، عن العباس- رضى الله عنه- عم النبى صلى الله عليه وسلم.

ثانيها ـ أن الذين اقتنعوا بالحق وأعلنوه منضمين إليه ناس منهم، والكثيرون استمروا فى شماسهم حتى أقنعهم إخوانهم(١).

ثالثها ـ رفق النبى ﷺ ورغبته فى الحرية، لأنه نبى الحرية فأعطاهم سباياهم سمحا كريما.

رابعها ـ أن الرفق يغير القلوب، ولو كانت قلوب أشد الناس شماسا وغلظة وقسوة، والنبى ﷺ كان أرفق الناس، وبرفقه جذب إلى الإيمان قلوبا غليظة، ﴿... **وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ... (١٥٩)﴾ [آل عمران]، وختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿**وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ أى أنه كثير المغفرة كثير الرحمة سبحانه وتعالى.

قال تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ
نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ
وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن
شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ
ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ
ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ
﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى
ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ

(١) الشِّماس، ويقال: رجلٌ شَمُوسٌ: عَسِرٌ، وهو فى عَـداوته كذلك خلافاً وعسراً على من نازَعَهُ، وإنّه لذو شِمَاسٍ شديد. وشَمَسَ لى فلانٌ، إذا أَبْدَى لك عَداوتَهُ كأنّه قد همَّ أن يَفْعل. [العين-شمس].

يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

إن البيت الحرام أول بيت بنى للعبادة، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران]، وقد وضعه الله تعالى على يد إبراهيم أبى العرب، ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران] وقد مكث آمادا فى أيدى المشركين الذين كانوا يعرفون الله، ولكن لا يعبدونه، وجاء محمد ﷺ ليعيدهم إلى التوحيد ملة إبراهيم، فحطم الأوثان. وكان حقا ـ وقد عاد البيت إلى ملة إبراهيم ـ أن يمنع منه المشركون، ونريد أن نفسر الشرك هنا بعبادة غير الله، ويدخل فى هذا الشرك العام اليهود والنصارى ممن اتخذوا أشخاصا وعبدوهم وسموهم آلهة، ولذا جاء ذكر اليهود والنصارى وراء المشركين بنحلتهم فى ادعاء النبوة لعزير، والمسيح، وأن قتالهم كقتال الشرك، واقتلاعه من الجزيرة العربية، حتى لا يبقى فيها إلا عبادة الله سبحانه وتعالى، فتكون أرض التوحيد، كما كانت عندما بنى إبراهيم الكعبة، إذ كانت الوثنية تسيطر فيما حولها، وإبراهيم ينادى بالتوحيد فى ربوعها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ وقرئ بكسر النون وسكون الجيم، وقرئ بفتح النون، وكسر الجيم كـ(كَبِد)، وقرئ بفتحهما نَجَس[١].

والنجاسة هنا نجاسة معنوية لما امتلأت قلوبهم بالشرك، وجوارحهم بعبادة غير الله تعالى، من أحجار وأشخاص، ومن التابعين من قال: إنهم أنجاس العين

(١) قراءة (نَجِس) ليست فى العشر المتواترة.

كـالخنازير، ولكن نجس العـين يكون بأصل التكوين والخلق، وهؤلاء لم يخلقـوا أنجاسًا، ولكن خلقوا على الفطرة حنفاء، ولكن انحـرفوا تقليدا لآبائهم، أو اتباعا لأهوائهم، فكانت النجاسة أمرا عارضا، وما يكون أمرا عارضا يكون قابلا للتغيير إذا رجـعوا فـلا يكون أمرا ذاتـيا كنجـاسة الخنازيـر، ولذا قال الأئمـة أصحـاب المذاهب: إن النجاسة نجاسة الشـرك، فمصافحتهم تجوز، ومـبايعتهم على الإيمان تجوز، وغير ذلك من الملامسات الجسدية.

وقوله تعالى: ﴿فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ (الفاء) هنا لترتـيب ما بعدها على ما قبلها؛ لأنهم إذا كانوا أنجاسـا بشركهم لا يصح أن يدخلوا المسجد الحرام، و(لا) هنا ناهيـة داخلة على فـعل للغـائب؛ فـهى دالة على نـهى المؤمنين عن أن يدخلوهم المسجد الحـرام، وأن يمنعوهم منعا باتا قاطعا، وعـبَّر بالغيبة مـبالغة فى النهى، كـأنهم نفذوا، وأخـبر عنهم بأنهم لم يدخلوهم، وعـبر فى النهى بـقوله تعالى: ﴿فَلا يَقْرَبُوا﴾ بدل (لا يدخلوا) مبالغـة فى النهى عن الدخول، وللدلالة على أنه يجب تطهير ما حول المسجـد من الشرك والمشركين، وإذا كانوا لا يقربون المسجـد الحرام، فإنهـم بالأولى لا يحجون ولا يعـتمرون كـما كانـوا يفعلون فى الجاهلية، وقد كانوا يتولون سقـاية الحجيج، وسدانة البيت، فمنعوا من ذلك ومن كانوا يتولون السقاية والسدانة، وبيدهم مفاتيح البيت فى الجاهلية بقيت فى أيديهم بعد أن أسلموا، فتولوها بصفتهم مسلمين غير مشركين بالله تعالى.

وإن النهى عن دخول المسـجد الحرام يدل على حرمـة دخوله بالنص، وعلى حرمـة دخول غيره من المسـاجد بالقيـاس عليه، وبالنص المشيـر إلى ذلك بقوله: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧)﴾ [النور].

وإن رفعة المساجد فى الآية الكريمة تومئ إلى ألا يدخلها من يشرك بالله أحجارا أو أشخاصا، أوصافهم تتنافى مع أوصاف الذين يسبحون فيها بالغدو والآصال.

ولقد كان حجيج المشركين من شتى البلاد العربية يوجدون رواجا ماديا بين أهل مكة، كما قال تعالى عن إبراهيم: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ... (٣٧)﴾ [إبراهيم]. فإذا منع المشركون حُرم سكان مكة، وهم المسلمون بعد الفتح من ذلك الوفد الذى يجىء إليه، ولذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ﴾ العيلة: الفقر إذا حرموا من أرفاق المشركين ومتاجرهم، وقد قدر الله خوفهم من الفقراء، أو قلة المال إذا منع المشركون من الحج وقصد بيت الله الحرام فقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ وعبر للدلالة على أن تقدير الخوف مشكوك فيه منهم؛ لأن الإيمان يجعلهم يطمئنون ولا يخافون، ومع ذلك طمأنهم الله تعالى فأكد أنه سيغنيهم الله من فضله إن شاء، ونشير هنا إلى أمرين:

أولهما ـ أن قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ (الفاء) فيها فى جواب الشرط، و(سوف) لتأكيد وقوع الإغناء إن شاء الله تعالى فى المستقبل، فالسين وسوف لتأكيد الوقوع فى المستقبل.

ثانيهما ـ التعبير بقوله تعالى: ﴿مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ﴾ فذكر الفضل منسوبا إلى الله تعالى فيه إشارة إلى أنهم لا يرزقونكم بل الرزاق ذو القوة المتين هو الله الذى يرزقكم من فضله، وقوله: ﴿إن شاء﴾ بالتعليق على مشيئته سبحانه وتعالى فيه إشارة إلى: أولا بأن ذلك بمشيئته سبحانه إذا اتخذوا الأسباب، وإن ذلك حسب حكمته؛ يغنيهم إن لم يطغهم الغنى، ويحرمهم إن كان الحرمان يفطم نفوسهم، ويقوى إرادتهم ويعودهم الصبر، والصبر عزيمة الأمور.

ولذا ختم الآية الكريمة بقوله تعالت كلماته: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فى الجملة تأكيد بالجملة الاسمية، وبـ(إنَّ) وبتصدير الكلام بلفظ الجلالة الذى تتصف

ذاته الكريمة بكل كمال وجلال، وفى هذا التصدير دلالة على صدق ما وعد، و﴿عَلِيمٌ﴾ يعلم كل شيء وما تعلمون وما لا تعلمون، و﴿حَكِيمٌ﴾ ويدبر الوجود بمقتضى حكمته.

وقد أنجز الله تعالى ما وعد، فقد أغنى الله تعالى أهل مكة ومن حولهم بالجزية والخراج، وإسلام أهل اليمن، وكان ذلك عقب الفتح، فجاءهم الحجيج بأرفاقهم، مسلمين غير مشركين، وما حرموا من خير كان يجيء إليهم، بل استمر ومعه زيادة وهو يجيء طيبا من أطهار، وأرسل عليه السماء مدرارا، فأنبت الزرع وأثمر الشجر، وأتت الأنعام بالخير.

قلنا فى أول تفسير هذه الآية، إن المشركين هنا تعم المشركين الذين يعبدون الأحجار، والذين يعبدون الأشخاص. ولذلك قال تعالى:

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩)﴾.

ذكرنا أن النصارى واليهود، لأنهم عبدوا أشخاصًا وافتروا على الله تعالى - مشركون، وإن سُموا أهل كتاب؛ لأن الله تعالى بعث إليهم رسولين من أولى العزم من الرسل، وأنهم حرفوا تعاليمهم، وكتبهم التى نزلت من عند الله تعالى، وقد أمر الله تعالى بقتالهم كالمشركين على سواء؛ لأن الشرك يجمعهم وإن اختلفوا عنهم بأن كتابا جاء بالتوحيد خوطبوا به، فكانت الحجة قائمة عليهم أشد من قيامها على الأميين من المشركين.

ولذا ذكر الله تعالى وصفا موجبا للقتال يجمعهم مع المشركين، فقال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ وكرر لا لتأكيد كفرهم باليوم الآخر؛ لأنهم صدقوا به على انحراف، فاليهود منهم الفريسيون، لا يؤمنون بيوم الآخرة قط، وسائرهم لا يؤمن بالجزاء الأخروى،

ويعتقدون أن ما ذكر من عذاب العصاة والمذنبين إنما هو فى الدنيا، لا فى الأخرة بل إنهم ينكرون الروح ولا يؤمنون إلا بالمادة، فهم ماديون فى اعتقادهم من كل الوجوه.

والنصارى لا يؤمنون باليوم الآخر على الوجه الحقيقى، فهم يقولون إن الذى يدين الناس به هو المسيح لا الله وحده.

ويعتقدون أنه شريك لله تعالى فى الدنيا على أنه الابن ، وهو بهذا الوصف هو الذى يُدين، فالطائفتان لا تؤمنان بالآخرة ولا تؤمنان بالله حق إيمانه، فهم يشركون بالله فى العبادة أشخاصا، ويستوى من يشرك مع الله حجرا، ومن يشرك مع الله شخصا، فالاثنان مشركان، وكلاهما يشرك من ليس له مع الله تعالى أمر، ومن لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولو كان نبيا مرسلا، كما قال النبى ﷺ وحكى عنه ربه: ﴿ **قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا** ... (١٨٨) ﴾ [الأعراف].

وقال الله تعالى فى تكملة أوصافهم ﴿ **وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ** ﴾ لقد حرم عليهم فى التوراة، وهى شريعة لليهود والنصارى أكل الخنزير فأكلوه، وحرم عليهم الربا، فاستحلوه، وحرم عليهم أن يسفكوا دماءهم فسفكوها، وكانوا كالمشركين يحرمون الطيبات ويستحلون الخبائث.

ثم ذكر سبحانه وتعالى من أوصافهم التمرد على الحق، ﴿ **وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ** ﴾، أى لا يدينون دين الإسلام الذى هو الحق فى ذاته، لقيام الأدلة والبراهين والآيات القاطعة المثبتة صحة نبوة محمد، ونزول القرآن الكريم عليه، وعجز العرب عن أن يأتوا بمثله، بل عجز الناس أجمعين ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، وثبت أن هذا الدين هو الحق الخالد الذى نسخ ما قبله من الأديان؛ لأن فيه خلاصتها الباقية، ولو كان موسى بن عمران حيا لآمن به واتبعه، وعندهم العلم به، لأن التوراة والإنجيل قد بشّرا به، ويعرفون رسالة محمد كما يعرفون آباءهم وأبناءهم، ومع ذلك تمردوا ولم يؤمنوا ولما جاءهم ما عرفوا كفروا به.

وقال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ (من) هنا بيانية للذين فى قوله تعالى ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ وإذا كانت (من) بيانية يكون المؤدى: قاتلوا الذين أوتوا الكتاب، وإنما ذكر الكلام أولا معرفا بأوصاف من يقاتلون، ثم بين بعد ذلك بـ(من)، لبيان هذه الأوصاف الموجبة للكفر والعناد أولاً، ولبيان تمردهم عن الحق ثانيا، ولأن الإجمال ثم البيان يثبت المعنى فضل تثبيت ثالثا.

فالمقصود قتال أهل الكتاب بعد قتال المشركين، وفَلّ شوكتهم، ولقد قال الحافظ ابن كثير فى ذلك:

«هذه الآية الكريمة أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعدما تمهدت أمور المشركين، ودخل الناس فى دين الله أفواجا، واستقامت جزيرة العرب على أمر الله ورسوله بقتال أهل الكتاب من اليهود والنصارى وذلك فى سنة تسع، ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم، ودعا الناس إلى ذلك، وأظهره لهم، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة، فأذعنوا له واجتمع من المقاتلة نحوا من ثلاثين ألفا».

وذلك لأن والى الروم قتل من أسلم من أهل الشام، فكان لابد من تقليم أظفارهم، والكلام فى القتال فى غزوة تبوك سيأتى قريبا، إن شاء الله تعالى.

وإن هذا القتال له نهاية وهو العهد، ولذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿عَن يَدٍ﴾ أى عن يد مواتية طائعة راضية، غير ممتنعة، والتعبير باليد إشارة إلى إنهاء القتال الذى يكون بيد باطشة، متجاوزين إلى يد معطية للجزية بالرضا، ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾، أى كما نقول غير متمردين، قد دخلوا فى طاعة أهل الإيمان فى صَغَار منقادين مؤتلفين، غير مجاهرين بالعداوة.

وما يعطيه الذمى من المال يسمى جزية؛ لأنها تجزى أى تقضى؛ ولأنها جزاء لأن يدفع الإسلام عنهم، ويكفيهم مئونة القتال، ولأنها جزاء لما ينفق على فقراء أهل الذمة كما كان يفعل الإمام عمر، وكما هو واجب فى ذاته على المؤمنين وإن

المسلمين فى عصر الصحابة كانوا يـوفون بعهودهم مع المؤمنين، روى أن أبا عبيدة عامر بن الجراح، كان أخذ مالا من أهل حمص على أن يدفع عنهم جيش الرومان إن أغاروا عليهم، فلما أصيب جيشه بالطاعون ضعف عن رد غاراتهم ، ورد إليهم أموالهم.

والإسلام قام بحق التساوى بين جميع من يكونون فى طاعته، فإن الجزية التى تكون على الذمى تقابل ما يكون على المسلم من تكليفات مالية، فعليه زكاة المال، وعليه صدقات ونذور، وعليه كفارات، وغير ذلك، ولو أحصى كل ما يؤخذ من المسلم لتبين أنه لا يقل عما يؤخذ من جزية إن لم يزد.

وإن الدولة كما ذكرنا تنفق على فقراء أهل الذمة، ولقد روى أن عمر - رضى الله تعالى - عنه وجد شيخا يهوديا يتكفف، فسأله: من أنت يا شيخ؟ قال رجل من أهل الذمة، فقال له: ما أنصفناك أكلنا شبيبتك وضيعناك فى شيخوختك، وأجرى عليه رزقا مستمرا من بيت المال، وقال لخادمه: ابحث عن هذا وضربائه، وأَجْرِ عليهم رزقا من بيت المال.

والجزية بإجماع الفقهاء تفرض على اليهود والنصارى لنص هذه الآية، وتفرض على المجوس لقول النبى ﷺ: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب»(١) ولا تفرض بالإجماع على مشركى العرب، لأنهم يخيرون بين القتل والإسلام، حتى لا يكون فى بلاد العرب دينان.

وقال أبو حنيفة: تفرض على كل مخالف عَقَد عقد الذمة، سواء أكان وثنيا أم كان مجوسيا أم كان كتابيا، لا فرق؛ لأن الكفر كله ملة واحدة، وأكثر المالكية على هذا الرأى، وقال الشافعى: لا تفرض الجزية إلا على اليهود والنصارى والمجوس لورود النصوص.

---

(١) مالك فى الموطأ: الزكاة- جزية أهل الكتاب والمجوس (٦١٧).عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه. ورواه البخارى: الجزية- الجزية والموادعة مع أهل الحرب (٣١٥٧).

ومقدار الجزية على حسب الاتفاق فى الأمان، والله تعالى أعلم.

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

«عزير» هذا كاهن من كهنة اليهود ظهر بعد أن دك أرضهم وشتت شملهم «بختنصر» وهو رأس القوم الأشداء الذين جاسوا خلال الديار، والذين قال الله تعالى فيهم وفى بنى إسرائيل: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ﴿٥﴾ ﴾ [الإسراء].

وقد قال القرطبى فى تفسيره: إنهم لم يكونوا جميعا يذكرون أنه ابن الله، ولكن شاع القول بينهم بأنه ابن الله فى عصره، ولم يستنكروه، فكان القول، كان قولهم أو على الأقل قول مجموعهم، وقال إنه لا يوجد يهودى يقول ذلك فى عصره، ولكن الزمخشرى يقول فى الكشاف: «الدليل على أن هذا القول كان فيهم أن الآية تليت عليهم، فما أنكروا وما كذبوا، مع تهالكهم على التكذيب».

ولقد روى السدى كلاما يقارب ما جاء فى التوراة، لقد قال الحافظ ابن كثير: «ذكر السدى وغيره أن الشبهة التى حصلت لهم فى ذلك «أن العمالقة لما غلبت على بنى إسرائيل فقتلوا علماءهم وسبوا كبارهم بقى العزير يبكى على بنى إسرائيل، وذهاب العلم منهم حتى سقطت جفون عينيه، فبينما هم ذات يوم، إذ مر على جبانة وإذا امرأه تبكى عند قبر، وهى تقول: وامطعماه، واكاسياه، فقال لها: ويحك من كان يطعمك قبل هذا؟ قالت: الله، قال: فإن الله حى لا يموت، قالت: يا عزير، فمن كان يعلم العلماء قبل بنى إسرائيل؟ قال: الله؟ قالت: فلم تبكى عليهم؟، فعلم أنه شيء وعظ به، ثم قيل له: اذهب إلى نهر كذا فاغتسل فيه، وصلِّ هناك فإنك ستلقى هناك شيخا، فما أطعمك فكله، فذهب ففعل ما أمر به فإذا الشيخ قال: افتح فمك، ففتح فمه، فألقى فيه شيئا كهيئة الجمرة

العظيمة ثلاث مـرات، فرجع عزير، وهو من أعلم الناس بالتـوراة، فقال: يا بنى إسرائيل قـد جئتكم بالتـوراة، فقالوا: يا عزير مـا كنت كذابا، فعـمد وربط على إصبع من أصـابعه وكـتب التوراة بإصـبعه كلهـا، فلما تراجع النـاس من عدوهم ورجع العلمـاء وأخبروا بشـأن عزير فاسـتخـرجوا النسخ التى كـانوا أودعوها فى الجبال، وقابلوه بها فـوجدوا ما جاء به صحيحا، فـقال بعض جهلتهم: إنما صنع هذا لأنه ابن الله.

وقد جـاء فى شأن عـزير كلاما يشـبه هذا فى الإصـحاح الثامـن والتاسع، والعاشر، وإن لم يصرح فـيه بأنه الله، ولعل ذلك مما جرى فيه التـغيير، على أن نقول إنه باطل محرف وغير محرف.

والنصـارى قالوا المسـيح ابن الله، قـاله بولس، وهو أول من ادعى ألوهيـة المسيح، ولكنه لم يقله أحد من الحواريين أصـحاب الرسول ' إلا ما قال يوحنا فى إنجيل منسوب إليـه، وقد كذبته دائرة المعارف الإنجليزية، وقـالت إن الذى كتبه فى القرن الثالث تلميذ من تلاميذ الأفلاطونية الحديثة.

واستـمر سائدا بين المسـيحيـين أن المسيح ليس إلها ولا ابن إله، حـتى جاء مجمع «نيقيَّة» سنة ٣٢٥ فقرر ٣١٨ أسقفا من ٢٠٤٨ ألوهية المسيح، وفرض ذلك فرضا على المسيحيين، وبذلك كان التـغيير الذى ذكره القرآن ثم كان من بعد ذلك مجمع كهذا المجمع قرر ألوهية روح القدس، فكانوا ثلاثة، ولا شك أن ذلك كفر بل إشراك.

﴿ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أى أن ذلك القول قول تردده أفـواههم بألسنتهم، ولا يدركون له حقيـقة يتصورونها، فهم يرددون: الواحـد ثلاثة، والثلاثة واحد، وإذا سألتـهم عن مميزات كل واحد، وكـيف يجتمـعون، لم يحيـروا جوابا إلا أن يقولوا هذه غيبـيات يصدقها العقل الدينى، ولا يصدقـها العقل والمنطق، ويقولون الآن كمـا قال بعضـهم فى القرن الرابع المسـيحى: إنها صـفات ثلاث للإله، ولو سألتهم هل المسيح الذى ولدته مريم من غير أب صفة، وليس ذاتًا كانت تمشى فى

الأسواق، وتعظ، وقتله - فى زعمهم - الرومان وصلبوه، وجعلتم الصليب، قالوا: إن اللاهوت دخل الناسوت، أو ولد اللاهوت والناسوت، ولم يستطيعوا أن يصوروا ما يقولون تصويرا تدركه العقول.

ومما يجب ذكره أنهم فى الزوبعة التى أثارها قسطنطين الرومانى الوثنى الذى حول النصرانية إلى وثنية عندما أراد دخولها، وذلك فى مجمع نيقية آنف الذكر - وجد الأكثرون من بينهم يستنكرون الألوهية، ولكن ما زالوا يعذبونهم، ويطردونهم، حتى وسدوا فكرة الألوهية توسيدا.

وممن أعلن معارضتهم نسطورس الذى أقر بالبنوة التى ادعاها بولس، ولكنه قال إنها بنوة محبة ثم سادت بعد بين أتباع «نيتشة» عندما ساد التثليث فكرة الثلاثة سموها صفات، وجاء بعض المسيحيين فى هذه الأيام لما أحسوا باستنكار العقول لعقيدتهم الباطلة، واستحسن كلمة الصفات وهى الأخرى غير معقولة، فذات المسيح المصلوب فى زعمهم الذى ولد وعاش وقتل ودفن ثم قام من قبره لا يمكن أن تكون صفة، إذ الصفة غير الذات.

وإن هذا التثليث هو بذاته اعتقاد الأفلاطونية الحديثة، اختاره قسطنطين، ومن تبعه دينا لهم(١).

وما أبلغ قوله تعالى فى تصوير حالهم، إذ يقول: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾، فهو ليس إلا ألفاظا تردد من غير تصور لمعناها، ويلقنونها لمن يدعونهم إليها، ويستعينون بطرق الاستهواء المختلفة، والخمور، ليودعوها عقولاً ضالة بهم.

وقال تعالى: ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يضاهئون أى يشابهون قول الذين كفروا، وذكر الله تعالى الذين كفروا ولم يبين من هم فقيل المشركون، ولا شك أن وصف الذين كفروا ينطبق عليهم، وهم يشابهونهم فى أنهم أشركوا فى العبادة غير الله، كما أشرك أولئك الأوثان، وإنى أقول إن المشابهة ليست بعيدة

(١) راجع «محاضرات فى النصرانية» للإمام محمد أبو زهرة - دار الفكر العربى.

الأركان بل ثابتة القرب واضحة، ويدخل معهم أيضا عبدة الأوثان من غير العرب أيضا، وهم البرهمية والبوذية، فهم قالوا إن للإله ابنا، فالبراهمة قالوا إن كرشنة ابن لبراهما، وقال البوذيون: إن بوذا ابن للإله، كما قال النصارى، ويظهر أن موجة من ادعاء البنوة كانت سائدة فى القرن الخامس قبل ميلاد المسيح أخذت منها وثنية النصارى فى القرن الرابع مع الأفلاطونية الحديثة عقيدتها الباطلة، ولعل الأفلاطونية الحديثة ذاتها قد أخذت من الهنود، فقد ثبت أن كبيرها ذهب إلى الهند، وعاد بعقيدته[(١)].

﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾، قيل إنها كلمة تعجب كانت تجرى على ألسنة العرب، وقيل إنها للعن مع التعجب، وقد خطر لى أن تكون من القتال، أى أنهم بهذا الإفك الذى لا يعلمون، قد أعلنوا حربا على الله يقاتلهم وسيكون له النصر عليهم، ثم قال تعالت كلماته: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أى كيف يصدفون عن الحق إلى الضلال الذى لا يفهمونه ولم يفهموه ولم يعقلوه.

وإن دخول هذه العقيدة التى لم يفهموها، وهى فى ذاتها غير قابلة للفهم أنهم يأخذون دينهم من رجال ويتلقونه من غير إدراك، ولا تفهم، فأضلهم أولا بولس، وأضلهم ثانيا الأساقفة الـ ٣١٨ فى مجمع نيقية وأضلهم من جاءوا بعد ذلك، ولذا قال تعالى:

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)﴾.

الأحبار جمع حِبر بالكسر، ويقال بالفتح، وهو العالم الذى يحسن القول، ويخبره، ويتقنه، وله فصاحة وبيان حسن، والرهبان جمع راهب، وهو الذى ينصرف إلى العبادة فى زعمهم، وهو من الرهبة بمعنى الخوف من المعبود، والله تعالى ذكر الرهبنة ـ لما فيها من الخوف، والرهبة من المعبود ـ بغير الذم، وإن كانت

(١) راجع «محاضرات فى النصرانية»، ورسالة «مقارنة الأديان» للشيخ محمد أبى زهرة- دار الفكر العربى.

مبتدعة، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧)﴾ [الحديد].

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا﴾، أى جعلوهم أربابا، وفسر النبى ﷺ كونهم أربابا، لا بأنهم عبدوهم، ولكن اتخذوا الدين منهم لا من كتابهم، فما يحلونه حلال، وما يحرمونه حرام، ولو كانوا يحلون ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله.

روى الترمذى عن عدى بن حاتم الطائى أنه أتى الرسول ﷺ وفى عنقه صليب من ذهب فقال له: «ما هذا يا عَدىّ اطرح عنك هذا الوثن، ويقول حاتم: وسمعته يقرأ ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ ثم قال «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه»(١) فهم يأخذون عن هؤلاء، وقد كان ذلك سببا لضلالهم، فأحلوا لهم الخنزير وشرب الخمر، وملأوا رءوسهم بالأوهام، وابتدعوا ابتداء ما سموه بالعشاء الربانى الذى يكون فيه خبز وخمر، فأوهموهم أن الخبز جَسَدُ المسيح، والخمر دمه، فأباحوه فى هذا العشاء.

وإذا كان علم الدين لم يؤخذ إلا منهم فقد أضلوهم ضلالا بعيدا، إذ لم يأخذوا الدين إلا منهم، وتفسير الكتب إلا منهم، وبذلك تركوا دينهم، وتعاليم المسيح إلا منهم فزوروها، ووضعوا الزيف بدل الجياد منها ﴿وَالْمَسِيحَ﴾، وهو معطوف على الأحبار، وقدم قوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ على ﴿الْمَسِيحَ﴾، للإشارة إلى أنهم اتخذوه بمرتبة من الربوبية التى نحلوها له غير ما اتخذوه من أربابهم.

---

(١) الترمذى: تفسير القرآن- ومن سورة التوبة (٣٠٩٥).

فما نحلوه له من ربوبية كان عبادة له فكانوا بذلك مشركين، وما اتخذوا من أحبارهم من ربوبية، فهى أنهم قد أخذوا التعاليم منهم، فحرموا من عند أنفسهم، واستباحوا من عند أنفسهم، فمثلا لم يكن فى الإنجيل منع من تعدد الزوجات، ولكن الكنيسة بأحبارها ورهبانها منعوه، وكانوا يبيحونه على حسب أهوائهم، كما أباحوه لنابليون، والتوراة فيها الإباحة من غير عدد.

ولو كانت أخرت كلمة ﴿أَرْبَابًا﴾ عن ﴿الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ لكان المعنى أن الربوبية التى اتخذوها واحدة، مع أن ربوبيتهم للمسيح عبادة، وربوبية الأحبار أخذ للتعاليم، وذكر الله تعالى أمه فقال: ﴿الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ للإشارة إلى كونه إنسانًا، ولد كما ولد غيره، وإن كان من غير أب.

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ الضمير فى أمروا يحتمل أن يعود إلى النصارى، وهو الظاهر، والمعنى أنهم جعلوا المسيح إلها يعبد، ولما أقروا بحكم ما أنزل على موسى وعيسى وحكم إلههما تقدست ذاته وتنزهت عن أن يكون له شريك، ويحتمل أن يعود على الأرباب وهو غير الظاهر، ويكون المعنى أن الأحبار والرهبان قبل أن يكونوا أربابا، أو أن يُتخذوا أربابا، هم أنفسهم ما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا.

قال تعالى: ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

(هو) تعود على الله تعالى، فهو حاضر فى كل نفس، وهو عائد على الله الذى أمروا بعبادته، فقوله: ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ تأكيد لمعنى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ فيها تصريح بالألوهية له وحده، سبحانه وتعالى عما يشركونه من عبادة المسيح ابن مريم.

وبهذا يتبين أن من يعبد المسيح مشرك مع المشركين، وكونهم أهل كتاب يضاعف الحجة عليهم.

ثم قال تعالى فيما وصل إليهم الأحبار والرهبان من مفاسد بعد أن أباحوا لأنفسهم أن يحلوا ما شاءوا وأن يحرموا ما شاء بلا رقيب ولا حسيب، فقال سبحانه وتعالى فى أعمالهم التى يريدون بها إطفاء نور الحق:

يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

إن المشركين واليهود والنصارى بالتمويهات الباطلة التى لا تدركها العقول المستقيمة، وهم ينطقونها بأفواههم ولا تتصورها عقولهم؛ لأنها غير قابلة للتصور، هؤلاء يريدون أن يطفئوا نور الله، وهو الحقائق الثابتة الدالة على أن الله خالق السموات والأرض ومن فيهن، والحق الذى جاء به محمد ﷺ والمعجزة الكبرى وهى القرآن الكريم، والهدى العظيم، يريدون بهذه الأوهام أن يطفئوا ذلك النور.

وقد شبه الله تعالى محاولاتهم وتضليلهم بحال من يحاول إطفاء الشمس فى علاها، والقمر فى بزوغه، فمن يحاول طمس الحقائق الظاهرة ضال مبطل فى محاولاته كمن يحاول إطفاء الشمس.

وأضاف النور إلى الله تعالى تشريفا لهذه الحقائق، وتنويها بشأنها؛ لأنها مضافة إلى العلى القدير، نور هذا الوجود، كما قال تعالى: ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** (٣٥) ﴾ [النور].

أولئك من مشركين وكتابيين يريدون إطفاء نور الله، فهم يعاندون الله، والله تعالى غالب عليهم، ولذا قال تعالى: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾ وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا﴾، فى مقابلة ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾، هم يريدون والله تعالى يأبى عليهم، ويأبى عليهم كل أهوائهم، وعلى ذلك فمعنى (يأبى) لا يريد الله، والاستثناء حينئذ مفرغ، والاستثناء المفرغ لا يكون إلا فى حال النفى، مثل لا يقوم إلا أحمد، ولا يهدى إلا محمد، ولا معجز إلا القرآن.

فكيف يكون قوله تعالى: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾ استثناء مفرغا، ونقول إن (يأبى) متضمنة معنى (لا يريد)، فى مقابل ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾، فهم يريدون الإطفاء والله لا يريد إلا أن يتم نوره، ويعم الوجود الإنسانى، وإرادة الله هى النافذة، لأن إرادتهم ظلمة، والنور كاشف الظلمة، ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ لأن ستر الحقائق والتمويه والتضليل لا يدوم مهما بطل الزمان، وقد أيد الله دعوة الحق بإرسال محمد يكشف به الظلمات، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)﴾.

الضمير يعود على لفظ الذى يأبى إلا أن يتم نوره، وكان من إتمام نوره إرسال محمد ﷺ الذى أبطل الشرك وأبطل مقالة أهل الكتاب التى ليس لها من الحق سلطان تقوم عليه.

قال تعالى: ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ الهدى هو القرآن، وهو ما جاء به النبى ﷺ من هداية. أخرجت العرب من الظلمات، والقرآن فيه الهدى الكامل كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ... (١٨٥)﴾ [البقرة].

و(الباء) فى قوله تعالى: ﴿بِالْهُدَىٰ﴾ للمصاحبة أى مصاحبا للهدى أى معه المعجزة الباهرة، والهداية الكاملة.

وأضاف الرسـول إليه سبحـانه فى قوله: ﴿رَسُولَهُ﴾ تنويها بشـأنه، وتشريفا وتكريما، وللإشارة إلى أنه ناصره ومؤيده وقاهر عدوه مهما يكونوا.

وقوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ اللام للتعليل أو للعاقبة، وعلى أنها للتعليـل يكون المعنى أنه أرسله ليظهره على الدين، فـالإرسال وكونـه رسوله علة للإظهار، أو للعاقبة، ويكون لتكون عاقبة الإرسال أن يظهره على الدين كله.

ودين الحق هو التوحيـد، والإضافة للبيـان، أى الدين الحق، والإضافة تدل على أنه الدين الحق الذى هو لبـاب الأديان الحق كلها، ولذا قـال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ... (١٣)﴾ [الشورى]، وهو التوحيد.

وقال تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ الدين كله قالوا إن المراد على الأديان كلها، ولكنا نـرى أن المراد الدين الحق الذى ذكره أولا؛ لأن إعادة المعـرفة معـرفة تكون عينها، ومعنى ظهوره على الدين كله المراد بـقاؤه ظاهرا معروفا؛ لأنه خاتم الرسل وآخرهم، ويتضمن كل ما جاءت به الـرسل جميعا، وهذا هو معنى «كله» فهـو الدين الجامع لكل الرسالات السـابقة، فمـن آمن بها فقـد آمن بكل الشرائع السماوية السابقة سليمة غير محرفة.

هذا ما نختاره والله الموفق للصواب.

وقـد جاءت أخـبار كـثيـرة تدل على انـتشار الإسـلام فى مشـارق الأرض ومغاربها وإنها لصادقة (راجع تفسير الحافظ ابن كثير)، وفى هذه الأخبار الصحاح إشارة إلى أن الأمراء هم الذين يفـسدون أمر المسلمين، فقد جـاء فى مسند الإمام أحمد رضى الله عنه: «سمـعت شقيق بن حبان يحدث عن مسعـود بن قبيصة أو قبـيصة بن مسـعود يقول: صلى هذا الحى من مـحارب الصبح، فلمـا صلوا قال شاب مـنهم: سمـعت رسول الله ﷺ يقـول: «إنه ستفـتح لكم مـشارق الأرض ومغاربها، وإن عمالها فى النار إلا من اتقى الله وأدى الأمانة»[١] صدق رسول الله

(١) رواه أحمد: باقى مسند الأنصار- أحاديث رجال من أصحاب رسول الله ﷺ (٢٢٥٩٩).

ﷺ فحكام المسلمين هم الذين أفسدوا الناس وكانوا حجة على هذا الدين، ومهما يكن فإن الله أظهر الدين على الدين كله، وقال: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ الذين عادوا الله وعادوا الحق، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله.

وإن الله تعالى حافظ دينه، وإذا كان المسلمون قد غلبوا على أمرهم بعمل حكامهم، فإنه لا تزال طائفة منهم قائمة على الحق تنادى به وتحفظه. بعد أن بين الله الضلال الذى أضل به الأحبارُ والرهبانُ اليهودَ والنصارى إذ اتخذوا أربابا من دون الله، وذكر أن محمدا ﷺ قد أرسل بالهدى والدين الحق ليزيل ضلالهم، وليظهر بالحق على الدين عاد إلى الكلام فى الأحبار وكيف فسدوا وأفسدوا، فقال تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ
أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ
وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ
عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ
وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ
تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾

الخطاب للذين آمنوا والنداء لهم بالبعيد، والخبر عن أحبار اليهود ورهبان النصارى، فلماذا كان الإخبار للذين آمنوا؟، ألمجرد القصص الحكيم الذى تكون فيه العبرة أم له ولأمر آخر يطويه الإخبار بقول إن القصص لا ريب فيه العبرة كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ ... ﴿١١١﴾﴾ [يوسف]، ولكنه يطوى أمرين آخرين، وهما.

أولا: ألا يثق المؤمنون بهم بما يلبسونه من طقوس، ومسوح يلقون بها بين الناس المهابة منهم والثقة فيبين الله للمؤمنين أنهم يتجرون بعلمهم، ويأخذون الرشا وسحت المال، والاتجار بالعلم فى ذاته غير جائز، فكيف إذا كان الثمن رشا وبراطيل وسحت المال.

وثانيا: ليكون ذلك تحذيرا لمن يتعلمون علم الإسلام بألا يتخذوه متَّجراً يتجرون به، فعلم الإسلام أعلى ما يدخره العلماء فلا يبيعونه ولا يحطون به على هوى الحكام، ولقد قال فى ذلك الحافظ ابن كثير: «والمقصود التحذير من علماء السوء وعباد الضلال كما قال سفيان الثورى: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى. . . والحاصل التحذير من التشبه بهم فى أقوالهم وأحوالهم، ويقول فى ذلك الفقيه عبد الله بن المبارك:

«وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها»

﴿ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ﴾ معناها يأخذونها بغير مسوغ دينى، وعبر عن الأخذ بالأكل لأن الأكل فى الأصل هو أوضح الغايات، ولأنه ينبئ عن الشره والطمع فى الأموال وأخذها بغير حق، وذلك أنهم كانوا يأخذون سحت الأموال، ويبيعون ما يحلونه لأنفسهم من الدين، ويأخذون البراطيل، وكلما زادت ثقة الناس فيهم ازدادوا طمعًا فى أموالهم، بل فيما هو أفحش من باطل الأموال، وبعد أن ضعف الدين فى قلوب علمائنا كان منهم من يفعل مثل فعلهم، ويقول فى ذلك ابن كثير: «وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين، ومناصبهم، ورياستهم فى الناس يأكلون بها أموالهم، كما كان لأحبار اليهود على أهل الجاهلية شرف، ولهم عندهم خرج وهدايا وضرائب تجيء إليهم، فلما بعث الله رسوله ﷺ استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم طمعا منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات فأطفأها الله بنور النبوة، وسلبهم إياها».

وإن نور النبوة المحمدية بعد أن بزغ، وعم ضياؤه كان مزيلا لما يشيعه الأحبار والقسيسون من إفساد وضلال، ولذلك لما فتك النصارى بالمسلمين فى

الحروب الصليبية كان بعده الإصلاح المسيحى، مع أن حال المسلمين لم تكن كما أراد لها الإسلام.

كلمة (والأحبار) فسرناها من قبل بالعلماء الذين يحبرون العلم، ويزينونه بحسن الأداء والبيان واللسان والقلم، ولكن بعض المفسرين يفسرون الأحبار بأنهم علماء اليهود، ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ... (٦٣)﴾ [المائدة] وأما علماء النصارى فيقال عنهم قسيسون، ويشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿... ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢)﴾ [المائدة] والرهبان عباد النصارى ولعلهم يقابلون الربانيين فى اليهودية ولا مانع من هذه التسمية، ولعل إطلاق الأحبار ربما يسع القسيسين ليكون سيرا على الأصل اللغوى من معنى كلمة الأحبار.

وعبر سبحانه وتعالى عن كل كسب خبيث بقوله تعالى: ﴿بِالْبَاطِلِ﴾؛ لأن الباطل يشمل أخذ المال بغير حق، يبرر الأخذ بالخديعة أو بالغش والتدليس والاتجار بدين الله تعالى.

ومع أنهم كانوا يخدعون الناس بتدينهم الآنف، وخصوصا الرهبان كانوا يصدون عن سبيل الله تعالى، فقال تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فكأنهم يتخذون مسوحهم ورياستهم الدينية، لابتزاز الأموال، وأخذها بغير حقها، والعبث بها ، واكتنازها متخذين فى ذلك مظاهرهم ذريعة لمآثمهم، يصدون ويمنعون أتباعهم الذين اتخذوهم فريسة لأهوائهم من أن يتبعوا الحق، والنور الذى جاء به محمد ﷺ، وهو سبيل الله الحق الذى لا يمترى فيه عاقل، ولا ذو قلب، وبصر، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ... (١٥٣)﴾ [الأنعام].

وإن الأموال التى يأخذونها يجمعونها، ويكنزونها، ومأواهم جهنم، ولذا قال سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

وهذا النص الكريم يبين أن جمع المال لا يجدى، ويضر صاحبه، ومآله شر فى الدنيا والآخرة، والكنز فى اللغة: الضم والجمع لكل شىء ثمين سواء دفن فى باطن الأرض، أو لم يدفن، ولكن شاع استعماله فيما يدفن فى باطن الأرض، ولكن شيوعه لا يمنع أصل إطلاقه، ولا يمنع الشيوع من أن يطلق على الأصل اللغوى القوى، ولقد قال شيخ المفسرين الطبرى: الكنز كل شىء مجموع بعضه إلى بعض فى بطن الأرض كان أو على ظهرها.

وظاهر الآية يدل على أنها عامة تعم الأحبار والرهبان وغيرهم من المسلمين وغيرهم، ولكنها سيقت فى مقام الكلام على أكل الرهبان والأحبار لأموال الناس بالباطل، ولا يمنع ذلك من عموم؛ لأن لفظها عام، والعبرة بعموم اللفظ، وقد جرت مناقشة فى ذلك بين أبى ذر الصحابى الجليل، ومعاوية بن أبى سفيان، ولنذكر بعضها:

قال الحافظ ابن كثير: «كان من مذهب أبى ذر رضى الله عنه تحريم ادخار ما زاد على نفقة العيال، وكان يفتى بذلك، ويحث الناس عليه ويأمرهم به، ويغلظ فى خلافه».

كان الصحابى الطاهر المؤمن يعيش فى الشام، والأمير معاوية، وأبو ذر يجهر برأيه ويحث الناس عليه ويستنكر النعيم الذى يرفل فيه معاوية، ومن يواليه، فأبلغ أمره إلى أمير المؤمنين عثمان ذى النورين، فأحضر أبا ذر، فاختار أبو ذر أن يقيم بالربذة، ولكن الراجح من الروايات أن عثمان هو الذى أنزله بها، وبها مات رضى الله عنه.

وقد روى البخارى عن زيد بن وهب: مررت بالربذة، فإذا بأبى ذر فقلت: ما أنزلك هذا المنزل؟، قال: كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية فى هذه الآية: ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فقلت: نزلت فينا

وفيهم، فكان بينى وبينه فى ذلك، فكتب إلى عثمان يشكونى فكتب إلىَّ عثمان أن أقدم المدينة، فقدمتها، فكثر علىّ الناس كأنهم لم يرونى قبل ذلك، فذكرت ذلك لعثمان، فقال: إن شئت تنحيت فسكنت قريبا، فقال: فذاك الذى أنزلنى هذا المنزل، ولو أُمِّرَ علىَّ عبد حبشى لسمعت وأطعت.

وإن هذا الحديث يدل على أنه اختار هذا البعد، وربما يكون قد اختار الربذة بالذات.

وفى المناقشة بينه وبين معاوية أغلظ، وقد أراد معاوية أن يغويه بالمال أو يختبره وهو عنده، أيوافق قوله عمله أم لا، فبعث إليه بألف دينار، ففرقها على الفقراء من يومه، ثم بعث إليه الذى أتاه بها، فقال: إن معاوية إنما بعثنى إلى غيرك فأخطأت، فهات الذهب، فقال: ويحك إنها خرجت، ولكن إذا جاء مالى حاسبتك. وفى الحق أن أبا ذر قد أصاب كل الإصابة فى قوله: إن الآية تعم الأحبار والرهبان وأتباع محمد ﷺ وأخطأ معاوية، وما لمعاوية وفقه القرآن!.

ويحق إذن أن نقول أن الآية عامة لا تخص الأحبار والرهبان، ولا نسير إلى المدى الذى يسير إليه سيدنا أبو ذر الصحابى المخلص بحيث لا يبيح لذى المال إلا ما يكفيه وعياله كما كان يفعل فى ذات نفسه، ويدعو إليه. روى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه أنه كان مع أبى ذر، فخرج عطاؤه، ومعه جارية، فجعلت تقضى حوائجه، فقضت منها سبعة، فقلت: لو ادخرت لحاجة بيوتك، وللضيف ينزل بك، فقال: إن خليلى أوصانى أن أيما ذهب أو فضة أوكئ عليه فهو جمر على صاحبه حتى يفرغه فى سبيل الله إفراغا.

ولقد قال ابن عبد البر: «وردت عن أبى ذر آثار كثيرة تدل على أنه كان يذهب إلى أن كل مال مجموع يفضل عن القوت وسداد العيش فهو كنز يذم فاعله، وأن آية الوعيد نزلت فى ذلك، وخالفه جمهور الصحابة ومن بعدهم، وحملوا الوعيد على مانعى الزكاة».

ونحن نتبع جمهور الصحابة؛ وذلك لأنه إذا لم يبق شيء من المال بعد نفقاته ونفقات عياله لم يكن ثمة زكاة، لعدم وجود وعاء لها، فشرعية الزكاة توجب مالا مدخرا حولا، وذلك ينافى ما ذهب إليه أبو ذر رضى الله عنه.

وأيضا فإن الأخذ برأى الصحابى الجليل ينافى الميراث؛ لأن الميراث يكون فى المال الذى يبقى، وقد منع الصحابى الجليل بقاء أى مال يورث أو تجب فيه الزكاة.

وأيضا فإن معنى رأيه إلغاء الوصية مع الميراث، وقد شرعت الوصية بالقرآن، وبالحديث النبوى، فقد روى أن النبى ﷺ قد قال: «إن الله تصدق عليكم فى آخر أعماركم بثلث مالكم فضعوه حيث شئتم»[1].

ولقد كان من الصحابة من لهم ثروات فى عصر النبى ﷺ فما استنكرها عليهم، فعثمان كان ثريا وتاجرا، وعبد الرحمن بن عوف كان ثريا وتاجرا، وأبو بكر وعمر كانا من ذوى الأموال.

وإنه لو أخذ برأى أبى ذر ما كانت التجارات، فأسواقها تقوم على رءوس الأموال، وما كانت الصناعات، فهى أيضا تقوم على رءوس الأموال.

من أجل هذا كان لابد من تخصيص كنز الذهب والفضة الذى أوعد الله تعالى، وقد خصصوه من ذات النص القرآنى فقد قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ إن الوعيد على الأمرين مجتمعين لا على أمر واحد منهما. فليس الوعيد على الكنز لذات الكنز، وإنما الوعيد على الأمرين معا، على الكنز وعدم الإنفاق فى سبيل الله تعالى، فإذا وجدا معا كان التبشير بالعذاب الأليم، وكان الوعيد الشديد لمن يمنع الإنفاق مع أنه يكنز المال، ولذا تضاربت الروايات على أن من يعطى الزكاة لا يكون عليه إثم الكانزين، بل إنه لا يعد كانزا من يخرج حقه فى سبيل الله، وإنما الكانز هو الجامع للمال الذى يمنع حقه.

---

(١) سبق تخريجه.

وقد ورد ذلك عن النبى ﷺ، بأن الإنفاق يمنع إثم الكانز الذى يجمع المال، وإنما ورد فى الأثر الصحيح: «نعم المال الصالح فى يد العبد الصالح»[١].

ويجب أن نشير هنا إلى أن الآية تشير إلى أن المال لا يكنز من الذهب والفضة، بل يجب أن يخرج للاستغلال الحلال بالاتّجار، والصناعة، والزراعة، ولا يبقى فى الخزائن، كالماء العطن الذى لا ينتفع به، وفى الآية إشارات بيانية:

منها - قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ﴾ فإن فى الآية تهكما عليهم؛ لأن العذاب الأليم لا يبشر به، بل يهدد به، وفى التعبير بقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ تهكم بهم، إذ إنهم كانوا يرتقبون خيرا فى الآخرة من تكاثرهم فى المال واكتنازه فجاءت العقبى غير ما يرتقبون.

ومنها - أن الضمير أعيد على الذهب والفضة بضمير المؤنث فى قوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لملاحظة المعنى وهو الدنانير من الذهب، والدراهم من الفضة، وهى جمع، فأعيد عليها بضمير المؤنث، وهو لما لا يعقل يكون بالضمير المؤنث.

والثالثة - أنه ذكر الكنز فى الذهب والفضة دون غيرهما مع أن الأموال كثيرة، وكان المال يطلق على النعم دون غيرها، وأجيب عنها بأن الذهب والفضة تطلق على كل المال، وهما مقياس التقدير لكل الأموال، وقد قال فى ذلك الزمخشرى: إنهما قانون التمول وأثمان الأشياء، ولا يكنزهما إلا من فضلا عن حاجته، ومن كثرا عنده حتى يكنزهما، لم يعدم سائر أجناس المال، فكان ذكر كنزهما دليلا على ما سواهما.

---

(١) عن عَمْرو بْنِ الْعَاصِ يَقُولُ: بَعَثَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ فَقَالَ: "خُذْ عَلَيْكَ ثِيَابَكَ وَسلاحَكَ ثُمَّ ائْتنى" فَأَتَيْتُهُ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ، فَصَعَّدَ فِيَّ النَّظَرَ ثُمَّ طَأْطَأَهُ فَقَالَ: "إِنِّى أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَكَ عَلَى جَيْشٍ فَيُسَلِّمَكَ اللَّهُ، وَيُغْنِمَكَ، وَأَرْغَبُ لَكَ منْ الْمَال رَغْبَةً صَالحَةً" قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّه مَا أَسْلَمْتُ مِنْ أَجْلِ الْمَال وَلَكِنِّى أَسْلَمْتُ رَغْبَةً فِى الإِسْلامِ، وَأَنْ أَكُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «يَا عَمْرُو نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ». رواه أحمد: مسند الشاميين- حديث عمرو بن العاص رضى الله عنه (١٧٣٠٩).

هذا معنى الآية الكريمة فيما يظهر لنا، ويجب أن ننبه إلى أنه لا يصح النهم فى المال إلا للقيام بمصلحة عامة، ولا يصح أن يكون المال مطلبا ذاتيا، وغرضا مقصودا لذاته لا للتمكن من النعم، فإنه حينئذ يلهى عن المقاصد السامية، كما قال تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر][١]، ولأنه يصير عبدا للمال، لا سيدا متصرفا، والنبى ﷺ يقول: «تعس عبد الدرهم» - وقد روى أن رسول الله ﷺ قال: «تبا للذهب تبا للفضة» قالها ثلاثا فقالوا له: أى مال نتخذ: قال: «لسانا ذاكرا وقلبا خاشعًا، وزوجة تعين أحدكم على دينه»[٢] وقال ﷺ: «من ترك صفراء أو بيضاء كوى بها»[٣].

ذكر الله عذاب يوم القيامة لمن كنز الذهب والفضة من غير إنفاق:

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ۝٣٥﴾.

﴿يَوْمَ﴾ تتعلق بقوله: ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أى ذلك الإيلام الشديد، يوم يحمى عليها أى يوقد عليها، والضمير يعود إلى الذهب والفضة كما يعود ضمير ينفقونها إليها على التخريج الذى ذكرنا آنفا، ولهذا النص تصوير لحال الأشحة الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبل الخير، ولا يؤدون ما تعلق بها من نفقات على العيال، والفقراء، فلا يعطون المال على حبه مسكينا يتيما وأسيرا، ويعيشون لأنفسهم، لا يتجاوزونها إلى غيرهم من الفقراء والمحاويج والمجاهدين والمؤلفة قلوبهم والغارمين وفى سبيل الله.

و﴿يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾ أى يوقد عليها فتكون كمقامع تكوى بها وجوههم، وجنوبهم وظهورهم، وذكرت هذه الأعضاء لأنها تعم الجسم كله، وابتدأ بالوجوه

---

(١) جزء من حديث رواه البخارى: الجهاد والسير- الحراسة والغزو فى سبيل الله عن أبى هريرة رضى الله عنه (٢٨٨٧).

(٢) رواه أحمد فى مسنده: باقى مسند الأنصار- حديث رجال من أصحاب النبى ﷺ (٢٢٥٩١).

(٣) رواه أحمد: مسند الأنصار- حديث أبى ذر رضى الله عنهم ٢٠٩٦٩). قلت: وقد نوّه الشيخ أبو زهرة رحمه الله تعالى إلى مراجعة الكشاف عند هذا الموضع.

لأنها بها المواجهة، وبها تتميز الأشخاص؛ ولأنهم يطلبون بكنز المال الوجاهة فى الدنيا، والشأن فيها، ولأنهم بالكنز يصونون ماء وجوههم، كما قال الزمخشرى «أن يكون ماء وجوههم مصونا عندهم يتلقون بالجميل، ويحيون بالإكرام، ويبجلون ويحتشمون، ومن أكل الطيبات يتضلعون منها، وينفخون جنوبهم، ومن لبس ناعمة من الثياب، يطرحونها على ظهورهم، كما ترى أغنياء زمانك هذه أغراضهم وطلباتهم من أموالهم لا يخطِرون ببالهم قول رسول الله ﷺ «ذهب أهل الدثور بالأجور». وقيل لأنهم كانوا إذا بصروا الفقير عبسوا وإذا ضمهم وإياه مجلس ازوروا عنه، وتولوا بأركانهم، وولوه ظهورهم، وقيل: معناه يكون على الجهات الأربع مقاديمهم، ومآخيرهم وجنوبهم» اهـ.

هذه مقالة الزمخشرى، ونرى الأقوال التى ذكرها كلها صادقة، فهم ينتفعون بالأموال مفاخرين بها مباهين مستعلين يملئون بطونهم منها، ويلبسون الدمقس والحرير، ويعبسون للفقراء، ويهشون للأغنياء، ويوم القيامة تحيط بهم النار من الجهات الأربع، بحيث لا ينفلتون عنها، ويكوون بها فى كل أجزاء جسمهم، ولا يجدون للفرار منها سبيلا.

﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ﴾ هذه النار الموقدة من تّنوركم هى ما كنزتموه أى عاقبته ومآله، أو ذاته، فذوقوا ما كنتم تكنزون، أى وبال ما كنتم تكنزونه، أو ذوقوه موقدا للنار.

هذا خبر الله تعالى عن الكنوز وأصحابها يوم القيامة، وما يتعلق باليوم الآخر نقبله كما هو، ويصح أن نقول إنه تصوير لحالهم تسببه عاقبة أمرهم بمن يُكوون بذهبهم وفضتهم، والله عليم خبير.

قد ابتدأ فى سورة براءة بذكر الأشهر الحرم ومنع القتال فيها ثم تكلمت على عهود المشركين وعمارة المسجد الحرام، وعلى منع المشركين من المسجد الحرام وبيان شرك أهل الكتاب، وعبث الأحبار والرهبان بمداركهم.

ومن بعد كان الجهاد، وقدم الله تعالى بيان الأشهر الحرم حرامها وحلالها، فقال تعالى:

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

إن الله تعالى وقت العبادات غير الصلاة بشهور من السنة، فرمضان شهر القرآن، وشهر الصيام، وذوالحجة شهر الحج لأن فيها يوم عرفات، والحج له أشهر معلومات كما قال تعالى: ﴿**الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ** ... (١٩٧)﴾ [البقرة]، وهذه الأشهر هى شوال وذو القعدة وعشر من ذى الحجة، وجعلت الأشهر بالأهلة، تبتدئ برؤية الهلال وتنتهى برؤيته، كما قال تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ** ... (١٨٩)﴾ [البقرة] وقال تعالى: ﴿**وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ** (٣٩)﴾ [يس]، وقال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً** (١٢)﴾ [الإسراء] وجعلت الأهلة علامة الشهور ابتداء وانتهاء، أو هى الشهور لأمرين:

أولهما ـ أن يعلم ابتداء الشهر بالحس لا بالتقدير والحساب المجرد؛ فإن الأشهر الشمسية لا تعرف إلا بالحساب.

ثانيهما ـ ألا تتغير السنة بالزيادة والنقصان فتكون (كبيسة) فتزاد، أو (بسيطة) فلا تزاد، وإنها تتفق مع طبائع الناس.

وبذلك لا تتغير أوقات العبادات، ولا تختلف، وجعلها الله تعالى اثنى عشر شهرا، وقد ثبت كل شهر فى موضعه ذاته لا يفترق عنه، وقلنا: إن طبائع الناس تسير مع الأشهر العربية فثبت أن الحيض والحمل يتبعان الأشهر القمرية.

وقد قال تعالى: ﴿**إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ**﴾ و﴿**عِندَ اللَّهِ**﴾ معناها فى حكمه وتقديره سبحانه وتعالى، وعلينا أن نهتدى بما هدانا إليه، وقوله تعالى: ﴿**فِي كِتَابِ اللَّهِ**﴾، أى فيما كتبه علينا من أحكام متعلقة بهذه الأشهر، وقال بعض العلماء: المراد ما كتب فى اللوح المحفوظ الذى فيه ما قدره الله تعالى بعباده، فهو لوحه المكنون.

ويقول سبحانه: ﴿**مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ**﴾ الضمير يعود إلى ﴿**عِدَّةَ الشُّهُورِ**﴾، وحُرُم جمع حرام، وقد فسرت بأنها التى حرم فيها القتال، وكان ذلك قبل الإسلام على شريعة إبراهيم عليه السلام الذى تعود إليه مناسك الحج، وإذا كان المشركون قد حرفوا فيها وغيروا وبدلوا فإن الإسلام قد أعادها كما بدأت؛ لأنه ملة إبراهيم عليه السلام كما قال تعالى: ﴿ **... وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ...** (٧٨) ﴾ [الحج].

وهذه الأشهر الحرم هى ثلاثة سرد، ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب الذى بين جمادى وشعبان، وقد قال النبى ﷺ فى خطبة الوداع مبينا شريعته، ومنها الأشهر الحرام، وكانت الخطبة فى العام العاشر «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة

حرم ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان» ثم قال: «أى يوم هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال: «أليس يوم النحر؟» قلنا: بلى، ثم قال: «أى شهر هذا؟». قلنا: الله ورسوله أعلم، ثم سكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: أليس ذا الحجة؟» قلنا: بلى، ثم قال: «أى بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال: «أليس البلدة الحرام؟» قلنا: بلى. قال: «فإن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا هل بلغت، ألا ليعلم الشاهد منكم الغائب، فلعل بعض من يبلغه أمر يكون أوعى له من بعض من سمعه[(١)].

وإن معنى قول النبى ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» أن المشركين كما سيتبين يغيرون فى الأشهر الحرم اتباعا لشهواتهم فى القتال والغارات، فكانوا إذا جاء الشهر الحرام، وهم يتقاتلون، أو يريدون الغارة أجَّلوه إلى ما يليه، ويسمون ذلك النسىء كما سيأتى فى الآية الآتية، إن شاء الله تعالى، فمعنى قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض، أن هذا الوقت هو وقت صادق أنه فى الأشهر الحُرُم.

وتحريم القتال فى هذه الأشهر فرض هدنة شرعية تحمل الناس على ألا يرفعوا السلاح ولا يقاتلوا، فتعود القضب إلى أجفانها فتكون التروية، وإذا كان بين المتقاتلين هدنة يتروون فيها تكون كالنسيم العليل فتهدأ النفوس، وربما أنهت القتال، ألم تر أن هدنة الحديبية أنهت القتال بين النبى والمشركين.

وفوق ذلك فهذه الأشهر هى أشهر الحج، فيجب أن يكون فيها أمن السارى فى ذهابه إلى الحج وأوبته، حتى تؤدى فرائض الله، والأشهر المتواليات أشهر

---

(١) متفق عليه، رواه البخارى: المغازى- حجة الوداع (٤٤٠٦)، ومسلم بنحوه: القسامة والمحاربين- تغليظ تحريم الدماء (١٦٧٩).

الذهاب والأوبة، ورجب مضر كان شهر عمرة، فأُمِّن ليتمكن من يريد العمرة من أن يعتمر فيه.

ولقد قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ الإشارة إلى ما تقدم من عدة الشهور، وتحريم القتال فى أربع منها هو الدين، وعبر عنها بأنها الدين لمكان تحريمها من الشرع، وإن كانت بعض ﴿الدِّينُ﴾، فذلك التعبير السامى تأكيد لمنع القتال فى الأشهر الأربعة، و﴿الْقَيِّمُ﴾ معناه المستقيم القويم وكان كذلك؛ لأنه ما سلكه إبراهيم بانى البيت ورافع قواعده، ولأنه يكفكف حدة القتال، ولأنه يمكِّن قاصدى البيت من أن يصلوا إليه، ويعودوا منه.

وقال تعالى: ﴿فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ الظلم: النهى عنه فى هذه الأشهر الحرم، هو ظلم أنفسهم باستمرار القتال فيها، فظلم للنفس أن يقاتل، وقد منع من القتال، ولأنه عصيان لله، وكل عصيان لله تعالى فهو ظلم للنفس، وقال بعض العلماء: إن الظلم للنفس فى الشهر الحرام هو أن يُعتدى عليهم فلا يدافعوا عن أنفسهم ويردوا اعتداء غيرهم، ونقول: إن القتال فى هذه الحال لا يكون محرما فى الشهر الحرام، بل المعتدى على الشهر غيرهم، والله تعالى يقول: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ... (١٩٤)﴾ [البقرة].

وبعد ذلك أمر الله تعالى بقتال المشركين كافة ردا لاعتدائهم فقال: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ... (١٩٤)﴾ [البقرة].

وهذه لا تتنافى مع تحريم القتال فى الأشهر الحرم، بل إنها تؤيده فى معناه، إن المشركين فى غزوة الأحزاب وغيرها - وخصوصا إذا أدخلنا فى عداد المشركين من كانوا يعبدون الأشخاص - كانوا يجتمعون كافة، فكان حقا على المؤمنين أن يجتمعوا كافة لهم، ولا يتخاذلوا أمامهم، وإن قاتلوا المؤمنين بكافتهم فى الأشهر الحرم، وجب أن يجتمعوا كافة لمقاتلتهم ولا يتوانوا ويثَّاقلوا.

وكان غريبا أن يتخذ بعض الفقهاء من قوله تعالى: ﴿فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ دلالة على نسخ الأشهر الحرم، كأن بعض الآية يهدم

بعضها الآخر، فأول الآية يبين شريعة الأشهر الحرم، وآخرها ـ في زعمهم الغريب عن كل معقول في القول ـ يهدمه، وهذا إذا كان في كلام الناس يكون غريبا، فكيف يكون مقبولا في كلام الله سبحانه وتعالى، بل من الغريب أنهم تنسَّخوها قبل تتميم حكمها بالكلام في النسيء، ويزكون وهمهم الكاذب بأن النبي ﷺ حاصر الطائف في الشهر الحرام، وإن الثابت تاريخيا أن النبي أنهى الحصار قبل انتهاء شوال(١).

وإن الحق أنه لا نسخ، ومن ادعى النسخ فقد ادعى أمرا غير معقول في ذاته، وذلك لما يأتي:

أولا ـ أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أكد تحريم القتال في الأشهر الحرم في حجة الوداع، وبين أحكاما أخرى.

ثانيا ـ أن الله تعالى ذكر الشهر الحرام في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلا الْهَدْيَ وَلا الْقَلائِدَ... (٢)** ﴾ [المائدة]، وهذا في سورة المائدة التي هي من أواخر القرآن نزولا، وقال تعالى: ﴿ **فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ... (٥)** ﴾ وقال تعالى: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ... (٢١٧)** ﴾ [البقرة].

وهكذا تعددت الآيات المحرمة، ومع ذلك يدعى بعض الفقهاء النسخ بغير حجة إلا أن تكون موافقة الملوك الشرهين إلى الدماء، وتكون مع المسلمين، ولاحول ولا قوة إلا بالله.

وقد أتم الله تعالى ما ذكره في تحريم القتال في الأشهر الحرم، وتلاعب المشركين به فقال:

﴿ **إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)** ﴾.

---

(١) راجع كتاب «خاتم النبيين» للإمام محمد أبو زهرة. دار الفكر العربى.

ختم الله تعالى الآية السابقة بقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ لإشعار المؤمنين بأنه من التقوى إطاعة الله فى تحريم القتال فى الأشهر الحرم حقنا للدماء، وأن الله تعالى لا يصاحب ولا ينصر إلا المتقين، وأكد ذلك بالأمر بالعلم، كما أكده بالصحبة السامية لله تعالى، وبالجملة الاسمية.

ولذلك ذكر من بعد ذلك الاعتداء على الأشهر الحرم بالنسىء، والنسىء معناه التأخير والتأجيل، يقال: (نسأ) بمعنى أَخَّر وأجل، ومنه قوله صلى الله تعالى عليه وسلم «من أراد منكم أن يبارك له فى رزقه، وينسأ له فى أجله فليصل رحمه»(١).

وكانت طريقة النسىء أن يجىء إلى المحرم وهو من الشهر الحرام فيستبيح القتال فيه، ويؤجل التحريم إلى صفر، فيستبدل بالشهر الحرام شهرا حلالا، ولأنه يريد الغارة، وقالوا: إنما كانوا يفعلون ذلك رغبة فى الغارات، وطمعا فى الأموال من النعم، ويذكر ابن إسحاق فى سيرته أن أول من فعل ذلك رجل من كنانة اسمه «القَلَمَّس».

ولقد ذم الله النسىء أشد الذم فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ أى ليس النسىء إلا زيادة فى الكفر، فـ(إنما) أداة قصر، فهو ليس إلا زيادة فيه؛ كفروا بملة إبراهيم عليه السلام فعبدوا الأوثان وطافوا بالبيت عراة، وكان شرع إبراهيم تحريم القتال فى أربعة أشهر معينة بالتعيين، فغيروا فيها بالنسىء، فزادوا بذلك كفرا إلى كفرهم.

وقال تعالى: ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى أن شهواتهم فى الغارات والقتل والقتال وتحكّم الشيطان فى نفوسهم يضلهم، ويلاحظ أنه بنى للمجهول للدلالة على أن عوامل الضلال كثيرة رأسها شهواتهم فى الحرب، وسيطرة الشيطان على نفوسهم، والعداوة والبغضاء بينهم، وكان هذا لأنهم أصحاب غارات وحروب

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى: الأدب- من بسط له فى الرزق بصلة الرحم (٥٩٨٦)، ومسلم: البر والصلة (٢٥٥٧).

مستمرة، فإذا جاء الشهر الحرام، لم يحرموا ما هم عليه من قتال، بل يستمرون سادرين فى غيهم، ويؤخرون التحريم إلى الشهر الذى يليه، ثم يسيرون فى غيهم، ويقول الزمخشرى: ربما جعلوا السنة ثلاثة عشر شهرا أو أربعة عشر.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ يحلون النسىء عاما، ويمنعونه عاما حسب سيطرة هوى الحرب على أنفسهم، وتحكم شهوتها فى نفوسهم، وقد يقصرون السنة عن اثنى عشر شهرا، ليعوضوا الزيادة التى زادوها، وذلك ليواطئوا عدة ما حرم الله، «العدد الذى حرمه الله تعالى وهو أربعة أشهر».

وإنهم بذلك يخالفون ما شرعه الله تعالى، وهو أنه حرم أشهرا معدودة بأربعة، ومعينة بالتعيين، حسب ميقات كل شهر وموضعه من السنة، وبالنسبة لما قبله، وما بعده، فبالنسىء خالفوا التعيين، ووضعوا شهرا فى موضع شهر من عند أنفسهم من غير علم أوتوه، ولا حجة اعتمدوا عليها، بل هو الهوى، فهم نظروا إلى العدد، ولذلك قال تعالى: ﴿لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾، أى ليوافقوا العدد، لا الأوقات ذاتها، وبذلك أحلوا ما حرم الله، فكان المحرم هو شهر المحرم، فأحلوه، وكان الحلال صفر فحرموه، ولما اضطربت الأشهر وتغيرت مواضعها، أحلوا ما حرم الله وحرموا ما أحل الله، ولذلك عندما أعلن النبى ﷺ تحريم الأشهر الحرم قال: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» أى صار كل شهر فى موضعه لا يبتعد عنه، فرمضان هو رمضان كيوم خلق الله السموات والأرض، وذو القعدة كذلك، وذو الحجة والمحرم، وبذلك يكون الحلال من الأشهر حلالا والحرام حراما.

ثم يقول سبحانه: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ أى زين لهم الشيطان والهوى سوء عملهم القبيح، وبنى للمجهول للإشارة إلى أن عوامل كثيرة سولها لهم كفرهم، جعلتهم يغيرون خلق الله فى الأشهر، ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾؛ لأنهم سلكوا سبيل الغواية، واختاروا الضلال، فساروا فيه، فكان فى ذلك ضلالهم، والله سبحانه مع من سلك طريق الحق مختارا هداه إلى نهايته، ومن سلك طريق الباطل مختارا أنهاه تعالى إليه.

القتال فى غير الأشهر الحرم

قال تعالى:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ
إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ
فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾
إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا
غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ
يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ
ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا
وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ
وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾
ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

بعد أن بين الله تعالى الأشهر الحرم وعبث المشركين، بين الجهاد سيرا على نسق الأشهر الحرم، فى قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ... ﴿٥﴾ ﴾.

والقتال هنا قد تجاوز الجزيرة العربية إلى ما حولها من الشام، وتجاوز الوثنية إلى أهل الكتاب الذين يعبدون غير الله تعالى وذلك فى غزوة تبوك، فقد كانت فى شدة القيظ، وكانت بعد أن ملأت الغنائم الجيوب، وبعد أن أخذ الترفه يغزو النفس المؤمنة، وهو آفة القوة.

أخذ يدعوهم ﷺ إلى الجهاد، فكان منهم من أقعدته الدعة، والاستنامة إلى الراحة، فلم يكونوا كما كانوا من قبل إذا دعوا إلى الجهاد سارعوا إليه، ولذا عاتبهم الله تعالى فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ**﴾ صدَّر النداء بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ للإشارة إلى أن موجب الإيمان كان يدعو إلى المبادرة، لا إلى التثاقل، وقوله: ﴿**مَا لَكُمْ**﴾ استفهام إنكارى بمعنى التوبيخ، معناه أى شىء ثبت لكم فمنعكم من المبادرة إذا دعيتم، ثم صرح سبحانه بما تضمنه الاستفهام، وهو ﴿**اثَّاقَلْتُمْ**﴾ أصلها تثاقلتم، وفى قراءة الأعمش (تثاقلتم) على أصل الاشتقاق[1]، وموضع الاستنكار هو التثاقل عندما ﴿**قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا**﴾، و﴿**إِذَا**﴾ متعلقة فى الفعل المقدَّر فى قوله تعالى: ﴿**مَا لَكُمْ**﴾ والمعنى أى شىء أثبت لكم حال ما قيل انفروا اثاقلتم و﴿**انفِرُوا**﴾ معناه انتقلوا إلى الحرب، والجهاد فى سبيل الله، فالنفير معناه الخروج إلى القتال.

وقوله تعالى: ﴿**اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ**﴾ معناه تثاقلتم، وثقلت عليكم المبادرة إلى القتال مخلدين بأنفسكم إلى الأرض حيث الدعة والراحة، والاستظلال بظلها، والسكون، ويتضمن هذا المعنى أنهم رضوا بالتقاعد فى الأرض وترك الرفعة والمقام المحمود فى الجهاد، كقوله تعالى: ﴿**وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ ... (١٧٦)**﴾ [الأعراف].

والمعنى أنهم إذ تثاقلوا عن الجهاد رضوا البقاء فى الأرض، فحقت عليهم الذلة.

---

(١) (تثاقلتم)، ليست فى العشر المتواترة.

وقال تعالى فيما يترتب على تثاقلهم، وهو أن يكونوا قد تركوا الجهاد ورضوا بمتاع قليل، وتركوا متاع الآخرة الكثير، فقال تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ﴾ الاستفهام للاستنكار التوبيخى، ومعناه أنكم إذا اثاقلتم عندما دعيتم إلى النفور فى سبيل الله فقد رضيتم بأن تكون لكم الحياة الدنيا التى هى الدنية ﴿مِنَ الآخِرَةِ﴾ من هنا بمعنى بدل، أى رضيتم بالدنيا ونعيمها الزائل بدل الآخرة، ونعيمها المقيم الدائم.

ولذا قال مقررا الفرق بين متاع الدنيا ومتاع الآخرة، فقال تعالت كلماته: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾.

(الفاء) هنا للإفصاح؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر تقديره، إذا كنتم رضيتم ذلك فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قدر قليل ضئيل، وهنا إشارات بيانية نذكرها.

أولها - فى التعبير بـ ﴿اثَّاقَلْتُمْ﴾ فإن الصيغة بحالها من الإبدال فى لفظها دلالة على استثقال النفور فى سبيل الله، وما ذلك شأن المؤمنين المجاهدين الذين سبق لهم البلاء فى الإسلام، ولهم فى الجهاد سابقات كرام.

الثانية - فى النفى والإثبات فى قوله تعالى: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ فإنه يفيد قصر متاع الدنيا، مهما يكن من إحساس وراحة بالنسبة للآخرة فما هو إلا قليل.

ولم يذكر متاع الآخرة لكثرته، ولأن الإيمان بها فى ذاته سعادة غير محصورة، فهى علو فى إدراك النعيم المقيم الثابت الدئم.

وإن عاقبة القصور عن الجهاد هى الذل، والهوان، ولذا قال تعالى:

﴿إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩)﴾.

هذا إنذار من الله لكل الذين يتركون الجهاد، ولا ينفرون فى سبيل الله، فقد أنذر فى هذه الآية بالعذاب والسخط والهلاك، وأنه لا ضرر على الله ورسوله.

﴿إِلاَّ تَنفِرُوا﴾ أى فى سبيل الله والجهاد، هى (إنْ) الشرطية المدغمة فى (لا)، وجواب الشرط ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ذكر العذاب منكّرا، مطلقا، والتنكير لتعظيم هذا العذاب، وأنه شديد يتطابق فى شدته مع التثاقل عن الجهاد عند وجوب موجبه ودعوة الإمام الحق إليه، وإطلاقه يفيد تعدده وكثرته، فهو يشمل الغزو من الأعداء، والذلة، والمهانة والصغار، هذا فى الدنيا، أما يوم القيامة فنار الجحيم وغضب الله، وسخطه، وبعده عنه.

وذكر مع العذاب الأليم الهلاك، فقال تعالى: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أنه يكون عند هلاككم، وحيث تهلكون مصحوبين بالخزى والهزيمة والعار يجىء قوم غيركم يكونون أشد بأسا وأعرف بحق الله تعالى منكم، وأرضى له، ثم يقول سبحانه: ﴿وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾، أى شىء من الضرر قليلا كان أو كثيرا، والضمير يعود ـ فى ظاهر السياق (على الله سبحانه وتعالى) والمعنى على ذلك ـ أن الله تعالى غنى عن العباد، وهم الفقراء إليه، والآية تشير إلى أنهم لا يضرون إلا أنفسهم، فالعاقبة تعود إليهم، فهم الذين تنزل بهم الذلة، وتركبهم المهانة، وتلحقهم الهزيمة.

ويجوز أن يعود الضمير إلى النبى ﷺ، وهو حاضر فى الأذهان دائما، وهو الذى دعاهم إلى أن ينصروه بأمر ربهم ، ويكون المعنى لا تضروا الرسول بتخاذلكم، وتثاقلكم شيئا، فإن الله تعالى ناصره، فإن لم يكن بكم فبغيركم ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو قادر على أنْ ينصره بغيركم، ولكن بعد فنائكم وضرب الذلة عليكم.

وإن الإنذار الذى اشتملت عليه هذه الآية عام خالد، يشمل العصور كلها، فمن يوم أن اثاقلت الأمة الإسلامية عن الجهاد، وتركته، ضربت عليها الذلة،

وتفرق المسلمون، وصار بأسهم بينهم شديدا، وتوزعتهم الأمم، ونزل بهم العذاب الأليم فى الدنيا، ولا حول ولا قوه إلا بالله.

﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾.

يبين الله تعالى معنى أنهم لم يضروا الرسول شيئا، فإن الله معه وهو فى مكة ثم وهو خارج منها وإنه لن يتركه أبدا، وقد كان معه، وقد نصره يوم الفرقان وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هى العليا ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ﴾ (إلا) (إنْ) الشرطية المدغمة فى (لا) أى: إن كنتم لا تنصرونه وتخاذلتم عن نصرته فهو فى غنى عنكم ولن يُخذل إذ قد نصره الله تعالى وهو فى قلة من العدد، ولم يكن معه أحد، فالماضى دليل على ما يكون فى الحاضر، ويكون الماضى جوابا للشرط الذى هو فى الحاضر، إذا كان الماضى فاصلا وفضله مستمد من الحاضر كقوله تعالى: ﴿ ...إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) ﴾ [يوسف]، ولذا دخلت (الفاء) فى الجواب لتبين أنه جواب الشرط.

وخلاصة المعنى السامى: إن كنتم لا تنصرونه فى الحاضر، فلن يُغلب لأن الله ناصره، وقد نصره فى الماضى، وصور الله تعالى الماضى، أو أعاد صورته فى الأذهان فقال تعالت كلماته: ﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ وإذ ظرف للماضى متعلق بقوله تعالى فقد نصره الله، والمشركون لم يقصدوا إلى إخراج النبى ﷺ بل فكروا فى أمور ثلاثة إما أن يثبتوه أى يحبسوه أو يقتلوه أو يخرجوه، وأرادوا تنفيذ القتل، فاجتمعوا حول داره ليقتلوه، وأتوا من كل بطن من بطونهم بفتى نهد، ليضربوه ضربة رجل واحد، فيضيع دمه فى القبائل، ويرضى بنو هاشم بديته، ولكن الله حارسه.

وقد كان ما ذكرناه من قبل، وقد جاء فى بعض كلام المفسرين أنه خرج فارا من القتل، وإن كان ذكر الفرار غير سليم؛ فإن الهجرة كانت مقررة فى علم الله تعالى، وفى نظام الدعوة من قبل ما دبروه أو مكروه فى يوم الندوة بدليل ما كان

من هجـرة عدد من المؤمنيـن من قبل، ولم يبق بمكـة إلا النبى وأبو بكر، وعلى، ولعل بعض بنى هاشم.

فالهـجرة كانت مقـررة، ويصح أن ينسب إلى المشركين أنهم أخـرجوه على أسـاس أنهم كانوا السـبب فى خـروجه؛ وذلك لأنهـم عادوا الدعـوة المحمـدية، ونابذوها، وآذوا أهلهـا، ولم يعاضدوا مـحمـدا ﷺ فى دينه الذى بعث به، فلم يعودوا صـالحين لأن تقام دعوة الحق فـى أرض مكة؛ لأنه لا يمكن أن تقوم دولة فى ظل دولة الأوثان، وقد كانت تناوئها، وتعذب أهلها، فكانت الهجرة أمراً لابد منه لإقامة دولة الحـق والوحدانية فى المدينة التى وجد الإسـلام فيها بيئـة صالحة، فغرس فيها غرسه.

وقد صور الله تعالى فى كلامه الحكيم كيف كان نصره سبحانه فى الهجرة، فقال تعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ حال كونه واحدا من اثنين، أى أنه فى قلة ليس معـه إلا واحد، وهم يقتفـون آثارهما ويتتبـعونهما، ويلجـآن إلى غار، يتتبعـهما فيه عدد من رجالهم، وأرسلوا واحدا، يسـير وراءهم إلى المدينة، وإنهما عندما نزلا فى الغار عشش على ظاهره الحمام والعنكبوت، وما ذلك إلا من عمل الله تعالى الذى لا تخفى عليه خافية، ولقد كـان من يقتفى الآثار قد انتهى اقتفاؤه إلى هذا الغار، وقال: ها هنا انتـهى الأثر، ولكن ظاهر الحال يكذب القافى؛ لأن العنكبوت قـد نسج خيـوطه، والحمام قـد عشش عليه، فكـيف، وذلك من فعل خالق الغـار، وخالق الحمـام والعنكبوت الذى أحكم خلـقه وقدره تقـديرا، ولقد روى الإمام أحمد عن أبى بكر رضى الله عنه أنه قـال: «نظرت إلى أقدام المشركين ونحن فى الغار، وهم على رءوسنا، فـقلت: يا رسول الله ﷺ لو أن أحدهم نظر إلى قدميه، أبصرنا تحت قدميه! فقال: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما»(١).

---

(١) رواه أحـمد: مـسند العـشـرة - مسند أبى بـكر الصديق. رضـى الله عنهم(١٢)، وباللفظ نفسـه رواه مسلم: فضائل الصحابة- فضائل أبـى بكر الصديق(٢٣٨١)، وبنحوه البخارى: المناقب- مناقب المهاجرين وفضلهم (٣٦٥٣).

وكما قال الله تعالى: ﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾.

أى إن الله تعالى يصحبهما بحراسته وحمايته فلا يُتمكن منهما.

والغار كان فى جبل ثور على سير ساعة من مكة وهو فى الجهة اليمنى منها، وقد مكثا فيه ثلاثة أيام، كانت تأتى لهما فيها بالطعام ـ أسماء بنت أبى بكر، أم الشهيد عبد الله بن الزبير الذى قتله الأمويون قتلة فاجرة، وهتكوا حرمة البيت الحرام.

﴿ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ﴾.

الضمير فى ﴿عَلَيْهِ﴾ يعود على النبى ﷺ، بدليل قوله تعالى من بعد وأيده بجنود لم تروها، فالضمير بلا ريب يعود إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم.

والجنود الذين أيد الله تعالى بهم نبيه ـ ما وقت التأييد؟، قالوا: يحتمل أن يكون ذلك التأييد هو حراسة الملائكة لرسول الله وهو فى الغار، فهو كان فى حراسة الله تعالى، وأمر ملائكته الأطهار بحراسته، وحمايته من أعدائه، ويحتمل أن التأييد كان فيما جاء من بعد من حروب، قام بها النبى ﷺ وخصوصا غزوة بدر الكبرى، فقد صرح فيها بتأييد الملائكة.

ونختار الاحتمال الثانى لسببين ـ أولهما ـ أن التأييد يكون فى معركة حربية، وكانت بعد الهجرة أول معركة «بدر الكبرى»، ـ وثانيهما ـ أن الله تعالى جعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا.

وقد وصف الله تعالى بأن هذه الجنود لم يروها، وإن التعبير عن الملائكة الذين أيدوا النبى ﷺ بالجنود يدل على أن التأييد كان فى معركة، وأقربها بعد الهجرة، وهى التى انقلب بها ميزان القوى فى البلاد العربية، ذلك أن قريشا كانت لهم القوة فى البلاد العربية، والسلطان الأدبى فيها، فلما قهروا فى بدر، هبط سلطانهم، وضعف نفوذهم، ولذا كانوا بجدع الأنف يحاولون فى الغزوات المتتالية إعادته فما استطاعوا إلى ذلك.

و(الكلمة) فى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ﴾ يراد بها الدولة والقوة؛ لأن قوة الدولة تجعل كلمتها نافذة أو مردودة عليها، فإذا كانت قوية كانت لها الكلمة النافذة، وإذا كانت ضعيفة كانت كلمتها غير نافذة، وعبر الله تعالى عنها بالسفلى للدلالة على أنها مغلوبة وفوقها غيرها، وقد جعلت واقعة بدر كلمة الإسلام هى العليا، ودولته هى العليا، وعبر سبحانه وتعالى عن الإسلام بكلمة الله؛ لأنه دين التوحيد ونبيه مبعوث من الله، وذلك بيان للحقيقة، وتشريف للدين الحنيف.

خلاصة القول أن الله تعالى يبين للذين يقعدون عن الجهاد ولا ينصرون النبى ﷺ ولا يجاهدون بأنهم إن لم ينصروه، فالله ناصره، وقد نصره فى هجرته، ولم يمكن المشركين منه، ثم نصره فى حربه مع المشركين، وأيده بجنود لم يروها حتى صارت كلمته هى العليا، وكلمة الذين كفروا هى السفلى.

وختم سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أى قادر غالب يدبر الأمور بحكمته وعلمه، بعد أن لام الله الذين يقعدون عن الجهاد، بين الله تعالى مع نبيه أمر بالجهاد فقال تعالى:

﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١)﴾.

أكثر الرواة على أن هذه الآية وما سبقها فى غزوة تبوك التى خرج بها النبى ﷺ إلى الروم، وقد أراد أن يخرج من الغزوة بعدد كبير؛ لأنهم كانوا فى مؤتة التى كان فيها حملة الراية زيد بن حارثة، وجعفر بن أبى طالب، وعبد الله بن رواحة وقتلوا جميعا، وجاء خالد بن الوليد فأخذ يتراجع بجيش المسلمين، وكان عدد جيشه نحواً من ثلاثة آلاف، وأنى يكون ثلاثة آلاف بجوار مائتى ألف من الروم، ومن استخدموهم من العرب فكانت المهارة فى التراجع غير منهزم.

فلما أراد النبى ﷺ أن يعيد الكرَّة على الروم لكيلا يطمعوا فى المسلمين، ويستصغروا أمرهم كما هو الشأن فى استصغارهم أمر العرب، ولأنهم قتلوا من أسلم من أهل الشام ليفتنوهم عن دينهم، وما كان النبى ﷺ ليسكت عن فتنة المؤمنين، وهو قادر على منعها.

كانت غزوة تبوك هى الردع للروم، لكيلا يضطهدوا المؤمنين فى أرضهم، ولكيلا يتخذوا أهل الحق خولا لهم، وأراد النبى أن يكون العدد كثيرا، أو أراد الله تعالى له ذلك.

ولذا دعا الجميع أن ينفروا؛ لأن قضية العرب أمام الرومان، فقال تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً﴾ أى انفروا جميعا، ولا فرق بين غنى حِمله خفيف، أو فقير مثقل بالعيلة والأولاد، ولا فرق بين شاب وشيخ، ولا فرق بين حال منشط أو مكره، وحال إقبال وحال إثقال واستكراه، وحال خفة إلى العمل، وإثقال فى التحرك إليه.

انفروا جميعا غير متعللين بأيه علة، فإنها قضية الإسلام والعرب، فإما أن يذلوا للرومان أو يعتزوا بالإسلام.

ثم قال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ والجهاد بالمال يكون بالإنفاق على الحرب، وعلى أدواته، وعلى إعانة من لا مال لهم، والجهاد بالنفس بحمل السيف، والقتال، وإعانة المقاتلين، ويروى أن شيخا أثقلته السنون ذهب إلى الحرب، فثبطه ضعف الشيخوخة، فقال: إن لم أقاتل عاونت المقاتلين، وأغنيهم عن بعض ما يحتاجون إليه.

والجهاد بالنفس يتناول تعويدها الصبر وتحمل المكاره.

وقال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أى الخروج بنفير عام، وغير معوقين بأثقال أو بأى سبب من الأسباب ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لأنه العزة، والعزة خير من الذلة، وفيه إرضاء الله وإرضاء الله خير كله؛ ولأنه الرفعة، ولأنه الكرامة، والكرامة خير من

المهانة، وذكر الخطاب فى الإشارة إلى الجمع للنص على عموم الخطاب بالنفير حتى يعم الجميع بالخطاب نصا ﴿إِن كُنتُمْ تعلَمُونَ﴾ الخير من الشر، فالموت فى عزة خير من الحياة فى ذلة، والموت مع كرامة الجهاد خير من الحياة مع ذلة الكفر والاستسلام والمهانة.

تخاذل ضعاف الإيمان والمنافقين

قال تعالى:

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ
عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا
مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾
عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ
صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ
فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾

مع الدعوة القاطعة إلى النفير العام كان ثمة متخاذلون متخلفون عن الجهاد، وذلك لأنه شاق عليهم، يرونها عيشة راضية على أى حال كانت هذه الحياة أوفى عزة تنال بالجهاد أم فى ذلة ترضى بالهون وأدنى معيشة فى الحياة.

وقد بين سبحانه أنهم يريدونها رخاء سهلا، فقال سبحانه.

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾
(العَرَض) هو المتاع، أو ما يعرض من منافع الدنيا، و(القريب) السهل الذى يجىء من غير مشقة وإجهاد، و(السفر القاصد) السهل القريب الذى لا مشقة فى السير فيه ولا تعب، و(الشُّقة) المسيرة الشاقة المجهدة، أو الأمر الشاق فى نفسه.

والمعنى «والله» إنك لو دعوتهم فى هذا النفير العام الذى يجب ألا يتخلف عنه أحد من أهل الإيمان والإخلاص - إلى عرض من أعراض الدنيا قريب أو مال قريب، أو كان السفر قاصدا سهلا وقريبا لاتبعوك؛ لأنهم يريدون الدعة والاستنامة إلى الراحة وأن يرضوا بأدنى الحياة ذليلة أو عزيزة فى كرامة أو مهانة.

فى قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا﴾ فاعلها ضمير يعود إلى النفير المفهوم من قوله تعالى: ﴿خِفَافًا وَثِقَالاً﴾، والكلام يفيد أنهم لم يجيبوا دعاء النبى ﷺ إلى النفير العام، وتخلفوا مع أن النفير العام لا يفرق بين ذى عذر، وغيره ما دام قادرا.

ويبين الله سبحانه وتعالى سبب تخلفهم، وهو أن الشقة الشديدة بعدت عليهم، والنفير فيه بُعد فى الطريق ومشقة شديدة.

وإن الاعتذار هو حجة الضعيف الذليل، ووثقوا الاعتذار بالأيمان الكاذبة، ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾.

(السين) لتأكيد حلفهم بالله، والحلف فى هذه الحال يتضمن الاستعانة بالله تعالى مع كذبهم، وذلك كفر وبهتان على الله، وقوله: ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا﴾ مقولة لقول محذوف تقديره قائلين: ﴿لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾، وهى مضمون الحلف أو المقسم عليه، وقد أكدوا كذبهم بهذه اليمين الفاجرة، ليخفوا السبب الحقيقى، وهو الجبن، وضعف الإيمان، أو النفاق الذى أفسد قلوبهم وأضل عقولهم، وقد بين سبحانه فجورهم فى هذه اليمين، فقال تعالى: والله يعلم أن مغبته تخلفهم فقال: ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أى يهلكون أنفسهم بهذه اليمين الكاذبة؛ لأنها تفسد نفوسهم وأى هلاك أشد من فساد النفس، وضعف إيمانها،

وإنهم بتخلفهم يكشفون عن ضعفٍ مُـزْرٍ، وإنهم فوق ذلك لفساد تفكيرهم ألقوا بأيديهم إلى الذلة، إذ استبدلوا بعزة الجهاد ذل الاستخذاء.

وقد أكد الله سبحانه وتعالى كذبهم فى قوله تعالت كلماته بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أولا بذكر ﴿يَعْلَمُ﴾ فما يعلمه الله صادق لا محالة، وثانيا: بالجملة الاسمية، وثالثا: بـ(إن)، ورابعا: باللام فى لكاذبون. قبح الله الجبن، وضعف الإيمان والنفاق، فإنها أدواء الأمم بها تذهب عزتها، وتضرب عليها الذلة.

لقد اعتذروا بانتحال أعذار واهية، فأذن لهم النبى ﷺ، وما كان له أن يحكم بظواهر ما يقولون، ولأنه لا فائدة فى أن يكون فى الجيش متخاذلين، يكون ذريعة للفشل فى صفوفه، ولكن الله يعلم إنهم لن يخرجوا إذا لم يأذن لهم النبى بالتخلف، فيظهر كذب أعذارهم، وينكشف أمرهم، ولذا عتب على رسوله إذ قبل عذرهم، فقال تعالى كلامه:

﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣)﴾.

هؤلاء المنافقون الذين يذكرهم الله فى هذه الآيات قد اعتزموا القعود وعدم الخروج، ضعفا وجبنا، وليفتوا فى عضد أهل الإيمان. وعن مجاهد: «نزلت هذه الآيات فى أناس استأذنوا رسول الله ﷺ وقالوا فيما بينهم. فإن أذن لكم فاقعدوا وإن لم يأذن لكم فاقعدوا، فهم قاعدون فى الحالين، فكان الإذن ساترا لحالهم من قصد التخلف فى الحالين، ولذا عاتب الله نبيه على الإذن الذى ستر حالهم، ومقصدهم الخبيث، وقعودهم الذليل، فقال الله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ وقالوا إن هذا خطأ وقع من النبى ﷺ عاتبه الله تعالى عليه فى ألطف عبارة عتاب، فقد ابتدأ قبل بيان وجه العتاب (بذكر العفو)، ثم ذكر موضع العتاب؛ وذلك لأن النبى ﷺ اجتهد فى أمر قد أعطى حق الاجتهاد فيه، وهو تدبير الحروب، وتعرف أنجح الخطط فيها، وخيرها وصولا إلى الغاية، وقد رأى أن قعودهم خير من أن يكونوا معهم، ويهموا بالفشل، والمعركة قائمة، ولكن الله

تعالى ينبه النبى ﷺ إلى أمر لا يعلمه النبى ﷺ وهو أنهم لن يخرجوا والله يعلم ذلك.

والنص الكريم هنا فيه عتاب على الإذن، وقد أجيز الإذن عند الاستئذان فى آية أخرى فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢)﴾ [النور].

وموضوع الآيتين مختلف، فالآية الكريمة التى نتكلم فى معناها موضوعها المنافقون وضعفاء الإيمان، أما موضوع آية سورة النور فمؤمنون بالله ورسوله، وأجابوا الأمر الجامع للمؤمنين وهو الجهاد، واستئذانهم كان لبعض شأنهم كاستئذان ذى النورين عثمان بن عفان فى التخلف عن غزوة بدر الكبرى لبعض شأنه، وقبول النبى ﷺ عذره، وإذنه له فى التخلف.

وموضوع العتاب بيّنه الله تعالى بقوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ وهو استفهام للاستنكار بمعنى النفى، أى لا سبب للإذن؛ لأنهم كانوا قاعدين لا محالة، فالنص ليس فيه استفهام عن سبب الخروج، ولكن نفى مع العتاب لأن يكون ثمة مسوغ للإذن، ولذا لم يقل سبحانه، وله المثل الأعلى فى الكلام المعجز، «لماذا»؛ لأن ذلك يكون نصا فى السؤال عن المسوغ؟.

وإن ذلك الإنكار كان لعدم الانتظار حتى تتبين حالهم الحقيقية، وهو أنهم قاعدون، ولذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ أى أنه كان يجب الانتظار، وألاَّ تسارع بالإذن حتى تتبين حالهم، وينكشف أمرهم. والنص الكريم، يومئ إلى أن الذين أذن لهم فى التخلف كان منهم صادقون فى أعذارهم، كبعض الفقراء الذين لا يجدون ما يحملهم فى ذلك السفر البعيد الشقة الشديد المشقة، وهؤلاء تبين صدقهم، والمنافقون تعلم كذبهم علما يقينيا،

ووصفهم سبحانه بقوله تعالى: ﴿وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ الذين صار الكذب وصفا لهم وشأنا من شئونهم، كالمنافقين، فإن الاتصاف بالكذب يلازم النفاق ولا يفترقان.

وقد بين الله تعالى أن المؤمنين المجاهدين لا يستأذنون إلا لعذر قاهر، أو لأمر ظاهر، كما أمر عليا فارس الإسلام بأن يبقى فى المدينة ليكون قريبا من أهل النبى ﷺ، وقد تألم عليٌّ لذلك ولكنه أطاع، ويظهر أن الله تعالى وفق النبى ﷺ فى إذنه لعليّ بالتخلف، فإنه لم يكن قتال.

قال تعالى:

﴿لا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤)﴾.

إن الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر لا يستأذنونك فى القعود عن الجهاد؛ لأنهم يعلمون أن الجهاد فريضة، ولأنهم أعزاء فى ذات أنفسهم؛ ولأنهم يعلمون أن الله تعالى مبتليهم بالخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس، ولأنهم يصبرون فى الشدائد، ولأنهم يعلمون أنهم فى الجهاد يفوزون بإحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة، وفيهما الخير كله، فالفوز بإحداهما، ولأنهم يعلمون أن الدنيا متاعها إلى أجل محدود وأن الآخرة خير وأبقى، ولذا ذكر الإيمان باليوم الآخر بجوار الإيمان بالله، فالإيمان بالله اعتماد على القوى المتين، والإيمان بالآخرة إيمان بالجزاء والعوض عن الحرمان والشهادة.

وقوله تعالى: ﴿أَن يُجَاهِدُوا﴾ أى فى أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم، وحذف حرف «فى» فى المصدر المنسبك من (أن وما بعدها) كثير فى كلام العرب، ويصح أن يقدر كراهية أن يجاهدوا، وهذا نفى لأن يقع ذلك منهم، فهم لا يستأذنون فى التخلف لكراهية الجهاد؛ لأنهم لا يكرهون أمرًا فرضه الله تعالى، إذ إن إيمانهم يوجب عليهم أن يحبوا ما أحب الله لهم وفرضه عليهم، ولأنهم يريدون العزة، والعزة تحت ظلال السيوف.

﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ ، أى بإعداد العدة والقوة، وإمداد الجيش بالمؤن والذخيرة، وحمل الفقراء الأقوياء إذا لم يجدوا ما يحملهم، وبأن يتقدموا بأنفسهم فى غير اضطراب ولا وجل، ويُفزعون أعداء الله وأعداءهم بإقدامهم؛ ثم ختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ وهذا إخبار عن علم الله تعالى بالمتقين الذين يتقون عذاب يوم القيامة، ويتقون أن تكتب عليهم الذلة، ويتقون أن يستخذوا، ويستكينوا لأعداء الحق وأعداء الله تعالى، ويتقون أن يكون للكفار عليهم سلطان، وأن تكون ولايتهم لغير المؤمنين. الله تعالى عليم بهؤلاء المتقين، وسيجزيهم بأحسن الجزاء فى الدنيا والآخرة، ففى الدنيا العزة والكرامة، والعلو فى الأرض من غير فساد، وفى الآخرة بالنعيم المقيم.

ثم بين الله تعالى الذين يستأذنون فى القعود، فقال تعالى كلامه: ﴿إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ قصر الله سبحانه وتعالى من يستأذنون فى القعود على الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، فلا يستأذنك فى القعود مؤمن بالله واليوم الآخر، وأفاد القصر بـ(إنما) لأنها من أدواته.

ذلك لأن المنافق لا يؤمن بالله تعالى، فلا يطيع أوامره ونواهيه، ولا يذعن لما جاء به محمد ﷺ عن ربه، وإن نطق لسانه بكلمات الإسلام والطاعة والخضوع ظاهرا لا يطيع قلبه، وقد ذكر الله تعالى فيهم أقوالا ثلاثة كلها تقعد بهم عن الجهاد، بل واحدة منها :

أولها: أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، فعدم إيمانهم بالله يجعلهم لا يذعنون، ولا يجيبون ما فرض عليهم من جهاد، ولا يؤمنون بما فيه من عزة وكرامة، وفوق ذلك لا يريدون العزة للمؤمنين ولا يبتغونها لهم، ويريدون الذلة لهم، وعدم إيمانهم باليوم الآخر، يجعلهم يعتقدون أنه لا تعويض لهم، وأن الدنيا وحدها هى الحياة، ويقولون إن هى إلاحياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين.

ثانيها: حال الريب، فهم فى ريب دائم، والريب لا يوجد معه إيمان بشىء، فأول ما يصاب المنافق يصاب فى نفسه، إذ يكون فى بلبال مستمر، واضطراب فكرى دائم لا يستقر معه على حال، ولا يستطيعون عملا.

ثالثها: أنهم فى تردد دائم نتيجة لريبهم.

ومن نعم الله ألا يخرجوا مع المجاهدين.

قال تعالى فى بيان أن من الخير ألا يخرجوا وأنهم ما أرادوا الخروج:

وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ
لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ
وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم
مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ
ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾
لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ
جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾
وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ
سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾

هذه الآيات وما يليها فى شأن المنافقين الذين قعدوا متلمسين الأعذار وهى كاذبة - والنفاق سوسة المجتمعات، ينخر فى عظامها - ولقد حاولوا إفساد الجماعة الإسلامية، ولكن النور المحمدى كشف ظلماتهم.

وفى هذه الآيات يبين سبحانه مضارهم فى الحرب إن خرجوا، ولكن النفاق لا يلتقى مع مخاطر الجهاد، فلم يخرجوا وكان خيرا كما أشرنا فقال تعالى وقد ثبطهم الله عن الخروج لأنه كره انبعاثهم، فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ﴾.

إن الله تعالى عتب على نبيه ﷺ أن أذن لهم عندما استأذنوا، ولو لم يأذن لكشف أمرهم، وتبين أنهم كاذبون فى ادعاء العذر ولا عذر لهم، لأنهم لم يريدوا الخروج ابتداءً، وأكد الله تعالى عدم قصدهم الخروج، فقال: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ لبدت أماراته، فأعدوا العدة من إعداد الكراع[1] والسلاح، وما تحتاج إليه حرب شديدة فيها ملاقاة الرومان الذين كانوا أقوى دولة فى ذلك الإبان، ولكن لم يعدوا عدة، فلم يكونوا على نية الخروج، وأظهروا ما فى مقصدهم باعتذارهم، وكان ذلك خيرا للمسلمين، وكره الله تعالى أن يخرجوا، فقال تعالى: ﴿وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ ومعنى الاستدراك أنه منع لوهْم إرادة الله - تعالى - خروجهم؛ لأن مؤدى إعلانه على عدم خروجهم قد يوهم إرادة الله خروجهم، فنفاها سبحانه بهذا الاستدراك، فقال: ﴿وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ والانبعاث النهوض للخروج مع المجاهدين، وكراهية الله تعالى لخروجهم لما علم سبحانه أنهم يريدون الخبال والاضطراب للمؤمنين، كما تدل على ذلك الآيات التالية، وكما دلت على ذلك الأمور الكثيرة التى كانت تقع بإثارة الفتنة منهم، ولكن كانوا كلما أوقدوا نارا لفتنة أطفأها الله سبحانه وتعالى.

﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أى خذلهم وأوقع فى نفوسهم نزوع الكسل والضعف، وأزال رغبتهم فى النهوض إلى النفير مع جيش الإيمان، وما ذلك إلا للمصلحة المترتبة على منعهم من الخروج، فما أريد التثبيط لذاته، ولكن أريد ما يترتب عليه من حماية جيش الإيمان من الفتن يبثونها فيه، وإثارة الخلاف، إن سنحت لهم أسبابه ولا يضعف الجيش إلا النزاع، كما قال تعالى: ﴿... وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا... (٤٦)﴾ [الأنفال].

فكانت المصلحة فى ألا يخرجوا، ﴿فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (قيل) بالبناء لمفعول، وأسند إلى المفعول لتعدد عوامل التخذيل التى كانت فى مضمون القول، فجبنهم، وإرادة الشر بالمؤمنين وبعد الشقة، وكون الغاية فيه بعيدة، وفساد

---

(١) الكُراع: اسم لجميع الخيل والدواب التى تصلح فى الحرب.

نفوسهم، وتخاذلهم عن نصرة الحق، وكراهية الإيمان وأهله، كل هذه عوامل يمكن أن تكون الفاعل الذى استعيض عنه بالمفعول، والمفعول المقول، وهو اقعدوا مع القاعدين. هذه العوامل التى أشرنا إليها انتهت بهم إلى أن كان لسان حالهم يقول: ﴿ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾.

قولهم لأنفسهم ﴿ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾، قال فيه الزمخشرى: هو ذم لهم وتعجيز، وإلحاقهم بالنساء والصبيان والزمنى الذين شأنهم القعود والجثوم فى البيوت وهم القاعدون، وهم القاعدون والخالفون والخوالف، وبينه الله تعالى فقال: ﴿ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ... (٨٧) ﴾.

وقد علق الناصر فى حاشيته على الكشاف فقال: وهذا من تنبيهاته الحسنة، ونزيدها بسطا فنقول: لو قيل (اقعدوا) مقتصرا عليه لم يعد سوى أمرهم بالقعود، وكذا لو قال: كونوا مع القاعدين، ولا تحصل هذه الفائدة من إلحاقهم بهؤلاء الموصوفين عند الناس بالتخلف والتقاعد الموسومين بهذه السمة إلا من عبارة الآية، ولقد جاء على لسان فرعون فى إيعاد نبى الله موسى عليه السلام ﴿ ... لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) ﴾ [الشعراء]، ولم يقل لأجعلنك مسجونا، لمثل هذه النكتة من البلاغة.

هذا، وإن الله تعالى عاتب النبى ﷺ لإذنه لهم بالقعود مع أن الله تعالى كره انبعاثهم، لأنه سبحانه كان يريد أن يتبين النبى ﷺ حالهم، حتى يتبين له الصادق من الكاذب، وأنهم لا يخرجون.

وقد بين الله تعالى الحكمة فى أنه ثبطهم، فلم يخرجوا فقال سبحانه: ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) ﴾.

أى لو خرجوا فى جمعكم المؤمن المجاهد، وساروا، لا يجاهدون، ولكن يسيرون على ما كانوا عليه بينكم من التشكيك فى خروجكم وفى قوتكم، وفى

ذلك إشاعة العناء والخور والضعف، ولذا قال الله تعالى: ﴿مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً﴾ الخبال: الفساد والشر بالتشكيك وإثارة الفزع، والاستثناء هنا يمكن أن يخرج على استثناء منقطع؛ لأن المستثنى ليس من ضمن المستثنى منه، إذ الخبال لا زيادة فيه كما يقال ما غنم إلا الهزيمة، وما زاد إلا النقص.

ويرى الزمخشرى وهو عالم اللغة وفقيهها أن الاستثناء هنا ليس منقطعا، إنما هو استثناء من أعم الأحوال، أو من أعم العام كما عبر الزمخشرى، والخبال نقص أعم العام كما يقال: «ما زادوكم شيئا إلا خبالا وإفسادا»، ﴿وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ﴾ الخلال: جمع (خلَل) وهو ما بين الشيئين أو الأمرين، و(الإيضاع): الإسراع، يقال وضع يعنى أسرع، ووضع البعير إذا عدا، وقال الراجز العربى:

ليتنى فيها جذع　　　أخب فيها وأضع

وأوضعته: حملته على العدو، والمعنى فى النص الكريم: لأوضعوا ملحقين الجيش خلاله بأسباب الفتن من نميمة ومن توهين، ومن تشكيك، وشبه السعى بالفساد بإيضاع الإبل فى عدوها، لأن كلا إجهاد، بيد أن سير الإبل قد يكون إلى الخير، أما الإيضاع هنا فهو فساد وتوهين وتخذيل، وسعى بنميمة.

﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أى يطلبونكم بشدة وقوة، لا يبغون أشخاصكم؛ لأنهم لا يودونكم، ويتربصون بكم الدوائر ولكن يبغون الفتنة بينكم، فالفتنة بدل اشتمال من الضمير، أى يبغون فتنتكم فى عامة أموركم، وذلك بأن يمشوا بالنميمة فى جموعكم، ويرهبونكم من أعدائكم، والقول بالريب فيما اعتزمتم من عمل.

ثم يقول تعالت كلماته: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ سماعون صيغة مبالغة من سامع، أى أنهم حريصون على السمع لهم، وقد كان اللفظ يحتمل أن فيكم سماعين حريصين على أن يستمعوا ويبلغوهم، فاللام فى هذه الحال معناها لأجلهم، أو يكون المعنى أن يستمعوا لهم، ويطيعوهم، وينحازوا إليهم، ونرى أن هذا هو الأنسب للسياق والذى يلائم إيضاعهم بالخبال، وذكر ابتغائهم الفتنة

وطلبهم، ويتفق مع رغبتهم فى الخبـال والفساد، وقد ختم الله تعالى الآية الكريمة بقوله تـعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ أى أن الله تعالى عليم بهم وبنيـاتهم، وما يطوونه فى جنوبهم من إرادة الشر بالمؤمنين، وأظهر فى موضع الإضـمار لتسجيل الظلم عليهم، وأن الظالمين لن يفلحوا أبدا.

﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨)﴾.

الضـمير يعود إلى الذين اسـتأذنوا من النـبى ﷺ، وثبطوا المؤمنين، وهم المنافقون، و﴿ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ﴾ أى طلبوها بشـدة راغبين فـيها، قاصـدين الفتنة أى تضليل المؤمنين،والإفساد من قبل، أى من قبل ذلك التخذيل الذى بدا منهم الآن، فـذلك ديدنهم، وما أرادوا بالإسـلام إلا خبـالا، حتى لقـد روى أنهم - والأوس والخزرج كانوا يبايعون النبى ﷺ بالعقبة - كانوا يدبرون الأمور لاغتياله عند مقدمه المدينة كما روى ابن جريج، ولقد قال فى ذلك الحافظ ابن كثير: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ﴾ أى لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم فى كـيدك وكيد أصحـابك، وخذلان دينك، وإخـماده مـدة طويلة، وذلك أوان مقـدم النبى ﷺ المدينة، ورمتـه العرب عن قوس واحـدة، وما رتبه يهـود المدينة ومنافقـوها، فلما نصره الله يوم بدر،وأعلى كلمته، قال عبد الله بن أبى:هذا أمر قد توجَّه، فدخلوا فى الإسلام ظاهرا، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم».

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ﴾ أى صرفوها، ودبروها، وكانوا أحيانا يمـالئون أعداء الدين من أهل الكتاب والمشركـين، ومرة يخذلون المؤمنين، ومرة يدخلون فى الغزوات مجاهدين، ثم يعـدلون ليلقوا التردد فى نفوس المؤمنين كما فعلوا فى غزوة أحـد، ومرة يحرضون من يوالونهم من بعض الأوس والخزرج لحوادث صغيرة يثيرونها. حـتى كادت تكون فتنة بين الحيين من الأنصار، فهم فى فتنهم الدائمة المستمرة، يلبسون لكل حال لبوسها،يحركهم الكفر، ويدفعهم النفاق

إلى أن يرتكبوا حماقات، وإنهم ليتعدون حدودهم، فيثيرون حديث الإفك حتى تململ منهم ذووهم، وأصبح أهل كل بيت فيه منافق يحرضون النبى ﷺ عليه.

وهكذا مضى أمرهم، والإسلام ماض فى طريق الحق، حتى وصل إلى غايته، وهذا قوله تعالى: ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ أى ظهرت أحكام الإسلام، وهى أمر الله، وانتشر فى الوجود أمره، وهم كارهون، أى ظهر مع تدبيرهم الفاسد، وبغضهم الشديد له.

وكانوا يتدرعون بكل الحيل ليأذن لهم النبى ﷺ، والله تعالى فى علمه المكنون أنهم لا يخرجون وكره انبعاثهم، وما كرهه الله تعالى لا يمكن أن يتحقق، ولقد ذكر الله تعالى بعضا مما كانوا يعتذرون به فقال تعالت كلماته:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩)﴾.

كان المنافقون يتعللون بكل علة صادقه أو كاذبة، بل إنهم لم يتعللوا بصادق، بل كلها تعلات يقولونها بأفواههم وقلوبهم غير مطمئنة إلى الخروج؛ لأنهم يريدون التعويق، وهول القتال قد أفزعهم، وبعد الشُّقة قد أقعدهم، وكان من تعلتهم أن قالوا إننا نخشى فتنة النساء فى الرومان لجمال نسائهم، روى أن الجد ابن قيس أخا بنى سلمة قال له رسول الله ﷺ: هل لك فى جلاد بنى الأصفر، فقال: يا رسول الله أوتأذن لى ولا تفتنى فوالله لقد عرف قومى ما رجلا أشد عجبا بالنساء منى، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر عنهن. فأعرض عنه رسول الله وقال: «قد أذنت لك»(١).

ومعنى هذا أن الآية جاءت تمثل ضروب معاذيرهم الواهية التى لا تقنع، إنما هو عدم الإيمان، وفزع النفاق، والزمخشرى يفسر الآية على العموم، ويفسر «لا تفتنى» أى لا تأذن لى فى الخروج فأقع فى الفتنة التى لا قبل لى بها وهى

(١) البداية والنهاية: سنة تسع- ذكر غزوة تبوك (ج٥-ص٢١٢)، وتاريخ الطبرى: (ج١-ص١٢٣١).

عصيانك، فيبين الله أن هذا الاعتذار التافه الذى لا يدل إلا على عجز حقيقى هو الفتنة فى ذاته، ولذا قال تعالى: ﴿أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أى فى الفتنة الكبيرة سقطوا، والفتنة أطلقت، والمطلق ينصرف إلى الفرد الأعظم أى الفتنة الكبرى سقطوا فيها، وقدم المفعول وهو الفتنة على الفعل للإشارة إلى أن عملهم مقصور على الفتنة. فهو الفتنة، ولا يكون غيرها؛ لأن عذرهم كاذب ساقط فى ذات نفسه.

وعلى أن الآية نزلت فيمن اعتذروا بفتنة نساء بنى الأصفر تكون فتنة التخلف مشاكلة لما ادعوه من فتنة النساء فى اللفظ وإن كانت غيرها.

وإنهم بهذا الكذب والاعتذارات الواهية، وعدم إيمانهم يعدون كافرين، ولذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أى أنهم مؤكدون داخلون فيها، وستحيط بهم يوم القيامة، وذكرت الآن لتأكد وقوعها، كقولة تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ... (١)﴾ [النحل]، فهو تأكيد لما سيقع بتصويره كأنه واقع وقوعا مؤكدا.

وقد أكد سبحانه وتعالى الوقوع فى جهنم يوم القيامة بعدة مؤكدات:

أولها: الجملة الاسمية، ثانيها (إنَّ) الدالة على توكيد الخبر، وثالثها بيان أنها محيطة بهم إحاطة الدائرة بقطرها لا يخرجون عما تحيط به، ورابعها باللام المؤكدة فى قوله تعالى: ﴿لَمُحِيطَةٌ﴾.

وأظهر سبحانه فى موضع الإضمار فلم يقل: «لمحيطة بهم» بل قال ﴿لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ لبيان سبب هذا العذاب الأليم وهو الكفر، وقانا الله تعالى شر النفاق وأهله.

ثم بين سبحانه شعور المنافقين نحو المؤمنين.

قال تعالى:

إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا

وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ
اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ
﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ
نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ
أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾

إن المنافقين لم يندمجوا فى أهل الإيمان، ولم تتحد معهم مشاعرهم وأحاسيسهم، فلم يكونوا منهم، ولم يشعروا بما يشعر به أهل الإيمان، فلا يشاركونهم فى سرائهم، إن أصابهم ما يسر، ولا ضرائهم إن أصابهم ما يضر، بل يناقضونهم مناقضة تامة، فما يسرهم يسوءهم وما يضرهم يسرهم، وكذلك شأن المنافقين فى كل جماعة لا يشاركون فى أحاسيسها، ولذا قال فى وصف هذه الحال:

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ أى إن ينزل بكم أمر هو حسن فى ذاته، وعندكم، ويملأ نفوسكم بالسرور يكون هذا سببا لآلامهم، فسروركم مسيء لهم؛ لأنهم يريدون أن تدور عليكم الدوائر، فنصركم يوم بدر ساءهم، وكذلك يوم الأحزاب، ويوم مؤتة، إذ رضيتم من الغنيمة بالإياب أمام مائتى ألف، وأنتم ثلاثة آلاف، وقتلتم منهم مقتلة عظيمة مع قلة عددكم، وإن لم تغنموا شيئا منهم.

﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾.

المصيبة مؤنث مصيب أى نازلة وشدة كارثة، وأصلها كما ترى من أصاب، ولكنها بالتاء غلبت فى الشدائد والكوارث والنكبات، فإذا أصاب المؤمنين نكبة أو قرح ، كما أصابهم يوم أحد، قالوا: أخذنا أمرنا، أى أننا استولينا على أمرنا من قبل فلم نعرض أنفسنا لمخاطر الحروب ونوازلها فنجونا من أن نقع فيما وقعوا فيه،

وكأنهم يشمتون فى المؤمنين، وقد وقع ما يتمنون، ويصفون أنفسهم بأنهم أهل الحذر، ليثيروا غضب من أطاعوا الرسول.

﴿وَيَتَوَلَّواْ﴾ معطوف على يقولوا، أى وينصرفون إلى أهليهم وأصحابهم يتحدثون فى أمر هذه النكبة وهم فى فرح بها؛ لأنها أصابت هوى فى نفوسهم، ولذا قال تعالى: «وهم فرحون» أى والحال أنهم فرحون فرحا غمرهم، ويصح أن يكون تولوا بمعنى أعرضوا عن الرسول غير مقبلين عليه مظهرين خبيئة نفوسهم، وفى هذا ما يفيد أنهم جرءوا عليه، وحسبوا أن الغد لهم، وما هى إلا جولة، حتى يكون الغلب لهم، ولكن هيهات أن يكون ذلك، فالهزيمة فى معركة بعدها الظفر والنصر.

ولكن المؤمنين مطمئنون لما يقضى به الله تعالى لا يستطيرهم نصر، ولا يخذلهم قرح، بل إنهم يقدمون متوكلين عليه سبحانه، إن أصابتهم حسنة لم يستطيروا بها، بل يستعدون لما بعدها، وإن أصابتهم نكبة رضوا، وعلموا أن الله تعالى قد قدر لهم ما فيه خير. ولذلك قال تعالى:

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١)﴾.

أمر الله تعالى نبيه أن يقول ما هو تفويض إليه سبحانه، وما فيه توقع الخير، حتى فيما يكون فى ذاته نكبة أو شدة، إذ قد يكون وراءه خير، أو خير قد اختفى فى هذه الشدة، كما قال تعالى: ﴿... وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٢١٦)﴾ [البقرة].

فعسى هذه الشدة يكون فيها خير كثير، ولو كانت مكروهة، كما قال تعالى: ﴿... فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩)﴾ [النساء] ولذا قال: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أى أنه ليس لنا أن نتبين إن أصابتنا كارثة أو نكبة، فقد تكون كارثة تنبهنا إلى خطأ وقعنا فيه فيكون هذا التنبيه خيرا لنا، وواقيا لنا من أن نقع فى مثله، وفوق ذلك فإن المستقبل يكون خيرا لنا لننال الحسنى إن قتلنا، ففضل الشهادة خير مما تفرحون.

﴿هُوَ مَوْلانَا﴾ أى هو فى اعتقادنا وإيماننا مولانا وناصرنا، ومتولى أمورنا فيما وقع وما يقع، ومن كان الله ناصره لا يخذل، ومن كان الله معه، فإن العاقبة له إن لم يكن فى هذه الدنيا، ففى الآخرة، وفيها النعيم المقيم.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أى عليه وحده يتوكل المؤمنون، وقد أمرنا بذلك، وتقديم الجار والمجرور للإشارة إلى أن الله تعالى هو الذى يتوكل عليه المؤمنون، فلا يتوكلون على أحد سواه، ولا يرجون غيره، ولا يعتمدون إلا عليه، و(الفاء) لفصل الفعل الأمر عن الإخبار.

والأمر هنا بالتوكل لا ينافى العمل، فالعمل بالأسباب الدنيوية أولا، ولكن يجب عليه لكى ينجح العمل أن يقرن به التوكل، فالأسباب وحدها (لا تكفى) إلا بفضل من الله وتوفيق، فالاتكال من غير عمل تواكل، والعمل من غير توكل على الله غرور، وتمرد على الله سبحانه وتعالى.

وإن المنافقين يتربصون الدوائر بالمؤمنين بأن تتوالى نكباتهم، ولا يتوالى ما يسرهم؛ لأنهم أعداء كارهون، والعدو الكاره لا يتمنى لعدوه ما يسره، بل يتمنى له المكروه، ولذا قال تعالى:

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ (٥٢)﴾.

قلنا إن المنافقين لا يندمجون فى جماعة يعيشون فيها، بل يكونون فى جانب، ومن معهم فى جانب آخر، كما يفعل اليهود الذين مردوا على النفاق وأجادوه.

وكذلك كان اليهود بالمدينة الذين كانوا رأس النفاق فيها، فهم يعيشون مع المؤمنين وليست قلوبهم معهم، بل هواهم مع غيرهم أيا كان ذلك الذى يغاير جماعة المؤمنين كتابيا كان أو مشركا، فهم لا يعيشون مع جماعتهم إلا وجانبهم

لغيرهم؛ لأنهم لم يذوقوا طعم الاندماج مع الناس والإخلاص لهم، ولذا يعيشون مع المؤمنين ويتربصون بهم الدوائر.

ويقول الله تعالى آمرا نبيه ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ يأمر الله تعالى نبيه أن يقول لهم هذا القول ولم يسنده تعالى إلى نفسه؛ لأنه فوق الجميع، إنما جعل الرسول يسنده إلى نفسه؛ لأنه من أحد الفريقين المتربصين وإن كان الله تعالى مع المؤمنين، والتربص: الانتظار، والاستفهام للإنكار بمعنى إنكار الوقوع بدليل الاستثناء. والمعنى لا تنتظرون لنا إلا إحدى الحسنيين، والحسنيان هما: الاستشهاد، وذلك حسن فى ذاته وعند المؤمنين؛ لأنه ينتهى بهم إلى الجنة، ونعم الانتهاء. أو النصر، وهو غاية حسنة عظيمة.

وإن نتيجة التربص لا يهواها المنافقون، فهم يتربصون الشر والفساد والخبال والاضطراب فى جيش المؤمنين رغبة فيما يريدون، فيبين الله تعالى أن النتيجة تجىء عكس ما يبغون.

ويقول النبى ﷺ بأمر من ربه، وباللفظ النازل على النبى من الله رب العالمين: ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾.

أى نحن معشر المؤمنين ننتظر لكم أحد أمرين أيضا، وهما أن يصيبكم الله تعالى بعذاب ينزله سبحانه وتعالى بكم كصاعقة من السماء تحرقكم، أو ريح تقلبكم من الأرض، أو تموتوا فى داركم جاثمين، وهذا عذاب من عند الله، وإضافته سبحانه وتعالى إليه، ينزله من عنده مظهرا لغضبه عليهم الذى يبوءون به، كما باء من قبل إخوان لهم فى النفاق: اليهود ومن يواليهم، والأمر الثانى عذاب من المؤمنين ينزلونه بتمكين الله تعالى منكم.

وهنا بعض إشارات بيانية:

منها: قوله تعالى: ﴿نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ فعبر بـ(كم) للإشارة إلى أن ما ينزل بهم عقاب، فى مقابل ما حكى عنهم فى قوله تعالى: ﴿تَرَبَّصُونَ﴾.

ومنها: قوله تعالى: ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ للإشارة إلى القتال الذى يكون بالأيدى التى تبطش، وذلك إشارة إلى قوة المؤمنين المؤيدة بنصر الله تعالى العزيز الحكيم.

ويقول تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ الفاء فاء الإفصاح المنبهة عن شرط مقدر، أى إذا كان هذا أمرنا وأمركم فى التربص فتربصوا.

وهذه الجملة السامية فيها تهديد لهم بسوء العاقبة بالنسبة لهم، وبيان حسن العاقبة بالمؤمنين، والله تعالى بعزته ناصر جنده، وخاذل عدوه.

لا يقبل الإنفاق من منافق

قال تعالى:

﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾

إن هذه الآيات الكريمات تبين أمرين: أحدهما: أن المنافقين فى كل العصور يطاولون الناس بأموالهم، ويجبنون دائما، ويستبدلون بالجهاد المال يدفعونه،

ويحسبون أنه يغنى عن الجهاد والعمل للنصرة وصيانة الحق عن أن يعبث به العابثون .

ثانيهما ـ أنه لا ثواب إلا مع النية المحتسبة، والنية لا تكون إلا مع إيمان صادق بالله ورسوله والحق الثابت المبين.

وقد ذكرت الآية الأولى أن إنفاقهم طوعا أو كرها لن يقبل منهم بسبب فسقهم، وذكرت الآية التالية تفصيل المانع من قبولها، وذكرت الآية الثالثة أن أموالهم وأولادهم لا تغنى عنهم فى الدنيا والآخرة شيئا. وذكرت الآية الرابعة أنهم يريدون أن يعتقد المؤمنون أنهم منهم ومنضوون فى جماعتهم ليخدعوهم فلا يغروهم، متميزين عنهم تميز الخبيث من الطيب.

يقول تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ المعنى الظاهر وكتاب الله تعالى بيِّن بذاته لا يحتاج إلى بيان، إن الله تعالى لن يقبل منهم إنفاقهم فى الآخرة سواء أنفقوه طائعين أم أكرهوا على الإنفاق، وسواء أنفقوه كارهين أم أنفقوه راغبين، فمعنى طوعا، أى طائعين راغبين فى الإنفاق طيبة به نفوسهم أو كارهين غير راغبين، أو بإكراه أحد، أو بتورط، ولا يرضون.

وهذا المعنى ظاهر، ولكن كيف يخرج الأمر فى هذا. وبلا شك لا يقصد الطلب ولا الإباحة ولا الندب، ولا أى باب من أبواب الطلب وإذن فما سبيله؟.

قال القرطبى: إن معناه الشرط، وجوابه لن يقبل، وتقدير القول هكذا، إن تنفقوا لا يقبل منكم سواء كان الإنفاق طوعا أو كرها.

وقال الزمخشرى: إن معنى الأمر هنا الإخبار بأنهم لا يقبل منهم، ويظهر أنه يعود إلى معنى الشرط، والمؤدى ينتهى إلى أنه لن يقبل الإنفاق، ومثلوا له بقول كثير عزة، ولكلام الله تعالى المثل الأعلى.

أسيئى بنا أو أحسنى لا ملومة   لدينا ولا مقلية إن تقلت

وقد بين السبب فى منع قبول أموالهم قربات عند الله، فقال سبحانه:

﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

وجملة ﴿إِنَّكُمْ﴾ منفصلة عن سابقتها؛ لأنها تعليل لها، ولأن الجملة الأولى طلبية، والثانية خبرية. والفسق هو الخروج، وهم بالحكم عليهم بأنهم فاسقون يكون محكومًا عليهم بأنهم خارجون عن الجماعة بشعورهم، وإن كانوا فيها بأجسامهم، وذلك مع كفرهم، وقد أكد الله سبحانه وتعالى ذلك الحكم بعدة مؤكدات، أولها بالجملة الاسمية، وثانيها بـ (إنّ) الحرف الدال على التوكيد، وثالثها بـ(كان) الدالة على استمرارهم فى الفسق والخروج عن الجماعة وعدم الشعور بشعورها.

ونفى الله تعالى بقوله: ﴿أَن تُقْبَلَ مِنهُمْ﴾ ظاهره أن الله تعالى لن يجازى عليه جزاء القربات يوم القيامة؛ لأنهم لم ينووا بها التقرب، وانما أرادوا ستر جبنهم ونقافهم، ليستقيم ادعاؤهم أنهم من المسلمين، وهم غير مؤمنين، وشرط النية المأجورة الإيمان، ولقد قال تعالى عما ينفقه الكافرون: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)﴾ [آل عمران].

وهل يقبل النبى منهم ما يدفعونه مغرما، إن الأمر فى ذلك متروك للنبى ﷺ، وقد بين سبحانه وتعالى المانع عن قبول صدقاتهم بالتصريح بما طوى فى هذه الآية فقال تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلا يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤)﴾.

وُصلت هذه الآية الكريمة بالآية السابقة؛ لأنها تتميم للسبب الذى منع تقبل ما ينفقون، والنفقة هى الإنفاق، والتعبير بالنفقة فيما أحسب يدل على صغر ما ينفقون، ومع ذلك لا يقبله الله سبحانه وتعالى؛ والتعبير بقوله: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ﴾ على أن اسم المفعول يعود إليهم، فيه إشارة إلى أنهم كانوا يرجون أن يقبل منهم

ما ينفقون فى الدنيا رجاء أن تتم الخديعة التى أرادوها، وعبر سبحانه وتعالى هنا بقوله تعالى: ﴿أَن تُقْبَلَ﴾، وفى الآية السابقة بقوله تعالى: ﴿نفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ﴾ بصيغة يتقبل، وذلك لأنهم كانوا يظنون أن أى إنفاق يقدمونه يتقبل برغبة من النبى وأصحابه، فإن صيغة التقبل تدل على القبول برغبة كما قال تعالى فى نذر مريم: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ... (٣٧)﴾ [آل عمران].

وفى هذه الآية: (تُقْبل) من أصل القبول، وسبب الرد أصل القبول، ولو كان المنع من التقبل، لكان أصل القبول غير ممنوع.

و«أن تُقبل» الضمير المنسبك من (أن وما بعدها) فى موضع المجرور بـ(من) لأن حروف الجر تحذف كثيرًا قبل أن وفعلها، كما فى قوله تعالى: ﴿...مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ... (١٢)﴾ [الأعراف].

وقد ذكر الشوكانى فى تفسيره فتح القدير: أن الآية الكريمة تشير إلى أن الأسباب ثلاثة فقال: «جعل المانع من القبول ثلاثة أمور، الأول: الكفر، والثانى: أنهم لا يُصَلّون فى حال من الأحوال إلا فى حال الكسل والتثاقل، والثالث: أنهم لا ينفقون أموالهم إلا وهم كارهون؛ لأنهم يعدون إنفاقها وضعا لها فى مضيعة لعدم إيمانهم بما وعد الله ورسوله.

وقد ذكر **الأمر الأول** فقال سبحانه وتعالى: ﴿أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ الضمير المنسبك من أن وما بعدها فى محل رفع فاعل للفعل (منع) فى قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ﴾ فكفرهم بالله لأنهم تمردوا على أوامره ونواهيه، وجحدوا بآياته، وكفرهم برسوله لأنهم جحدوا رسالته، واليهود منهم كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وقد جاء بالكتاب من عند الله وعجز العرب عن أن يأتوا بمثله بعد أن تحداهم فما استطاعوا، وكرر الباء، فقال: ﴿بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾، للإشارة إلى أن الكفر بالله كفر، والكفر بالرسول كفر، أيضا.

وفى **الأمر الثانى** قال تعالى: ﴿وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى﴾ أى لا يقومون عند النداء إلى الصلاة إلا وحالهم حال الكسالى متثاقلون كأنهم غير

راغبين فى أدائها، أى أنهم فى هذا المظهر الذى لا يتوافق فيه العمل مع القلب يتثاقلون فيه؛ لأنهم ما داموا كفارا فإنهم ليس منهم صلاة مقبولة أو صلاة قط، لهذا ترد عليهم نفقاتهم، فكيف تكون صلاة، إنما مظهرها صلاة، فهم حتى فى هذا يقومون كسالى، وهى جمع كسلان كسكارى جمع سكران، وغيارى جمع غيران، كما يقول الزمخشرى فى الكشاف.

ومهما يكن وصفهم بأنهم يقومون بالصلاة كسالى فإن صلاتهم من الصلاة التى يكون لهم الويل فيها، كما قال تعالى: ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)** ﴾ [الماعون].

والأمر الثالث هو فى إنفاقهم بينه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ **وَلا يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ** ﴾ أى لا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة إلا وهم غير راغبين، بل ينفقون كارهين النفقة فى ذاتها، أو لموضعها، ولا يفعلون ذلك إلا سترًا لنفاقهم، ويتخذونه وسيلة للتمكن من الخداع الذى يقصدونه.

ولا تعارض بين هذا النص الذى حصر إنفاقهم فى حال نفسية واحدة، وهى كراهية الإنفاق، وعدم الرغبة فيه لشح فى أنفسهم، ولكراهية المؤمنين.

فهذه الآية تدل على ذلك، وأما الآية السابقة فمؤداها نفى القبول، ولو أنفقوا طائعين أو ملامين بأمر النبى ﷺ، أو نقول طائعين رغبة لا فى الإنفاق لذات الإنفاق، بل رغبة فى الخديعة وستر حالهم من جبن وإرادة الفساد، أو كارهين لهذا الإنفاق.

فالمنافقون كانوا إذا طلب منهم النفير جبنوا وامتنعوا وتمردوا، ورضوا بالمال كما فعل الجد بن قيس فيما قصصنا من قبل، إذ امتنع وتعلل بأنه ضعيف أمام نساء الرومان بنى الأصفر، ويخشى الفتنة، وقال: هذا مالى خذوا منه ما تشاءون، ووصف الكاره ينطبق عليه؛ لأنه يكره الإنفاق فى سبيل الله، ووصف المختار ينطبق عليه أيضا لأنه اختاره.

وقد يعجب العاجب من أنهم مع نفاقهم وكفرهم لهم أموال كثيرة وبنون، إنما هذا استدراج كما قال: ﴿ ... سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨٢) ﴾ [الأعراف]، ولذا قال تعالى:

﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) ﴾.

الفاء للإفصاح لأنها تفصح عن شرط مقدر يقتضيه سياق البيان، أى إن كانت هذه الأموال لا ينفقونها فى سبيل الله فلماذا يعطونها، فقال تعالى: ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ﴾ الآية، أى لا يُثِرْ عجبك كثرة أموالهم وأولادهم وأنصارهم، مما أعطوا مع كفرهم ونفاقهم واستهانتهم بالحق والتنفير منه، وتأليب المبطلين. لا يغرنك هذا، كما قال تعالى: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ... (١٩٧) ﴾ [آل عمران] وكما قال: ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١) ﴾ [طه] إنما هى فتنة لهم واستدراج، كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) ﴾ [الأعراف].

ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم﴾ أى يريد إعطاءهم وتمكينهم، وحذف المفعول ليشمل كل متع الدنيا من مال وسلطان، وقدرة على التحايل، وغير ذلك ليعذبهم، أى لينصرفوا مغرورين مخدوعين، فيكون من بعد ذلك العذاب الأليم فى الآخرة، ولتكون لهم عذابا فى الدنيا بالافتتان بها، ومن وراء فتنتهم يكون الحرمان بالمصائب والنكبات، وأن تكون مغانم للمؤمنين إذا اشتدت شديدة الحرب عليهم، والضياع والحرمان، فالمال ليس متعة خالصة، ولكنه تحمل لهمومه، فأكلة الربا الذين يستكثرون به من الأموال فى هم دائم، حتى أنه لا يرى ربوى إلا ومعه سقام الجسم والنفس، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ... (٢٧٥) ﴾ [البقرة] وذلك هم واصب نشأ من ذات المال وأصاب النفس ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ أى يموتون، وقد

ضاقت نفوسهم من هموم الأموال وما فيها، ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ جاحدون الحق، فتكون نفوسهم قد حرمت متعة الدنيا بمصائب الأموال والبنين ومفاتنهم، وحرموا راحة الإيمان، واطمئنان الحق، فخسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

ولقد قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾ [المؤمنون] وإنهم لنفاقهم يبتعدون بقلوبهم عنكم، شاعرين بأنكم نافرون منهم غير واثقين يا معشر المؤمنين، وكلما كان النفور بسبب ما تعرفونه من لحن أقوالهم، كلما شعروا بذلك أحسوا بأنهم لا يستطيعون خديعتكم، ولذلك يحاولون أن يحملوكم على الثقة فيهم، وما هم بأهل للثقة، وقال تعالى عنهم ذلك: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ۝٥٦﴾.

(الواو) تدل على صلة هذه الجملة بالتى قبلها؛ لأن الكلام كله فى المنافقين، وشعورهم نحو المؤمنين، يحاول أولئك المنافقون أن يشعروا المؤمنين بأنهم منهم فى شعورهم وإحساسهم، واتجاههم ليستطيعوا أن يثبتوا فيهم ما يريدون من خداع وأن يفتنوهم عن دينهم، ويدسوا فيهم الخوف وضعف العزيمة، وذريعتهم الحلف بالله العظيم، وذلك يدل على مهانتهم فى ذات أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ ۝١٠﴾ [القلم].

وموضع القسم أنهم منكم، ولذا يقول تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ ويؤكدون ادعاءهم لا بالنطق فقط، بل بغير ذلك «بأنهم لمنكم» فيؤكدون بـ(إن) وباللام التى فى خبرها، يؤكدون ذلك فضل تأكيد. والله يشهد أنهم ليسوا منكم بشعورهم وإحساسهم، بل تفرقت القلوب بينكم وبينهم بسبب نفاقهم، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝١ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢﴾ [المنافقون].

وقد قال تعالى مـردفا هذا الادعاء بما يدل على الدافع لهم على هذا الحلف ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ الفَرَق: الخوف. الاستـدراك فى قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّهُمْ﴾ هو استـدراك من حلفهم، ويفيـد عدم تصديقـهم تأكيداً لقـوله تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ وخوفهم من ناحيتين، أولاهما خوفهم من المؤمنين من أن يعرفوا حالهم، وينكشف أمرهـم، وهو مكشوف، وهم يظنونه مسـتورا، وغرارة المـنافق دائما أنه يحسب دائما أن أمره مـستور، وهو معلوم ولا يجهل كشـفه إلا هو، والثانية أنهم يخافون أن يغـامروا فى جهاد مع المؤمنين، إذ يحـسبون الجهاد مـغامرة، لأنهم لا يؤمنون به، ولا يحسـبون أن الجهـاد حياة فـى عزة، ولا يؤمنون بالحيـاة الآخرة، فيـحسبـون أن النهاية تكون عند الموت وأنـهم يجعلون أنفسـهم من المؤمنين، ولا يقولون أنهم مـعهم، بل يقولون إنهم من المؤمنين، وادعاؤهم أنهم منـهم يتضمن أنهم مؤمنون، وأنهم جزء من المجتمـع الكريم أو بعضه، ذلك إيغال فى دعوى أن شعورهم كشعورهم، ولو مع ادعائهم ذلك يضيقون بجوارهم للمؤمنين، ويريدون أن يفارقوهم، ولـذا قال تعالى: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧)﴾.

الملجأ ـ الحصن، والمعنى لو يجدون ملجأ يتـحصنون به فى قمة جبل وذلك حصن طبيعى، أو قلعة يبنونها، وذلك حصن صناعى، أو جزيرة يأوون إليها.

﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾، بفتح الميم وهناك قراءة أخرى بضمها[1]، وعلى قراءة الفتح يكون الفعل غار وعلى قـراءة الضم يكون الفعل أغار، والمعنى مكان يختفـون فيه عن الأنظار، ولذا قيل على الثقب فى الجبل غار؛ لأنه يختفى فيه من يذهب إليه، فلا يراه السيارة.

﴿أَوْ مُدَّخَلاً﴾، وهو الطريق الخفى الذى يختفى عن الأعين، كالشِّعْب بين جبلين، أو نحو ذلك من المسارب التى لا يقتحمها الناس، ولا يقصدون إليها.

(١) قراءة (مغارات) بالضم، ليست فى العشر المتواترة.

و(لو) فى قوله تعالى: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً﴾ حرف شرط يقال له حرف امتناع لامتناع، وجواب الشرط ﴿لَوَلَّوْا إِلَيْهِ﴾، أى لانصرفوا إليه ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أى لذهبوا إليه مسرعين، كالفرس الجموح، وكان التعبير بالجموح للإشارة إلى جموحه، وأنهم يشردون عن الطريق، فهم إن كانوا يجمحون هذا الجموح، موغلين فى انحرافهم فكيف يؤمنون؟، ويخلعون رداء النفاق الدنس ويكونون مع المؤمنين يشعرون بشعورهم، ويحسون بإحساسهم؟.

ولماذا كانوا يتمنون أن يخرجوا؟، كانوا يتمنون ذلك لأنهم يضيقون ذرعا بالمؤمنين، يسوءهم عزهم وهو مستمر بعونه تعالى، وحياطته لهم، ولأن المؤمنين كشفوا أمرهم، ولأنهم يدعون للجهاد ولا يذهبون إليه؛ ولأن ذوى قرابتهم، وأولياءهم قد برموا بهم فضاق العيش، وما ضاق عليهم إلا لسبب ما أوتى المؤمنون من الخير... والله من ورائهم محيط.

قال تعالى:

وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

النفاق أصناف وضروب، يعلو وينزل، وأعلاه من يظهر الإيمان بالله، ويبطن الكفر، وهؤلاء كانوا بالمدينة، وعلا شأن الإسلام، فكان من اليهود

والوثنيين هؤلاء الذين أعلنوا الإسلام خوفا، وأبطنوا الكفر، غيظا وعداوة وبغضا، ومن النفاق ألا يستقر الإيمان فى قلبه كأولئك الأعراب الذين قالوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبهم. ومن الأعراب من كانوا يأخذون ظواهر القرآن ولا يطيعون، كما قال تعالى: ﴿ **الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ** ... (٩٧) ﴾، وكل هؤلاء تشملهم كلمة المنافقين، ولذلك كان الحسن البصرى يقول: إن مرتكب الكبيرة منافق؛ لأن عمله يناقض قوله، فكما أن من ينكر بقلبه ويؤمن بلسانه منافق، فكذلك من يعلن الإيمان، ويصدق بقلبه، ولكن يناقض عمله قوله، والإيمان كما يقول الجمهور من علماء العقائد، اعتقاد وعمل، وهو الإيمان الكامل عند جميع العلماء اتفقوا عليه.

يعد هذا نتكلم فى معنى النص الكريم: ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ** ﴾ اللمز: العيب فالرجل الهُمَزَة أو المرأة اللُّمَزَة العيّاب والعيّابة، واللمز يشمل العيب باللفظ الصريح، ويشمل العيب بالتعريض والتلميح، والوخز فى الكلام: وقال تعالى: ﴿ **وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ** (١) ﴾ [الهمزة] وقالوا إن اللمزة من يعيب فى وجه من يعيبه ولو بلَحْن القول، والهمزة من يعيب فى غيبه وفى غير محضره ولا يواجه من يعيبه.

والضمير فى ﴿ **مِنْهُم** ﴾ يعود إلى المنافقين، و﴿ **مَّن** ﴾ تدل على التبعيض، وإنه عمل بعضهم، ويظهر أنه ليس من الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، بل هو من الذين يعبدون الله على حرف، الذين ينطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ** (١١) ﴾ [الحج]، وكذلك هؤلاء المنافقون الذين عابوا النبى ﷺ، وقال الله تعالى فيهم: ﴿ **فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ** ﴾.

(الفاء) تدل على أن ما بعدها بيان أو إشارة إلى نوع عينهم، وهو بيان لنفوسهم إن أعطوا من المال بحق رضوا واطمأنوا، وقالوا إنها قسمة عادلة، واستقاموا على الطريقة، وإن لم يعطوا لعدم استحقاقهم سخطوا فهم طامعون فى

أن يأخذوا بغير حق. و﴿إِذَا﴾ ـ تدل على أن سخطهم أمر لا يرتبط بمنطق الأمور، فهم فاجئوا أهل الحق به، والدليل على المفاجأة ﴿إِذَا﴾ فهى تدل على المفاجأة.

والمفاجأة تدل على أنه غير منطقى؛ لأن من يرضى بالحق عند العطاء، لا يصح أن يغضب إن منع بحق، ولكن النفس المنافقة تريد دائما أن تحتجز الخير لنفسها، ولا تلتفت إلى حق غيرها، فآية المؤمن أن يعرف حق غيره كما يعرف حق نفسه، ومن علامة المنافق النفسية ألا يفكر فى حق غيره، فكل من لا يلتفت إلى حق غيره فيه شعبة من نفاق.

ومما روى فى معنى هذه الآية، ممن كانوا يلمزون فى الصدقات أن أبا الجواظ من المنافقين فى أعلى درجات النفاق قال: ألا ترون إلى صاحبكم، إنما يقسم صدقاتكم فى رعاة الغنم وهو يزعم أنه يعدل، وروى أن رسول الله ﷺ قال له وقد فهم أنه يعيب رعاة الغنم قال له: «لا أبا لك، أما كان موسى راعيا، أما كان داود». فلما ذهب أبو الجواظ هذا قال ﷺ: «احذروا هذا وأصحابه فإنهم منافقون»(١).

وقد وصفهم رسول الله ﷺ بأن رضاهم وسخطهم لأنفسهم لا للدين وما فيه صلاح أهله.

وروى فى الصحيحين عن أبى سلمة أن ذا الخويصرة واسمه حرقوص اعترض على النبى ﷺ حين قسم غنائم حنين، فقال: اعدل فإنك لم تعدل فقال صلوات الله وسلامه عليه: «لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل»، ثم قال: «إنه يخرج من ضئضئى هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرميَّة، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإنهم شر قتلى تحت أديم السماء»(٢).

---

(١) أشار المصنف رحمه الله: هذا المبحث مأخوذ من الكشاف للزمخشرى.

(٢) رواه فى البخارى: المناقب-علامات النبوة (٣٦١٠) عن أَبى سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما رواه مسلم بنحوه: الزكاة- ذكر الخوارج وصفاتهم (١٠٤٦). أبو مسلمة هو: عبد الله بن عبد الرحمن بن عوف، من الطبقة الوسطى من التابعين، وهو الراوى عن أبى سعيد رضى الله عنه.

ولقد روى أن النبى ﷺ كان يقول: «والذى نفسى بيده ما أعطيكم شيئا ولا أمنعكم، وإنما أنا خازن»[(١)] هذا بعض ما روى عن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فى أولئك المنافقين الذين كانوا يلمزون أطهر من فى الوجود - فى الصدقات.

ويجب أن ننبه هنا إلى أن الصدقات غير الغنائم، فالغنائم تقسيم أموال لمستحقيها بمعنى الغنم والفتح يأخذها الفاتحون بملكية تثبت لهم بمقتضى الجهاد، أما الصدقات فإنها تكون معونات تعطى لمصارف معينة يحتاج إليها أهلها.

وقد بين الله تعالى صفات المؤمنين بجوار ما يفعله الذين فى قلوبهم نفاق، فقال تعالى مبينا من في قلوبهم نفاق: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩)﴾ ﴿لَوْ﴾ فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ هى شرطية، وجوابها محذوف تقديره مثلا: (لكان خيرا لهم)، وإنى أظن أن حذف الجواب لتضمن ﴿لَوْ﴾ معنى الحض والرجاء بأن يكونوا كذلك إن خلعوا رداء النفاق من أنفسهم.

وقوله تعالى: ﴿رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ فيه بعض نواح نشير إلى بعضها **أولاها**: أن (رَضِيَ) تتعدى بالباء فيقال رضيت بالأمر، وتتعدى بنفسها، فيقال رضيت الأمْر، وهنا متعدية بنفسها، وأشعر بأنها إذ تتعدى بنفسها تتضمن معنى الرغبة والاقتناع، وهذا ما يليق بالمؤمن عند العطاء من الله ورسوله.

الثانية: أن الله تعالى قال: ﴿آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ وذكر الله سبحانه وتعالى، مع أنهم لمزوا ما فعله الرسول، للإشارة إلى عظم الجرم الذى ارتكبوه؛ لأنهم إذ عابوا رسول الله ﷺ، فكأنهم يعيبون الله تعالى؛ لأن الرسول لا يعمل بالهوى،

---

(١) (إنما أنا خازن) جزء من حديث رواه مسلم فى صحيحه: الزكاة- النهى عن المسألة (١٠٣٧)، وأحمد بلفظ مقارب مسند الشاميين- حديث معاوية بن أبى سفيان (١٦٤٦٧)، وأبو داود: الخوارج والإمارة والفيء- فيما يلزم الإمام من أمر الرعية (٢٩٤٩).

ولأن الرسول ينفذ، وإنهم إذا عصوه عليه السلام فقد تجرءوا؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ... (٨٠)﴾ [النساء].

الثالثة: ما أشرنا إليه من قبل، إلى أن ذلك الرضاء أمر يحبه الله ورسوله، ويرجوه الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم لهم، ليكونوا من المؤمنين حقا.

وقد صور الله تعالى النفس المؤمنة بأنها قانعة غير طامعة، ونفس المنافق غير قانعة بل هى طامعة دائما وتريد من الدنيا المزيد؛ لأنها لا تؤمن إلا بالدنيا ومتعها وموادها، فيبتغون المزيد منها، وبئس ما يبغون، فقال سبحانه فى تصوير النفس المؤمنة بعد رضاها ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ أى كافينا الله، ولم يقل الله تعالى عنهم أنهم يقولون حسبنا ما أتانا الله، بل إنه سبحانه وتعالى يقول عنهم: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ أى إن الله كافينا، أعطانا هذا ما رضينا به، وسيعطينا إن احتجنا، وما أخذناه يكفينا.

وقوله تعالى عنهم: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ فيه من معانى التفويض والتوكل على الله ورجاء ما عنده ما لا يدركه إلا القلوب المؤمنة المتبتلة الضارعة له سبحانه وتعالى وحده.

وإن قوله تعالى: ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ فيه تصوير معنى الاتكال على الله تعالى، ورجاء ما عنده. على أنه فضله فيستحق الشكر ولا يجوز أن ينتقص ما يأمر بإعطائه، وينتقص باللمز، والسير فى طريق الكفر، وهو الضلال البعيد.

ولقد قال الله حاكيا عن أقوال المؤمنين ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ هذه غاية الضراعة، أن يرغبوا إلى الله تعالى وحده ولا يرغبون فيما لا يقتنونه، ولا عرضا من أعراض الدنيا ولا غاية من غاياتها، وتقديم الجار والمجرور ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ تعالى على ﴿رَاغِبُونَ﴾ يفيد الاختصاص، أى لا يرغبون إلا إليه سبحانه وتعالى.

وإن الله تعالى بين بعد ذلك مصارف الصدقات، ولم يتركها لنبيه، بل تولاها سبحانه وحده، لكيلا يتطاول بعض من بقلبه مرض من ضعف إيمان أو

نفاق أو من تتعلق نفوسهم بظواهر الأمور دون لبابها وغاياتها، فقال تعالت كلماته:

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) ﴾.

جاءت آية الصدقات بعد ما جاء عن المنافقين فى أحوال كثيرة، وأن منهم من عاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى توزيع الصدقات، فجاءت الآية تبين أن التوزيع من الله سبحانه وتعالى، فلم يتركها لنبى ولا لغيره، تولاها هو سبحانه بالبيان فمن عاب التقسيم، فإنما يعيب تقسيم الله تعالى، فليعلم مكانه فى الإيمان، روى عن زياد بن الحارث الصدائى قال: أتيت النبى ـ صلى الله تعالى عليه وسلم ـ فبايعته، فأتى رجل فقال: أعطنى من الصدقة فقال له: «إن الله لم يرض بحكم نبى ولا غيره فى الصدقات، حتى حكم فيها هو، فجزأها ثمانية أجزاء، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك حقك»(١).

فكانت هذه الآية ردا على هذا الفريق من المنافقين بأنهم يلمزون النبى صلوات الله وسلامه عليه، إنما يتهجمون على مقام الألوهية، ولبيان أنهم إذ لم يأخذوا منها، فلأنهم لم يدخلوا فى صنف من هذه الأصناف الثمانية، ومن دخل فى صنف منها فما مُنِع، بل أخذ.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ... ﴾ ﴿ إِنَّمَا ﴾ أداة قصر، أى أن الصدقات قد اختصت بها هذه الأصناف دون غيرهم، فليست لأحد غير هؤلاء من الأغنياء والأقوياء الذين يكسبون ما يكفيهم وأهلهم بالمعروف، ولذا قال عليه السلام «لا تحلّ الصدقة لغنى، ولا لذى مِرَّة سوى»(٢).

فالذين يلمزون الرسول ﷺ أغنياء أو أقوياء.

---

(١) رواه أبو داود: الزكاة- من يعطى الصدقة وحد الغنى (١٦٣٠).

(٢) رواه الترمذى: الزكاة (٦٣٤)، وأحمد: مسند المكثرين (٦٧٥٩)، والدارمى: الزكاة (١٦٣٩)، وابن ماجه: الزكاة، من سأل عن ظهر غنى(١٨٣٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه.

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ لا تفرق اللغة بين الفقراء والمساكين فى الجملة، فكلاهما لا مال له يكفيه وأهله بالمعروف ولكنهما اجتمعا فى هذه الآية على أنهما صنفان مختلفان، يتميز كل واحد منهما عن الآخر، وعن الاجتماع بين لفظين معناهما متقارب يخص كل واحد منهما بمعنى ينفرد به عن الآخر، وقد اختلف الفقهاء فى تعريف الفقير ليتميز عن المسكين، واختلافهم بلا ريب أدى إلى اختلافهم فى معنى المسكين.

فقال الأكثرون الفقير ضد الغنى، وهو من لا يملك نصابا، وهو ما تكون قيمته عشرين مثقالا من ذهب، أو مائتى درهم من فضة، والمسكين من أسكنته الحاجة وأذلته، أى أنه دون الفقير حالا، وقيل العكس، ولكن الأكثرين على الأول، وروى عن عمر رضى الله عنه أنه فسر المسكين بأنه المريض بمرض مزمن من أهل الذمة.

وروى أن المسكين هو المتجمل الذى لا يسأل الناس، ولا يلتفت الناس إليه، وقد روى ذلك عن النبى ﷺ، فقد روى أبو هريرة أنه ﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطواف الذى يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان»، قالوا: فما المسكين يا رسول الله؟ قال: «الذى لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئا»(١).

وقد اتفق الفقهاء على أنهما يعطيان من الصدقات، وإن كنت أرى أن المسكين أسوأ حالا من الفقير، فإن لم يكف ما يعطى لهما معا، فإن المسكين يكون أولى بالعطاء.

ثم قال تعالى فى الصنف الثالث، وهم العاملون عليها، أى الذين يجمعونها من أرباب الأموال كما عين النبى ﷺ ولاة لجمع الصدقات، كما عين الأمراء من بعده ﷺ، وقرر الفقهاء أن أولئك يأخذون ولو كانوا ذوى مال، وقرر الحنفية والمالكية أن ما يأخذونه أجرة، ويكون قدرها بمقدار ما يراه ولى الأمر عليهم، على أنه أجرة عمل تكون متناسبة مع الأجرة فى مثل هذا العمل.

---

(١) سبق تخريجه.

وقال آخرون ليس لهم من العطاء إلا ما يكفيهم لأهلهم بالمعروف يأخذونه جزاء احتباسهم وتفرغهم لهذا، ولو كانت لهم أموال، كما تأخذ الزوجة نفقتها من زوجها جزاء احتباسها، ولوكانت ذات مال، وهكذا أجر العامل لمصلحة الكافة، وإن هؤلاء يأخذون من الزكاة، وإن هذا يدل على أمرين:

أولهما ـ أن الزكاة لا تترك لأربابها يؤدونها، بل يجمعها ولى أمر المؤمنين أو من يوليه لذلك، وقد كان الأمر كذلك فى عهد النبى ﷺ، وأبى بكر وعمر، وفى عهد ذى النورين كان يجمع زكاة الأموال الظاهرة، وهى زكاة النعم والإبل والبقر والغنم، وزكاة الزروع والثمار، وزكاة الأموال التى تنتقل من مصر إلى مصر التى يجمعها العاشر، وأناب ذوى الأموال فى أن يؤدوا زكاة الأموال الباطنة، وهى زكاة النقدين «الذهب والفضة»، وعروض التجارة فى أن يؤدوا هذه الزكاة، ولو بلغ الأمر أنهم لم يؤدوها، جمعها منهم كما يجمع غيرها.

ثانيهما ـ أن الزكاة يجب أن تكون لها حصيلة قائمة بذاتها، والقائمون عليها يكونون منفصلين عن بقية العاملين فى الدولة، ولذا عندما دونت الدواوين كان هناك ديوان هو ديوان الصدقات، أو كما سمى فى كتب الفقه بيت مال الصدقات.

والصنف الرابع: ذكره الله تعالى بقوله: ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ والمعنى اللفظى للنص القرآنى السامى الذين تؤلف قلوبهم بأن يقرب الإسلام إلى نفوسهم، بعد أن كانوا ينفرون منه.

وهؤلاء الذين كان فيهم هذا الوصف، كانوا على طوائف مختلفة فمنهم الكبراء الذين يتزعمون قبائل فيعطى لهم من الصدقات، ما يؤلفون به الضعفاء ليقربوا، ويأتلفوا الإسلام ويهجروا الوثنية.

ومنهم من آمن وخلع الوثنية، ودخل فى الإسلام ممن قال بلسانه ولم يؤمن قلبه، ومنهم من خضعوا للغلب، وطيبت قلوبهم لكى يؤمنوا، ويعتنقوا الإسلام.

وليس هذا رشوة لهم فقد أخضعوا واتبعوا، ويريد النبى ﷺ أن يجعل منهم مؤمنين بدل أن يكونوا خاضعين.

ومنهم ناس كان للنبى ﷺ معهم حروب، وكان فيهم مقاتل فى الحرب المحمدية، وكان لابد من أن تطيب نفوسهم، وترضى قلوبهم وتحل المودة محل الخصام والنفرة فأعطاهم النبى ﷺ، ومنهم أبو سفيان وأولاده وعلى رأسهم معاوية ابنه، ولعل هذا العطاء لهؤلاء فيه معنى الديات.

وهل هذا الصنف بقى بعد النبى ﷺ؟ نقول إنه باق ما بقى الإسلام إذا احتاج إليه المؤمنون، بل نقول إن الحاجة إلى تأليف القلوب باق ما بقى الإسلام، وإنه لباق إلى يوم الدين.

وإن عمر لم يلغه أو ينسخه كما ادعى الكتَّاب، وإنما فِعْلُ عمر أنه منع استمرار العطاء لبعض الناس؛ لأنه لم يكن ذلك حقا مكتسبا لهم.

وإنه ممن ينطبق عليهم لفظ المؤلفة قلوبهم أولئك الذين يسلمون، فيخرجون من أهليهم أو قومهم، ولا يجدون ما يستطيعون أن يقيموا لأنفسهم أسرة أو يحرمون من مناصبهم، فإنه يجب أن تؤلف قلوبهم بتعويضهم عما خسروا بإسلامهم، ولنا فى رسول الله أسوة حسنة، وإنه يجب أن ينفق على الدعوة الإسلامية من سهم المؤلفة قلوبهم؛ لأن المقصد الأصلى من المؤلفة قلوبهم هو تثبيت الإسلام فى قلوبٍ لم يستقر فيها الإيمان، والله سبحانه وتعالى هو الموفق للحق.

الصنف الخامس: ذكره الله تعالى بقوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ أى الإنفاق لفك الرقاب؛ لأن دين الحرية لا يرضى بالرق، وقد عمل على الحد من أسباب الرقيق فألغاها كلها إلا الرق فى الحروب فقد تركه؛ لأن الأعداء يسترقون من أسرانا، وقد أمرنا الله تعالى أن نرد الاعتداء بمثله فقال تعالى: ﴿... **فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ** ... (١٩٤)﴾ [البقرة].

ومع أن الرق قد بقى فى هذه الحدود الضيقة، فقد حث على العتق، وجعل له فى الزكاة نصيبا مفروضًا، يعان به المكاتب لفك رقبته، والمكاتب هو الذى اتفق

مع مالكه على أن يعتقه إذا أدى له ثمنه أو قيمته أو ما يتفقان عليه، ويسعى عاملا مجدا، حتى يجمع ثمنه، وقال تعالى: ﴿ ... **فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ** ... (٣٣) ﴾ [النور] فيعطى من سهمه فى الصدقات ما يعينه على فك رقبته، وكذلك يُشترى من هذا السهم عبيد ويعتقون، وكذلك تدفع منه فدية الأسارى من المؤمنين، حتى لا يسترقُّوا، وهكذا كل ما يعرض المؤمنين للرق يمنع بدفع مال من هذا السهم.

والصنف السادس: ذكره الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿**وَالْغَارِمِينَ**﴾ والغارم هو المدين الذى عليه غرامة وهى الدَّين، والغرم هو الدين الذى يلزم الشخص من غير جباية ولا خيانة كانت منه، وغرم أى وجب عليه غرم، والغارم من وجب عليه هذا الغرم، والدائن يقال له غريم، لأنه يلازم المدين ولا يفارقه.

ويجب أداء دين الغارم أى المدين من الصدقات إذا كان قد استدان فى غير سفه، وعجز عن السداد من غير سفه، والتجار الذين يستدينون لجلب البضائع من الأقطار فى حكمة وعناية بمتجرهم، ولكن تجارتهم تبور أو تغرق مركبها، أو تذهب أموالهم بأى سبب من أسباب الضياع، وكذلك الذين تحملوا ديات للصلح بين الناس، فإنه يؤدى ما تحمَّلوه من مال الصدقات.

وإنما أديت ديون الغارمين من الصدقات للتعاون، ولإقالة العثرة، وازن بين هذا التعاون البانى والتكافل الذى بين المؤمنين، وازن بين هذا وبين القانون الرومانى الذى كان قد عاصر نزول القرآن الكريم، وقد كان يجعل للدائن الحق فى أن يملك رقبة المدين، وازن بين هذا القانون وقانون القرآن معجزة الله الكبرى، إذ يفرض من الصدقات سداد الدين عن المدينين.

وإن هذا القرآن يتحدى الأجيال كلها أن يأتوا بنظام بشرى فى أى بقعة من الأرض، أى بمثل ما أتى به من تكافل اجتماعى. ونذكر هنا قصة صادقة حدثت فى عهد الحاكم العادل حاكم بنى أمية عمر بن عبد العزيز، أنه ببركة العدالة وإعطاء كل ذى حق حقه فاض الخير وعم، ومن مظاهر ذلك أن والى الصدقات

فى أفريقيــة (تونس وليبيا والجزائر) شكا من تكدس أمــوال الصدقات فى بيت المال فأرسل بذلك إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه، فأرسل إليه: سدد الدين عن المدينين، فسددها، ولكن مد الصدقات لم ينقطع، فأرسل يشكو امتلاء بيت المال، فأرسل إليه اشتر عبيدا وأعتقها، فأخذ يشترى من عبيد المؤمنين ويعتقهم.

والصنف الســابع: ذكــره الله تعالى بقــوله: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فســر هذا بعضهم بالإنفــاق على المجاهدين إذا كانوا فقراء، وكانوا لا يجــدون ما يحملهم، فيعطون من الصدقات ما يحملهم، وفسر بعضهم بالإنفاق على الجهاد بإعداد العدة للجيش وإمــداده بكل ما يحتــاج إليه جيش الإسلام من أدوات الحــرب، والإنفاق على المجاهدين.

وبعض العلماء أدخل فى سبــيل الله ـ الحج، وأجازوا أن ينفق الشخص من صدقاته ما ينفق فى الحج، وأرى ألا ينفق عليه من مال الزكاة؛ لأنه لا يجب الحج إلا على من يستطيــع إليه سبيــلا، فهو شــرط لوجوب أدائه، والزكاة فــرض قائم بذاته، والقفال الشاشى قرر أن ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ تشمل كل وجوه البر.

﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ هو الذى انقطع عن ماله وكان فى مكان لا مال فيه، وهو فى حاجــة إلى القوت والمأوى، وسمى ابن الســبيل لأنه صار لا مــأوى له، وكأن السبيل أبوه الذى يؤويه ويحميه.

وإيتاؤه أن يــعطى ما يحــفظ أمره، ويؤويه من غــائلة الطريق، ويوصله إلى بلده حيث ماله، ويصح أن يكون عطاؤه عارية مــستردَّة إن كان قادرا على الأداء، ويصح أن يكون عطاء غير مسترد، على حسب ما يرى أمير الصدقات.

وختــم الله تعالى الآية بقــوله تعالت كلمــاته: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ قال الزمخشرى: إن ﴿فَرِيضَةً﴾ بمعنى المصدر أى فرضا من الله.

ولماذا لا تكون فريضــة وصفا للصدقات وتوزيعــها المحكم، أى أن هذا كله موصوف لفريضة، كفريضة الصلاة والصوم والحج، وأنها لازمة لزوم كل الفرائض

المشروعة، ونسبها سبحانه إلى الله منزلها، فقال: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ وذلك لبيان لزومها ومنع تغييرها وإجمالها وضرورة إعطائها، وتعود على الذين لمزوا النبى ﷺ فى الصدقات ببيان أن التقسيم من الله تعالى، وأن من يعيبه إنما يعيب الله سبحانه وتعالى.

وختم الله تعالى الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وفيه إشارة إلى أن هذا التعاون بين الأغنياء والمحاويج يربى العزة، وهو تشريع من العزيز مانح العزة، الحكيم الذى يعلم الأشياء كلها، ويدبر الأمور بمقتضى حكمته وينظمها بمقتضى علمه.

وقبل أن ننهى الكلام فى آية الصدقات نشير إلى أمرين أحدهما فقهى والآخر لغوى، ونبتدئ باللغوى وذلك أن الزمخشرى رحمه الله تعالى بين السبب فى التعدية باللام فى الأربعة الأولى وهى الفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم، وذلك لأن العطاء لهؤلاء لا يكون إلا بالتمليك والاختصاص فالفقراء والمساكين يأخذون بالتمليك ما يعطون، وكذلك العاملون عليها والمؤلفة قلوبهم، والأربعة الأخرى كانت التعدية بـ (فى) فقال تعالى: ﴿وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾، فإن هؤلاء لا يأخذون، فالرقاب لا يأخذون، بل الذى يأخذ مالك الرقبة، وكذلك الغارمون لا يأخذون، إنما الذى يأخذ هو الدائن الغريم، وابن السبيل لا يملك، ولكن يطعم ويؤوى، والله أعلم.

أما الأمر الفقهى فهو أن الفقهاء قد اختلفوا أهذا الإحصاء للاستيعاب واختصاص العطاء فى هؤلاء أم الصدقات تقسم ثمانية أقسام. فيكون لكل قسم ثُمن الصدقات، قال الشافعى بذلك، وقال جمهور الفقهاء: إنه يقسم على مجموع الأقسام الثمانية، لا على كل قسم بحظه المعلوم، وولى الأمر ينفق لكل بما يراه أصلح وأعدل، والله سبحانه وتعالى أعلم.

من أعمال المنافقين

قال تعالى:

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾

ذكر سبحانه مقالة بعض المنافقين فى لمز النبى ﷺ فى الصدقات، وقد رد تعالى قولهم، وبين سبحانه أن أمر الزكاة وسائر الصدقات ليس فُرُطا، بل إن الله نظمه، وأن من يعيب توزيعها إنما يتهجم على الله سبحانه وتعالى؛ لأنه لم يتركها له ليوزعها كما يشاء، بل ذكر أصناف مستحقيها. ولكنهم يستمرون فى إيذائه ولذا قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾.

ولكنهم استمروا على إيذاء النبى ﷺ بأقوال كاذبة، ويفتُّون فى عضد الجماعة الإسلامية ويشيعون فيها بما يفرقها ويرجعون بالقول، فإذا تسامع الناس بها، وعلموا أنها وصلت إلى مسامع النبى ﷺ لا يبالون، ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾،

ولذا قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ وليس قولهم: هو أذن ـ هو الإيذاء، بل الإيذاء بالقـول منهم متنوع مـختلف لا يتـوانى عن الكذب على النبى ﷺ والافتراء عليه كما كـانوا يلجون فى إشاعة الافتراء على أم المومنين عائشة رضى الله عنها وعن أبيها ، فإذا رأوا كبر ما يفعلون سهلوه، ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ ، ومعنى ﴿أُذُنٌ﴾ أنه يأخذ العلم من مسمعه من غـير أن يفحصه، بل يقبله مصدقا له، فما عليهم إلا أن يحلفوا أنهم ما قالوه حتى يصدق أيمانهم من غير أن يفحص كـذب ما قـالوا، ونسوا أن الله يعلمـه بما تبلبل به ألسنتهم، ويـجيش فى صدورهم، وكـلمة ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ كمـا قلنا أنه يعلم من أذنه، فـإذا صدق مـا قيل عنهم، فإنه مصـدق أيمانهم النافية الكاذبة ولا عليـهم شىء من بعد ذلك، وهكذا المنافق يظن أو يتـوهم أنه يخـدع الناس بقوله وهو المخـدوع، وإنما يخادعـون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم، وما يشعرون .

وعبر عن المستمع بأنه أذن لأنه فى زعـمهم علمه كله من أذنه، وذلك مجاز مرسل علاقتـه الجزئية، فعبر عن الكل باسم الجزء؛ لأن هذا الجـزء له مزية خاصة فى الموضوع، كـما يعـبر عن الجاسـوس بالعين؛ لأن العين لـها المزية الأولى فى عمله، ورد الله تـعالى عليهـم بقوله: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ كقـولنا أذن صدق، ورجل بِر، ورجل حق، فقـد سلَّم بأنه أذن، يستمع إلى الأقـوال التى تصل إليه، ولكن لا يقبلهـا بإطلاقها كمـا يتقولون، ولكن يفـحصها، ويعـالج نفوسكم على مقتضاها، ويتدبر الأمر لهدايتكم، ولا يبادركم بشر يناسبكم، ولا يفضحكم؛ لأن الله تعالى أمره بذلك، ولأنه يقصد إلى خيركم، ولا عيب إذا سمع وصدق، ولقد قال بعض المفسرين كلمة طيبة: كلما كانت النفس ألين عريكة، وأسلم قلبا وأسهل قبولا كـانت أقبل وأشد استعـداداً له، وليس هذا اللين من باب الضـعف، والتأثر من كل ما يرد عليه، ويراه حتى الكذب والشرور.

فهم زعموا أن النبى ﷺ إذ لم يجابههم بشرهم يقبل كل كذبهم وافترائهم، ولو كانت موثقة بالأيمان المـغلظة، ونسوا أنه يعرفهم، ولكن لا يريد أن يُنْزِل بهم أى عقاب، حَتى لا يقال إن محمدا يعاقب أصحابه وينزل بهم سوء العذاب.

وبين الله سبحانه وتعالى ما يقوى أنه أذن خير، فقال: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ وهذا تعريض بهم بأنهم لا يؤمنون بالله، فهو يؤمن بالله حق الإيمان، ويذعن لله حق الإذعان، لا أن يفترى ويوثق افتراءه بأيمان تدل على ما يدينهم ولا تبرئهم، ويقول تعالى: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى يسلم للمؤمنين ويصدقهم، وهذا أيضا تعريض بهم، فهو يسلم للمؤمنين ويصدقهم لأنهم مؤمنون، ولا يؤمن لكم ولا يصدقكم لأنكم منافقون، فلا تحسبوا سماحته لكم تصديقا، وإنما سماحته لكم رفق فى الدعوة، وتلطف بكم عسى الله أن يجعل منكم من يؤمن بالله واليوم الآخر، ويخلع نفسه من النفاق وأهله، وقد عدى البيان القرآنى بالباء فى قوله تعالى ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾، لأن الإيمان بالله معناه التصديق والإذعان، والتصديق يتعدى بالباء.

وتعدى باللام فى قوله تعالى: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لأن الإيمان فيما يتعلق بالمؤمنين معناه التسليم لهم، وقبول قولهم، مثل قوله تعالى فى الإخبار عن كلام إخوة يوسف: ﴿... وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧)﴾ [يوسف]، وقوله تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ ... (٨٣)﴾ [يونس]، وقول الكفار لنوح: ﴿... أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١)﴾ [الشعراء].

وقوله: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه تعريض لهم بأنه عليه السلام لا يقبل قولهم، لأنهم ليسوا بمؤمنين، وإن رفق بهم وتلطف فى القول، فالرفق شأنه، ولكن لا يدل على ما ظنوه من أنه يقبل كل كلام ولو كان كلامهم.

ثم يقول تعالى: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالعطف على ﴿أُذُنُ خَيْرٍ﴾ وقرئ بالجر[1]، أى رحمة للذين آمنوا منكم.

والمعنى على قراءة الجر، هو أذن خير لكم، وإذن رحمة للذين آمنوا منكم.

---

(١) قراءة (ورحمة) بالجرقراءة حمزة، وقرأ الباقون بالضم. غاية الاختصار (٩٥٩).

وعلى قراءة الرفع، وهى قراءة يكون العطف فيها على ﴿أُذُنُ﴾، أى هو أذن خير لكم، وأذن رحمة للذين آمنوا منكم، والضمير فى ﴿لَكُمْ﴾ و﴿مِنكُمْ﴾ يخاطب به المنافقين.

ووجه الخيرية لهم أنه يتستر عليهم بقبول كلامهم، وذلك خير لهم من أن يتجهم لهم فيفضحهم، ويكشف سوءة نفاقهم، وقوله: ﴿لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ أى من أهليكم وذوى قرابتكم، ومن كانوا فى الأصل منكم وهداهم الله تعالى فلا يكشف عن نفاقكم بإظهار القبول لكلامكم، وإن كان يعلم أنكم لكاذبون لكيلا يضار هؤلاء، وعندما ظهر أمر المنافقين ولم يعد خفيا ذهب ابن عبد الله بن أبى رأس المنافقين إلى رسول الله ﷺ وقال له: إن كنت قاتلا فدعنى أقتله، حتى لا أحمل ضغنا لمؤمن، فكان كتمان أمرهم، وعدم مجابهتهم بالتكذيب رحمة بهؤلاء الذين آمنوا منهم.

ثم ختم الله سبحانه الآية بذكر العذاب الأليم لمن يؤذى رسول الله ﷺ، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أظهر فى موضع الإضمار لأن صدر الآية يبين أن موضوع الآية المنافقون الذين يؤذون رسول الله، فكان يصح أن يعود الضمير إليهم، ولكنه أظهر فى موضع الإضمار، ليبين سبحانه أن سبب العذاب المؤلم هو إيذاء رسول الله ﷺ، ولذا قال جمهور الفقهاء: من سب رسول الله ﷺ، فقد كفر وعُدَّ مرتدا، وحل قتله إلا أن يتوب، ولهم العذاب الأليم أى لكل من يؤذى رسول الله.

ولقد ذكر سبحانه وتعالى محاولتهم تكذيب ما يقال عنهم بالحلف، والحلف الكاذب شارة المهانة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (١٠)﴾ [القلم]، فقال سبحانه وتعالى عنهم:

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢)﴾.

إن هؤلاء المنافقين حاولوا الكذب على النبى، وأيدوا كذبهم بأيمان غموس غير صادقة، وحسبوا أن ذلك يخدع رسول الله ﷺ، وظنوا أنهم قادرون على ذلك بأيمانهم لأنه أُذُن، وقد بين سبحانه وتعالى فساد زعمهم فى الآية السابقة، وفى هذه الآية حاولوا أن يخدعوا المؤمنين بأيمانهم الكاذبة؛ لأنهم يعيشون فى أوساطهم ويساكنونهم ويجاورونهم فحاولوا أن ينفوا عنهم نفاقهم بالأداة التى يملكونها ويملكها كل فاجر كافر فأخذوا يحلفون، وقال الله تعالى فى ذلك: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ لقد تخلفوا عن الجهاد فى وقت النفير إلى بنى الأصفر المتكاثف عددهم، فكانوا بذلك جبناء، وكانوا كاذبين فى ادعائهم الكاذب، وثبت بدليل قاطع نفاقهم، والمنافق فى وسط عربى صريح يعلن القوة، ولا يتقبل المعاذر ـ مشنوء مهين، فكانوا يحاولون تبرئة أنفسهم بالأيمان، وقوله ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ﴾ التعبير بالمضارع لأنهم يحلفون فى الحال لا فى الماضى وفيه إشارة إلى أن الحلف شأنهم وهو متجدد، وكلما كذبوا حلفوا، وكلما تخلفوا بأعذار غير صادقة حلفوا، فالحلف ديدنهم.

وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ﴾ إشارة إلى أن من معهم من العشراء والجيران من المؤمنين هم المقصودون، وقد صرح سبحانه وتعالى بذلك فقال: ﴿لِيُرْضُوكُمْ﴾ أى أن الباعث لهم على هذا الحلف الكذب إرضاؤكم، وإزالة الوحشة بينكم وبينهم، وزوال النفرة التى تحسونها منهم.

وإن هذا الإرضاء مع أنهم يطلبونه يريدونه لغاية فى أنفسهم؛ لأن دوام النفرة منهم يمنعهم من الثقة فيهم، وذلك لا يمكنهم من الدس الخسيس فيهم إذ لا يثقون فيهم، والدس يحتاج إلى الثقة ممن يدسون لهم، ويلقون بالفتنة فيهم، وقد بين الله سبحانه الغش فى محاولة الإرضاء، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أى أن العيب فيكم ليس فى اعتذار أو تخلف أو كذب، إنما العيب الأصيل هو النفاق، فالنفاق هو الذى جعلكم تتخلفون عن

الجهاد، وهو الذى جعلكم تعتذرون عنه بأعذار مكذوبة، وهو الذى جعلكم تحلفون ممتهنين الأيمان المغلظة.

فهم حاولوا إرضاء المؤمنين ولم يحاولوا إرضاء الله ورسوله لأنهم يعلمون أن ذلك غير ممكن، ولذا قال تعالى فيما تلونا ﴿**وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ**﴾ أى لو كانوا مؤمنين ولا يريدون التخلف، وإن تخلفوا فبأعذار صادقة ـ لآمنوا أن الله ورسوله أحق بالإرضاء، وإرضاء الله ورسوله ليس يالأيمان الكاذبة، إنما هو بأن يخلعوا أنفسهم من النفاق، ويؤمنوا بالله ورسوله حق الإيمان.

وفى قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ**﴾ إشارة بيانية، وهى أن الله تعالى ورسوله ذكر أنهما أحق بالإرضاء، ولكنه عند عود الضمير أعاده مفردا ﴿**يُرْضُوهُ**﴾، وذلك للإشارة إلى أن إرضاء أحدهما إرضاء لهما، فإرضاء الله تعالى إرضاء للنبى ﷺ، وإرضاء النبى ﷺ إرضاء لله تعالى، كما قال: ﴿**مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ** ... (٨٠)﴾ [النساء]، وفى ذلك إشارة إلى أن الذين يؤذون النبى ﷺ، إنما يتهجمون على مقام الألوهية ويتحدون الله ورسوله، ولقد قال تعالى: ﴿**أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ** (٦٣)﴾.

لقد كان هؤلاء المنافقون مع ما يظهرون من محاولة إرضاء المؤمنين ليبثوا فيهم الخور، وضعف العزيمة، حتى إنه فى غزوة «أُحُد» بتأثيرهم ـ همَّت طائفتان أن تفشلا بعمل كيدهم.

كانوا مع ذلك يستهزءون بالمؤمنين والنبى ﷺ وقد وضعوا أنفسهم فى حيز، محادين الله ورسوله، فقال تعالى فيهم:

﴿**أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾ الاستفهام هنا للنفى والتوبيخ، ولم نافية، ونفى النفى إثبات كما يقول أهل العلم بالعربية، فالمعنى لقد علموا أنه من

يحادد الله ورسوله، فأن لهم جهنم ، وكان الإثبات بهذه الطريقة البيانية لتأكيد علمهم وتأكيد شرهم، كأنهم أقدموا على هذا الشر عالمين، ووجه التأكيد فى التقرير بهذه الطريقة مؤداه أنه سئل عنهم: يعلمون أم لا يعلمون، فأجيب عنهم بأنهم يعلمون، فكان فى ذلك فضل تأكيد.

وحاده كـ (شاقَّه)، أى جعل بينه وبين الحق حدا، لا يصل الحق إليه، ولا يحاول هو أن يصل إلى الحق، ومن يكون فى جانب، والله تعالى فى جانب آخر، كأنه يناوئه ويقاومه، ولقد قال تعالى: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ... (٢٢)﴾ [المجادلة].

وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ فيها قراءتان قراءة حفص بفتح (أن)، وتخريج القول على هذه القراءة أن النار واقعة فى جواب الشرط، وأنَّ والمصدر المنسبك منها وما بعدها، فاعل لفعل محذوف تقديره (فقد ثبت أن لهم جهنم خالدين فيها أبدا)، وهناك قراءة بكسر (إنَّ)[1]، وتكون هى وما بعدها جملة مبتدأة، واقعة فى جواب الشرط، أو دالة على جواب الشرط، وذلك على تقدير أن الشرط محذوف، ويكون المحذوف تقديره (هالك).

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾، أى أنهم إذا كانوا فى الدنيا يتسترون بنفاقهم، ويخفون حقيقة أمرهم، فإن ذلك مكشوف يوم القيامة، إذ ينكشف أمرهم ويتبين حالهم، ويكون خزيهم وهم خالدون فيها.

المنافق دائما حذر من أن ينكشف أمره، وقد رأوا النبى ﷺ ينزل عليه الوحى ويخبره بكشف أمر المنافقين، فكانوا يخشون إذا نزلت سورة أن يكون فيها كشف لأمر من أمورهم، فقال تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ (٦٤)﴾.

(١) قراءة (فإن) بالفتح، ليست فى العشر المتواترة.

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ﴾ إخبار عن المنافقين بأنهم يحذرون أن تنزل عليهم سورة، والحذر يكون دائما من شأن من يستر شيئا؛ لأنه يخشى أن يكشف، وإذا كشف ضاع الغرض الذى ستره من أجله، والسورة الجزء من القرآن المفصول عن غيره كأنه سورٌ بسور يحدُّه، والتنزيل من الله تعالى على نبيه الكريم، فلا تنزل على المنافقين، إنما تنزل على قلب محمد الأمين، فكيف تنزل عليهم، ولكن المراد أنها تنزل فى شأنهم، وكانت التعدية بـ (على) للإشارة إلى أنها تنزل عليهم كالصاعقة يفاجئون بها، وعلى ذلك يكون الضمير فى ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يعود إلى المنافقين، وكذلك الضمير فى ﴿تُنَبِّئُهُم﴾، وقوله تعالى: ﴿بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ ويصح أن يكون قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ﴾ فى معنى الأمر، وكثيرا ما تجيء الصيغة الخبرية بمعنى الأمر، كما فى قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ... (٢٣٣)﴾ [البقرة]، وكما فى قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ ... (٢٢٨)﴾ [البقرة] فإن الخبر فى كل هذه الصيغ يدل على الطلب.

ولكن تخريجها بمعنى الخبر أولى؛ لأنه يناسبه قوله تعالى فى الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾.

والزمخشرى يرى أن الضمير فى ﴿عَلَيْهِمْ﴾، و﴿تُنَبِّئُهُم﴾ يعود على المؤمنين والنبى ﷺ، لأن الشأن فى النزول القرآنى أن ينزل على النبى ﷺ، ومن معه من المؤمنين، وأما الضمير فى قوله تعالى: ﴿بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فإنه يعود على المنافقين؛ لأنهم الذين يخفون ما لا يبدون، فالأنسب أن يعود إليهم، والقرائن تعين عودة الضمائر على هذا النحو.

كان المنافقون يستهزئون فى مجالسهم بالنبى ﷺ وبالمسلمين وبالجهاد، حتى أنهم كانوا فى غزوة تبوك التى كانت ذاهبة إلى الشام يتهكمون على المؤمنين، ويستهزئون بهم، ولا يكتفون بالقعود عنهم، ولقد روى أنهم كانوا يقولون مستهزئين: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونه هيهات هيهات. وكانوا يريدون ألا يطلع على ذلك أحد من المؤمنين، ولذا قال تعالى:

﴿قُلِ اسْتَهْزِءُوا﴾ هذا أمر للتهديد، كقولك للمجرم الذى بدا إجرامه: افعل ما شئت، وكقول النبى ﷺ: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت»(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أى إن الله تعالى كاشف ما تأتمرون به، وما تستهزئون به من قول يكشف عن نفاقكم، وفى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أى أن يخرج، تأكيد لإخراج هذا الأمر الذى يحذرون خروجه، أولا بالجملة الاسمية، و﴿إِنَّ﴾، الدالة على توكيد الخبر، وفى التعبير بلفظ الجلالة الذى يربى الرهبة والخوف فى النفس، وقوله ﴿مُخْرِجٌ﴾ فيه إشارة إلى مبالغتهم فى الحذر، كأنهم دفنوه فأخرج من دفين نفوسهم.

ولقد جاء فى تفسير أبى مسلم أن قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ...﴾ من قبيل تهكمهم على القرآن، فقال هذا حذر أظهره المنافقون على وجه الاستهزاء حين رأوا رسول الله ﷺ يذكر كلامهم ويدعى أنه من الوحى، وكان المنافقون يكذبون ذلك فيما بينهم، فأخبر الله رسوله بذلك، وأمره أن يعلمهم أنه يظهر سرهم الذى حذروا إظهاره، ولذلك قال تعالى: ﴿قُلِ اسْتَهْزِءُوا﴾، أى بالله وآياته ورسوله، أو افعلوا الاستهزاء، وهو أمر تهديد ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أى مظهر بالوحى ما تحذرون خروجه.

ويقول إن هذا احتمال، ولكن السياق القرآنى يد ل على استهزاء أظهره الله تعالى.

وإن هذه الآية تدل على أنهم يكثرون من الاستهزاء والله مخرج أمورهم، حتى لا يخدع فيهم مؤمن قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠)﴾ [محمد].

---

(١) سبق تخريجه.

قال تعالى:

وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ
لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ
وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم
بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ
بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ
بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ
إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ
ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ
فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾

كان المنافقون فى المدينة يثبطون المؤمنين عن الجهاد ببث التخاذل فيهم، ووضع ما يؤدى إلى الفشل والعجز فيما بينهم لا يبالون، ما يمنعهم من غرضهم عشيرة أو جوار، أو أنه إذا نزلت بالمدينة كارثة لا ينجون منها.

فكانوا يستهزئون بالمؤمنين فى مجالسهم، ويتهكمون عليهم، إذا خرجوا إلى الجهاد حاولوا تثبيطهم عنه ببث روح الفشل، أو بالتهكم اللاذع، واستصغار شأن المؤمنين، ومما جاء فى مقالتهم من نفاقهم «أنه بينا رسول الله ﷺ يسير فى غزوة تبوك كان ركب من المنافقين وبعضهم يقول لبعض: أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم لبعض، والله لكأنّا بهم مقرنين فى الحبال. قالوا ذلك ترهيبًا للمؤمنين، وقال رجل من المنافقين طعنا فى المؤمنين: ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطونا، وأكذبنا ألسنة، وأجبننا عند اللقاء.

علم النبى ﷺ بهذه الأقوال، وراجت وشاعت بين المؤمنين، وكانت تشتد شيوعًا كلما كان قتال؛ لأنه يلهج ألسنتهم بفساد القول كلما كانت حرب أو شدة لتكون السخرية، ويكون التثبيط.

وإذا سألهم النبى ﷺ عن هذه الأقوال أقروا بها، وبمقصدهم منها، وهو العبث، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾.

والخوض هو الدخول فى الماء والانغمار فيه، ثم أطلق على الدخول فى الكلام الذى يسمرون به، والقصص من الأساطير، واللعب من الفعل أو القول الذى لا يكون لغاية، بل لمجرد العبث، أو الاستهزاء والسخرية.

وقد أكد الله سؤال النبى ﷺ بقوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ بالقسم وفيه اللام الممهدة للقسم، وحذف المفعول؛ لأن أقوالهم كثيرة، وكان جوابهم مؤكدا تبعا لتأكد القسم، فهم أكدوا أنهم كانوا يخوضون ويلعبون، ومعنى ذلك أنهم كانوا يستهزئون، ولذلك أمر الله تعالى نبيه بأن يقول لهم: ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

بين الله سبحانه وتعالى خطر استهزائهم بالخوض فى الكلام العابث، واللعب الجاحد، بين لهم أن ذلك يتضمن الاستهزاء بالله خالق كل شىء، والآيات التى ترشد العقلاء إلى الحق، والرسول الصادق الأمين الذى قامت الأدلة من القرآن ومن شخصه على الرسالة، فكفروا بالله وكذبوا الآيات.

وتقديم ﴿ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ ﴾ على الفعل يستهزئون فيه إشارة إلى تخصيص هؤلاء بالاستهزاء، فأى ضلال أشد من هذا، وأى كفر وجحود أشد.

والاستفهام هنا للاستنكار، إنكار الواقع أى التوبيخ على ما فعلوا.

ولهذا الفجور الذى يبدر من ألسنتهم ويدل على قلوبهم، قال الله تعالى: ﴿ لا تَعْتَذِرُوا ﴾؛ لأن كل اعتذار يلقون فيه أنفسهم بهاوية من الكفر أشد مما هم فيه، فقال تعالى:

﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾.

والنهى هنا على حقيقته، فالله تعالى ينهاهم عن الاعتذار؛ لأن الاعتذار يؤدى إلى أن يقعوا فى ذنب أشد مما يعتذرون عنه لحميتهم، وجهالتهم بسبب النفاق الذى أركس نفوسهم فى الشر، أو نقول النهى للتهكم باعتذارهم الذى يجعلهم يعترفون بأفحش ذنوبهم.

والاعتذار محو أثر الذنب، وأصله القطع، واعتذرت إليه قطعت ما فى قلبه من الموجدة، فهم يحاولون إزالة ما أوجده كلامهم من كفر، فيزيدون الذنوب.

والاستهزاء استخفاف، فإذا كان بالله وآياته ورسوله فهو كفر، ولذا قال تعالى فى اعتذارهم وإقرارهم بالاستهزاء ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ وقد أكد الله تعالى كفرهم بـ﴿قَدْ﴾ الدالة على التحقيق فأكد الله تعالى كفرهم، وقوله تعالى: ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ والنفاق ليس فيه إيمان، والمنافق ليس بمؤمن، ولكنه يظهر الإيمان، ويكون بعد إيمانكم أى بعد إظهار إيمانكم، فكشفتم كفركم بعد ستره، فافتضح أمركم بعد أن سترتموه، أو نقول: إنه كان فيهم ضعفاء الإيمان، فكان اشتراكهم معهم فى الاستهزاء والسخرية بالله تعالى وآياته ورسوله كفرا لهم بعد إيمان كان فيهم، وإن كان ناقصا، وإنى أختار هذا، والله تعالى أعلم.

ثم يقول سبحانه: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾، إن عفو الله منوط بالتوبة، الطائفة التى يعفو الله عنها هى التائبة، فالتوبة تجبُّ ما قبلها، وقد كان فى هؤلاء الذين خاضوا ولعبوا وتعابثوا، من تاب وأناب.

وقد قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره نقلاً عن عكرمة مولى عبد الله بن عباس: وكان رجل ممن إن شاء الله عفا عنه يقول: اللهم إنى أسمع آية أن أُعنى بها (أى لأنه كان ممن خاضوا بها) تقشعر منها الجلود، وتوجل منها القلوب، اللهم فاجعل وفاتى قتلا فى سبيلك، لا يقول أحد أنا غَسَّلْتُ، أنا كَفَّنت، أنا دفنت. فأصيب يوم اليمامة، فما من أحد من المسلمين إلا وقد وجد غيره.

هؤلاء هم الذين عفا الله عنهم، وهذا أحدهم لقد تاب فعفا الله عنه وصار من الشهداء الصديقين، وأسند سبحانه العفو والعذاب إليه سبحانه تعظيما لمقام العفو، وتهديدًا بأهل العذاب، ولقد بين سبحانه العذاب، بقوله تعالى: ﴿ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ الإجرام الذنب الكبير الذى يكون له جِرم، وتفعله الجوارح، وتكتسبه النفس، وقد أشار سبحانه إلى أنهم مستمرون على إجرامهم ولم يتوبوا، ولذلك يتأكد إجرامهم واستمرارهم عليه، وعدم انخلاعهم منه، فقد أكد الإجرام بالجملة الاسمية، و(أن) الدالة على تأكيد ما بعدها، و(كان) التى تؤكد القول، وتدل على استمراره.

أحوال المنافقين وصفاتهم

وقد بين سبحانه صفات المنافقين الذين لا يرجى إيمانهم، فقال تعالت كلماته: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) ﴾.

إن المنافقين ينعزلون عن الجماعة المؤمنة، فهم فى نفرة عنهم، ويكونون أنفسهم جماعة موحدة يجمعها فكر عام موحد يناقض الجماعة العامة التى يعيشون فيها، فلا يرضيهم ما يُرضى الجماعة بل يخالفونها، ويناقضونها فيما تفكر وفيما تعمل، فقد عزلوا أنفسهم عنها، فإذا كانت الجماعة العامة متضافرة على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فهم عكسوا، معروفهم منكر عند جماعة المؤمنين، ومنكرهم هو المعروف، ولذا قال تعالى:

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ ﴾ أى أنهم كل متصل الأجزاء، ولايتهم واحدة وتناصرهم واحد، وفى هذا تكذيب ليمينهم الكاذب فيما نقله سبحانه عنهم ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ... (٥٦) ﴾، وهو تأكيد لما قاله سبحانه فى نفى أنهم منكم.

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى أنهم متضافرون في أسرهم، فأسرهم في الجملة منافقة، ولذا ذكر سبحانه وتعالى المنافقات مع المنافقين، وقال تعالى: ﴿بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ﴾، أي أنهم لُحْمة متصلة يتغذى بعضهم بلبان النفاق من بعض، فهم بيئة واحدة يغذيها لبن النفاق، أو بالأحرى سُمُّه.

وقد ذكر سبحانه أحوالهم:

أولاها: أنهم ينشرون الفساد في الفكر والعمل، فلهم رأى عام يخصهم يسوده الفساد في النفوس والأخلاق، يشجع الرذيلة ويتهكم على الفضيلة، وعبر سبحانه وتعالى عن ذلك بقوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ يشجعون كل ما هو شر، ويمنعون كل ما هو خير، معروفهم منكر، ومنكرهم هو المعروف، وهكذا يقضى الله على بعض الجماعات الإنسانية بالشر، كما نرى الآن من منافقي عصرنا، فعدلهم ظلم وحريتهم اعتداء، وشوراهم استبداد.

الثانية: أنهم غير متعاونين في ذات أنفسهم، وفي جماعتهم فلا ينفقون في خير قط، والشح يستولى على نفوسهم، ولا يجعلون أنفسهم في وقاية منه، بين تعالى في ذلك الوصف بقوله تعالى: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ القبض ضد البسط، وقبض اليد غلها عن الإنفاق، فعبر عن عدم الإنفاق في موضعه بقبض اليد، كما عبر عن الإنفاق في موضعه ببسط اليد، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ... (٦٤)﴾ [المائدة].

الثالثة: أنهم ينسون الخير نسيانا، فإذا ذكر لهم الخير تهكموا بصاحبه، وقالوا مستهزئين متهكمين بمن يتكلم في الفضيلة، وهذا عبر الله عنه بقوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ أي نسوا الله تعالى فلا تذكره قلوبهم، ولا تطمئن به، إن القلوب إذا نسيت الله لا تطيع أمره، ولا تجتنب نواهيه، ونسيان الله تعالى ألا يوفقهم لخير، وأن يجعلهم منغمسين في الشر الذى اختاروه والضلال الذى أحيط بهم.

وإن المنافقين قد ينفقون فى حالين: إحداهما أن يستروا نفاقهم، كما كان المعتذرون المتخلفون عن الجهاد يعتذرون عن الخروج، ويقولون هذه أموالنا خذوا منها ما شئتم.

والحال الرابعة ـ أن ينفقوا فى الشر لتأييد الفاسدين، وقد نسوا رقابة الله، فنسيهم أى فتركهم يرتعون ويعبثون حتى يوم الحساب. ولقد قال تعالى حاكما عليهم: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ الفسق هو الخروج والتمرد على الحقائق، وهو هنا أشد من الكفر، فهم كافرون بنفاقهم إذ يسترون الكفر، ويظهرون الإسلام، وبهذه المساوئ التى أشار إليها الكتاب العزيز، فيتمردون على الله، ويعاندونه، ويحادونه إذ يحادون الحق.

وقد قال الزمخشرى: إن فسقهم هو الفسق الكامل، ونقول إن الله تعالى أكد فسقهم، بالجملة الاسمية، وبـ﴿**إِنَّ**﴾، وقصرهم على الفسق بتعريف الطرفين، وبضمير الفصل ﴿**هُمُ**﴾، أى أنهم مقصورون على الفسق لا يخرجون من دائرته فهو محيط بهم، إحاطة الدائرة بقطرها.

وقد ذكر الله تعالى عذابهم، فقال تعالى فى كتابه العزيز:

﴿**وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٦٨)**﴾.

هذا وعيد الله تعالى للمنافقين والمنافقات، ويلاحظ هنا أنه أظهر فى موضع الإضمار، فذكرهم بأوصافهم للدلالة على أن النفاق هو السبب فى هذا العقاب الشديد، ونص على النساء المنافقات؛ لأنهن يُكَوِّنَّ الأسرة التى يُعشش فيها، ويشتركن فى إيجاد البيئة المنافقة التى يسودها الفساد ويحكمها الشر، وقد ذكر الكفار بعد المنافقين، وهم والمنافقون داخلون فى الكفر؛ لأنهم كفار يزيدون النفاق، ولذا قدموا لأنهم أوغلوا فى الكفر، والكافر الضال مظنة التوبة كما تاب الطلقاء وأبناء الطلقاء، وأما المنافق فإنه ملتوى النفس ملتوى الفكر، وقد يكون

الكفار سبب كفرهم عصبية جاهلية، أما المنافقون فسبب كفرهم مع هذا الانحياز الذى يشبه الانحياز العصبى فإنه يوجد فى رءوسهم ضلال فى الفكر والتواء فى القصد.

وذكر سبحانه الموعود فقال: ﴿ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾.

ذكر ثلاثة أولها نار جهنم، يلقون فيها وهى تتسع لهم جهنم ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (٤٤) ﴾ [الحجر]، وهى مراتب ودركات، ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ... (١٤٥) ﴾ [النساء]، فهم أشد الكفار عقابا، وأعظمهم عذابا.

ويقول سبحانه: ﴿ هِيَ حَسْبُهُمْ ﴾، هى الكافية، وهذا يدل على هولها، وشدتها، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها، وهى عقاب مادى.

والنوع الثانى: عقاب معنوى، وهو الطرد والإبعاد المعنوى، وعبر عنه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ وَلَعَنَهُمُ ﴾ أى طردهم من رحمته، وأبعدهم عنه سبحانه لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم.

الثالث: عبر عنه بقوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أى مستمر دائم، وعطفه على هذين السابقين دليل على أنه غيرهما؛ لأن العطف يقتضى المغايرة، ولم يعين سبحانه نوعه، ولكنه أخبر به فيجب علينا أن نصدقه.

قال تعالى:

كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ

نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

بين الله تعالى فى الآية السابقة العقاب الشديد الذى يستقبل الكافرين، وخص المنافقين بالذكر؛ لأنهم كفار أخساء لؤماء، مفسدون، ثم بين سبحانه وتعالى أن ذلك العذاب قريب وليس ببعيد، وأنه أصاب الذين من قبلكم، فقال مقربا لعذابهم ممثلا له بعذاب من سبقوهم، فقال: ﴿**كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ**﴾ الذين سبقوكم بالكفر والطغيان، والخطاب للكفار والمنافقين، وإن ذكرهم وقد فنوا يومئ إلى أنهم سيكونون مثلهم فى فناء، وأن الحياة الدنيا التى آثروا متعها فانية، وقوى ذلك المعنى المشار إليه بقوله تعالت كلماته: ﴿**كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا**﴾ كانوا فى قوة غزت الأقاليم وفتحت البلاد ودانت لهم رقاب العباد، وسيطروا على الأرض، كان عدد الملأ من قوم فرعون كثيرا، والأموال من الزرع والثمار والسائمة، تجرى فى أيديهم، فأنى يكون عددكم بجوار عددهم، وأموالكم وأنتم بواد غير ذى زرع بجوار أموالهم، ومع ذلك حسبوا الحياة كل شىء ففنوا مع فناء حياتهم الدنيوية.

قوله تعالى: ﴿**فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ**﴾ أى بنصيبهم الذى خلقه الله تعالى لهم، استمتعوا بهذا النصيب، وحسبوه الحياة، ولا حياة بعدها، وتحكموا واستكبروا، وقال الطاغوت الأكبر فرعون ـ ومن شابهه ـ: ﴿ **... أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ...** ﴿٥١﴾ ﴾ [الزخرف] وسرتم سيرهم، فحسبتم أن الدنيا هى الحياة، ولا حياة بعدها. ولذا قال تعالى: ﴿**فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ**﴾.

استمتع معناها طلب المتعة، ونالها، فالأقدمون استمتعوا بما أوتوا من حظوظ الدنيا ، وجعلوها متعتهم، وقصروا متع حياتهم عليها لا يطلبون غيرها من متع

الآخرة، ولا يريدونها، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ﴾ تدل على ترتب ما بعدها على ما قبلها، ترتب محاكاة واتباع، فطلبتم ما طلبوا، وحاكيتموهم فيما فعلوا، ولذا قال: ﴿كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ قلنا: إن الخوض معناه دخول الماء، واختفاء الأرجل والسير فيه، وأطلق على الخوض فى الباطل والإثم، وفيه مجاز، من حيث تشبيه الخوض فى الباطل بالخوض فى الماء من غير تعرف لما فيه، وقد يكون فيه صخور، أو أشياء تجرح وتضر.

﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ أى خضتم فى الباطل كالذى خاضوا فيه.

والمعنى تشابهت أحوالكم مع أحوال من سبقوكم فاستمتعتم بحياة لاهية رخيصة، من غير نظر إلى عاقبة أموركم وأمورهم وحسبتم أن خلاقكم فى الدنيا هو الحظ الأوفر، فلم تفكروا فى الآخرة، ولم تعملوا على صلاح أموركم فيها، بل إنكم أنتم وهم حسبتم أن حياتكم هى الدنيا، وظننتم أنكم خلقتم عبثا من غير غاية، وأنه ليس هناك يوم تجازون فيه، وإن الصيغة الكريمة تومىء إلى أن قصر الحياة على حظوظ الدنيا استهانة بأنفسهم، وقد قال الزمخشرى فى بيان السبب فى تكرار التشبيه لحالهم بحال من سبقوهم من الفجرة الآثمين العاتين، وفائدته أن يَذُم الأولين بما أوتوا من حظوظ الدنيا ورضاهم بها، والتهائهم بشهواتها الفانية عن النظر فى العاقبة، وطلب الصلاح فى الآخرة، وأن يصغر أمر الاستمتاع بها، ويهين أمر الراضى بها، ثم يشبه حال المخاطبين بحالهم، كما تريد أن تنبه بعض الظلمة على سماجة فعله، فتقول: أنت مثل فرعون؛ كان يقتل بغير جرم ويعذب ويعسف، وأنت تفعل مثل فعله.

فهو سبحانه وتعالى يشير إلى سوء حال من سبقوهم، ويبين أنهم مثلهم.

ثم قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ الإشارة إلى أوصافهم من أنهم حسبوا الحياة لهوًا ولعبًا، فاستمتعوا بحظهم فيها، واستمتعتم أنتم مثلهم، هذا سبب أن حبطت أعمالكم، أى بطلت؛ لأنها تحمل فى نفسها أسباب فسادها،

وأولئك هم الخاسرون، وقد تأكدت خسارتهم، وفى الكلام قصر، واختصاص أنهم مقصورون على الخسران، فلا فلاح لهم فى الدنيا إذ تكون حياتهم يأكلون ويمرحون، ولا فلاح لهم فى الآخرة إذ يستقبلهم العذاب المهين.

وقد أشار سبحانه إلى الهلاك الذى نال من سبقوهم فقال تعالى:

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠) ﴾.

بعد أن ذكر أمر من سبقوهم، وأنهم جعلوا حياتهم لاهية لا يقدرون فيها تبعات، ويحسبون أن حياتهم أن يستمتعوا بخلاقهم ولا يقدرون لهذه الحياة ما بعدها، والآن يذكر لهم سبحانه بعض أعيان من كان مثلهم، ممن يسيرون فى ديارهم ويرون آثارهم فى أرضهم، وعلموا بالتواتر علم اليقين أخبارهم، فقال تعالى: **﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ﴾**.

الاستفهام هنا إنكارى لإنكار الوقوع، وهو يدل على تأكيد الخبر، وهو بمعنى النفى الداخل على النفى، والمعنى مع التوبيخ والتأكيد: لقد أتاكم نبأ من قبلكم، النبأ: الخبر العظيم الشأن، وهذا خبر عظيم الشأن لمن تأمل مغزاه وما يهدى إليه، وهو نبأ قوم نوح، وكيف كفروا، فأغرقهم الله، ولم ينج إلا قليل هم الذين اتبعوه وآمنوا به، وما آمن إلا قليل، وعادٌ وقد أهلكتهم الظلة، وثمود، وقد أرسل الله تعالى عليهم ريحًا صرصرًا عاتية، والمؤتفكات؛ وهى القرى التى بعث فيها لوط عليه السلام، وسميت مؤتفكات، لأنها انقلبت على أهلها، من ائتفك أى انقلب، وقيل هى فى سدوم، وقد قال فى انقلابها بعد أن أمر لوط وأهله إلا امرأته أن يسرى بقطع من الليل، ولا يلتفت منهم أحد: **﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) ﴾** [هود].

وقد أشار سبحانه إلى هلاك الكافرين الذين جحدوا بآيات الله تعالى قوما قوما ولم يعذبهم فى الدنيا إلا بعد الإنذار الشديد إليهم، كما قال تعالت كلماته: ﴿... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥)﴾ [الإسراء] وقد بعث الله تعالى الرسل إليهم قبل هلاكهم لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، فقال تعالى: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾، أى أتتهم رسل الله، بعثت إليهم بالبينات أى بالآيات الدالة على صدقهم، وأضيفت الرسل إليهم، وهى رسل الله للإشارة إلى مزيد العناية بهم من حيث إن الرسل جاءت إليهم خاصة، وخاطبتهم بما يهديهم إلى الحق، ومعهم الأدلة الدالة على الرسالة مستقيمة لا عوج فيها، وبذلك قامت الحجة عليهم، فإن آمنوا فعن بينة، وإن كفروا فعن جحود بعد أن قامت عليهم الحجة.

ولذا قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ اللام فى ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾ لام الجحود، أى تفيد تأكيد النفى فى قوله: ﴿فَمَا كَانَ﴾ أى ليس من شأن الله تعالى أن يظلمهم، فقد أقام الحجة عليهم، وقد تأكد بنفى ظلم الله تعالى بما النافية، ولام الجحود، و﴿كَانَ﴾ الدالة على استمرار النفى، أى أنه ليس من شأن الله ولا من كماله أن يظلمهم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ الاستدراك من عموم النفى، وإثبات ظلمهم لأنفسهم، وتقديم أنفسهم على يظلمون يفيد تأكيد ظلمهم لأنفسهم، وفيه ما يفيد أن ظلمهم يعود إلى أنفسهم، فلا يظلمون إلا أنفسهم، والله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يظلمهم.

وبعد أن بين الله تعالى مآل المنافقين والكافرين الذى أدت إليه أعمالهم، قال فى أعمال المؤمنين وثوابهم:

أحوال المؤمنين وصفاتهم

قال تعالى:

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

ذكر الله تعالى أن المنافقين والمنافقات بعضهم من بعض أى من جنس بعض، ولم يقل أنهم أولياء؛ لأن الولاء يقتضى المحبة والنصرة، والمنافق لا يحب أحدا، ولا ولاء له لأحد، بل هو خِبٌّ لئيم[1] يتربص للناس الدوائر، وإن وافق غيره يكون ممالأة، ولا يكون إخلاصا، ومن لا يخلص للحق لا يخلص لشىء، ومن لا يخلص لله لا يخلص لأحد.

ولكن بالنسبة للمؤمنين والمؤمنات، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ الأولياء جمع ولى، والولى هو النصير، والمحب، والوالى هو الذى يجعل عزه عزة لمن يواليه، وعبر عنهم بأنهم أولياء؛ لأنهم جمعتهم الرحمة والمودة، والإخلاص لله تعالى وللحق، وجماعتهم وأسرهم تقوم على الفضيلة، والإخلاص والتراحم؛ لأنهم صَغَتْ قلوبهم لله تعالى، ولانت

---

(١) من ذلك ما رواه الترمذى: البر والصلة (١٩٦٤)، وأبو داود فى الأدب (٤٧٩٠) عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُؤْمِنُ غِرٌّ كَرِيمٌ، وَالْفَاجِرُ خِبٌّ لَئِيمٌ»، والخِبُّ: من سعى بالخداع، والإفساد بين الناس.

أفئدتهم له سبحانه، فهم مرتبطون برباط معنوى لا ينفصم، وما تربطه المادة يقبل التحطيم أو القطع، وما يربطه الولاء والمودة لا تنفصم عراه؛ لأنه مربوط بالعروة الوثقى لا انفصام لها، فهى رباط المؤمنين الذين يستمسكون به.

وقد وصف الله تعالى المؤمنين بصفات توثق الإيمان وتقويه.

وأول وصف هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وثانى وصف هو ما ذكره الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ أى يؤدونها مقومة مستقيمة بخشوع وخضوع، وحضور لجلال الله تعالى فى أداء أركانها من قيام وركوع وسجود، لا أن ينقروا نقرا، وهى الصلاة التى تنهى عن الفحشاء والمنكر، ويتحقق فيها قوله تعالى: **﴿... إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥)﴾** [العنكبوت].

وثالث الأوصاف هو فى قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ والزكاة هى المعاونة الاجتماعية التى يتعاون فيها الناس، فالغنى يعين الفقير، كما يعين القوى الضعيف، وهى الماعون الذى ذكره سبحانه وتعالى فى قوله: **﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)﴾** [الماعون]، فالزكاة هى المعاونة التى فرضها الله على الأغنياء للفقراء، يعتقدها المؤمن مغنما ولا يحسبها مغرما.

والوصف الرابع ذكره سبحانه بقوله تعالت كلماته: ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أى طاعة غير متململين فيها بتكليف، ولا مظهرين الطاعة ومضمرين العصيان، يطيعون بقلوبهم وجوارحهم، وينفذون أوامر الله تعالى فى كل شئونهم، وشئون الجماعة المؤمنة، وعلى رأسها الجهاد.

إذا كان المؤمنون يقومون بهذه الواجبات، ويتصفون بهذه الصفات فقد حكم الله تعالى لهم بقوله تعالت كلماته:

﴿أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ الإشارة إلى الصفات التى اتصفوا بها من أنهم أولياء يناصرون بعضهم بعضا، وأنهم يطهرون نفوسهم بالصلاة، وجماعتهم بالزكاة، ويتواصلون بالمودة، ويحمون أنفسهم بالجهاد فى سبيل الله تعالى، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وبسبب هذه الأوصاف يرحمهم الله تعالى، فيتآزرون ويجتمعون ويتحابون، وأى رحمة أعلى من ذلك، والسين ـ هنا وفى كل مكان تذكر فيه فى القرآن ـ للدلالة على تأكيد الوقوع.

وقد قال فى ذلك الزمخشرى: السين مفيدة وجود الرحمة لا محالة، فهى تؤكد الوعد كما تؤكد الوعيد، كما فى قولك: سأنتقم منك يوما ـ تعنى أنك لا تفوتنى، وإن تباطأ ذلك، ونحوه ﴿... سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا (٩٦)﴾ [مريم]، ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥)﴾ [الضحى]، ﴿... سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ... (١٥٢)﴾ [النساء].

فالسين وسوف، يدلان على وقوع الفعل فى المستقبل القريب والبعيد، ويؤكدان وقوعه، كما أشرنا إلى ذلك فى مقام ذكرهما فيما مضى من كلامنا فى معانى القرآن العظيم.

وقد بين سبحانه وتعالى قدرته على تنفيذ وعده ووعيده فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ العزيز هو القادر الغالب، مربى العزة فى النفوس والجماعة، والحكيم هو الذى يضع كل أمر فى موضعه.

وقد قدر الله أن عزة الجماعة تكون بترابطها وتوادها، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والجهاد، والاستعداد له، والإقبال عليه بنفوس راضية، وقلوب مؤمنة، ومن تخلف عنه، فقد ذل بعد عزة، وتفرق بعد اجتماع، والله ولى المؤمنين.

وإذا كان سبحانه قد ذكر وعيد المنافقين فإنه سبحانه يذكر وعد المؤمنين فيقول سبحانه:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢) ﴾.

وعد الله تعالى أن يعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار، وكان الوعد هو ذات الجنات، لا إعدادها، وفى ذلك إشعار بأنها موجودة مهيأة قائمة ثابتة، ليس أمامهم إلا أن يدخلوها، ولذا لم يذكر دخولها، بل ذكر وجودها، وذكر سبحانه أن الأنهار تجرى من تحتها، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ وجريان الأنهار يفيد ثلاثة أمور:

أولها: أن ساكنها يتمتع بمنظر بهيج، **وثانيها**: أنها تجعل جوها لطيفا، لا قرّ ولا حرور، **وثالثها**: أنها تمد جذور أشجارها بالماء الطيب الذى يجعلها وارفة الظلال لا يُبس فيها، بل لها غصون خضراء تجعل المتعة كاملة.

وقال تعالى: ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ والمساكن الطيبة هى المساكن التى يستطيب نازلها الإقامة فيها، وهى ممهدة تمهيدا طيبا للإقامة، وقد روى أنها قصور من اللؤلؤ والياقوت الأحمر، والزبرجد، وروى أنها تكون لبناتٍ من فضة وذهب، ولا تعارض فى أن تكون كذلك، ولكن نقول إنها مساكن طيبة تطيب الإقامة فيها، وتستريح النفس والقلب بالإقامة، و﴿ عَدْنٍ ﴾ قال الزمخشرى فيها: إن جنات عدن التى وعد بها الرحمن، ويدل عليه ما رواه أبو الدرداء رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ: «وعدن دار الله تعالى التى لم ترها عين، ولم تخطر على قلب بشر، لا يسكنها غير ثلاثة: النبيون والصديقون والشهداء، يقول الله تعالى: طوبى لمن دخلك»[1].

وإن هذه الآية، وهذه الآثار تدل على أن جنات عدن جزء من الجنة يكون فيها الأبرار، والأطهار، هذا كله جزاء مادى، وهنا جزاء معنوى وهو رضوان الله تعالى، فقد قال عز من قائل: ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ الرضوان هو الرضا

(١) جزء من حديث جاء فى كنز العمال: تفسير سورة الإسراء-ج١، ص٣٢٤، برقم (٤٤٨٥).

العظيم، فزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، وإن الإحساس بالرضا من الله رب الخلق، وخالق الخلق سعادة لا تعدلها سعادة، ولقد قال فى ذلك الزمخشرى كلمة قيمة ننقلها. «وشىء من رضوان الله تعالى أكبر من ذلك كله؛ لأن رضاه تعالى هو سبب كل فوز وسعادة، ولأنهم ينالون برضاه عنهم تعظيمه وكرامته، والكرامة أكبر أصناف الثواب، ولأن العبد إذا علم أن مولاه راض كان ذلك أكبر فى نفسه مما وراءه من النعيم، وإنما تتهيأ له برضاه، كما إذا علم بسخطته، تنغصت عليه، ولم يجد لها لذة، وإن عظمت، وسمعت بعض أولى الهمة البعيدة والنفس الحرة من مشايخنا يقول: لا تطمع عينى، ولا تنازع نفسى إلى شىء مما وعد الله فى دار الكرامة كما تطمع وتنازع إلى رضاه عنى، وأن أحشر فى زمرة المهديين» اهـ.

ونرى أنه يفهم من قول الزمخشرى أن قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أن معناه شىء من رضوان الله أكبر، أى أن أول شىء من رضوان الله تعالى أعظم من كل هذا النعيم.

ويقول سبحانه: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ والإشارة هنا إلى نعيم أهل الجنة، وتاجه رضوان الله تعالى، هو الفوز والفلاح، والحصول على أعظم جزاء، ويصح أن تكون الإشارة إلى رضوان أكبر؛ فإن ذلك الرضا العظيم جزاء لا يُنَاهد، والعبارة تدل على القصر بتعريف الطرفين وضمير الفصل ﴿هُوَ﴾، أى لا فوز غير هذا، والله أعلم.

الجهاد ماض إلى يوم القيامة

قال تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ

وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْۖ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

بين الله تعالى حال المشركين، وما هم عليه، وذكر العذاب الذى يستقبلهم فى الدنيا والآخرة، ثم بين حال المؤمنين، ثم يدعو سبحانه إلى استمرار المؤمنين فى الجهاد، غير وانين ولا مقصرين.

والخطاب فى الآية للنبى ﷺ، وللمؤمنين معه، وكان الخطاب للنبى ابتداء، لأنه القائد الأعلى، ولأنه الهادى والمرشد، والموجه، ﴿جَاهِدِ﴾ معناها ابذل الجهد فى دفع الكفار والمنافقين الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام بألسنتهم، ويقولون آمنا بأفواههم، وما هم بمؤمنين، ولاشك أن بذل الجهد فى دفع الكفار والمنافقين يختلف، فالكفار الذين أعلنوا الكفر وفتنوا المسلمين يكون جهادهم دفعا بالسيف والقتال، والكفار الذين لم يعلنوا الكفر وأبطنوه، ولم يفتنوا المسلمين بالإيذاء والتعذيب. كان يفعل ذلك المشركون فى مكة ولكنهم يثيرون الفساد، والدس والفت فى عضد المؤمنين فدفعهم يكون بدفع أذاهم وشرهم، ومقاومة ما يبثونه فى المؤمنين من تضليل، وأن يبعدهم عنهم، وبطلان ما يدعون إليه، وإقامة الأدلة عليهم ومنع تأثيرهم، والنبى ﷺ يقول: «جاهدوا المشركين بأنفسكم وأموالكم وألسنتكم»، ولاشك أن الجهاد باللسان له مقامه فى جهاد المشركين، وأشد ما يكون تأثيرا فى جهاد المنافقين.

ومن جهاد المنافقين ألا يبش لهم، حتى يطمعوا فى خداعه، بل يشعرهم بأنه فى حذر منهم، ويقول ابن مسعود: يستنكر أفعالهم بيده، فإن لم يستطع فباكفهرار وجهه. وفى الجملة يسد عليهم باب خديعتهم، وقال الحسن البصرى: إن جهاد المنافقين بإقامة الحدود، وذلك على أساس مذهبه من أن مرتكب الكبيرة

منافق، ويرى ابن جرير أن يكون جهادهم بالسيف إذا كشف نفاقهم، وأظهروا كفرهم، ويقول فى ذلك إنهم فى هذه الحال يخرجون من إسرار النفاق إلى الجهر بالكفر، فيدخلون فى عموم الكفار المظهرين الكفر.

ولقد روى عن علي كرم الله وجهه أنه قال: بُعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف: سيف للمشركين بينه الله تعالى بقوله: ﴿**فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ** ... (٥)﴾ وسيف لكفار أهل الكتاب، وبينه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ** (٢٩)﴾، وسيف للمنافقين بينه الله سبحانه بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ**﴾، وسيف للبغاة، كما قال تعالى: ﴿... **فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ** ... (٩)﴾ [الحجرات].

وإنه قد روى أن الذى تولى سيف المنافقين هو الصديق خليفة رسول الله ﷺ، فقد تكشف نفاقهم فى الردة التى وقعت عقب وفاة رسول الله ﷺ، إذ ارتد الأعراب الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿**الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ**... (٩٧)﴾.

وإنه لهذا قال ابن جرير بقتل المنافق وقد لاحظ وصف الظهور، كالذين ارتدوا فى عهد الصديق وقاتلهم عندما أرادوا أن يؤدوا الصلاة، ولا يؤتوا الزكاة، فقال لهم رضى الله عنه: «سلم مخزية، أو حرب مجلية».

وقوله تعالى: ﴿**وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ**﴾ أى عاملهم بخشونة، ولا ترفق بهم فإن الرفق يكون بحملهم على الإيمان بالشدة عليهم حتى لا يمعنوا فى الكفر، وعسى أن تكون الشدة دافعة غرورهم مانعة طغواءهم، وهذا عذابهم فى الدنيا، ويكون بالهزيمة، والخزى والخسران.

أما جزاؤهم فى الآخرة، فقد ذكره سبحانه وتعالى: ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ والمعنى يسيرون إلى الآخرة حتى يجدوا المأوى الذى يؤويهم، وهو جهنم وفى هذا نوع من التهكم؛ لأن المأوى يأوى إليه الإنسان ليجد فيه المستقر والراحة والاطمئنان، فذكر المأوى فى هذا المقام تهكم عليهم كقوله تعالى: ﴿... فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١)﴾ [آل عمران].

ثم ذم الله تعالى هذا المأوى فقال: ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ الذى آووا إليه. اللهم قنا عذاب النار.

لقد قال ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»[1] فقول الذين عاصروا النبى ﷺ، كان أوضح أوصافهم الكذب والحلف، ولذا قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ﴾.

كان المنافقون ينالون بألسنتهم من النبى كثيرا، ولا يكفون ألسنتهم، ويقولون إذا أظهروا الإيمان، إنما نحن نستهزئ بهم، وكان الله يُعْلِم نبيه بأحوالهم وأقوالهم، وكان النبى ﷺ يعرفهم فى لحن أقوالهم، كما قال تعالى: ﴿...وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ... (٣٠)﴾ [محمد].

وكانت كلماتهم الفاسقة، تتساقط على مسامع بعض المؤمنين من غير أن يتنبهوا، روى أن النبى ﷺ كان يخطب فقال رجل من المنافقين، وزيد بن أرقم بجواره، قال ذلك المنافق: (لئن كان هذا الرجل «أى الرسول» صادقا فنحن شر من الحمير، فقال زيد رضى الله عنه: فهو والله صادق ولأنت شر من الحمار).

كان هذا القول وأشباهه يصل إلى مسامع رسول الله ﷺ، وربما يجابههم بهذا الذى ينقل، عندئذ يجدون المطية التى اختاروها، وهى مطية كل كذاب مهين، وهى الحلف بالله تعالى من غير أى حريجة.

(١) سبق تخريجه.

ولذا يقول فى بيان حالهم عندما يكشف أمرهم وتعلم أقوالهم: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾.

قلنا: إن أقوالهم المنافقة كثيرة لا تخص واحدة دون الأخرى، بل كلما تكشَّف قول ينبئ عن نفاقهم - كذبوه وحلفوا اليمين الغموس الفاجرة، وقد أشرنا إلى أن اليمين الفاجرة، كانت المساغ لكذبهم، لعنهم الله هم وأخلافهم فى هذا الزمان، وقد قالوا كلمة الكفر أى ما قالوه فيه كلمة واحدة هى كافية لطردهم من رحمة الله، واستحقاقهم نار جهنم، وهى إنكار الرسالة المحمدية؛ إذ هى الكلمة التى أوقعتهم فى حضيض الكفر، أو نقول «كلمة» بمعنى كلمات، وكلمة بها كلام قد يُؤَم[1]، والمراد أن كلامهم كله فى الاستهزاء والتهكم، وإيقاع الفرقة، والدس والفساد، هو كفر.

وقال ﴿بَعْدَ إِسْلامِهِمْ﴾ أى بعد إعلانهم الإسلام، وإبطانهم الكفر والنفاق، فهذه الكلمة أو الكلام قد كشف نفاقهم الذى كان مستوراً بإعلان الإسلام، فما استفادوا إلا بيان حالهم، ومعرفة الوصف الحقيقى لهم.

﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ أرادوا أن يفسدوا أمر المؤمنين، وتوقعوا الفتنة والفشل فيهم، ولم ينالوه؛ لأن الله تعالى رقيب عليهم، وكاشف للمؤمنين أمرهم، وكلما أوقدوا نار فتنة أطفأها الله سبحانه وتعالى، وعادت الأمور بيضاء لا فتنة فيها، ولقد هموا بقتل النبى ﷺ يوم أرادوا الفتك به بإلقاء حجر عليه فكشف الله تعالى بالوحى أمرهم ولم ينالوا مأربهم، وهموا بقتله فى عودته من تبوك ولم ينالوا ما يبغون؛ لأن الله تعالى عاصمه من الناس، فإنهم جمعوا عددا ما بين اثنى عشر، وخمسة عشر رجلا للفتك برسول الله ﷺ، وهو فى أعلاها، على حسب اختلاف الرواة كى يفتكوا برسول الله ﷺ، وإليك القصة كما رواها الإمام أحمد

---

(١) «وكلمة بها كلام قد يُؤَمّ»، شطر بيت من ألفية ابن مالك، ومعناه: أن "كلمة" تطلق، ويقصد بها «كلام»، مثل كلمة التوحيد: لا إله إلا الله.

قال: «لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أمر مناديا أن ينادى أن رسول الله ﷺ أخذ العقبة، فلا يأخذها أحد، فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ويسوق به عمار، إذ أقبل رهط ملثمون على الرواحل غشوا عمارا وهو يسوق برسول الله ﷺ، وأقبل عمار رضى الله عنه، يضرب وجوه الرواحل، فقال رسول الله ﷺ لحذيفة «قُدْ قُدْ» حتى هبط الرسول صلوات الله وسلامه عليه، فلما هبط ﷺ نزل ورجع عمار، فقال: «هل عرفت القوم؟» فقال رضى الله عنه: قد عرفت عامة الرواحل والقوم ملثمون! قال عليه الصلاة والسلام: «هل تدرى ما أرادوا؟» قال: الله ورسوله أعلم، قال صلوات الله وسلامه عليه: «أرادوا أن ينفروا برسول الله، فيطرحوه»(١).

وهكذا هموا بقتل رسول الله ﷺ ولم ينالوا منه، وصدق وعد الله لرسوله إذ يقول له: ﴿... بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ... (٦٧)﴾ [المائدة].

وقد ذكر المفسرون أن النص الكريم ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ خاص فى تلك الحادثة. ونحن نقول إن النص يشمل كل ما هموا به ولم ينالوه.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾ لقد ازداد عمران المدينة بمقدم رسول الله ﷺ، فاتسعت تجارتها، وكثر سكانها، ثم ما كانت تأتى به الحروب الإسلامية من غنائم زادت الخيرات واتسعت الموارد، وعمت سكان المدينة وغيرهم، ولكن المشركين لم يلتفتوا إليه وأن ذلك يوجب الحمد، ولكنهم لؤماء أخساء، قابلوا النعمة بالكفر، وتأكد لؤمهم بقلبهم النعمة نقمة، فهم بدل أن يشكروا النعمة كفروها، وقالوا إن هذا يشبه تأكيد المدح بما يشبه الذم فى صيغته، كما فى قول النابغة الذبيانى:

---

(١) راجع القصة كاملة فى مسند أحمد: باقى مسند الأنصار- حديث أبى الطفيل عامر بن واثلة رضى الله عنه (٢٣٢٨٠).

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

بيد أن كلام الله العلى الكبير فيه تأكيد ذمهم لا تأكيد مدحهم، فكان حقه عليهم أن يعدوا محمدا ودينه بركة عليهم يقدرونها حق قدرها.

وقد ذكر سبحانه أن هذا الغنى من فضل الله تعالى مَنَّ به عليهم كان يوجب عليهم حسن الصحبة لمن جاوروهم الذين جاء الخير على أيديهم، لا أن يتربصوا بهم الدوائر، وذكر رسول الله ﷺ بجوار رب العزة، وهو الغنى والناس جميعا فقراء إليه سبحانه، ذكر الرسول مع الله تعالى؛ لأن الخير كله أجراه الله تعالى على يديه، ولكى يعلموا أن مقدمه عليهم بركة وخير، ولأن الله تعالى أكرمهم لمقام النبى ﷺ بين ظهرانيهم.

ومع هذه المكايد والفتن فتح الله تعالى لهم باب التوبة، فهو ينهى عن أن يقنط عباده من رحمته، فباب الرحمة والتوبة مفتوح، ولذلك قال تعالى فاتحا باب الأمل لهم:

﴿فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَّهُمْ﴾.

أى إن يتوبوا توبة نصوحا يخلعون فيها أنفسهم من الكفر، كما يخلع الثوب النجس ليلبس طاهرا، ﴿يَكُ خَيْراً لَّهُمْ﴾؛ أى يكون ذلك خيرًا لهم؛ لأن نفوسهم قد طهرت، وطهارة النفس فى ذاتها خير، واستقامة النفس اطمئنان وإيمان، وخير أيضا؛ لأن النفاق ضعف، والإيمان قوة، وقوة النفس خير، وخير أيضا لأنه نجا من خزى النفاق وذله وجبنه، وخير لأنه نجا من عذاب يوم القيامة، وإنه يكون عكس ذلك إن استمروا على غيهم، وبقوا فى رجسهم، ولذا قال سبحانه:

﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾، أى إن أعرضوا وانصرفوا إلى الفساد وساروا فى طريقه يعذبهم الله فى الدنيا بضعف نفوسهم

وخزيهم، وفقد الثقة فيهم، والخزى العظيم، ونفور الناس منهم، وضرب الذلة عليهم، وانتقام الله منهم، وكشف ما يضمرون، وقتلهم، كما فعل أبو بكر الصديق عندما ارتدوا، فأنزل بهم الهزيمة والخزى والعار بتأييد الله، وعذابهم فى الآخرة جهنم وبئس المصير.

ومن عذابهم فى الدنيا أنهم لا ولى لهم ولا نصير، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ - فى الأرض - أى فى هذه الدنيا، أى أنهم فى الدنيا يفقدون الأولياء الذين يحبونهم ويوادونهم، إذ الولاية والمحبة توجب الثقة والمودة والإخلاص، وأخص ما يختص به المنافق أنه يفقد الإخلاص فلا يخلص لأحد، قريبًا كان أو بعيدًا، وإذا فقد الإخلاص فليس ولى ولا حميم ولا نصير، أى لا أحد يكون نصيرا لأن ذلك يكون بالثقة، ولا ثقة فى منافق. اللهم اكفنا شر النفاق والمنافقين.

عهود المنافقين

قال الله تعالى:

وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ
ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾
فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ
﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟
ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟
أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ
ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا
جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

في الآية السابقة بين الله تعالى كذب المنافقين، واستعانتهم في تأييد كذبهم بالأيمان الكاذبة التي لا تصدر إلا عن مهين، كما قال تعالى: ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ⑩﴾ [القلم].

وذكرنا الحديث الصحيح الذى قال فيه النبى ﷺ «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد خلف، وإذا اؤتمن خان»[1].

وقد كانت علامة النفاق الكذب، وقد ذكر الله تعالى الكذب، ونتيجته ويذكر الله تعالى خلاف الوعد، فيقول تعالت كلماته:

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ⑰⑤﴾.

الضمير في ﴿مِنْهُم﴾ يعود إلى المنافقين، وما أشد إنصاف الله تعالى في أحكامنا، وإنه سبحانه يعلمنا الصدق في أحكامنا فلا نسرف في القول فنعمِّم القول، والخبر عن خاص.

والعلماء يذكرون شخصا بعينه، أو أشخاصًا معينين، ونحن نميل دائما إلى أن تكون ألفاظ القرآن على عمومها من غير تخصيص أشخاص، وهنا نقول إن من خواص النفاق إخلاف الوعد، وإن الإخلاف يقع من بعضهم، وإن كان يحتمل أن يقع من كلهم، وعهد الله تعالى الذى يعاهد عليه بعضهم يشمل ما إذا عاهد النبى ﷺ، أو عاهد الله مناجيا ربه، أو أقسم بالله معقدا الأيمان أو نحو ذلك فهو في كل ذلك يعاهد الله تعالى، فمن أقسم أن يصدق إذا جاءه فقد عاهد الله تعالى، ومن نذر لله نذرا إذا أعطاه الله تعالى ليصدقن، فقد عاهد الله تعالى.

وقال تعالى: ﴿لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ﴾ اللام هي الموطئة للقسم، وقوله تعالى: ﴿آتَانَا مِن فَضْلِهِ﴾، لم يذكر فيه نوع ما يؤتيه، أهو علم، أم مال، أم جاه... إلى آخره، لم يذكر ما يعطيه الله تعالى صراحة، ولكن الظاهر أنه مال، بدليل

---

(١) سبق تخريجه.

لنصدَّقن ولنكونن من الصالحين، فـهى نص فى المال، ولعل مثل المال غيره، فمن آتاه الله تعالى علما، فـصدقته أن يجعـله لله خالصا، فلا يتجـر به ولا يبيع كلام الخالق بالدرهم والدينار، ولا يفتى بغيـر الحق ولا يحل ما حرم الله، ولا يحرم ما أحل الله تعالى.

وقوله تـعالى: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ جواب القـسم، وليست جـواب الشرط؛ لأنه يقدم جواب القـسم على جواب الشرط، والدليل على ذلك نون التوكيـد الثقيلة، ووجود اللام ونون التوكيد الخفيفة فى المعطوف.

ونرى كما قلنا أن النص عام لا يخص أحـداً منهم، وإن كان فى مساق بيان أحوال المنافقين.

ولكن يذكر المفسـرون خبرا عن النبى ﷺ، قال الأكثـرون إنه ضعيف السند فى النسبة إلى النبى ﷺ، ولكن نذكره؛ لأنه مع ضعفه يصور طمع النفس التى لا تشبع، بل يزيده العطاء من فضل الله طمعا، ويوجد فيها شحا.

وذلك أنه مع ضعفه يصور النفس الإنسانية إذا استغنت، ونرى كيف يتحقق قوله تـعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ⑥ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ⑦﴾ [العلق]، وهذه الرواية كما جاءت فى كتـب التفسير بالرواية، ونقلها الزمحشـرى، ولـم يضعفها، وإن كان علماء الرواية قد ضعفـوها: روى أن ثعلبة بن حاطب، قال يارسول الله: ادع الله أن يرزقنى مالا فقال رسول الله ﷺ: «قليل تؤدى شكره، خير من كثير لا تطيقه»، فراجعـه، وقال: «والذى بعثك بالحق لئن رزقنى الله لأعطين كل ذى حق حقه، فـدعا له، فاتخذ غنمـا، فنمت كما تنمى الدود، حتى ضـاقت بها المدينة، فنزل واديا، وانقطع عن الجماعـة والجمعة، فسأل عنه رسول الله ﷺ، فـقيل كثر ماله حتى لا يسعه واد، قال: «ويح ثعلبه»، فـبعث رسول الله ﷺ مصدِّقَيْن لأخذ الصدقات فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ومرا على ثعلبة وسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ الذى فيه الفرائض. فقـال: ما هذه إلا أخت الجزية، وقال: ارجعا

حتى أرى رأيي، فلما رجعا قال لهما رسول الله قبل أن يخبراه: «يا ويح ثعلبة» مرتين. فلما نزلت آية الصدقات جاءه ثعلبة بالصدقة، فردها النبي ﷺ.

وإن هذه القصة تصور كيف يكون الإنسان، وهو في حرمانه سليم القلب، فإذا جاءه المال أطغاه وأنساه ربه ودينه. وإن إخلاف الوعد، أو العهد الذي عاهدوا الله تعالى ينشئ النفاق، وينمي النفاق، ويجعله يتكاثف ويزداد، ولقد قال تعالى مبينا خلف وعدهم: ﴿فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

(الفاء) لترتيب الإخلاف بالعهد، لأن الحلف لا يزيد المنافق إلا خداعا، ولا يجعله يؤدي الحق فهو يكون على عكس ما يوجبه الإيمان إذ الإيمان يوجب الوفاء، والنفاق على عكس ذلك يوجب الإخلاف، وقد صور الله تعالى إيتاءهم وإخلافهم للعهد بقوله تعالى:

﴿فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ﴾ ويبدو ذلك في الرواية التي رويت عن ثعلبة ابن حاطب، كيف بخل عن الواجبات المفروضة لا عن الصدقات غير المفروضة، وتعلل بأن الزكاة أخت الجزية، وإنه كان عليه أن يتفضل بالخير؛ لأن الله تعالى أعطاه من فضله من حيث لا يحتسب، وكان رزق الله تعالى فائضا.

وفي الآية الكريمة تصوير لنفس البخيل يؤتيه الله تعالى من فضله بعد أن وعد بأنه سيعطي ويتصدق، ويكون من الصالحين، ويوثق عهده بالأيمان المغلظة، ثم ينقض بعد ذلك عهده شحا بالمال، وقد زاده العطاء شحا، ويصور كذلك نفس المنافق، ولا ترتبط بعهد، ولا تصرّ على وعد، بل نفسه منفلتة دائما، وعاثرة، لا تستقر ولا يوثق لها، وإن المنافق إذا فقد الضمير والنفس اللوامة انماعت نفسه، فأصبح لا يؤمن بشيء ولا يربط بعهد أو وعد.

وقد استنبط بعض فقهاء الزيدية من هذه الآية وجوب الوفاء بالعهد مادام في غير معصية، والفقهاء جميعا على ذلك، ومصداقه قوله ﷺ: «من نذر أن يطيع

الله فليطعه، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه»[١] والعهد لله نذر، وقد قال جمهور الفقهاء إن النذر واجب الوفاء إذا كان من جنس فرض من الفروض، وإن العهد لله الذى يعاهد أولئك المنافقون عليه عهد على طاعة، وهى الصدقة فى قوله عنهم: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فيه إيماء إلى أنهم يحسون بأنهم ليسوا صالحين، وأنهم يريدون أن يعدلوا، ليخرجوا من الحال غير الصالحة إلى حال أخرى غير حالهم، وهو حال النفاق.

وقد زادهم العطاء نفاقا؛ لأنهم لم يفوا بالعهد، وكذا ما عاهدوا الله عليه.

وصور الله تعالى نكثهم بقوله: ﴿فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦)﴾ أى أعرضوا عن الله تعالى بعد أن أدنوا أنفسهم منه سبحانه، وأكد سبحانه وتعالى إعراضهم بالحال، أى أنهم انصرفوا عن الله، وصار الإعراض حالهم، التى يعيشون فى دائرتها، فينتقلون فى محيطها من إعراض عن الله تعالى إلى إعراض أوحل فى النفاق، ولذا قال تعالى:

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧)﴾.

فأعقبهم أى جعل الله عقب فعلهم هذا نفاقا إلى نفاقهم. أى فازدادوا نفاقا وأوغلوا عما كانوا، وقال الحسن البصرى إن الضمير الفاعل يعود إلى البخل، أى أن البخل بعد العهد الذى عاهدوا الله تعالى عليه، زادهم نفاقا؛ وذلك لأن الاستمرار على المخالفة يزيد النفاق نفاقا ويتراكم بعضه على بعض حتى يتكاثف، ويمتلىء القلب نفاقا، حتى لا مزيد عليه، وكأنما الأعمال الفاسدة هى الخبث الذى يسقى به نبات النفاق فيزيده، وينميه، حتى يستغلظ سوقه.

---

(١) رواه الترمذى: النذور والأيمان ـ من نذر أن يطيع الله (١٥٢٦)، والنسائى: الأيمان والنذور ـ النذر فى الطاعة (٣٨٠٦)، وأبو داود: الأيمان والنذور ـ ما جاء فى نذر المعصية (٣٢٨٩)، وابن ماجه: الكفارات ـ النذر فى المعصية (٢١٢٦)، وأحمد: باقى مسند الأنصار ـ حديث السيدة عائشة رضى الله عنها (٢٣٥٥٥).

والأكثرون على أن الضمير الفاعل فى قوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ يعود على الله؛ لأنه فى النفس دائما، ولأنه صاحب العهد الذى عاهدوه على الوفاء به، ومعنى إعقابه سبحانه وتعالى النفاق لهم أنه سبحانه وتعالى وقد ساروا فى طريق الغى والضلال أمدهم بما يزيدهم عتوا ونفاقا، وطغيانا، فأمدهم فى طغيانهم، وهم الذين ابتدءوه.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ سبحانه وتعالى، وعندئذ يكون العذاب الذى أنكروه بعد الحساب بعد أن ترى كل نفس ما فعلت، وبعد أن يأخذوا كتابهم بشمالهم.

وقد بين سبحانه ما غذّى نفاقهم، وزاده فقال تعالى: ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ أى أخلفوا الوعد الذى وعدوه لله تعالى، وجعل الإخلاف لله ابتداء لبيان جرمهم فيما فعلوا، إذ إنهم أخلفوا الله تعالى خالقهم وبارئهم ومالك أمرهم، وأى نكر أشد من ذلك، وقوله تعالى: ﴿مَا وَعَدُوهُ﴾ كأنه فى مقام البيان لما أخلفوا به رب البرية، فأى أمر تنكره العقول أبلغ من ذلك! وأى نفاق أجرأ وأمكن من ذلك!، أى أنهم زادوا نفاقا إلى نفاقهم بسبب إخلافهم الله ما وعدوه، وبسبب كذبهم على الله سبحانه وتعالى، ولذا قال تعالى: ﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

أى وبسبب استمرارهم على الكذب، لأن (كان) تدل على الاستمرار، والتعبير بالمضارع ﴿يَكْذِبُونَ﴾ يدل على تجدد كذبهم آنا بعد آن، فحديثهم كذب مستمر متجدد، وإن الكذب يهدى إلى الفجور، والفجور يهدى إلى الفسوق، ولا يزال الرجل يكذب حتى يكتب عند الله كذابا، وإذا وصل الإنسان إلى هذا الحد صار منافقا، وإن كان منافقا ازداد نفاقا على نفاقه.

وإنهم يعاهدون ويخلفون، ويكذبون حاسبين أن الله تعالى لا يحصى ما يفعلون، ويدبرون ويعاهدون، والله عليم بهم، ويحسبون أنهم يخدعون الله، والله خادعهم، ولذا قال تعالى:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (٧٨)﴾.

الاستفهام إنكارى بمعنى النفى مع التوبيخ، و(لَمْ) نافية، ونفى النفى إثبات، والمعنى يعلمون علما لا مرية فيه أن الله تبارك وتعالى يعلم سرهم ونجواهم، والسر ما يكون فى النفس ويجرى فى العقل، وتحدثهم به نفوسهم، والنجوى ما يتناجون به ويتشاورون، ولا يعلنونه جهارا بين الناس، أى أن الله يعلم ما فى نفوسهم وما ينوونه، فهو عالم أنهم عند وعدهم بما وعدوه النبى ﷺ وعاهدوه عليه، ويعلم أنهم لن يوفوه العهد؛ لأن الله تعالى يعلم ما كان وما يكون وما ينوون وما يعلنون، وهو محيط بكل شىء، وعليم بكل شىء.

وهذا النص الكريم يفيد أن الله يعلم عندما عاهدوا النبى ﷺ عهدهم ﴿لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ﴾ أنهم لن يوفوا بعهدهم الذى عاهدوه مخترين[1]، وأخلفوا مختارين، ولكن الله تعالى تركهم فى غيهم يعمهون.

وأكد سبحانه بأن الله أحاط بكل شىء، بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ عطف هذا المصدر على ألم يعلموا، أى أنهم يعلمون أن الله تعالى يعلم سرهم ونجواهم، وأن الله تعالى علام الغيوب، يعلم ما استكن فى نفوسهم من إرادة النفاق والكذب، وأنهم لن يوفوا.

وعلام الغيوب صيغة تؤكد علم الله تعالى الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا فى كتاب، وهو يعلم خافية الصدور ومكنون النفوس، يعلم الغيوب كلها ما مضى وما يجىء، وهو السميع العليم البصير القاهر فعال لما يريد.

وهؤلاء الذين عاهدوا، وغدروا، ولم يوفوا بما وعدوا من صدقة إن أغناهم الله من فضله ـ عيابون شأن كل منافق كله عيوب، ويعيب على غيره، فهم يعيبون على الذين يتطوعون بقليل من المال وقد بذلوا أقصى طاقتهم ويقول الله تعالى فى بيان هذا الحال فيهم:

---

(١) من الخَتر، وهو الخيانة للعهد.

﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) ﴾.

﴿الَّذِينَ﴾ وصف للمنافقين، ﴿يَلْمِزُونَ﴾ أى يعيبون وقتا بعد آخر، وتكرر غمزهم، لأنهم من ﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾ أى المتطوعين، وقلبت التاء طاء وأدغمت الطاء فى الطاء، والمتطوع هو المتصدق تطوعا، وقد أدى الفريضة، وإن هذا الإدغام قوى المعنى فى اللفظ، أى الذين يؤدون فيه أقصى التطوع، فذو المال يتطوع بأقصى ما يمكن من التطوع لا يدخر، والقِلُّ من المال يتبرع بمقدار جهده وطاقته، وهم يعيبون من يتطوع بالكثير فيقولون يرائى، ومن يتطوع بالقليل مما يقدر عليه يقولون ساخرين: الله غنى عنه، فهم عيابون لا يتبرعون، ويعيبون من يتبرع، ذا مال أو لم يكن ذا مال.

روى البخارى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، قال: لما نزلت آية الصدقات كنا نحامل (أى نحمل الحمل على ظهورنا بالأجرة)، فجاء رجل، فتصدق بسخاء كثير فقالوا! يرائى، وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا: إن الله غنى عن صدقة هذا.

وروى الإمام أحمد رضى الله عنه عن أبى السليل عن أبيه أنه رأى رسول الله ﷺ بالبقيع وهو يقول: «من يتصدق بصدقة أشهد له بها، فجاء رجل لم أر أشد سوادا ولا أصغر منه ـ بناقة ساقها لم أر فى البقيع ناقة أحسن منها، فقال يا رسول الله: أصدقة، قال عليه الصلاة والسلام: «نعم»: قال الرجل: دونك هذه الناقة، فلمزه رجل، وقال: هذا يتصدق بهذه، فوالله لهى خير منه، فسمعها رسول ﷺ، فقال: «كذبت هو خير منك ومنها» ثلاث مرات، ثم قال: «ويل لأصحاب المئين من الإبل» ثلاثا، قالوا: إلا مَنْ يارسول الله؟، قال: «إلا من قال بالمال هكذا وهكذا» وجمع بين كفيه عن يمينه، وعن شماله، قال وقد أفلح: «المزهد المجهد»، وفسرها ابن كثير المزهد فى العيش المجهد فى العبادة.

وتبرع عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم، فقال له عمر بن الخطاب رضى الله عنه: أجننت أنت! قال: ليس بى جنون، هو مالى ثمانية آلاف درهم، أقرضت الله منها أربعة آلاف، وجعلت لعيالى أربعة آلاف، فدعا له النبى ﷺ، ولكن المنافقين قالوا: ما تصدق إلا رياء.

وجاء رجل بصاعين من بر تبرع بصاع وأبقى لنفسه صاعا، فسخروا منه وقالوا: الله غنى عن صدقته، وهكذا كانوا يلمزون من يتصدق بالكثير، ومن يتصدق بالقليل، وذلك شأن المنافقين دائما يصغرون عمل غيرهم قليلا أو كثيرا ولا يعملون، قبحهم الله تعالى.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ﴾ الجهد: الطاقة أى الذين لا يجدون ما يتصدقون إلا بقدر طاقتهم المحدودة، والجهد بفتح الجيم، وضمها: الطاقة، وفيها القراءتان[١].

وظاهر القول أن ﴿الَّذِينَ لا يَجِدُونَ﴾ معطوفة على ﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾، ويكون المعنى أنهم يلمزون الذين ينفقون عن يسار، وهذا هو المعطوف عليه، والمعطوف بعد ذلك (الذين لا يجدون إلا طاقتهم)، فيسخرون من الفريقين، يتهكمون على أهل اليسار برميهم أنهم يراءون، وهكذا يرمون بدائهم، فالمراءون هم المنافقون فى كل الأحوال، وخطر لى أن أقول: إن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾، فكأنهم يعيبون المتطوعين عن سعة، ويسخرون من الذين لا يجدون إلا مقدار طاقتهم وهى محدودة، و(الفاء) هنا لأن الموصول فى معنى الشرط، والمعنى إن كان الذين لا يجدون يسخرون منهم.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾، أى أنهم يعاملون معاملة من يسخر منهم، أو أن ذلك دعاء عليهم بأن يكونوا موضع السخرية والاستهزاء عندما يكشف أمرهم، وتعرف حالهم.

---

(١) (جهدهم) بفتح الجيم، ليست فى العشر المتواترة.

وإن ذلك لهم خزى فى الدنيا، كالمنافق موضع سخرية حقيقية فى الدنيا بتقلب قلوبهم وتناقضهم فى أحوالهم دائما.

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، أى مؤلم أشد ما يكون الألم وحسبهم جهنم وبئس المهاد.

لا استغفار لمنافق

قال تعالى:

ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً
فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ
بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ
أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا
جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ
مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن
تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟
مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾

كان الرسول الأمين حريصا على هداية الذين بعث إليهم، وكان يرجو أن يتوبوا ويغفر لهم، فكان ﷺ يستغفر لهم، لأن الاستجابة تقتضى التوبة، كما يقول عن كفار مكة: «اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون»[(١)]، وكان يستغفر

(١) سبق تخريجه.

كذلك للمشركين برجاء توبتهم، وأن يعيشوا فى صفوف المؤمنين، ويكونوا منهم بالفعل، لا بادعائهم، فبين الله تعالى له أنه ميئوس من إيمانهم؛ لأنهم ازدادوا كفرا وطبع على قلوبهم إذ باءت بالسوء، وكلما جاءتهم آية ازدادوا نفاقا وكفرا، ولذا قال تعالى: ﴿ **اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ** ﴾ فالأمر فى معنى بيان اليأس، كما قال الله تعالى لنوح عليه السلام: ﴿ ... **لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ** ... (٣٦) ﴾ [هود]، ومحط الخبر فى قوله: ﴿ **إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ** ﴾ وعدد السبعين يراد به الكثرة، وكان العرب يستعملون فى الكثرة التى لا يحصيها عدٌّ.

وهذا المعنى الذى اختاره ابن كثير، فقد قال (يخبر الله تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلا للاستغفار، وأنه لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم، وقد قيل إن السبعين مرة ذكرت حسما لمادة الاستغفار لهم؛ لأن العرب فى أساليب كلامها تذكر السبعين فى مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها) فهذه الآية فيها بيان أنه لا يرجى إيمانهم، فيرجى الغفران لهم؛ لأن الله تعالى قد غضب عليهم، فقال تعالى: ﴿ **اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ** ﴾ وعلل سبحانه وتعالى ذلك بقوله: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ** ﴾ ولا رجاء فى أن يؤمنوا كما يدل آخر الآية.

ولقد قال بعض المفسرين إن (أو) للتخيير، وإن الأمر للإباحة، فأباح الله تعالى للنبى أن يستغفر أو لا يستغفر، ورد ذلك المعنى عن ابن عباس رضى الله عنهما ـ وأنه ﷺ قال: «لأزيدن على السبعين»[1] ولكن يقول القشيرى: لم يثبت ما روى أنه قال لأزيدن على السبعين.

وقد ذكر سبحانه وتعالى فى ختام الآية الكريمة ما يدل على أنهم مردوا على النفاق، وأوغلوا فى الكفر فقال تبارك وتعالى: ﴿ **وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ**

---

(١) رواه البخارى: الجنائز- ما يكره من الصلاة على المنافقين (١٣٣٦) عن ابن عباس رضى الله عنهما، وتفسير القرآن (٤٦٧٠)، ومسلم: صفات المنافقين وأحكامهم (٢٧٧٤) عن ابن عمر رضى الله عنه.

﴿الْفَاسِقِينَ﴾ وهذا بيان لليأس من أن يهديهم، والقوم الفاسقون هم الجماعة التى تمردت على الحق وفسقوا عن أمر ربهم، وتحالفوا على الضلال، وكلما بزغ بينهم داعى هدى أسكتوه، وكلما ظهر لهم نور الحق أطفأوه، فهم تعاونوا على الإثم والعدوان.

ولا يهديهم الله سبحانه وتعالى، لأنهم مسلوبو الإدراك، وأصبحوا سادرين فى طريق الغواية، وإن أولئك المنافقين كانوا يفرون من الجهاد، ويفرحون بتخلفهم عنه، ولقد قال تعالى فى ذلك:

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١)﴾.

﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾ هم الذين تخلفوا عن الجهاد فى غزوة تبوك وكانت فى أشد الحر وفى وقت جنى الثمار والاستنامة إلى الراحة فى ظلال الأشجار.

وهم تخلفوا مختارين، ولم يتخلفوا مجبرين، ولكن عبر عنهم باسم المفعول للإشارة إلى أن الله تعالى لم يرد انبعاثهم كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦)﴾ ولذا قال تعالى فى النظم السامى ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ﴾، ولم يقل سبحانه (المتخلفون).

ولكن مع أنهم ثبطهم الله فخلفوا لم يكن ذلك بإرادة النبى ﷺ الظاهرة، بل إنه عليه السلام دعاهم كما دعا غيرهم، ولذا قال تعالى: ﴿بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ المقعد مصدر ميمى معناه القعود، أى بقعودهم مخالفين رسول الله ﷺ «فخلاف» مصدر بمعنى مخالفين، وقيل إن (خلاف) معناها خلف رسول الله ﷺ والمعنى على الحالين، أنهم فرحوا بقعودهم وراء رسول الله ﷺ مؤثرين أن

يكونوا من النظارة الذين لا يخوضون الحروب، وأن يكونوا كالنساء قاعدات فى أخدارهن، وقال تعالى فى الباعث الذى بعثهم على هذه الحال المزرية بالرجال فقال تعالت كلماته: ﴿وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ كرهوا أن يخرجوا مجاهدين بإنفاق أموالهم؛ لأنهم بخلاء فى كل ما هو خير، وكرهوا أن يجاهدوا بأنفسهم؛ لأنهم جبناء أولاً، ولأنهم لا يؤمنون بالله، ولا يجاهدون فى سبيله ثانيا، وقال سبحانه: ﴿وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا﴾ ولم يقل كرهوا أن يخرجوا، مع أن الكراهة ابتدأت بالتثاقل فى الخروج، بل قال: ﴿وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا﴾ للإشارة إلى سبب عدم الخروج أولا، وللإشارة إلى حال المؤمنين المجاهدين بأموالهم وأنفسهم، فهو تعريض بالمؤمنين فيه مقابلة بينهم، فالمؤمنون يتحملون المشاق، والمنافقون يتخاذلون.

وقد اتخذوا لعدم خروجهم تعلة أخرى، وهى الحر الشديد ﴿وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ أى قالوا فيما بينهم مجمعين على هذه التعلة، فقالوا فيما بينهم، ووصلت إلى مسامع المؤمنين ليخذلوهم، راجين أن يبثوا الفزع بينهم، ويثبطوهم عن الجهاد، وقد أمر الله تعالى نبيه أن يرد هذا القول ببيان أنهم مخيرون: جهاد فى الحر، أو لقاء جهنم، ولا مناص من أحدهما، فقال عز من قائل: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ أى أنهم إن كانوا عقلاء يدركون أن هذا الحر الشديد موقوت، ومربوط به العزة والكرامة، وإرضاء الله، وإن تركوه استقبلهم عذاب الأبد، وهو نار أشد حرارة، بل لا يوازيها حر الدنيا، وإن الحر الموقوت بأجل الذى يترتب عليه خير عظيم، أولى بالترك والإهمال من الحر الدائم بنار جهنم، وذلك يكون لأهل الإدراك والموازنة بين تعب عاجل قليل، ونار دائمة، ولذا قال تعالى: ﴿لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ الفقه الإدراك النافذ إلى لباب الأمور، فلو كانوا يفقهون الأمور لوازنوا بين ما يستقبلهم فى تخلفهم، واتقاء حر الدنيا، وبين ما يلقونه بعد البعث، وإنه لآت لا ريب فيه، وجواب (لو) محذوف للإشارة إلى أنهم يرون هولا عظيما.

إنهم يختارون المتعة العاجلة القليلة، ويختارونها ويتركون المتعة الدائمة، ويقبلون العذاب الأليم، ولذا قال تعالى:

﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) ﴾.

ويقول الزمخشرى فى قوله تعالى: ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ استمهال لهم؛ لأن من تصوَّن عن مشقة ساعة فوقع بسبب ذلك التصون فى مشقة الأبد كان أجهل من كل جاهل ولبعضهم:

مسرة أحقاب تلقيت بعدها   مساءة يوم أريُها شبه الصاب

فكيف بأن أتلقى مسرة ساعة   وراء تقضيها مساءة أحقاب

والمعنى أن مسرة أحقاب يعقبها مساءة يوم يكون عسلها مرا كالصاب، وهو شجر شديد المرارة، فكيف يرضى العاقل بأن يلقى مسرة ساعة، وراءها مساءة أحقاب، أى أزمان.

وإن الآيتين متصلتان، ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً ﴾ وكنى سبحانه وتعالى بالضحك عن السرور والفرح بالقعود عن الجهاد اتقاء للحرارة، فإن الضحك يلازم السرور عادة، وهو مظهر من مظاهره، كما أن البكاء كناية عن الألم الدائم؛ لأن البكاء ظاهرة من مظاهر الألم الشديد.

والفاء فى قوله تعالى: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا ... ﴾ للإفصاح؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر؛ لأن المعنى العام، إذا كانوا قد فروا من الغزوة اتقاءً للحر فى الوقت القصير، وأهملوا ما يستقبلهم من حر جهنم الأشد الذى يكون جزاء التخلف، فقد استبدلوا البكاء الطويل بضحك قليل.

والأمر للتهكم على أولئك الذين لا يفقهون، وتهديد لهم، وجاء التهكم بصيغة الأمر لما فى معنى الأمر من الحتم واللزوم، وأنه واقع لا محالة، فهم بلا ريب سيكونون فى سرور وقت قصير فى الدنيا، ثم يكون من بعده ألم طويل فى

الآخـرة، وإنه يدل على أن ذلك البكاء الطويل من نار جـهنم حتم لازم، وقـوله تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى أن الله تعالى يجازيهم ذلك الجزاء، ونصب جزاء على أنه مفعول لأجله.

أى أن ذلك البكاء الطويل يكـون جزاءً مـقابلا للضـحك القليل، والرضـا بالعذاب الطويل فى مقابل الراحة القليلة، أو اللذة العاجلة فى مقابل المنفعة الدائمة الخالدة، ويستحق ذلك الجزاء، وقال تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى بسبب وفى مقابل ما كسبوه من راحة مؤقتة، وترك للواجب، والكسب ما يصير عادة للنفس، وتستمر عليه فى حياتها.

فهذا العذاب للمنافقين ليس لأجل هذا القعود فقط، وإن كان إثما كبيرا فهو عقاب على ماكـسبوه فى أنفسهم، وصار حـالا مستمرة لهم كانوا يفـعلون بموجبه دائما مع المؤمنين.

والتعبير بـ (كـان) مع الفعل المضارع فى قوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يدل على اسـتمرار هذا الذى كـانوا يكسبـونه، وتجدده آنا بعـد آنٍ كلما كـان أمر جامع، وكلما بدا نفاقهم المستمر.

كانت تبوك غزوة اختبر الله بهـا المؤمنين فبان من استخذى وندم، ومن نافق وأصرَّ، وما كان استئذان المنافقين لسبب يوجب قعودهم، بل كان خدعا للنبى ﷺ ومن معه، فلكى يعرفوا أن أمرهم صار مكـشوفا، ولكيلا يحاولوا خدعه ﷺ نهى الله تعالى نبيه عن أن يأذن لهم، فقال تعالى:

﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣)﴾.

رجعك الله إلى المدينة سالما غـانما، فالرجوع إلى الجميع مـؤمنين ومنافقين، فلما خص سبحانه وتعالى الرجـوع إلى طائفة منهم، والضمير فى منهم يعود إلى

المنافقين؛ لأنهم موضع حديث الله تعالى فى كتابه سبحانه إذ الكلام فى أحوالهم النفسية وتخذيلهم للمؤمنين وخدعهم لهم، ونقول خص سبحانه الرجوع إلى طائفة من المنافقين؛ لأن هذه الطائفة هى التى اعتادت التثبيط، وبث روح التردد والهزيمة، وهى تعاود الاستئذان كلما اشتدت الشديدة وجد الجد، لا ليقعدوا فقط، بل ليكونوا أسوة لغيرهم، فيقتدى بهم من ضعفاء الإيمان والجبناء من يصيبهم هلع عند الحرب، وفزع عند اللقاء.

هذا هو الذى بدا لنا من التعبير فى قوله: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ إذ هى التى اعتادت التخذيل والتثبيط، وبث روح التردد والهزيمة، وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ الفاء هنا للترتيب والتعقيب، أى أنه بمجرد أن ترجع إليهم يفاجئونك بالاستئذان كعادتهم، وقد يكررون فى هذه الحال معاذيرهم الكاذبة، وهذا يدل على أن هذه الطائفة منهم هى ذات المعاذير المتكررة المثبطة.

ولقد أمر الله تعالى نبيه بأن يسجل عدم الثقة معهم، وأنه لا يعدهم فى جماعته المؤمنة المجاهدة فقال تعالى: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾.

و أمر الله تعالى نبيه بأن يقول لهم: ﴿لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ بالنفى المؤكد بـ (لنْ)، لأن لن لتأكيد النفى، ولقد قال الزمخشرى فى تفسير قوله: ﴿لَّن تَخْرُجُوا﴾ إن لن لتأكيد النفى، وسواء أكان القول ما قال الزمخشرى أم لم يكن، فإن النفى هنا للتأبيد بقوله تعالى أبدا.

وكان قرار منع الخروج الأبدى؛ لأنهم خرجوا فى أحد، فهمت طائفتان أن تفشلا بتخذيل المنافقين ثم تركوا هم الغزوة، ليسلك غيرهم مسلكهم، وأفسدوا ما بين المؤمنين فى غزوة بنى المصطلق، وقال قائلهم: ﴿... لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ... ⑧﴾ [المنافقون] وهكذا فهم إذا خرجوا مع المؤمنين كان منهم السعى بالشر بينهم، وقال تعالى: ﴿وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ وإن هذا

النفى المؤكد هو تقرير للواقع، فهم لا يقاتلون أعداء النبى ﷺ بل هم يوالونهم، ولا يعدونهم أعداء.

وإن الله تعالى العليم الخبير أعلم نبيه ﷺ بأمرهم ، ولكن أمر نبيه بأن يأخذ من ماضيهم دليلا على حاضرهم فكان أمر بقوله لهم: ﴿**إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾ أكد سبحانه وتعالى رضاهم بالقعود أول مرة بـ (أن)، وخاطبهم بهذا القول، وقالوا: إنما أول مرة، هى عندما دعاهم للقتال وتثاقلوا، ونقول: ليست هذه أول مرة، بل كانت أول مرة هو رجوعهم فى غزوة أحد، وتثبيطهم للمؤمنين حتى همت طائفتان أن تفشلا، كما تلونا.

وإنهم إن خرجوا لا يخرجون للجهاد والقتال، بل يخرجون للغنيمة كما قال تعالى: ﴿**سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٥)**﴾ [الفتح].

ويقول الله تعالى آمرًا نبيه بذلك القول: ﴿**فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ**﴾ (الفاء) للسببية، والأمر هنا للتهكم عليهم والنذير بهم، و(الخالف) اسم فاعل من خلف، أى كان وراء المجاهدين متخلفا عنهم مع القاعدين من النساء والضعفاء الذين لا قدرة لهم على قتال، وقيل إن معنى الخالفين الفاسدين فى ذات أنفسهم وضمائرهم، ولقد قال ذلك القرطبى فى كتابه أحكام القرآن، فقد قال: (قيل المعنى فاقعدوا مع الفاسدين، من قولهم فلان خالف أهل بيته إذا كان فاسدًا فيهم من خلوف فم الصائم، ومن قولك خلف اللبن إذا فسد) وهذا يدل على أن استصحاب المخذل فى الحرب لا يجوز، والله سبحانه وتعالى أعلم.

اجتناب المنافقين

قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾

إن الآية الكريمة ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ قاطعة فى النهى عن الصلاة على المنافقين؛ لأن الصلاة على الميت دعاء له بالخير يناله يوم القيامة، ولأنها استغفار، والاستغفار للمنافق منهى عنه كما تلونا قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ... ﴿٦﴾﴾ [المنافقون][1] ولأنه يجب أن يتميز المؤمن عن الكافر، والصلاة عليه فارق بين المؤمن والمنافق.

والنهى ثابت ناه على وجه التأبيد، ولذلك قال: ﴿أَبَدًا﴾، فلا مثنوية فيه ولا تجوز، ﴿وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ داعيا بعد دفنه أو قبل دفنه، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾، يتضمن الدفن، والدعاء له عند الدفن أو بعده؛ لأنه نهى عن الصلاة، وما فى معناها من الدعاء.

هذا معنى الآية، ولكن روى فى الصحاح وغيره أن النبى ﷺ صلى على عبد الله بن أبى رأس النفاق، والمفرق بين المؤمنين، والذى كان يوالى الكفار، من

مشركين وأهل كتاب، وقد خاضت فى ذلك خوضا كثيرا كتب السيرة النبوية والمفسرون بالرواية.

وإننا من مجموعها نستخلص أمرين ـ أولهما ـ أن النبى ﷺ صلى عليه، ويظهر أن ذلك كان قبل نزول هذه الآية.

وثانيهما ـ أن النبى ﷺ كفنه فى قميصه[١]، وكان ذلك أيضا قبل نزول هذه الآية الناهية، وإن الصلاة عليه، لأن النبى ﷺ كان رفيقا بأصحابه، وقد كان ابن هذا المنافق صحابيا جليلا فكان ﷺ يكرم الحى، بالسكوت عن إيذاء الميت، ولقد قال النبى ﷺ عندما أسلم عكرمة بن أبى جهل لأصحابه: «لقد جاءكم عكرمة مسلما، فلا تسبوا أباه، فإن السب يؤذى الحى ولا يضر الميت».

ويروى فى ذلك أنه لما مرض عبد الله بن أُبَى بعث إلى الرسول ﷺ ليأتيه، فلما دخل عليه قال ﷺ: «أهلكك حب اليهود»، فقال: يا رسول الله بعثت إليك لتستغفر لى لا لتؤنبنى، وسأله أن يكفنه فى شعاره الذى يلى جلده ويصلى عليه، فلما مات دعاه ابنه إلى جنازته[٢].

وأما أنه ﷺ قد كفنه فى قميصه فقد قال الرواة: إنه عند أسر العباس، كان قميصه قد فُقد، فلما رآه النبى ﷺ من غير قميص رقَّ له، وقد ناصره بعد أبى طالب، فطلب صحابته أن يأتوا بقميص، فلما يوجد قميص على تفصيله إلا قميص عبد الله بن أبى؛ لأنه كان ضخما. والنبى ﷺ أحق من أوفى بالمعروف معروفا ولو كان من رأس النفاق[٣].

ولقد قال تعالى بعد ذلك: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ هذه الجملة فى مقام

---

(١) الواقدى وابن سعد وابن عساكر عن عبد اللَّهِ بن الزُّبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. جامع الأحاديث والمراسيل ـ السيوطى: ج٩ ـ ص٢٧٦ (٢٨٢١٢).

(٢) جاء ذكر موت عبد الله بن أبى قبحه الله فى البداية والنهاية لابن كثير (ج٥، ص٢٤٥).

(٣) روى البخارى فى الجهاد والسير ـ الكسوة للأسارى (٣٠٠٨) عن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ قال: لما كان يوم بدر أُتى بأسارى، وأُتى بالعباس ولم يكن عليه ثوب، فنظر النبى ﷺ له قميصا، فوجدوا قميص عبد الله بن أبى يقدر، فكساه النبى ﷺ إياه، فلذلك نزع النبى ﷺ قميصه الذى ألبسه. قال ابن عيينة: كانت له عند النبى ﷺ يد فأحب أن يكافئه.

التعليل لما قبلها، ولذا كان بينهما فصل، فكمال الاتصال بالعلة ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وأكد سبحانه كفرهم بأن، وأنهم يحملون أوصافا تقتضى تحقق الكفر بالله وبرسوله، إذ يحاولون أن يخدعوا الله ورسوله، وقد استمروا على ذلك حتى ماتوا ولذا قال تعالى: ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ أى ماتوا على حال الفسق والتمرد على الحقائق، وأشد من التعبير بالفسق فى حالهم بأنه أشد الكفر؛ لأنهم كافرون، ومخادعون، وغشاشون، فهم تمردوا على الله وتمردوا على كل خلق كريم، والله أعلم بهم.

وهم لا يفاخرون إلا بما آتاهم الله من مال وولد، ولا يستطيعون المفاخرة بمكارم، ولذا قال تعالى: ﴿وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥)﴾.

تقدمت هذه الآية فى هذه السورة عند الكلام على ما يتمناه المنافقون للمؤمنين، ومنع النبى ﷺ من أن يقبل منهم نفقاتهم، فقد قال تعالى فى ذلك: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلا يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤)﴾.

ونرى الآيتين متلاقيتين فى المعنى والألفاظ، إلا فى حرفين: أولهما ـ أنه هنا عبر (بالواو) فقال تعالى: ﴿وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ﴾ وفى الآية السابقة عبر (بالفاء) ولها مناسبتها، والثانى ـ أنه فى هذه الآية لم تذكر (لا) بعد ﴿أَمْوَالُهُمْ﴾، وفى الآية السابقة ذكرت لا وأيضا فالنص السابق «إنما يريد الله أن يعذبهم فى الحياة الدنيا» وفى هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾.

وإن هذا الاختلاف فى الألفاظ هو تصريف القول الذى هو من أسباب الإعجاز البيانى، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ... (١٠٥)﴾ [الأنعام].

فهل يعد هذا من التكرار؟ نقول إنه يكون من التكرار إذا كانت المناسبة التى ذكرت فيها الآيتان واحدة، أما إذا اختلفت المناسبة، فإنها تغير المقصود، وإذا تغير المقصود لا يكون المعنى واحدًا من كل الوجوه.

وقد كانت المناسبة فى الآية السابقة أن الله منع رسوله من أن يقبل منهم نفقات فى الحروب، ومعاونات فيها، مهما تكن أموالهم كثيرة، وأنهم أعز نفرا، فالله هو الغنى الحميد.

وأما المناسبة هنا فهى النهى عن الصلاة عليهم بسبب كفرهم، وتأكيد ذلك النهى، وكان قبل ذلك النهى عن الاستغفار لهم، وحلفهم الدائم، وقد كان يظن أن يكون مالهم وأولادهم توجب العطف، فبين الله تعالى أن ذلك كله لا يسوغ العطف عليهم، ولا رجاء الخير منهم.

ولقد قال الزمخشرى فى تكرار بعض الآيات: وقد أعيد قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تُعْجِبْكَ** ﴾؛ لأن تجدد النزول له شأن فى تقرير ما نزَّل الله تعالى وتأكيده، وإرادة أن يكون على بال المخاطب لا ينساه، ولا يسهو عنه، وأن يعتقد أن العمل به مهم يفتقر إلى فضل عناية، ولا سيما إذا تراخى ما بين النزولين فأصبح الشىء الذى أهم صاحبه فهو يرجع إليه فى أثناء حديثه ويتخلص إليه، وإنما أعيد هذا المعنى لقوته فيما يجب أن يحذر منه.

وإن المنافقين قد استمروا على فرارهم من الجهاد، ولذا قال تعالى:

﴿ **وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦)** ﴾.

كان المنافقون كلما نزلت آية جهاد، قبعوا قبوع القواقع فى أصدافها، ورضوا بأن يكونوا من المتخلفين لا يتقدمون إلى الجهاد، وإن كانت فيه العزة؛ لأن أسباب العزة من جهاد ومقاومة للباطل ثقل عليهم، ولذا قال تعالى فيهم: ﴿ **وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ** ﴾ السورة فى عرف القرآن الكريم هى الجزء من القرآن الكريم المسورة المحدودة المبدوءة بـ«بسم الله الرحمن الرحيم» إلا سورة براءة، فقد بينا أنها ليست مبدوءة بها، ويصح أن يراد به هنا بعضها، وهى آية من الآيات، ويكون قد عبر

عنها بسورة لبيان كمالها، وأحكامها، وأن غـايتها ثابتة قائمة، وهى الجهاد فالجهاد ماض إلى يوم القيامة[١].

وإن أريد بها سورة كـاملة، فأوضح سور الجهاد سـورة براءة؛ لأنها ابتدأت به، وتنظيمه مع العهود والمواثيق، وآياتها داعية إليه كاشفة تخاذل المنافقين عنه.

وقوله: ﴿أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ﴾ أن تفسيرية، وهى تبين أن ما بعد هو السورة، فتكون بمعنى جزء السورة، ويصح أن تكون مصدرية، والمصدر فى مقام الجار والمجرور، أى نزلت السورة بـ﴿أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ﴾، ولم يذكر الإيمان بالرسول لأن الإيمان بالله حق الإيمان إيمان برسله؛ لأنهم جاءوا بمعجزات أيدهم الله بها، ولأن الإيمان بالرسول مذكور مطلوب فى قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ﴾.

فالمطلوب بالسورة أمران: أحدهما ـ الإيمان بالله حق الإيمان بأن يذعنوا لكل ما يكلفهم إياه، وأن يعلموا مؤمنين بأنه القادر القاهر، الناصر المعز المذل العليم الخبير، أى يؤمنون بأنه واحد فى ذاته وصفاته التى هى الكمال المطلق، وأنه لا يعبد غيره.

والثانى ـ الجهاد مع رسول الهدى ودين الحق؛ لأن الجهاد معه سبيل العزة، ورفع الحق، وخفض الباطل، هـذا هو الدين الحق، ولكن المنافقين يفرون من الجهاد، ولا يحتملونه فى ذات أنفسهم، وينفرون منه ولو كانوا ذوى قدرة، ولذا قال تعالى فيهم: ﴿اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾.

الخطاب للنبى ﷺ، و﴿اسْتَأْذَنَكَ﴾ أى طلبوا إذنك فى أن يتخلفوا وحالهم تنافى طلبهم، لأنهم ﴿أُولُوا الطَّوْلِ﴾ أى أصحاب الطَّول والسَّعة والفضل فى المال، والطاقة البدنية التى تتحمل الجهاد بالنفس والمال ﴿مِنْهُمْ﴾، والضمير فى منهم يعود على المنافقين، استأذنوك ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ﴾ أى اتركنا مع

(١) وهو مفهوم من قوله صلى الله عليه وسلم : «الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة».

القاعدين من النســاء والأطفال والضعفاء، أى رضــوا بالمنزل الدون والمكان الهون، وذلك لأنهم بخلاء جبناء، وبهم تفنى الأمم والجماعات.

وقد بين سبحانه وتعالى هوان هذه النفوس فقال تعالت كلماته:

﴿ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (٨٧) ﴾.

وإذا كــان أولو الطول والسعــة والقــوة فى أبدانهم قد قــالوا ﴿ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴾، ولا تستنفرنا فى جهادك الذى بعدت فيه الشقة، وعظمت فيه المشقة، فقد ﴿ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾، والخوالف جمع خالفة، وهى المرأة المتخلفة عن الجـهاد، ويطلق عـلى ما لا خـير فـيـه، أى أنهم رضوا أن يـكونوا كالنســاء القاعدات فـى البيوت، والأشياء الـتى لا خير فيهــا ولا منفعة، أى رضوا بـحياة الدعة والاستـرخاء ولو كان معها الذلة، وتركـوا حياة الكد والتعب ولو كان فـيها العزة.

وقال تعالى: ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أى أنه بهذه الحــال وأخواتهــا، مما فروا فيــها من الجهاد فــرار الجبناء، فســدت نفوسهم، وأغلقت قلوبهم عن حب الخــير والعيش الكريم، وبنى للمجــهول للإشارة إلى الأسباب المتــراكمة التى توالت على نفوســهم، وطبعــتها عــلى النفاق، فطبع مع النفــاق الذلة والاستــهزاء والكذب، وإخلاف الوعد، وإن مدوا أعناقهم للذلة.

إن النفاق يولد الجبن، والجبن يولد المذلة والكذب وكل قــبائح النفس، ولذا قال تعالى: ﴿ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ﴾ و(الفاء) تفيد ترتب ما بعــدها على ما قبلها؛ لأن طبع القلب على النفاق يفـسد الفكر، فلا ينظر إلى عواقب الأمــور، ولا ما تنتهى إليه، وأعيد الضمــير فى قوله تعالى: ﴿ فَهُمْ ﴾ لتأكيد وصــفهم، وثبوت حالهم، والفقه كـما ذكرنا هو العلم بلباب الأمور وغــايتها، فهم لم يعرفوا أن مــوقفهم لو سلك المؤمنون مسلكه لذلوا، ولذهبت ريحهم، ولم يدركـوا أنهم بما يفعلون يقون أنفســهم من شقة الجهــاد، ولكن يكونون مهينين فى الدنيــا، وتنالهم جهنم وبئس المصير.

وبعد أن بين حـالهم فى فرار من الجهاد، وإبداء المعـاذير الكاذبة، ورضاهم بأن يكونوا مع النساء والضعفاء وبأن يكونوا أشياء لا خير فيها ولا فائدة ـ ذكر بعد ذلك الذين يريدون الحياة الحق، حـياة الجهاد ومفتاح السـعادة فى الدنيا والآخرة، وهم الرسول والذين اتبعوه، فقال: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

الاسـتدراك هنا للانتـقال ممن ارتضـوا المنزل الهـون إلى الذين لم يريدوا إلا العزة والكرامـة والرفعة، ومن امـتلأت قلوبهم بحب الله تعـالى، فآثروه على كل الوجود، ورضوا بالمشقة وإن اشتدت؛ مرضاة له سبحانه وتعالى، فالاستدراك لبيان الرفعـة التى وصل إليها المؤمنون فى مـقابل الذلة التى ارتضاها الآخرون، كـقوله تعالى: ﴿... فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنعام]، وكقوله تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ والمعنى فإن استرخى هؤلاء عن الجـهاد، ورضوا بالقعود مع الضعفـاء والنساء فالرسول والذين آمنوا مـعه جاهدوا بأموالهم وأنفـسهم، وقوله: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ...﴾ التعبير بالرسول فى هذا المقام للإشارة إلى أن مـقام الرسـول يوجب الجـهاد؛ لأنه تبليـغ للدعـوة، وحمـاية لهـا، ودفع للذين يعاندونهـا، وذكر بجوار مـقام الرسالة من مـعه، أى من آمنوا، وصاروا مـعه فى جهاده الذى حمل عبثه بحمله عبء الرسالة، والرسول وما عطف عليه مبتدأ خبره ما جـاء بعد ذلك، وهو قـوله تعالى: ﴿جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ أى قدموا النفس والنفيس، وقـدم سبحانه وتعـالى الجهاد بالمال على الجـهاد بالنفس، مع أن النفس أغلى وأعز، والجود بها أقصى غاية الجود، قدم المال مع ذلك؛ لأن الإنفاق فى سبيل الله هو عدة الجهاد ابتداء، وامتشاق السيوف هو نهايتها، ولأن ذلك يشير إلى أنهم باعـوا أنفسهم لله تعـالى واطرحوا الدنيـا اطراحا، فالمال يطـلب لغايات الدنيا، وقد اشترى الله من المؤمنين أنفسهم فلا حياة لهم إلا مع الله.

قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ الإشارات إلى الموصوفين بالأوصاف السابقة، أى أولئك الذين كانوا مع الرسول، ولزموه فى جهاده، ولم يتخلفوا عنه، وأحبوا الله تعالى وبذلوا أموالهم وأنفسهم، ولم يريدوا شيئا إلا إرضاء الله، لهم الخيرات، الخيرات جمع خير، وعبر بالجمع للدلالة على كثرة ما يمنحهم الله من خير وتنوعه، فخير فى الرزق، وخير فى نيل المطالب، وخير فى النصرة، وخير فى العزة، وخير فى منع تحكم الأعداء، وخير فى رضا الله تعالى، وخير فى صلاح الولد، وخير فى الهداية. . . إلى آخره من الخيرات فى الدنيا، والخير الأكبر فى الآخرة.

ثم قال: ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أى المشار إليهم المتصفون بهذه الصفات هم الفائزون بنعيم الآخرة، ورضوان الله تعالى والقرب منه، وقد قصرا الله تعالى الفلاح عليهم بتعريف الطرفين، لأن تعريف الطرفين؛ يفيد القصر، وبضمير الفصل، أى أن الفلاح لهم، وليس لغيرهم.

وقد بين الله تعالى بعض ما فازوا به، وهو الجنة، فقال تعالى:

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩)﴾.

هذا بعض الفلاح الذى ذكره الله، وهو أنه أعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار، أى أن الله تعالى أعطاهم نعيمًا فيه ثلاث خواص كلها يزكى بعضها بعضا.

أولها: أنها جنات، وهى جمع جنة فيها الأشجار التى تظل من الحرور، وتتمتع النفس برؤيتها، وبهجتها، وفيها الثمار اليانعة، وفيها من كل فاكهة ما يشتهون، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ففيها متعة النفس والجسم والروح.

الثاني: أن الأنهار تجرى من تحتها تدفع الحرور، وتسقى النفوس والأجسام، ويكون التمتع ببهجتها ومنظرها.

الثالث: أنها خالدة، ففى كل نعيم غير باق يكون الألم بفنائه وانتهائه، أما نعيم الجنة، فهو للبقاء.

ختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الإشارة إلى هذا النعيم المقيم، وقصر الفوز عليه، أى فلا فوز غيره، فما يحسبه فى الدنيا من أسباب الفوز إنما هو باطل لا يجوز.

ودل على القصر تعريف الطرفين، وضمير الفصل، والله تعالى أعلم بما يجزى به عباده المتقين.

اعتذار الأعراب

قال تعالى:

وَجَآءَ
ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ
لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ
مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾
وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ
مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ
حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾

كان الكلام فى المنافقين الذين نبتت نابتتهم فى المدينة عندما انتصر المؤمنون فى غزوة بدر الكبرى، وصارت لهم القوة والسلطان فيها، واستقر الأمر فيها

للتوحيد، والإيمان بمحمد ﷺ، وحيث كانت القوة العادلة، اختفت العداوة الظاهرة، واستمرت عداوة النفوس مستكنة فيها فيكون النفاق الذى يأكل القلوب، ويملؤها حقدا، ورغبة دانية فى الكيد.

ولما صارت القوة للإسلام فى الجزيرة العربية، وصارت الكلمة العليا لله ولرسوله، وجد سبب النفاق فى داخل الجزيرة وحول المدينة كما قال سبحانه: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ... (١٠١)﴾.

وعندما يكون النفير العام، أو الخاص يظهر من الأعراب اعتذارات بعضها صادق، وبعضها كاذب، ويقعد بعضهم عن الجهاد كفرا ونفاقا، ولذا قال تعالى:

﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾.

فى الآية قراءتان إحداهما بتشديد الذال مع كسرها، والثانية بتخفيفها مع كسرها أيضا[١]، فقراءة التعذير فى الأولى، يكون معناها التقصير وعدم الاهتمام، من قولهم عَذَر فى الأمر إذا قصَّر فيه وتوانى، وذلك مقصور فى الأعراب الذين هم أجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله تعالى، ولا فرق عندهم بين دعوة إلى الجهاد فى سبيله، ودعوة إلى عادات كانت تجرى بينهم للمنازعة على الكلأ، أو مواطن الماء، أو للعصبية الجاهلية.

ويصح أن يكون المعذِّرون هم المعتذرون، ويكون فى الكلام إعلالا صرفيا، فأصل «المعذرون» المعتذرون من اعتذر، فقلبت التاء ذالا، وأدغمت الذال، ونقلت حركة التاء إلى العين، ويكون المعنى جاء المعتذرون الذين شددوا فى اعتذارهم؛ لأن الادعاء ينبئ عن شدة الاعتذار، وإن معنى ذلك أنهم يعتذرون بأعذار مقبولة، ويدل على ذلك المقابلة، وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾

---

(١) قراءة (المعْذرون) ساكنة العين خفيفة الذال، قراءة يعقوب، والنهاوندى عن قتيبة عن الكسائى، وقرأ الباقون، بفتح العين وتشديد الذال. غاية الاختصار (٩٦٣).

فإن المقابلة تقتضى التغاير بين القاعدين الذين لم يصدقوا الله ورسوله وكذّبوا، وبين المعذرين، ولكن المقابلة لا تكون إلا إذا كان اعتذار الأولين حقا وصدقا.

وقراءة «الْمُعْذِرون» بالتخفيف من الإعذار، وهو إبداء العذر الذى يكون مظنة القبول.

وإننا نجد أن الآية من قراءاتها المختلفة تفيد إبداء العذر، وإن المقابلة بين القاعدين الذين كذبوا الله ورسوله، والمعتذرين تفيد أن العذر مقبول اقتضى الأمر لهم.

وقد جاء بذلك التفسير المأثور، فقد روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال فى المعذرين: هم الذين تخلفوا لعذر فأذن لهم النبى ﷺ، وروى عنه غير ذلك، والله أعلم، وقيل إنها نزلت فى عامر بن الطفيل ورهطه، فإن رهطه قالوا عندما دعاهم ﷺ إلى الغزو قالوا: لو غزونا معك أغارت أعراب طيئ على حلائلنا وأولادنا ومواشينا، فعذرهم النبى ﷺ(١).

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ يفيد أولا أن الذين جاءوا هم المعذرون ولم يذكر الذين جاءوا مجاهدين؛ لأن منهم من جاء مجاهدا، وخصوصا أولئك الذين كانوا مع الرومان فى مؤتة، وتخلفوا عنهم فى تبوك وخذلوهم، ولكن ذكر المعتذرين فقط؛ لأن الكلام فى المستأذنين فى التخلف بأعذار غير صادقة وهم المنافقون، فناسب ذلك ذكر المعتذرين من الأعراب.

وتفيد ثانيا أنهم جاءوا للاعتذار وليؤذن لهم، ولو كانوا يعتذرون كذبا ما جاءوا بل قعدوا كما قعد غيرهم، وقال تعالى:

﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أى قعد وتوانى الذين كذبوا الله ورسوله، وكذبوا بالتخفيف تتضمن معنى التكذيب لله ولرسوله، ولآياته البينات، ومعنى

---

(١) ذكره القرطبى: الجامع لأحكام القرآن ـ ج٨، ص٢٢٤. عن ابن عباس رضى الله عنهما.

الكذب على الله ورسوله والناس بإظهارهم الإسلام، وإبطانهم الكفر، وإظهار أعذار غير صادقة.

وبين الله تعالى عاقبتهم فقال تعالى: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهنا إظهار فى موضع الإضمار؛ لأن المؤدى أنه سيصيب هؤلاء القاعدين الذين كذبوا الله ورسوله عذاب أليم، وكان الإظهار لأمرين: أولهما - بيان أن منهم كافرين، وبسبب الكفر سينالهم عذاب أليم، وثانيهما - أن منهم من لا يصرون على الكفر فيتوبون، فهذا العقاب للذين يصرون ولا يتوبون.

و(السين) فى قوله تعالى: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ لتأكيد وقوع الفعل فى المستقبل.

وقد ذكر الله تعالى بعد ذلك أصحاب الأعذار المقبولة فقال:

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

فى هذه الآية وما بعدها بيان الأعذار التى تبيح التخلف عن الخروج، ولم يذكرها القرآن الكريم بعنوان أنها أعذار، ولكن النص يفيد أنه لا إثم إذا تخلفوا، وذلك للإشارة إلى أن الجهاد غير واجب على هؤلاء، والاعتذار إنما يكون عند الوجوب والتخلف، وإذا لم يكن وجوب فالتخلف حينئذ له رخصة، وهؤلاء عاجزون عن القيام بهذا، والله لا يكلف العاجزين؛ لأنه تعالى يقول: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ... (٢٨٦)﴾ [البقرة] فالجهاد غير واجب عليهم، وذكر النبى ﷺ أن لهم فضل المجاهدين إذا نصحوا لله ورسوله، والنصح إخلاص القلب واللسان والعمل لله تعالى فالقلب لا يحدث إلا بالله، واللسان لا ينطق إلا مخلصا، والعمل لا يكون إلا لله تعالى، ويقال نصح له القول إذا أخلص له فى قوله، ونصح له فى العمل إذا أخلص له، ولقد روى مسلم فى صحيحه عن تميم

الدارى أن رسول ﷺ قال: «الـدين النصيحة. ثلاثا، قلنا: لمن! قـال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»(١).

وجاء فى تفسيـر القرطبى: قال العلماء: النصيحة لله إخـلاص الاعتقاد فى الوحدانيـة ووصفه بصفـات الألوهية وتنزيهه عن النـقائص، والرغبة فى مـحابه، والبعـد عن مساخطه، والنصيـحة لرسوله التصـديق بنبوته والتزام طاعتـه فى أمره ونهيه، وموالاة من والاه، ومعاداة من عاداه، وتوقـيره، ومحبة آل بيته (أى الذين اتبعوا هديه) وتعظيـمه، وتعظيم سنته، وإحيـاؤها بعد موته بالبحث عنها والتـفقه فيها والذب عنها ونشرها والدعاء إليها والتخلق بأخلاقه الكريمة ﷺ.

والنصح لكتـاب الله قراءته والتـفقـه فيـه، والذب عنه وتعليـمه، وإكـرامه والتخلق به. والـنصح لأئمة المسلمين بتـرك الخروج عليـهم، وإرشادهم إلى الحق وتنبيههم فـيما أغلوه من أجور المسلمين، ولزوم طاعتـهم فى الحق والقيام بواجب حقهم.

والنصح للعـامـة ترك معـاداتهم، وإرشـادهم، وحب الصـالحين والدعـاء لجميعهم، وإرادة الخير لكافتهم.

والمراد أنه لا إثم فى التخلف علـى من سقط عنه واجب الجهاد إذا نصـحوا لله ورسوله، إن اسـتقامت قلوبهم وألسنتـهم، وقاموا بحق الإرشاد والتنبـيه، وإن كـان لهم رأى فى الجهـاد وجـهوه، وكـأنهم إذا سـقط واجب الجـهاد بالسـيف، والاعتراك فى المعركـة، فإنهم يحملون واجبا آخر هو الإرشاد والتـوجيه، والمعاونة بكل ما يستطيعون، وإنهم إذا كانوا كذلك فإن لهم فضل الجهاد.

---

(١) رواه مسلم: الإيمان ـ الدين النصـيحة (٥٥)، عن تميم الدارى، وليس فيه ذكـر الثلاث عند مسلم، وإنما ورد التكرار فى رواية تميم الدارى عند أبى داود: الأدب ـ فى النصيحـة (٤٩٦٦)، وباللفظ المذكور أعلاه عند أحمد: مسند الشاميـين ـ حديث تميم الدارى (١٦٤٩٤) كما ورد ذكر الثلاث فى روايات أبى هريرة عند التـرمذى: البـر والصلة ـ ما جـاء فى النصيـحة (١٩٢٦)، والنسـائى: البيـعة- النصيـحـة للإمام (٤١٩٩)، وغيرهم.

وروى أبو داود أن رسول الله ﷺ قال: «لقد تركتم أقواما ما سرتم مسيراً ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم من واد، إلا وهم معكم فيه»، قالوا: يا رسول الله وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة!! فقال: «حبسهم العذر»[(١)].

وهؤلاء الذين سقط عنهم واجب الجهاد بالسيف، والاشتراك فى المعركة، ذكرهم الله تعالى فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾ أى إثم أو أن يكلفوا أنفسهم العنت والضيق.

والضعفاء هم الشيوخ الذى أثقلتهم السن، والنساء والصبيان، وغيرهم من الذين لا تتحمل أجسامهم لضعف بنيتهم، وخور مُنَّتهم[(٢)]، والأعمى والأعرج، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧)﴾ [الفتح].

والضعفاء الذين عذرهم، وفيهم الأعمى والأعرج وعذرهم ثابت دائم، وهناك أمر ليس بدائم، وهو عارض، ولكنه يسقط الوجوب فى مدة وجوده، وهو المرض الشديد الذى يقعد عن القيام بالواجب أو يزيده الجهاد مرضا.

وهناك عجز ليس فى ذات الجسم دائما، أو عارض قابل للزوال، وهو ألا يجد ما ينفق منه على نفسه فى رحلته، وقال تعالى فيه: ﴿وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾.

وكل لا يجب عليهم الجهاد، ولكن يجب عليهم أن ينصحوا لله ورسوله، وقد بينا ما قال العلماء فى ذلك، وإنهم بإخلاصهم ونصيحتهم، والقيام بالواجب الذى يقدرون قد أحسنوا فى جنب الله، ولذا قال تعالى: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾.

---

(١) هذه رواية أبى داود: الجهاد- الرخصة فى القعود من العذر (٢٥٠٨).

(٢) المُنَّة: القوة. والمقصود ضعف قوتهم.

وهذا النص السامى من جوامع الكلم.. وهو يفيد أن هؤلاء الذين قعدوا بأعذار حقيقية إذا نصحوا لله ورسوله محسنون، أى قاموا بالواجب وزيادة، ومن أحسن لا عقاب عليه، ومعنى قوله تعالى: ﴿**مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ**﴾ أى طريق لتأثيم، أو لوم أو عتاب، أو تعييب لموقفهم؛ إذ إن موقفهم أنهم قاموا بالواجب على قدر طاقتهم.

وهناك صنف غير من ذكرنا ليسوا ضعفاء، ولا مرضى، ويجدون ما ينفقون، ولكن لا يجدون ما يحملهم فى هذه الشقة البعيدة، وهم يسقط الوجوب عليهم، وقد قال تعالى فيهم:

﴿**وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢)**﴾.

(الواو) هنا عاطفة عطفت ما بعدها على قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى...**﴾ وتكرار لا لتأكيد نفى القدرة، وتحقق العذر وثبوته.

فهؤلاء الأصناف أربعة: الضعفاء، والمرضى، والذين لا يجدون ما ينفقونه من زاد، والصنف الرابع الذين لا يجدون ما يحملون عليه، وكان الرجل كما قال ابن عباس يحتاج إلى بعيرين، بعير يركبه، وبعير يحمل الزاد والماء فى هذه الرحلة الشاقة.

وقد قال فى هؤلاء مبينا حالهم: ﴿**وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ**﴾ وهذا يدل على أنهم لا يجدون ما يحملهم، ويدل على أنهم شكوا حالهم لرسول الله ﷺ، وأن الرسول لم يجد ما يحملهم، وذلك صريح، وهذا الكلام فيه من إيجاز الحذف ما لا يمكن أن يكون إلا فى أبلغ كلام وهو كلام رب العالمين، وما فى قوله تعالى: ﴿**إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ**﴾ لتأكيد فعل الشرط، وهو مجيئهم للنبى ﷺ وعرض حالهم، ومحاولة النبى ﷺ علاج

أمرهم، والبحث عما يحملهم عليه، وجواب الشرط هو قوله تعالى: ﴿تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ (تولوا) معناها انصرفوا، وحالهم مؤلمة باكية، وعبر عنه بقوله: ﴿وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ﴾ جملة معترضة بين فعل الشرط وجوابه، أو حال الكاف فى ﴿أَتَوْكَ﴾، وهذا ما اختاره الزمخشرى.

وقوله تعالى: ﴿تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا﴾.

(الواو) واو الحال، و﴿تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا﴾ فيه مجاز فى إسناد الفيض إلى العين؛ لأن معناه أن العين ذاتها تفيض كأنها صارت دمعا، لامتلائها، واغروراقها، و﴿مِنَ﴾ بيانية، أى أن تفيض العين من الدمع، والجار والمجرور فى مقام التمييز، كما تقول فاضت العين دمعا، وقوله: ﴿حَزَنًا﴾ حال، أى فاضت العين دمعا لأجل الحزن الذى استولى بسبب الحرمان من الجهاد، وهو متعة نفوسهم، وغاية ما يبتغون عند ربهم.

﴿أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ وألا يجدوا، المصدر المؤول، ويكون المعنى هم فى حال حزن شديد، ﴿أَلاَّ يَجِدُوا﴾ أى لأنهم لا يجدون ما ينفقون، ولا يجدون ما يحملهم، ففيه تقدير حرف محذوف.

وهذا يتضمن أنهم لا يجدون مركبا يركبونه، ولا نفقة ينفقونها.

وإنه يجب أن ننبه أن بعض الضعفاء الذين رفع عنهم الحرج بسبب ضعفهم، لم يرضوا بأن يكونوا قاعدين، وإخوانهم يجاهدون، بل ذهبوا وجاهدوا، وتقدم أحدهم وهو أعرج، قال لابد أن أكون بعرجى فى الجنة، ولم يتراخ ولم يرض بالقعود، وذهب بعضهم وهو يهادى بين رجلين، حتى وصل إلى الصف ليموت مجاهدا، رضى الله عنهم.

المؤاخذون فى التخلف

قال تعالى:

إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى
ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟
مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾
يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن
نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْۚ وَسَيَرَى
ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ
وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ
بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْۖ فَأَعْرِضُوا۟
عَنْهُمْۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟
يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْۖ فَإِن
تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾

كان آخر الآيات السابقة التى بينت ذوى الأعذار أنهم لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم، وأنهم لا يجدون ما يحملهم من إبل أو خيل، ولا يجدون من يمكنهم من الركوب بإعارة أو تبرع أو نحو ذلك.

فكان المناسب أن يذكر المقابل لهم الأغنياء الذين يجدون النفقة، ويجدون ما يحملهم، ومع ذلك يعتذرون عن الخروج بمعاذير كاذبة، ولذا قال تعالى:

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ (إنما) أداة قصر، أى لا سبيل للعتاب أو اللوم أو العقاب إلا على الذين يبادرون بالاستئذان، وهم أغنياء

يستطيعون الإنفاق ويجدون ما يركبون ويقطعون به الفيافى والقفار، وكلمة (السبيل) فى البيان القرآنى تطلق على الطريق للمؤاخذة، ثم العقاب من بعدها كما تقدم فى قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ وأن مؤدى هذا التعبير بيان أن ما يرتكبون سينتهى بهم لا محالة إلى عقاب شديد.

والقصر هنا إضافى؛ لأنه فى مقابل أنه لا سبيل على الضعفاء، الذين سبق بيانهم، فالسبيل خاص بالذين يستأذنون وهم أغنياء.

وقوله تعالى: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ هذه جملة مستأنفة لبيان سبب تخلفهم، وهو رضاهم بالمهانة والمذلة والاحتقار، إذ رضوا بأن يكونوا من الخوالف، وهن القواعد من النساء اللاتى لا يقاتلن، اللائى يعبر عنهن بربات الخدور، والخوالف أيضا الأشياء الفاسدة التى ترسب فى الإناء بعد تفريغه.

وقد ذكر سبحانه وتعالى السبب فى هذا الرضا الذى لا يرضى به عربى سليم فى إدراكه لمعنى المروءة والكرامة، فقال تعالى: ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أى أنه بتوالى نفاقهم، وسيطرة الأحقاد على قلوبهم، ونسيانهم ما توجبه المروءة والأخلاق والكرامة والعزة، قد طبع الله تعالى على قلوبهم، وختمها على ما فيها من مفاسد نفسية وفكرية، فهم لا يعلمون الخير من الشر وما تكون عاقبته وبالا وما لا تكون، لا يعرفون أنه إذا نزلت نازلة الهزيمة أمام الرومان تكون على العرب وفيهم المنافقون، لا فاصل بين البرىء والسقيم.

وإن دأب هؤلاء الذين يعتذرون عن مواقف الشدة بغير عذر أو بعذر كاذب أن يحسبوا أن كل كلام يقبل، سواء أكان مقبولا أم كان غير مقبول، فكانوا يفعلون ما يفعلون، ويحسبون أن النبى ﷺ يقبل معاذيرهم الكاذبة، وإن فساد قلوبهم وعقولهم يجعلهم يتصورون أن طيِّب القلب يقبل كل ما يُدلون به، ولذلك أكثروا من الاعتذار عما يفعلون، كما يكثرون من الاعتذار عن النفور إلى الجهاد،

ولذا قال تعالى عنهم: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لاَّ تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤)﴾.

ما كانوا يتوقعون أن يعود النبى ﷺ موفورا منصورا، بل كانوا يتوقعون أن ينال منه الرومان هو ومن معه من المؤمنين، حتى لقد كانوا يقولون فى مجالسهم، إن الرومان سيكبلون العرب، والمنافق مسرف فى القول دائما، ولكنهم رأوهم قد جاءوا منتصرين، وتخاذل الرومان عن لقائهم، وقد راعهم ذلك، فبدءوا يعتذرون كاذبين، كما اعتذروا فى التخلف كاذبين، ولذا قال تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ سالمين أقوياء مسيطرين على أنفسكم أحرارًا غير مكبلين، والاعتذارات كاذبة كقولهم لو نعلم قتالا لاتبعناكم، فيأمر الله تعالى نبيه بقوله تعالت كلماته: ﴿قُل لاَّ تَعْتَذِرُوا﴾ فكان النهى عن الاعتذار؛ لأنه كذب، والتمادى فى الاعتذار الكاذب تماد فى الكذب، والتمادى فى الكذب فجور وهو غير مقبول، ولذا بين السبب فقال: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾، أى لن نسلم لكم بما تقولون من أكاذيب، ونحن نكذبها لأن النبأ اليقين قد جاءنا عن الله، ولذا قال تعالى فى سبب التكذيب وعدم التسليم لهم ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ النبأ: الخبر الخطير، و﴿مِنْ﴾ هنا للتبعيض، أى قد نبأنا الله تعالى ببعض أخباركم وهو ما يتصل بنياتكم وبقلوبكم، وبالأفعال التى تقصدون بها إفساد عزائم المؤمنين، وتخذيلهم عن المجاهدين، وحقيقة ما تقصدون باعتذاراتكم وأنها كاذبة.

ثم قال تعالى: ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ (السين) لتأكيد وقوع الفعل فى المستقبل، أى أنه ليس لكم أن تتكلموا فى الماضى، فالله تعالى قد علمه من قبل، ونبأنا به، وإنما الأمر الحاضر، ﴿وَسَيَرَى﴾ أى سيشاهد، أو سيعلم علم المشاهدة أو الواقع الله ورسوله.

وهذا الكلام السامى يفيد أمورا ثلاثة: أولها ـ أنه لا يصح أن تشغلوا أنفسكم بما استدبرتم من أمور، بل اشغلوها بما تستقبلون من أموركم، وثانيها ـ التهديد بأن الله تعالى ورسوله يعلمان أموركم فى المستقبل علما مؤكدا لا مناص من أن تتخلصوا من تبعاته، وإن الله تعالى سيحبط أعمالكم، وثالثها ـ رجاء أن يدخل الخير قلوبكم، فتتوبوا عما أنتم عليه، ويصلح بالكم، فلا تعتذروا عن التخلف كاذبين.

وينذرهم الله سبحانه وتعالى الإنذار الشديد فيقول سبحانه: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ (ثم) للترتيب والتراخى، والتراخى هنا فى موضعه؛ لأن فيه الانتقال من الدار الفانية إلى الدار الباقية، فيه الانتقال من دار العمل إلى دار الجزاء، وقوله تعالى: ﴿تُرَدُّونَ﴾ تفيد أمرين: أحدهما ـ أنهم يذهبون إلى هذه الدار غير مختارين، بل يردون إليها مدفوعين، ثانيهما ـ فى التعبير بلفظ ما يفيد معنى الرجوع إليها بعد هذه الحياة، وكأنهم فى الدنيا فى سفر يعود بعدها المسافر إلى حيث إقامته وموطنه، فالإنسان ما خلق عبثا، إنما خلق لأجل البقاء فى الآخرة، فهى وطنه الأصلى إما نعيما مقيما، وإما عذابا أليما.

والمرد فى الآخرة إلى الله تعالى حيث يلقاه العباد ويلقاهم بأعمالهم التى لا تخفى عليه منها خافية، فلا نفاق ولا كذب ولا مراءاة، ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ الغيب هو المغيب أو المستور، وعالم الشهادة هو العالم الظاهر، فهو يعلم السر والجهر ويعلم الحاضر والغائب، يعلم ما كان وما يكون. ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ و(الفاء) هنا للترتيب والتعقيب؛ إذ إن الإنباء يكون عقب الرجوع إلى الله تعالى، وذلك دليل على تأكد وقوع ما وعد به وتحققه وأنه لا مفر من قيام القيامة، ونزول ما وعد الله تعالى به.

والإنباء فى هذا الحال، ليس بالأقوال، ولكن بالرؤية والأفعال فهو مجاز، يرون أعمالهم، تنطق أيديهم وأرجلهم بما كانوا يفعلون، وتشهد عليهم ألسنتهم

وجوارحهم وأفعالهم، فالإنباء فيه وعد ووعيد، فيه أن يعلم الناس ما فعلوا ويروا جزاء ما فعلوا حاضرا مهيأ يستقبلهم ويستقبلونه.

ابتدأ المنافقون بالاعتذار ليصدق النبى ﷺ ومن معه من المؤمنين معاذيرهم؛ لأنهم رأوهم جاءوا سالمين، وسولت لهم نفوسهم أنهم سيجيئون مقهورين مكبلين فى الأصفاد وزين ذلك فى قلوبهم، فلما جاءوا بالظفر والقوة ابتدءوا فاعتذروا فلم يقبل لهم عذر، فنزلوا عن بعض ما رغبوا إلى أن يعرضوا عنهم، وينسوا ذلك الأمر الذى وقع ليستقبلوا معاملة جديدة كما يجرى فى وهمهم، وكما يريدون أن يوهموا به المؤمنين، وحكى الله تعالى عنهم بقوله تعالت كلماته: ﴿**سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** (٩٥)﴾ (السين) لتحقق الفعل فى المستقبل، و﴿**انقَلَبْتُمْ**﴾ معناها رجعتم، وعبر عن الرجوع بالانقلاب؛ لأن المجاهد سائر فى طريقه إلى الأمام فإذا أراد العودة انقلب من السير إلى الأمام إلى العودة إلى الوراء، والتعبير بالانقلاب يفيد العودة مختاراً غير مقهور ولا مهزوم ولا متراجع.

وحلفهم ليس للاعتذار، بل هو لطلب السكوت عنهم، ولذا قال تعالى: ﴿**لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ**﴾ أى تسكتوا عنهم فلا تلوموهم ولا تعيروهم ولا تذكروهم بما رضوا به من قبل من القعود مع الخوالف، وقولهم ذرنا نكن مع القاعدين. طلبوا أن يسكتوا عنهم فأمر الله تعالى المؤمنين بأن يستجيبوا لهم لا إرضاء لنفوسهم، ولكن لأنه لا جدوى فى لومهم، ولأن الله تعالى يريد أن يسكتوا عنهم حتى لا يكثر قول النفاق منهم، ولذا قال: ﴿**فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ...**﴾ فأعرضوا عنهم، فلا تلوموهم، ولا توبخوهم لأنهم رجس، أى أنجاس قذرهم لا يطهره لوم ولا عتاب، كالشيء الذى يكون نجس العين مثل الخنزير، لا يطهره الماء، بل الماء ينجس به، وكثرة القول معهم فى أنجاسهم يشيع قول السوء فى الذين آمنوا.

وأنهم وراءهم العذاب الأليم، فقال تعالى: ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى مستقرهم الذى يستقرون فيه ويأوون إليه جهنم جزاء بما كسبوه فى الدنيا من آثام فى أقوالهم وبثهم الشر والفساد بين المؤمنين وسعيهم وتثبيطهم لهمم المؤمنين.

وقلنا: إن التعبير فيه نوع من التهكم عليهم؛ لأن المأوى مكان الاطمئنان والراحة، وإن المنافقين يرتعدون من الإعراض عنهم ويسعون إلى طلب رضى النبى والمؤمنين، فيحلفون لهم بما يقرب قلوبهم، ولذا قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦)﴾ لقد أعرضوا عنهم ولكنه إعراض من لا ينسى ما كان منهم ولكن لا يذكره، أعرضوا عنهم بوجوه مكفهرة، وما فى قلب المؤمن يظهر فى لمحات عينه وعلى وجهه فهو فى اشمئزاز منهم، وإن كان لا يتكلم بسوء، وهذه الحال لوم شديد، وهم يريدون إرضاءهم، فأخذوا عدتهم من القول، وهو الحلف ليدنوا منهم ويتقربوا من نفوسهم، وتتلاقى مشاعرهم وإحساساتهم، فيتمكنوا منهم، ويعرفوا دخائل نفوسهم، وقد نهى الله تعالى عن ذلك، ولذا قال: ﴿فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

والمؤمن يطلب رضا الله دائما، ويتبع ما يرضى الله، ولا يفعل قط ما لا يرضى الله، فإذا كان الله لا يرضى عنهم، فالمؤمن اتباعا لحكم الله تعالى لا يرضى عنهم.

وإن رضا المؤمنين من غير رضا الله تعالى لا يجديهم؛ لأنه هو الذى يعاقب وهو الذى ينعم، ويشقى، فإن أرادوا الرضا، فليطلبوا رضا الله تعالى لا رضا المؤمنين وحدهم، ورضا الله فى أن يخلعوا أنفسهم من النفاق، ويخرجوا من إهابه، فبئس الإهاب يلبسونه.

وقد بين الله سبحانه وتعالى السبب فى أنه لا يرضى عن المنافقين ما داموا مستمرين على حالهم ، وذلك فى قوله: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ فإن الإظهار والمقام مقام الضمير، كأن يقول تعالت كلماته «فإنه لا يرضى عنهم» وفى ذلك تعليل سبب عدم الرضا، وهو فسقهم وتمردهم على أوامر الله ونواهيه وتضافرهم على ذلك، حتى صاروا بذلك التفاهم على النفاق بينهم قومًا قائمين عليه راضين به، اللهم اكف أمتك شر النفاق والمنافقين.

الأعراب

قال تعالى:

ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

لقد تم نزول القرآن الكريم قبل وفاة الرسول ﷺ، والكلام على هذه الآية يدل على أن القرآن من عند الله تعالى علام الغيوب؛ لأنه يدل على أمرين وقعا بعد وفاة الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه:

الأمر الأول: أن الأعراب أشد كفرًا ونفاقا، ولذا ارتدوا أو أكثرهم بعد وفاة النبى ﷺ حتى أحاطوا بالمدينة، ولولا وقفة الصديق خليفة رسول الله، والصحابة الأولين من المهاجرين والأنصار لاقتلعوا الإسلام.

الأمر الثاني: أنه عندما قويت دولة الإيمان عليهم، وهزموا هزيمة منكرة، رضوا بالصلاة دون الزكاة لأنهم اتخذوها مغرما، ولم يتخذوها قربات عند الله وتعاونا بين المؤمنين، وهو تعاون على البر والتقوى، ولذا لم يقبل خليفة رسول الله إلا الإسلام الكامل، والطاعة، وقالها مؤمنًا: إما حرب مجلية، وإما سلم مخزية.

ولقد تربص أولئك الأعراب الدوائر بالمؤمنين فانتهزوا فرصة وفاة النبى ﷺ وارتدوا فدارت عليهم دائرة السوء.

وإن ذلك كله دلائل على أن القرآن من عند الله تعالى العزيز الحكيم.

الأعراب هم سكان البوادى فى خلقهم جفوة، وفى طبائعهم خشونة، وفيهم نفرة لا يأنسون بالناس ولا يأنس بهم الناس، وإن كان فيهم يقظة وسرعة حركة ونجدة، وهم لذلك أقل الناس علما وفكرا، وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال: «من سكن البادية جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى السطان افتتن».

ولقد قال ابن كثير فى تفسيره: ولما كانت الغلظة فى أهل البوادى لم يبعث الله منهم رسولا، وإنما كانت البعثة من أهل القرى، كما قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ** ... (١٠٩)﴾ [يوسف]، والقرى: المدن العظيمة، وخير القرى ما يكون قريبا من البادية أو فى وسطها كمكة والمدينة... فهى تجمع بين قوة نفس البدوى وأنس الحضرى، وكذلك كان يبعث النبيون فموسى بعث بمدين، وعيسى بعث على مقربة من البادية، ومحمد بعث بمكة عليهم الصلاة والسلام، وقد وصف الله تعالى الأعراب بثلاثة أوصاف: أولها: أنهم أشد كفرا، وثانيها: أنهم أشد نفاقا، وأفعل التفضيل ليس على بابه؛ لأنه لم يذكر الفضل عليه، وحيث لم يذكر الفضل عليه يكون المعنى أنه كفر بلغ أقصاه

وأشد أحواله فهو كفر يلتقى فيه الجحود، وعدم التفاهم، والجهل الشديد، والغلظة الجافية.

ونفاقهم ليس كنفاق أهل المدينة، ولكن نفاقهم يكون بعدم الإيمان المطلق مع التسليم الظاهر، وعدم الإلف، وهم كما قال الله تعالى: ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ... (١٤) ﴾ [الحجرات].

والوصف الثالث هو قوله تعالى: ﴿ وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﴾ إنهم بإقامتهم فى البادية كانوا جديرين وخلقاء ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله بألا يعرفوا أحكام الشريعة والفرائض، وتوابعها وأحكام الجرائم، وعقوباتها، والمحرمات من النساء والأنكحة والمواريث، وغير ذلك من أحكام الشريعة التفصيلية.

﴿ وَأَجْدَرُ ﴾ أفعل تفضيل على غير بابه، إذ إن المفضل عليه غير موجود، والمعنى أنهم لبعدهم عن المدائن والقرى حيث العلم والفقه - صاروا فى أغلب الأحوال جديرين بالبعد عن العلم بحدود الله تعالى.

وفى مذهب مالك لا تقبل شهادة البدوى على الحضرى، ولا تجوز إمامته له، وذكر هذا القرطبى فى تفسيره وهو مالكى، ونقول إنه غريب عن مالك إمام دار الهجرة رضى الله عنه، وإن المؤمنين عدول فيما بينهم، والإمامة للأعلم فالأقرأ، وقد يكون فيهم أعلم وأقرأ، ووصف مجموعهم لا يقتضى وصف كل واحد منهم.

ثم ختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أى يعلم الله تعالى أحوال الجماعات ونفوسهم مؤمنهم وكافرهم قويهم وضعيفهم، وهو المتصف بالعلم الكامل، وحكيم يدبر الوجود بمقتضى الحكمة.

فإذا كان الجهل فى البادية لبعدها عن العمران ففيها البأس والقوة، والصبر على مصاعب الحياة وشدائدها، ولذلك لما قضى الصديق على الردة، وأخلى

الأرض العربية منها ـ جيَّش الجيوش إلى كسرى وقيصر، وكان أكثرهم من أهل الأعراب الذين ارتدوا فوجه قوتهم إلى الأعداء.

بعد أن بين سبحانه أخلاق الأعراب أخذ الحكم العدل اللطيف الخبير يبين أهل الشر منهم، وأهل الخير فقال تعالى: ﴿ **وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** (٩٨) ﴾.

إن الأعراب الذين هم أشد كفراً ونفاقًا يرون المسلمين لهم القوة والسيطرة فما يدفعونه من زكاة يقدمونها على أنها مغرم أى مال وجب عليهم أداؤه، ولأنهم لا يؤمنون بالله ورسوله ولا اليوم الآخر يعدونه مغرما ـ والمغرم: الغرم أو الغرامة، والغرامة هى المال الذى يدفع فى غير مقابل، ولأنهم لا يؤمنون ولا يرجون خيراً فى عطائهم، وأصل الغرام الشىء الملازم، وأطلق على المدين الغارم، لأنه ملازم دائما من الدائن ولذا قال تعالى: ﴿ ... **إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا** (٦٥) ﴾ [الفرقان].

فهؤلاء الأعراب لاعلاقة لهم بالمجتمع، ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، يعدون ما ينفق من زكاة مفروضة غرامة، وينتظرون أن ينخلعوا من هذا المال المفروض عليهم، ولا يؤمنون بوجوبه عليهم؛ لأنهم لا دين لهم وقال: ﴿ **وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ** ﴾ أى ينتظر ذلك الفريق من الأعراب أن تنزل بكم النكبات، «والدوائر» وهى جمع دائرة، والدائرة النائبة وهى فى أصلها مصدر كالعافية، وقد تكون اسم فاعل من دار يدور، أى نكبة دائرة، وتتعاقب على الناس، أى أن أولئك المنافقين غير المؤمنين من الأعراب ينتظرون أن تنال المؤمنين دائرة تذهب بقوتهم، فيتحللون من تلك النفقات المفروضة، وقد انتظروا حتى توفى الرسول ﷺ فحسبوها فرصة فارتدوا، ثم لما زادت الشدة من أهل الإيمان عليهم رضوا بالصلاة، وامتنعوا عن الزكاة، حتى دفعوها صاغرين بسيف الله الذى رفعه الصديق رضى الله تعالى عنه.

ويقول سبحانه: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ أى أنه ينزل عليهم نكبة السوء، وهنا فى (السوء) قراءتان، إحداهما بضم السين[١]، وهى المصدر بمعنى ما يسوءهم، فالدائرة نازلة ومقبلة، ولكنها ليست على المؤمنين بل على المنافقين من الأعراب، ولذلك هزمهم الصديق وخضد شوكتهم، وتقرأ السين فى القراءة الثانية بالفتح[٢]، والسوء: الضرر والفساد وكل قراءة من القراءتين قرآن متواتر.

وبجمعها يكون المعنى أنه يصيبهم نكبة تفجعهم وتسوءهم، وعاقبته مضرة شديدة عليهم أن يشرد جمعهم ويتفرق أمرهم وتسبى نساؤهم ثم يعتقن، وأن يقتل رجالهم وينهزموا.

ثم ختم الله تعالى الآية ببيان أن ما ينوون وما يتربصونه يعلمه الله تعالى ويدبر الأمور على غير ما يريدون، بل على ما يريد الحق جل جلاله، ولذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ صدر الجملة السامية بلفظ الجلالة، لتربية المهابة فى نفوس القارئين والمستمعين، وملء القلوب برقابة الله تعالى؛ لأنه ﴿سَمِيعٌ﴾ يسمع ما تحدث به النفوس، وما تهمس به الأفئدة ﴿عَلِيمٌ﴾ بكل شىء، يدبر الأمر على مقتضى علمه، وقد أحاط بكل شىء علما.

وأن الله يعلمنا الإنصاف فى الأقوال والأفعال، ولله المثل الأعلى، فيذكر تعالت كلماته بجوار المنافقين من الأعراب الأبرار فيقول عز من قائل:

﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٩)﴾.

هذا هو الصنف من الأعراب الذى أخلص لله تعالى، وسلمت قلوبهم من النفاق، وآمنوا بالله وأقاموا الصلاة، وقد ابتدأ سبحانه وتعالى بالإيمان بالله تعالى،

---

(١) قراءة (السوء) بضم السين والمد، قراءة ابن كثير وأبو عمر، وقرأ الباقون(السَّوء). غاية الاختصار (٩٦٤).
(٢) السابق.

فقال: ﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ ذكر سبحانه وتعالى الإيمان بالله تعالى وهو الإيمان بوحدانيته، وأنه الخالق من غير شريك، والواحد فى صفاته من غير مثل، والمتفرد بالألوهية والعبادة وحده سبحانه وتعالى، والإيمان بأن له رسلاً أرسلهم إلى خلقه ويؤيدهم بمعجزات باهرة تدل على أنهم يتحدثون عن الله، وأنه أرسل محمدًا بالهدى ودين الحق بشيرًا ونذيرًا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا.

فذكر الإيمان بالله تعالى يقتضى الإيمان برسله عامة ورسالة محمد ﷺ خاصة، وقال تعالى: ﴿وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ وهو يوم القيامة وما قبله من بعث ونشور وحساب وثواب وعقاب، فكل ذلك إيمان باليوم الآخر، وهو إيمان بأن الإنسان لم يخلق عبثا، وأن الدنيا قنطرة الآخرة.

وقوله تعالى وهو ما يتبع الإيمان: ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ﴾ ومعنى ﴿يَتَّخِذُ﴾ يفعلها قاصدا أن تكون قربات، لا كالذين فعلوها على أنها مغرم من المغارم يغرمونها، ﴿قُرُبَاتٍ﴾ أى يفعلونها متقربين بها إلى الله تعالى، فالقربات جمع قربة، وهى ما يتقرب به إلى الله تعالى، وجمعها لتعدد الخير فى الصدقات فهى طاعة لله تعالى وهذه قربة، ووقاية النفس من شحها وهذه قربة أيضا، ومعاونة اجتماعية وهذه قربة رابعة، وعلاج لأدواء المجتمع الإسلامى بإعطاء السائل والمحروم حقهما، وتلك قربة خامسة، وطب لنفوس المحاويج حتى لا يحقدوا على المجتمع، وهذه قربة سادسة. وهكذا تجتمع القربات فى الزكاة وهى الإنفاق فى سبيل الله.

﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ معطوفة على ما ينفق قربات للرسول، وصلوات الرسول قال أكثر المفسرين إنها جمع صلاة بمعنى دعاء أى دعوات الرسول التى يدعو الله تعالى بها عند قبول الصدقات، أى أنهم يتخذون الزكاة قربات لهم

ودعاء الرسول بالبركة يتخذونها قربات أيضا، ويزكى ذلك قوله تعالى بعد ذلك: ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾.

وقد خطر على ذهنى أن قوله تعالى: ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ معطوفة على قوله ﴿مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ﴾ أن الظاهر الصلوات المفروضة وليس الدعاء المقرون من الرسول بقبول الصدقات وإضافتها إلى الرسول ﷺ باعتبار الصلاة فرضت فى القرآن، وبينها النبى ﷺ بيانا عمليا، فقال معلما للمؤمنين «صلوا كما رأيتمونى أصلى»[(١)] فكانت صلوات المؤمنين جميعا هى صلوات النبى ﷺ، فكانت إضافتها إليه ﷺ باعتباره المبين لهذه الفرائض ويكون هؤلاء المتقون من الأعراب قد قاموا بالصلاة والزكاة معا، لا يفرقون بينهما كما أراد المرتدون. ثم قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾.

الضمير - على ما قلنا - يعود إلى الصلوات، وعلى قول أكثر المفسرين يعود إلى ما ينفقون فى سبيله، ولا شك أن عوده إلى الصلوات أوضح؛ لأن الضمير مؤنث، وهو أجدر بأن يعود على جمع مؤنث.

و(ألا) هنا أداة تنبيه، وهى تفيد معنى القربة وتؤكده، وتغنى عن ذكر وصف الصلوات بأنها قربة أيضا.

وقوله تعالى: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾: (السين) لتحقق الدخول فى الرحمة، والرحمة إما أن يراد بها الجنة وعبر عنها بالرحمة؛ لأنها نعيم مقيم وأعلى رحمة يعلو الإنسان إليها، وإما أن يراد بها الرحمة الشاملة المذكورة ﴿... وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ... ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف]، لتشمل الجنة وغيرها ويكون المعنى أنهم باتخاذهم ما ينفقون والصلوات - تحيط بهم رحمة الله تعالى لا يخرجون منها إلا إليها.

---

(١) سبق تخريجه.

وقد ختم الله تعالى الآية بما يفتح باب التوبة للأعراب، وهم أقرب المنافقين فى المدينة الذين مردوا على النفاق فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أكد غفران الله تعالى ورحمته بـ (إنّ) المؤكدة، وبالجملة الاسمية، وبصيغة ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وبعد أن بين الله أحوال الأعراب ما بين مؤمن ومنافق، ذكر أحوال الذين سبقوا إلى الإيمان.

السابقون

قال تعالى:

وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ
ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ
لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ
ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ
مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ
نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ
عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا
وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾
خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ
إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾

بعد أن بين سبحانه أحوال المنافقين فى المدينة بين أصنافا ثلاثة من الذين يحيطون بصاحب الدعوة: **أولهم وأتقاهم**: هم الذين قامت عليهم دعامة الإسلام، وآمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر.

وثانيهم المنافقون حول المدينة، والذين مردوا على النفاق فى داخلهم ، والله تعالى يعلمهم.

وثالثهم: فريق خلط عملا صالحا وآخر سيئا، وأفاقوا واعترفوا بذنوبهم فعسى الله تعالى أن يتوب عليهم، وهو التواب الرحيم.

الصنف الأول ذكره الله تعالى بقوله: ﴿**وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ**﴾ السابقون الأولون هم الذين سبقوا إلى الإسلام، والنبى ﷺ منفرد قد أنذر عشيرته الأقربين، فأعرض بعضهم وأنكروا شديد النكير. ومن لم يعرض وقف حائراً بين غرابة ما يدعى إليه وماضى الصديق الأمين.

والذين كانوا من الضعفاء ولم يكونوا من الأقوياء إلا نفر قليل، والضعفاء كان منهم الرومى، ومنهم الفارسى ومنهم الحبشى، وكونوا الخلية الأولى للإسلام، ولكنهم وإن كانوا قليلا كانوا بإيمانهم واستمساكهم وتفديتهم للإسلام كانوا أقوى وأشد، وكانوا يتبعون النبى ﷺ سرا ولا يجهرون حتى انضم إليهم عمر فأعز الله نبيه وأولئك الضعفاء، وكان أن صدع بأمر الله كأمر ربه. ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ** ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر]، ولما علم أهل المدينة بدعوة محمد قابلهم فى العقبة الأولى ثم فى العقبة الثانية، وهاجر ومن معه إليهم فآووا ونصروا، وإذا كان الأولون قد سبقوا إلى الاستجابة، فقد سبق الأنصار إلى إنشاء دولة الإسلام، وإذا كان الأولون قد سبقوا ابتداء ولهم فضل الهجرة، فقد سبق الأنصار إلى بناء الدولة، ونالوا أفضل الإيواء والنصرة.

والذين اتبعوهم بإحسان فى هذا الدين ممن أسلموا وهاجروا ثم اشتركوا فى الإيواء.

وهناك قراءتان إحداهما بالواو[1] (والذين اتبعوهم بإحسان)، ويكون هذا لبيان فضل من جاء بعدهم ممن نهجوا منهاجهم فى حياتهم، ومن جاءوا بعدهم،

(١) قراءة العشرة. وهى المتواترة.

ومن فى قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ﴾ بيانية، أى هم المهاجرون والأنصار.

وهناك قراءة من غير الواو[١]، ويكون من تبعوهم بيان لفضل الأنصار وتكون بدلا أو عطف بيان، أى أن المهاجرين سبقوا وتلقوا الأذى والبلاء، والأنصار نصروهم واتبعوهم بإحسان أى اتبعوهم بإتقان وإجادة، ورضا وتقبل بقبول حسن، ولقد ذكر الله تعالى مناقب المهاجرين والأنصار وجزاءهم.

فذكر الجزاء الأعلى وهو رضاهم بالله وليا ونصيرا، ورضا الله تعالى عنهم أحباء لله تعالى، فقال: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ ورضوان الله تعالى أكبر جزاء على الطاعات، فقد ذكر الله تعالى الجزاء من جنات ونعيم مقيم، ثم قال: ﴿... وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ... (٧٢)﴾ وقد قدمه تعالى على كل جزاء من بعده، فالإحساس برضا الله أعلى درجات الجزاء، ووصفهم الله بأنهم رضوا عنه، رضوا بتكليفاته، وتقبلوها بقبول حسن، وقاموا بحق طاعته، وأحبوا الله لا خوفا من ناره، ولا طمعا فى جنته، بل لكمال محبته، وتلك هى المنزلة العليا فى العباد، لا يعبده سبحانه خوفا ولا طمعا، ولكن محبة، وسعادة بعبادته.

ومع هذه المرتبة العليا من المكانة التى لا تعلوها مكانة، ولا ينهد إلى مثلها جزاء ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾.

فى هذا النص السامى قراءتان متلاقيتان فى المعنى، ففى المصحف المكى زيادة «من» وفى غيره خلو منها[٢]، وفى الجنات الثمار الطيبات وتعدد الجنات لتعدد ثمارها، ففيها فاكهة ونخل ورمان، وغيرهما مما لا عين رأت ولا أذن

---

(١) قراءة: (الذين) بغير الواو، ليست فى العشر المتواترة.

(٢) (تجرى من تحتها)، بإثبات (من) قراءة ابن كثير، وكذلك رسم هذا الحرف فى مصحف أهل مكة، وقرأ الباقون (تجرى تحتها)، وكذلك رسمها فى بقية المصاحف، انظر المقنع-ص١٠٤، السبعة-ص٣١٧، والنشر-/ ١٨٠٢. غاية الاختصار- برقم (٩٦٧).

سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولا يخاف فيها الفوت، ولا الانقطاع، ولذا قال تعالت كلماته ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ والخلود ذاته نعمة؛ لأن البقاء نعمة، والفناء فيه الخوف.

﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الإشارة إلى هذا الجزاء العظيم من رضوان منه، ورضا بأمره ونهيه، وقضائه خيره وشره وجنات متعددة الثمار مختلفة الألوان والأنواع، هو الفوز العظيم، ولا فوز يقابله أو يناهده، ومن ناله فقد نال خير الدنيا والآخرة.

ذكر الله تعالى السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين جاءوا من بعدهم واتبعوهم بإحسان فى وسط الكلام فى المنافقين؛ ليتميز الخبيث من الطيب، وليكونوا قدوة لهم إن أرادوا الهداية، ولقد عاد القول إلى المنافقين فقال تعالى:

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١)﴾.

هذا هو الصنف الثانى ممن شملتهم الآيات الكريمة، وهم الذين شغلوا الكثير من الآيات الكريمات، وشغلوا أفكار المسلمين بتخلفهم المرة بعد الأخرى، واعتذارهم الكاذب فى كل مرة ويحلفون بالله كاذبين مجترحين الأثام بعد الأثام، ويكرر الله تعالى ذكرهم لأنهم آفة الجماعات، وداؤها الدوى، ولا تنهض جماعة إلا بإبعادهم عن بيئتها الفكرية.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾ وهم قبائل مختلفة - ذكر بعض المفسرين قبائلهم، فقال من مزينة وجهينة، وأسلم وغفار وأشجع، ناس منهم وليسوا كلهم، ولذا ذكر بعضهم فـ«مِنْ» فى قوله: ﴿مِمَّنْ﴾ أى (مِنْ) المدغمة فى (مَنْ)، أى بعض من حولكم من الأعراب منافقون أتقنوا النفاق وأجادوه، حتى إنهم ليحسنون إخفاء ما فى بطونهم، فلا تعرفهم فى لحن القول، كما تعرف

غيرهم ممن تكشف بعض أمرهم، فقال الله تعالى فيهم: ﴿... وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ... (٣٠)﴾ [محمد]، ولقد قال للنبى ﷺ: ﴿لا تَعْلَمُهُمْ﴾ أى مع فطنتك وقوة حسك، ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ المتكلم هو الله جل جلاله، وهو يعلم ما تسره النفوس، وما يناجون به فيما بينهم، وهذا نفاق فيمن حولكم، أى يحيطون بدياركم ويجب الحذر منهم والاحتياط لهم، وتكشف أمرهم حتى لا يخدعوكم.

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ الذين يتتبعون عورات المؤمنين، ويتسمعون مواضع الضعف فيكم، وهؤلاء أصلاء فى النفاق من وقت أن رأوا القوة فيكم، فأسروا الكفر وأظهروا الإسلام، ودأبوا على النفاق ولجوا فيه، حتى صار النفاق عليهم سهلاً ميسرا، وعبر الله تعالى عن دأبهم فى النفاق ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ وتجردوا له حتى خلصت نفوسهم له حتى صاروا لا يستطيعون الصدق لو أرادوه، والإخلاص لأمر من الأمور، ولقد صاروا مهرة، من مرد فلان على العمل، إذا مهر فيه.

ولذلك رتب على مرد أن الرسول الفطن الأريب لا يعلمهم، والله علام الغيوب، وما تحدث به النفوس يعلمهم، وإن الله إذ يعلمهم يعذبهم فى الدنيا والآخرة، ولذا قال: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ غير العذاب الأليم الذى يردون إليه، وأن توزيع العذاب عليهم يجعل العذاب مرتين، والعذاب الذى يردون إليه فى الآخرة.

وقد اختلف المفسرون فيه، فقيل العذاب مرتين عذاب الفضيحة، وعذاب القبر، وقيل العذاب مرتين الفضيحة، وتنفيذ الحدود فيهم وأخذ الفرائض منهم.

وإنى أرجح أن العذاب مرتين هو الفضيحة، ورد كيدهم فى نحورهم، وفساد تدبيرهم، وغيظهم من أن المسلمين بقيادة النبى ﷺ يخرجون من كل تدبير دبروه سالمين، وأميل إلى الذين فسروا قوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ إلى أن مرتين كناية عن كثرة العدد، وترادف المرة بعد المرة، مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ

الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤)﴾ [الملك] وقد عذبوا مرات، كل مرة تتلوها أختها، عذبوا بعد أحد، وبعد الخندق، ومن قبل وبعد بدر، وفى كل غزوة كانوا يتمنون فيها الخسارة للمؤمنين، ولقد قال تعالى فيهم: ﴿أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦)﴾.

و(السين) فى قوله تعالى سنعذبهم لتأكيد وقوع العذاب المتكرر بهم، وهو عذاب نفسى وعذاب بدنى كما وقع لقريظة، وعذاب مالى كما وقع لبنى النضير وكل ذلك مع العذاب النفسى المستمر لغيرهم فى كل الغزوات حتى تبوك.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ﴾ ثم ينقلبون إلى عذاب عظيم فى نار جهنم، و(ثم) هنا فى معناها من حيث التفاوت بين عذاب الدنيا وهو مكرر، وعذاب الآخرة الدائم الذى لا ينتهى، ويردون فيها معنى الدفع لهم عن الذى كانوا يحسبونه إلى عذاب عظيم، والتنكير هنا لتكثيره وشدة آلامه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ... (١٤٥)﴾ [النساء].

وبعد أن ذكر السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ذكر الذين تابوا واعترفوا بذنوبهم.

فقال تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢)﴾.

هذا هو الصنف الثالث، وهم الذين تخلفوا فى غزوة تبوك، فالقسم الأول من المهاجرين والأنصار ومن اتبعوهم بإحسان واقتدوا بهم، وإن لم يسبقوا سبقهم وهؤلاء ما تخلفوا عن غزوة غزاها النبى ﷺ، والقسم الثانى المنافقون الذين تخلفوا وكانوا يتمنون الهزيمة للمؤمنين.

والقسم الأخير تخلفوا من غير معذرة، ولم يدنسوا ألسنتهم بكذبهم، وأحسوا بكبر ما فعلوا فاعترفوا بذنوبهم وأحسوا بوخز الإثم يحيك فى صدورهم، وكبر أمرهم فى أنفسهم عندما نزلت الآيات للمتخلفين، فجاء بعضهم وربطوا

أنفسهم على سوارى المسجد وأقسموا ألا يحلوا أنفسهم إلا إذا حل رسول الله ﷺ رباطهم، فلما جاء من سفره وإنه كان من سنته أنه إذا جاء من سفر صلى لله ركعتين، فلما رآهم أبى أن يحل وثاقهم حتى يجىء أمر الله بذلك، وقد نذروا أن يتصدقوا بأموالهم إن غفر الله لهم تخلفهم، فغفر الله تعالى لهم بهذه الآية التى فيها ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾(١).

فلما تاب الله تعالى قدموا من أموالهم، وبعضهم قدم كل أمواله تكفيراً عما اجترح من سيئة التخلف وهو قادر، ويقول تعالى فى شأنهم: ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا﴾ وهو الجهاد السابق والإيمان، والإحساس بالذنب، والتوبة النصوح، والتصديق، والآخر السيئ؛ وهو التخلف فى الجهاد الذى بعدت فيه الشقة، وهذا أمر سيئ؛ لأنه عصيان لأمر الله تعالى؛ ولأنه تخاذل فى وقت الشدة؛ ولأنه إيثار للراحة على الجهاد.

وقوله: ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾، أى جمعوا بين الخير والشر، ولم يقل سبحانه وتعالى ـ ولكلامه المثل الأعلى ـ خلطوا بعمل صالح آخر سيئا من غير تمييز بين المخلوط والمخلوط به؛ لأنه ليس المقصود معرفة المخلوط من المخلوط به، إنما المقصود أنهم جمعوا بين الصالح والطالح، وقوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ الرجاء ليس من الله إنما هو من العباد، يرجون أن يتوب الله عليهم أى يرجع عليهم بقبول التوبة.

أو يقال إن الأمر مادام قد اختلط الخير بالشر وكان الترجى فإن الأمر يرجى فيه قبول التوبة؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات، ولأن الخير الغالب برحمة الله يذهب بالشر المغلوب، وأن غفران الله ورحمته يطلبان قبول التوبة حيث كان لها مسوِّغ، لأن الله تعالى يقبل التوبة من عباده، ولأنه غافر الذنب قابل التوب شديد العقاب، وختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فى هذه الجملة

(١) راجع ابن جرير الطبرى: جامع البيان (١١/ ١١٠). كما أخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل. الدر المنثور (٤/ ٢٧٤).

السامية تأكيد لمعنى الغفران وقبول التوبة رحمة بعباده، وذلك لأن الجملة السامية مؤكدة الغفران والرحمة بـ (إنّ) الدالة على التوكيد، وبالأوصاف للذات العلية ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وبالجملة الاسمية.

وقد كان أولئك التائبون المعترفون بذنوبهم يقدمون أموالهم تكفيرا عن ذنوبهم، فأمر الله تعالى نبيه الأمين أن يأخذها فقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣)﴾.

يحسب بعض الكتاب فى التفسير القرآنى أن فى هذا النص ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ به فرضية الزكاة، ونحسب أن الزكاة قد فرضت قبل ذلك، وإنما هذه الصدقة المطلوبة من الصدقات التى تكفر المعاصى، أو من المطلوبات التى تعم المفروض والمندوب ولقد قال النبى ﷺ: «الصدقة تطفئ الخطيئة، كما يطفئ الماء النار»[1] ولقد كان من بعض الخطائين الذين تخلفوا فى تبوك من أراد التصدق بكل ماله تكفيرا عن خطئهم فى التخلف، وإحساسا بكبر ما ارتكبوا، وقوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ وهناك قراءة بسكون الطاء، وعدم الإدغام فى الهاء من أَطْهَر والمعنى فى القراءتين أن الصدقة تطهر نفوسهم من شحها؛ لأن من تخلف محافظة على أن الزمان كان زمان إثمار وإنتاج زراعى، فالصدقة علاج الشح، ومطهرة النفس منه، وقوله تعالى: ﴿وَتُزَكِّيهِم﴾ قال الزمخشرى: إن التزكية تصح أن تكون بمعنى المبالغة فى التطهير حتى تكون نفوسهم بتطهيرها نامية بسبب التطهير، فتكون مشتملة على معنى النماء؛ لأن المبالغة فى التطهير نمتها أو نمَّت النزوع إلى الفضائل فيها، أو تقول: إن معنى التزكية من الرسول ﷺ أى يصفهم بما يكون تزكية لهم وثناء عليهم، أى يزكيهم ﷺ بهذه الصدقات الطاهرة.

(١) سبق تخريجه.

و﴿مِنْ﴾ فى قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ للتبعيض أى خذ بعض أموالهم، وليس من المستحسن أن يأخذ كل المال، بل يبقى لأهله ما يكفيهم بالمعروف، والآثار الصحاح قد وردت عن النبى ﷺ بأنه كان لا يستحسن الأكثر من الثلث، فقد قال سعد بن بن أبى وقاص عندما استأذنه فى الوصية قال ﷺ «الثلث، والثلث كثير، إنك إن تدع أولادك أغنياء خيرمن أن تدعهم فقراء يتكففون الناس».

ومع هذه الصدقة التى أمره الله تعالى أن يأخذها منهم أمره سبحانه بأن يصلى عليهم، فقال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ﴾ الصلاة هنا بمعنى الدعاء والاستغفار، والتعدية بـ (علىَ) للإشارة إلى أنها سابقة لهم فائضة بالخير عليهم نازلة بالبركات عليهم، وقد ذكر الله سبحانه الغاية الواضحة من الصلاة وهى أنها ﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾، والسكن معناه الاطمئنان وقرار النفس، وذلك الاطمئنان يكون بردا وسلاما عليهم؛ لأنهم كانوا شاعرين بعظم جرمهم فيتوهمون بفرط إحساسهم وإيمانهم بأن ذنبهم غير مغتفر، فصلاته ﷺ اطمئنان لهم، وقرار لنفوسهم، ثم ختم الله تعالى الآية بقوله عز من قائل: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أى سمع اعترافهم المطهر لنفوسهم وندمهم على تخلفهم عليم بضمائرهم الطاهرة التى زادها الاعتراف طهارة، واستحقوا تزكية النبى ﷺ .

الله يقبل التوبة عن عباده

قال تعالى:

أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟
أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ
ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ

﴿وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٠٥﴾

يؤكد الله سبحانه قبوله للتوبة حتى لا يسرف العصاة ولو كانوا منافقين على أنفسهم، ويظنون أنه لا رجعة إلى الله وإلى الحق، فإن اليأس يولد النفرة والنفرة تولد الكفر، والرجاء فى الله يكون معه الرجوع إليه، والرجوع إليه يكون معه الإيمان، ولذا قال: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ... (٥٣)﴾ [الزمر].

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ فيه قراءتان إحداهما بالياء والأخرى بالتاء[1]، فأما التى بالتاء فتكون خطابا للمؤمنين، وتقريرا لحقيقة دينية يجب الإيمان بها، وأن يعلموا أن الله تعالى لا يترك المذنب فى ردغة الذنب، بل إنه سبحانه يفتح له الباب لتطهير نفسه من الذنوب وتخليصها منها، والله تعالى منه قريب يستجيب دعوته إذا دعاه، ويغفر له إذا استغفره بقلب سليم لم يركس، ولم يستغلق باب التوبة، وعلى القراءة بالياء تكون الآية الكريمة فى شأن العصاة الذين تابوا، والذين لم يتوبوا، وترجى توبتهم، فهى دعوة لمن لم يتب ألا ييئس من روح الله، ويعود إلى الله ورسوله والمؤمنين، إن الإسلام يستجر الناس إلى الخير فقد جاء داعيا إليه، ولا يستجرهم إلى العصيان حيث يكون العقاب.

و﴿أَلَمْ﴾ ـ فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ فيه (الهمزة) للاستفهام الإنكارى بمعنى النفى، و(لَمْ) للنفى، ونفى النفى إثبات، فيكون المعنى تأكيد علمهم بأن الله يقبل التوبة عن عباده، ويأخذ الصدقات التى يريدون بها تكفير سيئاتهم، والله تعالى هو المتصف بأنه التواب الرحيم، الذى يكثر قبوله للتوبة رحمة بهم؛ لأنه الرحيم الغفور الودود.

(١) قراءة (ألم تعلموا) بالتاء خطابا: قراءة جبلة عن المفضل عن عاصم، وقرأ الباقون بالياء. غاية الاختصار (٩٦٠).

والتقرير هنا لتطمئن نفس التائب، فهو تقرير لقبول التوبة، واطمئنان العاصى إلى أن التوبة جبَّت ذنبه، والتعدية بـ (عن) فى قوله تعالى: ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ لتضمن قبول التوبة معنى التجاوز عن المعصية التى عصاها المعبود، فالمعنى على ذلك: يقبل التوبة متجاوزاً عن سيئات عباده، شأن القادر العليم الحكيم الذى هو فوق عباده، وفوق الوجود كله.

وفى قوله تعالى: ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ مع أن الذى ينتفع بها العباد، ويأخذها النبى ﷺ ويوزعها عليهم ـ تشريف لمن يعطيها؛ لأن الذى يأخذها رب العباد، وكأنما العبد يعطيه هو جل جلاله، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ... (٢٤٥)﴾ [البقرة]، فهذا النص السامى فيه حث على الإكثار من الصدقات.

والخلاصة فى ذكر أن الله يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات أن ذلك تهييج للحث على المسارعة بالتوبة، والمسارعة إلى الصدقات، فكلتاهما خير يتلقاه الله تعالى بالقبول، ووصف الله تعالى صفة مؤكدة بأنه التواب الذى يكثر قبول التوبة؛ لأنه الرحيم.

ولذا قال تعالى بعد ذلك مترقبا أن يعملوا الخير ويتوبوا:

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)﴾.

أمر الله تعالى نبيه بأن يخاطب المؤمنين الذين أخطأوا والذين لم يخطئوا بأن العبرة بالعمل الحاضر، فإن كانوا عصاة فليتوبوا، وإن كانوا من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ومن تبعهم فليستمروا على المنهاج الذى ارتضاه لهم ربهم، أمر نبيه بأن يقول لهم: ﴿اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾.

إذا كان الله تعالى يقبل توبتكم، وباب التوبة مفتوح لا يغلقه الغفور الرحيم، فاعملوا أيها الناس، اعملوا لما يرضى الله تعالى ولا يمنعكم ذنب أذنبتموه، أو خطأ وقعتم فيه من أن تعملوا، والخطاب عام للمؤمنين وغيرهم وليس للتوابين وحدهم، ولا للمتخلفين وحدهم، ولكنه موجه للجميع، ليعمل المذنب الخير ويستر غيره.

وقوله تعالى: ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ قال بعض المفسرين إن فى ذلك تهديد أو إنذار، ولكنا نرى أن فيه تحريضا على العمل الصالح ورؤية الله تعالى يعقبها جزاؤه إن خيراً فخير وإن شرا فشر، والرسول يرى العمل فإن كان خيرا أقره، وإن كان شرا نبّه إليه ودعاهم للإقلاع عنه، ورؤية المؤمنين ليعلموا حال من يخالطونهم فإن كانوا أشرارا نصحوهم ثم اجتنبوهم، وإن كان عملهم خيرا عاونوهم وأقروهم، وأكد أنه والرسول ومن معه يرون الأعمال، وذلك لأن (السين) تفيد تأكيد تحقق الوعد الذى وعده الله تعالى، ولقد جاء فى الحديث الصحيح برواية أبى سعيد الخدرى: «ولو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لأخرج الله عمله للناس كائنا ما كان»[1] والناس يشهدون على الخير خيرا وعلى الشر شرا، والرسول يشهد على الناس، كما يشير قوله تعالى ﴿... لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ... (١٤٣)﴾ [البقرة].

﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾.

السين لتأكيد وقوع ما بعدها فى المستقبل، أى ستعودون إليه سبحانه، وتعرض عليه أعمالكم لا تخفى منها خافية، فإن كانت خيرا، أو شرا تبتم منه وأحسنتم التوبة، فإن الجزاء يكون خيرا، وإلا فالعاقبة السوءى.

وهذه الجملة السامية فيها تبشير وإنذار، تبشير للمؤمنين، وإنذار للمشركين الذين عصوا أمر ربهم، واستمروا فى عصيانهم وضلالهم.

(١) أخرجه أحمد: باقى مسند المكثرين- مسند أبى سعيد الخدرى (١٠٨٤٦).

وفى الكلام السامى إظهار فى موضع الإضمار؛ لأنه سبحانه وتعالى قال عز من قائل: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ ولم يقل ـ ولكلامه المثل الأعلى ـ «وستردون إليه» وذلك للإشارة إلى أن الأمر سيرجع إلى من لا تخفى عليه خافية فى السماء والأرض، والغيب ما غاب عن الحس، أو ما أخفته الصدور، وما أسروه فى نفوسهم، فهو يعلم خائنة الأعين، وما تخفى الصدور، والشهادة هى الأمر المعلن الذى تشاهده الجوارح مبصرة أو سامعة، أو باطنة، يعلم سبحانه كل شىء ما يسر وما يعلن، وما يظهر وما يختفى، سبحانه علام الغيوب.

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى الجزاء الواقع لا محالة فقال تعالت كلماته: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الفاء) للإفصاح عن شرط مقدر، أى إذا كنتم ستردون إليه سبحانه فإنه ينبئكم أى يخبركم إخبار فعل وجزاء بما كنتم تعملون، فترون أعمالكم عيانا، تنطق بها جوارحكم، وكتابا منشورا قد سجل كل ما عملتم، لا يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فتجزى كل نفس بما كسبت.

وإن هذا فيه تبشير للمؤمن، وإنذار للمشرك والمنافق، وأعمالهم كلها فى كتاب.

وقد فتح الله سبحانه وتعالى باب التوبة لمن تخلف، وعصا، بعد ذلك ذكر أناس ممن تخلفوا لم يكتب عليهم الشقوة بل لا يزال الباب مفتوحا للتوبة، فإما يتوبون، وإما يعذبهم الله على نفاقهم وتخلفهم، فقال تعالى:

﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦)﴾.

ذكرنا أن الذين دعوا إلى الخروج إلى الغزوة التى كانت فتحا للطريق إلى بلاد الشام وما وراءها من الأرض التى كان الروم يسيطرون عليها، وأشرنا إلى أنه كان فيهم السباقون إلى المكرُمات المهاجرون والأنصار، وكان فيهم المنافقون

المعوِّقون الذين يعتذرون المعاذير الكاذبة، ويحلفون الأيمان الفاجرة، ومنهم من كانوا مخلصين، واعترفوا بذنوبهم فى التأخر، وقد ذكر فى هذه الآية فريقا، قد أُرجئ أمرهم ترجى منهم توبة.

يقول تعالى: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ﴾ أى ما قدر فى علمه المكنون بالنسبة لهم، ومرجون أى مؤجلون لأمر الله تعالى فيهم، وما قرره سبحانه وتعالى بالنسبه لهم وهو مطوى فى علمه المكنون لهم، وخفى عنكم وعنهم، ومرجون أصلها مرجئون، قلبت الهمزة ياء وحذفت لوجود واو الجمع، وبعض المفسرين يقول إنهم من المنافقين، ويحتمل توبتهم فيتوب الله تعالى عليهم، ويحتمل أن يبقوا مصرين على نفاقهم ليعذبهم سبحانه، وبعض المفسرين ذكر أنهم من الفريق الذين اعترفوا بذنوبهم، وبعضهم ربطوا أنفسهم فى سوارى المسجد حتى بين سبحانه وتعالى قبول توبتهم ففك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وثاقهم، وآخرون لم يفعلوا ذلك، وهؤلاء الثلاثة المخلفون الذين ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وسنذكرهم من بعد عند تفسير الآية التى تصرح بأمرهم، وإنى أميل إلى الأول، فإن الثلاثة خُصُّوا بآية تذكر حالهم.

وقوله تعالى: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ (إمَّا) هنا تدل على أن نهايتهم مترددة بين حالين، إما أن يستمروا على نفاقهم فيعذبهم الله تعالى، ومأواهم جهنم وبئس المصير، وإما أن يتوبوا فيتوب الله عليهم، ويفيض عليهم سابغ رحمته.

والتردد ليس بالنسبة لله تعالى فإنه يعلم مآلهم، إذ هو يعلم ما كان وما يكون، فيعلم ما سيئول إليه أمرهم من غير إخبارهم، إنما علمه إحاطة، وأعمالهم بإرادتهم.

وإنما التردد بالنسبة للمخاطبين والمتحدث عنهم، فإنهم لا يعلمون إلا ما يقع بالفعل، ويعاينونه، ولا يعلمون ما سيقع، وقدره الله سبحانه، ولذا ختم سبحانه

وتعالى الآية بقوله عز من قائل: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى عليم بكل ما يقع فى المستقبل مما غيب عليكم، حكيم يقدر الأمور فى نطاق حكمته، وهو العزيز الحكيم.

مسجد الضرار

قال تعالى:

وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ
وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ
١٠٧ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ
يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ
وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ١٠٨ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ
عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ
عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى
ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٩ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً
فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١١٠

إن المنافقين لا يكتفون بأن تكفر قلوبهم، وتسلم ألسنتهم، وأن يخذّلوا المؤمنين، ويثبطوهم، ويلمزوا فى الصدقات، ويستهزئوا بالمتطوعين بها من المؤمنين، وأن يكثروا من التهكم على الرسول ومن معه، لا يكتفون بذلك، ولكن يتطاولون فيريدون أن ينشئوا بنيانا يكون مربطا لهم، يلجأون إليه، ويترقبون أخبار المؤمنين منه، ويُعلمون بها الرومان ومن لفَّ لفَّهم من المنافقين أمثالهم، وأنشأوا

ذلك البنيان على مشارف الصحراء ليتمكنوا من الاتصال بالرومان من غير علم أحد، وسموا ذلك مسجدا، وسماه التاريخ الإسلامى مسجد الضرار؛ لأنه أنشئ للضرار، فأخذ اسمه من مقصده.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ فى قراءة أهل مكة يثبتون الواو عطفا على أخبار المنافقين، ومن غير واو فى مصحف المدينة والشام[1]، ويكون عطف بيان للمنافقين أيضا، وقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا مَسْجِدًا﴾، أى أنشئوه، واتخذوا مسجدا، أى أن انتحلوه مسجدا باتخاذهم لا أنه مسجد فى حقيقته وذاته، بل باتخاذهم، وانتحالهم، وقد ذكر الله تعالى أن غرضهم من إنشائه الذى بعثهم هواهم عليه أمور أربعة - هى ما بنى لأجله: أولها - أنه ضرار وهو مصدر ضارَّ، فهم يبنونه مضارة للمؤمنين، ومكايدة للذين بنوا مسجد قباء لله وللصلاة فيه، وقد صلى فيه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فبنوه قريبا منه ليضار أولئك الذين بنوا الأول، وليكايدوهم، وقوله تعالى: ﴿وَكُفْرًا﴾ أى دفعهم إلى بنائه الكفر لا الإيمان، فهم لا يصلون، ولكن ينافقون، وهم كانوا كفارًا، ومن أعظم البواعث هو تفريق المؤمنين، ولذا قال تعالى فى الباعث: ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وإن ذلك التفريق هو إبعاد فريق من المؤمنين عن الجماعة التى يؤمها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، يغرونهم بالتأثير فيهم رجاء أن يقتطعوا من المؤمنين من يضمونهم إليهم، إذ بعدوا عن النور الكاشف لخداعهم، وإفسادهم، فيخلو لهم الجو ليخادعوهم، وينجح خدعهم، ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يقال رصد، وأرصد: راقب، ورصد تكون للخير والشر، وأرصد لا تكون إلا للشر، وقد اتخذ هذا المسجد ليكون موضع ترقب للمنافقين يتصلون منه بأعداء الله تعالى،

(١) (الذين اتخذوا) بغير واو، قراءة: نافع وأبو جعفر، وعاصم وحمزة والكسائى وخلف، وهذا الحرف فى مصاحف المدينة بلا واو، وقرأ الباقون بإثبات الواو، وكذلك هى فى بقية المصاحف. المقنع ١٠٤، والسبعة٣١٨، والنشر٢/ ٢٨١. غاية الاختصار(٩٧٠).

وقالوا إن ذلك يشير إلى أبى عامـر الراهب، وهو رجل خزرجى من الخزرج، كان قد تنصر فى الجاهلية، وقرأ ما عند أهل الكتـاب من بقايا كتبهم، وكانت له عبادة فى الجاهلية، وكبير فى الخـزرج، فلما قدم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مهاجرا إلـى المدينة وكوّن فيها قوة الإسـلام الأولى، وأظهر الله المؤمنين فى غزوة بدر الكبرى شَـرِق أبو عامر هذا بذلك النصـر المبين الذى كان فاتحـة السيطرة على بلاد العـرب، فأرسل إلـى قريش يمالئـهم ويحـرضهم علـى غزو المدينة والأخـذ بثأرهم، فقـدموا فى السنة الثالثة، وكانت واقـعة أحد، فخبّ أبو عامر هذا فـيها ووضع، وتقدم إلى المبارزة ليـحرض الأنصار، وخاصة قومـه الخزرج ودعاهم إلى نصرته، فردوه ردا منكراً، فعاد مذءومًا مدحوراً.

ولقد ابتدأ بما يظهر منه ميله للإسلام، ولكنه لم يعم، فدعا عليه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بأن يموت بعيدا طريدا، فكان كذلك ومات طريدا وذلك أنه لما فرغ الناس من أمـر أحد، وقد رأى أمـر الرسول فى علو، وكـانت عاقبـة أحد للمؤمنين، وإن كان قد أصابهم قرح فى أثـنائها، وصار الأمر من بعدها فى ارتفاع للمؤمنين وظهور، ذهب إلى هرقل ملك الروم يحرضه على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وأقام عنده وكتب إلى جماعة من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه قادم بجـيش يقاتل النبى صلى الله تعـالى عليه وسلم ومن مـعه من المؤمنين، وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه رسله بكتبه، ويكون مرصدا له إذا قدم عليهم، فشرعوا فى بناء مسجد قريب من مـسجد قباء، وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى تبوك، وجاءوا إليه ﷺ أن يأتى إليهم فيصلى فى مسجدهم، لتكون صلاته حجة لهم فى تقريره، وليتموا خداعهم للمؤمنين، وليـخفوا مقـصدهم من إنشائه، وهو أن يكون إرصـاداً لمن حارب الله ورسوله، فقـال لهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: «إنا علـى سفر، ولكن إذا رجعنا إن شـاء الله تعالى»، فلمـا قفل راجـعا من تبـوك إلى المدينة، ولم يبق بينه

وبينها إلا يوم أو بعض يوم نزل عليه جبريل يخبر الرسول بمسجد الضرار، وما قصده بانوه، من الضرار والإمعان فى الكفر، والإرصاد لمن حارب الله ورسوله والمؤمنين، فأرسل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من هدمه قبل مقدمه المدينة، لقد أعدوا فى المسجد سلاحا، وعتادا ليعاونوا الرومان المقبلين.

ومع وضوح أمرهم عادوا إلى كذبهم وتوثيق الكذب بالأيمان المغلظة أنهم ما أرادوا إلا الخصلة الحسنى، فقد كانوا عند بنائه مخفين مقصدهم الخبيث، ومكرهم السيئ، فقد قالوا لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عندا ابتدائهم فقالوا: يا رسول الله إنا قد بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة، والليلة المطيرة والليلة الشاتية وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه.

لقد قالوا ما قالوا لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يخفون مكرهم السيئ، ولكنهم نسوا أن الله تعالى كاشف أمرهم فيبين الله تعالى خفى أمرهم، وما أسرّوه، ولم يعلنوه.

جاء فى الكشاف ما نصه: «لما قفل رسول الله تعالى من غزوة تبوك سألوه إتيان المسجد فنزلت هذه الآية عليه. فدعا مالك بن الدخشم ومعن بن عدى، وعامر بن السكن، ووحشيا قاتل حمزة، فقال لهم: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه، واحرقوه»[1]، ففعلوا، وأمر أن يتخذ مكانه كناسة تلقى فيها الجيف، والقمامة، ومات أبو عامر بقنسرين».

لقد حلفوا موثقين يمينهم، وقال تعالى فى حلفهم: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى﴾ وقد أكدوا حلفهم باللام الموطئة للقسم، وبنون التوكيد الثقيلة، والمقسم عليه ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى﴾ و(إن) هنا نافية، أى ما أردنا إلا الخصلة الحسنى، أو الفعلة الحسنى، وحصروا إرادتهم فى إرادة ما هو حسن فى ذاته، وغايته، وقد

---

(١) تاريخ الطبرى: ج١، ص١٢٣٩.

كذَّبهم الله، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ يشهد أى يعلم علم من عاين وشاهد، إنهم لكاذبون، ولقد أكد كذبهم بـ (إنّ) المؤكدة لما بعدها، وبالجملة الاسمية، وبلام التوكيد، والله سبحانه وحده هو الصادق وهم الكاذبون.

ولقد نهى الله تعالى عن الصلاة فيه، فقال تعالى:

﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨)﴾.

النهى للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ومن معه عن الصلاة فيه، وعبر عن الصلاة بالقيام؛ لأن أداء الصلاة على وجهها إقامة، ويطلق القيام على الصلاة، كقولهم يصوم النهار ويقوم الليل، أى يقوم الليل متهجدا مصليا، والنهى عن الصلاة فيه أكده الله تعالى بقوله: ﴿أَبَدًا﴾، أى فى كل الأحوال، النهى يفيد عموم الأحوال فلا يكون هناك مسوغ للصلاة فيه.

ولعل ذلك هو الذى جعل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يهدمه ثم يحرقه، ويجعل موضعه كناسة تلقى فيه القمامة، إن الصلاة فيه تحقق فيها بعض أغراضهم، وهى المضارة لغيره من المساجد، والتفريق بين المؤمنين ووازن سبحانه بينه وبين مسجد غيره، فقال تعالى:

﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ اللام لام الابتداء وهى تفيد التأكيد، ﴿أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ﴾ أى وضعت أسسه على التقوى، أى أنه قام على التقوى، والوقاية من غضب الله واتقاء عذابه، وهذا مجاز لإثبات أنه قام على نية طيبة يتقى بها سوء العذاب، ويرضى الله تعالى، وإذا كانت الصلاة عبادة فى كل دين، فيجب أن تؤدى فى مكان قام على تقوى رب العالمين من أول يوم، أى من أول يوم كان بعد الهجرة، فإن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عندما هاجر، وانتهى إلى ما يصاقب المدينة فنزل بقباء وأنشأ المسجد فيها، وقد وصل يوم

الإثنين ويبقى بقباء أربعة أيام الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس ثم انتقل إلى المدينة يوم الجمعة، فيكون منطبقا عليه أنه أسس على التقوى من أول يوم تمت فيه الهجرة، وأسس على التقوى لأن الذى بناه هو الرسول أولا، وبنى ابتداء للعبادة ثانيا، وذلك فضل ثانٍ للمسجد يجعله أحق أن تقوم فيه الصلاة من غيره، ويلاحظ أنه ذكر فضل هذا المسجد ولم يذكر ما أحاط بالآخر من نيات مناقضة، إذ إن الآخر أُسِّس ضرارًا وكفرًا وتفريقًا بين المسلمين، وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله - لم يذكر ذلك اكتفاء بما ذكر أولا، فذكر السوء لا يكرر، ولأن فى ذكر حسنات هذا المسجد، تعريضا واضحا بسيئات الآخر.

والمسجد عند الأكثرين هو مسجد قباء، وادعى بعض الرواة أنه مسجد النبى ﷺ، ولكنا نختار ما اختاره الأكثر؛ لأن مسجد قباء أول مسجد بنى بعد الهجرة، بل أول المساجد بإطلاق، ومسجد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بنى بعده، ولأن المفاضلة كانت بين مسجد قباء ومسجد الضرار الذى حاولوا به الغض من مقامه، ومقام الذين بنوه، وإن الضرار الذى ذكر كان يقصد به مكايدة أهل قباء وذلك ما نراه الحق، ومسجد الرسول له فضله فوق كل هذا، فهو أحد المساجد الثلاثة التى تشد إليها الرحال: البيت الحرام، وبيت المقدس، ومسجد الرسول.

هذا فضل ذاتى لمسجد قباء، وله فضل إضافى آخر، وهو فضل من يصلون فيه، فإنهم ليسوا منافقين ولا مرائين، بل أخلصوا دينهم لله تعالى، ولذا قال فيهم: ﴿**فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ**﴾ أى رجال يريدون أن تخلص قلوبهم وتطهر نفوسهم من الرياء والكفر والنفاق، ويغسلوها من أدران النفوس، أى يحبون أن يكونوا لله مخلصين له الدين لا أن يكونوا لغيره، والله يحب هؤلاء المطهرين، الذين غسلوا أدران قلوبهم.

وقد فسر الزمخشرى وغيره الطهارة الحسية والبدنية، فقد جاء فى الكشاف ما نصه: وقيل: لما نزلت مشى رسول الله والمهاجرون حتى وقف على باب مسجد

قبـاء فإذا الأنصار جلوس، فقـال ﷺ: «أمؤمنون أنتم» فسكت القـوم ثم أعادها، فقال عمر: يا رسول الله إنهم لمؤمنون وأنا معهم، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «أترضـون بالقضاء» قـالوا: نعم، قال ﷺ: «أتصبـرون على البلاء» قالوا: نعم قال ﷺ: «أتشكرون فى الرخاء» قالوا: نعم، قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «مؤمنون ورب الكـعبة» فـجلس، ثم قال: «يا معـشر الأنصار فـما الذى تصنعونه عند الوضوء وعند الـغائط»، فقالوا: يا رسول الله نتبع الغـائط بالأحجار الثلاثة، ثم نتبع الأحجار بـالماء، فتلا قوله تعالى: ﴿ **فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ** ﴾.

ويفهم من هذا أن الطهارة فسرت بالطهارة الحسية، وأرى أن الطهارة الحسية مفهومة بالبداهة، وهى تجىء اقتضـاء للطهارة المعنوية وكلتاهما مقصودة، وتمم الله تعالى الموازنة بين مسجد الهـدى ومسجد الضرار، بقوله: ﴿ **أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩)** ﴾.

(الفـاء) فى قوله تعـالى: ﴿ **أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ...** ﴾ هى لترتيب ما بعدها على ما قبلها أى أنه يترتب على ذكر الحقيقة المقررة الثابتة، وهى أن المسجد الذى أسس على التقوى أحق أن يقوم فـيه مصليا اتَّقَى، وأن فيه رجالا يحبون أن يتطهروا، وقد رتب على هذا إنكار أن يكون فى مسجد الضرار خير أى خير، وقدمت (الهمزة) على (الفاء)؛ لأن الاستفهام له الصدارة دائما.

والاستـفهـام للإنكار والتعـجب من المقابلة بين مـسجـد التقـوى ومسـجد الضرار، وأسس: وضع أسـاسه، والتقـوى أساس مجاز، وتأسـيسه على التـقوى مجاز، والمعنى أفـمن أقيم بنيانه على باعث من التقوى وخـوف الله تعالى ورجاء رضوانه، ففيه تشبيه التقوى فى نياتها، وطلب الرضا بالأساس المتين من البناء لقوة

التمـاسك، إن التقوى وطلب الرضوان أقـوى وأثبت، وأبقى، إذ الحجر يتـفتت، وتقوى الله وطلب رضوانه باقية بقاء الله العزيز الحكيم.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾، فيه مجـازان يثيران فى العقل أروع الفكر، لمن يتدبر قـول الله تعالى، ويحاول أن يتعرف بعض أسرار الذكر الحكيم.

المجاز الأول شـبه النيات الفـاسدة لأهل النفاق، والبـواعث التى بعثت إلى إنشاء مسجد الضراء بالجرف الـهائر أى القائم على جرف من الرمل منهار لا يثبت أمام الزوابع فـضلا عن مـعاول الإنسان من حـيث إن سرائر المنافـقين سرعـان ما تنكشف أمام أقل صدمة يصدمون بها.

المجاز الثانى هو تشـبيه الانهيار الذى ينتهى إليـه المنافق وبنيانه بأنه ينهار فى نار جهنم، فـلا ينهار فى ماء، ولا ينهار فى أرض لينة، إنما ينهـار فى نار جهنم، وذلك لأن الانهيار النفسى والفكرى الذى ينهار فيه المنافق هو السبب فى استحقاقه نار جهنم، فهو مجاز علاقته السببية.

وقال تعالى فى عاقبة المنافـقين الذين فسقوا عن أمر ربهم: ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ صدر الجـملة بلفظ الجلالة ترهيـبا للفـاسقين، ونفـى أن يهديهم سبـحانه؛ لأنــهم سلكوا طريق الضلال وأوغلوا فـيه، حـتى إنهم لا يردون، ولا يهتدون سواء السبيل، وسماهم سبحانه وتعالى قوما؛ لأنهم تضافروا على النفاق، ووصفـهم سبحانه وتعـالى بالظلم، لأنهم ظلموا الحـقائق، وظلموا معـاشريهم، وحقـدوا عليهم لإيمانهم، ثم ظلـموا أنفسهم أشـد الظلم، لأنهم بنفاقـهم ماتت نفوسهم، وذهبـت إرادتهم، وأصبحوا لا يؤمنون فى وجودهـم بشىء من الأشياء وأشركوا، وإن الشرك لظلم عظيم.

وبين سبحانه من بعد ذلك أنهم فى ريب من أمر بنائهم، وأشد ما يصاب به المنافق أنه فى ريب مستمر.

فقال تعالى: ﴿لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)﴾.

البنيان هو الذى بنوه والذى بعث من الكفر، ومضارة أهل الإيمان، وتفريق بينهم، وإرصاد لمن حارب الله ورسوله، هذا البنيان من ريبهم الذى كانوا يترددون فيه دائما ويتنقلون فى أجوائه المختلفة بعث عليه ريبهم فى دينهم، وزادهم البناء ببواعثه ريبا، ولما هدمه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وأحرقه وحقر مكانه، حتى جعله كناسة تلقى فيه الجيف والقمائم، زادهم ذلك حقدا وحسدا، وربما ونفاقا؛ لأن هذا النفاق يولد من الحسد والحقد، فلما ازدادت أسبابه ازدادوا ريبة، ولذا قال تعالى: ﴿لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ لا تزول إلا أن تقطع قلوبهم، أى لا يزول إلا إذا زالت قلوبهم، وتقطعت أجزاء، فما دامت قلوبهم المركسة فى النفاق الغائر فيها، والتى أربدت به، ولازمتها ملازمة الحسك للصوف، وهذا النص الكريم تصوير لاستقرار النفاق فى القلب، وتزايده بتزايد المغريات له، والأعمال المنافقة تقوِّى النفاق وتدعمه، آنا بعد آن، والريبة هى الريب فى كل شىء يفكرون فيه، وقد يقال: كيف توصف عقيدتهم وحالهم بالريب، وهم يعتقدون الكفر، ويظهرون غيره، ونقول: إن المنافق لا يؤمن بشىء ولا يعتقد شيئا، وهو غير مؤمن بالله والرسول ويظهر الإيمان بهما، ولذا كان منافقا، ولكنه ليست له عقيدة تحل محل الإيمان بالله ورسوله، ولذا هو فى حال ريبة مستمرة تمكث فى قلبه وتستقر به، ولا تزول إلا أن تقطع قلوبهم إربا إربا.

وقرأ الحسن (إلى) بدل (إلا)[1] أى أن الريبة تستمر حتى يقبروا وتقطع قلوبهم، وإن هذا البناء الذى بنوه كان يحرك ضغنهم طول حياة الرسول، ومن بعده فى عهد أبى بكر وعمر، وكان الناس يتذاكرونه، فيصخون أسماعهم صخا

---

(١) (إلى أن تقطع قلوبهم) هكذا بحرف الجر: قراءة يعقوب، وقرأ الباقون (إلا) على الاستثناء. غاية الاختصار (٩٧٤).

شديدا بذكره، جاء فى الكشاف: روى أن مجمع بن حارثة كان إمامهم فى مسجد الضرار، فكلم بنو عمرو بن عوف أصحاب مسجد قباء عمر بن الخطاب فى خلافته أن يأذن لمجمع أن يأتيهم فى مسجدهم فقال: لا ولا نعمة عين؛ أليس إمام مسجد الضرار، فقال (أى مجمع): يا أمير المؤمنين لاتعجل علىَّ، والله لقد صليت بهم والله يعلم أنى لا أعلم ما اختمروا فيه، ولو علمت ما صليت معهم فيه، كنت غلاما قارئا للقرآن، وكانوا شيوخا لا يقرأون من القرآن شيئا، فعذره وصدقه وأمره بالصلاة.

لعن الله النفاق وأهله وأعمالهم، ولقد كثر المنافقون فى عصرنا حتى نالتنا لعنة الله بهم، اللهم ارحمنا، ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا، إنك غفور رحيم.

وختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، أى يعلم كل شىء ما خفى وما ظهر، ما أسرته القلوب، وما جهرت به الألسنة، وحكيم يضع الأمور فى مواضعها، ويقدر فيكمل تقديره، وقد أتى بالجملة السامية مؤكدة بالتصدير بلفظ الجلالة، وكونها جملة اسمية، وبالصيغ الدالة على كمال الوصف بالعلم والحكمة.

بعد أن بين أوصاف المنافقين، وأحوالهم وأعمالهم وأقوالهم ابتدأ بذكر المؤمنين.

المؤمن هو وماله ملك لله

قال تعالى:

إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم
بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ
وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ

وَالْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا
بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾
التَّٰٓئِبُونَ الْعَٰبِدُونَ الْحَٰمِدُونَ السَّٰٓئِحُونَ
الرَّٰكِعُونَ السَّٰجِدُونَ الْءَامِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ
وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن
يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا أُولِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ
مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ
اسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا
تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

الشراء جالب للمبيع، ومقدم للثمن، فالمؤمنون وأموالهم هم المبيع، والجنة، وما فيها هى الثمن، وإن هذه الآية تصور المؤمنين يقدمون أنفسهم يبيعونها لله تعالى بيع السماح راضين، فهم أنفسهم وأموالهم يملكونها لله تعالى والثمن أنه يعدهم بالجنة يدخلونها، وما هو أعظم من الجنة، وهو رضوان الله تعالى، ولم يذكر هنا لأن الآية تتضمنه؛ لأنه سبحانه وتعالى قد رضى بالصفقة، وهى تقديم النفس والمال، ولا يمكن أن يكون إلا ومعه الرضا عن البيع، وهو أعلى ما يملكه الإنسان، فهو النفس والنفيس.

وإن تلك العبارة مصورة، ولكنها وقعت قبيل الهجرة، ففى العقبة الثانية كانت المبايعة على هذا الأساس فى البيع والثمن بين الرسول، والأوس والخزرج، وقد قال عبد الله بن رواحة للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم: اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: أشترط لربى أن تعبدوا

الله ولا تشركوا به شيئا، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم. قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا قال ﷺ الجنة، فقالوا نربح البيع لا نقيل، ولا نستقيل.

وهذه بلا ريب صور حسية للعقد، وإن كانت الآية مصورة، لتسليم المؤمنين أنفسهم لله تعالى، العلى الحكيم، الغنى الحميد، ويروى أن أعرابيا سمع هذه الآية، فقال: من يقول هذا؟ قالوا: الله. قال: بيع مربح.

وقد بين الله تعالى ثمرة البيع أو آثاره التى يتحقق فيها ما يجب على البائع، فإن عليه أن يقدم المبيع، فقال سبحانه وتعالى: ﴿**يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾، فالزمخشرى ومن تبعه، على أن الفعل هنا بمعنى الأمر، أى عليكم أن تقاتلوا فى سبيل الله، وقال إن ذلك كقوله تعالى: ﴿... **وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ**... (١١)﴾ [الصف].

ونقول إن الإتيان بالصيغة الخبرية بمعنى الطلب كثير فى القرآن، وهو من بلاغة القرآن؛ لأن المؤدى أنه كان الطلب فاستجاب بقوله تعالى: ﴿**وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ**... (٢٢٨)﴾ [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿**وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ**... (٢٣٣)﴾ [البقرة].

والوجوب هنا له قرائن شاهدة؛ لأن المقاتلة فى سبيل الله تعالى من آثار العقد المبرم بين الله تعالى والمؤمنين إذا باعوا أنفسهم وأموالهم إليه، فهو المالك، وما يجىء بعد ذلك من تصرف المالك فيما يملك، والمقاتلة لا تكون فى سبيل الله تعالى إلا بشرطين ـ **أولهما** ـ إخلاص النية، فلا يقاتل لذات الغلب أو الفروسية، إنما يقاتل لتكون كلمة الله تعالى هى العليا، فمن قاتل لغير ذلك لا يكون قتالا فى سبيل الله تعالى.

والشرط الثاني ـ أن يدخل غير مستبق لنفسه، كما كان يفعل المجاهدون الأولون أمثال حمزة وعَلِىٍّ والزبير الذين يدخلون المعركة، فلا يدرون أيقعون على الموت، أم يقع الموت عليهم، ولذا قال تعالى:

﴿**فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ**﴾ أى فإذا دخلوا فى القتال رضوا بمرارته، وإرادة النصر، وأن تكون كلمة الله تعالى هى العليا، فيقتلون الكفار فى سبيل الله، ويقتلون هم فى هذا، ولا يحسبون أنهم يخسرون فى الحالين، فإن قتلوهم فذلك سبيل النصر، وإن قتلوا سارعوا إلى قبض الثمن فى الصفقة التى عقدوها مع ربهم.

وفى هذا النص الذى ذكره القرآن الكريم أمران نتكلم فيهما:

أولهما ـ أن هذا النص يشير إلى أن الفرار لا يجوز، لأنه ضَنٌّ بتسليم المبيع وهو النفس، ولا يضن مؤمن بتقديم ما عاهد الله تعالى عليه، وقد قال تعالى فى آية أخرى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ** (١٥)﴾ [الأنفال].

الثانى أن هنا قراءتين ـ أولاهما ـ فيقتلون بالبناء للفاعل، والثانية بالبناء للمفعول، والقراءة الثانية العكس[١]، وكل قراءة قرآن، وبمجموع القراءتين تكون الآية داعية إلى ألا يفرقوا بين أن يَقتلوا أو يُقتلوا، فإن الملكية التى أثبتوها لله تعالى تسوغ ذلك، وتوحيه كما نوهنا.

وقد قدموا أنفسهم لله تعالى، وأكد الله تعالى أن الثمن الذى قدره، وهو مربح، ويزيد أضعافا مضاعفة على ما أعطوا ـ آت لا محالة؛ لأنه وعده الذى وعده، ولذا قال تعالى: ﴿**وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا**﴾ أى وعد الله وعدا حقا لا يتخلف؛ لأن الله تعالى لا يخلف الميعاد، وإذا كنتم قد قدمتم ما عندكم، فإن الله تعالى

---

(١) (فيُقتَلون ويَقتُلون): قراءة حمزة والكسائى ، وخلف. وقرأ الباقون (فيَقتُلون ويُقتَلون). غاية الاختصار- (٩٧٦).

مقدم ما وعدكم، وأكد سبحانه وتعالى وعده وعهده، فقال: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ هذا استفهام إنكارى بمعنى نفى الوقوع، والمعنى لا أحد أوفى بعهده من الله، وجاء النفى على صيغة الاستفهام للتثبيت، وتأكيد النفى وتوثيق العهد، وسماه الله تعالى عهدا، لبيان قوته، وكان فيه طرفان، والله أعلى وأجل، وإذا كان الوفاء محققا لوعد الله تعالى بالوفاء.

وقد أكد الله وعده بأمور ثلاثة:

أولها: أنه حق ثابت مؤكد لا يمكن أن يتخلف أبدا، وكيف يتخلف، وهو من الله العزيز الحكيم.

ثانيها: أنه ذكر أن الجهاد ثابت ما دام هناك حق يغالب باطلا، وأن الله تعالى وعد المجاهدين بالنصر، وأن جهادكم مذكور فى التوراة والإنجيل والقرآن كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)﴾ [الأعراف].

وهذا النص يدل على أن الجهاد واجب؛ لأنه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ويدل على أن الذين آمنوا عليهم أن يعزروه ويؤازروه وينصروه، ولأن الجهاد من اتباع النور الذى جاء به.

ولقد قال فى سورة الفتح فى وصف المجاهدين المؤمنين: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)﴾.

ثالثها ـ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾، وذلك كقوله تعالى: ﴿...وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (٨٧)﴾ [النساء] وكقوله عز من قائل: ﴿...وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً (١٢٢)﴾ [النساء] وأن الإخلاف مستنكر لا يقدم عليه الكرام، فكيف يكون من الله، ولا شك أن ذلك العقد المقدس كان خيرا على من عقدوه مع الله تعالى خالق وبارئ النسم. ولذا قال تعالت كلماته، ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ﴾، الاستبشار طلب البشرى، أو نيلها، وقد نالوا هذه البشرى من الله تعالى، و(الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإن وعد الله إذا كان مقررا فى الرسالات الإلهية التى جاءت بها التوراة والإنجيل والقرآن، فإن على الذين يحق عليهم العهد أن يستبشروا ببيعهم أنفسهم لله تعالى، فإن الثمن عظيم، وقوله تعالى الذى بايعتم به أى بعتم به أنفسكم، فتبايعتم على أن تقدموها، وتأخذوا بدلها ثمنا غاليا هو أغلى ما فى الوجود من ثمن مقدر، وتسليمه محقق، وهو ممن يملكه.

وختم الله تعالى الآية بقوله عز من قائل: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الإشارة إلى التبايع، أو الثمن، وهو الجنة وهو الفوز العظيم، وفيه قصر الفوز على العظمة، أى أنه فوز يعد فوزا عظيما خيره، اللهم اجعلنا من أهله.

وقد ذكر الله تعالى أوصافا للمؤمنين فقال تعالت قدرته: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)﴾.

هذه أوصاف ثمانية للمؤمنين تبين سلامة نفوسهم، ورقابتهم عليها لدوام تطهيرها، فكلما صدأت أزالوا صدأها، يتجه آحادهم إلى جماعتهم يزيلون ريبها، ويطهرون مجتمعها، ويجعلون لها رأيا عاما فاضلا يلتزم حدود الله تعالى التى حدها.

ولنتكلم بكلمات موجزة مشيرة إلى تطهير أرواح المؤمنين:

الصفة الأولى أنهم ﴿التَّائِبُونَ﴾، وهم الذين يراقبون أنفسهم وتشتد فيهم قوة النفس اللوامة، فهم كلما أحسوا بأمر يدنس أمرها، أو يكون فيه شك، أو يكون غيره أولى، أو تركه أولى، تابوا فهم يراقبون أنفسهم، يتوبون دائما إلى ربهم منيبين إليه، وكأن فى يدهم مكيالا مملوءا ماء يزيل أى دنس يعترى نفوسهم بالتوبة كما يطهر أى غبار يقع على الثوب.

والوصف الثانى ﴿الْعَابِدُونَ﴾ بالقيام بحق الله تعالى، يعبدون الله كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه فهم يشعرون بأنه يراهم، والوصفان «التائب والعابد»، مقترنان أولهما للتخلية والثانى للتحلية.

والوصف الثالث ﴿السَّائِحُونَ﴾ أكثر المفسرين على أن السائحين هم الصائمون فقد ورد فى الأثر: «إن سياحة أمتى الصوم»[١]، ولكن نرى أنه الجهاد فى سبيل الله، فقد روى أبو أمامة أن رجلا استأذن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى السياحة فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: «إن سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله»[٢].

وقال بعض العلماء إن المراد السياحة فى طلب العلم.

وإننا نقول: الجمع بين الآراء أن نقول السياحة تشمل كل سياحة فى سبيل الله، فتشمل السياحة فى الجهاد، والسياحة فى نشر الإسلام، والسياحة فى تعرف أحوال المسلمين، كما تشمل سبح الفكر سائحا فى ملكوت الله تعالى.

---

(١) ذكره أبو السعود فى تفسيره: ج٤، ص١٠٤ .

(٢) رواه أبو داود: الجهاد- فى النهى عن السياحة (٢٤٨٦). والمقصود من السياحة المنهى عنها هنا: سكنى البرارى، وترك المباحات والمألوفات قهرا للنفس.

والوصفان الرابع والخامس ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ قالوا إن هذين الوصفين لإقامة الصلاة، وهى ذكر الجزء وإرادة الفعل، فالصلاة قيام وقعود، وركوع وسجود، وقراءة ودعاء، واختص الركوع والسجود بالذكر؛ لأنهما الوصفان اللذان يتجلى فيهما معنى الصلاة، لأن إقامة الصلاة بإحسان الخضوع والخشوع لله تعالى. وإن إخلاص القلب بخضوعه الكامل، وتفويضه التام هو إقامة الصلاة، وكنى به عن معنى الإقامة فيكون من المعقول أن يعبر بركنى الركوع والسجود عن الصلاة، وبهما يتحقق ما اختصت به الصلاة من أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، ويتحقق فيها ذكر الله تعالى.

بعد أن بين سبحانه الأوصاف التى تربى نفوسهم قلبيا واجتماعيا، ذكر صفتين تطهر مجتمعهم، وتجعل الفضيلة دائما هى السائدة.

وهاتان الصفتان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ولذا قال تعالى: ﴿الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾، إن المجتمع الفاضل يقوم على الأمر بالمعروف، أى كل ما هو معروف لا تنكره العقول السليمة، والنهى عن كل أمر تنكره العقول السليمة، فإن المجتمع الفاضل ظل لكل خلق سليم ينمو فى ظله الوارف، ولذا كانت أمة محمد أمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ... (١١٠)﴾ [آل عمران].

والوصف الثامن قول تعالى: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ الحد ما يحده الشارع فاصلا بين الحلال والحرام، ومعنى حفظه حمايته وصونه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿... تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩)﴾ [البقرة].

ويطلق الحد فى عرف الفقهاء على كل عقوبة ذكرها الله تعالى للجرائم التى تعد اعتداء على حق الله تعالى، أو كما يعبر فى لغة العصر بحق المجتمع، فالحدود عقوبات على الرذائل وحماية للفضائل.

وتدخل الحدود بهذا المعنى الفقهى الخاص فى ضمن حدود الله التى تفرق بين الحلال والحرام، وحفظها صونها ومراعاتها، وألا يعتدى عليها.

وختم الله تعالى الآية الكريمة بقوله، بيانا لعاقبة الإيمان، وهى نيل الخير والاطمئنان فى الدنيا والجنات فى الآخرة، ورضوان من الله أكبر، ولذا قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى بشرهم بحسن الجزاء كما ذكرنا، والله سبحانه وتعالى عنده حسن المآب، وكانت (الواو) فى قوله تعالى: ﴿ وَالْحَافِظُونَ ﴾ لبيان أن هذا نوع مغاير لما سبقه وإن هذا جزاء المؤمنين، والمشركون لهم عذاب الجحيم، ولا يستغفر لهم أحد، إنما القربى بالأعمال، لا بالقرابة؛ ولذا قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) ﴾.

﴿ ... كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) ﴾ [الطور]، ﴿ ... لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا ... (٤٨) ﴾ [البقرة]، ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) ﴾ [النجم]، تلك قواعد قرآنية توجب ألا يغنى عمل إنسان عن إنسان غيره، ولقد كان بعض المؤمنين لمحبة رابطة بين أحد المؤمنين والمشركين يطلب المؤمن المغفرة لمن يحبه من المشركين لرحم جامعة أو قرابة رابطة، أو لمودة موصولة، فنهى الله نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم عن ذلك هو ومن معه من المؤمنين، فقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَىٰ ﴾ أى أصحاب قربى قريبة، فقربى مؤنث أقرب، أى ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم، وقد رد الله تعالى استغاثة نوح لابنه، وقال: ﴿ ... إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ... (٤٦) ﴾ [هود].

يقول ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ... ﴾، أى ما ساغ له، وما صح للنبى الذى يدعو إلى الحق أن يستغفر لمن يصد عنه، ويعانده، ويقاومه، ما دام قد ضل لا يحل الاستغفار له إذا مات على ضلاله، ولقد روى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال فى حال شدة قومه عليه فى واقعة أحد عندما كسرت ثنيته: «اللهم اغفر

لقومى فإنهم لا يعلمون»، ألا يعد هذا استغفارًا؟ ويرد على ذلك بأن دعوة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم دعوة بالمغفرة التى تلازمها التوبة، والتوبة محتملة وقريبة، ماداموا أحياء، فإذا ماتوا فقد انقطعت التوبة وصاروا من أصحاب النار، وهذا موضع النهى، فالاستغفار للأحياء يجوز لرجاء التوبة، والاستغفار دعوة بها، والتعبير للمشركين فى قوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ**﴾.

والتعبير بالمشركين لبيان عدم شفاعة ربهم، وضلالهم فى أن جعلوا الأحجار أندادا لله تعالى، وقوله تعالى: ﴿**وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ**﴾ أى مهما ربطتكم بهم الروابط كما ذكرنا، وذلك لتوثيق المنع، وتأكيده.

وقوله تعالى: ﴿**مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ**﴾ أى ما كان للنبى والمؤمنين أن يستغفروا للمشركين من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم، وذلك بوفاتهم مشركين معاندين لرب العالمين، فإنه بعد الوفاة لا رجاء فى توبتهم، حتى يستغفر لهم، ولذلك قالوا: إن الأحياء من المشركين يجوز الاستغفار لهم، لأنه طلب المغفرة لهم، وطلب المغفرة يستدعى الدعاء لهم بالتوبة، والدعاء بالتوبة جائز، وأما الاستغفار لمن مات فقد تبين أنه فى الجحيم، ولا توبة، لأنه انتقل من دار التكليف إلى دار الحساب والجزاء، وفى قوله تعالى: ﴿**مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ**﴾ ملاحظتان بيانيتان:

الأولى: فى قوله تعالى: ﴿**مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ**﴾ فإنها تشير إلى ما فعلوا من أذى عاينوه، وعناد قاوموا به الحق، ثم ماتوا وهم كارهون للحق وأهله مقاومين كافرين بالله ورسوله.

الثانية: فى التعبير بـ ﴿**أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ**﴾، أى الذين يلازمونها، والتعبير يشعر بأنهم مقصورون عليها ومقصورة عليهم أى لا يتجاوزونها أبدا، وهى لازمة لهم ولأمثالهم.

قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) ﴾.

نهى الله تعالى نبيه والمؤمنين عن أن يستغفروا للمشركين، وقد استغفر إبراهيم لأبيه فى فترة من الزمان؛ لأنه كان يرجو أن يتوب ويغفر له، ولكن تبين له بعد ذلك أنه عدو لله، وإن هذه الإشارة الموجزة تؤكد نهى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه عن أن يستغفروا للمشركين.

وقوله: ﴿ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾ وتلك الموعدة ما صرح به فى سورة مريم محاجته مع أبيه، فقد قال تعالى فى هذه المحاجة: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) ﴾ [مريم].

هذه الموعدة التى وعدها لأبيه، لأنه كان يرجو أن يتوب، وأن يغفر له الله تعالى، فالاستغفار كان بطلب المغفرة التى تجىء التوبة لازمة لها، والتوبة محتملة، وممكنة؛ لأنه كان حيا، فلما تبين له استمراره على غيه، وعداوته لله بصناعة الأوثان التى تعبد من دون الله تبرأ منه. وجاء فى سورة الممتحنة، فقد قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) ﴾ [الممتحنة].

وعد إبراهيم بالاستغفار لأبيه، ولما مات مشركا، وهو على غيه فى صناعة الأصنام وعبادتها، تبرأ منه وصارت مثلا للمؤمن فى تبرؤه من أبيه الذى كان إبراهيم له برا، ويراد له الهداية.

ثم بين الله تعالى الباعث النفسى الذى بعثه على الاستغفار لأبيه رجاء توبته، وبعدها المغفرة ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ الأواه كثير التأوه لرقة قلبه وشدة إحساسه، وفرط محبته لأولى قرباه، وحليم عاقل صبور مدرك لمن ينبغى أن يرحم، ومن يتبرأ منه، والله غفور رحيم.

قال تعالى:

وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾

(الواو) تدل على وصل هذه الآية بما قبلها، وما قبلها كان نهيا عن الاستغفار للمشركين، وجاءت قصة إبراهيم عليه السلام فى استغفار إبراهيم لأبيه

تتمة للنهى عن الاستغفار، وقد كان من المؤمنين من دفعته الرأفة بآله، أو ذوى القربى أن استغفر لهم، فكانت الآية لبيان أنه ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ** ﴾، لبيان أنه لا مؤاخذة من غير تكليف، وخصوصا لمن اختار سبيل الهداية.

وقوله تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ** ﴾ نفى مؤكد عن ذات الله تعالى، أن يكون منها إضلال لمن اهتدى وعلى قول أكثر المفسرين، ولتكون الآية مرتبطة بما قبلها ارتباطا وثيقا يكون معنى ﴿ **لِيُضِلَّ** ﴾ الحكم بالضلالة والمؤاخذة عليها، قبل أن يبين سبحانه ما يُتَّقى من الضلالة، فكما أنه سبحانه لا يعذب إلا بعد رسول مبين بمقتضى قوله تعالى: ﴿ ... **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا** (١٥) ﴾ [الإسراء]، وكذلك لا يؤاخذ سبحانه بذنب ارتكب إلا بعد بيان أنه ذنب، والطريق لاتقائه، وهذا على أن الهداية التى هداهم الله هى الدخول فى الإسلام فلا يحاسبك على شرب الخمر إلا بعد النهى عن الشرب، ولا على الزنى إلا بعد النهى عنه، ولا على القذف إلا بعد النهى عنه، ووضع الحدود المانعة من الارتكاب، وما كان الله تعالى ليؤاخذ على الاستغفار إلا بعد النهى عنه، وفى النهى بيان لما يتقون به المؤاخذة.

وقد خطر لى، وأنا أكتب، أن يكون المعنى، وما كان الله تعالى ليأخذ قوما ساروا بمقتضى الفطرة الإنسانية، والميثاق الذى أخذه عليهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم، فهذه هى الهداية الفطرية التى فطر الناس عليها، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿ **إِذْ هَدَاهُمْ** ﴾ أى وقت أن هداهم فى بدء الخليقة وقوله تعالى: ﴿ **حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ** ﴾ أى حتى يبين ما يؤيد الفطرة ويدعمها، ويبين لها ما تتقيه بأن تجعل بينها وبينه وقاية، فلا تقع فيه، والحاجز المانع هو أمر الله تعالى ونهيه، وتكون متطابقة تماما مع قوله تعالى: ﴿ ... **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا** (١٥) ﴾ [الإسراء].

وقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تأكيد لعلمه الذى يعم الوجود كله بالإحاطة والشمول، وبالتأكيد بـ (إن)، وبتصديره الجملة السامية بلفظ الجلالة، وبمقتضى علمه الذى عم الوجود كله، يقدر كل شيء، ويدبره على مقتضى علمه وحكمته.

وقد جاء فى الآية التالية ما يؤكد عموم علمه؛ لأن كل الوجود ملكه، يتصرف فيه تصرف المالك فيما يملك، فقال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (١١٦)﴾.

هذه الآية أثبتت ملك الله تعالى وسلطانه، ولقد أراد البيضاوى أن يربط بين هذه الآية والأمر بالبراءة من المشركين والاستغفار لهم إذا ماتوا على الضلالة، فقال رضى الله تعالى عنه: (لما منعهم من الاستغفار للمشركين، ولو كانوا أولى قربى)، وتضمن ذلك وجوب التبرؤ منهم رأسًا، وبيَّن لهم أن الله مالك كل موجود ومتولى أمره، والغالب عليه ولا تتأتى لهم ولاية، ولا نصرة إلا منه ليتوجهوا إليه ويتبرءوا مما عداه، حتى لا يبقى لهم مقصد فيما يأتون ويذرون سواه. ا هـ.

ونرى مع ما رآه البيضاوى أن الآية الكريمة تؤكد علم الله تعالى الذى ختمت به الآية السابقة، فهذه الآية السامية الأخيرة، تؤكد علم الله تعالى الشامل، وتبين سببه، وتبين سلطان الله تعالى المطلق، الذى يدبر كل شيء فيه على مقتضى علمه وحكمته التى أقامت الوجود، ورتبه ونمقه، وأبدعه كله ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ... (١١٧)﴾ [البقرة].

وإن ملكه لا يكون على الإنسان فقط، بل هو على السموات بأبراجها والأرض بطبقاتها لا يخرج عن ملكه شيء فى السماء، يحيى ويميت، وفى ذلك

إشارة إلى الوصف الذى يحياه الحى كافرا، أو مؤمنا، والحال التى سيموت عليها مؤمنا أو كافرا، وأن لا استغفار لمن لم يرج توبته، ولا استغفار لمن مات، وأغلق أبواب عمله فى الدنيا.

﴿مَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ الخطاب للمؤمنين ومعناه، وما لكم أيها المؤمنون من ولى يواليكم وتحبونه إلا الله تعالى، ولا نصير ينصركم سواه، فلا تؤثروا عليه قرابة، فلا ترأفوا بمن عصى الله تعالى ورسوله الذى أرسله رحمة للعالمين، وإنه سبحانه أولى بخلقه يهدى من يشاء ويضل من يشاء.

ولقد بين الله سبحانه مآل الذين تخلفوا والذين اتبعوه فى ساعة العسرة فى غزوة تبوك فقال تعالى:

﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧)﴾.

كانت غزوة تبوك اختبارا شديدا للمؤمنين وقد تحقق فيها كل البلاء، وتعلم فيها المؤمنون معنى، وصدق عليهم قول الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦)﴾ [البقرة].

ولذا ذكرها الله سبحانه وتعالى ببعض التفصيل، وكرم الذين صبروا، وعاقب الذين خذلوا وثبطوا ثم تخلفوا، وعاتب المؤمنين الذين تخاذلوا فى وقت الدعوة إليها، وذلك لأن الصبر فى مثل هذه الحال مناط العزة والرفعة، ويجب أن يكونوا كحال هؤلاء الصابرين، ليعتزوا بالإسلام، ويعتز بهم المسلمون فى الأرض كلها.

وقد نالهم البلاء كله، فنالهم الخوف، ولولا أن الرسول بينهم، ما استطاعوا الذهاب إلى الرومان، لقد كان من شأن حرب بنى الأصفر أن يلقى فى قلوبهم

الرعب، وكان المنافقون بينهم يبثون ذلك الخوف، ويلقون فى النفوس الذعر ونالهم الخوف والجوع ونقص الثمرات؛ إذ تركوها فى المدينة وقد نضجت فلم يحصدوها، وكان الجوع والعطش وهم سائرون فى شقة بعيدة، جاء فى تفسير الحافظ ابن كثير فى تصوير المشقة فى هذه الغزوة التى أرهبت الرومان وكانت إرهاصا بفتح الشام، فروى عن قتادة أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم خرج بالمؤمنين فى لهبان الحر وأصابهم فيها جهد شديد، حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما. . . . وروى عن ابن عباس أنه قيل لعمر بن الخطاب فى شأن العسرة فقال عمر بن الخطاب فى وصف ما نالهم: خرجنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى تبوك فى قيظ شديد، فأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع من شدة العطش، وحتى إن الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره، ليعصر فرثه، فيشربه، ويجعل ما بقى على كبده، فقال أبو بكر: يا رسول الله إن الله عز وجل قد عودك فى الدعاء خيرا فادع لنا فقال ﷺ: «تحب ذلك!» قال: نعم، فرفع يديه، فلم يرجعها حتى سالت السماء وأهطلت، ثم سكنت فملئوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر، فلم نجدها جاوزت العسكر[(١)]، هذا ما جاء فى ابن كثير، وجاء فى غيره أن الرواحل لم تكن موفورة، بل كان العشر يعتقبون على راحلة واحدة أو بعير وإن لم يكن راحلة.

هذه هى المشقة أو إشارة إليها وذكرها القرآن ليبين كما ذكرنا من قبل، كيف يكون الجهاد، وكيف يكون طلب العزة، ورفع الذلة، وكيف يكون الاطمئنان والقوة، وكيف يكون جسر التعب الذى لا بد لنيل الحياة العزيزة الكريمة من المرور عليه.

يقول تعالى: ﴿**لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ**﴾ ساعة العسرة أى وقت الشدة فى الجهد، والمال، والحر الشديد،

---

(١) البداية والنهاية: ج٦، ص٢٣١ .

وطريق الوصول إلى المكان المنشود، ومحاربة قوم غلاظ شداد هم الذين كانت لهم السطوة.

وقد أشارت الآيات السابقة إلى أن المهاجرين والأنصار كانوا السابقين، وإلى أن الذين تخلفوا، قال سبحانه فيهم ما كان عتبا قاسيا، فيه عقاب لنفوسهم المؤمنة، وبين فيما مضى المخلفين نفاقا وضعفًا فى الإيمان.

يقول تعالى: لقد تاب الله تعالى على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من أخطائه التى وقع فيها كإذنه للذين استأذنوه من المنافقين، وهو يعلم كذبهم، وكذلك اجتهاده فى أمر الأسرى فأخذ فداء الأسرى قبل أن يثخن، ونحو ذلك مما يتعلق بالحروب، والمعاهدات التى تعهد فيها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ويبين الله تعالى أنه أخطأ فى اجتهاده، وما كان اجتهاده وتخطئة الله تعالى إلا ليعلم الذين يجيئون من بعده أن الذين يجتهدون بعقولهم يخطئون، وهذا سيد البشر، إذا اجتهد فقد يخطئ، فإن الحاكم أيا كان عرضة للخطأ وليس له أن يستبد بفكره، ويقول مقالة فرعون ما أريكم إلا ما أرى، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد.

ولقد تعلق الجهلاء من النصارى، ولو كانوا فى مناصب عالية عندهم، وادعوا أنهم من فلاسفة هذا الزمان، أن عيسى عليه السلام أفضل من محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، لأنه لم ينسب إليه ذنب يغفر، ومحمد عليه الصلاة والسلام غفر له كما قال تعالى: ﴿**لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ** ... (٢)﴾ [الفتح]، وقال تعالى: ﴿**لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ**﴾ فنقول إن ذلك جهل فاحش، أو هوى فاسد، أو هما معا.

أولا ـ لأن التوبة مقام من مقامات العبودية، والخضوع للذات الألوهية، ولذا وصف الأتقياء بأنهم التوابون؛ لأن التوبة تنبعث من إحساس بعلو المقام الإلهى، وتفتيش النفس، والبعد عن الغرور، والشعور بالتقصير نحو الذات

العلية، مهما تكن الأعمال الصالحة، فالعابد يستصغر ما يفعل فى جنب الله مهما يكن كبيرا، فيتوب عما يحتمل من وجود تقصير أو فوات طاعة واجبة.

وثانيا ـ أن الأخطاء التى لا يؤاخذ عليها بحسن فرط طاعته، واستجابته لما يطلبه العلى الأعلى بأنها ما كانت تجوز، وأنها تخالف الطاعة المطلقة التى هى حق الله على عباده، وخصوصا الأنبياء الذين هم صفوة خلق الله تعالى.

وثالثا ـ أن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم كان بمقتضى دين الفطرة، ومعالجة أحوال الناس، والجهاد فى دعوة الحق، معرضا لأن يخطئ، لا أن يذنب، ولفرط طاعته، واستقامة نفسه يحس بأن خطأه كالذنب، والرضا به لا يتفق مع مقامه من الله تعالى الذى يخاطبه.

ورابعا ـ أن التوبة يجب أن تكون خلة ثابتة من خلال المؤمنين؛ لأنها رجوع إلى الله تعالى، والمؤمن لا يجوز أن تغره الحياة، فلا يرجع إلى الله تعالى، فالرجوع إلى الله بالتوبة يجب ألا يغفل المؤمن عنها؛ لأنها فى ذاتها تجديد للإيمان، وتذكير بالطاعة المستمرة، وتوبة محمد سيد البشر دعوة للمؤمنين لأن يتوبوا كما قال تعالى: ﴿ ... **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** (٣١) ﴾ [النور].

وخامسا ـ أن النفوس كلما علت أحست بأن الهفوات كأنها ذنوب، فتلجأ تائبة بالإنابة إلى ربها، وهذا ما يقوله العلماء: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وبهذا يتبين أن التوبة، والغفران والإحساس بالخطأ كأنه ذنب سمات الأبرار والعلو فى مقام إدراك معنى الربوبية والعبودية، وليس نقصا فى الذات النبوية ذات أفضل البشر.

وذكر بعد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم المهاجرين؛ لأنهم الذين كونوا الخلية الأولى للإسلام، ولأنهم الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ابتغاء نشر

الدعوة الإسلامية، واستمساكا بدينهم، وكان الأنصار الذين آووا ونصروا، وإذا كان المهاجرون آزروا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وأقاموا معه الدعامة الأولى لبناء الإسلام، فالأنصار هم الذين عاونوا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى إقامة الدولة الإسلامية، وإذا كان الأولون هم قوم النبى ﷺ وأقرباءه، فالأنصار هم أحباؤه الذين أقسم لهم وإنه لصادق: «لو سلك الناس شعبا، وسلك الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار»، والذين دعا لهم فقال: «اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار»[(١)]، رحمهم الله ولعن من أذاهم وأبى.

وقد وصف الله المهاجرين والأنصار بوصف يبين حالهم فى حال الشديدة التى كانت فى تبوك فقال: ﴿**الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ**﴾، والساعة الجزء من الزمن كالغداة، والعشى، والظهيرة، وهذا وصف كاشف لحالهم ولخبيئه، فالمهاجرون الذين تركوا الدار والأهل والمال هم الذين اتبعوا النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى ساعة الشدة، وكذلك الأنصار الذين آووا ونصروا، وكانوا يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة هم كذلك الذين اتبعوه فى ساعة العسرة، وقد ذكرنا بعض ما كان من عسرة شديدة، حتى أن الأعناق كادت تنقطع من شدة العطش لولا دعاء الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم.

وقد صور الله تعالى شدة العسرة على بعض النفوس فقال تعالى: ﴿**مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ**﴾، أى أن الشدة بلغت أقصاها حتى كادت تزيغ قلوب أى تنحرف وتضل قلوب فريق منهم، ولكنهم لم يزيغوا، ولم يضلوا، بل اصطبروا، ومرت الشديدة، وانتهوا إلى الاطمئنان.

وقال تعالى: ﴿**ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ**﴾ الضمير فى ﴿**عَلَيْهِمْ**﴾ إما أن يعود إلى المهاجرين والأنصار، ويكون تأكيدا لقبول توبة الله لهم، وإما أن يعود على الذين كادت تزيغ قلوبهم، وهذا ما نميل إليه، ويكون المعنى إن العسرة كانت شديدة

(١) سبق تخريجه.

لجوجا، حتى كادت تزيغ قلوب فريق من هؤلاء المهاجرين والأنصار ولكن الله سلم، وارتدت أفئدتهم فتاب الله تعالى عليهم بسبب تلك الخواطر التى جاشت، وكادت تضلهم وإن ذلك من رأفة الله تعالى بهم، ولذا ختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الضمير يعود على الله جل جلاله، وهو مذكور قريبا من النص الكريم، وهو حاضر دائما فى القلوب والعقول لمن تذكر، وتقديم الجار والمجرور فى ﴿بِهِمْ﴾، دليل على كريم العناية، يرأف بهم ويرحمهم، ويختصهم بذلك.

وكان فى المخلفين ثلاثة تخلفوا من غير معذرة أبدوها، ومن غير سبب يبرر التخلف، وأحسوا بأنفسهم اللوامة تلومهم، وأمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بمقاطعتهم تأنيبا وتهذيبا، وتربية لضمائرهم، فهؤلاء بعد التجربة الشديدة تاب الله تعالى عليهم، ولذا قال تعالى:

﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)﴾.

(الواو) عاطفة، والمعطوف عليه قوله تعالى على النبى والمهاجرين والأنصار، أى أن الله تعالى تاب على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى المهاجرين والأنصار، وعلى الثلاثة الذين خلفوا بعد أن طهروا قلوبهم، ومنهم من خرج من ماله كله، ولنتكلم فى معانى ألفاظ النص القرآنى السامى.

ووصف الله الثلاثة بأنهم ﴿خُلِّفُوا﴾ أى تركوا، ولم يكونوا مع الذين نفروا للجهاد فى تبوك، وعبر الله تعالى بالبناء للمجهول، ولم ينسب إليهم أنهم تخلفوا، بل لم يذكر مَنْ خَلَّفَهُم، وإنما الواقع أنهم ما أرادوا القعود ابتداء، من وصف حالهم أنهم تباطأوا، وأخذوا يؤجلون يوما بعد يوم، حتى فاتهم الركب، فهم خُلِّفوا، ولم يريدوا التخلف ابتداء ولكن آل أمرهم إلى التخلف، وما أن

بلغهم أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وصل إلى تبوك، حتى أخذ الندم يغزو قلوبهم حسرة على أنهم لم يسارعوا، ولما لقيهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مغضبا منهم، إذ كان يعرف فيهم النجدة والإيمان، وكلهم كانوا من الأنصار، وهم مالك بن كعب بن مالك ومرارة بن الربيع العامرى وهلال بن أمية الواقفى.

ولقد تخلف منافقون فلم يبال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بهم، وتخلف مؤمنون، واعتذروا فقبل النبى أعذارهم، ولكن هؤلاء الثلاثة أحسوا بأنهم لا أعذار لهم، وأبوا أن يكذبوا فالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم رأى فيهم خيرًا، ورأى فيهم قصورًا قد وقعوا فيه، والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم رأى أن يهذب نفوسهم بالاستنكار للفعل من جماعة المؤمنين فأمر المؤمنين ألا يخاطبوهم، ثم رأى أن يعتزلوا نساءهم، وألا يلقوهن، وأجاز لشيخ فيهم أن تلقاه امرأته، ولكن يعتزلها، ومكثوا على ذلك خمسين ليلة ثم نزل الوحى بقبول توبتهم، هذا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿**ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ**﴾؛ بتلك المقاطعة، أى أن الأرض باتساعها ورحبها صارت أضيق من كفة الحابل، لأنهم لا يستطيعون الحركة لها، إذ فقدوا الأنس بالناس وخصوصا الذين طهرت نفوسهم، وزكت أرواحهم، ففى الكلام مجاز خلاصته أنهم شعروا بضيق الناس بهم لا يقرئونهم سلامًا ولا يقولون لهم كلامًا أيا كان الكلام، لومًا أو عتابًا، أو تقريعًا، أو أى نوع من الكلام يسمعون، فعبر عن هذا بأن الأرض ضاقت بهم مع اتساعها ورحبها.

وانتقل تبرم الناس بهم إلى تبرمهم بأنفسهم، فصارت نفوسهم كأنها عبء ثقيل عليهم، ﴿**وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ**﴾ الظن هنا بمعنى العلم، أى علموا أنهم لا يجدون ملجأ من أمر الله تعالى إلا أن يلجأوا إليه هو، فاستقامت نفوسهم راجعة إليه بمعاودة التوبة وتكرارها، شاعرين بأنه راحمهم ﴿**ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا**﴾ (ثم) هنا للتراخى، لأنه قد مضت عليهم خمسون ليلة يحسون بالقطيعة، وبعد الخمسين تاب عليهم بأن أمر النبى والناس أن يقربوا إليهم، وألا

يجافوهم، وأن يعيشوا بين المؤمنين، لأنهم منهم، وقوله تعالى: ﴿لِيَتُوبُوا﴾ أى ليجددوا توبتهم، ويداوموا عليها فيكونوا من التوابين الذين يرجعون إلى الله تعالى دائما، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، أى أن الله تعالى يقبل توبة عباده كثيرا فقال ما يدل على أن قبول التوبة النصوح المخلصة من صفاته، وقد قال تعالى فى وصفه سبحانه: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ... (٣)﴾ [غافر].

ومن الخير فى هذا المقام أن نذكر ابتداء غزوة تبوك ونهايتها، ونعرف كيف كان المهاجرون والأنصار، يتزاحمون على الذهاب مع شدة الحر، وإثمار الغرس وإحصاد الزرع، ولكن الجهاد أبقى وأوفر.

جاء فى الصحاح أنه روى أن ناسًا من المؤمنين تخلفوا عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم منهم من بدا له كره مكانه، فلحق به، وعن الحسن البصرى، بلغنى أنه كان لأحدهم حائط كان خيراً من مائة ألف درهم، فقال: ياحائط ما خَلَّفنى إلا ظلك وانتظار ثمرك، اذهب فأنت فى سبيل الله، ولم يكن لآخر إلا أهله، فقال: يا أهلاه ما أبطأنى ولا خلفنى إلا الضن بكم لا جرم والله لأكابدن المفاوز حتى ألحق برسول الله، فركب ولحق به، ولم يكن لآخر لا أهل ولا مال فقال: يا نفس ما خلفنى إلا حب الحياة، والله لأكابدن الشدائد، حتى ألحق برسول الله فتأبط زاده ولحق به. . . وعن أبى ذر أن بعيره أبطأ به، فحمل متاعه على ظهره، واتبع أثر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ماشيا، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، لما رأى سواده، «كن أبا ذر»، فقال الناس: هو ذاك فقال ﷺ: «رحم الله أبا ذر يمشى وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده»[1]، وعن أبى خيثمة، أنه بلغ بستانه وكانت له امرأة حسناء فرشت له فى الظل، وبسطت له الحصير، وقربت إليه الرطب والماء البارد، فنظر فقال: ظل ظليل، ورطب يانع وماء بارد، وامرأة حسناء، ورسول الله صلى الله تعالى عليه

(١) رواه الحاكم فى المستدرك: ج٣، ص٥٢. عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

وسلم فى الضح، والريح !!.. ما هذا بخير، فقام فرحل ناقته وأخذ سيفه ورمحه ومر كالريح، فمد رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم طرفه إلى الطريق فإذا براكب يزهاه السراب فقال: «كن أبا خيثمة»، فكانه، ففرح به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم واستغفر له. الكشاف للزمخشرى.

وكان الثلاثة من هذا الصنف المخلص، ولكن لم ينبعث فى نفوسهم ما انبعث فى نفوس هؤلاء، وقد يكون الخاطر يخطر، ويحول مجرى النفس من اتجاه سليم إلى غيره، وقد يكون غيره، والله عليم بذات الصدور.

هذا ذكر للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار.

ولنقص قصص الثلاثة كرواية أحدهم وأجرئهم فى الحق مالك بن كعب.

لقد قدم النبى صلى الله تعالى عليه السلام المدينة، وكان كلما قدم من سفر صلى ركعتين، ثم جاء المتخلفون وكانوا بضعة وثمانين رجلا، فأبدوا معاذيرهم، فصدقها، ووكل باطنهم إلى الله تعالى.

ولما جاء مالك بن كعب هذا ولنترك الكلمة له قال: «فلما سلمت عليه، فقال لى: ما خلفك ألم تكن قد اشتريت ظهرا؟ فقلت: يا رسول الله إنى لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت جدلا ولكن والله لقد علمت لئن حدثتك بحديث كذب ترضى به عنى، ليوشكن الله أن يسخطك على، ولئن حدثتك بصدق تجد على فيه إنى لأرجو عقبى ذلك من الله عز وجل، والله ما كان لى عذر والله ما كنت أفرغ ولا أيسر منى يوم تخلفت عنك، قال: فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضى الله فيك، فقمت وقام إلى رجال من قومى، واتبعونى، فقالوا لى: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا، ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بما اعتذر به المتخلفون، فقد

كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لك. فقال: فوالله ما زالوا يؤنبوننى حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسى.

قال: ثم قلت: هل لقى معى هذا أحد؟ قالوا: نعم رجلان قالا مثل ما قلت وقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت فمن هما، قالوا: مرارة بن الربيع العامرى وهلال بن أمية الواقفى، فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرا لى فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لى قال: ونهى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لى فى نفسى الأرض، فما هى بالأرض التى كنت أعرف، فبلغنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما، وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف بالأسواق، فلا يكلمنى أحد، وآتى رسول الله، وهو فى مجلسه بعد الصلاة، فأسلم وأقول فى نفسى: أحرك شفتيه برد السلام عليَّ أم لا؟، ثم أصلى قريبا منه، وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إليَّ، فإذا التفت نحوه أعرض عنى، حتى إذا طال عليَّ ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبى قتادة، وهو ابن عمى وأحب الناس إليَّ، فسلمت عليه، فوالله ما رد عليَّ السلام فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك الله، هل تعلم أنى أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت، فعدت له فنشدته فسكت ثم قال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناى من الدموع، وتوليت حتى تسورت الحائط فبينما أمشى بسوق المدينة إذا أنا بنبطى «أى فلاح»، من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة ويقول: من يدل على كعب بن مالك، فطفق الناس يشيرون إليَّ، حتى جاء فدفع إليَّ كتابا من ملك غسان، وكنت كاتبا فإذا فيه:

(أما بعد فقد بلغنى أن صاحبك قد جافاك، وإن الله لم يجعلك بدار هوان، ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك).

فقلت حين قرأته: (إن هذا أيضا من البلاء، فَتَيممت به التنور، فسجرته).

حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يأتينى يقول لى: يأمرك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟، فقال: اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبى بمثل ذلك، قال: فقلت لامرأتى: الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر ما يشاء!! قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن هلالاً شيخ ضعيف ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه؟ فقال: لا، ولكن لا يقربك، قالت: والله ما به من حركة إلى شيء، وإنه والله مازال يبكى منذ ما كان من أمره ما كان إلى يومه هذا.

فقال بعض أهلى: لو استأذنت رسول الله فى امرأتك، فقد أذن لامرأة هلال أن تخدمه، فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله، وما أدرى ما يقول فيها إذا استأذنته، وأنا رجل شاب، فلبثنا عشر ليالٍ، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا.

قال: ثم صليت صلاة الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على هذه الحال... سمعت صارخا أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته: أبشر يا كعب بن مالك، فخررت ساجدا، وعرفت أن قد جاء الفرج من الله عز وجل بالتوبة علينا، فآذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى الفجر فذهب الناس يبشروننا.... وانطلقت أؤم رسول الله، وتلقانى الناس فوجا فوجا يهنئوننى بتوبة الله، يقولون لـتَهنِكَ توبة الله عليكم، حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله جالس فى المسجد والناس حوله فلما سلمت على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك». قلت: أمن عندك يارسول الله أم من عند الله؟، قال: «لا بل من عند الله»، وكان رسول الله إذا سر استنار وجهه.

وذكر من بعد أنه كان من توبته أن ينخلع عن كل ماله، فقال: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك» فأمسك سهمه الذى أخذه فى غزوة خيبر، وانخلع عن باقى ماله(١).

وهنا نقف وقفة قصيرة نتحدث فيها بثلاثة أمور:

أولها ـ لماذا أهمل أمر الذين تخلفوا وقدموا معاذير جلُّها كاذب، وأقلها فيه صدق، نقول: ترك أولئك لأن الكاذب منهم لا يرجى منه خير، ولو عوقب ذلك العقاب ما أجدى معه، وربما عاند فزاد ضلالا، والنبى ﷺ لا يقدم على عمل يزيد الضلال ولا ينقصه، وربما كان الترك أجدى، والله يهدى من يشاء.

أما هؤلاء الثلاثة فإنهم صدقوا، والصدق بر وهو يهدى إلى البر، وكان لابد من أن يرحض عن نفوسهم ما علق من شائبة التخلف، وذلك بالهجر الجميل، الذى أحسوا فيه بمغبة عملهم، وزاد نفوسهم صفاء.

الأمر الثانى: أنهم صبروا أعنف الصبر وأقواه، وهو الصبر على الحرمان من الأنس بالناس، والالتقاء نفسيا بمن يحبونهم، ويخالطونهم، فإن الإنسان اجتماعى مدنى، تعيش نفسه فى وسط نفوس متجاوبة.

الأمر الثالث ـ أن استنكار القبيح، أو ما يظن فيه قبح يغسل النفس منه، وإن المجتمعات الفاسدة هى التى لا يستنكر فيها فعل القبيح، ولو تكاثر عدد الصالحين، فالاستنكار مهذب الإثم، والله سبحانه هو الحكيم العليم.

---

(١) متفق عليه؛ رواه البخارى: المغازى- حديث كعب بن مالك (٤٤١٨)، ومسلم: التوبة- حديث توبة كعب بن مالك (٢٧٦٩).

الصدق والجهاد قوة الأمم

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩ مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٢٠ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢١﴾

إن الصدق أخص ما امتاز به الثلاثة الذين خلفوا فى الأرض، وكانوا صفوة الله ورسوله، رحض خطأ التخلف عن نفوسهم، ولقد صبروا على الاختبار، وصقلت نفوسهم، حتى قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لأحدهم: «إنك منذ الليلة عدت كما ولدتك أمك»، لذلك كان يناسب هؤلاء أن يكون الأمر العام بالصدق ليرتفع كل مؤمن إلى هذه المرتبة التى تولى الله تعالى تربيتهم، ومن يتولى الله تربيته يحسن هذه التربية، ويكون ربانيا.

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)﴾ اقترن الأمر بالتقوى مع الأمر بالصدق والدخول فى زمرة الصادقين؛ لأن التقوى هى

امتلاء النفس بخشية الله تعالى، والوقاية مما يغضبه ولا يرضيه، فهى وقاية من العذاب، ومن هذه الوقاية طلب الرضا، فلا يقى من غضب الله إلا طلب رضاه بطاعته ومحبته وعبادته، وإن الصدق طريقها، وهما معا، «ولقد سئل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم: أيكون المؤمن جبانا؟ فقال: يكون، فقيل: أيكون بخيلا؟ قال ﷺ يكون، فقيل: أيكون كذابا؟ قال ﷺ: لا يكون المؤمن كذابا»(١) وقال فى الأمر بالصدق ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أى كونوا فى صحبتهم رحمهم الله، مثل الذين صدقوا فى تخلفهم وغيرهم من الصادقين، و(أل) للاستغراق تشمل كل صادق من المؤمنين، فلا يقصد جمع معين؛ لأنه لا عهد ليعين ذلك الجمع، فاللفظ يكون على عمومه، وتكون للاستغراق وعموم أصل الصدق الذين يصير الصدق وصفا ملازما لهم، ولقد قال ﷺ: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر، والبر يهدى إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا»، ويقول ﷺ. «إياكم والكذب، فإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا»(٢).

والصدق ليس مقصورا فى معناه على الصدق فى الخبر، بل إن ذلك أظهره وأقربه، وإن كان يشمل صدق الإيمان بأن يؤمن بالله ورسوله، وأن يقوم بما يوجبه الإيمان، ويصدق فى الجهاد، ويصدق أمام الناس فى إيمانه، فلا يخالف لسانه قلبه ولا عمله قوله، ومن الصدق صدق النفس فلا يكذب على نفسه، فيحسن عمله وهو قبيح، ولا يخدع نفسه، ومن الصدق الإخلاص فى كل ما يظهر على لسانه، فلا يخادع ولا ينافق، وفى الجملة الصدق ملاك الأخلاق الفاضلة، والإيمان الصحيح، والعمل الصالح.

---

(١) موطأ مالك: الجامع (١٨٦٢) عن صفوان بن سليم رضى الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

وقوله تعالى: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ يفيد أن الله تعالى يحث المؤمن على أن يعيش فى بيئة يكون فيها الصدق سائدا، والبر مسيطرًا، فإن فساد البيئة الفكرية والخلقية يؤدى إلى عموم الفساد، والبيئة الصالحة، تهذب آحادها، وتجعل الشر يختفى والخير يظهر، وظهور الخير يدعو إليه، وظهور الشر يحرض عليه.

وقد حرض الله تعالى أهل المدينة بعد الأمر بالصدق على الجهاد؛ لأن الجهاد من صدق الإيمان كما أشرنا عند الكلام فى معنى الصدق، فقال تعالى:

﴿مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم...﴾ نفى للشأن والكون، أى ما كان من شأن أهل المدينة من مهاجرين وأنصار آووا ونصروا وهم أهل النجدة والإيواء، ومن حولهم من الأعراب الذين أشربوا الإيمان أن يتخلفوا عن رسول الله ﷺ، ويؤثروا الدعة والراحة، ويتركوه وحده يكابد المشاق، ويتحمل المتاعب فى سبيل عزهم ورفع دينهم، ما ساغ لهم ذلك، وهم يرغبون فى الدعة وطيب العيش الرغيد، وقوله تعالى: ﴿عَن نَّفْسِهِ﴾، أى متوقفين عن نفسه فى أن يرغبوا له ما رغب فيه لهم.

لقد قال الزمخشرى فى ذلك: أمروا بأن يصحبوه على البأساء والضراء، وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط، لا أن يقوا أنفسهم من الشدائد ما تلقاه نفسه علما بأنه أعز نفس عند الله وأكرمها عليه، فإذا تعرضت مع كرامتها وعزتها، للخوض فى شدة وهول، وجب على سائر الأنفس أن تتهافت فيما تعرضت، ولا يكترث لها أصحابها، ولا يقيموا لها وزنا، وتكون أخف شىء عليهم وأهونه فضلا عن أن يربأوا بأنفسهم عن متابعتها، ومصاحبتها ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه، وهذا نهى بليغ، مع تقبيح لأمرهم، وتوبيخ لهم عليه، وتهييج لمتابعته بأنفس رحيمة.

والمعنى على هذا فى قوله: ﴿وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ أى لا يصونوا أنفسهم عما يرغبون فيه من عيش رغيد هين، وظل ظليل فلم يصونوا أنفسهم عن رغباتها، كما لم يُصن نفسه عن رغباتها.

ولنا أن نقول: إن عن نفسه معناها متجاوزين نفسه، ولذا كان التعدى بـ(على)، و(لا) فى قوله تعالى: ﴿وَلا يَرْغَبُوا﴾ لتأكيد النفى بـ (ما)، أى ما كان لهم أن يتخلفوا عن رسول الله، ولا كان لهم أن يرغبوا بأنفسهم، فتكرار النفى تأكيد له.

وإن هذا خبر فى موضع الطلب بأبلغ معانى الطلب، فيكون المعنى لا تتخلفوا عن رسول الله إذ يخرج للجهاد، ولا ترغبوا فى الدعة، والإقامة فى بحبوحة العيش، وتتركوا الرسول يخرج للجهاد وحده وإن ذلك له جزاؤه، ولذا قال سبحانه بعد ذلك مبينا الجزاء:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾.

الإشارة فى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى النهى المفهوم من قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم﴾.

إن هذا النفير من أهل المدينة المأمور به، والمنهى عن التخلف عنه، وألا يرغبوا بأنفسهم، كما فعل أبو ذر إذ خرج يتبع الرسول حتى حسب أن بعيره يبطئه عن الوصول إلى الرسول، فسار على قدميه يحمل متاعه وآلة الحرب، وكما فعل أبو خيثمة وكانت له زوجة حسناء، قد تزوجها حديثا، فرطبت له الأرض بالماء وفرشت له الحصير، وقدمت له الرطب والماء فتذكر الشدة التى فيها الرسول وصحبه من المهاجرين والأنصار، فترك ذلك كله، وركب بعيره حتى لحق برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، كما ذكر ذلك بسبب أنهم قد أدركوا وفهموا وعد

الله تعالى والله لا يخلف الميعاد؛ وبسبب أنهم ﴿لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ عطش شديد كذلك الذى اعتراهم فى تبوك حتى كادت أعناقهم تتقطع من العطش، لولا أن النبى استسقى السماء لهم فأغدقت. ﴿وَلا مَخْمَصَةٌ﴾ أى جوع شديد، كالذى أصابهم فى هذه الغزوة، التى فتحت الباب للشام، إذ أصابهم جوع شديد حتى إنهم كانوا يتقاسمون التمرة، ﴿وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ أى لا ينزلون أرضا تدخل فى حماية الكفار، يكون وطؤها فيه غيظ لهم، إذا انتهكوا حمى أرضهم، ولم يستطيعوا حمايتها من جيش الحق والإيمان، وذلك فيه عنت شديد لهم وإهدار لحرمات أرضهم، وفى ذلك إذلال لهم بعد أن كانوا لا يمس أحدهم حماهم الذى يحمون ﴿وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً﴾، بأن يحاربوا فيهزموهم.

أى أن ظمأهم الشديد، وجوعهم الذى صبروا عليه، ووطأهم أرض العدو الكافر التى كانت لا ترام، ونيلهم من بنى الأصفر الذين يتحكمون، ولا مسيطر عليهم أو محاسب، ما من أمر يقوم به أهل الإيمان إلا كتب الله تعالى لهم به عملا صالحا عند الله، ينال أهل الإيمان به رضاه أولا ـ واعتزازهم بالحق ثانيا، وجنة النعيم ثالثا، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، أى أن ذلك الجزاء العظيم أجر للعمل الصالح، وسماه سبحانه أجرا تكرما منه وتفضلا، وإلا فلا أجر إلا بفضله لأنه المنعم، والعبد ملك لسيده، وسمى الذين يقومون بحق الجهاد محسنين؛ لأنهم قاموا بما وجب عليهم، وأحسنوا الطاعة، وأبلوا فأحسنوا البلاء.

هذا نوع الجهاد بأنفسهم، إذ تركوا الراحة ومتعتها، وأثروا البلاء فأخذهم الظمأ، والجوع، ووطئوا أرض العدو ونالوا منه نيلا.

وهناك نوع الجهاد بالمال، وقطع الفيافى والقفار، وما يكون فيه من جهد بالمال، والنفس، وقد قال سبحانه فيه: ﴿وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١)﴾.

قد كان الجـزاء على العمل الصالح، على المشقات التى تحـملوها، والجهود التى بذلوها من ظمـأ قطَّع رقابهم وأمـعاءهـم، ومن جوع حـرموا فـيه من الزاد، ووطء أرض العدو وما فيه من إذلال كما قال علي: ما وطئت أرض قوم إلا ذلوا، ومن نيل نالوه منهم، أمـا فى هذه الآية فالجـزاء على النفقة: صـغيـرة كانت ولو بسوط أو علاقته، أو كبيرة كتجهيز عثمان جيش العسرة رضى الله عنه، وإن السير فى الفيافى والقفار، ولو لم ينالوا ويطئوا أرض العدو هو ذاته له أجر وجزاء. قوله تعالى: ﴿وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾، الوادى: المنفرج بين الجبلين، ويراد به هنا الأرض، لأن قطع الوادى لا يكـون إلا بقطع الجـبلين اللذين تـعـرج بينهـمـا، وقـد قـال الزمخشـرى: واديا أى أرضا فى ذهابهم ومجيئهم، والوادى كل منفـرج بين جبال وآكام يكون منفذا للسـيل، وهو فى الأصل فاعل من ودى إذا سال، ومنه الودى، وقد شاع فى استعمال العرب بمعنى الأرض يقولون لا تصل فى وادى غيرك.

لا ينفقون ولا يقطعون أرضا إلا كتب لهم بذلك عمل صالح يستحقون عليه جزاء ما عـملوا، ولذا قال تعالى: ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى كتب لهم ذلك ليعطيهم سبحانه وتعالى جزاء ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وعبر عن الجزاء بالعمل ذاته وقال: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لبيان المساواة التامة بين أحسن العمل والجـزاء، وللإشارة إلى أن الجـزاء ذاته مشتق من العـمل فهـو ثمرته، ولله تعالى الفضل والمنة.

وقبل أن نتـرك الكلام فى معانى هاتـين الآيتين اللتين فـيهمـا تحريض على الجهاد ننبه إلى أمرين:

أولهما ـ أن قوله تعالى ﴿وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً﴾ أن النيل فى أصل معناه بمعنى الأذى الذى ينزل بالعـدو، ويقال نال منـه بمعنى: نكبه بما يسـوء ويلحق به ضررًا.

الثانى ـ أن قطع الوادى والوصول إلى العدو، هو ذاته خير، لأنه قصد بقطع الوادى فعل أمر مثوب عليه، ومن يسعى فى خير كان سعيه شكورا، ولو لم يتم الفعل، ولقد قال تعالى: ﴿ ...**وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ** ... (١٠٠) ﴾ [النساء].

الفقه والجهاد

قال الله تعالى:

وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً
فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ
وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢)
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ
وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ (١٢٣)
وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ
إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ
(١٢٤) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا
إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ (١٢٥)

التفقه فى الدين فرض كفاية، وكذلك الجهاد فى سبيل الله، وقد قرر الإمام الشافعى أن فرض الكفاية، واجب على الكافة، وإذا ترك أثم الجميع الكافة والخاصة، ووجوبه على الخاصة يكون فرض عين، ولنبين ذلك بمثالين:

أولهما ـ أن الفقه فى الدين، وتعرف أسراره فرض كفاية، وعلى الأمة أن تسهل قيام هذه الطائفة التى تكون لعلم الإسلام، بتحفيظ القرآن، ورواية الحديث،

وجمعه، ويكون حينئذ تعليم الدين فرض عين على هذه الطائفة التى كان ذلك التعليم أول أعمالها، وإذا لم تقم هذه الطائفة أثمت الأمة كلها الكافة؛ لأنهم لم يقيموها.

والمثل الثانى ـ الجهاد فى سبيل الله تعالى فإنه على الكافة أن تهيئ الأسباب للقادرين، وتمدهم بالعدة، والنفقة، والجهاد عليهم فرض عين فإن تخلفت الأمة عن الجهاد أثمت كلها.

وهذه الآية ﴿**وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ وما بعدها تحدنا فى هذين الفرضين حدا جامعا.

يقول تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ**﴾.

﴿**وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ هذا نفى مؤكد لنفورهم للحرب كافة نفيا مؤكدا وقد أكدته لام الجحود، والمعنى ما ساغ ولا صح أن ينفر المؤمنون كافة للجهاد، بحيث تخلو المدينة ممن يقوم بحق الله تعالى، وحق العلم بالدين والفقه فى القرآن. فاللام لتأكيد النفى ـ إذ مقتضى السياق ما كان المؤمنون أن ينفروا فجاءت (اللام) لتأكيد النفى.

وقد بين سبحانه من الذين لا ينفرون، فقال: ﴿**فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ**﴾، فهنا نفوران، واحد منفى، وواحد مثبت، فأما المنفى، فهو النفور للجهاد، وهو منفى عن الكافة أى ليس للكافة أن ينفروا جميعا للجهاد، والنفير الثانى المثبت المحرض عليه، أن ينفر من كل فرقة طائفة ـ أى ناس متخصصون فى التفقه فى الدين، وهؤلاء ينفرون لهذا العلم من كل فرقة مقدار من الناس. واحد أو اثنان أو أكثر عددا، وإنهم ينفرون من فِرَقهم إلى الرسول، وينفرون بعد تفقههم إلى قبائلهم.

وكان المؤمنون ينقسمون إلى قسمين أحدهما ينفر للجهاد، والآخر يبقى فى المدينة، متعلما فقه الدين، وينفر إلى الرسول ليعلمه، ويرجع إلى قومه لينذرهم.

وهنا ملاحظات بيانية.

أولاها ـ أن مسمى الاتجاه إلى الفقه يدرسه نفير؛ لأنه أولا ينفر له ناس لدراسة القرآن وفقه الإسلام إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ثم يرجع إلى أهله، ولأن العكوف على علم الإسلام لا يقل فضلا عن الجهاد فى سبيل الله تعالى، وأنه جهاد مثله؛ لأنه من قبيل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بالإيجاب، والجهاد أمر بالمعروف ونهى عن المنكر برفع الاعتداء وتمهيد السبيل.

الثانية ـ أن قوله تعالى: ﴿**فَلَوْلَا نَفَرَ...**﴾ (الفاء) للإفصاح عن شرط مقدر تقديره إذا كان المؤمنون لا ينفرون للحرب كافة، فإن طائفة تخصص للفقه لينذروا قومهم إذا رجعوا، وقوله تعالى: ﴿**فَلَوْلَا**﴾، لولا هنا للتحريض على الفقة فى الدين.

الثالثة ـ أن الفقه هو العلم، وهو العلم النافذ الذى يخترق العوائق لإدراك لب الدين، ويقول الغزالى فى هذا المقام: كان الفقه فى العصر الأول اسما لعلم الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدة الأعمال، والإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب.

الرابعة ـ أن الله تعالى قال: ﴿**لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾، ولم يقل لعلهم يتفقهون، وذلك لأن الخوف من عذاب الله تعالى وتقليل الخوف من العذاب هو ثمرة الفقه فى الدين.

الخامسة ـ أن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾ أى رجاء أن يحذروا أو يخافوا، والرجاء منهم لا من الله سبحانه وتعالى؛ لأن الله تعالى عنده غيب السموات والأرض، وهو على كل شىء قدير.

وقد تكلم الرواة فى هذه الآية على الآثار الواردة عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى مقام العلم بجوار الجهاد، وأن الآثار التى وردت فى فضل العلم لا تقل عن الآثار التى وردت فى فضل الجهاد، وكلاهما ينبعان من نبعة واحدة وهى إعلاء كلمة الله، فالأول لبيان الحق، والثانى للذود عن حياضها، وتغيير السبل أمامها، حتى لا يعوقها طاغ من طغاة الأرض، وقد روى أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال «طلب العلم فريضة على كل مسلم»(١).

ولقد روى الترمذى من حديث أبى الدرداء، أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهَّل الله له به طريقا إلى الجنة»(٢)، وروى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم»(٣).

وإن هذا الوصف هو للعالم الذى فقه فى الدين، واعتز به، ولم ينافق فيه، ولم يتخذه سبيلا للعلو والفساد واجتياز المجالس عند الأمراء ونيل الدنيا به، وبالنفاق والكذب، والافتراء على الله، ولقد قال الزمخشرى فى هذا الصنف من العلماء، ويظهر أنهم كثروا فى عصره عندما انزلق العلماء إلى موائد السلاطين. فقد قال رضى الله تعالى عنه فيما ينبغى للعلماء:

«وليجعلوا غرضهم، ومرمى همتهم فى التفقه إنذار قومهم، وإرشادهم، والتصغية لهم، لا ما يتجه إليه الفقهاء من الأغراض الخسيسة، ويؤمُّون به من المقاصد الركيكة من القصور والترؤس، والتبسط فى البلاد، والتشبه بالعظمة فى ملابسهم، ومراكبهم ومنافسة بعضهم بعضا، وفشو داء الضرائر بينهم، وانقلاب حماليق أحدهم إذا لمح لأحدهم مدرسة لآخر أو شرذمة جثوا بين يديه، وتهالكه

(١) سنن ابن ماجه: المقدمة- فضل العلماء والحث على طلب العلم (٢٢٤).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) رواه الترمذى: ما جاء فى فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٥). وابن ماجه: المقدمة- من قال العلم الخشية وتقوى الله (٢٨٩) بلفظ مقارب.

على أن يكون موطـأ العقب دون الناس كلهم، فمـا أبعد هؤلاء من قـول الله عز وجل: ﴿ ... لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا ... (٨٣) ﴾ [القصص]» اهـ. فما أشبه الليلة بالبارحة ولا حول ولا قوة إلا بالله.

هذا خط العلم فى الرسـالة المحمـدية، والجهـاد ماض فى طريقـه إلى يوم القيامة، ولذا جاء بعد آية التفـقة فى الدين آية للجهاد فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣)﴾.

نداء إلى الذين آمنوا يشير بهذا النداء إلى أن الجهاد فى سبيل الله تعالى ثمرة الإيمان، والتقاعس عن القتـال يكون من ضعف الإيمان، أو مرض القلوب، وأمر الله تعالى بقتال الذين يلون أرض الإسلام سـواء أكان المؤمنون بالمدينة أم أقاموا فى أرض أخرى، فالأمر أمـر عام بقتال الذين يصاقبونهم، لتكـون العلاقة بينهم حربا واضحة، أو عـهدا وفيا، أما أن تكون العـلاقة علاقة من يتربص بالآخـر، وينتهز الفرصة، قاتلوا الذين يلونكم، ثم الذين يلونهم إن لم يرضوا بالعهد، وهكذا كما ابتدأ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، فأنذر عشيرته الأقربين ثم صدع بأمر ربه، ولما هاجر قاتل قريشـا، ثم قاتل العرب أجمعين لما نزعـوا عن قوس واحدة، قاتل المشركـين كافة كـما يقـاتلونه كافة، ولما ابتـدأ يقاتل خارج الجـزيرة العربيـة ابتدأ بالرومـان؛ لأن واليـهم قـتل من أسلم من أهله، ولأنهم أقـرب إلـى المدينة من الفرس، ولأنهم كـانوا يمالئـون اليهود، ونصـارى العرب، ولأنهم أهل كـتاب، ولأنهم فى أرضهم بيت المقـدس، مسرى رسول الله ﷺ، ولأنه يجب أن يـتحرر من أهل الكفر، كـما تحرر البـيت الحرام من الشرك، ولأنهـم المسلمون وهم ورثة الأنبياء أجمعين، والقوامون على الرسالة الإلهية من بعدهم.

وقال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ والأمر هنا فى معنى وأغلظوا عليـهم، ولكن قوله تعالى: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أبلغ

لأن مؤداه أن يكونوا كلما راموكم بسوء وجدوا فيكم غلظة فلا يفكرون فى أن يرموا بسوء، والغلظة معناها الشدة والقوة، والغلظة تجمع الجرأة، وعدم التوانى، والصبر، والمبادرة، والعنف فى القتال من غير اعتداء فيه، وألا تأخذهم بهم رأفة فى دين الله تعالى.

وكانت الغلظة فى قتال الذين يلونهم، ليأمنوا شرهم، وليرهبوهم، ولكيلا يتمكنوا من الاعتداء إن فكروا فيه، أو أرادوهم لأنهم ما داموا لم يعاهدوا عهدا وفيا، فإن شرهم متوقع، ودفع الشر قبل أن يأتى من شأن الحذرين، والله تعالى يقول: ﴿ ... **خُذُوا حِذْرَكُمْ** ... (٧١) ﴾ [النساء]، والقتال أنفى للقتال، وأبعد عن الاعتداء، وخير الدفاع ما يكون هجوما.

وختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿**أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**﴾ إن الله يحب الذين يتقون عذابه، ويتقون الشر قبل وقوعه ولا ينتظرونه حتى يقع، فإن وقع صعب دفعه، والذين يتقون الاعتداء، وكان ختم الله تعالى الآية بذلك لهذه المعانى التى أشرنا إليها، ولتحريض المؤمنين على اتقاء الاعتداء ما تمكنوا منه.

وقوله: ﴿**أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**﴾، أى هو مصاحب لهم، فلا يقع عليهم، وهو قريب منهم ينصرهم ويعزهم، ولا يمكن عدوا منهم، وقد أكد سبحانه أنه مع المتقين بالجملة الاسمية، وبإنَّ الدالة على التوكيد، وبتصدير القول بلفظ الجلالة الذى يربى فى النفس المهابة من الله ومخافته.

وقد بين الله سبحانه وتعالى كيف يتلقى المتقون ما ينزل من القرآن، وكيف يتلقاه غيرهم، فقال تبارك وتعالى: ﴿ **وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ** (١٢٤) ﴾.

(الواو) للاستئناف، ﴿**وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ**﴾ (ما) مؤكدة للشرط، وهو نزول الآية والتأكيد لبيان مقام السورة النازلة، والسورة مجموعة من آيات الله تعالى

تكون فى سور تبتدئ بـ (بسم الله الرحمن الرحيم)، وتختتم بابتداء سورة أخرى بهذه البسملة المباركة التى هى جزء من كتاب الله.

ويصح أن يراد بالسورة بعضها، وهو آى من السورة، وكله قرآن، فبعض القرآن قرآن.

وقوله: ﴿ **فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا** ﴾ (الفاء) لتفصيل حال من يتلقونها ما بين مؤمن يتلقى قول الله تعالى بما يكون فيه الهدى، وبعضهم من مرضى القلوب الذين لا يزيدهم الدليل إلا ضلالا وعنتا وكفرا.

والضمير فى ﴿ **فَمِنْهُم** ﴾، قال الزمخشرى: إنه يعود إلى المنافقين، أى من المنافقين الذين يستهزئون بالمؤمنين، ويسرفون على أنفسهم يقولون متهكمين أيكم أيها المستمعون للقرآن زادتهم هذه الآية أو السورة إيمانا، كأنهم يقولون، لعنهم الله: إن هذه السورة أو الآية لا فائدة منها، فمن اهتدى فقد آمن، ومن عصى فقد كفر.

ولكن لا نجد ذكرًا فى الآية السابقة ولا ما قبلها للمنافقين إلا أن يدعى أنهم فى الأذهان لما كان منهم من أفعال، وأنا أميل إلى أن الضمير يعود إلى المؤمنين يسأل بعضهم بعضا عن سر هذه الآيات التى تنزل وقتا بعد آخر، يتعرفون غايتها ومراميها، ولقد روى عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه كانت إذا نزلت آيات عشر أو دونها سألوا رسول الله ﷺ عن معانيها، ومغازيها، ويقولون أيهم زادته هذه، وقد بين الله تعالى موقعها فى قلوب المؤمنين، وموقعها فى قلوب الذين فى قلوبهم مرض، فقال تعالت كلماته: ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ** ﴾ (الفاء) لبيان تفصيل موقعها فى القلوب، ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا** ﴾، وزيادة الإيمان بزيادة تثبيته فى القلوب وزيادة العمل، فإن آيات القرآن الكريم يستأنس بها المؤمن، ويزداد رهبة من الله وخوفا منه ورجاء فى رضوانه، وهذا بلا ريب زيادة فى الإيمان، ولقد قال تعالى: ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا**

مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) ﴾ [الزمر].

وإن ازدياد إيمانهم بالآية تنزل ﴿ **يَسْتَبْشِرُونَ** ﴾ أى يجدون فى الآية الجديدة بشرى لهم بأن الإيمان هداية الله تعالى تتوالى عليهم، ويستبشرون لتوالى خطاب الله تعالى لهم، وأى مؤمن يحب الله ورسوله ثم لا يستبشر بكلام من يحبه ويطلب رضاه؟!.

هذا شأن الذين آمنوا عندما تتلى عليهم آيات الله. وأما الذين فى قلوبهم مرض فيقول الله عز من قائل فيهم:

﴿ **وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥)** ﴾.

الرجس هو الشىء القذر الذى تستقذره النفوس وتعافه، كالميتة ولحم الخنزير، والخمر، فإن النفس، وإن لا تعافها طبعا، فإن العقول تعافها؛ لأنها تنزل مشاربها من مرتبة العاقلين المدركين إلى دركة من لا يعقل، ولذلك سماها الله تعالى رجسا، فى قوله تعالى: ﴿ ... **إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠)** ﴾ [المائدة] ويطلق الرجس مجازا على الكفر، لأن العقول السليمة تدرك أن عبادة غير الله أمر لا تقره العقول السليمة ولا الطبائع المستقيمة، والمراد به هنا الكفر، لأن العقول تنفر منه، ولا تقره، وكيف تقر العقول رجلا يصنع حجرًا ويعبده، وكيف تقر العقول رجلا يرى آيات الله البينات ثم، يكفر بها.

والذين فى قلوبهم مرض هم المنافقون، وقد قال الله تعالى فيهم: ﴿ **فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا** ﴾. وإن ذلك وصف حكيم، فإن النفاق مرض يصيب القلوب، فيفسدها، والعقول فيمنعها من الإدراك السليم، ذلك أن المنافق منحرف

التفكير دائما، لا يرى الأمور كما يراها السليم، بل إنه غير مستقر، وتوالى نفاقه يفقده الإيمان بالحقائق، وبفقده الإدراك السليم، وقد أثبتت الدراسات الاجتماعية أن المنافق لا ينافق لغرض من المال أو دنيا يصيبها، ولكن يضعف عن النطق بالحق، ولعله يبتدئ نفاقه بشيء من الغرض، ولكن يتوالى نفاقه ليصير مرضا، فينافق لغير غاية.

وإن السورة أو الآيات التى تنزل تزيد المنافقين كفرًا إلى كفرهم، أى كفرا مضموما إلى كفرهم الأصيل وإنما زادتهم كفرا، لأنهم يعاندون الحق، والمعاند تزيده قوة الدليل عنادًا، لقد انحازوا إلى جانب الباطل، فكلما زاده الدليل فى الحق زاد لجاجة فى الباطل فزاد كفرًا ولا احتمال لتوبته وعودته إلى الحق، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ أى استمروا معاندين للباطل، حتى حال موتهم، فيموتون وهم كافرون، وعبر بالماضى لتأكيد هذه الحال التى يموتون عليها، والله يهدى من يشاء ويضل من يشاء.

ثم قال تعالى موضحا حالهم:

أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ۚ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

كان المنافقون فى المدينة ملتوية أفكارهم كما تلتوى العيون بحول يصيبها، فهم يرون النور، ولكن أعينهم يزيدها لمعان النور انحرافا عن التفكير السليم، كان المؤمنون يغزون ويجاهدون، وهؤلاء يشتد نفاقهم وكيدهم كلما رأوا عزة للمؤمنين بعد عزة، وتمكينا لهم فى المدينة بعد تمكين، وعلوا فى أرض العرب، وهم يعيشون فى أمان، يرجون للمؤمنين الشر والانتكاس.

فيقول سبحانه: ﴿أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ (الواو) للاستئناف وهى مقدمة فى المعنى على الاستفهام، ولكن قدمت همزة الاستفهام، لأن الاستفهام له الصدارة، والاستفهام للتوبيخ، والمعنى: أيستمرون على حالهم من النفاق، ولا يتدبرون، وهم يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين وهم لا يذكرون، الفتنة اختبار النفوس بشدة كما يختبر الذهب ليخرج ما فيه من غش، والمعادن لإزالة الصدأ، وإن الله يختبر الناس فيما يحبون، فيختبر سبحانه المحب للمال فى ماله، والمحب للنساء والولد فيهما، ويختبر المؤمنين بالخوف، ويختبر المنافقين فيما يحبون من خذلان المؤمنين، وهو أن تخضد شوكتهم وتفل قوتهم، ويختبرهم الله بذلك مرة أو مرتين كل عام، ومرتين يقصد بها مرات، فيعطى الله فى الاختبار للمؤمنين نصرا مؤزرا، اختبرهم ببدر، فأنشأوا فى أنفسهم النفاق واختبرهم فى بنى قينقاع، وقد أجلاهم الرسول عن المدينة لما حرضهم المنافقون على المؤمنين، واختبرهم فى أُحُد إذ أجلى بعض اليهود، واختبرهم فى الخندق بتحريضهم بنى قريظة، فأباد نصراءهم، واختبرهم بالنصر للمسلمين فى السرايا، واختبرهم بفتح مكة، ثم اختبرهم بالانتصار فى الطائف على هوازن وثقيف، ثم اختبرهم فى تبوك، وهكذا توالى الاختبار بالمحن تنزل بهم من فرط غيظهم من الإيمان والمؤمنين.

هذا بعض ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ أى مرات، ولو كانت نفوسهم غير ملتوية وعقولهم غير منحرفة، لكان

توالى هذا النصر رادعا، وحاملا لهم علـى ترك غيهم، ولذا قال تعالى: ﴿وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أى رجاء أن يتذكروا أنهم على البـاطل، وأن فى قلوبهم أمراضا عليهم أن يعالجـوها، وأن ما جـاء به محـمد ﷺ هو الحق الذى لا ريب فـيه، وأن الله ناصره غيـر خاذله، وأن العاقبـة للمتقين، فـإذا تذكروا واعتبـروا واتخذوا مما وقع دليلا على مـا يقع فاستـقاموا، ولكنـهم لم يتذكروا واسـتمروا فى غـيهم؛ لأنهم انفصلوا بأحـاسيسهم عـن الناس، فعاشوا فى مـحيطهم المنافق، فلم يعتـبروا وإذا جاءتهم التذكرة أعرضوا عنها، ولذا قال تعالى:

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٢٧)﴾ وإذا ما أنزلت سورة هـادية مرشدة مبينة الحق وذاكرة أحوال المؤمنين ومن يعاديهم لم يطيـقوا سماعها من النبى ﷺ؛ لأن القلب المريض لا يطيق سـماع الحـق الذى يكون فيـه شفـاء له وللناس، ولا يستسيغ الأخذ به، فإذا تلا النبى ﷺ الآية أو السورة النازلة نظر بعضهم إلى بعض نظرات لها مـعان عندهم، وهى أنهم ضـاقوا بهـا ذرعا ويريدون أن يخـرجوا من المسجد تبرمًا بسمـاعها، وبغضا فيها، أو تنافرًا عليهـا، واستهزاء بها، وبعد هذه النظرات الغامزة، أو المنكرة للحق ينصرفون، ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ التعبيـر بـ (ثم) هنا فى موضعه؛ لأنه تفاوت بعيـد بين حالين، حال الاستماع، وهو يقـتضى الإنصاف والإيمان، وحال الانصراف عـن الاستماع إلى الحق والقول الذى هو شفاء للناس.

وقوله : ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ جمـلة معـترضـة بمعنى الدعاء عليـهم بأن يكونوا منغـمرين دائمـا فى الباطل لأنهم اخـتاروه وأرادوه، والله لا يهـدى القوم الفاسقين.

ويصح أن نقول إنها بيان لانصرفوا، أى أنهم انصرفوا لأن الله تعالى صرف قلوبهم عن الحق، فـصارت قلوبهم مـعرضـة؛ لأن نفوسهم المـلتوية جعلـتهم لا يقبلون على الحقائق.

وإن قوله تعالى عنهم أنهم يقول بعضهم بلمح النظر: ﴿هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ فيه إشارة إلى أنهم يريدون أن يتسللوا من المسجد لواذًا لا يحس بهم أحد حتى لا يعرف نفاقهم، ويتميز أمرهم، وهم لفرط انغمارهم فى النفاق يحسبون أنهم لا يعلم بهم أحد، مع أن أعمالهم تكشف عن سرائرهم ولا يخفى أمرهم على أحد، فإن لم يكن ظهوره بأقوالهم، فظهوره بأفعالهم وتقاصر هممهم عن أى خير، و﴿مِّنْ﴾ فى قوله تعالى: ﴿هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ لاستغراق النفى، أى هل يراكم أى أحد، و﴿هَلْ﴾ للاستفهام الإنكارى بمعنى إنكار الوقوع أى لا يراكم من أحد فاخرجوا.

ثم بين سبحانه السبب فى أنهم لا يذكرون ولا يرجعون عن غيهم، مع توالى المنكرات المنهيات فقال تعالت كلماته: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾ (الباء) للسببية أى أن انصرافهم عن الاستماع للقرآن وتدبر معانية، وعن الاختبارات المتوالية بسبب أنهم لا يتدبرون الآيات ولا الأحداث، ولا يعتبرون بالعبر، وذلك كله من عدم فقه الأمور، والآيات، وإدراك غاياتها ومراميها، وقد ختم الله تعالى السورة التى كثر فيها ذكر القتال وانبثاق النفاق بما يدل على أن محمدًا ﷺ نبى الرحمة فإذا كان قد قاتل، وكشف النفاق وأهله فذلك من باب الرحمة بعباده والرأفة بهم؛ لأن قتال المفسدين وكف فسادهم رحمة بالأبرار المتقين، فليس من الرحمة بالناس أن يترك الشر يستشرى ، والرذائل تتحكم، والاعتداء يسيطر، فإن الضعفاء فريسة المستضعفين، والفساد يتضمن ظلم الذين لا يستطيعون دفعه، وكشف النفاق رد لمكايد المنافقين، ولقد قال تعالى: ﴿... وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١)﴾ [البقرة].

ولأن محمدًا ﷺ نبى الرحمة قال ـ تعالى ـ مخاطبا العرب أجمعين:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)﴾.

أكثر العلماء على أن هذه الآية الكريمة والتى تليها نزلتا بمكة، ومعانيها تعين على ذلك، وقد يسأل سائل: لماذا كانت فى سورة كلها مدنية، وهى من أواخر السور نزولا؟ نقول إن الله سبحانه وتعالى كان ينزل القرآن الكريم على نبيه تنزيلا وكان عند نزول الآية يكتبها من فى حضرته ممن يقرأون ويكتبون وينشرها بين المؤمنين آمرا بوضعها فى موضعها من السورة الذى قرر النبى ﷺ وضعها فيها، والأمر لله تعالى يأمر نبيه بأن يضعها حيث يأمره جبريل، فالترتيب توقيفى، وليس للنبى ﷺ.

وقد اختار الله أن يكون وضعها فى آخر سورة براءة؛ ولذلك حكمة نتلمسها، وقد تلمسناها فقلنا إنها جاءت فى ختام سورة كلها فى النفاق والمنافقين؛ ليتنبه القارئ للقرآن الكريم إلى أن القتال وكشف النفاق رحمة للعالمين.

قال تعالى: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ**﴾ هذه منَّة من الله تعالى مَنَّ بها على العرب إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم، ولقد أكد ذلك بـ (اللام) وبـ(قد)، فقال: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ**﴾ وهنا قراءتان إحداهما بضم الفاء والثانية بفتحها[1] والمعنى على الأول منكم لا من غيركم، والمعنى على الثانية (من أنفَسكم) أى من أعلاكم نسبًا. وبمجموع الآيتين، وكل آية منهما قرآن بذاتها، أنه بعث فيكم رسولا منكم، لا من غيركم، وهذه منة، ومن أعلاكم نسبا وشرفا وهذا شرف للرسالة، والنبيون يبعثون من أعلى الأوساط.

ومهما تكن القراءة التى يقرأ بها، فإن محمدا ﷺ دعوة إبراهيم إذ قال الله تعالى عنه فى دعائه لربه: ﴿**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو ... (١٢٩)**﴾ [البقرة]، وقد مَنَّ الله تعالى على المؤمنين إذ قال: ﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ ... (١٦٤)**﴾ [آل عمران].

---

(١) (من أنْفَسِكم) بفتح الفاء، صحيحة المعنى، غير أنها ليست فى العشر المتواترة.

ولقد ذكر الحافظ ابن كثير المؤرخ المحدث أن جعفر بن أبى طالب، والمغيرة ابن شعبة قالا لرسول كسرى: «إن الله بعث فينا رسولا منا نعرف نسبه وصفته، ومدخله ومخرجه، وصدقه وأمانته».

وإنه إذا كان النبى ﷺ من العرب، ومن أنفسهم، ودعوة إبراهيم، فإن الأثر الذى يترتب على ذلك، ويكون من جنس الأخوة المحبة ـ أن يكون رءوفًا بهم محبا لهم ورحيما، ولذا قال تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ العنت الشدة، ويقول ابن الأنبارى أصل العنت الشديد.

فإذا قالت العرب فلان يتعنت فلانا ويعنته فمعناه يشدد عليه ويلزمه بما يصعب عليه أداؤه.

والمعنى يعز على النبى ﷺ وقد بعث إليكم بالملة بالسمحة السهلة ملة إبراهيم أن يكون فى شريعته ما يعنتكم ويصعب عليكم. فدينه دين الفطرة يساوقها، ولا يعنتها، وقوله: ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ أى عنتكم، فـ(ما) مصدرية هى وما بعدها مصدر وقد وصف النبى ﷺ بثلاثة أوصاف للمؤمنين من العرب وغيرهم؛ لأنه بعث للناس كافة.

أولها ـ أنه عزيز عليه عنتهم، فالشريعة التى جاء بها من عند الله سهلة لا مشقة فيها تعلو على الطاعة وفيها الاعتدال الكامل، وليس فيها إرهاق للنفوس، ولا للأجسام، والعقول تدركها وتعرفها.

الصفة الثانية ـ وهى من أعلى صفات البشر أنه رءوف والرأفة انفعال النفس بالمحبة والرفق بالناس، وهى صفة ضد الفظاظة والغلظ، وهما ينفران ولا يقربان، ولقد قال تعالى: ﴿... وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ... (١٥٩)﴾ [آل عمران].

الصفة الثالثة ـ الرحمة، وهى أوسع شمولا من الرأفة، إذ إن الرحمة النبوية تكون بالكافة، وقد يكون العقاب منافيا للرأفة، وهو من مقتضيات الرحمة، ألا ترى أن الله سبحانه وتعالى يقول فى حد الزانى: ﴿ **الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ** (٢) ﴾ [النور].

ونرى أن الرأفة قد تجافى العقاب

أما الرحمة فإن العقاب ينبعث منها؛ لأنه رحمة بالكافة، وقد قال بعض الصحابة للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم: أكثرت من ذكر الرحمة، ونحن نرحم نساءنا وأبناءنا، فقال: ما هذا أريد، إنما أريد الرحمة بالكافة.

كانت هذه الآية إخبارا بمقام الرسول من قومه، وتنويه بالشريعة التى جاء بها، ودعوة إلى اتباعه، فمن اتبعه، فقد اهتدى، ومن لم يتبعه فقد تعرض للغواية وبعد عن الهداية، ولذا قال تعالى:

﴿ **فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ** (١٢٩) ﴾.

(الفاء) هنا لربط هذه الآية بسابقتها، ترتيب أمر على أمر، يعد نقيضا له، فإن كون الرسول من أوسطهم نسبا، وأنه عزيز عليه عنتهم، وأنه رءوف رحيم بهم كان يوجب عليهم أن يطيعوه، فهو لا يمكن أن يكون فى دعوته ما يضيرهم أو يشق عليهم، بل فيه تنزيه لقلوبهم عن الشرك والضلال، مع هذا إن تولوا ـ أى انصرفوا، وهم معرضون، وقد شبهت حال الإعراض الفكرى، بحال التولى الحسى، لكمال معارضتهم للشرع، ﴿ **فَإِن تَوَلَّوْا** ﴾ فعل شرط جوابه: ﴿ **فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ** ﴾ أى إن لم يجيبوك فقل حسبى، أى يكفينى أن يكون الله معى، وهو صاحب الملك كله، لا إله إلا هو، فلا أعبد سواه.

والآية الكريمة تومئ إلى أنه كان بمقتضى ما تتـضمنه الآية السابقة من معانى يكون نصـراؤه منهم، وناشرو دعـوة الله إلى الحق منهم، بل إنه كـان يرجى منهم حتى بمقتضى عادة العرب أن يؤيدوه، ولا يخذلوه. ولكنهم إن خذلوه، فالله معه، وهو كافيه عن الحاجة إلى غيره، ولذا قال سبحانه: ﴿**عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ**﴾، أى توكلت عليه وحـده، لا أعتمـد عل أحد غيـره سبحـانه وتعالى، وتقديم الجـار والمجرور (عليه) على الفعل (توكلت) يفيد القصر، أى أنه لا يتوكل أحد من العباد، ما دام الله تعالى كـافله وعاصمـه من الناس، كما قـال تعالى: ﴿ ... **وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ** ... (٦٧)﴾ [المائدة].

وقد وصف الله سبحانه وتعالى ما يدل علـى سعة سلطانه، وعزة من يعتمد عليه، فـقال تعـالت كلماته: ﴿**وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**﴾ الضميـر يعود على لفظ الجلالة، ورب مـعناها مالك، والعرش هنا تفـسره بالسلطان، أو ما يشبـه كرسى الملك، والمعنى: والله هو مـالك السلطان الكامل فى هذا الوجـود، يعز من يشـاء ويذل من يشاء، ويعلى مـن يشاء ويخفض من يشـاء، وهو الحكيم الخبيـر، فمن يلتجئ إلى الله فقد التجأ إلى من يدفع كل شر، وكل سوء، ومن يعلى الحق.

وقوله: ﴿**رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**﴾، فى (العظيم) قراءتان: إحداهما بضم الميم، فى العظيم، والثـانية ـ بكسـرها ـ فالقراءة بـالضم تكون وصفـا لرب العرش، أى تكون وصفا لله، وهو العظيم الذى لا يقدر قدره؛ لأنه فوق التقدير، وعلى قراءة الكسر تكون وصفا للعـرش، وهو يثبت أن سلطان الله تعالى عظيم، **والله سبحانه وتعالى أعلم**.

سورة يونس

تمهيد:

سورة مكية عـدد آياتها ١٠٩، استثنى منها علمـاء القراءات أربع آيات قالوا إنها مدنية، هى الآيات ٤٠- ٩٤- ٩٥- ٩٦.

ابتدئـت بحروف مفـردة للتنبيـه على إعجـاز القرآن، ووصف الكتـاب بأنه الحكيم، وذكرت أن الناس كانوا فى عجب أن يوحى إلى رجل منهم، فذهبوا إلى تكذيبه وقالوا بسبب كـفرهم: إنه ساحر مبين، وكان عليهم ألا يعـجبوا ويغتروا؛ لأن الوحى من عند الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر، وأنه وحده له الملك، وأنه لا شفيع عنده إلا من بعد إذنه.

﴿ ...ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ... (٤) ﴾.

فأنتم سترجعون إليه فيحاسـبكم، ولا عجب فى رجوعكم فهو سبحانه يبدأ الخلق ثم يعيده.

﴿ ... لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ ... (٤) ﴾.

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) ﴾ ويبين سبحانه وتعالى آياته فى اخـتلاف الليل والنهار، ثم أشـار إلى أولئك الذين ينكرون البعث ولا يرجون لقـاء ربهم، ورضوا بالحـياة الدنيـا واطمأنوا بها وغـفلوا عن آيات الله سبحـانه وتعالى، وبين أن مأواهم النار بما كسـبوا من سيِّئ الأعمـال، وفى مقابل

ذلك ذكر سبحانه الذين آمنوا بالله وآياته وعملوا الصالحات وجزاءهم من النعيم المقيم والسلام.

﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠) ﴾.

وإن من سنة الله تعالى ألا يعجل الشر لمن أساء.

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١) ﴾ ويبين الله تعالى طبيعة الإنسان أنه إذا ضعف اتجه إلى الله ولجأ إليه.

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) ﴾.

وبين حال الذين بعث لهم النبى ﷺ فقال: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ... (١٥) ﴾.

فأمره الله تعالى أن يقول:

﴿ ... مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦) ﴾.

وقد ذكر حالهم فى شركهم بأنهم يعبدون ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا فيأمر الله نبيه ﷺ فيقول لهم: ﴿ ... قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) ﴾.

وبين الله تعالى بعد ذلك أن الناس فى أصل التكوين أمة واحدة، ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩) ﴾.

جاءهم النبى ﷺ بالقرآن وهو أعظم آية أُيِّد بها النبيون، ولكنهم لتعنتهم يريدون آية أخرى: ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٢٠) ﴾.

ولقد بين الله النفس الإنسانية المنحرفة عن الحق أنها إذا مسها الله تعالى بالخير بعد الشدة تصورت أن الخير لها ولم يكن لفضل الله ودبرت أمورها على ذلك، وذكر الله تعالى مثلا فقال: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) ﴾.

ثم مثل سبحانه وتعالى الحياة الدنيا فى زوال متاعها فقال:

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) ﴾.

دعوة الحق

بعد ذلك بين الله تعالى مآل دعوة الحق إلى دار السلام والهداية إلى الصراط المستقيم يوم القيامة ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) ﴾.

وإنه فى البعث يحشرهم الله جميعا ويفر الذين سول لهم الشيطان أن يعبدوهم - من الذين اتبعوهم.

ويسأل الذين أشركوا أين شركاؤكم: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠) ﴾.

بعد ذلك يبين الله تعالى إنعامه على عباده وآياته فى خلقه.

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٣) ﴾.

أخذ يبين سبحانه وتعالى عجز الأوثان أن تبدأ الخلق ثم تعيده، بل إنها تُخلق، ثم إن أوثانهم لا تهدى ضالا وإن الله هو الهادى إلى الحق، وإن الذين يعبدون الأوثان لا إيمان لهم فهم لا يؤمنون بها.

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾.

وإن القرآن حجة الله البالغة ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) ﴾.

ثم يتحداهم سبحانه وتعالى أن يأتوا بسورة من مثله.

﴿ ... وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) ﴾.

وإن الأمر بالنسبة لهم ليس آخر دليل يطلبونه بل إنهم يكذبون قبل أن يطلبوا الدليل؛ أى بادروا بالتكذيب ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) ﴾.

وأنه بعد مجيء القرآن فإن منهم ﴿ مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠) وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) ﴾ ولا تأبه لهم، ومنهم من يستمع إليك وقلوبهم معرضة ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ (٤٢) ﴾ كما أن منهم من ينظر إليك غير مبصر ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ (٤٣) ﴾ .

ثم أشار سبحانه وتعالى إلى ما أعده للكافرين، وأنه أرسل إلى كل أمة رسولا يقضى بينهم بالقسط ولكنهم يقولون متى وعد الله ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ ... (٤٩) ﴾ .

ويبين سبحانه وتعالى أن له ما فى السموات والأرض وأن وعده حق ﴿ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٥) ﴾ .

كما يبين أن شرع الله تعالى فيه الموعظة وفيه شفاء لما فى الصدور: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾ كما يبين سبحانه وتعالى فضله على الخليقة فيقول تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) ﴾ .

أى تنزل النعمة حلالا طيبا ويفترون فيحرمون من غير بينة: ﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (٦٠) ﴾ .

كما يبين الله علمه بكل شئون الرسول ودعوته: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١) ﴾ .

ثم يذكر أولياء الله ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)﴾.

وينهى الله النبى ﷺ عن الحزن ﴿وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥)﴾.

إن الله مالك العزة يعز من يشاء؛ لأن له ملك السموات والأرض، وأن الذين يعبدون الأوثان لا يستيقنون لها قدرة، وإن يتبعون إلا الظن: ﴿... إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٦٦)﴾.

ثم يبين سبحانه كمال ملكه وتصريفه للكون وبطلان من اتخذ له ولدا وبطلان قول الذين يعبدون الأوثان وأن جميعهم لا يفلحون؛ لأنهم يفترون على الله الكذب.

﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)﴾.

بعد ذلك يذكر سبحانه وتعالى الأنبياء الذين لقوا من أقوامهم مثل ما لقى النبى ﷺ فبدأ بذكر نوح الأب الثانى للبشرية، وما قاله لقومه وقد كبر عليهم مقامه فيهم وتذكيرهم بآيات الله وتوكله عليه وما رأى منهم من عنت وقد أخذهم بالحسنى ﴿... فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ (٧١) فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢)﴾.

فكذبه قومه وصدقه الضعفاء ـ كما كان لمحمد ﷺ ـ ثم نجاه الله ومن معه فى الفلك المشحون.

وبعث الله ـ كما تدل الآيات ـ رسلا من بعده فكذبوا ثم بعث موسى وأخاه هارون إلى فرعون، وأيده بآيات الله التى تثبت رسالته فاستكبروا وكانوا قوما

مجرمين، ثم جاء لهم موسى وأتاهم بتسع آيات بينات وكانت إحدى الحجج المنزلة من بينها عصا موسى.

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) ﴾.

وقد آمن السحرة وذرية من قومه ﴿ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢) فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) ﴾.

ثم أخذ موسى من آمن ودعاهم إلى التوكل على الله الذى آمنوا به وأن يقولوا: ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجّنا برحمتك من القوم الكافرين.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) ﴾.

ودعا موسى على فرعون وملئه الذين لم يؤمنوا: ﴿ ...رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٨٩) ﴾.

ولقد جاوز موسى بأمر الله البحر حيث انشق فكان كل فرق كالطود العظيم واتبعهم فرعون فى اجتيازهم البحر فانطبق عليه هو وجنده حتى إذا أدركه الغرق قال: ﴿ ... آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) ﴾.

وبعد ذلك بين سبحانه وتعالى ما أنعم به على بنى إسرائيل فبوأ لهم مبوأ صدق ورزقهم من الطيبات ولكن اختلفوا لما جاءهم العلم.

بعد هذه العبرة من أخبار الرسل وأولى العزم بين سبحانه لنبيه وجوب الاطمئنان إلى ما يدعو إليه من الحق.

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) ﴾.

وبعد ذلك ذكر نبى الله يونس عليه السلام ﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) ﴾.

ثم أشار سبحانه وتعالى إلى مقتضى إرادته أن يؤمن من اهتدى ويكفر من طغى؛ ولذا قال: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (١٠٠) ﴾.

وبيَّن الله تعالى أنه لا تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون، وأن الله تعالى ينجى رسله من العذاب الذى ينزل بالأقوام الذين يكفرون ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣) ﴾.

ثم يخاطب الله الناس خطابا عاما يدعو إلى عبادة الله وحده ويأمر نبيه ﷺ بإقامة الدين الحق.

﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩) ﴾.

معانى السورة الكريمة

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا
أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟
أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا
لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ
إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ
يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ
أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

ابتدأ الله تعالى السورة الكريمة بالحروف الصوتية المفردة، وهى من المتشابه الذى اختصه الله تعالى بعلمه، وإن تفسيرنا لها رجم بالغيب إذ لم يرد عن النبى ﷺ فيها برواية صحيحة بينة، فليس لنا أن نتعرف معناها ما دامت قد أبهمت علينا، وتركها الله تعالى من غير بيان ولكن علينا أن نؤمن بحقيقتين:

أولاهما ـ أن الله تعالى لم يضع هذه الحروف إلا لغاية أرادها وحكمة، وعلينا أن نتحراها.

ثانيتهما ـ أن نتلمس الحكمة وقد تلمسها المفسرون فوجدوها فى أمرين:

* إن كبار المشركين لما رأوا أن من يسمع منـهم القرآن يؤثر فيه ويصغى إليه فؤاده فدفعهم العناد والمكابرة إلى أن قالوا كما أخبر تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ** (٢٦)﴾ [فصلت].

وكان النبى ﷺ يـفجؤهم بتـلاوة القرآن بهـذه الحروف الصوتيـة فينقـضون اتفاقـهم ويحنون إليه تبـاعا، وروى أنهم فى ليلة اتفقـوا على هذا الموقف السلبى ولكن كل واحد منهم نقض مـا اتفق عليه وذهب إلى المكان الذى يسـتمع منه إلى النبى ﷺ فإذا هم يلتقون حيث كانوا يتفقون على البعد عن الاستماع.

* الأمر الـثانى أن النبى ﷺ كـان أميـا لا يقرأ ولا يكتب، والأمى يـعرف الكلمـات ولا يعرف الحروف فـمجىء هذه الحـروف على لسان أمـى لا يقرأ ولا يكتب فيـه غرابة، وفـوق ذلك فإن هذا من التـحدى كأنه يقـال لهم: هذا الكلام الحكيم مركب من الحـروف التى ركب منها كلامكم فكيف تعـجزون عن أن تأتوا بمثله، وفـى ذلك دليل على أنـه ليس بنوع كـلامكم ولا هو مما فى إمـكانكم أو طاقتكم، والله سـبحانه وتعـالى هو وحده الذى نزَّله على نبيـه تنزيلاً وهو العزيز الحكيم.

وقد يـبدو أن هذه الحـروف مساقـة فى أكثـر الآيات المبـتدأة بهـذه الحروف للإشارة إلى القـرآن الكريم وآياته؛ لذا قال: ﴿**تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ**﴾ إشارة إلى هذه الحروف أو إشارة إلى ما يأتى بعد ذلك من الذكر الحكيم.

والإضافة هنا بمعنى (من) أى تلك الآيات التى تتلى عليك من آيات الكتاب الحكيم وهى بذاتها تدل على قدرة الله تعـالى الذى أنزلها وعجز الإنس والجن عن أن يأتوا بمثله ولو كان بعضـهم لبعض ظهيرا، وإنه ﴿**الْكِتَابِ**﴾ الكامل الجدير بأن يسمى كـتابا، و﴿**الْحَكِيمِ**﴾ لاشتـماله على الحكمة إذ إنه جـمع التكليفـات كلها والشرائع المصلحة للبـشرية والمنظمة للعلاقات الإنسانيـة، ثم إنها نزلت كلها على لسان أمى لا يقرأ ولا يكتب؛ لم يجلس إلى معلم ولم يكن ببلد تدرس فيه العلوم الإنسانيـة أو الكونية فقد كـان أميا من بلد أمى، وجـاء بكتاب فيه أصـول وفروع الشريعة وهى إحدى دلائل إعجازه بين الكتب حقا وصدقا.

وكان خليقا بالمشركين أن يؤمنوا إذ تحداهم وأعجزهم، ولكن لم يدفعهم العجز إلى الإيمان بل دفعهم إلى الجحود والعناد، ليس لحجة عندهم بل لأنه كان غريبا لم يألفوه أو يعرفوه؛ ولذا قال تعالى:

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾.

والاستفهام هنا لإنكار الواقع وهو بمعنى التعجب من عجبهم، والتوبيخ على أنهم اتخذوا إرسال رجل منهم موضعا للعجب، فالرسول لا يمكن أن يكون إلا رجلا منهم فلا يصح أن يكون ملكا من الملائكة كما قال تعالى:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩)﴾ [الأنعام].

وقد كان تَعَجُّبهم لأمور ثلاثة:

أولها ـ أنه أوحى إلى رجل، وما كانوا يفهمون أن الرسالات تكون لرجال منهم.

ثانيها ـ أنه يتيم فقير، كان يسمى يتيم أبى طالب، وأنه ليس من الأغنياء وكانوا هم العظماء

﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف].

ثالثها ـ أنه فوق هذا جاء للإنذار بالبعث فكان قولهم:

﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧)﴾ [المؤمنون].

وفى هذا أشد العجب من أمرهم كما يقول تعالى:

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ... (٥)﴾ [الرعد].

هذا تعجبهم، والإنكار التعجبى من عجبهم لتلك الحقائق الثابتة، والإرسال لا يكون إلا لرجل كما تلونا ولقوله تعالى:

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥) ﴾ [الإسراء].

وأنكروا أنه يتيم فقير وهم يعلمون أنه من بيت الذروة من قريش، وإذا كان يتيم أبى طالب، فأبو طالب كان شيخ البطحاء وتدين قريش كلها له، كما كانت تدين لأبيه عبد المطلب ولجده هاشم، وأن النبوة لا تُختار بالغنى ولكن الله أعلم حيث يجعل رسالته، وكان محمد ﷺ قبل الرسالة تدين له قريش كلها بالخلق الكريم والصدق والأمانة حتى سُمى بالأمين ولا يمكن أن يكون المال والولد مقومات النبوة إنما الصدق والأمانة، والله هو الذى يختار كقوله تعالى:

﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ ... (٣٧) ﴾ [سبأ].

ولا ينبغى أن يعجبوا من الإنذار بالبعث والحساب والجزاء فإن هذه الدنيا متاعها قليل والعاقبة عند ربك للمتقين، وإن الله تعالى لم يخلق الإنسان سدى بل جعل حياته فى الدنيا عاملا للخير أو عاملا لغيره، وفى الآخرة يكون الجزاء الأوفى.

ولننظر بعض نظرات إلى النسق السامى.

١ ـ قوله تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ أكان للناس ـ ولهم عقول ومدارك ـ أن يتعجبوا من هذه الأمور.

٢ ـ ﴿ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ ﴾ (أن) تفسيرية، وأنذر الناس هى لإيحاء الذى أوحاه الله تعالى لنبيه، والإنذار هو بيان ما يكون للكافرين من عذاب أليم، والبشرى بما يكون للمؤمنين من نعيم مقيم.

وقوله تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ يقول الزمخشرى عن معنى (اللام):

(وما الفرق أن تقول «أكان عند الناس عجبا»: أنهم جعلوه أعجوبة يتعجبون منها ونصبوه علما يوجهون نحوه استهزاءهم وإنكارهم) ولعل المعنى الذى يريده

الزمخشرى أن اللام تفيد هنا أن كان للناس عجبا أن يعجبوا من أنه أوحى إلى رجل منهم، وأن اللام تفيد الملك، أو الاختصاص أو الحق أى متى حق أن يتخذوا الرسول بالحق موضع تعجب واستغراب ثم استهزاء، وقال فى بشارة المؤمنين وهو الجزء الأكبر من عمل النبى المبعوث ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وقد بينا معنى البشارة والنذارة، ولم تذكر الجنان ولا النعيم المقيم كما ذكر سبحانه فى آيات كثيرة، ولكن ذكر ما يوجبه ويتأدى إليه لا محالة وهو أن لهم قدم صدقٍ عند ربهم وهى سبقهم إلى الإيمان والتصديق بما جاء به النبى ﷺ.

وهنا أمران بيانيان يجب أن نشير إليهما بمقدار ما ندرك.

أولهما ـ عبر عن السبق إلى الإيمان بقوله تعالى: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ ونقول: إن هذا مجاز عبر فيه باسم الجزء، وأريد الكل وذلك لأن المراد أن لهم السبق بالصدق، ولكن لأن السبق يكون بالقدم فهى التى بها يكون السير السريع أو البطىء فقد عبر عن ذلك بـ﴿قَدَمَ﴾، كما يقال فى النعم: «لفلان أيادٍ على»؛ لأن الإعطاء يكون باليد عادة».

الأمر الثانى ـ قوله تعالى: ﴿صِدْقٍ﴾ نقول أنه وعد، ووعد الله صدق دائما ولكن المؤمنين أيضا قدموا بالصدق وهو الإيمان بالحق، فصدقوا الرسول وصدقوا ما عاهدوا الله عليه.

يقول الزمخشرى: (فإن قلت لم سمى السابقة قدمًا، قلت لما كان السعى والسبق بالقدم سميت المسعاة الجميلة والسابقة قدما كما سميت النعمة يدا لأنها تعطى باليد).

وإضافة القدم إلى ﴿صِدْقٍ﴾ دلالة على زيادة فضل وإنه من السوابق العظيمة.

هذا ما قاله تعالى بالنسبة للمؤمنين وهو يدل على أنهم بقلوبهم الطاهرة سبقوا إلى التصديق والصدق، أما الكافرون فقالوا تحت تأثير استغرابهم وتعجبهم إن هذا لساحر مبين، هذا صوت الاستغراب، من غير موجبه، وبدل أن يقولوا آمنا ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾، أى بين واضح. حكموا بأنه ساحر مسترسلين فى استغرابهم وأكدوا أنه ساحر بالجملة الاسمية، وبإن المؤكدة وباللام، والإشارة فى هذا إلى النبى ﷺ وهو مسوغ لاستغرابهم، وعجبوا من إرسال رسول منهم ومن قدرة الله تعالى، ولذا قال تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾.

والأيام الستة ليست هى الأيام التى نعرفها؛ لأن ذلك مستحيل؛ لأن هذه الأيام التى نعرفها من دوران الأرض حول الشمس وما كانت الأرض ولا السموات بما فيهما من شمس وقمر وسائر الكواكب والنجوم، ولذلك نقول إن الأيام الستة هى أدوار التكوين الذى أنشأ الله به السموات والأرض، ذكرها الله فى سورة أخرى:

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢)﴾ [فصلت].

ونرى من هذا النص السامى أن الأرض أخذت ستة أدوار ومثلها السموات حتى كانت الأرض بطبقاتها وتكوينها، وكانت السماء بأبراجها ومصابيحها، وكانت الشمس ضياء والقمر نورا وقَدَّرَه منازل لنعْلَم عدَدَ السنين والحساب.

أنشأ الله تعالى السموات والأرض فى هذه الأدوار التكوينية بتدبيره سبحانه وبإحكامه وإرادته وهو الفاعل المختار، وليس كل دور انتقالا من الدور الذى سبق فيتوهم أن كل دور خلق ما بعده بل إن ذلك بإرادة المنشئ المختار؛ ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ والمعنى استولى على السلطان والعرش كناية عن كمال السلطان فهو صاحب الملك قد استوى على كرسى ملكه الذى خلقه وأنشأه على غير مثال سبق، وأنه يدبر شئون ذلك الكون الذى أبدعه ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ... (١١٧)﴾ [البقرة]، ويدبر أى يتحكم فيه ويقدر ويضع كل شىء فى موضعه الذى يلتئم مع ما يناسبه فخلق الماء فى الأرض وجعل منه كل شىء حى وخلق المطر الذى يكون غيثا وينبت منه كل شىء وجعل الأرض فراشا والسماء بناء.

وأصل التدبير معرفة أدبار الأمور، والمدبر يعرف حاضر الأمور ويعلم القابل والحاضر والدابر منها والعواقب، لا يغيب عن علمه شىء وقد أحاط بكل شىء علما وفى قوله: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ الأمر هو أمر الخلق والتكوين ومن يعيش فى السموات والأرض وحالهما ـ تبارك الله.

﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ هذا إنذار للذين يعصون من خلقه بأنهم عند العذاب لا تنفعهم شفاعة الشافعين وما لهم من شفيع يشفع ولا قربة يفتدون بها أنفسهم فإنه لا شفيع إلا من بعد إذنه، والتعبير بقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ إشارة إلى أنه محكوم بسلطان الله تعالى غير خارج عن ملكه لا يفرض عليه.

وهنا إشارتان بيانيتان:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ جملة مستأنفة لبيان كمال السلطان، وهى أثر للخلق والتكوين؛ لأنه إذا كان الخالق كان المدبر وتدل على أنه فاعل مختار.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿**اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ**﴾ تدل على كمال السلطان، وأنه لا يخرج عن سلطانه شيء في الأرض ولا في السماء، فالأرض باتساعها من جبال ووهاد ويابس وماء وأحياء وزرع وغراس كلها بتدبيره وسلطانه.

ثم قال سبحانه: ﴿**ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ**﴾ إشارة إلى خالق السماء والأرض وما فيهن ومدبر أمرهما وذو السلطان المستولى على كل شيء، والخطاب للإنسانية كلها لأنه رب العالمين.

ويلاحظ المتتبع لآيات الله تعالى أن الإشارة تقترن بحرف الكاف ويكون الخطاب للنبى ﷺ ولأمته بالتبع، وضمير الجمع كما فى هذا النص ﴿**ذَٰلِكُمُ**﴾ يكون إما للناس أجمعين، وإما للنبى ﷺ وأمته ابتداء. وهذا الخطاب للناس أجمعين، وذكر لفظ الجلالة فيه إشارة إلى أنه المستحق وحده بلا شريك وأنه المنشئ والمشرف على كونكم وقد ربَّكم ورباكم وتعهدكم ﴿**فَاعْبُدُوهُ**﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى أنه يعبد لأنه الله المنشئ جل جلاله؛ ولأنه رب الوجود ولا يُعبد إلا وحده فاعبدوه عبادة تقتضى بطلان الشريك.

﴿**أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**﴾ الاستفهام للتعزيز وطلب التذكر، و(الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وهى مؤخرة عن تقديم؛ لأن الاستفهام له الصدارة دائما، وهمزة الاستفهام داخلة على (لا) والاستفهام لإنكار الوقوع بمعنى النفى ونفى النفى إثبات، والمعنى حض على التذكر، والتذكر أدنى التفكير، والمعنى تفكروا بأدنى التفكير فإنكم حينئذ تجدون الله هو الذى يعبد وحده ولا يعبد سواه.

ثم بشر الله بعد ذلك المؤمنين وأنذر الكافرين، فقال تعالت كلماته: ﴿**إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤)**﴾.

بعد أن بين الله تعالى أنه خالق السموات والأرض ومن فيهن ذكر سبحانه وتعالى أنه لم يخلقهم عبثا، بل إنه خلقهم ليعمروا الأرض ويقوموا فيها بالأعمال

الصالحة وأنه سيعيدهم إليه ويجزيهم بالإحسان إحسانا، ومن كفر فله عذاب أليم، وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ قدم الجار والمجرور على المبتدأ ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ لإفادة القصر، أى إليه وحده المرجع والمآب كما أنه وحده الخالق المنشئ فالمرجع إليه وحده، ثم ذكر إمكان ذلك وتقريب قدرته تعالى على رجعهم إليه وحده فقال: ﴿يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ فهذه الجملة فى مقام التعليل لقوله - سبحانه -: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ وتقريب وقوع ذلك وقدرته سبحانه وتعالى على الإعادة كما بدأ كما قال تعالى: ﴿...كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩)﴾ [«الأعراف]، وكقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ... (٢٧)﴾ [الروم].

وقد بين الله تعالى أن ذلك هو النظام الذى سنه سبحانه وتعالى واختاره لخلقه فقال: ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ أى إن ذلك وعد وعده الله تعالى عندما خلق الإنسان الأول وعاداه إبليس اللعين وأنزله من جنته. وقال سبحانه:

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)﴾ [البقرة].

وقوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ ذكرت لبيان عموم من يعيدهم سبحانه، فسيعود إليه البر والفاجر والمطيع والعاصى والمفسد والمصلح، ثم ذكر سبحانه وتعالى غاية ذلك ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾: اللام للتعليل، أى لتعليل الرجوع إليه والإعادة بعد البدء، وفى التعليل بيان الغاية والمآب ويتحقق وعد الله تعالى الحق الثابت الذى لا يتغير ولا يتبدل، وقد ذكر الإيمان والأعمال الصالحة كشأن بيان الله تعالى عند ذكر الثواب ولم يذكر سبحانه وتعالى الجنة والنعيم المقيم، ولكن ذكر ما يتضمنها وزيادة فقال تعالى: ﴿بِالْقِسْطِ﴾ أى الجزاء بالقسط فهو عدل من الله تعالى، وعدله وفضله يوجبان الجنة وما فيها.

والرضوان والسعادة التى يتضمنهما أداء الواجب هو الثواب العدل للمؤمنين الصالحين، فهم شكروا النعمة ولم يكفروها وقابلوا فضل الله بالقيام بالواجب

واعتدال النفوس وحالهم هى العدل والقسط، ويقول البيضاوى فى تفسيره ﴿بِالْقِسْطِ﴾ أى بعدله أو عدالتهم وقيامهم على العدل فى أمورهم، ونرى أن هذا كله تشمله كلمة (القسط) وليس ثمة ترديد بين واحد منها.

وبعد أن ذكر سبحانه جزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات ذكر جزاء الذين يكفرون فقال سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ـ ذكر القسط فى جزاء الذين آمنوا على أنه مقابلة بين عمل صالح قويم مستقيم وجزاء عدل قويم، وذكر ما يستحقه المنحرفون من غير أن يذكر ما يدل على أنه جزاء، وذلك للدلالة على أن الجزاء مع عدله تفضل من الله، وأن الكافرين حرموا من هذا الفضل ونالهم ما يستحقون، ولبيان أن الرجوع إلى الله تعالى يقترن بالجزاء الذى هو عدل، وأن الناس خلقوا ليقوموا بالإصلاح، وإن الإعادة ليجازوا على هذا الإصلاح، أما المنحرفون المفسدون فإنهم ينالون ما يستحقون بسبب انحرافهم عن الفطرة التى فطر عليها الناس. وابتدأ سبحانه بالجملة الاسمية ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وذلك فيه أمور ثلاثة مؤكدة لشدة العقاب:

الأولى ـ الجملة الاسمية المؤكدة للحميم.

الثانية ـ التعبير بالموصول الذى يعتبر أن الكفر علة الحكم.

الثالثة ـ اللام فى قوله تعالى: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ﴾ فإن اللام تفيد أنه أمر مختص بهم وليس لهم غيره.

والحميم: الحار الشديد الذى يقطع الأمعاء، فيقال: حممت الماء أى أحمه فهو حميم أى محموم، بمعنى مفعول إذا كان حارا حرارة شديدة تزيد عما يطيقه الجسم؛ ولذا قال الله تعالى:

﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨)﴾ [ص]، وقال: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (٤٤)﴾ [الرحمن].

وذكر سبحانه سبب هذا الذى ينالهم فقال: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ جمع هنا بين الماضى والمستقبل، ودل هذا على استمرارهم فى الكفر الذى فعلوه أولا ثم استمروا مجددين للكفر آن بعد آن، وقانا الله تعالى شر الضلال وانحراف العقول.

قال تعالى:

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ
ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ
وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ
ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟
بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ
ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن
تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ
ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ
رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

يبين سبحانه وتعالى أنه خالق السموات والأرض وأنه ما خلقهما عبثا، بل سخرهما للإنسان ليشكر أو يكفر، وأن المرجع إليه سبحانه وتعالى يحاسب كل امرئ بما كسب، وأنه الحكَمُ العدل الذى يجزى به كل نفس بما كسبت.

وفى هذه الآيات فصل نعمته على مخلوقاته وكيف هى مسخرة لهم، فجعل الشمس ضياء والقمر نورا، جعل الشمس ذاتها ضياء، فكتلة كلها ضوء، ويقول بعض المفسرين: ذات ضياء، ونحن نقول: إن الشمس ذاتها ضياء، والقمر نور، أى ذا نور، وقلنا فى القمر ذو نور؛ لأن ضياءه ليس من ذاته إنما هو من توسطه بين الأرض والشمس، ونوره عرضى وليس ذاته نورا كالشمس فى أن ذاتها ضياء، ولقد أدرك هذا بعض المفسرين الأقدمين الذين لم يعنوا بدراسة الأجرام السماوية. فقد قال البيضاوى: أنه سُمى «نورا» للقمر للمبالغة، فهو أعم من الضوء، وقيل ما بالذات ضوء وما بالعرض نور، وقد بينه سبحانه وتعالى بذلك أنه خلق الشمس نيرة فى ذاتها والقمر نيرا بعرض مقابلة الشمس والاكتساب منها، وهذا ما يقرره علماء الكون، وفى الواقع أن ضياء الشمس حقيقى، فهى كالمصباح والنور ينبثق منه، والقمر لا ضياء فيه وإنما نوره نسبى فى انعكاس ضوء الشمس عليه؛ ولذا كان له منازل، وقد ينطمس على الأرض قال تعالى: ﴿**وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ**﴾ فهو يبتدئ هلالا يكبر شيئا فشيئا حتى يصير بدرا ثم يعود يصغر شيئا فشيئا حتى يكون المحاق.

ولذا قال تعالى: ﴿**وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ**﴾ وقال بعض المفسرين: إن ما قدر منازل ليس هو القمر وحده بل الشمس والقمر، والمعنى: قدرهما منازل؛ فالشمس منازل كالقمر، ولكن منازل القمر سريعة يومية ومنازل الشمس ليست كذلك، وإن كان لها أثرها فالتقدير نسب إلى القمر ابتداءً والمراد هما، كعود الضمير على التجارة فى قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً... (١١)**﴾ [الجمعة]، ونحن نرى أن المنازل للقمر؛ لأنها الظاهرة ولأنها التى نعلم بها الأيام والأشهر والسنين القمرية، وبعض المفسرين يقول: منازل أى ذا منازل، ونحن نرى أنه لا حاجة إلى تقدير (ذا)؛ لأن المنازل فى ذات رؤية القمر يبدو صغيرا ثم يكبر وبعد أن يصير بدرا يعود صغيرا كما بدأ ﴿**وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩)**﴾ [يس]، ويبين سبحانه أن الحكمة فى هذا أن تعلموا عدد السنين والحساب، أى عدد السنين بعدد الأشهر والأيام والحساب، وقالوا إن العدد فى السنين والحساب فى الأوقات، فيعلم عدد السنين بدوران القمر وابتداء كل شهر والأيام برؤية القمر ليلا، والعربى كان يعرف

اليوم فى الشهر برؤية مقدار الهلال فيعرف أنه فى الليلة الأولى أو الثانية أو الثالثة إلى العاشرة فى سماء العرب الصافية.

وإن ذلك بنظام ثابت لا يتغير ولا يتحول، وإحكام فى الخلق والتكوين؛ ولذلك قال تعالى: ﴿**مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ**﴾ الأمر الثابت الذى يسير على سنة محكمة هى سنة الله ولن تجد لسنة الله تحويلا.

ثم يبين سبحانه وتعالى أن ذلك كله من آيات الله تعالى التى بينها فقال تعالى: ﴿**يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾ والجملة مستأنفة، لبيان خلق الله تعالى - يفصل، أى يبين الآيات الدالة على كمال خلقه ووحدانيته ﴿**لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾ ويدركون الحق ويؤمنون به ويذعنون لفاطر السموات والأرض، ومدبرهما.

وإن اتصال الأرض والشمس والقمر يكون منهما الليل والنهار، كما أن اتصال الشمس بالقمر والأرض يوجد منه نور القمر، وتوجد منه منازله ويكون منه العلم بعدد السنين والحساب، وقد بين سبحانه أثر اتصال الشمس بالأرض فقال تعالى: ﴿**إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦)**﴾.

واختلاف الليل والنهار بمعنى تعاقبهما بأن يكون كل خلفة للآخر، فالليل يعقب النهار، والنهار يعقب الليل، تشرق الشمس على الأرض فى دورانها فيكون النهار، ويكون ذلك الإشراق فى جزء من الأرض، وفى دورانها تختفى الأرض نصفا منها فيكون ليلا وفى النصف الآخر النهار، وهكذا تتعاقب الأيام والليالى وهكذا النظام الذى ابتدعه منشئ الوجود رب العالمين، وهناك اختلاف بين الليل والنهار تشير إليه الآية أيضا وهو الاختلاف طولا وقصرا؛ فأحيانا يطول النهار ويقصر الليل، وأحيانا يطول الليل ويقصر النهار، وأحيانا يستويان؛ وذلك من تحرك الشمس فى فلكها وحسب قربها من الأرض قربًا نسبيا وبعدها عنها نسبيا، ويشير سبحانه إلى ذلك فى قوله تعالى: ﴿**لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)**﴾ [يس]، فالشمس تدور فى فلكها

والقمر يدور حول الأرض فى فلكها، والأرض فراش الإنسان مهَّدها له العلى القدير.

ولقد قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠)﴾ [آل عمران]، أى العقول المدركة، وهكذا كان الكون وما يجرى فيه من الآيات والنذر، ولكن ما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون.

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ هذا توجيه النظر لما فى السموات والأرض من نجوم وكواكب.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ (١١)﴾ [ق].

فأشار سبحانه وتعالى إلى الكون فى إنشائه وتنوعه وتفاوته وتدبيره وإحكامه وتماسكه وأنه لا فروج بين كواكبه ونجومه وأنها متماسكة بالجاذبية.

﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ هذا اسم إن فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وإن (اللام) لام (التوكيد)، والآيات جمع آية، وهى الأمر الكونى الدال على وحدانية الله وكمال قدرته وإبداع الكون على غير مثال سبق، وأنه سبحانه منشئ الكون بإرادته.

وهذه الآيات لا يدرك مغزاها وما توحى به إلا القوم المتقون، الذين امتلأت قلوبهم بالإدراك ومراقبة أنفسهم، يخافون العواقب ويقدِّرون الأمور تحت سلطان التقوى، يعلمون أن الله الواحد الأحد منشئ الكون وحده هو المعبود وحده لا معبود سواه.

وقد ذكر سبحانه من يدركون بأنهم الذين (يعلمون)، ومرة أنهم (يؤمنون) وأخرى أنهم (يوقنون)، ومرة رابعة بأنهم (يتقون)، وهم الذين يدركون ما تدل

عليه الآيات، ومن لا يدركها ليس عنده علم ولا إيمان ولا يقين ولا تقوى، وعدم إدراكهم ناشئ عن ظنهم أن الحياة الدنيا هى كل شيء فلا يتدبرون ما بعدها وينكرون البعث؛ ولذا قال تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨) ﴾.

ذكر سبحانه آياته الكبرى فى خلق السماوت والأرض الدالة على أنه أنشأ كل شئ وأن من أنشأه ابتداء يستطيع أن يعيد ما أنشأ، كما قال: ﴿ ...كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ ... (٣٠) ﴾ [الأعراف].

وبعد ذلك ذكر الذين ينكرون البعث والنشور والقيامة والحساب، وأنهم لا يخافون عقابا ولا يرجون ثوابا لانغماسهم فى الأهواء والشهوات، وفسدت مداركهم فلا يفكرون فى عواقب أمورهم، وكلما غلبتهم الشهوات ألْهتْهم عن التفكير فى خلق الله تعالى وما يدل عليه، وعن التفكير فى الآيات والنذر وما تدعو إليه من إيمان ثابتة دلائله.

اليوم الآخر، هو ما يكون من بعث وحساب وجزاء، وقد قال سبحانه: ﴿ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ إشارة إلى استهانتهم بأنفسهم وخالقهم، ولبيان المهابة فى لقاء هذا اليوم والإشعار بأنه يوم خطير على الكافرين عسير.

كما أضاف سبحانه لحال إنكارهم الرضا بالفانية ومتعها بدل الحياة الأخرى الباقية بنعيمها الباقى، ورضوا بالقليل الحاضر عن الكثير المقيم؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا ﴾.

أى أنهم رضوا وقنعوا بها لم تمتد أنظارهم إلى ما وراءها فشغلوا بالطريق وما به من منافع قصيرة عن المرتجى والمنتهى؛ لأن الحس استغرقهم ولم يجعل فى نفوسهم مكانا للنور يدرك به الحق، واطمأنوا وسكنوا لملذاتهم وشهواتهم وقالوا فى ذات أنفسهم: ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) ﴾ [المؤمنون].

وقد وصفهم سبحانه بالغفلة عن آياته: ﴿هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ وهذه جملة معطوفة على ما قبلها.

الوصفان متغايران وإن كانا متلازمين.

أولا ـ وصفهم بعدم توقع لقاء الله وأنهم قنعوا بالحياة الدنيا وما فيها واطمأنوا إلى ذلك واكتفوا به.

ثانيا ـ وصفهم بالغفلة، وأن الرضا بالحياة الدنيا والاقتناع بها لا يكون إلا من غير المدركين المتنبهين لحقيقة الحياة وما بعدها.

وقد أكد سبحانه وتعالى غفلتهم بسبب انغماسهم فى الأهواء والشهوات بالجملة الاسمية.

وفى ذلك أبلغ تأكيد لغفلتهم عن آيات الله الكونية والأحكام التكليفية فكفروا وفسقوا عن أمر ربهم، وقد حكم الله حكمًا صارمًا قاطعًا فقال: ﴿أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ⑧﴾ فهذه الآية الكريمة فى مقام خبر ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ وهى خبر (إن) بمقتضى السياق، ويكون الخبر مؤكدا بـ (إنَّ) ويتضمن اسمها (أى اسم إن) سبب الحكم وهو الخبر؛ لأن اسم الموصول تضمنت صلته أنهم لم يتوقعوا لقاء الله فانهمكوا فى الشهوات وقنعوا بالدنيا وغفلوا عن آيات الله، وكل ذلك تأكيد لسبب الحكم وهو أن يكون مأواهم النار.

وهنا نجد أسبابا تضافرت وأوجبت عقابهم:

أولا- اغتروا فلم يتوقعوا لقاء الله.

ثانيا- رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها وهووا فى اللذات مرتعا.

ثالثا- غفلوا عن آيات الله القرآنية الكونية والتكليفية.

وهذه أسباب متتابعة بعضها يتبع بعضا وكلها آثام، وقد قال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ والإشارة إلى الأوصاف السابقة واستحضارها إشعار بأنها السبب فى هذا الجزاء.

﴿مَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ معناه المكان الذى يأوون وينتهون للإقامة فيه وكان القصد من المآوى الاستراحة لا العذاب.

وقد علل الله العقاب بقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ والباء للجزاء والمقابلة بين ما فعلوا وما انتهوا إليه، والجمع بين الماضى فى ﴿كَانُوا﴾ والمستقبل فى ﴿يَكْسِبُونَ﴾ دليل على الدوام والاستمرار فكانوا فى غيٍّ مستمر، وبعدَ أن بين سبحانه حال وجزاء الذين لا يرجون لقاءه ذكر فى مقابله الذين آمنوا ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾ [يونس].

هذا جزاء الذين يرجون لقاء الله ويتوقعونه مستيقنين به؛ لأنهم آمنوا فيخافون العذاب ويرجون الثواب ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ ذكر الله لهم جزاءين أولهما- أنهم بسبب الإيمان والعمل الصالح يهديهم ربهم إلى الحق دائما فلا تغمرهم الشهوات ولا يرتعون فى المفاسد؛ لأن الإيمان نور فى قلب المؤمن، به لا يفكر إلا فى الحق، ولا يقول إلا الحق، ولا يعمل إلا الحق وسيره بين الناس لا يكون إلا بالحق، وقد قال رسول الله ﷺ: «**من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم**»(١) ذلك أن النور يهدى فيزداد المؤمن بإيمانه إيمانا.

والعمل السيئ تَظْلُمُ به النفس فتضل، تبدأ فى طريق الضلالة وتنتهى إلى الضلال البعيد، وقال ﷺ: «**يتلقى المؤمن عمله فى أحسن صورة فيؤنسه ويهديه، ويتلقى الكافر عمله فى أقبح صورة فيوحشه ويضله**»(٢)، وفى قوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ إشارتان:

أولاهما ـ أن ذلك من الربوبية فهو يربى نفوس المؤمنين بما يهيئها للخير

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) ذكره القرطبى فى الجامع لأحكام القرآن: ج٨/ ٣١٢ بنحوه.

والحق دائما، كما قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) ﴾ [الشمس]، فإذا ألهمت التقوى سارت فى طريقها تبلغ غايته، وهذا أمر معنوى تطيب به النفوس المؤمنة وترضاه وتطمئن به.

ثانيتهما - جزاء مادى فى اليوم الآخر، وهو روح وريحان ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾ أى أنهم يدخلون الجنة تجرى من تحتها الأنهار.

وهنا إشارتان بيانيتان:

الأولى - أنه إذا كان ثمة جزاءان فإنه يعطف بينهما بالواو ولكن لا عطف، وذكرا منفصلين فما حكمة ذلك؟ نجيب قائلين: إن الانفصال هو الأَوْلى؛ لأن زيادة الإيمان فى الدنيا وجريان الأنهار تحت الجنان فى الآخرة. هو جزاء للأول وثمرة له فكان مقتضى ذلك أن يذكر منفصلا عنه، وتجرى من تحتهم هو جريانها من تحت المستقَر الذى استقروا عليه تعطيهم منظرا يسر الناظرين وتنعم به النفس والقلب والعين، وتكون الراحة الخالدة.

الثانية - أنه سبحانه قدم جريان الأنهار من تحتهم على جنة النعيم، للمبادرة بذكر المتعة النفسية الروحية، ولبيان أنها تحتهم هم، وذكر بعد ذلك أن هذا فى جنات النعيم، أى فى الجنات التى خصصت للنعيم أو هى النعيم ذاته، وفى قوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ اقتصرت الهداية على أنها بالإيمان مع أنه ذكر الإيمان والعمل الصالح، فلماذا اختص الإيمان بالذكر هنا؟ نقول عن ذلك أمرين:

أولهما - أن العمل الصالح ثمرة من ثمرات الإيمان الذى هو النور الهادى والمصباح المضئ فذكر الإيمان استتبع ذكر ما هو أثر له.

ثانيهما - أن الإيمان وحده هو الذى يهدى.

وبعد ذلك ذكر سبحانه نعيم الجنة المادى والنعيم الروحى وهو تسبيح وسلام وحمد لله رب العالمين، فقال تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)﴾.

الدعوى هى مصدر دعا - يدعو، كالشكوى، فى شكا - يشكو. والدعوى فى الدنيا طلب الحق والطلب من الله تعالى.

ودعاؤهم لله تعالى هو تقديسه وتسبيحه وتنزيهه؛ لأنهم وصلوا إلى أقصى الغايات والمنى فلم يبق إلا أن يسبحوه ويقدسوه وينزهوه، و(اللهم): هو نداء لفظ الجلالة، أى سبحانك يا إله العالمين ويارب هذا الوجود وخالقه.

﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ ﴾ أى أمن ودعة واطمئنان، وهذه التحية تتبادل بينهم بالأمن والسلام والاستقرار وتحية الملائكة المقربين لهم سلام، كما قال تعالى: ﴿ ... وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) ﴾ [الرعد]، وتحية من ربهم ورب هذا الوجود كما قال تعالى: ﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) ﴾ [يس].

فحياتهم فى الجنة تقديس لله وتنزيه وتحيات مباركة وأمن دائم.

﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى آخر دعائهم حمد الله سبحانه وتعالى؛ لأن ما سبق نِعَمْ؛ التقديس نعمة والتحيات نعمة وكلاهما يستحق الحمد. يقول الزمخشرى: «أن» هى المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن.

ويقول البيضاوى: لعل المعنى أنهم إذا دخلوا الجنة وعاينوا عظمة الله تعالى وكبرياءه مجّدوه ونعتوه بنعوت الجلال ثم حياهم الملائكة بالسلامة من الآفات والفوز بأصناف الكرامات، فحمدوا الله وأثنوا عليه بصفات الإكرام. ابتدأوا بالتقديس وانتهوا بالحمد. فاللهم اجعلنا منهم وإن لم نعمل عملهم ولكنك غفور رحيم.

النفس الإنسانية فى ضرائها وسرائها

قال تعالى:

وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ
ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ
لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ
ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا
عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ
لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ
مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟
لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ
خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

فى هذه الآيات الكريمات يبين سبحانه وتعالى لطفه بعباده وإجابته لهم عند الاستغاثة به، وبيان الذين لا يرجون لقاء الله تعالى، وأنه أمهلهم ليتدبروا إن كان فيهم من يفقه ويدرك، وابتدأ سبحانه ببيان أنه يعجل الخير ولا يعجل الشر.

وفى قوله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾ - «لو» هنا حرف امتناع فهى تتضمن النفى، ينفى الله أن يعجل وينفى سبحانه جواب الشرط أيضا وهو ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ أى ينهى أجلهم لأنه سبحانه لا يستعجل الشر ولا يعجله كاستعجالهم للخير.

وليس الشر هنا ما يفسد أو يضر إنما يراد به ما يسوؤهم ولو كان عدلا وجزاءً وفاقا لما يفعلون، والمعنى ولو كان الله يعجل لهم ما يسوؤهم ويهددهم به

وينذر من عذاب أليم - كالرجفة أو ريح فيها عذاب أليم أو يجعل عالى الأرض سافلها أو يغرق كغرق قوم نوح - لانتهت آجالهم، وهذا معنى ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ﴾، وكانت - إلى- بدل اللام للدلالة على أن قضاء الأجل هو إنهاؤه ويتحقق فيهم قول الله تعالى: ﴿خُلِقَ الإنسَانُ مِنْ عَجَلٍ... ﴿٣٧﴾﴾ [الأنبياء] والخير الذى يستعجلون الله وأنفسهم فيه ليس هو الخير فى ذاته ولكنه الخير لأنفسهم - سواء أكان حلالا أم كان حراما، وإن الله لا يعجل السيئة التى تسوؤهم أو النازلة التى تنزل بهم إملاء لهم، عسى أن يكون من ظهورهم من يعبد الله، ولذا قال سبحانه لمشركى العرب:

﴿...سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف].

فالإهمال ليس إهمالا ولكنه أولا: لتمكينهم من أن يعملوا صالحا إن أرادوه وثانيا: ليكون الجزاء الأوفى إذا استمروا فى ضلالهم، وثالثا: ليعرفوا العبر.

وفى قوله: ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الفاء) للإفصاح عن شرط مقدر، أى إذا كنا لم نعجل لهم العذاب الدنيوى - نذرهم فى طغيانهم.

(نذرهم)، أى نتركهم لاهين عمين عن الحق وعن البعث غير مدركين، وعبّر سبحانه بالموصول: ﴿الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ للإشارة إلى أن السبب فى استمرار طغيانهم وتجاوزهم أنهم لا يتوقعون لقاء الله تعالى وتلقى الجزاء فيخافون، أو تلقى الثواب فلا يطغون، ولكن المناسب هنا هو جزاء الطغيان إذ هو المذكور.

والطغيان هو تجاوز الحد والاعتداء على الأشخاص فيسيرون وراء أهوائهم وشهواتهم وطغيانهم لا يقفون عند حد من الحدود فيرتكبون ما شاءت لهم أهواؤهم بعد أن جعلوا إلههم هواهم.

﴿يَعْمَهُونَ﴾ أى يتخبطون ويتحيرون، ومنشأ الحيرة أن فطرهم تدعوهم إلى الحق وإلى صراط مستقيم ولكنهم يطمسونها بأهوائهم وملذاتهم وسلوكهم، فهم فى حيرة نفسية، وإن من الحيرة إيمانهم بأن الله خالق كل شيء وأنه المستعان عند الشدائد، وهو إذا أغاثهم عادوا كما بدأوا، كما يقول تعالى:

﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢)﴾.

ذكرنا فى مواضع كثيرة أن العرب كانوا يعرفون الله ولكن يشركون معه عبادة الأوثان، وغيرهم ما كان يعرف الله إلا مع ثلاثة، أو يعرفونه حالا فى بعض خلقه، أو لا يعرفونه قط، فالعرب كانوا خيرا منهم إن كان فى الشر خيار، فكانوا يعرفون أن الله وحده خالق الكون وأنه يُلجأ إليه فى الشدة، وأنه ليس مثله أحد من خلقه، ولكنهم يشركون فى عبادته وبذلك ضلوا ضلالا بعيدا.

ومما يدل على التجائهم فى الشدة الالتجاء إليه فى المرض الذى لا يعرفون سببه وتتعدد أحواله، كما تذكرنا الآية الكريمة ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ﴾ وهنا بيان الحقيقة وكمالها، أى الضر الذى بلغ حدا لا يعرفون له علاجا ولا دواء، وأن الإنسان بإنسانيته المفطورة على الضعف يلجأ إلى ربه ﴿دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ واللام فى ﴿لِجَنبِهِ﴾ بمعنى (على) وهى حال كونه مضطجعا على جنبه أو ملقى على جنبه لا يستطيع حراكا لا يملك أن يقعد، ﴿أَوْ قَاعِدًا﴾ لا يستطيع أن يقوم ﴿أَوْ قَائِمًا﴾ لا يمشى كما اعتاد.

وتعدد هذه الأحوال للدلالة على أنه يدعو فيها كلها لا فى بعضها، وهذا دليل على شدة الالتجاء إلى الله وكثرة الالتجاء.

أو يدعو فى كل أحوال الأمراض ومنها ما يلقيه فى الأرض، أو مرض يقعد فيه ولا يستطيع غيره أو يقوم من غير قدرة على السير، والمراد فى كل الأحوال كثرة الدعاء لله وذلك مثل قوله: ﴿...وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (٥١)﴾ [فصلت].

هذا حال الإنسان إذا مسه الضر فإذا كشف عنه الضر نسى ولم يفكر فى حاله الذى كان عليه وضراعته إلى ربه وأنه الملجأ والملاذ؛ نسى ذلك نسيانا تاما، وطغت عليه وعلى تفكيره حال الصحة ونسى الله ونسى ضعفه، وأنه لا يمكنه العيش دون رعاية الله وتدبيره، يقول سبحانه: ﴿**فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ**﴾ (الفاء) عاطفة حال كشف الضر على حال الضعف والالتجاء إلى الله، وهما حالان متباينان فى ظاهرهما وإن كانا متوافقين فى الدلالة على ضعف الإنسان، كما قال تعالى: ﴿... **وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا** (٢٨)﴾ [النساء] ولكن الغرور هو الذى يوهمه بالقوة ويطغيه.

﴿**فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ**﴾ (الفاء) عاطفة جملة الاستجابة على جملة الاستغاثة والضراعة، والعطف يقتضى المغايرة، وكانت المغايرة بين حال الإنسان فى ضعفه واستكانته وحال قوته وتمكنه، ففى الأولى ضراعة واستغاثة، وفى الثانية غرور واستهانة.

﴿**كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ**﴾، معناها أزلنا عنه حال الضر وكأنها كانت غشاء أخفى كفره فلما زال الغشاء عادت حقيقته كما كانت.

وقوله: ﴿**كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ**﴾ فيه (أنْ) مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن، أى كان الشأن أنه لم يدع الله إلى ضر مسه وذلك شأن اللئام من بنى الإنسان، ينسى الإحسان فى وقت القوة وكهؤلاء اللُّؤَماء الكافرين فى نفوسهم، كذلك قال الله تعالى: ﴿**كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ أى كهذه الحال التى عليها المريض الضعيف الذى كشف الله تعالى عنه الضر فنسى فى عافيته ما كان فى مرضه، كهذه الحال زُيِّنَ للمسرفين ما كانوا يعملون، أى أنهم نسوا حال خلقهم وتكوينهم والإيمان بربهم وزين لهم الغرور والإسراف فيه ما كانوا يعملونه من شرور وآثام وظلم للعباد وطغيان فى أنفسهم، وإسرافهم فى الشر يجترعونه اجتراعا، وعبر الله عن الجاحدين المنكرين الذين لا يرجون لقاءه بالمسرفين؛ لأنهم أسرفوا على أنفسهم فاعتقدوا الباطل واعتقدوا أن الحياة الدنيا هى الوجود كله وأسرفوا على الناس فطغوا وبغوا فى البلاد وأكثروا فيها الفساد.

ويسوق الله العبر فى آياته فلا يعتبرون؛ لأنه قد زين لهم ما كانوا يعملون، أى ما استمروا على عمله؛ لأنه بالجمع بين الماضى فى ﴿كَانُوا﴾، والمستقبل فى ﴿يَعْمَلُونَ﴾. يسوق الله تعالى العبر ولا معتبر؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣)﴾.

القرن: الجيل، والقرون: الأجيال، وليس هلاك هذه الأجيال إهلاكها كلها وإنما الإهلاك للمكذبين منهم، فأهلك قوم نوح وأبقى المؤمنين ولما أهلك عادا وثمودا، أبقى المؤمنين، وأهلك من قوم لوط المفسدين وأبقى المؤمنين وهكذا، وفى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ إشارة إلى وجوب الاعتبار بهم، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩)﴾ [النمل].

﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أى أن الهلاك كان عند ظلمهم وبسببه، وأن ظلمهم كان سببه الشرك وإن الشرك لظلم عظيم، حرموا ما أحل الله وأحلوا ما حرمه، وكانوا طغاة كفرعون وأمثاله، فطغوا فى البلاد، وظلموا العباد، واستغلوا قوى الناس بغير مبرر إلا أهوائهم.

ظلموا الرسل بتكذيبهم - قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى بالمعجزات الواضحة الدالة على الرسالة الإلهية التى حملوها فما طغى المجرمون عن غير بينة: ﴿... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥)﴾ [الإسراء]، ﴿...وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤)﴾ [فاطر].

تكاثفت ظلماتهم وتوالى شرهم وفسدت نفوسهم حتى اسودت وما عاد للحق فيها موضع، فبين سبحانه أنه لا إيمان لهم بعد أن أظلمت قلوبهم، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أى ما استقام لهم ليؤمنوا، و(اللام) هى التى تسمى بلام الجحود، ولا يستقيم لهم الإيمان لاسْوِدَاد قلوبهم وطمس نورها فلا يدخلها

نور الحق، فهى فى ظلمات دائمة مستمرة ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾، أى كهذا الجزاء الذى جزيناهم به من الهلاك الذى نزل بهم وكطمس قلوبهم فلا يؤمنوا نجزى المعاندين، وقد وصفهم سبحانه وتعالى بالإجرام وأن ذلك هو الذى أدى إلى هلاكهم، وإجرامهم كان فى كفرهم وطغيانهم وفسادهم فى الأرض وهذه عبرة ساقها القرآن لمن يعتبر، وخاطب بها المشركين الذين يعبدون الأوثان ليعتبروا فقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤)﴾.

﴿ثُمَّ﴾ هنا لمعناها من الترتيب والتراخى، وأن التراخى فيها يدل على تعدد الأجيال وكثرتها وما تركته من عبر وآثار تدل على عاقبة أمرهم، وهم على مقربة منهم يسيرون فى أرضهم، و﴿خَلائِفَ﴾ جمع خليفة وهم الذين يسكنون فى مساكنهم كما قال تعالى:

﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ (٤٥)﴾ [إبراهيم].

إن هذه الخلافة فى الأرض التى فيها العبر والرسوم الدالة على مآل الذين ظلموا فيها وقاوموا الأنبياء وكذبوهم، وهى كافية لاعتبارهم واهتدائهم إن غلبت عليهم الهداية، أو ضلالهم إن غلبت عليهم الشقوة؛ ولذا قال تعالى: ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، (اللام) للتعليل أو الغاية، وهى هنا للغاية، وضمير المتكلم وهو الله ذى الجلال والإكرام، والنظر من الله تعالى لأمور أنها واقعة لا أنها متوقعة، فهو يعلم الأمور كلها ما حضر وما غاب وما كان وما يكون، والنظر هنا إلى ما هو واقع أهو الهداية والاهتداء أم هو الضلالة والابتعاد؟، و(كيف) استفهام عن حالهم وواقعهم هدى أم ضلال.

القرآن معجزة الله الكبرى طلبوا غيره

قال تعالى:

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ
لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ
أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ
أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ
ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ
فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ
لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا
عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا
فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾

المعجزة الكبرى والحجة الباقية الخالدة إلى يوم القيامة، ما كانت عظمتها فى أنها تقرع الحس قرعا لتنقضى بانقضاء عهدها كالمعجزات الحسية للأنبياء، والتى انتهت بانتهاء وقتها، وإنما عظمة هذه المعجزة الكبرى فى خلودها، فيجيئ الناس خلقا بعد خلق، وجيلاً بعد جيل، وهى قائمة باقية بقاء النبوة المحمدية، تحاجّ الجاحدين لها فى كل العصور؛ لأنها معجزة خاتم النبيين الذى لا نبى بعده حتى يوم الدين.

وإن المشركين يتبرأون فى إشراكهم بإنكار نبوة رسولهم، فكان لابد من أن ينكروا رسالة محمد ليسوغوا كفرهم وعنادهم، مع أن الله تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، ثم جاءوا يجادلون فى أمره وكانوا قوما خصمين؛ يجادلون فى كل شيء حتى القرآن بل يجادلون فى الله وهو شديد المحال.

جادلوا فى القرآن وقد عجزوا عن أن يأتوا بمثله فقال تعالى عن ذلك: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ والذين يجادلون فى الآيات هم الذين لا يتوقعون لقاء الله أى يكفرون بالبعث والنشور ويقولون: ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) ﴾ [المؤمنون]، وفى هذا إشارة إلى أن فيصل التفرقة بين الإيمان والكفر هو الإيمان بالغيب. والإيمان بالبعث والنشور، فإن الذين لا يؤمنون بالغيب لا يؤمنون بالله؛ لأن الله سبحانه لا نراه إنما هو القوة التى أنشأت الوجود وسيطرت عليه جل جلاله، فمن لم يؤمن بالغيب لا يؤمن بالله العلى القدير، ومن لا يؤمن باليوم الآخر لا يمكنه الإيمان بالتكليف الإلهى؛ لأن الجزاء على ما يعمل الإنسان، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، فهو يحسب أن الله ترك الإنسان سدى، يموت ويحيا من غير تبعات يتحملها، ولا غاية يرجوها، بل يأكل ويشرب كالأنعام بل أضل سبيلا، فأساس الهداية الإيمان باليوم الآخر والحساب والثواب والعقاب، يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ الآيات البينات القرآن، وتلاوته مرتلا قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) ﴾ [الفرقان].

فالتلاوة قراءة القرآن كما أقرأ جبريلُ النبى ﷺ، فالقرآن محفوظ بذاته وروايته وترتيله عن الله تعالى ومتواتر بلفظه وقراءاته، وإن المشركين الذين لا يرجون لقاء الله مع تحديهم وعجزهم عن أن يأتوا بمثله، يقولون كافرين متدللين: ائت بقرآن غير هذا، وفى قولهم هذا لا يحتجون على أن المعجزة قرآن يتلى، وإنما يطلبون غيره من غير حكمة يقدرونها، ولا أمر يتعلق بالقرآن يريدون خلافه، كأنهم لا يريدون تكليفاته ولا يريدون ما فيه من محاربة عقائدهم وشركهم، وهل

إذا جاء غيره لن يكفروا به أيضًا، وإن هؤلاء المشركين حسبوا أن محمدا هو الذى أتى بهذا القرآن أو ادعوا ذلك، مع أن بُلغاؤهم المتمرسين بالبيان قالوا: إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ما يقول هذا بشر، ومع هذا طالبوا محمدا ﷺ أن يأتى بغيره أو يبدّله، فإن جاء لامته الحجة بأنه ليس من عند الله بل هو من عنده، وقولهم: ﴿ **ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ** ﴾ ففى التغيير تسليم بأن المعجزة تكون قرآنا ولكن يريدون غيره، أما التبديل فهو يكون بإتيان معجزة عدا القرآن كعصا موسى، أو إبراء الأكمه والأبرص أو إحياء الموتى بإذن الله لعيسى أو غير ذلك من المعجزات الحسية.. وقد طلبوها كما قال تعالى: ﴿ **وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا (٩٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (٩٤)** ﴾ [الإسراء].

هذا فيما نحسب هو التبديل الذى أرادوه بأن يستبدل المعجزة القرآنية بمعجزة حسية مادية لأنهم لا يؤمنون، ولقد رد عليهم النبى يقول الله تعالى: ﴿ **قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ** ﴾ وهذا الرد كان على التبديل؛ ولذلك نقول: أن الجواب أحد أمرين:

الأمر الأول ـ أن يكون إغفالا لطلب الإتيان بقرآن غير هذا باعتباره كلاما عابثا؛ إذ ما داموا قد سلموا بالمعجزة القرآنية، فلا فرق بين قرآن وقرآن، ما داموا قد عجزوا عن الإتيان بمثله.

ثانى الأمرين ـ الذى يحتمل أن يكون فيه الجواب، أن التبديل للمعجزة يشمل تغيير القرآن والإتيان بمعجزة أخرى فكان الرد على التبديل شاملا

الاعتراضين، وفى رد النبى ﷺ: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ أى ليس لى أن أختار المعجزة من تلقاء نفسى إنما الاختيار لله سبحانه وتعالى؛ ولذا قصر عمل الرسالة على اتباع ما يوحى الله به فقال لما أمره ربه: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ (إنْ) نافية أى: لا أتبع إلا ما يوحى إلىَّ، وما يجىء من ربى فهذه المعجزة قدرها سبحانه لا أخالفه ولا أعصيه، ليس لى ولا لأحد أن يعترض عليها ما دامت مثبتة للرسالة وما داموا عاجزين عن الإتيان بمثلها، وإن فى ذلك العصيان وعاقبته، وبهذا قال ﷺ كأمر ربه: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وفى هذا إنذار لعصيانهم واعتراضهم.

﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾ وفى هذا تأكيد أنه من عند الله تعالى، وأن النبى ﷺ لا يبدله من تلقاء نفسه وإنما الذى يبدله هو الله تعالى كقوله: ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ﴾ مفعول المشيئة محذوف دل عليه ما بعده - أى لو شاء الله تعالى ألا أتلوه ما تلوته، وذكر قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ للإشارة إلى أنهم المقصودون بالتلاوة ليدركوا مغزاها وما فيها من إعجاز وتكليف، ثم قال تعالى: ﴿وَلا أَدْرَاكُم﴾ أدراكم أفعَلَ من (دَرَى) بمعنى علم، أى: ولا أعلمكم به، ولكنه اختار تلك الحجة لكم لبلاغة كلامها الذى يبقى مسجلا تتلقاه الأجيال جيلا بعد جيل إلى يوم الدين، فالمعجزات الحسية واقعات تنتهى بانتهاء زمانها، أما هذا الكتاب فباق إلى يوم القيامة؛ لأنه معجزة خاتم النبيين ﷺ الذى يقول: «**ما من نبى إلا أوتى ما مثله آمن عليه البشر وإن ما أوتيته وحيا أوحى إلىَّ وإنى لأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة**»[1].

﴿وَلا أَدْرَاكُم﴾ قرأه ابن كثير بلام التوكيد وليس بلا النافية، فيكون المعنى ولو شاء لأعلمكم به وجعلكم تؤمنون بصدقه، والواو عاطفة على نية تكرار الفاعل.

(١) سبق تخريجه.

ثم يبين سبحانه صفات النبى ﷺ فى الصدق والأمانة وشرف النفس مما يوجب تصديقه فقال تعالى: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ﴾ أميا صادقا لا أقول شعرا، ولا كنت خطيبا فيكم، ولقد علمتم قولى وكيف اختلف عما أتلوه عليكم، وقد كنت وإياكم فى بلد أمِّى لا علم فيه ولا درس، لم أمارس علما أو ألق عالما، ثم قرأت عليكم كتابا أعجزكم بيانه وفصاحته وما فيه من علم غزير بالحلال والحرام والأخبار الصادقة، وقصص فيها العبرة لمن يعتبر، هكذا كان عمرى فيكم قبل البعث.

﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا توازنون بعقولكم بين الحاضر، وبين ماض لا يتفق وما جئتكم به.

وإن توجيههم إلى الماضى النبوى الكريم يدل على أمرين:

أولهما ـ أنه صادق شريف ينبغى الإيمان بقوله، وأنه لا يدعى باطلا وأولى به ألا يكذب على الله إذ كان لم يكذب قط قبل.

ثانيهما ـ أنهم عرفوا كلامه وأنه كان بليغًا، وأنه لم يقرض شعرًا، ولم يرق منبرًا، فهذا الذى يتلى ليس من نوع كلامه ولا يمكن أن يكون من كلام أحد.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (الفاء) متأخرة عن تقديم، مترتبة على ما قبلها وأُخرت لمكان الاستفهام من الصدارة، والاستفهام إنكارى بمعنى نفى الوقوع، داخل على نفى، وهو (لا) ونفى النفى إثبات، فهو تحريض على التفكير والتدبر وألا يركب الشيطان رءوسهم فيهملوا عقولهم ويكونوا قوما بورا.

وهكذا كل من أهمل القرآن وتركه يريد معجزه أخرى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)﴾ [الحشر].

ثم أشار سبحانه إلى ظلم من كذب على الله أو كذب بآياته فقال تعالى:

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧) ﴾.

«الفاء» للإفصاح عن شرط مقدر، تقديره: إذا كان من عندى كما تدعون وكما تفترون، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ والاستفهام هنا إنكارى بمعنى إنكار الوقوع، أى لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا بأنه من عند الله وما هو من عند الله، وهنا يبين سبحانه أن نبيه لا يمكن أن يكذب على الله؛ لأن ذلك أشد الظلم وأقبحه، وأن الله لا يختار لنبوته كذابا كقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ...(٩٣) ﴾ [الأنعام].

ويكون النص على هذا إثبات أن القرآن الذى تلاه عليهم هو من عند الله؛ لأنه ليس بظالم، فضلا عن أن يكون أظلم الناس، إذ هو الصادق الأمين الذى عرفتموه، وهو تنديد بالمشركين؛ فهم أظلم الناس؛ لأنهم افتروا على الله تعالى إذ أشركوا به غيره، وأى افتراء أكبر من ذلك، ثم هم قد سفهوا النبى ﷺ وافتروا عليه الكذب.

وقد بين سبحانه شعبة أخرى من ظلم المشركين الذى لا يماثله ظلم، وهو تكذيب القرآن الكريم وإنكار نسبته إلى الله تعالى، وكذبوا الدلائل الواضحات فى الخلق والتكوين فأشركوا بالله؛ لأن هذه الآيات الكونية تدل على أن الله واحد أحد ليس له ولد ولم يكن له كفوا أحد.

﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ الضمير هو ضمير الشأن، أى أن الحال والشأن أنه لا يفلح أى لا يفوز ولا ينجح، وقد أكد نفى فلاحهم: أولا: بالجملة الاسمية، ثانيا: بـ (إنّ) الدالة على التأكيد، ثالثا- أنه وصفهم بالإجرام وهو الشرك وكسب الفساد.

ولقد بين الله تعالى جرمهم الأكبر وهو الشرك فقال سبحانه:

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) ﴾.

«الواو» واصلة ما بعدها بما قبلها، والضمير فى ﴿يَعْبُدُونَ﴾ يعود إلى المشركين، والذين لا يرجون لقاء الله، وينكرون البعث والنشور، ويحسبون أنهم خلقوا عبثا وأنهم إلى الله لا يرجعون، جعلهم ذلك الإنكار يسيرون فى متاهات من الضلال تكاثف بعضها فوق بعض، فينقلبون فى دركات الضلال دركة بعد دركة حتى ينتهوا إلى الشرك وهو الضلال.

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ ﴾، ﴿مِن﴾ بيانية، أى أن معبودهم غير الله تعالى الخالق لكل شيء مالك كل شيء الذى يدعونه مستغيثين فى الشدائد ولا يلجأون إلى غيره فيما يُروِّعهم فى السماء والأرض، وأنهم يستبدلون بعبادته حجراً لا يضر ولا ينفع، لا يضرهم فيخافوا أذاه، ولا ينفعهم فيعبدوه رجاء خيره ونفعه.

(لا) فى قوله تعالى: ﴿وَلا يَنفَعُهُمْ﴾ لتأكيد النفى السابق، فالعبادة تكون رهبة من الضرر أو رجاء للنفع، وهؤلاء ضلوا ضلالا بعيدا فعبدوا ما لا يُخاف ولا يُرجى.

وهكذا ركبهم الوهم والشرك كله أوهام فى أوهام، ليس لهم عقل مدرك ولا بصيرة تميز الحق من الباطل، وهم فى عمى وغفلة عن الحقائق، وإن الديانات التى تقوم على الأوهام كالنصرانية الحديثة تقوم على أوهام ليس لها منطق عقلى يدركها.

ولقد زينت لهم الأوهام عبادة الأحجار، ثم زينت لهم أمرا آخر هو ظنهم أن لها شفاعة عند الله، وهذا جمع غريب بين الشرك وبين العلم بأن الله وحده

الخالق، هم يزعمون أن الأوثان تقربهم إلى الله، ويبين سبحانه قولهم: ﴿... مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ... ۝٣﴾ [الزمر].

يرد سبحانه وتعالى: ﴿أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

الاستفهام هنا للتقريع واللوم والتهكم، ﴿أَتُنَبِّئُونَ﴾ «أتخبرون» الله بما لا يعلم له أصلا فى السموات ولا فى الأرض، فالشفاعة علاقة بين المشفوع والشفيع، فإذا كانت حقيقية فلا بد أن يعلم المشفوع بها.

﴿... وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۝٣٣﴾ [الرعد].

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أى تقدس وتنزه وتعالى عما يشركون.

الناس أمة واحدة

وَمَا كَانَ
ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
۝١٩ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا
ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ۝٢٠
وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ

﴿ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ
﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ
وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ
وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟
ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ
ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

ذكر سبحانه الفطرة الإنسانية واتحاد الناس فيها، كما أن انبثاق الاختلاف كان من أصل الوحدة فى التكوين، ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾.

﴿كَانَ﴾ هنا بمعنى «وُجِدَ» أى ما وُجِدَ الناس إلا أمة واحدة، أى واحدة فى منازعها وغرائزها وكيانها الإنسانى، فحب النفس واحد وحب السلطان والغَلَبْ وهذه المنازع فى النفوس من شأنها أن تتغالب، وإذا تغالبت بين الآحاد اختلفت فكان الاختلاف فى أصل الوحدة.

إذ الوحدة فى الطبائع أوجدت الاختلاف فى المنازع؛ ولذلك ترتب الاختلاف على أصل الوحدة.

فوحدة الإنسانية ليست كوحدة الملائكة ـ وحدة الطاعة ـ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وإنما وحدة الإنسانية هى وحدة الطبائع التى يمتد بعضها إلى أصلها الحيوانى، ولذا رتب الله سبحانه وتعالى الاختلاف على الوحدة ﴿فَاخْتَلَفُوا﴾ (الفاء) عاطفة لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فالغرائز تتناحر فمن

يُغلب عقله على هواه يهتدى، ومن غَلَّبَ لذاته يكون عبدا لشهواته فيضل ويشقى، فمن الناس من يغالب للشر ويقاوم الخير فيفترى، ومنهم من يناصر الحق ويدفع الاعتداء فيهتدى.

إن الله تعالى هو الذى يحكم وهو خير الفاصلين، ولكنه أخَّر قضاءه الذى يقضى به فى الدنيا، إلا إذا طمَّ الشر وبغى وخُشِيَ على الحق من سطوته فيمنعه كما حدث لقوم نوح وعاد وثمود، وقوم لوط؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ **وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** ﴾.

﴿ **لَوْلا** ﴾ حرف امتناع لوجود، أى امتنع قضاء الله، أى حكمه فيما بينهم ﴿ **لَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ** ﴾، وكلمة الله السابقة وهى التأجيل ليوم الحساب وتركهم فى الدنيا ـ دار البلاء والاختبار ـ ليصل كُل إلى أقصى ما تتأدى به نزوعه، فيكون حكمه بعد الأعمال كلها، ويفتح الله باب الرجوع إليه سبحانه فإنه تواب رحيم وما داموا فى الدنيا فباب التوبة مفتوح إنه هو التواب الرحيم.

وأحد منازع الشر عند الضالين أنهم لا يؤمنون بالحق إذ جاءهم؛ ولذلك لا يؤمنون بإعجاز القرآن وإن بدا الحق فيه، ولما عجزوا إذ تحداهم الله أن يأتوا بسورة من مثله طلبوا آية أخرى غيره ﴿ **وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٢٠)** ﴾.

أرادوا إعنات الرسول ﷺ مع قيام الحجة ووضوح الدليل وقد لبث فيهم ﷺ عمرا طويلا، أمينا صادقا عاقلا رزينا، حكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، ومع هذا طلبوا آية أخرى غير القرآن.

وإذا ذكر لهم قصص أمم أهلكها الله إذ كفروا وبغوا على أنبيائهم تحدوا الرسول وطلبوا آية تهلكهم كما هلك عاد وثمود وقوم تُبَّع وقوم نوح.

﴿ **وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ** ﴾ ـ آية حسية أو آية مهلكة ـ التعبير بالمضارع يفيد تكرارهم ذلك القول آنًا بعد آن، وهو الموقف السلبى لمن يريد جعل

الوقت فى صالحه فالمحاورة مستمرة وطلب الدليل بعد الدليل يحسبون أنهم بذلك قد فازوا بالوقت.

﴿لَوْلا﴾ بمعنى «هلاَّ» للتحضيض، كأن الحجة التى ساقها النبى غير كافية وكأنهم يتحدونه ﷺ أن يُنزل بهم مثل ما نزل بغيرهم ممن قص قصصهم، فالمطلوب إذن آية حسية تقنعهم - فى زعمهم - أو تهلكهم.

ومعنى إنزالها - إتيانها - تشبيهها بالقرآن إذ نزل على قلبه الأمين، ولكن المعجزات الحسية قد جاءت للأنبياء السابقين وكذَّبوا، فما الجدوى من التغيير؟ يقول تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ... (٥٩)﴾ [الإسراء].

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ... (٩٧)﴾ [يونس].

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧)﴾ [الأنعام].

إنهم كانوا ليستعجلون العذاب الذى نزل بالمكذبين قبلهم مبالغة فى التحدى والإعنات، بل طلبوا الآية المهلكة.

يقول تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦)﴾ [الرعد].

وقد أجابهم ﷺ بأمر ربه: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾.

«الفاء» تدل على أن ما بعدها مترتب على قولهم الذى قالوه: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ﴾ أى إن ما تطلبون معجزة كان أم هلاكا هو أمر يغيب عنى ومفوض لربكم؛ ولذلك جاءت العبارة القرآنية مصدرة بـ «إنما» الدالة على القصر، وفى هذا إشعار بأمرين:

أولهما: أن المعجزة الكبرى (القرآن) هى من عند الله اختارها لكم فى غيبه المكنون، وأنه أمهلكم لا ينزل عليكم الآيات المهلكة لحكمة يعلمها؛ لأن شريعة محمد ﷺ تخاطب الأجيال كلها، وعسى أن يخرج من أصلابكم من يعبد الله.

ثانيهما: أن محمدا ﷺ لا يعلم الغيب، وهو بشر مثلكم بعث فيكم رسولا منكم؛ ولذا يقول سبحانه: ﴿ **فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ** ﴾.

«الفاء» للدلالة على أن ما بعدها مترتب على ما قبلها؛ لأنه إذا كان علم الغيب عند الله تعالى وحده فإنه ﷺ عليه انتظار ما غيب عنهم.

كما أن قوله هذا سبحانه وتعالى يومئ إلى المساواة بينهم وبين رسوله ﷺ فى علم الغيب، وأكد هذه المعية إدماجه ﷺ فى المنتظرين وأنه معهم.

ليس فى ذلك تصغير لمقام النبوة، ولكنه بيان لمنزلة النبى البشر، وتأكيد بأنه يتكلم عن الله سبحانه.

ثم يبين سبحانه الطبيعة الإنسانية التى تخرج عن الفطرة، تمسها الضراء فتهن، وتذوق النعماء فتبطر، وينسيها الترف ما كان فى ضرائها. يقول تعالى:

﴿ **وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١)** ﴾.

وتلك هى الطبيعة الإنسانية غير الصابرة، تذوق النعمة فتبطر معيشتها، وتمسها الضراء فإذا بها فى ضعف وخور ويأس، تلجأ إلى الله فإذا أذاقها الرحمة عادت إلى طغوائها.

الضراء: هى الضرر فقد تكون مرضا يصيب الجسم أو جوعا وقحطا، فالضراء هنا تشمل السقام وتشمل القلة فى الطعام والرزق، وقد أصاب قريش القحط سبع سنين دأبا حتى جاءهم الغيث فكان رحمة بهم بعد القحط وقلة الغذاء، وقد عبر سبحانه بالإذاقة فى قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ** ﴾ للإشارة إلى التمكن من الرحمة والدلالة على أنهم تمتعوا بعد الحرمان.

﴿ رَحْمَةً ﴾ هذا تأكيد على أن الرحمة مصدرها الله تعالى، إشارة إلى وجوب اختصاصه بالعبادة وحده؛ لأن الرحمة كانت ولم تكن من غيره مما سموه واتخذوه أنداد لله تعالى.

﴿ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا ﴾ هذا جواب الشرط ﴿ إِذَا أَذَقْنَا ﴾ وصدَّر الجواب بـ﴿ إِذَا ﴾ التى هى للفجاءة، ودلالتها فى هذا المقام أنهم فى بأسائهم كان ينخفض وراء خضوعهم الظاهر جحود قد استبطنوه، سترته الشدة وكشفته الرحمة، فظهر مكنون نفوسهم وهو مكرهم فى آياتنا، يقولون إنها سحر مبين أو بهتان وإفك، أو يقولون: إنما يعلمه بشر، والله رادٌّ كيدهم بتدبيره الحكيم. ﴿ مَّكْرٌ ﴾ المكر هو الكيد الخفى، وقد قال سبحانه: ﴿ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ﴾ فإذا بدا المكر السيئ الذى أخفته الضراء، فإن تدبير الله ورده عليهم أقوى وأحد.

ثم يبين سبحانه علمه بما يبدون وما يخفون وما يسرون ويعلنون، فقال سبحانه ﴿ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ وهم الكرام الحفظة الكاتبون من الملائكة. وفى هذا إشارة إلى دقة ما يعلمه عنهم، وإلى أن ما يدبرون يعلمه - سبحانه وتعالى - فى وقته فيكتبه.

وقد ذكر سبحانه وتعالى حال الإنسان فى ضعفه، وكيف يلجأ إلى ربه مخلصا واعدا بالشكر وعدا مؤكدا فإذا خرج من شدته كفر أو ظل على كفره، فقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) ﴾.

صورة للنفس الكافرة تصيبها الشديدة ويحيط بها ما تكره فتذعن وتخلص وتلجأ إلى قوة الله تعالى خالق كل شىء واعدة وعدا مؤكدا بالشكر إذا نجت، فإذا نجاهم عادوا كما بدأوا كافرين.

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ الضمير يعود على الله جل جلاله الذى أوجد لهم القوى التى يسيرون بها فى البر والبحر، وبسط لهم الأرض، وسخر لهم ما يركبون فى البر والبحر، وقد نسب التسيير إلى نفسه؛ لأنه سبحانه خالق الأسباب والمسببات، وممهد المهاد إنه القاهر فوق عباده وعلى كل شىء قدير.

بعد ذلك بين سبحانه هول البحار بالنسبة للصحراء، وقد كان العرب يعدُّون البحر مركب الأهوال، وكانوا يخافونه لأنهم لم يألفوه، والذين عرفوه وألفوه كانوا يتعرضون لمخاطره وشدائده؛ ولذا خصه سبحانه وتعالى بالذكر ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾.

﴿حَتَّى﴾ جاءت كناية للإشارة إلى خوفهم ركوب الفلك، أى حتى إذا أقدمتم مع خوفكم وركبتم الفلك، والفلك تكون جمعا أو مفردا وهى هنا جمع بدليل ﴿جَرَيْنَ﴾ فإن الضمير يعود على جمع ما لا يعقل مثل بهن فلول من قراع الكتائب.

والخطاب إلى الغيبة؛ لكى يتمكنوا من رؤية العبرة كأنها فى غيرهم وليست فيهم، وقوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ طيبة أى رخاء لينة وكأنها متعة للمسافرين فى البحار، فرأوا فى البحر غير ما توقعوه وخافوه، ثم لم يلبثوا حتى جاءهم ما يرهبون.

﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ ـ الضمير يعود إلى الريح الطيبة ـ المعنى أن الريح الطيبة أعقبتها ريح عاصف بصريرها واضطراب البحر، وجاءهم الموج من كل مكان يرتفع كالجبال متراكما بالأذى وصاروا فى ظلمات، كقوله تعالى:

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ... (٤٠)﴾ [النور].

فالسماء فوقهم معتمة والأمواج حولهم متراكمة، لا منجاة لهم، وظنوا أنهم قد أحيط بهم، والظن هنا بمعنى العلم بما هو مخوف مرهوب، وهو علم يتوهمون

معه أملا فى منجاة - ﴿أُحِيطَ بِهِمْ﴾ كناية عن الهلاك وفى ظنهم بأنه لا منجاة، دعوا الله مخلصين له الدين، أى اتجهوا إليه بالطاعة والتأليه والعبادة، وقد أخلصوا وخلّصوا نفوسهم من الشرك، وقالوا: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أكدوا وعدهم لله تعالى بالقسم الذى تدل عليه - اللام - الأولى الموطئة للقسم واللام الثانية فى الجواب ونون التوكيد الثقيلة ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ وأكدوا بدخولهم صفوف المؤمنين الشاكرين، والشكر هنا هو الطاعة لله وإخلاص العبادة والخضوع له وحده.

﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)﴾.

لكن الإنسان ما أكفره! إنه كان فى حال ضعفه وقد أحيط به يتضرع إلى ربه طائعا خاضعا، فإذا خرج من شدته طغى وبغى ونسى ضراعته، وكان شديدا على الناس وهو الضعيف البادى ضعفه.

﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى أنه بعد الشكر والذى أقسموا عليه إذا نجاهم بطاعته والقيام بالعمل الصالح، إذا هم يبغون.

﴿إِذَا﴾ المفاجئة تدل على أمرين:

أولهما ـ سرعة البغى كأنه مستكن فى صدورهم لم قد تدحضه الشدة؛ لأن معدنهم خبيث لم يتأثر إلا فى ظاهر الأمر حال ضعفهم ثم يستولى عليهم غرورهم كما كانوا.

ثانيهما ـ أنها تدل على نقيض ما كان ينبغى أن يكون منهم إذ كان قسمهم يوجب عليهم أن يكونوا بعد النجاة طائعين مدركين قدرة الله وسلطانه، وأنه قادر على ردّهم إليه كما كان قادرا على إغاثتهم فى كربهم.

(البغى) هو الخروج عن الجادة وسلوك طريق الفساد، فيشمل كل المعاصى من زنى وخمر وشرك واعتداء على الآحاد والجماعات والسعى فى الأرض،

فيشمل فساد النفوس فى الاعتقاد والعمل كقوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ**﴾ وذكر الأرض يؤكد أن هذا البغى فساد يعم الأرض ويشمل كل ما فيها من اعتداء على الآحاد واقتراف المعاصى والسعى بين الناس وارتكاب كل ما يكون من تخريب وهدم للقائم.

وفى قوله تعالى: ﴿**بِغَيْرِ الْحَقِّ**﴾ بيان أنهم لم يكن لهم مبرر فيما يعملون أياً كان هذا الذى يزعمونه مبررا، وإظهار لحقيقة البغى وأنه لا يمكن أن يكون له مسوغ، وعلينا هنا أن نفرق بين القصاص والبغى، فلا يصح القول بأن ما صنعه النبى ﷺ مع بنى النضير وقريظة بغيا، إنما هو قصاص لشرهم ولا يكون القصاص بغيا لكنه رد لاعتدائهم المنكر، ولا يصح أن يقال عن رد الاعتداء المتكرر والخيانة بغيا، إنما هو العدالة الحقيقية فى هذه الأرض ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ اتجه سبحانه وتعالى إلى مخاطبة الباغين فكان الالتفات من الغيبة إلى الخطاب للتنبيه الشديد بالمواجهة والتصدى لبيان شرهم، وكان النداء ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ لكمال هذا التنبيه الزاجر وللردع ولبيان سوء العاقبة ﴿**إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم**﴾ أى أن البغى على أنفسكم وحدكم لا يتجاوزكم إلى غيركم، ذلكم أنكم إن أشعتم البغى فيما بينكم عمَّ الفساد فيكم ولم تكن منكم جماعة فاضلة ذات حقوق وواجبات بل جماعة متحللة متقاطعة متدابرة تعمها الرذيلة ويسودها الشر يتجرد فيها الإنسان عن إنسانيته والمرء عن مروءته وفوق ذلك عقوبة يوم الدين.

﴿**بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم**﴾ مبتدأ وخبر، وفى قوله تغالى ﴿**مَّتَاعَ الْحَيَاةِ**﴾ إن البغى تتمتعون به متاع الحياة الدنيا، هذا بالنَّصْب على قراءة حفص، وفى قراءة الرفع يكون المعنى أن البغى هو متاع الحياة الدنيا(١).

---

(١) (متاع) بالنصب: حفص، وقرأ الباقون برفع العين. غاية الاختصار فى قراءات العشرة أئمة الأمصار: ج٢/ ٥١٥. التوعية الإسلامية.

وفى النص الكريم أن متاع الحياة الدنيا دون الآخرة هو البغى الدائم المستمر، فيه يأكل القوىُّ الضعيفَ والمرذولُ الكريمَ، ويتصارع الناس كوحوش الغابة ثم يكون الرجوع إلى الله تعالى فينال كل امرئ ما كسب.

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ﴿ثُمَّ﴾ تفيد الترتيب والتراخى، لاستطالتهم الحياة الدنيا وكثرة فسادهم وهنا إشارات بيانية:

أولها: تقديم الجار والمجرور على ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ فهذا يفيد التخصيص، أى إلينا وحدنا مآلكم ومرجعكم.

ثانيها: إضافة مآلهم إلى الذات العليا ففيه تهديد أىّ تهديد، ومؤداه إن كنتم قد كذبتم فى قسمكم فى الدنيا فحسابكم على ذلكم عندنا فى الآخرة وهى أبقى وأدوم.

ثالثها: بيان أن العقاب من جنس العمل وأن كل عمل يحمل فى ذاته عقابه فى الآخرة؛ ولذا قال سبحانه: ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ والإنباء هو الإخبار بالأمر الخطير الشأن، وكان الإنباء بالعمل مقرونا بالعقاب الشديد من الله سبحانه وتعالى، وقد تكلم الزمخشرى فى هذا المكان عن الظلم ومرتعه، فقد عاش مثل زماننا، وقد تعاقبت عهود الظلم على المسلمين حتى صار أمرهم بورا، وذكر - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ شدد فى النهى عن المكر والبغى والنكوث وأنه ﷺ قال: «**أسرع الخير ثوابا صلة الرحم، وأعجل الشر عقابا البغى واليمين الفاجرة، وأنه اثنتان يعجلهما الله فى الدنيا البغى وعقوق الوالدين**»[(١)].

وكان المأمون يتمثل بهذين البيتين:

يا صاحبُ البغى إن البغى مصرعةٌ ... فارتع فخيرُ فِعَالِ المرء أَعْدَلُه
فلو بغى جبلٌ يوما على جبلٍ ... لاندكَّ أعلاه وأسفلُه

---

(١) تاريخ الطبرى، عن أبى بكرة رضى الله عنه، وبنحوه الترمذى وابن ماجه، وكذا أبو يعلى عن عائشة رضى الله عنها. وانظر ما جاء فى فيض القدير: ج١/ ٢٩٩.

وعن محمد بن كعب: ثلاث من كن فيه كن عليه: البغى والنكث والمكر.

إذا كان البغى هو متاع الدنيا للباغين، فقد بين سبحانه أن متاع الدنيا ينتهى إلى حطام وأن متاع الآخرة إلى دوام.

فقال تعالى:

إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ
نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ
زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ
أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ
بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ
يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾
۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ
وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾

شغلتهم الدنيا عن الآخرة وزُيِّنَتْ لهم فحسبوا أنها الحياة وحدها وأنه لا آخرة بعدها، فأنكروا البعث والحساب، وكان هذا ذريعة لأن ينكروا كل مغيب فكفروا؛ ولذلك يبين الله تعالى لهم أن الدنيا متاع قليل بزينتها وزخرفها وأنها تذهب عندما يظنون أنهم قادرون عليها فتزول وإذا هم لا يقدرون على شيء كالقابض بيديه على الهواء، فقال سبحانه: ﴿ **إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ** ﴾.

هذا تشبيه تمثيلى جار مجرى الأمثال، كما قال تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) ﴾ [الكهف].

شبه حال الدنيا فى سرعة انقضائها وانخداع المغرور بها، كزرع نبت فى الأرض من اختلاط ماء السماء بها وسريانه فى نباتها حتى إذا أخذت زخرفها ولمعت لمعان الذهب وازينت بالغروس من كل لون، وفرحوا بها وظنوا أنهم تمكنوا فيها - أتاها أمر الله فأزال زرعها بوباء أو بآفة فصارت كأنها قد حصدت بمنجل، وأصبحت قفرا خاليا كأن لم يكن فيها زرع نبت ردحا من الزمان، وهذا مثلهم فى الدنيا لا يبقى لهم منها إلا الحسرة والندامة، مثل ما بقى من الزرع الذى فنى حيث يرتقبون منه الانتفاع.

هذه خلاصة التمثيل القرآنى وما نحسب أننا وصلنا إلى غاية بيانه فله إشارات بيانية نَعْيَا عن بلوغها، وأطياف نورانية يعيا المصور عن تصويرها ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى حالها فى سرعة انقضائها وقت زينتها والاغترار بها.

﴿ إِنَّمَا ﴾ دالة على القصر، وخصصت بهذا الحال لبيان حقيقتها، وهى أنها فانية عند ازدهارها، أى ليست بها صورة بقاء قط إنما حقيقتها الفناء.

﴿ كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ قصد بالسماء هنا ما علا الأرض وأحاط بها، والماء هو المطر وقد يكون عينا تنبت الزرع والكلأ وغراس الأرض.

﴿ فَاخْتَلَطَ ﴾ هناك قراءة بالوقف عليها، والمعنى أنه نزل على الأرض ماء اختلط بترابها فأخصبه للزرع والنبات وإثمار الغراس، وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ ﴾ (من) بيانية، لبيان نتيجة الاختلاط.

والقراءة الأخرى بغير وقف عند «فاختلط» فيكون المعنى هو الاختلاط بنبات الأرض دلالة على أن البذر يلقى فى الأرض ويرجى من الله إثمارها، ويكون اسم النبات قد استعمل فيما هو إضافة باعتبار ما يكون، وتلك علاقة من علاقات المجاز المرسل كأن يسمى العنب خمرا باعتبار ما يكون، كقوله تعالى فى منام أحد صاحبى يوسف عليه السلام ﴿ ... إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ... (٣٦) ﴾ [يوسف].

﴿ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ ﴾ لبيان نعم الله وتوفيره الغذاء للناس والأنعام، وفى جمعهما معا إشارة إلى أن الدنيا لهم وللأنعام وفضلهم عنها بأنهم يعقلون فلا ينبغى الاغترار بالدنيا وأن يعرفوا ما وراء هذه الحياة وأنهم لم يخلقوا عبثا، كما قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾ [المؤمنون].

وأشار سبحانه إلى أسباب الاغترار بالدنيا وذكر أن ما يسبب الاغترار سريع الزوال، لا يوجد إلا ليزول كالبرق لا يلمع إلا ليختفى.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ ﴾.

﴿ زُخْرُفَهَا ﴾ الزخرف كمال الحسن، وقيل للذهب زخرف؛ لأنه بلمعانه وزينته يكون كمال الحسن. ﴿ وَازَّيَّنَتْ ﴾ أى تزينت، وأُعِلَّت فقلبت التاء زايا، وكان الإدغام، ثم كانت همزة للتوصل بها إلى النطق بالساكن، وقرئ (تزينت) من غير إعلال والمعنى واحد، أى إذا كان ذلك ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا ﴾ أى متمكنون، وقال العلماء أن الظن هنا بمعنى العلم فى زعمهم، ولكن لأنه غرور وضلال عُبر عنه بالظن.

وجملة القول أنهم لما رأوا بريق الزخرف والزينة بالخضرة النضرة وحسن تنسيق الخالق، والحياة المملوءة بها السوق والعيدان وجمالها، ثم فوق ذلك الأمل

المأمول من ترقب الغلات، فُوجئوا بأمر الله المكتوب وقدره المحتوم، وأضاف الأمر إليه سبحانه لبيان أنه لا يقبل التخلف قط.

﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا﴾ أتاها ذلك ليلا وهم نائمون، أو نهارا وهم قائمون، فأصابتها ريح حطمتها أو آفة أكلتها.

﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ الحصيد فعيل بمعنى مفعول، أى جعلناها كأنها محصودة بآلة الحصاد وصارت الأرض كأن لم يكن فيها زرع ولا حشائش مما يأكل الناس والأنعام. ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾ أى كأن لم يكن فيها شيء فى الزمن القريب (الأمس) ولا مانع أن تدل على الأمس القريب. ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أى كذلك التمثيل نفصل الآيات فنبينها لقوم يتدبرون.

هذه دار الفناء وقد قابلها سبحانه بدار البقاء التى أعدها للمتقين

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٥)﴾.

السلام هو الأمن الذى لا انزعاج فيه، وفيه الأمن من الفناء وعوامله من الآفات، وقد قال الحسن البصرى - رضى الله عنه - إن السلام لا ينقطع عن أهل الجنة كما قال عزَّ من قائل: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ ... (٤٤)﴾ [الأحزاب].

وقد قال بعض الصوفية: «يا ابن آدم دعاك الله إلى دار السلام فانظر من أين تجيبه، فإن أجبته فى دنياك دخلتها وإن أجبته فى قبرك مُنِعْتَها».

ودعوة الله إلى دار السلام هى ما يدعو إليه من الإيمان به وباليوم الآخر وبما جاء من تكليف على ألسنة الرسل الكرام فإن ذلك هو السبيل إليها، وإن الدعوة إلى دار السلام تعم كل الناس؛ لأن الباب إلى الجنة مفتوح لهم جميعا، وهنا يتبين من اهتدى وأجاب الداعى ممن ضل وأصم أذنيه عن الحق، وقد ذكر سبحانه وتعالى من اهتدى، أى سلك سبيل الهداية فأخذه إليها وهداه الصراط الموصل إلى

الحق من أقرب الطرق، ولذا قال سبحانه: ﴿يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ والصراط هو الطريق المستقيم الموصل إلى الجزاء الحق وهو طريق الله تعالى؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ...(١٥٣)﴾ [الأنعام].

فسبيله خط مستقيم هادٍ مرشد إلى الحق الذى لا ريب فيه، والسبل الأخرى هى مسارات الشيطان ومضطَّرب أهوائه.

وهنا أمران يجب الإشارة إليهما:

أولهما ـ أن الله تعالى نسب إلى ذاته الدعوة إلى دار السلام، وهى الجنة دار الأمن الباقية التى لا إزعاج فيها ولا عذاب.

ثانيهما ـ أن الله تعالى يهدى من يشاء، وأن من سلك طريق الهداية أوصله إليها، ومن سلك طريق الضلالة سار إلى الضلال البعيد.

لم يذكر الله سبحانه وتعالى أنه يشاء الضلالة لعباده، بل هم الذين يسيرون فيها، وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى هداية الذين استجابوا لله ولرسوله ذكر جزاءهم.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ الذين أحسنوا هم المؤمنون الذين آمنوا بالبعث والنشور والجزاء من الثواب والعقاب وآمنوا أولا بلقاء الله.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾، (اللام) للملك أو الاختصاص، أى يعطيهم الله الجزاء عطاء موفورا لأجل إحسانهم. ﴿الْحُسْنَى﴾ مؤنث أحسن، أى يعطيهم الله الجزاء الأحسن، أى الذى بلغ أعلى درجات الكمال. ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ للإشارة إلى أن عطاءهم ليس بمقدار إحسانهم؛ لأنه سبحانه المتفضل المكرم الذى لا يعطى بمقدار ما قُدِّم بل إنه كما قال تعالى: ﴿... وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ... (١٧٣)﴾ [النساء].

والزيادة بغفران بعض السيئات ﴿... إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ... (١١٤)﴾ [هود]، ثم بالرضوان وهو أكبر ما يعطى الله تعالى، وقد قال أهل السنة فى ذلك أنهم يرون ربهم، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾ [القيامة]، وهذا جزاء مادى ومعنوى إيجابى وهناك جزاء معنوى سلبى قال فيه تعالى: ﴿وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ﴾، ﴿يَرْهَقُ﴾ معناها يغشى، ﴿قَتَرٌ﴾ معناها سواد، وكلمة يرهق تتضمن فى معناها الألم والتأذى.

والمعنى أن وجوههم ناضرة مشرقة بالعزة والسعادة والرضا بأنفسهم وبالله سبحانه ثم ذكر الجزاء الكامل، فقال سبحانه: ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أشار إليهم سبحانه بالإحسان ومن قبله بالهداية، والإشارة إلى موصوف يفيد أن الصفة سبب الحكم، ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ وأصحابها أى الذين يقيمون فيها إقامة المُلاَّك فى ملكهم يلازمونها ولا يخرجون منها.

﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ذكر الضمير وقدم فيها لبيان قصرهم عليها لا يدخلون غيرها جزاء من كسب السيئات.

قال تعالى:

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩)

هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ
ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ
ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ
فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ
فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ
حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾
قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ
ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ
إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن
يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾
وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) ﴾.

يبين سبحانه جزاء الذين كسبوا السيئات - بعد أن بين جزاء الذين أحسنوا: ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾ (الواو) تعطف هذه الجملة على ما قبلها وهو جزاء المحسنين؛ وتقدير القول وجزاء الذين كسبوا السيئات سيئة بمثلها

(الباء) للمقابلة فإذا كان المحسنون يجازون بالحسنى وزيادة، فحسب المشركين أن تجازى السيئة بمثلها، كما يقول تعالى: ﴿**مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا** ... (١٦٠)﴾ [الأنعام].

والمِثْل كثير إزاء ما ارتكبوا؛ فالشرك مثله من الجزاء كبير فلا حاجة إلى الزيادة، وقد ذكر سبحانه وتعالى هنا كلمتين نرى فيهما:

أولا: ﴿**مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** (١٦٠)﴾ الكلمة لا تدل على مجرد ارتكاب الذنوب، بل تدل على أن هذه الذنوب أشربتْ بها نفوسهم وكسبتها قلوبهم حتى صارت وكأنها كالجبلَّة لهم إن لم تكن كالفطرة منهم.

وفى اكتساب السيئات قال سبحانه: ﴿**بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** (٨١)﴾ [البقرة].

ثانيا: كلمة ﴿**بِمِثْلِهَا**﴾ أى بمثل السيئة، وهذا فى المقابلة والمشاكلة اللفظية فالجزاء ليس سيئة إنما هو العدالة التى ليست سيئة فى ذاتها، كقوله تعالى: ﴿ ... **فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ** ... (١٩٤)﴾ [البقرة].

ولكثرة سيئاتهم وتضافرها أظلمت بها نفوسهم، ويوم الحساب تظهر ظلمة القلوب ظلاما فى وجوههم، ولذا قال تعالى: ﴿**وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا**﴾.

هنا تشبيه واستعارة، أما الاستعارة فهى قوله تعالى: ﴿**قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا**﴾ وفيها يبدو الليل كأنه الثوب الأسود الذى قُطع قطعا.

وأما التشبيه فى قوله تعالى: ﴿**كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ**﴾ أى ألبست وأغطيت بقطع مظلمة، وهذا تصوير لسواد وجوههم بما اقترفوا، فقلوبهم المظلمة تكسو وجوههم بالظلام، وفى هذا التصوير الحسى تصوير معنوى لنفوسهم.

ثم ختم الله تعالى بعذابهم فقال: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أولئك الذين أشركوا وظلموا وهم أصحاب النار يلازموها ملازمة الصاحب لصاحبه وهم خالدون فيها، وقد تأكد خلودهم بضمير الفعل، كما تأكد اختصاصهم بها بتقديم الجار والمجرور على ﴿خَالِدُونَ﴾، أى هم وحدهم الخالدون فيها.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨)﴾ [يونس].

الكلام فى بيان اليوم الذى أنكروه: ﴿قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢)﴾ [المؤمنون] ولتذكيرهم بما يكون فى هذا اليوم من حساب وعذاب وما هو جدير بأن يعلموه، وهو تبرؤ معبوديهم الذين اتخذوهم أندادا لله منهم ومعبوديهم هؤلاء هم عقلاء ينطقون كالملائكة والأنبياء الذين عبدوهم مع الله كالنصارى أو الأحجار التى لا تضر ولا تنفع.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾، ﴿ثُمَّ﴾ عاطفة تدل على الترتيب والتراخى الزمانى والمعنوى، أما الزمانى فهو أن ذلك القول بعد الحشر وبعد أن ارتكبوا فى الدنيا ما ارتكبوا وطغوا وبغوا وأفسدوا، وأما المعنوى فهو البعد بين حالهم وما كانوا فيه من إنكار وطغيان، وحالهم وقد تبين لهم ما أنكروه واقعا ونطق الذين عبدوهم بالحق وتبرءوا منهم.

وقوله تعالى: ﴿مَكَانَكُمْ﴾ مفعول لفعل محذوف معناه الزموا مكانكم وقفوا حيث أنتم وكانوا هم وشركاؤهم مجتمعين حسا ومفترقين نفسا، ولذا قال تعالى: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ وهناك قراءة «فزايلنا بينهم» وهما من زال فَزَيَّل مضاف زال- وزايلنا - مفاعلة من زال، أى فرقنا بينهم وجعلنا ما كان بينهم فى الدنيا يزول وافترق العابد عن المعبود كقوله تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩)﴾ [يس]، وكقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤)﴾ [الروم]، وقوله تعالى: ﴿... يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣)﴾ [الروم].

﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم﴾ الشركاء هم الأنداد التى عبدوها أو غيرهم، وسموا شركاؤهم؛ لأنهم انتحلوا لهم الشركة فعلا، وإن لم يقولوها قولا.

وقال هؤلاء نافين نفيا باتا: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ أى ما كنتم تسمونه عبادة ليس عبادة، فما عبدتمونا ولكن عبدتم أوهامكم وما حسبتوهم آلهة بإيعاز الشيطان، كما جاء على لسان عيسى ابن مريم عليه السلام:

﴿... قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧)﴾ [المائدة].

وفى قوله تعالى: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ النفى مؤكد قاطع؛ لأنه نفى فى الماضى والمستقبل، وأن ما كانوا يسمونه عبادة ليس عبادة مطلقا وأن من خصوهم بالعبادة ينكرونها فليسوا أهلا لأية عبادة.

وقد يسأل سائل: كيف كانت الحجارة التى تمثلوها آلهة تنطق بذلك النفى؟ فنقول: إن ما عبدوهم من الأنبياء كعيسى يقول ذلك، أما الحجارة فينطقها الله فتقوله، أو هو تصوير لحالها فى أمرها وأمرهم والله تعالى شاهد.

يقول تعالى:

﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩)﴾.

هنا يوثق المعبودون قولهم بشهادة الله تعالى: (الفاء) فى قوله تعالى: ﴿فَكَفَى﴾ عاطفة لتأكيد قولهم، والباء فى قوله تعالى: ﴿بِاللَّهِ﴾ زائدة مقوية لمعنى الشهادة، أى كفانا الله تعالى شاهدا فى بطلان ما تَدَّعوه من أنكم كنتم تعبدوننا ثم أكدوا بأنهم كانوا لا يعلمون ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾.

﴿إِن﴾ هى المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف، ويدل عليه الخبر، وهو ﴿كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾.

(اللام) مؤكدة، وتفرق بين خبر (كـان) المجرد، وخبر (إن)، فهى تدل على أن الخبر هو خبر (كان)، وبتوكيدها تومئ إلى أن الجملة خبر (إنّ).

وقد أكـدوا بهذا أنهم مـا كانوا يعلمـون عبـادتهم لهم، وأنهم برآء من هذه العبـادة، وأنهم ما كانوا يشعـرون بهم ولا بما ارتكبوا من إثم مبـين وهو الإشراك بالله تعالى، وهذا بيـان لسوء عملهم وفسـاد اعتقادهم وضـلالهم الواضح المبين، وقد أرسل الله تعالى رسله فبينوه لهم، وكذبـوهم حتى حقت عليهم كلمة العذاب والله بكل شيء عليم.

وقد بين سبحانه وتعـالى أن الدنـيا دار الابتلاء، والآخرة دار الجزاء فقال عز من قائل:

﴿ **هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ** (٣٠) ﴾.

﴿ **هُنَالِكَ** ﴾ إشارة إلى ذلك الموقف الرهيب والمكان الرفيع، وهو الحشر أمام الله تعالى، وكانت الإشـارة بالبعيد؛ لرفعه الموقف أمام الله وشـرفه، ولأنهم كانوا يستبعدونه ويظنونه مستحيلا.

﴿ **تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ** ﴾ فـيهـا ثلاث قـراءات، قراءة بالتـاء ﴿ **تَبْلُو** ﴾ وقراءتان بالـنون (نبلو) إحداهمـا بنصب (كل)، أى النفوس كلهـا هى المختـبرة، والثانية برفع (كل).

وفى الأولى ﴿ **تَبْلُو** ﴾ أى تتلو كل نفس ما أسلفته من أعمال فى كتابها الذى تحمله بيمينها أو شمـالها فتقرأ عملها محضرا، كـما قال تعالى فى سورة الإسراء: ﴿ ...**وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا** (١٣) **اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا** (١٤) ﴾ [الإسراء].

أما فى الـقراءة بالنون برفع كل «نبلوا كلٌّ» أى نعـاملهم معـاملة التـعرف لما

وقوله: ﴿ يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) ﴾ [القيامة] فالاختبار هنا يكشفه الله ويستحضر لهم فيه ما أسلفوا.

أما القراءة بالنون مع نصب «كل» أى (نبلوا كلّ) فهى نصب فى المعنى السابق والاختلاف فى الإعراب ولا اختلاف فى المعنى.

ومن هذا نجد أن الاختلاف الحقيقى يكون بين القراءتين بالتاء والنون وكله من عند الله تعالى.

﴿ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ ﴾ المولى بمعنى الناصر وبمعنى الخالق وبمعنى المالك، أى مالكهم الحق، أى الثابت ملكيته، وسلطانه والحق للاحتراز عما ادعوا من أوثان وأنداد اتخذوها، ففى هذا اليوم يتبدى سلطان الله تعالى حقا وتتبدد أوهامهم عن أولياء الشيطان وما زعموه.

ولذا قال سبحانه: ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى غاب عنهم وبَعُد عن عقولهم ما كانوا يفترونه فى عبادات باطلة وافتراء كاذب كانوا مستمرين عليه يكررونه ليلا نهارا، وفى قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانُوا ﴾ يدل على الاستمرار وذلك بالجمع بين الماضى فى ﴿ كَانُوا ﴾ والمستقبل فى ﴿ يَفْتَرُونَ ﴾ فالجمع بين الماضى والمستقبل يدل على استمرار الفعل.

يقول تعالى:

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١) ﴾.

قلنا فى أكثر من موضع: إن العرب كانوا على علم بالخلق والتكوين وأنهم يؤمنون بوحدانية الخالق، ولكنهم فى العبادة يشركون ويزعمون استحقاق الأوثان للعبادة على أن يكونوا شفعاء لهم، فبين الله بطلان عبادتهم وقد كانوا لضلالهم يربطون بين وحدة الخالق للكون وبين ما يعبدون، فبين لهم سبحانه فى كثير من

الآيات أن وحدة الخلق تقتضى وحدة العبادة، وهذا هو ما آمن به أبوهم إبراهيم وغيره من الرسل الكرام، وجاء محمد ﷺ لإحياء ملة إبراهيم وهى الإسلام ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ الاستفهام للتنبيه إلى الحقائق الثابتة وتوجيه النظر، فهو استفهام تقريرى لتقرير الحقائق، وعُبر بالاستفهام لأنه مُوجَّه وفيه حمل لهم على الإقرار بما يعرفون ويشاهدون فهم يعلمون علم اليقين بالمشاهدة والحس أن الله تعالى هو الذى ينزل الأمطار من السماء ليختلط بالأرض يشقها شقا، وما أوجده الله تعالى فيها من خصب ومواد مختلفة يتكون منها نبات به حب متراكب وأشجار فيها ثمار دانية القطوف، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)﴾ [الأنعام].

وقد عبر سبحانه عن كل ذلك بالرزق الذى هو الغاية المرجوة وهو النعمة الظاهرة التى أنعم بها سبحانه وتعالى على عباده فى حياتهم من غذاء ولباس ومأوى، وكل ذلك كان فى اختلاط ماء السماء بالأرض.

ثم ذكر سبحانه بعد ذلك أصل خلقهم ودقيق صنعه فى أنفسهم وكيف أوجد القوى فيهم، وأن هذا وإن اختفى عليهم خلقه لا يختفى عليهم أثره، فهم يسمعون ويبصرون ويدركون بأى شىء كان ذلك.

﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ﴾ فهو الذى أنشأهما حتى أن الإنسان الذى مدَّ له الله تعالى الكون من سماء وأرضين، واستطاع بإذن الله أن يرتفع إلى القمر وغيره ـ لا يملك أن يوجد قوة من قوى الله.

﴿وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ يبين الله تعالى أمرا يشاهده الإنسان كل يوم وهو الموت والحياة فيجىء الموت بدل الحياة، والحياة بدل الموت، بل إنه سبحانه يخلق الحياة فى الميت، كما أنه يجعل النواة الجامدة كأنها لا

حياة فيها شجرة وارفة الظلال، ومن الماء المهين إنسانا سويا، ثم يكون الزرع حطامًا والإنسان ميتا مقبورا، ولقد قال تعالى فى تصوير ذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥)﴾ [الأنعام].

هو سبحانه خالق كل شىء ولم يخلقه ويتركه من غير تدبير، بل إنه سبحانه وتعالى القائم عليه؛ ولذا قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ كما أنه سبحانه يمسك السماء والأرض أن تزولا، ويدبر الأرزاق.

ثم نعود لصيغة الاستفهام القرآنية ﴿أَمَّن﴾ فصيغة القرآن استفهام ويُطلب منهم الجواب ليكون جوابهم إقرارا أو تقريرا، وكذلك قال الله: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ فإذا قالوها وهى الحق أجيبوا: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، (الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فترتب على إقرارهم دعوتهم إلى تقوى الله والإحساس بجلاله وتجنب ما لا يرضيه.

بعد أن أخذ سبحانه وتعالى منهم إقراراً بأنه خالق الكون ومدبره والقائم عليه وحده، بيَّن سبحانه وتعالى أنه هو الرب وحده وأشار إلى أنه المستحق للعبادة وحده، فقال عز من قائل:

﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢)﴾.

(الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى إذا كان الله الخالق وحده والمدبر للكون وخالق القوى الإنسانية وغيرها وحده فهو الرب حقا وصدقا، و﴿الْحَقُّ﴾ تأكيد لمعنى الربوبية، والربوبية والعبادة متلازمتان تلازما لا يقبل الانفصال، فالرب حقا هو المعبود وحده المنفرد بالخلق، وهو المنفرد بالعبودية فلا إله غيره.

الخطاب فى اسم الإشارة للجمع؛ لأنه لا يخاطب به النبى وحده إنما يخاطب به الناس أجمعين وخصوصا المشركين؛ لأنهم الذين أقروا بالخلق وضلوا فى العبادة.

وقد كانوا يقولون عن معبودهم «الرب» فاللات والعزى كانتا إلهان، وهُبل كان رب قريش، والنصارى المثلّثون قالوا عن المسيح الرب، فالآية تشير إلى أن هذه الأرباب الكاذبة ادعاؤها انحراف فى الفكر وبطلان فى الاعتقاد، فالرب حقا وصدقا هو الله تعالى وحده.

وقد أشار سبحانه فى قوله: ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ﴾ أى أنه الذى يرزق من السماء والأرض ويدبر الأمر ويقدر كل ما فى الوجود، وهو الذى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى فهو الرب المعبود حقا وصدقا وغيره باطل؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ﴾.

(الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى أنه يترتب على أن الله تعالى هو الرب لا رب سواه من حجر أو نبى أو ملك.

﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ﴾ الاستفهام هنا إنكارى بمعنى نفى الوقوع وأن ذلك فكر لا يتصوره ويستنكره العقلاء، والمعنى أنه ليس بعد الحق ـ وهو أن الرب المعبود هو الله وحده ـ إلا الضلال، فالأمر إما حق أو باطل ولا توسط بينهما مما تدعون من أوهام بأنهم شفعاء لله، فإن ذلك باطل فى ذاته، وأنه سبحانه لا يتخذ عنده شفعاء لا ينفعون ولا يضرون، وإن لم يكونوا حجارة فإن منزلتهم من الله هى منزلة غيرهم على سواء.

﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ (الفاء) مثل التى قبلها ﴿فَأَنَّى﴾ بمعنى كيف والاستفهام إنكارى بمعنى إنكار الواقع، وفيه توبيخ، والمعنى كيف تصرفون عن ذلك المعنى المستقيم وهو أن الخالق وحده هو الرب المعبود ولا معبود سواه؟! ولكن هكذا تضل الأفهام وتعمى القلوب التى فى الصدور.

﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٣)﴾.

بعد أن بين سبحانه فى الخلق ما يدل على التوحيد وأن كفر من كفر عجيب وغريب ذكر أنه قد سجل عليهم. ﴿كَذَلِكَ﴾، (الكاف) للتشبيه إشارة إلى ضلالهم بعد أن قامت البينات القاطعة فى الخلق والتكوين وإقرارهم بأن الله الخالق وحده لا خالق سواه، ثم بعد ذلك ينحرفون من غير سبب للانحراف إلا ضلالهم.

أى أنه كهذه الحال التى رأيتموها ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾، أى أنهم ينحرفون عن الأمر الذى يقرونه ويقره العقلاء.

أى أنهم ينظرون إلى الأشياء نظرا منحرفا كما ينظر من رَمَدَ أو حَوِلَ، ثم ينغمرون فى طريق الانحراف حتى يبلغوا فى ضلالهم أقصاه.

فمثل هذا هو الذى حقت به، أى ثبتت به كلمة الله التى لا تختلف ولا تتغير، على الذين فسقوا وانحرفوا وتمردوا على الحق، وأظهر فى موضع الإضمار للإشارة إلى أن فسقهم وتمردهم أدى بهم إلى ما حق عليهم.

﴿أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿أَنَّهُمْ﴾: بدل بيان من ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، أى أنهم لا يؤمنون فهو نفى للإيمان ذلك لأنهم سلكوا طريق الباطل.

أى كذلك حقت على الذين فسقوا كلمة ربك التى هى ﴿لا يُؤْمِنُونَ﴾.

بعد أن بين سبحانه أنه الخالق للكون والأرزاق، والمدبر للوجود وحده أخذ يبين عجز من اتخذوهم أربابا من دونه، فقال تعالى:

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤)﴾.

أُمرَ النبى ﷺ بأن يتولى جدالهم وإفحامهم وأن يسألهم ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، وشركاؤهم: الأوثان والأحجار والأناسى التى ادَّعوا أنها شركاء لله فى العبادة، أى هل فى الأوثان التى تعبدونها أو غيرها مما زعمتم من يبدأ الخلق ثم يعيده.

والتعبير بالمضارع لإفادة استمرار البدء والإعادة، كالزرع فى خلقه وتكوينه ثم يصير حطاما، ثم يعاد مرة أخرى.

وفى النص الكريم إشارة إلى القدرة على الإعادة كالقدرة على الابتداء، كما قال فى آية أخرى: ﴿ ...كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأعراف]، فالإشارة واضحة إلى إمكان البعث بل وجوبه وقد أنكروه ولأنهم لا يؤمنون بالإعادة وينكرونها أمر الله تعالى نبيه بأن يتولى الإجابة على إنكارهم، وللإشارة إلى أن ذلك موضع تسليم لا امتراء عند أهل العقول المستقيمة، وأيضا لمنع لجاجتهم ولإرشادهم إلى الحق: ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ وإذا كانوا ينكرون الإعادة من الله فأولى أن ينكروها من أحجار لا تضر ولا تنفع، بل إنهم يعلمون أنها لا تستطيع الإنشاء فأولى ألا تستطيع الإعادة.

ولذلك تولى النبى ﷺ الإجابة ليقيم الحجة عليهم بأن ما بدأ يستطيع الإعادة ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أى تصرفون عن الحق إلى الباطل.

(الفاء) لترتيب الاستفهام الإنكارى على إنكارهم المستمر والموقف السلبى الذى يقفونه لا يتحركون بخطوة إيجابية إلا فى الإيذاء والاستهزاء والفتنة فى الدين، والاستفهام إنكارى لإنكار الواقع، فالله تعالى ينكر انصرافهم عن الحق ولجاجتهم فى الانصراف والاستمرار فى غيهم ﴿فَأَنَّى﴾ بمعنى «كيف».

ثم يبين سبحانه أنه الذى يهديهم، وأن الأوثان لا تهدى بل يضلون بها، فقال تعالى:

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

يخاطبهم سبحانه على أنهم عقلاء مدركون لمعنى الهداية والرشاد ويسألهم إذا كان هؤلاء على ما ترون؟ فهل يهدونكم إلى الحق كشأن التابع للمتبوع.

إن الهداية هى المقياس الإنسانى لعلو الإنسان وقد كان فى المشركين ذوو رشد ينطقون بالقول الطيب كما ينطق الحكماء منهم: أكثم بن صيفى وغيره، فهل الأوثان وغيرها يعلونهم بفضل الإرشاد والتوجيه للعمل الصالح فتعبدوها أو تتبعوها لهذا؟ وحيث لا شيء من ذلك فلا مسوغ للعبادة إلا الضلال.

ولذلك قال تعالى: ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ الاستفهام داخل على فعل محذوف، والمعنى هل وجد من شركائكم أى من المعبودات التى زعمتم أنها شركاء لله فى العبادة، من يهدى إلى الحق كما يهدى الله حتى تجعلوه كالله تعالى، يقال هدى إلى الحق وهدى للحق، و﴿إِلَى﴾ تتضمن معنى الانتهاء فى الهداية إلى الحق، أى هدى منتهيا فى هدايته إلى الحق.

والإجابة عن هذا السؤال ستكون بالسلب لأنها أحجار نَحَتُوها بأيديهم لا تضر ولا تنفع، فكيف تهدى وترشد؟ ولذا فرض أن الإجابة بالسلب كما هو شأن من له أعين تبصر وأذان تسمع، وقد ترتب على هذا الفرض الواقع سؤال آخر فيقول سبحانه:

﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَى﴾.

(الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها وحقها التقديم؛ لأن السؤال مترتب على الإجابة المفروضة فى السؤال السابق، ولكن لأن الاستفهام له الصدارة أخرت عن تقديم، والاستفهام هنا للإقحام وفيه الفرض الأول ثم بيان أنه لا مساواة بين الفرضين، أى أن من يهدى إلى الحق أحق أن يتبع فالاستفهام فى هذه الناحية هو أنه لا مساواة بين من يهدى إلى الحق ومن لا يهدى إلا إذا وجد من يهديه، فالاستفهام لبيان أحقية الاتباع لمن يرشد ويصلح بدلا ممن لا يستطيع الإرشاد ويحتاج كغيره ليهديه، فمن لا يحتاج أحق ممن يحتاج لإرشاد غيره وهدايته، وهذا فى قوله تعالى:

﴿أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَى﴾.

الكلمة ﴿يَهِدِّي﴾ فيها إعلال أصلها (يهتدى) وقلبت التاء دالا لقربها من حروف الإطباق، وأدغمت التاء فى الدال وكسرت الهاء للتخلص من الساكنين، والأصل فى التخلص من النطق بالساكنين يكون بالكسر؛ وهناك قراءة أخرى وهى فتح الهاء؛ لأن حركة التاء قبل الإدغام كانت الفتح فكان الفتح رمزا للأصل.

وإن هذه الصيغة تفيد أنه لا يهتدى إلا بصعوبة بل لا يهتدى أصلا، ولكن كان الفرض أن يكون اهتداء بعد أن توجد الهداية الداعية المرشدة، وكل هذا فيه توبيخ وتبكيت لهم وهم عقلاء، فيهم من نطق بالحكمة وأرادها، ثم يتبعون من لا يرشد ولا يهدى.

إن العاقل إذا رأى هاديا مرشدا يدعوه ومعه الأدلة المتضافرة والآيات المبينة ورأى بجواره أصم لا يهدى ولا يرشد فأيهما يتبع، ولذا قال تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ وهذا استفهام إنكارى عن حالهم المضطربة الحائرة، ثم أردفها سبحانه باستفهام يوضح اضطراب فكرهم وفساد تقديرهم فقال تعالى: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

وهذا للاستنكار، فبأى أحوال النفس العاقلة تحكمون على تصرفاتكم هذه! تتركون الهادى المرشد وتتبعون من لا يضر ولا ينفع، ويصعب أن يهتدى بل لا يمكن أن يهتدى ولو جاءه أهدى الهدى.

وقد بين سبحانه أنهم لا يتبعون الأصنام وغيرها مستيقنين، بل يظنون ظنا بأوهامهم أن لهذه الأصنام وأشباهها قوة وأنها تستحق العبادة، ولذا قال تعالى:

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾.

أى أن أكثرهم غلبت عليهم خيالات وأوهام شاعت فى جمعهم وانتشرت بينهم واتبعوها جميعا، فالأفكار الفاسدة الضالة تنبعث من بعض الجماعة وتكثر فيها وتشيع فى آحادها فتصير فكرا عاما مضللا، وعلى العقلاء أن يصدوا هذه الأفكار الباطلة فى أول نشوئها حتى لا تصير هى الغالبة، وبعض المفسرين يقول: إن الأكثر يراد به الجميع، ونحن نقول على هذا المعنى، ويقول البيضاوى: «إن أكثرهم ما يتبع فى اعتقادهم إلا ظنا مستندا إلى خيالات فارغة فاسدة».

الناس صنفان أحدهما: له عقل مستقيم يدرك، **والثانى**: غلبت وسيطرت عليه الخيالات، فأما الذى آتاه الله تعالى عقلاً يدرك فإنه يفكر فى خلق السموات والأرض وما بينهما ويأخذ دليلا على وجود خالقهما من الأثر وقوة المؤثر، ثم يجىء الرسل فيهتدى بهديهم ويتبع ما يدعون إليه، وهو الذى ينطبق عليه الوصف القرآنى الكريم:

﴿ ... **رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ** (٥٠) ﴾ [طه]، فالهداية ثمرة العلم بالخلق. والصنف الثانى يقع فى أخيلة وهمية تسيطر عليه فلا يأخذ الهداية من الخلق والتكوين، بل تسيطر عليه الأوهام؛ فيتوهم فى حجر قوة، ويتوهم فى شخص ربوبية، ولو نادى ليلا نهاراً بأنه عبد من عباد الله لا يستنكف عن عبادة الله ولا يستكبر، وهؤلاء يظنون القوة فى غير قوى، والقدرة فى عاجز، وتكون عقولهم دائما حائرة مضطربة، ولا يكون منهم اعتقاد ولا يقين قط وكلها ظنون يتصورونها اعتقادا، ولسان حالهم يقول: ﴿ ... **إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ** (٣٢) ﴾ [الجاثية].

هذا بيان لعلمهم الذى يتجاوز الظن ولا يزيد عليه، ويخيل لهم أنهم يعتقدون ثم يتعصبون له ويعاندون أهل الحق به.

وقد بين سبحانه وتعالى أن الاعتقاد لا ينبى على ظن بل يجب أن يكون على يقين، ولذا قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا** ﴾ أى لا يغنى بدل

الحق، ﴿مِنَ﴾ هنا بمعنى «بدل» فالحق وهو الأمر الثابت الذى لا ريب فيه لا يطلب بأدلة ظنية بل لا يطلب إلا ببينات قاطعة، فمعنى ﴿إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أن الظن لا يغنى شيئا بدل الأدلة الحق القطعية.

هذه الآية الكريمة تؤكد حقيقتين ثابتتين:

أولاهما: أن ما ينتحله أهل الكتاب والمشركون ـ بشكل عام ـ والوثنيون مبنى على أوهام أوجدت ظنونا جعلوا منها عقائد تعقبوا لها وكأنها حقائق لها براهين أذعنوا لها فما ظنوا إلا ظنا.

ثانيهما: أن التعصب قد يبنى على أوهام وظنون بل إنه سيطرة أوهام وضعف فى النفوس وليس بإيمان صادق.

وقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾، وفى هذا تأكيد لعلم الله بهم فى ظنونهم وأعمالهم وحركات نفوسهم، وقد أكد هذا سبحانه أولا: بالجملة الاسمية، وثانيا: بـ «إنّ» المؤكدة، وثالثا: بالصفة.

القرآن هو المعجزة الكبرى

يقول تعالى:

وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ
ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ
فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ
مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾
بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾

بعد أن ذكر سبحانه أوهام المشركين وأخيلتهم التى جعلتهم يهيمون فى أودية الظن بغير علم، بين سبحانه الحق والدليل القاطع على صدق محمد ﷺ فى حديثه عن الله تعالى، وأنه جاء بالمعجزة الكبرى الباقية الخالدة إلى يوم القيامة، وأن غيره من المعجزات ما استمر باقيا إلا؛ لأنه ذكرها وسجل وقوعها فى آياته التى كفر بها من كفر وآمن بها من آمن، وقد قال تعالى فى المعجزة الكبرى: ﴿**وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾**﴾ والإشارة هنا للقرآن الذى يتلى عليهم، وتخيرهم عباراته وتعجزهم بلاغته وفصاحة كلماته.

وقوله ﴿**أَن يُفْتَرَى**﴾ المصدر من (أن وما بعدها) خبر ﴿**كَانَ**﴾، أى وما كان هذا القرآن افتراء من دون الله، أى من عند غير الله سبحانه، وعبر بالفعل دون المصدر لتصوير قبح أن يصنع اصطناعا من عند غير الله، وبيان أن ذلك غير متصور وقوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ**﴾ معناه: ما استقام وما ينبغى أن يكون هذا القرآن افتراء من دون الله تعالى؛ لأنه أعجز العرب عن أن يأتوا بمثله، ولأنه اشتمل على علوم ما كان لهذا الأمى الذى لا يقرأ ولا يكتب أن يعلمها، ولأنه اشتمل على شرائع فيها مصلحة الدنيا والآخرة، ولأنه اشتمل على قصص الأمم، كما قال على - كرم الله وجهه - فيما رواه عنه الحارث الأعور «**فيه خبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وفصل ما بينكم**»[(١)] معنى هذا: أن هذا القرآن بذاته ينفى أن يكون مفترى، والقرآن صادق من شهادة غيره بعد أن أثبت أن معجزته ذاتية فيقول تعالى: ﴿**وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ**﴾، أى الكتب التى سبقته، وعبر بأنها ﴿**بَيْنَ يَدَيْهِ**﴾ للإشارة إلى أنها حاضرة شاهدة بصدقه.

---
(١) سبق تخريجه.

وقد ذكر سبحانه دلائل صدقه من أمور أربعة:

الأمر الأول ـ أنه تصديق الذى بين يديه فى الكتب السابقة الصادقة، وما كان النبى ﷺ يقرأ أو يكتب ونشأ فى قوم أميين لا يعرفون علم الكتابة ولم يختلط ﷺ بأحد من أهل الكتاب، أو يلتق بأحد من الأحبار والرهبان إلا مرتين، واحدة وهو غلام فى الثانية عشرة، والأخرى وهو فى الخامسة والعشرين وكلتاهما كان فيهما عابر سبيل، وأن التوافق بين ما جاء بالقرآن وما جاء بالكتب السابقة دليل على أنه ليس افتراء بل هو من عند الله سبحانه وتعالى، والاستدراك معناه الانتقال من نفى الافتراء إلى الإيجاب بذكر الدليل الخارجى من نفس ما سبقه من كتب، وفى التعبير بكلمات: ﴿**تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ**﴾ إشارة إلى أنه شاهد لها بالصدق، وإن كان التوافق دليل على أنه ليس به افتراء وهو مشتمل مع ذلك فى ذاته على الإعجاز، فالكتب ليست معجزة بذاتها، ولكن اقترن بها ما يدل على صدق الرسل من بينات شاهدة: كعصا موسى وغيرها، وكإبراء الأكمة والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله ونزول المائدة بأمر الله تعالى.

الأمر الثانى ـ مما اشتمل عليه القرآن الكريم أنه «تفصيل الكتاب» أى بيان ما كتبه الله تعالى على خلقه من فرائض ونظم وأحكام فيها صلاح العباد فى الدنيا والآخرة من صلاح معاشهم وتنظيم حياتهم وتكوين مجتمع فاضل يكون الخير فيه شائعا ظاهرا، وتكون الرذيلة مختفية مغمورة.

الأمر الثالث ـ من دلائل صدقه ـ أنه لا ريب فيه لمن تدبر وتأمل، فهو ثابت بذاته وبما اشتمل عليه من تصديق ما بين يديه فى الكتب وتفصيل الأحكام والشرائع فلا مجال للريب، كقوله تعالى: ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ** ②﴾ [البقرة].

الأمر الرابع ـ أنه من رب العالمين الذى كون العالمين وربَّاهم ودبر أمورهم وأقام الحق والعدل فيهم، وذلك كله فى القرآن الحكيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وبعد أن بين سبحانه بالأدلة الذاتية صِدْقَه، أخذ سبحانه يدفع افتراء المفترين فقال تعالى " :

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨)﴾.

وصف الله سبحانه وتعالى القرآن أوصافا تنفى الافتراء، وبيَّن مقامه فى الكتب السابقة وأنه مصدق شاهد بها، وبعد ذلك أخذ يبين مقام المشركين منه وهو ادعاء افترائهم الذى هو منفى عن القرآن لذاته فقال سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾.

﴿أَمْ﴾ يقول بعض المفسرين: أنها هنا فى معنى الهمزة للاستفهام. والأولى أن تقول أن «أم» تتضمن معنى الاستفهام كما تتضمن الانتقال من الحقائق المقررة الثابتة التى لا ريب فيها إلى الاتجاه إلى المشركين وأوهامهم بالنسبة للقرآن العظيم ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أى ننتقل من الحق الجلىِّ إلى أوهامهم فنسألهم: أتقولون افتراه؟! والاستفهام هنا إنكارى بمعنى إنكار الواقع، فهو توبيخ لهم على ادعاء الافتراء، وقد قامت أدلة الصدق، ووقع الحكم بأنهم مبطلون فى ادعائهم وافترائهم، وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله ليظهر كذبهم وأنهم المفترون على الله تعالى ونبيه ﷺ والحق؛ ولذا أمر سبحانه محمدا ﷺ أن يدعوهم لأن يأتوا بسورة من مثله، أى مما ترون أنه مثله، فأتوا بسورة منه، فهم يدعون أنه مفترى افتراه محمد ﷺ فليأتوا بسورة من مثله إن كان له مثل.

إن محمدا بشر مثلهم فإذا كان قد افتراه فأنتم بشر مثله فأتوا بسورة من مثله، ويصح أن نقول أن ﴿مِّن﴾ بيانية ويكون المعنى ائتوا بسورة منه، أى من جنسه، ولعل ذلك أظهر.

وقد تحداهم الله أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات فعجزوا، ثم نزل فتحداهم أن يأتوا بسورة فعجزوا.

ولكمال التحدى أمر الله نبيه أن يدعوا من يناصرونهم ومن يستطيعون نصرهم، فقال فى سياق أمره ـ سبحانه ـ لنبيه: ﴿ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فدعوة هؤلاء النصراء لأمرين:

أولهما ـ ليشهدوا كذبهم فى ادعائهم.

ثانيهما ـ لينتصروا بهم ويكونوا قوة معهم يظاهرونهم فيما يدعون، ولكنهم مع ذلك لا يمكنهم أن يأتوا بقرآن مثله كقوله تعالى:

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) ﴾ [الإسراء].

وقوله تعالى: ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى فى ادعائكم الافتراء وإن محمدا كذب على الله تعالى ولكنكم عاجزون فيبطل ادعاؤكم الافتراء.

وفى كلمة ﴿ قُلْ فَأْتُوا ﴾ - الفاء للإفصاح لأنها تفصح عن شرط مقدر تقديره: إذا كنتم تدعون أن محمدا افتراه فمحمد بشر عربى مثلكم، فأتوا بسورة من مثله.

هم لا يؤمنون أنه افتراء ويؤمنون أنه كلام لا ينطق البشر بمثله، ولكن لأنهم سارعوا بتكذيب الرسالة المحمدية لجُّوا فى التكذيب وتورطوا فى الإنكار حتى وقعوا فيما لم يقع فيه عربى يعرف معنى البلاغة فى القول، لذا قال تعالى:

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) ﴾.

﴿ بَلْ ﴾ للإضراب عما حوى ما قبلها، والإضراب عن ادعاء الافتراء، معناه أنهم لم يقفوا فى دعوى الافتراء إلا بأمر سبقه، وهو أنهم سارعوا بالتكذيب من غير أن يتأملوا. وهذا هو قوله تعالى: ﴿ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ﴾ أى بما لم يعلموه علم إحاطة وفحص لحقائقه ومدى ما فيه من إعجاز بيانى وما حوى من شرائع

توائم العقل وتواكبه ومدى ما فيه من إنذار لمن كفر وثواب لمن آمن، وذلك لمن يخاطب بأمر غريب لم يألفه فإنه يسارع إلى إنكاره بادى الرأى، ثم إذا شرد عقله عن الطريق المستقيم ضل فى السبل وأصبح لا يسمع منادى الصواب إذ يناديه، وداعى الهداية إلى الحق وهو يدعوه.

وهذا نراه فى أصحاب المذاهب المنحرفة إذا فوجئوا بما يخالفها أنكروه ثم حاولوا أن يجمعوا ما يؤيد ما جنحوا إليه من المنكر، وإن محمدا ﷺ جاء إليهم على فترة من الرسل فى الأرض العربية وقد عمتهم جهالة دينية، فجاءهم بأنه رسول من عند الله تعالى وكان ذلك غريبا فيهم، وجاءهم بقرآن هو معجزته فلم يتدبروه ويفهموه فعجلوا برده، ثم ساروا من بعد فى سبل الضلال.

﴿ **وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ** ﴾ التأويل هو التفسير والفهم وفقه الكلام ومراميه ويطلق بمعنى معرفة المآل ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا** ... (٥٣) ﴾ [الأعراف].

والنص القرآنى يقبل تفسيرين، بل لا مانع من الجمع بينهما:

أولهما ـ أنهم كذبوا ولم يحيطوا بعلمه، والحال أنهم لما يأتهم فى مداركهم وأفهامهم فقهه وما فيه من إنذار وتبشير، وسيأتيهم لا محالة إذا تأملوه.

ثانيهما ـ أنهم لم يأتهم مآله، وأنه آت لا محالة، وأنهم كذبوا القرآن بما فيه من بعث ونشور وحساب وثواب بالجنة وعقاب بالنار وأنه سيأتيهم، وقد وعد سبحانه، وإنه منجز وعده.

وإن هذه الحال من المشركين هى الحال التى كانت فى الأمم السابقة الذين بعث فيهم الرسل وسارعوا بتكذيبهم قبل أن يتأملوا ما أتوا به وقبل أن يعرفوا قوة المعجزة، ثم لجوا فى تكذيبهم حتى نفذ الله تعالى أمره فيهم كقوله تعالى: ﴿ **كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ﴾ كهذه الحال التى كان عليها المشركون من العرب

فى مسارعتهم إلى التكذيب واللجاجة فيه ثم المعاندة والمقاومة بالعنف من غير إدراك سليم، وهذه الحال هى حال الذين من قبلهم فإذا تشابهت الحال فلا بد أن تتشابه النتيجة أو الأثر؛ ولذا قال سبحانه: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ أى فانظر على أى حال كانت عاقبة الظالمين كانت ريحا صرصرا عاتية، أو ريحا فيها عذاب شديد، أو جعل أرضهم دكا سافلها عاليها أو خسف بهم الأرض أو غير ذلك من آيات الله الكبرى فى الذين يظلمون أنفسهم ويظلمون الحق معهم، وإذا كان الله قد أمهل المشركين ولم ينزل بهم ما أنزل بالذين من قبلهم؛ فلكى يستمر اختيارهم وعسى أن يخرج الله من أصلابهم من يعبده.

وفى قوله تعالى: ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ إظهار فى موضع الإضمار؛ لبيان أنهم ظلموا أنفسهم وظلموا الأنبياء الذين أرسلوا إليهم وأنكروا حقائق ثابتة قد خلت فيمن ظلموا.

وإن الحقَ حقٌ فى ذاته، سواء أَكثُرَ من آمنوا به أم قلوا، وسواء خضع له أو لم يخضع، والثواب لمن آمن واهتدى والعذاب لمن كفر .

ولذا قال تعالى:

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠)﴾.

الضمير فى كلمه ﴿مِنْهُم﴾ يعود على المشركين فى قريش، أما ضمير فى كلمة ﴿بِهِ﴾ فيعود على القرآن الكريم.

وإنه من نعم الله على الخلق أن لم يجعلهم جميعا على كلمة الشرك أو الإنكار، بل منهم من يذعن للحق فيسارع إليه كما يسارع المشرك إلى الإنكار.

وهذا الكلام فيه تبشير للنبى ﷺ بأنه مع هذه الحال الحالكة المظلمة سيكون من يؤمن ومن يجدد إيمانكم فى كل الأزمان ويصدق بالقرآن ويذعن له، فالقرآن باقٍ خالد محفوظ، ونور يهدى ما بقى الإنسان فى هذه الأرض.

ومنهم من يبتلى الله به المؤمنين بإنكارهم ولجهم فى الإنكار ومعاندتهم للحق وحربهم لأهله، والتعبير بالمضارع لبيان تجديد الإيمان واستمراره وأن الكفر باق ليكون ذلك ابتلاء للمؤمنين وتثبيتا لإيمانهم، ثم يقول تعالى: ﴿**وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ**﴾ علما دقيقا محيطا بالذين لا يؤمنون، وعبر عنهم بالمفسدين؛ لبيان أن فى طلبهم الإفساد فى الأرض ومنع الإصلاح فيها، فمنهم المنافقون الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون، ومنهم المعاندون الذين يحاربون الإيمان ويحاولون أن يسدوا مسالك الهداية، وذكر العلم بالمفسدين إنذار بالعقاب من الله تعالى الذى لا يغيب عن علمه كبيرة ولا صغيرة فى السماء ولا فى الأرض.

إن عليك إلا البلاغ

قال تعالى:

وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ
أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن
يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾
وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟
لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ
ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا
سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ
وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ
فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾

كان النبي ﷺ حريصا على هدايتهم، كما قال تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ③ ﴾ [الشعراء]، فبين الله سبحانه أنه لا يهدى وإنما ينذر ويبشر كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ ... ④⑤ ﴾ [النازعات].

فى هذه الآية يأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يحمِّلهم إن كذبوا تبعات أعمالهم فى الكفر فقال تعالى: ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ ﴾ مغبة عملكم عليكم، ومثوبة عملى لى وإنى برئ مما تعملون وتكررون عمله آنا بعد آن وتجددونه تجددا مستمرا، وقد أعذر من أنذر وقد أنذرتكم وشددت النذير ووعظتكم أحسن الوعظ وتلوت عليكم آيات بينات فيها سبيل العمل الصالح وتكوين الجماعة الفاضلة فإن استجبتم فقد أحسنتم لأنفسكم، وإن كذبتم فعليكم تبعات ما تعملون، كما قال الله تعالى: ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ③ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ⑤ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ⑥ ﴾ [الكافرون]، ﴿ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ كل إنسان وما يعمله، لا يؤاخذ ﷺ فى كفرهم هو برىء منهم ومن أعمالهم، ومع هذا يبرأ إلى الله من أعمالهم تنزيها لنفسه عن أن يشرك أو يرضى عن شركهم المستمر المتجدد، وقد عبر بالمضارع؛ لأن أعمالهم الفاسدة متجددة مستمرة التجديد.

فى المسلك الذى أمر الله تعالى نبيه أن يسلكه إرشاد حكيم للعصاة وإيئاس لهم من أن يكون معهم، بل فيه دعوة إلى الاقتداء به فى عمله، وفيه إشارة إلى فساد أعمالهم، والمُفسد إذا رأى عمل المُصلح تأثر بعمله، بل إن ذلك أشد تأثيرا من قوله وأفعل فى النفس وأدعى للتأمل، واتجاه النفس إلى ما فى ثناياها، وربما اهتدت، وأنها لو فوض أمرها إليها قد يكون الخوف فيها؟ وأنه إذا داخل الجاحد الخوف من مغيب عنه سار فى طريق الهداية.

إن هؤلاء المشركين عقولهم غائبة عن الحق سائرة فى الضلال غافلة عن دعوة الداعى إلى النور، وقد قال تعالى فى بيان غفلتهم:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ (٤٢) ﴾.

إن السمع لا يعتبر وحده ولا يدرك وحده، بل لابد من السمع والإدراك، والبصر لا يدرك ما يشاهد ومغزاه وعبره، بل لابد من أن يرى الرائى ويدرك العبر، وإن هؤلاء أهل جهنم الذين طمس على بصائرهم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) ﴾ [الأعراف]، ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾: ومنهم أى من المشركين الذين يعرضون عن الحق، من يستمعون إليك بظاهر حسهم، وتحسبهم مستمعين للقول فيتبعون أحسنه ويفكرون متدبرين مميزين بين الحق والباطل، ولكنهم كالأصم من حيث الهداية؛ وذلك لأنهم يستمعون إلى الألفاظ تتردد ولا يفقهون معناها ولا يذوقون الحق ويدركونه، وهم كالصم فى آذانهم وقر، قد ماتت عقولهم وصاروا فى عدم إدراكهم معنى الكلام ومرماه وغاياته وجماله وكماله كمن لا يسمع أصلا؛ لأنه لا ثمرة لسمعه؛ لأنه يسمع جرس الكلام ولا يفقهه ولا يذوق بيانه. ومن مواضع العجب أن يطلب ممن هذا شأنه ـ الإدراك والاعتبار بما يسمع من قصص وعظات، ولذا قال تعالى: ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ ﴾.

الاستفهام للتعجب والنفى، (الفاء) لترتيب التعجب على حالهم، والمعنى أنه لا فائدة فى استماعهم ودعوتهم، والعجب من رجاء الاستجابة منهم، فهم قد اجتمعت فيهم **صفتان تمنعان الاستجابة**:

الأولى ـ الصمم النفسى، وهو يكون بإعراضهم واستنكافهم كأن بهم وقرا.

الثانية ـ أنهم لا يعقلون، فلا يستجيبون لدعوة الحق.

وإن نظرهم كسمعهم؛ ولذا قال تعالى:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ (٤٣) ﴾.

إنهم ينظرون إلى السماء وما فيها من أبراج وإلى الارض وما تخرج من طيبات الرزق ولكنهم عمون عن عجائب الوجود، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٩ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ۝١١﴾ [ق].

ينظرون فى الكون ولكن لا يدركون ما يهدى إليه النظر فكأنهم عمىٌ لا يدركون؛ لأن النظر من غير إدراك لما يدل عليه المنظور من آيات بينات، شأنه كعدم النظر سواء؛ إذ ثمرة النظر مفقودة فى الحالين.

ولذلك قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ ولكنهم غير ناظرين؛ لأنهم غير مدركين ما فى الوجود من آيات بينات، وقال سبحانه: ﴿إِلَيْكَ﴾ وفى الآية السابقة ﴿يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ إشارة إلى أنهم يكونون مع النبى بحسهم وليس بعقولهم، ثم قال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ وشبههم بالعمى لعدم الثمرة فى نظرهم، وهم معرضون عن آيات الله تعالى، والاستفهام للتعجب.

ولقد قال الزمخشرى فى هذه الآية والتى قبلها: «ومنهم ناس يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع ولكنهم لا يعون ولا يقبلون، وناس ينظرون ويعاينون أدلة الصدق وأعلام النبوة ولكنهم لا يصدقون، أفتطمع أن تسمع الصم ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم؛ لأن الأصم العاقل ربما تفرس واستدل، ولكن إذا اجتمع سلب السمع والعقل جميعا فلا فائدة فى استماعهم ودعوتهم، أتحسب أنك تقدر على هداية الأعمى ولو انضم إلى العمى، وهو فقد البصر فقد البصيرة؛ لأن الأعمى له فى قلبه بصيرة قد يحدس ويتظنن، وأما العمى مع الحمق فجَهْد البلاء، وذلك يعنى أنهم فى اليأس من أن يقبلوا ويصدقوا كالصم والعمى الذين لا بصائر لهم ولا عقول».

إن الله تعالى قد أنزل آياته وشـرائعه يهدى بها من يهـتدى، ومن ضل فإنما يضل عليها، ووصفهـا أمام الأعين البصيرة والآذان المستمعة والقلوب المـستقيمة، وأنه يؤاخـذ الناس بما كسـبوا فإن اسـتقـاموا على الطريقـة كانت الهـداية وإن لم يستقيموا كان الضلال، ولذا قال تعالى:

﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** (٤٤) ﴾.

إن الله وضع كل أسباب الهداية أمام الناس وأرسل الرسل مبشرين، وما كان ليعذبهم إلا إذا أرسل إليهم من ينذرهم بالعذاب الأليم، إن لم يسلكوا سبيل الحق واختـاروا سبيل الضـلال وأفسدوا فى الأرض بعـد أن أضلوا عقـولهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا** ﴾.

أصل «ظلم» بمعنى أنقص، وأطلقت على مـا هو ضد العـدل والاستقـامة، وأطلقت على الشرك؛ لأنه انحـراف بالعقل عن الاستقامـة والطريق السوى، وقال تعالى: ﴿ ... **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** (١٣) ﴾ [لقمان].

والظلم هنا إما أن نفسـره بمعنى النقص ويكون المعنى أن الله لا ينقص الناس شيئـا بل يوفر لهم أسباب الهـداية والإرشاد من: إرسال الرسل، وإقامـة الشرائع وآيات الله والتنبـيه إليـها، ومنحـهم العقـول التى تدرك، وحرية الاخـتيـار فيـما يفعلون، ويوجد سبحانه فـيهم قوى الإدراك. كما قال تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** (٧٨) ﴾ [النحل]، وإمـا أن نقـول: إن الظلم المنفى هنا هو عـدم العـدل، ويكون المعنى على ذلك أن الله تعالى لا يظلم الناس شيئا فى الظلم مهما قل؛ لأنه أوجد فيهـم الاختيار والإدراك وجعل تحـت أيديهم أسباب الهداية، فـإن ضلوا فعن بينة وإرادة حرة مختارة، والله تعالى يحصى أعـمالهم ويجزيهم عليها، كما ورد برواية مسلم عن رسول الله ﷺ فى حديث قدسى عن ربه: «**يا عبادى إنما هى أعمالكم**

أحصيها عليكم ثم أوفِّيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»(١).

وإذا كان الله تعالى لايظلم أى قدر من الظلم قلّ أو جلّ فإن نزول العذاب بالناس بظلمهم لأنفسهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿ **وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾.

وهذا استدراك من النفى السابق، وإذا كان الله لا يظلمهم فهم يظلمون أنفسهم، وقدم المفعول على الفعل للاختصاص أو القصر، أى هم يظلمون أنفسهم ولا يظلمون سواها، كما سبق قوله تعالى: ﴿ ...**إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم**... (٢٣) ﴾ وذلك؛ لأن الظالم يقع ظلمه على نفسه ابتداء؛ لأنه يفسد فطرته وتكون غشاوة على قلبه فتنقص مداركه وتسوء معاملته، ويسيء إلى نفسه ثم يتردى فى أسباب الهلاك فى الدنيا والعذاب فى الآخرة.

يقول تعالى:

﴿ **وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ** (٤٥) ﴾.

وإن العذاب يجيئ إليهم فى الآخرة كما ذكر سبحانه:

﴿ **وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ** ﴾ أى جزء من الزمان قليلا من النهار، وذكر النهار؛ لأن الليل قد يستطيل الإنسان وقته، ولأن الحشر وكأنه يجيء فى غير ظلام بل فى إشراق ليستبين المهتدى من الضال، كما قال تعالى: ﴿ ...**كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ**... (٣٥) ﴾ [الأحقاف]، وقوله تعالى: ﴿ **كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا** (٤٦) ﴾ [النازعات]، والمراد أن يوم الحشر لا يحسون فيه بفاصل زمنى بينهم وبين ما كانوا عليه فى الدنيا، فيحسون أن الدنيا بطولها ليست إلا زمنا قصيرا قضوه فيها، وفى ذلك إشارة إلى قصر الدنيا مهما طالت فلا يحسون بها إلا زمنا قصيرا، وقد قال تعالى

(١) سبق تخريجه.

فى بيان ظنونهم نحوها ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) ﴾ [الروم].

كما يقول سبحانه: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا (١٠٤) ﴾ [طه]، وكل ذلك يصور إحساسهم بقِصَر الدنيا يوم تقوم الساعة.

وفى قوله تعالى: ﴿لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً﴾ الدليل على أنه سبحانه يحشرهم بأقل ما يمكن من الزمن وأن حشرهم ليس عسيرا حتى يأخذ زمنا عند الذى يبدأ الخلق ثم يعيده، وهم يحسون الدنيا الفانية شيئا قصير الأمد، ساعة من نهار، أو يوم فى تقدير أمثلهم طريقة.

ثم يقول تعالى: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ التابعون والمتبوعون، الذين ضلوا والذين أضلوا الفقراء، الذين سخروا منهم والساخرون.

عندئذ يدرك الذين كذبوا بلقاء ربهم ما خسروه بسبب طغيانهم فى الدنيا واستهزائهم وقولهم لكل نبى ما نراك اتبعك إلا أراذلنا، ولذلك بيَّن سبحانه أنهم رأوا وعاينوا مقام التابعين للحق كما عاينوا دركهم فى الجحيم.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ خسروا لأنهم ضلوا واشتروا الضلالة بالهدى والحياة الدنيا بالآخرة، لم يقدموا لأنفسهم فخسروا خسرانا مبينا، ختم الله تعالى الآية بالخسارة العظمى التى أدت إلى الخسائر كلها بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ فنفى عنهم الاهتداء نفيا مؤكدا وبقى الضلال المؤكد.

ثم يذكر سبحانه وتعالى ما ينزل بهم:

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٦) ﴾.

﴿إِمَّا﴾ هى «إنْ» الشرطية المدغمة فى «ما» و«ما» لتقوية الشرط، وجاءت بعد نون التوكيد الثقيلة.

وأن نريك بعض الذى نعدهم من الدنيا فى خذلان وإعلاء لكلمة الحق وجعل النصر للمؤمنين، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الحق هى العليا وضياع سلطانهم وجعل السلطان فى بلاد العرب لله ولرسوله، إن نريك هكذا تكن العزة، فجواب الشرط محذوف تؤخذ دلالته من الشرط نفسه، وقد رأى النبى ﷺ ما وعده ربه وما أوعدهم به.

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ هو الغرض الثانى وهو معطوف على الشرط السابق، أى يتوفاك الله الذى خلقك ونصرك وأعزك ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾، أى إنْ تحضر النصر على الكافرين جميعا وكان منهم من بقى على كفره أو كان إسلامه على نفاق كالأعراب الذين ارتدوا أو ممن لم تبلغهم الدعوة فى حياتك ثم بلغهم الإسلام بعد وفاتك ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾، وقدَّم الجار والمجرور على ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾ للإشارة إلى أن لله وحده المرجع والمآب، وهو الرقيب عليهم فى الدنيا والمحاسب لهم فى الآخرة، ينزل العقاب لمن كفر، والثواب لمن آمن واهتدى وآثر الآخرة الباقية على الدنيا الفانية.

وإن الله شهيد على ما يفعلون ويعطى الثواب والعقاب؛ ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ كلمة ﴿ثُمَّ﴾ للترتيب والتراخى، والترتيب ترتيب معنوى فالله تعالى شهيد على ما فعلوا فى حياة النبى ﷺ وما يفعلون بعده، ولكنه فرق بين رؤية النبى فيما يقع حسا، وبين ما ينزل بهم إلى علم الله عالم الغيب والشهادة الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض.

والبعد الذى تدل عليه كلمة ﴿ثُمَّ﴾ هو البعد المعنوى بين رؤية الإنسان وشهادة الله تعالى ﴿اللَّهُ شَهِيدٌ﴾ أى عالم علم من يشهد ويرى كرؤيتك المؤكدة، فهو عالم علم المشاهدة بما يفعلون آنا بعد آن، أى بما يتجدد فى فعلهم وهو سبحانه يحاسبهم عليه إن خيرا فخير وإن شرا فشر، وإليه المآب.

لكل أمة رسول

قال تعالى:

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

إن الله تعالى لا يظلم الناس فما كان ليعاقب إلا بعد أن يبين الحق ويدعو إلى الرشاد، وينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين، ولذلك كان لكل أمة رسول كما قال سبحانه: ﴿ ... وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فاطر].

وقد اتجه المفسرون فى قوله تعالى لكل أمة رسول اتجاهين:

الاتجاه الأول ـ أن ذلك يوم القيامة حيث يجيء كل رسول يشهد لأمته بما كسبت ويشهد عليها بما اكتسبت فيقضى بينهم بالقسط، أى بالعدل الموزون بميزان الحق وهم لا يظلمون، أى أن القضاء يكون الإنصاف فلا ظلم قط.

والاتجاه الثانى ـ أن هذا نظام الله تعالى الذى سنه فى الدنيا يرسل لكل أمة رسولا، ونكّر كلمة ﴿رَّسُولٌ﴾ فلم يأت به معرفة لتعدد الرسالات وتنوعها،

فمنهم من جاء لتربية القوة والعزة كما هى شريعة التوراة التى نزلت على موسى، ومنهم من جاء لتربية الروح والنفس كما هى شريعة عيسى لبنى إسرائيل الذين غلظت أكبادهم.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ أى جاء فى وسطهم يدعوهم إلى سواء السبيل، كان من أجاب منهم له ثوابه ومن أعرض ونأى بجانبه حق عليه عقابه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾.

ونرى أنه لا تعارض بين الاتجاهين، ويمكن الجمع بينهما، فيكون الرسول داعيا فى الدنيا، ويكون فى اجابته المهتدى والضال، ثم يكون يوم القيامة شاهدا على الفريقين، والله أعلم.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨)﴾.

وإن المشركين فى إنكارهم للبعث يستعجلونه

إن الأساس فى رد دعوات النبيين إلى الرسالة الإلهية وهو إنكارهم البعث والنشور وكفرهم بما يغيب عنهم، ولذا يكون استغرابهم من دعوة الرسل وإجابتهم واحدة ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾ والخطاب فى هذه الآية للرسل، والقائلون هم المشركون، فالضمير فى كلمة ﴿يَقُولُونَ﴾ للمشركين لأنهم الذين يجادلون النبى ﷺ.

﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾ الاستفهام هنا للتعجب والاستهزاء، وللاستفهام عن الزمن البعيد عن الوعد الذى يكون وراء البعث، والوعد هو الإنذار الشديد بالعذاب الأليم فيقولون ساخرين: متى يكون ذلك الوعيد؟ ويكررون ذلك الاستفهام المستهزئ الذى ينم عن الاستهانة وعدم الاهتمام غرورا بأنفسهم وانغمارا فى لذاتهم.

وأعقبوا الاستهانة والاستهتار بقولهم: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى أنهم يردفون الاستهزاء بتكذيب الرسل، ولابد من الإشارة إلى أن ذلك يتكرر فى خطاب كل

الرسل، وأن الكفر بلسان واحد فى الاستنكار والاستهزاء؛ ولذا جاء الخطاب للرسل أجمعين لا لمحمد ﷺ وحده؛ لأن دعوتهم واحدة، ورد المشركين واحد، وإن كان المتحدث عنهم مشركو العرب؛ لأنهم صورة منهم بل أوضح صورة عند محمد ﷺ ـ طلبوا منكرين ومستهزئين، وكرروا الطلب متى هذا الوعد؟ وهو العذاب الذى أوعَدْت، فأمر الله تعال نبيه ﷺ أن يقول لهم:

﴿ **قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَئْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩)** ﴾.

طلبوا مستهزئين غير مبالين أن يحل بهم ما وعد الله من عذاب فأمر الله نبيه ﷺ بأن يقول لهم أنه لايملك ذلك وإنما يملكه الله تعالى وحده، ويقول لهم ﷺ أنه إنسان مثلهم لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا، وبالأولى لا يملك لغيره ثم بالأولى لا يملك ضررا عاما يعم المشركين جميعا كما يطلبون.

﴿ **قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ** ﴾ وقدم الضر على النفع؛ لأنهم يطلبون أن ينزل بهم ما يضرهم فكان الرد بنفيه أولا، فإذا كان لا يملك أن يضر نفسه فلا يملك أن يضر غيره.

وقوله تعالى: ﴿ **إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ** ﴾ استثناء يبين كمال سلطان الله وأنه وحده الذى يشاء ويختار وينفذ فى الوجود الكونى ما يشاء هو، لا ما يشاء غيره، والمعنى هنا إن شاء فالذى يملك سبحانه وإن لم يشأ فلا أملك، والاستثناء بقوله: ﴿ **إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ** ﴾ حيث الإرادة والاختيار المطلق لله تعالى وحده كقوله سبحانه: ﴿ **خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ ... (١٠٧)** ﴾ [هود]، فهى دالة على اختياره المطلق ومدلول هذا الاختيار أنه لو شاء لضرَّ، فليس أمر هذا الكون أو الإنسان يقع بغير اختياره، وهذه إجابة فيها بيان أنه ﷺ ليس مغترا كاغترارهم وأن قوته محدودة ولا يدعى ما ليس له مثله، ومع هذه الإجابة إجابة أخرى هى قوله تعالى: ﴿ **لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ** ﴾ أى زمن محدود تنتهى عنده، والأمم السابقة كان أجلها

بما ينزل عليها من عذاب ساحق مبيد للكافرين كالغرق لقوم نوح، والهلاك بسبب سماوى كما كان لقوم لوط وعاد وثمود.

لم يقدر لكم الله تعالى الهلاك كهذه الأمم، بل إنه لا يزال يرتجى الخير لبعضكم أو أن يكون من أصلابكم، وفى هذا ما يفيد أن الوعد فى الآية السابقة ما كان مقصورا على الكافرين بعذاب الآخرة بل يشمل ما كان فى الدنيا من إهلاك الكافرين المفسدين، كما تقص القصص الصادقة فى القرآن.

﴿ **إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَئْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ** ﴾ أى إذا حل أجلهم فى زمانه المعين الذى قدره الله تعالى لا يستطيعون طلب تأخيره أو تقديمه (السين، والتاء) للطلب أى أنهم ليس لهم تأخيره أو تقديمه كما يتوهم المشركون ويطلبونه مستهزئين أو جادّين.

وقد أشار سبحانه من بعد ذلك إلى أن عذابهم قد يقع فى الدنيا كما وقع لغيرهم، فأمر رسوله ﷺ ليقول لهم:

﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ** (٥٠) ﴾.

﴿ **أَرَأَيْتُمْ** ﴾ استفهام داخل على رأيتم وهو لتصوير حالهم، والمعنى أرأيتم وتصورتم حالكم إذا أتاكم عذابه بياتا وأنتم نائمون بريح عاصف أو هدمت عليكم دياركم وجعل الله عاليها سافلها وأنتم نائمون، أو جاءكم نهارا ورأيتم الهول الكاسح، كقوله تعالى: ﴿ **أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ** (٩٧) **أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ** (٩٨) **أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ** (٩٩) ﴾ [الأعراف].

هذا تصوير العذاب الذى يطلبونه فيقول سبحانه: ﴿ **مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ** ﴾ هنا إضراب انتقالى فى القول، والمعنى أرأيتم إن ينزل بكم العذاب بياتا أو نهارا، وتصوروه واقعا بكم، أم ماذا تريدون، أو ما الجزء الذى تريدونه، وهو لا يتجزأ أو يتجزأ وجزؤه ككله، وفى النص القرآنى بعض الألفاظ:

أولا ـ قوله ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ هو استفهام عن الرؤية البصرية أو القلبية، وقد قلنا: إن الكلام يتضمن تصوير العذاب الذى يستهزئون به أنه لم يقع، والزمخشرى يقول: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ تدل على طلب الإخبار، أى أخبرونى ما هى حالكم إذا نزل بكم العذاب بياتا أو نهارا.

ثانيا ـ عبَّر سبحانه عن نزوله ليلا بقوله: ﴿بَيَاتًا﴾ للدلالة على السكون والاطمئنان وأنه يجيئهم وقت اطمئنانهم وسكونهم فيكون أشد وقعا.

ثالثا ـ إن جواب الشرط فى قوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا﴾ محذوف وهو الندم على الاستعجال والإحساس بالهول الشديد.

رابعا ـ قوله تعالى: ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ وصفهم بالإجرام، أولا والإشاره إلى سبب إنكار البعث وعذاب الله الذى يستحقونه وهو إيغالهم فى الجريمة وللتوبيخ على فعلتهم، وقد قال فى ذلك الزمخشرى: «إن فى حق المجرم أن يخاف التعذيب على إجرامه وان أبطأ فضلا عن أن يستعجله». فيشير بهذا إلى أنهم كان يجب عليهم أن يشعروا بالجريمة وأنها تستدعى عقابا لا محالة؛ وذلك يوجب عليهم أن يتوقعوه لا أن يستعجلوه.

إن وعد الله على لسان نبيه ﷺ آت لا محالة يوم لا ينفع نفس إيمانها بعد أن كفرت، ولذا قال تعالى:

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١)﴾.

﴿ثُمَّ﴾ عاطفة وهى للترتيب والتراخى، والترتيب هو ترتيب الاستفهام بعد الاستفهام، والاستفهام السابق كان لتصور العذاب وحالهم عنده ليعتبروا ولا يستعجلوا، وجاء الاستفهام الذى يليه وقد وقع العذاب فعلا؛ فالأول كان لتصوير العذاب متوقعا، والثانى لوقوعه بهم والتفاوت بينهم كالتفاوت بين المتوقع والواقع والتصور والحقيقة، وفيه الإشارة إلى أنهم لماديتهم لا يؤمنون إلا بما يرون.

والتوقع هو ما يريد النبى ﷺ أن يتوقعوه ويتصوروه، وإلا فهم مكذبون مستهزئون.

و﴿ثُمَّ﴾ متأخرة والتقديم للاستفهام؛ لأن له الصدارة وتقدير القول أنه إذا ما وقع ورأيتموه رأى العين فى الآخرة آمنتم به وصدقتموه، وقد قضى زمن التكليف وانتهت دار الابتلاء وجاءت دار الجزاء، إنه إيمان لا ينفع.

ثم أردف سبحانه ذلك بتوبيخهم على تأخرهم فى الإيمان واستعجالهم العذاب فقال سبحانه: ﴿آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أى تؤمنون به فى هذا الوقت المتأخر وقد كنتم مكذبين وتستعجلون مُتحدين أو متهكمين أو ساخرين، فالاستفهام إنكارى توبيخى، والتوبيخ من نواح ثلاث:

أولاها ـ من ناحية إنكارهم البعث.

ثانيتهما ـ من ناحية تهكمهم على من ينذرهم.

ثالثتها ـ أنهم لا يؤمنون إلا فى الوقت الذى لاينفع النفس إيمانها.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ يقول كثير من المفسرين التابعين للزمخشرى: ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾ معناها تكذبون، وإنى أقول أنهم كانوا مكذبين حقيقة ولكن كانوا يستعجلون فعلا ولو بظاهر القول، ويكون ذكر الاستعجال تهكما بهم وتوبيخا لهم فى قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ جمع بين الماضى والحاضر، وهو دليل على استمرار استعجالهم التهكمى وتكذيبهم باليوم الآخر ووعد الله تعالى بالجزاء.

هذه حال المكذبين وإيمانهم بعدم وقوع العذاب وإنكارهم لتوقعه ثم إيمانهم به بعد أن يروه، ثم يبين سبحانه وقوع العذاب وتمكنه منهم فيقول تعالى:

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢)﴾.

﴿ثُمَّ﴾ للعطف والترتيب والتراخى، والعطف هنا يكون على الاستفهام السابق وما تضمن من توبيخ وتهكم بهم، كما تهكموا على أوامر الله تعالى ونواهيه من قبل، ودعوتهم إلى الإيمان باليوم الآخر وما فيه من حساب وعقاب وثواب، والتراخى فى الانتقال من مرتبة التوبيخ على الكفر إلى مرتبة العذاب العتيد الحاضر المهيأ.

قوله تعالى: ﴿قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بنى للمجهول للإشارة إلى أنه استخفاف منطقى يقال بحكم المنطق والوقوع لكفرهم، وعبر عنهم بالموصول ﴿لِلَّذِينَ﴾ للإشارة إلى سبب العقاب وهو ظلمهم بالشرك وقصد الضلال والإفساد فى الأرض وأشاعه زور القول وبهتانه، وإفراطهم فى الأخذ بالماديات التى سيطرت على أفهامهم وصاروا لا يؤمنون إلا بها.

﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ فيه إضافة العذاب إلى بيان له هو أنه خالد دائم ما دامت السموات والأرض، وفى قوله تعالى: ﴿ذُوقُوا﴾ تشبيه للعذاب بالشىء الذى يذاق فيصيب إحساسهم، حتى أنهم يذوقونه كما يذاق الشىء المؤلم المرير.

﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ فيه أن العذاب بسبب ما كنتم تكسبون من أعمال خبيثة فيها إيذاء للناس وإفساد لعقائدهم فهو جزاء وفاق، والجمع بين الماضى والمستقبل دليل على أنهم يكسبون الشر دائما لا ينأون عنه ولا يقصرون.

والاستفهام هنا إنكارى بمعنى إنكار الوقوع، والمعنى لا تجزون إلا ما كنتم تكسبون، فجعل سبحانه الجزاء كأنه العمل الذى استوجبه أصلا، وذلك مبالغة فى العدالة فالجزاء والعمل متساويان.

الجزاء شديد

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُم بِمُعْجِزِينَ (٥٣) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦)﴾

ذكر لحالهم يوم القيامة عندما ينزل بهم ما كانوا يستعجلون به ويرونه حقا وصدقا وعيانا، وقد كانوا من قبل ينكرون وقوعه ويعجبون ويستهزئون ممن يذكرهم، وقد ذكر سبحانه صورة من القول الذى كان على ألسنتهم.

﴿يَسْتَنبِئُونَكَ﴾ النبأ هو الخبر ذو الشأن، والسين والتاء للطلب وهى، هنا لطلب البيان، فالمعنى يستخبرونك عن النبأ العظيم وهو أن الناس يحيون بعد أن يموتوا، وتجمع أجسامهم بعد أن صارت رفاتا وعظاما، وقد أمر الله تعالى أن يجيبهم بتأكيد الوقوع مقسما. فقال سبحانه: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾.

﴿إِي﴾ معناها «نعم» إنه حق ثابت واقع لا محالة، وقد قدر علماء البيان أن كلمة ﴿إِي﴾ التى تكون بمعنى نعم، لا تكون إلا ومعها قسم، وقد قال النبى ﷺ كما أمره ربه: ﴿وَرَبِّي﴾ أى الذى خلقنى فبرأنى وربانى، وفيه إشارة إلى تقريب تحقق ذلك الأمر الذى عجبوا منه واستنكروه واستهزءوا به، والقسم عليه ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ أكد أنه حق بالجملة الاسمية وبـ «إنَّ» التى للتوكيد وباللام.

أكد القسم أنه فى قدرة الله وفى إمكانه ولا يخرج عن قدرة القاهر لكل شىء فقال سبحانه: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أى لستم معجزين لله تعالى عن إعادتكم وحسابكم على ما قدمتم وأخذ المجرم بما اكتسب وإعطاء المحسن ما استحق من ثواب، والاستفهام فى ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ حقيقى منهم لأنهم جاهلون باليوم الآخر غلبت عليهم الحياة الدنيا، وأنه قد يكون تعجبا واستغرابا واستنكارا، وتومئ إلى هذا صيغته ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ وهو لعجبهم الذى بينه الله تعالى فى قوله: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ... (٥)﴾ [الرعد].

قال ابن كثير: «لم يأمر الله تعالى نبيه ﷺ بإجابة المشركين بالقسم إلا فى ثلاث مواضع هذه أولها. والثانية: فى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ... (٣)﴾ [سبأ]، والثالثة: فى قوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧)﴾ [التغابن].

كان أمر الله بالقسم فى هذا المقام ليزيل غرابتهم أولا، وليؤكده فى ذات نفسه ثانيا، وليحملهم على الاستعداد له ثالثا.

﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ فيه بيان للإمكان ثم التحقق، وتأكيد لإزالة الاستغراب، وهو نفى مستغرق للإعجاز، فالله تعالى خالق كل شىء لا يعجزه شىء وهو على كل شىء قدير.

إن ما يكون فى يوم الجزاء من عقاب للآثمين يساوى كل ما فى الدنيا بحذافيرها من متاع، ولذا قال تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٥٤)﴾.

إن الهول سيكون فوق ما تدركه عقول من كفروا بذلك اليوم واستهانوا واستهزءوا به، وأنه لو تحقق لكل نفس ظلمت بالشرك والعناد والاعتداء والشهوات

وغير ذلك من الظلم وهو ظلمات يوم القيامة، لو ثبت أن لها ما فى الأرض من معادن وزروع وحدائق وجنات ونعيم ثابت وعارض تملكه وما فى الأرض جميعا لافتدت به وقدمته كله فداء، وهذا بيان لتضاؤل الدنيا بنعيمها وما فيها إلى جانب عذاب الله تعالى، وأن على كل نفس أن تتوقاه فى هذه الدنيا.

﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾ عندما يرون هول يوم القيامة اعترتهم الندامة وأسروها لا يستطيعون إبداءها من ذهولهم بما رأوا، وقد قال فى ذلك الزمخشرى قولا حسنا: «﴿أَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾ لما رأوا العذاب؛ لأنهم بهتوا برؤية ما لم يحسبوا ولم يخطر ببالهم، وعاينوا من شدة الأمر وتفاقمه ما سلبهم قواهم وبهرهم فلم يطيقوا عنده بكاء ولا صراخا ولا ما يفعله الجازع سوى إسرارهم الندم والحسرة فى القلوب، كما ترى المقدم للصلب فإنه من فظاعة الخطب لا ينبس بكلمة ويبقى جامدا مبهوتا، وقيل أسرَّ رؤساؤهم وسفلتهم، أسروا الندامة حياءً منهم ومن فعلتهم وخوفا من توبيخهم. وقيل أسروها، أى أخلصوها إما لأن إخفاءها إخلاصها، وإما من قولهم أسر بالشيء لخالصه، وفيه تهكم بهم وبأخطائهم وقت إخلاص الندامة».

وإن الآية الكريمة تشمل كل هذه المعانى مع أن أولها المتبادر، ولكنه كلام الله يحمل المعانى التى ندركها وغيرها، والله تعالى وحده أعلم.

﴿أَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾ الضمير يعود على كل الظالمين الذين ظلمت نفوسهم وودوا أن يكون فى ملكهم الأرض وما فيها، والضمير بلفظ الجمع يعنى الجمع فى قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾.

وإن الله يقضى بينهم بالقسط، أى بالحق الذى يوزن فيه بميزان دقيق لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وهم لا يظلمون، أى لا ينقصون شيئا لأنهم يحاكمون أمام الحكم العدل اللطيف الخبير.

إن البعث وما بعده من حساب هو فى قدرة الله؛ لأنه مالك الوجود بما فيه ومن فيه.

﴿أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٥)﴾.

﴿أَلا﴾ للتنبيه إلى عظم ما يجيئ بعدها لدلالته على القدرة القاهرة والسلطان الظاهر.

﴿إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ من نجوم ذات أبراج، وأرض ذات جبال، ومعادن، وأحياء وغير ذلك، وأن من يملك شيئا يحكمه ويكون فى قبضة يده ينظمه بحكمته وعدالته، وأنه يبدأ الخلق ثم يعيده وإن الحساب أمر ثابت، وإن الله لا يخلف الميعاد، وإن موعده حق لا يقبل التخلف. وفى الكلام إخبار مؤكد من الله تعالى أن وعده حق، فقال سبحانه بعد بيان ملكيته المطلقة للكون وما فيه وقدرته: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ وهذا تأكيد من الله تعالى مؤكد بإضافته الى الله تعالى العلى الأعلى.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ الاستدراك هنا لمخالفة المخالفين بعد تأكد الخبر من فم الأمين الصادق ومن الله تعالى، وذلك يوجب التصديق والإذعان والإيمان وحكم على الكثرة لا على الجميع؛ لأن الذين لا يعلمون الحق وأخذوا بالمادة هم الأكثرون كقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ...(١١٦)﴾ [الأنعام].

ولقد قرب الله تعالى البعث بأمر يرونه كل يوم، فقال تعالى:

﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦)﴾.

الضمير فى كلمة ﴿هُوَ﴾ يعود إلى لفظ الجلالة مالك السموات والأرض والمدبر لهما ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ يخلق من الميت حيا، ويخرج من النواة الجامدة حبا ناميا، يأتى بالزرع حبه متراكب ثم يصير غثاء أحوى فيكون فى ذلك حطام، ويميت الإنسان فيصير ترابا، وهكذا المثل المستمر فى الوجود بين إحياء وإفناء، وأن من يفعل ذلك قادر أن يعيد الأموات أحياء ويبعثهم.

ثم يبين سبحانه النتيجة منذرا ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أى أن الرجوع إليه وحده لا محالة، وإن جزاء الإحسان إحسانا، وأما الإساءة فعاقبتها عذاب يوم عظيم والله يتولى كل شىء.

شرع الله رحمة وشفاء

يقول تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ
مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ
(٥٧) قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا
يَجْمَعُونَ (٥٨) قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ
فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ
تَفْتَرُونَ (٥٩) وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَشْكُرُونَ (٦٠)

النداء للناس جميعا عربا كانوا أم عجما؛ لأن شريعة الله للناس كافة كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ... (٢٨)﴾ [سبأ].

ولذا كان النداء بالبعيد لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾.

تبين هذه الآية أن ما جاء به ﷺ قد اجتمعت فيه عناصر أربعة هى أقسام القرآن الكريم وهدايته:

القسم الأول ـ الدعوة إلى كل خير والإبعاد عن الشر والزجر، وضرب الأمثال فى القصص القرآنى الحكيم، والتربية النفسية بالعظة والاعتبار، كما قال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ** ... ﴿١١١﴾﴾ [يوسف].

ونسب سبحانه الموعظة إلى نفسه فقال: ﴿**مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ وذكر الرب فى هذا المقام إشعار بأنها فى التربية الربانية الحكيمة لمن اتعظ واعتبر وأدرك وفقهت نفسه إلى الحقائق ووعاها.

القسم الثانى ـ أنه مما اشتمل عليه القرآن أنه شفاء لما فى الصدور، كما قال تعالى: ﴿**وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ**﴾ فإذا كانت الموعظة تقتضى واجبا إيجابيا هو تربية وتهذيب وإنشاء، فالشفاء كشف وإزالة لأدران الأمراض النفسية من حسد وحقد وتباغض وتنازع وخوف تبتدئ فى الصدور وتنتهى إلى أن تكون أسقاما فى المجتمع البشرى تفسد بناءه وتقوضه، وكل هذا داء يحتاج إلى دواء، وفى القرآن الكريم ذلك الدواء الذى يكون به الشفاء.

القسم الثالث ـ هو الهداية فقال سبحانه: ﴿**وَهُدًى**﴾ أى أن فيه الهداية إلى الطريق المستقيم، وهو صراط الذين أنعم الله عليهم فسلكوا الطريق الأقوم وبعدوا عن الشرك والضلال والاعوجاج، وساروا على هدى من الله استقامت به قلوبهم وألسنتهم وكان منهم المجتمع الكامل القويم لا عوج فيه ولا التواء عن القصد السوى.

القسم الرابع ـ ﴿**وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ**﴾ هو ما فى القرآن الكريم من رحمة، والرحمة هنا هى الشريعة المنظمة لمجتمع المؤمنين الذى يأخذ بها كل ذى حق حقه، ويرتدع بها الظالم، ففى شرائعها الإيجابية رحمة بالناس وكل نظمها رحمة وفى شرائعها الناهية رحمة؛ لأنها تنقية من الفساد ودفع لظلم الآحاد، وإذا كان الظلم شقاء فدفعه رحمة وسعادة، وإن العقوبات الزاجرة التى شرعها الكتاب الحكيم رحمة، وإنه من الرحمة أن يؤخذ المجرمون بجرائمهم، وقد قال ﷺ: «**من لا**

يَرْحَم لا يُرْحَم»[1] ودفع الظلم والقصاص رحمة؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ ... (١٧٩)﴾ [البقرة].

ودفع اعتداء المعتدين رحمة وذلك من قوله تعالى: ﴿... وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ ... (٢٥١)﴾ [البقرة].

وإن الموعظة والشفاء والهدى والرحمة للمؤمنين؛ لأنهم يتعظون بمواعظه ويستشفون بشفائه ويهتدون بهدايته وتنالهم رحمته.

قال البيضاوى فى مغزى هذه الآية: «قد جاء كتاب جامع للحكمة العملية الكاشفة عن محاسن الأعمال ومقابحها، المرغبة فى المحاسن والزاجرة عن المقابح، والحكمة النظرية التى هى شفاء لما فى الصدور من الشكوك وسوء الاعتقاد وهدى إلى الحق واليقين ورحمة للمؤمنين، حيث أنزلت عليهم، نجوا بها من ظلمات الضلال إلى نور الإيمان، وتبدلت مقاعدهم من طبقات النيران إلى مصاعد من درجات الجنان».

إن من فضل الله على عباده نزول القرآن الكريم المشتمل على هذا الفضل العظيم الذى يقول فيه سبحانه:

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)﴾.

أمر الله نبيه ﷺ أن يقول: ﴿بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ أى أن هذا القرآن الذى نزل جامعا للموعظة المبينة وشفاء القلوب وهدايتها، والشريعة هى من فضل الله على خلقه الذى يختص بها من يشاء، وبرحمته على عباده الذين أنقذهم من الضلال، وفى هذا بيان بأن تنزيل القرآن وما فيه هو بفضل الله ورحمته، وتكرار حرف الجر (الباء)؛ لبيان أن كليهما مراد الله تعالى من تنزيل الكتاب، ثم يبين سبحانه أن هذا القرآن بما فيه هو أساس للسعادة والسرور والفرح لقوله تعالى:

(١) متفق عليه، وقد سبق تخريجه.

﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ والفاء الثانية واقعة فى جواب الشرط المقدر المطوى فى قوله تعالى: ﴿فَبِذَلِكَ﴾ أى فإن ذلك النزول إذا كان من فضل الله ورحمته فليفرحوا، وتكررت (الباء) لتأكيد أن ذلك الفضل وتلك الرحمة من أسباب الفرحة وهو يزيد على كل خير الدنيا؛ ولذلك قال تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ الضمير فى ﴿هُوَ﴾ يعود إلى القرآن بما فيه من موعظة وهداية وشفاء لأسقام القلوب، ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أى من أموال ورخاء فى الدنيا وأسباب القوة وغير ذلك مما هم حريصون على جمعه راغبين فيه، فإنه إن كان يفرح زمنا فإنه يكون وبالا على صاحبه، والمفاضلة هنا هى بين منافع مادية عاجلة ومنافع روحية، وكلمة خير تدل على أنه بلغ أعلى الدرجات عن هذا الذى يجمعونه.

إن الشريعة الرحيمة التى تشمل الحلال والحرام يخرج الكافرون عن نطاقها ولهذا قال تعالى:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) ﴾.

أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يسألهم عن الرزق الذى أنزل إليهم إذ يجعلونه حراما وحلالا من غير أمر إلهى يحل لهم ويحرم. وقد بين الله تعالى فى الآية السابقة كيف هداهم وأرشدهم، وفى هذه الآية الكريمة كيف يتلقون رحمة الله إذا انحرفت نفوسهم بالشرك.

﴿أَرَأَيْتُم﴾ استفهام إنكارى والإنكار منصب على الرؤية وما بعدها من جعلهم بعضه حراما وبعضه حلالا، والاستفهام الإنكارى هنا إنكار للواقع، أى بمعنى التوبيخ فالله تعالى يوبخهم على أن جعلوا منه حراما وحلالا.

وكلمة ﴿أَنزَلَ﴾ معناها خلق وأنشأ، وعبر بالنزول باعتبار أن الرزق رحمة نازلة من الله تعالى، أنزل سبحانه من السماء مطرا أنبت به من ثمرات كل شىء مما يأكل الناس والأنعام وهو بمقتضى أصل الخلق والتكوين حلال بالإباحة الأصلية

الثابتة، يقول تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا... (٢٩) ﴾ [البقرة] إلا ما كان من الخبائث التى حرمها الله تعالى، ويقول سبحانه: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا ... (١٣٦) ﴾ [الأنعام].

أى للأحجار التى جعلوها بزعمهم شركاء لله.

وحرموا السائبة والوصيلة والحام وغير ذلك كفرا بالنعمة وشركا بالله وعبثا برحمته.

﴿ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً ﴾ أى صيَّرتم منه حراما على أنفسكم، ولم يكن كذلك بل كان حلالا بمقتضى أن الله لم يحرمه. ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يسألهم ﴿ قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾، وهنا الاستفهام داخل على لفظ الجلالة وموضوعه الإذن وهو فاعل لفعل محذوف دل عليه «أذن» بعد ذلك، كالشرط إذا دخل على الاسم كما فى قوله: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) ﴾ [الانشقاق].

الاستفهام إنكارى لإنكار الوقوع مع التوبيخ لهذا التحريم، و﴿ أَمْ ﴾ التالية للإضراب عن الاستفهام السابق؛ لأن المستفهم عنه منفى وقوعه، فهو انتقال من الاستفهام الإنكارى النافى إلى استفهام توبيخى نافٍ للواقع، فقد حكم سبحانه مع التعجب التوبيخى بنفى أن يكون ذلك بإذن الله، والاستفهام ممحص للتوبيخ على ما وقع منهم، وهو الافتراء على الله تعالى: ﴿ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾.

وقدم قوله تعالى: ﴿ عَلَى اللَّهِ ﴾ للتخصيص، أى أنتم بهذا تفترون على الله لا على غيره، وأى فساد فى التفكير أن يكون افتراؤهم على الله خالقهم وخالق الوجود كله، وأنهم يعترفون بالخالق وأنه لا شريك له فى خلقه ولكن يعبدون الأحجار لتكون شافعة عنده، فكانوا سخفاء فى شركهم وفى تبريره. تعالى الله عما يشركون.

بعد أن أكد سبحانه أنهم يفترون سألهم عما يتوقعه الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة.

﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (٦٠) ﴾.

الظن هنا هو التوقع المبنى على الظن الذى اختاروه لأنفسهم سبيلا بدل أن يتحروا مستيقنين، والاستفهام توبيخى إنكارى وطلب لأن يفكروا فيما يتوقعون يوم القيامة، هل يتوقعون مع افترائهم على الله أن يدخلوا جنات النعيم؟ أم يتوقعون جزاء وفاقا لما صنعوا فى جنب الله تعالى من عصيان وتمرد على أوامره، بل إنهم ساروا فى عصيانهم إلى أبعد أنواع الضلال فافتروا على الله فى الحلال والحرام، فحرموا على أنفسهم نعمه ونسبوا التحريم إليه، وحللوا ما حرم الله وافتروا كما كانوا يفعلون من الطواف عرايا.

وقد بين سبحانه أنه أنعم عليهم، وهم الذين غيروا وبدلوا وحرموا طيبات أحلت لهم ولم يشكروا بالطاعة والحمد على ما تفضل به عليهم سبحانه، فقال تعالت كلماته: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ ﴾ فى قوله تعالى تأكيد لفضله بـ﴿ إِنَّ ﴾ المؤكدة وبالجملة الاسمية، وبأن الفضل يصحب كل تصريفه لأمور العباد تعالى، فقال سبحانه: ﴿ لَذُو فَضْلٍ ﴾ مؤكدا ذلك باللام.

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ ﴾ الاستدراك هنا معناه أنه كان حقا عليهم أن يشكروا فاستدرك سبحانه على هذه النتيجة المنطقية وقرر أن أكثرهم عدلوا عنها وانحرفوا عن مسلكها إلى الضلال فكانوا لا يشكرون وجحدوا، وكان التعبير بالمضارع؛ لدوام عدم شكرهم وتكرر جحودهم وتجدده آنا بعد آن.

الله تعالى رقيب على العباد

قال تعالى:

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

إن أكثر الناس لا يشكرون نعمة الله ويكفرونها، وإذ يدعوهم النبى ﷺ يناله أذاهم واستهزاؤهم والتعذيب لبعض أتباعه ومقاومة الدعوة وفتنة من يتبعونها من الضعفاء وغيرهم، والله تعالى يبين علمه بذلك وإمهاله لهم رجاء إجابتهم.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ الشأن هو القصد والحال من قولهم شَأَنْتُ شَأْنَهُ، أى قصدت قصده، والله تعالى يعلم أحوال النبى ﷺ ومقاصده وما يقوله من إرشاد وتوجيه وبيان لحججه، والله سبحانه عليم بجهاده فى دعوته إلى ربه ﴿وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ﴾ أى ما تتلوه عليهم من أجل هذا الشأن، ولتحقيق الرسالة فى القرآن فالضمير فى قوله تعالى: ﴿وَمَا تَتْلُو مِنْهُ﴾ يعود على الشأن، أى ما تتلو من أجله عليهم فى بيان هذا الشأن لتكذيبهم، فتتحداهم لإثبات الحق كالآيات التى يتحداهم فيها أن يأتوا بمثله.

﴿وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ التفت الخطاب الكريم إلى الناس جميعا مؤمنهم وكافرهم، كما هو شأن الخطاب فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ... ﴿٢١﴾﴾ [البقرة]، وكان هذا الخطاب العام للناس لبيان علمه سبحانه بكل ما يعملون، وفى ذلك إنذار وتبشير ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾، ﴿مَا﴾ نافية وكلمة ﴿إِلاَّ﴾ للاستثناء من

النفى، أى ما كان عمل النبى معهم ولا عملهم معه إلا كنا عليه شهودا، ضمير المتكلم لله سبحانه، وجاء بضمير الجماعة تعظيما وإجلالا، وجاء هكذا لمناسبة ضمير الجماعة فى ﴿كُنَّا﴾؛ ولأن ﴿شُهُودًا﴾ تتضمن تعدد الشهادة بعدد حوادثها، فالله تعالى يعلم علم المشاهدة والمعاينة لكل واقعة وكأنه شاهد عليها، وبتعدد الحوادث يتعدد العلم بالمشاهدة، وكان علمه سبحانه ـ وله المثل الأعلى ـ علم شهود.

والشهادة تتضمن هنا معنى المراقبة والإحصاء والتتبع والاستقراء، ولذا قال تعالى فى بيان أنه يعلم كل شأن وكل عمل فى وقت وقوعه ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أفاض بمعنى اندفع واسترسل، والضمير فى كلمة ﴿فِيهِ﴾ يعود إلى كلمة ﴿عَمَلٍ﴾ أى لا تعملون عملا، ويشمل العمل القول، إلا يعلمه سبحانه وقت أن تندفعوا فيه مسترسلين سواء كان خيرا أم كان شرا، دقَّ أو جلَّ؛ ولذا قال سبحانه فى بيان علمه لكل شىء مهما صغر: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾، ﴿يَعْزُبُ﴾ أى يغيب فالمعنى أنه لا يغيب ولا يبعد فهو حاضر دائما مهيأ عند الحساب، ﴿مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ أى وزن ذرة وهى أصغر جزء لفتات الأشياء، وقد أثبت العلم أن بالذرة نواة ذات ثقل والله تعالى أعلم بما فيها، وقال العلماء: إن فى قوتها مجتمعة ومنفردة دليل لقدرة المنشئ لكل شىء فى الوجود الفاعل المريد المختار.

ثم يقول سبحانه فى بيان عموم علمه: ﴿وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ﴾ كلمة ﴿لا﴾ هنا هى تأكيد للنفى فى ﴿مَا يَعْزُبُ﴾ وكل هذا مكتوب فى كتاب مبين، أى بيِّن واضح يبرز يوم القيامة منشورا معلما كل ما فيه، ولقد ذكر سبحانه عموم علمه بالأشياء ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾ [الانعام].

ثم يقول سبحانه: ﴿ ...لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ ... ③ ﴾ [سبأ].

وقد تساءل الزمخشرى عن تقديم السموات على الأرض فى هذه الآية؛ لأنه سبحانه قدم الأرض فى الآية من سورة يونس، فقال الزمخشرى: «من حق السماء أن تقدم على الأرض، ولكنه سبحانه لما ذكر شهادته على شئون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم فلزم تقديم الأرض، وفوق ذلك أن التكليف والحساب والإنذار والتبشير على أهل الأرض ولا يعرف لأهل السماء إلا فى علم التكليف، ولأن الأرض خلق منها الذين يحاسبون وإليها يعودون والله تعالى عليم بكل ما فى الوجود».

أولياء الله

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ ﴾

ذكر سبحانه وتعالى أنه ناصر أوليائه، وأن مآلهم النعيم لا يخافون ولا يحزنون: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

وليُّ الله هو المحب لله المطيع لأوامره المجتنب نواهيه، ويكون الله تعالى فى قلبه دائما، لا يتحرك إلا فى حب الله رجاء رضاه أولا، ورحمته ثانيا، واتقاء

عذابه ثالثا، وإن المشركين الكافرين كانوا يعادونهم ويستكبرون عليهم فبين الله تعالى أنهم إذا كانوا فقدوا ولاء الكافرين فقد استبدلوه بأن الله مولاهم، وأولياء الله يتحابون فيما بينهم ولا يوادون من يحادد الله ورسوله، كما جاء فى قوله تعالى: ﴿**لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ** ... (٢٢)﴾ [المجادلة].

﴿**لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ لا خوف عليهم من عذاب يترقبونه ولا هم يحزنون لخير فاتهم، وأكد نفى الحزن عنهم؛ لأن قلوبهم عامرة بالله سبحانه ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ** (٦٣)﴾ آمنوا بالله حق الإيمان يعبدونه كأنهم يرونه فإن لم يكونوا يرونه يحسون فى عبادتهم كأنهم فى حضرته العلية سبحانه، وهذا هو الإحسان، كما قال ﷺ: «**اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[1]. ﴿**وَكَانُوا يَتَّقُونَ**﴾ أى يخافون غضب الله تعالى ويتقون عذابه.

وإنهم إذ يؤمنون ذلك الإيمان ويحسنون ويتقون الله حق تقاته، تكون قلوبهم عامرة بذكر الله تعالى فلا يخافون من مستقبلهم، وقد فوضوا أمورهم لله تعالى وتوكلوا عليه سبحانه حق توكله بعد أَخْذِهم بالأسباب، وتركوا لله تعالى مؤمنين أن يوفق ويربط الأسباب بمسبباتها.

وهنا عبارتان لهما مغزاهما:

العبارة الأولى ـ قوله تعالى: ﴿**لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ أى أنهم يرجون ما يرجوه المؤمن من ربه فالله تعالى يلقى فى قلوبهم الاطمئنان إلى المستقبل، وفى قوله تعالى: ﴿**وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ تأكيد لعدم الحزن:

أولا: بتكرار كلمة ﴿**لا**﴾ النافية، فإنها مؤكدة للنفى المذكور فى ﴿**لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**﴾.

(١) متفق عليه، وقد سبق تخريجه.

ثانيا: بذكر الضمير ﴿هُمْ﴾ فذلك مؤكد من مؤكدات الحكم.

ثالثا: فى التعبير بالمضارع الذى يصور الاستمرار فإنهم لا يداخلهم الحزن؛ لأن قلوبهم عامرة دائما بذكر الله فامتلأت طمأنينة، والاطمئنان يطرد الحزن كقوله تعالى: ﴿...أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)﴾ [الرعد]..

العبارة الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ وفيه جمع بين الماضى والمضارع، الماضى فى ﴿كَانُوا﴾ والمضارع فى ﴿يَتَّقُونَ﴾، وهذا يفيد استمرار التقوى، قلوبهم ممتلئة دائما بخشية الله تعالى، وهم بذلك يستصغرون أعمالهم بجوار حق الله ويشعرون أنهم لم يؤدوا حق الله فيرجون رحمته ويخافون عذابه، وذلك مقام الصديقين القريبين من الله دائما.

عن عمر رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: **إن لله عبادا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله**، قيل: يا رسول الله أخبرنا من هم، وما أعمالهم؟ قال: **هم قوم تحابوا فى الله من غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور وإنهم لعلى منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس**[١]، ثم قرأ الآية: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾.

وقبل أن نترك الكلام فى معنى الولاية وقد عرَّفها سبحانه بأنها الإيمان الخالص والإحسان الكامل وامتلاء النفس بالتقوى، لابد أن نتكلم حول خوارق للعادات، يقولون أنها تجرى على أيدى من يسمونهم أولياء، وبعض علماء الكلام يقولون: إنها تسمى كرامة، وذلك خلاف لما جاء على يد الرسل وسميت معجزات.

---

(١) أخرجه أحمد: باقى مسند الأنصار ـ مسند أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه (٢٢٣٩٩).

ويذهب البعض إلى وجوب الإيمان بكرامة الأولياء، ونحن نقول: لا نزيد على الدين ركنا من أركان الإيمان، فمن رأى خوارق جرت على يد رجل ليست سحرا فليُسَر بما رأى، ومن لم ير شيئا من ذلك فليس عليه أن يؤمن بما لم يكلفه الله تعالى الإيمان به.

وقد ذكر سبحانه ما ينال أولياء الله تعالى من خير بقوله:

﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤) ﴾.

﴿ لَهُمُ ﴾ الضمير يعود على أولياء الله، البشرى هى التبشير بما يلقى السرور فى أنفسهم، وقد حكم الله تعالى لهم بالبشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، وذلك وعد حق، ولذا قال سبحانه: **﴿ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾** وهى ما قرره سبحانه من عذاب ونعيم وبعث ونشور فهى لا خلاف فيها ولا تبديل لكلمات الله الأزلية الباقية ومن ذا الذى يبدل أو يغير فى كلمات الله التى كتبها لعباده المتقين.

والبشرى فى الحياة الدنيا تكون بما ذكره الله لعباده المتقين فى كتابه الكريم وسنه نبيه ﷺ كقوله تعالى: **﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) ﴾** [فصلت].

وقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «**إن البشرى هى الرؤيا الصادقة تبشره بالخير**»(١)، وروى أن البشرى تكون الثناء على عمله والرضا بما يفعل. روى عن

(١) رواه البخارى بنحو عن أبى هريرة رضى الله عنه: التعبير - المبشرات (٦٩٩٠). كما رواه مسلم: الصلاة - النهى عن قراءة القرآن فى الركوع (٤٧٩)، والنسائى: التطبيق (١٠٤٥)، وأبو داود: الصلاة (٨٧٦)، وابن ماجة: تعبير الرؤيا (٣٨٩٩)، وأحمد: مسند بنى هاشم (١٩٠٣)، والدارمى: الصلاة (١٣٢٥).

أبى ذر أنه قيل: يا رسول الله إن الرجل يعمل العمل يحمده الناس ويثنون عليه، فقال ﷺ: «**تلك عاجل بشرى المؤمن**»(١).

إن المؤمنين الصافية نفوسهم والذين أخلصوا وجوههم لله تعالى تميل إليهم قلوب المخلصين، وكان بعض الأعراب يؤمنون بمجرد رؤيتهم لوجه النبى ﷺ رآه مرة أعرابى فسأله: أأنت الذى تقول قريش أنك كذاب، ما هذا بوجه كذاب ثم أسلم. ذلك صفاء النفس المحمدية بدا نورا فى وجهه فآمن الأعرابى.

وأما بشرى الآخرة فهى لقاء الملائكة لهم بابلشرى، كما قال تعالى: ﴿**لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ** (١٠٣)﴾ [الأنبياء].

كما يقول سبحانه: ﴿**يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** (١٢)﴾ [الحديد].

وإذا كان النبى ﷺ ولى الله وهو أول الأولياء وهاديهم فلا يلتفت إلى قول الذين يناوئونه؛ لأنه ولى العزيز الحكيم؛ ولذلك قال سبحانه:

﴿**وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** (٦٥)﴾.

﴿**وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ**﴾ هذا نهى له ﷺ حتى لا يبالى بهم ولا يأبه أو يحزن لما يقولون من تكذيب وتهديد ومن استهزاء وسخرية ومعاندة وإصرار على الكفر وطلبهم لعشيرته أن يسلموه لهم ليقتلوه، والنهى عن الحزن نهى عن الاستسلام له والانشغال به بل يستمر فى دعوته، فالله عاصمه من الناس، وقد علل ذلك النهى بما يبين أن الغلب فى النهاية له، فقال ﴿**إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا**﴾، وهذا استئناف فى مقام التعليل للنهى السابق، والعزة هى الغلبة والسلطان وجميعها لله تعالى فلا عزة

(١) هذا لفظ أحمد: مسند الأنصار (٢٠٨٧٢)، والحديث رواه مسلم: البر والصلة - إذا أثنى على الصالح فهى بشرى لا تضره (٢٦٤٢) عن أبى ذر رضى الله عنه.

لهم وإن استكبروا واستعلوا بالباطل وحاولوا إيذاء النبى ومن معه، ولم يذكر عزة للنبى ﷺ؛ لأن عزته سبحانه وتعالى هى عزة للنبى ﷺ إذ هو وليه والله ناصره إذ يدعو؛ إلى سبيله ويناله ما يناله بسبب دعوته إلى الله ووحدانيته وجَعْل كلمة الله هى العليا وكلمة الكفر هى السفلى.

وقد طمأن الله نبيه، وهدد معانديه بقوله تعالى فى ختام الآية: ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

والضمير يعود إلى لفظ الجلالة وهذان وصفان، يؤكدان أولا- عزة الله تعالى وأنه وحده هو العزيز الغالب؛ لأنه سميع، أى عالم علم من يسمع، عليم بكل أحوالهم ما خفى منها وما ظهر ومن كان كذلك فهو العزيز وحده، ثانيا- إنذار لهؤلاء المستهزئين بعاقبة ما يقولون؛ لأنه يحاسبهم على ما يقولون ويستهزئون والله هو الولى وهو الناصر القادر على كل شيء.

الله هو الخالق وحده

يقول تعالى:

أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ
مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ
يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا
ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ
ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ
سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ

إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

﴿أَلا﴾ للتنبيه إلى ما يقوله سبحانه وما يمكن أن يكون دليلا على قدرته القاهرة الموجبة لعبادته وحده، والأمر الجدير بالتنبيه أنه سبحانه وتعالى له من فى السموات ومن فى الأرض، وكلمة ﴿مَن﴾ للعقلاء، أى أن الله تعالى يملك العقلاء فى السموات والأرض من ملائكة وجن وإنس، وإن كان يملكهم فهم عبيده، كما قال تعالى: ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ... ﴿١٧٢﴾﴾ [النساء] وكقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم]، وإذا كان هؤلاء لحكم الملكية عبيدا فغير العقلاء مثل الأحجار والأبقار أولى بأن يكونوا عبيدا؛ إذ للعقلاء حرية وإرادة واختيار وعقول وفكر ومع ذلك هم عبيد الله بحكم أنه خلقهم وملكهم فليس بجائز أن يكون معبود غير الله تعالى؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ ومؤدى النص الكريم أن الذين يدعونهم، أى يعبدونهم على أنهم شركاء لله تعالى ليسوا شركاء لله تعالى فى شىء من الشركة التى تقتضى أن للشريك ملكا وأن الشريك نظير لشريكه، وكيف تتحقق هذه الشركة بين خالق كل شىء وبين حجر لا يضر ولا ينفع، أو بين عبد من عباده هو سبحانه خالقه ومالكه، وكلمة ﴿مَا﴾ نافية، أى لا يتبع الذين يعبدون غير الله شركاء لله تعالى، وكلمة ﴿مِن﴾ بمعنى بدل، وذلك إذ إنهم أشركوا عبادة غير الله مع الله فقد كفروا بالله ولم يعبدوه.

فالشركة منفية بلا ريب، ولا حقيقة لها، فإذا كانت غير موجودة فلا يصح أن يقولها من يعرف أن الله وحده هو خالق السموات والأرض.

أشار سبحانه إلى أن أوهامهم وظنونهم هى التى زينت لهم أن يجعلوا شركاء، ولذا قال تعالى: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾، ﴿ إِن ﴾ هنا نافية، فهم لا يتبعون إلا الظن وليس الظن هو العلم الراجح وإنما هو الأوهام والهواجس تتوهمها عقولهم ثم تلج فيها وتستولى عليها بحكم التزيين، حتى تكون كالظن بل حتى تكون كالعلم فى عقولهم التى عششت فيها الأوهام وأيقنت بها، فيقول سبحانه: ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾، أى يتوهمون ثم يظنون ثم يعتقدون وما لهم من حجة ولا دليل، ثم أكد سبحانه عموم خلقه فهو لم يخلق العقلاء وحدهم بل خلق الوجود كله.

يقول تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧) ﴾.

أنعم الله تعالى على خلقه العقلاء بنعمتى الليل والنهار، ليل ليسكنوا فيه ويقروا مع أهليهم وذرياتهم قرة أعينهم وليطمئنوا، وجعل النهار مبصرا ليعملوا فى الأرض يعمروها ويصلحوها، وفى قوله تعالى: ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ مجاز لأن المُبصر هو الحى الذى رزق نعمة البصر ووصف به الزمان للمبالغة فى وصف نوره وضياه، وفى هذا إشارة إلى أصل خلق الكون؛ فاختلاف الليل والنهار حال موقع الشمس من الأرض، وذكر هذا فيه دلالة بالاقتضاء على نعمة الله فى خلق الكون كله من السماء ببروجها والأرض برواسيها ومهادها وآكامها وطبقات معادنها وأطيارها وأسماكها وكل ما فيها من نعم، ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ...(١٨) ﴾ [النحل]، وأن الكون كله وما فيه من آيات تدل على أنه الواحد الأحد وأنه لا معبود سواه؛ لأنه الإله وحده، وأن ما يسمونه لهم عبادة ليس بعبادة إنما هى أوهام سيطرت عليهم خضعوا لها ولأهوائهم، ولذلك قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ إشارة إلى الدلائل البينة الواضحة لخلق الليل والنهار

لقوم يسمعون الحق ويستجيبون له ويهتدون به، وكأن الله تعالى ينفى السماع عمن يسمعون ولا يفقهون، كقوله تعالى: ﴿ ... **وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا ...** (١٧٩) ﴾ [الأعراف].

ولكن فى هذه الآية ذكر سبحانه السمع دون البصر؛ لأن القرآن يتلى عليهم والآيات تقرع حسهم فلا يعتبرون، فهم لا يسمعون دعاء القرآن لهم بعبادة الله تعالى وحده ولو كانوا يعتبرون بالآيات لسمعوا القرآن واعتبروا به.

﴿ **قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** (٦٨) ﴾.

إذا كان كل من فى الأرض ملكا لله تعالى وعبيدا له، فالمسيح مملوك لله تعالى؛ لأنه سبحانه خالقه، ومن يستنكف أن يكون عبدا لله تعالى، وإذا كان الوثنيون قد اتخذوا الأحجار آلهة، فإنه لا يقل شركا عنهم من قال إن الله اتخذ ولدا؛ ذلك أن كليهما أشرك، والوثنيون لم يمسوا الذات الإلهية وإن كانوا ضلوا ضلالا بعيدا، أما من قالوا اتخذ الله ولدا فقد وافقوهم فى الشرك ومسوا الذات العلية.

﴿ **قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا** ﴾ لم يبين سبحانه من قال هذا، والنصارى ليسوا وحدهم؛ ذلك لأن الذين قالوه كثيرون ـ غيرهم ـ قبلهم، فالبراهمة قالوا: أن كرشنة ابن الله، والبوذيون قالوا: إن بوذا ابن الإله، وعنهم أخذت الأفلاطونية الحديثة، وعن الأخيرة أخذت النصرانية بعد أن بُدلت وحُرفت عن مواضعها وكذبوا على المسيح عليه السلام.

وكل هؤلاء مشركون والفرق بينهم وبين المشركين من العرب، أن مشركى العرب عبدوا الأوثان بعد أن قالوا: إن الله خالق السموات والأرض واحد فى ذاته وصفاته، وإشراكهم كان فى عبادة غيره معه، أما هؤلاء الذين ادعوا أن الله اتخذ ولدا فإنهم لا ينزّهون ذات الله تعالى ويشركون الولد كما أشرك غيرهم.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ تصوير صادق لقولهم فهم يقولون إن الله تعالى أراد أن يكفر عن سيئة آدم التي لحقت الخليقة فأنزل ولده إلى الأرض ليكفر عن خطيئة الخليقة بصلبه فداء عنهم، وقوله تعالى يشير إلى ذلك إشارة بينة واضحة، وإنهم بذلك القول الأحمق الغريب يمسون الذات العلية فيحسبون أن الله يحتاج إلى الولد كما يحتاج البشر، ولذا قال سبحانه ردا لقولهم: ﴿سُبْحَانَهُ﴾، أي تنزهت ذاته العلية، ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ إشارة إلى بطلان أقوال هؤلاء الذين لم يقولوا إن الله فاعل مختار، وقد بين سبحانه أن كلامهم ادعاء لا دليل عليه وافتراضات فرضتها الوثنية الرومانية والفلسفة اليونانية، ولذا قال سبحانه: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ والسلطان هو الحجة، والقرآن الكريم يستعمل كلمة السلطان في معنى الحجة؛ لأن الحجة الباهرة توجد بسلطان من الحق على الباطل، وسلطة الحق أقوى وأبعد من سلطة الطغاة الظالمين وإن كان ذلك مجاز من أبلغ الكلام.

وإذا كانوا لا حجة لهم فقد قال تعالى في قولهم هذا ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ والاستفهام للتوبيخ ورميهم بالجهل أولا، وبالكذب على الله ثانيا، وبمخالفتهم لكل منطق وعقل ثالثا، وقد جاء في قوله تعالى في نفي الولد: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥)﴾ [مريم].

إنهم يقولون على الله ما لا يعلمون ويصفونه بما لا يليق ويفترون على الله تعالى الكذب، وقد ذكر سبحانه عاقبة ذلك فأمر نبيه ﷺ بالرد.

﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (٦٩)﴾.

أمر الله تعالى نبيه ﷺ ليبين لهم مغبة من يفترى الكذب في قولهم اتخذ الله ولدا، وأن الأصنام شفعاء لله بقولهم ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى،

وهم فى ذلك كـاذبون، ومعنى يفـترون الكـذب، أى يقطعون من الكذب قطعـا وينسبون إلى الله ما لا برهان به.

وعد سبحانه بالموصول للـدلالة على أنه السبب فى الحكم عليهم بعدم الفوز وما يفوزون به فى الدنيا إنما هو الأمـد القصير، وليس بفوز ما تكون عاقـبته عذابا شديدا وندما كبيرا.

والافتراء يكبـر ويكبر المفترى عليه، وهؤلاء افتـروا على خالق الوجود وهو الله جل جلاله، وأكد سبحـانه عدم فلاحهم بكلمة ﴿إِنَّ﴾، والتعبير بالمضارع فى كلمة لا يفلـحون يدل على الاستـمرار، وإن من شأن الكـاذب على الله تعالى ألا يفلح، ولذا قدمت كلمة ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ على كلمة ﴿الْكَذِبَ﴾ لبيان شناعة الافتراء وأنه على رب الوجود ومنشئه وبارئه.

وقد يقول قـائل: إننا نرى هؤلاء المفترين الكاذبين ينالون متعـا يفوزون بها، فبين الله تعالى أن ذلك متاع الدنيا وأمدها القصير.

يقول تعالى: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)﴾.

أى أن مـا ينالونه فى الدنيـا ليس الفـوز العظيم الذى يفـوز به المتقـون ولا الفـلاح الذى يناله أهل الحق، وأن من يضحكون قلـيلا ويبكون كـثيرا لا يـعدون فائزين، بل متعجلين لأدنى النفع طاردون للمنفعة الباقية بالمنفعة العاجلة، والتنكير فى كلمة ﴿مَتَاعٌ﴾ للتحـقير والتـصغيـر، والتعبـير بمتاع يومئ إلى أنه قليل غـير جليل، وقد حدد بأنه فى الدنيا، ويرتضيه من يقبل الدنيا بدل الآخرة، ومن يطلبها ويطرح وراءها الآخرة.

ثـم يقول سبحانه فى عاقبة من يكذبون على الله ويتحدون الأنبياء: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾. كلمة ﴿ثُمَّ﴾، فى موضعها من الترتيب والتـراخى، والتراخى زمنى ومعنوى، أما الزمنى خـلاف الرجوع إلى

الله بعد البعث والنشور وقيام الساعة، أما المعنوى فما بين متعة الدنيا الفانية وعذاب الآخرة الباقى ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ فيه تقديم كلمة ﴿إِلَيْنَا﴾ على مرجع وفى ذلك معنى الاختصاص ووراءه الإنذار الشديد، أى إلينا وحدنا رجوعكم وقد افتريتم الكذب وعبدتم غير الله فلابد أن تنالوا الجزاء الوفاق على ما قدمتم من قول باطل وعقيدة فاسدة وشرك بيِّن، ولذا قال سبحانه: ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ﴾ وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ على موضعها كأختها التى قبلها. وعبر الله تعالى عن العذاب بقوله «نذيقهم» للإشارة إلى أنه يصيب مشاعرهم وأحاسيسهم، يشعرون به، وكلما نضجت جلودهم بدَّلهم الله تعالى جلودا غيرها، ثم يبين سبحانه أن ذلك ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾، حيث يدل الفعل الماضى والمضارع على الاستمرار على كفرهم يجددونه آنا بعد آن.

نوح عليه السلام وقومه

قال تعالى:

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم
مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟
أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟
إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ
أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾
فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ
وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ
﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ

﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

تجيء القصة فى القرآن للعبرة كما قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ** ... ﴿١١١﴾﴾ [يوسف] فكل قصة هى موضع عبرة وكل جزء من قصة هو لعبرة فى هذا الجزء تناسب وضعه ولا تكاد تجيء قصة كاملة فى موضع إلا قصة يوسف عليه السلام فهى متكاملة فى موضوعها وهى بيان لحال الأسرة المصرية فى عهد فرعون أو عهد الفراعنة ـ كما سنبين عند الكلام فى معانيها إن شاء الله تعالى، إن امتد الأجل إليها فى موضعها. نجد فى قصة نوح ـ عليه السلام ـ ومن يليه من الأنبياء مواقف مشابهة لتلك التى كانت تلقى بالحزن والألم الشديد فى قلب النبى ﷺ من كبراء قريش وخصوصا من كانوا يقفون موقف الزعامة الوثنية فيها، حتى لقد قال الله تعالى مخاطبا نبيه: ﴿ **وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** ... ﴿٦٥﴾﴾ فكان من المناسب ذكر جزء من قصة نوح ـ عليه السلام ـ مع قومه وكيف صبر وصابرهم ثم بيان ما نزل بهم من غرق، وكذلك قصة موسى مع طاغية التاريخ الإنسانى فرعون وما لقيه منه موسى ـ عليه السلام ـ وما قاوم به ثم ما آل إليه أمره من الغرق فى اليم بعد أن نجا بنو إسرائيل بعد أن انفلق البحر لهم اثنى عشر فرقا، وكل فرق كالطود العظيم. فكان هلاك الظالمين من قوم نوح وقوم موسى بالغرق وإن اختلف نوعه، فهلاك قوم نوح كان بسيل منهمر وينابيع، أما هلاك فرعون وجيشه فكان بسيرهم فى البحر الذى فتح لبنى إسرائيل مع موسى عليه السلام ثم انطبق على فرعون وجنوده.

﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ** ﴾ أى الخبر العظيم الشأن الذى اتصل بنوح ـ عليه السلام ـ ولم يبتدئ بقومه، بل ابتدأ به؛ لأنه الذى نزل به البلاء وكانت المحاربة بينه وبين قومه الذين عتوا وبغوا فى الأرض وأصروا على عبادة الأوثان بإصرار .

﴿يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ ناداهم نوح ـ عليه السلام ـ بما يقربه إليهم، وهو أنهم قومه الذى نشأ بينهم وتربى فيهم وكان الأولى بهم أن يستجيبوا له بدل أن يناوئوه ويكونوا حربا عليه، ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي﴾ مؤيَّدا من الله، والمقام هو مقام الرسالة الذى كرمه الله تعالى به، وعظم عن أن تدرك عقولهم تذكيره بآيات الله ـ فإنه بهم لا يبالى فقد توكل على الله تعالى ولم يعد يحزنه قولهم، وبلغ عدم الاهتمام بهم أن قال لهم ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾، (الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإنه يترتب على التوكل على الله أن يواجههم معتزما إمضاء كلمة الله تعالى، ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾، أى اعتزموا ما اعتزمتم، يقال جمع أمره إذا عقد عزمه ووثقه، ﴿وَشُرَكَاءَكُمْ﴾، الشركاء: هى الأوثان التى اتخذوها بزعمهم شركاء الله تعالى فى عبادته، سبحانه وتعالى عما يشركون، وهو بهذا يتحداهم معتمدا على الله متوكلا عليه حق توكله. ﴿ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أى لا يكن أمركم مستورا، وهذا معنى ﴿غُمَّةً﴾، بل يكون ظاهرا مكشوفا بيِّنا، أى ائتوا بكل قوتكم ظاهرة. ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾ أى افعلوا بى ذلك الأمر الذى تدبرون، من إهلاك أو طرد أو ما ترونه أنفسكم. ﴿وَلا تُنظِرُونِ﴾ أى عجلوا أمركم لا تؤجلون، فإنى مؤيد من الله وهو معى ولن يضيرنى ما اعتزمتم وقد اعتمدت عليه سبحانه.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢)﴾.

﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ أى أعرضتم عن الآيات وعن دعوة التوحيد التى أدعوكم إليها فإنكم تعرضون عن قول رسول أمين وناصح رشيد لا يريد منكم أجرا من مال أو جاه أو سلطان إنما يريد الحق لذاته. ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ﴾؛ أى لا أريد منكم أجرا فقد كفانى الله أجرى وهو شرف الرسالة لا شرفكم ولا جاهكم ولا سلطانكم ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ الذين أسلموا وجوههم وهم مخلصون لا يريدون إلا ما عند الله.

هذه دعـوة لينة إلى الحق بعد التـحدى الذى قـدمه وبعـد أن بين لهم أنهم ضعفاء أمام الحق فإنه استمالهم إليه إلا أنهم عادوا فكذبوه.

﴿ **فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ** (٧٣) ﴾.

ذكر سبـحانه نجاة المؤمنين مع نوح ـ عليـه السلام ـ ابتداء، وذكرت الـقصة تسـرية للنبى ﷺ وذكرى للعـالمين وبيـان أن العاقـبة سـتكون له ﷺ، وفى ذلك أمران:

الأمر الأول ـ أنه سبحـانه جعل نوحا ـ عليه السلام ـ وأتبـاعه خلائف فى الأرض، وخلائف جمع خليفة أى الذين يعيشون فى الأرض خلفاء لأبناء آدم، أى انحصرت ذرية آدم حال ذلك فى نوح عليه السلام والذين آمنوا معه.

والأمر الثانى ـ أنه سبحانه أغرق الآخرين، ثم قال سـبحانه مبينا العبرة من قصة نوح عليـه السلام وقومه ﴿ **فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ** ﴾ الذين أنذرناهم فلم يفطنوا ولم يعتبروا، ولم يذكر سبحانه جزاء للمؤمنين؛ لأنه بين منجاتهم، أما الجزاء الأوفى يكون يوم الحساب وهو يوم الدين.

وقد ذكر سبحانه الإغراق إذ قال تعالى: ﴿ **وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا** ﴾ فعبر بالموصـول دليل على أن الصلة هى السـبب فى الغـرق، والصلة كـانت التكذيب بآيات الله تعـالى التى سـاقـهـا لهم نـوح ـ عليـه السـلام ـ فلم يؤمنوا وأصـروا واستكبروا استكبارا.

قال تعالى: ﴿ **ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ** (٧٤) ﴾.

أشار سبـحانه إلى الأنبيـاء من بعد نوح مثل هود وصالح شـعيب وإبراهيم ولوط عليهم السلام وغيرهم، وكلهم كذبوا مع ما جاءوا به من الآيات، وجاء ذكر الرسل بعد نوح ـ عليه السلام ـ بالإجمال، فلم يذكرهم سبحانه نبيا نبيا، كما جاء فى سور أخرى وكما سيجىء فى سورة هود ولكن الله تعالى أثبت أمرين:

الأمر الأول ـ أن كل رسول جاء بالبينة الدالة على رسالته صارفا أنظارهم إلى الكون وما فيه، والضمير فى قوله تعالى: ﴿**فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ**﴾ يعود على الكافرين بكل الرسل وكأنهم مع اختلاف أجيالهم قبيل واحد يجمعهم الجحود والعصيان والكفر بآيات الله تعالى؛ فالناس أبناء الناس ويجمع الأخلاف صفات الأسلاف، ويجمع المؤمنين صفات الإذعان للدليل والتصديق للحق، ويجمع المكذبين صفات الجحود بالآيات ولو كانت بينة تستيقنها نفوسهم.

الأمر الثانى ـ سبب الكفر الذى تتوارثه الأجيال التى كتب الله عليها شقوتها فقال جلَّت كلماته: ﴿**فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ**﴾ أى أن شأن الذين يكفرون أن يبادروا عند دعوة الحق الذى يجئ به نبى من الأنبياء بالتكذيب قبل أن يمنعوا فى دعوته وقبل أن يستمعوا إلى الدليل ويتأملوه ويتعرفوه، فإذا سارعوا بالتكذيب نأوا عن الحق وجادلوا عن كفرهم وأمعنوا فى الباطل إمعانا وضلوا ضلالا بعيدا فلا يستقيم لهم إيمان بعد ذلك ويطبع الكفر على قلوبهم وتنغلق على الكفر، كما جاء فى آيات أخرى مثل قوله تعالى: ﴿ ...**وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ** (٨٧) ﴾ [التوبة]، وكقوله: ﴿**كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ**﴾ فهم يبادرون بالإنكار معتدين، ثم يلج بهم العناد فيكرروا الاعتداء المرة بعد الأخرى حتى يصير والاعتداء وصفا ملازما لهم، لا يقفون عند حد فيكون اعتداء على الحقائق وعلى آيات الله وعلى العباد.

من قصة موسى وفرعون

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ
فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾
فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾
قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ

ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا
وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٨﴾
وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ
قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ
مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ
عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ
ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ
خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ
فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ
ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ
تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا
بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ
أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ
وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ
رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ
ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ
وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٨٨﴾
قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ
ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾

بعد ذلك ذكر الله تعالى قصة موسى وفرعون، وذكرها فى هذا المقام:

أولا ـ فرعون أكبر طاغية عرف فى تاريخ الإنسانية وطغيان الكبراء من العرب دونه، وقد أعز الله موسى وبنى إسرائيل وأهلكه فكان حقا على النبى ﷺ أن يطمئن إلى عزة الله تعالى إذ يقول: ﴿**إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا**﴾.

ثانيا ـ أن فرعون كان مسيطرًا جبارًا على قومه يراهم ملكا له، وقد جاء محمد ﷺ بأنه لا مالك إلا الله وأن الناس جميعا عباد له سبحانه.

ثالثا ـ كان فرعون يتحكم فى عقول قومه ويقول لهم: ﴿ ...**مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ** (٢٩) ﴾ [«غافر]، وجاء محمد ﷺ بحرية النفس والفكر والعقل.

﴿ **ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ** (٧٥) ﴾.

جاء موسى بالبينة الدالة على رسالته، وجاء بالعصا التى ألقاها فإذا هى حية تسعى، وكان قومه على علم بالسحر، فإذا عرفوا أنها ليست سحرا قامت عليهم الحجة. وكلمة ﴿**ثُمَّ**﴾ للترتيب والتراخى، أى أنه بعد أزمان متعاقبة ومتطاولة بعث الله موسى وهارون، ذلك أن موسى سأل الله تعالى أن يرسل معه أخاه ﴿ **اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي** (٣١) **وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي** (٣٢) ﴾ [طه]. أرسلهما الله إلى فرعون وملئه، أى كبراء قومه والذين يحرضونه على الفسق فى مصر، ويمالئونه على ما يدعيه ولم يذكر شعب مصر أى الكثرة الغالبة وكانوا مهملين لا رأى لهم؛ كما وصفهم عمرو بن العاص فى ذكره مصر «هى لمن غلب»، وقد بادروا بالتكذيب وعجلوا فيه دون أن يتفكروا ويتدبروا حقيقة الدعوة إلى الحق والبينات الشاهدة بأن موسى وهارون مبعوثان من الله تعالى، ولذا قال سبحانه: ﴿**فَاسْتَكْبَرُوا**﴾ وكان العطف بالفاء للدلالة على المبادرة بالاستكبار، وفيه تكذيب وعلة للتكذيب، أى فكذبوا واستكبروا عن الاستماع إلى الحق وأصموا آذانهم ووصفهم الله تعالى

بقوله: ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ وكلمة ﴿وَكَانُوا﴾ تدل على أنهم كانوا كذلك فى الماضى، والوصف بالإجرام ﴿مُّجْرِمِينَ﴾ يدل على استمرارهم فلم تكن دعوة الحق فيهم مستجابة.

لذا قال تعالى فى شأنهم مع رسولهم:

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (٧٦) ﴾.

الفاء للترتيب والتعقيب، والحق هو الدعوة إلى التوحيد وإلى الله وحده، وقال سبحانه: ﴿مِنْ عِندِنَا﴾ تكبيرا لذلك الحق؛ لأنه من عند الله تعالى مالك الملك ذى الجلال والإكرام فوصفه سبحانه بالحق، ووصفه بأنه الحق شرف ذاتى له وبكونه من عند الله تعالى شرف إضافى له، وكلمة الحق تتضمن الدلالة على أنه حق لا ريب فيه. وقد آتى الله تعالى موسى تسع آيات بينات ويظهر أنه ابتدأ بتقديم العصا، ولذا قالوا: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، بادروا فأكدوا أنه سحر مبين، أى سحر واضح بين ﴿إِنَّ﴾ تدل على التوكيد وباللام وبالجملة الاسمية، ذلك من مسارعتهم بالتكذيب ثم الانغمار فيه إلى آخر مداه، ولقد تولى موسى عليه السلام المجاوبة وتركه فرعون يدافع عن دعوته.

﴿قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) ﴾.

أى أتقولون للحق لما جاءكم إنه لسحر، جاهلين حقيقة الأمر فالاستفهام لإنكار قولهم وتوبيخهم عليه، وكرر الاستفهام فقال: ﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾ فكان الإنكار للجحود وقولهم الجاحد للحق والحقيقة، والاستفهام للتوبيخ على قولهم وهو لإنكار الوقوع، أى ليس بسحر، وقد أكد سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ أى لا يفوز الساحرون فى معركة الاستدلال والمنازلة، وإذا لم يفلحوا فإنه يجب أن تؤمنوا ولكنهم لجوا فى العناد وتمسكوا بما هم عليه.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨) ﴾.

ذكر الله تعالى قولهم: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾، أى لتصرفنا عما وجدنا عليه آباءنا من عبادة فرعون والآلهة التى يحل فيها، ومن عبادة الشمس وإله الزرع وعبادة البقر. ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾ أى السلطان والسيطرة والحكم فى الأرض وهى أرض مصر؛ وعبر عن الحكم والسلطان بالكبرياء؛ لأن المصريين كانوا لا يفهمون فى الحكم إلا الاستعلاء والتحكم والاستكبار، وأن تكون طبقة الحاكمين العالية وطبقة المحكومين المرذولين، وعبادة المحكوم للحاكم.

ثم أكدوا كفرهم بالحق لما جاءهم فقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ نفوا عن أنفسهم صفة الإيمان نفيا مؤكدا وكان ذلك:

أولا - بذكر الضمير الدال على التعظيم.

ثانيا - بالجملة الاسمية، وقوله: ﴿لَكُمَا﴾ لامتناع التسليم، بل إنهم مناوئون غير مستسلمين، بل هم منصرفون.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٨٠)﴾.

جاء فرعون وتولى المنازلة فقال ائتونى بكل ساحر عليم، أى عليم بالسحر وأفانينه، وكان للسحرة مكانة ومنزلة فى مصر، وكانوا كثيرين مشهود لهم بالسحر ولهم مكانة فيه، فلما جاء السحرة قال لهم موسى: ﴿أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾. وفى هذه الآية نجد موسى - عليه السلام - عندما التقى بهم طلب إليهم أن يلقوا، وفى الآية التالية ما يدل على أنهم ألقوا وتشير إلى ابتدائهم، ولكن فى سورة الأعراف ما يدل على أنه قد حدثت مجاوبة بينه وبين السحرة قالوا فيها: ﴿...إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦)﴾ [الأعراف]. وأنه لا تعارض بين الآيات بل توافق تام ولكن ما فى سورة الأعراف يُفصِّل بعض التفصيل، وهنا يُجْمل كل الإجمال؛ إذ إن نتيجة المجاوبة كانت أن طلب موسى أن يلقوا هم، وأدرك موسى وهو المؤمن

بحجته أن فعلهم سحر كقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) ﴾.

﴿ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ ﴾ إنه هو السحر وحده، لا ما سيقدمه، والاختصاص ثبت بتعريف الطرفين، وأكد أن الله سيبطله وأنه فساد بين الناس، وقد جاء فى سورة الأعراف: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) ﴾.

وختم الله أمر السحر ببطلانه حيث قال تعالى:

﴿ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢) ﴾.

يثبت الله الحق ويؤيده وينصره بكلماته وأمره الذى يكون بكلمة، وبآياته الآمرة والناهية المثبتة لحق المحكومين على الحاكمين والمبطلة لظلم الظالمين ولو كانوا من الفارعين، ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ الذين أشركوا فأجرموا وطغوا وبغوا وغرَّهم الغرور.

قال تعالى:

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) ﴾.

مع هذه الدعوة الصادعة إلى الحق لم يستجب إلا القليل وفى كلمة ﴿ قَوْمِهِ ﴾ يعود الضمير إلى فرعون، وما آمن شيوخ كبار منهم بل آمنت ذرية، أى جيل جديد ممن لم يتمرسوا بذلِّ الفرعونية، والشباب إنما يكونون أكثر مسارعة إلى الحق وأقل تمسكًا من آبائهم بأهداب القديم، خاصة إذا كان ذليلا، ويقول قائل: إن الضمير فى ﴿ قَوْمِهِ ﴾ يعود إلى موسى، وقوم موسى هم بنو إسرائيل وذكر الذرية دون عمومهم؛ لأن الذرية تطلب الحرية وتبتغيها، وشيوخهم غرست فى نفوسهم العادات والعبادات المصرية القديمة ورضوا بالدون من الحياة كما يبدو ذلك

فى قصصهم مع موسى، وفى قولهم له: ﴿...اجْعَل لَّنَا إِلَهًا ... (١٣٨)﴾ [الأعراف]، ومن عبادتهم العجل، ومن امتناعهم عن دخول الأرض المقدسة، وقد رأى ذلك ابن جرير ونحن نتبعه فى رأيه. وقد كان إيمان هذه الذرية على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم، وكلمة ﴿عَلَى﴾ بمعنى (مع)، أى أنهم فى إيمانهم كانوا وجلين خائفين من فرعون وملئهم، والضمير فى كلمة ﴿مَلَئِهِمْ﴾ يعود إلى فرعون والمراد به فرعون وملئه، والذى رأى أن يعود الضمير على ملأ بنى إسرائيل أن تلك الذرية المؤمنة كانت على خوف من قومهم الذين تأثروا بالعقائد المصرية من تقديس فرعون وعبادة العجل كما سيبدو من حالهم مع موسى بعد اجتيازهم البحر ورؤية المعجزات الباهرة ونعموا بها، أى إن أولئك الذرية الذين آمنوا بما جاء به موسى كانوا على وجل من فرعون وقومه وعلى وجل من قومهم أنفسهم ومنهم الشيوخ الذين تمرسوا بالخنوع والكفر.

(الفاء) فى قوله تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ﴾ للترتيب، أى بسبب أنهم عتاة فى الضلالة ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه، وقد وصف الله تعالى فرعون بما يمنع إيمانه فقال تعالت كلماته: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ وفى هذا وصفان كلاهما يمنع الاستجابة لدعوة موسى عليه السلام:

الوصف الأول ـ أنه عال فى الأرض ينظر إلى الناس كأنهم جميعا دونه وأنه ليس من طينتهم، ومن كان ذلك يغره الغرور فيقول للناس ما أريكم إلا ما أرى.

والوصف الثانى ـ أنه مسرف، أى مُغَالٍ فى كل شىء، أسرف على نفسه وأسرف على الناس وأسرف فى العتو والفساد.

أكد الله الوصفين بـ ﴿إِنَّ﴾ واللام، وبالجملة الاسمية، و﴿يَفْتِنَهُمْ﴾ بمعنى يضطهدهم فى دينهم، وذكر الضمير بالمفرد عودا على فرعون أولا وبالذات، فهو قطع أيدى المؤمنين وصلبهم فى جذوع النخل فنسبت الفتنة إليه دون ملئهم.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤)﴾.

اتجه موسى عليه السلام إلى قومه الذين جاء لإنقاذهم وقد رآهم يخافون فرعون ويخشونه فقال لهم: ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ﴾ حق الإيمان فلا تخشوا فرعون وطاغوته بل توكلوا على الله﴾، ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾، (الفاء) واقعة في جواب الشرط، يليه الفعل للاختصاص، أي توكلوا عليه وحده. ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ أي إن استمررتم على وضعكم وهو إسلام الوجه والإخلاص لله سبحانه. ولقد استجاب قوم موسى فتوكلوا على الله لا يرهبون فرعون وطاغوته.

﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦)﴾.

أي عليه وحده توكلنا، ومن يتوكل على الله لا ترهبه قوة في الأرض، ثم اتجهوا إليه سبحانه ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، أي لا تجعلنا موضع فتنة واضطهاد وإيذاء للقوم الذين تضافروا على الظلم واتباع الطاغية فرعون، أي ربنا اصرف عنَّا أذاهم، ثم أردفوا دعاءهم بطلب الإنقاذ فقالوا: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦)﴾ وهم فرعون وملئه.

كان الذين آمنوا هم الذرية، ولكن القوم جميعا شعروا بأن موسى جاء لاستنقاذهم فأسلموا وسلموا له، وإن كان لا يزال منهم من فيه بقية من ذل فرعون كامنة ستبدو بعد أن يطمئنوا لخروجهم من ذل فرعون.

كان بنو إسرائيل مختلطين بالمصريين الذين يسومونهم سوء العذاب، فأوحى الله تعالى إلى نبيه موسى ـ عليه السلام ـ أن يفصلهم عن المصريين، وأن يتحيزوا حيزا دونهم ليكون ذلك خطوة للنجاة.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧)﴾.

﴿تَبَوَّءَا﴾، من باء يبوء بمعنى رجع واطمأن، أي اختاروا بيوتا لقومكما يبوءون إليها وتكون نائية عن بيوت الفرعونيين؛ لأنكم ستتخذونها لعبادة الله تعالى

وحده وتقيمون فيها الصلاة، وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أى مصلىً؛ ولذا قال سبحانه بعد ذلك: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾، أما إلى أية جهة يتجهون، فلم تعرض الآية لذلك، وقيل: كانوا يتجهون إلى الكعبة وبعضهم قال: إلى بيت المقدس.

وإنى أرى أن المراد بأن تكون بيوتهم قبلة هو أن يعلمها بقية بنى إسرائيل فيتجهون إليها ويأرزون نحوها فيجتمعون فيها وتكون لهم حوزة يتحيزون إليها. والجميع أمروا بإقامة الصلاة، ثم قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أى أن من يؤمن منهم له البشرى فى الدنيا والآخرة وأن الله ولى المؤمنين.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨)﴾.

علم نبى الله موسى ـ عليه السلام ـ أن بنى إسرائيل تبهرهم المادة وتستهويهم زخارف الدنيا ووافقه على رأيه أخوه وردفه هارون، ورأيا أن طغيان فرعون كان سببه ما فى يده من أموال وزخارف وما تحت سلطانه من كنوز الأرض، فقد كان ملكه يمتد إلى الحبشة وما فيها من جبال ووهاد قد ضمت فى بطونها معادن وذهبا وفلزات الأرض، فقال موسى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ﴾ أعطيت فرعون وأشرافه الذين يعاونونه ويمالئونه فى ظلمه وبغيه، زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾، اللام هنا لام العاقبة، أى كانت عاقبة هذا الإيتاء وذلك التمكين فى الأرض أن يضلوا عن سبيلك بالكفر والظلم والعتو والطغيان، وألا يراعوا حقا، وأن يدعى فرعون أن له ملك مصر، وأن هذه الأنهار تجرى من تحته، ويرجو موسى ربه ضارعا أن يزول عنهم ما سبب طغيانهم. ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ الطمس هو المحق، أى امحق أموالهم لا تجعلها صالحة لأن ينتفعوا بها ﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أى اجعل قلوبهم تذوق الشدة المريرة فمن

صخرة الشدة قد تنبع المعرفه فيعرفون ضعفهم أمام قوة الله تعالى فيذهب طغيانهم. ﴿فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ فى ذهاب أموالهم وفراغ نفوسهم وذوق قلوبهم للقسوة الشديدة، و(الفاء) فاء السببية.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٨٩)﴾.

وقد أنزل الله تعالى بهم ما طلب موسى وأخوه، والدعوة هنا الدعاء وتطلق على كل طلب، والاستقامة هى الإيمان بالحق والإخلاص فى القول والعمل وصدق الاتجاه إلى الله تعالى، وأكد الله تعالى طلب الاستقامة بقوله: ﴿وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ فإن مسلكهم ليس فيه استقامة بل هو الاعوجاج والعدول عن الطريق المستقيم. ولقد قال تعالى فى معنى الاستجابة لموسى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦)﴾ [الأعراف].

نجاة بنى إسرائيل وإغراق فرعون

قال تعالى:

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ
فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ
ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ

وَأَنَا مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ
مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ
خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾
وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ
فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

ضاق فرعون ذرعا ببنى إسرائيل، ومع أن الآيات توالت عليه حتى بلغت تسعا، ومع كل هذا أراد الفتك ببنى إسرائيل، وكان موسى قد تبوأ لقومه مكانا يقيمون فيه شعائر دين التوحيد فأمر الله نبيه ـ عليه السلام ـ أن يضرب البحر بعصاه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم، وكانت الفروق اثنى عشر فرقا بقدر عدد أسباطهم فاجتازوه وأتبعهم أى أدركهم ولاحقهم وقد أعد العدة لإبادتهم، وحسب أنه ناجٍ مثلهم من الغرق فانطبق البحر عليه فأغرقه ومن معه.

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ﴾ أى اجتازوه بأمر الله تعالى وعنايته بهم ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ﴾ أى لاحقوهم بغيا من عند أنفسهم وعدوا ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴾ ذهب عنه غروره ساعة أن أدركه الغرق وبان ضعفه وتكاثرت عليه آيات الله التى جاءته على يد موسى وأخيه فآمن ساعة الموت حيث لا يقبل الإيمان: ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾ [النساء].

وقد بين الله تعالى لفرعون أن إيمانه غير مقبول ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ الاستفهام للتوبيخ على تأخره وقد آمن حيث لا ينفع

نفس إيمانها، والاستفهام منصب على ﴿آلآنَ﴾، والتوبيخ على تأخر الإيمان إلى وقت الغرق ولذا يقول سبحانه: ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾، وقد أشار سبحانه إلى أمرين:

الأمر الأول ـ يتعلق بفرعون نفسه وقد عصى من قبل وادعى الألوهية وكفر بالوحدانية واصطناعه العصاة مثله وخضوعه للسحر والكهانة.

الأمر الثانى ـ يتعلق بعمله ﴿وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أرهقت الناس بظلمك وأضعفت إرادتهم وقتلت نخوتهم وجعلتهم عبيدا، ولا فساد فى أمة أكثر من فناء آحادها حتى يكونوا كالآلات يحركها ويدفعها، ووصف سبحانه فساده بالاستمرار طول حياته وحياة أمثاله، فعبر بـ﴿كُنتَ﴾ التى تدل على الاستمرار، ووضعه فى صف المفسدين فى الأرض وقد كان أشدهم عتوا وطغيانا.

لقد نجاه الله ببدنه ليكون آية دالة على قدرة الله تعالى وليراه الناس مثلا واضحا لمن أرهق شعبه وظلم وطغى وبغى وأكثر الفساد، ونرى ذلك دائما فيمن يحاكونه وكأنه على مقربة منَّا.

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢)﴾.

(الفاء) للإفصاح عن شرط مقدر، تقديره إذا كنت قد غرقت وضعفت واستخذيت فى آخر لحظة - اليوم ننجيك ببدنك، وذكر اليوم للإشارة إلى أنه ينجو ببدنه فى ذلك اليوم، وأضاف الإنجاء إليه سبحانه وجعله واقعا على فرعون باعتبار أنه صاحب البدن؛ ولذا قال تعالى: ﴿بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾، أى دلالة أولا على عظيم قدرة الله تعالى التى قهر بها طاغوت عصره، و ثانيا للاعتبار لأن مآل الطغاه هو الفناء، وثالثا بيان أن الله تعالى القادر على بقاء الأبدان، هو قادر على إعادة الأموات، ورابعا بيان أن العدالة هى الخير الباقى وأن الظلم هو الشر الذى يذكر الطغاة بسببه بأنهم مفسدون.

ولقد بقى ببدنه وهو آية القدرة الإلهية، يتخذه المفسدون لنشر الفساد والإتجار به فى العالم.

﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ غافلون عن آيات الله تعالى فى الكون والناس ولولا أنهم غافلون لأقاموا العدل واعتبروا بفرعون ولأبعدوا الغرور عن أنفسهم وما استبدوا بمن يماثلونهم فى الخلق والتكوين من الناس وقد يزيدون عليهم فى المواهب التى أنعم الله بها على بعض عباده الأبرار، ولو لم يكونوا غافلين لآمنوا بقدرة الله تعالى على البعث والنشور.

وقد أكد الله غفلة الكثيرين من الناس بكلمة (إن) وبالجمله الاسمية وباللام فى قوله تعالى: ﴿لَغَافِلُونَ﴾.

هذا أمر فرعون ونهايته، أما أمر بنى إسرائيل فقد ذكره الله تعالى فى قوله:

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣)﴾.

كان بنو إسرائيل فى أرض فرعون فى منزل دون ومكان هون، فكانوا فى ذلة ومهانة فخرجوا وجاوزوا البحر فى عزة ورأوا فرعون وملئه يغرقون ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أى مكَّنا لهم مكانا يطمئنون فيه ويبوءون مستريحين أعزة فيما بينهم مستقلين عن التبعية والذل.

وقوله: ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أى مقاما مطمئنا فاضلا يبعد عن السحر والكهانة وغيرها من أوهام فرعون. وقد جاء فى مفردات الراغب الأصفهانى أنه يضاف إلى الصدق الفعل الذى يوصف به نحو قوله: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ ... (٥٥)﴾ [القمر]، و﴿... قَدَمَ صِدْقٍ ... (٢)﴾ فالصدق هو عنوان الفضائل؛ لأنه يتضمن صدق القول وصدق النفس والضمير، وهو عنوان لكل عمل فاضل ومكان طيب.

وفى هذه الإقامة الطيبة الفاضلة الكريمة العزيزة رزقهم الله تعالى المن والسلوى، وقد سجل الله اختلافهم بعد أن جاءهم العلم بالحق، ورأوا المبينات

الواضحة الدلالة القاطعة فى إثبات الوحدانية والرسالات الإلهية، ومع ذلك لمّا اختلفوا، كانت الذلة جامعة بينهم موحدة مؤلفة، كما جاءهم العلم ومعه العزة اختلفوا على فرق والله سبحانه يحكم بينهم يوم القيامة.

العبرة فى القصص

يقول تعالى:

فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ
فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ
ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ
(٩٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ
(٩٦) وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ (٩٧)

فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ
ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ
إِلَىٰ حِينٖ (٩٨) وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ
جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ (٩٩) وَمَا
كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ
عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ (١٠٠) قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ (١٠١)

فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ
قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى
رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ
﴿١٠٣﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ
تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ
أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا
وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ
مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾
وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن
يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ
وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ
ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن
ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ
مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) ﴾ .

الشك هو الضيق، ثم أطلق على التردد فى الحكم بين اليقين والإنكار؛ لأنه يحدث فى النفس ضيقا، وسياق القول فى هذه الآيات وما قبلها هو بيان القرآن

للنبي ﷺ أنه أصاب أولى العزم من الرسل ما أصابه من قومه ونزل بهم من الشدائد والإعراض والاستهزاء والسخرية ما نزل به ﷺ، وأنه سبحانه ينبه نبيه ﷺ إلى صدق ما أخبره ويثبت فؤاده، وفى النهى عن الشك أمر بالتثبت واليقين والاطمئنان إلى أنه الحق. فقوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ هو فرض غير واقع والغرض منه:

أولا ـ تثبيت النبى ﷺ.

ثانيا ـ بيان أن الكتب السابقة ثابت فيها هذا.

ثالثا ـ تذكير النبى ﷺ بما حدث للنبيين قبله.

رابعا ـ بيان أن القصص الصادق يربى اليقين.

والدليل على أن النص لا يفيد أن النبى ﷺ لم يشك، أن أداة الشرط هى «إن» وهى تدل على أن فعل الشرط ليس بواقع ولا محقق.

والشك ـ كما قال الغزالى ـ هو طريق الوصول إلى الحق، وقد ذكر الله تعالى فى القرآن أن المشركين يسارعون بالتكذيب ولا يتروون فيتفكروا ويصلوا إلى الحق البين، والله سبحانه وتعالى يفرض الشك الذى لم يقع كأنه واقع ليسوق الأدلة المثبتة وهى شهادة الكتب السابقة لهذه الاخبار الصادقة، التى تزيل كل أوهام المشركين على أن الخطاب فى قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ هو لأهل الخطاب الذين يعلمون القرآن أو يتلونه بأن يسألوا الذين أوتوا الكتاب من قبل.

وقوله تعالى: ﴿مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ فيها ما يفيد نفى الشك لأنه من عند الله تعالى الذى بعثك رحمة للعالمين فلا ريب ولا يمكن أن يكون ريا؛ب لأنه عاين الوحى الذى خاطبه به الروح الأمين جبريل عليه السلام نزل به على قلبك وأن ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ... ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة]، ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [آل عمران].

الامتراء هو الشك بعد اليقين، فالنهى عن الامتراء هو للاستمرار على اليقين والإيمان، وألا يتزلزل ذلك اليقين بفعل المشركين، وأن مؤدى ذلك القول هو تأكيد الحق وتثبيته لأتباع محمد ﷺ ولتثبيت فؤاد النبى محمد ﷺ وإيمانه الراسخ كالجبال أو أشد، فكثرة الدلائل تثبت اليقين كقول إبراهيم ـ عليه السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ... (٢٦٠) ﴾ [البقرة].

وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ نص يوجب اليقين، فالحق وحده نور يجلو اليقين قد أكده سبحانه وتعالى بكلمه «قد» وباللام قبلها، وقال: ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ أى الذى خلقك ورباك، ولذا رتب عليه النهى عن الافتراء.

(الفاء) فى قوله: ﴿ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها والنهى موجه فى ظاهرة للنبى ﷺ، وهو موجه للناس عامة وأهل مكة خاصة.

﴿ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) ﴾.

لقد جاء قوله تعالى بعد النهى عن الامتراء. وهذه الجملة القرآنية معطوفة على قوله تعالى: ﴿ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ والنهى كالنهى السابق مؤكد بنون التوكيد الثقيلة وهو موجه إلى النبى ﷺ بظاهر القول وموجه للناس كافة، ومع ذلك فيه إشارة إلى النبى ﷺ سواسية فى الخطاب بالحق مثلهم، وفى قوله تعالى: ﴿ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ نهى عن الامتراء، وأن الامتراء بعد الإيمان يؤدى إلى تكذيب آيات الله تعالى، ولذا نهى عنه ﷺ بسياق القول وظاهر الخطاب، النهى للناس أجمعين، وجعل النبى ﷺ أسوة لهم فى الخطاب كما هو أسوة لهم فى الإيمان والنهى الموجه له يكون بالأولى نهى لغيره، ذلك ليفتشوا قلوبهم ويبعدوها عن الامتراء فى الحق حتى لا يؤدى ذلك إلى التكذيب بآيات الله.

﴿ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ فى قوله تعالى نهى مؤكد لأن يكون الرسول ﷺ فى صفوف الكثرة الضالة التى خير منها القلة المؤمنة، فلا يقاس

الحق بالعدد والكثرة ولكن بالإيمان وقوة الدليل، ونكرر أن الخطاب للناس فلا يصح أن ينساق أحد وراء الكثرة المبطلة تاركا القلة المحقة، وعبر سبحانه بقوله تعالى ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ لبيان أن صلة الموصول سبب لانغمارهم فى الضلالة، إذ الآيات الكونية واضحة وآياته القرآنية تحدى بها العرب أن يأتوا بمثلها فعجزوا، وقد رتب الله تعالى على تكذيب الآيات الكونية والقرآنية الخسارة ﴿فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، (الفاء) لبيان أن ما بعدها مترتب على ما قبلها، أى أنه يترتب على تكذيب آيات الله أن تكون فى صفوف الخاسرين الذين خسروا الإيمان، وهذا أساس الخسران فخسروا الإيمان باليوم الآخر وما فيه من جزاء بعد الحساب، وخسروا فزعموا أن الحياة الدنيا وحدها هى الحياة وهذا هو الخسران المبين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٩٧)﴾.

بيَّن سبحانه أن الذين كفروا حقت عليهم كلمة ربك بالكفر فلا يؤمنون بأية آية مهما تكن واضحة.

تبين الآية حال المشركين فهم لا يؤمنون لنقص فى المعجزة الكبرى ولكن لأنهم سبقوا إلى الرد وأصروا عليه إصرارا ونفروا من الحق لا يردهم إليه معجزة، هم يطلبون معجزات مادية ولو جاءتهم لأنكروها وتنكروا لها بعد فترة من الزمان، وقد كانت التجربة مصدقة فى فرعون وملئه فمع الآيات التسع التى جاءت ما آمنوا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ (٩٦)﴾ يؤكد سبحانه أن الذين ثبتت عليهم كلمة الله تعالى أنهم فى سجل الكافرين، لا يؤمنون ولو جائتهم كل آية ولو كانت مما يطلبون، أى لو تضافرت الآيات معجزات كلها وجاءت مجتمعة لا يؤمنون، وأقرب القول أن يقولوا سحرت أعيننا فالجحود ملازم لهم لا يزايلهم أبدا. كان التأكيد فى هذا الحكم بـ﴿إِنَّ﴾ المؤكدة بقوله تعالى: ﴿لا يُؤْمِنُونَ﴾

تعبيرا بالمضارع دليلا على أن الإيمان ليس من شأنهم، وأنهم لا يذعنون وليس من طبعهم أن يؤمنوا بشيء بل الجحود شأنهم.

إن الكفر ينمى بعضه بعضا، فالكافر يبدأ جاحدا ثم يعاند ثم يؤذى المؤمنين ويحاربهم ثم يسير فى طريق الفساد حتى يتمكن الكفر منه فلا يؤمن.

وإذا كانوا كذلك فلن يؤمنوا بآيات الله مهما وضحت وبهرت الأنظار، وتستمر لجاجتهم فى الكفر حتى يروا العذاب الأليم فى الدنيا والآخرة.

أما فى الدنيا فقد كانت فى الماضى بالآيات المدمرة، أما بعد رسالة محمد ﷺ فبالمقاومة لشركهم بالحرب، وجنَّد له أبطالهم، ذلك لأن النفس الجاحدة تغريها النصرة بالمخالفة والفساد، والسيف قد ينبهها فيهتدى من يهتدى. وفى الآخرة فالعذاب فى جهنم وبئس المصير.

﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) ﴾.

عندما أدرك فرعون الغرق قال: **﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾** كان ذلك بعد أن سبقته الأحداث ولم تعد له توبة، وقد قص الله تعالى أمر قوم يونس وقد أجدى فيهم الإنذار وصدقوا رسولهم وهم على اختيار من أمرهم.

﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ﴾ كلمة (لولا) للحض على الإيمان مع ذكر أثره، والقرية هى المدينة العظيمة التى يجتمع فيها الناس، **﴿فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾** طهر نفوسها ومنع أهلها من الظلم وقربهم من ربهم، وجواب لولا محذوف إذا قلنا إنها شرطية، كقوله تعالى: **﴿ ...لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) ﴾** [سبأ]، ودل عليه أو قام مقامه فنفعها إيمانها. وإذا قلنا إنها لمجرد الحض على الإيمان فإنها لا تحتاج إلى جواب، ومهما يكن فالكلمات **﴿فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾**. بيان لأثر الإيمان وهو أن النفوس تتطهر وتقترب إلى الله تعالى ويكون لها الثواب والنعيم المقيم، ونفع الإيمان أيضا كان فى سعة من الوقت وليس كإيمان فرعون.

﴿إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ الاستثناء منقطع بمعنى لكن، وفيه بيان نفع الإيمان، والمعنى ألا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها، لكن قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى، وجوَّز النحويون أن يكون الاستثناء متصلا؛ لأن كلمة (لولا) حرف امتناع تدل فى مضمونها على النفى فيكون المضمون- ما قرية آمنت فنفعها إيمانها، إلا قوم يونس فإنهم آمنوا وقت السعة والاختيار فنفعهم إيمانهم، وذلك كقوله تعالى: ﴿لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ﴾ أى حين آمنوا مختارين أزلنا عنهم، وعبر بكلمة ﴿كَشَفْنَا﴾ إشارة إلى أن الخزى غمة وهلاك فإزالته كشف للغمة ومنع لها، وأبقيناهم ممتعين مرفهين فى الحلال إلى حين قضاء أجلهم. وقد روى أن يونس ـ عليه السلام ـ قد بعث نبيا فى مدينة «نينوى» من الموصل وكانت مدينة عظيمة، وقصة الآشوريين فى حكمهم ـ وهى مدينة قديمة دأب أهلها على تحصينها، وقويت شوكة حكامها حتى خضع لهم الكثير من ممالك آسيا، والملك الواسع يوصى بالتجبر كما كان من آل فرعون، وقد أغار قوم يونس كثيرا على من جاورهم، وكلما أغاروا أكثروا الفساد وسلبوا ونهبوا وارتكبوا الكثير من المظالم، أنذرهم يونس بالعذاب ينزل بهم لا محالة، وهم يعلمونه صادقا أمينا فيهم فلم يعبأوا ابتداء، ويروى أنه أخبرهم أن العذاب نازل بهم بعد أربعين ليلة فقالوا فى أنفسهم لو بقى فينا فنحن فى أمن وإن غادرنا لا نكون آمنين، لكنه غاب عنهم فقذف الله فى قلوبهم الرعب وفى قلب أميرهم الإيمان، ورأوا مقدمات العذاب تقترب منهم وتغشاهم وغامت السماء غيما أسود، فآمنوا واستغفروا وأنابوا إلى ربهم.

وإن هذا المثل يضرب بعد فرعون الذى آمن بعد فوات الأوان، وهو مثل لإدراك قوم يونس بعد أن غشيهم ما جعلهم يتوقعون ما أنذروا به فسارعوا بالنجاة وأزالوا آثار ما اقترفوا.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩)﴾.

إن كفر من كفر وهداية من اهتدى يكون بتقدير الله تعالى فى كتابه المكنون.

كان النبى ﷺ حريصا على إيمان قومه ومن بعث إليهم جميعا؛ لأن الحجة قائمة والحق بين والهدى مرشد، فيبين الله تعالى له أنه سبحانه لو شاء لهداهم أجمعين، ولكن تركهم يختارون عن بينة، فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليها. فقد خلق فيهم العقل الذى يختار ووضع فيهم النفس الأمارة بالسوء والنفس اللوامة فكانت الإرادة حرة، وتم الاختبار ليكون الثواب والعقاب والله أعدل الحاكمين.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾، ﴿كُلُّهُمْ﴾ تأكيد، و﴿جَمِيعًا﴾ حال. لو شاء الله أن يكون الناس كلهم مجتمعين على الهداية والإيمان لكانوا جميعا كذلك، ولكن لم يشأ ليكون الاختيار ويتميز المؤمن من الكافر، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ... (١٣)﴾ [السجدة]، ولكنه سبحانه أودع النفوس القدرة على الاهتداء، وبعث الرسل لكيلا يكون للناس على الله حجة وهدى الإنسان النجدين ليكون الاختيار ﴿... وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ... (٣٥)﴾ [الأنبياء]، ذلك ليكون التنازع بين الفضيلة والرذيلة وليكون من آمن عن بينة ومن كفر عن بينة، وكلمة ﴿كُلُّهُمْ﴾ تأكيد لفظى وجميعا حال، والمعنى مجتمعين على الإيمان لا يشذ من بينهم أحد.

ولقد قال تعالى فى تقرير الاختيار: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)﴾ [هود].

وإذا كانت تلك مشيئة الله تعالى وإرادته أن ترك لهم الاختيار، فليس لك أن تريد منهم ما لم يرده الله لهم.

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أيكون الإيمان بإكراههم والله تعالى أراد لهم الاختيار فى الاعتقاد والإيمان، و(الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها؛

لأنه إذا كان الله تعالى يريد لهم الاختيار فلا تكرههم، الاستفهام للإنكار بمعنى النفى، أى ليس لك أن تكره الناس على أن يكونوا مؤمنين، وقدم (أنت) على الفعل لأن موضع النفى أن تكون أنت أيها النبى مكرههم، وقد قرر الله تعالى لهم الاختيار.

﴿حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وهذا يفيد أن الإكراه موضع استنكار لأنه إيجاد للإيمان حيث لا تكون إرادة وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ فيه ما يدل على أنه ينشئ مؤمنين، وليس له ذلك، إنما هو لله تعالى الذى يقول: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ... (٢٧٢)﴾ [البقرة].

﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦)﴾ [القصص].

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ (٢٢)﴾ [الغاشية].

ثم يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (١٠٠)﴾.

أى ما استقام لنفس أن تؤمن بالله وباليوم الآخر والرسل الذين جاءوا بالأدلة الحاسمة إلا بإذن الله تعالى توجيها وتصريفا وتوفيقا فهو سبحانه وتعالى الملهم خلق النفس فسواها ألهمها فجورها وتقواها، فمن سلك سبيل الهداية والرشاد واتبع ما جاء به الرسل واستمع إليهم أخذ الله تعالى بيده إلى الإيمان، ومن سلك سبيل الغواية أمعن فى طريق الضلال، وكلاهما بإذن الله تعالى وإرادته.

﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ الرجس هو الأمر المستقذر فى العقل والإدراك والحس، كقوله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ... (١٤٥)﴾ [الأنعام]، أى أنه قذر حسا، والكفر يعد قذارة معنوية يصيب الفكر

كما يصيب لحم الخنزير المعدة بالقذارة، فإطلاقه على الكفر والتخاذل والبعد عن الله تعالى من قبيل المجاز بالاستعارة.

وفى قوله تعالى: أنه يجعل الرجس على الذين لا يدركون بعقولهم الفرق بين الحق والباطل، ولا يعملون بعقولهم، بل يقولون نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ولا يديرون الأمور بميزان العقل فهم فى ضلال بعيد.

﴿ **قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (١٠١)** ﴾.

أمر الله نبيه أن ينبههم إلى خلق السموات والأرض، وما يدل عليه، وأن يذكرهم بالوجود وما فيه، وأن العالم المرئى هو السموات والأرض وما فيهما من عجائب ونظم ونواميس يدبر أمرها ويقوم على وجودها ويسيرها بإرادته، لا تتحرك حركة عن حركة إلا بإذنه سبحانه بديع السموات والأرض.

﴿ **قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾، ﴿ **مَاذَا** ﴾ استفهام وتنبيه إلى عجائب السموات وارتباط نجومها وأبراجها برباط محكم لا يمكن أن يسير نجم فى غير مساره، ﴿ **لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)** ﴾ [يس]، وكل ما فى الكون سخره الله للإنسان من ثروات سائلة وجامدة، وما فى البحار من كنوز وأحياء، وله الجوارى تجرى فى البحر، بإذنه والرياح العظيمة والناقلة للماء واللقاح.

انظروا ماذا فى الأرض والسماء، هل من إله غير الله يسيرهما.

إن ذلك دليل على اللطيف الخبير المنشئ المبدع بإرادته السرمدية قائم على الكون ممسكا له من الزوال. كل ذلك أقره العرب ثم أشركوا، فتعالى الله عما يشركون.

﴿ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾، ﴿مَا﴾ نافية، والآيات هى الدلائل التى أشرنا إلى بعضها، والنذر جمع نذير وهو الرسول ﴿ ...وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) ﴾ [فاطر].

والمعنى أنه لا تنفع الآيات والنذر نفعا فيه غناء عن قوم لا يؤمنون، أى أن الله سبحانه أقام الآيات كافيه وأردفها بالرسل مبشرين ومنذرين ولا ينفع هذا كله قوما لا يؤمنون، أى قوما ضلوا سواء السبيل وسلكوا طرائق الشيطان، ﴿لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ ليس من شأنهم الإيمان بل اضطربت عقولهم وقلوبهم ونفوسهم وأنهم لا يفقهم إلا قارعة تنزل بهم فهل ينتظرونها .

﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (١٠٢) ﴾.

يراد بالأيام هنا الوقائع، وما نزل بالأمم قبلهم من خسف وريح وحاجب من السماء، و(الفاء) فى كلمة ﴿فَهَلْ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى أنه يترتب على استمرارها فى غوايتهم وضلالهم أنهم لاينتظرون إلا قارعة مثل الذين مضوا قبلهم. والاستفهام إنكارى لإنكار الوقوع بمعنى النفى، أى لاينتظرون إلا أن يقع مثل ما وقع للذين مضوا من قبلهم ممن عاندوا فى الحق وحاربوه وفتنوا أهله ﴿قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ أمر الله نبيه أن يخاطبهم منذرا مهددا.

إن كل نبى بعث فى قومه، أما محمد ﷺ فقد بعث للناس كافة الأحمر والأسود، ومن عاصروه والأجيال من بعدهم وهو خاتم المرسلين. والنص فى الآية الكريمة يستدل منه إلى أنه سينزل بهم مثل ما نزل بمن قبلهم كريح أو خسف أو غرق، ولكن الآية التى قرعت حسهم وأذهلتهم فى باطلهم هى الحرب العادلة منعا للفتنة وفتحا للدعوة حتى صارت كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى.

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣) ﴾.

فبعد أن أشار الله تعالى إلى ما ينزل بالكافرين من نوازل الدنيا مثل الذين خلوا من قبلهم، ذكر أنه ينجو من ذلك الرسل ومن يؤمنون.

كلمة ﴿ثُمَّ﴾ للتراخى والبعد الزمنى والمعنوى؛ لأن ما ينزل بهم يكون بعد إمهال يتمادون فيه ثم يكون الهلاك ثم تكون النجاة، والبعد الفارق بين أن ينزل البلاء وبين النجاة من عذاب يعم ولا يخص، وأضاف سبحانه الرسل إليه تشريفا لمكانتهم ولبيان أنهم ينطقون عن الله تعالى ولا يأتون ببهتان يفترونه ثم كانت المفارقة بين الذين آمنوا والذين كفروا بنجاة المؤمنين وهلاك الكافرين.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ فيه كلمة ﴿ثُمَّ﴾ عاطفة على محذوف دلت عليه الإشارة إلى أنهم ينتظرون إلى أن يهلكوا مثل الذين خلوا من قبلهم .

وقوله تعالى: ﴿نُنَجِّي﴾ بتشديد الجيم قرئت كذلك عند الأكثرين، وقرئت بالتخفيف، والتعدية بالهمزة والتضعيف، غير أنى أرى فى التضعيف معنى تأكيد النجاة والسلامة، فقد قال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تأكيد بعد تأكيد. وفى ذلك تبشير للنبى ﷺ بأن العاقبة للمتقين، وأن الظالمين مهما أرعدوا وأبرقوا فأمرهم إلى زوال، وأنه ﷺ ناج من كيدهم وتدبيرهم وغالب هو ومن معه فى هذا الميدان الدنيوى بين الخير والشر والإيمان والكفر .

وقوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ جملة معترضة بين متلازمين وهما ﴿كَذَلِكَ﴾ ﴿نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وأن قوله تعالى ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ معترضة لتأكيد وعد الله تعالى للمؤمنين وأنه لن يختلف فسماه سبحانه حقا عليه وهو الذى لا واجب عليه ولا يسأل عما يفعل، و﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ مصدر لفعل محذوف، والله ذو الفضل والمنة على عباده.

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) ﴾.

قد بيَّن سبحانه أن المشركين فى قبضته ثم أمر نبيه ﷺ أن يجعل نفسه أسوة فى الإيمان.

الخطاب لأهل مكة ومن يكون مثلهم كافة، ولذا نادى سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ والنداء للبعيد، لبعد نفوسهم عن نفسه ﷺ ومجافاتهم للحق وهو يتبعه.

﴿إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي﴾ إن كنتم فى ريب مع ما قدمت لكم من براهين وأدلة قاطعة على الدين الذى أؤمن به وأعتقده لأنه الحق فى ذاته والعقول تتلقى ما فيه بالقبول.

إن كنتم كذلك فلا تطمعوا أن أكون مثلكم أحيد عن الحق وأجافيه، وأعبد مثلكم الذين تعبدون من دون الله وهى الأوثان، وعبر عنها بما يدل على العقل بكلمة ﴿الَّذِينَ﴾ مجاراة لتفكيرهم إذ يعدونها من العقلاء ويعبدها كبراؤهم من المشركين والضالين.

وفى مجاراة الضال من غير اعتناق لما ضل به أفضل تنبيه، وحمل له على التفكير.

﴿تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ فى هذا دليل وبيان للسبب الذى دعاه ﷺ لئلا يعبدها وهى أنها غير الله الذى لا يعبد إلا هو وحده لا شريك له.

ولقد صرح ﷺ بمن يعبده فى قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ والاستدراك؛ لنفى أن أوثانهم تحيى أو تميت، وهو يتضمن إثبات عبادة الله وحده لا شريك له متجاوزا عبادتهم مبتعدا عنها، وفى الكلمة القرآنية ﴿الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ إشارة إلى استحقاقه للعبادة لأنه الذى يتوفى الأنفس حين موتها فهو يحيى ويميت وهم يرون ذلك ويشاهدونه.

وقد ذكر سبحانه الوفاة ولم يذكر الإحياء؛ لأن الوفاة لا تكون إلا للحى فذكرها يتضمن ذكر للإحياء، وإشارة إلى أنهم ليسوا مخلدين وأنهم ضعفاء يموتون، وذكر الموت يذهب بغرورهم وفى ذهابه تقريب لهم إلى الإيمان، كما أن آلهتهم التى لا تضر ولا تنفع، لا تميت ولا تحيى.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ جاء ذكر الأمر ولم يذكر الآمر سبحانه وتعالى الذى يعرفون أنه الخالق وحده؛ لأنه حاضر فى النفس دائما؛ لأن الأمر من الله يكون معه أمر العقل والإدراك المستقيم، والبرهان الصادق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فالأمر إذا جاء من الله الخالق الواحد الأحد جاء من العقل المدرك وجاء من الآيات البينات.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه ﴿أَنْ﴾ مصدرية، والأمر بالكينونة بهذه الصفة يفيد أن يكون مندمجا بها فى المؤمنين فى جمعهم الطاهر البعيد عن الوثنية.

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥)﴾.

بعد أمر الاندماج وتضافر صفوف المؤمنين، أمر نفسى فى قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذى جاء فى الآية السابقة، وجاء بصيغة الأمر من الله تعالى ومن آياته البينات الدالة على وحدانيته واستحقاقه للعبادة وحده، وكلمة ﴿وَأَنْ﴾ مصدرية هى وما بعدها مصدر، أى أمرت بالقيام لله وحده، وفى قوله تعالى: ﴿وَجْهَكَ﴾ إشارة إلى الاتجاه إلى الله تعالى بنفسه كلها لا يكون فيه شىء لغير الله، فالوجه كناية عن الذات كلها، فيكون حبه وبغضه لله تعالى، كما قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب الشىء لا يحبه إلا لله تعالى**»(١).

وقوله تعالى: ﴿حَنِيفًا﴾ معناه مستقيما فى اتجاهه بلا انحراف ولا اعوجاج ولا ميل لباطل أبدا.

ثم صرح سبحانه ببطلان الشرك وأنه منهى عنه فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فإنك إذ أمرت بأن نكون من المؤمنين فقد نهيت عن أن

---

(١) سبق تخريجه.

تكون من المشركين، وقوله تعالى: ﴿وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾.

وهكذا كان النهى عن الشرك بعد الأمر بالإيمان وإقامة الوجه لله بلا ميل، ذلك لأن الشرك يدخل إلى النفس من مسارب شيطانية كثيرة يحسبها الناس صغائر وهى كبائر، فالمراآة فى العبادات شرك، والخضوع للحكام والأمراء فى معاصيهم شرك، وقد قال ﷺ: «**من تصدق يرائى فقد أشرك، ومن صلى يرائى فقد أشرك**»(١).

وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)﴾ [الماعون].

وقد كان تأكيد النهى عن الشرك بنون التوكيد الثقيلة وقد عطف على ذلك قوله تعالى:

﴿وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦)﴾.

﴿تَدْعُ﴾ الدعاء هنا العبادة والضراعة وهذا معطوف على ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾، ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾، أى غير الله تعالى وهى الأوثان التى جعلتموها أندادا لله مستحقة للعبادة، وقد وصفها سبحانه بحقيقتها الثابتة فقال: ﴿مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ﴾ أى أنها فى ذاتها لا تنفعه ولا تضره، وجعل الخطاب بالنفع والضرر لمن يدعوها إشارة إلى أنهم تركوا ما ينفع ويضر إلى ما لا ينفع ولا يضر، وذكر هذه الحقيقة فيه تعليل للنهى عن عبادتها؛ لأنه إنما يعبد الجدير بالعبادة ويوفى الشكر لمن ينفع ويخشى عذابه، أما الأوثان فلا نفع فيها يرتجى ولا ضرر منها يُتقى.

---

(١) رواه أحمد، وقد سبق تخريجه.

إن عبادة الأوثان واتخاذها أندادا لله تعالى والشرك به سبحانه، ظلم بين، ولذا قال تعالى: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾، (الفاء) فى مقام التعليل للنهى، أى أن عبادة ما لا ينفع ولا يضر ـ ظلم، وقد جاء ذلك بصيغة الشرط والجزاء ليبين ارتباط الفعل بوصف الظلم، أى أن هذا الفعل مترتب عليه وصف الظلم لا محالة. وقد ذكر ذلك بالشرط الدال على الارتباط أولا، والإيماء إلى الارتباط بقوله: ﴿إِذًا﴾، أى أنه إذا كان الأمر كذلك فإنك من الظالمين لا محالة، و(الفاء) الثانية للدلالة على الجزاء.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧)﴾.

بين الله تعالى أن من الإثم البالغ والضلال البعيد عبادة ما لا يضر ولا ينفع من جماد وغيره، ثم يبين سبحانه فى هذه الآية أنه هو الذى ينفع ويضر والنفع يشاؤه لعباده والضرر يكتبه عليهم.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ﴾. المس إصابة الإحساس بالألم والانزعاج، وأنه لا كاشف له إلا الله، أى رافعه ومزيله، وقد عبَّر سبحانه عن إزالته بالكشف؛ لأنه يكون كالغمة تصيب النفس وتستولى عليها ولا تنحسر إلا بأمر من الله تعالى. والضمير ﴿هُوَ﴾ يعود على الله سبحانه وتعالى ذى الجلال والإكرام وهو يجب أن يكون مذكوراً فى النفس حاضراً فى القلب دائمًا، فالضمير يعود إلى معلوم فى النفوس والقلوب.

ويقول سبحانه: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾، وهنا نجد إشارتين بيانيتين:

الإشارة الأولى ـ التعبير باسم الفاعل فى قوله تعالى: ﴿فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ وهذا يفيد أنه لا يوجد من يستطيع رده فليس الكلام لمجرد الرد، بل هو نفى لوجود من يستطيع الرد ويقدر عليه.

والإشارة الثانية ـ قوله تعالى: ﴿لِفَضْلِهِ﴾، فيها إظهار فى موضع الإضمار، ذلك لبيان أنه لفضل من الله ورحمة منه سبحانه وأنه واجب الشكر على هذه النعمة، وجاء التعبير هنا بقوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ للإشارة إلى أن الخير مراد لله تعالى مقصود إنزاله بالشخص، وفى التعبير إبهام ثم بيان للتوكيد قال تعالى: ﴿وَإِن يُرِدْكَ﴾ ثم قال سبحانه: ﴿بِخَيْرٍ﴾ فكان الأخير بيانا لإرادة الله تعالى بالعبد، ثم قال تعالى: ﴿يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أى يصيب بهذا الفضل من تتعلق به مشيئة الله من عباده.

وتتعلق مشيئة الله بمن يسير فى طريق الخير كما كتبه الله تعالى فيوصله إلى غايته، والخير المذكور فى الآية هو النفع والهداية والاتجاه إلى الله ورجاء رحمته، ثم يختم الله تعالى هذه الآية بقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أى أن مغفرته تعالى وقبوله التوبة هو الخير الذى يشاؤه لعباده، ومغفرته من رحمته؛ لأنه سبحانه يريد لهم الخير برحمته وفضله، والشيطان يسول لهم الشر، فالذين مكنوا الشيطان من نفوسهم حرموا من الخير، ومن أبعدوا وساوسه فقد اتجهوا إلى الله، وكل شىء بعلمه وتقديره سبحانه، كل شىء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال.

وقد أوضح الله الحق وبيَّنه فقال تعالى:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (١٠٨)﴾.

أمر الله تعالى نبيه ﷺ وقد بشر وأنذر أن يبين لهم أن الحق قد جاءهم بدلائله وقامت أعلامه، وقد علموا طريق الغواية وما فيه من اعوجاج، وطريق الهداية وما فيه من استقامة، فمن شاء سلك طريق الهداية وأصاب فيه الخير، ومن شاء سار فى طريق الضلال، أصابه الشر، ويكون فى ضلاله عائدا بالضرر على نفسه.

ولذا قال سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾، أى جاءكم الأمر الثابت فى ذاته وبأدلته وبراهينه من رسول منذر ومبشر وقرآن مبين فيه تكليفات الله تعالى الهادية إلى سواء السبيل والداعية إلى الخير المبينة لطريقه والتى هى فى ذاتها رشاد لمن أرادها طريقا مستقيما لاعوج فيه، فمن اهتدى بهدى هذا الحق فسمع وأطاع فإنما يهتدى لنفسه، أى نفع بالهداية نفسه إذ هى الخير كله، والله غنى عن عباده، ومحمد ﷺ لا عمل عليه إلا أن يبشر، ومن ضل فإنما يضل على نفسه بسلكه الغواية وتركه طريق الهداية بعد أن بدت الأعلام واضحة هادية، وعاقبة الضلال تعود عليه إذ يسير فى متاهة الباطل والفساد ومغبة ذلك عليه وحده.

ويقول ﷺ بأمر ربه: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ فينفى أنه وكيل وقد وكل إليه أمر المحافظة عليهم.

والباء فى قوله: ﴿بِوَكِيلٍ﴾ لاستغراق النفى، أى لست عليكم حفيظا قد وكل إلىَّ أمركم ـ بأى حال من الأحوال ـ إنما أنا مرشد.

كما قال تعالى: ﴿... إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ ...(٤٨)﴾ [الشورى]، وقد بلغت، وكما قال تعالى: ﴿... إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧)﴾ [الرعد].

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩)﴾.

جعله الله قدوة فى اتباع الوحى وهو له ابتداء ولمن تبعه من المؤمنين، ولقد أمرهم سبحانه وتعالى بأمرين هما: خلاصة الحكمة، والدعوة المحمدية، ونوه سبحانه بأمر ثالث هو الخضوع لحكم الله تعالى وإليه المآل.

الأمر فى قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ هو التكليفات الشرعيه كلها والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

ومن التكليفات قيامه ﷺ بالتبليغ وهو لا يقصر، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة].

إن الدعوة ليست أمرا هينا لينا ولكن يكتنفها المشاق والصعاب، فعلاج النفوس ليس أمرا قريب المنال، وإنما يتعرض لما يتعرض له أهل الحق من سفاهة السفهاء وأذى الأقوياء وغطرسة العتاة الظالمين.

ولذا جاء الله تعالى بالأمر الثانى وهو الصبر فقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ أى اصبر على ذات ما يوحى إليك من تكليف، هو فى ذاته شاق على النفوس، واصبر على أذى من تدعوهم، واصبر على الدعوة وجهاد الظالمين، الذين يفتنون الناس عن دينهم، وإن لذلك منتهى، هو حكم الله.

وإن الله تعالى ناصر الحق وهو الهادى المرشد، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.

سورة هود

تمهيد:

عدد آياتها ثلاث وعشرون ومائة، كلهـا مكية إلا ثلاث، الآية الثانية عشرة، والسابعة عشرة، والرابعة عشرة بعد المائة.

ابتدئت السورة بالحروف المعجمة، التى ذكرنا من قبل أنها من المشتبهات التى لا يعلم علمها إلا الله تعـالى، وذكرنا ما نظنه حكمة فى ابتداء السـور بها، وأنها فى أكثـر أحوالها يكون ذكر الكتـاب والتنويه بأمره مما جعل بعض العلمـاء يقول: إنها أسـماء للكتـاب نفسـه، وقد قـال الله تعالى من بعـد الحروف ﴿ ... **كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** (١) ﴾. ومن بعد ذكر الـقرآن وأحكامه ذكر القصد الأسـمى من الدين وهو عبادة الله ﴿ **أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ** (٢) ﴾، ثم طلب الاسـتغـفـار والتوبة وهـى سبـيل الله تعـالى وسبـيل الاستجابة، وأن الإيمان بالله وصدق الإخـلاص يأتى بخيرى الدنيا والآخرة، وأن الإقامة فى الدنيا إلى أجل مسمى عند الله ﴿ ...**وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ** (٣) **إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** (٤) ﴾ لكنهم يكفـرون بالرجوع إلى الله تعالى ويصرفون صدورهم عنـه ويستخفون منه، والله تعالى يعلم ما يسرون وما يعلنون ويعلم كل ما فى الوجود ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** (٦) ﴾؛ وذلك لأنه الخالق لكل شيء ﴿ **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ... (٧) ﴾. ومع أنه الخالق المبـدع فإنه سـبحانه وتعـالى يذكر بالبعث ﴿ ...**وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ**

سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨ ﴾.

ولقد ذكر سبحانه أن من طبيعة الإنسان الفرح عند النعماء واليأس فى الضراء ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١ ﴾.

ويبين الله تعالى رغبة النبى ﷺ فى أن يؤمنوا جميعا، وأنه يضيق صدره بكفرهم فيقول سبحانه: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝١٢ ﴾.

ولقد أشار سبحانه وتعالى إلى إفراطهم فى طلب المعجزات ومكانة القرآن فى الإعجاز بقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝١٣ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٤ ﴾.

وبعد ذلك بين سبحانه منزلة الذين يريدون العاجلة وزينتها وأنه يوفّى إليهم أعمالهم فيها ولا يبخسون ثم تكون عاقبتهم السوءى ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٦ ﴾.

ثم يوازن سبحانه وتعالى بين المؤمن الذى يكون على بينة من ربه الذى هو شاهد بيِّن على خلقه وتكوينه وما نزل من قبله على موسى، أيتساوى مع من يكفر بالله ويتحزب فى الكفر فالنار موعده ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ۝١٧ ﴾.

وأنه لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا... ۝١٨ ﴾ كما بين سبحانه أنهم ضعفاء أمام الله تعالى وأنهم ليسوا بمعجزيه،

وأنه يضاعف العذاب ويتحدى صاحب الجبروت والطواغيت، وأنهم يوم القيامة هم الأخسرون، وعلى عكسهم المؤمنون الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أى أنابوا واطمأنوا إليه. وأنهم أصحاب الجنة هم فيها خالدون. وقد لخص القرآن الكريم الموازنة بين الهدى والضلال بقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٢٤) ﴾.

لقد كان المشركون فى مكة يعبدون أوثانا ويعاندون ويجحدون ويؤذون، فناسب أن يذكر سبحانه قصص النبيين الذين جاءوا فى بلاد العرب وجوبهوا بالعناد والجحود والاستهزاء والسخرية ليتأسى بهم النبى ﷺ وليعرفوا عاقبتهم إذا استمروا فى عنادهم.

وقد ابتدأ بذكر نوح أبى البشرية الثانى بعد آدم وقالوا: إن بعثه كان فى البلاد العربية أو ببلاد تدانيها، وجاء فى قصة نوح - وإنها لصادقة - أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده، وكانت إجابة الملأ من قومه مماثلة لما أجاب به المشركون فى مكة وأنهم كانوا يعيرونه كما عيروا محمدا ﷺ بأن الضعفاء والعبيد هم الذين اتبعوه.

قال الملأ من قوم نوح الذين سارعوا فى الكفر وبادروه ﴿ ...مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) ﴾.

وقد قالت قريش مثل هذا القول للنبى ﷺ ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ ... (٧) ﴾ [الفرقان]، وقد قال نوح لقومه إنه على بينة من ربه الذى آتاه رحمة ﴿ ...فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) ﴾، كما أنه لا يسألهم أجرًا، وطالبوه أن يطرد من معه لأجل أن يدخلوا فى دعوته فيقول نوح عليه السلام: ﴿ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣٠) ﴾، ثم عيره قومه أنه ليس غنيا مثل كبرائهم فى

الشرك فيقول لهم: ﴿ وَلا أَقُولُ لَكُمْ عندي خزائن اللَّه وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ... (٣١) ﴾.

تململ الكافرون الذين أصموا آذانهم عن الحق فقالوا: ﴿ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) ﴾، فيرد قولهم بأن الله تعالى هو الذى يأتيهم به إن شاء، وييأس منهم نبى الله عليه السلام فيقول لهم ﴿ وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤) ﴾.

وقد تشابه موقف مشركى مكة مع مشركى نوح الذين تشابه تحديهم مع حال مشركى قريش فى إهمالهم المعجزة الكبرى وهى القرآن وادعائهم أنه ﷺ قد افتراه.

يئس نوح من إيمان أكثر قومه وأوحى إليه أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن، كما أمره تعالى بأن يصنع الفلك وسط سخرية قومه وهو يقول: ﴿ ...إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩) ﴾، والفلك يصنع ويسير ببخار الماء الذى يغلى ويفور كقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (٤٠) ﴾.

ثم نادى نوح عليه السلام ابنه وكان فى معزل ﴿ ...يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) ﴾.

وينادى نوح ربه حزينا ﴿ ...رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) ﴾. فيجيبه سبحانه: ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) ﴾، يتدارك نوح

عليه السلام قائلا: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧)﴾.

وإنه بعد غرق الكافرين برسالة نوح، ذهب الطوفان ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ... (٤٨)﴾.

وهذه القصة ليست مكررة فى مواضع أخرى بهذا السياق الذى جاء فى هذا الموضع لبيان المشابهة فيما لقيه نوح من المشركين، وهو يتشابه تماما مع ما لقيه محمد ﷺ من قريش، وإن كانت النتيجة مختلفة؛ لأن رسول الله ﷺ كان يرجو الإيمان من قومه فلم يطلب هلاكهم. ولقد قال تعالى بعد قصة نوح وبيان العبرة فيها: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩)﴾.

بين سبحانه وتعالى الخبر الصادق عن عاد مع نبيهم هود عليه السلام، فنجد أن إجابتهم كإجابة مشركى مكة من العرب للنبى ﷺ فيقول سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ (٥٠)﴾.

وأنه بين لهم التوحيد دين الحق وبيَّن أنه لا يريد منهم أجرا، إن أجره إلا على الله، ويقول لهم: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢)﴾. ويردون بأنه لا دليل على نبوته: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣)﴾.

نرى الإجابة واحدة، إجابة عاد وإجابة مشركى العرب، الذين قالوا عن محمد ﷺ ﴿...رَجُلاً مَّسْحُورًا (٤٧)﴾ [الإسراء]، وأنه يعتريه الجِنّة ويحسبون أنهم يستطيعون علاجه وكذلك قالت عاد لهود من قبل ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤)﴾.

ويندد بهلاكهم إذا لم يجيبوا دعوة التوحيد ﴿ ... وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧) ﴾.

ثم ينزل بهم أمر الله تعالى بريح عاصف كما بين الله فى سورة الأحقاف ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) ﴾.

كانت هذه عاد وعاقبة جحودها ولقد قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠) ﴾.

ثم جاء ذكر صالح عليه السلام وقد بعث فى ثمود فقال تعالى: ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) ﴾.

دعاهم إلى دين الله تعالى وهو الوحدانية، وذكر معها دليلها الذى هو الإنشاء والخلق والتكوين، ولكنهم أجابوا بالكفر كما أجاب مشركو العرب ﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) ﴾.

آتاهم بالبينة وهى ناقة الله ﴿ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) ﴾. ثم نجى الله تعالى صالحا ومن آمن معه وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى دارهم جاثمين.

وقد جاء بعد هؤلاء ذكر إبراهيم أبى العرب وأبى الأنبياء، وابتدأ بذكر رسل الله تعالى من الملائكة إليه عليه السلام. ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) ﴾.

كان إبراهيم عليه السلام جوادا فما لبث أن جاء بعجل حنيذ- أى مشوى ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) ﴾.

كانت معجزة أن تلد، إذ لم تلد وهى شابة ثم وهى عَوانٌ[1]، فكيف تلد وقد صارت عجوزا.

علم إبراهيم خليل الله أنهم جاءوا إلى قوم لوط منذرين مهلكين فأخذ يجادلهم لأنه أوَّاه عطوف حليم منيب إلى ربه فأجيب بقوله تعالى: ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦) ﴾.

ولقد ذهبت رسل الله من بعد ذلك إلى لوط فسيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب، ولما رأى قوم لوط الملائكة جاءوا طامعين فيهم، وقد كانوا قوم سوء يفعلون الفاحشة، ويأتون الذكران من العالمين، فقال لهم لوط: ﴿ ...يَا قَوْمِ هَٰؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) ﴾.

ولقد أحس لوط بالضعف وأنه لا نصير له يشد أزره فأزال رسل الله من الملائكة كربه وبينوا له ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) ﴾.

---

(١) العوان: كل ذات زوج، والمُتعاوِنةُ: المرأةُ الطاعِنَةُ فى السِّنِّ. والمقصود الأخير. القاموس المحيط - عون.

ثم جاء أمر الله فجعل عاليها سافلها، وأمطر الله تعالى عليهم حجارة من سجيل منضود أى متتابع مصفوف، ﴿مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ... (٨٣)﴾ أى معلمة عنده سبحانه، وما هى من الظالمين ببعيد.

جاء بعد ذلك خبر الله تعالى عن شعيب عليه السلام وقومه «مدين» فقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥)﴾.

وقد بيَّن لهم أن البيع الحلال خير وأبقى وأبرك، فأجابوه كما أجاب مشركو مكة كما جاء فى قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧)﴾. قالوا الجزء الأخير متهكمين والجزء الأول منكرين مستغربين، وهذا ما أجاب به مشركو العرب.

لكن شعيبا عالج نفوسهم المتمردة على الحق فذكر لهم أنه يطيع الله فيما يدعو إليه، وأنه لا يدعوهم إلى أمر ويخالفه ﴿...وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨)﴾. وقد طلب إليهم أن يستغفروا ربهم ويتوبوا إليه بعد أن يقلعوا عن عبادة الأوثان، لكنهم انتقلوا من الإنكار إلى التهديد بعد تحذيرهم أن يصيبهم ما أصاب من كانوا قبلهم: ﴿...وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (٨٩)﴾.

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١)﴾، وهكذا كان يقول مشركو قريش لمحمد ﷺ كما أنهم هموا بقتله لولا خوفهم من بنى هاشم. ثم يقول لهم شعيب عليه السلام.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا... (٩٢)﴾.

لكن قومه عاندوا واستمروا في جحودهم فأنذرهم ﴿...سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣)﴾، ثم ينجى الله تعالى شعيبا والذين آمنوا معه وتأخذ الصيحة الذين ظلموا وتلك عاقبة المكذبين ﴿...أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥)﴾ ثم جاء ذكر موسى عليه السلام مع الطاغية فرعون في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩)﴾.

العبرة من القصص الحكيم

بيَّن سبحانه العبرة من هذا القصص وأنه كان غيبا على النبى ﷺ فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠)﴾، أى تقادم أثره كالزرع المحصود، وإن هؤلاء أخذوا بذنوبهم فما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، وأن آلهتهم التى عبدوها من دون الله ما أغنت عنهم وما زادتهم إلا هلاكا.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢)﴾.

وإن فى ذلك عبرة لمن خاف عذاب الآخرة، ذلك اليوم المشهود الذى أخر لأجل محدود ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥)﴾.

ثم بيَّن سبحانه مآل الذين كفروا وشقوا ففى النار، لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك.

كما بيَّن سبحانه الذين سعدوا وهم أهل الإيمان ﴿فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨)﴾ أى غير منقطع.

هذه حقائق ذكرها الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام، وفيها أن الرسل من قبله قد نال منهم أقوامهم بمثل ما ينال قومك منك، وأن العاقبة للمؤمنين، أما هؤلاء فلا يصح أن تدفع أفعالهم إلى الشك فى أن الله سيوفيهم نتيجة كفرهم غير متقوص ﴿ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ (١٠٩) ﴾.

وأن الشرائع التى شملها كتاب الله العزيز قد سبق فيها موسى بكتاب فاختلف فيه، وأنه لولا كلمة سبقت من ربك ببقائهم حتى يوم الجزاء لقضى بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، وأن اليهود قوم موسى لفى شك منه مريب، وأنهم جميعا سيوفيهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير.

كما بيَّن الله تعالى لنبيه ما يحب أن يسلك فى دعوته فقال سبحانه: ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ (١١٣) وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥) فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦) ﴾.

هذه حكمة الله لا يهلك القرى إلا بظلم أهلها وغفلتهم عن إدراك العواقب التى تستقبلهم وليسوا مصلحين، ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولكنها إرادته . فجعل فيهم المفسد والمصلح ﴿ ...وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩) ﴾.

بيَّن الله تعالى أن العبرة يسوقها للناس وللنبى ليثبت فؤاده ويزيده تمسكا بالحق فيقول تعالت كلماته: ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) وَقُل لِّلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ

مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٢٢) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣) ﴾.

إن ما ذكر من القصص ليس تكرارًا لما ذكر فى غير سورة هود، ولكن كلما كان هناك إشارة كان هنا بيان، فقصة الفلك مثلا ذكرت هنا مفصلة مبينة، وذكرت فى غيرها مشارا إليها، وكذلك قصة لوط كان فيها إجمال وتفصيل، الإجمال كان فى الفساد، وفصَّل الهلاك حيث إن تفصيل الفساد كان فى سورة أخرى كما أشير إلى الهلاك.

معانى السورة الكريمة

قال تعالى:

الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ (٢) وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ (٣) إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ (٤) أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٥)

إن ما نعلمه عن الابتداء بالحروف المفردة ذكرناه فى أول سورة البقرة وآل عمران وأول سورة يونس، ولا يفيد هنا تكرار ما ذكرناه هناك، وإن التكرار بغير غرض مقصود لا يجوز ممن يتكلم فى القرآن لأنه المنزه عن اللغو، فلا نلغو فى معانيه.

﴿ الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) ﴾.

جاء ذكر الكتاب بعد الحروف المفردة التى فهم بعض المفسرين أنها رمز للكتاب الكريم، وفى كلمة ﴿كِتَابٌ﴾ التنكير للتعظيم، أى أنه كتاب عظيم لا يطاول ولا يأتى أحد بمثله، ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ أى نسقت ألفاظه فهى متآخية فى نغمتها وتآلفها وهو نسق بيانى مؤتلف غير مختلف، ومعانيه متساوقة فالخواطر تتسابق إلى النفس بإيماء من الله يمهد كل معنى لما يليه كعقد من الجواهر تتبع كل حبة أختها، وأحكم مدلوله لا يعروه تضليل ولا تبديل، ولا تناقض أو تضارب فى معانيه، بل إنها متلاقية متعاونة مدعمة بالحجج والبراهين القاطعة الحاسمة تسير متهادية متصلة، ولكلمات الله المثل الأعلى.

﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ (ثم) للترتيب والتراخى، والتراخى هو التراخى المعنوى، ذلك لأن الناس ألفوا أن الكلام المحكم فى نغمه وألفاظه وكلماته وأسلوبه لا يكون مفصلا فى معانيه، أى لا يكون مبينا واضحا؛ لأن النغم يشغل القارئين عن المعانى، ولكن هذا القرآن كتاب الله الخالد فى الوجود الإنسانى، كان مع حلاوة نغمه وتواصله وعباراته وتساوق معانيه مبينا مفصلا لأبواب الحلال والحرام والعقائد والمواعظ. والترتيب ليس للترتيب الزمنى، إنما هو للترتيب الفكرى والترابط النفسى فكلمة ﴿ثُمَّ﴾ هنا للترتيب والتراخى.

ولقد أعطى الله تعالى القرآن شرفا إضافيا بعد شرفه الحقيقى فى إعجازه وأنه لا يزال يتحدى الخليقة عربا وعجما أن يأتوا بمثله وأنى يكون، فيقول تعالى: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ كلمة ﴿مِن لَّدُنْ﴾ معناها من عند، وقل أن تستعمل فى القرآن الكريم فى غير جانب الله العليم القادر. ويقول الزمخشرى فى معنى الآية الكريمة: ﴿أُحْكِمَتْ﴾ دون الباطل ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ كما تفصل القلائد الفرائد من دلائل التوحيد والأحكام والمواعظ والقصص. إذ جعلت فصولا سورة سورة، وآية آية ووقِّت فى التنزيل فلم تنزل جملة واحدة، فإن قلت ما معنى كلمة ﴿ثُمَّ﴾؟ قلت: ليس معناها التراخى فى الوقت بل فى الحال، فتقول هى محكمة أحسن

الإحكام ثم مفصلة أحسن التفصيل، وفيه طباق حسن لأن المعانى أحكمها حكيم، وفصَّلها، أى بيَّنها وشرحها خبير عالم أى قوله تعالى: ﴿حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ فيه هذا الطباق بين أحكمت وفصلت ووصفها الله تعالى بأنها ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

وقد بين سبحانه وتعالى بعد ذلك المقصد الأصلى من القرآن ألا وهو التوحيد وإثبات رسالة النبى ﷺ. لذا قال تعالى:

﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢﴾.

النفى والإثبات دليل على قصر العبادة على الله وحده لا يعبدون غيره من أوثان أو أشخاص أو أى كائن من مخلوقاته سبحانه وتعالى. أى أن الله تعالى أحكم القرآن وفصل آياته تفصيلا، وأقام فيه الدلائل القاطعة على أنه الخالق لتعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئا.

ثم يقول تعالى حاكيا عن قول نبيه ﷺ: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ﴾ لمن عصى وأشرك أنذره بالسعير، ﴿وَبَشِيرٌ﴾ لمن آمن بالله تعالى وحده وكلل إيمانه بطاعة الله فيما أمر به من طاعات فيها خير الدنيا والآخرة، وفيما نهى عنه من معاصٍ فيها فساد فى الأرض وعذاب فى الآخرة، والضمير فى كلمة ﴿مِّنْهُ﴾ يعود على الله تعالى.

ويأتى ذكر النذير البشير ﷺ بعد عبادة الله تعالى وحده، إيماء بأن القرآن الكريم قد أحكمت آياته وفصلت ليكون آية النبوة ومعجزة الرسالة المحمدية الخالدة إلى يوم الدين. فالقرآن الكريم هو البرهان لعبادة الله وحده، وهو معجزة النبى ﷺ، تلك المعجزة الكبرى التى لا تدانيها فى بقائها وثمراتها معجزة أخرى من معجزات النبيين قبله ﷺ.

بعد أن نهى سبحانه عن عبادة غير الله وبين أن النبى ﷺ نذير وبشير أمر بالاستغفار والتوبة فقال:

﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ③ ﴾.

(الواو) عاطفة على قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ ولتضمنها معنى الأمر، وإن كانت للحكاية، ولكن لأنها غاية أحكام الآيات وتفصيلها، وكون النبى ﷺ له الإنذار المؤكد، والبشارة كانت فى معنى الطلب بدليل الإنذار والتبشير، إذ لابد أن يسبقها الطلب، ولذا جاء عطف الطلب.

كلمة ﴿وَأَنِ﴾ فى قوله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾، يصح أن نقول إنها تفسيرية، ويصح أن تكون مصدرية. والاستغفار طلب المغفرة، والخطاب لقوم مشركين فطلب إليهم أولا الإقلاع عن عبادة الأوثان، ثم الاستغفار، وطلب عفو الله فيما ارتكبوا من آثام فى حقه سبحانه، ثم يكون بعد ذلك الرجوع إلى الله والعيش فى رحابه، وذلك بالتوبة إليه. كأن الاستغفار هو الدخول إلى الوحدانية مع طلب عفو الله ومغفرته، ولهذا قدم الاستغفار على التوبة؛ لأن الاستغفار كان عن الشرك وما اتصل به من جحود وعناد، والتوبة الرجوع إلى الله وطاعته فيما أمر ونهى. والتعبير بكلمة ﴿ثُمَّ﴾ الدالة على الترتيب والتراخى للدلالة على البعد بين المقامين، مقام الاستغفار عن الشرك ومقام التوبة، فالتوبة ذاتها عبادة، ولا تراخى فى الزمن بل الزمن واحد ولكن البعد فى الرتبة. وفى قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ معنى قرب الله تعالى من العبد لأنه ربه الذى برأه ورباه وقام على تدبير حياته وحياة ما حوله.

﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أى عودوا بالتوبة إليه سبحانه؛ لأن العبد بالشرك يبعد عن الله بعد أن خلقه حنيفا، وبالتوبة عاد إلى ما ابتدأ وهو القرب من الله.

و﴿تُوبُوا﴾ فعل أمر له جواب كجواب الشرط؛ وقوله تعالى: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى إن تتوبوا بعد أن تستغفروا يكن الجزاء أن يمتعكم متاعا حسنا، أى يمكنكم من أن تتمتعوا متاعا حسنا. والمتاع الحسن هو المتاع

الحلال الذى يكون من كسب حلال وفى حلال كالرجل مع زوجه، والمتاع الحسن مادى كالذى أشرنا إليه، ومعنوى وهو الاطمئنان إلى الحق، والقرار، وعدم الظلم، والرضا والقناعة، والاستمساك بالفضائل، والبعد عن الرذائل، والسكون إلى جانب الله، ولقد قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ... ﴿٩٧﴾﴾ [النحل]. وأن هذه المتعة التى تعم المجتمع الفاضل هى إلى أجل مسمى وهو الحياة الدنيا.

﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ هذا الإيتاء فى الدنيا والآخرة.

أما فى الدنيا فإنه يتكون مجتمع فاضل كريم حيث يكون كل ذى فضل فى مكانته، فيعطى حقه غير منقوص، ويتمتع الجميع بمتاع حسن وتكون الحقوق قائمة أدبية ومادية، فالمجتمعات التى لا تظلها الفضيلة لا تعرف فيها قيم الأفاضل وتضطرب الموازين اضطرابا شديدا بل تنقلب للرجال والأعمال معا.

وأما فى الآخرة يؤتى ذو الفضل فضله بالنعيم المقيم والرضوان من رب العالمين وهو الجزاء الأكبر. وفى قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ معناه جزاء فضله ولم تذكر كلمة الجزاء ، وإن قدرت فى مطوى الكلام، للإشارة إلى أن الجزاء مساوٍ للفضل تماما حتى كأنه هو، فالله تعالى عادل حكيم. وفى مقابل جزاء الذين يحسنون قال تعالى مهددا من يعرضون: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ تولوا أصلها تتولوا وحذفت التاء لتوالى التاءات وذلك كثير فى العربية وفى القرآن الكريم، ويكون خطابا للمخاطبين فى قوله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ ولكن من الذى يخاطبهم، أهو الله تعالى أم نبيه ﷺ، والله جل جلاله لا ينسب له الخوف ﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ فيكون أليق بالنبى ﷺ على أساس بشارته وإنذاره. الكلمات إنذار للذين يعرضون وينصرفون عن كلام الله وهو أنهم محل خوف ممن أرسله هاديا ومبشرا ونذيرا، وقد أكد الله تعالى الخوف عليهم بالجملة الاسمية وبكلمة ﴿إِن﴾، وقوله تعالى: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ الكِبَرُ

وصف لليوم، وكبره لأن فيه أهوالا شديدة ولأنه يوم الشدة يحس الإنسان بطوله كما أنه فى ذاته كبير فيه الحساب والثواب والعقاب.

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ④﴾.

قدم الجار والمجرور للدلالة على القصر، أى إلى الله وحده مرجعكم لا إلى أحد سواه ولا شريك له فى الحكم على أعمالكم وأقوالكم وما كسبتم واكتسبتم، ولذكر لفظ الجلالة تربية للمهابة فى قلوبهم، وفى ذلك إنذار شديد للمشركين الذين أشركوا غيره باطلا، ثم يؤكد سبحانه الإنذار بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فعقابه عقاب القادر القاهر فوق عباده ويحكم يوم الحساب، إذ هو قادر على كل شىء فى الوجود وليس على درجة الكمال سواه.

بعد أن بين الله قدرته القاهرة بين علمه الذى يحاسب على مقتضاه فقال:

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ⑤﴾.

﴿يَثْنُونَ﴾ فعله ثنى بمعنى طوى. وكلمة ﴿أَلَا﴾ للتنبيه، والمعنى: ألا إنهم يطوون صدورهم على عداوة وبغضاء وكراهية شديدة، فأولئك الذين كانوا يعادون النبى ويزدرون عند سماع الحق وكأنه يكون منهم أمران:

أولهما: العداوة والبغضاء يطوون قلوبهم عليها وتدفعهم إلى عمل ما لا يجوز ويفتنون المؤمنين عن دينهم.

ثانيهما: الازورار عن الحق ازورارهم عما لا يحبون، وانصراف صدورهم عنه ويريدون أن يستخفوا عن النبى ﷺ وينسون أن الله بكل شىء عليم.

ثم يبين سبحانه كمال إحاطة علمه فيقول: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ ويريدون أن تكون غاشية لهم تلف إحساسهم، أى أنه سبحانه يعلم ما يطوون عليه

صدورهم وما يستخفون به فى حسهم وفى نومهم، ولذا قال تعالى موضحا مؤكدا ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

وأنه سبحانه يجازيهم بذلك الذى يطوون. ثم يقول سبحانه فى بيان صفة علمه ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وهذا التعبير القرآنى يبين دقة علم الله تعالى، و(ذات) هى الحقائق التى تلازم الصدور من خواطر خير وغيره، ومن خلجات القلوب وما تخفى السرائر، وكلمة (ذات) بمعنى صاحبة أو متلازمة الصدور لا تخرج إلى الجهر والإعلان، ولا تكون كذلك إذا خرجت من مكنونها إلى موضع الإعلان.

وإن ذكر هذا العلم الشامل المحيط بكل صغيرة وكبيرة لبيان أنهم يتحملون جزاءه سبحانه، وهو جزاء ممن لا تخفى عليه خافية فى السماء ولا فى الأرض الذى يعلم ما تكن الأفئدة وتكسب الجوارح ويجازى كلا بما يستحق، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، وكل بما اكتسب رهين.

خالق الكون ومدبره

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا
وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ
عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ
إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ
إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ
أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ
مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾

﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦)﴾.

﴿مَا﴾ نافية، وكلمة ﴿مِن﴾ للدلالة على عموم الآحاد فى كل الدواب، أى يعلم كل دابة علما دقيقا فى مفردها وجماعتها، أى أن كل دابة على الله رزقها، وكانت التعدية للدلالة على أن ذلك متحقق ثابت بمقتضى وعد الله تعالى الذى لا يخلفه، فعبر بـ ﴿عَلَى﴾ وهذا لأن الله لا يجب عليه شيء إلا ما كتبه سبحانه على نفسه، كما قال تعالى: ﴿...كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ... (٥٤)﴾ [الأنعام].

وليس هناك إلزام، ولكن هناك وعدًا والتزامًا، والدواب ما يدب على الأرض من أصغر الكائنات إلى الإنسان، وعلى الله رزق كل هؤلاء، والإنسان بكل ما يتخذه من أسباب ليس هو المنشئ للرزق فقد يتخذ كل الأسباب ولا يكون إلا الحرمان، فكل شيء من فضل الله، وعلى الإنسان أن يسعى ولابد من الأخذ بالأسباب بعد التوكل وتفويض الأمر لله، وليس لأحد أن يحسب أن أسبابه وحدها تموله وتمونه، بل لابد من التوكل على الله والتفويض إليه.

والرزق بالنسبة للدواب والأحياء، هو ما يتمول به ويتغذى، فينمى جسده ونفسه ويكون بقاؤه، وذلك عام فى الدواب جميعها، وبمقتضى إرادته الحكيمة يكون بعض الدواب رزقا للآخر، وكل ذلك بتقدير الله تعالى وبفضله الذى أنشأ ودبر وحكم.

وأكد سبحانه أن كل دابة فى ظل فضله وسلطانه يدبر أمرها ويحكم بتدبيره فقال: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ المستقر هو الإقامة فى الأرض، ويصح أن نعدها مصدرا ميميا، فيكون المعنى ويعلم استقرارها، كما يصح أن نعدها اسم مكان أو زمان، أى يعلم مقامها فى الأرض وزمان إقامتها.

ومستودعـها هو مكان إيداعها فى قبورها إن كـانت فى الأحياء التى تدفن، وإن الذى يعلم مكان استقرارها ومكان إيداعها هو يعلـم مقدار حاجتها فى الرزق فلا يمكن أن يفوت الرزق أحدا.

ثم يؤكـد سبـحانه كل هذا بقـوله: ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أى أن كل دابة ورزقها ومقامـها واستيداعها فى باطن الأرض وديعة مـستردة بعد حين، كل ذلك مكتوب فى كتاب واضح هو اللوح المحفوظ والعلم المكنون.

وإن من ألفاظ القرآن أنه ﴿ ...لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨)﴾ وإن وعده سبحانه الحق لا يقبل إخلافـا ولا تخلفا، ولكن ناسا لا يؤمنون بالخالـق الرازق ذى القوة المتين يحسبون أنهم يرزقون أنفسهم، ويريدون أن يفعلوا فعل أهل الموءودة ويظنون أنهم إن قضوا على نسلهم ضمنوا رزقـهم، ولقد نسوا قول الله تعالى: ﴿ ... وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ... (١٥١)﴾ [الأنعام].

وقوله تعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ...(٣١)﴾ [الإسراء].

ولقد قال بعض الذين يتخذون الأسباب:

وكيف أخشى الفقر والله رازقى ورازق هذا الخـلق فى العسر واليسر
تكـفل بالأرزاق للخـلق كلهم وللضب فى البيداء والحوت فى البحر

ثم بيّن سبحانه كمال سلطانه فى خلقه وتدبيره لأمورهم فيقول:

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧)﴾.

الضمير ﴿هُوَ﴾ يعود إلى الله جل جلاله، وهو فى نـفس كل إنسان وعقله وقلبه إذا كان يؤمن بالله واليوم الآخر، والآية تؤكـد تدبير الله تعالى لخلقه وإمداده

بالرزق وإمساكه لملكوته كله. والأيام الستة ليست هى أيامنا فلا يقال ابتدأ بالأحد وانتهى بالجمعة؛ لأن أيامنا نشأت بعد خلق السموات والارض، وارتباط الأرض بالشمس والقمر والنسبة بينهما وكل يدور فى فلكه، والشمس والقمر بحسبان.

إنما يراد بالستة أيام الأدوار الكونية، وقد أشار الله تعالى إلى هذه الأدوار فى سورة فصلت: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢)﴾ [فصلت].

فالأيام هى أدوار الخلق والتكوين كما تشير الآيات.

﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ يصح أن نقول ـ والله سبحانه أعلم بمراده ـ إن العرش كناية عن السلطان الكامل، وفى ذلك تصوير لتدبير ملكه وخلقه فى أرزاقهم وأقواتهم وبقائهم والتماسك بين أجزاء السماء والأرض وكيف ينزل الغيث ومنبت الأرض بعد موتها وكيف يمسك السموات والأرض أن تزولا، وكيف يحفظ الوجود كله وهو الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم. وهذا قد يكون معنى العرش فيما أحسب، والله لا إله إلا هو وحده عنده العلم الكامل.

وذكر سبحانه أنه على الماء للإشارة إلى أنه سبحانه هو الذى يدبر أمر الأحياء كلها، وأن رزق الذى يسبح فى الماء فى كفالة الله كرزق الذى يدب على الأرض.

ثم يقول سبحانه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ أى ليعاملهم معاملة المختبر، إذ إن لهم إرادة تتجه إلى الخير وتتجه إلى الشر، وهو سبحانه خلقكم ومكّن لكم فى الأرزاق والأقوات والاستقرار فى الأرض؛ ليظهر المؤمن فيشكر ويظهر الكافر فيكفر، و﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ فيها ﴿أَحْسَنُ﴾ بمعنى أخلص والمخلص الذى بلغ إخلاصه أعلى الدرجات.

ويلاحظ هنا ذكر الذين يظهر خيرهم ولم يذكر الذين يظهر شرهم، وكأنهم همل لا يعدون فى الأحياء، فالحياة حياة الروح، ولقد قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢)﴾ [الأنعام].

فالذى ظهر شره يعد ميتا وإن لم يمت، وإن المشركين مع هذا الخلق وذلك الإبداع منكرون اليوم الآخر، وأن الله يعيدهم كما بدأهم أول مرة، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، (اللام) الموطئة للقسم، أى إن قلت لهم مؤكدا القول بعد هذه الآيات البينات فى دلالتها وكمال وضوحها فى قدرة الحكيم العليم الخالق لكل شىء، لئن قلت لهم يا محمد إنكم لمبعوثون من بعد الموت، لا يكون الجواب بالإيجاب بل يكون بالسلب؛ لأن موضع استغرابهم أنه بعد الموت .

وقد أكد الله تعالى قول النبى بالقسم وبالجملة الاسمية وإنَّ المؤكدة ﴿إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ﴾، كما أكد إجابتهم باللام وبنون التوكيد الثقيلة ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقد كانت إجابتهم سلبا مع استغراب وجحود ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أى إن إجابتهم، إن هذا أمر باطل كما أن السحر أمر باطل ، وأن ذكره خيالات وأوهام كما أن السحر خيالات وأوهام، وإن الإخبار بهذا لا دليل عليه إلا القرآن وإنه لسحر وقول ساحر وما هم بمصدقين لساحر أو مجنون.

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٨)﴾.

فى قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ﴾ اللام موطئة للقسم، ولئن أخرنا عنهم العذاب الذى نال مثله الذين من قبلهم إلى أمة أى مدة معدودة من السنين المحدودة القليلة؛ لأن التعبير بمعدودة يومئ إلى أنها قليلة، كما قال تعالى عن قول اليهود: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ... (٨٠)﴾ [البقرة] فالأمة هنا بمعنى مدة.

وكلمة أمة وردت فى القرآن بمعان مختلفة، فتجيء بمعنى المدة كهذه الآية، وتكون بمعنى الجماعة فى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ... (٢٣)﴾ [القصص]، وتطلق على الرجل المهيب الجامع لمكارم الأخلاق كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا ... (١٢٠)﴾ [النحل].

وتطلق بمعنى الملة كقوله تعالى: ﴿... إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢)﴾ [الزخرف].

وهذه معان مشتركة فى لفظ واحد كإطلاق لفظ «القُرء» على الطهر وعلى الحيض، ومعنى الآية الكريمة أنه إذا أخر الله تعالى العذاب الدنيوى الذى ينالهم بريح عاصف أو رجفة تجعل عالى الأرض سافلها أو بحرب مخزيه لهم ترد الحق إلى أصحابه وتقمع الباطل وتزهقه فإنهم يقولون متحدين النبى ﷺ ﴿مَا يَحْبِسُهُ﴾، ما يمنعه، وكلامهم هذا يتضمن تحديا وإنكارا وتكذيبا مثل الذين سبقوهم إلى الكفر والجحود.

إن سنة الله فى الذين خلوا من قبلهم أنه سبحانه يمهل الكافرين، يدارسهم رسولهم الحق يدعوهم إليه ويؤيدهم بالبرهان ويردده المرة بعد الأخرى حتى يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، كما أخذ قوم نوح وعاد وثمود وآل مدين وآل فرعون، وإذا كانت الدعوة خالدة كدعوة محمد ﷺ غالبهم الحق وغالبهم، فقد صابرهم ﷺ حتى هاجر وكان الجهاد والمغالبة حتى وضع الله الباطل وأزهقه إنه كان زهوقا.

ولذلك لما جاء لم يكن مصروفا بل كان لونا آخر ليس من نوع ما نزل بمن سبقوهم.

إنهم تحدوا الله منكرين مستنكرين يقولون: ﴿مَا يَحْبِسُهُ﴾ فالاستفهام للاستنكار والإنكار والاستهزاء بما هددهم به القرآن، وإنهم إذ تحدوا محمداً ذلك التحدى السافر المستهزئ فإن الله تعالى يقول: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ ألا للتنبيه الزاجر الموقظ لغفلتهم التى كانت من فرط الاغترار بقوتهم الظاهرة.

﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ أى ساعة أن يجيئهم لا يصرفه عنهم رجاء أو شفاعة شافعين، وإنهم إذ يندمون فقد فات وقت الندم، كذلك كان الأمر فى ماضى الأمم مع الكافرين، وإن ما قدره الله لكم معشر كفار قريش إذا جاء العذاب على أيدى المجاهدين بأمر من الله تعالى لن يرفع عنكم حتى تستسلموا خاضعين، وحتى يتمكن الإيمان من الكفر والكافرين.

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (حاق) معناها أحاط وهى تتضمن معنى لإنزال الجزاء. جاء فى تفسير معنى (حاق) فى مفردات الراغب الأصفهانى: قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وقال عز وجل: ﴿... وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ... (٤٣)﴾ [فاطر]، أى لا ينزل ولا يصيب، وأصله «حَقَّ».

وخلاصة المعنى على هذا، أنه أحاط بهم ونزل الأمر الذى كانوا به يستهزئون، وهو حق عليهم استحقوه بأعمالهم واستهزائهم فكان جزاءً وفاقا لما فعلوا من قبل، وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يفيد أن استهزاءهم كان دائما ومستمرا، ولذا عبر بالماضى الدال على وقوعه فى ماضيهم واستمراره فى حاضرهم ومستقبلهم حتى نزل بهم ما تعجلوه.

الصبر خلق الإيمان

قال تعالى:

وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ
لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ
مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾
إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ
وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ

وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ ﴾.

هذا نص كريم فى بيان طبيعة النفس التى تخضع للحس دون العقل المدرك الذى يوازن بين الماضى والحاضر ويضبط نفسه ووجدانه، بل يكون هلوعًا عندما يصيبه ما يسوؤه وطموعا أشرا بطرا عندما ينال خيرا ويذهب عنه ما يسوؤه، فإذا أصابه خير بطر، وإذا أصابه سوء جزع.

أما المؤمن المدرك صبور لا تبطره النعمة، ولا تؤنسه النقمة، وهو يضبط نفسه، وضبط النفس والصبر متلازمان لا يفترقان.

﴿ وَلَئِنْ ﴾ (اللام) هى المهدة للقسم، إن حرف شرط ودخول اللام يؤكد فعل الشرط أى أن أذاق الإنسان منه سبحانه رحمة ثم نزعها إنه ليئوس كفور.

وهنا ملاحظات بيانية موضحة ومقربة للنص الكريم:

الملاحظة الأولى: قال سبحانه: ﴿ أَذَقْنَا الإنسَانَ ﴾ أى جعله يذوق ويحس متنعما، وأضاف سبحانه وتعالى ذلك إليه لبيان عظمها وأنها منحة جليلة، وسماها سبحانه رحمة لوجوب شكرها وبيان أنه أعطاها لتكون مصدر خير للناس تعم ولا تخص، فهى ليست له خاصة ولكن ليكون شكرها نفعًا للناس.

الملاحظة الثانية: قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ ﴾ يشير إلى التفاوت بين العطاء الكريم والنزع الحكيم، وفيه تفاوت بين العطاء والنزع، وكل ذلك بتقدير العزيز العليم، وفيه بيان أن نعيم الدنيا ليس بدائم بل فيها العطاء والمنع، ونعيم الآخرة دائم غير مجذوذ.

الملاحظة الثالثة: هى الانتقال إلى حال شديد مؤكد فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴾ بصيغة المبالغة الدالة على الهلع والجزع واليأس من رحمة الله التى

لا ييأس منها إلا القوم الكافرون. وكان القول: ﴿كَفُورٌ﴾؛ لأنه لا يرجو الله ولا يؤمن بما عنده.

الملاحظة الرابعة: جواب القسم فى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ فيه تأكيد لعمق يأسه واستيلائه عليه وكفره، وكان التأكيد بصيغة المبالغة وباللام وبالجملة الاسمية وبـ «إن» المؤكدة.

وكل ذلك لأنه مادى لا يؤمن إلا بالمادة ولا يرجو ما عند الله الذى يعطى ويمنع ويعز ويذل، وهذا حال الإنسان الذى لا يؤمن إلا بالدنيا، إذا كان المنع بعد العطاء.

أما حاله فى النعماء بعد الضراء فقال تعالى فيه:

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠)﴾.

(اللام) ممهدة للقسم وما قلناه فى قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾، يقال هنا، والنعماء هى النعمة السابغة، والضراء ما يضر فى الجسم أو المال ويصيب النفس فيوجد بأسا وضرا لا يرجى زواله عند غير المؤمن.

جواب القسم ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾، وكان جواب القسم لدخول اللام، والتأكيد بنون التوكيد الثقيلة، والقسم واللام ذاته تأكيد.

والسيئات الأمور التى ساءته والتعبير بالماضى دليل على تأكيد الذهاب، وهو لا يسند ذلك لله، بل يذكره من غير إسناد للمنعم وكأنه جاء عفوا من غير مسبب الأسباب ومقدر الأقدار.

ومن قوله تعالى، إنه يفرح بذلك ويفاخر به فقال: ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أى إنه يغمره الفرح فينسيه ما كان فيه من ضراء وما أصابه من شقاء.

هكذا المادى لا يؤمن إلا بما هو فيه ناسيا ما كان معتبرا به، فله الساعات التى هو فيها لا يفكر فيما سواها، وفى وصفه يقول الله تعالى: ﴿فَخُورٌ﴾ أنه يتطاول على غيره مغترا بما آلت إليه حاله، والفخر فيه أمران مفسدان للنفس:

الأمر الأول: المطاولة على الغير وغمط الناس حقوقهم .

الأمر الثانى: إنكار نعمة المنعم معتقدا أنه مجهوده وعمله وليس بعطاء من الله وإن التفاخر يوهم صاحبه أنه فى حال لم يصل إليها غيره فيتخيل ما ليس عنده، وقد نهى النبى ﷺ عن هذا حين قال، «**كلوا واشربوا والبسوا من غير سرف ولا مخيلة**» وقال تعالى: ﴿... **إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا** (٣٦)﴾ [النساء].

وهذا شأن الإنسان الذى لم يؤته الله تعالى صبر المؤمنين ولا ضبط نفوسهم، ولذلك استثنى الذين صبروا وآمنوا وعملوا الصالحات من عموم الإنسان فقال تعالى:

﴿**إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ** (١١)﴾ .

إن الصبر وضبط النفس كريمان متلازمان، بل إن ضبط النفس شعبة من شعب الصبر الثلاث:

الشعبة الأولى: تحمل المشاق النفسية والبدنية، ومن المشاق النفسية المحن والنعم، ويكون تحمل المحن بتلقيها من غير تململ ولا تزلزل، أما النعم فيتلقاها بالشكر والصبر على القيام بحقها.

الشعبة الثانية: تكون بعدم الأنين أو الشكوى والضجر، وهذا هو الصبر الجميل الذى التزمه يعقوب عليه السلام.

الشعبه الثالثة: هى رجاء زوال ما يمتحنه به الله تعالى، فلا ييأس من رحمة الله ولا يكفر بنعمه وألا تغريه نعمة الله بالكبر والبطر.

وإن ضبط النفس يكون فى مطوى هذه الشعب، فلا تكون نفس الصابر رعناء تبئسها الشدة وتقرها النعمة فيكون فى اضطراب مستمر، وهوج فى النعم والنقم.

وقد استثنى الله تعالى الصابرين، وذكر فى أوصافهم العمل الصالح ﴿**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾، أى عملوا كل شىء فيه صلاح أنفسهم وجماعتهم، وصلاح دينهم الذى هو عصمة أمرهم، وإن اقتران العمل الصالح بالصبر يدل:

أولا: على أن العمل الصالح يقتضى صبرا على الاستمرار فلا بد أن يكون مستمرا دائما، ولذلك قال ﷺ: «**أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل**»(١)، كما أنه قال: «**إن الله يحب الديمة فى الأعمال**»(٢).

ثانيا: يدل اقتران العمل الصالح بالصبر على أن العمل الصالح يحتاج إلى تحمل بعض المشاق، كما قال رسول الله ﷺ: «**والذى نفسى بيده لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له، إن أصابته سراء فشكر كان خيرا له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له، وليس ذلك لأحد غير المؤمن**»(٣).

وقد بيَّن سبحانه وتعالى جزاء الصابرين العاملين فقال: ﴿**أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ**﴾ الإشارة إلى أن الجزاء مغفرة، إذ إن الله يستر ما لهم من أعمال غير مقبولة بغفرانه؛ لأن الصبر والعمل الصالح يستران بذاتهما العمل غير الصالح بأمر الله تعالى: ﴿ ... **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** ... (١١٤) ﴾، وبعد هذه المغفرة الساترة يكون الأجر الكبير الذى هو عظيم فى ذاته وبلغ قدرا لا يدرك كنهه إلا الله معطيه.

---

(١)، (٢) رواه البخارى: الرقائق ـ القصد والمداومة على العمل (٦٤٦٤)، وبنحوه مسلم: صلاة المسافرين وقصرها ـ فضيلة العمل الدائم من قيام الليل ونحوه (٧٨٣).

(٣) جزء من حديث رواه مسلم: الزهد والرقائق ـ المؤمن أمره كله خير (٢٩٩٩).

وإذا كان للصبر هذه المنزلة، فأول أوصاف النبيين الصبر، الصبر فى سبيل الدعوة والاستمرار فى التبليغ، والصبر على الأذى والتحديات الآفنة[1] والمطالب الجائرة والحائرة، ولذلك قال تعالى:

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢) ﴾.

(الفاء) فاء الإفصاح لأنها تفصح عن شرط مقدر، والشرط تحريض على الصبر وتقديره، إذا لم تصبر فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك. أى أنه لا مناص من الصبر على الأذى والتأنى لهم حتى يكون النصر المبين، وإلا فإنك تنزل عند رغباتهم الآثمة. ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾. (لعل) هنا فيها إشارة إلى ما يرجون، فلعلك أنت يا رسول الله إلى خلقه أجمعين تجاريهم فى ترك بعض ما يوحى إليك من شرع مرضاة لهم، فتحرم ما يحرمون وتبيح ما يبيحون. تحرم ما يحرمون من طيبات، وتجيز طواف العرايا ثم تنزل فى مرضاتهم حتى تسيغ لهم عبادة الأوثان أو يكون السكوت عنهم فيها.

﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ الضمير فى ﴿بِهِ﴾ يعود إلى ﴿مَا يُوحَى﴾، ﴿ضَائِقٌ﴾ أى يعرض أمر غريب على نفسك وهو أن يضيق صدرك ببعض ما أنزل عليك وبعثت من أجله وبه اهتديت وبه تهدى.

ليس المعنى أن النبى ﷺ قد ضاق صدره أو يضيق، إنما المعنى أنهم يرجون أن تترك بعض ما أوحى إليك وأن يضيق صدرك بإيذائهم فتتركه مضطرا.

والنبى ﷺ لم يكن منه شيء من ذلك ولا يفكر فى شيء منه ولكن يحرضه الله تعالى على البقاء على الدعوة وتبليغ الرسالة غير ملتفت إلى أحد منهم، ثم قال تعالى: ﴿أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ وهذا متعلق بمحذوف «كراهة أن يقولوا لولا» أو نقول إنه متعلق بـ ﴿ضَائِقٌ﴾ ويكون المعنى على هذا:

(١) الآفنة: التى تجمع بين النقص، وضعف العقل، والحمق. راجع لسان العرب ـ أفن.

لعلك تارك بعض ما يوحى إليك بسبب إيذائهم المتوالى وسفاهتهم معك، أو يضيق صدرك فى عدم خضوعهم للمعجزة الكبرى وقد تحديتهم فعجزوا، ثم طلبوا معجزات أخرى. وهذا هو الذى نختاره.

وقد أنكروا على النبى ﷺ أنه فقير ﴿ **وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ** (٣١) ﴾ [الزخرف].

وأنكروا أن يكون بشرا منهم رسولا ﴿ **وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ** ... (٧) ﴾ [الفرقان].

أنكروا الأمرين وطلبوا معجزة واقعة لأحدهما وقالوا: ﴿ **لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ** ﴾ أى مال مكنوز يفعل فيه مثل الذين يكنزون الذهب والفضة. والمعجزة أن ينزل عليه إنزالا من غير أى سبب من أسباب الكسب فيكون له جبل من ذهب وآخر من فضة، وبذلك يدفع فقره ويكون اتباعه لثروته ولإنزال هذه الثروة والإعجاز بها، أما الأمر الثانى فيدفع بأن يكون معه مَلَك، وتكون الرسالة برسول سماوى لا برجل يمشى فى الأسواق مثلهم، وقد بين الله استحالة ذلك بقوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ** (٩) ﴾ [الأنعام].

ولقد كان النبى ﷺ حريصا على إيمانهم راغبا فيه، ولذا قال تعالى: ﴿ **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** (٥٦) ﴾ [القصص].

ولذا قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ** ﴾، أى إنك مقصور على الإنذار بمقتضى الرسالة وليس عملك الهداية، بل التوجيه والتخويف لمن عصى، والتبشير لمن اهتدى، ووَضْع العلامات على الطريق لكيلا يضل أحد ﴿ **وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ** ﴾، أى إنه جل جلاله حفيظ على كل شىء، فتوكل عليه فى دعوتك ولا تأبه لهم، فالله سبحانه حافظك منهم ومن طغواهم وهو سبحانه عالم بكل ما يصنعون، ومعاقبهم عليه، وهم راجعون إليه سبحانه وتعالى، ولن يفلتوا من جزاء ما يفعلون، فتوكل على الله الحى القيوم، وامض فيما أمرك به؛ إنه عليم بذات الصدور.

القرآن هو المعجزة الكبرى

قال تعالى:

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣) ﴾.

﴿ أَمْ ﴾ هنا بمعنى (بل)، فهى منقطعة وسياق القول أنهم بطلبهم أن ينزل على النبى ﷺ كنز من السماء أو يكون معه ملك ينكرون المعجزة القرآنية، فواجههم الله تعالى بالتحدى المتجدد المستمر، والإضراب هنا فيه انتقال إلى هذا التحدى.

لقد تحداهم القرآن الكريم أن يأتوا بعشر سور مثله فعجزوا فتحداهم بسورة فعجزوا، وقد صور الزمخشرى أن الانتقال من العشر إلى الواحدة تَنَزُّل فى التحدى كمن يقول لمن يتعلم الكتابة، اكتب عشرة أسطر فلا يستطيع، فيقول له اكتب سطرا فإذا لم يكتب كان ذلك دليلاً على العجز المطلق، ولقد ادعوا على النبى ﷺ أنه افتراه، فتحداهم أن يأتوا بعشر سِوَرٍ مثله مفتريات، مثله فى حسن

بلاغته وانسجام عباراته وتوافق فواصله من غير سجع مرهق للمعانى، ولا جفوة فى الألفاظ.

لقد تضمن اعتراضهم أمرين، إنكار أن يكون القرآن معجزة، والثانى أنه مفترى وليس نازلا من الله تعالى، ولقد اتجه الرد عليهم إلى إعجازهم وعجزهم، لأنه الأمر الذى أنكروه ابتداء. فقل لهم يا محمد أن يأتوا بعشر مفتريات، واختلقوها اختلاقا لتكون على النهج الذى جاء به القرآن فإنكم أرباب البيان وأهل الفصاحة واللسان، واجعلوا الحكام فى هذا الأمر منكم ممن يلغون لغوكم وينكرون الإعجاز مثلكم، وقوله من دون الله تعالى يعنى غير الله من أمثالكم ممن يضادون الله تعالى ويعادونه ولا تتقيدوا بواحد أو اثنين بل ادعوا من استطعتم عددا وقوة وعلما بأساليب البيان إن كنتم صادقين فى أنه ليس بمعجز وأنه ليس من عند الله وإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فأنتم الكاذبون.

(الفاء) فى قوله تعال: ﴿فَأْتُوا﴾ تفصح عن شرط مقدر يناسب ما بعده، والتقدير، فإن كان افتراه كما ادعيتم فأتوا بعشر سور مثله مفتريات إن كنتم صادقين فى ادعائكم افتراءه، وما هو بمفترى فلستم صادقين.

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٤)﴾.

(الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، تحداهم بأن يأتوا بمن يحكم فى هذا الأمر بأن يأتوا بعشر مفتريات، ثم يوازنوا بين القرآن وما جاءوا به فإن لم تستجيبوا فقد قامت الحجة، والاستجابة طلب الإجابة، ويراد بها التحدى للإجابة، والإجابة بقوة، والضمير فى قوله تعالى: ﴿لَكُمْ﴾ للنبى ﷺ ولمن اتبعه، وذكر المفسرون أنه قد يكون للنبى وحده مخاطبا بضمير الخطاب للجمع تضخيمًا وتعظيمًا لشأنه، ولكن لم يعهد ذلك فى القرآن كثيرا، وإن كان ﷺ فى المقام الأعلى عند الله فهو صفيه وحبيبه وخاتم النبيين. ويتضح هنا أمران:

الأمر الأول: كان خطاب الله تعالى لمن مع النبى ﷺ لأن تحدى النبى ﷺ وتكذيبه تكذيب لمن اتبعه وآمن به، وللإشعار بالتعاون التام بينه ﷺ وبين صحبه الأولين الذين هم كالحواريين أنصار عيسى - عليه السلام - إلى الله تعالى، ولأن عليهم التبليغ بعد أن آمنوا؛ إذ هو جهاد، وهم المجاهدون الأولون الذين خوطبوا بالجهاد ابتداء، وهم حملة الرسالة المحمدية من بعده وحاملوها معه ﷺ.

وإذا كانوا لم يستجيبوا ويأتوا بعشر سور مثله فقد لزمتهم الحجة، فوجب عليهم أن يؤمنوا ووجب عليكم معشر المؤمنين أن توثقوا علمكم بأنه من عند الله تعالى، ولذا قال تعالى مخاطبا المؤمنين: ﴿**فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ**﴾ (الفاء) واقعة فى جواب الشرط، واعلموا بالبرهان القاطع الحاسم أنه ما أنزل إلا بعلم الله تعالى.

وكلمة ﴿**أَنَّمَا**﴾ أداة حصر تنفى وتثبت، فهى تنفى أن يكون مفترى وأثبتت أنه أنزل بعلم الله فليس مفترى عليه سبحانه. وهذا يدل على أن الله تعالى بعث محمدا ﷺ به ليكون معجزته الكبرى ودليله على رسالة ربه، وإن الله تعالى معلمكم صدقه ولو كان من غيره ما كان معلمه .

الأمر الثانى: هو أن لا إله إلا هو، لأنه إذا ثبت أن القرآن من عند الله وبعلمه نزل، فيكون ما اشتمل عليه حقا وصدقا، ومما اشتمل عليه الوحدانية فلا معبود إلا الله تعالى وهو العزيز الحكيم.

ولقد قال بعد ذلك، والخطاب للمسلمين ﴿**فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ (الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى إذا قامت الحجة على أنه من عند الله، فبايعوا محمدا ﷺ على الإسلام وأخلصوا وجوهكم لله وأحسنوا، والاستفهام هنا يتضمن معنى الطلب، وقال علماء البلاغة: إن أبلغ صيغة تدل على الطلب المؤكد هى الصيغة التى تصدر بالاستفهام مثل: ﴿... **فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ** (٩١)﴾ [المائدة]، ومثل ﴿**فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾

هذا على أن الخطاب للنبى ﷺ ويصح أن يكون الخطاب للمشركين، ويكون الضمير الذى للغائب فى قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا﴾ يعود على قوله تعالى ﴿مَنِ اسْتَطَعْتُم﴾ فى الآية السابقة ويكون المعنى أنهم إذا لم يستجيبوا لكم معشر المشركين بألا يحضروا هذه الموازنة أو يحضروها ولا يستجيبوا لرغباتكم بأن يحكموا بأنه ليس مفترى - فاعلموا معشر المشركين أنه قد بطلت دعواكم بأنه ﷺ قد افتراه وقامت الحجة عليكم، وأنه نزل بعلم الله ومنه سبحانه وتعالى، وأنه لا إله إلا هو فانتهوا عن الشرك وبايعوا على الإسلام وكونوا مؤمنين.

والتخريجان محتملان وإنى أميل إلى التخريج الأول فهو أقرب. ولأنه لا تقدير فيه، وإن أولئك الذين أنكروا القرآن بعد قيام الدليل بعجزهم عند التحدى إنما يؤمنون بالحسيات فطلبوا أن يكون لمحمد كنز أو يكون معه مَلك، وزين لهم ضلالهم أنه لا يمكن أن يكون الرسول من عند الله فقيرا، ولابد أن يكون عظيما ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)﴾ [الزخرف].

ثم بيَّن الله لهم أن الدنيا يعطيها للبر والفاجر، والآخرة لا يعطيها إلا لمن أحب، وأن المتمتع فى الدنيا لا يلزم أن يكون متمتعا فى الآخرة، فهما مفترقان وليسا متلازمين، ولكن التلازم فى الإيمان والآخرة، ولذا قال تعالى:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ (١٥)﴾.

وفى هذه الآية يبين سبحانه أن الحياة الدنيا وزينتها تسير على سنة الله فى الوجود مربوطة بالأسباب والمسببات وليس لها صلة بالفضل فى الآخرة، فالحياة وزينتها تكون للمؤمن والكافر إذا أخذ كل منهما بأسبابها، ومتعة الدنيا ليست دليلاً على متعة الآخرة بل قد يكون اختيارا شديدا بعده العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥)﴾ [الزخرف].

وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ إرادة الحياة الدنيا لمتاعها وما يتصل بها من رغائب مثل البنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، وغير ذلك من متع الدنيا وشهواتها وزينتها وزخرفها والتفاخر بثيابها وأثاثها ومباهجها ومناظرها وما فيها من محاسن وزينة مما يتفاخرون به ويزدهون .

وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ شرط جوابه قوله تعالى ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ ومعنى وفاء الأعمال أى إعطاء نتائجها، فإذا زرع كان زرعه موفورا، وإذا صنع كانت ثمرات صناعته كاملة غير منقوصة، وكذلك إذا تاجر لا يحرم من شىء من نتائج عمله إلا أن يشاء الله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾؛ لأنهم فى الدنيا لا يبخسون ثمرة عمل من أعمالهم.

وقوله تعالى: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ فيه إشارة إلى سنة الله تعالى فى هذه الدنيا أن الأمور تربط بأسبابها، والأعمال تربط بنتائجها فمن أجاد عملا فى الدنيا أخذ حظا فيه سواء أكان مؤمنًا أم كافرًا. وهذا قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝١٩ كُلاًّ نُّمِدُّ هَٰؤُلاءِ وَهَٰؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ۝٢١﴾ [الإسراء].

هذا أمر الدنيا ومتاعها وزينتها، أما الآخرة فقد قال تعالى فيها وفيمن اقتصر سعيهم على طلبها:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٦﴾.

أولئك غرضهم الزينة والتفاخر كما قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ... ۝٢٠﴾ [الحديد].

هؤلاء نالوا متعتهم ولم يعملوا لآخرتهم فليس لهم فيها إلا النار يصطلونها؛ لأن طالب الدنيا وحدها لا يناله إلا الشر فهو يعتدى ولا يعرف حق غيره، ويكفر بالله ويعبد الأوثان، فهو لا يؤمن إلا بما يلمسه بين يديه وكل ذلك إلى النار، وإن طلب المتعة الدنيوية ذاتها أو طلب زينتها لا يؤدى إلى النار، إنما الذى يؤدى إلى النار هو ما يقترن بطلب الدنيا وزخارفها من عدم الوقوف عند حد المباح من الطيبات، بل يكون الاعتداء والتطاول والشرك وإن هذا مآله النار، وقد قال تعالى: ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ** (٢٠) ﴾ [الشورى] وفى قوله تعالى: ﴿ **وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا** ﴾ أى فسد ما صنعوا.

والحَبْطُ أن يكون فساد العمل أو الشىء من ذاته وليس من أمر خارج عنه، ويقول الراغب الأصفهانى فى مفرداته، أصل الحَبْط من الحَبَط وهو أن تأكل الدابة حتى تنتفخ بطنها.

والحبط فساد الأمر من ذاته لا من أثر خارج عنه كما أشرنا، وقد قال الراغب رضى الله عنه فى المفردات أيضا: «حبط العمل عن ثلاثة أضرب:

أحدها: أن تكون الأعمال دنيوية لا تغنى فى القيامة عنا كما قال تعالى: ﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا** (٢٣) ﴾ [الفرقان].

والثانى: أن تكون أعمالا أخروية فى ظاهرها لكن لم يقصد بها صاحبها وجه الله تعالى، فإنه يؤتى بصاحبها يوم القيامة فيؤمر به إلى النار.

والثالث: أن تكون أعمالا صالحة ولكن بإزائها سيئات وهو ما يشار إليه بخفة الميزان.

وإن أولئك الذين قال فيهم سبحانه: ﴿ **وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا** ﴾ هم الذين ما نظروا إلا إلى الدنيا وزينتها ولم يفكروا فى الآخرة؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث ولقاء الله تعالى، وما كانوا يصنعون المعروف إلا للرياء والسمعة فكانوا مشركين.

وقوله تعالى: ﴿مَا صَنَعُوا﴾ يفيد صنائع المعروف التى حبطت لأنهم لم تكن لهم فيه نيات حسنة، والأعمال فى ثوابها بالنيات ومقاصد الخير ولم تكن لهم نيات صالحة. وختم سبحانه وتعالى الآيه الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى كل عمل عملوا قد صار باطلا، كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣)﴾ [الفرقان] ذلك أن قلوبهم قد فسدت بالشرك فلم يكن لهم خير يُحمدون عليه.

أهل الحق وأهل الباطل

قال تعالى:

أَفَمَن كَانَ
عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ
مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ
مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ
مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ
عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ
رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن
دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ

ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟
أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ
فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ
هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ
وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

هذه موازنة بين الذين يتبعون الحق والذين يطلبون الدنيا وزينتها وتكون وحدها مقصدهم ويشركون بالله تعالى، وبين الذين يؤمنون بالله.

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ (الفاء) هنا مؤخرة عن تقديم، وهى تفيد أن الاستفهام المتسائل مترتب على ما قبله من عمل غير فاضل، وكلمة ﴿ مَّن ﴾ اسم موصول بمعنى الذى، والمعنى أمن كان على بينة من ربه كمن هو فى عماية عن الحق ولا يدرك إلا الحياة الدنيا، وحذفت الموازنة الدالة على المفارقة الواضحة بينهما، إذ فرقٌ بين من يطلب الحق الباقى ومن يطلب العاجل الفانى.

(البينة) الأمر البين الذى تدركه العقول السليمة فى غير اعوجاج، ويصح أن يراد به الإسلام؛ لأنه بَيِّن لا يأتى إلا بما تقبله العقول ولا ينهى إلا عن الأمر المنكر غير المعقول؛ ولأنه دين الفطرة السليمة.

أسند الله تعالى البينة إلى ربه، للدلالة على أنه الهادى إليها بمقتضى ما ركزه الله تعالى فى النفوس، وبمقتضى ما هدى إليه بالرسالات الإلهية، وقال تعالى:

﴿بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ بالتعدية بـ﴿على﴾ للدلالة على تمكنه من المعرفة، وأنها ليست وهما يتوهم ولا ظنا يظن بل عقيدة متمكنة.

ذكر الله تعالى بعد البينة أن لها شاهدًا من الله تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾، أى يجيء شاهدا من الله، فالضمير الأول فى ﴿يَتْلُوهُ﴾ يعود إلى البينة، وعاد مذكرا لأن البينة البرهان القاطع الحاسم الذى تهدى إليه الفطرة، فعاد الضمير مذكرا للإشارة إلى أنها برهان بين واضح الدلالة على الوحدانية. والضمير الثانى فى قوله ﴿شَاهِدٌ﴾ يعود على الله ربك، أى أنه هداك وأيدك، والشاهد هو القرآن الكريم النازل من لدن عزيز حكيم.

وإن القرآن الكريم جاء مع البينة، وقلنا إنها الإسلام، فكيف يقال إنه وليها ونقول فى ذلك إن الإسلام يكون دفعة واحدة؛ لأن لبه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، والقرآن نزل منجما فهو كان يتلى بعده لا قبله، وإن قلنا إن البينة هى برهان العقل المدرك فالقرآن جاء واليا، جاء به الحق.

وقد نقول وبحق نقول: إن القرآن جاء مع البينة مؤيدا لها، والتعبير بأنه تلاها للإشارة إلى التلاوة فيه وهى الترتيل، كما قال تعالى: ﴿... وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢)﴾ [الفرقان] وكما قال سبحانه: ﴿... وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ ... (٤)﴾ [المزمل]، وللإشارة إلى أنه هناك مراتب فى الإدراك، فالأولى أن تجيء البينة، والمرتبة الثانية هى التأييد من الله بالقرآن ولا تراخ بين المرتبتين بل هما متصاحبتان، كما تقول: فكِّر ثم اقرأ، أى اقرأ قراءة متفكر متدبر، وكأن القرآن شاهد؛ لأنه ببلاغته، وفصاحة كلمه، وعمق معانيه مع وضوحها، وعلمه وقصصه الحكيم كان المعجزة الخالدة، فهو شاهد دائم ناطق بالحق إلى يوم القيامة، وفيه الدلالة الواضحة على رسالة محمد ﷺ إلى يوم الدين.

ثم أشار سبحانه إلى تصديقه للكتب السابقة وبشارتها به فقال تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾، فدلت هذه العباره على أمرين .

الأمر الأول: بشارة التوراة والإنجيل به كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)﴾ [الأعراف].

الأمر الثاني: الذى دلت عليه الآية أنه مصدق لما بين يديه من الكتاب، وأن الإيمان به إيمان برسالة الرسل أجمعين كما صرح بذلك القرآن الكريم.

وقوله تعالى: ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ وصف لكتاب موسى وهو التوراة التى نزلت عليه ولم ينس منها خط ولم يحرفوها أو يبدلوها، فلا يستدل بالمطبوع الذى يُغيَّر إلى الآن آنا بعد آن تقرأه تجد فى ذاته دليل بطلانه وبرهان بهتانه.

ومعنى قوله تعالى: ﴿إِمَامًا﴾ أنه يؤتم به فى الدين، ومعنى ﴿رَحْمَةً﴾ أن ما اشتمل من شرائع فى الزواج والطلاق والعقوبات هو الرحمة؛ لأن من رحمة الله بعباده أن يؤخذ الجانى بشدة رادعة زاجرة فالشدة العادلة على الجانى رحمة بالمجنى عليه، والرفق معه ظلم وقسوة على المجتمع، وهنا لابد من الإشارة إلى أمرين:

الأمر الأول: كيف يكون ما جاء به موسى إماما يأتم به أتباع محمد ﷺ؟.

الأمر الثانى: أشريعة موسى نسختها شريعة محمد ﷺ أم لم تنسخها، والجواب عن الأول أن شريعة موسى فى ضمن شريعة محمد، ولو كان موسى حيا ما وسعه إلا أن يتبع ما جاء به محمد ﷺ، فكتاب موسى إمام باعتباره مقدما فى الزمن، والشريعتان فى معناهما واحد والاختلاف فى فروع جزئية تابعة للأزمنة. أما الإجابة على أن شريعة محمد ﷺ نسخت شريعة موسى عليه السلام فهو أن شريعة محمد ﷺ نسخت من شريعة موسى فروعا ولم تنسخ أصولا، وما جاء به محمد ﷺ هو ما يجب اتباعه. ولقد روى سعيد بن جبير عن أبى موسى رضى

الله عنهما أن النبى ﷺ قال: «**والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى أو نصرانى ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار**»(١).

وقد قال تعالى: ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ... (١٣)**﴾ [الشورى].

قال تعالى: ﴿**أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ**﴾ إشارة إلى الذين على بينة ويؤمنون بموسى عليه السلام، فرسالة محمد ﷺ جامعة للرسالات كلها، كما قال تعالى: ﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦)**﴾ [البقرة].

﴿**وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ**﴾ الأحزاب جمع حزب، وهو من يحزب لفكرة أو لقوم أو لعصبية غير مؤثر الحق فى ذاته إنما يؤثر من يتعصب له حقا كان أو باطلا وإن التحزب كالتعصب يعمى عن الحق وهو يعمى ويصم، لا يطلب الحق فى ذاته إنما يطلب على هوى من يتعصب لهم، والأحزاب يصح أن تفسر فى موضوع الآية الكريمة بأنها القبائل المتعصبة المتجمعة لمحاربة الحق وكانت القبائل كذلك، وسماهم القرآن الأحزاب لأنهم تجمعوا متحزبين ضد الدعوة الإسلامية وذهبوا فى غزوة الأحزاب ليقتلعوا الإسلام من المدينة فخاب فألهم وطاش سهمهم وارتدوا خاسرين بريح كريح ثمود، والذين كفروا به من الأحزاب لا يؤمنون بمحمد ﷺ ولا يؤمنون بموسى عليه السلام ويهددهم الله تعالى بقوله: ﴿**فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ**﴾ فالنار مكان تنفيذ وعد الله تعالى فيهم، وقوله تعالى هذا لا يخلو من تهكم لاذع بهم؛ لأنهم كانوا يرجون رحمة، فإذا بهم يلقون عذابا وكأنهم عقدوا موعد اللقاء فخاب ظنهم وكانت النار موضعه.

---

(١) رواه أحمد: أول مسند الكوفيين - حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه (١٩٠٦٨).

ثم انتقل قول العزيز الحكيم إلى خطاب النبى ﷺ فقال سبحانه: ﴿فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ من هذا البيان الذى بيَّن الحق وأزهق الباطل، والمرية هى الشك، والأمر يمتد لمن خاطبهم النبى ﷺ لأنه نهى على أبلغ الصور؛ لأنه إذا كان نهيا من الله تعالى لنبيه المصطفى الذى لا يزيغ قلبه ولا يرتاب فأولى بهذا النهى ثم أولى الذين ربما يعتريهم ذلك وهم من أُرسل إليهم.

وأكد سبحانه النهى عن الريب بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ والضمير يعود إلى البيان والقرآن، والحق هو الأمر الثابت الصادق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد جاء من ربك الذى خلقك ودبر أمورك بحكمته.

وقد أكد سبحانه وتعالى أنه الحق بـ(إنّ) المؤكِّدة، وبأنه من ربك الذى خلق فقدر وهدى، فاجتمع له فضلان فضل ذاتى لأنه الحق فى ذاته، وفضل إضافى يؤكد أنه الحق، وهو أنه من عند الله.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ الاستدراك هنا معناه، أن مقتضى الإسلام بينة وبرهان، وأنه حق ثابت أن يؤمن الناس جميعا ما دامت لهم عقول تدرك وقلوب تؤمن، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون، وكان التعبير بالمضارع للإشارة إلى أن أكثر الناس لهم قلوب ليس الإيمان من شأنها بل هم دائما متمردون على الحق وظلم الحقيقة، وهم مفترون على الله تعالى ويكذبون عليه، ولذا قال تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾﴾.

إن الكفر مباءة للآثام، تعيش فيه وتفرخ، ويتبع الإثم إثم مثله، ويأخذ بعضه بحَجُزِ بعض فى سلسلة متصلة تبدأ بالشرك بالله تعالى ثم بالكذب عليه بتحريم ما أحل الله على أنه من عند الله، والجحود بما أنرل سبحانه والافتراء عليه تعالى وفساد اعتقادهم بأن يعبدوا الأوثان ويقولوا إنهم شفعاؤنا. وهكذا يكون الشرك كالمعاطن التى تحوم حولها الحشرات والجراثيم وكل الموبقات.

وأوضح ما فى الشرك الكذب على الله تعالى بما ذكرنا وغيره، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، الاستفهام هنا إنكارى بمعنى النفى مع التوبيخ، بمعنى لا أحد أظلم ممن افترى قاصدا الكذب على الله تعالى، وهم قد ارتكبوا أشد الظلم إمعانا فى الشر والكذب على الله بأن يشركوا به غيره كما أشرنا، وبأن يخترعوا مفاسد وينسبوها إلى شريعة إبراهيم عليه السلام كطوافهم عرايا وأن يحرِّموا على أنفسهم طيبات ما أحل الله ويزعمون أن الله حرمها وغير ذلك مما حرموه ناسبين التحريم إليه افتئاتا عليه، فلا أحد أعظم منهم بهتانا وكفرا. افترى الكذب معناه قصده وأراده، والكلمة نكرت لبيان أن الكذب على الله تعالى قل أو كثر ظلم عظيم بل أعظم الظلم، وأن الشرك ظلم عظيم لأن من أشرك ضلل نفسه وضلل الناس ولأنه ارتكب بهتانا عظيما.

ويقول سبحانه: ﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ الإشارة إلى الذين افتروا الكذب، يعرضون على ربهم الذى خلقهم ورباهم وحفظهم وهو الحى القيوم. وهم يعرضون على ربهم ويلقونه سبحانه غير مختارين، وهو اللقاء الذى لا يتمنونه؛ لأنه لقاء الذين كفروا بربهم يعرضون عليه كما يعرض الجانى على شهوده ليشهدوا عليه، كما أنهم يرون ما أنكروا وكذَّبوا.

وفى المحشر والحشد الجامع يقول المشاهدون من ملائكة وأنبياء وصديقين ﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ مشيرين إليهم استنكارا لفعلهم وبيانا لشناعة ما كانوا عليه وحسبهم ذلك سوءا وفحشا واستحقاقا للعذاب. وإن ذلك العرض وتلك الشهادة أبلغ عقاب معنوى، ومن بعد ذلك يكون العقاب المادى على ذلك الظلم الفاجر الآثم والشرك الضال المضل.

والأشهاد جمع شاهد كأصحاب جمع صاحب، أو جمع شهيد كأشراف جمع شريف، والمعنى واحد، وقد ختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (ألا) أداة تنبيه وفيها توكيد للحكم الذى يجىء بعدها، و﴿لَعْنَةُ اللَّهِ﴾مقته وعذابه والطرد من رحمته وقوله: ﴿الظَّالِمِينَ﴾ إظهار فى موضع

الإضمار، وذلك لتسجيل الظلم عليهم، ولبيان أن هذا الظلم الذى قد بلغ أقصى حدوده هو السبب فى بُعدهم عن رحمة الله تعالى، ويعم الحكم بالعذاب على كل من عتى عن أمر ربه وأشاع الفساد فى الأرض. إنه لا يحب المفسدين.

وقد ذكر الله أفعال أولئك الظالمين فقال تعالت كلماته:

﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) ﴾.

يذكر الله تعالى أحوال الذين يفترون على الله الكذب، وقد ذكرنا كيف كانوا يفترون، وهذه الحال التى ذكرت هى الصد عن سبيل الله تعالى بإيذاء المؤمنين وفتنهم ليقولوا كلمة الكفر وهم لها كارهون، وقد بالغوا فى إعناتهم حتى مات منهم من مات تحت حر العذاب الذى ابتدعوا فيه طرائق تتنافى مع كل إنسانية بل ووحشية، حيث كانوا يحمون الحديد ويصبونه محميا فى فرج المسلمة حتى لقد اضطر بعض المسلمين أن ينطق كلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان. وكان من صدهم أن النبى ﷺ عندما كان يذهب داعيا فى الحج القبائل كان يذهب منهم من ينفرهم من الإسلام كأبى لهب، وأن الأوس والخزرج عندما استجابوا للنبى ﷺ كانوا يلتقون به على استخفاء منهم وفى سر لا إعلان فيه، وهم يتبعونهم كلما علموا باجتماعهم به، ولذا قال تعالى فى وصف هذه الحال: ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ وسبيل الله هى سبيل الحق والإسلام كما قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ... (١٥٣) ﴾ [الأنعام].

﴿ يَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أى يريدونها ملحفين فى ذلك أن تكون معوجة بأن يلين معهم فى عبادة الأوثان وتحريم ما أحل الله ويرضى بما يرضون، أو يريدون ويبغون أن يكون أتباعه معوجين منحرفين عن الحق وأن يرتدوا عن دينهم الذى ارتضوا، وقد أشار سبحانه إلى السبب الذى جعلهم يوغلون فى الكفر ذلك الإيغال ويمعنون فيه هذا الإمعان، فقال تعالى فى حالهم التى أضلتهم: ﴿ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾.

أى أن الكفر بالبعث جعلهم لا يؤمنون إلا بالدنيا وزينتها وظنوا أنها وحدها هى الحياة مما أدى بهم إلى هذا الغباء وهذه اللجاجة فيه.

وقد أكد سبحانه كفرهم بالبعث واليوم الآخر وأنه لا حساب ولا عقاب، أكده أولا بالضمير وهو قوله تعالى: ﴿وَهُمْ﴾ وتكراره فى قوله تعالى: ﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾ وأكده بالجملة الاسمية.

وذلك ضلالهم وهو الضلال البعيد، وأنهم بغوا وطغوا فى البلاد وأكثروا فيها الفساد وحسبوا أنهم الغالبون وأنه لا يعجزهم أحد وذلك سر طغيان الطغاة.

لذا قال تعالى ما يفيد أنهم أعجزوا العباد فلن يعجزوا رب العباد.

﴿أُوْلَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠)﴾.

الإشارة إلى الذين يصدون عن سبيل الله تعالى ويبغونها عوجا ويريدون أهلها معوجين غير سائرين فى الجادة، والإشارة إلى الموصوفين بصفات تدل على أن هذه الصفات سبب لما يقومون به من تحد لله تعالى، ولذا قال سبحانه: ﴿لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ﴾، أى لم يكونوا معجزين لله عن أن ينزل بهم ما أنزل بمن سبقهم بجوائح ماحقة كخسف فى الأرض أو رجفة أو ريح صرصر عاتية أو حرب مجلية مخزية، والمعنى أنهم لم يكونوا بحالهم وكينونتهم معجزين الله فى الدنيا، فالله هو القهار والغالب على كل شىء فلا ولى لهم يقاوم إرادة الله تعالى فيهم، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أى ما كان لهم أولياء يعاندون الله تعالى فيما يريد فيهم ويقاومون إرادته، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ فإنها تدل على المضادة لما يريد الله سبحانه وتعالى فهم لا يستطيعون نصرتهم ولا منع العذاب عنهم، قالوا بمعنى النصر المانع وكلمة ﴿مِّن﴾ فى قوله تعالى: ﴿مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ لتعميم النفى أى ما كان لهم أى ولى من الأولياء.

هذا فى الدنيا إذ حسبوا أنه لا رقيب عليهم ولا دافع يدفعهم وهم مسلطون، فيبين الله تعالى أنه قاهر فوقهم. أما فى الآخرة فقال الله تعالى عن حالهم فيها ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أى يكرر العذاب عليهم فيكون ضعفين أو أضعافا؛ لأنهم أشركوا بالله عبادة الأوثان، ولأنهم آذوا المؤمنين وحاولوا صدهم عن سبيل الله، ولأنهم طغوا وبغوا فى البلاد وأكثروا فيها الفساد، ولأنهم ظلموا الناس وفتنوهم فى دينهم.

وما بعثهم على تلك الآثام التى ضاعفت لهم العذاب إلا أنهم لم يستمعوا إلى الحق ولم يبصروا الآيات، ولذا قال تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ ذكر الله تعالى فى هذا النص الكريم السبب فى هذه المآثم فذكر أنه أمران:

الأمر الأول: أنهم لا يستطيعون السمع، وليس المراد أنهم صُمٌّ حقيقة، بل شبهت حالهم بحال الأصم الذى لا يستطيع السمع؛ ذلك لأنهم لا يتدبرون ما يسمعون من دعوة إلى الحق وآيات تتلى فيها الإعجاز فكانوا كأنهم لايسمعون، وقد ذكرهم الله فى مواضع أخرى ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)﴾ [الاعراف].

الأمر الثانى: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ أى ينظرون نظرة تأمل للكون ويدركون أسراره، والجمع بين الماضى والمستقبل فى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ للدلالة على استمرار غفلتهم عن الآيات وتجددها وقتا بعد آخر، فكلمة «كان» تدل على الماضى وكلمة ﴿يُبْصِرُونَ﴾ تدل على المستقبل، كذلك قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ والله أعلم بمراده فى كتابه.

ولقد حكم سبحانه بعد ذكر عذابهم فى الدنيا والآخره فقال تعالى:

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١)﴾.

الإشارة هنا إلى الذين هددوا بعذاب الدنيا وإنه لنازل بهم، وأنذروا بعذاب الآخرة، ومن قبل صدوا عن سبيل الله، وأرادوها ملحفين فى إرادتهم أن تكون معوجة، والإشارة إلى الموصوف بصفات تدل على أن هذه الصفات هى سبب الحكم، وهذا الحكم هو الخسران المبين.

وأنهم خسروا بضلالا عقولهم، وخسروا أنفسهم بظلمهم، فالظلم خسارة للنفس، وخسروا أنفسهم بكفرهم باليوم الآخر وعدم رجاء ما عند الله، وبعذاب الدنيا والآخرة، ثم قال تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أى غابت عنهم الأوثان التى كانوا يحسبونها شفعاء عند الله، وتلفتوا فلم يجدوها والتعبير بـ﴿ضَلَّ﴾ يفيد أنهم طلبوها فلم يجدوها، أو توهموا أنها تنفعهم فلم تجدهم، وفى تعبيره سبحانه عن الأوثان بقوله تعالى: ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ إشارة إلى أنها لا وجود لها فى ذاتها وإن وجودها كآلهة إنما هو فى أوهامهم وافترائهم.

ثم يؤكد سبحانه خسارتهم البالغة إلى أقصى حد.

﴿لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ (٢٢)﴾.

قال الخليل وسيبويه إن ﴿لا جَرَمَ﴾ كلمة واحدة معناها حق ويكون المعنى: حق وثبت أنهم فى الآخرة هم الأخسرون، فالنص يثبت أنهم خسروا وأنهم بلغوا فى الآخرة أقصى درجات الخسارة، ولذا جاء جمع ﴿الأَخْسَرُونَ﴾، وفعل التفضيل هنا يدل على أقصى درجات الخسارة، أى لا خسارة فوقها أو مثلها بل هى فوق كل خسارة، وما ظنك بخسارة مؤداها البقاء فى الجحيم خالدين فيها إلى ما شاء الله تعالى.

وروى عن الخليل أيضا فى ﴿لا جَرَمَ﴾ أن معناها لابد ولا محالة فهى تفيد التأكيد بأنهم فى أعلى درجات الخسارة.

والأصل فى ﴿لا جَرَمَ﴾ أن لا نافية، وهى رد لهم فى أطماعهم، وبيان بطلانهم، وجرم معناها كسب، والمعنى لا كسب ذلك الفعل لهم- أنهم الأخسرون. ومؤدى لا جرم حق كما ذكرنا أولا.

وهذا شأن الكافرين الجاحدين الذين يصدون عن سبيل الله تعالى ويبغونها عوجا، أما شأن المؤمنين فقد قال تعالى فيه:

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** (٢٣) ﴾.

بعد أن بين سبحانه وتعالى حال الذين كفروا فى الدنيا وفى الآخرة، وأنه فى الدنيا غرور بها وزينتها، وفى الآخرة خسران مبين وشقاء وجحيم، بين سبحانه حال المؤمنين فقال: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ** ﴾، ذكر سبحانه وتعالى لهم أعمالا ثلاثة:

أولها: الإيمان الذى يقذفه الله فى قلب المؤمن فيخضع للحق ويذعن له وإن القلب إذا أشرق بالإيمان واستضاء به كانت الحكمة والاستقامة فى القول والعمل فلا يكون منه إلا الخير والإذعان للحق.

والثانية: العمل الصالح وهو ثمرة الإيمان وأن الايمان إن لم يصاحبه العمل كان ذلك نقصا فى الإذعان، فإن الإخلاص يتولد عنه الحكمة التى يتولد عنها القول الطيب والعمل الطيب.

والحال الثالثة: هى الإخبات إلى الله، والإخبات هو الاطمئنان، والكلمة مثل للأرض والخبت، وهى الأرض المصمتة[1] السهلة، والاطمئنان الى الله يتضمن تصديق ما وعد، والخضوع لما أمر ونهى، وقال تعالى: ﴿ **إِلَىٰ رَبِّهِمْ** ﴾ لما يفيده معنى الربوبية والخلق والقيام على حفظهم وتربيتهم وما يترتب على ذلك من الاطمئنان والخضوع وعدم التمرد عليه سبحانه والخروج عن طاعته.

وقد أكد سبحانه هذه الأحوال بـ (إنَّ) المؤكدة، وذكره بالاسم الموصول للدلالة على أنه سبب الجزاء الذى يعطيهم ربهم، والثناء الذى أضفاه عليهم خالقهم.

---

(١) أصْمَتَتِ الأرضُ: أحالتْ آخرَ حَوْلَيْنِ. كما فى القاموس، والمراد هنا الساكنة الممهدة للسير.

ثم ذكر بعد ذلك جزاءهم فقال تعالت كلماته: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، وإن الإشارة إلى صفاتهم من إيمان وعمل صالح وإخبات إلى ربهم إيضاح إلى أنها سبب ذلك الجزاء العظيم، وقد أكد سبحانه وتعالى جزاءهم بأنهم ملازمون للجنة، وأنهم أصحابها الذين لهم اختصاص يشبه ملك المالك لما يملك وأكد أيضا بضمير الموصول فقال: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

هذا مكان الذين آمنوا، وذلك مهوى الذين يصدون عن سبيل الله، وقد وازن سبحانه وتعالى بين الفريقين فقال تعالت كلماته:

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٢٤)﴾.

المثل هو الحال والشأن، الفريقان فريق من ضل وغوى فكان فى السعير، ومن آمن واهتدى وعمل صالحا واطمأن إلى حكم ربه فكان فى الجنة، فجعل فريق الغواية كالأعمى الذى لا يبصر والأصم الذى لا يسمع، وفريق الهداية كالبصير الذى أوتى حدة فى البصر حتى كان بصيرا يرى الأشياء والحقائق، والسميع الذى أرهف سمعه حتى صار يسمع دبيب النمل.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾؟ هذا استفهام إنكارى بمعنى إنكار الوقوع، أى لا يستويان مثلا أى حالا وشأنا، بل يفترقان ويكونان بما يتفق مع حال كل منهما، فالأعمى الذى لا يرى حتى يعرف الطريق، والأصم الذى لا يسمع الهادى الذى يرشده فهو يتردى فى المهاوى غير رشيد ولا مسترشد، والبصير الذى يرى أعلام سبيل الله تعالى وهو السميع الذى يسمع المرشد الهادى إلى سواء السبيل لا بد أن يسلك الطريق الأقوم، فلا يستويان فى الابتداء والانتهاء، ففريق فى الجنة، وفريق فى السعير.

والتشبيه فيه تخريجان:

التشبيه الأول: تشبيه الكافر بالأعمى الأصم الذى لا يرى الطريق ولا يسمع من يهديه، والمؤمن بالبصير السميع الذى يهتدى ببصره وبإرشاده وقد وضحناه.

والتشبيه الثاني: تشبيه الكافر بالأعمى في عدم إدراكه، وبالأصم في عدم الإصغاء للهداية والمؤدى فيهما واحد، ولقد قال تعالى: ﴿ **وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ (٢٠) وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢)** ﴾ [فاطر].

ختم الله الآية الكريمة موجها القول إلى الناس ﴿ **أَفَلا تَذَكَّرُونَ** ﴾، (الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها وأخرت عن تقديم؛ لأن الاستفهام له الصدارة، والاستفهام للتنبيه والتحريض على التذكر والاعتبار وإن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار.

القصص الحق

قال تعالى:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾
أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ
﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا
مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ
ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ
﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً
مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾
وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ
أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ

قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) ﴾.

إن قصص القرآن ليس فيه تكرار إنما فيه بيان العبرة، وتساق القصة أو جزء منها فى موضع العبرة فيها، وإذا كان فيه تكرار فهو ليس فى الأخبار إنما هو فى موضع الاعتبار.

وموضع الاعتبار هنا أن قوم نوح يحاربونه بما حارب الملأ من قريش محمدا ﷺ، ودعوة نوح هى دعوة محمد الخالدة، وهى دعوة النبيين من قبل، وهى الحقيقة الأزلية، هى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ الذين يألفهم ويألفونه ويعرفون مقامه فيهم، ونسبه منهم، وقد ناداه نداء الحدب عليهم المحب المنذر لهم، مبينا مغزى رسالته ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ وهذا معنى أرسلنا والغاية من الرسالة، وهذا مشابه لأمر النبى ﷺ عندما قال لقومه عندما أبلغهم برسالته: «**أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم**»، قالوا: ما عهدنا عليك كذبا، قال: «**إنى لنذير لكم بين يدى عذاب شديد**»[(١)].

﴿ أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) ﴾.

---

(١) رواه البخارى: تفسير القرآن - ﴿وأنذر عشيرتك﴾ (٤٧٧٠)، وأطرافه فى البخارى ستة، بنحو من هذا، كما رواه مسلم: الإيمان - ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ (٢٠٨).

تضمن هذا النص الكريم لب الرسالة وهو الوحدانية فى الذات وفى الصفات وفى العبادة، كما تضمن فى ألطف مودة الإنذار بالعذاب الذى يكون فى يوم مؤلم فى أهواله وفى مآله، وإنه يوم المآل.

وقد تبعه من تبعه من الضعفاء والفقراء الذين يزدريهم الكبراء فى هذه الدنيا كما ازدرى كفار مكة أتباع النبىﷺ من الفقراء والأرقاء واستهزءوا بهم، كذلك كان الذين كفروا بنوح ابتداء من الملأ والكبراء.

﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) ﴾.

وتتضمن إجابتهم ثلاثة أمور كلها لقيها النبى ﷺ من قومه والملأ هم الأشراف الأقوياء المستكبرون فى الأرض بغير الحق، ووصفهم سبحانه بالموصول ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لبيان أن السبب هو كفرهم وليس ثمة باعث حقيقى مما تضمنه قولهم، إنما الباعث هو الكفر الذى سبق إليهم ابتداء، وكان ذلك القول مظهره وأول ما دل عليه، وهو استغرابهم أن يكون بشر منهم رسولا، وكذلك كان يقول مشركو مكة.

الأمر الأول: ﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ فأى ميزة جعلتك رسولا من بيننا، وهذا كقول المشركين فى مكة: ﴿ ... مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ ... (٧) ﴾ [الفرقان]، وهذا هو أول ما تضمنته إجابتهم.

الأمر الثانى: أنهم قالوا: ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ جمع أراذل، وهم الأخساء فى نظرهم لأنهم يقيسون الخسة والرفعة بمقدار القوة المادية، فمن كان غنيا مستعليا بماله ونفره كان عاليا، ومن كان قليلا فى ماله ونفره كان خسيسا فى نظرهم ومعنى ﴿ بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾ أى ظاهر من الرؤية لا يحتاج إلى دليل.

الأمر الثالث: ما نرى لكم يا نوح أنت ومن معك من فضل علينا حتى تستحقوا الثواب دوننا، ومن هذا البيان استغراق النفى، أى لا نرى لكم علينا أى

فضل حتى تكونوا مستحقين للثواب دوننا، وذلك لربطهم الرفعة فى الدنيا بالمادة ثم أكدوا بعد ذلك ما توهموا فقالوا: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ وهو إضراب عما يوهم كلامهم فى فرض صدق الأخبار بأنهم يستحقون ثوابا، ويقول المفسرون إن الظن هنا هو العلم، وأنا أقول إنه الظن الحقيقى؛ لأن الكفار كل علمهم أوهام، والأوهام إذا كان منها اعتقاد لا يمكن أن يكون إلا ظنا، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا.

ولقد أجابهم نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

ابتدأ نوح عليه السلام نداءهم بـ«يا قوم» تقريبا وتأليفا، ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أى دليل وسلطان، ﴿وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أى خفيت عليكم ولم تهدكم، ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ أى لا نلزمكم إياها وأنتم كارهون لها، والرحمة من آثار الإيمان، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى جاءت البينة فلم تدركوها فخفيت عليكم، والخطاب أرفق ما يكون لقربهم إليه، ولم يقل كفرتم بل قال: «خفيت عليكم» وترك الأمر لاختيارهم، ووجه أنظارهم إلى أن الأمر ليس لفضل شخصى، ولكن لهدى إلهى، ولأن رسالات الله بينات وهداية.

ثم بين أن المسألة ليست أمرا دنيويا، حتى تتنافسوا عليه، إنما هو أغلى مما عندكم وما تتنافسون فيه.

ثم ناداهم عليه السلام بما يؤلفهم:

﴿وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

طمأنهم إلى أنه لا يسألهم مالا، والمال عنصر حياتهم المادية التى بها يستعلون وهو زخرف الحياة وزينتها، ولكن يسألهم هداية، وأجره على الله وحده

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ﴾ (إن) نافية، لا أجر لى إلا عند الله فلا تحاولوا أن تنكروا الرسالة ما دامت لا تكلفكم مالا، بل تكلفكم إصغاء وإيمانا. ثم هم كانوا يطعنون فى اتباعه ويغضون من مقامه عند الله ولا يرضون أن يكونوا صفا واحدا مع هؤلاء الأراذل فى زعمهم المادى الفاسد، فيقول لهم قولا قاطعا حازما حاسما فيه شدة وقوة ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لأنى جئت للهداية لا للثروة والمال، وعبر بالموصول فى كلمة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لبيان سبب النفى، وهو كونهم آمنوا، فحققوا ما جئت به، فكيف أطردهم.

وإن الاعتبار بحالهم وحالكم إنما يكون فى الآخرة وليس فى الدنيا، ولذا قال: ﴿إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ﴾ وعند لقاء ربهم الذى خلقهم ورباهم على تقوى منهم، فستكونون معهم وستعلمون أنهم أهدى سبيلا.

ويتجه نوح إلى أن يصدع بالحق فيهم بعد هذا الرفق الكريم ويقول: ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾، وهذا الاستدراك من القول اللين العطوف ألى القول الحق الذى لا يخلو من عنف فى لطف، أراكم قوما تجمعتم وتحزبتم وأنتم تجهلون الحقائق وتمارون بالباطل، انتقل من عذرهم بخفاء الأمور عليهم إلى رميهم بالجهل المستمر الذى يتجدد آنًا بعد آن وقد استمروا عليه. ثم من بعد ذلك مستنكرا طردهم.

﴿وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣٠)﴾.

ابتدأ أيضا بالنداء المقرب المؤلف ﴿وَيَا قَوْمِ﴾ إن كنتم تسترذلونهم وتستحقرونهم فهم عند الله أهل القربى فكيف أطردهم ومن ينصرنى أمام الله لدفع انتقامه منى وقد طردت عباده المقربين، وكلمة ﴿مَن﴾ فى النص تدل على مجابهته لله، ومدافعته لإرادته، ومن ينصرنى أمامه، ثم تختم الآية بقوله: ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾، أفلا تفكرون وتتدبرون لتعرفوا أن طردهم ليس بصواب ولا حسن العاقبة، وأنهم إذا كانوا فقراء فأنا أيضا فقير إلى الله تعالى ولست أفاخر بمال، ولذا قال تعالى حاكيا عنه:

﴿ وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١) ﴾.

نفى أربعة أمور:

الأمر الأول: أنه ليس عنده خزائن، فهو فى الأموال دونهم، فالله تعالى لم يبعث رسولا يعطيه خزائن الأرض، لكن يبعثه بما هو أعز وأغلى وهو إثراء الروح والنفس بمحبة الله ورجاء ثوابه وتقوى الله تعالى وخوف عقابه.

الأمر الثانى: نفى أنه يعلم الغيب، فما جاء إلا هاديا للحق وداعيا إلى الله تعالى، وذلك لا يقتضى علم الغيب الذى اختص الله تعالى به نفسه، وهو فى هذا مثلكم.

الأمر الثالث: أنه لا يقول إنه ملك، وهو بشر مثلكم نشأ بينكم وعرفتم مولده، وأنه بشر كسائر البشر.

الأمر الرابع: نفى أنه يقول للمؤمنين الذين يحتقرهم أغنياؤكم، مجاوبة لكم، لن يؤتيهم الله خيرا بل لهم الخير كل الخير، وعبر عنهم: ﴿ **لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ** ﴾ للدلالة على أنهم ليسوا مزدرين فى ذات أنفسهم، بل أعينكم الغاشية هى التى ترى هذا الازدراء.

ثم يشير إلى أن الاعتبار ليس للصورة ولكن إلى نور القلوب، ولذلك قال ﴿ **اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ** ﴾ وهى الجملة المعترضة بين قوله: ﴿ **وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا** ﴾ وقوله تعالى: ﴿ **إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ أى إذا قلت لهم ذلك مطاوعة لرغباتكم، وأكد ظلمه باللام وكونه ـ إذن ـ فى زمرة الظالمين الذين لا يعرفون إلا بالظلم إذ اشتهروا به.

في سياق القصة

قَالُواْ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ
جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ
إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ
نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ
هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ
قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾

قال تعالى فى المجاوبة بينهم:

﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢)﴾.

لم يئن نوح عليه السلام عن دعوتهم وملاينتهم وأخذهم بالرفق حتى أعلنوا مجافاته وقالوا: ﴿يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ فسموا دعوته إلى الحق جدالا يقصد به الغلب فى البيان، وما هو إلا ناصح أمين يريد الهداية والإرشاد إلى الطريق الأقوم، ولكنهم لا يريدون رشادا بل أرادوا تحديا، ولذا قالوا ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ لقد أنذرهم بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاستعجلوا العذاب ولم يستعجلوا العظة والاعتبار والهدى ورفع الضلال.

وما كان العذاب فى قبضة نوح، إنما هو بيد الله ينزله فى الوقت الذى يعلمه سبحانه وتعالى مناسبا، لذا قال:

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣)﴾.

﴿إِنَّمَا﴾ أداة قصر، أى لا يأتيكم به إلا الله، إن شاء يأتيكم بـه فى زمانه الذى يشاء أن يكون فيه. ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أى إنه لا محالة نازل بكم فى وقته الذى حدده الله تعالى فى علمه، وأنكم لستم مع طاغوتكم بمعجزين لله سبحانه وتعالى؛ ذلك أنهم ضعفاء لا يقفون أمام إرادة القاهر الجبار.

وإن عمل نوح ليس إنزال العذاب، إنما ذلك من عند الله، وعمله هو النصح، فإن لم ينفع النصح، فالله تعالى يريد أن تستمروا فى طريقكم فتقعوا فى العذاب بإرادتكم، إذا اخترتم طريقها وصرتم فى مجرفها حتى انتهيتم إليها.

﴿وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤)﴾.

أى لا تنفعكم نصيحتى الصادرة لكم فى إخلاص وإيمان بالحق إن أردت أن أنصح لكم وأخلص لكم مرفقا بكم غير مغلظ، ﴿إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ أى إن كانت إرادة الله تعالى أن تستمروا فى طريق الغواية وهى الضلالة حتى تنتهوا إليها، فأنا أريد لكم النصح والله يريد لكم أن تستمروا فى طريق الضلالة وإرادته سبحانه هى النافذة.

ثم ذكر نوح أن الله تعالى هو الذى خلقكم ويعرف مآل أعمالكم وأنكم راجعون إليه ولذا قال: ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، هو ربكم الذى خلقكم ويعلم ما تخفى صدوركم ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إنذار لهم فالمرجع إليه وأنه لمحاسبكم على كل ما صنعتم محاسبة العليم الخبير السميع البصير، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تدل بتقديم الجار والمجرور على أن المرجع إليه وحده، وإن فى هذا القصص الحكيم لأمرين:

الأمر الأول: التخفيف عن النبى ﷺ، ولبيان أنه لاقى النبيون مما لاقى هو، والعاقبة كانت لهم وحادَّهم المشركون بما حادُّوا به النبى ﷺ، وأن ذلك عبء يحتمل فى سبيل أداء الرسالة الإلهية إلى خلق الله تعالى، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها.

الأمر الثانى: إثبات الإعجاز وهو أنه أتى بهذه الأخبار الصادقة عن النبيين السابقين من غير أن يتعلم على معلم، ومن غير أن يقرأ فى كتاب ﴿**وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ** (٤٨)﴾ [العنكبوت].

ولذلك كان هذا القصص الحق مع الأسلوب المعجز من دلائل الإعجاز، ولقد أشار سبحانه إلى ذلك فقال:

﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ** (٣٥)﴾.

«﴿**أَمْ**﴾» هنا للإضراب الانتقالى أى أنه سبحانه فى الأسلوب القرآنى الحكيم ينتقل من السير فى القصة إلى نهايتها وإلى ما تشير إليه من دلائل الإعجاز، أى يقولون قصد الكذب فى هذا الكلام الدال على صدق الرسالة، قد يقولون ذلك وهم يعلمون أنه الصادق الأمين الذى لم يعرفوا له كذبا قبل البعث وبعده، ويأمره الله تعالى بأن يقول لهم: ﴿**قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ**﴾، قل إن افتريته وكان قصصه كاذبا فإن إجرامه علىَّ، فعلىَّ هذا الإجرام أى وباله وإثمه ﴿**وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ**﴾ فإجرامكم كثير، إشراك بالله وأوهام تسيطر عليكم فتحرِّمون ما أحل الله وتحلون ما حرم الله تعالى وتؤذون أهل الحق وتصدون عن سبيل الله وتبغونها عوجا، وإن البراءة من إجرامكم خير لا ريب فيه وهداية لا شِيَةَ فيها.

وفى قوله تعالى: ﴿**إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي**﴾ كان التعبير بقوله ﴿**إِنِ**﴾ لبطلان أصل الافتراء واستحالته؛ لأنه ﷺ لم يعرف عنه كذب قط، ولأنه يوافق كتب أهل الكتاب التى لم يتلوها من قبل، ولأنه من الله العليم بكل شىء وقوله: ﴿**فَعَلَيَّ إِجْرَامِي**﴾ يفيد أنه عليه السلام يتحمل تبعة قوله وأن إجرامهم ثابت وهو برىء منه.

الفُلْك

وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ
فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا
وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾
وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟
مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾
فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ
مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا
مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ
وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟
فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ
تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ
فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾
قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ
ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ
مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ
أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ
بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ

ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾
قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ
مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا
تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ
ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ
وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) ﴾.

بذل أقصى جهده فى التقريب والتأليف والنصيحة والإرشاد وتحمل سفه القول منهم حتى آمن من آمن، وما آمن معه إلا قليل، ومن بعد إيمانهم أوحى الله تعالى إلى نوح عليه السلام أنه لن يؤمن غيرهم. ﴿ فَلا تَبْتَئِسْ ﴾ أى لا تحزن ولا تأسف بما كان يفعل من استكبروا فى الأرض من سخرية وازدراء لأهل الإيمان، وأنما أنت نذير وقد أنذرت، ولم يبق إلا أن ينزل بهم ما كانوا يستعجلون ويقولون بتحد ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾، وقد اشتبه حال نوح معهم بحال محمد ﷺ مع قريش قبيل الهجرة، إذ لم يؤمن منهم أحد، وإن كان منهم من يلقى بالمودة من غير إيمان، ثم كانت الهجرة وكانت الحرب وأنزل الله بهم هزيمة بعد هزيمة ولم تكن إبادة كإبادة قوم نوح عليه السلام؛ لأن رسالة محمد خالدة فكان من أصلاب المشركين بالله والجاحدين لرسالة محمد ﷺ، من يعبد الله وحده ومن يدعو إلى الله ويجاهد فى سبيله كخالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل.

أما رسالة نوح فلم تكن خالدة، ولذا كانت الإبادة لمن كفروا وبقيت من المؤمنين بقية صالحة، ولذا أمره الله تعالى بأن يصنع الفلك لنجاة نوح عليه السلام ومن معه من المؤمنين، وإغراق المشركين حتى لا يذر منهم أحد، ولقد أمر سبحانه بصنع الفلك وهى السفينة، ويطلق على الجمع، فقال تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، أى رقابتنا ورعايتنا وحمايتنا، وعبر سبحانه عن ذلك بقوله ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ وذكرت العين لأنها أقوى إدراك الحس، وذكرت بالجمع «بأعيننا» جمع عين؛ للدلالة على كمال الرعاية والحفظ والكلاءة، وقوله تعالى: ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أى بإرشاد منا إلى مواضع الإحكام فيها ودفع أى خلل فى بنائها، ويبدو أن نوحا عليه السلام كان مع غضبه من قومه ومن جحودهم كان يرجو أن يكون منهم مؤمنون، ولكن الله تعالى ردَّه وقرر أنه لا رجاء فيهم، وقد حقَّ عليهم العذاب فقال سبحانه: ﴿...وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ ويصنع نبى الله ومن معه الفلك بمقدار ما يسع نوحا وأهله إلا ابنه ومن آسف معه .

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨)﴾ .

لم يترك قومه غيهم وما هم فيه من ضلال﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ أى طائفة من أشرافهم وكبرائهم ﴿سَخِرُوا مِنْهُ﴾ كانوا يحسبون ذلك عملا لا ثمرة له فيبنى لهم نوح عليه السلام نتيجة ما يفعلون ويقول لهم:

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩)﴾ .

وكلمة ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فى قوله تعالى لتحقيق العلم لأنه سيكون علم معانيه لا علم إخبار.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (٤٠)﴾ .

أمر الله تعالى هو الأمر الكونى وهو الغرق، والنجاة لمن نجا عليها، ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾، التنور مكان النار، وقالوا فى تصوير ذلك إن كل جزء من الأرض صار فيه تنور يفور منه الماء وكانت المعجزة أن يخرج الماء من التنور ويصير غرقا.

وعلى ذلك يكون التنور فى الأرض ليكون منه الغرق، وليس التنور فى السفينة أى أن التنور لما فار ووجدت أسباب الغرق أمر الله نوحا وقد استعدت السفينة للسير أن يحمل فيها من كل حى زوجين اثنين ليكون التوالد فى الحيوان والنبات بشكل عام.

وقد عرض لى خاطر أذكره وهو أن التنور فى السفينة، وأنه فار وخرج منه بخار حرك السفينة للسير، فهى قد سارت بالبخار لا بالتجديف أو الرياح، إذ لم يذكر هنا ولكن ذكر فقط التنور وفورانه. وقد يقال إن البخار لم يكن قد اخترع، وما اكتشف إلا فى القرن التاسع عشر، حيث سارت به القطر والسفن.

نقول فى الجواب على ذلك بأن صنع السفينة قال فيه الله تعالى:

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ فالسفينة كانت تصنع تحت رعايه الله ووحيه فهل يعجز سبحانه عن تسييرها بالبخار الذى جعل سبحانه العقل البشرى يتوصل إليه بعد ألوف السنين، إن هذا هو ظاهر الآية.

أولا: لأن ظاهر الآية يدل على أن ذلك كان عند تمام صنعها.

ثانيا: أنه جاء مقترنا للأمر بحمل زوجين اثنين من كل الأحياء.

ثالثا: أنه لم يكن ثمة ذكر للأرض ولكن ذكر للسفينة، فالتنور فيها، وليس معنى ذلك بالفعل أن السفينة فارت بالماء المغرق، إنما فارت بالماء المسير.

إن ذلك الخاطر استمر يطرق أبواب التفكير حتى آمنا به، والله أعلم بالصواب. بعد أن أعدت السفينة تحت رعاية الله وكلاءته، وصنعت بوحى فى تركيبها جزءا جزءًا، وما كان نوح صانع سفن، ولكن كان نبيا مرسلا موحى إليه،

فكانت صناعتها معجزة، وإغراقهم معجزة، ونجاة من نجا معجزة وكل ذلك صار مرئيا للعيان.

حمل نوح عليه السلام. من كل زوجين اثنين وحمل أهله، إلا من سبق عليه القول منهم وهو ابنه، وحمل من آمن، وذكر سبحانه أن الذين آمنوا كانوا عددًا قليلاً.

وقد ذكر فى الأخبار أن السفينة كانت ضخمة كأنها مدينة تسير فى البحر، وروى أن طولها مائتا ذراع وألف، وعرضها ستمائة ذراع وارتفاعها ثلاثون، والله أعلم، وبعد صنعها أمر نوح بتكليف من ربه بأن يركبوا.

﴿ **وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢)** ﴾.

ركب نوح وما معه وأهله، ومن معه ممن آمن واتبعه، ومن بعد ركوبهم كان الغرق بالماء الذى جاءهم من حيث لا يحسبون، جاءهم الماء من السماء والأرض، جاءهم من السماء فانهمر المطر، وجاء من عيون الأرض كما ذكر سبحانه فى سورة القمر: ﴿ **فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤)** ﴾ [القمر].

وهكذا نجد مجموع آيات القرآن الكريم فيها القصة كاملة، لكن كل جزء ذكر فى موضع عبرته، ولا تكاد نجد تكرارًا، إنه كلام العزيز الحميد الذى أحاط بكل شىء علما.

﴿ **بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا** ﴾ أى بسم الله تعالى من وقت جريها إلى وقت رسوها، وهناك قراءة ﴿ **بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ يغفر الذنوب لعباده المؤمنين برحمته، ثم وصف حال الفلك فقال تعالى: ﴿ **وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي**

مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ أى إن الماء ارتفع وكثر حتى علا موجه واصطفق، وشبه الموج بالجبال لارتفاعه وصعوبة اختراقه.

وهنا تحركت عاطفة الأبوة الفطرية فى نفس نوح، والفطرة السليمة تتحرك فيها العواطف الإنسانية، فنادى على ابنه خشية الغرق، وقد عزل نفسه عن أبيه الداعى إلى الحق وهذا معنى ﴿فِي مَعْزِلٍ﴾ أى مكان معزول عن أبيه لكفره، أو عن القوم فرارا بنفسه ولكن لا فرار من قضاء الله المحتوم، فقال مغرورا مخدوعا غير مقدر أن العذاب نازل لا محالة.

﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣)﴾.

يعصمنى من الماء أى يمنعنى من الماء فلا يغرقنى، قال نوح الذى يعلم من الله أنه الهلاك المدمر ﴿لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ﴾ وهم الذين نجوا فى السفينة مع أبيك وأهلك ومن تبعه.

وكان الموج الشديد الهائل كالجبال الذى حال بين نوح عليه السلام وابنه، وكان من المغرقين لأنه رضى أن يكون مع الكافرين فناله مما نالهم مع أنه ابن نوح، فليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يُرى.

بعد أن غرقوا ولم يبق منهم ديَّار جزاء ما اقترفوا وأشركوا، رفع الله الماء الذى كان إهلاكا لهم .

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤)﴾.

فى قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ﴾ القول تكوينى، وكان الفعل بالنداء لغير المعلوم، لمعرفة من ينادى بالتكوين جل جلاله، ولأنه فى المظهر غاض الماء من ذات نفسه، وهو يأمر الله تعالى: ﴿ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ فالأرض ابتلعت الماء الذى ملأها

بعيونها، ومن المطر المنهمر، ﴿وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ وأقلعى أى أوقفى ماءك المنهمر، ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ أى نقص بعد أن تمت المعجزة ونزلت آية الله تعالى فى القوم الكافرين وقضى الأمر أى أنجز الله وعده بإهلاكه، ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ الضمير يعود إلى سفينته، والجودى جبل، ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ بمعنى استقرت بجوار ذلك الجبل وكأنه منع استمرار سيرها. ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أى إبعادا وطردا وهلاكا للقوم الظالمين الذين اجتمعوا على الظلم، وتناصروا فيه، وبعد أن انتهى الأمر عاود نوحا عليه السلام كشأن الآباء حنينه وإشفاقه على ابنه فنادى ربه مناجيا.

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) ﴾.

إذ وعده الله تعالى أنه ناج هو وأهله، فقال له ربه نافيا دخول ابنه فى أهله فلا يكون داخلا فى الوعد بالنجاة.

﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) ﴾.

إنه فى ذاته عمل غير صالح، فشاقك وترك صفَّك وكان فى صف المشركين، وهناك قراءة بكسر الميم فى كلمة ﴿عَمَلٌ﴾ على أنه فعَل وبفتح الراء فى كلمة ﴿غَيْرُ﴾ فيكون اللفظ «عمِل غيرَ صالح»[1] ذلك بانضمامه إلى صفوف المعاندين، ويكون فى التقدير على القراءة الأولى أنه ذاته صار كأنه عمل غير صالح، وهى أبلغ فى الدلالة على فساده من القراءة الثانية، وقد عاتبه الله تعالى: ﴿فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، (الفاء) لترتيب ما قبلها على ما بعدها، فترتب على كونه عمل غير صالح وعَدَّه نوح من أهله ـ ذلك

---

(١) (عَمِل غيرَ) قراءة يعقوب والكسائى، وقرأ الباقون (عملٌ غيرُ). غاية الاختصار (١٠١١).

العتاب، وفى كلمة: ﴿فَلا تَسْأَلْنِ﴾ النون نون التوكيد الخفيفة المؤكدة للطلب، ثم أكد العتب بذكر علته: ﴿أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أى أبصرك كراهة أن تكون من الجاهلين بأن الولاية مقطوعة بين المؤمن والكافر.

بعد هذا التنبيه الرقيق العاتب أدرك نوح خطأ موقفه فقال مناجيا ربه ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أى إنى ألجأ إليك سبحانك أن تعيننى ألا أسألك ما ليس لى به علم وأستعينك يا رب العالمين أن يقع منى فى المستقبل سؤال لك فيما ليس لى به علم، وما هو من تقديرك وتدبيرك فى أن الحق أولى من الآباء والأبناء وكان هذا عن المستقبل، أما عن الماضى فقال، ﴿وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أى إن كنت سبحانك لا تغفر لى هذا الخطأ برحمة منك أكن من الذين خسروا، وليس معنى ذلك أن نوحا وقع فى ذنب يحتاج إلى الغفران، إنما هو لإحساسه بجلال الله، وقدره وعظم سمو أوامره ونواهيه، فقد ظن أنه ارتكب ذنبا، وما هو بذلك، أو أنه ارتكب فى جنب الله ما حسبه خطيئة، وما هو من ذلك فى شىء، وهذا ما يسميه علماء الصوفية «حسنات الأبرار سيئات المقربين»، ولقد أقر الله قلب نوح وأوحى إليه أن يهبط من السفينة بسلام ولذا قال تعالى:

﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٨)﴾.

القائل معلوم وإن بُنى الفعل لغير المعلوم، ﴿اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا﴾ أنزل من السفينة مصحوبا بسلام وأمن من الله، ﴿وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾، وجعل سبحانه منهم أمما مع أنهم عشرات أو على الأكثر مئات، ذلك لأنهم آباء لجماعات مؤمنة طاهرة أى ستكون منهم ذرية طاهرة، ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أى سيكون ممن معك أمم صالحة وأخرى ظالمة، والخلاصة أن الأمم الذين يجيئون ممن معك، على بعضهم بركات، ولبعضهم عذاب أليم.

العبرة فى القصة

قال تعالى:

﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (٤٩)﴾

الإشارة إلى القصص الحكيم من قصة نوح عليه السلام، وهى أنباء عظيمة أى أخبار ذات شأن وخطر، وقوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا﴾ لأنهم كانوا أميين ليس عندهم من يدرس، ولا عندهم كتب تكتب، ولم يكونوا أهل كتاب نزل فيها كالتوراة والإنجيل يعلمون علم النبوات منه قبل هذا، وقد علمت ما فى هذه الأنباء من عبر وكيف جاهد نوح فى الدعوة إلى الله، وكيف عانده قومه وكيف عابوا دعوته كما عاب قومك دعوتك، وأن الذين ابتدءوا بالاستجابة هم الضعفاء من عبيد وفقراء، وكيف كانت آية الله بالفلك المشحون، وانهمار الماء من السماء، وتفجير الأرض عيونا، حتى كان الغرق وسارت السفينة فى موج كالجبال وكذلك كان عاقبة المكذبين.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، إذ ترتب على القصص الحق وما فيه من معاندة الكافرين ونزول آية الله فيهم بالإغراق - الأمر بالصبر حتى يرى آية الله فى المشركين من قريش، وإنها آتية لا محالة، وإن كانت المجاهدة حتى صارت كلمة الله هى العليا. وفى قوله تعالى: ﴿الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ إشارة إلى أن التقوى هى السبب فى حسن العاقبة، والنصر المبين لمن خاف واتقى، والخزى لمن ضل وشقى. وفى الآيات إشارة لأمرين:

الأمر الأول: الصبر وألا يأخذه ما هم عليه من مظاهر القوة والغرور.

الأمر الثانى: ما فى القرآن من إعجاز إذ يأتى من أخبار الغيب ما يجتاز مجاهل التاريخ حتى تتبين الحقيقة نيرة بينة يوافقها الصادق الباقى على صدقه مما جاء فى التوراة.

هود وقومه

قال الله تعالى:

وَإِلَىٰ عَادٍ
أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ
غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ
أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾
وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ
عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟
مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ
بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾
إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ
وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى
جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا
مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ
﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ

رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ
﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ
مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ
رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا
فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا
بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ
مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ
﴿٥١﴾ ﴾.

نجد الدعوة إلى التوحيد كما دعيت إليه قريش، وناوءوا هودا كما ناوءت قريش، وصابرهم كما يصابرهم، ولما أصروا على الشرك والإيذاء أنزل الله عليهم ما دمرهم.

ناداهم هود بما يقربهم إليه ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أى اعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئا ووضح ذلك بقوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ أى مالكم أيَّ إله غيره فكلمة ﴿مِّنْ﴾ لاستغراق النفى وشموله؛ لأن الألوهية تقتضى الانفراد بالخلق والتدبير، وأن يكون المعبود واحدا فى ذاته وصفاته ليس كمثله شيء، وقد كانوا يعرفون ذلك، فكيف يكون غيره، ولكنهم فعلوا غير المعقول وغير ما يوجبه العقل السليم، ولذا قال: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ﴾ وكلمة ﴿إِنْ﴾ نافية ثم جاء بعدها الإثبات بكلمة ﴿إِلاَّ﴾ أى أنتم مقصورون على الافتراء والكذب المقصود بعبادتكم أوثانا لا تضر ولا تنفع ولا تتكلم ولا تتحرك.

وإنه فى هذه الدعوة لا يريد مالا ولا سلطانا أو جاها يكون أجرا على دعوته ولذا قال تعالى عن هود: ﴿يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أى عرض من أعراض الدنيا، ولا أجر لى إلا الجزاء من الله على القيام بواجب إرشادكم وهدايتكم، وقال فى ذلك: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أى خلقنى على الفطرة السليمة المستقيمة غير الملتوية، ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ يدعوهم إلى التدبر و(الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وهو أن حالهم أوجبت تنبيههم إلى أن ما هم فيه يجب أن يتدبروه؛ لأنه غير معقول فى ذاته إذ كيف يعبدون ما لا ينفع ولا يضر وهو حجر لا ينطق ولا يعقل، ويناديهم بعد ذلك نداء المحبة التى يريد بها النفع فيقول ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢)﴾.

﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ أى اطلبوا الغفران، لأن تعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئا وعبر بـ «ربكم» للإشارة إلى ما يبعثهم على عبادته، وهو أنه الذى خلقهم وربهم ودبر أمورهم بحكمته وإرادته.

ويبين سبحانه ما يترتب على الاستغفار، وهو ذاته مما يوجب العبادة فقال تعالى: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾، المراد المطر، وعبر عنه بمكان نزوله من قبيل (إطلاق المحل وإرادة الحالّ)، ومدرارا أى كثيرا، ينبت به زرعكم ويكون قوام حياتكم، وفى ذلك الخير فائدتان:

الفائدة الأولى: أن القرب إلى الله وعبادته الخالصة يبسط الله بهما الرزق، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦)﴾ [الأعراف].

الفائدة الثانية: تذكيرهم بنعم الله تعالى عليهم وهى توجب أن يؤمنوا بدل أن يشركوا ويقول سبحانه على لسان نبيه هود ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ أى يزيدكم قوة مضمومة إلى قوتكم، فشكر النعمة يزيدها ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ

لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ⑦ ﴾ [إبراهيم]، فالقوة نعمة فاشكروها تزدادوا قوة إلى قوتكم. وينهاهم عن الفساد والإجرام بهذه القوة التى إن لم تُشكر كانت سببًا للإجرام، ولذا قال لهم نبى الله ﴿ **وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ** ﴾ أى لا تتولوا حال كونكم بهذه القوة فتكونوا قوما مجرمين.

وقد أجابوا هذه الدعوة الرشيدة الحبيبة، الرقيقة القوية العميقة بالرفض القاطع فطالبوا بعد الرفض بالبينة، أى الدليل الملزم، وكان هذا غريبا بعد الرفض كالقاضى الذى يرفض الدعوى ثم يطالب بالدليل.

﴿ **قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ⑤③** ﴾.

هى أقوال ثلاثة رافضة:

أولها: ادعاؤهم أنه لم يأتهم ببينة أى بدليل يدل على رسالته، وهم بذلك يمضون فى عنادهم غير معترفين بما جاءهم من معجزات هى علامة قاطعة.

ثانيها: أنهم ينفون إجابته نفيا لازما قاطعا لا يترددون فيه قائلين: ﴿ **وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا** ﴾ عن قولك ويردون النفى بإضافة الآلهة إليهم كأنهم منها وهى منهم.

ثالثها: أنهم لا يؤمنون بالحق إذ جاء، ولذا قال كما حكى الله تعالى عنهم: ﴿ **وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ أى وما نحن بمؤمنين استجابة لك، وقدم ﴿ **لَكَ** ﴾ للإشارة إلى اختصاص الكفر به وعدم التسليم، فى مقابل إيمانهم بما آمن به آباؤهم وقد تأكد النفى بالباء فى قوله ﴿ **بِمُؤْمِنِينَ** ﴾.

وقد اتهموه بأنه قد اعتراه بعض آلهتهم بسوء، أى اتهموا عقله وأن يكون به مس من الجن، كما قالت قريش للنبى ﷺ، إذا كان هو رئيا قد جاءك التمسنا لك الطب، وقال أولئك: ﴿ **إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ** ﴾، أى إن الحال أن بعض آلهتنا أنزل بك سوءا فقلت ما قلت.

﴿ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) ﴾.

ولكن هودا عليه السلام يصابرهم، ويلين بالقول معهم، فلما طمعوا أن يمنعوه أو يجروه إليهم قال لهم قولا جازما: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ﴾ أى أجعله شهيداً على ما أقول أى إنى برىء من شرككم، فكلمة ﴿مِّمَّا﴾ وما بعدها من الفعل مصدر، وأكد براءته فى الشرك بـ (أن) فى كلمة ﴿أَنِّي﴾ وبالجملة الاسمية، والتعبير بالفعل لتصوير حالهم القبيحة وهم يشركون بالله تعالى رب العالمين.

إنه إذ يبرأ منهم ومن إشراكهم، يعتمد على الله تعالى خالقهم فيقول:

﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ ﴾ أى فكيدونى مجتمعين غير متفرقين، ودبروا لى ما هو إيذاء وكيد وتدبير خبيث لى: ﴿ثُمَّ لا تُنظِرُونِ﴾ أى لا تؤجلون، والتعبير بـ ﴿ثُمَّ﴾ هنا يفيد أن يكيدوا غاية الكيد وأبعده، وأن يتدبروا أبعد التدبير ولا يؤجلونه.

ويفشل تدبيرهم لأن قوتهم لا تقف أمام قوة الله وتدبيره، وأكد هذا سبحانه وتعالى:

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) ﴾.

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ﴾ أى اعتمدت عليه سبحانه فهو يحمينى بحكمته وتقديره وتدبيره وهو ربى وربكم، يعرف طاقتكم وما عندكم من قوة وتدبير، وإنه بلا ريب ضعيف بجوار تدبيره، وقاض عليه سبحانه، وأكد ذلك قوله تعالى: ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ أى قادر عليها متمكن من أمرها، وفى قوله تعالى: ﴿آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ أى قادر عليها متمكن من أمرها، وفى قوله تعالى: ﴿آخِذٌ﴾ تمثيل لقوته تعالى وسيطرته وأنه آخذ بناصية خلقه لا يتمكن أحد من البعد عن قبضته، ثم بين لهم أن طريق الله هى الطريق فقال: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ

﴿صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أى إن ربى ممسك الطريق المستقيم متمكن منه، وأن ما يدعو إليه هود هو الصراط المستقيم كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ...(١٥٣)﴾ [الأنعام].

وقد أبلغ هود رسالة ربه وحسبه ذلك، ولم يبق إلا أن ينزل بهم ما استعجلوه ولذا قال تعالى:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧)﴾.

أبلغ هود رسالته فى بيان ورفق، ولم يكن رفقه ضعفا فى جنب الله، ولكنهم أصروا على الكفر والعصيان واستعجلوا العذاب الذى كان يذكرهم به أثناء تبليغ رسالة ربه، عندئذ ذكرهم بعاقبة أمرهم، فقال تعالى مخبرًا عنه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾، ﴿تَوَلَّوْا﴾ فعل مضارع حذفت فيه تاء، أى فإن تتولوا بأن تعرضوا فقد أبلغتكم رسالة ربى الذى ربانى وخلقنى، ولم يبق بعد الرسالة إلا أن ينزل بكم ما أنذركم به وهو عذاب محيط مدمر، ولذا قال تعالى فيه: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أى بعد إزالتكم من الأرض، ولا تضرونه شيئا بزوالكم وذهاب جمعكم لأنه لا يحتاج إلى خلقه وهم يحتاجون إليه.

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾، أى رقيب لا تخفى عليه أعمالكم ويجازيكم عليها حق الجزاء وهو حفيظ على كل شىء، لا يمكن أن يضره شىء، وهو فوق كل شىء وعلى كل شىء قدير.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٨)﴾.

بين سبحانه نزول العقاب بالكافرين ونجاة المؤمنين برحمة كريمة منه، وحسبها شرفا أنها من رب العالمين، وبين سبحانه أن النجاة كانت عظيمة؛ لأنها نجاة من عذاب شديد، كما بين سبحانه أن العذاب غليظ أى شديد لا رفق فيه؛

لأنه لا رفق مع ظالم؛ لأن الرفق بالظالم عنف بالمظلوم، ولم يذكر فى هذه الآية نوع العذاب، وقد ذكر فى آيات أخرى أنه عذاب بريح السَّموم، وقد جاء ذكره فى سورة الأحقاف: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) ﴾ [الأحقاف].

﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) ﴾.

أشار الله تعالى إلى العبرة من عاد، كانت أقوى للعرب فى أزمانها، وكانت منهم آفات ثلاث، أنهم جحدوا بآيات ربهم أى أنكروا دلالتها، وعصوا الرسل، واتبعوا الجبابرة فى غيهم وطغيانهم.

﴿ وَتِلْكَ ﴾ الإشارة إلى الذين تضمنت الأخبار السابقة ذكرهم، وكانت الإشارة إلى عاد لقوتها وطاغوتها وتمردها ومآل أمرها ولما فيها من عبرة، وأنبأت أخبارهم عن موطن الاعتبار، وهو طغيانهم ثم نزول العقاب بهم من غير هوادة لإنكارهم الآيات وعصيانهم الرسل، وقد استهوتهم القوة الظاهرة للجبارين فى الأرض الذين عاندوا فى الحق وتحدوا الله ورسوله المبعوث لهم رحمة بهم. وقال تعالى فى عذابهم عند الهلاك الذى اجتثهم من الأرض:

﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠) ﴾.

أى أنهم قد والاهم غضب الله تعالى، ومعنى ﴿ أُتْبِعُوا ﴾ أى أتبعهم الله، ولعنته سخطه وطردهم من رحمته فى هذه الدنيا، وكان مظهر اللعنة ما نزل بهم من عقاب قطع دابرهم، وتسجيل إثمهم وطغيانهم وما أحسوا به فى ذات أنفسهم، وخروجهم عن سنن الفطرة والاتجاه إلى الأذى والإيذاء، ولعنتهم فى الآخرة العذاب فى الجحيم، وأن الله لا ينظر إليهم ولا يكلمهم ﴿ أَلا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ أى ألا طردا من رحمة الله تعالى وهلاكا لهم مع هذا الطرد والإبعاد. وذكر سبحانه أنهم قوم للإشارة إلى مظهر كفرهم وعنادهم برسولهم الذى هو منهم وهم قومه وكان جديرا بهم أن يؤمنوا ولكنهم كفروا وطغوا.

صالح وثمود

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ
يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ
وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ
﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن
نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾
قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى
مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى
غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً
فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ
عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ
ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ
أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا
وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ
﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا
لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

قال تعالى:

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) ﴾.

العطف فى هذا الموضع على ما سبق فى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا ... (٢٥) ﴾.

فالمعنى أن الله سبحانه وتعالى أرسل نوحا ومن بعده هودا وإن لم يتعاقبا، ومن بعدهما صالحا إلى ثمود.

وكانت دعوته الأولى هى التوحيد، لب الرسالات السماوية ومجتمعها والمشترك فيها جميعا ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ حق عبادته لا تشركوا معه أحدا ولا حجرا ولذا قال سبحانه فى تفسير معنى عبادته ﴿ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ ثم آخذ يجرى على لسان نبيه أسباب الألوهية له ونفيها عن غيره فقال: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ ﴾ أى خلقكم من الطين، ﴿ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ أى جعلكم تعمرونها فتنشئون فيها المبانى والحدائق الغناء، والسين والتاء فى كلمة ﴿ اسْتَعْمَرَكُمْ ﴾ معناهما التكليف لعباده أن يعمروها فهو سبحانه مظهرهم على ما جعلهم يسخرون السموات والأرض بما قدره تعالى لهم.

ثم يقول صالح ﴿ فَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ أى اطلبوا غفرانه بأن يستر ما ارتكبتم من ذنوب وينشئكم نشأة طاهرة طيبة، وبعد الاستغفار توبوا إليه ﴿ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ أى ارجعوا إليه بعد أن بعدتم عنه بالشرك، وعبر بكلمة ﴿ ثُمَّ ﴾ للدلالة على بعد حالهم فى الانتقال من الاستغفار إلى الرجوع إلى الله تعالى؛ لأن الاستغفار طلب محو الذنوب أو سترها، وتلك أول خطوة فى ترك الكفر والشرك، وتعلوها مرتبة الاتصال بالله لقبول التوبة، ولذا قال تعالى على لسان نبيه بعد ﴿ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ وهذا إدناء إلى التوبة وتقريب لها، أى أن الله تعالى فى عليائه قريب إلى النفوس التائبة محب للدعاء والرجوع إليه، وذلك رد على أوهامهم التى يقولون

فيها أنهم شفعاؤنا عند الله، وقولهم ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، فصالح يقول لهم: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ فلا حاجة إلى شفاعة الشافعين، إن كان يتصور أن يكون فى هذه الحجارة شفاعة. وفى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ إشارات بيانية منها تأكيد القول بالجملة الاسمية وبكلمة «إن».

وفيها التعبير ﴿رَبِّي﴾ وذلك يفيد أنه مربيه ومُنشؤه، ومربيهم ومُنشؤهم فكيف لا يكون قريبا منهم وهو الحى القيوم فى السموات والأرض.

ومنها ذكر كلمة ﴿مُّجِيبٌ﴾ وفيه إشارة إلى أنه سبحانه هو الذى يدعى فيجيب لا تلك الأحجار التى لا تضر ولا تنفع فلا تجيب دعاء ولا تسمع نداء، وماذا كانت إجابة قومه إلى تلك الدعوة الحق.

﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢)﴾.

كان صالح معروفا قبل الرسالة بالكمال الإنسانى، كما كان محمد ﷺ معروفا بأنه الصادق الأمين ﴿مَرْجُوًّا﴾ مرجو خيره غير مذموم، وقولهم: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ أى كنت فينا مرجو الخير محمود الخصال والفعال، وكأنهم يحسبون أنه ينبغى أن يفعل ما هو على هواهم ويردد مقالاتهم ويعبد ما يعبدون.

ويثيرون العجب فيقولون: ﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ فهم يستنكرون دعوته، والاستفهام إنكارى لإنكار الواقع، وهو أنه فعلا ينهاهم أن يعبدوا ما يعبد آباؤهم، وليست عبادة آلهتهم حجة مسوغة لهم؛ فآباؤهم كانوا لا يعقلون شيئا ولا يهتدون. ﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ فالشك هو عدم التصديق بما يقول والتظنن فى صدقه، فهم يشكون فيما يدعو إليه من التوحيد وهجر عبادة الأوثان لأنها أحجار لا تضر ولا تنفع، وإن هذا الشك يوقعهم فى الريب، أى أن شكهم فى صدق ما يدعوهم إليه يوقعهم فى حال الريب فلا يؤمنون بقوله ويكونون فى حال من الاضطراب.

ثم قال لهم صالح:

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣) ﴾.

التخسير مصدر كلمة «خسَّر» أى تضعيف الخسارة، وذلك أنهم بردهم لدعوته ومحاولة أن يكون معهم ويتبع ما كان عليه آباؤهم، يجعلون الخسارة مضاعفة له بردهم دعوته وعصيانه لله تعالى إن لم يبلغ دعوته.

وهو سبحانه ينقل قوله لهم فيقول تعالى عنه: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ الاستفهام للتنبيه والتقرير، والمعنى لقد رأيتم وعلمتم هذه الحال التى أكون عليها، ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أى بصيرة وإدراك وحجة بينة واضحة بعبادته وحده، ﴿ وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ وهى الرسالة التى كان اصطفائى بها رحمة بى ورحمة بكم، فإذا عصيته بعدم تبليغها واتباع أهوائكم ﴿فَمَن يَنصُرُنِي﴾ أى يعصمنى من الله إن عصيته بالامتناع عن التبليغ واتباع ما تدعوننى إليه، ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أى فإنكم بهذا لا تزيدونى غير خسارة مضاعفة بكفركم وعدم استجابتكم، وبامتناعى عن التبليغ ثم باتباعى أهوائكم، وتلك خسارة مضاعفة، بعد هذا ذكر لهم المعجزة، وقد كانوا فى الصحراء وسفينتهم فيها الناقة تقطع الفيافى والقفار فى صبر ووداعة وأناة فكانت المعجزة من جنسها، ناقة لها خواص ليست لكل صواحبها تجعلها غير مشابهة لهم، وهى آية لهم ونذير، إن اعتدوا عليها، وجعل لها شِرب أى ماء، غير شِرب سائر النوق، فقال لهم عليه السلام فيما قصَّ الله تعالى:

﴿ وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) ﴾.

نسب صالح الناقة إلى الله مع أن كل شىء من المخلوقات منسوب إلى الله، ولكن الله تعالى اختارها لتكون معجزة صالح عليه السلام، كان ذلك له فضل اختصاص فى النسبة إلى الله تعالى.

وقوله ﴿آيَةً﴾ أى معجـزة دالة على رسالة صالح، ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ (الفاء) للإفصـاح عن شرط مقدر دلت عليه الجملة قـبلها، أى إذا كانت آية الله لنبيه فاتركوها تأكل فى الكـلأ المباح فى أرض الله تعالى، ولا تمسوها بأى أمر يسوء فى ذاته وعاقبته، وبسببه يأخذكم عذاب واقع لا محالة، ولذا قال لهم ﴿وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾، (الفاء) للسببية، ووصف العذاب بالقريب للدلالة على وقـوعـه لا مـحالة وأنه يجـيـئكم فى أقـرب وقت، وفى التـعـبيـر ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ إشارة إلى أنه يأخذهم من مأمنهم إلى حيث الهلاك والدمار.

ولكنهم لم يكترثوا لتحذير نبيهم فعـقروها استهانة منهم بتحذيره ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥)﴾.

فقال لهم الرسول صالح عليه السلام: ابـقوا متمتعين فى داركم ثلاثة أيام، وهى لتطبيق القرب الذى أنذرهم به، وليعايشـوا جريمتهم، ثم أكد نزوله بعد هذه المدة القصيرة فقال: ذلك وعد من الله تعالى صادق غير مكذوب، وهو متحقق لا محالة.

بعـد ذلك نزلت آية الله تعـالى بالعـذاب المهلك الذى اخـتص الله به الذين كفروا فقال سبحانه:

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦)﴾.

فلما جاء أمرنا أى بعد الأيام الثلاثة، وهـو الهلاك المدمر نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا، أى برحمة أرادها الله تعالى وكانت هبة للذين آمنوا جزاء بما كانوا يعملون، نجوا بها من خزى يومئذ، أى هذا اليوم.

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّثَمُودَ (٦٨)﴾.

﴿جَاثِمِينَ﴾ أى ساقطين على وجوههم، والصيحة عبر عنها فى سورة الأعراف بالرجفة، ويبدو أن هذه كانت من صاعقة رجت الأرض رجا فرجفت واهتزت بما أذهب ألبابهم ثم أجسامهم فسقطوا منكسين جاثمين. كان ذلك بعد مرور أيام التمتع الثلاثة التى أنذروا بها، ثم بين سبحانه أنهم ذهبوا بغلوائهم وطغوائهم ونهجهم، ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا﴾ أى كأن لم يقيموا فيها غناء واستعلاء وكبرياء، ظانين أنهم استغنوا بأصنامهم عن كل شىء. ﴿إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ أى أنكروه وجحدوه، ولذا عبر عن نفسه سبحانه وتعالى من غير الباء، وكأن العابد للصنم متذكر لله تعالى ولو ادعى أنه يؤمن بأنه الخالق وحده، وأنه واحد فى ذاته وصفاته، ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ ﴿أَلَا﴾ للتنبيه، و﴿بُعْدًا﴾ معناها طردًا وإهلاكا؛ لأن البعد عن رحمة الله تعالى هلاك وإهلاك.

إبراهيم ولوط

وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟
سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا
رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ
قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ
فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾
قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا
لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ
وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ
عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾

إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ ﴾.

جمع الله تعالى قصة إبراهيم ولوط فى موضع واحد؛ لأنهما كانا فى زمن واحد، ولا مانع من أن يوجد نبيان فى زمن إذا تباعد الإقليمان، وقد يكونان فى زمن وإقليم واحد كما فى خطاب قوم إسرائيل، ومجادلة طاغية كفرعون، وإن كان أحدهما رسولاً والآخر ردئا له.

وفى القصة التى جمعت بين إبراهيم ولوط عبر نذكر بعضها قبل التصدى لذكر ما جاء فى هذا الموضع، منها إثبات أن الله هو الفاعل المختار المريد الذى لا يتقيد بالأسباب العادية كما نتقيد بها، بل إنه خالق هذه الأسباب يملك تغييرها، وأنه سبحانه وتعالى القادر المريد، فهذه عجوز تجاوزت سن الولادة تحمل وتلد، ومن هذه العبر أن الملائكة أراد الله جعلهم كالأناسى ويلبس الأمر كما لبَّس على إبراهيم عليه السلام إذ أنكرهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى الطعام وأوجس منهم خيفة.

ومنها أن الفواحش تفتك بالجماعات وتذهب قوتها وتعدها للفناء، كما فى شأن قوم لوط إذ إن فاحشتهم قطعت نسلهم وأسلمتهم إلى الدمار، ومنها أن كل امرئ بما كسب رهين ومعاقب بعمله، فلم يعف امرأة لوط من العذاب أنها امرأته، ولأنها كانت من المفسدين حق عليها ما نزل بهم من العذاب.

ومنها أن آل لوط لم يكونوا عبدة أوثان فقط بل كانوا مع ذلك يأتون الفاحشة التى ما سبقهم بها أحد، يأتون الرجال شهوة من دون النساء حتى أصبحوا لا يخرجون من شر إلا إلى شر، فهم فى دائرة الفساد المطلق والفاحشة الشنعاء التى هى كرءوس الشياطين من المخنثين ومن يتشبهون بالإناث فى ملابسهم وشعورهم بل وفى أفعالهم، وَوُجدَت جماعة تنطلق انطلاقا إلى كل موبق باسم حرية الإرادة وما هى إلا الوقوع فى أسر الشهوة ومن ورائها ذلها.

ومنها أن الانطلاق إلى الهوى لا يرده عقل ولا تدبير ولا حياء بل ولا أى مروءة إنسانية، حتى أنهم عندما رأوا الملائكة، جاءوا إلى لوط عليه السلام

يهرعون، وإنه ليعرض بناته للزواج، فيقولون فى تبجح لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق، وهكذا نرى ممن يشبهونهم فى عصرنا.

ولنبدأ بذكر القصة بعد هذا الذى أدركناه من عبر، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ** (٦٩)﴾، حيوه بالسلام، وهو مصدر لفعل محذوف أى «نُسَلِّمُ سلامًا»، وقد كانت هذه تحية فردها بأحسن منها فقال ﴿**سَلامٌ**﴾ أى أمرى كله سلام، وأتم التحية بكرم الضيافة الذى امتاز به أبو العرب إبراهيم بأن أعد الطعام الشهى المشوى ﴿**فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ**﴾ (الفاء) للعطف الدال على الفورية أى ما أبطأ أن جاء بعجل مشوى: يقال حنذ الشاه أى شواها. ونلاحظ هنا أن الله سبحانه وتعالى قد صدر القصة بقوله: ﴿**وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا**﴾ وكلمة (قد) مؤكدة للخبر؛ وأكد الخبر لأن فيه غرابة وهى مجىء الملائكة إلى الأرض ﴿**رُسُلُنَا**﴾ تكريما وتشريفا وتعظيما.

وقال ﴿**بِالْبُشْرَىٰ**﴾ أن مصاحبة لهم البشرى بولد لإبراهيم عليه السلام الذى قدم لهم من الطعام ما ينبئ عن الكرم وحسن اللقاء، ولم يجدهم يمدون أيديهم إليه وعبر عن ذلك بقوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ**﴾ مبالغة فى الامتناع عن الأكل إذ لم تتحرك أيديهم بل بقيت فى مكانها لا تمتد إليه، ولما رأى ذلك أحس أنهم غرباء عنه، وعن جملة أحاسيسه، إذ إنهم لم يمدوا أيديهم ولم يعتذروا، وعبر الله عن ذلك بقوله تعالى: ﴿**نَكِرَهُمْ**﴾ وهو بمعنى أنكرهم واستنكر أمرهم، وإن كلمة ﴿**نَكِرَهُمْ**﴾ تدل على ما هو أبلغ من الإنكار والاستنكار، بل تدل مع ذلك على الوحشة من لقائهم، ولذا قال تعالى بعد ذلك: ﴿**وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً**﴾، والإيجاس هو الإدراك بالحس، والخيفة الخوف الشديد الذى يظهر فى الهيئة؛ لأن خيفة اسم هيئة من الخوف، أى أدركوا سببا للخوف وظهر الخوف فى هيئته عليه السلام، وخيفة فى الإعراب تمييز محول من المفعول إلى التمييز، وقد أحس الرسل بهذا فقالوا: ﴿**لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ**﴾ عندئذ اطمأن وقر قراره، ﴿**وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ**﴾ ويقول المفسرون إنها قائمة وراء الستر ﴿**فَضَحِكَتْ**﴾

سرورا بزوال الخيفة التى اعترت زوجها؛ ولأنها استأنست بأن هؤلاء سيقضون على أهل الدعارة والفساد، ولأنها كانت خائفة على لوط من قومه أو إذا نزل عذاب يعم قومه. وبعض المفسرين قال إن (ضحكت) معناها حاضت، وعندى أنه إذا جاز ذلك لغويا فإن ظاهر الضحك هو ما يكون بسبب السرور، ولا يخرج اللفظ عن ظاهره إلا لقرينة فإن ادعوا أنها البشرى بغلام فإنها ليست قرينة تخرج اللفظ عن ظاهره وإن البشرى أقرب إلى أن يرجح أن الضحك للسرور وأنها لما ضحكت وسمعها الرسل كانت البشرى.

﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) ﴾.

وذكر يعقوب بعد إسحاق وهو ابنه للإشارة إلى أنه سيكون من ذريته النبيون فهو أبو الأنبياء من الأسباط وموسى وداود وسليمان وعيسى عليهم جميعا السلام وهى كانت عقيم، أما هاجر كان منها الولد فكانت البشرى داعية سرور وغرابة أما السرور فلهذه البشرى وقت زوال ألم العقم، وأما الغرابة فقد كشفت عنها بقولها:

﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) ﴾.

الاستفهام للعجب، والعجب كان يقوم على أمرين:

الأمر الأول: أنها عجوز قد أدبرت سن الولادة والحمل.

الأمر الثانى: أن زوجها شيخ هرم، وصرخت بالعجب فقالت: إن هذا لشيء عجيب. وقوله تعالى: ﴿ **يَا وَيْلَتَى** ﴾ هى للتعجب وتستعمل الكلمة غالبا فى العجب من أمر متعجب شاق، وشاع استعماله فى العجب، وعندى هنا أنه للأمر الشاق؛ لأن البشرى تحمل فى نفسها آلام الحمل والوضع، كما أنها أحست فى نفسها بما يتتبع من وهن كما قال سبحانه فى ذلك الأمر ﴿ ... **حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ** ... (١٤) ﴾ [لقمان] رد الملائكة عجبها بقولهم لها.

﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) ﴾.

هذا استفهام لإنكار العجب لأن ذلك من خوارق العادات والعجب إنما يكون فيما هو من أمر العباد والأسباب الجارية، أما ما يكون من أمر الله فإنه من خالق الأسباب والمسببات، وقوله تعالى: ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ أى بيت النبوة فقد كان بيت إبراهيم عليه السلام مهد الأنبياء الذى كان منه يعقوب والأسباط من بعده، ويوسف وموسى وداوود وسليمان وإل ياسين وعيسى.

﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ الضمير يعود على لفظ الجلالة ﴿حَمِيدٌ﴾ وصف لذات الله بمعنى أنه المحمود الذى يدوم حمده وإنعامه ويحمد لهذا الإنعام، و﴿مَّجِيدٌ﴾ على وزن فعيل من ماجد لأنه العالى فى ذاته وصفاته ومجده سبحانه وتعالى.

كان الاتجاه إلى قوم لوط لينزل بهم ما استعجلوه من عذاب وليكون العقاب الصارم القاطع لفسادهم، المجتث لجمعهم، وإبراهيم الحليم أخذ يجادل فى قوم لوط، ويظهر أن هذه المجادلة كانت لرجاء إمهالهم وألا يعجل الله تعالى فى أن ينزل بهم ما يستحقون، ولذا قال تعالى:

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (٧٥) ﴾.

أمران جليلان ألقيا فى نفس إبراهيم بالاطمئنان أحدهما: أنه ذهب عنه الروع أى الخوف الذى راعه واسترهبه، والآخر أن جاءته البشرى بولد أخًا لإسماعيل الذى تركه فى البرية، فلما كان هذان الأمران أخذ يجادل فى إمهال قوم لوط.

﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ والتعبير بالمضارع لإفادة الاستمرار فى المجادلة وحدوثها متجددة وكانت المجادلة لربه؛ لأن فى القوم لوطا النبى وله به قرابة نسب فهو حريص على نجاته شفيقا عليه. وعلل سبحانه تلك المجادلة بوصف إبراهيم

عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ (٧٥)﴾، وهى صفات ثلاث من مكارم الأخلاق، ولكن المجرمين من قوم لوط فجروا فارتكبوا فاحشة لم يسبقهم بها أحد من العالمين.

الصفة الأولى: لإبراهيم عليه السلام: الحلم فهو لا يتعجل العقاب بل يريد للمجرم فرصة للانخلاع من ذنوبه فهو يؤثر السماحة على العقاب.

الصفة الثانية: أنه مرهف الإحساس كثير التأوه من الشعور بالخطأ، وإن لم تكن خطيئة ولا ذنب، ومعاذ الله أن يكون خليل الله تعالى أثيما، وإنما هى قوة الإحساس والخشوع فى جنب الله تعالى.

الصفة الثالثة: أنه منيب أى راجع إلى الله تعالى فهو لا يفترق عن ربه إلا فى محبة مُدْنية مقربة.

وإن الله تعالى يأمره بالإعراض عن الدفاع عنهم فلا يصح أن يجادل عن المجرمين ويناديه الله نداء الخليل.

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦)﴾.

ناداه ربه باسمه تقريبا له، أَعْرِض عن هذا الجدل فإنه لن يغير شيئا؛ لأنه قد مضت إرادة الله تعالى وأمره بالإهلاك. والتعبير بكلمة ﴿رَبِّكَ﴾ فى هذا المقام للإشارة إلى أنه مقتضى الربوبية فى أن يؤخذ الظالم بظلمه لأنه لا يستوى المسيء والبريء، كما لا يستوى الأعمى والبصير.

وأكد سبحانه أن العذاب نازل بهم لا محالة ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ وقد أكد سبحانه نزول العذاب بعدة مؤكدات:

أولها: وصفه بأنه غير مردود.

ثانيها: بالجملة الاسمية.

ثالثها: بإن الدالة على التوكيد.

وهكذا كان العقاب نازلا لا محالة، ذهب رسل الله تعالى إلى لوط ولم يذكر أنه فوجئ بهم كما فوجئ إبراهيم عليهما السلام، ويظهر أن المفاجأة وقعت ولكن استغنى عن ذكرها هنا بذكرها هناك، أو أنه شغل عن المفاجأة برؤيتهم بحال قومه وفسادهم عند لقاء هؤلاء الأطهار، ولذا قال تعالى:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧)﴾.

جاء رسل الله الملائكة الأطهار فى صورة أناسى مشرقة وجوههم متكاملة صورهم، فساء مجيئهم لوطا، إذ هو يعلم من قبل ما عليه قومه من فساد، ولذلك ساءه ذلك المجىء المفاجئ وعبر الله تعالى عن ذلك بكلمة ﴿**سِيءَ**﴾ بالبناء للمجهول لبيان أنه داخل نفسه السوء من كل ناحية، ثم أردف ذلك بقوله تعالى: ﴿**وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا**﴾ وكلمة ﴿**ذَرْعًا**﴾ تمييز محول عن الفاعل، والمعنى ضاق بهم ذرعه أى باعه، وهذا التعبير تصوير لضيقه بصورة حسية كمن يضيق باعه فلا يستطيع أن يتحرك دافعا شرا داهما، ﴿**وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ**﴾ أى شديد وقد قال الشاعر فيما يدل على الشدة فى كلمة ﴿**عَصِيبٌ**﴾ يوم عصيب يوجب الإبطالا، ولقد جاء فى معنى ﴿**وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا**﴾، أصله أن يذرع البعير بيديه ذرعا فى سيره على قدر سعة خطوه، فإذا حُمِّل أكثر من طوقه ضاق عن ذلك وضعف ومد عنقه فضيق الذرع، فضيق الذرع كناية عن ضيق الصدر، وهذا تخريج آخر، والقرآن الكريم حمال لكل وجوه القول البليغ.

هذا ما كان من أمر نبى الله لوط وقد توقع الشر من قومه، أما ما كان من قومه فقد قال تعالى فيهم:

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨)﴾.

الإهراع الإسراع فى رعدة، وقد جاءوا بهذا الإسراع فى رعدة الشهوة الجامحة الفاسدة، ولا يستعمل «يهرع» إلا بالبناء للمجهول، جاءوا مسرعين مهتزين مرتعدين من شدة الفاحشة التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين، وهم معروفون عند نبى الله لوط عليه السلام بهذه الفاحشة، ولذا قال تعالى: ﴿**وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ**﴾ أى كانوا مستمرين من قبل على عمل السيئات التى تسىء الإنسانية فى ذاتها، وتسيئهم وتسىء مجتمعهم، فأدرك لوط ماذا يريدون، وعرض بناته عليهم ليتزوجوهن بدل الاسترسال فى هذه الفاحشة التى لا يرضاها الحيوان لفطرته، ويظهر أنه ألح فى العرض وألحوا بالرد وتكاثروا بالفساد فقال ﴿**أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ**﴾ بعد أن لجأ إلى مروءتهم إن كان عند مثل هذا الصنف من الناس مروءة أو بقية من إنسانية فقال: ﴿**وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي**﴾.

قالوا مصرين على سوئهم وقبح فحشهم.

﴿**قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠)**﴾.

قالوا ما لنا فى بناتك من حاجة، وعبروا عن هذه الحاجة بكلمة الحق، فقد توهموا لفرط غلبة الشهوة عليهم أن هذا الذى يفعلونه من إثم حق منحه الله لهم، هم ومن يشبههم من جيل هذا الزمان.

فضاق صدر نبى الله وقد أحس بضعفه أمام قوتهم وكثرتهم وقلة من معه فقال مستيئسا ﴿**لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ**﴾، أى لو أن لى بدفعكم قوة أردكم بها أو آوى إلى قوى أمتنع به دونكم، وشبه ذلك القوى بالركن من الجبل، ويصح القول (أخرج من هذه الأرض الفاسدة وآوى إلى جبل يعصمنى منكم ومن شركم)، وكلمة ﴿**لَوْ**﴾ للتمنى، وفى هذا الاستضعاف الشديد يكون فرج الله، فيجد أنه آوى إلى أعظم ركن وهو ركن الله تعالى، وقد رأى ذلك الركن بجانبه وهم الملائكة.

﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) ﴾.

فوجئ لوط، وقد كان فى حال ضعف يتمنى النجاة، بقولهم إنا رسل ربك الذى خلقك ورباك وبعثك وهو القوام عليك وعلى الناس أجمعين، وقد أدرك من كونهم رسل الله أنهم جاءوا لعذاب قومه وإنجائه وابتدءوا بذلك.

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ والإسراء السير ليلا، «بقطع من الليل»، وهو الجزء الذى يكون فى منتصف الليل أو قريبا من النصف الأخير حيث يهجعون ويكونون فى نوم عميق.

﴿ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ أى لا ينظر وراءه ولا يتخلف لمتاع أو لنحوه مما يشغلكم عن أنفسكم، واستثنيت امرأته، ووصفها الله تعالى فى آية أخرى بقوله ﴿ ... إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) ﴾ [العنكبوت] وإن العذاب نازل بها، كما هو نازل بهم أى أن الحال والشأن يصيبها ما أصابهم، وعبر باسم الفاعل للدلالة على نزوله نزولا مؤكدا بها، وقوله تعالى: ﴿ مَا أَصَابَهُمْ ﴾ فى التعبير بالماضى والعذاب لم يقع بعد لتأكيد الوقوع كقوله تعالى: ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ... (١) ﴾ [النحل].

وقد تعين موعد نزول العذاب وأنه قريب فقالوا: ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ أى أن العذاب نازل بهم فى الصباح وإنه لقريب، ومعنى الاستفهام التقرير، إذ هو للنفى وقد دخل على النفى إثبات، وجاء بهذه الصيغة لتأكيد الوقوع وقد أكد بالباء ثم كان العذاب الشديد المبيد، فقال تعالى:

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) ﴾.

﴿جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أى أمرنا بالعذاب، ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أى خسفت بهم الأرض فانهد العالى وصار سافلا، وكان العذاب المتلاحق بعد خسف الأرض بهم وابتلاعها لديارهم ما صوره سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ أى طين متحجر، ولذا عبر عن هذا المطر الحجارى بأنه حجارة من طين. و﴿مَّنضُودٍ﴾ أى متتابع لم ينقطع. ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أى معلَّمة كل حجر مُعَلَّم عليه إشارة العذاب، ونرى أنه شبهت الحجارة التى نزلت متتابعة بالمطر الذى ظنوا فيه غيثا فإذا هو العذاب الأليم.

وأشار سبحانه إلى أن ذلك قريب من مشركى مكة لشركهم وكفرهم وعنادهم للنبى ﷺ، ولذا ختم الله تعالى قصة صالح وثمود بقوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أى أن ذلك ليس ببعيد عن كفار مكة، وأنه يترقبهم مثله إن لم يؤمنوا، وأن فى قصص ثمود وعاد وقوم نوح لعبرة لأولى الأبصار.

مدين وشعيب

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ
شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ
وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ
وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ
أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟
ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾
بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم
بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن

نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ۖ
إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن
كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ
أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ
مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾
وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ
قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم
بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى
رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾

قال تعالى:

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) ﴾.

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ ﴾ معطوف على ما قبله من قوم صالح، ﴿ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ ذكر أنه أخوهم لأن الرسول يكون من قومه، ومن ذؤابتهم، وفى كلمة ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ ﴾، الجار والمجرور متعلق بفعل محذوف، أى أرسلنا إلى مدين، لأن عطف النسق يكون على نية تكرار الفاعل.

وقد اتجه شعيب إلى قومه يناديهم بنداء الرابطة الواصلة بينه وبينهم الدالة على المحبة المتبادلة بقوله: ﴿ يَا قَوْمِ ﴾ ويطلب إليهم الإيمان بوحدانية الله التى تتجلى فى عبادته وحده: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ وكلمة ﴿ مِّنْ ﴾

هنا لاستغراق النفى، أى ما لكم أىَّ إله غيره، أى لا يوصف بالألوهية غيره؛ لأنه الخالق وحده ولأنه واحد فى ذاته وفى صفاته ليس كمثله شىء.

وإذا كان قوم لوط قد اشتهروا بالفاحشة التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين، فقد اشتهر آل مدين بالفساد فى البيان والمعاملات والتطفيف فى المكيال والميزان، ولذا نهاهم عن التطفيف بعد الأمر بعبادة الله وحده فقال تعالى: ﴿ وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ﴾.

وعلل الرسول الكريم نهيه عن ذلك بقوله: ﴿ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ ﴾، أى أراكم فى سعة من العيش وعندكم الرزق الوفير، فلستم فى فقر يسوِّل لكم أخذ حق غيركم، بل أنتم فى سعة من الحلال فلا تمدوا أيديكم إلى الحرام، لكن الطمع يغريكم بأخذ حقوق غيركم، وإنه لا يردع من كانوا فى هذه الحال إلا عذاب يوم القيامة الذى يحيط بكم إحاطة الدائرة تنتقلون فيها من عذاب إلى أشد منه هولا.

وبعد أن نهى عن تطفيف الكيل أمر بالوفاء تأكيدا إليه من حسن التعامل.

﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) ﴾.

ناداهم عليه السلام نداء المودة والرغبة فى نفعهم فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ أى أعطوهما لأصحابهما وافيين غير منقوصين، ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أى لا تنقصوهم حقوقهم فإن نقص الحقوق ظلم فى ذاته، وهنا انتقال من الخاص إلى العام، فالنهى عن نقص المكيال والميزان نهى عن نقص فى الكيل والوزن، أما النهى عن بخس الناس أشياءهم نهى عن كل معاملة فيها أكل مال الغير بالباطل، كالربا والغش والتدليس والخيانة والرشوة والسرقة والاغتصاب وغير ذلك من نقص لأموال الناس وأكل لها بالباطل.

وإن التعامل الآثم واستحلال أخذ الأموال بالباطل، وسيادة الفسوق فى المعاملات يؤدى إلى التناحر وتقطيع أواصر المجتمع، ولذا قال معقبا: ﴿وَلا تَعْثَوْا

﴿فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ والعثو تنقيص الحقوق واغتصابها، وكل معاملة فاسدة، وقوله تعالى: ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حال من (الواو) والمعنى أنكم فى حال هذه المعاملات الفاسقة تكونون قد تلبس بكم الإفساد لأنه مترتب عليها لا محالة. ثم يقول لهم إن الكسب الحلال الذى يعود لكم من التجارة الرابحة هو أثمن وأبقى فيقول:

﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦)﴾.

أى البقية القليلة الحلال التى تفضل لكم من متاجركم ومعاملاتكم هى خير لكم وأثمن لأرزاقكم وأكثر وفرا ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فإن الإيمان يولد القناعة ويقطع الطمع، ومصارع الرجال تحت بروق المطامع، ولذا قال: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ حفيظ يحفظهم من غضب الله وظلمهم أنفسهم.

هذه دعوة شعيب تنزيه للنفس عن الشرك وتنزيه من البخس والظلم والطمع فماذا كانت إجابة قومه؟!.

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧)﴾.

استنكروا دعوته فى العبادة وفى إصلاح المعاملات، ولما كان كثير الصلاة والضراعة قالوا ﴿أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ أى تدفعك لأن تدعونا إلى عبادة الله تعالى وحده وترك عبادة الأوثان، كما يستنكرون دعوته لإصلاح معاملاتهم، وذلك من مبادئ الأخلاق الكريمة.

ثم يقولون: ﴿إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾، قال بعض المفسرين إن قولهم هذا كان تهكما عليه، كأنهم يقولون أتحسب نفسك العاقل الرشيد المدرك وحدك وما أنت كذلك.

وإنى أرى أنهم قالوا ذلك قاصدين معناه على إدراكهم، ولذا أكدوه بـ (إنّ) بأن، وباللام، وأنت، و﴿الْحَلِيمُ﴾: العاقل المدرك، و﴿الرَّشِيدُ﴾ الذى يدبر أموره على حكم العقل.

وكأنهم يقولون إن مقتضى ما أنت عليه من العقل والرشد والإدراك كان يوجب عليك ألا تنهانا عن أن نترك ما كان يعبد آباؤنا وأن تتركنا على ما ألفنا، وألا تصادر أموالنا أو تنهانا عن طرقنا التى تدر علينا الربح الوفير والخير الكثير، وذلك أشد ما تقع فيه النفس من فساد والعقل من الأهواء، إذ يحسبون الدعوة إلى الخير مما لا يليق، ويعاود نبى الله إرشادهم.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨)﴾.

بعد أن قالوا للنبى كما فهمنا، إن ما أنت عليه من عقل ورشد يمنعك من دعوتنا إلى ترك ما عليه آباؤنا، وإلى منع متاجرنا، ومكاسبنا، يقول لهم مؤكدا أمورا ثلاثة:

الأمر الأول: أنه على بينة من ربه، وإنه مبعوث لهذه الدعوة، ولذا يقول منبها: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ وفى قوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ تنبيه الاستفهام فيه للتقرير وإثارة الانتباه الشديد، وقوله: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ (إنْ) هنا مخففة من نون التوكيد، أى أنه الأمر، والثانى ﴿كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ أى بيان برسالتى من ربى الذى خلقنى وربانى وقام على شئون الوجود.

الأمر الثانى: أن الله رزقه رزقا حسنا طيبا لا ظلم ولا تطفيف ولا تدليس ولا بخسا للناس بغير حق وأريد منكم رزقا، ولكن أريده رزقا حلالا طيبا، وفى ذلك دعوة إلى القدوة به.

. **الأمر الثالث**: إنه يطبق على نفسه ما يدعوهم إليه فيقول: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾، أى أن أقصد ما نهيتكم عنه وأنتم مولون، أى إنى أبتدئ بالأخذ بالنهى فى الأمور التى نهيتكم فلا أنهاكم وأفعل ما أنهاكم عنه، وذلك ليتخذوا منه قدوة طيبة، ولا أخالفكم أى لا أقصد خلفكم إلى ما نهيتكم،

ثم بين أن ما يدعوهم إليه هو الخير الذى فيه صلاحهم فى دنياهم وآخرتهم وإصلاح نفوسهم وجماعتهم، فقال: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ «إن» هنا هى النافية أى ما أريد إلا إصلاحكم فى نفوسكم على قدر استطاعتى ﴿مَا اسْتَطَعْتُ﴾، و(ما) هنا شرطية، أريد الإصلاح إذا استطعته، وما دمت أستطيعه، أو مصدرية منسبكة مع ما بعدها فى مصدر أى: إنى أريد الإصلاح استطاعتى ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ﴾، أى الله وحده هو الذى يوصلنى إلى الغاية، ويحققها ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أى توكلت عليه وحده، ولا أتوكل وأعتمد إلا عليه، ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أى إليه وحده أرجع، وهو الذى يجزينى على الخير، وفى هذه العبارات الثلاث، تأكيد إرادة إصلاح النفس والجماعة، وتأكيد الاعتماد على الله فى النتائج، وتأكيد الرجوع إليه سبحانه.

وقد رأى نبى الله شعيب أنهم شاقوه وصاروا فى جانب، وهو فى جانب، فقدر أن هذه المجانبة إلى العصيان، وأن يصيبهم نتيجة شقاقهم أن ينزل بهم من العذاب ما نزل بقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، ولوط، ولذا قال شفيقا عليهم رفيقا بهم، ﴿وَيَا قَوْمِ﴾ ناداهم المحب الرفيق، ﴿لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ وهذا الكلام فيه تنبيه إلى سوء العاقبة، وبين أيديهم العبر من غيرهم، وهى تستقبلهم فى عاقبة أمرهم ﴿لا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ لا يحملنكم المُشاقة والمعاندة على استمراركم فى العصيان فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح من غرق، وما أصاب قوم هود من ريح صرصر عاتية، وما أصاب قوم صالح من صيحة تتبعها رجفة، وما أصاب قوم لوط، وقال فى هذا ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾، بل إن أرضهم تصاقب أرضكم.

وإن شعيبا نبى الله تعالى رفيق بقومه، ينذرهم، ثم يفتح باب التوبة ليدنوا منه، ولا يجافوه، فيقول :

﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠)﴾ يطلب إليهم أن يستغفروا ربهم، بأن يطلبوا مغفرته عما ارتكبوا ويرتكبون من شرك، وسوء فى المعاملات، وعسى الله أن يغفر لهم، ثم يتوبوا إليه، أى يرجعوا إليه بعد أن بعدوا، وكانت التوبة بعيدة عن الاستغفار، وكذا عطف بـ﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على عظم ما ارتكبوا، وقبح ما فعلوا، ولكن الله تعالى يغفر، وقد كلل قبوله التوبة، ومغفرته بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ أى إنه بسبب رحمته بخلقه، وقربه منهم بالمودة يغفر لهم، ويقبل توبتهم، فيبين شعيب الرفيق باب الرجوع إليه، ويعرفهم أنه قريب من عباده، قبل أن ينزل بهم عقاب يوم شديد.

لم تنفع العظات، ولم يبق إلا العقاب

قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ
وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ
عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ
اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ
مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ
سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ
كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) وَلَمَّا جَاءَ
أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ
الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤)
كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥)

بعد هذه العبارات القوية فى معناها ومرماها، الرقيقة فى مبناها قالوا متحدين شعيبا ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ أى ما ندرك كثيرا من قولك إدراك فهم، وما ذكروا ذلك ليزدادوا فهما، بل ذكروه مستنكرين لما يريد مستهينين به، وهو يتضمن رفضا لقوله، وإنكاراً لدعوته إلى التوحيد، وحسن المعاملة، والقيام بالعدل فيها وإعطاء كل ذى حق حقه، وكأن المعاملة بالبخس حق لهم، ولذا قالوا متحدين أيضا مهددين: ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ أكدوا أنهم يرونه ضعيفا لا يمتنع عليهم إذا أرادوه بسوء، ولولا جماعتك، أو عصبتك الذين يوالوننا، ولا نريد أن نغاضبهم لرجمناك، أى لقتلناك شر قتلة، وهى القتل رميا بالحجارة حتى تموت: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أى بممتنع علينا، إن أردناك بسوء، أو أردنا رجمك، ونفوا أنه عزيز عليهم أشد النفى، فأكدوه، بالخطاب وتكراره، وبالباء، وبتقديم ﴿عَلَيْنَا﴾، وذلك اغترار بقوتهم، وسطوتهم، وتأكيد بأنه فى قبضة أيديهم.

ويرد الحليم الرشيد شعيب غير عابئ بتهديدهم معتمدا على ربه، معتزا بعزته: ﴿أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ الاستفهام إنكارى لإنكار الواقع، وفيه تهكم بهم وبغرورهم، والمعنى ليس رهطى أعز عليكم من الله، وإن زعمتم ذلك فأنتم فى غرور، وانخداع بأنفسكم، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أى نسيتم الله ذا العزة والجلال، وحسبتم أن رهطى أعز عليكم من الله، وجعلتم رب العزة والجلالة وراءكم ظهريا وهذا تعبير لمن يطرح الأمر الجدير بالاعتبار وراء تفكيره، فشبه فعله بفعل من يرمى الأمر وراء ظهره، بحيث لا يراه، وقد هددهم بأن الله مانعه بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أى عالم علم إحاطة وشمول لا يخفى عليه شيء من أفعالكم، وما تريدون برسوله إليكم، وإنه لمحيط بكم، وعبر بربى للإشارة بأنه حاميه منهم، لأنه هو الذى أنشأه وربَّه ويحميه ويحرسه.

ويسترسل النبى الهادى فى إرشادهم، فيقول: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على ما تتمكنون من عمله، لتكون نتيجته لكم أو عليكم وإنى عامل ما يمكننى الله تعالى منه، وما أرسلنى به، ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (سوف) لتأكيد الوقوع ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ﴾ فى الدنيا ﴿يُخْزِيهِ﴾ ينزل به، فيجعله فى أسفل السافلين، ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ فى قوله، وفى دعوته، فتبين حينذاك خزيكم وكذبكم، كما يتبين صدق قولى فيما دعوتكم إليه، وفى إنذاركم.

﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ ارتقبوا ما يستقبلكم، وإنى معكم رقيب متتبع متوقع صدق ما أنذر الله ربى وربكم نزل العذاب بهم بأمر الله تعالى فى ميقاته، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أى ما قدرناه لهم عقابا فى الدنيا، وكانوا يستعجلون به ثم ذكر سبحانه وتعالى أمره بعد أن نجى شعيبا والذين آمنوا برحمة من الله، وكانت رحمته فى أن هداهم إلى الإيمان وأن أبعدهم عن العذاب، وفى أنه يستقبلهم النعيم المقيم يوم القيامة.

﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ وأظهر فى موضع الإضمار لبيان أن ما أنزل بهم من العذاب سببه الظلم بالشرك والظلم بنقص المكيال والميزان، والظلم بمنع الناس حقوقهم، وبخسهم حظوظهم.

والصيحة تبعتها رجفة فى الأرض ماتوا بها، ولذا قال ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾، أى ميتين. وجاثمون ملازمون أماكنهم لا يستطيعون حراكا؛ لأن الموت الداهم أفقدهم الحركة.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾: كأن لم يقيموا فيها إقامة مستمتعين بمغانيها، وهذا يشير إلى أن متعة الدنيا إلى وقتنا هذا لا بقاء منها لشىء، ويقول سبحانه: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ أى ألا بعدا وطردا من رحمة الله تعالى، وهلاكا لمدين، كما بعدت ثمود وهلكت.

موجز قصة موسى وفرعون

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾

قلنا إن قصص القرآن لا مكرر فيه، وإن كان يبدو ظاهر الأمر أن فيه تكرار؛ لأن الذكر يكون على قدر العبرة.

وهنا فى هذا الموضع يذكر أحوال الأمم الذين يبعث النبيون إليهم، ولذا ذكر قوم فرعون، وما حل بهم من اتباعهم فرعون، ولم يفصل الآيات المتوالية التى كانت تجرى على يدى موسى آية بعد آية، وهم لم يرتدعوا حتى أهلكهم الله تعالى بالغرق كما ذكر سبحانه ذلك فى سورة الأعراف، وكما ذكر حال فرعون وقد أصابه الغرق، وآمن فى آخر رمق فى حياته إيمانا لا يقبله الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦)﴾ أكد الله تعالى إرسال موسى وأكد إرساله بالآيات البينات بحجة ظاهرة قاهرة، وسماها سلطانا مبينا، أى بينا، وتسمية الحجة سلطانا؛ لأنها تجعل لصاحبها سلطانا غالبا من الاحتجاج ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أى من يحيطون به، ويشاركونه فيما يفعل، ثم وصف سبحانه حال ملأ فرعون، وهو وصف عميق لآل فرعون، ولأهل مصر،

فقال: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أى اتبعوه مطلقا، وكذلك حال مصر تتبع من يحكمها دائما سواء أكان عدلا أم كان ظلما، وسواء أكان رشدا أم ضلالا، فهم أتباع لا استقلال لهم، ولذا وصفهم العربى عمرو بن العاص: «هم لمن غلب» ولأنهم له تبع يكونون يوم القيامة وراءه، فكما اتبعوه فى الدنيا عن غير إدراك، بل لأنه فرعون - قال فيهم يوم القيامة ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨)﴾ والورد هو الذى يرده الناس لتبريد أجسامهم، ونقع غلتهم وترطيب أكبادهم، وسميت النار به تهكما بحالهم، إذ يردونها، فيجدون النار المتأججة بدل الماء الفرات.

وأنهم بهذه التبعية للطاغوت: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩)﴾ وألحقوا فى هذه الدنيا لعنة طردوا فيها من العزة والكرامة ونزل بهم الهوان والذل والمقت، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ﴾ أى العون الذى يعين به الرافد من يعينه، ﴿الْمَرْفُودُ﴾ أى المعان، أى أن فرعون ومن اتبعه، وكل المصريين الذين اتبعوه، يتعاونون فى تبادل إرفاد النار، يعين كل منهم الآخر، فهو يعينهم، وهم يعينونه، وهذا تصوير لحالهم، إذ تعاونوا على الظلم والذل والإذلال فى الحياة، فتعاونوا على المقت وإرفاد النار بعد الوفاة.

العبرة فيما قص الله تعالى هنا

قال تعالى:

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ
مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ
أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾
وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ

أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ
ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا
نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ
إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي
النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ
﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾
فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ
آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾

بعد أن ساق القرآن الكريم ذلك القصص الصادق الواعظ أو ذكر بعض ما فيه من عبر، فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠)﴾ الإشارة إلى السابق من قصة نوح وقومه، وعاد وهود وثمود، وصالح، ومدين وشعيب، وطغيان فرعون، أى هذا القصص الحكيم ﴿مِنْ أَنبَاءِ﴾ أخبار القرى، أى المدن التى يتحرك إليها الناس، ويجتمعون فيها، كقريتك التى تدعو إلى التوحيد فى وسط الشرك فيها، وإن هذه القرى عرفناك أنباءها، كيف أشركت وعاندت وكابرت، ثم أخذها الله أخذ عزيز مقتدر يجدون آثار ما أنزل الله بها، ورسوم بعضها تنادى ببيان ما حل بها. ﴿مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ قائم مثله كمثل العود من الزرع إذا صار حطاما، وجف ماء الحياة فيه، ومنها ما هو محصود كالزرع المحصود الذى قطع قائمه، وبقى بعض جذوره، وهذا يدل على ما نزل بهؤلاء.

وفى ذلك عبرة للذين يطغون، ويعاندون، ويؤذونك وصحبك ويستهزئون بكم ويسخرون من آيات الله فيهم، ومعجزته التى تتلى عليهم.

إن ما نزل بهم هو بسبب ظلمهم، ولذا قال تعالى: ﴿ **وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ** ﴾.

أى أن ما نزل بهم لم يكن ظلما، بل كان عدلا؛ لأنه لا يستوى المحسن والمسىء، والأعمى والبصير، ولا الظلمات والنور، ولا الظل والحرور، فهو جزاء عمل، وجزاء العمل من جنسه، ولكن ظلموا أنفسهم بإضلالهم بالشرك، وانسياقهم فى طريق الفساد، ومعاندتها للحق واضطهادها لأهلهم، وإشاعتها للضلال، وخضوعها للأوهام بدل العقل المدرك المستقيم.

وإنهم إذا ترددوا فى هذا الهلاك الذى نزل بهم منعا لاستمرار فسادهم، وطغيانهم، ومحاربتهم ـ بدا لهم عيانا بيانا أن الآلهة التى اتخذوها من الحجارة أو غيرها، لا تدفع عنهم ضرا، ولا تجلب لهم نفعا، ولا تحميهم مما نزل بهم، ولذا قال تعالت حكمته: ﴿ **فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ** ﴾، ﴿ **مِن** ﴾ هنا لاستغراق النفى، أى ما أغنت عنهم الآلهة التى زعموها مضادة لله تعالى أى شىء من الغَنَاء.

وأضاف كلمة آلهة إليهم، لبيان أنها ليست آلهة فى ذاتها، وهى عاجزة كل العجز، إنما هى آلهة فى زعمهم، وأوهامهم التى أضلتهم، وسارت فى ضلال بعيد.

إن هذه الآلهة أخزتهم، ولم تُفدهم؛ لأنهم ساروا فى الضلال إلى أقصى الغاية بل إنهم ﴿ **لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ** ﴾ بالإهلاك، وهو خالقكم والقائم على وجودكم لم يستطيعوا دفعا للضرر، ولا جلبا لنفع ﴿ **وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ** ﴾ التباب الهلاك والتتبيب الإهلاك الشديد الذى يتضاعف فى ذاته، أى ما زادوكم إلا هلاكا متضاعفا، والهلاك ليس زيادة فى ذاته وإنما الزيادة هى زيادة الضرر.

والتعبير بضمير جمع العقلاء، وليست الحجارة عاقلة إنما هو تهكم بهم، وبنظرهم الذى يعبد حجارة، ويرجو نفعها، وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ أى هلاك متضاعف متكرر.

وإن الله تعالى قدر العذاب وأنزله فكيف تزيد الحجارة فيما قدر الله وهى لا تملك من الأمر شيئا؟ والجواب عن ذلك أنه تصوير لحالهم مع هذه الحجارة، إذ إنهم استمروا فى عبادتها لا ينون بل يجادلون، ويعاندون حتى جاءهم العذاب الأليم، وكلما زادوا عنادا كان العذاب على قدره، وعنادهم المتزايد، وعقابهم عليه المتضاعف، كله فى تقدير الله العزيز الحكيم، والله حكيم عليم.

وإن هذا سنة الله تعالى فى خلقه العصاة، ولذا قال تعالت كلماته: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢)﴾.

التشبيه فى قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ هو تشبيه حال القرى القائمة الظالمة فى توقع عذاب الله لها بحال الذين أخذوا من قبل كغرق قوم نوح، وكالرجفة التى أخذت ثمود ومدين، وكالريح الصرصر الذى أخذ من قبل عاد كهذا الأخذ الذى أخذ به السابقون، يؤخذ القائمون فى عصر النبى ﷺ، وإن ذلك الماضى إنذار للحاضرين من القرى الظالمين كالمشركين فى مكة الذى يتحدّون الله ورسوله، ويحسبون أنهم الغالبون، والله تعالى غالب على أمره، وقد قرر بعد ذلك شدة عذابه فى أخذه لهم من حيث لا يحتسبون، فقال عز من قائل: ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ أى إن أخذه المفاجئ الذى لا يرتقبونه فوق ما فيه من ألم المفاجأة، وهم يرتعون ويلعبون هو فى ذاته مؤلم موجع، وشديد فى إيلامه وفى حاله، وحالهم معه، كانوا ينتظرون مطرا يمطرهم، فإذا هو ريح فيها عذاب أليم.

وإن ذلك إنذار كما ذكرنا للمشركين، حتى يرجعوا عن غيهم، وإن الله إذا كان قد أخر عنهم العذاب، لأجل محدود، فإنهم ليسوا غالبين، وإنه سبحانه

جاعل العذاب من نوع آخر، يستبقى الأطهار ولا يستأصل الأشرار لأنه يكون من أصلابهم من يعبد الله ويجاهد فى سبيله، ألم يجعل من أصلابهم قادة مجاهدين، فكان من أصلابهم خالد بن الوليد، وعكرمة بن أبى جهل، وغيرهما من القادة المجاهدين.

ووصف أخذ القرى بأنه يأخذها وهى متلبسة بظلمها، تحمل فى نفسها موجب عذابها.

وإن هذه الإنذارات يتعظ بها وينزجر من يؤمن بالآخرة، ويخاف مقام الله فيها، ولذا قال:

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) ﴾.

الإشارة فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ للمذكور من أنباء قوم نوح، وهود، وصالح، وشعيب الآية، أى لدلالة واضحة على قدرة الله تعالى، وإن خوارق العادات فيها دلالة على إرادة الخالق، وأنه فاعل مختار، وأنه قادر على الإعادة كما بدأ الخلق، وأن قدرته ليست بقدرة البشر، وإنها ليست مرتبطة بالأسباب والمسببات كالعباد بل فوق كل شيء، وأنه خالق الأسباب والمسببات، ولكن لا يدرك هذه الآية إلا من سلمت نفسه من آفات الشك والشرك، وآمن باليوم الآخر، ولم تكن الحياة الدنيا خلب كبده[1]، وكل شيء فى حياته، ولذا قال: ﴿ لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ﴾ ومن يخاف الآخرة يؤمن باليوم الآخر وأن بعد هذه الحياة الدنيا حياة آخرة هى الحياة الحقيقية التى يكون فيها البقاء، ويؤمن ثانيا بأن الحياة الآخرة فيها العذاب فيخافه؛ لأنه محاسب على ما قدمت يداه.

وليس المراد أن هذه آية فقط لهؤلاء الذين يؤمنون باليوم الآخر، ويوم الحساب، ولكن المراد أن الذين يدركون هذه الآية من استقامت نفسه، وعقله وقلبه

---

(١) والخِلْبُ، بالكسر: لُحَيْمَةٌ رقيقة تصل بين الأضلاع، أو الكبد، أو زيادتها، أو حجابها، أو شيء أبيض رقيق لازق بها. القاموس المحيط ـ فصل الخاء.

هم الذين امتلأت قلوبهم إيمانا باليوم الآخر، وأن الإنسان لم يخلق سدى، وأن عمله لا يذهب هباء منثورا، بل يوم الحساب يترقبه، وهو يخاف، أما الذين ران على قلوبهم هذه المادية الغاشمة فليسوا من هذه الآية فى شيء.

وقد وصف الله بعد ذلك اليوم، فذكر أنه يوم الحشر، وقال فيه: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾ أى أن الناس جميعا مجموعون له فى أول خلق آدم إلى يوم القيامة، وذلك يوم مشهود يشهد فيه الناس جميعا، وهو مُعَلَّم معروف لأهل المعرفة، وهو مشهود بما فيه من أحداث وحساب وعقاب، وبما ينزل فيه الملائكة صفا، وبما يتجلى فيه رب البرية ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾ [القيامة]، ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢)﴾ [عبس].

وإن ذلك اليوم لآت لا محالة وإن تأخر فلأجل معدود ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ (١٠٤)﴾ أى أجل معدود فى علم الله لا يتأخر، ولا يتقدم، بل معدود بالسنين والأشهر، والشيء المعدود لا يقبل الزيادة ولا النقص، وإذا كان معدودا فإنه آت لا محالة، فلا يتقدم لاستعجال أحد، ولا يتأخر لإرادة التأخير، لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

ثم قال تعالى فى يوم مجيئه فقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥)﴾ هنا قراءتان:

القراءة الأولى: أن الباء غير محذوفة وهو الأصل: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

والقراءة الثانية: حذف اجتزاء بدلالة الكسرة عليها، كأنها مقدرة فى الكلام، تخفيفا وتيسيرا، والقراءتان مشهورتان، وإن حذف الباء موجود فى لغة هذيل، وهى من أفصح العرب، فيقال لا أدرِ من غير عامل يجزم الفعل ويحذف الباء، ويقول الزجاج: إن هذه قراءة، والذى أراه اتباع المصحف، وإجماع القراء لأن القراءة سنة متبعة.

ولا يقال ما قاله الجهلاء إن القرآن خالف النحو، وذلك لأمرين:

الأمر الأول: إن الكسر إنباء عن وجود الباء وإن لم ينطق بها ليكون ذلك خفيفا على اللسان، ووافق لغة من لغات العرب الفصيحة.

الأمر الثاني: أن النحو تشتق قوته من القرآن، والقرآن فوقه.

وقوله تعالى: ﴿**لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ**﴾ تكلم فعل مضارع حذفت فيه التاء، وأصله لا تتكلم نفس إلا بإذنه. والضمير يعود على الله تعالى ﴿**إِلاَّ بِإِذْنِهِ**﴾، لأنه حاضر في العقول والنفوس والقلوب، ولقد قال تعالى في ذلك: ﴿**هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦)**﴾ [المرسلات].

وكونهم لا يتكلمون إلا بإذنه لكيلا يقولوا إلا صوابا كما قال تعالى: ﴿ ...**لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨)**﴾ [النبأ].

ففى هذا اليوم يكون الإقرار بالذنوب من غير مماراة، بل يقرون بالحق؛ لأن هذا يوم الصدق، وإن الكلام فى هذا اليوم بالإقرار الصادق، أما أن يكون فيه شقيا لما ارتكب وإما أن يكون سعيدًا، ولذا قال تعالى: ﴿**فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ**﴾ فمن الجمع المجموع شقي بما ارتكب فى النار، وإما سعيد لم يرتكب إثما، فيكون فى الجنة، وقد فصل القول سبحانه:

﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦)**﴾ الشهيق النفس فى الصدر، والزفير إخراجه وقيل العكس، (أما) للتفضيل والبيان لما يئول إليه أمر الشقى، وما يئول إليه أمر السعيد، ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ**﴾ أى الذين شقوا بأعمالهم فى الدنيا، وتسجيلها عليهم بإقرارهم فى الآخرة، ﴿**فَفِي النَّارِ**﴾ أى أن مآلهم النار يدخلونها، ﴿**لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ**﴾، أى يدخلونها فى صدورهم بشهيقهم، ويخرجون منها نارا بزفيرهم، فالنار تكوى جلودهم، وتدخل إلى أحشائهم، يتلظون بها فى أبدانهم ظاهرا وباطنا، داخلا وخارجا.

وقد سجل الله تعالى خلودهم فيها، فقال تعالت كلماته: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ وقوله تعالى: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ جريا على استعمال العرب فى تأكيد دوام الحكم بأمر من الأمور، فيقولون فى بيان دوام العقد: ما بلَّ بحر صوفة، كما قالوا فى عقد حلف الفضول، ومقتضى هذا التعبير أنه يجب أن تبقى السموات والأرض لكى تدوم النار، وإن قيل فى هذا الدليل على فنائها مع فناء ما يكون فيها.

ولا دليل على أن النار فانية، ولها نهاية، وكذلك الجنة لوجود هذا التعبير؛ لأن التعبير بقول ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ جاء فى آيات الكتاب الحكيم مطلقا غير مقيد ببقاء السموات والأرض، ويعرف ذلك ما يفهم بطريق مفهوم المخالفة لا يعارض النص بإجماع علماء الأصول، وإن الخلود فى النار ثابت ثبوت الخلود فى الجنة ونحن فى جميع الأحوال خاضعون لإرادة الله تعالى ومشيئته فى الدنيا والآخرة.

ولذا قال تعالى: ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ وقد ذكر هذا النص الكريم هنا، فى أهل الجنة، وقد جاءت آثار فى معناه نختار بالذكر منها ثلاثة:

القول الأول: ما ذكره بعض التابعين، وحكاه الزمخشرى من أن الاستثناء هو من الخلود فى النار، أو من أصل دخولها، والمستثنون هم فسقة أمة محمد، وغيرهم ممن يؤمنون بالله، وكان منهم عصيان، فإنهم يدخلون النار على مقدار معاصيهم، ويشاء الله أن يخرجوا فيخرجون، أو أن تنفعهم شفاعة الشافعين، على رأى جمهور العلماء.

وإن هذا القول قد يستقيم بالنسبة للذين شقوا، ولكنه لا يستقيم فى الذين سعدوا.

والقول الثانى: أن قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ فيها بيان أن العذاب والعقاب متعلق بمشيئته فهو الفاعل المختار، والأمر فى ذلك متعلق بمشيئته هو فى العدل والرحمة، فليس بحتم عليه: ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣)﴾

[الأنبياء]، فإذا كان قد أدخل الكفار النار فبمشيئته، وإذا كان قد أعطى المؤمنين الأتقياء جنة، فبرحمته ومشيئته، وعطائه، ولذا قال بعد ذلك ﴿**عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ**﴾: وهذا القول مستقيم نختاره، ونذكر القول الثالث، ونراه معقولا فى الجملة ولا نرده:

القول الثالث: أن هذا ذكر للاستثناء فى مقام الفعل، أخذ به الله فى حقه ليندب خلقه إليه، كما قال تعالى: ﴿**وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ... (٢٤)**﴾ [الكهف].

وإذا كنا لم نختر هذا القول، بل اخترنا الثانى فإنا لا نقول: إنه قول باطل، وإنما اختيارنا للثانى لأنه صحيح فى ذاته، ويرشح له قوله تعالى بعد ذلك: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ**﴾ فهذا النص السامى يثبت أن إرادة الله مطلقة فى كل ما يعطى، وكل ما يمنع.

وقوله تعالى إلا ما شاء الله: التعبير بـ (ما) دون (مَن) لأن معناها أنه إلا أن يشاء الله هذا ما ينال الذين شقوا من عذاب، أما ما يناله الذين سعدوا، فقد بينه بقوله تعالى:

﴿**وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨)**﴾، ﴿**سُعِدُوا**﴾ بالبناء للمفعول، لأن الفاعل معلوم، وهو الله تعالى، فالمعنى سعدهم الله، فسعدوا، وقد سعدوا، لأنهم اهتدوا إلى الإيمان والعمل الصالح فى الدنيا، وسعدوا لأنهم دخلوا الجنة على وجه الدوام فى الآخرة، وسعدوا لأن نالوا رضوان الله فى الدنيا والآخرة، ولأنهم يوم القيامة، يتجلى عليهم ربهم فتنضر وجوههم وتنظر أعينهم، كما قال تعالى: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)**﴾ [القيامة].

وذكر سبحانه نيلهم الجنة، فيقول: ﴿**فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ**﴾ مقيمون على وجه الخلود، ﴿**مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ**﴾، وقد ذكرنا أن هذا ليس تقييدًا لإرادة الله

ببقاء السموات والأرض، وإنما إرادته مطلقة وإنما كان هذا التعبير تأكيداً لمعنى الخلود، على مجرى عبارات العرب فى تأكيدهم للبقاء بأمر ظاهر البقاء عادة.

وقوله: ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ ذكرنا ما قيل فيه، وقلنا إن المختار عندنا إنه بيان لمشيئة الله التى لا يقيدها شىء فلا حتم عليه، وإذا كان قوله فى أهل النار: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ يؤيد معنى المشيئة، فقوله تعالى: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾، يؤيد المشيئة المطلقة هنا؛ لأن العطاء لا إلزام فيه، وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ ومعناه غير مقطوع بل هو دائم، والله أعلم.

وإذا كانت هذه الأقوام الماضية قد نزل بها ما نزل، وإن المشركين لا يترقبون مثلها، فتأس بالأنبياء من قبلك، واصبر كما صبروا، ولذا قال تعالى:

﴿فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ (١٠٩)﴾.

(الفاء) تصل الكلام بما قبله، وهو مترتب على القصص السابقة والجزاء الذى أعده الله تعالى للأشقياء والسعداء، والفاء للإفصاح عن شرط مقدر مؤداه إذا كان ما علمت من قصص لعبدة الأوثان وأنبيائهم، وما نزل بالمشركين، فلا تك فى شك من بطلان ما يعبد هؤلاء، وأصلها تكُن، وحذفها كثير فى القرآن الكريم، وهو يعطى اللفظ جمالا فى النسق والنغم وحلاوة فى اللفظ، وتلك خصائص القرآن الكريم، وقوله: ﴿فِي مِرْيَةٍ﴾ أى شك يدفع إلى المراء، والمجادلة، والنهى هنا والحال أن ذلك لا يتصور منه، فهو بالنسبة له ﷺ أمر غير متصور الوقوع منه ﷺ وللنهى فائدتان:

الفائدة الأولى: أنه نهى لمن يقرءون القرآن، فهو نهى فى ظاهره للنبى ﷺ، وفى حقيقته لكل أتباع محمد، وكل من يخاطبون بالقرآن، وهو اقتلاع لجذور الشك من النفس.

الفائدة الثانية: أن النهى لإفادة البطلان بدليله، فإن ما سبق فيه أدلة بطلان الشرك، وأنه معاقب عليه، وأن عاقبته العقاب الصارم الذى يجتث الأمم.

ومن أحسن ما قرأت فى تأويل ذلك أن مؤدى النهى هو أمر النبى ﷺ عليه بأن يقول لكل من يخاطبه ﴿**فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ**﴾ وإن كان اللفظ لا يساعد فى ظاهره ذلك، فهو منتهاه، يؤدى إليه قوله تعالى ﴿**مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ**﴾، والإشارة إلى المشركين، أى قل لقومك لا تكونوا فى مراء مما يعبد هؤلاء من أوثان، فإنهم لم يفكروا فيه، ولم يتجهوا فيه إلى منطق عقلى أوصلهم إليه، ولكنهم ألغوا عقولهم اتباعا لآبائهم ولذا قال تعالى: ﴿**مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ**﴾ أى أنهم مقلدون، وليسوا بمفكرين ولا بمهتدين ولذا كانوا يقولون لأنبيائهم: ﴿... **أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا** ... (٦٢)﴾ وكان مشركو مكة يقولون: ﴿...**وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ** (٢٣)﴾ [الزخرف] وكانوا يقولون: ﴿**بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ** (١٧٠)﴾ [البقرة].

وهكذا، وذكر سبحانه اتباعهم لآبائهم، بل لبيان أنهم لا يفكرون، وهم مؤاخذون لكفرهم، ولإهمال الآيات الدالة على الوحدانية، وللمعجزة الدالة على رسالة محمد ﷺ، وهى معجزة القرآن الكريم.

ولهذا قال تعالى فى بيان جزائهم: ﴿**وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ**﴾.

ذكر بعض المفسرين أن المراد نصيبهم فى الدنيا من رزق، ويكون المعنى لا يغرنك تقلبهم فى البلاد وما أوتوا من ثروة، وجاه، فإنه لا يدل على أنهم على حق، فإن رزق الدنيا منوط بأسبابه، وإن الله يعطيهم أرزاق الدنيا غير منقوصة، فالنصيب هنا هو الرزق الدنيوى.

وأما الرأى الثانى أن المراد نصيبهم من العذاب، والقرينة تعينه، لأن الكلام عن عذاب الذين عاندوا النبيين، وصادموا دعواتهم، وسخروا منها. وقوله تعالى ﴿**غَيْرَ مَنقُوصٍ**﴾ حال مؤكدة لمعنى الوفاء فى كل الأقوال، ولعل خير الأقوال ما يشمل النصيبين، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الاختلاف فى الحق

قال تعالى:

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ
﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ
إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ
لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ
ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ
﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾

كانت التسلية فى قصص الأنبياء الذين بعثوا فى أرض العرب، وللعرب، ولم تذكر لهم كتب، وقد ذكر بعد ذلك موسى وقد جاء بكتاب يصدقه القرآن، وفيه بشرى بمحمد ﷺ، فأشار سبحانه إلى قصة موسى بطرف من القول فقال تعالت كلماته:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾، أكد الله نزول الكتاب على موسى بـ (اللام) و(قد)، وأضاف سبحانه الإيتاء إليه، وكان فيه آيات بينات، وعظات، وأحكام زاجرة، ولم يترتب على

إيتاء موسى عليه السلام الإيمان به، وقد أنقذهم من ظلم فرعون الذى كان يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم، ورأوا تسع آيات حسية ملزمة، ورأوا آيات الله تعالى فيهم ونعمه ظاهرة وباطنة تفيض عليهم، مع كل هذا لم يذعنوا لما جاء به من شرائع بل اختلفوا فيه، فإذا كانوا قد اختلفوا فى شأنه ما بين مذعن ومؤول ومخالف، فكيف تنتظر يا محمد من قوم أميين أن يذعنوا بمجرد النزول.

و(الفاء) فى قوله: ﴿فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ للعطف والترتيب من غير تراخ، وكأنه ترتب على إيتاء الله تعالى موسى الكتاب الاختلاف، وهذا يدل على أن الاختلاف ليس ناشئا من ذلك الكتاب، بل هو ناشئ من فساد النفوس وإذا فسدت النفوس لا يقنعها الدليل، ولا يهديها البرهان مهما يكن حاسما.

وقد افترق اليهود على فرق شتى حول التوراة ما بين ربانيين وقراءين، وصدوقيين لا يؤمنون باليوم الآخر.

ويبدو من فرقهم أن الاختلاف فى شأن الكتاب كان فى فهمه، حتى ضلوا وحرفوا الكلم عن موضعه، وأتوا بكتاب لم يُنزل على موسى، وقالوا إنه من الكتاب، وليس منه فى شىء.

ولقد قال تعالى: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ ولولا أن الله تعالى يمهل الظالمين إلى يوم يبعثون، ويتركهم يتجادلون، ليزيد ابتلاؤهم لقضى بينهم فى هذا الاختلاف وبين الحق الذى لا يحتار فيه أحد، ولكنه تركهم يتعرفونه؛ لأنه خلقهم ذوى مدارك، ومع كل نفس فجورها وتقواها.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ الشك معناه التظنن فى الحق، وقد بدت دلالة، والريب هو نتيجة هذا التظنن، والضمير فى قوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ يعود إلى المشركين كما يقول أكثر المفسرين، والضمير فى ﴿مِّنْهُ﴾ يعود إلى القرآن.

ولكن لم يكن ذكر للمشركين، ولم يكن ذكر هنا للقرآن، وإن إعادة الضمير إليهم، وإلى كتاب الله تعالى لا يأتى بفائدة جديدة، وأرى أن الضمير يعود إلى قوم موسى الذى أوتى التوراة، ويكون الريب بسبب اختلافهم، فإن الاختلاف يحدث الشك، والجدل ذريعة الريب، والضمير فى ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعود حينئذ إلى مذكورين فى القول غير مطويين، وكذلك الضمير فى ﴿مِّنْهُ﴾.

وإن فى ذلك لعبرة من ناحيتين:

الأولى: تسلية النبى ﷺ.

والثانية: بيان أن الاختلاف والجدل تميع فيهما الحقائق، ويحل محلها الشك والريب، اللهم هبنا الوفاق، وجنبنا الشقاق، وقد أكد الله تعالى شك القوم بإن وباللام وبالجملة الاسمية.

ويقول فى جزاء السابقين واللاحقين:

﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١) ﴾.

- هنا قراءتان إحداهما بـ (أنّ) الثقيلة، والثانية بـ (إنْ) الخفيفة[١]، والتنوين فى ﴿كُلاًّ﴾ نائب عن المضاف إليه، أى إنهم جميعا ليوفينهم ربك أعمالهم، وهذا يتضمن مآل الماضين والسابقين على محمد ﷺ وإنذار الذين يعادونه، ويؤذون أصحابه ويسخرون منهم، فالمعنى إذن، وإن كلا من الفريقين لما سيوفيهم ربك أعمالهم.

اللامان لتوكيد القول؛ الأولى واقعة فى خبر (إن)، والثانية موطئة للقسم أو العكس، ولا تغيير فى المعنى بأى التقديرين، وكانت (ما) فاصلة بينهما لكيلا يثقل النطق بلامين وهى مع ذلك دالة على تأكيد ما تدل عليه اللام الأولى.

---

(١) قراءة (وإنّ كلا) بإسكان النون، قراءة مكى ونافع، وأبو بكر والمفضل، وابن بشار عن على. وقرأ الباقون بتشديد النون. غاية الاختصار (١٠٢١).

وقول ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ فيه توكيد للوفاء، وهو القسم فكأنه تأكد الكلام باللامين، وبالقسم وبنون التوكيد الثقيلة، وأكد أيضا بالتعبير بـ ﴿رَبُّكَ﴾ أى الذى خلقك، وخلقهم، وقام على هذا الوجود، وإذا كان هذا الخالق الحى القيوم هو الذى يعد بالتوفيه، فإنها واقعة لا محالة.

وقوله ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾، أى جزاء أعمالهم، ولكنه سبحانه حذف الجزاء، وأضاف الجزاء إلى الأعمال للإشارة إلى أن الجزاء وفاق العمل، فكأنهما شيء واحد، إذ يكون عادلا تمام العدل، يوم تجد كل نفس عملها محضرا، وإن العدل الحقيقى يقتضى المساواة بين العمل والجزاء، ويقتضى العلم، وقد أشار إلى العدل بالمساواة بين الجزاء والعمل حتى كأنه هو، وصرح بالثانى فى قوله ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ الضمير يعود إلى الله الذى تذكره القلوب، ولا تنساه، و﴿خَبِيرٌ﴾ معناه، عالم علما دقيقا لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء، يعلم ما تكسبه الجوارح، وما يجول فى الأفئدة. إنه سميع بصير.

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢)﴾.

﴿فَاسْتَقِمْ﴾ السين والتاء للطلب، أى اطلب إقامة الدين، وحفظ جوارحك الظاهرة والباطنة فى دائرة القيام به، وإدراك غاياته ومراميه، وقوله تعالى: ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾ الكاف للتشبيه والمعنى اجعل أعمالك ومرام نفسك وقلبك كما أمرت أى كما أنزل الله تعالى، وبنى للمفعول لأن الفاعل معلوم حاضر فى الذهن دائما، ولأن الاستقامة توجب اتباع الأوامر فى ذاتها ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾، فقوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ معطوفة على الضمير فى استقم، وإنما جاز النطق على الضمير المستتر فى الخطاب من غير أن يؤكد بالضمير البارز للفصل بين المعطوف والمعطوف عليه، وهو بقوله تعالى: ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾، فيكون عدم إبراز ضمير الخطاب مناسبا للنسق.

وإن الاستقامة هى غاية الكمال الدينى؛ لأنها القصد إلى الهدف الأسمى، ولأنها روح الإسلام وغايته، وقد قال بعض الصوفية: إن الاستقامة هى مطلب

الصوفى الأمين على حقوق الإيمان، وروى مسلم فى صحيحه عن سفيان بن عبدالله الثقفى، قال قلت: يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك قال: «**قل آمنت بالله ثم استقم**»[1]، وروى عن عبد الله بن عباس أنه قال لمن استوصاه: «عليك بتقوى الله والاستقامة».

ولقد قال تعالى: فى بيان الاستقامة أن أعلى درجات الإيمان: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠)**﴾ [فصلت] إلى آخر الآيات.

وقوله ﴿**وَمَن تَابَ مَعَكَ**﴾ أى الذين معك من المسلمين، وعبر عنهم بأنهم تابوا للإشارة إلى أن إسلامهم لا يكون كاملا إلا إذا كانوا مع الله تعالى، وإلى أن الإسلام توبة عن الشرك، وإن الشرك انحراف فى النفس، وتركه رجوع إلى الله تعالى.

وإن الاستقامة تهذيب روحى، واتجاه نفسى، وقد نهى عما يؤدى إلى الانحراف عن الاتجاه المستقيم (ولا تطغوا) فيه، إن النفس تنحرف عن الجادة، والطريق الأقوم بالطغيان، وهو مجاوزة الحد، ومجاوزة الحد قسمان:

القسم الأول: التشدد فى الدين الذى يؤدى إلى إرهاق النفس، وإن إرهاقها يؤدى إلى التقصير، ولذا أمر النبى ﷺ بالاعتدال، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «**لن يشاد أحد هذا الدين إلا غلبه، ولكن سددوا وقاربوا**»، وقال: «**أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل**»[2].

والقسم الثانى من الطغيان: الظلم، ومجاوزة الحد مع غيره، وإن هذا المعنى مناسب للآية بعد ذلك. ولقد بين الله سبحانه وتعالى أنه مراقب العباد،

(١) رواه مسلم: الإيمان - جامع أوصاف الإسلام (٣٨)، ولفظه عند مسلم: قل آمنت بالله فاستقم»، وباللفظ أعلاه رواه أحمد: مسند المكيين ـ حديث سفيان بن عبد الله الثقفى (١٤٩٩٠). كما رواه الترمذى فى الزهد، وابن ماجه فى الفتن، والدارمى فى الرقاق.

(٢) سبق تخريجه.

ومجازيهم فقال: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ الضمير يعود على الله تعالى أى أنه تعالى عليم بما يعملون علم من يبصر ويرى، وقدم الجار والمجرور ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ على ﴿بَصِيرٌ﴾ للاهتمام بالعمل، وإنه مناظر الجزاء، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وإن الاستقامة هى أقصى درجات الإحسان، ولقد قال النبى ﷺ فى تعريف الإحسان: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك**»[1].

كان فى هذه الآية النهى عن الظلم، ثم أردفها بالنهى عن الارتكان إلى ظالم، فقال:

﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ (١١٣)﴾.

﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، الواو عاطفة هذا النهى على النهى السابق، وهو قوله تعالى: ﴿وَلا تَطْغَوْا﴾ الركون الاستناد، فيقال ركن إلى الجدار أو الجبل أو الركن إذا استند إليه، ويتضمن ذلك النهى الاعتماد على الظالم، والإدهان إليه والميل إليه، والتودد له، والتقرب منه، ومعاونته فى الأمر الذى يفعله، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أى الذين وقع منهم الظلم، وإن لم يتصفوا بالظالمين، وإذا كان النهى عن مساندة الذين وقع منهم ظلم، فأولى بالنهى من يكون الظلم عادة وسياسة مستمرة لهم، ويلاحظ أن التعبير بالموصول فيه بيان بسبب النهى، وهو مرفوع الظلم منهم، ولقد قال الرسول ﷺ فى معاونة الظالمين: «**ومن سعى مع ظالم، فقد سعى إلى جهنم**»؛ لأنه عاونه فى ظلمه، ولو أن الذين يظلمون لا يجدون من يعاونهم، ويمانعهم، وينصرونهم على المظلومين ما استمروا يرعونها، حتى تكون فيها أشواك الأذى الممزقة.

ولقد وجدنا ناسا فى عهد طاغوت رأيناه أشد من فرعون عتوا، يمالئونه على المسلمين، حتى قتل، وآذى وقطع أطراف الشباب، ووصل عدد قتلاه خمسة

---

(١) متفق عليه وقد سبق تخريجه من رواية عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

وثلاثين ألفا من المسلمين غير من قتلوا تحت حر السياط والتعذيب فى سجونه التى فاقت سجن الحجاج طاغية العرب عددا، والحجاج كان عربيا، فلم يعذب، ولم يضرب بالسياط، لأن مروءة العربى تمنعه.

وقد كتب الزمخشرى فى هذا كتابة قيمة ننقلها من تفسيره، رضى الله عنه: «والنهى متناول الانحطاط فى هواهم والانقطاع إليهم ومصاحبتهم ومجالستهم، وزيارتهم ومداهنتهم، والرضا بأعمالهم، والتشبه بهم، والتزيى بزيهم، ومد العين إلى زهرتهم، وذكرهم بما فيه تعظيم لهم، وتأمل قوله تعالى: ﴿**وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا**﴾ فإن الركون هو الميل اليسير، وقوله تعالى: ﴿**إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا**﴾ أى الذين وقع منهم الظلم، ولم يقل الظالمين، فكيف بالظالم، وحكى أن الموفق (أحد خلفاء العباسيين فى عهد انحلال الحكم العباسى) صلى خلف الإمام فقرأ بهذه الآية، فغشى عليه، فلما آفاق قيل له، هذا فيمن ركن إلى من ظلم فكيف بالظالم. وعن الحسن (البصرى) رحمه الله: «جعل الله الدين بين لائين ﴿**لا تَطْغَوْا**﴾، و﴿**لا تَرْكَنُوا**﴾......».

ولما خالط الزهرى السلاطين كتب إليه أخ له فى الدين:

«عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن، قد أصبحت بحال ينبغى لمن عرفك أن يدعو لك ويرحمك، أصبحت شيخا كبيرا، وقد أثقلتك نعم الله، بما فهمك الله من كتابه، وعلمك من سنة نبيه، وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء، قال الله سبحانه: ﴿**... لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ ...** (١٨٧)﴾ [آل عمران]. واعلم أن أيسر ما ارتكبت، وأخف ما احتملت، أنك آنست وحدة الظالم وسهلت سبيل الغى بدنوك ممن لم يؤد حقا ولم يترك باطلا حين أدناك، اتخذوك قطبا تدور عليك رحى باطلهم، وجسرًا يعبرون عليك إلى بلائهم، وسلَّما يصعدون فيك إلى ضلالهم، يدخلون الشك بك إلى العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهلاء، فما أيسر ما عمروا لك فى جنب ما خربوا عليك، وما أكثر ما أخذوا منك فى جنب ما أفسدوا عليك من دينك، فما يؤمنك أن تكون ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿**فَخَلَفَ**

مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) ﴾ [مريم]، فإنك تعامل من لا يجهل ويحفظ عليك من لا يغفل، فداوِ دينك، فقد دخله سقم، وهيِّئ زادك فقد حضر السفر البعيد، وما يخفى على الله من شيء في الأرض، ولا في السماء والسلام» هذا كتاب واعظ، لتابع من أجل التابعين، وإن كان من أصغرهم سنا.

ويسترسل الزمخشرى فى نقل ما قاله العلماء فى الظالمين، والذين يركنون إليهم كما نرى فيمن اتسموا بسمة العلم، قال رضى الله تعالى عنه وقال سفيان (الثورى): فى جهنم دار لا يسكنه إلا القراء الزائرون للملوك.....

وعن الأوزاعى «ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملا».

وعن محمد بن مسلمة: الذباب على العذرة أحسن من قارئ على باب هؤلاء.

وقال رسول الله ﷺ: «**من دعا لظالم بالبقاء، فقد أحب أن يعصى الله فى أرضه**».

ولقد سئل سفيان الثورى، عن ظالم أشرف على الهلاك فى برية هل يسقى شربة ماء، فقال: لا. فقيل له يموت، فقال: «دعه يموت».

رضى الله عن الزمخشرى، وإن كنا لا نرضى عن فتيا سفيان الثورى الأخيرة، فإنه صح عن النبى ﷺ أنه نهى عن القتل بالعطش، وهذا أمر بالإسعاف.

ولقد قال بعد النهى عن الركون إلى الظالم ﴿ **وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ** ﴾، ﴿ **مِّنْ** ﴾ هنا لاستغراق النفى و﴿ **أَوْلِيَاءَ** ﴾ النصراء أى ليس لهم من الذين

يعادون الله تعالى بظلمهم، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ أى أولياء أحباء مناصرون.

﴿ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴾ العطف بـ ﴿ ثُمَّ ﴾ هنا، وهى دالة على التراخى لبيان البعد بين الانتصار، وموالاة الظالمين، أو الركون إليهم بموادتهم، ومعاونتهم.

اللهم لا تؤاخذنا بما كان منا للظالمين من سكوت، فى كثير من الأحيان، اللهم هيئ نفوس حكامنا للعدل، فإنهم أضاعوا المسلمين بظلمهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ولقد قال تعالى بعد النهى عن الفساد، آمرا بالصلاح، لأن التخلية قبل التحلية.

﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) ﴾.

هذا معطوف على الأوامر والمنهيات قبله، وقلنا إنه سبحانه نهى عن الظلم والطغيان، والامتناع عن الظلم والطغيان فعل الخير، وإن الظاهر من هذه الآية، وآية الروم، وهى قوله تعالى: ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) ﴾ [الروم]، فإن هاتين الآيتين تومئان إلى أوقات الصلوات الخمس، فكانت بعد فرضيتها فى المعراج.

وإقامة الصلاة فى الأمر ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ ﴾ الإتيان مقومة مستوفية أركانها الظاهرة والباطنة من خلوص المشيئة لله تعالى: واستشعار معانى الأركان النفسية، وألا يقصد بها المراءاة، فمن صلى يرائى فقد أشرك، وقال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧) ﴾ [الماعون].

وطرفا النهار ما هما؟، اختلفت الروايات فى ذلك، وأقربها فى اعتقادنا، وهو المأثور عن النبى ﷺ أن الطرفين الفجر أو الصبح، وما بعد الظهر، وزلفا من

الليل والزلف الساعات المتقاربة، وفسرها النبى بأنها المغرب والعشاء، وسميت زلفا من الليل، لأن ساعاتهما متقاربة، فما بين المغرب والعشاء متقارب إلى حد اختلاط زمنهما، والاختلاف فى حد ما بينهما، وهما بإجماع العلماء صلاة العشى.

وإن تعيين الآيات تقارب أو يتعين اتحادها فى هذه الآية، وآية الروم، ولا شك أن إقامة الصلوات الخمس مستوفيات أركانها الظاهرة والباطنة، والاستمرار عليها يطهر النفس من أرجاسها، ويمحو تلك المعاصى التى يغبر بها القلب، ولقد قال ﷺ فيما رواه مسلم: «**الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن، إذا اجتنبت الكبائر**»(١).

وذكر شرط اجتناب الكبائر؛ لأنه لا يمكن أداء هذه العبادات على وجهها، مجتمعا مع الكبائر قط، إذ لا يجتمع فى قلب مؤمن عبادة أديت على وجهها، وارتكاب كبيرة، ولقد أثر عن النبى ﷺ أنه قال: «**لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن**»(٢).

ولذا قال تعالى بعد الأمر بإقامة الصلاة فى وقتها: ﴿**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**﴾ لأن الحسنات نور يدخل القلب فيزيل غمته، وهى طهارة ترحض ما فى النفس من أدران الشر، وأخباثه.

ولقد قال النبى ﷺ: «**الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار**»(٣).

وإن الصلوات الخمس ـ إن أقيمت على وجهها ـ أشد العبادات محاربة للعاصى، ولذا قال تعالى: ﴿... **إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ** (٤٥)﴾ [العنكبوت] وإن توزيعها فى أوقاتها جلاء

---

(١) رواه مسلم: الطهارة ـ الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة (٢٣٣) عن أبى هريرة رضى الله عنه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) سبق تخريجه.

النفوس، فإنه إذا أقبل الفجر، وأصبح الصباح أدى صلاة الصبح، فتجلو صدأ النفس ويستقبل الحياة بقلب سليم، فيعمل فى الحياة طاهرًا حتى إذا ابتدأت النفس تصدأ بالاحتكاك بالناس جاءت صلاة الظهر، فأزالت ذلك الصدأ، ثم من بعد ذلك العصر، وزلف الليل المغرب والعشاء .

ولقد روى البخارى عن ابن مسعود أن رجلا أصاب من امرأة قبلة فأتى النبى ﷺ فأخبره، فأنزل الله تعالى قوله تعالى: ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** ﴾(١) .

ولقد قال تعالى: ﴿ **ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ** ﴾ الإشارة إلى القيام بالفرائض الخمس، وقال المفسرون: إنه إشارة إلى القرآن، وكانت الإشارة إلى البعيد لعلو منزلته، ورفعة مكانته، وبعد شأوه، ولا مانع فيما نرى أنها للقيام إلى الصلوات الخمس، لهذه المعانى أيضا، والمشار إليه مذكورا.

والذكرى التذكر الدائم الباقى المستمر، ولا شك أن أداء الصلوات الخمس فى مواقيتها على الوجه الكامل يجعل نفس المؤمن فى ذكر دائم لله، ولذا ختم الله تعالى آية الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر بقوله تعالى: ﴿ ... **وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ** ... (٤٥) ﴾ [العنكبوت].

وإن العبادات أداؤها على الوجه الأكمل الذى أشرنا إليه يحتاج إلى صبر وضبط النفس، ولذا قال تعالى: ﴿ **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ** (٤٥) ﴾ [البقرة]، ولذا قرن الأمر بإقامة الصلاة، بالأمر بالصبر، فقال تعالى: ﴿ **وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** (١١٥) ﴾ .

الأمر فى هذه الآية وما قبلها للنبى ﷺ ابتداء، ولمن يتبعه من المؤمنين انتهاء، وهنا ملاحظة بيانية، تليق بالقرآن الكريم المعجزة الكبرى فى بيانه، وكل شئونه .

---

(١) رواه البخارى: مواقيت الصلاة ـ الصلاة كفارة (٥٢٦)، ومسلم: التوبة (٢٧٦٣).

هذه الملاحظة هى أنه فى المطالب الإيجابية يكون الخطاب فى هذه الآيات للنبى ﷺ ابتداء، ويكون لأمته بالتبع، ولكن فى هذه الآيات نجد النهى متجها ابتداء إلى الجماعة الإسلامية، فقال تعالى: ﴿**وَلا تَطْغَوْا**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا**﴾؛ لأنه لا نهى إلا حيث يتصور وقوع النهى عنه، ولا يمكن أن يتصور من النبى ﷺ طغيان، أو ركون إلى الظالمين.

والصبر ضبط النفس عند وقوع ما لا يرغب، أو ما يرغب، فالصبر على النعمة، لا يفرح بها فلا يبطرها بل يشكرها، والصبر على وقوع ما لا يرغب بأن تنزل به شديدة فإنه يكون بألا يفزع ولا يهلع، فيضطرب تفكيره، ويطيش ولا يتدبر الأمر فى رفق، وثبات جأش، واطمئنان قلب.

وبين الله تعالى أن الصبر من إحسان المحسنين فقال تعالت كلماته: ﴿**وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ أى الذين يعملون العمل الصالح، ويحسنونه، ويداومون عليه بالصبر، ولا يجزعون لحرمان أو شدة، ولا يأشرون ويبطرون إن اختبرهم الله تعالى.

الفساد يعم بسكوت الأخيار

قال تعالى:

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾

وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)

قال تعالى فى بيان ما يصلح الأمة: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)﴾ [آل عمران]، إن الجماعة إذا كان فيها من يدعو إلى الخير، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر جعلها فضلاؤها، كلها فاضلة، ولقد بين سبحانه وتعالى أن سبب فساد السابقين الذين أصابهم الله تعالى بالهلاك هو أن أهل الفضل لم يدعو إليه ولو أنهم دعوا ما استجابوا لهم، فقال: ﴿فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ﴾، ﴿بَقِيَّةٍ﴾ معناها العقل والفضل، والخلق المستقيم، و(لولا) إما أن نقول إنها شرطية حرف امتناع لوجود، وجوابها محذوف تقديره مثلا لاستقامت أمورهم ولاستجابوا لدعوة الحق إذا دعوا إليها.

أو نقول إن (لولا) بمعنى (هلا) للتحريض على أن يكون منهم فضلاء لنجاتهم، ولكن كيف يقال إن ثمة تحريضا، وقد مضوا بما كان منهم، والتحريض للحاضرين لا للغابرين، والجواب عن ذلك أن القصة الصادقة تصورهم حاضرين ويكون التحريض لهم على التصوير، وللقائمين ليتعظوا ويعتبروا. وإطلاق كلمة البقية على الفضل إطلاق فى اللغة العربية حلله الزمخشرى بقوله رضى الله عنه:

﴿أُولُوا بَقِيَّةٍ﴾ أولو فضل وخير، وسمى الفضل، والجودة بقية؛ لأن الرجل يستبقى مما يخرجه أجوده وأفضله، فصار مثلا، فى الجودة والفضل، ويقال فلان من بقية القوم، أى من خيارهم، وبه فسر بيت الحماسة:

«أن تزينوا ثم يأتينى بقيتكم. . . .

ومن قولهم فى الزوايا حنايا، وفى الرجال بقايا».

وهكذا نجد الزمخشرى اللغوى البليغ يرد أصل الاستعمال القرآن إلى معناه السليم الدقيق العميق، وإن الكلام الكريم فوق كل كلام.

وخلاصة ما يرمى إليه النص أن الأمم إنما تسير فى طريق الهلاك، إذا سكت عقلاؤها عن النطق بالحق فى إبانه، فما كفر مشركو قريش إلا لأنه لم يكن من رشدائهم من يقاوم أمثال أبى لهب وأبى جهل والوليد بن المغيرة وغيرهم فى طغيانهم وظلمهم.

ولذا قال تعالى فى عمل أولى البقية لو صلحوا: ﴿**يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ**﴾ من فشو الأراذل، كما فشا فى قوم لوط، ومن تطفيف الكيل والميزان كما فشا فى قوم شعيب، ومن الشرك فيهم جميعا، حتى لقد كانوا يعبدون الأحجار ولا يوجد فيهم من يبين أنها لا تضر ولا تنفع، ولما جاءهم الرسل، سكت أولو البقية، ولم يرشدوا، ولم ينادوا بالحق، منكر، نسكت من يُنتظر منهم قول فاضل، وتكلم المستهزءون من الحق والساخرون.

وقال تعالى: ﴿**إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ**﴾ (من) الأولى بيانية، و(من) فى (منهم) تبعيضية، والاستثناء قال المفسرون البلاغيون: إن الاستثناء منقطع بمعنى لكن، أى لكن قليلا منهم ممن أنجيناهم منهم قد استقاموا على الطريقة، واتبعوا سبيل الرشاد.

ولا مانع أن يكون الاستثناء متصلا غير منقطع، ويكون المعنى فلولا كان من القرون أولو بقية، أى ما كان من القرون قبلكم أولو فضل إلا الذين قليلا أنجيناهم منهم، ويكون فى النص قصر الفضل على الذين اتبعوا الأنبياء، وأرى أن هذا أقرب، وعليه يكون الذين بعث فيهم النبيون قسم تبعهم، وأنجاهم الله، وهم عدد قليل، وقسم عصوا أمر ربهم، وهم الظالمون، وقد بين سبحانه أمرهم فقال عز من قائل: ﴿**وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ**﴾.

أى أن الفريق الظالم اتبع ما أترفوا فيه أى اتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه من الهوى والشهوات بكل أنواعها شهوة السلطان والجاه، وشهوة الاقتراب من الحكام، والازدلاف إليهم، وشهوة التحكم فى الضعفاء، وشهوة الأثرة، وفى الجملة الترف كل ما يتنعم به من مادة، ومن أمور أخرى.

والترف والأثرة متلازمان، فحيثما كان الترف كانت الأثرة؛ لأن من يطلب النعم لا يهمه إن كان من طيب أم كان من خبيث، وأكان باعتداء أم كان من غير اعتداء.

وإن المترفين الأثرين هم دعاة الشر دائما، ويقول تعالى: ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦)** ﴾ [الإسراء].

وقوله تعالى: ﴿ **وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ** ﴾ فيه أمور ثلاثة:

الأمر الأول: اتبع أى طلبوه، وساروا وراء الترف لا يلوون عنه.

الأمر الثانى: ذكر أنهم ظلموا، أى تجاوزوا الحد، واعتدوا، ودفعهم ظلمهم إلى هذا الاتباع.

الأمر الثالث: أنهم اتبعوا الترف وشهوات الترف، فهذا كقوله اتبعوا الشهوات.

ولقد وصفهم ـ سبحانه وتعالى ـ مسجلا عليهم الإجرام، والآثام، فقال: ﴿ **وَكَانُوا مُجْرِمِينَ** ﴾ أى استمروا فى ماضيهم متجمعين على الإجرام، حتى صار الإجرام وصفا ملازما لهم.

وإن هذا الإجرام، والسكوت عن النهى على الفساد، وترك الأشرار يرتعون، وترك الظالمين يترفون يجعل الأمة كلها فاسدة وظالمة، وبذلك تهلك، ولذا قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧)﴾.

الظلم ذكر بعض العلماء أنه الشرك لقوله تعالى حاكيا عن لقمان: ﴿...إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان]. وإنه ظلم بلا ريب فيه، ويكون المعنى على هذا: وما كان الله يهلك القرى بشركها، وأهلها مصلحون فيما بينهم يتعاونون، ويقيم الحق فى معاملاتهم حتى لقد قال بعضهم إن الشرك مع إقامة العدل لا يهلك، والإيمان مع ظلم التعامل يهلك الأمم.

وقال بعض المفسرين: إن المراد والظاهر أنه مراد، أنه ما كان ربك ليهلك القرى ظالما لها، وأهلها مصلحون يعدلون فيما بينهم، ولا يشركون بالله ولا يكون منهم ظلم بل نصفة وعدل، فما كان الله ظالما لعباده.

وعندى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ﴾ بظلمها، وأهلها متعاونون، صالحون للبقاء، والظلم أعم من الشرك، والاعتداء فى المعاملات، والفساد، والتخريب، وقطع ما أمر الله تعالى به أن يوصل.

و﴿مَا﴾ هنا نافية، و(اللام) لتأكيد النفى، ولذا تسمى عند النحويين لام الجحود، والمعنى ما صح وما استقام لربك الذى خلقك وقام على تدبير أمرك أن يهلك القرى بظلم يقع فيها، وأهلها مصلحون، متعاونون فى الإصلاح كما أشرنا، وفاضلهم ينصح أرذلهم، والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر قائمون بواجبهم، قد ابتغوا الغاية السامية، وهى نشر الفضيلة، ومحاربة الرذيلة، قائمين بالقسط شهداء الله.

ولقد روى الترمذى حديثا فى هذا المعنى: «**إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه**»[1].

---

(١) رواه الترمذى: الفتن - نزول العذاب إذا لم يغير المنكر (٢١٦٨)، كما رواه أحمد فى مسند أبى بكر الصديق (٣٠)، وأبو داود فى الملاحم (٤٣٣٨)، وابن ماجه فى الفتن (٤٠٠٥).

وإنه قد حق على المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها الهلاك الذى نزل بها، لأن الظالم يظلم، ويجد الكثرة الكاثرة تؤيده، وتنصره على المظلومين، وتصفه بالحكمة والعدل والعبقرية، حتى اختلطت على الناس الألفاظ والحقائق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

وإن إرادة الله تعالى تعلقت بتنازع الخير مع الشر، من وقت أن هبط آدم وإبليس إلى هذه الأرض وقال: ﴿... اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ... (٣٦)﴾ [البقرة] يتنازع الخير والشر، فى نفس كل إنسان، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠)﴾ [البلد] حتى إن كف النفس عن الشر يعد جهادا، يثاب عليه، ويتنازع الآحاد بعضهم مع بعض، وتتنازع الجماعات وتتحارب الدول، وتلك إرادة الله، ولو شاء لخلقهم على منزع واحد، ولا تكون الحياة معتركا للخير والشر يتنازعان.

ولذا قال تعالى:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨)﴾.

﴿لَوْ﴾ هنا حرف امتناع لامتناع. امتناع الجواب لامتناع الشر، أى لو شاء ربك الذى خلقك وذرأك وكونك على أحسن تقويم أن يجعل الناس أمة واحدة، جماعة واحدة متحدة فى هدايتها وتقواها لجعلها كذلك، وما كان التنازع بين الخير والشر، والعدل والظلم، والفضيلة والرذيلة، والرزق والحرمان، والغنى والفقر إلا بإرادته، بين - سبحانه وتعالى - أن ذلك الاختلاف دائم مستمر، فقال تعالى: ﴿وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ فيما بينهم فى نفوسهم، وفى آحادهم، وفى جماعاتهم، وفى أممهم.

وإن الاختلاف على ذلك ابتلاء واختبار، ليبلو الناس فيما، فمن أراد الخير انتزعه من وسط الشر انتزاعا فيكون به الثواب الجزيل، ومن أراد الشر سار فيه، وأعلام الخير واضحة معلمة، تدعوه إلى سلوكه، فإن ضل فعن بينة، والله من

ورائه محيط، ويكون الجزاء لمن ضل عن سبيله جزاء وفاقا لما جنى على نفسه، وعلى الحق ثم يقول سبحانه:

﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾.

الضمير في ﴿ خَلَقَهُمْ ﴾ يصح أن يعود إلى الناس، ويكون الاستثناء في قوله: ﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ ﴾ استثناء من الاختلاف ويكون المعنى ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة في الهداية والتقوى والفضيلة، ولكنه لم يشأ ذلك إلا في الذين رحمهم، وتكون (اللام) للتعليل، أي أن الله تعالى خلق الناس متنازعين في الخير والشر، ولا يهتدي إلى الخير إلا الخلصاء الأطهار، ولذلك خلق الناس مختلفين لتبين الصفوة، ولتصل إلى الخير في وسط أشواك من الباطل فيكون لهم فضل الجهاد في الوصول إلى الحق.

ويصح أن يعود الضمير إلى قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ مَن رَّحِمَ ﴾ أي المستثنى ويكون المعنى كالأول في نتيجته، وغايته أي أن الله تعالى خلق الناس مختلفين متعاركين يخلص الصفوة المرضية، ولأجل تلك الصفوة، والمؤدى في التخريجين أن الله تعالى خلق الناس كذلك ليميز الله الخبيث من الطيب، كما قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ... (١٧٩) ﴾ [آل عمران].

وإن القلة التي يرحمها الله بالإيمان، والكثرة هي تكون في النار، ولذا قال تعالى:

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾.

أشار سبحانه وتعالى إلى الذين رحمهم الله تعالى، وفي هذا النص يذكر الذين عصوا أمر ربهم، والرحمة بهم ليست من عدل الله، لأنهم لم يرحموا أنفسهم، ومن لا يَرحم لا يُرحم، فقال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾.

وتمام الكلمة إحكامها بحيث لا تتغير، ولا تتبدل، ولا تتخلف، وكلمة الله تعالى هى أمره الذى ظهر فى قوله. وفى الكلام قسم مطوى دلت عليه اللام فى ﴿لأَمْلأَنَّ﴾ فهى لام القسم، ونون التوكيد ملازمة للقسم فهى أيضا دالة عليه، وقوله تعالى: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿مِنَ﴾ هنا لبيان من يملأ منهم، و﴿الْجِنَّةِ﴾ الكلام على تقدير العصاة أى من عصاة الجن، وعصاة الإنس، والجن عبر عنهم بالجنة، والإنس عبر عنهم بالناس كما فى قوله تعالى: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦﴾ [الناس].

وقدر عصاة لأمرين:

الأمر الأول: أن الجزاء بجهنم كما فى عرف القرآن، وكما هو العقل - يكون للعصاة.

الأمر الثانى: أن الناس مختلفون، فذكر الله تعالى أهل الطاعة، وتفضل عليهم برحمته، فقال فيما سلف ﴿إِلاَّ مَن رَّحِمَ﴾ والمخالفون لهم هم العصاة، وكان بمقتضى التقسيم أن تكون لهم جهنم، وقد تأكد أنهم يملأونها.

وعلى ذلك تكون كلمة ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيد، بأن العصاة كلهم سيدخلون جهنم، وتمتلئ بهم لا يفر منها جبار، ولا نافخ نار.

وإذا أريد جنس الجنة، وجنس النار يكون الظاهر، أنه لا ينجو من أحد الجنسين أحد، ويكون التأكيد لبيان أنه يستوى الجنسان ، فى ألا يغادرها أحد، كما تقول ملأنا الحقيبة من أوراق امتحان الشريعة، والمدنى والجنائى، جميعا، أى فيها الأصناف جميعا غير متخلف بها صنف من هذه الأصناف.

ولا شك أن التقدير الأول أظهر وأبين، وسياق القول يقتضيه، ولقد روى فى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**اختصمت الجنة والنار، فقالت الجنة: مالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس. وقالت النار أوثرت بالمتكبرين**

والمتجبرين، فقال الله تعالى للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء، وقال للنار: أنت عذابي أنتقم بك ممن أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها، فأما الجنة: فلا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله خلقا يملأ فضل الجنة، وأما النار فلا تزال تقول: هل من مزيد، حتى يضع عليها رب العزة قدمه فتقول قط قط»(١)، والله أعلم.

القصص لتثبيت النبي ووعظ المؤمنين

قال تعالى:

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ﴾ التنوين في ﴿كُلاًّ﴾ عوض عن مضاف إليه محذوف يقدر بما يتناسب مع ما يجيء بعده، و﴿كُلاًّ﴾ منصوب بقوله تعالى: ﴿نَّقُصُّ﴾ والتقدير على ذلك، وكل نبأ أو كل خبر، أو كل قصص، نقصه عليك متى نخبرك به متتبعين خفاياه، كما يتتبع قاص الأثر الآثار.

---

(١) رواه البخاري: التوحيد: ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف] (٧٤٤٩)، وتكرر ثلاث مرات بنحو من هذا، كما رواه مسلم: الجنة وصفة نعيمها ـ النار يدخلها المتكبرون (٢٨٤٧)، بلفظ: «تحاجت الجنة والنار»، وفيه: «فأما الجنة فينشئ الله لها خلقا».

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ﴾ أى أخبارهم ذات الشأن كدعوتهم إلى التوحيد، ورد أقوامهم، ومعاندتهم، ثم نزول الهلاك بهم، بعد أن استيئس الرسل، ووقع فى نفوسهم أنهم كذبوا، ولا علاج فى رشدهم، وإقرار الله تعالى لما آل إليه أمر هؤلاء المكذبين كقوله لنوح: ﴿...أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ ... (٣٦)﴾ وذكر الله تعالى، ثمرة هذا القصص الذى يقصه تعالى من أنباء المرسلين، فقال عز من قائل:

﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فكأن الثمرات لهذا القصص الصادق ثلاث:

الأولى: تثبيت فؤاد النبى ﷺ إزاء إنكار المشركين وإيذائهم للنبى عليه الصلاة والسلام ومن معه من المؤمنين فإن أولئك الرسل أوذوا كما أوذى، وكانت الباقية لهم وللمتقين فليطمئن النبى عليه الصلاة والسلام إلى العاقبة، ولا يغرنك تقلبهم فى البلاد فالعاقبة لك ولأصحابك، ومعنى تثبيت فؤاد النبى ﷺ زيادة تثبيته بأنه لم يكن بدعا من الرسل، وإذا كان الله تعالى قد عذب أقوام الأنبياء الصادقين بالعذاب الذى يجتث من فوق الأرض العصاة، فإنه سيعذب قومك بأمر إرادى كذلك لينتفى الظالمون، فيحصدون بالسيف، ويبقى غيرهم ممن يرجى أن يكون منهم أو من أصلابهم من يعبد الله.

الثانية: الموعظة، وهى الاتعاظ بمن أنزل الله تعالى عليهم العذاب، والاتعاظ طريق الإيمان، ومن لم يتعظ بغيره، فالبلاء فى نفسه شديد، وهذا الاتعاظ للمؤمنين أى الذين فى قلوبهم اتجاه إلى الإيمان.

الثالثة: الذكرى، أى التذكر الدائم المستمر لما نزل بالأقوام الظالمة.

وهذه أيضا للمؤمنين والذين يتجهون بقلب مدرك للإيمان، هذه ثمرات القصص.

وقد ذكر الله تعالى بعد تثبيت قلب النبى ﷺ، وقبل موعظة المؤمنين، ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ مؤكدا أن هذه الإيتاء هو الحق الكامل الذى لا حق فوقه لأنه ثابت صادق، وفيه التثبيت والموعظة، والتذكر الدائم، وقد أكد سبحانه وتعالى أنه الحق بـ (ال) التى تدل على أنه كمال الحق لا ريب فيه ﴿فِي هَذِهِ﴾ أكثر المفسرين على أن الإشارة إلى السورة، لأنها اشتملت على قصص مفصل لبعض الأنبياء.

وروى عن قتادة أن الإشارة إلى الدنيا، والله أعلم.

بعد ذلك أمر الله تعالى نبيه أن ينبه المشركين إلى هذا القصص الصادق، وفى هذا التنبيه تهديد لهم فقال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١)﴾.

المكانة الحال، وما تمكنوا منه، والأمر للتهديد، كما تقول لمن يفعل الشر، افعل ما يبدو لك، وكما قال ﷺ: «**إن مما أدركه الناس من أقوال النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت**»(١)، وكما فى قوله تعالى: ﴿... اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ... (٤٠)﴾ [فصلت].

فالأمر للتهديد، وعبر الله تعالى عن المشركين بقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ بفعل المضارع، أى ليس عن طبيعتهم، وكيانهم أن يؤمنوا، فالكافر الجاحد تنحلّ عقدة الإيمان فى قلبه، فلا ينعقد قلبه على إيمان، بل هو جاحد مضطرب الفكر والنفس والقلب تأسره الأهواء المتنازعة، ويسير مع أشدها انحرافا، وأقواها استهواء ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾، أى على حالكم التى أنتم عليها من الغى والضلال، والاستكثار من الأموال، والأهواء والشهوات، وكل ما تمكنون منه من أهواء وشهوات ومفاسد، وبيّن أن المؤمنين والنبى عاملون فقال: ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾ أى مستمرون فى حالنا من إيمان، وإذعان للحق، وصبر على آذاكم

---

(١) سبق تخريجه.

والعاقبة ليست واحدة، فأنتم إلى طريق النار، وغضب الله، ونحن إلى طريق رضا الله، ولكم عبرة ممن مضوا، وقد علمتم قصصهم، ثم أكد ـ سبحانه وتعالى ـ التهديد، والبشرى للمؤمنين، فقال: ﴿وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٢٢)﴾ أى انتظروا بقية أعمالكم، وعواقب فسادكم وجحودكم، وما استهواكم من مفاسد، و﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ ما نرجو من رحمته ورضوانه، وجزاء وفاقا لأعمالنا.

وهذه مقابلة بين الحق والباطل، وسوءى الباطل، وحسنى العاقبة فى الحق والله بكل شىء عليم.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)﴾.

سورة يوسف

تمهيد:

سورة يوسف سورة مكية، وعدد آياتها إحدى عشرة ومائة، وقالوا: إن أربع آيات هى الأولى والثانية والثالثة والسابعة مدنية، ولا نرى فيها ما يدل معناها على أنها مدنية، والله أعلم.

ولقد كفرت طائفة من الطوائف الخارجة عن الإسلام بإنكارها سورة يوسف، وادعاء أنها ليست من القرآن، وكأن القرآن يخضع بالزيادة والنقصان للأهواء المنحرفة، وإن ادعت التمسك بالدين، فهى تمرق منه مروق السهم من الرمية، وأولئك هم أتباع عبد الكريم عجرو، وإن القرآن كله غير منقوص ثبت بالتواتر عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وأنه تلقاه عن جبريل الرسول الأمين عن رب العالمين مرتلا متلواً، كما قال تعالى: ﴿ ... وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) ﴾ [الفرقان].

وما كان لنا أن نعرف ما دفعهم إلى هذا الإنكار الذى كفروا بسببه، ولكن نذكره لبيان أنه وهم كافرين لم يذوقوا القرآن ولم يعلموه، قالوا إنها قصة غرام، ونزلت دفعة واحدة، والقرآن منزه عن ذكر الغرام والحب، والقرآن نزل منجما، ونقول فى الإجابة عن ذلك، إنها قصة المجتمع المصرى، والأسرة الفرعونية التى طغت فى البلاد وأكثرت فيها الفساد، وقال قائلهم: ﴿ ... أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ (٢٤) ﴾ [النازعات]، وبيته على هذا النحو من الانحلال، وهى بينت مغبة الغرام، وكيف يوجد الانحلال، والاستعصام بالفضيلة حيث تفور فورة الرذيلة، ودعوة الوحدانية فى وسط الوثنية، وتدبير الاقتصاد، واستعانة الفراعنة بخبراء الاقتصاد حيثما كانوا، وخضوعهم لآرائهم، وتوسيد الأمر لهم، ثم هى تبين مركز مصر

الاقتصادى، واستعانة من حولها بها، ثم تثبت نفسية الآباء مع الأبناء، والحسد بين الإخوة، وما ينبغى عند تربية الأولاد.

وإن ما سموه الغرام المنحرف لم يكن إلا فى جزء صغير منها، ولم يستغرقه، بل ترددت عباراته، وقد ابتدأته بـ ﴿ **وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ ... (٢٣)** ﴾، وانتهت بدخوله السجن، وهى ثمانى آيات، فيها الغرام من جانبها والاستعصام من جانبه، وباقى السورة حكمة واقتصاد وتدبير، وتعاون، ومشقة وصبر، ثم لقاء الأحباب على مائدة المودة والأُخُوة الودود.

فكيف تسمَّى سورة غرام إلا ممن انحرف عقله انحرافا منعه من استيعاب السورة.

وإن القرآن لم ينزل كله منجما، فأول سورة التوبة نزل دفعة واحدة، وأكثر سورة الأنعام نزل دفعة واحدة وسورة إبراهيم أكثرها نزل دفعة واحدة.

وإذا كان ممن تسموا باسم من الخوارج من قال هذا القول، فقد كان منهم أيضا، من أجاز نكاح البنات والأمهات والمجوس، وهم - بلا شك - كافرون كإخوانهم.

ونقول: إن أكثرهم كان مؤمنا منحرف العقل، ورضى الله عن على بن أبى طالب إذ قاتلهم، وقتل منهم مقتلة كبيرة، فقد قال بعد ذلك القتال: (لا تقاتلوهم بعدى، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأصابه).

إن القصص الذى فى هود وغيرها، كان فى الأرض العربية، ولم يكن فيها من غير البلاد العربية، إلا قصة موسى عليه السلام، وقد ذكر فيها طغيان فرعون، وخضوع أهل مصر له، فى نفوسهم، وأفكارهم، وعقولهم حتى ساغ له أن يقول: ﴿ **... مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩)** ﴾ [غافر]، أما قصة يوسف عليه السلام فإنها تناولت ناحية اجتماعية، تعرضت للأسرة، وما يجرى فى داخل القصور، وتعرضت للمجتمع المصرى، وانحراف نساء الطبقة التى

تسمى راقية، ثم تعرضت للاقتصاد فى مصر، وكيف كان يدبره إلى آخر ما جاء فى السورة الكريمة، ثم صوّرت لقاء الأحبة بعد أن فرق الحسد فيما بينهم.

الحسد بين الإخوة فى سورة يوسف

إذا كان الحسد بين ابنى آدم قد حمل أحد الأخوين على أن تطوع له نفسه قتل أخيه، فقتله، فالحسد بين يوسف وإخوته على أن يحاولوا أن يلقوه فى غيابة الجب.

رأى يوسف رؤيا صادقة، وهو غلام، قال يوسف لأبيه ﴿ ... **يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ** (٤) ﴾ فهم يعقوب الأب الحبيب الذى يؤثر يوسف على إخوته باختصاص بمحبة أكثر لصغره، ومنها أن ليوسف منزلة عند الله فوق منزلة إخوته، فقال له: ﴿ ... **لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** (٥) ﴾.

ولقد أخبره باصطفاء ربه له، وتعليمه من تأويل الأحاديث، ما قد يثير إخوته.

﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ** (٧) ﴾، أى دلائل تبين حكمة الله تعالى فى الخلق والتكوين، وطبائع النفوس، وطغيان الحسد على المحبة الأخوية والمودة الواصلة، وإن تسعة أعشار الجرائم أو كلها سببها الحسد، فإذا اقتلع من النفوس اقتلع أكثر الأخباث النفسية. و﴿ **لِّلسَّائِلِينَ** ﴾ أى الباحثين الدارسين لطبائع النفوس.

ابتدأ التدبير السيئ بقولهم: ﴿ ... **لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** (٨) **اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ** (٩) **قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ** ... (١٠) ﴾، لم ينفذوا القتل، أو لم يريدوه، وذلك للمشورة، فكان منهم

من لم يرد القتل المباشر، بل أراد القتل البطيء، أو الموت المحتمل وذلك حين تكون الحياة أقرب من الموت، ولذا قال: ﴿ ... يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ... (١٠) ﴾.

التنفيذ

ذهبوا إلى أبيهم، و﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) ﴾ محبون مخلصون، ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) ﴾.

عندئذ قال يعقوب ما يدل على توجسه خيفة على ولده الحبيب العزيز، وفرطت من الرجل الطاهر نبى الله كلمة اتخذوها ذريعة لستر جريمتهم، قال لهم: ﴿ ... إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) ﴾.

لقد ذكر أنه يخاف أن يأكله الذئب، فى غفلتهم، فلقنهم ما يستر إجرامهم، قالوا وقد وجدوا الحجة وأخفوها فى أنفسهم، ﴿ ... لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ (١٤) ﴾.

ذهبوا به واجتمعوا أن يلقوه فى غيابة الجب ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٥) ﴾، وقد ألقى الله تعالى فى روع يوسف الغلام الحبيب أنه سيعلو عليهم، وسينبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون.

بعد أن ألقوه فى الجب ﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) ﴾.

وهكذا ترى أن الأب الشفيق الكريم قال إنى أخاف أن يأكله الذئب، فقالوا ساترين جريمتهم أكله الذئب، ونبى الله تعالى لم يصدق أبناءه، بل قال بعد أن جاءوا على قميصه بدم كذب: ﴿ ... قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨) ﴾.

استراح إخوة يوسف، أو توهموا أنهم استراحوا، وعشى على قلوبهم الحسد البغيض فلم يدركوا ما صنعوا وبقيت لوعة الشيخ أبيهم تترقب ابنه، ولم يذهب عنه الأمل فى لقائه، ولم ييئس ﴿ ...إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) ﴾.

ولننظر فى قصة القرآن عما جرى ليوسف، وقد ألهمه الله تعالى الاطمئنان، جاءت قافلة تسير فأرسلوا واردهم يتعرف أماكن الماء، فوجد الجب، فألقى دلوه، فلم يخرج الماء، ولكن خرج ما هو أطهر فاستبشر، و﴿ ...قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلامٌ ... (١٩) ﴾، وأسروه على أنه بضاعة، ولأنها بضاعة جاءت من غير ثمن، باعوه بثمن بخس دراهم معدودة، ولم يكونوا راغبين فى اقتناء هذه البضاعة بل كانوا فيه من الزاهدين.

وإذا كان قد استقبل شقوة الحسد، فقد استقبل بعد ذلك بالبشر والحبور، ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ... (٢١) ﴾، وكذلك أشرق النور فى وسط الظلمة.

وبذلك مكن الله تعالى ليوسف، وألهمه الله تعالى تأويل الأحاديث التى تتحدث بها النفس فى منامها، ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) ﴾.

ولكن النفس الصبور يصقلها الله تعالى بالشدة، وإذا كانت الشدة التى استقبلته أولا كانت تتعلق بحياته أو موته، فالشدة الثانية أخطر على نفس الصديق يوسف.

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ ... (٢٣) ﴾، أى أرادته لنفسها، وحاولت أن تخرجه من نفسه الطاهرة الصافية، ﴿ ... وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ... (٢٤) ﴾ فى وقت هذه المحنة النفسية رأى نور الحق الذى يعصم نفسه، فبقى

نقيا طاهرا، وصرف عنه السوء والفحشاء، إنه من عباد الله الصالحين، واستبقا بعد ذلك إلى الباب هو يفر هاربا، وهى تمنعه وتجذبه إليها، وفى هذه المسابقة قَدَّت قميصه من ورائه؛ لأنها تجرى وراءه لتشده إليها مانعة له من الخروج.

ولكنهما وجدا سيدها لدى الباب، وببداهة المرأة التى تفجر ألقت التهمة على يوسف، و﴿ ...قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) ﴾.

فبرَّأ يوسف نفسه عن التهمة، وقال الصدق: ﴿ ...هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ... (٢٦) ﴾.

اتهمته كاذبة، واتهمها صادقا، فلم يندفع العزيز، واحتكم، فحكم حكَمٌ من أهلها: ﴿ ...إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) ﴾ فألفيا قميصه قُدّ من دبر، وبذلك تبين كذبها، وصدقه.

اطمأن زوجها إلى براءة يوسف، وقال: ﴿ ...إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) ﴾.

وإن أخبار القصور تشيع وتنتشر، وقد كانت قصة المراودة بين زوج العزيز، ويوسف، وزوجها وبعض ذوى قرباها، ولا ندرى كم كان عددهم، والخبر إذا خرج عن اثنين شاع، والناس دائما فى شوق إلى ما يجرى داخل القصور، وينشر دائما ما فيه غرابة.

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ... (٣٠) ﴾ فأقامت لهن وليمة ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) ﴾.

ومع تصميمها على المراودة، كان تصميم يوسف على الطهر، والدفع، ورضى بالسجن عن هذه المعصية و﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ... (٣٤)﴾.

كان الخبر يشيع، وقد رأى العزيز وملؤه الآيات الدالة على براءة يوسف، وأنه كان فريسة المراودة ولم يكن فاعلها. وقد رأوا حسما للشائعات حبسه ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥)﴾ أى حتى تمر مدة تهدأ فيها عواصف الشائعات.

دخل السجن، ومعه فتيان، استأنسا به، وفاضت نفوسهما إليه، ورأى كل منهما رؤيا، فقال أحدهما يقص رؤياه: ﴿...إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦)﴾ أجابهما، ﴿قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨)﴾ ابتدأ بالدعوة إلى التوحيد، وهو رسالة النبيين، ومعه دليلها، وهو تعليم الله تعالى له، أنه ينبئهم بما يأكلون، كما علم عيسى من بعده، ثم أوَّل رؤياهما فقال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١)﴾.

ويظهر أنه أُهمل أمره، فأراد أن يذكر العزيز به: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢)﴾.

رأى الملك رؤيا فتذكر الناسى، ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ (٤٤)﴾.

وهكذا شأن أتباع الملوك، لا يتذكرون واجبا إلا لإرضاء صاحب السلطان فادّكر بعد فترة طويلة ساقى الخمر للملك ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا ... (٤٥)﴾ وادّكر بعد أمة ﴿... أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥)﴾ ذهب إلى السجن، وقابل السجين الطاهر المؤمن النبى، فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦)﴾.

قال الصدّيق الطاهر، الذى علمه ربه: ﴿...تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩)﴾ أى يحلبون، ويعصرون فالعصير من الثمار.

علم الملك الذى أوّلت له الرؤيا، ولعله نسى المراودة وأمرها كشأن حكام مصر من الأزل، ينسون من يحسن إليهم ولا يذكرونه، وأى إحسان أعظم من أن يكرم شرفه وعرضه.

قال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى، ولكن يوسف الصديق الطاهر لا يذهب إلا وقد ثبتت براءته، فقال للرسول الذى أرسله الملك ﴿...ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠)﴾.

رجع الملك إلى الماضى، وسأل امرأته التى فتنت بالصديق وأسند يوسف الكريم الأمر إلى النسوة، ولم يسنده إلى امرأة الملك.

قال الملك: ﴿... مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ... (٥١)﴾ عندئذ تقدمت امرأة العزيز تعترف بذنبها، وتبرئ يوسف، قالت امرأة العزيز: ﴿... الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ

(٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣) ﴾.

بعد هذه البراءة، وقد تضمنت حياته فى السجن دلائل نبوية، ودعوة إلى التوحيد إذ يقول: ﴿ ...أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) ﴾ كانت حياة جديدة، دعاه الملك واستخلصه لنفسه، وقال: ﴿ ...إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) ﴾، تولى أمر المالية المصرية ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧) ﴾.

كانت مصر فى ذلك الإبَّان وما بعده مُستراد الخير(١)، وبتنظيم نبى الله يوسف، وتمكينه من الملك صارت مقصد الشرق، وجاء إخوة يوسف يمتارون، فعرفهم إذ لم يكن التغيير فيهم كبير، ولم يعرفوه إذ ألقوه فى الجب غلاما، وقد صار رجلا مكتملا، وقد جهزهم، وأعطاهم ما طلبوا، ولكن قال لهم:

﴿ ...ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٥٩) فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) ﴾.

وإنه بهم لشفيق إذ قال لمن معه، ﴿ ... اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢) ﴾ ذهبوا إلى أبيهم وقالوا: ﴿ ... يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) ﴾ فتحوا متاعهم فوجدوا بضاعتهم ردت إليهم، ففرحوا وقالوا ما نبغى شيئا فوق ما سهله لنا.

﴿ ...قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) ﴾.

(١) اسم مكان، والمعنى: مكان استيراد الخير لما حباها الله بها من أنواع الخيرات ووفرتها فى أرضها الغنية.

ولكن الشيخ يعقوب حريص على ولده، ويريد المواثيق عليه ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦)﴾.

ولشفقته على أولاده وخوف العَيْن قال: ﴿... يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ... (٦٧)﴾، ولكنها الشفقة الأبوية دفعته لأن يتصون عليهم.

دخلوا على يوسف، فآوى إليه أخاه، وقال: ﴿...إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩)﴾، ثم جهزهم بجهازهم، وأودع السقاية فى رحل أخيه ﴿...ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢)﴾ زعيم: أى كفيل، قالوا: ﴿...مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ... (٧٥)﴾، أى يكون ملكا.

أخذوا يفحصون أوعيتهم قبل وعاء أخيه، ثم استخرجوها من وعاء أخيه، كذلك كان تدبير الله تعالى ليأخذ أخاه بعد طول افتراق.

ولقد كانت لفتة من عداوة أبناء العلات[1] التى تظهر فى القول لا تزال متمكنة فى قلوبهم ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ (٧٩)﴾.

ندموا وتذكروا موثق أبيهم، وذكرهم به كبيرهم، وقال: ﴿...فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ

---

(١) أبناء العلات: أبناء الضرائر، أى أن الأنبياء يرجعون إلى أب واحد وهو إبراهيم عليه السلام أبى الأنبياء، وإن اختلفت أمهاتهم.

فقُولُوا يا أَبانا إنَّ ابنَكَ سرَقَ وما شَهِدْنَا إلاَّ بمَا علِمْنَا ومَا كُنَّا للْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) واسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا والْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) ﴾ .

قالوا لأبيهم ذلك، ولـكنه أحس بأمر، رشح له ما كان بالنسبة ليوسف من قبل، فقال مثل مقالته الأولى: ﴿ ... بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ... (٨٣) ﴾ وبإلهام النبوة توقع الخير فى وسط هذه الشدة، وقال: ﴿ ... عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) ﴾ .

ذهبوا إلى يوسف طالبين الميرة مرة أخرى، و﴿ ... قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) ﴾ .

اللقاء على المودة والعفو

أعلن يوسف الصديق نفسه لإخوته فقال لهم: ﴿ ... هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَئِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) ﴾، قال كلمة العفو الودود: ﴿ ... لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا ... (٩٣) ﴾، ذهبوا إلى الشيخ الذى ابيضت عيناه من الحزن، فأحس بريح يوسف، وقالوا: إنه أحس من بُعْد ثمانين ميلا، ولا غرابة فى ذلك فهو أبو الأنبياء ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُوا

تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨) ﴾.

وبهذا تنتهى قصة يوسف الصديق الحبيب؛ أُخذ من بين أهله، وأُلقى فى الجب، وانتهى ملكا مصلحا، ونبيا مبشرا ونذيرا، وكان له أثر فى مصر، ذُكر بعده بقرون عندما بعث موسى، فقد قال تعالى على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ... (٣٤) ﴾ [غافر].

التقى الأحباب ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ... (١٠٠) ﴾، أى خضعوا لحكمه كما تخضع الرعية لراعيها العادل، لا أنهم سجدوا له كما كان يسجد للفراعنة، فمعاذ الله أن يكون نبى الله يعقوب ساجدا لغير الله، ومعاذ الله أن يقبل ذلك يوسف نبى الله من أبيه.

أخذ يذكر يوسف أباه برؤياه الأولى، ويذكر له كيف أخرج من السجن بعد أن نزغ الشيطان بينه وبين إخوته ولم يبق إلا أن يحمد الله على ما أوتى من نعمة، ويقول: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ﴾.

العبرة

كانت القصة كلها من الأخبار الغيبية على العرب، وقد كان فيها أخبار عن ناس لم يكن من شأنها أن تكون معلمة، معلنة، إذ هى أخبار أسرة، ﴿ ... وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) ﴾ فتلك أخبار النفوس لا يعلمها إلا علام الغيوب، وتلك معجزة الذى كفروا به.

وإن الكون كله آيات بينات دالة على منشئه الواحد الأحد الفرد الصمد، وإذا كانوا يؤمنون بالله تعالى، فهو إيمان بالقدرة، ووحدانية الخالق المنعم، ولكنهم يعبدون غيره، وهذا قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦) ﴾.

وإنهم يرون آيات الله تعالى تنزل بالمشركين، ﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٠٧)﴾.

وإن الحق ما تدعو إليه، ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨)﴾.

ولقد بين سبحانه وتعالى أنه لم يكن بدعا من الرسل، وأن الرسل قبله كانوا مثله، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠٩)﴾ ويبين للنبى ﷺ أن الرسل كانوا يستيئسون، وفى حال يأسهم يجىء عذاب الله للمشركين ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠)﴾.

الرسل جميعا اعتراهم اليأس إلا محمدا ﷺ، وذلك فضله عليهم أجمعين، بل قال وهو فى أشد ما نزل به وقد فقد الناصر والمواسى: «**إنى لأرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله**»[(١)]، ولقد ختم السورة بقوله تعالت كلماته: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)﴾ صدق الله العظيم.

ما سبق استعراض لمعانى سورة يوسف عليه السلام إجمالا، وما كانت قصة غرام كما افتراه الكاذبون، إنما فيها آفات النفوس فى الأسر، وعلاجها، وفيها علاج المجتمعات التى يصيبها الفقر، وفيها أن الشفقة فى الأسرة هى إدامها، وفيها أن الشيطان ينزغ فى النفوس من الحسد الذى يؤدى إلى أشد الجرائم فظاعة.

---

(١) انظر البخارى: بدء الخلق ـ ذكر الملائكة (٢٩٩٢)، ومسلم: الجهاد والسير ـ ما لقى النبى ﷺ (٣٣٥٢).

معانى السورة الكريمة

قال تعالى:

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا
لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ
بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ
لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ
أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾
قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ
إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ
رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ
وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ
إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦﴾

ابتدأ سبحانه وتعالى هذه السورة بحروف صوتية منفردة، ومهما يحاول العلماء أن يفسروها لا يصلون إلى معانيها وهى ظنون يرددونها وليست معانى يستقيم إدراكها، إنها متشابه اختص الله تعالى بعلمه، وقد آمنا به، كل من عند ربنا، ولا ينبغى تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله.

ونتلمس الحكمة فى نزول هذه الحروف، فما أنزل الله شيئا إلا لحكمة، وما أنزل شيئا عبثا سبحانه، وإنا نتلمس الحكمة فى أمور:

الأمر الأول: أنها حروف مفردة لا يعرفها الأمى، ويعرفها الكاتب، فمجيئها على لسان أمى دليل على إعجاز القرآن الكريم.

الأمر الثاني: أنها تشير إلى الإعجاز، فهى تشير إلى أنه مكون من الحروف التى تتكلمون بها، ولكنه معجز، فهو من جنس كلامكم، ولكنكم لا تستطيعون أن تأتوا بمثله؛ لأنه فوق طاقتكم، وإن كان قريبا لكنه معجزة.

الأمر الثالث: أن كبار المشركين كانوا قد اتفقوا على أن يلغوا إذا سمعوه ليشغلوا أنفسهم، فكان النبى ومن معه من المؤمنين إذا ابتدءوا يقرأون بهذه الحروف الصوتية قطعوا عليهم كفرهم والتفتوا مستمعين ناقضين ما اتفقوا عليه، كما اتفقوا على ألا يذهبوا ويسمعوا، ثم تبين أن المتفقين على المقاطعة، قد اجتمعوا ليسمعوا.

ولذا يذكر القرآن أمر الكتاب بعد هذه الحروف فى كثير من السور التى ابتدئت بها، والله أعلم.

﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا** ﴾، الضمير يعود على القرآن الذى تشير إليه هذه الحروف، حتى قيل: إنها اسم للسور التى تصدرتها ﴿ **قُرْآنًا عَرَبِيًّا** ﴾ أى أنزلناه كتابا يقرأ عربيا، وليس أعجميا، فهو قرآن عربى، وليس بأعجمى، وهذا النص يدل على أمرين:

الأمر الأول: أنه نزل مقروءا متلوّا، علمنا الله تعالى قراءته وتلاوته، ولم يتركنا نتصرف فى قراءته، كما نقرأ كلاما من كلام الناس، بل علمنا قراءته وترتيله، كما قال تعالى: ﴿ ... **وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً** (٣٢) ﴾ [الفرقان]. وكما قال تعالى فى نزوله، وجبريل يقرئه للنبى ﷺ: ﴿ **لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ** (١٦) **إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ** (١٧) **فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ** (١٨) **ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ** (١٩) ﴾ [القيامة].

الأمر الثاني: إن القرآن المعجز هو العربى، وليست ترجمته قرآنا؛ لأنها من عبارات البشر، ولأن الترجمة لا يمكن أن تكون محققة لمعانى القرآن، إذ هو

عميق يغوص فيه الغواصون على الحقائق، وإنه محدد المعانى، تزيد المعانى فى نفس القارئ بمقدار ما يزداد إدراكه، وهو واضح لكل إنسان بمقدار إدراكه، فالأمى يدرك منه بمقدار ما تتسع له طاقته العلمية، والعالم بالكون تتسع له المعانى بمقدار طاقته، ولذا وصفه العربى البليغ بقوله: إن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو، ولا يُعْلَى عليه.

ولا يصح أن يدعى لأحد أنه ترجم القرآن، وأن ترجمته قرآن يتعبَّد بتلاوته، ويسجد له سجدة تلاوة ولا يمسه إلا وهو طاهر، وقد أجمع على ذلك العلماء؛ السلف والخلف على سواء، إلا من ران الله على قلبه وعقله، وإذا كان قد روى عن أبى حنيفة أنه أجاز الفاتحة بالفارسية، فإن الراجح أنه رجع عن ذلك، عندما لانت ألسنة الأعاجم، بقراءة القرآن[1]، وقانا الله تعالى شر البدعة والمبتدعين.

وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، أى رجاء أن تعقلوا معانيه، وما يدعو إليه وما يتضمنه من بلاغة معجزة وما فيه من بلاغ للناس، والرجاء من الناس لا من الله، أى لعلكم تكونون فى وضع من يرجو الإدراك السليم، والله عليم بما تخفى الصدور.

وقد مهد الله سبحانه وتعالى لقصة يوسف، التى كان الخبر عن يوسف الصديق عليه السلام هو قطبها الذى دارت عليه أخبارها، عليه وعلى نبينا أفضل السلام وأتم التسليم، فقال:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣)﴾.

الضمير ﴿نَحْنُ﴾ ضمير المتكلم، وهو الله تعالى، وهو الله العظيم فى ذاته وصفاته، ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، والقصص الإخبار المتتابع، الذى يحكى، ويتبع ما يحكيه، تتبع الاستقصاء، وعبر عنه سبحانه بأنه ﴿أَحْسَنَ

(١) راجع كتاب «أبو حنيفة» للإمام محمد أبو زهرة.

الْقَصَصِ﴾؛ لأنه قُصَّ بأبدع أسلوب، ولأنه يبين عجائب النفوس، وفيه أحسن الآداب، وما ينبغى لاتقاء آفات النفوس، وانحرافها، ولأن فيها علاج الآفات النفسية التى ينزغ فيها الشيطان نزغته، ولأن فيها علاج الأمم فى اجتماعها واقتصادها وإفضاء بالخير على جيرانها، وإمداد المحتاجين من الأمم، ففيه الخير، كما فى إمداد الآحاد بالخير.

﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ أى أن هذا القصص مصدره الوحى، ولا علم لأحد به حتى يعلمك هذا، ولذا قال: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، أى بإيحائنا، ولا مصدر له إلا وحى الله تعالى، وقد أوحى به فى ضمن القرآن الكريم، ليكون دليلا من أدلة إعجازه، وسببا من أسباب الإعجاز، إذ أخبر بما هو صادق، ولم يكن للعرب علم به عندهم، ولذا قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ «إنْ» مخففة من الثقيلة، وإنها ضمير الشأن والحال، والمعنى وإن الحال والشأن كنت من الغافلين، و«اللام» لام التوكيد، وقد تأكد نفى علم النبى بذلك من غير الوحى بـ«إن» المخففة من الثقيلة، و«كان» الدالة على استمرار غفلته عنه من قبل ذلك القرآن المبين الذى أوحى به.

وعبر سبحانه بإثبات الغفلة، لا بمجرد نفى العلم؛ للإشارة إلى أن هذا من دقائق العلم وعميقه الذى تغفل عنه العلماء، إلا من يكون آتاه الله تعالى وحيا من علام الغيوب؛ لأنه علم بالنفوس، وخواطرها وما تختلج به الأفئدة، وذلك لا يكون إلا من عليم، وفيه علم كامل بالاقتصاد من غير تعليم أحد من البشر، فعلم يوسف بالاقتصاد الصالح مع النزاهة النبوية علم من الله، فعلمه الله تعالى تأويل الرؤيا الصادقة، وبها اهتدى ودبر الأمر، وادخر من سنى الرخاء للشدة، وكان تدبيره خيرا، وبذلك علم الناس، ألا يسرفوا فى رخاء حتى لا يقحطوا إذا اشتدت من بعد.

وقد ابتدأ سبحانه وتعالى ذكر القصص بذكر الرؤيا التى رآها، وهو غلام، ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ④﴾.

﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾ من الرؤيا لا من الرؤية البصرية، فهى رؤيا فى المنام، لقول أبيه له فيما قصَّ القرآن الكريم: ﴿لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾، الرؤية تكون رمزا لأمور مغيبة، فهذه الكواكب أحد عشر، رمز لإخوته وعددهم أحد عشر، وقد قال فى ذلك ابن عباس وقتادة: الكواكب إخوته، والشمس أمه، والقمر أبوه، وهذا تأويل الرؤيا كما فهم يعقوب أبوه عليه السلام، والسجود هو الخضوع، وقد ظهر التأويل الصادق فى آخر السورة، وقد خضع لحكمه أبواه وإخوته.

وإن هؤلاء كانوا إخوته من أبيه، كما جاء فى حالهم عندما سألهم عن أخ لهم من أبيهم، وهو شقيقه فدل هذا على أنه مع إخوته الأحد عشر من أولاد العلات الذين تختلف أمهاتهم، ويتحد أبوهم، ولا يكونون متحابين كتحاب أولاد الأعيان أى الأشقاء، ويجد الشيطان فرصة لينزغَ بينهم.

وقد ذكروا أسماء الكواكب فى روايات لم تصح عندنا، ولا نحتاج إلى معرفتها؛ لأن المغزى متحقق، وهو أنه رأى هذه الرؤيا الصادقة، ورؤيا النبيين لا تكون إلا صادقة، ويوسف عندما رآها كان غلاما، ولا يمنع ذلك من أن تكون صادقة، فإن صدق الرؤى ليس مقصورا على الأنبياء، إنما رؤى الأنبياء مقصورة على الصدق، رأى نبى الله تعالى يعقوب عليه السلام، ما يحرك نفوس الإخوة، أن تثير هذه الرؤيا حسد إخوته الذين ليسوا أشقاء فقال: ﴿لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

هذا درس حكيم لمن يكون له أولاد علات، يجب عليه أن يعلم أن الشيطان ينزغ بينهم بالعداوة ويزكى لهيب التحاسد بين الأولاد، فيجب عليه أن يمنع ما يوجب التحاسد، فوراء التحاسد التباغض، وعداوة القرابة تكون أشد إزراء[1]، كما قال الشاعر:

---

(١) جاء فى القاموس المحيط (زرى): زَرَى عليه زَرْيا وزِرايَةً ومَزْرِيَةً ومَزْراةً وزُرْيانًا، بالضم: عابَه، وعاتَبَه.

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند

لم يرد نبى الله يعقوب أن يذكر يوسف الرؤيا لإخوته وقال فى سبب النهى عن قص الرؤيا على إخوته ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ (الفاء) تدل على أن ما قبلها وهو القصص سبب لما بعدها وهو الكيد، والكيد هنا هو التدبير السيىء الذى يسببه الحسد، الذى هو سلاح الشيطان، لذا قال بعد ذلك ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أى إنه عدو لك ولإخوتك، ولذا يغرى بينكم بالعداوة والبغضاء، وتكون الإساءة بدل الود.

وإن هذه القصة فيها آيات بينات دالة على النفس الإنسانية فى توادها، وبغضائها، ورعاية الله للضعفاء، والأخذ بأيديهم من المهانة إلى المعزّة، وقد قال تعالى فيها، إن فيها آيات للسائلين.

وفى وقت هذا الحرص الشديد على منع يوسف من القصص على إخوته حتى لا يثير حسدهم، بشره بأن الله اجتباه لمكانة عظيمة، فقال مبشرًا: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦)﴾.

الاجتباء افتعال من «جبى»، وهو الجمع للنفس، فمعنى اجتباك أى جباك لنفسه، واختارك سبحانه وتعالى، أى لتكون خالصا لله تعالى، ﴿وَكَذَلِكَ﴾ الإشارة إلى ما تضمنته الرؤيا، أى كهذه الرؤيا التى سجدت لك فيها الكواكب والشمس والقمر، يختارك الله تعالى لتكون نبيه ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾، أى معرفة مآل الأحاديث فى الرؤيا، وفى الرؤية، فيعرف صادقها وكاذبها، ويتم نعمته عليك بالنبوة والملك والسلطان العادل ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ﴾ إذ جعله خليله، وصفيه وحبيبه، ﴿وَإِسْحَاقَ﴾ أى وكما أتمها على إسحاق بالنبوة وحباه من ذريته النبيين، وآل يعقوب هم إخوته وأسرته، وعلى رأسها أبواه.

وقد صحت نبوءة يعقوب التى فهمها من الرؤيا الصادقة، فقد أجلس أسرته على عرش مصر، كما تبين من آخر القصة، وسنذكره إن شاء الله تعالى.

فى قصة يوسف آية للسائل

قال تعالى:

لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾

هذا تدبيرهم الماكر، وقد ابتدأ الله سبحانه بالإشارة إلى ما فى قصة يوسف عليه السلام من آيات بينات فى تكوين النفوس والمجتمعات من أول الأسرة إلى المجتمع الإنسانى الأكبر الذى يجمع العناصر المكونة للمجتمع الكبير والمجتمع الصغير، وفى الأسرة والحى.

أول هذه الآيات بدءا وظهورا: «الحسد» الذى يعترى أولاد العلات أو أولاد الضرائر، وهو ظاهرة من الظواهر التى تبدو، ويحسب بعض الناس أنه داء لا علاج له، والسورة تشير إلى أنه داء، يمكن تَوَقِّيه، وإذا وقع يمكن تحسين عواقبه، وأنه لا يصح لإبعاده، منع تعدد الضرائر، أو منع تعدد الزوجات.

ولكن السورة أشارت إلى أن الوقاية منه هو منع ما يثيره، بإظهار المنزلة العالية، لبعض الأبناء، وإظهار البخس للآخرين أشار إلى ذلك قول يعقوب ليوسف: ﴿لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾.

وإن هذا الحسد ليس حسدا مستمكنا بحيث يبقى بين الإخوة ما داموا، بل إنه سرعان ما تقضى عليه المحبة التالية التي إن اختفت حينا، فلن تختفى طوال الحياة، وسرعان ما تكون، وهي الباقية، والأصل، والحسد عارض لا يدوم، ألم تر لقاء يوسف بإخوته ذلك اللقاء الحبيب، وهم يقولون: ﴿...تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١)﴾.

والثانية: من الآيات النفسية. أنه لا يذهب بقوة الرجل غير الحزن الدفين المستكن في النفس، فهذا يعقوب الإنسان يُمضّ نفسه الحزينة، حتى تبيض عيناه من الحزن وهو كظيم.

الثالثة: أن البِشْر بعد البؤس، والسرور بعد الألم يرد إلى النفس ما أذهبه الحزن، فإنه لما ألقى على وجهه قميص يوسف ارتد بصيرا؛ لأن الحزن قد ذهب إلى غير أوبة، والسرور يفعل فعله في الجسم فيزيل ما فعلته الكآبة فيه.

الرابعة: أنه في وسط ثورة الباطل وحدَّته في غلمان يعقوب وحسدهم لأخيهم وجد من يدعو إلى الرفق، ويستمع إليه، فقد اتفقوا على قتله، فجاء واحد منهم، وهم في حدة الحسد، وقال: ﴿...لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ... (١٠)﴾، وهذا يوحى إلى أن كلمة الرفق لها استجابة في أشد الإخوة عنفا.

الخامسة: إن أشد ما يثير الحسد، هو الإيثار بالمحبة، فإن إثارة الحسد، لا تكون بالإيثار بالطعام أو الشراب وإعطاء المال فقط، بل إن الإيثار بالمحبة أفعل وأشد، ألم تر أولئك الغلمان يقولون: إن يوسف وأخاه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة.

السادسة: أن الصِّبا أقرب إلى حب الانتقام من كِبَرٍ فى السن، فشدة الصِّبا، معها شدة الجهالة وحب الانتقام، من غير نظر إلى العواقب، وأنت ترى صبيان يعقوب، وهم يحسدون يوسف قد بدَّله الله تعالى منهم رجالا يتحملون التبعات بعد أن أوشكوا أن يكونوا كهؤلاء أو كانوها.

السابعة: أنه لا يطفئ الحسد إلا المحبة القوية المانعة، ألم تر أن المحبة التى كانت تنبعث من قلب الأب الرفيق الشفيق كانت تنهنه من حدة الحسد فيهم، وقد بدا ذلك منهم عندما طلب يوسف أخاهم من أبيهم، فقالوا: ﴿ ...**إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ**... (٧٨) ﴾، فهل كانت هذه حالهم عندما أخذوا يوسف، وألقوه فى غيابة الجب بعد أن أرادوا قتله.

وإن هذا يدل على أن حسد الإخوة مهما يكن مآله إلى زوال، وعوامل زواله أقوى من عوامل بقائه.

الثامنة: أن الدعوة إلى الخير لا يصح أن يكف عنها المؤمن مهما يكن فى حال من البؤس والألم، ألم تر يوسف الصديق وهو فى السجن، لم تشغله حاله عن الدعوة إلى التوحيد.

التاسعة: أن السورة تصور النفس الإنسانية فى انحرافها، واستقامتها، ألم ترها تصور امرأة العزيز وقد انحرفت عن الجادة نحو فتاها، وأنه شغفها حبا، وإن ذلك يدل على فساد القصور فى هذا العهد، وألا ترى أن فى هذا دعوة لأن يحتاط أرباب البيوت فلا يجعلون فى خدمهم جميلا؛ فإنهم يفسدون به نساءهم، ويفسدونهم، ويطمعونهم فيهم.

وإن هذه الحال من شغف امرأة العزيز بيوسف، وردها، ومقاومة دواعى الهوى فى شاب قوى فتى، يدل على أن الإرادة القوية الحازمة تكبح جماح الشهوة.

العاشرة: أن السورة تصور نساء الطبقة المترفة فى ذلك العصر لقد كن يُشعن قالة السوء وينشرنها، غير ملتفتات إلى عواقب ما يقلن، وما أشبه الليلة بالبارحة، فإن ذلك لا يزال خلق المترفات من نساء مصر، وخصوصا أهل القصور.

الحادية عشرة: أن الرؤيا الصادقة سبحة روحانية، وأنها تكون للمشركين كما تكون للمؤمنين، والإنسان ولو كان مشركا له روح، فقد رأى الفَتَيان صاحبا يوسف فى السجن، رأيا رؤية كانت صادقة، فأوَّل لهما يوسف الصديق الرؤيا، ووقعت كما أوَّل.

الثانية عشرة: أن يوسف عليه السلام، كان علمه لدنيًّا من الله تعالى، فما تعلم على أحد، وما درس، فقد فصل عن أبيه فى سن دون سن التعلم، وعاش عيش العبيد، وهو «الكريم ابن الكريم»[1]، وقد علمه الله تأويل الأحاديث، وعلمه تدبير السلطان، وخصوصا وقت أن تعقَّد الاقتصاد وتأزمت حلقاته.

الثالثة عشرة: أن مصر كانت مصدر الخير، لأهل الشرق، فكانت مزرعته الذى يقصد إليها فى شدائده.

الرابعة عشرة: أن أرض الله يفيض خيرها بعضها على بعض، كما رأيت ما أفاضت به مصر على جيرانها، وكيف كانت تميرهم، وتمونهم.

الخامسة عشرة: أن الله تعالى له عبرة فى خلقه، كيف جعل ذلك الأسير الذى باعوه بثمن بخس لأنهم لا يريدونه ـ ملكا مسيطرا على مصر، ومن حولها من بقاع الأرض.

السادسة عشرة: أن سيادة العدل تأتى بالخير الوفير، وأن الظلم لا يأتى إلا بالشر المستطير.

---

(١) عن ابن عمر رضى الله عنهما، عن النبى ﷺ قال: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام». رواه البخارى: أحاديث الأنبياء ـ قول الله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ** ... ⑦﴾ (٣١٣٨)، وأحمد: مسند المكثرين (٥٤٥٤).

السابعة عشرة: أن الصفح الجميل علاج كل الآفات الاجتماعية ما دام الصفح عن قوى.

الثامنة عشرة: أن العز الحقيقى يجب أن يفيض على الأحباب حتى من ظلم، ولا يُبخس لحق غيرهم كما فعل يوسف مع أبويه.

التاسعة عشرة: أنه يجب أن يخضع الكبير فى سنه، لحكم الصغير فى سنه ما دام عدلا، وقد رأيت خضوع يعقوب ليوسف، كما قال: ﴿... **وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا** ... (١٠٠)﴾ أى خاضعين؛ لا أنهم سجدوا له سجود الصلاة.

الآية المتممة للعشرين: شكر المنعم، كما فعل يوسف الصديق، فقد قال خاضعا خاشعا: ﴿**رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** (١٠١)﴾.

هذا ما نراه فى معنى الآيات التى ذكرها الله سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ** (٧)﴾، أى للمتعرفين الذين يسألون عن معانى الحوادث وما ترمى إليه، وما تدل عليه.

وقد ابتدأ سبحانه وتعالى قصتهم بذكر ما جالت به صدور إخوة يوسف وما نطقت به ألسنتهم ﴿**إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** (٨)﴾.

﴿**إِذْ**﴾ ظرف للماضى، وقالوا إنه يتعلق بفعل محذوف تقديره «اذكر»، أى اذكر هذا القصص يا محمد. ﴿**قَالُوا**﴾، وهم الإخوة عن أَخَوَيْهم من امرأة غير أمهم، وقالوا كما صورته لهم العلاقة بين أولاد من أمَّين، وليس الأمر كما تصوروا وقد أكد لهم ذلك شبابهم، وانفصال نفوسهم عن أخويهم وقالوا مؤكدين: ﴿**لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا**﴾ وقد أكد لهم وهمهم أنهم أقرب حبا إلى أبيهم، وقالوا: ﴿**أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا**﴾ وأُضيفوا جميعا إليه للدلالة على أن

التسوية واجبة بينهم، وزعمهم أنه لم يسوِّ بينهم، كما صوره لهم وهمهم، وأكدوا أن يوسف وأخوه أحب إلى أبيهم، فعبروا بقولهم ﴿وَأَخُوهُ﴾، كأنه ليس أخاهم، ولكن الشر استحكم فى نفوسهم.

﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أى قوة نافعة له فى زرعه وضرعه، وكل حاجاته، لينتهوا بأن قالوا كما زين لهم الشيطان بسبب الحسد: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ أى أنه بعيد عن الصواب بعدا بينا، وأكدوا ذلك الذى توهموه بـ﴿إِنَّ﴾ المؤكدة، و(اللام) فى قوله: ﴿لَفِي ضَلالٍ﴾، والتعبير ﴿لَفِي﴾ فيه إشارة إلى أن الضلال محيط به إحاطة المظروف بظرفه، سيطر الشيطان على نفوسهم، فحرك الحسد إلى أقصى غاياته، فابتدءوا تدبيرهم فقالوا:

﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩)﴾.

هذا تصوير للجريمة كيف يبتدئ دخولها فى نفس من تسول له نفسه الإجرام، لقد زينوا لأنفسهم أولا أنهم الأجدر بالمحبة، وأنهم الأنفع، ثم اندفعوا إلى تدبير الجريمة وتنفيذ القتل، أو أن يطرحوه أرضا بعيدة عن العمران، فاتفقوا على أحد الأمرين إما القتل، وإما النفى، وتركه فى أرض الله.

ولكن واحدا منهم أبعد فكرة القتل، وقال: لا تقتلوه.

ومعنى: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ يكون خالصا خاليا من الحب الذى كان ليوسف، ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ أى تستقيم حياتكم مع أبيكم، ويصلح أمركم مع أبيكم بعذر تعتذرونه، أو تتوبوا عن إثم القتل، ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾، وهكذا تزين الجريمة، وتقرب التوبة.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (١٠)﴾.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ أَبْعَدَ أحدهم فكرة القتل لبقية من شفقة، ولا يريد أن يقتل أخوه بين يديه، ولا يريد أن يغيب فى الأرض تائها فيها، ولكن يكتفى بأن يغيب عن أبيه، ويتركه لله عسى أن ينقذ، قال: ﴿لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾، وذكره باسمه لبقية من صلة تربطه، ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾، الغيابة ما يغيب عن الأنظار، غيابة الجب قاعه الذى يغيب عن الأنظار، ولا يستطيع أن يرتفع يوسف منه إلى ظاهر الأرض، والتقاط بعض السيارة له احتمالى، ولكن جعل قريبا، ولعله كان يرجو ذلك كبقية الإخوة مع حرارة الحسد، و﴿السَّيَّارَةِ﴾: القافلة السائرة فى الصحراء، ثم يقول إن كنتم فاعلين، وإن هذا القائل، كان يرجو من بقيتهم أن يعدلوا، ولذا قال: ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾، فعلق القول بـ﴿إِن﴾ الدالة على الشك دون القطع، ونحسب أنه كان يرجو ألا يفعلوا.

وقوله تعالى: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ معناه يأخذه لقيطا، كأنه لُقَطَة لا مالك لها.

دبروا ذلك التدبير، وبيتوا لأخيهم الشر، وبقى أن يبسطوا أيديهم إليه، بأن يأخذوه من أبيهم.

وقال تعالى عنهم:

قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾

فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّۚ وَأَوْحَيْنَآ
إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ
أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ
وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُۖ وَمَآ أَنتَ
بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ
بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ
وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

كانت المرحلة السابقة مرحلة ظهور الحسد البغيض، والكيد والتدبير السيئ، وهذه المرحلة مرحلة التنفيذ بلا رحمة وبإحكام، ذهبوا إلى أبيهم يعتبون عليه بظاهر من القول أنه لا يأمنهم على يوسف، ﴿**قَالُوا يَا أَبَانَا**﴾ نادوه بالأبوة التى تجمعهم بيوسف، وأبدوا له أنهم يحدبون عليه ويحبونه، ﴿**مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ**﴾ أى لأى سبب سوغ لك ألا تأمنا على يوسف، وهنا أدغمت نون (تأمن) مع (نا) ضمير المتكلمين، ﴿**وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ**﴾ النصح يتضمن الشفقة والإخلاص وإرادة الخير، وقد أكد الكاذبون نصحهم له بـ(إنَّ) وباللام، وبالجملة الإسمية، وكان هذا التوكيد لأنهم يريدون أن ينزعوا من نفس أبيهم ما يعتقد أنهم يحسدونه، فهم يقولون: إنا نحبه ونريد الخير، ولا نبغضه.

وبنوا على قولهم الذى أظهروا فيه الشفقة والحرص والمحبة قولهم: ﴿**أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ⟨١٢⟩﴾ نرتع، أى نجرى مرحين فى خصب الأرض والمزارع، ومتسع الأفق، ويلعب معنا، وذكر ذلك بصيغة تدل على اتصاله بهم، وأنهم جمع واحد، يرتع ويلعب، فهو ليس أجنبيا عنهم، بل يرتعون معه، ويرتع معهم، وطمأنوا أباهم، فقالوا: ﴿**وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ وأكدوا حفظهم له

بـ(إنَّ) وباللام، وبتقديم حرف الجر (له)، للدلالة على عظيم اهتمامهم، وكريم رعايتهم، وليلقوا بالاطمئنان فى قلب أبيهم.

فأجاب الأب الشفيق الطيب، وقد كانوا فى مذأبة من الأرض، يكثر ذئابها، قال:

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣)﴾.

بذلوا أقصى معسول للقول، وأكثروا من تأكيد المحبة، والإخلاص، ويكثر الكائد من قول يكون لإحساسه بأنه كاذب فى نفسه، ويحاول أن يستر ذلك على من يخاطبه.

وقد توجس يعقوب منهم خيفة، وقال معلنا خوفه بهاتين العبارتين أولاهما: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ﴾ وفى هذه العبارة السامية يبين حزنه الشديد الذى أكده بـ(إنَّ) ولام التوكيد، وسبب الحزن هو مفارقته، فذهابهم به يوجد فى نفسه حزنا عميقا، وذلك إمارة حبه الدفين الذى لا يستطيع معه فراقا، والثانية: قوله: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ فهو لا يحب أن يفترق عنه، ويخاف عليه من الذئب.

وهنا نقول: إن نبى الله يعقوب كان ينطق بفطرة الأبوة المحبة، ولكنه يخاطب من يريدون الشر ويفعلون، ويحاولون من بعد أن يلتمسوا المعاذير التى يرونها تدخل على نفس أبيهم فى يُسر، ومن غير استئذان، وقد وجدوا الأب الكريم الطيب النقى، يسهل لهم معاذيرهم، وهو خوفه من أن يأكله الذئب، وهم عنه غافلون، فقالوا: أكله الذئب، فعذرهم الكاذب أخذوه من قول أبيهم الصادق، وعلموا أنه الذريعة إلى التصديق، وإخفاء ما بيتوا.

قالوا مسترسلين فى خديعة أبيهم، ومن يدبر الشر ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ أكدوا لأبيهم، أن حمايتهم له كاملة شاملة، لا يمكن أن

يأكله الذئب، وهو بينهم، و(اللام) فى قولهم: ﴿لَئِنْ﴾ هى الموطئة للقسم الدالة عليه، وأكدوا استبعاد أن يأكله الذئب، بالجملة الحاليَّة ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أى قوة مانعة حامية، وجواب القسم ﴿إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ إن كان ذلك نكون فى خسار مؤكد، وضعف، ولا يمكن أن يكون ذلك.

قبل الأب الكريم ما بدا من ظاهر قولهم، ولكنه لم يحس بالاطمئنان الكامل؛ لأنه كلام ليس خارجا من قلوبهم، بل هم كاذبون فى حقيقة أمرهم، والله ولى الباطن، وللناس - ولو أنبياء - ما ظهر.

أخذوه بعد أن أحكموا الخطة، ونجحت الخطوة الأولى منها.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٥)﴾.

(الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى ترتيب على أخذه بعد إقناع الأب أن يأخذوه، فلما أخذوه، نفذوا فيه ما دبروا ﴿وَأَجْمَعُوا﴾ معناه اعتزموا وأصروا على أن يجعلوه فى أعماق البئر، كما قرروا من قبل ودبروا، ويروى أنهم آذوه بالضرب والتنكيل، وهو يستغيث، ولا يغاث حتى كادوا يقتلونه، ونبههم إلى ذلك من نهاهم عن القتل فى ابتداء التدبير، وفى هذه الشديدة، والألم المرير، ألقى الله تعالى فى قلبه الاطمئنان إلى المستقبل، وألهمه الإلهام الصادق بوحى الله تعالى أن المستقبل سيكون له، وأنه سينبئهم بأمرهم هذا، وفى وقت يكونون محتاجين إليه، وهو غير محتاج إليهم كما سيأتى إن شاء الله تعالى فى آخر السورة، وهم لا يشعرون بهذا الإلهام الذى كان وحيا إلهاميا.

بعد أن أتموا ما دبروا من إثم قاتل، وإن لم يأخذ صورة الذبح عادوا إلى أبيهم باكين حقا، أو متباكين لستر ما دبروا، ونحسب أنه بكاء؛ لأن الاندفاع إلى الشر لا يمنع الإحساس بالألم عند وقوعه، ودم الإخوة لا ينقطع، بل له عواقب أليمة بعد الفعل القاطع.

﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) ﴾ .

أى أنهم قضوا النهار غائبين عن أبيهم، ثم عادوا فى العشية، يقول المفسرون: إنهم كانوا يتباكون، ولا يبكون، ونحن نميل إلى أنه كان ثمة بكاء حقيقى من بعضهم على الأقل، وهو بعض من الندم على ما ارتكبوا أو أثموا وقد أحسوا بفظاعته، وخصوصا عندما لقوا أباهم، فإن لم يكن لأجل يوسف، فلأجل أبيهم الثاكل.

قالوا فى بكائهم أو تباكيهم:

﴿ ... إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) ﴾ كانت المعذرة التى اعتذروا بها هى التى لقنوها من كلام أبيهم عليه السلام.

قالوا أمرين كاذبين:

الأمر الأول: أنهم ذهبوا يتسابقون، وتركوه عند متاعهم.

والأمر الثانى: أنهم قالوا: إن الذئب أكله، وما أكله ذئب، إنما أكله الحسد والحقد الدفين.

ولقد أحسوا بأنه لن يصدقهم، فقالوا: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ﴾ أى ما أنت بمسلم لنا ومؤمن بصدق قولنا، ولو كانوا صادقين، وادعاؤهم صدق قولهم هو أكذب الكذب.

وقد أحسوا بأن القول لا يغنى فتيلا، إزاء الشك من أبيهم، ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أى بدم مكذوب، ووصف بأنه كذب، أى أنه دم هو كذب فى ذاته؛ لأن الدم ليس دم يوسف، بل هو دم غيره، من غزال أو نحوه، قالوا فى الروايات: إنه عندما أمرَّه على وجهه أحس بكذبهم، وقال: ما رأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا!! أكل ابنى، ولم يمزق قميصه. وهكذا كان ما اتخذوه دليلا على

البراءة كان دليلا على ثبوت الجريمة، فهل يبقى القميص غير ممزق، وقد مزق الجسد وأكل، وهكذا نرى أن المجرم مهما يحاول الإخفاء، فإنه يبين دليل الاتهام من محاولة الإخفاء.

لم يصدق كلامهم ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ و﴿سَوَّلَتْ﴾ معناها سهلت، وزينت لكم أمرا خطيرا شديد الخطورة، فالتنكير فى ﴿أَمْرًا﴾ لبيان شدته، وبلوغ أقصى قوته، ثم قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ والصبر الجميل هو الذى يليق بمقام النبوة، والصبر الجميل هو الصبر من غير أنين والشكوى مع الرضا بقدر الله تعالى، وما كتبه الله ورجاء كشف البلاء، ولذلك ما يئس قط من أن يعود إليه ابنه وحبيبه، ولو ابيضت عيناه من الحزن وهو كظيم.

وهو فى صبره المرير يتجه إلى الله تعالى ويقول: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أى لا يستعان إلا وحده فى الصبر على ما يصفون من قول، ولم يقل على ما وقع، بل قال على ما وصفتم، للإحساس بأن ما وصفوا غير ما وقع.

والصبر الجميل، لا يمنع الألم المرير، بل إنه لا صبر إلا إذا كان الألم الشديد، ولكن لا يجزع، ولا يفرط منه ما يدل على عدم الرضا بما قدره الله تعالى وكان.

وديعة الجب، وما جرى لها!!

وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ

أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

أُلقى يوسف الحبيب فى الجب، وسلمه إخوته وديعة لله تعالى، وإن لم يقصدوا، ونرجح بمقتضى طبائع النفوس أنهم لم يكونوا جميعا مستريحين لهذه الجريمة بل روى أن واحدا منهم كان غائبا، فلما أخبر ذهب إلى الجب، ولكن السيارة كانت قد التقطته، وإنه لا يمكن بمقتضى الطبيعة الإنسانية أن يرتاح المجرم بعد جريمته، وخصوصا أنها كانت على أخيهم، وجريرتها كانت على أبيهم الشفيق.

ألقى فى الجب، وقد ألقى الله فى قلبه الاطمئنان بإلهام الله تعالى والرضا بقضائه وقدره، ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ ﴾ قافلة ﴿ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ ﴾ الذى يتكشف لهم الماء ليَرِدَه، ويملأ لهم ما يسقيهم، فتعرف هذه البئر التى يقر فيها يوسف نتيجة الحَسد، ﴿ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ﴾، أى أرسل الدلو إلى ماء البئر فتعلق به الغلام الذى أريد له الضياع- أو الموت أيهما أسبق ـ بالدلو فبدل أن يخرج ماء وجد غلاما جميلا، فقال: ﴿ يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلامٌ ﴾، استبشر به، وكان وجها صبوحا مشرقا، وقال: ﴿ يَا بُشْرَىٰ ﴾، يناد البشرى من فرط فرحه، أى أقبلى فهذا وقتك.

أَسَرته القافلة كلها، وعدُّوه بضاعة يتَّجر فيها، تباع وتشترى، ويجرى من ورائها كسب، ولم يكونوا راغبين فى بقائه بينهم؛ لأنهم لا يكون معهم إلا من يعمل معهم، وغلام يحملونه ويغذونه قد يكون عبئا عليهم، وهذا معنى قوله تعالى حكاية عن حالهم ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾، زهدوا فيه ولم يرغبوا فى

إقامته معهم، وحملهم إياه، ولذلك باعوه بيع من يرغب عنه، لا من يرغب فيه، وفى اقتنائه، إن صح هذا التعبير بالنسبة لنبى الله تعالى.

ولذا قال تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ لأنهم كانوا فيه زاهدين، وشروه هنا معناها باعوه؛ لأن «شَرَى» تستعمل بمعنى البيع، وبمعنى الشراء، وعندما تكون بمعنى البيع يكون التعبير بلفظ الشراء تكون فيه دلالة على الزهد فيه، وتركه، وعبر سبحانه عن الثمن بأنه ﴿بَخْسٍ﴾، أى مبخوس غير مرغوب فيه، وأكد البخس بأنه ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾، وليست دنانير، وبالدراهم التى تعد، وذلك فى قليل الدراهم، أما الكثير فيكون التقدير بالوزن.

باعوه لأحد المصريين، وقد ابتدأ الفرج، وابتدأ يلقاه من يرغب فى بقائه، لا من ينفر منه، ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾، أى أكرمى إقامته، أى اجعلوه فى مقام مكرم غير مهين، ﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ أى عسى أن ينفعنا ببيعه أو بعمله، أو نتخذه ولدا، ويقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾ أى كهذا الذى كان من أنه وجد بين من يحبونه، ولا يبغضونه، ويريدون له الحياة، ولا يريدون الموت: ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾؛ ليعيش معززا مكرما، ولو فى رق وأسر، ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ لنعلمه: معطوفة على فعل محذوف هو نتيجة التمكين فى الأرض، ليعيش مطمئنا هادئا، وليتمكن من العدل والإصلاح فى الأرض، ودفع أزماتها، و(اللام) لام العاقبة فى الفعل المذكور، والفعل المقدَّر، و﴿الأَحَادِيثِ﴾ هى الكتب المنزلة، أو مأثورات النبيين إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وتأويلها معرفتها، ومعرفة مآلها، وقد يكون من ضمن ما علمه الله تعالى تفسير الرؤى والأحلام، وقد كانت الطريق لتمكينه فى الأرض وإقامة العدل فيها.

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ لا يرده شىء، ولا يرد قدره شىء، أرادوا له الضياع، وأراد الله له الكرامة فكان ما أراد الله، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾

يغترون بما أوتوا من قوة، وما مكنوا، فيعميهم ذلك عن حقيقة السلطان الإلهى، فلا يعلمون.

كان ذلك التعليم بإلهام من الله وهو صغير لم يبلغ أشده، ولما بلغ أشده آتاه حكمة وعلما بالأمور وتدبيرها، عندما تمكن من حكم مصر، ولذا قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) ﴾، وكهذا التكريم والتعليم نجزى الذين اتصفوا بالإحسان فى أعمالهم وقلوبهم حتى صاروا خالصين لله تعالى.

وهنا نسأل أتناولته الأيدى بالبيع والشراء حتى وصل إلى العزيز، فاشتراه، أم أن الذى اشتراه ابتداء هو العزيز؟ الظاهر من العبارات أن المشترى الأول لم يكن العزيز، وإلا كان يذكر، والله أعلم.

المحنة النفسية

تنقل يوسف من محنة إلى محنة، لقد امتحنه الله تعالى بإرادة إخوته له الضياع، ثم امتحنه بالرِّق، وهو الكريم ابن الكريم وقد احتمل، ثم امتحنه بعد ذلك بمحنة لا يقوى عليها إلا أهل العزيمة، وهى فتنة النساء به، وخاف أن يصبو إليهن، ولذا قال تعالى:

وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا

ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾

راود من راد، فهو مفاعلة من راد، وأصلها تكرار الفعل مرة بعد أخرى، وهى الأخذ برفق ولطف وقوله: ﴿**عَن نَّفْسِهِ**﴾، أى أنها راودته فى نفسه، أو لتحوله عن نفسه وإرادته ليكون لإرادتها هى ورغبتها فيه، وإن هذه المراودة القولية، واللين والتلطف معه، لتحوله عن إرادة نفسه إلى إرادتها تبعتها حركة عملية، ﴿**وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ**﴾، ولم يعد منفذ يمكن غيرهما من الاطلاع على ما تريد، ﴿**وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ**﴾ أى أَقْبِل، وقوله: ﴿**لَكَ**﴾ أى النداء له، ولعله تغافل عنها أو لم يستجب ابتداء لكلامها، أو لم يفهم، فقالت: النداء لك، فلما علم ما تريد صراحة من غير مداورة ولا مواربة، صرح هو الآخر بردِّها، وقال إنه لا يليق به فقال: ﴿**مَعَاذَ اللَّهِ**﴾ أى الله معاذى وملجئى، أعوذ به من أن أفعل مثل هذا؛ لأنه فوق فحشه، ليس وفاء لرب البيت الذى أكرمنى، ﴿**إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ**﴾، هذه الحماية تعليل لامتناعه عن هذه الفحشاء، أى لأن زوجها هو ربه الذى أحسن إليه فى مثواه أى فى إقامته فى بيته، فلا يخونه وإنه حينئذ، يكون خائنا وظالما، ﴿**إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**﴾، لا يفوزون بخير قط.

وقد كان أدبه النبوى أن يتكلم عن نفسه، لترعوى هى فى نفسها، وتمتنع عما هى مقدمة عليه، فهو قد أكرمها، وأعزها وهى زوجه، وأجدر من فتاها بالوفاء.

ولكنها أصرت، وسارت فى الغى إلى أقصى مداه ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) ﴾.

ومعنى ﴿ هَمَّتْ بِهِ ﴾ أى قصدته وأرادته لنفسها، فالهَمُّ بالشىء قصده، والعزم عليه، فَهَمَّتْ به أرادت مخالطته فى هذه الخلوة التى أرادتها، ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ جاء فى تفسير البيضاوى، والمراد بهمه بها عليه السلام ميل الطبع ومنازعة الشهوة لا القصد الاختيارى، وذلك مما لا يدخل تحت التكليف، بل الحقيق بالمدح والأجر الجزيل من الله من يكف نفسه عن الفعل عند قيام هذا الهم، أو مشارفة الهم، كقوله: قتلته لو لم أخف الله ﴿ لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ فى قبح الزنى وسوء مغبته لخالطها لشبق الغلمة ولا يجوز أن يجعل ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾، جواب لولا، فإنها فى حكم أدوات الشرط ا هـ.

وخلاصة كلام البيضاوى، وهو كلام الزمخشرى أيضا، أنها بدأت له فى حال انفعال جسدى، وهمت بمخالطته وأثارت شهوته، وكان الشأن أن يهمَّ بها وأن يقصد مخالطتها، ولكن فى هذه الساعة الحرجة رأى برهان ربه وأراد الفرار من سَوْرة الشهوة، وليس فى ذلك ما يمس النبوة، بل هو يعليها، فليس الفضل لمن لا يزنى وهو غير قادر، إنما الفضل لمن كف عند منازعة الشهوة ومساورتها، وردها، والاستقامة على الطريق.

دفعها عن نفسه، وتركها فشدت قميصه حتى قُدَّ من ورائه، واستبقا الباب، هى تريد الوصول إليه لتحكم إغلاقه، أو تسد عليه طريق الخروج، وهو يريد أن يسبق ليخرج طاهرا مطهرا.

لكن كانت المفاجأة ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ﴾، وببديهة المرأة حولت التهمة إليه، وأرادت به السوء ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بدلت الحقيقة، فاتهمت البرىء لتبرئ نفسها، وقررت العقوبة، وهى السجن أو عذاب أليم.

ولقد نطق البرىء وما كان لينطق لولا هذا الاتهام ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ هى تتهمه وهو يتهمها، ويظهر أن ذلك الأمر شاع فى داخل الأسرة، وأريد الفصل فيه بإعلان من تكون عليه التهمة لاصقة، ومن يكون له البراءة فكان لابد من حكم منصف، فحكم بعض أهلها، وإن لم يكن محايدا، وقد حكم بالعدل، فقرر أنه ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ أى من أمامه ﴿ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، لأنها هى التى جذبته لكيلا يفر من الاتهام، ويكون هو الذى راودها، وحاول، ثم لما رفضت أراد الفرار، فجذبته لكيلا يهرب.

وإذا كان قميصه قطع من دُبُر أى الوراء فمؤدى ذلك أنه أراد الفرار مما دعته إليه، وأرادت استبقاءه لغايتها، وقد ثبت أن قميصه قدَّ من دُبُر أى من الوراء، وهذا قوله تعالى:

﴿ ...وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) ﴾ ثبتت براءة يوسف، واتهامها، ويظهر أن العزيز كان قد أوتى حلما، فلم يسارع إلى عقاب لها، بل اكتفى بأن حكم عليها، واتهمها بالكيد وتدبير الشر، وإن هذا من النساء غير مستغرب.

ولماذا تساهل هذا التساهل؟ لعله عذرها لجمال يوسف، ولإيمانه بعفته، وقد يكون لبرود طبعه، أو لقوة سلطانها عليه.

﴿ وَشَهِدَ ﴾ هنا معناها حكم، كما يبدو من السياق.

طيب العزيز نفس يوسف، وقد كان لـه محبـا، واتخذه ولدا، فـقال له: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾، أى عن هذا الإفك الذى أُفك عليـه، ﴿واسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾، أى الآثمين، وصِرْت فـى صفوف أهل الإثم، لا أهل الصلاح.

إن الأمر لم يعد سرا؛ لأنه قد صارت محاكمة، ليعرف البرىء من السقيم، وهذا موضوع من شأنه أن تتناوله الأفواه، وإن أخبار هذا الصنف سرعان ما يسرى بين النساء، وخصوصا نساء القصور.

الشائعة

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾

أخذت الألسنة فى المدينة تلوك الخبر، وتتحدث به، ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾، ما بين لائمة ومتعرفة، ومتمنية كشأن النساء، وقال سبحانه: ﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ لبيان شيوع القول بين أهل المدينة، وقلن ﴿فَتَاهَا﴾؛ لأن الفتى هو العبد، وذكر ذلك لتصغير شأنها، وأنها تتحبب إلى عبدها، وقالوا فى بيان تدلهها به، ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾، أى أصاب شغاف قلبها حبه، فيقال شغفه إذا أصاب شغاف قلبه، ويقال دمغه إذا أصاب دماغه، و﴿حُبًّا﴾ تمييز محول من الفاعل أى شغف حبه قلبها، ثم حكمن عليها بالضلال حكما صريحا، ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ أى ضلال بين واضح، والضلال هنا تنكب الصواب، والوقوع فى الهوى الذى لا يليق بها فهو لوم شديد لها.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ لما سمعت بأقوالهن اللائى يروونها أرسلت إليهن، ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ أى هيأت ﴿لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾، أى أقامت لهن وليمة أو نحو ذلك، وسمى متكئا تسمية للشىء باسم مكانه، وهى تصور التنعم الذى كانت فيه، ﴿وَآتَتْ﴾ وأعطت ﴿كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾، ولعل ذلك كان موجب الوليمة أو ما يشبهها.

وسمَّت قولهن مكرا؛ لأنهن كن يُشعْنَهُ، وكأنه تدبير السوء، ولأن بعضهن علمته من جانبها فما كتمن لها سرا، ولأنهن كن يوجهن اللوم إليها، ويتبادلن ذلك، وكأنه أمر يدبر، ولذا سمى مكرا.

وبعد أن تهيأ المجلس، قالت ليوسف اخرج عليهن ﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾.

خرج عليهن، يتلألأ فيه نور الحق، الجمال الذى كساه الله إياه، فأخذ أبصارهن وقلوبهن، وحسهن، فقلن: ﴿حَاشَ لِلَّهِ﴾ أى تنزيها له عن فعل البشر، وقوله ﴿لِلَّهِ﴾، لأنه هو الذى نزهه وكرمه، أو قلن كلمة التنزيه، لأنه خلق مثل هذا الملاك الكريم.

و﴿أَكْبَرْنَهُ﴾، أى جعلنه فى موضع الإكبار والشرف، ولذهولهن من الروعة التى تبدَّى بها جرحن أيديهن، وعبر سبحانه عن الجرح بالقطع؛ لأن الجرح كان بليغا، ولأن الجرح فى حد ذاته قطع لبعض البشرة، وقلن تلك الكلمة المعبرة عما فى نفوسهم: ﴿مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ بهرهن حتى ارتفعت مرتبة الإنسانية إلى مرتبة الملكية. فـ﴿إِنْ﴾ هنا هى النافية أى: ما هو إلا ملك كريم.

التفتت امرأة العزيز إليهن، وقد رأت الجروح تسيل بالدم من أيديهن، وما اعترى نفوسهن من إكبار له، واستهواء حتى حسبنه ملكا كريما، وليس إنسانا من الطين.

قالت: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ وكأنها تقول مُصِرّة على غيها، فهل هذا، وهل كان يجوز أن تلمننى فيه، وقد قطعتن أيديكن، إذ رأيتهن عبر النظر، فما بال من تكون قريبة منه يطلع عليها نوره دائما؟!، لقد انكشف أمرهن، وصبون إليه فكشفت نفسه لهن، ولا ملام عليها، وكان حقا فى منطقها أن يعذرنها.

فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ كشفت كل ما كان خفيا، أو ما كان ينبغى أن يكون، وبلغت الغلْمة أقصاها، ولم تعد المراودة والملاطفة، لأنه استعصم، أى طلب العصمة، وتمسك بها، وتحول الأمر إلى إكراه بالسجن، وتصغير أمره وشأنه فى القصر.

ولكن يوسف الأمين المحفوظ برعاية الله، والمحصن بحصن الإيمان، ازداد قوة فى الاستمساك بالعفة؛ وإنه إذا كانت المراودة والتلطف تدنى، فالإكراه يجافى ويبعد، وإزاء التهديد لجأ إلى ربه معاذه وملجأه قال: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣)﴾.

قالت المرأة الشبقة المغتلمة، إما السجن، وإما الاستسلام لها، فقال عليه السلام: ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾، وإذا كانت قد بلغ بها عنف

الشهوة أعلاها، فقد بلغت به العفة أقواها، ولكنه خشى بحكمة النبوة أن موالاة المراودة والمعاودة إليها والتدبير لإسقاطه أن يؤثر في نفسه، فلجأ إلى مقلب القلوب، ومصرف الأنفس ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أى إن لم تصرف عنى تدبيرهن الخبيث، وإغراءهن المتوالى أمتثل إليهن وأكن من الجاهلين، أهل الحماقة والفساد.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤)﴾.

أجابه سبحانه وتعالى إلى دعائه، والسين والتاء لتأكيد الإجابة، ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ أى تدبيرهن، وكان يأسهن من إجابته مسهلا للانصراف عن الكيد بالمراودة والإغراء والتهديد، وإن لم تنصرف عنه قلوبهن، إنه سبحانه هو العليم بكل الأحوال السميع لكل الأقوال يدبر كل شيء على مقتضى علمه وحكمته.

السجين البرىء

قال تعالى:

ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُاْ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ
حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥) وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ
إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ
رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ
ٱلْمُحْسِنِينَ (٣٦) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا
بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ
مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ (٣٧)
وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ

لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى
ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ
ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ
﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ
وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ
أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا
فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ
مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى
ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ
ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

هبطت الفتنة فى نفوس النسوة، ولكن صداها كان يتردد بين الناس، وخصوصا النساء، وقد آمن الملك بحقيقتين: عفة يوسف، وإغواء امرأته، وانضم إليها من كن يلمنها، وتشايع الخبر فى المدينة، فرأوا أن من حسن السياسة أن يسجن يوسف ليبعد عامل الاستهواء، ولينس الناس هذه السيرة، وهذا هو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ﴾ أى العزيز ومن معه من أهل مشورته من بعد ما رأوا البينات الدالة على مكرهن وإغوائهن مع التهديد ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أى أكدوا إرادة سجنه حينا.

أى بدا لهم الإصرار على سجنه لمدة معينة، حتى ينسى الناس حوادث المرأة والنسوة اللاتى انضممن إليها، وقد أكدن هذا الأمر الذى بدا لهم بالقسم، ولامه، ونون التوكيد، ولكن السجن كان مؤقتا، وليس مطلقا كما ظهر من كلامهم.

وكان تأكيد السجن، لأنه لم يكن منطقيا أن يسجن وهو البرىء، ولكن لأنهم وجدوه إطفاء لهذه الشائعة التى هزت مقومات المجتمع، وأشاعت القول بالفاحشة ـ عن أكبر سيدة فى مصر، فكان التأكيد بالسجن ليقاوم منطق البراءة الذى يوجب الثناء وطيب الجزاء، بدل العقاب والإلقاء فى غياهب السجن.

حسنت الألفة بين يوسف الحبيب، ومن معه فى السجن؛ لأنه أليف بفطرته، ولأن الضعف يقرب ولا يبعد، ولأن محنة السجن جمعت بينهم، والمحنة تجمع، ولا تفرق.

رأى أحدهما أنه يعصر خمرا، أى يعصر عنبا يكون بعد ذلك خمرا، فعبر بالخمر باعتبار المآل، ورأى الآخر أنه يحمل فوق رأسه خبزا، وتأكل الطير منه.

اقتضى حسن الصحبة أن يلجئا إلى يوسف، وقد توسما فيه الخير، فاتجها إليه قائلين: ﴿**نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ أى أخبرنا الخبر الخطير بتأويله أى بمعرفة مآله، لأنا نراك محسنا من المحسنين، أحسنا الظن به وأكدا أنهما يريانه محسنا من المحسنين.

أجابهما يوسف، ولكن قبل أن يجيبهما دعاهما إلى الحق وإلى عبادة الله وحده، وأثبت ما يوجب نبوته، ونحسب أنه فى هذا الوقت بلغ كمال الرجولة، ولنجزئ الكلام فى المعجزة والدعوة.

أما المعجزة فقد قال ما يدل على أنه يتكلم عن الله تعالى، وأن الله تعالى يعلمه قال: ﴿**لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا**﴾.

التأويل هنا معرفة حقيقة الطعام، ومآله، وقال ليس ذلك بإعلام أحد، إنما هو من تعليم الله تعالى، ولذا قال: ﴿**ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي**﴾، وإن ذلك إخبار

بالغيب بتعليم الله تعالى، وليس من ذاته، وإنه لا يعلم الغيب إلا الله، وما يعطيه الله تعالى، كما أعطى عيسى ابن مريم، إذ كان ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم، وكان ذلك بعد يوسف بعشرات القرون.

وإن هذا يدل على أن الله تعالى قد بعثه نبيا على ملة إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وقد كان قد بلغ أشده ليتحمل الرسالة، لقد تلونا من قبل قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢) ﴾ والنبوة هى الحكم والعلم.

قبل أن يؤوّل تقدم بالنبوة، ودعا إلى إبطال الشرك وإنكار البعث، وابتدأ الدعوة النبوية بأن ذكر نفسه قدوة لهم، فقال: ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾، وقد وصفهم بحالين سلبيتين إحداهما: أنهم لا يؤمنون بالله، بل يعبدون الأوثان، والثانية: أنهم يكفرون بالبعث، وأكد كفرهم بالبعث بتقديم (الآخرة)، على الكفر، وذلك لمزيد الاهتمام بالكفر بالآخرة، وبتكرار ﴿ هُمْ ﴾، وكان التأكيد لغرابته عند أهل العقول المدركة، فالعقل يوجب الإيمان بالآخرة؛ لأن الله تعالى لم يخلق الإنسان سدى، ولأن فيه سلوان لمن لا يدرك حظه فى الدنيا، ولأنه يتفق مع العلو الإنسانى.

بين أنه ترك أن يكون من ملة هؤلاء المشركين الكافرين باليوم الآخر، وبين بعد ذلك أنه لم يكن سلبيا، بل كان إيجابيا، ولذا قال: ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾، ذكر هنا أبوه يعقوب، وجداه إبراهيم وإسحاق، وملتهم واحدة، وهى ملة إبراهيم الحنيفية السمحة: التوحيد، وقال: إنها المعقولة التى تدركها العقول المستقيمة، والدين الحق، ولذا قال: ﴿ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾، ﴿ مِن ﴾ هنا لبيان عموم النفى، أى من شىء وأى شىء، حجرا أو إنسانا أو زرعا، أو حيوانا، أو غير ذلك مما عُبد من دون الله، وإن التوحيد فضل وعلو بالنفس الإنسانية إلى مقام الإدراك السليم، ولذا أخبر تعالى عنه أنه قال: ﴿ ذَلِكَ

من فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ الإشارة إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة غير الله تعالى أيا كان، فهو فضل الله إذ هداهم إلى عبادة المنعم وحده، وهدى الناس إليه، ولكن أكثر الناس لا يشكرون المنعم بعبادته وحده، ثم بعد أن بين إيمانه وهدايته ليأتسوا، وجه الطلب إليهما، مبينا بالدليل القاطع أن الله وحده هو المستحق للعبادة ولا يستحقها غيره فقال: ﴿**أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾ هذا استفهام إنكارى توبيخى توجيهى فليس بمعقول أن تكون أرباب متفرقة ليس لها فضل المنشئ المنعم ليس لواحد منها ذلك، ولا لها مجتمعة قدرة، لا تنفع ولا تضر، وتكون عبادتها مع ضعفها، وعدم قدرتها، عبادتها خيرا من عبادة الواحد الأحد الخالق للكون وحده والقهار الغالب عليه، والذى لا يكون فى الكون شىء إلا بأمره.

ثم أخذ يبين بطلان الشرك المصرى، فقال: ﴿**مَا تَعْبُدُونَ من دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا من سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠)**﴾.

نفى وجود ما يسمونه آلهة، فهى فى حقيقة أمرها لا وجود لها وجودا حقيقيا، فضلا عن أن تكون آلهة معبودة وذلك حق؛ لأن قدماء المصريين كانوا يفرضون آلهة للزرع، وآلهة تتوالد، وتتقاتل، كلها فروض لا وجود لها فهى أسماء سموها وعبدوها، وتتابعت أجيالهم على عبادة ليست إلا أسماء سماها أبوهم، وتبعوهم تبعية الوهم للوهم ما كان لها وجود ﴿**مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا من سُلْطَانٍ**﴾، أى حجة تسوغ عبادتها، وإن الحكم والسلطان، والقدرة القاهرة ليست إلا لله خالق كل شىء ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ**﴾، وهو الجدير بالسلطان وحده ﴿**أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ**﴾، وقد أمر ألا تعبدوا غيره، و﴿**ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**﴾، أى الدين القويم الذى مع العقل والإدراك السليم، ﴿**وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾، أى ليس لهم علم بالحقائق، بل تسيطر عليهم الأوهام الباطلة، التى تخدع العقول فلا تعلم، والمصريون القدماء كانوا خاضعين للأوهام، ولا تزال بقية منهم خاضعة للأوهام، وهم الذين لم يدخلوا فى دين التوحيد دين الله القيم.

وهكذا نرى نبى الله يوسف عليه السلام ابتدأ بإثبات معجزته، ثم نهى عن الشرك، ووجههم إلى الاقتداء بشخصه، وقد صاروا له حبيبين، ثم وازن بين الوحدانية وتعدد الآلهة، ثم بين لهم إلى أنه لا وجود لما يسمونه آلهة، وأن الدين القويم الحق الذى يوافق قضية العقل البديهية هو الوحدانية.

بعد ذلك اتجه لتأويل رؤياهما، وقد يقال إن دعوته إلى الوحدانية، كانت بين اثنين، ونقول: إن محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم ابتدأ دعوته بين زوجه خديجة، وصديقه أبى بكر، وعليٌّ وكان ابن تسع، ومولاه، ومكث مستخفيا بالدعوة بضع سنين، فالعدة لا تكون بكثرة العدد، ولكن بقوة الإيمان.

اتجه إليهما بعد ذلك الإرشاد قائلا: ﴿**يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ**﴾ وقد كان الأول ساقيا للملك بعد ذلك، وروى أنه كان من قبل ساقيا، فاستمر فى عمله بعد أن اتهم بأنه دس فى الشراب سما، فتبين بطلان التهمة، فعاد إلى عمله بعد أن سجن، والثانى اتهم بأنه دس فى الطعام سما، وثبتت التهمة فقتل وصلب، والله أعلم.

مكث فى السجن حينا، وهو يعلم أنه برىء والملك يعلم ذلك، والنسوة يعلمن، فأراد أن يذكر الملك بنفسه فطلب ممن ظن أنه ناج أن يخبر الملك بذلك ﴿**وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ**﴾ أى عند الملك، وسماه ربا مع أن يوسف نبى التوحيد، من قبيل رب الأسرة بمعنى راعيها، وحافظها، فنسى أن يذكر ذلك فمكث نبى الله بعد ذلك بضع سنين، وهذا قوله تعالى: ﴿**فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ**﴾.

وهنا ملاحظتان تتعلقان بالمنهج البيانى القرآنى

الأولى: قول يوسف ﴿**لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا**﴾، فعبر بالظن ولم يعبر بالعلم، تأدبا مع الله فى العلم بالغيب، فإنه وإن كان يقينا عند يوسف، ولكن طريقه لا ينتج إلا ظنا.

الثانية: فى كلمة ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾، المعنى ذكره عند ربه، والإضافة لأدنى ملابسة، وقد مكث بعد ذلك بضع سنين، كان فيها داعية للتوحيد، وقد أَنِسَ به الذين كانوا يدخلون السجن، فدعاهم إلى التوحيد، وكانوا يدخلون متهمين من الملك أو غيره، ويخرجون مؤمنين مدركين، وكان بعضهم لأنسه بيوسف الصديق يرغب فى أن يعود سجينا.

وكان يدعو - كما رأينا فى دعوته - صاحبى السجن أولا، وفى هذا إشارة إلى استمرار دعوته إلى التوحيد.

والسجناء فى مصر كانوا فى أغلب الأحوال أبرياء وضعفاء، وأول من يستجيب للنبيين الضعفاء كما رأينا من بعد فى أتباع محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، وكما رأينا من قبل فى أتباع نوح عليه السلام، كما قال عن قوم نوح: ﴿... وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ... (٢٧)﴾ [هود].

الخلاص

قال تعالى:

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ
سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾
قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾
وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ
فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ
سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ

وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ
تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا
قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ
مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ
عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي
بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ
النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ
مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ
مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ
الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ
لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾
۞ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ
رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾

ابتدأ الخروج من السجن، لأن نور النبوة خرج إليهم بعد أن اهتدى بنورها من اهتدى من نزلائه، وكانوا يودون أن يعودوا بعد أن يخرجوا أُنْسا بيوسف.

رأى الملك رؤيا صادقة، إن وصفت رؤيا من لم يكن موحدا ـ بالصدق، وإن لم تكن وحيا، رأى الملك ﴿ **سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ** ﴾، أي نحيلات لا لحم عليهن، ولا سِمَن فيهن، والعجاف يأكلن السمان، ورأى سبع

سنبلات خضر وأخر يابسات لا خضرة فيهن، وهى متجاورات، نادى ملأه، وهم شيعته الذين يحيطون به وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾، يقال عَبَرَ الرؤيا، أى جاء بما تدل عليه الحال النفسية التى دلت عليها من عبارة بينة موضحة، وقد تكون من عبور النهر بمعنى عبر النهر، أى بلغ نهايته، وهى هنا ما تنتهى إليه الرؤيا من حقائق قد تكون ثابتة، ومعنى ﴿أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ﴾، أى اعبروا إلىّ هذه الرؤيا التى هى أمرى وحالى المستولى على نفسى المستغرق لها.

ولقد أجابه ملؤه مجهلين لحاله، وما يشغله، أو مسرين عليه، حتى لا يلج به الهم الغالب، وذلك هو الأقرب المعقول بين ملك وحاشيته.

﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ (٤٤)﴾ أضغاث أحلام أى أخلاط، والأحلام، أى أحاسيس نفسية مختلطة، والأضغاث جمع ضغث، والضغث هو مجموع النبات من بقل أو حشيش، أو حزمة من العصى، كما قال تعالى فى قصة أيوب عليه السلام إذ فدى يمينه من الحنث بضربه ببضعة من الحشائش والأخلاط. ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤)﴾ [ص].

وأتموا الجواب بنفى قدرتهم على تأويل الأحلام، فقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ﴾ وما نحن بمعرفة مآل الأحلام بعالمين، أكدوا نفى علمهم بالباء فى ﴿بِعَالِمِينَ﴾، وكان تأكيد ذلك النفى لتأكيد أنه لا مدلول لها؛ ليطمئن بعد أن أصابه القلق الملقى بالهم والحزن.

عندئذ تذكر صاحب السجن بعد أن أنساه الشيطان، والحوادث يذكر بعضها ببعض إذا كانت متجانسة فذكرته رؤيا الملك برؤياهم، ولذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥)﴾ وهو الصاحب الثانى

من صاحبى يوسف فى السجن، ﴿وَادَّكَرَ﴾ أى تذكر، وأصلها اتذكر قلبت التاء دالا، والذال دالا، وأدغمت الدال فى الدال.

والمعنى تذكر تذكرا شديدا لائما لنسيانه ما كلفه يوسف من أن يذكره عند ربه، ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أى حين من الزمان، إذ لبث يوسف بسبب هذا النسيان بضع سنين، والبضع بين الثلاث والعشر، وقيل: خمس سنين، كان فيها هاديا مرشدا للمساجين، قال ذلك الذى نجا: ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ﴾ بمعرفة مآله، ويظهر أنه أخبرهم بأن يوسف هو الذى سيعلمه، ولذا قال: ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾، أى أرسلونى إلى السجن ليعلمنى يوسف.

ذهب إلى السجن، وقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦)﴾.

﴿أَفْتِنَا﴾، أى بين لنا ما تدل عليه هذه الرؤيا، رجاء أن أرجع إلى الناس، ورجاء أن يعلموه.

قال يوسف فى تأويل الرؤيا: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾، أى دائبين مستمرين على عادتكم، ويجيئكم الخير سنة بعد سنة لا يتخلف، بل كل السنين سنين خير مستمر.

وذكر لهم نصيحة، وهى مقتضى الحلم فقال: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ﴾، أى ما قطعتم من عيدان الحبوب، ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾، وبقاؤه فى سنبله يحميه من السوس، ويبقى لما يجىء بعد ذلك من سنين يابسة لا خير فيها لا تؤتى أُكلا، وقال بعض المفسرين: إن هذه نصيحة، وهى غير الرؤيا، ونحن نرى أنها نصيحة حقا وهى صادقة، والرؤيا تشير إليها، إذ إن العجاف لا تأكل السمان إلا إذا ادخرت ثمرات السمان لتأكلها العجاف، والعجاف جمع عجفاء.

ويقول يوسف مما حكاه الله تعالى عنه: ﴿ **ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨)** ﴾ وصفت السبع اليابسة بأنها سبع شداد، لأنها تكون شديدة على الناس، إذ يكون الناس فيها فى شدة تضطرهم لإخراج كل ما ادخروا، ليدفعوا ضرها، ويأكل الناس فيها ما قدموه من قبل لها، وهيأوه لدفع شدتها، ووصفت السنون بأنها تأكل مع أن الأصل هم الذين يأكلون؛ لأن هذه السنين تكون سنين غير منتجة، فكأنها هى التى تأكل.

﴿ **إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ** ﴾، من أحصى بمعنى حفظ، وكأنه جعله فى حصن، وهو ما ادخروه ليكون بذرا للزرع فى مستقبل أيامهم.

بعد ذلك التفسير بشرهم بأن الأزمة التى تأزمت تنتهى بعد ذلك، وذلك مما علمه من غيب ﴿ **ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩)** ﴾، أى يغاثون من القحط، فيدر الله تعالى عليهم أخلاف الرزق، وفيه يعصرون العنب والزيتون وتدر عليهم الأبقار بألبانها.

ولقد بلغ الملك هذا التعبير، وهذا التبشير، فراعه ذلك، فأرسل إليه يحضر ليختص به: ﴿ **وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠)** ﴾.

طمأن الملك بعلم حقيقى مما علمه ربه، فأرسل إليه ليأتوه به، ولكن الكريم ابن الكريم لا يذهب إلا مبرأ من كل إثم، وإلا مبينا أنه كان مظلوما بهذا السجن، وأنه كان فريسة كيد النساء، وإن الله تعالى عليم بكيدهن.

طلب منه التحقيق فى سبب إلقائه فى السجن: قال: ﴿ **مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ** ﴾ لقد كادوا لى ﴿ **إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ** ﴾ ذكر النسوة اللاتى قلن ﴿ **امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ** ﴾، وخرج عليهن فجرحن أيديهن، اسأله ما بالهن أى ما حالهن، ومآل أمرهن.

سأل عن النسوة، ولم يسأل عن امرأة العزيز، وهى التى كانت الأصل فيما نزل به، وقد أدخل السجن لستر الأمر ومنع الناس من أن يتحدثوا به، ويجعلوه ملهاة مجالسهم وسمرهم، وذلك أولا لأن تحقيق مآل النسوة يَجُرُّ إلى الكلام فى امرأة العزيز؛ لأنه مترتب على ما كان من امرأة العزيز، وثانيا، لأنه لم يرد أن يفاجئ الملك بأمر يمس شخصه، فلم يذكره، لأنه نتيجة للبحث فى أمر النسوة، ولا يقوم هو بالاتهام إكراما للملك، فقد أحسن مثواه، ولكى لا يشنع عليها، ولكيلا يحرجه أمام الناس فى اتهام امرأته.

استجاب الملك لسؤال يوسف الصديق فقال لهن: ﴿**مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ**﴾ سألهن الملك ما الخطب الشديد الذى ظهر منكن، إذ راودتن يوسف عن نفسه، فأجبن بالنفى عن أن يوسف بوصف فيه سوء، لأنهن ما علمن عليه من سوء فاكتفين بالرد ببراءته، ولم يتعرضن لأمرهن ومعنى ﴿**حَاشَ لِلَّهِ**﴾ تنزيها له لأجل الله تعالى، مع التعجب من عفته وبراءته.

هذا ما كان منهن، وموقفهن فى هذا المقام سلبى، أما امرأة العزيز فقد تحرك ضميرها، ونفسها اللوامة، فقالت مخبرة بالإيجاب بالنسبة لها وله ﴿**قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢)**﴾ اشتمل كلام امرأة العزيز على ثلاثة أمور كلها إيجابى، وليس سلبيا.

الأمر الأول: قوله : ﴿**الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ**﴾ أى الآن ثبت الحق واستقرت الأمور، وعرفت على حقيقتها، وحصحص: معناها استقر الحق، مأخوذ من حصحص البعير إذا أناخ فى مباركه واستقر.

الأمر الثانى: إقرارها بأنها راودته عن نفسه.

الأمر الثالث: أن يوسف كان هو الصادق عندما قال: ﴿ ... **هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي** ... (٢٦) ﴾ وكان قولها موافقا تمام الموافقة لما انتهى إليه الحكم الذى كان من أهلها، وقال إن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢)﴾.

الإشارة فى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ إلى قول امرأة العزيز، ولكن الضمير يعود إلى مَنْ فى قوله: ﴿أَخُنْهُ﴾، أيعود إلى يوسف، أم يعود إلى الملك؟، إن قلنا: إن الكلام كلام يوسف يعود إلى الملك، أى كانت تلك المجاوبة ليعلم أنى لم أخنه فى غيبته، وأنى كنت أمينا على شرفه وعرضه، وإن الله تعالى لا يهدى كيد الخائنين، أى لا يوفق تدبير الخائنين، ويقول تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾.

هذا على أن هذا القول جاء على لسان يوسف، وهو تخريج الزمخشرى، ويصح أن يكون ذلك استرسالا لقولها، ويكون على مع هذا التخريج، ليعلم يوسف أنى لم أخنه بالغيب، وأنى اتهمته وأصررت على الاتهام، وهأنذا أقر بالحق أمام زوجى وأمام الناس وأنا ما أبرئ نفسى، إن النفس أمارة بالسوء إلا من رحم ربى إن ربى لغفور رحيم.

وإنى أميل إلى أن ذلك من كلام يوسف عليه السلام تبرئة لنفسه أمام العزيز، ولأن قوله ﴿إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هى التى تليق بمقام النبوة، وقوله: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ فيه إشارة إلى ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ... (٢٤)﴾ وفيه إشارة إلى جيشان الغريزة، ثم كفها، لما رأى برهان ربه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

تمكينه من ولاية مصر

قال تعالى:

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ

ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ
مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ
بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ
ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخْوَةُ
يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا
جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ
أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا
كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ
وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ
لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾

من غيابت السجن إلى ملك مصر

سار بهداية الله، وتحت عين الله ورعايته من الجب حتى قال الملك: ﴿ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾، أى أجعله خالصا لنفسى أوسد إليه من الأمور ما أصلح به أمرى، وهذا يدل على أن ملوك مصر حتى فى عهد الفراعنة، يتخيرون الرجل ليضعوه فى المكان الذى يصلح به الأمر، لا كطاغية ظهر فى عصر، يعطى الأمر غير أهله، ولا يختار من تكون له كفاءة خاصة.

اختار يوسف ليكون بجواره، فلما كلمه، قال: ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾، ومكين أى ثابت لك مكانة وممكن فى الأمور نأتمنك على كل شيء.

ويوسف الصديق عليه السلام عرف مما علمه ربه المكان الذى يستطيع به إصلاح الأمور، وعرف مما عبر من رؤيا تعلم تعبيرها من الله كيف أَمْر اقتصادها ولذا قال: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ أى إنى أحفظها من الضياع، فلا يختلس فيها مختلس، ولا تضيع فيها الأمانات، ولا ينفق منها إلا فى موضعه، ولا يبذر فيها، ولا يقتر فى مواطن الإنفاق، وعليم بما يصلح وما لا يصلح، وبوجوه الحاجة، وبوجوه الإسراف، فلا يخرج مال إلا بحقه، ولا يجمع إلا بحقه، وقوله: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ﴾ فيه طلب جعله واليا على أموال الدولة، و﴿الأَرْضِ﴾ المراد بها أرض مصر.

إن هذه المكانة التى وصل إليها يوسف، الفضل فيها لله وحده، ولذا قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)﴾ التشبيه هو بين الحال التى تنقل فيها يوسف من الجب والرق والتحكم فى مشاعره، حتى كان كل أحاسيسه ملكا لمن كان عندها، حتى صار حاكم مصر، أخصب المناطق فى عصره. وإرادة الله تعالى التمكين، أى كهذا الذى رآه القارئ فى القصة كان تمكين الله ليوسف عليه السلام، فهذا التشبيه يفيد أن ما كان ليوسف فى هذه الأدوار كان بتمكين الله.

ثم ختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى نجزى الذين يتصفون بالإحسان، والإحسان يقتضى استقامة العقول، وإخلاص القلوب، والقول الطيب والعمل الصالح، وغير ذلك مما يدخل فى معنى الإحسان، وهذا جزاء دنيوى مداره التوفيق فى القول والعمل. وفى الآخرة خير منه، ولذا قال تعالى: ﴿وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧)﴾ (اللام) لام التوكيد، والآية الكريمة تبين أن أجر الآخرة خير من هذا الذى رأيناه ليوسف الصديق عليه السلام وإنما يستحقه من كان فيه وصفان:

الوصف الأول: الإيمان، فقال: ﴿لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾، وقد أطلق الإيمان، ليشمل الإيمان بالله تعالى، وهو رأس الإيمان، والإيمان بالحق، والإيمان

بالفضائل، والإيمان بحقوق الناس وحماية هذه الحقوق، ويصح أن نقول إن الإيمان بالله تعالى يتضمن هذا كله.

الوصف الثاني: التقوى، ولذا قال تعالى: ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾، أى استمروا على التقوى، والتقوى استشعار خشية الله تعالى، وأن يجعلوا بينهم وبين المفاسد أيا كانت وقاية من الانحدار فى مخازى الشيطان.

اللقاء

ألقى الإخوة أخاهم فى الجب، ثم كذبوا على أبيهم وصاروا لا يعلمون من أمره شيئا، وما كان يجول بخاطرهم أنهم سيلقونه ملكا حاكما، يمدون أيديهم طالبين منه العون، ولكن ما لم يكونوا يتصورونه كان أمرا واقعا رأوه، ولم يعرفوه؛ لأنهم تركوه غلاما صغيرا، ولكنه عرفهم، وهذا قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٥٨)﴾.

ولقد صدق بهذا اللقاء إلهام الله تعالى فى وحيه إذ قال تعالى: ﴿...وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٥)﴾، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ معناه أنهم لم يعرفوه، والنفى مؤكد، بكلمة ﴿هُمْ﴾، وبالوصف، فحالهم حال إنكار مؤكد وذلك لطول العهد، وتركهم له وهو غلام، وقد صار رجلا مكتملا، وليوهمهم أنه هلك، والفارقة الكبيرة بين حاله إذ رموه فى غياهب الجب، وحاله وهو جالس على عرش مصر، أو قريب منه، لذا لم يعرفوه.

وقد روى الكاتبون فى قصص الأنبياء أنه صار وزير الملك، وجعل على خزائن الأرض وأقام العدل، والعدل ذاته فيه نماء، واجتهد فى تنمية الثروة المصرية، فأكثر من الزراعات، وضبط الثمرات والغلات وادخر ما ادخر لسنى الجدب على النحو الذى شرعه فى تفسير الرؤيا، ولما جاء الجدب، وكان يعلم ذلك بتعليم من الله، عم القحط مصر، وتوجه الناس إليه فباعها بالدراهم والدنانير

أولا، ثم باعوا حليهم وجواهرهم ثانيا، ثم باعوا أنفسهم ثالثا، ولكن نبى الله أعتقهم بتفويض من الملك.

وقد وصل القحط حيث تقيم أسرة نبى الله تعالى يعقوب فأرسل وُلْدَه يمتارون من مصر التى كانت وحدها بفضل تعليم الله تعالى لابنه هى التى يمكن أن تكون فيها الميرة.

كان يوسف هو الذى يتولاها، فأعطاهم ما طلبوا، وطلب منهم طلبا وقد قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم ﴾، أى ملأ ما معهم من جهاز، وأوفر ركائبهم بما طلبوا، طلب أن يأتوا بأخ لهم من أبيهم، وهو شقيقه وهذا قوله تعالى: ﴿ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾، أى خير الذين يكرمون الضيوف، وينزلونهم فى أحسن المنازل.

ثم هددهم بأنهم إذا لم يحضروه، وكان فى شوق إليه، وفى جمع الشمل، وهذا من دوافعه ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ (٦٠) ﴾.

﴿ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) ﴾، أى سنلطف بأحسن القول مع أبيه، أكدوا أنهم فاعلون ذلك وأكدوا ذلك بـ (إنّ)، وبالجملة الاسمية.

ولكن يوسف ما نوى أن يمنعهم من الكيل، ولكن أظهر لهم ذلك، ولذلك قال لعبيده: ﴿ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ ﴾، أى فى ركابهم، فقال تعالى فى ذلك: ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢) ﴾ انقلبوا معناها هنا وصلوا، والرحال جمع رحل، وهى ركائبهم، رجاء أن يعرفوها ورجاء أن يرجعوا إلينا بما وعدوا به.

ونرى هنا أن يوسف الذى كان رفيقا بأهل مصر، كان رفيقا أيضا بإخوته وأبيه، فلم يؤخر عنهم الميرة، بل عجلها لهم، وإن أوهمهم أنه يؤجلها حتى يعودوا إليه مع أخيه.

هل آمنكم عليه!!

قال الله تعالى:

فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ
فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾
قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن
قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟
مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا
مَا نَبْغِى ۖ هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ
أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ
أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ
أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ
﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَـٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ
مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا
لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾

أرادوا أخذ يوسف من أبيه ليكيدوا له، وكادوا ما كادوا، وهذه المرة، أخذوا أخيه لا ليكيدوا له، ولكن ليميروا لأهلهم، تشابه الموقف فى الظاهر، واختلف الباطن، ويشترك القصص القرآنى الصادق فى مجراه.

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾، الكيل المراد به المكيل، فهو مجاز لتلاقى الاشتقاق، وذلك لإحضار أخينا ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا ﴾ أو نقول: إن الكيل على حقيقته، أى منع أن يكال لنا، و﴿ نَكْتَلْ ﴾ معناها يكال لنا، ونكتل مجزومة فى جواب الأمر، ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ وعدوا وأكدوا الوعد بـ (إنَّ) واللام، كوعدهم عند أخذهم ليوسف، ولكنهم كانوا كاذبين، وهنا كانوا صادقين، فتشابهت ألفاظ الوعد، واختلفت الحقائق فيها، وإن الأحكام على الأقوال تؤخذ من الظاهر، ويقاس فيه الحاضر بالماضى، وقد كان ماضيهم فى يوسف يجعله يخاف من حاضرهم.

﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) ﴾ الاستفهام هنا إنكارى لإنكار الوقوع، وهو وقوع الأمن، أى ليس أمنى عليه منكم، إلا كأمنى على يوسف منكم، وقد كانت نتيجة الأمن فى الماضى أن جئتم تبكون، وتقولون أكله الذئب، فلستم أنتم الذين تحفظون أخاكم، ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾، وإنه إذ قال ذلك أبدى عدم ثقته بحفظهم أولا، وعدم الثقة بما فى نفوسهم ثانيا، وبالنسبة للأول ترك الأمر لله فهو خير حافظا، وأخذ موثقا للأمر الثانى فقال: ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا ﴾ كما سنتلو الآية كاملة من بعده.

وإنه فى أثناء مبادلة القول مع أبيهم بشأن أخيهم، وجدوا بضاعتهم فى رحالهم، ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴾، ففرحوا أشد الفرح، و﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ﴾، ﴿ مَا ﴾ إما أن نقول استفهامية، ومعناها أى شىء نريده بعد ذلك؟، لقد طابت الأمور واستقامت. يطيبون بذلك قلب أبيهم ويدخلون فى قلبه السرور، ويصح أن تكون نافية، أى لا شىء نبغيه، فقد تحقق كل ما بغينا، ولا شىء بعد ذلك، لقد دفعنا الثمن، وتسلمنا البضاعة ﴿ هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ ويلاحظ أنه عبر عن أخذهم بالبضاعة بقولهم ﴿ رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ ولم يقولوا جاءتنا، وذلك لأنهم صدقوا

مقالة العزيز عندما قال: ﴿فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي﴾ كأنها أخذت ثم ردها، كما يصنع الملوك خصوصا ملوك مصر.

وإن وجود البضاعة في رحالهم أحيت آمالا، فقالوا: ﴿نَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ فاطمأنوا إلى ذلك، ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾، واعتزموا الوفاء لأبيهم، بحفظ أخيهم، فقالوا: ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾.

وأبوهم كان مكلوما من نتائج إعطائهم يوسف، فكان لابد أن يحتاط لأخيه، حتى لا تكون النتيجة مثل ما كان بالنسبة ليوسف، بل أخذ عليهم ميثاقا كان نصه: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ كان الميثاق أن يأتوه به إلا أن يكونوا في حال إحاطة بهم، بحيث يغلبون على أمرهم، أو يكونون لا يطيقون فيها القدرة على المحافظة، ولقد قال بعد أن أتوه موثقهم ﴿اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾، أي رقيب يعلم ما في الصدور فيعرف نيتكم، وإرادتكم الوفاء.

ولقد كان نبي الله شفيقا بأولاده جميعا، ويخص يوسف وأخاه بحبه لصغرهما، إبان رمي يوسف في غيابة الجب، ولذا قال لهم: ﴿يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ لقد كانوا في فخامة وكثرة، وقد أكسبتهم مقابلتهم الأولى مكانة، وقد خشي أن تصيبهم عين، أو يتدافع الجند عليهم، أو نحو ذلك، ثم قال: ﴿مَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾، أي ما أدفع عنكم من الله من أي شيء، فـ ﴿مِّنَ﴾ هنا لاستغراق النفي، أي أن احتياطه هذا لا يمنع قدر الله تعالى إن كان قدر لكم شيئا ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾، ﴿إِنِ﴾ هنا نافية، أي ليس الحكم النافذ إلا لله تعالى، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي عليه وحده توكلت، فلا أتوكل على سواه وعليه وحده فليتوكل المتوكلون، فهو السند، وهو العماد وحده.

لقاء الأحبة

وَلَمَّا
دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم
مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ
لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ
إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾
فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ
أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟
عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ
وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ
لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ
﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ
مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن
وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ
فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ
وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

دخلوا من أبواب متفرقة، وتمثلت فى يعقوب النبى صورة الأب الشفيق الذى يخشى على أولاده من كل شيء، فإن الشفقة توهم ما لا يكون له حقيقة أو تكون له حقيقة ولكن بعيدة؛ خاف على أولاده أن يعانوا، أى تصيبهم العين، فقال: ﴿يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾، ففعلوا استجابة للحنان الذى يغمرهم، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾، أى من أبواب متفرقة حيث أمرهم أبوهم مما كان لا يغنى عنهم من الله من شيء، أى لا يدفع عنهم دون الله تعالى من شيء، أى أن العين وأشباهها لا تدفع بالدخول من أبواب متفرقة، إنما يدفعها الله إذا شاء ﴿إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾، هذا استثناء منقطع، على نظر الكثيرين من المفسرين، والحاجة هى الخاطر الذى خطر على فكر يعقوب، وصار فى حاجة لأن ينصح ولده بأن يدخلوا من أبواب متفرقة، وهذه الحاجة هى شفقته على أولاده، وخوفه من العين تصيبهم، كما أشرنا، ومن المفسرين من أنكر خوف العين، على مثل نبى الله يعقوب عليه السلام، وقال: إنه الخوف من الملك إذا رآهم وأولادهم جميعا فى أبهة وفخامة أن يبطش بهم، والحاجة تحتمل الأمرين، وربما كان يرشح للثانى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ من الحكمة والنبوة فلا يغنى عن الله شيء وإنا نميل إلى هذا.

ورشحه أيضا قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ بل يسيرون وراء ما يتوهمون، وإن لم تكن له حقيقة ثابتة، والله أعلم.

التقى يوسف بأخيه الحبيب المحسود من إخوته كما حسد هو، وترتب على الحسد كيدهم له الذى أدى إلى وقوعه فى الرق ثم نجاته، وصيرورته عزيز مصر المنقذ.

التقى بأخيه فضمه إليه، وأسر إليه وقال له: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

والأخوة هنا هى الأخوة بالمعنى الخاص، وهو أنهما شقيقان، ولأن حقدهما عليهما جعلهما ينحازان فى منحاز واحد، كما أراد الإخوة الكبار، وتذهب به شفقته، وما أنعم الله تعالى به عليه إلى التسرية عن نفس أخيه بقوله ﴿**فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾، أى فلا تدخل على نفسك البؤس والحزن بما كانوا يعملون، أى بما استمروا على عمله من إثارة للحسد والحقد، عملوه معى وكانت عاقبته ما ترى لى، فقد آلت عاقبة فعلهم إلى أن أكون عزيز مصر، وما يفعلونه معك لا تتصوره أن تكون عاقبته شرا، فعاقبته لك خيرا.

وكأنه أسر إليه بالاطمئنان إزاء ما سيفعله معهم، لا إرهابا ولا انتقاما، فمعاذ نبى الله أن يكون منتقما جبارا، ولكن ليبقى أخوه فى ظله، وليستمتع كلاهما بالأخوة الرفيقة القريبة، كما سيتبين من الآيات.

جهزهم بجهازهم الذى جاءوا طامعين أن يزيدهم كيل بعير، وحقق ما يبتغون، ومكر بهم مكرا طيبا، ليس خبيثا، ولا اعتداء كما فعلوا هم معه، فجعل الصواع الذى يكال به فى رحل أخيه، ولذا قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ** ﴿٧٠﴾﴾.

وقوله: ﴿**بِجَهَازِهِمْ**﴾ أى الجهاز الذى ابتغوه وأرادوه غير منقوص، وقد جعل السقاية فى رحل أخيه، أو وضعه فى الرحل الذى يحمل البعير المخصص له، ثم بحث عن السقاية، فتبين أنها غير موجودة، وأنها فى رحال القوم، فانطلق حراس القافلة منادين، وهذا معنى ﴿**أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ**﴾، أى أعلم معلم ﴿**أَيَّتُهَا الْعِيرُ**﴾، أى أيتها القافلة، وهو اسم الإبل التى عليها الأحمال، وهنا مجاز مرسل إذ أطلقت، وأريد راكبوها.

وفى وصفهم بالسرقة مع أنه لم تكن منهم سرقة، وما كان لنبى الله يوسف أن يكذب، ولو لخير، وقد أجيب عن ذلك بأنه لم يكن هو الذى وصفهم بالسارقين، إنما الحارس المنوط به حراسة حاجة الملك هو الذى قال ذلك، وإن كان

يوسف هو الذى وصفهم، فالوصف حقيقى، لأنهم سرقوا يوسف من أبيه، فكيف لا يسمون سارقين وقد سرقوا من الأب أعز ولد عنده.

والسقاية هى المشربة التى يشربون منها، وسميت هنا سقاية، وسميت من بعد بالصواع، لأنها استخدمت سقاية، واستخدمت للكيل، ولا مانع للمقتصد من أن يستخدم أمرا واحدا فى حاجتين مختلفتين، وخصوصا إذا كانت غالية فى ذاتها، فقد قيل إنها كانت من الفضة أو نحو ذلك، والصواع لغة فى الصاع.

أجابهم العير ﴿ مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾، أى شىء ضاع منكم وتبحثون عنه؟ ﴿ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) ﴾ جملة ﴿ وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم ﴾ جملة للحال، أى قالوا حال كونهم مقبلين، ماذا تفقدون، أى شىء ضاع منكم، وتبحثون عنه؟.

﴿ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) ﴾ الضمير فى ﴿ قَالُوا ﴾ يعود على جماعة الملك الذين يبحثون عن الضائع، وكيف يتكلم بلسان حالهم واحد منهم، ولقد ذكر هذا المتكلم عنهم جائزة مكافأة عنها وهى كيل بعير، أى حمل بعير يكال لهم سماحا، وقد تعهد المتكلم عن جماعة المصريين الحاضرين فى هذا ﴿ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ أى كفيل، فزعيم تطلق بمعنى كفيل وحميل، وضامن، وغيرها مما يدل على معناها.

كانت التهمة صريحة ابتداء، ثم هدأت للبحث عن المفقود، فتحايل المؤذن المتكلم باسم المصريين ليجد المفقود، وتخلى عن الاتهام الذى ابتدأه وعرض المكافأة، وتكفل بها.

ولكن الاتهام الأول بالسرقة ما زال قائما.

ولذا رد إخوة يوسف الاتهام بقولهم: ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) ﴾ دفعوا التهمة أولا بأن المصريين الذين يطيفون بالعزيز علموا علما مؤكدا بحسن نيتهم، وأنهم ما جاءوا ليفسدوا فى الأرض، والسرقة

والاغتصاب وأشباهها من الفساد فى الأرض، وما كانوا ليفعلوه، وَمَن حول يوسف يعلمون ذلك علم اليقين.

وثانيا بأن السرقة لا تليق بهم، وليست من شأنهم، ولذا قالوا: ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾، أى ما كان شأننا ولا من خصالنا أن نتصف بوصف السرقة.

وقد أكدوا نفى التهمة بالقسم، وباللام، وبأن ذلك لم يكن مقصدهم ولا غايتهم.

لم يقبل من كان يتهمونهم ذلك النفى المجرد، ولا أن يكتفوا بهذا الاتهام المجرد، بل أردفوا الأمر بالتحرى ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾، أومأوا إليهم بالتحرى، وسألوهم الجزاء لمن وجد الصواع فى متاعه، ليكون الجزاء به برضاهم، ولا يكون فيه غمط لهم أو تجاوز للحد، أو الشطط فى زعمهم.

﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥)﴾ أى جزاء هذه السرقة التى يستحقها من سرق، من وجد فى رحله، فالسارق هو الجزاء، ويظهر أن ذلك مبدأ كان معروفا، وهو أن السارق يكون جزاء للمسروق بأن يملكه المسروق منه، ويكون عبدا له، ولذا قال سبحانه وتعالى عنهم: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾، أى كهذا الجزاء نجزى الظالمين. وإن استرقاق الأحرار فى نظير المال كان مبدأ مقررا فى بعض عهود القانون الرومانى الذى جاء بعد ذلك بعدة قرون.

عَدُّوا الحكم على السارق إن كان، وهو أن يسترقّ فى نظير ما أخذ، فأخذوا يبحثون فى الأمتعة، ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ﴾، أى أنه بمقتضى الحكم الذى قرروه أن يكون أخوه حبيسا رقيقا عند العزيز ومن معه، وذلك مبتغى يوسف، لأنه يريد أن يحتجز أخاه عنده مكرما غير مهين، وتم له بذلك ما أراد. وذلك بتدبير الله تعالى، ولذلك قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أى كدنا ليوسف هذا التدبير، أى دبرنا ليوسف مثل ذلك التدبير ﴿مَا

كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ودين الملك سلطانه وقدرته، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ﴾ نفى للشأن: ما كان من شأنه أن يأخذ أخاه عدلا فى سلطان الملك إلا أن يشاء الله بأن يجرى على ألسنتهم ذلك الحكم، وهو أن يكون جزاء صواع الملك رق أخيه.

ويبين الله تعالى عدالته العامة فى الناس ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ أى نرفع درجات ومنازل فى العلو من نشاء، وقد رفعنا يوسف فوق إخوته، حتى احتاجوا إليه، ومدوا أيديهم طالبين منه الميرة والعون، وأعطيناه الملك والعزة والحلم وتدبير شئون الدولة، حتى صارت تمد غيرها، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ وما من علم بتدبير الأمور إلا فوقه علم الله تعالى وهو فوق كل علم، وقد أحاط بكل شىء علما.

الرجاء واليأس والماضى

قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ
فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ
وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا
تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا
فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾
قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ
إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ
قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم
مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ

ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ
﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ
وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ
﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ
وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ
فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾

استيقظ الحقد الدفين، فكذبوا على يوسف، وهو يخاطبهم، وهم فى كلاءته، وحمايته، فقالوا: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ وإذا كانوا قد سلموا بالسرقة، لأنهم قامت لديهم الظاهرة الدالة عليها، فلماذا كان الافتراء على أخيه، وهم الذين سرقوه من أبيه، وألقوه فى الجب، ولكنه الحقد والحسد لم يقتلهما الزمان، وأسرَّ ذلك يوسف فى نفسه، ولم يبدها لهم، كَرَما وهو القوى المسيطر ولكنه ليس جبارا، وليس حانقا، لأن الله سبحانه وتعالى جعل النتيجة خيرا ونعمة له، وكانت بحكم الله تعالى التمهيد لذلك السلطان، فكيف ينتقم وإذا كان لم يُبْدِ ما أسرّ فإنه وصفهم بوصفهم الحقيقى، وقال ما هو نفى للسرقة عن أخيه ونفسه ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾، أى أنتم شر منزلة عند الله لأنكم سرقتم أخاكم، وصنعتم السوء من غير جريرة من أبيكم ولا أخيكم، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾ علما ليس مثله علم ﴿بِمَا تَصِفُونَ﴾، ولو كانوا يعلمون أنه أخوهم يوسف لأدركوا المغزى والمرمى من القول، ولكنهم لم يعلموا، ولم يتوهموا أن يكون هو يوسف والضمير فى ﴿فَأَسَرَّهَا﴾ يعود إلى الفرية أو الكلمة.

وبعد أن افتروا ذلك الافتراء إشباعا لنهمة الحقد أخذوا يستعطفون يوسف، ويثيرون عوامل الرحمة فى نفسه ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨)﴾ نادوه بالمنصب مهابة وإجلالا، وتقربا، وذكروا حالهم، وهو أن له أبا شيخا كبيرا قد تعلق به، وإن أى واحد منهم قابل لأن يكون فى الرق مكانه، ولكن يوسف عليه السلام لا يريد أحدا غيره؛ لأنه حبيبه فى باطن الأمر وفى ظاهره هو السارق، ويتخذ من الظاهر ذريعة إلى تحقيق الباطن، فباسم الظاهر يقول لإخوته: لا نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده، فلا نأخذ غيره بجريرته، إنا إذا لظالمون، أى إنا معشر الحاكمين نكون إذن ظالمين، إذا أخذنا مكان الجانى غيره، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وكل امرئ بما كسب رهين، وقد أكد الحكم بالظلم على من يأخذ بدل الجانى.

ويلاحظ هنا أمران:

الأمر الأول: أن ينبوع الشفقة على أبيهم أخذ ينبع من قلوبهم، فقبلوا أن يكون أحدهم فى الرق بدل أخيهم المحسود، رفقا بأبيهم، وللعهد الذى أخذ عليهم.

الأمر الثانى: أنهم نادوا يوسف بأنه العزيز، ويستفاد من الكلام أنه آل إليه أمر مصر، ويؤيد هذا أن أخبر الله بعد ذلك أنه استولى على العرش.

يئس الإخوة من أن يرجعوا بأخيهم إلى أبيهم، وقد صاروا فى حيرة من أمرهم، ودفعتهم الحيرة إلى أن تعود قلوبهم إلى ما كانت عليه، ولذا قال تعالى عنهم: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾، أى انفردوا متناجين، ونجيا مصدر، والمصدر يستعمل فى معنى الجمع، وفى تناجيهم قال كبيرهم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ الاستفهام هنا إنكارى بمعنى إنكار الوقوع، ونفى النفى إثبات، والمعنى أنه عنفهم فى قوة قائلا لقد علمتم أن أباكم أخذ عليكم عهدا موثقا بأيمان الله، ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾، أى من قبل إذ

فرطتم فى يوسف، وألقيتموه فى غيابة الجب، وهذا الكلام يدل على أن أخاهم الأكبر لم يكن راضيا عن فعلتهم مع يوسف، ويؤكد صدق الرواية التى تقول: إنه كان غائبا، إذ فعلوا فعلتهم مع يوسف، وأنه حاول أن يستعيده ويخرجه من الجب، ولكن السيارة كانوا قد أخذوه.

أبدى الكبير العهد، وأبدى استنكاره لتفريطهم فى يوسف، وعبر عن فعلهم بأنه تفريط فى حق الأخوة، واستهانة بالواجب نحوها، سيرا فى طريق الحقد، والغى، ﴿ **فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ** ﴾، أى مصر، ﴿ **حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ** ﴾.

ولكن كما أشرنا انبعث فيهم ما كان قد اختفى من نفوسهم الحاسدة، فقالوا فى نجواهم:

﴿ **ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢)** ﴾.

يتضمن هذا الكلام الذى حكاه الله تعالى عن سائر الإخوة مُفْرِدًا الكبير بكلام عاطف نابع من النفس اللوامة، وكلامهم هذا يشير إلى معانٍ:

المعنى الأول: أنهم استهانوا بالأمر، وأن الأمر لا يتجاوز أن ابنه سرق، وما عبروا بأنه أخوهم بل بأنه ابنه، وهى نغمة الافتراق الحاسدة.

المعنى الثانى: أنهم لم يقولوا اتهم بالسرقة، بل يقولون: إنه سرق، مؤمنين بذلك مستوثقين ومؤكدين، وذلك من بقايا حسدهم وحقدهم عليه.

المعنى الثالث: أنهم يؤكدون سرقته بثلاثة أمور:

الأمر الأول: شهادة القرية التى كانوا فيها وهى المدينة العظيمة بمصر.

الأمر الثانى: شهادة العير التى كنا فيها.

الأمر الثالث: تأكيد صدقهم، وكل هذا من انفعال نفوسهم بالحقد الدفين على يوسف وأخيه.

ذهبوا إلى أبيهم، وقالوا تلك الكلمات التى تنبئ عن حقدهم، ولذا لم يصدقهم الأب الشفيق، ورد كلامهم قائلا: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣)﴾ رد عليهم فى أمر أخى يوسف، كما رد عليهم فى أمر يوسف، و﴿بَلْ﴾ هنا للإضراب برد كلامهم، وعدم تصديقه، و﴿سَوَّلَتْ﴾: معناها حسَّنت لكم أنفسكم أمر سوء، وإذا كان ذلك حقا فى أمر يوسف فهو ظن فى هذا الموضوع سوغه له ماضيهم مع أخيه، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، أى فأمرى، أو فصبرى لا أنين فيه ولا شكوى لأحد من الناس.

ولكن الرجاء فى رحمة الله سابق إليه دائما، ولذا قال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾، أى بيوسف وأخيه، ولعله قد انضم إليهم أخوهم الأكبر الذى لم يشترك فى تفريطهم فى يوسف ولامهم بعد عودته، وكان غائبا وقد أكد رجاءه بأن يأتوا إليه مجتمعين غير متفرقين.

وختم الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة، بما يقوى رجاءه ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ الضمير يعود إلى الله تعالى الحاضر فى الألسن المؤمنة دائما، العليم الذى يعلم كل شىء، لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء، الحكيم الذى يدبر الأمور بحكمته وعلى مقتضى علمه الواسع.

الأب الحزين الذى ابيضت عيناه من الحزن

قال تعالى:

وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ
يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾

قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا
أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُواْ بَثِّي
وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾
يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُواْ
مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾

زاد أباهم حزن إلى حزنه، لما عادوا إلى أبيهم من غير ابنه، فنكئوا جرحه القديم على يوسف، ولقد صور الله تعالى حاله عندما أنهوا إليه خبر ولده الثانى فقال تعالت كلماته: ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ ﴾ أعرض عنهم؛ لأن إخبار أخبار السوء، تضر ولا تسر، فانكفأ على نفسه، والأسف الحزين الذى يملأ نفسه الحزن، ويستغرق حسه، وهو يقول ﴿ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾، وهى جملة تصور ألمه وحزنه، وكأنه ينادى الأسف والحزن؛ لأن هذا وقته، وذكر يوسف مع أنه رزئ رزءا جديدا بولديه شقيق يوسف وولده الأكبر الذى كان يشاركه فى أحزانه وآلامه، وذلك لأن أمرهما معلوم، فهو يعلم أنهما على قيد الحياة، وأن أحدهما فى الرق، والآخر قد رضى مختارا بالبعد، ويشاركه فى الأسف، أما يوسف الحبيب فأمره مجهول لا يدرى أهو حى أم ميت، وأهو فى تعب أم فى راحة فرزؤه فى يوسف كان عاقده المصائب، وكان غضبه آخذا بمجامع قلبه، كما عبر البيضاوى(١).

وقد اجتمع طول الأدهر التى مرت على يعقوب غربة ولده التى لا يعلم له مآل وقلق مستمر، وحنان وشوق شديد إلى رؤيته وبكاء مستمر، دائب، وحزن عميق مؤسف، وانقسام بين أحبابه وفلذة كبده، وكل هذه الآلام أثرت فى بصره،

---

(١) انظر البيضاوى ـ ج٣/ ٣٠٤.

ولذا قال تعالى: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أى طوى نفسه على آلام مستمرة من أولاده الذين كادوا لأخويهم، ومن الحوادث التى باعدت بينه وبين أحبابه، وكظم الغيظ فى ذاته ممض، وملق بالبؤس فى نفسه، لولا ما امتلأ قلبه بالإيمان، ولولا الرجاء الذى يرجوه، والأمل الذى عاش عليه، والكظم أصله كظم البعير إذا ردها من فرقه.

أجابه أولاده فى ذكر آلامه المستمرة ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ كانت الإجابة غير مخففة لآلامه، بل كانت مؤججة لها، كانت إجابة من لا يهتم بالأمر فى ذاته، والحزين يحتاج إلى من يشاركه فى الحزن، لا إلى من يلومه على حزنه، ويل للشجى من الخلى، والحَرَض هو المريض الذى أشرف على الهلاك أو أذابه الهم والمرض.

والمعنى أنهم يؤكدون بالقسم أنه لا يزال يذكر يوسف حتى يؤدى به الأمر أن يكون فى مرض دائم مستمر يذيب نفسه، وينتهى بالهلاك لا محالة، و﴿أَوْ﴾ هنا بمعنى الواو.

قال لأولئك الذين يلومونه على حزنه، وهم سببه، ولا يحسون باهتمام لآلامه، بأنه لا يشكو حزنه إليهم إنما يشكو حزنه إلى الله ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦)﴾.

البث الهم العارض الذى لا يمكننى الصبر عليه، وينتشر فى كل نفسى، ويسدُّ علىّ أسباب السرور، و(الحزن) ما يكون فى النفس من الآلام الدفينة، وقد كان حزنه على يوسف قديما، وبثوا إليه همًّا آخر هو فى ولديه شقيق يوسف وكبيرهم، و (إنما) من أدوات الحصر، أى أنه لا يشكو همومه العارضة، وأحزانه الدفينة إليكم، بل يشكوها إلى الله وحده.

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، هذه الجملة تحوى فى نفسه كل الرجاء الذى يرجوه والأمل الذى يأمله، وفيه دلالة على أنه يعلم أن الله كاشف كربه، مزيل

همه، وهو من علم الله تعالى، لا من علم أحد، يعلمه بالإلهام أولا، وبرجائه فى الله ثانيا، وبرؤيا يوسف الصادقة ثالثا، ففيها أنه رأى الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا له ساجدين، وتأويل الرؤيا أن يكون فى ظل يوسف، وهو فى عز مكين، وإن ذلك واقع لا محالة.

وقد بنى على هذا الأمل، وذلك الرجاء أن كلفهم بالبحث عن يوسف وأخيه، فقال كما حكى الله تعالى:

﴿ **يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** (٨٧) ﴾ ناداهم بنداء الأبوة الكريمة العاطفة، طالبا منهم أن يذهبوا فى الأرض متعرفين أخبار أخويهم يوسف وأخيه، والذهاب إما فى بقاع الأرض باحثين، وإما إلى أرض مصر، والظاهر الثانى لأن شقيق يوسف كان فى مصر بلا نزاع، فالمعنى اذهبوا إلى أرض مصر ﴿ **فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ** ﴾، والتحسس التعرف بالحواس الظاهرة والباطنة، أى فتعرفوا الأمور عن يوسف وتتبعوا آثارهما وأخبارهما، ولا تقنطوا من رحمة الله وفرجه، ﴿ **إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ﴾، أى أنه لا يقنط من رحمة الله وفرجه إلا القوم الكافرون الذين إذا أصابتهم سراء طغوا فى البلاد، وأكثروا فيها الفساد، وإذا أصابتهم ضراء، كما قال تعالى: ﴿ **وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ** (٩) **وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ** (١٠) ﴾ [هود] فرجاء نبى الله يعقوب فى لقاء يوسف لم يذهب أبدا.

جمع الشمل

قال الله تعالى:

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا

إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم
بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ
لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ
عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ
ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا
وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ
ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾
ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا
وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٣﴾

طلب إليهم أبوهم أن يتحسسوا، ويتتبعوا أثر يوسف وأخيه، ولا ييئسوا من روح الله، ولعلهم أطاعوا وأخذوا الأهبة، ليتعرفوا آثار أخويهم، وخصوصا أنهم يذهبون لمصر للميرة، وهى مكان تحسسهم، فذهبوا إليها، ولقوا يوسف كبيرها ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) ﴾.

(الفاء) هنا تفصح عن كلام مقدر تقديره قصدوا إلى يوسف، فلما دخلوا عليه، نادوه بما يليق بمنصبه، وبمكانته التى صار بها عزيز مصر، وخاطبوه بذلك متلطفين طالبين عطفه ورفده ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ وهو الضرر الذى يصيب الجسم فى داخله، وذلك الضر الذى أصابهم سببه الجوع، ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾ أى مردودة مدفوع عنها، لرداءتها وعدم الرغبة فيها، أى جئنا ببضاعة ليس من شأنها

أن تقبل، بل من شأنها أن تزجى وتدفع، ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾، الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وإيفاء الكيل ليس مترتبا على كون البضاعة مزجاة مدفوعة، إنما أيضا الكيل مترتب على إصابتهم الضر، أى بسبب هذا الضر أوف الكيل مع أن الثمن الذى نقدمه بضاعة مزجاة.

﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ أى تصدق بهذا الوفاء وبالزيادة عليه مع أن البضاعة التى جعلناها ثمنا رديئة تُردّ ولا تقبل، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾، فاطلب حب الله، ولا تطلب عوضا منا.

آن ليوسف الصديق الرفيق الشفيق الصالح أن يظهر شخصه مع ما من الله تعالى به عليه: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩)﴾ الاستفهام هنا تقريرى تذكيرى، وفيه إشارة إلى شخصه وقد أنكروه ابتداء لانقطاع الخبر، ومرور الزمن، وتفريق ما بين رجل مكتمل وحدث صغير، وقد صار رجلا سويا، كان ذلك توجيها لأن يرجعوا بالبصر كرتين، فرجعوه، فتبين لهم أنه يوسف، فقالوا مؤكدين ومتأكدين: ﴿أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ وأكدوا أنه يوسف بـ(إنَّ) المؤكدة، وبـ (اللام)، وبـ (أنت)، فقال لهم: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ ولم يكن ثمة حاجة إلى التأكيد، لأن التوكيد مظنة الإنكار، ثم يبين نعمة الله عليه وعلى أخيه ﴿وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ قد تفضل الله علينا بمنه وأكرمنا: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أظهر فى موضع الاضمار، فلم يقل إن الله لا يضيع أجرنا، وكان ذلك أولا لوصف عملهم بالإحسان أولا، ولأن الإحسان هو السبب فى من الله تعالى وعطائه، وثانيا للتعريض بما فعل الإخوة معه، وأنه لم يكن من الإحسان فى شىء ثالثا.

يشتد الإحساس بالخطأ إذ أظهرت النتائج غير الحسنة، ولذلك أحس أولئك الإخوة بظلم ما فعلوا فقالوا: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١)﴾.

قالوا مقسمين على حقيقتين:

الحقيقة الأولى: أن الله آثر بالفضل والإحسان والتوفيق يوسف عليه السلام، فقد أعطاه النجاة من الموت والرق، والسلطان على مصر، خير بلاد الأرض تجاورهم، فكان هو ملكا عزيزا، وهم دونه، وأكدوا أن الله آثره: بـ (اللام)، و(قد)، وبـ (القسم).

الحقيقة الثانية: أنهم أحسوا بأنهم كانوا آثمين، ولذا قالوا: ﴿**وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ**﴾، ﴿**إِن**﴾ هى المخففة من الثقيلة وإنه الحال والشأن كنا لخاطئين، والخاطئ هو الواقع فى الإثم، أو الخطيئة، وقد أكدوا إثمهم أولا بـ (إنْ) المخففة من الثقيلة، و(كان) الدالة على استمرار خطئهم، و (لام التوكيد) ﴿**لَخَاطِئِينَ**﴾ وهذا اعتراف خطير بالذنب، وهو أول خطوات التوبة.

ولكن الكريم ابن الكريم، النبى ابن النبى يعقوب، «**وما زاد عبد بعفو إلا عزا**»[1]، ويقول: ﴿**لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ**﴾، التثريب، اللوم والتوبيخ، والرمى بالعار، وقد روى عن قتادة أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، قال: «**إذا زنت أمة أحدكم، فليجلدها الحد ولا تثريب عليها**»[2]، أى لا توبيخ ولا رمى عليها بالخزى حتى لا تصاب بالهوان، فتسهل الجريمة عليها، ومعنى ﴿**لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ**﴾، أنه فى اليوم الذى بدا نصر الله، وإعزازه لمن كنتم تريدون له الضياع أو الهوان، والرق، فإن ذلك يكفيكم عبرة، وبيانا لسوء مغبة أفعالكم، وأحقادكم، فلا توبيخ أكثر من معرفة النتيجة، ولكن بدل التوبيخ، واللوم محبة الإخوة، ومودة الأهل، ولذا قال بعدها، ﴿**يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾، يطلب من

---

(١) عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله». رواه مسلم: البر والصلة والآداب ـ استحباب العفو والتواضع (٤٦٨٩)، والترمذى: البر والصلة (١٩٥٢)، وأحمد: باقى مسند المكثرين (٦٩٠٨).

(٢) رواه البخارى: الحدود ـ لا يثرب على الأمة إذا زنت (٦٣٣٤)، ومسلم: الحدود ـ رجم اليهود أهل الذمة فى الزنا (٣٢١٥).

الله تعالى المغفرة لهم مما أساءوا إليه، والرحمة بهم عامة، وهكذا يكون الصفح الجميل الخالى من المنّ به، واللوم على ما فعلوا، فاستجاب حقا لأمر الله تعالى لأنبيائه ﴿ ...فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) ﴾ [الحجر]، ثم تلفت إلى أبيه وقد أعلمه الله تعالى بحاله، وكيف ابيضت عيناه من الحزن، فقال لهم: ﴿ ذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ وهذا دليل أن بصره قد ذهب من شدة الكمد والحسرة والأسف، وكثرة البكاء، وارتداد البصر من خوارق العادات، وهذا يوسف ويعقوب يرد الله على أيديهما البصر بعد ذهابه قبل عيسى الذى كان يبرئ الأكمه والأبرص.

وقد دعا يوسف الصديق إلى جمع الشمل بالمودة الواصلة، بعد أن فرقه إخوته بالحسد الغامر، وقال: ﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ من تربطكم بهم قرابة دانية، وقرابة قاصية.

الغفران والرحمة ولقاء الأب لابنه الحبيب

قال تعالى:

وَلَمَّا فَصَلَتِ
ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن
تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾
فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ
أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ
يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ
أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا

دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾

كان صفح يوسف الجميل هو الخطوة الأولى لجمع الشمل، وما أشبه ذلك بصفح محمد ﷺ عن قريش الذين أخرجوه، وقتلوا أحبته من المؤمنين، من وقت مبعثه إلى فتح مكة، فاستمر الأذى عشرين سنة أو تزيد، ومع ذلك ما إن بعثهم، حتى قال مقالة يوسف: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[1] وموقف محمد صلى الله تعالى عليه وسلم كان جليلا عظيما، يتعاظم بعظم ما ارتكبوا في جنبه ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ... ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة].

صفح عنهم يوسف، والتفت إلى أبيه الشيخ الحزين الأسيف، وكان أن أرسل القميص، وعادت العير إلى البدو حاملة القميص، وقد كان معطرا بعطر

(١) انظر ما رواه البيهقي في ذلك (١٨٦٤٧): ج١٣/ ٤٣٩. كما رواه النسائي في الكبرى (١١١٩٣): ج٦/ ٣٥٥.

ملوك مصر، وقد قالوا: إن عبيقه شمه نبى الله يعقوب من نحو ثمانين فرسخا، وقد يقال إنه إلهام النبوة، جعله يشم رائحة يوسف من مكان بعيد، ويقول عليه السلام: ﴿لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ﴾، أى إلا أن تنسبونى إلى الفَنَد، والفند نقصان عقل بسبب الشيخوخة، وما هى شيخوخة، ولكنها نبوة وشفقة أبوة. و ﴿لَوْلا﴾ حرف شرط وتعليق، وجوابه محذوف، أى لولا أن تفندونى لصدقتم، ولآمنتم بالحق، وتقدير التفنيد لعقليتهم غير المدركة، لا للأمر فى ذاته.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥)﴾، الضمير فى ﴿قَالُوا﴾ يعود إلى الحاضرين، ويظهر أن بعضهم ذهب فى العير للقاء عزيز مصر، وبعضهم بقى مع أبيه، أقسموا مؤكدين بأنه ليس فند الشيخوخة، ولكنه حال قديمة، وقالوا إنه ضلال قديم لازمك، ولذا أضافوا الضلال إليه عليه السلام، وهو زعمهم الكاذب فنبى الله تعالى مستحيل أن يكون ضالا، ومهما يكن فقد نفوا عنه فند الشيخوخة.

وكل ذلك قبل أن يجىء البشير، ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً﴾، ﴿أَن﴾ مؤكدة لمجىء البشير، وقد سمى بشيرا، لأنه بشر يعقوب عليه السلام بوجود ابنه، وقرب لقائه، ولأن معه ما يرد البصر إليه، وبمجرد مجيئه ألقاه على وجهه، و﴿أَن﴾ كما أكدت الشرط، وهو مجىء البشير، أكدت أيضا ترتيب الجواب على الشرط، ألقاه فور مجيئه، ﴿فَارْتَدَّ بَصِيراً﴾، الفاء للعطف مع الفورية، وتلك خارقة للعادة كما أشرنا من قبل، وقد بين يعقوب بعد ذلك أنه لم يكن واهما، ولا ضالا عندما كان يقول لهم: ﴿اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ وعندما كان يذكر لهم ما أعلمه الله تعالى، لذا ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ الاستفهام لإنكار الوقوع مع التنبيه الشديد، داخل على النفى ونفى النفى إثبات، والمعنى لقد علمتم أنى أعلم من الله ما لا تعلمونه أنتم.

عندئذ أحسوا بجريمتهم الشديدة نحو أبيهم، إذ حرموه من ابنه سنين طوالا، وتركوه فريسة الشوق والحزن والأسى والبكاء مع الصبر الجميل من غير

أنين لأحد من العباد، فاتجهوا إلى أبيهم يطلبون أن يستغفر لهم ربه ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾.

لقد أحسوا بعظم الذنب، وهو أول طريق التوبة وندموا على ما فعلوا، وطلبوا المغفرة، وبذلك توافرت عناصر التوبة طلبوا من بعد ذلك أن يطلب أبوهم المغفرة؛ لأنه مع الذنب العظيم هو المجنى عليه، وهم يطلبون مرضاته، وفتح قلبه لهم وهو القريب إلى الله، ولذا لجأوا إليه، وعبروا بـ ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ آثمين غير مدركين سوء المغبة.

فأجاب الأب الشفيق النبى الكريم: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨)﴾ ما فارق يعقوب نبى الله حنانه على أولاده جميعا، وإن كان يخص يوسف وأخاه بفضل من المحبة لصغرهما، وحاجتهما إلى العطف الأبوى ثم زادته غربة يوسف وجدا عليه ومحبة وشفقة، ولذا لم يلمهم، ولم يذكر ماضيهم معه، ومع أخيه، بل وعدهم وعدا مؤكدا بأنه سيستغفر لهم فـ ﴿سَوْفَ﴾ لتأكيد الاستغفار المستمر فى المستقبل ﴿لَكُمْ﴾، واللام لام الاختصاص، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وأكد لهم الغفران بوصف الله تعالى بأنه الغفور، أى الكثير المغفرة وصف للذات العلية، وأن ذلك الغفران من رحمته، والرحمة شأنه وصفته الدائمة.

كان يوسف عندما طلب أن يوضع القميص على وجه أبيه ليرتد بصيرا طلب أن يأتوهم بأهله أجمعين ليكونوا معه فى عزة الحكم، وإن الكريم عندما يجتمع أهله بعزته ينال متعتين: أولاهما متعة العزة الحلال العادلة لنفسه، ومتعة مشاركة أهله له فى العزة والسلطان؛ تلك هى الفطرة.

استجاب إخوته أو من جاءوا إليه منهم لرغبته، وأتوا بأهله، وفيهم الأبوان الكريمان، ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩)﴾، رحب بهم جميعا، وخص أبويه بفضل ترحيب، لما قاسا من الهول فى

غيبته، ولأنهما الأبوان، وهما أحق الناس بالإحسان، و﴿آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ هنا معناها ضمهما، وأسكنهما في مسكنه ليتمكن من رعايتهما وحسن القيام على شئونهما، وليستمتعا بقربه بعد طول فراق، ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾، ودخول مصر منصبٌّ على الأمن، أي ادخلوا حال كونكم آمنين بمشيئة الله من الخوف والقحط والشدة، أو أن سيدنا يوسف استقبل قبيله شوقا ورغبة في اللقاء خارج الأمصار، ثم قال: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ مطمئنين تجدون سهلا وأهلا وعزة وكرامة، وفي القصص إنها لم تكن أُمُّه بل كانت خالته، وسميت أما كما يسمى العم أبا، ونقول: إن تعبير القرآن هو الصادق حتى يقوم الدليل على خلافه.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ إن السجود هنا ليس سجود الصلاة، وإنما هو تقديم الطاعة والخضوع للحكم والسلطان، ويصح أن نقول: إنه تحية وتكرمة لصاحب عرش مصر وهو يوسف، والخر - ومعناه الانحناء خضوعا وتكرمة وتحية.

وقال بعض المفسرين: إن الضمير في ﴿لَهُ﴾ يعود على يوسف، والمعنى وخروا ساجدين لله شكرا على النعمة التي أنعمها على يوسف، وأن صاروا في رحابه، وذلك معنى معقول في ذاته.

وقال بعض المفسرين: إن الضمير في ﴿لَهُ﴾ يعود لله تعالى، والمعنى خروا ساجدين لله كأنهم يصلون صلاة شكر لله تعالى، والمعنيان الأخيران نميل إليهما، ولا مضاربة بينهما، بل السجود فيهما لله.

أخذ يوسف يستمتع بالحديث مع أبيه، ويثيران ذكريات طيبة، ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

قص يوسف على أبيه ما أصابه من شدة، ولكنه ذكر النعم التى أعقبت النقم، ذكر خروجه من السجن، ولم يذكر دخوله، ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ وذكر تأويل الرؤيا وغايتها، ولم يذكر ما كان بعد الرؤيا، وكان مستمتعا بنعمة الأبوة إذ يناديه ﴿يَا أَبَتِ﴾ وفيها ياء المتكلم قلبت تاء، حتى كان اللفظ نداء محبة.

ذكر اللقاء السعيد فى هناءة وسرور، فقال: ﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾، أى جاء بكم من بدو الصحراء حيث لأوائها وشدائدها، وقيظها وريحها الرعناء الساخنة إلى ريف مصر وخصبها.

فهو يذكر النعم، والنفس المؤمنة تذكر النعمة وتشكرها فكانت نفس النبى الصديق ذاكرة للنعمة غير مبينة للشدة؛ لأن الأساس هو النتائج، لا الوسائل.

ولم تذكر قضيته مع إخوته إلا بالإشارة غير عائدة باللائمة عليهم، بل يكاد لا يخلى نفسه من ملام، فيقول: ﴿مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أى أفسد ما بيننا من محبة وود وإخاء جامع، و﴿نَّزَغَ﴾ معناها نخس وأفسد من قولهم نخس الدابة فجمحت فألقت حملها، ولم ينسب الشر إلى إخوته، بل نسب النزغ بأنه بينهم مع أنهم المعتدون وهو البرىء المجنى عليه، ولكنه الكريم ابن الكريم، يريد أن يمحو العداوة بالمودة، وعبر بالأخوة الرابطة، فقال: ﴿نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾، ثم بين لطف الله، وترتيبه الخير وسط إرادة الشر، فقال مثنيا على ربه بما هو أهله، ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾، أى لطيف التدبير محكمه يجعل الخير من إرادة غيره، ويجعل من النقمة نعمة، ومن السيئة حسنة.

إذ لولا سيئة إخوته ما كانت أرداف الحسنات التى أسبغها الله تعالى عليه، إنه هو العليم بكل شىء، العليم بمقدمات الأمور ونهاياتها الحكيم الذى يدبر كل شىء بمقتضى علمه الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

ثم اتجه إلى الله شاكرا له فضل نعمائه جملة وتفصيلا فقال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ ابتدأ النداء الضارع بقوله: ﴿رَبِّ﴾ أى

منشئى والمنعم علىّ بالوجود والإنسانية والمسرة فى الشدة، والنجاة من كل ألم بفضلك وعنايتك.

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾، ﴿قَدْ﴾ هنا للتحقيق، وقال: ﴿مِنَ الْمُلْكِ﴾ ولم يقل الملك، لأن الملك كله لمالك الملك ذى الجلال والإكرام، والطول والإنعام، فما يملك الحاكمون ليس إلا ذرة من ملكه سبحانه، وهو ليس من جنسه، بل من جنس آخر، وهو ما يكون للعبيد فى هذه ومتاعها، وهو قليل بجوار متاع الآخرة.

﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾، أى من معرفة مآل الأحاديث سواء أكانت رؤيا فى المنام أم كانت أحاديث الناس فمعرفة أحاديث الناس، شعوبا ودولا وجماعات، من علم سياسة الدولة، وكيف يُدبَّر أمرها، وقال عليه السلام: ﴿مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾، أى علمه بعضها، لا كلها، وفوق كل ذى علم عليم، فما علم كل سياسة الحكم، ومعاملة الناس، وما علم كل تأويل الرؤى، ولكن علم بعضه، وذلك من تواضع العلماء، أمام العلم العام.

ثم نادى ربه بأنه خالق الكون كله وانتقل من نعمته عليه إلى نعمته على الكون كله، فقال: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، أى مبدعهما على غير مثال مسبق فهو بديع السموات والأرض.

ثم أعطاه الولاية كلها، أو اعترف بالولاية كلها، فقال: ﴿أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾، أى أنت ناصرى ومتولى أمرى فى الدنيا والآخرة، توليتنى بحمايتك ورحمتك فى الدنيا، فتولنى بها فى الآخرة، ثم قال ضارعا لربه، ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾، توفنى إليك مخلصا الدين لك أنت وحدك، واجعلنى فى الصالحين من الصديقين والشهداء ومن ارتضيتهم يا رب العالمين.

الاعتبار والاستدلال

قال تعالى:

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ
نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ
﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾
وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾
وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا
وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا
وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾

هذه قصة نبى الله يوسف عليه السلام كان القطب الذى دارت عليه القصة تلك الشخصية العالية، التى تغلبت عليها، وقد بينا أنها ليست قصة غرام، كما توهم ذلك بعض الذين خرجوا عن الإسلام بهذا الوهم الذى توهموا وبنوا عليه ما كفروا به، فقد حققنا أن ما يتعلق بغرام امرأة العزيز به عليه السلام، واستعصامه بأمر الله ونهيه لا يتجاوز ثمانى آيات، كانت فيها المفاضلة بين الفضيلة والرذيلة، وإذا أضيف إليها إقرارها بأنها راودته عن نفسه تكون تسع آيات من إحدى عشرة آية.

وإن القصة - كما رأيت - صورت لك الغلام ينتقل من عز الأبوة الحرة الكريمة إلى الرق، ثم من الرق والسجن ينتقل تحت عين الله تعالى وبصره إلى ملك مصر الذى كان يملكه فرعون وأصلح يوسف فى الأرض، ونمى الخير، ودبر به أمر البلاد، ولم يقل أنا ربكم الأعلى، بل قال أنا عبد الله، ولم يقل مفاخرا

أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى، بل قال شاكرا ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ أنت لطيف لما تشاء، وإذا كانت مصر قد اشتهرت بحكم الفراعنة والاستبداد، فقد جاء حكم يوسف حكما صالحا، ليثبت الله أن الإصلاح زرع طيب يربى النفوس، ويقوى العزائم حتى فى أرض فرعون الذى طغى وبغى وأكثر فيها الفساد.

والسورة فوق ذلك تصور كثرة أسباب الرق وفوضاه، وتصور أسباب السجن ومظالمه، وتصور الحال الاقتصادية فى مصر، والبلاد التى تجاورها، وكيف كانت مصدر الرفد لمن حولها، وغير ذلك مما ذكرناه فى تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ⑦﴾، الذين يبحثون عن حقائق الأمور ومآلاتها.

يقول تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ﴾ الإشارة إلى ما ذكر من أنباء كان يوسف قطبها، والخطاب فيه للرسول ليكون ذلك المذكور من نبأ يوسف تسلية لابن عمه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم، يتسلى به إذ يرجو النصر، وإن كان الشرك هو الظاهر، فهذا غلام ملقى فى الجب، ثم يباع ويشترى، وتنكشف الأمور بعد سجنه عن ملك عادل يسوس أخصب أرض الشرق نماء وثروة، إن من يحكم الأمور بتدبيرها ليس ببعيد عليه أن يخرجك من وسط بأساء قومك، إلى عز الله تعالى:

﴿مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾، الأنباء جمع نبأ، وهو الخبر الخطير ذو الشأن، و﴿الْغَيْبِ﴾ أى متلبسا الغيب؛ لأنه غائب عنك، وعن قومك، وما كان ليعلمه أحد من قومك، لأن أحداثه ليست فى بلاد العرب، وما كانت فى أرض مجاورة لبلاد العرب، بل فى أرض غير مقاربة، ولا فى إقليم كالعرب، بل فى إقليم له تقاليد فرعونية طاغية، يقول حاكمها ما أريكم إلا ما أرى، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد، فهو حاكم يُفْنى الشعب فى شخصه، ولا يفنى فى شعبه، يظلم ويسيطر، ولا يعدل ويشاور.

وإذا كانت غيبا بعيدا عنك وعن العرب فهو وحى من الله ﴿**نُوحِيه إِلَيْكَ**﴾، وقد أكد سبحانه أنه غيب عليه بقوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ**﴾ وهذا فيه أمران: فيه استدلال على أنه بوحى من الله تعالى، وفيه تصوير لحالهم، وهم يمكرون ليغتصبوا أخاهم من أبيهم، ﴿**وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ**﴾، أى ما كنت عندهم حتى تعلم حالهم إذ تكون مختلطا بهم متعرفا أمرهم، ﴿**إِذْ أَجْمَعُوا**﴾، أى إذا عزموا أمرهم على رميه فى غيابة الجب، ويقال: أجمع أمره، إذا اعتزم الأمر جازما من غير فكاك، وهم يدبرون بمكر سيئ على أخيهم، وعلى أبيهم.

هذا أمر فيه عبرة، وفيه بيان أن هذا القرآن ليس من عند محمد صلى الله تعالى وسلم، بل هو من عند الله علام الغيوب وكان عليهم أن يصدقوا به، ولكن لا يرجى تصديقهم، ولكن يرجى الغلب عليهم، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا، ولذا قال تعالى: ﴿**وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣)**﴾.

(الواو) واصلة هذه الجملة بسابقتها، وهى تشير إلى أنه مع كثرة الأدلة التى توجب الإيمان وتضافرها فإن أكثر الناس ليسوا بمؤمنين، وما المراد بالناس، أهم كل من يشملهم اسم الناس من عرب وعجم، وبيض وسود، وصفر وحمر؟ أم المراد أهل مكة، ومن يشبههم من المشركين.

وعلى أن المراد بالناس أهل مكة، وما أكثر الناس ولو حرصت على إيمانهم بمؤمنين لك ومسلمين بهذه الأدلة، إلى حين، حتى تصير كلمة الله هى العليا، فإنه بعد مكة صار أكثر الناس مؤمنين، وكان منهم أبطال الجهاد والإمرة فى الجيوش، فكان منهم أمثال خالد بن الوليد، وعكرمة بن أبى جهل، فيكون النفى، وإن كان ظاهره العموم فإنه مقيد بالزمان، فإن شمل عموم المكان لا يشمل عموم الأزمان.

وإن أردنا الناس جميعا عربا وعجما، فإن الحقائق الواقعة أن أكثر الناس لا يؤمنون، فالنصارى المثلثون والبوذيون غير الموحدين، والبراهمة الكافرون، أضعاف المسلمين، فالآية صادقة.

ونحن نرى أن الناس هم مشركو مكة، لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ فإن هذا يدل على أن الناس هم الذين كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يعاصرهم، ويرجو إيمانهم، ويحرص عليه، حتى قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ... (٥٦)﴾ [القصص].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ تدل على رغبة النبى ﷺ، حتى قال الله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)﴾ [الشعراء].

وقوله ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ الباء لتأكيد النفى، وقد نفى الله سبحانه وتعالى عنهم وصف الإيمان الذى يوجب عليهم الخضوع والتسليم؛ وذلك لأن النفوس قسمان نفس تؤمن بالحق وتذعن له إذا جاءها دليله، وهى التى خلصت من أدران الفساد، ومطامع الشيطان، وقليل ما هم، ونفس دُرِّنَتْ بالفساد، والعناد، وجمحت بها الأهواء والشهوات، فتحكم فيها الشيطان، وهذه لا تؤمن، ولا يقنعها إلا مقامع من حديد، والحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وهؤلاء تكون حربهم لتمكين غيرهم من حرية الرأى ثم الإيمان، كأمثال أبى لهب وأبى جهل، والوليد بن المغيرة، وغيرهم من لهاميم(١) قريش الذين كانوا يؤذون المؤمنين، ويفتنونهم عن دينهم الذى ارتضوا، ويسخرون منهم، سخر الله منهم.

وإن هذه الدعوة إلى الله التى يقوم بها محمد صلى الله تعالى عليه وسلم هى تبليغ من الله لا يريد بها ملكا، ولا سلطانا، ولا رياسة، ولا مالا، ولا أى أجر من الأجور التى اعتاد الناس أخذها فى دعاياتهم، ولذا قال تعالى:

---

(١) واللهموم: الجواد من الناس والخيل، واللهام: الجيش الكثير، كأنه يلتهم كل شىء. الصحاح للجوهرى (لهم).

﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (١٠٤) ﴾ .

الضمير فى ﴿ عليْهِ ﴾، يعود إلى أنباء الغيب والقرآن، والتبليغ بهذا الدين، وما تسألهم على هذا التبليغ بهذه الأنباء وبالوحدانية، لا تسألهم أى أجر، فـ ﴿ مِنْ ﴾ لبيان عموم النفى لا تسألهم أى أجر من أنواع الأجور، لا تسألهم رياسة، ولا إمرة ولا شيئا من هذه الأمور الدنيوية، ولقد عرضوا على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الأمر والسيادة، وقالوا إن أردت سَوَّدْناك، وعرضوا عليه الأموال، ورضوا بأن يعطوه كل جاه ومال، وأن يتركهم وما يعبدون، ولكنه حَقَّر ما يعرضون بجوار ما يدعوهم إليه من التوحيد، وعدم الشرك.

بل قال الله تعالى فى رد ما يعرضون ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾، ﴿ إِنْ ﴾ هى النافية والضمير يعود إلى التبليغ وما يتضمنه من القرآن الكريم، وقصصه الحق الموحى به، ليس هذا إلا تذكير للعالمين، لأهل العقل فى هذه الدنيا.

ثم بين سبحانه وتعالى أن آيات الله الدالة على وحدانيته كثيرة، فقال تعالى:

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ .

﴿ وَكَأَيِّن ﴾ بمعنى كم الدالة على كثرة العدد، وعن سيبويه أن (كأين) هى (أىّ) بالتنوين، ودخلت كاف التشبيه وبنيت معها، فصارت فى الكلام فى معنى (كم)، ولا يهمنا أصلها النحوى، إنما يهمنا أنها للكثرة فى العدد، والآية هى الأمر الدال على قدرة الله تعالى فى الكون فى السماء والأرض، وعلى قدرته على العصاة، وأماكن هلاكهم بما عثوا وأفسدوا، ورسومهم دالة على هلاكهم، وأن الله بدل بهم غيرهم، ولم يضروه شيئا.

وأنهم ليمرون على هذه الآيات، وهم عنها معرضون غير ملتفتين إلى ما فيها من عبر، فالكون كتاب فيه الدلائل على الوحدانية، والأرض كذلك، وفيها عبر من آثار العصاة.

وقال ابن كثير فى هذا: «عبر تعالى عن غفلة الناس عن التفكر فى آيات الله، ودلائل التوحيد بما خلقه فى السموات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت، وسيارات وأفلاك دائرات، والجميع مسخرات، وكم فى الأرض من قطع متجاورات وحدائق وجنات، وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وأمواج متلاطمات، وقفار شاسعات، وكم من أحياء وأموات، وحيوان ونبات، وثمرات متشابهة، ومختلفات فى الطعوم والروائح والألوان والصفات، فسبحان الواحد الأحد خالق أنواع المخلوقات، المتفرد بالبقاء والصمدية للأسماء والصفات»[1].

نقلنا هذه الكلمة مع طولها وسجعها المتكلف، لعموم ما تشير إليه من آيات الله تعالى فى السماء والأرض.

وإن العرب كان فيهم إيمان بالله، كانوا يؤمنون بأنه الخالق لمن فى السموات والأرض، وأنه هو المغيث، وأنه ليس كمثله شىء فى ذاته وصفاته، ولكنهم مع هذا الإيمان بخلق الله تعالى يشركون معه الأوثان فى العبادة، ولذا قال تعالى: ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ** (١٠٦) ﴾.

﴿ **أَكْثَرُهُم** ﴾، أى أكثر الناس، وما المراد بالناس هنا؟ أراد بهم العرب قبل ظهور الإسلام أم الناس أجمعون؟ لا مانع من إرادة أحد العرضين أو إرادتهما معا بمعنى شمول الكلمة لكل ما تدل عليه من ناس عرب وعجم.

على الفرض الأول يكون فى هذا النص السامى بيان حقيقة تاريخية تومئ إلى حكمة بعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى العرب ابتداء، وعموم دعوته من بين صفوفهم من بعد ﴿ ... **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ... (١٢٤) ﴾ [الأنعام] ذلك أن العرب من شعوب الأرض كانوا يعلمون الله، ويؤمنون بأنه الخالق لكل شىء وأنه واحد فى ذاته وصفاته، ولكنهم مع ذلك يعبدون الأوثان مع الله سبحانه وتعالى، وكانوا فى تلبيتهم فى الحج، يجمعون بين الإيمان بالله الواحد الأحد

(١) تفسير القرآن العظيم: ج٤/ ٣٥٨.

وإشراك غيره معه، ففى الصحيحين: أن المشركين كانوا يقولون فى تلبيتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك[١]، وفى صحيح مسلم: أن النبى ﷺ كان سمعهم قالوا لبيك اللهم لبيك، قال عليه الصلاة والسلام: «قَد قَد»، أى حسب حسب لا يزيدون على هذا[٢].

وإنهم كانوا فى الشدة لا يستغيثون إلا بالله لعلمهم بأنه وحده الخالق المغيث، ولكنهم يشركون به غيره فى العبادة، ولقد كانوا بهذا أقرب إلى التوحيد من غيرهم، فليس على الداعى إلى الوحدانية إلا بطلان عبادتهم للأوثان وقولهم ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، فالله قريب من عباده ﴿ ... **ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ... (٦٠) ﴾ [غافر] وما لهم عنده من شفعاء.

هذا على منطق أن الناس المراد بهم عرب الجاهلية، وعلى الفرض الثانى والثالث يكون المعنى أن أكثر الناس تعتريهم حال إشراك مهما أخلصوا التوحيد لله تعالى، فالأوهام تسيطر على الناس وقد تأدت بالوثنيين إلى عبادة الأوثان، ولكنها بالنسبة لمن جاء بعدهم تأدت بهم إلى أوهام حول الأشخاص، لم يعبدوهم ولكن اعتقدوا فيهم قوى خفية، وإن آمنوا بأنهم مخلوقات، وأنهم بشر.

وإن أظهر ما يكون ذلك فى الرُّقى، روى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه خبر روته امرأته زينب قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح كراهة أن يهجم على أمر يكرهه، وإنه جاء ذات يوم، فتنحنح، وعندى عجوز ترقينى، فأدخلتها تحت السرير، فدخل فجلس إلى جانبى، فرأى فى عنقى خيطا، فقال: ما هذا الخيط؟، قلت: خيط رُقِى لى فيه، فقال: إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «**إن الرقى والتمائم شرك**»[٣].

---

(١) رواه مسلم: الحج ـ التلبية وصفتها ووقتها (٢٠٣٢). (٢) المرجع السابق.

(٣) انظر ما رواه أحمد: مسند المكثرين من الصحابة ـ مسند عبد الله بن مسعود (٣٤٣٣)، وبنحوه ابن ماجه: الطب ـ تعليق التمائم (٣٥٢١)، وأبو داود: الطب ـ فى تعليق التمائم (٣٣٨٥).

ولقد كانت رقية النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الخالية من الشرك: «**اذهب البأس رب الناس، اشف وأنت الشاف، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقما**»[١].

وروى أن رقية النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كانت بالمعوذتين: قل أعوذ برب الفلق إلى آخرها وقل أعوذ برب الناس إله الناس إلى آخرها[٢].

وفى الحق إن الأوهام التى تسيطر على الناس من ناحية الغيب دفعت النصارى إلى التثليث، وهو شرك، ودفعت المشركين من العرب إلى عبادة الأوثان.

والآية الكريمة تدعو المؤمنين إلى الحرص على التوحيد، وتفويض الأمر إلى الله تعالى، وأن يبعدوا عن الأوهام المضلة، فلا يعتقدون فى مخلوق أن فيه قوة تشفى، أو تنفع، فإن الأوهام أدت إلى الشرك فى جاهلية العرب وأدت النصارى إلى التثليث، ولا تزال الأوهام تسيطر عليهم حتى تأدت بهم إلى عبادة الأحجار والصور والتماثيل.

سبيل الله

قال تعالى:

أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ

(١) رواه الترمذى: الدعوات ـ دعاء المريض (٣٤٨٨) قال أبو عيسى هذا حديث حسن. وانظر السابق.

(٢) انظر ما رواه الإمام أحمد: باقى مسند الأنصار ـ مسند عبد الله بن فضالة (٢٢٨٣٢)، ومسلم: السلام ـ رقية المريض بالمعوذات والنفث (٤٠٦٥).

﴿إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)﴾

إن من يخدعه الشيطان يكون فى لهو عن مستقبله يستغرقه حاضره اللاعب اللاهى، ولا يتخذ من الماضى لغيره أو له عبرة يتعرف بها المستقبل، بل هو ساه فى لهو لا يفكر فى أمر مستقبله، كأنه أمنه واستقر على ما يجىء به، ولذا قال تعالى فى المشركين الذين استغرقهم حاضرهم وما هم فيه: ﴿**أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ**﴾ (الفاء) مقدمة عن تأخير؛ لأن الاستفهام له الصدارة دائما، أو الهمزة داخلة على فعل مناسب محذوف دل عليه ما بعده، ألَهوا وأشركوا وعبثوا ﴿**أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ**﴾، أى أىُّ غاشية من الغواشى التى تكون من عذاب، فتعمهم من فوقهم ومن أسفل منهم، وكأنها ثياب تغشاهم وتعمهم، وتكون سابغة عليهم، ولهم فى ذلك العبر من الأمم العربية التى كفروا بأنعم الله فجاءتها ريح صرصر عاتية، أو جعل الله تعالى عاليها سافلها أو دمر الله عليهم، كما قال تعالى فيهم: ﴿**أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٤٧)**﴾ [النحل].

﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾، إما أن تأتيهم نقمة تخصهم لكفرهم وغيهم وفسادهم فى الأرض، وإما أن تأتيهم القاضية، وهى ساعة القيامة، وسمى يوم القيامة ساعة، لأنه يتم بين غمضة عين وانتباهتها، وفى هذا إشارة إلى أن أعمال الكافرين أعمال من يظن الحياة الدنيا دائمة، ولا يترقب يوم القيامة وما وراءه، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ بإقبالها، وقوله: ﴿بَغْتَةً﴾ إشارة إلى أنها تفجؤهم من حيث لا يحتسبون ولا يتوقعون، بل هم فى غيهم مستمرون.

وإن الله تعالى أمر نبيه بأن يدعوهم إلى الحق غير مبال بإنكارهم وعنادهم، وإنه مستمر فى دعوته لا ينى عنها أبدا.

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨)﴾.

أمر الله تعالى نبيه بأن يبلغهم أمره فقال: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ الإشارة هنا إلى ما يدعوهم إليه من التوحيد فى العبادة، وألا يشركوا بالله شيئا، وأن يؤمنوا بالبعث والنشور، وأنهم يموتون كما ينامون، ويحيون كما يصحون، ومن ذلك تكون الجنة أبدا أو النار أبدا، فهذه الدعوة «هى سبيلى» التى أسلكها، لا أحيد، وماضٍ فيها، وأدعو إليها، أنا مستمر فى الدعوة إلى أن يقبضنى الله تعالى ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ يحملون عبء التكليف بهذه الدعوة والسير فى سبيلها غير وانين ولا مقصرين.

وهذا يدل على أن الدعوة إلى الله فرض على المؤمنين كل يقوم بواجبه فيها، الدولة الإسلامية تهيئ دعاة إلى الحق، ويختلف الوجوب علوا ودرجات باختلاف الجماعات والآحاد من حيث العلم والثقافة والقدرة على القيام بحق الدعوة، وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾، أى على علم بالحق وحجته ودليله، وهذا يدل على وجوب علم الداعى، وأن يكون له بصيرة نافذة يدرك الحق ويعلم نفوس الناس، وما يجب اتباعه لدعوتها.

ويقول: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أنزهه عن الشريك، وأسبح له خاضعا خاشعا، أرجو رحمته وأخاف عذابه، وكل من فى الوجود يسبح له: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ... (٤٤)﴾ [الإسراء] وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ تنزيه مطلق، وخضوع لله تعالى من الرسول، ومن الوجود كله، ثم أيأسهم من أن يكون مثلهم فأمره بأن يقول: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ إن استمررتم على شرككم فأنا برىء منكم، وإن هذه السبيل هى سبيل النبيين أجمعين بعثوا بها فى أقوامهم، ودعوهم إليها، وإن النصر من الله لهم: لأنهم أصحاب دعوة الحق؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠٩)﴾.

هذه الآية بعد قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ تدل على أن التوحيد، وتنزيه الله تعالى رسالة النبيين أجمعين، فهى تدل على ذلك، وتدل ثانيا، على أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لم يكن بدعا من الرسل، بل سبقه بهذه الدعوة أنبياء سابقون. وتدل ثالثا على أن رسالة الله إلى خلقه تكون برجال يدعون بها، لا بملائكة، وذلك رد على قولهم: ﴿... مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ ... (٧)﴾ [الفرقان] وعلى طلبهم أن ينزل عليهم ملك يخاطب برسالة الله، وقد قال تعالى فى الرد عليهم ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩)﴾ [الأنعام].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ ... (٢٠)﴾ [الفرقان] وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨)﴾ [الأنبياء].

وهكذا كانت هذه الآيات الكريمات وغيرها تحمل الدلالات القاطعة التى ترد إنكارهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم﴾ ليس من أرسلناهم من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم أى أنهم ليسوا ملائكة، ولكن اتصالهم بالله تعالى بطريق الوحى يوحى إليهم سبحانه وتعالى بأوامره ونواهيه، وبعبادته وحده لا شريك له، وقوله تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ أى أن هؤلاء الرسل من أهل القرى، والقرى هى المدن العظيمة، وفى هذا بيان أمرين أحدهما: أن الرسول يكون من أهل المدن العظيمة، وثانيهما أنه يكون من قومه، عرفوه من أوسطهم، وأكثرهم أمانة وصدقا، كما قال تعالى فى شأن النبى محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)﴾ [التوبة].

وكان رسل الله من أهل المدن يبعثون فيها، ليكون الرسول على علم بأحوال الناس، وليكون معروفا بينهم مشهورا غير مغمور، يكون ذا مكانة من غير غطرسة فيهم، قبل النبوة، فتكون شهادة له بالصدق بعدها.

وقد بين الله تعالى هذه الحقيقة، وهى أن الرسل من الناس، وليسوا ملائكة، وأنها معروفة بالعيان لمن سار فى الأرض، وتعرف ديار الذين كفروا بالرسل، فقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ هذا النص السامى فيه برهان أن الرسل كانوا رجالا، وفيه إنذار لمشركى العرب بالمآل الذى يئولون إليه إذا استمروا على غيهم، وإنه إنذار يحمل فى نفسه دليله، وبرهانه من الآثار والرسوم للذين هلكوا بسبب إنكارهم وكفرهم، وانتحالهم التعلات للعناد والإنكار.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ (الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وهى مؤخرة عن تقديم للاستفهام؛ لأن الاستفهام له الصدارة فى البيان، والاستفهام

للنفى، ونفى النفى إثبات، والمعنى لم تسيروا، وفيه تحريض على السير فى الأرض ليروا عاقبة الذين من قبلهم، وأنكروا ولجّوا فى الإنكار، وعاندوا مثلهم، فليعرفوا حالهم مما آل إليه أمر من سبقوهم.

مآلهم بعد ذلك فى الآخرة أشد وأنكى وأدوم، وقد أشار سبحانه وتعالى إلى ذلك ببيان عاقبة الذين من قبلهم، فقال تعالت كلماته: ﴿ **وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْاْ** ﴾ أى أنه سيصيبكم ما أصاب الذين من قبلكم، والذين اتقوا ينجون من العذاب الساحق الذى ينزل بالكافرين، وليست النجاة وحدها جزاءهم فذلك جزاء سلبى، والجزاء الإيجابى فى الآخرة، ولذا قال مؤكدا ﴿ **وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْاْ** ﴾، أى اتقوا غضب الله، واتقوا الشرك، واتقوا العذاب، وغلبت عليهم فى ذات أنفسهم التقوى والإيمان والإذعان للحق.

ودعاهم سبحانه وتعالى إلى التفكير، واستعمال عقولهم، فقال: ﴿ **أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ (الفاء) كما ذكرنا لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإن ما قبلها من أحوال الأمم، وما يكون يوم القيامة للأبرار يدعوهم إلى التعقل والتفكير، والهمزة للاستفهام الإنكارى الباعث على العقل والفكر، فإنه إنكار للدعوة إلى إعمال العقل، وتدبر مآلهم، والله بكل شىء عليم.

وقد بين سبحانه وتعالى سنته فى أعمال الرسول، ومآل الأمر حال يأسهم، فقال تعالت حكمته.

﴿ **حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠)** ﴾.

هنا كلام مقدر بما جاء بعد، و﴿ **حَتَّى** ﴾ غايته، والمعنى أن الرسل جاءوا ودعوا وكُذبوا وحوربوا، وقلَّ المؤمنون بجوار الكافرين وكانوا يسخرون من الذين آمنوا ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا** ﴾.

استيئس الرسل اعتراهم اليأس الشديد، واستولى على نفوسهم كأنهم طلبوه، وما طلبوه، وصارت حالهم يأسا، وصور صورة من يأسهم، فقال، ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ جال فى روعهم أنهم كذبوا، ولم يعد مجال للإيمان أو النصر، وهنا قراءتان فى﴿ كُذِبُوا ﴾ القراءة الأولى بالتخفيف والبناء للمجهول، وهى قراءة الأكثرين، والثانية بتشديد (الذال) للبناء للمجهول أيضا، وهى قراءة أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وأرضاها، وطائفة من القراء بعدها(١).

والمعنى على قراءة التخفيف كما جاء فى مفردات الراغب الأصفهانى علموا أنهم تُلقُّوا من جهة الذين أرسلوا إليهم بالكذب، أى ظنوا أن الذين تَلَقَّوا عنهم أخبار الإنذار يظنون الكذب فيهم، وإليك نص عبارة الراغب رضى الله عنه: قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ أى علموا أنهم تُلُقُّوا من جهة الذين أرسلوا إليهم بالكذب، فكذبوا نحو فسقوا، وزنوا ـ إذا نُسبوا إلى شىء من ذلك، والمعنى على هذا ظنوا أنه وقع فى نفوس من يخاطبون كذب ما أنذروا.

أى أنه قد طال الأمد الذى أجلوه، حتى توهم الرسل أن الذين يخاطبونهم من المشركين قد وقع فى نفوسهم كذب الرسل، واتخذوا من المطاولة فى الزمن، أنهم كاذبون فى إنذارهم، واتخذوا من طول الزمن دليلا على كذبهم.

وعلى قراءة التشديد يكون المعنى أن الرسل قد استيئسوا حتى ظنوا أى علموا أنهم كُذِّبوا فيئسوا من إيمانٍ غير من آمنوا، كما قال الله تعالى: ﴿ ... لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ ... (٣٦) ﴾ [هود].

والظن هنا بمعنى العلم، أو بمعنى ما يعرض للبشر عند اليأس من خواطر تجعلهم يظنون فى أمر المبعوث إليهم، ولننقل لك كلام الزمخشرى فى هذا، فهو يدل على نفاذ بصيرة فى معانى العبارتين ومراميها من غير تهجم، ولا تقحُّم على

(١) قراءة ﴿ كُذِبُوا ﴾ بالتخفيف عاصم وحمزة والكسائى وخلف، ويزيد (أبو جعفر)، وقرأ الباقون بتشديد الذال. غاية الاختصار ج٢/ ٥٣٠.

المعانى قال: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ أى كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم عنهم بأنهم يُنصرون، والمعنى أن مدة التكذيب والعداوة من الكفار وانتظار النصر من الله، قد تطاولت وتمادت حتى استشعروا القنوط، وتوهموا أن لا نصر لهم فى الدنيا، فجاءهم نصرنا فجأة من غير احتساب. وعن ابن عباس رضى الله عنهما، وظنوا حين ضعفوا أو غُلبوا أنهم قد أُخلفوا ما وعدهم الله من النصر. وقال: كانوا بشرا، وتلا قوله تعالى: ﴿... وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ... (٢١٤)﴾ [البقرة]، فإن صح هذا عن ابن عباس فقد أراد بالظن ما يخطر بالبال ويهجس فى القلب من شبه الوسوسة وحديث النفس على ما عليه البشر، وأما الظن وهو ترجيح أحد الجائزين على الآخر فغير جائز على رجل من المسلمين، فما بال رسل الله الذين هم أعرف الناس بربهم، وإنه متعال عن خلف الميعاد، منزه عن كل قبح، وقيل: وظن المرسل إليهم بأنهم كذبوا من جهة الرسل، أى كذبتهم الرسل فى أنهم ينصرون عليهم.

وإنه بعد هذا التحليل نقول: إن أم المؤمنين عائشة ردت قول ابن عباس رضى الله عنهما وقالت: إن الرسل لا يظنون بالله خلف الوعد.

وخلاصة القول أن نقول: إن معنى وظنوا أنهم قد كذبوا، على التخفيف والبناء للمجهول أن يظنوا أنه ألقى فى نفوس المرسلين إليهم أنهم كذبوا فى إيقاع العذاب بهم، وإن ذلك النطق نوع من هواجس الفكر البشرى، وهى تتلاقى مع قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)﴾ [البقرة].

وقوله تعالى: ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾، أى بغتة من حيث لا يحتسبون، ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ﴾، وهم الذين استقاموا على الطريقة واتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات، ﴿وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ الذين اجتمعوا على الإجرام واتفقوا عليه، حتى كانوا قوما من شأنهم الإجرام واجتمعوا عليه.

خاتمة

قال تعالى: فى ختام هذه السورة التى بلغت أقصى غاية القصص بلاغة وبيانا، وعلما نفسيا وخلقيا، وبيانا للإرادة القوية، وكيف تصبر فى مواطن الهجوم عليها بالأهواء الجامحة، والشهوات المنحرفة، والوفاء، والمحبة، والرفق فى المعاملة، وعلاج الأمور بالحكمة، والتدبير، ولطف المواتاة للخير.

قال تعالى فى ختام هذه السورة: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)**﴾.

القَصَص بالفتح: الإخبار عن الماضين، والقصص بالكسر جمع قصة، كقطع جمع قطعة، وغير ذلك، وقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾، قصر بعض المفسرين القصص على قصة يوسف عليه السلام، وبعضهم عممه على قصص الأنبياء جميعا، وعلى ذلك يكون الضمير فى قصصهم يعود إلى الأنبياء الذين ذكرت أخبارهم فى القرآن الكريم كنوح وإدريس وإبراهيم وموسى وعيسى، ولوط، ويوسف، ويعقوب، وعلى الرأى الأول يكون الضمير يعود إلى يوسف وأبيه وإخوته.

وقد رجح الزمخشرى الثانى بعود الضمير إلى الأنبياء، وذلك لقراءة كسر القاف، إذ إنها تكون قِصصا، وليست قصة واحدة، وقصة يوسف واحدة، وليست قصصا متعددة.

ومهما يكن فإن قصة يوسف قصة واحدة، اختص بها يوسف عليه السلام، وهى أخبار متنوعة قُطبها يوسف عليه السلام، وفيها عبر مختلفة، فيها بيان لحال النفوس، وما يعروها من منازع، وما تعترك به من أهواء، وما فى النفس من قوة إرادة وصبر للمهتدين، ونزوغ فاسد للضعفاء الذين ينساقون، وما فيها ما يحمى البيوت من آفات، وما يعروها من انحرافات، وفيها بيان لتدبير الجماعة، وتنظيم

لاقتصادها، وإحكام، وإخلاص، وعدل، وبيان لما يجب من الادخار من سنى الرخاء لسنى الشدة، كما قال تعالى: ﴿...فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧)﴾.

وفى سورة يوسف صورة للحاكم العادل، تراها فى أوصاف يوسف عليه السلام.

وأولى هذه الصفات البارزة قوة الإرادة، ومظهرها الصبر عندما تعتلج النفس بأسباب الشهوات.

وثانيها: الأناة، وأن يضبط نفسه عند الغضب، ولا ينساق وراءه، فالحاكم الذى يسير وراء الغضب يشط، ويظلم، وقد رماه إخوته بالسرقة كاذبين عليه، مغرضين عليه.

وثالثها: العناية بذوى الحاجات، ولو كانوا مؤذين له، أو سبق لهم منه الأذى كما عامل إخوته.

ورابعها: الثقة بالنفس، وطلب الأمر إن كان يصلحه، كما قال يوسف ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ﴾ فلم يفرّ من تحمل التبعة عن بينة وجدارة واستحقاق، مع ذاكرة قوية مدركة، يعلم ما مضى وما حضر.

وخامسها: الإخلاص لله تعالى، وعبادته وحده، فلا يشرك، فتديّن الحاكم يجعله خاضعا لله.

وسادسها: أن يكون رفيقا فى معاملة الناس شفيقا بهم، فهو كالوالى على اليتيم، يعطيهم من رفقه ورفده ما يدنيهم إليه، وهكذا كان يوسف حتى وهو فى سجنه، فقد كان يناديهم، وهو فى سجنه مع المسجونين بأنهم أحبابه وأصحابه، وإن من الشفقة والرفق العفو عندما توجد أسباب يداوى به الحسد والعداوة، فلا يجتث شىء الحسد والأحقاد كالعفو والمحبة وإدناء البعيد، وتقريب العشير، وكل ذلك كان فى يوسف.

وسابعها: التأنى للأمور، وقد رأينا كيف أخذ الثقة فى لين، ومن غير إعنات من العزيز، ظهر ذلك فيمن هو أعلى منصبا منه، وظهر فى صغائر الأمور، كما رأيت فى استبقائه أخاه من غير اقتتال، بل بوضعه السقاية فى رحل أخيه من غير اتهام لشخصه، ثم أخذ الحكم من ألسنتهم، ونفذه بقولهم.

ثم من بعد ذلك أخذ الأمور بالتأنى، حتى التقى بأبيه على مائدة الرحمة والمودة والإيثار، وقد قتل الحقد بالعفو، والغيرة بالمحبة، والضلال بالهداية.

وفى السورة عبر كثيرة، وقد ذكرنا بعضا منها فى أول السورة فى معانى قوله تعالى: ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ** (٧) ﴾.

وقلنا: إن قوله تعالى: ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ** ﴾ الضمير يعود إلى الأنبياء، وخصصنا نحن قصة يوسف ببعض ما يلوح منها من عبر، والعبرة والاعتبار الحال التى يعرف فيها، ما يجب عمله فى الحاضر بالأخذ مما كان فى الماضى بأن يتفكر ويتدبر ما كان فى الماضى من وقائع، ويعلم أنه نور يضىء للحاضر، فالإنسان ابن الإنسان يتشابه فى آثامه، ويتشابه فى عواقبها ونهايتها، فذكر هذه الآثام لجماعة أو قبيل، وبيان العواقب بيان للعواقب فى كل جيل لمن يقع فيها من أهل هذا الجيل الذى خلف الأول، ولذا كان فى قصص الرسل إنذار للمشركين وتسلية للنبى والمؤمنين بأن نصر الله آت، وكل آت قريب مهما يتأخر الزمان.

ويقيد سبحانه وتعالى المعتبرين بأن يكونوا من ذوى الألباب أى العقول التى تذهب فى إدراكها إلى لب الأمور وحقائقها، ويتدبرون مباديها، ونهاياتها،

ويبين الله سبحانه أنه لم يكن حديثا يفترى ويخترع كأساطير الأولين ﴿ **مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى** ﴾ كما قال الأفاكون أنها ﴿ ... **أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً** (٥) ﴾ [الفرقان] والتنكير فى ـ حديثا ـ لعموم النفى أى ما كان ﴿ **حَدِيثًا** ﴾ أى حديث يفترى ويخترع اختراعا لمجرد التسلية وتزجيه الفراغ،

والتسلى المجرد، بالأحاديث، بل كان أخبارًا جاءت بها الكتب السماوية من قبل، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أى أنه كلام فيه تصديق لما بين يديه من الكتب السماوية التى نزلت من قبله كالتوراة الصادقة، وقوله: ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فيه إثبات صدقه فيما أخبر، وصدقها فيما أخبرت به؛ لأن الصدر فيها واحد، ويعبر بكلمة ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فى القرآن بما سبقه، وكأنه بعلمه حاضر بين يديه.

لقد ذكرها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وقال إنها من القرآن، وهى موافقة للصادق من الكتب عند اليهود والنصارى ومبينة للزائف منها، وكان ذلك على لسان رجل لا يقرأ ولا يكتب، وفى قوم أميين ليس عندهم علم ولا معاهد للعلم، وما كان كثير النجعة والارتحال، بل لم يعرف له إلا رحلتان إلى الشام، إحداهما فى الثانية عشرة، والثانية فى الخامسة والعشرين من عمره.

والضمير المستتر فى قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ عائد إلى القصص، وهو مصدق لما جاء فى الكتب السابقة، ودليل على صدق النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وفيه هداية ورحمة لقوم من شأنهم الإيمان بالحق إذا جاءهم فالقصص فيه هداية لأن فيه دعوة النبيين وعاقبة المكذبين، وفيه رحمة لتجنيب المؤمنين عاقبة الكفر.

ويصح أن يكون الضمير عائد إلى القرآن الكريم المشتمل على القصص فهو فى ذاته هدى، لأنه من عند الله، وهو رحمة، لأن الهداية رحمة، وخص ذلك بالذين يؤمنون ويذعنون للحق إذا جاءهم، ﴿وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أما من لا يذعنون ولا يؤمنون فهم قوم بور.

سورة الرعد

تمهيد:

سورة مدنية، وعدد آياتها ثلاث وأربعون آية، وسميت «سورة الرعد» لقوله تعالى فيها: ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ ... (١٣) ﴾ ولو سُميت الكون والهداية لكانت التسمية محكمة.

وقد ابتدأت بالحروف المفردة ﴿ الٓمٓر ﴾، وأعقبها بإشارة إلى القرآن الكريم: ﴿ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾.

ثم بعد ذلك بيّن الله سبحانه وتعالى ما فى الكون مما يدل على قدرة القادر ووحدانيته، فالله هو الذى رفع السماوات بغير عمد مرئية، ولكن عدم رؤيتها لا ينفي وجودها، وسخَّرَ الشمس والقمر كلٌّ يجرى لأجلٍ مسمى، فسبحان الذى يدبِّر الأمر يفصِّل الآيات لعلهم بلقاء ربِّهم يؤمنون.

وهو الذى مدَّ الأرض وبسطها، وجعل فيها جبالا رواسى، وأنهارا وجعل من كلِّ الثمرات، ومن كل من الحيوان وكل الأحياء زوجين اثنين، وجعل الليل والنهار آيتين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون، وجعل فى الأرض قطعا متجاورات وجنات من أعناب، وزرع، ونخيل صنوان وغير صنوان، يسقى بماء واحد، ومع أنها متجاورة وتسقى بماء واحد، يفضّل الله بعضها على بعض فى الأُكُل، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون.

وإن هذا الكون وما فيه يدل على أن الذى قدر على خلق الإنسان قادر على إعادته، كما بدأكم تعودون، ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ

فِيهَا خَالِدُونَ (٥) ﴾. وقد استرسلوا فى إنكارهم النبوات، والبعث، وإذا أُنذروا بالعذاب واستعجلوه إمعانا منهم فى الإنكار، ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦) ﴾.

وإنهم لينكرون المعجزات التى جاءت دالّة على رسالة الرسول الذى أُرسل إليهم، ويتجرءون على الله باقتراح معجزات، وينكرون أن يكون غيرها آية ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧) ﴾.

ثم يبيّن سبحانه إحاطة علمه، ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ (١١) ﴾.

ثم يبيّن الله سبحانه عجائب خلقه ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ ... (١٣) ﴾، ينشئ كل ذلك، ويرونه عيانا ومع ذلك يجادلون فى شأن الله تعالى ﴿ ...وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣) ﴾.

ويبين الله تعالى الحقائق التى يجب أن يذعن لها المؤمن، ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (١٤) ﴾، وبين سبحانه وتعالى بعد ذلك أن كل ما فى الوجود ومن فى الوجود خاضع له بمقتضى التكوين طوعا وكرها، ونبّه سبحانه إلى أنه خالق السماوات والأرض فسألهم ﴿ ... مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ... (١٦) ﴾ ووبخهم على اتخاذهم آلهة من دون الله ﴿ ... قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي

الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ... (١٦) ﴾.

وضرب الله مثلا بين الحق والباطل، فقال تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ (١٧) ﴾.

وبعد ذلك يبين جزاء الذين يستجيبون، ويشير إلى الذين يكفرون وهم الذين لم يستجيبوا له ﴿ ... لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨) ﴾.

ويبين الله على طريقة الاستفهام فيقول: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (١٩) ﴾.

ويبين أوصاف أهل الحق بأنهم: ﴿ ... يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) ﴾. و﴿ ... يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) ﴾، وهم الذين ﴿ ... صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ... (٢٢) ﴾، ثم يبين جزاءهم فى الآخرة فيقول: ﴿ ... أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) ﴾.

وبين الله سبحانه وتعالى أوصاف الكفار، وهى نقيض أوصاف المؤمنين فهم: ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ... (٢٥) ﴾ وجزاؤهم بينه سبحانه بقوله: ﴿ ... أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) ﴾.

وقد كان المشركون يتخذون من بسط الرزق وضيقه دليلا على الفضل عند الله، وإذا كان الله تعالى قد بعث محمدا ﷺ فقيرا، ومجيبوه من الفقراء فقد ظنوا أنهم أولى، فقال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ (٢٦) ﴾.

وقد طلبوا آيات أخرى مادية، وما كانوا ليؤمنوا إذا جاءتهم، فقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩) ﴾.

ثم بين سبحانه أن مثل هذه الآيات جاءت من قبلهم ولم يؤمنوا، فقال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠) ﴾.

ويبين منزلة معجزة النبى ﷺ، وهى القرآن فيقول تبارك وتعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) ﴾.

وإذا كانوا يستهزئون بك وبمن معك فقد استهزئ برسل من قبلك ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤) ﴾.

وبعد بيان عذابهم فى الدنيا والآخرة ذكر الجنة التى ينالها المؤمنون، فقال سبحانه: ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥) ﴾.

وبيّن سبحانه وتعالى موقف اليهود من القرآن والنبى، فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦) وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ (٣٧) ﴾.

ولقد بيّن سبحانه من بعد ذلك أن الله أرسل رسلا من قبله من البشر لهم أزواج وذرية، وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله، يمحو الله ما يشاء من الآيات، ويثبت، وعنده أم الكتاب، وهو التوحيد، وألا يشركوا بالله شيئا ومهما يكن من أمر المشركين، فإما نرينك بعض الذى نعدهم من العذاب، وإما نتوفينك. فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب.

ولقد بيّن سبحانه وتعالى العبر، وقدرة الله تعالى ليعتبروا فلم يعتبروا: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) ﴾، وبين سبحانه أنهم يدبرون تدبيرهم الخبيث والله يعلم ما تكسب كل نفس ﴿ ...وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) ﴾.

معانى السورة الكريمة

﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ
عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ
يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ
رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ
وَأَنْهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ
ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ
قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ
وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ
فِى ٱلْأُكُلِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾

﴿الٓمٓر﴾ هذه حروف مفردة، وقد تكلمنا عن هذه الحروف وقلنا: إنها من المتشابه الذى استأثر علم الله تعالى به، ولسنا من الذين زاغت قلوبهم، يتبعون ما تشابه ابتغاء تأويله، ولكنا نلتمس الحكم فى ابتداء السور بهذا، وقد حاولنا تلمس هذه الحكم، وقلنا: إن أكثر السور التى ابتدأت بهذه الحروف يذكر بعدها أمر الكتاب بالإشارة إليه تعالت كلماته، ويقولون فى مقام هذه الحروف من الإعراب: إنها اسم للسورة أو الكتاب. وتعرب على أنها مبتدأ، خبره: ﴿**تِلْكَ آيَاتُ**

﴿الْكِتَابِ﴾، والإضافة إليها باعتبارها جزءا من آيات الله، فالإضافة فى قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ إضافة بمعنى (من)، أى إن تلك آيات من كتاب الله، أو الإضافة بيانية، أى تلك آيات هى الكتاب. من قبيل أن جزءا فى الكتاب هو قرآن يتحدى به، فقد كان يتحدى بآيات القرآن على أن فيها كلها ما امتاز به الكتاب الكريم من المجاز. و(أل) فى ﴿الْكِتَابِ﴾ للدلالة على أنه الكتاب الكامل الذى هو جدير بأن يسمى كتابًا، كأن غيره ليس جديرا بأن يسمى كتابا؛ لأنه من عند الله تعالى، وكلام الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ جملة معطوفة لبيان أن ما أنزل منه من ربك هو الحق الثابت، وهذا من صفات كمال الكتاب، فكان من هذه الصفات:

أولا: أنه ليس من عندك، بل أنزل من الله تعالى إليك، فليس افتراءً ولا كذبا.

وثانيا: هو من ربك الذى يدبر الأمر بحكمته، وينزل كل شىء منزلته، وهو الذى اختار أن يكون المعجزة المحمدية الكبرى.

وثالثا: هو الحق الثابت الذى ما جاء فيه إلا الحق فى العقيدة وفى الشريعة، وفى دفع الأوهام، ودفع الفساد فى الأرض، وعلاج أمور الناس بالحق، فهو الحق فى كل ما جاء به لأنه من الحق جل جلاله، وعلا كماله.

ويكون العطف بين الجملتين ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾، ﴿وَالَّذِي أُنزِلَ ...﴾ إلى آخره، لبيان أن الكتاب متصف بصفتين كلتاهما تؤدى معنى الكمال:

الأولى: أنه الكتاب الكامل فى ذاته.

والثانية: أنه الكامل لأنه من عند الله تعالى، فالتقى فيه الكمالان: الكمال الذاتى والكمال الإضافى.

وكان حقا أن يؤمن الناس جميعا به، ويذعنوا لحقائقه.. ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ ﴾، فالاستدراك لما كان تقتضيه حقيقة الكمال في القرآن، فكانت تقتضى الإيمان ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾، أى لا يذعنون للحق وليس أن شأنه أن يذعنوا، بل إنهم يمارون، ويجادلون، فتضيع الحقائق فى وسط لجاجة الجدل ﴿ ... وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (٥٤) ﴾ [الكهف].

وإن أول الحق الذى جاء به القرآن، وأوحى به الديّان عبادة الله تعالى وحده، وألا يشركوا به شيئا؛ ولذا بيّن الله استحقاقه للعبادة وحده بالكون، وما خلقه وبديع صنعه فى السموات والأرض، وما خلق من كل شيء، فقال تعالى:

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) ﴾.

صدر الآية الكريمة بلفظ الجلالة الذى يتضمن الخالق المدبر المتصف بكل كمال، والمستحق وحده للعبادة، ولا يعبد معه شيء: حجر، أو حى، أو نجم، أو غير ذلك مما توهم فيه بنو الإنسان فى العصور المختلفة قوة يعبد لأجلها.

وبين سبحانه فضله فى خلق الكون فابتدأ بذكر الكون الأعلى مجملا عرّفه بخلق الله فقال: ﴿ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾، هنا اتجاهان: نفى العمد، ووجود العمد ونفى رؤيتها:

الاتجاه الأول: أن النفى متجه إلى وجود العمد، وقوله تعالى: ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ دليل على نفى وجود العدم، أى دليل على عدم وجودها عدم رؤيتكم لها، فالله سبحانه وتعالى أنشأ السموات كالقبة المحيطة بالأرض من كل أطرافها، من غير عمد قائمة، ويرشح لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ ... وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ... (٦٥) ﴾ [الحج].

والاتجاه الثاني: أن النفى واقع على الرؤية، وعلى هذا يكون هناك عمد، ولكن لا ترى، فالله سبحانه وتعالى قد أوجد تماسكا بين السماء والأرض بالجاذبية، وكأنها عمد ولكنها لا ترى، وبهذه الجاذبية، وهذه الجاذبية كأنها العمد التى لا ترى. والاتجاهان يحتملهما اللفظ، وهما صادقان، وأميل إلى الاتجاه الثانى، ورجح ابن كثير الاتجاه الأول، وكلاهما فيه قدرة الله تعالى الجلية واضحة، والعمد (بفتح العين وضمها) جمع عماد أو عمود، وهى الأسطوانة التى يقام عليها السقف المرفوع.

﴿**ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ**﴾ (ثم) هنا لبيان مراتب الخلق فى ستة أيام، أى أدوار كما مضى القول فى ذلك فى سورة الأعراف، فإنه بعد أدوار الخلق التى تمت بإرادة الله تعالى، والاستواء على العرش كمال سلطانه فى الكون، كما يستوى الملك العادل على عرش ملكه، ولله المثل الأعلى، وما مثلنا إلا للتقريب، فلا مساواة، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

﴿**وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ**﴾ أى ذللهما فى حركتهما وسيرهما فى مداريهما، فكل له مدار، وكل له خواصه، فالشمس هذا الضياء المشرق الذى يملأ الوجود حرارة يكون بها الأحياء والأزهار والأشجار. والقمر يستمد نوره من ضوء الشمس، ولأشعته الصافية المستمدة يكون السير ليلا، ويؤثر فى النفوس، وفى البحار بالجزر والمد، وفى الأحياء، فيكون الحمل والإرضاع تابعين لأدواره.

﴿**كُلٌّ**﴾ فى قوله تعالى: ﴿**كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى**﴾ أى لأجل معين ينتهى عنده ذلك الأجل الذى حد له، وقد قال البيضاوى فى ذلك عند قوله تعالى: ﴿**وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ**﴾ ذللهما لما أراد منهما كالحركة المستمرة على حد من السرعة ينفع فى حدوث الكائنات وبقائها. ﴿**كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى**﴾ لمدة معينة يتم فيها أدواره، أو لغاية مضروبة دونها سيرها وهى: ﴿**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (٢)**﴾ [التكوير][(١)]، أى أن الأجل المسمى يفسره بتفسيرين:

---

(١) تفسير البيضاوى: ج١/ ٣١٦.

أولهما: الأجل الذى تتم به أدوار الشمس من حيث قربها نسبيا من الأرض وانحرافها نسبيا عنها فتبعد، ويكون من ذلك الفصول الأربعة التى تتغير فيها حال الأرض، وما تنبت من زرع، وما يكون من دفء وحرارة ونوعها. وما يختلف به الليل والنهار طولا وقصرا، وما ينتظم به الزرع والثمر ويختلف باختلاف الفصول، إلى آخر ما هو معروف فى العلم، ويحس به الناس فى أدوار الحياة وتعاقب الليل والنهار.

والثانى: أن الأجل المسمى هو أجل الدنيا، الذى يكون بعدها زلزلة الأرض، وفناء العالم ليجدد فى حياة أخرى هى الجزاء والتعويض لما كان فى الدنيا.

وإنى أرى أنه لا مانع من إرادة الأمرين، فهما ليسا أجلين، بل هو أجل واحد يكون أولهما فى دائرة الوجود الدنيوى وهو فى الثانية الذى هو النهاية.

وإن النص القرآنى يقول: ﴿**كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى**﴾، أى أن الشمس والقمر يجريان لأجل مسمى، فالقمر يجرى حول الأرض ويدور حولها دورته الشهرية. وتكون من هذه الدورة درجاته وصوره من كونه هلالا إلى أن يكون بدرا ﴿... **وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** (٤٠)﴾ [يس] وإن القمر له بهذا الدوران أوقات تؤثر فى الأحياء، فالحمل والرضاع، ونمو الأطفال، وحياة الجنين، وولادته، والحياة التناسلية لها ارتباط وثيق بالقمر وأدواره، وطمث المرأة، وقرؤها، له ارتباط بالقمر، والميزان الدقيق لمعرفة ذلك وأدواره هو الشهر القمرى، بل إن القمر له أثر فى الإخصاب، حتى عبروا فى بعض اللغات عن الأمراض العصبية بأنها الأمراض القمرية. وهكذا، وإن القمر يجرى لأجل مسمى فى دائرة المعانى التى ذكرناها، وإنه يستمر جاريا إلى أن تنقضى الدنيا، والله أعلم.

وإن الله تعالى بعد بيان القدرة المشيئية ﴿**يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ**﴾ الأمر هو ملكوت السموات والأرض من حركات النجوم، وأبراجها، وإحياء الأحياء وإماتتهم و(أل) فى قوله تعالى: ﴿**الأَمْرَ**﴾ للعهد، وهو ما يتعلق بهذا الملكوت.

﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ ينزل عليهم الآيات المبينة للقدرة من خسف وكسوف، وزلازل وغيث يحيى الأرض، وغيث يدمر ما عليها، كل هذه لتكون آيات بينات تدل على القدرة، وعلى أن الكون يسير بإرادة مختارة، وأنه يبدئ ويعيد، وينشئ، ثم يميت، ثم يحيى، وهو على كل شيء قدير.

وإن الله تعالى أشار إلى هذه القدرة العظيمة رجاء أن يؤمنوا بالمعاد فقال تعالى: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾.

أى: لعلكم ترجون لقاء ربكم وتوقنون به، فالرجاء ليس من الله، ولكن الرجاء من الخلق وهو على كل شيء قدير، أى لعلكم إذا تأملتم ما فى السماوات والأرض من خلق توقنون بلقاء ربكم ولا تنكرون ولا تظنون ظنا. بل تستيقنون استيقانا، وهنا إشارات بيانية فى هذه الآية وما قبلها نذكرها إجمالا:

أولاها: أن تعريف الطرفين فى قوله: ﴿الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾ للقصر، أى لا حق سواه.

الثانية: فى قوله: ﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ فيها دليل على وجود الصانع المنشئ والمدبر، وأن وراء كل جزئية من الكون سرا إلهيا، هو الذى يدبر، وهو الذى يقوم عليه فهو الحى القيوم.

الثالثة: أن قوله عن البعث: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ فيه إشارة إلى أن البعث لقاء الله، وقدر ﴿بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ﴾ على الفعل ﴿تُوقِنُونَ﴾ لمزيد الاهتمام.

وبعد ذكر الله تعالى رفع السماوات، وما فيها من أجرام ذكر الأرض وما فيها من آيات بينات فقال عز من قائل: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣)﴾.

بعد أن بين سبحانه وتعالى قدرته فى رفع السماء بغير عمد ترونها، وما فيها من كواكب ونجوم رمز إليها بأجلها شأنا، وهى الشمس مصدر نورها، والقمر،

وكان رمزا لمن استمد نوره منها، وهو من أكبر أتباعها. أنزل آياته إلى الأرض وهى قريبة من الأنظار غير بعيدة عنها، وفيها يمرحون، ومن خيراتها يتخذون نماءهم؛ ولذا قال: ﴿**وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ**﴾، أى بسطها طولا وعرضا بحيث يسهل افتراشها أو الانتقال فى أجزائها شرقا وغربا، وشمالا وجنوبا وليس ذلك دليلا على أنها غير كروية، بل كونها كروية ثبت من الليل والنهار، ومن أدلة عقلية كثيرة وكرويتها لا تنافى مدها، وجعلها مفترشا لابن آدم، وذلك لكبرها وامتداد أطرافها.

ثم أخذ يبين سبحانه ما جعل فيها، فقال تعالى: ﴿**وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ**﴾ أى جعل فيها جبالا كالأوتاد لها، كما قال تعالى: ﴿**وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا** (٧)﴾ [النبأ] ورواسى جمع راسٍ، وقال البيضاوى وغيره: إنها جمع راسية، وجاءت التاء لأنها وصف لأجبُل. ونحن نرى أن ذلك تكلف لا داعى إليه؛ لأنها جمع (راسٍ). وهو وصف لما لا يفعل وفواعل تجمع ما تكون وصفا لما لا يفعل، و(راسٍ) من رسا إذا ثبت، فـ﴿**رَوَاسِيَ**﴾ معناها ثوابت مستقرة كأنها أثقال تزن الأرض، وعطف على الرواسى الأنهار ﴿**وَأَنْهَارًا**﴾ للتقابل بينهما؛ لأن الجبال أحجار أو نحوها، والأنهار ماء سهل فهما متقابلات فى الجملة؛ ولأن أودية الماء تكون بجوار الجبال وتتخذ منها، أو تتكون مياه الأنهار ما ينحدر من الجبال، أو تنزل الأمطار على الجبال، ثم تنحدر حتى تجرى فى الأنهار، كما ترى فى نهر النيل، إذ إنه تكون من البحيرات التى ترفدها بمائها ثم تنحدر المياه من جبال الحبشة، فيكون فيضانه بخيراته التى أفاض الله بها على عباده، فأوجد الخصب فى وادى النيل، وأخصب مصر من وقت أن جرى فيها.

وإنه من وراء الأنهار يكون إنبات النبات، وإثمار الأشجار، فإن هذا كله يكون من الماء الذى جعل الله تعالى منه كل شىء حى، وكذا قال سبحانه وتعالى بعد الأنهار وجريانها وتحدرها من الجبال: ﴿**وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ**﴾،

أى جعل سبحانه وتعالى صنفين متقابلين كالحلو والحامض ، والأسود والأبيض، وجعل منها زوجين أى الذكر والأنثى، فمنه الذكر الذى يلقح بما تحمله من البذر الرياح اللواقح، والأنثى التى تحمل بذر الذكر، كما تحمل أنثى الحيوان بذر الذكر فى رحمها.

ومن هذا يتبين أن كلمة زوجين تتضمن معنى التقابل الذى يعم التقابل بين الذكر والأنثى، والتقابل فى الألوان، والتقابل فى الطعم، والتقابل فى الصغر والكبر، وهذا كله فى أرض واحدة، وكان مقتضى اتحاد الأرض واتحاد الماء أن تكون شيئا واحدا فى لونه أو طعمه، أو ذكورته أو أنوثته، أو صغره أو كبره، ولكن تعددت وتخالفت، فدل هذا على وحدة الصانع الحكيم العليم المريد الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

ثم بين سبحانه بعض العلاقة بين السماء والأرض، وهى الليل والنهار، فهما من دروان الأرض حول الشمس، وكل يدور فى مداره، فبدوران الأرض يكون الليل والنهار، وبدوران الشمس تكون الفصول الأربعة. ولقد قال تعالى: ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾ بسكون (الغين) وهناك قراءة بفتح الغين وتشديد الشين من التغشية، وكلاهما بمعنى اللباس الذى يغشى الجسم، وفى هذا الكلام استعارة تبعية وأصلية، فأما الأصلية: فهى تشبيه الظلمة بالثوب الأسود، والضوء بالجسم الأبيض، وتبع ذلك أن شبه النهار بأنه يغشى الليل.

وإن هذا من اتصال الشمس بالأرض، أى اتصال الأرض بالسماء.

هذه آيات الله تعالى، وبيناته، وخلقه، وتكوينه، وهى تدل على أنه فعل فاعل مختار لما يريد، وأن الأشياء لا تنشأ عنه سبحانه نشوء المعلول عن علته، كما يقول الفلاسفة، ويسميهم الناس حكماء وليسوا كذلك؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الإشارة إلى المذكور من: مد الأرض، ووجود أوتادها، وتحدر الأنهار منها، ووجود الأزواج المختلفة ﴿لآيَاتٍ﴾ أى لدلالات بينات ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لجماعة يفكرون ويتفاهمون على التفكير ويتدبرون المعانى، فإنها لو كانت بالتعليل المجرد ما تنوعت هذا التنويع، وما تقابلت هذا التقابل فيما بينها، بل كانت صنفا واحدا ولم تكن أصنافا، وكانت لونا واحدا، ولم تكن ألوانا، والله بكل شيء عليم.

﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)﴾.

إن القضية بين الفلاسفة الطبيعيين، والدين الإسلامى فى أصل الخلق أن الطبيعيين يقولون ـ باطلا ـ: إن الأشياء كانت من العقل الأول كما يكون المعلول من علته. وإن ذلك يقتضى جدلا وحدة المخلوقات جنسًا وشكلا وحقيقة، ولكنها متغايرة فى كل شيء، متغايرة فى طبعها وشكلها وطعومها وألوانها مما يدل على أن لها خالق مدبر فعال لما يريد، مبدع على غير مثال ولا محاذاة.

﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾ بعضها طيب تخرج نباتها، وبعضها سبخة لا تخرج زرعا، وبعضها صخرى، وبعضها رملى، وبعضها صالح للزرع دون الغراس، وبعضها صالح لها. وإنه لا يخصص هذه لهذه الصفة، وللأخرى غيرها إلا للطيف الخبير مبدع السموات والأرض، فدل هذا على وجود المنشئ المدبر لهذا الكون، الذى يغير ويبدل بإرادة مبدعة.

وفوق هذا، هذه الأرض المتدانية المتقاربة تسقى بماء واحد، ويختلف بعضها عن بعض فى الأكل مع أن التربة تكون أحيانا واحدة، وتسقى بماء واحد، وتبذر بها بذور واحدة ورعايتها واحدة، ومع ذلك تأتى إحداها بالخير الوفير وإحداها لا يكون فيها الخير الكثير، فدل هذا على أن هناك مريدا يعطى من يشاء ويمنع من يشاء، وكلٌّ عنده بمقدار، وكلٌّ بوقت معلوم، ولِحِكَمٍ يعلمها اللطيف الخبير.

﴿وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ انتقل البيان من الأرض إلى ما تثمره، وما تأتى به من خير، وابتدأ بجنات الأعناب؛ لأنها كانت أحب الثمار إليهم، يتخذون منها سكرًا ورزقا حسنا، ولأنها سهلة لينة، ولأنها أطيب ما تخرجه الأرض العربية.

﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ هذا إحصاء من غير استقراء لبعض ما ينتج فى الأرض العربية وغيرها من الأرضين، وهى متنوعة، فزروع مختلفة من حبوب وبقول، ومختلفة الأنواع، وتخرج مختلفة فى طعومها، ونوعها، وإشباعها للحاجات المختلفة ففيها اللين، وفيها الصلب، وذكر الجنات من الأعناب رمز لغيرها من أنواع الثمار كالرمان والخوخ وغيرها.

﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ النخلات، أو النخلتان اللتان تخرجان من أصل واحد، أى النخيل سواء أكان مجتمعا من أصل واحد، أم كان متفرقا، وفى هذا إشارة إلى أنه لو كانت مخلوقة بالطبع أو بالعلة ما اختلفت صنوانًا وغير صنوان.

ثم بين سبحانه اتحاد سبب الإنتاج فقال: ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾، أى أن التربة واحدة، والبذر واحد، والسقى واحد، ومع ذلك يفضل بعضها على بعض فى الأكل ما بين حلو ومر، ورديء وجيد، وغير ذلك مما هو مختلف؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ والأُكُل هو الثمر.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (ذلك) إشارة إلى الاختلاف مع أن قطع الأرض متجاورة، وأن الجنات من الأعناب والزرع والنخيل ـ الممتدة الجذور وتسقى بماء واحد ـ وهو صنوان وغير صنوان، فى كل ذلك آيات مبينة لقدرة الخالق، لقوم يعملون عقولهم ويدركون أن هذا يدل على خالق مختار فعال لما يريد.

إنكار البعث أعجب العجب

وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾

الخطاب للنبى ﷺ، وقيل الخطاب لكل من يقرأ القرآن، والأول أولى لأنه جاء بعد ذلك ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ﴾ والاستعجال منهم لا يكون إلا للنبى ﷺ.

ومعنى النص السامى: وإن يكن من شأنك يا محمد أن تعجب من أمر فالأمر الجدير بالعجب، أو هو أجدر الأمور بالعجب، فهو قولهم ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أما إن هذا هو وحده الأمر الحقيق بالعجب، ونكر ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ لإفادة عظم هذا العجب لشدة الغرابة فيه.

والعجب منصب على قولهم ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾، فموضوع العجب هو هذا القول؛ لأنه غريب فى ذاته ينافى كل معقول، وكل محسوس؛ لأنهم يرون فى خلق الله تعالى أن الله سبحانه خلق السموات والأرض، وخلق كل نوع نباتا، وأشجارا، ويحيى ويميت، ويفلق الحب والنوى. فيجعل منه زرعا

متراكبا، ونخيلا وجنات، وفوق ذلك هم يسلمون بأنه الذى ابتدأ خلقهم، والابتداء فى حكم العقل والفكر أشد من الإعادة، كما قال تعالى: ﴿ ... كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) ﴾ [الأعراف] وعجبهم الضال هو فى أنهم بعد أن يصيروا ترابا يعودون أحياء.

والاستفهام للإنكار، لإنكار الوقوع مع الغرابة من هذا الوقوع، إن كان، وكرر الاستفهام ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾، وقولهم: ﴿أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؛ لأن موضع الغرابة هو الخلق الجديد بعد أن يصيروا ترابا، فدخل الاستفهام على الحالين، والتعبير بـ ﴿خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يدل على موضع استغرابهم، ونسوا أن الذى يخلقهم خلقا جديدا هو الذى أنشأهم ابتداء على غير مثال سبق، ومن أنشأ على غير مثال سبق قادر على الإعادة على المثال الذى بدأه.

والسبب فى ذلك أنهم كفروا بربهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ الإشارة إليهم محملين بهذا العجب من إعادة الخلق جديدا ممن بدأه، وفى هذه الجملة السامية بيان سبب الإنكار وهو أنهم كفروا بربهم، كفروا بقدرته القاهرة، والتعبير بربهم فى هذا المقام له سره العميق؛ لأنهم يكفرون بقدرته وهو الذى أنشأهم، ويربيهم، ويقوم على أمورهم، فكيف يعجز عن حال من أحوالهم.

﴿وَأُوْلَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ الإشارة إليهم على النحو الذى بيناه، والأغلال جمع غل وهو القيد الذى يرفع اليد إلى الأعناق، وذكرت الأعناق فى الآية لتأكيد وجود الغل، وفى الكلام ما يفيد أن الأغلال معنوية؛ ذلك أنهم لسيطرة المادة عليهم كانوا كأنهم فى أغلالها لا ينفصلون عن هذه الأغلال، فالكفر بالغيب أداهم إلى هذه الحال المثيرة للعجب من أمرهم، ففى الكلام استعارة، شبهت حالهم فى استغراق المادة لنفوسهم بحال من وضع الغل فى عنقه، فلا يتحرك إلا تحت سيطرة هذه الأغلال، و﴿فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ ترشيح للاستعارة.

وهناك تخريج آخر، وهو أنهم يكونون فى أغلال من حديد يساقون بها إلى جهنم، وقد أكد سبحانه وتعالى بعد ذلك أنهم أصحاب النار هم فيها خالدون. فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ الإشارة لما ذكرنا إلى موضع العجب من أمورهم، وقد أكد خلودهم فى النار بالتعبير عنهم بأنهم أصحاب النار، أى الذين يلازمونها بالصحبة الدائمة المستمرة، وبـ (هم) التى تدل على التوكيد، وتدل أيضا على اختصاصهم بالدخول فى النار والخلود فيها، ،أنهم يبالغون فى إنكار البعث، ولا تجديهم النذر، بل يستهزءون بالإنذار بعد الإنذار.

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦) ﴾.

السين والتاء للطلب، فهم يطلبون التعجيل بالسيئة قبل الحسنة، أى أنهم عندما يسمعون البشير والنذير، يستعجلون العقوبات التى تكون فى الإنذار بدل أن يعملوا الحسنات ويستعجلونها طالبين لها، وذلك من فساد الفكر وضلال النفس، وسيطرة العادة، والمبالغة فى إنكار الحق، فإذا جاء إنذار بعذاب شديد إن استمروا فى غيهم، وجنات النعيم والعزة فى الدنيا إن استقاموا على الطريقة واهتدوا، لا يفكرون فى فعل الخير يستعجلون به بل ينساقون فى الإنكار ويستعجلون السيئة متهكمين، مهملين مستهترين، والسيئة هى ما يسوء فى ذات نفسه، والحسنة ما يحسن فى ذات نفسه فهم يطلبون السيئ تحديا وتهكما، واستهتارا، وكأنهم لا يعبثون.

ويفعلون ذلك، ويقولونه، مع أن العبر بين أيديهم شاهدة بصدق ما يخبرهم به ربهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ ﴾ و﴿ خَلَتْ ﴾ معناها مضت ﴿ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ ﴾ والمثلات جمع (مَثُلَة)، كـ(سَمُرَة)، أى خلت العقوبات التى نزلت بالذين من قبلهم كما عتوا وتجبروا، وعاندوا رسلهم، كقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم شعيب، وسميت مَثُلَة؛ لأنها كانت عقوبة

متماثلة لما ارتكبوا، ويصح أن تكون مشتقة من مِثال بمعنى قصاص؛ للتماثل بين الجريمة والعقوبة، وذلك أعدل وأردع.

وإنه سبحانه وتعالى مع عدله فى أن تكون العقوبة على قدر الجريمة، وملاحظة التماثل بينهما من غير أى بخس لعمل ولا مجاوزة للعقاب يعفو عن كثير؛ ولذا قال تعالى بعد أن قرر أن المثلات قد مضت، أنه عندما يشتد سيل الشر ويتفاقم أمره ينزل العقاب؛ دفعا للشر ووقفا له حتى لا يعم الفساد، ويضل العباد، قال تعالى: ﴿ **وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ** ﴾ أى إن ربك لذو مغفرة، تلازمه المغفرة كما يلازم الصاحب صاحبه حال كونهم ظالمين لأنفسهم بالشر الذى ارتكبوه، ولكنه يقبل التوبة فالتوبة سبيل الغفران، كما قال تعالى: ﴿ **غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ** ... (٣) ﴾ [غافر]. فالظلم بمعنى ظلم النفس بارتكاب المعاصى وليست بمعنى الشرك، فإنه ظلم كما قال تعالى عن لقمان: ﴿ ...**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** (١٣) ﴾ [لقمان]، ولكنه هنا بما دون ذلك؛ لأن الله تعالى لا يغفر الشرك، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ... (٤٨) ﴾ [النساء]، وكما أن الله سبحانه وتعالى صاحب المغفرة التى هى ستر الذنب، ولا يحاسب عليه إذا كانت دون الشرك، فهو أيضا شديد العقاب على المصرِّين على المعاصى الذين أحاطت بهم خطيئاتهم واستغرقت نفوسهم، ولذا قال تعالى: ﴿ **وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾، أى إن عقابه شديد لمن أصر على المعصية وتدرنت بها نفسه وأظلمت.

وقد أكد سبحانه وتعالى عقابه بالجملة الاسمية، وبـ (إنَّ) التى للتوكيد، وباللام.

ويلاحظ أنه سبحانه وتعالى عبر بالرب فى صحبة المغفرة، وشدة العقاب، وفى ذلك إشارة إلى أنه من مقتضيات الربوبية، فهو يهذب عبيده بالإنذار بشدة العقاب، وفتح باب التوبة من غير أن يقنط العصاة من رحمته، كما قال تعالى: ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا** ... (٥٣) ﴾ [الزمر].

وقد ورد فى معنى هذا النص السامى آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ (٥٠)﴾ [الحجر]، ومنها قوله تعالى: ﴿... إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٥)﴾ [الأنعام]، وقوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧)﴾ [الأنعام]، وهكذا النصوص القرآنية الدالة على أنه لا يصح أن يطمع العاصى فى عفو مطلق، ولا أن ييئس من رحمة الله تعالى، ولقد قال رسول الله ﷺ فى هذا المعنى: «لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ أحدا العيش، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل واحد»(١) والله أعلم.

وإنهم مع قيام الدلائل على الوحدانية، وقيام المعجزة الكبرى، وهى القرآن يطلبون آيات أخرى وينكرون إعجاز القرآن مع قيام التحدى الشامخ. وعجزهم عن أن يأتوا بمثله؛ ولذا قال الله تعالى لهم: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧)﴾.

أظهر لنا، ولم يضمر، كما قال من قبل: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ فعبر بالموصول بدل الضمير؛ وذلك لبيان أن الكفر ابتداء هو الذى دفعهم إلى طلب آية أخرى، فصلة الموصول، وهى الكفر، علة الطلب، فليست علة الطلب الحق ليهتدوا، فقد طمس على قلوبهم، وإنما اتخذوا ذلك تعلة لكفرهم، وتماديهم فى غيهم، وإلا ففى التحدى والعجز دليل على الإعجاز.

و﴿لَوْلا﴾ فى قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ معناها هلا أنزل عليه آية من ربه، وإن ذلك يتضمن أنهم لا يؤمنون لعدم وجود آية، ويتضمن بالتالى إنكار أن يكون القرآن آية مع التحدى المتوالى.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فى التعبير بالمضارع ما يفيد بتكرار هذا الطلب عنادا وسترا لكفرهم، ولعجزهم عن التحدى فقد طلبوا أن ينزل عليهم

(١) أخرجه ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن المسيب.

كتاب في قرطاس وأن يلمسوه بأيديهم، وأنكروا أن يبعث الله بشرا رسولا، ورد الله تعالى قولهم بقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥)﴾ [الإسراء]، وطلبوا آيات أخرى يسترون بها كفرهم: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤)﴾ [الإسراء].

وهكذا يكفرون بالمعجزة الكبرى وينتحلون لأنفسهم ما يحسبونه عذرا بإنكارهم القرآن، وقوله تعالى: ﴿لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ فيه تنكير ﴿آيَةٌ﴾ للمبالغة في الإنكار، كأنهم يطلبون أي آية، ولا يعدون القرآن الكريم آية، وهو أعظم الآيات وأبقاها.

رد الله سبحانه وتعالى قولهم بقوله: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (إنما) أداة من أدوات القصر، أي لست إلا منذرا ينذرهم بسوء العقبى، ومآل الإنكار، وقد أنذرت، وأقمت الحجة على أنك متكلم من عند الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ متضمن معنيين، وتشملهما؛ الأول: أن كل قوم لهم نبي يهديهم ويرشدهم، فإن اهتدوا كانت لهم الحسنى، وإلا كان لهم السوءى، وهذا كقوله تعالى: ﴿... وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤)﴾ [فاطر]، والثاني: أن كل قوم لهم معجزة تهديهم إلى الرسول تناسبهم، فكانت معجزة عيسى ما كان لأنه بعث في عصر لا يؤمنون فيه بالسببية، ويعتقدون أنها لا تتخلف، فجاءت معجزاته هدما لقانون السببية، وخرقا لنظامه، ومحمد ﷺ جاء للخليقة كلها من بعده إلى يوم القيامة، فكانت معجزته من النوع الذي يبقى ولا يزول ولا يحول، وهو كلام الله الذي يبقى ويتحدى بإعجازه الخليقة إلى يوم الدين ﴿قُل لَّئِنِ

اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)﴾ [الإسراء].

وإن الذين أرسلت إليهم الآيات المادية منهم من كذب بها، وكانوا الأكثرين؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ... (٥٩)﴾ [الإسراء].

وقوله تعالى على النحو الذى نهجناه وهو ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ﴾ جملة مستقلة عن التالية، فيكون معناها ما ذكرنا من أنه عليه الصلاة والسلام مختص بالإنذار، ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ جملة أخرى دالة على ما ذكرنا من الأمر، وجاء فى حاشية الشهاب على البيضاوى أن ﴿هَادٍ﴾ معطوف على ﴿مُنذِرٌ﴾ أى إنما أنت منذر وهاد، وتكون هاد مؤخرة عن تقديم، ويكون المعنى: إنما أنت منذر وهاد لكل قوم. وهو معنى محتمل ولكنه ليس الظاهر البيّن من السياق.

بعد أن أشار سبحانه إلى خلق السموات وما فيها بيّن سبحانه آياته فى خلق الإنسان.

قال الله تعالى:

ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ
وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ (٨) عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ
وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ (٩) سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ
ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ
بِٱلنَّهَارِ (١٠) لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ
مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ
وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن
وَالٍ (١١)

بيّن سبحانه قدرة الله تعالى فى خلق السماوات بغير عمد ترونها، وسخر الشمس والقمر وغير ذلك من الكائنات التى هى سمات هذا الوجود، والآن يبين خلق الإنسان، وكيف كان فى علمه الذى لا يعلم به أحد غيره سبحانه. فقال تعالى:

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى ﴾ (ما) هنا قد تكون موصولة بمعنى الذى، ويكون السياق: الله جل جلاله يعلم الذى تحمله كل أنثى، والذى تغيض به الأرحام والذى تزداد، وكل شيء عنده بمقدار قدّره، وحدّه وعيّنه.

يعلم ما تحمل كل أنثى من ذكورة وأنوثة، ومن حجمه، وشكله، وامتداده، وعمره، وما قدر له من حياة سعيدة أم شقية، وإيمان، وصباحة ودمامة، واستقامة وفجور، وما يكون فى قابله هاديا مهديا، أو مقيتا شقيا، وغير ذلك مما يكون فى حياته البدنية والنفسية، وكل ما يتعلق به.

يعلم أدوار الحمل من مضغة مخلقة وغير مخلقة، ومن وقت وضعه نطفة فى قرار مكين، كما قال تعالى: **﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾** [المؤمنون]، وبقوله سبحانه: **﴿ ... هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ... ﴿٣٢﴾ ﴾** [النجم]، ويقول تعالى: **﴿ ... يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ... ﴿٦﴾ ﴾** [الزمر].

يعلم الله تعالى ما تحمل كل أنثى من هذه الأطوار كلها طورا بعد طور، وما يعلمه الله هو علم الخالق لما خلق، ومهما يكن متعلقا بـ (ما) فى الأرحام فالعلم عند الله علام الغيوب، وقد روى فى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: قال

رسول الله ﷺ: «**إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين ليلة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك**»[١].

﴿**وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ**﴾، الأرحام جمع رحم، وهو وعاء الولد فى بطن أمه الذى تلقى فيه النطفة، وتمكث فيه أربعين يوما كما ذكر النبى ﷺ، ثم تصير علقة، ثم مضغة، كما روينا عن النبى ﷺ.

وتغيض أى تنقص، يستعمل لازما ومتعديا، ومنه غاض الماء، ويقال غضته أى نقصته، ومنه قوله تعالى فى قصة الغرق لقوم نوح ﴿...**وَغِيضَ الْمَاءُ**...(٤٤)﴾ [هود] و﴿**تَزْدَادُ**﴾ فأخذه زائدًا.

ومعنى هذا بالنسبة للحمل أن يكون الرحم خاليا من الولد أو يزداد فيه بالحمل ونموه، وتعدده، ويغيض بالخلو من الدم الذى يشتمل على خلايا التولد وامتلائه بهذا الدم، يكون التوالد من نطفة الرجل وخلايا المرأة.

وخلاصة القول فى هذا أن الذكورة والأنوثة، وكل ما يخص التكوين الخلقى من عمل هو فى علم الله، والله وحده الذى يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد، وإن ذلك كله بعلم الله تعالى وتسييره، ويسير على سنة مرسومة محدودة لا يغيرها إلا خالقها؛ ولذا قال تعالى: ﴿**وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ**﴾ أى كل شىء عنده بمقدار معلوم محدود، فأدواره مقدورة محدودة قدرها الله سبحانه وتعالى، ولا يعلمها إلا هو لأنه العالم بالشاهد والغائب، وبالسر والجهر؛ ولذا قال تعالى: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠)**﴾.

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى علمه بما تحمله كل أنثى، وهو من الغيب الذى لا يظهر فى حسنا والذى لا يعلم إلا بعد ظهوره لنا، ذكر سبحانه أنه المحيط علمه

---

(١) رواه البخارى: بدء الخلق ـ ذكر الملائكة (٢٩٦٩)، ومسلم: القدر ـ كيفية خلق الآدمى (٤٧٨١).

للحاضر والغائب، وما يسرُّ به الإنسان وما يجهر، وما يستخفى ويظهر، فقال تعالت كلماته: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ۝﴾.

هو تأكيد ما تضمنته الآية السابقة من علمه بما فى الأرحام منذ وجودها فيها ومكنونها، وأدوارها، وقابلها، وكان التأكيد بذكر عموم علمه للغائب والحاضر، والغيب مصدر غاب، وأطلق على ما يغيب حتى اشتُهر، فيه مبالغة فى غيبه عن الرؤية والحس، والشهادة من شهد بمعنى حضر، ثم أطلقت على ما هو حاضر محسوس، مبالغة فى حضوره والحس به، والمعنى: عالمٌ بما يغيب عن الحس، وما هو محسوس حاضر، وقال (عالم) ولم يقل يعلم؛ للإشارة إلى أسمائه وأنه صفة ملازمة له سبحانه وتعالى، وذكر الغيب والشهادة لإثبات أن علمه واحد بالشاهد والمغيب على سواء؛ لأنه علم محيط، لا يفترق فيه شيء عن شيء.

ووصف ذاته العلية بأنه فوق البشر وفوق كل ما هو من شأن البشر، فقال: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ الكبير أى العظيم فى قدرته وإرادته، وكمال سلطانه وتدبيره وخلقه لكل هذا الوجود بسمائه وأجرامه وكواكبه وسياراته، وأرضه، وكل ما هو مسخر فى هذا الوجود ﴿الْمُتَعَالِ﴾ أى المتسامى فى صفاته، وفى كل ما هو من شأنه فلا يشبه شيئا من خلقه، ولا يشبهه شيء من خلقه، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، تعالى الله سبحانه عن مشابهته للمواد علوا كبيرا وهو الواحد الأحد الفرد الصمد.

ثم بين سبحانه وتعالى علمه بالناس فى سرهم وجهرهم، فى خواطر نفوسهم وما تنطق به ألسنتهم، فقال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ﴾ التفت سبحانه وتعالى من الغيبة إلى الخطاب عندما تحدث بعلمه عن الأحياء، فقال: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ...﴾ ليشعر الأناس من خلقه بأنه معهم، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم ويخاطبهم سبحانه وتعالى، وهذا إشعار لهم بمقام المشاهدة ليتجهوا إليه؛ ليحسوا برقابته، وكمال شهادته.

و﴿ سَوَاءٌ ﴾ بمعنى يستوى منكم من أسر القول فلم ينطق بما تحدثه به نفسه، ومن يجهر بما فى قلبه فهو سبحانه وتعالى يعلم السر وأخفى، يعلم ما يجول بالخواطر وأحاديث النفس، وما يجهرون به، يعلم ما يبيتون وما يظهرون، يعلم النيّات والأعمال على السواء، فهم تحت رقابته وعلمه، وهو بكل أحوالهم محيط فيما يسرون، وما يعلنون، ويكون (مَنْ) فاعل يستوى.

﴿ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ ﴾ المستخفى بالليل: السين والتاء للطلب، أى من هو طالب للاختفاء بالليل، فهو لا يكتفى بخفاء الليل وظلمته، بل يطلب خفاء آخر بأن يكون فى كُنّ من الأرض مستور لا يعلمه أحد، و(السارب)، هو السائر فى سِرب، أى فى طريق ظاهر بالنهار، فحاله لا تخفى على أحد؛ لأنه فى وضح النهار، ولأنه سائر فى سربه معلوم، وذكر هذا بجوار الاستخفاء بالليل للدليل على أنه لا تفاوت فى علمه بين الظاهر والخفى، بل الجميع فى علمه على سواء، إنما التفاوت يكون فيمن يكون علمه مبنيا على الحس فيختلف عنده المحسوس عن غير المحسوس، وعلم الله سبحانه وتعالى ذاتى، كل المعلومات عنده سبحانه وتعالى على سواء، ولإشعار الناس جميعا بأنهم تحت سلطان علمه المحيط.

ولقد قال العلماء: إن ﴿ سَوَاءٌ ﴾ بمعنى الاستواء تكون لمعادلة اثنين، ولا شك أن ﴿ مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ ﴾ معطوف على ﴿ مَّنْ أَسَرَّ ﴾، فتكون سواء داخلة عليه، لأن عطف النسق على نية تكرار العامل، فسواء مقدرة فى الاستخفاء، وسارب، فما هما المتعادلان؟ قالوا: إن (مَنْ) مقدرة فى قوله تعالى: ﴿ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ لأنها معطوفة على ﴿ مُسْتَخْفٍ ﴾ فتقدَّر (مَنْ) الداخلة على ﴿ مُسْتَخْفٍ ﴾، وليس فى هذا كبير خفاء.

وقد بيّن سبحانه إحكام رقابته على عباده ورعايته لهم فقال تعالى: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ (١١) ﴾.

بين الله تعالى فى الآيتين السابقتين علم الله تعالى بالغائب والحاضر علما واحدا، وعلم الإسرار والجهر علما واحدا، لا فرق فى علمه بين إسرار النفوس وجهار الألسنة، وأنه يعلم المستخفى فى ظلام الليل كعلم السارب بالنهار على حد سواء، وفى هذه الآية: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ الآية تبين أن علم الله تعالى يحيط بالحسنات والسيئات، ويحفظ الإنسان فى حياته ما دام حيا، وكلٌّ بأمره، ويعرف حاضر أمره وقابله وتفسير أحواله وأسباب التغير كلٌّ فى علم الله تعالى وكل بإرادته، فالمستغرق فى ضلاله يعلمه ويغير ما به إذا غير ما بنفسه؛ ولذا قال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ «المعقبات» جمع معقبة، والتاء للمبالغة مثل علاّمة وفهامة، فإنها تدل على المبالغة فى العلم والفهم، ومثل رحالة ونسابة، فإنها تدل على كثرة الرحلة، ودقة العلم فى النسب.

والمعنى تعقبه فهى تكون ملازمة له محتذية عقبه لا تختلف عنه، والضمير يعود إلى الإنسان المتحدث عنه فى قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ⑩﴾ فكما أن الله تعالى يعلم سره وجهره، واستخفاءه وظهوره، قد أحاطه بمعقبات من بين يديه ومن خلفه يحيطون به إحاطة الدائرة بقطرها، وهم من الملائكة يحصون عليه ما يفعل من خير وشر، ويكتبون ما يفعل من حسنات وسيئات، ولقد قال تعالى: إنها مع هذه الإحاطة الشاملة به وأنهم يعدون عليه سيئاته وحسناته، مع هذا فإن عمل هؤلاء الملائكة أنهم يحفظونه من أمر الله تعالى، ويقول الزمخشرى: إن قوله تعالى: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ صفتان، أى بعد ﴿مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾.

وتقدير الصفة الأولى، أى أن هذه المعقبات (تحفظه)، وقوله: ﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ صفة ثانية أى يحفظونه لأنه أمرهم بذلك، وكلفهم الحفظ وصيانته، وقال الزمخشرى: إنه يؤيد لذلك قراءة (يحفظونه بأمر الله) فهم مكلفون الحفظ بأمر الله تعالى.

ويصح أن يكون ﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ ليست وصفا جديدا بعد ﴿يَحْفَظُونَهُ﴾، إنما التقدير يحفظونه من أمر الله، أى مما كتب الله تعالى عليه أن ينزل من صواعق أو خسف، أو غير ذلك من ملمات الأمور، فالله سبحانه ينزل عليه ما قد يؤذيه، ويكلؤه بحفظه من الملائكة يحمونه، وكلا الأمرين بعمل من الله تعالى، فهو رحيم فى ابتلائه، ويقارب هذا المعنى ما قاله شاعر العربية فى زمننا شوقى، إذ يقول:

وقى الأرض شـر مقاديره لطيف السماء ورحمانها

فالله تعالى ينزل البلاء، وينزل معه الحماية والاتقاء.

ويصح أن نقول: إن المعنيين مرادان، إذ لا تناقض بينهما، ويمكن الجمع فيهما إعمالا للقراءتين، فالحفظ بأمر الله، ومما ينزله تعالى من أمور تكرثه كتعرض للغرق أو الحرق أو غير ذلك، وإن كل شيء بقدر، وكتبه الله تعالى.

وإن التعبير عن الكوارث والنوازل بأنها من أمر الله تعالى ينبئ بأن ذلك يكون فى كثير من الأحيان عن معاصى يرتكبها الناس فى ذات أنفسهم، أو مجتمعهم، أو تخاذلهم عما أمر الله تعالى به من أخذ الأهبة.

وقد أشار سبحانه وتعالى أن الريح الصرصر العاتية قد تجيء بسبب الظلم، فقال فى شأن الخير الذى يفعله الكافرون من غير إيمان ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)﴾ [آل عمران].

وقد صرّح الله سبحانه وتعالى بأن المعاصى والمفاسق يصيب أصحابها بالجوع والفقر، فقال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢)﴾ [النحل].

هذا بعض ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾، أى أن المحن تكون بأمر الله ويحفظ الناس بحَفَظةٍ من الملائكة حتى لا يعم الهلاك.

وإن الوقاية ليست فى حفظ الملائكة فقط، بل إن تغيير الحال من ظلم إلى عدل، والنفوس من انحراف إلى استقامة، هو الحماية الكبرى؛ ولذا قال تعالى عقب حفظ الله بالملائكة عند نزول قدره: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾.

والمعنى الجملى أن الله تعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا أنفسهم، فإن كانوا فى خير يأتيهم رزقهم رغدا من كل مكان لا يغير حالهم إلى ضراء وبأساء إلا إذا غيروا أنفسهم من خير إلى شر وانحراف، ولا يغير الله حال قوم أصابهم الضر والشر والخذلان والهزيمة أمام أعدائهم، إلا إذا غيروا حالهم من فساد إلى صلاح، ومن تخاذل نفس وتفرق كيانى إلا إذا غيروا أنفسهم واجتمعوا على الحق، وتركوا التنابز والتدابر، وقد أكد سبحانه وتعالى هذا المعنى بالجملة الاسمية، وبتصدير الكلام بلفظ الجلالة اسم الله العلى الأعلى القادر على كل شىء وبالغاية (حتى)، فجعل تغير الحال الأليمة إلى حال صالحة راضية منتفية إلا إذا غيروا ما بأنفسهم، أى إنهم يستمرون فى الآلام تنزل بهم إلى أن يغيروا أنفسهم.

وما أحرانا نحن المسلمين بالاعتبار بهذه الآية، لقد كنا أعزّة بعزة الله تعالى حتى تفرقنا، وأضعنا أحكام القرآن بيننا، حتى صارت غريبة تستغرب إذا ذكرت، وضاعت لغتنا، واستنكرت حال من يستمسك بها، وتقاتل المسلمون بعضهم ببعض، ووالوا الكفار واستنصروا بهم على بعض وصرنا وراء كل الأمم، فهل لنا أن نغير ما بأنفسنا حتى يغير الله حالنا.

ولكن أراد بنا هذا التخاذل، وقد قال: ﴿**وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ**﴾. (السوء) ما يسوء الأمم من الهلاك أو الهزيمة، أو الخسران، أو الحرمان، أو الفساد والدمار، إذا أراد الله تعالى ذلك وأشباهه، مما تضيع به الأمم وتذهب قوتها من أعمالها، بأن ارتكبوا الشر واستعذبوا فعله، إذا أراد الله ذلك بسبب ما فى نفوسهم وما يرتكبون فإنه نتيجة حتمية لعملهم، وأراده الله تعالى فيهم بسبب سوء ما يصنعون.

وقد سمعنا أن شر حاكم رآه التاريخ الإنسانى أصيبت بلاده التى حكمت به بسبب تقاصره، وظلمه، وقتله الأنفس البريئة وطغيانه المستمر الدفين، ذُكِّر بالصلاة فقال: كيف أصلى له وهو لم ينصرنى، ونسى أنه سبب الهزيمة النكراء، وإذا كان ما ينزل بسبب الظلم، وأراد الله النزول كمسبب يكون ثمرة للاعتداء فإنه لا يرد، و(مردّ) مصدر ميمى، بمعنى الرد، ثم أكد أن الشر لا محالة نازل بمن ظلموا أنفسهم، فقال تعالى: ﴿**وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ**﴾، أى ليس لهم غير الله من والٍ يواليهم وينصرهم ويدفع عنهم.

وقوله تعالى: ﴿**وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ**﴾ (مِنْ) الثانية لاستغراق النفى، والمعنى ليس لهم من غير الله أى والٍ من العباد أو غيرهم؛ لأن ما ينزله الله لا يدفعه أحد من عباده.

بعد أن بيّن سبحانه وتعالى علمه الشامل بكل شىء بين مظاهر الخلق والتكوين قال تعالى:

هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا
وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ
وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا
مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ﴿١٣﴾
لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىۡءٍ إِلَّا
كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ
إِلَّا فِى ضَلَٰلٖ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا
وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأَصَالِ۩ ﴿١٥﴾

بيّن الله سبحانه فى الآيات السابقة ما يسير الإنسان، وعلم الله المحيط الذى يشتمل ما يظهر وما يختفى، والمعقبات التى تحفظ وتحصى ولا تُرى.

ثم بين سبحانه وتعالى ما يرى وما يسمع، وما يحرق، والله مسيّره، وموجهه، بحيث ترى آثاره، ولا يكون من الإنسان تفاعله، بل يتولى أمره رب العالمين، فقال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا**﴾ الضمير يعود على الله تعالى الذى يكون الحفظ من أمره، ومن كل ما يقدره، فهو الذى يرينا البرق حالة كوننا خائفين من منظره، ومن عاقبته، طامعين فى أن يعقبه مطر يكون غيثا، وخائفين من أن يكون غيثا مدمرا مفسدا. والبرق ينشأ عند اصطدام سحابتين بعضهما ببعض فيحدث من الاصطدام النور البارق. ويقول علم خواص الأجسام: إن إحدى السحابتين تكون ذات كهرباء موجبة، والأخرى ذات كهرباء سالبة، فيحدث من احتكاكهما برق، ويكون معه الرعد، بيد أن الرعد لا يصل إلى الأسماع إلا بعد فترة من رؤية البرق؛ لأن الرعد صوت الاصطدام والبرق صوته، ولكى يصل الصوت إلينا يمر بأجواء الفضاء فلا يصل إلى مسامعنا إلا بعد فترة يقطع فيها مروره، والصواعق إذا كانت أحيانا من هذا الاصطدام تكون مع البرق فى فترة واحدة تقريبا. وهذه الآية تبين رؤية البرق، والتى تليها تبين سماع هزيم الرعد، والثالثة تبين إصابة الله تعالى بالصواعق لمن يشاء.

ولقد ذكر سبحانه فى الآية الأولى أنه يُرى الناس البرق خائفين طامعين، وذكر بعد البرق السحاب المملوء ماء، فقال سبحانه: ﴿**وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ**﴾ السحاب اسم جنس جمعى لسحابة، واسم الجنس الجمعى هو الذى يفرق بينه وبين مفرده بالتاء أو ياء النسب، مثل شجر وشجرة، ومثل عرب وعربى، فمفرده كما رأيت سحابة، والثقال جمع ثقيلة، وعبر سبحانه وتعالى بالنسبة للسحاب بأنه أنشأها، ولم يقل سيّرها؛ لأن الله تعالى يشير بذلك إلى رحمته بالناس، أى أن ماء البحر الملح يتبخر ثم يتكاثف ماءً عذبا، يثيره سبحانه وتعالى سحابا مملوء بالماء، فبين أنها ثِقالا لما تحمله من هذا الماء العذب الفرات، ويرسلها لمن يشاء من

عباده، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ (٤٣)﴾ [النور].

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى مزية البرق المثير للخوف والطمع معا ذكر ملازمها وهو الرعد فقال: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾.

للمفسرين اتجاهان فى هذا:

الاتجاه الأول: أنه يفسر الرعد بمن يسمعه، فالتسبيح ليس تسبيح الرعد ولكن تسبيح من يسمعه؛ لأنه يكون خائفا فزعا، كما يكون الفزع من كل صوت مزعج، فيجعله الخوف والفزع فى حال إدراك لقوة منشئه كما تكون النفس عند رؤية أى أمر مزعج.

والاتجاه الثانى: أن الرعد ذاته يكون فى حال تسبيح الله تعالى وحده؛ لأن هذا الصوت المزعج الرهيب المفزع يكون خاضعا لله تعالى، دالا على توحيده، وعلى كمال سلطانه، فكل شىء يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم.

وإنى أميل إلى الاتجاه الثانى؛ لأنه يتفق مع النسق القرآنى، إذ إن النسق القرآنى يبين خضوع الكون ومظاهره لله تعالى مسبحًا بحمده، وهى تدل على الباعث على هذا التسبيح، وهو حمده على نعمة إيجاده، وكمال خضوعه.

وقوله تعالى: ﴿وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ أى من خوفه سبحانه، و(خيفة) فِعْلَة بكسر الفاء، وهى هيئة الخوف، أى هيئة الخوف الرهيب من الله تعالى، فلا يدرك عظمة الله القوى الجبار إلا من يكون قريبا منه سبحانه وتعالى. ومع تسبيح الرعد بهزيمه، والملائكة الأبرار بخيفتهم من الله، ينزل الله تعالى الصواعق وهى من احتراق البرق، فالبرق يحدث معه الرعد، وأحيانا يكون السحابتين السالبة والموجبة محدثة شرارًا ينزل على الأرض فيحرق ما يصيبه ومن تصيبه؛ ولذا قال تعالى:

﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ ﴾ ومع هذا البرق الخاطف للأبصار الذى يرونه ويفزعون له، ويرجون المطر منه، وهزيم الرعد الذى يسبح لله تعالى، وتسبيح الملائكة من خيفته، وإرسال الصواعق الحارقة مع رؤيتهم هذه الظاهرة الدالة على القدرة القاهرة، والإبداع الباهر يجادل المشركون فى الله؛ ولذا قال تعالى: ﴿ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ ﴾ يجادلون فى قدرة الله تعالى على إعادتهم فى البعث، كما بدأهم، ويجادلون فى الله فيحسبون أن الأحجار تعبد لأنها تكون شفيعه عنده، ويجادلون فى قدرتها فيحسبون أن لها قدرة مع قدرته سبحانه وتعالى، وغير ذلك من الأوهام الفاسدة التى يثيرونها حول الذات العلية، والجدل من جدل الحبل إذا فتله فتلا شديدا ليحمل به الأشياء الثقيلة، ويشد عليها، واستعمالها هنا بمعنى فتل الحجة الباطلة يريدون أن يعتمدوا تفكيرهم الفاسد، ووهمهم الباطل عليها، ﴿ ... وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (٥٤) ﴾ [الكهف].

ولقد ذكر سبحانه وتعالى بعد ذلك أن جدلهم فى هباء أمام قدرة الله تعالى، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ الضمير فى ﴿ وَهُوَ ﴾ يعود إلى الله تعالى، والمحال: قال الأزهرى: إنه القوة والشدة، ويقال: ماحلت فلانا أى قاومته حتى يتبين أينا أقوى، ومِحَال فِعَال من المماحلة، أى أنه لا يغالبه فى الوجود أحد فهو أقوى من كل الوجود، ومع ذلك يجعلون ذاته الكريمة موضع جدال. ولكنه الضلال الذى أوجد غمة على العقول فلا تدرك الحق المبين الواضح الذى قامت فيه الدلائل على قوته القاهرة.

ويجادلون فى الله بأوهام توهموها؛ ولذا بين سبحانه وتعالى أن دعوة الله هى الحق ودعوة أندادهم هى الباطلة، فقال تعالى:

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (١٤) ﴾.

بعد أن بين سبحانه علمه الذى لا يفرق بين جهر وإسرار، وإخفاء وإظهار وقدرته الباهرة ويرونها عيانا فى آياته فى البرق والرعد والصواعق: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ الضمير فى (له) يعود إلى الله جل جلاله، وتقديم (له) على ما بعدها يدل على الاختصاص أى له وحده لا لغيره دعوة الحق.

و﴿دَعْوَةُ﴾ إما أن تفسرها بمعنى الدعاء وهو العبادة، أى له وحده العبادة الحقة، والإضافة بيانية، أى أن المضاف إليه فيه بيان للمضاف، أى الدعوة التى هى الحق، والحق ضد الباطل أى العبادة الثابتة الصادقة التى هى الحق، وغيرها الباطل. وإما أن يفسرها بمعنى الطلب، والالتجاء، أى لا يلجأ إلا إليه، ولا يجيب غيره دعوة اللاجئين المستغيثين، ولا مانع من إرادة المعنيين؛ لأنه لا تضاد بينهما، ولا تضارب، فيمكن الجمع بينهما، ويكون المعنى العبادة هى الحق، ولا التجاء بحق إلا له سبحانه، وقد بين سبحانه وتعالى بعد ذلك بطلان دعوة غيره، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾.

كثر فى الكلام العربى تشبيه الذى لا يقبض على شىء ثابت بالقابض على الماء؛ لأنه لا يستقر فى يده؛ إذ لا يمكن القبض عليه، وجاء القرآن الكريم بأبلغ مما عند العرب فى هذا المثل الرائع فى لفظه ومعناه، فشبه حال من يدعو غير الله بحال من يبسط يده للماء ليبلغ فاه، وما هو ببالغه، أى ليرتفع إلى فمه، وما هو من شأنه أن يبلغه؛ ولذا كان النفى باسم الفاعل، فنفى عن الماء ذلك الوصف، ونفى الوصف أبلغ من نفى الفعل، والتشبيه تشبيه تمثيلى، فيه تشبيه حال بحال، ففيه حال من يدعو ما لا يضر ولا ينفع ولا يجيب، ولا يدرك معنى الطلب أو العبادة، بحال العطشان الذى أمضه العطش، فيطلب من الماء أن يرتفع إلى فمه إذا بسط يده، ومد أنامله إليه على قرب أو بعد، فإن الماء لا يجىء إليه، ولا يستطيع أن يتناول منه بهذه الطريقة ما ينقع غلته ويطفئ ظمأه.

ولقد روى عن على كرم الله وجهه فى تفسير هذا التشبيه: كمثل الذى يتناول الماء من طرف البئر بيده وهو لا يناله أبدا فكيف يبلغ فاه.

وفسره مجاهد ـ تلميذ ابن عباس ـ بأنه يبسط يده إلى الماء فى نهر أو عند غدير يدعوه إليه فلا يأتيه.

وأغرب بعض المفسرين فقال: إن المثل هو تشبيه حالهم فى دعوتهم ما لا يضر ولا ينفع بمن يرى خياله فى الماء يبسط يده إلى الماء ليبلغ فاه، وما هو ببالغه. وكلها يفيد معنى محققا فى عبدة الأوثان، وهو أنهم يتوهمون القدرة فيما لا قدرة عنده على شيء، وهو مستحيل أن ينفع، وأن يحقق مبتغى.

وهنا إشارات بيانية:

أولاها: قوله تعالى: ﴿**لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ**﴾ فقد أعاد الضمير على الأنداد بضمير العقلاء، وذلك على زعم المشركين فى وصفهم إياها فى صفوف العقلاء المدركين، وليست إلا أحجارا، وقال تعالى: ﴿**لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ**﴾ الباء لاستغراق النفى، وتنكير (شىء) لبيان عموم النفى، أى لا يستجيبون بأى شىء من الاستجابة.

الثانية: فى قوله تعالى: ﴿**كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ**﴾ هنا مضاف محذوف، أى إلا كاستجابة باسط كفيه، والاستجابة مستحيلة، فتكون استجابة أندادهم مستحيلة.

الثالثة: فى قوله تعالى: ﴿**لِيَبْلُغَ فَاهُ**﴾ فيه بيان وجه الاستحالة؛ لأنه يمكن أن يكون بلل الماء، ولكن لا يمكن أن يرفع إلى الفم، فكأنه يرى الماء والعطش يقتله، وبمحاولته لا ينال شيئا، فتعبه فى هباء، ومن غير جدوى، ولقد قال تعالى: ﴿**وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ**﴾.

ومعناها: ما دعاء المشركين الذين يشركون الأنداد مع دعائهم لها بالعبادة، والالتجاء فى الحاجة إلا فى ضياع إجابة له، فضراعتهم للأنداد ضراعة لأوهام، إذ

لا حقيقة لها فى شىء ولا وجود لها إلا أن تكون أحجارا صنعوا وابتدعوا لها قوة أرادوها، وما يستطيعون تغيير حقيقتها بأوهامهم.

ولقد بين سبحانه بعد ذلك أن الوجود ـ كله عقلاء وغير عقلاء ـ خاضعون له طوعا وكرها، فقال تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (١٥)** ﴾.

بعد أن بين سبحانه وتعالى بطلان الشرك، وضرب الأمثال على ذلك، وهى أمثال على عظمة البيان القرآنى الذى لا يسامى، ولا يناهد، أخذ يبين سبحانه وتعالى خضوع الوجود كله له سبحانه، والانقياد له سبحانه، فقال تعالت كلماته: ﴿ **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا** ﴾، والمراد من السجود فى ظاهر القرآن، وكما قرر أكثر العلماء الخضوع، وتسخير الله سبحانه وتعالى له، وبذلك يكون المعنى خضوع الموجودات كلها لإرادته سبحانه وتعالى، فالرياح تسير بأمره، والكواكب والنجوم مسخرات بأمره.

وإذا كان المراد من السجود لازمه، وهو الانقياد يكون التعبير من قبيل المجاز المرسل حيث أطلق السجود وأراد لازمه.

وإذا كان المراد الخضوع والانقياد فإن فيهم العقلاء وغير العقلاء، وقد نصّ على الظلال بالغدو والآصال، ولا تعد من العقلاء التى تخاطب، فلماذا عبر بـ(مَن) التى تدل على العقلاء؟ ونقول: إن ذلك من قبيل تغليب العقلاء على غيرهم، كما يعبر بجمع المذكر السالم على الذكور والإناث تغليبا للذكور العقلاء على غيرهم، وقد تطلق (مَنْ) على العموم، ولو لم يكن فى مضمونها عاقل وغير عاقل. وذلك كما فى قوله تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥)** ﴾ [النور].

وإن كل شيء يسجد لله تعالى حتى الظلال بالغدو والآصال، فهى أيضا تسجد خاضعة لله تعالى منقادة له سبحانه، وذكرت مع أنها تابعة لأشخاصها، وذلك للإشارة إلى أن أولئك المشركين خاضعون منقادون حتى ظلالهم التى تلازمهم، ويقال: فلان ألزم لفلان من ظله، فالوجود كله تابع ومتبوع، ملازم وغير ملازم، خاضع لله تعالى، والغدو جمع غداة، كالقُنُوّ جمع قناة، والغدو مصدر.

ويصح أن نقول: إن ذكر الغدو والآصال توجيه النظر إلى مظهرها فى طول الظل وقصره، بين الغدو فى الصباح. والآصال، وهى جمع أصيل، وكيف أنه فى الصباح غير مرتفع، ثم يرتفع شيئا فشيئا حتى يكون عموديا على الأرض فى وقت الزوال، ثم ينحدر من بعد الزوال إلى الغروب، فيعود منخفضا نحو الأرض، وتصفرّ الشمس، وإن من وراء ذلك التغيير المستمر الدائم اتصال الشمس بالأرض، ووجود الحرارة فى ارتفاعها فيكون الدفء، وفى انخفاضها فيكون البرد، ثم ما يكون للظلال من أثر، فتنبت الزرع وتنميه، حتى يستغلظ سوقه، ويعجب الزراع وهكذا، وذكر الوقتين وهما الغدو والآصال؛ لأنهما الوقتان اللذان يختلف فيهما الطول والعرض؛ ولأن الغدوة تشرق فيها الشمس على الوجود فتمده بكل أسباب القوة والنماء للأحياء؛ ولأن الأصيل هو الوقت الذى تؤذن فيه الشمس بزوال، والله على كل شيء قدير.

ونتبه هنا إلى أمرين:

الأمر الأول: أن كلمتى ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ تدل على عموم السجود فى حالى الطوع والاختيار والكره والاضطرار، وهذا دليل على كمال السلطان لله تعالى.

الأمر الثانى: أن بعض المفسرين قال: إن المراد من السجود سجود الصلاة، ومعنى الطوع الملائكة والدخول فى الإسلام طوعا، ومعنى كرها: الدخول فى الإسلام بعد الحرب نفاقا أو ضعفا، ولكن ذلك ليس بظاهر السياق. أولا لعموم من السموات والأرض، والمناسب لذلك أن يكون الخضوع للوجود كله.

وثانيا: فإن الكلمة السامية ﴿وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ تعين أن يكون الواضح السجود بمعنى الخضوع.

الله تعالى رب كل شيء

قال الله تعالى:

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾

كان العرب يؤمنون بأن الله تعالى خالق السموات والأرض، وأنه ليس كمثله شيء، ولكنهم مع الإيمان بهذه القدرة القاهرة الغالبة كانوا يعبدون مع الله آلهة أخرى؛ ولذلك كان الاحتجاج عليهم بالخلق والتكوين احتجاجا بأمر يعترفون به ويقرونه، ولا يخالفون فيه؛ لذلك أمر الله تعالى نبيه بأن يقول لهم: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ كان السؤال لهم للإلزام، لا للإثبات، فهذا أمر ثابت لا

خلاف فيه عندهم؛ ولذا أمر الله تعالى نبيه بأن يتولى هو الإجابة، فقال: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ لأنهم يقرون بذلك ولا ينكرونه؛ ولأن ذلك بدهي في ذاته؛ إذ لم تكن فيهم انحرافات الفلاسفة الذين يقولون فيها بالعلة والمعلول. ولم تكن فيهم خرافات المصريين في عهد الفراعنة؛ ولذلك أمر نبيه أن يجيب عنهم، ثم أمره سبحانه أن يسألهم عن شركهم لماذا يكون مع اعتقادهم أن خلق السموات والأرض لله تعالى وحده، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ... (٦١)﴾ [العنكبوت].

أمره الله تعالى أن يسألهم ما رتبوه على هذا الاعتقاد، وهو نقيضه، ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، والهمزة للاستفهام، وقدم على الفاء؛ لأن الاستفهام له الصدارة، والاستفهام للتوبيخ أو التهكم، والمعنى: فقد رتبتم على قولكم: إن الله خالق السموات والأرض أن اتخذتم أولياء أو نصراء لهم ولاؤكم كأنهم آلهة غير الله تعالى ودونه في العقول عند كل المعقول، وتركتم من خلق وحده، وبدل أن تعبدوه عبدتم ما لا يملك لنفسه نفعًا وإن أراده، ولا ضرا إن أراد دفعه، ومن لا يضر نفسه ولا ينفعها، فبالأولى لا يضر ولا ينفع غيره، فلا يرجى خيره، ولا يدفع شره إلا ما يكون في أوهامكم، وإن هذا التوبيخ يتضمن التوجيه إلى الوحدانية والبعد عن الشرك بالدليل القاطع المانع.

ولقد بيّن سبحانه ما تنكره العقول في هذا النحو من التفكير، وأمر الله تعالى نبيه أن يوجه إليهم الأسئلة ليتنبهوا إلى بطلان ما هم فيه، ومناقضته لاعتقادهم أن الله خالق كل شيء ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ هذا الاستفهام إنكاري في الاثنين، وهو توبيخي، وفيه معنى التهكم، هل يستوي الأعمى الذي لا يرى بالبصير الذي يرى الأشياء، وإنكم قد أبصرتم الحق بإقراركم أن الله خالق السموات والأرض، فأقررتم بأنه الخالق، ومع

ذلك عبدتم ما لا يملك جلب خير لنفسه، ولا دفع ضر لها، فلا يستويان، كما لا يستوى الأعمى والبصير، والظلمات والنور.

و(أَمْ) فى قوله ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ للإضراب الانتقالى، فينقل الله نبيه من السؤال عن استواء الأعمى والبصير إلى السؤال عن استواء الظلمات والنور.

وينتقل آمرا نبيه بأن يسألهم سؤالا إيجابيا عن الخلق عساهم يشركونهم فى الخلق بدل التوحيد الذى قرروه من قبل فقال: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ (أم) هنا للإضراب الانتقالى، وهو استفهام إنكارى لإنكار الواقع، أى توبيخ لهم لأن حالهم فيها إنكار؛ لأن الله خالق كل شىء، إذ إنهم يؤمنون بالأوثان كإيمانهم بالله أو أشد، فحالهم حال من جعلوها شركاء لله تعالى فى خلقه وإنشائه للوجود، حتى تشابه الخلق عليهم، فحسبوا أنهم خلقوا كما خلق.

والخلاصة أن حالهم ليست حال من يعتقد أن الله تعالى خالق الوجود وحده سبحانه؛ لأنهم يشركون بل يفردون الأوثان بالعبادة.

ولذا أمر الله تعالى نبيه أن يؤكد أنه سبحانه وتعالى خالق كل شىء وحده، ولذا قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الله تعالى هو الخالق لكل شىء ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أى الواحد الأحد الفرد الصمد القاهر الغالب لكل شىء، وهنا إشارة بيانية وهى قوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ معناها أن ذلك مثل جعلوه، وزعم زعموه، وهو أنهم شاركوا الله فى الخلق، ولم يستطيعوا تمييز عمل أوثانهم عن عمل الله، فتشابه الخلق عليهم، ولم يميزوا بينها.

وإن ذلك الفرض أخذ من حالهم فى عبادة الأنداد مع إقرارهم بأن الله تعالى خالق كل شىء سبحانه وتعالى. وبعد أن بيّن سبحانه وتعالى إقرارهم بأنه خالق السموات والأرض، ومناقضة حالهم لهذا الإقرار ـ بين سبحانه فضله الدائم المستمر المثبت لربوبيته الكاملة فقال تعالت كلماته:

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧)﴾.

هذه الآية الكريمة فيها: أولا: بيان نعمة الله تعالى على الناس، فيما ينزل من ماء يجرى فى الأودية والأنهار فينتفع به الناس آمادا، يأمنون فيها على أنفسهم وزرعهم وضرعهم من العطش الشديد، والجدب، وضياع الحرث والنسل. وفيها ثانيا: نعمة الله تعالى عليهم فيما أودعه باطن الأرض من فلزات يوقدون عليها فتكون منها حليهم وأمتعتهم من أوان وأدوات حروب، ودفع لأعدائهم، وبذلك يكون منها متاع وحماية ودفاع.

وفيها ثالثا: وهو الذى سيق له القول ظاهرا، وهو ضرب المثل بالحق والباطل، فالحق هو الأمر الثابت الباقى الذى ينفع الناس، والباطل هو الزبد الذى يجيش الماء فيوجده كالرغوة لا تبقى، والذى يوحده الغليان فى الفلز فيظهر خبثا غير مفيد، والفلز يبقى من بعده خالصا ينفع الناس.

هذه خلاصة مقاصد الآية الكريمة السامية، بعضها بالقصد الأول، وبعضها بالقصد الثانى، وكلاهما فيه فضل الله واضح بين، بلا فرق بين ما سيقت له الآية قصدا، وما سيقت تبعا، فالجميع كلام الله تعالى مقصود كل معانيه أصليا وتبعيا.

ولنتكلم فى أجزاء الآية الكريمة:

قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ السماء هى العلو، والماء ينزل من المزن، وهى السحاب الثقال التى ذكر الله تعالى أنه ينشئها فى الآية السابقة، وتلك نعمة من الله أنعمها على الناس، نزلت من السماء على الجبال أو المرتفعات فتحدرت عليها المياه وسالت حتى كونت أودية وأنهارا، وهذا قوله تعالى: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾، الأودية جمع واد، وهو المكان الذى يجرى فيه الماء، وليست الأودية هى التى تسيل، إنما الذى يسيل هو الماء الذى يجرى فيها،

وأطلقت الأودية وأريد ماؤها من قبيل إطلاق المحل وإرادة ما يحل فيه، مثل قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧)﴾ [العلق] أى أهل ناديه، وقيل: سالت الأودية وأريد الماء؛ لأن السيل شديدا عنيفا قد طم، حتى اختفت الأودية من شدته فصار الناظر لا يرى إلا المياه المتدفقة، وكان حكمه على ما يراه، لا على محله، وقوله تعالى: ﴿بِقَدَرِهَا﴾ وقرئ بسكون الدال لا بفتحها، والمراد بمقدار ما يملؤها، وقيل: بما قدر لها من ماء يكفى الناس فى معاشهم وزرعهم وضرعهم، ويصح إرادة المعنيين، والنص يحتمل الجمع، ولا تعارض بينهما.

و(الزبد) ما يحمله الماء عند جريانه وجيشانه من أتربة وغيرها، وإن هذا بلا ريب يذهب ولا يبقى، بل أحيانا يكون رغوة يبددها الهواء، فهى كأزيز[1] الموج يصطخب ولا يبقى منه شىء.

ولقد قال تعالى توجيها لأمر آخر، وهو الفلز عندما يُفْتَن ليخرج ما فيه من خبث تعلق به من باطن الأرض فقال سبحانه: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾ (مما) مدلولها الفلزات من المعادن وهى القابلة للطرق والسحب أو التى تنصهر بالنار كالذهب والفضة والنحاس والحديد والقصدير وغيرها، و﴿فِي النَّارِ﴾ الجار والمجرور متعلق بمحذوف يفهم من القول، والمعنى: مما يوقدون عليه ملقى فى النار، وقوله: ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾ أى مما يلقى فى النار الموقدة بقصد طلب حلية كالذهب والفضة ﴿أَوْ مَتَاعٍ﴾، أى أمر ينتفع به كالأوانى، وأدوات الحروب وغير ذلك ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾، أى أن خبث الفلزات يكون كالزبد الذى يجىء من إثارة الماء للتراب واصطخاب الأمواج.

والجُفاء هو ما يلقيه السائل بعيدا ليصفو، وذلك من قولهم جفأه السيل، وقد مثل الله تعالى المهتدى بالبصير، والضال بالأعمى، والعبادة الحقة بالنور، والباطلة بالظلمات فى الآية السابقة. وفى هذه الآية مثَّل الحق بالماء الذى ينزل من

---

(١) الأزيز: كل صوت يأتى من شدة الحركة، فيقال أزيز الموج، وأزيز الطائرة، وأزيز النحل، لذلك.

السماء فتسيل منه أودية مختلفة تأتى بالزروع والثمار مناوبة، ولذا نكر أودية، وشبه الحق بالفلز الخالص، والزبد الذى يكون فى حال جيشان الماء، ويكون من إيقاد النار على الفلز، أى شبه الباطل بهذا الزبد الذى لا يبقى، بينما الماء والفلز الخالص يبقيان نافعين دائمى النفع ووجه الشبه بين الحق، والفلز والماء، أنها مفيدة دائما، وباقية لغذاء الإنسان، ومتاعه وحليه، وأنها جوهر صالح. ووجه الشبه بين الباطل والزبد، أولا: أنه لا بقاء لهما، ثانيا: أنهما لا حقيقة لهما، وثالثا: أن السلامة فى الخالص منهما.

ويصح أن يكون التشبيه تشبيها تمثيليا، بأن يشبه حال الحق فى بقائه ودوامه بالماء والجوهر الصافى من حيث النفع والبقاء والدوام، ويشبه حال الباطل من حيث إنه لا حقيقة له، وإذا كانت له حقيقة فهو خبث تجب إزالته وتطهير الجسم النافع، شبه حال الباطل بالزبد الذى يكون من الماء، أو يكون من إيقاد الفلز فى النار؛ لأنه لا حقيقة لها، وإذا كانت لها حقيقة فهى خبث يجب زواله.

وقد قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ كذلك يبين الله الحق والباطل فيشبه الحق بالماء والفلز ويشبه الباطل بالزبد، وقد بين سبحانه وجه الشبه، فقال: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾ وقد ذكر فى الأول المشبه به لتأكيد ذهاب الباطل، وفى الثانى ذكر المشبه وهو الحق لبيان بقائه ونفعه وثباته، وأن النهاية دائما له ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ... (٨)﴾ [الأنفال]، وقد ختم سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾.

والإشارة إلى بيان مثل الحق بالماء والفلز، ومثل الباطل بالزبد الذى لا يبقى، والمعنى كهذا المثل الذى بين الله تعالى به الحق والباطل يبين الأمثال المشابهة، ويبين المعانى الجلية، والحقائق الثابتة، ويهدى بها من يشاء من عباده.

المؤمنون الذين يستجيبون لله

قال الله تعالى:

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾

بعد أن ضرب الله تعالى الأمثال للحق، وبين الدلائل المبينة الدالة على عبادة الله وحده لا شريك له من أنداد وأوثان، أو أحد من خلقه، وضرب الأمثال للحق والباطل، بين سبحانه وتعالى من يستجيب للحق وجزاءه، ومن لا يستجيب، فقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى﴾ الحسنى هو مؤنث أحسن، وليس أفعل التفضيل على بابه هنا، بل المراد الحال البالغة أقصى درجات الحسن ونهايته التى لا غاية فى الحسن بعدها. و(استجاب) معناها أجاب، ولكنها فى أصلها طلب الإجابة؛ لأن السين والتاء للطلب، والمعنى: للذين أجابوا دعوة ربهم الذى خلقهم، وقام على شئونهم الجزاء الأحسن الذى لا حسن بعده.

هذا جزاء الذين استجابوا لدعوة الحق ولربهم رسوله، أما الذين لم يستجيبوا لربهم ولم يلبوا دعوته إلى الحق وعدم الشرك فلهم السوءى، أى أسوأ الأحوال التى لا نهاية بعدها فى السوء. ويلاحظ أن الذين استجابوا جعل استجابتهم لربهم، والذين لم يستجيبوا لم يذكر فى النفى أنها لربهم، وذلك لسببين:

السبب الأول: أن عدم ذكر ذلك لعدم التكرار، والتكرار فى الأمر مذموم فى ذاته غير مقبول.

والسبب الثانى: بيان أنهم ليس من شأنهم أن يستجيبوا لحق، فقد طمس الله على قلوبهم، وعلى أعينهم غشاوة ولا يبصرون.

وقد ذكر الله الجزاء الذى يقابل الحسنى بقوله تعالى: ﴿**لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ**﴾ وهذا يدل على أنه عذاب عظيم يحاول من ينزل به الخلاص منه، وأنه لا يخلص منه إلا بفداء عظيم يساوى الفداء منه كل ما فى الأرض من أموال وأعراض ومتع ومناصب وجاه، فكان له كفاء، ومعنى ﴿**لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ..**﴾ إلى آخره لو ثبت أن لهم كل ما فى الأرض من ملاذ وشهوات جميعا غير منفرط منه شىء، لافتدوا أى رضوا أن يقدموه فداء له، فما فى الأرض إن كانوا يملكونه يقدمونه.

و(لو) حرف امتناع لامتناع، أى امتنع عليهم الافتداء؛ لأنهم لا يملكون ما فى الأرض جميعا.

ولقد صرح سبحانه بأنه سوء فى ابتدائه وانتهائه، فقال تعالى: ﴿**أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ**﴾ وسوء الحساب أنه شاق يسوء فى نتائجه لا تخفى فيه خافية. بل يحاسبون حسابا عسيرا شديدا فى شكله وغايته، وقد ذكره سبحانه وهو الإلقاء فى الحميم. و(المأوى) ما يأوى إليه الإنسان يتقى به الحر والبرد، والمأوى الذى يأوون إليه فى الآخرة هو جهنم، وهى بئس المهاد، و﴿**الْمِهَادُ**﴾ جمع مهد وهو الفراش الذى يفترشه لينال به الراحة والقرار، ولكنه

في الآخر ليس للراحة ولكن للعذاب الدائم ﴿ ... أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩) ﴾ [البقرة].

وقد أخذ يبين ـ سبحانه ـ الفرق بين جزاء الذين استجابوا لربهم والذين لم يستجيبوا، فبين سبحانه أنه العدل الذى لا يدخله شيء من الضير، وغيره هو الظلم، فقال تعالى:

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ (١٩) ﴾.

هذا النص الكريم لتأكيد الفارق بين جزاء المتقين وجزاء الذين لا يستجيبون للحق ولا يذعنون، والاستفهام هنا إنكارى، لإنكار الوقوع، أى أنه لنفى التشابه بين من يعلم الحق، ويذعن له، ويؤمن به، ومن يعرض عن الحق ويترك الآيات الدالة على الحق المبين وكأنه الأعمى الذى لا يبصر، إذ عدم البصيرة كعدم البصر على السواء.

والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى أنه يترتب على اختلاف الجزاءين تقرير أن التشابه بينهما غير ممكن، وأخّر الفاء عن تقديم؛ لأن الاستفهام له الصدارة كما ذكرنا من قبل.

لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون، أفيستوى الذين يعلمون ﴿ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾. والمراد بالذى ﴿ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ القرآن، وذكر بهذا الموصول ليكون متضمنا الحكم، وهو أنه الحق لأنه أنزل إليك من الله الذى خلقك ورباك وأيدك، فلابد أن يكون الحق، وتعريف الطرفين يدل على القصر، أى أنه لا يمكن أن يكون إلا حقا، ولا يمكن أن يكون فيه باطل قط ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ ... (٤٢) ﴾ [فصلت]، وقوله تعالى: ﴿ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ المراد من لا يصدق أنه الحق، كأنه كالأعمى، إذ إنه أعرض عن الآيات الشاهدة بالصدق، وأنه المعجزة الكبرى، والآيات الدالة على أن الله واحد

أحد فرد صمد، وقد خلق كل شىء وقدره تقديرا، فاستعير لفظ الأعمى لمن أعرض عن ذكر ربه وأنكر آياته كأنه لم يرها. وإن فَقْد البصيرة كفَقْد البصر على سواء.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ (إنما) أداة من أدوات القصر، أى لا يتذكر إلا أولو الألباب، أى العقول التى تدرك لُبَّ الأمور، وخواصها، وما تدل عليه من غير شائبة تقليد، ولا اتباع لغير المؤمنين، و(أولوا) أى أصحاب الألباب، ومعنى التذكر إدراك الآيات، وكأنها لا تحتاج إلى تعرف جديد؛ لأن أصلها فى الفطرة.

وقد بين سبحانه وتعالى القول فى أوصاف أولى الألباب، فقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠)﴾. هذا هو الوصف الأول من أوصاف المؤمنين أولى الألباب.

يصف الله سبحانه وتعالى المؤمنين بالوفاء بالعهد، وما بعده من أوصاف.

كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)﴾ [البقرة].

فالوفاء بالعهد من صفات المؤمنين، ومن خصال الإيمان؛ وذلك لأن الوفاء يقتضى أن تصدق النفس فى ذاتها وأن تدرك ما يجب فى حق النفس، ويشعر المرء بالمعادلة فى الحياة بينه وبين الناس، يشعر بحقهم عليه كما يطالبهم بحقه عليهم؛ ولذا كان علامة من علامات الإيمان. وكان خُلف العهد علامة من علامات النفاق؛ لأن المنافق يحسب أن الناس خلقوا له يستغلهم ولا يعطيهم، يأخذ منهم ولا يقدم لهم.

والعهد أُضيف إلى الله تعالى، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ... (٩١) ﴾ [النحل].

والعهد سواء أكان مضافا إلى الله تعالى أم كان مضافا إلى العبد واجب الوفاء؛ لأنه من أمر الله، والنقض من أمر الله تعالى، فمن أوفى بعهده للناس فقد أوفى بعهد الله تعالى، وقد قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ... (١) ﴾ [الأنعام].

والعهود تشمل التكليفات الشرعية كلها فهى عقود الله تعالى على عباده، وتشمل العهود التى عُقدت موثقة بيمين سواء أكانت نذورا أم كانت عهودا للناس، وثقها على نفسه بيمين الله تعالى، فالوفاء بها من الإيمان، ويشمل العهود التى يعقدها مع الناس ولو لم يذكر فيها يمين لما ذكرنا؛ لأن الشعور بالوفاء شعور بالمبادلة الاجتماعية بينه وبين الناس فى الحقوق والواجبات، وبذلك يكون الاجتماع المستقيم القائم على هدى رب العالمين.

وأكد الله تعالى الوفاء بذم نقيضه، فقال تعالى: ﴿ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾، و(الميثاق) وهو ما وثق من العهود بيمين الله أو غيره، و(أل) فيه للعهد، وقد ذكر الميثاق على بنى إسرائيل وهو ميثاق الله تعالى الذى حمله الأنبياء، وقد بينه الله تعالى على بنى إسرائيل فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (٨٣) ﴾ [البقرة].

هذا ميثاق الله تعالى على عباده أجمعين، جاء على لسان الأنبياء الأكرمين، ولكن ذكر مع بنى إسرائيل لأنهم أشد الناس مخالفة له. وقد أمر به فى القرآن أمرا، فقال تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا (٣٦) ﴾ [النساء].

هذا ميثاق النبيين، وهو يقوم على القيام بحق الله تعالى، والقيام بحقوق العباد التى أكدها الله سبحانه وتعالى بأمره، وهذا الميثاق هو ميثاق الجماعة، وميثاق العدل الاجتماعى الكامل.

الوصف الثانى والثالث والرابع من أوصاف الإيمان:

قال تعالى فيه: ﴿ **وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ** (٢١) ﴾.

وذكر الله تعالى لهم ثلاثة أوصاف: وصف يتعلق بالصلات الاجتماعية التى بها يقوم بناء اجتماعى سليم يبتدئ من الأسرة بمعناها الممتد الذى يشمل القرابة جميعها قريبة كانت أم بعيدة، ويشمل المجتمع الصغير، ومجتمع المدينة، ثم الدولة، ثم المجتمع الإنسانى، وهذا هو الوصف الأول ﴿ **الَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ** ﴾، والوصف الثانى نفسى، وهو أساس البناء الاجتماعى الفاضل، ورمز الله تعالى إليه بقوله تعالت كلماته: ﴿ **وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ** ﴾، أى يخافون الله تعالى فى كل عمل يعملونه، فلا يطغون، ولا يظلمون، ولا ينقصون الناس حقوقهم، فمن خشى الله تعالى يتذكره فى كل عمل يعمله فى ذات نفسه، وفى أهله وبينه وبين الناس.

والوصف الثالث: الإيمان بأنه يحاسب عليه، وقد ذكره سبحانه بقوله تعالى: ﴿ **وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ** ﴾، وخوف الحساب يتضمن الإيمان بالبعث والنشور، ولقاء الله تعالى يوم القيامة أولا، وأنه سيحاسب على ما كان فى الدنيا ثانيا. ويتضمن ترجيح الخوف على الرجاء، وأنه يخشى السوء قبل أن يرجو الثواب. ثالثا: فهو يستقل ما قدمه من خير، ويستكثر دائما ما وقع فيه من هفوات، وهذا شأن الأبرار، يستقلون ما يفعلون من خير، ويستكثرون ما يقع منهم من هفوات.

ولنذكر كلمات موجزة عن هذه الصفات الثلاث:

فأما الأولى، فهى: أن يصلوا ما أمر الله به أن يوصل، فنقول: إن ما أمر الله به أن يوصل هو ما يتعلق ببناء المجتمع على المودة والرحمة، فيصل قرابته القريبة والبعيدة، فقد أمر سبحانه وتعالى بصلة الرحم، فقال: ﴿... **وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ** ... (٧٥)﴾ [الأنفال]، وأمر على لسان رسوله بصلة الأرحام فى أكثر من حديث، وأمر بالصلة بين الناس بالتعاون فيما بينهم على الخير، فقال تعالى: ﴿... **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ... (٢)﴾ [المائدة]، ودعا إلى إقراء السلام على من عرفت ومن لم تعرف، وأمر بإغاثة المستغيث، وفك كرب المكروبين. فكل هذه صلات قد أمر الله تعالى بوصلها. ولقد جاء فى الكشاف للزمخشرى ما نصه: ما أمر الله به أن يوصل من الأرحام والقرابات، ويدخل فيه وصل قرابة رسول الله ﷺ، وقرابة المؤمنين الثابتة بسبب الإيمان ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ... (١٠)﴾ [الحجرات]، بالإحسان إليهم على حسب الطاقة، ونصرتهم، والذب عنهم، والشفقة عليهم، والنصيحة لهم وطرح التفرقة بين أنفسهم، وإفشاء السلام عليهم، وعيادة مرضاهم، وشهود جنائزهم، ومنه مراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران والرفقاء فى السفر)[١].

وهكذا نجد من الأمر بأن يصل ما أمر الله به أن يوصل، أن يعملوا على رأب الصدع وجمع الوحدة، وإزالة الفرقة، وأن يحسنوا إلى الضعفاء والمساكين، وقد روى ابن كثير عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟** قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: **أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون الذين تسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره، لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله تعالى لمن يشاء من الملائكة: إيتوهم فحيوهم، فتقول الملائكة: نحن سكان سمائك، وخيرتك من خلقك، فتأمرنا أن نأتيهم فنسلم عليهم، فيقول: إنهم كانوا يعبدوننى لا يشركون**

(١) الكشاف للزمخشرى: ج ٢/ ٣٥٧.

بى شيئا، وتسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع قضاءها»(١).

هذه صلة من أمر الله به.

وأما خشية الله تعالى فهى امتلاء القلب بالله، وخشية عقابه، ورجاء ثوابه، وأن يكون ذاكرا لله، شكورا لنعمه، راجيا قبول طاعته ﴿ ... **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ... (٢٨) ﴾ [فاطر]، فهم أعلم الناس به ذاتا، وصفاتٍ، وقدرا، وإكبارا.

ومنها خوف سوء الحساب، فهو خوف نتائج السر الذى كان فى الدنيا، والله غفور رحيم.

الوصف الخامس والسادس والسابع والثامن من صفات المؤمنين، وهو من مقتضيات الإيمان: الصبر، وما بعده، قال تعالى:

﴿ **وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ** (٢٢) ﴾.

ذكرت هذه الآية أربع خصال للمؤمنين، أولها: الصبر ابتغاء وجه الله تعالى، وإقامة الصلاة والإنفاق من رزق الله تعالى، ودرء السيئة بالحسنة.

أما الصفة أو الخصلة الأولى: وهى الصبر ابتغاء وجه الله، فإن معناها ضبط النفس عن الشهوات، وتسيطر على منازع النفس فتقوى الإرادة، وتكون الأهواء أمةً لها، ولا تكون سيدا عليه، وإن الصبر فى المصائب التى تنزل، والإصرار على الوقوف عند أمر الله تعالى ونهيه، ولقد فسر ابن كثير الصبر ابتغاء وجه ربهم بقوله: «الصبر عن المحارم والمآثم، فقطعوا أنفسهم عنها لله عز وجل ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه» وفسره الزمخشرى بقوله: «﴿ **صَبَرُوا** ﴾ مطلق فيما يصبر عليه من

(١) رواه أحمد: مسند المكثرين من الصحابة ـ مسند عبد الله بن عباس (٦٢٨٢).

المصائب فى النفوس والأموال، ومشاق التكليف ابتغاء وجه الله، لا ليقال ما أصبره، وأحمله للنوازل، وأوقره عند الزلازل، ولا لئلا يعاب بالجزع، ولا لئلا يشمت به الأعداء كقول القائل: (وتجلدى للشامتين أريهم)(١)، ولا لأنه لا طائل تحت الهلع، ولا مر فيه للفائت كقول القائل:

ما إن جزعت ولا هلعـــ ــــت ولا يردُّ بكاىَ زندًا

فكل عمل له وجوه، فعلى المؤمن أن ينوى منها ما كان حسنا عند الله، وإلا لم يستحق ثوابا، وكان فعلا كلا فعل» ا هـ(٢). قيل هذا الكلام بليغ، وفيه بيان متى يكون الصبر ابتغاء وجه ربه، ومتى لا يكون، وإنه بلا ريب كلام حق، ولكنى أزيد عليه، بأن كلمة: ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ لابد أن يكون فى موضع معين يكون الصبر فيه ابتغاء وجه الله، أى يبيع المؤمن نفسه لله تعالى صابرا محتسبا، وهو الجهاد، فهذه الجملة السامية أو الخصلة الكريمة مع أنها تفيد أن الصبر فى كل أحواله خير، وخصوصا إذا لم تقصد به المفاخرة، كما جاء على لسان بعض الشعراء، فإن الأخص هو الصبر فى الجهاد، يدفع نوازع النفس، وبالتقدم للميدان رجاء ما عند الله تعالى، والصبر فى كل أحواله خير.

ومعنى ﴿ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ أن يطلب رضا ذات الله تعالى العلية عليه. وعبر بالوجه عن الذات؛ لأنه فى أصل معناه اللغوى ما يواجه الإنسان.

والخصلة الثانية: إقامة الصلاة، أى الإتيان بها مستوفية الأركان، وبخشوع وخضوع، وبأداء حقيقة معناها الناهية عن الفحشاء والمنكر، كما قال تعالى: ﴿ ... إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ... (٤٥) ﴾ [العنكبوت]،

---

(١) يعنى إظهار الصبر مراءاة كى لا يشمت الشامتون.

(٢) الكشاف للزمخشرى: ج٢/ ٣٥٧، وتتمة البيت كما ذكره البيضاوى ج٦/ ٣٧٦:

وتجلدى للشامتين أريهم أنى لريب الدهر لا أتضعضع

البيت لأبى ذؤيب قاله يرثى بنيه.

وإن الصلاة إذا أقيمت لقـويت النفس، وناجى المؤمن ربه حق المناجاة، وقرب من ربه، وامتلأت نفسه به، وصار قلبه نورا، وفكره نورا، واستقامت نفسه وقلبه.

الخصلة الثالثة: كما قال تعالى: ﴿**وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً**﴾، وقوله تعـالى: ﴿**مِـمَّـا رَزَقْنَاهُمْ**﴾ مـعناها: إنفـاق بعـض مـا رزقناهم، أى من حـلال مكاسبـهم، فالكسب الحلال رزق من الله، وإضـافة الرزق إلى الله تعالى يقـتضى أولا ما ذكرنا وهو أن يكون حـلالا، ويعتبر ثانيا أن المال مال الله تعـالى فهو الذى رزق، وما تكلف من إنفاق إنما هو مما أعطاك، فقد أعطاك لتنفق، فهو ابتلاك بالمال لتنفقـه وتشكر، وابتلى غيرك بالفقـر ليصبر، والله فـضل بعضكم على بعض فى الرزق.

وقوله: ﴿**سِرًّا وَعَلانِيَةً**﴾ ولكل حال فضـلها، ففضل السر الستـر على من يعطيه، وألا يكون تفاخرا، وأن يكون العطاء لوجه الله لا رياء فيه، وقد قال النبى ﷺ: «**من تصدق يرائى فقد أشرك، ومن صام يرائى فقد أشرك**»(١)، وفى العلانية فضل أحـيانا كأن تحرض الناس عـلى العطاء، وأن يمنع الاتهام بالشح ليقى نفـسه منه.

والخـصلة الرابعـة: بينهـا سـبحـانه وتعـالى بقـوله: ﴿**وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ**﴾.

(درأ) بمعنى دفع، ومن ذلك قوله تعالى فى اللِّعان: ﴿**وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ** ⁽٨⁾﴾ [النور].

ودرء السيئـة بالحسنة فسرها المفـسرون بأنه دفع الإساءة بالإحسـان، ومقابلة الحرمـان بالإعطاء، والقطيعة بالوصل، كـقول النبى ﷺ: «**ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمـه وصلها**»(٢)، وقد روى عن ابن عـباس أنه

---

(١) رواه أحمد، وقد سبق تخريجه.

(٢) رواه البـخارى: الأدب - ليس الواصل بالمكافئ (٥٥٣٢). كـما رواه التـرمذى: البـر والصلة (١٨٣١)، وأبوداود: الزكاة (١٤٤٦)، وأحمد: مسند المكثرين (٦٢٣٨).

قال فى معنى هذه الآية: يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيئ غيرهم، وعن الحسن البصرى: إذا حرموا أعطوا، وإذا ظلموا عفوا، وإذا قُطعوا وصلوا.

وجملة هذه المعانى تتجه إلى نشر التسامح، ومنع مبادلة السوء بالسوء حتى لا يؤدى ذلك إلى التقاطع والتدابر، وأن يكون بأس المسلمين بينهم شديدا، وهذا هو ما أمر الله تعالى به منعا للعداوة، فقد قال تعالى: ﴿ **وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** (٣٤) ﴾ [فصلت].

هذا معنى سليم مستقيم، ويصح أن نقول: إن معنى قوله تعالى: ﴿ **وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ** ﴾، أن الإكثار من الحسنات يدفع السيئات؛ ذلك أن الحسنات طهارة للنفس، والطهارة تزيل أخباث النفس، كما قال تعالى: ﴿ ... **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** ... (١١٤) ﴾ [هود] فإن السيئات تخط فى القلب خطوطا، والحسنات تزيلها، أو تذهب بنكتها السوداء، ويصح أن يراد المعنيان. ولقد أخبر عليه الصلاة والسلام أن الحسنة تمحو السيئة، فقال ﷺ: «**وأتبع السيئة الحسنة تمحها**»(١).

وقد بين الله تعالى جزاء المؤمنين الذين اتصفوا بهذه الصفات السامية المطهرة للنفوس وللجماعات، وهى تدل على أن هذه الصفات هى سبب الجزاء العظيم، ﴿ **أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ** ﴾ وعقبى الدار (الجنة)؛ ولذا بينها سبحانه وتعالى بقوله:

﴿ **جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)** ﴾.

---

(١) رواه الترمذى: البر والصلة ـ ما جاء فى معاشرة النساء (١٩١٠)، كما أخرجه أحمد فى مسند الأنصار (٢٠٣٩٢)، والدارمى: الرقاق (٢٦٧١).

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بدل أو بيان لمعنى عقبى الدار، أو الدار نفسها التى تكون عاقبة العاملين عملا صالحا، والذين صبروا فى الجهاد ابتغاء وجه ربهم، و﴿عَدْنٍ﴾ يعنى إقامة، أى جنات يقيمون فيها إقامة دائمة وهى الفردوس، وتكون فى وسط الجنة، وفوقها عرش الرحمن الذى يحكم فى عباده بما يشاء، وهذا تصوير بيانى رائع لبيان النعيم المقيم الذى يختص به الأبرار المجاهدون الأطهار.

يدخلونها، لا عائق يعوقهم، ولا حائل بينهم وبينها، ويُدخلون معهم من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم. ذكر هؤلاء الذين يكوِّنون الأسرة، والمؤمن فى حنان مستمر إلى هؤلاء، من آباء وأمهات وأبناء وأحفاد. فالله سبحانه وتعالى يطمئنه عليهم، وبأن الأسرة الدنيوية تكون معه فى الآخرة يأنس بها وتأنس به، وقيد هؤلاء بأنهم الصالحون، وغير الصالحين ليسوا منه، وليس هو منهم كابن نوح، إذ قال ربه: ﴿... إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ... (٤٦)﴾ [هود]، وهذا يشير إلى أن الجنة جزاء للأعمال، لا للأنساب كما قال النبى ﷺ لأحبابه من بنى هاشم: «**يا معشر بنى هاشم، لا يأتينى الناس بالأعمال وتأتونى بالأنساب، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى**»(١). وقد فهم بعض المفسرين أن أولئك ألحقوا به إكراما له، ولكن اشتراط الصلاح يقيِّد دخولهم ﴿وَمَن صَلَحَ﴾، إنما كان استقلالا لعملهم بدليل ذكر الصلاح، ولكن ذكروا معه لبيان أنسه بأحبابه فى الدنيا أولا ولاطمئنانه على من يحدب عليهم ثانيا.

وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى أنس المجاهدين الصابرين المتقين بذوى الصلات بهم فى الدنيا إذا صلحوا ـ ذكر أُنسا روحانيا كريما، وهو إيناسهم بالملائكة الأطهار، فقال تعالت كلماته: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ أى يحفون بهم، يجيئون إليهم من كل ناحية، فهم فى أنس روحى، كما أنهم فى متعة الجنة، وهى نعيم مادى، ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨)﴾ [الرحمن]، وفيها كل ما تشتهى النفس، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب

(١) رواه أبو يعلى مرسلا، ووثقه ابن حبان وغيره، مجمع الزوائد (٢٩٦٧٢): ج١٠/ ٣٩٠.

بشر، وأولئك الملائكة الأبرار يقولون ما يملأ نفوسهم بالأمن والبشر والاطمئنان؛ ﴿سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾، ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ ... (٤٤)﴾ [الأحزاب] وهذا يتضمن معنى الإيناس بإقراء السلام، فإقراء السلام فى ذاته إيناس، وفيه مع ذلك بث الاطمئنان وطيب الإقامة، وذلك بسبب الصبر، أى بسبب صبركم فى الجهاد، وصبركم على الطاعات وتجنب الشهوات، وصبركم على تحمل المكاره، وصبركم على البعد عن الأحبة، وقد روى عبد الله بن عمر، أن النبى ﷺ قال: «**هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟**»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**المجاهدون الذين تسد بهم الثغور، وتتقى بهم النار، فيموت أحدهم وحاجته فى نفسه لا يستطيع لها قضاء، فتأتيهم الملائكة فيدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار**»(١).

ولقد روى أن النبى ﷺ كان يأتى على قبور الشهداء كل حول فيقول: «**السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار**»(٢)، وكان أبو بكر وعمر وعثمان يفعلون ذلك، ولم يذكر عليّ مع أنه بطل الجهاد الأول بعد رسول الله ﷺ، وهو أعرف الناس بعد الرسول بحق الجهاد وهو القائل: (الجهاد باب من أبواب الجنة).

وإن النبى ﷺ قال: «**الجهاد ماض إلى يوم القيامة**»(٣)، وإن المسلمين هانوا على أنفسهم يوم بث أعداؤهم التخاذل عن الجهاد، فأطاعوهم، فخذلهم الله تعالى، ولا تزال تطلع على المتخاذلين من المسلمين عن الجهاد، فقد ساروا وراء أذيال النعم، وصاروا عاملين لأعدائهم يقدمون لهم أسباب المال الذى يستخدمونه ضدهم.

ثم بين سبحانه أن هذا الجزاء هو خير الجزاء، فقال: ﴿**فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ**﴾.

الفاء للإفصاح، أى إذا كان ذلك هو العقبى والنتيجة، فنعم هذه العقبى، وتلك النهاية.

---

(١) سبق قريبا. (٢) انظر ما جاء فى البداية والنهاية - ج٤/ ٢١٨.

(٣) رواه أبو داود: فى الغزو مع أئمة الجور (٢١٧٠).

أوصاف الضالين

قال الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾

هذه أوصاف الذين عتوا عن أمر ربهم، وخرجوا عن جادة الحق، وأوصافهم فى مقابلة أوصاف المؤمنين، وهم متصفون بصفات ثلاث، جعلتهم يمردون على الكفر والطغيان، وهذه الصفات الثلاث هى: نقض عهد الله، والثانية: قطعهم ما أمر الله به أن يوصل، والثالثة: الفساد فى الأرض.

أما الأولى فقد بينها سبحانه وتعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ**﴾ وعهد الله تعالى بَدَهى تدركه البديهة السليمة؛ لذا سمى دين التوحيد، فطرة الله تعالى التى فطر الناس عليها. وهى إدراكها حقيقة، حتى إن بعض

العلماء المسلمين قال: إن إدراك الله تعالى تدركه البديهة السليمة؛ لذا سمى دين التوحيد، فطرة الله التى فطر الناس عليها. وقد نص على عهد الله فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤) ﴾ [الأعراف].

ولم يترك الناس بعد هذا العهد الذى أخذ بمقتضى الفطرة، بل وثّقه بميثاق، ولذا قال تعالى: ﴿ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾ وهذا الميثاق الذى وثق به الرسل الذين أرسلهم مبشرين ومنذرين ﴿ ... وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) ﴾ [فاطر]، وقال تعالى: ﴿ ... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥) ﴾ [الإسراء].

ولقد جاءت النذر بهلاك الأمم التى فسقت عن عهدها، فكان ذلك توثيقا بعد توثيق، وإنذارًا بعد إنذار، ومع ذلك نقضوا عهد الله من بعد ميثاقه.

الصفة الثانية: قطعهم ما أمر الله به أن يوصل من الأرحام، والعلاقات الاجتماعية الفاضلة على ما بينا فى معنى قوله تعالى فى صفات المؤمنين: ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾.

الصفة الثالثة: أشار إليها سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ الفساد فى الأرض ألا يقوم فيها النظام الاجتماعى على التكافل بين الآحاد، ومعاونة بعضهم، وألا يستعلى قوى على ضعيف، وألا يندغم الضعفاء فى الجماعة، وألا يراعى لهم حق، وأن يكون التفاوت الظالم بين الآحاد، وألا يكون ضابط يحمى الضعفاء من الأقوياء والأغنياء من الفقراء، وأن يسود الظلم من الحكام لرعاياهم، فإن ذلك فسادا أى فساد، وقد رأينا حكاما ظالمين يقتلون الرعية بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، والله أكبر، ويدعون أنهم يصلحون وهم المفسدون؛ لأن أساس كل نظام العدل. إفساد أى حكم بالظلم أولا، وما يتبعه

تحسس وتجسس وسعاية ثانيا، وما يجرى وراءه من نفاق ثالثا: وإذا جاء النفاق عمَّ الفساد. ولقد قال أبو العالية: «ست صفات فى المنافقين، إذا كانت الظهرة (أى السيطرة) على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا فى الأرض، وإذا كانت الظهرة عليهم أظهروا ثلاث خصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا».

وإن النفاق دائما وليد الاستبداد الغاشم، والظلم الطاغى، وقد رأينا وشاهدنا.

وقد بين الله سبحانه الجزاء الأوفى للذين لايؤمنون، فقال تعالى: ﴿**أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ**﴾ اللعنة هى الطرد، وقد ذكرت غير مقيدة، فإنها فى الدنيا أو الآخرة، أما لعنتهم فى الدنيا فالمقت الشديد والبغض والكراهية، وسوء الأحدوثة، واقتران حياتهم بالخوف من الناس، والاضطراب النفسى حتى يموتوا بغيظهم، وسوء الحديث عنهم تتوارثه الأجيال جيلا بعد جيل. ويقال فيهم ما قاله الشاعر البطل محمود سامى البارودى:

زالوا فما بكت الدنيا لطلعتهم ... ولا تعطلت الأعياد والجمع

واللعنة فى الآخرة: الطرد من رحمة الله ورضوانه، فلا ينظر إليهم ولا يكلمهم الله ولا يزكيهم ﴿**وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ**﴾ والدار هى الآخرة وسوءها جهنم وبئس المهاد.

وإن المشركين كانوا يغترون بمالهم ونفوذهم، والمؤمنون كانوا فى أكثرهم فقرا وضعفا وكانوا يعقدون ملازمة بين رضا الله والفقر، فمن كان غنيا فهو موضع رضا الله، ومن كان فقيرا ضعيفا فهو موضع مقت الله تعالى، فازدادوا بذلك كفرا وطغيانا، فبين الله سبحانه أنه لا ارتباط بين الغنى والإيمان، ولا بين الضعف والكفر.

قال تعالت كلماته: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ (٢٦)﴾.

صدّر سبحانه وتعالى الآية الكريمة بلفظ الجلالة الذى يطالبهم الله تعالى بعبادته وحده من غير أن يشركوا به شيئا، ويبين سبحانه أنه هو الذى يبسط الرزق لمن يشاء، أى يمده ويجعله ممدودا واسعا، ويقدره لمن يشاء أى يجعله محدودا قليلا، كقوله تعالى: ﴿... وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا ... (٧)﴾ [الطلاق].

والمعنى فى تصدير الآية بلفظ الجلالة هو أن الله تعالى هو الذى بسط لكم الرزق، فكان حقا عليكم أن تشكروا لا أن تكفروا وتشركوا أحجارا. وهو الذى قدر الرزق للضعفاء والفقراء فصبروا فحق لهم التكريم وحسن الجزاء، ولا يستوى المحسن والمسيء، ولا الأعمى والبصير.

وإن الله الذى بسط الرزق وقدره لم يجعل أمر الدنيا فى السعة والضيق دليلا على الرضا أو البغض إنما هذا للاختبار، فهو سبحانه وتعالى يختبرنا بالتوسعة ويطالب بالشكر، ويختبر بالقدر والضيق ويطالب بالصبر، وكل له جزاؤه.

وإن أولئك المشركين بسط الله تعالى لهم فى الرزق فلم يشكروا؛ ولأن الشكر يقتضى أن يحسوا بفضل المنعم، لا أن يحس فقط بالاستمتاع بما أعطى، والاستطالة به على الناس وإن ذلك ينشأ من الفرح ببسط الرزق، لا ينشأ من القيام بحق الشكر؛ لأن إحساس المؤمن بأنها ابتلاء، كما قال تعالى: ﴿... وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ... (٣٥)﴾ [الأنبياء]، وإحساس الكافر بأنها متعة ينتهزها.

ولقد قال فى ذلك: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى إن الكافرين فرحوا بما بسط الله تعالى من الدنيا، ففرحوا بها فرحا أدى إلى أن بطروا معيشتهم، وغمطوا الناس حقوقهم، وإن فرحهم بالحياة الدنيا لم يكن فرحا يذوقون حلوها ومرها، بل فرح استعلاء واستغواء لا يلاحظون إلا أنها متعتهم يستكبرون بها على غيرهم،

وينسون فى سبيل ذلك كل حق عليهم، ولا يعرفون أن المتعة حق يتبعه واجب، وبذلك تكون متعة لا يعقبها خير فى الآخرة ينالون به نعيما مقيما؛ إذ لم يلتفتوا إلى الآخرة وما فيها، ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ﴾ التنكير فى ﴿مَتَاعٌ﴾ للتحقير لا للتكبير، أى الإمتاع نزر قليل، لا بقاء له، لأنه سرعان ما يزول إذ هو فى الدنيا، والدنيا زائلة، ويقول الزمخشرى فى ذلك: (وخفى عليهم أن نعيم الدنيا فى جنب نعيم الآخرة ليس إلا شيئا نزرا يتمتع به كعجالة الراكب، وهو ما يتعجله به من تُميرات، أو شربة سويق أو نحو ذلك)(١).

ولقد ذكر الله تعالى فى آيات أخر، مثل قوله تعالى: ﴿... قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧٧)﴾ [النساء]، وقوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧)﴾ [الأعلى]، وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ (٥٦)﴾ [المؤمنون].

وإنهم يتعللون لكفرهم الطاغى بأنهم لم تجئ إليهم آية تثبت رسالة النبى ﷺ، ويطالبون بآية كونية، كالآيات التى جاءت للأنبياء السابقين مستهينين بالآيات المتوالية التى جاء بها محمد ﷺ أو غافلين عنها ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧)﴾.

إن هذا من تعنتهم ومحاولة إعناتهم للنبى ﷺ، وحالهم كحال الأعمى الذى لا يحسن أن يعيش فى ضوء الشمس وحرارتها، ويقول لا توجد شمس ولا دفء، وما العيب إلا فى مشاعره التى إيفت، فهو ينكر ما لا يحس به، طلبوا ملكا رسولا، وطلبوا أن تفجر الأنهار، وغير ذلك من المطالب التى ساقوها، وما هى إلا تعلاّت الكفر والإشراك، ولقد تحداهم القرآن أن يأتوا بمثله أو بعشر آيات من مثله فعجزوا، وكان عجزهم دليلا على أنه من عند الله، ولقد أمر الله سبحانه

(١) الكشاف: ج٢/ ٣٥٩.

وتعالى نبيه أن يرد عليهم بأن الذى دفع إلى طلب هذه الآية هو ضلالهم، وإصرارهم على الكفر والعناد، وقد جاءت هذه الآيات وأشباهها لمن سبقوهم وكفروا وضلوا سواء السبيل، أمر الله نبيه فقال: ﴿**قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ**﴾.

﴿**أَنَابَ**﴾ رجع، أى رجع إليه، وابتدأ السير فى طريق الهداية، فإن الله يأخذه بيده حتى يصل إلى نور ربه، والمعنى: الذين كتب الله تعالى عليهم الضلالة، وهم الذين ساروا فى طريق الغواية يكتبهم سبحانه من الضالين فتعمى قلوبهم عن إدراك ما فى الآيات من أمارات الحق وهدايته، وإن كانت هى فى ذاتها منيرة بينة، أما الذين عادوا إلى ربهم وأنابوا إليه فإنه يهديهم إليه سبحانه وتعالى.

وهذا يفيد أن الذين يريدون آية غير القرآن وغير ما جاء على يديه من خوارق العادات كالإسراء والمعراج إنما يريدون هذه الآية إمعانا فى ضلالهم.

وهنا إشارات بيانية نذكرها:

أولاها: التعبير بالمضارع فى قوله تعالى: ﴿**وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ فيها إشارة إلى تكرار قولهم هذا وهم مبطلون.

الثانية: التعبير بالموصول يدل على أن الصلة علّة الطلب، فكفرهم هو علة طلبهم، أى أنهم سبقوا إلى الكفر فاعتنقوه، ثم حاولوا الاستدلال لتأييده، فما طالبوا ببراءة، طالب الحق بل حكموا أولا وأخذوا يتعنتون لإثبات ما هم عليه ومثلهم كمثل القاضى الذى يحكم ثم يحاول تقديم البينة لإثبات ما حكم به.

الثالثة: أن الهداية تكون لمن فتح قلبه للرجوع إلى الله؛ ولذا عبر بالماضى فى قوله: ﴿**مَنْ أَنَابَ**﴾ أى من فتح قلبه للإنابة إلى الله، فأخذ الله سبحانه وتعالى بيده إلى الحق، والتعبير بالمضارع فى قوله تعالى: ﴿**وَيَهْدِي إِلَيْهِ**﴾، للإشارة إلى تكرار الهداية بشرطها من غير إجبار على كفر، ولا طاعة، بل الطاعة بالإرادة، ولذا كان الثواب والمعصية بإرادة العاصى؛ ولذا كان العقاب.

وقد قال الزمخشرى فى الكشاف فى قوله تعالى: ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ قال ما خلاصته: كيف كان قوله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب ردا لقولهم: ﴿ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾؟ فأجاب بأن قوله تعالى يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب كلام جارٍ مجرى التعجب من قولهم؛ وذلك لأن الآيات الباهرة المتكاثرة التى أوتيها رسول الله ﷺ لم يؤتها نبى قبله، وكفى بالقرآن وحده آية، وراء كل آية، فإن جحدوها ولم يعتبروا بها وجعلوه كأن آية لم تنزل عليه قط، كان موضعا للتعجب والاستنكار، فكأنه قيل لهم ما أعظم عنادكم، وما أشد تصميمكم على كفركم، إن الله يضل من يشاء ممن كان على صفتكم من التصميم وشدة الشكيمة، فلا سبيل إلى اهتدائكم وإن نزلت كل آية[1].

وإن ذلك بيان يليق بمقام الزمخشرى فى البيان، وإدراك ملامح القول، وهو لا ينافى ما بينا من قبل، وإن زاد معنى التعجب من صلابة تفهم.

وأناب فى قوله تعالى: ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ معناها: أقبل إلى الحق، ودخل فى توبة الخير؛ لأن أناب معناها اللغوى دخل فى التوبة، والمناسب هنا دخوله فى توبة الخير.

وقد بين الله تعالى الذين أنابوا من الاطمئنان والإيمان فقال:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾.

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بدل أو بيان لقوله تعالى فى الآية السابقة: ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾، فهى بدل من قوله: ﴿ مَنْ أَنَابَ ﴾، وعلى ذلك يكون محل ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾، النصب؛ لأن ﴿ مَنْ ﴾ محلها النصب، على أنها مفعول به لـ﴿ يَهْدِي ﴾، ويكون قوله تعالى: ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ الفعل ﴿ تَطْمَئِنُّ ﴾ يكون معطوفا على ﴿ يَهْدِي ﴾، ويكون الفعل المضارع معطوفا على مثله، وليس فى الكلام السامى عطف مضارع على ماض.

---

(١) المرجع السابق.

أى أن الله يهدى من أناب، وهم الذين آمنوا وصدقوا وأذعنوا، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله تعالى بهذه الهداية، والرجوع إلى الله تعالى وبذكر الله، وذكر الله تعالى يجعل القلوب مطمئنة؛ لأنه إذا امتلأ القلب بذكر الله تعالى سكن إليه، وأصبح لا يبالى شيئًا من كوارث الدنيا، فالقلق والفزع، والخوف من الحرمان، والشدائد، كل هذا يذهب، ولا يكون شيئا إذا عمر القلب بذكر الله، فلا يكون فيه فراغ لشىء من هذا الخوف أو الفزع؛ وذلك لأن الأنس بالله يوجد فى القلب اطمئنانًا، ويجعل النفس فى حال رجاء لرحمته، ومغفرته.

وقد قرر الله تعالت حكمته هذا المعنى فقال: ﴿**أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾، أى أنها تكون فى فزع هالع إذا لم تذكر الله، فإذا ذكرت الله تعالى هان كل شىء؛ لأنها حينئذ تلجأ إلى حصن من القرار، لا تصل إليه عوامل القلق والاضطراب، وقوله تعالى: ﴿**بِذِكْرِ اللَّهِ**﴾ بتقديم الجار والمجرور على الفعل يفيد الاختصاص، أى بذكر الله وحده لا بشىء آخر تطمئن القلوب، و(الـ) فى ﴿**الْقُلُوبُ**﴾ لبيان عمومها، فالقلوب كلها لا تطمئن إلا بذكر الله تعالى؛ ولذلك تكون القلوب الخالية من ذكر الله تكون فى فزع مستمر؛ لأنها خالية من الإيمان غير عامرة.

وإن المؤمنين لفرط إحساسهم بالواجبات عليهم وإدراكهم للنذر تقشعر جلودهم عند سماع القرآن، وما فيه من نذر تقشعر جلودهم، ولا يذهب بذلك إلا ذكر الله تعالى، اقرأ قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣)**﴾ [الزمر].

ذلك جزاء معنوى للمؤمن الذاكر لله تعالى العامر قلبه بأنسه ونوره، وفى الآخرة يكون هذا الجزاء، وجزاء رضوان الله تعالى، ونعيم الجنة، وقد ذكر سبحانه وتعالى ذلك فقال عز من قائل:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩) ﴾.

هذا جزاء آخر، غير جزاء الاطمئنان والقرار الذى يختص به المؤمنون دائماً، ﴿ طُوبَىٰ لَهُمْ ﴾ وهى على وزن فعلى كبشرى، وزلفى، وأصلها طيبى، وقعت الياء ساكنة بعد ضمة فقلبت واوا، وقد قال الزمخشرى عالم البيان فى تصريفها: «وطوبى مصدر من طاب كبشرى وزلفى، ومعنى طوبى لك أصبت خيراً وطيبًا ومحلها النصب أو الرفع كقولك طيبا لك، وطيب لك، وسلاما لك، وسلام لك».

وعلى كلام الزمخشرى تكون هذه الكلمة السامية تحية من الله تعالى لعباده المؤمنين، وتكون هذه التحية مقررة لهم بأن لهم السلام والاطمئنان، والطيب فى إقامتهم فى الجنة، بدليل ما جاء معطوفًا عليها، وهو قوله تعالى: ﴿ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ أى مآب، ومرجع ونهاية هى حسنة فى ذاتها، ليجتمع لها طيب الإقامة، وحسن الثواب، بل كلاهما من الثواب.

وطوبى، محلها هنا الرفع، بدليل المعطوف عليها، فإنه مرفوع.

وقد ذكر سبحانه وتعالى لاستحقاق هذه التحية المباركة وصفين:

الوصف الأول: الإيمان.

والوصف الثانى: العمل الصالح.

فالعمل الصالح غذاء الإيمان، وإذا لم يكن جف الإيمان، وصار حطاما أو غثاءً أحوى، وإن أساس الخير هو الإذعان للحق، ثم الجهد به، ثم العمل، ثم السير على مقتضى الإيمان فى أعمال الحياة، اللهم هب لنا من لدنك رحمة، وهيئ للمسلمين من أمرهم رشدا، وهبهم الاطمئنان إلى ذكرك، وحتى لا يرهبوا، ولا يفزعوا ولا يطمعوا، واجعل قلوبهم تعمر بك، حتى يجتمعوا، ولا يتفرقوا.

معجزة القرآن تسير الجبال

قال الله تعالى:

كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ
لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ
قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾
وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ
بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟
أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ
وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ
مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ
عِقَابِ ﴿٣٢﴾

بين الله تعالى لنبيه الكريم الذى لاقى ما لاقى فى سبيل دعوة الحق أن ذلك سنة الجهاد فى سبيل دعوة الرسل وقد أتيت فى رسالته بأمر خطير، ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ... (٣٥)﴾ [الأحقاف].

قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾، أى كذلك الإرسال الذى أرسلنا به الرسل السابقين أرسلناك، فالشبه هو إرسال النبى ﷺ ذلك الإرسال الذى حمله الواجبات الكبرى والجهاد الأعظم، والمشبه به إرسال الأنبياء السابقين، فالإشارة هى إلى إرسال الرسل السابقين.

ويصح أن تقول: إن الإشارة إلى إرسال النبى ﷺ، وهو المشبه به، والمشبه هو إرسال الرسل إلى الأمم الأخرى، والمعنى على هذا أن ما تعانيه من إنكار المنكرين فى سبيل الحق الذى لا ريب عاناه من قبلك رسل سبقوك فى أمم قد خلت، فاصبر كما صبروا فلا تحسب أن من سبقوك وجدوا أرضا طيبة وقولا ولا كلاما مجابا ولا تسليما سهلا لا معاناة فيه.

قوله: ﴿فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾، أى أمة الشرك التى قد مضت من قبلها أمم على مثل ما هى عليه من إنكار وجحود ولاقى رسلهم منهم مثل الذى تلاقى من عنت واستهزاء وسخرية، وإيذاء لمن اتبعوك، وفتنة للضعفاء فى دينهم، وعناد ومحادة لله ولرسوله، ولأهل الحق؛ ولذلك قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾، أى مضت من قبلها أمم.

والغاية من الرسالة التى بعثت بها أن تتلو عليهم القرآن؛ ولذا قال: ﴿لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ اللام للتعليل، والمعنى أرسلناك لتتلو عليهم القرآن الذى أوحيناه إليك، والتلاوة القراء المتتابعة المتناسقة فى اللفظ والمعنى، ويصح أن تكون بمعنى الترتيل، وقد نقل إلينا القرآن متلوا مرتلا، فلم تثبت روايته هو بذاته فقط، بل تواتر طريق ترتيله، فجبريل الأمين علم النبى ﷺ ترتيله، كما حفظه القرآن ذاته؛ ولذلك نزل القرآن منجما، ليحفظه النبى ﷺ مرتلا؛ ولذا قال تعالى فى بيان حكمة نزوله منجما: ﴿... كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢)﴾ [الفرقان].

ومع هذا الترتيل الذى تذهب به المعانى فى النفس حالهم حال إنكار شديد؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ وقد نص على كفرهم بالرحمن، وكان التعبير بالرحمن عن الذات العلية مع أنهما اسمان للذات العلية، ولا تتغير الذات بكثرة أسمائها، وإن التعبير بالرحمن لملاحظة الرحمة الشاملة، فهم مغمورون برحمته فى وجودهم وكلاءتهم، إذ هو الذى يكلؤهم فى السموات والأرض، ومع

أن نعمه سابقة لهم، ورحمته لهم، كفروا به، والتعبير بالمضارع يفيد استمرار كفرهم وتجدده آنًا بعد آن.

ولقد روى أن العرب كانوا فى إيمانهم الناقص بالله سبحانه وتعالى ما كانوا يعرفون إلا لفظ الجلالة، حتى إن النبى ﷺ، وهو يملى شروط صلح الحديبية وابتدأه بسم الله الرحمن الرحيم، قالوا: الرحمن هو رحمان اليمامة لا نعرفه قل باسمك اللهم، وقد نزل فيهم: ﴿**قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ** ... (١١٠)﴾ [الإسراء].

وقد أمر الله تعالى أن يعرفهم بالرحمن فقال تعالت كلماته: ﴿**قُلْ هُوَ رَبِّي**﴾، أى هذا الذى يكفرون هو ربى الذى خلقنى وربانى وقام على شئونى، فهو الحى القيوم القائم على كل شىء، وهو الله.

﴿**عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ**﴾، أى عليه وحده توكلت فى الدنيا؛ لأنه هو القائم على كل نفس بما كسبت، وتقديم الجار والمجرور على الفعل للدلالة على القصر، أى لا أتوكل على غيره، والتوكل لا ينافى العمل، بل إن التوكل بين أمرين كلاهما باطل، الأمر الأول أن يعتقد أن الأسباب وحدها هى التى تؤثر فى النجاح، وينسى قدرته المحيطة بكل شىء، والثانى من الباطل التواكل، وهو أن يهمل الأخذ بالأسباب، بل يأخذ بالأسباب، ويترك الوصول إلى النتائج لله سبحانه وتعالى فهو تعالت قدرته لا يغفل عن شىء، والقادر على كل شىء ﴿**وَإِلَيْهِ مَتَابِ**﴾، (متاب) مصدر ميمى لتاب بمعنى رجع وتقديم الجار والمجرور يفيد الاختصاص، أى أن مرجعى إليه وحده، وله الحساب وحده، وله الثواب والعقاب وحده، لا شريك له، فالملك اليوم لله الواحد القهار.

وإن المشركين طلبوا آيات: ﴿**وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ** ... (٣٧)﴾ [الأنعام]، وكأنهم لا يعتدون بما جاء النبى ﷺ من معجزة القرآن، وأنه سبحانه وتعالى تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله، وبدا عجزهم، وظهر إعجازه، ولم يكن

لأى آية غير ذلك التحدى المعجز، ولأجل ذلك بين الله سبحانه وتعالى مقام القرآن فى ذاته، وأنه أغلى كلام فى الوجود، ولو أن كلامه يسير الجبال لسيرها، ولو أن قرآنا يقطع الأرض أجزاء لقطعها، فقال تعالى:

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا ﴾.

جاء فى السيرة النبوية أن نفرًا من كفار قريش ذهبوا إلى النبى ﷺ يتحدونه فيهم أبو جهل، وعبد الله بن أمية، فقال عبد الله: إن سرك أن نتبعك سيِّر لنا جبال مكة بالقرآن فادعها عنا حتى نتفسح فإنها أرض ضيقة، واجعل لنا فيها عيونا وأنهارا؛ حتى نغرس ونزرع فلست كما زعمت بأهون على ربك من داود حين سخر الجبال تسير معه، وسخر لنا الريح لنركبها إلى الشام نقضى عليها ميرتنا ونواتجنا، ثم نرجع من يومنا، فلقد كان سليمان سخرت له الريح كما زعمت، فلست أهون على ربك من سليمان بن داود، وأحْىِ لنا قصى بن كلاب جدك، أو من شئت أنت من موتانا، فعيسى كان يحيى الموتى، ولست أهون عند الله من عيسى ابن مريم.

ولقد حكى القرآن الكريم فيما تكون من قبل عنهم مثل ذلك فقد قالوا: **﴿ ... لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ...(٩٢) ﴾** [الإسراء] إلى آخر ما تلونا.

وقد نزلت هذه الآية الكريمة: **﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا ﴾**، ولا نقول: إن أقوالهم التى رواها القرآن الكريم عنهم أم التى روتها كتب السنة هى السبب فى نزول هذه الآية كما ذكر فى أسباب النزول، أم أن الآية الكريمة جاءت لتحقيق معنى فى القرآن لا يوجد فى غيره من الأمور الخارقة للعادة، فالآية الكريمة تبين أن القرآن أعلى من

كل ما ذكروه وطلبوه من آيات لولا أنه من طبيعة غير طبيعتها، ومنهاج غير منهاجها، وهو أبقى وأخلد، فما يطلبون هو حوادث تنقضى بانتهاء وقتها، أما القرآن فباق خالد إلى يوم الدين، يتحدى الأجيال كلها شامخًا عاليًا أن تأتى بمثله، كما تلونا من قبل: ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** (٨٨) ﴾ [الإسراء].

يقول تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ** ﴾، أى لو ثبت أن قرآنًا يقرأ ويتلى سيرت به الجبال، فانتقلت من أماكنها، وانفسحت عن شعابها لتتسع رقعة للزرع والغراس، أو قطعت الأرض فتشققت - لا تكون منها بحار تجرى فيها المياه، أو يكلم به الموتى بمعنى أنه يحييها، ثم يكلمها، وجواب الشرط محذوف يفهم من سياق القول، وهو لكان هذا القرآن، ولكن الكلام لا يسير الجبال، ومع ذلك فهو أقوى تأثيرًا، وكان يمكن أن يؤثر فى قلوب المشركين بأشد من ذلك، لولا أن عنادهم حجر قلوبهم، وكما قال سبحانه: ﴿ **لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ** ... (٢١) ﴾ [الحشر]، ولكن القلوب التى سكنها الشرك والكفر، وهى كالحجارة أو أشد قسوة، بل لله الأمر جميعا، الاضراب للانتقال بين هذا إلى بيان أن اختيار المعجزات من أمر الله، وله وحده كل الأمر.

ويقول تعالى: ﴿ **أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا** ﴾، فسر كثير من المفسرين أن ييئس هنا بمعنى لم يعلم، وساقوا شواهد من العربية للدلالة على ذلك، وفسرها الزمخشرى بذلك، وبجواز أن تكون ييئس بمعنى اليأس، وهو اليأس من إيمان المشركين، ويزكى هذا قوله تعالى بعدها: ﴿ **أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا** ﴾، ولنترك الكلمة له فهو يقول رضى الله تعالى عنه:

«ومعنى ﴿ **أَفَلَمْ يَيْأَسِ** ﴾ أفلم يعلم قيل هى لغة قوم من النخع، وقيل إنما استعمل اليأس بمعنى العلم لتضمينه معناه؛ لأن اليائس عن الشىء عالم بأنه لن يكون، كما استعمل الرجاء فى معنى الخوف، والنسيان فى معنى الترك لتضمن

ذلك، قال سحيم بن وثيل الرباحى: (أقول لهم بالشعب، إذ ييسروننى، ألم ييئسوا أنى ابن فارس زهدم . . .) إلى أن قال: (يجوز أن يتعلق ﴿أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ﴾ بآمنوا، على معنى أولم يعتظ من إيمان هؤلاء الكفرة ﴿لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾.

ومعنى الكلام الأخير، أفلم ييئس الذين آمنوا من إيمان الكافرين، ويعلموا أن لو يشاء الله لآمن الناس جميعا.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ﴾ الفاء للإفصاح عن شرط مقدر مؤداه أن تكون المعجزة فى هذا المقام من الإعجاز، يقول الذين كفروا غير معتدين بها، فلم ييئس الذين آمنوا من إيمانهم، والاستفهام لإنكار الوقوع أى للمعنى، ونفى النفى إثبات، والمعنى ييئس الذين آمنوا من أن يهتدوا، ويعلمون أن لو شاء الله لهدى الناس.

والمعنى لو شاء الله إيمان الناس جميعًا لآمنوا، ولكنه سبحانه وتعالى تركهم ليطهر المؤمن عن نيته، ويعلم الكافر عن ضلاله، وتركه الحق، ويكون الجزاء عقابًا أو ثوابًا.

وكان على الكافرين أن يرجعوا عن غيهم، ويسيروا فى طريق الرشاد، فالقوارع تنزل بهم قارعة بعد قارعة، أو تحل قريبا من دارهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ القارعة: الكارثة الداهية أو الشديدة التى تقرع حسا قرعا، تنبههم إلى ما هم فيه من الضلال، فمن لا ينهه الدليل والبرهان، ولا يجديه البرهان لا يتنبه بالعقل، بل لابد من الشده تقرع حسه، وكان الإقدام قبل النبى ﷺ إن لم يقتنعوا وعائدوا ينزل بهم ما يزيل ديار، أو ريح صرصر، أو غرق، وغير ذلك مما يبيد خضراءهم، وتبقى من بعدهم من اتبع النبيين، أما محمد، فإن رسالته، باقية خالدة، لا يؤثر فى اتجاهها كفر من كفر، ولكن يغالب الكفر بالإيمان، ليكون من بعدهم من يعبد الله تعالى، ويدعو إلى ربه؛ ولذلك كانت القوارع التى تقرع حسهم، ليست

إبادة، ولكنها مغالبة، ودفع الفساد، فالقارعة التى تصيب الكافرين هزيمة منكرة، تنزل بهم كالتى نزلت بهم ببدر، والخندق، وكأحد فقد رجعوا فيها إلى حنين من الغنيمة بالآيات، وإن كان المسلمون توجهوا بهم قرع، وكان تعليما، وتوجيها، كما قال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ... (١٤٠)﴾ [آل عمران]، لكن قرحهم كان هزيمة، وقرح المؤمنين لم يكن انهزامًا ولا فرارًا.

فالقارعة هى الهزيمة لا تزال تصيبهم مرة بعد أخرى، أو تحل قريبا من دارهم، فى السرايا التى يبثها النبى ﷺ، فقد كان يبقيها النبى ﷺ حول مكة تدعو إلى الله، وتنذرهم، حتى كان صلح الحديبية، وبه أمنوا على أنفسهم، وأخذ الناس يدخلون فى دين الله فى مكة وغيرها.

وتلك القوارع، والسرايا التى تحل قريبا من دارهم، حتى يأتى وعد الله بالنصر الحاسم، وأن تكون الكلمة للإسلام فى البلاد العربية وما وراءها، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

وإن المشركين كانوا يستهزئون بالنبى ﷺ فى إبان نصرته، كانوا فى إبان مقامه فى مكة، وهم يحسبون أنه فى قبضة أيديهم والله ناصره، وخاذلهم، ألم ترهم يقولون بعد حديث هرقل لهم فى سؤاله عن النبى ﷺ: «لقد أَمِرَ أمر ابن أبى كبشة».

وقد بين الله تعالى أن النبيين استهزئ بهم كما استهزئ به، فإن من لا يدرك الحق يهزأ به، ومن استغرقتهم المادة يستهزئون بأهل الحق، والعالى والروح؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢)﴾.

﴿اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ﴾ جاءوا مبشرين ومنذرين من قبلك، والاستهزاء يدل على جهل المشركين بما يستهزئون، ونسيانهم فضل من يسخرون منهم، ويدل أيضا على

أنهم لا ينظرون للأمر نظرة من يجد ولا يهزل، ويدل على سيطرة العبث العابث، واللهو الماجن على نفوسهم، وهذه حال تحير الداعي إلى الحق من أين يحملهم على أن ينظروا جادين غير عابثين، ولا مازحين.

ولقد أكد الله استهزاء السابقين برسلهم، باللام، وقد ساق الله تعالى ذلك لنبيه ليتسلى عن إعراضهم واستهزائهم ولئلا يذهب به اليأس من قومه، وألا يرجو الانتصار منهم، فقد استمر الاستهزاء وأملى لهم، أي أعطاهم ملاوة من الزمن، حتى ظنوا أنه لا عاقبة مؤلمة تنتظرهم؛ ولذا قال تعالى:

﴿ **فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ** ﴾.

أمليت كما ذكرنا أعطيتهم ملاوة من الزمن إمهالا لهم من غير إهمال لاستهزائهم، وسخريتهم من الحق، والفاء لبيان أن ما بعدها مسبب عما قبلها، والمعنى كان استهزاؤهم سببا للإملاء لهم، حتى يأخذهم، وهم لا يتوقعون، مثل قوله تعالى: ﴿ **وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ** (١٨٣) ﴾ [الأعراف].

وثمَّ للدلالة على التراخي، أي أنه أمد لهم أمدا غير قصير، حتى ظنوا أنه لا مؤاخذة على ما يفعلون، وغرهم الغرور، وحسبوا أن الدنيا قد طابت لهم بحذافيرها، ثم أخذتهم، أي أشعرتهم بسلطاني، وأني أمهل ولا أهمل والأخذ كناية عن الإشعار بالسلطان؛ لأن الأخذ يتضمن أنهم صاروا غير خارجين عن سلطانه؛ لأن الأخذ أقصى ما يدل على التمكن، وأن يكونوا في قبضته يصرفهم كيف يشاء، وذكر الله تعالى عقابه فقال: ﴿ **فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ** ﴾ ياء المتكلم محذوفة على وجود ما يدل عليها، والمحذوف مع وجود ما يدل عليه يكون كالمذكور، بل إن تقديره بجهله مذكور، لم يبين الله سبحانه وتعالى العقاب، ولكن أشار إليه إشارة تدل على هوله، وعلى أنه كان حاسما قاطعا فمن غرق، أو جعل الأرض سافلها، ومن ريح صرصر عاتية، ولقد قال تعالى: ﴿ **وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ** (٤٨) ﴾ [الحج].

وكما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢)﴾ [هود].

وفي الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته».

الأوثان ليس لها وجود حتى تعبد

قال الله تعالى:

أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾

هذا بيان لبطلان عبادة الأوثان، وهو برهان يستمد منها، لا من أمر خارج عنها، فالله الأعلى يوازن بين قدرته على كل شيء، وحياطته لكل شيء، وقيامه تعالى على الأنفس، وبين الأوثان التي لا تضر ولا تنفع، وأنها لا حقيقة لها في عالم الأحياء، يقول تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ الاستفهام هنا للتوبيخ، وبيان عجز آلهتهم، وقدرة الله تعالى، وقائم معناها: القيام على شئون الأنفس، خلقها، وهي مربوبة لها، وعالم بها، ومحافظ عليها، يعلم ما تسره وما تعلنه، وما تظهره، وما تخفيه.

ويقول ابن كثير في معنى هذه العبارة السامية: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾، أي حفيظ عليهم رقيب على كل نفس منفوسة يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر، ولا تخفى عليه خافية ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ... (٦١)﴾ [يونس].

فمعنى قام ليس ضد القعود، وإنما معناه القيام على شئون الأنفس، والعلم بها، كما قال تعالى: ﴿... هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ... (٢٥٥)﴾ [البقرة]، وعبر عن القيام بهذه المعانى؛ لأن القيام يدل على الحركة، والحركة تدل على معاناة الأعمال خيرها وشرها، وهو بالنسبة لله تعالى القيام على شئون هذا الوجود، وهو هنا الأنفس.

وذكر الله تعالى كل نفس للدلالة على عموم تدبيره للأنفس، والعلم بما تفعل من خير وشر، وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ يتضمن العلم بكل ما تصنع النفوس العاملة، والجزاء على ما تفعل، وفى ذلك بعضها لإنذار العصاة، كما قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ... (١١)﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ﴾، لتمام الموازنة تكون التسوية مقتضية محذوفا مقدرا تقديره كى لا يستطيع شيئا، ولا يقوم على شىء ولا يضر ولا ينفع.

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى ضلالهم فى عبادة الأوثان، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾، وهذه الجملة حالية، والحال أنهم جعلوا لله شركاء يشركونه فى العبادة مع أنها لا تنفع ولا تضر، ومع أن ذاته العلية جلت عن المشاركة، وتعالى عن ذلك علوا كبيرا، أمر الله تعالى نبيه الكريم أن يسألهم عن حقيقتها، ولكنها من بيان الكنه والحقيقة يتبين بطلان ما يعتقدون قال تعالى: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ عبر عنهم بضمير ما يفعل على حسب زعمهم وأوهامهم، وإلا فهى حجارة لا تضر ولا تنفع، ولا تعقل ولا تدرك.

﴿سَمُّوهُمْ﴾، أى اذكروا أسماءهم، وأوصافهم، أى شىء لهم من الأسماء والصفات، وإنهم إذا جاءوا إلى ذلك، قالوا: إنها أحجار سميت اللات أو العزى أو هبل، أو نحو ذلك من الصفات التى تجعلها دونهم، فكيف يعبدون ما هى دونهم أو لا وجود لها فى حقيقة أمرها، إلا أن تكون أحجارا، لا تنطق ولا تضر، ولا تنفع.

﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ﴾، أم للإضراب الانتقالى مع تضمنها معنى الاستفهام الإنكارى التوبيخى، أى أتنبئونه بشيء لا يعلمه فى الأرض، وهو خالقها، والذى يعلم ما فى السموات وما فى الأرض، أى أتنبئونها بأمر لا وجود له، والمؤدى أنها لا وجود لها فى الأرض فهل تنبئونه بأمر لا يعلمه فى هذه الأرض، وهذا كلام يؤدى لا محالة إلى أشياء لا وجود لها فى الأرض؛ لأنها لو كان لها أسماء وأوصاف لادعى وجودها، ولو كان لها وجود كآلهة فى الأرض لعلمها سبحانه. ﴿أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾، أم للإضراب عن السابق مع دلالتها على الاستفهام التوبيخى الذى ينبههم إلى فساد قولهم، والمعنى أهذا العلم بظاهر من القول الذى لا يدل على حقيقة فقط، إنما أوهامهم جعلتهم يرددون ظاهرا من القول لا يستطيعون أن يقولوا فيه إنه شيء له وجود، وصفات اقتضت الألوهية.

والحقيقة أنه زين لهم وهم لا مدلول له جعلهم يكفرون، وهم لا يشعرون؛ ولذا قال تعالى:

﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾.

بل للإضراب عن القول، أى أنه ما دام قد ثبت أنه لا حقيقة لأصنامهم التى يعبدونها، فأوصافهم لا تثبت ألوهية، بل لا تثبت وجود لها نفع وضرر، فالأمر أنهم زين لهم ما هم عليه بوهم توهموه، وخيال تخيلوه، وكان ذلك الخيال أساس مكرهم، وتدبيرهم ضد الحق وأهل الإيمان، وبه صدوا عن السبيل، وصدوا غيرهم عن الطريق السوى، وفى قوله تعالى: ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ قراءة بالضم، أى أنه بهذا التزيين الضال صدوا عن الطريق الحق، وهو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وهناك قراءة بالفتح، أى صدوا غيرهم عن الحق بالاعتداء، والإيذاء، والاستهزاء بالرسل، ويجب أن يُراد القراءتان أنه لا مانع من الجمع بينهما، فهم أبعدوا بأوهامهم عن الحق، وأوغلوا فى الضلال بإبعاد غيرهم عنه.

وأكد الله سبحانه وتعالى الحكم بالضلال عليهم، فقال عز من قائل: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾، أى من يحكم الله تعالى بضلاله؛ لأنه سار فى طريق

الغواية وصل إلى الضلال، ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ مِنْ لعموم النفى، أى ليس له من هاد أى هاد، فلا هادى بعد الله.

بعد ذلك بين الله تعالى جزاءه، فقال:

﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤)﴾.

ذكر الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية أن لهم عذابين، أولهما عذاب الحياة الدنيا، والثانى عذاب الآخرة، ليس لهم من الله من واق.

أما عذاب الدنيا، فإنه واقع فى هذه الحياة، وإن لم يكن هو الأشق، وعذاب الدنيا يبتدئ من ذات أنفسهم، وهو ضلال الفكر واضطرابه وعدم استقامة أنفسهم، فإن استقامة العقل والنفس نعمة واطمئنان واستقرار وضد ذلك عذاب، لا ريب فيه، وعذاب الدنيا باللجاجة فى الباطل، والبراهين ساطعة، والأدلة قائمة، ثم من عذاب الدنيا الخزيان والذل، وضرب الذلة، ومن عذاب الدنيا قتلهم بسيف الحق، كما كان فى بدر والأحزاب، بل أحد الذين رجعوا فيها من الغنيمة بالإناب، وقد يكون عذاب الدنيا بآية من آية.

أما عذاب الآخرة فهو أشق من عذاب الدنيا، ويواجهون الله، ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾، فالله لا ينظر إليهم ولا يكلمهم، ويبدو لهم جهلهم، وضلالهم، ثم بعد ذلك جهنم التى جعلها مثوى الكافرين، و﴿مِّنَ﴾ فى قوله: ﴿مِن وَاقٍ﴾ لاستغراق النفى، أى ما لهم واق من عذاب الله واقٍ، ما لهم من شفيع ولا نصير، بل إنهم يتقدمون إليه سبحانه متناولين كتابهم بشمالهم، اللهم قنا شر ذلك اليوم.

قال الله تعالى:

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾

بين الله تعالى نعيم الجنة مقارنا بعذاب النار، فقال: ﴿**مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**﴾، المثل الحالى أو الوصف القريب الذى يسترعى الأفكار والأنظار، والمعنى حال الجنة العجيبة التى فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، تجرى من تحتها الأنها، فتكون متعة النظر، ومتعة النفس، ومتعة النسيم العليل، ومتعة الراحة، والظل الظليل، ومثل مبتدأ خبره جملة تجرى من تحتها الأنهار، ويصح أن يكون الخبر مصدر، تقديره مثل الجنة كجنة تجرى من تحتها الأنهار، وفى ذلك معنى تحقق التشبيه بذكر المشبه والمشبه به، ﴿**أُكُلُهَا دَائِمٌ**﴾، أى ثمر مستمر، من ثمر نخيل ورمان، ﴿**وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (٣٣)**﴾ [الواقعة]، وغير ذلك من الثمار.

﴿**وَظِلُّهَا**﴾، وهو معطوف على أكل، أى أن ظلها دائم مستمر، ليس فيها حر لافح، لا يتسخ ظلها بشمس.

ثم يقول تعالى: ﴿**تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ**﴾، الإشارة إلى الجنة بأوصافها الثلاثة المذكورة، من أنها تجرى من تحتها الأنهار، فتنعم النفس بالمنظر الجميل،

والنسيم العليل، والمنظر البهيج، ومن أن ثمراتها دائمة لا تنقطع، فتنعم بحياة دائمة، ونعيم مقيم، ومن أنها ظل دائم مستمر، وتلك مبتدأ خبره ﴿ وعُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾، أى نهاية الذين اتقوا انتهوا إليها وذكر الموصول للإشارة إلى أن الصلة، وهى التقوى علة تلك العاقبة الحميدة فى ذاتها.

ولقد ذكر فى مقابل هذه النهاية الحلوة المرتبة عاقبة الكفر والأشرار، فقال: ﴿ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾، أى نهاية الكافرين الذين كفروا بالله وبآياته، وبنعمه النار يلقون فيها، وهى دائمة، ﴿ ... كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ... (٥٦) ﴾ [النساء].

والتعبير بـ﴿ عُقْبَى ﴾ فى جزاء الأشرار والأبرار للإشارة إلى أنه جزاء أعقب عملا إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، والله تعالى لا يظلم العباد، وهم الذين يظلمون أنفسهم، وله إرادة مختارة، وعقل مدرك، وإذا كانت الأعمال غير مستوية، فالعقبى غير مستوية، فقال تعالى: ﴿ لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) ﴾ [الحشر].

ولقد بين سبحانه وتعالى مكانة القرآن بين أهل الكتاب، فقال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦) ﴾.

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ ﴾ ذكر الزمخشرى، وغيره أن الذين يفرحون من أهل الكتاب هم اليهود الذين أسلموا كعبد الله بن سلام، والنصارى من نجران واليمن والحبشة، وعدهم ثمانين رجلا، أربعين من نجران، واثنين وثلاثين من الحبشة، وثمانية من اليمن.

وأولئك ﴿ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾، وهو القرآن؛ لأنهم وجدوه مطابقا لما عندهم فى التوراة والإنجيل من تبشير بمحمد ﷺ إذا كانوا يعرفونه فى التوراة والإنجيل، وما أنزل إلى النبى ﷺ هو القرآن الكريم.

وعندى أرى أن الذين آتاهم الله الكتاب يعم من أسلم، ومن لم يسلم، بل يدخل فى عمومه ابتداء من لم يسلم فقد كانوا يفرحون ببعث النبى ﷺ، إذ كانوا فى حرب مع المشركين فى يثرب، ويستفتحون عليهم بأن نبيا قد آن أوانه سينصرهم عليهم قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)﴾ [البقرة].

وإن سياق هذا فى هذا المقام يدل على أن الإيمان الصادق ليس مطلوبا من المشركين فقط، بل منهم ومن أهل الكتاب، وأن أهل الكتاب كان ينبغى أن يؤمنوا لمعرفتهم السابقة به؛ ولأنهم كانوا يفرحون به عندما توقعوا مجيئه قريبا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به.

ويقول سبحانه: ﴿وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾، أى من الجماعات المتحزبة التى تفهم أن التدين تحزب وتعصب منهم من ينكر بعضه وهو ما يتعلق بالإيمان بالله واليوم الآخر، فالصدوقيون من اليهود أنكروا البعث وحسبوا الحياة مادة حتى النفس فسروها بالمادة، والنصارى حرفوا التوحيد وقالوا إن الله ثالث ثلاثة وضلوا بذلك ضلالا بعيدا.

ولأنهم أنكر بعضهم اليوم الآخرة، وأنكر بعضهم الوحدانية، رد الله تعالى ذلك عليهم، وذلك بأمره للنبى ﷺ بأنه يستمسك بالوحدانية والإيمان باليوم الآخر، فقال تعالت حكمته: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ كان ما أمر الله تعالى به نبيه أمرين قد أنكراهما، وهما عبادة الله تعالى وحده، وذلك يتحقق فى قوله تعالى: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ﴾، فهذا إثبات للوحدانية فى الذات والصفات والخلق، والعبادة، ونفى لأى شريك فى العبادة، والنصارى أثبتوا الشرك فى العبادة بعبادة ثلاثة ابتداء، ثم لا يزالون يأتون بعبادة آخرين كالعذراء كما يسمونها فى الأوهام التى توهموها فى أنهم رأوا خيالها نورًا، وكعبادة القديسين فى نظرهم، وبذلك أنكروا أصل التوحيد الذى هو أصل الديانات السماوية كلها، وقد دعاهم النبى ﷺ إلى كلمة سواء بينه وبينهم، فى

كتابه إلى هرقل، والنجاشي، والمقوقس، وهذا بعض ما جاء فيه: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ... (٦٤) ﴾ [آل عمران].

والأمر الثانى الذى أنكره اليهود، وهو اليوم الآخر؛ ولذا قال فيه: ﴿ وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾، أى إليه وحده مآب أى مرجعى، لا إلى غيره من مسيح ونحوه، فإنه يوم القيامة عبد، كما كان فى الدنيا عبد من عباده الصالحين الأبرار وإن كانت له منزلة الرسل كإخوانه من أولى العزم من الرسل.

وحض الله تعالى بدعوة النبى ﷺ، فقال: ﴿ إِلَيْهِ أَدْعُو ﴾، أى أدعو إليه وحده، فتقديم الجار والمجرور يدل على أنه لا يدعو إليه غيره، فلا يدعو ابنا، ولا أما لهذا الابن، ولا روح قدس وغير ذلك مما توهمته الأفلاطونية الحديثة، وأخذوه منها كما يؤخذ الباطل من سلسلة الباطل.

وقد بين الله تعالى معنى الرسالة المحمدية فقال عز من قائل:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧) ﴾.

كذلك، التشبيه بين ما هو كائن، وما قدره الله تعالى، وأحكمه، أى كهذا الذى تراه من نزول القرآن بلسان عربى مبين قدرناه وأحكمناه حكما عربيا، ووصف الحكم الإسلامى بأنه عربى؛ لأن القرآن الذى هو حجته عربى؛ ولأن الرسول الذى بعث به عربى؛ ولأنه من سلالة إبراهيم أبى العرب، ولم يكن من سلالة إسحاق، بل من سلالة إسماعيل ضئضئى العرب.

وليس معنى ذلك أنه مقصور حكمه على العرب فتلك فرية، إنما معناه فى الحدود التى ذكرناها؛ لأن القرآن شريعته عامة للناس كافة، لا فرق بين عربى وأعجمى.

ويصح أن يراد من كلمة ﴿ حُكْمًا ﴾ قرآن، أى أنزلناه قرآنا عربيا، وعبر عنه بحكم؛ لأن ما اشتمل عليه هو الحكم القائم إلى يوم القيامة.

والعربية صفة الشريعة وإن كانت عامة فى تطبيقها؛ وذلك لأن الشريعة نزلت، واختار الله تعالى نبيه من بينهم، ﴿... **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**...(١٢٤)﴾ [الأنعام]؛ وذلك لأن العرب من بين الأمم كانوا أعرف الناس بالله فهم كما ذكرنا فى عدة من كتاباتنا كانوا يؤمنون بأن الله خالق السموات والأرض ومن فيهن، ويؤمنون بأنه واحد فى ذاته وصفاته، ولكنهم كانوا فى العبادة يشركون معه الأوثان، وغيرهم من الأمم التى عاصرت مبدأ الإسلام ما كانت فيها معرفة الله تعالى تلك المعرفة فكانت جديرة بأن تكون أرض الدين الذى يدعو إلى التوحيد المطلق، إذ كانت فيه بذوره، فكان عمل محمد ﷺ تقويم سوقه.

وإن ذلك يقتضى ألا يتبع النبى ﷺ أهواء المشركين، ولا أهواء أهل الكتاب؛ ولذا قال تعالى: ﴿**وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ**﴾ الضمير فى ﴿**أَهْوَاءَهُم**﴾ يعود إلى المشركين وأهل الكتاب، وقد وصف بأن ما هو عليه هوى الأنفس، وشهوة العقل الفاسد، فهو الخاضع للأوهام الذى لا يسيطر عليه عقل مدرك، ولا جاء من العلم للنبى ﷺ هو علم التوحيد، وعلم التكليف، وكل ما عداه انبعث من الهوى وضلال الفكر، وفساد الاعتقاد، واللام فى قوله تعالى: ﴿**وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ**﴾ هى لام مؤكدة ممهدة للقسم، وما جاء بعد ذلك جواب القسم لا جواب الشرط؛ لأنه إذا اجتمع الشرط والقسم يكون جواب القسم أولى وأجدر، ويكون دالا على جواب الشرط.

فالكلام فيه قسم مطوى، وهو تأكيد للحكم، وهو العذاب الذى ينزله الله تعالى، ولا وقاية منه، أيا كان الواقى، والخطاب للنبى ﷺ، وليس هناك احتمال لأن يتبع النبى ﷺ أهواءهم فما اتبعها قبل أن يبعثه الله رسولا، فكيف يتبعها بعد أن شرفه الله تعالى بالرسالة العامة الخالدة، وإنما الخطاب له ابتداء، لتقتدى به أمته، وتتبعه، أو يكون الخطاب لكل قارئ للقرآن مخاطب بأحكامه وبيانه، وجواب القسم ﴿**مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ**﴾ من الله متعلق بواق، ومن الثانية لاستغراق النفى، أى ليس لك واقٍ من عذاب الله تعالى أى واقٍ كان، كقوله

تعالى: ﴿ ... مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (١٢٠) ﴾ [البقرة]. اللهم قنا شر غضبك، واجعلنا فى وقاية من معصيتك، فإنها الوقاية من النار.

الرسل من البشر

قال الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) ﴾

كان المشركون يقولون: إنه لا يكون رسولا لله تعالى إلا ملك يجيء إليهم، ولا يكون بشراً، وقد رد الله تعالى فى كلامهم فى أكثر من آية فى ثنايا كتابه الكريم: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾ [الأنعام]، وكانوا يقولون: ﴿ ... مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ ... (٧) ﴾ [الفرقان].

وفى هذه الآية بين سبحانه وتعالى أنه قد سبق الرسل والأنبياء مثل إبراهيم وإسماعيل، وأولاد إبراهيم من إسحاق فكل أولئك كانوا رسلا وأنبياء وكانوا بشرا، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾، وما

كان لهم مشركين أو أهل كتاب أن ينكروا رسالة رسل كانت لهم أزواج وذرية، وأبو الأنبياء إبراهيم الذى كان شرف العرب، ومجدهم الذى يتفاخرون به كان رسولا، وهم لا يزال عندهم بعض شريعته فى الحج، وهو بانى البيت الحرام بأمر ربه، فقد كان رسولا نبيا، وكان زوجا كريما، ومن ذريته إسماعيل وإسحق وقال: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ... (٣٩) ﴾ [إبراهيم]، والزوجية لازمة من لوازم البشرية، والملائكة لا يتزاوجون ولا يتناكحون ولا يتناسلون.

ولقد أكد سبحانه رسالة هؤلاء الرسل من البشر، بقَدْ، وباللام، وقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ رسالتك، فلست بدعا، وكان حقا عليهم ألا يعترضوا بذلك الاعتراض.

هذا الاعتراض الأول الذى كانوا يعترضون به على النبى ﷺ، فهم يحسبون أن الرسول لا يكون إلا ملكا وذلك يناقض ما هو معلوم عندهم من رسالة موسى، ونبوة إسماعيل، ورسالة إسحاق، ونبوة يعقوب عليهم السلام.

الأمر الثانى الذى اعترضوا به المعجزة، فهم يريدون آية غير القرآن تدل على رسالة محمد ﷺ، وكانوا يقولون لولا أنزل عليه، كأنهم لا يعتدون بالقرآن أية معجزة، وقد تحداهم أن يأتوا بمثله فعجزوا.

وقد رد الله سبحانه كلامهم بقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، إن ما كان من شأن الرسول أن يأتى بآية يثبت بها رسالته عن الله إلا بإذنه، فالآية من شأن من أرسله لا من شأنه، فالله هو الذى يرسل، وهو الذى يعطى لرسوله المعجزة التى تثبت أنه يتحدث عن الله، ومثل المعجزة بالنسبة للرسول كمثل الأمارة التى تكون شاهدة بصدق الرسالة عن الله تعالى، فهو سبحانه وتعالى الذى يختارها.

وقد اختار القرآن دليلا على الرسالة، ولكل زمن المعجزة التى تناسبه؛ ولذا قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾، أى لكل زمن أمر قد كتبه الله تعالى فى قدره،

فكان لزمن موسى ما كتبه من معجزات، وكان لزمن عيسى معجزات كتبها سبحانه وقد كانت معجزة عيسى عليه السلام خرقا لنظام الأسباب والمسببات؛ لأن الزمان كان يناسبه معجزات خارقة لنظام الأسباب والمسببات، وكان عيسى ذاته فى وجوده معجزة خارقة لنظام الأسباب، فكذلك كان إبراؤه للأكمه والأبرص، وإحياؤه للموتى، وإخراج الموتى من قبورهم، فكان هذا مناسبا لأجلها وزمنها، وكان كتاب الله تعالى بها، والزمن الذى عاش فيه ورسالته الخالدة، كان يناسبها، كتاب خالد يتحدى الأجيال جيلا بعد جيل، وهو أعظم من كل معجزات عيسى، وموسى وإبراهيم؛ لأن هذه المعجزات حوادث تنقضى، وتنتهى بزمانها، ولا يراها إلا من شاهدها، ولولا أن القرآن سجلها ما علم بها أحد، أما القرآن فمعجزته خالدة باقية تتحدى الناس جميعا جيلا بعد جيل؛ لأن شريعة محمد ﷺ خالدة، فكانت معجزتها خالدة باقية تدل على صدقها أمام كل الناس فى كل زمان.

وإن كل زمان له معجزته كما ذكرنا، فلا تكون آية صالحة لكل زمان، وإن الله تعالى يمحو كل معجزة إلا فى زمنها؛ ولذا قال تعالى:

﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) ﴾.

يمحو الله من الآيات ما يشاء محوه منها، ويثبت ما شاء منها، فإذا كانت العصا معجزة فى عصر موسى، وأقامت الدليل على رسالة موسى عليه السلام، فإن الله تعالى نسخها، ولا تكون آية لإتيان رسالة محمد ﷺ، ويثبت له آية أخرى، وهى القرآن الكريم، وإذا كان عيسى له آيات خرقت نظام الأسباب والمسببات، فقد نسخها الله تعالى، وأثبت لمحمد معجزة أخرى تناسب رسالته، وتبقى ببقائها، فيثبتها الله تعالى.

هذا ما نراه تفسيرا للمحو والإثبات، ونرى أنه يمكن أن يكون التفسير الذى يتسق مع ما قبلها وما بعدها من الآيات، فالكلام فى الآيات التى يطلبونها إعناتًا وعنادًا.

وقد قال الزمخشرى عدة معان تحتملها الجملة السامية، وهذا نص ما قاله: «إنه يقول يمحو ما يشاء ويثبت، أى يأتى من الشرائع بما شاء، وينسخ منها ما

يشاء، وعنده أم الكتاب الأصل الذى لا يمحى، ولا يقبل المحو، وهو التوحيد، فشرائع النبيين ينسخ بعضها بعضا، ولكن الأصل قائم، وهو أم الكتاب، أى الشرع المكتوب المقرر فى كل الشرائع، وهو التوحيد، كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ... (١٣)﴾ [الشورى].

وإن هذا يتسق مع قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

ولقد قال الزمخشرى فى هذا المعنى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾، ينسخ ما يستصوب نسخه، ويثبت بدله ما يرى المصلحة فى إثباته أو يتركه غير منسوخ، ويسوق أقوالا أُخر.

وإنا نرى أن هذين الوجهين كافيان فى البيان، ويمكن الجمع بينهما بأن يكون المحو، بإلغاء آيات مادية، والإثبات إثبات أخرى، وأن تكون الشرائع السماوية التى جاءت بها الرسل، ينسخ بعضها بعضا، ولكن يبقى الأصل القائم وهو أم الكتاب، وهو التوحيد، والعدل، وإقامة الحق، والإصلاح فى الأرض.

وقد قال الفخر الرازى فى التفسير الكبير ما نصه:

«العرب تسمى كل ما يجرى مجرى الأصل للشىء أما له، ومنه أم الرأس للدماغ، وأم القرى لمكة، وكل مدينة فهى أم لما حولها من القرى فكذلك أم الكتاب هو الذى يكون أصلا لجميع الكتب».

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠)﴾.

إن الشرطية مدغمة فى تاء الدالة على توكيد التعليق، وليست زائدة، كما يعبر بعض النحويين، فليس فى القرآن زائد، وإنما الزائد فى إعرابهم، وفعل الشرط هو نرينك، أو نتوفينك، والمعنى إما أن نريك بعض الذى نعدهم من أهوال

تنزل بهم فى حياتك، أو نتوفينك قبل أن ينزل بهم ما نعدهم به، كيفما كانت الحال، فإنه نازل بهم جزاؤهم فى الدنيا ما استقام أهل الإيمان على الطريقة، فإن حادوا عنها، حيد لهم.

وقد تأكد الشرط بما الدالة على التوكيد، وبنون التوكيد الثقيلة التى تلازم «ما» غالبا، وتوكيد الشرط توكيد للتعليق كله، أى أن الارتباط بين الشرط والجواب مؤكد، فإنه إذا لم تر بعض ما وعدهم الله به من عقاب بوفاتك قبله، أو تراه فإنه نازل بهم، وقد أديت ما وجب عليك من تبليغ وبقى أن ينفذ وعيد الله تعالى فيهم، ونعدهم أى الإنذار الذى أنذرهم الله تعالى به، فوعد بمعنى أوعد. وأحسب أن القرآن عبر عن الإيعاد بالوعد فى جملة ما جاء به من إنذار.

وقوله تعالى: ﴿**فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ**﴾ ليس هو جواب الشرط، وإنما يدل عليه والجواب مثلا، أنزلنا بهم ما وعدنا، وأريناك مصارعهم، وما عليك أى تبعة من أمورهم ﴿**فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ**﴾، إنما للقصر، أى ليس عليك إلا البلاغ، وقد بلغت، وعلينا الحساب، العقاب، وعبر عن العقاب بالحساب؛ لأنه جزاء لما فعلوا، ويفعلون، وهو ذاته حساب لهم على ما آذوا المؤمنين وهم مستمرون فى غلوائهم، وذلك كقوله تعالى: ﴿**فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ (٢٢) إِلاَّ مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦)**﴾ [الغاشية].

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى بعض ما ينزل بهم من وعده الذى أنذرهم به.

﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١)**﴾.

قال ابن عباس فى معنى ذلك النص الكريم: «أو لم يروا أنا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض ونقصان الأرض من أطرافها، اقتطاعها جزءًا جزءًا من سلطانهم، وذلك بحروبهم مع النبى ﷺ، وإن عذاب الله تعالى الذى ينزله فى

الكافرين جزاء كفرهم يكون بأحد أمـرين، إما اجتثاثهم من الأرض، وأخذهم من حيث لا يحتسبون بريح عـاصف أو بخسف يجعل عالى ديارهم سافلها، أو بطرق يحيط بهم فلا يـبقى ولا يذر، وحيث لا يكون من أصلابهم من يعـبد الله، وقد أوقع الله تعـالى هذا بالذين بعث فـيهم الأنبـياء قـبل النبى ﷺ من نوح وهود، وصالح، وشعيب.

والأمـر الثانى: أن يكون ذلك بالمـغالبـة، يقاتلون، فـيـقتلون، ويقـتلون، والعاقبة للمتقين، وإن مـا نزل بمشركى مكة، واليهود كان من الثانى لا من الأول، لأن النبى ﷺ قـال: «إنى لأرجـو أن يكون من أصـلابهم من يؤمن بالله واليـوم الآخر».

ويقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ الاستفـهام إنكارى لإنكار الوقوع بمعنى النفى، ونفى النفى إثبات، فالاستفهام الإنكارى داخل على «لم» والمعنى الـتنبيـه على مـا هو واقع بهم، والواقـع أنهم يرون أن الله أتى الأرض ينقصها من أطرافهـا عليهم، وإسناد الإتيان للأرض إلى الله تعالى للدلالة على أن اللـه تعـالى مع جـيش المسلمين الـذى يأتى الأرض التى لهم النـفـوذ، والسلطان فيـها، ويتلاقـون مع سكانهم فى الشرك الذى يجمـعهم و﴿نَنقُصُهَا﴾ نأخذها جزءًا فجزءًا من دائرة الكفر، حـتى تضيق حوزتهم، وتضيق الدائرة عليهم شيئًا فشيئًا حـتى يحيط بهم، ويصلح الرسل من الأرض، وكذلك كان الأمر، فقد كانت الغـزوات والسرايا تنزل بالمشـركين، وقد ذهبت إلى مـا حول مكة وأطراف الجـزيرة داعيـة إلى الله تعـالى مجـاهدة، فكانت الأرض تنقص من نفـوذهم من أطرافها، بسببين:

أولهما: وهو أن دعوة الإسلام تدخل إلى قلوبهـم من يسرى إليهم ثلة من جنود المسلمين، وفى ذلك نقص من سلطانهم، وخروج من نفوذ مكة وأهلها.

ثانيهما: أنه يقتل من المشركين عدد، وإن لم يكن كثيرًا، إلا أنه يبعدهم عن مكة وأهلها.

وإن إتيان الله للأرض إتيان لقوة الله قوة الحق والإيمان فهو سبحانه يأتى القلوب فتزمن، ويعمرها بالإيمان، وكل عمران بالإيمان، نقص للأرض من سلطان الكفار.

وإذا دخل الإسلام أرضا كان هو الحكم وحده، لا معقب لحكمه، أى لا يخرج منه ويجىء عقبه حكم غيره، فالإيمان الصادق إذا دخل النفوس لا يخرج منها لأنه يكون به سكونها واطمئنانها وقرارها.

وقد قال الزمخشرى، وهو ابن نجدتها ﴿**لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ**﴾ لا راد لحكمه، والمعقب الذى يكر على الشىء فيبطله، وحقيقة الذى يعقبه بالرد والإبطال، ومنه قيل لصاحب الحق، معقب لأنه يعفى غريمه بالاقتضاء والطلب؛ لذا قال لبيد: «طلب المعقب حقه المظلوم»، والمعنى أنه حكم للإسلام بالغلبة والإقبال، وعلى الكفر بالإدبار والانتكاس.

ومعنى قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يَحْكُمُ**﴾، أى الله وحده يكون الحاكم للنفوس، وليست الأهواء المتحكمة، ولا قهر الأقوياء للضعفاء، إنما هو الرحمة والعدل، ولا حكم يتعقبه.

ويكون للذين كانوا يسيطرون الحساب، وإنه لقريب، وإنه لسريع؛ ولذا قال تعالى: ﴿**وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾، أى أن الحساب آت لا ريب، وكل آت فهو سريع، لأنه مؤكد الوقوع، وعدد السنين والشهور لا قيمة له ما دام مؤكد الوقوع، وما يكون سريع الحساب يكون شديد؛ لأنه يفاجئ المنكرين من حيث لا يحتسبون؛ ولأن سرعة الحساب يكون لأجل غرض العقاب، ولتحقيق معنى الجزاء، وذلك يكون على قدر ما ارتكب المسىء، والله عزيز ذو انتقام.

قال الله تعالى:

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

المكر العمل على صرف غيره عن مقصده بحيلة، وأنه يأخذ وصف الذم والحمد، من المقصد الذى قصد الصرف، فإن كان ذلك القصد مذمومًا، فالصرف عنه خير، ما لم يكن السبيل ذاته شرا، وإن كان القصد محمودا، فالصرف عنه مذموم؛ لأن الصرف عن المحمود يوجب الذم.

وعلى ذلك يكون معنى قوله تعالى: ﴿**وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**﴾ الضمير يعود إلى المشركين، أى مكر الذين من قبلهم الذين ساروا هم على سننهم، وضلوا ضلالا بعيدا مثلهم، ولا شك أن من هذه حالهم مكرهم يكون لتحويل الناس عن إطاعة النبيين، وصرف النبيين لهم عن اتباعهم، وذلك بطرق التدبير السيئ المختلفة من اضطهاد وأذى وسخر بهم، وقيل لهم أحيانا، والشتم والذم فى أكثر الأحيان، فقد سخر قوم نوح منه وممن تبعه، وقالوا ما اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى، وكذلك قوم هود وقوم صالح، وآل مدين قوم شعيب.

وذكر هذا الخبر للمشركين لبيان أنهم لن يضيروا النبى ﷺ، وأصحابه مكرهم إلى هباء، ولا يعد شيئًا بجوار مكر الله تعالى، والتدبير للمؤمنين لينجوا من شرهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿**فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا**﴾، أى لله وحده التدبير الذى يحول القلوب، وقد دل هذا النص السامى على ثلاثة أمور:

الأمر الأول: أن مكرهم لا اعتداد به، ولا ثمرة له فى تحقيق الغاية التى أرادوها، وهو تحويل الناس عن عقائدهم إذا آمنوا بها.

الأمر الثانى: أن القلوب بيد الله، وهو الذى يهديها، وهو الذى يتركها تسير فى مهواة الضلالة، حتى تنهوى فيها.

الأمر الثالث: أن الله مذهب كيدهم، وجعلها فى هباء، وناصر أهله.

وإن الله تعالى تدبيره منتج مثمر لا محالة؛ لأنه يعلم ما تكسب كل نفس من خير أو شر، وتتحدث به النفوس، وما تكسبه الجوارح، وهو وحده مقلب القلوب.

قلنا: إن ذكر مكر السابقين لبيان العبرة للمشركين الذين عاندوا النبى ﷺ، ومحاولتهم فتنة المؤمنين لتحويلهم عن دينهم الذين ارتضوه، وفيه إشارة إلى بطلان مكرهم، وإلى أن مكر الله فوقهم، وأنهم إذ يمكرون بالنبى ﷺ، إنما يقاومون بمكرهم مكر الله وتدبيره للمؤمنين أوليائه؛ ولذا قال تعالى مهددا لهم: ﴿**وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ**﴾ الكفار (ال) فيها للعهد، أى كفار العرب من مشركين ويهود، ومن لفَّ لفهم، والسين لتأكيد وقوع الخبر فى المستقبل، والعلم الذى سيعلمونه علم معاينة، لا علم خبر وإخبار، إن تتوالى عليهم الهزائم هزيمة بعد هزيمة حتى تصير الأرض العربية كلها تحت ظل الإسلام الظليل، ويخرج المشركون من رجس الوثنية، والفساد اليهودى المنحرف، وتكون الكلمة العليا لله ولرسوله، وللمؤمنين، ومن بقى على كفره يعلم علما آخر بعقبى الدار فى جهنم للكافرين، والجنة للمؤمنين.

وقوله: ﴿**لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ**﴾ لِمَنْ جار ومجرور، والمعنى لمن تكون عقبى الدار، أى عاقبة هذه الحياة الدنيا التى تكون فيها هذه المغالبة بين الحق والباطل، والكفر والإيمان، وإن العقبى هى غلب الإيمان فى الدنيا، والجنة لمن آمن فى الآخرة، والنار لمن عصى، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ولقد اشتد المشركون فى الإنكار، ومالأهم على ذلك اليهود.

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) ﴾.

ذكر سبحانه بعض مكر المشركين وغيرهم التى يقصدون بها تحويل المؤمنين وفتنتهم عن دينهم، فذكروا أنهم يقولون للنبى ﷺ: ﴿لَسْتَ مُرْسَلاً﴾، فهم يسلمون بأن لله رسالة، ولكن لست من أصحابها، فالله لم يرسلك، وهم بهذا ينكرون رسالة محمد ﷺ، وينكرون أن يكون له معجزة دالة على هذه الرسالة، ويريدون آيات أخرى غير القرآن، إذ لا يعدون القرآن آية، وما كان للنبى أن يأخذ كلامهم أخذ من يعتبره، وقد قام الدليل عليه بالتحدى، وإدراك أهل الذكر منهم ما فيه من نسق، ووثيق نظم؛ ولذا أمر الله تعالى نبيه أن يقول لهم: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، أى كفا الله شهيدا بينى وبينكم، فهو الحق وشهادته الحق، وليست شهادته كلاما يردد، ولكن شهادته معجزة تفحم، وقد جاءت الخوارق تترى بشهادة الحق فى كل ما ترون من حياته، وما أحاط بها، وما دبرتم وقد رد تدبيركم فى نحوركم، وقوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فيه تهديد لهم بما يكون لإنكارهم من عواقب وخيمة عليهم تنصر أهل الحق.

ويصح أن تقول: ﴿شَهِيدًا﴾ معناه حاكم؛ لأن الشهادة تجىء بمعنى الحكم، كما فى قوله تعالى: ﴿... وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ... (٢٦)﴾ [يوسف]، والمعنى وكفى بالله حاكما بينى وبينكم، ويرشح لهذا المعنى عبارة بينى وبينكم، فالحكم هو الذى يكون بين اثنين، وأما الشهادة فتكون لأحد الفريقين على الآخر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ الكتاب إما أن يراد جنس الكتاب، ومن عنده علم الكتاب هو العالم بالكتب السماوية قبل تحريفها، فإنها تشهد بنبوة محمد ﷺ، وتحكم بأنه رسول، هذا التبشير بالنبى ﷺ فى التوراة والإنجيل،

ولا يزال آثاره معها باقية إلـى اليوم تعرف برموزها لمن عنده علم بالكتاب، هذا إذا كـان المراد جنـس الكتـاب، ومن عنده علـم بكتـاب أهل الفـقـه المخلصين من الكتابيين.

وإذا أردنا الكتاب وكانت (ال) للعـهد، يكون المراد هو القرآن الكريم، ومن عنده علم القرآن هو العليم بأساليب الكلام العربى يعـرف شعره ورجزه، وإرساله ونثره، ويعرف ما فى الكلام، كما روى عن فـصحاء العرب، فإن هؤلاء يشهدون بإعجازه كما يقول قائلهم: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، ما يقول هذا بشرا، وإنه ليعلو، ولا يُعلى عليه.

هذا وإنى أرى الوجه الثانى، وكلاهما عميق فى معناه.

* * *

سورة إبراهيم

تمهيد:

سورة إبراهيم مكية إلا الآيتين ٢٨، ٢٩، وعدد آياتها اثنتان وخمسون آية، وسميت سورة إبراهيم لما فيها من قصص إبراهيم وولديه إسماعيل وإسحاق، وسكن إسماعيل وذريته بجوار بيت الله المحرم، ولكن لم يتخذ شخص إبراهيم عليه السلام محور السورة، كما كان الشأن فى سورة يوسف عليه السلام.

ابتدئت السورة الكريمة بالحروف المجردة وهى ﴿الر﴾ ثم ذكر الكتاب الكريم وأن الله أنزله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد، وذكرت السورة ملك الله للسموات والأرض وما فيهما، وأن الويل للكافرين بآياته الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، ويصدون عن سبيل الله تعالى ويبغونها معوجة، وأولئك فى ضلال مبين.

ويذكر الله سبحانه أنه ما أرسل من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم، فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء، وهو العزيز الحكيم.

وبعد ذلك يشير الله سبحانه إلى طرف من قصة موسى وقومه، فيذكّر سبحانه على لسان موسى بنعمته عليهم إذ أخرجهم من آل فرعون يسومونهم سوء العذاب، ويبين سبحانه وتعالى أنهم إن شكروا زادهم نعما على نعم، ويقول موسى لقومه ﴿ ...**إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ** (٨) ﴾.

ويشير سبحانه من بعد ذلك إلى أبناء قوم نوح وعاد والذين من قبلهم لا يعلمهم إلا الله، جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم، وعضوها غيظا، وقالوا إنا بما أرسلتم به كافرون، وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب.

ويحكى سبحانه وتعالى دعوة الرسل عامة، ومجاوبة المشركين المتشابهين عامة، قالت لهم رسلهم: ﴿ ...أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ... ⟨١٠⟩ ﴾ فيرد عليهم الكافرون وهو رد متحد عند الكافرين جميعا، قد انبعث عن جحود واحد فاتحد.. قالوا: ﴿ ... إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ⟨١٠⟩ ﴾.

وكان رد الرسل واحدا ﴿ ...إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ⟨١١⟩ ﴾، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده، وما كان لنا أن نأتيكم إلا بإذن الله، وعلى الله فليتوكل المؤمنون، وقد قرروا أنهم لا يتوكلون إلا على الله، وليصبرن على أذى أقوامهم.

ولقد كان الإيذاء متحدا من الكافرين، إذ اتحد السبب المنبعث منه وهو الجحود، ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ⟨١٣⟩ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ⟨١٤⟩ ﴾.

وإنه من بعد ذلك الخزى فى الحياة الدنيا يكون العذاب الشديد، ﴿ ...وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ⟨١٦⟩ يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ ... ⟨١٧⟩ ﴾.

وقد مثل الله تعالى أعمال الذين كفروا فى الكفر بأن ﴿ ...أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ ⟨١٨⟩ ﴾.

ثم بين بعد ذلك خلق السموات والأرض ﴿ ... إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ⟨١٩⟩ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ⟨٢٠⟩ ﴾، وقد صور الله سبحانه وتعالى حالهم يوم القيامة، إذ تجادل الضعفاء والذين استكبروا ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ... ⟨٢١⟩ ﴾، قال

الذين استكبروا ﴿ ... لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢١) ﴾.

ويدخل الشيطان فى المجادلة فيقول: ﴿ ...إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) ﴾.

وقد ذكر سبحانه بعد ما كان بين المشركين ضعفاء ومستكبرين والشيطان، ذكر سبحانه وتعالى إدخال المؤمنين الجنة.

﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ (٢٣) ﴾.

وقد ضرب سبحانه مثلا يفرق بين الإيمان والكفر بالفرق بين الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة، فالكلمة الطيبة ﴿ ... كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) ﴾، والكلمة الخبيثة ﴿ ...كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧) ﴾.

وذكر سبحانه أن حال الكافرين حال عجيبة تثير الاستفهام، فقد ﴿ ...بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) ﴾؛ وذلك لأنهم جعلوا لله أندادا من الحجارة، وقد صاروا بذلك غير مدركين حقائق أمورهم، وجديرون بأن يقال لهم ﴿ ...تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠) ﴾، وذكر فى مقابل ذلك المؤمنين الذين لم يبدوا نعمة الله كفرا، ويقيمون الصلاة، وينفقون مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال.

ولقد ذكر الله نعمه على خلقه، فهو ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾.

ولقد ذكر الله تعالى بعد ذلك خبرا صادقا عن إبراهيم أبى العرب، وكيف كان يدعو الله ولا يعبد الأصنام، ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦) ﴾. وأخذ يدعو لذريته فى البلاد العربية بسعة الرزق فقال:

﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١) ﴾.

ذكر الله سبحانه وتعالى أدعية إبراهيم ليكون ذلك تذكيرا لذريته من العرب، ليتركوا الأوثان ويتجهوا إلى الضراعة إلى الله تعالى كضراعة جدهم أبى الأنبياء إبراهيم.

ولقد بين سبحانه وتعالى بعد ذلك أن الله لا يخلف وعده رسله يوم القيامة، فقال عز من قائل: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ

هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ ﴾، وقد أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أن ينذر قومه بيوم القيامة، وبما كان قد نزل بمن قبلهم، فقال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾.

ولقد حذر الله تعالى من نزول وعده، وذكر سبحانه أنه في يوم القيامة يكون الجزاء، تجزى فيه كل نفس بما كسبت إن الله سريع الحساب. ﴿هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾﴾.

معانى السورة الكريمة

قال الله تعالى:

الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ
إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾
ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ
لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ
ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا
مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ
مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾

تكلمنا فى هذه ﴿الٓر﴾ وذكرنا أنها من المتشابه الذى اختص به علم الله تعالى، وأشرنا إلى بعض ما نحاول أن نتعرف به الحكمة فى وجوده، وما كان من الله ما يسوغ أن يوصف بأنه جاء لغير حكمة وإن خفيت على العقول جلها أو كلها. وهذه الحروف إذا جاء بعدها ذكر الكتاب كانت مبتدأ والكتاب خبره، وهى هنا كذلك، فقوله تعالى: ﴿الٓر﴾ مبتدأ خبره ﴿كِتَابٌ﴾، ويكون الابتداء فيه إشارة واضحة إلى أن هذا الكتاب مكون من تلك الحروف التى يتكون منها كلامكم، ومع ذلك عجزتم عن أن تأتوا بمثله، فلا يدل هذا على أنه من عند أمثالكم من البشر، بل من عند خالق البشر، ويرشح لذلك كون الكتاب خبرا لهذه الحروف.

و﴿كِتَابٌ﴾ التنكير فيه للتعظيم، والمعنى كتاب عظيم الشأن لا يدرك كنهه، ولا تحيط به أفهام البشر، إلا إذا كان ذلك بتوفيق من الله، وما يعلم تأويله إلا الله، وأضف إلى ذلك ما يقوى مكانته أو يحققها، وهو أمران ذكرهما الله تعالى:

الأمر الأول: أنه أضافه إلى الله تعالى على أنه نازل من لدنه فى سموه سبحانه، إلى منتهاه فى نزوله إلى النبى ﷺ، وهذا هو قوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾، وبالإضافة إليه سبحانه بضمير الجمع؛ لأنه الضمير العائد إلى الله خالق الوجود كله، عاقله وغير عاقله، إنسه وجنه، وهو الحكيم الخبير.

الأمر الثانى الذى يكشف عن عظمة الكتاب: وهو شرف ذاتى فوق شرفه الإضافى بالنسبة إلى الله تعالى، وهو أنه يخرج الناس ـ إذا أدركوه ـ من ظلمات الضلال إلى نور الهداية وذلك بتبليغ محمد ﷺ له، وهذا هو قوله: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ فهذا النص السامى يدل على أن القرآن هاد ومرشد يخرج به النبى ﷺ الناس من الضلال إلى الهدى بإذن الله، ففى ذلك ثلاثة معان: أولها: أن الضلال كالظلمة، وثانيها: أن الهداية كالنور، وثالثها: أن الأمور كلها بتوفيق من الله، فمن سلك سبيل الهداية وصل إلى الغاية، ومن سلك طريق الضلال وصل إلى نهاية الضلال البعيد.

وعلى ذلك ففى التعبير بالظلمات والنور استعارة، تشبيه الضلال بالظلمة؛ لأن السائر فيها كالسائر فى ظلام لا يعرف طريقه فيكون فى حيرة دائمة لا ينتهى فيها إلى حق واضح ولا إلى طريق لاجب، وشبهت الهداية بالنور؛ لأن من هداه الله تعالى يكون فى نور يعرف به طريقه الهادى المرشد إلى أقوم طريق وأهدى سبيل.

وقد عرف الله سبحانه وتعالى بالبيان إلى أن النور صراط الله العزيز الحميد.

الصراط: الطريق المستقيم، وهو أقرب ظريق للوصول إلى الحق، وهو فى هذا الوصف العظيم مضاف إلى الله تعالى فيزداد شرقا وتكريما، وهو صراط العزيز الذى لا يقهر، وهو فوق كل شىء والغالب على كل أمر وحده، ومن سلك طريق الحميد، فإن العاقبة فيه محمودة، فهو محمود فى ذاته ومحمود فى غايته ونهايته.

ومن سلك غيره ذل، ولا يحمد العاقبة، والعاقبة هى السوءى.

وقد ذكر سبحانه القلوب المظلمة، فقال عز من قائل: ﴿**اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ** ②﴾.

صدر سبحانه الجملة التى فيها كمال سلطان الله تعالى فى الوجود بلفظ الجلالة، لتربية المهابة فى نفس القارئ؛ ولأن ذلك يتلاقى مع سلطان الله الكامل، و﴿**لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ**﴾ للدلالة على ملكيته لكل ما فى السموات، وتكرار ﴿**مَا فِي**﴾ لدلالة على كمال استغراق الملكية له سبحانه وتعالى، وهو على كل شىء قدير، مالك كل شىء، وذكر سبحانه ملكيته لما فى السماء والأرض وذلك يقتضى ملكيته لهما؛ لأن ملكية ما يشتملان عليه يقتضى - لا محالة - ملكيتهما، إذ ملكية المظروف تقتضى ملكية الظرف، وإن الملكية الكاملة لهذا الوجود كله بما فيه من أجرام، وأحياء عاقلة وغير عاقلة يتضمن أنه يملك الأنداد، وأنها وعُبادها فى قبضته سبحانه العليم بكل شىء، وفى ذلك برهان قاطع أنها غير جديرة بالعبادة؛ ولذا قال سبحانه وتعالى بعد ذكر سلطان الله تعالى فى الوجود

كله، وأنه لا سلطان لغيره ذكر بعض مقتضياته، وهو كفر من يعبد الأوثان، واستحقاقه للعذاب؛ ولذا قال تعالى: ﴿**وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**﴾ الويل: الهلاك، وقال الزجَّاج: هى كلمة تقال للعذاب والهلاك ﴿**مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**﴾ فى ذاته، وفى هذا إنذار ووعيد، والمعنى هلاك لهم من عذاب شديد. وكأن المعنى كما يقول الزمخشرى: يولولون من عذاب شديد، ويصيحون قائلين يا ويلاه.

وننبه هنا إلى أمرين:

أولهما: أن ذكر الويل ينزل بالكافرين، هو فى مقابل الذين يسلكون صراط العزيز الحميد، من حيث إنهم يكونون فى عزة بعزته سبحانه وتعالى، وعاقبتهم محمودة بسلوكهم طريقه المحمود، أما الذين لا يسلكون الطريق ويخالفون مقتضى الملكية الثابته لله تعالى فى السموات والأرض ومن فيهن، فإنهم يكونون فى ويل من عذاب شديد.

وثانيهما: الله مالك كل شيء، حتى لقد قرر الفقهاء أن ملكية الناس للأشياء ملكية نسبية وليست ملكية حقيقية؛ لأن المالك فى الحقيقة هو الله سبحانه وتعالى.

وقد بين سبحانه وتعالى صفات الكافرين الذين لهم الويل من عذاب شديد، لا يكتنه كنهه، ذكر سبحانه أوصافهم الظاهرة، فقال تعالى:

﴿**الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (٣)**﴾.

وصفهم سبحانه وتعالى فى هذه الآية بثلاث صفات، وختمها بجزائهم المستحق من هذه الصفات والمترتب عليها:

الصفة الأولى: أنهم ﴿**يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ**﴾، (استحب) السين والتاء للطلب، فمعنى استحب الحياة، أى طلب حب الحياة الدنيا، وهذا يستفاد منه أولا الرغبة الشديدة فى الحياة بمعنى اللجاجة فى طلبها، ويستفاد منه

ثانيا أنه يختارها على الحياة الدنيا، ويترك الآخرة تركا، كما يُترك كل مهجور، ولقد قال فى ذلك الزمخشرى: «هم الذين يستحبون، والاستحباب: الإيثار والاختيار، وهو استفعال من المحبة؛ لأن المؤثر للشىء على غيره كأنه يطلب منه نفسه أن يكون أحب إليه وأفضل عنده من الآخرة».

والصفة الثانية: أنهم لا يكتفون بإيثارهم الدنيا على الآخرة، بل يصدون عن سبيل الله، أى يقفون مترصدين السبيل يصدون عنها بمنع الناس منها، وقرأ الحسن البصرى ﴿**وَيَصُدُّونَ**﴾ بضم الياء وكسر الصاد، والمعنى أنهم أعرضوا عن سبيل الله، وحملوا غيرهم على الإعراض عن سبيل الله تعالى، وذلك بالجمع بين القراءتين، وصدهم عن سبيل الله بالدعوة إلى عدم الدخول، كما كان يذهب أبو لهب إلى حيث النبى ﷺ إلى القبائل يكذّب النبى ﷺ ويدعوهم إلى الإعراض أو عدم الاستماع، وأشد الصد عن سبيل الله إيذاء المتبعين لسبيل الله وتعذيبهم ليحملوهم على الردة عن دينهم، وسبيل الله هو صراط العزيز الحميد، وهو طريق الحق والهداية وتوحيد الله تعالى.

والصفة الثالثة: أنهم يبغونها عوجا، أى يطلبونها راغبين ملحفين أن تكون معوجة غير مستقيمة، بل يطلبونها ناكبة عن الطريق غير سالكة سواء السبيل، يبغونها زيفا ويطلبون الاعوجاج كما كانوا يريدون محمدا ﷺ أن يكون عن سب آلهتهم ويدعونه إلى اتباع آبائهم، وكأنه جاء ليردد ما عندهم، لا ليهديهم ويرشدهم إلى الطريق الأقوم.

ولقد بين سبحانه بعد ذلك الوصف الجامع لهم، ولذى سيطر عليهم فقال: ﴿**أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ**﴾ الإشارة إليهم محمَّلين بهذه الأوصاف التى استحبوا بها الحياة الدنيا وصارت خلب أكبادهم وآثروها على الحياة الآخرة، ورضوا بالدنية عن الحياة العزيزة الكريمة فى الآخرة، وصدوا عن سبيل الله وبغوا الحق معوجا غير مستقيم ﴿**أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ**﴾.

الضلال ضد الهداية، وضلال الطريق أن يسير فى متاهة يتيه فيها، وكلما أوغل فى المتاهة ازداد ضلالة وبُعد عن الغاية والنجاة من المتاهة، فهؤلاء بحبهم للدنيا دون الآخرة، وصدهم عن سبيل الله وإرادتهم الزيغ دون الحق أمعنوا فى متاهة الباطل، فبعدوا بضلالهم، وغابوا عن الحق وسواء السبيل.

والبُعد إما أن يكون وصفا للضلال، ويكون معنى ذلك أنهم أوغلوا فى الضلال إيغالا حتى بعدوا عن الطريق السوى الموصل إلى الغاية المنشودة والذى هو طريق السلامة.

وإما أن نقول إنه وصف للضال نفسه، وذكر السياق وصفا للضلال من قبيل المجاز المرسل الذى يجعل المصدر هو الموصوف، والحقيقة أن الوصف هو للضال، والله أعلم.

ولقد بين القرآن الكريم حقيقة ثابتة فى الرسالات الإلهية، وهى أن يكون الرسول بلسان قومه، فقال تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤)** ﴾.

﴿ **مِن** ﴾ هنا لاستغراق النفى ثم الإثبات، أى ما أرسلنا أى رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم، وهذا النص الكريم يفيد أنه سبحانه لا يرسل رسولا إلا بلسان قومه الذين بعث من بينهم، وأن البيان الأول يكون لهم ثم ينبعث نور الدعوة من ورائهم، وكذلك كان النبيون، فعيسى عليه السلام بعث بلسان قومه وكانت دعوته بلسان قومه وهو العبرية، وعمت دعوته ابتداء بلسان قومه، والأناجيل التى حكت مواعظه فى الجبل والسفح كانت بلغة قومه ابتداء، فإذا كانت قد ظهرت بغير لغته ولغة قومه، بل بلغة أعدائهم فإن السند يكون حينئذ منقطعا بين الرسالة ومن أرسل فيهم، بل بينهم، وبين الرسول ذاته، ولذا كان تحريف القول عن موضعه.

وموسى من قبل عيسى ـ عليهما السلام ـ بعث أيضا بلغة قومه وهم بنو إسرائيل ابتداء، ثم كانت لغة فرعون عندما خاطبه هو هارون.

وكذلك محمد ﷺ، قد بعث بلغة قومه الذين كانت دعوته الأولى بينهم وانبعث نورها منهم ولكنها كانت عامة، كما قال تعالى عن نبيه: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ... (١٥٨)**﴾ [الأعراف]، وكما قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ... (٢٨)**﴾ [سبأ]، وكما قال ﷺ: «**بعثت للأحمر والأسود**»(١).

وكونه بلسان قومه لا يفيد أنه كان للعرب خاصة، فذلك لما قصته الآيات القرآنية الصريحة والأحاديث النبوية الشريفة والوقائع التاريخية الصادقة، فإن دعوته دخل فيها صهيب الرومى، وبلال الحبشى، ثم سلمان الفارسى، وذكر ﷺ أن هؤلاء يصورون أجناسهم فى الدعوة المحمدية، ولم يلبث النبى ﷺ بعد أن عمَّت دعوته الجزيرة العربية أن بعث إلى هرقل ملك الروم، وإلى كسرى ملك الفرس، وإلى المقوقس عظيم القبط، يدعوهم إلى الإسلام، وهكذا.

إذن فالدعوة كانت للناس قاطبة، ولكنها ككل دعوة حق تبتدئ فى أضيق دائرة، ثم تتسع شيئًا فشيئًا حتى تصير نورا ساطعا يعم الأكوان، فابتدأت الدعوة فى أسرة الرسول وأصدقائه ثم دعيت عشيرته، كما قال تعالى: ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤)**﴾ [الشعراء]، ثم كان الصدع بالدعوة والجهر بها ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤)**﴾ [الحجر]، ثم كانت فى القبائل العربية، ثم تجاوزت ربوع الصحراء العربية إلى أرض كسرى وقيصر وسارت إلى الحبشة بعد أن عمَّت ربوع اليمن.

وقوله تعالى فى مقابل إرسال الرسول عن قومه: ﴿**لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ**﴾.

ذكر سبحانه أن البيان الأول يكون لقومه، ثم يكون بعد ذلك لغيرهم.

---

(١) من حديث ابن عباس، أخرجه أحمد، ومن مسند بنى هاشم ـ بداية مسند عبد الله بن عباس (٢٦٠٦).

والآن ونحن نرى الاختلاط الفكرى بين البشرية، حتى إن الأمر ليقع فى أرض فيذيع خبره، بعد أقل من ساعة فى كل أنحاء الأرض، لا نعجب فى أن يكون بعث الرسول بلغة ويعم علمه بعد ساعة من نهار أو ليل كل بقاع الأرض، ولكن العجب فى أن يكون فى الماضى البعث بلغة والدعوة عامة، هذا ما أثاره وبينه الزمخشرى، وهذا ما قاله سننقله بطوله:

«فإن قلت لم يبعث رسول الله ﷺ إلى العرب وحدهم، وإنما بعث إلى الناس كافة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ... (١٥٨)﴾ [الأعراف]، بل إلى الثقلين وهم على ألسنة مختلفة، فإن لم يكن للعرب حجة فلغيرهم حجة، وإن لم تكن لغيرهم حجة، فلو نزل بالعجمية لم يكن للعرب حجة أيضا، قلت: لا يخلو إما أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحد منها، فلا حاجة لنزوله بجميع الألسنة؛ لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفى التطويل، فبقى أن ينزل بلسان واحد، فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول؛ لأنهم أقرب إليه، فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوقل عنهم وانتشر، قامت التراجم ببيانه وتفهيمه، كما نرى الحال ونشاهد من نيابة التراجم فى كل أمة من أمم العجم، مع ما فى ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة، والأقطار المتنازحة والأمم المختلفة والأجيال المتفاوتة على كتاب واحد، واجتهادهم فى تعلم لفظه وتعلم معانيه، وما يتشعب من ذلك جلائل الفوائد وما يتكاثر فى إتعاب النفوس وكذا القرائح فيه من القرب والطاعات المفضية إلى جزيل الثواب؛ ولأنه أبعد من التحريف، وأسلم من التنازع والاختلاف....»(١).

وننتهى من كلام الزمخشرى إلى أمرين: أولهما: أن نزول القرآن والدعوة المحمدية كانت باللغة العربية؛ لأنها كانت لغة النبى ﷺ فكانت أقرب إليه؛ ولأن القرآن المعجز إذا كان باللغة عانى غيرهم من حفظ لفظه وتفهم معانيه، وفى ذلك ثواب أولا، وصون للقرآن عن التغيير والتبديل فيه ثانيا.

---

(١) الكشاف: ٢/ ٣٦٦.

ويشير إلى أنه لو نزل بكل اللغات، وكان معجزا فيها جميعا لكان الإيمان بالإلجاء لا بالاختيار وله فى ذلك نظرة.

وإنه يجب أن نلاحظ أمرين:

أولهما: ما قاله الشافعى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه يجب أن يعرف كل مسلم قدرا من اللغة العربية يصحح به دينه.

وثانيهما: أن جعل القرآن باللغة العربية، ومحاولة الأعاجم أن يحفظوه يقرب بين اللغات، وحيث قربت اللغات قربت العلاقات الإنسانية.

وكان ذلك قائمًا يوم كانت الوحدة العربية قائمة، وكانت اللغة العربية جامعة لهم وفيها دونت ثقافاتهم وكانت وعاء للعلم الإسلامى، فلما انبعثت اللغات الإقليمية من مراقدها ذهبت الوحدة وتفرقت الكلمة.

ونعود إلى الكلام فى معنى الآية الكريمة ﴿**لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ**﴾، أى أنه يترتب على البيان أن يسير بعض الناس فى طريق الضلالة، إذ يكذبون، ولا يصدقون، ويهدى الله تعالى من يسير فى طريق الهداية، فيأخذ بيده إلى غايتها.

وهنا يسأل سائل لماذا قُدِّمت الضلالة على الهداية؟ ونقول فى الجواب عن ذلك إن الآيات سبقت لبيان إنذار الضالين، فهم موضع الإنذار؛ ولأن الشيطان قريب من نفوس البشر؛ ولأن الأهواء تجعل حكم الضلال هو الأغلب.

وقد ختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿**وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ لبيان أن الكفار مهما يكن سلطانهم وقوتهم وحسبانهم أنهم لن يغلبوا، ويذهب بهم غرورهم إلى زعم أنهم العالون، فالله تعالى هو واهب العزة، وهو العزيز الذى يذلهم، ويجعل لأهل الإيمان الكلمة العليا، وهو الحكيم الذى يدبر الأمور بحكمته، وبعلمه الذى وسع كل شىء، فهو يمهل الكافرين ويملى لهم، كما قال عز من قائل: ﴿**وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ** (٤٥)﴾ [القلم] يملى لهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

من نبأ موسى عليه السلام

قال تعالى:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ
قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ
ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾
وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ
إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ
وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى
ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ
رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ
عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ
جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ
مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ
بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ
فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم
بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾

فى الآية السابقة ذكر سبحانه وتعالى أنه لا يرسل رسولا إلا بلغة قومه ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ويبين لهم فيضل من يضل، ويهتدى من يهتدى، وفى هذه الآية وما يليها من آيات يبين الله أخبار نبى من أولى العزم بعث فى قومه، وغيرهم ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ويذكرهم بأيام الله تعالى من وقائع من نزلت بمن سبقهم من الأمم، وما نزل بهم هم من نعم، وهو موسى عليه السلام، وقد أخرج الله على يدى موسى بنى إسرائل قومه من فرعون وظهرت آياته فيهم، ومع ذلك ضلوا من بعده، وفى حياته.

قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ﴾ أكد الله تعالى إرسال موسى إلى قومه بـ(اللام) وبـ(قد)، وقومه أهم بنو إسرائيل وحدهم أم قوم موسى كل من أرسل إليهم؟ ظاهر القول بادئ الأمر أنهم بنو إسرائيل؛ لأنهم قومه وجنسه أو قبيله، ولكن موسى لم يرسل لبنى إسرائيل وحدهم، إنما أرسل إلى سكان مصر وفيهم فرعون، وقد قال تعالى فى رسالة موسى وأخيه هارون: ﴿ **اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦)** ﴾ [طه].

وهذه تدل على أنه بعث لمصر كلها، لا لبنى إسرائيل وحدهم، وإن كانت فضائل الرسالة عادت على بنى إسرائيل بالنعمة والإنقاذ ابتداء، والهداية للجميع كانت المقصد فى نهاية الرسالة وغايتها وقال تعالى: ﴿ **وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ** ﴾.

وردت أخبار من السلف بأن أيام الله، الوقائع التى انتصر الله فيها لكلمة الحق والإيمان، كما نزل بقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وآل مدين؛ وذلك لأن كلمة (أيام) تطلق فى التاريخ العربى على الحروب التى كانت لها دوى فى العرب كحرب «ذى قار» الذى انتصر فيها العرب على فارس، وكحرب «الفجار»، وكحرب «عبس وذبيان»، وكحرب «البسوس»، إلى غير ذلك من الأيام الشداد.

وروى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن أيام الله هى النعم التى أنعم بها على بنى إسرائيل، والأيام التى أنزل بها اعتبارا لأهل مصر ليسلموا، فقد أنزل عليهم تسع آيات هى: الطوفان والجراد والقمل، والضفادع والدم والعصا، ويده إذ تخرج بيضاء من غير سوء، والسنين ونقص من الثمرات.

ويمثل عبارات بعض المفسرين إلى أن الأيام التى طلب الله تعالى من موسى أن يذكرهم بها تعم أيام المحنة التى نزلت ببنى إسرائيل وأيام النعمة، وقال الطبرى فى ذلك: وعظهم الله تعالى بما سلف من الأيام الماضية لهم، أى بما كانوا فى أيام الله تعالى من النعمة والمحنة، وقد كانوا عبيدا مستذلين.

وهكذا نرى أن ابن جرير يخص الأيام بأيام الله تعالى فى بنى إسرائيل محنة ونعمة.

والحق أن أيام الله تعالى تعم أيام الشدائد، وأيام النعم، وتعم بنى إسرائيل ومن سبقهم من الأمم كقوم نوح إلى آخره، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى تلك الأيام ببعض التفصيل بذكر النعم والنقم معًا.

وهذا بحث نحوى أشار إليه المفسرون اللغويون، وهو يتعلق بقوله تعالى: ﴿**أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ فيقول: أرسل الله موسى مؤيدًا بالآيات التسع التى أشرنا إليها قائلا له: ﴿**أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾، أى من الضلال الذى هو كالظلمات المتكاثفة إلى الحق الذى كالنور الواضح البين، ويصح أن نقول: إن ﴿**أَنْ**﴾ تفسيرية، أى إن ما بعدها تفسير لمعنى الرسالة، وجوَّز الزمخشرى أن ﴿**أَنْ**﴾ مصدرية ولا مانع من دخولها على الأمر؛ لأنه فعل، ويكون المعنى: أرسلنا موسى إلى قومه بإخراجهم من الظلمات إلى النور.

وقد بينا أن قومه تعم كل من بعث إليهم، وهم بنو إسرائيل، وأهل مصر، وقد كانت دعوته ـ عليه السلام ـ فيهم.

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، ﴿ذَلِكَ﴾ الإشارة إلى إخراجهم من الظلمات إلى النور والآيات الدالة على رسالته، والأيام باشتمالها على النعم التى جاءت إليهم وأفاضها عليهم، والشدائد التى نزلت بغيرهم، ﴿لآيَاتٍ﴾ أى لأمارات هادية مرشدة ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، وجاء ذكر الصبر بصيغة المبالغة، وذكر الشكر بصيغة المبالغة أيضا، للدلالة على أن من يعرف هذه الآيات ويدركها هو الذى صار الصبر بتمرسه له صفة كالجبلة فيه، وصار شكر النعمة والقيام بحقها كذلك، وقالوا: إن المراد الصبر على البلاء، والشكر على النعماء، وإلى أن الصبر كما يكون فى النقمة يكون أيضا فى النعمة، والصبر بالنعمة ألا تدفعه إلى الغرور، والأشر والبطر، كما قال تعالى: ﴿... وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ... (٣٥)﴾ [الأنبياء]، والنقمة أيضا تحتاج إلى الشكر، إذ تذكر بما أنعم وأكرم فى حال البلاء والاختيار، فيكون الشكر على ما أسلف على رجاء الإنقاذ مما أوقع، ثم يكون الشكر على الماضى والحاضر.

ولقد أشار سبحانه وتعالى إلى بعض ما أنعم، فقال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦)﴾.

﴿إِذْ﴾ ظرف زمان للماضى، والخطاب لمحمد ﷺ يذكر بنعم الله تعالى على المظلومين، وأنه سبحانه ينقذهم من أذى طاغية الدنيا فى عصره، وهو فرعون، وإن هذا إيذان بأنه ينقذ النبى ومن معه من المشركين، وجاعلا لهم السلطان عليهم، وقوم موسى هنا متعين أن يكون لبنى إسرائيل، وإن كان قوله: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ لا يخصهم، بل يشملهم وغيرهم.

يقول لهم رسول الله الذى أنقذهم على يديه: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾، أى أصحاب فرعون ونصرائه ومعاونيه على الشر، ونرى

أن فرعون فى أكثر الآيات المثبتة لظلمه القاسى الغاشم لا يذكر فرعون وحده، إنما يذكر ملؤه أو آله، أو غير ذلك مما يدل على المؤازرين له، وهذا ينبئ بمعنى أن سنة الله تعالى فى خلقه أن الطغاة لا يطغون بذات أنفسهم، ولكن بمؤازرة من الأشياع والأتباع، ولو كانوا مرشدين ما كان منهم ذلك الظلم الغاشم فهم آثمون معهم.

وقد كانت النجاة أو الإنجاء من أقسى المظالم الإنسانية، بشاعة وقسوة، كما حاول من ساروا على دأبه ـ أسكنهم الله معه فى السعير، فهم وهو على سواء، إلا أنهم أشد؛ لأنهم جاءوا بعد أن جاءتهم البينات.

و﴿ إِذْ ﴾ بدل من الأولى، وقد بين الله تعالى ما أنجى منه فقال: ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾.

﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾، أى يذيقونكم أشد العذاب سوءا من استرقاق، وإذلال وتكليفكم المشاق الغلاظ الشداد، أو استباحة لكرامتكم، وإبعادكم عن أماكن السلطان وجعلكم أرذالا تابعين، ولم يجعل منكم سادة متبوعين، حتى أنقذكم الله من هذا فجعلكم سادة أنفسكم، وعبر عن ذلك سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ ... وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ... (٢٠) ﴾ [المائدة]، أى مسيطرين على أنفسكم ولستم خاضعين لغير الله تعالى، وقال سبحانه وتعالى مع هذا الإذلال والاسترقاق ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ فى سورتى البقرة والأعراف ﴿ ... يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ... (١٤١) ﴾ [الأعراف] من غير (واو)، فكان هذا تفسيرا لسومهم العذاب، وهو بيان بأفصح أحواله، وهنا جمع بين الاسترقاق والذل والتكليف بالمشاق والأهوال، وبين ذبح الأبناء واستحياء النساء.

وعبَّر عن قتل الأبناء هنا بالذبح للإشارة إلى أنهم فعلوا ذلك، وهم آمنون سالمون غير ثائرين ولا ناقمين، فهم فى غير اندفاعة ثورة، ولكن فى أمن ودعة، يأتون إلى الطفل من حجر أمه أو بين لداته ويذبحونه ذبحا، وحسبك أن تعلم أن أم موسى رضيت ـ بإلهام من الله ـ أن تلقيه فى اليم مع رجاء الله تعالى، عن أن تراه يذبح بين يديها.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾، أى يطلبون حياة نسائهم وبقاءهن، لا رغبة فى ذات الإحـياء بل ليكنَّ إماءً فى بيوتهم، ويستـمتعون بجمـالهن، فهو ظلم فاحش لا يعرفه إلا فرعون وأمثاله، كما رأينا واحدا منهم فى هذا الزمان.

قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾، الإشارة إلى الإنجاء، ويصح أن تكون الإشـارة إلى سـوم العذاب، وعلى الأول يـكون البلاء هو بلاء بـنعمـة الإنجاء، كما أشـرنا إلى قوله تعالى: ﴿... وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ... (٣٥)﴾ [الأنبياء]، فالنعـمة تحتاج إلى صبر واختبار، وإذا كـانت الإشارة إلى سوم العذاب وتذبيح الأطفال واستـحياء النساء يكون اختبارا من الله عظيـما، ونسب البلاء إلى الله تعالى، وهو الرب الخالق، للإشارة إلى أن تمكين فرعـون من ذلك كان اختبارا من الله تعالى حتى يمتحنوا بالنقمة، وتصقل نفوسهم بها.

وإنى أرى أن الأول أوضح، والله تعالى أعلم.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧)﴾.

﴿تَأَذَّنَ﴾ بمعنى آذن وأعلم، ولفظ ﴿تَأَذَّنَ﴾ يدل على المبالغة فى الإعلام، وتكرره آنا بعد آن، وشكر النـعمة أداؤها فيـما خلقت له، فشكر نعـمة الأذن ألا يسمع إلى منكر، وشكر نعـمة اللسان ألا ينطق إلا بالحق، وشكر نعـمة العقل ألا يذعن إلا للحق ولا يفكر إلا فى الوصول إلى الحق والإيمان بالتـوحيد، والإنسان مغمـور فى نعم من لسان ينطق وأذن تسمع، وعين تبـصر وجوارح تكسب، وكل نعمة لها شكرها، فإن شكر زادها الله تعالى.

وكفـر النعمة ألا يتـخذها فى طاعة، فكفـر ذى المال بإنفاقه فى غـير حله، والاستعلاء به وبطر العيش، وأن يطغى إذا استغنى.

ولقـد قال تعـالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ هذا شـرط مؤكـد بالقـسم، والجواب ﴿لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ جواب القـسم ودل على جـواب الشرط، واللام مـوطئة للقسم، وكان الجواب مؤكدا بنون التوكيد الثقيلة، وكذلك فى قوله: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ

﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ هذا لأن الشكر جواب القسم، وهو دليل على الجواب، وليس نصا فيه لأن الجواب بمدلول الله، ولكن إن كفرتم لأعذبنكم، إن عذابى لشديد، والمعنى إن شكرتم أجرتم لا محالة، وزادكم الله نعمة، وإن كفرتم منعتم وعوقبتم، وإن الله تعالى شديد شدة بالغة الغاية.

وإن هذا يدل على أن الطاعة تعود عائدتها على من قام بها؛ لأن شكر المنعم، وشكر النعمة يزيدها، وإن كفر النعمة معه عذاب أليم، والله غنى عن العباد؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨)﴾.

صرح الله سبحانه بأن ذلك القول من موسى لقومه، ولم يصرح بأن قوله ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ فاحتمل أن يكون الكلام منسوبا لموسى، أو هو من كلام الله رأسا، والأذان هو ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ...﴾ إلى آخر الآية، وسواء أكان الكلام منسوبا لموسى، أم إلى الله، فالإيذان بالزيادة فى الشكر والعذاب فى الكفر من الله، أما الكلام فى هذه الآية فمنسوب لموسى قال لقومه من بنى إسرائيل، أو هم وغيرهم.

وفى هذا النص ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾ فيه بيان أن الشكر والكفر مغبتهما تعود على الناس والثقلين جميعا، ولا تعود على الله تعالى فى شىء؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ وهذا ينبئ عن جواب الشرط، والمعنى إن يكفر الناس والثقلان فإن الله لا يضيره شىء، ولا ينقص من ملكه، إن الله لغنى حميد، أى لا يحتاج إلى عباده وهو حميد، أى محمود من الملائكة، ولقد قال البيضاوى فى تفسير كلمة ﴿حَمِيدٌ﴾: «مستحق للحمد فى ذاته، محمود تحمده الملائكة وتنطق بنعمه كل المخلوقات، فما ضررتم بالكفر إلا أنفسكم حيث حرمتموها مزيد الإنعام وعرضتموها للعذاب الشديد»[1].

---

(١) تفسير البيضاوى: ٣/ ٣٦٨.

روى مسلم عن أبى ذر الغفارى عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: «**يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئًا، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئًا، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر**»[١].

﴿ **أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ** (٩) ﴾.

الاستفهام هذا للإنكار بمعنى نفى الوقوع فهو للنفى جاء على صورة الاستفهام تأكيدا للنفى كأنهم سئلوا فأجابوا بالنفى، وهو داخل على النفى، فنفى النفى إثبات، فمعنى ﴿ **أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ...** ﴾ إلخ، قد جاءكم نبأ الذين من قبلكم قوم... والنبأ الخبر الخطير الشأن.

وقد قال ابن جرير: «إن هذا الكلام على لسان موسى لقومه بنى إسرائيل وأهل مصر»، ولكن رد ذلك القول ابن كثير فى تفسيره، ونحن معه؛ لأنه لا دليل على نسبته إلى موسى عليه السلام؛ ولأن فائدته فى جعله عاما أوفى من حيث المعنى؛ ولأن روح الآية تجعل الخطاب لمن يتلو القرآن من مشركى العرب وغيرهم.

و«النبأ» الخبر الخطير الشأن، وقد كان خبر قوم نوح خطير الشأن، وكذلك عاد وثمود؛ لأنها أخبار بهلاك أمم وجماعات بسبب خروجهم عن أمر ربهم.

---

(١) رواه مسلم: البر والصلة والآداب- تحريم الظلم(٤٦٧٤). من حديث أبى ذر رضى الله عنه، كما رواه الترمذى، وأحمد، وابن ماجه، والدارمى، وقد سبق تخريجه.

والمعنى فى الجملة: قد أتاكم الخبر الخطير الشأن قوم نوح إلى آخره، ﴿ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ ومن هم الذين من بعد هؤلاء، ولا يعلم مآلهم إلا الله تعالى.

أحسب أن المراد بهم أمة محمد ﷺ الذين كفروا برسالته، ويعاندون فيها، ويؤذون المؤمنين، ويسفهون قول الرسول ﷺ، ويصرون على عبادة الأوثان.

ويكون قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ تهديد لهم، وحمل لهم على المقايسة بينهم وبين غيرهم، فإذا كان نبأ الغابرين هلاكهم، فليقيسوا حالهم على حال أولئك الغابرين.

وقد حكى سبحانه ما كان بين الرسل السابقين وأقوامهم، فقال عز من قائل: ﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾، أى بالأدلة المبينة الهادية المرشدة التى لا يدخلها امتراء فلم يجيبوا. وعبر الله سبحانه وتعالى عن امتناعهم عن الإيمان بقوله تعالى: ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ كانت حالهم تجيب بأن ردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا. . . .

وقد تكلم الزمخشرى فى قوله تعالى: ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ فذكر عدة احتمالات مجازية لمعنى هذا التعبير القرآنى الكريم ولم يعين واحدا، فقال: ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ يعضوها غيظا وضجرا مما جاء به الرسل، كقوله تعالى: ﴿ ... عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ... (١١٩) ﴾ [آل عمران]، أو ضحكا واستهزاء، كمن غلب عليه الضحك فوضع يده على فيه، أو أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم من قولهم: ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ ﴾ وهذا قول قوى، أو وضعوها على أفواههم يقولون للأنبياء أطبقوا أفواهكم وأسكتوا، أو ردوها فى أفواه الأنبياء يشيرون لهم إلى السكوت يسكتونهم ولا يذرونهم يتكلمون، وقيل: الأيدى جمع يد، وهى النعمة بمعنى الأيادى أى ردوا نعم الأنبياء التى هى أجل النعم من مواعظهم ونصائحهم وما أوحى إليهم من الشرائع والآيات فى أفواههم؛ لأنهم إذا

كذبوها، ولم يقبلوها فكأنهم ردوها فى أفواههم ورجعوها إلى حيث جاءت منه على طريق المثل»[١].

هذه احتمالات مختلفة لم يعين واحدا منها للدلالة فى الآية الكريمة، وإن كان وصف القول الثالث بأنه قوى، وإنا نرى أن وضع اليد فى الفم يكون عندما يلقى إلى الشخص خبر مستغرب، فالتعبير الكريم كناية عن استغرابهم الخبر، وإن كان لنا أن نختار من احتمالات الزمخشرى، فهو قوله عضوا أناملهم من الغيظ، ولكنا مع ذلك نرى أنه كناية عن استغرابهم.

عرض لهم استغراب قول رسلهم أولاً، ثم انتهى الاستغراب بالإنكار، والكفر ﴿**وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ**﴾ انتهى استغرابهم بالإنكار بكونهم رسلا، فالكفر بالرسالة أما موضوعها وهو ما يدعونهم إليه من توحيد وشرائع، فقد قالوا فيه: ﴿**وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ**﴾ ومريب معناه موقع فى الريب، من أرابه أو أوجد عنده قلقا، أى أنهم يرتابون فى دعوى التوحيد، وأنها تجعلهم فى قلق بالنسبة لآلهتهم التى ورثوا عبادتها عن آبائهم، فدعوة التوحيد تخرجهم من الاطمئنان إلى الباطل إلى الشك والريب، فدعهم فى ريبهم يترددون.

إجابة رسلهم

قال تعالى:

قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا

(١) الكشاف: ٢/ ٣٦٨.

عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾
قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ
يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم
بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ
﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ
وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

جاء النور على المشركين كالضوء الساطع على من يكون فى ظلام دامس، فلا تقوى عينه على النظر وتضطرب وترتاب، فقالوا: ﴿**إِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ**﴾، فهذه حيرة من يكون فى ظلمة حالكة فيلاقى ضوءاً شديداً.

وقد كانت مجاوبة بين الرسل وأقوامهم، وهذه المجاوبة صورة واضحة متحدة فى كل الخلاف بين الشرك والإيمان أو بين الرسالة الإلهية ومن ينكرونها، ولم تكن هذه المجاوبة بين رسول بعينه، وقوم بأعيانهم، بل هى صورة عامة جامعة متحدة، وإليك المجاوبة:

﴿**قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ الاستفهام إنكارى توبيخى لإنكار الواقع، فقد وقع الشك منهم كما تدل الآية السابقة، وهو حيرة أهل الظلام إذا رأوا النور تحيروا بين باطل ألفوه، وحق جاء إليهم هاديا فارتابوا.

وقدم الجار والمجرور ﴿**أَفِي اللَّهِ شَكٌّ**﴾ لأهمية الشك فى الله أو لغرابة أن يكون ثمة شك فى الله تعالى، وهو الذى فطر السموات والأرض، أنشأهما إنشاء، وفطرهما فطرا، أيكون فى وجوده شك، وقد قامت الأدلة وتوافرت البراهين من الوجود بكل أطرافه.

هذا عجب عجاب من الشك فى الله سبحانه وتعالى، وهناك عجب من الشك فيما يدعو إليه الرسل، إنهم يدعون إلى أمر نافع فى ذاته لا يسوغ للعاقل أن يتشكك فيه أو يرتاب، وقال تعالى: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ وهنا أسندت الدعوة إلى الله تعالى لتربية المهابة فى نفوسهم، ولتكون النسبة إليه بيانا لوجوده، ورقابته لهم ولأعمالهم وإشعارا لهم بالهيمنة عليهم، وقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾، ﴿مِّن﴾ هنا إما أن تكون بيانية، ويكون المعنى (ليغفر لكم ذنوبكم) وتكون للدلالة على استغراق الغفران لكل الذنوب إذا آمنوا، فإن الإسلام يجب ما قبله كقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ... (٣٨)﴾ [الأنفال]، وإما أن تكون للتبعيض، أى (ليغفر لكم بعض ذنوبكم)، وهو ما يتعلق بالشرك ونحوه، أما ما يتعلق بالمظالم فإنه لا يغفر إلا أن يعفوا أصحابه.

وعندى أن تخريج القول الكريم على أنها بيانية أولى بالأخذ أولا، لأن جَبَّ الإسلام لما قبله عام غير خاص بذنب دون ذنب، وإذا كان الشرك قد غفر فما دونه أولى. وثانيا، لأنه كان من المشركين من قتلوا وسفكوا فغفر الله لهم ذلك، وحسبك أن الله غفر لوحشى قاتل حمزة، وثالثا: لأن النبى ﷺ صرح بأن كل دم فى الجاهلية موضوع، وبأن ربا الجاهلية موضوع(١).

وقد ذكر سبحانه أنه يؤخرهم إلى أجل مسمى، وبعده يكون البعث، وفى هذا إنذار لهم إن استمروا فى ضلالهم يعمهون.

هذا كلام الرسل، فبماذا أجابوا؟.

أجاب المشركون بتصوير القرآن ذاكرا الإجابة التى اتحدوا فيها على اختلاف قرونهم ليبين للنبى ﷺ ألا يضيق صدرا بما يجادل به مشركو مكة، فهو حال

---

(١) صرح به فى خطبة الوداع، وهى خطبة طويلة، أخرجها مسلم: الحج - حجة النبى ﷺ (٢١٣٧) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه.

الشرك فى كل العصور فى إنكارهم رسالات الله، ﴿قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾، ﴿إِنْ﴾ هنا نافية وهى مع الإثبات بعدها بالاستناد تفيد القصر، أى أنتم معشر الرسل مقصورون على البشرية، لا يصح أن تتعدوها إلى ادعاء أن الله يخاطبكم من عليائه وأنكم رسله إلينا، كما قال مشركو مكة: ﴿... مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ ... (٧)﴾ [الفرقان]، وجاء على لسان المشركين قولهم: ﴿مِّثْلُنَا﴾، أى أنكم تماثلوننا فى البشرية ونحن لسنا أنبياء، فلستم بأنبياء مثلنا، وإنكم تحاولون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا من أوثان، وكأنهم بهذا يستندون إلى حجة واهية من حججهم الداحضة، وهى أنهم يتبعون آباءهم، وذلك كافٍ لاستمرارهم فى غيهم.

وقرنوا قولهم هذا بأن الرسل لم يقدموا حجة، فأنكروا ما جاء إليهم من معجزات دالة على رسالاتهم تعنتا ولجاجة فى الخصومة، وقالوا: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾، أى بدليل واضح بيِّن يلائمنا، والسلطان هنا الحجة، وكثيرا ما عبر القرآن الكريم عنها بالحجة؛ لأنها تجعل للخصم سلطانا على خصمه يلزمه بالقبول والخضوع لما يقول.

تنبيهان:

أولهما: أن الله تعالى جمع أقوال الرسل فى قول واحد، وهم كانوا فى أجيال مختلفة، وجمع أقوال المشركين فى قول واحد؛ لأنهم جميعا على قول واحد، وكأنه نابت من منابت الشرك المتحدة، فيكون إنتاجها واحدا، ولبيان أن الرسل أجيبوا جميعا بمثل ما أجيب فليتأسَّ وليصبر، فإن الله لا يضيع أجر الصابرين.

ثانيهما: أننا خرَّجنا قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ رجحنا أن ﴿مِّن﴾ بيانية وسقنا ما نحسبه دليلا على الترجيح، ومن الحق علينا أن نذكر رأيا مخالفا لرأينا وهو رأى إمام البلاغة الزمخشرى، فهو يرجح أن ﴿مِّن﴾ تبعيضية، ولننقل

لك عبارته الدالة على ذلك فهو يقول: «فإن قلت ما معنى التبعيض فى قوله تعالى: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ ما علمته جاء هكذا إلا فى خطاب الكافرين كقوله تعالى: ﴿... وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ... (٤)﴾ [نوح]، ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ... (٣١)﴾ [الأحقاف]، وقال فى خطاب المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢)﴾ [الصف]، وغير ذلك مما يقفك عليه الاستقراء.

وكان ذلك للتفرقة بين الخطابين، ولئلا يسوى بين الفريقين فى الميعاد، وقيل: أريد يغفر لهم ما بينهم وبين الله بخلاف ما بينهم وبين العباد من المظالم[(١)].

هذا ما وجب ذكره من كلام الزمخشرى ليعلم القارئ الموضوع من وجوه النظر، وما كنا لنهمل رأى إمام البيان الزمخشرى، وقد يسأل سائل لما ذكرت ﴿مِن﴾ فى جانب المشركين إذا آمنوا، ونقول: لكثرة ذنوبهم فكان التعبير فيه إشارة إلى أن الغفران لكلها مع كثرته.

إجابة الرسل على اعتراض المشركين:

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١)﴾.

اعترض المشركون بأنهم بشر مثلهم، وبأنهم لم يأتوا بسلطان يثبت الرسالة، ولقد سلموا لهم الأمر الأول مؤكدين تسليمهم، قالوا: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أكدوه بأن قصروا أنفسهم على البشرية لا يعدونها، ولكن المشركين بنوا على المثلية بطلان دعواهم فلم يسلموا لهم ذلك، أى أنهم سلموا لهم بالمقدمة ولم يسلموا

(١) ذكره الزمخشرى فى الكشاف: ج٢/ ٣٦٩.

لهم بالنتيجة؛ لأنه لا تلازم بين التماثل بينهم وبين غيرهم فى البشرية ومنع الرسالة؛ ولذا قال: ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾، فالاستدراك استدراك من النتيجة التى رتبوها فى زعمهم وقد عدوا هذه النبوه منًّا من الله تعالى على الذين اختارهم من صفوة عباده سبحانه وتعالى: ﴿ ... اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ... (١٢٤) ﴾ [الأنعام]، وقد قالوا: إنه من الله تواضعا، وتبرئة لأنفسهم من أن يعتقدوا أن لهم فضلا على الناس إلا ما اختصهم الله تعالى به من الرسالة منًّا وفضلا، وما كان ذلك إلا لحكمة قدرها، أو كان فيهم بإرادة الله، فهو أوجد فيهم من المزايا ما يجعلهم أكثر من البشرية المطلقة التى يتصف بها العاصى والطائع، والرسول ومن أرسل إليهم.

أما كلامهم الثانى فى أمر المعجزة فقد طلبوا نعتا ولجاجة معجزة اختاروها، وأعلنوا أن لن يؤمنوا إلا إذا جاءتهم هذه الآية، كما فعلوا مع النبى ﷺ، وقد ردوا زعمهم هذا بقولهم: ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾، أى ما ساغ لنا ولا جاز أن نأتيكم بآية غير ما جئنا به إلا بإذن الله تعالى، فهو الذى منَّ علينا من بين عباده بالنبوة، وهو الذى اختار لنا الآية الدالة على رسالتنا كشأن كل رسالة من غائب لحاضر، أن الغائب هو الذى يختار الإشارة الدالة على أنه مبعوث من قبله، وقد اختار ذلك السلطان، فلا مناص لنا منه إلا أن يمن علينا بسلطان غير ما أعطانا، وإذا كنتم مستمرين على معارضتكم، ومقاومتكم، وإعناتكم وإيذائكم، فنحن قد بلغنا وفى سبيل البلاغ لا حامى لنا إلا الله تعالى؛ ولذا قالوا: ﴿ ... عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ... (٨٩) ﴾ [الأعراف]، أى إذا كنتم تعتمدون فى معاندتكم وإعناتكم على قوة لكم تحسبونها، فنحن متوكلون على الله يحمينا من إيذائكم، وقدم الجار والمجرور ﴿ ... عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ... (٨٩) ﴾؛ لبيان أنهم لا يعتمدون إلا عليه، وأنه فوق كل الأقوياء، وأمروا المؤمنين الذين يؤذيهم المشركون ويسخرون منهم بأن يتوكلوا على الله، ويصبروا فإنه لا محالة ينجيهم من إيذائهم وستكون كلمة الله هى العليا، وهو العزيز، ولذا قال تعالى: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾، وقدم الجار والمجرور للدلالة على أنه لا يعتمد إلا عليه سبحانه،

و(الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، والمعنى إذا كنا معشر الرسل قد توكلنا على الله وحده فليتوكل المؤمنون على الله وحده، ويتضمن ذلك طلبين: أحدهما الصبر على أذى المشركين، والثانى: الاعتماد على الله وحده، وأنه سبحانه وتعالى ناصر الرسل ومن اتبعوهم غير خاذلهم ولا ممكن لمشرك منهم.

وبعد ذلك بين سبحانه على لسان رسله المسوغ لتوكلهم عليه وحده فجاء على لسانهم قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢)﴾.

﴿وَمَا لَنَا﴾ الاستفهام هنا لتقرير التوكل وتثبيته، أى ما ساغ لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا، أى سبيل الحياة الصالحة التى جعلتنا نؤمن بأن الحياة الدنيا طريق الآخرة، وأن الحياة الآخرة هى الحياة الحقيقية الباقية، **أما الأولى**: فهى الفانية، وقوله: ﴿وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ جملة حالية تفيد أولا أنهم آمنوا بهداية الله فعرفوا سبيل الحق وسبيل الباطل.

وأما الثانية: أنهم عرفوا بطلان عبادة الأوثان. **وأفاد ثالثا**: أنه لا قوة فى الوجود إلا قوته، وأضيفت السبل إليهم ﴿سُبُلَنَا﴾ للإشارة إلى أن هذه السبل هى التى ينبغى أن تكون مطلبهم وأن تكون غايتهم التى يبتغونها.

وأنهم إذا عرفوا السبيل صراط الله، واتخذوها سبيلا لهم فإنهم المعتمدون على الله الصابرون؛ ولذا قال تعالى عنهم: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾ اللام لام القسم؛ ولذا كانت معها نون التوكيد الثقيلة التى تلازم القسم ﴿عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾، على ما تقدمونه من إيذاء متوالٍ مستمر، فإن على أهل الحق أن يصبروا على أذى المبطلين.

ولقد أكد الرسل والمؤمنون اعتزامهم على الصبر حتى يبلغوا رسالات ربهم.

وإنهم أمام هؤلاء الأقوياء المتعنتين لابد من اعتماد على القوى القادر القهار؛ ولذا قال تعالى عنهم: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾، أى عليه وحده فليتوكل المتوكلون، كان الأمر الأول بالتوكل للمؤمنين فقط، أما هنا فهو يشمل المؤمنين

والرسل، وهو تحديد للتوكل الذى يجب أن يكون حال المؤمن لا يفارقه؛ لأنه التوكل على الله مع اتخاذ الأسباب عبادة.

محاولة الإخراج

بعد أن كلَّت بهم الحجة ضاق صدرهم، فانتقلوا من الجدل الباطل إلى الإخراج من أرضهم.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾

لا يلجأ أحد إلى القوة إلا إذا كَلَّ به الدليل، وأحس بأن ما يسوقه من قول يحسبه حجة انهيار أمام قوة الحق؛ ولأن أتباع الرسل دائما يكونون قلة وأكثرهم ضعفاء يستهين بهم المشركون؛ لأنهم أعز نفرا، وأشد بأسا، وأكثر تعنتا؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا**﴾ انحصر كلامهم فى أن الرسل والمؤمنين يكونون بين أحد أمرين: الإخراج من أرضهم، أو أن يعودوا فى ملتهم فى عبادة الأوثان، وهنا أمران مهمان لابد من الإشارة إليهما .

أولهما: القسم، فمهما هددوا به الرسل، وقد أقسموا ﴿**لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا**﴾ والقسم دُلَّ عليه باللام الموطئة للقسم ونون التوكيد الثقيلة، وهى بالنسبة لهم أوضح؛ لأنهم يملكون أعمالهم وأنفسهم فكيف يكون القسم بالنسبة للرسل، كأنهم يقسمون على الرسل والمعنى أنهم أخذوا قاسمين على أمرين لا بد من تحقق أحدهما، وهو لنخرجنكم أو لتعودون، ونحن نقسم عليكم بذلك.

الثانى: أن التعبير بـ ﴿**لَتَعُودُنَّ**﴾ يوحى إلى أنهم كانوا فى ملتهم، وخرجوا منها وطلبوا أن يعودوا إليها، والرسل لم يكونوا فى ملتهم أبدا، فما كان الرسل ليشركوا بالله ويعبدوا الأوثان، والجواب عن ذلك من وجوه أولها: أن عاد بمعنى صار، وهى كثيرة الاستعمال فى اللسان العربى كذلك، وثانيها: أن ذلك ينطبق على أتباع الرسل، وثالثها أن حال الرسل قبل الرسالة تكون صمتا عن الشرك لا يعتقدونه ولا يقومون بالدعوة ضده، فيحسبهم الجاهلون من أهل الشرك أنهم معهم، فإذا جاءوا بعد البعث يدعونهم حسبوا ذلك جديدا على الرسل كما هو جديد عليهم، فطالبوا بأن يعودوا إلى ما كانوا عليه لا يزعجونهم بدعوة إلى الوحدانية ولا برسالة، ولا ذكر رسول.

وفى هذا الوقت الذى بلغ فيه العند أشده والكفر أطغاه ثبت الله قلوب رسله ﴿**فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ**﴾ أوحى الله إلى رسله قائلا لهم: ﴿**لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ**﴾، أو كان مدلول الوحى ﴿**لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ**﴾: اللام لام القسم، والنون نون التوكيد الثقيلة، وهى توكيد للقسم فضل توكيد، وأظهر سبحانه فى موضع الإضمار، فلم يقل لنهلكنهم، بل ﴿**لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ**﴾، لبيان سبب الهلاك، وهو الظلم، وقد ظلم هؤلاء إذ لم يؤمنوا وأشركوا ﴿... **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** (١٣)﴾ [لقمان]، وظلموا فتعنتوا وطلبوا آيات آخرى وقد جاءتهم البينات، وظلموا بإيذاء المؤمنين وظلموا أشد الظلم فهمُّوا بإخراج الرسول ومن معه، وحاولوا فتنة المؤمنين ليكفروا بعد إيمان، ولم يتركوا بابا من أبواب الظلم إلا دخلوه ﴿... **وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ** (٣١)﴾ [غافر].

وكان من وحى الله تعالى أنه بعد هلاك الظالمين يسكن الله الرسل ومن معهم مكانهم ﴿**وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ**﴾ والأرض هى أرض الدعوة التى هدد المشركون أن يخرجوهم منها، ولكن أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر قبل أن يتمكنوا؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿**وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ**

الأَرْضِ ومَغَارِبَهَا ... (١٣٧) ﴾ [الأعراف]، وكما قال تعالى: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ ... (٢٧) ﴾ [الأحزاب].

وإن ذلك نصر الله تعالى فقد قال عز من قائل: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]، وقال تعالى: ﴿ ... وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) ﴾ [القصص]، وقال تعالى: ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾، ﴿ مَقَامِي ﴾ مصدر ميمى، المقام بمعنى قيام، ومعنى قيام الله، ومعنى الخوف من مقام الله تعالى، أو قيامه على تدبير شئونه - رقابة كل أمور الإنسان بأنه لا يعمل عملا إلا والله تعالى يحاسبه عليه صغيرا أو كبيرا فيعبد الله كأنه يرى الله، فإن لم يكن يراه فإن الله تعالى يراه، وإن هذه مرئية الإحسان فى الشعور بالله تعالى، كما ورد عن الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه ﴿ وَخَافَ وَعِيدِ ﴾، أى خاف وعيد الله بالعذاب الشديد فهو يغلب الخوف على الرجاء؛ لأنه يستصغر حسناته ويستكثر سيئاته، وإنه ورد فى الأثر: «من آذى جاره ورثه الله داره».

المآل هو العذاب والخيبة

قال تعالى:

وَٱسۡتَفۡتَحُواْ
وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ١٥ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ
مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ
وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن
وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ١٧ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ

أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ
مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨)
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠)

﴿اسْتَفْتَحُوا﴾ طلبوا الفتح والنصر، والضمير يعود إلى الرسل، أى أن الرسل بعد أن اطمأنوا إلى وعد الله تعالى لهم بأنه مهلك الظالمين بسبب ظلمهم تقدموا لمنازلة المشركين، واستفتحوا كما كان يستفتح النبى ﷺ فى كل غزوة يغزوها، والفتح هو النصر، أى يطلبون النصر من الله تعالى، ويصح أن يكون طلب الحق بأن يفصل بين الحق والباطل، كما قال الله تعالى: ﴿... رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩)﴾ [الأعراف].

ويقول الزمخشرى: إنه يكون مشتقا من الفتح بمعنى الحكم.

وقوله تعالى: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ بيان لنتيجة المعركة التى استفتح لها الرسل، والواو للعطف على فعل محذوف، تقديره، وفتح الله تعالى للرسل بأن نصرهم أو حكم لهم وخاب كل جبار عنيد، والكلية هنا معناها أن المتكبرين على الحق الجبابرة الذين يعتدون ويلجون فى الباطل، ولا يصغون إلى حق من أى مكان، مآلهم الخيبة، والخسران المبين؛ وذلك لأن الجبار يستعلى فيظلم، ولا نصر لظالم، والعنيد يركب رأسه، فلا ينصت لداع يدعو إلى التأمل وتعرف عواقب الأمور، فلا يرى إلا ما يكون بين يديه من أمور ظاهرة لا يتعرف ما وراءها، ويقول دائما مقالة فرعون: ﴿... مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩)﴾ [غافر].

ولقد قال بعض السلف: إن الضمير فى قوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ يعود إلى الظالمين، أى الظالمين مع ظلمهم وطغيانهم يطلبون النصر، وذلك منهم إمعان فى الضلال الفكرى؛ إذ حسبوا ما عندهم خيرا يجيز لهم أن يستفتحوا من أجله.

وقال بعض السلف: إن الاستفتاح كان من الفريقين فريق الحق وفريق الضلالة، وفتح الله للمؤمنين وخاب الكافرون، وعبر عنهم بكل جبار عنيد للإشارة إلى سبب الخيبة، وهو الاستعلاء بالباطل واللجاجة فيه، ويقول تعالى فيما يستقبل كل جبار عنيد من عذاب أليم:

﴿ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ... ﴾.

الضمير فى ﴿مِّن وَرَائِهِ﴾ يعود إلى كل جبار عنيد، أى أنه فى الدنيا خيبة، وعجز مع استعلاء وتجبر وعناد، وبعد ذلك فى الآخرة ﴿جَهَنَّمُ﴾ يدخلها، ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ﴾ هو صديد من قروح جلود أهل النار، ووراء تجىء بمعنى بعد، كما تقول عذاب وراء عذاب ولوم وراء لوم، كما قال النابغة الذبيانى.

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة　　　وليس وراء الله للمرء مذهب

أى بعد الله، وكما قال الشاعر:

عسى الكرب الذى أمسيت فيه　　　يكون وراءه فرج قريب

كما تقول: جاءوا صفوفا صفا وراء صف.

وقوله تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ الواو عاطفة على فعل محذوف، تقديره من ورائه جهنم يبقى فيها، ويسقى من ماء صديد، وهو الماء الناتج من القروح التى تجىء من حرق جلودهم، وكلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها حتى يذوقوا العذاب، وكأنه يستقبلهم من وراء عنتهم ولجاجتهم عذابان: أحدهما: الإبقاء فى جهنم وهو ذاته عذاب، إذ يكون لهيبها، والعذاب الثانى: أنهم لا يرتوون إلا بماء شربه ذاته عذابه أليم، وهو الصديد، وقد وصف سبحانه وتعالى شربه فقال:

﴿ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧) ﴾.

يطلبون الماء فيجابون، ولكن سقوا ماءً حميما فقطع أمعاءهم، وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه، فإذا استسقوا جاءهم ماء، هو صديد يجتمع فيه قبح ذاته وحرارته، وأنه يقطع الأمعاء، ولكنهم مع ذلك يشربونه لأنهم عدموا الرى، فلا رى سواه ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ أن يحاول شربه بأن يتجرعه جرعة جرعة ولا يطيق أن يشربه شربا مع رغبته فى الماء ﴿وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ يقال: ساغه، أى شربه مستطيبا له مسيغا له، أى مرَّ فى حلقه بسهولة، وكذلك أساغ، أو نقول: أساغه حاول أن يجعله يمر فى الحلق سائغا ولا يكاد يستطيع ذلك، فقد اجتمع فيه ما ذكرنا من قبح الذات والمنظر والحرارة وشأنه ليس بمرىء، وقد وصف الله تعالى حالهم، فقال: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ فالموت يأتيه من فوقه، ومن تحته، ويقول بعض الصالحين ناقلا عن المأثور: إنه لا يبقى عضو من أعضائه إلا وكِّل به نوع من العذاب لو مات سبعين مرة لكان أهون عليه من نوع منها، أى أن أسباب الموت تتضافر عليه فلا يموت، وإنه كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ (١٣)﴾ [الأعلى]، فهى حياة هى الفناء، بل إنه لو كان الفناء لكان خلاصها.

﴿وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ﴾ أما بعد تلك الحياة الشديدة الغليظة التى لا تُفنى، ولا تُبقى، من بعدها عذاب شديد ﴿غَلِيظٌ﴾ يجمع بين صفتين: الشدة والغلظ، فيكون أقسى العذاب؛ لأنهم تمتعوا بالشر والأذى والاستكبار فكان ذلك العذاب جزاءً وفاقا لما قدموا.

وقد بين الله تعالى مع ذلك أن ما يفعلون من نفع فى الدنيا لأنه ينقصه الإيمان، يذهب هباء، فقال عز من قائل:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (١٨)﴾.

المثل: الصفة الغريبة، وغرابتها ليست فى ذاتها فقط، إنما كانت غرابتها لأنها جاءت على خلاف ما يزعمون، إذ يزعمون أولا: أن أوثانهم ستكون شفيعة لهم، وكانوا يفعلون أمورا يحسبونها من مكارم الأخلاق كإكرام الضيفان وإغاثة الملهوف أحيانا، كما فعل بعض كبرائهم فى حلف الفضول، ويحسبون ذلك عملا طيبا، ولو كان مقصده المفاخرة والمباهاة. ثانيا، ويرون أنهم الكبراء الذين لا تُنسى محامدهم ثالثا، لكنهم يرونها يوم القيامة كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف.

﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ** ﴾، أى حال الذين كفروا بربهم، أى جحدوا بربهم الذى خلقهم وأنشأهم وقام على شئونهم وربَّهم وحفظهم، حالهم الغريبة أعمالهم كرماد اشتدت به الريح، وفى قراءة الرياح، وهذه الجملة هى الخبر أو دالة عليه.

وقد شبه الله سبحانه وتعالى أعمالهم بالرماد الذى تأتى عليه ريح عاصفة شديدة الهبوب فتثيره فتكون رمادا يتبدد، يغبر به الجو، ثم لا يبقى منه شىء، إلا الغبار الذى يصيب أعينهم ويفسد جوهم، والريح هو العاصف، ولكن وصف اليوم بأنه العاصف من باب إطلاق الزمن على اسم ما يحل فيه، كيوم ماطر، ويوم صائف، ويوم صائم.

وذلك لاستغراق عصف الرياح لليوم كله، حتى كأنه اليوم الذى اتصف بالعصف وليس غيره.

وقوله تعالى: ﴿ **اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ** ﴾ مشتقة من الشدّ بمعنى العدو، كقولهم شد عليه بمعنى عدا عليه وغلبه، أو مشتقة من الشدة، وهو الأظهر، والباء للتعدى، أى اشتدت فيه الريح وفى قراءة الرياح.

وقوله تعالى: ﴿ **لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ** ﴾ قدم ﴿ **مِمَّا كَسَبُوا** ﴾ على ﴿ **عَلَىٰ شَيْءٍ** ﴾ للاهتمام بما كسبوه فهم كانوا يحسبونه شيئًا من المكارم، والأعمال الصالحة فلا يجدونه شيئًا؛ وذلك لأنه فقد المؤثر النفسى وهو الإيمان، وقصد الخير

لذات الخير للمفاخرة والمباهاة وإثارة العصبية، والمفاخرة، ومعنى ﴿ لاَّ يَقْدِرُونَ ﴾ لا يملكون، يكون فى مقدورهم أن ينتفعوا به؛ لأنه صار منثورا لا يقبض عليه، كما قال تعالى فى آيات أخرى:

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) ﴾ [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧) ﴾ [آل عمران]، وتلك النهاية هى غاية البعد من الحق والضلال البعيد فى الضلالة.

وقد بين سبحانه أن الجزاء الأوفى يكون يوم القيامة، وأنه سبحانه وتعالى قادر على الإعادة، كما قال تعالى: ﴿ ... كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) ﴾ [الأعراف]؛ ولذا قال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) ﴾.

الاستفهام هنا لإنكار الوقوع أى للنفى، وهو داخل على النفى (لم) ونفى النفى إثبات وهو إثبات مؤكد، كأنه استفهم فكان الجواب هو الإثبات، وتأكيد أن الله خلق السموات والأرض، وقوله تعالى: ﴿ بِالْحَقِّ ﴾، أى متلبسا بالحق فى ذاته، وبأنها لم تخلق عبثا، كما قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾ وبأنها ثابتة دائمًا ثبات الحق، فوضع لها نظما، وسننا ونواميس تجعلها مربوطة برباط محكم، فأقام السماء بغير عمد ترونها وزينها بزينة الكواكب.

وكما قال تعالى: ﴿ ... رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) ﴾ [آل عمران]، وكما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) ﴾ [ص]، ما خلق الله ذلك إلا بالحق.

وقوله تعالى: ﴿إن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ويَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أن هذا الذى أنشأ السموات والأرض ولم يعىَ بخلقهن قادر على أن يذهبهم وأن يفنيهم، فالإفناء أسهل من الإنشاء ﴿ويَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وإن الإتيان بجديد مثلهن القدرة عليه ثابتة بالمقايسة، فمن قدر على الإنشاء قادر على الإنشاء الثانى ﴿وما ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠)﴾، أن ليس ذلك الإنشاء الثانى بعزيز، أى متعذر أو متعسر عليه سبحانه، فهو سبحانه وتعالى قادر بذاته، لا يختص بابتداء ولا إنشاء من جديد، فالقدرة ثابتة، ومتى يثبت لا يعز شىء عليه ولا صعب.

وفى هذا الكلام بيان أن الله سبحانه وتعالى قادر على الإعادة؛ لأنه قادر على الإنشاء من جديد، كما قال سبحانه: ﴿إن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ويَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

وكما قال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يروْا أَنَّ اللَّهَ الَّذي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ولَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣)﴾ [الأحقاف].

وكما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨١)﴾ [يس].

وإن الآية تفيد بإشارتها ترهيب المشركين بأنهم لا يعجزون الله، فإنه يستطيع إهلاكهم، وخلق غيرهم.

وإنهم فى قبضة الله فى الدنيا، وجزاؤهم عنده فى الآخرة، وهو يتولى الجزاء بالإحسان لمن أحسن وبالعذاب لمن عصى.

ما بين التابع والمتبوع والشيطان

قال الله تعالى:

وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ

﴿مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

هاتان الآيتان تصوران المجاوبة التى تكون بين العصاة وأولهم الشيطان الذى أقسم ليغوين الناس إلا عباد الله المخلصين، والطبقة التى استغواها ابتداء المتبوعون من ذوى الاستكبار والاستعلاء على الناس بالجاه الدنيوى والمال والعزة، وهؤلاء يؤثرون فى غيرهم فتكون الطبقة التابعة والإمَعات[1] الطائعة.

صور الله سبحانه أقوال التابعين للمتبوعين وابتداء من الدنيا فى العصيان إلى من أخذوهم إلى الضلال، فقال تعالى: ﴿**وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا**﴾، أى ظهروا أمام الله جميعا وقد عصوه، إذ أشركوا به أندادا لا تنفع ولا تضر، وذلك بعد أن بعثهم الله تعالى، وأنشرهم من قبورهم وجمعهم يوم الحشر فكانوا أمام الله، وقد كذبوا بلقائه، وقالوا: ﴿... **أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ** ... ﴿٥﴾﴾ [الرعد]، والتعبير بـ﴿**بَرَزُوا**﴾ فيه تذكير بالعيان لبطلان أقوالهم فى الدنيا، وجميعا: إشارة إلى أنه قد جمع التابع والمتبوع والأبيض والأسود، والعربى والأعجمى، وكانوا بين يدى الله وحده، وكانت المجاوبة الآتية: ﴿**فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا**﴾ الضعفاء: جمع ضعيف، والضعيف يشمل ثلاثة أنواع ممن يتصفون بالضعف:

(١) جمع إمعة: وهو من يقلد غيره فى قوله أو فعله.

أولهم: الأرقاء والفقراء والأرذلون فى معيشتهم فى الدنيا، الذين لا يملكون من أمرهم شيئًا وفيهم ذلة لم يزيلوها بالإيمان.

وثانيهم: الضعفاء فى تفكيرهم الذين يرضون بأدنى فكرة ويتبعون غيرهم اتباعا من غير دليل، بل فى استكانة، وإن كانوا أقوياء فى مالهم فهم ضعفاء فى نفوسهم.

وثالثهم: الذين يتبعون القوة دون دليل.

يقولون للذين استكبروا من الكبراء ذوى الوجاهة والقيادة فى الضلال: ﴿**إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا**﴾، وتبع جمع تابع، أو مصدر نعت به، ويكون معنى التعبير هو الإيغال فى التبعية كأنهم لا وجود لهم ﴿**فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ**﴾ الفاء تدل على أن ما بعدها سبب لما قبلها، أى بسبب هذه التبعية هل أنتم مغنون عنا عذابا من عذاب الله من شىء ﴿**مِنْ**﴾ الأولى للتبعيض، ومن الثانية للاستغراق، والاستفهام إنكارى لإنكار الوقوع، أى لستم مغنون عنا بأى قدر من عذاب.

أجاب الذين استكبروا عن الحق، فقد أجابوا عن هذا الاستفهام الإنكارى، الذى لا يخلو من معنى التوبيخ والملامة حيث لا لوم قائلين: ﴿**لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ**﴾، والمعنى أننا على سواء، لو هدانا الله إلى الحق لهديناكم إليه ولكنا ضللنا فضللتم، وإنكم إذ كنتم تبعا لنا فارتضوا بما وقع لنا، ولا يخلو هذا الكلام من إلقاء اللوم عليهم فى التبعية من غير تفكير وتبرير، وكأنهم يشيرون إليهم إلى أنهم كان عليهم أن يتبعوا عن بينة.

ثم يقولون لهم: إننا وقد وقعنا فى الضلال علينا أن نذوق مغبتها طائعين؛ لأننا مجبرون، وفى آية أخرى صرح الكبراء فقالوا: ﴿... **فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ** (٣٩)﴾ [الأعراف].

وفى هذه الآية يقولون: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ سواء معناها يستوى علينا جزعنا أم صبرنا، فالجزع لا يحول الشر عنا، والصبر لا يمنع الأذى. وقد فسروا هذه التسوية بقولهم: ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾، أى منجاة من العذاب، أو مهرب منه أو مُتَحول من هذه الحال إلى غيرها، ومحيص: من حاص حيصا، وهو التحول، أى مالنا من تحول، ومحيص هنا إما أن يخرج القول على أن محيص اسم مكان، ومكانهم جهنم، أى ما لنا تحول عن هذا المكان، أو مصدر ميمى، أى ما لنا تحول عما نحن فيه، فالأمر لله.

تلك هى المجاوبة التى بين التابع والمتبوع، والشيطان مصدر ضلالهم وإغوائهم وهو كالمتفرج عليهم ولكنه غير ناج: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ﴾ أى أحكم وفصل فيه، ولم يكن لحكم الله مرد ولا نقص، ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾، أى وعد هو الحق، فالإضافة بيانية، أى الأمر الصحيح الثابت الصادر من مالكه، وهو الذى يجازى عليه بالثواب وعلى مخالفته بالعقاب، والفعل فى ذاته نفع لا ضرر فيه، وخير لا شر فيه، وكان عليكم أن تطيعوه، ولا تخرجوا عليه.

﴿وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ ولم يذكر وصف وعده؛ لأنه مفهوم من وصف الأول بأنه الحق ومقابله باطل، فماذا بعد الحق إلا الضلال، وترك لأنه مفهوم من السياق، ولكى تذهب مذاهب فيما يعد به الشيطان إنه لا يعد إلا بما يكون من ورائه الفساد والبوار، والعبث والشر، فهو ليس باطلا فقط بل أكثر من باطل إمعانا فى الشر، وقوله: ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾، أى منيتكم الأمانى الباطلة، وأودعت نفوسكم الأوهام، وزينت لكم السوء لتحسبوه أنه حق، وإسناد الإخلاف إليه ـ لعنه الله تعالى ـ مع أن الإخلاف من الله تعالى، وبيان كذب ما وعد وألقى به فى أمنية الناس؛ لبيان أنه وهو يعد يعلم أنه باطل وأنه إغواء، فكأنه هو الذى أخلف لأنه يعلم أنه كذب لا حقيقة بل هو وهم وضلال.

بعد ذلك اتجه الشيطان لتبكيتهم لأنهم أطاعوه، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾، أى أجبتم دعوتى الخالية من أى تسلط أو دليل طالبين ذلك مجيبين له، فما كانت تبعة طاعتكم لى علىَّ، إنما كانت عليكم؛ ولذا قال: ﴿فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ لقد كان أمامكم أمر الله، وهو الخالق المنشئ، ودعاكم إلى الحق، ومعه الأدلة الثابتة وأمامكم دعوتى الخالية من البرهان والدليل، وليس لى عليكم قوة مهيمنة إلى وسوسة خفية فأطعتمونى وعصيتم ربكم.

وهذا شأن أتباع إبليس دائما يقعون فى الشر ثم يلومون من أوقعوهم لأنهم أطاعوهم، وإن الشيطان له عذاب، وهو يصرخ بأنه فيه، وإنه لا يستغيث؛ لأن أحدا لا يغيثه ولا يستطيع أن يغيث أحدا؛ ولذا جاء على لسانه قوله: ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ المصرخ هو المجيب للمستصرخ المغيث له، والصارخ هو المستغيث والمعنى بمستطيع إغاثتكم وما أنتم بمستطيعين إغاثتى، فالعذاب نازل بنا، وعلى كل أن يتحمل مغبة ما عمل وما اعتقد وما وسوس به من شر.

وقد أعلن ضلاله وضلالهم بقوله: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ﴾، (ما) هنا مصدرية أو موصولة ولا يختلف المعنى فى التقديرين، والمعنى: إنى كفرت بالذى أشركتمونى فى عبادتكم من قبل، أى كفرت الآن بشرككم فى الدنيا، وآمنت بالله تعالى وحده لا أشرك به شيئًا، وقال: أشركتمونى مع أنهم ظاهرا ما كانوا يشركون الشيطان بل كانوا يشركون أوثانا. فلِمَ نسب إليه أنهم كانوا يشركونه؟ والجواب عن ذلك أن عبادتهم الأوثان كانت بوسوسته هو وتسويلهم، والأصنام لا حقيقة لها، فكأنهم كانوا يشركونه بالله سبحانه وتعالى، وقوله تعالى: ﴿كَفَرْتُ﴾ تفيد أنه يكفر الآن، مع أنه وهو الذى يزين عبادة الأوثان يعلم أن الله وحده هو المستحق للعبادة، ولا معبود سواه، وأن عمله إغواء وإضلال، فهو غير مؤمن بها من قبل، والجواب عن ذلك: أنه الآن يعلن كفره بها.

ويقول الله تعالى واصفا العصاة بالظلم: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تحتمل هذه الجملة السامية أن تكون تتميما لكلام إبليس، وتحتمل أن تكون من الله لبيان استحقاق العصاة جميعا للعذاب، وأرى أن الاحتمال الثانى هو الحق، فهو بيان لتسجيل العذاب المؤلم فى ذاته عليهم بسبب ظلمهم تابعين ومتبوعين ومغويهم معهم، فهم ظلموا الناس، وأفسدوا فى الأرض فحقت عليهم كلمة العذاب.

أهل الجنة

قال الله تعالى:

وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ
فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً
كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾
تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ
كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ
﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ
ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾

بعد أن صور الله تعالى حال العصاة، وشيخهم إبليس ليعلم المؤمنون مآل العصيان فيجتنبوا أسبابه فى الدنيا، بين سبحانه ما ينتظر المؤمنين تشجيعا لهم ليستمروا فى طريقهم وهو طريق الحق، فقال سبحانه: ﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾.

﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ البناء للمجهول، ومن الذى أدخلهم، أى ما الفاعل الذى لم يذكر وبنى للمجهول، قالوا: إن الفاعل هم الملائكة، وإن ذلك سائغ مستقيم، ويصح أن تقول: إن الله سبحانه هو الذى أدخلهم، ولكن لم يذكر لفظ الجلالة للإشارة إلى أن ذلك جزاء عملهم، فالبناء للمجهول يؤدى إلى هذا المعنى وهو ترتيب الإدخال فى الجنة على أعمالهم، وقوله تعالى: ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾، أى برضاه وأمره، وما رتبه من أن لكل نفس ما كسبت، وقد ذكر سبب دخول الجنة فى صلة الموصول: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ فسبب دخول الجنة أمران: الإيمان وهو بالحق وتصديقه والإذعان به، والعمل الصالح، وقال تعالى:

﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾، أى الأفعال الصالحة من أداء الفرائض، والصح وصف عام لكل عمل هو نافع لذاته، وقصد به وجه المنفعة للناس، فالصاحات تشمل كل الفرائض الشرعية والعمل الطيب والقول الطيب.

ولا نتعرض لكون العمل جزءا من الإيمان أولا، إنما نقول: إن ما تنطق به الآية ومثيلاتها أن العمل جزء من استحقاق الثواب الذى أعد للمؤمنين.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى الجنة بأنها النعيم المقيم، فالأنهار تجرى من تحتها، أى أن الأنهار تجرى من تحت الأشجار، فتجرى فيها متخللة أشجارها فيكون المنظر بهيجا، وتكون متعة النفس بالظلال، ومنظر الماء يجرى، والخضرة التى تسر النفس، وتمتع القلب.

ويكون مع ذلك الأنس الروحى بالائتلاف والأمة والسلام؛ ولذا قال تعالى: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ ﴾ يتبادلون التحية، وليس تلاوما أو تأثيمًا، كما يجرى بين أهل النار بين التابع والمتبوع والشيطان من ورائهم.

وإن الفرق بين الإيمان والكفر أمران: أولهما الإيمان، وثانيهما كلمة الحق، وإن كلمة الحق تهدى إلى البر والإيمان؛ ولذا مثَّل الله تعالى كلمة الحق، وكلمة الكفر بمثلين، فقال تعالت كلماته:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾.

الاستفهام لإنكار الوقوع بمعنى النفى، وقد دخل على (لم) وهى للنفى، ونفى النفى إثبات، والمعنى، لقد ترى كيف ضرب الله مثلا. . . . والإثبات على هذا النحو يدل على تأكيد الإثبات والتنبيه وتوجيه النظر إليه.

والعلم متجه إلى الحال والكيف، قال: ﴿ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً... ﴾ أى لقد ترى الحال فى ضرب الله المثل، ضَرَب بمعنى بيّن، والمعنى: كيف بين مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء.

﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ فى الأرض بجذورها الممتدة فى عروق الأرض، ثابتة بثبات هذه الجذور، ﴿ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾، أى غصونها ممتدة فى السماء، وكلما علت الشجرة فى السماء وامتدت فروعها فيها كثرت ثمراتها، وتدلت مع فروعها، والمراد من الفرع الفروع كما فى بعض القراءات، أى فروعها فى السماء.

ثم وصف سبحانه طيب هذه الشجرة فوق ما وصف بأن ثمراتها دائمة لا تنقطع، فقال تعالى: ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾، أى تؤتى ثمراتها فى كل حين، وإيناعها بإذن ربها.

والشجرة هى المشبه به، وقد وصفها سبحانه بأنها طيبة، وطيبها فى أنها ثابتة الأصل، وبأنها مرتفعة، وبأنها تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها.

هذا هو المشبه به، فأما المشبه: هى الكلمة الطيبة، والكلمة الطيبة فيها عناصر الطيبة التى ذكرت فى الشجرة، فهى كلمة النفس والقلب والعقل، تنبع من القلب والعقل فقال بإخلاص لله تعالى، وهو الحق، وإنها إذ تقال تعلو بصاحبها

عن سفساف الأمور، وتتجه به إلى معاليها، فهى ترفع صاحبها ولا تهوى، وهى هادية مرشدة ممتدة النفع تؤتى ثمراتها كل حين، والكلمة الطيبة تبقى ببقاء الأنفس المتبصرة المدركة، فالكلمة حياة تحيى النفوس والأفئدة.

وما الكلمة التى تتحقق فيها هذه المعانى؟ قيل: إنها كلمة التوحيد، وقيل: إنها الإيمان، والحق أنها الكلمة التى تكون صادقة فى ذاتها ومنبعثة من النفس لإرضاء الله تعالى، والذود عن محارمه وتتحقق فيها النية الطيبة، والقول الطيب، كما قال تعالى: ﴿ **وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ** (٢٤) ﴾ [الحج]، وروى من حديث أنس أن النبى ﷺ قال: «**إن مثل الإيمان كمثل شجرة ثابتة، الإيمان فروعها، والصلاة أصلها، والزكاة فروعها، والصيام أغصانها، والتأذى فى الله نباتها، وحسن الخلق ورقها، والكف عن محارم الله ثمرتها**».

ولقد قال تعالى: ﴿ **وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** ﴾، أى الأمور المتشابهة بين بعضها البعض، فيبين المعنوى بالحسى حتى يصير كأنه محسوس مرئى، ويبين الله سبحانه وتعالى ذلك البيان ليرجوهم أن يتذكروا ويعتبروا، فالرجاء ليس من الله تعالى الذى يعلم كل شىء ولا يغيب عن علمه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

هذا مثل الكلمة الطيبة وهى كلمة الحق الجامعة لكل معانى الخير والطيب، والكمال والجمال، أما الكلمة الخبيثة فقد قال تعالى فى مثلها:

﴿ **وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ** (٢٦) ﴾

الكلمة الخبيثة هى الكلمة التى تنبعث من خبث النفس، وضلال الفكر، وتكون فى باعثها أثمة، وفى غايتها أثمة فهى على نقيض الكلمة الطيبة؛ لأنها لا تنبعث من إخلاص لله ولرسوله، ولا تكون طيبة فى واقعها، ولا فى نتائجها، وما يترتب عليها، وأوضحها الكذب، وقد قال النبى ﷺ: «**عليكم بالصدق فإنه يهدى إلى البر والبر يهدى إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق حتى يكتب عند الله صديقا،**

وإياكم والكذب فإنه يهدى إلى الفجور، والفجور يهدى إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب حتى يكتب عند الله كذابا»[(١)].

والكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة التى لا فائدة منها ﴿**اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ**﴾، أى أنها ليس لها جذوع ممتدة فى باطن الأرض، بل هى على سطحها، ومعنى ﴿**اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ**﴾ أى ظهرت جثتها من فوق الأرض فليس لها جذور تمتد فيها كبعض أنواع النباتات التى ليس لها جذور تغوص فى عروق الأرض، ﴿**مَا لَهَا مِن قَرَارٍ**﴾، أى استقرار وثبات فى باطن الأرض، والمؤدى من هذا التشبيه أن الكلمة الخبيثة لا تعيش فى الوجود، وليس لها بقاء فيه، بل إنها تنتهى بانتهاء زمانها وتنزل من الأضرار بمقدار وقتها، كالسعاية والنميمة والكذب والخديعة والغيبة، وليس لها وجود إلا بمقدار زمانها وقد تضر، لكن عاقبتها وخيمة، وطعامها وبىء، ولا تبقى إلا الكلمة الطيبة، وما يكون لله وللحق وحده.

وعن قتادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قيل لبعض العلماء ما تقول فى كلمة خبيثة؟ فقال: «ما أعلم لها فى الأرض مستقرا ولا فى السماء مصعدا إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافى بها ربه يوم القيامة»، اللهم جنبنا خبث القول، واجعلنا من الذين قلت فيهم: ﴿**وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ** (٢٤)﴾ [الحج].

﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ** (٢٧)﴾.

يثبت الله الذين آمنوا بأن يلقى فى روعهم الاطمئنان إلى الحق والجزم به والنطق بمقتضاه، والثبات عليه لا يحيد عن النطق بالحق والعمل به، والرضا بنتائجه؛ ولذا قال سبحانه: ﴿**بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ**﴾، ولقد قرر العلماء أن صاحب النفس المطمئنة الراضية بحكم الله المنفذة لتكليفه يلقى الله فيها بالإخلاص، والإخلاص لله يجعل النفس تشرق بنور الله، فتدرك فتؤمن فتقول الحق وتعمل

(١) سبق تخريجه.

به، ويكون من بعد ذلك السلوك الاجتماعى المستقيم بأمر الله ونهيه، فمعنى ﴿بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ القول الذى يقوم على دعائم الحق، ولا يتزلزل لباطل، ويصح أن نقول: إن الثبات صفة لصاحب القول، وأضيفت إلى القول؛ لأنه لا يثبت القول إلا بثبات صاحبه الذى لا تزلزله عوابث الهوى ولا أوهام الشيطان، وما أحكم ما قاله الزمخشرى إذ يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «القول الثابت هو الذى يثبت بالحجة، والبرهان فى قلب صاحبه، وتكمن فيه فاعتقده، واطمأنت إليه نفسه، وتثبيتهم به فى الدنيا أنهم إذا فتنوا فى دينهم لن يزلوا، كما ثبت الذين فتنهم أصحاب الأخدود والذين نشروا بالمناشير ومشطت لحومهم، وتثبيتهم فى الآخرة أنهم إذا سئلوا عند تواقف الأشهاد عن معتقداتهم ودينهم لم يتلعثموا ولم يبهتوا ولم تحيرهم أهوال الحشر».

هذا كلام صدق، وإن القول الثابت كما يشمل الصبر فى العقيدة يدخل فى عمومه الثبات على الحق فى نصيحة الحاكم، والامتناع عن قول الباطل مداهنة له، ويقول للحاكم الظالم: اتق الله، ويكررها كلما اقتضت الحال قولها فى غير مواربة، إلا إذا كانت الحكمة أن يداور لأجل إيصال الحق إلى قلب الحاكم، وتسويغه فى نفسه، فللقول سياسة، وللعلم سياسة، ومنها تسويغ الحق ليهضم معناه، وخصوصا فى أزمان الفساد كالزمن الذى نعيش فيه، ولعل الإمام الزمخشرى عاش فى مثله، وما ضيع المسلمين إلا سكوتهم عن القول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة. وقوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ معنى إضلال الظالمين أنهم إذا ساروا فى طريق الضلالة أوغلوا فيه ولا يردهم سبحانه وتعالى عنه بل يزكيهم سبحانه يسيرون فيه إلى نهايته، ووصفهم بالظالمين فيه إشارة إلى أنهم يبدءون بالسير فى طريق الظلم الذى يشمل الظلم فى الاعتقاد بالإشراك، والظلم للنفس بارتضاء طريق الشر، والظلم للناس فى معاملاتهم، وفتنة الناس فى دينهم وإيذائهم فى اعتقادهم.

﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾؛ لأنه المختار المريد، لا يسأل عن يفعل وهم يسألون.

ويلاحظ أن لفظ الجلالة ذكر مرتين في جملتين متعاقبتين، ولم يكتف بالإضمار بل أظهر في موضعه، فقال سبحانه: ﴿ **وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ** ﴾ وذلك لتربية المهابة أولا، ولبيان كمال سلطانه ثانيا، وتأكيد إرادته المختارة ومشيئته الحكيمة ثالثا، والله ولى الإنعام.

جزاء كفر النعمة وجزاء مكرها

قال تعالى:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا
وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ
الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ
تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ
آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ
بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ
فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ
الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾
وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ
لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

التبديل معناه التحويل، أو جعل شيء بدل شيء، ومعنى تبديل نعمة الله كفرا في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ أنهم جعلوا بدل النعمة التي تستوجب الشكر كفرا، فالذين أُعطوا نعمة بدل أن ينتفعوا بها في وضعها موضعها من الشكر عليها كفروا بها، وكثيرون من ذوى النعم الذى أنعم الله عليهم بالثراء استعلوا به فجعلوه كفرا، ومن أنعم الله تعالى عليه بجاه في الدنيا بدلوه كفرا، فاستغلظوا واستعلوا، وجعلوا جاههم غطرسة وكبرا، وبطروا معيشتهم.

وكذلك أهل مكة في الجاهلية أكرمهم الله تعالى بمقامهم حول البيت الحرام، وتلك نعمة أنعم الله بها عليهم، فبدل أن يقوموا على سدانته وطهارته وضعوا عليه الأوثان، فاستبدلوا بالنعمة كفرا، وكذلك أنعم الله عليهم وعلى البشرية ببعث محمد ﷺ، فبدلوا كفرا وعاندوه وآذوه وأصحابه، وأنعم الله تعالى عليهم برحلتى الصيف والشتاء، وأن تكون مكة وسط البلاد العربية تغدو منها المتاجر وتروح إليها بين اليمن والشام فبدلوها كفرا، واتخذوها ربا الجاهلية، وأكلوا السحت، وكذلك اليهود بدلوا نعمة الله إلى كفر، أعطاهم الله تعالى علم الكتاب فغيروا وبدلوا واستطالوا على الناس، وقالوا نحن أبناء الله وأحباؤه، وظلموا الناس وأكلوا أموالهم سحتا ورشوة، وقالوا: ﴿... لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ... (٧٥)﴾ [آل عمران]، وهكذا.

ولذا نقول: إن الآية عامة تشمل كل من أنعم الله عليه بنعمة، فبدل أن يضعها في موضعها يتخذها أداة للطغيان والضلال، فتكون كفرا، وأنهم بسبب ذلك الطغيان الذى يستخدمون النعمة طريقا له ويكفرون ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾، أى الهلاك، أى ينزلون قومهم من عزة الإنسانية إلى الذل فيكون ذلك طريقا لانحدارهم إلى الهلاك، وأصحاب النعم التى يكفرونها هم الذين يفسدون أقوامهم، ويأخذونهم إلى حيث الفناء، وفناء الأمم والأقوام بشيوع الكفر والجحود فيها.

وقد قال الزمخشرى: «إن تبديل النعمة كفرا، معناه تبديل شكر النعمة كفرا، وقد ذكر وجوها كثيرة فقال: ﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾، أى شكر نعمة الله ﴿كُفْرًا﴾؛ لأن شكرها الذى وجب عليهم وضعوا مكانه كفرا فكأنهم غيروا الشكر إلى الكفر، وبدلوه تبديلا ونحوه ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢)﴾ [الواقعة]، أى شكر رزقكم؛ حيث وضعتم الكذب موضعه، ووجه آخر، وهو أنهم بدلوا نفس النعمة كفرا على أنهم لما كفروها سُلبوها، فبقوا مسلوبى النعمة، موصوفين بالكفر حاصلا لهم بدل النعمة، وهم أهل مكة أسكنهم الله تعالى حرمه، وجعلهم كرام بنبيه فأكرمهم بمحمد ﷺ، فكفروا نعمة الله بدل ما لزمهم من الشكر العظيم، أو أصابهم الله بالنعمة فى الرخاء والسعة لإيلافهم الرحلتين، فكفروا نعمته، فضربهم بالقحط سبع سنين، فحصل لهم الكفر بدل النعمة كذلك حين أُسروا وقُتلوا يوم بدر، وقد ذهبت عنهم النعمة، وبقى الكفر طوقا فى أعناقهم، وعن عمر رضي الله عنه هم الأفجران من قريش، بنو المغيره، وبنو أمية، فأما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر، وأما بنو أمية، فمتعوا حتى حين». هذه وجوه ذكرها إمام البيان الزمخشرى، ونحن لا نقيد عموم القرآن ببلد أو جماعة إلا أن يكون لفظ الكريم، يوحى بالتخصيص بدل التعميم، واللفظ هنا فيه بيان لأحوال النفوس الإنسانية عندما تحيد عن أمر ربها، وخلاصة الوجوه بعد إخلائها من التخصيص بقوم أو قبيل أنها تتجه إلى أن التبديل فى الشكر، فيكون الكلام على حذف مضاف، بدلوا شكر النعمة كفرا، أو يكون التبديل فى ذات النعمة فلم ينتفعوا بها الانتفاع الطيب وبدلوا كفرا.

وبذلك سرى الفساد إلى أقوامهم فأحلوهم دار الهلاك فى الدنيا بالذل والهوان وفى الآخرة بجهنم؛ ولذا قال تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩)﴾.

جهنم عطف بيان لدار الهلاك، وأن هلاك أشد من النيران يصطلون بها، يحيط بهم حرها الشديد ويكونون وقودا لها، وإنها تكن أسوأ نهاية؛ ولذا ذمها الله

فقال تعالت كلماته: ﴿وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾، أى بئس المقر الدائم، فالقرار مصدر أريد به المكان، فالذم للمكان، أو الذم لـذات القرار فى جهنم، وهو الحال التى انتـهوا إليها.

وقد ذكر الله تعـالى أشد الكفر الذى بدلوا به نعمـة الله تعالى، وهو اتخاذ الأنداد شركاء له فى العبادة فقال تعالى:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠)﴾.

الواو عاطفة على ﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾، فقد بدلوا وأحـلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وجعلوا لله أندادا، وجـعل الله سبحانه وتعالى الأصل، وهو تبديل نعمه التى أنعم الله بها نعمة تجزى، فجعلوها كفرا هو الأصل لكل مآثمهم، ونتيـجة عـقوبتـه؛ وذلك لأن الانغمـاس فى الأهواء والاستطالة بـها سبب الـشر ونسيان الله تعـالى، ومن نسى الله تعالى كان منه الانحراف الفكرى والاعـتقادى، والانغماس فى الشهوات.

﴿وَجَعَلُوا﴾ معناها اتخذوا ﴿لِلَّهِ أَندَادًا﴾، وأنداد جمع ند، وهو المماثل، وهذه الأوثان بالبداهة لـيست أندادا مماثلة لله جل جلاله، ولكنـهم اتخذوها أندادا بأوهامهم وأهوائهم وفـساد تفكيـرهم؛ إذ كيف تكون الأحجـار التى لا تسمع ولا تبصر، ولا تضر ولا تنفع أندادا لله، ولكنهم جعلوها كذلك.

وقوله تعالى: ﴿لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾ فيها قراءتان: إحداهما بضم الياء والثانية بفتحها، والأولى قراءة كثرة القراء، والثانية قراءة من دونهم عددا وهما متواترتان، ونحن نعدهما كلتـيهما قرآنا لا ريب فيـه، ويكون المعنيان صحيحين مـا داما غير متعارضين، ولا يمكن أن يكون ذلك فى قراءتين متواترتين.

فالمعنى ليضلوا عن سـبيل الله تعالى بذلك الجهل الذى جعلوا فـيه الأحجار أندادا لله تعالـى، فإنه ذاته هلاك، وعاقـبتـه ضلال، إذ العـاقبة دائمـا من جنس مؤثراتها والنتيجة دائما من جنس مقدماتها.

وهم إذا ضلوا بهـا يعملون على إضـلال غـيرهم بالفـتنة فى الدين، وإيذاء المؤمنين وسب دعاة الحق، والسخرية منهم.

وقد يقـول قائلهم: إنهم اتخذوها بغـير الضلال، ونقـول: إن النتيجـة كان الضلال أو الإضلال، ولذلك قـالوا: إن اللام لام العاقبة لتكون النتيـجة ضلالهم بها؛ وإضلال غيرهم لتقديسـها؛ وذلك أنهم صنعوا حجارة على أشكال آدمية، ثم توهموا فيها قوى خفية، ثم عبدوها ضلالا بها.

وقد أمر الله تعالى نبيه الأمين بأن يقول: ﴿**تَمَتَّعُوا**﴾ إن الذى أغراهم بعبادة الأحجار واتخاذها أندادا لله هو ضلال عقـولهم وانغماسهم فى الأهواء والشهوات مما جعلهم لا يفكرون فى حقائق الأمور ويستمتعون بأهوائهم، فأمر الله تعالى نبيه بأن يقول: ﴿**تَمَتَّعُوا**﴾، أى استـمروا فى تمتـعكم وأهوائكم ومفاسـدكم الفكرية والتفـسيرية، وليس هذا أمر للطلـب بل للتهديد، أى استـمروا فإن مصـيركم إلى النار، فالعبرة بالنتيجة لا بصـيغة الأمر كما فى قوله ﷺ: «**إذا لم تستح فاصنع ما شئت**»(١)، والنتيجـة الاندحار فى مفاسد الأخـلاق والأهواء إلى أراذل الأعمال، وقال الزمخشرى: «إن الأمر هنا إيذان بأنهم لانغماسهم فى التمتع بالحاضر، وأنهم لا يعرفون غيره، ولا يريدونه مأمورين قد أمرهم آمر مطاع لا يسعهم أن يخالفوه، ولا يملكون أمرا دونه، وهو أمـر الشهوة، والمعنى: إن دمـتم على الامتثـال لأمر الشهوة فإن مصيركم إلى النار»(٢).

أى أن الأمر ليس من الله والنبـى ﷺ، إنما الأمر من آمر هو الانسـياق وراء الأهواء والشهوات، فكأنه آمر أُمروه، واتبعوه، وكان مآلهم إلى النار.

هذا شأن الذين بدلوا نعمة الله كفرا واتخذوا الأنداد، أما شأن الذين أدركوا النعـمة وشكروها ولم يكفـروها فإنهـم لا يضلون فى ذات أنفسـهم، ولا يضلون غيرهم بل يكون منهم الخير والطهارة لأنفسهم ولجماعتهم؛ ولذا قال عز من قائل:

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الكشاف: ج٢/ ٣٧٧.

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ (٣١) ﴾.

الأمر للنبى ﷺ فى مقابل الأمر للكافرين بأن يتمتعوا بالعاجلة، فالآجلة مصيرهم فيها إلى النار، والأمر للمؤمنين هو أمر بثمرات إيمانهم، وعبر عن المؤمنين بـ (عبادى) للإشارة إلى أنهم قاموا بحق العبودية، فلم يشركوا مع الله أحدا، وأخلصوا الذات، وأعطوا ما هو حق على العبد أن يؤديه.

﴿ يُقِيمُوا الصَّلاةَ ﴾، أى (أنْ) هنا محذوفة وهى تفسيرية تفسر مضمون القول، قل لهم أن يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقنهم سرا وعلانية.

أو نقول: «إن قوله تعالى: ﴿ يُقِيمُوا ﴾ خبرية على أنها جواب الأمر، أى قل لهم تكليفات الله ليقيموا الصلاة، ويرى الزمخشرى أن تكون ﴿ يُقِيمُوا ﴾ بمعنى ليقيموا الصلاة، والمعنى على ذلك قل لهم مبينا أحكام الشريعة وهديها، وخص الصلاة والزكاة أى الإنفاق؛ لأن الصلاة للتهذيب وإقامتها استشعار للربوبية، وهى عمود الدين، ولا دين من غير صلاة، والزكاة - أو الإنفاق - فيها التعاون؛ ولذا تسمى «الماعون»، كما قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧) ﴾ [الماعون].

الإنفاق فى السر سترا للمتجملين من الفقراء حسن فى ذاته، والإنفاق علانية للاقتداء ونشر التعاون، وكل فى موضعه حسن.

﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ ﴾ ليتدارك التقصير بتعويض يقدمه أو فدية يفتدى بها نفسه، ولا مخالَّة وصداقة ينقذ بها الصديق صديقه، والرفيق رفيقه، وقد قال تعالى فى هذا المعنى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨) ﴾ [البقرة].

والسرية تحسن فى حالة التطوع، وإيثار ذوى القربى والجيران ستراً عليهم، والإعلان يكون فى الواجب، وهنا يرد سؤال، إن الزكاة لم تجب إلا فى المدينة،

والسورة مكية، كما هو معلوم، فكيف يجب الإنفاق؟ ونقول: إن وجوب الإعطاء هو من قبيل معاونة المؤمنين من الضعفاء والأرقاء على الصبر على الأذى يؤذيهم به المشركون لإخراجهم من دينهم، وإنه دعى إلى الزكاة فى سورة مكية، منها قوله تعالى فى سورة الروم: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩)﴾ [الروم].

وقبل أن ننتقل هذه الآية الكريمة إلى ما بعدها نذكر كلاما قيما ذكره الزمخشرى فى حكمة اقتران قوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ﴾، قال أثابه الله تعالى: «فإن قلت كيف طابق الأمر بالإنفاق وصف اليوم بأنه لا بيع فيه ولا خلال؟ قلت: من قِبَل أن الناس يخرجون أموالهم فى عقود المعاوضات، فيعطون بدلا ليأخذوا مثله وفى المكارمات ومهاداة الأصدقاء ليستجروا بهداياهم أمثالها أو خيرا منها، وأما الإنفاق لوجه الله خالصا كقوله: ﴿وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ (٢٠)﴾ [الليل]، فلا يفعله إلا المؤمنون الخلّص فينفقوا منه ليأخذوا بدله فى يوم لا بيع فيه ولا خلال، أى لا انتفاع فيه بمبايعة ولا مخالة، ولا بما ينفقون فيه أموالهم من المعاوضات والمكارمات، وإنما ينتفع فيه بالإنفاق لوجه الله تعالى»(١).

وإن هذه إشارة بيانية قويمة تشير إلى أن الإنفاق سرا وعلانية المطلوب هو لوجه الله تعالى، لا للكسب بمعاوضة ولا للكسب بإرضاء صديق أو رجاء فى شدة.

وفى قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ...﴾ إشارة إلى أن الإنفاق لوجه الله تعالى هو ذكر لله تعالى، فليس من التجارة التى قال الله تعالى فيها: ﴿... لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ... (٩)﴾ [المنافقون]، ولا التجارة التى ذم بها المنافقون فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)﴾ [الجمعة].

---

(١) الكشاف: ج٢/ ٣٧٨.

وقد ذكر سبحانه بعض نعمه فقال:

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) ﴾.

ذكر سبحانه وتعالى أن المشركين بدلوا نعمة الله كفرا وجعلوا لله أندادا من حجارة وجعلوها آلهة، وفى هذه الآية يذكر بعض نعمه على الوجود كله فقال تعالت كلماته: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ صدر الآية الكريمة بلفظ الجلالة مفيض النعم، لتربية المهابة، ولمقابلة عبادته، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد، بعبادة الأوهام والضلال، و﴿ اللَّهُ ﴾ لفظ الجلالة: مبتدأ، والموصول هو خبره، فهو تعريف لله تعالى بأنه الذى خلق السموات والأرض، خلق سبحانه وتعالى السماء ببروجها ونجومها وكواكبها، والأرض بطبقاتها وجبالها وما أودع ببطنها من أحجار وفلزات ومعادن جامدة وسائلة، اقرأ قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١) ﴾ [ق].

هذا هو الإله القادر القاهر الغالب، وهو الجدير بأن يعبد لما أنشأ وأبدع وأنعم. ثم ذكر نعمته فى تلاقى السماء بالأرض يجمع بينهما الذى يسقى الأنفس والثمرات؛ ولذا قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ أفرد السماء هنا وجمع السموات فى الخلق؛ لأن الماء ينزل من المزن السحاب الثقال المملوءة ماء وسميت سحابا؛ لأنها فوق الأرض التى تمطرها، أما السموات فتحيط بالأرض كأنها الشىء الصغير فى داخل قبة، وإن هذا الماء هو الذى تخرج منه الثمرات؛ ولذا قال: ﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾، والثمرات جمع ثمرة وهو ما تنتجه الأرض من زروع وغراس وكروم، ونخيل، ومن الثمرات تكون المطاعم

والملابس والمساكن اليدوية والأخشاب وغير ذلك ﴿رِزْقًا﴾ بمعنى مرزوق كمطحن بمعنى مطحون، أى أنه يرزقكم إياه ويجيء إليكم سهلا بغير مشقة إلا العمل الذى يكون سببا مقترنا بالعطاء وليس منشئا له، فالله هو الرزاق ذو القوة المتين.

و﴿مِنَ﴾ فى قوله: ﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ بيانية لتنوعها، والمعنى فأخرج من الثمرات المتنوعة المختلفة الفوائد التى ترجع بأحسن الفوائد.

وإن هذه الثمرات تنقل من أرض إلى أرض، وإنه ثبت الآن أن خير السبل البحار وما كان ذلك معروفا عند العرب، بل النقل عند العرب كان بالجمال التى كانت تسمى أو سميت سفن الصحراء، ولكن القرآن أُنزل من حميد يعلم ما كان وما يكون، فهو يعلم أنه سيكون زمن يكون النقل بالبحار فى جُلِّه، وفى الأرض فى قله؛ ولذا قال عز من قائل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ ومعنى سخرها مكَّن الإنسانِ من صناعتها واستخدامها وجعلها تعلو فى البحر سائرة من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق، حاملة خيرات وفيرة من أرض إلى أرض أخرى، هذه الخيرات كثيرة، وبذلك تكون الخيرات موزعة فى الأرض بالقسطاس لولا ظلم الإنسان.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ﴾ وهى المجارى العذبة كنهر النيل ودجلة والفرات وسيحون وجيحون، ومعنى سخرها سهلها وتكون فى البلاد التى تقل أمطارها، ولا يكفى ما تنزل السماء من ماء لسقيها وزرعها، وسمى النهر نهرا لأنه ينهرها ويشقها ويجرى فيها، والأنهار الكبار تمخر فيها السفن كالبحار، والله هو الرزاق.

بعد أن ذكر سبحانه ما سخر فى الأرض من اقترانها بالسماء أخذ يبين للإنسان من أجرام السماء فقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣)﴾.

الدءوب معناه السير والمرور فى استمرار ودأب من غير لغوب، وتلك سنة الله تعالى فى أجرام السماء، فهى تسير فى دأب يعلم الله تعالى سيرها، وناموسها

وسننها من غير إبطاء، والشمس والقمر يسيران ويتحركان فى دأب مستمر ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩)﴾ [يس].

وهى مسخرة يستفيد الإنسان من حركاتها، فالشمس ذات الضياء والأشعة التى تمد الزرع والشجر والثمار بالنمو، والإنسان بالدفء والحرارة والأشعة، وكل ما فيه حياة الإنسان، والقمر يمده بما تنتظم به الحياة فى الإنسان والحيوان، وحسبك أن تعلم أن طَمْث المرأة وحملها وجهازها مرتبط بمنازل القمر، وأن تعلم أن المد والجزر مرتبطان أيضا بالقمر، وإن ارتباط الشمس بالأرض كان منهما الليل والنهار، فالأرض فى دورانها يحجب عنها ضوء الشمس فيكون الليل وينبسط عليها ضوء الشمس فيكون النهار، وفى الليل الهدأة والسكون والثبات والراحة، والاستجمام، وفى النهار تكون الحركة والسعى للرزق كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١)﴾ [النبأ].

وقد أنعم الله على عباده بتلك النعم كلها، وظهرت بها قدرته القاهرة، وإبداعه، وإنعامه وهو المستجيب فى السراء والضراء، والمنقذ فى المدلهمات، وما يكرث العباد؛ ولذا ختم الكلام فى نعمه بقوله تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾.

(الواو) عاطفة على ﴿خَلَقَ﴾ فى قوله تعالى: ﴿السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ فكلها نعم مترادفة متوالية جامعة، بعضها مع بعض أو تالى لبعض، ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾، فيها قراءتان إحداهما من غير تنوين فى (كل)، بل كل مضافة إلى ما بعدها: وقرئ بالتنوين، ولها إضافة و(ما) فى ﴿مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ اسم موصول بمعنى (الذى) أو نافية.

ومن فى قوله: ﴿مِّن كُلِّ﴾ إما تبعيضية، وإما مؤكدة لاستغراق الحكم زائدة فى الإعراب، والمعنى على أنها تبعيضية على قراءة الإضافة، وآتاكم بعض ما

سألتمـوه، أما ما احتجـتم إليه، وكانت حاكم حال مـن يسأله إياه، وإن لم يسأل باللسان بل سأله بالاستعداد والتكوين، فأعطاكم الكساء والغطاء واللباس والوقاية، ومكنكم من أن تتـسلحـوا ضد من يغـير علـيكم من سبـاع الأرض حيـوانات أو أناسى، وغير ذلك، والبـعضية بعضـية أنواع أى بإعطاء بعض كل نوع من الأنواع تسألونه بمقتضى الفطرة والتكوين والحاجة الفطرية، وعلى أن ﴿مِّن﴾ بيانية، يكون المعنى أعطاكم كل ما سألتـموه بمقتضى الاستـعداد والفطرة على ما بيَّنا، وإن ذلك واضح جمع فيه بين الكلية فى كل ـ ومعنى العطاء.

وعلى قراءة التنوين: يكون ثمـة مضاف محـذوف دل عليه التنوين، والمعنى آتاكم من (كل) شىء سـألتـموه، أى بمقـتـضى أصل التكوين، وتكون القـراءتان متلاقيتين على تخريج ﴿مِّن﴾ بأنها بيانية.

ولا أرى موجبا أو داعيا لأن نقول: إنها نافية، والله أعلم.

وإن هذه وما سـبقها من نعم هى نعـم الإنشاء والإبقاء، فقـد أنعم بالإنشاء وأنعم سبحانـه وتعالى بالإبقاء مستمكنا من كل شىء حـتى يكون اليوم الآخر يوم الجزاء لمن شكر بالنعيم المقيم، ولمن كفر بالعذاب الأليم.

وقد أشار سبحانه إلى أن الإنسان يكفر النـعمة ظلما، كما قال تعالى فى آية أخرى: ﴿... وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣)﴾ [سبأ]

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ ظلوم صيغة مـبالغة من الظلم، أى أنه ظالم أبلغ الظلم بظلم نفسه بالكفر وغمط حق غيره، والاعتداء على الناس وعلى الحقائق، والاعتداء بعبادة الأوثان، و﴿كَفَّارٌ﴾ صيغة مبالغة فى الكفر، وهو كفر النعمة وعدم شكرها، بل اتخاذها سبيلا لعتوه واستكباره وفساده فى الأرض، وقد أكـد الله تعالى ظلم الإنسان بـ«إن»، وبـ«اللام» وبصـيغة المبـالغة فى الظلم، وكفر النعمة، والله محيط بالكافرين.

دعاء أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام

قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾

هذا دعاء أبى العرب ومن يتشرفون بالانتساب إليه وهو بانى البيت، وأول دعائه ما يتعلق بالبيت العتيق الذى كان أول بيت وضع للناس.

أول دعائه اتجه إلى الأرض فى البيت، ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ والبلد هو مكة المكرمة، زادها الله تعالى تشريفا، وقوله تعالى: ﴿آمِنًا﴾ أى ذا أمن؛ لأن الأمن للسكان لا للمكان، ومعنى الأمن لا اعتداء فيه، ووصف المكان بالأمن، فيه بيان سيادة الأمن، فالمكان لا اعتداء فيه، وهو مقدس، وقد أجاب الله تعالى دعاءه وكان فضلا من الله على العرب، كما قال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [العنكبوت].

والجزء الثانى من الدعاء أنه دعا ربه مبتهلا إليه أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام فقال تعالى حاكيا دعاءه: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ دعا عليه السلام لنفسه ولبنيه أن يجنبهم عبادة الأصنام، فقوله تعالى: ﴿أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾ فيه ﴿أَن﴾ وما بعدها، مصدر وهو عبادة الأصنام، وذكر الفعل المضارع لتصوير عبادة الأصنام، وفى ذلك إشارة إلى قبحها وبعدها عن المعقول.

وقول إبراهيم: ﴿وَبَنِيَّ﴾ واضح أنه لا يشمل الذرية كلها لدلالة اللفظ على ذلك؛ ولأن الإجابة لم تكن للذرية كلها، فقد كان من هذه الذرية من عبد الأصنام، بدليل هؤلاء الذين نظر فيهم القرآن، وخاطبهم محمد ﷺ يدعوهم إلى أن يعبدوا الله وحده لا يشركون به شيئًا، فالله تعالى لم يكن فى إجابته سبحانه وتعالى ما يعم الذرية كلها.

ولقد كان إبراهيم عليه السلام الذى كان أبوه صانع أصنام، والذى ابتدأ حياته بحَطْم الأصنام، والذى قال: ﴿وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ۝٥٧ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ ... ۝٥٨﴾ [الأنبياء]. كان إبراهيم أشد الناس بغضا للأصنام وإدراكًا لضلال من يعبدونها؛ ولذا قال مؤكدا: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ أسند الإضلال إلى الأحجار، مع أن الإضلال هو من الشيطان الذى ابتدع الأوهام حولها؛ وذلك لأنهم لما عبدوها وأحاطوها بأوهام كثيرة وصار الوهم يولد وهما وتوالت وتكاثرت، وكلها حولها صح إسناد الإضلال إليها، وعبر إبراهيم عليه السلام عن الذين ضلوا بها بأنهم كثير، وليسوا عددا قليلا، وذلك لعموم الضلال بها، وعمومه لا يجعلها حقا، بل هى باطل، ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ۝١١٦﴾ [الأنعام].

وإن ذكر ضلال الأوثان على لسان إبراهيم عليه السلام، وهم يتشرفون بنسبتهم إليه وهو بانى الحرم الشريف المقدس، فيه بيان أنه برىء منهم ما داموا يعبدون الأوثان؛ ولذا قال عليه السلام فى دعائه: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ ملة إبراهيم هى التوحيد،

كما قال تعالى: ﴿ ... مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) ﴾ [النحل]، فمن تبعه فى ملته فإنه منه، ومفهوم هذا أن من لم يتبعه فى التوحيد، وعبد الأوثان فليس منه؛ لأن اشتراط كونه موحدا ليكون منه، فيه بيان لئن لم يتبعه لا يكون منه، بل هو برىء منه، كما تبرأ من أبيه، وكما تبرأ من قومه إذ قال: ﴿ ... إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) ﴾ [الأنعام]، ثم قال عليه السلام فى دعائه: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وصف الله تعالى خليله بقوله: ﴿ ... إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) ﴾ [التوبة]، وإن حلمه وعطفه وشفقته لتبدو فى قوله: ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فهو عليه السلام لم يحكم بالعذاب على من عصاه، بل ترك أمره لله تعالى، كما قال عيسى عليه السلام مثل ذلك فقال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة]، وليس معنى النص أنه يطلب الغفران لمن أشرك بالله، فمحال أن يطلب عدو الأصنام الأول غفرانا لعبدة الأوثان، إنما الذى يفهم من مضمون العبارة السامية أنه يرجو الرحمة لمن عصاه ابتداء ألا يستمر على عصيانه فهو يرجو التوبة ولا يقدر البقاء على الشرك حتى يكون العذاب الأليم.

وهنا إشارة بيانية حكيمة، فيقول خليل الله عليه السلام فى دعوته: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾ تعبر عن ترك عبادة الأوثان ﴿وَاجْنُبْنِي﴾، أى اجعلنى فى جانب وبنى فى جانب فهى تتضمن المباعدة، وكان حقا على ذرية إبراهيم التى عبدت الأوثان أن تباعد بينها وبينها.

بعد أن دعا أبو العرب الشفيق لهم بتطهير نفوسهم، وأن يكونوا لله تعالى، دعا لهم بالرزق فقال: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) ﴾.

كان دعاء إبراهيم عليه السلام بضمير المتكلم ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾ وذلك فى العبادة، أما فى طلب الرزق فقد طلبه بضمير الجمع فقال: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ

غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾؛ لأن الرزق يطلبه المخلص ليعم لا ليخص فهو يطلبه باسمه وباسم ذريته، ويعم مؤمنهم وكافرهم، كما قال تعالى منبها إبراهيم إلى أن يطلب لمن آمن ومن كفر، فقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦)﴾ [البقرة].

يقول إبراهيم فى دعائه مقررا ثلاثة أمور:

الأمر الأول: أنه أسكن من ذريته بواد غير ذى زرع، و﴿مِن﴾ هنا للتبعيض وهى ذريته من إسماعيل، أما ذريته من إسحاق فلم تكن بواد غير ذى زرع، أى أنه لا زرع فيه، ينبت ما يكون غذاء للإنسان والحيوان كالحنطة والشعير ونحوهما مما يكون غذاء للإنسان.

الأمر الثانى: كان إسكان هؤلاء لغرض تعمير بيتك العتيق الذى بناه بأمر الله أبو الأنبياء؛ ولذلك قال: ﴿عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾، أضاف البيت إليه سبحانه وتعالى تشريفا لشأنه، ووصفه بالمحرم؛ لأنه تحرم فيه الدماء، وهو فى ذاته حرم آمن يأمن كل من يأوى إليه.

وقد بنى فى صحراء جرداء ليكون آمنًا من طمع الطامعين ورغبة المعتدين، إذ إنهم يرومون خصب الأرض ليشبعوا نهمتهم ويرضوا مطامعهم، وليكون الاستغلال الغاشم والاستعمار الظالم، فكان فى أرض لا يطمع فيها طامع، ولا يرومها فاتح.

وقد كرر نداء ربه ضراعة، فقال: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾، وقوله تعالى: ﴿لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ متعلق بأسكنت، اللام للتعليل، أى أن أسكنتهم لأجل إقامة الصلاة فيه وأن يعمروه بصلاتهم، لا ليستمر خرابا من العبادة، خاويا من الناس، فلا تنتهى إلى الغاية التى أمرت بإنشائه من أجله، وفى هذا إشارة إلى أن المشركين من ذرية إبراهيم قد انحرفوا به عن غايته عندما أحاطوه بالأوثان التى هدمها

النبى ﷺ يوم فتح مكة فى العام الثامن من الهجرة على صاحبها أفضل السلام وأتم التسليم.

الأمر الثالث: بعد أن ذكر إبراهيم حالهم وحال أرضهم ذكر دعاء طالبا من ربه ﴿ **فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** ﴾ (الفاء) تدل على أن الباعث لهذا الدعاء ما قبلها، وهو ﴿ **أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ** ﴾.

فى قوله تعالى: ﴿ **أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ** ﴾ مؤداها أن يفد بعض من الناس إلى هذه الأرض التى لا زرع فيها مسرعين تميل قلوبهم وتهوى نفوسهم محبين الرحلة إليها مع رمالها، وجبالها وأنها لا خير فيها، وقوله تعالى: ﴿ **مِّنَ النَّاسِ** ﴾ معناها بعض الناس، وروى ابن عباس أنه قال: لو قال تعالى: أفئدة الناس لازدحم بالفرس والترك من غير المسلمين، وقوله تعالى: ﴿ **تَهْوِي** ﴾ من هوت الناقة إذا أسرعت فى سيرها إسراعا شديدا كأنها تسابق الريح، وقوله تعالى: ﴿ **أَفْئِدَةً** ﴾ خرجها بعض العلماء على أن أصلها (أوفدة) جمع وفدة، حصل فيه قلب مكانى فحلت الفاء محل الواو، وحلت الواو محلها فقلبت همزة، وإنه لا داعى لهذا التخريج النحوى ولا دليل عليه، وإن الأولى أن تكون كلمة أفئدة على معناها الأصلى وهى أنها جمع فؤاد بمعنى القلب، والدعاء يكون منصبا على أن تميل القلوب إلى المكان مع جفاف مائه وصعوبة أرضه وارتفاع جباله الصماء التى لا تُكسى بخضرة قط، والمعنى على ذلك يكون مستقيما وقويا ككل معانى الذكر الحكيم.

وذكر الزمخشرى أن هناك قراءة أخرى وهى (آفدة) اسم فاعلة من أفدت بمعنى أسرعت جماعة أو جماعات متتالية جماعة بعد جماعة، حتى لا ينقطع عنهم خير الأرض كلها؛ ولذا قال تعالى بعد ذلك: ﴿ **وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ** ﴾، و﴿ **مِّنَ** ﴾ هنا يصح أن تكون بيانية، أى ارزقهم الثمرات التى حرمتهم أرضهم منها، ويصح أن تكون بمعنى بعض، ارزقهم بعض الثمرات من كل صنف.

ثم قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾، أى رجاء أن يشكروا هذه النعم، أى تكون حالهم حال شكر، لا حال كفر فلا يعبدوا إلا الله تعالى العزيز الحكيم. والرجاء من العباد لا من الله، أى ليكونوا فى حال رجاء الشكر دائمة بدوام هذه الخيرات التى يسوقها الله سبحانه وتعالى إليهم وتجىء إليهم فى واد (قفر) ليس فيه زرع ولا ثمر، وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام فجعله حرما آمنا تجىء إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنه وفضله، بهذا الخير يتوافر أصناف الثمار ما لا يوجد كله فى أخصب الأرض وريف الأمصار، وفى بلد من بلاد الشرق والغرب، إجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام، ثم يقول: وليس ذلك من أيامه بعجيب متعنا الله بسكنى حرمه، ووفقنا لشكر نعمه، وأدام لنا الشرف بالدخول تحت دعوة إبراهيم، ورزقنا طرفا من سلامة ذلك القلب». تلك كلمات جار الله فى مكة المكرمة ـ الزمخشرى(١).

وقد أحسَّ إبراهيم خليل الله بالخشوع أمام ربه والضراعة إليه بعد أن دعا لولده وذريته بما دعا، وأدرك أن دعاءه فيه معنى التطاول مع علم ربه، وهو العليم بكل شىء فقال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨)﴾.

نادى ربه بضمير الجمع، فقال: ﴿رَبَّنَا﴾، أى أنه ربه ورب ذريته، ورب الوجود كله. وأنه أعلم بحالهم، سرهم وعلانيتهم، وأن العلم على سواء يستوى فيه المغيب والمعلن وما غاب وما حضر، وكأنه يستدرك على دعائه؛ لأنه سبحانه هو الذى أسكنهم فى ذلك الوادى الجدب، وهو الذى أقامهم بجوار بيته المحرم الذى يحرم فيه ما يباح فى غيره من صيد وقتال لو كان عادلا، إلا أن يكون دفاعا.

يعلم كل ذلك، بل إنه ما كان له أن يتطاول على مقام الألوهية بهذا الدعاء، وقد ابتدأ الدعاء بذكر حالهم من العلم بسرهم وجهرهم، ثم عمم علمه سبحانه

---

(١) الكشاف: ج٢/ ٣٨٠.

فقال: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾، و﴿مِن﴾ هنا لعموم النفى، أى ما يخفى على الله شىء فى الأرض من خيرها وجدبها وزرعها، وقحطها، وطبقاتها، وما فيها من معادن سائلة وجامدة، والسماء وما فيها من نجوم وكواكب، وسحب ثقال تأتى بالدر الوفير والخير الكثير.

ولقد قال الزمخشرى فى هذه الآية كلاما قيما ننقله عنه فيما يلى:

«والمعنى أنك أعلم بأحوالنا، وما يصلحنا وما يفسدنا منَّا، وأنت أرحم منا بأنفسنا ولها، فلا حاجة إلى الدعاء والطلب وإنما ندعوك إظهارا للعبودية لك وتخشعا لعظمتك، وتذللا لعزتك، وافتقارا إلى ما عندك، واستعجالا لنيل أياديك وقربا إلى رحمتك، وكما يتملق العبد بين يدى سيده رغبه فى إصابة معروفه، مع توفر السيد على حُسْن المِلكة»(١).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾ ذكرت الأرض أولاً؛ لأن الكلام فى جدبها وخصبها، وذكرت السماء؛ لأنها تمدها بالسقى والماء.

وظاهر القول أن ذلك من ضراعة إبراهيم عليه السلام، وهو ما نراه، وقيل: إن ذلك من قول الله، والحق أن كله من قوله تعالى ما جاء على لسان إبراهيم وغيره.

شكر النعمة

قال الله تعالى:

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى
عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾

(١) الكشاف: ج٢/ ٣٨١.

﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿... لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ فاستدامة النعمة بالشكر؛ لذلك بادر إبراهيم بشكر النعمة التى أنعم الله بها عليه. إن الله تعالى وهب له وهو كبير طاعن ولديه إبراهيم وإسحق، وكانت أمرا خارقا للعادة، وعندما بُشِّرت بذلك امرأة إبراهيم: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ... ﴿٧٢﴾﴾ [هود]، فأعلن بالحمد إبراهيم الذى كان مثلا للإنسان الفطرى الكامل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾﴾.

ابتدأ كلامه بالحمد إشعارا بشكر النعمة وتقديرها، إذا أعطاه ولدا حيث يستحيل ذلك عادة وعلى مجرى الأسباب المعروفة؛ إذ أم إسحق عجوز وزوجها شيخ هرم، حتى قيل: إن سنه عند البشارة بإسحق كانت فوق المائة، وقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فيه معنى القصر، أى أن الحمد لله تعالى وحده، فهو مانح النعم ومجريها وحده، وهو الذى وهبه فى هذا الكبر العتىِّ، وقوله تعالى: ﴿عَلَى الْكِبَرِ﴾، ﴿عَلَى﴾ هنا بمعنى مثلها فى قول الشاعر:

إنى على ما ترين كبرَى أعلم من حيث تؤكل الكتف

وقوله: ﴿عَلَى الْكِبَرِ﴾ تدل على جلال الشعور بالنعمة، إن ذلك واضح أنه إكرام من الله تعالى بخرق الأسباب، وإن شكر النعمة بذكر إسماعيل وإسحق فيه معنى جليل؛ لأنهما ولدا أبى الأنبياء الذين جاءوا بعد إبراهيم عليه السلام، فكأن النبوة انحصرت فى ذريته عليه السلام، كما يبدو من قصص القرآن الكريم الصادق فى ذاته.

وقد جاءت العبارة الضارعة التى تؤكد شكره للنعمة، فقال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾، والدعاء هنا هو الضراعة إلى الله تعالى، وطلبه منه الولد، فقد طلبه، ودعا ربه به، فقد جاء فى سورة الصافات أنه قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات]، فهذه بشراه بإسماعيل عليه السلام، وكانت استجابة لدعائه، وكانت بعد ذلك فى نفس السورة بشراه بإسحق فقال سبحانه: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾.

والبشارتان مختلفتان: فإسماعيل أكبر من إسحق، فالذبيح إسماعيل لا إسحق كما جاء فى التوراة المحرفة.

ومهما يكن الأمر فى هذا فقوله تعالى على لسان إبراهيم: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ فيه ما يدل على أن ذلك كان بدعاء من الخليل واستجابة من الله تعالى، فقد أكد أن الله سميع الدعاء أولا: بالجملة الاسمية، وثانيا بـ (إنّ) المؤكدة، وثالثا باللام فى قوله: ﴿لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ وعبر بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ فيه أيضا شعور بالشكر الجزيل لربه؛ لأنه الذى ربّه وكونه وقام على شئونه واستجاب دعاءه.

لقد كان إبراهيم عليه السلام صورة سامية للفطرة الإنسانية، وأوضح هذه الفطرة حب الذرية والحدب عليها وإكرامها وتوجيهها إلى الحق وإلى عبادة الله تعالى؛ ولذا قال الله تعالى على لسانه:

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾﴾.

النداء إلى الله سبحانه وتعالى بوصف أنه ربُّه الذى كونه وأنشأه، وربّه وقام على شئونه يدعوه إلى أن تكون نفسه للعبادة، يفديه بروحه وبالإيمان، وإقامة

الصلاة، كما غذاه في بدنه وعموم أحواله، وحاجاته البدنية، فيطلب غذاءه الروحى بعد غذائه الجسدى.

ويقول عليه السلام مخاطبا ربه: ﴿اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ﴾، أى صبرنى وحولنى ووجهنى إلى أن أكون مقيم الصلاة، أى مؤديا لها أداء مقوما مستقيما كاملا، بأن تكون أركانها الحسية مستوفاة، ومنها الخشوع والخضوع المطلق، والصلاة رمز إلى القيام بحق الدين كاملا من غير التواء، ولم يكتف بالدعاء لنفسه بل أضاف إلى ذلك الدعاء لذريته، ولكن الله تعالى أشار إلى أنه سيكون من ذريته من لا يشكر الله تعالى، ومن يعصيه؛ ولذا قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، و﴿مِن﴾ هنا للتبعيض، أى اجعل من ذريتى مقيم الصلاة ليكون حبل العبادة متصلا إلى يوم القيامة لا ينقطع التوحيد، وإقامة شعائره، بل تتصل إلى يوم القيامة، ومن ذريته قائمون على الحق يهتدون بهديه، ويسيرون فى طريق الحق، وهو الطريق المستقيم.

﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ (الواو) عاطفة على ﴿اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ﴾، وجاء قوله: ﴿رَبَّنَا﴾ كالجملة تكون بين متلازمين، وهما هنا المعطوف والمعطوف عليه، وذكر ﴿الدعاء﴾ للضراعة والابتهال إلى الله تعالى، وذكر بضمير المتكلم ﴿رَبِّ﴾، والجمع ﴿رَبَّنَا﴾ للإشارة إلى أنه يتكلم عن نفسه، وعن الصالحين من ذريته، والدعاء هنا هو العبادة، إذ هى دعاء لله تعالى وضراعة إليه، ومن يدعون الأنداد إنما يعبدونها، وهى لا تضر ولا تنفع، فهم بدعوتهم من دون الله سبحانه وتعالى يعبدون ما لا يضر ولا ينفع، ولقد ورد أن النبى ﷺ قال: «**الدعاء مخ العبادة**»(١) فالدعاء من العبادة، وهو ذاته عبادة.

وقال: ﴿تَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ والتقبل شدة القبول، وتقبل العبادة من الله تعالى قبولها مع الرضوان، ومحبة القائم بها.

---

(١) سبق تخريجه.

وإن ذلك يتقاضى أن يكون ذلك من العابد بقلب سليم مخلص طاهر، لا يقصد بها غير وجه الله الكريم، لا يرائى به، ولا ينقض بعضها ببعض، بل يتجه بكل نفسه لربه لا يكون فيها موطن لغيره سبحانه.

وإن إبراهيم عليه السلام يمثل فى شخصه النبوى، الرجل الفطرى المستقيم النفس فى كل اتجاهاتها، وقد رأينا من فطرته أنه فكر فى ذريته كما فكر فى نفسه، والفطرة السليمة تجعله يذكر عند الخير أبويه كما ذكر ذريته؛ ولذا عندما اتجه إلى ربه طالبا مغفرته ذكر أبويه فقال تعالى على لسانه:

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١) ﴾.

كان إبراهيم عليه السلام متجها دائما إلى مقام الربوبية فنادى ربه بالربوبية، وقد ذكرناها فى ذلك من ضراعة المؤمن المقدر لنعمة الإيجاد، والربوبية، والقيام على شئونه، وأنه الحى القيوم القائم على ما أنشأ من خلق، وهو اللطيف الخبير، ودعاه بالمغفرة، وابتدأ بنفسه أولا، ثم ثنى بوالديه، وثلث بالمؤمنين الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، سواء أكانوا من ذريته أم كانوا من غيرهم، فهو دعاء لعامة المؤمنين، وإبراهيم عليه السلام كانت أدعيته العامة جماعية؛ لأنه نادى بالأخوة الإنسانية.

وطلب الغفران وستر الذنوب، ومحو السيئات، وقيام الحسنات، يوم يقوم الحساب، وهو يوم القيامة حيث يكون الحساب بأن يقوم كل إنسان ما قدم من خير، وقد كتب ما ارتكب من خير وشر، فهو يطلب من الله فى هذا اليوم عفوه وتغليب مغفرته على عذابه، وذلك بالنسبة للمؤمنين، وبالنسبة لوالديه.

وهنا يسأل سائل كيف يستغفر إبراهيم لأبويه، وأبوه بلا ريب كان مشركا يعبد الأوثان؟ ويقال: إنه كان يصنعها؟ ونقول فى هذا: إن إبراهيم كان رجل الفطرة المستقيمة، ففطرته الإنسانية المستقيمة دفعته لأن يكبر عليه أن يهتدى وأبوه مشرك، وأن يعبد الله وأبوه يعبد الشيطان، وأن يكون فى الجنة وأبوه فى النار، وقد بدا ذلك فى مجاوبته، إذ قال لأبيه: ﴿ ... يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ

وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ ﴾ [مريم]، طرده أبوه من حضرته مع ما فى عبارته من رفق، وما تشف عنه من محبة، ولكنه يستمر فى رفقه بمقتضى حكم الفطرة، فيقول: ﴿ ... سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ ﴾ [مريم]، كانت هذه أول موعدة وعدها إياه، فاستغفر له ولم تكن بينهما بغضاء الضلال التى اتسم بها أبوه؛ ولذا قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ... ﴿٤﴾ ﴾ [الممتحنة].

إذن كان الخليل عليه السلام يستغفر لأبيه ويطلب له المغفرة ومرتبط معه بمودة لم تفرقها عداوة، وهذه السورة التى نتكلم فى معانيها سورة مكية، وسورة الممتحنة التى فيها ﴿إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ مدنية، وهذا يدل على أن النهى لم يكن حتى سورة الممتحنة، وجاء النهى بعد ذلك كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [التوبة].

وقد قلنا: إن إبراهيم عليه السلام تتمثل فيه الفطرة القويمة.

الكافرون بالنعم ظالمون

قال الله تعالى:

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾
مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ

﴿هَوَآءٌ ۝٤٣ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ
ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم
مِّن زَوَالٖ ۝٤٤ وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ
أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا
لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ ۝٤٥ وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ
مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ۝٤٦﴾

ذكر الله سبحانه وتعالى مثلا كاملا لشكر النعمة، واختار لذلك خليله إبراهيم عليه السلام؛ لأنه أبو العرب الذين يعتزون بنسبه، وهو الذى أجرى الله على يديه بناء البيت مكان عزهم، وذكره دعوة إلى اتباع ملته، والإسلام ملة إبراهيم الذى سمى المسلمين مسلمين.

بعد ذلك ذكر سبحانه من يكفرون النعمة ويظلمون أنفسهم بكفرهم، فقال عز من قائل: ﴿ **وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ** (٤٢) ﴾.

الحسبان هو الظن أو العلم المبنى على الظن، والنبى ﷺ منزه عن أن يظن الغفلة أو السهو على الله تعالى، فالله يعلم ما كان وما يكون، وما هو كائن؛ ولأنه تعالى وعده بالنصر، والعقاب الشديد على ما يفعله، وأنه محص عليهم أعمالهم كل امرئ بما كسب فكيف ينهى عن الظن بأن الله غافل، وما كان احتمال لأن يرد ذلك على قلب النبى ﷺ حتى ينهى عنه، والجواب فى ذلك أن هذا الكلام لتأكيد أن الله تعالى يحصى على المشركين أعمالهم، كما يقول تعالى: ﴿ ... **وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** (٨٧) ﴾ [القصص]، وكقوله تعالى: ﴿ **وَلا تَدْعُ مَعَ**

اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ... ﴿٨٨﴾ ﴾ [القصص]، فهو نهى للتثبت، وتأكيد أنه لم يقع من النبى ﷺ، وفوق ذلك أن النهى إعلام للنبى ﷺ بأنه عالم بحالهم مُحصٍ عليهم سيئاتهم، وهو تهديد شديد لهم، كما يقول المجادل لمجادله: لا تجهل أنى عالم بكل أخطائك، فهو إعلام، وهو تهديد للمشركين.

وعبر بقوله تعالى: ﴿الظَّالِمُونَ﴾ فأظهر فى موضع الأضمار لتسجيل الظلم عليهم؛ ولأن العقاب سبب الظلم، فهم أشركوا، والشرك ظلم عظيم، وآذوا المؤمنين والمؤمنات، وذلك اعتداء ظالم آثيم، وصدوا عن سبيل الله، فلم يتركوا الناس أحرارا يعتقدون ما يرونه حقا.

وإذا كان الله تعالى عالما بظلمهم مجازيهم على ما يفعلون من آثام، فهو لا يهملهم، ولكن يمهلهم، ولقد قال تعالى فى ذلك: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القلم]، وفى هذا النص السامى يقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿إِنَّمَا﴾ هنا أداة حصر، أى كان التأخير لأجل هذا اليوم الذى يكون شديدا، وفيه النفوس جميعا تكون فى هلع وفزع، فليس التأخير لنسيان، أو غفو أو ترك، إنما التأخير هو ليوم كله عذاب الأجساد والأنفس، وإذا كانوا يمشون فى الأرض مرحا، ويستهزءون ويرتعون ويلعبون ويسخرون من المؤمنين فسيكون عليهم يوم عسير شديد، وقد وصف الله تعالى حالهم فى ذلك اليوم فذكر لهم خمس أحوال كل حال فيها تنبئ عن فزع بذاته.

الحال الأولى: ما ذكرها سبحانه بقوله: ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾، أى العين تشخص لا تغمض من هول ما ترى، فإن إغماض العين يكون من الدعة والاطمئنان، أما يوم القيامة يوم الفزع الأكبر، فإنه لا يكون اطمئنانا ولا يكون

دعة، وتكون العين مفتوحة متسعة الأحداق من الأهوال التى تراها، حتى كأنها مع فتحها وعدم إغماضها لا تشعر بشىء إلا الهول وأسباب الفزع.

والحال الثانية: هى ما قاله سبحانه وتعالى: ﴿**مُهْطِعِينَ**﴾، ومعناها مسرعين فإنهم كانوا فى الدنيا يسيرون متئدين مـالكى أنفسهم مسيطرين على قواهم، وكما قال فى آية أخرى فى وصف حالهم يوم القيامة: ﴿**مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ** ⟨٨⟩﴾ [القمر]، والإهطاع إسراع فى ذل وتكسر وخوف وهلع، فبعد أن كانوا يسيرون فى الأرض مرحا كـأنهم يخرقون الأرض أو يبلغون السماء طولا يسيرون مـسرعين أذلاء خالفين لأول داع، خائفـين من أن يكون وراء الدعوة أمر أشد هولا.

والحال الثالثة: عبر عنها سبحانه وتعالى بقوله: ﴿**مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ**﴾ من أقنع رأسه، وتستعمـل بمعنى رفعها متطلعا إلى من فوقهـا من شدة الهلع، وقد قال فى معناها الأصفهانى فى مفـرداته: أقنع رأسه رفعها قال: ﴿**مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ**﴾، وقال بعضهم: أصل هذه الكلمة مـن القناع، وهو ما يغطى به الرأس، فقَنِع لبس القناع ساترا لفـقره، كقـولهم حفى أى لبس الحـفاء، وقَنَع إذا رفع قناعـه كاشفـا رأسه بالسؤال كخفى إذا رفع الخفاء.

وخلاصة هذه المعـانى أنهم يكشفون ذلهم وحاجتهم رافـعين رءوسهم بالذل والهـوان، لا يستتـر من أمرهـم شيء، فلا يبـدون ما يخـفون، ويظهـرون ما لا يسرون.

وذكر الزمخشرى أن بعض علـماء اللغة يفسر ﴿**مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ**﴾ يخفضها ذلا وانكسارا، ورءوسهم ارتفـعت، أو انخفاضها، فـهو ذل ظاهر واضح، وصار كالسائل الذى كشف قناعه للمسألة.

والحال الرابعة من أحوالهم: أن أبصارهم زائغة لا تتحرك أطرافها من هول ما هم فيه وهذه عبـر الله عنها بقوله تعالى: ﴿**لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ**﴾، والمعنى أن أنظارهم قد استغرقـتها الأهوال التى تراها فهى فزعة هلعة قد سمـرت أعينهم فيما

ترى من عذاب هو عذاب الهول الأكبر، فلا ترجع إليهم، أى لا تعود إلى سيطرتهم فترى ما يجب أن تراه وتمتنع عن رؤية ما لا يجب أن تراه، فهى قد ملكتها تلك المرئية المفزعة ولم يعد له عليها من سلطان.

والحال الخامسة: أن أفئدتهم فرغت من أسباب الاطمئنان، وامتلأت بأسباب الهموم والخوف، وقد عبر سبحانه وتعالى عن ذلك بقوله تعالت كلماته: ﴿**وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ**﴾، أى لا تدرك شيئا ولا تعيه من شدة الخوف والهلع، فهو كقوله تعالى: ﴿**وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا** ... ⑩﴾ [القصص]، أى أنه فرغ من الوعى والإدراك ولم يبق إلا موسى والخوف عليه، والهواء فى اللغة المجوف الخالى، والمعنى أصبح فؤادهم مجوفا خاليا من العلم والإدراك لشدة ما رأى وما وقع، ومن هذا المعنى قول حسان شاعر الإسلام من أبى سفيان قائد الشرك آن ذاك:

ألا أبلغ أبا سفيان عنى فأنت مجوَّف نخِبٌ هواء

وهذه الأحوال تصوير لحالهم يوم القيامة من فزع وذل وانكسار، وامتلاء قلوبهم بالخوف والرهبة، وإنها من آيات الإعجاز، وكل القرآن إعجاز يبهر المدركين.

ولقد أمر الله تعالى نبيه أن ينذر الناس بهذا اليوم الذى ذكر فزع الناس فيه فقال تعالى: ﴿**وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ**﴾.

الكافر مادى لا يؤمن إلا بما يرى ويحس، فما لم يحسه لا يؤمن به، وليس عنده نفاذ بصيرة يعى به ما لم يدرك وما لم يره؛ ولذا كان من أوصاف أهل الإيمان أنهم يؤمنون بالغيب وهم بالآخرة هم يوقنون، يرون الناس يموتون ويحيون، فيعلمون أن الحياة لغاية وأن الموت ابتداء نهاية.

ولذا كان أول إنذار هو الإنذار بالعذاب الأليم فى يوم القيامة، وهذا قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ الإنذار: التخويف، وهو يتعدى إلى مفعولين الأول ﴿النَّاسَ﴾، والثانى ﴿يَوْمَ﴾.

والإنذار متجه لما يجرى فى هذا اليوم من حال تقشعر من هولها الأبدان، إذ تكون أبصارهم فيها شاخصة، خوف العذاب الأليم الذى هو فى ذاته هول أكبر، ولكن جعل التخويف لليوم من إطلاق اسم المحل وإرادة الحال، وإنه لشديد تضطرب له نفوس أهل النار ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ الفاء هنا لبيان أن ما قبلها سبب لما بعدها فما فيه من هول شديد، وما فيه من جحيم ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١)﴾ [مريم]، يكون سببا لأن يطلبوا الرجعة إلى الدنيا، وقد قالوا: ﴿أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ إلى زمن قليل، وعبر عنه بالقريب لأنه قريب ما بين طرفيه أوله ومنتهاه، وهذا كقولهم فيما يحكى الله تعالى عنهم: ﴿... رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢)﴾ [السجدة]، وكقولهم فيما حكى سبحانه عنهم: ﴿... رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ... (٣٧)﴾ [فاطر].

وقوله تعالى: ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ وهى دعوة التوحيد، وألا يشركوا بالله شيئًا وما جاء به القرآن وغيره من كتب السماء، ومن شرائع، ﴿وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾، أى لا نستكبر عليهم ولا نتعالى ونتسامى عليهم، بل لنكون لهم تبعا.

فيقول الملائكة بأمر الله تعالى مبكتا مذكرا لهم كفرهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم﴾، (الواو) عاطفة على ما قبلها، والهمزة للاستفهام الإنكارى الذى فيه إنكار الواقع، والاستفهام داخل على النفى ونفى النفى إثبات على معنى التوبيخ، والمعنى لقد أقسمتم من قبل مغترين على الله تعالى جاهلين لأنفسكم، ولمجرى الحياة ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾، أى ليس لكم أى زوال، وإنهم فى الحقيقة كما يظهر من مجرى

أمورهم أنهم كانوا لا ينكرون الموت، ولكن ينكرون الحياة بعد الموت ويقولون: ﴿... أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ... (٥)﴾ [الرعد].

ولكن لأنهم عتاة غاشمون لا يرعون إلاً ولا ذمة، وقد اغتروا بالحياة الدنيا وغرهم بالله الغرور، يعملون كأنهم لا يموتون ولا يفنون، وأنهم فى الدنيا خالدون.

وقد فسر بعض العلماء أن المراد من الزوال المنفى أنهم لا يزولون ثم يبعثون، وهذا تفسير مجاهد تلميذ ابن عباس ترجمان القرآن، كما سماه عبد الله ابن مسعود، ويكون المعنى على هذا التفسير: ما لكم من زوال من هذه الدنيا تنتقلون من بعده إلى الآخرة.

وإنهم فى قسمهم هذا أو فى حال الغرور التى اغتروا بها وحسبوا أنها حياة خالدة، والعبر بين أيديهم قائمة، ولذا قال تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ (٤٥)﴾.

سكن، معناه قرَّ فيها، وغنى فيها، وتتعدى بـ(فى)، كما تتعدى بنفسها، فيقال سكنت الدار، والأصل هو التعدية بـ (فى) ثم لما شاع الاستعمال تعدت بنفسها.

والمعنى أن العبر كانت قائمة، وأقسموا بالله جهد أيمانهم أنهم لا يبعثون بعد موتهم، وقد سكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم بالكفر، والإيذاء للمؤمنين والصد عن سبيل الله، وتبين لكم ما نزل بسبب ظلمهم من إمطارهم حجارة من سجيل منضود، ومن جعل الأرض عاليها سافلها إلى آخر ما هو ثابت عبرة للآخرين؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾، أى تبين ما فعله الله بهم، وحالهم العجيبة الجديرة بالنظر، وبينا لكم الأمثال الأشباه، ومع ذلك لم تعتبروا، فاليأس من إيمانكم كان ثابتا، واليأس من إيمانكم بعد رجعتكم إلى الدنيا أشد ثبوتا.

ومع هذه العبر والأمثال استمروا فى غيهم؛ ولذا قال تعالى:

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) ﴾.

الكلام فى أخبار الذين سكنوا فى مساكنهم، وقد تبين كيف فعل الله بهم، وقد بين فى هذه الآية أنهم كانوا يدبرون التدبيرات الخبيثة للكيد للحق وأهله، والتوحيد ومعتنقيه، أى دبروا كل ما يحاربون به عقيدة التوحيد، فاعتقدوا الباطل وناصروا الشرك، وحاربوا المؤمنين بكل أنواع الحرب من فتنة فى الدين.. وإيذاء للمؤمنين وسخرية بهم ﴿ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾، أى وعند الله تعالى علم مكرهم، وأنه محيط بما كانوا يمكرونه ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾.

الجبال هنا المراد بها شرائع الله تعالى التى جاء بها النبيون، فشبهت بالجبال لثباتها وشموخها وعلوها ورفعتها، و﴿ إِن ﴾ هنا إما أن نقول: إنها مخففة من (إنَّ) الثقيلة، والمعنى أن الحال والشأن أن ذلك المكر كان مهيأ ومعدا لتزول به الشريعة، ولكن تدبير الله كان أحكم فنجت الشرائع التى بلغت فى شموخها وعلوها وثباتها مبلغ الجبال.

وإما أن نقول: إنها نافية وتكون اللام لام الجحود، ويكون المعنى، وما كان مكرهم مهما يبلغ من القوة والتدبير والإحكام فى زعمهم لتزول منه الشرائع المحكمة التى هى كالجبال فى ثباتها وعظمتها، وإن الله تعالى حافظ شرعه وأنبياءه والمؤمنين، ولو تضافر الشرك كله.

إن الله لا يخلف الميعاد

قال الله تعالى:

فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ

﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾

كان النهى فى الآيات السابقة عن أن يُحسب أن الله تعالى تارك الظالمين، وما يفعلونه، غير منزل بهم ما يستحقون من عقاب، جزاء وفاقا لما يفعلون، وهنا فى هذه الآيات يبين أن الله تعالى أنه منزل هذا العقاب لأن جزاؤهم، ولأنه قد وعد رسله به، وإن الله تعالى لا يخلف رسله ما وعدهم به.

قوله تعالى: ﴿فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾، و﴿رُسُلَهُ﴾ مفعول للوعد، أى لا تحسبن الله مخلف ما وعد الرسل، وقدم الوعد على الرسل للإشارة إلى أن إخلاف الميعاد ليس أمرا جائزا بالنسبة لله، سواء أكان من وعده رسولا أم كان غير رسول.

وقد وعد الله رسله بالغلب، وأن يكون السلطان للحق، كما قال تعالى: ﴿... لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ... ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة]، وقد بين تعالى أن الغلب لهم فى هذه الآية، فقال تعالت كلماته: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾، ﴿عَزِيزٌ﴾ معناه غالب قوى مسيطر يعز من يشاء ويذل من يشاء، وقوله تعالى: ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾، أى صاحب انتقام للحق من الباطل، وللضعفاء من الأقوياء، والانتقام معناه مجازاة المسيء بما أساء وأن يقتص بالحق من القوى للضعيف، وأن تكون العقوبة على قدر الجريمة، فأساس العقاب فى الشريعة أوفى، أى يكون العقاب على قدر الجريمة، وأن يكون جزاء وفاقا لها.

وهنا يسأل سائل، لماذا عبر سبحانه فى الجزاء بالانتقام؟ لأن الظالمين من المشركين قد أرهقوا الضعفاء المؤمنين من أمرهم عسرا وصعبوا الاستمساك بالحق وجعلوه مرا فكان لابد من الجزاء انتقاما من الظالمين لتقر أعين الضعفاء ويذوقوا حلاوة الحق بعد أن ذاقوا مرارته.

وقد يسأل سائل لا يعرف آداب القرآن ولا حكمة الديان: كيف يسمى العقاب انتقاما وهو لإصلاح النفوس لا للانتقام منها، ونظرية الانتقام يبطلها علم القانون، ونقول فى الإجابة على ذلك: إن شأن الآخرة هو القصاص من جرائم الدنيا، وأما فى الدنيا فكلامهم قد يكون واردا على نظر فيه، فإن العقوبات الإسلامية للردع، والإصلاح يكون من طريقه، إذ يكون فيه عبر لمن يكون على استعداد للارتكاب، وقد قال بعض القانونيين: إن العقوبة إذا كانت من جنس الجريمة كانت أردع للجانى؛ لأنه يتصور وهو يرتكبها أن سينزل به مثل الذى ينزله بالمجنى عليه فيمتنع رهبة.

وإن ذكر العقوبات القاهرة فيه عبرة لمن يكونون على وشك الارتكاب فى الدنيا، فمن يعرف أنه سيذل يوم القيامة لا يذل الناس، ومن يعلم أنه ينال عذاب الجحيم لا يكفر ولا يؤذى عبدا.

وإن ذلك الذى يكون فيه انتقام الله تعالى من الأشرار هو يوم القيامة يوم تبدل الأرض غير الأرض؛ ولذا قال تعالى: ﴿ **يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** (٤٨) ﴾ يوم متعلق بـ(انتقام)، أى أن الله تعالى فى هذا اليوم: ﴿ **يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ...** ﴾ والتبديل قد يكون فى الذات كقولك بدلت الدراهم دنانير، ومنه ﴿ ... **بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا** ... (٥٦) ﴾ [النساء]، ﴿ ... **وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ** ... (١٦) ﴾ [سبأ]، وقد تكون فى الأوصاف كتبديل سبائك الذهب إلى حلى فنقلت من شكل إلى شكل، والجوهر واحد فى القولين، وقد يكون تغييرا بين النقيضين أو الضدين، ومنه قوله تعالى: ﴿ ... **فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ** ... (٧٠) ﴾ [الفرقان] فالعبرة فى هذا بالأثر.

وتبديل الأرض أمر واقع لا محالة، واختلف في كيفة وحاله، فقيل: تبدل أوصافها، فالجبال تتفكك وتصبر كالعهن المنفوش، وتتحرك وتضطرب وتتفجر الينابيع وتسوى الماء باليابس فلا يرى عوج ولا أمْتٌ، وقيل: إن الأرض كما هي، ولكن يتغير ناسها، ولا يكون فيها ظلم يقع، بل تكون كلها تحت سلطان القهار وروى ذلك عن ابن عباس.

فقد أنشد بعد ذلك:

وما الناس بالناس الذين عهدتهم ولا الدار بالدار الذى كنت تعلم

وتبديل السموات بانتثار كواكبها، وكسوف شمسها، وخسوف قمرها، وانشقاقها[1]، ومن الحق أن كل الكون يتغير في أحواله وأوصافه ودورانه، فالسماء تتغير، كما قال تعالى: ﴿**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ① وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ② وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ③ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ④ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ⑤ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ⑥ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ⑦**﴾ [التكوير].

وهكذا تبدل الأشياء، وتتبدل الأحوال، فبعد أن كان الظلم في الأرض بغالب الحق فإذا الحق هو الأمر الذى لا يغالبه شيء.

هذا يوم القيامة؛ ولذا قال تعالى: ﴿**وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**﴾، أى ظهروا وعلموا أنهم قد لقوا الله تعالى وقد كانوا يكذبون لقاء الله، ويعجبون من أن يعودوا بعد أن يصيروا ترابا وعظاما، ولكنه لقاء لا يسرهم، إنما هو لقاء القهار لعقابهم؛ ولذلك ذكر سبحانه وتعالى بوصفه الرهيب عندهم الذى ينقض اعتقادهم الباطل فقال: ﴿**لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**﴾، ولفظ ﴿**لِلَّهِ**﴾ يلقى وحده المهابة فى نفوسهم بعد إنكارهم لقاءه، ووصفه بـ﴿**الْوَاحِدِ**﴾ ليعرفوا أن شركهم كان باطلا، وأنه وحده الحكم العدل، فلا شفاعة لأحد، ولا لأوثانهم، و﴿**الْقَهَّارِ**﴾ صيغة مبالغة من القهر، أى أنه سبحانه وتعالى وحده الذى سيوفيهم جزاءهم مقهورين مغلوبين.

---

(١) من الكشاف بتصرف.

ولقد صور الله تعالى حالهم بعد ذلك اللقاء المفزع الذى تشخص فيه الأبصار، وهذه كقوله تعالى: ﴿ ... لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر].

﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) ﴾.

ذكر الله تعالى لهم أحوالا ثلاثة:

الأولى: أنهم مقرنون فى الأصفاد.

والثانية: أن سرابيلهم من قطران.

والثالثة: أن النار تغشى وجوههم.

وقد ذكر سبحانه وتعالى أولا وصفهم بالأجرام؛ لأن ما كسبوه من جرائم فى اعتقادهم، وفى أعمالهم، وفى إفسادهم فى الأرض عبثا وفسادا، هو السبب فيما ينالون من عقاب.

وقوله تعالى فى الحال الأولى: ﴿مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾ من قرن بمعنى جمع، وقَرَّن بمعنى شدد فى الجمع ووثق فى الأمر الجامع، والمعنى مشدودون بوثاق مجموعين فيه لتشابه جرائمهم، واتحادهم فى أوصافهم الإجرامية، ومقرنين فى أيديهم وأرجلهم بالأصفاد، جمع صَفَد، وهو القيد يقيدون به، وتغل أيديهم وأرجلهم به.

هذه هى الحال الأولى.

والحال الثانية: وهى مما ينزل بهم آحادا كما جمعوا جميعا وهى قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ والسرابيل : جمع سربال، وهو القميص الذى يلاصق أجسامهم، ويسبغها، ولا يترك فراغا بينه وبينها، والقطران هو ما استحلب من بعض الأشجار، وتهنأ به الإبل دواء لها من الجرب، ومن شأنه أنه يشتعل بالنار،

فإذا بقمصانهم المتصلة بأجسامهم اللاصقة بها نيران مشتعلة، فالنار تحوطهم من كل ناحية فى أجسامهم.

ولكن القمصان أو السرابيل لا تغطى الوجوه عادة فتجيء الحال الثالثة، وهى قوله تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾، أى النار تستر وجوههم كما ستر القطران الملتهب أجسامهم.

وكان ذلك جزاء، والإخبار به تبليغا؛ ولذا قال تعالى:

﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ (٥٢)﴾.

هذا البيان من قوله تعالى: ﴿فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ إلى بيان ذلك العذاب الذى تعم فيه النيران أجسامهم، إنما هو:

أولا: لبيان العدالة الإلهية.

وثانيا: ليبلغوا بالفعل وجزائه، والخير والشر، وما يجب عليهم.

وثالثا: للإنذار لكى يعلم أهل الشر مآلهم.

ورابعا: ليعلموا أن الله هو الواحد القهار، وأن لا شىء له صفة الألوهية إلا الله تعالى.

وخامسا: ليتذكر أهل الألباب المدركين المؤمنين، فهو ذكر لهم وإنذار لغيرهم.

أما أولها: فقد ذكره سبحانه بقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ وعبر بأن الجزاء هو ما كسبوا من عمل، فليس فى ظاهر اللفظ أنه جزاء العمل، بل هو العمل ذاته؛ وذلك للإشارة إلى المساواة التامة بين الجزاء والعمل، فكأنه هو هو، وقد أكد الله وقوعه فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فإن السرعة هنا تأكيد

للوقوع، وأن المقاربة الزمنية بالنسبة لله تعالى مؤكدة، فهو سبحانه لا تستطال على أفعاله الأزمان.

أما الأمر الثانى: وهو التبليغ، فقد عبر سبحانه عنه بقوله: ﴿هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ﴾ تبليغ من الله تعالى لكى يكون حسابهم على بينة من أمورهم، كما قال تعالى: ﴿... وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤)﴾ [فاطر].

ومن التبليغ ما جاء فى الأمر الرابع وهو أن يعلموا ﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾، هذا قصر، والضمير ﴿هُوَ﴾ يعود إلى الله تعالى، أى أنه لا إله إلا الله، فالمعبود بحق واحد، وما عداه باطل فى باطل.

والأمر الثالث قبل الرابع، وإن كنا ذكرناه أولاً لاتصاله بالبلاغ فى كلامنا وكلام الله أعلى وأحكم وأوثق.

والأمر الرابع: أن هذا الإنذار للكافرين ليعتبروا والعبرة قد تفيدهم.

والأمر الخامس: أن فيه تذكيرا لأولى الألباب، أى أولى العقول المدركين وهم المؤمنين فيزدادوا بهذا البلاغ إيمانا، والله أعلم بشرعه.

* * *

سورة الحجر

تمهيد:

أول الجزء الرابع عشر، وأوله سورة الحجر، وهى سورة مكية إلا ما قيل: إنه يستثنى مكيَّتهُ وهى الآية السابعة والثمانين، وعدد آياتها [٩٩].

وقد ابتدئت بالحروف المفردة ﴿الر﴾، وذكر بعدها القرآن الكريم ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ وقد أخبر سبحانه أنه ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ۝٢﴾ ولكن غلب عليهم الهوى، ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾، وإن بين أيديهم العبر ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤﴾ ومن لهوهم وعبثهم قولهم لنبيهم: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٧﴾، وإن الملائكة لا تنزل، وإذا نزلوا لا يؤجلهم ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨﴾، وذلك شأن الكافرين يتوارثون ذلك الفكر السقيم جيلا بعد جيل، وإن القرآن باق ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ ۝١٠ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١١ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ۝١٢ لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ ۝١٣﴾.

وإن الآيات لا تخزيهم؛ لأن قلوبهم أغلقت عن الحق ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ۝١٥﴾.

بعد ذلك أخذ ينبههم سبحانه إلى خلق السموات والأرض وما فيها من عجيب التكوين ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ

شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ (١٨) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) ﴾ وبعد هذا الخلق، وذاك التكوين كان كل شيء في السموات والأرض بأمر الله وفي قبضة يده ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) ﴾.

وإن الله تعالى ترى آثاره في خلقه من إماتة وإحياء ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) ﴾ وإذا كنتم ترون بالعيان الإحياء والإماتة فقد كان ذلك فيمن تقدم، وفيمن تأخر، ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥) ﴾.

بعد ذلك أخذ سبحانه يذكر في هذه السورة خلق الإنسان من طين فقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧) ﴾.

بعد ذلك أشار سبحانه إلى خلق آدم وسجود الملائكة له، وامتناع إبليس أن يكون من الساجدين، وغروره بأنه من نار وآدم من طين، وقد طرده الله سبحانه من جنته وقال له: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) ﴾، وأنظره الله إلى يوم يبعثون ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) ﴾.

بعد ذلك ذكر تعالت كلماته جزاء الذين يغويهم إبليس ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (٤٤) ﴾، وذكر بعد هذا جزاء الذين لم يطيعوا الشيطان ولم يستطع إغواءهم ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ

مُّتَقَابِلِينَ (٤٧) لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ (٥٠) ﴾.

بعد ذلك جاءت العبر فى القرآن الكريم، وابتدأت العبر بمن هو أقرب إلى العرب نسبا، ويعيشون فى رحاب بيت الله الذى بناه إبراهيم، فقال فى قصة إبراهيم: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا ﴾ ولأنهم ملائكة، لم يعهد فى الأرض لقاء مثلهم ـ وجل منهم، وقال: ﴿ قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ (٥٦) ﴾.

هذا تذكير بالخلق والتكوين، وأنه يجرى على حكم إرادة الله تعالى الفاعل المختار، لا بالأسباب والمسببات، كما يقول الجاهلون، وإن الأسباب لا تسيطر على فعل الله تعالى، فالأسباب تجعل الرجل لا ينجب وهو كبير فلم ينجب وهو شاب، ولكن بإرادة الله ينجب إبراهيم، وامرأته عجوز عاقر.

بعد هذا ذكر القرآن الكريم ما يكون تهديدا للفاسقين الخارجين عن أمر الله تعالى، وهم قوم لوط، قالت رسل الله تعالى لإبراهيم: ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٥٨) إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠) فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦) وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَٰؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَٰؤُلاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) ﴾.

أنزل بهم العذاب الأليم فى الدنيا، أخذتهم الصيحة فى الصباح فجعل الله تعالى عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) ﴾.

بعد هذا يرينا الله تعالى من عجائب قدرته ليعتبر العرب فى قصة أصحاب الأيكة وأصحاب الحجر، وتكذيبهم الرسل، ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤) ﴾.

ولقد أخذ سبحانه وتعالى يشير إلى العبر فى تكوين هذا الوجود، ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) ﴾.

وإذا كان خلق الله السموات والأرض وما فيه من نعم للكافة، فقد أعطاك الله نعمة القرآن: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) ﴾ ولا تلتفت إلى ما عند غيرك، فما عندك هو الأعظم وهو الجليل: ﴿ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾.

ولقد أمر الله نبيه بأن يصدع بما يؤمر به فقال: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩) ﴾.

معانى السورة الكريمة

قال الله تعالى:

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ
وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا
مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤﴾ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ
أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ
ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴿٦﴾ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ
إِذٗا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾

تكلمنا فى الحروف المفردة، وقلنا: إننا لا نعلم على التحقيق المراد منها، وإنها من المتشابه التى اختص الله بعلمه، واتباع المتشابه ابتغاء تعرفه من صنيع أهل الزيغ: ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً...(٨)﴾ [آل عمران]، وقلنا: إننا نتعرف حكمتها، ولا نتعرف المراد، وأشرنا إلى أنها سيقت لتذكير العرب بأن القرآن مكون من الحروف التى تعرفونها، ومع ذلك عجزتم عن أن تأتوا بمثله، وهذا العجز دليل أنه من عند الله؛ ولأن العرب كانوا قد اتفقوا على ألا يسمعوه أو يلغوا فيه إذا سمعوه، فكانت السور تبتدئ بتلك الحروف الصوتية فتنبههم فينقضون ما اتفقوا، وقيل: إنها أسماء للسور، أو للكتاب.

وجاء بعد هذه الحروف فى السورة ذكر الكتاب الكريم، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ الإشارة إلى السورة، أو إلى المتلو بعد هذه الحروف، والكتاب بمعنى المكتوب، وقد وصفت الآيات بوصفين أولهما: أنها آيات الكتاب؛ لأنها معجزة بذاتها، فكل آيات من القرآن معجزة تعد من الكتاب المعجز؛ ولذلك كان يتحدى بالقرآن قبل تمام نزوله، وقد وصفت الآيات بأنها مكتوبة، ووصفت بأنها مقروءة متلوة؛ ولذلك جاء معطوفا على الكتاب قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾، أى مقروء كريم؛ لأنه نزل مقروءًا من الله، ولأنه محفوظ، ولأنه سجل الشرائع السماوية، ولأنه المحفوظ الخالد إلى اليوم، فالكتاب الكريم يوصف بأنه مكتوب، ويوصف بأنه مقروء؛ لأن طريقة تلاوته من عند الله تعالى، فقد أوحى إلى الرسول فكتب وحفظ، وقرئ وحفظ متلوا كما قال تعالى لنبيه: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩)﴾ [القيامة].

فالقرآن متواتر بكتابته وبقراءته وبتلاوته، فكان حفظه فى الصدور مانعا من تحريف السطور، تلقى الناس القرآن فآمن قليل، وكفر كثير، وقد رجا المؤمنون ما عند الله وطغى المشركون، وبغوا واعتدوا وفتنوا الناس عن دينهم، وإن الله تعالى يبين أن الذين كفروا بهذا القرآن الكريم سيأتى الزمن الذى يودون فيه لو كانوا مسلمين، فيقول تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢)﴾.

يقول العلماء فى (رُبَّ): إنها لا تتصل إلا بالاسم، فإذا دخلت على الفعل توسطت ما، وربما هى رب المخففة، وقد قرئت بضم الراء وبفتحها، وهما لغتان فيها.

وقالوا: إن (رُبَّ) تكون داخلة على الفعل الماضى، ولكنها هنا دخلت على الفعل المضارع لتأكد وقوعه فكان كفعل الماضى فى معناه عند الله تعالى، وإن معنى المُضى متحقق لفظا فى ﴿كَانُوا﴾، وربما تكون للتقليل وقد تستعمل للتكثير، والمعنى أنه ربما يود الذين كفروا فى أوقات كثيرة لو كانوا مسلمين، وما

هذه الأوقات؟ قيل: هى الأوقات التى تعلو فيها كلمة الحق، وتصير الأرض العربية للمؤمنين فيها الكلمة العليا، ويكون لهم السلطان والقوة، فيتمنى المشركون الذين كفروا بالله وبالقرآن أن لو كانوا مسلمين، فإذا كانوا يغترون الآن بقوتهم، وعزتهم، ويستضعفون المؤمنين، فربما يكون العكس، ويودون لو كانوا مسلمين، وإنهم فى المنزلة عند الله ورسوله ليسوا سواء، فلا يستوى من أسلم، وفى المسلمين ضعف، ومن أسلم وفى المسلمين قوة؛ ولذا قال تعالى: ﴿ ... **لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً** ... (١٠) ﴾ [الحديد].

هذا إذا قلنا: إن الوقت الذى يكون فيه هذا الوُد، وذاك التمنى هو قوة المسلمين، وإن قلنا: إن الوقت هو يوم يرون العذاب، فإن المعنى أنهم يتمنون أن لو كانوا مسلمين لتكون لهم النجاة، حيث لا منجاة إلا بأن يكونوا مسلمين.

وقد أشار الله تعالى بهذه الآية أن المشركين، وإن استطالوا بفضل قوتهم الآن فإنهم سيتمنون أن لو كان مسلمين فى المستقبل فلا يأسى النبى عليهم، والعاقبة للمتقين؛ ولذا قال تعالى: ﴿ **ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** (٣) ﴾.

كان النبى ﷺ يتمنى: لو يؤمنون، كما قال تعالى: ﴿ **لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** (٣) ﴾ [الشعراء] ولكن الله تعالى أشار إلى نبيه أنه ليس عليه ألا يؤمنوا ما دام قد بلغ رسالة ربه؛ ولذا قال: ﴿ **ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ** ﴾، أى اتركهم يأكلوا ويتمتعوا. . . وهذه الأفعال مجزومة فى جواب الأمر، وليس تركهم سبب هذه الأفعال، إنما الترك إهمال لهم كما أهملوا النذير والاستجابة، فالترك لانغمارهم فى الشر، وابتدأ بذكر الأكل للإشارة إلى أن متعتهم من أفواههم، كمتعة الحيوان، فهم كالأنعام بل أضل سبيلا، ويتمتعوا تلك المتع المادية التى كان الأكل عنوانها ورسمها، ولا يفكرون إلا فيما هو من جنسه، كألوان الثياب والنساء، وما إلى ذلك وهم يغفلون كأنهم لا يموتون، وكأنهم المخلدون، وأملهم فى هذه الحياة يلهيهم عن التفكير فيما يسوقون إليه أنفسهم،

وأن أملهم المادى المتجدد آنا بعد آن، والذى يزيد وقتا بعد وقت - يلهيهم عن الحقيقة، ولعلهم لا يفكرون فى غاية إلا ما توحى بهم آمالهم العريضة فى جاه يريدونه أو سلطان يبتغونه، أو مال يحبونه، أو أى شهوة عاجلة أو مؤجلة يرونها، ويجمع ذلك قوله تعالى: ﴿وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ﴾.

ولقد قال ﷺ فيما روى البزار فى مسنده: «**أربعة من الشقاء: جمود العين، وقساوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا**».

وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (الفاء) لبيان أن ما قبلها سبب لما بعدها، و(سوف يعلمون) تهديد بسوء العاقبة لسوء ما يفعلون، وطيبات المآرب واللذات الدنيوية على نفوسهم، و(سوف) لتأكيد وقوع ما يفعلون ونذيره، والجملة السامية تدل على أن حالتهم توجب اليأس من إيمانهم، وقد قال الزمخشرى: «فسوف يعلمون سوء صنيعهم، والغرض الإيذان بأنهم من أهل الخذلان، وأنهم لا يجىء منهم إلا ما هم فيه، وأنه لا زاجر ولا واعظ إلا معاينة ما يُنذَرون به حين لا ينفعهم الوعظ، ولا سبيل إلى اتعاظهم قبل ذلك، فأمر رسول الله تعالى بأن يخليهم وشأنهم، ولا ينشغل بما لا طائل تحته، وأن يبالغ فى تخليهم بما لا يزيدهم إلا ندما فى العاقبة، وفيه إلزام للحجة، ومبالغة فى الإنذار، وإعذار فيه، وفيه تنبيه على أن إيثار التلذذ والتنعم، وما يؤدى إليه طول الأمل وهذه هى حال أكثر الناس من ليس على من أخلاق المؤمنين، وعن بعضهم التمرغ فى الدنيا على أخلاق الهالكين، هذه حال المشركين، وقد ضرب لهم الأمثال وبين العبر بأحوال الماضين فقال تعالى: ﴿مَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٥﴾﴾.

الكتاب هنا الأجل، أى أن أية قرية أهلكت كان لها أجل معلوم، وهذا فيه تسلية للنبى ﷺ وتهديد لهم بأنه إذا كان قد أهمل أهل الشرك حتى طغوا وتجبروا واستكبروا فليس ذلك إهمالا لجرائمهم، وما من قرية، أى مدينة جامعة أهلكها إلا لأجل معلوم، فانتظروا كتابكم الذى كتب لكم أيها المشركون، فإما أن تخذلوا

بسبب مقاومتكم للرسالة، وتذلوا للحق، والذلة للحق هى العزة، وذلك إذا كان يرجى الإيمان فى ذرياتكم، وإما أن يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، كما أخذ عادًا وثمود، وآل مدين، ومن قبلهم قوم نوح، ثم كما أخذ فرعون ذى الأوتاد، وسائر الذين طغوا فى البلاد.

وإذا كان قد تركهم أمدا، فلأنه سبحانه قد قرر ذلك فى علمه المكنون.

ولذا قال تعالى: ﴿**مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ** ⑤﴾، وقد عبر سبحانه وتعالى هنا بـ ﴿**أَجَلَهَا**﴾ للإشارة إلى أن الكتاب والأجل بمعنى واحد، والتعبير فى الأولى بالكتاب للإشارة إلى أنه مكتوب مسجل مكنون معلوم عند الله تعالى، وعبر فى الثانية بـ (أجل) للإشارة إلى أن له ابتداء وانتهاء، لا تسبق الأمة أجلها وإن طغت وبغت، ولا تستأخره، أى لا تطلب تأخيره، ولو طلبت ما أجيبت؛ ولذا عبر فى الأولى بـ (تسبق)، وفى الثانية بـ (تستأخر)، فمهما طغت لا تسبق أجلها، ومهما طلبت لا يؤخر أجلها، وفى التعبير بقوله تعالى: ﴿**وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ**﴾ إشارة إلى أن العاقبة ليست محمودة لهم، فمن شأنها أنهم يطلبون تأخيرها، ولكن مهما يطلبوا لن تؤخر، بل إنها نازلة فى وقتها لا محالة، وقد كانت الهجرة فى ميقاتها، وكانت الحرب الدائرة عليهم حتى كان أمر الله تعالى، وكان قدرا مقدورا، ولقد ذكر الله بعض شر ما قالوا فقال: ﴿**وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ** ⑥﴾.

هذه صورة من طغيانهم، طغت الأوثان على تفكيرهم، حتى حسبوا من يدعو إلى التوحيد مجنونا، وأكدوا جنونه وقالوا مخاطبين النبى ﷺ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ**﴾ النداء للبعيد، لكبر الدعوى التى يدعونها، وهى جنون النبى ﷺ، و﴿**الذِّكْرُ**﴾، أى المذكر لهم ببطلان عبادة الأوثان، وأنها أحجار لا تضر ولا تنفع، وتسميته بالذكر من الله تعالى لا منهم؛ لأنهم لو علموه ذكرا ما أنكروه، والجملة كيفما كان أمرهم ساقوها متهكمين لاذعين بالقول، كما حكى الله تعالى عن الملأ من آل فرعون: ﴿**قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ**

لَمَجْنُونٌ (٢٧) ﴾ [الشعراء]، فالكلام سوق لبيان تهكمهم على رسولهم، وإن كان فيه إشارة إلى التنديد بهم، وهو أنهم بدل أن يعتبروا ويتذكروا يتهكمون مع أنه ذِكْرٌ لهم.

وقد أكدوا دعواهم بجنونه فقالوا: ﴿ **إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ** ﴾ خاطبوا النبى ﷺ بذلك الخطاب الذى يبهت كلَّ عاقل مدرك، أكدوه بـ(إنّ) التى لتوكيد القول، وبالجملة الاسمية، وباللام، وإن هذا يدل على شدة تمسكهم بعبادة الأوثان حتى عدوا كل من يدعو إلى تركها مجنونا، ويدل على شدة طغيانهم وأنهم لا يذعنون للحق، وإن دلت عليه دلالة واضحة بينة، ويدل ثالثا: على إمعانهم فى إيذاء النبى ﷺ ومن معه من المؤمنين وبعد أن سارعوا بالإنكار، وادعاء أن النبى ﷺ جاءهم بغير المعقول، تعنتوا وزعموا أنهم يطلبون دليلا ﴿ **لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧)** ﴾.

(ما) نافية، و(لولا) نافية، إذا دخلت (لو) على (لا) ـ كانت بمعنى الامتناع للوجود مثل قوله تعالى: ﴿ ... **لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١)** ﴾ [سبأ]، وتكون بمعنى الحض مثل قوله تعالى: ﴿ ... **لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً** ... (٣٢) ﴾ [الفرقان] مع امتناع الشيء الذى يحض عليه، وهو ما قبل (لا)، فإنها تدل على الحض، وعلى الامتناع لعدم وجود شيء فقوله تعالى: ﴿ **لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ** ﴾ معناها الحض على أن تأتى به الملائكة، وعلى أن الامتناع عن الإيمان لأنه لم تأت به الملائكة، بيد أنه يلاحظ أن (لا) تدل على النفى فى الحال والاستقبال، و(ما) تدل على النفى فى الماضى، وقد جمع فى هذه الآية الكريمة بين (ما)، وفعل المضارع بعدها، فدلت على أن الامتناع عن الإيمان فى الماضى لعدم إتيان الملائكة به، وأنهم مستمرون على عدم الإيمان ما دامت الملائكة لم تنزل به.

وقد رد الله كلامهم الدال على الإمعان فى الكفر، والتعلة للإيغال فيه، فقال فى آية أخرى: ﴿ **وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩)** ﴾ [الأنعام] وتعنتوا بهذا وبغيره، واقرأ ما جاء أول سورة الأنعام، فقد قال الله تعالى ردا عليهم: ﴿ **وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ**

هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ (٨) ﴾ [الأنعام].

وفى الآية الكريمة التى نتكلم فى معناها رد الله تعالى قولهم بقوله تعالت كلماته: ﴿ **مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ (٨)** ﴾.

قوله تعالى: ﴿**مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ**﴾ فى هذا إشارة إلى إمكان إنزال الملائكة، وإنه ليس ثمة أمر يتعذر على الله خلقه، وقد نزل الملائكة إلى أرض قوم لوط فجعلوا عاليها سافلها، وعبر بـ﴿**نُنَزِّلُ**﴾ إشارة إلى أن نزولها لا يكون دفعة واحدة بل تتوالى النزول، وقتا بعد آخر.

وقوله تعالى: ﴿**إِلاَّ بِالْحَقِّ**﴾، أى إلا بسبب باعث من الحق فى ذاته بأن تكون حكمة فى نزولهم، ومصلحة فى خطابهم، فالله تعالى ما خلق شيئا عبثا، وما جعل الأمور سدى تنزل الملائكة حيث يبتغى المشركون ويريد الكافرون، وإن لم يكن جدوى من نزولهم، وإن حالهم حال إنكار، لا تحتاج إلى دليل، فإن نزلوا قالوا هؤلاء رجال لا ملائكة كما تلونا قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩)** ﴾ [الأنعام].

وإنهم إن أنزلوا كما طلبوا لكانت القاضية عليهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿ **وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ** ﴾، أى ما كانوا مؤجلين إلى يوم القيامة إذا نزلوا، والله تعالى بحكمته العالية قدر للمشركين من العرب أن يكون من ذريتهم ومن الجاحدين أنفسهم أمة مؤمنة تحمل عبء التبليغ بعد رسول الله ﷺ؛ لأن شريعته ـ وهو خاتم النبيين ـ يجب أن تكون معجزته باقية ببقاء شريعته الخالدة، ورسالته الدائمة التى لا تنقطع؛ ولذا كانت معجزة القرآن آى من نوع الذكر الدائم الذى يحمل دلائل إعجازه، ويتحدى الأجيال إلى يوم القيامة، فقال تعالى: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)** ﴾.

أضاف سبحانه وتعالى القرآن العظيم إلى الذات العلية المقدسة فاستفاد بهذه الإضافة شرفا إضافيا فوق شرفه الذاتى الذى جعله الله تعالى كذلك، واستفاد بهذه الإضافة أيضا أنه نزله بالحق الذى وعد به وقال: ﴿**مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ**﴾، فما نزله إلا بالحق والأمر الثابت، وهو أنه باق مادامت الشريعة والرسالة باقيتين، وإنهما لباقيتان.

وقد ذكرنا فى مواضع كثيرة أن معجزة القرآن من نوع الكلام؛ لأنه ليس حادثة تنتهى بانتهاء زمانها، بل هو كتاب محفوظ قائم تقرأه الأجيال، ويتحداها جميعا، ولقد روينا من قبل قول النبى ﷺ: «**ما من نبى إلا أوتى ما مثله آمن عليه البشر، وكان الذى أوتيته وحيا، وإنى لأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة**».

وقد تعهد الله العلى الكبير بحفظه ليخاطب الأجيال إلى يوم القيامة، فقال: ﴿**وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ أضاف الحفظ إليه سبحانه، فكان ذلك تمكينا وتوكيدًا.

وقد حفظه الله تعالى كما وعد من التغيير والتبديل والتحريف والتصحيف فأوجب حفظه مرتلا، كما قال تعالى: ﴿ ... **وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً** (٣٢) ﴾ [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿ ... **وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً** (٤) ﴾ [المزمل]، وقد علم النبى ﷺ صحابته ترتيله، وعلموه من بعدهم، واقتضى ذلك أن يعتمد فى حفظ القرآن على الصدور، ولا يكون الاعتماد على السطور وحدها؛ لأنه يمكن فيها التغيير والتبديل، والصدور تمنع ذلك، ولا تزال تطلع على طائفة من اليهود، تريد أن تجعله كغيره من الكتب، فيبين حفظةُ القرآن الكريم إفساد فعلهم الدنىء.

وحفظت شريعته من التغيير والتبديل، فهى قائمة وإن حاول بعض المنافقين الذين يدهنون للحكام تحريفها عن مواضعها بتحليل ما حرم الله، والله من ورائهم محيط.

الكفر كله ملة واحدة

قال الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

إن حقيقة الكفر واحدة، وإن تعددت الأجناس والأنواع واختلفت الألوان، فالإنسان هو الإنسان لا تختلف حقيقته، وإن اختلفت الصور، فالمؤمن حقيقته واحدة، وإن اختلفت الأزمان، والكفر ملة واحدة، وإن اختلف الأقوام، فما تراه فى مشركى مكة يرى فى غيرهم ممن مضوا.

ولقد قال مسليًا نبيه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ هنا اسم مفعول محذوف دلت عليه كلمة أرسلنا رسلا من قبلك، وقد كان لهم ما يكون لك من الذين يعتقدون اعتقادا باطلا، ويستمسكون به ويكونون فرقًا وشيعًا يتشيعون لها، فقوله فى ﴿ شِيَعِ الأَوَّلِينَ ﴾، أى فى جماعات متشيعة لفكرة واحدة، يتعصبون لها ولا يخرجون عنها، وأصل الشيعة من الشياع، وقد قال البيضاوى فى ذلك: «جميع شيعة، وهى الفرقة المتفقة على طريق ومذهب، من شاعه إذا اتبعت، وأصله الشياع، وهو الحطب الصغار توقد به الكبار».

وعبر سبحانه وتعالى بشيع الأولين؛ للإشارة إلى أنهم لم تكن خالية أذهانهم، بل كانت مملوءة، ولكن بزور من الفكر والقول، يتعصبون له على غير بينة، ويشيع بينهم من غير تفكير، ويتبعوه خلفا عن سلف، ويقولون: ﴿ ... بَلْ

نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [البقرة]، فإذا كان محمد ﷺ قد عانى من هؤلاء المشركين الذين يتشيعون لأوثانهم، فقد عانى الرسل قبلك نفس المعاناة من شيع الأولين، فاصبر يا محمد كما صبروا.

وقد ذكر سبحانه وتعالى حال هؤلاء الرسل مع تلك الشيع المتجمعة على الباطل فقال: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

(الواو) تصل الجملة التى سبقتها بالجملة التى لحقتها، وهى موضع السلوى لمحمد ﷺ من إيذاء الضعفاء أصحابه الذين لا يملكون حولا ولا طولا، ولا جوارا يدفع عنهم، واستهزاء بالدين الحق، وصاحبه وأتباعه، ومعنى الجملة السامية (لا يأتيهم، أى رسول ﴿ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾)، فـ﴿ مِّن ﴾ هنا صلة لبيان عموم النفى، والاستهزاء به، أى لا يأتيهم أى رسول فمهما يكن ما عليه من خلق كريم، ومهما يكن ما يأتى به من حق مبين إلا جعلوه والحق الذى معه موضع استهزائهم وسخريتهم، وذلك لفساد عقولهم، وسفه أحلامهم، وكان ذلك اختبارًا لصبر الرسل، وقد صبروا.

ويقول الزمخشرى: «إن قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ ﴾ حكاية لحال ماضيه؛ لأن (ما) لا تدخل على مضارع إلا وهو فى معنى الحال، ولا على ماضٍ إلا وهو قريب من الحال، ولعل مراده أنهم استمروا على هذه الحال فى الماضى، فالواقع بك من سخرية واستهزاء هو استمرار لحال وقع بعضها فى الماضى، ويقع الباقى معك، ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ... ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأحقاف].

وإن ذلك شأن الإجرام فى الحاضر والماضى يدخل بالاستهزاء فى قلوب المجرمين، ولذا قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾.

والسلك إدخال الشىء فى غيره كإدخال الخيط فى الإبرة، والرمح فى المطعون، والسهم فى الهدف، والضمير فى ﴿ نَسْلُكُهُ ﴾ يعود إلى الضلال والتعصب والاستهزاء، وهذا كله مفهوم من سياق الكلام، ويصح أن يعود الضمير

إليه على أنه معنى تضمنه القول، والمؤدى على ذلك كذلك الذى كان من السابقين من الأمم الذين سبقوا قومك من الاستهزاء برسلهم، والضلال والحماقة، نسلكه وندخله فى قلوب المجرمين من قومك، وأظهر فى موضع الإضمار، لوصفهم بالإجرام فى هذا المسلك الذى سلكوه سيرا على نمط ماضيهم من المجرمين، فالإجرام متصل الحلقات بعضها آخذ بحجز بعض، لا ينفصل عنه، ولا ينفصم عنه.

وإن هذه الأخلاق من كفر وضلال وتعدٍّ على أهل الحق إذا سلكت فى قلوب أصحابها، لا ينفضون عنها ولو تطاول عليهم الأمد؛ ولذا قال تعالى: ﴿لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ (١٣)﴾ الضمير فى ﴿بِهِ﴾ يعود إلى الذكر، وهو الحق الذى يوجب الإيمان، وهذه الجملة مقررة لما قبلها؛ لأنه إذا كان الباطل قد دخل فى قلوبهم دخول الخيط فى المخيط، فإنه لا يمكن أن يجتمع والحق فى قلب واحد، فلا يمكن أن يؤمنوا بالذكر الحكيم، ﴿وَقَدْ خَلَتْ﴾، أى مضت سنة الأولين أى طريقتهم.

وفى ذكر هذه الجملة السامية ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ إشارة إلى أمرين: إلى استمكان الكفر والضلال فى نفوسهم، وقراره فيها، وأنه لا رجاء لمن كان على هذه الحال، والثانى إشارة إلى مآل أولئك الماضين من هلاك وعصف بهم، وإذا كان ذلك ما ناسب الماضين، فما يناسب الحاضرين هو سلم مخزية بعد حروب مجلية مع الحق.

وإذا كان ذلك ما كتبه الله تعالى عليهم كما كتب على من سبقوهم، فلا تظن أيها الرسول الأمين أن كفرهم لنقص فى المعجزة التى جئتهم بها، إنما ذلك لأنهم صدوا عن الحق، فلو جئت بالمعجزات التى لا يمارى فيها العقلاء لماروا فيها، وادعوا ضلال أبصارهم.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (١٥)﴾.

طلبوا أن تنزل عليهم الملائكة، وأقسموا بالله لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها، ولو جاءتهم لا يؤمنون، فالله تعالى يبين أنهم لو رفعهم إلى الملائكة وفتح لهم بابا يرتفعون إليه، فقال: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) ﴾، أي فتحنا عليهم فرجة من السماء واتجهوا إليها فاستمروا فيها يرتفعون بها صاعدين إليها، حتى يروا الملائكة عيانا بيانا، ما آمنوا و﴿ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا ﴾، أي سحرت أعيننا، أو سدت علينا مسام الإدراك، ﴿ بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ الإضراب للترقي في الحكم من سحر أبصارهم إلى سحر كل أجسامهم، وليسوا آحادا بل إنهم قوم مسحورون.

وهكذا تجد الكفر قد استقر في قلوبهم فلا يؤمنون بأية آية ولا يصدقون أي دليل، فذرهم في غيهم يعمهون ولا تلتفت إليهم ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ... (١٢٥) ﴾ [النحل].

بدائع الخلق والتكوين

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾
وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ
فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا
رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا
مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا
خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ
لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ

بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾
وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

بعد أن ذكر سبحانه حال الجحود الذى استمكن فى قلوب المشركين حتى صاروا بحال يكذبون لها حسهم، وأنهم إذ كذبوا القرآن عنادا وجحودا، فإنهم يكذبون كل شيء مهما يكن مرئيا رأى العين، حتى إنهم لا يقتنعون بما يراه حسهم، فلو عرجوا إلى السماء لأنكروا وقالوا: إن أعيننا سكِّرت، وصرنا حيارى كالسكارى، وإن محمدا خَيَّل إلينا ما لم نره.

بعد هذا أخذ يبين ـ سبحانه ـ عجائب التكوين فى خلقه، حتى إن هذه المخلوقات تعلن بالبداهة عن منشئ الكون، وأنهم إذ ضلوا عن هذا، فإن شيئا لا يقنعهم من بعد هذا الضلال.

قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ** ﴿١٦﴾ ﴾، ﴿ **جَعَلْنَا** ﴾ بمعنى صيرناها بعد أن أنشأناها وأبدعناها على غير مثال سبق، و(البروج) جمع برج، وهو القصر، والمنزل، والبروج هنا منازل النجوم، أى أن كل نجم فى منزله الذى أحله الله تعالى فيه، وارتبط بغيره عبر هذا الوجود، بحيث يكون كل نجم فى مكانه ومداره لا يحول عنه ولا يحور، وكأنها مبنية بناء محكما لا فروج فيها ﴿ ... **وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ** ﴿٦﴾ ﴾ [ق] فالارتباط بينها ثابت بما يسمونه الجاذبية التى تشد بعضها ببعض، كما قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ** ﴿١٦﴾ ﴾، أى أنها فى منظرها وإحكامها زينة فى ذاتها، وجعلها الله تعالى بهجة للأعين، كما قال فى آية أخرى، ﴿ **وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ** ... ﴿٥﴾ ﴾ [الملك]، وكما قال تعالى فى سورة «ق»: ﴿ **أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ** ﴿٦﴾ ﴾ [ق].

وإن الله سبحانه وتعالى بناها ذلك البناء المحكم الدقيق الذى ارتبط ارتباطا وثيقا، وحفظها؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾، و(الشيطان) هو المفسد العابث، و﴿رَّجِيمٍ﴾ بمعنى مطرود ملعون مبعد عن رحمته سبحانه وتعالى، وهذا التعبير السامى فيه إشارة واضحة إلى أن الله سبحانه وتعالى خلق هذا الكون العظيم، وحفظه من أن يتطرق إليه فساد أو عبث عابث.

ومن هم الشياطين الذين حفظ الله السموات منهم، ووصفهم سبحانه وتعالى بأنهم مرجومون مطرودون من رحمته ملعونون؟ لم يبين من هم، ولم يرد فى السنة من هم، فلنكتفِ بما بين، غير متزيدين على كتاب ربنا.

ثم قال سبحانه: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾.

الاستثناء هنا يصح أن يكون منقطعا عند بعض المفسرين، ويكون المعنى لكن من استرق السمع، وعلم بعض الأمور التى لا يصح إعلانها من أسرار هذا الكون السامى، ولا يكون ذلك إلا بتقدير الله تعالى.

وعندى أن الاستثناء متصل؛ لأن (الفاء) فى قوله: ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ وهى تفيد ترتب ما بعدها على ما قبلها تبعد أن يكون الاستثناء منقطعا، وإذا كان متصلا يكون المعنى حفظه سبحانه من كل شيطان مرجوم أن يتطاول فيعبث، وأقصى ما يصل إليه أن يسترق السمع، أى أن يأخذ معلومات عن طريق الخفية كمن يسترق السمع، تصديقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشعراء].

وإن هذا الذى يكون كمن يسترق السمع، ويتخذ ذلك طريقا لمعرفة ما لم يعرف، لا ينجو، بل ينزل الله تعالى عليه ما يحرقه، قبل أن يكشف علم ما نهى عنه؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ والشهاب كوكب مضىء، كما قال تعالى: ﴿... فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الصافات] فهو نار مشتعلة أو شعلة مضيئة، ويقول ابن عباس: تصعد الشياطين أفواجا تسترق السمع، فينفرد منها، فيرمى بالشهاب.

وإن هذا لتصوير حكيم لحفظ الله السماوات من أن يكون فى السموات مفسدون، كما فى الأرض من يفسد فيها، وهم شياطين خارجون عن الطاعة كشياطين الإنس والجن فى الأرض.

وقد فهم بعض الناس من هذه الآية أنها تشير إلى علم النجوم، وعلم حركاتها، وتعرف أسرار الحظ من هذه الحركات، ولكنا نقول: إن الآية الكريمة بمنأى عن هذا، والله سبحانه وتعالى أعلم بالكون ظاهره وباطنه.

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى بدائع خلقه فى السموات وصيانتها من كل عابث، وحفظها إلى ما شاء الله تعالى أن تبقى، وبعد ذلك أشار إلى نعمائه على أهل الأرض فيما أنعم فقال تعالت كلماته:

﴿ **وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ** (١٩) ﴾.

﴿ **مَدَدْنَاهَا** ﴾ بسطناها ليسهل الانتقال فيها، والإقامة فى أجزائها، وتبدو مبسوطة سهلة مع أن تعاقب الليل والنهار يدلان على أنها تدور حول الشمس، وأنها كرة سابحة فى الفضاء بقدر معلوم، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا** (٣٠) ﴾ [النازعات]، ﴿ **وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ** (٤٨) ﴾ [الذاريات]، فكان خلق الأرض، ومدها، ودحوها نعما مكنت الإنسان من الانتفاع بها، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ **وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ** ﴾. رواسى جمع راسٍ أى ثابت، يثبت الأرض بثقله، كما قال تعالى فى آية أخرى: ﴿ **وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا** (٧) ﴾ [النبأ].

وإنه من تلاقى السماء الدنيا بالأرض يكون المطر الذى ينبت به كل شىء، وكما قال تعالى: ﴿ ... **وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ** ... (٣٠) ﴾ [الأنبياء]، فمن هذا المطر يكون الغيث الذى ينبت به النبات؛ ولذا قال تعالى: ﴿ **وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ** ﴾ وموزون معناها مناسب مقدر بقدره الذى يكفى أهلها، ويجعل إقامتهم فيها طيبة راضية، وقد وزنها خالق كل شىء ولتكون للأحياء عليها غير

منقوصة، بل كاملة تجعلهم فى بحبوحة وسعادة كاملة لو أحسنوا فيما بينهم، ولعل فى ذلك ردا على الذين يدعون إلى نقص سكان الأرض بدعوى أن الأرض ضاقت بمن فيها، وكما قال الذين يريدون أكل الشعوب الضعيفة وإبادتها، أو أن تكون طعما لهم أن الإنسان تكاثر نسله، فليحد ذلك التكاثر، إن بكر الأرض والماء اللذان لم يستغلا أكثر وفرا وأدر خيرا، إن خالق الإنسان هو الذى جعل النبات بقدر موزون، وهو الخلاق العليم.

ثم بين سبحانه المخلوق، ووزن حاجته فقال تعالت كلماته:

﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) ﴾.

وجعل لكم فى الأرض معايش، أى مكنكم من أن تتخذوا معايش لكم من طعام موفور، وثياب سابغة، ومأوى تأوون إليه، مكنكم سبحانه وتعالى، لكم ولأولادكم، وكل من يكونون فى عيالكم، والضعفاء الذين تعاونونهم، مكنكم من هذه المعايش ومكن حيواناتكم الأليفة من الرزق، وعبر عن هؤلاء الأتباع بقوله: ﴿ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾، أى أتباعكم الذين لا ترزقونهم أنتم، بل الله تعالى هو رازقهم، ليعلموا أنهم لا يرزقون أولادهم حتى يقتلوهم أو يؤذوهم، بل الله تعالى هو الرزاق ذو القوة المتين، وقد قال البيضاوى فى قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾ «يريد به العيال والخدم والمماليك، وسائر ما يظنون أنهم يرزقونهم ظنا كاذبا، فإن الله يرزقهم وإياكم، وفذلكة الحياة الاستدلال بجعل الأرض ممدودة بمقدار وشكل معينين مختلفة الأجزاء فى الوضع مُحدثة فيها أنواع النبات والحيوان المختلفة خلقة، وطبيعة، مع جواز ألا تكون كذلك على كمال قدرته، وتناهى حكمته، والتفرد فى الألوهية، والامتنان على العباد بما أنعم عليهم من ذلك ليوحدوه.

ولقد ذكر سبحانه وتعالى أن كل شىء عنده بمقدار، وأن كل شىء عنده خزائنه، فقال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) ﴾.

(إن) هنا نافية، و(من) صلة لبيان عموم النفى، والمعنى ما من شىء إلا عندنا علمه، والمكان الذى يكون منه، ونحن الذين نظهره إن أردناه ولا ننزله إلا بقدر معلوم.

فالمراد كمال السلطان، وإحكام الخلق والتكوين، وبسط الرزق، وتقتيره، الله يبسط لمن شاء ويقدر، وقد يعطى العاصى إملاء له ليكون عقابه، وقد يمنع التقى اختبارا لصبره ورجاء ثوابه، وكل له ثواب وجزاء، فالعطاء بيد الله، والتعبير بقوله تعالى: ﴿**عِندَنَا خَزَائِنُهُ**﴾ مجاز عن علمه سبحانه وتعالى المحيط بكل شىء، وبأنه سبحانه وتعالى الموزع للأرزاق، وأنه المختبر للناس بعطائه ومنعه، فهو يختبر من يعطيه بالعطاء ليكفر النعمة أو يشكرها، ويختبر من يمنعه ليصبر أو يجزع، وكل بقدر معلوم، لا يكون عفوا من غير تقدير، بل بإحكام وتدبير.

وقد ذكر سبحانه وتعالى بعض أسباب الرزق فقال تعالت كلماته:

﴿**وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ** (٢٢)﴾.

أرسلها أطلقها، والرياح بالجمع، ولواقح جمع لاقحة، وفى تفسير لاقحة نظران أحدهما - أنها محملة بالماء أو مثيرة للسحاب المحملة بالماء، كما قال تعالى: ﴿... **وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ** (١٢)﴾ [الرعد]، وكأنها شبهت بالحامل لإثمارها وإنجابها؛ وذلك لأن المطر يتكون من بخار الماء، ويتكاثف حتى يصير سحابا، والرياح تحرك هذه السحب من مكان إلى مكان حيث تصادف جوا باردًا، فتنزل أمطارا، ويزكى ذلك النظر قوله تعالى: ﴿**فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ**﴾ فذكر الماء بعد ذلك دليلا على أنها تثير السحاب المملوء بالماء، وذلك ما سوغ وصفها باللواقح. والنظر الثانى- أن تكون الرياح حاملة بذور التلقيح للأشجار فهى تحمل بذور الذكورة أو الأنوثة، وعندى أن النظرين يمكن الجمع بينهما، إذ لا تعارض، فالرياح لواقح باعتبارها حاملة أسباب اللقاح، كما

يلقح فحل الحيوان أنثاه، وباعتبارها مثيرة للسحاب الثقال المملوءة ماء، وينزله الله تعالى حيثما أراد وفى أى أرض شاء، فإنه لا تخرج حركة عن حركة إلا بإذنه.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾، (الفاء) هنا لبيان أن ما بعدها سببا لما قبلها، أى أنه بسبب هذه الإثارة التى أثارتها الرياح أنزل سبحانه وتعالى الماء من السماء، ليسقى الزرع والغراس، والأعشاب التى يكون منها طعام الإنسان والحيوان، وكل ما يدب على ظهر الأرض.

والسببية هنا ليست سببية فاعلة أو باعثة إنما هى سببية اقتران، و(جعل)، أى جعل الله تعالى هذا سببا ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾، (الفاء) عاطفة على (أنزلنا)، وجعل الخطاب بالسقى للناس مع أنه لسقى الزرع والعشب والأشجار والإنسان؛ لأن سقى الإنسان أعظم وأقوى؛ ولأن سقى ما عدا الإنسان هو للإنسان فى غايته ونهايته، فكان الإسقاء للإنسان فى الابتداء والانتهاء، ولكنه يكفر بنعم الله تعالى: ﴿... إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾ [إبراهيم] ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ (الباء) فى قوله تعالى: ﴿بِخَازِنِينَ﴾ لاستغراق النفى، أى أنتم ليس لكم أى عمل فى خزن هذا الماء فى السحاب، وكأنه شبه السحاب بمخزن للماء خزن فيها؛ إذ يخرج من الأرض بخارا ثم يتكاثف فيها ثم يوزعه سبحانه وتعالى فى الأرض بتصريف الرياح، أى ليس أحد منكم معشر الناس بخازن هذا الماء ومصرف الرياح به وموزعه فى كل بلد حسب حاجته، وحسب عطاء الله تعالى له، سبحانه إنه هو الخلاق العليم.

وإن الله سبحانه وتعالى هو المنشئ، والقائم على كل ما خلق، وهو الذى يبدأ الإبقاء والإفناء؛ ولذا قال: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣)﴾.

أكد سبحانه أنه هو وحده المحيى والمميت أكده بضميره الأعظم، وأكده بنحن، وهو توكيد لفظى، وأكده باللام، وأكد الإحياء ولم يؤكد الممات؛ لأن الإحياء غير مرئى، وإنما تظهر آثاره فى الحياة، ولم يؤكد القرآن الحكيم الممات؛

لأنه مرئى محسوس، يرى كل يوم، فما لا يظهر للحس وهو الإحياء أكده، وما يظهر للحس الحس يؤكده، وقد أخبر سبحانه أن الجميع بعد الموت يقول إليه سبحانه وتعالى؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ فالجميع يئول إليه كما يئول الميراث للوارث.

وإن الله هو الذى أحيا، فهو الذى أنشأ الكون كله، وهو الذى أنشأ الإنسان من سلالة من طين كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦)﴾ [المؤمنون].

وإن قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ يومئ إلى ما صرح به سبحانه وتعالى، من البعث فى الآية التى تلونا، والآيتان تشيران إلى أن من أحيا وأمات قادر على الإعادة، كما قال تعالى: ﴿... كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩)﴾ [الأعراف]، ﴿... وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)﴾ [البقرة].

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤)﴾.

﴿الْمُسْتَقْدِمِينَ﴾، السين والتاء للطلب، وكذلك فى ﴿الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾، ومعنى السين والتاء هنا طلب الإيغال فى التقدم والإيغال فى التأخر، فالذين تقدموا إلى أبعد التقدم، والذين تأخروا إلى أعمق التأخر فى علم الله تعالى، وعلمه الماضى والحاضر على سواء، ولقد أكد علمه بالمتقدم، وعلمه بالمتأخر بأبلغ المؤكدات، فأكد باللام وبقد وكلاهما لتأكيد التحقيق.

والمتقدم يشمل المتقدم فى الخلق والإحياء والموت، والمتأخر كذلك، كما يشمل المتقدم فى الطاعة والإجابة والمتأخر فيها، والله سبحانه عليم بكل ذلك فى ميقاته، وإذا كان عنده علم ذلك، فهو يعرف أين يكونون وفى أى زمان كانوا ويكونون، وعلى أى حال هم أكانوا رميما، أم كانوا فى حجارة أو حديد، كما

قال: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١﴾ [الإسراء].

وإذا كان يعلمهم جميعا، فإن البعث لهم جميعا، وسيحشرهم إليه جميعا؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝٢٥﴾.

إن ربك خالقك ومربيك والقائم على شئون كل حي، العليم بأدواره من يوم وجد حيا إلى أن يُرمس ميتا، فالتعبير بـ ﴿رَبَّكَ﴾ تذكير بالتكوين واستمرار القيام على ما كون ومن كون، والضمير ﴿هُوَ﴾ للدلالة على أنه هو الذى أنشأ وهو الذى يحشر، فهو حجة على الإمكان، وأن ذلك لا يستحيل، لأنه أوجده أولا، فهو يعيده ثانيا، و﴿يَحْشُرُهُمْ﴾، أى يجمعهم، وعبر بـ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ للدلالة على كثرتهم ولقائهم فى وقت واحد؛ لأن جمعهم كذلك فى وقت واحد، ويكونون أمام الله تعالى فى يوم واحد هو يوم تقوم الساعة وإن ذلك من دواعى حكمته، وعلمه الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض، ولا فى السماء؛ ولذا قال تعالى فى مقام الآية الكريمة: ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾، أى أن ذلك اقتضته حكمته. كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ۝١١٥﴾ [المؤمنون] وهو عليم أين يكونون، وعلى أى حال، ولو كانوا حجارة أو حديدا فسيعيدهم، إنه عليم بكل شىء.

قصة خلق الإنسان والجن

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ
مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ
ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن

صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن
رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ
أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾
قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن
لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ
فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ
مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ
أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾
إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ
مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ
ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾

ذكرت قصة خلق الإنسان وإبليس قبل ذلك، وليس فى ذكرها الآن تكرارا لما ذكر أولا وثانيا، بل إن لكل واحدة عبرة فى ناحيتها، وكلها يشترك فى أمرين ثابتين، وهو أن الله تعالى كرم الإنسان، فجعله فوق الجن والملائكة، إن استقام على طريقه، والثانى أن الله تعالى كرمه منذ بدء الخليقة وفى كل مرة من ذكر القصة تفصيل لأمور لم يكن فى المرة الأخرى، ففى مرة ذكرها فى سورة الأعراف، كيف كان الإغواء، وكيف قاسمها أنه لهما من الناصحين، وفى هذه المرة صارح بالإغواء وإصراره عليه، ونتيجة هذا الإغواء، وفى السابقات لم يكن تصريح بهذا، ولنرو القصة الحق، كما نتلوها من القرآن الكريم.

ذكر سبحانه وتعالى خلق الإنسان، فقال عز من قائل: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) ﴾ الصلصال هو الطين اليابس، وروى ذلك عن ابن عباس، وقال مجاهد: هو الطين المنتن، أى الطين العطن وذلك بيان لصغر أصل الإنسان حتى لا يستكبر ويغتر، ونحن نميل إلى رأى ابن عباس رضى الله عنهما وقوله: ﴿ مِّنْ حَمَإٍ ﴾ الحمأ: الطين، و(من) ابتدائية، أى خلقناه من طين يصلصل، ﴿ مَّسْنُونٍ ﴾، أى شكل بأى شكل، وليكن شكل إنسان.

هذا خلق الإنسان أو أصل مادة تكوينه، أما الجن فقد قال تعالى: ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧) ﴾ والجان الجن الذى منه إبليس اللعين، والسموم الرياح الشديدة الحرارة التى تنفذ فى المسام، وذكر أنه كان من قبل خلق آدم بدليل أن إبليس أمر بالسجود لآدم.

وهنا فى هذا النص لم يذكر آدم على أنه خليفة فى الأرض، وذكرت هنالك المفاضلة بينه وبين الملائكة فى العلم ولم تذكر هنا، ولا تعارض بل توافق من غير مقابلة مضادة.

ويقول سبحانه وتعالى فى طلب السجود: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ﴾، أى شكلته على الخلق السوى فى أحسن تقويم ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ قال سبحانه بعد قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) ﴾، وقوله تعالى: ﴿ فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ معناه خروا له ساجدين، سجود إجبار وتكريم لا سجود عبادة، فالعبادة لله تعالى وحده لا شريك له، ويقول الزمخشرى فى قوله تعالى: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ وأحييته، وليس ثمة نفخ ولا منفوخ، وإنما هو ليحصل ما يحيا به فيه، وحاصل هذا أن ذلك تصوير للروح إذ تدخل الجسم ويحيا بها الإنسان حياة محس مدرك، ويقول البيضاوى فى قوله: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ «حتى جرى آثاره فى تجاويف أعضائه، وأصل النفخ إجراء الريح فى تجويف جسم آخر، ولما كان الروح يتعلق أولا بالبخار اللطيف المنبعث من القلب، ويفيض عليه القوة الحيوانية، فيسرى حاملا لها فى

تجاويف الشرايين إلى أعماق البدن جعل تعلقه بالقلب نفخا فيه، وإضافة الروح إلى نفسه لما مر فى (النساء)، والمعنى أن الله نفخ من روحه هو تصوير لخلق الحياة، وإضافتها إليه سبحانه وتعالى لأنه خالقها ومنشئها، وليس ثمة نفخ، وإنما هو تصوير للخلق والتكوين، وعلى هذا يكون معنى نفخنا فيه من روحنا، فليس فيها دلالة على أن عيسى من روح الله كما أن آدم ليس من روح الله، وإنما هو من خلق الله تعالى».

قال تعالى: ﴿ **فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠)** ﴾ توكيدان بلفظين للسجود جميعهم، أحدهما بقوله: (كلهم)، وثانيهما بقوله: (أجمعون)، فقد سجدوا سجودًا مؤكدا لم يمتنع منهم أحد، وذلك لتكريم آدم، وفى سورة البقرة بيان لسبب التكريم.

وقد استثنى الله تعالى إبليس من الساجدين فقال: ﴿ **إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١)** ﴾، والاستثناء هنا منقطع على أن إبليس لم يكن من الملائكة، وكلهم كان مطالبا بالسجود الذى طولبوا به، وإذا كان منهم أو داخلا فى عمومهم فإن الاستثناء يكون متصلا، وقد ظهر بهذا تمرده وشذوذه، أما تمرده وخروجه عن الطاعة فلأنه أبى، وقد أمر بالسجود، وأما شذوذه، والشذوذ ومجابهة الجموع بالباطل أساس الانحراف، فقد أشار الله تعالى إليه بقوله تعالى: ﴿ **أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ** ﴾.

خاطبه الخالق جلت قدرته قال: ﴿ **يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢)** ﴾ والمعنى أن رب الوجود ومنشئه سأله عن المسوغ الذى سوغ له ألا يكون مع الساجدى، أى شىء أثبت لك وسوغ ألا تكون مع الساجدين، مع أن سجودهم كان يستحثك على أن تسجد مثلهم.

فأجاب إبليس قال: ﴿ **لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٣٣)** ﴾ والنفى نفى وجحود، أى لم يكن من شأنى أن أسجد لبشر خلقته

من طين، وفى معنى هذا إجابته فى سورة أخرى ﴿ ... أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأعراف] وكان هذا الذكى فى غفلة؛ لأن خالق النار هو الذى أمره بأن يسجد، وهو أعلم بمن خلق.

كان هذا تمردا، وغرورا، ومعارضة لما أمر الله تعالى؛ ولذلك أمره الله تعالى بأن يخرج مذءوما مدحورا، فقال له: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ الضمير فى منها يعود إلى الجنة، ورجيم معناها مطرود مرجوم بالحجارة، وسجل الله عليه اللعنة إلى يوم الدين فقال تعالت كلماته: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ ﴾ من هنا ابتدأت المعركة بين الإنسان وإبليس اللعين، وصارت العداوة بين عنصر الخير الملكى وعنصر الشر الإبليسى، وقد طلب إبليس أن يؤجل إلى يوم يبعثون قال إبليس: ﴿فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، (الفاء) فى فأنظرنى فاء الإفصاح؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، والمعنى إذا كنت قد طردتنى من رحمتك، ولعنتنى، فأجلنى إلى يوم يبعثون لأكون أنا وهم على سواء نجازى بما ترى من جزاء.

أجابه الله تعالى إلى طلبه فقال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾، (الفاء) أيضا تفصح عن شرط مقدر، أى إذا طلبت التأجيل، فإنك من المؤجلين إلى يوم الوقت المعلوم، وهو يوم القيامة الذى تجازى فيه كل نفس ما كسبت، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وسماه سبحانه وتعالى ﴿الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾؛ لأنه وقت قدره الله تعالى، وهو معلوم عنده، وإن لم يكن يعلمه الناس، ولا يجليها لهم إلا لوقتها.

أخذ إبليس المرجوم الملعون المطرود من رحمته يستعد للقيام بما أوجبه على نفسه حسدا وكبرا لآدم وذريته ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ أقسم إبليس لأزينن لبنى آدم، ولأغوينهم أجمعين، أى أنه يبتدئ بأن يزين لهم الشر ويحسنه، وأول (الشر) استحسانه، ثم يأخذهم إلى الضلال عن طريق ما يستحسنون ويشتهون، والإغواء: الإضلال.

والغرور في الدنيا يبتدئ بتزيين الشيطان لها، وحتى يغتروا بها ثم يكون بعد ذلك الضلال، وقد أقسم على ذلك ولم يحنث في قسمه، وقد ابتدأ كلامه بقوله: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾، وهو أولا نادى بقوله: ﴿رَبِّ﴾ شعورا بالربوبية، وقد علمها وضل على علم؛ لأنه لم يطع ربه وقال: ﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾، أي بسبب أنك أغويتني، وسمى ترك الله تعالى له ليضل إغواء له، مع أنه هو الذي اختار المخالفة والعناد، وإن الله تعالى لا يهدي من اختار سبيل الشر وسار فيه.

وهكذا تجد إبليس حسد آدم، إذ أمره الله تعالى بالسجود فامتنع حسدا وعنادا وحسدًا ذرية آدم؛ لأن الله تعالى تركه حتى غوى وضل فأراد إغواءهم، كما غوى.

وقد أدرك إبليس أنه لا طاقة له لإغواء المخلصين منهم فقال: ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)﴾، أي الذين أخلصوا لطاعتك، وخلصت نفوسهم من شوائب الهوى، وتزيين الدنيا.

وهنا نجد أن الاستثناء كان من قوله: ﴿وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فهو استثناء من مؤكد، والاستثناء من عام مؤكد بقوله أجمعين دليلا على أن الكثرة هي التي استجابت لإغوائه، والقلة أخلصت لله تعالى.

وإن إبليس يذكر أن العباد المخلصين لا يغويهم، فيقول: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾، الإشارة إلى الاستثناء، وهو أنه لا يقوى على عباد الله الذين أخلصوا لله تعالى، وصاروا له تعالى وحده. والصراط المستقيم هو الطريق السوي، أي أنه لا يضل إلا من يتبعه أما من لا يتبعه، ويكون لله، فإنه لا يغويه ولا يضله، وفي الحق أنه لا يستطيع أنه يغويه، فإنه لا يقوى على إغوائه، وإن كانوا كثرة.

وقد أكد الله تعالى أن عباده المخلصين ليس له عليهم سلطان، فقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢)﴾.

عباد جمع عبد، والعباد جميعا مضافون لله تعالى؛ لأنه سبحانه وتعالى هو الذى خلقهم، وأنشأهم فهم فى قبضة يده سبحانه وتعالى، ومعنى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾، أى ليس عندك قدرة إضلالهم، ولا حجة تسوغ ضلالهم إلا أن يسبقوك بالضلال فيتبعوك من غير حجة ولا برهان، كما قال هو فى التخلص من ذنوبهم: ﴿... وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ... (٢٢)﴾ [إبراهيم] فهم ضالون لم ينهجوا سبيل الرشاد؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾، أى الضالين ابتداءً.

عذاب أتباع إبليس

وبين سبحانه جزاء الغاوين فقال:

وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (٤٤)

أقسم إبليس اللعين ﴿لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وقرر الله تعالى العلى أنه لا يتبعه إلا الضالون، بعد ذلك أن جهنم موعدهم أجمعين، كأنهم اتفقوا جميعا على مكان يلتقون فيه تحقيقا لوعد وعدوه بمبادلة التزيين والإغواء؛ ولذا قال تعالى مصورا ذلك اللقاء فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣)﴾، وفى ذلك من التهكم بهم، وكأنهم فى أخذهم بأسباب استحقاقهم لجهنم ودخولهم فيها، كانوا قد اتفقوا على موعد يلتقون فيه جميعا، وهو جهنم نار الله الموقدة.

وقد أكد سبحانه دخولهم جهنم بـ(إنّ) المؤكدة والجملة الاسمية، و(اللام) فى قوله تعالى: ﴿لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وبالتأكيد اللفظى فى قوله تعالى: ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

وقد قلنا: إنه يفهم من القول وإشاراته البيانية أن عدد العصاة أكثر، وعدد الأبرار أقل؛ لأن الأبرار هم صفوة الإنسانية، والصفوة من كل شىء أقله وليس أكثره.

ولكثرتهم كثرت أبوابها لتتسع لهم فى دخولها؛ ولذا قال تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (٤٤)﴾ فبعض المفسرين فهم أن السبعة عدد حقيقى، وأنهم فى جهنم مراتب حسب هذا العدد وعلى مقدار ذنوبهم، ويشير إلى هذا قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾، أى أن كل طبقة من طبقاتها لها باب قد قسم لها جزء من المعذبين يدخلون فيه من غير سلام، بل مدفوعين، ملقون فيها كما تلقى أهمال الأشياء.

وقد ذكر هذا الفريق من المفسرين طبقات النار، وهى جهنم، ثم لظى ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الحميم، ثم الهاوية، ويقول البيضاوى فى توضيح هذا الرأى: «ولعل تخصيص هذا العدد لانحصار المهلكات فى الركون إلى المحسوسات، ومتابعة القوة الشهوية، والغضبية لأن أهلها سبع فرق لكل باب منهم من الأتباع جزء مقسوم أفرز لها، فأعلاها للموحدين العصاة، والثانى لليهود، والثالث للنصارى، والرابع للصابئين، والخامس للمجوس، والسادس للمشركين، والسابع للمنافقين».

وإنا لا نوافق العلامة البيضاوى ومن نقل عنه:

أولا: لأن ذلك لا يعلم إلا بالتوقف.

وثانيا: لأن عصاة المؤمنين ليسوا داخلين فى الذين تواعدوا مع إبليس على أن يكون موعدهم جهنم؛ ولأن هذه الأسماء أوصاف للنار، وليست أقساما لها.

وعندى أن العدد سبعة يذكر فى اللغة العربية للدلالة على الكثرة لا على خصوص العدد سبعة.

جزاء المتقين

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾

هذه نعم المتقين، والمتقون هم الذين جعلوا بينهم وبين الشر وقاية، واتقوا غضب الله تعالى، وعملوا على إرضائه وجانبوا الفواحش، ووسوسة إبليس، وقد ذكر الله تعالى لهم نعما أربعة أولها: نعيم مادى، وثانيها: أمن وسلام واطمئنان، وثالثها: راحة لا نصب فيها، ورابعها: بقاء وخلود.

أما **النعمة الأولى** وهى المادية فهى المبينة بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ** ﴿٤٥﴾﴾، فهى حدائق ذات بهجة للناظرين، فيها من كل فاكهة وما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين، وما لم يخطر على قلب بشر، وفيها الأنهار التى تجرى من العيون الوفيرة بالماء، والماء نعمة بما فيه من رى، وبمنظر يجرى، وما يُحدث من خضرة.

والنعمة الثانية: الأمن وإقرار السلام، وهذا أشار سبحانه وتعالى إليه بآيتين كريمتين هما قوله تعالى: ﴿**ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ** ﴿٤٦﴾﴾، والثانية قوله: ﴿**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ** ﴿٤٧﴾﴾.

أما الأولى: فإن الملائكة يطلبون إليهم أن يدخلوها بسلام يجمعهم فيها سلام، حال كونهم آمنين من الأشرار وأسقام النفوس ومدافعة الأعداء، فلا

حـرب، ولا خصـام ولا نزاع من نوع مـا كان يـجرى فى الأرض، وهناك راحـة نفسية، وهى أبرك النعم بعد الأمن، أشار إليه سبحانه بقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧)﴾ نزع الله تعالى مـا فى النفوس من الغل الذى يتكون من الحـقد، والحـسد وحب الاسـتعـلاء؛ لأنه سبب فى شـقاء الدنيا، فالناس يشقون إذا ملأ الحقد والحسد قلوبهم، فالحاسد فى هم دائم، وتعب ملازم، وكلما تكاثرت النعـم على المحسود تفاقمت النقم على الحـاسد، ومن كان فى قلبه حقدٍ أوجب انتقاما، فهو يضم بين جنبيه نارا تلهب دائما، وتؤجج أضغان القلوب.

وقد صور النفوس المطمئنة فقال: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾، أى جالسين على سرر جمع سرير، متـقابلين بوجوه مقبلة فرحة مستبـشرة، وهذه نعمة أخرى من أجل النعم الإنسانيـة وهى نعمة الأخوة والمحـبة المتوادة المتراحـمة، ويروى أن المجاهد الأعظم بـعد رسول الله عليـا كرم الله وجهـه عندما قـرأ هذه الآية قال: «أرجـو أن أكون أنا وعـثمـان وطلحة والزبيـر منهم» رضى الله تعـالى عن أولئك الأطهار، ولعن الأشرار الذين بثوا بينهم وتاب على من هو أهل للتوبة منهم.

والنعمة الثالثة: نعمة الراحة، وعدم المغـالبة، وقال فيها: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾، أى تعب، بل فيـها الراحة المطلقة للجـسد، والسرور النفسى المسـتمر، ونعمة المحبة والمودة والصفاء، وتلاقى القلوب.

وإنها نعم لا يخشى فواتها، بل هى خالدة؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ ذكر الضـمير ﴿هُم﴾ لتأكـيد القـول، وقدم ﴿مِّنْهَا﴾ للدلالة على نعـمائهـا وجلالهـا، ونفى الوصف ﴿بِمُخْرَجِينَ﴾ للدلالة على أنه لا يمكن أن يوصفوا بأنهم مـخرجون، فهو نفى للإخراج بأبلغ وجه، أى لـيسوا من شأنهم أن يخرجوا؛ لأنـه مقيم فاض الله تعالـى به عليهم بسبب تقواهم وبرهم وهو الـكبير المتعال.

الله غفور رحيم، ومنتقم جبار

قال الله تعالى:

﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠)﴾

الخطاب للنبى ﷺ، وهو تقريب لمن فى قلوبهم رجاء الإيمان، وترهيب لمن يصرون على الشر إصرارا، والتنبيء الإخبار بالأخبار الخطيرة ذات الشأن، وأى خطر أعظم من أن يكون منعا لليأس من رحمة الله تعالى، وأعظم من منع يستمر فى غيه، سادرا عن طريق الله تعالى.

﴿نَبِّئْ عِبَادِي﴾ أخبرهم ذلك الخبر الخطير فى ذاته، الدال على عظمة الخالق فى رحمته وفى عذابه ﴿أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أكد سبحانه وتعالى هذين الوصفين لذاته بـ(أنّ)، وبالضمير، والصفتين المتشابهتين، فهو سبحانه يغفر لعباده لمن تاب وآمن وعمل صالحا، وإنما التوبة للذين يعملون السوء بجهالة، ثم يتوبون من قريب، ويدعوهم سبحانه لأن يتوبوا ليغفر، فيقول سبحانه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ... (٥٣)﴾ [الزمر] وإن هذا الغفران من مقتضى رحمته لأنه يريد لعباده أن يكونوا أطهارا وأن يموتوا أطهارا، ومن تدنس من أدناس العصيان يطالبه بأن يرحضه عن نفسه، ليغفر له برحمته، ويريد من عباده أن يعلموا الصبر والشكر نهاية أعمالهم فى الدنيا.

وإذا استمروا فى غيهم ولم يتوبوا إلى ربهم، فليرتقبوا عذابه؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠)﴾، أى العذاب المؤلم الذى يكون شديدا، قد أكد سبحانه وتعالى شدة عذابه بالضمير ﴿هُوَ﴾، ونسبة العذاب إليه، وقصر الإيلام على عذابه، أى أن عذابه أليم فى ذاته، وكأنه لا إيلام فى غيره بجوار إيلامه.

وإن الله تعالى يعلمنا كيف نربى النفوس ونهذبها، فهى تربى بالرفق من غير شدة، وبالإرهاب من غير تربية لليأس، وبالعقاب حيث يجب، فلا تربى بالعطف الدائم ولا بالعذاب الذى لا رجاء فيه، وكـذلك علَّمنا ربنا، وكذلك كانت أخلاق نبينا، وينبغى أن تكون أخلاق مصلحينا، وأولى الأمر منا، وليس الأمر من يفرضه أعداؤنا، أو من يفرضون أنفسهم علينا.

من قصة إبراهيم وضيفه ولوط وقومه

قال الله تعالى:

وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾
إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا
لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن
مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ
فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ
رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ
﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ
إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ
الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ
إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ
يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ
بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ

وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ
دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ
يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ
ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾
قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ
يَعۡمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا
سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٧﴾

فى الآيات السابقة طلبوا أن ينزل معه ملائكة ليؤمنوا به، وقد رد الله تعالى قولهم بأنه: ﴿ **ولَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ** ﴿٩﴾ ﴾ [الأنعام]، وفى هذه الآيات التى تلونا نزل ملائكة الله تعالى إلى الأرض فكانوا فى مظهرهم بشرا ورجالا ولكن الروحانية تجعل من يخاطبهم - ولو كان نبيا من أولى العزم من الرسل - يوجل منهم؛ لأن جنسهم غير جنسه.

﴿ **وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ** ﴿٥١﴾ ﴾، وضيف اسم جمع، فالمراد العدد الذى أنزل على إبراهيم، وكان كريما مضيافا، ﴿ **إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا** ﴾، أى نسلم سلاما، وقوله تعالى: ﴿ **دَخَلُوا عَلَيْهِ** ﴾ تدل على معنى المفاجأة إذ لم يكن يترقبهم، وإنهم إذ فاجئوه طمأنوه، فرددوا السلام، وجاءت بالنصب مفعول مطلق لفعل محذوف، أى نُسلِّم سلاما، أبدى إبراهيم عليه السلام بالمفاجأة وجله، ولإحساسه بأنهم ليسوا مثله فقال: ﴿ **إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ** ﴾، أى خائفون لأنهم دخلوا مفاجئين، والوجل: اضطراب فى النفس يحدث خوفا.

قالوا مطمئنين له بعد فزع المفاجأة: ﴿لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾ وهو إسحاق عليه السلام؛ لأنه ذكر فى آية أخرى بأن امرأته عجبت لأنها كانت عاقرا وعجوزا، وذلك يعين أنه إسحاق عليه السلام، ووصف الغلام بأنه ﴿عَلِيمٍ﴾ ليتم معنى البشارة، لأنها لا تكون كاملة إلا إذا كان عالما وليس خاملا، وأولئك رسل الله تعالى يتكلمون عنه، وهو لا يعلم الغيب المكنون فى لوح محفوظ، كانت المفاجأة الثانية بهذه البشرى وإن كانت مفاجأة سارة لا توجب وجلاً ولكن توجب عجبا؛ ولذا قال: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾، ﴿عَلَى﴾ هنا بمعنى (مع) والاستفهام للتعجب فهو تعجب من أن يبشر مع الكِبَر قد مسَّه، أى أصابه وأحس به وأثر فيه أثره، ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾، أى فبأى خبر عجيب تبشرون؛ وذلك لأن مجرى الأسباب العادية يجعل ذلك متعسرا لأنه شيخ مسَّه الكبر، وامرأته عجوز عقمت فى صدر شبابها فكيف تنجب فى دُبْر حياتها.

قال الرسل: ﴿بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ الحق هو الأمر الثابت، والله لا يبشر إلا بالحق الثابت، فلا تكن من الداخلين فى صفوف القانطين من رحمة الله الذين يحسبون أن الأسباب الجارية بين الناس تُعجِز إرادة الله تعالى الفاعل المختار الذى هو خالق الأسباب والمسببات فلا يتقيد بها.

تنبه أبو الأنبياء لرحمة ربه بعد أن نبهوه، فقال: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾ نفى خليل الله عن نفسه القنوط بإثبات أن القنوط لا يكون إلا من الذين يضلون عن الله، ولا يعرفون قدره، وأنه لا يقيده شىء من خلقه إنه فعال لما يريد.

والاستفهام هنا إنكارى بمعنى النفى، والمعنى لا يقنط من رحمة الله إلا الذين ضلوا عن الحق وغاب عنهم.

وإنه بإحساس النبوة، وإيمانها قام فى نفسه أنهم جاءوا لأمر أخطر من هذا، ولذا قال لهم: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾، (الفاء) لربط ما بعدها بما قبلها، أى

أدركنا هذه البشارة وحمدنا الله تعالى عليـه، وما شأنكم بعدها، ولقد جاءوا عددا فلابد أن يكونوا للـبشارة ولغيـرها، فسألـهم عن شأنهم فى غيـرها، قالوا: ﴿**إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ**﴾ وصفهم سبحانه وتعالى بالإجرام؛ لأنهم لم يكفروا فقط، بل أضافوا إلى الكفر فقد الطبيعة الإنسانية. فشذوا بفاحشة ما سبقهم بها أحد من العالمين وإذا كانوا قـد وصفوهم بأنهم مجرمون، فـمؤدى ذلك أنهم جاءوا لإنزال العقوبة بهم، كـما صرح بذلك فى آية أخرى فكان لابد أن يتـشوف إبراهيم خليل الله لمعرفة مـآل ذوى قرابته؛ ولذا قال تعـالى على لسان الملائكة: ﴿**إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴿٥٩﴾﴾، أى أن الهلاك واقع بالمجرمين لا محالة، ما عدا آل لوط فإنهم ناجون منه، واستثناء امرأته؛ لأنهـا ما كانت مؤمنة بلوط، ونبوته؛ ولذا كان استثناؤها من الناجين، فقال تعالى: ﴿**إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ** ﴿٦٠﴾﴾ وهنا ملاحظتان:

الملاحظة الأولى: فى قوله تعالى: ﴿**قَدَّرْنَا**﴾، أى كان قدرنا الذى لا ينقض أن تكون غير مؤمنة مع أنها مع نبى من أنبياء الله.

الملاحظة الثانية: وصفهـا أنها من ﴿**الْغَابِرِينَ**﴾، أى المجرمين المسـتحقين للهلاك، وقد أكـد أنها منهم بـ (إنّ) المؤكدة، وبـ (اللام)، وباندماجها فـيهم تجمع صفة الموصوفين بالإجرام.

ذهبوا إلى قـوم لوط وحكى الله تعالى مجـيئهم فـقال: ﴿**فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ** ﴿٦١﴾﴾ لم يذكر الله تعـالى تحيتـهم، ولعل ذلك اعتمـادا على ذكر هذه التحية مع إبراهيم، وأهله، ومهما يكن فلم يذكـر سبحانه أنهم حيوهم؛ ولذا ذكر أن جواب لوط ﷺ، قال: ﴿**إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ**﴾، أى إنكم مجهولون، ولـم يكن منكم مـا يؤنس بكم، وإنى أخـافكم، وهذه فى مـقام قـول إبراهيم: ﴿**إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ**﴾.

وقد أجاب الملائكة بما يلقى بالاطمئنان فى قوله: ﴿**قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ** ﴿٦٣﴾﴾ والذى كانـوا يمترون فـيه هو تهـديدهم بالعذاب الـشديد إن

استمروا فى شركهم وغيره مما جاء واشتهرت به فاحشتهم، إذ يأتون بفاحشة ما سبقهم بها أحد من العالمين، فقد جاءوا بالعذاب الذى احتاروا فيه وأنكروه، وقالوا: ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾، أى الأمر الثابت الذى لا ريب فيه، ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فى إخبارنا إياك، وأكدوا صدقهم بـ (إن)، و(اللام)، والجملة الاسمية، وإن هذا تأكيد له بأن يذهب عنه الخوف، وإنهم ما جاءوا لإرهابه، ولكن جاءوا لإنزال ما وعد الله تعالى له بنصرته.

ولذا أمروه أمر إحاطة ومودة وإنفاذ ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥)﴾ بأوامر أربعة لنجاتهم:

الأمر الأول: أمرهم بالخروج فى جنح الليل، فالإسراء: السير ليلا، و(قطع) أى بعد قطع الظلام من الليل، أى فى شدة إظلامه.

والأمر الثانى: أن يتبعوا أدبارهم بأن يخرجوا من طريق لا يواجهونهم فيه بإقبالهم، بل يسيرون فى طريق يستدبرونهم فلا يلقونهم.

والأمر الثالث: لا ينظر إلى ما وراءه، فإنه يكون الهول والعذاب النازل بهم حيث تقشعر من هوله الأبدان.

والأمر الرابع: أن يمضوا حيث يؤمرون بوضع النجاة، ويقيمون حيث يكونون بعيدين عما أصاب أولئك الذين طغوا فى أنفسهم، وأفسدوا الإنسانية، والفطرة السليمة.

هذا ما أمر به أولئك المرسلون من ملائكة الله الأطهار، لوط ومن معه من الأبرياء، أما ما قضى بالنسبة لهؤلاء الأنجاس الأشرار، فقد أخبروا به فقالوا: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦)﴾، أى بلغناه وأفضينا إليه بما قضى الله تعالى وقدره، وذلك الأمر العظيم الشأن الخطير فى ذاته، وهو أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين.

أى مستأصلون مقطوعون، لا تبقى منهم باقية فى صباح تلك الليلة التى نجوت فيها، والتعبير بـ﴿دَابِرَ هَؤُلاءِ﴾ فيه إشارة إلى استئصالهم؛ لأن القطع إذا ابتدأ من الإدبار كان دليلا على استئصالهم جميعهم، وفوق ذلك فيه تصوير لحالهم عند نزول العذاب بهم، والجيش المغلوب الهالك يضرب فى أدبارهم فيكون الهلاك لا محالة، أما الذى يضرب فى وجوههم فإنه يقاتل، فيقتل ويقتل وكذلك نزل غضب الله تعالى بهم، كما نزل بغيرهم من الجيوش المدحورة.

هذا ما كان من أمر رسل الله الأطهار وأمر لوط الطاهر هو ومن معه، وسط أرجاس هؤلاء المفسدين، ولكن ماذا كان أمر أولئك الأنجاس عندما رأوا ملائكة الله ونور الله يحف بهم يسعون فى المدينة، لقد رأوهم فسولت لهم نفوسهم ما هم فيه واستبشروا، فحسبوها أمرا شبعا لهم، وقد حكى سبحانه وتعالى ذلك عنهم فقال: ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧)﴾، ﴿أَهْلُ الْمَدِينَةِ﴾ هم أولئك شذاذ الإنسانية، الذين نشروا فاحشة ما سبقهم بها من أحد من العالمين، جاءوا لما رأوا رسل الله الأطهار، ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾: يطلبون البشرى التى توافق أهواءهم، وبدرت بوادر الشر الجهول منهم وأدرك نبى الله لوط ما جال بخواطرهم، وهو بهم عليم: ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ (٦٩)﴾ ضيفى يعنى ضيوفى، ولم يخبرهم أنهم الملائكة لأنهم لا يدركون، فكان نبى الله الأريب الذى يذكر لهم ما تدركه عقولهم، وقوله تعالى: ﴿فَلا تَفْضَحُونِ﴾ بأن يكون منكم ما يؤذى هؤلاء، فإيذاؤهم إيذاء لى، وخزى وعار، وأنتم جديرون أن تحفظوا جوارى، وإن كنتم فاسقين فى ذات أنفسكم.

ولكنهم الشواذ، وفى هذا الصنف الصفاقة المستمكنة فى نفوسهم، لم تُنْخهم مروءة؛ لأنها ليست عندهم ولم يخلقها الله فيهم ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠)﴾ سول لهم الفساد، والهوى الجامح، والشذوذ فى الطبع أن يلقوا تبعة فجورهم مع الملائكة على نبى الله لوط ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠)﴾ (الواو) عاطفة على فعل محذوف، والاستفهام للإنكار بمعنى نفى الوقوع، ونفى

النفى إثبات، والمعنى تلومنا على إيذاء ضيفك وقد نهيناك عن أن تلقى أحدا من العالمين، وإلا كان لنا معهم ما ترى.

ولا نرى تبجحا من العقلاء غير الفاسدين إلا قول بعض الطغاة، وقد ذُكِّر بأنه قتل من قال محمد ﷺ: «تقتلك الفئة الباغية»، فقال لمن يحطون على هواه: إنما قتله من أرسله!!.

ضاق نبى الله تعالى لوط بهم ذرعا، فقال: ﴿**هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ**﴾ فتزوجوهم شرعا، ويكُنَّ لكم بحكم زواج صحيح.

هذا أبلغ ما وصل إليه العنت منهم، وأبلغ ما وصل إليه الرفق فى القول بهم، ولكن قضاء الله تعالى قد نفذ فيهم جزاء بغيهم وشذوذهم بإرادتهم؛ ولذا قال تعالى فى حالهم عند إنزال العذاب بهم: ﴿**لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ** (٧٢)﴾، (اللام) فى ﴿**لَعَمْرُكَ**﴾ لام القسم أو الابتداء، و(عمرك) مبتدأ وخبره محذوف تقديره قسمى، وهى جملة عربية مشهورة فى القسم بعمر من يخاطبه، وهو النبى الطاهر يقسم بعمره المبارك، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾ جواب القسم، والسكرة هى ضلالة الطغيان فهى تسكر صاحبها فلا يدرك الحق والصواب، و﴿**يَعْمَهُونَ**﴾ معناها يتحيرون تائهين لا يدركون حقا، ولا يطيعون رشيداً.

ثم قال فى وصف العذاب: ﴿**فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ** (٧٣)﴾ كان بالأرض رجفة شديدة هزت قشرة الأرض وتكسرت، فانخفض بعض أجزائها، وعلا الآخر، وبذلك ابتلعت الأرض ديارهم بمن فيها، ووضح سبحانه وتعالى ذلك بقوله: ﴿**فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ** (٧٤)﴾، أى أنزلنا الأحجار نزولا متتابعا كالمطر الدائم المستمر، والسجيل: الطين المتجمد أو طين سجل لهم واقع بهم فى كتاب من عند ربهم.

ويلاحظ أنه عبر فى قوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ فعبر بلفظ الإصباح، وهنا فى هذه الآية عبر بمشرقين، وكان التعبير الأول مناسبا للآية؛ لأنه كان والملائكة يأمرون لوطا والأبرار معه بالخروج، فكان المناسب التعبير بالإصباح باعتباره نهاية الليل.

وعبر هنا بالإشراق باعتباره أول النهار، وهو وقت، إذ المناسب فى ذلك أن يستقبلوا النهار المشرق بتلك الداهية الدهياء التى تجعل نهارهم أسود من قلوبهم المربدة بأقبح السوء.

ولقد ذكر سبحانه ما يدعو المنكرين إلى الاعتبار بقصص قوم، وأشباههم وإن ما نزل بهم هو سبيل دائم مستمر ينزل بالفساق، فيعتبر المؤمنون، فقال تعالى:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥)﴾، أى لعلامات واضحة مرشدة، ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ أى للمفكرين، الذين يتفهمون الأمور ويتعرفونها بمنطق العقل المستقيم، فيقيسون حاضرهم على غيرهم، ويعتبرون بما نزل بالسابقين، وأنه نازل بهم إن عملوا عملهم وساروا فى طريقهم، واتخذوا طريقتهم.

وذلك لأن هذه سنة مستقيمة غير متخلفة؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ (٧٦)﴾ الضمير فى (إنها) يعود على الآيات، أى وإن هذه الآيات لثابتة بطريق مستقيم مقيم لا يتخلف أبدا، فإنها سنة الله تعالى فى خلقه وحكمته البالغة فى أمره؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧)﴾، أى إن فى هذا الأمر المذكور بما فيه قصة لوط لآية أى لعبرة للمؤمنين، أى للذين أوتوا قلوبا مؤمنة مذعنة للحق، معترفة لا تمارى فى الحق، ولا تجادل فى الله تعالى، وهو العليم الحكيم.

وهنا ملاحظة أن الآيات ذكرت بلفظ الجمع فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥)﴾ وهنا ذكرت بالمفرد فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧)﴾ فما السر فى ذلك؟.

إن الذى يبدو لنا، أن المتوسمين المتفكرين بين أيديهم الآيات الكثيرة يدرسونها، فكانت الآيات بالجمع موضع الدراسة والفحص، أما بالنسبة للمؤمنين فالأمر فيها هو العبرة، وهى أمر واحد مأخوذ من مجموع الآيات المتضافرة التى هى موضع الدراسة، ومع تعددها العبرة واحدة.

ثمود ومدين

قال الله تعالى:

وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾
فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ
ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ
﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ
ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

(الأيكة) وهى جماعة الشجر الملتف المتكاثف، فهى الغيضة الربعة الممتلئة، وجمعها (أيك) وفرق بين المفرد والجمع بالتاء فى المفرد.

و﴿أَصْحَابُ الأَيْكَةِ﴾ هم قوم شعيب عليه السلام، وقد صرح بذلك فى سورة الشعراء، فقال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩)﴾ [الشعراء]. . . . إلى آخر الآيات الكريمات، وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (٧٨)﴾، (إن) فيها هى المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، وإن الحال والشأن ﴿كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾، وهذه هى خبر كان، واللام لام التوكيد، أو المزحلقة كما يعبر النحويون، وكانوا ظالمين؛ لأنهم أشركوا، وإن الشرك لظلم

عظيم، وكانوا ظالمين؛ لأنهم كانوا يطففون في الكيل والميزان، وكانوا ظالمين؛ لأنهم فتنوا المؤمنين عن إيمانهم، وكانوا ظالمين؛ لأنهم هددوا نبيهم بالرجم، وقالوا: ﴿ ... وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ... (٩١) ﴾ [هود]، وهكذا توالى ظلمهم وتسلسل؛ لأن الظلم يولد ظلما.

وقد بين الله سبحانه وتعالى أن الظلم عاقبته وخيمة، فقال: ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ (٧٩) ﴾.

الانتقام ليس هنا التشفي من الجاني والأخذ بغير حق، بل معناها إنزال العقوبة مماثلة لما ارتكبه، ولأنه كان ظلما متواليا، واعتداء مستمرا، فكان العقاب مماثلا له، وشفاء لغيظ من جنى عليهم.

وإن أولئك ليعرفون أن ذلك أمامهم، فالمتلات بين أيديهم ﴿ لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾، أي طريق بين واضح ينتهي بما انتهى به الأول، والإمام هو ما يعلن ويؤتم به، وأمامهم المثلات البينة الموضحة، وإن عليهم إذ يعتبروا بغيرهم، ولكنهم ضلوا عن بينة والعقوبة معلومة بينة.

هذه إشارات إلى قصة مدين مع نبيهم شعيب، والجزاء الذين نالوه.

ومثلها قصة أصحاب الحجر، وهم ثمود قوم صالح، وقال سبحانه وتعالى فيهم: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) ﴾.

جاء في تفسير القرطبي: «الحجر، ويطلق على معانٍ منها حجر الكعبة، ومنها الحرام كما في قوله، وأنعام وحرث حجر قال تعالى: ﴿ ... حِجْرًا مَّحْجُورًا (٢٢) ﴾ [الفرقان]، والعقل كما في قوله تعالى: ﴿ ... لِّذِي حِجْرٍ (٥) ﴾ [الفجر]، والحجر ديار ثمود وهي المراد منها وهي مدينة بين مكة وتبوك، وهو الوادي الذي كانت تسكنه ثمود، وقد مر عليه النبي ﷺ، وهو ذاهب إلى غزوة تبوك، ونبه جيشه إليه، وإلى ما فيه من عبر، وقد جاء ذلك في كتب السير، وصحاح السنة،

وروى عن ابن عمر قال: مررنا مع رسول الله ﷺ على الحجر، فقال لنا رسول الله ﷺ: **«لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حذر أن يصيبكم مثل ما أصابهم»**.

والله تعالى يقول: ﴿ **وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ** (٨٠) ﴾ مع أنهم كذبوا رسولا واحدا، وهو صالح عليه السلام، والجواب عن ذلك أنه ذكر أن صالحا عليه السلام بعث لهم، وكذبوه، ولكن لا يمنع ذلك أنه بعث فيهم غيره وكذبوا، على أنهم إذا كانوا كذبوهم جميعا فيما يدعوهم إليه من التوحيد، ومكارم الأخلاق فقد كذبوا الرسل جميعا لأن هذه دعوتهم أجمعين، فمن كذب واحدا فى هذا فقد كذبهم جميعا.

وقال تعالى: ﴿ **وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ** (٨١) ﴾، أى قدمنا لهم آياتنا الدالة على توحيد الله تعالى وبعثة رسولهم صالح إليهم، وإذا قال قائل: إن المذكور فى القرآن معجزة واحدة، وهى الناقة، وقد أجيب عن ذلك بأن الآيات ليست معجزة النبى عليه السلام وحده، بل أدلة التوحيد من خلق السموات والأرض، وما يدل عليه ذلك الخلق المتنوع، الذى يدل على الواحد المختار والفعال لما يريد.

وكانوا عن هذه الآيات البينات معرضين عنها.

وإذا كانت المعجزة هى الناقة، فهى آية تتضمن آيات، كما قال البيضاوى، أو معجزاته كالناقة وسقيها وشربها، ودرها، وما نصب لهم من الأدلة.

كذبوا رسولهم، فكذبوا الرسل أجمعين، ومع ذلك كانوا يبنون بيوتهم متينة قوية، حتى إنهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتا يسكنون فيها؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ **وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ** (٨٢) ﴾، أى أنهم يفتحونها فى الصخور لتكون مساكنهم آمنة من الهدم أو أن يأتى عليها السارقون أو المغيرون، ويحسبون أنهم بذلك أمنوا أن يأتيهم عارض يأخذهم ﴿ **فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ** (٨٣) ﴾، أى جاءتهم صيحة جعلتهم فى دارهم جاثمين، وهذه الصيحة من الله تعالى أحدثت

رجفة، فأصبحوا فى دارهم جاثمين، وقد عبر سبحانه وتعالى بكلمة رجفة فى آية أخرى، فقال الله تعالى فى سورة الأعراف: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨)﴾ [الأعراف] ويبدو من سياق الخبر فى الآيات المختلفة أن رجفة قوم لوط أصابت قشرة الأرض، فجعلت عاليها سافلها، وأما رجفة ثمود فقد لمست حواسهم فأتتهم، وبئس المصير.

وما أغنت البيوت التى نحتوها، ولا الزروع التى كسبوها؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤)﴾ من بناء نحتوه من الصخور، ولا ثمار جنوها، ولا زروع حصدوها فأضاع كل ذلك فسقهم.

ويلاحظ أولا: أن البيوت التى نحتوها من الصخر لم يذكر أنه سبحانه جعل عاليها سافلها، ولا أنهم أمطروا حجارة كقوم لوط الفاسقين.

ويلاحظ ثانيا: أن قصة شعيب ذكرت هنا بالإشارة، وذكر فيها جزاء عتوهم، وكذلك ثمود أشير فيها إلى العقاب وترك من القصة تفاصيل فلم يذكر ما دعا إليه شعيب من إيفاء الكيل والميزان وعبادة الله تعالى.

ولم يذكر فى قصة ثمود وما جرى من مجاوبة بين ثمود وصالح، وهكذا تجد القصة كاملة فى القرآن، ولكن متفرقة فيه لموضع العظة فى كل جزء منها.

فقصة موسى ذكرت أجزاؤها فى مواضعها من العظة والاعتبار، وإنك لو تتبعت أجزاء قصة موسى وفرعون وبنى إسرائيل لخرجت بقصص كاملة رائعة مصورة لأحوال النفوس المستضعفة للطغاة، ونفوس الطغاة، ونفوس الذين استمكن فيهم الخنوع، وذلت منهم النفوس، وكيف تبنى الأمم وتربى العزائم.

وقد يسأل سائل لماذا لم تذكر القصة كاملة؟ فنقول فى الجواب عن ذلك:

أولا: إن القرآن ليس كتاب تاريخ، ولكنه كتاب عظة واعتبار، فكل جزء فيه عظة، ويذكر فى موضعه مقرونا بما سبق فى القرآن لأجله فيكون الاتعاظ سببه بين والوعظ أهدى سبيلا.

وثانيا: أنها لو ذكرت جملة ما عرفت مواضع العظات بالتفصيل.

وخلاصة القول أنه ليس فى القرآن مكرر من القول قط، وما يبدو بادئ الرأى فيه تكرار فى ذكر القصص فى القرآن يبدو بطلانه إذا فحص القول، وعمق القارئ النظر فيه، والله منزل الكتاب ومنزهه.

آية الله تعالى فى خلقه

قال الله تعالى:

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ
ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ
ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ
وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ
أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾
ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

بعد أن ذكر جلت حكمته ما أصاب الذين فسقوا عن أمر ربهم، وارتكبوا أشد المفاسد ونزل بهم أشد المهالك ذكر أن الكون ما خلق عبثا إنما خلق لحكمة

أرادها فقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾، ما خلق هذه الثلاث: سموات ذات أبراج، وأرض ذات طبقات، وما بينهما من فضاء فيه عجائب، وفيه أحياء، وفيه أسرار للوجود التى لا يدركها الذين يرتفعون وينخفضون، إنما يدركها المؤمنون برب هذا الوجود، ما خلق ذلك إلا بالحق إلا بأمر ثابت مؤكد الحصول هو غاية الوجود، ما خلق الناس ليتمتعوا، ويأكلوا، ويلهوا ويعبثوا، ما خلق الله ذلك بغير حكمة ظاهرة، ولا نهاية قاهرة، وإنما خلقها ليعمر هذا الوجود، وتسوده الفضيلة، وتبعد عنه الرذيلة، ويحكمه الخير، ولا يحكمه الشر، ويكون الحساب من بعد ذلك؛ ولذا قال: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ﴾، أى أن الله يمنع الشر فى الدنيا، بالقضاء على الأشرار الذين لا يرجى منهم خيرا، بل يغلب عليهم الفساد، كما رأيت فى عاد وثمود، ومن قبلهم قوم لوط، ومن بعدهم فرعون ذو الأوتاد.

وإنه بعد الدنيا سيجىء يوم القيامة، وعبر عنه بالساعة إشارة إلى أنها ساعة فاصلة بين حياة دنيا فيها لهو ولعب، وحياة فيها الحساب والجزاء، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، إنها للجنة أبدا، أو للنار أبدا، وهى الساعة التى لا يدرك كنهها إلا عند نزولها، وهى الجديرة وحدها بأن تسمى ساعة، وقد أكد سبحانه وتعالى مجيئها باللام وبـ (أنّ).

﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾، (الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وجه هذا الترتيب أن العصاة ينالون العذاب والبوار وفى الآخرة الساعة تنتظرهم، وإذا كانت هذه حالهم، فلا يغيظك ما يفعلون، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، بل استمر فى دعوتك معرضا عن إثمهم وإيذائهم، وفتنهم للمؤمنين، فإنهم ملاقو ذلك فى دنياهم بالتغلب عليهم، وفى آخرتهم بالجزاء على ما صنعوا.

وقوله تعالى: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾، والصفح يتضمن الإعراض عن الإساءة وعدم التخلى عن الدعوة والاستمرار فيها، وتضمنت كلمة الجميل بيان أن

يلقاهم بقلب مفتوح ليفتحوا قلوبهم للاستجابة، أو ليفتح هو هذه القلوب التى أصابتها غشاوة.

وفى هذا إشارة إلى معنى جليل فى الداعى، وخصوصا الرسول الأمين رسول رب العالمين، وهو أن الداعى لا يستفزه غضب ولا يثيره أذى، ولا يمنعه تجهم وسوء معاملة، بل يجب أن يكون البشير النذير دائما فى قرب للقلوب، وإدناء للنافر وإيناس للشارد؛ لأنه الطبيب المداوى، وليس الحاكم المسيطر ﴿ **لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ** (٢٢) ﴾ [الغاشية].

لقد كان النبى ﷺ ذا شخصية قوية عالية، من شأنها أن تعلو دائما، وهى تُرهب الفجار، ولكن لم يدعُ محمد ﷺ فى مكة إلا بقوة الدليل، وبالنفس الأليف التى تقرب ولا تبعد.

وكانت تلك الشخصية الجبارة تبدو من حين لحين تعلن عن وجودها، جاء رجل يطلب دينا من أبى جهل فاستعان بملأ من قريش، فأشاروا عليه بأن يستعين بصاحب هذه الدار مشيرين إلى دار النبى تهكما بالرجل وبالنبى معا، ولعل الذين استعانهم من أشكال أبى جهل فالرجل الغريب ذهب إلى النبى، فأشكاه الرسول القوى، وذهب به إلى دار أبى جهل، فصك داره صكة ارتعدت فرائص أبى جهل لها، فقال رسول الله ﷺ قوله الحازم الآمر: «**أدِّ الرجل دينه**»، فدخل وأعطاه الدين صاغرا.

وما كان النبى ﷺ ليستخدم تلك الشخصية التى تفرض الحق على من يخاطبه، إنما تطامن، ورضى بأن يكون الداعى غير الغليظ إدناء للنفوس.

هذا معنى الصفح الجميل، أى الإعراض فى قرب ومودة وإلف من جانبه؛ ولذا كان الإسلام، ينمو ويزيد، ولا ينقص ويقل.

ولقد أكد الله سبحانه وتعالى الإخبار بخلقه لهذا الوجود بالحق، فقال عز من قائل: ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ** (٨٦) ﴾.

عبر بـ ﴿ رَبَّكَ ﴾ للإشارة إلى أمرين:

الأمر الأول: أنه هو الذى يقوم عليه، ويدير له أمر دعوته، بألا يسلم للكفر، ويصطبر ويعامل بالتقريب لا بالتبعيد.

الأمر الثانى: هو الذى يدبر أمر هذا الوجود، ويرتب حاضره وقابله، وأن الحق فى النهاية إليه بأمر ربه.

و﴿ الْخَلاَّقُ ﴾ الكثير الخلق بكثرة هذا الوجود من سماوات وأرضين، وملائكة وإنس وجن، و﴿ الْعَلِيمُ ﴾ الذى يعلم كل ما خلق ويعلم الماضى والحاضر والقابل، ويدبر الأمر على مقتضى علمه وحكمته، فهو يمهل الأشرار ولا يتركهم، ويجازى الأبرار ويحوطهم برحمته، ويثبت الحق بدعائم من الحق، ويعطى كلا جزاءه فى الدنيا أو الآخرة على حسب ما يقتضى علمه وحكمته، وقد بين الله تعالى تأييده لنبيه بالحجة القاطعة، والأدلة الساطعة، فقال: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧)** ﴾.

الخطاب للنبى ﷺ، وقد طالبه رب البرية بأن يصفح ويعرض عن إيذاء المشركين بأن يصفح الصفح الجميل الذى يكون بإقبال نفس، وبشاشة وجه، وأنه معه الدليل القاطع، والبرهان الساطع، وهو القرآن الكريم، ولذا قال: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي** ﴾ أكد الله أن معه الحجة، باللام وقد، والسبع المثانى ما هى؟ قال ابن عباس: هى القرآن كله، والسبع لا تذكر لذات العدد بسبع، بل تذكر للكثرة، والقرآن كله وصف بالمثانى، قال تعالى: ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ** ... (٢٣) ﴾ [الزمر].

و﴿ **الْمَثَانِي** ﴾ جمع مثنى أى مكرر لاثنين، كقوله تعالى: ﴿ ... **مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ** ... (١) ﴾ [فاطر]، ومعنى مثانى أن فيه من كل معنى اثنين متقابلين، ففيه الإنذار والتبشير، وكرر ذلك، وفيه الأمر والنهى ويتكرر

ذلك، وفيه بيان الحلال والحرام، ويتكرر ذكر ذلك، وفيه الخبر والإنشاء، وفيه القصص الكريم مثنى مثنى وهكذا.

هذا تفسير السبع على أنها القرآن الكريم، ويكون عطف القرآن عليها فى قوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ من قبيل عطف الصفة على الصفة، ويكون معنى القرآن المقروء المتلو الذى يتعبد بتلاوته، فيكون معنى السبع المثانى وصف معانيه، وما اشتمل من أحكام وقصص وزواجر ونواهٍ، وأوامر وتوجيه، ويكون القرآن العظيم المقروء المعجز بألفاظه والعظيم فى إعجازه وبتلاوته، وعطف الوصف على الوصف جائز فى العربية كما قال الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة فى المزدحم

وإن معنى العطف يشير إلى أنهما حقيقتان ثابتتان فى القرآن، الأولى وهى أنه كتاب التكليف، وسجل الرسالة الإلهية، والثانية أنه حجة بألفاظه وأساليبه، وطرق البيان فيه، إذ فيه التصريف المعجز، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥)﴾ [الأنعام].

هذا ما اخترنا فى معنى السبع المثانى، ولقد روى فى أحاديث صحاح أن السبع المثانى سورة الفاتحة، وعطف عليها بعد ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾.

وروى عن ابن مسعود وغيره من كبار الصحابة أن السبع المثانى هى طوال السور، وهى سبع، البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، بأن تشمل براءة، على أنهما سورة واحدة.

وفى الحق إن ست من السبع الطوال مدنى، والسورة التى نتكلم فى معانيها مكية، فكيف تكلم عن هذه السبع، وست منها لم تنزل بعد وقد رد هذا بأنها كانت نزلت فى اللوح المحفوظ.

والذى نراه الحق هو أن السبع المثانى القرآن كله، وتخصيص الفاتحة بالذكر معناه أنها من السبع المثانى التى هى القرآن وكل جزء منه يكون السبع المثانى، إذ كل جزء منه متكامل فى ذاته، وهو العليم القدير.

ولقد هدى الله تعالى نبيه بهداية القرآن، وأنه الحجة ونعمة الرسالة، وأخذ من بعد ذلك يبين أنه الغنى بالحق الأعلى وأنهم مهما يكونوا قد أوتوا من مال وجاه وقوة، فلن يكونوا كمن هداه الله تعالى، فقال تعالت حكمته: ﴿**لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩)**﴾.

أى لا تطمع، ولا تلتفت، ولا يغرنك ما متعنا به أزواجا، أى أصنافا متقابلة منهم فيهم الغنى وجاه الدنيا والقوة، والغرور، والطغيان، والكفر.

وعبر سبحانه عن الطموح إلى ما هم فيه والغرور به ﴿... **فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ (٤)**﴾ [غافر] عبر عن ذلك بمد العين؛ لأن هذا يسترعى النظر فكأن الأعين تمد إليه، ولا تنحرف عنه.

لا يغرنك هذا ولا يسترعى نظرك، فإن هذا أمر إلى فناء، وما يدعو إليه أمره إلى بقاء، وإذا كان ذلك أمر فيه متعة وقتية، فقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب، أوتيت القرآن ومثله معه، وأى قدر مما أتوا يقارب قيمة ما أوتيت من الحق، وعزة الحق، ونهى الله تعالى عن الحزن على الكافرين كما نهى عن أن يغتر بهم، فقال: ﴿**وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ**﴾، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، وإذا كان لا يغتر بما أوتى المشركون من أسباب النعيم، فإن من معه من المؤمنين هم الأولى بالرعاية والحفظ لأنهم الذين هم ذخيرة الإيمان؛ ولذا قال تعالى: ﴿**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾، أى تطامن، وارفق بهم ولِنْ لهم بجانبك، ﴿... **وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ... (١٥٩)﴾ [آل عمران].

وقد عبر سبحانه عن لين الجانب والرفق وتقريب القلوب وإدنائها بقوله: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ وذلك مجاز بالاستعارة مشهور، فشبه سبحانه وتعالى حنو محمد ﷺ على أتباعه، بوضع الطائر أولاده بين جناحيه، للمبالغة فى الحيطة والحفظ والصيانة.

وإن هذا النص السامي تصغير لما عند المشركين، وتعظيم لمن آمن، كقوله تعالى: ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢)﴾ [الأنعام].

وإن هذا النهى لصاحب الرسالة عن أن يمد عينيه إلى ما متع الله به الأقوياء وأعطاهم أزواجا متماثلة من متع الدنيا هو نهى لأمته، وفيه بيان كيف يتدلى الحق إذا مد صاحبه العين إلى ما عليه أهل الدنيا، فإنه هنا تكون المذلة ويكون التدنى عن مقام الحق الأعلى، إلى المنزلة الدون أمام أهل المال والجاه والسلطان والباطل، وهو سلطان أهل هذا الإيمان.

ولقد قال القرطبى فى تفسيره فى التعليق على هذه الآية: «رأى القراء المخلصون من الفضلاء الانكفاف عن الذات والخلوص لرب الأرض والسموات أولى، لما غلب على الدنيا من الحرام، واضطر العبد فى المعاش إلى مخالطة من لا تجوز مخالطته، ومصانعة من تحرم مصانعته، فكانت القراءة أفضل والفرار من الدنيا أصوب للعبد وأعدل قال ﷺ: **«يأتى على الناس زمان يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعف الجبال ومواقع المطر، يفر بها من الفتن»** ا هـ.

وأحسب أن زماننا أشد الأزمان فتنة فى نفسه، إذ تولاه الجهال، وسيطر على الفكر الجهال، وتولى على رياسة العلم من يبيعون دينهم لهؤلاء الجهلاء بثمن بخس مهما تكن قيمة الدرهم والدينار، وصح فيه ما روى بحديث قوى السند حتى ادعى تواتره: **«إن الله لا ينزع العلم انتزاعا من قلوب العلماء، إنما ينزع العلم بتولى جهلاء يضلون ويضلّ بهم الناس»** أو كما قال ﷺ.

وإذا كنت لا تغتر بما متع به المشركون، فلا تحزن عليهم، وليعلمهم بأن عمله أنه نذير؛ ولذا قال: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩)﴾.

الخطاب للنبى ﷺ، أمره ربه بأن يبين لهم أنه منذر من عذاب أليم، لا يميل مع الأقوياء، ولا يحيف على الضعفاء، ﴿إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ أكد رسول الله تعالى بأمر ربه إنذاره بـ (إنّ)، والتوكيد اللفظى بالضمير المنفصل، وبالنصر، فعقد عمله ﷺ على الإنذار، وأنه إنذار واضح بين لمن أراد أن يعتبر بصاعقة عاد وثمود، وقوم هود وغيرهم مما ذكرهم الله تعالى فى قرآنه العظيم، من رجفة فى الأرض جعلت عاليها سافلها، أو ريح صرصر عاتية.

وهذا النص السامى جاء على نمطه قوله ﷺ: **«أنا النذير العريان»**.

ولقد بين سبحانه تلقى المشركين للقرآن العظيم، فقال عز من قائل: ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣)﴾.

﴿كَمَا﴾ التشبيه هو تشبيه الإنذار الذى يقوم الرسول بإنذار المقتسمين، فهو بيان لإنذار هؤلاء المقتسمين وأنه من إنذار الرسول الذى كان للإنذار، وتنبيه المشركين إلى عاقبة ما يعملون، أى الإنذار كما ينزل بهؤلاء، ومن هم المقتسمون؟ ذكر المفسرون فى ذلك أقوالا كثيرة، وعندى أن أقواها الجدير بالنظر قولان:

القول الأول: أنه عندما أخذ النبى ﷺ ينشر الدعوة الإسلامية فى قبائل العرب فى موسم الحج، أخذ ستة عشر رجلا منهم كما قال مقاتل والفراء بعثهم الوليد بن المغيرة فاقتسموا مكة وأنقابها وفجاجها يقولون لمن سلكها لا تغتروا بهذا الخارج فينا يدعى النبوة، فإنه مجنون، وربما قالوا ساحر، وربما قالوا شاعر، وربما قالوا كاهن، وسموا المقتسمين؛ لأنهم اقتسموا هذه الطرق، هذا أحد القولين.

والقول الثانى: وهو ما نميل إليه هو قول قتادة: إنهم كفار قريش، قسموا كتاب الله فجعلوا بعضه شعرا، وبعضه سحرا، وبعضه كهانة، وبعضه أساطير الأولين، وهم بذلك قد قسموا كتاب الله تعالى وفرقوه.

وإنى أميل إلى هذا؛ لأنه يتفق مع بيـان القرآن لهؤلاء المقتسمـين، فقد قال تعالى فى تعريفهم: ﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) ﴾.

﴿ عِضِينَ ﴾ جمع عضة والمعنى صار أجـزاء مفرقة هى باطلة فى ذاتها، وهى تفرقة فى أمـر لا يقبل التجزئة قط وهو جـمع، و(عضون) جمع سـالم على غير القياس، والواحـد كما ذكرنا عـضة، أى قسمـا مفرقا من قولهم عـضيت الشىء تعضية إذا فرقته، وكل فرقة عضة.

والمعنى أن هؤلاء المقتسمين لم يأخذوا بما فيه، ولم يعتبروا بعبره، بل قسموه على حسب أهوائهم أقسـاما باطلة لا أصل لها فى حقيـقته فتركـوا تدبره وتعرفه، وإدراك ما فيـه من إنذار وتبشير ومـعرفة وحكمة، ومـا فيه من أخبار الـسابقين، والكشف عما يكنه الغيب بـالنسبة للمستقبل، وعكسـوا أهواءهم عليه، فجعلوها أقساما له، وهى باطلة فى ذاتـها وباطلة بالنسـبة للحاضر، وبذلك كان بينهم وبينه حجابا مستورا، نسجوه من أوهامهم فزادوا بذلك ضلالا فوق ضلالهم.

وإنهم بذلك ارتكبوا إثما مبينا، وحجبوا أنفسهم عن النور، وإن الله سبحانه وتعالى سيحاسبهم على ذلك حسابا عسيرا؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾.

(الفاء) للدلالة على أن مـا بعدها مترتب على ما قـبلها، أى أنه ترتب على اقتسامهم للقرآن، وجعله متفـرقا فى زعمهم الباطل، وإيغالهم فى الشرك والفساد إيغالا أضل عقولهم وأقـوالهم وأعمالهم أن أقسم الله بربوبيته، ليسـألن عما كانوا يعملون، وكان القـسم بقوله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ ﴾ للإشارة إلى أن ذلك من الحياطة لرسالتك وجزاء اقترافهم عليها وجحودهم لها.

وجواب القسم ﴿ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾، وقد أكد سؤالهم بـ (نون التوكيد)، وبـ (لام القسم)، وبكلمة ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾، أى أنه لا يعزب أحد عن السؤال، وليس العقاب هو مجرد السؤال، وإنما العـقاب ما وراء السؤال من عذاب، وذكر السؤال

لبيان أنهم محاسبون على كل ما يفعلون، وأن الله تعالى عنده علم كل شيء، وأسند السؤال إليه سبحانه؛ لبيان جلال الأمر، وعظم ما يرتكبون، وإن كانوا يلهون ويلعبون بما يفعلون، فالله لا يتركهم، وما الله بغافل عما يعملون.

قال الله تعالى:

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾

ابتدأت الدعوة المحمدية بإعلانها بين أهل النبى ﷺ فكان أول من آمن خديجة، ثم على بن أبى طالب، ثم زيد بن حارثة، ثم بين أصدقائه الذين يعرفون أمانته وفضل خلقه، وعظمة نفسه كأبى بكر، ثم أصدقائه كعثمان، وهكذا نبتت فى خفاء كما نبتت البذرة فى ركن مستور مغشى بلباب، حتى أمر الله نبيه أن يجهر وسط عشيرته فقال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤)﴾ [الشعراء]. فجمعهم وأنذرهم ومنهم من ردوا سيئا كأبى لهب، ولكن العبادة كانت فى خفاء لا يخرج المؤمنون جهارا، والإيذاء مع ذلك يتوالى، حتى دخل بعض الأقوياء بأشخاصهم فوق شرفهم النسبى كحمزة بن عبد المطلب والفاروق عمر بن الخطاب، فكان الجهر وتلقى الأذى بالمجاهرة ونزل قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤)﴾.

اصدع، معناها اجهر بما تدعو إليه مأمورا به، ولا تبال أحدًا، وأعرض عنهم، والصدع شق الشىء الصلب وتفريق أجزائه، أو الوصول إلى ما وراءه ولا

يبقى حاجزا، أو من الصديع، وهو ظهور الفجر الصادق يشق ظلام الليل البهيم، ويحيط النور الأبيض يشق الجو المظلم.

والمعنى حينئذ، اجهر بالحق، وشق به ظلام الجاهلية، كما يشق الفجر بنوره ظلمة الليل.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا تُؤْمَرُ﴾، أى أن شق الظلام بالنور هو بما تؤمر، فهو النور الذى يشق الظلام.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾، أى لا تلتفت إليهم، ولا تبال بهم، ولا تدهن معهم بقول فى دين الله تعالى، ولا تحسب إن ممالأتهم تدنيهم، إنما يدنيهم الجهر بالحق مع الموعظة الحسنة من غير جفوة، ولا إدهان ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩)﴾ [القلم].

ثم قال تعالى محرضا رسوله النبى الأكرم: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥)﴾، أى حفظناك من شرهم، فلا ينالون منك ولا من دعوتك، وما يكون منهم من أذى بالقول، أو الغمز، أو نحو ذلك من أساليب الاستهزاء أو السخرية والتعابث فى تلقى الدعوة، لن ينال من شخصك، ولا من أتباعك إلا بمقدار ما ينال المؤمن صاحب الحق من عبث العابثين، وإن يسخروا منك، فسوف يكون اليوم الذى يسخر الحق منهم.

وفى بعض التفسير الأثرى أن الله تعالى كفاه أشد المستهزئين، وذكر أنهم كانوا خمسة رجال من أشراف قريش هم الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل، وعدى بن قيس، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب يبالغون فى إيذاء النبى ﷺ والتهكم به وبدعوته، فأهلكهم الله تعالى، أما الوليد فمر بنبال فتعلق به سهم، فلم ينعطف تعظما لأخذه فأصاب عرقا فى عقبه فمات قبل هجرة النبى ﷺ ولم يحضر بدرا، وأن العاص بن وائل، قد دخلت فى أخمص قدمه شوكة فانتفخت رجله حتى صارت كالرحى، ومات منها، وأما عدى بن قيس، فامتخط

قيحا حتى مات، وأما الأسود بن عبد يغوث فإنه كان تحت شجرة فأصابته حال كان ينطح بسببها الشجرة، ويضرب الشوك حتى مات، وأما الأسود بن المطلب، فقد أصابه الاستسقاء، وهذا خبر قد روى وليس لنا أن نرده، لمجرد أنه خارق للعادة، ولكن نقول الآية من غير الاعتماد عليه واضحة.

ولقد بين سبحانه صفة المستهزئين وباعثهم على الاستهزاء، وعاقبته فقال: ﴿**الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** (٩٦)﴾، أى أنهم بعقلهم المظلم وفكرهم التافه، يجعلون من ذات أنفسهم مع الله خالق السموات والأرض، المنزه فى ذاته وصفاته وإبداعه الخلق ـ عن الشريك كما كانوا يؤمنون ويجعلون بذات أنفسهم لا من منطق أو عقل إلها آخرا وحسبهم ذلك موجبا للاستهزاء بهم والسخرية، فهم المستهزئون ليس لهم أن يستهزئوا بأحد، وقد هددهم سبحانه بقوله: ﴿**فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**﴾، أى بسبب هذا الشرك سوف يعلمون، وسوف لتأكيد الفعل فى المستقبل، أى يعلمون نتيجة استهزائهم وشركهم، والعقاب الذى ينزل بهم.

ولقد واسى الله تعالى رسوله، فقال: ﴿**وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ** (٩٧)﴾.

إن محمدًا ﷺ بشر من البشر، قد كان يسمع باطلا، ويؤذى بالقول والاستهزاء، ويرمى عليه فرث جزور، فتنحى الفتاة الطاهرة فاطمة التى صارت سيدة نساء المؤمنين، فلا يتبرم بها، ويستمر طليق الوجه ولكن صدره يضيق حرجا، والرجل الكامل وخصوصا أعظم الدعاة الحق يضيق صدره، ولا يتغير قوله أو عمله، ولقد قرر الله تعالى خالق الخلق ذلك فقال: ﴿**وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ** (٩٧)﴾ عبر سبحانه عن ألم النفس، وضيقها بضيق الصدر كأن الصدر أصبح لا يتسع لمثل هذا القول الذى كانوا يقولونه من قولهم ساحر، ومن قولهم مجنون، ومن قولهم فى القرآن إنه شعر، وإنه أساطير الأولين، ومن طلبهم خوارق غير القرآن، ومن عبادتهم الأوثان.

وقد أكد الله تعالى علمه بذلك بـ (اللام) وبـ (قد)، وإن تأكيد علم الله بما يضيق به صدر نبيه الأمين تسرية لنفسه، وفيه كمال معاونته، وفيه مع كل هذا ما يفيد الإنذار للمشركين على ما يقولون ويفعلون ويعتقدون، فما دام علم ثانيا، فإنه يحق الحق، ويبطل الباطل، ويجزى كلا بما يفعل، وهو القوى المتين.

وقد ذكر سبحانه الطب لهذا القلق النفسى كما أشار إلى جزاء ما يقولون وما يفعلون، والطب الذى ذكره الله تعالى هو طب النفوس القلقة وهذا الطب هو الاتجاه إلى الله تعالى وتقديسه والركون إليه، والخضوع له؛ ولذا قال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾.

(الفاء) هنا تفصح عن شرط مقدر، أى إذا كان قد أصابك قلق النفس فعالجه: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، أى فانزع إلى الله، واركن إليه بالتسبيح والحمد، فإن ذلك فى ذاته كشف للكرب وبه زوال الهم، إذ فيه الركون إلى جانب القوى الذى لا يناهده جانب لأى جانب من جوانب الدنيا، وهو فى الوقت ذاته شعور بأن ما ينال صاحب الرسالة من أذى إنما هو لله وللقيام بحقه، وذلك ذاته تسبيح أى تسبيح وحمد لله أى حمد.

وعبر سبحانه بقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ للإشارة إلى أن ربك الذى حماك ويكلؤك، فإن كان منك قلق، فلن يكون منهم أذى لك فى قابل أمرك، إنما هو أخذ بالغلب أو أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

﴿وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾، أى استمر فى خضوعك لرب العالمين، والسجود هنا إما أن نقول: إن معناه الخضوع المطلق لله تعالى، فالخضوع له وذكره هو اطمئنان القلوب، وقد قال تعالى: ﴿... أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد] أو نقول: إنه سجود الصلاة، ويكون المعنى كن مستمرا فى صلاتك، ففى الصلاة تفريج الكروب، وذهاب الأحزان، والانصراف عن الهموم، وفى الأثر: كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، ولقد روى أيضا أن النبى ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد إلى ربه وهو ساجد فأخلصوا الدعاء».

وقوله تعالى: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩) ﴾.

فى هذا بيان لحقيقة التسبيح بحمد ربه، وهو العبادة بكل أنواعها من تطهير للنفس بالصلاة والصوم والحج وتطهير للمجتمع بالصدقات المنثورة والمفروضة، وقد كانت مطلوبة قبل الهجرة، وهم فى مكة كما قال تعالى فى سورة الروم المكية: ﴿ ... وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) ﴾ [الروم].

والتعبير بـ﴿ رَبَّكَ ﴾ فيه إشارة إلى أن مقام الربوبية يقتضى العبادة الخالصة له، وقد حدد سبحانه وتعالى نهاية العبادة بقوله: ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾.

الكثرة الكبرى من المفسرين يقولون: إن اليقين هنا هو الموت، ويكون المعنى على هذا حتى يأتيك الأمر الذى لا يرتاب فيه وهو اليقين الثابت بالموت، إذ يكون اليقين ثابتا بالاعتقاد، حتى يكون الموت، فيكون ثابتا بالعيان لا بالبرهان وهذا الكلام يشير إلى حقيقتين ثابتتين:

الحقيقة الأولى: وجوب العبادة طوال الحياة حتى الممات.

والحقيقة الثانية: فيه إشارة إلى أن العبادة تزيد اليقين فيزداد المؤمنون إيمانا إلى إيمانهم، ولله غيب السموات والأرض وإليه مرجع الأمور.

سورة النحل

تمهيد:

سورة النحل مكية، وعدد آياتها ١٢٨ ثمان وعشرون ومائة، وسميت النحل لذكر النحل فيها في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ﴾.

وهى كالسور المكية تتجه إلى إثبات التوحيد مما خلق من أرض وسماء وأحياء، وتأكيد للبعث والنشور، وإبطال عبادة الأوثان، وما اقترن بعبادة الأوثان من وأد البنات.

وابتدئت بتأكيد عذاب الله لمن يشرك وأنه نازل به لا محالة، وأنه سبحانه ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده، وإن فى ذلك إثبات الرسالة الإلهية تجىء على لسان البشر.

وقد أثبت من بعد ذلك قدرته سبحانه فى خلق السموات والأرض وخلق الإنسان من نطفة، فإذا هو خصيم مبين مشيراً إلى مدرجه فى التكوين، حتى يصير ذا لسان يجادل به، وعقل يفكر به.

وذكر نعمة الله تعالى على الإنسان بخلق الأنعام يتخذ منها أسباب الدفء من ملابس ومساكن، ومنافع فى ركوبها، الانتقال بها من أرض إلى أرض، ومنها تأكلون، ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) ﴾.

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) ﴾.

وبعد ذلك بين نعمته سبحانه وتعالى فى الماء ينزل من السماء بأمره يكون منه حياتكم، ويكون منكم الشجر، و﴿ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾، وذكر سبحانه تسخير الشمس والقمر والنجوم سخرها بأمره ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾، وسخر سبحانه ما خلق فى الأرض من فلزات ومعادن يتخذ منها الحلى وتقام بها المصانع وألوانها مختلفة.

ووجه سبحانه وتعالى الأنظار إلى البحر وما فيه ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ من جواهر، وهو مع ذلك تجرى فيه الفلك التى تمخر عبابها به وجعل لكم ﴿ أَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) ﴾.

ذكر هذا لبيان خلق الله العظيم ومع ذلك يشركون فى عبادته من لا ينفع ولا يضر ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) ﴾، أى لا حياة فيها.

وقد قرر الله سبحانه وتعالى الحق فقال: ﴿ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ ولا ينكر حقيقة الألوهية ويضل فى معرفتها إلا الذين يكفرون بالبعث، فقال سبحانه: ﴿ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾.

وقد أنكروا الوحدانية وأنكروا القرآن ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) ﴾.

وقد ذكر سبحانه العظات فيمن مضوا، فقد مكروا مكرهم، ودبروا تدبيرهم، وبنوا على ما دبروا أوهامهم، ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ

السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٢٦) ﴾، وبعد ذلك يجيء إليهم عذاب يوم القيامة يخزيهم، ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) ﴾ .

هذا شأن الكفار الذين أنكرت قلوبهم، أما المتقون يوم القيامة، فإنهم يذكرون الحق يوم القيامة، ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) ﴾ .

ولقد بين الله تعالى بعد ذلك تفكير المشركين فى عدم تدبرهم وعدم تفكيرهم، وإهمالهم الإنذار بعد الإنذار حتى ينزل بهم ما لم يتوقعوا، وهم فى غفلة، فأصابهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون، والمشركون يحمِّلون آثامهم على الله ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٣٥) ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ ﴾ .

وقد أشار سبحانه إلى ما نزل بالسابقين من المنكرين، ولكنهم يصرون على إنكار التوحيد وإنكار البعث ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٨) ﴾، وإن البعث أمر ليس بعسير على الله، ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٠) ﴾ .

وقد ذكر بعد ذلك سبحانه ثواب المؤمنين: ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) ﴾، وقد ذكر سبحانه وتعالى أوصاف الإيمان، وأولها الصبر، ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾، ولقد

كانوا يقولون لم بعث رسولا من البشر؟ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؟ فقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) ﴾. ولقد أشار سبحانه أن المشركين في غفلة إذ يعاندون الله: ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٤٧) ﴾.

وينبئهم سبحانه إلى خلقه سبحانه الذي ﴿ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠) ﴾.

وقد أمرهم سبحانه بالحقيقة الخالدة وهي الوحدانية ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) ﴾.

وقد بين سبحانه وتعالى نعمه مجملة: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) ﴾.

ولقد ذكر عادة جاهلية، وهي كراهية البنات، ووأدهم أحياءً، فقال: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) ﴾.

ولقد حكم الله تعالى على المشرك أنه أسوأ ما يكون عقلا، فقال: ﴿ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠) ﴾.

وإن الله لا يؤاخذ الناس بأعمالهم فور وقوعها، ﴿ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾، ومع إشراكهم ﴿ تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾.

وقد أكد الله تعالى لنبيه أنه سبحانه أرسل ﴿ إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، وقد ساق ذلك وأكده ليتأسى النبى بالرسل قبله، وأنه يجب أن يسير فى بيان الشريعة، ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) ﴾.

ثم ذكر سبحانه ﴿ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥) ﴾، ثم بين سبحانه عجائب الخلق فى الأنعام، ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴾ وذكر سبحانه ثمرات النخيل والأعناب قد مكن الناس منها، فاتخذوا منها رزقا حلالا، واتخذوا مسكرا حراما، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾، وذكر النحل، وما ألهمه سبحانه، والذى يخرجه من بطونها ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ﴾، ثم بين خلق الإنسان ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠) ﴾، ثم بين سبحانه اختلاف الناس فقرا وغنى، ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ﴾.

وذكر سبحانه نعمه بأن جعل لنا من أنفسنا أزواجا وذرية بنين وحفدة، ورزقنا من الطيبات، ومع هذه النعم المتضافرة ﴿ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) ﴾.

وقد ضرب الله تعالى المثل لضلالهم، ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ

مُّسْتَقِيمٍ (٧٦)﴾، وهكذا الأمثال تحوى فى ذاتها حكما وأخلاقا وتوجيها للأنظار مع دلالتها على معنى التوحيد والموازنة الحكيمة بين الخالق والمخلوق.

وقد وجه سبحانه الأنظار إلى خلق الإنسان لا يعلم شيئا ثم جعل له السمع والأبصار والأفئدة رجاء أن يشكروا فكفروا، ثم وجه سبحانه الأنظار إلى خلق الطير صافات، كما وجه إلى خلق السموات والأرض والأنعام والخيل والبغال وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

ووجه الأنظار إلى البيوت التى يسكن إليها، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم وكل هذه نعم ليشكروها فكفروها، وينبه النبى ﷺ أن عليه البلاغ فقط، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣)﴾، وقد أنذرهم سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤)﴾ وذكر سبحانه بعد ذلك حال المشركين مع الأوثان يوم القيامة ثم أسلموا أنفسهم لله ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧)﴾، وبين سبحانه وتعالى مقام النبوة المحمدية يوم القيامة، فيقول: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)﴾.

ويبين الله تعالى لب الإسلام وغايته، فيقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠)﴾.

ويدعو الله إلى الوفاء بالعهد، وينهى عن نكث العهد، ويبين أن العهد قوة، ونكث العهد نكث للقوة، وجعلها أنكاثا، وأنه لا يصح أن يكون الرغبة فى الكثرة فى الأرض، والقوة سببا للنقص، ولا تتخذوا ﴿أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ

هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾، ويبين أن الله تعالى قدر اختلاف الأمم ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾.

ونهى عن نقض العهد نهيا قاطعا، فقال: ﴿ وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) ﴾.

وقد بين سبحانه آداب المؤمن عند قراءة القرآن، ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠) ﴾.

وقد بين سبحانه أن القرآن معجزة النبى ﷺ، وأنه آيته الكبرى، والله أعلم بأى الآيات أجدى وأنسب وأحكم، ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾.

وبين أن الكذب شأن ﴿ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾، وبين سبحانه وتعالى حكم من ينطق بكلمة الكفر مكرهًا ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) ﴾ وقد بين سبحانه أنه طبع على ﴿ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩) ﴾.

وبين بعد ذلك جزاء المؤمنين المهاجرين، فقال: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٠) ﴾.

وذكر سبحانه أنه فى ذلك اليوم تُوفَّى كل نفس ما كسبت بعد أن جاءت تجادل عن نفسها، وهم لا يظلمون، وقد ضرب الله مثلا للقرية الظالمة بعد أن أنعم الله تعالى عليها ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ

مكَان فكفَرتْ بأَنْعُمِ اللَّهِ فأَذَاقَهَا اللَّهُ لبَاسَ الْجُوعِ والْخَوْف بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ولَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فكَذَّبُوهُ فأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وهُمْ ظَالمُونَ (١١٣) ﴾.

ولقد أشار إلى ما أباحه سبحانه وتعالى فقال: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) ﴾.

وبين من بعد ذلك المحرمات، وهى خبائث تفسد الأجسام، وإن التحليل والتحريم من الله وحده؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧) ﴾.

ثم بين أن هذه المحرمات كانت على الذين هادوا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، وأشار سبحانه إلى أن باب التوبة مفتوح ﴿ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

ذكر الله سبحانه وتعالى العرب بما كان يتحلى به إبراهيم، وهو جدهم الذى يتشرفون بالنسب إليه فقال: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ﴾، ثم خاطب النبى ﷺ بأن دينه هو ملة إبراهيم ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) ﴾.

وأشار سبحانه إلى أن تحريم السبت كان على اليهود الذين اختلفوا فيه ولم يكن على غيرهم.

وبين سبحانه طرائق الدعوة إلى الحق، وأشار إلى العقاب دفاعا عن الخير فقال: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾.

وهذه الآيات أشبه بأن تكون مدنية، والله سبحانه وتعالى أعلم.

معانى السورة الكريمة

قال تعالى:

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ
﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ
أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ
ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَـٰمَ
خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ
﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾
وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ
ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ
وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

كان المشركون يتلقون وعد النبى ﷺ لهم بالغلب فى الدنيا أو العذاب الأليم فى الآخرة بالاستهزاء، والسخرية مبالغة فى الإنكار، ويتحدون النبى ﷺ أن ينزل بهم ما ينذرهم به، ولقد قال تعالى فى ذلك: ﴿ **وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** ﴿٥٣﴾ ﴾ [العنكبوت] وقال تعالى: ﴿ **يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ** ﴿٥٤﴾ ﴾ [العنكبوت]، أى أن أسبابها محيطة بهم، وهى قريبة منهم، وقد نزل قوله تعالى: ﴿ **اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ** ... ﴿١﴾ ﴾ [الأنبياء]، وقوله تعالى: ﴿ **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ**

وَانشَقَّ الْقَمَرُ ① ﴾ [القمر] فاستعجلوه، وقوله تعالى: ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾، قال فيه النحويون: إنه ماضٍ بمعنى المضارع، وعبر بالماضى لتأكد وقوعه.

وفى الحق: إن الأزمان بالنسبة لله تعالى لا تختلف بين ماضٍ ومستقبل بل إن ذلك بالنسبة لنا؛ إذ يختلف الماضى الذى نعلمه واقعا عن المستقبل الذى لا نعلمه بل فى الغيب المكنون المستور عنا.

على أن قوله تعالى: ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ ﴾، أى تقرر أمر الله تعالى وما يقرر الله تعالى قد أتى فيه قراره، وتعلقت به إرادته، وإذا كان قد أتى فلا تستعجلوه؛ لأنه قد قرر فهو واقع لا محالة، واستعجالكم لا يعجله، وسكوتكم لا يؤجله، و(الفاء) فى قوله تعالى: ﴿ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾، تدل على أن ما قبلها سبب لما بعدها، فسبب النهى عن الاستعجال أنه تقرر بالفعل، وقوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾، أى تنزه وتقدس وتبرأ، وتعالى أى تسامى عما يشركون، و(ما) مصدر حرفى أو اسمى، وفى الجملة معنى النص السامى: تقدس سبحانه وتسامى فى علوه عن أن يكون له شريك فى السموات والأرض.

وهذه العبارة السامية فيها تقرير أن الله واحد لا شريك له، ولا يمكن أن يكون له شريك فى قدسيته، وكبريائه، وقد بين الله سبحانه وتعالى بعد ذلك أنه أرسل الرسل بهذه الحقيقة لينذر المشركين بإرسالهم، فقال تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ ② ﴾.

(الروح) فسره ابن كثير بأنه الوحى، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٥٢ ﴾ [الشورى].

وتسمية الوحى روحا؛ لأنه يجىء بما فيه حياة الناس، فهو كالحياة لهم، أو يقوم مقام الروح فى الأجساد. وقوله تعالى: ﴿ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾، أى من

اختارهم لرسالته ويصطفيهم، الله يختبر من يشاء من عباده وهو أعلم حيث يجعل رسالته.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾، أى أنها مقبلة بأمره سبحانه، أو من أجل أمره، وتنفيذ ما قدر وقرر، وأمره بينه سبحانه بقوله تعالى: ﴿أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ﴾.

فهو تقرير للوحدانية جاء على لسان الحق جل جلاله﴿أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا﴾ داخل عليها حرف جر، وهو الباء و(أَنْ) هى المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، أى أنه الحال والشأن ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا﴾ وقد ذكر ضمير المتكلم لتربية المهابة، ولفيض جلاله سبحانه وتعالى، والجملة دالة على القصر، فالألوهية مقصورة على الذات العلية، وما ينحلونها بالألوهية من أوثان باطل فى أصله، وإنما هى أوهامهم التى أعطتها صبغة الألوهية، وإذا كان الله تعالى جل جلاله هو وحده الإله فإن الوقاية من عذابه، وخوف عقابه أمران لازمان؛ ولذا رتب سبحانه على وصفه وحده بالألوهية قوله: ﴿فَاتَّقُونِ﴾ فالفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإنه إذا كان هو الإله وحده لا شريك له، فلا يتقى غيره، وجاء على لسان الأمر، لكى يجتنبوا ما يعرضهم للعذاب، ومعنى (اتقوا) اجعلوا بينكم وبين غضبه وقاية، واملأوا قلوبكم بتقواه، كما قال تعالى: ﴿... اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢)﴾ [آل عمران].

وإن أسباب انحصار الألوهية فى ذاته العلية هو أنه وحده خالق السموات والأرض ومانح النعم؛ ولذا قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣)﴾.

أنشأ الله السموات والأرض بالحق أى بالأمر الثابت، والنظام المحكم، ربط بين أجزاء السماء بسر الوجود فكل نجم فى مداره، وبروجها ثابتة لا تتغير وتسير إلى مستقرها وتتحرك فى مدارها وكل شيء يجرى بحسبان فى السماء والأرض بطبقاتها، وما أودع باطنها من فلزات وأحجار، وعروق المعادن، والجبال

الراسيات، والبحار التى تجرى الفلك فيها ماخرات عبابها، والأنهار والأمطار تنبت الزرع، وتأتى بالثمار، هذا ما يشير إليه؛ لذا كان سبحانه وتعالى قد خلقها بذلك الإحكام وبذلك النظام الثابت الذى لا يتخلف، وأنه سبحانه وتعالى هو الذى يمسك السموات والأرض، فهو سبحانه وتعالى المتعالى عن الشركاء؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تسامى فى ذاته عن أن يكون له شريك؛ لأنه ليس كمثله شيء قط، فهو المنفرد بالخلق والتكوين والإنشاء.

وقوله سبحانه: ﴿تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ كانت هذه الجملة مفصولة عما قبلها، لتمام الاتصال فإن تمام الاتصال يوجب فصل الجملتين، كما يوجبه كمال الانفصال، إذ الجملة الأولى سببا للثانية، فإن الخلق للسموات والأرض سبب لكمال العلو عن المثل والشريك.

هذا هو الخلق العام، والإنسان نفسه فيه إثبات قدرة الله بديع السموات والأرض ومبدع الإنسان؛ ولذا قال تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ④﴾.

وهو الماء الذى يخرج من بين الصلب الذى قالت آية أخرى: ﴿... مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ⑧﴾ [السجدة]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ يشير إلى الأدوار التى مر بها من طين فنطفة، فعلقة، فمضغة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ⑫ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ⑬ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ⑭﴾ [المؤمنون] هذه أدوار الإنسان، وهو جنين لم يخرج إلى ظاهر الوجود، وإذا خرج إلى ظاهر الوجود كان معه السمع والأبصار والأفئدة، حتى تكون فيه كل قوى الإنسان من لسان وعينين وأذنين.

هذه الأدوار كلها يشير إليها قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾، الخصيم الناطق المجادل الذى يحسن إدارة القول وتحويره وتحويله كعمرو بن العاص الذى

كان معروفا بالحيلة فى القول، حتى إن عمر الفاروق رأى رجلا لا يكاد يبين، فقال سبحان الله خالق لسان هذا هو خالق لسان عمرو بن العاص.

و(الفاء) و(إذا) يدلان على المفاجأة، والمفاجأة مع هذه الأدوار المتدرجة بأمر الله وتقديره للدلالة على التفاوت البين بين ماء مهين، وخصيم مبين، سبحان من كون وأنشأ، وهدى وعلَّم.

بعد هذا أخذ سبحانه يبين النعم التى أنعمها على الإنسان فقال تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥﴾.

الأنعام جمع نعم، وهى الإبل والبقر والغنم، وما يشبهها من غزال أو نحوه، وقد ذكر سبحانه وتعالى فى هذه الآية نعما على الإنسان، فقال تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

النعمة الأولى منها الدفء، وهى دفع البرد، وذلك بإلباس من وبرها وصوفها، ومن النفع اتخاذها أثاثا وبيوتا من الخيام، كما قال تعالى: ﴿... وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ۝٨٠﴾، والمنافع كما قال ابن عباس: النسل والركوب واتخاذها فى الحرب لحمل المجاهدين، والثالث منها تأكلون أى من لحومها وألبانها.

وذكر سبحانه نعما للإنسان أخرى فيها، وهى قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾.

ترى الراعى للإبل أو القطيع ساقها إلى الرواح قد ذهب عنها الجوع وامتلأت شبعا من الكلأ والنبات، ويخرج بالنعم سارحا إلى حيث المرعى والمسقى، وحيث يرعاها ويشرف عليها فى حركاتها وملاعبها ذلك هو معنى ﴿تُرِيحُونَ﴾ و﴿تَسْرَحُونَ﴾.

و(الجَمال) هو الصورة التى تكون متناسقة وتؤثر فى النفس، وهو يكون فى الخلق والتكوين، كما ترى فى جمال الأشخاص والصور والمناظر وتنفعل به النفس

فى إحساس بالسرور والارتياح، ويكون فى جمال الطبائع السليمة الطيبة، ويكون فى المعانى والصور النفسية.

وإن فى منظر قطعان الإبل والغنم والبقر وهى سارحة متجهة إلى مراعيها، ما يشرح النفس؛ لأن منظر الحياة فى الأحياء يفرح النفس، ويلقى فيها بهجة، ومنظرها وهى عائدة ريانة بالشبع والسقى يعطى ارتياحا أشد.

وقد ذكر رواحها، قبل سراحها مع أن الرواح خاتمة اليوم والسراح ابتداؤه؛ لأن الإحساس بالجمال فى الرواح أشد؛ إذ تكون مزدهرة مملوءة بالشبع، ورواحها يكون أشد، وجمالها أوقع فى نفس صاحبها؛ لأنه يكون بعد تعب رعيها والإشراف عليها، ولأنه يكون بعد انتصارها على مطامعها، وإشباع حاجتها.

وقد قال الزمخشرى: منَّ الله بالتجمل بها، كما منَّ بالانتفاع بها؛ لأن من أغراض أصحاب المواشى، بل هو من معاظمها؛ لأن الرعيان إذا روحوها بالعشى وسرحوها بالغداة، فزينت بتسريحها الأفنية، وتجاوب فيها الثغاء والرغاء أنس أهلها وفرح أربابها وأجملها فى عيون الناظرين إليها وأكسبتهم الجاه والحرمة ونحوه.

وقد يسأل سائل لماذا ذكر جمال النعم فى غدوها ورواحها وجمال الدنيا كثير؟ والجواب عن ذلك أن الله تعالى ذكر زينة الأرض بنباتها، وزخرفها، وذكر أنها زينت بذلك للناظرين، وإن ذكر جمال النعم فى تلك الأوقات ترغيبًا فى تربيتها والعناية بها؛ لأن فيها نفعا وغذاء.

وذكر الله تعالى مع ما ذكر من منافع للنعم حمل الأثقال فقال تعالت كلماته: ﴿ **وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ** (٧) ﴾.

الأثقال: جمع ثقل، وهو ما يثقل حمله، ويشق بكسر الشين، وتفتح وهى قراءة بمعنى المشقة، وإن البلاد العربية كان الحمل فيها بالجمال حتى قيل: إن

الجمال هى سفن الصحراء، أى أنها تنقل الأمتعة والأثقال فى الصحراء، كما تنقل السفينة الأثقال على سطح الماء.

فالضمير وإن كان يعود إلى الأنعام كلها، إلا أن حمل الأثقال عند العرب للجمال فقط، وفى الحق إن حمل الأثقال ظاهره حملها على الظهر، ولكنه يشمل بالتضمن جرها على العربات، وأن من البقر ما تجر العربات المحملة، كما يرى فى مصر، وكما يرى فى غيره من البلاد، وقد رأينا فى باكستان الإبل تجر العربات.

وجملة معنى النص، وتحمل أثقالكم أو تجر ما يحملها إلى بلد نائية عن مقركم لم تكونوا بالغى هذا البلد لنأيه وبعد المسافة إلا بمشقة شديدة.

وإن ذلك من رحمة الله تعالى بعباده ورأفته بهم؛ ولذلك قال تعالى فى ختام الآية الكريمة: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، أى أنه سبحانه يرأف بكم فى خاصة أموركم ويرحمكم فى عامة أحوالكم، وفى وجودكم، وهنا بعض إشارات نذكرها:

أولها ـ أن الله تعالى عبر بـ ﴿رَبَّكُمْ﴾ للإشارة إلى أن ذلك التمكين من مقتضيات الربوبية والقيام على شئونكم وهو سبحانه وتعالى: الحى القيوم الذى يحيط بكل شىء علما.

الثانية ـ أنه قال: ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، والفرق بين الرأفة والرحمة فيما نحسب أن الرأفة فيما يكون فى الإنسان فى خاصة أمره من حيث الرفق والتسهيل والتيسير، والرحمة ما يكون بالإنسانية فى عامة أمورها، وقد تكون الشدة فى بعض الأحوال من مقتضيات الرحمة؛ لأن رحمة الكافة قد تقتضى شدة على الظالمين.

الثالثة ـ أن الله تعالى أكد وصفه بالرأفة والرحمة بـ﴿إِنَّ﴾، وصيغ المبالغة، وبالجملة الاسمية، وباللام.

ولقد قال تعالى فى نعمة النعم: ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ⑧ ﴾.

بعد أن ذكر سبحانه نعمته فى الأنعام، وما تتخذ منها من منافع، وما يكون فيها ذكر نعمة فى غيرها مما لا يشمله اسمها وكان العرب يجدون فيها متاعا، وهى الخيل والبغال والحمير، فإن فيها نعمة التمكين من ركوبها أو نعمة أنها تتخذ زينة لهم فى غدوهم ورواحهم، وقد قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ... ⑭ ﴾ [آل عمران].

فالخيل المسومة من زينة الحياة، فالخيل ومثلها البغال والحمير تتخذ زينة، وقد قال العلماء فى الخيل ومثلها البغال، وكلمة الخيل قد يدخل فى عمومها البغال؛ ولذا يكون سهمها فى الغزو واحداً عند كثير من الفقهاء وعلى رأسهم أبو يوسف صاحب أبى حنيفة رضى الله عنهما. إن الخيل تتخذ لأغراض ثلاثة:

الغرض الأول: القنية، للإنتاج وهذه حسنة فى ذاتها؛ لأن الإنتاج فى الحيوان كالإنتاج فى النبات مستحسن بل مطلوب.

الغرض الثانى: للجهاد، فإن فى نواصيها الخير وذلك مطلوب.

الغرض الثالث: للخيلاء والتفاخر، والخيلاء منهى عنه.

والزينة هى ما يكون فى الخيل من راحة للنفس، وفرق بين اتخاذها زينة والخيلاء بها، فإن الخيلاء تفسد القلب، أما التزين، أو طلب ما يكون فيه زينة فإنه لا شىء يمس القلب ليفسده.

ولقد قال تعالى بعد ذلك: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾، أى يخلق ما نعلم وما لا نعلم، وما كان يعلمه العرب، وما لا يعلمونه، ولو أن المتأمل المستبصر تعرف إعجاز القرآن فى إخباره بما كان مغيبا فى زمان نزوله لوجده فى مثل هذه الآية،

فإن مما خلقه الله تعالى مما كان العرب لا يعلمونه، ولم يكن قط فى عصر نزول القرآن ـ السيارات التى تنهب الأرض نهبا، والطائرات التى تقطع أجواء الفضاء قطعا، ومما يجرى الآن فى عصر الفضاء فإن ذلك كله خلقه الله تعالى، ومكن الإنسان فى عصره ما لم يكن ليعلمه، وسنرى مما يخلقه الله، ويعلمه من بعدنا، ولا نعلمه نحن.

نعم الله تعالى فى المطر والشمس والقمر والبحار

قال تعالى:

وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ
شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم
بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ
ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾
وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ
مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ
﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى
سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟
مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ
وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

يقرن الله تعالى الأمور الحسية بالمعنوية، فيذكر الحسى أولا، ثم يتجاوزه إلى المعنوى، وقد يكون ذلك فى جملتين متصلتين سببية أو وصفية، كما قال تعالى: ﴿... وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ... ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة]، فصدر القول التزود فى الحج بزاد الدنيا، وجاء فى التعليل الزاد المعنوى، وذلك ليجمع بينهما، وكما قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ... ﴿٢٦﴾﴾ [الأعراف].

وقد ذكر سبحانه فى الآيات السابقة ركوب الخيل والبغال والحمير وزينتها وأن الله يخلق ما لا نعلم من نزل فيهم القرآن، وقد خلق السيارة والطيارة، وقد أخرج روائع الأرض إلى السماء، حتى يصل الإنسان إلى الأفلاك ومواقع النجوم.

ذكر سبحانه تلك النعم المادية، وذكر بعدها المسالك المعنوية الهداية، والشقوة، فقال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾.

القصد مصدر بمعنى اسم الفاعل، والقصد والقاصد معناهما مستقيم لا انحراف فيه، وطيب لا سوء فيه ثم إنه كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ ... ﴿٤٢﴾﴾ [التوبة].

ومعنى ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾، أى على الله بيان السبيل المستقيم الموصل إلى الحق، ومعنى بيانها إقامة البنيان والأعلام الدالة على الطريق وإرسال الرسل للهداية وقد وهب إليهم القلوب المدركة للحق بفطرتها.

وحذفت (بيان)، وبقيت كلمة ﴿قَصْدُ﴾ نظرًا إلى المضاف، للإشارة إلى أن الطريق القاصد هو بنفسه هاد، ذلك لأن النفوس المفطورة على فطرة الله تعالى الحق وحده يهديها ويرشدها.

وليس معنى أن قصد الطريق على الله أنه لازم عليه، بمعنى أنه واجب عليه، فالله تعالى لا يجب عليه شيء وليس في الوجود من يوجب عليه شيئا، سبحانه وتعالى، وإنما كتب الله تعالى على نفسه أن يضع لهم أسباب العلم والهداية ودراية الحق ليسلكوه مختارين، فليس فيه إلزام على الله، كما أنه ليس فيه جبر للعباد.

﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾، (جائر) أى مائل منحرف حائد، ليس بمستقيم، والضمير فى (منها) يعود إلى السبيل وهى الطريق، وتؤنث. وذكر هذه الجملة بعد الأولى يدل على أن الأصل هو الاستقامة؛ لأن الفطرة مستقيمة بذاتها، والانحراف من تسلط الشياطين بتسليط الأهواء، والشهوات.

وإن هذين الخبرين يدلان على أن الناس فيهم المستقيم، والمنحرف الجائر الحائد عن الطريق، وإن الله تعالى قد وضع للفريقين أسباب الهداية والصواب لعلمه القصد، فمنهم سلك القاصد ومنهم من انحرف عن الطريق السوى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، أى لو شاء أن تكونوا جميعا على سواء فى الرشاد، لهداكم أجمعين بأن جعلكم جميعا تسلكون سبل الهداية، وأنتم مختارون غير مجبرين كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ... (١٣)﴾ [السجدة].

عاد سبحانه وتعالى من بعد أن بين أن الله سن طريق الهداية وهو طريق الفطرة، وأن الناس يجورون بالطريق فيرتكبون ما لا يجوز، بعد ذلك بين النعم العادية الداعية إلى الشكر لمن أراد الحق وسلك سبيله، فقال تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠)﴾.

الضمير يعود إلى الله جل جلاله؛ لأنه حاضر دائما، ولأنه المتحدث عنه فى القرآن دائما، ولأن القرآن كتابه، فهو منه والقرآن هو الذكر الحكيم.

الماء هو الصلة التى تصل السماء بالأرض فمنها ينزل المطر إلى الأرض، وقد ذكر سبحانه وتعالى نعمتين جليلتين فيه:

أولاهما - أن منه الشرب، ورى الأبدان، وقد عبر سبحانه بقوله تعالى: ﴿**لَكُم مِّنْهُ شَرَابٌ**﴾، وقال سبحانه: ﴿**لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ**﴾، أى أن الماء لكم منه شراب، تشربونه وتدفعون به العطش، وعبر سبحانه بقوله تعالى لكم منه شراب ليشمل شربه ريا وسقيا، ويشمل اتخاذه محلى بمادة من مواد الحلوى، وليشمل الشراب الذى يكون من النبات والكروم غير المتخمر، فإن الماء أصل ذلك كله.

وثانيتهما - أن ﴿**وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ**﴾، والشجر يطلق على كل نبات سواء أكان زرعا ينتج حبا متراكما، أم كان غرسا لكل ذلك يسمى، وقد ذكر البيضاوى شعرا فى ذلك، وهو:

يعلفها اللحم إذا عز الشجر والخيل فى إطعامها اللحم ضرر

فالشجر الذى يعز فى علف الخيل هو الزرع لا الغراس.

ومعنى قوله تعالى: ﴿**تُسِيمُونَ**﴾ من أسام الماشية إذا رعاها، وجعلها تطلب أماكن الكلأ والرعى، وأصلها من المسومة، وهى العلامة التى تكون قطع الكلأ، ورعى النعم له.

وإن هذه بلا ريب نعم تستحق الشكر، فهل تشكرون.

وقد فصل سبحانه وتعالى القول فيما تكون من ماء السماء، فقال تعالى:

﴿**يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١)**﴾.

الضمير فى ﴿**بِهِ**﴾ يعود إلى الماء، أى ينبت الله تعالى لكم بهذا الماء الزرع وهو الحب المتراكب والكلأ، ونحوه من أنواع الزيتون، والنخيل والأعناب، ومن كل الثمرات.

والزيتون اسم جنس جمعى لزيتونة، والنخيل معروف، والأعناب جمع عنب، ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ (منْ) فيها تظن أنها بيانية، أى كل الثمرات، كـ(منْ) فى قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)﴾ [آل عمران] ويقول الزمخشرى إن من تبعيضية، وذكر التبعيض هنا لأن ثمرات الدنيا مهما كبرت وكثرت هى بعض الثمرات، وفى الجنة كلها.

وإن الإنبات فى ذاته نعمة؛ لأن الله تعالى فالق الحب والنوى، تنشق من الحبة أو النواة بأمر الله فتخرج بالرى عوداً، تجرى إلى أعلى فيكون منه سيقان الزرع والشجر، وينشق إلى أسفل فتكون منه العروق والجذور التى تجرى فى باطن الأرض على امتداد قصير أو طويل على حسب نوع النبات والشجر، والضوء والحرارة يعاونان فى تكوين الغصون والأوراق، وإن الزيتون إما أن يراد به الثمرة، أو يراد به الشجرة، وفى كل آيات، ويدرس العلماء إدام الزيتونة فيحسب بعض الباحثين أن فيها دواء للسرطان، ولا تزال آيات الله تعالى قائمة فى كل خلق، سبحانه وتعالى عما يصفون، وهو الخلاق العليم.

ولقد ختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أى إن فى ذلك الخلق العظيم الدقيق الحكيم لآيات دالات بينات على عظيم الخلق، وإحكام الأسباب التى سيرها بأمره، وهو العليم الخبير، سبحانه وتعالى، ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أى لأناس متجمعين يتفكرون تفكر المتدبرين فى أحكام صنيعه، وكريم نعمه، وعظم المن فى فضله، سبحانه وتعالى.

هذه نعم الله تعالى التى خلقها فى الأرض أو بعضها، وقد عدد نعمه فى الأرض ثم اتجه إلى نعمه على الإنسان فى السماء، فقال عز من قائل:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢)﴾.

فالله تعالى سخر لنا الليل والنهار، أى ذلل الليل والنهار لنا، فجعلهما بذاتهما نعمة، ففى الليل يكون الهدوء الساتر؛ ولذلك سمى الليل لباسا، وفى النهار يكون العمل والكسب الكدح، وفى الليل يكون الاستجمام لعمل النهار، وفى النهار يكون العمل المنتج المثمر.

ثم هناك أمر آخر فى الليل والنهار، ففى الليل يكون الكربون الذى تنمو منه عروق الأشجار والأوراق وتنفث الزائد منه عن حاجتها.

وفى النهار تكون الحرارة، وتنفث الأشجار ما يكوِّن عناصر تدخل فى تكوين الأحياء، وهكذا كان فى الليل والنهار نعمة أو نعم نذكر منها ما أدركنا، وهو بعض قليل من نعم كثيرة منَّ بها علينا الله سبحانه وتعالى، وهو الحكيم العليم.

وبعد ذلك ذكر سبحانه ما يكون فى النهار من شمس مشرقة وهى ضياء تمد بكل العناصر التى يتغذى منها النبات، والنخيل والكروم والزيتون، وغيرها من الدوحات العظام والباسقات، ثم القمر وما يكون منه من نور، وإن لم يكن ذاتيا، فهو فى ذاته نعمة، وثبت بالواقع أن له تأثيراً فى الأجنة فى بطون أمهاتها، وفى حياة المرأة، وفى طمثها وطهورها، وحملها وولادتها وسر ذلك عند العليم الحكيم، والعلماء دائبون فى البحث والتعرف.

ولذا قال تعالى وقد علق فكر ابن آدم بالسماء: ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ** ﴾.

ومعنى التسخير تذليلها لمنافع الناس، فليست مذللة بذاتها للناس، ولا سلطان لهم عليها ولكنه سبحانه وتعالى جعلها مذللة لمنافعهم، فالشمس والقمر يكون منهما الليل والنهار، ويكون ما ذكرنا وهو بعض مكمل، ويعلم بهما الحساب ﴿ ... **وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ** ... (٥) ﴾ [يونس].

وسخر الله تعالى النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر.

وقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، أى فى ذلك الذى ذكره سبحانه من خلق السموات والأرض، وتسخير الليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم، لآيات بينات دالة على وحدة الخالق، وأنه وحده المستحق للعبادة، لقوم يعملون عقولهم فى خلق السموات، وإدراك حقيقة الوجود، ولا يقولون فى عبادتهم: ﴿...بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا...(١٧٠)﴾ [البقرة].

ولقد قال فى ذكر بديع خلقه:

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣)﴾.

الواو عاطفة على الليل والنهار، والعطف على نية تكرار الفاعل، والمعنى «سخر لكم ما ذرأ»، وذرأ: خلق وأبدع، وقوله تعالى: ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ حال، فالبذر فى أرض واحدة، أو قطع من الأرض متجاورات، وتسقى بماء واحد، وتسمد بسماد واحد ومع ذلك يخرج الزرع مختلفا ألوانه، والحيوان مختلف الألوان، والإنسان مع أن النطفة واحدة يكون مختلف الألوان، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ...(٢٢)﴾ [الروم].

وإن تسخير الله ما ذرأ مختلفا ألوانه، فيه نعمتان جليلتان أنعم الله تعالى بهما على عباده:

النعمة الأولى ـ أن اختلاف الألوان يومىء إلى اختلاف الأنواع والأصناف، وكل يؤدى للإنسان غرضا فهذا يكون منه لباسه، وذاك يكون منه طعامه، وذلك منه أثاثه وزينته ومنه ما يكون أداة حربه وجهاده.

النعمة الثانية ـ أن اختلاف الألوان يكون فيه بهجة للناظرين، ويجعل الأرض ذات منظر بهيج. وإن المعادن التى ذرأها الله تعالى فى الأرض من حديد ونحاس وذهب وفضة وغيرها من فلزات، هى مختلفة الألوان، وفيها بهجة

وزينة، وفيها منافع الناس، والحديد فيه بأس شديد، والأحجار من فحم وماس، وغيرهما ذرأهما الله للناس لمنافعهم وهى مختلفة الألوان، وقد ختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾، أى إن فى ذلك الذى ذكره من ذرء، وخلق مختلف الألوان فى باطن الأرض، وما على ظاهر الأرض من زروع وثمار كل ذلك فيه آيات دلائل بينات على وحدة الخالق ﴿لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾، أى يتذكرون الأشياء والأمور ويربطونها بعضها ببعض.

ويلاحظ أن الله سبحانه وتعالى فى بديع نظم القرآن وإحكامه، قال فى الآية الأولى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ليدعوهم إلى التفكير، وفى الثانية ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ليدعوهم إلى أن يكون التفكير بعقولهم لا بأهوائهم، وفى الثالثة: ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ ليكون دعوة إلى اعتبارهم، وربط الأمور بعضها ببعض.

كانت الآيات السابقات تدعو إلى النظر فى نعم الله التى احتوتها الأرض من أشجار وزروع وثمار وإلى ما فى السماء من شمس وقمر، ونجوم مسخرات بأمره، وما فى اتصال الأرض بالسماء، وفى الآية التالية دعوة إلى النظر فى البحر وما فيه من نعم فقال تعالت كلماته:

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤)﴾.

الضمير ﴿هُوَ﴾ يعود إلى الله تعالى، وذكر الموصول لبيان سلطان الله تعالى، وللإشارة إلى أنه سبحانه هو الذى ذلل البحر لمنافعهم، وتمكنهم مما فيه، وليس صيدهم هو الذى مكنهم، بل تسخير الله البحر لهم كان نعمة لهم وتمكينا من نفعهم، وقوله: ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾، ووجَّه الأكل إلى لحمه مباشرة وفيه إشارة إلى أنه لا يزكى، بل يؤكل ميتا، ولذا روى فى الأثر «**أحل لنا ميتتان حلالان السمك والجراد**»[1] وعبر سبحانه وتعالى أيضا بقوله: ﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾،

(١) سبق تخريجه.

ولم يقل سمكا؛ لأن فى البحر ما ليس بسمك، حيوانات تشبه حيوانات البحر، والظاهر أنها حلال وفيها ضخم يكفى الألوف، كالحيوان البحرى المسمى الترسة، وكالحوت وفرس البحر، وغير ذلك، وكلها لحم طرى.

وقد وصف القرآن اللحم الذى يؤخذ من البحر بأنه لحم طرى؛ لأنه فعلا طرى، وعظمه قليل، ولا يتخلل أجزاء جسمه، بل هو فى موضع معين والذى يتخلل جسمه شىء صغير يسميه العامة «سفا»، ويقول الزمخشرى فى وصفه بأنه طرى للإشارة إلى أنه سريع العفن، وأنه ضار إذا تعفن، وفى ذلك نظر، فإنه إذا وضع الملح عليه لم يكن ضارا فى تعفنه، وهو المتفسخ منه، وقد أنكره أطباء عصرنا وزماننا ثم أباحوه بل استحسنوه، وقرروا أن فيه سرا طبيا، وإن لم يعرفوه.

وحرم التفسخ الحنفية؛ لأنه ضار، وقد علمت ما فيه.

و(اللام) فى قوله تعالى: ﴿لِتَأْكُلُوا﴾ هى لام الغاية أى ذلله وسخره لتأكلوا منه لحما بعد صيده، وإنضاجه، وفيه مواد غذائية كبيرة، مملوءة بالقشور، وغيرها.

وإذا كان ذلك الطعام فيه منفعة مرئية طيبة فالبحر وعاء للجواهر المختلفة، ولذا قال: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وهى ما يسمونه بالأحجار الكريمة من لآلئ، وزمرد، وغيرهما مما يتحلى به النساء وبعض المرفهين من الرجال، وإن لم يتشبهوا بالنساء.

وتوهم بعض المفسرين أن التحلى بالجواهر حرام، وقاسوه على التحلى بالذهب، ولكن الثابت فى الآثار أن التحريم مقصور على الذهب على أنه روى أن بعض الصحابة قال: إنه لا تحريم، ولكن قالوا: إن ذلك من شواذ الأقوال ولقد ذكر الشوكانى فى «نيل الأوطار» أن هناك عشرين من الصحابة لم يحرموا الذهب على الرجال، ولكن لم يذكر من هم ولم يذكر من أسند هذا القول إلى النبى ﷺ.

ومهما يكن فإن الجواهر والآلىء والزمرد والياقوت، وغيرها من الأحجار الكريمة، كالماس والكهرمان ونحوها لم يثبت تحريمها إلا أن يتخذها عقدا كما يتخذها النساء فإن ذلك يكره للتشبه بالنساء.

والنفع الثالث الذى ذكره القرآن الكريم من المنافع التى سخرها الله تعالى: الفلك، فقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾، ﴿مَوَاخِرَ﴾ جمع ماخرة، وهى السفينة التى تشق عباب الماء حتى يكون لها صوت يسمع، ولا يكون إلا للمراكب الكبيرة التى تحمل الأمتعة والأشياء، ولو كانت شراعية، وإنك لترى المراكب الشراعية ذوات الشراع المختلفة المتعددة وفى ذلك إشارة إلى نعمة التنقل فى البحار، وقد كانت من بعد عصر القرآن الأساس فى نقل البضائع والرجال من بلد إلى بلد، حتى إنه ليقاس عمران البلاد بمقدار شواطئها على البحار وتمكنها من الانتقال فى الأقطار، وقد عمم الله سبحانه بيان انتفاع الإنسان بالبحار، ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ سبحانه وتعالى، و(الواو) فى قوله: ﴿وَلِتَبْتَغُوا﴾ عاطفة على فعل محذوف هو ثمرة لقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ لتنقلهم من أرض إلى أرض وبلد إلى بلد، وإقليم إلى إقليم، ولترتبطوا بأقطار الأرض، ولتبتغوا من فضله، أى لتطلبوا فضل الله الذى أفاض به فى أقطار الأرض، فينقل كل إقليم ما يفيض من فضل الله إلى الإقليم الآخر، والابتغاء: الطلب بالشدة.

وقوله فى منفعة الفلك: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾، أى أن رؤيتها ذات متعة للأنظار، كما أن النعم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٣٢)﴾ [الشورى] فالجوارى تربط الأرض بعضها ببعض، وتربط الإنسان بأخيه الإنسان حيثما كان وأنى سيكون.

وقال تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أى أسبغ عليكم هذه النعم الظاهرة والباطنة لترجو شكر الله على ما أنعم لا ليكفروا بها، وكما قال تعالى: ﴿... لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧)﴾ [إبراهيم].

ينقل القرآن عـجائب نعم الله تعالـى على خلقه من نعمـة إلى أخرى وهذا أيضـا فيـه عجـائب التكوين فمن ذكـر للأنعـام وذكر النبـات والزيتون والنخـيل والانتقال إلى ذكر البحـار وخيراتها والفلك المشحون يجرى فيهـا، وانتقل سبحانه من البحار وماء الأرض إلى يابسها، وهو يشغل ربعها، فقال عز من قائل:

﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) ﴾.

قلنا إن الجزء اليـابس من الأرض هو ربعها والبـحار ثلاثة أرباعهـا، وكانت على هذا الاتساع لتـصل أجزاءها، فالبحار يـجرى فيها الفلك المشـحون ناقلة من الشرق إلى الغرب، والشمال إلى الجنوب، وكأن جـزءًا من الأرض مجهولا لجزئها الآخر، وكلاهما يابس فـكشفته جارية فى البحر، جـرت فاتصلت الأجزاء، والماء سبيل الاتصال.

وبعد أن تكلم سـبحانه عمـا فى الماء من خيرات ومنافع يبـتغى ويطلب من فضل الله ذكر الأرض اليابسة فى مقابل الماء، وذكـر الجبال التى جعلها الله سبحانه وتعـالى أوتادًا فقـال سـبحـانه: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾، ﴿رَوَاسِيَ﴾ جمع راس، وفواعل يكون لـفاعل إذا كان وصـفا مما لا يفعل كـشوامخ جـمع شامخ، والرواسى هى الجبال، وقـد قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ﴾ ومعناها خلق وأنشأ، وجعل، ولكن عبر بألقى، للإشارة إلى أنها ليست من جنس التراب الذى يكون فى السفح من حيث قوتها وكـونها فى أكثر أحوالها حجـارة، ولما لها من هذه القوة ولما يبدو أنها ثقيلة كانت كأنها رواسى؛ لأن الراسى هو الثابت المثبت، فكأنها ثبتت الأرض من أن تميـد وتضطرب، والمعنـى ألقى الله الجـبال الراسـيـات لئـلا تميـد الأرض وتضطرب، أو خوف أن تضطرب، والمعنى على الحالين أن الرواسى أرستها وثبتتها وقال تعالى: ﴿وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا﴾، فالأنهـار جزء من اليابس، وكـذلك السبل فى الأرض والصحارى، والمعنى أن الله تعالى جعل فى الجزء اليابس من الأرض أنهارا تجرى بالماء من مكان إلى مكان رزقـا للعباد، ويقول فى ذلك ابن كـثير: «ينبع فى

موضع وهو رزق لأهله موضع آخر، فيقطع البقاع والبرارى والقفار ويخترق الجبال والآكام فيصل إلى البلد الذى سخر لأهله».

وفى ذكر الأنهار بعد الجبال إشارة إلى أن الجبال كما أنها أوتاد الأرض تنزل من فوقها الأمطار، فتجرى فى الوديان والأنهار، كما ترى فى نهر النيل ودجلة والفرات وغيرها.

﴿**وَسُبُلاً**﴾، أى طرقا يسير فيها السائرون كما قال تعالى: ﴿... **وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً** ... (٣١)﴾ [الأنبياء] وختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿**لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾، أى رجاء أن تهتدوا وتدركوا الحق وتتركوا الباطل وتؤمنوا بمانح النعم، ومجريها وخالق الكون وكالئه، وحافظه.

ثم قال سبحانه:

﴿**وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ** (١٦)﴾.

أى أن الجبال والسبل والأنهار تكون علامات للأماكن وحدودا، وتعريفا بأماكن البلاد، وحدودها شرقا وغربا، وقوله: ﴿**وَعَلامَاتٍ**﴾، معطوفة على جبال، أى جعل الجبال والأنهار علامات.

﴿**وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ**﴾، أى أن النجوم ومواقعها فى السماء، وتنقلاتها فى مداراتها علامات للسائر فعلا، وكان العرب على علم واقعى بمواقع النجوم ينتفعون بها فى أسفارهم، وقد أكد سبحانه اهتداءهم بالنجم بتقديم النجم، وإن ذلك أصل لعلم الفلك هدى الله تعالى إليه.

والتفت سبحانه وتعالى من الخطاب إلى الغيبة؛ لأن الله يخاطب الناس بالنعم عليهم، وقد ذكر هذه النعم، وهى تعم الجميع، وتثبت للجميع، أما النجوم فمع عموم نفعها وهديها لا يهتدى بها إلا السائرون فى ظلمة الليل البهيم.

وفى الخطاب تذكير بالإنعام الدائم المثمر، وفى الحديث بالغيبة تقرير للحقائق الثابتة المستقرة ولو كان النفع الحسى فيها لبعض دون بعض.

لا تشابه بين الخلق والخالق

قال تعالى:

أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن
تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ
مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ
أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ
فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ
﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ
لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ
قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا
سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾

ذكر سبحـانه وتعالى خلقه، وأن الوجود كله يتمتع بنعـمة خلقه، ومع هذه النعمة، خلق نعـما للإنسان إذ سخر له الشمس والقـمر والليل والنهار، وأتى بنى الإنسـان من كل ما سـألوه، فالنبـات والزيتـون، وغيـره من الثمـرات والبحـر، والفلك، وما فيه من لحم طرى إلى آخره.

كل هذا، ومع ذلك يشركـون بالله فى عبـادته سبحـانه ما لا يملك شيـئا، ولذلك نبه سبحانه وتعـالى إلى ضلال العقل فى هذا الأمر، ويذكرهم بذلك؛ لأن

فطرتهم تنفر منه؛ ولذا يستثير سبحانه هذه الفطرة بحمل الإنسان على التذكر فيقول سبحانه:

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٧) ﴾.

الاستفهام إنكارى بمعنى إنكار الواقع؛ لأنهم فعلا عبدوا الأحجار فجعلوا من خلق الوجود كمن لا يخلق شيئا، وهو ذاته مخلوق ميت لا حياة فيه إذ هو جماد من الجمادات وحجر من الأحجار، وإنكار الواقع توبيخ؛ لأنه يكون استفهامًا عن واقع غير معقول، فيكون الجواب منهم إقرارا بأنهم يفعلون أمرا غير معقول.

و(الفاء) فى قوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإنه يترتب على أن الله تعالى خالق الأشياء والنعم والأنفس، وبذلك يكون هو المعبود وحده، وإلا كان الأمر المستنكر عقلا، وواقعا، وهو أن يكون الخالق كالمخلوق، بل إن يكون الخالق كأصغر ما خلق، والفاء مؤخرة عن تقديم، فحق القول بيانيا أن يكون فأمن يخلق كمن لا يخلق، ولكن الاستفهام له الصدارة فى الجمل فأخرت الفاء، وكذلك فى القرآن كل فاء جاءت بعد حرف الاستفهام، والواو العاطفة كذلك.

ويلاحظ فى النص السامى ما يأتى:

أولا: أن الله تعالى عبر عن الأحجار التى كانوا يعبدونها بـ(مَن) الدالة على العقلاء، فقال سبحانه: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ﴾ وكان ذلك لأنهم عدوها معبودة، فكأنهم يعاملونها معاملة العقلاء، فكان التعبير مساوقة لزعمهم، ولأن بعض الذين يعبدون غير الله يعبدون عقلاء، كالثالوث المسيحى ففيه العقلاء، وقد أشركوا، وقد يكون ذلك للمشاكلة، والتسوية التى أرادوها بين الخالق والمخلوق، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ ... فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ... (٤٥) ﴾ [النور] وإن الله سبحانه فى أكثر من آية يعيد الضمير عليها كالعقلاء، كقوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ

يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ... (١٩٥) ﴾ [الأعراف]، فهو نوع من مجاراتهم حتى تكون النتيجة بالموازنة أنهم ليسوا كمن خلق فقط، بل هم دون من خلق أو بالأحرى دون من يعبدونهم.

ولقد ذكر الزمخشرى أن سياق البيان كان أن يشبهوا هم بالخالق لا أن يشبه الخالق بهم، فكان يقال أفمن لا يخلق كمن يخلق، وقد أجاب عن ذلك، أن الاستنكار موجه إلى المساواة بين الخالق والمخلوق، فكأنهم جعلوه فى ضمن المخلوقات، وقد يجاب عن ذلك أيضا بأن سياق القول فى بيان الخلق، فكان موجبه أن يذكر الخالق أولا، وكأنهم ينزلونه من مرتبته التى لا تناهد إلى منزلة المخلوق، وهذا فى ذاته موضع استنكار.

ويختم الله سبحانه الآية بقوله: ﴿ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ يقال فى (الفاء) هنا ما قيل فى (الفاء) فى قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ ﴾ والاستفهام لإنكار الوقوع مع التوبيخ، والتعبير ﴿ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ فيه إشارة إلى أن عبادة الأحجار من غفلة العقول، وإنها تتذكر وتذهب الغفلة، حتى تتنبه إلى حكم العقل وهو الوحدانية، وذلك حق؛ لأن عبادة الأوثان من سيطرة الأوهام التى تجعل العقل فى غفلة تامة، كما ترى فى هذه العصور عند بعض النصارى.

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) ﴾.

بين الله سبحانه وتعالى كيف سوى عبدة الأوثان بين المنعم والأوثان، وبين الخالق والمخلوق، وأنهم قد تجاوزوا المعقول وغفلوا عن الفطرة، فبدل أن يشكروا النعمة كفروها.

وقد ذكر سبحانه وتعالى بعد ذلك أن نعم الله تعالى أكثر من يضبطها العد والإحصاء، وإنها واجبة الشكر على قدر الطاقة فإن ما لا يحصى لا يعلم للإنسان، ولا يستطيع الشكر إلا من يعلم، ويقدر ما يعلم.

﴿وَإِن تَعُدُّوا﴾، أى إذا أردتم أن تعرفوا نعم الله بالعدد لا تحصوها، ولا تضبطوها، ففى كونك فى بطن أمك فى نعمة، وفى غذائك وأنت فى الغيب المكنون فى نعمة، وفى تنقلك فى بطن أمك من نطفة إلى علقة، فمضغة مخلَّقة وغير مخلقة فى نعمة، وإذا خرجت إلى الوجود وجعل لك السمع والأبصار والأفئدة فى نعم، وإذا سخر لك الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم فأنت مغمور فى نعم، وهكذا فى كل حياتك أنت فى نعم الله تعالى، وهو القيوم عليك.

وإذا كانت معرفة هذه النعم لا تبلغها طاقتكم، فأنتم أحرى بألا تبلغ طاقاتكم شكرها؛ ولذا قال تعالى بعد بيان أن الناس لا يستطيعون إحصاء نعمه عليهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أكد سبحانه مغفرته ورحمته، فكانت المغفرة من الرحمة، إذ إنه سبحانه لا يطالبكم بالشكر إلا فيما تعرفون وما تطيقون وفيما تعرفون يعفو عن كثير سبحانه وتعالى، وقد أكد سبحانه هذين الوصفين الجليلين أولا بـ(إنّ) المؤكدة، وبصيغة المبالغة، وباللام، والله على كل شيء قدير.

وإن الله تعالى يحاسب القلوب فى خيرها لحبه المغفرة، ولإرادته الرحمة، ولعدله، ولكيلا يتساوى المحسن والمسئ؛ ولذا قال عز من قائل:

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩)﴾.

هذه العبارة فيها تهديد لأهل الشرك، وتقريب لأهل الإيمان، فهو يحاسبكم سبحانه على ما تعلنون من أعمال، وما تسرون من عقائد ونيات يصحبها عمل، فإن اتجهتم إلى شكر الخالق بعدم الإشراك به والإحساس بنعمه فإنه غافر لكم ما ترتكبون وتتوبون عنه إذا تبتم عن قريب، وإن أسررتم الخير ونويتموه، وهممتم أن تفعلوه فإنه غافر لكم، لأن الحسنات يذهبن السيئات، وبالنسبة للشر لا تحاسبون إلا بما تفعلون، وما تعتقدونه من شرك وعبادة غيره، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ... (١١٦)﴾ [النساء]؛ لأن الغفران لا

يكون إلا فى دائرة الإيمان بألوهيــة الله تعالى وحده، فمن آمن بــالله وحده، كان جديرا بنعمــة الغفران، ومن أشرك بالله غيــره، فإنه ليس بجدير، والله بكل شىء محيط.

وقد صرح الله تعالى ببعض الحقائق فى معبوداتهم، فقال:

﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) ﴾.

ذكر سبــحانه وتعالى فضل خلقــه ونعمه، وإنه الخالق المنعم، وبيــن المقايسة العادلة التى تفرق بين من يخلق ومن لا يخلق، وبعــد ذلك ذكر أن المعبودات التى يعبدونها لا يمكن أن تخلق شــيئا؛ ولذا قال: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾، فالواو عاطفة على قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩)﴾ وعبر سبحانه وتعالى عن الأوثان بالذين التى هى للعقلاء مجاراة لهم فى تفكيرهم إذ يعطونها بأوهامهم من الصفات ما هو أعلى من العقلاء، و﴿شَيْئًا﴾ التنكير فيه للعموم، أى لا تخلقون أى شىء مهما صغر وهان، ولقــد قال تعالى فى تصوير عجزهم المطلق: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤)﴾ [الحج] إنها أحجار تنحت من صــخورا الجبال، ولذا قال تــعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦)﴾ [الصافات].

ولقد بين سبحانه أن المشركين أحسن خلقا من أوثانهم، فقال عز من قائل:

﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) ﴾.

هذه الحجــارة جمــاد لا تجرى فــيه الحــياة، وهؤلاء الجــهلاء يدعونــها وهى أحجار، ومعنى يدعونــها يعبدونها، ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾، أى وكانت موصوفة بالموت؛ لأنها فــاقدة الحياة ليس لهــا روح تسرى فيهــا، كما تسرى فى الأحــياء، والتعبيــر عنها بأموات لا يخلو من مجاز؛ لأن الموت يكون للحى الذى فــقد الحياة

ولو كان نباتا، فكيف يقال عما لا تدخله ابتداء ميتا، ولكن لأنها جماد لا يتحرك بالإرادة، ولا تجرى فيه حركة عبر عنه بميت، وقوله: ﴿غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ يشير إلى هذا المعنى، أى أنه جماد لا تجرى فيه الحياة قط.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ الضمير عائد إلى الأوثان، وأعيد الضمير المذكر العاقل، جريا على عدها آلهة تدرك وتعقل فى زعمهم، ويزدلفون إليها، ويتقربون ويدعون.

والمعنى على هذا أن هذه الأوثان يعبدونها، رجاء خير منها، وهى لا تشعر متى تبعث أو فى أى مكان تبعث.

وهذا يقتضى أن ما يعبد يكون عنده قدرة على الجزاء بالثواب على العبادة، والعقاب على تركها، وهذه لا تشعر متى تبعث وتجازى بالخير أو الشر.

ويصح أن يكون الضمير عائدا على الذين يدعونها أى يعبدونها، أى ما يشعر أولئك العباد أيان يبعثون، مع أن البعث آت لا محالة، وهم ينكرون البعث، ولذلك دعوا الحجارة وآمنوا بها، فالكفر بالبعث هو الضلال المبين وهو الذى أدى إلى هذه الأنواع المتكاثرة من أنواع الضلال المختلفة.

ويجب أن نذكر تفسيراً آخر له وجاهته، وهو أن الموت ليس فى هذه الآية وصفا للأحجار إنما هو وصف لمن يدعونها ويعبدونها، فالمشرك ميت غير حى؛ إذ إن حياته لا نفع فيها له، فهو كالميت؛ ولذا كان التصريح بأنه غير حى، وقد عبر القرآن عن المشرك بأنه ميت وعمن يخرج من الشرك إلى الإيمان بأنه حى، كما قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢)﴾ [الأنعام].

فسمى الله تعالى المشرك ميتا، وبذلك يكون الشرك موتا والمشركون أمواتا غير أحياء، ويكون قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ظاهرا فى العودة على المشركين، والله أعلم.

بعد هذه البراهين القاطعة، والآيات البينة تقرر النتيجة التى لا ريب فيها، وهى الوحدانية:

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٢٢)﴾.

هذه الجملة منفصلة عما قبلها غير موصولة بها؛ لأنها بمنزلة النتيجة لما سبقها، فهى مقدمات، وتلك نتيجتها وهى بمنزلة السبب، وتلك بمنزلة المسبب، وإضافة الإله إلى المخاطبين معناه معبودكم أيها المؤمنون هو إله واحد لا شريك له فى حقيقة معنى الألوهية؛ لأنه وحده الخالق، فلا خالق سواه، وهو الواحد فى ذاته وصفاته، ليس كمثله شيء، وإنه بذلك يجب أن يكون واحدا فى عبادته لا يعبد سواه، ولا يلجأ إلا إليه.

وقد قال سبحانه بعد ذلك: ﴿فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ هذا النص السامى سبق لبيان كفر من كفر، أو شرك من أشرك، فذكر أن سبب ذلك لأنهم لا يؤمنون بالآخرة، فذكر سبحانه أن عدم الإيمان بالآخرة يؤدى إلى وصفين:

الوصف الأول ـ أن تكون القلوب منكرة.

والوصف الثانى ـ أنهم مستكبرون، وذلك لأن عدم الإيمان بالآخرة، وأنه لا بعث ولا نشور ولا حساب ولا عقاب يجعل الشخص يحسب أن الإنسان خلق عبثا، وأن الحياة الدنيا هى الحياة، وهى المتاع ولا متاع سواه، فيكون قالبا للحقائق، وجاحدا دائما، إذ الدنيا وما فيها من حسيات قد استغرقته وملأته، ولا موضع لغيرها فى نفسه فقلبه منكر إلا للمحسوس، فلا يؤمن بالله، ولا بالرسالة الإلهية.

وأما أنهم مستكبرون، فلأن الدنيا تدليهم بغرور، ومن اغتر بهذه الحياة، وأوتى منها حظا طغى واستكبر وتجبر، كما قال تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)﴾ [العلق].

ومن كان من طبيعته الإنكار والاستكبار، فإنه تنغلق فى قلبه مفاتيح الهداية.

و(الفاء) فى قوله: ﴿فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾، فاء الإفصاح، والمعنى إذا كان الله واحد فلماذا يكفرون؟ فأجيب بأنهم يكفرون بالآخرة.

وأساس الإيمان هو الإيمان بالغيب، فالذين لا يؤمنون إلا بالمحسوس، لا يؤمنون بالله ولا الملائكة ولا بالرسالة الإلهية، ولذا ذكر سبحانه أن أولى صفات المؤمنين بالغيب، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣)﴾ [البقرة].

ولقد ذكر سبحانه وتعالى سعة علمه سبحانه فقال:

﴿لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣)﴾.

فى الآية السابقة بين سبحانه أن الذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة، وهم مستكبرون فمظهرهم إثم ومخبرهم نكران وجحود، وهنا يبين سبحانه وتعالى أنه يعلم باطنهم الذى تنبعث منه أعمالهم ومظاهرهم: ﴿لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فلا تخفى عليه خافية من أمورهم، وهو مجازيهم بها يوم القيامة الذى أنكروه، وكاشف أمرهم الذى ستروه، ﴿لا جَرَمَ﴾ ذكر الزمخشرى أن معناها «حقا» فهى لتأكيد علم الله تعالى بما يسرون وما يعلنون أى ما يخفونه، ولا ينطقون به، وما يظهرون ويجهرون به من معاص تدل على مقدار عنتهم، ومجابهتهم الحق.

ونقول: إن لا جرم فيها معنى «حقا» فيها رد لهم؛ لأن معنى جرم كسب و(اللام) تدل على النفى، فالمعنى لا كسب لهم، ولا ثمرة لأعمالهم المكتومة والظاهرة، ويكون المعنى لا كسب لهم فيما يفعلون من إنكار القلوب، واستكبار النفوس، لأن الله تعالى يعاقبهم بما أسروا وبما أعلنوا، ﴿... وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ ... (٦١)﴾ [يونس]، والله أعلم.

وإن ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾ لا يقتــصر على إنكار القلوب بل يشــمل ذلك وكل ما يبيــتون وما يدبرون من شــر، وما يمكرون من مكر يقــصدون به إيذاء النبى ﷺ، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يشمل المجاهرة بالعصيان، والمعاندة والإصرار على الباطل ومعاندة الحق وأهله لما يشمل قتال المؤمنين وإرادة الذلة لهم، والله يريد العزة للمؤمنين.

وختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾، وهى يشير إلى عذاب الله تعالى لهم، وأن هذا الإنكار من الاستكبار، وذلك لأن النفس المستكبرة متعالية عن الناس وعن الحق، ومع الخضوع والتواضع يكون الإيمان؛ لأن التواضع من غير صفة يكون معه اتســاع القلب للحق فيدخله، ومعنى عدم حب الله تعالى أنه لا يكون دانيا منه قريبــا إليه، بل لأنه استكبر بعيد عن الله تعــالى، وكلما بعد عن الله تعالى لم يشعر بجلاله ولا يذكره، ولا يطمئن قلبه.

وإنه يترتب على عدم حب الله تعالى للمستكبرين، ألا يغفر لهم؛ لأنهم لا يتوبون، والتوبة باب المغفرة؛ لأن التوبة تدلل على الرجوع إليه سبحانه، والضراعة إلى الله تعالى، والتوسل إليه سبحانه وتعالى، والكبــر والتوبة نقيضان لا يجتمعان فى قلب مؤمن.

ولأنهم يستكبــرون عن الحق لا يدركونه، ولا يريدونه؛ ولذا قــال الله تعالى فيهم:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٢٤)﴾.

أى أنهم لا يرون فى القرآن إلا قصصــا، ولا فى قصصه إلا أنه أسطورة من أساطير الأولين، وذلك لاستكبارهم عن أن يفتــحوا صدورهم وعقولهم لإدراك ما اشتــمل عليه من أحكام، ومــا فيــه أن أساليب البــيان التى يعجــزون عن أن يأتوا بمثلها، إن اســتكبارهم يمنعــهم من الاتجاه إلى الحقــائق ليدركــوها، وإذا أدركوها خضعوا لها.

والأساطير جمع أسطورة كما قال المبرد، والأسطورة هى الأحاديث التى لا يربطها فكر، ولا أصل لها وتقال للتسلية، أو هو الأخبار التى تجىء على ألسنة الحيوان، وقالوا فى السيرة: إن النضر بن الحارث كان فى فارس، فعلم ما فى كتاب كليلة ودمنة، فقال: كلام محمد ﷺ هو كهذه أساطير الأولين: ﴿ **وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا** (٥) ﴾ [الفرقان].

وقوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ** ﴾ فيه (قيل) مبنى للمجهول فمن هو الفاعل الذى جهل وحذف؟ يصح أن يكون القائل النبى ﷺ أو من معه، وكأنه يتحداهم، ويدعوهم إلى التأمل، وإدراك معانيه ووجوه البيان الذى هو فوق البشر، ويوجه أنظارهم، ولكن قلوبهم معرضة مستكبرة، والاستكبار كما ذكرنا يسد مسالك الإدراك، فيكون العقل غافلا عن إدراك الحق، ولذا يجيبون ﴿ **أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ** ﴾، أى أحاديثهم التى لا أصل لها ولا واقع يحققها وكأنهم نظروا إلى القصص الحكيم فى القرآن، ولم يصفوه بوصفه، بل قالوا ما قالوا منصرفين عن الحق، غير مدركين لموضع العبر فيه، ولم ينظروا إلى ما فيه من دعوة إلى التوحيد، وبطلان الشرك، وما فيه من أحكام شرعية تصلحهم فى دنياهم وآخرتهم.

هذا على أن الفاعل المحذوف هو النبى ﷺ، ومن معه، ويكون قوله تعالى ﴿ **مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ** ﴾ المراد به القرآن الحكيم، والاستفهام هنا على حقيقته ليحملهم على التفكر والتدبر.

ويصح أن يكون من الكفار بعضهم لبعض، وكأنهم يتساءلون عن حقيقة ما جاء به محمد ﷺ فى نظرهم، وما يمكن أن يردوا به على المصدقين، أو ما يمكن أن يشككوا فيه المؤمنين به، ويصدوا به الذين لم يؤمنوا عن أن يدخلوا فيه ويكون تعبيرهم ﴿ **مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ** ﴾ من قبيل التهكم بالقرآن ، ومن نزل عليه، إذ هم فى ظاهر حالهم لا يؤمنون بالقرآن ولا يصدقون أنه نزل من الله تعالى على قلب محمد ﷺ.

ويصح أن نقول إن قائل هذا القول ليس من المشركين، إنما هو من الوافدين إلى مكة فى موسم الحج، والرد من المقتسمين الذين اقتسموا مداخل مكة ليصدوا الناس عن سبيل الله تعالى، ويضلوا الذين يدعوهم النبى ﷺ عندما أخذ يعرض نفسه على القبائل الوافدة إلى الحج، وقد دعاهم النبى ﷺ إلى القرآن الذى أنزله رب العالمين، لقد سأل أولئك البادون الذين جاءوا من خارج مكة عن القرآن ﴿مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ فضللوهم وقالوا أساطير الأولين وبذلك صدوهم عن الإيمان الذى كان يمكن أن يدخل قلوبهم لولا هذه المبادرة المضلة.

وإنى أميل إلى الأخير وأرى الفاعل المحذوف يحتملهما جميعا، وربما تكرر السؤال، وتكرر الجواب، وهنا إشارة إلى أن القرآن أنزل من الله وعبر بالرب، للإشارة إلى أنه أنزل من ربهم الذى أنشأهم ورباهم، ويعلم ما فيه صلاح أمرهم فى دنياهم وعاقبة أمرهم.

وإن الذين قالوا هذا القول مضلين صادين عن سبيل الله تعالى أيا كان السائل لهم الذى أجابوه، قد ضلوا فى ذات أنفسهم، وأضلوا غيرهم؛ ولذا يتحملون وزرهم كاملا ويتحملون من أوزار الذين أضلوهم بغير علم، فقال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥)﴾.

اللام لام التعليل، وتكون العلة هى قولهم أساطير الأولين، أى قالوا ذلك ليحملوا أوزارا، والظاهر أن اللام لام العاقبة، وهو ما نراه، أى قالوا ما قالوا وصدوا عن سبيل الله لتكون العاقبة أن يحملوا أوزارهم كاملة وأوزارا من أوزار من ضلوهم».

والوزر: الحمل الثقيل، وفيه إشارة إلى أنه حمل ثقيل كله أوزار وآثام كما قال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ... (١٣)﴾ [العنكبوت]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فيه إشارة إلى أن هذه الأوزار مآلها عذاب دائم أليم؛ لأن

القيامة دار الجزاء ويحملون جزاء أوزارهم كاملة غير منقوصة فى شىء من النقص، وعبر عن الجزاء بحمل الأوزار للإشارة إلى المساواة بين العقاب والفعل، حتى كان الذى يحمل الوزر يحمل جزاءه؛ لأنهما متلازمان ومتساويان.

وقد ذكر سبحانه أنهم يحملون وزرهم كاملا يوم القيامة، ويحملون من أوزار الذين يضلونهم، ولذا قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لتحقيق معنى الإضلال؛ لأن الإضلال عادة يكون لمن لا يعلم، وقالوا: إن قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال من المفعول فى قوله تعالى: ﴿يُضِلُّونَهُم﴾، أى أن ذلك لا يكون إلا بغير علم، وذلك يزيد فى جرمهم جرما، لأنهم لا يكتفون بضلال، بل يتعدون به، فيضلون غير العالمين بحقيقة الدعوة المحمدية، فيذكرون ضلالهم فيها، ولا يذكرون حقيقتها.

وقال سبحانه: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ «ومن» هنا بمعنى بعض، فلا يحملون كل أوزار المضلَّلين، بل يحملون بعضه، ويبقى وزر شركهم، ذلك لأنهم باستجابتهم لهم من غير تبين وتعرف، قد وزروا فى ذات أنفسهم، إذ أنهم كان عليهم أن يبحثوا ويتعرفوا الحق، وقد بُلغوه، وعلموا بأمره، فما كان لهم أن يكتفوا بكلام أعداء محمد ﷺ، بل كان عليهم أن يتعرفوا الحق من مصدره، وألا يكتفوا بالمعرفة من خصومه، وإن الإضلال يتضمن أمرين: أحدهما إيجابى، وهو المضل، والثانى استجابة المضلَّل، فبهذه الاستجابة يحاسبون.

وإن هذه الأوزار التى حملها المضلون كاملة لأنفسهم، وحملوا معها بعض أوزار الذين أضلوهم هى أسوأ ما يحمل الضالون والمضلون لأنها عذاب أليم، ولذا نبه سبحانه إلى عظم هذه الأوزار فقال تعالى: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ و﴿أَلَا﴾ أداة تنبيه لبيان أن هذا الحكم الذى يليها ثابت ثبوتا مؤكدا و﴿سَاءَ﴾ فيها معنى التعجب، ومعناها ما أسوأ ما يحملون من أوزار؛ لأنها عذاب مقرر ثابت، وعبر عن هذا العذاب بقوله تعالى: ﴿مَا يَزِرُونَ﴾ لما فى الوزر والعذاب من توافق كامل، وتساوٍ بينهما على ما بينا، والله تعالى أعلم.

العبرة بمن كانوا قبلهم

قال تعالى:

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ۚ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩)﴾

يضرب الله سبحانه وتعالى لنبيه الكريم الأمثال بحال المشركين الذين كفروا بالرسل، ودبروا التدبيرات ليمنعوا الرسل من تبليغ رسالات ربهم، كما يبين للمشركين الذين يعاندون النبى ﷺ، ويكفرون بالله ويدبرون التدابير لمنع الدعوة من أن تسرى، حتى أنهم يسدون السبل على مكة فيلتقون بالركبان، ويصدونهم عن سبيل الله، فقال تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أى دبروا الأمور لنقض الدعوة، وأحكموا تدبيرهم على الناس، وسدّوا كل مسالك الهداية ليضلوهم وكادوا لأهل الإيمان كيدا، ظنوا معه أنهم قضوا على الدعوة، واقتلعوها، ولكن الله تعالى أفسد عليهم تدبيرهم ورد كيدهم فى نحورهم، وأن ما بنوه دمره الله تعالى، وللكافرين أمثالها، فقال تعالى: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ

السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ وإن هذا الكلام فيه استعارة تمثيلية إذ شبه الله تعالى حالهم بحال من بنوا صرحًا وشيدوه، وأقاموا قواعده على عمد وأسطوانات، وأحكموا بنيانه حاسبين أنه يبقى على مدى الأزمان، ولكن أتى الله تعالى بنيانهم بأمره من قواعدها، فتداعت وانهارت فصارت هباءً منبثًا، فخر عليهم السقف من فوقهم، وماتوا تحت أنقاضه، وبذلك كان ما بنوه للحياة ومتعها، وتدبير الأمور للحق صار عليهم وبالا، وسببا لهلاكهم وأتاهم العذاب به؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾، أى أتاهم من المكان الذى يشعرون أن فيه مأمنهم فكان فيه مهلكهم وفناؤهم.

وهذا يذكر المشركين فى عصر النبى ﷺ بأن ما يدبرونه ضد النبى ﷺ من تدبير يريدون به إخفاقهم لهم سيكون من عوامل نصره، وإن الله محيط بهم، وبما يدبرون.

وإن هذا عذاب الدنيا للمشركين، وقد تبين فى عاد وثمود، ومدين، وفرعون وملئه، ثم يوم القيامة يكون الخزى والجزاء؛ ولذا قال تعالى:

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧)﴾.

﴿ثُمَّ﴾ هنا فى معناها، وهو الترتيب والتراخى، وهو هنا بمعنى الإمهال من غير إهمال، وذلك يطوى فى نفسه التهديد والإنذار وهو فى ذاته وعيد بالخزى يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿يُخْزِيهِمْ﴾ بإسناد الفعل إلى الله تعالى فيه تعظيم لذلك الخزى، وذلك الخزى يشمل فضيحتهم على الأشهاد، لتذهب الكبرياء الآثمة، وتشمل الذل بعد الاستكبار، وتشمل العذاب؛ لأن العذاب خزى فى ذاته، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢)﴾ [آل عمران] وقد كان من إخزاء الله لهم أن كشف حالهم مع الأوثان التى أشركوها فى العبادة مع الله تعالى، وأنها لا شىء وأنها تهرب منهم، ولا تجد لها مهربا؛ ولذا قال لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾.

وهنا نلاحظ ثلاثة أمور بيانية:

الأمر الأول ـ إضافة الشركاء إليه سبحانه وتعالى هو من باب الإضافة لأرقى ملابسة إذ هم قد عبدوها مع الله تعالى، فجعلوها لله شركاء بزعمهم، فكانت الإضافة أخذا بهذا الزعم تبكيتا لهم، إذ كيف يكون المخلوق شريكا للخالق، وكيف تكون الحجارة التى لا تنفع ولا تضر شريكة للنافع الضار، رب السموات والأرض، والحى القيوم القائم على كل ما فى هذا الوجود.

الأمر الثانى ـ فى قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ**﴾، أى تعادون الحق والأنبياء والدعاة المرشدين فيها، أى تكون فى شق والحق فى شق، و(فى) هنا معناها المحل، أى محل المشاقة فيها، فيتنازعون، حيث لا مكان للمنازعة؛ لأنها منازعة بين الخالق، وما هو أدنى المخلوقات، لأنها حجارة لا تنفع ولا تضر.

الأمر الثالث ـ أن ثمة قراءة بكسر النون، والكسر يدل على ياء المتكلم، أى تشاقوننى فيها أى تنازعوننى أنا الله الخالق رب الوجود فيها، ويكون فى هذه القراءة معنى آخر جليل، وهو أن منازعة الرسل منازعة له سبحانه وتعالى.

ولقد شهد عليهم بهذا الخزى رسلهم الذين أرسلوا إليهم وأتباعهم، والملائكة ﴿**قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ**﴾، والذين أوتوا هم النبيون، فقد أوتوا علم النبوة، والذين اتبعوهم فقد اقتبسوا من علم النبوة، والملائكة، فقد أوتوا علم الرسالات بمقتضى تكوينهم، فهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

وشهادة أولو العلم: ﴿**إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾، أى الخزى والسوء على الكافرين بسبب كفرهم وعنادهم، ومشاقتهم لله ولرسوله، وأهل الحق، وقد قال تعالى فيهم:

﴿**الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨)**﴾.

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ هم الكافرون، فهذه الجملة عطف بيان أو بدل مما قبلها، وهذا يتضمن حالهم عند الوفاة، ووصفهم الأصلى الذى أرداهم فى الجحيم، وهو أنهم ظالمون لأنفسهم، وذلك الظلم بشركهم، فالشرك فى ذاته ظلم، وهو ظلم للنفس؛ لأنه انحراف فيها، وعوج فى تكوينها يشبه عوج الأعضاء بعد استقامتها، وهو ظلم للعقل والفكر إذ يحطه من عبادة الله إلى عبادة الأحجار، وهو يؤدى إلى ظلم الأبرار، والظلم يعود على الظالم، فمرتعه ونهايته عليه، فكأنه فى الابتداء انتهى إليها.

وقوله تعالى: ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾ وهو الاستسلام والخضوع والإخبات بعد أن عتوا واستكبروا، والفاء للتعقيب، أى أنهم بعد أن توفتهم الملائكة فوراً ألقوا السلم والخضوع، وانتقلوا من كبرياء ظلمة إلى ضعة صاغرة مستكينة، وعبَّر بـ(ألقوا) والإلقاء لا يكون إلا للأجسام للإشارة إلى أنهم انحطوا كما تنحط الأجسام من أعلى إلى أسفل، ونسوا ما كانوا يعملون، وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾، و(مِنْ) لاستغراق النفى، أى ما كنا نعمل أى سوء، ونسوا أنفسهم ونسوا أعمالهم لقد زال كبرهم وغطرستهم، فزالت شخصيتهم الظالمة، وحسبوا أنهم لم يفعلوا سوءا.

﴿بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بلى تدل على الإضراب عن قولهم، والقائل هم الملائكة أو أهل العلم الذين أوتوه من النبيين أو أتباعهم، وعندى أن القائل هو الله تعالى، لأنه لم ينسب القول إلى غيره، وهو القائل المتولى أمرهم ابتداء وانتهاء.

وقد أكد الله تعالى علمه بالوصف وبإن وبالجملة الاسمية وقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (ما) فيه موصولة بمعنى الذى، أى بالذى كنتم تعملونه، وهو استحضار لهذا العمل كأنه حاضر مهيأ يرى، وقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أى عملكم الذى استمررتم عليه، ولم تفارقوه حتى تستبين به خطاياكم.

وقد بين بعد ذلك العقاب الذى ينتظرهم، فقال:

﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩) ﴾.

(الفاء) هنا فاء السببية، أى أن ما قبلها سبب لما بعدها، فبسبب ظلمهم أنفسهم بما قدموا من ظلم للفِطَر، وشرك، يدخلون النار، وجاء إدخالهم بصيغة الأمر، للدلالة على أنهم مجبرون فى هذا الدخول لا مخيرون، وجاء بكلام يدل على أنهم دخلوا، ولم يقل (أُدخِلوا جهنم)، للتهكم بهم كأنهم اختاروها، وإنهم كذلك فقد اختاروها من يوم أن اختاروا الكفر على الإيمان واستكبروا على الحق فلم يؤمنوا به مع قيام بيناته ودلائله.

و﴿ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ كناية عن سعتها، وسهولة الوصول إليها لمن كتبت عليهم وأردوها بأفعالهم، كما قال تعالى: ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (٤٤) ﴾ [الحجر] وإنهم خالدون فيها لا يزيلونها، وخالدين فيها حال، والخلود وهو الاستمرار فى البقاء بها، وقد بين سبحانه أنها أسوأ مقام، فقال: ﴿ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾.

و(الفاء) للإفصاح عن شرط مقدر، أى إذا كانوا سيدخلون جهنم خالدين، فلبئس مثواهم، و(اللام) لتأكيد ذمها، وأظهر فى موضع الإضمار، فقال: ﴿ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾، ولم يقل بئس مثواهم، للدلالة على أن الكبر عن الحق وعدم الاستماع إليه، والإصغاء لأهله ـ هو الذى أودى بهم.

والتعبير بكلمة ﴿ مَثْوَى ﴾ وهى الإقامة، وغالبا ما تكون المختارة؛ لأنها طيبة من قبيل التهكم بهم.

ولقد قال ابن كثير: إن الآية تدل على أنهم يدخلون النار، أو يكونون فى حرارتها بمجرد قبرهم، وأنه تكون أرواحهم فى عذاب بحرارة جهنم، حتى يكون البعث فتلتقى الأجسام بالأرواح، ويكون العقاب، ويشير إلى ذلك قوله تعالى فى آل فرعون: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ

الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [غافر] اللهم اغفر لنا، وجنبنا أسباب النار، وانظر إلينا يوم لقائك، وإن لم نكن لذلك أهل.

المتقون

قال تعالى:

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

هذه مقابلة بين الإيمان والتقوى، والكفر والاستكبار، قيل للمستكبرين ماذا أنزل ربكم قالوا: أساطير الأولين ولنَتْلُ الآية السابقة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ وسئل هذا السؤال نفسه للمتقين، فقال تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾ وهذا فرق ما بين التقوى والفجور، الفاجر لا يهمه أن يقول الحق أو يفحصه، والمتقى الطيب محب للحق، ويتحراه، فإن وجده اطمأن إليه، واستقام على طريقه.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، الفاعل المحذوف هنا هو الذى ذكرناه فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ وقد كان الجواب غير الجواب الأول، وإن كان السؤال واحدا بيد أن السؤال هنا للمتقين وهناك

«للمستكبرين» كان جواب المتكبرين يتناسب مع ضلالهم، وكان جواب المتقين ﴿خَيْرًا﴾، أى أنزل خيرا، وذلك يشمل القرآن وما فيه من شرائع وما جاء به النبى ﷺ من أحكام وشرع صالح فيه خير البشرية؛ ولذلك نجد الجواب هنا خبرا منصوبا بالفعل، بينما نجد الجواب فى الأولى مرفوعا، وهو أساطير، والفرق أن الجواب جواب مؤمنين يؤمنون بالتنزيل، فيجيبون من غير تلعثم واضطراب، بينما الجواب فى الأولى جواب كافرين بالتنزيل وفيه التواء وتلعثم لأنه باطل، والباطل دائما لا نور فيه، ولا انكشاف.

ووصفوا المنزَّل بأنه خير، ويشمل القرآن كما ذكرنا والشرائع الإسلامية كلها، وهى خير فيه صلاح الدنيا والآخرة، ثم قال تعالى: ﴿... لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ... (١٠)﴾ [الزمر] يصح أن تكون هذه الجملة من الله تعالى فيها تتميم جواب الذين اتقوا، والظاهر أنها من تتمة إجابة المؤمنين وقولهم، وهم بهذا يرغبون فى الإيمان، ويرغبون فى الإحسان، للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة، أى خصلة حسنة، وأثر حسن، فالثمرة من جنس العمل، فإذا كان العمل حسنا كانت الثمرة حسنة، وهل ينتج الخير إلا خيرا، وهل ينتج الإحسان إلا إحسانا.

والعمل الصالح ينال به الشخص الخير الحسن؛ لأنه يكون بنية خالصة، والإخلاص فى ذاته أمر حسن لا يذوقه إلا الذين أخلصوا دينهم لله ولم يدنسوا قلوبهم بفساد، والإخلاص يدفع إلى الكلم الطيب، والكلم الطيب يدفع إلى العمل المستقيم والسلوك القويم، وكل هذا خير، وإذا كانت متاعب من عمل الخير، فإن الصبر عليها نعمة وحسنة يشعر بها الأبرار الذين يفتدون الحق بأنفسهم وبالبلاء ينزل بهم.

وقال تعالى: ﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ﴾، أى ثواب دار الآخرة، وإنما أضيف الخير إلى ذات الدار، لأنها كلها خير، فلا ينال الطيبون فيه إلا طيبا، ثم قال تعالى: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾، (اللام) لام التوكيد، وإنها كل موضع الثناء، والحمد، وهى نعم الدار ، وذكر المتقين بالإظهار بدل الإضمار للإشارة إلى أن

التقوى هى السبب فى هذا الجزاء، وللدلالة على أن ثواب الآخرة خير للمتقين دون غيرهم.

ثم بين سبحانه ثواب الآخرة أو بعضه، فقال.

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) ﴾.

﴿ جَنَّاتُ ﴾ بدل أو عطف بيان لدار المتقين، إنها ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ بها إقامة دائمة ثابتة يجتمع فيها جمال المنظر، والرى، ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ وتلك متعة النظر، فيكون خرير الماء مع ما يحوطه من خضرة تسر الناظرين بنضرتها، وترتاح النفوس بمنظرها، وبين بعد ذلك أن هذا المنظر الجميل الذى يشرح الصدر معه التمكن من كل ما يحبون؛ ولذا قال بعد ذلك: ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾ من خير، وما يريدون من طيب لا يمنع عنهم شىء، وإذا كانوا قد حرموا فى الدنيا من مال ونسب فهم فى الآخرة ممكنون، وإذا كانوا قد صبروا أنفسهم لله تعالى فإن الله تعالى قدر عناءهم بأن مكنهم من كل ما يريدون، منطلقة إرادتهم ومشيئتهم، وقال تعالى فى آية أخرى: ﴿ ... وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ... (٧١) ﴾ [الزخرف].

﴿ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴾، أى كهذا الجزاء الذى نراه للذين اتقوا ربهم يجزى الله المتقين دائمًا، وهذا تشبيه أو تصوير لمعنى المكافأة الذى يكافئ الله تعالى بها عباده، فهو تصوير للمعنى الكلى فى جزاء الله للمتقين بهذه الحال التى ينالها المتقون، وهم المحسنون الذين أتقنوا أعمالهم، بإحكامها وأحكام الخير وإحسانه يكون أولا بتطهير النفس من الأهواء، والآثام، ويكون بالنية الصادقة الصافية، وثانيا بالعمل الصالح.

وإذا كان سبحانه قد بين كيف يستقبل المستكبرون عندما تتوفاهم الملائكة، فقد بين أيضا ما يستقبل المخلصون، فقال:

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)﴾.

ولقد وصف الله سبحانه وتعالى المستكبرين بأنهم ظالمون أنفسهم، وهم فى هذه الحال التى أوقعتهم فى رجس وفسوق، فإنه سبحانه قد وصف المتقين بأنهم طيبون، والطيب ضد الخبيث، وضد الشرير، فوصفوا بأنهم طيبون؛ لأنهم خلصوا من الشرك والظلم والاستكبار، ولأنهم صالحون فى ذات أنفسهم زكية نفوسهم طيبة راضية مرضية، وطيبة حياتهم من بعد.

والطيبة وصف للنفوس المطمئنة الراضية غير المعتدية الآثمة، وهو وصف جامع لكل الخلال الباطنة والظاهرة يوصف به كل الذين لا يحملون ضغنا، ولا يحقدون، ولا يعتدون، وينصرفون لذات أنفسهم يصلحونها، ويراقبونها، ولا يكون منهم للناس إلا ما فيه مصلحتهم، و﴿طَيِّبِينَ﴾ حال من المفعول، وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾ فى الآية حال من الملائكة، والمعنى يتوفونهم قائلين لهم: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمُ﴾ إيناسا لهم بالتحية ودعوة لهم بالأمن والاطمئنان، وبث روح الأمان، وبشرى لهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠)﴾ [فصلت] ويقولون مع هذا السلام المؤمن المبشر: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الباء باء السببية، أى لسبب عملكم الذى عملتموه غير مدخرين فى سبيل الخير، وقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، تدل على استمرار العمل، لأن كان تدل على الماضى مع الدوان فى مثل هذا المقام، كقوله تعالى: ﴿... وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩)﴾ [النساء]، وقد جمع بين الماضى فى (كان) والمستقبل فى ﴿تَعْمَلُونَ﴾، فكان دالا على استمرار عملهم، وكان صالحا، والله تعالى يجزيهم أحسن الجزاء.

تفكير المشركين

قال تعالى:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٤) وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥)﴾

جاءتهم المعجزة الكبرى التي تتحدى الأجيال كلها، وتحداهم الله تعالى بها أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، فطلبوا معجزات حسية كمعجزات الأنبياء السابقين، فجاءتهم، انشق القمر، فقالوا: سحر مستمر، أي أعينهم سحرت فتبين كذبهم، لأن المسافرين رأوه كذلك، وجاءهم بالإسراء من مكة إلى المسجد الأقصى، وذكر لهم الأمارات الدالة.

أتى لهم بالمعجزة الكبرى، وهي التي تتناسب مع خلود شريعته، إذ يبقى صامدًا يقارع الزمان والأقوام ويقيم لهم الدليل على أنه من عند الله، ولكنهم أرادوا آية مادية، فجاءتهم الآية تلو الآية، ومع ذلك لم يؤمنوا؛ ولذلك قال تعالى:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾.

لقد طلبوا أن يكون معه ملك، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩)﴾ [الأنعام]، ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾، أي العذاب

المستأصل، كما نزل بقوم لوط، وعاد وثمود، وفرعون، وقد ذكر أنه فعل ذلك بالذين من قبلهم وأنهم طلبوه فأجيبوا، فقال: ﴿**كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**﴾ أنهم استهانوا، وكابروا، ولجوا فى إنكارهم، وطلبوا استعجال أمر الله فيهم فعجل، ولكنه لم يفعل ذلك مع أمة محمد ﷺ، فهو لم يرسل لجيل يستأصله إذا لم يؤمن، بل أرسل للأجيال كلها فإذا كفر جيل، كان رجاء الإيمان فى جيل يليه، كما قال ﷺ فى قومه ـ وقد آذوه ـ، وبين الله تعالى على لسان الملائكة أنه ينزل بهم ما يريد، فقال خاتم النبيين: «**إنى لأرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله**»[1].

وقوله: ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ**﴾ الاستفهام فيه للإنكار، وهو وصف لحالهم فى كفرهم بالآيات، أى حالهم أنهم لا ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتيهم أمر الله.

وقد بين الله أن أمره نزل بمن سبقوهم مثل قوم نوح، وعاد وثمود، وأصحاب الأيكة، وفرعون ذى الأوتاد أن ذلك لم يكن ظلمًا من الله لهم، بل كان ظلما من أنفسهم لأنفسهم، فقال عز من قائل:

﴿**وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾.

إن المذنب إذا نزل به عقاب ذنبه لا يقال إن من أنزل به العقاب هو الذى ظلم، إنما الظالم هو من ارتكب سبب العقاب فهؤلاء بارتكابهم سبب العذاب الذى جاء بأمر الله ظلموا أنفسهم، وهنا أمران بيانيان نشير إليهما:

الأمر الأول ـ التعبير بـ ﴿**كَانُوا**﴾ فهو دال على استمرارهم فى أسباب ظلم أنفسهم من إنكار وجحود ومكابرة.

الأمر الثانى ـ تقديم كلمة ﴿**أَنفُسَهُمْ**﴾، على ﴿**يَظْلِمُونَ**﴾ للإشارة إلى أن مما ارتكبوا من آثام كان يقع على أنفسهم، لا على غيرهم وللاهتمام والتخصيص.

---

(١) متفق عليه وقد سبق تخريجه.

وقد أكد سبحانه هذا المعنى السامى فقال:

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٤)﴾.

الفاء فيها بيان ترتيب الإساءة على ما ارتكبوا من سيئات، فهى تبين كيف ظلموا أنفسهم، فقال: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾، أى فأصابهم جزاء سيئات ما عملوا، فالكلام على تقدير مضاف، وفى هذا التفسير بيان لأنهم ظلموا أنفسهم بأن تسببوا فى العذاب الذى نزل، فكانوا به ظالمين لأنفسهم، وحذف المضاف مع بقاء المضاف إليه للإشارة إلى الجزاء كالسيئات تماما، حتى كأنه هو.

وإن السيئات تترادف يجىء بعضها تلو بعض، حتى تتراكم فيظلم القلب وحينئذ تفسد كل أسباب الإدراك وتكون قلوبهم غلفا، ويتوالى منهم الفساد، فيكون ذلك سببًا فى أن ينزل بهم عذاب الله، ويكونون ظالمين لأنفسهم.

وقوله تعالى: ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ فيه إشارة إلى أن الله لا يأخذهم إلا بالسيئات، وهى ما يسوء فى ذات من الأفعال، وما يسوء الناس، وما يصدهم عن الحق المبين.

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾، أى أحاط بقلوبهم عملهم السيىء، حتى أصبحوا لا يدورون إلا فى فلكه، واستعمال (حاق) بمعنى أحاط لا يكون إلا فى السوء، فالحيق لا يكون إلا فى إحاطة الشر.

وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، أى أحاط بهم القول الذى كانوا به يستهزئون، أى جزاؤه وحذف المضاف للإشارة إلى المساواة بين الجزاء والفعل كأنه هو.

ويصح أن نقول إن المراد، أن يحيط بهم الاستهزاء نفسه تقريعا ولوما، وإشعارا لهم بأنهم المستهزئون المحقرون، ومن كانوا موضع استهزائهم السخيف هم الأكرمون عند الله.

وإن تفكير السيئين دائما أنِ يحملوا أوزارهم وأوزار غيرهم، كما جاء سارق فقيل له لِمَ سرقت؟ فقال: ذلك قضاء الله فكأنه يحمل الله تعالى ما ارتكب، كذلك تفكير المشركين.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٣٥) ﴾.

إن الذين أشركوا وكانوا يخاصمون النبى ﷺ قوم خصمون يحتجون على النبى ﷺ لكل ما يتوهمون أن فيه حجة لهم، غير مدخرين قولا ولو كان باطلا فى ذاته، ولا يؤمنون به.

قالوا متحدين النبى ﷺ بقولهم أن ينزل بهم عقاب ماحق، **﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾**، أى لو شاء ألا نشرك، وألا نحرم شيئا حلالا مما حرمنا، كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، لأنزل بنا عقوبة رادعة مانعة قاطعة، ولكنه لا ينزل، وينذر ولا ينفذ، فهو تحد للنبى ﷺ أن ينزل بهم ما أنزل الله على الأقوام قبلهم؛ ولذا قال تعالى من بعد ذلك: **﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾**، أى لا يملك إنزال العذاب، وإنما الذى يملكه الله تعالى، وهو ليس عليه إلا البلاغ، وقد بلغ وأنذر.

هذا تخريج الحافظ ابن كثير، وهو تخريج مستقيم تتناسق فيه العبارات، وتتلاقى المعانى.

وهناك تخريج آخر يقاربه ولا يباعده، وهو أنهم يقولون ذلك استهزاء بالنبى ﷺ وتهكما، بأنه لو كان يستطيع التغيير لغير، ولكن الله رضى لنا ذلك، فيقول الله **﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾** وهو قريب من الأول فى معناه، وإن خالفه بعض المخالفة فى مبناه.

وهناك تخريج ثالث، وهو الذى ضرب على نغمته الزمخشرى، وسار فى مساره غيره، وإن خالفوه فى النتيجة، وذلك التخريج أنهم يسندون إلى الله وزرهم فى الشرك فيقولون: إن شركهم بمشيئة الله وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن فلو شاء ألا نعبدهم من دونه ما حرمنا، فكيف نحاسب على أمر شاءه الله تعالى، وبذلك يربطون الأمر بالإرادة، فيقولون: إن أمرا يجب أن يكون ملازما لإرادته، ولا يأمر الله بشىء لم يرده، فيقول لهم: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾، أى ليس على الرسل إلا البلاغ، وهو تبيين أمر الله تعالى فلا تجادلوا، وأنهم قد بينوا الحق فلا سبيل للتخلص من أمر الله، وأنكم تحسون فى ذات أنفسكم بالاختيار وعلى ذلك يكون.

ونقول إن التخريج الأول تكون الآية متناسقة فى ألفاظها وعباراتها ومعانيها، والتخريج الأخير يجعل قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ وفى ربطه ببقية الآيات تكلف، ولو كان المخرِّج له إمام البلاغة الزمخشرى.

وهنا إشارات بيانية ترجح التخريج الأول ونشير إليها:

الأولى ـ فى قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أى فعل ذلك الفعل الذى تفعلون فعل الذين من قبلكم، وهؤلاء لم يفعلوا بل قالوا ولم يقل: وكذلك قال الذين من قبلكم، فدل ذلك على أن ما كان منهم ليس مجرد قول بل هو فعل وهو التحدى أو الاستهزاء، وبذلك يترجح التخريج الأول أو الثانى ولا يترجح الأخير.

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿وَلا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾، أى ما حرمنا من غير الله من شىء، بل من ذات أنفسنا.

الثالثة ـ قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ الفاء للإفصاح؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر إذ تقديره إذا كنتم تتحدون وتطلبون إنزال العقاب فليس هذا لنا، إنما علينا البلاغ الواضح المبين الذى لا يترك ريبة لمرتاب،

والاستفهام هنا إنكـارى لإنكار الوقوع، أى ليس على الرسل إلا البلاغ المبين، أى التبليغ الواضح وهذه الجـملة السامية لا تخلو من إنذار، ووصف البـلاغ بأنه مبين يفيد أنه معلوم بإنذاره فمن اهتدى فلنفسه ومن عاند وخالف فعليه إثم عناده.

والآية هنا رجحنا أنها للتحدى أو الاسـتهزاء، وفى سورة الأنعام يرجح أنها لتعلاتهم فى إثمهم وشـركهم، ولذا كان الرد عليهم: ﴿... قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ (١٤٨)﴾ [الأنعام].

بعث الرسل بالتوحيد والبعث

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ
وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ
حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ
فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾
وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ
وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾
لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ
كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ
لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾

بعد أن أشار سبحانه إلى أن على الرسل البلاغ المبين الواضح بأدلته، وآيات الله المقترنة به، بين سبحانه أنه ما ترك أمة من غير نذير، بل بعث فى كل أمة رسولها بالحق، فقال عز من قائل:

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً ﴾.

أكد سبحانه وتعالى بعثه للرسل بأن بعث لكل أمة رسولا، وأن محمدا ﷺ لم يكن بدعا من الرسل، أكد ذلك باللام وقد، ولقد عين سبحانه رسالة كل رسول من هؤلاء الرسل فقال: ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾.

﴿ أَنِ ﴾ تفسيرية فهى مفسرة بمعنى الرسالة، وهى الأمر بعبادة الله وحده واجتناب الطاغوت.

وقوله تعالى: ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ فيه أمر بالوحدانية ودعوة إليها وتحريض عليها؛ لأن عبادة الله تعالى لا تكون إلا إذا كان يعبد وحده لا شريك له.

وقوله تعالى: ﴿ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾، أى ابعدوا عن أنفسكم الطاغوت، أى جانبوه، والطاغوت فعلوت من الطغيان، وهو مجاوزة الحد، ويشمل مجاوزة الحد فى العقول فيعبد ما لا ينفع ولا يضر، ويشرك مع الله غيره وتتحكم فيه الأوهام، فيرى الباطل حقا والحق باطلا، ويشمل ظلم العباد، والطغيان عليهم، ويشمل الطغيان فى المعاملات والظلم، وغير ذلك.

فالدعوة أى الوحدانية واجتناب الطاغوت جامعة لكل معانى الرسالة من عقيدة، وتعامل الناس بعضها مع بعض، هذه رسالة رسل الله فى الأرض، اعتقاد سليم، وتعاون وعمل عادل مستقيم.

وقد تلقى الناس رسالة الرسل الهادية المرشدة ما بين مهتد مقتنع مؤمن، وما بين ضالٍّ قد حقت عليه الضلالة، ولذلك قال سبحانه: ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ ﴾ ومن هدى الله هو الذى سلك طريق الهداية، وأعد قلبه لقبول الحق والاقتناع به، ولم تكن ثمة غواش من حب المادة أو السلطان أو الجاه أو التأثر بما كان عليه الآباء، فيتبع من غير تفكير ولا تدبر بل نقول:

﴿ ...بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا... (١٧٠) ﴾ [البقرة]، فمن كانت حاله كذلك، وهو فى هذا متساوق مع الفطرة فإن الله يهديه، ويجعله يتم الصراط التى ابتدأ السير فيها.

وأما من حقت عليه الضلالة، أى ثبتت وتأكدت، فهو الذى لا يتفكر ولا يتدبر لغواش غشيت قلبه من حب الدنيا وجاهها، وسلطانها، وسيطر على عقله التقليد، والعناد والاستكبار، وبذلك تفسد فطرته التى فطر الناس عليها، ولذا حقت عليهم الضلالة.

وإن أولئك أنزل الله تعالى بهم الدمار فى الدنيا، وصاروا عبرة للمعتبرين؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

(الفاء) الأولى دالة على الإفصاح عن شرط مقدر، أو كلام مقدر تقديره فنزل بهم الدمار والهلاك ﴿فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾، فستجدون الآثار لمن أهلكهم الله، ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، أى انظر الحال التى آل إليها أمرهم بسبب تكذيبهم؛ ولذلك أظهر فى موضع الإضمار للدلالة على أن ما أصابهم سببه التكذيب، والله سبحانه وتعالى أعلم.

كان النبى ﷺ حريصا على أن يهتدى قومه، لرأفته بهم ولرغبته فى مصلحتهم، ولأنه يرى إيمانهم من كمال تبليغ رسالته، ويخشى أن يكون قد قصر فى التبليغ إن لم يؤمنوا، ولأنه ـ كصاحب كل دعوة ـ يريد للناس أن يتبعوها فى غير عوجاء ولا اعوجاج، ولكن الهداية ليست بيده، إنما هى بيد الله؛ ولذا قال تعالى:

﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٣٧)﴾.

الخطاب للنبى ﷺ الذى كان حريصا على هداية قومه، والحرص هو الرغبة الشديدة فى أمر من الأمور، وقد كان النبى ﷺ راغبا فى هداية قومه، والضمير فى ﴿هُدَاهُمْ﴾ يعود على الذين قالوا: ما أشركنا نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء.

وجواب الشرط فى ﴿إن تحرص علىٰ هداهم﴾ هو قوله تعالى: ﴿فإن الله لا يهدي من يضل﴾ ويضل هنا معناها من كتب عليه الضلالة، وقدرها له فى قدره المحتوم، ولوحه المحفوظ، وذلك لأنه سلك سبيل الغواية ولم يتفكر ويتدبر، وسيطرت عليهم أوهام المادة، والجاه والسلطان وحب السيطرة فإنه تكتب عليه الضلالة، ولترك الله تعالى له سادرا فى غلوائه يكون كمن يضله.

﴿وما لهم من ناصرين﴾، أى لا أحد ينصرهم، وهذا يومىء إلى أنهم يعتريهم عذاب أليم، لا ينقذهم منه ولى ولا ناصر لهم، وفيه دلالة على أنهم ما داموا قد رتعوا فى الغى، فلا يمكن أن يكون لهم هاد مرشد، وهذا كقوله تعالى: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ... (٥٦)﴾ [القصص].

وإن هذا الجحود سببه أمران:

الأمر الأول ـ الاستكبار، وقد تكلمت الآيات القرآنية فى آثاره.

والأمر الثانى ـ جحود اليوم الآخر، وقولهم: إن هى إلا حياتنا الدنيا نلهو ونلعب، وقد بين الله تعالى حالهم فى جحودهم اليوم الآخر فقال تعالى:

﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلىٰ وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٣٨)﴾، ﴿جهد أيمانهم﴾، الجهد مصدر بمعنى الطاعة والقوة، ومعنى أقسموا بالله جهد أيمانهم أى جاهدين بأقصى قوتهم فى تأكيد يمينهم، والمقسم عليه ﴿لا يبعث الله من يموت﴾ مأسورين فى ذلك بالحال التى وقعت، وهى الوقت ويحسبونه فناء لا حياة بعده، ويحسبون أنه لا شىء غير المادة، ولا يؤمنون بالمنشئ الموجد، وإن كانوا يقولون: الله خالق كل شئ، ولكنه قول لا يتغلغل فى قلوبهم، ويستمكن فى نفوسهم، روى البخارى أن رسول الله ﷺ قال فى حديث قدسى: **«كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمنى ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياى فقوله: لن يعيدنى كما بدأنى، وأما شتمه إياى فقوله اتخذ الله ولدا، وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفوا أحد»**[١].

(١) رواه البخارى: تفسير القرآن (٤٥٩٢). كما أخرجه النسائى: الجنائز (٢٠٥١)، وأحمد: باقى مسند المكثرين (٧٨٧٣).

رد الله تعالى قسمهم الباطل بقوله تعالى - بلى - وهى تدل على الإجابة بالنفى وهو ما أكدوه، ثم أكد سبحانه وتعالى الجواب بالنفى بقوله تعالى: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ ووعدا مصدر، ووصفه بأنه حق ثابت مستقر لا مجال لإخلافه، وقال تعالى: ﴿عَلَيْهِ﴾، أى أنه سبحانه التزمه، وكيف يترك ما التزمه ولا ملزم له، إنما هو الملتزم.

وبين سبحانه أن أكثر الناس غلبتهم المادة، وسيطرت عليهم الأحوال التى يرونها، وتركوا المغيب عنهم فلم يدركوه، ولم يؤمنوا بالغيب؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ الاستدراك هنا من الوعد المؤكد الثابت الذى ألزم الله تعالى به نفسه، إذ كان الواجب عليهم أن يعلموا من قياس القابل على الحاضر ولكن أكثرهم لا يعلمون، أى ليس من شأنهم أن يدركوا، وأن يعلموا لأنهم لم يؤمنوا بالغيب، ولم يعرفوا قدرة ربهم، وما المراد (بالناس)؟ إن أريد المشركون فكلهم لا يعلمون ذلك، وقيل المؤمنون، وإن أريد الناس جميعا، فإن أكثرهم لا يؤمنون بالعودة، ومن اعتقد منهم لا يذعن، وإلا ما كانت المعاصى التى ترتكب جهاراً، فهى لا ترتكب إلا من غفلة فى الإيمان باليوم الآخر، وقد بين الله تعالى الغاية من البعث، فقال تعالى:

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩)﴾.

(اللام) متعلقة بما قبلها، أى أنها فى مقام التعليل لوعد الله الحق الثابت المؤكد الذى ألزم الله تعالى به ذاته العلية، والمعنى أن الله تعالى ما خلق الناس عبثا كما فى قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥)﴾ [المؤمنون]، فالله تعالى لم يخلق الإنسان، ولم يجعله كالبهائم، بل خلقه ومعه عقل يتفكر ويتدبر، وحيث كان التفكير، كان الحساب على الأفعال، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، والدنيا لا تتسع لكل حساب الأعمال، فلابد من أخرى يحاسب فيها على جميع الأفعال، والأناسى منهم المظلوم المحروم، ومنهم الظالم

المجدود[١]، فلابد من يوم يستوفى فيه كل ذى حق حقه، ينال كل ثمرة ما كسب، ومن نوع ما كسب.

وذلك هو ما يكون بعد البعث، وهذا معنى ليبين لهم الذى يختلفون فيه من حق وباطل وعدل وظلم، ويكون كل ذلك أمام الحكم الذى يفتح بين الناس، ويفصل بينهم بالحق وهو خير الفاصلين، ﴿**وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ**﴾.

(اللام) هنا للعاقبة، بينما اللام الأولى للتعليل؛ ولذا كررت اللام لتغاير معناها، ومعنى العاقبة أنهم كانوا يكفرون بالبعث، ويكذبون الرسل فى الدعوة إلى الإيمان، ويشركون ويكذبون الرسل فى الدعوة إلى التوحيد، فإذا كان البعث والحساب والعقاب لمن أنكر وكابر وأشرك، والثواب لمن آمن وأطاع وصبر وجاهد فإن عاقبة ذلك الذى يرونه حسيا أن يعلموا أنهم كانوا كاذبين فى كل ما ادعوا وأنكروا، وباهتوا الرسل والمؤمنين، وعبر بالموصول ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ لبيان أن كفرهم هو السبب فى تكذيبهم، وأكد سبحانه وتعالى علمهم بكذبهم، أولا: بـ«أنَّ» المؤكدة، وثانيا: بـ «كان» الدالة على دوامهم على الكذب بدوام كفرهم، وثالثا: بالجملة الاسمية، والله سبحانه يعلم الغيب فى السموات والأرض وإليه ترجعون.

وإن السبب فى إنكارهم البعث هو أنهم مأسورون بالمادة والحاضر الذى بين أيديهم وأنهم لا يقدرون قدرة الله تعالى حق قدرها؛ ولذا أشار سبحانه وتعالى إلى كمال قدرته على الخلق والتكوين، وأنه ليس إلا أن يريد الشىء فيكون، فقال الله تعالى:

﴿**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** (٤٠)﴾.

﴿**إِنَّمَا**﴾ «أداة قصر» أى أن خلق الله للأشياء محصور فى هذه الطريق السهلة التى لا تمتنع عليه بشىء، ولسنا نبحث فى سر الخلق والتكوين، فنسأل

(١) المجدود: اسم مفعول بمعنى المحظوظ. الصحاح/ جدد.

كيف خلق الله الناس، إنما نتعرف ذلك من قوله سبحانه، وهو يدل على أن الله تعالى يخلق الأشياء بإرادته المختارة، فلم تنشأ عنه الأشياء نشوء المعلول عن علته، فذلك وهم تعالى الله عنه سبحانه؛ ولذا قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾، أي حاله وشأنه في قدرته وتكوينه للأشياء ﴿إِذَا أَرَدْنَاهُ﴾، أي أراده بإرادة حرة مختارة، وأنه فعال لما يريد ﴿أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾، أي احدث وكن شيئا مذكورا، فيكون، ومعنى هذا أنه سبحانه وتعالى لا يصعب عليه شيء في الوجود، فلا يتكلف كائن في الوجود أكثر من قوله كن فيكون، وهذا تصوير لسهولة الخلق عليه تعالت قدرته، وذلك كقوله تعالى: ﴿... وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ... (٧٧)﴾.

وهذا كله للعاقل المستبصر المدرك، ولقد كانوا يعجبون كيف يعودون. ولقد فنيت أجسام الأموات فقال تعالى مبينا أن شيئا لا يصعب على إرادته، فقال: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً (٥٢)﴾ [الإسراء].

المؤمنون

قال الله تعالى:

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا
لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢)
وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۚ فَاسْأَلُوا أَهْلَ
الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ
الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤)

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) ﴾.

الهجرة ترك الدار لغاية سامية أو لطلب الرزق، وقد حبب الله تعالى في هاتين الحالتين، فقال تعالى: ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً... (١٠٠) ﴾ [النساء].

وقد كانت هجرتان: هجرة إلى الحبشة فرارًا بالدين من الذين ظلموا، ومن هؤلاء عثمان بن عفان وجعفر بن أبي طالب وعدد من الصديقين والصديقات بلغت عدتهم ثمانين أو يزيد، والهجرة الكبرى إلى المدينة وفيها هجرة النبي ﷺ، وإن هذه السورة مكية، أي أنها كانت قبل الهجرة الكبرى فالذين هاجروا في الآية هم المهاجرون إلى الحبشة.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾ الفاء هنا للسببية، أي لأجل الله تعالى، وذكر الفاء يومىء إلى أنهم فنوا في الله فصاروا لا يفكرون في غيره، وصار هو ملء قلوبهم ونفوسهم وعقولهم، وأحاسيسهم فكلهم له سبحانه وتعالى لا يفكرون إلا فيه، ويهون كل عذاب في سبيله.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ و﴿مَا﴾ هنا مصدرية، أي من بعد ظلمهم، وقد كتب الله تعالى لهم الجزاء الحسن لصبرهم على الأذى، ونزول الظلم بهم، وهجرتهم ببعدهم عن الخلان والأحباب، والديار والأموال، وبيع أنفسهم لله تعالى حتى لا يطلبوا إلا مرضاته.

وقد قال تعالى في جزائهم: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾، (اللام) لام القسم وهي مؤكِّدة، والقسم مؤكد، ونون التوكيد مؤكدة، والحسنة الأمر الذي يكون حسنا لا إساءة فيه في ذاته ولا في مغبته، و(نبوئنهم) نمكنهم في الحسنة كأنهم يفتقدونها ويستمكنون منها، والحسنة في الدنيا التي نالت المؤمنين والمهاجرين من بعد هي العيش الحسن، وقد نزلوا من بعد الحبشة المدينة هم ومن كانوا في مكة يلاقون الظلم والإيذاء بكل أنواعه والاستهزاء والسخرية، فالتقوا في دار الهجرة.

ومن حسنة الدنيا النصر على الشرك وأهله، وغنائم النصر، والتعاون والإخاء، وإقامة حياة فاضلة فى المدينة.

هذه حسنة الدنيا ﴿وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، (اللام) لام الابتداء للتوكيد، وأجر الآخرة أكبر لأنه نعيم مقيم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها، فأكل الجنة دائم لا ينتهى، وقال: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، والضمير فى يعلمون يعود إلى المؤمنين، و﴿لَوْ﴾ تكون للتمنى، أى ليتهم يعلمون ذلك علم العيان والرؤية، لا علم الخبر والذكر، وفى ذلك بيان لفضله، وعظم شأنه، كأنه فوق الخيال والتصور، واختار الزمخشرى أن يكون للكفار ولكنه بعيد، وقد قال تعالى فى سبب استحقاقهم ذلك الجزاء العظيم.

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢)﴾.

﴿الَّذِينَ﴾ عطف بيان للمهاجرين، لقد صبر المهاجرون أبلغ الصبر، صبروا على الذى نزل بهم، والظلم الذى وقع عليهم والاستهزاء والسخرية بهم، وتصغير شأنهم، وتحقير أمرهم، وكأنهم الأرذلون، وهم الأكرمون، وصبروا على ترك الأحباب، وترك الأموال وترك الديار.

صبروا على كل ذلك، وعلى أن المشركين حاولوا أن يسدوا باب الأمل فى نفوسهم لولا فضل من الله ورحمة، ولكنهم مع ذلك كان أمامهم ربهم فتح لهم السدود، بالتوكل عليه؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، أى على ربهم وحده، لا على أحد سواه يتوكلون، وعبر بالمضارع لدوام توكلهم، وقدم الجار والمجرور على الفعل للتخصيص، أى على الله وحده يتوكلون فهو الذى يفتح لهم الأبواب التى يسدها الشرك، ويكون من ورائها الانتصار.

ولقد كان المشركون يعترضون على الرسالة المحمدية بأنها لرجل، ويريدون ملائكة، فبين الله تعالى أن الرسل جميعا من الرجال، فقال عز من قائل:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) ﴾ .

ليس عجبا أن يوحى الله تعالى إلى رجل منكم، وما كان محمد ﷺ بدعا فى الرسل، بل كان الرسل من أقوامهم يحسون بإحساسهم، ويتألفونهم ويعرفونهم فى ماضيهم الطاهر المنزه، ولم يرسل رسولا إلا إذا كان من قومه وكان رجلا منهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً ﴾ ، فما أرسلنا ملكا؛ لأن طبيعته ليست من طبيعة الإنسان، وهو روح غير جسد، ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾ [الأنعام]، الأمر أهو ملك، أما إنسان، وإن امتياز هذا الرجل الرسول من بينهم أنه يوحى إليه، وينزل عليه جبريل الأمين برسالته؛ ولذا قال: ﴿ نُّوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ ، هذه قراءة بالنون المعظم للمتكلم، وهو الله تعالى، وأى متكلم أكبر وأعظم من رب البرية، وهذا كقوله تعالى فى آية أخرى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ... (١٠٩) ﴾ [يوسف]، ولقد قال سبحانه وتعالى على لسان رسوله: ﴿ ... قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣) ﴾ [الإسراء].

ولقد نبههم سبحانه إلى أن عليهم أن يتعرفوا الأمر من أهل المعرفة، فقد كانوا أميين منقطعين عن الرسالة فأراد سبحانه أن يوجههم إلى سؤال أهل المعرفة: ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ ، (الفاء) تفصح عن شرط مقدر، أو واقعة فى جواب الشرط ﴿ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ وأهل الذكر هم أهل التفكر والتدبر والعلم بالأشياء على وجهها، ويدخل فى هؤلاء أهل الكتاب، أى إن كنتم لا تعلمون هذه الحقائق، فلا تعجبوا فى الأمر لمجرد أنه يثير عجبكم واستغرابكم، بل تعرفوا الأمر من أهل الذكر والحكمة والمعرفة وأهل الكتاب ليزول عجبكم واستغرابكم، وذلك مع المعجزة الكبرى التى قدمها لكم، وتحداكم أن تأتوا بسورة من مثله، وما زال يتحداكم وهكذا نرى القرآن الكريم يصرف الآيات ليدركوا وليستبينوا الحق.

ولقد أشار سبحانه بعد ذلك إلى ما جاء به الرسل والأنبياء، ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤)﴾.

بين هذه الجملة وما قبلها تمام الاتصال، لأنها فى معنى البيان لها، ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾، متعلق بمحذوف دل عليه الكلام السابق، أى أرسلناهم بالبينات، وهى الآيات الدالة على رسالتهم، ﴿وَالزُّبُرِ﴾ الزبر جمع زبور، وهو الكتاب، يقولون زبرت الكتاب إذا كتبته، وقد قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢)﴾ [القمر] وكما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥)﴾ [الأنبياء].

والمعنى أن هؤلاء أرسلوا رجالا ولا يكونون إلا رجالا مصحوبين بالبينات أى المعجزات الدالة على أنهم مبعوثون من عند الله، وجاءتهم منهم الكتب التى تبين فيها الشرائع التى أراد الله تعالى أن يعلموها للناس، وقد جئتهم بذلك وبالحق فما لهم يستنكفون عن قبول ما تدعوهم إليه، ويعجبون من أن يجيئهم الحق من الله على لسان رجل منهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾، الذكر هو القرآن الكريم، وسمى القرآن هنا ذكرا، لأنه مذكر الأنبياء السابقين ورسائلهم، ما نسخ منها وما بقى، ولأنه الذكر الدائم إلى يوم القيامة، ولأن الذين نزل فيهم القرآن شهدوا على الناس بأن ما نزل إليهم من شرائع حق، والله شهيد عليهم، ألم تر إلى الذين ادعوا أنهم أتباع عيسى وحرفوا العقيدة، وجعلوها وثنية مثلّثة صحح القرآن عقيدتهم وردها إلى أصلها، وشهد القرآن والمؤمنون بالصادق، وبطل ما صنعوا وحرفوا وثلثوا.

وقوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، (اللام) هنا لام العاقبة، لتكون الثمرة والنتيجة والعاقبة أن تبين بالقرآن الذى نزل على قلبك للناس ما نزل إليهم من ربهم فى الماضى والحاضر، وما هو شريعة ربهم الأزلية الخالدة الباقية، كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ

إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ... (١٣)﴾ [الشورى].

وقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أى رجاء منهم أن يتفكروا ويتدبروا ويبتعدوا عن الجحود والكفر، وكان العطف بالواو للدلالة على أن هذه غاية وثمرة للنزول كتبيين النبى ﷺ.

تنبيه وإنذار

قال تعالى:

أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾

كان المشركون من وقت أن بعث النبى ﷺ يدعوهم بأمر ربه لا يفكرون فيما اشتملت عليه من حق، ولا فى ماضيه الذى يدل على الصدق والأمانة، وأنه كان الأمين فيهم حتى سمى بذلك، ولا فى حقيقة ما يدعو إليه، ولا فى حقيقة ما هم عليه من عبادة الأحجار التى لا تضر ولا تنفع لا يفكرون فى شىء من ذلك، إنما يفكرون فى مقاومة الدعوة وصدوا عن غير المقاومة صدودا، ودبروا لإيذاء

المستضعفين، والسخـرية بالمؤمنين، والاستهزاء بأهل الحق ويقتلون الذروة والغارب ليقضوا على الدعوة، حتى إنهم ليقتــسمون مداخل مكة، ليشوهوا دعوة النبى ﷺ إذا دعا الحجيج، يفعلون كل ذلك ونسوا أن الله تعالى قد ينزل بهم العذاب؛ ولذا قال تعالى منبها لهم منذرا:

﴿ **أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٤٥)** ﴾.

(الفاء) لترتيب مـا بعدها على ما قبلها وهو حـالهم التى هم عليها، ولكن تأخرت الفاء؛ لأن الصدارة تكون للاستفهام والمعنى أفعلوا ما فعلوا ودبروا السوء، وآذوا ودبروا الأمور المسيـئة فى نفسها أفأمـنوا أن يخسف الله تعالى بهم الأرض، بأن تنحط الأرض حتى تبتلع ديارهم وأمـوالهم، أغفلوا وأمنوا مكر الله وقد دبروا السيئـات وفعلوا وأرادوا، ويميل بعض المفسرين إلى أن السيـئات وصف لموصوف محذوف تقـديره «أفأمن الذين مكروا المكرات السيئـات»، ونحن نرى أنه لا حاجة إلى تقدير موصوف محذوف؛ لأن المكر وهو التدبير مـتجه إلى إنشاء السيئات فهم دبروا السيئات فى إيذاء المسـتضعفين، ودبروا السيئـات فى الأقوال والأفعال طوال إقامة النبى ﷺ بينهم فى مكة، لم يتركوا نوعا من السيئات إلا دبروها.

وهم يعلمون قوة الله القاهرة، وأنه الذى يلجأ إليه فى الملمات، فلم يكونوا جاهلين لها، وإن عبدوا مع الله الأحجار والأوهام، فإذا نبههم الله تعالى بأنه قادر على خسف الأرض من تحتهم فهم لا يجهلون ذلك.

وقد قال تعالى منبها لهم، ومـثيرا لعلمهم بقدرة الله تعالى: ﴿ **أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧)** ﴾ [الملك].

ثم قال تـعالى: ﴿ **أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ** ﴾، (أو) عاطـفة ﴿ **الْعَذَابُ** ﴾، هو العذاب الدنيوى المدمر كالـذى نزل بقوم لوط، فجعل الله عالى الأرض سافلها، أو تأتيـهم ريح صرصر عاتية، أو ريح فيهـا عذاب شديد، يكون

مفاجئا لهم لا يعلمون بوقوعه، ولا يتوقعونه وهذا معنى لا يشعرون، أى لا يعلمون ولا يتوقعون بل ربما كانوا يرجون الخير، كقوله تعالى فى عاد: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) ﴾ [الأحقاف].

ثم يقول تعالى منذرًا بالعذاب الشديد:

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٤٦) ﴾.

إن أخذهم وهم لا يشعرون يكونون وهم فى مساكنهم مطمئنون أو قابعون فى ديارهم وهم لا يعرفون آثار مكرهم السيئات وتدبيرهم الفاسد لأهل الإيمان والكرامات، ولذا لا يشعرون، وقد يأخذهم وهم متنقلون فى الأسفار يسيرون فى مسارها، ويتنقلون لمتاجرهم، وقد يأخذهم الله وهم كذلك لا يفكرون إلا فى الكسب والخسارة والربح وسائر أبواب التجارة؛ ولذا قال تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾، أى فى انتقالاهم من بلد لبلد، يتقلبون فى البلاد، والتقلب تعبير عربى قرآنى يؤكد به الانتقال من بلد إلى بلد تاجرا، أو سائحا، وكأن فى ذلك مجازا إذ شبه التنقل من بلد إلى بلد بالكرة المتقلبة من وضع إلى وضع، وهى تنقله من مكان إلى مكان.

وإذا كانوا قد أحيط بهم، فهم فى مأمنهم غير آمنين، وفى أسفارهم غير مطمئنين فهم فى قبضة الله تعالى؛ ولذا فما هم بمعجزين الله تعالى أن ينزل بهم ما يريد، فاستقيموا على الطريقة، وإلا أخذكم أخذ عزيز مقتدر، كانت الصور السابقة فى أخذ بالخسف أو العذاب من حيث لا يشعرون، أو وهم فى حال تقلبهم فى البلاد بالمتاجر لا يخافون، فقد ينزل العذاب وهم يتخوفون من العذاب، ولكنهم مصرون على سببه من مكر السيئات، وتدبير الموبقات للمؤمنين ضعفائهم وكبرائهم بالاستهزاء والسخرية.

ولذا قال تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾، أى تخوف من العذاب أن ينزل بهم كما نزل بالأقوام قبلهم فهم يعروهم الخوف، ولكن لا يصل إلى حملهم على الإيمان، ولكن يتخوفون أن ينزل بهم، وقد يفسر التخوف بمعنى النقص، أى

ينقص الله من أموالهم شيئا فشيئا. كما فعل سبحانه وتعالى بقوم فرعون إذ قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) ﴾ [الأعراف]، فالتخوف هو النقص حتى يكون الهلاك من بعد ذلك.

ولقد ذكر الزمخشرى فى ذلك ما نصه: «وقيل هو من قولك: تخوفته إذا تنقصته، قال زهير:

تخوَّف الرحل منها تَامكا قَرِدا   كما تخوف عود النبعة السَّفِن

أى يأخذهم على أن يتنقصهم شيئا بعد شىء فى أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا، وعن عمر رضى الله عنه أنه قال على المنبر: ما تقولون فيها، فسكتوا فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا، التخوف التنقص قال: فهل تعرف العرب ذلك فى أشعارها؟ قال: نعم قال: شاعرنا وأنشد البيت، فقال عمر: أيها الناس عليكم بديوانكم، قالوا: وما ديواننا، قال: شعر الجاهلية».

ومعنى النص السامى أن العذاب يأتيهم وهم لا يشعرون وهم فى مأمنهم قابعون، أو يأتيهم فى متاجرهم ومتقلبهم مقبلين، أو يأتيهم بنقص وهلاك بطىء فينتهون وهم قد عرفوا الابتداء ولم يعرفوا الانتهاء.

وقد ختم الله سبحانه آيات الإنذار بقوله: ﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

ووصف الله سبحانه وتعالى ذاته بالرأفة والرحمة مع هذا التهديد الشديد، لأن رأفته بهم، ورحمته العامة، اقتضت ألا يعاجلهم بالعقاب، فهو سبحانه يبين لهم أنه قادر على العقاب ينزله بهم فى أى باب من هذه الأبواب، ولكنه لم يعجل رأفة بهم وهو رحيم رحمة عامة للناس.

وفوق ذلك فإن الإنذار بالعقوبة، بل العقوبة نفسها رحمة بالكافة، فليس من الرحمة بالكافة أن يترك الظالم فى غيه يرتع ويلعب ويعبث بالكرامة الإنسانية، فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «**من لا يَرْحَمْ لا يُرْحم**»[1]، وقد ثبت فى

---

(١) سبق تخريجه.

الصحيحين أن النبى ﷺ قال: «**لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله أنهم يجعلون لله ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم**»، ويقول ﷺ: «**إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**»(١).

ويوجه سبحانه وتعالى الأنظار إلى الخلق والمخلوقات ففيها الدلالة على وحدانية الخالق، وفيها الدلالة على قدرته القاهرة وإرادته الظاهرة وفيها الدلالة على خضوع الوجود كله له سبحانه ساجدا داخرا صاغار، فقال عز من قائل:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ۝٤٨ ﴾.

الهمزة داخلة على فعل محذوف يقدره المقام والمعنى يفعلون ما يفعلون معاندين مجاهرين بالعصيان، ولم يروا ما خلق الله من شىء، و﴿ مِن ﴾ بيانية، أو لاستغراق النفى والاستفهام هنا إنكارى؛ لإنكار الوقوع وهو داخل على نفى، ونفى النفى إثبات، والمعنى انظروا (وفكروا) إلى ما خلق من أشياء تتفيأ ظلاله، أى لها فىء، ولهذا الفىء ظل، وتتداخل ظلاله، فالجبال لها فىء والأشجار لها فىء، وكل فىء له ظل، فتتفيؤ هذه الأفياء، ويكون ظلال كما ترى الشجر المتداخل تتفيأ الظلال ذات اليمين وذات الشمال، وعبر عن الجانبين المقابلين باليمين والشمال، فقوله عن اليمين والشمائل، عن الجانب اليمين من ناحية الشرق، وعن الشمائل من جهة الغرب، وذلك بالنسبة للكعبة فما يكون على شرقيها يكون يمينا، وما يكون عن غربيها يكون شمالا، وعبر عن اليمين بالمفرد ويراد به الجمع؛ لأنه أفياء مختلفة تطول ابتداء وتقصر عند الظهيرة، ثم تكون الأفياء ناحية الغرب تبتدئ قصيرة من فىء الزوال ثم تكبر شيئا فشيئا حتى تستطيل طولا كثيرا.

وفى التعبير عن اليمين بالمفرد إشارة إلى نهايته، وإلى أنه لا يرى إلا قصيرا

---

(١) رواه البخارى (٤٣١٨)، ومسلم: البر واصلة تحريم الظلم (٤٦٨٠).

بينما الشمال لا يرى إلا طويلا، ويزداد شيئا بعد شيء؛ ولذا عبر فيه بالجمع وهو شمائل، والاثنان جمع، فهو أفياء كما ذكرنا .

والتعبير بفيء ليضمنها معنى المجاوزة، أى إن تجاوز إلى اليمين أو تجاوز إلى الشمائل تكون أفياء، وقوله تعالى: ﴿ سُجَّدًا ﴾، أى أن هذه الأفياء ساجدة خاضعة لله تعالى، تسبح بحمده كما يسبح الرعد بحمده، وقوله تعالى: ﴿ دَاخِرُونَ ﴾، أى صاغرون خاضعون، وجمعت جمع عقلاء، تنزيلا لها هذه المنزلة لخضوعها وتسبيحها بحمده سبحانه وتعالى، وهو على كل شيء قدير.

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) ﴾.

السجود هنا كالسجود فى الآية السابقة الخضوع الكونى لله تعالى والتسبيح بحمده، ولكن لا نفقه تسبيحهم، كما ذكر الله تعالى فى قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (١٥) ﴾ [الرعد].

وذكر سبحانه ما فى هذه الآية لعمومها ما فى السموات من كواكب ونجوم، وشمس وقمر وغير ذلك مما فى السموات ثم قال تعالى: ﴿ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ ﴾، (مِنْ) هنا دالة على البيان، أى أن كل دواب الأرض خاضعة تسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم.

وقد ذكر سبحانه وتعالى نوعين خاضعين ساجدين له، وهما الأجرام السماوية، وكل ما هو جسم يبدو لنا غير حى، ثم ذكر الأحياء وهى الدواب، ثم ذكر بعد ذلك قسما ثالثا، وهم الملائكة الأطهار والأرواح فقال: ﴿ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ فالملائكة خاضعون لله لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، أو وصفهم الله تعالى بأنهم لا يستكبرون، أى أنهم ليسوا كإبليس الذى أبى واستكبر وكان من الكافرين، وكما قال تعالى: ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ... (١٧٢) ﴾ [النساء].

وقال تعالى فى أحوال الملائكة الأطهار: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾، قيل معناها يخافون ربهم أن يرسل عذابا من فوقهم، أو يخافونه، وهو فوقهم بالقهر، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ... (١٨)﴾ [الأنعام] ونحن نرى أن الفوقية هنا فوقيتهم هم، لا فوقية الله، والله تعالى فوق كل شيء، ومعنى فوقيتهم علوهم فى الخلق والتكوين، وكونهم أرواحا طاهرة، وإنهم مع هذه الفوقية يخافون الله تعالى، فكلما علوا فى الروحانية كان خوفهم بمقدار علوهم، وبذلك يستقيم الكلام من غير تقدير (يرسل) أو نحو ذلك، ويكون متفقا على ما ختمت به الآية السابقة فى قوله تعالى عنهم: ﴿وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

وقد أكد سبحانه وتعالى نفى استكبارهم، وخضوعهم، وخوفهم من ربهم الذى خلقهم بقوله تعالى: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وفيه إشارة إلى إبليس الذى استكبر، ولم يفعل ما أمره به ربه.

الله يأمر بالوحدانية

قال الله تعالى:

وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ
ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ (٥١) وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُم مِّن
نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ (٥٣) ثُمَّ
إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ (٥٤)
لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ (٥٥) وَيَجۡعَلُونَ
لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ
تَفۡتَرُونَ (٥٦)

بعد أن أشار الله تعالى إلى خلق السموات والأرض، وخضوع الجميع ساجدين، العقلاء وغير العقلاء، والأحياء والجماد على معنى جامع بينها، وهو الخضوع والتسبيح، وإن كنا لا نفقه تسبيحها فخالقها عالم بها.

بعد ذلك بين أنه سبحانه واحد أحد، وهو إله وحده فقال:

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) ﴾.

هذه الجملة السامية متصلة بما قبلها بالواو العاطفة، والواو العاطفة على ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ... ﴾، أي الله الذى يخضع الوجود كله له لا فرق بين حى وجماد، ولا عاقل ولا غير عاقل، يقول لكم: ﴿ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ وذكر (اثنين) مؤكدا معنى العدد المفهوم من المثنى؛ لأن المثنى فى ذاته يدل على المثنوية، وكان التأكيد باثنين لأنه موضع النهى، إذ إن موضع النهى هو أن يكون إلهان اثنان، وذكر النهى عن اثنين، لأنه يتضمن النهى عن ثلاثة وأكثر؛ لأنه إذا كان الأقل منهيا عنه، فالأكثر أولى بالنهى؛ ولأن اتخاذ إلهين دلت الآية الأخرى على أنه يؤدى إلى الفساد فى السموات والأرض، إذ إن تعدد الآلهة يلغى معنى الألوهية ويفسد السموات والأرض التى دلت الآيات المتلوة والآيات الكونية على أنهما منظمان أبلغ ما يكون النظام، قال الله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) ﴾ [الأنبياء]، وإن قياس البرهان على بطلان الشرك المبنى على التنازع يفرض إلهين، فيقول لو كان إلهان لتنازعا، ولرجح أحدهما على الآخر على فرض التساوى بينهما، وإذا تنازعا مع هذا التساوى فسد الكون، وإذا لم يفرض على التساوى، كان المتفاضل منهما هو الإله.

ونقول: إن ذكر الإلهين الاثنين فيه إيماء إلى هذا الدليل العقلى، والله أعلم.

﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾، (هو) دالة على معنى الإله المطلق وهو الله سبحانه، و(إنما) الدالة على القصر، أى قصر الألوهية على إله واحد سبحانه وتعالى.

بعد ذلك التفت عن الخطاب إلى ضمير المتكلم. فقال: ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ الفاء الأولى للإفصاح والمعنى: إذا كان الإله واحدا، ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ والفاء الثانية لربط الكلام، والمعنى إياى أنا وحدى فارهبون؛ لأنه لا إله إلا أنا، وقد انتقل سبحانه من مقام التنبيه والتعليل بذكر أدلة الوحدانية فى خلق السموات والأرض والتوجيه، والبرهان إلى التخويف ومن لم يقنعه الخوف والإرهاب.

وقد قال سبحانه وتعالى: إنه له الطاعة، والجزاء عليها والعبادة، والخضوع والعبودية وحده فقال تعالى:

﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢)﴾.

سيق هذا الكلام الحكيم فى سياق بيانى، قد يؤخذ منه شكل منطقى، فقد قدم سبحانه وتعالى كلامه السامى، بقوله: ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أى له السموات والأرض، وما فيها من أحياء وأجرام، وعقلاء وغير عقلاء، وإذا كان مالكا للوجود كله وهو وحده المتصرف بمقتضى الاختصاص الثابت بالملكية، فله العبادة وحده، وله الطاعة وحده، وهو الذى يملك الجزاء وحده؛ ولذلك قال بعد ذلك ما هو كالنتيجة لهاتين المقدمتين: ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ الدين يطلق ويراد منه العبادة وقد يراد منه الطاعة، وكلمة (واصب) قد يراد بها الدائم، وقد يراد المفروض، وقد يراد ما فيه مشقة محتملة، وهذه المعانى تراد جميعها من هذه الآية الكاملة، فله وحده العبادة، وله وحده الطاعة، وله وحده الجزاء، فهو الذى يجزى كلا بما يستحق، وهو الذى اختص بالله وحده دائم، ومفروض، ومنه تكليف للنفس بما يوجب الصبر، والمجاهدة.

وقد ختم الله تعالى الآية من الإخبار إلى الخطاب فقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾، الفاء للدلالة على ترتيب ما بعدها على ما قبلها، ذلك أنه يترتب على

الوحدانيـة، فيمـا ذكرنا الآيتين غـير الله تعـالى، وأخرت الفاء عن الهـمزة، لأن الاستفهام له الصدارة، والاستفهـام للتنبيه، وإنكار الوقوع، أى لا تتقون غير الله، وتقديم غير الله على الفعل للدلالة على أنه لا يتـقى سواه، والتقوى امتلاء القلب بخشية الله تعالى وجلاله وخوف عقابه فلا يتقى سواه، لأنه له الجزاء وحده.

بعد ذلك أخـذ سبحـانه وهو المنعم بالوجود يبين بعض نعـمه على الناس، فقال تعالت كلماته:

﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْـمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ** (٥٣) ﴾.

الكلام مـوصول لبيـان نعم الله تعالى، وقـد ذكر أولا نعم الله تعـالى على الوجود الكونى كله بخلق السموات والأرض ومن فيهن من أجرام وأحياء، وعقلاء وغير عقلاء، ثم يذكر فى هذه نعمه على الإنسـان خاصة، فيقول مخاطبا الناس، ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ** ﴾ (ما) اسم موصول بمعنى الذى، وهو يكون أحيانا فى معنى الشـرط؛ ولذا تدخل الفاء فـيما بعـده على أنه جواب الشـرط الذى تضمنه الموصـول، والمعنى على ذلك: الذى بكم من نعمـة فى الصحـة والعقل والـغذاء والكساء والمأوى، والماء الذى تشربون، والدفء الذى به تستدفئون، كل هذا وغيره مما غمركم به من نعم سابغات فمن الله تعالى المنعم المتفضل على غيره، ﴿ ...**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا**... (٣٤) ﴾ [إبراهيم].

وهو مع هذه النعم السابقـة كاشف الضر، ورافع الأذى؛ ولذا قـال تعالى: ﴿ **ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ** ﴾ أتى بـ(ثم)، هنا للتباعد بين حال النعمة وحال الضر، أى أنه منزل النعم، وكاشف النقم، والضر هو ما يصيب الإنسان من ضرر فى جسـمه بمرض، أو يصـيبـه من تعرض للغـرق أو الحرق، وهكذا من أسـباب الضرر، ومسكم: أصـابكم أو نزل بكم فإليه وحده تضَّـرعون؛ ولذا قال: ﴿ **فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ** ﴾، يقال جأر يجأر جؤارا، أى تضرع ولجأ، وصاح لاجئًا إلى الله تعالى، ولفظ جأر تدل الالتـجاء إلى الله تعـالى لفزع وهلع، فإن كـان الذى مسه مـرضا جهش ودعا، وإذا كان الذى مسه ضرراً كان التجاؤه بصياح كخوار البقر.

ويقول تعالى: ﴿فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾، بتقديم الجار والمجرور على الفعل أى إليه وحده تجأرون ضارعين.

وإذا كان يقتضى عبادة الله وحده فى السراء، ولكن إذا كشف الضر كان من الناس من يشرك بربه، ولذا قال تعالى:

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤)﴾.

﴿ثُمَّ﴾ هنا على موضعها اللغوى من التباعد بين ما قبلها وما بعدها؛ إذ إن ذلك كان يقتضى الإيمان، ولا يقتضى الكفر، لقد جأروا إلى الله وحده، ولم يلتجئوا إلى غيره، ولكنهم بعد أن زالت كربتهم، وكشفت غمتهم أشركوا بربهم؛ ولذا قال: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾.

هذه (إذا) التى تسمى الفجائية، وهى التى يكون ما قبلها يدل على عدم توقع ما يجىء بعدها، إذ إن كشف الضر يوجب شكر المنعم والتضرع له وإفراده بالعبودية، فإذا كان الإشراك كان على مقتضى ما يتوقع، لقد ضرعوا إليه وحده فى شدتهم، وفى رخائهم كفروا به وأشركوا مع غيره من أحجار أو ما يشبه الأحجار.

وعدل الله فى حكمه أن جعل ذلك الكفر بالنعمة فى بعض منهم، وليس فى كلهم، وهم أولئك المشركون بمحمد، وقد أشار إلى أن هؤلاء ليسوا بكثرة الناس، ولكن دون الكثرة.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥)﴾.

اللام هنا لام الأمر، كاللام فى قوله تعالى: ﴿... لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ... (٧٧)﴾ [الزخرف] والأمر هنا معناه التهديد، ووصف أفعالهم بأنها سيئة، ومن أشرك بربه بعد نعمته التى أنعمها عليه بأن يؤمر بالسير فى غيه، وهذا كقوله ﷺ: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت»[1]، فالأمر ليس للطلب، ولكن لبيان أنهم

(١) سبق تخريجه.

قد فسدت فطرتهم وضلت عقولهم، حتى صاروا جديرين بألا يكون منهم إلا الشر.

أو نقول: اللام للعاقبة، ويكون المعنى لتكون العاقبة بأنهم كفروا بما آتيناهم من حق، وكتاب مبارك لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وإذا كانوا على ذلك النحو من الفساد والضلال النفسى فجدير أن يتمتعوا كما تتمتع البهائم من غير تفكر ولا تدبر؛ ولذا ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ (الفاء) للإفصاح إذا كنتم على هذا الضلال وكفران النعمة، والإشراك بربكم ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ والأمر للتهديد، وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى فيها بيان لما يستقبلهم، وسوف لتأكيد الفعل فى المستقبل، أى إذا كنتم فى حاضركم متمتعين بما تملكون من متع، فمستقبلكم المغيب عنكم ستعلمونه علم معاينة وهو عذاب شديد، فقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يتضمن تهديدا بعذاب مهين.

وقد بين سبحانه نوعا من الاسترسال فى عبادتهم الأوثان، وهو أن يجعلوا مما رزقهم الله تعالى من بهائم الأنعام نصيبا، فقال تعالى:

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦)﴾.

وذلك أن هؤلاء المشركين يسترسلون فى شركهم، فيحسبون أن من القربى للأوثان أن ينذروا لهم نذورا من الأنعام والحرث، فيجعلون هذا بزعمهم لله وللأوثان بزعمهم، ويخافون الأوثان أكثر من خوفهم من الله مع علمهم بأنه لا ينجيهم من كربهم إلا الله تعالى، على ما تبين من قول، وقد قال تعالى فى ذلك فى سورة الأنعام: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦)﴾ [الأنعام].

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾، يصح أن يكون الضمير عائدا على الأوثان، ويكون المعنى: ويجعلون للأوثان التى هى أحجار لا تعلم شيئا، ولا تضر ولا تنفع، نصيبا مما رزقناهم، وأعيد الضمير إلى الأوثان على أنه ضمير العقلاء؛ لأنها كذلك فى زعمهم، فيكون ذلك تهكما بهم.

ويصح أن يعود الضمير إليهم كالضمير فى ﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ والمعنى على هذا يكون: ويجعلون لما لا يعلمون له حقيقة تسوغ لهم أن يعبدوها، إنما هو وهم قد سيطر عليهم من غير حقيقة ثابتة يعلمونها، أو هى صالحة لأن يعلموها إذ هو لا وجود له إلا على أنه حجر لا يضر ولا ينفع، والخيال الناشئ هو الذى جعل لهم ذلك التصور الباطل.

وإن ذلك أعظم الافتراء على الله وعلى الحقيقة؛ ولذا قال تعالى مؤكدا القول بالقسم بذاته العلية: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ وهذا تهديد شديد، قد أكده سبحانه بالقسم بذاته العلية وبتلك الصيغة القوية، وهى القسم بالتاء، وباللام، وبنون التوكيد الثقيلة، وأنهم مسئولون عن هذا الافتراء.

وسمى الله سبحانه وتعالى ذلك افتراء وكذبا مقصودا؛ إذ أشركوا، وكذبوا على الله وعلى أنفسهم، وضلوا إذ نذروا لما لا يعلمون له حقيقة، وضلوا بذلك ضلالا بعيدا.

ظلم البنات

قال تعالى:

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ
﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ
﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ
أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
(٦٠) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن
يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ
سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ
وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ
لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ (٦٢)

إن الأوهام إذا كانت هى مصدر علم طائفة من الناس فلا تعجب، والأمثال على ذلك واقعة بين أيدينا فى هذا الزمان ومن شأن من تحكمه الأوهام أن يتخيل ثم يظن ثم يتوهم ثم يعتقد، كان العرب يعرفون الملائكة، ويعرفون الله وإنه خالق كل شيء، وأنه المستغاث لكل مستغيث، وأنه الملجأ فى الشديد ولكن خلطوا بذلك أوهاما كثيرة أفسدت تفكيرهم، فأشركوا الأوثان مع الله تعالى، ومن ذلك أنهم توهموا أن الملائكة إناث لا ذكور، وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا، وجعلوها بنات الله تعالى، ثم ذهب بهم فرط أوهامهم إلى أن كان منهم من عبدها؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ (٥٧)﴾، أى أنهم جعلوا لله البنات ـ تنزه وتقدس عن ذلك ـ ولهم ما يشتهون، وهم الذكور، ومعنى يشتهون يختارون راغبين ملحفين فى الدعوة حتى كأنهم شهوة يشتهونها؛ لأنهم يرونهم امتدادا لوجودهم، ولأنهم يرون فيهم النصرة فى الحرب؛ ولذا كان الرجل يكون فى قوة ببنيه ويكون أعز نفرا، ولقد نعى الله تعالى عليهم أن قالوا لله تعالى ولدا، فقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢)﴾ [الصافات]، وأن ذهب فرط أوصافهم أن يقولوا ولد الله بنات ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤)﴾ [الصافات] ويقول

سبحانه ردا عليهم: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢)﴾ [النجم].

هكذا تدرج بهم الوهم من زعم أن لله ولدا، وإن هذا الولد من الإناث اللائى لا يرغبن فيهن، ثم استرسل بهم الوهم حتى كان منهم من عبد الملائكة، وهم طائفة من الصابئة كانت تعبد الأرواح.

وإن رغبتهم فى الذكور ورغبتهم عن الإناث تدفعهم إلى أن تسود وجوههم عند ولادة الأنثى؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩)﴾.

التبشير معناه الإخبار بالأمر السار، أى بالبشارة، وعبر الله تعالى عن ولادة البنت بالتبشير؛ لأنها بشرى بسلامة الأم ولأنها فى ذاتها رزق من الله تعالى، ولأنها قلب يكون له فضل حنان وشفقة لذا كان التعبير بـ﴿بُشِّرَ﴾، وقد كان يجب أن يُسرّ لهذه المعانى الكريمة السامية، ولكنه بدل أن يستبشر، بهذه النعمة التى أنعم الله تعالى بها، وهذا الرزق الذى ساقه الله تعالى يكتئب ويحزن؛ ولذا قال تعالى فى جواب الفعل الذى هو البشرى: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾، أى صار ودام وجهه مسودا، وذلك كناية عن الحزن والكمد والغيظ، فكان حال الوجه المكفهر تشبه بحال الوجه الأسود، للقتامة، فالبؤس يوجد سوادا فى القلب.

وقال: ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾، أى وهو ممتلئ غيظا، وحزنا وغما، و﴿كَظِيمٌ﴾ مأخوذ من الكظامة، وهو شد فم القربة، والمهموم الحزين ينطبق فاه فلا يتكلم كمدا، والمشابه حاله بحال الكظامة التى تشد بها القربة، ولكن القربة تسد على الماء وقد يكون قراحا، أما هذا فيشد فمه على أقراح الهم والغم والحزن.

وإنه يكون على هذا الغم محسا بعـار، لخشيته على عرضها، ولخشيته من قهرها وذلها، وهى مهمـا تكن بضعة منه؛ ولذا قال تعالى: ﴿**يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ**﴾ لا يلقاهم خزيا وعاراً من سوء ما بشر به، وهنا جمع سبحانه بين السوء والبشرى، فسماه سوءاً بالنسبة له ولقومه، وسميت بشرى بشر بها فى حقيقتها، لأنها نعمة، والإخبار بالنعمة بشرى.

وتحدثه نفسه فى هذه النكبة فى زعمه الفاسد، وإدراكه الباطل ﴿**أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ**﴾، والضمير فى ﴿**أَيُمْسِكُهُ**﴾ يعود على لفظ ﴿**مَا بُشِّرَ بِهِ**﴾، فهو يعود على (ما)، ولذا ذُكِّر الضمير، وإن كان موضوع (ما) هو الأنثى، ﴿**عَلَىٰ هُونٍ**﴾، أى على ذل وهوان كهـذا المبشر به، والهـوان فى لغة قريش، وعـذاب الهون هو عذاب الهـوان والذل، ﴿**أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ**﴾، أى يدفنه فـيه، وعـبر سـبحـانه بـ﴿**يَدُسُّهُ**﴾، بدل يدفن، لأن الدفن يكون للميت، وهذه على قيد الحياة وهى الموءودة، وكان يفعل ذلك قبائل من مضر ومن كندة وخزاعة وهى غلظة فى الأكباد، وحمق فى العقول وضلال فى الفكر، وكان بجوار هؤلاء الحمقى القساة، فضلاء عقلاء رفقاء، فكانوا إذا علموا برجل يريد أن يوئد ابنته فدوها بالإبل، وقد قالوا: إن صعصعة بن ناجية عم الفرزدق إذا أحس بشىء من ذلك وجه إلى والد البنت إبلا يستحييها، وقد قال الفرزدق مفتخرا بعمِّه هذا.

وعمِّى الذى منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم يوده

وإن امتهـان المرأة ذلك الامتهان لم يكن عند العـرب وحدهم، بل كان عند الفرس، وكان عند الرومان، ولم يكن فى القـانون الرومانى أى حماية للمرأة، بل كانت تعـد المرأة أمة فى بيت أبيها، لو قـتلها لا يسأل لم قتلهـا، وإذا انتقلت إلى بيت زوجها كانت أمة أيضا، ولو قـتلها لا دية لها، ولا ملام، وقال تعالى: ﴿**أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾ ألا للتنبيه وسـاء فى فعل التعجب فالمعنى ما أسـوأ ما يحكمون لأنه سخط وظلم وفساد فى التفكير.

ولما جاء القرآن كرمها وجعل لهن من الحقوق مثل الذى عليهن من الواجبات، وواجب تأديبها وتعليمها، فقال ﷺ: «**من كانت عنده بنت فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها، وأسبغ عليها من نعم الله التى أسبغ عليه كانت له سترا أو حجابا من النار**».

وإن سبب ذلك الانحدار فى التفكير بالنسبة للأنثى هو الكفر باليوم الآخر، ولذا قال تعالى:

﴿ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠) ﴾.

إن الإيمان بالآخرة إيمانا صادقا مذعنا يلقى فى النفس الاطمئنان على المستقبل، فلا يكون فى لهج وهلع من الناحية المالية؛ لأنه يعرف أن هناك يوما آخر، يعطى فيه من حرم من ملاذ الدنيا وشهواتها، ولا يكون حريصا شحيحا، ولا يكون خائفا من فقر ينزل به ما دام عاملا، وإن أصابه فقر فإلى ميسرة، وأما من لا يؤمن بالآخرة فإنه فى فزع، وخوف وتقتير، ويظن الظنون فى قابله غير معتمد على الله تعالى، فهو فى الولد، يخشى الفقر فيئد البنت ويفرح بالولد؛ لأنه يكفيه عيشه، والبنت يخشى عليها القهر والذل، وفوات الكفء وغير ذلك.

ولذا قال تعالى فى حال البشرى بالبنت، وخشية الفقر والعار والقهر لها مشيرا إلى أن سبب ذلك هو عدم الإيمان بالآخرة، فقال تعالى: **﴿ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ﴾**، أى حال السوء دائما يخشون الفقر والقهر، والجوع كمثل الذين يحددون نسلهم الآن خشية الجوع، والله تعالى يقول: **﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ... (٣١) ﴾** [الإسراء]، فمن لا يؤمن بالآخرة تكون حاله حال سَوْء وخوف، وهمٍّ دائم، وفى مقابل ذلك من يؤمن بالآخرة، فإنه مطمئن إلى ربه، طالبًا رضاه يفوض أموره لله، وهو العزيز الحكيم؛ ولذا قال تعالى: **﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾**، ولله الحال العليا التى لا سَوْء

فيها، ولا خوف من الفقر، والمقابلة بين الذين لا يؤمنون بالآخرة، وبين الله وهى مقابلة بين كان منهم من الإنسانية فى المنزلة الدنيا، والله العلى القدير العزيز الحكيم، وأنى يكون ذلك؟ والجواب عن ذلك: إن المقابلة بين من هم فى أدنى الإنسانية، ومن هم فى أرقاها من بنى الإنسان أيضا؛ لأن الله تعالى يدعوهم إلى أن يكونوا مع الله تعالى. ليؤمنوا بعظمته، ويتوكلوا عليه، فيكونوا فى أحسن حال، وأعلى مثل وصورة، لأنهم يكونون مع الله، متوكلون عليه ومتبعون لأوامره، ومجتنبون لنواهيه.

وختم سبحانه الآية بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، أى وهو الغالب الحكيم الذى قدر كل شىء تقديرا ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ... (٦) ﴾ [هود].

وإن الله تعالى يعلم ظلم الناس وظلمهم للنساء؛ ولذا قال تعالت كلماته:

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) ﴾.

إن الله تعالى هو الرزاق ذو القوة المتين، وهو القادر على كل شىء وهو العليم بما يفعله الناس، ولكنه لا يؤاخذ الناس على ظلمهم، وقت نزول الظلم، بل يؤخرهم، ولذا قال تعالى:

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ ﴾.

(لو) حرف امتناع لامتناع، أى امتنع عذاب الله تعالى لأنه سبحانه لا يؤاخذ الناس بظلمهم، وإن الناس منهم من يشركون بالله، وإن الشرك لظلم عظيم ومنهم من يقترف الآثام المخزية المفسدة للجماعات، ومنهم من يعتدى، ولا يعد القوى قويا إلا إذا اعتدى كما قال الشاعر الجاهلى زهير بن أبى سُلْمَى.

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعله لا يظلم

والظلم ماحق للخير، وإن الله إذا آخذ الناس بظلمهم المستمر المتوالى لعمهم بعذاب من عنده، بريح صرصر عاتية، أو يخسف بهم الأرض، أو يجعل عاليها سافلها، أو بأن تجف السماء فلا تمطر، فيكون الجدب ثم الموت، وبذلك يهلك الناس والدواب، ولم يبق على ظهرها غاثية أو راغية، وبذلك يموت الجميع ولا تبقى دابة، وخلاصة المعنى أن الله تعالى لو آخذ الناس لعمهم بعذاب لا يترك منها دابة تدب على وجه الأرض، فنقمة الظالم تعم ولا تخصه، كما قال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ... (٢٥) ﴾ [الأنفال]، والتعبير بالمضارع فى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ... ﴾ فيه نفى للمؤاخذة فى المستقبل، كما لم يؤاخذ فى الماضى، لأن الله عدل لا يأخذ المطيع بجريمة العاصى، ولا يأخذ العجماء بجريمة الإنسان.

﴿ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾، حيث يمكن تمييز الظالم من العادل، والمسىء من المطيع، والمسئول من غير المسئول، فإذا جاء أجلهم الموقوت لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، والسين والتاء للطلب، والمعنى ليس لهم أن يطلبوا التأخير والتقديم، بل هو لاحق بهم ما يستقبلهم والله أعلم.

وبعد ذلك أشار سبحانه إلى ظلمهم فى النساء، وهو ظلم مستمكن فى نفوسهم.

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ (٦٢) ﴾.

ويجعلون ما يكرهونه، أى ما كان غير مرغوب فيه منهم يجعلونه لله، فيجعلون لله البنات، لأنهن مكروهات عندهم، ويجعلون مما ذرأ من الأنعام والحرث ما يكرهون، ويجعلون لآلهتهم ما يحبون، ويستخفون برسله لأنهم يكرهونهم وفى الجملة كل شىء لا يهوونه يجعلونه لله تعالى.

﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ ﴾، أى تقول ألسنتهم الكذب، وعبر عن القول بالوصف لأنهم يصفون الباطل، بأنه حق، فهو قول يتضمن وصفا باطلا، يصفون

﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾، الحال الحسنى التى لا يعلو عليهم فى الحسن شىء فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فإنهم قد زين لهم سوء عملهم فرأوه حسنا، وما هو بالحسن، وغرهم الغرور فاستطابوا ما هم عليه من فساد، وحسبوا أنهم بظلمهم الأعلون، وغرهم بالله الغرور، وأما فى الآخرة فقد قاسوا حالهم فى الدنيا على حال في الآخرة، كما قال الله تعالى عن أحدهم: ﴿ ...وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ... (٥٠)﴾ [فصلت].

وقد رد الله تعالى قولهم بقوله سبحانه: ﴿لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾، أى حقا لا كسب لهم من خير أو حسن ﴿أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ يدخلونها، وليس لهم الحسنى ينالون خيراتهم، وأكد سبحانه ذلك فقال: ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾، أى مقدمون فى النار، كالمفرط إلى الماء أى المقدم، وهذا على قراءة فتح الراء مع تخفيفها، وقرئ بكسر الراء مع التخفيف، ويكون المعنى مفرطين فى الظلم والمعاصى، وبذلك استحقوا النيران، وقرئ بكسر الراء مع التشديد ويكون المعنى أنهم مفرطون فى طاعة الله تعالى أهملوها، وتركوها فتركهم الله تعالى وصاروا نسيا منسيا.

والقراءات الثلاث متواترة، فيصح أن تراد كلها، فهم فى مقدمة أهل النار فيردونها كما يرد القوم إلى الماء، وهم مفرطون فى المعاصى، ومفرطون فى الطاعات، والله من ورائهم محيط.

رسالات الله والعظة فى خلقه

قال الله تعالى:

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن
قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ

ٱلَّذِى ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحۡمَةً لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦٤﴾
وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمۡ فِى ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةًۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا
فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾
وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرًا وَرِزۡقًا
حَسَنًاۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ
أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى
مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا
شَرَابٌ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوۡمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

الكلام مفصول عما قبله باللفظ، وإن كان المقام بيان أحوال الشرك، وكيف يزين للمشركين سوء عملهم، فيرونه حسنا، وهو السوء فقال تعالى:

﴿ **تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴿٦٣﴾ ﴾ أكد سبحانه وتعالى بالقسم، وباللام وبقد، وكان القسم بالباء، لا بالباء ولمعنى الشدة فى مخرجها، كان فى القسم بهذه الصيغة تشديدا، و﴿ **أَرْسَلْنَا** ﴾ أضاف الإرسال إليه سبحانه وتعالى وليعلم أن الرسالة من الله سبحانه وتعالى رب هذا الوجود، والأعلم بما يصلح الناس، وما يخاطبون به، وما يبلغون الرسالة عن طريقهم، وأنهم رجال يأكلون ويشربون ويمشون فى الأسواق، ويموتون، كما قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ** ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنبياء].

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ إلى أمم مختلفة أزمانهم متباينة مشاربهم وأجناسهم، ولكنهم التقوا على أمر جامع بينهم، وهو الشيطان يزين لهم أعمالهم الفاسدة المفرقة لجمعهم؛ ولذا قال سبحانه: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ و(الفاء) للترتيب والتعقيب، أى أن الله تعالى أرسل إليهم الرسل بالهداية، فكان وراء الرسول الهادى تزيين الشيطان يهدم ما يدعو إليه الرسول يزين فى قلوبهم الخبيث فيجعله حسنا فى زعمهم، والله تعالى يقرر على لسان رسوله أنه باطل ما يصنعون.

وتزيين الشيطان لهم، أنه يأتيهم من قبل أهوائهم وشهواتهم فيزين لهم الشر فيما نهى الله عنه، كما قال جد الأبالسة لأبى الخليقة آدم ﴿... مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝٢٠﴾ [الأعراف].

﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ الفاء لترتيب ولايته لهم، أى الولاء والمحبة على التزيين، أى أنه إذ زين لهم الشهوات فحسبوها المصلحة والحقيقة الحسنة العقبى صار صاحب الولاية، والولاء والمحبة منهم يسيرهم كما يشاء.

والضمير فى ﴿وَلِيُّهُمُ﴾ يصح أن يعود إلى الأمم، أى أن الشيطان بعد هذا التزيين صار صاحب الولاية عليهم، يصرفهم اليوم كما يشاء فأسلموا زمامهم له، وفى ذلك سلوى للنبى ﷺ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، ويصح أن يكون الضمير يعود على قريش بقياسهم على من سبقوهم، وتقرير أنهم أولياء الشيطان بهذا التزيين المستمر، ثم ذكر العاقبة، فقال عز من قائل: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أى مؤلم إيلاما لا نعرف له فى الدنيا حدودا، وولايتهم على أى حال فى الدنيا، وأما فى الآخرة فيتبرأ منهم.

وقد بين سبحانه وتعالى: أنه أنزل الكتاب على محمد ﷺ ليكون جامعا لما سبقه مبينا الحق فيه فقال:

﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٦٤﴾.

ولقد بين سبحانه وتعالى أن الكتاب مهيمن على الكتب قبله، وحاكم على الناس فيما اختلفوا فيه، وما يختلفون إلى يوم القيامة، فإن رجعوا إليه اهدوا إلى الحق، وإلا فهم فى ضلال بعيد.

قال سبحانه: ﴿ **وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ** ﴾ فقد اختلفوا فى البعث، وقالوا: عيسى ابن الله، وقالوا: عزير ابن الله، وحرفوا فى الرسالات، وبدلوا وغيروا، وأحل اليهود الربا، وقد حرم عليهم وأكلوا السحت والرشا، فكان لا بد من مرجع يرجع إليه فى معرفة الحق فيما اختلفوا فيه، فكان محمد الذى نزل القرآن عليه هو المبين، وأسند البيان إلى النبى ﷺ مع أن المبين هو القرآن وذلك لسببين:

السبب الأول: بيان أن النبى ﷺ هو من القرآن، وإن القرآن نزل من عند الله تعالى عليه.

والسبب الثانى: أن القرآن يحتاج إلى مبلغ يبلغ حقائقه، ويعلم الناس به، يبين مجمله، ويخص عمومه، ذلك المبلغ هو النبى ﷺ ولذا أضيف التبين إليه ﷺ، وهو تكليف كلفه.

وقوله تعالى: ﴿ **وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ هنا أمران فى القرآن غير الأمر الأول، وهو أن فيه بيانًا للشرائع السائغة، وما اختلفوا فيه حولها، فهو شاهد على الكتب السابقة، ومبين الحقائق فى الرسالات الإلهية، وحكم عليها، لأنه آخر لبنة فى صرح النبوة، وهو كمال الرسالات كلها.

وهو أيضا هدى ورحمة ـ ففيه الهداية من الضلال فى متاهات الأوهام، فيه التوحيد، وقد زينت الأوهام الشرك، وفيه تحريم ما لم يحله الله، وإحلال الحلال وتبيين الحرام، فهو الهادى المرشد، كما قال الحق: ﴿ ... **إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا** (١) **يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا** (٢) ﴾ [الجن].

وفيه الرحمة، وهى شريعته المحكمة، فهى رحمة للناس، وهى الشفاء لأدوائهم والرحمة بالمهديين منهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾ [الأنبياء] ففيها الرحمة بالمجتمع، وفى عقوباتها الزاجرة رحمة بالكافة ووصفه سبحانه بأنه هدى كأنه ذاته هداية ورحمة لفرط ما فيه من هداية ورحمة.

وهنا أمران بيانيان يشير إليهما سبحانه:

الأمر الأول ـ أن قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ...﴾ فيه نفى وإثبات، وهو يفيد الحصر، أى ما أنزلنا عليك الكتاب إلا لبيان ما جاء به من رسالات للأمم، ولما فيه من هدى ورحمة، وشريعة محكمة صالحة، وفيه إشارة إلى أن هذا الكتاب خاتم الرسالات.

الأمر الثانى ـ أنه سبحانه وتعالى ذكر الكتاب معرفا بأل الدالة على كماله، وإنه الكتاب الجدير بأن يسمى كتابًا وحده، وقد بين سبحانه أن هدايته ورحمته لمن يؤمن به ويذل ويذعن لحقائقه، وينفذ أحكامه بحذافيرها لا يغادر منها صغيرة ولا كبيرة إلا نفذها لأنه خير كله، والله أعلم.

بعد أن بين سبحانه ما يحيى النفوس أخذ يذكر سبحانه ما منّ به على خلقه مما يحيى الأجسام:

﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥)﴾.

ابتدأ سبحانه بما يحيى النفوس، وكان ذلك بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين رحمة من عنده، وأنزل الكتاب الكريم الذى هو حكم ومهيمن على كل ما أنزل قبله من كتب، وما كان من الناس راشدين أو ضالين، وكيف كان ضلالهم، وكان ابتداؤه سبحانه بما يحيى النفوس التى كانت ميتة من غير هداية، واتباع للنبيين كقوله تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ... (١٢٢)﴾

[الأنعام]، لأن حياة الروح أزكى وأغلى، وهى التى تليق بالإنسان، وبغيرها يكون سدى، والجسم يشترك فيه مع البهائم التى هى مسخرة لخدمة الإنسان فى هذه الأرض كما خلقها سبحانه.

﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ المراد ما علا، وأنزل الله السماء من أعلى حيث تتكون السحب الثقال حاملة الماء عذبا فراتا فى بخار يتكاثف، ويصير ماء ينزل مطرا مدرارا، ويكون غيثا، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ (٤٣)﴾ [النور].

ينزل الله سبحانه الماء فينبت الزرع، ويسقى به الشجر، ويكون منه الثمر، فمن الماء كل شىء حى، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ الإحياء بإنبات الزرع فيكسوها بخضرة ناضرة يجعلها ذات منظر بهيج تزيد به، كأنه حلية لحسناء، وتبسق به الباسقات من الأشجار تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها.

وسمى الله تعالى الأرض من غير نبات بالميتة تشبيها للأرض القفر الجرداء بالميتة؛ لأنه ليس على ظهرها حياة، وجعل الماء سببا لإحيائها، كما قال تعالى: ﴿... وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ... (٣٠)﴾ [الأنبياء].

إن إنزال المطر الذى فيه الحياة لآيات لقوم يسمعون الحق ويتبعونه، ويؤمنون به، وكان ظاهر السياق أن تكون هذه لقوم ينظرون، ولكنه عدل إلى السماع فقال عز من قائل: ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ للإشارة إن النظر لا يبصر المعانى إذا لم يكن قد سمع الحق، وأذعن له، وكذلك العقل لا يفكر إذا لم تكن هداية من السماء له، فلا يعتبر بنعم الله تعالى إلا من سمع الحق وآمن به وأذعن له، وإلا فهى غاشية لا يبصر ولا يدرك، إن هو إلا كالأنعام أو أضل سبيلا.

وقد أخذ يقص الله تعالى نعمة الأنعام التى تجىء من إحياء الأرض بالزرع والغراس التى تغرس من أشجار وفاكهة فقال تعالى:

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦) ﴾.

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ﴾، الأنعام جمع نعم أو اسم جنس للنعم على كلام سيبويه، والنعم هى الإبل والبقر والغنم، ويشبهها طائفة لها خواصها، وطهارة لحمها وأكله مثل الغزال، وذوات القرون وغيرها من الأنواع التى تشابه بها فى الخلق والتكوين والأكل والمرعى، والذى كان معروفًا فى الدواجن عند العرب الإبل والبقر والغنم، وهى التى وجبت فيها الزكاة ابتداء، وثبتت فى غيرها إذا أمكن اقتناؤها للنماء، وصارت ذات نتاج يكون نماء لها، فالزكاة سببها أو وعاؤها مال نامٍ.

والعبرة التى ذكرها القرآن الكريم فى خلق النعم من نواحٍ كثيرة، فهى فى خلقها وجمالها حين تريحون وحين تسرحون، وفى تذليلها للإنسان وإلفها له لتذل له وتخضع وتستكين فبها يحرث الحرث وعليها يحمل أثقالاً ومن أرواثها يكون السماد الصالح، ومنها يتخذ الدفء والغطاء ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها يتخذ متاعا إلى حين.

وهكذا تتكاثر أوجه الانتفاع وكل ذلك بتسخير الله تعالى لمن أراد أن يعتبر ويؤمن بنعم الله تعالى ويشكرها كما أنعم، وقد ذكر سبحانه وتعالى بعض العبرة فى الخلق والتكوين، وفيما يكون منها من لبن سائغ للشاربين، فقال عز من قائل: ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴾.

﴿ نُّسْقِيكُم ﴾ تقرأ بالضم وفعلها أسقى وهى لغة جاءت فى قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦) ﴾ [الجن] وهناك قراءة بالفتح وفعلها سقى، وهى تستعمل بمعنى أسقينا، وبمعنى أسقى من البئر، كقوله تعالى:

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) ﴾ [القصص].

وقوله: ﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴾.

الضمير فى ﴿ بُطُونِهِ ﴾ يعود إلى النعم، أو بعض هذه النعم، وهو الإناث منها، وفى عودته لبعضها لا بد من مسوغ يدل عليه، فنقول: إن (من) الأولى تدل على التبعيض فهى تشير إلى أن الضمير يعود على بعض، وإن ذلك وإن كان جائزا هو بعيد فى السياق، والأقرب منه أن يعود إلى الأنعام، والأنعام لفظ مفرد عند سيبويه، فصح أن يعود بلفظ المفرد المذكر، وذلك معقول، لأن الأنعام على فرض أنها جمع هى جمع النعم، ونعم اسم جنس يدل على الكثير، ولكن لفظه مفرد فصح أن تكون الأنعام بمعنى نعم، ولكن ورد مثل هذه الآية الضمير بلفظ المؤنث كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) ﴾ [المؤمنون].

وقوله تعالى: ﴿ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴾، و﴿ مِن ﴾ للابتداء، أى تكون بين فرث ودم، والفرث فضلات الطعام، وقد قال ابن عباس: إن الدابة تأكل العلف فإذا استقر فى كرشها طبخته، فكان أسفله فرثا، وأوسطه لبنا وأعلاه دما، وهذا معناه أنه فى الوسط بينهما اللبن، وقد يكون ذلك التفسير من الناحية العلمية مقربا، ذلك أن أكل البهائم يهضم، ثم يتمثل جزء منه فى الدم، وجزء ينزل لبنا درا.

وقد وصف اللبن بوصفين:

الوصف الأول ـ أنه خالص ليس فيه اعتكار بدم، ولا بقية من روث، بل هو صاف نقى لا عكرة فيه.

والوصف الثانى ـ أنه سائغ للشاربين، أى يستسيغونه ولا يمجُّونه، وفيه إشارة إلى أنه طعام سهل سريع الهضم والتمثيل وكل طعام تقبله معدات بعض

الأشخاص، وتعافه الأخرى، إلا اللبن، فإنه سائغ للجميع، والله ولى النعم، والمستحق وحده لشكرها.

وقد ذكر سبحانه نعمة أخرى للماء ينزل على الأرض فقال:

﴿ **وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** (٦٧) ﴾.

فذكر سبحانه وتعالى أن المطر ينزل فيكون الزرع ويكون العشب الكثير ومن هذا العشب يأكل الغنم، وفيها أن الله تعالى يسقينا من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين.

وقد بين بعد ذلك الثمرات التى تؤخذ من الأشجار فقال عز من قائل: ﴿ **وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ** ﴾ هنا كلام محذوف تقديره يتخذون ما تتخذون مما يسخر لكم منها فتأخذون ثمرات طيبات وأكلها حلو دائم، وأنكم ﴿ **تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا** ﴾، أى شيئا مُسكِرًا، والمسكر مبغض إلى أهل الإيمان، وهى تدل على أن الخمر مشروب غير مباح، وإذا كان قد ترك زمانا فهو فى هذه الأزمان كان محل عفو، حتى جاء التحريم القاطع الذى لا ريب فيه فى آية سورة المائدة، كما بينا ذلك فى موضعه.

وإن السكر مقابل بالرزق الحسن فيكون السكر رزقا غير حسن، وإذا كانت هذه السورة مكية فإن معنى مجىء هذا الكلام فى سورة مكية يدل على أن القرآن الكريم ومحمد ﷺ لم ينظر إلى الخمر نظرة رضا، أو نظرة غير كارهة بل نظرته لها نظرة كارهة من أول مجىء الإسلام إلى أن بين الله فيها بيانا شافيا بالتحريم القاطع.

ويلاحظ أن الله تعالى ذكر النخيل والأعناب فى هذه الآية ولم يذكر غيرهما لأنهما كانا الكثير عند العرب، وهناك نعم أخرى كثيرة فى أغراس كثيرة، كالرمان والتفاح، وغيرهما من الأغراس التى يتخذ منها سكرًا ورزقًا حسنًا. وقد قال

تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾، أى فى هذا الذى ذكره الله تعالى لآية دالة على قدرة الخالق ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، أى يُعمِلون عقولهم، وذكر الفعل فى نهاية الآية التى جاء فيها السكر، إيماء إلى ما يفعله السكر فى العقول.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨)﴾.

الحيوانات كلها تسير بإلهام الله تعالى، فأم الحيوان ترضع وليدها، وتحنو عليه وترعاه بفطرتها، وكأنها أم مثل أمهات بنى آدم تدفئه وتقيه الحر والبرد.

وإن ذلك الإلهام يصح أن يسمى وحيا؛ لأنه إلهام من الله تعالى، ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨)﴾. واختص سبحانه وتعالى النحل بتسمية إلهامها وحيا، لأنها ألهمت نظاما محكما دقيقا يعجز عنه بعض العقلاء، فهى ألهمت أن يكون لها رئيس وهو يسوسها وهو ينصف بينها ويحكم بالعدل، وينفى القذى حتى إنه لو رميت على إحداها نجاسة قتلها تطهيراً للجماعة، وأن تعيش طهورا، وإذا ظهر فيها رئيس قاتل الأصيل ذلك الرئيس ونصروه عليه، وإنها لتبنى بنيانها بإحكام فتجعله على شكل مسدسات لكى يكون البناء محكما، ولكى يكون كل فراغ مسدود، وتجتمع جموع النحل، تذهب مجتمعة فى غدوها ورواحها وفى غذائها وفى ريها حتى إنها تكون ذات منظر بديع يدل على إحكام الاتحاد بحيث لا تنأى عن الجمع واحدة، وهى تراقب نفسها بحيث إذا هلكت إحداها أخرجته، وكأنها تدفعها خارج الأحياء، وهكذا، وفى طبعه النظافة فرجيع النحل يخرجونه خارج الخلية، ويقول الغزالى فى الإحياء «لا يأكل من العسل إلا مقدار شبعه، وإذا قل العسل فى الخلية قذفه بالماء ليكثر، خوفا على نفسه من نفاده، وإذا نفد النحل أفسد بيوت الملكات، وبيوت الذكور، وربما قتلت ما كان منها هناك».

ولهذا التنظيم العجيب الذى يعجز عن بعضه أصحاب العقول، قال الله

تعالى بالنسبة للنحل، ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ وأضاف الإيحاء إلى الرب سبحانه، لأن ذلك الوحى فيه فائدة للإنسان، وهو من مقتضى الربوبية، ومن النعم التى أنعم الله تعالى بها على عباده فيما تخرجه من بطونها من شفاء للناس.

﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾، ﴿أَنِ﴾ تفسيرية، وما بعدها تفسير لما قبلها، فالوحى هو أمر الله تعالى لها أن تتخذ من الجبال بيوتا تعيش فى كهوفها، وتبيض بيضها فيها، ﴿وَمِنَ الشَّجَرِ﴾، أى تأخذ من فروع الأشجار بيوتا تصنع فيها ما يصنعه صاحب البيت فيه، ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾، أى مما يعرشون على سقوفهم، ومما يعرشونه لها من خلايا.

و﴿مِنَ﴾ للتبعيض، أى يتخذون بعض الجبال وبعض الشجر وبعض مما يعرشون، وما يخصص لها من خلايا يكون كله لها بهذا التخصيص، ثم قال تعالى:

﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩)﴾.

عطف سبحانه وتعالى بـ﴿ثُمَّ﴾ للتراخى بين اتخاذ البيوت من الجبال والأشجار ومما يعرشون، وذلك إشارة إلى أنها تبذل فى البيوت نظاما محكما دقيقا مما يأخذ وقتا طويلا، والله تعالى يأمرها بمقتضى الفطرة التى فطرها تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ فلا تفرق بين الزهور فكلها طعام لها، فتأخذ من نوار كل زهرة، لا فرق بين زهر مر، وزهر حلو، وتأخذ من كل الثمرات تأخذ البنفسج والبرتقال والخوخ، والقطن ثم ينساغ فى بطنها، ثم تخرجه بعد ذلك عسلا حلوا، مشتبه طعمه ويختلف لونه، ويكون لونه على حسب المرعى، فلون البنفسج يبدو إذا كان غذاؤه من البنفسج، ورائحته تكون مثله، ولون البرتقال إذا كان كذلك، وقال تعالى: ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾ وهى حال من السبل، أى أن طرائق الله التى ألهمك إياها مذللة سهلة غير مجهولة تغدو من هذه السبل، وتروح منها غير مجهولة لها، ولو ذهبت فى طلب الرزق إلى آماد بعيدة.

وهذا كله على أن ﴿ذُلُلاً﴾ حال من السبل، ويصح أن تكون حالا من ضمير ﴿فَاسْلُكِي﴾ فيكون حالا من النحل، والمعنى اسلكى سبل ربك حال كونك مذللة لما خلقك الله تعالى وهو أن تأخذى الثمرات وقد تمكنت منها ومن الطريق إليها، مسخرة لما خلقك الله تعالى له سبحانه.

ويقول سبحانه: ﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ فما بين أبيض وأصفر وبنفسجى ووردى، وذلك على حسب الغذاء الذى يتغذى به النحل، وعلى حسب سن النحلة التى تخرجه.

وقد قالوا: إن العسل تمجه لعابا، ولا يخرج من بطنها، والجواب عن ذلك أنه ينساغ فى بطونها عسلا ثم تمجه لعابا، وهو يتكون أولا فى البطن، ومع اختلاف ألوانه ورائحته يجتمع فيه وصف الحلاوة له.

وقال تعالى: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ والتنكير هنا للتعظيم، أى فيه شفاء عظيم للناس، ولقد قال بعض العلماء إن فيه شفاء عاما؛ لأن التنكير للتعظيم لأن فيه شفاء لكل الأسقام، وعن ابن عمر أنه لا يشكو قرحة إلا جعل عليه عسلا، حتى الدمل إذا خرج عليه طلى عليه عسلا.

وحكى عن بعض التابعين أنه كان يكتحل بالعسل ويتداوى بالعسل فى كل مرض.

وإن النص القرآنى يدل على أن فيه شفاء عظيما، ولكن لا يدل على أنه تعالى يشفى به كل الأمراض، وحسبه أن يكون فيه شفاء عظيم، وكان النبى ﷺ يداوى به أمراض البطن، روى البخارى ومسلم أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فقال: إن أخى استطلق بطنه، فقال ﷺ: «**اسقه عسلا**»، فذهب فسقاه عسلا ثم جاء فقال: يا رسول الله سقيته عسلا فما زاده إلا استطلاقا، قال: «**اذهب فاسقه عسلا**» ثم جاء فقال: يا رسول الله ما زاده إلا استطلاقا، فقال رسول الله ﷺ: «**صدق الله وكذب بطن أخيك، اذهب فاسقه عسلا**» فبرأ[1].

---

(١) رواه البخارى: الطب - الدواء بالعسل (٥٢٥٢)، ومسلم، واللفظ له: الطلام- التداوى بسقى العسل (٤١٠٧).

ويقول ابن كثير فى التعليق على هذا الحديث:

قال بعض علماء الطب: كان هذا الرجل عنده فضلات فلما سقاه عسلا وهو حار تحللت فأسرعت فى الاندفاع فزاده إسهالاً فاعتقد الأعرابى أنه يضره، وهو مصلحة لأخيه، ثم سقاه فازداد التحليل والدفع ثم سقاه فكذلك فلما اندفعت الفضلات الفاسدة استمسك بطنه وصلح مزاجه.

وختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾، أى أن فى خلق النحل وإلهامه وتدبيره وخروج العسل المصفى من بطونه لآية دالة على قدرة الله وعظيم خلقه لقوم يتفكرون ويتدبرون فى آياته وما تدل عليه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

أطوار الإنسان وأحواله

قال تعالى:

وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾

هذا بيان للأدوار التى يمر بها الإنسان وهى تدل على عظم قدرة الله فيه، وفيها بيان واضح إلى قدرته على الإنشاء والإدبار وقدرته على الإخفاء، وتحلل جسم الإنسان شيئا فشيئا حتى يكون الموت، وفى ذلك إيماء إلى قدرته سبحانه على الإعادة ﴿... كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩)﴾ [الأعراف].

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾، خلقكم أى أنشأكم من العدم، وجعل من الطين إنسانا فى الخلق وفى عبارة ﴿خَلَقَكُمْ﴾ إشارة إلى إنشائه جنينا فى بطن أمه من علقة فمضغة مخلقة وغير مخلقة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥)﴾ [المؤمنون].

وإن هذا الخلق بعده الوفاة يعيش ما يعيش إن طويلا، وإن قصيرا والمآل الوفاة؛ ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾، ﴿ثُمَّ﴾ هنا للتفاوت بين الموت والحياة، ومنكم من يموت فى صباه أو فى شبابه أو كهولته، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾، ومعنى الرد إلى أرذل العمر أن يرجع منكوسًا إلى ابتدائه، فهو فى أرذل العمر يسير فى السن إلى الأمام، ولكن فى القوى يرد إلى الوراء فقواه تضعف، وتفنى بعض أجزاء جسمه شيئا فشيئا، كأنه من قبل الهرم كانت قواه تسير إلى الأمام حتى تقف، فإذا أرذل العمر أى أخسّه وأعدم حمده يرجع إلى الصبا الذى لا يعلم شيئا.

قال تعالى: ﴿لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾، أى لتصير حاله ألا يعلم، بل ينسى، وأن يكون كل ما يعلمه من جديد مآله النسيان، فلا يزداد علمه، بعد أن كان عالما شيئا، وقد لوحظ أن الذين يصيبهم أرذل العمر ينسون ما كسبوه من علم بعد الشيخوخة ولا ينسون ما كان لهم من حوادث قبل ذلك، فهم يتكلمون عن الماضى ولا يتذكرون ما كان من حوادث بعد أن تصيبهم الشيخوخة، ونلاحظ هنا أمرين:

الأمر الأول ـ أن أرذل العمر يختلف باختلاف الناس، فمنهم من يصيبه الهرم مبكرًا، ومنهم من لا يصيبه إلا مؤخرا.

الأمر الثانى ـ أن بعضهم يصيبه خرف الشيخوخة، والصادقون المؤمنون لا يصيبهم خرف الشيخوخة، وإن كانوا ينسون، ومهما يكن فإن الموت قبل بلوغ أرذل العمر أفضل، ولقد كان النبى ﷺ يدعو ربه ألا يرد إلى أرذل العمر، فقد روى عنه ﷺ أنه كان يدعو «**أعوذ بك من البخل والكسل وأرذل العمر**»(١)، وإن ذلك كله بتقدير الله تعالى وعلمه؛ ولذا قال بعد ذلك: ﴿**إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ**﴾ إن الله بمقتضى علمه قدر كل شيء ونفذه، وهو القادر العليم.

وإن الله تعالى لم يجعل الناس على سواء فى الغنى والفقر فقال تعالى:

﴿**وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١)**﴾.

هذه بيان حال الإنسان من الغنى والفقر، والسعة فى الرزق، ومن قدر عليه رزقه، وفيه تهيأ الأسباب ليكسب رزقا وفيرا وخيرا عميما فقال: ﴿**وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ**﴾ يسير الأسباب فمنكم من سلك السبيل فنال مالا، ومنكم من لم يكن له سبيل إلى مال فكان فقيرا، ﴿**فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ**﴾، أى فما الذين أوتوا سعة فى المال ومالا كثيرا وخيرا عميما برادى رزقهم أى بجعلهم رزقهم عائدا على ما ملكت أيمانهم من الإماء والعبيد، ليكونوا هم وعبيدهم فى المال على سواء فيكون المال لهم جميعا ويكونون فيه سواء.

يقول الزمخشرى: إن هذا ما ينبغى، فالآية تدل على ما ينبغى أى يجب أن تكون النعمة التى ينالونها فى الرزق تكون ثمرتها عامة بينهم وبين ضعفائهم فلا

---

(١) متفق عليه، رواه بهذا اللفظ: البخارى - تفسير القرآن (٤٣٣٨)، ومسلم: الذكر والدعاء - التعوذ من العجز والكسل وغيره (٤٨٧٩).

يرفلون فى النعيم، والضعفاء فى الشقاء المقيم، يروى أن أبا ذر الغفارى عندما سمع قول النبى ﷺ بالنسبة للعبيد: «**أطعموهم مما تطعمون واكسوهم مما تكسون**»، كان لا يلبس رداء إلا ألبس عبده مثله، ولا يلبس إزارًا إلا ألبسه مثله[١] وقوله تعالى: ﴿**أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ**﴾ الفاء مؤخرة عن تقديم أفبنعمة الله يجحدون ويكفرون، فلا يشكروها فيصروفها فى مصارفها، ويضنُّوا بها عن مواطنها.

هذا هو ظاهر الآية، وقد قال بعض المفسرين: إن المعنى أنكم لا تسوون ما ملكت أيمانكم فى الرزق الذى يرزقكم الله تعالى إياه فكيف عبيد الله والمخلوقات التى خلقها الله تعالى فى العبادة، إنكم تجحدون بهذا ويقولون: إن هذا مثل ضربه الله تعالى ﴿**ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ** ... (٢٨)﴾ [الروم] وهذا تفسير ابن عباس.

وكان هناك تخريج ثالث، وهو أن المعنى أن الله رازق الناس جميعا غنيهم وفقيرهم فلا يحسب الموالى أنهم يرزقون، وأنا أرى أن الواضح البين هو الأول، وهو المتسق مع نظام الغنى والفقر، ويروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب إلى أبى موسى الأشعرى: إن الرحمن فضل بعض الناس فى الرزق، بلاء يبتلى به كلا فيبتلى من بسط له كيف شكره، وأداؤه فى الحق الذى افترض عليه فيما رزقه وحوله.

وقد بين الله تعالى عمارة الأرض بالوجود الإنسانى، فقال سبحانه:

﴿**وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢)**﴾.

---

(١) الحديث بهذا اللفظ رواه مسلم: الزهد والرقائق - حديث جابر الطويل، وقصة أبى اليسر (٥٣٢٨) وهو أصح أسانيده. وقد سبق تخريجه.

هذا بيان الخلق والتناسل، وأنه من الزوجين، وأن الله جعل الزوج من الزوج، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾ [النساء]، وقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، أى خلق لكم من ذات أنفسكم أزواجا، فتضمنت معنى الخلق، وصيرورتها زوجا، كما فى قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا... (١٨٩)﴾ [الأعراف].

وإن هذه الآية وما يماثلها من الآيات تدل على أن الزوجة خلقت من ذات الزوج ونفسه، وأنهما أصل الوجود الإنسانى وأن عمران الأرض ابتدأ بالأسرة، والأسرة هى وحدة الجماعة الإنسانية، واللبنة الأولى فى بنانه، وقد ابتدأ بالأسرة ومنها تتوالد الأسر فقال سبحانه: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾، والحفدة جمع حافد ككتبة جمع كاتب، والحافد هو المسرع فى الطاعة والخدمة ومنه قول القانت فى قنوته: «وإليك نسعى ونحفد»، والحفدة تشمل أولاد الأبناء وأولاد البنات.

والكلام فى الذرية الذين يتوالدون من الزوجين، وحكى الزمخشرى قولا غريبا فقد جاء فيه «وقيل وجعل لكم الغنى وجعل لكم حفدة، أى خدما يحفدون فى مصالحكم ويعينونكم» وهو قول غريب بعيد عن معنى الآية، لأن الآية فى بيان التوالد الإنسانى من الزوجين والبنين والأحفاد كقوله فيما تلونا ﴿... وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ... (١)﴾ [النساء] فما مناسبته الخدمة وهم أناسى كسائر الأناسى، ولا يكون نعمة على الجميع أن يكون بعضهم خدما؟!.

وإنه سبحانه وقد عمر الكون الإنسانى بهذا التناسل الذى باركه رب العالمين فلم يخرجهم إلى الوجود غير مرزوقين محرومين، بل خلق معهم أرزاقهم، ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، و﴿مِّنَ﴾ هنا بيانية، والمعنى رزقكم الطيبات، والطيبات

هى الأطعمة والزينة واللبس، والكسب الحلال، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ... ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأعراف] والطيبات هى غير الخبائث، وهى الأمور المقززة التى تعافها النفس كالميتة والدم ولحم الخنزير، كما قال الله تعالى فى وصف النبى الأمى فى بشارة التوراة والإنجيل به: ﴿ ... الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ... ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف].

ومع أنه أنعم عليهم بنعمة الوجود ونعمة التوالد وأكرمهم بالرزق الطيب الحلال، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ... ﴿٦﴾ ﴾ [هود].

مع كل هذا أشركوا بالله، واتبعوا الباطل وكفروا بالحق، فقال تعالى: ﴿ ... أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [العنكبوت]، الفاء للإفصاح عن شرط مقدر وتقديم (بالباطل) على الفعل للإشارة إلى أنهم لا يؤمنون إلا بالباطل، ولا يؤمنون بحق قط، وبنعمة الله نعمة الإيجاد والرزق يكفرون ولا يشكرون، وأكد سبحانه كفرهم بالنعمة بتقديم النعمة على الفعل، وبالضمير ﴿ هُمْ ﴾ والجملة الاسمية.

قال تعالى فى توضيح باطلهم: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ هذا باطلهم وهو أوضح باطل آمنوا به يعبدون غير الله من دونه وهو إشارة إلى مقام معبودهم من الله تعالى ما لا يملك لهم رزقا فى السموات والأرض فلا يملك فى السماء مطرًا يحيى به الأرض بعد موتها، ولا فى الأرض نباتًا يأكل منه الإنسان والحيوان، ولا النعم الذى تكون فى الأرض، ولا الثمرات التى تثمرها الغراس والأشجار، ﴿ وَلا يَسْتَطِيعُونَ ﴾، أى لا تستطيع تلك المعبودات المزعومة أن تأتى بشىء من هذا، ولكنه ضلال العقل والوهم الذى يسيطر، وأعيد الضمير لمن يعقل تهكما بهم وعلى زعمهم، إذ يعبدونهم.

و﴿ شَيْئًا ﴾ مفعول مطلق، أى أى رزق كان ولو رزقا قليلا، لأنه حجر لا يقدر على شىء وليس فيه حياة فكيف يعبده حى؟! ويصح أن يكون فى معنى الصفة لرزق، أى لا يملكون فى السموات والأرض شيئا أى: أى قدرٍ كان.

وأنهم إذ يعبدون ما لا يملك رزقا فى السموات والأرض ولا فى شىء، يشبهونهم بالله سبحانه وتعالى، ويجعلونهم مثله تبارك وتعالى عن الشبيه والمثيل، ولذا قال تعالى: ﴿ فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧٤) ﴾.

الأمثال جمع مثل أو مثل، ضرب بمعنى بين وجعل والمعنى فلا تبينوا وتجعلوا لله تعالى الأمثال، وهى الأنداد والأشباه والنظائر فى زعمكم، فالله أعلى وأعظم وأنتم لا تعلمون مكانه بل أنتم جاهلون فى ذات أنفسكم؛ ولذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾، أى والله تعالى يعلم حالكم، وأوهامكم، وما يجيش فى صدوركم، وأنتم لا تعلمون مغبة زعمكم وإشراككم، وهو العذاب الأليم.

ضرب الأمثال الصادقة

قال الله تعالى:

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا
مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا
فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٧٥ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ
أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ
مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن
يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٧٦ وَلِلَّهِ غَيْبُ

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾

بعد أن نهاهم سبحانه وتعالى عن ضرب الأمثال التى شيدوا فيها الأحجار التى كانوا يعبدونها أخذ سبحانه وتعالى يبين لهم الأمثال التى تصور الحقيقة وتهدى إليها، فقال تعالت كلماته:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ العبد هو الفتى المملوك، وذكر وصف مملوك ليتميز عن الحر، الذى لا مالك له، وكان التميز ضروريا؛ لأن الجميع مملوك لله تعالى، يستوى فى المالك، ومن يملكه من الرقيق، ومعنى ﴿لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾، أى لا يقدر على التصرف فى شىء من الأشياء وفى ذلك بيان لأنه مقيد، قد وجد غل الرق فى رقبته، وأثقله، فهو لا يقدر على شىء مادى، ولم تكن له إنابة من مالكه أو عقد مكاتبة، يستطيع به التصرف ليطلق نفسه، بل هو قن مقيد بالرق، ومقيد بأنه لا سلطان له فى التصرف، أى فيه العجز المطلق.

﴿وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾، (من) هنا نكرة تدل على ما هو فى مقابل المملوك، وهو إلى المالك لكل تصرفاته التى يقدر على كل شىء، ومع هذه القدرة التى ثبتت له بمقتضى الحرية رزقه الله تعالى رزقا حسنا؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ والحسن هنا معناه الطيب فى ذاته، فليس خبيثا فى سببه فسببه طيب حلال لا حرام فيه ولا شبهة حرام، وإضافته سبحانه وتعالى إليه لبيان أنه جاء إليه سهلا ميسرا من غير جهد، وإن كان حلالا، ولبيان أن كل الأرزاق من الله وليست الأسباب مؤثرة بإيجاد الرزق إنما هى أسباب جعلية وليست بأسباب

حقيقية لأن كل شيء بيد الله سبحانه وتعالى، فليس سبب الزرع والسقى والرعى والبذر وحدهما، بل السبب الأكبر هو رزق الله العليم القدير، ﴿ **إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ** (٥٨) ﴾ [الذاريات].

وقد جعل الله تعالى الخير الذى يجىء من الرزق الحسن، فقال تعالى: ﴿ **فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا** ﴾، (الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، الإنفاق هو صرف المال فى مصارفه التى لا يكون الصرف فيه إسرافا، وأطلق فى القرآن على الصرف فى سبيل الخير، فإذا أطلقت كلمة الإنفاق لا يكون إلا فى الصدقات إلا إذا عنى الموضوع غيرها، مثل قوله تعالى: ﴿ **لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ** ... (٧) ﴾ [الطلاق] فالإنفاق هنا فى نفقة الزوجية، وإن كان يومئ إلى أنها صلة وليست أجرا محضا، كما يقرر الفقهاء.

وقوله: ﴿ **سِرًّا وَجَهْرًا** ﴾، يؤكد أنها للصدقات، وإن السرية لها موضعها، وخصوصا لأهل التجمل ذوى المروءات، والجهر فى موضعه عندما تكون دعوة إلى البر فإن الجهر يدعو إلى المنافسة ﴿ ... **وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ** (٢٦) ﴾ [المطففين].

ثم قال تعالى مقررا النتيجة البديهية وهو أنهم لا يستوون فقال: ﴿ **هَلْ يَسْتَوُونَ** ﴾ الاستفهام للإنكار، أى إنكار الواقع، وكان النفى بالاستفهام لتأكيد النفى كأن النفى مقرر بالبداهة، وعند المخاطب، فكأنه قد جاء من عنده، ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ** ﴾ كان هذا تأكيداً للنفى وهو عدم التساوى، أى أنه يحمد الله تعالى للوصول إلى هذه النتيجة التى أخذت من إقرارهم، ثم قال تعالى: ﴿ **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾، ﴿ **بَلْ** ﴾ للإضراب، أى كان الإضراب عن علمهم البدهى الذى طمس فيه الهوى على مداخل الفكر والعلم، وكان القرآن الكريم منصفا لحكم على الأكثر لا الجميع بأنهم لا يعلمون أى طمس على قلوبهم بغشاء من الهوى المانع من إدراك الحقائق.

وكانت الموازنة بين اثنين فى ظاهر اللفظ، وهما العبد المملوك، ﴿ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا ﴾، ولكن لأن (ما) يدخل فى عموم ما تدل عليه كثيرون، كان الذين لا يستوون كثيرين فعاد الضمير بالجمع.

وبعد ذلك يقول هذه هى معانى الألفاظ وما تدل عليه بمفرداتها، ولكن ما هو المثل؟ إن المثل تشبيه حال بحال فما موضع التشبيه، وما هو وجه التشبيه؟.

قال أكثر المفسرين: إنه تشبيه ففى حال عبادة الأوثان، والشرك بالله تعالى بحال من يسوى بين العبد المملوك، العاجز عن كل شىء والحر المالك الذى رزقه الله رزقا حسنا، أنهم لا يستوون بالبداهة، فكيف يسوى أولئك المشركون بين الله خالق كل شىء وبين الأحجار التى يعبدونها.

واعترض على تخريج المثل هذا التخريج الرازى بأن العبد المملوك حى، والأحجار لا حياة فيها، وقد أجيب عن ذلك بأن التشبيه ليس بين الأجزاء، إنما التشبيه بين حالين، لا بين الأحجار والآدميين.

وقال ابن عباس: إن التشبيه بين الكافر والمؤمن، فالكافر كالمملوك الذى لا يقدر على شىء وهو عاجز، وبين من رزقه الله تعالى رزقا حسنا، فهو كقوله تعالى: ﴿ ... هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ... ۝٥٠ ﴾ [الأنعام]، ﴿ ... هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ... ۝٩ ﴾ [الزمر]، وكذلك التشبيه فى قوله تعالى فى الآية الآتية: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ... ﴾ وهو فيها أوضح وكلاهما واضح، والله أعلم.

ولولا أننا مقيدون إلى حد ما بما قاله من قبلنا لقلنا: إن الله تعالى قال من قبل ذلك بآيتين ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ وفى هذه الآية والتى تليها، يبين سبحانه كيف كان التفضيل فى الرزق، وهو أن الفقير اختبره الله تعالى بالعجز، وبتقدير منه سبحانه وتعالى، فضاقت أمامه السبل، وأن الغنى آتاه الله تعالى قدرة على الكسب ومكن

له من أسباب الرزق، وبذلك ينتهى البيان القرآنى فى زعمنا إلى تقرير حقيقتين ثابتتين:

الحقيقة الأولى ـ أن العجز والكسب والكَيْس بتقدير من الله وباختيار منه، فليس لأحد أن يستطيل أو يستكبر فالله هو الرازق.

والحقيقة الثانية ـ أن الفقر والغنى حقيقتان ثابتتان؛ لأن الله تعالى خلق القوى متفاوتة، والفرص متفاوتة، والأسباب فى الحياة مختلفة فكان جهلا أن يدعى مغرور أنه يذيب الفوارق بين الغنى والفقر، وقد شاع هذا الغرور فى هذه الأزمان كالذى جهل طبائع الإنسان فأفقر ناسا من ذوى الإنتاج، وأغنى العجزة، وكانت أسباب الرزق الحرام طاغية على الحلال المنتج.

قال تعالى فى المثل الثانى، وهو فى معنى الأول، وهو من تصريف الله البيان فى قرآنه المجيد.

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٦) ﴾.

وهذا مثل آخر كالمثل الأول، وكان الأول موازنة بين عبد مملوك لا يقدر على شىء، وآخر حر قد رزقه الله وهو ينفع الناس بما رزقه الله تعالى يعطيهم سرا وجهرا على حسب ما يرى، وعلى حسب نيته المحتسبة، والثانى كان موازنة بين رجلين آخرين، ولكن أحدهما عاجز لا يقدر على شىء وهو فى حياته كلٌّ على قريب له هو مولاه لا نفع منه، وآخر قادر فى عقله مستقيم فى خلقه عادل فى ذاته.

قال سبحانه: **﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ ﴾**، أى بين حالا لرجلين موازنا بينهما **﴿ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ ﴾**، أى أخرس لا يستطيع أن ينطق فلا يجيب إذا دعاه الداعى، والأخرس فى أكثر الأحوال ناقص فى مداركه؛ لأنه قد سدت عليه

مسالك العلم ولا يحس بمعنى الأشياء، والأخرس عادة يفقد النطق لأن النطق بالمحاكاة فهو لا يعلم ولا يستطيع أن يبين هواجسه وخواطره فلا يحس بما حوله، وقد فقد المجلس والأنس، ولا يجلب لنفسه نفعا، ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ﴾، أى حمل وثقل، والمولى هنا القريب أو ذو الصلة به من أى أنواع الصلات الإنسانية، ومن كانت هذه حاله لا ينفع الناس، وقد أشار مع ذلك إلى أنه ناقص المواهب ليس متفتح النفس والإدراك، وعبر الله تعالى عن هذه الحال ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾، وثانى الرجلين الموازن بينهما رجل فيه حكمه جعلته يلى بعض الأمر، وقد عبر سبحانه عن ذلك بقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ الاستفهام هنا لإنكار الوقوع أى للنفى المؤكد كأنه سئل السائل وأجيب بالنفى وكان الرجل الثانى الذى ينفى المقابلة بينه وبين الأول قد اتصف بصفتين جليلتين مما يعلو الرجال بهما فى الأوساط الإنسانية:

الصفة الأولى - أنه يأمر بالعدل، ولا يأمر بالعدل إلا إذا كان هو عادلا فى ذاته، والعدل صفة فى النفس وهى الفضائل التى تدخل فى تكوين المزاج الإنسانى الكامل، فالعدالة فى النفس تزكيها وتنميها وتتجه بها نحو الفضائل، فحيث كانت العدالة النفسية كان الصدق وكان الاعتدال وكانت القدرة على الصبر، فلا تحكمها الشهوات ويكون الانتصاف منها، ويكون تأديب النفس.

وربما يكنى بأنه يأمر بالعدل بتوليه أمور الناس أو بعضهم أو أن يكون الحكم، وهو يشير إلى أنه لا يتولى أمور الناس إلا عدل يأمر بالعدل يأمر كل نوابه وحاشيته ويقوم بالقسطاس المستقيم بين الناس.

الصفة الثانية - من يكون مستقيم النفس مخلص القلب، وقد عبر سبحانه عن ذلك بقوله تعالت كلماته: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، أى مستقيم النفس ذو طريق حسن وهذه أعلى صفات الإنسان، فهو مخلص وإخلاصه يوجهه إلى السبيل المستقيم، والإدراك المستقيم، والكلام المستقيم، والعمل المستقيم والسلوك العام المستقيم، وعبر سبحانه وتعالى بعبارة تؤكد استقامته بعدة إشارات:

الإشارة الأولى ـ أنه عبر بالجملة الاسمية.

الإشارة الثانية ـ أنه جعله كراكب صراط الاستقامة الجالس عليه؛ ولذا عبر بـ(على) الدالة على التمكن من صراط الاستقامة.

الإشارة الثالثة ـ أنه عبر بالصراط، وهو فى ذاته مستقيم، إذ إنه الخط المستقيم، ووصفه مع ذلك بالاستقامة فكان هذا تأكيدا لفظيا لمعنى الاستقامة فى النفس والخلق والعمل.

وإن الأقوال التى ذكرناها فى المثل الأول تقال هنا، فأكثر المفسرين على أنه سبحانه ضرب حال عبادة المشركين، بحال من يسوى بين رجلين بينهما تمام التباين، فيسوى بين الله تعالى والأحجار، كمن يسوى بين رجل ناقص الإنسانية ورجل آخر كاملها.

وإن كلام ابن عباس ينطبق هنا أيضا، فيكون نفيا للتساوى بين الكافر المشرك، والمؤمن الموحد.

وما بدر إلينا من أنه بيان لاختلاف القوى والأحوال، وتوافر أسباب الرزق وعدم توافرها، وقدر الله سبحانه وتعالى، وأنه يرزق هذا ويحرم هذا، لعدم السير أو عجزه عن السير فى أسباب الثروة، وأن الوجود الإنسانى يشتمل على هذه الحقيقة، وأن الناس فيهم الغنى والفقير ومن يقول إنه يعمل على إذابة الفوارق بين الغنى والفقر جاهل مغرور، وإن فرض ذلك بالقوة كان ظالما غشوما، وسلب الحقوق ممن ينتجون الحلال، وترك الباب مفتوحا، ليغنى طائفة أخرى بالحرام الذى لا ينتج شيئا.

وإنه من بعد ضرب الأمثال، ومنها يتبين أن الله سبحانه وتعالى يدير العالم بحكمته، وأنه وحده القادر على كل شىء وأن الحساب يجىء لا محالة؛ ولذا قال تعالى:

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧) ﴾.

أحسب أن هذه الآية تشير إلى ما قدره سبحانه وتعالى فى علمه المكنون مما كتبه على الناس من غنى وفقر، وإن كل شيء بقدره، وفى غيبه حتى العجز والكيس، ومع ذلك فيها بيان لما يستعجله الناس من وعيد، ومن قيام الساعة مع أنه قريب وأنه ليس بعسير على الله تعالى بل كلمح البصر أو هو أقرب، واللمح النظر السريع، يقال لمحه لمحًا ولمحانا إذا أدركه بطرف العين أو مجرد حركتها بحركة الرمش، وهو زمن لا يتجاوز ثوانى من دقيقة.

والمعنى وإن أمر الساعة وزمانها وإن استطلتم الزمن الذى يمضى هو عند الله كلمح البصر، أى تحسبونه بعيدا، وهو عند الله تعالى قريب كلمح البصر، فالأزمان تجرى عليكم بالطول والقصر، أما عند الله فإنه لا زمان يحكمه، ولا ظرف يحيط إنما ذلك أعراض لا تكون إلا عند الحوادث، وذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ⟨٦⟩ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ⟨٧⟩﴾ [المعارج] وكقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ⟨٤٧⟩﴾ [الحج]، أى إن الزمن لا يحكم إرادة الله، بل إرادة الله تعالى هى الخالقة للأفلاك والأزمان ومعنى ﴿أَمْرُ السَّاعَةِ﴾ مهما طال زمنها فى نظركم، هو عند الله قريب ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾، (أو) للإضراب عن وصف أمرها بأنها كلمح البصر، بل هى أقرب من ذلك إن بالغتم فى الاستغراب.

وإنه يراد مع استطالة الزمن أن الساعة إذا جاءت واضطربت السموات والأرض وكورت الشمس وانفطرت الأرض والكواكب اندثرت، كل ذلك يتم فى لمح البصر أقرب من ذلك، فالله تعالى على كل شيء قدير؛ ولذا ختم الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقد أكد سبحانه وتعالى قدرته بعدة مؤكدات أولها الجملة الاسمية، وثانيها: (إن) الدالة على تأكيد الخبر وهو قدرة الله تعالى، وتقديم ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ على ﴿قَدِيرٌ﴾؛ لأنه يدل على الاهتمام ووصف ﴿قَدِيرٌ﴾، والله أعلم.

وبعد أن بين سبحانه أن الغيب كله فى علمه سبحانه وقدرته، وأن الله تعالى قدير على كل شىء، وأنه خالق العاجزين والقادرين، والمنافقين، ومن لا خير فيه، ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ بين سبحانه أنه خلق الإنسان وعلمه، فقال تعالى:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾.

(الواو) هنا عاطفة على قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾، وقد عطف عليها من قبل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾، وعطف عليهم قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾، وما كان بعد كل جملة من هذه المعطوفات، إنما هو لبيان وجه العبرة فيها، وضلال الشرك وأهله، فهى تابعة لمعانيها، فلا يكون ثمة مانع من العطف عليها.

وإذا كانت معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ فهى لإثبات أن الغنى والفقر أمران مقدوران لله تعالى، وإن الغنى من فضل الله، ويوجب الشكر، والفقر اختبار الله تعالى ويوجب الصبر، ومع الصبر الجزاء، وهو على صورة الصبر شكر لله تعالى.

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾، أى شيئا من العلم بالحياة ومشاربها، ومن العلم بحق الله على عباده من إدراك عظمة خلقه فى تكوينه الإنسان من سلالة من طين، وجعله نطفة فى قرار مكين، وجعل النطفة علقة والعلقة مضغة، وجعل المضغة عظاما، ثم أخرجه من ضيق الرحم إلى سعة الوجود، وهذا ما يشير إليه قوله: ﴿مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ يخرج الجنين من بطن أمه لا يعلم شيئا من طرق الحياة، ولكن يعطيه الله تعالى أسباب العلم بهذه الحياة وما يجرى فيها، وهذا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾، أى خلق لكم وصيره لكم ﴿السَّمْعَ﴾، والسمع يتضمن النطق؛ لأن النطق لا يكون إلا لسميع، إذ إن النطق لا يكون بالفطرة التى فطر الله

تعالى الناس عليها إلا بالمحاكاة، والمحاكاة لا تكون إلا إذا سمع الكلام بحروفه وعباراته، وحاكاها؛ ولذلك من فقد السمع لا يتكلم، وهو الأخرس كما أشرنا من قبل.

وبالسمع يسمع هداية الله تعالى فى كلام الرسل والصديقين، وكلام رب العالمين، ﴿وَالْأَبْصَارَ﴾ بها يرى عظمة الله تعالى فى خلقه، فيرى السماء وقد زينها للناظرين، والجبال والوهاد، والشمس والقمر، والنجوم مسخرات لأمر الله تعالى وإن كل هذه المعلومات الحسية يستودع الله تعالى الأفئدة فتدرك، فالسمع والبصر يجمعان المسموعات والمرئيات والأفئدة تعتبر وتقدر وتدرك، وتستبصر، فيكون الإنسان المعامل فى الحياة المدرك لمعناه الذى يدرك بالبداهة وجوب شكر المنعم؛ ولذا قال تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أى رجاء أن تشكروا لتوافر أسباب الشكر، ودواعيه، والرجاء من العباد، ولا من الله سبحانه وتعالى.

نعم الله تعالى توجب الشكر

قال الله تعالى:

أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ
مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾
وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ
الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ
وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ
﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ
مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ

ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾

فى هذه الآيات بيـان قدرة الله تعالى فى خلقـه، وإحكامه وإبداعـه، وبيان نعمته على الإنسان ظاهره وباطنه، وكيف سخر الحيوان للإنسان، فتمكن من اتخاذ المأوى، فى الظعن وفى الإقـامة، وجعل ظلالا تـقيهم الحـر والبرد، وسـخر لهم النبات يتخذون منه لبـاسا يقيهم الحر، ومن الحديد سرابـيل تقيهم فى يوم البأس، وكـان ذلك إتماما لنعـمة الله رجـاء أن يسلمـوا، وقد بلغ النبى ﷺ، وبين وأقـام الأدلة، وما عليه إلا البلاغ.

ابتدأ سبحانه بالإشارة إلى عجائب الخلق، والتكوين فى الطير التى تسبح فى الفضاء، كما تسبح السفائن فى الماء من غير ماء يحملها، إنما خلقها تعالى لتحمل نفسهـا، وتتوقى السقوط بأجنحتـها، وتسير فى الفـضاء كـما تسير الـدواب على الأرض لاعائق يعوقها، ولا عقبات تمنعها، حتى إن الإنسان عندما أراد أن يستخدم الفضاء تعلم منها، ولذا قال تعالى:

﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

الاستفهام هنا لإنكار الوقوع، فـيكون بمعنى النفى المؤكد بإقرار السامع كأنه سئل وأجـاب بالنفى؛ ولذا كان الاسـتفـهام بمعنى النفى المؤكـد، وقد دخلت أداة الاستفهام على حرف النفى، ونفى النفى إثبات.

والمعنى لقد رأوا الطير مسخرات، أى مذللات، سخرها الله تعالى لتسير فى الجو، من غير حـامل يحملها، ولا ممسك يمسكها، وهى مع هذا مسـخرة لخدمة الإنسان، فمنـهـا ما يحـمل الرسـائل مـن مـكان إلى مكان والشقة بينهـا بعيدة، ولا يزال يستخـدم إلى الآن، ومنه مـا هـو مسخر للإنسـان، يأكل الحشرات التى

هى آفة الزرع، وكان كـذلك يمنع مغارم التنقية حتى أباده الإنسـان ومنها ما يعلم الإنسان، ويحمى الزرع من صغار الطيـر، وقد أبدناه الآن بالمبيدات التى نسلطها، وصرنا ننفق النفقات الكثيرة، فى الوقاية، ولا وقاء.

وهكذا نجد الطير قد كـانت مسخرة فى الجو لسيرها، ومـسخرة للإنسان فى نفعها.

وقد خلقها الله تعالى مهيأة للطيران فى الفضاء، وجعل كل أعضائها مناسبة بين كـونها، فلم يخلق لهـا يدين، وخلق رجلين ليـمكن ارتفاعـها من الأرض، وكانت رجلاه واسعة، وأكثر قوته فى صدره، وكان قوتها حبا يبلع؛ ولذا كان لها منقار، ينقى مـا تختار، ولأن ما يبلع لا يكون فـيه تفتيت بالمضـغ، كانت حرارة الحوية هاضمـة، وجعل فى أجنحتها ريشـا قويا فى خوافيه وقـوادمه، حتى تكون الخوافى قوة للقـوادم وكانت الأجنحة، لجلب الهواء الذى يحـملها، وهى طائرة، فهى ترفرف بها لتجلبه، حتى إذا اسـتوى سارت كأنها تسير على مكان صلب، أو ماء.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿**مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ**﴾ فهو خلق فيـها هذه القوى التى تقوى بها على الطيـران، ومع ذلك حاطها بكلاءته، وحمايته، كـما أحاطها بفطرتها، تبـارك الله الخلاق العليم، وقد بين سبـحانه أن فى هذا الخلق آيات، لمن يعتبر ويستبصر، ويفكر فى خلـق الله تعالى وحكمته فقال تعالت قدرته: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ الإشارة إلى الخلق والتكوين والتســخير، واللام فى قوله تعالى: ﴿**لآيَاتٍ**﴾، (لام) التـوكيـد أو الابتـداء بمعنى التـوكيـد، و(آيات)، أى دلالات قاطعة ﴿**لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾، أى الجماعة تتضافر على الحق وتطلبه، وتتهداه، وتتعرفه، ومن شأنهم الإيمان بالحق إذا بدت دلائله، وقامت براهينه، وكان التعبير بالمضارع فى قوله تعالى: ﴿**يُؤْمِنُونَ**﴾ يعنى من شأنهم وحالهم الإيمان دائما، أما غيرهم فقد غـشيتهم غواشى الباطل وطمس عليهم الهـوى، فصاروا كالصم البكم الذين لا يعقلون ولا يدركون.

بعد ذلك بين سبحانه وتعالى نعمه على خلقه فى الأنعام التى يتمكنون منها بتأليفها وغيرها فقال تعالى:

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٨٠) ﴾.

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾، أى صير لكم من بيوتكم التى تتخذوها منها من الحجر والمدر، والآجر، واللبن، أى موضع سكون واطمئنان، فهم فى حركة دائبة دائمة كالكواكب والنجوم والأجرام السماوية، ولم يجعلكم فى سكون كالأحجار والجبال، ولو فى مظهرها وإن كانت ذاتها تمور، بل جعلكم فى مضطرب تتحركون وتنامون وتستقرون، فكان من نعمته عليكم أن جعلكم تسكنون وتعملون، فالعمل والسكن كلاهما نعمة من الله، ونرى من هذا التخريج أن جعل لكم ذلك السكن، والاطمئنان بعد اللغوب والتعب، كما أن بناء البيوت من موادها نعمة، وقد يقول قائل: كيف تكون نعمة أسبغها الله، والعبد هو الذى بناها، وتقول: إن النعمة فى أن مكنه من ذلك، وسخر كل شىء، فبعقله الذى خلقه الله تعالى فدبر وبنى واهتدى إلى أساليبها، والخلاصة أن النعمة فى أمرين:

النعمة الأولى ـ فى هدايته إلى البناء من مواده، وجعله مأوى، والثانى فى أنه جعله يسكن بعد الكرب والتعب، وهذا يشير إلى أن الراحة لا تكون إلا بعد جهد كما أن السكن لا يكون إلا بعد عمل هذه نعمة كبيرة، وهى نعمة الحياة العاملة الكادحة.

والنعمة الثانية ـ هى تمكين الإنسان من النعم، وهى الإبل والبقر والغنم، وقد ذكر الله سبحانه نعمة فيها بعد نعمة أكلها وتأليفها، وتسخيرها للإنسان فى حاجاته، فقال تعالى: **﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ﴾**، الظعن الارتحال والتنقل، وانتجاع مواطن الكلأ، واستخفافها هو طلب خفتها، أى تطلب لخفتها فالسين والتاء للطلب، **﴿ يَوْمَ ظَعْنِكُمْ ﴾**، **﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّن**

جُلُودِ الأَنْعَامِ بيُوتًا﴾، كالأخبيـة والفساطيط، تستخفونهـا يوم ظعنكم، فهى بيوت محمـولة، وتلك بخلاف البيوت المبنـية من الآجر والأحجار واللبن عـلى نحو ما أشرنا من قبل.

وهى خفيفة فى الظعن وفى الإقامـة فإذا ظعنتم جعلتموها على ظهور الإبل أو الخيل ونحوها، وإذا أقمتم أنزلتموها من فـوق ظهور الإبل، فأقمتم تبتغون الماء والكلأ ما شاء الله تعالى أن تقيموا، ثم ترتحلون.

ويشمل ذلك الذين يقيمون فى الخيام فى الصحراء، فإنها تكون موضع إقامة دائمة لهم، ويسـمون «أهل الوبر»، كما يسـمى سكان المدائن بـ«أهل المدر» كأهل مكة والمدينة والطائف.

ويثار هنا كلام، وهو أن الخيام والفساطيط، لا تتخذ من الجلود، وهى الأدم فقط، بل تتخـذ من الأصواف والأوبار والشعر أيضا، فلـيس ما يؤخذ من الجلود هو ما يأخـذ من الأدم فقط، بل مـا يؤخذ من الأخـبيـة، فى الأصواف والأوبار والشعر يؤخذ من الجلد أيضا؛ لأنه يجز منه أو يقـص، وإنما خصت الأصواف وما يمثلها بالأثـاث والمتاع، لأنها لا تؤخذ إلا منها، ولم تكن عـند العرب تؤخذ من الأدم، وذلك هو الغالب فى عصرنا أيضا.

﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ الصوف هو للضأن والأوبار للجمال، والأشعار للمعز وهى يـتخذ منها أثاث، وهى الثياب والفرش، وقوله متاعا، أى ينتفع فيه بالبيع والشراء والاتجار بشكل عام.

وأظن بأن المتاع هو ما يسـتمتع به بالنظر والزينة ونحو ذلك مما يكون مـتعة للإنسان، ونختار ذلك لسببين:

السبب الأول ـ أن الانتفاع بالاتجار جائز فى كـل شىء حتى الإبل، ولحمها وعظامها وجلودها وإنما المذكور هو انتفاع شخصى بالاستهلاك لا بالاتجار.

والسبب الثانى ـ أن الله تعالى ذكر متعة النظر والبهجة، وطيب النعمة فى آية أخرى، فقال تعالى: ﴿ **أَثَاثًا وَمَتَاعًا** ﴾، أى يتخذون من الأصواف والأوبار والأشعار أثاثا وزينة، والزينة ليست حراما، كما قال تعالى: ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ** ... (٣٢) ﴾ [الأعراف].

ولعله مما يرشح لهذا المعنى ويقويه تعالى: ﴿ **إِلَىٰ حِينٍ** ﴾، أى أن ذلك الاستمتاع بهذه النعم، وخصوصا الأثاث والمتاع إلى حين حتى يجىء وعد الله تعالى فيكون الحساب والعقاب والثواب.

كما أن البيوت تتخذ من الآجر والأحجار، ومن الأصواف والأوبار والأشعار والجلود تتخذ أيضا أكنان من الجبال ولذا قال تعالى:

﴿ **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ** (٨١) ﴾.

والله سبحانه وتعالى ﴿ **جَعَلَ** ﴾ بمعنى صيَّر، بأن خلق لنا أشجارا تظل الناس فى الحرور، وبيوتا يكون ظلها دافعا لوهج الشمس وفى الصحارى تجد الأشجار المظلة، والسحاب المطل، وقال سبحانه وتعالى مما خلق، ولم يذكر شيئا بعينه؛ لأن أنواع ما خلق وكان منه الظلال كثيرة، فالجنات تتفيأ ظلالها بالغدو والآصال والبيوت فيها ظلال، لمن يكون بجوارها، والغمام يكف وهج الشمس وحرارتها، والسحاب تظلل، والنبى ﷺ، وهو فى رحلته إلى الشام كانت السحاب تظله فى سيره، وحيثما انتقل انتقلت معه، وإن هذه الظلال نعمة من الله تعالى فى أرض صحراوية جدباء لا ماء يرطب جوها، ولا نسيم عليل يطفئ حرها؛ ولذلك كانت من نعم الله التى أنعم بها على سكانها الذين آتاهم الله تعالى مع ذلك جلداً وقوة احتمال، فكانت هذه نعما أنعم الله بها عليهم ليستطيعوا أن يعيشوا وأن ينعموا فى خيراتها.

وإن هذه ظواهر طبيعية قد يقول قائل: ما النعمة فيها؟، ونقول فى الجواب عن ذلك: إنها نعم تغمرنا وتغمر سكان الصحارى ولا يحسون، ولكن إذا

حـرموها يعـرفون مـقدار الإنعـام، وهى أفعـال مخـتارة يريد وضع الأمـور فى مواضعها، وكل شىء عند الله تعالى بمقدار وبميزان محكم.

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾، وهى الكهوف والمغارات، وأكنان جمع كن، وهو مـا يتقى بالاستتـار فيه تتبع الأعداء، وتربص المـتربصين، كما كمن النبى ﷺ هو وصاحبه أبو بـكر فى غار ثور ثلاث ليال سويا، وكما كان ﷺ قبل البـعثة يتعـبد فى غار حراء الليـالى ذوات العدد، وإن هذا كله يدل على أنها أكنان، إما استتاراً للعبـادة، أو فرارا من عدو متربص، أو كن من مطر غامر، أو اسـتظلال، ولماذا سمـاها الله تعالى أكنانـا، ولـم يسمـها بيـوتا؛ لأن الناس لم يتخـذوها بيوتا يسـكنون فيهـا تكون مطمأنا وسـكنا لهم تسكن فيـها نفـوسهم، ويطمئنون بعد تعب ومكان راحة، لأن جبال البلاد العربية لم تكن موضع اطمئنان كالجبال الخضراء، فلم تكن مساكن تكون لسـترة حالهم، بل كانت أكنانا للاستتار من عـدو أو مطر منهمـر، أو اتقـاء لحرارة الشـمس أو نحو ذلك، وإذا كـان من العرب من ينحـتون من الجبـال بيوتا فارهـين كـما جاء ذلك فـى قـصـص القرآن الحكيم، فإن ذلك لم يكن عند أهل الحجاز ونجد ونحوها.

وقد مَنَّ الله تعـالى بما هيأهم به ومكنهم منه، وهو مـا ذكره بقـوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾، و(جعل) بمعنى صـيَّر وهيأ بأن مكـنكم من أن تصنعوا ذلك لأنفـسكم، و(السرابيل) جـمع سربال وهو القميص، وذكر أن هذه السرابيل نوعان نوع يتقى به الحر، فلا يكون عاريا يتعرض للجو اللافح، كما يـتعرض العراة من الزنوج الذين لم يتمكنوا من قمـصان يتقون بها الحـر، وقد قـيل إن السرابيل يتقـى بها الحر والبـرد، فكيف ذكر الحـر فقط، والجواب عن ذلك أن ذكـر اتقاء الحر تستـدعى لا محالة ذكر اتقـاء البرد، وإن لم يذكر بالنص فقد فهم بالاقتضاء، وقد ذكر سبحانه الدفء من قبل فى قوله تعالى، ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وإجابة الزمـخشرى بأن ذكر الحر ينـاسبهم

دون البرد لأنهم لا يحتاجون إلى اتقاء البرد، وعندى أن البلاد التى جوها قارى كبلاد العرب يكون بردها شديدا قارسًا.

والواقع أن الكلام كله فى اتقاء الحر، فذكر الظلال والبيوت والأكنان كل هذا فى سياق اتقاء الحر فكان المناسب أن يذكر فى مزايا السرابيل أن تقى من الحر.

والنوع الثانى من السرابيل وهو ما يتقى به البأس، وهو دروع الحرب، إذ البأس هو الحرب، كما فى قوله: ﴿ ... **وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ** ... (١٧٧) ﴾ [البقرة] وأضاف سبحانه وتعالى البأس إليهم، لأنهم فى الجاهلية هم الذين كانوا يثيرونها حروبا شعواء، تدعو إليها العصبية الجاهلية، وتدفع الحمية غير المدركة العاقلة كحرب البسوس، وعبس وذبيان، وغيرهما مما كانوا يثيرونه من حروب، فلم تكن حروبا عادلة؛ ولذا أضيفت إليهم.

وإن هذه النعم كلها بتسخير هذه الأمور لهم، وتهيئتهم بالفطرة لها، وإن نعم الله تعالى لا تخص، وختم الله تعالى الآية بقوله تعالت حكمته: ﴿ **كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ** ﴾، أى كذلك التى هيأ سبحانه وتعالى لكم ومكنكم، وهداكم بفطرتكم إليه من جعل بيوتكم سكنا ومطمئنا، وعن اتخاذكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم وإقامتكم، ومن اتخاذكم من أصوافها وأوبارها وأشعارها، أثاثا يكون زينة ومتعة، ومن اتخاذكم الظلال مما خلق، ومن جعل البيوت ومن اتخاذكم السرابيل والدروع.

كذلك الذى هيأ لكم تكون نعمه الكلية عليكم دائما ﴿ **لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ** ﴾، أى تسلمون وجوهكم لله تعالى، وتتركون عبادة الأوثان لهذه النعم المتوالية عليكم، وأفرد سبحانه النعمة، وهى متعددة لأن المفرد المضاف يعم، ولأنها واحدة باعتبار مصدرها، وهو الله سبحانه وتعالى.

وقال تعالى بعد ذلك:

﴿ **فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ** (٨٢) ﴾.

تقدير القول فإن علموا هذه النعم التى أسبغت عليهم، ومع ذلك كفروا فما عليك من كفرهم من شىء، و(الفاء) ما بعدها ترتب على ما قبلها، ﴿تَوَلَّوْا﴾، أى أعرضوا ونأوا بجانبهم، وأنكروا هذه النعم المتضافرة، فإن العذاب نازل بهم لا محالة، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، لأنك قد بلغت وأنذرت، وإنما عليك التبليغ البين الواضح الذى لا يمارى فيه عاقل مدرك، و(الفاء) فى ﴿فَإِنَّمَا﴾ واقعة فى جواب الشرط، و(إنما) من أدوات القصر، ﴿عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾، أى ليس عليك إلا البلاغ الواضح، وإنك لا تهدى من أحببت، ولكن الله يهدى من يشاء.

جزاء الكفر بنعمة الله

قال تعالى:

يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا
وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ
شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ
﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ
يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ
قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ
فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟
إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾

ساق الله تعالى ذكر ما أنعم به عليهم، والإنسان كله فى فيض نعمة الله تعالى من يوم حمله جنينا فى بطن أمه إلى أن يولد، ومن بعد أن يولد هو فى حياطة الله تعالى ورحمته، إن مرض كشف عنه الضر، ومنحه العافية، وإذا كان

فى المخاطر تحطه رحمة الله تعالى، وهو فى مأواه، وملبسه، ونعيمه وراحته بعد تعبه فى نعم الله تعالى، وهو يعرف هذه النعم، ويعرف أنها من عند الله تعالى، وبفضل منِّه وكرمه، والعرب فى عصر النبوة وقبله، كانوا أعرف الناس فى جيلهم لربهم، فهم كانوا يعرفون الله تعالى الذى خلق الكون وما فيه ومن فيه وحده، وهو الواحد فى ذاته وصفاته، ولكنهم بتسلط الأوهام يعبدون معه الأوثان؛ ولذا قال سبحانه:

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣) ﴾.

هم يعرفون الله ومع ذلك يشركون، ويعرفون أنه الضار النافع، وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما وإذا كانوا فى شدة لا يجأرون إلا إليه، ويعرفون هذه النعم واحدة واحدة ثم ينكرونها فما هى هذه المعرفة؟ إن للمعرفة مراتب ثلاث، تبتدئ بتصور الأمور والوقائع، ومنها النعيم فيتصور أن الله رازقه وخالقه، فإذا تجاوز هذه المرتبة، انتقل من التصور إلى الاعتقاد بالصحة، فإذا اجتاز هذه المرحلة انتقل إلى المرحلة العليا وهى الإيمان، والإيمان مراتب، مرتبة التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل، ثم مرتبة الإذعان، والخضوع لما اعتقد ثم ينتقل إلى أعلى المراتب، وهى مرتبة العمل.

وهذه هى المعرفة الكاملة، ولقد قرر سقراط فى الأخلاق أن المعرفة هى مقياس الفضيلة والرذيلة وهى المعرفة فى أعلى درجاتها التى يصحبها عمل، وكمال الإيمان تصديق وإذعان وعمل عند العلماء المدركين.

وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ يبدو أنها مرتبة المعرفة الأولى، التصوير، ثم التصديق من غير إيمان وإذعان؛ ولذا ينكرونها، أى أنهم لا يذعنون للاعتقاد بها، وتبدو فى أعمالهم، وثم فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ لبعد ما بين مرتبة المعرفة والإنكار العملى، ولقد قرر سبحانه أن أكثر الكافرين هم من هذا الصنف الذى ينكر بعمله ما عرفه بتصوره وصدقه بواقعه؛ ولذا قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ

﴿الْكَافِرُونَ﴾ الضمير فى (هم) يعود إلى الذين ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ وهم بعض أهل الجحود وقوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ فيه تعريف الطرفين، وهو يفيد القصر، أى أن أكثر هؤلاء لا يكونون إلا كافرين، فإن الكفر يكون بإنكار الحق، وعدم الإقرار به كما فى قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ... (١٤)﴾ [النمل].

بعد ذلك بين الله تعالى حالهم بعد البعث فقال:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤)﴾.

الجملة موصولة بما قبلها، على جزاء للكفر، ومعرفة النعم ثم إنكارها، ﴿وَيَوْمَ﴾ منصوب لفعل محذوف أى اذكر اليوم، وذكر اليوم هو ذكر ما يجرى فيه من أحداث وبعث ونشور، وحساب وعقاب وثواب، فإذا كانوا ينكرون النعمة، فليذكروا اليوم وما يجرى فيه، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ والشهيد هو الرسول الذى بعث لها داعيا إلى الحق معرفا به نذيرا وبشيرا وهاديا إلى الله بإذنه وذكر بعث الرسول، ولم يذكر بعث الأمة لأن بعث الشهيد الذى يشهد لها أو عليها هو بعث للأمة، فكان بعث الرسول عليه الدلالة صراحة، وبعث الأمة كان بدلالة الاقتضاء، أو كان ذكر بعث الرسول صراحة لبيان مقام الرسول عند الله، ولبيان أن الرسول الذى يدعوكم هو الذى يشهد لكم وعليكم وعنكم يوم الحساب فأجيبوا داعى الله إذ يدعوكم له لتنجوا من عذاب الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ التعبير بـ﴿ثُمَّ﴾ هنا الدالة على التعقيب والتراخى للدلالة على أنهم بعد شهادة النبيين طلبوا أن يعتذروا، فلم يقبل منهم، ولمقام هذا الكلام المطوى كان العطف بـ﴿ثُمَّ﴾ الدالة على التراخى، فلا يؤذن لهم لأنه لا حاجة إلى مخاصمة كما هو شأنهم فى الدنيا، بل إن الله عليم بهم، وشهادة أنبيائهم فيهم صادقة غير مكذوبة كما كانوا يتوهمون فى الدنيا.

وكما أنهم لا يمكنون من القول والمخاصمة؛ لأن القيامة ليست مثل الدنيا مغالبة بالبيان، كذلك لا يستعتبون، أى لا يمكنون من الاستعتاب، وهو الاسترضاء، إذ الاستعتاب هو طلب العتب، وهى الرضا، فهم لا يمكنون منها، لأنه قد انتهى وقت التكليف والإرضاء ولم يبق إلا الجزاء.

وفى قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيه إظهار فى موضع الإضمار، وذلك لأن الموصول جاء فى موضع الضمير، وذلك للإشارة إلى أن السبب فى عدم الإذن لهم بالاعتذار، وأنهم لا يمكنون من الاستعتاب، هو كفرهم الذى عاندوا به النبيين وقد قال تعالى فى أحوالهم يوم القيامة:

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٥)﴾.

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ﴾ جواب (إذا) محذوف يذهب فيه العقل كل مذهب، هالهم الأمر، وأحسوا بمقت الله تعالى عليه، وحاولوا طلب التخفيف، وقد أجابهم الله تعالى بقوله: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾، فالفاء عاطفة على محذوف مأخوذ من معنى الخوف والرغبة فى التخفيف أو التأجيل عسى أن يعملوا عملا صالحا ينجيهم من ذلك العذاب العتيد، الذى كانوا يترقبونه، فالفاء هنا عاطفة على جواب الشرط المحذوف وليس ما بعدها جواب الشرط؛ لأن الفاء لا تقع على لا النافية، إنما تكون بما النافية.

حالهم تدعوهم إلى طلب التخفيف إذ يرون عذابًا لم يكن فى حسبانهم فتوجب طلب التخفيف أو التأجيل، فلا يخفف عنهم عذابهم، ولا يؤجلون، لأنهم انتقلوا من دار الابتلاء إلى دار الجزاء، فمعنى (لا ينظرون)، أى لا يؤجلون.

وعبر سبحانه بالذين ظلموا؛ لأنهم أشركوا، وإن الشرك لظلم عظيم، ولأنهم ظلموا أنفسهم بكفرهم وعنادهم، وظلموا عقولهم وإدراكهم، وإذا أشركوا مع الله حجارة لا تنفع ولا تضر، ولا تسمع ولا تبصر وظلموا المؤمنين بإيذائهم

وفسقهم فى دينهم وظلموا الرسول باستهزائهم به، وتسبب هذا التكاثر كان العذاب الهائل الذى لم يعرفوا له حدا ولا نهاية.

هذه حالهم، فما هى حال الأوثان التى يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى، أو لتكون شفعاء لهم، قال الله تعالى عنها فى ذلك اليوم الذى لا تنفع فيه شفاعة الشافعين.

﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) ﴾.

هذه حال الذين ظلموا الناس وظلموا أنفسهم وعقولهم بعبادة الأحجار مع الله تعالى، فما هى حالهم من هذه الأنداد التى اتخذوها آلهة من دون الله، أجاب الله تعالى عن ذلك، فقال: **﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ ﴾** بالإضافة هنا لملابسة عبادتها شركاء لله، فهى إضافة لأدنى ملابسة، إذا رأى الذين أشركوا ما عبدوه من دونه ظنوا فى ذلك فرجا؛ إذ يتحول جزء من العذاب الذى نزل بهم إليها، وكانوا بذلك ضالين فى الآخرة، كما كانوا ضالين به فى الدنيا، قالوا للأنبياء الذين شاهدوا الله: هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوهم من دون الله. ندعو معناها نعبد، أو نلجأ بأن كنا نحسب ما يقينا عن الله، وكأنهم بهذا يحسبون أنها تكون شريكة فى العذاب، فتكون هذه الشركة مخففة ما هم فيها، وقولهم: **﴿ مِن دُونِكَ ﴾**، أى غيرك، فردوا عليهم بأنهم ليسوا شركاء فى العذاب، وإنكم أنتم الذين ارتكبتم بهواكم، ولغلبة الأوهام عليكم، فتصورتم ما ليس بحقيقة، وعليكم وحدكم وزر ما صنعتم وارتكبتم، وهذا قوله تعالى: **﴿ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾** القول هو إنكم لكاذبون، والضمير فى ألقوا يعود إلى الشركاء، أى ألقوا ذلك القول إنكم لكاذبون، والشركاء فيها أحجار وأشخاص، وملائكة، وشياطين، وكل هؤلاء ألقوا تبعة ادعاء غير الله تعالى على المشركين؛ لأن أحدًا من هؤلاء الشركاء لم يدع إلى عبادته، فالأحجار لا تنطق ولا تدعو، والأشخاص الذين عبدوهم كعيسى وكالملائكة يتبرأون منهم، والشيطان، وإن قد أغواهم فهم

الذين غووا، وعليهم تبعة غوايتهم، كما قال تعالى عنه: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم] وما هو الكذب الذى أسند إليهم، وأكد ذلك التوكيد؟ الكذب فى أنهم ألقوا التبعة عن أنفسهم، وحملّوها شركاءهم، والكذب فى تضمن قولهم أن المسئول أولئك الشركاء، وكذبهم فى زعمهم أن أولئك الشركاء أضلوهم، وإنما أضلتهم أوهامهم التى توهموها، وشهواتهم التى أركسوا فيها، حتى حسبوا أنه لا بعث ولا نشور، فهم أضلوا أنفسهم ووجد الشيطان سربا لنفوسهم من وراء هذا الضلال، و(الفاء) فى قوله ﴿فَأَلْقَوْا﴾ للترتيب والتعقيب.

وقد أكد شركاؤهم كذبهم بالجملة الاسمية، وباللام، وبإن المؤكدة، وهكذا يتبرأ منهم حتى الشياطين التى استجابوا لها، وصاروا أمام العذاب وجها لوجه.

وإذا كانوا أمام العذاب، ولا منجاة لهم فلم يبق إلا أن يستسلموا كارهين، ولذا قال تعالى:

﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

الضمير يعود على المشركين، أى أنهم بعد استسعفوا بالشركاء فلم يسعفوهم، واستصرخوا بهم فلم يصرخوهم، لم يبق إلا أن يستسلموا لله، وهذا معنى ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾، وتعدى بـ (إلى) لتضمن معنى هذا السلم الاستسلام إليه سبحانه بعد طول العناد ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾، أى غاب عنهم ما كانوا يفترونه من أن الشركاء تقربهم إلى الله، وأنها تكون سعفا عند الله تعالى، و(ما) اسم موصول بمعنى الذى، أو مصدرية، وعلى الأول: غاب عنهم القول الذى كانوا يفترونه، وعلى الثانى: غاب افتراؤهم، ومعنى غيبة الافتراء غيبة موضوع الافتراء، إذ إن موضوع الافتراء، وهو شفعاؤهم قد صار لا حقيقة له، فكان جديراً بأن يغيب غيبة منقطعة.

الصد عن سبيل الله ومقام الرسالة المحمدية

قال تعالى:

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾

إن المشركين كانوا لا يكتفون بشركهم فى عصر النبى ﷺ، بل كانوا يؤذون المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم، ويستقبلون وفود الحجيج، ليخبروهم عن النبى ﷺ وقد اقتسموا مداخل مكة ليمنعوا الناس عن تصديق النبى ﷺ، فهم لا يكتفون بشركهم، بل كانوا يصدون الناس عن الحق، وهو سبيل الله والطريق الصحيح الموصل لعبادته، فهؤلاء لهم عذابان: عذاب الشرك، وعذاب الصد عن سبيل الله، زاده الله تعالى عليهم؛ لأنهم زادوا على أنفسهم رجسا بعد رجس؛ ولذا قال تعالى:

﴿ **الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ** (٨٨) ﴾.

﴿ **الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ وهم الذين لم يؤمنوا بالرسالة المحمدية، والكفر يشمل الشرك بالله بعبادة الأوثان، وأهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ، وبعض من نسميهم أهل كتاب يدخلون فى الشرك من بابه، وهم الذين يعبدون المسيح، أو يقولون: إنه ابن الله، ويصفونه بالرب ويعبدون روح القدس، ويقولون الله ثالث ثلاثة، فكلمة الذين كفروا يدخل فى عمومها أهل

الكتاب كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝١﴾ [البينة] وقد ذكر الله تعالى ذلك الوصف للمشركين وأهل الكتاب؛ لأن الصد عن سبيل الله وقع من المشركين، ووقع من أهل الكتاب فى عصر تبليغ الرسالة، وهو الآن يقع على أشده من أهل الكتاب.

وقد كان صد المشركين بالأذى ينزل بالضعفاء، وبالسخرية تنزل بأهل الشرف والمروءة، وبالتضليل ما استطاعوا بالرسالة المحمدية، وشاركهم فى ذلك اليهود، وخصوصا بعد الهجرة إلى المدينة الطاهرة، وقد ذكرنا كيف كانوا يقتسمون مداخل المدينة، ليضلوا الناس عن النبى ﷺ، ومنهم أبو لهب بن عبدالمطلب عم النبى ﷺ وحفيد هاشم رأس البيت الهاشمى المجيد.

وقد قال تعالى: فى عقاب هؤلاء الصادين: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾، أى أنهم يزاد عليهم عذاب بسبب ذلك التضليل والصد عن سبيل الله، وذلك فساد فى الأرض؛ ولذا قال سبحانه: ﴿بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾، أى بسبب فسادهم، وأى فساد أكبر من الصد عن سبيل الله، وهو سبيل الحق، وتبليغ الرسالة الإلهية.

وقد ذكر سبحانه وتعالى وقت ذلك العذاب، فقال عز من قائل:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝٨٩﴾.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، (يوم) منصوب بفعل محذوف معناه، واذكر يوم نبعث فى كل أمة شهيدا ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، أى منهم، ومن أنفس قومه كما بعث النبى ﷺ فى العرب من أنفسهم، وكلمة ﴿نَبْعَثُ﴾ تدل على أنه يبعثه الله تعالى مع قومه شهيدا لهم أو عليهم يوم القيامة، ويذكر النبى ﷺ بأنه بعث فى كل أمة شهيدا عليهم يبلغهم فى حياته، ويشهد عليهم يوم القيامة ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ والجمع بين المضارع فى قوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ

﴿في كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، والماضى فى قوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلاءِ﴾ يدل على أن البعث فى الدنيا بإرسال الرسل مبشرين، ومنذرين، والنبى ﷺ شهيد على كل الرسل؛ لأن رسالته هى الكاملة، وهى المتضمنة لكل الرسالات الإلهية كلها، فالإسلام دين الله، وهو دين النبيين أجمعين، وهو خاتم الرسالات كلها.

وتدل بهذا الجمع بين الماضى والمستقبل بأن الله تعالى يبعث مع كل أمة يوم القيامة شهيدًا عليها بأنه أدى الرسالة وشهيدا لمن آمن واتقى، وشاهدًا على من كفر وعصى.

وبالنسبة للبعث الدنيوى وشهادة الرسول على الرسل أجمعين ذكر القرآن الكريم الذى نزل مصدقا لما بين يديه من الكتب وشاهدا للرسل أجمعين قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

وصفه الله تعالى بأربعة أوصاف كاملة.

الوصف الأول ـ أنه تبيان كل شىء أى فيه بيان كامل لكل شىء من شئون الرسالات الإلهية للبشر، ففيه خير رسالات النبيين السابقين، وفيه بيان الأحكام المحكمة التى لم يَعْرُها نسخ من الشرائع الإلهية كلها، وفيه المعجزات التى جاءت بها الرسل معجزة معجزة، ولولا القرآن الكريم ما علمت على درجة اليقين معجزة لنبى أو رسول، لأنه الكتاب المحفوظ المتواتر حقا وصدقا.

والوصف الثانى ـ أنه هدى، فهو يشتمل على الهداية، كما قال قائل الجن: ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ... (٢)﴾ [الجن] ويبين السبيل الأقوم والطريق المستقيم.

والوصف الثالث ـ أنه الرحمة؛ لأن شريعته رحمة للعالمين فهى بنظامها واقتصادها وحدودها، وكل عقوباتها رحمة للكافة من الأمة، وإن كانت فيها قسوة أحيانا على الآحاد، ففيها رحمة للعباد.

والوصف الرابع ـ ﴿وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ فيه التبشير للمؤمنين بالجنة، والإنذار للكافرين بالنار، وذكرت البشرى دون النذر لأنها التى تتناسب مع الرحمة، والله ولى المؤمنين.

من الأخلاق القرآنية

قال الله تعالى:

إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ
وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ
وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ
(٩٠) وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ
بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ
ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ
غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا
بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ
ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ (٩٢)
وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن
يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (٩٣)
وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا
وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ

عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾

وصف القرآن الكريم فى الآية السابقة بأنه تبيان كل شىء وهدى ورحمة، وهو بذلك يشير إلى أنه جامع للشريعة وفيها الهداية، وفيها الرحمة، وقد بين الله الهداية والرحمة وغيرها فقال:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

العدل يتضمن الرحمة بأعلى معانى الرحمة، وإن كان العدل يوجب الشدة والغلظة على الجناة؛ لأنه إذا كان فيه غلظة على الجانى، ففيه رحمة بالمجموع، والرحمة بالمجرم تشجع الجريمة؛ ولذا قال ﷺ: «**من لا يَرْحَمْ لا يُرحَمْ**»(١)؛ لأن العطف على الجانى إيذاء للكافة، ولقد قال النبى ﷺ فى الرحمة المطلوبة: «**هى الرحمة بالكافة**»(٢)، وإذا كانت شريعة الله تعالى رحمة للعالمين، فلأن قوامها العدل.

العدالة فى الإسلام:

تجرى فى الشرائع كلمات ثلاث المصلحة أو المنفعة، والواجب أو الفضيلة، والعدالة، ونجد أن كلمة العدالة أشملها، بل هى تشمل الأمرين الآخرين، فإن العدل يتضمن المصلحة العامة والمنفعة الشاملة، إذ يكون الجميع فى أمن ويمنع الظلم والبغى والعدوان، وهو بذلك يدفع أضرار هذه الموبقات، والعدل فيه حماية للأنفس، وقمع للرذائل، فالرذائل فى جملتها اعتداء، وكل دفع للاعتداء يكون عدلاً، وإن كل شىء فى الشريعة قام على العدل، حتى عقود المعاملات فإنها قامت على المساواة، فأساس التعاقد هو المساواة بين العوضين، فإذا دخل التعامل

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه الحاكم فى المستدرك (٧٣٨٦) ج٤/ ١٨٥ هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

غُبن أو تغرير أو مماكسة أثر ذلك فى صحة العقد مما أدى إلى كلام طويل بين الفقهاء فى ذلك.

والعدل الذى يأمر الله تعالى به ليس هو فقط الإنصاف بين الناس المأمور به فى قوله تعالى: ﴿ ... وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ... (٥٨) ﴾ [النساء]، بل إن العدل له شعب ثلاث:

١ - العدل فى حق الله تعالى بشكر نعمته، والقيام بما أمر من فرائض، والانتهاء عما نهى من منهيات، فذلك عدل مع الله؛ لأنه فى جملته من شكر النعمة، وهو عدل لأنه قيام بالواجب نحو ما أعطى سبحانه وتعالى.

٢ - وعدل فى ذات نفسه بأن يكون مستقيم النفس، لا انحراف ولا تجانف، ولا ميل عن الطريق السوى.

٣ - وعدل مع الناس بأن يحب لهم ما يحب لنفسه، كما قال ﷺ: «**عامل الناس بما تحب أن يعاملوك**»، وبأن ينتصف للناس من نفسه، ولا يلجئهم إلى الحاكم.

ثم أخيرًا إنصاف الناس إذا حكم.

وتعجبنى كلمة قالها ابن العربى، فقد قال: «العدل بين العبد وربه إيثار حقه تعالى على حق نفسه، وتقديم رضاه على هواه، والاجتناب للزواجر والامتثال للأوامر، وأما العدل بينه وبين نفسه، فمنعها مما فيه هلاكها، قال الله تعالى: ﴿ ... وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) ﴾ [النازعات]، وعزوب الأطماع عن الاتباع، ولزوم القناعة فى كل حال ومعنى، وأما العدل بينه وبين الخلق فبذل النصيحة وترك الخيانة فيما قل أو كثر، والإنصاف من نفسه لهم بكل وجه، ولا يكون منك إساءة إلى أحد بقول ولا فعل، ولا فى سر ولا فى علن، والصبر على ما يصيبك منهم من البلوى، وأقل ذلك الإنصاف وترك الأذى».

ولم يذكر العدالة فى الحكم؛ لأن ذلك أمر لا يحتاج إلى تنبيه بعد نص القرآن فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ... (٥٨)﴾ [النساء].

هذا هو العدل الذى أمر الله تعالى به قد ذكرناه، وإن كان بيانه أعلى مما تشمله عقولنا، وقد ابتدأ سبحانه وتعالى به؛ لأنه يتعلق بالكافة، وهو مطلوب فى كل حال، وهو إعطاء كل ذى حق حقه، ثم أمر بعد ذلك بالإحسان وهو أكثر من العدل فيوضاً، وخيره يمتد ويزيد؛ ولذا عقب العدل بالإحسان.

الإحسان:

والإحسان مصدر أحسن، وأحسن تتعدى بنفسها، وتكون بمعنى الإتقان والإحكام، ومنه الإحسان فى العبادة كيفًا بأن ينصرف الوجه لله تعالى، ويقرب منه، ومنه أداء النوافل لإتقان الفرائض، ومنه حديث جبريل فى التعريف بالإحسان «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١).

وأحسن تتعدى بـ (إلى) بمعنى أعطاه حقه وزاد عليه فضلا من عنده، حماية لنفسه من الظلم ووقاية له من التعدى، والإحسان بهذا المعنى يكون فى المال فيكون بإعطاء الزيادة عما يستحق، ويكون فى القول فيقابل القول السيىء بالقول الحسن، كما قال تعالى: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)﴾ [فصلت] ويكون بالصفح عمن ظلم، وبالعفو عمن أساء، ويكون بالربط بين الناس بالمودة والعفو فما زاد عبد بعفو إلا عزاء.

والإحسان يكون بين الخلطاء والعشراء، والتعامل الأحادى، ويكون الأمر بالإحسان بعد الأمر بالعدل انتقال من الأمر العام الذى هو صالح وواجب فى كل الأحوال، وفى كل الأوقات إلى أمر آحادى تطيب له النفوس، وتتلاقى به بالمحبة والمودة، يكون التآلف والتراحم والتآخى فى الجماعة.

---

(١) سبق تخريجه.

إيتاء ذى القربى:

وبعد ذلك نزلت الأوامر إلى الأسرة بربط آحادها، فقال تعالى: ﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ والقربى مؤنث أقرب، والمعنى إيتاء الأقربين ومعونتهم، وألا يضن عليهم بخير يقدمه لهم، وهو صلة الرحم التى أمر الإسلام بها، والإيتاء الإعطاء والأصل المال، ولكنه يشمل كل ما يكون خيراً يسديه إليهم مالا أو معروفا.

والأسرة فى الإسلام ليست مقصورة على الزوجين والفروع، بل هى الأسرة الممتدة الشاملة للأصول والفروع والحواشى من الإخوة والأخوات وأولادهم، والأعمام والعمات وأولادهم، والأخوال والخالات وأولادهم، وقد أوجبت الشريعة الإسلامية وجوب نفقة القريب على قريبه إذا عجز عن الكسب، ولم يكن ذا مال، ووضعت مقياسا دقيقا أساسه الغرم بالغنم فمن كان يرثه إذا مات، تجب عليه نفقته إذا عجز.

هذه هى التى أمر الله تعالى بها، وعليها يقوم بناء المجتمع الصالح، وبعد ذلك نهى سبحانه عما يخرب ذلك المجتمع وينخر فى عظام المجتمع الحمى، فقال تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾.

نهى عن أمور ثلاثة هى أدوات الهدم فى البناء الاجتماعى:

الأمر الأول ـ ﴿الْفَحْشَاءِ﴾، وهى بمعنى الزيادة والإفراط فيها، وكل المعاصى فيها إفراط فى الزيادة عن مقتضى الفطرة، ويقول البيضاوى فى تفسير معنى ﴿الْفَحْشَاءِ﴾: هى الإفراط فى متابعة القوى الشهوية كالزنى، فإنه أقبح أحوال الإنسان، ونقول إن الفحشاء تشمل كل متابعة للهوى الجامح الخارج عن حدود الاعتدال كشرب الخمر والقمار والزنى، ومجاوزة الحد فى أى أمر من أمور الشهوة حسيا أو معنويا.

الأمر الثانى ـ ﴿وَالْمُنكَرِ﴾ هو ما تنكره العقول المستقيمة، ويخرج به المرء عن حد المعقول كقول الزور والبهتان، والإفراط فى الاستهانة بحقوق غيره،

والاندفاع وراء غضب جامح يخرج عن حد المعقول، إلى حد ما ينكره المجتمع ويتجافاه، ويقطع المودة وينقض ما أمر الله تعالى به أن يوصل.

الأمر الثالث ـ ﴿وَالْبَغْيِ﴾ هو الاعتداء على الناس، والتجبر والاستعلاء عليهم، وأن يمنعهم حقوقهم ويأخذها بغير حق، وإن ذلك من آثار الوهم بأنه من صنف أعلى من صنفهم، فيغالى فى الاستهانة بهم، ويبغى عليهم فى حقوقهم، ويبخسهم حقهم، كما نرى الآن من بغى بعض الناس على بعض باسم أنهم سود، أو باسم أنهم من الأمم النامية، أو باسم الطبقات، فكل ذلك من وهم الاستعلاء والغلو فى إعطاء أنفسهم حقوقا ليست لهم، ولكنهم يفرضونها لأنفسهم، وسببها بغيهم وظنهم أنهم من صنف فوق الناس وأن الناس دونهم، ولقد قال البيضاوى فى البغى ما نصه: «والاستيلاء على الناس والتجبر عليهم، فإنها الشيطنة التى بمقتضى القوة الوهمية، ولا يوجد فى الإنسان شر إلا وهو مندمج فى هذه الأقسام صادر بتوسط إحدى هذه القوى الثلاث (أى الشهوة أو الغضبية أو الوهمية).

وختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، أى رجاء منكم بأن تذكروا هذه الأوامر فتطيعوها، وهذه المنهيات فتجتنبوها، وتكون لكم موعظة تتعظون بها، وتعتبرون فى اتصالكم بالناس والحياة بها.

لقد قال ابن مسعود: إن هذه أجمع آية لمعانى الإسلام، ويروى عن عثمان ابن مظعون أنه قال: أسلمت حياءً من النبى ﷺ فلما سمعت هذه الآية آمنت بالإسلام حقا وصدقا.

ويروى أن أكثم بن صيفى حكيم بنى تيم وخطيبهم، وكبيرهم فى سنه لما بلغه مخرج النبى ﷺ أراد أن يذهب وقد بلغه الكبر، فأبى عليه قومه، وقالوا: أنت كبيرنا لم تكن لتخف إليه، قال: فليأت من يبلغه عنى، ويبلغنى عنه، فدعا رجلين، فأتيا النبى ﷺ فقالا: نحن رسل أكثم بن صيفى، وهو يسألك: من

أنت، وما أنت؟، فقال الرسول ﷺ: «**أما من أنا فأنا محمد بن عبدالله، وأما ما أنا فأنا عبدالله ورسوله**، ثم تلا قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠)**﴾»، قالوا: ردد علينا هذا القول فردده عليهم حتى حفظوه، فأتيا أكثم فقالا: أبى أن يرفع نسبه، فسألنا عن نسبه فوجدناه زاكى النسب، وسطا فى مضر - أى من أشرف مضر - وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها، فلما سمعها أكثم قال: إنى أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن ملائمها. . كونوا فى هذا الأمر رءوسا، ولا تكونوا أذنابا.

هذا ويجب التنبيه إلى أن أبلغ ما فى المأمورات العدالة، فهى أقواها أثرا فى بناء المجتمع، وأقبح المنهيات البغى، فكلها يمس ناحية فيه، ولقد قال النبى ﷺ فيه وفى قطيعة الرحم: «**ما من ذنب أحق أن يعجل الله عقوبته فى الدنيا مع ما يدخر لصاحبه فى الآخرة من البغى وقطيعة الرحم**»(١).

العهد فى الإسلام:

دعا الله تعالى فى هذه الآية إلى العدل فى وسط الجماعة الإسلامية، ودعا إلى العدل بين المسلمين وغيرهم، وميزان العدالة الدولية الوفاء بالعهد؛ ولذا جاء الأمر بالوفاء بالعهد بعد الأمر بالعدل، فقال عز من قائل:

﴿**وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١)**﴾.

أمر الله تعالى بأن يعدل المؤمنون مع غيرهم، ولو كانوا يبغضونهم، فقد قال تعالى: ﴿ ... **وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ**... (٨) ﴾ [المائدة]، وإذا كان فى بعض الديانات جاء عمن ينسبونها إليه: استغفروا لأعدائكم. فشعار الإسلام: اعدلوا مع أعدائكم، وشعار العدالة أقوى

---

(١) سبق تخريجه

وأثبت وأليق، وكيف يستغفر للعدو إذا مات على ضلالة، ولكن العدل معه معقول في ذاته، وتحقيقه وهو الأكرم والأنسب.

ومن العدالة مع الأعداء الوفاء بالعهد؛ ولذا قال تعالى: ﴿... **وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً** (٣٤)﴾ [الإسراء]، وقد قال تعالى: ﴿**وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ**﴾. قيل إنها جاءت في بيعة المسلم عند دخوله في الإسلام يبايع الله ورسوله على الإسلام، وقيل: أن هذا في النذور، والحق إن الأمر في الآية عام في وجوب الوفاء بالعهد سواء أكان عهدا فرديا أم كان جماعيا أم كان دوليا، والوفاء بالعهد من العدالة، والعهد اتفاق بين طرفين يوجب على كل واحد منهما التزاما، وهو كأى عقد بين طرفين يوجب إلزاما والتزاما، فلا ينقضى إلا بتراضى الطرفين، وليس هذا داخلا فى عموم قول النبى ﷺ: «**من حلف على شىء، فرأى خيرا منه فليحنث وليكفر**»[1]، فإن ذلك فى الأيمان التى هى التزام شخصى كأن يحلف ألا يفعل كذا، أو ألا يصلح بين خصمين، فإن ذلك واقع تحت النهى فى قوله تعالى: ﴿**وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ** ... (٢٢٤)﴾ [البقرة].

وقد سمى الله تعالى العهد الذى يعاهد عليه، ويكون فيه التزام من الجانبين؛ ولذا كان بصيغة المفاعلة، ﴿**عَاهَدتُّمْ**﴾، وسماه عهد الله لأنه موثق بيمين الله عادة، ولأنه بين دولة الإسلام وغيرها، فكان كأنه عهد الله الذى وثقه المسلمون فى ظل الله تبارك وتعالى.

وهو يشمل كل عهد عاهدته الدولة الإسلامية بعهد الله تعالى، وهو عدل وقوة، أما أنه عدل فلأنه وفاء بما التزموا ومن العدل الوفاء لهم، وكما أنهم ملزمون بالوفاء فيجب علينا أن نلتزم به، وأما أنه قوة، فلأن من يطمئن إلى عدله

---

(١) سبق تخريجه.

يكون آمنا من جانب من عاهدهم، وينصرف لتنمية ثروته، وتمكين قوته، والانفراد بأعـدائه الذين لم يعاهدوه، وانظر إلى عـهد الحـديبيـة الذى عقـده النبى ﷺ مع المشركين، فإنه انصرف فى المدة التى كان فيها عهد الدعوة إلى الإسلام، حتى كان من دخلوا فى الإسلام بعد العهد أضعـاف من دخلوا من قبله بل أضعاف أضعاف وانفرد ﷺ لليهود، فغزاهم فى خيبر، وخرج للرومان فى خيبر.

والعهد ليس أبديا بل ينقض إن كانت خيانة، أو مظنة خيانة كما قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ... ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأنفال].

وإن العهد لا يكون بين دولة الإسلام وغيرها من الدول فقط، بل يكون فى داخل الدولة الإسلامـية كالإخـاء الذى كان بين المهـاجرين والأنصار والمهـاجرين بعضهم مع بعض والأنصار بعضهم مع بعض.

وقد أكد سبحانه الأمر بالوفـاء بالنهى عن النقض معللا النهى، فقال تعالت كلماته: ﴿ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ﴾.

أى لا تنقـضوا العهـود لأنها نقـض للأيمان بعـد توكيـدها، والتوكـيد هو التأكـيد، وهما لغـتان جائزتان وتوكـيد الأيمان مـعناها أن تكون باسم الله، وبأن تكون أمام شهود وفى مجالس تـقرها وتؤيدها، والكفيل هنا هو الرقيب الضامن، فمن عاهد بيمين الله، فقد جعل الله تعالى كفيلا له ضامنًا لقوله فعليه أن يحترم، وكفـيلا- هنا تتضـمنه معنى الرقابة؛ لأن الكـفيل يراقب المكفول، حـتى يؤدى ما التزم أداءه.

وقد بين سـبحانه مـضار النقض، وأشار إلى ذلك فـقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾، أى عليم بما فعلتم وقد عقد العهد، ووثقتموه بيمين الله تعالى، وعليم بفعلكم إذا أردتم النقض، وقد أكد سبحانه وتعالى علمه الأزلى بالجملة الاسمية، وبإن، وبلفظ الجـلالة، وبتقـديم الجار والمجـرور على الوصف؛ لأنه يفـيد مـزيد العناية بأفعالكم وشدة رقابته عليها.

وقد أكد الله الأمر بالوفاء وإثبات أن الوفاء قوة فقال عز من قائل:

﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) ﴾.

الأنكاث: جمع نكث كنقض الفَتْل هو الشعر الذى كان مفتولا ثم نقض، وصار أجزاء متفرقة بعد الفتل وشد الفتل، والمعنى أن العهد قوة، وقد شبه القرآن الكريم الذى ينقض عهده بالمرأة التى تفتل غزلها فتلا شديدا، ثم بعد فتله تنقضه أجزاء وصوفا متناثرا، وهو مثل يضرب لكل من يعمل عملا يكون له ثمرة طيبة ثم ينقض ما تم من جهة ويبطل عمله، فتفقد ثمرة العمل الذى عمله بحقها وجهها، وقوله تعالى: ﴿ **تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ** ﴾، أى بهذا العمل وإبرام العقد وتوثيقه بالأيمان تتخذون الأيمان والحلف بالله ﴿ **دَخَلاً** ﴾، أى غشا وخديعة وتضليلا بينكم.

وقوله تعالى: ﴿ **أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ** ﴾، ﴿ **أَرْبَى** ﴾ أى تكون أكثر عددا، وأوسع أرضا، وأكثر مالا، وأقوى قوة فكلمة ﴿ **أَرْبَى** ﴾ تشمل كل هذا.

والأمة التى هى أربى هى الناقضة للعهد بعد الأيمان الموثقة، أو هى المنقوض للعهد بالنسبة لها، وعلى المعنى الأول أن النقض للعهد أو الرغبة فيه سببها إرادة أن تكون أمة هى أربى من أمة، فتنقض العهد ليتسع حيزها، وليكثر عدد من هم فى ولايتها، فمعنى الآية على هذا التخريج لا تكونوا كالتى نقضت غزلها رغبة فى أن تكون أمة هى أربى من أمة، أو إرادة ذلك أى لتكون أربى عددا أو أكثر ولدا وأوسع أرضا، أو أقوى عدة من أمة.

وإذا كان المنقوض عهدها هى الأربى، فمؤدى ذلك أن يكونوا قد عقدوا معها لقوتها، وأنها أربى ويكون قد عقد دخلا وغشا لينقض فى أول فرصة.

وإنى أميل إلى التخريج الأول لأنه أوضح بيانا، وأظهر برهانا، ومؤدى القول أنه لا يصح نقض العهد لإرادة الاستعلاء، كما كان يفعل المشركون، وكما

كان يفعل الذين لا يرقبون فى المؤمنين إلاًّ ولا ذمة وإن هذا النص السامى يدل على ثلاثة أمور:

الأمر الأول ـ أن العهد قوة، وأن الوفاء به استمساك بما فيه قوة، وأنه يكون كالحمقاء تفعل ما هو سبب للقوة ثم تنقضه، وأن الأمم مهما تكن قوتها إذا استهانت بالعقود لا يثق الناس فى رجائها، فإذا كانت الشديدة تلفتت فلا تجد أحدًا حولها؛ لأنه لا ثقة فيها، وقد رأينا ذلك رأى العين فى أمم شرقت وغربت، ثم تزايلت حتى زال سلطانها.

الأمر الثانى ـ أن العهد إن تم نقضه غشا وخديعة لا يقدم عليه أهل المروءة والأعزَّاء، وعبث بأيمان الله سبحانه وتعالى.

الأمر الثالث ـ أن علو الأمم فى الوفاء بعهدها لا يصح أن تتخذ النقض أمة لتنمو وتربو فإنها إن ربت ونمت بالإخلاف بالوعد، فهو نمو يحمل فى نفسه ما يوجبه انحلاله وذهاب قوته.

وإن الوفاء بالعهد بين الأمم احترام الإنسانية التى يعقدون معهم، فهم يعدونهم أناسى مثلهم يعرفون حقوقهم ويراعون الواجبات نحوهم، والذين ينقضون العهد تسول لهم قوتهم أنه ليس لأحد حقوق قِبلهم، ولا يعاملونهم إلا كمن هم دونهم، وقد رأينا ذلك فى حكومة عاتية أزالها فساد عهودها، ونراها الآن فى وريثة لها تكبر من غير عهد ولا ذمة ولا ضمير ويحسبون الناس قد أباحتهم لهم قوتهم.

وإن الوفاء بالعهد، وهو من مكارم الأخلاق وملاحظة حقوق الإنسان لأخيه، ونقض العهد نقيض ذلك وكثرة الأمم وقلتها وهو من ابتلاء الله تعالى للأمم وللناس؛ ولذا قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾، الضمير فى ﴿**بِهِ**﴾ يعود إلى أن تكون أمة أربى من أمة أو إلى نقض العهد لذلك، أى يختبركم الله تعالى بأن تكون أمة كثيرة العدد واسعة

الأرض كثيرة المال وأخرى ضعيفة فإن صبرت القوية الرابية واستمسكت بالوفاء زادها الله تعالى، وإن غلب عليها هواها، فاستهانت بالعهد لاستهانتها بمن عقدته معها، فإن مآلها الضعف والخذلان، والله عليم بما يفعلون، هذا عقاب الدنيا، أما عقاب الآخرة، فقد ذكره سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، وبيان الله تعالى يوم القيامة يكون مقترنا بجزائه، إن خيرًا فخير، وإن شرا فشر، وقد أكد سبحانه وتعالى بيان ذلك الجزاء لهم أولا بلام القسم، وثانيا بنون التوكيد الثقيلة وبالقسم، وما كانوا يختلفون فيه هو الشرك والإيمان ثم الوفاء والنقض ثم احترام الإنسانية والاستهانة بها، فكل ذلك جزاؤه يوم القيامة، ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ولا الإيمان والكفر، ولا الوفاء بالعهد ونقضه.

وإن ذلك الاختلاف بين الحق والباطل هو إرادته سبحانه ليبلوكم أيكم أحسن عملا؛ ولذا قال سبحانه:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣)﴾.

والمعنى لو أراد ذلك سبحانه ولعلقت مشيئته بأن أمة واحدة آخذة بالحق مهدية لجعلكم كذلك، ولكن خلقكم سبحانه، ولكم إرادات مختارة تسلك الحق أو الضلال، ويختبر أهل الباطل بأن يعطيهم قوة يهتدون بها، أو يضلون، ومعنى أمة واحدة أمة مهدية أو أمة شقية، وتكونون حينئذ على سواء فى الهداية أو الشقاء، ولكن كانت لكم هذه الإرادات التى بها تضلون إن سرتم فى طريق الضلال، وتهتدون إن سرتم فى طريق الهداية.

ولكن إرادة الله تعالى اتجهت إلى ذلك الاختلاف لتكون الحياة ولتكون المعاقبة بين الخير والشر، ويتنازع أهل الشر مع أهل الخير وليكون الخير بعمل أصحابه، والشر بعمل أصحابه، ويكون الضلال وتكون الهداية؛ ولذا قال: ﴿وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ إضلال الله هو كتابة العبد فى أهل الضلال وهداية الله كتابته فى أهل الهدى، وذلك لأن العبد له إرادة يشعر بها،

وأنه ليس بمجبر فيها، وأنه يختار إما الضلالة ليشقى وإما الهداية فيسعد، وما يعمله مكتوب فى اللوح المحفوظ، فهو فى هذا اللوح، إما شقى وإما سعيد، وقد غيب عنه المكتوب ليفعل ما يفعل حرا مختارا، هذا أمر شعورى بدهى، لا يحتاج إلى فلسفة أهل الجبر ولا أهل الاختيار.

والاستدراك فى قوله تعالى: ﴿ وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ... ﴾ إنما هو عن خلقهم أمة واحدة بل هو للتفرقة بين الضلال والهدى فيما يكتبه الله تعالى، ويقدره، ولقد قال سبحانه بعد ذلك ﴿ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾، أى أن أعمالكم باختياركم وبقوتكم الذاتية وتسألون عنها: أهى خير فتثابوا أم هى شر فتعذبوا، وكل أعمالكم مكتوبة عليكم وبكتابتها يضلكم أو يهديكم.

وبعد أن بين سبحانه أن كون أمة أربى من أمة هو بمشيئة الله وإرادته مع بقاء الاختيار للعباد أكد سبحانه وتعالى النهى عن نقض الوفاء بالعهد فقال:

﴿ وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤) ﴾.

كان النهى عن اتخاذ الأيمان دخلاً أى غشا وخديعة فى العهود؛ لأن الكلام كان فى العهود ونقضها، إذ ابتدأ القول: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ ﴾ أما النهى فى هذه الآية عن اتخاذ الأيمان دخلاً، فهو نهى عن الحلف الكاذب خديعة وغشا ومكيدة بعهد كان يعتزم فعل أمر أو يظهر اعتزامه ويوثقه بيمين، ولا يتجه إلى المعاهدة عليه، فإن ذلك منهى عنه، أو يؤكد كلامه عن أمر سابق باليمين وهو كاذب فى يمينه، فإن اليمين فى هذه الحال غش وخديعة ويكون ممن لا يطاع ولا يستمع إليه إذ يقول الله تعالى: ﴿ وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) ﴾ [القلم].

وعلى ذلك يكون النهى عن اتخاذ الأيمان للغش والخديعة يشمل العهود والبيعات ويشمل توثيق يمين منعقدة لا ينوى التنفيذ فيها، أو يمين غموس هو فيها كاذب، كشهادات الزور، ونحوها مما تتخذ اليمين للغش والخديعة، وضياع الحقوق والدعاء الباطل وتأكيده بهذه الأيمان.

ولقد قال تعالى فيما يترتب على اتخاذ الأيمان الباطلة غشا وخديعة وتثبيتا للكذب ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾، هذا تشبيه جيد وهو استعارة من قبيل تشبيه المعنوى بالحسى أى شبه الانحراف الدينى الذى يؤدى إليه الأيمان الباطلة بعد الإسلام والاستظلال بظله كزلَّة القدم بعد ثبوتها قوية، فمعنى الزلل الانتقال من الخير إلى الضرر.

﴿ وَتَذُوقُوا السُّوءَ ﴾، والسوء هو الأمر السيئ وشبه بالشئ الذى يذاق كأنه بعد أن ذاق حلاوة الإيمان ذاق السوء وهو الكفر، ذلك لأن الأيمان الكاذبة تفسد اليقين، وتضعف الإيمان بالحق، وفوق ذلك إذا شاعت ضاعت الثقة بين الناس، وصار الناس لا يؤمنون بشيء، وإن ذلك يؤدى إلى الضلال، والضلال يؤدى إلى الصد عن الحق، والحق هو سبيل الله المستقيم، وصراطه الهادى؛ ولذا قال تعالى: ﴿ وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فإنه لا يضيع الحق ولا يسير الناس فى ضلال من أمورهم إلا الكذب، فإذا وثق بأيمان فاجرة كان الصد عنه بل ضياعه.

ولذا قال تعالى فى عقابه: ﴿ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾، أى كبير شديد ونكر لإفادة أنه عظيم أبلغ العظم لا يعرف مقداره، ونكرت ﴿ قَدَمٌ ﴾ وأفردت لأنه تتعدد الأقدام الزالة بتعدد الأيمان، وأكد سبحانه النهى عن نقض العهد مهما يكن الثمن، فقال تعالى: ﴿ وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) ﴾.

عهد الله تعالى هو عهده سبحانه الذى أمر بالوفاء به فى قوله: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ ﴾ فكل عهد تعاهد المؤمن أو دولة الإيمان عليه هو عهد الله تعالى لا يصح أن ينقض؛ لأنه يؤدى إلى الخذلان وإلى الصد عن سبيل الله سبحانه، وتشترى هنا معناها تبيعوا؛ لأن الباء داخلة على المتروك، وقوله تعالى: ﴿ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ قد وصف سبحانه ما يترك لأجله العهد بأنه ثمن قليل مهما يكن مقداره؛ لأن ما يضيع بسبب ترك العهد من فقد الثقة والشك فى العهود والمواثيق أمر كبير لا يقدر بقدر؛ لأنه يكون الوهن والخزى والضياع وقد ضربنا الأمثال على

ذلك كثيرا، وفوق ذلك عذاب الله تعالى يوم القيامة وجزاؤه على الوفاء فى الدنيا والأخرة فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

(ما) اسم موصول بمعنى الذى، أى أن الذى ادخره الله فى الدنيا والآخرة خير لكم، ففى الدنيا تكون عزة الحق، وقوة الوفاء وهو فى ذاته قوة، وخصوصا إذا كان العقد مع الضعفاء، وفى الآخرة نعيم مقيم.

الله أبقى وخيره أبقى

قال الله تعالى:

مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ
وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ
مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٩٦) مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ
أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ
أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٩٧) فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ
فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ
عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا
سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ (١٠٠)

فى الآية السابقة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ وختم الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وفى هذه الآيات الكريمات يبين وجه الخيرية لما عند الله تعالى؛ ولذا قال تعالى:

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦)﴾، (ما) اسم موصول بمعنى الذى، أى الذى عندكم أعراض فانية فإن كانت مالا فإنها تنفدُ ينهيها الزمان مهما يكن الحرص، وإن بقيت فإنما تبقى بقدر حياة الذى يقتنيها، وإن حياته لقصيرة فى أزمان الناس، ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾، أى والذى عند الله باق يبقى ببقاء الجنة، وإن نعيمها الخالد والذين ينالونها خالدون فيها أبدا، والفرق بين ما عند الناس حلالا وحراما وما عند الله هو الدوام فنعيم الآخرة مقيم، ونعيم الدنيا فأقصى مدته هى مدة الدنيا.

وقد بين سبحانه وتعالى الذين يستحقون ما عند الله وهو الباقى فقال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، و﴿صَبَرُوا﴾ صلة الموصول، وهى تشير إلى أن الصبر سبب هذا النعيم الباقى الذى لا ينفد، فالصبر وهو ضبط النفس فى ظل الأوامر والنواهى، فضبط النفس عند الأمر بالوفاء بالعهد يوجب ألا يندفع الناس وراء بارقة تحمل على النقض، ويوجب ألا يستطار وراء مطمع فلا يفى، والصبر هو الذى يضبط النفس فيحملها على الطاعة، ويحملها على اجتناب المعاصى، والجهاد بالصبر على كف أهواء النفس ونزعاتها جهاد سماه النبى ﷺ الجهاد الأكبر.

وقال تعالى: ﴿أَجْرَهُم﴾ جزاء بأحسن الأعمال التى عملوها فقال: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أى بأحسن الأعمال التى عملوا، يعنى يتخير الله تعالى لهم من أعمالهم أحسنها، ويغفر لهم اللمم والهنات، والجزاء على أحسن الأعمال يتناول الجزاء الأوفى على كل عمل يعملونه، وإن الله لا يضيع أجر المحسنين، وإن الصابرين لهم أجران: أجر الصبر وهو جهاد، وأجر العمل وهو إحسان، وهنا أمران بيانيان:

الأمر الأول ـ فى المقابلة بين ما عند الناس، وما عند الله، فقد وصف ما عند الناس بأنه ينفد، وما عند الله بأنه باق، أى له صفة البقاء والدوام والاستمرار وفرق بين ما يوجد لينتهى وما يوجد ليبقى.

الأمر الثاني ـ أن الله تعالى أكد جزاء الصابرين بالقسم ولامه، ونون التوكيد الثقيلة فقال: ﴿**وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا**﴾ وإن الجزاء يتخير فيه أحسن الأعمال ويعفو عن كثير. . . . .

وقد بين سبحانه وتعالى جزاء العاملين الصابرين فقال عز من قائل:

﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)**﴾.

﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ. . .**﴾.

﴿**مَنْ**﴾ هنا شرطية أو موصولة، و(الفاء) تدخل فى خبر الموصول لما بينه وبين الشرط من صلة إذ هو فى معناه، و﴿**مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى**﴾ بيانية ليعمها الجزاء بعد أن عمها الفعل، وذكر ﴿**صَالِحًا**﴾ والموصوف والعمل غير مذكور سواء أكان مقدرا أم كان غير مقدر، وذلك ليتجه النظر إلى نية الصلاح والمصلحة فى العمل، فإن الاعتبار للنية ككل خير فى قانون الأخلاق العبرة فيه إلى النية، كما قال ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى**»(١).

وذكر هنا الذكر والأنثى مع أن الكل تشملهم التكليفات، والخطاب يشمل الذكر والأنثى، فيدخل الذكر ابتداء، ويدخل الأنثى بقانون المماثلة من حيث التساوى بينهما، ذكر الأنثى فى هذا؛ لأن الجزاء بالحياة الطيبة والاطمئنان وهذه تهم الأنثى بالذات فكان ذكر الأنثى فيه فضل حث وتحضيض للأنثى على عمل الصالح لتطيب حياتها بسعادة واطمئنان فى ظل زوج صالح.

وقال تعالى فى جزاء الصلاح بنيته المعتزمة للخير، والحال أنه مؤمن ثابت الإيمان قوى اليقين استمر فى إيمانه حتى لقى ربه راضيا مرضيا: ﴿**فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**﴾، أى يحييه الله تعالى حياة طيبة فى الدنيا، و(الفاء) فى جواب الشرط أو ما هو فى معنى الشرط، وهو الموصول وقد أكد سبحانه أنه يحييه حياة طيبة بالقسم

(١) سبق تخريجه.

وباللام الموطئة للقسم، وبنون التوكيد الثقيلة، وما الحياة الطيبة التى وعد الله بها عباده المؤمنين الذين يعملون العمل الطيب بقلوب قاصدة الخير والصلاح، والصلاح غايتها ومبتغاها؟ الحياة الطيبة هى أن يكون رزقها حلالا، وأن يجملها الله تعالى بالرضا بكل ما يأتى به، والقناعة فى حال العسر، والرزق الحلال، أو طلب الحلال فى اليسر، والصبر فى الضراء والشكر فى السراء، وبرد اليقين وذكر الله تعالى دائما، فى حال البأساء والضراء وحال البأس ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)﴾ [الرعد]، وفى الجملة الحياة الطيبة هى الحياة الراضية القانعة الشاكرة الصابرة ولا يكون ذلك إلا لمؤمن، وإن هذه الحياة الطيبة جزاء عاجل للإيمان والصالح من الذكور والإناث فلا سعادة خير من سعادة الرضا بالعمل الصالح، واطمئنان القلب بذكر الله والتوكل عليه فى الشديدة والكريهة بعد أخذ الأسباب والاتجاه إلى الله، أما الجزاء الآجل المؤكد الذى لا مرية فيه، فهو فى الآخرة، وقد قال تعالى فيه: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، ولم يذكر فى الحياة الطيبة أنها أجر، بل ذكرها على أنها ملازمة للعمل الصالح الصادر من قلب سليم، فهى ثمرة للصالح كثمرة الشجرة، وكإنتاج الزرع وحيثما وجد العمل الصالح كانت الحياة الطيبة ولو كانت جهادًا مستمرا، ومع ذلك له أجر هو ثواب الآخرة يجزيهم الله تعالى بأحسن ما يعملون، وقد ذكر أنه سبحانه يجازى ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فجعل سبحانه وتعالى عملهم الصالح أو أحسنه هو الجزاء؛ لأنه يماثله أو يساويه كأنه هو، وهو سبحانه وتعالى مانح النعم ومجريها ، وقد ذكر سبحانه وتعالى بعد صالح الأعمال والأقوال وهو أعلاها، قراءة القرآن وذكره فقال تعالى:

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨)﴾.

ذكر الله تعالى بعد الصالح من الأعمال والأقوال، والإصلاح بين الناس قراءة القرآن، فقال: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨)﴾.

ذلك لأن قراءة القرآن ذكر لله، واستماع لحديث الله وترداد له فهو إصلاح للقلوب وللنفوس، ولم يطلب من النبى ﷺ والمسلمين قراءته بل إن الإيمان يقتضى قراءته؛ لأنه أحسن الحديث، بل كان الأمر بقراءته ضمنيا فى ضمن الأمر بالاستعاذة من الشيطان الرجيم، وكان أمرا بالقراءة والاستعاذة معا، وفيه فائدة أن القراءة لا تجدى جدواها إلا إذا كانت معها الاستعاذة الحقيقية من الشيطان بإبعاد وساوسه فى تمنيات الإنسان إذ إن الأمانى ذريعة الشيطان، يدخل قلب المؤمن من جانبها كما أتى قلبى آدم وحواء بالأمانى، ثم سول لهما الأكل من الشجرة، (الفاء) فى قوله: ﴿فَاسْتَعِذْ﴾ هى فاء الإفصاح لأنها تفصح عن شرط مقدر، أى إذا اتجهت بالعمل الصالح والقول الصالح إلى القرآن ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ...﴾.

و﴿قَرَأْتَ﴾ هنا تطوى فى ذاتها نية القراءة أى إرادتها، فمعنى فإذا قرأت أى أردت القراءة، كما فى قوله تعالى: ﴿...إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ... (٦)﴾ [المائدة]، وكقوله تعالى: ﴿... وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ... (١٥٢)﴾ [الأنعام]، وكقوله تعالى: ﴿... وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ... (٥٨)﴾ [النساء]، وقوله فى شأن حجاب نساء النبى ﷺ عن السائلين متاعا ﴿...وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ... (٥٣)﴾ [الأحزاب]، ففى كل هذه الآيات ذكر الفعل وطويت النية والإرادة لأنها ملازمة له ومقترن بها لا بتحقق من غيرها، بل الإرادة والنية هما الحقيقتان والقول مظهرها ولا ينفصل الباعث عن المظهر إذا كانا متصلين فى الوجود؛ ولذا كانت الاستعاذة مقدمة على القراءة بإجماع العلماء، ومنهم من جوز الاستعاذة بعد القراءة، والاستعاذة معناها الالتجاء إلى الله تعالى، والابتعاد عن وسوسة الشيطان وقت القراءة، ووسوسته تجىء من بث الأمانى فى النفس، وقد قلنا إنها ذريعة الشيطان وطريق دخول الهوى إلى النفس و﴿الرَّجِيمِ﴾ معناه المطرود الملقى عليه الحجارة، تثبيتا للإبعاد والطرد، والخطاب للنبى ﷺ ابتداء، ولأمته تبعا، وهم من يقتدى ويتبع، فالأمر بالاستعاذة أمر للأمة كلها، وهى بها أجدر وأحق.

وقد أكد سبحانه معنى الاستعاذة ببيان أنه ليس له سلطان على الذين آمنوا فقال عز من قائل:

﴿ **إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)** ﴾.

يحصن المؤمنين من الشيطان أمور ثلاثة:

الحصن الأول ـ الاستعاذة منه بالقلب واللسان كما أمر الله تعالى: ﴿ **فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** ﴾، كما قال النبي ﷺ وقال: «**علمنيها جبريل**»[1] فإن الاستعاذة تحصين للقلب من وساوس الشيطان ودخول هذا الحصن قراءة القرآن الكريم.

والحصن الثاني ـ الإيمان فإن الإيمان حصن الحق من الغرور والأوهام والأهواء، وكلها ذرائع الشيطان؛ ولذا قال في وعيده بالإغواء: ﴿ ... **وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)** ﴾ [الحجر].

والحصن الثالث ـ التوكل على الله حق توكله، وأخذ الأسباب وتفويض الأمر إليه تعالى، وهو العلي القدير.

وهذا هو مؤدى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ والضمير في (إنه) يعود إلى الشيطان المذكور في قوله تعالى: ﴿ **فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** ﴾ والسلطان الحجة والبرهان والاستيلاء على النفس المؤمنة، ولا يمكن أن يكون له ذلك عليها؛ لأنها تعرف أنه عدوها ومرديها ومفسدها، وماضيه في ذلك عندها معروف علمها إياه الحكيم العليم، وهي تتوكل على الله وحده، فلا يمكن أن يستولي عليها، فالنفس المؤمنة ليست فارغة حتى يتولاها.

وقوله تعالى: ﴿ **وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾، فيه تقديم الجار والمجرور على الفعل يفيد القصر، أي لا يتوكل المؤمنون إلا على الله فليس في قلوبهم فراغ للشيطان يحتله، والتعبير بـ﴿ **رَبِّهِمْ** ﴾ يزكي توكلهم؛ لأنه الذي ذرأهم ورباهم

---

(١) سبق في مستهل سورة الفاتحة.

وكونهم، وإنما الشيطان يحتل بولايته من لا ولاية له مع الله، وفى نفوسهم فراغ من سلطان الله تعالى؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)﴾، قصر سبحانه سلطانه ﴿عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾، أى على الذين جعلوا ولايتهم لـه فاختاروا الهوى على الحق والأوهام على الفعل، وكان سلطانه بمعنى حجته عليهم؛ لأنه أغواهم أولا بالأوهام الضالة والأهواء الجامحة المغيرة فكانت حجته الباطلة رائجة عندهم، وإنما أداة قصر، أى لا سلطان ولا ولاية على غيرهم إذا ضلوا سواء السبيل، فأضلهم وفرغت نفوسهم عن الإيمان فملأها بالأوهام.

وقد قال تعالى فى وصفهم إذ صار سلطانه عليهم: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ وفى هذا توكيد لتوليهم له، فهم مشركون بسببه أن اعتقدوا فى الأحجار الوهمية وهى لا تضر ولا تنفع بسببه، وأشركوهم مع الله بسبب تحكمه بأوهامه فيهم.

معجزة القرآن وقولهم فيها

قال الله تعالى:

وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ
بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
(١٠١) قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢)
وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ
ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ

مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾

كان المشركون لا يعدون القرآن معجزة تساوى معجزات النبيين السابقين كعصا موسى وإبراء عيسى للأكمه والأبرص، وإخبار الناس بما فى بيوتهم وما يدخرون فيها وإحياء الموتى، وإخراجهم من قبورهم بإذن الله وإنزال المائدة من السماء ليأكلوا منها، كانوا يطالبون النبى ﷺ بمعجزات مادية حسية، ولا يقنعون بأن تكون المعجزة قرآنا يقرأ فبين الله تعالى أنه الذى يأتى بالمعجزات الدالة على أنه أرسل الرسل فهى إمارات الرسالة يعلم بها من الرسول بأنه من عنده.

فقال تعالى ردا على طلبهم آية: ﴿**وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا** ... ﴿١٠٩﴾﴾ [الأنعام].

﴿**وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ**﴾، أى إذا جئتنا بالقرآن آية على صدق الرسول مكان آية أخرى حسية رفضناها وجئنا بهذه الآية المعنوية مكانها، والله صاحب الآيات والرسالات أعلم بالصالح منها، و(أعلم) أفعل تفضيل على غير بابه لأنه لا مفاضلة بين علم الله تعالى، وعلم غيره.

وعلم الله تعالى بما ينزل البالغ أقصى كمال العلم اقتضى أن تكون معجزته قرآنا يقرأ، وباق يتحدى الأجيال جيلا بعد جيل إلى يوم القيامة، وهو القادر على كل شيء، ؛ لأن المعجزات الحسية، إعجاز وقتى ينقضى بعد وقته، ولا يعجز إلا من رآه أو تواتر خبره من بعده، وإن القرآن المعجزة الكبرى الخالدة الباقية إلى يوم القيامة هى التى سجلت معجزات النبيين من قبله.

يقولون غير مصدقين معجزة النبى ﷺ: ﴿**إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ**﴾، أى إنما أنت كذاب قد افتريت الرسالة وادعيتها من غير حجة ولا برهان، وقد رد الله تعالى

قولهم بقوله سبحانه: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿بَلْ﴾ للرد عليهم، والإضراب عن قولهم الناشئ عنه، وقال سبحانه: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾، للدلالة على الذين صدقوا وآمنوا بالمعجزة هم الأقل عددًا، وإن كانوا الأكثرين إدراكاً وعلما.

ذكرنا فى كلامنا أن معنى الآية المعجزة الدالة على رسالة الرسول، وأن الله تعالى يرفع معجزات كانت قد جاءت مؤيدة رسالات الأنبياء السابقين قد بدلها الله تعالى، وأتى بمعجزة صالحة للبقاء تتناسب مع رسالة خاتم النبيين الذى تكون رسالته حجة على العالمين إلى يوم القيامة فتكون قائمة ثابتة تنادى بحجية ما يدعو إليه يوم القيامة.

ولكن أكثر المفسرين يفسرون الآية بالآية المتلوة حتى الزمخشرى، ويقولون إن معنى الآية، وإذا بَدَّل الله آية فنسخها ورفعها وجاء بآية أخرى لمصلحة فى الأولى فى حكمها فى زمانها، والإتيان بآية أخرى لمصلحة حكمها فى هذا الزمان الذى جاءت، وإن ذلك جرى على أقلام أولئك المفسرين لرواج فكرة النسخ تلاوة وحكما، وحكما لا تلاوة، وتلاوة لا حكما كما ادعى فى الرجم، وإن ذلك أداهم إلى التساهل فى دعوى الرجم، ولو كان الجمع بين الآيتين ممكنا لا تخالف بينهما.

وإن الذى ذكرناه أولا هو المقبول عندنا، فلا نسخ فى هذا الموضع على الأقل فى آية من القرآن للوجوه الآتية.

الوجه الأول ـ أن الكلام فى موضوع القرآن ذاته وكونه مفترى أو قام الدليل على صدقه لظاهر قوله عنهم: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ فحصروه فى الافتراء فنفوا الرسالة كلها، ويناسب ذلك أن يكون التبديل فى المعجزات السابقة، ووضع القرآن فى موضعها.

الوجه الثانى ـ أنه تعالى قال بعد ذلك ردا على الافتراء وعلى الاعتراض بقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ فتبين أن موضوعها القرآن كله، لا نسخ آية، واستبدال آية أخرى بها.

الوجه الثالث ـ قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ **وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ** (١٠٣) ﴾.

الوجه الرابع ـ أن هذه السورة مكية، والآيات المكية تتجه نحو التوحيد وإثبات الخالق، وأحكامها قليلة، والتجربة فيها قليلة.

لهذا كله سمحنا لأنفسنا بأن نخالف كثرة المفسرين، وإن كان لهم أجر فيما اجتهدوا، وهو أجر واحد.

وقد رد الله تعالى افتراءهم بأمر النبى ﷺ أن يقول لهم:

﴿ **قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ** (١٠٢) ﴾.

الخطاب للنبى ﷺ بالأمر من ربه والضمير فى ﴿ **نَزَّلَهُ** ﴾ للقرآن المذكور آنفا فى قوله تعالى: ﴿ **فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** (٩٨) ﴾، و﴿ **نَزَّلَهُ** ﴾ مصدره التنزيل، وهو الإنزال المتدرج على حسب المناسبات، وليتمكن الذين يكتبون من كتابته، وهم أميون، لا يستطيعون الكتابة الطويلة، وليحفظوه فيسجل فى الصدور بدل السطور فيصعب بل لا يمكن تحريفه، وقد تواتر جيلا بعد جيل، و﴿ **رُوحُ الْقُدُسِ** ﴾ وهو الروح الطاهر، وهو جبريل عليه السلام، وهو من إضافة الموصوف إلى الصفة، كقولهم حاتم الجود، وعليٌّ البيان، ونحو ذلك، وهذا مبالغة من الله فى وصفه بالطهر والصدق، وأنه رسول من الله صادق أمين وهو الذى نزل بالقرآن على قلب النبى ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ** (١٩٣) **عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ** (١٩٤) ﴾ [الشعراء]، وقد ذكر سبحانه أن غاية نزوله أن يزيد الذين آمنوا تثبيتا على الحق؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ **لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ التثبيت زيادة ما يكون ثابتا قوة وثباتا، ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ الذين يدركون الحق بمداركهم الفطرية، ويتجهون إليه اتجاها مستقيما، فيدركونه بمواهبهم، والشرائع السماوية تثبت الحق فى قلوبهم، ﴿ **وَهُدًى وَبُشْرَىٰ** ﴾، أى أنه ذاته هدى، وهذا

تأكيد لمعنى أنه يهدى، فهو يهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم، وكأنه الهداية ذاتها ﴿**وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ**﴾، أى هو بشرى للذين يسلمون وجوههم لله تعالى، ويخلصون للحق من غير مراء ولا جدال.

وهنا إشارات بيانية نشير إليها، فإنها تبين معانى التنزيل:

الإشارة الأولى ـ قوله تعالى: ﴿**مِن رَّبِّكَ**﴾، أى من الخالق البارئ الذى ربك ورباك، وربى الوجود كله، وهو الحى القيوم.

الإشارة الثانية ـ فى قوله تعالى: ﴿**بِالْحَقِّ**﴾، أى متلبسا بالحق، فهو الحق، وما جاء به هو الحق من عند الله، وكان فى ذاته لا يمكن أن تتمادى فيه العقول المستقيمة، فهو فى ذاته حق، كما هو فى ذاته هداية.

الإشارة الثالثة ـ الإشارة إلى أنه نازل من عند الله تعالى، ونزل به أمين طهور صادق.

ولقد راعهم ما اشتمل عليه من قصص صادق للنبيين، وعظات مرشدة هادية، وتوجيه إلى الكون، وما اشتمل عليه من مكارم الأخلاق ونهيه عن ملائم الضلال، وأمره بالوفاء بالعهد، وغير ذلك.

راعهم ذلك، وبدل أن يذعنوا للحق إذ جاءهم ماروا فيه، فإن المبطل المماری لا تزيده الحجة إلا عنتا وإمعانا فى الضلال؛ لذلك كذبوا وافتروا، وادعوا أمرًا غير معقول، فزادوا بعدا عن الحق، وزادوا ضلالاً؛ ولذا قال عنهم، إذ رأوا القرآن واسترعاهم ﴿**وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ**﴾ تحداهم أن يأتوا بمثله فعجزوا، ولكن لم يقولوا إنه من عند الله، بل بالغوا فى الكذب، وأوغلوا فى الكفر، ولقد أكد الله تعالى قولهم هذا لأن غرابته تسوغ تكذيبه بادئ ذى بدء، ولذا أكد علمه سبحانه بـ (اللام) وبـ (قد)، وتأكيدًا للمعلوم، والتأكيد حيث مظنة عدم التصديق.

و﴿ بَشَرٌ ﴾، أى لم يجئ من عند الله، فلم يعلمه الله تعالى إياه، ولكن الذى علمه بشر، وعينوا ذلك البشر إنه رجل رومى كان غلاما لبعض العرب، وقيل رجلان كان يصنعان السيوف بمكة، ويقرءان الإنجيل والتوراة، وقيل غيرهما من أسماء سماها بعض المفسرين.

وقد رد الله تعالى قولهم بقوله تعالى: ﴿ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾، و﴿ يُلْحِدُونَ ﴾، أى يشيرون إليه مائلين بكلام مضطرب نحوه، والمعنى لسان هذا الرجل أعجمى فكيف يأخذ منه النبى ﷺ علما؟! وإذا كان يأخذ منه علما فكيف يمكن أن يكون هذا الكلام المبين، أى البين فى ذاته، والذى أعجزكم ببيانه حتى إنكم تقولون فيه، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق.

إن دليلكم يلتوى عليكم بمقدار نتائجه، فلا يجديكم شيئا أى شىء.

وقد بين سبحانه وتعالى بعد ذلك لجاجتهم فى الباطل وسببه، فقال عز من قائل:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) ﴾.

آيات الله تعالى ثلاثة أقسام:

القسم الأول ـ الآيات الكونية وهى الآيات الدالة على أنه وحده الخالق لكل شىء، وفى كل آية دلالة على الوحدانية فالسماء وبروجها، والقمر ونوره، والشمس وضياؤها، والليل والنهار، والنعم وما فيه خلق وتكوين، كل هذه آيات الله الكبرى الدالة على أنه فعال لما يريد مختار.

والقسم الثانى ـ المعجزات التى تقترن بدعوى النبوة ويتحدى بها النبى من يكذبونه أن يأتوا بمثلها كعصا موسى، وبياض يده من غير سوء فى تسع آيات أجراها الله تعالى على يديه لقوم فرعون، فلم يؤمنوا إيمانا مستقرا، وإن كانوا فى

ضعفهم يقولون ادع لنا ربك، فيدعو الله تعالى فيرفع عنهم المقت، ويذهب عنهم السوء، ولكن ما إن يرفعه عنهم ويؤمنهم حتى يعودوا إلى كفرهم المقيت.

والقسم الثالث ـ الآيات القرآنية، والإيمان بها فرع الإيمان بمحمد ﷺ، لأن الإيمان بها الإيمان بالقرآن، والإيمان بالآيات الذى نفاه القرآن عنهم، وترتب على نفيه نفى الإيمان والهداية هو الإيمان بالآيات الكونية، والإيمان بالمعجزة الكبرى معجزة النبى ﷺ، وهى المعجزة التى تحداهم أن يأتوا بمثلها لعجزوا.

وإنما كان عدم الإيمان بآيات الله مؤديا إلى ألا يهديهم؛ لأن الهداية إنما تكون لمن يفكرون فى آيات الله ونعمه، ومن لا يفكر لا يهتدى فلا يهديه، ولأن المعجزة الكبرى ضل من لا يؤمن بها، وهى واضحة بينة، وهى وحدها تدل على أن من يبلغها يبلغ عن الله فلا يهديه الله إلى الحق؛ لأنه ضل سواء السبيل، ولم يبق إلا أن يسير فى طريق الضلال إلى نهايته، ويكون له العذاب الأليم يوم القيامة، والأليم: المؤلم.

ولقد قالوا للرسول محمد ﷺ ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾، وهو المعروف بينهم قبل البعثة بالصدق والأمانة، حتى إن اسم الأمين إذا أطلق لا ينصرف إلا إليه، وكان لا ينادى إلا به، حتى بعث رسولا، ولما سأل هرقل أبا سفيان عن صفات النبى ﷺ: «هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، قال: لا. قال هرقل: ما كان ليدع الكذب على الناس، ويكذب على الله»[1].

فلما قال المشركون عن النبى ﷺ إنه مفتر رد الله قولهم بقوله تعالت كلماته:

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥)﴾.

حيثما كان إنكار الحقائق الثابتة كانت مظنة الكذب، فمن لا يؤمن بالآيات الثابتة لا يؤمن بالله ولا يكون صادقا أبدا؛ لأن الكذب مباهتة الواقع الثابت، ولا

---

(١) جزء من حديث هرقل الطويل، وقد أخرجه البخارى: بدء الوحى - بدء الوحى (٦)، والبخارى: الجهاد والسير - كتاب النبى ﷺ إلى هرقل (٣٣٢٢).

يسكن الكذب إلا حيث يكون إنكار بدهيات الأمور؛ ولذلك كان الكذوب بهاتا يبهت الناس بغير الواقع، ويكابر وتشتد مكابرته للواقع الثابت بالفطرة.

ولهذا يقول تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ**﴾، و(إنما) أداة من أدوات القصر، فهى تتضمن نفيا وإثباتا، أى لا يفترى الكذب إلا الذين لا يؤمنون بآيات الله تعالى فى الكون ومعجزات النبيين الذين يثبتون بها إرسال الله تعالى لهم، وهى واضحة لائحة يراها المبصر ببصره، والمدرك بقلبه، فحيث كان الإنكار لما هو ثابت بالبرهان يكون الكذب؛ لأن الكذب إخفاء للحقائق، وإنكار الآيات إنكار للحقائق فهما ينسابان من نبع واحد، ويسيران فى خط واحد.

وقد أكد كذب المشركين الذين لا يؤمنون بآيات الله بقوله: ﴿**وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ**﴾ بالإشارة إلى ما هم عليه من إنكار للبدهيات التى تومئ إليها الفطرة، والجملة تفيد القصر بأنه مقصور عليهم، ولا يمكن أن يكون الكذب فى المؤمنين، فهذا نفى للافتراء عن النبى ﷺ وتأكيد الكذب عليهم، وإفادتها قصر الكذب عليهم بتعريف الطرفين وبضمير الفصل، وكذبهم أكده سبحانه بالجملة الاسمية، وبضمير الفصل، وبوصفهم الكذب، ولقد قال ﷺ: «**إياكم والكذب، فإن الكذب يهدى إلى الفجور، والفجور يهدى إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب حتى يكتب عند الله كذابا**»(١).

الإكراه لا يمنع الإيمان، والردة كفر بعد إيمان

قال الله تعالى:

مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا

(١) سبق تخريجه

فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ
وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ
وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى
ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾

﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦)﴾.

﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾، (من) هنا شرطية أو اسم موصول بمعنى الذى، دخلت الفاء فى الحكم، والاستثناء هنا استثناء منقطع؛ لأن من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان لم يكفر، فلا يمنع فى عموم المستثنى منه.

وجواب الشرط أو الحكم على الموصول هو قوله: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وهنا تجد الاستثناء المنقطع المانع من يعد المكره كافرا، ما دام قلبه مطمئنا بالإيمان، وقد عطف عليه ما يدل على الكفر الحقيقى وهو ﴿وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾، أى فتح قلبه للكفر، ﴿صَدْرًا﴾، تمييز محول عن الفاعل، وكأن الكلام، ولكن من شرح صدره بالكفر، وكان فى الموضوع حقيقتان لشخصين مختلفين؛ أولهما اطمأن قلبه بالإيمان بأن استقر فيه وارتضاه واطمأنت نفسه، فقلبه ممتلئ بالإيمان، والآخر لم يعمر قلبه وضاق عنه، وشرح صدره وفتحه للكفر، فالأول يعد مؤمنا، لم يغادر الإيمان قلبه، بل هو قار فيه، وثابت لا يتزلزل.

وإن المعركة بين الكفر والإيمان كانت قائمة بمجرد البعث المحمدى، فكان الإيمان بدلائله يغزو القلوب ويعمرها، وكان الشرك بإيذائه وفتنه، وتحويل الناس عن إيمانهم بالله ورسله والملائكة، والجنة والنار، فحذر الله تعالى المؤمنين من أن يرتدوا بعد إيمان، وذلك ببيان عاقبة ردتهم وكفرهم بعد الإيمان.

ومن الناس من لم تكن لهم همة أهل الإيمان، ولا ثباتهم، ولا مروءتهم وقوة يقينهم فذلوا بعد أن استقاموا، وهانوا بعد أن اعتزوا بالله، وهؤلاء هم الذين ينطبق عليهم الحكم الصارم، وهو قوله تعالى: ﴿ **فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾.

ومن الناس من استقاموا على الطريقة، وثبتوا وصبروا ولو أداهم ذلك إلى أن يموتوا فى سبيل الله تعالى بعذاب أليم ـ كما قتل آل ياسر ـ الذين استمروا على الآلام حتى ماتوا من شدة العذاب، ومنهم من نطق بكلمة الكفر تحت شدة العذاب، وهؤلاء هم الذين أخرجوا من زمرة الكافرين لأنهم؛ أكرهوا، وقلبهم مطمئن بالإيمان.

ومنهم من صبروا تحت الآلام فلم ينطقوا بكلمة الكفر، كبلال رضى الله تعالى عنه، فإنه كان يعذب بالوضع فى الرمضاء فى شدة الحر، ويضعون على صدره الصخرة العظيمة فى شدة الحر، ليحملوه على الشرك وهو مصرٌ على الإيمان مطمئن القلب معذب الجسم وهو فى هذا العذاب المؤلم الممض لا ينى عن أن يقول: أحدٌ أحدٌ، ويصر عليها إغاظة لهم، ويقول رضى الله عنه لهم وهم يعذبونه: لو كنت أعلم كلمة هى أغيظ لكم منها لقلتها، واستمر على هذه المغالبة وتحمل الشدة حتى اشتراه أبو بكر الصديق رضى الله عنه وأعتقه فكان ذلك أغيظ لهم، وكذلك حبيب بن زيد الأنصارى عذبه مسيلمة الكذاب لكفره به، وإيمانه بمحمد، فلم يزل يقطعه إربا إربا، وهو ثابت لا يتزعزع.

وإن النبى ﷺ كان يبلغه من نطق بكلمة الكفر، وهو مطمئن بالإيمان، فبلغه خبر عمار، فقال: «**إن قلب عمار ملىء بالإيمان ولحمه ودمه**».

وبلغه خبر من صبر حتى قتل، فأثنى عليهم، والحق أن النطق بالكفر مع اطمئنان القلب رخصة مع بقاء العزيمة قائمة، ومن لم ينطق فقد أخذ بالعزيمة، ولكل ثوابه، ولكن ثواب من صبر ثوابان: ثواب الصبر وثواب إغاظة الكفار.

وقد ذكر سبحانه عقاب من كفر بعد إيمان وقد شرح صدرًا للكفر، فذكر له عقابين:

العقاب الأول - ﴿**فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ**﴾، أى أن الغضب ينزل عليهم نزول الصاعقة؛ إذ إنهم شارفوا، فجذبهم الكفر، وولاهم الشيطان فنزل عليهم غضب الله، وذكر الغضب فى هذا المقام، فيه إثارة أى بإرضائهم للمشركين بعودتهم إلى الكفر، قد أغضبوا الله، وشتان بين إرضائهم للكافرين، وإغضابهم لرب العالمين، ولا يرجى، ولا أحق بالرضوان غيره.

العقاب الثانى: أن لهم عذابًا عظيما فقال: ﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ التنكير فى عذاب ووصفه بأنه عظيم يفيد أنه عذاب عظيم جدير بأن يهدد به ويهول أمره، وقوله تعالى: (لهم) فيه إشارة إلى أنهم لا يملكون بهذه الردة خيرا، بل يملكون عذابًا عظيما أكبر وأعظم مما كان ينزل بهم من عذاب لو استمروا على الإيمان.

وقد ذكر سبحانه سبب ذلك العذاب فقال:

﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ** (١٠٧)﴾.

الإشارة إلى الغضب من الله تعالى الذى ينزل بهم، والعذاب العظيم يحل بهم بسبب أنهم ﴿**اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا**﴾ استحبوا إنما طلبوا حبها، فاستغرقت نفوسهم، ولم يفكروا فى غيرها، وآثروها على الآخرة، فابتغوها بأى ثمن يقدم، ورضوا بأن يحطوا على هوى المشركين، ولو أغضبوا رب العالمين، وذكر الله سبحانه وتعالى سببا ثانيا، غير استحباب الدنيا وإيثارها على الآخرة وذلك السبب أشار إليه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿**وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ وذلك أنهم

ساروا فى طريق واستمروا فى حياة اللهو والعبث وأغواهم الشيطان، حتى سد كل مسالك الهداية إلى قلبه، فكفر بأنعم الله، وأنكرها بعد معرفتها، ولم يشكر، والله لا يهدى القوم الكافرين، فقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ تومئ إلى كل هذا، سبحانه وتعالى، وتقدست كلماته، وأعجز بيانه.

ذكر الله تعالى ما سجله عليهم، وهو عقاب فى ذاته، وسبب لعقاب، فقال تعالى:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨)﴾.

إن أولئك هداهم الله إلى الإيمان، ثم كفروا ثم تمرد نفوسهم على الباطل وتلج فيه، فتفسد فيها مسالك الإدراك؛ ولذا قال تعالى فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً (١٣٧)﴾ [النساء]؛ ولذا وصفهم الله تعالى بقوله.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨)﴾.

الإشارة إلى هؤلاء الذين كفروا بعد إيمان، والإشارة إلى الموصوف بصفة إشارة إلى هذه الصفات، والإشارة إلى الصفات تفيد أن هذه الصفات هى علة الحكم، وإن الكفر بعد إيمان إذا تكرر تجعل النفس تمرض بفساد الإدراك لأن الكفر بعد الإيمان من شأنه أن يضعف فى القلب معنى الإيمان، فيضعف إدراك الحق، ويصبح الشخص حائرا بائنا لا يتحرك ضميره، ولا تستيقظ نفسه، ولا يستبصر بما تبصر، ولا يدرك حق الإدراك ما يسمع، فكأنه قد طبع على مداركه بطابع يمنع المدارك من أن يصل إليها شيء من الفهم والعلم فيبصر الكائنات ولا يعلم ما تدل عليه، ويستمع إلى القرآن، ولا يعلم ما يهدى إليه، ويحق عليهم قول الله تعالى:

﴿ ... لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ... (١٧٩) ﴾ [الأعراف].

وإن هذه عقوبة طبيعية لما أركسوا فيه، فهى نتيجة لما ترددوا فيه من كفر بعد إيمان، وهى سبيل لعقاب دائم، وعذاب واصب، وهذا يؤدى إلى أن يكونوا فى غفلة دائمة عن كل ما يعلو بالإنسان، فهم قد فقدوا معنى الإنسانية العاقلة المدركة التى تتحمل التبعات، وتعرف التكليفات التى هى ضريبة الإنسانية ومعناها؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ حكم الله تعالى عليهم بهذا النص، والإشارة إلى الموصوفين بالكفر بعد الإيمان، والصفة هى علة الحكم، وهو الحكم عليهم بالغفلة الدائمة التى تصير وصفا لهم منحصرا فيهم، وهم محصورون فيه، وقد أفاد القصر أى قصرهم فى الغفلة، وقصر الغفلة عليهم، تعريف الطرفين، وتأكيد القول بضمير الفصل، مع تأكيد القصر.

وإنهم مع هذه الغفلة التى صارت وصمة لازمة قد خسروا كل شىء، ولذا قال تعالى:

﴿لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩)﴾.

﴿لا جَرَمَ﴾ ذكرنا أصل معناها، وأن تنتهى إلى أن معناها حقا، وهى تأكيد لهم بأنهم فى الآخرة هم الخاسرون، والعبادة تفيد قصرهم على الخسارة، فهم إذا كانوا قد خسروا فى الدنيا مداركهم فطمس عليهم فخسارهم فى الآخرة أشد وأعظم، وهم مقصورون فى الخسارة، والخسارة مقصورة عليهم... اللهم قنا عذاب النار.

إن ربك للمؤمنين يوم الحساب

قال الله تعالى:

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾

ذكر سبحانه وتعالى حال الذين كفروا بعد إيمانهم، وكيف نزل عليهم غضب وطبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم. بأنهم غفلوا واستغرقتهم الغفلة، وكانوا هم الخاسرين، وحدهم، بعد ذلك ذكر حال الذين آمنوا وفتنوا، وأوذوا وهاجروا في سبيل الله، فقال تعالى: ﴿**ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴿١١٠﴾﴾.

﴿**ثُمَّ**﴾ هنا للعطف، والتباين بين فريقين شرح صدر الكفر آذى غيره، وفريق ثبت على الإيمان، وصبر على الأذى، وهاجر.

و﴿ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا ﴾، فيها معنى الحماية الكاملة، والاعتماد على ركن لا خلل فيه فقط، كما يقول القائل للسارقين ما سرقوا، ولذى المال ما ملكوا، ولكل إنسان ما يملك من مال ونسب، وأما المؤمنون الصادقون فى إيمانهم فلهم الجنة، فمعنى هذه الجملة السابقة أن قوتهم وحمايتهم من الله فقط؛ ولذا قدم قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ على الجار والمجرور، لبيان مكانة ناصرهم، وأنه فوق النصراء جميعا، فإذا كان الأقوياء قد آذوهم، وأعنتوهم، وحرموا الهناءة، إلا أن تكون قلوبهم عامرة بذكر الله وقوله: ﴿ لِلَّذِينَ ﴾ بـ (اللام) للاختصاص، أى أنهم مختصون به دون غيرهم.

وقال تعالى: ﴿ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ﴾ الفتن يكون للمعدن ليخرج ما خالطه من مواد مغايرة لجوهره، وفتن المؤمل تمحيصه، وأن تذهب كل ما عساه يعلق به من أدران الدنيا، والهجرة الواضحة هنا أنها هجرة الأولين إلى الحبشة، ويصح أن يراد الهجرة إلى الحبشة والمدينة وإذا كانت السورة مكية، فهى تنبئنا بالهجرة إلى المدينة التى كانت أول الجهاد ومن كان الجهاد، وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿ ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا ﴾ إخبار أنه سيكون جهاد بحمل السيف، والغزوات المباركة، والسرايا التى كان يبعثها النبى ﷺ للجهاد والدعوة وإن عطف وصبروا على الجهاد مع أن الجهاد عدته الصبر أولا، وإعداد الأدوات بالمحل الثانى، إن هذا العطف يفيد أن المؤمن يختبر بأمرين الصبر، وهو مختبر به دائما، وقد كان قوة المؤمنين وهم بمكة، وثانى الأمرين الجهاد فى سبيل الله بحمل السيف مدافعا، محاربا، وهذا يحتاج الصبر، كما قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠) ﴾ [آل عمران].

وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى أنه للمؤمنين، فى مقابل أن الذين كفروا بعد إيمانهم للشيطان ذكر سبحانه أخص صفات الذات العلية وهو أنه غفور رحيم، فقال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ الضمير فى ﴿ بَعْدِهَا ﴾ يعود إلى الهجرة، ذلك لأن الهجرة بعد صقل النفوس بالفتنة تتجه إلى الله، وقد سترت كل ذنوبها،

فيكون الخلاص لله تعالى، ومن بعد ذلك يكون الغفران، وتكون الرحمة بالنصر فى الدنيا، والجنة فى الآخرة.

وفى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يفيد أمورًا أربعة:

الأمر الأول ـ تكرار الربوبية، وفى ذلك دلالة على أنه مع المؤمنين دائما ولا يتركهم، وهو ربهم والمتولى أمورهم.

الأمر الثانى ـ تأكيد هذه الصلة بالعبودية والربوبية بعد الهجرة، كما كانت قبلها.

الأمر الثالث ـ تأكيد المغفرة والرحمة، فقد أكد بالجملة الاسمية، وإن واللام.

الأمر الرابع ـ دوام الرحمة والمغفرة؛ ولذا كان بصيغة المبالغة الدالة على دوام رحمة الله بالمؤمنين، وذكر الغفران لما عساهم يكون منه من عبارات موهمة لمطاوعة المشركين وقد خص الغفران والرحمة بيوم لا يجدى فيه غير غفران الله تعالى ورحمته، ولذا قال:

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١)﴾.

يوم منصوب على الظرفية، للوصفين السابقين، أى إن ربك غفور رحيم، فى هذا اليوم الذى يحاسب كل إنسان على ما قدم فى الدنيا من عمل، وكل إنسان يدافع عن نفسه؛ ولذا قال تعالى: **﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾**، أى تدافع كل نفس أو تبين كل نفس، والمجادلة: المحاجة، أى تحاج كل نفس عن نفسها فيما نسب إليها فتحاج كل نفس بنفسها عن نفسها فلا يكون معها ولى ولا شفيع، ولا نصير، ولا فدية ولا عدل، بل تكون هى المسئولة عما فعلت وارتكبت، وأعمالها محصية ثابتة، كما جاء فى قوله تعالى: **﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ**

طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾ [الإسراء].

وقوله تعالى: ﴿ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾، أى يحضر الأنفس، وتسأل عما قدمت، وتنطق عليهم أيديهم وألسنتهم، فالحساب تكون أدلته مهيأة ثابتة، ولا يكون إلا الحكم، والحكم لله الواحد القهار فلا نقص لحكمه.

﴿ وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾، والمراد جزاء ما عملت، ولكن لأن الجزاء عدل وفاق للعمل، ويساويه تمام المساواة عبر بالعمل بدل الجزاء، إذ هى شىء واحد، أو متساويان تساويا مطلقا، وأكد الله سبحانه المساواة والوفاق بين العمل وجزائه فقال، ﴿ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾، أى لا ينقص من عملهم شىء، فلا ظلم؛ لأن الحاكم هو الله، وهو خير الفاصلين.

ولقد ضرب الله تعالى المثل للكفران بالنعمة ومآلها والأمثال تضرب للناس لعلهم يعقلون، فقال:

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾.

جعل حال قرية مثلا مصورا لمن يكون فى رغد العيش والأمن والاستقرار، ثم يكفر بنعمة الله لينزل عليه البلاء فيحرم نعمة الاطمئنان، ويستبدل بها خوفا، أو يحرم رغد العيش، ويستبدل به جوراً، وجعل المثل حال قرية ـ وهى المدينة الكبيرة لمكة ـ الدنيوى خسفا أو زلزالا، أو أمطار الحجارة فقط، بل قد يكون العقاب الدنيوى ضيقًا فى الرزق بعد السعة، وخوفا بعد أمن، وهذا مجمل معانى النص القرآنى؛ ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ ﴿ وَضَرَبَ ﴾، أى بين، ﴿ مَثَلاً ﴾، أى حالا ثابتة، ﴿ قَرْيَةً ﴾ وهى مفعول وأخرت عن ﴿ مَثَلاً ﴾، وهى المفعول الأول؛ وذلك لأن الأوصاف التى تجىء بعد ذلك كانت أوصافا فى القرية، وهو مورد المثل وموضعه، ولأن ذكر المثل بها ثم ذكر مورده وموضعه يكون بعد ترقب واستشراف فيكون أمكن فى النفس والفؤاد.

وهذه القرية وصفها الله تعالى بأنها كانت آمنة كما كانت مكة، فقد كان فيها حرم آمن يتخطف الناس من حوله وكان يأتيها رزقها رغدا واسعا كثيرا إذ كان يجبى إليها من الثمرات استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام، وإذ قال سبحانه: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧)﴾ [إبراهيم].

وقال تعالى في هذه القرية: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾، (الفاء) للترتيب والتعقيب، أى أنها بدل أن تشكر نعمة الله إذ منحها الأمن والعيش الرغد الهنيء، وهذا أقصى ما يطلب لمثل هذه القرية، بدل هذا كفرت، أى رتبت على النعمة الكفر بها، وهذا عكس ما يترقب، ويتوقع منها. فكان هذا فيه معنى التوبيخ أو التهكم بأمرها، والأنعم جمع نعمة، أو جمع نعمى، والمعنى النعم العالية التى بلغت أقصاها.

وقوله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾، فى الكلام استعارتان:

الاستعارة الأولى: ـ أنه شبه الجوع والخوف باللباس السابغ الذى يغشى الداخل والخارج، وذلك بجامع اشتماله على الجسد والنفس، وكل الجوارح، فإن اللباس يغشى الجسم كله، والخوف والجوع يغشيان الجسم كله، فالخوف يغشى الجسم بالاضطراب والهلع والجزع، والجوع يغشاه بالضعف والحاجة، وهى كالعرى، أو كالثوب الذى لا يستر.

والاستعارة الثانية ـ هى تشبيه الجوع والخوف بالشيء الذى يذاق جريًا على ما يجرى على الألسنة من قول فلان ذاق مرارة الجوع، وقد قال فى ذلك إمام البلاغة الزمخشرى: «أما الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة فى البلايا والشدائد، وما يمس الناس منها، فيقولون: ذاق فلان البؤس والضر وأذاقه العذاب شبه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المر.

هذه خلاصة ما يقال فى هذا المثل الرائع، وتلك الحكمة المباركة، وهو مثل يعطى صورة بيانية رائعة لمحكم القول.

وقد أسهب الزمخشرى فى بيان الاستعارة حتى قال الناصر أحمد بن المنير الذى يتعقبه بالنقد اللائم: قال أحمد: «وهذا الفصل من كلامه يستحق أن يكتبوه بذوب التبر، لا بالحبر».

وقد ذكر ابن كثير أن المثل ينطبق على أهل مكة، قد كانوا يعيشون آمنين فى رغد، ولكنهم اضطهدوا المؤمنين وآذوهم واستعصوا على رسول الله ﷺ فنزل بهم البلاء، وحق فيهم قول الله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ** (٢٨) ﴾ [إبراهيم]، ودعا عليهم رسول الله ﷺ: «**اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف**»(١)، وقد أصابهم الجوع الشديد.

دع عنك أن النبى ﷺ قد سد عليهم مسالك تجارتهم حتى أحسوا بنعمة الله عليهم، وذلك كله بين الله بسببه بقوله تعالت كلماته: ﴿ **بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** ﴾، أى بسبب الذى كانوا يصنعونه من شرك وصد عن سبيل الله تعالى، ولعنتهم للمؤمنين، وحملهم على الردة بعد إيمان.

وإنهم مع هذه الحال أرسل إليهم رسولا من أنفسهم فكذبوه، وقد قال تعالى فى ذلك:

﴿ **وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ** (١١٣) ﴾.

جاءهم رسول منهم عرفوا صدقه، وأمانته، إذا انشأ بينهم وليدا عفا لم يُزَنَّ بريبة، ولم يسجد لصنم حتى بُعث فيهم رسولا، هذا ما تتضمنه كلمة ﴿ **مِّنْهُمْ** ﴾،

---

(١) صحيح البخارى: الأذان - يهوى بالتكبير حين يسجد (٧٦٢)، ومسلم: الجهاد والسير - الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة (٢٧١٥).

فليس غريبا عنهم، وذلك كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)﴾ [التوبة].

ولقد أكد سبحانه بعثه ﷺ فيهم بـ (اللام) وبـ (قد)، وقال: ﴿جَاءَهُمْ﴾، أى بعث ابتداء فيهم، وتنكير ﴿رَسُولٌ﴾ للتعظيم، وإلى مكانته عند الله، وعندهم لأمانته وعفته ولصدقه، ولكنهم بدل أن يعاجلوا بالإيمان عاجلوا بتكذيبه، فـ (الفاء) للترتيب والتعقيب، أى أن النتيجة جاءت على نقيض المقدمات؛ إذ أنه كان معروفا بالصدق والأمانة، فكان الواجب أن يبادروا بتصديقه، ولكنهم بادروا بتكذيبه، وعقب التكذيب أخذهم العذاب، إذ أخذوا فى أسبابه، وهو التكذيب والصد عن سبيل الله وإيذاء المؤمنين.

والعذاب هو عذاب الدنيا بالتقتيل فيهم وهزيمتهم، وذهاب سيطرتهم، وقيام الحق رغم أنوفهم، هذا فى الدنيا، أما فى الآخرة فبالعذاب الأليم، وإلقائهم فى الجحيم.

ثم قال تعالى: ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾، الواو للحال، أى والحال أنهم ظالمون، فالعذاب نزل بهم، وهم أحق به، فهو بما كسبوه من تكذيب الحق، وتجاوزوا حد التكذيب إلى الظلم إذ صدوا عن سبيل الله وفتنوا المؤمنين فى إيمانهم وعذبوهم، وحاولوا أن يردوهم عن دينهم فارتدوا خاسئين.

الرزق الحلال الطيب

قال الله تعالى:

فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا

أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ
ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ
ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ
إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ
مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾

إذا كانت نعمة الله لأهل القرى فى الأمن ورغد العيش، فهى نعم لإباحتها، لا لمنعهم منها ولذا كان النص بإباحتها لتتم سبحانه نعمته على عباده، وكان ابتداء القول بالفاء؛ لأنه مترتب على النعمة، فقال سبحانه: ﴿**فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا**﴾ الأمر للإباحة لا للوجوب، إلا إذا كان الأمر يطلب الأكل بالكل لا بالجزء فالأكل بالجزء مباح أى له أن يأكل من نوع كذا أو كذا أو فى وقت كذا، دون وقت كذا فهذا مباح فيه أن يختار ما يشاء، أما ترك الأكل بالكل بألا يأكل قط فحرام؛ ولذا كان الأكل مباحا بالجزء أو النوع، ومطلوبا طلبا لأمر بالكل، كما أنه محرم أن يحرم صنفا معينا من الحلال على نفسه كالذين حرموا البحيرة والوصيلة والحام، وقد وصف سبحانه وتعالى الأكل الذى وصفه الله تعالى وأعطاه ومكن منه بوصفين:

الوصف الأول ـ أنه حلال، والثانى: أنه طيب، والحلال أن يكون كسبه لا خبث فيه، فالكسب بالربا أو الرشوة والميسر، أو التغرير، أو السرقة أو الاغتصاب، أو الخمر كل هذا ليس برزق حلال؛ لأنه كسب خبيث، وكذلك أكل ما سمى عليه اسم غير الله من صنم أو صليب، أو معبود غير الله أيا كان.

وأما الوصف الثانى ـ فهو أن يكون فى ذاته طيبا لا خبيثًا فى ذاته، فلا يؤكل الخنزير ولا الميتة، ولا الدم ولا ما تعافه النفوس، ومن ذلك سباع الطير،

وسباع البهائم، فإن لحم هذه وما يشبهه لحم خبيث، فكل ما حرمه سبحانه من مأكول خبيث الذات يضر الجسم وتعافه النفس.

وإن هذه النعم التى هيأها الله تعالى وأباحها توجب الشكر؛ ولذا جاء الأمر بالشكر بعد الإباحة، فقال تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ وشكرها بالقيام بالواجبات، من عبادة وامتناع عن الشرك، والتصدق منها لله تعالى، وإطعام القانع والمعتر، وأن يكون كل ذلك لوجه الله تعالى لا يبتغى سواه، ولا يطلب إلا وجهه الكريم.

ولذا قال بعد ذلك: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ تقديم الضمير يفيد التخصيص فالمعنى إن كنتم لا تعبدون إلا الله سبحانه وتعالى. وذكر الوحدانية بعدها فيه إشارة إلى أن تناول هذه النعم من غير تحريم لبعضها، هو من عبادة الله تعالى، ذلك أن الانتفاع بأى نعمة مع الشعور بعظمة المنعم واستحقاقه الشكر، والتناول طاعة لأمره، واستجابة لطلبه هذا فى عباده، ففى الانتفاع بكل نعمة منحها للاستجابة للمنعم عبادة، حتى فى بضع أحدكم صدقة.

وبين الله تعالى المحرمات من الخبائث فقال:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٥)﴾.

﴿إِنَّمَا﴾ أداة قصر أى أن المحرم عليكم من النعم ونحوها الميتة والدم ولحم الخنزير، إذا أهل لغير الله به، أصناف أربعة هى: **الميتة** وهى التى كانت قد حبس دمها فيها، ويدخل فيها الموقوذة والنطيحة، فإنها كالتى ماتت حنف أنفها، إذ لم تذك التذكية الشرعية، وحبس الدم فيها ولم يرق، **والدم**، وهو الدم المسفوح، وقد ذكر هنا مطلقا، وذكر مقيدا فى آية الأنعام فى قوله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ... (١٤٥)﴾ [الأنعام].

ولحم الخنزير إذ إنه نجس بذاته، **وما أهل به لغير الله** وهو المذبوح لغير الله.

ومن المقررات أنه إذا اتحد المسبب والحكم، وجاء اللفظ فى أحد الموضعين مطلقا، وفى الآخر مقيدا حمل المطلق على المقيد.

وهذه الآية الأخيرة تفيد أن تحريم هذه الأشياء لأنه رجس، وفيها ضرر جسمى إذ هى قاذورات خبيثة، وما أهل لغير الله كان تحريمه لأنه فسوق وخروج عن التوحيد؛ لأنه ذكر غير اسم الله تعالى عليه.

وهذا التحريم فى حال الاختيار، أما فى حال الاضطرار فإنه يرخص فيه الأكل، ولذا قال تعالى: ﴿**فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾، أى فإنه يرخص الأكل، وإن الله تعالى يغفر الإثم لأن الله يرفعه بمغفرته وبرحمته

وقد اشترط للإباحة شرطان، أو ذكر الترخيص مقرونا بوصفين:

الوصف الأول ـ أن يكون ﴿**غَيْرَ بَاغٍ**﴾ طالب له يشتهيه، وهذا الوصف تحقيق للضرورة؛، لأنه إذا كان يبتغيه وهو فى فسحة من العمل لا يكون مضطرا، ولأنه إذا كان يبتغيه يتجاوز حد الضرورة.

والوصف الثانى ـ ﴿ **وَلا عَادٍ**﴾، أى متجاوز حد الضرورة.

وقد قالوا إن هذه رخصة إسقاط؛ لأنه قد سقط عنه التحريم بهذه الضرورة، وقالوا إن الأكل فى هذه الحال واجب، وليس بمباح فقط؛ لأنه يتردد بين أمرين أحدهما أقوى تحريما من الآخر:

الأمر الأول ـ الأكل.

والأمر الثانى ـ تلف النفس ولا شك أن تلف النفس أقوى تحريما من الأكل.

وقال أهل الطب إن تحريم هذه الأشياء لما فيها من رجس وقذر، وذلك يضر الجسم، فإذا كان الجسم فى حال جوع شديد ومخمصة كان هذا الجوع مخففا لأضرارها، وكان الأخذ منها لا ضرر فيه لحال الجوع الشديد، فيأخذ من غير تعد ولا شهوة أكل، ولا تجاوز لحد الضرورة، فإن تجاوزها كان الضرر، وتحقق الرجس والقذر.

وقد كان المشركون يحرمون على أنفسهم بعض المحللات من الأنعام فنهى الله عن ذلك وقال:

﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧) ﴾.

كان المشركون يحرمون على أنفسهم بعض ما تخرجه الأرض وبعض النعم، وينسبون ذلك كذبا إلى الله، ولنرجع إلى ما فى سورة الأنعام إذ يقول الله سبحانه: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) ﴾ [الأنعام]، ﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) ﴾ [الأنعام].

قد بين سبحانه ما أحله وما حرمه، ولكنهم كانوا يحرمون ما أحل الله، وينسبون التحريم إليه سبحانه وقد كذبهم الله تعالى فى هذه الآية الكريمة: ﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ ﴾ نذكر أوجه التخريج النحوى فى الآية الكريمة وننتهى إلى وجهين نذكرهما:

الوجه الأول ـ أن ﴿ الْكَذِبَ ﴾ مفعول لقوله تعالى: ﴿ وَلا تَقُولُوا ﴾، أى لا تقولوا الكذب للذى تصفه ألسنتكم، وقوله تعالى: ﴿ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ ﴾ و﴿ هَذَا ﴾ بدل من ﴿ الْكَذِبَ ﴾، ويكون المعنى ولا تقولوا الكذب للذى تصفه ألسنتكم بالحل والحرمة، وهذا حكم عليهم بالكذب فى ادعائهم الحلال والحرام من غير حجة ولا علم.

الوجه الثانى ـ أن يكون الكذب مفعولاً للمصدر، ويكون المعنى ولا تقولوا لوصفكم الكذب هذا حلال وهذا حرام.

ومؤدى التوجيهين أنه لا يصح أن تقولوا هذا حلال وهذا حرام، فإن ذلك الوصف هو الكذب بعينه ما دام لم يجئ من الله بيان فيه، ولأنه قد ثبت ما أحل وما حرم، فما عدا ما قاله الله باطل بـاطل، ولذا قال تعالى: ﴿**لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ**﴾، (اللام) هنا هى لام الصيرورة أو لام العاقبة، والمعنى لا تفعلوا ذلك؛ لأن العاقبة أن تفتروا على الله الكذب. (افترى) أى قصد باهتا الكذب وتعمده وأزاد، وقد ختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ**﴾ أكد سبحانه بأنه لا يفلح الذين يقصدون الكذب على الله تعالى ويتعمدون ويبهتون الناس بالكذب عليه سبحانه، وذلك لأنهم يكونون قد مردوا على الكذب، وفسدت مداركهم إذ ماعت نفوسهم فصارت لا تتجه إلى الحقائق ولا تستقر فيها الحقائق، ولا يؤمنون بحق، ولا يرفضون الباطل، إذ من تصل حاله إلى الكذب على الله لا يمكن أن يفوز فى أمر من الأمور؛ ولذا قال: ﴿**لا يُفْلِحُونَ**﴾، أى ليس من شأنهم أن يفوزوا.

وقد ذكر الموصول للدلالة على أن الصلة هى السبب فى عدم الفوز، وأكد سبحانه عدم الفوز بالجملة الاسمية وإن المؤكدة، وإذا كنا نراهم قد مردوا على الكذب وصار شأنا من شئونهم فلا مانع يمنع من الكذب على الله سبحانه وتعالى، أى كذب أعظم من أن يحرموا ويدّعوا أن الله هو الذى حرم عليهم.

وقد بين سبحانه فى تأكيد عدم فوزهم أنهم يحسبون بريق الحياة ومتاعها هو المتاع، وبين الله تعالى أن متاعها قليل؛ لأنه فى ذاته قليل وزمانه قليل ومتاع الآخرة هو الأبقى ومن طلب متاع الدنيا بغير الحق فالآخرة تكون له عذابًا أليمًا؛ ولذا قال تعالت كلماته: ﴿**مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** (١١٧)﴾.

التنكير فى ﴿**مَتَاعٌ**﴾ يدل على قلته فى ذاته وقلته فى زمانه وهو بجوار الكذب الذى يكذبونه لا يعد متاعًا؛ لأن المتاع ما يقوم على متاع النفس، والنفس

الكذوب تكون فى اضطراب مستمر ولا تملك نفسها كما لا تنضبط فى ذاتها، ودأبها على الكذب يؤدى إلى ضلال الفكر فيها حتى يصيبها خرف الكذب وفساده.

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ بعد هذا المتاع الضئيل وهو عذاب دائم ليس له وقت محدود بل هو محدود بحدود الله، وما من قارئ يقرأ هذه الهداية إلا امتنع عن الهجوم بقوله حلال وحرام إلا إذا كان النص على التحريم من قرآن أو أحاديث النبوة، ولقد كان إبراهيم النخعى، وهو من أئمة فقه الرأى كان إذا وصل برأيه إلى حكم يفيد التحريم لا يقول: حرام، ولكن يقول أكره، وإذا وصل بقياسه إلى حكم يفيد الحل قال ليس من بأس، أو استحسن هذا متحرجا أن يقول حرامًا أو حلالاً لكى لا يكون ممن دخلوا فى حكم هذه الآية.

وقال ابن العربى: «كره مالك وقوم أن يقول المفتى: هذا حلال، وهذا حرام فى المسائل الاجتهادية، فلم أزل أخاف الفتيا إلى يومى هذا»،

وقد رأينا فى هذا الزمان من يقول فى أمور هى حرام بالنص إنها حلال، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

بين الله ما أحل وما حرم، ثم حرم الله تعالى على اليهود بعض أمور، وكان التحريم خاصا بهم دون غيرهم فطْمًا لنفوسهم الشهوانية الظالمة، وقد أشار سبحانه إلى هذه المحرمات فى قوله تعالى:

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾، أى ما أخبرناك بتحريمه من قبل، وهذا يدل على أن هذه الآية فى سورة النحل متأخرة عن التحريم على اليهود فى سورة الأنعام، وذلك النص فى سورة الأنعام:

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦) ﴾ [الأنعام].

وفى هذه الآية التى سبقت فى سورة الأنعام ذكر سبحانه أن ذلك كان فَطْمًا لأهوائهم وشهواتهم وبغيهم، فكان التحريم تأديبا لهذه النفوس أو تقوية لإراداتهم ومنعا لأهوائهم وشهواتهم؛ ولذا قال فى الآية الكريمة التى نتولى ذكر معانيها الحكيمة ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾، أى وما ظلمنا بذلك المنع الجزئى، بل هم الذين بغوا، وأكثروا فيها الفساد، وأدى ذلك إلى ظلمهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾، الاستدراك هنا لتأكيد نفى الظلم، وإثبات الظلم عليهم هم، وتقديم ﴿ أَنفُسَهُمْ ﴾ على ﴿ يَظْلِمُونَ ﴾ للدلالة على الاختصاص، أى لا يظلمون أحدا غير أنفسهم.

التوبة بعد العصيان ومكانة إبراهيم

قال الله تعالى:

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ
بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾
إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ
﴿١٢٠﴾ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ
﴿١٢١﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ
مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٣﴾

إن الله تعالى يغفر الذنوب جميعا لمن تاب وآمن وعمل صالحا؛ ذلك أن بتوبته في وقتها عبادة، وقد قال تعالى: ﴿ **ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا** ﴾.

﴿ **إِنَّ رَبَّكَ** ﴾ الذى خلق الناس أجمعين ورباهم وهذبهم ﴿ **لِلَّذِينَ عَمِلُوا** ﴾، أى هو لهم يمنعهم من الاسترسال فى الشرور والفساد، كما تقول: السلطان لفلان هو ينصره، ويحميه من أعدائه ولا يسلمه لهم، وقد ذكر أنه سبحانه لهؤلاء الذين عملوا السوء، بشرطين:

الشرط الأول ـ أن يكون بجهالة.

والشرط الثانى ـ أن يتوبوا ويعملوا الصالح بأن يصلحوا فى ذات أنفسهم، بأن يزول من نفوسهم، كل أدران السوء، وترحض عن قلوبهم كل ما عملوا من آثام مبطنة، وأن يذهب ما اربدت به نفوسهم، وتطهُر.

والسوء كل ما هو فى ذاته ليس بطيب، ويسوء النفس وغيره، والجهالة هى عدم تدبير الأمر، وعدم تعرف عواقبه بأن يندفع تحت تأثير شهوة جامحة، أو هوى متبع، فإذا تدبر تاب من قريب، وهذا قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨)** ﴾ [النساء].

وقال تعالى فى الشرط الثانى: ﴿ **ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا** ﴾، أى قاموا بحق التوبة النصوح، وهى تقتضى أمورا ثلاثة:

الأمر الأول ـ الندم على ما حصل من سوء، وذلك علم بالحق بعد الجهالة، وثوب إلى الله تعالى بعد الابتعاد.

والأمر الثانى ـ العزم على ألا يعود إلى ذنب أبدا، ذلك لأجل غسل ما اعترى القلب من أدران، وتنظيفه من السيئات وآثارها.

والأمر الثالث ـ أن يكون ذلك من قريب؛ لأن القدم يثبت الشر فى النفس، ويجعل إزالة درنه ليس يسيرا.

ثم بعد هذه التوبة بشروطها لا بد من العمل الصالح؛ لأنه لا يزيل عمل السوء إلا العمل الصالح فيحل الخير محل الشر، وإنه عند تحقق هذه الأمور، وتوّجها العمل الصالح كان الغفران وكانت الرحمة، ولذا قال: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ وهنا عدة أمور بيانية:

الأمر الأول ـ التعبير بـ﴿**ثُمَّ**﴾ فى أول الآية لما بين الذين يصرون على الذنوب ويعاندون الحق، ويسرفون على أنفسهم، وبين الذين يتوبون من قريب عن فعل فعلوه بجهالة، فكان لـ﴿**ثُمَّ**﴾ موضعها فى هذا، وكذلك الأمر فى ﴿**ثُمَّ**﴾ الثانية، ﴿**ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ فى التعبير بـ﴿**ثُمَّ**﴾ يفيد التراخى بين التوبة والغفران؛ لأنه ليس كل توبة توجب الغفران، بل لابد من زمن تعتاد النفس فيه فعل الخير حتى يكون الخير منها حالا من أحوالها.

الأمر الثانى ـ فى قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ**﴾ (اللام)تفيد اختصاص الله بهم وأنه قريب منهم.

وإن فى ذلك تشجيعا للتوبة لمن يقعون فى معصية، كما قال تعالى: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ... (٥٣)**﴾ [الزمر] وقال تعالى: ﴿**غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ...(٣)**﴾ [غافر].

الأمر الثالث ـ فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ ذكر البعدية فى هذه الحال فيه معنى الفورية، وأن الله يحب توبة عبده ليغفر له، فإن الله يحب التوبة ويحب المغفرة.

وقد ذكر الله بعد ذلك أبا الأنبياء إبراهيم لأنه أبو العرب وعزهم، ويعيشون ببركة دعائه، ولأنه تواب أواه حليم، فقال سبحانه:

﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠)**﴾.

﴿أُمَّةً﴾ إما أن تكون بمعنى إمام، أى أنه عليه السلام كان إمام الموحدين المقتدى بهم أو مذهبا متبعا، كقول الله تعالى: ﴿... **إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ** (٢٣)﴾ [الزخرف].

وفسره الزمخشرى بأنه وحده أمة كأنه جماعة جمعت الفضائل كلها، وقد قال فى ذلك: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً**﴾ لكماله واستجماعه فضائل لا تكاد توجد إلا متفرقة فى أشخاص كثيرة، كقوله:

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

وهو رئيس الموحدين وقدوة المحققين الذى جادل فى المشركين، وأبطل مذاهبهم الزائفة بالحجج الدامغة، وهذا وجه وقال الزمخشرى: والثانى أن يكون أمة بمعنى مأموم أى يؤمه الناس ليأخذوا منه الخير، أو بمعنى مؤتم كأمة كالرُحْلة والنخبة وما أشبه ذلك مما جاء من فُعله بمعنى مفعول، فيكون مثل قوله تعالى: ﴿... **إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا** ... (١٢٤)﴾ [البقرة] ويروى الشعبى عن نوفل الأشجعى عن ابن مسعود أنه قال: إن معاذًا كان أمة قانتا لله، فقلت: غلطت إنما هو إبراهيم، فقال: الأمة الذى يعلم الخير، والقانت المطيع لله ورسوله وكان معاذ كذلك. وعن عمر رضى الله عنه أنه قال حين قيل له استخلف: لو كان أبو عبيدة حيا لاستخلفته، ولو كان معاذ حيا لاستخلفته، ولو كان سالم حيا لاستخلفته، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أبو عبيدة أمين هذه الأمة، ومعاذ أمة قانتا لله ليس بينه وبين الله يوم القيامة إلا المرسلون وسالم شديد الحب لله لو كان لا يخاف الله لم يعصه**»، وهو ذلك المعنى أى كان إماما فى الدين؛ لأن الأئمة معلمو الخير.

ونقول: إن الوجهين اللذين ذكرهما الزمخشرى يصح أن يرادا معا، فهو فى ذاته أمة لأنه جامع لكل صفات الكمال البشرى، ومستجمع لكل أسباب الرفعة عند الله، وهو مع ذلك إمام يؤتم ويقصد إذ هو إمام الموحدين والله أعلم؛ ولذلك عقب ذكره بتزييف مذاهب المشركين من الشرك والطعن والنبوة، وتحريم ما أحله الله، ولأنه كان وحده أمة موحِّدا، وكان سائر الناس مشركا.

هذا هو الوصف الأول لإبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم، والوصف الثانى: أنه قانت لله أى خاضع مطيع مسلم وجهه لله تعالى، والوصف الثالث: أنه كان ﴿حَنِيفًا﴾، أى طاهرا نقيا فى نفسه وقلبه مائلا للحق أى متجها بكل نفسه إلى الحق لا ينحرف إلى الباطل، الوصف الرابع: وهو وصف سلبى ناف عنه الشرك؛ ولذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، الوصف الخامس إيجابى، فقال: ﴿شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١)﴾.

كان الذين يدَّعون الانتساب إليه فى ملته ويقولون إنهم على دين إبراهيم وحنيفيته، يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ويكفرون بها، أما إبراهيم عليه السلام فقد ذكر سبحانه أنه كان فى حاله التى تحيط به، وتستغرق كل أفعاله ﴿شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ﴾ وأنعمُ جمع نعمة جمع قلة، وإذا كانت حال شكر دائم لأنعمه القليلة فهو بالأولى شاكر لأنعمه السابغة الكثيرة، وفى هذا دعوة إلى أن يكونوا كأبيهم فى ملته وهديه وحنيفيته السمحة.

وإنه بهذه الصفات العليا من جمعه للفضائل الإنسانية التى كان بها أمة وحده، ومن أنه كان قانتا حنيفا، وشاكرا لأنعمه اصطفاه الله تعالى خليلا، كما قال تعالى: ﴿... وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً (١٢٥)﴾ [النساء]؛ ولذا قال تعالى: ﴿اجْتَبَاهُ﴾، أى اصطفاه نبيا مرسلا، وهداه إلى صراط مستقيم إلى طريق للحق مستقيم، وهو صراط الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ... (١٥٣)﴾ [الأنعام].

وإنه من ثمرة هذه الخصال الكريمة، وأنه هو الذى وفى، وأتى بكل الطاعات أتاه الله تعالى خير الدنيا والآخرة.

فقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢)﴾.

الحسنة هى النعمة التى تحسن فيها أمور الدنيا من حياة فاضلة هى الخير كله، وقد أعطى الله تعالى إبراهيم تلك الحياة الحسنة الطيبة فرزقه الولد، بعد حرمان

طويل، ولم يهبه إلا على الكبر، كما قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ... (٣٩)﴾ [إبراهيم]، وشكر النعمة، واختبر بالفداء بذبح ولده فقبل راضيا، ثم فداه رب العالمين بذبح عظيم ووفقه فى بناء الكعبة وأمده بعمر طويل كله كان فى الخير وعمل الصالحات، و«**خير الناس من طال عمره وحسن عمله**»(١)، وجعله أبا الأنبياء وشعر بذلك فى حياته فقد كانوا من أولاده، وقد نالوا منزلة النبوة فكان إسماعيل من ذريته النبى الهاشمى الأمى، ومن ذرية إسحاق كان أنبياء بنى إسرائيل، وجعل الله له كما طلب ﴿...لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ (٨٤)﴾ [الشعراء]، فكان كل أهل الديانات يتولونه، ويعتزون بالنسب إليه وأنه مع النعم التى أنعمها سبحانه وتعالى عليه كان شاكراً لأنعمه.

ولذلك حسنت حياته فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ذكر ذلك الكريم الحنان المنان على أنه خبر لا إيتاء وكأنه نتيجة لما كان منه فى الدنيا ولم يذكر أنه عطاء من الله تعالى، وإن الله له المَنُّ والفضل، ولم يذكر ذلك ليبين سبحانه وتعالى أن الله تعالى يعطى الناس على قدر شكرهم: ﴿... لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ... (٧)﴾ [إبراهيم]، وأن خير الآخرة ثمرة عمل الدنيا وكله بفضل الله وعطائه ﴿... وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧)﴾ [يوسف].

وقد أكد أنه فى الآخرة من الصالحين بالجملة الاسمية، وإن المؤكدة ولام التوكيد، وأنه فى صف الصالحين، والصالحون فى الآخرة هم المقربون الذين يفوزون بنعيم الجنة وينظر إليهم ويرضى عنهم ورضوان من الله أكبر.

وإن ما دعا إليه إبراهيم عليه السلام هو ما يدعو إليه محمد ﷺ؛ ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣)﴾.

---

(١) أخرجه الترمذى: الزهد - ما جاء فى طول العمر للمؤمن (٢٢٥٢)، وقال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح، وأحمد: أول مسند البصريين (١٩٥١٩)، والدارمى: الرقاق: (٢٦٢٥).

إن المشركين كانوا يفاخرون الناس بأنهم من ذرية إبراهيم، فالنبى يقرهم على هذا الشرف النسبى، والله تعالى يدعوهم إلى اتباع النبى ﷺ لأن الإسلام الذى جاء به النبى ﷺ الأمى هو ملة إبراهيم ودينه، والقرآن وحى الله تعالى هو الذى يدعو إلى اتباع ملة إبراهيم، فأنتم إذ تشركون، وإذ تعاندون النبى ﷺ تعاندون إبراهيم وتكفرون بشرف انتسابكم إليه عليه السلام، وتمسككم بإقامة نسكه، واعتزازكم ببيت الله الحرام الذى بناه، وجعله الله مثابة للناس وأمنا، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ فيه ثلاثة أمور بيانية تجب الإشارة إليها:

الأمر الأول ـ فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ فيه أن ما يدعوكم إليه من عدم الشرك هو وحى من الله باتباع إبراهيم الذى يعتزون به، فذلك الوحى هو مما تفخرون وتعتزون فلا تنافروا الداعى ولا تعادوه، وهو على ملة إبراهيم فسيروا فى مفاخركم باتباعها، وهو مائل عن الشرك غير منحرف إليه.

الأمر الثانى ـ التعبير بـ﴿ثُمَّ﴾ فإن مؤداها أن إيحاء الله لنبيه ﷺ باتباع ملة إبراهيم هو سمو بإبراهيم أعلى من كل ما سبق؛ لأن المؤدى فى كلمة ﴿ثُمَّ﴾ التى تفيد التراخى أنه سما الأمر بإبراهيم أنه علا حتى صار محمد سيد الخلق تابعا له فى ملته، فالتراخى هنا معنوى بالعلو بين مرتبة خاتم النبيين ومرتبة سيدنا إبراهيم، وإنه جده، ولكن محمد فخر نبى عدنان وفخر الإنسانية كلها، أشار إلى ذلك الزمخشرى وقال فى التعليق عليه الناصر أحمد:

و(إنما) تفيد ذلك لأن ﴿ثُمَّ﴾ فى أصل وصفها التراخى المعطوف عليه فى الزمان، ثم استعملت فى تراخيه عنه فى علو المرتبة بحيث يكون المعطوف أعلى مرتبة وأشمخ محلا مما عطف عليه، فكأنه بعد أن عدد مناقب الخليل عليه السلام قال تعالى وها هنا ما هو أعلى من ذلك كله قدرا وأرفع مرتبة، وأبعد رفعة، وهو أن النبى الأمى ﷺ الذى هو سيد البشر متبع ملة إبراهيم مأمور باتباعه بالوحى

متلو أمره بذلك فى القرآن الكريم العظيم، ففى ذلك تعظيم لهما لكن نصيب النبى ﷺ من هذا التعظيم أوفر وأكبر.

الأمر الثالث - أن قوله تعالى: ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ (أن) هنا بيانية، أى تبين معنى الوحى، فقوله تعالى اتبع ملة إبراهيم تفسير لأوحينا، فهى أمر باتباع ملة إبراهيم.

وقد ختم الله تعالى النص بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهذا تحريض للمشركين على منع الشرك؛ لأن إبراهيم لم يكن مشركا من وقت نشأته غلاما صبيا إلى أن توفى بعد عمر مبارك طويل مديد عليه السلام.

الإشارة إلى اليهود والدعوة بالحكمة

قال الله تعالى:

إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ
ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا
كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ
وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ
هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾
وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ
لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ
وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ
﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

بين الله تعالى حال المشركين من كفرهم، وعنادهم وكفرهم بالنعمة يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها، أشار سبحانه إلى الذين يماثلونهم فى الكفر وإنكار النعمة، وهم يكفرون، وهم اليهود فهم والمشركون أشد الناس بغضا للذين آمنوا، وقد أشار سبحانه إليهم بيوم السبت؛ لأنهم الذين اختصوا بتحريمه وإفراده للعبادة وتحريم الصيد فيه، وفى ذكر المشركين إشارة إلى هذه المماثلة وإلى بيان ما يستقبله النبى ﷺ وأن له أياما منهم كأيام المشركين معه فلتصطبر لهم كما صبر من قبلك من الرسل حتى اليوم. يقول تعالى:

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾.

أى صير السبت مانعا لهم من مزاولة شئون الحياة للذين اختلفوا فيه، أى لليهود الذين اختلفوا فيه، والاختلاف أمارة أن فيهم من لم يذعنوا للحق ويؤمنوا، فإنه حيث كان الاختلاف كان الذين يلوون ألسنتهم بالقول من غير إذعان للحق والإيمان، فإن الإيمان يجعل النفوس تقر وتطمئن ولا تنازع ولا تلاحى.

منعوا من الصيد فى يوم السبت، وابتلاهم الله بكثرة السمك فيه، فيوم يسبتون يأتيهم الصيد، ويوم لا يسبتون لا يأتيهم، كما قال تعالى: ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) ﴾ [الأعراف] فمن صبر على البلاء وهم قليلون، كما قال الله تعالى فيهم: ﴿ ... مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦) ﴾ [المائدة] وكثيرون تمردوا واختلفوا فى تمردهم فمنهم من أعمل الحيلة وفتح قنوات يأوى إليها السمك فى يوم سبتهم ليأخذوها يوم لا يسبتون، ومنهم من تمرد كليا، ولم يطع من غير محاولة التحايل.

هذا اختلافهم فى يوم السبت بين صابر لابتلاء الله، ومتمرد عليه، ومتحايل كأنما يخدع الله، وهو معقول فى ذاته ومتفق مع طبائع اليهود المادية الذين يأخذون الأحكام بظاهر من القول والعمل، ويكفرون بالحق فى لبابه وصميمه.

وقد قيل إن اختلافهم كان عندما أمرهم موسى بأن يكون يوم الانفراد للعبادة والامتناع عن الصيد يوم الجمعة فأبوا إلا أن يكون يوم السبت، يروى فى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذى فرض عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غدا والنصارى بعد غد**»(١)، وإنا نميل إلى الله، ولا نخالف السنة.

ثم ختم الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله: ﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ وإن الله رب الأنبياء ورب محمد، ورب الوجود ﴿**لَيَحْكُمُ**﴾، (اللام) فى خبر إن، و﴿**لَيَحْكُمُ**﴾، أى يفصل وهو خير الفاصلين، وذكر ﴿**رَبَّكَ**﴾ فى هذا المقام للدلالة على عالم محيط، فحكمه هو الفيصل لعلمه وقدرته وإحاطته بكل شيء علما، وموضوع الحكم قال سبحانه وتعالى فيه: ﴿**فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾، أى ما كانوا يختلفون فيه بشكل عام، فقد اختلفوا اختلافا كثيرا، فاختلفوا فى عبادة العجل، واختلفوا بين (فروشيم)، أى مفسرين وصدوقيين، ومفوضين، واختلفوا على موسى ومن جاء بعده من الأنبياء، ولا يزالون مختلفين، وهم بعيدون عن رحمة الله تعالى.

بعد أن ذكر حال اليهود، وأشار إلى عنادهم، وفصل القول فى حال المشركين وإيذائهم أمر الله رسوله أن يستمر فى دعوته لا يألوا، فهو مكلَّف بالتبليغ مهما تكن مناوأة المناوئين، فقال تعالت قدرته:

﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥)**﴾.

صدع النبى ﷺ بأمر ربه بعد أن أنذر عشيرته وعمت دعوته ربوع البطحاء، وتجاوبت أصداؤها فى أرض الجزيرة العربية، وصار الناس يتعرفون أمر هذه

---

(١) رواه البخارى: الجمعة - فرض الجمعة (٨٢٧)، ومسلم: الجمعة- هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (١٤١٢)، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

الدعوة، وتجردت قريش مناوئة بكل مما أوتيت من قوة آذت الضعفاء وفتنتهم عن دينهم وهاجر إلى الحبشة من هاجر فرارا بدينه وحماية ليقينه، فهل يضعف ذلك من ندائه بقوة الحق والإيمان، وهل يخرجه ذلك عن حد الحكمة، بل إنه يستمر هاديا مرشدا؛ ولذا جاء أمر الله بأن يستمر فى دعوته بالحكمة والموعظة ولا يخرجه ما يفعلون إلى غير الحكمة، فقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ ادع مبلغا رسالة ربك ومتبعا سبله وهدايته إلى سبيل ربك، وسبيل الله هو الصراط المستقيم وهو التوحيد وشريعته التى لا عوج فيها ولا أمتَ بل وهو سبيل الحق الهادى المرشد بالحكمة والموعظة، والحكمة هى القول المحكم الذى يشتمل على الدليل الهادى والبرهان القاطع، والموعظة هى بيان العبر، وضرب الأمثال بما وقع للماضين، وهى المثلات التى وقعت للناس، والموعظة تشمل هذا وتشمل بيان منافعهم فى إجابة دعوة الله، والمضار التى تنزل بهم إن أعرضوا وضلوا عن سواء السبيل.

وبيان الفرق بين الحكمة والموعظة أن الحكمة ذكر الأدلة على التوحيد التى لا يفهمها إلا الراشدون الذين يدركون الدليل ومقدماته، والموعظة ذكر عواقب الضلال من الحوادث الماضية التى وقعت بالضالين المضلين، والقرآن الكريم قد اشتمل على الحكمة والموعظة، ففيه بيان آيات الله فى الكون من خلق السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم المسخرات بأمره وإنزال الماء وإنبات النبات وفلق الحب والنوى، فهذا كله من الحكمة، وفيه قصص الأمم السابقة وما نزل بالعصاة من خسف وزلزال وريح صرصر عاتية، وهذا من الموعظة الحسنة؛ ولذا قال بعض المفسرين ﴿بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ القرآن لأنه يشتمل عليها، ووصفت الموعظة بالحسنة لسهولة قبولها، أو يتخير الرسول أسهلها على النفس، وأحسنها توصيلا للحق الله الهادى إلى سبيل الرشاد.

أمره سبحانه أن يدعوهم بالحكمة والموعظة وأن يجادلهم بالتى هى أحسن فقال تعالى: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، أى بالطريقة التى هى أحسن فى التوصيل إلى الإقناع، فإن لم يكن إقناع فتقريب، فإن لم يكن تقريب لا يكن

تنفير، فهو يبين لهم الحق فى غير مخاشنة وإن خاشنوه، وفى غير غضب وإن غاضبوه، فالنبى لا يغضب ولكن يهدى فلا يفجؤهم بما لا يحبون، بل يأتيهم بالحق مما يحبون مادام لم يكن باطلا، ولا يكون جافيا فى قول أو خلق، ولا يكون غليظا بادى الغلظة، بل يكون ودودا بادى المودة، من غير أن يكون مداهنا فى حق، فإن المشركين يودون أن يكون مداهنا فى الحق كما قال تعالى: ﴿**وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ** ⁽⁹⁾﴾ [القلم].

﴿**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾.

أمر الله نبيه بأن يبذل غاية الجهد فى الدعوة من غير مغاضبة بل بالمودة والملاينة والرفق فى القول والعمل، والمجادلة من غير مشاحنة ولا مخاصمة، بحيث يكونون فى جانب، وهو فى جانب، ولا يظن أنه بذلك يتأكد إيمانهم فإن منهم من يضل، ومنهم المهتدى، وعليه التبليغ، وليس عليه الهداية؛ ولذا قال: ﴿... **فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ** ... ⁽٤٠⁾﴾ [الرعد]، وقال فى هذه الآية: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ هذا النص السامى كأنه جواب عن استفهام مقدر فى القول: أبعد الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالتى هى أحسن يكون الإيمان لا محالة؟، فأجاب سبحانه: فيهم من كتب عليه الضلال وفيهم المهتدى.

﴿**إِنَّ رَبَّكَ**﴾ الذى يعلم كل شىء لأنه رب الإنسان والوجود ﴿**أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ**﴾، أى بمن سلك سبيل الضلالة وأوغل فضل ﴿**وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾.

ونقول: إن أفعل التفضيل ليس على بابه؛ لأنه لا مفاضلة بين علم الله وعلم أحد، وإنما الذى يقصد من أفعل التفضيل أن علمه بلغ أقصى درجات العلم فلا علم فوق علمه سبحانه.

ويلاحظ أنه يعبر عن الضالين بالفعل، ﴿**ضَلَّ**﴾، وعن الذين هداهم الله تعالى ﴿**بِالْمُهْتَدِينَ**﴾؛ للإشارة إلى أن الضلال مخالف للفطرة حادث عارض لها،

ولذا عبر عنه بالفعل الماضى، وأما الهداية فهى الفطرة، ولذا عبر عنها بالوصف الذى يدل على الدوام، فقال: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

وإذا لم تكن هداية لا تكون مغاضبة، بل يكون عقاب إن اعتدوا فقال تعالى:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦)﴾.

هذه السورة سورة النحل مكية كلها، وقيل إن ثلاث الآيات الأخيرة منها، وهى هذه الآية، واللتان تليانها مدنيات، وهى بالمدنيات أشبه؛ لأن المسلمين لم يملكوا القدرة على العقاب إلا بعد الهجرة، وبعد أن أذن لهم بالقتال فى قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠)﴾ [الحج].

فبعد الهجرة والإذن بالقتال يكون للعقاب موضع؛ إذ كانت لهم القدرة، ويكون معنى الآية على هذا، وإن عوقبتم أى آذوكم على إيمانكم، وهاجموكم فى دياركم وأموالكم، أو أردتم أن تأخذوا منهم حقكم على إيذاء آذوه فعاقبوهم بمثل ما آذوكم، وتسمية فعلكم عقابا هو من قبيل المشاكلة اللفظية، فما كان منهم لم يكن عقابا بل كان إيذاء ابتداء اعتدوا به عليكم كما سمى رد الاعتداء من قبيل المشاكلة اللفظية فى قوله تعالى: ﴿... فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤)﴾ [البقرة] فما كان دفع الاعتداء اعتداء إنما كان دفع الاعتداء انتصافا.

وما موضع الصبر فى هذه الحال، وقد أقسم الله تعالى بأنه ﴿خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾، ونقول: إن موضعه فى أنه لا يجهز على جريح، ولا يقتل النساء ولا الذرية، ولا تنتهك الفضيلة، وفى ألا يبادروهم بالقتال، ولا ينتهكوا الحرمات ولا

يمثلوا بالقتلى كما يمثلون، روى أنه فى غزوة أحد قتل سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، وقد ذكر الرواة فى السيرة أن المشركين مثلوا بالمسلمين يوم أحد.. بقروا بطونهم، وقطعوا مذاكيرهم، ما تركوا أحدًا إلا مثلوا به حتى حمزة عم رسول الله ﷺ فقد مثلوا به، فرآه مبقور البطن، فقال: «**أما والذى أحلف به لئن أظفرنى الله بهم لأمثلن بسبعين مكانك**»، ولكن أمر بالنهى عن المثلة.

وموضع الصبر أيضا فى أنه إذا تمكن منهم المسلمون يعرضون عليهم الإسلام، كما يعرضونه قبل القتال، كما قال النبى ﷺ عندما أرسل معاذ بن جبل وعلى بن أبى طالب إلى اليمن كل بمفرده: «**لا تقاتلهم حتى تعرض عليهم الإسلام، فإن أسلموا فخذ من أغنيائهم صدقة وردها على فقرائهم، فإن لم يسلموا فلا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم، فإن قاتلوكم فلا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم رجلا فإن قتلوا منكم رجلا، فقولوا لهم: أما كان خيرا من هذا أن تقولوا لا إله إلا الله**».

ونرى أن الصبر كان له موضع ليس فى الجهاد بل فى تحمل أذى المشركين عسى أن يهتدوا، هذا إذا كانت الآيات الثلاث مدنية، أما إذا كانت مكية فكيف يكون مبادلة العقاب بعقاب مثله، والمسلمون لم يكن لهم قوة بل كانوا يفرون بدينهم مهاجرين أحيانا ومتحملين أبلغ الأذى أحيانا ومنهم من يُكْرَه وقلبه مطمئن بالإيمان، والجواب عن ذلك أن المسلمين لم يكونوا جميعا مستضعفين، بل كان فيهم أقوياء وإن كانوا نادرين، كعمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب فإنه عندما أسلم عمر ذهب إلى البيت، ونكل بكل من كان فيه حتى إنه كان فيه رجل من المشركين كان قد آذى أبا بكر الصديق فجاء إليه عمر وصرعه، وجلس عليه وأراد أن يفقأ عينيه فاستغاث بالمشركين فما استطاعوا إلى عمر سبيلا وهو باركٌ عليه كما يبرك الفحل، وكان قوى الجسم مديد القامة عملاقا.

ويقول على بن أبى طالب فى هجرة عمر: كان المسلمون يهاجرون خفية إلا عمر فإنه عندما هاجر لبس لأْمته وشد عنزته ونادى: شاهت هذه الوجوه، وأرغم

الله هذه المغاطس، من أراد منكم أن تثكله أمه، وييتم ولده وترمل امرأته فليلقنى وراء هذا الوادى.

وما أظن أنهم كانوا يستطيعون أن ينالوا من حمزة وأمثاله، وإلا ذاقوا بدل الكأس أكؤسا، ولكن الصبر كان خيرا للصابرين، ولكن ما سبب ذلك؟ السبب أمران:

الأمر الأول ـ أن هؤلاء الأقوياء كانوا قلة نادرة قد ادخرهم الله للشديدة، ولو استرسلوا لتكاثفوا عليهم وأبلغوا فى إيذائهم، ولشغلت مكة بهم عن الاستماع لدعوة النبى ﷺ.

الأمر الثانى ـ أن وقت المغالبة بالقوة لم يحن بل كانت المغالبة بالمصابرة ليثير الصبر على الأذى قلوب ذوى المروءات كما كان يحدث أحيانا، والنبى ﷺ كان أقوى فى شخصه وهيبته من كل هؤلاء، ولكنه لم يفرض هيبته ليدخل الناس فى الإسلام مختارين غير هيابين.

وقد حبب الله تعالى إليه الصبر فقال: ﴿**وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ**﴾ فأكده سبحانه أولا بالقسم، واللام الدالة عليه، وبـ (لام) القسم الواقعة فى جوابه، وبالضمير (هو)، وبالإظهار فى موضع الإضمار للدلالة على أن الصبر خير فى ذاته لمن يصبرون.

وقد أمر النبى ﷺ فى عامة أموره وفى دعوته، وفيما يلقاه من المشركين فقال تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ** (١٢٧)﴾.

أمره الله تعالى بثلاثة أمور:

الأمر الأول ـ الصبر، والصبر فى الناس ضبط النفس وفى النبى ﷺ تحمل الأذى بصدر رحيب، وقلب مطمئن ورضا بالتكليف ﴿**وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ**﴾، أى إلا بتوفيقه وعونه وهو نعم العون ونعم النصير.

الأمر الثانى ـ ألا يحزن على مـا يصيب المؤمنين وكفـر الكافرين ﴿ ... فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ... ۝٨ ﴾ [فاطر].

الأمر الثالث ـ ألا يضيق صدره بمكرهم فالرسالة توجب تحمل كل ما يجىء فى سبـيل الدعوة، وضيق صـدره بما يمكرون بأن يظن أن لمكرهم، أثَّر أى أثر فى دعوته، فالله غالب على أمره.

وختم الله تعالى السورة بقوله تعالت كلماته بأنه مع المؤمنين دائما .

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨ ﴾ .

إن الله مع الذين امتلأت قلوبهم تقوى، وجعلوا بينهم وبين غضب الله وقاية ﴿ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾، وأكد إحسانهم بالضمير وبـالجملة الاسمية، وهو معهم بالصحـبة السـامية وبالتـأييد وبالنصـر وبالعزة لهم فى الدنيـا والآخرة، والله ولى المؤمنين.

❊ ❊ ❊

سورة الإسراء

تمهيد:

سورة الإسراء سورة مكية، وعدد آياتها ١١١ إحدى عشرة ومائة آية، وقد قيل: إنها مكية نزلت بعض آياتها بالمدينة وهى قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥) ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣) ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) ﴾ وكذلك قوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) ﴾.

وقد ابتدئت السورة الكريمة بذكر خبر الإسراء والإشارة إلى المعراج فى قوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) ﴾ وذكر سبحانه أن أهل مكة وبيت المقدس وغيرهم هم ذرية من حملهم الله مع نوح.

ثم بين سبحانه أنه قضى لبنى إسرائيل أن يفسدوا فى الأرض، ففى الأولى يبعث الله لهم قوما أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار، ثم يجعل الله تعالى لأهل الإيمان من أتباع محمد ﷺ من رد الكرَّة عليهم، وأمد الله المؤمنين بأموال وبنين وجعلهم أكثر نفيرا، فإذا جاء وعد المرة الآخرة من فسادهم يدخلون المسجد كما دخلوه أول مرة، وخاطب سبحانه المؤمنين بقوله تعالى: ﴿ ... لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧) ﴾ ويشير سبحانه إلى أن سبب ذلك فساد أحوال المسلمين، وأنهم إن صلحوا صلحت الأمور، فيقول ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ

حَصِيراً ﴿٨﴾ ﴾ ويشير سبحانه إلى أن خسارة المسلمين ترجع إلى ترك القرآن، ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴿١٠﴾ ﴾ وبين أحوال الإنسان فقال: ﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴿١١﴾ ﴾.

ويذكِّر الله سبحانه المؤمن المدرك بأنه خالق الليل والنهار ليبتغوا فضلا من ربهم، وليعلموا عدد السنين والحساب، ويذكر الله تعالى الناس بيوم الحساب، وأن كل إنسان يكون معه كتابه قد سجلت فيه حسناته وسيئاته ﴿ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾.

ويبين سبحانه أن هلاك الأمم وضعف المسلمين أمام بنى إسرائيل فى جولتهم الأخيرة سببه الترف والتراخى: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴿١٦﴾ ﴾، وبين الله سبحانه وتعالى بعد ذلك سنته فى القرون الماضية الذين أهلكهم الله سبحانه، ويقرر سبحانه أن ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً ﴿١٩﴾ كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴿٢٠﴾ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴿٢١﴾ ﴾ ونهى سبحانه عن عبادة غير الله مع الله ﴿ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً ﴾.

ويأمرنا سبحانه وتعالى أمرا: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴿٢٤﴾ ﴾، ثم يوصى سبحانه وتعالى بالقرابة كلها، وبالتوسط فى إنفاق المال، ولا ينفقه إلا فى خير، ثم ينهى عن قتل النفس وعن الزنا، وأن قتل النفس يجعل للمولى سلطانا فى طلب الدم، ثم ينهى سبحانه عن أن يقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده، ويأمر سبحانه بالوفاء بالعهد وبالوفاء بالكيل والميزان،

﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾، وأمر سبحانه أن: ألا يَقْفُ الإنسان ما لا علم له به، أو ما لا سبيل إلى العلم، ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾.

ويعلم الإنسان الأدب واللياقة حتى لا ينفر الناس منه، ﴿ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴿٣٧﴾ ﴾ وإن ذلك له فى المجتمع عواقب سيئة مكروهة مقطعة لأوصال الجماعة.

وينهى سبحانه عن أن يكون مع الله إله آخر، ويندد بعادات أهل الجاهلية فى كراهيتهم للبنات ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ وقد بين الله تعالى تصريفه سبحانه فى القرآن ليتذكر الناس ولكنه يزيدهم نفورا؛ لأنهم يرون فيه قوة الحق، والمبطل المعاند كلما وضحت الحجة نفر وما اهتدى، ثم يبين سبحانه أنه لو كان معه آلهة كما يقولون لنازعوه سبحانه وتعالى فى عرشه فيفسد الكون.

ثم ذكر سبحانه تسبيح كل ما فى الوجود له، ثم بين سبحانه هداية القرآن وضلال الناس: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴿٤٨﴾ ﴾ وإن الأمر الذى يشغلهم عن الحق هو كفرهم بالبعث فهم يقولون: ﴿ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾، فيرد الله تعالى كلام هؤلاء فيقول: ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ ﴾.

وبين سبحانه أن هذا كله من نزغ الشيطان بينهم، وإن ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم وإن يشأ يعذبكم، وما أرسلناك (يا محمد) عليهم وكيلا، وقد بين

سبحانه أنه فضَّل بعض النبيين على بعض، وآتى الله داود زبورا، ويبين سبحانه عجز الأوثان عن كشف الضر، ويصف المؤمنين فيقول تعالت كلماته: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧)﴾.

ويضرب الله تعالى الأمثال بالقرى التى فسقت عن أمر ربها، فيقول سبحانه: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨)﴾.

طلب المشركون آيات حسية بدل القرآن، فيقول سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (٥٩) وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠)﴾.

ثم يشير سبحانه إلى قصة الخلق والتكوين ويذكر تكريم آدم بالأمر بالسجود له، وموقف إبليس، ويأمره سبحانه بأن يبذل أقصى ما يملك ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤)﴾ وبين سبحانه أن عباده المؤمنين ليس للشيطان عليهم سلطان، وكفى بربك وكيلا.

ثم بين سبحانه نعمه فى البر والبحر وكشف الضر إذ يستغيثون به، فإذا كشف الضر عنهم أعرضوا وكان الإنسان كفورا.

وأشار سبحانه إلى قدرته القاهرة: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (٦٨) أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩)﴾ أى مطالبا ينتصر لكم، ولقد ذكر بعد ذلك تكريم الله تعالى لبنى آدم وذكر أن من تكريمهم أن يبعثوا، ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ

يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧١) وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٧٢) ﴾ .

ولقد ذكر سبحانه وتعالى محادّة المشركين أن يفتنوا محمدا ﷺ عن دينه، وأنه لولا أن الله ثبته لركن إليهم، ﴿ وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (٧٤) إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) ﴾ .

ثم أشار سبحانه إلى أن المشركين يستفزون محمدا وأتباعه ليخرجوه ﴿ وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ ويأمره سبحانه بإقامة الصلاة فى أوقاتها فيقول: ﴿ أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا (٧٩) وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) ﴾ .

وبعد ذلك ذكر نزول القرآن وأنه يكون تنزيلا وقتا بعد آخر، ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا (٨٢) ﴾ .

وبين سبحانه وتعالى طبيعة الإنسان غير المؤمن، حيث يعرض عن الله عند النعمة ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴾ وكل يعمل على شاكلته ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً (٨٦) إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (٨٧) ﴾ وبعد ذلك بين القرآن وأن الله سبحانه وتعالى يتحدى به الخليقة إلى يوم القيامة.

ولقد ذكر سبحانه أنهم طلبوا آيات أخرى حسية، طلبوا أن تفجّر لهم الأرض ينابيع، وأن تكون لهم جنات من نخيل وعنب، أو أن يسقط السماء عليهم كسفا، أو يأتى بالله والملائكة قبيلا، أو يكون له بيت من زخرف، أو يرقى فى السماء ويرسل إليهم كتابا من السماء.

وكلها آيات مادية حسية، والنبى ﷺ يجيبهم ﴿ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾.

ولقد كان المشركون يعجبون ويقولون أبعث الله بشرا رسولا! فيقول سبحانه: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥) ﴾ ويأمر النبى ﷺ أن يجعل الله شهيدا بينه وبينهم.

وإن من يهديه الله فهو المهتد ومن يضلل الله فلن تجد له أولياء من دونه، ﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ذَلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) ﴾.

ثم يذكر سبحانه أنه خلق السموات والأرض فهو قادر على أن يخلق مثلهم، ﴿ .. وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُورًا (٩٩) قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا (١٠٠) ﴾.

وإن المشركين يلحون فى أن يأتيهم الرسول بآيات حسية، ولا يقتنعون بالقرآن معجزة مع أنه تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله، فذكر الله تعالى أن الله آتى موسى تسع آيات بينات ﴿ .. فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) ﴾ فهم مع هذه الآيات التسع لم يؤمنوا، فأخرجهم من الأرض فأغرقه الله ومن معه جميعا.

وقد بين سبحانه وتعالى مقام القرآن والرسالة المحمدية، فقال عز من قائل: ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥) وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً (١٠٦) ﴾ وأنه لا يغض من شأن القرآن إلا من به

أشرك: ﴿ قُلْ آمنُوا به أَوْ لا تُؤْمنُوا إنَّ الَّذينَ أُوتُوا الْعلْمَ من قَبْله إذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخرُّون للأَذْقَان سُجَّدًا (١٠٧) ويَقُولُون سُبْحَانَ رَبّنَا إن كَانَ وَعْدُ رَبّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨) ويَخرُّون للأَذْقَان يَبْكُونَ ويَزيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩) ﴾.

وكان المشركون يقولون لا نعرف الرحمن، فقال لهم رب العالمين: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلا تَجْهَرْ بصَلاتكَ وَلا تُخَافتْ بهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلكَ سَبيلاً (١١٠) وَقُلِ الْحَمْدُ للَّه الَّذي لَمْ يَتَّخذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١) ﴾.

معانى السورة الكريمة

قال الله تعالى:

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾

جهدت نفس النبى ﷺ ولم ييأس من رحمة الله عندما ماتت زوجه المواسية الحانية التى كان يسكن إليها بعد لغوب الحياة ومعاندة المشركين وإيذائهم له وللمؤمنين فهى التى واسته عندما نزل الوحى، وذهب إليها يرجف فؤاده، فقالت له: إنك تكرم الضيف وتحمل الكل، وتعين على نوائب الدهر، ولن يضيعك الله أبدا، وذهبت برسول الله ﷺ إلى ابن عمها الذى كان على علم بالكتاب فقال له: إن هذا هو الناموس الذى نزل على موسى من قبل، ليتنى أكون فيها جذعا إذ

يخرجك قومك فقال ﷺ: «**أو مخرجى هم**» فقال: ما أتى قوم بمثل ما أوتيت إلا أخرجوه[١].

وفى سنة وفاتها توفى الحامى الحانى أبو طالب الذى كان درئة[٢] من قريش، فسمى النبى ﷺ ذلك العام عام الحزن.

وذهب إلى الطائف يعلن الدعوة فى ثقيف عسى أن يكون منهم النصراء المستجيبون ولكنهم ردوه ردا قبيحا وأحس أنه فقد المعين، فقال داعيا ربه: «**اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى، إلى من تكلنى إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى إن لم يكن بك غضب علىَّ فلا أبالى إلا أن عافيتك أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بى سخطك أو يحل علىَّ غضبك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك**».

استجاب الله تعالى لنبيه الكريم فأعطاه القوة بالبراهين الحسية التى لا يمارى فيها إلا المثبورون، فشق له القمر ورآه السارُون[٣] فماروا وقالوا سحر مستمر مع أنه رؤى رأى العين، وأعطاه الله قوة الحيلة فتحايل للدخول إلى مكة فى جوار بعض القرشيين، فدخلها بين أولاد من نزل فى جواره، وقد خرجوا ليناصروه، وإذا كان فقد العم البار الحانى، والزوجة المؤنسة الواسية الحانية فإن الله تعالى أشعره بأن الله معه ومؤنسه، وكان ذلك بالإسراء والمعراج، فآنسه الله تعالى فى وحشته.

---

(١) أخرجه البخارى: بدء الوحى- بدء الوحى(٣)، ومسلم: الإيمان- بدء الوحى(٢٣١).

(٢) الدَّرِيئَةُ: الحَلْقَةُ يُتَعَلَّمُ الطَّعْنُ والرَّمْىُ عليها، وكُلُّ ما استُتِرَ به من الصَّيْدِ ليخدع. القاموس المحيط(درأ)، والدرئة كذلك.

(٣) سرى: سار ليلا، والسارون: السائرون بليل. الصحاح.

قال تعالى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾ (سبحان): اسم فى معنى المصدر، وهو غير متصرف فلا تجرى عليه وجوه الإعراب وليس له فعل، وقد يعده بعض العلماء مصدرا من سبح يسبح تسبيحا وسبحانا، ومعنى هذه اللغة تنزيه الله تعالى وتقديسه وبراءته من كل نقص لا يليق بالذات العلية المكرمة، وقد روى أن طلحة بن عبيد الله أحد العشرة المبشرين بالجنة سأل رسول الله ﷺ ما معنى سبحان الله فقال: «**تنزيه الله من كل سوء**»، وصدرت الآية أو السورة بالتسبيح وتنزيه الله تعالى عن كل عيب؛ لأنه سيكون فيها إسراء ومعراج، واتجاه إلى الله واستشراف بالملأ الأعلى فكان لا بد من الابتداء بما يدل على التنزيه عن التجسيم والأغراض التى لا تليق بذاته الكريمة، و(سبحان) منصوبة على أنها مفعول مطلق؛ لأنه فى معنى المصدر أو مصدر كما ذكر.

وأسرى: أى سار ليلا، فالإسراء لا يكون إلا بالليل، وذكر (ليلا) للتبعيض فكان التنكير للدلالة على البعضية، فالإسراء كان فى بعض الليل لا فى الليل كله، فما استغرق الليل كله، بل كان فى بعض، وكان ذكر ليلا للإشارة إلى أنه حين يكون السير ليس سهلا، إذ إن الانتقال إلى مكان بعيد لا يكون ليلا، بل يكون نهارا، ولا يكون بعض الليل بل يكون بعض النهار، فذكر «ليلا»' للدلالة على موضع الغرابة، أنه كان بأقصى السرعة، وكان ليلا.

وذكر «عبده» فى قوله تعالى ﴿**أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ**﴾، للإشارة إلى قربه من نبيه فقد خلص له، ولم يكن بينه وبينه حجاب إلا العبودية، وأضافه إليه سبحانه لمعنى الاختصاص وأنه صار خالصا لله سبحانه وتعالى، وفى ذلك إشارة إلى معنى دعائه ﷺ: «إن لم يكن بك غضب علىَّ فلا أبالى» فقال له ربه: أنت عبدى، أى أنت لى خالصا.

وقد عين ابتداء السير، وانتهاءه فقال سبحانه: ﴿**مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا**﴾ فالابتداء من المسجد الحرام لا من مكة كلها، وصحت الرواية

عن النبى ﷺ بأنه أسرى به من الحِجْر فى المسجد[١]، وقيل إنه أسرى به من بيت أم هانئ بنت أبى طالب، ونحن نرى أن الأولى أن يكون ابتداء الإسراء من الحجر، لصحة الرواية ولأنها التى تتفق مع النص؛ لأن النص ذكر أنه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ومكة وإن كانت حرما آمنا لأجل المسجد الحرام، فليست كلها الكعبة ولا المسجد الحرام.

والمسجد الأقصى هو بيت المقدس، قيل إن الذى بناه يعقوب بن إسحاق عليهما السلام، ومهما يكن تاريخ بنائه فهو مسجد مقدس كما قال ﷺ: «**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: البيت الحرام، ومسجد الأقصى، ومسجدى هذا**»[٢].

وهو إحدى القبلتين - أولهما- اتجه إليه النبى ﷺ فى مكة، فقد كان فى صلاته يصلى متجها إليه غير مستدبر الكعبة، ولما هاجر استمر يتجه إلى بيت المقدس وحده نحو ستة عشر شهرا[٣].

وكان الإسراء قبل الهجرة بعام، وبعد موت أم المؤمنين خديجة، وعمه أبى طالب، وقد ذكرت فى أول القول ما كان للإسراء من أثر نفسى فى التسرية عن النبى ﷺ.

وقد ذكر الله تعالى بعد المسجد الأقصى وصفا كريما له فقال: ﴿**بَارَكْنَا حَوْلَهُ**﴾، ففيه آثار النبيين من أولاد إسحاق عليه السلام وفيه كانت الإمامة الكبرى بأرواحهم، وقد قال الزمخشرى فى قوله تعالى: ﴿**بَارَكْنَا حَوْلَهُ**﴾ يريد سبحانه بركات الدين والدنيا؛ لأنه متعبد الأنبياء من وقت موسى، ومهبط الوحى، وهو محفوف بالأنهار الجارية والأشجار المثمرة، وكانت بركته أيضا فى أنه إلى هذا الوقت كان قبلة المسلمين.

---

(١) عن أَنَس بْنَ مَالِكٍ يُحَدِّثُنَا عَنْ لَيْلَةِ أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ ﷺ مِنْ مَسْجِدِ الْكَعْبَةِ. الحديث. رواه البخارى: المناقب- تنام عينه(٣٠٥)

(٢) متفق عليه، وقد سبق تخريجه، ورواه بهذا اللفظ البخارى: الصوم- صوم يوم النحر(١٨٥٨) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه.

(٣) متفق عليه، سبق تخريجه.

وقوله تعالى: ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ أى يُرى رسول الله ﷺ من آيات ربه الكبرى ومن إمامته لأرواح الأنبياء أو للأنبياء أنفسهم قد أحضرهم الله تعالى له بأجسادهم، كما يبعثهم يوم البعث بأجسادهم، وتلك آيات من آيات الله تعالى، وعرج به إلى السموات العلا، كما قال تعالى فى سورة النجم: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ (١٨) ﴾.

هذه آيات المعراج لا نتعجل الكلام فى ذكر معانيها، فنؤجل ذلك إلى الكلام فى معانى هذه السورة التى تصور الرحلة النبوية إلى السموات العلا سواء أكانت هذه الرحلة بالروح فقط أم بالروح والجسد، والله على كل شىء قدير، بقى أن نتكلم فى الإسراء والمعراج أكان بالروح أم بالجسد والروح؟.

اتفق علماء السلف على أن الإسراء كان بالروح والجسد، وأنه كان ليلا، والنبى ﷺ مستيقظ يرى ويسمع، ولذا وصف عير قريش وذكر أنه يتقدمها جمل أورق.

ولم يخالف فى ذلك إلا ما روى عن عائشة وعن معاوية من الذين لقوا رسول الله ﷺ، ونقول: إن عائشة رضى الله عنها ما كانت زُفت إلى رسول الله ﷺ وما كانت فى سن تسمح لها بالرواية، إلا أن تكون قد روت ذلك عن غيرها، ولم تذكر من روت عنه، ومهما يكن فهى الصّدِّيقة بنت الصّدِّيق، ولكنا لا نأخذ برأيها وقد كان رأيا لنا أن نخالفه، وأما معاوية فماله ولهذا وقد كان هو وأبوه ممن كذبوا النبى ﷺ فى أصل الإسراء، فلم يكن وقت الإسراء إلا مشركا ككل المشركين.

ونحن نرى أن الإسراء كان بالجسد فى حال يقظة النبى ﷺ فلم يكن فى منام:

أولا: لأن الله تعالى قال: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً** ﴾ والعبد جسد وروح.

وثانيا: أنه وصف لهم ما رأى وعاين.

وثالثا: أنهم ما كانوا يختلفون عليه لو كانت الرؤيا منامية.

وأما المعراج، فإن بعض العلماء قال: إنه بالروح دون الجسد، وقد قال فى ذلك القرطبى: «قالت طائفة كان الإسراء بالجسد يقظة إلى بيت المقدس وإلى السماء بالروح، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا** ﴾ فجعل المسجد الأقصى غاية الإسراء»[1]، وإننا نميل إلى هذا الرأى، والله أعلم.

وختم الله سبحانه وتعالى آية الإسراء بقوله تعالى: ﴿ **إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ الضمير يعود إلى الله تعالى، وذكر ﴿ **السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ فى هذا المقام للإشارة إلى أن الله تعالى عليم علم من يسمع بما قيل لك من مشركى قريش وأهل الطائف، والعليم علم من يبصر بما رد به سفهاء ثقيف وما أوذيت به من أذى رق له قلب بعض المشركين، وهو تعالى مؤنسك فى وحشتك وناصرك فى وحدتك، فإذا فقدت النصير من أهل الدنيا والمواسى منهم فالله معك، وهو أعز نصير وأرحم بك.

تنبيهان:

أولهما: أن المشركين عندما كانوا يطلبون آيات حسية كانوا يريدون الإعنات لا الإقناع، فهذه الآية الحسية قد جاءتهم فزادوا خسرانا، جاءتهم فى الإسراء وشق القمر، فزادوا كفرا فقالوا: سحر مستمر.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ٢٠٤ .

ثانيهما: أن بعض الناس يذكرون الإسراء مع ما يقال الآن فى الخروج إلى الفضاء والارتفاع إلى السماء وهذا تهجم على المعجزات، إن الارتفاع إلى الفضاء أو القمر أو المريخ بأسباب حسية مادية هى رافعة كروافع لأحمال لا فرق بين صغيرها وكبيرها، أما معجزة الإسراء فهى انتقال من مكان إلى مكان فى وقت كان الانتقال يستغرق أربعين يوما من غير سبب ظاهر، أو دفعة حسية بل بسبب آخر وهو قدرة الله تعالى ولا شىء سوى قدرته ولا يوجد مثل هذا الآن ولا فى أى زمان إلا أن يكون معجزة، فلا يستطيع ذلك أحد إلا الله العلى القدير الحكيم العليم(١).

(١) **الإسراء والمعراج**: (من كتاب خاتم النبيين ﷺ للإمام محمد أبو زهرة - الجزء الأول، ص ٥٩٦ - ٦١٠).

كان الإسراء فى السنة التى كانت قبل الهجرة، وروى البيهقى عن ابن شهاب الزهرى أنه كان فى السنة التى قبل الهجرة، وروى الحاكم أن الإسراء كان قبل الهجرة بستة عشر شهرا.

واختلف على ذلك فى الشهر الذى أسرى به فيه، فالسدى قال إنه فى ذى القعدة، والزهرى قال فى ربيع الأول.

وروى عن جابر وابن عباس أنهما قالا: ولد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الإثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول، وفيه بعث، وفيه عرج إلى السماء، وفيه هاجر، وفيه مات.

وفى رواية أن الإسراء كان فى ليلة السابعة والعشرين من شهر رجب، ويقول ابن كثير: «وقد اختاره الحافظ ابن سرور المقدسى، وقد أورد حديثا لا يصح سنده، كما ذكرناه فى فضائل شهر رجب، وأن الإسراء كان فى ليلة السابعة والعشرين من رجب والله أعلم. ومن الناس من يزعم أن الإسراء كان فى أول ليلة جمعة من شهر رجب، وهى ليلة الرغائب التى أحدثت فيها الصلاة المشهورة، ولا أصل لذلك، والله أعلم.

وقد جاء فى نهاية الأرب أن الإسراء كان فى ليلة السبت، ليلة سبع عشرة من رمضان، قبل الهجرة بثمانية عشر شهرا، وقد أسرى ﷺ به وسنه إحدى وخمسون سنة وتسعة أشهرا!!

وننتهى من هذا إلى أن علماء السيرة النبوية مختلفون فى تعيين اليوم الذى كان فيه الإسراء، ولكن الواقعة ثابتة. وقد اتفقوا على أنها كانت بعد ذهاب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إلى الطائف، وردهم له الرد المنكر، وأن كونها فى ليلة السابع والعشرين من رجب ثبتت بخبر لم يصح سنده فى نظر الحافظ المحدث ابن كثير، وقال من بعد ذكره: والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقد وجدنا الناس قبلوا ذلك التاريخ، أو تلقوه بالقبول، وما يتلقاه الناس بالقبول ليس لنا أن نرده، بل نقبله ولكن من غير قطع ومن غير جزم ويقين.

واتفقت الروايات أيضا على أن الإسراء كان قبل الهجرة بسنة على الأقل، ويظهر أنها كانت فى السنة التى قبل الهجرة فى ثلثها الأول أو الأخير والله سبحانه تعالى أعلم. =

. . . .

= ومن سياق التاريخ ومناسبات الحوادث نرى أن الإسراء كان بعد انشقاق القمر.

وهنا قد يسأل السائل ما المناسبة لمسألة الإسراء والمعراج، وتعيين الله تعالى لزمانها، والله سبحانه وتعالى حكيم عليم، يضع الأمور بموازينها وفى أوقاتها، وأجلها المعلوم، ولنا أن نتعرف حكمة الله تعالى من غير أن نقطع بأن هذا هو مراد الله تعالى، فهو العليم الخبير الذى لا تخفى عليه صغيرة أو كبيرة فى السماء أو فى الأرض.

ونجيب عن هذا التساؤل بما قررنا، وهو أن الله سبحانه وتعالى استجاب لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم فى ضراعته بالدعاء الذى دعا ربه عقب خروجه من الطائف، شكا ضعف قوته فأمده الله تعالى بالقوة، وقلة الحيلة فأمده بحسن التدبير لدخول مكة آمنا مطمئنا، وأيده بآية حسية من نوع ما يطلبون، وإذا كانوا لم يستجيبوا لداعى الله تعالى، فلأن المعاند لا يقنعه الدليل، ولو كان حسيا، فقالوا سحرنا، مع أن انشقاق القمر رأته الركبان فى أسفارها، ثم كان من بعد ذلك الأنس بلقاء الله تعالى فى المعراج، سواء أقلنا إن لقاءه بالله تعالى، كان بالروح فى الرؤيا، أم كان بما هو أكثر من الرؤيا (السيرة العطرة للأستاذ عبد العزيز خير الدين، ونهاية الأرب جـ١٦، ص٢٨٣، ٢٨٤).

لقد أحس النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالوحشة بعد وفاة الحبيبين خديجة العطوف، وأبى طالب الشفيق. فقال الله تعالى له بالفعل أنس الله أكبر، ورحمته أعظم، وحياطته أكرم، وإن عنايته بك وبرسالتك هى التى ستبلغك أمرك، وتحقق لك شأوك، وتصل بك إلى غايتك، وهو المهيمن الرءوف الرحيم، لذلك كان الإسراء، ومن بعده عروجه إلى السماء.

والآن ننتقل إلى الآيات الكريمات التى صرحت بالإسراء، ثم كانت الإشارة الواضحة إلى المعراج قال الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ①﴾ [الإسراء]. ففى هذا النص الإسراء صريحا، وكانت الإشارة إلى المعراج بقوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ⑥⓪﴾، فقد ذكر المفسرون أن الرؤيا هى المعراج.

وقال تعالى فى سورة النجم: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ① مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ② وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ③ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ④ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ⑤ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ⑥ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ⑦ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ⑧ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ⑨ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ⑩ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ⑪ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ⑫ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ⑬ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ⑭ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ⑮ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ⑯ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ⑰ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ⑱﴾. ولقد قرر المفسرون أن هذه الآيات نزلت فى المعراج، وإن ذلك لواضح، وإذا كانت العبارات السابقة لم تصرح بالعروج إلى السموات العلا فإن الإشارات واضحة تكاد تكون تصريحا، والإشارات الواضحة فى قوة الدلالة تكون كالألفاظ الصريحة.

وقد قال بعض علماء السيرة: إن الإسراء بالنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ابتدأ من شعب أبى طالب، وإن كان السند فى ذلك صحيحا، فإنه يشير إلى أن أبا طالب قد مات، وأن مهمته قد انتهت، وأن الله تعالى وهو الباقى الدائم. الأول والآخر والظاهر والباطن به تكون النصرة الدائمة المتجددة فى الشدائد - ولكن الثابت فى البخارى أنه ابتدأ من الحطيم بالمسجد الحرام (البداية والنهاية جـ٣، ص١١٠). =

=الإسراء بالجسم: إن ظاهر الآية القرآنية التى أثبتت الإسراء وهى قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، أن الإسراء كان بالجسد والروح؛ وذلك لأنه سبحانه وتعالى قال: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾، والعبد هو الروح والجسد، وما دام الظاهر لا دليل يناقضه من عقل أو نقل، فإنه يجب الأخذ به، فإنه من المقررات أن الألفاظ تفسر بظاهرها إلا إذا لم يمكن حملها على الظاهر لمعارض، ولا معارض.

وفوق ذلك فإن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عندما أعلن خبر الإسراء بين قريش ففتن بعض الذين أسلموا وارتد من ارتد، ويقول فى ذلك ابن كثير فيما رواه عن قتادة: «انصرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى مكة، فأصبح يخبر قريشا بذلك؛ فذكر أنه كذبه أكثر الناس، وارتدت طائفة بعد إسلامها، وبادر الصديق إلى التصديق، وذكر أن الصديق سأله عن صفة بيت المقدس، وقال: إنى لأصدقه فى خبر السماء بكرة وعشيا، أفلا أصدقه فى بيت المقدس، فيومئذ سمى أبو بكر الصديق.

وإنه روى أنه عند مروره صلى الله تعالى عليه وسلم على عير لقريش فَنَدَّ بعير لهم نافرا، فأرشدهم النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إلى مكانه، وقد أخبروا أهل مكة بذلك (الروض الأنف، جـ١، ص٢٤٤).

وإنه روى أن أهل مكة الذين ردوا القول استوصفوه عيرا لهم فوصفها، وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم فى إخبارهم، والاستدلال على صدقه: «وآية ذلك أنى مررت بعير بنى فلان، بوادى كذا وكذا، فأنفرهم حسن الدابة (هى البراق التى سنذكر الروايات عنه من بعد) فندَّ لهم بعير، فدللتهم عليه، وأنا متوجه إلى الشام، ثم أقبلت، حتى إذا كنت بصحنان مررت بعير بنى فلان، فوجدت القوم نياما، ولهم إناء فيه ماء، قد غطوا عليه بشىء، فكشفت غطاءه، وشربت ما فيه، ثم غطيت عليه كما كان، وآية ذلك أن عيرهم تصوب الآن من ثنية التنعيم (هو المكان) البيضاء يقدمهم جبل أورق عليه غرارتان، إحداهما سوداء، والأخرى برقاء، فابتدر القوم الثنية... وسألوهم عن الإناء وعن العير فأخبروه، كما ذكر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم.

وإن هذا كله يدل على أن الإسراء كان بالروح والجسد، فإن تلاقى مع المارين بين مكة والشام وأخبر عن التلاقى، وصدق خبره ﷺ، وإذا كانت بعض هذه الروايات فى إسنادها كلام، فإن بعضها يقوى الآخر، ونص القرآن ظاهر فى تأييد الدعوى، بل لا يدل على غيرها حتى يقوم الدليل.

ولو كان الإسراء بالروح أو الرؤيا الصادقة ما كانت ثمة غرابة تمنع التصديق، ولبادر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بإخبارهم إلى أن ذلك رؤيا فى المنام، أو هذا وحى أوحى به إليه.

ولقد كان بجوار هذا القول الذى تنطق به الآية الكريمة قول آخر روى عن أم المؤمنين عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها وعن أبيها الصديق، وروى أيضا عن معاوية بن أبى سفيان، وقد كان إبان ذلك هو وأبوه من المكذبين الذين يناوئون الدعوة، ولكن لعله نقل عن غيره ممن شاهدوا، وعاينوا، كما نقلت عائشة عن غيرها، وما كانت فى ذلك الإبان قد زفت إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم.

وقد كان معاوية مسلما من بعد أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وعن أبيها الصديق، واحتج بقول عائشة هذا، وقد أثر عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه أمر بأن يؤخذ الدين عن عائشة.

ولكن الخبر عنها يحمل فى نفسه ما يوهم عدم صدقه عنها، ففيه أنها قالت: «لم تفقد بدنه» وإن ذلك يوهم أنها كانت معه فى مبيت واحد، مع إجماع المؤرخين والمحدثين على أنه لم ين بها إلا فى المدينة. =

. . . .

= وقد استدل أصحاب هذا القول بما روى الحسن البصرى عن أن قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ وقالوا إن الرؤيا هى ما يكون فى المنام، كما حكى عن سيدنا يعقوب: أنه قال لابنه يوسف بعد أن قص عليه ما رآه فى المنام: ﴿... لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ ... ⑤﴾ [يوسف].

وجاء فى كتاب البصائر للفيروزأبادى: «الرؤيا ما رأيته فى منامك، والجمع رؤى كهدى، وقد تخفف الهمزة من الرؤيا، فيقال بالواو» (بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ج٣، ص١٧٧). وهذا وغيره نصوص صريحة فى أن الرؤيا منامية. ولكن أهى كانت فى الإسراء أم كانت فى المعراج؟ إن رواية الحسن رضى الله عنه تقول: هى ما كان فى ليلة المعراج، نعم إن الليلة كانت واحدة، ولكن النص على ليلة المعراج يدل على أن كلام الحسن ومن معه فى المعراج لا فى الإسراء.

ويستد أصحاب هذا القول، وهو أن الإسراء كان بالروح بحديث البخارى عن أنس بن مالك قال: ليلة أسرى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من مسجد الكعبة جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه، وهو نائم فى المسجد الحرام. فقال أولهم: أيهم هو، قال أوسطهم: هذا، وهو خيرهم، فقال آخرهم: خذوا خيرهم... فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه، وتنام عينه ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم، ولا تنام قلوبهم، ولم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند زمزم، فتولاه منهم جبريل... والحديث طويل وقال فى آخره واستيقظ وهو فى المسجد الحرام، ويرى صاحب الروض الأنف أنه نص لا إشكال فيه.

ونرى أن فيه إشكالا؛ لأنه نص فيه على أنه كان قبل أن يوحى إليه، ونرى أنه لم يتعرض لذكر الإسراء والمعراج، ولعلها كانت إذا صحت الرواية فى موضوع آخر.

ويرى صاحب الروض الأنف أن الأدلة قد تعارضت بالنسبة للإسراء، وأنه يوفق بينهما بأن الإسراء كان مرتين: إحداهما بالروح والأخرى بالجسد والروح.

ونحن نرى أن الأدلة لم تتعارض، بل الأدلة على أن الإسراء كان بالجسد والروح هى التى لا ريب فيها، ولا يمكن أن يعارض الضعيف القوى.

ولذا نرى أن الإسراء كان بالجسد والروح، ولا نجد فيما استدل به على ما يدل على أنه كان بالروح فقط، وإن الآية ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ لا نرى أن موضعها هو الإسراء، بل إن موضوعها هو المعراج.

ولا غرابة فى أن ينقل الله تعالى نبيه من مكة إلى بيت المقدس وأن يعود به فى ليلة واحدة، فإن هذا ليس ببعيد على الله تعالى؛ لأن المسافات فى الزمان والمكان، إنما هى بالنسبة للعبيد، ولا تكون قط بالنسبة لله سبحانه وهو القادر على كل شىء، وهو خالق الأماكن والأزمان.

المعراج بالروح: إن الأكثرين من العلماء على أن المعراج كالإسراء كان بالجسد والروح، وأخذوا ذلك من ظواهر الأحاديث الصحيحة التى روتها السنة، ففيها التصريح بأنه لقى آدم فى سماء، وإبراهيم فى مثلها وإدريس، وعيسى ويحيى وموسى، وهذه الظواهر آثروا الأخذ بها.

ولكن أولئك الأكثرين وقفوا عند رؤية الله تعالى، فقال فريق منهم إنه رأى ربه وخاطبه، وكان ذلك تكريما له لمخاطبة الله تعالى اختص به محمد صلى الله تعالى عليه وسلم تعظيما وتقريبا له، وهو فوق=

. . . .

=المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ... (٥١)﴾ [الشورى] وليس من هذه الثلاثة رؤية الله تعالى، وتلقى الرسول منه مباشرة من غير حجاب.

وقد رأى ذلك الرأى الإمام أحمد بن حنبل وقاله أيضا أبو الحسن الأشعرى، وقالت طائفة أخرى لم يقع ذلك لحديث مسلم عن أبي ذر رضى الله تبارك وتعالى عنه: «قلت يا رسول الله هل رأيت ربك فقال عليه الصلاة والسلام إنه نور أنى أراه، وفى رواية رأيت نورا».

والذين قالوا إن الإسراء كان بالروح وفى رؤيا صادقة قالوا ذلك فى المعراج، بل هو أولى، فالرحلة كلها كانت رؤيا صادقة، وقد بينا القول فى أدلة هذا الرأى بالنسبة للإسراء من قول.

وقد انضم إليهم غيرهم ممن يرون أن الإسراء كان بالجسد والروح، فمنهم من قال إن المعراج كان بالروح وليس فى الموضوع نص قرآنى يدل بظاهره على أنه كان بالجسد والروح، حتى لا يكون مناص من اتباعه أو تأويله، بل نجد الألفاظ تقبل أن يكون المعراج بالروح، وبالظاهر المتبادر، لا بالتأويل المنتزع انتزاعا.

ولننظر فى الآيات الكريمات الدالة على المعراج:

دلالة آية الإسراء على المعراج بالإشارة لا بالعبارة، وذلك فى قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ فتلك الآيات التى أراها الله عبده هى المعراج، وإمامة الأنبياء السابقين.

والآيات الأخرى التى دلت على المعراج، كانت ألفاظها لا تدل على المعراج إلا بالإشارات البيانية، ولننظر فيها عبارة عبارة، وكلها من السمو البيانى فى المكان الأعزل الذى لا يصل إليه بيان قط.

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦)﴾ [النجم]، فقد قالوا إنه جبريل عليه السلام، وإذا كان الله تعالى، فتعليمه ل يكون بالتلقين بل يكون بالإرشاد والإيحاء.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧)﴾ [النجم]، يراد جبريل عليه السلام، ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨)﴾ [النجم]، أى نزل وقرب من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠)﴾ [النجم] عن طريق جبريل، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣)﴾ [النجم]، وهو جبريل أيضا، وقوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١)﴾ [النجم] تومىء إلى أن الآيات الكبرى التى رآها كانت بفؤاده لا ببصره، وقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧)﴾ [النجم]، أى ما كل وما تجاوز حده، والنفى فيه ما قد يكون لأنه لم تكن رؤية بالبصر، حتى يكل المبصر أو يتجاوز حده، وقد يكون لبيان أن البصر لم يتجاوز حده ليطغى، ويحاول أن يرى ما لا يمكن أن يراه، ويزيغ بأن يكل ويمل، ويلقى فى النفس ما لم ير.

وإننا عند هذا النظر الفاحص ننتهى إلى أن الإسراء إذا كان بالجسد والروح، فإن المعراج كان بالروح فقط، وأنه كان رؤيا صادقة، وقد اتجهنا إلى ترجيح ذلك لما يأتى:

(أ) أنه ذكر فى المعراج أنه التقى بالأنبياء آدم وإبراهيم وموسى ويحيى، وغيرهم، والباقى منهم هو أرواحهم، وأجسامهم سيبعثها الله تعالى يوم البعث والنشور، وفرض أنه بعثها ثم أفناها فرض بعيد لم يذكر فى حديث من الأحاديث، ولا خبر من الأخبار، ولو ضعيفا، وكل فرض فى أمر غيبى لا دليل عليه من المنقول فهو رد على قائله إلا أن يكون أمرا يؤدى إليه البرهان العقلى، ولا يوجد شىء لا من المنقول ولا المعقول يقرر إعادة أجسام الأنبياء الكرام أحياء، ثم إعادتها إلى الفناء. =

. . . .

= (ب) إن العبارات القرآنية الواردة فى المعراج تومئ بل تصرح بأن الأمر فى هذه الرحلة السماوية كان روحيا وأن الإدراك لم يكن بالحس، بل كان بالقلب والفؤاد، فالله تعالى يقول: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢)﴾ [النجم]، فالحديث القرآنى كله كان فى إثبات رؤية الفؤاد، وأنه لا تجوز المماراة فيما رأى الفؤاد الذى لا يكذب، وذلك لا يتحقق إلا بأن تكون الرؤية روحية؛ لأن روية القلب لا تكون إلا روحية، وإنه عندما ذكرت حاسة البصر ذكرت بالنفى، لا بالإيجاب، وقد بينا مؤدى النفى فى هذا.

(جـ) أن أخبار المعراج تصرح بأنه رأى ربه، والرؤية القلبية باستحضار عظمته، وبالسبحات الروحية المتجهة إلى الله سبحانه وتعالى، وأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد قرر أنه لم ير ربه فى حديث أبى ذر الغفارى، فقد قال عليه الصلاة والسلام فى إجابة سؤال الصحابى الجليل أبى ذر: «إنه نور، فأنى أراه».

إننا لا نتعرض فى ذلك لكون رؤية الله تعالى يوم القيامة ممكنة، أو غير ممكنة، فذلك يوم القيامة بعد البعث والنشور، وذهاب أهل الجنة إليها، وإبقاء أهل النار فيها، فإن الكلام فيها غير الكلام فى الدنيا، ونحن نحس ونرى، فإن كانت رؤية الله الآن فهى بالعين الفانية، ورؤية أهل الجنة عند من يثبتونها تكون بالعين الباقية، والله أعلم كيف يرى.

وننتهى من هذا إلى تقرير حقيقتين نراهما:

الأولى: أن الإسراء كان بالجسد والروح بظواهر النصوص المثبتة، ولا معارض لها.

الثانية: أن المعراج كان بالروح فقط لعدم وجود الأدلة المثبتة أنه كان بالجسد والروح من القرآن، ولوجود المعارض من النقل والفعل.

والآن نعود إلى قصة الإسراء والمعراج كما هى فى الصحاح على أن نفسر الألفاظ على ضوء هاتين الحقيقتين اللتين قررناهما.

الإسراء والمعراج فى صحاح السنة: كان من الممكن أن نقف بالنسبة للإسراء والمعراج عند هذا الذى قررناه، ولكن يجب أن نستأنس بالمنقول عن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم على أساس أن كل ما ذكر فى المعراج أنه بالروح.

وقد رويت روايات مختلفة تتعلق بواقعة الإسراء ثم العروج، نختار منها رواية البخارى.

روى البخارى بسنده عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة، أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم حدثهم عن ليلة أسرى به قال:

«بينا أنا فى الحطيم، وربما قال فى الحجر ـ مضجعا إذ أتانى آت، وسمعته يقول: فشق ما بين هذه إلى هذه، فقلت (أى الراوى) للجارود وهو إلى جنبى ماذا يعنى به، قال من نقرة شعره إلى شعرته، وسمعته يقول من قصه إلى شعرته. «فاستخرج قلبى، ثم آتيت بطشت من ذهب مملوء إيمانا فغسل قلبى، ثم حُشى، ثم أعيد. . . . ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض، فقال الجارود، وهو البراق: قال أنس: نعم. يضع خطوه عند أقصى طرفه، فحملت عليه، فانطلق بى جبرائيل، حتى أتى السماء الدنيا، فاستفتح قيل من هذا؟ قال: جبرائيل، قال: ومن معك! قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبا به، فنعم المجىء جاء. ففتح، فلما خلصت فإذا، آدم، فقال: هذا أبوك آدم، فسلم عليه، فسلمت عليه فرد السلام فقال: مرحبا بالابن الصالح، والنبى الصالح، ثم صعد بى إلى السماء الثانية، فاستفتح، قيل: من=

. . . .

=هذا؟ قال: جبرائيل، قيل ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه، قال: نعم، قيل: مرحبا به فنعم المجيء جاء ففتح، فلما خلصت، إذا بيحيى وعيسى وهما ابنا خالة، قال: هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما فسلمت عليهما فردا ثم قالا: مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح.

ثم صعد بى إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبرائيل: قيل من هذا؟ قال: جبرائيل، قال: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه! قال: نعم قيل: مرحبا به فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خلصت إذا يوسف. قال: هذا يوسف فسلم عليه، فسلمت عليه فرد، ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح.

ثم صعد بى إلى السماء الرابعة فاستفتح، قيل: من هذا؟، قال: جبرائيل، قال: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه، قال: نعم، قيل: مرحبا به فنعم المجيء جاء، فلما خلصت إذا إدريس، قيل: فسلم عليه، فسلمت عليه فرد، ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح.

ثم صعد بى حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبرائيل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل، وقد أرسل إليه! قال: نعم، قيل: مرحبا به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت إذا بهارون، قال: هذا هارون فسلم عليه فسلمت عليه، فرد، ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح، ثم صعد بى حتى أتى السماء السادسة، فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبرائيل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل، وقد أرسل إليه! قال: نعم، قيل: مرحبا به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت إذا موسى، قال: هذا موسى فسلم عليه، فسلمت عليه فرد، ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح، فلما تجاوزت بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكى؛ لأن غلاما بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر ممن دخلها من أمتى.

ثم صعد بى إلى السماء السابعة، فاستفتح جبرائيل، قيل: من هذا؟ قال: جبرائيل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل، وقد أرسل إليه! قال: نعم، قيل: مرحبا به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت، إذا إبراهيم. قال: هذا أبوك إبراهيم فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد، ثم قال: مرحبا بالابن الصالح والنبى الصالح.

ثم رفعت إلى سدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار، نهران ظاهران، ونهران باطنان، فقلت: ما هذا يا جبرائيل؟ قال: أما الباطنان فنهران فى الجنة، وأما الظاهران، فالنيل والفرات، ثم رفع لى البيت المعمور، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم أتيت بإناء من خمر، وإناء من لبن، وإناء من عسل، فأخذت اللبن. قال: هى الفطرة التى أتيت عليها أمتك.

ثم فرض على الصلوات خمسون صلاة كل يوم، فرجعت فمررت على موسى، فقال: بم أمرت؟ قلت: أمرت بخمسين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإنى والله قد جربت الناس قبلك، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك، فسله التخفيف لأمتك فرجعت، فوضع عنى عشرا، فرجعت إلى موسى، فقال مثله. فرجعت، فوضع عنى عشرا، فرجعت إلى موسى، فقال مثله. فرجعت، فوضع عنى عشرا، فرجعت إلى موسى، فقال مثله، فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم، فقال مثله، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى، فقال: بم أمرت؟، =

. . . .

=فقلت: بخمس صلوات كل يوم. قال: أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإنى قد جربت الناس قبلك، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك، قال: سألت ربى حتى استحييت، ولكنى أرضى وأسلم، قال: فلما جاوزت نادانى مناد: أمضيت فرضيت وخففت عن عبادى.

وفى رواية البخارى فى كتاب التوحيد أنه بعد أن راجع به بمشورة موسى عليه السلام، وجاء فى مراجعة الخامسة أنه قال لربه: «يا رب إن أمتى ضعفاء وأجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم وآذاتهم، فخفف عنا، فقال الجبار تبارك وتعالى: يا محمد، قال: لبيك وسعديك. قال: إنه لا يبدل القول لدى، كما فرضت عليك فى أم الكتاب، قال: لكل حسنة بعشر أمثالها، فهى خمسون فى أم الكتاب هى خمس عليك» (البداية والنهاية جـ٣ والتفسير لابن كثير أول سورة الإسراء).

وإنه من المتفق عليه بين العلماء أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أَمَّ الأنبياء جميعا، وعلى مقتضى الذين قالوا إن الإسراء كان بالروح تكون الإمامة روحية ثبتت بالرؤيا الصالحة، وكذلك يرى الذين قالوا إن المعراج كان روحيا.

ولكن من الرواة ما يدل سياق روايته على أن صلاة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالأنبياء إماما كان مقدمه إلى المسجد الأقصى، ومن الرواة ما يدل سياق الرواية على أن الإمامة كانت وهو يعرج إلى السموات العلا.

واختار ابن كثير فى تاريخه أن إمامته للأنبياء كانت بعد أن نزل من العروج، ويقول فى ذلك:

«وهبط رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى بيت المقدس، والظاهر أن الأنبياء هبطوا معه تكريما له وتعظيما، عند رجوعه من الحضرة الإلهية العظيمة، كما هى عادة الوافدين، لا يجتمعون بأحد قبل الذين طلبوه إليه، ولهذا كان كلما سأل على واحد منهم يقول له جبريل: هذا فلان فسلم عليه، فلو كان قد اجتمع بهم قبل صعوده ما احتاج إلى تعرفه بهم مرة ثانية، ومما يدل على ذلك أنه قال ﷺ: «فلما حانت الصلاة أَمَمْتُهم، ولم يجئ وقت إذ ذاك إلا صلاة الفجر، فتقدمهم إماما بهم عن أمر جبريل فيما يرويه عن ربه عز وجل» (البداية والنهاية جـ٣، ص١٣).

وإن هذا الكلام يدل على أن إمامة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم للأنبياء كانت بعد أن تنزل من الأفق الأعلى، وإن المعراج كما انتهينا كان بالروح، وكانا رؤية صادقة.

هذه قصة الإسراء والمعراج، كما نص عليها فى القرآن، وكما جاءت بها السنة الصحيحة، وقد ذكرناها بشىء من الإطناب، لكثرة الكلام حولها، ولاختلاف الروايات، فكان لا بد من أن نصفى القول فيها. وخصوصا أنها وانشقاق القمر أعظم خوارق للعادات الحسية التى كانت فى حياة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ومع ذلك لم يتحد بها كما تحدى بالقرآن الكريم؛ لأن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم إنما تحدى بما يتناسب مع خلود شريعته، ودوام رسالته وهو ما يبقى مخاطبا الأجيال كلها إلى يوم الدين، وهو القرآن الكريم.

بعد أن ذكر بيت المقدس ذكر موسى الذى أراد أن يدخل الأرض المقدسة فقعد بنو إسرائيل، وقالوا مقالة الجبن والنذالة: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤)﴾ [المائدة].

قال الله تعالى:

﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً (٢)﴾.

إن الواو هنا عاطفة وعطفت ﴿آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ على ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا﴾ ويكون المعنى أكرم الله محمداً ﷺ بالإسراء والمعراج، وجعله حجة على الناس، إذ يكفرون بالآيات وقد طلبوها، وأكرم موسى بالكتاب أتاه فيه الشرائع، ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً﴾ أى كفيلا، أو ربا تكلون إليه أموركم، أو وليا ونصيرا.

وإن هنا على قراءة التاء ﴿تَتَّخِذُوا﴾ تفسيرية، أى هو ألا تتخذوا من دونه وليا، وهناك قراءة بالياء (يتخذوا)(١) وعلى هذه القراءة يكون المعنى جعلناه هدى لبنى إسرائيل فلا يتخذوا من غير الله وكيلا أى وليا وربا، كقوله تعالى: ﴿وَلا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا.. (٨٠)﴾ [آل عمران].

وأنه بهذا العطف يتبين أن شرائع الله متصلة وأن أنبياء الله تعالى مكرمون، كما أن الإسراء جمع النبيين عند بيت المقدس فقد جمعهم الله تعالى فى التكريم هذا بالكتاب والإسراء والمعراج، وذاك بالكتاب الذى كان هداية لبنى إسرائيل ألا يتخذوا شريكا، ثم بين سبحانه وتعالى صلة الأنبياء من عهد نوح فقال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾.

---

(١) (ألا يتخذوا) بالياء غيبا: قراءة أبى عمرو، وقرأ الباقون بالتاء خطابا. غاية الاختصار: ٢/ ٥٤٤.

هذه الآية الكريمة موصولة بما قبلها للدلالة على أن النبوة متصلة متحدة فى غايتها، وفى نهايتها، ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ منصوب على الاختصاص والمعنى نخص بالذكر ذرية من قد حملنا، ويصح أن تكون نداء، والمعنى يا ذرية من قد حملنا مع نوح، والخطاب لأتباع محمد أو من بعث فيهم محمد ﷺ وبنى إسرائيل، وإنه قد أكد سبحانه وتعالى أنهم من ذرية من حمل مع نوح، وكان الذين حملوا مع نوح فى السفينة هم المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله، ولم يكونوا مشركين، كما قال تعالى عند النجاة فوق السفينة، ﴿...وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (٤٠)﴾ [هود].

والمعنى أن أصلكم قد اختاره من بين المشركين ليكون الإيمان هو الباقى، وقد كرم الله من تبع نوحا، والذين آمنوا به بتكريم نوح وذكر فضله فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾، الضمير يعود إلى نوح عليه السلام، وذكر له سبحانه وصفين كريمين:

الوصف الأول: أنه كان عبدا يحس بنعمة العبودية لله تعالى فلم يكن ذا جبروت، بل كان خاضعا لله سبحانه وتعالى، والخضوع لله تعالى وحده هو العزة التى لا ذل فيها ولا استكبار.

والوصف الثانى: أنه شكور، أى كثير الشكر لله تعالى على نعمائه فى سرائه وضرائه، جاء فى الكشاف للزمخشرى ما نصه: «إنه كان إذا أكل قال الحمد لله الذى أطعمنى، ولو شاء أجاعنى، وإذا شرب قال: الحمد لله الذى سقانى، ولو شاء أظمأنى، وإذا اكتسى قال: الحمد لله الذى كسانى، ولو شاء أعرانى، وإذا احتذى قال: الحمد لله الذى حزانى، ولو شاء أحفانى، وإذا قضى حاجته قال: الحمد لله الذى أخرج عنى أذاى فى عافية، ولو شاء حبسه»، وروى أنه كان إذا أراد الإفطار عرض طعامه على من آمن به، فإن وجده محتاجا آثره».

وسواء صحت نسبة هذه المعانى إلى أبى البشرية الثانى أم لم تصح فإن هذا الكلام يدل على أن فى كل أمر من أمور الإنسان نعمة توجب الشكر.

وإن ذكر هذه الأوصاف لنوح عليه السلام فيه تعليل لشرف الاتباع له وبيان أن من حملهم معه جديرون بالتكريم، وفيه مع ذلك دعوة لأن يجعلوه أسوة فقد جعله من حملهم معه أسوة لهم فاتخذوه أيضا أسوة.

بعد ذلك بين الله ما فعله بنو إسرائيل فى المسجد الأقصى، فقال عز من قائل:

وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ
مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا
عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ
وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ
وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾
إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ
وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ
كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾
عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ
حَصِيرًا ﴿٨﴾

بعد أن ذكر سبحانه مكانة بيت المقدس وأنه مَسْرى النبى صلى الله عليه وسلم ومنه عرج بروحه إلى السموات العلا ذكر سبحانه ما صنعه بنو إسرائيل حوله، وما صنع به

فى حكمهم حتى أسلموه إلى غيرهم، أو انتزعوه منهم، وجاء الإسلام فأنقذه من أعدائهم، وكان فى المسلمين قوة، وكان الإيمان قوتهم، فلما ضعفوا وهانوا كان الحكام من غيرهم، فآذاهم فيه النصارى أولا ثم تدرع اليهود بدرع غيرهم وتنمروا.

قال تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً ﴾ أى تقدم إليهم فى كتابهم الذى نزل عليهم، كما قال تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦) ﴾ [الحجر] وقيل أوحينا إليهم علما مقطوعا مبتوتا، ولا شك أن الوحى هنا توجيه نفسى، وتصريف للقلوب؛ لأنها غوت وضلت، وما كان الله تعالى يوحى بفساد وإنما هو من إغواء الشيطان. والكتاب هو ما قدره الله تعالى فى اللوح المحفوظ.

وقد التفت سبحانه وتعالى فى تصريف بيانه الحكيم من الغيبة إلى الخطاب فقال: ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾ وهذا موضع الإعلام الذى هو معنى ما قضاه الله وتقدم به إليهم فى لوحه المحفوظ، واللام لام القسم، والنون نون التوكيد الثقيلة التى تقترن بالقسم وجوبا، والقسم من الله تعالى تأكيد لوقوع الأمر، كما أقسم سبحانه وهو أنهم «يفسدون فى الأرض مرتين» وذكر سبحانه أن فسادهم تكون عاقبته أنه يعم الأرض، أى أرض بيت المقدس، أو يسرى فى الأرض التى تقاربه، أما ما حول بيت المقدس فهو مبارك ببركة الله تعالى، كما قال فى أول السورة: ﴿ الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾، والفساد بان لهم، ممن على شاكلتهم فى الأرض، وقال سبحانه وتعالى مقسما: ﴿ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً ﴾ فقرن علوهم بفسادهم، وذلك لما استمكن فى قلوبهم من الحسد والحقد، وإن اقتران علوهم بالفساد يفيد أمرين:

الأمر الأول: أن علوهم يعقبه طغيان، والطغيان يعقبه الفساد.

الأمر الثاني: أن علوهم فيه اعتداء فاجر فاعتداؤهم بقتل الأنبياء وأكلهم الربا والسحت وأن يقتل بعضهم بعضا، ويلاحظ أنه ذكر الفساد مرتين، ولم يذكر عدد العلو لأنه لا عدد له إن وجدت أسبابه.

ووصف الله تعالى علوهم بأنه يكون علوا كبيرا؛ وذلك لأنه يكون على أيدى أنبياء، وسرعان ما تعود إليهم نفوسهم الآثمة فيقتلون ما أعلاهم به الأنبياء إلى فساد وانحراف، ألم تروه بعد أن أنقذهم الله تعالى من فرعون، وأغرقه وملأه رأوا قوما يعكفون على أصنام لهم ﴿ ... **قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ**... (١٣٨) ﴾ [الأعراف]، وعبدوا العجل فى غيبة موسى وقد ذهب على موعد من ربه.

﴿ **فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً** (٥) ﴾.

أولاهما: هى المرة الأولى التى يفسدون فيها، وأكد الله تعالى الإفساد فيها فى ضمن تأكيد الإفساد مرتين.

و﴿ **وَعْدُ** ﴾ معناها ـ ميعاد ـ وعبر سبحانه وتعالى بوعد دون التعبير بميعاد؛ لأن ميعاد اسم للزمن، ويتضمن الوعد؛ وذلك لأن المصدر فيه إيذان بتوكيد ما وعدهم الله به، وقد قرن سبحانه وتعالى فساد المرة الأولى ببعث الجيوش المخربة الهادمة أو المذلة لهم أو المذهبة لاستقلالهم.

وقد جعل سبحانه ﴿ **بَعَثْنَا** ﴾ جواب شرط لقوله تعالى: ﴿ **فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا** ﴾ وهى المرة الأولى للفساد، وهذه القضية الشرطية تفيد أن الفساد فى الأمم يتردى إلى أن تكون نهبا للمغيرين عليهم، وأن الحصن الحصين لمنع غارات المغيرين هو استقامة الأمة فى ذات نفسها وإقامة العدالة والحكم بالأمانة والعدل، وأما فسادها فإنه يؤدى إلى الانهيار وأن تكون طُعْمة للمغيرين يجدون فيها مغانم يغنمونها.

وقوله تعالى: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا﴾ وعبر سبحانه بـ ﴿بَعَثْنَا﴾، أى أنهم جاءوا إليهم كأنهم مبعوثون لهم مسلطون عليهم، وأسند سبحانه البعث إلى ذاته العلية؛ لأنه جاء على سنة الوجود التى سنها، ولن تجد لسنة الله تبديلا، وهو أن الفساد يغرى بالهجوم على الفاسدين، ولأن المغالبة الإنسانية تجعل القوى يأكل الضعيف ولا ضعف أكثر من استشراء الفساد فإنه يهدم كيانها ويعرضها للفناء، سنة الله تعالى فى الوجود.

وقال تعالى: ﴿عِبَادًا لَّنَا﴾ هنا إشارتان بيانيتان:

الإشارة الأولى: أنه عبر بـ (عباد) وذلك إشارة إلى أنهم خاضعون لإرادة الله تعالى فيهم.

والإشارة الثانية: إضافتهم له سبحانه وتعالى بما يفيد الاختصاص، ومؤدى ذلك أن الله جعلهم له لا لأجل العبودية والطاعة، بل ليكونوا آلة تأديب وتهذيب لمن يخرجون عن الهداية ويقعون فى الفساد، وهؤلاء الجبارون هم طُعْمة لغيرهم إذا فسدوا، وهكذا يتدافع الشر، ويدفعه أخيرا الخير، ﴿... وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١)﴾ [البقرة].

ووصف سبحانه وتعالى أولئك العباد، بأنهم ﴿أُوْلِي بَأْسٍ﴾، البأس: القوة، و﴿شَدِيدٍ﴾، أى فيه بطش وعتو، ولا يرحمون أعداءهم وقد نزعت منهم النواحى الإنسانية العاطفة كالتتر فى طغيانهم، وإذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة.

وإنهم فى حروبهم لا يقنعون بأماكن الجند ومعسكرات الحرب، بل يدخلون المدائن ويجوسون خلال دورها، ويترددون خلال هذه الدور، وفى ذلك إشارة إلى أنهم يقتلون النساء والذرية والضعفاء من العَجزة فلا يعرفون قانونا مانعا، ولا نظاما حاجزا، إنما شهوتهم إلى الدماء والمجازر البشرية.

ولقد بين سبحانه وتعالى أن ذلك كان وعدا مفعولا، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً﴾، أى كانت غارات هؤلاء الغلاظ الأشداء وعدا؛ لأنه

بمقتضى السنة الإلهية أن من كان فاسدا من الجماعات والأمم يكون فريسة لمن هم أقوى قوة، وأكثر عددا وأشد بأسا، ووصف سبحانه وتعالى الوعد بأنه مفعول، أى واقع وقائم، ومنجز لا تتخلف الإغارة عن الفساد، كما لا يتخلف السبب عن سببه، ولا المقدمة عن نتيجتها.

هذه هى المرة الأولى من الفساد التى ادلهمت على بنى إسرائيل بسببها المدلهمات ونجوا منها بقيادة داود عليه السلام، إذ قتل داود جالوت، كما ذكر القرآن الكريم على بعض الأقوال، ولنشر بكلمة نقبض منها قبضة يسيرة من تاريخهم.

لقد ثبت فى تاريخهم أنه بعد أن قتل داود جالوت، وآتى الله داود حكم بنى إسرائيل ثم خلفه من بعده ابنه سليمان واتسع ملكه واستولى على اليمن، وقدمت إليه ملكتها وسخر الله تعالى له كل شيء. جاء من ذريته من كان سببا فى انقسام الاثنى عشر سبطا، إلى سبطين سيطرت فى حكمهما الوثنية، والعشرة الآخرون ترددوا بين الوثنية أحيانا قليلة والوحدانية أحيانا كثيرة، واستمرت مملكة بنى إسرائيل نحوا من ألف وخمسين ومائتى سنة، وفى نهاية فسادهم أغار عليهم ملك آشور وفتح السامرة وأغار على السامرة وسباهم إلى آشور وأحل محلهم قوما من بلاده.

وبعض من الأسباط الذين انفصلوا استمر ملكهم أمدا حتى انقض عليهم - بختنصر - ملك بابل فسباهم وقتل من قتل وحرق التوراة وبذلك انقرضت مملكة بنى إسرائيل وأقام اليهود فى بابل.

ثم جاء الإسكندر المقدونى ومن بعده، والإسرائيليون أحيانا يكونون تحت حكم غيرهم وأحيانا تحت تسلط سوريا.

ثم استولى الرومان على أرض فلسطين وجرت بينهم وبين الرومان حروب انتهت إلى تسلط الرومان عليهم.

هذه قبضة يسيرة من تاريخهم ثم نعود إلى القرآن.

قال الله تعالى:

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦﴾.

أكثر المفسرين على أن الخطاب لبنى إسرائيل وعلى أن الكرَّة التى كروا بها على أعدائهم كانت فى عهد داود عليه السلام، وأن السلطان آل إليهم وتوطد فى عهد سليمان عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ۝٣٦ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ۝٣٧ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ۝٣٨ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٩ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ۝٤٠﴾ [ص].

وإن ذلك بلا ريب واضح ولكن مؤداه أن بنى إسرائيل تمكنوا فى الأرض من بعد انتصار داود على جالوت ولم يكن منهم فساد من بعد، مع أن النص القرآنى أثبت أنهم أفسدوا مرتين فما هو الفساد الثانى؛ وإذا لم يكن فساد ثان، أو مرة ثانية فهل تكون الآية غير صادقة! معاذ الله، إنه كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ولذلك نذكر رأيا نميل إليه، وهو أن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ خطاب للنبى ﷺ ويكون فى الكلام التفات من خطاب بنى إسرائيل إلى خطاب محمد وأصحابه، ورد الكرةَّ للنبى ﷺ معناه رد الدولة إليه ﷺ، وقوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾، والنفير من ينفر مع الرجل من جند وجيش، وقد كان مع محمد وصحبه الأكرمين الأموال من غنائم الحروب والجند الكثيف، والبنون الذين جاءوا من ذرية المؤمنين.

وقد سوغ لنا أن نقول: فى هذا القول أمور:

الأمر الأول: تحقيق الفساد من بنى إسرائيل مرتين، وأنه لا يتحقق الفساد فى المرة الثانية إلا بدخولهم المسجد كما دخلوه أول مرة، وأنهم ما أخرجوا منه فى المرة الأخيرة إلا فى عهد الرومان.

الأمر الثانى: أن المرة الثانية هى التى دخلوا فيها المسجد مرة ثانية وخربوا ما علوا تخريبا وذلك ما أضافه المسلمون إلى المسجد.

الأمر الثالث: أنه لا يمكن أن يكون المخاطبون اليهود؛ لأنهم ما ساءت وجوههم بدخول المسجد بل ساء وجوه غيرهم، وهم الذين يعلمونهم ساسة المسلمين، وخصوصا ساسة العرب، وبالأخص ساسة مصر والأردن.

الأمر الرابع: قوله تعالى: ﴿ **عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ** ﴾ لا يمكن أن يكون لليهود إنما يكون للمسلمين لينشطوا من عقال وليرتفعوا بَعْدُ عزة، وليذهبوا المذلة.

يقول عز من قائل:

﴿ **إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧)** ﴾.

الخطاب للمسلمين، حثا لهم على أن ينفضوا عن أنفسهم غبار الذل والعار ﴿**إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ**﴾، لأنه يزيل العار ويجلب الفخار، والإحسان إجادة العمل، والاستعداد لإخراج الأشرار من المسجد وتطهيره من طغاة أهل الأرض ورفع المذلة عن أهله وإعادة مسرى النبى ﷺ إلى المؤمنين.

﴿**وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا**﴾، وإن أسأتم فمغبة الإساءة عليكم، وقال سبحانه: (لكم)، ولم يقل عليكم؛ للإشارة إلى تمام التبعة، فكأنهم الذين اجتلبوها لأنفسهم كأنهم طلبوها وأرادوها، بكسلهم وفساد نفوسهم، وتفرق أمرهم وتركهم المعانى الإسلامية مفرطين فى أمرها، بل مفرطين فى أنفسكم لأنه لا قوة لكم إلا بها.

والفاء فى قوله: ﴿ **فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ** ﴾، بعد قوله ﴿ **وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا** ﴾ فاء الترتيب والتعقيب. والمعنى «فإذا جاء وعد الآخرة بعد أن أسأتم، ليسوءوا وجوهكم» (ليسوءوا): متعلق بفعل محذوف تقديره جاءوا أى جاءوا ليسوءوا وجوههم، وعبر بالوجوه لأن الوجه تبدو عليه مظاهر السوء والكآبة والحزن،

ومعالم العار والخزى من أتباع محمد الذين يدينون بدين العزة والكرامة، والبعد عن الذل والمهانة، وليدخلوا المسجد كما دخلوه، أى ليدخلوه بعد أن أخرجوا منه، إذ أخرجهم الرومان، وأخرجهم المؤمنون فكان من عهد عمر لأهل إيلياء ألا يدخل عليهم اليهود، وقد دخلوه أول مرة حتى أفسدوا فيه، فأخرجهم منه على أيدى النصارى والمسلمين، ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ التتبير: التخريب، أى مدة علوهم وغلبهم يخربون كل قائم، ويحرقون ويدمرون مدة علوهم وبقائهم فى أرض الله المقدسة، ما بقوا فيها.

وقد قال الله تعالى:

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (٨)﴾.

الخطاب أيضا للمؤمنين ولا يتصور أن يكون لليهود لأنه دعوة إلى الهمة، والأخذ فى أسباب النصر واستنقاذ أرض الله المقدسة من أيدى طغمة اليهود، ومن يعاونونهم من وحوش الأرض الذين لا دين لهم ولا خُلُق، ولا أية ناحية من النواحى الإنسانية، والرجاء فى ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ من الناس، ومعنى الرجاء منهم أن يتخذوا الجهاد سبيلا، ويعدوا القوة، ويتسربلوا بالصبر والإقدام، عندئذ يرحمكم الله تعالى بالنصر والتأييد، ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾، أى وإن عدتم بالإيمان والصبر وإخلاص النية والجهاد لاستنقاذ الأرض الطاهرة عدنا إليكم بالنصر والتأييد والله معكم ولن يتركم لأعمالكم.

ثم ذكر أن اليهود الذين كفروا بالله وقتلوا الأنبياء لهم جهنم فقال تعالت كلماته: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ أى بساطا مفروشا يتقلبون عليه من جانب إلى جانب، فهو فراش لهم يتقلبون عليه بجنوبهم وفى مضاجعهم، وهو جزاؤهم، وللمؤمنين النصر إن أخذوا فى أسبابه.

القرآن يهدى

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾

ذكر الله تعالى قصة الإسراء، وهى فى ذاتها معجزة حسية مادية لا تقل عن معجزة إحياء الموتى بإذن الله، وقارنها فى الزمن معجزة شق القمر، وإنه انشق قسمين رآه أهل مكة، ورآه المسافرون، ومع ذلك ازدادوا كفرا، وقالوا: ﴿...سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾ [القمر] وفى معجزة الإسراء ازدادوا كفرا.

ودل هذا على الخوارق التى تحدث ثم تنقضى ولا تدوم لا تكون لخاتم النبيين الذى تكون حجته دائمة بدوام دعوته، واستمرار هدايته، ولا يكون ذلك إلا لقرآن يتلى، ويكون حجة دائمة لا تنقضى؛ لأن محمدا ﷺ خاتم النبيين يتحدى الإنسانية كلها بالمعجزة الكبرى التى تتضاءل عندها كل المعجزات من قبل، وهى القرآن، فقال تعالى بعد الإسراء وما تبعه:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

الإشارة ﴿هَذَا﴾ كانت بالقريب، ولم تكن بالبعيد للإشارة إلى قربه من المؤمنين، وقربه إلى أذهان الذين يجادلون فى آيات الله تعالى؛ لأنه من وقت البعثة وابتداء نزوله، والمشركون يفتلون الذروة والغارب[1] ليردوا دعوته، وهو مع ذلك يسرى فى أوساطهم سريان النور المبصر فى وسط الضلال المظلم فهو قريب من أذهانهم، وإن لم يؤثر فى قلوبهم لغلبة الهوى والجاهلية.

وقد ذكر سبحانه الأثر لهذا القرآن الذى يكون وصفا ملازما له فقال تعالى ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أقوم أى أعدل وأكثر استقامة وتوجيها دليلا، فيحمل فى نفسه برهان صدقه، والموصوف محذوف ويقدره القارئ بكل ما يكون قويا فى ذاته خيرا فى نتيجته وهدايته، وقال الزمخشرى: إن حذفه يجعل الكلام أعظم وأفخم من ذكره. ونقول: إنه لم يذكر لهذه الإشارة التى أشار إليها إمام البلاغة، ولم يذكر لعموم المحذوف لكل أنواع مناهج الخير والرشاد، فيشمل المحذوف الشريعة التى تهدى للتى هى أقوم، وملة التوحيد التى هى أقوم، ومناهج الخير التى هى أقوم فى سلوك الإنسان، وهكذا يشمل تقدير المحذوف كل ما هو خير فى ذاته، وخير فى دلالته، وقد قدره بعض العلماء بما يقرب من هذا الشمول، فقال يهدى للحال التى هى أقوم لتشمل الحال حال المجتمع، وحال الأسرة، وحال الإنسانية، وكل حال هى خير للإنسان فى عاجلته وآخرته، معاشه ومعاده.

هذا هو الوصف المؤثر فى التوجيه الإنسانى للقرآن، وفيه وصف إيجابى هو السبب فى هدايته مع إعجازه، وهو أنه مبشر ومنذر فهو مبشر للمؤمنين ومنذر للكافرين، فقال تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ ذكر سبحانه وتعالى حالتين أولاهما: الإيمان، وثانيتهما: العمل الصالح، وقرن الإيمان بالعمل الصالح لتلازمهما، وإن الإيمان الكامل والإذعان الصادق

(١) مثل يضرب فى الخداع والمماكرة، والذُّرْوَة: أعلى السَّنام، وأعلى كل شَىء. أصل فَتْلَ الذَّروة فى البعير: هو أن يَخْدَعه صاحبُه ويتلطف له بفَتْل أعلى سَنامه حكّاً ليسكن إليه فيتسلقَ بالزمام عليه، قاله أبو عبيدة، معجم الأمثال- الميدانى- الباب العشرون- فصل الفاء (٢٧٣٠).

يلزمهما العمل الصالح لا محالة، وقال تعالى: ﴿**يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ**﴾ بالجمع لتنوعها وكثرتها فهى وإن ضبطها ضابط الصلاح مفترقة متنوعة، فالإصلاح بين الناس، والمعاملة الحسنة، والوفاء بالعهد، وغير ذلك من مكارم الأخلاق، والبعد عن ضلالها.

وذكر سبحانه أنه يبشر المؤمنين الصالحين ببشارتين:

البشارة الأولى: أجر كبير، ونكَّر الأجر لعظمه، ولتذهب النفس فى تقديره مذاهب شتى، مع ملاحظة أنه أجر وثواب، ثم وصفه سبحانه وتعالى بالكبر الذى لا حد له.

البشارة الثانية: وهى قوله تعالى: ﴿**وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**﴾ وكيف تكون هذه بشارة لأهل الإيمان؟ الجواب عن ذلك أن البشارة بالنجاة منها، وأنهم لم يتردوا تردية الذين لا يؤمنون بالآخرة، بل وقاهم الله تعالى، وبذلك يتبين أن ذكر عذاب الذين لا يؤمنون جاء تبعا لإيمان الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

ونذكر هنا أمرين يتعلقان ببيان الذكر الحكيم:

الأمر الأول: قوله تعالى: ﴿**وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ**﴾ معطوفة على قوله تعالى: ﴿**أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا**﴾ فالباء مقدرة فى قوله: ﴿**وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ**﴾ أى وبأن الذين لا يؤمنون، فالبشارة لأهل الإيمان ابتداء، وهى تتضمن الإيذاء للكافرين، فهى قد اشتملت على التبشير والإنذار، ويبدو أن ما سبق له القول هو التبشير، والإنذار جاء بالتضمن.

الأمر الثانى: أنه سبحانه وصف الكافرين بأنهم لا يؤمنون بالآخرة، فلم يذكر شركهم وفسادهم وفتنتهم للمؤمنين مع أن هذه جرائم الكفر، والجواب عن ذلك أنه ذكر السبب، وذكر السبب ذكر للمسبب؛ ذلك أن كفر الكافرين وشركهم وعنادهم، وفتنتهم المؤمنين، وغوايتهم، سبب ذلك كله أنهم لا يؤمنون بالبعث

واليوم الآخر، ولو آمنوا به لاتجهوا إلى الحق كما اتجه المؤمنون، وقلنا: إن فيصل التفرقة بين قلب المؤمن وقلب الكافر، أن المؤمن سكن قلبه الإيمان بالغيب وما وراء الحس والمادة واليوم الآخر، أما قلب الكافر فلا يسكنه إلا المحسوس والمادة، فلا يؤمن باليوم الآخر.

وقد ذكر عذاب الكافرين، فقال سبحانه: ﴿**أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**﴾ أى هيأنا لهم عذابا أليما أى مؤلما، وهو عذاب الجحيم، وكان التنكير لتكبيره، وتهويلهم به، وإنه لصادق.

بعد ذلك ذكر الله سبحانه وتعالى وصفا للطبيعة الإنسانية سواء كانت كافرة أم مؤمنة، فقال: ﴿**وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً**﴾.

كتبت العين مجردة من الواو، أى الواو محذوفة فى الكتابة تبعا لحذفها فى النطق بسبب التقاء الساكنين، فحذفت فى الكتابة، وهذا ينبئ عن حقيقة مقررة، وهو أن القرآن الاعتماد فيه على القراءة، وعلى حفظه فى الصدور، لا فى السطور وذلك هو الذى حفظه إلى يومنا وحتى يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿**دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ**﴾، أى أن دعاء الشر من الإنسان كدعاء الخير، لا يتدبر فيه ولا يتريث، ولا يضبط نفسه بالتروى والتدبر، كما يدعو بخير واضح الخيرية نتيجته حسنة، وثمراته بادية، وقد وصف الله تلك الحال بأنها من طبيعة الإنسان، فقال: ﴿**وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً**﴾.

ونريد أن نقف قليلا عند تفسير معنى «يدعو» ومعنى الشر والخير، أما معنى الشر فهو كل أمر لا نفع فيه ويسوء، ويؤدى إلى فساد وضرر، كالشرك، والعذاب، والإيذاء، والفتنة فى الدين، وتعجل كل ما هو مؤذ لنفسه أو لغيره، والخير كل ما فيه نفع عام أو خاص أو رفع ضرر، أو ما هو حق فى ذاته كالتوحيد، والإيمان بالله ورسوله والملائكة واليوم الآخر، هذا هو معنى الشر والخير، أو هذا نظر بيِّن يقرب معنى الخير والشر، والشر والخير الحكم الدينى

والخلقى فيهما إلى النية المحتسبة، كما قال ﷺ فى الحديث المتواتر المعنى: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته لله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته لما هاجر إليه**»(١).

ونتكلم فى معنى يدعو، أهى من الدعاء، أم من الدعوة. فإذا كانت من الدعاء تكون بمعنى دعاء الله بالشر كدعائه بالخير لا يتروى فيه، ففى الخير المسارعة فيه خير؛ لأنها مبادرة إليه، والمسارعة إليه مطلوبة، لقوله تعالى ﴿**وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ ... (١٣٣)**﴾ [آل عمران] وأما المسارعة بالدعاء إلى الشر فذلك ممقوت، كالدعوة على النفس بالهلاك عند الغضب، وكدعاء إنزال العذاب، كقول الله على لسان المشركين ﴿**... فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠)**﴾ [الأعراف]، وقد قال تعالى لائما على ذلك، ﴿**وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١)**﴾ [يونس].

هذا إذا كان يدعو من الدعاء، أما إذا قلنا إنها من الدعوة وتجىء بمعنى الدعاء فالمعنى أن الإنسان يدعو نفسه وغيره متلبسا بالشر، كدعوته إلى الخير، وإذا كانت الدعوة إلى الخير محمودة العاقبة فى ذاتها لأنها خير مآلا، ولأنها مرئية فى ذاتها فالدعوة المتلبسة بالشر تحتاج إلى تعرف عواقبها ونهايتها، والتروى والتدبر فى دواعيها، وإذا فكر وتدبر لا يفعل إلا ما يؤدى إلى النفع، ولكنه لا يفعل، ولذلك قال تعالى بعد ذلك: ﴿**وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً**﴾ وذلك كقوله تعالى: ﴿**خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ... (٣٧)**﴾ [الأنبياء] فهو فى طبعه التعجل إلى الأمور، والعاقل من يتأنى ويتدبر ويصبر، ويدرس الأمور، فإذا كانت العجلة من غرائزه، فالإدراك يهذب هذه الغريزة، ويجعلها متناسقة مع مواهبه، وكذلك كل غريزة تشذب

---

(١) متفق عليه، سبق تخريجه.

بغيرها من الغرائز، فإذا كانت فيه الغريزة الجنسية، فالعقل يجعلها فى الحلال، وإذا كانت غريزة العجلة، فالعقل يضبطها بالصبر.

هذا مقام القرآن، وهذا هو الإنسان، وقد انتقل سبحانه من الإنسان إلى الكون وفيه آيات الوحدانية، وبرهان الألوهية، فقال عز من قائل:

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً (١٢) ﴾.

ابتدأ سبحانه من الكون بما يمس الإنسان من أوقات فذكر الليل والنهار، وقال تعالى: **﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾**، أى هما فى ذاتهما آيتان، إذ يقبلان بأمر الله ويذهبان، وإذا كانا يرمزان إلى دوران الشمس حول الأرض، وأن القمر يستمد نوره من انعكاس ضوء الشمس على الأرض، كما قال تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ... (٥)﴾** [يونس] فإن هذا أبين فى أن الليل والنهار آيتان؛ لأنهما مظهران للفلك السماوى، وهو يسير بقدرة الله تعالى وإرادته، وكل شىء عنده بمقدار، ثم هما يقصران ويطولان، فإذا قصر أحدهما طال الآخر، فإذا طال الليل فى الشتاء قصر النهار، والعكس بالعكس.

هذا على أن الليل والنهار ذاتهما آيتان وترمزان إلى آية كونية هى دوران الأرض حول الشمس، وانعكاس ضوء الشمس على الأرض فتجعله منيرا من غير ضياء كالشمس.

وقد يراد بآيتى الليل ما يظهر بالحس فى كل منهما، فالشمس تكون بالنهار، وهى آية، والقمر يكون بالليل، وهو آية، والقمر قدره الله تعالى منازل.

ومعنى محو آية الليل ما قاله الزمخشرى: **﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾** أى جعلنا الليل ممحو الضوء مطموسه مظلما لا يستبين فيه شىء، كما لا يستبان ما فى اللوح الممحو.

وقوله تعالى: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ فى الكلام مجاز على تخريج الزمخشرى مؤداه أنه شبه الليل الممحو نوره بالكتاب المطموس كتابته لعدم الوضوح والاستبانة فيهما.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾، أى يبصر الناس فيها، فيكون فى الكلام مجاز أيضا فأسند الإبصار إلى الآية باعتبارها منها الإبصار، وذلك مجاز فى الاشتقاقات، فأطلق اسم السبب على المسبب، وهو ما يكون فيه من استبانة.

﴿لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾، أى لتطلبوا فيه أسباب رزقكم، ولتقيموا الصناعات، وتسيروا فى الأرض وتفلحوا الأرض فتمتلئ بالنبات، والغرس، وتكون منافع هذه الدنيا إذ تتولون أسبابا وفضلا من الله، ولتعلموا عدد السنين والحساب، وذلك بتجدد الأيام، فيعرف اليوم، ويعرف الشهر، ويعلم عدد السنين وما يجرى فى حساب الناس.

فبتجدد الليل والنهار يكون السكون وتكون الحركة، وطلب المعاش، والسعى فى الأرض، وذلك كله يدل على الفاعل المختار ووحدانيته، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢)﴾ [الفرقان]. وقال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥)﴾ [الزمر].

بعد أن بين الله طبيعة الإنسان، وأشار إلى ما يحيط به أخذ يشير سبحانه إلى الحساب.

الحساب يوم القيامة

قال الله تعالى:

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾

لم يخلق الله تعالى الإنسان سدى، ولم يخرج الحياة لتكون عبثا من غير حساب، بل إن الله تعالى خلق الإنسان مسئولا عما يعمل، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، ومن فاته حظ الحياة الدنيا مظلوما، فينال فى الآخرة حظا موفورا، ومن اكتسب الإثم وأحاطت به خطيئته، فإن له جهنم، إن صلاح الإنسان لا يكون إلا بالثواب والعقاب فى الآخرة، كذلك قدر الله تعالى ولذا كان الحساب، وقال تعالى:

﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣)﴾.

الطائر هنا كناية أو مجاز عن العمل، فالمعنى وكل إنسان ألزمناه عمله الذى عمله وطوقنا به عنقه، بحيث لا يمكن الخلاص منه، كما يطوق العنق بأى شىء لا يمكنه الفكاك، بل يلازمه ملازمة الطوق للعنق، وقد شبهت ملازمة العمل للنفس حتى تنال جزاءها خيرا أو شرا بملازمة الطوق للعنق حلية أو قيدا.

هذا هو المعنى الإجمالى للآية الكريمة.

وفى التعبير عن العمل بالطائر إشارة إلى ما كان عند العرب من التشاؤم والتفاؤل، فالله سبحانه وتعالى يبين أن العمل كهذا الذى كنتم تتخذونه للتشاؤم والتفاؤل، ولكنه عمل هو خير لكم أو شر عليكم، وعبر عنه بملازمته الأعناق؛ لأن العنق هو الذى تكون به القلائد، فكان ذلك ترشيحا للاستعارة، ولنستعر توضيح هذا المعنى من شيخ المفسرين الطبرى، فهو يقول: إذ أعلمهم جل ثناؤه أن كل إنسان منهم ألزمه ربه طائره فى عنقه نحسا كان الذى ألزمه وشقاء يورده سعيرا، أو كان سعدا يورده جنات عدن، وإنما أضيف إلى العنق، ولم يضف إلى اليد أو غيرها من أعضاء الجسد، قيل لأن العنق هو موضع السمات، وهو موضع القلادة والأطوقة ونحو ذلك مما يزين به أو يشين، فجرى كلام العرب على نسبة الأشياء الملازمة سائر الأبدان إلى الأعناق، كما أضافوا جنايات أعضاء الأبدان إلى اليد، فقالوا: ذلك بما كسبت يداك، وإن كان الذى يجرى عليه لسانه أو فرجه، فكذلك قوله تعالى: ﴿**أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ**﴾ اهـ بتصرف قليل.

وخلاصته، أن قوله تعالى: ﴿**أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ**﴾ كناية عن ملازمة أعماله له لا تزايله ولا تفارقه يوم القيامة، وقد أكد سبحانه ذلك المعنى بأن أعماله الملازمة له ملازمة القلادة للعنق محصية عليه إحصاء دقيقا فى كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فقال: ﴿**وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا**﴾ فيه قراءات لـ (يلقاه) أولها بنون المتكلم العظيم فى نفسه وذاته العلية، وهو الله سبحانه وتعالى، وثانيها بالياء، ويعود بالضمير على الله تعالى، وهو حاضر فى النفس دائما، وهناك قراءة بالقاف المشددة (يلقّاه)، فيه مبالغة فى لقائه أو حمل له على التلقى، وهذا الكتاب هو صحيفة أعماله التى يحاسب على خيرها، بالجزاء الأوفى، وعلى شرها بالعذاب الأليم، ويفهم من كلام البيضاوى أن هذا الكتاب هو ما ينقش على نفسه من الأعمال التى تتكرر، فتكون بتكرارها خطوطا منتقشة، وتعرض هذه النُّقُش صحيفة منشورة مكشوفة، ولننقل عبارته: «هى أى الكتاب صحيفة عمله أو نفسه، المنتقشة بآثار أعماله، فإن الأعمال الاختيارية تحدث فى

النفس أحوالا، ولذلك يفيد تكريرها لها ملكات»[1]، أى أن الأعمال بتكررها تحدث نقوشا بهذه الأعمال فتكون كتابا يكشفه الله، فتكون كتابا منشورا ظاهرا معلوما مكشوفا.

﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾

مقول لقول محذوف، أى يقول الله تعالى أو الملائكة المطهرون: اقرأ كتابك المسجل عليك، الذى هو صادر عن نفسك أو منقوش عليها، فإنه دليل لك أو عليك، ففيه حسناتك وفيه سيئاتك، وحاسب نفسك بمقتضى هذا الكتاب الذى هو صورة منها، قد حفظت وبقيت حتى ظهرت، «كتابا منشورا» أى معروفا، وإنه يكفى حساب نفسك؛ فإنها وحدها كاشفة، وقوله تعالى: ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾، أى كفى بنفسك حسيبا عليك يحصى عليك ما عملت إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وحسيبا: تتضمن الإحصاء والحساب والرقابة، فضميرك شاهد عليك، ونفسك بما نقش عليها وحفظ أقوى برهان على عملك، والله بعد ذلك يتولى الجزاء، مع قيام الدليل من نفسك أنت.

وقد بين بعد ذلك أن الجزاء من جنس العمل، فقال:

﴿ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ ﴾.

حقائق تؤكدها هذه الآية الكريمة: **الحقيقة الأولى**: أن الإنسان فى الأعمال الدنيوية إن اهتدى فهدايته عائدة بالخير عليه، وإن ضل فضلاله مغبته عليه. **الحقيقة الثانية**: أن الإنسان ليس له إلا ما سعى، فوزره هو الذى يتحمله، ولا يتحمل وزر غيره. **الحقيقة الثالثة**: أنه لا عذاب إلا بعد الإنذار، ﴿ ... وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فاطر].

---

(١) تفسير البيضاوى: ج٣/ ٤٣٥ . وذكره من أئمة التفسير الآلوسى، وأبو السعود فى تفسير الآية (١٤).

ولنتكلم فى استخراج هذه الحقائق من نصوص الآية.

الحقيقة الأولى :

﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ الفاء هنا مترتبة على ما ذكر قبلها، ذلك أنه إذا كان الحساب بكتاب منشور لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من أعمال الدنيا، إنه من يهتدى فهدايته لنفسه فلا يعذب، وينال الجزاء من عند الله جنات تجرى من تحتها الأنهار، ورضوان من الله أكبر، ومن سلك طريق الضلالة وكتبت عليه دونت فى كتابه فإن عاقبة ضلاله تكون على نفسه جزاء لما قدمت يداه من عذاب عسير، ولا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب مقيم دائم، لهم جهنم خالدين فيها أبدا بما كانوا يكسبون.

الحقيقة الثانية:

هى كما أشرنا ما دل عليه بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، أى لا يحمل إنسان وزر غيره، و﴿وَازِرَةٌ﴾ وصف لنفس، أى لا تحمل نفس وازرة إثم نفس أخرى، وعبر سبحانه عن حمل الوزر بالوزر، فقال: ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ لأن الوزر سبب حمله، فأطلق السبب وأريد المسبب، ألا يقال كيف ذلك والله تعالى يقول: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣)﴾ [العنكبوت] ونقول فى الجواب عن ذلك، إنما يحملون أثقال غيرهم إذا كانوا سببا فيها كالذين يصدون عن سبيل الله يحملون أثقال من صدوهم؛ لأن نوعا من السببية فى كفرهم بصدهم عن سبيل الله وضلالهم.

ويلاحظ فى النص السامى أمران:

الأمر الأول: قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أى وزر ضلاله عليها.

الأمر الثانى: أنه سبحانه يقول: ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ فذكر هنا القصر والاختصاص، للإشارة إلى أن الضلال لهم وحدهم، فلا يجديهم أن يقولوا ﴿إِنَّا

وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزخرف]، فعليهم أن يتحملوا تبعة أعمالهم، وأن يقدموا على ما يقدمون عليه بتفكير من غير تقليد، فلا يتحمل من يقلدونهم شيئا من أوزارهم.

والحقيقة الثالثة:

أنه لا عذاب من غير إنذار، ودل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ إن العقل يدرك الخير والشر، ولكن لأن الغرائز البشرية متشابكة يؤثر بعضها على بعض، فالغريزة الجنسية توجد الهوى، والهوى يجعل غشاء على القلوب فلا تفقه، وعلى الآذان فلا تسمع سماع هداية، ولا يبصر بصر اعتبار، يكون ذلك، فلا بد من منبه يزيل غشاوة الأعين وضلال القلوب، ووقر الآذان، وهذا هو النذير، والعذاب من غير النذير لا يكون من رحمة الله تعالى بعباده، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ ﴾ نفى مؤكد حتى تكون الغاية، أى ما كان من شأننا ولا من رحمتنا أن نعذب إلى أن نبعث رسولا يعلم الحق ويبينه، والباطل ويزهقه، وقال تعالى: ﴿ .. وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فاطر].

الترف مآله الدمار

قال الله تعالى:

وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا
فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ
الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾
مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ
جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ
الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ

سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾

الترف أن يسترخى الإنسان فى إرادته وعزيمته وصبره، فيكون كل شىء فيه مسترخيا، فإرادته مسترخية، وعزيمته لا قوة فيها ونفسه غير منضبطة، والشهوات حاكمة، والأهواء جامحة، والمترف يختص بثلاث خصال: ضعف فى الإرادة، واندفاع وراء الأهواء والشهوات، وأثرة تجعله يعيش فى محيط نفسه ولا يخرج عن دائرتها، ولذا كان المترفون دائما هم أعداء الأنبياء؛ لأنهم أوتوا أثرة مقيتة، وكل حق يحتاج إلى فداء، وجهاد وبلاء وجلاد، وكان أتباع النبيين من الفقراء الذين لا يعيشون عيشة راضية، وكان أعداء النبيين من المترفين يقولون: ﴿... **وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ**... ﴿٢٧﴾﴾ [هود].

وهذه الآية الكريمة: ﴿**وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً** ﴿١٦﴾﴾.

إن إرادة الله تعالى لهلاك الأمة تكون إذا سارت الأمة فى أسباب الهلاك، وانتهت إليه، فيريد الله تعالى لها ما أخذت فى أسبابه وسارت فى طريقه قاصدة الغاية مريدة لها، فمعنى إرادة الله تعالى سيرها فى طريق الهلاك حتى ترد موارد الهلكة، وذهبت أسباب قوتها، وحلت محلها أسباب انهيارها.

والقرية: المدينة العظيمة، ويصح أن يراد بها الدولة أو الأمة، أو الجماعة أيا كان عددها، وقوله تعالى: ﴿**أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا**﴾ فيها قراءات ثلاث، وكلها متواترة، وكلها ذات معنى صادق مستقيم:

القراءة الأولى: (أَمَرنا) بفتح الميم وهمزة من غير مد، والأمر هنا مجازى، ليس المقصود به الطلب، وإنما المقصود تسهيل أسباب الترف، وأسباب الاسترخاء

الذى يلازمه، ولا يفترقان، ويتبعهما سيطرة الأهواء والشهوات، وغمر العقل والإدراك بهما حتى لا يدرك إلا من ورائهما، فإن تسهيل ذلك يكون كالأمر؛ لأنه يؤدى مؤدى الطلب، وقد قال فى ذلك الزمخشرى كلمة حكيمة، قال: والأمر مجازى، حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم افسقوا، وهذا لا يكون فبقى أن يكون مجازا، ووجه المجاز أنه سبحانه صب عليهم النعمة صبا فجعلوها ذريعة إلى المعاصى واتباع الشهوات فكأنهم مأمورون بذلك لتسبب إملاء النعمة فيه وإنما خولهم إياها ليشكروا ويعملوا فيها الخير، ويتمكنوا من الإحسان والبر، كما خلقهم أصحاء أقوياء وأقدرهم على الخير والشر، وطلب منهم إيثار الطاعة على المعصية فآثروا الفسوق، فلما فسقوا حق عليهم القول، وهو كلمة العذاب فدمرهم. هذا هو المعنى على قراءة الفتح بتخفيف الميم.

والقراءة الثانية: هى تشديد الميم، أى (أمَّرنا) مترفيها بأن جعلناهم أمراءها، وحكامها فكانوا أمراء أشرارا؛ لأن الترف كما بينا يؤدى إلى الشر والأثرة، وحيثما كانت الأثرة بَعُدَ الخير، والأمراء الأشرار هم أساس الفساد، ولقد قال النبى محمد ﷺ: «**إذا كان أمراؤكم خياركم، وأغنياؤكم أسخياءكم، وأمركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لكم من باطنها، وإذا كان أمراؤكم شراركم، وأغنياؤكم بخلاءكم، وأموركم إلى نسائكم، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها**»[(١)].

والمترفون الذين أترفوا فى ذات أنفسهم، وعمتهم الأثرة، والرخاوة، وحب الشهوات إن كانوا أمراء كانوا، ولقد روى أن النبى ﷺ قال: «**إن لكل شىء آفة، وآفة هذا الدين حكامه**»[(٢)].

القراءة الثالثة: أن الميم مفتوحة بالتخفيف ومد الهمزة أى «آمرنا» ويكون المعنى كَثُر أى إذا أكثر الله تعالى المترفين فى الأمة عمها الفساد والفسق فدمرها الله تعالى تدميرا.

---

(١) رواه الترمذى: الفتن - ما جاء فى سب الريح (٢١٩٢).

(٢) مسند الحارث بن أبى أسامة (٦٢) - ج٢/ ٦٤١، وأورده السيوطى فى الجامع (١٧٢٧٨) ج ٦/ ١٧.

وهنا أمران بيانيان نشير إليهما:

الأمر الأول: فى قوله تعالى: مترفيها - فيه إشارة إلى أن السبب فى التدمير هو الترف والاسترخاء، ولذا قال تعالى: «ففسقوا» والفاء هنا لبيان أن ما قبلها سبب لما بعدها، أى أن تمكين المترفين مؤد إلى الفسق لا محاله.

الأمر الثانى: أن التدمير: الهلاك وهو نوعان: النوع الأول ذهاب قوتها، وأن تكون طُعْمة سهلة لغيرها، فذلك فناء لشخصية الأمة وضياع لقوتها، وصيرورتها تابعة لغيرها، فتفقد عزتها، والنوع الثانى: أن ينزل الله تعالى عليها عذابا من عنده، كريح حاصب صرصر عاتية، أو يجعل عاليها سافلها، ويمطرهم حجارة من سجيل، كما فعل بقوم لوط، إذ فسقوا عن أمر ربهم.

وأيا كان نوع التدمير، فقد رتبه سبحانه على الفسق، وأكده بالمصدر الذى هو مفعول مطلق، فقال سبحانه: ﴿**فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً**﴾، وقوله تعالى: ﴿**فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ**﴾، أى فوجب عليها القول أى أمر الله تعالى بتدميرها، إما بسبب عادى أدى إليه الترف، وإما بعذاب من عنده، والله تعالى أعلم.

وقد أشار سبحانه إلى أن ذلك كان السبب فى هلاك القرون من قبل، فقال تعالى:

﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (١٧)**﴾.

الله سبحانه وتعالى يضرب الأمثال بالأمم السابقة من نوح إلى البعث المحمدى، فإن الترف هو الذى دفع المترفين إلى معاندة الأنبياء، واندفاعهم فى الأهواء والشهوات، ثم دفعهم ذلك إلى أن غشى قلوبهم فأهلكوا بما أترفوا وبما فسقوا و«كم» فى قوله تعالى: ﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا**﴾ دالة على الكثرة، فهى ليست استفهامية، والمعنى كثيرا أهلكنا من القرون، وموضع (كم) النصب بأهلكنا، و(من) بيانية، والقرون جمع قرن، وهو الجيل من الناس، والمعنى كثيرا أهلكنا من الأجيال التى بعد نوح فى أمم الأنبياء الذين أترفوا وفسقوا وعاندوا الأنبياء

وكفروا بهم وبأمر ربهم، وذكرت الأجيال من بعد نوح؛ لأن نوحا الأب الثانى بعد آدم عليهما السلام، كما قال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣)﴾.

ولقد أهلكهم على علم بحالهم، واستحقاقهم للهلاك، ولذا قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ الباء فى ﴿بِرَبِّكَ﴾ لتأكيد كفاية علم الله تعالى كقوله تعالى: ﴿... وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (٧٩)﴾ [النساء]، والباء فى قوله تعالى: ﴿بِذُنُوبِ﴾ متعلقة بقوله تعالى: ﴿خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ وقدمت هى ومجرورها على خبيرا بصيرا، لكمال العناية، وللإشارة إلى أن العلم بالذنوب كان دقيقا مبصرا، وذلك لبيان أنه لا ظلم، ﴿... وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣)﴾ [النحل]. والخبرة: العلم الدقيق الذى لا يغيب، وهو علم واضح بيِّن عنده، كالعلم بالأشياء المبصرة عند الناس، ولله المثل الأعلى فى السموات والأرض.

وإن الله تعالى هو المعطى الوهاب يعطى عباده ما يريدون من حظوظ الدنيا والآخرة، ولذا قال سبحانه:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨)﴾.

﴿كَانَ﴾ هنا للدلالة على الرغبة المستمرة، والإرادة الدائمة ما دام على قيد الحياة، والعاجلة وصف للدنيا أى الدنيا العاجلة ومتعها، وجعلها غايته، ومرمى همته، ومطرح نظره، ولم يكن له هم سواها، وذكر الوصف دون الموصوف للإشارة إلى سبب الرغبة، وهو كونها قريبة دانية، فصاحب هذه الإرادة لا يريد إلا المنافع العاجلة، وإن كانت زائلة، ولا يريد المنافع الآجلة، وإن كانت هى الباقية، وقد كان جواب الشرط ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾، وفى الكلام جناس بين (عاجلة)، و(عجلنا)، وإنه يتلهف للعاجلة، فيشبع الله تعالى نهمته

بالتعجيل بما أراد، ولكنه سبحانه يُسَيِّر خلقه بحكمة؛ فهو يعطى بحكمة، ويمنع لحكمة، ولذا لم يقل سبحانه إنه يعطيهم من العاجلة بما يشاءون، ولا أنه يعطى الجميع، بل يعطى من يريد تسجيلا لمشيئته ولحكمته، وتثبيتا لإرادته واختياره، ولذا قال: ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾، فقيَّد العطاء بمشيئته، بالنسبة للعطاء فقد يعطى هذا المال، ولا يعطيه الصحة، وقد يعطيه السلطان، ولا يعطيه العزة، وقد يعطى هذا الجاه، ولا يعطيه إلا الذل والهوان، والعيش الدون فى ذلة، وفى الجملة يعطى العاجلة، ولكن ليست كلها، ولا يعطى العاجلة كل من يريدها بل يعطيها من اتخذ أسبابها، ولم يتنكب طريقه فيجتمع له مع كفره ذل الدنيا وعذاب الآخرة.

فيعطى طالب الدنيا هذا، وينال ما يشاء الله وبعض ما يتمناه، وهو فى الآخرة ينال الحسرة والعذاب، ولذا قال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴾، أى جعلنا له ومن اختصاصه بشكل دائم جهنم يتخذها مثوى دائما ومستقرا، ويصلى نارها، ويقال له ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾ [الدخان] حال كونه ﴿ مَذْمُومًا ﴾ لا يمدح أبدا، و﴿ مَّدْحُورًا ﴾، أى مطرودا من رحمة الله، ورضاه فلا ينظر الله إليهم، ولا يكلمهم..

هذا من أراد الدنيا، ومن أراد الآخرة قال تعالى فيه:

﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩) ﴾.

من أراد الآخرة، وكان التعبير بالآخرة فى مقابل التعبير بالعاجلة لفرق ما بين الاثنين؛ ذلك يريد أمرا عاجلا لا يصبر ولا يضبط نفسه، وهذا يريد الآخر، ولو كان مؤجلا، فينال فضيلة الصبر والعمل، ويترقب الآجل ترقب المدرك العامل.

ولم يكتف بالترقب والانتظار، بل سعى لها سعيها، أى عمل لها العمل المقرب لنعيمها والمبعد عن جحيمها، وفى التعبير بـ﴿ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا ﴾، إشارة

إلى أنه يسير لها، ويعمل ما يطلبه من بر وصدق وأمانة، وحسن معاملة، واستقامة نفس، وسير على صراط مستقيم، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فالإيمان أصل الأعمال الصالحة ولبها وذروتها وسنام الحق، وقد بين الله تعالى جزاءهم فقال: ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً﴾ الفاء فى جواب الشرط، والإشارة فى أولئك إلى السابقين الموصوفين بإرادة الآخرة بالسعى بالعمل الصالح، وبالإيمان الذاعن الصادق، والإشارة إلى الأوصاف بيان أنها سبب الجزاء، والجزاء هو شكر ذلك السعى الظاهر الفاضل، وشكره من الله تعالى بالجزاء عنه، وهو النعيم المقيم، وبالرضا، وهو أعظم ما يثاب به العبد، وعبَّر سبحانه بأنه شكور، أى أنه فى ذاته يستحق الشكر، وهاتان الآيتان فى معنى قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠)﴾ [الشورى].

وإن الله خالق الناس ورب الناس يمدهم بما يريدون من رغبات بما يشاء، ولمن يريد، ولذا قال عز من قائل:

﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (٢٠)﴾.

أى كل فريق من هؤلاء وهؤلاء، وقالوا: إن التنوين هنا عوض عن المضاف إليه، ونمد نعطى المد، كمدد الجيش، لا تذهب نعمة إلا أمدهم الله تعالى بنعمة أخرى، والإشارة فى ﴿هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ﴾ إلى الذين أرادوا العاجلة وتعجيل الله لهم بمشيئته ومن يريد الله أن يعجل له فهؤلاء هم الأولون، والآخرون يعطيهم الله حرث الآخرة إذا قصدوا ما عند الله وسعوا سعيها بالبر والعمل الصالح، وكان الإيمان يظلهم، فالإشارة فى الحالين إلى صفات كل منهما فى طلبه، وثنى هؤلاء، فقال: ﴿هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ﴾؛ لأنهما نوعان مختلفان فى الطلب والجزاء والأوصاف، وما ترتب على هذه الأوصاف.

وقال: ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ والإضافة إلى الرب فيه إشارة إلى أنه عطاء لا ينفد ولا ينتهى، فالله هو رب الوجود وهو الذى يمده بالحياة، ويمده بالمدد المستمر

الذى لا ينقطع، ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾، أى ممنوعا؛ لأنه ليس فوقه أحد يمنعه، وهو مُعْطٍ لا يمنع، ولكن يجازى كلا بجزائه، فإن شكر كان له النعيم المقيم، وإن كفر بنعمته وأنكرها فإن له عذاب الجحيم.

ونرى من هذا أن الله تعالى فضل بعض الناس بما سلكوا من سبل الخير، وعاقب بعض الناس بما سلكوا من الشر، وكيف من طلب العاجلة أخذ منها بما يشاء ولمن يشاء، ومن طلب الآخرة زاده فى حرثه إن قصد الآخرة، وسعى لها وآمن، ولذا قال سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

أمر من الله تعالى بأن ننظر نظرة تأمل فى الحال التى فضل فيها بعض الناس على بعض فى الرزق والمال، وأن الله سبحانه يعطى فى الدنيا كلا على حسب رغبته مع أن مشيئة الله فوق هذه الرغبة، وأنه بهذا التمكين الربانى يكون من أعطاهم أفضل حالا من غيرهم فيكون من الناس الأغنياء والفقراء، ويفضل بعضهم على بعض فى الرزق من غير أن يتبع تفضيل فى الشرف أمر أو أية تفرقة طبقية، فالناس عند الله سواء وأمام شرعه سواء، ولا فضل لغنى على فقير، ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ... (٧١)﴾ [النحل].

وإن ذلك الذى أشار إليه فى الدنيا فقط، أما فى الآخرة فطالبوها ﴿أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ والمعنى أن الذين أرادوا حرث الآخرة، فقصدوها مخلصين، وسعوا لها سعيها مؤمنين أكبر درجات أى أعلى وأسبق وهم فى درجات عليا، وكلمة درجات لا تكون إلا فى العلو والشرف الربانى، وكذلك كان التعبير فى قوله تعالى: ﴿.. نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا... (٣٢)﴾ [الزخرف]، أى فى الحياة الآخرة.

وقال ﴿أَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ أفعل التفضيل ليس على بابه فلا موازنة فى كثرة الفضل، بل المراد أنهم يلقون من الفضل كثرة ليس وراءه فضل لمستزيد، ونفينا

المقابلة؛ لأن طلاب العاجلة لا فضل عندهم، لا بقدر قليل، ولا بقدر كبير، بل هم يوم القيامة فى العذاب الهون، والمنزلة الدون.

والاستفهام فى ﴿كَيْفَ﴾ للتنبيه، وتقرير تلك الحقائق الثابتة.

وصايا الله وأوامره

قال الله تعالى:

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾
۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا
يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا
أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ
لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي
صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ
فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ
وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ
كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾
وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا
مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا
كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ
لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

إنه بلا شك كانت أكثر الأحكام بالمدينة حيث اقتضت العدالة وتنظيم الجماعة، وإقامة بنائها على أحكام الله تعالى، وعلى الفضيلة، والخلق العظيم، وكان بمكة أحكام قليلة كلها تمليها خصال المروءة والفضيلة، وإن لم تكن تنظيما لأحكام مفصلة تقوم عليها المدينة الفاضلة إلا أنها بمقتضى الفطرة الإنسانية فى مبادئها الأولى، وأولها إفراد الله تعالى بالعبودية، وقد ابتدأها بها لأنه كانت البعثة ابتداء لأجلها، ثم ثنى بالإحسان إلى الوالدين، وإيتاء ذى القربى، وإقامة الأسرة بالبر والمودة وصلة الرحم؛ لأن الأسرة أصل بناء المجتمع، والأسرة فى الإسلام هى الممتدة لا المقصورة على الزوجين والأولاد كما هو الشأن عند من لا يعرفون الرحمة والبر بهما، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، وقد ابتدأ سبحانه بالوحدانية فقال:

﴿لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً (٢٢)﴾

الخطاب للنبى ﷺ، ونبى الوحدانية كيف يخاطب بهذا، وهو بعث له ابتداء، والوحدانية أولى دعوته، ولها أوذى، ولها حورب، ولها جاهد، والجواب عن ذلك أنه خطاب له أولا ولمن بعث فيهم ثانيا، وذكر هو فى القول ليكون مع من يدعوهم على سواء، وأنه مطالب بما تطالبون به، وأنه ما جاء ليكون مسيطرا، فذاته مصونة، لا بل هو مطبق عليه ما يطبق على كل مؤمن، وينذِر كما ينذَر، ويخاف ويخوف، وهو مستقيم على الطريقة، وفى هذه التسوية التى يطويها الكلام دعوة إلى التوحيد بأقصى البلاغة وتحريض عليها، وقوله: ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً﴾، أى فتقعد عن السمو إلى المكارم مذموما، لأنك لم تسم إلى علو الوحدانية، ويخذلك الله تعالى يوم لا تجد نصيرا سواه.

قد أمر الله تعالى بعبادته سبحانه وحده، وهو مقتضى ألا يجعل مع الله إلها آخر، فإذا كان النهى سلبيا فى الآية السابقة فالأمر هنا إيجابى، و﴿قَضَى﴾ هنا بمعنى حكم، وحكم الله تعالى لا يحتاج إلى إبرام مبرم، ولا يتطاول إليه نقض ناقض سبحانه وتعالى.

﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ هنا باء محذوفة، دل عليها دخولها بعد ذلك فى قوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وهى معطوفة على ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ والمعنى حكم الله تعالى حكما دائما ثابتا بأدلته القاطعة، وآياته البينة بألا تعبدوا إلا إياه فلا يصح عبادة غيره، وهى إذا كان الخطاب للنبى ﷺ فالحكم عام خوطب به الناس أجمعون، وأسند الحكم إلى ﴿رَبُّكَ﴾؛ لأنه الخالق المنشئ المربى الذى خلقه وربه، وهو الذى أنزل الآيات، فذكر الرب ليكون الحكم مشتملا على أسبابه، وبعد أن حكم حكما تسجله كل الآيات فى الوجود بألا يعبد إلا الله أعقبه بما يدخل فى مضمونه، وهو الإحسان إلى الوالدين، ونجد دائما النهى عن الإشراك يقترن به دائما الإحسان إلى الوالدين فيقول سبحانه وتعالى مثلا: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ... (١٥١)﴾ [الأنعام]، وقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ... (٣٦)﴾ [النساء]، وذلك كثير والحمد لله.

وكأنه فى هذا يقرن حق الله تعالى الخالق بديع السموات والأرض، بالمنشئ نسبيا بإذن الله، وهما الأبوان، والإحسان إلى الأبوين ليس هو كفالتهما، وإمدادهما بما يحتاجان إليه فقط، بل هو أعمق من ذلك فى القول والعمل والحيطة بهما، ولعل أجمع تعبير عن ذلك هو تعبير النبى ﷺ بحسن الصحبة، فقد سأله بعض الصحابة من أحق الناس بحسن صحبتى يا رسول الله؟ قال: «**أمك**» قال: ثم من؟ قال: «**أمك**» قال: ثم من؟، قال: «**أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**أبوك**»(١) وتقديم الجار والمجرور فى قوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ لمزيد الاهتمام بهما ولإثبات أنهما أولى من دون الناس بالإحسان، فلا يكون الرجل كريما مفاخرا بالعطاء بين الناس، ولا يحسن إلى أبويه.

وقوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا﴾ (إما) هى إن المؤكدة بما، والتى يبلغ فى تأكيد التعليق مبلغ القسم، ولذا تدخل معها نون التوكيد الثقيلة،

(١) متفق عليه، رواه البخارى: الأدب- من أحق الناس(٥٥١٤)، ومسلم: البر والصلة- بر الوالدين (٤٦٢١).

ولا تكون كذلك من غيرها، و﴿أَحَدُهُمَا﴾ فاعل يبلغن، أو كلاهما معطوفة على أحدهما، والمعنى إن يبلغن عندك الكبر واحد منهما أو الاثنان فلا تقل لهما أف.

والتوكيد فى بلوغ الكبر، ذكر لحالهما الضعيفة التى تقتضى الرعاية والإكرام فى القول والعمل، وقوله تعالى: ﴿عِندَكَ﴾ للدلالة على أنهما لجآ إليه لضعفهما ولشيخوختهما يعيشان فى كنفه وظل قوته، ونعمته يرعاهما، ولا ظل لهما غير ظله، وقد تكون هذه الحياة المستمرة، مع ضعف الشيخوخة، واستقذار بعض ما يكون منهما أو من أحدهما داعيا لبعض الضجر، فتتفلت منه عبارة تضجر أو تأفف، فنهاه سبحانه وتعالى عن مثل هذا فقال: ﴿فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾ وهو صوت يصدر عن الإنسان فى حالة ضجره، فنهى حتى عن ذلك، وإذا كان صوت التأفف أو التضجر منهيا عنه، فغيره أولى، ولذا أردفه بقوله: ﴿وَلا تَنْهَرْهُمَا﴾ بأن يلومهما عن بعض ما يقع منهما، فإن ذلك منهى عنه، وذلك لأنهما تضعف مسئوليتهما لضعفهما فى كل قواهما، وقال بعض العلماء: إن معنى النهر هو النهى، فهما من مادة واحدة، وكأنه لا يتضجر منهما ولا ينهاهما؛ لأن النهى فيه منافاة لحسن الصحبة، فإن كان منهما ما يوجب النهى لا ينهى، بل يتلطف فى القول منبها إلى ما يريد من غير مصارحة بالنهى، ولذا قال: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ بدل التأفف والنهى والنهر، والقول الكريم: هو القول الجميل الذى يكون فيه تنبيه إلى ما يجب من غير أن يظهر من التضجر أو التأفف أو النهر أو النهى، أو اللوم فإنهما قد بلغا سنا علت بهما عن التأديب والنهى. والنهر واللوم من أعمال التربية والتهذيب، ولا يليق بهما ذلك، بل يوطئ كنفه فى الفعل والقول، ويصح الاستعاضة فى التنبيه بالإشارة عن العبارة، وألا يتكلم إلا بما يرضيهما.

وإن الحياة واستمرارها فى بيته قد توقعهما فى شىء من ذلك، فلا بد أن يدَّرع بدرع يكون وقاية له من أن يقع فى شىء من هذا، والدرع هو أن يملأ نفسه برحمتهما، وعين الرحمة عاطفة، ولا تكون لائمة أبدًا ولا تكون متأففة، ولا متضجرة أبدا، ولذا قال تعالى:

﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) ﴾.

الجناح هنا هو الحياطة والرعاية، وشبهت هذه المعانى بالجناح الذى يكون به قوة الطائر، وإضافة الذل إليه لتكون الرعاية ذلا لهما، وتواضعا من غير استكبار، وإن ذلك التطامن والانكسار من الرحمة لا من الذلة، وكان خفض جناح من ذل، لا من الذلة، بل من الرحمة، وفرق بين ذل الرحمة، فهو عطف ورفق وتطامن، وذل الاستخذاء والمذلة، فهو ذل خنوع، وضعف من غير قوة، وإن هذا التعبير أعلى ما يمكن من تعبير العطف والرحمة، ولكنه كلام الرحمن الرحيم، وإن الله تعالى طلب من عبده أن يقول داعيا لهما بالرحمة فى كبرهما، فيقول تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾، أى إنك لا تملك أن تصنع لهما ما صنعاه وأنت صغير، فقد حدبا عليك فى محبة يريدان بقاءك وأنت لا تملك هذا فتملك ما يقبله الله منك، وهو الكريم اللطيف الخبير، وهو الدعاء لهما بالرحمة مخلصا طيب النفس راضيا لعشرتهما مهما تكن حالهما من ضعف.

ولقد كتب الزمخشرى صفحة فى إكرام الأبوين ننقلها بحروفها لجمال لفظها، وكريم معناها ـ يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولقد كرر الله تعالى فى كتابه الوصية بالوالدين، وعن النبى ﷺ «**رضا الله فى رضا الوالدين وسخطه فى سخطهما**»[(١)]، وروى «**يفعل البار بوالديه ما يشاء أن يفعل فلن يدخل النار، ويفعل العاق ما يشاء أن يفعل فلن يدخل الجنة**»[(٢)]، وروى سعيد بن المسيب أن البار لا يموت ميتة سوء، وقال رجل للنبى ﷺ: «إن أبوىَّ بلغا من الكبر أن ألى منهما ما توليا منى فى الصغر فهل قضيتهما؟» قال: «**لا، إنهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك، وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما**»[(٣)].

---

(١) رواه الترمذى، ورجح وقفه، وابن حبان فى صحيحه والحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم، وانظر الترغيب والترهيب للمنذرى (٣٧٦٨): ٣/ ٢٢١.

(٢) رواه ابن عساكر فى تاريخه، كما فى جامع الأحاديث للسيوطى: (١٨٣٢٤)-ج٦/ ٢٢٠. عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعا.

(٣) راجع الكشاف للزمخشرى: ٢/ ٤٤٤.

وشكا رجل إلى رسول الله ﷺ أباه وأنه يأخذ ماله فدعا به، فإذا شيخ يتوكأ على عصا، فسأله فقال: إنه كان ضعيفا وأنا قوى، وفقيرا وأنا غنى فكنت لا أمنعه شيئا من مالى، واليوم أنا ضعيف وهو قوى، وأنا فقير وهو غنى، ويبخل علىَّ بماله، فبكى رسول الله ﷺ، وقال: «**ما من حجر ولا مدر يسمع هذا إلا بكى**»، ثم قال للولد: «**أنت ومالك لأبيك، أنت ومالك لأبيك**»[1]، وشكا إليه آخر سوء خلق أمه فقال ﷺ: «**لم تكن سيئة الخلق حيث حملتك تسعة أشهر**»، قال: إنها سيئة الخلق، قال الرسول الكريم: «**لم تكن كذلك حتى أرضعتك حولين**»، قال: إنها سيئة الخلق، قال ﷺ: «**لم تكن كذلك حين سهرت لك ليلها، وأظمأت نهارها**»، قال: لقد جازيتها. قال: «**ما فعلت؟**»، قال: حججت بها على عاتقى، قال ﷺ: «**ما جزيتها**». انتهى كلام الزمخشرى فى الكشاف.

وقال ﷺ: «**إياكم وعقوق الوالدين، فإن الجنة توجد ريحها مسيرة ألف عام، ولا يجد ريحها، لا عاق ولا قاطع رحم ولا شيخ زانٍ، ولا جار إزاره...**»[2].

وأن بر الأبوين أمر مستتر خفى يظهر فى العمل، فهو إخلاص وفاء وإيمان بالحق، ووفاء وإكرام، وهو دليل على صلاح النفوس، وقد قال تعالى:

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥) ﴾.

إن الله سبحانه وتعالى نهى عن أمور، نهى عن التضجر، وعن النهى لهما عن أى عمل، وأمر بأن يقول لهما قولا كريما وربما يكون فيهما المسيء وربما يكون منهما الظالم، فبين الله سبحانه فى هذا المقام وغيره مما يشابهه، فقال سبحانه وتعالى: إن الاعتماد على النفوس، وصلاحها، والله تعالى يغفر هنات الأفعال،

---

(١) رواه ابن ماجه: التجارات- ما للرجل من مال ولده (٢٢٨٢)، كما رواه أحمد: مسند المكثرين- مسند عبد الله بن عمرو بن العاص(٦٦٠٨).

(٢) كنز العمل (٤٤٠٠٠) - ج ١/ ٣٢٩٥.

وما لا تقصد فيه، ولا يعمد فيه إلى الشر مقصودا، وإنما يحاسب على ما تكسبه النفس ويربد به القلب، ولذا قال: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ وأفعل التفضيل ليس على بابه؛ لأنه لا مفاضلة بين علمه سبحانه وعلم غيره، فلا يعلم خفى النفوس إلا خالقها الرقيب على كل شيء، العالم بكل شيء، وإنما المراد من أفعل التفضيل أنه سبحانه عالم بالنفوس علما لا يصل إليه علم قط.

وإذا كان يعلم النفوس، فهو يعلم ما تكسبه النفس، وتسوء به النية ويسود به القلب، ويعلم ما لا يقصد سوءا، وليس فيه إساءة إلا أن تجيء عفوا من إيراد الشر، ولا نية.

وصدَّر الكلام بقوله: ﴿رَّبُّكُمْ﴾ للدلالة على علمه الدقيق؛ لأنه هو الذى خلق وأبدع، وربى ونمى، ﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ إن تكونوا فى ذات أنفسكم صالحين بقلوبكم وأنفسكم، فإن الله كان للأوابين غفورا، والصالح هو المستقيم النفس، المملوءة نفسه بالإخلاص، والطاهر القلب، فالاستقامة هى الصلاح كله والاستقامة تقتضى النية المخلصة والنفس النيرة، سأل بعض الصحابة النبى ﷺ أن يرشده إلى كلمة يقولها فتهديه، فقال له ﷺ: «**قل آمنت بالله ثم استقم**»(١).

وجواب الشرط ﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ هو كما أشرنا قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ الأواب هو الذى يرجع إلى الحق دائما، فإذا ضل عن الطريق آب إليه، وإذا ابتعد قليلا عن العمل الصالح آب إليه، لا يركس نفسه فى شر أبدا، وبذلك يكون سريع التوبة لا يعصى، ولا تريد نفسه معصية، فإن المعصية إذا عرضت على النفس نكتت نكتة سوداء، فإذا تكررت أربد القلب، فالأواب التواب لا تنكت فى قلبه نكته سوداء، فيتوب، فيغفر له الله، وقد وصف الله تعالى ذاته الكريمة، فقال: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ وقد أكد ذلك سبحانه بإن وبكان، وبصيغة المبالغة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ (٨٢)﴾ [طه].

---

(١) رواه أحمد: مسند المكيين- حديث سفيان بن عبد الله الثقفى رضى الله عنه (١٤٨٦٩).

وبعد أن بين سبحانه حق الأبوين، وهو الإحسان فى أعلى درجات الإحسان بين حق ذوى القربى فقال:

﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) ﴾.

وذو القربى هو ذو القرابة؛ لأن القربى مؤنث الأقرب، أى يعطى ذا القربى الأقرب فالأقرب حقه، وحق ذى القربى نوعان: حق العطاء إن كان فقيرا فإن عليه نفقته إذا احتاج، كما أنه يرثه إذا مات غنيا، وقد قال تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١) ﴾ [النور].

ولا يقتصر العطاء على المحارم، بل ذوو الأرحام جميعا لهم حق فى ماله إذا احتاجوا، وقد قال تعالى: ﴿ ... وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ... (٧٥) ﴾ [الأنفال].

والنوع الثانى من حقهم أن يصلهم بالمودة الواصلة فيزورهم ويعودهم، ويتعرف أحوالهم، ولو كانوا لا يصلونه، كما قال النبى ﷺ: «**ليس الواصل بالمكافئ إنما الواصل من يصل رحمه عند القطيعة**»(١)، ولقد قرر النبى ﷺ أن صلة الرحم تبارك فى الرزق، وتبقى الأثر بعد الموت، وقد قال ﷺ: «**من أراد منكم أن يبارك له فى رزقه، وينسأ له فى أثره فليصل رحمه**»(٢). وذكر الزمخشرى

(١) رواه البخارى: الأدب- ليس الواصل بالمكافئ (٥٥٣٢)، والترمذى: البر والصلة- ما جاء فى صلة الرحم (١٨٣١)، كما رواه أبو داود وأحمد.

(٢) متفق عليه؛ رواه البخارى: البيوع- من أحب البسط فى الرزق (١٩٢٥)، ومسلم: البر والصلة- صلة الرحم وتحريم قطيعتها (٤٦٣٨).

حقهم غير المالى فقال: (حقهم صلتهم بالمودة والزيارة وحسن المعاشرة والمؤالفة على السراء والضراء والمعاضدة ونحو ذلك).

هذه إشارات إلى حق ذى القربى، وأما حق المساكين وابن السبيل، فهو إطعامهم، وكسوتهم، وإيواؤهم، وذلك بالصدقات يعطيهم، وألا يبت شبعان وغيره جوعان.

ونجد أن النص القرآنى يشير إلى أن الأسرة ممتدة، وإلى أن الضعاف لهم حق فى المال، وهو حق السائل والمحروم وأى مال فى سبيلهم لا يعد تبذيرا ولا إسرافا، إنما التبذير والإسراف فى غير هذه الحقوق التى يجب سدها، وإن الحق الذى يلى حق الأسرة فى المال حق المساكين وأبناء السبيل والفقراء بشكل عام، سواء أكانوا مساكين أم كانوا متجملين لا يسألون الناس إلحافا.

وقد نهى سبحانه عن التبذير فقال عز من قائل: ﴿ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً ﴾، وتبذير المال ليس هو صرفه فى حقه، بل هو تفريق المال فيما لا ينبغى وبالأولى إنفاقه فى الحرام، ومما لا ينبغى ويعد تبذيرا إنفاقه فى المفاخرات، وكل إنفاق فى حرام أو ما لا يحسن للفخر ولو قليلا يعد تبذيرا وإسرافا، ولقد روى عن مجاهد أنه قال: (لو أنفق إنسان ماله كله فى الحق لم يكن مبذرا، ولو أنفق درهما فى غير حق كان مبذرًا).

وإن التبذير، وهو كما ذكر: الإنفاق فى غير ما يكون: من سيطرة هوى المفاخرة، والمباهاة، وعدم احترام حق غيره، فلا يسرف من يعرف حق غيره عنده، ولذا قال تعالى:

﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً (٢٧) ﴾.

والأخوة التى تعقد بين المبذرين والشياطين تكون من وجوه:

الوجه الأول: أن الإسراف يضيع الحقوق، والشياطين يحرضون على ذلك ويرضونه، كما روى عن ابن عباس أنه قال: ما من مسرف إلا وراءه حق مضيع.

الوجه الثانى: أن التبذير إضاعة رزق الله تعالى، فى غير نفع، بل فى ضرر مؤكد، وهذا يرضى الشيطان، ويقرب المبذر إليه.

الوجه الثالث: أن التبذير كفر للنعمة والشيطان يحث على المعاصى، والمعاصى كلها كفر للنعم، وختم الله سبحانه الآية بقوله: ﴿**وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا**﴾، أى أنه كافر بنعمة الله كفرا بلغ فيه أقصاه فلعنه الله.

وإذا كان الإسراف منهيا عنه، فالبخل أيضا منهى عنه، والاعتدال هو المطلوب ولا يكلف إنسان ما لا يقدر عليه، ولذا قال تعالى:

﴿**وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا** (٢٨)﴾.

الإعراض عن العطاء ألا يعطى، ولا يمنع بل يسكت كأنه المعرض، ولا يستحسن المنع؛ لأن المنع فيه إيئاس من العطاء، ولا يريد ذو المروءة ألا يلقى اليأس والرد القاطع المؤيس فى نفس طالب، ولكنه لا يعطى عجزا، أو لعدم استحقاق الطالب، والخطاب للنبى ﷺ، ومن وراء خطابه خطاب أمته، والآية تأديب كريم وتوجيه إلى ما يكون عندما لا يكون مال يجب العطاء منه، أو عندما لا يكون موجب للعطاء.

و﴿**إِمَّا**﴾ هى (إن) المدغمة فى (ما) التى تفيد توكيد الإعراض بتوكيد حاله أو توكيد موجبه، ولذلك كانت نون التوكيد الثقيلة، كما تكون عند القسم.

وفى قوله تعالى: ﴿**ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا**﴾ تخريجات ثلاثة، وكلها يؤدى إلى معنى سليم فى ذاته:

التخريج الأول: أن يكون ﴿**ابْتِغَاءَ**﴾ تعليلا للإعراض أى أن الإعراض لتبتغى رحمة بهم من ربك ترجوها؛ كأن ينفقوها فى معصية أو خمر، فالرحمة التى يبتغيها بالإعراض هى منعهم من المعاصى أو عدم تسهيلها لهم، بعدم المعاونة عليها، وهذا حسن فى ذاته، وربما يكون بعيدا بالنسبة للمسكين وابن السبيل، وهو القريب المنقطع عن ماله، وقد يكون مقصودا بالنسبة للقريب، وأولئك هم موضوع الإعراض، لأن الضمير فى قوله تعالى: ﴿**وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ**﴾ يعود إلى هؤلاء.

التخريج الثاني: أن يكون قوله تعالى: ﴿ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ متعلقا بجواب الشرط، أي فقل لهم قولا ميسورا طلبا لرحمة من ربك ترجوها، برجاء يسر بعد عسر، أو لأن الجواب الجميل عند الإعراض فيه رحمة بهم لا تقل عن رحمة العطاء.

والتخريج الثالث: أن يكون قوله تعالى ﴿ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ متعلقا بالشرط لا بالجواب، على أن يكون المعنى هكذا: إما تعرضن عنهم لفقد القدرة على العطاء مع رجاء رزق هو رحمة من ربك ترجوها، لتعطيهم عند تحقيق الرجاء وهذا هو أقربها؛ إذ مؤداها أنك ترجو رزقا، وقد طلب منك العطاء فى وقت لا مال معك، فلا تردهم ردا قاطعا مانعا، رجاء الرزق.

وجواب الشرط ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً﴾، أى قولا سهلا لينا من غير جفوة، بل فى عطف يدنيهم ولا يبعدهم، والميسور بوصف اسم المفعول من يُسر، بالبناء للمجهول كُسعَد فى قوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا...(١٠٨)﴾ [هود] والقول الميسور لا يكون فيه قطع عن العطاء بل فيه رجاء لهم، كقوله يسر الله لى ولكم، أو أعطانى الله وأعطاكم.

وبعد أن نهى سبحانه عن التبذير، وأمر بالعطاء أمر بالاعتدال فقال:

﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُوراً (٢٩)﴾.

معنى النهى فى قوله تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾، نهى عن البخل بأبلغ تعبير، وفيه استعارة، وهو تشبيه البخيل بمن شد يده بغل من حديد إلى عنقه، فلا تمتد بعطاء قط، ولا تستطيع سد حاجة معوز، ولا إمداد مستغيث بقوت، والجامع فى التشبيه هو عدم العطاء؛ لأن البخيل غله بخله فلم يعط، والمشدود شدت يده فلا تتحرك، والبخل يؤدى إلى الذم من الناس.

وقوله تعالى: ﴿وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ ومعنى بسط اليد فتحها بحيث لا تقبض شيئا يستولى على ما فيها من يستحق ومن لا يستحق فلا ينضبط عطاؤه،

بل ينفق من غير ضابط يضبط، وقد شبه المسرف بمن تبسط يده يؤخذ ما فيها من غير إرادة صاحبها ومن غير تقديره، ومن غير تعرف من يستحق فيعطيه، ومن لا يستحق فيمنعها، بجامع ضياع المال من غير إرادة حكيمة مقدرة، تضع الندى فى موضع المندى، وتمنع من يستحق المنع.

وقد بين الله تعالى نتيجة البخل والإسراف، فقال تعالت كلماته، ﴿**فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا**﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وما قبلها هو البخل والإسراف، فقوله تعالى: ﴿**فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا**﴾، و(تقعد) هنا أى تصير فى حال قاعدا فيها ملوما على بخلك، محسورا بضياع مالك فى غير حقه، ففى الكلام لف ونشر مرتب، كما قال ابن كثير: أى فيكون ملوما فى حال البخل، ومحسورا فى حال الإسراف، ومحسورا، أى أصابته الحسرة على ضياع ما فى يده، وصيرورته فقيرا بعد أن كان غنيا، ونقول محسورا من حسر فى السفر لا يستطيع الحركة، ويكون فى الكلام تشبيه حال من أصبح لا مال له بحال المحسور فى السفر، الذى انقطع عن أهله، كما انقطع هذا عن ماله.

أو نقول إنه محسور، أى كليل عاجز كالدابة المحسورة العاجزة، كما فى قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ④**﴾ [الملك]، أى كليل.

والواقع أن الإسراف يجعل المسرف فى حسرة على ماله الذى أضاعه ويجعله مقطوعا عما كان له من مال كالمسرف المحسور ويجعله كليلا متعبا؛ لأن الله أعطاه رزقا فأضاعه.

روى فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من يوم يصبح العباد إلا وملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفا**»(١).

---

(١) متفق عليه، رواه البخارى: الزكاة (١٣٥١)، ومسلم: الزكاة- فى المنفق والممسك (١٦٧٨).

وإن بخل البخيل سببه حرصه على المال، وأنه يضيع إن ذهب، وإسراف المسرف سببه عدم احترامه لحق المال، فبين الله تعالى خطأ البخيل فى تقديره، وخطأ المبذر فى تبذيره، فقال تعالى:

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) ﴾.

إن الله سبحانه وتعالى هو مانح من يرزقه، وهو مقدر الرزق، وإذا كان الأمر كذلك فلا محل للبخل؛ لأنه يعطى الرزق فربما يعطى خلفا لما ينفق ولا محل للإسراف؛ لأن الإسراف ينافى شكر النعمة، ومعنى يبسط يوسع أى يجعله موسعا مبسوطا، ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾، أى يجعله محدودا ليس بكثير، وقد قال فى شأن الإنفاق: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ... (٧) ﴾ [الطلاق].

إن الأرزاق بيد الله يعطى من يشاء عن سعة، وهو له مختبر، فإن أنفقها فى خير كان شكرا لها، والله يقول: ﴿ ... لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) ﴾ [إبراهيم] وإذا كان كله من الله السعة والفقر، فإن ذا السعة لا يغتر فيسرف، أو يبخل، والذى قدر عليه رزقه فليعلم أنه عطاء الله أعطاه لحكمة أرادها، والشكر حينئذ هو الرضا بها، والصبر، وقد وصف الله تعالى المؤمنين فقال تعالت كلماته: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾ [الفرقان].

وإن ذلك لحكمة أرادها، فربما يعطى ليظهر طغيان من أعطاه، أو شكره، ولذا ختم سبحانه وتعالى الآية بقوله: ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ الضمير يعود فى (إنه) إلى الله العليم علم الخبير الذى أنشأ، علم من يرى ويبصر، فهو الذى قدر وأعطى، وهو الذى قدر وقلل، وللغنى الشاكر فضله عند الله، وللفقير الصابر قدره.

وقد صدر الآية الكريمة بقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ... ﴾ فذكر الرب المنشئ القائم على كل شىء الذى يعطى كل إنسان قدره من هذه الحياة ويهديه.

نواهى الله لتطهير الجماعة

قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ
أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ
خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ
سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَمَن
قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي
ٱلْقَتْلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي
هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ
مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِۚ
ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾

بين الله أنه لا يصح أن يبخل خوفا على المال وشحا به، وإنه لا يصح أن يسرف، فالإسراف تفريق للمال فى غير مصارفه، ثم بين أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، وأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، وأشد أنواع الحرص والخوف من الفقر قتل الولد خشية الفقر، ولذا جاء النهى عن قتل الأولاد خشية الإملاق وتلك مناسبة واضحة بين الآيات، وترى أن الآيات غير مقطعة بعضها عن بعض، بل هى موصولة يأخذ بعضها بحجز بعض، وهنا أمر آخر، وهى أن الآيات السابقة كان فيها بناء الأسرة على المودة والمحبة، وبناء المجتمع على رعاية الضعفاء كما قال ﷺ: «**إبغونى فى ضعفائكم، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم**»(١) وبعد بيان

(١) سبق تخريجه.

الأسرة وحماية الضعفاء، وفى ذلك بناء المجتمع بناء صالحا ثابتا، أخذ ينهى عن آفاته، وابتدأ بأشدها نكرا، وهو قتل الأولاد خشية الإملاق، فقال:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) ﴾.

الإملاق هو الفاقة، وشدة الفقر، وأصلها اللغوى أملق الرجل إذا لم يبق له مما يملك إلا الملقات، وهى جمع ملقة، وهى الحجر الأملس الذى لا يقف الماء عليه، ولا ينبت زرعا، وذلك كناية عن أنه لا يملك ما يقوتهم به.

أى لا تقتلوا أولادكم خشية الفاقة، وألا تملكوا لهم مالا تنفقون عليهم منه، و﴿ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾ تفيد أنهم الآن مالكون ما ينفقون منه، ولا يقتلونهم لذلك بل يقتلونهم خشية أن يتكاثروا فيكون الإملاق، ولذا قال تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ بتقديم رزقهم عليهم؛ لأنهم يخافون موتهم من جوع، فيسارعون بقتلهم، فالله تعالى أمنهم على رزق هؤلاء الأولاد، وفى تقديم رزق الأولاد إشارة إلى أمرين: أن رزقهم يتبع رزق الأولاد، فإن قتلوهم فقد حرموا هم أيضا الرزق ثم إن الأولاد ذاتهم رزق من الله.

وبعد هذا الترغيب، وتسهيل الأمر عليهم، بين أثر ذلك القتل أو أشار إليه فقال تعالى: ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ أى إثما، فالخطأ: الإثم والوزر، وقرئ بفتح الخاء[1] على أنه من الوزر أيضا، لأنه من خطئ يخطأ خطأ، كأثم يأثم إثما يقال: إثما، ويقال خِطأ بمعنى الوزر، كما يقال حَذِرا وحِذرا بفتح الحاء والكسر.

ووصفه سبحانه بالكبر منكرا، دليل أنه خطأ عظيم أشد ما يكون الإثم إذ إنه يؤدى إلى فناء الأمة أو ضعف نسلها، وفى ضعف النسل ذهاب ريحها وقوتها.

والقتل المنهى عنه فى الآية يشمل ما كان فى عصر نزول القرآن وما قبله من أعمال الجاهلين، من وأد البنات، وما يقوم به الآن بعض المنحرفين المعاندين الذين

---

(١) قراءة (خطئا) بفتح الخاء والطاء: يزيد (أبو جعفر المدنى) وابن ذكوان. غاية الاختصار: ٢/٥٤٦.

يمنعون النسل، أو يحددونه، أو يضبطونه، أو ينظمونه، أو غير ذلك من العبارات المقلدة التى يدعون إليها المسلمين ولا يدعون إليها النصارى واليهود. روى فى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود: «قلت يا رسول الله: أى الذنب أعظم قال: «**أن تجعل لله ندا وهو خلقك**»، قلت: ثم أى؟ قال: «**أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**»، قلت: ثم أى؟ قال: «**أن تزانى بحليلة جارك**»[1].

وقد قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩)** ﴾ [التكوير].

قالوا إن فى الآية نهى عن القتل، وضبط النسل أو تحديده أو تنظيمه، هو بمنع الحمل، لا بالقتل بعد أن يولد حيا، ونقول فى الجواب عن ذلك إن ذلك وأد، لأن النبى ﷺ فى آخر أخبار العزل: «**العزل هو الوأد الخفى**»[2] ومهما يكن فإنه محاربة لإرادة الله وتحد؛ لأن الله هو الرزاق، ومعاندة لصريح الآية ﴿ **نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ** ﴾.

ولقد رخص الإمام الغزالى فى العزل لأسباب كثيرة، ولكنه قرر أمرين:

الأمر الأول: أنه لا يجوز العزل لحال الخوف والفقر؛ لأن ذلك يكون مصادمة صريحة للنص القرآنى، وإن الأرض لم تضق بسكانها، فلم ينل من خيرات إلا بعضها القليل، وأرض المسلمين واسعة.

الأمر الثانى: أن العزل فى أى حال رخص فيها مما لا ينبغى أى أنه لا ينبغى بالجزء فلا يجوز بالكل، والله أعلم. بعد النهى عن قتل الأولاد رجاء ما يؤدى إلى قتل الأولاد أو ضياعها أو فيه بشكل عام إضعاف للنسل فقال تعالى:

﴿ **وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢)** ﴾.

---

(١) متفق عليه، رواه بنحو من ذلك البخارى: البخارى: تفسير القرآن- قوله تعالى: (فلا تجعلوا لله أندادا) (٤١١٧)، كما رواه فى خمسة مواضع أخرى بألفاظ متقاربة، ومسلم: الإيمان - كون الشرك أعظم الذنوب (١٢٤)، (١٢٥). عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

النهى عن قرب الزنى، وهو يتضمن النهى، فلم يقل سبحانه: لا تزنوا، بل قال: لا تقربوا، وهذا يتضمن النهى عن الزنى وعن كل ما يؤدى - أو يظن أنه يؤدى - إليه، كالقبلة والملامسة، ورؤية الأجزاء المغرية من جسم المرأة، والرقص الذى يثير الغريزة الجنسية، وأصوات النساء المغرية التى تتلوى فيها المرأة بما يثير ويدفع، ونشر الصور العارية، وغير ذلك مما نراه ونسمعه كل يوم، فكل هذا منهى عنه، وهو حرام؛ لأنه قرب من الزنى أو ذريعة إليه، وكل ما كان حراما فى ذاته فذريعته ممنوعة، وهذا باب يسمى فى الفقه سد الذرائع، فكل ما يؤدى إلى حرام لذاته يكون حراما لأنه يؤدى إليه.

والزنى يؤدى إلى ضياع النسل، فإذا كان وأد الأولاد محرما؛ لأنه يضعف النسل، فالزنى يضيع النسل، ويذهب بقوة الأمة، وما كثر الزنى فى أمة إلا عمها الخراب، وضاعت فيها الأنساب بل ضاع نسلها، واعتبر ذلك بالأمم التى تنحل بشيوع الزنى فيها، فإنه يقل عددها، ويضيع نسلها، ويكثر فيها الأولاد الذين لا آباء لهم، وإن البلاد الأمريكية والأوربية لكثرة الزنى فيها، وانحلالها قل نسلها، والمسلمون مهما تكن حالهم فى القرب من الإسلام أو البعد لا تزال هذه الفاحشة ليست كثيرة فيهم ولكثرتها عند الأمريكان والأوربيين يعملون على إضعاف النسل بين الذين تغيظهم كثرتهم بأمرين:

الأمر الأول: إشاعة اللهو والمجون لتفرغ من الحقائق الإسلامية ولتميع نفوسهم كما ماعوا.

الأمر الثانى: العمل على منع النسل أو منع كثرتهم بدعايات منظمة وأموال يبذرونها فى المسلمين لتعم هذه الدعاية فيهم.

وقد وصف الله الزنى بقوله تعالت كلماته: ﴿**إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً**﴾ وصفه الله سبحانه بأنه فاحشة، أى أنه حال قبيحة مفرطة فى القبح زائدة زيادة فاحشة، ﴿**وَسَاءَ سَبِيلاً**﴾، ساء تستعمل بمعنى أفعل التعجب أى ما أسوأه سبيلا وطريقا فى الحياة؛ لأنه اعتداء على الفضيلة، ويؤدى إلى انحلال الأسرة،

وانحلالها انحلال للمجتمع. وبعد بيان أسباب قتل الأمة نهى سبحانه عن القتل المباشر فقال سبحانه:

﴿ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا (٣٣) ﴾.

تدرج فى النهى، فالنهى الأول كان عن قتل الأولاد، ثم حرم ما يؤدى إلى ضياع الأولاد وموتهم، وضياع النسل وانحلال الجماعة ثم نهى النهى الصريح، ﴿ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ ﴾ وعبر بالنفس؛ لأن القتل، وإن اتجه إلى الجسم، غايته الاعتداء عليه، وإزالتها من الوجود، وقد صرح الله تعالى بأنه محرم قتلها، فهو وصف كاشف مبين دل على التحريم القاطع الذى لا مسوغ له، وقوله تعالى: ﴿ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾، استثناء من النهى، وقد صرح الله تعالى ببعض المسوغات أو الحال التى يكون فيها القتل فقال: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ... (٣٢) ﴾ [المائدة].

وقد ذكر النبى ﷺ معنى القتل بالحق فقال: «**لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، وزنية ثيب، وردة بعد إيمان**»(١).

وإن القتل أشد الجرائم، فقد قال: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣) ﴾ [النساء]، والنبى ﷺ فيما رواه الشافعى: «**لزوال السموات والأرض أهون عند الله من قتل امرئ مسلم بغير حق**»(٢).

ولذلك سوغ الله تعالى لولى المقتول أن يطالب بدمه، ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا ﴾ ووليه هو قريبه بالعصبة، ويكون ولى الأمر وليا فى المطالبة

(١) رواه البخارى: الديات- قول الله تعالى أن النفس بالنفس (٦٣٧٠)، ومسلم بنحوه: القسامة والمحاربين- ما يباح من دم المسلم(٣١٧٥).

(٢) كما رواه بنحوه ابن ماجه عن البراء بن عازب، والترمذى والنسائى عن عبد الله بن عمرو. وقد سبق تخريجه.

بدمه إذا لم يكن له ولى عاصب، وإذا كان قاتله هو ولى الأمر الأكبر وعجز وليه العاصب عن المطالبة بدمه فإن المسلمين جميعا عليهم أن يطالبوا بالدم، لأنهم أولياؤه؛ ويكونون عصاة مذنبين إذا لم يطالبوا بدم من قتل مظلوما، ولو كان القاتل هو الخليفة الأعظم، ولو خذلوه، ولم يطالبوا بدمه يكونون آثمين وعصاة، وبترك ذلك الواجب المقدس ذهبت قوة المسلمين.

وقد روى التاريخ الكثير عن قتل الحكام الظالمين لبعض أهل الإيمان، وسكوت المؤمنين، ورأينا فى عصرنا من قتل المؤمنين قتلة فاجرة والمسلمون ساكتون ينظرون، ومن يتسربلون بسربال الدين يبررون ويحثون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، وإنه من مقررات الإسلام أنه لا يهدر دم فى الإسلام، كما روى عن علي كرم الله وجهه أنه لا يُطَلّ دم فى الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿ **فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا** ﴾، أى تسلطا على القاتل، يتتبعه حتى يقتضى الحاكم منه، وقوله تعالى: ﴿ **فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ** ﴾ بقتل غير القاتل أو بقتل كثيرين فى واحد، كما كان يفعل أهل الجاهلية، ومن الإسراف المُثلة، ﴿ **إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا** ﴾، أى إن الله ناصره، وقد خذله حقه فلا يتجاوزه، وقد خيره النبى ﷺ بين القود أو العفو أو الدية فإن زاد عن الثالثة فخذوا على يديه.

وإن الله سبحانه بين حق القرابة، وحق الضعفاء من المساكين وأبناء السبيل، ثم بين بعد ذلك من يجتمع فيهم أحيانا حق القرابة والضعف، وأحيانا لا تكون لهم قرابة راحمة، بل يكونون فى رحمة الله، والجماعة تكنفهم، فقال تعالى:

﴿ **وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً (٣٤)** ﴾.

اليتيم إما أن يكون قوة بانية فى الجماعات أو قوة هادمة، فإن روعى حق رعاية، وحوفظ عليه بالصيانة والتربية والتنشئة نشأة صالحة يحس بأن من حوله يرعاه، ويكلؤه ويحميه نشأ محبا رحيما بغيره، لأنه عاش برحمة غيره، وإن نشأ

فى بيت لا يؤنسه ولا يكرمه، ولا يعطيه محبة ورفقة نشأ عدوا للجماعة، وكان فيه ما يسمى عقدة النفس، أو مركب النقص، ولذا عنى به الإسلام أبلغ عناية بنصوص القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (٩)﴾ [الضحى]، وقوله تعالى: ﴿... وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ... (٢٢٠)﴾ [البقرة]، وترى القرآن الكريم قد حث على المخالطة لأن المخالطة مع الإكرام تؤنسهم وتبعد عنهم الوحشة، ولقد قال النبى ﷺ: «**خير البيوت بيت يكرم فيه يتيم وشر البيوت بيت يقهر فيه يتيم**»(١).

وإن اليتيم إن كان فقيرا كان فى رحمة المجتمع بأمر الله تعالى، ولقد قال تعالى: ﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧)﴾ [البلد].

وإذا كان اليتيم ذا مال، تهافت عليه الطامعون، كما يتهافت الذباب على الطعام الحلو الذى لا حامى له، فتعقد نفس اليتيم بما يحس به من طمع الناس، وأكلهم ماله أكلا لمًّا، ويحس كأنه فى مذأبة لئام، ولأنه يناله الحرمان والقهر، وهو ذو مال، ولذا نهى الله تعالى عن أخذ ماله ووجوب رعايته، والمحافظة عليه، ولذا قال تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ونهى سبحانه عن القرب من ماله إلا بالتى هى أحسن، وذلك يتضمن ثلاثة أمور:

الأمر الأول: ألا يأكله أو ينهبه أو يأخذه بغير حق، وإنه لضعيف يسهل أخذ ماله من غير حسيب إلا الله.

الأمر الثانى: أنه إذا قربه يقربه بالتى هى أحسن أى بالطريقة التى أحسن، وأدعى لحفظه، وذلك بالمحافظة عليها وإعطائها اليتامى فى وقت قدرتهم على

---

(١) سبق تخريجه.

إدارتهم، كما قال تعالى: ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ... ﴿٦﴾ ﴾ [النساء].

الأمر الثالث: أن يعمل على تنميتها، فإن ذلك من الطريقة التي هى أحسن، وأن يدفع زكاة أمواله، ولقد قال النبى ﷺ: «**اتجروا فى مال اليتيم حتى لا تأكله الصدقة**»(١).

نهايته أن يبلغ أشده، ويؤنس رشده، ويختلف ذلك باختلاف العصور والمعاملات، فيبلغ الرشد حيث لا تكون المعاملات، معقدة بحجر كبلوغ النكاح، ثم تعلو سن الرشد كلما تعقدت المعاملات وهذا ما يرمى إليه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾، أى أعلى قواه العقلية والبدنية ويستطيع أن يدير ماله بنفسه من غير رقابة، والأشد هو القوة العالية على صيغة الجمع من غير مفرد وقيل له مفرد وهو شدة بمعنى قوة ولكن لم يعهد جمع فعلة على أفعل، وقيل جمع شد يجمع على أشد مثل كلب وأكلب.

وأطلقت كلمة أشد على بلوغ الأربعين، كما فى قوله تعالى: ﴿ ... حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ... ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحقاف]، وهى التى تجمد فيها العادات والتقاليد ويعلو صاحبها عن الردع، ولذا قال بعده: ﴿ ... وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ... ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحقاف].

ولقد قال فى ذلك الأصفهانى: «إن الإنسان إذا بلغ هذا القدر يتقوى خلقه الذى هو عليه، فلا يكاد يزايله بعد ذلك». وما أحسن ما قاله الشاعر:

إذا المرء فى الأربعين ولم يكن ... له دون ما يهوى حياء ولا ستر

فدعه ولا تنفس عليه الذى مضى ... وإن جر أسباب الحياة له العمر

وقد قرن سبحانه النهى عن القرب من مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن بالأمر بالوفاء بالعهد فقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾، العهد هو عهد

---

(١) سبق تخريجه.

الله تعالى بالإيمان به والقيام بحق التكليف، والعهد الذى يعاهد الناس عليه فى معاهدة أو عقد أو غير ذلك مما يرتبط به أمام الناس موثقا العهد بيمين الله تعالى أو غير موثق، وعلل الأمر بقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً** ﴾، أى أنه يسأل إذا نكث فيه، ويسأل إذا لم يوف به على الوجه الكامل وهو تحت رقابة الله تعالى وكفالته، فلا يصح التفريط فيه، وقد بينا طلب الإسلام للوفاء بالعهد فى قوله: ﴿ **وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١)** ﴾ [النحل].

وقد يسأل سائل لماذا اجتمع الأمر بالوفاء بالعهد مع النهى عن قرب مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن فى آية واحدة؟ ونقول: إن ذلك يشير أولا أن اليتيم مع كافله كأنه فى عهد أمانة عاهد الله تعالى عليه فلا يضيع ذلك العهد، ويشير ثانيا إلى أن العقد فى مال اليتيم يجب الوفاء به كما يجب الوفاء فى مال غيره، ويشير ثالثا إلى أنه مسئول أمام الله عما فعل فى مال اليتيم، والله أعلم.

بعد أن بين الله تعالى ما يقوم عليه بناء الأسرة، والمجتمع وما يحفظه من الآفات بين ما ينميه وهو العدالة فى التعامل فقال:

﴿ **وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٣٥)** ﴾.

أوفوا الكيل: قدموه وافيا إذا كلتم، وزنوا بالقسطاس المستقيم، القسطاس هو الميزان، والقسطاس كلمة فى أصلها رومى، ولكنها عربت وما يعرب يكون عربيا، وإن اللغات تنمو بزيادة ألفاظ فيها ولو كانت مستعارة من غيرها، ولا يطعن فى القرآن بأن فيه عربيا على ذلك النحو؛ لأنها صارت عربية بتعريبها ما دام النحو سليما والبناء قويما.

والقسطاس المستقيم أى السوى الذى لا يميل ميلا غير سليم، فيزن بالباطل و﴿ **ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** ﴾، أى ذلك خير فى ذاته لأنه عدل فى المعاملة، وبه

تستقيم أمور الناس، ويطمئنون ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾، أى أحسن مآلا، فإن العدل والتساوى فى المعاملة مآله فى الأمم حسن دائما.

وإن ذكر الكيل والميزان لأنهما حسيان، ولكنهما رمز لكل المعاملات التى تكون بين الجماعة، فالمعاملة العادلة تربط الناس برباط من القوة لا تنفصم، ولقد قال النبى ﷺ: «**عامل الناس بما تحب أن يعاملوك**»[1]، فذلك هو القانون العادل الذى يصلح الناس فى هذه الحياة.

طلب الحق هو السبيل إلى الخير

قال الله تعالى:

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ
إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾
وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ
ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾
ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا
ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾

هذا بيان للطريق السوى الذى يسلكه المؤمن للوصول إلى الحق، وهو ألا يتبع الأوهام، فما ضل الناس إلا باتباع الأوهام، ووراء الأوهام ودأب العقول غير المدركة تكون الأهواء والشهوات وضلال الأفهام، ووراء ضلال الأفهام عبادة الأوثان، ولذا قال تعالى: ﴿**وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** (٣٦)﴾.

---

(١) سبق تخريجه.

القفو معناه التتبع، وأصله ما يؤدى إلى الكذب أو القذف أو البهتان، ومنه القائف وهو المتتبع للآثار، وأصله القياس وهو العلم بالحدس والتخمين وإلا كان كما يعبر الشافعي، الظن الذى لا يبنى على أساس علمى، وقد قال تعالى: ﴿ ...وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) ﴾ [النجم].

والآية تنهى عن أن يتبع ما ليس عنده أسباب للعلم به، أو ما ينافيه العلم الصحيح والوقائع البينة كشهادة الزور، وقذف المحصنات وتتبع عورات المؤمنين ليعلنها، وقد سترها الله تعالى عليهم، ولقد قال ﷺ: «**من قفا مؤمنا بما ليس فيه حبسه الله تعالى فى ردغة الخبال حتى يأتى بالمخرج**»(١).

ويقول ابن كثير بعد أن روى أقوال الصحابة فى قفو ما ليس له به علم، ومضمون ما ذكره: أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم بل بالظن الذى هو التوهم والخبال، كما قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ**...(١٢) ﴾ [الحجرات]، وإن تتبع الأمور من آخذ العلم من غير مظانه يحل عرى العقل، حتى يتوهم ما ليس بحق، ويفترى ما لم ير، ولم يسمع، ولقد قال ﷺ: «**إن أفرى الفرى أن يُرى الرجل عينيه ما لم تريا**»(٢)، وإن نتيجة قفو الإنسان والحكم بغير علم يؤدى إلى ما ذكره النبى ﷺ من أن يرى عينيه ما لم تريا بعين خياله، وإن ذلك هو الخبال، وقد سمعنا فى مصر منذ بضع سنين شائعة بين الناس أشاعها النصارى أنهم رأوا صورة العذراء، وادعوا أنهم رأوها، وما رأوها.

وإن اتباع الأوهام يجىء دائما من أن يقفو الرجل ما لم يكن عنده أسباب العلم به، فيتخيل ثم يخال، وذلك هو الخبال، وكذلك تنشأ العقائد الباطلة من عبادة الأوثان، والتثليث، وغير ذلك من العقائد الباطلة التى تنشأ من الأوهام وأن يرى العين ما لم تر، فذلك هو الضلال المبين.

---

(١) رواه أحمد: مسند المكثرين(٥٢٨٥).

(٢) رواه أحمد - مسند المكثرين (٥٤٥٣).

وقد بين الله طريق العلم الهادى المرشد، وهى هبات الله تعالى التى وهبها للإنسان فقال: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾، هذه طرائق؛ فالسمع ينقل العلم الغيبى وينقل العلم الحسى، والفؤاد وهو هنا العقل يربط بين ما سمع وأبصر من آيات، ويكون حكمه القطعى الرشيد.

وإنها مسئولة فيسأل السمع لماذا لم يسمع الحق وينصت إليه، ويسأل البصر لماذا لم ير الآيات وينظرها نظرة إدراك وتعرف، والعقل لماذا لم يفكر فيما تنقله إليه الحواس، ولماذا لم يأخذ بأسباب العلم ويتبع الأوهام فيكون الخبال ووراءه الضلال.

وقوله: ﴿كُلُّ أُولَئِكَ﴾ الإشارة إلى السمع والبصر والفؤاد، وكل واحد منها كان مسئولا بمفرده، ومسئولا فى جماعته و(أولئك) يشار بها إلى الجمع مذكرا كان أو مؤنثا، أو كان خليطا والله تعالى أعلم.

ونهى الله تعالى بعد ذلك عن العُجْب والخيلاء، وهو سبيل الضلال كالأوهام:

﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨)﴾.

«المرح» الخيلاء والعُجْب، والفرح بما أوتى من صحة أو مال أو جاه أو سلطان، ومَرَحا مصدر أى ذا مرح، وهناك قراءة بالكسر(١)، وتكون حالا أى مَرِحا معجبا مختالا متزينا معتزا بما أعطيه.

قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ﴾، أى تخترقها بوطائك مهما تكن قوتك، ﴿وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾، أى لن تناهد السماء وتناصبها، حتى تبلغ طولها، وتعلو عليها، أى إنك مهما تكن فى قوتك لن تكون قادرا على خرق الأرض أو التطاول إلى السماء، وهذا يدل على عجزه مهما زعم نفسه قويا، وأنه

(١) قراءة (مرحا) بكسر الراء، لم أجدها فى العشر المتواترة.

مهما يتفاخر فهو قمىء[١] لا يقدر على شىء مهما يعط نفسه من فخار، وكأن فى الكلام تشبيها لحاله بحالة من يحاول أن يخرق الأرض بقوته أو يعلو إلى السماء بغروره، وإن ذلك مستحيل فكذلك ما يزعمه لنفسه مستحيل.

وإن هذا من الكبر والخيلاء، وهما يؤذيان الناس ولا ينفعان صاحبهما، ولقد قال النبى محمد ﷺ: «**من تواضع لله رفعه**»[٢] فهو فى نفسه حقير وعند الله كبير، ومن استكبر وضعه الله فهو فى نفسه كبير وهو عند الله حقير.

وإن الكبر يسىء إلى الناس؛ لأن المتكبر يستعلى عليهم ويضيع حقوقهم، ولا يباليهم ولا يحس بإحساسهم ويشمخ بنفسه كأنه فوق التبعة، ولا يسأل عن فعله وحاله، ولذا قال ﷺ: «**الكبر بطر الحق، وغمط الناس**»[٣].

﴿**كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا** (٣٨)﴾.

الإشارة إلى المذكور قريبا هو المشى مختالا مرحا معجبا بنفسه، ﴿**سَيِّئُهُ**﴾ يقرأ بالضمير أى يسوء فى ذات نفسه ويسىء لغيره وهو عند الله مكروه مبغوض، فيلتقى فيه أمران مذمومان:

الأمر الأول: أنه فى ذاته عمل سيئ ويسوء الناس.

والأمر الثانى: وهو الأهم: مكروه مبغوض عند الله تعالى.

إن الكبر ينبعث من إحساس بأنه أوتى ما لم يؤت غيره.

وإننا نشاهد ذلك فى بعض المتسبين للعلم، إذ أعطوا لأنفسهم مكانا ليس لهم أو اتصلوا بالحكام الظالمين، وقد رأينا ذلك فى عصرنا، ورأيناه يذكر عمن كانوا قبلنا، قال الناصر أحمد الذى مات فى القرن السابع، فقد قال فى قوله

---

(١) القمىء: الذليل الصغير حجما أو قدرا. القاموس المحيط(ق م أ).

(٢) رواه مسلم: البر والصلة والآداب (٤٦٨٩)، كما رواه الترمذى وأحمد ومالك والدارمى.

(٣) سبق تخريجه.

تعالى: ﴿ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا ﴾: وفى هذا من التهكم والتقريع لمن يمشى هذه المشية كفاية فى الزجر عنها، وقد حفظ الله عوام زماننا عن هذه المشية، وتورط فيها بعض قراؤنا وفقهاؤنا، فبينما أحدهم قد عرف مائتين أو أجلس بين يديه طالبين، أو شد طرفا من رياسة الدنيا، إذ هو يتبختر فى مشيته، ويترفع ولا يرى أنه يطاول الجبال، ولكن يحك بيافوخه عنان السماء، والله ولى التوفيق:

﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا (٣٩) ﴾.

الإشارة فى ﴿ذَلِكَ﴾ إلى المذكور من الآيات من قوله تعالى: ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ... ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (٣٧) ﴾ وإن الله تعالى ذكر ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة، والحكمة هى العلم النافع، وفى هذا العلم نفع كبير، فقد ابتدأ بتطهير العقل والنفس من أدران الشرك، ورجس الأوثان ثم بين بناء المجتمع على دعائم الأسرة، وعلى ألا يجعل يده مغلولة إلى عنقه ولا يبسطها كل البسط ونهى عن الإسراف وما من إسراف إلا ووراءه حق مضيع، ثم طهر المجتمع من أوزاره فنهى عن الفحشاء، وقتل النفس أو قرب مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن، وأمر بأن تقوم العلاقة بين الناس على أساس الوفاء بالعهد، وعلى أن يحب الإنسان لنفسه ما يحب لغيره، وأن العلاقة على أساس المقام الذى لا اعتداء فيه هى خير وأحسن، ونهى عن السير وراء الأوهام، وهذه كلها علوم نافعة؛ لأن فيها نفع الإنسان وإقامة مجتمع صالح قد حُلِّى بمكارم الأخلاق وخلى من ملائم الناس.

وعن ابن عباس هذه الثمانى عشرة كانت فى ألواح، أولها ﴿وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ ... ﴾ إلى هذه الآية.

ويقول الزمخشرى فى الكشاف: «وسماها حكمة؛ لأنها كلام محكم لا مدخل فيه للفساد بوجه» وأقول: لأنها معان محكمة لا تقبل النسخ بحال من الأحوال، وقال الزمخشرى أيضا: «ولقد جعل الله فاتحتها وخاتمتها النهى عن

الشرك؛ لأن التوحيد هو رأس كل حكمة وملاكها ومن عدمه لم تنفعه حكَمُه وعلومه وأن بذَّ فيها الحكماء، وبلغ بيافوخه السماء، وما أغنت عن الفلاسفة أسفار الحكم، وهم عن دين الله أضل من النعم».

وختم الله الآيات بقوله: ﴿ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾، أى يجتمع عليك عذابان:

العذاب الأول: أنك ملوم لأن فعلت فعلا لا يليق بالعقلاء وهو فى ذاته مذموم عند من يدرك الحقائق.

العذاب الثانى: أن تدحر أى تهلك بالإبقاء فى نار جهنم، وقد ابتدأ سبحانه ببيان أن الشرك يقعد به عن الوصول إلى الحق ويقعد مذموما مخذولا، لا ينصره أحد، وختم الآيات بأنه يلقى فى جهنم هالكا مذموما ملوما لا يبرر كفره أحد.

آثار الشرك ضلال العقول

قال الله تعالى:

أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم
بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾
وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾
قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا
﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ
ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن
لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾

إنهم يجرون وراء الأوهام ويقفون ما ليس لهم به علم، فيدعون ما لا دليل عليه من نقل ولا من عقل، ومن ذلك أن جعلوا الملائكة الذين هم عباد الله إناثا،

وكان ذلك غريبا لأن مؤداه أنه سبحانه اصطفى لهم البنين، وجعل له الإناث وهذا غير معقول فى ذاته؛ لأن الناس فى شئونهم العادية يؤثرون أنفسهم بالخير ويختارون لغيرهم دونه، وكذلك قال سبحانه وتعالى فى استفهام إنكارى:

﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا (٤٠) ﴾.

(الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها أى ترتب على أنهم يقفون ما ليس لهم به علم أن ساروا وراء أوهام لم يبنوا علمهم على علم علموه، ولكن على أوهام توهموها.

و(الفاء) مؤخرة عن تقديم؛ لأن الاستفهام له الصدارة، والاستفهام هنا إنكارى بمعنى النفى مع التوبيخ **﴿أَفَأَصْفَاكُمْ﴾**، أى اختار لكم الصفو الخالى من الشوب، الذى لا يخالطه ضعف، أى هل اختار لكم البنين واتخذ الملائكة إناثا، وهذا يتضمن ادعاءين ادعوهما بأوهامهم:

الادعاء الأول: أنهم قالوا: إن الملائكة إناثا.

والادعاء الثانى: أنهم بنات الله تعالى، وإنهم بذلك قد افتروا على الله تعالى أعظم الفرية، وزينت لهم أوهامهم أعظم الباطل، إذ جعلتهم فى خبال، ولذا قال تعالى: **﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا﴾**، أى عظيم فى أنه بهتان عظيم؛ لأن الله تعالى ليس من جنس الحوادث، **﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ... (١٠١)﴾** [الأنعام]، وإن الولد من صفة الحوادث، والله سبحانه وتعالى منزه عن المشابهة بالحوادث، **﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾** [الإخلاص] وقد أكد سبحانه أن هذا القول منهم عظيم أولا بـ (إنّ) التى للتوكيد، وثانيا بـ (لام) التوكيد.

ولقد أشار سبحانه وتعالى إلى معجزته الكبرى وهو القرآن فقال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا (٤١) ﴾.

أكد الله تعالى أنه يصرف القول فى القرآن، فقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾، أى صدقنا عباراته ومعانيه، فأحيانا تكون قصصا فيها العبر، وأحيانا تكون بالأمثال يضربها، وأحيانا يقرر الحقائق بطريق الاستفهام، وأحيانا ينفيها، ويستنكرها، وهو فى كل ذلك ينتقل من إقرار حكيم معجز إلى مثله، وقد قال بعض العلماء فى تصريف القرآن: لم يجعله نوعا واحدا بل وعدا ووعيدا ومحكما ومتشابها وأخبارا وأمثالا، مثل تصريف الرياح من صبا ودبور وجنوب وشمال، وهكذا كان التصريف من أسرار الإعجاز وهو أعلى درجات البلاغة وأسرارها.

وإنك وأنت تقرأ القرآن وهو مأدبة الله تعالى تنتقل فيها من طيب سائغ إلى طيب سائغ، فى حلاوة طعم، وجمال منظر وكله هنىء مرىء؛ لأنه مائدة رب العالمين.

وقد صرف الله سبحانه فى القرآن ذلك التصريف ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾، أى ليملأوا قلوبهم بذكر الله وليعتبروا بعبره، وليروا فيه الكلام المعجز الذى يذكرهم برسالة النبى ليؤمنوا.

ولكن المتعنت المعاند لا يقنعه الدليل ولا يزيده إيمانا بل إن عناده وطغيانه يزيده استمساكا بضلاله وإصرارا على كفره، ولذا قال: ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً﴾، أى إلا بعدا عن الحق نافرين منه.

والتذكر هنا هو التدبر كما قال تعالى: ﴿... قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦)﴾ [الأنعام]، والنفور كما أشرنا الإيغال فى الضلال والإمعان فيه، وأى ضلال أشد من النفور من الحق واجتنابه.

ولقد قال تعالى موجها القول إلى النبى ﷺ لإبطال شركهم:

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً (٤٣)﴾.

هذه الآية الكريمة متصلة بقوله تعالى: ﴿ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ وتوسط بينهما وهم أن الملائكة بنات، وتصريف القرآن ليتذكرون وذلك للإشارة إلى أن الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى يتبعون الأوهام ويصيبهم الخبال بهذه الأوهام، ولا يجد الدليل الإيجابى مجازا إلى قلوبهم، فصرف الله تعالى القرآن ليتذكروا فأبوا إلا نفورا كشأن أعداء الحق، ويبين الله تعالى على لسان نبيه بطلان ما يعبدون، فيقول سبحانه:

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) ﴾.

ذو العرش هو الله تعالى، وعبر بهذا التعبير لبيان كمال سلطانه فى ملكه وأنه لا شريك له، فأظهر بعد الإضمار لذلك، والمعنى كما يقرر ابن عباس: لو كان مع الله تعالى آلهة غيره كما يدعون لنازعوه السلطان فى الوجود، ولعاندوه فى خلقه، ولكن لا يمكن ذلك، وإلا فسد الكون، كما قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) ﴾ [الأنبياء].

ويكون هذا الكلام لإبطال زعمهم بدليل يؤدى إليه من نزاع وذلك باطل، وقد خرج الآية آخرون تخريجا فيه مثل هذه من حيث إنه إبطال الدعوة التى يدعونها، وذلك التخريج الآخر أنهم قالوا: إن المعنى أنه لو كان هناك آلهة كما يقولون ﴿ لَّابْتَغَوْا ﴾، أى لطلبوا سبيلا لذى العرش ليعبدوه، كما قال تعالى فى آية ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ... (٥٧) ﴾ فأتى سبحانه ببرهان التوحيد من دعواهم، أى أن التى يدعون لها الألوهية خاضعة لله؛ لأن كل من فى الوجود خاضع لله تعالى؛ لأن له السلطان الأعلى فى ملكوت السموات والأرض.

ومهما يكن التخريج فإن الآية إبطال لعبادة الأوثان وأنها من الأوهام وأنها من أنهم يقفون ما ليس لهم به علم، فيقعون فى الباطل وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

ولقد قال تعالى منزها ذاته العلية عن هذه الأوهام:

﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً (٤٣) ﴾.

أى تقدست ذاته العلية عن أن له شريكا، وتعالت وسمت. ﴿ عُلُوًّا كَبِيراً ﴾، أى علوا بعيدا فى علوه، كبيرا فى ذاته بحيث لا يكون ثمة علاقة بأى نوع من أنواع العلاقة بينه وبين رب البرية؛ لأن الوجود كله يخضع له، ويسبح بحمده، ولذا قال تعالى:

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً (٤٤) ﴾.

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ ﴾، أى طبقات النجوم وبروجها، وكل سماء زينت بمصابيح هى نجومها، والتسبيح الخضوع له سبحانه وتعالى، وكونها طائعة له سبحانه فكل الوجود فى قبضته، وإن هذا التسبيح يرشح للتفسير الثانى؛ لقوله تعالى: ﴿ إِذاً لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴾، أى الذى يقول: إن المعنى أن آلهتهم خاضعة لله يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة.

والتسبيح هو بمعنى الخضوع الكامل لله تعالى، لا يخرج شىء مما فى الوجود أو أحد عن طاعته سبحانه، ويصح أن يراد بهذا الخضوع مع ذكر الله تعالى بالتنزيه عن الشريك وأنه الواحد الأحد الفرد الصمد، وإنه يكون خاشعا مسبحا عابدا، وإن كان غير مكلف كما يكلف العقلاء وإن الحجارة طوع يمينه سبحانه، ولقد قال تعالى: ﴿ ... وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ... (٧٤) ﴾ [البقرة].

وإذا كانت هذه حال الوجود كله من أنه يسبح الله تعالى، وإن كنا لا ندرك تسبيحه فكان ذلك دليل وجوب عبادته وحده لا يعبد سواه، وقد استدرك الله تعالى على حكمه سبحانه بتسبيح الوجود بقوله: ﴿ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾، أى لا تنفد بصائركم ومداركم إلى إدراك تسبيحه؛ لأنه لا يعلمه إلا اللطيف الخبير ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك] سبحانه وتعالى.

ولقد ذكر الزمخشرى أن معنى يسبح بحمده أنها تسبح بلسان الحال، حيث تدل على الصانع وعلى قدرته وحكمته، فكأنها تتعلق بذلك وكأنها تنزه الله عز وجل مما لا يجوز عليه من الشركاء وغيره، ويقول: إن قوله تعالى: ﴿ **وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** ﴾ خطاب للمشركين من حيث إنهم لم يأخذوا بمقتضى دلالة الحال، وما توجبه من إيمان بالله وحده.

وفى الحق، إن الزمخشرى أخرج النص من ظاهره إلى مجاز صحيح فى ذاته، ولكنه بعيد من جهة، ولا ينقل الكلام من الحقيقة إلى المجاز إلا بقرينة توجب الخروج، وإلا بتعذر الحقيقة أو يكون فى المجاز جمال لفظى خاص يليق بمقام البيان القرآنى، وقد فند الناصر كلام الزمخشرى بقوله: «ولقائل أن يقول فما تصنع بقوله تعالى: ﴿ **كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا** ﴾ وهو لا يغفر للمشركين ولا يتجاوز عن جهلهم وإشراكهم، وإنما يخاطب بهاتين الصفتين ﴿ **حَلِيمًا غَفُورًا** ﴾ المؤمنين والظاهر أن المخاطب المؤمنون، وأما عدم فقهنا للتسبيح الصادر من الجمادات، فكأنه والله أعلم من عدم العمل بمقتضى ذلك، فإن الإنسان لو تيقظ حق التيقظ إلى النملة والبعوضة، وكل ذرة من ذرات الكون لوجدها تسبح الله وتنزهه وتشهد بجلاله وكبريائه وقهره، وعندى أن قوله تعالى: ﴿ **وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** ﴾ خطاب لكل من هو أهل للخطاب.

وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا** ﴾ لا يعاجل بالعقوبة ويفتح الغفران لمن يتوب، ولو كان مشركًا يتوب عن شركه، كما قال: ﴿ **قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ...** (٣٨) ﴾ [الأنفال]، وأكد سبحانه وصفه بهذين الوصفين بـ(إن) المؤكدة، وكان الدالة على الاستمرار، وصفة التشبيه الدالة على كمال الاتصاف.

القرآن حجاب مستور عن المشركين لشركهم

قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾

يقول الله تعالى مخاطبا نبيه الذى يدعو إلى الحق والقرآن بالقرآن:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾.

وذكر سبحانه الذين لا يؤمنون بالآخرة؛ لأن الذين لايؤمنون بالبعث تجمد قلوبهم على الحس فلا يؤمنون بغيره، وتغلظ على الهدى؛ لأنهم يحسبون أنه لا حياة غير هذه الحياة، فيرتقبون ويلعبون ويلهون وكأنما خلق الإنسان عبثا، وذلك أداهم إلى الكفر فصاروا لا يؤمنون بشىء.

و﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾: الحجاب هو الحاجز عن الوصول إلى أمر أو اعتقاد، وقال بعض العلماء: إن مستورا معناه ساتر، وإن ذلك مجاز أساسه تلاقى المشتقات، وأحسب أن ذلك مبالغة فى ستره، حتى إنه من ستره للحقائق عليهم صار هو كأنه مستور عندهم، ويصح أن يقال: إنه مستور عليهم لا يدركونه ولا يعرفونه ويحسبون أنهم يعرفونه، أو أن القرآن مستور عليهم بحجاب، فهم لا يعرفون مغزاه ولا مرماه، أو أن هذا الحجاب ليس بمحسوس بل أمر معنوى مستور

عليهم، وكلها معان تتجه إلى بيان أنهم لا ينتفعون من القرآن ولا يتدبرون معانيه لهذا الحجاب الذى يسترهم عنه، ويسترون بفعلهم وبأهوائهم أنفسهم، وكان التعبير بقوله تعالى: ﴿مَّسْتُوراً﴾ إشعار بأنهم الذين صنعوا الحجاب بأعراضهم وهم الذين ستروه عن أنفسهم بأنفسهم، وقد أكد سبحانه وتعالى هذا المعنى وهو ستره عنهم وكونهم محجوبين عنه بقوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦)﴾.

الأكنة جمع كنان، و(جعلنا) معناها صيرنا وأنشأنا أكنة تكون غلافا مانعا قلوبهم عن أن تدرك وتصل إلى النور، ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، أى صمما وثقلا فيها يمنعها من أن تستمع إلى القرآن الحق، فالأكنة تمنع أن يفقهوه لأن غلافا وضع بينها وبين النور، فلم تفقه أى لم تدرك وتتدبر فى بلاغته، ومعانيه، وقصصه، وعبره، وما فيه من نور الحق فلا تراه، وجعلنا فى آذانهم وقرا عن سماع القرآن وتذوق ألفاظه ونغمه، وجمال عباراته ونسق بيانه.

ويصح أن نقول إن الكلام السامى ممثل لحالهم فى عدم فقههم للقرآن وعدم سماعهم لآياته سماع فهم وتدبر وتعرف لبلاغته بحال من جعل الله تعالى على قلبه غشاوة فلا يصل إلى الحق، وحال من فى آذانه ثقل فلا يسمع، ثم يصور سبحانه نفورهم من الحق وتأثرهم بالأصنام التى جعلتهم يعتقدون فيها الألوهية فقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾.

وإذا ذكرت ربك الذى خلقك وخلقهم وربهم وحده من غير ذكر آلهتهم على أنه المتفرد وحده بالألوهية اعتراهم إعراض أشد، فأعرضوا سائرين على أدبارهم نافرين من الحق كما يفر ذو الرمد من ضوء الشمس، أى يسارعون بالتولى والإعراض نافرين مدبرين، سائرين بظهورهم لا بإقبالهم، وهذا النص يصور شخصا رأى شيئا فهاله ما رأى فولى مدبرا، رجع مدبرا نافرا كأنه رأى شيئا مخيفا، اقشعر له بدنه، وهذا يصور مقدار نفورهم من التوحيد الحق، وإقبالهم

على الوثنية الباطلة، فالأوهام التى استكنت فى نفوسهم صورت لهم الحق مخوفا مرهوبا، والباطل طيبا حسبوا فيه السلامة وما وراءه إلا الحسرة والندامة وساء ما كانوا يصنعون.

وإن هذه النفوس التى تنفر من الحق هذا النفور نفوس مريضة، عرتها آفة حولتها عن الحق وصرفت فطرتها وطمست فؤادها فقال تعالى:

﴿ **نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا (٤٧)** ﴾.

يتكلم الله تعالى معبرا عن ذاته العلية فيذكر أنه يعلم علما ليس فوقه علم بالحال التى يكونون عليها ومتلبسين بها، إنهم حين يستمعون إليك تكون قلوبهم مصروفة عنك، وعما تقرأ وذلك باستهواء باطل، وهم فى نجوى مع إخوانهم الكفار فيودعون نفوسهم المنحرفة، وعقولهم المستهواة بالباطل التى تريهم الباطل حقا والحق باطلا، إذ يقول أولئك الظالمون ﴿ **إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً** ﴾ هو مريض فى ذاته، ﴿ **مَّسْحُورًا** ﴾ يحتاج لأن يطبب من الخبال الذى أوجد السحر فى نفسه.

هذه الخلاصة الواضحة المنيرة لمعنى الآية، وكلام الله تعالى أسمى وأعلى وهو ذروة البيان وأعلاه، ولنعرج باستقاء هذه المعانى من ألفاظها التى هى نور على نور.

﴿ **نَحْنُ أَعْلَمُ** ﴾ أفعل التفضيل ليس على بابه؛ لأنه لا مفاضلة بين علم الله تعالى وعلم أحد من خلقه، وإنما المراد به أقصى العلم الذى ليس فوقه علم، ﴿ **بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ** ﴾ «ما» هنا دالة على الحال، (به) الضمير عائد على لفظ «ما»، ويكون المعنى أعلم بالحال التى يكونون متلبسين بها عند سماعهم هذا القرآن الكريم، وقد صور الله سبحانه وتعالى هذه الحال، إذ يستمعون إليك وهم فى نجوى يتذاكرون فيها القول الصارف عن الحق، إذ يقول الظالمون فى هذه النجوى، ﴿ **إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا** ﴾ والسرية مدرجة الفتنة فهم يسرون إليهم فى النجوى

ظالمين للحق وللنبى لا تتبعوه، ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً﴾ والمسحور هو الذى أفسد تفكيره السحر، وجعله فى خبال يحتاج إلى طب الأطباء، إن النجوى دائما تكون أفعل فى نفس الذين لا يريدون اتباع الحق، ألم تر أنك إذا أردت أن تخدع إنسانا تخفت فى صوتك، وتتسار معه فيؤثر فيه، هؤلاء الذين ينفرون من الحق نفورا يتولون على أدبارهم لا يكونون فى حال طبيعية بل يكونون قد استهوا بالباطل استهواء، فعندما يذكر الله وحده فى القرآن يولون الأدبار نفورا.

الداء الذى يسبب الكفر عدم الإيمان بالبعث

قال الله تعالى:

ٱنظُرْ
كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾
وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾
۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى
صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ
فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن
يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ
وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾

إنهم فى نجواهم يقول الظالمون بسبب ظلمهم: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً﴾، فهم يشبهون حاله بما لا يشابهها، ونقيض ما كانوا يعرفونه عنه من الكمال الإنسانى من صدق وأمانه وعدالة، واستقامة فى القول والعمل، ولقد قال تعالى فى قولهم:

﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (٤٨) ﴾.

المثل هو تشبيه حال بحال أو وصف بوصف، وضربه: بيانه، فالمعنى انظر كيف شبه حال الرسول أحيانا بالشاعر، وأحيانا بالساحر، وأحيانا بالمسحور وأحيانا بالكاهن، وكلما ضربوا مثلا باطلا أوغلوا فى الفساد النفسى والفكرى، وانحرفوا عن الحق، فإن كل مثل بالباطل تنحرف به النفس عن الطريقة المثلى، ولذا قال تعالى مرتبا على كثرة الأمثال الباطلة ﴿فَضَلُّوا﴾، الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى أنهم أكثروا من التشبيهات الباطلة، وكلما ضربوا مثلا زادوا انحرافا وضلالا، وكلما أوغلوا لا يستطيعون سبيلا فإن مثارات الضلال تبعد عن الطريق المستقيم فلا يهتدون، وأنهم يعجبون من أن يكون هناك بعث بعد أن يصيروا عظاما نخرة، ولذا قال تعالى:

﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) ﴾.

العظام هى العظام التى خلت من اللحم الذى كسيت به، وهو عظام الموتى، والرفات ما تكسر وبلى، وعن أبى عبيدة والفراء والأخفش تقول منه رفت الشىء رفتا أى عظم مرفوت.

وهنا فى الآية الكريمة كأنهم تعجبوا من ثلاثة أمور:

الأمر الأول: التعجب من أنها بعد أن تصير عظاما مرضوضة مكسورة محطومة تجتمع وتكون إنسانا سويا.

الأمر الثانى: التعجب من البعث فى ذاته.

الأمر الثالث: أن هذه العظام النخرة تكون خلقا جديدا.

فالتعجب الأول هو قولهم ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا﴾ وأفرده بالاستفهام؛ لأن بعثه خلقا جديدا بعد أن صار عظاما ورفاتا فكان إفراده بالاستفهام مع أنه مع البعث خلقا جديدا كل مثار تعجب، للإشارة إلى أنه موضع عجب فى ذاته، وكذلك كان إفراد ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

والتعجب فى الأجزاء جزءا جزءا وفى الهيئة الاجتماعية.

والاستفهام إنكارى يفيد الاستبعاد والتعجب، ولا عجب فى خلق الله تعالى، إذ يقول: ﴿... كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩)﴾ [الأعراف].

وقال تعالى ردا لتعجبهم:

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (٥١)﴾.

قالوا فى مثلهم الذى ضربوه: ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾، هذا مثلهم الذى ضربوه ناسين حقائق الوجود وحقيقة نشأتهم كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ... (٧٨)﴾ [يس]، ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا...﴾، أنبعث بعدها؟ فأمر الله تعالى نبيه ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠)﴾ و﴿كُونُوا﴾ هنا من معنى كنا، أى أئذا صرنا عظاما ورفاتا فيكون المعنى صيروا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر فى صدوركم، أى إنكم تعودون لا محالة، ولو صرتم حجارة أو حديدا فالله على ذلك قادر، ولا يعجز.

ولنا فى هذه الآية الكريمة نظران غير متباينين:

النظر الأول: أنه يشير سبحانه إلى أنه لا يعجز عن الحجارة والحديد، ومما يكبر فى صدوركم أى فى قلوبكم فتأخذكم به رهبتكم، وإذا كان الله تعالى لا يعجز عن أن يوجد الحياة فى حجارة أو حديد، أو نحو ذلك فأولى أن يعيد الحياة فيكم، وقد كانت من قبل؛ فالإعادة أسهل من الإنشاء فى نظر الإنسان وإن كانت كلها عند الله سواء، هذا هو النظر الأول.

أما النظر الثانى: فهو أن المعنى صيروا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر فى صدوركم وادخلوا فى أجزائها وكونوا فى صلابتها، وتظنون أنه يصعب

استخلاصكم منها فإنه سيعيدكم كاملى الأجسام منها، ويقوى هذا قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا...﴾ إلى آخر الآية الكريمة.

وقد بين الله تعالى ما يثير استغرابهم فقال سبحانه: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ الفاء هنا للإفصاح عن شرط مقدر، أى إذا كنا حجارة أو حديدا... فقد أمر الله تعالى نبيه أن يقول لهم: ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، أى الذى أنشأكم النشأة الأولى وهى الفطرة أول مرة، وإذا كان أنشأ هذا الإنسان الأول فهو على الإعادة أقدر، كما جاء فى سورة «يس» ﴿... قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ... (٧٩)﴾ وبعد أن رد عليهم ذلك الرد المقنع لمن يتدرن قلبه بالشرك ويتعصب له ويعاند فيه، فإنهم يستمرون فى عجبهم واستغرابهم، ولذا قال الله تعالى عنهم: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ ويقولون فى تحد جاهل ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾.

والإنغاض تحرك الرأس من أعلى إلى أسفل، ومن أسفل إلى أعلى استغرابا وتعجبا فما زادهم الدليل إلا إيغالا فى الاستغراب وما زادهم الحق إلا ضلالا، والفاء فى ﴿فَسَيُنْغِضُونَ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى ترتب على بيان الحق أن استهزءوا وتهكموا، وهؤلاء لا يجدى معهم الدليل ولا يزيدهم إلا خسارا، ويقولون متحدين: ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾، أى متى يكون أى يستعجلون تحديا وإمعانا فى الكفر، فأمر الله تعالى نبيه: ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾، أى أنه يرجى أن يكون قريبا.

ونرى فى هذه الآيات وما قبلها يأمر الله تعالى نبيه أن يتولى المجاوبة معهم؛ لأنه الداعى إلى الحق المبلِّغ عن الله تعالى الهادى المرشد.

وقد بين الله تعالى ذلك اليوم فقال:

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢)﴾.

﴿يَوْمَ﴾ هو جواب للمشركين عن تحديهم ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾ ويكون الخطاب للمشركين، ويكون قوله تعالى: ﴿يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ معناه الإشارة إلى

أن إعادتهم لا تكون إلا بأمره سبحانه وإجابتهم كقوله تعالى: ﴿ ... كُن فَيَكُونُ (١١٧) ﴾ [البقرة]، فالدعوة لا مجاز فيها، والاستجابة تكون بالإيجاز كما ذكرنا فى الآية الكريمة.

وقالت طائفة من المفسرين وعلى رأسهم الزمخشرى: إن هذا كناية عن سرعة الإعادة كما يدعو الداعى فيجيب المدعو فور الدعوة، والاستجابة هنا معناها الرغبة فى الإجابة وطلبها كأنهم كانوا وهم خامدون فى قبورهم يتوقعونها، ولا يستغربونها، وقوله تعالى: ﴿بِحَمْدِهِ﴾، أى حالهم تكون حال الحامد الراغب العالم بقدرة الله تعالى لا حال المستنكر أو المستغرب، وكأنهم يكونون فى حال غير الحال التى كانوا عليها فى الدنيا من كفر وإنكار، بل هم على حال الإقرار بالله تعالى وأنه وحده المستحق للألوهية سبحانه وتعالى.

﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾، أى أنهم يحسبون أنهم مكثوا قليلا فى الدنيا على حسب ما قرره قتادة وتبعه الزمخشرى، فاللبث القليل فى الدنيا، وكما قال قتادة تقاصرت مدة الدنيا فى نظرهم واعتقدوا أنها متاع وأن الآخرة هى الحياة وأنها أبقى، وفى ذلك إيمان بما لم يكونوا آمنوا به قبل، أى أنهم أدركوا الحقائق على وجهها ولكن كان حمدهم وإدراكهم بعد فوات الوقت، فلم ينفعهم فى إبانها ولم ينفعهم حمد، ولا إيمان.

هذا على أن اللبث القليل فى الدنيا، ولكن نرى كما رأى كثيرون من علماء السلف أن اللبث القليل كان فى القبور قبل البعث، ولقد قال تعالى فى ذلك: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا (١٠٤)﴾ [طه]

ونريد أن نقول كلمة فى إعراب قوله: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ إنَّ (إنْ) نافية، أى «ما لبثتم إلا قليلا» ويكون ذلك خبرا لـ (أنَّ)، وتقدير الكلام ويظنون أنكم ما لبثتم إلا قليلا، والآية بينة لا تحتاج فى بيانها إلى هذا الإعراب ولكنه تخريج نحوى ذكرناه حيث لم يذكره المعنيون بإعراب القرآن والله أعلم.

دعوة الله الحق

قال الله تعالى:

﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا (٥٣) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (٥٥) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧)﴾

كانت العلاقة بين المشركين والمؤمنين إيذاءً مستمرا من جانب المشركين، وصبرا ومصابرة من المؤمنين حتى اضطروا إلى الهجرة إلى الحبشة مرتين، وقد أفرط المشركون فى أذاهم، وربما حسب بعض المؤمنين أن ذلك صغار للمؤمنين، وتفريط فى حق الإيمان، فكان منهم من دعا إلى المقاومة، وإن المصابرة حسبها استرخاء يغريهم، وإن من له عصبية لا تسلمه، وروى أن رجلا من المشركين شتم عمر بن الخطاب، فهمّ عمر بأن يقتله وكان على ذلك قديرا، فأمر الله تعالى نبيه والمؤمنون بأن يصبروا، وأن يقولوا التى هى أحسن، فقال تعالى:

﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا (٥٣)﴾.

قل يا محمد مطمئنا ومهدئا لعبادى: ﴿يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ويقولوا: مجزوم فى جواب الأمر، وهو فى معنى المعلل لأمر بالقول، أى قل لهم داعيا إلى الصبر، وألا يقابلوا الإساءة بمثلها، ليقولوا التى هى أحسن، أى الكلمة التى هى أحسن، والفعلة التى هى أحسن، وإن رد الإساءة يكون عندما يكون للمسلمين قوة يؤدبون بها المعتدين، ويحملونهم على الحق وتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى، وكان ذلك قبل الهجرة إلى المدينة كما يدل السياق، وقد استشرفت النفوس لمعرفة السبب فى ذلك الأمر وفى نتيجته، فهدّأ الله هذه النفوس المستشرفة بقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾، أى إن الشيطان ينزغ بينهم، أى يهيج الشر بينهم فتكون المخاشنة داعية إلى الجفوة والمهاترة، والجفوة تبعد النفوس عن الحق أو تزيدها بعدا، بينما الكلمة الطيبة والمعاملة الحسنة، والمودة فى غير إثم تقرب، ولا تنفر، وأكد الله هذا النزغ الشيطانى بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾، أى إن الشيطان كان مستمرا للإنسان عدوا مبينا للعداوة، ظاهر العداوة وإن حكمة الله تعالى اقتضت كما ذكرنا أن يصبر النبى ﷺ على الأذى لأتباعه، والأذى لشخصه، حتى تستمر المودة من جانبه موصولة، فإن المودة تدنى، وتجعل المؤذى يتردد فى استمرار أذاه، بينما المخاشنة أو المغالبة تجعل للكافر معذرة فيلج فى كفره، وقد كان فى المؤمنين من يستطيع المغالبة بشخصه وعشيرته، ولكن لم يرد الله؛ حتى لا تضيع دعوة الحق وسط المنافرة فيكون النفور، وقد خاطب الله تعالى المشركين مقربا منذرا، فقال:

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (٥٤)﴾.

صدّر الكلام بقوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ﴾ للإشارة إلى أنه الذى خلقهم وربهم، وهو الحى القيوم الذى قام على حياتهم وشئونهم، وهو يهدى؛ لبيان علمه ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ... (١٤)﴾ [الملك]، ﴿أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ أى يعلم أنفسكم وأحوالكم، وما أنتم إليه علما ليس فوقه علم، وهذا معنى أفعل التفضيل؛ إذ إنه ليس على بابه،

لأنه لا مفاضلة بين علم الله تعالى وعلم غيره، والمراد كما أشرنا يعلم علما لا يسامى ولا يناهد.

وإن مع علمه المحيط بحالهم يعمل بمشيئته المطلقة، ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ ورحمته سبحانه وتعالى بأن يهديكم إلى السير فى طريق الإيمان، وإذا سرتم فيه رحمكم بالإيمان، وهو أكبر رحمة للإنسانية، ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾، بأن تسيروا فى طريق الضلالة فتصلوا فيه إلى غايته، فيكون منكم الضلال والشرك، فيكون ذلك الضلال عذابا لكم فى الدنيا باضطراب نفوسكم وبعدكم عن الفطرة، وفى الآخرة يكون العذاب الأليم، ألا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم.

ولقد كان النبى ﷺ حريصا على إيمان المشركين، حتى قال له ربه: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)﴾ [الشعراء]، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾، أى موكولا إليك أمورهم بقسرهم على الإيمان، بل إنا أرسلناك بشيرا ونذيرا، وقد بشرت وأنذرت فما عليك بعد ذلك تبعة كفرهم وضلالهم: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦)﴾ [القصص].

ولقد بين سبحانه بعد ذلك أن الله يعلم من فى السموات ومن فى الأرض، وأنه هو الذى يعلم حيث يجعل رسالته فقال:

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (٥٥)﴾.

صدر الكلام بـ (ربك) للإشارة إلى أنه الخالق والقائم على خلقه، وهو الذى يعلم ما خلق، وقلنا: إن أفعل بالنسبة لله تعالى لا يكون على بابه؛ لأنه لا مفاضلة بين الذات العلية وغيرها.

وذكر سبحانه علمه بمن فى السموات ومن فى الأرض، وذكر العقلاء فى السموات إشارة إلى الملائكة، وعقلاء الأرض هم بنو الإنس والجن.

يعلم الله تعالى طبيعة من فى السموات، وهم الملائكة أرواح طاهرة مطهرة لا تنزل إلى الأرض بطبعهم وحالهم، بل لو كان ملك فى الأرض لجعله الله تعالى فى صورة إنسان، كما قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ** (٩) ﴾ [الأنعام]، ويعلم سبحانه وتعالى من فى الأرض، ويجعل الأنبياء من جنسهم، ليكونوا أقرب إلى إرشادهم، ويتعذر على من فى السماء بمقتضى طبعهم أن ينزلوا، وليس فى طاقة أهل الأرض أن يتلقوا الإرشاد من الملائكة، فالنبى محمد ﷺ كان يتصبب عرقا، عندما يخاطبه جبريل الأمين، وعند أول لقاء به رجع إلى خديجة يرجف فؤاده.

الله يعلم من فى السموات ومن فى الأرض، ولذلك كان اختيار الرسل من أهل الأرض، وبيان الله لعلمه من فى السموات ومن يشير إلى اختياره الأنبياء منهم، ولذا قال بعد ذلك:

﴿ **وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ** ﴾ ففضل الله تعالى أولى العزم من الرسل وهم نوح وإبراهيم، وموسى وعيسى ومحمد ﷺ، وقد ذكرهم بأسمائهم فى القرآن، فقال تعالى فى سورة الأحزاب: ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ** ... (٧) ﴾ وقال تعالى فى سورة الشورى: ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ** (١٣) ﴾.

وإن أولئك الأنبياء أمروا بشرائع إلا ما كان من أمر عيسى، فإنه أحيا شريعة التوراة، وزاد عليها، وإن ثمة كتبا ثلاثة كانت قبل النبى محمد ﷺ، وهى التوراة والإنجيل، وقد ذكرهما القرآن فى عدة مواضع، وذكر التحريف فيهما، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ ... **يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ** ...(١٣) ﴾ [المائدة].

ولقد ذكر سبحانه كتاب داوود فقال: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ وهو لم يكن فيه أحكام غير التوراة، ولكن كانت فيه أدعية لله تعالى أوحى بها.

وإن داود كان حاكما كما قال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ... (٢٦)﴾ [ص]، وكان له مع شرف الحكم الخلافة من الله فى الأرض، قد أنزل عليه الزبور، وهو بهذا شرف أعظم، وأكرم.

وفى ذكر الزبور إشارة إلى التوراة والإنجيل، وكان بعد التوراة وقبل الإنجيل.

فى ذكر هذا وذكر تفضيل بعض النبيين، وذكر محمد خاتم النبيين إشارة إلى كمال الرسالة الإلهية إلى أهل الأرض برسالة محمد خاتم النبيين، وأنه لا نبى بعده، والله أعلم.

وإن الأوثان التى يعبدونها، والآلهة التى يقدسونها من ملك أو بشر أو جن لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، ولا يغيثون، ولذا قال تعالى:

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً (٥٦)﴾.

من صفات الربوبية القدرة المطلقة، ولا يعبد إلا من يكون قادرا على كشف الضر، والعرب كانوا يعرفون الله تعالى وأنه القادر وحده على كل شىء، فكانوا يستغيثون به إذا أصابهم بأس فى البر والبحر، ويعتقدون أنه لا ينجيهم سواه، وإذا مسهم ضر لا يلجأون إلا إليه كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ... (١٢)﴾ [يونس] ولكنهم عند العبادة يعبدون مع الله غيره من الأوثان، أو الملائكة، أو عيسى كالصابئة، والنصارى لا يعرفون المسيح على أنه عبد خلقه الله.

لهذا يقول لهم: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ﴾ الخطاب للنبى ﷺ يقول لهم ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ﴾، أى زعمتم أنهم آلهة من دون الله سبحانه وتعالى: ادعوهم ساعة أن ينزل بكم الضر أو الشدة فى البر أو البحر، أو عندما

يداهمكم ريح صرصر عاتية، ﴿فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ﴾، الفاء هنا للإفصاح، لأنها تفصح عن شرط مقدر بين ما قبله وبعده بأن يزول عنكم أو تحويله لغيركم، ولذا قال تعالى: ﴿وَلا تَحْوِيلاً﴾.

وإذا كانوا لا يستطيعون لكم جلب نفع، ولا دفع ضر، فكيف تعبدونهم، والعجز ظاهر حالها، وعجيب أمركم عبادتها مع هذا العجز.

وأن بعض الذين يدعون كالملائكة، والجن، والمسيح، وعزير، وكانت عبادة هؤلاء من صابئة العرب ويهودهم ونصاراهم، يتضرعون إلى الله ويعبدونه، ولذا قال تعالى فيهم:

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧)﴾.

يقول ابن جرير الطبرى: إن هذه الآية نزلت فى بعض مشركى العرب الذين كانوا يعبدون الملائكة وعزير والمسيح وهؤلاء جميعا كانوا فى أطراف الجزيرة العربية فى اليمن والأقاليم التى تصاقب العراق، من الصابئة وغيرهم الذين كانوا يعبدون النجوم والأرواح، وكانوا إلى النصرانية أقرب، ومنهم إلى المجوسية أقرب.

وهذه المعبودات المزعومة لا تضر ولا تنفع، وينطبق عليها بالنسبة للضر والنفع ما ينطبق على الأوثان تماما، ولكن فيها عباد مكرمون كالمسيح، فلن يستنكف أن يكون عبدا لله، ولا الملائكة المقربون.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ﴾ الإشارة إلى المعبودات غير الله تعالى، والمخصوص منهم بالقول من يعبد الله تعالى؛ ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ والدعاء هنا بمعنى العبادة أو الالتجاء إلى الله تعالى، ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾، أى يبتغون الوسيلة إليه وهى الطاعة، والمعنى يبتغون الطاعة، ومجىء الوسيلة بمعنى الطاعة جاءت فى آية أخرى وهى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ... (٣٥)﴾ [المائدة]، أى اطلبوا الطاعة، وهى الوصيلة الموصلة إليه سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾، «أى» اسم موصول بدل من الواو فى يبتغون والمعنى على هذا من غير افتيات على النسج القرآنى الكريم، يبتغون (أُخصُّ) الذين هم أقرب، أى أن هؤلاء الذين يبتغون الطاعة ويطلبونها ويريدون عبادة الله وحده هم الأقرب إلى الله.

فإذا كان أولئك المقربون الأطهار يبتغون إليه الطاعة، ويرجونها فكيف تكون حال من يعبدونهم أنهم بذلك أولى أو أجدر.

ثم ذكر سبحانه، وصفين أو حالين ينافيان أن يكونوا معبودين، فقال: ﴿يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ الواو عاطفة، عطفت ﴿يَرْجُونَ﴾ على ﴿يَبْتَغُونَ﴾، أى أن أولئك العباد المقربين يدعون الله وحده، ويبتغون مزدلفين إليه بالطاعات، ويرجون رحمة الله لأنه هو الغفور الرحيم، ويخافون عذابه، لأنه هو المنتقم الجبار: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾ كان من شأنه أن يحذر أن يخاف، وإن مقام الربوبية والعبودية أن يرجو الرحمة ويخاف العذاب، ومن الأتقياء من يغلب الرجاء على العذاب، ومنهم من يغلب الخوف على الرجاء، وكلاهما فى طاعة الله وفى أعلى مقامات العبادة لله تعالى.

وإذا كان ذلك شأن من يعبدونهم، فأولى بالمشركين ثم أولى أن يعبدوا الله وحده لا يشركون به شيئا.

العبرة فى الماضين

قال الله تعالى:

وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ

﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ
إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا
جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ
فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾

﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨) ﴾.

«إن» هنا نافية، و«من» لاستغراق النفى، والقرية: المدينة العظيمة التى يبعث فيها الأنبياء، والحصر فى الهلاك قبل يوم القيامة، أو العذاب فى يوم القيامة، إنما هو فى القرية الظالم أهلها الذين يكفرون بالنبيين، والهلاك هو اجتثاثهم فى الدنيا بخُسُوف تجعل عاليها سافلها كما فعل بقوم لوط، أو بريح صرصر عاتية، كما فعل بعاد وثمود، أو بالغرق كما فعل بقوم فرعون وملئه، وغير هؤلاء، هذه هى الحال التى يكون فيها الاستئصال وقطع الدابر، وذلك يكون قبل يوم القيامة. الحالة الثانية أن يتركوا فى الدنيا يعصون ويفسدون ويرتكبون المآثم، وأولئك لا يهلكون فى الدنيا، ولكن يعذبون فى الآخرة عذابا شديدا، **﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾** والكتاب هو اللوح المحفوظ الذى يسجل فيه ما يقضى به بين عباده.

وإن هذا التنويع لحكمة الله تعالى وتقديره، فإنه إذا كانت الدعوة خالدة باقية، وهى دعوة نبينا ﷺ استأنى بهم لأن فيهم الطائعين، وليسوا قليلين، وفيهم من طغى وبغى، وفى ذرية الذين عاصروا النبى ﷺ من كانوا مجاهدين كعكرمة ابن أبى جهل، وكخالد بن الوليد، وغيرهم ممن كان لهم فى الجهاد باع مشهور، وقوله: **﴿إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾** أو (معذبوها) فيها تنوع حالهم، **﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا﴾** و«أو» مانعة خلو، لا مانعة جميع، فكان منهم من أهلكوا قبل يوم القيامة ومن عذبوا بعدها، وأمة النبى محمد ﷺ لم يهلكها الله بعاصف يقتلعها من الأرض، ولكن أهلك العصاة لينالوا عذاب الآخرة.

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: سأل أهل مكة النبى ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبا، فأوحى إليه قد سمعت الذى قالوا، فإن شئت أن نفعل الذى قالوا، فإن لم يؤمنوا نزل العذاب، فإنه ليس بعد نزول الآية مناظرة، وإن شئت أن تستأنى بقومك استأنيت بهم، قال: «**يا رب استأن بهم**»(١).

وقد ختم الله سبحانه الآية بقوله: ﴿**كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً**﴾، أى أنه مسجل فى اللوح المحفوظ كما أشرنا من قبل، لقد تبين من هذا أن المشركين كانوا يطلبون آيات حسية كآيات النبيين السابقين كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص لعيسى، وكإخراج الموتى من القبور أيضا، وقد أجابهم الله تعالى بأنه أنزل هذه الآيات، ومع ذلك لم يؤمنوا، وإن هذه الآيات لا تبقى بقاء المعجزة الكبرى، وهى القرآن الكريم التى ما زالت تغالب كل باطل، وتؤيد كل حق، ولذا قال تعالى:

﴿**وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا (٥٩)**﴾.

المنع هنا هو الترك، وهو لازم لمنع، فأطلق الملزوم، وأريد لازمه وما أحد بمانع رب البرية أنى هو ترك، لحكمة أرادها، وأمر قدره، وهو أنه يعلم - وهو علام الغيوب أن الآيات الحسية لا يؤمنون بها كما لا يؤمن بها من سبقهم، ولأن الآيات الحسية، كحاصب من السماء، أو خسف أو ريح صرصر ينقضى بعد ساعته، ويكون خبرا من الأخبار، ولو أن القرآن سجل معجزات عيسى وموسى ونوح وإبراهيم ما علم بها أحد علما متواترا من غير تحريف.

وقوله تعالى: ﴿**أَن نُّرْسِلَ**﴾ مصدر منسبك من «أن» وما بعدها فى المفعول للمنع، وقوله تعالى: ﴿**إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ**﴾ وهم الذين نزلت إليهم، و«أن» وما بعدها فى مصدر منسبك فى موضع الفاعل للمنع، وقد علمت أن المنع أريد به الترك وإنما عبر بالمنع ولا يوجد من يمنع؛ للإشارة إلى أن الحكمة التى أرادها رب

(١) هذه رواية أحمد عن ابن عباس: مسند بنى هاشم- بداية مسند عبد الله بن عباس رضى الله عنهما (٢٢١٧).

العالمين من الآيات هي التي تمنع، فالله تعالى هو الذى منع ذاته العلية، كقوله تعالى: ﴿... وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم].

وقد ذكر الله تعالى آية كان العرب يعلمون بها، وقد كانت فى أرضهم، وقريبا من دارهم، فقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾، أى مبينة هادية ليبصروا بها الحق، ولكنهم بعد أن أبصروه تجنبوه، وقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ﴾، أى أنه سبحانه آتاها لثمود، مع أنه آتاها لصالح حجة له، ولكن ذكر الإيتاء لهم، وقد كفروا وضلوا بها، ولأنها نزلت فيهم حجة عليهم؛ لأنهم هم الذين طلبوها.

﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾، أى بسببها، أو تضمُّن الظلم معنى الكفر، فيكون المعنى فكفروا بها، ولم يصدقوا، ولم يذعنوا لما تهديهم إليه، ويقول: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا﴾، أى ما نرسل الرسل مؤيدين بالآيات إلا تخويفا، إلا ليعلموا رسالة الرسل الذين جاءوا مبشرين ومنذرين، فمعنى التخويف هو ما تدل عليه من الرسالة المنذرة المخوفة من عذاب الله تعالى.

ويقول تعالى فى آيات حسية جاء بها النبى ﷺ وكانت فتنة فقال:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾.

«إذ» متعلقة بمحذوف تأويله «اذكر»، أى اذكر الوقت الذى قلنا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾، الناس إما أن يريد بهم الناس جميعا، وهو الظاهر، فالعام لا يراد به بعض من يشملهم إلا بقرينة تدل على الخصوص، ومعنى الإحاطة العلم أو القدرة أو الإهلاك، فمن العلم قوله تعالى: ﴿... أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق]، والقدرة أى أن كل شىء فى قبضته، والإهلاك مثل ﴿... وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ... ﴿٢٢﴾﴾ [يونس]، أى تعرضوا للهلاك.

والمعنى إنا أعلمناك بوحى أن الناس قد أحيط بهم، وأنهم فى قبضة الله تعالى، والله عاصمك منهم فبلغ دعوتك غير خائف، فإنه سبحانه وتعالى

عاصمك من الناس كما فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ... (٦٧)﴾ [المائدة].

ويفسر الزمخشرى الناس بأنهم أهل مكة، والإحاطة الإهلاك، وقد بلغ الله نبيه يوم بدر بأن يهلكهم، ويفسر الرؤيا المنامية بأنها رؤياه أنه مهلكهم فى هذه الغزوة، وأنه إن لم يهلكهم بالإبادة فقد أضعف سلطانهم، وقد قال فى ذلك: «واذكر إذا أوحينا إليك أن ربك ﴿أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾، أى بقريش، يعنى بشرناك بوقعة بدر، وبالنصرة عليهم، وذلك قوله: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر]، ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ... (١٢)﴾ [آل عمران] وغير ذلك، فجعله كأنه قد كان وجد، فقال أحاط بالناس على عادته فى إخباره، وحين تزاحف الفريقان يوم بدر، والنبى ﷺ فى العريش مع أبى بكر رضي الله عنه كان يدعو ويقول: «**اللهم إنى أسألك عهدك ووعدك**»[1] ثم خرج وعليه الدرع يحرض الناس إلى آخر ما جاء فى أخبار بدر».

وخلاصة تفسير الإمام الزمخشرى أنه يفسر الناس بأهل مكة، وأن الرؤيا رؤيا منامية، وأنه رؤيا النبى ﷺ التى رآها عندما التقى الجمعان فى يوم الفرقان، وأن الهلاك ذهاب شوكة المشركين، وإن أخبار القرآن الكريم تكون عن وقائع المستقبل كأنها وقعت الآن، وكان النبى ﷺ قد أخبر بذلك عندما اشتد أذاهم وإثباتهم، وكانت الفتنة فى أنهم كذبوا.

ونحن مع إجلالنا لمقام الإمام الزمخشرى فى البيان لا نرى رأيه.

أولا: لأنه تأويل بعيد، ولأنه لا تكون فتنة، ولم يحدث كفر لهذه المناسبة.

ثانيا: لأن الأصل إطلاق العام على عمومه، حتى يقوم دليل أو قرينة على إرادة التخصيص.

---

(١) رواه البخارى: الجهاد والسير- ما جاء فى درع النبى ﷺ (٢٦٩٩)، وأحمد: مسند بنى هاشم (٢٨٨٥).

ثالثا: أن الآية مكية، وقد أجاب عن ذلك بأن الكلام كان تبشيرا بما سيكون يوم بدر، ونقول: إن الألفاظ لا تساعده، ولا تومئ إليه، والقرآن كتاب عربى مبين.

ولذلك نرى أن الله أحاط بالناس، وأنهم فى قبضته، وأنه قادر على كل شىء، وعاصم نبيه منهم، وحافظه حتى يؤدى رسالة ربه تعالى.

ولكن ما هى الرؤيا؟ قال أهل اللغة: الرؤيا تستعمل فى الرؤية البصرية فى اليقظة، والرؤيا المنامية فى النوم، ويصح أن يراد بها هنا البصرية فى اليقظة، وهى الإسراء، «فقد أسرى به ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى».

وقد كانت فتنة للناس؛ لأن من أهل مكة من ذهب به الاستغراب والدهشة إلى حد الردة بعد الإيمان، أو على الأقل الشك بعد اليقين، ويصح أن يراد الرؤيا التى تكون بالروح، وهى ما كان بالعروج إلى الملأ الأعلى على ما اخترنا واتبعنا فيه كثرة من السلف الصالح.

ونلاحظ هنا أن المشركين كانوا يطالبون بآيات كآيات عيسى وموسى، فلما جاءتهم كفروا، فلما جاءتهم فى انشقاق القمر، قالوا سحر مستمر ولما جاءتهم فى الإسراء كفروا فصدق فيهم قول الله تعالى: ﴿ **وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ** (٩٧) ﴾ [يونس]؛ لأنهم طبع على قلوبهم فلا يفقهون، هذا ما نراه، ولا مانع من أن نذكر أمرا يتعلق بتاريخ الإسلام، وإن كنا لا نرى ذلك فى هذه الآية، وربما نراه فى غيرها.

لقد قال سهل بن سعد: إنما هذه الرؤيا هى أن رسول الله ﷺ كان يرى بنى أمية ينزون على منبره نزو القردة فاغتم لذلك، وما استجمع ضاحكا من يومئذ حتى مات رسول الله ﷺ(١). وإن ذلك يؤيده التاريخ، فقد صيروا الحكم ملكا

---

(١) رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح غير مُصعب بن عبد الله بن الزُّبير، وهو ثقة، كما رواه البيهقى فى الدلائل، وابن عساكر .كنز العمال (٣١٧٦٣) -ج١/ ٢٢٦٣.

عضوضا، وذهبت الشورى، وقد قال الحسن البصرى فى شأن بيعة معاوية ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١)﴾ [الأنبياء].

قال تعالى: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ وذلك لسوء مذاقها، وقبح مكانها، وأنها تخرج من أصل الجحيم، فليس معنى لعنها أنها مطرودة كما يطرد العصاة المسئولون؛ لأنها لا توصف بالعصيان والمسئولية، وإنما هى مذمومة، فيقال للطعام القبيح المذاق ملعون، وهى معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ فهى فتنة لهم كما أن الرؤيا كانت فتنة لهم، وقال تعالى مشيرا إلى أنها فتنة: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥)﴾ [الصافات].

وإنها كانت فتنة لهم، لأنهم بدل أن يعتبروا بما فيها من إرهاب، وإفزاع فتنوا بالألفاظ، فقالوا: إنها تخرج فى أصل الجحيم، ونار الجحيم تأكل الحجارة فكيف تنبت فيها الأشجار، وأخذوا مفتونين يرددون هذا القول كأنهم أخذوا على القرآن أمرا مختلفا، فكانت هى الأخرى فتنة لهم، والضال لا يتجه إلى الحق اتجاها مستقيما، فهو يتعرج به فى المعارج من غير اتجاه إلى صراط مستقيم.

وقد ذكر الزمخشرى أن النار ربما لا تحرق فى طبائع الأشياء، فقال: «قالوا إن محمدا يزعم أن الجحيم تأكل الحجارة ثم يقول ينبت فيها الشجر، وما قدر الله حق قدره من قال ذلك، وأنكروا أن يجعل الله الشجرة من جنس لا تأكله النار فهذا وبر السمندل، وهو دويبة ببلاد الترك تتخذ منه مناديل إذا اتسخت طرحت فى النار، فيذهب الوسخ ويبقى سالما لا تعمل فيه النار، وترى النعامة تبتلع الجمر، وقطع الحديد المحمر كالجمر بإحماء النار فلا تضرها، ثم أقرب من ذلك أنه خلق فى كل شجرة نارا فلا تحرقها».

وقد قرب الزمخشرى وجود شجر ينبت أصلها بالجحيم بالواقع المشاهد، ولكن تقرر أن قدرة الله تعالى فوق ما يتصور المشركون، وكل شيء عنده بمقدار،

وكل أمر يذكر لغاية يتخذونها على النقيض، ولذا قال عن الشجرة الملعونة، ﴿ ونُخوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيراً ﴾ بهذه السخرية والاستهزاء والتهكم على أهل الإيمان.

إبليس والكرامة الإنسانية

قال الله تعالى:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾

نبه سبحانه وتعالى إلى أصل الخلق والتكوين، ونبه إلى أن أصل عداوة إبليس لآدم هو أنه يحسد آدم على ما أتاه الله تعالى من تكريم حرم إبليس وذريته منه، فناصب آدمَ العداء لهذه الكرامة، وحاول أن يفض[١] فيها بالإغراء بالمعاصي، وبذلك فهم أنه بمقتضى الفطرة أن الكرامة والمعصية نقيضان لا يجتمعان فمن كان

(١) الفض: الكسر بالتفرقة. الصحاح.

عاصيا يتفحش فى المعاصى لا كرامة له، وإن ظهر بين الناس متغطرسا طاغيا، فإن الكرامة ليست هى السلطان، إنما هى الحق، فإن كان مع السلطان الحق توافرت الكرامة، وإن خلا منها فهو المهين المتغطرس، وهذا يشير إلى أن المشركين فى إشراكهم لا كرامة لهم، وإن تعصبوا وغلبت عليهم العنجهية الجاهلية.

ولذا قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾.

«الواو» لوصل الكلام، إذ إنهم يتغطرسون ويطيعون الشيطان فيبين الله أنهم إذ يطيعونه يذهبون بالتكريم الذى كرمهم الله تعالى، وينزلون برءوسهم وأجسامهم، إلى كرامة أبيهم آدم، و«إذ» متعلقة بمحذوف، ويذكر الله تعالى أمره للملائكة بالسجود مضيفا الأمر إلى ذاته العلية بيانا لمركز آدم، والله تعالى بذاته العلية وجه الأمر إلى الملائكة بالسجود، وإن إبليس كان يدخل فى عموم المخاطبين بهذا الأمر أكان من الملائكة أم كان من الجن، كما صرح بأنه من الجن فى آية أخرى، إذ قال: ﴿ ... إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ... (٥٠) ﴾ [الكهف]، والسجود كان لآدم بوصف الآدمية، فكأن الآدمية مكرمة لذاتها، والمهانة تعتريها من المعصية، ﴿فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾، أى أطاعوا، وخروا ساجدين إلا إبليس، فقد تمرد، وفسق عن أمر ربه، وقال متمردا متعاليا من غير علو، كشأن أتباعه ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ الاستفهام هنا إنكارى بمعنى إنكار الوقوع أى النفى، أى: لا أسجد، معترضا على ربه، كما قال سبحانه فى آية أخرى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) ﴾ [ص]، وقوله: ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾، أى لمن خلقته من طين، ولكنه أتى بكلمة (طينا) على أنه حال، أى: أأسجد لمن خلقته من طين، أى أنه ينكر أن الله سوَّاه، وكأنه إلى وقت السجود كان طينا حتى إلى هذه الحال، وكان هذا من مظاهر الاستكبار.

وقد بين نية الشر الذى دفع إليه الحسد، وسبب ذلك الحسد، قال:

﴿ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ الكاف لتأكيد الخطاب، ويقول بعض اللغويين، لا محل لها من الإعراب، وأرى أنه لا مانع من أن تكون فى موضع

المفعول لرأى، والهمزة للاستفهام، ومعنى الكلام أخبرنى أهذا الذى كرمت على، وفى هذا معنى التصغير لآدم، والاستكبار عليه، كأنه يقول ما هذا الذى كرمت علىَّ، أى كرمته مفضلا له علىَّ، وأنه لا يستحق التكريم دونى، ويقول إبليس: أنا الجدير بالتكريم، كما توهم أن كونه من نار يجعله أكرم ممن هو من طين، وذلك من فرط الغرور؛ لأن الذى أمر بذلك الأمر الجازم هو الذى جعلك من نار وجعله من طين، وذلك من تغفيله، واستعلائه بالباطل، وكان قياسه هذا باطلا، واستدل نفاة القياس على بطلانه بقياس إبليس.

ثم يقول متوعدا آدم وذريته، ومتحديا ربه عن جهالة: ﴿**لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا**﴾ اللام للقسم، ولأحتنكن جواب القسم، ودخلته نون التوكيد الثقيلة، وهو يؤكد ذلك، كقوله فى آية أخرى: ﴿ ... **وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** (٣٩) **إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** (٤٠)﴾ [الحجر]، والاحتناك: الاستئصال، من احتنك الجراد الزرع إذا لم يبق منه شيئا، وكقولك: الرجل احتنك شاتين أى أكلهما، ويصح أن يكون من احتنكت الفرس وضعت فى فمها الرسن أو الحبل، يجرها منه، والمعنيان يصلحان، إذ يكون المعنى استأصلهم بالإغراء والإغواء حتى يجرهم كما يجر الرجل دابته، ويجعلهم له تبعا، وقد استثنى من ذريته فقال: ﴿**إِلَّا قَلِيلًا**﴾، أى إلا عددا قليلا، وهو كقوله: ﴿**إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** (٤٠)﴾ [الحجر]، وفى هذه الآية قال: إلا قليلا، وباجتماع يكون المخلصون من عباد **الله** عددا قليلا.

وكيف علم ذلك؟، نقول: إنه اعتزم أن يفعل ذلك، ويريد أن يكون أتباعه عددا كبيرا، وأطمعه فى ذلك أن الملائكة عندما قال **الله** تعالى لهم: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ** ... (٣٠)﴾ [البقرة]، ولأنه أدرك أنه يؤتى من قبل شهوته وهواه وأنه أوتى غرة بحيث يكون قابلا للانخداع لا يستمسك، كما قال **الله** تعالى فى آدم: ﴿ ... **وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا** (١١٥)﴾ [طه].

ولقد أجاب الله سبحانه إبليس على ما قاله بقوله:

﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿ اذْهَبْ ﴾ معناها هنا امض فيما أنت معتزم عليه فإن لهم اختيارا وإرادة، فلا نستمكن منهم إلا بإرادة يريدونها، ويبتغونها، ولذا قال تعالى: ﴿ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ والفاء هنا للإفصاح عن شرط مقدر، والمعنى إن ذهبت وأغريت، وحاولت السيطرة على نفوسهم فمن تبعك إلى ما تدعوه إليه: ﴿ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴾ فمن يتبعك مختارا مستجيبا لإغرائك، فأنت وهم قد صرتم جمعا واحدا، جزاؤك وجزاؤهم واحد، ولذا خاطبهم جميعا باعتبار أنهم جميعا صاروا جمعا واحدا، وكان الخطاب بالجمع؛ لأن الخطاب له ابتداء، ولهم بالتبع، ووصفت بأنها جزاء موفور أى كامل على قدر ما أساءوا، وهى كاملة ووفاق لما أجرموا، وقد قال فى وصف جزائهم فى آية أخرى فى قوله تعالى فى سورة الحجر: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الحجر].

وكان الخطاب بالجمع لما ذكرنا من الخطاب لإبليس، وهم له تبع.

وقد دعاه سبحانه لأن يبذل أقصى جهده، لأن الله تعالى قضى أن يهبطوا منها جميعا، بعضهم لبعض عدو، وأنه خُلِق لإغواء من يستطيع إغواءه من ذرية آدم، ولذا قال تعالى:

﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾.

أى استخفهم، وحرضهم، وحركهم إلى اتباعك ليجيئوا إليك تابعين، لصوتك الداعى، وجاهر به فى الدعوة إلى المعاصى، ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم ﴾، أى صِحْ عليهم بجلبة وصياح كما يدعى الجيش للقتال، فأعد عدتك وأجلب من يكونون فى جلبة لك ﴿ بِخَيْلِكَ ﴾ بالذين يناصرونك من خيالة، ﴿ وَرَجِلِكَ ﴾ اسم جامع لراجل، وفى الكلام تشبيه، وهو تشبيه حال الشيطان فى دعوته الغاوية الضالة

والمستعد للشر والإغواء بحال جيش من الأشرار يستفز الأنصار والأتباع، ويكون جلبة من خيَّالة وراجلين، فهذه الحال تشبه حال جيش فساد مستعد للإغارة على الخير، وجاء فى أمر الله تعالى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ﴾ فى الأموال التى يكتسبونها بالسحت، ومن غير الحلال، وفى الأولاد الذين يجيئون أيضا من غير طريق حلال، وقال الزمخشرى فى هذه الجلبة وهذا الاستفزاز ما نصه: «مثلت حاله فى تسلطه على من يغويه بمغوار أوقع على قوم وصوَّت بهم صوتا يستفزهم من أماكنهم، ويقلقهم من مراكزهم، وأجلب عليهم بجند من خيالة ورجالة حتى استأصلهم» أى حتى أزال كل ما فيهم من عناصر، أو غلب عليهم عناصر الشر، ثم تكلم عن المشاركة فى الأموال، فقال: «وأما المشاركة فى الأموال والأولاد فكل معصية يحملهم عليها، كالربا والمكاسب المحرمة، والبحيرة والسائبة والإنفاق فى الفسوق، والإسراف، ومنع الزكاة والتوصل إلى الأولاد بالسبب الحرام، ودعوى ولد بغير سبب».

ومعنى هذه المشاركة فى الأموال أنه يشاركهم فى إثمها، والعذاب عليها لا أنه يشاركهم فيها بالأخذ، إنه لا يريد منهم إلا الإغواء، فهو يغويهم، ويشاركهم فى كل مآثم الإغواء.

﴿وَعِدْهُمْ﴾ المواعيد الباطلة من المعبودات الأخرى غير الله التى تشفع لهم - فى اعتقادهم - عند الله، وتمنع عنهم، وأن ذوى الأنساب هم يوم القيامة لهم المنزلة، كما هى لهم فى الدنيا، واذكر لهم أيضا أن الحياة الدنيا هى كل شىء، ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً﴾، أى إلا أمورا تخدعهم، ولا يكون فيها جزاء، بل هى أوهام فى أوهام، وإن الشيطان يولد فيهم الأوهام الكاذبة فيتصورون غير الواقع واقعا، وبذلك يُدلون بغرور.

هؤلاء هم الذين رضوا بأن يكونوا أتباعا للشيطان حيث أغواهم، أما عباد الله المخلصون فليس للشيطان عليهم سلطان، وقد تخلصوا من غوايته، وقال الله تعالى فيهم:

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً (٦٥)﴾.

أحس الشيطان بأنه لا يستطيع إغواء عباد الله المخلصين، وقد قال: ﴿...ولأغوينهم أجمعين (٣٩) إلا عبادك منهم المخلصين (٤٠)﴾ [الحجر]، وقال تعالى: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾، وفى التعبير عنهم بـ ﴿عبادي﴾ فيه إشارتان:

الإشارة الأولى: أن لهم شرف الانتساب إلى الله تعالى؛ لأنهم قاوموا غرور الشيطان وخداعه وإغواءه، فكانوا جديرين بأن يختصهم الله بأنهم عباده، وإن كان الجميع عبادا لأنه خلقهم، فالطائع والعاصى عباد الله، لكن الاختصاص هنا للطائعين.

الإشارة الثانية: الإشارة بأن الآخرين أتباع الشيطان، فهم كعبادهم، ولذلك يقال عنهم عبدة الشيطان وعبدة الطاغوت...

ويقول سبحانه: ﴿ليس لك عليهم سلطان﴾، أى تسلط؛ لأنهم تحصنوا بالعزيمة والإرادة والعزم القوى، والاتعاظ بعظات الله تعالى، والاهتداء بهدى رسله: ﴿وكفى بربك وكيلا﴾، أى كفى ربك وكيلا يتوكلون عليه، ويكفيهم غرور الشيطان ويرد إغواءه عنهم؛ لأنهم استمسكوا بالعروة الوثقى وارتضوا طريق الخير طريقا.

فى الوجود آيات الله تعالى ونعمه

قال الله تعالى:

رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ
فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾
وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ
إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ

بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾

هذه آيات الله البينات تحوطنا فيما حولنا وفى ذات أنفسنا، وفى مجريات أمورنا توقظنا فلا نستيقظ، وهى تذكير من الله سبحانه وتعالى، وروى عن ابن مسعود أنه جفت الكوفة، فقال: «ياعباد الله إن يستعتبكم فأعتبوه».

ذكر الله تعالى نعمته على الناس فى الفلك المشحون فقال سبحانه: ﴿ **رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ** ﴾، وإزجاء الفلك سوقه وإجراؤه، كما قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ (٤٣)** ﴾ [النور].

فكلمة يزجى تتضمن أن الله يسوق السفينة وأحمالها، وهو الذى يجريها فى وسط الأمواج المتلاطمة، وهو سبحانه حفيظ عليها فى وسط الرياح التى تهزها هزا، والأمواج التى تعلو حتى تكون كالجبال، وتهبط حتى تكون كأنها تسير على بساط الأرض.

وقال تعالى: ﴿ **لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ** ﴾ ويصف سبحانه وتعالى الفلك بأنه الفلك المشحون، أى المملوء بالأمتعة والبضائع التى تنقلها من بلد إلى بلد، أو إقليم إلى إقليم.

وهنا نذكر معجزة للقرآن الكريم، فى إخباره عما يكون فى المستقبل، فكل ملم بالتاريخ يعلم أن المتاجر فى بلاد العرب كانت تسير بالقوافل فى باطن الصحراء، حتى كان المثل: الجمل سفينة الصحراء، ويندر من العرب من كان يرى

البحر، ولكن القرآن تنبأ بأن الفلك ستكون هى الطريق لنقل البضائع من إقليم لإقليم، من أقصى الأرض إلى أقصاها، والآن نرى أن البلد يكون مقدار اقتصاده تبعا لمقدار سواحله، ومقدار المنشآت التى تمر بمراسيه، وتمخر عباب البحر إليه.

ولا تكاد تجد سورة من القرآن خلت من وصف البحر والجوارى المنشآت، ولقد اطلع بعض البحارة على بعض تراجم القرآن - وإن لم تكن قرآنا - فعجب عندما علم أن محمدا ﷺ لم يركب البحر، فآمن.

وقوله تعالى: ﴿ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾، أى لتطلبوا مبتغين مريدين بعض فضله، ومن هنا للتبعيض؛ لأن الفضل الذى يبتغى بالسفائن، إنما هو سبب واحد من أسباب الكسب الحلال، وهو الاتجار، ونقل البضائع بين الأمصار عمل ذى أخطار، وهناك فضل كثير لله غيره، فهناك الزراعة، وهناك استخراج المعادن من باطن الأرض، واللآلئ والجواهر من باطن البحار، فكل أولئك من رحمة الله، ولذا ختم الآية بقوله تعالت كلماته ونعمه: ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾ الضمير يعود إلى ﴿ رَبُّكُمُ ﴾ الذى صدر به القول و﴿ كَانَ ﴾ دالة على الاستمرار، وقدم ﴿ بِكُمْ ﴾ على ﴿ رَحِيماً ﴾ لكمال العناية بخلقه، وللاهتمام بالإنعام وبالرحمة بهم، فالإنسان محوط بنعمه مغمور بها، ولكن قليل الشكور من بين عباده، وكثير الكفور.

وإن الله كما يجرى السفائن فى البحار يحفظ راكبيها من كل ضر يسببه ركوب البحار أو لا يكون به، ولذا قال تعالى:

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُوراً (٦٧) ﴾.

الضر هو ما يصيب الإنسان فى جسمه من مرض أو خوف أو اضطراب، وإن أهوال البحر كثيرة، وخصوصا عندما كان السير فيه بالمراكب الشراعية، ولا تزال الأهوال قائمة، فمنها دوار البحر، ومنها تلاطم الأمواج وعلوها أحيانا

حتى تصير كالجبال، ومنها المرض حيث يكون منقطعا عن أهله، فإنه يكون فى هذه الحال منقطعا عن الناس لا يعلم به أحد ممن يستغيثهم فيغيثونه، فهل يذكر الأوثان التى يدعوها من دونه قال سبحانه: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾، أى: غاب عن خواطركم من تدعونها آلهة وبدت لكم حقيقتها وهى أنها أحجار لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تبصر ولا تغيث ولا تستغاث، ولعلكم لا تدركون هذه الحقيقة وقت سرابكم وتغمركم الأوهام التى أضلتكم وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ إِيَّاهُ﴾، أى غاب كل ما تزعمون قوة، ولا يحضر الله سبحانه وتعالى، و(إياه) ضمير منفصل فى محل النصب، والكلام يشير إلى وحدانية الله تعالى فى الخلق والتكوين والعبادة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ﴾ معناه أصابكم، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ﴾ للإشارة إلى أن البحر مخوف مرهوب، فالمس يشمل الإصابة التى تصيب الأبدان، ويشمل خوف الغرق والفزع عندما تضطرب الأمواج ويعلو الفلك وينخفض، وقد وجفت القلوب واضطربت الأفئدة.

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُوراً﴾.

الفاء هنا عاطفة لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وهو ترتيب عكسى، أى أنه كان يترتب على هذا الشكر، ولكن ترتب العكس، فهذا دليل على الجحود، وعمقه فى نفوسهم وتغلغله بسبب قلوبهم الكافرة غير الشاكرة.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ يشير إلى أنهم وهم فى البحر هم فى مخاطره، ولذلك جعلت غاية النجاة البر، ﴿نَجَّاكُمْ﴾ فيها معنى الإنقاذ، وأنهم ما داموا فى البحر فهم عرضة لأهواله، وبعد أن جاء عصر البخار الذى تسير به السفن وسائر المراكب من قطر إلى قطر وغيرها ما تزال فى البحر مخاطرة.

ويقول سبحانه: ﴿أَعْرَضْتُمْ﴾، أى انصرفت نفوسكم عن معانى الضراعة ونسيتموها وكأن لم يكن ضر ولا صرف، وكذلك شأن الإنسان دائما لا يذكر الأهوال إلا وقت نزولها فإذا زالت نسيها، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠)﴾ [هود].

وقد قال البيضاوى فى معنى ﴿أَعْرَضْتُمْ﴾: اتسعتم، أى صرتم فى سعة بعد ضيق واستشهد بقول ذى الرمة:

عطاء فتى يمكّن فى المعالى … فأعرض فى المكارم واستطالا

وقد ذكره على أنه احتمال فى المعنى، ونرى أن المعنى بعمومه يشمله.

هذا، وإن السير بالمراكب فى البحار أمر شديد أو كان شديدا جدا فى العصر الأول، وكان يدفع للإيمان إذا كانت النفس مدركة، ويروى أنه عند الفتح الإسلامى لمكة نفر ناس من أن يخضعوا لحكم النبى ﷺ وهربوا وركبوا الفلك إلى الحبشة ومنهم عكرمة بن أبى جهل، فركب البحر، فجاءتهم ريح عاصف فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغنى عنكم إلا أن تدعوا الله وحده، فقال عكرمة فى نفسه: والله إن كان لا ينفع فى البحر غيره، اللهم لك علىَّ عهد لئن أخرجتنى منه لأذهبن فلأضعن يدى فى يد محمد، فلأجدنه رءوفا رحيما، فخرجوا من البحر فرجع إلى رسول الله ﷺ، فأسلم وحسن إسلامه.

وإذا كانوا قد أعرضوا بعد أن زالت عنهم شدة البحر، فإن الله يذكرهم، وهو العليم الحكيم أنه ينزل بهم الشدة فى البر أيضا، إذ هم فى قبضة الله تعالى فيقول:

﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (٦٨) ﴾.

(الفاء) عاطفة على فعل محذوف تقديره أنجوتم فأمنتم. . . . والهمزة للاستفهام الإنكارى بمعنى إنكار الواقع؛ لأنهم زعموا أنهم إذ نجوا أمنوا الخسف فى الأرض، أو الريح الحاصب من السماء.

وإذا كانوا كذلك فهذا توبيخ لهم على هذا الغرور وظنهم الآمن المطلق بعد النجاة من البحر، وهكذا الغرور دائما تحكمه الساعة التى يكون فيها، وهى التى توحى إليه بالغرور.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾، أي أن غرورهم ليس فى موضعه وأنهم أمنوا حيث لا مأمن، وظنوا أنهم قد خرجوا عن قدرة الله تعالى مع أنهم قد دخلوا فى قدرته، وما هم بخارجين منها، فإذا نجوا من البحر وأهواله، ففى البر أهوال، والخسف أن تنهار الأرض، ويقال: بئر خسيف إذا انهدم أصلها، وجانب البر ناحية الأرض، والخسوف يقع فى جانب منها، وقال الله تعالى فى قارون عندما بغى على قومه: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ ... (٨١)﴾ [القصص].

فإذا نجوا من البحر فلن ينجوا من خسف الأرض، أو يرسل الله تعالى حاصبا، أى ريحا شديدة، وهى التى ترمى بالحصباء وهى الحصى الصغيرة، والحجارة من السماء تحصبهم كما فعل بقوم لوط، فقد جاء الخسف والحاصب معا، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)﴾ [هود].

فجاءهم الخسف، وجاءهم الريح الحاصب معا وكانوا يستحقون.

وقوله تعالى: ﴿جَانِبَ الْبَرِّ﴾ منصوب مفعول لـ ﴿يَخْسِفَ﴾، وعلل الزمخشرى ذكر الجانب بقوله: «معناه أن الجوانب والجهات كلها فى قدرته، وله فى كل جانب برا كان أو بحرا مرصد من أسباب الهلكة ليس جانب البحر وحده مختصا بذلك، بل إن كان الغرق فى جانب البحر، ففى جانب البر ما هو مثله وهو الخسف، فهو تغيب تحت التراب كما أن الغرق تغيب تحت الماء».

ويستفاد من هذا أن ذكر الجانب فى البر فى مواجهة الجانب من البحر، وليس جزءا خاصا من الأرض إنما الأرض، كلها جانب فى مقابل جانب البحر كله، وكان على العاقل المدرك أن يعرف أنه لا يغيب عن قدرة الله تعالى فى بر أو بحر.

وإذًا فهو تحت سلطان الله تعالى فى البحر والبر، فلا يتوهمن أنه يوجد من ينجيه من عذابه إلا إياه، وليس لأحد قدرة فى أن يمنع قدر الله تعالى فقال: ﴿ **ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً** ﴾ تتكلون عليه، ويصرف عنكم ما يقدره عليكم.

﴿ **أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا** (٦٩) ﴾.

﴿ **أَمْ** ﴾ هى أم المعادلة، أأمنتم أن يخسف بكم جانبا من البر، أم أمنتم أن يعيدكم إلى البحر تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا إلى آخره، والمعنى واضح أن غير المؤمن فى غرور دائم، لا يفكر إلا فى الحال الوقتية كشأن كل مادى فيه قصر فكر وإدراك، لا يفكر فى العواقب، إنك إذ نجوت من البحر وأهواله، ونجوت من ضره وأسقامه فقد حسبت أن الوجود قد استقام كله لإرادتك وهواك، وإنه لا يجىء ما يجعلك تلجأ إلى الله تعالى وحده، أفأمنت جانب البر أم أمنت أنك لا تعود إلى البحر مرة أخرى فتتعرض لعقاب على كفرك.

﴿ **تَارَةً** ﴾، أى مرة أخرى لرغبة قويت فى نفوسكم أنسيتم ما أصابكم أولا، كما نسيتم رحمة الله وأن ذلك بإرادة الله فهو وحده الذى يعيدكم بتقوية هذه الرغبة ﴿ **فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا** ﴾ (الفاء) عاطفة تفيد الترتيب والتعقيب، أى أأمنتم أن يعيدكم فيرسل، فهو فى قضائه وقدره قد رتَّب على إعادتكم أن يرسل عليكم قاصفا؛ وهى الريح التى يكون لها صوت شديد مزعج كأنها تنقصف أى تنكسر، وهى لا تمر بشىء إلا قصفته فتهز الدوح[1] وتكسرها وكل ما يقف فى سبيلها تكسره، ويترتب على قصفها الفلك وشراعها أن تغرق بمن فيها، ولذا قال تعالى: ﴿ **فَيُغْرِقَكُم** ﴾ ولا منجاة لكم بسبب كفركم بالنعمة التى أنعمها عليكم فى النجاة إذ مسكم الضر وبسبب كفركم بالله تعالى.

﴿ **ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا** ﴾ أى مطالبا بحق لكم لأنه لا حق لكم، إنكم بكفركم أُخذتم، فالتبيع هو من يتبع الغريم المطلوب منه أداء ما عليه، كقوله

(١) جمع دَوْحة، وهى الشجرة العظيمة من أى شجر كان. الصحاح.

تعالى: ﴿ ... فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ... (١٧٨) ﴾ [البقرة]، والمعنى أنهم يصنع بهم ما يصنعه الله فيهم ولا مطالب لهم بحق أو ما يشبهه.

كرامة بنى أدم

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾

كرم الله بنى آدم من وقت أن خلق آدم وأمر الملائكة أن يسجدوا له، ولأن الله خلق شهوة، وملَكية فإن غلبت ملكيته فهو أفضل من الملائكة وإن غلبت شهوانيته، فهو أحط من البهائم فكان من تكريمه تكليفه، فإن ذلك التكليف علو به من البهيمية إلى الملكية أو إلى خاصة الإنسانية، ومن هذا التكريم أن كان يُبعث ويُنشر؛ لأن هذه ضريبة العقل، ولا يكون الحساب والعقاب إلا للعقلاء المختارين الذين يميزون بين الخبيث والطيب، وإن العلاقة بين هذه الآيات وما سبقها من آيات أن الآيات السابقة كانت تتعرض لاعتراض إبليس على تكريم الله تعالى لآدم دونه، ثم ذكرت فضل الله ونعمه وكفر المشركين بهذه النعم، وعدم شكرها.

وفى هذه الآية يذكر تكريمه للإنسان فى هذه الدنيا كما كرم أباه منذ النشأة الأولى.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ التكريم يتناول التكريم الأول بأمر الملائكة بالسجود لآدم، فإن ذلك تكريم للخلق الإنسانى منذ الابتداء، وليس معناه أن كل إنسان أكرم عند الله من الملائكة، بل معناه أن آدم ذاته قبل أن يعصى كان مستحقا للكرامة فوق الملائكة، ولكنه بعد ذلك عصى آدم ربه فغوى، وهذا يشير إلى أن آدم يستحق الكرامة التى كرمه بها إلا إذا عصى.

وإن تكريم الله للإنسان ابتداء كما رأيت منذ النشأة الأولى، ثم كان من تكريمه أن خلقه فى أحسن تقويم، ثم كان من تكريمه أن أعطاه سبحانه وتعالى العقل المميز، ثم كان من تكريمه أن جعل له إرادة يختار بها الخير والشر فيعلو عن الملائكة إن اختار الخير، وذلل كل الصعوبات التى تعترض طريقه، ثم كان من تكريمه أن سخر له السموات والأرض والنجوم وصار كل من فى الوجود له، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ... (٢٩) ﴾ [البقرة].

وذكر الله تعالى من تكريمه أنه تمكن من الأرض يُحمل فيها بالركائب التى سخرها له من بغال وحمير وخيل مسوقة وغير مسوقة وجمال له فيها جَمَالٌ حين تريحون وحين تسرحون، وكان حمله فى البحر بالفلك المشحون كما ذكر سبحانه فى آيات أخرى.

وإن الحمل فى البر يدخل فيه الحمل فى الجو بالطائرة التى تسبح فى الهواء كما يجرى الفلك فى الماء، كما قال تعالى: ﴿ ... وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨) ﴾ [النحل]، وقوله تعالى: ﴿ فَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ وإن كل المخلوقات التى لم تؤت مثل ما أوتى ابن آدم من عقل مدبر وإرادة للخير والشر وابتلاء بالخير والشر، كما قال تعالى: ﴿ ... وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ... (٣٥) ﴾ [الأنبياء]، كل هؤلاء فضل الإنسان عليهم بالفعل والتمييز والإرادة لما يفعل وتحمل التبعة.

وقوله تعالى: ﴿ مِّمَّنْ خَلَقْنَا ﴾، (من) بمعنى بعض وهم كثرة، فالإنسان من بين ما خلق قليل محدود، وغيره كثير غير محدود، وإن هذه الكرامة يستحقها

الإنسان بوصف كونه إنسانا لا لأنه عربى أو أعجمى أو أبيض أو أسود أو متخلف أو متعلم، فهى حق كل إنسان، وإن البعث والنشور والحساب والعقاب والثواب من أسباب تكريم الإنسان؛ لأنه يكون مسئولا عما يفعل، والمسئولية تكريم للإنسان لأن غير المسئول هَمْل، والمسئول من له كرامة وأدَّته إلى الجحيم، ولذا قال تعالى:

﴿ **يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧١)** ﴾.

﴿ **يَوْمَ** ﴾ منصوب بفعل محذوف تقديره (اذكر) ﴿ **يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ** ﴾، ومجىء هذا بعد آية التكريم يدل على أن ذلك له صلة بالتكريم فكان من تكريم الإنسان أنه لم يخلق سدى، بل خلق متحملا التبعة التى لا يتحملها إلا الكرماء، فمنكرو البعث رافضون للكرامة التى أكرمهم الله تعالى إياها لو كانوا يعقلون.

وقوله تعالى: ﴿ **يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ** ﴾ أضاف سبحانه الدعاء إليه للإشارة إلى أنهم يلقونه، وقد كذبوا من قبل بلقاء ربهم، وخسروا بذلك خسرانا مبينا كما قال تعالى: ﴿ **قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ... (٣١)** ﴾ [الأنعام]، و(إمامهم) أى بما يأتمون به ويتبعونه من بين هاد أو مرشد أو كتاب تدارسوه واتبعوه، وغير ذلك مما يكونون له تبعا، وفسره ابن كثير بأنه كتاب أعمالهم، فإنه فى هذا الوقت تكون الأعمال هى الناطقة التى تقدم أصحابها، كما قال تعالى: ﴿ **وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩)** ﴾ [الجاثية].

وإنه يرشح لذلك قوله تعالى: ﴿ **فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ...** ﴾.

ولكن كيف يسمى كتاب الأعمال فى الدنيا إماما، وهو نتيجة لاتباع غيره من هاد أو ضال، ولهذا رجح الأكثرون بأن الإمام هو القدوة المتبع هاديا مرشدا، أو غاويا مضلا.

وقد يجاب عن الرأى الأول بأن الكتاب سمى بذلك؛ لأنه حجة عليه لا يستطيع معه إنكارا، ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ الفاء تشير إلى أن هناك من يعطى بيمينه، ومن يعطى بشماله، أو هى تفصح عن كلام مقدر، ﴿أُوتِيَ﴾، أى أعطى كتابه بيمينه وإعطاء الكتاب بيمينه يشير إلى أنه من أهل اليمين وهم أهل الجنة كما قال الله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩)﴾ [الواقعة]، ويقول سبحانه عن أصحاب الشمال: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ (٤٤)﴾ [الواقعة].

وقوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾، أى أنهم يقرءون كتابهم مستمتعين بهذه القراءة مدركين جزاءهم متوقعين له، ﴿وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾، أى مقدار فتيل، وهو ما يكون بين جزأى النواة وهو ضئيل، كما قال تعالى: ﴿...وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠)﴾ [مريم]، وكما قال تعالى: ﴿...فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا (١١٢)﴾ [طه].

وقد ذكر سبحانه أن أهل اليمين يقرءون كتابهم ولم يذكر أهل الشمال أنهم يقرءون كتابهم؛ لأنهم لا يقرءونه استخزاء من أفعالهم وهو كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

وإن هذه حال أهل اليمين، أما حال أهل الشمال فقد أشار سبحانه وتعالى إليها بقوله تعالى:

﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٧٢)﴾.

العمى هنا هو عدم إدراك النعمة أو عدم شكرها والكفر بها، ففى الكلام استعارة حيث شبه عمى القلب بعمى البصر بجامع عدم الإدراك فى كل، فمن عمى فى الدنيا لا يدرك النعم أو يدركها ولا يشكرها ﴿فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾، أى فهو فى الآخرة أكثر عمىً وأضل سبيلا، أى أبعد عن إدراك الطريق المستقيم؛ لأنه فى الآخرة قد انتهى وقت العمل وفيها الجزاء، أو لأن عمى الدنيا

قد يعوض بجارحة أخرى كالسمع واللمس، أما عمى الآخرة فلا يوجد فيه معوض عن البصر، ولأن عمى الدنيا قد تدركه التوبة ففى الزمان متسع لها، أما الآخرة فالعمى فيها لا يستدرك بتوبة، إنما زمن الاستدراك فى الحياة الدنيا، وإن التعبير بالعمى فى الدنيا مجازى كما أشرنا وفى الآخرة هو مجازى أيضا، وقيل: إن كلمة ﴿أَعْمَى﴾ الثانية هى أفعل تفضيل ويجوز ذلك فى عمى القلب، ولعل ذلك أخذوه من العطف عليها بأصل وهى أفعل تفضيل.

ولقد روى أنه جاء نفر من أهل اليمن إلى ابن عباس فسألوه عن هذه الآية، فقال اقرأ ما قبلها ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٧٠)﴾ قال ابن عباس: من كان فى هذه النعم والآيات التى رأى أعمى، فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا.

محمد يحاول هدايتهم وهم يريدون تحويله

قال الله تعالى:

وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾

كان محمد ﷺ محبوبا فى قومه يألفونه، ويكبرونه ويعدونه فيهم خيرهم أمانة وصدقا وقوة خلق، حتى إذا بعث رسولا، فرق شعور بعضهم بينه وبينهم بسبب الحق الذى جاء به، وما هم عليه من باطل يستمسكون به، ومحمد ﷺ كان يحب هدايتهم، لأنهم قومه ولأنه داعية الحق يريد أن يؤمن الناس به فهو يحاول أن يستدنيهم ويتمنون بجدع الأنف أن يترك هداية الله إلى ضلالهم، ولذا قال تعالى:

﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) ﴾.

الكلام موصول لما قبله بالواو، وإن هى المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن، واللام هى اللام الفارقة وهى مؤكدة، يفتنونك معناها يزيلونك عما أنت عليه أو يصرفونك، وقال الراغب الأصفهانى إن معناها يوقعونك فى الفتنة، بالنزول على ما يريدون.

وأوضح المعانى أن تكون بمعنى يصرفونك عن الذى أوحينا إليك وهو القرآن الكريم، بأن تنصرف عن أحكامه وعن شريعته وعن المبادئ المقررة فيها التى تسوى بين الغنى والفقير، ﴿ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا ﴾، أى لتكذب على الله وتدعى أنه نزل عليك غيره، وفى هذه الحال تكون خليلهم وحبيبهم كما كنت، ولذا قال سبحانه: ﴿ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾، أى إذا كان ذلك منك وتحولت عن الله تعالى إليهم يتخذونك وليا وخليلا، و(اللام) هى الواقعة فى جواب (إذًا).

ويذكر المفسرون روايات تدل على هذه المحاولة منهم، فيقولون إن ثقيفا حاولوا أن يستنزلوا من أحكام الإسلام ما يهوون فأرادوا أن يكون الربا حلالا لهم إذا كانوا دائنين وأن يكون حراما إذا كانوا مدينين، وأن يستمتعوا بعبادة اللات إلى آخر ما ذكروا، ونقول: إن وفد ثقيف الذى طلب ما طلب كان بعد الهجرة بسنين فهو كلام يحمل فى نفسه دليل بطلانه.

وقيل: إنهم منعوه من استلام الحجر الأسود إلا إذا كان معهم فلان، وهذا أيضا كلام يحمل فى نفسه دليل بطلانه ولا يوجد من الصحاح ما يؤيده أو يشير إليه.

ولعل أقرب الروايات فى أسباب نزول هذه الآية هو ما ذكر أن قريشا خلوا برسول الله ﷺ ذات ليلة يكلمونه ويفخمونه ويسودونه ويقاربونه؛ فقالوا: إنك تأتى بشىء لا يأتى به أحد من الناس، وأنت سيدنا، وما زالوا به حتى يقاربهم فى بعض ما يريدون فعصمه الله، وخير من هذا هو قول أكابر قريش للنبى ﷺ: اطرد عنا هؤلاء السقاط والموالى حتى نجلس معك ونستمع منك فهمَّ النبى ﷺ بذلك[1]، هذه أصح الروايات فى محاولاتهم، ولها شاهد من القرآن الكريم فقد قال تعالى: ﴿ **وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ** (٥٢) ﴾ [الأنعام]، وقوله تعالى: ﴿ **وَإِن كَادُوا** ﴾ ذكر محاولتهم ولم يذكر استجابة النبى ﷺ ومعاذ الله أن يستجيب خاتم النبيين، ولكن رغبة النبى ﷺ فى أن يجذبهم إلى الإسلام ربما كانت سببا فى أن يقارب بما دون الاستجابة، ولذا قال تعالى:

﴿ **وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا** (٧٤) ﴾.

(لولا) يقول علماء اللغة أن (لولا) حرف امتناع لوجود، أى امتناع الجواب لوجود، أى امتنع أن تركن إليهم لوجود التثبيت، أى أن إغراءهم لتعدل عن دعوتك دائم مستمر، ولكن لا جدوى لأن تثبيت الله دائم مستمر.

وإن هذا يفيد أمورا ثلاثة:

الأمر الأول: تحريض النبى ﷺ على الاستمرار على دعوته الحق غير مباليهم فى شىء وأن يصر على قوله، ولا يتهاون قيد أنملة فيما يدعو إليه.

---

(١) انظر ما جاء فى ذلك فى مسلم: فضائل الصحابة- فى فضل سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه (٤٤٣٤).

الأمر الثانى: أن الله مؤيده فى الحق وفى دعوة الحق المستمرة والله تعالى عاصمه منهم نفسيا وماديا، فهم لا ينالون من جسمه ولا يمكن أن ينالوا من نفسه، فالله معه، وحامى الحق.

الأمر الثالث: أن إرادتك هدايتهم لا يصح أن يأتوك من قبلها.

وقد أكد الله تعالى أن إغراءهم من شأنه أن يميل إليهم، ولكن محمدا فى عصمة ربه وتثبيته، والله تعالى يثبت القلوب كما يثبت الألسنة: ﴿ **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)** ﴾ [إبراهيم].

ويقول: ﴿ **لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً** ﴾.

أكد سبحانه أنه كاد يميل إليهم، وكان التأكيد باللام وبقد، ولكنه وصف الكيدودة بأنها شىء قليل لم تَمِلْ معه النفس، وكان تأكيد الميل لقوة الإغراء وقوة ما يحاولون أن يميل قلب النبى ﷺ، و﴿ **تَرْكَنُ** ﴾ معناه تميل، ولم تكن استجابة ولكن مظنة الاستجابة لولا عصمة الله تعالى.

وقد حذر الله تعالى نبيه من هذه الاستجابة بقوله تعالى:

﴿ **إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥)** ﴾.

﴿ **إِذًا** ﴾، أى إذا كان منك أنك ركنت إليهم، وجرَّك هذا إلى الاستجابة لهم ﴿ **لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ** ﴾ اللام جواب ﴿ **إِذًا** ﴾، أذقناك عذابا هو ضعف عذاب الحياة بعجزك عن التبليغ والخزى، والهوان والذلة، فيكون عذابا مضاعفا يكون معه الخزى والهوان وهذا ضعف عذاب الحياة، أما ضعف الممات فهو أن العذاب يكون يوم القيامة مضاعفا، والعذاب يكون على مقدار العلم ومقدار ما أوتى من بيان وأى علم أعظم من علم النبوة، وأى آيات أعظم من تأييد الحق، وإن العذاب يكبر بكبر من وقع فى سببه.

ولقد قال الزمخشري في هذا المقام: في ذكر الكيدودة وتقبلها مع إضافة العذاب الشديد المضاعف في الدارين دليل بين على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله وارتفاع منزلته، وفيه دليل على أن أدنى مداهنة للغواة مضادة لله تعالى، وخروج عن ولايته وسبب موجب لغضبه ونكاله، فعلى المؤمن إذا تلا هذه الآية أن يجثو عندها ويتدبرها فهي جديرة بالتدبر وأن يستشعر الناظر فيها الخشية.

وإنه إذا كان قد ذكر القرآن الكريم أنه كاد يركن، فليس معنى النص يفيد أنه ركن، وقدر ذكر الله عقابا مضاعفا للركون لا لقرب الركون، فمعنى ﴿ **إِذًا لأَذَقْنَاكَ...** ﴾، أي إذا ركنت أذقناك، وهذا خطاب للنبي ﷺ، ولا يمكن أن يكون منه ركون، وهو تحذير لأمته من أن يخطوا مع الظالمين وأن يركنوا إليهم، كما قال تعالى: ﴿ **وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ (١١٣)** ﴾ [هود].

ولقد قال تعالى محذرًا محمدا وأمته: ﴿ **ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا** ﴾، العطف بـ ﴿ **ثُمَّ** ﴾ بعد النصرة إذا كان منه الركون، وقال: ﴿ **عَلَيْنَا** ﴾، أي ليس لك علينا أن ننصرك إنما نتركك لمن ركنت إليهم، وإن ذلك تحذير للأمة من أن تركن لظالم قط، أو تقع تحت إغوائه، وأنهم كانوا يحاولون إخراج النبي ﷺ من مكة، ولذا قال تعالى:

﴿ **وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً (٧٦)** ﴾.

كان كفار مكة يكيدون للنبي ﷺ ولأصحابه، فلقد آذوا أصحابه إيذاء بالغا، حتى إن منهم من مات تحت حر العذاب كأم عمار بن ياسر وأبيه، وحتى إن منهم من نطق بالكفر وقلبه مطمئن بالإيمان، وقد هاجر منهم فرارا من الأذى إلى الحبشة طائفة من المؤمنين استنقاذا لإيمانهم وقد هاجروا مرتين، والنبي ﷺ ثابت في مكانه مقيم يشارك من لم يستطع السفر الأذى والمصابرة، ولو خرج لضاقوا في أنفسهم، واشتد بهم الألم بعدم من يشاركهم، وهو قطب الدعوة.

رأى المشركون ذلك ورأوا أن يزيدوا فى إيذائه ليزعجوه ويستفزوه ليخرج، وبلغ ذلك أقصاه عندما هموا بقتله أو تثبيته أو إخراجه، وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾ و(إن) هنا هى المخففة من الثقيلة كما هى فى الآية السابقة فى التلاوة، واللام لام التوكيد فارقة بينها وبين (إنْ) النافية، ومعنى استفز، أى طلب الفزَّ بألا يكون قارا ثابتا، وهؤلاء طلبوا أن يفز النبى ﷺ من الأرض بألا تكون مستقرا له يأمن فيها ويسكن حتى لا يبقى بها؛ لأنهم علموا أنه لا محالة مضيع شركهم قاضٍ على أوثانهم مزعج لهم فأزعجوه منها ليخرج، والأرض هى أرض مكة؛ لأنها المعهودة، فـ (أل) للعهد، ولأنها الجديرة بأن تسمى الأرض الحرام؛ لأنها الحرم الآمن الذى يُجبى إليه ثمرات كل شيء ولأنها أم القرى، إنهم يفعلون ذلك ليخرجوك من أرض مكة، ولكنه إن خرج فإنه يبتدئ زوال سلطانهم وهى تضطرب من تحتهم، ولذا قال تعالى: ﴿ وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾، أى أنه نتيجة لخروجه من بينهم لن يستمروا بعده إلا زمنا قليلا فإن دولتهم تأخذ فى الزوال، وذلك بأحد أمرين:

الأمر الأول: أن يجد قوما غيرهم يستجيبون لدعوته وتكون له بهم قوة فيردون اعتداءاتهم، وفتنهم وقد كان ذلك، فإن الله تعالى أمره بالهجرة فى ميقاتها عندما وجد من استجاب من أهل يثرب، فكانوا هم ومن هاجروا قوة الإسلام استنصفوا منهم، ثم زالت دولة الأوثان بعد ذلك ويئس الشيطان أن يعبد فى هذه الأرض.

الأمر الثانى: أن ينزل الله بهم ما أنزل بالذين آذوا أنبياءهم وأخرجوهم أو سدوا سبل الحق عليهم حتى يئسوا من أن يؤمنوا، وقال الله لكل نبى منهم: ﴿ ... لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ ... (٣٦) ﴾ [هود]، فإنه ينزل عليهم من آياته خسفا، أو زلزالا، أو حاصبا، أو ريحا صرصرا عاتية.

وقد كان الأول وإن ذلك سنة الأولين، وقد قال تعالى:

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً (٧٧) ﴾.

﴿ سُنَّةَ ﴾ منصوبة على أنها مفعول مطلق كمصدر، والفعل المحذوف سننا سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا، أو نسُنُّ لك سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا، وهو أنه لا يخرج قوم أنبياءهم إلا أدلنا منهم؛ فآل لوط أخرجوا نبيهم فجعل عليهم الأرض عاليها سافلها، وثمود عقروا الناقة وآذوا صالحا فدمدم عليهم ربهم بذنبهم، وموسى أخرجه فرعون وملؤه فأغرقهم الله تعالى وأدال منهم، كما قال تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) ﴾ [القصص].

﴿ وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾، أي تغييرا؛ لأنها لها منهاجا معلوما لا تتحول عنه، وهو أن ينصر رسله، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ... (٥١) ﴾ [غافر]، وقد كان الأمر بالنسبة كذلك لمحمد ﷺ فإنه بعد بضع سنين من هجرته دخل مكة محطما أوثانها، وقد أمن أهلها وذهبت دولة الشرك.

في شريعة محمد دواء النفس ونصر الحق

قال الله تعالى:

أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا (٧٩) وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا (٨٠) وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢) وَإِذَآ

أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٣) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا (٨٤)

نحسب أن هذه الآيات كانت قبيل الهجرة، بل إن سورة الإسراء كلها كانت قبيل الهجرة؛ إذ فيها الإسراء، وقد كان قبيل الهجرة إيناسا للنبى ﷺ بعد أن فقد عمه أبا طالب الذى كان يحميه، وزوجه خديجة التى كانت السكن المواساة، ولذا نقول: إن قوله تعالى:

﴿ **أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا** (٧٨) ﴾.

وإن الآيات السابقة تدل على ما كان يحاوله المشركون ليفتنوا المؤمنين فى دينهم، وتطاولوا فحسبوا أنهم يفتنون محمدا ﷺ عما أوحى الله تعالى به إليه، ثم أشار إلى ما كانوا يفعلونه لكيلا تكون له مكة مقاما ومستقرا، بعد ذلك أمره بالصلاة مبينا أوقاتها له ولأمته، فقال: ﴿ **أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ** ﴾ والصلاة فيها ابتلاء النفس بالقوة لأنها انصراف ولجوء إلى الله تعالى واستحضار ذاته العلية، والصلاة هى ركن الإيمان السديد، ولقد قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ** (٩٧) **فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ** (٩٨) ﴾ [الحجر]، ويقول تعالى: ﴿ **فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ** (١٣٠) ﴾ [طه]، فكان الأمر بالصلاة والإشارة إلى أوقاتها؛ لأنها مادة الصبر. والإيمان وفيها أعلى درجات السلوان عن متاعب الحياة ولأوائها.

اللام فى قوله تعالى: ﴿ **لِدُلُوكِ** ﴾ للتوقيت، كما تقول فى توقيت أعمالك أو الحوادث كان هذا لخمسٍ خَلَوْنَ من جمادى أو نحو ذلك، ويصح أن تكون

للتعليل، أي أقم الصلاة لأجل دخول وقت دلوك الشمس إلى غسق الليل.... ولهذا يقول علماء الأصول: إن الوقت سبب وجوب الصلاة، من حيث إن الصلاة لا تجب إلا بدخوله.

وإقامة الصلاة التي هي مصدر أقام، و﴿أَقِمِ﴾ معناها أداؤها مقومة مستقيمة مستوفية الأركان الظاهرة، من قيام وركوع وسجود وقراءة ودعاء وأركانها الباطنة من خشوع واستحضار لمعانيها، ومعاني قراءتها وأدعيتها حتى تكون كلها ذكراً لله تعالى، وهو لب معناها.

و(دلوك الشمس) معناه ميلا من وقت زوالها، وكونها في كبد السماء إلى غسق الليل، وبهذا تشمل الآيات الأوقات كلها؛ لأنها شملت الظهر والعصر والمغرب والعشاء في غسق الليل، والفجر في قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾.

وفسر بعض الصحابة الدلوك بالغروب لأنه نهاية ميل الشمس؛ إذ تختفي. ومن فسر الدلوك بميلها في الزوال، فسرها بابتدائه، وقال الماوردي: من جعل الدلوك اسما لغروبها، فلأن الإنسان يدلك عينيه براحتيه لتبينها حالة الغروب، ومن جعله اسما لزوالها فلأنه يدلك عينيه لشدة شعاعها.

ونرى أن تفسير الدلوك بميلها وقت الزوال هو الأوضح؛ لأن الآية بهذا التفسير تشمل كل أوقات الصلاة، ولأن (دَلَك) معناها (مال). جاء في تفسير البيضاوي ما نصه: «وأصل التركيب للانتقال، ومنه الدلك فإن الدالك لا تستقر يده وكذا كل ما تركب من الدال واللام كدلج، ودَلَحَ، ودلع، ودلف».

وقوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾، أي ميلها من الزوال شيئا فشيئا، فيكون الظهر ثم يشتد الميل فيكون العصر، واتساع الميل علامته طول كل الأشياء، ويكون العصر، ثم تغيب وينقطع الميل فيكون المغرب وتختفي الشمس وآثارها، فيكون غسق الليل وهو اجتماع ظلمته، وذهاب كل شفق ينير، فيكون

العشاء ثم نبه سبحانه وتعالى إلى الفجر وصلاته، فقال: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ عبر عن صلاة الفجر بقوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾؛ لأن القراءة ركنها ولأنه يجب أن يكون الجهر بها، ولأنه يندب أن تكون القراءة فيها بطوال السور أو ببعضها، ولأن القرآن فيها مشهود مستحسن، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾، أى تشهده الملائكة إذا لم تدرن النفس بعوجاء الحياة، واختلافات الأهواء والمنازع؛ ولأن الفجر ينبغى أن يؤدى فى جماعة، ويجب أن يشهده أكثر المؤمنين القريبين من المسجد، ولأنه أول ما تستقبل به الحياة، ويصح أن نقول: إن ﴿مَشْهُودًا﴾ كناية عن رفعته ومقامه عند الله وعند المؤمنين، وهذه الأوقات تتلاقى مع قوله تعالى فى سورة الروم المكية: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨)﴾ [الروم].

وبعد ذكر الله تعالى الفرائض، أشار سبحانه وتعالى إلى النوافل فقال:

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا (٧٩)﴾.

من هنا للتبعيض، والفاء عاطفة على فعل محذوف وتقدير الكلام قم جزءا من الليل فتهجد به نافلة ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾، أى رجاء أن يبعثك ربك مقاما محمودا، والتهجد معناه قطع الليل فى العبادة وخاصة الصلاة، وقالوا: إنه سلب الهجود أى النوم فمادة تفعَّل تأتى أحيانا بمعنى سلب الفعل، فالتهجد سلب الهجود وهو النوم والاستراحة كالتأثم سلب الإثم أو إبعاده، والتحرج إبعاد الحرج إلى آخر أمثال هذه الألفاظ.

والمقام المحمود هو المقام الذى يحمد قائمه، وهو مقام العبادة، وهو بالنسبة للنبى ﷺ مقام الشفاعة يوم القيامة، فهو المقام الذى يشفع فيه النبى ﷺ لمن يؤمر بالشفاعة، كما قال تعالى: ﴿... وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨)﴾ [الأنبياء].

وقوله تعالى: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾، أى هذا التهجد نافلة أى زائدة، أى أن هذا التكليف بالتهجد كنافلة زائدة هو لك أنت مثل قوله تعالى: ﴿... وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن

وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ... (٥٠)﴾ [الأحزاب]، ولقد قدمت هذه النافلة فى الذكر عن قراءة الفجر وتأخرت عن صلاة الغسق، وكانت بينهما؛ لأن التهجد ليس فرضا على المؤمنين، ولقد قال تعالى فى هذه النافلة المطلوبة من النبى ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً (٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (٨)﴾ وإن العبادة إذا أديت على وجهها وخصوصا الصلاة كان العبد قريبا من ربه، يدعوه فيستجيب له، ولذا قال تعالى:

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا (٨٠)﴾.

الإدخال متعدى دخل، والإخراج متعدى خرج، وقيل: إن هذه الآية نزلت عندما أذن للنبى ﷺ أن يخرج من مكة مهاجرا، وأن يدخل المدينة داعيا مستنصرا، ويصح أن يفسر الإدخال والإخراج بهذا المعنى الخاص، ونرى أنه عام فى كل أمر يقدم عليه الإنسان ويريد منه خيرا، وهو بالنسبة للنبى ﷺ هو الدخول فى تبليغ رسالة الله سبحانه وتعالى، وأداؤه لها والاستمرار فى أدائها والزود عنها، حتى يقبضه الله سبحانه وتعالى إليه.

وما معنى الصدق فى هذا المقام، يقال قول صدق، وعمل صدق، وموقعة صدق، ووقفة صدق، ونقول: الصدق هو الكمال فى الأفعال والأقوال والواقع، والمواقع ومعنى صدقها أى يبتدى بها الشخص مخلصا متجها إلى الغاية فى أكمل صورها، مالكا الحق فى طلبها سلوكا مستقيما من غير التواء ولا مراء، معطيا ما يحتاج إليه الأمر من وسائل الاستقامة والخلق الكريم، وفى الصدق صدق النفس بالإخلاص، وصدق العمل بالنية الطيبة، وصدق اللسان والجوارح.

فالدعاء بأن يدخله مدخل صدق، وأن يخرجه مخرج صدق دعاء بأن يحاط فى المدخل والمخرج بالفضائل الإنسانية، والمكارم كلها، والحق من كل نواحيه،

هذا الدعاء الذى علمه الله تعالى، وكل خطاب للنبى ﷺ هو خطاب لكل أتباعه لأنه الأسوة المتبع.

وآخر الدعاء قوله تعالى: ﴿ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ كان الدعاء الأول بلفظ المتكلم المفرد، أما فى هذا الدعاء فكان بلفظ المتكلم الذى معه غيره، و﴿ لَّدُنكَ ﴾، أى من عندك، وهى تكاد تكون فى اللغة العربية خاصة بالعندية لدى الذات العلية.

وكان الدعاء بأن يكون للنبى ﷺ ومعه غيره بأن يهبه ومن معه السلطان أى القوة، و﴿ نَّصِيرًا ﴾، أى قوة تنصره وتؤيده ويستعمل السلطان بمعنى الحجة، وبمعنى التسلط، وبمعنى القوة، وهى فى هذا الموضع تشمل الحجة والقوة الناصرة التى لا تنهزم، وقد أعطاه الله سبحانه وتعالى كل ما طلب، وأعطاه سلطانا له ولمن معه فأجيبت دعوته وعصمه الله تعالى من الناس وجعل حزبه هو الغالب وقال: ﴿ ... فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) ﴾ [المائدة]، وأظهر دينه على الدين كله، واستخلفهم فى الأرض ونزع الله ملك فارس وممالك أخرى، وهكذا.

ونلاحظ أنه عندما طلب القوة، لم يطلبها لنفسه، بل طلبها لمن معه وهو بينهم، لتكون القوة الجماعية، ومن يطلبها لنفسه فإنما يطلبها للغلبة وقهر المؤمنين كما رأينا من رؤساء المسلمين فى هذا الزمان.

وإن وراء المدخل الصدق والمخرج الصدق، والسلطان للجماعة المؤمنة يكون انتصار الحق، وخذلان الباطل، ولذا قال تعالى:

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) ﴾.

هذه الآية تؤذن بما سيقع بعد أن يكون الخروج الصدق من مكة بالهجرة والدخول بالمدينة وهو النصرة والإيواء.

وبعد أن أعطاهم السلطان النصير، والقوة ومجابهة الشرك، أمر الله تعالى نبيه أن يقول ذلك مقررا مثبتا جاهرا بهذه الحقيقة وإن لم يكن ذلك ظاهرا، ولكن

أسباب النصر القريب قد وجدت وتضافرت، وكان اشتدادهم فى الإعنات بشيرا للمؤمنين بقرب الفرج، وكان دعاء النبى ﷺ بأن يدخله مدخل صدق وأن يخرجه مخرج صدق؛ إيذانا بالهجرة التى كان من بعدها النصر المؤزر.

يروى أن المؤمنين ابتدءوا الهجرة من بعد أن بايع النبى ﷺ الأوس والخزرج البيعتين على النصرة، وأن يحموا محمدا ودعوته كما يحمون نساءهم وأولادهم[1]، ومن هذا الوقت ابتدأت الهجرة فرادى وجماعات صغيرة يستخفون بها ولا يعلنون، ويظهر من المساق التاريخى أن دعوة الرسول بأن يدخل مدخل صدق، ويخرج من مكة مخرج صدق كان فى هذا الإبان وكانت قريش تأتمر به لتقتله أو تثبته أو تخرجه وانتهت إلى قتله فى مؤامراتها، وهذا فى قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)** ﴾ [الأنفال].

هاجر النبى ﷺ وقاتل المؤمنون وقوتلوا ثم كان النصر بأمر الله، فقوله تعالى: ﴿ **وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ** ﴾، أى قل مبشرا مثبتا جاء الحق غالبا منصورا وزهق الباطل أى ذهب وضاق من زهوق الروح، ﴿ **إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا** ﴾، أى مضمحلا غير ثابت.

ولو أننا نأخذ من روح النصوص القرآنية ما اقترن بها من حوادث، لقلنا إن هذه الآيات، والنبى ﷺ قد التقى بوفد الأوس والخزرج وبايعهم بعد أن آمن من آمن منهم ولكن لم نجد فى كتب التفسير ما يؤيد ما نقول وحسبنا القرآن مبينا أو مُسَيِّرا.

ولقد قال تعالى فى القرآن الذى هو الحق، وبه علا الحق وكل ما فيه حق،

﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا (٨٢)** ﴾.

---

(١) انظر فى ذلك ما رواه أحمد: باقى مسند المكثرين- مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنه (١٤١٢٦).

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى إشراق النفوس بالحق وطمس الباطل أشار سبحانه إلى مصدر الحق فى الإسلام وهو القرآن فليس فيه إلا الحق، ولا يلتمس إلا منه ولا يطلب إلا من آياته، فقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾، (من) هنا يقول بعض علماء اللغة: إنها بيانية، أى ننزل القرآن الذى هو شفاء للناس ورحمة للمؤمنين؛ لأن القرآن كله شفاء ورحمة، وإذا جعلنا (مِنْ) للتبعيض يكون معنى الآية أن بعضه ليس فيه شفاء ولا رحمة وذلك باطل فيبطل ما يؤدى إليه.

وقال ابن عطية من المفسرين: «إن جعل (من) للتبعيض لا ينافى أن القرآن كله شفاء؛ لأن (ننزل) معناه النزول شيئا فشيئا فيكون المعنى على هذا «وننزل من القرآن شيئا فشيئا ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين» فالتبعيض فى طريقة النزول لا فى الحكم بأنه كله شفاء ورحمة للمؤمنين».

والشفاء والرحمة للمؤمنين؛ لأنهم الذين ينتفعون به، والشفاء الذى اشتمل عليه القرآن هو شفاء النفوس من أوهام الباطل، وشفاء العقول من رجس الوثنية والأخلاق الجاهلية ومفاسد الأخلاق والرذائل الأثيمة، وتلك تخلية وبعدها التحلية، وتلك هى الرحمة، فتملأ النفوس بمكارم الأخلاق وتنظم المعاملات بين الناس فى شريعة محكمة وحقائق ثابتة، وتنظم أعمال الناس بنظم اجتماعية واقتصادية تحفظ للفرد حقه فى التصرف والامتلاك، وتصريف أموره فى ظل جماعة عادلة رحيمة مترابطة غير متقاطعة، ولا متنازعة لا تسلب فيها الحقوق بكلام لا معنى له.

وإن هذا النص الكريم يتقارب فى مؤداه من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧)﴾ [يونس] وإن المؤمنين هم الذين ينتفعون بالغذاء الطيب التى يغذى النفوس والدواء الناجع الذى يزيل أمراض القلوب، أما غير المؤمنين فلأنهم أعرضوا عن الحق، وصموا آذانهم عنه إذا سمعوا القرآن لا يشفيهم ولا يُغذيهم بل يزيدهم خسارا، ولذا قال:

﴿ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا ﴾؛ لأن الكافر لجوج فى كفره معاند ولا تزيد الحجة المعاند إلا عندا وخسارا.

ولقد قال فى وقع نزول القرآن على المنافقين: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) ﴾ [التوبة].

وإن الإنسان تطغيه النعمة فيبطرها ويوئسه البلاء، إلا الصابرون، وهذا قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٣) ﴾.

﴿ الإِنسَانِ ﴾ (أل) للجنس، أى جنس الإنسان أنه تبطره النعمة وتطغيه، وتوئسه النعمة وتضعفه، وإن هذه طبيعة الإنسان إلا من هداه الله تعالى بالصبر والإيمان، أو (أل) للعهد، وهو كما يدل عليه آخر الآية السابقة وهو الظالم الذى لا يزيده علم القرآن إلا خسارا، وإن هذه طبيعته الضالة التى جانف بها الفطرة ومال عنها.

ويقول فى توجيه الحق فى ذلك: إن الغريزة الإنسانية تنشأ منفعلة بما أحاطها وما منحت، فإن منحت القوة والصحة والمال ربما تطغى وتعرض عن الحق إلا أن تتهذب بتهذيب الدين، ويصيبها اليأس من روح الله إن أصابها أمر يضرها ويسرها إلا أن تؤمن وتصبر.

وهذا قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ ﴾ بنعمة الصحة والمال وتوفير الرزق، والسكن ﴿ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ﴾، أى أعرض عن الحق والتطامن له، وعن الطاعة لله تعالى، وقد صور سبحانه وتعالى فقال: ﴿ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ﴾، أى ثنى وجهه واستدبر من يخاطبه وأدار وجهه وواجه بظهره؛ وهذه صورة حسية لمن يعرض مطرحا الأمر وراء ظهره، غير ملتفت إليه.

﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴾، أى كان يائسا يأسا شديدا من روح الله وإنقاذه مما نزل به يأسا شديدا، ﴿ ... إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) ﴾ [يوسف].

والشر هو ما يسوء ويؤلم ولو كانت عاقبته خيرا، وقوله تعالى: ﴿ مَسَّهُ ﴾ إشارة إلى أنه يصيبه ولو قليلا يجعله يائسا من رحمة الله، فالقوة تغريه وتطغيه، والضعف ولو صغيرا يهده ويوئسه.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) ﴾ [هود].

معنى الآيات السابقة والقرآن الكريم فى محكم آياته يبين أن الناس على أصناف شتى فمنهم المهتدى الذى يتجه إلى الحق اتجاها من غير اعوجاج، ومنهم الضال المعرض عن الحق إعراضا، ومنهم المنافق، ومنهم الذين يسلمون ولم يؤمنوا أو يرجى لهم الإيمان، وكل يسير فى طريقه مختارا منتهيا إلى ما كتب له، وهذا قوله تعالى:

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً (٨٤) ﴾.

﴿ قُلْ ﴾ يا نبى الله ﴿ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ﴾، أى كل فريق، فالتنوين فى ﴿ كُلٌّ ﴾ قائم مقام المضاف إليه الذى يقدر بما يناسب المقام، والشاكلة الناحية أو الطريقة أو المذهب، أى كل يعمل على ناحيته التى اختارها والمذهب الذى اعتنقه، وهذا كقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾ [الكافرون].

لقد حاولوا أن يفتنوا النبى ﷺ عن دينه، فكأن هذه الآية رد عليهم؛ ومعناها قد اخترتم ما اخترتموه فاتركوا الناس أحرارا فى اختيارهم، ولا تفتنوهم

عن دينهم والحكم فى هذه الشواكل عند الله تعالى، ولذا قال تعالى: ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً﴾.

وربكم الذى خلقكم ورباكم هو العالم علما ليس فوقه علم بمن هو أهدى وأسلك طريقا، وهو الذى يحكم بينكم يوم القيامة وهو خير الحاكمين، وأفعل التفضيل ليس على بابه كما ذكرنا مرارا.

الروح والقرآن

قال الله تعالى:

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى
وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ
بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾
إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل
لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ
لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ
صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ
إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ
ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ
فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا
زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾
أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ

﴿لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا (٩٣)﴾

إن المشركين كانوا يعنتون فى أسئلتهم وإجاباتهم، ويستعينون بأهل الكتاب فى إحراج النبى ﷺ.

ويروى أنهم قد قالوا لهم: سلوه عن ثلاثة: عن الروح، وعن العبد الصالح، وعن ذى القرنين، فإن أجاب عن بعضها فهو نبى(١)، وقد بين سبحانه وتعالى حال العبد الصالح الذى صحب موسى، وعن ذى القرنين فى سورة الكهف، وعن الروح فقال:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥)﴾.

سألوه عن الروح ما ماهيتها أهى عرض أم جوهر، والروح أهى الروح التى تكون فى الأجسام فتجعلها تتحرك بإرادتها وتسير باختيارها، ويقصد من الناس، ويصح أن يراد منها النفس التى تتجه بالحق إلى مقاصده وغاياتها، سألوه عنها فأجاب سبحانه، أو أمر نبيه أن يجيب بقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، أى أنها خلق من خلقه والعلم بها من شأنه وأمره الخاص به، ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾، أى ما الذى أوتيتموه من العلم إلا قدرا ضئيلا، والعلم بها فوق طاقتكم إنما اختص الخلاق العليم، وعبر بـ ﴿رَبِّي﴾ للإشارة إلى أنها سر خلقه وتكوينه، وقد شرف الله تعالى الروح فقال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩)﴾ [الحج]، فأضاف سبحانه روح آدم إليه تشريفا وتكريما للروح الإنسانية.

---

(١) رواه البخارى: تفسير القرآن- ويسألونك عن الروح- (٤٣٥٢)، ومسلم: صفة القيامة والجنة والنار (٥٠٠٢). العبد الصالح.

وإن التوراة التى بأيدينا فيها النص على أن نفس كل إنسان دمه، أما القرآن كلام الله الصادق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فهو يقرر الحقيقة الثابتة الخالدة وهى أن الروح من أمر إنشاء الله وخلقه وسر الله تعالى فى إبداعه وتكوينه، وما أوتى الإنسان إلا العلم بالمحسوسات واستخدام قواها، وهو لا يعرف حقيقة الأشياء ولكن يعرف مظاهرها وقوانينها الظاهرة لديه، وهذا مؤدى قوله تعالى: ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ وهو العلم بالمحسوسات وظواهرها البيئية التى تتكشفها العقول وتعرفها الفهوم.

ألم تر الإنسان قد علا من الأرض وجعل النجوم له مراما، ووصل إلى القمر والمريخ، ويحاول أن يتعرف ما وراء هذا الفضاء فهل تراه استطاع أن يخلق ذبابا، كما قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)** ﴾ [الحج].

قولوا للذين يقتعدون الفضاء وينقلون أجهزة العلم إليه: أيستطيع أحد أن ينشئ روح إنسان أو حيوان أو بعوضة فى الأرض أو هامة من هوام الأرض؟ إن ذلك من شأن منشئ الوجود بديع السموات والأرض والأجسام والأنفس والأرواح وكل شىء عنده بمقدار.

وإن القرآن هو روح الشريعة، وأنه من أمر الله ومن شأنه، ولذا جاء ذكره بعد ذكر الروح التى من أمر الله تعالى، فقال تعالى:

﴿ **وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً (٨٦)** ﴾.

ذهب به يستعملها القرآن الكريم بمعنى أذهبه وكأن الباء تنوب عن همزة التعدية، كقوله تعالى: ﴿ ... **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ** ... (٢٠) ﴾ [البقرة]، أى لأذهبها ذهابا مؤكدا ومعناه ذهب بالذى أوحينا أى محاه وصحبه وأخذه معه فهو يتضمن المحو عند الناس والأخذ به عند الله.

واللام فى قوله تعالى: ﴿وَلَئِن شِئْنَا﴾ اللام الموطئة للقسم، واللام فى قوله تعالى: ﴿لَنَذْهَبَنَّ﴾ هى اللام الواقعة فى جواب القسم، ولنذهبن القسم وهو قائم مقام جواب الشرط.

والمعنى أن الله تعالى يؤكد أن الله تعالى قادر على أن يذهب بهذه المعجزة التى بهرت العقول والأفهام وعجز العرب عن أن يأتوا بمثلها لو شاء ذلك وأراده، ولكنه لم يشأه ولم يرتضيه وقوله: ﴿بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ التعبير بالموصول فيه إشارة إلى أنه لا يشاء ذلك لأنه هو الذى أوحاه سبحانه وتعالى إليه، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً﴾، ﴿ثُمَّ﴾ هنا فى موضعها من التراخى المعنوى، أى لو ذهبنا به، بَعُدَ أن تجد من يتوكل بإعادته علينا، أى بإلزامنا وبغير مشيئتنا، فالباء متعلقة بـ ﴿وَكِيلاً﴾، أى لا تجد لك وكيلا به يرده إليك علينا من غير مشيئتنا يلزمنا، معاذ الله تعالى أن يكون ذلك.

وإن هذا النص الكريم يفيد أمرين:

الأمر الأول: منزلة القرآن ومكانه العظيم ومَنّ الله تعالى على الخلق به؛ لأن فيه الشفاء والرحمة والهداية والموعظة وهو فضل الله على عباده وأنه لو شاء لاسترده.

الأمر الثانى: سنة بقائه إلى يوم القيامة نور الوجود الإنسانى وهاديه ومرشده عندما تفسد الضمائر وتطمس القلوب.

والنص فوق دلالته المحكمة على مكانة القرآن الكريم وهدايته الدائمة يدل على أنه فاعل مختار وعلى أن قوله تعالى:

﴿إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً (٨٧)﴾.

﴿إِلاَّ﴾ الاستثناء فيها من النفى فى الجملة الأخيرة من الآية السابقة، ويكون المعنى «لا يجد لك علينا به وكيلا» ويكون المعنى لا تجد لك من يوكل باسترداده علينا إلا رحمة من ربك ويكون الاستثناء متصلا، أى أنه إن شاء سبحانه إذهابه لا

يعود، إلا رحمة من الله رب العالمين بنبيه وبالناس لينتفعوا من شفائه وهدايته ورحمته ومواعظه، فهو القرآن العظيم، ويصح أن يكون الاستثناء منقطعا ويكون متعلقا بالآية السابقة كلها، ولكن (إلاَّ) بمعنى (لكن) ويكون سياق الكلام فيما نعلم هكذا: «﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً (٨٦) ﴾ لكن رحمة من ربك الذى علمك ما لم تكن تعلم، وشفى صدرك واصطفاك، وهذه الرحمة قامت فلم يشأ أن يذهب به».

ولقد ختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً ﴾ وإن فضل الله تعالى على هذه الأمة ونبيها كان عميما بإنزال القرآن الكريم وبقائه حجة قائمة إلى يوم القيامة وبما اشتمل عليه من شفاء ورحمة وهداية، والضمير يعود إلى الله، وقوله: ﴿ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً ﴾ قدم ﴿ عَلَيْكَ ﴾ للاهتمام بمنزلة النبى ﷺ وفضل الله تعالى عليه، وقد أكد سبحانه وتعالى فضله بـ (إنّ) المؤكدة و(كان) الدالة على الاستمرار.

ولماذا أكد سبحانه وتعالى فضله فى نزول القرآن على قلبه، وأن يكون معجزته الكبرى؟ الإجابة لأن المشركين حسبوا أن المعجزات الحسية التى انقضت بانقضاء أزمانها مثل معجزات عيسى تدل على فضل هؤلاء الرسل، فبين سبحانه أن فضله عظيم على نبيه فى أن اختصه بمعجزة القرآن الخالدة الباقية التى كانت هى المعجزة الكبرى وسجلت كل المعجزات السابقة، فلولا القرآن ما عرفتها الأجيال التالية.

ثم بين سبحانه أنه معجز للأجيال كلها إنسهم وجنهم، فقال:

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (٨٨) ﴾.

الخطاب للنبى ﷺ وهذا الخطاب فيه إعلام النبى ﷺ بمكانة القرآن وأنه ليس كمثله كتاب قط، وأنه معجز يستطيع أن يتحدى به الإنس والجن فى كل الأجيال،

ولو اجتمعوا على أن يأتوا بمثله لا يأتون ولو كان بعضهم يظاهر بعضهم الآخر، وفيه أيضا أن القرآن يعجز الجميع من الجن والإنس لا العرب وحدهم كما توهم بعض الناس أنه لا يعجز غيرهم، ولا يخاطب به غيرهم؛ لأنه ليس بلغتهم وأن حَسْبه أن يعجز عن الإتيان بمثله العرب.

﴿ لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ (اللام) هى الموطئة للقسم، والتى تدل على أن فى الكلام قسما مطويا فى القول، وجواب القسم لا يأتون، ولولا اللام لكان جواب الشرط؛ لأنه لا يجزم الجواب إذا كان فعل الشرط ماضيا، وقوله اجتمعت يتضمن معنى انقضت واجتمعت فى صعيد واحد وأرادوا أن يأتوا بمثله أو كتاب مثله لا يأتون ﴿ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾، أى لو تعاونوا جميعا ولظاهروا على أن يأتوا بمثله؛ وذلك لأنه معجز بذاته فى ألفاظه وعباراته ونظمه ونسقه ونغمه، حتى إن كل جملة من جمله لها نغم وموسيقا منفردة، ولا يوجد فى أية لغة من اللغات مثل هذا النغم الذى يسمع فى عباراته ومعانيه، وكل ذى ذوق موسيقى يرى فيه من روائع النغم ما ليس فى أى كلام بأى لغة، حتى إن كاتبا أوربيا كان يعلم العربية بعض العلم حكم بأنه لا يزال معجزا بتآخى عباراته، وموسيقا فواصله من غير أن تعتدى الألفاظ على المعانى، بل إنه يتآخى فى أداء المعانى، ألفاظه وعباراته وفواصله ونغماته، ولا تدرى أيها أشد تأثيرا فى نفسك، وفوق هذا كل شىء فيه معجز، فشرائعه إذا قيست بشرائع عصره كان معجزا، وعلمه من أخبار وتنبيه إلى الكون معجز لأنه ينبه إلى أمور من شئون الكون لم تكن معلومة عند علماء الكون فى عصره، وغير ذلك مما أحاط به علم القرآن، ثم ذكر سبحانه وتعالى معرض إعجاز القرآن فقال:

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا (٨٩) ﴾.

(اللام) لتوكيد القول، و(قد) لتوكيده، ﴿ صَرَّفْنَا ﴾ أى حولنا فيه ضروب القول من خبر إلى إنشاء ومن استنكار إلى إقرار ومن قصص فيها الموعظة الحسنة

والعبرة المرشدة إلى أحكام شرعية مصلحة للآحاد والأسر والجماعة والأقاليم، رابطة بين الإنسانية فى مجتمعات إلى آيات مبينة للحقائق الإنسانية والطبائع فى الجواب والكون والإنسان، وكان ذلك التصريف فى هذا القرآن للناس من كل مثل، و(من) هنا بيانية، أى صرفنا لهم كل مثل، أى كل حال ذكرناها لتشاكلها مع الوجود الإنسانى.

وكان حقا على الناس أن يؤمنوا به، ولكنهم لم يؤمنوا، ولذا قال سبحانه: ﴿ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا ﴾ وموضع الاستثناء هنا أن الإباء دخل على كثير فيقدر هكذا: فأبى أن يكثر كل شيء ﴿ إِلاَّ كُفُوراً ﴾، أى إلا أن يكونوا كافرين كفورا لازمهم، وصار وصفا من أوصافهم ولا حول ولا قوة إلا بالله.

إن القرآن معجزة غير مزعجة ولا قارعة، ولكنها مخاطبة للعقل الذى يذعن الحقائق والقلوب المشرقة بنور الهداية ولذا طالب أهله بمعجزات قارعة، لا لنقص فى معجزة القرآن، بل لأنهم لا يؤمنون ولأنهم ناقصون فى مداركهم، ولذا قال سبحانه عنهم:

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣) ﴾.

لم تصل أفهامهم إلى القرآن حتى يقتنعوا به معجزة، أو اقتنعوا به معجزة ولكنهم يمارون ويستمسكون بما هم عليه من جهل وضلال، ويتعللون بالرفض وهم فى ذات أنفسهم غير رافضين، أخذوا يطلبون ما يحسبونه يعجز النبى ﷺ، فإذا عجز يعدل عن دعوته ويستريحون منه، ومن هذا الدين الجديد.

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) ﴾.

﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ﴾ أكدوا بـ ﴿لَن نُّؤْمِنَ﴾، أى لن نؤمن مسلمين بصدق ما تدعونا إليه، حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا، الينبوع العين التى يخرج الماء منها، ﴿تَفْجُرَ﴾، أى تشق لنا هذا الينبوع المستمر، وكانت أرضهم جافة من الماء وهى صخرية فهم يطلبون منه أن يشقق هذه الأرض الصلبة فيخرج منها الماء المستمر الذى يكون كالغيث يشربون منه، ويسقون زرعهم.

فإن لم تكن هذه يكون الأمر الآخر الذى ذكرته الآية التالية:

﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً (٩١)﴾.

أو تكون لك ﴿جَنَّةٌ﴾ حديقة من نخيل وعنب تجرى خلالها الأنهار لتكون ذات منظر بهيج، والتفجير بالتضعيف يفيد كثرة الأنهار وأنها تجرى من خلال النخيل والكروم.

وإن هذين الطلبين أو أحدهما فيه تشبيه لحال النبى ﷺ بحال موسى إذ ضرب بعصاه، فانفجر من الحجر اثنتا عشرة عينا فهم يطلبون معجزة كمعجزة موسى عليه السلام، وقد علموها فهم يطلبون مثلها، وقد جاءتهم الآيات بأقوى منها كشق القمر، فقالوا سحر مستمر، وأسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ففتنوا الناس فى دينهم، حتى ارتد من ارتد من ضعاف الإيمان ومرضى القلوب.

هذا الطلب الأول أو أحد مطالبهم، وهو **أولها**: وهو ذو شعبتين إحداهما فَجْر ينبوع يسح بالماء طول الزمان، **الثانية**: أن تكون حديقة من نخيل وعنب تجرى خلالها الأنهار، وهذه الشعبة يتضمن أن يكون غنيا له حدائق غناء تجرى من تحتها الأنهار ليكون عظيما، والعظمة عندهم بالمال الوفير والتنعم والترفه لأنهم حسيون لا يعرفون إلا الحس والمادة والنعيم المادى الحسى.

والمطلب الثالث: الذى جعلوه أحد المطالب وكان التخيير بينها بأمر قد نقل القرآن تعبيرهم بقوله تعالى:

﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) ﴾.

هذا هو التحدى الثالث المخير فيه ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ﴾ والمراد الكسف، وهى بدل بعض من كل من السماء، والكسف جمع كسفة وهى القطعة من السماء التى تنزل فتلقى الرعب، وقد تكون نارا تلهب وتفزع، وعبر بالسماء ثم البدل منها للإشارة إلى أن نزول القطع تساوى من حيث الرعب والإفزاع والإنذار نزول السماء كلها، وقوله: ﴿كَمَا زَعَمْتَ﴾ من أن السماء تنشق وتنفطر يوم البعث فى مثل قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣)﴾ [الانفطار]، وكما زعمت من أنه فيه نزل ذلك بنا، كما فى قوله تعالى: ﴿ ... إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ... (٩) ﴾ [سبأ]، ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً﴾ وهو اسم جنس جمعى لقبيلة، أى تأتى بهم قبيلة قبيلة ليشهدوا بصدق نبوته ويتضافرون على الحكم بصدقها.

وهذا الطلب فيه تحدٍّ للرسول ﷺ من ناحيتين:

الناحية الأول: أن قوله: ﴿ ... إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ... (٩) ﴾ [سبأ] فيه إنذار فهم يتحدون بأن يكون ذلك الإنذار.

الناحية الثانية: أنهم يتحدون النبى ﷺ بأن ينزل عليهم الملائكة قبيلا يشهدون بالصحة وهم يعلمون أن الملائكة لا ينزلون أفواجا بهذا الشكل، وهذان مطلبان وإن كانا فى آية واحدة.

ولقد كان النبى ﷺ فقيرا يتيما، فطلبوا منه للمرة الخامسة واحدا من أمرين كما فى المطلب الرابع: **أولهما**: أن يكون له بيت من زخرف أو يرقى إلى السماء عارجا، وأن يرسل كتابا يقرءونه، وهذا ما عبر الله سبحانه عنه بقوله تعالى:

﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣) ﴾.

صدرت الآية بـ ﴿أَوْ﴾ الدالة على التخيير، يتحدون به النبى ﷺ وكرر (أو)، وكلاهما مزدوج، وهذا الأمر الثالث مكون من جزءين: الجزء الأول أنهم رأوا النبى ﷺ كان يتيما ثم كان فقيرا، وقد حسبوا أن النبوة مقترنة بالثروة، فالنبى يجب أن يكون ثريا ليكون عظيما، فالعظمة عندهم بالمال ولا عظيم من غير مال، ولذا قال سبحانه وتعالى عنهم: ﴿**وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١)**﴾ [الزخرف]، أى الطائف أو مكة.

هم يعيبون نبوة محمد بأنه فقير، فيقولون له: أما كان يغنيك بالمال ما دمت فى الأرض، أو يرفعك إلى السماء إذا كنت ذا منزلة عند ربك ﴿**أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ**﴾ الزخرف هو الذهب، أى بيتا مموها بماء الذهب مزخرفا، فإن لم يعطك هذا ويجعلك غنيا من الأغنياء وعظيما من العظماء فليعرج بك إلى السماء ﴿**وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ**﴾ ونعلم منه أنك ارتفعت وعلوت، ونعلم هذا الكتاب رقيك إلى السماء.

والمعنى الذى يتحدون به رسالة رسول الله ﷺ أنك إن كنت رسولا من أهل الأرض فليجر عليك حكم أهل الأرض وأهل الأرض العظمة فيهم بالمال والثروة، وليكن لك بيت مزخرف كأهل الترفه والتنعم، وإن كنت لا تريد أن تكون كأهل الأرض فلتكن من أهل السماء، ولترق إلى السماء لنؤمن برسالتك ولن نسلم بأنك ارتفعت إلى السماء إلا إذا نزل علينا كتاب نقرؤه.

هذا هو تحديهم وهو إلى الهزل أقرب، وقد أمر الله تعالى نبيه أن يجيبهم عن هذه المطالب المتحدية بقوله: ﴿**قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً**﴾ تقدست ذات ربى الذى خلقنى وربانى وكملنى ﴿**هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً**﴾ والأستفهام هنا إنكارى بمعنى النفى، فهو إنكار للوقوع، معناه ما كنت إلا بشرا أرسلت من عند الله تعالى. وكانت صيغة النفى على شكل الاستفهام تقريرا للنفى والإثبات وانحصار الوصف الكامل للنبى ﷺ بأنه بشر رسول، وليس وصف غير هذا وهو أعلى أوصاف الكمال الإنسانى.

هذه اعتراضات المشركين ومطالبهم التى يتحدون بها النبوة، والآيات الكريمات صور من المجادلات التى كانت تقع بين النبى ﷺ. ولنقبض قبضة من السيرة الطاهرة تبين وقائع هذه الآيات الكريمات الساميات:

ذكر ابن إسحاق فى السيرة أن رؤساء قريش الذين كانوا يقودون الشرك اجتمعوا عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد ﷺ فكلموه وخاصموه حتى تُعذروا، فبعثوا إليه فجاءهم رسول الله ﷺ وهو يظن أن قد بدا لهم بَدْو، وكان حريصا يحب رشدهم، ويعز عليه عنتهم، فلما جلس إليهم قالوا له: يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله لا نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء وعبت الدين وسفهت الأحلام وفرقت الجماعة، فما من أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت بهذا تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه غلب عليك بذلنا أموالنا فى طلب شفائك حتى يُبرئك منه أو نعذر فيك.

قال لهم رسول ﷺ: ما بى ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن بعثنى الله إليكم وأنزل علىَّ كتابا أمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالات ربى، ونصحت لكم فإن تقبلوا منى ما جئت به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوه علىّ أصبر حتى يحكم الله بينى وبينكم.

قالوا: يا محمد فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس من أحد أضيق بلدا ولا أقل ماء ولا أشد عيشا منا، فسل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به، فليسيِّر عنا هذه الجبال التى ضيَّقت علينا وليبسط لنا بلادنا، وليخرق لنا أنهارا كأنهار الشام، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث قصى بن كلاب فإنه شيخ صدق.

قال لهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه: إنما جئتكم من الله تعالى بما بعثنى به، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم بينى وبينكم.

قالوا: سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، واسأله فليجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغى، فإنك تَقْدُم الأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم.

قال لهم الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه: ما أنا بفاعل وما أنا بالذى يسأل ربه هذا، وما بعثت بهذا إليكم ولكن الله بعثنى بشيرا ونذيرا، فإن تقبلوا منى ما جئت به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم.

قالوا: فأسقط علينا كسفا كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل.

قال الرسول ﷺ: ذلك إلى الله عز وجل إن شاء أن يفعله بكم فعل.

قالوا: يا محمد فما علم ربك أننا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب فيقدم إليك فيعلمك بما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع فى ذلك.

وقال قائل منهم: لن نؤمن لك حتى تأتى بالله والملائكة قبيلا.

وقد انصرف النبى ﷺ وانفض جمعهم ولكن تبعه بعضهم وهو عبد الله بن المغيرة ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب ولم يكن قد أسلم، فقال كلاما ختمه بقوله: فوالله لا أومن بك أبدا حتى تتخذ إلى السماء سلّما ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتى ثم تأتى معك بصكٍّ معك يصحبك معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وايم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أنى أصدقك[1].

---

(١) البداية والنهاية: فصل فى مبالغتهم فى الأذية لآحاد المسلمين المستضعفين-ج٣/ ١٨٢.

هذه كلمة عبد الله بن أمية بن المغيرة تصور لك أنهم ما طلبوا الذى طلبوا إلا عناتا، فيقول: إنه إذا أجيب إلى كل ما طلب ما أظنه يؤمن ولكنه من بعد ذلك آمن وحسن إيمانه.

الرسالة لا تكون إلا من البشر

قال الله تعالى:

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾

إن المشركين لم يكونوا يطلبون حجة غير القرآن لنقص فى الحجة إنما لنقص فى إدراكهم وعمى فى قلوبهم، إنما يعنتون بما يطلبون، ولقد قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ** (٧) ﴾ [الأنعام]، ولقد قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ** (١٤) **لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ** (١٥) ﴾ [الحجر].

ولقد رأينا منهم من يقول: لو جاء ما نطلب ما ظننا أننا نؤمن. إنما الداء الذى أمرض نفوسهم هو استبعادهم أن يبعث الله تعالى رسوله من البشر، ولذا قال تعالى:

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤) ﴾.

كان الوحى قد غاب عن العرب أمدا طويلا بعد إبراهيم وإسماعيل ولوط وصالح وهود، فكانوا يجهلون النبوات ولا يعلمون الرسالات السماوية إلا ما بقى لهم من ملة إبراهيم أبيهم، وقد كانت العصبية الجاهلية مسيطرة عليهم، وقد جعلتهم أوزاعا متفرقين، وقد جاء محمد ﷺ من أوسطهم نبيا بشيرا ونذيرا، فاستغل الذين ينافسون بنى هاشم الشرف وينافسون بنى عبد مناف الشرف ذلك الاستغراب أن يكون من البشر رسول وأثاروها به عليهم.

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤) ﴾.

أى ما منع الناس الإيمان أن يدخل قلوبهم، فـ (أنْ) وفعلها ينسبك منهما مصدر هو المفعول الثانى، و(الناس) المفعول الأول، والفاعل (أنْ) التى بعد (إلا) وفعلها هو قولهم، ومعنى الكلام وما منع الناس الإيمان إلا قولهم أبعث الله بشرا رسولا، والاستفهام إنكارى بمعنى النفى، أى ما منع الناس الإيمان إلا قولهم لم يبعث الله بشرا رسولا، وجاء النفى على صورة الاستفهام لبيان معنى الاستغراب والتساؤل الذى أدى إلى النفى، ويلاحظ هنا أمران:

الأمر الأول: قوله تعالى: **﴿إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾** هذه إشارة إلى أنهم لا يؤمنون بالرسالة مع أنها تحمل فى نفسها دليلها؛ لأنها هادية مرشدة مقنعة مع ما تقتضيه أحكام العقول ومكارم الأخلاق.

الأمر الثانى: أن نفيهم لأن يكون البشر رسولا إنما هو قولهم لا حقيقة أمرهم، فهم لا يؤمنون بألا يكون البشر رسولا ولكنهم يقولونه قولا من غير برهان ولا إيمان.

وإذا كانوا مستبعدين أو مستغربين أن يكون البشر رسولا فهلا تكون رسالة أو يكون الرسول من الملائكة، لا جائز أن يترك الإنسان من غير رسالة، وإذن فعلى زعمهم يكون من الملائكة، ولكن الملائكة لا يتجانسون مع البشر فلا يهدوهم، ولذا قال تعالى:

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥)﴾.

أمر الله نبيه الكريم أن يعلمهم أن الطبيعة الملكية لا يمكن أن تعيش قارة ساكنة مع طبيعة الأرض، وأن كل جنس فى هذا الوجود له ما يشاكله، فالأرض تشاكل الإنسان والملائكة يشاكلهم مكانهم الذى يعيشون فيه، والرسول يكون من بين المرسل إليهم بل من قومهم، ولذا بين الرسالة لهم هذه الاستحالة قال: قل لهم يا نبى الله **﴿لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ...﴾**، أى لو كان فى الأرض مكان مهيأ للأرواح الطاهرة المطهرة يمشون فيه مطمئنين، أى ساكنين سكونا يتفق مع طبائعهم الروحية **﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً﴾**، أى رسولا من الملائكة.

و**﴿لَّوْ﴾** كما يقول علماء البيان: حرف امتناع لامتناع، أى امتنع أن ينزل الله عليهم ملكا رسولا لامتناع أن يكون لهم فى الأرض مكان يمشون فيه ويسكنون ويتفق مع روحانيتهم.

أما وجه امتناع المقدَّم، وهو الشرط؛ فذلك لأن الأرض مادة فيها زرع وغرس وفيها أحجار ورمال وغير ذلك من شئون المادة، والملائكة أرواح لا تُرى، فكيف يمكن أن يكون لهم مكان فى هذه الأرض المادية يروحون فيه ويغدون

ويخاطبون من أرسلوا إليهم، إنه لابد من أن تجسد هذه الأرواح ليمكن أن تُرى وأن تسير فى الأرض وفى هذه الحال لا يكون ثمة فارق بينهم وبين الآدميين، وقد قال تعالى فى سورة الأنعام: ﴿ **وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ** (٩) ﴾.

ولو كان المشركون يريدون أن يخاطبوهم وهم أرواح لا يرونها ويسمعونها فإن الأوهام تسيطر عليهم ويقول الضالون المضلون: رئى من الجن خيل لهم.

إذا كان ذلك كذلك، فمن المستحيل أن يجد الملائكة فى الأرض ما يصلح لدعوتهم، وألا يكون المرسل إليهم صالحين لخطابهم والاستماع إليهم، وإذا امتنع المقدم (لو) فإن الثانى يمنع أيضا بهذه البدهيات العقلية، يأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يرشدهم إن كان فى قلوبهم متسع للإرشاد ولكنهم لا يطلبون دليلا جديدا لنقص فى الدليل، أو تغيير للرسول لعجز فيه، بل يكابرون ويعاندون.

وإذا كانوا معاندين فلا جدوى وكفى بالله شهيدا، وقد قامت دلائل شهادته، ولذا قال تعالى:

﴿ **قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً** (٩٦) ﴾.

الخطاب للنبى ﷺ لأنه قام الجدل بينهم وبينه، والله من ورائهم محيط، وهو المؤيد والناصر لنبيه، ويقول الله تعالى لنبيه: قل يا أيها النبى لهؤلاء المعاندين الضالين الذين يطلبون دليلا على رسالتك غير القرآن أو يريدون رسولا من الملائكة ﴿ **كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ** ﴾ الباء هنا لتأكيد معنى الكفاية بشهادة الله تعالى، و﴿ **شَهِيداً** ﴾ إما أن تفسر الشهادة بمعنى الحكم، وهى تستعمل فى ذلك، كقوله تعالى: ﴿ ... **وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ** ... (٢٦) ﴾ [يوسف] إلى آخر الآية، ويكون معنى النص السامى، وكفى بالله حاكما بينى وبينكم، بأنى رسول، وأن المعجزة الكبرى وهى القرآن كافية ملزمة وقد ألزمتكم الحجة، وإن حكم الله واضح، وشهادته قائمة بصدق ما جئتكم به.

وإما أن نقول: إن شهيدا معناه شاهد، للفصل بينى وبينكم، وحاسمة لخلافكم، والشاهد حاكم؛ لأن الحكم يبنى على شهادته، كما قال علي كرم الله وجهه: إنما قتلك شاهداك.

والمعنى على ذلك إنما يشهد الله وحده فيما بينى وبينكم، وإن شهادة الله تعالى هى المحكَّمة، ولذا قال سبحانه: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾، أى عليما علما دقيقا، و﴿بَصِيراً﴾ علم من يبصر، فيعرف ما يصلح لكم وما لا يصلح، ومن يكون رسولا ومن لا يكون وهو على كل شيء قدير.

ثم قال تعالى:

﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً (٩٧)﴾.

بعد أن بين سبحانه أن شهادته كافية لصدق الرسول، وصحة معجزته فى الدلالة على نبوته، أشار سبحانه إلى أنه قد قام الدليل، وما بقى إلا أن يسير المهتدى فى ضوئه، ويتردى الضال فى مهواة الضلالة ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾.

(الواو) عاطفة جملة على جملة، كانت الأولى بمثابة مقدمة الدليل للثانية، ومعنى ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾، أى من اهتدى بنور الحق، وسار فى طريقه، فهو المهتد حقا وصدقا وهو البالغ الكمال فى الهداية، والآخذ بالرشاد، والسالك طريق النجاة، وقد عبر عن هداية المهتدى بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ﴾، أى من سلك سبيل الحق مستقيما فإن الله يهديه، فهداية الله تعالى ليس معناها الإجبار على الهداية، وإلا ما كان الجزاء الوفاق، فإنه لا جزاء إلا مع الاختيار، وإن المهتدى يكون مختاراً فى ابتداء السير، ثم أخذه فى النهاية إلى الطريق الموصل للغاية بلطف الله تعالى وتوفيقه، ثم قال سبحانه: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ﴾ الإضلال ليس معناه الإجبار على الضلال، وإلا ما ساغ العقاب بعد

الحساب، وإنما الإضلال معناه أن يسير الضال فى طريق الضلال متبعا هواه وإغواء الشيطان، فيصل إلى نهايته بتقدير الله تعالى وكتابته فى سجل الضالين، وقوله تعالى: ﴿**فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ**﴾، أى أنصارا غير الله من الآلهة التى كانوا يعبدونها أو غيرها، إنما هم يهوون إهواء فى طريق الضلال من غير منجٍ منه.

والضمير يعود على معنى «مَنْ»، ومعنى (من) جمع، وكان عود الضمير فى ﴿**وَمَن يَهْدِ اللَّهُ**﴾ على لفظ، وهو مفرد ومعناه جمع، وإنما أعيد فى حال الضلال على المعنى لتعدد الضلال وكثرته وتشعب مسالكه، وأعيد على لفظ (من) فى الهداية لتوحد طريقها، إذ يقول تعالى: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ... (١٥٣)**﴾ [الأنعام]، ولقلة المهديين بالنسبة لكثرة الضالين، ولأن (أل) التى للجنس تدل على الكمال والعموم، فهى مغنية عن لفظ الجمع.

وجواب الشرط يشير إلى أن أوثانهم لا تجديهم شيئا، ولا يصلحون لأية ولاية، ثم بين بعد ذلك عقاب الله تعالى ﴿**وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ**﴾ فسرها بعض المفسرين بتقدير محذوف، أى مسحوبين على وجوههم؛ وذلك لأنهم يسحبون فعلا على وجوههم إذلالا لهم وهوانا بهم، وإظهارا لمقت الله تعالى عليهم، وقد سئل النبى ﷺ: أيسيرون على وجوههم، فقال ما مؤداه: كما سيرهم على أرجلهم سيرهم على وجوههم[1]، ويصح أن يكون ذلك مجازا لإذلالهم وأنهم لا إرادة لهم فى سير، بل يدفعون دفعا إلى جهنم.

وقال بعض المفسرين: إن معنى ﴿**وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ**﴾ أنهم يسيرون منكسى الرءوس، خائفين، فالوجه يعبر به عن الذات، وذلك معقول فى ذاته، ويستقيم عليه معنى النص القرآنى السامى.

---

(١) قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ. كما رواه أحمد: باقى مسند المكثرين - باقى مسند أبى هريرة رضي الله عنه (٨٢٩٣).

ومعنى قوله: ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ أنهم يكونون فى عماء من أمورهم، ولا يسمعون ما تطيب به نفوسهم، ولا يتكلمون بحجة فهم يصيبهم العمى والصمم والبكم، كما عموا عن الحق فلم يبصروه، وعن الاستماع إليه، وعن النطق.

ويقول البيضاوى فى معنى ذلك:

«لا يبصرون ما تقرّ به أعينهم، ولا يسمعون ما يلذ لهم سماعه ولا ينطقون بما يقبل منهم؛ لأنهم فى دنياهم لم يستبصروا بالآيات والعبر، وتصاموا عن استماع الحق، وأبوا أن ينطقوا بالصدق» وقد نقله عن الكشاف، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٧٢)﴾

وقد بين سبحانه الغاية من حشرهم، وهو أن يصلوا إلى مأواهم، فقال: ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً﴾.

أى أنهم يسكنون جهنم، والتعبير بالمأوى، وهى عادة موضع القرار والاطمئنان فيه تهكم بهم لأن جهنم لا تكون موضع استقرار واطمئنان بل تكون موضع قلق وآلام.

وإن العذاب فيها مستمر، ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾، أى سكنت أو أطفئت لاستغراقها كل العظام ولحومهم ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيراً﴾ وبدلناهم جلودا غيرها، كما قال تعالى: ﴿... كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا ... (٥٦)﴾ [النساء].

وقد بين الله تعالى سبب ذلك العذاب الأليم المباشر، وغير المباشر فقال:

﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيداً (٩٨)﴾.

«ذلك» إشارة إلى ما مضى من جزاء المشركين أنهم يحشرون منكسى الوجوه لا يبصرون ما يلذ لهم أن يبصروه، ولا يسمعون ما يطيب لهم سماعه، ولا ينطقون بما يدفعون له عن أنفسهم، ومأواهم جهنم يذوقون العذاب فيها دفعة بعد

دفعة، والإشارة إلى هذه الصفات تتضمن أنها العقاب، وقد صرح الله فوق الإشارة بالسببية، وهو الكفر بالآيات الدالة على وحدانية الله، والمعجزات الدالة على إرسال الرسل وخصوصا معجزة القرآن، وهو المعجزة الكبرى.

وأشاروا إلى السبب الأصلى لكفرهم بكل الحق، وهو إنكارهم للبعث، وأشار إلى ذلك بقوله تعالى عنهم: ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

أى أنهم ينكرون البعث، ويستغربونه، كيف يعودون وقد صاروا عظاما نخرة، ورفاتا ورميما، أيكونون خلقا جديدا؟! وقد ذكرنا ذلك، ورد الله تعالى ذلك الاستغراب.

قدرة الآيات والكفر بها من المشركين

قال الله تعالى:

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ
الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ
وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾
قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ
الْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ
آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ
إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ
هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ
يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ

﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ۝١٠٣ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ۝١٠٤﴾

أنكروا الإيمان باليوم الآخر، وعجبوا من أن يُعادوا خلقا جديدا، وقد صاروا عظاما ورفاتا، وأنكروا أن يكون القرآن معجزة، وطلبوا معجزات حسية محادة لله تعالى، ولتكون معجزته ﷺ كمعجزات الأنبياء السابقين فرد الله قولهم فى الأمرين، ففى الأمر الأول أشار إلى قدرته على خلق أمثالهم، وأن قدرة الله واسعة ولا يحاسب بها خشية الإنفاق، وفى الأمر الثانى ذكر الله تعالى قدرته أنه أعطى موسى تسع آيات بينات، وقد قال فرعون بعد أن رآها، وعاينها آية بعد آية: ﴿ ...إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ۝١٠١﴾.

قال تعالى فى الأمر الأول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ (الواو) عاطفة على فعل مقدر بما يناسب الكلام، وتقديره أقالوا ذلك ولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم، والاستفهام داخل على لم يروا، ومعناه النفى مع التنبيه، يعنى قد قالوا قولهم، وقد رأوا أن الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم، وإذا كان قادرا على أن يخلق مثلهم، فبالأولى وهو قادر على أن يعيد بعضهم أو كلهم، فهذا إثبات لإعادتهم خلقا جديدا بطريق دلالة الأولى، ذكر مقدم الدليل، وترك لهم أن يأخذوا التالى من المقدم.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ﴾ (الواو) عاطفة «جعل لهم أجلا» على «خلق السموات والأرض»... فهو جعل لهم أجلا ينتهى ولا يتغير فى نهايته، ﴿ ... فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٤﴾ [الأعراف]، فمعنى ﴿لاَّ رَيْبَ﴾ أنه لا شك فيه؛ لأنهم يرون الناس ينتهون ولا يخلدون، ولا ريب فيه أيضا؛ لأن الله أخبر أن له نهاية ينتهى إلى أجل مسمى، فالنجوم مسخرات لأجل مسمى، وقد قدم سبحانه وتعالى قوله: ﴿قَادِرٌ عَلَىٰ أَن

يَخْلُقَ﴾ على قوله: ﴿**وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً**﴾ للمبادرة بالنتيجة قبل أوصاف الفعل الأول، لأنها ثابتة بالرؤية والحس، وكل ما فى الوجود له دور ينتهى عنده، فالليل والنهار فى ميقاته، والشمس والقمر، يظهران كل فى ميقاته.

والأجل الذى يذكره الله تعالى أجلان: أحدهما أجل يرى ويحس، وهو أفول النجوم والكواكب، ونحوهما بالنسبة لكل ما تراه فى السماء ذات البروج، والموت بالنسبة للإنسان والأحياء بشكل عام، وهو أجل تراه ينتهى كل يوم، والأجل الثانى هو أجل هذه الدنيا فإنها إلى أجل محدود هو يوم القيامة، وقد أقام القرآن الأدلة القاطعة على نهاية هذا العالم، وهو أيضا لا ريب فيه، لقيام الأدلة بالنقل والعقل على أن الدنيا إلى فناء وبعدها الآخرة.

ومع قيام هذه الأدلة القائمة الثابتة لم يؤمن أكثر الناس، ولذا قال تعالى ﴿**فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً**﴾ الفاء هنا للترتيب والتعقيب، وهى بهذه الدلالة فيها توبيخ لهم على كفرهم؛ لأن مؤدى القول أنه كان يترتب على هذا النظر والعلم الذى لا ريب فيه أن يؤمنوا، ولكنهم بدل ذلك كفروا كأنهم يرتبون على الحكم المؤيد بالدليل نقيضه، والناس هنا أهل مكة أو الناس جميعا، فإن أكثر الناس لا يذعنون للحق إذا تبين، ﴿**فَأَبَى**﴾، أى لم يرتب على ذلك أكثر الناس ﴿**إِلاَّ كُفُوراً**﴾، أى إلا كفرا بهذه الحقائق البينة، فـ ﴿**كُفُوراً**﴾ معناه كفر ملح لاح فى الكفر، فزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى.

هذه حقائق ونتائجها فى قلوب الكافرين، وهى عند الله أوسع وأعظم هم يضيقون مدلول الآيات التى تحت أيديهم، والله يريد أن يوسعوا عقولهم وتفكيرهم، ولا يقترون فى مداركهم، وإن كان من أوصاف الإنسان أنه قتور ولذا قال تعالى:

﴿**قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا (١٠٠)**﴾.

كان الكلام من الله تعالى؛ لأنه ذكر لحقائق الوجود، ولطبائع الأشياء والخلق والتكوين فلما اتجه سبحانه إلى بيان الطبائع الإنسانية أمر من وجب عليه التبليغ أن يبلغهم طبائعهم، فقال عز من قائل: ﴿**قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي...**﴾، قل لهم يا رسولي إليهم لو كنتم تملكون خزائن رحمة الله إذًا لأمسكتم، أى إنكم تضيقون على أنفسكم دائما ولا توسعون فى مداركم وتفكيركم، فلو أنتم بهذا التفكير الضيق تملكون أو تسيطرون على خزائن رحمة الله على أصحابها كما ضيقتم عقولكم، ومدارككم وتفكيركم، وخزائن رحمة الله هى الرزق والصحة، والقوة، وكل ما ينعم الله به تعالى على عباده، وقوله: ﴿**إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ**﴾، أى إذا كان ذلك لأمسكتم، و(اللام) هى الواقعة فى جواب ﴿**إِذًا**﴾، أى أمسكتم على الناس ما رزقوا من رحمته ﴿**خَشْيَةَ الإِنفَاقِ**﴾، والإنفاق هنا معناه الافتقار بمعنى الإملاق، كقوله تعالى: ﴿**وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ... (٣١)**﴾، أى إنكم تبخلون حتى فى مال غيركم، وتمنعون أصحاب الحقوق من حقوقهم، ثم قال تعالى: ﴿**وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا**﴾، أى بخيلا، لأنه يطلب دائما المعاوضة، وهو بالخير ضنين، وإنه يشعر بالاحتياج دائما؛ لأنه بالنسبة للدنيا يخشى النفاد، ويحرص على أن يبقى لنفسه فى كل الأزمان، وهو لا يحض على طعام المسكين خشية الفقر، وهذا فى طبع الإنسان، ولكنه لا يمنع أن المؤمنين منهم الجواد السخى الذى يعطى المال على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا، ولذا قال تعالى: ﴿**إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلاَّ الْمُصَلِّينَ (٢٢)**﴾ [المعارج]، وإن الإنسان إذا لم يهذبه دين الحق، ولا مجتمع فاضل يبدو فيه أمران: حرص شديد ليحفظ لنفسه فى عزمه نفقته فى القابل، وخوف الفقر، حتى تتحقق الحكمة: «الناس من خوف الفقر فى فقر» فهم فقراء فى ذات أنفسهم إذا خافوا الفقر، وإن هذا النص الكريم يدل على أمور ثلاثة:

الأمر الأول: أن خزائن رحمة الله تعالى لا تنفد تشمل البر والفاجر، وتعم الغنى والفقير، والقادر والعاجز.

الأمر الثانى: أن العبد هو الذى يقتر، ويحس بالفقر دائما إلا أن يكون مؤمنا يؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة.

الأمر الثالث: أنه على الإنسان أن يهذب غرائزه، فإذا كان قتورا يجب أن يُعَوَّدَ السخاء والإيثار.

ذكرنا أن الآيات من قوله: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ...**﴾ تدل على قدرة الله على البعث، وإعادة الخلق كما بدأه، وتدل على طبيعة الإنسان وخلقه، وأنه حريص على هذه الحياة الدنيا، ومن حرصه عليها أنه قتور ضنين، ومن ضنه أنه لا يؤمن باليوم الآخر؛ لأنه لا يؤمن إلا بما فى قبضة يده، ويحرص عليه.

وذكر أن الآيات من بعد هذا رد بالوقائع الصادقة على الذين يقولون لو جاءتهم آية حسية لآمنوا، فبين الله تعالى لهم أن من سبقوكم جاءتهم آيات حسية كثيرة.

ولقد ضرب الله مثلا من ذلك فرعون مع موسى فقال تعالى:

﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١)**﴾.

(الواو) واصلة الكلام بما قبله، وهى عاطفة جملة على جملة، و﴿**آتَيْنَا**﴾ معناها أعطيناه حجة ودليلا ﴿**تِسْعَ آيَاتٍ**﴾، أى معجزات بينات فى دلالتها على رسالة موسى إلى فرعون وبنى إسرائيل، وتلك الآيات التسع كما ذكرها ابن عباس إجمالا فيما روى عنه هى: العصا التى لقفت ما ألقاه السحرة إذ أمره بأن يلقى السحرة حبالهم وعصيهم، ﴿**فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥)**﴾ [الشعراء]، واليد إذ قال الله تعالى: ﴿**وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ (٢٢)**﴾ [طه]، كما قال تعالى: ﴿**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣)**﴾

[الأعراف]، والآية الثامنة أنه سبحانه وتعالى أخذهم بالجدب والسنين الشديدة، التى يقل الخير والثمر، ولذا قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠)** ﴾ [الأعراف].

والآية التاسعة، فلق البحر، وفتح الطريق لبنى إسرائيل، وكان عليهم أن يعتبروا بهذه الآية، ولكنهم اغتروا فاتخذوا الشق سبيلا ليتبعوا بنى إسرائيل، فاتبعوهم فكانوا من المغرقين.

هذه آيات، واجه موسى بها فرعون، ﴿ **فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ** ﴾، أى إذ واجه بها موسى فرعون ﴿ **فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا** ﴾، أى أنه بدل أن يذعن بها ويؤمن بالحق إذ جاءته بينات، كابر واستمر فى غيه، وضلاله القديم وما أجدت تلك الآيات الحسية شيئا، بل قال مؤكدا، ﴿ **إِنِّي لَأَظُنُّكَ** ﴾ الظن هنا بمعنى العلم، وقد أكد علمه بسحر موسى بـ «إن» و«اللام» و﴿ **مَسْحُورًا** ﴾ قال الفراء والزجاج: إنها بمعنى ساحر، وأقول: إن معناها بمعنى مفعول لأن معناها أنك فيما تدعيه مسحور، أى مخدوع أو مخيل لك، فأنت لا تقول الحق، بل إنك واهم.

أجابه موسى عليه موسى مستيقنا بما يقول، ومبينا له أنه يناقض حسه بما زعم من أنه مسحور أو واهم.

﴿ **قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢)** ﴾.

ضمير الفاعل يعود إليه؛ لأنه المتحدث عنه فى الآيات التى أُعطيها ﴿ **لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ** ﴾ (التاء) ضمير المخاطب بالفتح على قراءة الأكثرين(١)، وفيه تأكيد موسى لفرعون أنه علم أنه ما أنزل هذه

---

(١) قراءة (لقد علمت) بفتح التاء، كلهم، ما عدا (الكسائى)، والأعشى عن بكر بن عاصم، فقد قرآها بضم التاء. غاية الاختصار: ٢/ ٥٥١.

الآيات إلا رب السموات والأرض بصائر، أى آيات مبصرة، وبصائر جمع بصيرة، أى من شأنها أن تبصر من له بصيرة ينظر فيها بعين قلبه متذكرا متدبرا مؤمنا مذعنا غير متمرد، وقد يقال: كيف يعلمها وينكرها كافر به وبأنعمه؟ والجواب عن ذلك أنه علم ولم يذعن لقوله تعالى: ﴿ **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ** ... (١٤) ﴾ [النمل]، من شأنها أن تلقى باليقين فى نفس كل من يراها، ولكن أَلْقَت فى نفوسهم بالجحود، والجحود يزداد قوة كلما قويت أسباب العلم.

وقرأ على بن أبى طالب علمتُ بضم التاء على أنها للمتكلم، والمعنى على هذه القراءة لقد علمت أنا بأنها نزلت من رب السموات، والبصائر منيرة للحق، ومعجزات مثبتة للحق، وحسبى الله تعالى شاهدا بها، وأما أنت يا فرعون فقد قدمنا الحجة، ولك أن تؤمن، وإن كفرت فالإثم عليك، ولذا ختم موسى عليه السلام بقوله: ﴿ **وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا** ﴾، أى هالكا وملعونا وناقص الإدراك؛ والثبور الهلاك والمنع من الخير، يقال ثبره الله تعالى يثبره ثبرا، أى أهلكه ومنعه.

وهنا نلاحظ أن قوله: ﴿ **وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ** ﴾ المراد بالظن العلم المحقق، وعبر عن العلم بالظن مجاراة لما جاء عن فرعون، وقد أكد هذا العلم أولا بـ (إن)، وثانيا بـ (اللام)، وذلك بالقسم.

ويلاحظ أنه ناداه باسمه لأنه إذا كان فرعون قد استعلى بجبروته فموسى قد أعلاه الله تعالى بمقام الرسالة، فحق له أن يخاطبه باسمه الصريح، وألاحظ أن فراعنة هذا الزمان الذين مات آخرهم قريبا كان يظن نفسه أكبر.

زادت فرعون الآيات الحسية عتوا فى الأرض وفسادا، ولم تقنعه، وكذلك لم تقنع أشباه فرعون من طواغيت ملكه، ولقد خرج فرعون عن عهده، فحاول إخراج موسى وبنى إسرائيل بزيادة طغيانه عليه، ولذا قال تعالى:

﴿ **فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا** (١٠٣) ﴾.

(الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى أنه ترتب على إيتاء موسى الآيات التسع التى أقام بها الحجة أمام فرعون، ترتب عليها أن اشتد طغيان

فرعون، ولم يترك العناد إلى الإيمان، بل ازداد ولوجا فى الإعنات، ففيه تهكم بهم، وبمن يسلكون مخرفه، وهو طريق الشيطان. واستفزازهم إزعاجهم بالأذى، والاستخفاف: القتل والذبح، والنفى فى الأرض، وقد هموا بالخروج، فأتبعهم فانفلق البحر، وكان كل فرق كالطود العظيم فدخلوه، وهذا قوله تعالى فى سورة الشعراء الآيات المبينة للاستفزاز وتنجية موسى ومعه بنى إسرائيل، قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨) ﴾.

هذه نتائج الآيات الحسية التسع، فهل آمن فرعون بها، لم يؤمن، ولكن ازداد إعناتا وطغيانا، وكذلك يفعلون، ثم قال تعالى فى آل بنى إسرائيل:

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) ﴾.

أى بعد أن نجاهم من فرعون إذ خرجوا من البحر ناجين، وغرق هو وجيشه الذى يسيطر به، ويقول لقومه بقوته: ﴿ ... مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ... (٣٨) ﴾ [القصص] مغترا باغترارهم، ومستقويا بضلالهم، يقول قلنا لهم بلسان الحال والواقع من بعده ﴿ اسْكُنُوا الأَرْضَ ﴾ والأرض هنا أهى أرض مصر، ومن يحكمهم فرعون بعد أن زال هو وجنوده، وصاروا عبرة للمعتبرين أم هو جنس الأرض؟.

إننا نميل إلى أرض مصر، لعلهم دخلوها مستباحة لهم ثم عادوا طالبين الأرض؛ لأن ظاهر الآيات فى سورة القصص يفيد ذلك، إذ يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ

وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦)﴾ [القصص]، وهذا الفساد لبنى إسرائيل وأهل مصر وملأ فرعون، والخلق أجمعين لأمد محدود، وهو يوم الآخرة، ولذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾ وهو الميعاد الذى تنتهى به هذه الدنيا، ويجىء وعد الحياة الآخرة ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾، أى مختلطين من أشتات شتى سود وبيض وصفر وحمر، وحاكم ومحكوم، وطاغ وعادل، فاللفيف ما اجتمع من الناس من قبائل شتى، أى يجىء الأذلاء والطلقاء، والأعزاء والكرماء، وكل يقوم فى مقام، ويحاسبون بميزان الحق الذى لا شطط فيه، ولا نقص ولا بخس، فأما من كان قد جاء بالخير فله الحسنى، وأما من جاء بالأخرى فله عذاب مقيم.

بعد ذلك بين الله مقام القرآن وأنه بعد أن بين أن الآيات الحسية لا تجدى مع الضلال.

قال الله تعالى:

وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥)
وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا (١٠٦)
قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ
عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ
وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ
خُشُوعًا ۩ (١٠٩) قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ
الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ
بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١١٠) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن
لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١)

بعد أن بين الله تعالى أن المعجزة الحسية لم تُجد مع من سبقوهم، وضرب مثلا بفرعون وكيف زادته الحجة الحسية التى كثر عددها حتى صارت تسعا لما تزده إلا إعناتا واستمرارا فى غيه، وهم يقلدون فرعون فى طغيانه، فاتخذوه أسوة لهم فى كفره بالآيات التسع، وليقصدوا القرآن، فهو حجة الله تعالى الخالدة إلى يوم القيامة، ولذا قال تعالى:

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥) ﴾.

أى بالحق وحده نزل، وأفاد القصر، هو تقديم الجار والمجرور على الفعل أنزلناه، أى أنزلناه من عندنا بالحق حكمة ثابتة أردناها، فإن كل معجزة تكون مناسبة لرسالة الرسول، ولما كانت رسالة محمد ﷺ للناس أجمعين، وهو خاتم النبيين فناسب أن تكون معجزة ليست حادثة تقع، ثم تنقضى بانقضاء زمانها، بل تبقى خالدة باقية تتحدى الأجيال إلى يوم الدين، فالله تعالى هو الذى اختار بحكمته لنبيه هذه المعجزة، وهذا كقوله تعالى: ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (١٦٦) ﴾ [النساء]، ﴿ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ يفيد الاختصاص، أى نزل مشتملا على الحق لا بعضه، فقد اختاره الله معجزة لمحمد بالحق، وللحكمة العالية التى قدرها رب العالمين، وهو وحده الذى يشتمل على الحق من بين الكتب السماوية، فهو مهيمن عليها يبقى منها من يستحق البقاء، وينهى ما يبقى من أحكام نسخها، كالتى كانت فرضت على بنى إسرائيل تهذيبا لنفوسهم، وفطما لشهواتهم.

وإذا كانت معجزة القرآن هى التى اختارها سبحانه لك، فما عليك إذا لم يؤمنوا بها، وما عليك إذا لم يهتدوا إذا قام الدليل، وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا، أى مبشرا للمؤمنين الذين آمنوا بالحق واهتدوا، ومنذرا للذين كفروا وأصموا آذانهم عن الحق، وعميت أبصارهم عن رؤيته، وضلت أفئدتهم سواء السبيل.

وإن هذا الكتاب الحكيم الذى هو معجزة النبى ﷺ نزل مقروءا ليبقى إلى يوم القيامة حجة خالدة، ويحفظ فى الأجيال بحفظ الله تعالى كما قال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر]، ولقد قال تعالى فى نزول القرآن.

﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً (١٠٦) ﴾.

﴿قُرْآنًا﴾ مفعول لفعل محذوف يناسب المقام، ويبينه ما جاء بعده، وتقديره، ونزلنا قرآنا، أى نزلنا كتابا مقروءا، لا مكتوبا فقط، ولقد علم الله محمدا ﷺ طريق قراءته، وهو ترتيله، فقال تعالى: ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) ﴾ [القيامة]، أى إن علينا أن تقرأ القرآن قراءة مرتلة مبينة، كما قال تعالى: ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (٤) ﴾ [المزمل].

فالقرآن الكريم محفوظ بكل عباراته، وكلماته وقراءاته، وتلاوته، ومنهاج هذه التلاوة؛ لأن ذلك كله متواتر عن النبى ﷺ تواترا يُعَدُّ العلم به علما ضروريا لا يرتاب فيه إلا كافر.

والتنكير فى قوله تعالى: ﴿قُرْآنًا﴾ للتعظيم، وليذهب العقل فى عظمته كل مذهب، ولأن المقصود وصفه بأنه مقروء غير مكتوب فقط، بل هو محفوظ فى الصدور قبل السطور، وكان حفظه فى الصدور حماية له من التحريف.

وقوله تعالى: ﴿فَرَقْنَاهُ﴾ فيها قراءة بالتخفيف، وأخرى بتشديد الراء، والمعنى واحد، ومتلاق، وهو أنه نزل مفرقا، ولم ينزل دفعة واحدة، بل نزل منجما نجما بعد نجم على حسب ما تقتضيه حكمته تعالى وإرادته فكان ينزل مع الحوادث، وهى تشير إلى بيانه، وليستطيع النبى وصحابته حفظه، ولو نزل دفعة واحدة ما وجد من يكتبه، لأنهم قوم أميون، ولأن الكتابة قد يصيبها التحريف، وما فى الصدور لا يحرف، ولا يصحف، ولا يذهب حفظه كشأن الكتب السابقة التى حرفت، ونسى النصارى واليهود حظا مما ذكروا به.

وذكر سبحانه السبب فى نزولـه مفرقا بقوله تعالى: ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أى على تمهل وتطاول فى المدة، فيحفظوه حفظا بدل أن يلقوا بكتابته على رقاع أو قطع من مواد أخرى كما فى الشجر، وهكذا.

و﴿مُكْثٍ﴾ تتضـمن امتداد الزمن امتـدادا يمكثون فيه من قـراءته وحفظه، وتفهمـه، وتعريف غاياته ومراميه، وكـان الصحابة كلما جمعـوا عدة آيات حفظا وترتيلا، سألوا النبى ﷺ عن جملة معانيها إن كانوا لم يفهموها.

ثم قال تـعالى: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾، أى نزلناه متـدرجا منجمـا، وآكد نزَّل بالمصدر لـيعلموا أنه تنـزل بمعانيه وألفـاظه، ولعل فى هذا ردا على الذين افـتروا الكذب، وقالوا إنه نزل بمعناه، والعبارة كـيف نزل، ولقد كذبوا فى ذلك وأعظموا الفرية، وإن ذلك من افتراء الكفار عليه، ووهن إيمان بعض من ينتسبون للإسلام.

هذا ما ساقه الله تعالى لبيـان مقام القرآن وسط آيات الله تعالى، وأنه أعظم آيات الله تعـالى فى الدلالة على رسـالة الرسـول، وأدومهـا، وأتقـاها، وبين أن الآيات الحسيـة قد جاءت فى أحوال كثـيرة، ولم تنتج إيمانا بل تبعـها من الطغاة عتوا واستكبارا، وتوالى المظالم، وبعد هذا البيان قال الله تعالى:

﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧)﴾.

أمر الله تعالـى أن يبين لهم أن إيمانهم وعدم إيمـانهم عند الله على سواء، فما يضير القرآن أن يؤمن به الجهال، ولا يرفعه فوق منزلته التى وضعه الله فيها ألا يؤمنون، ويقول الزمخشرى فى هذا: «أمـر النبى ﷺ بالإعراض عنهم واحتقارهم والازدراء بشأنـهم، وإنهم إن لم يدخلوا فى الإيمان ولم يصـدقوا بالقـرآن، وهم أهل جاهلية وشرك، فإن خيرا مـنهم وهم العلماء الذين قرءوا الكتاب، وعلموا ما الوحى وما الشرائع وقد آمنوا به وصـدقوه، وثبت عندهم أنه النبى العربى الموعود فى كتبـهم فإذا تلى عليهم خروا سجـدا، وسبحوا الله تعظيما لأمـره، ولإنجاز ما

وعد فى الكتب المنزلة، وبشَّر من بعثه محمدا ﷺ وهو المراد بالوعد فى قوله تعالى: ﴿إن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ هذا النص الكريم فى مقام التعليل لقوله: ﴿آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا﴾، أى سيان إيمانكم وعدم إيمانكم بالقرآن، فإنكم إن كفرتم فقد وجد من يؤمن به، ويدرك منزلته، وكان من أولى العلم قبله من يعرف قدره ويؤمن به، وينزل فى قلبه المنزلة التى أرادها الله تعالى.

وأولو العلم هم أهل الكتاب كما ذكر الزمخشرى وغيره من المفسرين إذ أوتوا علم الكتاب السماوى، وعلم النبوات، والعلم بأنه سينزل كتاب مصدق لما بين يديه، ولعله لا مانع من التوسع فى معنى أولى العلم بأنهم أولو الإدراك والتأمل والعلم بكل ما يتعلق بالله تعالى من أهل الكتاب، وأهل الحكمة والمعرفة الذين أوتوا المعرفة، فإن هؤلاء قد يكونون من أوساط لا إيمان فيها كإيمان مؤمن آل فرعون، وكإيمان السحرة وكإيمان الأوس والخزرج، وقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِهِ﴾، أى من قبل البعث المحمدى، فإن هؤلاء يكونون، حيث يكون العقل والتفكير، لا حيث الكتب السماوية فقط، ولكن الظاهر أنهم أهل الكتاب المدركون.

وقد قال تعالى فى وصف أهل العلم عندما يتلى عليهم ﴿يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ سجدا جمع ساجد كركع، و﴿يَخِرُّونَ﴾ ينزلون فى خشوع وخضوع ساجدين، وقوله تعالى: ﴿يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ﴾، أى يخرون بوجوههم وهو أعلى موضع شرفهم البدنى والتعبير بـ ﴿يَخِرُّونَ﴾ من قبيل تسمية الكل باسم الجزء، فهو عبر عن الوجه بأبرز أجزائه، وهو الذقن، وهو موضع الشرف، ويظهر أنها الأذقان بما يشتمل عليه من اللِّحا؛ لأن اللحية من كمال جمال الوجه.

ويقول سبحانه بعد ذلك فى أوصاف أهل العلم:

﴿ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨) ﴾.

ذكر سبحانه وتعالى أنهم يخرون ساجدين، وإنهم مع سجودهم يملك التأثر نفوسهم ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا ﴾، أى تقديسا وتنزيها وخضوعا لربنا الذى خلقنا، وأمدنا برحمته بنزول القرآن، وذكر الله تعالى باسم ربنا، بيانا لامتثالهم، وبيانا لأنه رباهم، وأن القرآن من كمال تهذيبهم ﴿ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ و(إنْ) مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، أى إنه الحال والشأن وعد ربنا، و(اللام) فى قوله ﴿ لَمَفْعُولاً ﴾ لام التوكيد، وهى الفارقة بين (إنْ) النافية، و(إنْ) المؤكدة، و(كان) دالة على الاستمرار، ووعد الله تعالى هو بإنزل القرآن وبعث محمد ﷺ، وتكرار ربنا لكمال معنى الخضوع والربوبية والعبودية، وقوله لمفعولا، أى واقعا يفعله الله تعالى بإرادته المختارة وهو على كل شىء قدير، فوعد سبحانه وما أخلف.

الوصف الثالث من أوصاف أولى العلم عندما يستمعون القرآن ذكره سبحانه بقوله:

﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩) ﴾.

هذا هو الوصف الثالث من أوصاف أولى العلم عندما يتلى عليهم القرآن، وكرر خرورهم الأول أى سقوطهم للأذقان باكين من تأثرهم به، وإحساسهم بأن الله تعالى يخاطبهم بكلامه، وأنهم يستمعون إليه فيتغلب عليهم البكاء من فرط إدراكهم، ولعلو إحساسهم، ويقول: ﴿ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾، أى خضوعا لله تعالى وإيمانا بحق عبوديته، فكلما تلى عليهم ازدادوا علما، وكلما ازدادوا علما ازدادوا إيمانا وخشوعهم يستمر فى نمو، وإيمانهم بحق العبودية يزداد كلما تلى عليهم.

وإن هذه الآيات تسلية للنبى ﷺ كما ذكر الزمخشرى، فإذا كان المشركون قد أنكروا آيات الله، فهناك أهل العلم المدركون الذين يعلمون الوحى، والرسالة

والرسل، ويدركون نعم الله تعالى، ويعرفون رسالتك، ويقدرون معجزتك حق قدرها فلا تأس عليهم، ولا تلتفت، فالله معك وأهل العلم يشهدون لك.

وإنه بعد بطلان قولهم فيما طلبوا من آيات، وبيان مقام القرآن بين الله سبحانه دعوة الله وأشار إلى أسمائه الحسنى فقال:

﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً (١١٠) ﴾.

﴿ دْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ﴾ ناده باسم الله أو باسم الرحمن، فإنهما صفات الله تعالى، وله أسماء غيرهما تدل على جلاله وكبريائه، واتصافه بكل كمال، وذاته العلية واحدة وقوله تعالى: ﴿ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ الأسماء التى تبلغ أعلى درجات الحسنى، التى ليس فوقها درجة، الحسنى مؤنث الأحسن، وأفعل التفضيل ليس على بابه؛ لأنه لامفاضلة بين أسماء الله تعالى، وأسماء غيره، ﴿ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾، ﴿ أَيًّا ﴾ مفعول لـ ﴿ تَدْعُوا ﴾، والتنوين عوض عن المضاف المحذوف و﴿ مَّا ﴾ صلة لتوكيد الكثرة فى ﴿ أَيًّا ﴾، أى أيًّا من الأسماء تدعو مهما يكن قدرها؛ فذلك سائغ لأن له الأسماء فإنه سبحانه له الأسماء الحسنى، على ما شرحنا.

وكان ذكر الدعاء بالرحمن أنه كالدعاء، واختص ذكر الرحمن بالذكر من صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى؛ لأن العرب كما قيل لا يعرفون الرحمن إلا رحمان اليمامة، أو كما روى، وفى صحاح السيرة أن المشركين عندما أخذ علي يكتب العهد فى صلح الحديبية قال: بسم الله الرحمن الرحيم، قالوا أما الرحيم فنعرفه، وأما الرحمن فلا نعرفه اكتب باسمك اللهم[1]، فالله سبحانه بين بهذا أن الرحمن اسم الله، وأن غيره من الأسماء الحسنى.

---

(١) انظر ما رواه مسلم: الجهاد والسير- صلح الحديبية فى الحديبية (٣٣٣٧)، وأحمد: باقى مسند المكثرين- باقى مسند أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (١٣٣٣٢٥). وراجع رواية البخارى: الشروط- الشروط فى الجهاد(٢٥٢٩)، عن المسور بن مخرمة ومروان يصدق كل منهما حديث صاحبه، وفيها طول.

قال تعالى: ﴿ وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ وفى هذا قرينة على أن الدعاء المذكور فى النص ليس هو مجرد نداء أو دعاء إنما هو عبادة، وقالوا فى سبب نزول هذه الآية، أو هذا النص، إن النبى ﷺ كان يقرأ القرآن فيسب المشركون كلام الله تعالى فأمر النبى ﷺ بألا يجهر، ولا يخافت، وروى أن أبا بكر كان يخافت ويقول إنما أناجى ربى، وهو يعلم حاجتى، وكان عمر يجهر ويقول: أنا أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان، فلما نزلت هذه الآية قيل لأبى بكر ارفع قليلاً، ولعمر اخفض قليلا ﴿ وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴾، أى اطلب طريقا وسطا بين الجهر والمخافتة، وفى الكلام مجاز، فى إطلاق وسط القراءة التى بين الجهر والخفت على الطريق الوسط.

وقيل تفسير الجهر والخفت بألا يجهر المصلى فى كل صلاته، ولا يخافت فى كلها، بل يجهر فى صلاة الليل، ويخافت فى صلاة النهار وذلك هو الوسط بين السبيل البين بعد ذلك.

وقد أنهى سبحانه وتعالى سورة الإسراء بتكبير الله تعالى كما ابتدأت بالإسراء، فقال تعالى:

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١) ﴾.

أمر الله تعالى نبيه أن يحمده ويكبره، فإن لا يوجد من يستحق الحمد والتكبير غيره. قل يا رسول الله: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾، أى الحمد كله لله سبحانه وتعالى، فلا يستحق، ولا يختص بالحمد سواه على ما خلق وأنشأ وكون، ﴿ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾، وهذا يشير إلى أنه ليس مماثلا للحوادث فى أى حال من أحوالهم، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير، وقد قال تعالى: ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ... (١٠١) ﴾ [الأنعام]، وقوله تعالى: ﴿ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ يشير إلى أن جميع خلقه على سواء، ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ

يُولَدْ (٣) ﴾ [الإخلاص]، ولم يتخذ صاحبة ولا ولدا، فليس هناك أبناء كما ادعى اليهود، وليس عيسى ابنه.

﴿ **وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ** ﴾، فهو المالك الخالق لكل شيء، ﴿ **وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ** ﴾، أي لم يكن ولي يناصره ويحميه من الذل، ﴿ **وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا** ﴾، أي تكبيرا يليق بذاته العلية.

نفى الله تعالى كما ذكرنا عن ذاته العلية ثلاثة أمور، وأثبت بعد هذا النفي وجوب التكبير، أما الأمور الثلاثة، فهي اتخاذه ولدا كما ذكرنا، ونفاه؛ لأن الولد ينبئ عن الحاجة، والله تعالى غني حميد، ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥)** ﴾ [فاطر]، ونفى سبحانه أن يكون له شريك في سلطانه فلا ينازعه أحد؛ لأنه الخالق، وهو المالك ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢)** ﴾ [الأنبياء]، ونفى أن يكون له ولي من الذل، (الولي) النصير، ومن يكون في جواره لحمايته، وقال: ﴿ **مِّنَ الذُّلِّ** ﴾، أي بسبب ذله، واحتياجه إلى النصير، وذكر لفظ الذل ليؤكد النفي فإن ذلك محال على الله، ونسبته إليه سبحانه لا يليق بذي الجلال والإكرام، وإن نفي ذلك كله ينتهي بوجوب تكبيره تكبيرا مؤكدا. فالله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا وسبحان الله تعالى بكرة وأصيلا.

سورة الكهف

تمهيد:

سميت هذه السورة بسورة الكهف؛ لأن أهل الكهف وقصتهم أخذت شطرا كبيرا، وعدد آياتها عشرة ومائة آية، وهى مكية، وجاء فى المصحف أن الآية الثامنة والثلاثين مدنية وكذلك الآيات من ٨٣ إلى ١٠١، والله أعلم وكلها قرآنه الحكيم.

ابتدأ سبحانه وتعالى السورة الكريمة بحمد الله تعالى الذى أنزل على عبده الكتاب، كما اختتم سورة الإسراء بالتكبير، ونفى اتخاذ الولد، وبين أنه شيء نكر لا يقع من عقلاء، ﴿ **كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا** ﴾ ثم أشار سبحانه إلى زينة الأرض.

وبعد ذلك ذكر قصة أهل الكهف، وهى دليل على صبر أهل الحق، وعلى قدرة الله تعالى على الإحياء بعد الموت، أو شبهه، وعلى عجائب الله تعالى فى خلقه، وقد استغرقت قصتهم وأحوالهم إلى قوله تعالى: ﴿ **وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨)** ﴾ بين سبحانه وتعالى الحق، وما يكون من عقاب على الباطل: ﴿ **إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا** ﴾.

ثم بين سبحانه جزاء المؤمنين الذين عملوا الصالحات، ويذكر سبحانه وتعالى قصة تُصَوِّر غرور غير المؤمن وإيمان المؤمن وألا يغتر بالله غرورا، وأن نعيم الدنيا عرضة للزوال وينصح المغرور فيقول: ﴿ **وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ**

لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١)﴾ ولكنه بعد هذه النصيحة يستمر فى غيه وغروره حتى يزول ثمره، ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤)﴾ وقد ضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا بما يدل على فنائها وذهاب زخرفها.

ويذكر سبحانه أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا، وخير أملا، ويذكر لهم سبحانه حالهم يوم القيامة والميزان والحساب.

ثم يذكرهم سبحانه بأصل خلق الإنسان وعداوة إبليس لآدم وذريته، وفسقه عن أمر ربه، وقد اتخذ بنو آدم إبليس وذريته أولياء من دون الله، ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾.

إن الله خلق السموات والأرض، وإن لم يشهدوا خلقها، ثم ذكرهم سبحانه بيوم القيامة وما يكون فيه، ورؤية المجرمين النار وظنهم أنهم مواقعوها، ولم يجدوا عنها مصرفا.

ولقد ذكرهم سبحانه بالقرآن وتصريفه سبحانه فيه، وأنذرهم بسنة الأولين أو أن يأتيهم العذاب قبلا، ويجادل الذين كفروا بالباطل.

وبين سبحانه وتعالى ظلم من ذكر بآيات ربه فأعرض عنها، ثم ذكر سبحانه ظلم القرى وهلاكها بسبب الظلم.

قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح:

ثم ذكر سبحانه وتعالى، ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠)﴾ حتى وجدا عبدا من عباد الله صالحا، ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ

هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦)﴾، ثم كانت بينهما المحاورة، وسارا فانطلقا حتى إذا أتيا سفينة فركباها فخرقها، ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾، ثم سارا ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ﴾، قال موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾. فانطلقا حتى إذا وجدا أهل قرية فأراد أن يضيفوهما ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، وقد أجابه بعد ذلك عن السفينة بأن ﴿وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾، وعن قتل الغلام بأن أبويه كانا صالحين ﴿فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾، ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾.

ذو القرنين:

بعد ذلك جاء ذكر ذى القرنين: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣)﴾، ثم ذكر سبحانه أعماله الصالحة وكيف مكّن الله له فى الأرض وهيأ له الأسباب، وبلوغه مغرب الشمس، وعدله مع من ظلم ومع من عدل، وعندما بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم يجعل لهم من دونها سترا، ثم كان ما من يأجوج ومأجوج، وقد أقام بينه وبينهم سدا، ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨)﴾.

وقد ذكر سبحانه جزاء جهنم للظالمين وجزاء المتقين، وقال فى جزاء الكافرين: ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦)﴾ وبين أن جزاء المؤمنين جنة الفردوس خالدين فيها لا يبغون عنها حولا، واختتم السورة بهاتين الآيتين: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)﴾.

معانى السورة الكريمة

قال الله تعالى:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِـَٔابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾

ابتدأت السورة الكريمة بالتحميد بعد أن ختمت السورة السابقة بالأمر بالتكبير، فهو المحمود الكبير الذى ليس فوقه أحد سبحانه وتعالى و«ال» فى ﴿الْحَمْدُ﴾ للاستغراق، أى استغراق كل الحمد وأعلاه، فهو المحمود ولا محمود بحق سواه وكل آحاد الحمد تعود إليه بإطلاق، وليس لغيره حمد إلا نسبى، وفى دائرة محدودة، هى دائرة المخلوق الذى لا يملك شيئا إلا من الله تعالى، ﴿الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ هذه جملة تشير إلى سبب الحمد أو بعض أسبابه، فإن الحمد لا يكون إلا بنعمة، وهذه النعمة أجَلّ النعم، وأعظمها؛ لأنها نعمة إنزال الكتاب على عبده، وتقديم الجار والمجرور ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ على الكتاب لمزيد الاهتمام بكونه عبده. فإنه عبد الله ومبلغ رسالته ومن اختصه لنبوته وهو أعلم

حيث يجعل رسالته، وقوله تعالى: ﴿الْكِتَابَ﴾ للدلالة على كمال الكتاب فى ذاته، فهو الجدير بأن يسمى كتابا، وليس غيره جديرا بهذه التسمية، وله ذلك الشرف الذانى؛ لأنه يشتمل على كل ما يصلح البشر فى معاشهم، ومعادهم وما تقوم به مدنية سليمة فاضلة تنفى خبثها، وتدعم خيرها، وله شرف آخر إضافى وهو أنه منزل من الله العزيز الرحيم الرءوف الغفور الذى رحمته وسعت كل شىء.

هذه صفات ذاتية وإضافية، ومن صفاته الذاتية أيضا أنه لا عوج فيه؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾، أى أنه سبحانه خلقه متجها إلى الحق من غير انحراف، وأنه كالجسم الذى لا يعوَّج حسيا، فإن الجسم قد يكون فى ذاته مستقيما، ولكن قد يتعرض لبعض الصدمات التى تجعله يسيخ(١) أو ينقبض، وإن هذا القرآن لا عوج فيه، لا من خارجه ولا من أصل تكوينه، فهو كونه قويما ولا يمسه شىء يزيغ أو ينحرف، فهو قويم غير قابل للاعوجاج.

﴿قَيِّمًا﴾، أى أنه مستقيم فى ذاته كما أنه لم يعره اعوجاج فى أى ناحية من نواحيه، ولا أى معنى من معانيه وهو قيِّم على الكتب السابقة كلها؛ لأنه مهيمن عليها يبين ما نسخ منها، وما لم ينسخ، وما كان فيه تحريف، وما نسى، وما بقى، وهو قيم على مصالح الناس، ودفع مفاسدها، وقيام بنائها الصالح، ومنظم الجماعات الإنسانية على قواعد الأخلاق والفضيلة، وإبعاد المفاسد والرذائل.

وإذا كان لإقامة بناء اجتماعى سليم، وليستقيم الناس فى معاشهم ومعادهم، ففيه بيان الأحكام التكليفية لهم وما يجب يوم القيامة، فإن العصاة لا يستقيمون إلا إذا كان أمامهم عذاب يوم القيامة، قال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾، أى أن نزوله بما فيه من أخبار البعث والنشور وبما فيه من أحكام تصلح الناس فى عامة أمورهم، كان لا بد أن ينذر بأسا شديدا، والإنذار له مفعولان وهو هنا له مفعولان: أولهما محذوف مع تقديره فى الكلام، وهو (الناس)، وثانيهما

(١) يسيخ ـ هكذا بالخاء ـ يرسخ. القاموس المحيط (ساخ).

موجود، وهو ﴿بَأْسًا شَدِيدًا﴾، والمراد العذاب الموصوف بأنه بأس شديد، فأطلق الوصف وأريد الموصوف، وفسر بعض العلماء البأس بأنه العذاب العاجل الذى لا يتأخر لحظة عن ميقاته، وهو آت لا محالة وكل آت فهو لا بد عاجل، لا يتخلف أبدا.

وقوله تعالى: ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ الضمير يعود على الله تعالى؛ من عند الله تعالى، وفى الحكم بأنه صادر عن الله تعالى آت من عنده إرهاب بهذا العذاب؛ لأنه آت من عند الواحد القهار، وبيان لشدته، وتأكد وقوعه، فلا مناص منه، ولا سبيل للابتعاد عن وقوعه.

وكما أنه منذر لمن عصى، فهو مبشر لمن أطاع، فلا جدوى فى الإنذار إن لم يكن معه تبشير؛ لأنه يكون تحذيرا لمن يغوى وتبشيرا لمن يفعل الصالحات، فهو تخويف وتشجيع وتحريض؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ التبشير الإخبار بما يسر ولا يضر، وعبرنا بالموصول للإشارة إلى أن الصلة هى السبب فى هذا الجزاء، والصالحات هى الأعمال التى يقصد بها وجه الله، وطلب الخير والنفع وأن تكون القلوب طيبة سليمة، فهى التى تصلح بها الأعمال وهى التى بها تفسد، ويلاحظ هنا أنه ذكر الأعمال الصالحة ولم يذكر الإيمان؛ لأن الإيمان مقدر لأنه أساس الخيرات، ولأنه عمل القلوب فهو داخل فى عمل الصالحات، وذكر سبحانه الجزاء فقال: ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾، تكرم الله تعالى فسمى الجزاء أجرا وكأنه ثمن لخير قُدِّم مع أن الهداية من فضل الله ورحمته، للإشارة إلى أن الله كريم حليم، يمن بالخير ويجازى عليه، ووصف الأجر بأنه حسن، أى أجر يستحسن ويحب ويرغب فيه، ويطلب لأنه فى مظهره حسن، وفى حقيقته نعمة دائمة، ولقاء الله ورضوان منه، وهو أعظم، وكل ذلك تشمله كلمة حسن.

وإن هذا الأجر الحسن هو الجنة التى يخلدون ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا ... (١٠٨)﴾ [هود]؛ ولذا قال تعالى:

﴿ مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) ﴾.

المكث البقاء مع الاطمئنان وألا يكون نزاع قط، وإنه دائم ما دامت السموات والأرض كما قال تعالى: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ ... (١٠٧) ﴾ [هود].

وقد خص سبحانه وتعالى بالذكر من إنذار العصاة إنذار الذين اتخذوا لله ولدا، فقال تعالى:

﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا (٥) ﴾.

بعد إنذار عامة الكافرين العصاة من وثنيين وغيرهم خص الذين اتخذوا الولد، وقالوا: ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾؛ لأنهم لم يفهموا ذات الله، ولا خواص الألوهية، وأنها منافية للحوادث منافاة تامة، وعبر سبحانه بقوله: ﴿ قَالُوا ﴾، ولم يقل اعتقدوا؛ لأنهم لا يؤمنون ومن اتبع الأوهام لا يؤمن بشيء، ولا يعتقد اعتقادا جازما، لأن الأوهام تساوره فتزلزل اعتقاده بل هو فى ريب دائم مستمر، وعبارة اتخذ الله ولدا، فهم نسبوا الاتخاذ لله، وهى فرية على الله تعالى وتدل على عدم كماله سبحانه؛ لأن اتخاذ الولدان يترتب عليه أمران باطلان لا يليقان بذات الله:

الأمر الأول- مشابهته للحوادث، وأن يكون لله سبحانه نظير مثله، لأن الولد مثيل أبيه، فكيف يكون لله تعالى شبيه ومثيل.

الأمر الثانى- أنه ينبئ عن احتياج الله للولد لنصرته، والله تعالى غنى حميد لا يحتاج لشىء ويحتاج إليه كل شىء سبحانه تعالى عما يقولون علوا كبيرا.

﴿ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾، كلمة ﴿ مِنْ ﴾ هنا لاستغراق النفى، أى ما لهم أى علم، بل يرمون القول من غير تفكر، ولا تدبر، من سيطرة الأوهام التى أوجبتها الفلسفة التى قارنت تحريف النصرانية من مسيحية إلى وثنية متبعين الأفلاطونية

الحديثة التى كانت فى آخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الميلادى، وقد خلت ألوهية المسيح فى هذه العقائد المنحرفة حتى سنة ٣٢٥ من الميلاد، وأخذت تسرى فى الجموع النصرانية حتى اختفى الحق وظهر الباطل.

وإن ادعاء النبوة هذا ما نشأ إلا من الجهل، وسيطرة الوهم؛ ولذا قال سبحانه: ﴿**مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ**﴾، إنما هو الهوى والوهم، وهما يفسدان كل تفكير.

وقال تعالى: ﴿**وَلا لآبَائِهِمْ**﴾ لا لتأكيد النفى، فنفى عنهم العلم لعدِّهم مقلدين متبعين، وعن آبائهم الذين قلدوهم لأنهم الذين سهلوا تلك الأوهام فى نفوسهم، فضلوا وأضلو كثيرا وضلوا عن سواء السبيل.

وإن هذه الفرية أشد فرية أضلت العقول حتى أنه بعد ما فهموا بعض الفهم أخذوا يتأولون، ويدعون أنهم لا يقولونها لا فرار منها ولكن هو تلبيس على الناس ليدفعوا عن أنفسهم أنهم يتكلمون بغيز معقول.

ولقد قال تعالى فى عظم ما توهموا ثم افتروا: ﴿**كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ**﴾، ﴿**كَلِمَةً**﴾ تمييز وهى منصوبة على أنها تميز، وهناك قراءة بضم التاء.

وعلى تخريج أن القراءة بنصب التاء تكون بمعنى الذم الشديد، ويكون المعنى بئست كلمة تخرج من أفواههم، والأحسن أنها تكون بمعنى التعجب، أى ما أكبر فظاعتها وفسادها، وقوله تعالى: ﴿**تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ**﴾، أى أنها ثقيل خروجها من الأفواه لبعدها عن كل معقول، ونفرة أى فكر منها، ولكنهم يستطيبونها فإن سألتهم عن مدلولها لم يحيروا جوابا، واضطربوا كل مضطرب إلا أن يقولوا حقا أو معقولا وسبحان من خلق المهتدى والضال.

﴿**إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا**﴾، إن للنفى، أى لا يقولون إلا كذبا لا مساغ له من حق، ولا يقوله مدرك فاهم يعرف حقيقة الألوهية ولله فى خلقه شئون.

القرآن هو النعمة الكبرى كما هو المعجزة الكبرى ففيه شفاء للناس ورحمة وهداية وموعظة للمؤمنين، ومن كانت عنده هذه النعمة يريد أن ينتفع بها الناس،

وأن يكون مصدر هذه الرحمة إليهم؛ ولذلك كان حفيا بأن يؤمنوا، ويحسب أن كفرهم ربما يرجع إلى نقص فى تبليغه لا إلى نقص فى نفوسهم؛ ولذلك قال تعالى:

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾.

الفاء تنبئ عن تقدير قولى مطوى، معناه إذا كنت حريصا على إيمانهم فلعلك باخع نفسك إلخ...، والبخع: جهد النفس حتى تتلف، وباخع نفسك، أى مؤدى بها إلى التلف ومهلكها من شدة همك وتحميل نفسك ما لا حاجة إلى تحميله ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمْ﴾، أى على آثار توليهم؛ لأنك لا تتوقعه، إذ إن نضوح الدليل ووضوح الصدق وقوة الإعجاز يجعلك تتوقع إيمانا، فجاء إعراضا وتوليا عن الحق البين وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمْ﴾ فيه استعارة وترشيح لها، كأنهم محبوب يفارقك فيدفع الفراق إلى ألم ولوعة كأنه باخع نفسه لهذا الألم ولذلك الفراق، وأنه يبرح به البعد والفراق حتى يكاد يبخع نفسه، هذا تخريج الزمخشرى أو معناه فى قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ﴾ وهو معقول فى ذاته وربما يكون أقرب من هذا التخريج أن تقول لعلك باخع نفسك على آثار توليهم وإعراضهم ودخولهم النار ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾، والحديث هو القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ... ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر].

والإشارة فى قوله سبحانه: ﴿بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ إشارة إلى ما سبق فى قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ فهو كتاب الله الذى سجلت فيه شرائعه، وهو حديث الله إلى رسوله وإلى خلقه المؤمنين، بل إلى الخليقة أجمعين.

و(لعل) معناها الرجاء، والرجاء ما يتوقع وقوعه سواء أكان مرغوبا أم كان مرهوبا، فهو الأمر المتوقع على كلتا حاليه، وهو هنا يبين الله تعالى لنبيه أن حاله حال من يتوقع منه بخع نفسه ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ و﴿أَسَفًا﴾

مفعول لأجله، أى يبخع نفسه هما وحزنا إن لم يؤمنوا، كقوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ [الشعراء] والأسف هو الهم الشديد الذى لا يذهب، بل يبقى كقوله: ﴿ ... غَضْبَانَ أَسِفًا ... (١٥٠) ﴾ [الأعراف]، أى مهموما هما يسكن فى القلب ولا يكون كالغضب يعرض ثم يزول، كالزوبعة تثور ثم تهدأ، أما الأسف والهم فيبقى.

بعد ذلك بين سبحانه أن الإنسان يرى فى هذه الدنيا العبر، وعجائب الوجود ولكن لا يعتبر؛ ولذا قال تعالى:

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨) ﴾.

بعد ذلك ذكر سبحانه وتعالى عذاب القلوب وروح النفوس فأخذ سبحانه يبين غذاء الأجسام ومتعة الأعين، وزخرف الحياة فقال: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا ﴾ فزروعها وثمارها وبواسقها ودوحاتها، وأوتادها وحيوانها، ترى القطعان تنفث فى المراعى ذاهبة عائدة، ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) ﴾ [النحل]، هذه زينة الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ ... وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ﴾ [الحج]، وكما قال تعالى فى سورة ق: ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١) ﴾.

هذه المتع التى تشرق بها النفس فتجد فيها سعادة النفس وغذاء الجسم مكن الله تعالى بنى آدم منها لغاية، وهو الاختبار؛ ولذا قال تعالى: ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾، أى لنعاملكم معاملة المختبر الذى يريد أن يظهر ما قدره لكم محسوسا واقعا، وقوله تعالى: ﴿ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾، أى حالهم حال من يُسأل أيكم أحسن عملا، فالاستفهام هو معنى الابتلاء، فمن اغتر بالدنيا واستولت عليه

زينتها، وبهرته ونسى الآخرة، فإنه لا يحسن عملا، ومن أدرك حقيقتها، وهى أنها ظل زائل، وأنها لهو ولعب، والحياة الآخرة هى الحيوان لو كانوا يعلمون، فإنه هو الذى يحسن العمل ويستحق الجزاء الأوفى.

وقوله تعالى: ﴿أَحْسَنُ عَمَلاً﴾، أفعل التفضيل ليس على بابه، والمعنى بلغ أقصى درجات الحسن، أو هو على بابه ويكون الاختبار لتنزيل الناس منا فمن اتجه إلى الخير ناله بقدره، ومن اتجه إلى غيره تردى فى منحدر المعصية.

وإن زينة الدنيا تنتهى كما تنتهى الحياة، وتكون غثاء أحوى؛ ولذا قال سبحانه:

﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً (٨)﴾، الصعيد التراب: والصعدة الأكمة من التراب، والجُرز بالضم من الجَرز وهو القطع قطع الزرع والثمار، وغيرها، وتطلق الجُرز على الأرض التى لا نبات فيها ولا شجر، كالصحراء التى لا تنبت. والمعنى فى هذا أن الله تعالى خلق الأنواع كلها، فخلق الأرض التى جعلها الله زينة وفيها الخصب والنماء، وأنها تتحول إلى غثاء أحوى، فكذلك يخرج الحى من الميت، والميت من الحى، فليس عجيبا أن يعود الناس أحياء بعد موتهم، فلا غرابة ولا عجب فى أن يكونوا ترابا ثم يكونوا من بعد ذلك خلقا جديدا ﴿... كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩)﴾ [الأعراف].

قصة أهل الكهف

تصدى القرآن الكريم لبيان أهل الكهف بما لم يتصد به كتاب مقدس، ولا نريد أن نخوض فى أمر لم يخض فيه القرآن فلا نريد أن نرجم بالغيب، ولا أن نسير وراء الظنون، والقرآن ليس كتاب تاريخ ولكنه كتاب عظة واعتبار، وكل ما فيه صدق لا مجال للريب فيه.

أكثر الذين تعرضوا لبيان من هم أهل الكهف يقولون: إنهم من النصارى المؤمنين كانوا فى عهد اضطهاد النصارى، فقد كانوا موضع اضطهاد من وقت انتهاء حياة المسيح فى الدنيا، وجاءت عصور اضطهاد شديدة كانوا يفرون بدينهم،

وكان بعض أباطرة روما يبالغون فى الاضطهاد حتى أن نيرون إمبراطور روما كان يجعل جلودهم تطلى بالقار ويجعل منهم مشاعل إنسانية تسير فى موكبه، ازدراء لهم، ومبالغة فى إهانتهم، فكان يفر منهم من يفر إلى الكهوف والمغارات فرارا بدينهم وبنفسهم.

وقد جاءت عبارات ابن كثير بما يفيد أنهم من اليهود لا من النصارى، وحجته فى ذلك أن اليهود هم الذين سألوا النبى ﷺ عن الروح وعن أهل الكهف، وعن ذى القرنين، وأن ذلك يدل على أن وقائع قصة أهل الكهف كانت قبل النصرانية لا بعدها.

ونقول فى الجواب عن ذلك:

أولا - إن التوراة ليس فيها ذكر لأهل الكهف، ولا من كان محيطا بهم.

وثانيا - أن أخبار أهل الكهف مذكورة فى شهداء النصارى وفى كتبهم ككتاب «الكنز الثمين».

وثالثا - أن ابن كثير نفسه ذكر أنه فى عهد ملوك الرومان وهو دقلديانوس، فقد جاء فيه ما نصه: «لقد ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم، وأنهم خرجوا يوما فى بعض أعياد قومهم، وكان لهم مجتمع فى السنة يجتمعون فيه فى ظاهر البلد، وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت، ويذبحون لها، وكان لهم ملك جبار عنيد، اسمه دقلديانوس وكان يأمر الناس بذلك، ويحثهم عليه، ويدعوهم إليه، فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك، وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم، وعرفوا أن هذا الذى يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها لا ينبغى إلا لله الذى خلق السموات والأرض، فجعل كل واحد يتخلص من قومه، وينحاز منهم، ويتبرز عنهم ناحية، فكان أول من جلس منهم أحدهم، جلس تحت ظل شجرة، فجاء الآخر فجلس إليها عنده، وجاء الآخر فجلس، وجاء الآخر، والآخر، ولا يعرف واحد منهم الآخر، وإنما جمعهم هناك الذى جمع قلوبهم على الإيمان....».

لا يهمنا الخبر كله، وإنما يهمنا منه أنه ذكر دقلديانوس وقد ذكره، وكان من أشد أباطرة الرومان على النصارى وخصوصا أهل مصر، فقد أوقع بهم مقتلة عظيمة كانت سنة ٢٨٤ من الميلاد، ومنها كان التاريخ القبطى، وهذا يدل على أنهم كانوا بعد النصرانية، ولم يكونوا قبلها.

وما ذكر فى كتب السيرة من أن اليهود حرضوا المؤمنين على أن يسألوا عن الروح وأهل الكهف وذى القرنين فهو متزيد فيه، والثابت برجحان الأسئلة كانت عن الروح، وعن العبد الصالح صاحب موسى وعن ذى القرنين كما ذكرنا أولا، وأن الاضطهاد للنصارى استمر حتى حرفوا دين المسيح عليه السلام، وكانت سيادة التثليث بعد سنة ٣٢٥ عقب مجمع نيقية وكان الاضطهاد قبل ذلك للموحدين، وأهل الكهف منهم، وكانت معجزة الله تعالى فيهم.

ولكن ما عددهم، وما المدة التى مكثوها؟، أما عددهم فكما تدل الآيات سبعة، وحكى الله تعالى عنهم ذلك، فقال عز من قائل: ﴿ **سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا** (٢٢) ﴾.

وربما يكون هذا النص مشيرا إلى أنهم سبعة؛ لأنه ذكر فى الثلاثة والخمسة أنه رجم بالغيب، ولم يذكر ذلك فى السبعة، ولكنه سبحانه وتعالى نهى عن المماراة فى ذلك، وعدم الاستفتاء فيه؛ لأنه لا جدوى فى معرفته، وكل علم لا يترتب عليه اعتقاد أو عمل لا فائدة فيه ولا فى شغل الذهن به.

وأما المدة التى مكثوها فى الكهف، فإنها كما قال الله تعالى: ﴿ **وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا** (٢٥) ﴾، أى أنهم مكثوا تسع سنين وثلاثمائة، بالسنين القمرية، وبعض العلماء قدرها بالشمسية بثلاثمائة سنة، ويأتى بعد ذلك فى أى عصر من العصور كانت هذه المدة، وكنا نظنها فى عهد دقلديانوس الذى أشار إليه ابن كثير، ولكن رجَّعَنَا النص القرآنى إلى الحق، وهو تسع وثلاثمائة، ولا يمكن أن يكون ابتداء المكث فى عهد دقلديانوس؛ لأن معنى ذلك أنه استمر

إلى آخر القرن السادس تقريبا، وأنه فى هذا الوقت كانت النصرانية قد ثلثت، ولم تعد ديانة توحيد، ولا مسيحية لأن المسيح برىء منها.

وكان حقا علينا أن نفهم، حيث أفهم القرآن مصدقين مذعنين، ولكن لا مانع أن نقول إنها ابتدأت من عهد الاضطهاد الرومانى بعد أن انتهت حياة المسيح فى الدنيا، واستمرت المدة التى ذكرها القرآن الذى ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) ﴾ [فصلت].

قال الله تعالى:

أَمْ حَسِبْتَ
أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩)
إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً
وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي
الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ
أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ
إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا
عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَٰؤُلَاءِ
قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم
بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥)
وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ
يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا (١٦)

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾.

﴿الْكَهْفِ﴾ مكان متسع فى الجبل، و﴿الرَّقِيمِ﴾ اسم للجبل، أو لوح من رصاص رقمت فيه أسماؤهم، أو واد بالجبل، وأيا ما كان فهو تعريف بمكان كهفهم بجبله أو بواديه أو رصاص كتبت أسماؤهم عليه.

و﴿أَمْ﴾ للاستفهام مع الإضراب لمن عجبته، وأنها ليست أكثر من عجائب الوجود والخلق بإرادة الله، فليس بقاء أجسام إنسانية حية أمدا طويلا، كما أنه ليس وجودهم راقدين أكثر من ثلاثمائة سنة أمرا عجبا فى ذاته من خلق السموات والأرض وما فيها، أو من خلق الإنسان من طين، أو من أدوار خلق الإنسان من نطفة من ماء إلى علقة إلى مضغة، ليس بقاؤهم أحياء رقودا أعجب من هذا الخلق العظيم.

والاستفهام مقصود منه التنبيه وتوجيه الأنظار أولا إلى أن هذا كان عجابا، أى أحسبتم أن أصحاب الكهف والمقام الذى كان كهفهم على مقربة عجبا من آيات الله، إنها ليست بعجب من آيات الله تزيد على آياته فى خلقه، إن كل خلق الله تعالى آيات لأولى الألباب، وإذا كان فى أهل الكهف شىء فهو فى دلالته على قدرة الله تعالى فى الإحياء والرقود، وهو دال على البعث بعد الموت؛ لأنه إذا كان قادرا على الإبقاء فهو قادر على الإعادة، وإذا كان قادرا على الإنشاء والإبقاء فهو قادر على الإعادة.

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠﴾.

عرفهم القرآن الكريم بأوصافهم، وأول وصف من هذه الأوصاف أنهم فتية جمع فتى، أى أنهم شبان فى باكورة أعمارهم، نفوسهم غضة لم ترهقها الأوهام، ولا العادات والتقاليد، وموروثات الآباء العتيقة التى عششت فى رءوس من قبلهم، بل إنهم على الفطرة السليمة، والشباب دائما أسرع الناس إلى الحق إن لم يكن فى توجيههم ما يعوق عنه أو يسد الحجاب دونه، وقد قال فى ذلك الحافظ ابن كثير: الشباب هم أقبل للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا

وانغمسوا فى دين الباطل؛ ولهذا كان أكثر المستجيبين لله ورسوله ﷺ شبابا، وأما المشايخ من قريش فعامتهم بقوا على دينهم ولم يسلم منهم إلا القليل.

هذا هو الوصف الأول الذى وصف الله به أهل الكهف، أما الوصف الثانى، وهى نتيجة لسلام الطوية أنهم اتجهوا إلى الله تعالى بقلب محسّ بقدرة الله ومعجزته، وبأنه سبحانه وتعالى المنعم الهادى دون غيره فقالوا: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ نادوا ربهم قائلين، ﴿رَبَّنَا﴾، أى الذى خلقتنا وكونتنا وطهرت قلوبنا، وخلصت نفوسنا من الشرك وأوهامه، ﴿آتِنَا مِن لَّدُنكَ﴾، من حضرتك القدسية، وخزائنك التى لا تنفد، ﴿رَحْمَةً﴾ وإنعاما وتوفيقا، وسلوكا مستقيما، ودواما للتوفيق. ورحمة الله وسعت كل شىء وهى تعم كل حياة الإنسان، والدعوة الثانية المنبعثة من إيمان عميق موجه، وإذعان صادق يملأ القلب نورا، ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾، أى الأمر الذى اخترناه لأنفسنا من الإيمان فى وسط الوثنية، والرشد هو إدراك الأمور إدراكا مستقيما لا عوج فيه، وهذا الطريق المستقيم يقتضى تجنب الشرك وطلب الحق، والابتعاد عن كل مهاوى الرذيلة، والاتجاه إلى طريق الفضيلة ومحاسن الأخلاق، وألا يكون شطط ولا إفراط، ولا تفريط، إلا أن يدفع إلى ذلك الحق وتجنب الهوى.

يظهر أن أولئك الفتية طوردوا حتى أووا إلى الكهف، فالإيواء لا يكون إلا عن منازعة يحسون فيها بأنهم لا قِبَل لهم بمن يريدون أن يفتنوهم عن دينهم، وقد كان ذلك واقعا فى عهد اضطهاد النصارى، كما أشرنا وكما بينا فى غير هذا الكتاب[١].

وإن النوم يكون فيه سكون النفس، ولقد أنامهم الله سنين عددا لينجوا بدينهم، وليكونوا حجة حسية على البعث، وليكونوا من آيات الله تعالى فى الوجود.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١)﴾.

---

(١) راجع كتاب محاضرات فى النصرانية للإمام محمد أبو زهرة.

كان الإيواء إلى الكهف فرارا من أذى المشركين، ولهم فى ذلك الوقت القوة والسلطان، والعذاب مسلط على رقاب المؤمنين، وخصوصا القلة الشابة منهم، ولكن النجاة قد وفرها الله تعالى لهم فأبعدهم عن الأحياء المشركين ـ وإن كانوا أحياء ـ ولتتم لهم الطهارة التامة، وتتم بهم الحجة الكاملة، وهو صنيع الله تعالى، فقال: ﴿ **فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا** (١١) ﴾.

(الفاء) لعطف ما بعدها على ما قبلها من غير تراخ، فهم أووا إلى الكهف فضرب الله على آذانهم وقد عرَّف الله الفتية فقال: ﴿ **إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ** ﴾ وتعريفهم لأنهم معهودون فى الذكر فى قوله تعالى: ﴿ **أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا** (٩) ﴾.

والضرب على الآذان مجاز، فإنه يقال ضرب الحجاب إذا أغلق البيت، ويقال بنى الخباء إذا سده، فكنى بقوله تعالى: ﴿ **فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ** ﴾، أى سددنا هذه الآذان بحجاب وضربنا عليه ضربا محكما لكيلا يصل إلى داخلها أى صوت ينبههم من رقادهم، ويصح أن يقال شبهت حالهم فى عدم السماع لأى صوت مع حياتهم بمن سدت آذانهم بحجاب قد ضرب عليها، فلا يصل إليها صوت مهما يكن عاليا أو مزعجا، فهم أحياء لا يحسون بالأحياء، وقوله تعالى: ﴿ **فِي الْكَهْفِ** ﴾ فيه إشارة إلى أن فى الكهف ذاته يصعب عليهم فيه الإحساس بما عند الأحياء من عذاب وإيلام، وقد استمر ذلك أمدا طويلا، ليس يوما ولا شهرا، ولا سنة بل سنين عدة؛ ولذا قال تعالى: ﴿ **سِنِينَ عَدَدًا** ﴾ فجعل العدد وصفا للمعدود، أى سنين كثيرة بالنسبة لنا، أما بالنسبة لله تعالى فهى ليست شيئا مذكورا، ويقول الزمخشرى ومن تبعه: إن معنى ﴿ **عَدَدًا** ﴾، أى ذوات عدد، أى أنها تعد بالسنين عدا، وقد قالوا إنه إذا قلَّ العدد لا تحتاج إلى عد؛ لأن الأصابع تحصيها، أما إذا كثر العدد، فإنه يحتاج إلى العد والحساب بعد هذه السنين الطوال التى لا تحصى إلا بالعد والحساب أيقظهم الله من رقادهم فقال تعالى:

﴿ **ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا** (١٢) ﴾.

العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ في موضعه؛ لأن الزمن تطاول بين دخولهم الكهف وضرب الله تعالى على آذانهم فقد كانت سنين كثيرة لا تعرف إلا بالعد والإحصاء، وسمى الله تعالى سماعهم بعد أن ضرب على آذانهم بعثا، مع أنه ليس إلا أن يسمعوا بعد أن لم يسمعوا من غير أن يفقدوا حاسة السمع، ولكن كان هناك حجاب يمنع من السماع بإرادة الله تعالى، وسمى ذلك بعثا؛ لأنه مظهر الحياة بعد أن اختفت، فمع أنهم أحياء واستمروا أحياء طول هذه المدة، وقد يقال في اللغة: بعثه، إذا أيقظه من نومه، ولقد قال النبي ﷺ في خطبته لأهله وعشيرته: «**والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون**»(١)، فبين البعث واليقظة بعد النوم مشابهة تجعل أحدهما كالآخر، وخصوصا أن البعث هنا مع بقاء الحياة، وإنما الذي غيَّب الكلام والسماع هو الرقاد.

وإنهم عندما استيقظوا بعد طول الرقاد، اختلفوا على فريقين ففريق منهم قال: ﴿**لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ**﴾، وقالت كثرتهم: ﴿**رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ**﴾، سمى الله تعالى الفريقين حزبين؛ لأن الحزب ما ينحاز إلى أمر معين من دين أو حرب أو نصرة، وحزب الله في دينه هم المفلحون، كما قال تعالى: ﴿... **أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** (٢٢)﴾ [المجادلة].

كانوا في رقادهم لا يشعرون كم أمضوا من الوقت فقسم حدد وعيَّن، وقسم أكثر أربا، وأشد تفويضا لم يهتموا، فالله تعالى بين أن البعث سيعرفهم الحقيقة؛ لأنهم يختبرون بالحياة، ويعلمون في أي زمن يعيشون وفي عهد أي حاكم يكونون بعد هذا الرقاد، ولذا قال تعالى: ﴿**لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا**﴾ إن الله تعالى يعلم كل شيء يعلم ما كان وما يكون وما هو كائن، فالله تعالى لا يعلم جديدا، ولكن المراد أن يظهر ما يعلمه الله تعالى واقعا يعلمونه، فمعنى ﴿**لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ**﴾، أي ليظهر علم الله تعالى واقعا محسوسا يعلمه الناس، بعد أن كانوا يظنون ويحدسون.

(١) سبق تخريجه.

وإن ذلك تنبيه إلى طول الأمد حتى تظنن أهله، ولرقودهم الذى يشبه الموت اختلفوا فيه، وليعلم الناس أن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون، وأن الأزمان أمرها نسبى وهى بالنسبة لله تعالى ليست بشىء يحصى.

والاستفهام هنا جعل ما بعد ﴿أَيُّ﴾ يَسُدُ مَسَدَّ مفعولين، ومعنى الاستفهام التنبيه إلى أن الزمن طال حتى اختلفوا فى قدره، وبعثوا من مراقدهم ليتعرفوا الزمان، وفى أى زمان هم، وبذلك يعرفون أى القائلين أصدق قيلا.

و﴿أَحْصَى﴾ قيل: إنها أفعل تفضيل، ولكن أفعل التفضيل لا يكون إلا من فعل ثلاثى مجرد، ولكنه جاز استثناء، والقرآن لا يحاكم أمام قواعد النحو لأنه فوقها، وهو يوجهها، ولا توجهه، وقد كثر أفعل التفضيل فى الرباعى كقولهم ما أعطاه للمال، وآتاه للخير، ويقال إن أفعل التفضيل يجوز بعد تجريده من الزوائد، إذ يصير ثلاثيا، وفيه معنى الإحصاء، وقوله تعالى: ﴿أَمَدًا﴾ معناه زمانا، أى أعلم بمقدار الزمن الذى أحصى أهذا الذى قال يوما أو بعض يوم، أم الذى فوض. وقد قص سبحانه وتعالى قصصهم بالحق فقال:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣)﴾.

يقص الله سبحانه قصصهم بالحق من وقت أن نشئوا وخوطبوا بالوحدانية فى وسط الوثنية بعد بعث عيسى عليه السلام ومجىء بعض رجاله إليهم فى الرومان داعين إلى التوحيد، والنبأ هو الخبر الخطير الشأن، وأى خطر وشأن أكبر من عدد من الناس ينام نحو ثلاثمائة سنة أو تزيد، وهو حى، ويتكفله الله تعالى حتى يوقظه من مرقده، وهو لا يدرى على التعيين متى رقد، وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾، أى مصاحبا للحق لا يغادر شيئا من الصدق، ولا يبعد، ثم أخذ سبحانه يقصص ذلك القصص الذى فيه أدل شىء على القدرة بعامة، والبعث بخاصة ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ الجملة منفصلة بيانية عما قبلها؛ لأنها فى مرتبة البيان فهى بيان للقصص الحكيم، ﴿فِتْيَةٌ﴾ كما ذكرنا جمع فتى، وهو الشاب القوى غض النفس التى كانت على الفطرة، وهؤلاء فيهم فتوة الشباب وفتوة الإيمان، وهى جماع مكارم

الأخلاق، والابتعاد عن محارم الله تعالى، وإطاعة أوامره، ففيهم فتوة الجسم وفتوة الإيمان، والسلوك القويم، وإن الاستقامة تسير بالمكلف فى الخط المستقيم.

ولذا قال تعالى: ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ ذلك أنهم سلكوا طريق الحق، وكلما وجدوا صعوبة فى اعتناق الحق فى وسط الوثنية رأوا ما هداهم الله تعالى إليه، وما عليه غيرهم من عبادة الأوثان، فما اندغموا فيهم، بل أصروا إصرارا، فزادتهم المقارنة بين ما هم عليه وهدوا إليه، وما عليه الوثنيون من عبادة الأحجار، فكلما وازنوا ازدادوا إيمانا وكلما عُوِّقوا وفُتنوا صبروا، زادهم الله قوة فى دينهم، وإيمانا فى صدورهم؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾، أى بسبب ما سلكوه وأصروا عليه، ومعاناتهم من الفتنة ما عانوا زدناهم هدى، لأن من دخل مكان النور ازدادت الأمور له وضوحا، وازداد ضلال الضالين انكشافا، فكانت الهداية على بينة، وازداد بها علما ووثوقا وجاهروا بالحق، ورضوا بترك الأهل وترك العمران والإقامة فى الكهوف والمغاور.

وإن الله سبحانه وتعالى ثبَّت قلوبهم وجعلهم يقفون أمام جبابرة الأرض؛ ولذا قال سبحانه:

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) ﴾.

أى زدناهم هدى، وثبَّتناهم وربطنا على قلوبهم إذ قاموا، أى وقت أن قاموا مجاهرين بإيمانهم مجابهين طاغية من طواغيت الدنيا، ﴿ فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا ﴾ قالوا للطاغية لست ربنا، ولا حَجَرُك إلهنا، إنما ربنا الذى خلقنا وكوننا عقولا ونفوسا ومدارك، وهو رب هذا الوجود كله، ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾، ﴿ لَن نَّدْعُوَ ﴾، أى لن نعبد إلها غيره؛ لأنه لا إله غيره، هو الواحد الأحد الحى القيوم، ونراهم بهذا يربطون بين الخلق والتكوين والربوبية والعبادة، فالخالق هو المعبود، ولم يكونوا كالعرب يؤمنون بأن الله خالق السموات والأرض ولكن يعبدون معه أحجارا وأوثانا، أما هؤلاء الفتية، فهم يقولون جازمين

لن ندعو من دونه إلها، أى لن نعبد غيره إلها قط فلا نقر بالعبودية لغيره، ويفرضون أنه وقع منهم ذلك، فيقولون مؤكدين بما يشبه القسم: ﴿ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾، أى قولا شططا، والشطط الإفراط فى الظلم والإمعان فيه، من قولهم شطَّ فى القول إذا بعد عن حد المعقول. وهنا ملاحظتان بيانيتان:

الملاحظة الأولى - أن قوله تعالى: ﴿ وَرَبَطْنَا ﴾ تدل على قوة ما أودعهم الله تعالى من إيمان لا يتزعزع فقد شبه قلوبهم بالحقبة الممتلئة إيمانا، وقد ربط عليها رباطا محكما كالوكاد[1] يشد عليهم فلا تضطرب أمام جبار كائنا من كان، لأنه عامر بالإيمان لا يضطرب.

الملاحظة الثانية - أنهم أكدوا قولهم، وأصروا على إيمانهم بقولهم: ﴿ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾، فإن هذا الكلام يشير إلى أمرين:

الأمر الأول - تأكيد القول باللام الموطئة للقسم وقد الدالة على التحقق.

الأمر الثانى - أنهم أكدوا نفى الألوهية عن غير الله سبحانه وتعالى نفيا مؤكدا، فقالوا: ﴿ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا ﴾.

وأنهم لم يكتفوا بمجابهة الجبار بعقيدتهم، بل ذكروا بطلان عقيدة غيرهم فقالوا مبطلين الشرك:

﴿ هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) ﴾.

﴿ هَؤُلاءِ قَوْمُنَا ﴾، الإشارة إلى الذين عاصروهم ممن كانوا على دين الجبابرة فى عصرهم الذين يعبدون التماثيل ويعددون الآلهة بتعدد التماثيل، فيقولون إله الحب، وآلهة العدالة، وغير ذلك من أسماء سموها ما أنزل الله تعالى بها من سلطان، وذكروا قومهم للإشارة إلى ما يربطهم بهم من صلات الجوار والنسب

(١) الوكاد: الوثاق. لسان العرب- وكد.

أحيانا، وفى ذلك إشارة إلى أن واجب هذه الصلات أن يرشدوهم ويهدوهم، وقالوا: ما يفعل هؤلاء، ﴿اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ﴾، أى من غيره ﴿آلِهَةً﴾، يشيرون بذلك إلى أنها ليست آلهة، ولكنهم عدُّوها كذلك وليس لها أى قدرة على الخلق والتكوين، ولا تنفع ولا تضر، إنما هى أوهامهم التى زينت لهم أن لهم ألوهية على ما تصوره خيالاتهم، والخالق المستحق للعبودية وحده هو الله الواحد القهار.

وليس عندهم برهان يدل على استحقاقهم للألوهية؛ ولذا قالوا: ﴿لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾، أى هلا يأتون ببرهان قاطع منتج يدل على ألوهيتهم، فالسلطان معناه البرهان الدال على هذه الألوهية التى ادعوها، وعبدوها، وهى لا تنفع ولا تضر، فقام الدليل لمنع عبادتها، ولم يقم برهان على جواز عبادتها إنما هى أوهام توهموها.

ولقد أكدوا نفى الدليل بقولهم: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ الفاء للإفصاح؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، وتقدير الكلام: إذا كانوا قد اتخذوها من غير برهان صحيح، فقد ظلموا، والاستفهام للنفى، أى لا أحد أظلم ممن تعمد الكذب على الله، بنسبة الشريك إليه سبحانه، و﴿كَذِبًا﴾ مفعول افترى، بمعنى قصد إلى الكذب، أو نقول إن ﴿كَذِبًا﴾ حال موكدة لمعنى الافتراء.

وإنه إذا كان من كلام هؤلاء الفتية فهو تبكيت مقولهم؛ لأنه لا دليل على الباطل المحال، فهو لوم وتأنيب لهم، ويقول تعالى: ﴿... أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ... (٧١)﴾ [الأعراف] فهى أسماء لا مسميات لها.

وقد خاطبهم الله سبحانه وتعالى بالوحى والإلهام عندما كانت المفارقة الفكرية بينهم وبين قومهم، واعتزالهم لهؤلاء الأقوام أن يجعلهم آية لمن بعدهم فألهمهم أن يأووا إلى الكهف؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا (١٦)﴾.

لقد صاروا فى عزلة فكرية، ويُخشى أن يغيروا تفكيرهم وقد أصرُّوا على الإيمان إصرارا، كما أصرَّ قومهم على الشرك، و﴿إِذِ﴾ ظرف متعلق بأووا، وهو فى معنى السببية لذلك الاقتران الزمنى بجواب الأمر ﴿يَنشُرْ﴾.

هذا حديث نفوسهم، وهو إلهام من الله بثلاثة أمور:

الأمر الأول - الإيواء إلى الكهف حيث يبتعدون عن أذى الجبارين.

الأمر الثانى - أنهم لقوة إيمانهم بالله أحسوا بأن الله تعالى لن يضيعهم أبدا، بل إنه ينشر لهم من رحمته، إذ يبسط لهم.

الأمر الثالث - أن قوة إيمانهم بالله جعلتهم يحسون بأنه سيجعل لهم مرفقا يرتفقون به فى وسط الكهف الذى لا يأوى إليه الآدميون إلا فرارا من أقوامهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ﴾، أى اعتزلتموهم واعتزلتم عبادتهم، بل إن اعتزالكم عبادتهم هو السبب الجوهرى، والباعث على اعتزالهم فإيمانكم قدمتموه على القرابة والقومية، وقوله: ﴿إِلاَّ اللَّهَ﴾، قال الزمخشرى: استثناء متصل؛ لأنهم كانوا يعبدون الله وغيره، فالاعتزال كان لعبادتهم غير الله، ويحتمل عنده أن يكون الاستثناء منقطعا، وعندى أن خيرا من هذا ما قاله قتادة أن ﴿إِلاَّ﴾ بمعنى (غير)، من غير تقحم فى المتصل أو المنقطع، ومن غير ادعاء لا دليل عليه، وهو أنهم كانوا يعبدون مع الله غيره، فإن ذلك يحتاج إلى سند تاريخى، كما هو ثابت عند العرب.

وقوله تعالى: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾، مجزوم بجواب الأمر، أى إن تأووا إلى الكهف فلا تخافوا جوعا ولا عطشا ولا عريا، فإن الله واسع الرحمة، يبسط لكم من رحمته وينشرها عليكم، وشبه فى هذه الرحمة السالفة بالثوب المبسوط، التى ينشر عليكم فيعمكم ويحفظكم ويستركم، ويقول تعالى: ﴿لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾، أى ينشره لأجلكم وهو من رحمته التى وسعت كل شىء.

﴿ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾، أى مكانا ترتفقون، وتجدون فيه كل مرافقكم وحاجاتكم، ويكون مطمئنا لكم، ذلك ما جاشت به نفوسهم، وقد كان لهم ما تصوروا وتمنوا، فقد استراحوا من ملاحاة أقوامهم وطغيان حكامهم، وكفل لهم نوما هادئا اطمأنوا واستغنوا عن حاجات الدنيا وأهلها، وكان خير الله يمد به أولياءه ولا يضيعهم أبدا.

عناية الله بهم فى رقودهم

قال الله تعالى:

وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ
الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ
مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن
يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا
وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم
بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ
فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ
لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا
يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا
أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ
طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ
بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ
أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

إن الله الذى ألهمهم أن يأووا إلى الكهف فرارا بدينهم، وخضوعا لأمره ألهمهم أيضا أن ينزلوا فى كهف يحفظ أبدانهم من أن تمزق جلودهم الشمس أو تغير ألوانهم، ألهمهم أن ينزلوا وفتحته إلى الشمال فيجىء إليهم هواء الشمال العليل، وينعش أجسامهم ويرطب أنفاسهم، ولا تمسهم الشمس ولكن تدفئ الكهف من ورائه بمرورها من الشرق إلى الجنوب، حتى تعود إلى الغرب، وقد اجتازت ما وراء الكهف، وإن الشمس تصيبهم بأشعتها الحمراء فى الصباح فى طرف من الكهف، وتصيبهم بأشعتها الصفراء فى طرف من الكهف أيضا فى الغروب، وخير الأشعة المنعشة للأجسام الحية تكون فى حمرتها فى الصباح، واصفرارها فى الغروب، وهكذا هو قوله تعالى:

﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (١٧) ﴾.

أى أنها إذا طلعت تميل عن الكهف متجهة ناحية اليمين فلا تمسهم الشمس بل تميل عن الكهف، لا ينالهم إلا شعاع قليل منها، لا تلفحهم بسخونة، بل يكون هادئا منيرا، وتسير الشمس من وراء الكهف من جنوبه، حتى تصل نازلة إلى الغروب، مائلة إليه، فتقرضهم على شمائلهم، كما تزاورت لهم عن أيمانهم فى الصباح، ومعنى ﴿ **تَّقْرِضُهُمْ** ﴾، أنها تتجاوز بهم قاطعة حتى تصل إلى شمالهم فى الغروب، وتقرضهم من القرض بمعنى القطع، أى أنها تقطع جنوب الكهف حتى تصل إلى شماله، والفارسى يقول: إنه من قرض الدراهم والدنانير، والمعنى أنها تعطيهم من تسخينها شيئا ثم يزول بسرعة كالقرض المسترد، ونرى فى هذا تكلفا، وخير القول أن تقول: إن معنى تقرضهم تعدل بهم وتتجاوزهم شيئا فشيئا فشيئا حتى يتم الغروب؛ ﴿ **وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ** ﴾ أى مكان متسع ﴿ **مِّنْهُ** ﴾.

﴿ **ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ** ﴾، أى إن ذلك كله من آيات الله، فإلهامهم الالتجاء إلى الكهف، وإلى كهف مفتوح من الشمال، وكون الشمس تميل إليه ولا تدخله ليحفظ الله أجسامهم من البلى والعفونة، وكونهم أحياء ليكونوا حجة على أن

الحياة بيد الله تعالى، وهو مانحها، يهبها لمن يشاء، كل هذا من آيات الله، وهى تبصرِّ الناس بالحق وتهدى إليه، وإن الآيات البينات كثيرة هادية، ولكن الناس عنها منصرفون ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾، أى من يسلك سبيل الحق يأخذ الله بيده، ويهديه سواء الصراط، وهو المهتدى حقا وصدقا ولا أحد يضله، ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ ومن يسلك طريق الضلالة فإن الله تعالى يكتبه من الضالين، ولن تجد له من يتولى أمره ويرشده إلى الصراط السوى.

وإنهم فى الكهف يبدون أيقاظا وهم نائمون، ولذا قال تعالى:

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨)﴾.

من يراهم بادى النظر يحسبهم أيقاظا، أى يظنهم أيقاظا، والحقيقة أنهم رقود، والأيقاظ جمع يقظ، والرقود جمع راقد، أو هو مصدر وصف به والمصدر الذى يوصف به يلتزم المصدرية، فلا يثنى ولا يجمع، وإن هؤلاء الفتية عندما أصابهم الرقود كانت عيونهم مفتوحة فيظنهم الناظر أنهم أيقاظ ليسوا نائمين، ولأنهم بإرادة الله يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال، ويقول تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾، أى يتقلبون بإرادة الله تعالى إلى اليمين وإلى الشمال، وتلك حال من يكونون بين اليقظة والنوم، ويقلبهم الله ذات اليمين وذات الشمال لكيلا تتعفن أجسامهم إذا بقوا على حال واحدة، ولأن أحسن الأحوال للنائم ألا ينام مضطجعا ولا يلتزم جانبا واحدا يمينا أو شمالا، بل يتقلب بينهما، لكيلا تكون الأعضاء الداخلية من كبد وقلب ومعدة على ثقل واحد، بل تتغير أثقالها.

وهم فى هذا التقلب الذى يكون كالنائم المعتاد، وما يقوله بعض المفسرين من أنهم كانوا يتقلبون كل سنة أو سنتين أو سنين رجم بالغيب، ولا أساس له من رواية صحيحة ولا نقل عن معصوم.

﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ وكلبهم بفناء الكهف أو على عتبته باسط ذراعيه، يحس الرائى أنه يحرس قوما أيقاظا، وهكذا كل مظاهر الحياة كانت بادية

أمام الناظريـن، والوصيد هو فناء الكهـف، أو عتبـته، أو على مقـربة منه، وهذا الكلب يقال إنه كليب صيد لهم فكان مثلهم، ولقد كان ما يقرب من الكرام يكرم مثلهم، فكرم كما كرموا.

﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْـهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِـرَارًا﴾ هذه مظاهرهم، ولو اطلعت أيهـا المخـاطب المعرف بأمـرهم، وفـحصت حـالهم ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِـرَارًا﴾، أى لآثار الاستغراب فى نفسك مـا يبعدك عن أحياء ليس فيهم مظاهر الحـياة بل فيهم رهبة وهيبة، وما يثير العجب لأنه غير مألوف أن ترى أشخاصا يمكثون مئين من السنين على حال لا هى حياة فيها كل مظاهر الحياة من حركة وكلام، ولكنك لا ترى إلا سكونا، ومظاهر الحـيـاة موجـودة من عيـون يقظة هذه تجـعل الناظرين يجـعلهم يحسبون أنهم ليسوا أمواتا ولا أحياء وما لا يألفه الإنسان يفر منه فرارا، والخلاصة أنهم لو علموا حالـهم، واطلعوا على أمورهم لولوا هاربين فارين منهم يحـسبون أنهم ليسوا أناسِيَّ.

﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًـا﴾ والخطاب للقـارئ أو السـامع بأخبـارهم المعـرَّف لأحوالهم، هذه حالهم التى لبثوا عليها حتى بعثهم الله تعالى، ولنقرأ خبر بعثهم، قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩)﴾.

إن الله تعـالى ضرب على آذانهم فلم يسـمـعوا، وربط على قلوبهم عندمـا خاطبوا جبـار عصرهم، وحماهم من البلى سنين تجاوزت ثلاثـمائة أو يزيد، كما جعلهم كذلك أحـياء وإن كانوا من غير حـركة إلا أن يتقلبوا يمينا وشـمالا حفظا لأجسامهم، كـما منَّ عليهم بكل ذلك وبعثهم من رقودهـم، أو كما ظهرت آياته فى كل هذا بعثـهم من رقودهم فـهى آيات تتراءى آية بعد آية، والـبعث ليس هو البـعث من موت، إنمـا هو اليقظة من مـنام، وإن طال أمدا، ويقـول سـبحـانه:

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ يجوز أن تكون اللام للتعليل، أى أننا بعثناهم لكى يتساءلوا بينهم، وليتناقشوا فى مدة لبثهم، فما كانوا ليتساءلوا لو استمروا فى رقودهم، وقد ضربنا على آذانهم، ولكن الأولى ما قاله الأكثرون من المفسرين أن اللام لام العاقبة كاللام فى قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ... ⑧﴾ [القصص]، فالمعنى بعثناهم لتكون العاقبة أن يتساءلوا فيما بينهم عن المدة التى لبثوها، ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾، كم من الزمن لبثتم، لقد قالت الأخبار التى لا وجه للظن فيها أنهم ناموا غدوة يوم، وصحوا فى عشية يوم آخر عندما كانت إرادة الله تعالى أن يستيقظوا، ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، إذا لم يحسب الليل يكون نهارا، وقد يعد يوما، وإن حسب الليل يكون بعض يوم، ونسب هذا القول إلى كلهم، فقال: ﴿قَالُوا﴾، ويظهر أنه قاله بعضهم، ورضيه كلهم ظنا منهم، ولكن الريب كان يحيط بهم فاختاروا التفويض لعلم الله تعالى بدل الجزم بقول، ويظهر أن حسهم قد جعلهم يرون تغييرا فيما يحيط بهم، أو أن حرص المؤمن بقدرة الله تعالى جعلهم يعتقدون أن التفويض أولى؛ ولذا قالوا: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ فوضوا أمر علم الزمن إلى الله تعالى، والله قادر على كل شىء ولكنهم أحسوا بالجوع، بعد هذا اللبث الذى يحتمل أن يكون طويلا، والله به عليم.

ونسب القول إليهم جميعا، ويظهر أن بعضهم قاله ووافق عليه الجميع؛ لأنهم كانوا غير جازمين بزمن معين، والتسليم فى هذه الحال أحوط وأسلم، وأشد إيمانا وتثبيتا، وقد أرادوا أن يتركوا الخوض فيما لا علم لهم به، وأن يشغلوا بأنفسهم، فقال تعالى عنهم قالوا: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ اجتمعوا على أن يسدوا غلة الجوع، والورق هى الفضة، والمراد النقود المسكوكة منها، و(الفاء) للإفصاح عن شرط مقدر تقديره إن كنتم لا تعلمون كم لبثتم، فاشغلوا أنفسكم بأنفسكم، واطلبوا غذاء لكم.

هذه صلة بعث أحدهم بالورق بالمدة التى لبثوها وتناقشوا حولها، وقال بعض المفسرين: إن بعث أحدهم بالورق له صلة بالأمر الذى كانوا يناقشون فيه، إذ كان سبيلا لفحص مدة الزمان وموقته عن طريق النقود المضروب عليها صورة الملك الذى ضربت فى عهده، بدليل الفاء التى تفيد ترتب ما بعدها على ما قبلها، وعلى هذا الرأى لا تكون الفاء للإفصاح، إنما تكون لمعنى السببية.

بعثوا أحدهم ليبحث لهم عن غذاء يشتريه بهذا الورق الذى أعطوه ولينظر فى غذاء طيب أزكى وأنمى لهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿**فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا**﴾، أى ليتخير ما هو أزكى نماء وأطيب طعاما، والفاء عاطفة، وكذلك الفاء فى قوله تعالى: ﴿**فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ**﴾ والرزق القدر الذى يتبلغون به أو يكفيهم، وقوله تعالى: ﴿**أَيُّهَا**﴾ الإشارة إلى المدينة، والمعنى أى شىء فى المدينة ﴿**أَزْكَىٰ طَعَامًا**﴾، وأكثر مواد زكية نامية.

وإنه يتعرف أطيب الأطعمة، ويأتى بمقدار منها، يكون فيه سد الرمق، ويكون طيبا، ﴿**وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا**﴾، أى ليجتهد فى أن يتلطف فى القول، ولا يغلظ فى المساومة حتى لا تعرفوا، أو تفضحوا؛ ولذا قالوا: ﴿**وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا**﴾، أى لا يأتى عملا من شأنه أن يجعلهم يشعرون بكم وقد فررتم خيفة من طغيانهم.

وقد عللوا عدم شعور أحد بهم بقولهم:

﴿**إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا** (٢٠)﴾.

هذه الجملة السامية مفصولة فى البيان عن السابقة؛ لأنها فى مقام التعليل، والتعليل بين جملتين من أسباب الفصل البيانى بينهما، وإلا فهما منفصلتان فى المعنى؛ إذ العلة متصلة بالمعلول، ﴿**إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ**﴾، أى يطلعوا عليكم مستظهرين عليكم مستعلين بما معهم من قوة الحاكم الغاشم وجند وغيرهم،

﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾، أى يقتلوكم بالحجارة، وهى أشد أنواع القتل، وأقساها، ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ فى وثنيتهم، و﴿أَوْ﴾ هنا فى معنى (إلا)، أى يرجموكم، ولن ينجيكم من الرجم إلا أن تعودوا طوعا أو كرها إلى الوثنية التى فررتم منها فرار السليم من الجرب، وفى هذه الحال تكون الخسارة الدائمة إلى يوم القيامة، وقد قالوا فى ذلك: ﴿وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾، و﴿لَن﴾ للنفى المؤكد، ويقول الزمخشرى للنفى المؤبد: ومهما يكن معنى ﴿لَن﴾ فإن النفى مؤبد بقوله تعالى: ﴿أَبَدًا﴾ وفى التعبير بـ ﴿إِذًا﴾ أى أن عدم الفوز سبب عن عودتكم فى ملتهم، فهو حرمان اقترن به سببه، بعثهم الله تعالى بأن أيقظهم منه كما يبعث الموتى وإن لم يموتوا، وقد تعرفوا العصر الذى بعثوا فيه.

أعثر الله عليهم وعددهم

قال الله تعالى:

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ
ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟
ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ
أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ
رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا
بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ
بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا
وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ
إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ
إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

بعثهم الله تعالى من منامهم، وما كان يعلم أحد برقودهم، ولا ببعثهم حتى عثروا عليهم فعلموا ما كان منهم وما آل إليه أمرهم، فلما بعثوا أحدهم بورقهم إلى المدينة يلتمس لهم طعاما هو أزكى وأطيب وأنمى لهم، وعرضوا ورقهم ويظهر أنه كان نقدا مضروبا على اسم ملك يومئ إلى العهد الذى أووا فيه إلى الكهف، وضرب الله على آذانهم بعد أن ربط على قلوبهم أمام جبروت الطاغوت الذى كان يضطهد أتباع عيسى فى عهدهم، فلما اطلع الناس على هذا الورق فيقال إنه أُخذ إلى الملك، ويقولون إن الملك كان نصرانيا مسيحيا يؤمن بالوحدانية، وبأن عيسى عبد الله ورسوله، وكانت أخبار فتية الكهف كما يبدو تتوارث فى الأوساط النصرانية المسيحية الموحدة؛ لأن أخبار اضطهاد الملوك والمضطهدين تتوارثها الأجيال جيلا بعد جيل، وإن أخبار أهل الكهف معروفة فى الأوساط النصرانية على أنها أخبار لشهداء وصديقين، وقد رأينا ذلك فى كتاب الكنز الثمين، ويقال إن الملك ذهب مع أحدهم الذى كان يشترى لهم الطعام، فأخذه إلى الكهف وذهب إلى الذين كانوا معه ولكنه لم يدخله بينهم.

بهذه الطريقة أعثر الله تعالى عليهم، أى أطلعهم عفوا من غير قصد للاطلاع، ذلك أن أحدهم هو الذى عرفهم مصادفة بما معه من نقود تدل على تاريخها، والتاريخ النصرانى العام عرفهم بأمرهم. قال تعالى:

﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا (٢١) ﴾.

وقوله تعالى: **﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا﴾**، أى أن الإعثار عليهم بعد أن غيبوا وبعثوا ليعلموا بهذه الأدوار أمرين:

الأمر الأول - أن وعد الله تعالى بالبعث والنشور، وأن الناس ينامون كما يموتون وأنهم يبعثون كما يستيقظون، وأنهم للجنة أبدا، أو للنار أبدا ـ هو وعد حق.

الأمر الثانى - أن الناس لم يخلقوا سدى، وأن الساعة وهى القيامة آتية لا ريب فيها، فلا يرتاب فيها مرتاب يدرك الحياة وغايتها ونهايتها.

ويظهر أنهم لم يعيشوا طويلا، بعد أن أعثر عليهم، بل ماتوا ولم يضرب على آذانهم فقط، وأنهم من بعدهم تنازعوا فى أمرهم، ماذا يصنعون لهم تكريما لشأنهم، وثباتهم فى الحق والبلاء.

ولذا قال: ﴿**إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ**﴾، ﴿**إِذْ**﴾ ظرف زمان للماضى متعلق فى الظاهر بقوله تعالى: ﴿**أَعْثَرْنَا**﴾، أى أن النزاع فى أمرهم يبنون عليهم بنيانا أو مسجدا، إنما كان فى وقت العثور، وهذا يدل على أنهم لم يعيشوا إلا بقدر بعثهم والعثور عليهم ليكونوا حجة قائمة شاهدة حسية بعلمه، وماتوا فور هذا؛ ولذا كان زمن العثور هو زمن التنازع فى أمرهم مما يدل على اتحادهما أو على قربهما قربا يشبه الوحدة الزمنية.

والتنازع هنا هو الاختلاف الذى يتضمن تعصب كل صاحب رأى لرأيه، حتى وصل إلى درجة التنازع، وقد اتفق الطرفان المتنازعان على ضرورة تكريمهم بإظهار علامة تشير إلى مكانهم ليكون ذلك حافزا على الثبات فى اليقين والفداء للدين، فالتكريم كان لمعنى الصبر فى البلاء مع قلتهم، فإنه كلما قل النصير كان الجهاد والصبر والبلاء المبين.

تنازعوا أمرهم على جانبين، فريق رأى أن يكون بنيانا يقام على قبورهم، ﴿**فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا**﴾ كقباب أو نحو ذلك من الأبنية المعلمة، وإذا كانوا قد تنازعوا فى تكريمهم فهم ليسوا بأعلم بأمرهم من الله الذى حفظ أجسامهم فيها الحياة مع السكون على مر العصور، ويظهر أن الذين اتجهوا إلى بقاء ذكرهم بالبناء كانوا ممن يتأثرون بالرومان فى تخليد موتاهم بالبنيان والأحجار؛ ولذلك اعترض القرآن الكريم على كلامهم بجملة معترضة، فقال عز من قائل: ﴿**رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ**﴾، أى أن ربهم الذى خلقهم ورباهم على التقوى والإيمان وأفرغ فى قلوبهم الصبر أعلم بأمرهم من هؤلاء الذين يريدونّ أن يبنوا عليهم بنيانا فهو وحده العليم بما هو خليق، وليسوا يكرمون بالبنيان إنما يكرمون بالجزاء الأوفى فى الآخرة.

﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾، الضمير فى ﴿أَمْرِهِمْ﴾ يعود إلى المتنازعين، أى أن المتنازعين غلبوا على أمرهم، أن يبنوا مسجدا، وأكدوا بناء المسجد فقالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾، أى فوق الأرض التى دفنوا فيها وأكدوا اتخاذ المسجد بلام القسم، وبالقسم، وبنون التوكيد الثقيلة، أى أنه رأى انتهوا إليه وجزموا به، وحسم النزاع عنده، واتخاذ المسجد منهى عنه إذا اتخذوا قبر النبى أو الرجل الصالح وثنا يعبد، أما إذا كان مجرد مكان للسجود، وإقامة الصلاة فذلك لا يوجد فيه نهى قاطع.

وما عددهم؟ . . قال الله تعالى فى عددهم:

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (٢٢)﴾.

من هم الذين سيقولون عن عددهم أنه ثلاثة أو خمسة أو سبعة، قالوا إنهم النصارى الذين يعرفون أخبارا من أخبار أهل الكهف، ونستبعد ما قالوه من أن اليهود قالوا أو لم يقولوا لأنهم كانوا بعد التوراة وهم لا يعترفون بأهل الإنجيل، والنصارى الذين كانوا معروفين عند العرب اليعقوبين، والنساطرة، فقالوا: إن اليعقوبيين قالوا: ثلاثة رابعهم كلبهم، وقالوا: إن النسطوريين قالوا: خمسة سادسهم كلبهم، وتطرح نسبة القول إلى هؤلاء أو هؤلاء، ولكن نقول إن القول قيل من هؤلاء أو هؤلاء أو غيرهم، وقد وصف القولين ثلاثة وخمسة بأنه رجم بالغيب، أى ظن فى أمر مغيب عنهم لا يعرفون له مصدرا ولا علما، وقد شبهت حال من يقول بغير علم بحال من يرمى سهما أو حجرا فى ضلال من غير هدف مقصود ولا غاية منشودة، ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾، ويلاحظ عند ذكر السبعة ثلاثة أمور:

الأمر الأول - أنه لم يذكر السين، فلم يقل وسيقولون سبعة، وحذفت السين اكتفاء بذكرها فى الأمرين السابقين، أو لعدم التخمين والحدس فيها، ولأن

القول فيها لم يكن كالقول فى الأمرين السابقين، بل كان أقرب إلى الصدق، وإن لم يكن قطعا.

الأمر الثانى - أنه لم يذكر فيه أنه رجم بالغيب، بل هو نوع آخر، ربما كان أقرب إلى الصدق، أو على الأقل ليس فيه قطع بالكذب، ولا بالظن، وما دام لم يحكم بأنه رجم بالغيب، فاحتمال أن يكون له أساس قائم.

الأمر الثالث - أنه لم يذكر الواو فى الأمرين الأولين فكان النص ﴿**سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ**﴾، فكان ذكر الكلب على أنه فى العدد وصف، فهو ليس منفصلا عنهم فى العدد، أما فى السبعة، فقد ذكر مغايرا لهم؛ لأن العطف يقتضى المغايرة، وعبارات القرآن فيها الدقة والإحكام وأن تكون حروفه وكلماته كل فى موضعه قد كان لغاية مؤداة ولم يكن عبثا.

وقد استنبط من هذا بعض المفسرين أن العدد الصادق هو سبعة، ونسب ذلك الرأى لعبد الله بن عباس رضى الله عنهما الذى كان يقال عنه إنه ترجمان القرآن فقد روى عنه، وهو العربى القرشى الهاشمى أنه قال: حين وقعت الواو انتهت المدة، ولأنه فى العددين السابقين كان الاقتران بقوله تعالى: ﴿**رَجْمًا بِالْغَيْبِ**﴾ فاستأنس بذلك المفسرون وإن قول ابن عباس لا يجوز أن يهمل فى هذا؛ لأنه ليس كغيره من الأقوال إذ هو قول صحابى، وقول الصحابى إذا كان فى أمر لا يُعلم بالاجتهاد المجرد فيحتمل على أنه سمعه من النبى ﷺ ويكون كالمرفوع تماما، وإن الأمر فى هذا ليس للاجتهاد فيه موضع فيحتمل على أنه مرفوع.

وإنه قد جاء فى كتاب «طبقات شهداء المسيحيين» أن عدتهم سبعة، ونذكر ذلك لا لتقوية ما نقل عن ابن عباس، أو تزكيته ولكن لأنه عندهم؛ لأن علم النصارى الذين ثلثوا ليس علما متواترا، وليس له سند صحيح يعد ثقة من كل الوجوه، فضلا عن أن يكون متواترا كما ادعى بعض المفسرين فى السنين الأخيرة، وأقرب الظن أنهم نقلوه من كتاب المسلمين، فبضاعتنا ردت إلينا، ويقول سبحانه آمرا نبيه: ﴿**قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم**﴾، أى قل يا رسولى لا تخوضوا فى هذا خوض

المستيقن المذعن، فالله سبحانه وتعالى وحده هو الذى يعلم عدتهم بعد مرور هذه القرون على بعثهم من الكهف، وموتهم الموتة الأخيرة التى يكون بعدها البعث والقيامة، والجزاء، ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾، أى ما كانت حالهم يعلمها عدد كبير تتناقله الأجيال تناقل جمع عن جمع حتى يبلغ حد التواتر المقطوع به، بل كانوا وجهادهم الأول عددا قليلا، وفى انبعاثهم لم يعلمهم إلا عدد قليل؛ الملك ومن يحيط به من حاشية، إن كان الملك قد علم، أو من تولوا إقامة المسجد حول قبورهم.

وإذا كان الذين تحملوا العلم بأمورهم عددا قليلا ﴿فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا﴾، «الفاء» للإفصاح كما رأيت؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، المراء المجادلة برد ما يقول الخصم، والمراء منهى عنه لأنه يجر إلى قول الباطل ومجاراة الخصم، وكل مراء يجعل كل متكلم متعصبا لما يقول؛ لأنه يستمسك برؤيته هو من غير التفات إلى رؤية غيره، وقد تكون هى الحق، فهو عماية عن النظر الكامل بمعرفة الأمر من كل وجوهه ولكن استثنى المراء الظاهر، وأميل إلى أنه استثناء منقطع، ولكن سمى مراء من قبيل المشاكلة اللفظية، ومعنى المراء الظاهر ألا يحاول تعرف مقدمات قوله، أو الأدلة عليه؛ لأن أسباب العلم غير متوافرة، فليكتف بما ذكر القرآن وهو الصادق الذى لا ريب ﴿وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾، الضمير فى ﴿مِّنْهُمْ﴾ يعود على ما يعود إليه الضمير فى قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ...﴾ والظاهر أنهم أهل الكتاب من نصارى نجران، وغيرهم من أهل الإنجيل.

والاستفتاء معرفة الفتوى، أو الحكم، أو القول الصادق، أى لا تحاول معرفة أحوال أهل الكهف من هؤلاء النصارى الذين يعاصرونك؛ لأنه بعد أن حرفوا ما حرفوا، صارت أخبارهم غير موثوق بها.

وإن أحوال أهل الكهف، وأخبارهم من شأنها أن تربى الإيمان فى قلوب المؤمنين؛ ولذا ناسب هذا أن يأمر الله تعالى بالتفويض، وأن يعلم المؤمن أن الأمور لا تسير إلا بإرادة الله تعالى ومشيئته، وأن يذكر الله دائما فقال تعالى:

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا (٢٤) ﴾.

هذا تأديب من الله تعالى، ولكيلا يفتات إنسان على الله تعالى فيتوَّهم أنه قادر مسيطر على ما يفعل، وأنه يفعل ما يريد شاءه أو لم يشأه سبحانه، وهو المالك لكل شيء الذى يشاء ويختار وحده، ولا خيرة لغيره فى أمر خيرة مطلقة، إنما هى مقيدة دائما فى حدود ما يشاء الله سبحانه قال: ﴿ **وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾ النهى موجه للنبى ﷺ، وموجه من بعده للمؤمنين بالأولى؛ لأن النهى له نهى لغيره، ولأن النهى له حيث لا يترقب منه الافتيات على الله يكون نهيا لغيره بالأولى، إذ النهى عن أمر مترقب الوقوع يكون أقوى من النهى غير المتوقع، وقد أكد سبحانه النهى بنون التوكيد الثقيلة، والنهى عن القول أى الاعتزام على العمل من غير تفويض، والإصرار من غير تعليق على مشيئة الله.

وذكر الغد للإشارة إلى الإصرار؛ لأن تعيين الزمان دليل على العزم والإصرار، فإن الغيب فى علم الله وقدرته، وقد يكون فيه ما لا يمكن معه العمل، وليست إرادة الله فى إرادته إنما إرادته هو فى إرادة الله تعالى، فما لا يريده الله لا يقع أبدا، ولذا كان لا بد من تعليق التنفيذ على مشيئة الله تعالى والتوكل عليه؛ ولذلك كان الاستثناء ﴿ **إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾، (أن) وما بعدها مصدر منسبك، وهو فى موضع الجر بالباء، وتحذف كثيرا قبل المصدر المنسبك منها ومما بعدها، ويكون التخريج على ذلك، ولا تقولن لشيء إنى فاعل ذلك غدا إلا بمشيئة الله بأن تقول معلقا عزمتك على قولك إن شاء الله.

وهنا أمران بيانيان:

الأمر الأول - أن اللام فى قوله تعالى: ﴿ **لِشَيْءٍ** ﴾ معناها لعمل شيء وبعض المفسرين قال إن (اللام) بمعنى فى.

الأمر الثانى - أن قوله تعالى: ﴿إِلاَّ أَن يَشَاءَ﴾ ذكر الفعل المستقبل دون الماضى للإشارة إلى أنه متعلق بالمستقبل، والمستقبل بيد الله وحده وهو علام الغيوب فلا يعلم ما سيكون إنما يعلمه علام الغيوب.

وإن المؤمن يجب أن يكون ذاكرا لله دائما، لتستقيم حياته، ويستقيم أمره مع الناس ويكون مصدر نفع وخير لهم دائما؛ ولذا قال عز من قائل: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾، أى اجعل ذكر الله تعالى ملء قلبك دائما، فلا تغفل عن ذكره، فإن بذكره تطمئن القلوب به، وتطب من أدوائها، ومن كان الله تعالى فى نفسه لا يغيب عنه لا يضل ولا يشقى، وإذا غاب عنك أمر أو لم تتمكن من شىء فعسى أن يكون المغيب خيرا مما فات، وعسى أن المدخر له أغنى وأقنى؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾، (الواو) عاطفة ﴿قُلْ﴾ على ﴿وَلا تَقُولَنَّ﴾ فهو عطف الأمر على النهى، أى أنه نهاه سبحانه عن أن يعزم الأمر غدا، بل يعلقه على مشيئة الله تعالى مفوضا إليه سبحانه راجيا الخير، متوقعا له، ويقوله فى إرادته ورغبته.

واستثناؤه بالمشيئة رجاء أن يجعل الله خيرا منه إذا فاته، فالأمور كلها بإرادته سبحانه ومشيئته العليا، ولن يكون شىء فى الوجود إلا بمشيئته، فمعنى ﴿وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي...﴾ املأ نفسك رجاء بأن يحقق لك أمرا خيرا مما كنت اعتزمته من ناحيتين:

الناحية الأولى - أنه يكون أقرب منالا، وأسهل تحصيلا.

الناحية الثانية - أنه يكون خيرا رشدا وعاقبة، والله تعالى عليم.

مدة لبثهم فى الكهف

قال الله تعالى:

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا
﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ
فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ
رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾
وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ
يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ
أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾

الكلام فى قصة أهل الكهف موصول بنور الرحمة، وفى الآية الأولى يتكلم سبحانه وتعالى عن مدة لبثهم فى الكهف قد ضرب الله تعالى على آذانهم سنين عدة، ذكرها أولا مجملة، وفى هذه الآية ذكرها سبحانه مبينة بالعدد من السنين، فقال سبحانه:

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾.

وقد قالوا إن هذه السنين كانت بالسنين التى هى أصل العدد فى الإسلام وقد قدروها بثلاثمائة سنة شمسية ـ بين بسيطة وكبيسة ـ ولنا أن نقول: إنه سبحانه ذكر الثلاثمائة، ثم زاد التسعة للتفرقة بين الشمسية والقمرية، وإنك لو أحصيت على أساس أنه كل ثلاث وثلاثين سنة وثلث تقريبا يزداد العدد سنة قمرية، فإن

الفرق يكون تسع سنين، انظر إلى إشارات القرآن البيانية التى تدل على الإعجاز خصوصا فى أمة أمية لا تعرف الكتابة والحساب، وإن أمر الله يؤكد هذا العدد، وأنه لا يزيد ولا ينقص فقال تعالى:

﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦) ﴾.

الخطاب للنبى ﷺ ليعلم به المؤمنين، ويستوثقوا من أنه الحق الذى لا ريب فيه، وأفعل التفضيل فى قوله: ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾ ليس على بابه؛ لأنه لا يوازن بين علم الله تعالى وعلم أحد، فهو العلم الكامل، والمراد من أفعل التفضيل أن الله تعالى يعلم ذلك علما ليس فوقه علم؛ لأنه علم الله تعالى، وهو بكل شىء عليم، وإن علم الغيبيات لا يعلمه إلا خالق لكل شىء؛ ولذا قال تعالى: ﴿ لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ له وحده الغيب فى السموات، فكل مغيب يعلمه الله تعالى؛ لأنه الخالق، كما قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك]، ثم أكد سبحانه وتعالى علمه الدقيق الذى هو أعلى درجات العلم كعلم البصر، وكأعلى درجات العلم بالسمع، فقال تعالى: ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾ هاتان الصيغتان من صيغ التعجب، فما مؤداهما بالنسبة لله تعالى؟ الجواب عن ذلك أن معناهما أن علم الله تعالى بلغ أقصى درجات العلم الدقيق بالبصر، حتى إنه يرى ما لا يراه الخلق، وأعلى درجات العلم بالسمع حتى إنه يسمع دبيب النمل الذى لا يُسمَع، وإن نتيجة ذلك علمه سبحانه بالغيب كأنه مرئى مسموع فهو سبحانه لا تخفى عليه خافية فى الأرض والسماء ﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ ﴾، الضمير فى ﴿ لَهُم ﴾ يعود إلى أهل الكهف؛ لأنهم المتحدث عنهم، و﴿ مِّن ﴾ لاستغراق النفى، والمعنى ما لهم بدله من ولى تولى أمورهم وعلم أحوالهم وحاطهم فى غيبهم أى ولى كان، ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾، أى لا يشرك سبحانه أحدا فى سلطانه وملكه وحكمه.

وقبل أن ننتهى من الكلام عن أهل الكهف نذكر كلمة فى مدة لبثهم فى الكهف، فنقول: إن القرآن عين المدة بالسنة الشمسية، وأشار إلى الزيادة التى تزيدها السنة القمرية، وهى تسع سنين، وقد ذكرنا أنه بحساب السنين يتبين أن

الفرق بينهما تسع سنين على أساس أن كل ثلاث وثلاثين سنة وثلث يزاد سنة واحدة، وبهذا يكون العدد ما ذكره القرآن الكريم بعبارته وإشارته.

متى ابتدأت هذه المدة؟ المتفق عليه أنها ابتدأت بعد المسيح عليه السلام، وإنها ابتدأت عندما أخذ الوثنيون يضطهدون أتباع المسيح عليه السلام، وأن الله تعالى كشف الغمة التي كان ضربها على آذانهم في عصر زال فيه الاضطهاد، أو كان الحاكم أو الجمع الذي حضر يقظتهم من رقودهم كان الاضطهاد لم يكن فيه قائما بدليل العمل على تكريمهم وبناء مسجد على مدافنهم، مع التأكد من المدة تسع وثلاثمائة، أو ثلاثمائة فقط إذا كانت شمسية، وإنه لهذا يجب أن تمضى هذه المدة بين عصر الاضطهاد، وعصر الأمان مع بقاء المسيحية على ما كانت عليه.

ولقد يقول بعض المفسرين إن اختفاءهم كان في عهد دقلديانوس، وقالت كتابات النصارى في أخبار شهداء النصرانية وفي كتاب الكنز الثمين: إن اختفاءهم في الكهف كان سنة ٢٥٢ ميلادية، وظهورهم كان سنة ٤٤٧، ولا شك أن القرآن يكذِّب هذا، وهو أصدق قيلا؛ لأنه في سنة ٤٤٧ كانت النصرانية قد سادها التثليث، وإن لم يكن استغرق كل أهلها، بل لا تزال منهم أمة مقتصدة.

وقول المفسرين إن التزامهم الكهف كان في عهد دقلديانوس فيه كلام؛ لأن دقلديانوس كان في القرن الثالث في آخره، والواقعة التي أنزلها بنصارى مصر كانت سنة ٢٨٤، فإذا كان الاختفاء في آخر القرن الثالث فيجب أن يكون الظهور في آخر القرن السادس وكانت قد عمت ديانة التثليث، اللهم إلا أن يكون صادف ظهورهم ملك لا يزال على دين المسيح، ولا يؤمن إلا بأنه عبد الله ورسوله، ولهذا نحن نميل إلى أن أهل الكهف كانوا على مقربة من عصر المسيح، وأنهم ظهروا قبل أن يسود النصرانية التثليث، ومهما يكن الأمر فإننا لا نؤمن في أخبارهم إلا بالقرآن وحده؛ ولذلك لا نتلو إلا القرآن، كما قال تعالى:

﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧) ﴾.

قال بعض المفسرين إن هذه الآية آخر ما يتعلق بقصة أهل الكهف، وإنا وإن كنا لا نقول إنها جزء منها، وليست متممة لها، ولكن لها صلة بها من حيث إن

المصدر الصادق الثابت لها هو القرآن فليس ثمة مصدر حق سواه؛ ولذا جاء بعده ما يدل على كمال صدقه وكمال العناية به، وهذه الآية تدعو رسول الله ﷺ ومن تبعه إلى مدارسته، وتلاوته والعكوف عليه وتعرف أحكامه، والأخذ بها أمرا ونهيا، وطاعته فى ظاهر نفوسهم وباطنها.

قال تعالى: ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ منْ هنا بيانية، ﴿ وَاتْلُ ﴾ معناه اقرأه مرتلا متلوا متفهما لمعانيه متيقظا له ذكر ﴿ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ ﴾ قبل ﴿ كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ للإشارة إلى أن السبب فى هذه العناية والدراسة والتلاوة أنه أوحى إليك فهى رسالتك التى حملتها، ووجب عليك تبليغها، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ... (٦٧) ﴾ [المائدة].

وذكر سبحانه وتعالى أن الموحى به المتلو هو ﴿ كِتَابِ رَبِّكَ ﴾، و﴿ مِن ﴾ كما قلنا بيانية، وأنه ثابت قائم كل ما فيه من أحكام حق وكل ما فيه من أخبار صدق ﴿ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾، أى لا مغير لكلمات الله، ولا بدل لها يماثلها صدقا وحقا، فلا يوجد مبدل ولا بديل، وهى المعتصم للمؤمن، والحجة الخالدة إلى يوم القيامة، وهو معتصمك يا محمد، وحجتك، وملجؤك الذى تعتمد عليه والله مؤيدك عليه، ﴿ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾، أى لن تجد من غيره ملجأ أو موئلا، فهو سنادك الذى جعله الله تعالى لك عمادا وملجأ وحجة تحتج بها، وهى فى ذاته عماد؛ لأنه الذى اشتمل على كل الدين.

وإن ذلك يوجب أن تعتمد عليه وحده، وعلى من آمن، ولا تستبدل بهم غيرهم، ولا تطع من يحاولون أن يفصلوك عن أهل القرآن أهل الإيمان؛ ولذا قال تعالى:

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) ﴾.

كان المشركون يتبرمون بضعاف المؤمنين، ويقولون كما قال أسلافهم لنوح عليه السلام: ﴿... وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ... (٢٧)﴾ [هود]، وكانوا في عنجهية الشرك وطغوائهم، قالوا عن أتباع محمد ﷺ من الموالى والضعفاء متقززين: إن هؤلاء تفيح منهم رائحة الضأن، فبين الله تعالى فضل هؤلاء وأنهم أتباع النبيين الذين بهم يقوم عمود الدين، ويكونون العصابة الأولى التي تكون قوته، وأنه يجب على النبي ﷺ أن يحبس نفسه عليهم، ويصبر نفسه عليهم محتسبا ذلك عند الله؛ ولأنهم القوة والدعامة، فقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾، أي احبس نفسك، واجعلها تصبر على معاشرتهم، وملازمتهم فإنهم قوة الحق وقوة الإيمان، وسيكون منهم الدعامة، والنصرة، وسيركبون بالحق على رقاب هؤلاء، كما سيكون في بدر ويركب عبد الله بن مسعود على رقبة أبي جهل يحتزها.

وعبر بالموصول؛ لأن الصلة وهي قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾؛ لأن هذا السبب في التزامهم وحبس نفسه عليهم؛ لأنهم بهذا هم الذين أجابوا الدعوة وهم يعبدون الله بالغداة والعشي، وهم لا يريدون جاها ولا مالا ولا سلطانا، ولكن يريدون وجه الله لا يريدون سواه، فهم قد انصرفوا إليه سبحانه، وهم بذلك قد صاروا ربانيين خالصين لله تعالى، ثم قال سبحانه بعد أن أمره بأن يكون قريبا منهم: ﴿وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، أي لا تقتحمهم عنك، وتجاوزهم معرضا عنهم تريد الذين يتزينون بزينة الحياة الدنيا، أي تعدوهم عيناك بأسمالهم وفقرهم تريد مَنْ عندهم زينة الحياة الدنيا، وهذا النهي يتضمن أمرين:

الأمر الأول - الحض على تكريم هؤلاء الضعفاء ومعاونتهم وإعزازهم والاعتزاز بهم.

الأمر الثاني - أن يجعل عينيه تظهر فيها مظاهر الإكبار لا مظاهر الازدراء، ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾.

إذا كان قد أمره بأن يتطامن لأولئك الذين يعبدون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه، وأن يقبل عليهم إقبال المقرب المدنى فقد نهاه عن الذين يغفلون عن ذكر الله، نهاه عن طاعتهم بطرد الأطهار الأبرياء الذين لا يعبدون الأوثان وقوله تعالى: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾، أى أنه لغروره وفساد نفسه شغل قلبه بالدنيا وما فيه وأغفله الله تعالى عن ذكره، وإذا فرغ القلب من ذكر الله تعالى سكنه الشيطان؛ ولذا قال تعالى بعد إغفال ذكر الله، ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾، أى غلبه هواه وصار عبدا لشهواته، ومن كان كذلك انحلت نفسه؛ ولذا وصفه سبحانه وصفا يفيد الانحلال النفسى فقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾، أى أنه كان أمره منحلا مضطربا لا ضابط يضبطه، ولا خلق يكبح جماحه، فهو مهمل مضيع مسرف فى كل أحواله.

الحق بيِّنٌ، وكلٌّ له جزاؤه

قال الله تعالى:

وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن
شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا
وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ
ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ
لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ
مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ
فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

أمر الله تعالى نبيه أن يعلن أنه قد تبين الرشد من الغى، وبان الحق بأدلته، فلابد أن يعرف كل إنسان ما يختار لنفسه فقال:

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) ﴾.

أى ﴿ **وَقُلِ** ﴾ يارسول الله مبلغا صادعا بالحق ﴿ **وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ** ﴾، قد ثبت وقام الدليل عليه من ربكم الذى خلقكم ورباكم ويعرف ما فيه خيركم وصلاحكم، وما فيه ضلالكم وفسادكم، وقد بين الحق، وما بقى إلا أن تتبعوا أو تنحرفوا، ﴿ **فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن** ﴾ باتباع الطريق السوى، ﴿ **وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾ بالابتعاد عن الطريق الأمثل، وإن الله أعد لكل جزاء، ثم ذكر سبحانه وتعالى ما أعده للمشركين، فقال: ﴿ **إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا** ﴾ وصفهم سبحانه بأنهم ظالمون؛ لأن الشرك ظلم للنفس وظلم للعقل، مع ظلمات متراكمة من فساد وصد عن سبيل الله تعالى، و﴿ **أَعْتَدْنَا** ﴾ يعنى هيأنا وأعددنا ﴿ **نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا** ﴾ شبه حال الذين يدخلون النار، وتحيط بهم من كل جانب يكونون فى سرادق ويحيط بهم إحاطة الدائرة بقطرها، أو شبهت النار بسرادق أحاطهم، وكله نار لا يخرجون من قطر إلا إلى قطر، وإنهم يكونون فى شدة، والعطش يكوى بطونهم كيا، ﴿ **وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ** ﴾، والمهل هو المصهور من الفلزات، فإنه شديد الحرارة، وهو ﴿ **يَشْوِي الْوُجُوهَ** ﴾ شيا، فهو فى حرارة تبلغ درجتها الألوف من أرقام الحرارة، وروى أن منه غليظا كردىء الزيت.

هذه جهنم التى تستقبلهم بسبب مجانبتهم الحق، وانغمارهم فى الباطل انغمارا، وإنها بئس المقام، وبئس شرابها شرابا؛ ولذا قال تعالى: ﴿ **بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا** ﴾، أى هذا شراب مذموم أشد الذم لأنه يشوى الوجوه إن سكب على الوجوه، لا يستبرد به ولكن تشوى به، ويقطع أمعاءهم، وجهنم ساءت مرتفقا أى ما أسوأها مكانا يرتفق، فلا اطمئنان، ولكن نيران ولظى، هذا جزاء

العصاة عبدة الأوثان فهم حقراء الفكر فى الدنيا، ويصلون النار فى الآخرة، وأصل ارتفق اتكأ على المرتفق، وهو علامة الاطمئنان ولا اطمئنان أبدا.

وأما جزاء المؤمنين الذين اختاروا الحق سبيلا، فهم فى روح وريحان، وقد ذكر الله تعالى جزاءهم فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠) أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١)﴾.

بعد أن بين الله تعالى جزاء العصاة عبدة الأوثان ذكر ما يستقبل المؤمنين المطيعين الذين يعملون الصالحات، فقال عز من قائل: **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠)﴾**، جعل الله تعالى سبب ما يستقبلهم من النعيم أمران:

الأمر الأول - إيمان صادق وإخلاص يعمر القلوب فإنه لا ثواب من غير قلب منيب.

الأمر الثانى - عمل صالح نافع بأداء ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه فى استقامة قلب، وكمال قصد واتجاه إلى النفع.

ويلاحظ هنا أنه أظهر فى موضع الإضمار فلم يقل إنا لا نضيع أجرهم، بذكر الضمير الذى يربط بين المبتدأ والخبر، بل أظهر بالموصول، فقال: **﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾**، لبيان أن استحقاقه الأجر بسبب إحسان العمل وإتقانه، وقد أكد الجزاء وأنه لا يضيع عملا، ولا يظلم الناس أشياءهم فى قوله: **﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾** أكد الكلام ب(إن) وبإضافة الجزاء إليه جل جلاله.

هنا ذكر الجزاء مبهما، أو ذكره سلبيا، بأنه سبحانه وتعالى لا يحرمهم من حقوقهم، ولا يضيع عليهم أجورهم، ثم ذكره سبحانه بعد ذلك إيجابيا عطاء

مفصلا، فقال سبحانه وتعالى ما يدل على نعيمهم من ثيابهم، واطمئنانهم، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾، ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى هؤلاء المتصفين بهاتين الصفتين الإيمان والعمل الصالح، والإشارة إلى الموصوف تدل على أن الصفة سبب الحكم، وفى هذا تأكيد بأن العمل الصالح والإيمان سبب الجزاء، كما أشار سبحانه وتعالى فى الآية السابقة، وفى هذا النص جزاءان:

الجزاء الأول - الاستقرار والإقامة الدائمة، وذلك بذكر جنات عدن.

والجزاء الثانى - طيب النظر وما يكون به ارتياح النفس، وطيب المجلس وهو أن الأنهار تجرى من تحتهم فى ظلال أشجارها فتجرى الأنهار من تحت الأشجار الملتفة المتصلة، فتلتقى راحة النفس مع جمال المنظر ومع الاستقرار والاطمئنان، وقد أضاف الله تعالى إلى هذا النعيم، نعيم الثياب الذى يكون دليلا على العز والترف لمن حرموا منه فى الدنيا، فقال تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾، وأحسب أن ﴿مِنْ﴾ الأولى والثانية للبيان، أى يُحَلَّون أساور هى ذهب، ويلبسون ثيابا خضرا، والثياب الخضر تكون فيها نضرة، وتطمئن لها النفس وهى لون الزروع النضرة ﴿مِّن سُندُسٍ﴾، أى حرير خفيف ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾، أى حرير كثيف، ﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾، أى الفراش اللين المبثوث فى حجراتهم، وقد مدح الله تعالى ذلك الجزاء، فقال: ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ﴾، أى أن هذا الثواب ممدوح بالغ أقصى درجات حسن المنظر والرئى، ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾، أى ما أحسنها مرتفقا، والضمير فى حسنت يعود إلى جنات عدن، والمرتفق أصله من الاتكاء على المرفق، وهو دليل الاطمئنان والراحة والنعيم.

ويذكر أن الجزاء فى هذه الآية الذى اختص بالحلى، والثياب النضرة الحرير، رقيقها وكثيفها هو أخص متع النساء وخصوصا حلى الذهب والأساور منه، فلم يعهد ذلك حليا للرجال، ولكنه متعة للنساء فى الدنيا فيكون متعة المؤمنات الصالحات فى الآخرة، ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾.

مثل رجلين أحدهما عاص والآخر صالح

قال الله تعالى:

وَٱضۡرِبۡ
لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا
بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ﴿٣٢﴾ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ
تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ
لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴿٣٤﴾
وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ
أَبَدٗا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي
لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ
أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا
﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٣٨﴾ وَلَوۡلَآ إِذۡ
دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠
أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن
جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا
زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴿٤١﴾
وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ
عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٤٢﴾ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ

فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ
لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

وتلك الأمثال يضربها الله تعالى لذى الألباب الذين يعتبرون ويتعظون ويدركون أنفسهم من صورة غيرهم، ويؤدبوها ويصلحوها لرؤية المحاسن وأضدادها فى غيرهم.

وهذا مثل ضربه الله تعالى وبينه للفاجر والبار، أعطى كل واحد خيرا ربما يقل أحدهما عن الآخر خيرا، أو لا يقل ولكن أحدهما يستكثر ما أعطاه لا ليشكره، بل ليغتر ويحسب أنه أخذه أخذا ويذهب فرط غروره إلى أنه أخذ بفضل عقله، وأنه لن يضيع أبدا، ثم يذهب ليقمع غروره أو تنطفئ شعلة اغتراره، وتبدو له الحقيقة واضحة، وهى أنه لا يملك من الأمر شيئا، أما الثانى صاحبه، يذكره بأصل خلقه وأنه لم يكن شيئا مذكورا، ويوجهه إلى الحمد والشكر على ما أعطى، ولنترك القول لرب العالمين فهو البليغ الذى أعجز بكتابه الناس أجمعين.

قال تعالى:

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) ﴾.

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً ﴾ بين حالا تكون فيها العبرة، وهى حال رجلين مختلفين طاعة وعصيانا **﴿ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾**، أى جعل الله لأحدهما جنتين من كروم، وأحاطهما بنخل فعل كبار الملاك الذين يجعلون مزارعهم ذات جنات وعيون ونخل يحوطها كأنه سور يطوف بها، فتكون مثمرة، ويكون سورها مثمرا لا يكون حديدا ولا خشبا، ولا بناء بل يكون نخلا حيا مثمرا يؤتى جناه، وجعلنا بينهما زرعا، ينتج بقولا وقمحا وأرزا

وذرة، فحيثما نظرت إلى الجنتين وجدت طعاما طيبا، فاكهة وتمرا وبقولا وغيره، مما هو غذاء ومتعة، و﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا ﴾، أى ثمرها كاملا موفورا وبانتظام لم تتخلف سنة عن أخرى بل آتت به رتيبا تباعا، ولم تظلم منه شيئا، أى لم تنقص منه شيئا ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً ﴾، أى شققنا خلالهما نهرا يجرى فيكون السقى يسبح لا بآلة، والماء موفور، لا تصاب الزروع بحرمان من الماء، ولا الأرض بجفاف منه، بل كل شيء ممهد، ولم تكن كلتا الجنتين هما كل ماله، بل له مال آخر وهو مال مثمر من تجارة ونحوها، وكان لهذا المال ثمر إذ كان يثمره وينتج به كنعم ومتاجر كما ذكرنا؛ ولذا قال تعالى: ﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾ مع الجنات والزروع والنخيل ثمار لأموال أخرى.

وكان حقا عليه أن يشكر هذه، وأن يشعر صاحبه بأن له حق الأخوة والصحبة فيها، ولكنه تكبر وافتخر بها، وإذا دخل الفخار فى نفس من أنعم الله تعالى عليه بنعمة، فإن الفخار وراء الغرور والكبر، إذ الكبر بطر النعمة وغمط الناس؛ ولذا كان صاحبه أول من بادره بالمفاخرة ﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً ﴾، (الفاء) للعطف مع التورية والترتيب، أى قال عقب أن حالت حاله إلى هذه الحال، ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً ﴾، وكأنه يقول له أنا أعلى منك منزلة لأنى أكثر منك مالا، ومنازل أهل الدنيا بنيت على المال، وإنه فوق كثرة ماله يحسب أنه أعز، إذ قال: ﴿ وَأَعَزُّ نَفَراً ﴾، أى أنه عزيز بعزة الذين تبعوه فى أمواله ولكثرة نسبه، وأكثر أولادا، يعتز بهم وبقوتهم وذهب غروره بهذه الحال التى هو عليها ولم يحسبها فانية؛ لأن الكافر حسى لا يؤمن إلا بالمادة المحسوسة ومن علمت عليهم وجعلها هما، لا يكون تفكيره إلا من الحال القائمة والأمر الموجود أو حكم الواقع كما يقال فى هذا الزمان. ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ﴾، أى دخل الجنة فى هذه الحال التى استولت عليه حال الغرور، وحال التعالى الكاذب وعدم المبالاة إلا بالساعة التى هو فيها، واندفع بها إلى الشرك، وهو بذلك الغرور والكبر وغمط الناس ظالم لنفسه، فظلمه لنفسه بهذا الذى هو محيط به، وقد أداه إلى الشرك كما ذكرنا وذلك ظلم عظيم، وقد أداه ذلك إلى أن يقول: ﴿ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً ﴾، فهو حكم بالحاضر على المستقبل، وذلك شأن المادى الذى يأسر

الحاضر تفكيره، حتى لا يفكر إلا فى محيطه، وقد أكد بقاءها بالنفى بـ (ما)، وبـ (أبدا)، وكأنه يحكم على الله، ويتحكم فى المقادير وما هو بشىء.

ثم يتطاول فينكر البعث، ويفتات فى تقديره، فيقول: ﴿ **وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً** ﴾، ينفى إيمانه بالساعة، ويقول مستهينا، غير عابئ كأن الأمر لا يوجب اهتمامه ﴿ **وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً** ﴾، والساعة هى ساعة الحساب وهى التى تكون يوم القيامة، وإذا أطلقت الساعة فى القرآن لا يراد بها إلا ساعة الحساب والجزاء، وكأنه ليس بجدير بأن يسمى ساعة غيرها.

ويفرض أنه إذا صحت الساعة فإنه سينال ما ينال فى الدنيا وأكثر منها، فيقول مغترا: ﴿ **وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا** ﴾ مرجعا أنقلب إليه، بدلا مما كنت فيه، وهو فى هذا يقسم مطمئنا، فاللام الأولى الممهدة للقسم أو المومئة إليه، واللام الثانية جواب القسم، وقد أكد القول كما رأيت بالقسم، وبنون التوكيد فى جوابه، وهو بهذا يقيس الحال المقبلة على الحال الحاضرة، وكأن جنات الدنيا ممتدة إلى الآخرة بل تزيد عليها، وإن هذا أقصى درجات الغرور، فهو يفتات على ربه أو يقسم عليه، وليس من المقربين إليه الذين إذا دلفوا بأعمالهم إليه، وأحبوا عباده، وعادوا بما آتاهم من خير على المحتاجين من اليتامى والمساكين وأبناء السبيل.

وإنه يلاحظ مما قصه القرآن الكريم من حال الرجل الذى أوتى الجنتين، وكيف هذا الإيتاء تأدى به إلى الكفر والطغيان أن النفس غير المؤمنة ما تعطاه تحسبه حقا لها، ويدفعها غرورها إلى اعتقاد أنها نالته بكفايتها، أو لمزية اختصت بها، فلا تحسبه عطاء من الله، وكان يمكن أن يكون لغيره بأوفر منه، ولا أن الأسباب لا تؤدى إلى نتائجها إلا بإذن الله ثم يندفع بها الغرور فتحسبه من فضلها على غيرها، وحرمان غيرها من نقصانها الذى لم تبلغ مواهبها ما عندها هى ثم تسترسل فى غلوائها، فتحسب أن ذلك من دواعى تفاخرها، وتطاولها على غيرها، وتسترسل فى غرورها أكثر فتحسب أن ذلك دائم لا يبيد، وأنها تنتقل من ظفر بالخير إلى مثله غير عابئة بشىء، ولا مقدرة لمستقبل، ثم تدفعها غلواؤها فى

التقدير فتنكر البعث أو لا تهتم به، وتظن ظنا من الإثم والبهتان على الله أنه إن كان بعث فستنال من الله خيرا من هذا.

وإن هذا الغرور النفسي، والطغيان على الناس هو الذى أدى إلى الكفر والإيغال فيه من غير حساب، هذه هى النفس الطاغية التى تسير فى طريق الكفر.

أما النفس المؤمنة وهى التى تتمثل فى الرجل الآخر الذى هو أحد الرجلين اللذين ضرب بهما المثل، فإنه يتمثل فيها الرجل المؤمن فهى تحس:

أولا - بأن الله هو الخالق، وأنه خلق الإنسان من تراب وأنه الواحد الأحد.

ثانيا - وأنه هو المعطى، والمعطى يستحق الشكر.

ثالثا - والتفويض إلى الله، والإحساس بأن كل شىء عطاء منه بعد اتخاذ الأسباب.

رابعا: وبأنه موضع الرجاء على أن يفوض الأمر إليه، وأن من أعطى يمنع إذا اغتر من أعطاه، ورغب عن طاعته، وأن عليه أن يتذكر المنع عند العطاء، وأن يتذكر حاله إذا فقد النصير وهذا جوابه لما حاوره صاحبه مفاخرا.

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧)﴾.

هذا هو التأكيد الأول يقول له: إنك نسيت خلقك الأول أنشئت من تراب ثم من ماء مهين، ثم كانت أدوارك من أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات نطفة فى قرار مكين، ثم مضغة ثم عظاما ثم كسونا العظام لحما ثم صرت رجلا سويا، وخلقت ضعيفا فى كل أدوارك ثم صرت رجلا غرك الغرور، أشار إلى كل هذا فى كلماته الموجزة المشيرة والموضحة، ونبهه إلى أنه كفر بكل هذا فى استفهام إنكارى توبيخى؛ لأنه لإنكار ما وقع منه من كفر بربه الذى خلقه فسواه فى أحسن تقويم.

فحاله حال كفر وإنكار للنعمة، وجهل لحقيقة أمره فذكره بذلك كله وأنه بهذا الطغيان والغرور ونسيان البعث وإهماله لطاعات الله تعالى قد كفر بالله أشد الكفر.

أما حاله هو، وهى حال الإيمان، فقد قال فيها:

﴿ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) ﴾.

(لكن) تفيد الاستدراك على ما قاله صاحبه، وبيان أن حاله ليست كحاله، إنما حاله حال إذعان لله تعالى وحده على خلاف حال صاحبه من إشراك بالله، واستهانة بالبعث، ونلاحظ فى المصحف أن ألفا بعد النون فى ﴿لَكِنَّا﴾، وهو يتحدث وحده ونحسب أن كتابته ليست عبثا، أو لغير معنى، بل إن كتابته تنبيه على بعد الحال المستدركة بين الرجلين، فبينا الأول كان طاغيا مفاخرا مغرورا، فهذا موحد متطامن شاكر لله تعالى أنعمه، فى سرَّائه وضرَّائه فأمره كله إليه سبحانه، لا يملك من أمره شيئا أبدا.

وقوله: ﴿هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ تفويض مطلق لذى الجلال والإكرام؛ لأنه ربه الذى خلقه وقام عليه حتى بلغ ما بلغ بين الأحياء؛ لأنه الحى القيوم، وأكد الوحدانية بقوله: ﴿وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾، وهذا تعريض بالذين يؤمنون بأن الله تعالى خالق السموات والأرض وأنه لا خالق سواه، ومع ذلك عند العبادة يشركون به، وقوله تعالى: ﴿بِرَبِّي﴾ يفيد مع ما سبق علة العبادة وعدم الإشراك فيها، ويقولون هو خبر لمبتدأ محذوف تقديره لكن الأمر هو الله ربى ولا أشرك بربى أحدا، وينتقل إلى توبيخ صاحبه، وتنبيهه إلى وجوب الشكر فيقول كما حكاه الله تعالى:

﴿ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) ﴾.

﴿لَوْلا﴾ للحض، والمبالغة فى الإنكار بمعنى هلا، أى هلا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله و﴿إِذْ﴾ بمعنى وقت، المعنى هلا وقت دخولك جنتك ورؤيتك هذه النعمة قلت ما شاء الله، أى هذا ما شاء الله، وأنه بإرادته ومشيئته ولولا مشيئته ما نلتها، وأنه لا قوة لك إنما القوة كلها لله، فهو الذى

أعطاك وإن حق النعمة شكرها لا كفرها ولا التطاول بها، والمفاخرة على غيرك والاعتزاز بها من غير عزة الله سبحانه وتعالى.

ثم أخذ بعد ذلك يرد على مفاخرته راضيا راجيا، ﴿إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾، ﴿إِن تَرَنِ﴾ حرف شرط وفعله وجوابه، ﴿فَعَسَى﴾ والفاء داخلة فيه؛ لأنه فعل طلب للرجاء، و﴿أَنَا﴾ ضمير الفصل فيه تأكيد لحديث المتكلم عن نفسه، وكان التأكيد لبيان أنه أقل منه فى نظره، أى إن ترنى أنا فى نظرك أقل منك، فإن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، لا يمنعه أحد من عطاء يشاؤه، فعسى ربى الذى خلقنى وكفلنى وقام على شئونى أن يؤتينى خيرا من جنتك التى تفاخر بها وتغتر بها، إنى أرجو الله وأرجو ما عنده مؤمنا بأنه هو الذى يعطى ويمنع فإن أعطانا شكرنا، وإن منعنا صبرنا، وهو خير لنا.

وقال: ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾، الضمير فى ﴿عَلَيْهَا﴾ يرجع إلى الجنة؛ لأنها المذكورة وحدها فى قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ والحسبان هو العواصف من السماء التى يطلق عليها مرامى السماء والحسبان الصاعقة، ويطلق على العذاب، ولعل أقرب المعانى هو الصاعقة المحرقة للزرع والشجر والنخيل وغيرهما من أنواع الأشجار المثمرة وغير المثمرة، ويكون المعنى عسى أن يعطينى الله منه خيرا من جنتك، ويرسل على جنتك صواعق من السماء ﴿فَتُصْبِحَ﴾ الجنة خالية من الأشجار ﴿صَعِيدًا زَلَقًا﴾، أى صعيد أملس لا شجر فيه، ولا ينبت شجرا، ولا كلأ، و﴿زَلَقًا﴾ هو الذى لا يثبت عليه قدم وهو كناية عن أنه خال من كل نبات وشجر وهو بلقع لا ثمر فيه.

هذا هو حسبان السماء لا يبقى ولا يذر، وعسى أن يجف الماء فلا تنزل صاعقة ماحقة، ولكن يجف الماء، وهو مادة الحياة للنبات، ولذا قال تعالى عن الرجل المؤمن:

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١)﴾.

أى أن ماءها يغور فى الأرض ويختفى من سطح الأرض إن كان ماء عيون وآبار، أى على أعماق بعيدة من باطن الأرض فلن تستطيع الحصول عليه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾، أى يتعذر عليك طلبه ولا تجده ولا تجد عوضا عنه، لا تجد لها سقيا ولا رعيا وحينئذ يجف لك الشجر والزرع ويصير حطاما.

وقد بين سبحانه أن ما توقعه المؤمن صدق، ونزل الدمار بالجنتين فقال تعالى:

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ يقال أحاط الجيش بالعدو حتى سد عليه مسالك النجاة، ثم صارت تطلق فى اللغة بمعنى الهلاك مجازا مشهورا وأصبح البعير يحاط به بمعنى تعرضه، ولقد قال تعالى فى الذين يتعرضون للهلاك، ﴿... إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ ... ﴿٦٦﴾﴾ [يوسف]، ويكون فى الكلام مجاز بالاستعارة شبه هلاك الزرع هلاكا مستغرقا لم يدع فيه شيئا قائما بذاته بإحاطة الجيش بعدوه واستئصاله بحيث لم يفلت منهم بالنجاة أحد، والجامع فى المجاز هو الإحاطة والشمول، وفى هذا المجاز إشارة إلى المغرور بهذه المعاندة كأنه فى حرب مع الله سبحانه، وبعد هذه الإحاطة المهلكة المستغرقة لكل الزرع أخذ يعض بنان الندم، وقال الله تعالى فى ذلك: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾ الفاء فاء السببية والعطف المفيد للترتيب والتعقيب، وتقليب الكف كناية عن الإحساس بالندم، وعن الإحساس بالخسارة فهو يقلب كفيه نادما، ويحس بالخسارة فى النفقة التى أنفقها، وهكذا المغتر من غير مبرر للغرور يكون فى ندم على غروره، وفى حسرة على ما أنفق من مال ذهب هباء منثورا، أو أدراج الرياح، ويتمنى الأمانى ويقول: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾، ليت للتمنى، فهو يتمنى أن لم يكن قد أشرك، ونادى ﴿يَا لَيْتَنِي﴾ كأنه ينادى ليت، كأنه يقول: يا (ليت) تعالى فهذا وقتك الذى

أناديك فيه ﴿لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾، كأنه أحس بأن الشرك هو الذى ربَّى فى نفسه الغرور، وأن الغرور الذى دلاه إلى هذه الحال من الهلاك.

أهذا التمنى فى الدنيا أم فى الآخرة؟ الأقرب إلى السياق أنه فى الدنيا، وأنه سبيل التوبة، وقد يكون فى الآخرة كما تدل الآية الآتية، وقوله: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ الضمير يعود إلى الجنة، وذلك من خوت الدار خواء إذا أقعرت وتهدم بناؤها وسقطت عروشها، فخاوية على عروشها معناها ساقطة الكروم على عروشها، أى أن كل ما فيها سقط بعضها على بعضها، فالأشجار جفت، والزرع صار حطاما، وصارت كلها خواء.

كان المغرور المفتون بجنته يعتز بماله، فيقول أنا أكثر منك مالا، وكان يعتز بنفره، ويقول أنا أكثر منك مالا وولدا، وهذا مآله قد آل إلى فناء وخراب، وذهب نفره فلم يكن له نصراء ينصرونه من دون الله؛ ولذا قال سبحانه مبينا عزلته.

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾.

الفئة الجماعة المناصرة، أو العصبة التى تناصره، اعتز بها، ولقد قال: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ فأبعد الله عنه عزة النفر عند إبعاد المال، فلم يكن هناك فئة تنصره على كل حال، بل كانوا فئة تناصر ماله، ولا تناصر شخصه فلا نصير له من دون الله، وقد تخلى الله تعالى عنه لعصيانه فلم يكن له نصير من غيره، ولم يكن هو منتصرا بذاته، فليس قويا فى ذاته ينتصر لنفسه، وليست قوة من خارجه وما كان ممتنعا بقوة شبه ذلك، وقال قتادة ما كان مستردا بدل ما فقد منه، والفئة مشتقة من الفىء، أى يفىء إليها لتنصره، فهى العشيرة ويظهر أن ذلك يوم القيامة، ولذا قال تعالى:

﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾.

الإشارة إلى البعيد فى الآخرة؛ ولذا كانت الإشارة بالبعيد باللام والكاف معا، وكلاهما تنبيه للبعيد، أى السلطان الكامل، كما قال تعالى: ﴿... لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر]، ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ والضمير ﴿هُوَ﴾

يعود لله تعالى، أى خير ثوابا فى الدنيا والآخرة لمن آمن واتقى، ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾، أى خير عاقبة فى الآخرة وهو النعيم المقيم، هذا وإنا نقول إن هذا كله فى الدنيا والآخرة.

ولكن يجب بحث خبر المثل أهو تصوير لحال المستقيم، وحال المنحرف المغرور، وعاقبة كل، وهو تقدير، أم له واقع تاريخى، وإنه كيفما كان مصور لحال المغرور الجاهل المشرك، وحال المستقيم ويقول الزمخشرى: إن المثل يصور قصة واقعة فيقول: (وقيل هما مثل لأخوين من بنى مخزوم، مؤمن وهو أبو سلمة عبدالله بن عبد الأشد، وكان زوج أم سلمة قبل رسول الله ﷺ، وكافر وهو الأسود ابن عبد الأشد).

وسواء أكان المثل تقديرا صادقا وتصويرا للنفس الكافرة، أم كان قصة وقعت فهو مبين لنفس الكافر وهى يسودها الاغترار بالعطاء، ووراء الاغترار الضلال والاستكبار، والمفاخرة ونسيان الواجب لحق النعمة، والبطر والكبر وغمط الناس وأن المؤمن من صفاته الرضا والقناعة والاتجاه إلى الله تعالى وشكر النعمة ﴿...لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم].

مثل الدنيا والآخرة والبعث

قال الله تعالى:

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ
فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾
الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ
خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى

ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟
عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ
أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ
مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ
لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟
حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟
لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ
أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ
بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ وَاضْرِبْ ﴾ معناها بين لهم ﴿ مَّثَلَ ﴾ حال ﴿ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾، فى زخرفها وبريقها، ﴿ كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ ﴾، أى فاختلطت به بذور الأرض التى صارت نبات، وصارت ريانة به، وجرت فيها الحياة، ولكن استمرت أمدا ليس طويلا فأصبحت هشيما، أى حطبا متكسرا، يتفتت حتى تذروه الرياح، ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾.. إذ أنشأ من الماء حياة فى البذور، ففلق الحب فكان نباتا قد اختلط بالماء إذ كان مادة نمائه، واستوى به على سوقه، ولكن لم يلبث إلا قليلا، حتى تكسر، ثم تفتت فكانت الرياح تحمله وتذروه من مكان إلى مكان، ثم آل بقدرته إلى ما آل إليه.

والتشبيه هو تشبيه الدنيا بالحال التى تكون من اختلاط الماء بأصول النبات والتفافه بعضه ببعضه ثم تكسره السريع مع تفتته، فليس التشابه بين الحياة الدنيا

والماء، بل بين الدنيا وهذه الحالة من الماء والنبات، ثم سرعة الفناء والتكسر والتفتت العاجل القريب.

وقد صور الله تعالى حال الدنيا بمثل ذلك فى آيات أخر، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ ... (٢٤)﴾ [يونس]، وقوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ... (٢٠)﴾ [الحديد].

هذه حال الدنيا متاع قليل، وفناء سريع، والآخرة خير وأبقى، وقد ذكر سبحانه أبرز ما فى الحياة من زينة ومتاع فقال عز من قائل:

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦)﴾.

بعد أن بين سبحانه وتعالى مثل الحياة الدنيا من حيث إنها متعة غير باقية، وما فيها من خير هو الفناء لا بقاء فيه - ذكر سبحانه ما فيها من زينة وتفاخر، ومادة للتطاول فقال: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، الزينة ما يتزين به، وهى مصدر وصف به، والمصدر إذا وصف لا يثنى ولا يجمع، ولذا وصف به المال والبنون، وكان المال والبنون الزينة؛ لأنه كان بهما القوة، فكان المال قوة لما يمكن صاحبه من الحصول على حاجاته، ولما يمكنه من الحصول على مآربه من أعدائه وأوليائه، والبنون لأنهم القوة فى النصرة؛ ولذا كانت مفاخرة أحد الرجلين على صاحبه قوله: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ والنفر أكثر ما يكون بالولد، والله تعالى يقول فيمن طغى بماله وولده، ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧)﴾ [المدثر].

وقد سمى الله تعالى القوة بالمال والبنين زينة؛ لأنها موضع تفاخر وتباهٍ كالزينة، وقدم المال على البنين؛ لأن البنين من غير مال لا يكونون زينة، بل

يكونون تكليفا، وقد يكون مرهقا. وإن أمور العقلاء تجرى على سنة المنفعة، فما يكون أكثر منفعة وأبقى يطلبه العقلاء، وما يكون أقل نفعا، ولا يبقى ينفر منه العقلاء، ولا يقبلون عليه؛ ولذلك بين الله تعالى أن زينة الدنيا وخيراتها غير باقية، إنما الباقيات الصالحات فى الآخرة هى الأكثر فائدة وأملا، فقال تعالى: ﴿ **وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً** ﴾ الباقيات وصف لموصوف محذوف، أى والأعمال التى تبقى، ولا تفنى سريعا، وهى صالحة فى ذاتها عامرة لما بين العبد وربه أولا، وبينه وبين الناس ويباركها الرب ثانيا، سواء أكانت من شأنها أن تكون ذات أثر باق فى الدنيا، من عمل طيب يبقى أثره بعد الموت، أم كان يرجى خيره فى الآخرة، وفى الجملة الأعمال التى تكون كثيرة النفع فى ذاتها ويبقى أثرها بعدها، كما قال النبى ﷺ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**» هذا فى الدنيا، أما فى الآخرة فكل ما يحرثه العبد للآخرة يكون باقيا، يقول علىٌّ كرم الله وجهه: «الحرث حرثان حرث الدنيا المال والبنون، وحرث الآخرة الباقيات الصالحات، وقد يجمعهن الله تعالى لأقوام، وقد حكم سبحانه بأن ﴿ **وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً** ﴾، أى خير فائدة وعائدة وعاقبة، وتفتح باب الأمل لخير عميم، ونعيم مقيم، وجنة خالدين فيها، وكرر كلمة ﴿ **خَيْرٌ** ﴾، لاختلاف نوعهما، فالأول عاجل فى الدنيا، والثانى أمل ورجاء فى الآخرة، وقد ذكر الله تعالى الآخرة، ومقدمات البعث والقيامة فقال عز من قائل:

﴿ **وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا** (٤٧) ﴾.

ويوم نسير الجبال، أى نحركها من أماكنها، ونسيرها كما نسير السحاب، كما قال تعالى: ﴿ **وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ** ... (٨٨) ﴾ [النمل]، و﴿ **يَوْمَ** ﴾ متعلق بفعل محذوف تقديره اذكر يوم نسيِّر الجبال، أى يوم البعث إذ تتغير الدنيا، والأرض والسموات، وقد خطر بخاطرى أن ﴿ **نُسَيِّرُ** ﴾ متعلق بـ ﴿ **خَيْرٌ** ﴾ محذوفة دلت عليها الآية قبلها، أى الباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخيرا أملا، وخير يوم نسير الجبال، وترى الأرض.

وتسيير الجبال تحريكها من أماكنها، وتكسيرها فتكون هذه الأوتاد الشامخة منكسرة متفتتة، كما قال تعالى: ﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا (٦) ﴾ [الواقعة]، وكما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) ﴾ [التكوير]، ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً ﴾، أى ترى فى هذا الوقت صعيد الأرض بارزا، ليس عليه جبال كالأوتاد والأشجار وبرز ما فى باطنها من أحجار وفلزات، وبرز ما فيها من القبور، كما قال تعالى: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) ﴾ [الانفطار].

وهكذا يُنهى الكون بارئُه، ويذهب هذه الحياة بانيها، ومن بعد ذلك، وقد أبرز كل شىء خالق كل شىء عندئذ يكون الحشر ولا يغادر منهم أحدا؛ ولذا قال تعالى: ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾، أى حشرناهم فى ذلك اليوم لا نترك أحدا، وعبر سبحانه بالماضى لتأكد هذا الحشر، واستعمال الماضى فى مقام المضارع لتأكد الوقوع، وعبر سبحانه بالفعل حشر للإشارة إلى جمعهم غير مريدين، أو مختارين، وأنهم جميعا متلاقون الضالون والمضلون، وأنهم بعد ذلك يعرضون على ربهم؛ ولذا قال تعالى:

﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا (٤٨) ﴾.

أى أنهم فى هذا المحشر الذى حشروا فيه لم يكونوا مجهولين، أو أن الازدحام جعلهم غير معروفين، بل إنهم كانوا مع هذا الجمع الحاشد معروفين مميزين عند رب العالمين الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك]، بل إنهم عرضوا صفا كما يعرض الجنود صفوفا متراصة أمام قائدهم يلقى إليهم أوامر، فكذلك صفهم الله تعالى صفوفا متميزة مقرا لهم بأنه يعلمهم، يذكر الله لهم بلسان ملائكته أو إن حال الموقف كأنهم يخاطبون بالقول: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ

مَرَّةٍ...(٩٤)﴾ [الأنعام]، أكد سبحانه وتعالى مجيئهم بـ (اللام)، و(قد) وأنهم معاينون وقوله تعالى: ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فيه إشارتان:

الإشارة الأولى - أنهم يجيئون مجردين من كل نسب وحال من أحوال الدنيا التى كانوا بها يتفاخرون من مال ونفر، وهيل وهيلمان وسلطان.

والإشارة الثانية - إشارة إلى قدرة الله الكامل المسيطرة، وأنه أعادهم كما بدأهم، كما بدأكم تعودون، وقوله تعالى: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ الإضراب هنا بـ ﴿بَلْ﴾ معناه الإضراب عما كانوا عليه فى الدنيا وإثبات الواقع المقرر الذى يرونه، و﴿زَعَمْتُمْ﴾، أى ظننتم بزعمكم لا بالحقيقة الثابتة، (أن) هى المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، أى أنهم زعموا نفى البعث بنفى أن الله تعالى جعل لهم موعدا يبعثون فيه، ويحاسبون على ما قدموا من خير وشر، وإنه سيجىء معهم كتاب أعمالهم لم يغادر صغيرة ولا كبيرة، وقال تعالى:

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩)﴾.

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾، أى سجلت الصحف التى كتبت عليها أعمالهم، فلا نقص فيها، ولا محو، بل هى ثابتة حجة عليهم دائمة باقية لا يناكرون فيها، فالمراد من الكتاب جنس ما يكتب ويقيد عليهم، ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ والفاء للسببية، أى بسبب وضع الكتاب ترى المجرمين الآثمين قد أدركوا آثامهم، وشقت نفوسهم فعلمتها فكانوا مشفقين خائفين مما اشتملت عليه، وأصابتهم الحسرات، وانتهوا لما فرطوا فى جنب الله، ونادوا الهلاك إذ لا مفر منه، وهو نداء الحسرة والألم ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا﴾، أى يا هلاكنا النازل بنا، كما يقول النادم يا حسرتا، وقد كانوا ينادونها ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ... (٥٦)﴾ [الزمر]، وكان ذلك النداء لأنهم رأوا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، ﴿مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾ ما لهذا الكتاب،

أى شيء ثبت لهذا الكتاب، واختص بـه لا يترك أمرا صغيرا دقيقـا، ولا كبيرا إلا أحصاه، أى أنه أحـاط إحاطة كاملة بموضوع، وهو أعـمالهم ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ مهيـئا ينادى بآثامهم، وإدانتهم ليـتقدموا للحـساب العسير الـذى نهايته العقاب بالعذاب الأليم.

﴿وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ فـلا ينقص من عـامل خـيـر، ولا تزر وازرة وزر أخرى، ولا يخفى شيء من عمل، بل يجازى كل بما كـسب إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وكل يجازى بمقدار ما عمل.

وإن ما توعـد به إبلـيس عـبـاد الله فى قوله: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢)﴾ [ص] يذكر الله عبـاده المؤمنين بهذه العداوة ليحتاطوا، وليـجتنبوا وسوسته فيقول تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (٥٠)﴾.

﴿إِذْ﴾ ظرف للماضى منصـوب بفعل محذوف تقـديره، اذكر ذلك الوقت الذى ﴿قُلْنَا﴾ فيه ﴿لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾، وذكر هذا الزمن بأحـداثه وما قيل فيـه استحضـار لصورته، وكيف عـصى إبليس ربه، وعاند فى الخضـوع لأمر الله تعالى بالنسبة لآدم، واستحضاره استـحضار لعداوته وما هدد به ذريته، وما حاول إغواءهم وكل ذلك يوجب النفرة، وقـد كان من الجن وليس من الملائكة الأطهار، فكان يجب تجنبه وألا يستمعوا إلى وسـوسته فإنهـا تؤدى إلى المعصية كـما أذلت أباهم آدم للأكل من الشـجرة، ولذا قـال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي﴾، الفاء لترتيب ما بعـدها على ما قبلها، وقد تأخرت عن الاسـتفهام؛ لأن الاستفهام له الصـدارة، والتقدير أفتتخذونه بعد أن علمـتم أنه وذريته أولياء نصراء موالون من دون الله وبدل، وهم أعـداء ليسوا بأولياء، بئس بدلا لكم أنتم مـعشر الذين ظلموا أنفسـهم، وأظهر فى موضع ضميـر الخطاب، فقال: ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾، بدل أن يقـول بئس بدلا لكم، للإشارة إلـى أنهم بهذا ظلمـوا أنفسـهم، ووضعوا الأمور فى غير مواضعها، وكانوا كافرين ظالمين.

الوجود كله خلقه الله ولم يكن أحد

قال الله تعالى:

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا
٥١ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ
فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ٥٢ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ
ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ٥٣
وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ
ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ٥٤ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟
إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ
ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ٥٥﴾

الآية السابقة تفيد تحكُّم إبليس وذريته فى الضالين المشركين، واستنكر الله ذلك التحكم فى نفوس الناس بقوله تعالى: ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾.

والضمير يعود إلى إبليس وذريته الذين يضلونهم حتى جعلوهم يتخذون من الحجارة أوثانا يعبدونها، ويجعلونهم يحسبون لها قوة، أو تكون لها شفاعة، أو تكون لها شركة بالله فى خلقه، حتى يجعلوها شريكة فى العبادة، نفى الله تعالى أن يكون لإبليس وذريته مشاورة أو مشاهدة فى خلق السموات والأرض وخلق الأنفس حتى يجعلوكم تشركون الأوثان فى العبادة فهؤلاء مخلوقون، فكيف يشتركون فى إعطاء قوى ليست لهم، فقال تعالى:

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾.

والإشهاد، تمكينهم من الحضور، فمعنى ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾، ما جعلتهم يشهدون، ويشاورون فى خلق السموات والأرض حتى يدَّعوا لحجر أو شخص قوة فى الإنسان ليكون شريكا فى الألوهية للخالق الذى أنشأ وأبدع ودبر، إن الله وحده هو الذى خلق فهو وحده المعبود ولا معبود سواه، ﴿ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾، أى أنهم مخلوقون فعندما خلقهم الله تعالى لم يكونوا شيئا مذكورا وكيف يشهد المخلوق خلق نفسه.

وهذا النص السامى يشير أولا: إلى وجوب الحذر من إغواء إبليس وذريته، وبيان أنهم لا قوة لهم إلا بضعف نفوسكم واستخذائها، فليس لهم قوة ذاتية، إنما قوتهم من ضعفكم، ويشير ثانيا: إلى أنه لا إرادة لهم فى شىء فى الوجود إلا ما تكسبه الأنفس الضالة، ويؤكد ثالثا: إلى أن الله وحده خالق كل شىء.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ فى التاء قراءتان الأولى: بالضم تكون تاء المتكلم، والثانية: بالفتح للخطاب.

وعلى قراءة الضم يكون التخريج وما كان من شأنى أنا الخلاق العليم أن أتخذ من المضلين عضدا أعتضد به أو أستعينه وأتخذه معاونا، وكان المعنى إنى لا أستعين فى الخلق بأحد، ومن المستحيل أن أتخذ معينا من المضلين، ويكون المعنى رميهم بأنهم يضلون ولا يرشدون، والله سبحانه لا يستعين بضال ولا مضل ولا مهتد.

وعلى قراءة الفتح يكون الخطاب للنبى ﷺ، ويكون المعنى وما كنت يا محمد من شأنك أن تتخذ من المضلين عضدا ونصرا فلا تطمع فى نصرتهم، ولا تحاول أن تستعين بمرضاتهم، وتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه.

وأظهر فى موضع الإضمار فقال: ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ على قراءة الضم، لبيان وصفهم الحقيقى، وهو الإضلال، إذ إبليس وذريته للإغواء، كما قال: ﴿ ... لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) ﴾ [ص] قال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ

زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢)﴾ [سبأ]، وقال أيضا: ﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً (١٠٩)﴾ [طه]، ثم ذكَّر سبحانه بحال المضلين مع من أضلوهم يوم القيامة فقال:

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا (٥٢)﴾.

اليوم هو يوم القيامة، والواو متعلقة بفعل محذوف تقديره «واذكر» لهم ذلك اليوم، ودالة على وصل الجملتين، وليستا منفصلتين، والأولى تشير إلى هوانهم ابتداء عند الخلق والتكوين وأنه لا وجود لهم فى هذا الإبان، والثانية تشير إلى هوانهم يوم الحساب، وأنهم لا ينفعون بشيء، والضمير فى ﴿يَقُولُ﴾ يعود إلى الحق جل جلاله، ومقول القول: ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ﴾ وأضاف سبحانه وتعالى إليه الشركاء ـ تعالى عن ذلك ـ لمسايرة زعمهم، وللتهكم بهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾، أى الذين كانوا شركائى فى زعمكم وضلالكم، ويلاحظ أنه ذكرهم ذكر ما يعقل وهى أحجار لا تضر ولا تنفع، ونوجه القول إما بأن نقول إنه تهكم بهم، إذ جعلوها آلهة فوق من يعقل، وإما أن نقول إن المراد إبليس وذريته لأنهم الذين أضلوكم وأوقعوكم فى هذه العبادة الضالة.

وقوله تعالى: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ الفاء الأولى هى العاطفة التى تفيد الترتيب والتسبب، والفاء الثانية كذلك، والفعل ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾، فعل ماض، أى دعاهم معاونين لهم من حف معهم من الملائكة، فالخطاب كان بالأمر لأهل النار أو هم الذين دعوهم ليتبين عجزهم إذا لم يستجيبوا لهم، ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾، أى جعلنا بين الضالين ومن أضلوهم حاجزا مانعا، يمنع أن يعاون أحد الفريقين الآخر، والموبق الهلاك، من وبق بمعنى هلك، أى جعلنا حاجزا، هو فى ذاته هلاك للفريقين.

وهذا كناية عن أن الهلاك يعم الفريقين، وأنه لا منجاة لأحدهما الذين ضلوا ومن أضلوهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢)﴾ [مريم]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ...(٢٨)﴾ [يونس] ويقول سبحانه فى حال المجرمين يوم القيامة:

﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣)﴾.

عاين المجرمون النار بأهوالها، وأنهم لا طاقة لهم بها، وكأنهم رأوا أعمالهم قد استعلت بهم فكانت نارا، وأظهر فى موضع الإضمار إذ إنه سبحانه بدل أن يقول: ورأوا النار وَعْود الضمير ليس ببعيد، قال عز من قائل: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ لبيان وصفهم وهو الإجرام، وأنه سبب استحقاقهم، وأنهم يحسون باستحقاقهم لأنهم أجرموا، ﴿فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾، أى مخالطوها وملابسوها، فالمواقعة الملابسة التى لا ينفصلون عنها، والفاء هى فاء الترتيب والسببية، أى بسبب حالهم من الإجرام اعتقدوا أنهم مواقعوها، والظن هنا اليقين ولكن لِمَ عبر بالظن دون العلم واليقين؛ وذلك لأنهم إذ رأوا هولها وشدتها كانوا يظنون ولا يستيقنون ليوجدوا لأنفسهم نافذة ولو كُوَّة لاحتمال النجاة، ويصور هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾، أى لم يجدوا متحولا عنها وأنها آتية لا ريب فيها.

ولقد قال تعالى بعد أن بين حالهم التى آلوا إليها، أنه قدم لهم أسباب الهداية فى إبانها، فأعرضوا عنها وأثاروا الثارات حولها، فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (٥٤)﴾.

الصرف الرد من حال إلى حال، والتصريف هو التحويل من حال إلى حال، وتصريف القرآن الكريم هو ما اشتمل عليه من أساليب البيان والموعظة

والاعتبار وبيان الأحكام والقصص والعبر، وإيجاز وإطناب من غير فضول أو تطويل، وزجر وترغيب وترهيب، فمعنى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾، أى من كل حال من أحوال الهداية والرحمة وشفاء الصدور مما يجعل الحق واضحا بين أيديهم، فأتى سبحانه فيه بضروب البيان والمعرفة والهداية مما لم يجعل موضعا لريبة مرتاب، أو مراء من القول، ولكن الكافرين أثاروا القول حوله فمرة قالوا: إنه سحر، وأخرى قالوا: إنه شعر، وثالثة قالوا: أساطير الأولين، ورابعة قالوا: علَّمه بشر، وهكذا كانت لهم أقوال باطلة فيه بمقدار ما تثيره أهواؤهم، ويثيره جدلهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾، أى أكثر شيء من شأنه أن يجادل ويمارى جدلا، وهى منصوبة على التمييز كما هى فى قوله تعالى: ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾، أى أن الإنسان أكثر ذوى الألسنة والقول جدا، فهو أكثر جدلا من الملائكة وغيرهم، بل إن الملائكة لا يجادلون.

وإن الجدل من شأنه أن يضيع الحقائق بين المتجادلين، وأن تتبعثر الحقائق على الأفواه، فلا يضبط قول، ولا يستقيم فكر؛ ولذلك كان العلماء الربانيون ينهون عن الجدل، وأشد من عرف بذلك الإمام مالك؛ لأن مثارات الجدل هى مثارات الشيطان، وإن الناس دائما يثيرون الجدل حول رسالات المرسلين، ولا يقطع جدلهم إلا أن يأتيهم الهلاك أو العذاب؛ ولذا قال تعالى:

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً (٥٥) ﴾.

﴿ النَّاسَ ﴾ هنا قيل إنهم أهل مكة، وأميل إلى أن هذا بيان لطبائع الكافرين، وأخص من ينطبق عليهم المشركون فى مكة فقد أغروا بالجدل والمراءاة فى الحقائق، وهم قوم خصمون، كما ذكر القرآن الكريم فى أوصافهم، ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى ﴾، أى ما منعهم الإيمان، وقد توافرت أسبابه وإذ جاءهم الهدى بالرسول أرسله الله إليهم، وبالكتاب الحكيم نزَّله هاديا مرشدا، ما منعهم

الإيمان إلا طغيان نفوسهم، وازورارهم عن الحق والجدل حوله، فإن علاج هذه الحال أن تأتيهم سنة الأولين، أى الطريقة التى نزلت بالأولين وهى الاستئصال بجعل عالى الأرض سافلها، أو ريح صرصر عاتية، أو بغرق، أو بإمطارهم بحجارة من سجيل.

فقوله تعالى: ﴿ **وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (٥٥)** ﴾، أى عيانا ظاهرة أى انتظار الهلاك بالاستئصال أو انتظار عذاب يوم القيامة معاينة هو الذى منعهم من الإيمان بالهدى والاستغفار من ذنوبهم، ونقول إن هذا تصوير محكم لحالهم فى طغيانهم وغلوائهم كأنهم ينتظرون العذاب ولا ينتظرون الهداية فشبه سبحانه وتعالى حالهم فى الشر، واستمكانه فى نفوسهم واسترسالهم فى الطغيان بحال من يمنعهم الهداية مجرد انتظار العذاب، وهذا تصوير لإمعانهم فى الطغيان والظلم والعدوان ومجاوزة حدود العقل والفكر.

الرسل مع الأقوام

قال الله تعالى:

وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ
إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ
لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا (٥٦) وَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ
إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ
وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا (٥٧) وَرَبُّكَ
ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ

﴿ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ۝٥٨ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ۝٥٩﴾

يبين الله تعالى أن إرسال الرسل للتبشير والإنذر، وأن محاولة الذين كفروا إبطال الحق هو فرار من أن يستمعوا إلى النذير ينذرهم، والبشير يبشرهم، وما ذلك إلا من إمعانهم فى الكفر والضلال، ولقد قال تعالى فى ذلك:

﴿ **وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا** (٥٦) ﴾.

«ما» نافية، و«إلا» استثناء، فيكون فى الكلام نفى وإثبات، وهذا يفيد القصر، أى ليس إرسال الرسل إلا لتبشير المؤمنين بالزلفى عند الله، ودخول الجنة، وإنذار الكافرين بالبعد عن الله وعن جنته، وإن ذلك كان يوجب الاعتبار، وتفهم ما جاء به الرسل، والإيمان به لأنه خيرهم ومصلحتهم وتهذيبهم، ولكنهم بدل أن يفتحوا عقولهم للتدبر وفقه الأمور، أخذوا يعملون تفكيرهم فى رد الحق فهم بمنأى عن شرع الله، كمن يفرض على شىء علما، فلا يتفهمه، ويكون تفكيره فى رده، والتحايل على الخروج عنه؛ ولذا قال: ﴿ **وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ** ﴾، يجادلون جدال مماراة؛ ولذا قال: ﴿ **بِالْبَاطِلِ** ﴾، أى متلبسين فى جدلهم بالباطل وتلبسهم بالباطل، لأنهم يدافعون عنه، ولأنهم يثيرون ترابا بهذا الجدل حول الحق، ولأنهم يفكرون فى دائرته، وغايته إدحاض الحق؛ ولذا قال: ﴿ **لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ** ﴾، وأصل الدحض الزلق يقال: دحضت رجله، أى زلقت، ودحضت الشمس عن كبد السماء أى زالت، فكان فى الكلام مجاز بتشبيه الحق وقد ثارت حوله المثارات بجدلهم، بمن تزلق قدمه فيسقط وإن ذلك غايتهم وباعثهم، ولكنهم لا ينالونه، وهو مبتغى لا يصلون إليه، واللام هنا لام التعليل وبيان الباعث.

وإن هذا الباعث الذى بعثهم على جدلهم، وهو باطل أضافوا إليه أمرا زادهم ضلالا، وإمعانا فى الفساد، وقال تعالى فيه ﴿**وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا**﴾ الآيات هى المعجزات التى جاء بها الرسل للدلالة على الرسالة، وأنهم يتكلمون عن الله تعالى لا من عند أنفسهم، أخذوا يستهزئون، ففرعون استهزأ بالمعجزات وهى تسع آيات ولم يذعن لها، وعاد وثمود وقوم نوح ولوط استهزأوا بالآيات حتى دهمتهم من حيث لا يشعرون، وأنتم معشر العرب سرتم مسار هؤلاء فاستهزأتم بالقرآن، وقد تحداكم أن تأتوا بمثله فعجزتم وما أصغيتم بعد عجزكم للحق، بل زدتم طغيانا، واستهزأوا مع الآيات، استهزأوا بما أنذروا به، وكان استهزاؤهم به بأن لم يلتفتوا إليه، وبأن تهكموا حتى أنه يروى أن أبا جهل كان يقول متهكما على النار: إن محمدا يقول لكم إنه يأتيكم بالنار ولأصحابه بجنات كجنات الأردن، وهنا ملاحظة بيانية أنه ذكر الذين يجادلون بالاسم الموصول ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ لبيان أن الكفر سيق إلى قلوبهم فسدَّ مسامع الإدراك، ولبيان أن السبب فى جدلهم هو الكفر، وإن هؤلاء ظالمون؛ ولذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧)**﴾.

هذا تصوير دقيق للكافرين يبتدئون بالإنكار من غير روية وتعرف للأمر من كل وجوهه، فإذا سارع إليهم جحدوا، أو أعرضوا عن الحق وقد بدا نوره، وسدت عليهم كل منافذ الإدراك فلا تسمع آذانهم ولا تفقه قلوبهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا**﴾ الاستفهام هنا لإنكار الوقوع، أى للنفى المؤكد مع التوبيخ للظالمين والتنديد بهم، أى لا أحد أظلم ممن ذُكِّرَ بآيات الله تعالى فى الكون، ودلالتها على الخلق وأنه وحده الذى خلق كل شىء وأنه وحده هو المعبود ولا معبود سواه، ذكر هذا التذكير، فلم يتريث

ويتأمل، بل سارع بالإعراض، والتولى عنها، والفاء للترتيب والتعقيب، أى أنه رتب على التذكير الإعراض السريع من غير تأمل فيما ذكر به ﴿**وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ**﴾، من كفر وظلم وأكل مال الناس بالباطل، وتطفيف فى الكيل والميزان، نسى هذا فى مقام التذكير بآيات الله تعالى وكمال سلطانه، نسى ما قدمه من شر ولم يفتح بابا للاستغفار والإقلاع، والتعبير بما قدمت يداه، يراد به ما قدم، وعبر باليد وهى الجزء عن الكل ـ وذلك من المجاز المرسل ـ لأن ذلك الجزء له مزيد اختصاص من بين الأجزاء لأنه أكثر الشر يكون به.

وقد بين سبحانه حالهم وأنهم يصبحون غير قابلين للهداية، فقال: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا**﴾ الأكنة الأغلفة والحجب المانعة، والوقر الثقل فى الأذن، والمعنى فى الإجمال جعلنا حواجز تمنع أن يصل نور الحق إلى القلوب لتفقهه وينفذ إلى إدراكها، والإذعان له، والفقه إدراك الأمر والنفوذ إلى غاياته وما يدعو إليه، وقوله: ﴿**أَن يَفْقَهُوهُ**﴾ فى مقام المجرور بلام محذوفة، وكثير ما يحذف حرف الجر فى أن وما بعدها، أى جعلنا الحجب المانعة من أن يفهموه.

والكلام فيه تشبيه بالاستعارة التمثيلية، شبهت حالهم فى الإعراض عن الحق بحال من وضع على قلبه حجب تمنع النور أن يصل إليها، وحال من وضع على أذنه ثقل فلا يسمعه، وجرى ذلك مجرى الأمثال فى القرآن الكريم، وجملة ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا**﴾ منفصلة عن الجملة قبلها لأنها فى مقام التعليل لها.

وإن النتيجة لذلك أنهم لا يهتدون؛ ولذا قال تعالى: ﴿**وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا**﴾، الخطاب للنبى ﷺ، أى إذا كانوا على هذه الحال من أن منافذ الحق قد سدت على أسماعهم وقلوبهم، فإن تدعهم إلى الهدى ﴿**فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا**﴾، أى ما داموا على هذه أو ما داموا فى الدنيا وليس هذا تيئيسا للنبى ﷺ من إيمانهم فلا يدعوهم، ولكنه بيان له لكى لا يرجو إيمانهم بطرد الذين يدعون

ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه، واليأس من إيمان قوم لا يستدعى ترك الدعوة بل يوجب دعوة غيرهم، والاستمساك بمن آمنوا.

وقد بين سبحانه أن الشر كثير فى هذه الدنيا، فقال عز من قائل:

﴿ **وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً** (٥٨) ﴾.

﴿ **وَرَبُّكَ** ﴾ عبر بربك للإشارة إلى أنه الخالق المربى القائم على عباده، القيوم على أمورهم ﴿ **الْغَفُورُ** ﴾ الذى من شأنه المغفرة لعباده يعفو عن كثير ولا يأخذ بكل ما فعلوا، وقدمت المغفرة على الرحمة؛ لأن التخلية مقدمة على التحلية، فالتطهير مقدم على التجميل، وقوله تعالى: ﴿ **ذُو الرَّحْمَةِ** ﴾ و(ذو) بمعنى صاحب، فالمعنى صاحب الرحمة، أى أن الرحمة تلازم ذاته العلية وتختص بها، فلا رحمة إلا منه، وغيره لا رحمة عنده فالله وحده هو الذى يملك الرحمة، وما عند غير الله لا يعد رحمة بالنسبة لما عنده، إنما يكون أمرا نسبيا، والرحمة الحق لا تكون إلا من عند الله، فهو خالق الوجود وخالق الرحماء، فكل رحمة هى منه.

وإن من رحمته مغفرته، ومن رحمته أنه يمهل حتى تكون التوبة النصوح، وتوبة العبد أحب إليه، ومغفرته أقرب عنده؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ **لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ** ﴾ هذه الجملة السامية كالنتيجة لكون الله تعالى غفورا ذا رحمة؛ إذ إنه لذلك لم يؤاخذهم بما كسبوا من شر مستطير وقت أن وقعوا بل أمهلهم وأعطاهم زمانا للتوبة، أو لمضاعفة ما يقترفون، ولأنها نتيجة لما قبلها كانت غير متصلة بها بالعطف، وعبر سبحانه وتعالى بالماضى فى قوله تعالى: ﴿ **بِمَا كَسَبُوا** ﴾ للإشارة إلى أنه كثير يكفى لأشد العقاب، ﴿ **لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ** ﴾ وتعجيل العذاب هو العذاب الدنيوى، وهذا يشير إلى أن أهل مكة ارتكبوا من الشر بالكفر، والإيذاء والفتنة فى الدين والاستهزاء بآيات الله وبما جاء به محمد ﷺ ما يستحقون به أشد العذاب، وأن ينزل بهم ما نزل، ولكن الله سبحانه أراد أن يكون محمد خاتم النبيين، وأن تكون رسالته دائمة بمن يؤمنون، فلا ينزل سبحانه وتعالى

عقابا يعم، ولا يصيب الذين كفروا خاصة؛ ولذا قال تعالى: ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً﴾ الإضراب فى ﴿بل﴾ هو عن نتائج الشرطية السابقة لرد ما بعدها، ﴿لَّهُم مَّوْعِدٌ﴾ وهو أن ينزل بهم العقاب الدنيوى بالجهاد وأن يديل منهم، ثم بعده العقاب الأخروى، وكلاهما له موعد لا يتقدم، ولا يتأخر، ولا محيص عنه ﴿لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً﴾، أى ملجأ فهو نازل بهم فى ميقاته لا خلاص لهم منه، وأمامهم العبر، يعتبرون بها؛ ولذا نبههم الله تعالى إليها فقال:

﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا (٥٩)﴾.

القرى المدن الكبيرة أو الدول الكبيرة، والمراد بالقرى ليست الأماكن، إنما أهلها؛ ولذا قال: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ لضمير العقلاء لما ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾، أى عند ظلمهم، وجعلنا لمهلكهم موعدا، أى مكناهم من أن يرجعوا عن غيهم وضلالهم، ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾، ومَهْلِك مصدر ميمى، وبين أيدينا أخبار الرسل مع أممهم من قوم نوح إلى قوم هود وصالح، وشعيب، وإبراهيم، ولوط.

موسى عليه السلام والعبد الصالح

قال الله تعالى:

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ
أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا
مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾
فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا
هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ
الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ

فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾

قص الله تعالى فى سورة الكهف ثلاث قصص تدل على قدرة الله تعالى فى أن يودع الإنسان من القوى ما يكون خارقا، وما يكون دالا على أن الله يبدع ما لا يعرفه الناس فى أعرافهم وبمقتضى سنة الوجود الإنسانى التى سنها الله تعالى له فى هذه الأرض.

أولى القصص الثلاث - قصة أهل الكتاب الذين ناموا لتسع سنين وثلاث مائة، وتراهم أيقاظا وهم رقود، ويقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد، وقد تلونا من قبل الآيات الخاصة بهم، وذكرنا ما أدركنا من معانيها.

والقصة الثانية - قصة عبد صالح آتاه الله من لدنه رحمة، وآتاه بعض العلم بالأسباب فيما يقدره الله سبحانه وتعالى وصاحب نبيا من أولى العزم من الرسل، وهو موسى عليه السلام، ونتلو بين يدى القارئ قصصها إن شاء الله تعالى.

والقصة الثالثة - قصة رجل آتاه الله علما وحكمة وإذا كان لم يؤته علم الغيب فقد آتاه الله تعالى علم الأشياء وما فى الأرض وبه ختمت السورة.

وإذا كانت القصة الأولى تنبئ عن قدرة الله تعالى فى الإحياء، وفى بقاء الحياة مع اختفاء الحركة، والقصة الثانية تنبئ عن أن لكل شىء سببا، وإن كنا لا نعلمه فآتى الله عبده الصالح علم بعضه، ففى القصة كيف يمكن أن تكون الأرض وما فيها علما للإنسان يأتيه بعقله واختياره فيأتى بالعجائب، بعد هذه المقدمة القصيرة نتناول آيات العبد الصالح.

كان موسى يسير مع فتاه على سيف البحر، يبدو أنه سيف البحر الأحمر من جهة الشرق، وجد العبد الصالح أنه وفتاه يسيران حتى بلغ مجمع البحرين، وإليك الآية الأولى قبل اللقاء بالعبد الصالح:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) ﴾ .

موسى عليه السلام هو موسى بن عمران المذكور فى القرآن، لأنه لم يذكر علم اسمه موسى سوى هذا الرسول الكريم، ومن يقول إنه موسى غيره، فهى دعوى بلا دليل ولا مصدر لها إلا ممن يشكك فى القرآن بخلق أشياء لا أصل لها حول عباراته، إبعادا لمعانيه عن المراد منها، وقوله ﴿ لا أَبْرَحُ ﴾، أى لا أترك السير ﴿ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾، وهذا يفيد أن المقصد الأول له أن يبلغ مجمع البحرين أو يسير حُقُبا، أى زمنا طويلا، أى ما شاء الله تعالى أن يسير، ويظهر أن ذلك كان من موسى عليه السلام لتعرف الأراضى والناس فى مرتحله، أو ليرتاد لبنى إسرائيل مقاما، وقد سبقهم للارتياد ليكفيهم مئونته أولا، ولينقلهم إليه بعد الاهتداء إليه وتعرفه، وقد وصل إلى مقصده وهو بلوغ مجمع البحرين، ولذا قال تعالى:

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) ﴾ .

ومجمع البحرين الذى بلغه نبى الله تعالى موسى- عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم - يكون فى المكان الذى خرج إليه موسى من أرض مصر، وقد خرج إلى سينا، والأردن، فهذه الأرض كانت المسار الذى يسير فيه، وهنا مجمعان كانا فى ذلك الزمان، فكان هنا مجمع يلتقى فيه الخليج الفارسى بالمحيط الهندى وهنا مجمع يلتقى فيه البحر الأحمر أو بحر القلزم ببحر الأردن، وهو خليج العقبة ولا يهمنا أيهما، إنما يهمنا أن موسى عليه السلام كان هدفه الوصول إلى مجمع البحرين أيهما فى هذه المنطقة، وقد يكون قد سار إلى كل واحد منهما فى نوبة من نوبات سيره، ويظهر أنهما فى هذه الرحلة المتعرفة الباحثة التى يرتادها قد أعد للرحلة عدتها، فأخذ معه حوتا، يشويانه هو وفتاه فى رحلتهما سدًّا للجوع، ولما بلغا مجمع البحرين تبين لهما أنهما تركا الحوت نسيانا له ولاشتغالهما بأمر الرحلة، وتعرف طرائقها المعبدة؛ ولذا قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ والنسيان لم يكن وقت البلوغ ولكن تبين النسيان فى ذلك؛ لأنهما بحثا

عنه، فلم يجداه، ولم يكن الحوت ميتا، بل كان حيا؛ ولذا لما نسياه اتخذ طريقه في البحر سربا، أي أنه أخذ يتقلب حتى وصل إلى البحر ﴿**فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا**﴾، والسرب المسلك، وهو من سرب بمعنى سلك، ويظهر أنه لم يقف عند مجمع البحرين، بل اجتازه.

ولذا قال تعالى:

﴿**فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا** (٦٢)﴾.

كأنهما استمرا فى سيرهما حتى جاوزا مجمع البحرين سارا برا، حتى وصلا إليه، ثم اجتازاه بعبوره فى قارب حتى وصلا إلى البر الثانى دارسا متعرفا مرتادا.

عندئذ أحس بالنصَب، والنصب جعلهما يحسان بالجوع، والنصب هو التعب من الجهد المبذول، وأضاف اللقاء إليهما ولم يقل نزل بهما التعب؛ لأنه نصب مختار لهما ولطلبهما.

والفتى هنا هو الخادم أو التابع، والتعبير القرآنى عن التابع أو الخادم بفتى، ولقد قال النبى ﷺ: «**لا تقل عبدى وأمتى، بل قل فتاى وفتاتى**».

قال ذلك موسى لفتاه، ويظهر أنه قد علم غياب الحوت قبل أن يعلم موسى، ولذا هو الذى أخبر بغيابه، ولعله باشر حاله وهو يتخذ سبيله فى البحر سربا، ولذلك كان يعلم من بعد مكان غيابه، وهو مكان بجوار صخرة، فقال:

﴿**قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا** (٦٣)﴾.

تبين أنه كان يعلم غيابه وتركه، إذ أوى موسى إلى صخرة، رقد عندها من التعب كما أرهق التعب الفتى أيضا، فترك الحوت ﴿**وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا**﴾، أى أنه تركه فالنسيان هنا بمعنى الترك والذهول، وما كان يحسب أنه سيتخذ طريقه إلى البحر بطريق ﴿**عَجَبًا**﴾، فعجبا مفعول مطلق وصف لمصدر، فاتخذ طريقه إلى البحر اتخاذا عجبا، وما كان يحسب أنه سيفعل ذلك، إذ كان فى مكتل فخرج منه وأخذ طريقه إلى البحر.

وقد اعتذر الفتى اعتذارا كاملا، فقال: ﴿نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ فاعترف بأنه يتحمل خطأ ذهاب الحوت؛ لأنه ترك الاحتياط وكان يجب أن يكون يقظا.

ويظهر أن موسى عليه السلام كان قد علم من ربه أن العبد الصالح سيلقاه عند الصخرة، ولكنه تركها وهو مار ورقد عندها ولم يتنبه بسبب الرقود عندها أنها الملتقى، ولكن الله تعالى رده إليها، بعد أن تنبه إلى أن الحوت ترك عند الصخرة فكان لا بد من العودة؛ ولذلك قال:

﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤)﴾.

الإشارة فى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى العودة إلى الصخرة والرجوع إليها و﴿قَصَصًا﴾، أى يتبعان أثرهما مقتفين للطريق الذى مرا به؛ لأن الصخرة موضع اللقاء بالعبد الصالح.

اللقاء

قال الله تعالى:

فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ
عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ
عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ
مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ
سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ
فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا
﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا

﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ۝٧١ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٧٢ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ۝٧٣ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ۝٧٤﴾

التقى موسى بالخضر عليهما السلام، وجاء في البخاري عند لقاء موسى وصحبه بالخضر. وجدا الخضر على طنْفسة خضراء على كبد البحر مسجى بثوبه قد جعل طرفه تحت رجليه وطرفه تحت رأسه، فَسَلَّم عليه موسى فكشف عن وجهه، وقال: هل بأرضك من سلام!! من أنت؟ فقال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال: فما شأنك؟، قال جئت لتعلمني بما عُلِّمت رشدا[(١)].

وقال الثعلبي في كتاب العرائس، أنه قال عند رد السلام «وأنى بأرضنا السلام، ثم رفع رأسه واستوى قائما، ثم قال: وعليك السلام يا نبي بني إسرائيل، فقال موسى عليه السلام: وما أدراك بي؟، ومن أخبرك أني من بني إسرائيل؟، قال: الذي أدراك بي ودلك عليَّ، ثم قال: يا موسى لقد كان لك في بني إسرائيل شغل، قال موسى: إن ربي أرسلني إليك لأتَّبِعك وأتعلم من علمك.

هذا هو اللقاء، بين علم النبوة وعلم القدر الذي آتاه الله بعض أسباب عمله سبحانه وهو الحكيم، وقد اعتمدنا في خبر اللقاء على المروى لأنه لا تَزَيُّدَ فيه، ولأنه متلاق مع النص القرآني أشار إليه، ونبه عليه.

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾ هي فاء العطف التي للتعقيب والترتيب، أي أنه عقب الوصول إلى الصخرة وجدا عبدا من عبادنا، وجعل سبحانه اللقاء مع موسى وغلامه لتسوية الصحبة وإعطاء الغلام حقه من

(١) القصة كاملة رواها البخاري: تفسير القرآن - قوله: (فلما بلغا مجمع بينهما)، (٤٣٥٧).

الكرامة، ووصف الله العبد الصالح فقال: ﴿آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما﴾ الرحمة النعمة، والرحمة بالناس إذ يفعل ما يكون فيه صالحهم قابلا، وإن لم يعلموه عاجلا، والعلم الذى من لدن الله تعالى العلم بعواقب الأمور، بالإدراك الباطنى، وقد وازن بعض المفسرين بين علم موسى، وعلم العبد الصالح الخضر، فقال: علم الخضر علم معرفة بواطن قد أوحيت إليه لا تعطى ظواهر الأحكام أفعاله بحسبها، وكان علم موسى علم الأحكام والفتيا بظاهر أقوال الناس وأفعالهم.

والحق أنه يضاف إلى ذلك أن علم الخضر علم الأسباب فى بواعثها، وعلم موسى علم الأسباب فى واقعها، كما سنرى ذلك فى المجاوبة التى كانت بينهما.

طلب موسى عليه السلام من أن يأذن له باتباعه، فقال:

﴿قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا (٦٦)﴾.

سأل موسى عليه السلام الخضر سؤال التلطف المستأذن فى الاتّباع، فلم يرد أن يظهر بمظهر المقحم لنفسه المتهجم بها، وقد قال القرطبى: «هذا سؤال الملاطف، والمخاطب المستنزل المبالغ فى حسن الأدب، المعنى: هل يتفق لك، ويخف عليك» وهذا بلا ريب تعليم لآداب الصحبة أنها تكون باتفاق النفوس، وتلاقى القلوب، والاستفهام لبيان إرادة الاتباع فى أبلغ أدب، وبين سبب ذلك الطلب، فقال: ﴿على أن تعلمن مما علمت رشدا﴾، و﴿رشدا﴾ مفعول لـ ﴿تعلمن﴾، أى أتبعك على أن تعلمنى رشدا مما علمت، و﴿على﴾ تفيد الشرط، أى أن هذا الاتباع لغاية؛ ولذا كان شرطها أن تعلمنى رشدا مما علمك الله تعالى، وبنى الفعل للمجهول؛ لأن المجهول فى اللفظ معلوم فى الحقيقة، فقد سبق قوله تعالى: ﴿وعلمناه من لدنا علما﴾ وتوقع الخضر عليه السلام ألا يصبر؛ لأنه ستقع منه أمور غريبة فى ظاهرها، ولا يصبر أحد على الغريب من غير أن يتعرفه، فقال تعالى:

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨)﴾.

أكد أنه لا يستطيع صبرا على ما يقع منه؛ لأنه أوتى علم الوقائع فى صورها الظاهرة، ونتائجها المعروفة، وأكد أنه لا يستطيع الصبر، بـ «إنْ»، و«لن»، والآية بعدها: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨)﴾.

وقوله: ﴿لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، أى فى صحبتى صبرا؛ لأنك ستجد غرائب بالنسبة لك، ولا تصبر على أمر لم تحط به خبرا، الإحاطة بالخبر العلم به فى واقعه ونتائجه، وأنت ستعلم الواقع. ولا تعلم نتيجة هذا الواقع التى لا يعلمها إلا الله تعالى وقد علمنى بعضه سبحانه، وأحاط بالأمر، أى كان عالما به، كقوله تعالى: ﴿... أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)﴾ [الطلاق]، وأحاط به خبرا معناه أحاط متصلا به خبرا، بالاختبار والمعاينة، ومؤدى هذا الكلام أنه يقول لموسى عليهما السلام إنك لا تعلم إلا ما تختبره وتعاينه، ولا تعلم نتائج الأعمال الظاهرة التى يقدرها الله سبحانه وتعالى فى علمه المكنون.

وعَدَه موسى عليه السلام بالصبر تعليما لكل ذى حاجة أن يكون فى طاعة من يحتاج إليه إذا كان فى الخير:

﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩)﴾.

السين لتأكيد ما يقع فى المستقبل، وهنا نجد كلام كليم الله موسى اشتمل على ثلاثة أمور: أمران فيهما الطاعة، وأمر فيه التعليق على مشيئة الله:

الأمر الأول - وعده بالصبر، فقال: ﴿سَتَجِدُنِي﴾، أى أنى منفذ ما طلبت، وستجد ما طلبت وهو الصبر قائما، على أنه وصف مستمر، ولذا قال: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾.

الأمر الثانى - أنه تأدب بتأدب تعلق على المشيئة، كما أمر الله نبيه محمدا فقال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فهذا تأديب الله تعالى لأنبيائه وعباده الصالحين.

الأمر الثالث - أنه قال: ﴿ **وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا** ﴾ وذلك أدب الاتباع، فالاتباع يقتضى الطاعة، والصحبة تقتضى عدم المنافرة والمخالفة.

أخذ العبد الصالح يبين حدود الصبر، وأنه صبر على الامتناع عن السؤال عن سبب الفعل مع غرابة الفعل فى ذاته، وهذه طاقة عالية فى الصبر، فإن العقل طُلَعَة يريد تعرف سبب كل واقع، وسر كل مجهول، فقال:

﴿ **قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠)** ﴾.

قال العبد الصالح لموسى وقد وعده بالصبر، والفاء للإفصاح عن الاتباع المشروط بالصبر، أى إن صبرت فاتبعتنى فمقتضى ذلك ألا تسألنى عن شىء تستغربه، ﴿ **حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا** ﴾ لعلته، أى لا تسألنى حتى أبادئك بالبيان، وذلك من مقتضيات الصبر، ومن آداب المتعلم أمام المعلم، والتابع للمتبوع لا يبادره حتى يبين هو ما عنده، والتعبير بالذكر يشير إلى أن ما يخبر به من بعد هو تذكير بقدرة الله تعالى.

بعد هذه المواثيق بين موسى كليم الله تعالى والعبد الصالح عليهما السلام أخذا فى السير؛ ولذا قال تعالى:

﴿ **فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١)** ﴾.

(الفاء) فى ﴿ **فَانطَلَقَا** ﴾ للترتيب والتعقيب، أى أنهما عقب أخذ هذه المواثيق، انطلقا فور ذلك الاتفاق، والتعبير بـ (انطلقا) يومئ إلى أن كليهما فرح بهذه الصحبة وسارا ما شاء الله أن يسيرا إلى أن وجدا سفينة، وكان السير على سيف البحر، ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا** ﴾، أى أنه خرقها وقت أن ركبها، وفى الصحيحين أنهما لم يدفعا أجرا، وخلع لوحا منها، لم يدرك موسى عليه السلام الذى أوتى علم المباح والممنوع، ولم يعط من علم الغيب شيئا، لم يدرك، فقال: ﴿ **أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا** ﴾ اللام فى ﴿ **لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا** ﴾ لام العاقبة،

أى لتكون النتيجة أن يغرق أهلها، والأمر الإمر: هو الأمر الخطير العظيم فى ذاته من قولهم أَمِرَ الأمر إذا عظم، كما قال أبو سفيان متهكما: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبى كبشة، عندما رأى هرقل يهتم بأمر النبى ﷺ ويسأل عنه.

لم يسأل موسى عليه السلام عن السر، ولكنه أبدى استغرابه، ولم يستطع الصبر، ولذا قال العبد الصالح:

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢)﴾.

الاستفهام بمعنى النفى، ونفى النفى إثبات وهو هنا يفيد الاستنكار والتوبيخ، والمعنى لقد قلت لك إنك لن تستطيع معى صبرا؛ أى فى صحبتى صبرا، لأنك تسير مع ما يحكم به على الأشياء والأعمال فى الحياة، والعبد الصالح يعلم علم الحقيقة، وهو نتائج الأعمال فى العلم المغيب عن الناس جميعا فى هذه، فهو يخالف بين العلم بالأحكام التى تحكم بين الناس، والعلم بالحقائق التى يقررها الله تعالى، ونتائجها، فالفرق بين العلمين، العلم بما ينظم الناس عليه أمورهم والعلم برب الوجود، وما قدره الله تعالى.

أدرك كليم الله تعالى خطأه، واستدرك أمره، فقال معتذرا:

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣)﴾.

لا تؤاخذنى بطلب رفع المؤاخذة بسبب النسيان، فـ «ما» وما بعدها مصدر، والنسيان يرفع المؤاخذة ويسقط التبعة، وما تركت من وصيتك من ألا أسألك عن شىء قبل أن تحدث أنت منه ذكرا ـ إلا للنسيان ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾، أى لا تشتد على فى التعنيف فيكون الإرهاق الشديد، والمعنى اللفظى لا ترهقنى عسرا من أمرى فتغلظ على الصحبة التى أريدها.

ولكنهما سارا مصطحبين، فكان أمر أشد غرابة، وأعنف مظهرا من خرق السفينة، وهو قتل غلام، ولقد قال تعالى:

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) ﴾.

انطلقا سائرين على سيف البحر، ولكن حدث ما أثار استغراب موسى بل استنكاره ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ﴾، أى أن السير استمر إلى غاية، وهو لقاء غلام، والفاء فى قوله تعالى: ﴿فَقَتَلَهُ﴾ للتعقيب، أى أنه قتله فور لقائه، وهذا يدل على أنه لم يرتكب ما يسوغ القتل؛ إذ إن القتل كان فور اللقاء.

وهنا يتخالف مع علم الحلال والحرام، وعلم الحقيقة الغيبية فيكون الاستغراب، ويقول موسى الكليم مستغربا لائما ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾، أى طاهرة غير معتدية نامية، لأنها فى باكورة حياتها، إذ التزكية التنمية، بغير مسوغ يسوغ لك هذا الفعل؛ ولذا قال بغير نفس، أى حتى يكون القتل قصاصا لا اعتداء فيه ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾، أى أمرا منكرا فى ذاته تستنكره العقول، ويخالف كل معقول.

وقد كان الفعل شديدا، والاستنكار شديدا، وهو أيضا من التخالف بين علم الحلال والحرام، وعلم الحقيقة الغيبية، وقد وصفه كما ذكرنا بأنه شىء نكر، تنكره العقول وكل عرف إنسانى، وقد كان اللوم على الاستغراب أشد.

ولقد قال تعالى فى بقية القصة الصادقة:

قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن
سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا
﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا
أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ
قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي

وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا
ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا
وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ
فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا
﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا
﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ
تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ
أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ
عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

كان استغراب موسى شديدا، وكان معه استنكار ووصف له بالنكر، ولذلك كان التذكير بأنه لم يستطع صبرا بأسلوب قوى فيه لوم أشد، فقال تعالى:

﴿ **قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا** ﴿٧٥﴾ ﴾.

فقد زيد ﴿ **لَّكَ** ﴾ عن اللوم السابق الخاص بخرق السفينة، وهى تفيد مزيد اللوم، إذ إنه يذكره بأن الخطاب كان له، وفى ذلك فضل توكيد للوم، لأنه لم يكن الخطاب لغيره، بل كان له ابتداء، والاستفهام للإنكار بمعنى إنكار الوقوع مع اللوم وتحقيق القول، والمعنى لقد قلت لك إنك لن تستطيع معى صبرا، وفيه تأكيد لعدم الاستطاعة بالجملة الاسمية و«إن» الدالة على التوكيد، و«لن» المؤكدة للنفى، وتنكير الصبر، أى صبرا كان قليلا أو كثيرا.

لقد قال موسى لصاحبه فى المرة الأولى: ﴿ **وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا** ﴾، أى لا ترهقنى عسرا من أمرى، فتجعلنى فى عسر من صحبتك بل تغاض، وسهّل

الصحبة وقربها، أما فى هذه المرة فقد أحس بشدته هو على العبد الصالح، إذ قال إن ما فعلته نكر.

أحس موسى- كليم الله تعالى- بشدة اللوم، وأحس بأنه كان منه ما أوجبه، ولذا قال فى حال تشبه الاعتذار:

﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦) ﴾.

اعتزم موسى عليه السلام ألا يسأله عن شىء بعد هذه المسألة، وفى الواقع إن ما كان منه اعتراض وليس بسؤال؛ لأن السؤال استفسار، وليس فيه حكم على الفعل بأنه خير أو شر، أو بأنه موضع ملام أم ليس بموضع، وكلام موسى عليه السلام كان يحمل معنى اللوم لا الاستفسار ولكنه سماه سؤالا؛ لأنه أمره بالصبر وخالفه، وتأدبا معه فى القول فأراد أن يحمل كلامه على أنه استفسار، وليس باعتراض، وقوله تعالى: ﴿ بَعْدَهَا ﴾ الضمير يعود إلى مفهوم القول، وهو المنكرة التى أنكرها على العبد الصالح؛ إذ رماها بأنها نُكْرٌ تستنكره العقول والأفهام، وفى هذا ترشيح للاعتذار عن العبد الصالح، وتمهيد لقوله تعالى: ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾، أى فقد كان بلغت عذرا فى لومك لى، والمعنى أعذرت لنفسك عندى، و﴿ لَّدُنِّي ﴾ يعنى عندى، ولا تكون إلا للعندية فى أمر خطير، وأكثر ما تكون للعندية عند الله تعالى كقوله تعالى: ﴿ ... مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) ﴾ [هود].

استمرا فى سيرهما مراقبين لأعمال العباد، فقال تعالى:

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) ﴾.

سارا منطلقين إلى الغاية التى أرادها موسى من العبد الصالح؛ لأن الله أتاه رحمة من عنده وعلمه من لدنه علما، ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾، وإن الذى يسير لا يأتى أهل القرية أولا، أنما يأتى القرية أولا بمبانيها، وطرقها، ويتعرف أهلها،

ولكنه ذكر الأهل أولا- لأنهم لهم شأن فى هذا اللقاء وهو اللؤم، وفساد النفس كما يبدو مما يأتى: ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾، أى فور اللقاء معهم طلبوا الطعام، فالسين والتاء للطلب، طلبا الطعام، لأنهما كانا فى جوع شديد، وألأم القرى الذين لا يقرون الضيف ولا يطعمون ابن السبيل الذى يكون فى مكان قد انقطع عنه زاده، وإن كان غنيا فى مكانه، فأجابوهما عن الاستطعام بالامتناع؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ والتضيُّف طلب الضيافة بشدة الحاجة، وردها بشدة مع ظهور الحاجة، وهل يكون ظهورا أشد من الاستطعام وكان تكرار ذكر أهلها؛ للدلالة على لؤم القوم، وفساد المروءة.

ومع ما بدا عليه أهل القرية من بخل رأى جدارا آيلا للسقوط فأقامه؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾، أى أن موسى والعبد الصالح وجدا جدارا قد تداعى للانهيار أو آل للسقوط فأقامه مع أهلها، وقد عبر الله تعالى عن الأيلولة للسقوط بقوله سبحانه: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾، أى ينهار والإرادة هنا تعبير مجازى، فقد شبه الجدار الذى مال للسقوط بإنسان له إرادة، وأراد أن يقع، وينقض تجريد للإجازة؛ لأنه وصف يناسب المشبه، ولقد أفاض الزمخشرى بباعه الطويل فى البلاغة فى هذا المجار فقال: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ استعيرت الإرادة للمداناه والمشارفة، كما استعير الهم والعزم.... قال حسان:

إن دهرا يلف شملى بِجُمْل   لزمان يهم بالإحسان

وسمعت من يقول: عزم السراج أن يطفأ، وقول الله تعالى: ﴿... قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)﴾ [فصلت].

وقد ضرب على ذلك أمثلة كثيرة، لقد أخبرنا الله تعالى أنه أقامه، ولكن لم يبين لنا سبحانه كيف أقامه، أهدمه ثم أقامه من جديد؟ أم أقام أعمدة سندته أم رمَّ ما فيه من ثغرات؟، لم يبين القرآن ذلك، ولا تستطيع معرفته بروايات من غير القرآن إلا أن تكون سنة نبوية ثبتت بسند صحيح، لا مرية فيه، ولا وهن، وإن كنا

نميل إلى أنه هدمه وبناه، كما سيبين فى أنه كان لغلامين يتيمين، وكان تحته كنز لهما.

والأمر أثار استغراب كليم الله تعالى موسى لأنهم أنذال، وكلف نفسه إقامة جدار أراد أن ينقض؛ ولذا قال لصاحبه: ﴿لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، أى أنه عمل نافع لقوم لئام يستحق أجرة وهما فى حاجة إليها، وقوله تعالى: ﴿لَوْ شِئْتَ﴾، أى يمكنك أن تأخذ عليه أجرا لو أردت، وهذا بلا ريب اعتراض وإن كان خفيفا؛ لأنه لم يقل أنه أَمْر إِمْر، ولا أَمْر نُكر، ومهما يكن فإنه لا يخلو من اعتراض ولوم ورغبة فى أن يأخذ أجرا ،ولقد أنهى بعدها الصحبة العبد الصالح، فقال:

﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨)﴾.

الإشارة إلى الأمر الأخير، وهو قوله: ﴿لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، أى أنه ترك الأجر لقوم غير كرام، بل هم لئام وذلك يدل على أن مغبة عدم الأجر ترجع إليه لأنه لم يشأ أن يطلبه.

كأنه بهذا يشير إلى أن كثرة المجاوبات وعدم الصبر هو الذى كان سبب الفراق بينى وبينك، أى أن هذا هو الحد الفاصل بيننا، ويصح أن تكون الإشارة، إلى النهى عن المصاحبة، إذا سأله فقد قال موسى: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي﴾.

ومهما يكن ما يشير إليه اسم الإشارة، فالمعنى أن ذلك هو الحد الفاصل الذى فرق بينهما فى هذه الصحبة، فهو إيذان بانتهاء المصاحبة التى كان منها ذلك التعليم مما علمه الله تعالى.

وبعد أن أنهى المكالمات بينهما، أخبره بسبب ما فعل، أو الغاية والمآل من فعله فقال: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ الإنباء: الإخبار بالأخبار الخطيرة والتأويل معناه معرفة المآل، والسين للإخبار المؤكد فى المستقبل، وقوله

تعالى: ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ قدم ﴿عَّلَيْهِ﴾ على ﴿صَبْرًا﴾؛ لأن ذلك أدعى للاهتمام.

أخذ بعد ذلك ينبه بالسفينة، ثم بقتل الغلام، ثم بإقامة الجدار، فقال تعالى:

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩)﴾.

بعد ذلك أخذ فى تفصيل أو تفسير ما فعل وغايته الغيبية أو المال العينى، ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾، المساكين هنا جمع مسكين، وليس هو المسكين القسيم للفقير الذى هو أدنى حالا من الفقير، عند بعض الفقهاء، أو أعلى حالا من الفقير على قول آخرين، إنما المراد الضعيف الذى لا قوة ولا سطوة لقلة فى العدد، أو لاستخذاء أمام قوى غالب، والمراد لقوم ضعفاء، كانوا يعملون فى البحر بحارة أو تجارا، ولم يكونوا ذوى قوة تغلب أو تقهر، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا وراءهم فى السير، أى أنهم يسيرون ويسبقونه، ويكون هو بعد سيرهم، فهو يستقبلهم، ويغتصب سفينتهم لضعفهم واستكانتهم، وقوله تعالى: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ فهى مقدمة عن تأخير؛ لأن سبب إرادة عيبها أن وراءهم ملكا إلى آخره، والسبب مقدم على المسبب، ولكنه قدم هنا إرادة العيب على سببها؛ لأن إرادة العيب هى سبب لمنع الغصب قدمت عليه، إذ هذا العيب يحمى هؤلاء المساكين وسفينتهم من الغصب، إذ يراها ليست مما يرغب فيه، فيمتنع عن غصبها لا كراهية للغصب فى ذاته ولكن استحقارا لها بعد هذا العيب.

والعيب يمكن إصلاحه، والمهم إنقاذ السفينة من اغتصاب المغتصب.

وإن هذا التأويل يدل على أن ظواهر الأمور قد تكون ضارة بادى النظر، ولكنها فى غايتها، خير وفير، ﴿... وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ... (٢١٦)﴾ [البقرة].

هذا هو تأويل خرق السفينة أو بيان مآله، أما قتل الغلام فقد قال فيه كما حكى الله تعالى عنه:

﴿ وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) ﴾.

والغلام يطلق على الصبى المراهق الذى لم يبلغ الرشد، وقد قتله كما تلونا، واستنكر موسى- كليم الله تعالى- بعلم الحلال والحرام تلك القتلة، ووصفها بأنها أمر نكر، وهذا تأويل تلك الفعلة، أى معرفة مآلها، ونتيجتها، يقول العبد الصالح الذى آتاه الله تعالى علما من لدنه ﴿ وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾، أى ولم يكن يرجو أن يكون ولدا صالحا تَقَرُّ به أعينهما بتقواه واستقامته، بل توقع منه الشر أو علمه مما علمه الله تعالى، ولذا قال: ﴿ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾، أى علمنا مما علمنا الله أنه سيكون منه شر كبير، فبسبب ذلك خشينا أن يكون منه إرهاق نفسى ومادى لهما ويطغى عليهما ويكفر، فمعنى ﴿ أَن يُرْهِقَهُمَا ﴾، أى ينزل بهما رهقا ﴿ طُغْيَانًا ﴾ يطغى به عليهما فلا يكون بارا بهما، بل يكون عاقا لهما يؤذيهما، ﴿ وَكُفْرًا ﴾ يكون سبة لهما، ومصدر إيذاء.

قتله لذلك، ولأنه أراد لهما ذرية طيبة طاهرة تقر به أعينهما؛ ولذا قال: ﴿ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) ﴾ يتكلم بلغة المتكلم ومعه غيره، وهذا يسير إلى أن الله معه فهى ليست إرادته وحده، إنما هى إرادة الله سبحانه وتعالى، وهو لها منفذ، فلم يجعلها له وحده لأنها ليست إرادته وحده، ولم يجعلها لله تعالى؛ لأنه لم يجد من الأدب أن ينسب القتل لله تعالى.

وهنا يسأل سائل: لماذا قال فى السفينة ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ ولم يقل بلسان المتكلم ومعه غيره؛ لأن خرق السفينة ليس فى حظ القتل فصح أن ينسبه لنفسه، وإن كان بأمر الله، أما القتل فأشار إلى أنه بأمر الله تعالى لخطورته، وأسند التبديل إلى الله؛ لأنه لا يكون إلا منه، (الفاء) هنا تفيد السببية الظاهرة، أى أنه بسبب ما يخشاه منه من الكفر والطغيان كانت إرادة التبديل، وقوله تعالى: ﴿ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ ﴾، أى أن يجعل بدلا منه يحل محله خيرا منه زكاة، أى طاهرا ناميا، وأقرب رحما، الرُّحم بضم الراء تطلق ويراد منها الرَّحمة، وتطلق ويراد

منها الرَّحِم، وعلى الأول يكون المعنى خيرا منه طهارة، وأقرب رحمة، أى أدنى إلى الرحمة والبر من هذا الذى يرهقهما طغيانا وكفرا، وعلى الثانى أقرب رحما، أى أوصل لرحمه، وأحفظ لحق الأبوة، فيكون منه الطهارة والبر بهما، فلا يكون كفر وشرك، ولا طغيان عليهما، ويكون قد دبر لهما الله بالولد الذى لا يرجى منه خير من يرجى خيره وبره وصلته الرحم، ويلاحظ أن الأوصل رحما لا يكون بره لأبويه فقط، بل يكون لأسرته كلها لهما، ولمن يتفرع منهما أو من أجدادهما.

بعد ذلك أجاب عن الجدار، ولماذا أقامه؟

﴿ **وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٨٢)** ﴾.

الغلامان كانا صغيرين كما يدل على ذلك وصفهما باليتم، فإنه لا يُتم بعد البلوغ إلا أن تكون آفة فى العقل أو النفس، واللفظ يطلق على ظاهر ما لم يقم دليل يوجب تحويله عن الحقيقة إلى المجاز، وإطلاق اليتم على البالغ مجاز، ولقد قال ابن عباس فى هذا المجاز الرجل يتيم ما لم يرشد ولو بلغ الأربعين، ولكن ذلك مجاز لا حقيقة.

﴿ **وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا** ﴾ الأب هو الأب القريب؛ لأنه لا يكون يتيما إلا إذا كان قد فقد الأب القريب، ولا يكون الصلاح ممتدا إلى الأبناء كما تشير الآية إلا إذا كان الولد صبيا، كما قال النبى ﷺ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له**»[1] فصلاح الأبناء ينسحب خيرا للآباء، وكذلك صلاح الآباء.

وكان تحت هذا الجدار كنز لهما، وَرِثَاه عن أبيهما الصالح فيما يظهر، والكنز المال الكثير المدفون فى باطن الأرض بدفن الإنسان، وهذا الكنز مضيع إن

(١) سبق تخريجه.

لم يستخرج، وقد أراد الله تعالى أن يستخرج كنزهما، وهذا قوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾، والأشد هو القوة، وقد شرحنا اشتقاقه، أى أن يبلغا قوتهما فى الجسم والعقل، والرشد فى التعامل ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾، واستخراج الكنز طلب إخراجه، والعمل على ذلك منهما أو من غيرهما ممن له صلة بهما، فالسين والتاء للطلب، وذكر إرادة الله دون إرادته هو، وإن كانت إرادته تابعة لإرادة الله سبحانه وتعالى؛ لأن هذه الإرادة الإلهية متعلقة بأمر فى المستقبل يتصل بالتكوين وهو بلوغ الأشد، وأن يحصلا على كنزهما بعد محاولة استخراجه ببذل ما يبذل فى سبيل ذلك عادة ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، أى لأجل الرحمة من ربك الذى هو الحى القيوم الذى يرب الوجود جميعا، أحياء وغير أحياء.

وهنا نجد أن إقامة الجدار كان لأجل استخراج الكنز، وإن ذلك لا يتم فيما يظهر إلا بهدم الجدار أولا ليظهر ما تحته من كنز، ثم إقامته من جديد بعد كشف ما تحته.

ثم أشار العبد الصالح إلى أن ذلك بأمر الله وتكليفه فقال: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾، أى ما فعلته صادرا عن أمرى، بل منفذا أمر الله، وليس لأحد أن يعترض على أمر الله تعالى: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾، أصلها ما لم تستطع صبرا عليه، حذفت التاء تخفيفا فى النطق إذ يصعب النطق بالتاء التى يعقبها الطاء لتقاربهما فى المخرج، ولم تحذف فى ﴿لَن تَسْتَطِيعَ﴾؛ لأنها متحركات بخلافها هنا فالأولى مفتوحة والثانية ساكنة، الإشارة إلى معرفة المآل فى سر خرق السفينة وقتل الغلام، وإقامة الجدار، وإن ذلك من أمر الله تعالى؛ لأنه يتعلق بالغيب، ولا يعلم الغيب إلا الله ومن يتكلم عن الغيب إنما يأخذ من علم الله الذى علمه بعض عباده الصالحين.

العبرة فى هذه القصة

أجمعت كل الصحاح على أن العبد الصالح هو الخضر، ويلاحظ أن القرآن الكريم ذكر أقواله ومجاوباته مع كليم الله موسى عليهما السلام ولم يذكر عن شخصه إلا أنه عبد من عباد الله آتاه رحمة، وعلمه من لدنه علما، فإذا ثبت فى الصحاح أن اسمه الخضر، وهو من الخضرة والنضرة نقبله غير معترضين، ولكن راضين خاضعين مذعنين، والعبرة فى القصة بمعانيها، ولا مشادة فى الاسم بالنسبة لها.

وإن القرآن الكريم ذكرت فيه على أنها قصة قد وقعت ومجاوبات قد قامت بين موسى، والعبد الصالح فهى واقعة صادقة، ولا مساغ لتفسيرٍ بغير أنها خبر قد وقع وثبت.

ولكن قد أثير كلام حول رؤية الخضر أكان مرئيا بالعيان كما ترى الأشخاص، أم أنه كان مرئيا فقط لموسى عليه السلام، وأنه لم يُر وهو يخرق السفينة إلا لموسى فقط، ولم ير وهو يقتل الغلام إلا لموسى، وكذلك عندما أقام الجدار، ولو أنه رؤى وهو يقتل الغلام لطارده الناس وما تركوه، وكذلك الجدار فإنه يحتاج إلى هدم وإقامة، وينظر الناس إليه وهو يهدم ويبنى، ويظهر الكنز، وكل هذا يحتاج إلى زمن طويل يكون مرئيا فيه للناس.

وإنى أميل إلى أن الرؤية كانت خاصة بموسى عليه السلام، كما يشاهد الأنبياء الملائكة، ومع ميلنا لهذا نقول: «إن اللقاء الأول كان مرئيا فيه لموسى ولغيره؛ لأن الله يسند فيه الرؤية لموسى ولفتاه»، فيقول الله تعالى: ﴿ **فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥)** ﴾.

ولعل السبب فى أن الفتى لم يذكر له خبر فى مسألة السفينة والغلام والجدار وكان يذكر الحديث عن اثنين فقط هما موسى والخضر، ولا يهمنا أين تركه وفى أى مكان افترق عنه فتاه.

وإن القصة تضمن معنى جليلا، وهو أن علم الغيب هو علم الله الذى اختص به سبحانه يعلِّمه من يشاء، وأن طاقة الإنسان الفكرية لا تكون إلا فى ظواهر الأعمال، والنتائج التى تكون ثمرة الأسباب الظاهرة، فعلينا أن نسير فيها على مقتضاها، ونبنى أعمالنا عليها، ولكن مع ذلك نفرض أن الأسباب لا تنتج بذاتها، إنما ينتج بإرادة الله تعالى، وبمقتضى علمه المكنون الذى أحاط بكل شىء علما؛ ولذا أمرنا بعد اتخاذ الأسباب أن نتوكل على الله تعالى، مفوضين الأمور إليه، ولذا يقول الله تعالى: ﴿ ... **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ...(١٥٩) ﴾ [آل عمران].

وأن ما يجريه الله تعالى معنا ربما لا يتفق مع ما نرغب، ولكن قد يكون ما غَيَّبَهُ الله تعالى خيرا لنا، كما رأينا فى خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار فإنه فى هذه الأمور كان خرق السفينة الذى هو عمل الله تعالى سخر له عبدا صالحا من عباده خفى أمره على الناس.

ومن الفوائد التى اشتملت عليها الآيات أن رحمة الله تعالى تعم دائما ولا تخص، وأن رحمته تكون على الضعفاء، فقد قدر سبحانه وتعالى أن السفينة كانت لمساكين يعملون فى البحر، فقرر أن تخرق لتكون معيبة، فلا يأخذها الذى يأخذ كل سفينة غصبا، وهذه من رحمة الله تعالى بالمساكين الذين يعملون فى البحر صائدين أو ناقلين لما ينفع الناس.

وإن قدر الله تعالى يجرى على بقاء الصالح، وفناء غير الصالح، ولذا قتل الخضر الغلام الذى خشى أن يرهق أبويه الصالحين طغيانا ويبدلهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما.

وفى القصة من الآداب الإنسانية، والأخلاق العالية الكثير، فنرى أنه يجب على الإنسان أن يطلب العلم، وأن يبذل الجهد فى طلبه غير مدخر فى ذلك جهدا؛ فهذا موسى عليه السلام يسير فى طلب العلم حتى يلقى النصب.

وفى القصة أيضا ما يجب من ألا يجعل الاستغراب أساسا للحكم على الأشياء فقد يكون الأمر المستغرب أصدق الأمور، وأقربها إلى الحق وأحسنها مآلا، كما رأينا فى السفينة وفى الجدار فلا يُردّ الأمر لأنه غريب، ولكن يرد لضرره، أو لأن مآله ضر. وفيها أيضا، ما يجب من تطامن طالب العلم لمن يعلِّمه، كما رأينا فى تطامن موسى عليه السلام للعبد الصالح.

وإن السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار لوحظ فيها احتمال الضررين بدفع أخفهما، وقد لوحظ ذلك فى السفينة وقتل الغلام فقد خرقت السفينة لمصلحة العاملين فى البحر، ودفع الاغتصاب، وكذلك قتل الغلام لنفع أشمل، وإقامة الجدار فيه نفع كثير بتحمل ضرر قليل، وذلك أصل مقرر فى الشرع يؤخذ به إذا لم يكن نص.

قصة ذى القرنين

قال الله تعالى:

وَيَسْـَٔلُونَكَ
عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾
إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا
﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ
وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ
فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ
فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً
ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾

ذكر الله تعالى فى هذه السورة ثلاثة أمور غريبة:

الأمر الأول - أمر أهل الكهف، وهو رؤية حسية يراها الناس كيف يجعل بعض الناس بين الموت والحياة إكراما لجهادهم، وهو تصوير لشهداء الحق كيف يكونون بين الحياة والموت، حتى ينالوا جزاءهم جزاء موفورا.

الأمر الثانى - كما ذكرنا قصة عبد صالح أتاه الله بعض العلم بالغيب الذى لا يعلمه إلا الله تعالى، وما يشاء أن يعطيه بعض ما يعلم من عباده الأطهار فأعطى عبده الصالح بعض ذلك، وفى ذلك بيان أن قدر الله تعالى بنى على الحكمة الكاملة فقد يحسبه أهل العلم بالظاهر شرا، وهو عند الله تعالى له عواقب كلها خير.

الأمر الثالث - قصة رجل صالح من نوع غير نوع رجل موسى عليه السلام، وهو رجل خير تهيأت له الأسباب فاختار طريق الخير، وألهم العمل الصالح من غير تعليم من لدن الله، بل بتوفيق الله تعالى وتيسيره، وجهاده وإرادته الخير، ومثل من كان صالحا بهذا العمل الإرادى، والعبد الصالح كمثل اثنين أحدهما أوتى علما من علم القدر يسجل نتائج الأعمال، كما قدرها الله مرتبة على ما فعل، والثانى أوتى قدرة بتوفيق الله تعالى وإذنه على أن يقوم بعمل فيه مصلحة مؤكدة ونفع مؤكد يفعله قاصدا إليه، وهو فى هذا يكافح أهواءه، ويقصد الخير قصدا واضحا بينا، والكل بفضل الله وإذنه وتيسيره وتوفيقه.

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) ﴾.

السائلون هم المشركون بتعليم من اليهود، أو من اليهود مباشرة، فقد جاء فى كتب السيرة أن اليهود قالوا للمشركين، سلوه عن الروح وعن العبد الصالح، وعن رجل ملك وكان صالحا، وجاء أن اليهود سألوا النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك وهو بالمدينة.

ونحن نرجح أن المشركين سألوا بتحريض من اليهود؛ لأن السورة مكية فالأقرب أن تكون المجادلة بينه وبين المشركين فى مكة وهم قد يستعينون فى مجادلتهم النبى صلى الله عليه وسلم بأهل الكتاب.

ومهما يكن فالسؤال وقع، وسئل النبى ﷺ عن ذلك الملك الصالح المعروف باسم ذى القرنين، فالسؤال كان عن شخص بعينه، وكان من أوصافه كما يدل سياق الآيات على أنه كان ممكَّنا، وأنه حكم فى مشرق الأرض ومغربها، وأنه ابتدأ فى حكمه بالمغرب، وأنه كان عادلا يجزى المسىء جزاء إساءته، ويجزى المحسن جزاء وفاقا لإحسانه، وأنه كان مرجع الذين يُؤْذَوْنَ من بعض بنى الإنسان، وأنه أقام سدا بين الأشرار ومن يتأذون منهم.

وكان من حقنا أن نكتفى بمعرفة صفاته وأفعاله ولا نحتاج فى فهم ذلك إلى معرفة شخصه أو من أى قبيل هو، فإن ذلك لا يزيد علما بالقرآن ومعانيه، كما لا يهمنا شخصية فرعون موسى، ولا فى أى قرن من الزمان كان بعثه.

ولكن المفسرين تعرضوا لمعرفة شخصه، فقال قائل: إنه كان فى عصر إبراهيم ولا مستند لهذا القول، وقال آخرون مستندين إلى بعض آثار منسوبة للنبى ﷺ: إنه الإسكندر المقدونى بانى الإسكندرية حوالى سنة ٣٠٠ قبل ميلاد المسيح عليه السلام، وعلى هذا الرأى أكثر المفسرين الذين تصدوا لذلك، ولكن قام على هذا الرأى ثلاثة اعتراضات:

الاعتراض الأول - أن هذه الآثار لم تصح عن النبى ﷺ ذكرها ابن جرير، وكذبها الحافظ ابن كثير.

الاعتراض الثانى - أنه كما ذكر فى عبارات القرآن كان موحِّدًا، حتى ادعى أنه نبى، والإسكندر المقدونى المعروف عنه أنه كان يدين بوثنية اليونان والرومان.

الاعتراض الثالث - أنه سمى فى القرآن بأنه ذو القرنين، ولم يكن المقدونى ذا قرنين، ولم يسم ذا القرنين.

وقد أجيب عن الثانى بأن كونه كان فى قوم وثنيين لا يقتضى أن يكون وثنيا، فالنجاشى كان فى النصارى، وكان مؤمنا موحدا، فإذا كان القرآن ذكر ذا القرنين مشيرا إلى أنه موحد، فليس فى أخبار المقدونى ما ينفى وحدانيته.

وكون المقدونى لم يكن ذا قرنين لا يدعى أنه كان ذا قرنين، وإن كان اسمه كذلك، على أن المقدونى كان يجوز أن يسمى ذا القرنين، وكان يلقب بذلك؛ لأنه اتخذ شعارا ذا تاجين، إذ إنه عندما فتح مصر لبس تاج الشمال وتاج الجنوب رمزا لاجتماع الإقليمين تحت سلطانه، فكان شبه قرنين.

وفى الحق أنه لو صدقت الرواية عن النبى ﷺ بأنه بانى الإسكندرية ما عدلنا عن هذا القول؛ لأنه يكون تفسيرا للقرآن بالسنة وهى المبينة للقرآن.

وهناك قول قاله العلامة الهندى أبو الكلام زاده وهو أنه غورش الفارسى الذى أنقذ بنى إسرائيل من أسرهم فى بابل، فقد وصف فى التوراة التى بأيدينا فى سفر دنيال وغيره بأنه لقب «ذو القرنين» لعظيم قوته واتساع ملكه وقوة سلطانه.

ويقرب هذا أنه ينطبق عليه الوصف المذكور فى القرآن، وأن السؤال كما جاء فى القرآن الكريم منبعث من اليهود، سواء وجهه اليهود إلى النبى ﷺ مباشرة، أم وجهوه عن طريق المشركين كما اخترنا ورجحنا، وأما ملكه فقد كان فى وسط بين غرب آسيا وشرقها وأنه اتجه بسلطانه إلى الغرب، ثم اتجه من بعد ذلك إلى الشرق، كما يومئ القرآن الكريم، إذ إنه ابتدأ بذكر عمله فى الغرب ثم فى الشرق، وإنا لا نختار رأيا لأننا لا نحتاج إليه فى تفسير القرآن الكريم لأنه واضح المعنى ولو لم يعرف قبيل ذى القرنين.

هذه هى النظرة إلى شخص ذى القرنين، وإن كانت معرفة شخصه لا تزيد القرآن بيانا، بل العبرة فى خبره ثابتة ولو لم يعلم جنسه وقبيله.

وقوله: ﴿**قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا**﴾ الخطاب للنبى ﷺ فى ﴿**قُلْ**﴾، والخطاب فى ﴿**عَلَيْكُم**﴾ للمشركين السائلين، للاعتبار؛ لأنه خبر رجل صالح، ممكّن فأقام العدل، وأقام المصلحة، ونفع الناس. قوله تعالى: ﴿**سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ**﴾، أى من خبره ﴿**ذِكْرًا**﴾، أى خبرا يكون فيه تذكير لكم بوجوب التوحيد، وترك عبادة الأوثان، وإقامة العدل، ونفع الناس بدل إيذائهم، والتعبير

بـ﴿ سَأَتْلُو ﴾، أى سأخبركم بخبره وأقص عليكم قصصه، والتعبير بـ (أتلو) يشير إلى أنه قد نزل فيه قرآن وما أقص هو قرآن صادق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ لأنه تنزيل من حكيم حميد.

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) ﴾.

أى جعلناه ممكنا فى الأرض آتيناه حكما ثابت الدعائم قائما على عُمُد ثابتة ممكَّنة، وآتيناه سببا من كل شىء، السبب هو الطريق الموصل والحبل المربوط الذى يصل بين الأشياء، أى آتيناه سببا من كل شىء، بأن آتيناه علما يوصل لأى شىء يختاره، فآتيناه من السلطان أسبابا، ومن العلم أسبابا، ومن الإصلاح الزراعى والتجارى. والسبب فى الأصل الحبل، فالمعنى آتيناه علما يتخذه سببا لكل ما يرى.

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) ﴾.

أى أنه يردف السبب سببا لشىء آخر، وهكذا تتوارد أسباب العمل سببا يتبع سببا، أى يجىء من بعده تابعا له، وهكذا مُكِّن فى الدنيا، إذ اتخذ سبيل الحق والعدل، يسلك الأسباب الموصلة بما آتاه الله من العلم والإدراك فإذا كان عادلا منصفا استقر حكمه، وانتظمت الأمور، وإذا انتظمت الأمور قويت الجماعة واستقامت الأخلاق وسادت الفضيلة وانتصرت فى الحروب وإذا انتصرت أنصفت، وجلبت المصالح، ودفعت المضار، وهكذا تترادف الأسباب وتستقيم الأمور، وإنه بتوافر الخير واتخاذ الأسباب المكونة لدولة قوية عادلة، سار فى الأقاليم فاتحا ناشرا لواء والعدل.

ولذا سار يجوس خلال الدول فاتحا مظلا الجماعات بلواء العدل.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) ﴾.

اتجه فى سيره إلى غرب بلاده أولا؛ لأنها الأقاليم التى تصاقبه، وإن الحاكم العادل يؤمِّن أرضه من جيرانه أولا، ثم يتجه إلى ما بعدها شيئا فشيئا حتى يصل

إلى أقصاها، وكذلك فعل؛ ولذا قال تعالى عنه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾.

«الحمئة» أى ذات حمأة، والحمأ الطين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦)﴾ [الحجر].

أى أن الشمس تغرب لترى فى عين من الماء حمئة، أى فيها طين.

وقرئ (حامية)، أى أن هذه العين من الماء حارة شديدة الحرارة، أو حامية أصلها حامئة، أى كثيرة الطين وتتلاقى مع قراءة ﴿حَمِئَةٍ﴾ إذ اللفظ واحد فى جملته وإن جرى فيه قلب.

والمراد أن الشمس ترى كأنها غاربة فى عين ماء فيها طين، حمأ، وما المراد من هذه العين؟ المراد منها الماء، ولكن أهو ماء المحيط، أم البحر، أم هو ماء نهر؟ الظاهر لدىَّ أنه ماء نهر، لا ماء محيط؛ لأنه ذكر أنه عين، وماء العيون فى أكثر أحواله ليس ماء ملحا، وإن كان فهو معدنى إلى العذوبة أميل، ولأنه ذكر أنها عين حمئة، أى التى اختلط ماؤها بطين، وتلك تكون فى الأنهار لا فى البحار.

ومهما يكن فقد كان اتجاهه ونهايته إلى الغرب من آسيا وأصقابها كبلاد البلغار، ونحوها.

هذا كان اتجاهها إلى الغرب، ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ وجد ناسا قد تهيأ لحكمهم فعلمه الله تعالى بإلهام الحكمة نوع الحكم الذى يحكم، وردد فى عقله وقلبه كيف يحكم، ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾، تردد فى قلبه أيحكمهم بالعنف والقسوة، أو يحكمهم بالرفق، فمعنى قول الله تعالى بهذا التردد أنه ردد فى نفسه وعقله وقلبه بنور الله تعالى أن يكون عمله أحد أمرين، إما العذاب وإما الإحسان بالتهذيب والإرشاد والتوجيه، وهذا معنى ﴿وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾، أى إحسانا بالعدل وإقامة القسطاس وسن الشرائع الهادية الموجهة وغير المردية، والحَسَن هو ضد القبيح، واتخاذ الحُسْن معناه اتخاذ ما ليس

بقبيح فى ذاته ولا يستنكره عرف ولا عقل، وهذا هو معنى الإحسان وهو الإتقان وفضل العدل وزيادته.

بعد هذا التردد فى النفس الصافية المهدية بهدى الله انتهى إلى القرار العدل الذى تهتدى إليه كل نفس بَرَّة تقية، وقد ذكره الله تعالى بقوله سبحانه:

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨)﴾.

هذا قانون العدل وهو أن يجازى المسىء على إساءته، والمحسن بإحسانه، هذا ما استقر عليه أمره واعتزمه؛ ولذا قال معتزما تنفيذه: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا﴾، أى عذابا شديدا بالغا أقصى أحوال الشدة حتى ينزل بهم ولم يتوقعوه وينكروه لغرابته عليهم، فالنكر هو الأمر المستنكر مما وقع عليه، وقد أكد فى القول وقوعه فى المستقبل بـ (سوف) الدالة على توكيد وقوع الفعل فى المستقبل.

والظلم يقع على كل المنكرات؛ لأن الظلم يكون بنقص الحقوق، والتفريط فيها، ويكون بمجاوزة حد المعقول، فيقع على الشرك، وإن الشرك لظلم عظيم ويقع على كل المنهيات من المعاصى كالقتل وشرب الخمر والزنى، ورمى المحصنات، والعذاب النكر يكون بالجزاء الذى يملكه ملك عادل جزاء دنيوى.

هذا هو جزاء المسىء فى قانون العدل الذى سنه ذو القرنين لنفسه، لا يفلت المسىء، وكذلك لا ينقص المحسن من جزاء حسن؛ ولذا قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ﴾ الحسنى مبتدأ خبره الجار والمجرور، أى فالحسنى له جزاء، فـ ﴿جَزَاءً﴾ تمييز محول عن الخبر، وكان التمييز متضمنا البيان بعد الإبهام أو الإجمال، وفى ذلك فضل بيان وبلاغة، وقال: ﴿فَلَهُ﴾ (اللام) للاختصاص، وكان من كرم الله أن جعله حقا للمحسن وليس عطاء يعطى أُعطية، وكان ذلك منًّا وفضلا.

وإن هذا الجزاء الذى هو الحسنى فى أعلى درجات الجنة؛ لأنه مؤنث أحسن، لمن قامت به حالان:

الحال الأولى - إيمان صادق تتطهر فيه النفس والعقل والقلب من شرك الجاهلية وأوهامه.

والحال الثانية - عمل صالح يزكى النفس، وينفع الجمع، ويكون فيه خير للناس.

وذكر جزاء ثانيا فوق الحسنى، وهى نِعْم الجزاء، وهو ما جاء فى قوله: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ القول اليسر هو هذا القول الذى ييسر الأمور ويسهلها، وذلك بأن يقربه إليه، ويسهل له أسباب الوصول والتمكين والحكم، والقول المشجع على الخير من ملك عادل يدنى المصلح الصالح، ويبعد المفسد الفاسد.

ولقد أقام العدل فى أقوام الغرب، وأقام ما شاء أن يقيم لتثبيت العدل ودعم أركانه، بعد إقامة بنيانه ثم اتجه المصلح العادل من ذلك إلى الشرق؛ ولذا قال تعالى:

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾ هنا فى موضعها؛ لأنها تدل على التراخى إذ إنه حكم أمدا ليس بقصير فى المغرب، وإنه أدنى منه مقاما فإن تثبيت دعائم العدل فى النفوس يحتاج إلى زمن ليستقر ويبقى، ويصبح عادة طيبة فى الأقوام، و﴿أَتْبَعَ﴾، أى أردف إلى الأسباب التى مكنه الله تعالى بها سببا آخر، وهو الذهاب إلى مشرق الأرض، وهكذا أضاف سبحانه إلى تمكينه فى الغرب تمكينه فى الشرق، فسار متجها إليه، ولقد كان ما يستقبله فى المغرب أصعب علاجا، وأقوى مراسا، لأن عمله يتكون من أمور ثلاثة:

الأمر الأول - إقامة العدل.

والأمر الثانى - دفع الفساد.

والأمر الثالث - حماية البلاد من المغيرين عليها.

ولقد قال تعالى فى عمله:

حَتَّىٰٓ
إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن
دُونِهَا سِتۡرٗا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَۖ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتۡبَعَ
سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا
لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ
مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ
سَدّٗا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ
وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ
قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا
﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ﴿٩٧﴾
قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي
حَقّٗا ﴿٩٨﴾

مطلع الشمس هو مكان طلوعها، فهو اسم مكان، ومطلع الشمس مكان نسبى، فهو ربما يكون موضع طلوع بالنسبة لمن يكونون فى غربها، ثم هذا المطلع يكون موضع غروب لمن وراءه من المطالع، والنسبية هنا بين المغرب والمطلع بالنسبة للوسط بينهما فقد اتجه ذو القرنين إلى المغرب بالنسبة له، ثم بعد أن أقام العدل

بين الناس كشأن الحاكم العادل تأداه إلى المطلع بالنسبة له فأتبع سببا، واتجه إلى المطلع، حتى إذا بلغه، ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾، الضمير يعود إلى الشمس، أى وجد الشمس تطلع على ناس تشرق عليهم لافحة لهم أو غير لافحة، لم يجعل الله لهم من دونها مقاوما لها سترا، يسترهم عنها فلم تكن لهم ظلال تظلهم، وظاهر القول أنهم لم تكن لهم ثياب تسترهم منها فى ظلها وحرورها، وهذا أنهم بدائيون ليسوا متحضرين وليست لهم أى حضارة إنسانية، بل هم على البداوة الأولى، وإن كان لهم بعض القوة أو المصادر المالية، وقد وصف هؤلاء الأقوام بوصف فيهم وفى أرضهم، أما أرضهم فهى أنها ليس فيها بناء يظل، ولا شجر يثمر، وأما أنفسهم، فهو أنهم على البداوة الأولى وقد أفادت الوصفين، الكلمة السامية ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾، أى ساترا يسترهم من حر لافح أو برد قارس.

وجه الله تعالى ذا القرنين إلى هؤلاء الأقوام، كما وجهه إلى المغرب لينشر العدل والأمان والاطمئنان فيهم، وإن هذا التوجه، يكون منه ما كان أولا، ويحمل متاعب؛ ولذلك قال تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾.

الإشارة إلى ما كان منه أولا من إقامة العدل، ووضع الموازين العادلة بينهما، والتشبيه هو بين ما قام أولا فى المغرب وبين ما يقوم الآن أو ما يجب أن يقوم به الآن فى المشرق، أى أنه بمقتضى ما وهبه الله تعالى من مواهب القوة والقدرة على التنفيذ والشعور بالعدالة الواجبة، ووضع موازين قد كلفه مرة ثانية فى المشرق أن يصلح ويدفع الفساد فى المشرق، كما أصلح فى المغرب، وهكذا يهب الله البشرية فى بعض الأزمان رجلا صالحا ينشر العدل والإصلاح ويمنع الفساد، وفى بعض الأزمان يختبر الله تعالى الناس ليظهر الخبيث من الطيب ببعض رجال الفساد ـ أو دول الفساد ـ يسيطر، فيضل ويفسد كما نرى فى عصرنا ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى.

وإن ما يستقبل ذا القرنين فى مطلع الشمس أقوى وأشد مما استقبله فى مغربها، وذلك لجهلهم، وعدم درايتهم وبداوتهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾، أى أحطنا بحاله والواجبات عليه وكفايته لها وما تستلزمه حال الأقوام من واجبات على الحاكم يقوم بها، ولا يتوانى عنها، أحطنا علما دقيقا بذلك، وهو علم الخبير العليم، وفى الكلام فى مثل قوله: ﴿ ... وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢) ﴾ [الطلاق]، و﴿ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾، مجاز بالاستعارة، إذ يشبه علم الله تعالى فى استقرائه للمعلوم بمن يحيط بمكان فيعرف كل ما فى داخله لا يغيب شىء عن علمه بجامع الإحاطة الكاملة، وقد أحاط علمه كل ما فى السموات والأرض.

والمقصود الظاهر من النص أن الله إذ كلف ذا القرنين ذلك التكليف هو محيط علما دقيقا بما لديه من قوى عقلية ونفسية وطاقة قادرة على ما كلف ومحيط بما يحتاج إليه ما كلفه من جهد فى علاج هذه التكليفات.

وقد بين أنه سار فى طريقه متحملا أعباء ما حمله: عبء العدالة والإصلاح، فقال تعالى:

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) ﴾.

أى أردف إلى الأمور السابقة التى كانت سببا فى تحمل ما تحمل سببا آخر وسلك طريقا آخر، و﴿ ثُمَّ ﴾ هنا للترتيب والتراخى، والتراخى كان فيما بذله من زمن فى تبين حال أولئك الذين يعيشون على الفطرة لم يجعل الله بينهم وبين الشمس سترا فى ظل ولا حرور، وبعد مضى زمن فى هذه الإصلاحات التى تجعلهم أناسا يعرفون ما لهم وما عليهم، بعد ذلك أردف سببا لواجبات أخرى، فسار:

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) ﴾.

السدّان المذكوران فى الآية جبلان، قال عطاء أنهما بين أذربيجان وأرمينيا، وقد ذكر سبحانه وتعالى أنه وجد بين الجبلين قوما ﴿ لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ هذا

وصف لهؤلاء القوم، وهم كما يبدو أعلى درجة فى الإنسانية من الذين وجدهم فى مطلع الشمس الذين لم يُجعَل بينهم وبينها ستر، ومعنى ﴿ مِن دُونِهِمَا ﴾، أى من وراء الجبلين، فهم لم يكونوا بينهم، بل كانوا وراء هذين الجبلين، أو وراء هذه البلاد التى فيها هذان الجبلان، فهم فى مقام أوغر منهما، وهم إلى الشمال أبعد وأعلى.

وقد وصفهم كما أشرنا إلى أنهم ﴿ لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾، أى يقاربون ألا يفقهوا قولا، وهذا يدل على أنهم يفقهون بعض القول ولا يفقهونه كله.

وقال بعض المفسرين: إن ذلك سببه أنهم لا يعرفون لغة ذى القرنين ومن معه، ولا يعرف لغتهم، ولكن ذلك لا يعبر عنه بنفى فقه القول؛ لأن فقه القول معرفة أسراره ومراميه، فلا ينفى بجهل معرفة اللغة، على أن المترجمين يغنون فى ذلك غناء كبيرا، وذلك إن صح يكون عيبا فيهم، وعيبا فى الذين يخاطبونهم، فلا يختصون بالوصف، والظاهر عندى أن المراد أنهم لا يدركون مرامى الأقوال وأسرارها والأحكام التى تنظم العلاقات بينهم، وهذا الذى يتفق مع ﴿ لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ ﴾؛ لأن الفقه ليس مجرد المعرفة، إنما المعرفة التى يشق فيها غلاف الأمور لإدراك الحقائق، وما وراء الألفاظ، وذلك إلى العلم بالواجبات، وفقه الأقوال أقرب، ويكون المراد ليس عندهم علم بالعدل ونظام الحكم، وما يجب لجلب المنافع ودفع المضار.

ولكنهم مع أنهم لا يعرفون الشرائع، ولا نظم الأحكام يرون المضار تتوالى عليهم من جيران أشد جهالة، ولا يخضعون لنظام، ولا يقرون حقوقا، ولا يخضعون لواجب، وهم يأجوج ومأجوج، وهم يسكنون فى مناطق منغوليا ومنشوريا، أو هم منهم؛ ولذا لما وجدوا ذا القرنين وما يحمل معه من نظم إصلاحية مانعة من الظلم دافعة للفساد.

﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) ﴾.

نادوا ذا القرنين بهـذا اللقب مما يدل على أنه كان مشـهورا بينهم، وعلى أنه كـان متطامنا قـريبـا، وذلك أول أمارات الحـاكم الصالح بـأن يكون قريبـا منهم يألفهم، ويألـفونه لا يكون متـحجبـا دونهم، حتى لا يصعـب على صاحب الحق الوصول إليه

و﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ قبـائل ما وراء جـبال أرمينـية، وهما اسـمان ليـسا عربيان، وقد كـانوا يندفعون من وقت لآخر يفسدون الحرث، ويعـبثون بكل قائم ولا يضبطـهم أحد ولا قبل لأحـد بدفعـهم، وقد ذكر مـولانا أبو الكلام زاده فى رسالته عن ذى القـرنين أن لهم غارات متتـالية عبر التاريـخ فقال بعنوان: الأدوار السبعة لخروج يأجوج ومأجوج.

سهل علينا خروج هذه القبائل إلى سبعة أدوار:

الدور الأول منها كان قبل العصر التاريخى عنـدما بدأت هذه القبائل تهاجر من الشمال الشرقى وتنتشر فى آسيا الوسطى.

وكان الدور الثانى فى فـجر التـاريخ فـترى فى ضـوئه مـعـالم عبـارتين مختلفتين: حـياة البداوة، وحياة الاستقرار، فتخلد الـقبائل المهاجرة إلى السكينة، ومباشـرة الحياة الزراعيـة، إلا أن سيولا جديدة لا تزال تتدفـق من الشرق، ومدى هذا الدور من ١٥٠٠ إلى ١٠٠٠ قبل الميلاد.

ويبتدئ الدور الثالث، من سنة ألف قبل الميلاد، فتجد قوما همجا من البدو فى بلاد بحـر الخزر والبحـر الأسود، ثم لا تلبث أن تظهـر بأسمـاء مختـلفة من جهـات مخـتلفة، وأخذ بعـضهـا يظهر على مـسرح التاريخ من سـنة ٧٠٠ قبل الميلاد. . .

أما الدور الرابع فينبغى أن نجعله فى سنـة ٥٠٠ قبل الميلاد الزمن الذى ظهر فيه عوزوش.

وكان الدور الخامس فى القرن الثالث قبل الميلاد، وقد تدفق فيه سيل من القبائل المنغولية، وانصب على الصين، وفى هذا العصر بنى الجدار العظيم الذى اشتهر بجدار الصين، وقد بدأوا بنائه فى سنة ٢٩٤ ق م وأتموه فى مدة عشر سنين.. وعاصر هذا الجدار حملات المغول فى الشمال والغرب توجهوا إلى آسيا الوسطى من جديد.

ثم ذكر الدور السادس والسابع وكان ذلك بعد الميلاد، ولا يهمنا ذكرهما فى مقامنا وإن كان ذلك يهم المؤرخ المتقصى للحقائق المتعرف للأدوار الإنسانية فى عصورها المختلفة.

وإنه باستعراض هذه الأدوار نرى وجها تاريخيا، لمن قال إنه الإسكندر المقدونى:

أولا - لأنه بنى جدار الصين فى القرن الثالث قبل الميلاد وهو العصر الذى ظهر فيه الإسكندر؛ إذ كانت حياته فى القرن الثالث قبل الميلاد، وكون البناء منسوبا إلى ملك من ملوك الصين لا يمنع الاستعانة بالإسكندر.

وثانيا - ما تضافر عليه المؤرخون العرب من أن بانى السد اسمه إسكندر ذو القرنين، وليس ذا القرنين فقط.

وثالثا - ما جاء من آثار من أن منشئ السد هو منشئ الإسكندرية.

ورابعا - أن وصفه بذى القرنين سائغ لأنه جمع بين تاج الجنوب وتاج الشمال لما جاء إلى مصر.

ننتهى من هذا إلى أن يأجوج ومأجوج قبائل من المغول، وأنه اشتد سيل فسادهم فى القرن الثالث قبل الميلاد عصر ظهور الإسكندر المقدونى، والله أعلم.

ونعود فنكرر أن معرفة شخص الإسكندر لا يقدمنا فى ذكر معانى ولا يؤخرنا، ما دامت ألفاظه واضحة فى معانيها بينة فى أسلوبها وبيانها.

لقد عرض أولئك القوم الذين كانوا بين السدين على ذى القرنين أو طلبوا منه أن يبنى لهم سدًّا بعد أن شكوا له أن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض، وعرضوا عليه أن يجعلوا له خرجا على أن يبنى لهم سدا ﴿**قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا** (٩٤)﴾، الخرج قالوا إنه ضرائب يفرضونها على أنفسهم، وعبروا عن الضرائب بالخرج لأنها تخرج من أيديهم إليه، ولأنه يكون كخراج الأرض أو الأنفس على حسب ما يراه هو، إما أن يأخذ الضرائب على النفوس أو المال أو العقار، وقد عرضوا ذلك فى عبارات مقربة مُدْنِية، فجعلوها على صورة استفهام، فقالوا كما حكى القرآن: ﴿**فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا**﴾، أى هل يسوغ أن تجعل لك خرجا، والفاء للإفصاح عن شرط مقدر، أى إذا كانوا مفسدين فاجعل لك خرجا على أن تبنى لنا سدا.

ولكن ذا القرنين العادل وجد أن من قوانين الحكم العادل أن يقوم بالإصلاح ودفع الفساد من غير أجر يدفع، بل إن عمل الخير ضريبة الحكم الصالح؛ ولذا قال:

﴿**قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا** (٩٥)﴾.

الردم أقوى من السد، وقد قال فى ذلك الزمخشرى: ﴿**رَدْمًا**﴾، أى حاجزا حصينا موثقا، والردم أكبر من السد من قولهم ثوب مردم، أى رقاع فوق رقاع، أى أنى أبنى لكم سدا وثيقا قوى.

والمعنى ما مكنِّى فيه ربى ووسع علىَّ فيه وبسط لى خير من خَرْجِكم، فلست مستعينا بخرج، ولكنى مستعين بقوة منكم، فأعينونى بقوة تحتمل العمل من رجالكم، أى فلست أحتاج إلى المال، ولكن أحتاج إلى أيد عاملة تعمل، ولقد قال القرطبى فى معنى هذه الآية الكريمة: «ما بسطه الله لى من القدرة والملك خير من خرجكم وأموالكم، ولكن أعينونى بقوة الأبدان، أى برجال وعمل منكم بالأبدان والآلة التى أبنى بها الردم وهو السد».

ولقد استنبط من هذا القصص عن ذى القرنين أنه لا يجوز للملك ما دام فى قدرة وسعة أن يفرض ضرائب ترهق، ويقول فى ذلك: «إن الملك فرض عليه أن يقوم بحماية الخلق فى حفظ بيضتهم، وسد فرجتهم، وإصلاح ثغورهم من أموالهم التى تفىء عليهم، وحقوقهم التى يجمعها فى خزائنهم حتى لو أكلتها وأنفذتها المؤن فكان عليهم جبر ذلك من أموالهم وعليه حسن النظر وذلك بشروط ثلاثة:

الشرط الأول - ألا يستأثر عليهم بشىء.

والشرط الثانى - أن يبدأ بأهل الحاجة.

والشرط الثالث - أن يسوى فى العطاء[1].

أخذ بعد ذلك ذو القرنين يبنى السد محكما لا يتفلت منه أحد إليهم.

﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦)﴾.

﴿زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ قطع الحديد الكبيرة، **﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾** الصدفان: جبلان جعل السد بينهما، وبعد أن وضع الحديد من قطع كبير علا بها حتى تساوى مع أعلى الجبلين وتنضد الحديد بينهما تنضيدا، جمع الأحطاب، وأشعل فيها النار ليصهر الحديد، **﴿قَالَ انفُخُوا﴾**، أى فى الحديد الذى ساوى فيه بين الصدفين، وساماهما، أى انفخوا فى مشعل الأحطاب، **﴿حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾** صهره واحمر انصهر، وصار نارا باحمراره بارتفاع درجة حرارته ارتفاعا شديدا، وصار لونه أحمر شديدا يتلظى بعد هذا العمل، **﴿قَالَ آتُونِي﴾** النداء للعمال الذين قاموا بِزُبَر الحديد وصهروها، **﴿أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾**، وهو النحاس المصهور المذاب.

ولعله جعل النحاس طبقة فوق الحديد تربط أجزاءه وتسوى جدار سطحه.

---

(١) من الجامع لأحكام القرآن للقرطبى: ١١/ ٥٥.

ونراه صار مكونا من حديد ممسوكا بالنحاس، فصار قويا سادًّا كل الثغرات، وبذلك صار مرتفعا عاليا فوق طاقتهم أن يرتفعوا إلى أعلاه، وينزلوا إلى أسفله عند الذين استغاثوا منهم؛ ولذا قال تعالى:

﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) ﴾.

إذا كان قد بنى ذلك البناء المحكم، وبأدوات قوية لا تنقض، وبهندسة نضدت زبر الحديد، وأسكب ذَوْبَ النحاس، فإن يأجوج ومأجوج لا قبل لهم بالوصول إلى أرضهم يبيدون فيها الحرث والنسل.

﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ ﴾، أى أن يعلو إلى ظهره، لأنه بنى مرتفعا ارتفاعا فوق طاقتهم أن يصعدوا إليه، ﴿ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ وما استطاعوا أن ينقبوه فى جانب من جوانبه؛ لأنه حديد مصهر ثم تجمد مستقا.

وبعد أن وفق ذو القرنين ذلك التوفيق.

﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) ﴾.

بعد أن عمل ذلك العمل ـ الذى لا مثيل له فى تاريخ البشر إلى عصر من عمله ـ لم ينسبه إلى نفسه، بل جعله من ربه، والإشارة فى ﴿ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ إلى أن البناء وتدبيره، ومادته، ليس من قدرة الإنسان إنما هو من توفيق الديان وقال: إنه من رحمة الله بعباده؛ لأن من رحمته تعالت قدرته أن الفساد وأهله يُدفع بأهل الخير والصلاح ﴿ ... وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) ﴾ [البقرة].

ولم ينس اليوم الآخر، والبعث فجعل الحد لزمانه هو يوم البعث، فقال: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ﴾، أى يتدكدك ويجعله أرضا مستوية، لا علو فيها، ولو كان من حديد ونحاس.

ثم أكد البعث فقال: ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ لا يرتاب فيه عاقل، والله أعلم.

ترك المفسدين إلى يوم الحشر

قال الله تعالى:

وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ
فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾
الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ
سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي
أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ
أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ
يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ
فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ
جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾

انتهت الآيات السابقة ببناء إسكندر ذى القرنين للسد، وكان ذو القرنين صورة للحاكم المجاهد الذى يعمل لمصلحة من يحكمهم يجلب الخير لهم، ويعمل ما يصلحهم، ويدفع الفساد والمفسدين، وقد دفعه وترك يأجوج ومأجوج يفسدون فيما بينهم.

ولقد قال تعالى بعد أن ذكر بناء الحاكم الصالح للسد، وإحكام بنيانه:

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) ﴾.

الضمير فى ﴿ بَعْضَهُمْ ﴾ يعود إلى يأجوج ومأجوج، فانحصر شرهم، ولم يتعد فسادهم إلى غيرهم، فالجماعة الشريرة إذا لم يمكن إصلاحها يكون علاج الناس بالوقاية منها وإبعادهم عنها.

ويصح أن يكون الضمير فى بعضهم يعود إلى الخلق على أساس أنه حاضر فى العقل معنى المخلوقات، وقد ساق ذلك الرأى الزمخشرى على أنه هو الظاهر المتبادر، وغيره هو غير الظاهر وغير المتبادر.

ويكون المعنى على أن الضمير يعود إلى الخلق أن الله تعالى خلق الناس بغرائز قد تتعارض رغباتها، فيكون منهم المسىء ويكون المحسن ويتنازعون أو يتخالفون، أو يعتدى بعضهم على بعض حتى يكون يوم الفصل، ودعوة الجميع إلى الحشر.

وقوله تعالى: ﴿**يَوْمَئِذٍ**﴾، أى فى الدنيا، حيث الاختبار، والتدافع بين الحق والباطل والخير والشر، والصلاح والفساد، وقوله: ﴿**يَمُوجُ فِي بَعْضٍ**﴾، أى أن بعضهم يتدافع مع البعض تدافع الأمواج وهى مصطحبة فيتدافع الأخيار مع الأشرار تدافع الأمواج يدفع بعضها بعضا، وهى تعلو وتنخفض.

حتى يُدعوا جميعا إلى الله تعالى، وعبر عن ذلك بقوله: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا**﴾، أى ناديناهم كما ينادى القائد الجند فينفخ فى الصور فيجمعهم جمعا، لا يتخلف منهم أحد، وقد شبه فى هذا إعادة الناس والبعث والنشور وخروجهم من فورهم من كل حدب ينسلون بالقائد، عندما ينفخ فى البوق للجند، وفى هذا إشعار بأن البعث لا يكون بأكثر من قول الله تعالى: ﴿... **كُن فَيَكُونُ** (٦٨)﴾ [غافر] وقوله تعالى: ﴿**فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا**﴾ فيه أمران بيانيان:

الأمر الأول - أنه عبر بالماضى وهو للمستقبل، لتأكيد الوقوع.

الأمر الثانى - أنه ذكر المصدر لتأكيد أن البعث يعم الجميع، ولا يتخلف عنه أحد.

وإنه عقب البعث تكون القيامة وتكون الحقائق مرئية لهم بالعيان؛ ولذا قال تعالى:

﴿**وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا** (١٠٠)﴾.

و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ هو يوم القيامة، أى عرضنا جهنم للكافرين بسبب كفرهم عرضا، أى يرونها رأى العين من غير غشاوة تحول بينهم وبين رؤيتها، والإتيان بالمصدر لتأكيد أنهم يرون ذلك رأى العين، ولا يخفى عليهم من نتائج أعمالهم شيء من الخفاء.

وخص الكافرين بذكر العرض مع أنها تكون معلومة للجميع لأنهم أهلها، ولأنهم الذين كانوا يتغافلون، وهم الذين كانوا ينكرون البعث وما وراءه.

ولقد قال تعالى كيف كانت حالهم بالنسبة لذكر الله للعذاب والثواب والبعث، فقال عز من قائل:

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١)﴾.

الموصول بدل أو عطف بيان، وهو يشير إلى سبب اختصاصهم بالعرض؛ إذ إنهم كانوا لا يرونها بعين الاعتقاد، ولا يستمعون إلى ذكرها بأذن الحق والإنصات إليه.

﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾، الذكر مضاف إلى الله تعالى، أى الأمور التى تذكر بالله تعالى وقدرته الباهرة القاهرة على كل شيء وإلى آياته فى الكون ودلائل قدرته على إعادتهم كما بدأهم، وشبه حالهم فى عدم إدراكهم للحق من آيات الله تعالى بحال من يكون أمام المبصرات، ولكنه وضع على عينيه غطاء يجعله لا يرى ولا يبصر، ويكون قوله تعالى: ﴿عَن ذِكْرِي﴾ مقويا لمعنى التشبيه ومع أنهم كانوا لا يرون الآيات للغطاء الذى وضعوه على أعينهم كانوا لا يستمعون إلى الداعى إلى الحق إذا دعاهم فهم قد سدت أمانيهم كل وسائل الإدراك.

فهم لا يرون الآيات بأنفسهم فهم على أعينهم غطاء، أو كمن يكونون على أعينهم، ولا يستطيعون سماع الحق؛ لأن أهواءهم وشهواتهم وغرورهم بهذه الدنيا التى أغرتهم بغرورها وزخرفها وزينتها قد حالت بينهم وبينه، وشبه إعراضهم عنه

وعدم قبول قول رسلهم بمن أصيب بصمم، ولم يستطع سماع القول الهادى المرشد.

وقد بين الله سبحانه وتعالى أنه لن يتركهم فى ضلالهم من غير مرشد، وألا يتخذ لهم عقابا، فقال تعالى:

﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً (١٠٢) ﴾.

(الفاء) فى ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ مؤخرة عن تقديم، وهى فى معنى السببية لعرض جهنم على الكافرين عرضا، والهمزة قدمت؛ لأن الاستفهام له الصدارة معناه ظنوا، أو بعبارة أدق معناها توهموا؛ لأن الظن يكون له وجه من الصدق، والاستفهام للتوبيخ؛ لأن الكافرين فعلا توهموا ذلك، وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نلهو ونلعب، وما كنا مبعوثين.

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى سبب توبيخهم، ﴿ أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ﴾، أى أنصارا يوالونهم أو آلهة يعبدونها و﴿ مِن دُونِي ﴾، أى من غيرى، وهنا كلام محذوف دل عليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً ﴾، أى يحسبون مع اتخاذهم أندادا يعبدونها أو أنصارا يقاومون بهم حكم الله فيهم، ونتركهم من غير مؤاخذة أو لا نحاسبهم على ما يفعلون، وهذا كقوله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) ﴾ [القيامة]، ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً ﴾، هذا ذكر للعذاب وبيان له وقد ذكر علته فى قوله: ﴿ أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ﴾، واعتدنا معناها أعددنا وهيأنا، ونزلا معناه مقاما، وفيه نوع تهكم، لأن النزل يكون عادة مكانا مريحا يثوب إليه الذى نزل فيه، ولكنه جهنم وبئس المهاد. وذِكْرُ الكافرين إظهارٌ فى موضع الإضمار للإشارة إلى سبب نزولهم فى جهنم.

وقد بين سبحانه وتعالى أن الأخسرين أعمالا هم الكافرون، ذكر فى ضمن البيان الحكيم سبب خسرانهم، فقال عز من قائل:

﴿ **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)** ﴾.

الخطاب للنبى ﷺ والاستفهام للتقرير، فكأنهم سئلوا فأجابوا مقررين بأنهم (الأخسرين أعمالا)، والأخسرون جمع أخسر، وهو أفعل تفضيل، يراد به الذين بلغوا من الخسران أقصاه، فلا خسارة فوق خسارتهم، أو أنهم بالنسبة للمؤمنين أكثر خسارة لأن المؤمنين إن خسروا فى الدنيا متاعها، فأولئك خسروا ما هو أعظم وهو متاع الآخرة، وكان فى ذلك موازنة بين حال المؤمنين وحال الكافرين، فالمؤمنون وإن كانوا قد فقدوا بعض متاع الدنيا ففى مقابل ذلك فقد الكافرون متاع الآخرة فكانوا الأخسرين حقا وصدقا، وخسارة المؤمنين لا تذكر بجوار خسارتهم.

وقد ذكر سبحانه ركن الخسارة وقوامها فقال عز من قائل: ﴿ **الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)** ﴾.

﴿ **الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾، أى كان عملهم ضلال فى ضلال، ووصف العمل بأنه ضلال مع أن الضلال فى العامل مبالغة فى الضلال، كأنه بضلال النفس انتقل الضلال إلى العمل، للإشارة إلى أن العمل يكون ضلالا بضلال النفس، وفساد القصد، وقال: ﴿ **سَعْيُهُمْ** ﴾ ولم يقل «عملهم»؛ للإشارة إلى أن كل جهد يبذلونه يكون جهدا فى ضلال فلا يكون فيه خيرا أبدا.

ومع هذا لا يعتقد أنه ضلال بل يحسبه رشادا؛ ولذا قال: ﴿ **وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا** ﴾، أى أنهم بضلال الفعل وضلال الفكر، يفعلون الشر، ويظنون أنهم يفعلون الخير فانقلب تفكيرهم فحسب الشر خيرا، وذلك أشد

الضلال إذ يطغى الضلال على تفكيرهم، فينشئه بالباطل ويحسب الباطل حقا، والحق باطلا، وهذا أشد الضلال ويحسبون، أى يظنون أن ما يفعلونه هو الحسن، و﴿صُنْعًا﴾ حال من فاعل ﴿يَحْسَبُونَ﴾ وهى حال مؤكدة لحسن ما يفعلون بزعمهم.

وإن هذا النص ينطبق على المشركين؛ لأنهم يعبدون الأوثان ويحسبون أن عبادتها صنعُ حُسْنَى إذ يتوهمون فيها قُوى تَعبُّد، ويرون الخير فى اتباع آبائهم، وينطبق على رهبان النصارى إذ ينقطعون للعبادة فى زعمهم ولا يقيمون للحياة أى اعتبار، وقيل إنها تنطبق على الخوارج الذين كانوا يستبيحون دماء المؤمنين، ولكن قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾، وإن الخوارج لا ينطبق عليهم أنهم كفروا بربهم؛ لأنهم يؤمنون بربهم ولكن ضلوا مع إخوانهم المؤمنين، ولقد قال فيهم على: لا تقاتلوهم بعدى، فإن من طلب الحق فأخطا ليس كمن طلب الباطل فأصابه».

ولقد قال بعد ذلك فى وصف الأخسرين:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥)﴾.

إن فساد الفكر يؤدى إلى الكفر، فهؤلاء الذين ضل فكرهم حتى ضلت أعمالهم، وزين لهم سوء أعمالهم فرأوه حسنا، هؤلاء هم الذين دفعهم غرورهم إلى أن يكذبوا بآيات ربهم الدالة على أنه الخالق الواحد القهار، المعبود بحق، ولا معبود سواه، وكذبوا بآيات ربهم الدالة على رسالة رسوله النبى الأكرم، وذلك لفرط ضلال فكرهم الذى جعلهم يعتقدون الباطل حقا، ويزعمون الحق باطلا.

والإشارة إلى الموصوفين يفيد أن هذه الصفات هى السبب فى الكفر بالآيات وكفروا بسبب غرورهم بالدنيا بلقاء الله تعالى.

﴿ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦) ﴾.

الإشارة إلى غرورهم وكفرهم بآيات ربهم ولقائه، وهو مبتدأ خبره محذوف، والمعنى ذلك حالهم، وأمرهم ثم ذكر سبحانه بعد ذلك جزاءهم فقال: ﴿ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾، ثم ذكر سبحانه السبب وهو قوله ﴿ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾ فهم ظلموا مرتين:

الأولى - بكفرهم واتخاذهم الأنداد من الأحجار.

الثانية - ظلمهم للحق وأهله ودعاته، فظلموا آيات الله وكفروا واتخذوها ورسل الله هزوا وسخرية، وذلك إيغال فى الكفر والضلال.

بعد ذلك ذكر حال المؤمنين يوم القيامة

حال المؤمنين

قال الله تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) خَٰلِدِينَ
فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (١٠٨) قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى
لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا (١٠٩) قُلْ
إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟
لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا (١١٠)

ذكر سبحانه وتعالى حال الكافرين يوم القيامة وكيف كان ضلالهم فى الدنيا مُرديا لهم، وأوداهم فى نار جهنم، وذكر من بعد حال المؤمنين الذى صلحوا فى أنفسهم فآمنوا وعملوا الصالحات فنالوا جزاءهم فى الآخرة، ذكر الموصول للإشارة

إلى أن الصلة هى السبب فى الجزاء، فالإيمان والعمل الصالح هما سبب الجزاء العظيم؛ إذ الإيمان لتطهير القلب وعزيمة النفس، والبعد عن كل أدران الشرك، والعمل الصالح يتضمن القيام بكل ما أمر الله به، والانتهاء عن كل ما نهى الله تعالى عنه، لا فرق بين صغيرة وكبيرة إلا اللمم، فإن الله تعالى يغفره رحمة بعبادة، ويتضمن أيضا القيام بكل عمل صالح فيه نفع للإنسان، ويتضمن الفضائل الإنسانية التى يكمل بها الإنسان.

والجزاء ذكره تعالى يقول: ﴿ **كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً** ﴾، اللام للاختصاص، أى أنهم مختصون بها، وهى لهم كما لمالك فى مالك وذلك يدل على تأكيد الجزاء. و﴿ **الْفِرْدَوْسِ** ﴾ لفظ غير عربى يراد به الحدائق الغنَّاء، وفردوس الجنة أعلاها مكانا، وأوسطها شأنا، وجمعها للدلالة على كثرة فضلها، وتنوع خيرها وتعدده، و﴿ **نُزُلاً** ﴾، أى إقامة ثابتة ينزلون فيها راضين بطيب الإقامة وهدوء المثوى. وأنها إقامة هادئة طيبة، وهى مساكن، ومعنى ثابتة دائمة مستمرة؛ ولذا قال تعالى: ﴿ **خَالِدِينَ فِيهَا** ﴾، أى مقيمين فيها إقامة دائمة، ولا يجدون أفضل منها ينتقلون إليه؛ ولذا قال تعالى: ﴿ **لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً** ﴾، أى لا يطلبون مريدين مبتغين عنها تحوُّلا وانتقاء، فهم ينعمون فيها بنعمة الدوام والبقاء وعدم الإزعاج بالانتقال منها، والنعمة الثانية بلوغ الغاية فى الراحة والاطمئنان فلا يبغون حولا، بل ينعمون فيها بنعمة الرضا بها، وأنهم لا يجدون خيرا منها.

وإن هذا من فضل الله، وهو تقديره وعلمه المحيط، وقد وسع كل شىء علما، فهو شامل الوجود كله؛ ولذا قال تعالى: ﴿ **قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩)** ﴾.

الخطاب فى ﴿ **قُل** ﴾ للنبى ﷺ وهو يتضمن أمر الله تعالى لنبيه بأن يعلمهم إحاطة علم الله تعالى بكل شىء ولا يغيب عن علمه مثقال ذرة فى السماء والأرض، و(كلمات الله تعالى) هى تصوير لعلمه الذى لا يحصى ولا يحد، فهذه الآية أمر للنبى ﷺ بأن يصور علمه بأنه غير متناه، فلا يحده حد، فالكلمات لا

تحده، ولا تحيط به، ومهما يكن مداد الكلمات ولو كانت المداد ماء البحر، و(ال) للجنس والاستغراق، أي أن البحار كلها ﴿مدادا﴾ وهو ما يكتب به ﴿لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٧)﴾ [لقمان]، وإن هذا تصوير مقرّب لعلم الله الذى أحاط بكل شىء علما، .فلو كان علم الله يدوّن فى مكتوب ما وجد مدادا الذى يدون كلماته، فلو كان البحر مدادا لكلماته سبحانه لنفد البحر وما انتهت كلمات الله تعالى، وهذا تصوير وتقريب، وفيه تشبيه بمفردات معلومات الله بالكلمات، وأنها لا تنتهى أبدا.

وهنا أمور بيانية يجب التنبيه إليها:

الأمر الأول - ذكر كلمات الله تعالى مضافة إلى ربه مرتين، وذلك بيان لشرفها وعلوها، لأن علمه كامل.

الأمر الثانى - المقابلة البيانية فى قوله تعالى: ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾، فإن كلمات الله لا تنتهى، ولكن عبر عن ذلك بالنفاد من قبيل الجناس فى قوله تعالى لنفد البحر.

الأمر الثالث - أنه أظهر فى موضع الإضمار فقد قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩)﴾ فذكر البحر ظاهرا، وموضعه الإضمار لتأكيد سعة كلمات الله تعالى؛ ولذا قال: ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ يمده كما يمد الجيش بالجنود، هذا ما بدر لنا وما بدى بادى الرأى، ولكن وجدنا قراءة أخرى «مدادا» ويكون المعنى الذى تتلاقى معه القراءات، وهو أن المعنى، ولو جئنا بمثله مدادا، أى لو كان مثله حجما، ويصح مع ذلك أن يكون لكل من القراءتين معنى فتكون القراءة الأولى تشير إلى أن البحر الزيادة معين للبحر الأول زائد له، والثانية تفيد المماثلة، والله تعالى أعلم.

وذكرت هذه الآية التى تفيد علم غير المتنهى، بل إنه أحاط بكل شىء ومفردات معلوماته لا تتناهى لبيان كمال قدرته، والعلم والقدرة والإرادة صفات كمال فى الخلق والتكوين يصاحب بعضها بعضا، وإنه بها وغيرها من صفات الكمال تستحق العبادة؛ ولذا جاء بعدها قوله تعالى:

﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)** ﴾.

الأمر بالقول للنبى ﷺ لأنه جزء من تبليغ رسالة ربه، و﴿ **إِنَّمَا** ﴾ أداة قصر أى أنه ﷺ مقصور على البشرية وإنما يوحى إليه، فهو بشر ولا يتجاوز أنه بشر ولكن اختص من بينهم بأنه يوحى إليه فليس واحدا من الملائكة، والموحى به أن ﴿ **إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ** ﴾، فهو إعلام من الله تعالى بمن هو الإله حقا، فهو الله تعالى، ولا إله غيره، وإنه قد قامت مع هذا الوحى الصادق الذى قامت الدلائل على صدقه، وهو مؤيد بالآيات فى الكون فإن الكون بما فيه من سماء وأرض، وكواكب هى زينة السماء وزروع وثمار ومعادن وكنوز، فيها الآيات البينات على أن الخالق واحد.

وإن الناس فى تلقى هذه الرسالة من عند الله تعالى قسمان:

القسم الأول - يؤمن بالغيب، ولا يأسره الحس وتستغرقه المادة.

والقسم الثانى - استغرقته المادة، حتى لا يؤمن إلا بما هو مادى حسى، والأول هو الذى يرجو لقاء ربه وهو الذى ينادى بفعل الخير، والإيمان بالحق؛ ولذا قال تعالى: ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾.

وقال: ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ** ﴾، أى يستيقن بلقاء ربه، وعبر بالرجاء بدل اليقين؛ لأنه يفيد اليقين مع تمنى اللقاء والرغبة فيه وطلبه بالعمل؛ ولذا كان جواب الشرط ﴿ **فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾؛ لأنه إذا كان يرجو الله

ولقاءه فهو لا يعبد غيره، لأنه أخذ بالرسالة وآمن بها، والشرك فى العبادة أن يجعلها لله وحده، فلا يشرك فى العبادة وثنا ولا شخصا. وهناك شرك فى العبادة بأن يعبد يرائى الناس، وقد قال ﷺ: «**من صلى يرائى فقد أشرك، ومن تصدق يرائى فقد أشرك، ومن صام يرائى فقد أشرك**»(١)، وهذا هو الشرك الخفى والشرك الأصغر، وقد قال الزمخشرى عند تفسير هذه الآية: والمراد بالنهى عن الإشراك فى العبادة ألا يرائى بعمله، وألا يبتغى إلا وجه الله تعالى خالصا لا يخلط به غيره، وقيل نزلت فى جندب بن زهير قال للنبى ﷺ: إنى أعمل العمل لله تعالى فإذا أطلع عليه سرنى، فقال: «**إن الله لا يقبل ما شورك فيه**»، وروى أنه قال: «**لك أجران أجر السر وأجر العلانية**»، وذلك إذا قصد أن يقتدى به، وعنه ﷺ: «**اتقوا الشرك الأصغر**»، قالوا: وما الشرك الأصغر؟، قال: «**الرياء**».

---

(١) سبق تخريجه.

سورة مريم

تمهيد:

هذه السورة مكية، وقيل أن آيتى ٥٨، ٧١ مدنيتان، وعدد آياتها ثمان وتسعون آية. وقد ابتدأت هذه السورة الكريمة بذكر معجزات خارقة للعادة فى الوجود الإنسانى، ذلك أن الفلسفة الأيونية كانت قائمة على أن الأسباب وعلاقتها بالمسببات لا تخالف قط حتى بنوا نظرية الألوهية على العِلِّيَّة، وقالوا: إن العالم نشأ عن الله تعالى نشوء العلة من المعلول من غير إرادة من الفاعل المختار، فجاءت السورة فى كثير من آياتها بما هو خرق لهذه النظرية. إن من أسباب الخلق أن الشيخ الكبير لا ينجب وأن المرأة العاقر لا تلد فإذا أنجب الرجل الهرم من عجوز عاقر، فذلك خرق لنظرية الأسباب، إذ يوجد الولد من عاقر عجوز لا تنجب ومن شيخ هرم لا ينسل.

وقد ابتدأت السورة الكريمة بذكر نبى الله زكريا ﴿ **ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦)** ﴾.

والله تعالى يجيب دعاءه فيقول سبحانه له: ﴿ **يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا (٧)** ﴾ ولكن تأثره بمجرى الأسباب العادية يثير استغرابه فيقول: ﴿ **أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩)** ﴾.

ولكن الاستغراب لا يزال يتردد فى نفسه فيقول: ﴿ **رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠)** ﴾.

أعطاه ولدا من امرأة عاقر، وكان ذلك خرقـا للأسباب فى عصر الأسباب، وقد وهبه الله تعالى حبا وحنانا، وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا.

ثم جاء بالمعجزة الكبرى الخارقة لمجرد الأسباب والمسببات وبيان أنها لا تلزم الفاعل المختار وهى خلق عيسى من غير أب من عذراء بتول فقال تعالى: ﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦)** ﴾ ونزل إليهـا روح القدس جبريل عليه السلام الذى شرفـه الله تعالى بأن أضافـه إليه ﴿ **فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١)** ﴾.

جاءها المخـاض وألجأها إلى جذع النخلة، وجـاءت الخوارق للعادة متـوالية تعلن خرق نظرية الأسباب والمسـببات، فتهز جذع النخلة فتـساقط رطبا جنيا والماء يجرى من تحتها ﴿ **فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦)** ﴾ ولكنهم يجابـهونها بما كـانت تخشى يقولون: ﴿ **يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨)** ﴾، ولكن يجىء سر خارق للعادة يشير له الجميع، وهو أن يتكلم من هو فى المهد بالحكمة، ﴿ **فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)** ﴾.

كان عيسى ابن مريم عليه السلام معجزة فى الحمل به وفى ولادته وفى طفولته فى المهد وهو مخلوق عبـد لله تعالى، وإذا كان وجوده على غير مجـرى العادات فهو بخلقه أدل على قدرة الله تعالى من غيره وإذا عبده النصارى فمن جهلهم ﴿ **مَا كَانَ**

لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٣٥) ﴾ ولكن من بعده اختلفت الفرق على نحلٍ متباينة فويل لهم من مشهد يوم عظيم ﴿ **أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٣٨) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٩)** ﴾.

ويجيء فى السورة أخبار الأنبياء السابقين وما اقترن برسالاتهم من معجزات وما جاءوا به من شرائع، فابتدأ بقصة أبى العرب إبرهيم عليه السلام، وفيها تتجلى محبة الأبناء للآباء فيريد لمحبته أباه أن يجنبه عبادة الأوثان ويدعوه إلى تركها فيقول: ﴿ **يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥)** ﴾ ويرده أبوه ردا جافيا فيضطر لاعتزاله وقلبه معلق بمحبته وطلبه الهداية له، ويذهب به فرط محبته إلى أن يستغفر له ويقول: ﴿ **سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا** ﴾، ﴿ **فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩)** ﴾.

ثم ذكرت قصة موسى وكيف وهب الله من رحمته معه أخاه هرون نبيا، ثم ذكر أخبار إسماعيل عليه السلام منفردا عن أولاد إبراهيم عليه السلام، وفى هذا إشارة إلى أنه عمود نسب متفرع من إبراهيم عليه السلام وأنه سيكون منه محمد خاتم النبيين ﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥٤)** ﴾ وترجع السورة فى التاريخ فتشير إلى إدريس عليه السلام ﴿ **إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧)** ﴾، ويشير سبحانه إلى النبيين أجمعين: ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨)** ﴾ وقد أشار سبحانه إلى أن الخلاف جعل منهم الصالحين، والذين أضاعوا الصلاة ﴿ **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠)** ﴾ وتفصل السورة الكريمة جزاء المتقين وعقاب الكافرين فى بيان معجز ككل آيات القرآن وسوره.

وتجيء العبر في الآيات المختلفة الكثيرة، فيذكر الناس بالبعث ﴿أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠) وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣)﴾.

ويضرب الأمثال للمشركين بالذين مضوا من الذين عادوا النبيين وأهلكهم الله، وهم أحسن منهم أثاثا ورئيا.

ويبين الله اهتداء المهتدين وضلال الضالين: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا (٧٥) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا (٧٦)﴾.

وتشرح السورة الكريمة نفس الكافر وغروره: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨)﴾، ثم بين سبحانه أن ذلك مكتوب عليه وأنه سيرث أعقاب هذا القول، ويقول: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢)﴾.

ويبين سبحانه سيطرة الشياطين على الكافرين: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤)﴾.

ويذكر الله الناس جميعا بما يكون يوم الآخرة، ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦) لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٨٧)﴾.

ويبين مقالة الكافرين ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) ﴾.

وختم السورة الكريمة ببيان المؤمنين، وما كتب لهم من جزاء يوم القيامة، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨) ﴾.

وهكذا نجد السورة ابتدأت بأن حكمة الله تعالى اقتضت أن يخلق يحيى عليه السلام من شيخ هرم امرأته عاقر، ويخالف بذلك الأسباب والمسببات، ثم يأتي سبحانه بخلق عيسى عليه السلام من غير أب ليكون وجوده عليه السلام معجزة، وهو عبد من عباد الله ويختمها بالمعجزة الكبرى وهو القرآن، ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا (٩٧) ﴾.

معاني السورة الكريمة

قال الله تعالى:

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾
إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ
مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ
شَقِيّٗا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ
ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ
مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ

إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا
﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى
عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ
قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ
شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا
تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ
مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾
يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾
وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ
يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ
وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾

هذا عصر كثرت فيه خوارق العادات، لأنها كانت تصحيحا للعقول. وإزالة لفكرة خاطئة وقعت فيها الفلسفة التى كانت سائدة فى هذا العصر، وهى نظام الأسباب العادية، وترتيب مسبباتها عليها، وأنه هو النظام المطرد المستقر الذى لا يمكن تغييره، وهو النظام الموجود، حتى زعموا أن الله خلقت عنه الأشياء، منفعلة بالعلِّية، وأنه ليس باختيار من الله تعالى وإرادة، فكل ما فى الوجود، جاء منفعلا عن علة وهو علَّة لغيره، حتى يتوالى كله بنظام العلِّية، فالأب علَّة لوجود ابنه، إذا كان قويا والأم علَّة لوجود ولدها إذا كانت سليمة قوية ليست عاقرا.

وكان لا بد لتصحيح هذه الفلسفة ولبيان بطلانها أن تكون أشياء بغير أسبابها التى استقرت أفهامهم على أنها أسباب طبيعية لها، وفى هذه السورة الكريمة كان

أمران فيهما نقض لنظام الأسباب والمسببات يدل على أن الوجود خلق بإرادة مختار، وأن الله تعالى فعال لما يريد:

الأمر الأول: ولادة عاقر وزوجها بلغ من الكبر عتيا.

والأمر الثانى: ولادة ولد من غير أب وإذا كانت الأولى فيها الولادة من أم غير صالحة للإنجاب، فالثانية ولادة من أم لم يثبت عدم صلاحيتها للإنجاب ولكن من غير أب مطلقا صالحا للإنجاب أو غير صالح.

﴿ **كهيعص** (١) ﴾.

قلنا فى الحروف التى تبدأ بها بعض السور: إن معناها قد اختص به علم الله تعالى، ولنا أن نتعرف الحكمة فى ابتداء بعض السور بها، وأشرنا إلى أنها تنبه لإعجاز القرآن، وأنه مؤلف من الحروف التى يتألف منها كلامكم ومع ذلك عجزتم أن تأتوا بمثلها، وأنها تنبه الأذهان للاستماع، وقد كان المشركون تعاهدوا على ألا يسمعوا لهذا القرآن ويلغوا فيه: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ** (٢٦) ﴾ [فصلت]، فإذا تليت عليهم تلك الحروف بغنّها ومدها نبهتهم فيستمعون إليها، تهجم عليهم الآيات المفهومة المدركة، فيستمعون إليها راغمين غير مختارين وهى أسماء للسور، وذكر للكتاب.

﴿ **ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا** (٢) ﴾.

﴿ **ذِكْرُ** ﴾ خبر ﴿ **كهيعص** ﴾ وهذا يشير إلى أنها الكتاب أو بعضه، و﴿ **عَبْدَهُ** ﴾ منصوبة بالرحمة؛ لأن الرحمة مصدر بمعنى المرة من الرَّحْم، ويصح أن يجعل مفعولا لـ ﴿ **ذِكْرُ** ﴾، على أن تكون إضافة الذكر إلى الرحمة من إضافة المصدر لفاعله، وإنا نرى أن ذلك بعيد ويحتاج إلى تأويل، وما لا تحتاج لتأويل أولى مما يحتاج لتأويل.

وإن ذلك الذكر لهذه الرحمة فى وقت نادى ربه بها، ولذا قال تعالى:

﴿ **إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا** (٣) ﴾.

أى دعاه دعاء الضارع الخاضع المتوكل، الذى لا يرجو إلا ربه، وعبر بالنداء لأنه طلب منه، التجأ فيه إليه، وهو طلب لشخصه ولأسرته، وقد كان هذا الطلب فى ذاته دعاء وعبادة، كما قال تعالى: ﴿... ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ...(٦٠)﴾ [غافر]، ودعاه فى خفاء، ولذا قال سبحانه: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣)﴾، و﴿خَفِيًّا﴾ صفة مبالغة من خفى، أى أنه بالغ فى إخفاء دعائه فلا يعلمه قومه؛ ولأنه مناجاة لله وضراعة إليه، وهو لا يلتجئ إلا إليه وحده: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ... (٢٠٥)﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥)﴾ [الأعراف]، وفى هذا إشارة إلى أن الدعاء تضرع وفى الجهر به اعتداء؛ لأنه يكون فيه دعوة لغير الله وشكوى للناس من ربه.

وموضوع النداء، بينه بقوله تعالى عنه:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥)﴾.

﴿وَهَنَ الْعَظْمُ﴾، أى ضعف، ووهن العظم دليل على وهن الجسم كله؛ لأنه عمود الدين وبه قوامه، وهو أصل بنائه، فإذا وهن تداعى وتساقط سائر قوته؛ ولأنه أشد ما فيه وأصلبه، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن منه، كذا قال القرطبى فى تفسيره(١).

ذكر أولا ما دل على الضعف الحقيقى، ثم ذكر ما يدل ظاهرا على الضعف، وهو أنه يعلوه الشيب فقال: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ﴾ الاشتعال الانتشار، و﴿شَيْبًا﴾ تمييز محول عن الفاعل، والمعنى اشتعل شيب الرأس، أى انتشر الشيب فيه، والاشتعال مع أنه بمعنى الانتشار إلا أنه غلب على انتشار النار.

وهنا نجد ثمة استعارة، فقد شبه انتشار بياض الشيب باشتعال النار، إذ يكون الشيب عند انتشاره لامعا كوهج النار، ولأن فيه إفناء الشعر الأسود، كما تحرق

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١١/ ٧٣.

النار ما يكون حطبها، ولأنه أمارة الفناء للعمر كما تفنى النار ما تحرقه، وأسند الشيب إلى الرأس مع أنه يكون فى الشعر من قبيل اسم المحال وإرادة الحالّ، إذ جلد الرأس هو منبت الشعر ويكون فيه، وإن فى هذا النص من البلاغ ما يليق بالقرآن الكريم أبلغ القول فى الإنسانية كلها، إذ هو كلام الله تعالى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فإن نسبة الاشتعال إلى الرأس ما يثير الاهتمام فيحاول العقل تعرف اشتعال الرأس فيجىء التمييز ﴿شَيْبًا﴾ بما يفيد اشتعال الشعر، ولم يذكر الشعر بل اكتفى بذكر محله.

وقال الله تعالى عن زكريا: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ فى هذه الجملة السامية الدلالة على رجائه من الله تعالى، وفيها ذاتها ضراعة، وعبر هنا بالدعاء، وفى الأولى بالنداء للدلالة على أن النداء استغاثة وتلهف ورجاء، ودعاء وعبادة وتقى، وذكر ﴿رَبِّ﴾ فى هذه لبيان أن نعمه سبحانه وتعالى موصولة دائما منذ خلقه إلى أن يبعثه نبيا، و﴿شَقِيًّا﴾ بالأمر إذا تعب فيه ولم ينل ثمرته، أو طرد من خير، والمعنى لم أكن منذ خلقتنى بدعائك محروما متعبا، بل كانت نعمة واستجابة دعائى قائمة دائمة موصولة، وفى نفى الشقاء فى الدعاء ماضيا تأكيد للرجاء قابلا، وأن ذلك من طرائق الاستجابة والرغبة فيها، وإن ذكر النعمة الماضية شكر لها وإيذان لشكر فاعله.

وصرح بموضوع الدعاء فقال: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥)﴾، هذه الجملة حالية، والواو واو الحال، والمعنى أنه فى الحال الذى وهن العظم واشتعل الرأس شيبا ودنا الموت ﴿خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾، والموالى هم الحواشى والعصبات من قرابته، وسموا موالى؛ لأنهم الذين يلونه على ما يترك من علم ونبوة والأموال التى تورث من بعده، وقوله: ﴿مِن وَرَائِي﴾، إما أن يتعلق بالموالى ويكون ظاهر القول إنى خفت الموالى الذين يجيئون من ورائى، وإما أن يتعلق بـ﴿خِفْتُ﴾ ويكون ظاهر المعنى: إنى خفت من بعد موتى الموالى الذين يجيئون، والمؤدى فى التقديرين واحد. ولماذا

خاف الموالى؟ قيل: لأنهم لم يكونوا أمناء على تركته من بعده إذ كانوا عصاة مسرفين، أو لأنهم قلة، وعلى هذا قرئت (خَفَّت) بفتح الخاء وتشديد الفاء وسكون التاء ويكون طلب الولد لينضم إليه، وقد ورد هنا اعتراضان:

الاعتراض الأول: أنه ورد في الأثر: «**إننا معشر الأنبياء لا نورث**»[1].

الاعتراض الثانى: أنه إذ يطلب الولد يرثه إنما يعترض على تقسيم الله تعالى للميراث ويستكثر على الموالى ما يأخذوه.

والجواب عن الاعتراض الأول: أن هذا الأثر كان بالنسبة للنبى، وإلا فقد ورث سليمان داود ـ عليهما السلام ـ أو على أنه غالب أمرهم، أو على أن الوراثة هى وراثة العلم والنبوة ولكن ذلك بعيد.

وأما الجواب عن الاعتراض الثانى: فهو أنه لا مضارة فى الوراثة، وإنما أراد أن يضم إليهم فى تحمل أعباء العلم الذى حمله زكريا، ويؤيد ذلك قراءة خَفَّت بفتح الخاء وتشديد الفاء، والمرأة العاقر التى لا تلد، وقوله: ﴿**وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا**﴾، أى ثبت عقرها ودوامه يدل عليه التعبير بـ «كان» الدالة على الدوام والاستمرار، أى أنه لا أصل له فى الولادة لكبره وعقمها، ولكن رجاؤه من الله تعالى مسبب الأسباب، ولذا قال متجها إليه؛ لأنه فوق الأسباب الظاهرة ﴿**فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا**﴾ «الفاء» لبيان ترتيب ما بعدها على مع ما قبلها، فهو مترتب على رجائه فى الله تعالى، وترك الرجاء من جهة الأسباب العادية وكان التعبير بـ «هب»، أى أنه هبة مجردة من فضلك وإرادتك أنت الفاعل المختار، وكان قوله ﴿**مِن لَّدُنكَ**﴾ تأكيد بأنه من قِبَل الله تعالى لا دخل للأسباب العادية فيه، بل إنه خرق لهذه الأسباب.

﴿**وَلِيًّا**﴾، أى يلينى ويخلفنى فى مالى وما أوتيت من علم وحكم وحكمة.

---

(١) رواه أحمد ـ باقى مسند المكثرين (٩٥٩٣). والنسائى فى الكبرى ٤/ ٧١ (٦٢٦٦) : «إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركنا فهو صدقة». كما رواه البخارى ومسلم بلفظ آخر.

ثم قال تعالى فى بيان معنى الولاية:

﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾.

الوراثة مترتبة على أنه ولىّ أو هو معنى ولايته عنه، ولذا انفصلت عن الجملة السامية السابقة؛ لأنها مترتبة عليها أو لأنها بمنزلة السبب، وهذه بمنزلة المسبب، وما الموروث؟ قالوا: إن الوراثة تكون وراثة فى الجسم والعقل والغرائز والصفات الفطرية وبعض المكتسبة؛ كى تكون الوراثة فى المال والعلم والحكمة والسجايا الفطرية، وقد نفى بعض العلماء الوراثة لقول النبى ﷺ: «**نحن معشر الأنبياء لا نورث**»[1] ولكن الأكثر على أن الوراثة فى المال بالنسبة لزكريا عليه السلام هى ثابتة، ولعل ما ذكره النبى ﷺ غالب ما عليه الأنبياء أو خاص بالمرسلين أصحاب الشرائع منهم كموسى وعيسى ونوح وإبراهيم - عليهم السلام - وإلى هذا نميل؛ لأنه من المؤكد أنه ورث سليمان داود بنص القرآن الكريم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾، ﴿مِنْ﴾ هنا تدل على الابتداء، أى يرث ميراثا من آل يعقوب.

هذا هو الطلب الأول الذى دعا ربه ضارعا إليه، أما الطلب الثانى فهو أنه خصه بأن يكون مرضيا، أى تكون سجاياه وأعماله وأخلاقه مرضية مستقيمة، ولذا قال تعالى: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾، ﴿رَضِيًّا﴾ هنا فعيل بمعنى مفعول، أى اجعله مرضيا عندك، أى أن أخلاقه وأفعاله وصفاته المكتسبة موضع رضا منك، ولم يقل: وكن راضيا عنه؛ لأنه يطلب ما يطلب فى خلق الولى وتكوينه، أى اجعله فى تكوينه محاولا رضاك، وأن ترضى عنه، بحيث يتخذ الأسباب لينال رضاك أنت العليم الحكيم فلا يكون شقيا، ولا يكون عصيا بل يكون رضيا برا تقيا.

وإن الدعاء صادر من قلب خاشع ضارع، ولذا استجاب سبحانه وكان الخارق للعادة فقال تعالى:

---

(١) المرجع السابق.

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا (٧) ﴾.

ابتدأ الإجابة بندائه باسمه إدناء، وعناية وإظهار المحبة واختصاصه، وتمكينا لإجابته فى ندائه الضارع، وأردف ذلك النداء المقرِّب بقوله: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ﴾، ﴿نُبَشِّرُكَ﴾ أضاف سبحانه التبشير إلى ذاته العلية ذاكرا بضمير المتكلم العظيم فوق كل عظمة الذى لا يتقيد بأسباب الناس وعاداتهم، بل إنه الفعال لما يريد ﴿بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾، وتأكيدا للتبشير سماه الله تعالى، فسماه يحيى، ولهذا الاسم مناسبة واضحة بالنسبة لأبويه، فأبوه شيخ فان، وكأنما رد إليه شبابه فى حياة ولده فكان له إحياء، وأمه عاقر، كأنما خلق الله تعالى الحياة فى رحم جف فلم يربّ جنينا، فكان منه الولد، وذلك بلا ريب خرق للأسباب والمسببات العادية التى فرضها فلاسفة اليونان الذين قارنوا ظهور المسيح عليه السلام ومريم أمه، وزكريا كافلها، و﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾، أى شبيها فى خلاله وسجاياه، فقد كان حصورا من الصالحين وليس له سمى، فالتسمية من الله، وقد سبق يحيى بها كل الأسماء التى سمى بها الرجال.

وهنا نجد نبى الله زكريا، وقد وقف بين حالين: حال الإيمان بالله خالق الأسباب والمسببات الذى لا تقيد إرادته عادة ولا سبب أى سبب، والحال التى تسود الناس، وهى سيطرة الأسباب والمسببات العادية على تفكيرهم، فبالأولى طلب ما طلب عالما أن الله تعالى فوق الأسباب والمسببات، وبالثانية ثار عجبه؛ ولذا قال تعالى عنه:

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) ﴾.

الاستفهام ليس للاستنكار؛ فكيف يستنكر نبى قدرة الله تعالى على الأشياء من غير وسائط وأسباب، وهو خالق الوسائط والأسباب، وإنما كان هذا السؤال للتنبيه إلى موضع الغرابة، وليؤمن من لم يكن آمن بقدرة الله تعالى، وأنه لا

يحتاج فى خلقه إلى وسائط وليسمع الناس بيان الله تعالى أنه هين عليه، وأنه ليس بغريب من الله تعالى، فقد خلق الإنسان ولم يك شيئا، وأن الله تعالى غنى عن الوسائط والأسباب، وشكرا لنعمة الله فى إجابة الدعاء فقد أجاب سبحانه مع ظهور ما يبعد الإجابة، ولكن ليس على الله ببعيد.

وموضع البعد أنه شيخ فانٍ قد تصلبت عظامه وصار كالحطام الذى لا تجرى فيه الحياة؛ فقد بلغ من الكبر عتيا، وامرأته عاقر لم تنجب ولم يكن من شأن أمثالها فى العادة أن تنجب، وقوله: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾، أى بلغت من كبر السن حدا صرت فيه صلب العظام معروق اللحم، وقد قال الزمخشرى فى معنى كلمة (عتى) واشتقاقها: «أى بلغت عتيا وهو اليبس والجساوة فى المفاصل والعظام كالعود القاحل، ويقال: عتا العود من أجل الكبر والطعن فى السن العالية، أو بلغت من مدارح الكبر ومراتبه ما يسمى عتيا» اهـ(١).

وأصل عتى عتوو. كسر ما قبل الواو الأولى فقلبت ثم اجتمعت الواو والياء وكانت إحداهما ساكنة فقلبت ياء وأدغمت الياء فى الياء، وقرئت ﴿عِتِيًّا﴾ بكسر العين وبضمها(٢).

أجاب الله تعالى زكريا بقوله:

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾﴾.

﴿كَذَلِكَ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره مثلا الأمر كذلك، وقائل هذا هو الملك الذى تولى الوحى بين زكريا وربه، أى قال الملك: الأمر كذلك، فقد قدره الله تعالى، وأحكم ما قدر، ثم نقل عن الله تعالى قوله: ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ وعبر بـ﴿رَبُّكَ﴾ للإشارة إلى أنه خالقه ومربيه والقائم على كل أموره، وأنه لا غرابة فى أن يكون هذا من الحى القيوم ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، الضمير ﴿هُوَ﴾ يعود

(١) الكشاف للزمخشرى: ٢/ ٥٠٣، والجساوة: الصلابة والخشونة. لسان العرب-جسأ.

(٢) اختلف فى (عتيا)، فحمزة والكسائى وحفص: بكسر العين، وقرأها الباقون بالضم. الشيخ محمود خليل الحصرى- القراءات العشر من الشاطبية والدرة- الشمرلى. مختصرا.

إلى ﴿غُلامٌ﴾ فى قوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ﴾ وهو يعود إلى الولد مع وجود هذه الأحوال التى تجعله قريبا، و﴿هَيِّنٌ﴾، أى سهل لين لا يثير عجبا ولا استغرابا، و﴿هَيِّنٌ﴾ تشير إلى أنه لا غرابة فيه، ثم ساق سبحانه بعد ذلك ما يدل على قربه، فقال سبحانه: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾، وهذه مقدمة قياسية تزيل الغرابة وتبين أنه لا غرابة على قدرة الله تعالى، وتقديره هذه المقدمة هكذا. وقد خلقتك من قبل هذا ولم تك شيئا؛ لأنى خلقتك من عدم لا بعد شىء، وإذا كان ذلك ممكنا وواقعا وقد وقع فبالأولى يكون الخلق من شىء، وإن كان من أب شيخ وأم عاقر فهما شىء، والخلق من شىء أقرب فى الوجود من الخلق من عدم.

اطمأن زكريا الرسول إلى بشرى رب العالمين أو قوى اطمئنانه، أو زالت الغرابة من نفسه وبقى أن يوثق البشرى:

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾﴾.

الآية هنا العلامة التى يعرف بها أن امرأته حملت، وأن الولادة آتية لا ريب، فإن الولد قرة عينه وإنه آت لا محالة لوعد الله تعالى به. وإن الله لا يخلف الميعاد ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾، وقد قال تعالى فى سورة آل عمران: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴿٤١﴾﴾.

وقد ذكر الأيام فى سورة آل عمران، والليالى فى سورة مريم؛ للدلالة على أن العلامة هى ألا يكلم الناس ثلاثة أيام بلياليها، وكان ذكر الليالى فى هذه السورة لأنها مكية، وما كان العرب الأميون فى مكة يعرفون الأيام إلا بالليالى، حيث يرون القمر فهو شهر الأميين، والأيام الثلاثة قد حبس الله تعالى لسانه عن النطق، فما كان يتكلم إلا بالإشارة، كما قال تعالى فى سورة آل عمران: ﴿...أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا ... ﴿٤١﴾﴾، أى بالاشارة، وأوضح الإشارات الكتابة، وقوله تعالى: ﴿سَوِيًّا﴾ حال من ضمير ﴿تُكَلِّمَ﴾، أى سوى الخلق سليم

الحواس، أى وحاستك سليمة، ولماذا كانت العلامة الدالة على وفاء الله ببشراه وتنفيذها بالفعل هى حبسه عن الكلام ثلاثة أيام متتابعة، وهو سليم الحواس؟، تلك إرادة الله تعالى ولا يعلم إرادة الله إلا الله سبحانه وتعالى، وقد نتلمس معرفة بعض أسرار ذلك الحبس فنقول إنه سبحانه وتعالى قد أراد به العتب، لذكر غرابة البشرى، وقد يكون إعفاءً لزكريا وامرأته من لجاجة القول عند الفضوليين من الناس، وقد يكون للانصراف إلى العبادة والعكوف فى منزله أو المسجد الأقصى، قد يكون لذلك أو لغيره، والعلم عند الله العليم الخبير. ولما تأكد مجىء الولد وكان على وشك المجىء، كان التسبيح والتكبير هو شكر لله تعالى، وكان ذلك منه ومن قومه؛ لأنه ليكون لهم ولى لزكريا، له حنانه وعطفه ومحبته، ولذا قال تعالى:

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ⑪ ﴾.

﴿ الْمِحْرَابِ ﴾ هو المصلى، ويظهر أنه كان يلازمه عندما وعده ربه أو كان قريبا منه دائما، ولذا كان خروجه مبتدأ منه، وسمى المصلى محرابا؛ لأنه يحارب الشيطان بلزومه فهو مشتق من المحرب، أو يحارب التعب ويأنس فيه بالله والقرب منه، فيكون مشتقا من الحرب والتعب وجهاد النفس.

ومهما يكن اشتقاقه فهو أشرف مكان خرج على قومه منه وأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا، ﴿ فَأَوْحَى ﴾ أى أشار إليهم، وكأنه كان إلى محبوس اللسان، كما يدل على ذلك مخاطبته لقومه بالإشارة والرمز، وقد كان هو فى ذكر دائم، كما قال تعالى: ﴿ ...وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ㊶ ﴾ [آل عمران].

وقد دعا قومه للمشاركة فى هذا بالإشارة لشكر الله تعالى لما تأكد من العلامة أن الله تعالى وهبه الولد الذى يكون وليا.

والتسبيح: التقديس، والتسبيح فى العشى والإبكار يفيد أنه تسبيح طوال النهار وطرفا من الليل، وكانت دعوة قومه للتسبيح معه؛ لأنه ذلك الولى الذى

جعله رضيا سيكون مصدر خير لهم، ولأنه يكون خلفا من الإيمان بالأسباب والمسببات إلى الإيمان بالله الفعال لما يريد.

بعد ذلك كان يحيى نبى الله، وقد صار شخصا سويا يخاطب وينادى بما أنعم الله به عليه وعلى أبيه فقال تعالى مخاطبا نبيه يحيى:

﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) ﴾.

ناداه سبحانه بالبعيد إعلاء له وتشريفا، وناداه باسمه محبة له وتقريبا، وقد دل ذلك النداء على أنه بلغ حد الخطاب؛ ولذا تضمن معنى كبر وكمل، وعطف عليه بقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾، فالواو عاطفة تحمل على ما تضمنه معنى ﴿يَا يَحْيَىٰ﴾ من بلوغ الرشد، واستواء الشخصية الإنسانية وذلك أمر خارق للعادة فإن الصبى يشدو فى الكمال حتى يبلغ مبلغ الرجال، فيخاطب كما يخاطب الرجال، ولكنه بلغ مبلغ الرجال، وهو مبلغ من يعطيه الله تعالى الحُكْم، والحُكْم هنا الحكمة، وذلك كما فى كلام حكيم تميم أكثم بن صيفى «الصمت حُكْم، وقليل فاعله»، أى الصمت حكمة وقليل فاعله، والكتاب الذى أخذه هو التوراة، فقد كانت التوراة شريعة النبيين الذين جاءوا من بعد موسى يقرأونها وينفذون أحكامها، ويعلمونها للناس ويحكمون بما اشتملت عليه من نظم، فداود وسليمان - عليهما السلام - كانا ينفذان فى ملكهما حكم التوراة، ويقيمان ما اشتملت من حدود وقصاص من غير تفريط فيها، ومعنى ﴿بِقُوَّةٍ﴾، أى خذه منفذا له بقوة لا تخشى فيه لومة لائم، ولا معذرة لأثيم.

وقد ذكر الله سبحانه ما حلاه من صفات بشرية هى صفات البشر الكامل فقال تعالى:

﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) ﴾.

ذكر الله تعالى ثلاث صفات هى صفات الكمال لإنسان يعيش فى وسط مجتمع يغذيه بماله وعاطفته، ويجنب عنه السوء.

الصفة الأولى: ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿وَحَنَانًا﴾، والحنان الشفقة والرأفة والرفق فى معاملة الناس، والفيض عليهم من حبه، والحدب عليهم، والواو عاطفة على ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾، فذلك بدا فيه منذ كان صبيا، وهو ما أودعه الله تعالى فى فطرته، ولذا قال: ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾، أى أن الله تعالى أعطاه تلك الصفة منه لا بتربية ولا تعليم فهو مهدى حنون شفيق بمقتض تكوينه الفطرى.

والصفة الثانية: الطهارة وذكرها الله تعالى بقوله: ﴿وَزَكَاةً﴾، أى طهارة، وهى طهارة إيجابية فهو طاهر فى نفسه، ويفيض بطهارته على غيره، ولذا نقول: إن «زكاة» تتضمن طهارة النفس، والفيض على قومه بالصدقات، فتكون طهارة لذاته وطهارة لمجتمعه من الموبقات، فإن الزكاة طهارة للمجتمع.

والصفة الثالثة: التقوى وقد قال تعالى ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾، أى كانت نفسه مملوءة بالتقوى وهى خوف الله تعالى، وخوف الشر لقومه، فكان نبيا، وكان إنسانا كاملا سوى الخلق والنفس، وتحققت فيه أمنية أبيه ولذا قال تعالى:

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾.

هذان الوصفان يضافان إلى الأوصاف الثلاثة السابقة، أول الوصفين إيجابى، والثانى سلبى.

أما **الوصف الأول**: فهو أنه كان برا بأبويه، وهو استجابة لزكريا؛ لأنه كان يخاف الموالى من ورائه، فجاءه البر به وبأمه، والذى به تقر أعينهما، ولا يجدون شقوة فى عشرته بل يصاحبهما صحبة طيبة كريمة برة.

والوصف الثانى: سلبى، وهو أنه لم يكن جبارا مستكبرا مستطيلا على الناس بقوته أو رهبته، بل كان أليفا متطامنا مطمئن النفس عادلا، لا يُرهب، ولا يتجبر، ووصف الجبار بأنه عصى، وكل جبار عصى؛ لأن يعصى بالبعد عن الناس ويعصى بمجافاتهم، ويعصى بعداوتهم، ويعصى بالظلم، فالظلم مرتعه وخيم، ويشقى فوق ذلك بغضب الله تعالى عليه، وحسب الظلم شقاء، فإنه لا يظلم إلا

شقى، ولا يسعى مع ظالم إلا شقى، والعصى فعيل من عَصَى، من العصيان وهو مبالغة، وقد كرم الله تعالى يحيى بتحية كريمة له فقد حيَّاه تعالى من وقت أن ولد إلى أن مات فقال تعالى: ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥) ﴾.

السلام هو الأمن، والأمن يتضمن الأمن من عذاب الله، والظفر برضاه، وهو أكبر ما يأخذه العبد، وهذا الأمن والرضا من وقت ولادته، فهو مبارك آمن يوم ولد، ويوم يموت، ويوم يبعث حيا.

ولادة عيسى

قال الله تعالى:

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ
مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا
فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّىٓ
أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ
رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى
غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَٰلِكِ
قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً
مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١) ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ
بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢)

قلنا: إن العصر الذى قارب عيسى هو عصر الإيمان بالأسباب والمسببات العادية حتى ادعى أن الكون نشأ من منشئه على نظام: العلة والمعلول.

وإذا كانت تلك سمة هذا العصر فكان عصر الخوارق المبطلة لذلك التفكير الضال، وقلنا إن يحيى كان حمله خارقا للعادة؛ لأنه كان من أب بلغ من الكبر غيبا وأم كانت عاقرا لا تنجب.

وعيسى كان من غير أب، بل سبق ذلك خوارق أخرى فى الحمل بأمه، وفى كفالتها ومدة حضانتها، فقد كانت وهى فى حضانة زكريا تعيش فى المسجد محررة له كما نذرتها أمها فى أثناء الحمل بها، إذ قالت مخاطبة ربها: ﴿ **إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨)** ﴾ [آل عمران].

نرى أن خرق نظام الأسباب والمسببات ابتدأ بما كان من رزق مريم الذى أثار عجب زكريا، وقد رأى الأسباب تُطوى ولا تحول بين الله تعالى وما يريد، فدعا ربه أن يهب له من لدنه ذرية طيبة.

فخرق نظام الأسباب العادية ومسبباتها كان فى أم عيسى قبل أن تجىء إرهاصات ولادته، بل كانت هذه هى الإرهاصات الأولى، ولذا كان اصطفاء الله مريم البتول لتكون أم المسيح، إذ قال عز من قائل ﴿ **وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)** ﴾ [آل عمران]، كانت هذه كلها إرهاصات لما اختارها الله تعالى له.

قال الله تعالى:

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) ﴾.

الخطاب للنبى ﷺ، والكتاب هو القرآن الكريم، فهو الكتاب الكامل الذى إذا ذكرت كلمة الكتاب انتهت إليه، فهو الجدير وحده بأن يسمى الكتاب؛ لأنه كامل فى نسبته إلى الله تعالى، إذ هو خطابه لعباده، وكامل فيما اشتمل عليه من إعجاز، وكامل فيما اشتمل عليه من شرائع وحكم ومواعظ وقصص.

﴿ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ النبذ: الطرح والرمى، وانتبذ معناه نبذه نبذا شديدا، والمعنى أنها اعتزلت الناس ونبذتهم، وانفردت لعبادة الله وحده، لا تأنس إلا به، ولا يعمر قلبها إلا بذكره، والمعنى انفردت من أهلها ﴿ مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾، أى انفردت من أهلها فى مكان شرقى بيت المقدس الذى كان فيه محرابها، ومحراب كافلها زكريا عليه السلام، وكان وراء هذا الانفراد أن اتخذت حجابا يحول بينهما.

ولذا قال تعالى: ﴿ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا ﴾، والفاء للترتيب والتعقيب، أى أنه صاحب الانتباذ أو أعقبه أن اتخذت حجابا من دونهم يحول بينهم وبينها، فلا يرونها فى عزلتها، ولا تراهم، وذلك إحكام للعزلة التى أرادتها بإلهام من الله تعالى، لتكون أما لعيسى، وقد كانت فى هذه الخلوة الروحية على استعداد لتلقى أمر ربها، وقد قال تعالى فى الاصطفاء فى السورة آل عمران مخاطبا لها بالوحى، أو بالإلهام الروحى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ﴾ [آل عمران].

فى هذه الخلوة الروحية التى كان يتحدث فيها الملائكة، كان لقاء جبريل الأمين لها، ولذا قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾، الروح هو جبريل، وقد عبر عنه بروح القدس، وأضيفت الروح إلى الله؛ لأنه خالقها؛

ولأنه المختص برسالته إلى خلقه، وكذلك كان التعبير في قوله تعالى: ﴿...فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا... (٩١)﴾ [الأنبياء]، أى جبريل الأمين، والفاء للترتيب، أى أنه بعد أن اتخذت حجابا بينها وبين الناس منتبذة دونهم مكانا شرقيا، أرسلنا إليها فى هذه الخلوة الروحية جبريل، فتمثل لها بشرا سويا، أى ظهر لها فى صورة رجل سوى مستوى الخلق والتكوين حسن الصورة، وقد جاءها كذلك، لأن البشر لا يرون الملك من الملائكة إلا على صورة البشر، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩)﴾ [الأنعام]؛ لأن البشر بحالهم البشرية لا يستطيعون أن يروا ملكا وهو فى صورته الروحية.

فوجئت البتول مريم - وهى فى مكان قصى شرقى قد انتبذت الناس، واتخذت من دونهم حجابا - بصورة رجل من البشر يدخل عليها ولا تدرى من أين جاءها، وقد سدت الأبواب، وقام الحجاب، وفى الفزع من المفاجأة، قال الله عنها:

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨)﴾.

أى ألجأ إلى الله تعالى منك حذرة خائفة، وذكرت الله تعالى بوصف الرحمن كأنها تستغيث من الناس برحمة الله تعالى، وأنها فى هذه الساعة تلجأ إلى رحمة الرحمن الرحيم، ثم تتجه إلى الذى دنا منها مستنجدة بتقواه، فتقول: ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾، طاهرا متصونا مرجوا تخاف الله تعالى وتخشاه، فهى تلجأ إلى الرحمن، وتحثه على أن يخافه ويتقيه، ويكون امرءا يخاف عذابه ويرجو ثوابه، هنا يتقدم الملك الذى تمثل بشرا سويا يعلن حقيقته ومهمته، وأنه ما جاء لينال منها شرا وأن ما سبق إلى وهمها ينفيه نفيا قاطعا، ويزكيها ويقوى اصطفاء الله تعالى كما جاء فى سورة آل عمران: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا (١٩)﴾[1].

(١) راجع سورة آل عمران من هذا التفسير المبارك.

﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر، أى لست إلا رسول ربك، أى أنا مرسل من ربك الذى خلقك ويعلم حالك وطهارتك، وأنه اصطفاك من نساء العالمين؛ لتكونى موضع معجزته الكبيرة وهى خلق إنسان من غير أب، وقوله: ﴿لأَهَبَ لَكِ﴾ اللام متعلقة برسول أى رسالتى لأهب لك، لأكون أداة هبة لله لك، أو طريق هبة الله لك، فليس هو الذى يهب إنما يهب الله تعالى، وهذا معنى القراءة الأخرى «ليهب لك»(١) بإسناد الهبة لله تعالى مباشرة، وعلى كلتا القراءتين الهبة من الله تعالى العزيز الوهاب، والرسالة فى قراءة «ليهب لك» موضوعها الرسالة وحدها.

وقوله تعالى: ﴿غُلامًا زَكِيًّا﴾، أى غلاما طاهرا ناميا فى جسمه ونفسه وروحه، وكل ما يتصل بالنمو الإنسانى الكامل.

اعتراها ما اعترى كافلها زكريا من استيلاء الأسباب والمسببات العادية فكانت مستغربة، وحكى الله تعالى عنها أنها قالت:

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠)﴾.

﴿أَنَّى﴾ بمعنى كيف وهى للاستغراب لتأثرها بنظرية الأسباب التى كانت سائدة، ولأن هذا هو النظام الذى كانت تعرفه ويعرفه الناس، وموضع الاستغراب أن يكون لها غلام ولم يكن أحد من الرجال قد مسها، أى خالطها مخالطة جنسية بزاوج شرعى، أى أنها لم تزف إلى رجل فى الحلال، ولم تك بغيا أى امرأة مبغية مقصودة من الرجال، بل كانت عفيفة نزيهة طاهرة، وبغى: قال بعض الصرفيين: إنها على وزن «فعول» دخلها الإعلال بأن اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالتسكين فعُلّت وأدغمت الياء، وعندى أنها على وزن «فعيلة» بمعنى مفعول، ولم تلحقها التاء، وذلك مثل قتيل وجريح، والمرأة المتفحشة يقال لها بغى لأنها تُبغى من الرجال ويطلبونها.

---

(١) قراءة (ليهب لك): أبو عمرو، وروح- وصوب ابن الجزرى فى النشر يعقوب بكماله - وورش، وأبو نشيط عن قالون عن نافع، وقرأ الباقون(لأهب) بهمزة مفتوحة. راجع: الهمدانى-غاية الاختصار-تحقيق د/ أشرف محمد فؤاد طلعت(٢/ ٥٦٣)، والنشر فى القراءات العشر (٢/ ٣١٨).

فنفت لذلك السيدة البتول بذلك الزواج، وأن تكون قد زفت لبشر، وأنها لم تكن تبتغى من الرجال، وهذا موضع استبعادها مأسورة بحكم الأسباب العادية، وقد سيطرت النظرية التى تفرض الأسباب والمسببات فى كل الوجود.

وقد رد الله سبحانه وتعالى قولها بأنه سبحانه أراد ذلك، وإرادته فوق الأسباب، ولذا قال تعالى:

﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١)﴾.

﴿قَالَ﴾: أي جبريل، **﴿كَذَلِكِ﴾** خبر لمبتدأ محذوف، أى الأمر كذلك، قد تقرر فى علم الله المكنون وقدره المحتوم، فلا تغيير فيه استبعدتيه أو لم تستبعديه، **﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾**، أى قال ربك الذى خلقك ولم تكونى شيئا وكلأك وحماك ورباك واصطفاك على نساء العالمين؛ لهذه الخاصة التى منحك الله تعالى إياها، هو على الله هين؛ لأنه يكون أى شىء فى الوجود بقوله تعالى: **﴿... كُن فَيَكُونُ (١١٧)﴾** [البقرة]، فليس خلق شىء بعزيز على الله خالق لا شىء **﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾** «الواو» عاطفة على فعل محذوف يفهم من الكلام **﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾** فثبتت قدرتنا الكاملة فى تغير الأسباب العادية ومسبباتها، وإن إرادتنا لا يقيدها شىء، وأنه سبحانه الفعال لما يريد، **﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾**، الضمير يعود على الغلام، والآية هى الدلالة على قدرة الله تعالى المطلقة على خرق الأسباب والمسببات، فأى دلالة أقوى فى الدلالة على أن الله تعالى فعال لما يريد، لا تتقيد بالأسباب والمسببات، كما يتوهم الفلاسفة ومن يلف لفهم ويسير فى دروبهم.

﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾، أى أن ذلك الغلام سيكون آية دالة على كمال القدرة الربانية وسيكون رحمة منا؛ إذ نبعثه بالرحمة والرأفة والتسامح الإنسانى.

ويقول سبحانه فى بيان أن ذلك أمر محتوم **﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾** قررنا بحكمته، وفى حدود قدرتنا، ونفذناه بحكمتنا العالية التى لا تعلو إليها مدارك البشر، إنه هو العليم الخبير السميع البصير.

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) ﴾.

جاء في بعض الروايات أنها حملت بنفخ جبريل في بعض ثيابها، فروى أن جبريل عليه السلام حين قال لها: ﴿ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ نفخ في جيب درعها، وعن ابن عباس أخذ جبريل ردن قميصها[1] فنفخ فيه فحملت من ساعتها بعيسى، وإن هذا يتلاقى مع قوله في سورة الأنبياء: ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ... (٩١) ﴾ فهو لم ينفخ في الفرج، ولكن نفخ في مريم ذاتها، وذلك بالنفخ في فتحات من قميصها، وعلى أي حال الكلام في ذلك ليس ذا جداء، فإن جبريل روح من الله تعالى وليست له خواص الآدمي، بل له الخواص الروحية التي لا تتصل بالمادة.

قيل: كان الحمل بعيسى ومريم في نحو الثالثة عشرة من عمرها، ولا يهمنا مقدار سنها، إنما يهمنا أنها كانت عذراء وأنها حملت من غير زوج مطلقا، بل جاء حملها أمرا خارقا لنظام الأسباب والمسببات الذي كان يؤمن به الفلاسفة، ولا يؤمنون بأن الله فعال لما يريد، فجاءت ولادة عيسى من غير أب أمرا خارقا لهذا النظام؛ ولذا قال الشهرستاني: بحق إن عيسى بوجوده معجزة في ذاتها.

وعندما أحست بالحمل واعتزلت الناس وانفردت عنهم، وانتبذتهم في مكان قصي بعيد وشددت في نبذهم وعدم الانغمار في جمعهم؛ لأنها صارت تصاحب من نفسها من يؤنسها في وحدتها، وهو الحمل الذي تسعد به كل امرأة في هذه الدنيا، ولذا قال تعالى: ﴿ فَانتَبَذَتْ بِهِ ﴾، أي انتبذت مصاحبه له ﴿ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾، ﴿ مَكَانًا ﴾ ظرف، أي في مكان ﴿ قَصِيًّا ﴾ بعيد عن الناس حتى لا يروها فيقلقوها بفضولهم، وفي الناس في كل العصور فضول، يقولون فيه ما لا يعنيهم ولا يهمهم.

ولكن لابد من المواجهة عندما ترجع إليهم حاملة معها غلاما طاهرا زكيا ناميا.

---

(١) الرُّدْنُ، بالضم: أصْلُ الكُمِّ، والجمع أرْدَانٌ. القاموس المحيط. وفي العين: مُقَدَّمُ كُمِّ القميص.

ولم يذكر علماء الأخبار شيئا يتعلق بمدة حمله، فكان ذلك على مجرى المعتاد فى الحمل وهو تسعة أشهر حتى يأخذ الجنين أدواره كلها علقة ثم مضغة فعظاما، ثم تكسى العظام لحما، وكان الأمر الخارق للعادة أنه لم تكن نطفة فى قرار مكين تولدت عنها العلقة، والنفخ فى القميص من روح الله جبريل لا يوجد نطفة، ولكن روى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ما هو إلا أن حملت فوضعت فى الحال، قال القرطبى: لأن الله تعالى ذكر الانتباذ عقب الحمل، ولعله يؤيد ذلك النظر العطف بالفاء فى الحمل ثم فى الانتباذ ثم فى مجىء المخاض، ولا مانع عندنا من قبول ذلك، ولكن لا دليل عليه، وإن صح يكون أمرا خارقا آخر، ولم يذكر ما يدل عليه من القرآن ولا السنة المرفوعة إلى الرسول ﷺ.

وكانت ـ عليها السلام ـ قد انتبذت الناس فى ذلك المكان القصى، حتى اضطررت إلى الخروج منه وذلك بسبب المخاض الذى هو مقدمة الولادة، ولذا قال تعالى:

فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ
قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾
فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾
وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾
فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ
إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾

﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣) ﴾.

من إخباره إلى حمله على المجىء وساقه إليه غير مختار فيه، ولذا كان معناه ألجأها المخاض وهو الطلق عند النساء أو مقدمة الولادة، وكان إلجاؤها إلى جذع النخلة؛ لأنها احتاجت إلى شىء تعتمد عليه وتتعلق به لشدة الحمل وكره الولادة

كما قال فى الولادة وصعوبتها ﴿ ... وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ... (١٥) ﴾ [الأحقاف]، وهو صعوبتها واحتمالها بعسر شديد، وهو فى ذاته كره، ولكن الوالدة تتحمله لمحبة الولد وشغفها فيه.

وجذع النخلة عادة يكون يابسا سواء أكانت النخلة مثمرة أم كانت غير مثمرة، وسواء أكانت فى أرض زراعية أم كانت غير زراعية، والنخل يكون فى الأرض غير الزراعية، و«أل» للجنس كقولك: ادخل السوق واشتر شيئا، فليس ثمة سوق معينة، ولا تكون للعهد؛ لأنه لم تذكر من قبل شجرة، ولا يكون فى الذهن شجرة معينة.

وقد كانت مريم العذراء البتول فى كربين:

الكرب الأول: احتملته ورضيته بحكم الفطرة وهو كره الولادة كما ذكرنا.

والكرب الثانى: العار الذى زعمته ويستقبلها، فإنها البريئة الطاهرة تستقبل اتهاما وهى البريئة وذلك عبؤه على البرىء ثقيل، ولذا قالت: ﴿**يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا**﴾.

تنادى «ليت» الدالة على التمنى، وكأنها تقول إنها تتمنى الموت، وتنادى أداة تمنى الموت قبل هذا، لأن ذلك وقت تمنى الموت فرارا من عار الاتهام الظالم، وهى البريئة الطاهرة التى اصطفاها رب العالمين.

وأنها ما قالت الذى قالته تململا مما أراد رب العالمين لها من كرامة، وإنما كان ذلك استشعاراً من ضعفها وصعوبة الاحتمال، وإن كانت راضية بما قضى الله وبما أمر، غير خالعة ربقة، ولا متمردة على طاعة، ﴿**وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا**﴾، المنسىّ والنَسِىّ: الشىء المنسى، كذبح الشىء المذبوح، ونقص الشىء المنقوص، فالنسى الشىء الذى من شأنه أن ينسى؛ لأنه مهمل فى ذاته، والمنسى بالفعل.

وقد قال الزمخشرى فى هذا الأمر الذى كانت عليه العذراء البتول ـ محللا الألفاظ ـ وهو إمام البلاغة: المنسى ما من شأنه أن ينسى ويطرح وينسى كخرقة الطامث ونحوها، كالذِّبح اسم ما شأنه أن يذبح، قال تعالى: ﴿**وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ**

عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الصافات]، وعن يونس: العرب إذا ارتحلوا عن الدار قالوا: انظروا أنساءكم أى الشيء اليسير نحو العصا والقدح.

تمنت لو كانت شيئا تافها لا يؤبه له من شأنه وحقه أن ينسى فى العادة، وقد نسى وطرح فوجد فيه النسيان الذى هو من حقه، وذلك لما لحقها من فرط الحياء (أى الحال التى توجب الاستحياء) من الناس على حكم العادة البشرية لا كراهة لحكم الله، أو لشدة التكليف عليها إذ بهتوها، وهى عارفة ببراءة الساحة وبضد ما قرفت به، من اختصاص الله إياها بغاية الإجلال والإكرام، لأنه مقام دحض[1] قلما تثبت فيه الأقدام: أن تعرف اغتباطك بأمر عظيم، وفضل باهر تستحق به المدح، ويستوجب التعظيم، ثم تراه عند الناس لجهلهم عيبا يعاب به، أو يعنف بسببه، أو لخوفها على الناس أن يعصوا الله تعالى بسببها.

فى هذا الكرب الشديد الذى لا تمرد فيه كانت تحف بها مكارم الله، وخوارق العادات.

﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ فَنَادَاهَا ﴾ الفاء عاطفة، وهى تفيد الترتيب، وضمير الفاعل يعود على جبريل؛ لأنه المذكور، وهو روح الله تعالى الذى أرسله الله تعالى: **﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾** وقالوا: **﴿ مِن تَحْتِهَا ﴾**، أنه كان قد جعله **﴿ مِن تَحْتِهَا ﴾** قابلا للغلام الطاهر عند نزوله كما تستقبل القابلة المولود، وذلك من كلاءة الله تعالى وحمايته لها، إذ كانت معزولة عن النساء وهى عذراء ليس لها تجربة فى الحمل والولادة من قبل، فكان من رعاية الله تعالى أن يسخر لها روح القدس، ليكون القريب منها فى هذه العزلة وهذا الانفراد عن المعاون والقريب، وقيل: إن ضمير الفاعل يعود على عيسى ويكون ذلك النداء خارقا للعادة ولكن نستبعد هذا، **أولا**: لأنه لم يكن هنا ذكر للغلام حتى يعود إليه، **وثانيا**: لأن الله لم يذكره آية

---

(١) الدَّحْضُ: الزَّلَقُ، والإِدْحاضُ: الإِزْلاقُ. لسان العرب. دحض.

خارقة لنظام الأسباب والمسببات. والنداء ﴿أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ (أن) المدغمة في (لا) التفسيرية، أي كان النداء لا تحزني ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾، السرى يطلق بمعنى الأمثل الكامل، ويقولون: السرى من الرجال هو الأمثل الكامل، ولقد قال الحسن فى عيسى عليه السلام: كان والله سريا من الرجال وإن ذلك استثارة لمحبة الأمومة وعاطفتها، إذ إن بشراها بأنه سيكون له شأن أى الشأن، يسرى عنها، ويذهب بحزنها، فلا يشغلها ما تنتظره من ملامة كما يكون معها من الغلام الأمثل الذى هو الفرحة التى تذهب الترحة، ويفسر بعض العلماء السرى بأنه جدول ماء كان تحت الهضبة التى هى فيها، ونقول ما كان حزنها لطعام وشراب إنما كان حزنها لخشية الملام الذى تتوقعه، وهى البريئة، وتقول ذلك وإن كان ذكر الأكل والشرب قد يرشح لمعنى جدول الماء، وقد رُوى أن النبى ﷺ قد فسر السرى بجدول الماء[1]، وقال تعالى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥)﴾ (الواو) عاطفة، فبعد أن نهى المنادى عن الحزن أخذ يدعوها بعد الانصراف أن تأكل مستريحة مطمئنة، وأن تشرب هنيئا مريئا وتلتفت إلى حاجة الجسم الذى نهكه المخاض وتحتاج إلى تعويضه.

والباء فى قوله تعالى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ يقول الزمخشرى أنها صلة للتأكيد كقوله تعالى: ﴿... وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ... (١٩٥)﴾ [البقرة]. وأرى أن الباء للدلالة على تسهيل وصول الرطب إليها؛ ذلك أنها تهز فى مكان هو الجذع تتساقط عليها الرطب من علٍ، وذلك بلا ريب تيسيرا للوصول، فلا تهز من أعلى بل تهز بمكان قريب منها، وهى النفساء والتى تتعبها الحركة الكثيرة.

وقوله ﴿إِلَيْكِ﴾ للإشارة إلى قرب المكان الذى تهز منه بشدة إليها، وقال الزمخشرى: إن فى قوله تعالى: ﴿تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ تسع قراءات، وكل يتعلق بحركات الفاء، ولا فرق كبير بين معانى هذه القراءات، ولذا لا حاجة إلى

(١) انظر الحاكم فى المستدرك (٣٤٦٠)، وقال: هذا صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ورواه الطبرانى فى الصغير عن البراء بن عازب مرفوعا، كما فى مجمع الزوائد: ٧/ ١٤٩ (١١١٥٥).

ذكرها، ولتراجع في موضعها، والرطب البلح الطيب السهل في تناوله، والجنى: القريب الجنى، أي أنه لم تمض عليه مدة تفسده، وجاء في الكشاف وقالوا كان من العجوة، وقيل: ما للنفساء خير من الرطب ولا للمريض خير من العسل، وقيل: إذا عسر ولادها لم يكن لها خير من الرطب.

وقد قال أكثر المفسرين: إن جذع النخلة كان جافا، وهي جافة، ولم يكن فيها ثمر فأثمرت فكان ذلك خارقا للعادة، ونقول: إن الآيات الكريمات الخاصة بالحمل بعيسى عليه السلام وولادته ثرية بالخوارق فلا نزيد عليها إلا ما يثبت بالنص، ولا نفرض من غير نص.

وإذا كان الطعام والشراب قد توافر فقد كان حقا عليها أن تأكل وتشرب، ولذا قال تعالى:

﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦) ﴾.

(الفاء) للإفصاح؛ لأنها نفصح عن شرط مقدر، أي إذا كانت البراءة متوافرة، وقد تهيأ الطعام والشراب وكان معك غلام سوى سيكون الأمثل بين الرجال، **﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾**، فكلى من الرطب الجنى، واشربى من الجدول السرى، **﴿ وَقَرِّي عَيْنًا ﴾** بما وهبك الله تعالى من غلام زكى، وقرار العين سكونها، وإن الإنسان في اضطرابه وخوفه تدور عينه ولا تستقر، فكنى بقرار العين عن السكون والاطمئنان، فقرار العين يعلن عن قرار النفس، والأمر بقرار العين وإن لم تكن تحت سلطان الإرادة أمر باطمئنان النفس وإبعاد الهواجس المخيفة، وألا تتوقع سوءا؛ لأن الله معها، وقامت الخوارق الدالة على أنه سبحانه وتعالى معها، ومن كان الله معه فإنه يجب أن يكون مطمئنا قرير العين والنفس.

ولقد صرح الملك بما يجب عليها لاتقاء فضول الناس قال الملك: **﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾** «إن» حرف شرط، و«ما» تأكيد لفعل الشرط، بدليل التوكيد بالنون الثقيلة، كتوكيد القسم، وهو توكيد لأنها سترى من البشر كثير ولا ترى منهم ومن فضولهم ما لا يسرها،

وأومأ إليها بأن تنذر لله تعالى صوما عن الكلام ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ وكأنه أشار إليها أن تنذر الصوم عن القول تقربا إلى الله تعالى، فالسكوت من لغو القول قربة يتقرب بها إلى الله تعالى، وعبر عن الله تعالى بوصفه الكريم «الرحمن»، للإشارة إلى أن ذلك الصوم من رحمة الله تعالى بها وتقريبه إليها. وهى إذ تقول ذلك لقومها تؤكد بُعْدها عن لغوهم، وعن سفه سفهائهم، ولذا أكدت النفى بقولها: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾، أى لن أكلم إنسانا قط طيبا أو فاجرا، برا أو بغيا، ولذا قالت: ﴿إِنسِيًّا﴾، أى منسوبا للإنس، والعلاقة بينه وبين الإنسان أنه إنسى مجرد من غير نظر إلى حاله فى تقواه أو فجوره.

التقت بهم، وعبر الله تعالى عن لقائها بهم بقوله تعالى:

فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨)﴾.

الفِرى العظيم القبح فقوله تعالى: ﴿فَرِيًّا﴾، أى أمرا عظيما، وهو أنك أتيت بولد لا نَسب له، وهو من يكون من زنى، ومن الأدب فى التعبير أن يقول

عن ولد الزنى إنه ﴿فَرِيًّا﴾، والفَرْى القَطْع وهو هنا الكذب المقطوع به، وفى بيعة الرسول ﷺ مع النساء قوله تعالى فى مبايعتهن: ﴿... وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ... (١٢)﴾ [الممتحنة]، أى لا يأتين بزنى يفترينه فعلا وقولا.

وقد أرسلوا القول فى هذا الافتراء الكاذب عليها، وقد أقرَّ الله نفسها به رأت من عناية الله تعالى بها وإجراء خوارق العادات لأجلها وولدها، وهى شاهدة لها ولولدها الغلام الزكى بالكرامة والإكبار.

قالوا منددين لها على حسب مداركهم: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨)﴾، ينفون عن أبويها الشر، فأبوها لم يكن امرأ تغلغل فيه السوء حتى صار يعرف به فلم يكن قرين سوء، ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ يبغونها الرجال لقضاء مآربهم، وتناسوا أنها كانت خالصة لخدمة البيت وتربت فى كفالة نبى الله زكريا عليه السلام، وهارون فى ظاهر القرآن ومتضافر الروايات هو هارون أخو موسى، وينادى الرجل برأس قبيله وأبيهم فيقال يا أخا العرب، ويا أخا قريش، ويا أخا تميم، ويا أخا همدان إلى آخر ما يجرى على ألسنة الناس، ولكنها صمتت ولم تردّ، وأشارت إلى من يردّ وهنا ظهر ما يبهتهم ويرد غيهم.

فأشارت إشارة فهموها ليخاطبوا عيسى عليه السلام، وذلك بإلهام الله تعالى:

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩)﴾.

أشارت إليهم ليستمعوا إلى ما عدوه مادة الاتهام ليعرفوا أنه كان الحمل به أمرا من الله، فأثار ذلك عجبهم، وقالوا مستبعدين مستنكرين إشارتها، ولعلهم جرت فى نفوسهم ما هو أبعد مما اتهموا ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ الاستفهام للإنكار أو الاستغراب، أى غريب أن نكلم من كان فى المهد صبيا، وذكرت كلمة ﴿نُكَلِّمُ﴾ للإشارة إلى موضع الاستنكار أو لتفسير معنى ﴿فِي الْمَهْدِ﴾، أو للمبالغة فى الاستنكار، أى أن الاستنكار لأمرين: كونه ﴿فِي الْمَهْدِ﴾ فهذا عجب، وكونه ﴿صَبِيًّا﴾، وهذا أعجب أيضا، والمراد بـ «المهد» الحِجْر سواء

أكان سريرا أم وسادة أم غيرهما، ولكن استبان لهم أن هذا الصبى أحكم وأعلم منهم، وأنطق بالحق ممن استغربوا.

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ﴾.

كان كلامه الحكيم الفيصل بين الحق والباطل وأبلغ ما يكون ردا للاتهام الذى لا يقوم إلا بمجرى العادات، فتبين لهم أنه فوق مجرى العادات الحاكمة التى يحسبها فلاسفتهم أن الأسباب والمسببات قانون لا يقبل التخلف، ونسوا أن خالق الأسباب والمسببات فوق كل نظام؛ لأنه خالق كل نظام وفعال لما يريد.

ونلاحظ قبل أن نتكلم فى معانى هذه الآيات أنها عندما واجهت القوم لم تقل كما أمرت ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾، ولكنها نفذت الأمر بالفعل فلم تتكلم معهم بل أشارت إليه أن يرد، فهى نفذت مدلول الأمر ولم تنطق به ولو نطقت لكان ذلك نقضا للصوم الذى نذرته.

وقد أثار العلماء بحثا حول نطقه صغيرا بهذا الكلام الذى لا ينطق به إلا نبى يوحى إليه، أكان هذا الكلام نتيجة بعثه نبيا، وأنه بذلك بُعث وهو صبى فى المهد، وقد أجاب الأكثرون عن ذلك بأنه تكلم فى المهد ليتحقق وفاء أمه بنذرها، ولتحقق براءة أمه من اتهامها بالزنى، وهى البريئة العذراء البتول التى اصطفاها الله على نساء العالمين، ثم عاد إلى ما يكون عليه الأطفال حتى بلغ المبلغ الذى ينطق فيه من يكون فى سن النطق، وأثاروا بحثا حول ما جاء بقوله من أنه أوتى الكتاب، وجَعْله نبيا، وإيصائه بالصلاة والزكاة، وبره بأمه ونطقه بقوله ﴿ وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾.

وأجيب عن ذلك بأن كل هذا الذى أخبر به سبق بلفظ الماضى، ومعناه للمستقبل كقوله تعالى: ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ ... (١) ﴾ [النحل]، وذلك

لتأكيد الوقوع؛ ولأن الأزمان عند الله واحدة، لا فرق فيها بين ماض وقابل، فكلها فى علم الله تعالى واحد، ولكن كون بعضها ماضيا وبعضها قابلا إنما هو بالنسبة لعلمنا نحن وحدنا، فالله فى علمه المكنون ألهم عيسى عليه السلام فى المهد أن ينطق بهذه الأمور على أنها واقعة وهى ستكون لا محالة.

أول قول لعيسى فى المهد: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠)﴾ ابتدأ بإظهار العبودية لله سبحانه وتعالى، وكأنه عليه السلام يرد على الذين أخرجوه من مرتبة العبد الخالص الزكى الطاهر إلى مرتبة الألوهية، وهو لن يستنكف أن يكون عبدا لله. والثانى: أنه آتاه كتابًا يدعو الناس إلى اتباعه، وهو التوراة والإنجيل فهو يدعو إلى العمل بهما، والثالث أنه جعله نبيا. وهذا الجَعْل فى علم الله تعالى أَكَنَّه إلى أن يبلغ من ينبأ ويحمل رسالة، وهو بالنسبة لنا هذا الوقت الذى قاله إخبار بالماضى للدلالة على مؤكد فى المستقبل.

والكتاب ذكر بالتعريف بـ (أل)، وقد أشرنا إلى أنه التوراة والإنجيل، فإن الإنجيل لم ينسخ التوراة، ولكن نسخ بعض أحكامها، وما يغاير فيها لا يؤخذ به، وما لم ينص عليه فيها يؤخذ بأحكامها.

وقد بين عيسى عليه السلام على لسانه وهو فى المهد أنه سيكون مباركا، فقال تعالى عنه: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١)﴾.

المبارك النافع الهادى المرشد الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر، والداعى إلى الحق والتنزيه، وقد كان عيسى عليه السلام واضح البركات: كان يخبرهم بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم، وكان يبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله ويحيى الموتى، وينادى الموتى فيخرجون من قبورهم وأنزل الله تعالى على يديه المائدة من السماء، على أن تكون عيدا لأولهم وآخرهم، فأى بركة أعظم يعطاه مبارك؟!.

ثم قال: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾، الإيصاء: الأمر المؤكد الواجب الاتباع أوصاه الله تعالى ﴿بِالصَّلاةِ﴾، ويكنى بها عن إصلاح نفسه

وتطهيرها والتقريب من الله تعالى، وأن يكون ربانيا فى ذات نفسه، ﴿وَالزَّكَاةِ﴾ إعطاء الفقير حقه، وتطهير المجتمع من آثام الفقر فكان الإيصاء بالصلاة والزكاة إصلاحا للنفس والمجتمع، فبالصلاة صلاح النفس وتطهيرها لتألف وتؤلف، وبالزكاة يكون التعاون الاجتماعى بين الغنى والفقير.

وقد قرر الغلام الطاهر أن ذلك كتب عليه مادام حيا، لا يترخص فى ترك الصلاة ولا يسوغ تركها، ولا مسوغ لترك الزكاة إذا توافرت موجباتها.

وإن جعل هذه الأفعال بالماضى لتأكيد حصوله فى المستقبل؛ ولأن الماضى والمضارع والأمر إنما هو بالأزمان التى يتفاوت العلم بها عندنا، أما بالنسبة لله تعالى فعلمه أزلى لا تحده الأزمان.

والأمر الثالث ذكره سبحانه وتعالى عند بقوله: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢)﴾ فى هذا النص الكريم أمران جليلان:

الأمر الأول: إيجابى وهو بر أمه، وحسن صحبتها والإحسان إليها جزاء ما قالت بسببه فقد وضعته كرها وحملته كرها، وقالت من الأذى النفس والملام وتحملت ما تحملت فى سبيل ذلك حتى برأها الله تعالى يكلامه هو، ومهما يكن فقد تحملت قبل أذى كثيرا، فكانت جديرة بحسن الصحبة والإحسان، وهو البَر الطاهر الكريم، بالآدمية الروحية.

الأمر الثانى: سلبى، وهو قول تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾، الجبار هو الظالم المتكبر المتطاول على الناس بالحق الذى يؤذى الضعفاء ويستعلى عليهم، وقد كان من نعمة الله تعالى التى أنعم الله تعالى على عيسى عليه السلام أنه لم يجعله جبارا، وقد وصف الجبار بأنه شقى مطرود من رحمة الله، وقد كتبت عليه الشقوة فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فهو أنه مبغض إلى الناس يتمنون به النازلات، ويتحينون له الفرص ليردوه، وهو يتوجس بنفسه من الناس وممن يحيطون به، فهو فى شقاء دائم لنفرة الناس منه، فلا سعادة فى نفسه وإن حسبه الناس سعيدا فهو

شقى، ولذا قال: «من مشى مع ظالم فقد أجرم»[١]. ثم بين الغلام الزكى أنه يعيش فى سلام، ولذا قال الله عنه: ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)﴾، وفى هذا تقرير لأنه يعيش فى أمن وقد ولد فى أمن وأنه يموت فى أمن، وفى هذا إشارة إلى أنه لن يقتله ولن يصلبه أحد، بل هو ولد آمنا، وعاش آمنا ومات آمنا؛ لأن السلام هو الأمن.

ونكرر ما لاحظناه، وهو أن ما جاء على لسان الغلام الطاهر هو ما سيكون له فى المستقبل بالنسبة لزمان الإنسان.

هذا هو التعريف بعيسى عليه السلام

قال الله تعالى:

ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ
ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ
إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ
فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ (٣٦) فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ
بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسۡمِعۡ بِهِمۡ
وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ (٣٨)
وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ
(٣٩) إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ (٤٠)

هذا بيان لعيسى عليه السلام، بينت الآيات فيه كيف حملت به أمه، وبينت أن الذى نفخ فيها روح القدس، وهو مخلوق من الله تعالى، فيكون ما ينفخه مخلوقا

---

(١) مسند الشهاب ١/ ٢٤٣- برقم (٣٨٩).

أيضا، فيكون دعوى أنه الله دعوى لا أساس لها من الصحة، بل باطلة فى ذاتها، وفيما اقترن بولادته فهو مخلوق كسائر المخلوقات، وإذا كان مخلوقا فهو محدَث، وليس بقديم، ولم ينشأ عن الله نشوء العلة من المعلول، كما ينشأ المسبب عن السبب، بل خلقه وأبدعه مختارا مريدا، أنشأه من حيث لم يكن؛ لذا قال تعالى:

﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) ﴾.

الإشارة إلى المذكور من التبشير به على لسان جبريل عليه السلام ونفخه فى مريم من جيب قميصها إلى ولادته ونطقه غلاما زكيا، وإن ذلك كله خارق لنظام الأسباب والمسببات الذى كان يؤمن به فلاسفة الإسكندرية التى ولدت منها ديانة التثليث. ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ هنا قراءتان: قراءة بضم اللام[1]، ويكون ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ بدلا من ﴿عِيسَى﴾، أى أن عيسى هو قول الحق، والإضافة من إضافة الاسم إلى الوصف، كقولهم خاتم حديد، أى خاتم هو حديد، وكان عيسى ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾؛ لأنه نشأ بالقول، إذا قال الله تعالى: «كن» فكان كما قال تعالى: ﴿ ... وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ... (١٧١) ﴾ [النساء]، وعلى النصب[2] يكون ﴿قَوْلَ﴾ مفعول لفعل محذوف، ويكون حذفه لبيان اختصاصه بأنه قول الحق وتقدير الكلام أخص قولَ الحق، وأنه خلق بقوله تعالى: «كن فيكون»، كما أشرنا، وكما سيقول الله تعالى فيما يتلو ذلك من آيات بينات، وقوله تعالى: ﴿الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ الامتراء: الشك المقترن بملاحات ومجادلات بل مهاترات أحيانا.

وكذلك كان شخص عيسى عليه السلام موضع ملاحات وخلافات بين طوائف مسيحية؛ فإنه منذ انعقد مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ميلادية والمناقشات جارية حول شخص المسيح عليه السلام، فمن ادعاء بنوته لله تعالى وألوهيته وفرضها على المسيحيين الموحدين، والخلافات والملاحات تجرى، فقد ضموا إلى ألوهيته ألوهية روح

(١) قراءة (قولَ الحق) بالنصب: ابن عامر، وعاصم، ويعقوب، وقرأ الباقون بالرفع. غاية الاختصار ٢/ ٥٦٤.

(٢) انظر المرجع السابق.

القدس، ثم اختلفوا أهو نشأ من الله أم من المسيح أم منهما، ثم كان الخلاف فى المشيئة أهى من الناسوت واللاهوت أم منهما، إلى آخر ما اختلفوا، ثم ثبت فى النصرانية الأخيرة من قال: إن المسيح شخصية خرافية لا وجود لها، اخترعتها الأفلاطونية الحديثة لتجعل مذهبها دينا من الأديان، فيسهل الإقناع بها، وذلك لتوافق النصرانية المثلثة مع هذه الفلسفة تماما.

وقد بين الله تعالى الحق فى المسيح عيسى عليه السلام وهو أنه عبد من عباد الله تعالى اختاره سبحانه نبيا رسولا، وقد خُلق من غير أب، ليكون فى خلقه آية، تبين أن الله سبحانه وتعالى فعّال مختار لا يلزمه نظام الأسباب العادية ومسبباتها.

ولقد أكد سبحانه ما ذكره من أنه خَلْق من مخلوقات الله تعالى، لذا قال عز من قائل:

﴿**مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ** (٣٥)﴾.

نفى سبحانه وتعالى أن يكون له ولد مثبتا له سبحانه بلحن القول وبصريحه أن ذلك ليس من شأنه، ولا من صفات الكمال والجلال، اتصف سبحانه وتعالى بها مخالفا الحوادث فقال: ﴿**مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ**﴾، أى ما ساغ، وما استقام أن يتخذ من ولد أىّ ولد كان، عيسى أو غيره؛ لأنه منزه عن مشابهته للحوادث؛ ولأنه دليل الاحتياج، والله غنى حميد لا يحتاج لأحد؛ ولأنه خالق الوجود فنسبة كل موجود إليه كنسبة المخلوق للخالق؛ ولأنه لو كان له ولد لكانت له صاحبة تلده، ولذا قال تعالى: ﴿**بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** (١٠١)﴾ [الأنعام]، وقد صرح سبحانه بتنزيهه عن ذلك فقال تعالى: ﴿**سُبْحَانَهُ**﴾، أى تقدست ذاته المتصفة بالكمال، والغنى عن كل البشر، والذى ليس كمثله شىء ـ عن ذلك: ﴿**إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾، أى إذا حكم بوجود أمر أراد أن يوجد تكون إرادته وحده هى الموجدة وحدها من غير أوساط، ولا وسائط، وقد شبه حاله فى ذلك

فى سرعة الإيجـاد ومن غير وسائط بما إذا قال كن فيكون لسـرعة الإيجاد، ولأنه وحده الفعال لما يريد، فلا مكان لغير إرادته سبحانه.

وإن الله سبحانه هو المعبود وحده، ولذا قال تعالى:

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٣٦) ﴾.

هذا من كلام النبى ﷺ أمره الله تعالى بأن يقـوله بعد أن قص ولادة عيسى عليه السلام وامتراء الناس فى أمـره، وقد ادعوا بنوته وألوهيته، فأمر نـبيه أن يقرر الحق فى العبـادة فقال، ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ ﴾، أى إن الله تعالى خـالقى وخالقكم، والقائم عـلى شئونى وشـئونكم، وإن ذلك يقـتضى أن نعـبده، ولذا بعـد أن قرر الربوبية أمر بالعبودية له سبـحانه وتعالى وحده؛ لأن الألوهية تلازم الربوبية، وفى ذلك إبطال لأوهام المشـركيـن الذين يقرون لله تعـالى بالخلق والربوبيـة، وأنه رب السموات والأرض وما بينهـما، ومن فيهما، وما فيـهما من خلقه، ومع ذلك فى العبادة يشركون به الأوثان ويتخذونها أندادا له سـبحانه وتعالى عما يشركون، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد.

و«الفاء» فى قـوله تعالى: ﴿ فَاعْبُدُوهُ ﴾ لترتيب مـا بعدها على ما قـبلها، فالعبادة مترتبة على الإقـرار بالربوبية؛ لأنه الحق، وإن ذلك هو الصراط المستقيم، ولذا قال تعالى: ﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ الإشارة إلى عبادة الله وحده وتنزهه عن أن يتخذ ولدا، وأنه لا يـليق بذاته المتصفة بالكمـال، أى هذا وحده هو الصراط، أى الطريق الموصل إلى الحق، والخط المستقـيم هو أقرب الخطوط للحق، ولذا قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ...(١٥٣) ﴾ [الأنعام].

وهنا قراءتان فى قـوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ قراءة بكسر ﴿ إِنَّ ﴾ وقراءة أخـرى بفتحـها(١)، وعلى القراءة الأولى كـان ما قلناه فى مـعانى

(١) قراءة كسر همزة (إن): ابن عامر وعاصم وحمـزة والكسائى وخلف، وروح، وقرأ الباقون بفتح الهمزة. غاية الاختصار-٢/ ٥٦٤.

القرآن، أما على القراءة الثانية فإن هنا محذوفا، وهو «لام» الجر، أى ولأن الله ربى وربكم فاعبدوه إلى آخر النص الكريم، وتكون الفاء للتصريح بما تضمنه المحذوف.

وقد بين سبحانه وتعالى اختلاف الناس فى شأن الحقيقة الثابتة، وهى طريق الله تعالى المستقيم الذى ذكره سبحانه فى قوله تعالى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ فقال تعالى:

﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧)﴾.

كانت آخر الآيات السابقة لهذه الآية قوله تعالى على لسان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وإن لم تذكر النسبة إليه لأنه ملاحظ فى كل خطاب فى بيان ما يجب بيانه: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٣٦)﴾، قد بين سبحانه أن عبادة الله تعالى وحده هى الصراط المستقيم، ومن حاد عنه زاغ وضل عن الهداية، ولكن هل تلقاه الناس بالطاعة والخضوع، فقد ضلوا فى ذلك ضلالا بعيدا، فمنهم من أشرك، ومنهم من قال أنه اتخذ ولدا، واختلفوا فى ذلك على فرق شتى، ولذا قال تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ﴾، «الفاء» عاطفة على ما قبلها فى قوله تعالى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ وهو عطف عملهم واعتقادهم على الاعتقاد المستقيم الذى لا ريب فيه.

و﴿الأَحْزَابُ﴾ جمع حزب، وهو الجماعة التى تنتحل نِحلة وتتميز بها وتناصرها، وتؤيدها وتنحاز بها عن غيرها، وتدافع عنها وتلاحى دونها، والكافرون أحزاب ونِحَل متباينة، فالنصارى طوائف، واليهود طوائف، والمشركون طوائف، فمنهم عبدة الأوثان، ومنهم عبدة النيران، ومنهم عبدة الشمس، ومع أن الطريق واضح هو المستقيم اختلف الكافرون ذلك الاختلاف، على نواح شتى وأهواء متباينة، فكلمة ﴿الأَحْزَابُ﴾ ليست مقصورة على فرق النصرانية، إنما المراد بها كل الذين أشركوا مع الله سواء أكان ما أشركوه صنما أم شمسا أم نارا أم شخصا، وحزب الله هم المؤمنون، كما قال تعالى: ﴿... أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ

حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾ [المجادلة]، والمؤمنون ليسوا داخلين فى هذه ﴿الْأَحْزَابُ﴾، وقد اختلفوا على نحو ما أشرنا، وصدق قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ...(١٥٣)﴾ [الأنعام]، فغير صراط الله تعالى مثارات الشيطان ومنازله.

و﴿مِنْ﴾ فى قوله: ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ قال كثير من المفسرين زائدة، ونحن لا نرى فى القرآن حرفا زائدا، بل نقول إن ﴿مِنْ﴾ تؤدى معنى سليما فليس قولك «فاختلف الأحزاب بينهم»، كقول الله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ﴾ إن ﴿مِنْ﴾ تدل على أن اختلاف الأحزاب صادر عنهم هم، ومن بينهم، فإن التناحر بين الأهواء والأوهام الضالة هو الذى صدر عنه الاختلاف من بينهم ومن مضطربهم، وقد حكم الله تعالى بمآلهم فى هذا الاختلاف فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ «الفاء» لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فالهلاك فى المشهود من أوهامهم وأهوائهم، والمشهد هو اسم مصدر بمعنى شهود يوم عظيم فى أنه حساب وفيه العقاب، والجزاء بجهنم.

والمعنى الذى يظهر لنا، فهلاك شديد يوم الشهود العظيم، وهو يوم القيامة وقال: ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فأظهر فى موضع الإضمار لإثبات سبب الهلاك، وهو الكفر والجحود، وتحكم الأوهام وسيطرة الفساد الفكرى والضلال المبين.

وإن كانوا يُعرضون عن ذكر البعث والنشور، ولا يبصرون العواقب، ولا يتدبرون ما وراء، وإنهم فى هذا اليوم المشهود يكونون أحدّ الناس سمعا وبصرا وإدراكا لما أنكروا من قبل، ولذا قال تعالى:

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٣٨)﴾.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ لفظان يستعملان للتعجب فى اللغة العربية، أو لأفعل التفضيل المستفهم به، أى ما أسمعهم وما أبصرهم، فهم حديدو السمع والبصر، والمعنى أن حالهم فى قوة سمعهم للحق وقوة بصرهم وإدراكهم للحق حال

المتعجب منه المستغرب وليس ذلك بعجب على الله ولا غريب عليه سبحانه؛ لأنه عليم بكل شيء، فليس شيء بغريب على علمه سبحانه، إنما الغرابة علينا، وهذا غير حالهم اليوم لأنهم اليوم فى ضلال مبين واضح، أى حالهم يوم الشهود، فقد زالت الغفلة وزال الضلال، وزالت الأوهام التى أضلتهم، ولذا قال تعالى: ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾، ﴿الْيَوْمَ﴾ المراد به الحياة الدنيا، فهم فى ضلال فى الحياة الدنيا بسبب الأهواء وتحكمها فى مداركهم وأحاسيسهم، والأوهام وسيطرتها على عقولهم، ونقول: وضع الظاهر موضع الضمير، لإثبات أن السبب فى هذا الضلال هو ظلمهم لأنفسهم بعدم الإدراك الصحيح، وظلم العباد للنبيين، وفتنة المؤمنين، الاستدراك فى قوله تعالى: ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾؛ لبيان التفاوت بين حدة سمعهم وبصرهم التى توجب العجب، وحالهم فى هذا اليوم فى الدنيا التى كانوا فيها عمين عن الحق، ووقوعهم فى الضلال المبين البين الواضح.

وإن الله تعالى أمر نبيه الأمين أن ينذرهم بهذا اليوم المشهود؛ ولأنه يوم الحسرة عليهم؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٩)﴾.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾، أى أنذرهم بهذا اليوم الذى يكون حسرة ﴿إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ﴾، إذ تبين أمر الله تعالى الذى قضاه، بأن قدر وجوده ونفذه، و﴿إِذْ﴾ ظرف متعلق بالحسرة، أى أنه الحسرة لأنه قضى الأمر وجاء التنفيذ. والحسرة، لأنهم فرطوا فى أمورهم ويقولون يا حسرتنا على ما فرطنا فى جنب الله، والحسرة؛ لأنهم رأوا العذاب وعاينوه، والحسرة لأنهم أنكروه، وهم اليوم قد عاينوه، والحسرة لأنهم خسروا أنفسهم وكذّبوا بلقاء الله.

وقد وصفهم الله تعالى بوصفين أحدهما ذريعة الآخر:

الوصف الأول: أنهم فى غفلة فقال تعالى: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ الجملة حالية أى والحال أنهم فى هذه الدنيا فى غفلة، والتعبير بقوله: ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ يفيد أنهم قد

استغرقتهم الغفلة واستولت عليهم وحاطتهم كأنها ظرف لهم قد استقروا فيه، والغفلة قد جاءتهم من غرور بالحياة الدنيا، ومن استيلاء الأهواء على نفوسهم، فصاروا لا يصدرون إلا عنها، وجاءتهم من سيطرة الأوهام عليهم، وجاءتهم من أنه لا مرشد ولا هادى، وليس فيهم أمر بمعروف أو نهى عن منكر.

والوصف الثانى: أنهم ﴿**لا يُؤْمِنُونَ**﴾ وعبر الله سبحانه عن ذلك بقوله تعالى: ﴿**لا يُؤْمِنُونَ**﴾ وهذه الجملة حالية كأختها، والحال أنهم لا يؤمنون، وكان النفى نفيا للمضارع للإشارة على استمرارهم على الإيمان وهو نتيجة للغفلة التى أحاطتهم وسكنوها؛ لأن الإيمان بصر الحقائق وإدراك لها.

هذا، وإن الغرور المتمكن فى أهل هذه الدنيا أنهم يحسبون فى أعمالهم أنهم باقون، ولا يفكرون فى الموت، وإن فكروا فى الموت لا يفكرون فى البعث، وقد أكد سبحانه وتعالى هاتين الحقيقتين الموت والبعث فقال تعالى:

﴿**إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ** (٤٠)﴾.

أخبر الله تعالى عن نفسه بعبارة تدل على عظمة الله وجلاله، وأكد ضمير ﴿**إِنَّا**﴾ بـ ﴿**نَحْنُ**﴾، للدلالة على أنه لا باقى إلا الله تعالى، والجميع ميت، كما قال تعالى مخاطبا نبيه: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ** (٣٠) **ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ** (٣١)﴾ [الزمر]، وقوله تعالى: ﴿**نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا**﴾، أى نحن نرث الأرض ونرث من عليها، فموضع ﴿**وَمَنْ**﴾ فى قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ عَلَيْهَا**﴾ النصب بـ ﴿**نَرِثُ**﴾، ومعنى وراثتها أنه هو وحده الباقى بعد الأرض ومن فيها فكلها إلى نهاية، وقد شبه وجوده العزيز الجبار بأنه يكون بعدها؛ كى يكون الوارث بعد المورث، فالمورث يموت والوارث يموت بعده، ولكن الله حى لا يموت، وليس المعنى ان الله يرث الأرض ويرث ما ترك الناس من المال والنسب، فالله غنى من المخلوقات كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** (١٥)﴾ [فاطر]، ثم قال: ﴿**وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ**﴾ وهو البعث، وقدم الجار

والمجرور عن الفعل الذى يتعلق به؛ لبيان أن المرجع إليه وحده، وهو وحده مالك يوم الدين يوم الجزاء، يوم القيامة، يوم توفى كل نفس ما كسبت.

إبراهيم عليه السلام وأبوه وأولاده

قال الله تعالى:

وَٱذْكُرْ
فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ
لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ
إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا
سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ
عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ
فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي
يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ
سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾
وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّي عَسَىٰٓ
أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾
وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾

ذلك طرف من أخبار أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وقد ذكرت أخبار إبراهيم فى عدة مواضع من القرآن الكريم، ولا تكرار فيها قط، بل ذكر فى كل موضع جزء من أخباره يخالف الآخر، ففى سورة البقرة كانت أخبار بناء الكعبة وصلة إبراهيم بخاتم النبيين محمد ﷺ، وفى آخرها خبر إحياء الموتى، وفى سورة الأنعام كان تأمله فى النجم والقمر والشمس حتى اهتدى إلى الله، وفى سورة التوبة كان وصف إبراهيم المصور لشخصه الكريم بأنه أواه حليم، وفى سورة إبراهيم كانت دعوته لذريته: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) ﴾، وفى السورة نفسها كانت قصة هبة الله له إسماعيل وإسحاق: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ... (٣٩) ﴾، وفى سورة الأنبياء كانت قصة تحطيمه الأوثان وإلقائه فى النار: ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾ وهكذا نرى أنه لا تكرار فى القرآن وقصصه، وإذا كانت قصة إبراهيم وموسى ونوح وغيرهم قد تكرر ذكرها فى القرآن فليس تكرارا لأخبار واحدة، وإنما تتناول الأجزاء نواحى مختلفة، ولا تتكرر ناحية.

قال تعالى فى ابتداء قصة إبراهيم:

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) ﴾.

الأمر للنبى ﷺ، والكتاب هو القرآن، و(ال) للاستغراق، المعنى أى أنه هو الكتاب الجدير بأن يسمى كتابا، وهو الكامل والمستغرق لكل صفات الكمال، والقصر فيه قصر إضافى، أى أنه لا كتاب يوصف بالكمال المطلق سواه، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ والصِّدِّيق هو البالغ أقصى درجات الصدق فى القول والعمل والإذعان للحق، وهو الذى يصدق الحق إذا ألقى إليه، لا يمارى فيه ولا يمتنع عن الإقرار به والإذعان له، وأى دلالة أبلغ من التصديق والإذعان عندما رأى فى المنام أنه يذبح ابنه فَهَمَّ بأن يذبحه، وقد قال تعالى فى ذلك: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا

تؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (١٠٨) سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩)﴾ [الصافات] وهو نبى من أولى العزم من الرسل، وَجَدُّ خاتم النبيين.

وإن هذا الجزء من قصة إبراهيم فيه علاقة الأبوة بإبراهيم واحترامها والتلطف فيها والرفق بها والمحبة لها.

قال تعالى عنه مخاطبا أباه:

﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣)﴾.

ابتدأ بندائه بقوله: ﴿يَا أَبَتِ﴾ وهو نداء المحبة العاطفة المقربة، وذلك شأن الداعى الكامل يبتدئ بما يقرب ولا ينفر.

و﴿إِذْ﴾ متعلقة بـ ﴿اذْكُرْ﴾، أى اذكر حال دعوته لأبيه تلك الدعوة الرفيقة المقربة الميسرة الهادية المرشدة، وأمر الله تعالى نبيه محمدا ﷺ بأن يذكرها فى الكتاب لتتلى على الناس ويأخذوها سُنة فى الدعوة إلى الحق، وخصوصا الأقربين الأدنين لهم، والتاء فى قوله تعالى: ﴿يَا أَبَتِ﴾ عوض عن ياء المتكلم، وذكرها بدل الياء مبالغة فى التلطف والرفق، بل ربما يكون فيها من تدلل الأبناء على الآباء معنى محبب مقرب.

وابتدأ بأن قال غير موجه لوما ولكن ساق إرشاده مَساق الاستفهام المستدنى، لا مقام الآمر المستعلى سائلا له سؤال المستفهم فى سياقه، ولكن المنبه بأرفق تعبير: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾، لقد وصف معبوده وهو الصنم بثلاث صفات سلبية:

الوصف الأول: أنه لا يسمع، وكيف يعبد من يسمع ما لا يسمع، فهو أقل كمالا منه وهو عاجز، لأن عدم السماع عجز.

الوصف الثانى: أنه لا يبصر وأنت تبصر، ومن يبصر أكمل مما لا يبصر، فكيف تعبد هذا الذى ينقص عنك، وأنت خير وأفضل منه.

الوصف الثالث: أنه لا يدفع عنه ضرا ولا يجلب له نفعا، وهذا قوله تعالى: ﴿ **وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا** ﴾، أى لا يدفع شيئا، ومجموع هذه الصفات السلبية تفيد أنه لا يجلب له أى نفع؛ لأنه فاقد لصفات الله التى يكون بها القدرة على النفع.

وقد قال الزمخشرى فى ذلك: «انظر حين أراد أن ينصح أباه، ويعظه فيما كان متورطا فيه من الخطأ العظيم والارتكاب الشنيع الذى عصى فيه أمر العقلاء وانسلخ عن قضية التمييز من الغباوة التى ليس بعدها غباوة، كيف رتب الكلام معه فى أحسن اتساق، وساقه أرشق مساق، مع استعمال المجاملة والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن منتصحا فى ذلك بنصيحة ربه عز وعلا»، حدث أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام إنك خليلى، حَسِّنْ خلقك ولو مع الكفار تدخل مداخل الأبرار، فإن كلمتى سبقت لمن حسن خلقه أظله تحت عرشى وأسكنه حظيرة القدس وأدنيه جوارى**»(١).

وإنه بعد أن نبه إلى أن الأوثان تتقاصر عن مقام الألوهية، بل حتى الإنسانية، بل الحيوانية أخذ يوجهه إلى الحق الكامل، فقال فى رفق أيضا كما ابتدأ أولا مُصَدِّرًا القول بخطاب المحبة الراجية ﴿ **يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا** (٤٣) ﴾.

يقول العلماء التحلية قبل التخلية، بين أن الأوثان عاجزة فى ذاتها عن جلب النفع ودفع الضرر، وذلك كافٍ للامتناع عن عبادتها، فإنما يعبد العاقل من هو أعلى منه قدرة وفهما وإدراكا، وهذه دونه فى الخلق والتكوين، فمن يعبد؟! أخذ يبين له المعبود فقال بنداء المتوسل المتحبب: ﴿ **يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ** ﴾ لم

(١) ذكره الزمخشرى فى الكشاف، وجماعة من المفسرين، ورواه الطبرانى فى الأوسط، وفيه: مؤمل بن عبد الرحمن الثقفى، وهو ضعيف. مجمع الزوائد (٢٦٦٢١).

يرم أباه بالجهل، وقد منعه الخُلُق الودود من ذلك، بل قال له ﴿جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ﴾ والمعرفة ﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ فتعفف عن أن يرميه بالجهل، وتعفف عن ادعاء العلم الكامل حتى لا يكون مستطيلا بفضل علمه على أبيه ومستعليا عليه، بل قال: ﴿مِنَ الْعِلْمِ﴾، أى بعض العلم، وذلك يجعلنى أدعوك إلى الحق، وذكره العلم داع لأن يتبعه؛ لأن الأب الرفيق العاطف يحب لابنه العلم، ولو كان أعلى منه، وإذا كان له بعض العلم الذى يسره، ولا يضره، فإنه يتبعه، ولذا قال: ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ «الفاء» هنا تفصح عن شرط مقدر تقديره: إذا كنت قد أوتيت هذا العلم فاتبعنى أهدك، كما يتبع السائر فى طريق لا يعلمه الرائد الخريت[1] العارف.

والصراط: الطريق كما ذكرنا، والسوى: المستوى الذى لا عوج فيه ولا أمت، وقد قال الزمخشرى فى هذا النداء من ذلك الابن البار بأبيه: «ثنى عليه السلام بدعوته إلى الحق مترفقا متلطفا، فلم يسم أباه بالجهل المفرط، ولا نفسه بالعلم الفائق، ولكنه قال إن معى طائفة من العلم وشيئا منه ليس معك، وذلك علم الدلالة على الطريق السوى فلا تستنكف، وهبنى وإياك فى سير وعندى معرفة بالهداية دونك، فاتبعنى أنجيك من أن تضل وتتيه».

وبعد أن نبه إلى أنه لا يليق أن يعبد ما لا يسمع ولا يبصر وأمره باتباعه؛ لأنه بين له أن هذه الضلالة وهى عبادة ما لا ينفع ولا يضر عبادة للشيطان عدو آدم وذريته فقال:

﴿يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤)﴾.

ناداه بالأبوة وكرره تعطيفا وتلطيفا وتقربا، وكان النهى ﴿لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ وعبادة الشيطان فى أنه أطاع غوايته التى توعد بها عباد الله فقال: ﴿... لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾ [ص]، فطاعته فى معنى عبادته، ولأن

(١) الخِرِّيت: الدليل الحاذق بالهداية والدلالة (فى الطريق). لسان العرب- القاموس المحيط.

الأهواء والأوهام هى التى سهلت عبادة الأحجار وذلك كله من الشيطان، بل هو من غوايته، والشيطان عدو الله، وعدو آدم فهو عدو الإنسانية يرديها ويوقعها فى أشد الضلال، ويبعد من الحق، ولذلك كان النهى، وهو فى ذاته يكون بقوة لا تخلو من مساعدة، ثم وصف الشيطان بأنه عاص مبعد عن رحمة الرحمن فقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾، عَصِيَ على وزن فعيل من عصى، أى أنه مبالغ فى العصيان، وعبر عن الذات العلية بـ (الرحمن) للإشارة إلى أن عصيان الشيطان رحمة، وطاعته نقمة، فمن عصاه فقد رحم، ومن أطاعه ألقى بنفسه فى وهدة الشقوة، وبعد عن السعادة ورحمة الرحمن.

ويقول الزمخشرى فى ذلك أيضا: «ثم ثلث بتثبيطه ونهيه كما كان عليه بأن الشيطان الذى استعصى على ربك الرحمن الذى جميع ماعندك من النعم من عنده، وهو عدوك الذى لا يريد بك إلا كل هلاك وخزى ونكال. وعدو أبيك آدم، وجنسك كلهم هو الذى ورطك فى هذه الضلالة، وأمرك بها وزينها لك فأنت إن حققت النظر عابد الشيطان، إلا أن إبراهيم عليه السلام لإمعانه فى الإخلاص ولارتقاء همته الربانية لم يذكر من جنايتى الشيطان التى تختص منهما برب العزة من عصيانه واستكباره ولم يلتفت إلى ذكر معاداته لآدم وذريته، كأن النظر فى عظم ما ارتكب من ذلك غمر فكره وأطبق على ذهنه».

ونقول إن الشرك هو أعظم ما وسوس به إبليس وألقى به الأوهام فى نفس، وما دونه قد يناله الغفران، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ... (٤٨)﴾ [النساء].

بعد هذا النهى الصريح القاطع عن عبادة الأوثان، وذكره أن عبادتها عبادة للشيطان، لأنه هو الذى وسوس بها ذكر ما يخاف على أبيه، وذلك استمرار فى الحنان والعطف على أبيه فقال تعالى عنه:

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥)﴾.

ناداه أيضا نداء المتلطف المتحبب المدنى ما بينهما ﴿يَا أَبَتِ﴾ قال مفرطا فى شفقته وإن لم يكن فى شفقة الابن على أبيه إفراط قط، وخصوصا فى مقام الحرص على نجاته، قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾، هنا إشارات بيانية، إذ الظاهر إصابته بالعذاب المقرر للمشركين، وهو أن يدخل الجحيم، ولكنه أولا عبر بالمس، وكأنه لا يريد التهويل على نفسه وعلى أبيه بأنه سيصيبه العذاب لذلك الشرك، والشرك ظلم عظيم، هذه هى الأولى، أما الثانية أنه ذكر أن العذاب كان من الرحمن. إنه كان ممن من شأنه الرحمة، ولكنه آثر الطريق المعوج فكان العذاب، والثالثة أنه يخشى عليه من أن ينهمك فى المعاصى فيكون وليا للشيطان فى الدنيا، ويكون قرينا له فى الآخرة، وكأنه كان مخيرا بين ولاية الرحمن ورحمته، وشقوة الشيطان وولايته فاختار ولاية الشيطان وصار وليه وساء قرينا.

وكانت عبارته فى التخويف فى أدب، ولم يصرح بالعقاب الشديد، وإن نبه إليه فى شدة، بأنه سيكون ولىّ الشيطان وقرينه، وبئس ولايته، وأن يكون له قرينا.

أجاب أبوه إجابة المحنق المغيظ لمحاولته ترك عبادة الأوثان وملته وملة آبائه، فقال كما قال تعالى عنه:

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦)﴾.

﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾، هذا استفهام إنكارى توبيخى من ذلك الأب المخبط وكان موضوع التوبيخ هو انصرافه عن آلهته وبعد عنها، وكأنه كان يجب أن يكون مثله منغمرا فى ضلال، وهو بذلك يضرب صفحا عن كل ما قاله، ويقول بلسان الحال: سمعنا وعصينا وينقلب عليه بالتوبيخ عن تركه له ولملة آبائه المشركين، وقد أكد التوبيخ بالتأكيد بالضمير بقول: ﴿أَنتَ﴾ وفى ذلك تأكيد التوبيخ استصغارا لشأنه، وما كان صغيرا، بل كان الكبير بإدراكه وبدعوته إلى الوحدانية، وهو يستنكر أن يرغب عن آلهته، ولم يتعرض لما يدعو إليه ويرغب فيه، وكأنه معرض عنه وعن أدلته وآياته.

وقد أعقب التوبيخ بالتهديد، والإنذار الشديد، فى عبارة فيها معنى القسم والتأكيد بمؤكداته ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ﴾ الرجم: الرمى بالرجام والحجارة واللام هى الموطئة للقسم واللام فى ﴿لأَرْجُمَنَّكَ﴾ اللام التى تكون فى جواب القسم، وقد أكد بنون التوكيد الثقيلة وهو تهديد بالقتل بأقسى أنواعه، فهو الضرب بالحجارة حتى يموت إن لم ينته عن هذه الدعوة التى أصابت إيمانه بالأوثان فخيبت رجاءه فيه، وإن كان أمرا غير محمود فى نظره المنحرف الضال.

هذا إيعاد إن عاد، ثم حسم الأمر بقوله: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ وقد تضمن التهديد التحذير، كأنه قال له فاحذرنى ولذا عطف على الفعل الذى تضمنه التهديد بالرجم واهجرنى مليا، فهى عطف على الفعل الذى تضمنه التهديد بالرجم .

﴿مَلِيًّا﴾، أى ملاوة من الزمن الطويل، ويدعوه أبوه إلى أن يهجره هجرا غير جميل، ولا يهتم بأمره ولا يجالسه ولا يقاربه، وهذه مبالغة فى الأستنكار، وقد صم أذنيه عن الحق ولا يريد أن يسمعه.

وإنه إذ يعلن هذا النفور الجافى يعلن الابن البار الذى هو مَثَلٌ سامٍ كريم للأبناء يقول كما قال الله تعالى عنه:

﴿سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧)﴾.

هو يقابل الإساءة بالحسنة، ويعذر أباه فى إساءته؛ لأنه فى ضلال بعيد وإفك أثيم قد استغرق نفسه وأعمى بصيرته، وأصابه بغشاوة على قلبه ﴿سَلامٌ عَلَيْكَ﴾، معناه أمن يفيض عليك وهو تحية له وهو يفارقه ويريد له السلامة فى غيبته، وأن يكون فى أمن، فهو يفارقه على مودة، وإن كان يقول مقالة القطيعة، وقد قال بعض المفسرين أن ذلك من قبيل قوله تعالى: ﴿... وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣)﴾ [الفرقان].

وربما نرى نحن أن سياق الآية لا يدل على الابتعاد عنه، وليس كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥)﴾ [القصص]، لا نرى ذلك لأنه لا ينسجم مع وعده باستغفار الله تعالى له، كما قال: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾.

وقد قال الزمخشري: إن استغفار إبراهيم لأبيه كان مشروطا فيه التوبة، ونحن نرى أن سياق الآية لا يدل على اشتراط التوبة بل هو استغفار لمشرك، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤)﴾ [التوبة].

وهذا النص ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾، هو الموعدة التى وعد إبراهيم أباه بها، وقوله تعالى: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ﴾ السين لتأكيد الاستغفار فى المستقبل القريب، ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ الضمير يعود إلى ﴿رَبِّي﴾ الذى يكون فى موضع عناية واستجابة لى، فمعنى ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾، أى كنت موضع رحمته وبره، وأنه لهذا يظن أنه سيجيب دعائى، ولكن تبين له من بعد أنه عدو لله فتبرأ منه.

كان لا بد أن يخرج من بينهم نبى الله تعالى عليه السلام، فهو لا يريد أن يبقى محكوما بالوثنية وأرجاسها؛ ولذا قال كما أخبر الله تعالى عنه:

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨)﴾.

«الواو» عاطفة والمعطوف عليه ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾، أى إنى أخرج عنكم سالما مستغفرا غير هاجر كما أردت، وفى الوقت أسألكم، ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ﴾، أى أفارقكم مفارقة موادّ محب ولست هاجرا لكم ولا مجافيا، ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا

﴿تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، أى تعبدون، أعتزلكم وعبادتكم المشركة الآثمة لاجئا إلى الله تعالى، ولذا قال: ﴿وَأَدْعُو رَبِّي﴾، أى أعبده لأنه ربى الذى خلقنى القائم على كل أمورى.

وإطلاق الدعاء بمعنى العبادة؛ لأنه التجاء إلى الله تعالى، وهى ضراعة إليه، ولقد قال النبى ﷺ: «الدعاء مخ العبادة»[1]، وقد ذكر التصريح بالعبادة بعد ذلك فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ﴿عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾، أى خائبا ضائعا غير مقبول فى دعائى وعبادتى، فإن ذلك هو الشقاء الأكبر، وهذا الرجاء كان لفرط إخلاصه لله تعالى، وخشيته من غضبه وطرده؛ فإن الحبيب دائما يخشى من غضب محبوبه، ويعمل على رضاه ويخشى من غضبه، وخليل الله الذى اختاره الله تعالى خليلا، وقال: ﴿... وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً (١٢٥)﴾ [النساء]، كان أشد ما يخشاه غضب ربه، وأن يرد عبادته فيشقى بهذا الرد، وقال: ﴿عَسَى﴾ الدالة على الرجاء تواضعا لله واستصغارا لعبادته، وكان بهذا المخلص البر الحبيب المحبوب؛ إذ غلَّب الخوف ليصلح أمره وأنه إذ اعتزلهم حرم من أنس أهله، فوهبه البنين والذرية، ولذا قال تعالى:

﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩)﴾.

«الفاء» عاطفة على ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، فالله عوضه عن الغربة الأنس بالولد والأحفاد، أما الولد فإسحق، وأما الحفيد فيعقوب، وكانوا بذلك فئته التى اعتز بعد الله تعالى بها، وكان أنسه فى هذا الاعتزال، ﴿وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾، أى جعلنا كل واحد منهما نبيا، و«كلا» مفعول مقدم لـ «جعلنا»، وقدم لأهميته، وللإشارة إلى أن بدَّله من أبيه المشرك الذى نهره وهدده بالرجم ثم طرده محروما من محبته، بدله من هذا أنبياء من ذريته استأنس بهم بعد وحشة الاعتزال.

---

(١) سبق تخريجه من رواية الترمذى فى سننه عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

وقد يقال: لم يذكر سبحانه أنه وهب له إسماعيل وهو أكبر من إسحق، ويظهر أن ذلك كان وهو مقيم وحده مع أمه هاجر فى مكة، فلم يكن له أنس القرب، إلا بعد أن ذهب إليه وأخذا ببناء الكعبة كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) ﴾ [البقرة].

وقد ذكر سبحانه وتعالى كمال البيان فى أسرته الموحدة، فقال تعالى:

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠) ﴾.

الضمير فى ﴿ لَهُم ﴾ يعود إلى إبراهيم وإسحق ويعقوب، ولم يذكر الموهوب إعلاء لشأنه ولفخامته، وحسبه أنه هبة الله، وأنه من رحمته سبحانه، فكان العقل يذهب فى تقديره أعلى المذاهب التى تليق بهبة الله ورحمته، فهى تشمل النبوة، وتشمل الأموال، وتشمل الجاه والسلطان، وتشمل العزة والكرامة، والعلو فى الأرض ووراثتها، والإمامة فيها وكل ذلك كان فى ذرية إبراهيم، وفى إسحاق ويعقوب والأسباط.

النعمة الثانية التى أنعمها على إبراهيم وذريته هى قوله تعالى، ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ ﴾، أى لإبراهيم وذريته ﴿ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾، ﴿ لِسَانَ صِدْقٍ ﴾ من إضافة الاسم إلى وصفه، أى لسانا صادقا عليا، رافعا لهم، وليس خافضا لمآثرهم، والمراد الكلام الطيب والذكر الطيب، من قبيل إطلاق الآلة على ما يكون، فأطلق اللسان وأريد الكلام، وهذا استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام إذا قال فى دعائه عليه السلام ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) ﴾ [الشعراء]. وقد آتى الله إبراهيم ذلك فقال تعالى: ﴿ ... وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ ... (٧٨) ﴾ [الحج]، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) ﴾ [النحل].

أنبياء من ذرية إبراهيم عليه السلام

قال الله تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥١ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝٥٢ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ۝٥٣ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥٤ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ۝٥٥﴾

الأمر للنبى ﷺ، أمره سبحانه أن يذكر من ذرية إسحاق ويعقوب موسى وهارون، ومن ذرية إبراهيم إسماعيل وهو أبو العرب ونبى العرب، ومن ذريته محمد ﷺ، وذكر فى البشارة به على أنه من أولاد عم بنى إسرائيل لأنه أخو إسحق وهو الكبير، والكتاب هو القرآن، وإذا أطلق الكتاب انصرف إليه؛ لأن المطلق ينصرف إلى الفرد الأكمل، والأكمل بين الكتب هو القرآن، لأنه كتاب الله تعالى بلفظه ومعناه ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ۝١٩٤﴾ [الشعراء]، وإن الله أمر نبيه أن يذكره فى القرآن؛ لأنه سجل الأنبياء ومعجزاتهم، وأخبارهم لا تعرف بطريق متواتر من غير تغيير ولا تبديل إلا عن طريقه. وكذلك معجزاتهم، فإنها أحداث تقضت فى وقتها وما عاينها من الأخلاف أحد، ولكنها سجلت فى القرآن المتواتر المحفوظ بوعد الله العظيم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر]، وإن الله لا يخلف الميعاد وذكر موسى هنا فى قوله تعالى:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ۝٥١﴾.

ذكر موسى هنا لناحية معينة فيه وهى أنه من ذرية إبراهيم، وقد وعد الله إبراهيم أن يؤنسه بأولاده وذريته عندما اعتزل أهله وما يعبدون فكافأه الله تعالى بأنس الولد والذرية، واستجاب دعاءه أن يجعل له لسان صدق فى الآخرين، وكان من هذا اللسان الصادق أن يكون له ذرية من الأنبياء فكان منهم من أولى العزم موسى وعيسى ومحمد ﷺ.

وفى هذا الجزء من قصص موسى ذكر ما لم يذكر فى مواضع كثيرة من قصصه، وهو صفته التى كانت من أبرز صفاته أنه كان مخلصا، قرئ (مخلِصا) بكسر اللام، و(مخلَصا) بفتحها والقراءتان متلاقيتان، فقراءة الكسر معناها أنه أخلص نفسه لله، وبدا ذلك فى حياته، فقد نشأ فى بيت فرعون رافغا بعيشه مستمكنا بسلطان، ومع ذلك نفر من دينه وملته ورضى بأن يكون من بنى إسرائيل المستزلين المستضعفين فى أرض مصر ﴿... **يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ**...(٤٩)﴾ [البقرة]، ثم هاجر ابن النعمة الفرعونية إلى حيث يستأجر زارعا كادحا، فأى شىء يدل على الإخلاص أكثر من هذا.

وعلى القراءة الثانية، وهى قراءة فتح اللام يكون المعنى أن الله تعالى أخلصه له وجعله كليمه، وذلك ثابت من حياة موسى عليه السلام، فقد ولدته أمه فى وقت فرعون وآله يذبحون أبناءهم، فألهم سبحانه أم موسى أن تضعه فى تابوت وتلقيه فى اليم، ويلتقطه آل فرعون ليكون فى المستقبل عدوا لهم وحزنا، وقد أرادوه قرة عين لهم ﴿**وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ**﴾، أى أخته ـ ﴿...**هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ** (١٢)﴾ [القصص]، وبذلك رجع إلى أمه وخلص لها فتربى فى مهدها وكنف فرعون، وبذلك صنع على عين الله، كما قال تعالى: ﴿... **وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي** (٣٩)﴾ [طه] فكيف بعدها لا يكون مخلصا وخالصا لله، واختاره أن يكون له كليما.

وكلٌّ قراءة قرآن فيكون المعنيان مرادين بمجموع القراءتين، فهو مخلص فى شخصه، وأخلصه الله سبحانه لذاته العلية.

الوصف الذى اصطفاه الله تعالى به أن جعله رسولا نبيا، فقال تعالى: ﴿ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ﴾، الرسول - فيما يظهر من عبارات القرآن - من أُرسل بكتاب مشتمل على أحكام، والنبى من يُنَبَّأ بمخاطبة الله له بالوحى أو يرسل رسولا، أو من وراء حجاب، وقد كان موسى كذلك، فقد أرسل بالتوراة فيها كل الشرائع المصلحة للإنسانية فى رسالته وبعضها باقٍ سجله القرآن ولم ينسخه.

وقد ذكر سبحانه وتعالى المكان الذى نزل عليه الوحى ابتداء فيه، وهو فى أرض مدين فقال تعالى:

﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) ﴾.

كان خطاب الله تعالى لموسى بالكلام، ولذا قال تعالى: ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ ﴾، أى الجهة اليمنى من الطور، أى أن مناجاة ربه كانت من جهة الطور اليمنى، واليمين ميمون، فهذه إشارة إلى اليُمن، وما هنا مجمل مذكور مفصلا فى سورة القصص، فقد قال تعالى بعد أن أنهى الإجارة مع شعيب: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ (٣١) ﴾ [القصص].

وهذا واضح فى أنه تفصيل لبيان كيف كان النداء، ولم يكن تكرارًا، بل كان بيانا لما أجمل هنالك، وبيان المجمل ليس تكرارا، هذه منزلة عالية، وهو أنه كليم الله، كلمه من وراء حجاب، ولذا قال تعالى: ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾، أى كان خطاب الله تعالى تقريبا إذ ناجاه وخاطبه ﴿ نَجِيًّا ﴾، وكأنها مُسارّة له؛ لأنه لم يسمع ذلك النداء غيره فى ساعة هذا النداء، تعالى الله سبحانه علوا كبيرا.

ولم يكن ذلك التشريف والتكريم فقط لموسى عليه السلام بل آتاه نعمة أخرى بأن أرسل معه أخاه هارون نبيا فقال تعالى:

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣) ﴾.

أحس موسى عليه السلام بعظم التكليف الذى كلفه، وهو أن يدعو إلى الإيمان طاغية الدنيا فى عصره، وأنه مهما يكن عِظَم التكليف فهو راضٍ به قائم بحقه، ولكن طلب أن يكون معه أخوه هارون وزيرا له ومعاونا ليحمل العبء كاملا ويعاونه فإن له بيانا ليس لموسى، وقد طلب موسى ذلك فقد قال الله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) ﴾ [طه]، فكان من نعمة الله تعالى على موسى أن جعل له من رحمته أخاه هارون نبيا، والرحمة كانت فى هبته له نبيا، ذهبا معا إلى فرعون وخاطباه قائلين: ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ (٤٧) ﴾ [طه].

هؤلاء من ذرية إبراهيم الذين كانوا من إسحق، وقد كان لإبراهيم ذرية أخرى ـ كان منهم خاتم النبيين ـ هو إسماعيل عليه السلام، وقد قال تعالى فى ذكر إسماعيل:

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) ﴾.

وقد أفرد القرآن إسماعيل بالذكر؛ لأنه كان يقيم بالبلاد العربية، وأقام هو وأمه حول الكعبة، لسدانتها وحراستها، وإفراده بالذكر تشريف له وإكرام، فإذا كان أخوه إسحق عليه السلام أبا أنبياء بنى إسرائيل الذين قاموا بتنفيذ التوراة وتفسيرها، فإن من ذرية إسماعيل عليه السلام خاتم النبيين الذى جاء بالكتاب المهيمن على كل الكتب المنزلة، والذى فيه كل الأنبياء ومعجزاتهم.

والكتاب كما ذكر هو القرآن وهو أكمل الكتب كما نوهنا؛ ولأن الخطاب للنبى ﷺ فالكتاب يكون هو الكتاب الذى نزل عليه وهو القرآن، وقد ذكرنا وجوه كماله، وأنه سجل الأنبياء وشرائعهم الباقية ومعجزاتهم، ولا ترى لها مصدرا متواترا صادقا سواه، كما ذكرنا.

وقد وصفه الله تعالى بأربعة أوصاف تدل على الكمال الإنسانى الذى لا يعلو عليه كمال.

الوصف الأول: أنه كان ﴿صَادِقَ الْوَعْدِ﴾، أى إذا وعد لا يخيس، ولا يكذب بل ينفذه، وكل الأنبياء كذلك ولكن وصف الله به إسماعيل؛ لأنه كان أخص أوصافه واشتهر به، فإن إبراهيم أباه عندما رأى الرؤيا بذبح إسماعيل لم يجبن إسماعيل بل قال: ﴿... سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢)﴾ [الصافات]، وصدق وعده، فاستعد لأن يذبح، وقال الله تعالى: ﴿... يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ... (١٠٥)﴾ [الصافات]، فهو الذبيح الأول، وصدق الوعد والوفاء به والرضا بتنفيذه وعدم الحيف فيه، وقد كان إسماعيل كذلك فيما وعد وأوفى.

الوصف الثانى: أنه كان ﴿رَسُولاً نَّبِيًّا﴾، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾ فقد جاء بشرائع ومنحه الله تعالى النبوة فقد كان ينزل عليه الوحى، ويكلمه الله تعالى بإحدى طرق الكلام، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ... (٥١)﴾ [الشورى]، وقد يقال: إن شريعته كانت شريعة أبيه إبراهيم، ونقول إنه أرسل بها، ولا مانع من أن يخاطب بالشريعة الواحدة رسولان، وقد ذكر الله تعالى أن إبراهيم كان رسولا وإسماعيل كان رسولا نبيا.

الوصف الثالث: وهو عملى لأنه ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ إن إسماعيل عليه السلام كان حقا عليه أن يأمر قومه من العرب بالصلاة والزكاة، ولكن كان

عليه أن يبدأ بأهله وذوى قرابته والمتصلين به، ثم ينتقل إلى غيرهم مبتدئا بالأقرب فالأقرب، كما ابتدأ النبى ﷺ لعشيرته الأقربين بأمر الله تعالى فى قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥)﴾ [الشعراء].

ومن العلماء من قال: إن أهله الذين اتبعوه أجمعون، وذلك القول له وجهه، وقد أمر نبى الله إسماعيل عليه السلام بأمرين: بالصلاة، وهذا رمز للتهذيب للجماعة التى يدعوها والتربية الروحية التى تكون بالصلاة، ومايشبهها فى روحانياتها، وتكون الركن الأول فى المقاصد الدينية، ثم يجىء الأمر الثانى وهو الأمر بالزكاة، فإنها تكون الركن الاجتماعى الذى يكون به التعاون بين الجماعة فى تحقق الركن الإنسانى فى الصلات بين الناس، وهذا يمثل الركن الثانى من المقاصد الدينية، ولا بد للثانى من الأول فهو لا يتحقق على وجهه الأكمل إلا بالأول، فالأول هو الرباط الروحى، والثانى رباط مادى لا يؤدى مؤداه إلا بتربية الروح.

الوصف الرابع: وهو أعلى الأوصاف التى وصف بها إسماعيل عليه السلام هو رضا الله تعالى، فقد قال عز من قائل: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ «مرضىّ» اسم مفعول من رَضِى، وقد زكى الله إسماعيل بأنه مرضى ﴿عِندَ رَبِّهِ﴾ فهو رَضِىٌ فى ذاته ومرضى عند ربه الذى خلقه وكونه وقام على وجوده، وهذا أعلى ما يصل إليه المؤمن؛ ولذا قال تعالى بعد ذكر نعيم الجنة المقيم ﴿... وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ... (٧٢)﴾ [التوبة] فرضوان الله أكبر من كل جزاء، ولذا قال: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ و«كان» فى كل أوصاف الله تعالى للدوام والاستمرار، اللهم أدم علينا نعمتك وامنحنا رضاك.

أنبياء ليسوا من ذرية إبراهيم عليه السلام

قال الله تعالى:

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾

تلك أخبار النبيين تذكر لما فيها من عبرة، ولما فيها من دعوة إلى الاقتداء بهم وسلوك طريقهم، فهم أسوة الأبرار، وطريقهم هو طريق الأخيار، وإذا كان طريق إبليس طريق الأشرار، فطريقهم هو طريق الأخيار.

وابتدأ بذكر إدريس فقال عز من قائل:

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) ﴾.

الكتاب هو القرآن كما أشرنا من قبل، والخطاب للنبى ﷺ، وإدريس قيل: إنه كان قبل نوح، ولا نجد ما يدل على ذلك من كتاب ولا سنة، وإنما هى أخبار كتاب قصص الأنبياء.

ورد فى تفسير القرطبى «إدريس عليه السلام أول من خط بالقلم، وأول من خاط الثياب ولبس المخيط، وأول من خط فى علم النجوم والحساب»، وإذا صح هذا فربما يكون أقدم من نوح، ولكنا فى مثل هذا نقول علمه عند الله، وإنه لا يزيل إبهاما فى القرآن، ولا يأتى بعلم جديد، وإنه لمن أمر فالظن لا يغنى من الحق شيئا، ويؤكد الزمخشرى أنه جد أبى نوح عليه السلام، ويقول بعض العلماء: إنه إلياس عليه السلام المذكور فى سورة الصافات، وقد قال عن إلياس عليه السلام فى سورة الصافات:

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (١٢٩) ﴾ [الصافات].

وإذا صح أن إدريس هو إلياس فتكون سورة الصافات قد بينت دعوته، وأن قومه أنكروا وكذبوا، وقد وصف الله تعالى فى هذه الآية إدريس بثلاث صفات:

الوصف الأول والثانى: ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾، فهو صديق لا يقول إلا حقا، ويصدق الحق وينفذه ولا يتردد فى تنفيذه ومعه الإذعان له من غير تململ، بل باطمئنان ورضا وقبول، وكان نبيا قد كلف بتبليغ رسالة ربه.

الوصف الثالث: أن الله تعالى رفعه منزلة عالية، وقد عبر سبحانه وتعالى من ذلك بقوله: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) ﴾، والرفعة هنا معنوية، والمكان المراد به منزلة عليا، وقد زعم بعض المفسرين أن ذكر المكان يدل على أنها رفعة مادية، ولا نرى وجها لتخصيص ذكر المكان بالرفعة الحسية، فإن ذلك تخصيص من غير مخصِّص قام الدليل عليه، وإنما نقول: إنها نعمة من الله تعالى على عبده ونبيه الصدِّيق الأمين لأمر اقتضى ذلك فى علمه المكنون، ولم يبينه لنا فحق علينا أن نقول ما نعلمه، ونسلم بصدق ما لم نعلمه، والله هو العليم المحيط بكل شىء علما.

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨) ﴾.

الإشارة إلى النبيين المذكورين فى هذه السورة زكريا ويحيى وعيسى وإبراهيم وأولاده وموسى وهارون وإدريس، فهولاء جميعا قد ذكروا فى هذه السورة، وكلهم من ذرية آدم، قوله: ﴿ مِّنَ النَّبِيِّينَ ﴾ «من» بيانية، وقوله: ﴿ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﴾، «من» هنا تبعيضية، فالمذكورون بعض هذه

الذرية، فمن بعض من حمل الله تعالى فى سفينة نوح عليه السلام إبراهيم وهود وصالح وشعيب، ﴿ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ إسماعيل وإسحق ويعقوب، ومن ذرية إسرائيل موسى وداود وسليمان، وهكذا أنعم الله تعالى على هؤلاء بنعمة التوحيد، ونعمة الوحى، ونعمة الاصطفاء على العالمين، ونعمة الجهاد فى دعوة الحق وحرمته.

وقد ذكر الله تعالى أن ممن أنعم الله تعالى من هداهم الله تعالى بهدى الأنبياء والمرسلين؛ ولذا قال تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ﴾، «الواو» عاطفة على قوله تعالى: ﴿ مِّنَ النَّبِيِّينَ ﴾ فـ «من» بيانية، والله أنعم على النبيين ومن تبعهم، فقوله: ﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا ﴾، أى الذين اتبعوهم على صراط مستقيم، ﴿ وَاجْتَبَيْنَا ﴾ الذى اخترناهم لنبوة وجهاد كداود، وطالوت الذى جعله الله تعالى رئيسا لبنى إسرائيل قادهم إلى الحرية والعزة وإن لم يكن من أبناء كبرائهم.

وإن هؤلاء الأنبياء المصطفين الأخيار والتابعين الأبرار قد صفت نفوسهم واستقامت قلوبهم، وصغت إلى الحق أفئدتهم فكانوا إذا تليت عليهم آياته فى كتبه الذى أنزلها الرحمن خروا ساجدين باكين؛ ولذا قال تعالى: ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ سجدا: جمع ساجد، وبكيا جمع باك، أى أنهم لفرط تأثرهم بآيات الرحمة التى تنزل من عند الرحمن، ولذا اختير ذلك الوصف ﴿ الرَّحْمَٰنِ ﴾ فى التعبير عن الذات، فهم يبكون لشعورهم برحمة الله، ويسجدون شكرا لله تعالى على ما أنعم، وإن ذلك كان من شأن الصالحين، فكان أبو بكر بكَّاءً عند تلاوة القرآن الكريم، وكان الإمام الشافعى إذا صلى بالناس بكى وبكوا عند تلاوته حتى سمى القارئ البكَّاء، ومن كان من الصالحين لا تدمع عيناه يبكى قلبه. وإن ذلك من الوعى الطيب، إذ يحسّ السامع للتلاوة، بأنه يسمع الله تعالى ينادى فيرتجف ويقشعر بدنه، ولقد قال الله تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ... (٢٣) ﴾ [الزمر].

قد ذكر الله تعالى مَنْ خلف أولئك الأبرار من النبيين والصديقين.

خلف أولئك الأنبياء

قال الله تعالى:

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾.

«الفاء» للترتيب والتعقيب، فهي تفيد أنه جاء عقب هؤلاء الأطهار من تنكبوا طريقهم، وخرجوا عن منهاجهم، وليس معنى ذلك أنه لم يكن فيهم من خالف المنهاج من أقوامهم، بل كان كل نبي من هؤلاء الأنبياء من لقى مقاومة من قومه، فمن قوم إدريس من قاومه، وقالوا: ﴿... وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ... ﴿٢٧﴾﴾ [هود]، وهذا كان شأن كل المصطفين الأخيار من

قُووِم فى عصره، فكيف يقال خلف هؤلاء مع أنهم كان أمثالهم فى عصرهم، ونقول: إن أولئك الأخلاف الذين خالفوا النبيين كانوا فى أقوام من أتباعهم من حرفوا أقوال النبيين، وحرفوا القول عن مواضعه كبنى إسرائيل، والذين حملوا إنجيل عيسى كان منهم من تخلف عن هدايته وتنكب عن سبيله.

وصف الله تعالى الأخلاف الذين انحرفوا بسبب هذا الانحراف ونتيجته، فقال عز من قائل: ﴿ **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ** ﴾، وذكر أسباب انحرافهم فحصره فى أمرين أو ذكر أن أكبر أسبابه أمران:

الأمر الأول: أنهم ﴿ **أَضَاعُوا الصَّلاةَ** ﴾، ومعنى إضاعة الصلاة إضاعة الدين؛ لأنها عمود كل دين، وكما قال النبى ﷺ، «**لا دين من غير صلاة**»، فهى سمة الدين وشعاره، ومعنى إضاعتها إهمالها، أو الصلاة من غير إقامتها على وجهها، أو الصلاة التى فقدت الخشوع والخضوع، وهذا لبابها، أو الإتيان بصلاة لا تنهى عن الفحشاء والمنكر، بل تلابسها.

الأمر الثانى: هو اتباع الشهوات، فإنه إذا سيطرت الشهوات على النفس، وصارت سيدا مطاعا انحرف الاعتقاد تبعا لها، وحينئذ يتخذون إلههم هواهم وكان معبودهم وسرى ذلك إلى كل أعمالهم.

وقد نبه سبحانه إلى النتيجة من ذلك فقال تعالى: ﴿ **فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا** ﴾، الغى ضد الرشاد وهو الغواية، وهى تنكب الطريق المستقيم، وإن اتباع الشهوات وجعل الأهواء لها السلطان الأكمل سبيل الفساد والغواية، وبها تنكب الرشاد؛ وذلك أن الهدى والعقل نقيضان لا يجتمعان فى قلب واحد، فإذا كان سلطان الهوى ذهب العقل وقوله: ﴿ **فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ** ﴾ «سوف» هنا لتأكيد وقوع الفعل فى المستقبل، وقوله تعالى: ﴿ **يَلْقَوْنَ** ﴾، أى يجدون أمامهم وهو نتيجة طبيعية لترك الصلاة واتباع الشهوات.

وان الله تعالى الكريم يستثنى المتقين الأبرار؛ ولذا قال تعالى:

﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠) ﴾.

الاستثناء هنا منقطع، وليس استثناء متصلا؛ فـ ﴿مَن تَابَ وَآمَنَ﴾ لا يدخل فى عموم من اتبعوا الشهوات وأضاعوا الصلاة، فـ ﴿إِلاَّ﴾ بمعنى «لكن»، وهى مقابلة بين المؤمن وغيره، فالأول يتبع الشهوات، والثانى مؤمن تواب إلى ربه راجع إليه طالب، وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَن تَابَ﴾ يشمل من غَوِى منهم الأهواء والشهوات ورجع إلى ربه، ومن لم يسيطر عليه هواه ابتداءً واتبع سبيل الحق، ويكون التعبير عنه بـ ﴿تَابَ﴾ إشارة إلى الإذعان الكامل؛ لأن المؤمن التواب وصل إلى أعلى درجات الإيمان؛ لأنه يستصغر أفعاله أمام الله ويحسب نفسه مقصرا فلا يُدِلّ بالطاعة، بل يستشعر الخشية الدائمة ويغلب عليه الخوف ولا يغلب عليه رجاء الثواب؛ لأنه يستكثر خطأه، ويستقل طاعته.

﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾، الإشارة إلى التائبين الراجعين إلى الله تعالى، والإشارة إلى الموصوفين بأوصاف تدل على أن هذه الأوصاف سبب الحكم، وهو أنهم ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ التى هى جزاء المتقين، ﴿وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾، أى لا ينقصون أى شىء من النقص، بل يأخذون جزاءهم جزاء وفاقا لما عملوا من طيبات، ولتجردهم من شهوات الدنيا وخلاصهم من أهوائها المردية.

وذكر الله تعالى فى وصف الجنة أنها التى ﴿وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ﴾ للإشارة إلى أنها من فضل رحمته بعباده الذين يريد منهم الرشاد، ولا يرضى لهم الكفر والانحراف عن طريق الإيمان، ولذا قال:

﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) ﴾.

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾: هى جنة الإقامة الدائمة، كما قال تعالى: ﴿ ... لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) ﴾ [التوبة]، وقد وعد الرحمن عباده بالغيب، وذكر ﴿الرَّحْمَنُ﴾ هنا إشارة إلى أن ذلك من رحمة الله تعالى، إذ كان منه الغفران وهو رحمة، وكان منه

قبول التوبة، وهو رحمة وأن الحسنات يذهبن السيئات، وكان منه عفوه وغفرانه إلا أن يُشرك به.

وقوله تعالى: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ متعلق بـ ﴿وَعَدَ﴾؛ لأنه وعدهم سبحانه وهم غائبون عنه، وقد آمنوا بهذا الوعد واطمأنوا إليه، وهو غائب، فهم آمنوا بالبعث والجزاء والرحمة وهو غائب عنهم، فكانوا مؤمنين بالغيب وهو سبيل إدراك الحق، والإيمان بحقائق يوم القيامة، وقد أكد سبحانه صدق وعده وأنه لا يخلف الميعاد بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ الضمير فى ﴿إِنَّهُ﴾ يعود على ﴿الرَّحْمَنُ﴾، و﴿مَأْتِيًّا﴾ اسم مفعول، أى أنه يجعله ـ سبحانه وتعالى ـ آتيا لا محالة، وذلك كقوله تعالى: ﴿... إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩)﴾ [آل عمران] وبعض المفسرين فسر الوعد بأنه جنة عدن، وهو مأتى لا محالة لمن وعدوا به، ونرى أن الوعد هو ما يتعلق بنعيم الجنة، والله تعالى يمكّن عباده من وعده، فيكون آتيا بالنسبة له، ومأتيا منهم إذ يمكنهم سبحانه وتعالى منه، و﴿جَنَّاتِ﴾ بدل أو عطف بيان من قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾، وهنا يرد سؤال كيف يكون البدل جمعا، والمبدل منه مفردا؟ ونقول: إن اسم الجنس وهو (الجنة) عام يدخل فى عمومه الكثير من الجنات فهو بدل جمع من جمع، وهناك قراءة «جنة عدن»[1] بالإفراد والله تعالى أعلم.

وقد وصف الله تعالى الحياة الفاضلة فى الجنة فقال عز من قائل:

﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلاَّ سَلامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢)﴾.

اللغو هو الكلام الذى لا يكون له فائدة مذكورة عند العقلاء، وهو الذى يؤدى إلى المشاحنة والمنازعة، ومبادلة القول والجدال، وكل ذلك بعيد عن الحياة الفاضلة التى تكون فى الجنة؛ ولذا قال تعالى فى آية أخرى: ﴿... لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ (٢٣)﴾ [الطور]، وإن اللغو فى الدنيا ليس من دأب الفضلاء، وسماعه ليس

(١) قراءة (جنة عدن)، ليست فى العشر.

من شأن العقلاء. وقال فى أوصاف الأبرار: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥)﴾ [القصص].

وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ سَلامًا﴾ الاستثناء فيها منقطع، بمعنى لكن يسمعون سلاما، أى أمنا واطمئنانا وبعدا عن المشاحة والمنازعة والمخاصمة.

هذه هى الحياة المعنوية الطيبة الهادئة التى لا لغو فيها ولا تأثيم، وقد ذكر سبحانه وتعالى أن الجسم فيها ينال حظه فى مواقيته فقال تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾، أى أن طعامهم يأتيهم فى أوقات منتظمة مستمرة وهى تجىء فى البكور، وفى العشية.

أى على عادة المتناولين لهذه الحياة من غير زهادة ولا إفراط فى الأخذ منها ليترفوا فيها، وفى ذلك الاعتدال تكون استقامة الحياة من غير مرض ولا عناء.

وإن تلك الجنة الطيبة التى تحيا فيها الروح، ويحيا فيها الجسم من غير إسراف ولا تفريط تكون للمتقين؛ ولذا قال تعالى:

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا (٦٣)﴾.

الاشارة هنا للبعيد إعلاء لشأنها وتشريفا وتكريما لها ﴿نُورِثُ﴾، أى يجعلها سبحانه وتعالى ميراثا لمن كان تقيا، وسميت ميراثا أورث الله تعالى به، لأنه خلف للعمل الصالح، ولأنه ترك الأهواء والشهوات فأخذ بديلا لها تلك الجنة وهى أغلى وأدوم، وسمى سبحانه وتعالى ذلك توريثا؛ لأنها خلف، كما يملك الوارث بالخلافة بيد أن ذلك ميراث عن عمل صالح بنعيم دائم فهو دائم بدوام المال الموروث، وقد قال فى هذا الزمخشرى ما نصه: «نورث: استعارة أى نبقى عليه الجنة كما نبقى على الوارث المال الموروث؛ ولأن الأتقياء يلقون ربهم يوم القيامة قد انقضت أعمالهم وثمرتها باقية، وهى الجنة، فإذا دخلوا الجنة أورثهم من تقواهم كما يورث الوارث المال».

وقوله تعالى: ﴿ نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ (مَنْ) مفعول، و(مِنْ) للتبعيض وقوله تعالى: ﴿ كَانَ تَقِيًّا ﴾ تفيد الملازمة للتقوى لا يتحول عنها؛ لأن ﴿ كَانَ ﴾ تدل على الدوام والاستمرار.

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) ﴾.

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ ﴾ هذا بيان من متكلم ما هو؟ أهو من الملائكة أم من المتقين؟ إن النص يحتملهما، وقد روى أن ذلك من الملائكة، وروى البخارى والترمذى أن الذى قال ذلك جبريل عليه السلام، فإنه قد روى الترمذى والبخارى عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم، قال لجبريل عليه السلام: «ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا»، فنزلت هذه الآية(١)، ومعناها على ذلك، ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ ﴾، أى نتنزل نحن الملائكة ﴿ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ الذى خلقك، فلا ننزل من تلقاء أنفسنا بل بإرادة، وروى أنه قال النبى صلى الله عليه وسلم: «أنا أشوق إليك».

وقد قيل: إن المشركين قالوا: قلاه الله وودعه، وقد قال تعالى فى سورة الضحى: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴾ هذا تخريج تؤيده الرواية الصحيحة، ونتنزل أى ننزل وقتا بعد آخر.

وهناك تخريج آخر وهو أن قائل ذلك هم المتقون الذين نزلوا الجنة، وأدخلهم الله تعالى فيها، ويكون معنى التنزل النزول إليها مترفقين، ويكون كلامهم إعلانا لشكرهم لله تعالى.

ونحن نميل إلى التخريج الأول ونرجحه؛ لأنه قد ورد فيه حديث صحيح، وهو معقول فى ذاته؛ ولأن التعبير بالتنزل يدل على النزول وقتا بعد آخر، وذلك يتفق مع نزول جبريل، ولا يتفق مع دخول الجنة؛ لأنه يكون دفعة واحدة، ولأنه

---

(١) رواه بهذا اللفظ البخارى: تفسير القرآن - (وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلا بِأَمْرِ رَبِّكَ) (٤٣٦٢)، والترمذى: تفسير القرآن - ومن سورة مريم (٣٠٨٣). عن ابن عباس رضى الله عنهما.

هو الذى يناسب نفى النسيان فى قوله بعد ذلك: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ «فعيل» من «نسى»، أى ناسيا نسيانا شديدا حتى يترك نبيه، وقد أرسله لبيان شريعته، والدعوة بقرآنه الحكيم الذى هو تنزيل من حكيم حميد.

وقد ذكر الملائكة قدرة الله تعالى، وأنه هو الملك للملائكة والإنس والجن، فقالوا كما حكى الله تعالى عنهم: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾، له ما مضى من أمرنا لا يعلمه سواه، وله ما بين أيدينا مما هو مبهما، وما خلفنا مما تركنا، وما بين ذلك هو حاضرنا، وملكيته سبحانه لحاضرنا، وهو ما بين ملك المتصرف العالم علما محيطا.

وقد بين سبحانه وتعالى ملكه للسموات والأرض فقال:

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)﴾.

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو رب السموات والأرض الذى يملك كل شىء ما بين أيدينا وما خلفنا ويعلم كل خلقه، هو رب السموات ورب الأرض ورب ما بينهما من فضاء، وإذا كان هو الرب الخالق لكل شىء ولا خالق سواه فإنه وحده الذى يستحق العبادة، ولذا قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾، و«الفاء» لترتيب ما بعدها على ما قبلها؛ لأنه إذا كان الخالق القائم بحق الربوبية، الحى القيوم فهو وحده المستحق للعبادة، ولكن هذه العبادة لا يستقيم لها الإنسان وسط الأهواء والأوهام، وما يألف الناس من عبادة الأحجار والأشخاص ليس الطريق الإنسانى إليها معبدا، ولذلك كان المؤمن يحتاج إلى صبر فقال تعالى: ﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ أصل اصطبر «اصتبر» قلبت تاء الافتعال طاء لقرب التاء من الطاء، ومعنى الافتعال هنا الصبر، وتحمل ما يكلفه النفس من جهود، ونبه سبحانه إلى أنه لا مشابه له من الحوادث، فقال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾، أى شبيها، والاستفهام للإنكار بمعنى النفى، أى لا تعلم له شبيها فهو

منزه عن الحوادث كقوله تعالى: ﴿... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١)﴾ [الشورى]، وهذا النفى بالاستفهام الإنكارى دليل على استحقاقه وحده للعبادة لأنه لا شبيه له.

إنكار الإنسان للبعث

قال الله تعالى:

وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ
أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ
وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ
لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ
شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ
هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ
حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ
فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا
لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ
أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾

الإنسان ينظر دائما إلى حاضره ولا ينظر إلى قابله، وينكر القابل إذا لم يتفق مع حاضره إلا أن يكون ممن هداهم الله وآمنوا بالغيب إيمانهم بالشاهد، ولم يحصروا علمهم فى المحسوس لا يخرجون عنه، وقد قال تعالى:

﴿ وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) ﴾.

الإنسان المأسور بالحسّ الذى لا ينفذ عقله إلى ما وراء الحس من غيب ستره الله تعالى، ولا يؤمن به إلا بنقل صادق، وعلى ذلك يكون المراد بعض الإنسان لا كل آحاده، وعبر عن هذا البعض باسم الكل؛ لأن ما يقوله بعضهم مساير لإحساس الكثيرين منهم، أو لحال الإنسان قبل أن يجيئه النقل القاطع الجازم، ولأنه مشتق من طبيعة الإنسان المأسور بالحاضر المحسوس، لا القابل المغيب.

وبعضهم يقول: إن الجنس هو المتحدث عنه، فجنس الإنسان يدرك الحس وحده، إلا من رحم ربك.

ويقول تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الإِنسَانُ ﴾ عبر بالمضارع للإشارة إلى تكراره، وأنه يذكره مرارا، وللإشارة إلى صورة قوله المتكرر ﴿ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ الاستفهام فى ظاهر اللفظ ومدلوله داخل على ﴿ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ وتركيب القول، ولكلام الله تعالى المثل الأعلى. لسوف أخرج حيا إذا ما مت، وتأخرت ﴿ لَسَوْفَ ﴾ على «إذا» لأمرين:

الأمر الأول: أن الاستفهام له الصدارة.

الأمر الثانى: أن موضع الإنكار ليس هو الإخراج إنما هو أن يكون بعد الموت وأن يصير رميما، كقوله تعالى ﴿ ... مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) ﴾ [يس].

والمعنى على هذا التخريج: أحقا مؤكدا سوف يخرج حيا مجتمع الأجزاء غير مفرق، و«اللام» لتأكيد الخروج، وسوف لتأكيد الوقوع فى المستقبل، ولقد بين سبحانه أنه لا غرابة فى الإعادة بعد الموت فقال:

﴿ أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) ﴾.

الواو عاطفة على فعل مذكور مشار إليه فيما سبق، وتقديره، أيقول ذلك ولا يذكر الإنسان. . .

«أو» الواو عاطفة ومقامها التقديم وأُخرت؛ لأن الاستفهام له الصدارة، والاستفهام هنا إنكارى بمعنى إنكار الواقع، وإنكار الواقع توبيخ، أى: أيقول ذلك، ولا يذكر أنه خلق ولم يكُ شيئا، فهو توبيخ على هذا النسيان الذى ينسى أصله، وكيف تكوَّن، ولا ينسيه إلا الشيطان، وأظهر الإنسان، وكان مساق القول ألا يظهر، وذلك لانصباب التوبيخ عليه، ولتأكيد النسيان الذى هو طبيعة فى الحياة الإنسانية، إذ هى تنسى ما يغيب عنها ولا تذكر، ولقد قال الله تعالى فى مساق التوبيخ: ﴿**أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا**﴾، أى لا وجود له، ولا شك أن الخلق من غير صورة وابتداء الإنشاء من طين وتصويره نطفة فعلقة فمضغة مخلقة وغير مخلقة.. أصعب من إعادته مصورا يمر على هذه الأدوار التكوينية، بل كان بمجرد قوله كن فيكون، وبمجرد النفخ فى الصور، وقد قال تعالى: ﴿... **كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ** (٢٩)﴾ [الأعراف] وإن جمع الأجزاء المتناثرة أقل صعوبة من إنشائها وإبداعها، قال تعالى: ﴿**قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا** (٥٠) **أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ** ... (٥١)﴾ [الإسراء].

ولقد أكد الله البعث بالقسم برب الوجود مضافا إلى سيد الوجود، فقال:

﴿**فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا** (٦٨)﴾.

أقسم بذاته العلية الكريمة مضافا إلى نبيه؛ بيانا لإعزازه وإعلانه وتكريمه، وكان القسم بالذات العلية بعنوان الربوبية الكالئة الحامية المتصلة بالإنسان، وبأكرم إنسان وهو محمد ﷺ، وفى ذلك إشارة إلى أن البعث من الربوبية، فهو كما أنشأكم وكلأكم ورباكم يبعثكم، فهو لم يخلقكم عبثا، و«الفاء» هنا للتعقيب على التوبيخ بتأكيد الأمر الذى قرره وقدره وأنكروه بل استنكروه، و«اللام» فى قوله تعالى: ﴿**لَنَحْشُرَنَّهُمْ**﴾ لام القسم الواقعة فى جوابه؛ ولذا أكد بنون التوكيد الثقيلة، و«الواو» واو المعية فى قوله تعالى: ﴿**وَالشَّيَاطِينَ**﴾، أى أنهم يحشرون معهم، وهم الذين أضلوهم، وجعلوهم بالأوهام التى بُثَّت فيهم يعبدون الأوثان.

ثم ذكر تعالى ما يكون بعد الحشر وهو إحضارهم إلى جهنم، فقال تعالى مقسما: ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾، ﴿ثُمَّ﴾ عاطفة على جواب القسم ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ فهو سبحانه بعد أن يحشرهم مع شياطينهم الذين وسوسوا لهم بعبادة الأوثان يحضرون، وإن ذلك وإن كان خاصا بالكفرة؛ لأنهم الذين أغواهم الشياطين وأضلوهم، ولكن أضيفت إلى الجميع الأبرار والفجار؛ لأن الحشر للجميع، والجميع يرون جهنم كى تتلى الآيات من بعد.

والإحضار حول جهنم جاثين على ركبهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾، والجثى جمع جاث، وهم الجالسون على ركبهم. فقال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ... (٢٨)﴾ [الجاثية]، وذلك يكون فى أحوال تناقلات القول، وذلك من تجاثى أهلها على ركبهم، وذلك يكون فى حال الاستفزاز والقلق، وكأنهم لهول ما يرون يتجاثون على ركبهم فزعين قد أصابهم الهلع، ويكونون حول جهنم مترقبين ما يكون من أمرهم فى جزع.

والعطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ يقتضى فاصلا بأمد ليس قصيرا بين الحشر والإحضار، وذلك الأمد يكون فيه الحساب ويكون ما يقرره الله لأهل البر، وما يقرره للفجار، فكل يحضر حول جهنم ثم يكون الأبرار بعد ذلك للجنة إذ يرون ما آل إليه أمر الكفار، كما سنتلو قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١)﴾.

ويقول فى أحوال يوم القيامة وأهواله:

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا (٦٩)﴾.

﴿ثُمَّ﴾ عاطفة للترتيب والتراخى؛ لأنه ترتيب أعمال يوم، فيكون الحشر ثم الإحضار إلى جهنم جثيا ثم نزع أشدهم عتوا من الشيع، من كل شيعة أعتاها وأجرؤها على الرحمن، وقوله تعالى: ﴿لَنَنزِعَنَّ﴾ «اللام» لام القسم التى تكون فى جوابه وهى تنبئ عن قَسَم مقدَّر فى القول، والنزع الاستخراج لا اختيار

للمنزوع فيه، بل متخيَّر مأخوذ أخذا لا اختيار له فيه، الشيعة على وزن «فِعْلة»، وهى الطائفة المتشايعة فى عنادها وكبريائها وعصيانها، والنزع من كل طائفة لها هذا التعاون على الشر، وقوله تعالى: ﴿**أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا**﴾ والعتى مصدر عتا يعتو عتيا بالضم وعِتيا بالكسر، وعتوا، وأشد شرا فيهم، و﴿**أَيُّهُمْ**﴾ قد تكون فى معنى الاستفهام، والجواب عنه، أى الذى يقال فيهم أيهم أشد على الرحمن، أى أجرأ فى الباطل والظلم والاستكبار، وقيل: أشد على الرحمن عتيا؛ لأنه إذا كان عاتيا على الرحمن جريئا عليه، فهو ممعن فى الشر إمعانا، إذ هو غير شاكر للرحمة؛ لأنه ممعن فى الاستكبار على مصدرها ومرسلها، وهكذا ينزع الله تعالى يوم القيامة من فئة متشايعة على الشر أشدهم عتوا وتجبرا ثم الذى يليه كل فى طبقته من الشر، وهذا يشير إلى أن من دون هؤلاء عتوا وجحودا، قد يكون فى موضع الغفران إذا تاب، وإن الحسنات يذهبن السيئات، وإنه بعد نزع أشدهم عتوا يكون الصلىّ فى نار جهنم، ولذا قال تعالى:

﴿**ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا** (٧٠)﴾.

أى أنه سبحانه وتعالى ينزع أشدهم عتوا من بين الأشرار فئة فئة، والله تعالى أعلم بمن هم أولى بالنار صليا، و﴿**صِلِيًّا**﴾ مصدر صلى يصلى صليا مثل مضى يمضى مضيا، وهوى يهوى هويا، ومعنى ﴿**أَوْلَى**﴾، أى أحق بأن يصطلى هذه النار، والعطف بـ ﴿**ثُمَّ**﴾ يفيد التراخى المعنوى بين النزع من الشيع، وصليها بالنار فإنه يكون العرض، ثم يكون الإلقاء فى النار إلقاءً، وهكذا يختار من الشيع المستغرقة فى الشر المتشايعة فيه أعتاها، ثم يلقى أحقها بالصلى فى النار، ويعفو الله سبحانه عن بعض العصاة غير المشركين إذا تابوا أو كانت لهم حسنات تكافئ سيئاتهم؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ...** (٤٨)﴾ [النساء]، ويقول: ﴿**... إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ...** (١١٤)﴾ [هود]، ويقول: ﴿**... وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** (٣٠)﴾ [الشورى].

وإن الناس جميعا يرون النار، ليعرف الأبرار مقدار إكرام الله تعالى إذا دخلوا، فيرون الفرق بين الجنة والنار، وبين النعيم المقيم وعذاب الجحيم، ولذا قال تعالى:

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ﴾.

(إن) هنا نافية، والمعنى ما منكم إلا واردها، وقد التفت سبحانه وتعالى من الغيبة إلى الخطاب؛ لمواجهة عباده بما قرر لهم وما قدره سبحانه وتعالى عليهم، والورود ليس معناه الدخول، بل إن المؤمن يَرِدُها ولا يُلقى ولا يُعذب فيها، وبذلك يوفق بين قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾، وقوله تعالى بالنسبة للمؤمنين: ﴿ ... أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) ﴾ [الأنبياء]، أي مبعدون من عذابها ولا يلقون فيها ولا يدخلونها، وروى أن المؤمنين يوردون عليها وهى ضاورة[١]، أي خامدة بالنسبة إليهم لا تمسهم ولا يلقون عذابها.

﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾، ﴿ كَانَ ﴾ ذلك الورود ﴿ عَلَىٰ رَبِّكَ ﴾ الذى خلقك ورباك ﴿ حَتْمًا ﴾، أي لازما، ﴿ مَّقْضِيًّا ﴾، أي قضاه الله تعالى وكتبه على نفسه، كما قال تعالى: ﴿ ... كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ... (٥٤) ﴾ [الأنعام]، وإن هذا الكلام لتأكيد الوقوع، وإنه سبحانه وتعالى قد كتبه على ذاته العلية، ولا إلزام عليه من أحد ولا يصح أن يستدل به الذين يقولون بوجوب الصلاح أو الأصلح، فإن هذا ليس من ذلك الباب فى شيء، إنما لتأكيد الوقوع والقضاء منه، وهو الذى يقضى ويقدر وهو العزيز الحكيم.

وبعد أن يردها الجميع يصطفى الله تعالى ممن وردها المؤمنين التقاة، فينجيهم منها؛ ولذا يقول تعالى:

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢) ﴾.

---

(١) هكذا بالواو، والتَّضَوُّرُ: التَّضـعّفُ، من قولهم: رجل ضُورَةٌ وامرأة ضُورَةٌ، و الضُّورَةُ، بالضم، من الرجال: الصغير الحقير الشأن. قاله أبو العباس: لسان العرب- ضور. وقد تكون (ضامرة) بالراء، من الضمور وهو الهزال. وكلاهما يحتمل معنى الخمود، والله أعلم.

العطف بـ﴿ ثُمَّ ﴾ هنا للتفاوت البعيد بين النجاة التى كتبها الله للذين اتقوا، والصلى الذى كان لأولى الناس بالصلى فى علم الله تعالى، والنجاة تكون للذين اتقوا العذاب ولم يشركوا بالله شيئا فلم يعبدوا الأوثان، ولم يفتنوا أحدا فى دينه، ولم يكفروا بآيات الله تعالى ووحدانيته، وذكر الموصول يدل على أن الصلة وهى التقوى السبب فى الإنجاء أو التنجية، والتنجية هى المبالغة فى النجاة.

هذا بالنسبة للمتقين، أما الكافرون فقال الله تعالى فيهم: ﴿ وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾، أى جاثين على ركبهم ذلا وفزعا ورعبا وألما، والجثى تصوير لحالهم بالحس الدال على أنهم فى أشد الفزع والألم، و﴿ وَّنَذَرُ ﴾ معناها نتركهم، وعبر سبحانه وتعالى عن الكافرين بـ﴿ الظَّالِمِينَ ﴾؛ لأنهم ظلموا أنفسم بكفرهم وإشراكهم، وظلموا الناس بفسادهم، وظلموهم بالفتنة والصد عن سبيل الله فى معاملتهم للمخالفين لهم، وظلموا الحق بجحودهم مع رؤية آياته: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا... (١٤) ﴾ [النمل].

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) ﴾.

هذه أحوالهم فى الآخرة، ولكنهم عنها عمون، فقد حسبوا أن الآخرة - إن كانت فى زعمهم - ستكون لهم كما أن الدنيا تكون لهم؛ ولذا كانوا يستمرئون عنهم؛ ولذا قال الله عنهم ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) ﴾.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا ﴾، أى يتلى عليهم القرآن المنزل من الله تعالى، أى تقرأ آياته مرتلة واضحة بينة فى ألفاظها وعباراتها المعجزة ومعانيها الواضحة الزاجرة الواعظة المبشرة المنذرة - أعرضوا عنها واستهزءوا بقراءتها وبالمؤمنين، وقالوا للذين آمنوا فى شأنهم ساخرين منهم مستهزئين بهم ومستهينين بأمرهم: ﴿ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ ﴾ المؤمن والكافر، والبر والفاجر ﴿ خَيْرٌ مَّقَامًا ﴾ ومنزلة ﴿ وَأَحْسَنُ

نَدِيًّا ﴾، أى منتدى يجتمعون فيه ويسمرون، فهذا للأقوياء الكبراء ذوو المال والجاه والسطوة. وذلك للضعفاء والأرقاء المستذلين. ومؤدى القول أن المؤمنين ضعفاء مسترذلون فى ذات أنفسهم ومكانهم فى هذه، والذين يخالفونهم فى منتدى طيب ومال وفير وعزة فى النفر، وإذا كانوا كذلك فلابد أن يكون بعد ذلك كذلك إن كان بعث ونشور، ولا يظنونه، وهذا كقول قوم نوح له: ﴿ ... **وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ** ... (٢٧) ﴾ [هود] ولقد قال فى شأن الكافرين: ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ** ... (١١) ﴾ [الأحقاف]، فهم يتخذون من أن الذين آمنو ضعفاء دليلا على البطلان، وذلك لغرورهم وضلالهم، وتلك فتنة وقعوا فيها، وذلك أنهم يحكمون على الأمر بأنه باطل لضعف أتباعهم، وبأنهم على حق بقوتهم، وتلك فتنة لهم، ولذلك قال تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ** (٥٣) ﴾ [الأنعام].

وقد رد الله قولهم ببيان أن العبرة بالعاقبة، لا بالأمر الحاضر، وإن كثيرين من القرون السابقة أهلكهم الله بظلمهم، ونجا الذين استضعفوا، وكان منهم أئمة وكانوا الوارثين؛ ولذا قال تعالى:

﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا** (٧٤) ﴾.

(كم) هى العددية، أى وكثير من الأمم أهلكناهم قبلكم، وكانوا أحسن أثاثا، فبيوتهم كانت مملوءة بالمتاع الطيب؛ لأن الأثاث هو متاع البيت، و(الرِّئى): المنظر الحسن، أى إذا كنتم تفاخرون المؤمنين بأنكم أهل نَدِىٍّ حسن فيه الطنافس[1] والآرائك والذرابى المبثوثة، وأنهم فقراء يعيشون فى شدة، وليس لهم ندى كنديكم، وأنكم بذلك أهل الحق، والمؤمنون هم أهل الباطل، فقد أنصفهم الله منكم وكان هلاك الله نازلا بكم، والقرن الجماعة أو الأمة من الناس التى تعيش فى زمن من الأزمان، وإذا كان الهلاك لا يكون إلا لأهل الباطل فليس الغنى

(١) جمع طِنِفِسَة: وهى بساط له خمل رقيق. لسان العرب-طنفس.

والثروة دليلا على أن الحق فى جانبهما، فالحق لا يعرف إلا بالإيمان، وآيات الله تعالى، وكذلك نجَّى الله المؤمنين الفقراء وأهلك الكفار الأغنياء.

سنة الله تعالى فى الضلال والهداية

قال الله تعالى:

قُلْ مَن
كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ
إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا
وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ
وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾
أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا
﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ
سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ
مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً
لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ
عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ
تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾
يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ
إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ
ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾

﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلالَة فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا (٧٥) ﴾.

يقول تعالى ردا على المشركين فى غرورهم بالمال والبنين ومتعة الجاه والسلطان: ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلالَة فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ الخطاب لمحمد ﷺ يأمره سبحانه وتعالى بأن يبين لهم الحق وسنة الله تعالى فى أمر الضلالة والهداية، فهو سبحانه يَمُدُّ الذين أرادوا الضلالة وسلكوا سبيلها وأخذوا فى أسبابها، يمدهم فيها مدا حتى يحسبوا أن الأمر إليهم، كما قال تعالى: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) ﴾ [القلم]، يمهلهم سبحانه ويتركهم فى غيهم يعمهون، ويزيدهم بالمال ويعطيهم، حتى يفرقهم الغرور ويجعلهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا. وقال تعالى بلفظ الأمر: ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ جاء الخبر على صيغة الأمر؛ لبيان أن ذلك بإرادة الله وكأنه يأمره به أمرا، وهو استدراج من الله تعالى لهم، كما قال تعالى: ﴿ ... سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) ﴾ [القلم]، كما تلونا من قبل.

وأكد سبحانه إمهالهم واستدراجهم بالعطاء بوفرة عليهم بالمصدر ﴿ مَدًّا ﴾، وأسند سبحانه وتعالى المد إلى الرحمن؛ وذلك لإفادة أن من رحمة الله بعباده أن يمكن كُلا ما يحب، ثم يحاسب كُلا على ما فعل من خير أو شر، فيكافئ كُلا بما فعل إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

ويستمر الضال فى غيه ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾، وما يوعدون هو أحد أمرين إما العذاب فى الدنيا بالقتال والجهاد واستئصال الشرك، وقد رأوه فى جهاد النبى ﷺ وقد اجتث الشرك اجتثاثا، وإن لم يكن الجهاد وضرب الشرك وجعل كلمة الله هى العليا، فإنها تكون الساعة تستقبلهم ويكون العذاب يوم القيامة.

وعند الوصول إلى هذه الغاية المحتومة ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾، «الفاء» عاطفة على ﴿ مَا يُوعَدُونَ ﴾، و«السين» لتأكيد الفعل فى المستقبل

﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ يوم القيامة حيث يكون فى الجحيم، وضعفاء المؤمنين فى جنات النعيم، وهو رد على قولهم: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾، إذا كان عذابهم فى الدنيا فإن أولئك الضعفاء الذين سخروا منهم سيكونون جند الله تعالى ويسحقونهم سحقا، هذا شأن أهل الضلال الذين اتخذوا أسبابه والذين مدوا فى ضلالتهم، وأملى لهم استدراجا، أما الذين سلكوا سبيل الهداية فقال تعالى:

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا (٧٦)﴾.

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾ بأن سلكوا طريق الهداية وأزالوا كل غشاوة ونفذوا إلى نور الحق ﴿هُدًى﴾ بأن يستمسكوا بالحق ويهتدوا بهديه. والآيات التى تنزل تزيدهم إيمانا فوق إيمانهم، وكل سورة تنزل تزيد قوة فى إيمانهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥)﴾ [التوبة].

وإن الذين اهتدوا تشرب قلوبهم حب الإيمان ويستمرئون الطاعة فيسيرون فى طريقها، ويصلون إلى الغاية، وما كان من أعمالهم فهو باق له أجره وثوابه ويرد عليهم يوم القيامة، وإن كل خير يبقى، وكل شر يزول فهو كالزبد يكون له مظهر الوجود ولا يبقى، ولقد قال تعالى: ﴿... فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ... (١٧)﴾ [الرعد]، والأعمال الصالحة لهذا باقية؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ وهى ما تكون ثمرة للإيمان القوى المثمر ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾، أى خير جزاء وقبولا عند الله، أما غيرها من الأعمال التى لا تكون ثمرة للإيمان فلا خير فيها ولا تبقى، ولقد قال فى مثل ما ينفق الكافرون: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)﴾ [آل عمران].

فالباقيات الصالحات من أهل الإيمان تكون خير جزاء من أعمال الكافرين، و﴿خَيْرٌ﴾ أفعل تفضيل، ولكنه ليس على بابه؛ لأن مقابله لا خير فيه قط، وقوله تعالى: ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾، أي خير ما يرد به المؤمن يوم القيامة فهو يرجع عاريا من كل حلية إلا حلية العمل الذى يكون به الثواب ويكون لغيره العقاب، والخيرية فى أفعل التفضيل ليست على بابها إذ لا خير فى غيرها إذا كان أفعل التفضيل ليس على بابه، فالمراد به أنه بلغ من الخيرية أعلى درجاته فلا خير يعلوه قط.

وإن منشأ الضلالة هو الغرور بهذه الحياة والطمع، وقد صور سبحانه وتعالى هذا الغرور فى قوله:

﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨)﴾.

إن المشركين مغرورون بالدنيا غرتهم بغرورها، وحسبوا أنها لا حياة بعدها، وقدروا لأنفسم مقاديرها فهم يستمتعون بحاضرهم، ويحسبون أن قابلهم من جنس حاضرهم بل ذهب بهم فرط غرورهم إلى أن حسبوا أن البعث إن كان يكونون فيه الأعلين كما هم فى الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا (٧٧)﴾، «الفاء» للترتيب والتعقيب، وهى تصور كيف يمد للكافر حتى يصيبه الغرور، وهى مؤخرة عن تقديم وتقدير القول: فأريت، ولكن الاستفهام له الصدارة فقدم على الفاء، والاستفهام للإنكار، إنكار الواقع، وهو بمعنى التنديد لمن كانت حاله كذلك فى غروره، وقوله تعالى: ﴿الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾، أى جحدها وأنكر دلالتها على وحدانية الواحد الأحد الفرد الصمد، وهذا من الاستنكار الذى أفاده الاستفهام، وقال مقسما قسما هو حانث فيه ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾، و«اللام» لام القسم الواقعة فى جوابه، ولذا كان التوكيد بنون التوكيد الثقيلة، وما كان له أن يحلف تلك اليمين الفاجرة الآثمة بأن سيكون له مال وولد، وقال فى قسمه الحانث ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾، أى أنه بإرادته وقدرته الواهمة سيكون له مال قد اتخذه وأخذه

لنفسه، وقد قال في بيان أنه مغرور، ولا يكون المغرور صادقا: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨)﴾ الاستفهام إنكاري بمعنى إنكار الوقوع، فهو بمعنى النفي لما دخل الاستفهام عليه ومقابله، فهو لم يطلع على الغيب ولم يتخذ عند الله عهدا.

قال الزمخشري في قوله: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ معناه أرتقى علم الغيب، من قِبَل قولهم: اطلع الجبل ارتقاه. وأرى أن قوله: اطلع تتضمن الرؤية، وهنا همزة استفهام، وهمزة الفعل، والمعنى أراى الغيب عيانا، أم اتخذ عهدا عند الله تعالى، وإن شيئا من ذلك لم يحدث، فهو لم ير الغيب عيانا؛ إذ هو مطموس الفكر والنفس والقلب، وهو لا عهد له عند الله، كما قال تعالى: ﴿... لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)﴾ [البقرة].

﴿كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩)﴾.

ويذكر المحدثون جميعا أن سبب نزول هذه الآية أن خباب بن الأرت المؤمن الذى عُذب فى سبيل الله كان قينا، أى حدادا فصنع للعاص بن وائل شيئا فطالبه بأجرته، فلم يعطه حتى يكفر بمحمد فقال: لا، فقال: إنكم تقولون إنكم ستبعثون، وسيكون لى ذهب فإنى معطيك منه، فنزلت هذه الآيات. وقد رد الله تعالى كلامه فقال سبحانه: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ وإن ما يقوله مكتوب فى علم الله تعالى الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا يحصيها فكيف يقال: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ بالسين التى تؤكد الكتابة فى المستقبل، والله به عليم، وقد أجاب الزمخشرى عن ذلك بأن معنى ﴿سَنَكْتُبُ﴾، أى سنظهر المكتوب، وأحسب أن معنى ﴿سَنَكْتُبُ﴾، أى سنكتبه فى كتابه الذى يقرأ عليه والذى ينطق بسيئاته حجة عليه قائمة لا يكون له سبيل لإنكاره، أى نسجِّله عليه فى صكِّه المنشور يوم القيامة.

ونمد له فى غروره مدا، وسمى ذلك عذابا؛ لأنه سبب لعذابه، فذكر المسبب وأريد السبب، وذلك جائز فى المجاز المرسل والله تعالى أعلم. ثم يقول تعالى:

﴿ وَنَرِثُه مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠) ﴾.

﴿ وَنَرِثُه مَا يَقُولُ ﴾، أى نجعل ما يقول خلفا يتركه فى الدنيا ويأتينا يوم القيامة فردا: منفردا عن ماله وولده، ﴿ مَا يَقُولُ ﴾: هو الذى تألّى أن يكون له مال وولد ليكونا زينته فى الحياة الدنيا فهو يعطاهما، ولكن يخلفها من بعده ويتركهما حيث كانا فى الدنيا، ويجيء منفردا، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ... (٩٤) ﴾ [الأنعام]، فلا مال ولا ولد يبقى، إنما الباقيات الصالحات كما قال تعالى. ويصح أن نقول: إن ما يقول هو دعاء الأنداد والإشراك بالله تعالى، وفتنة المؤمنين فى دينهم، وادعاؤه أنه أولى بالنجاة من المؤمنين إن كانت، وإنكاره البعث، وقوله: ﴿ ... أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ... (٥) ﴾ [الرعد]. وهذا الذى يقوله فى الدنيا من افتراء على الله وكذب، وكل هذا سيكون ميراثه يوم القيامة ينال عذابه ويدخل جهنم وبئس المهاد.

وإضافة الميراث لله سبحانه؛ لأنه سبحانه هو الذى يقوم بعمل التوريث فى الدنيا، فيورثه أخلافه، على التفسير الأول، وهو الذى يورثه العقاب الأليم على المعنى الثانى وهو الذى نختاره، والله ـ تعالى ـ أعلم بمراده.

وبعد ذلك بين الله أنواع الكافرين، فبعضهم يتخذ آلهة من دون الله، وبعضهم قالوا اتخذ الرحمن ولدا، فأما الأولون فقال سبحانه فيهم:

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) ﴾.

هذا فريق من الكافرين، وجعل سبحانه وتعالى الضمير يعود إلى جمعهم؛ لأنهم جميعا اتخذوا آلهة، فقوم اتخذوا أصناما آلهة، وآخرون عبدوا النجوم، وغيرهم عبدوا الملائكة وقالوا بنات الله ـ تعالى ـ وبعضهم عبدوا الأشخاص، كالهنود الذين عبدوا كرشنه، والبوذيين الذين عبدوا بوذا. وكل يرى فى معبوده نصيرا ينصره، وشفيعا يشفع له، وعبدة الأصنام كانوا يعبدونهم ليقربوهم إلى الله

زلفى، وقالوا: ﴿ ... ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ... (٣) ﴾ [الزمر]، وقد رد الله سبحانه وتعالى ذلك ردا زاجرا، فقال سبحانه: ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا (٨٢) ﴾، ﴿ كلا ﴾ حرف للردع والزجر وبيان الغفلة وسوء التقدير والجهل؛ لأنهم في الوقت الذي يحتاجون إلى نصرتهم سيكفرون بعبادتهم، والضمير في قوله تعالى: ﴿ سيكفرون بعبادتهم ﴾ يعود إلى العابدين، ويكون المعنى أنهم في يوم القيامة يوم يحتاجون إلى النصير، ويعتزون بالولى يكفرون بعبادة الأوثان التي كانوا يرجون منها النصرة والعزة في الدنيا؛ إذ تتبين حالهم ويتكشف أمرهم، ويرون أنها لا تملك من أمرها شيئا، ويظهر الصبح، وينجلي الحق ﴿ ويكونون عليهم ضدا ﴾، أي يكون العابدون ضدا عليهم ولا يكونون معهم.

هذا على أن الضمير يعود على العابدين الذين عبدوا آلهة من دون الله - تعالى -، بل يصل الأمر إلى أن ينكروا عبادتهم لهم، كقوله تعالى: ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين (٢٣) ﴾ [الأنعام]، وكما قال تعالى: ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون (٥) وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين (٦) ﴾ [الأحقاف]، ويصح أن يعود الضمير على الآلهة التي اتخذوها من دون الله، بتنزيل الأوثان منزلة العقلاء في زعمهم، والمعنى أن الأصنام التي أرادوها عزا لهم ستكون ضدا عليهم، وتتبرأ منهم فلا يكونون عونا لهم بل يكونون عونا عليهم، كما قال تعالى: ﴿ وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون (٨٦) ﴾ [النحل].

وقال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿ وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص (٢١) وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن

دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)﴾.

وربما يكون من الممكن أن نقول: إن الضمير يعود إلى العابد والمعبود، فكلا الفريقين يكفر بالآخر ويكون عليه ضدا، والله أعلم بمراده، ويقول الله تعالى فى إغراء الشياطين:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤)﴾.

هذا بيان لتمكين الله الشياطين من الكافرين باستفزازهم وتهييجهم للشر، ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الاستفهام إنكارى بمعنى النفى، وفيه تنبيه إلى تمكن الشياطين، ونفى النفى إثبات، والاستفهام الذى بمعنى النفى داخل على منفى بـ «لَم»، والمعنى قد أرسلنا الشياطين، أى مكناهم من الكافرين يغوونهم، ﴿تَؤُزُّهُمْ﴾، أى تستفزهم وتهيجهم إلى الشر تهييجا شديدا، وإن ذلك يزيل عجب النبى ﷺ من إصرار الكافرين على كفرهم واستهزائهم بالنبى ﷺ، واجتماعهم على الباطل ورد الحق، فالله سبحانه بين أن ذلك من تسليط الشياطين عليهم تستفزهم، وتهيجهم إلى الشر ليستحقوا نقمة الله كاملة وسخطه عليهم، وأنه سبحانه وتعالى لهم بالمرصاد، لا يزكيهم، وأنه يَعُدُّ عليهم ما يفعلون عَدًّا، وكلما أمعنوا فى شرهم كان عليهم العذاب بمقدار إمعانهم، ولذا قال تعالى: ﴿فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤)﴾، «الفاء» لبيان أن ما قبلها سبب لما بعدها، أى أن الله تعالى أراد لهم ذلك؛ لأنهم اختاروا لأنفسهم أن يكونوا عبدة الشيطان فهو يستفزهم دائما، يرتكبون شرا بعد شر حتى يصلوا إلى أقصى الغاية فيه ويبتغوه، وكله محسوب عليهم معدود عدا، ﴿إِنَّمَا﴾ أداة قصر، أى إنما يفعل ذلك ليعد عليهم عدا، وكلما أكثروا كان العذاب على قدر ما يرتكبون. وفهم بعض المفسرين أن عَدَّهُ عَدًّا يدل على القلة، ونحن نقول: إن القلة بالنسبة لله تعالى، لا أنه قليل فى ذاته، ومعنى ﴿فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ لا تطلبهم فى عجل من أمرهم إنهم آتون إليك يوم

القيامة أذلاء صاغرين، وفى الدنيا لا تعجل عليهم فسيكون عذابهم على يديك وتكون كلمة الله هى العليا، وكلمة الذين كفروا هى السفلى.

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) ﴾.

﴿ يَوْمَ ﴾ متعلق بمحذوف معناه نؤجلهم إلى يوم يكون جزاء المتقين وجزاء المجرمين. والمتقون يحشرون مجتمعين على كرم الله تعالى لهم، فيكونون وفدا، أى ركبا مكرما فيكونون وافدين كرماء، كما يفد الركبان على الرؤساء الأجواد، ويحلون محل الكرامة فى ساحتهم، وقوله تعالى: ﴿ إِلَى الرَّحْمَنِ ﴾، أى أن الحشر إلى الرحمن الرحيم الذى يرحم عباده المؤمنين بجنة أورثوها بعملهم الطيب، ويستقبلهم عملهم الطيب كأنه رجل له عبير وعَرف الأطهار المطمئنين، ويدخلون الجنة تجرى من تحتها الأنهار، أنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، وهذا إكرام وفد الأبرار، هذا وفد المتقين.

أما المجرمون فيُساقون سَوقا إلى جهنم، وهم عطاش يردون وردا يشربون منه فلا يجدون إلا حميما وماء غساقا؛ ولذا قال تعالى فى حالهم يوم البعث ثم القيامة:

﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦) ﴾.

﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ ﴾، أى ندفعهم مسوقين كالبهائم مُهانين غير مكرمين، لا إلى الرحمن رب العالمين، وإنما يساقون إلى جهنم وهم عطاش وكأنهم يذهبون إلى وِرد ماء يردونه ولكن يكون السَّوْق والدفع إلى جهنم فيكون وِردهم جهنم وبئس الوِرد المورود لهم، والوِرد الذهاب إلى الماء، وفى هذا تشبيه، أى أنه شبهت جهنم لهم بالوِرد الذى يردونه على أنه ماء، فإذا هو جهنم، فهى استعارة تمثيلية.

وهم يلقون فى جهنم لا شفيع يشفع؛ ولذا قال تعالى:

﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٨٧) ﴾.

أى أنهم يكونون منقطعين للنار مخلدين فيها لا يشفع لهم شافع، كما قال تعالى: ﴿ ... مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) ﴾ [غافر]، وقوله تعالى: ﴿لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾، أى لا يتمكنون من أن يشفع شفيع، فلا يقبل عدل، ولا تنفعهم شفاعة، ثم قال تعالى: ﴿إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾، الاستثناء هنا منقطع قد قوبل فيه حالهم بحال المؤمنين، ومعنى الاستثناء هنا: لكن من اتخذ عند الله عهدا يشفع له، والعهد هنا هو شهادة أن لا إله إلا الله، وعبادة الله وحده وهذا العهد تكون به الشفاعة لمن يأذن الله تعالى له، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً (١٠٩)﴾ [طه]، وكما قال تعالى: ﴿وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦)﴾ [الزخرف]، فلا شفاعة لمن لا يشهد بالحق، والشفاعة لمن شهد بالحق لمن يأذن الله تعالى له بالشفاعة، وقال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ (٢٦)﴾ [النجم].

كفر من قال اتخذ الله ولدا

قال الله تعالى:

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ
جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ
وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا
(٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا (٩٣) لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ
وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥)
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾﴾

هذا هو القسم الثانى من الكافرين، والأول قد ذكرناه، وهم الذين يعبدون غير الله من أوثان ونار وكواكب وشمس، وبعد أن بين مآلهم، وعاقبتهم يوم القيامة، ذكر الذين فجروا وكذبوا على الله تعالى:

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) ﴾.

سرى هنا إلى الذين قالوا إنا نصارى من الأفلاطونية الحديث، والأفلاطونية الحديثة أخذتها من الهند، حيث إن البراهمة قالوا: إن كرشنه ابن براهما، وبوذا ابن الله، ولقد أعظم الذين قالوا إنا نصارى، أعظموا الأمر وأضلوا أنفسهم، فزعموا أن الله اتخذ ولدا، أى أراد أن يكون له ولد، واتخذ ولدا؛ لاحتياجه إليه، ثم أذاعوا بهتانا عظيما، فقالوا إنه قديم بقدم الله تعالى ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ... (١٠١) ﴾ [الأنعام]، وذكر الله تعالى بوصف الرحمة؛ لأنه سبحانه رحيم بالجميع فكيف يكون مختصا بولد أو بصاحبة، ورحمته عامة للعالمين.

ولأن ذلك الكلام الذى يقوله النصارى وكفروا به كفرا عظيما قال الله تعالى فى وصف هذا بقوله تعالى:

﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) ﴾.

أى لقد جئتم بهذا القول شيئا إدا، أى منكرا تنكره العقول، ولا يليق بذات الله العلية، ولقد قال الراجز:

لقـد لقى الأقـرانُ مـنِّى نُكْرًا
داهيـــةً دَهْيَـــاءَ إدًّا إِمْـــرًا

وأى منكر يكون داهية للعقول أن يقول قائل: ﴿ **تَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا** ﴾.

ويلاحظ أنه انتقل الكلام الكريم من الغيبة إلى الخطاب؛ ليوجه القول الشديد إليهم وينبههم إلى عظيم ما ارتكبوا، وأنهم أتوا بأمر تطابقت العقول المدركة على إنكاره، وهو خطير فى ذاته لا يقوله إلا مأفون فى غفلة عن التفكير السليم المنطقى، ولقد كنا كلما تذاكرنا مع القائلين لهذا القول يقولون: إن ذلك فوق العقول لا تدركه، وما هو بمدرك فى ذاته؛ ولذا شاع بين فلاسفة النصارى كلمة المنطق الدينى فى مقابل المنطق العقلى البرهان، وقالوا: إن منطق الدين لا تطبق عليه مقاييس البرهان والاستدلال، ويقولون لأنه فوق العقل، ونقول لهم: إن منطقهم الدينى أمر منكر فى العقول، وهو إدٌّ فى العقول، وهو أمر مع أنه نكر، هائل فى بطلانه، وأثره فى تضليل الأفهام، وغفلة العقول: ﴿ **تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا** (٩٠) ﴾.

هذا الهول من ذلك القول الذى قاله النصارى مقلدين للفلسفة المشتقة من الديانة الوثنية عند البراهمة والبوذيين، وهو قول يحاولون إدخاله فى العقول، وهو بالنسبة للمحسوس ﴿ **تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ** ﴾ التفطُّر: معناه التشقق أجزاء مختلفة متعددة متكررة، وقرئ (ينفطرن)(١) من قبيل فعل المطاوعة، وهو من فطره بمعنى شقَّه، وانشق مما يحتاج إلى معالجة، ومما يصعب فطره، فلا يقال كسرت القلم فانكسر؛ لأن كسر القلم لا يحتاج إلى معالجة ومحاولة، ولكن يقال: كسرت الحجر فانكسر، أو كسرت الباب فانكسر.

وما المراد من هذا التصوير السامى العالى: أيراد به بيان هول هذه الكلمة، وأنها لو نزلت على السماء والأرض لتفطرت السماء وانشقت الأرض، وهدت

---

(١) قراءة (يتفطرن) فى سورة مريم: بالتاء، وتشديد الطاء: نافع وابن كثير وأبو جعفر، وعلى(الكسائى) وحفص، وقرأ الباقون (ينفَطِرْن) بنون ساكنة، مع كسر الطاء المخففة. غاية الاختصار: ٢/ ٥٦٦.

الجبال هدا، فالتصوير بيان بطريق التشبيه أو الاستعارة لضخامة البطلان فيها، من حيث إنها لو كانت محسوسا يُحس ونزل على السموات لتفطرت وتقطعت أوصال نجومها، ولو نزلت على الأرض لانشقت وهدت جبالها التى هى كالأوتاد.

ثم إن هذه الكلمة كانت تسوغ تعجيل العقاب عليهم بأن تنفطر السماء عليهم، وتنشق الأرض وتهد الجبال هدا، ولكن الله تعالى يمسك السماء والأرض، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴿٤١﴾﴾ [فاطر]، وإن ذلك بسبب هذا الافتراء والادعاء الباطل؛ ولذا قال تعالى:

﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً ﴿٩٢﴾﴾.

﴿أَن دَعَوْا﴾ المصدر المنسبك من «أن» والفعل مجرور بلام التعليل المحذوفة، والمعنى تتفطر السموات والأرض لادعائهم أن للرحمن ولدا، وهو ادعاء ادعوه، ودعاء لهم فى عباداتهم، فقد ادعوه افتراء على الله واتخذوه إلها فى ضمن آلهة ثلاثة تابعين للمصدر الذى قلدوه فيها، وهو زعمهم الأب والابن وروح القدس، و﴿وَلَداً﴾ مفعول لـ ﴿دَعَوْا﴾، إذ دعوه بغير علم ولا حجة، غير عارفين لمقام الألوهية، ولا مدركين، وذكر وصف الرحمن فى هذا المقام؛ لأن هذا الوصف يحمل دليل بطلان قولهم؛ لأن رحمة الرحمن لكل عباد الله، فلا يختص ابنا مدعى ولا مفترى.

ثم بين سبحانه أنه ليس من المعقول الذى يتفق مع كمال الله وجلاله أن يتخذ الله ولدا، ولذا قال: ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً ﴿٩٢﴾﴾، أى ما يسوغ ولا يعقل أن يكون للرحمن ولدا، لعدم الحاجة إلى الولد أولا، ولمخالفته للحوادث ثانيا؛ ولأن الولد يحتاج إلى صاحبة ثالثا؛ ولأنه لا قديم إلا الله رابعا؛ لأنه يؤدى كأصله الفلسفى إلى أن الأشياء تنشأ عن الله تعالى كما ينشأ المعلول عن علّته، والله فاعل مختار يفعل ما يريد.

﴿ يَنبَغِي ﴾ فعل مطاوعة من بغى، أى طلب بشدة لحاجته، وفعل المطاوعة كما ذكرنا هو الفعل بمعالجة، ومحاولة؛ وذلك لا يكون من الله سبحانه وتعالى، وذكر وصف الرحمن جل جلاله؛ لأنه كما ذكرنا ينافى وصف الرحمة للعالمين؛ ولذا قال تعالى فى وصفه بالرحمة للعالمين وأنها تعمهم، ولا يخص بعضهم، ولا يكون ولد بالولادة لأنه لا صاحبة، ولا بالتبنى لأنه ليس من جنسه:

﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) ﴾.

روى البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه: يقول الله تبارك وتعالى: «**كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمنى ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى، وليس أول الخلق بأهون علىّ إعادته، وأما شتمه إياى فقوله اتخذ الله ولدا، وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن له كفئا أحد**»(١)؛ ولذا ما كان ينبغى أن يكون للرحمن ولدا؛ لأنه تطاول على مقام الألوهية من قائليه؛ لأن العباد جميعا بالنسبة له على سواء، وعيسى عليه السلام عبد الله ورسوله. وكما قال تعالى: **﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ... (١٧٢) ﴾** [النساء].

و(إنْ) فى قوله تعالى: **﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ ﴾** نافية، أى ما كل من فى السموات والأرض إلا آتيه عبدا خاضعا خانعا لله سبحانه وتعالى، قائما بالعبودية، فالجميع خاضع له خضوع العبيد الأحياء وغير الأحياء، **﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ... (١٥) ﴾** [الرعد].

وقوله تعالى: **﴿ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً ﴾**، إلا آتيه مقبلا على الله تعالى إقبال العبد فى خضوع وخنوع، خضوع العابد للمعبود، وهو الله جل جلاله. ويقول الإمام الزمخشرى فى تفسير هذه الآية: والمعنى ما من معبود لهم فى السموات

---

(١) رواه البخارى: تفسير القرآن- لا ينون أحد، أى واحد (٤٥٩٢) عن أبى هريرة رضي الله عنه. كما رواه النسائى وأحمد.

والأرض من الملائكة ومن الناس إلا وهو يأتى الرحمن، أى يأوى إليه ويلتجئ إلى ربوبيته عبدا منقادا مطيعا خاضعا خاشعا راجيا كما يفعل العبيد، وكما يجب عليهم لا يدعى لنفسه ما يدعيه له هؤلاء الضُّلال، ونحوه قوله تعالى: ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ...** (٥٧) ﴾ [الإسراء]، وكلهم منقلبون فى ملكه مقهورون بقهره، وهو مهيمن عليهم، محيط بهم، ويحمل أمورهم، وتفاصيلها، وكيفيتهم، وكميتهم، ومجيئهم، لا يفوته شىء من أحوالهم.

وقوله تعالى: ﴿ **لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا** (٩٤) ﴾، فيه معنى إحاطة علم الله تعالى بهم وبأحوالهم وبأشخاصهم كما نقلنا عن صاحب الكشاف، وفيه أيضا إنذار للعصاة المذنبين، بأنه سبحانه وتعالى سيحاسبهم بمقدار تلك الإحاطه الشاملة، والمعرفة المتقصية التى لا تدع صغيرة ولا كبيرة إلا دخلت فى إحصائها، ولذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿ **وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا** (٩٥) ﴾.

أى آتى الله تعالى منفردا عما كان يعتز به من مال وبنين وعشيرة، ونفر وقوة، ولا شفيع ولا نصير، ولكن يلقون الله تعالى بأعمالهم مجردة، وبأشخاصهم مجردين، وإن ذلك يوم القيامة، يوم يحاسب كل واحد على ما قدمت يداه، ويؤتى كتابه فيه إحصاء ما عمل، وتنطق أيديهم وأفواههم بما كانوا يقترفون.

وبعد أن بين الله تعالى حال الكافرين من عبدة الأوثان، ومن كذبوا على الله وقالوا اتخذ الله ولدا، بين الله سبحانه وتعالى حال المؤمنين فى الدنيا فقال:

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا** (٩٦) ﴾.

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾، فسبقوا إلى الإيمان مذعنين لله، وقووا إيمانهم بالعمل الصالح، فالإيمان من غير عمل صالح يزكيه وينميه مآله أن يكون خاويا فارغا،

وقال الله تعالى فى ثمرته الاجتماعية بالنسبة لعلاقاتهم الإنسانية: ﴿**سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا**﴾ بضم الواو وبكسرها، وبهما كانت القراءة، فقرئ بالضم. وقرئ بالكسر، والود المحبة من غير حمل عليها، بل بانجذاب القلوب المؤمنة، فإن الإيمان يصفى قلوبهم، وينير بصائرهم، فينجذب بعضهم لبعض من غير تحبيب، بل بمقتضى الطهر الجامع. والإخلاص الذى يؤلف القلوب، ويؤاخى بين الناس، روى أن النبى ﷺ قال: «**إن لله عبادا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء لمكانهم من الله يوم القيامة**» قالوا: ومن هم يا رسول الله، قال: «**قوم تحابوا بروح من الله على غير أرحام تربطهم ولا أموال يتعاطون، والله إنهم لنور، وإنهم لعلى نور**»، ثم تلا قوله تعالى: ﴿**أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)**﴾ [يونس].

وكذلك كان المؤمنون الأولون، حتى إن الرجل من الأنصار بعد المؤاخاة كان يشاطر أخاه فى ماله غير ضنين، بل إن بعضهم كان ذا زوجتين فهمَّ بأن يطلق إحداهما ليتزوجها أخوه، ولذا وصف الله الأنصارى بقوله تعالى: ﴿... **وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ... (٩)﴾ [الحشر].

ولقد كانت المحبة الصادقة والمودة الرابطة قوة المسلمين فى مكة، حيث لا قوة لهم من مال أو جاه أو سلطان، فقد كانت هذه المودة دافعة أبا بكر لأن يشترى الأرقاء من المؤمنين، ويعتقهم، وقد صاروا فيما بعد قوة المسلمين فى الجهاد وذوى شأن بين أهل الإيمان.

وإنه من وقت زال الود الجامع للمؤمنين زالت وحدتهم، وذهبت قوتهم، ولا أستطيع أن أقول: إنهم خرجوا عن الإيمان، ولكن المؤكد أنهم لم يعملوا عملا صالحا، بل تنابذوا وذهبت ريحهم.

ولقد ذكر الله سبحانه وتعالى ما يجمع شملهم ويوحد أمرهم، ويذهب شتاتهم وهو القرآن الكريم. فقال تعالى:

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ ﴾.

الضمير فى ﴿يَسَّرْنَاهُ﴾ يعود إلى القرآن؛ لأنه حاضر فى قلوب المؤمنين يملأ أجواءهم بعطره ونوره فلا يحتاج إلى ذكر معين سابقا؛ لأنه مذكور دائما حاضر فى القلوب لا يغيب عنها، و«الفاء» للإفصاح؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر تقديره: إذا كانت حجتك الكبرى هذا القرآن العظيم، فإنما يسرناه بلسانك العربى، وسهلناه على كل عربى يقرؤه من غير عوج ولا عُجمة فيه ولا إبهام، لتبشر به المؤمنين الذين يدخل الإيمان قلوبهم؛ لأنهم يذعنون للحق إذا جاءهم، والناس أقسام ثلاثة:

القسم الأول: قسم آمن بالحق إذ جاءهم كأولئك الذين كانوا خلية الإيمان الأولى من أمثال أبى بكر وبلال وصهيب وزيد بن حارثة.

والقسم الثانى: قسم قلبُه منفتح للحق يجيب داعيه، ويحضر ناديه، وهؤلاء ومن سبقهم هم الذين يبشرهم القرآن بالجزاء الأوفى.

والقسم الثالث: اللُّدُّ وهم الذين يجادلون بغير الحق، وهؤلاء ينذرهم القرآن الإنذار الشديد لكيلا يكون لهم عذر فى كفرهم، ولتقوم الحجة عليهم، كما قال تعالى: ﴿ ... وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فاطر]، وقال تعالى: ﴿ ... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء]، واللسان هو اللغة وهى هنا العربية.

واللُّدُّ جمع ألد وهو الشديد الخصومة، ومنه قوله تعالى: ﴿ ... وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [البقرة].

وقال الشاعر العربى:

أَبيتُ نَجِيًّا للهُمومِ كأننى ... أُخَاصِمُ أقوامًا ذَوِى جَدَلٍ لُدًّا

ومن شأن أهل الجدل والخصومة أن يكون عقلهم فى انحياز جانبى إلى تفكير، لا يفتحون عقولهم لما يلقى عليهم فلا يستمعون إلى الحق إذا دعوا،

ويسيرون طريقهم غير مدركين حقا، والإنذار يزعج حسهم، وربما يهتدون، وإلا فهم فى طريق الغواية سائرون.

وإن هؤلاء ربما يمهلهم الله إلى يوم القيامة، حيث الحساب ثم العقاب على ما اقترفوا، وقد أنذر المشركين بما عصى الذين من قبلهم فأهلكهم الله تعالى، ولقد قال تعالى:

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨) ﴾.

القرن: الجماعة من الناس التى تعيش فى عصر واحد، فالقرن الجماعة، وليس الزمن، والرِّكز هو الصوت الخفى، ومعنى ذلك أنهم أبيدوا، وصارت آثارهم تنبئ عنهم ليكونوا عبرة المعتبرين، وليكونوا المَثُلات لمن يرتكبون مثل ما فعلوا، والركز يقال لكل شيء مختف، فيقال ركز الرمح، أى اختفى فى الأرض والرِّكاز المال المختفى. كذلك قال الزمخشرى فى الكشاف.

وإن هذا بلا ريب إنذار للمشركين فى الدنيا بالهلاك والدمار، كما كان لقوم نوح إذ أغرقهم، ولقوم هود وصالح إذ جاءتهم ريح صرصر عاتية، ولقوم لوط إذ جعل سبحانه وتعالى أرضهم عاليها سافلها.

وهكذا، ولكن المشركين لم ينزل سبحانه ذلك بهم، ولكنه ذكره لبيان عاقبة الكفر أولا، وعظيم قدرته ثانيا، وما يتعرضون له ثالثا، أما مشركو مكة فلم ينزل بهم ذلك العذاب المستأصِل؛ لأن محمدا ﷺ خاتم النبيين فلا بد أن تبقى طائفة من أمته ظاهرة على الحق داعية إليه سبحانه، وقد كان من أولئك المشركين من هداه الله وكان قوة للمؤمنين وعزًّا للإسلام، وكان من ذرية العاتين من صار من نصراء المؤمنين كعكرمة بن أبى جهل، والله بكل شيء عليم.

* * *

سورة طه

تمهيد:

هذه السورة مكية وعدد آياتها ١٣٥، وكلها نزلت بمكة، وقيل إلا آية ١٢، ١٣، وقد ابتدأت بخطاب النبى ﷺ بأن الله تعالى ما أنزل عليه القرآن ليشقى بتحمل أعباء الكافرين فى كفرهم، وليس هو إلا مذكر، والقرآن تنزيل من قوى قاهر خلق السموات العلا، وهو المسيطر على هذا الوجود. ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ** (٥)﴾ وهو يعلم كل شىء، ﴿**وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى** (٧)﴾.

وقد تحدث سبحانه بحديث موسى عليه السلام فى بعثه وخطاب الله تعالى له، وقد رأى نارا ﴿**فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ** (١١) **إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى** (١٢) **وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ** (١٣) **إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي** (١٤) **إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ** (١٥)﴾، وبذلك أخبره باختياره نبيا ونبهه إلى معجزته الأولى وهى العصا، قال: ﴿**وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ** (١٧) **قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ** (١٨) **قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ** (١٩) **فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ** (٢٠)﴾ وأمره أن يأخذها ولا يخاف، وأعقبها بمعجزة أخرى فقال: ﴿**وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ** (٢٢) **لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى** (٢٣)﴾.

كلفه بعد أن رأى هاتين الآيتين أن يدعو فرعون إلى الهدى فقال سبحانه: ﴿**اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ** (٢٤)﴾ ولكن موسى الكليم يحس بضعفه، وأنه لا يحسن القول فيقول: ﴿**رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي** (٢٥) **وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي** (٢٦) **وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي** (٢٧) **يَفْقَهُوا قَوْلِي** (٢٨) **وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي** (٢٩) **هَرُونَ أَخِي** (٣٠) **اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي**

﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً ﴿٣٥﴾﴾ ويجيبه الله ﴿... قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾﴾، ولقد أشار سبحانه إلى منته الأولى عند ولادته إذ ألهم أمه ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ... ﴿٤٠﴾﴾، ويذكر سبحانه بعض قصصه قبل الرسالة وقتله المصرى وفتنته ببنى إسرائيل، ويشير سبحانه إلى قصته فى أهل مدين ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾.

وقد أمره سبحانه أن يذهب هو وأخوه إلى فرعون، وأن يترفقا معه فى القول ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾، ولكنهما يخشيانه لسطوته وجبروته واستهانته بكل إنسان، وهكذا يبرر سكوت الناس عن الطغاة واستنكار أعمالهم بالقلوب، ولقد قال الله تعالى لهما: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ أمرهما بأن يخبراه بوحى الله تعالى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾، أخذ فرعون يجادلهما، وسألهما من ربكما؟ قالا: ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى، وسألهما: فما بال القرون الأولى؟ قالا: علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى، وأخذا يعرفان فرعون بكمال الله تعالى فى خلقه وبيبان قدرة الله تعالى فى الخلق والإعادة ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾.

ولقد أراه الله تعالى على يد موسى وهارون الآيات الكبرى، وكانت كلها حسِّية ولكنه لم يؤمن، وحسب أن موسى جاء لينزع ملك فرعون، لا ليهديه، وكذلك كان يستعين الفراعنة الذين حكموا مصر فى عصور النور: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ ... ﴿٥٨﴾﴾، وجعلوا بينه وبينهم موعدا، وقد وافق موسى على أن يكون الموعد هو يوم الزينة يوم يحشر الناس ضحى.

التقى موسى بالسحرة فتبين للسحرة أن موسى ليس ساحرا، وأن معجزة موسى أعجزت السحرة فآمنوا، ولكن فرعون بدل أن يؤمن قال للسحرة: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١)﴾، وهنا تبدو قوة إيمان المصرى إذا آمن: ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٣) إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ (٧٤) وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ (٧٦)﴾.

ذلك إيمان المؤمن، ولقد أخذ موسى يأتى بالآيات حتى بلغت تسع آيات، ولكن لم يؤمن فرعون وملؤه، فأمره بأن يسرى ببنى إسرائيل ليلا ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ (٧٩)﴾.

أخرج الله بنى إسرائيل من فرعون وطغيانه، ومكنهم من أرض سيناء، وقال لهم تعالت حكمته وكلماته: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ (٨٠) كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ (٨١)﴾.

عالج موسى أمر فرعون الطاغية وأعانه الله تعالى عليه، ثم أخذ بعد ذلك يعالج بنى إسرائيل وكان علاجهم أشد من علاج فرعون؛ لأن علاج النفوس التى تطغى وتضعف، ومردت على النفاق والضعف، ومعاشرة الكافرين، وتأثر نفوسهم بالكفر والشرك، ولذا صعب أمرهم.

ذهب موسى إلى ربه ففُتن بنو إسرائيل بالعجل من بعده فقال الله تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥)﴾. أضلهم السامرى بأن صنع لهم تمثال عجل من ذهب، ووضعه لهم فى مهب الريح فإذا هبت صوَّت

بصوت يشبه الخوار ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ... (٨٨)﴾، ولتأثرهم بعبادة العجل التى كان المصريون يمارسونها قالوا: ﴿... هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ ... (٨٨)﴾، ولكن إذا كان له صوت خوار فليس بحى، ولا فيه حياة ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا (٨٩)﴾. فعلوا ذلك فى غيبة موسى عليه السلام، وأخذ هارون يرشدهم ويقول: ﴿... يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠)﴾. ولكنهم أصروا على عبادته وقالوا: ﴿... لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (٩١)﴾. جاء موسى فوجَّه اللوم إلى أخيه هارون عليهما السلام، ولكن اعتذر نبى الله هارون بأنه خشى أن تكون فرقة بين بنى إسرائيل، وقال: ﴿... يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤)﴾، وعلى أى حال فهارون عليه السلام لم يشاركهم فى عبادة العجل، كما قالت التوراة المحرفة غير الصادقة، وكان هذا من أعظم الأدلة على تحريفها، بعد أن عاتب أخاه وحسبه مقصرا اتجه إلى السامرى الذى أضلهم فقال: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ... (٩٦)﴾ من الصناعة، صناعة التماثيل، ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾، أى من تعاليمه ودعوته إلى التوحيد ﴿... فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧)﴾، كان هذا دليلا عمليا على أن ذلك الصنم لا يملك من أمره شيئا، ولذلك قرر ألوهية الله وحده ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (٩٨)﴾.

هذه أطراف من قصة موسى عليه السلام، وقال تعالى فى ذلك: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا (٩٩)﴾.

وبين سبحانه عاقبة من أعرض عن ذكر الله تعالى، وأشار سبحانه إلى يوم القيامة ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢)﴾، مبينا سبحانه حال الناس يوم القيامة وحال الأرض، وما فيها ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ

وَخَشَعَت الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾.

بعد هذا بين سبحانه أن الوجوه كلها تكون عانية خاضعة، وقد خاب من حمل ظلما، بين سبحانه منزلة القرآن وأنه نزل عربيا، وصرف فيه من الوعيد ما تهلع له القلوب، فتعالى الله الملك الحق ﴿... وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾.

ويقول سبحانه تذكيرا لابن آدم، وبيان عرضته للخطأ والنسيان، فيقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾، فذكر سبحانه أبانا بأنه حذره من الشيطان وقال له: ﴿... إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾﴾، ولكن وسوس إليه الشيطان: ﴿... قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ وهبط آدم وزوجه وإبليس إلى الأرض بعضهم لبعض عدو، وقال لهم رب البرية: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾، وإن العذاب عذابان: عذاب الدنيا بالضلال والعمى عن الحق، وهذا عذاب لأهل العقول، وعذاب فى الآخرة وهو أشق وأبقى.

يذكر الله سبحانه بعد ذلك العبر فى الماضين الذين أهلكوا وكان يمكن أن ينزل مثل ذلك بالمشركين الذين كفروا بمحمد، وفتنوا المؤمنين، وضلوا، ولكن سبقت الكلمة ببقائهم ليكون من ذريتهم من يعبدون الله تعالى، وقال تعالى فى ذلك: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾، واتجه سبحانه إلى النبى ﷺ يأمره بالصبر على ما يقولون، وأن يسبح الله تعالى ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾.

ولقد نهى النبى ﷺ عن أن يمد عينيه، ويتطلع إلى ما هم متمتعون به من متع هى زهرة الحياة الدنيا، وذلك أمر لأمته، فلا تتطلع إلى ما هم فيه من متع فهى فتنة، ﴿... وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ (١٣٢)﴾.

لقد تعللوا فى كفرهم بتعللات ظاهرة البطلان طلبوا آيات حسية، وقالوا: ﴿... لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (١٣٣)﴾.

لقد جاءهم الرسول مبشرا ونذيرا، ولكنهم كفروا وعاندوا ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ (١٣٤) قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ (١٣٥)﴾.

معانى السورة

﴿طه ۞ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۞ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى ۞ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ۞ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۞ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ۞ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۞ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ۞﴾

(١) (٢) (٣) (٤) (٥) (٦) (٧) (٨)

﴿طه﴾ قال أبو بكر الصديق: إنها من أسرار الله تعالى، أى أنها كغيرها من الحروف التى تبتدأ بها السور مثل ﴿آلم، آلمص، الر﴾ وقد تكلمنا فيما تشير إليه فى عدة سور مما سبق.

ولكن مع ذلك نسرد ما قيل فى ذلك، قيل: إن طه اسم لله تعالى، وقيل: إنها اسم للنبى ﷺ، وربما يسوغ ذلك أن ما بعدها كان خطابا للنبى ﷺ، فكأنه نودى بذلك، ثم ألقى القول والبيان المنبه إلى ما عليه فى هذه الرسالة، فليس عليه أن يؤمنوا، وإنما عليه التذكرة فلهذا القول وجه من التوجيه .

وقيل: إنها فعل أمر أصله «طأ» قلبت الهمزة هاء، ويصح أن يقال: إنها قلبت ألفا ثم جاءت هاء السكت بدلا عنها، وقيل: إن معناه «يا رجل»؛ لأن طه فى لغة عَكّ[1] معناها يا رجل. وقيل: هى بهذا المعنى فى لغة الحبشة.

---

(١) قبيلة باليمن، قال أبو القاسم الزجاجي: سميت بـ "عَكّ" حين نزولها، واشتقاقها في اللغة جائزٌ أن يكون من العكّ وهو شدّة الحرّ، وقد اختلف في نسب عكّ، فقيل ينتهي نسبها إلى قحطان، وهو قول من نسبه في اليمن، وقال آخرون: هو عك بن عدنان بن أُدَد أخو مَعَدّ بن عدنان. معجم البلدان - عك. (مختصرا).

وإنى أراها كأخواتها من الحروف التى تبدأ بها السور، يقال: إنها أسماء للسور، وإذا كان ثمة احتمال لأن تكون بمعنى ندركه، فإنا نميل إلى أن يكون اسما للرسول ﷺ.

﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢)﴾ وهناك قراءة (ما نزلنا عليك القرآن)، وفى هذه القراءة إشارة إلى تنزيل القرآن منجما، ولم ينزل دفعة واحدة، بينا ذلك فى مواضعه من القول، وقوله تعالى: ﴿لِتَشْقَى﴾ «اللام» لام التعليل، أى ما أنزلناه عليك لتتعب وتذهب نفسك عليهم حسرات إذا لم يؤمنوا، كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)﴾ [الشعراء]، وقال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ ... (٦)﴾ [الكهف]، وقال تعالى: ﴿وَلا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ... (١٧٦)﴾ [آل عمران]، فالنبى ﷺ كان يحمل هَمَّ كفرهم، ويحسب أن ذلك قد يكون عن تقصير فى دعوته، وذلك لقوة حسِّه وشفافية روحه، ولحرصه على إيمانهم قال له ربه: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ... (٥٦)﴾ [القصص]، وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ (٢٧٢)﴾ [البقرة]، هذا تقريب لمعنى ﴿لِتَشْقَى﴾، والكمال لله وحده.

وقال: ﴿إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٣)﴾ الاستثناء منقطع بمعنى «لكن»، والمعنى ليس عليك أن تهديهم، وإنما عليك أن تذكر من يخشى ويتقى الله تعالى، ولكن لماذا خص من يخشى بالتذكرة مع أن التذكرة تكون لمن يخشى ولمن يعصى، فهو بشير ونذير، وذلك لبيان أنه يجب أن يرجو إيمان الذين يخشون، لا الذين يعصون، فكان حذف إنذار العصاة لبيان أنه لا ينبغى أن ينتظر منهم إيمانا. و﴿تَذْكِرَةً﴾ مفعول لأجله، ويكون المعنى ولكن أنزلناه لأجل تذكرة من يخشى وحسبك هؤلاء أن يكونوا مؤمنين.

وكان المؤدى النهائى للآيتين: لا تحزن، وحسبك من اتبعك من المؤمنين.

وقد بين سبحانه وتعالى شرف القرآن الإضافى قال: ﴿تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى (٤) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ (٥)﴾ هذا بيان الشرف الإضافى

للقرآن، وذلك فوق شرفه الذاتى بما اشتمل عليه من أسباب الإعجاز، وما اشتمل عليه من علوم، ولأنه سجل النبيين ومعجزاتهم، وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلاً﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره، ونزل تنزيلا، ويلاحظ هنا أمران بيانيان:

أولهما: أنه ذكر «تنزيل» وفعله «نزَّل»، وهو التنزيل المقرر مجيء القرآن منجما آية بعد آية، أو سورة بعد سورة، حتى يمكن حفظه مرتلا محفوظا فى الصدور، فلا يُحرَّف ولا يُنسى على مدى الأجيال، بينما قال سبحانه وتعالى: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ۝٢﴾ فذكر بفعل الإنزال لا التنزيل؛ لأنه كانت العبرة فى أنه أنزله كله لينذر به ويبشر، لا ليشقى، فكان التعبير بالإنزال فى موضعه من النزول فى جملته لا فى تفضيله، أما هنا فإنه يحكى الواقع، وهو التنزيل شيئا فشيئا.

الأمر الثانى: أن فى الكلام التفاتا من ضمير المتكلم إلى ضمير الغائب، وذلك لتصريف القول؛ ولأنه من قبيل الرفق بالنبى ﷺ، وهو الذى يكون منه التكليف، فكأنه سبحانه يقول، ولكلامه المثل الأعلى، ما أنزلت القرآن وكلفتك ما فيه لتشقى، فهوِّن عليك، ولا تأس على القوم الكافرين، وأما فى هذه الآية فهو يبين صفاته سبحانه وأفعاله، فيناسبها حديث الغائب .

وإن الله سبحانه بين علم ميزة القرآن وقدرته، وأنه جاء مناسبا لمن بعث النبى ﷺ إليهم فمهما تكن لهم من قوة فالله غالب عليهم، وهو القاهر فوق عباده، وقد ابتدأ سبحانه بالأرض فقال عز من قائل: ﴿... مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ ... ۝٤﴾ لأنه سبحانه فى أكثر آى القرآن يقدم فى الخلق السموات على الأرض؛ لأنها أعظم خلقا، ولكن هنا قدم الأرض لأنها التى يدَّعى المشركون وغيرهم من الطغاة السلطان فيها، فبين الله تعالى أنه خالقها فهو لها أملك، وسلطانه عليها، ثم ذكر سبحانه السموات بصورة عالية فى الفخامة، وهو سبحانه خالقها، وليس لهم أى مكان للسلطان فيها.

ثم قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥﴾ العرش: هو المكان الذى يتجلى فيه سلطان الله، ولقد نسب لعلماء السلف أنهم قالوا: إن لله عرشا لا يعرف كيفه، والله تعالى يستوى عليه، وهو أعلم باستوائه ولكنه غير مجسم، ولا مشابهة فيه للحوادث، وقد يقال: إن ذلك دليل على كمال سلطانه وإن الخالق الذى لا

يخرج شيء مما خلق عن سلطانه، كما يقال: وضع الأمير يده على المدينة، وربما يكون مقطوع اليدين، وكما يقال عن البخيل: يده مغلولة، وعن الكريم: يده مبسوطة، وربما لا يكون له يد بل تكون مقطوعة، والله سبحانه وتعالى أعلم، وليس الخوض فى هذا مما يمكن الوصول فيه إلى حق جلى، ولذا روى عن الإمام مالك أنه قال: «الخوض فيه بدعة».

بعد ذلك بين سبحانه وتعالى كمال سلطانه بكمال ملكه، فقال عز من قائل: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾﴾ فى الآية السابقة بين سبحانه أن الرحمن هو الذى استوى على العرش، وعبر عن الذات العلية بالرحمن الذى هو اسم بالذات، وهو يوحى إلى أنه سبحانه وتعالى مدبر عرشه بمقتضى الرحمة التى تعم الوجود كله، فكل ما يكون هو الرحمة، حتى عذاب العصاة يكون رحمة ليستقيم ميزان الوجود كله فإنه فى شريعة الخلاق العليم، لا يستوى الخير والشر، ولا يستوى الظل ولا الحرور.

وقد ذكر سبحانه أن له السموات بأبراجها ونجومها، وكلها مسخرات بأمره وله الأرض بما فيها من نجاد له ووهاد، وجبال شامخات وبحار وما فيها من أسماك وسفن جاريات تمخر عبابه، وما بينهما من فضاء قد سُخِّر للإنسان، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾ من معادن وفلزات وغير فلزات وجواهر، وهذا كله من نعم الله على عباده يستخرجون من بحارها وترابها زينة، وهو العليم القدير.

وإذا كانت هذه الآية الكريمة قد بينت ملكه العظيم الذى لا يخرج عنه شيء - بيَّن سبحانه علمه العظيم الذى لا تخفى عليه خافية فى السماء أو فى الأرض، وخصوصا الإنسان فقال تعالى مخاطبا نبيه: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ الخطاب للنبى ﷺ، ولكن مضمونه يعم الناس أجمعين فهو سبحانه يعلم الجهر، ويعلم السر وهو ما يسره وينطق به فى خفت، وما هو أخفى من السر، وهو ما تتحدث به الأنفس، يعلم الله تعالى كل ذلك، وقد يسأل سائل: ما مناسبة هذا فى هذا الموضع؟ ونجيب عن ذلك، بأنه بيان لعموم علمه ودقته، وهو بعض نتائج ما تقدم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك]، وهو يناسب الحديث مع النبى الهادى الأمين، يبين له سبحانه أنه يعلم ما

يجهر به من دعـوته ويعلم ما يتمناه، ويعلم ما ينطق به سرا من غـير إعلان، وهذا يشعره بأنـه يعلم دعوته وجهاده فى الدعـوة، ويعلم ما يتمناه من إسلام قـومه حتى يكاد يشقى بهذه التمنيات.

ثم بين صفـات الكمال والجلال فـقال سبـحانه: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ (٨)﴾ ﴿اللَّهُ﴾ بالرفع خبر لمبتدأ مـحذوف، وصدَّر القول بلفظ الجلالة؛ لأنه يربى المهابة فى النـفوس فيملؤها خـشوعا وخـضوعا لله تعـالى، وقال: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾، لأنه خـالق كل شىء ومـالك كل شىء وهـو العليم الخـبـيـر، وهو اللطيف بعباده، ولا يملك غيره نفعا ولا ضرا: ﴿لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ التى كلها أحسن ما فى الأسماء، ولقـد كان المشركون يحسـبون أن الرحمن إله غيرهم، فـقال الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ... (١١٠)﴾ [الإسراء]، وكل ما ذكر فى القرآن الكريم من صفات للذات العليـة هى أسماء له سبحانه، وهو سبحانه وتعالى واحد، وأسماؤه كثيرة.

من قصة موسى

وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا
فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ
أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾
إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾
وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠
فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ
أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ
عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾

هذه قصة موسى كما جاءت فى هذه السورة، وقد فصَّل فيها ما لم يفصِّله فى السور الأخرى، وأجمل فيها مـا فصله فى السور الأخرى من غير تكرار فى القرآن، كما يدل على ذلك الاستقراء والتتـبع، فالمقصد مما يذكر فى كل موضع يختلف عن المقصود فى الموضع الآخـر، والعبرة تختلف فى موضع عن الآخر، والتـفصيل يتبع العبرة، والإجمال يكون فيما يجيء تابعا لذلك.

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ الاستفـهام للتنبيه إلى الخـبر الخطير الذى يقصه عن مـوسى عليه السلام، وكيف كلمه ربه، و(الحديث) مـا يتحدث به، والمراد بـ ﴿حَدِيثُ مُوسَى﴾ ما يتـحدث به عن مـوسى، فالإضـافة لأدنى مـلابسة، والاستفهام كما قلنا للتنبيه إلـى أمر خطير، وكان الاستفهام عن علمه ﷺ، وإذا لم يكن على علم به فإنه سبحانه سيُعلمه.

والحديث فى الوقت الذى كـان يطلب فيه نارا رآها يشير إلى ضـوئها فى ليلة قارة شديدة البرودة والظلام، وكان فى ظلام حالك: ﴿فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾، أى اثبتوا فى أماكنكم، ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾، أى رأيتهـا واستأنست بها فى وحـشة ذلك الظلام الحالك وذلك الليل البهيم ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم﴾ فى مكثكم وسعيى لها ﴿بِقَبَسٍ﴾ أى جذوة أو شعلة تـصطلون بها من قركـم وتشعلون بها مـشعـلا يضيء لكم، ويكشف لكم الظلمة الحالكة ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ ﴿عَلَى﴾ هنا بمعنى «عند»، والمعنى أو أجد عند النار هدى أعلم معالم الطريق، ونسير على هدى هذه النار، وهناك من قال: إن الهـدى هو الهـداية، لأن طالب الحق يـكون فى شـاغل من أمـره بطلب الهـداية، وخصوصا مـثل الكليم الذى ثار على ظلم فرعون. ولقد ذكرت القـصة فى سورة القصص بتفـصيل فى ذلك، فقد جـاء فى سورة القصص ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩)﴾ [القصص]، وهذه مشاق تحـملها موسى كليم الله تعالى، وقد تربى منعما مرفها فـى بيت فرعون، ولكنه آثر حياة الجد على حياة اللهو والترف فلم يُرِد أن يكون من المترفين فكان من النبيين.

ذهب عليه السلام إلى النار فلم يجد الهداية إلى الطريق الحسى، ولا الخبر الذى يتعلق بعيشه فى هذه الأرض، بل وجد الطريق إلى الهداية والحق، وجد ربه: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾، أى فلما أتى النار نودى، والنداء كان ﴿يَا مُوسَى﴾، وكان النداء بـ «يا» التى تكون نداء للبعيد، البعد بين صاحب النداء جل جلاله، وعبد من عباده هو موسى عليه السلام، وقد شرفه الله تعالى بهذا النداء الكريم من رب البرية، وشرفه بأن ذكر اسمه وفيه من المحبة، إذ هو نداء الله الرحمن الرحيم إلى حبيب من أصفيائه المخلصين ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ قرئ بفتح الهمزة فى ﴿إِنِّي﴾ وقرئ بالكسر[1]، ويكون بالفتح تفسيراً للنداء أى النداء أنا ربك، وعلى قراءة الكسر يكون النداء متضمنا معنى القول، و«إن» تكسر بعد القول.

وقد أكد ضمير المتكلم، وهو ياء المتكلم بتأكيدين أولهما: «إنَّ» المؤكدة، وثانيهما الضمير الظاهر ﴿أَنَا﴾ المؤكِّد لياء المتكلم، وكان التأكيد لغرابة المؤكَّد فى ذاته، ولغرابته على موسى عليه السلام، أما الغرابة فى ذاتها فهو أنه من أغرب الغرائب أن يكلم الله أحدا من عباده، فقد يوحى إليه، أما أن يكلمه فذلك أمر غريب لم يكن به عهد حتى عند الأنبياء، وأما الغرابة بالنسبة لموسى فهو أنه خرج من مصر هاربا من مظالم فرعون وقهره، وفرضه على الناس عبادته حتى يقول لهم ما لكم من إله غيرى، وقد خرج محتاجا يقول: ﴿... رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص]، ثم مأجور يزرع ويرعى الغنم، ولكنه يفاجأ بأن يخاطبه ربه من وراء حجاب، ولذا كان التأكيد فى موضعه ليأنس بربه وتذهب عنه وحشة الاغتراب، و﴿رَبُّكَ﴾ معناه الذى خلقك، وربَّك، وأقامك، وقام على رعايتك والعناية بك. ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ «الفاء» فاء الإفصاح، وهى تفصح عن شرط مقدر، أو هى تفيد أن ما بعدها مترتب على ما قبلها، فإنه يترتب على أنه فى الحضرة

(١) بفتح الهمزة: ابن كثير وأبو عمر، وأبو جعفر المدني عن يزيد، وقرأ الباقون بكسر الهمزة. غاية الاختصار: ٢/ ٥٦٧.

القدسيـة، أن يكون الأمر بخلع نعليه، وذلك الخلع للخشـوع والخضوع؛ إذ هو فى الحـضرة الربانيـة، وهو بوادٍ مقـدس طاهر، وإن الناس إذا كـانوا فى حضـرة ملوك الأرض خلعـوا نعـالهم، فكيف إذا كـان موسى فى حـضـرة ذى الجلال والإكـرام والفضل والإنعام، وإن فى هذا الفـعل الحسـى إشعار للنفس بأن تتـفرغ لله تعالى، وأن يكون الله وحده هو شـاغلها، فلا يشـغلها شىء سـواه، وقال تعـالى: ﴿**إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ**﴾ المطهر من الأرجاس الحـسية والمعنوية، وهو ﴿**طُوًى**﴾، وهو اسـم لواد فى هذه الأرض المقـدسة، وحسـبه شـرفا أنه قـد تجلى الحق فيه وكـلم موسى تكليما.

يقول تعالى مـخاطبا نبيه مـوسى عليه السلام: ﴿**وَأَنَا اخْتَرْتُكَ**﴾ كرر الضمير تأكيدا لخطابه سبحانه وتـعالى، ولإيناسه، وإزالة الاستغراب و﴿**اخْتَرْتُكَ**﴾ معناه أنه اختاره لرسالته، كما قال تعالى فى آية أخرى ﴿... **إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ** (١٤٤)﴾ [الأعراف].

وقوله تـعالى: ﴿**فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى**﴾ الفـاء للعطف وللترتيب والتـعقـيب، فالاستماع لما يوحى الأمر به مترتب على الاختيار له، أو هو موضوع الاختيار ذاته، وما يوحى إليـه هو التوراة وما فيـها من شرائع وأحكام وأسـاسها عقـيدة صحيـحة مستـقيمة هى ما تضـمنه قوله تعالى: ﴿**إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي** (١٤)﴾ لهذه الجملة السامية بيـان لمعنى ما يوحى الله به مما يجب الاستماع له والأخذ بـه وتبليغـه، وأن يخاطب به فـرعون، ومـا ذكره فى هذا المقـام، هو لب التدين، فلبُّ التدين هو عبادة الله وحده وإقـامة الصلاة لذكـر الله تعالى، والخشوع والركوع والسـجود، فالصـلاة كلها ذكر لله تعـالى، وهى شرعت لتـمتلئ القلوب بالله، ولتكون مطمـئنة لذكر الله تـعالى: ﴿... **أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** (٢٨)﴾ [الرعـد] وذكر الله تعـالى هو الذى ينقى القلوب من أدران الهـوى، والقلوب التى تذكر الله تعالى لا يدخلها الشيطان، ولا يسكن الشيطان إلا القلوب الفارغة من ذكر الله تعالى، ولقد قال الزمـخشرى فى معنى ﴿**وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي**﴾، «لذكرى: أى

لتذكرني فإن ذكرى أن أعبد وليصلى لى، أو لتذكرى فيها لاشتمال الصلاة على الأذكار . . . أو لذكرى خاصة لا تشوبه بذكر غيرى أو لإخلاص ذكرى، وطلب وجهى لا ترائى بها، ولا تقصد بها غرضا آخر، أو لتكون لى ذاكرا غير ناسٍ، فعل المخلصين فى جعلهم ذكر ربهم على بال منهم وتوكيل هممهم وأفكارهم به، كما قال تعالى: ﴿... لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ... (٣٧)﴾ [النور]». هذه معان متوافقة غير متضاربة لكلمة ﴿لِذِكْرِي﴾ ولتوافقها صح أن تكون كلها داخلة فى معنى هذه الكلمة السامية ﴿لِذِكْرِي﴾.

بعد ذلك ذكر سبحانه لموسى عليه السلام الإيمان بالقيامة والبعث، وما يتصل بالآخرة، وإن هذا فيصل التفرقة بين الإيمان والزندقة، فالإيمان بالبعث وما يعقبه هو قوام الشخصية المؤمنة وهو الإذعان، وبه يكون السير إلى الله، ولذا جعل من أركان الإيمان مع التوحيد والصلاة لامتلاء النفس بذكر الله تعالى.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾، أى أنه سبحانه وتعالى أخفاها لأنه لا يبين للناس متى تكون، ولم يعط علمها لنبى، ولا لأحد من الناس، مع تأكيد وقوعها من غير تعيين لزمانها، فكأنه أخفاها، أخفى زمانها وأكد وقوعها، فهو لم يخفها، ولو كان أعلم الناس بها علمًا كاملا لأعلم متى تكون، ولكنه أكد مجيئها.

وقوله تعالى: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ «اللام» متعلقة بـ ﴿آتِيَةٌ﴾، أى أن مجيئها للجزاء فيجزى من عمل عملا صالحا جزاء صالحا، ومن عمل عملا سيئا يجزى جزاء وفاقا لما ارتكب، وهكذا يكون كل مجزيا بعمله إن خيرا فخير، وإن شرا فشر. فما خلق الإنسان سدى يفعل ما يشاء من غير حساب على ما فعل وجزاء للخير الذى أراده ونواه وفعله، وقوله تعالى: ﴿بِمَا تَسْعَىٰ﴾، أى تجزى جزاء بالذى تسعى، «الباء» للمقابلة أى مقابل ما تسعى، أو تجزى بذات ما تسعى وذلك لمساواة السعى مع الجزاء فكأنه هو هو.

ولقد أشار الله سبحانه لنبيه وكليمه موسى إلى أنه سيلقى عنتا من الذين لا يؤمنون بالبعث، وقد نهاه سبحانه عن مطاوعتهم وهو لكل أتباعه، فقال تعالى:

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ «الفاء» للإفصاح، إذ تفصح عن شرط مقدر تقديره: إذا كانت آتية، وإن كان زمانها خافيا، فبين للناس وجوب الإيمان بها، ولا يصدنك عنها من لا يؤمن بها فلا يؤمن بالبعث، ويقول: إن هى إلاحياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين، والسبب فى عدم إيمانهم بالبعث هو سيطرة أهوائهم عليهم، ولذا قرن بعدم الإيمان باليوم الآخر اتباع الهوى.

وقوله تعالى: ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ الخطاب لموسى عليه السلام، والفاء للسببية، أى الصد عنها سبب الوقوع فى الرَّدى، والنهى فى «لا يصدنك»، نهى عن قبول أسباب الصد، وهو محاولة الكافرين، منع الإيمان باليوم الآخر، أى نهى عن تمكينهم من الإغراء به، فكن صلبا فى بث روح الإيمان باليوم الآخر حتى لا يطمع أحد من الكافرين فى أن تصد عنه، والنهى عن ذلك بالنسبة لنبى الله تعالى ليس لاحتمال أن يقع، بل إن ذلك لمكان الإيمان بالبعث من الإيمان والله أعلم.

معجزته

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾

خاطب الله موسى عليه السلام بأنه اختاره رسولا نبيا، واصطفاه بكلامه، ولكن يظهر أنه كان يخاطب بكلام الله تعالى من وراء حجاب، وأنه كان يوحى إليه بتعليماته وأحكامه، ولذا قال له وهو يكلمه، فاستمع لما يوحى، فكان خطاب الله

تعالى بكلامه من وراء حجاب، وخطابه له بالوحى كغيره من الرسل، خاطبه الله تعالى بالمعجزة وأعطاه ما يدل على صدقه، وهو العصا، وضم يده إلى جناحه وإخراجها من غير سوء، مع آيات أخرى كانت تجيء كل آية فى مناسبتها.

قال تعالى لنبيه وكليمه: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ الاستفهام للتنبيه إلى حالها التى عليها من أنها خشب شجر، أو نحوها، وإلى ما ستئول إليه بعد ذلك من أنها حية تسعى، و﴿بِيَمِينِكَ﴾ صلة لموصول محذوف وقامت الصلة مشيرة إليه، أى: وما تلك التى بيمينك، وكان التنبيه والإشارة إلى كونها، ولكن موسى عدل عن بيان ما هى عليه، وعن مادتها إلى بيان ما يستخدمها، واكتفى فى بيان ماهيتها بقوله ﴿هِيَ عَصَايَ﴾، والياء ياء المتكلم فُتِحَت لوقوعها بعد ألف «عصا»، وقرئ بكسرها تخلصا من التقاء الساكنين بالكسر، وهو الأصل فى التخلص من التقاء الساكنين.

وخلاصة القول، أن الاستفهام توجيه لذهن موسى عليه السلام إلى أن ينظر فى حقيقتها لكى يدرك من بعد وجه الإعجاز إذا رأى حالها بعد ذلك فى الحال التى تتحول إليها.

وقد أجاب موسى عليه السلام إلى المنفعة التى ينتفع بها فيها وذكر أمرين وأمر ثالث فيه شتى المنافع، الأمر الأول مما ذكره عبر عنه عليه السلام بقوله: ﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا﴾، أى أعتمد عليها فى متابعتى للغنم، ومراقبتى لها عندما يحل بنا التعب، أو أعتمد عليها فى كل الأحوال فى مراقبتى لها، والأمر الثانى ذكره بقوله: ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾، أى أخبط على رأسه خبطا خفيفا، لأبعده عن مواطن تضره، وذلك من هش الورق إذا خبطه خبطا يسيرا لينظمه، وفى ذلك دلالة على الرفق بهذا الحيوان الضعيف وتوجيهه بأقل ما يكون من توجيه من غير ضرب ولا زجر، ولذا كان النبيون يُعَوَّدون الرفق برعاية الغنم، فهذا نبى الله موسى قبل أن يبعثه الله رسولا نزعه من قصور فرعون إلى رعاية الغنم، وهو القوى الذى وكز الرجل من آل فرعون فقضى عليه، فكان لابد أن يذوق الفقر ويتعود الرفق فى رعى الغنم. والأمر

الثالث الذى أشار إليه هو قوله: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ والمآرب جمع مأربة بضم الراء وكسرها وفتحها، وهى الحوائج والمنافع، وقال ﴿أُخْرَى﴾؛ لأن جمع ما لا يعقل يكون بالمفرد المؤنث كقوله تعالى: ﴿... يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ ... ⑩﴾ [سبأ]، فقد خوطبت الجبال بالمفرد المؤنث، وقد روى عن ابن عباس أنه عدَّ هذه المآرب فقال: «إذا انتهيت إلى رأس بئر فقصُر الرِّشا وَصَلْتُه بالعصا، وإذا أصابنى حر الشمس غرزتها فى الأرض، وألقيت عليها ما يظلنى، وإذا خفت شيئا من هوام الأرض قتلته بها، وإذا مشيت ألقيتها على عاتقى، وعلقت عليها القوس والكنانة والمخلاة، وأقاتل بها السباع عن الغنم».

وقد أفاض الرسول فى الرد بعض الإفاضة باتجاهه إلى بيان منافعها فبدل أن يقول فى ماهيتها: عود من شجرة، ليستأنس بكلام ربه فهو كلام العلى الأعلى.

وكانت هذه العصا بعد ذلك أداة ظاهرة للمعجزات فبها ضرب البحر فافترق، وكان كل فرق كالطود العظيم، وضرب الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا.

ذكر موسى لربه ما ينتفع به من العصا، فصَّل ما فصَّل، وأجمل ما أجمل، وقد نبهه الله تعالى إلى منفعة للعصا فوق كل ما ذكر؛ لأنها تكون ليست لغيره، وقد نبهه ربه إلى الإعجاز فيها فقال: ﴿أَلْقِهَا يَا مُوسَى﴾ الضمير يعود إلى العصا أى ألق ذات العصا التى بيدك، وهى العود من الخشب، فانظر كيف ينقلب ذلك العود إلى مخلوق آخر، وفى ندائه عند الإلقاء بكلمة ﴿يَا مُوسَى﴾ إدناء إليه وتحبب له وتقريب، ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ⑳﴾ الضمير فى قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَاهَا﴾ يعود إلى العصا التى هى عود من شجر والتى كانت منها المنافع التى ذكرها عليه السلام، ولها تلك الخواص الخشبية تنقلب حية تسعى، أى تكون من لحم يتلوى يمينا وشمالا بعد أن كانت خشبا يتوكأ عليه وله فيها مآرب أخرى وحاجات تكون من الخشب لامن حيَّة، و«الفاء» و«إذا» للمفاجأة، وكانت المفاجأة فى أنها تحولت من خشب جامد إلى حى متحرك، والحية هى الثعبان، ولكن لا يقال لها ثعبان إلا إذا كانت كبيرة، ويقال لها جانّ، وهو الرفيع السريع الحركة من الحيات، وقد جاء فى عبارة

القرآن عن حية موسى التعبيرات الثلاثة، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧)﴾ [الأعراف] وقال تعالى: ﴿... فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ... (٣١)﴾ [القصص] ويظهر أنها كانت تكون على حسب المقامات، فعندما التقى بسحرة فرعون كانت ثعبانا كبيرا يلقف ما يأفكون، ويظهر أن المفاجأة التى اعترت موسى عليه السلام إنما هى من انقلاب الخشب الجامد إلى حية تسعى، والسعى هو المشى السريع، ومن ذلك السعى بين الصفا والمروة، فكانت المفاجأة من الانقلاب حية، وأنها تسير سيرا سريعا شديدا، ويظهر أنه من فرط المفاجأة ولى مدبرا ولم يعقب، كما قال تعالى فى آية أخرى قد تلوناها من قبل، وقد ناداه ربه ﴿... يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ... (٣١)﴾ [القصص]، وهنا قال له تعالى: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (٢١)﴾.

ما كان لموسى وهو مضطرب بسبب المفاجأة، لهذا الانقلاب أن يمد يده إليها ليأخذها إلا بعد الاطمئنان، وقرار النفس، ولذا قرن سبحانه وتعالى الأمر بأخذها بالنهى عن الخوف لتقر نفسه وتطمئن، وبين له أن ما أزعجك من الانقلاب زائل، ولذا قال عز من قائل: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾، حيث كنت تستخدمها فى التوكؤ عليها والهش على غنمك والمآرب الأخرى التى كنت تنتفع بها، والسيرة اسم هيئة على وزن «فِعْلَة» بكسر الفاء، أى سنعيدها على الهيئة التى كنت تستخدمها فيها قارا مطمئنا، وقد ذكر الزمخشرى ثلاثة وجوه «سيرة» أولها أنها ظرف، وثانيها أنها مفعول ثانٍ لـ «أعاد»؛ لأن عاد أصلها متعدية بنفسها من قولهم عاد المريض يعوده، فإذا جاءت همزة التعدية صار يتعدى لمفعولين، والثالث وهو الذى رجحه وقد ذكره بقوله: «ووجه ثالث حسن وهو أن ﴿سَنُعِيدُهَا﴾، مستقلا بنفسه غير متعلق بـ ﴿سِيرَتَهَا﴾ بمعنى أنها أنشئت أول ما أنشئت عصى، ثم ذهبت وبطلت بالقلب حية فسنعيدها بعد ذهابها كما أنشئت أولا، ونصب ﴿سِيرَتَهَا﴾ بفعل مضمر أى تسير سيرتها الأولى»، جملة هذا ما قاله الزمخشرى وما كان لنا أن نسير فى هذا التوجيه الإعرابى، ولتمام القول فيه أنه على هذا الإعراب الأخير تكون ﴿سِيرَتَهَا﴾ مع الفعل المحذوف جملة حالية، وقبل أن نترك القول فى الآية الكريمة نقول: إن «سيرة» فعل

هيئة من سار، وهى تطلق ابتداء على السير الحسى وهو هنا قريب من ذلك، ثم أطلقت على المعنويات فقيل: سيرة فلان. أى: مسلكه فى الحياة، وقيل: سيرة النبيين، ثم أطلقت على المذهب والطريقة.

سلح الله - تعالى - رسوله وكليمه موسى بالأسلحة التى يدّرع بها لإقناع طاغية الدنيا فى عصره بنبوّته، فأتى له بآية أخرى إيناسا لموسى وليطمئن فى لقائه بهذا الطاغية بأن الله تعالى معه، فلا يخاف، ولا يضطرب عند لقائه؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣)﴾.

«الجناح» هنا الجانب، وهو تشبيه جانبى الإنسان بجناح الطير لأنهما محسوسان فى جانبيه، وسمى جناحى الطائر بذلك لأنهما يطويان عند الطير، ويميلان على جنبيه، والجناح الميل، وضم اليدين إلى الجانبين معناه وضع اليدين تحت الإبطين، وقوله تعالى: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ والفعل مجزوم على جواب الأمر، وهما لا يخرجان من تلقاء أنفسهما، بل يخرجهما موسى بإرادة الله تعالى، فليس الضم سبب الخروج، ولكنه شرطه. والسوء ما يسوء الإنسان عند النظر إليه، ولذا أطلق على العورة السوءة، قال الله تعالى عندما أكل آدم وحواء من الشجرة: ﴿... فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ... (١٢١)﴾ [طه].

وقالوا: كنى بهذا عن البرص، أى تخرج اليدان بيضاوان من غير ذلك المرض الذى يسوء النظر إليه، ويقول الزمخشرى فى ذلك: إن قوله تعالى: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ كناية عن البَرَص، كما كنى عن العورة بالسوءة، والبرص أبغض شىء إلى العرب، وبهم عنه نفرة عظيمة، وأسماعهم لاسمه مَجَّاجة، فكان جديرا بأن يكنى عنه، ولا نرى أحسن ولا ألطف، ولا أحرى للمفاصل من كناية القرآن وآدابه.

وإن ذلك كلام قيم فى ذاته، ولكن ذكر البرص فى القرآن الكريم، فلقد ذكر سبحانه وتعالى فى معجزات عيسى فقال تعالى: ﴿ وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ (١١٠)﴾ [المائدة] ولقد قال تعالى: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ لتبين أن البياض

إشـراق وضيـاء منزهة عن أى مرض، فهو مـدح للبياض، وهذه آيه أخرى غـير آية العصا، ولذا قال تعالى: ﴿آيَةً أُخْرَىٰ﴾ والنصب لفعل محذوف مناسب للنص تقديره مثلا: أعطيناك آية أخـرى لتذهب إلى من تُرسل إليه مسلحا بالحـجة بحيث لا يمارى فيها إلا جاهل أو متجاهل ممن يستيقنون بالآيات، ولكن يجحدونها، وسترى فرعون من هذا النوع.

وإن الله تعالـى قد أعطاه فى لقائه الأول آيـتين حسيـتين قاطعـتين فى إثبات خطاب الله تعـالى، وأشار سـبحانه وتعـالى إلى أنه سيـزوده بكل آية ليتـمكن من الوقوف أمام فرعـون غير هيَّاب، ومتحملا لكل مـا ينزل به من شدائد أمام طاغوته وجبروته، ولذا قال سبحانه: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾.

«اللام» لام التعليل، وهـى متعلقـة بفعل محـذوف تقديره مثـلا: جعلنا لك هاتين الآيتين لنريك من آياتنا الـكبرى، و﴿مِنْ﴾ للتـبعـيض، أى لنريك بعض آياتنا الكبرى التى تجابه بها فرعـون الطاغى، وإن الله تعالى ممدك بعون من عنده ومزودك بكل الآيات التى تقـيم بها الحق على فرعـون، وكان ذلك تأييـدا، ولإعطاء موسى الكليم قـوة يحتمـل بها طاغوت فـرعون، ويكون حـمولا صـابرا يتلقى أذاه بقلب الصابر الحليم المُحِسّ إحسـاسا كاملا بأن الله مؤيده، ومعه الحـجة والبرهان، وهما سلطان الأنبياء، بعد ذلك التأييد والإشعار بأن الله من ورائه، وسلطانه فوق سلطان الجبابرة، قال له ربه: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ وإن ما سبق من الآيات كان مقدمة، وهـذا التكليف نتيجته اذهب إلى فرعـون داعيا هاديا مرشدا مقـاوما لظلمه بالحجة والبـرهان، ولم يذكر ما يدعوه إليه، اكـتفاء بوصفه الذى وصـفه تعالى به. ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ أى أنه تجاوز الحد، وهذا يتضمن أنه ظلم الناس فقال لهم: ما أريكم إلا ما أرى، وما أهديكم إلا سـبيل الرشاد، وذلك حَجْر علـى العقول أن تفكر وترى، وطغى فظلم العبـاد وأكل أموالهم وحقوقهم، وطغى فلم يـحسب للناس وجوداً إلا بوجوده، وطغى وبغى فحسب نفـسه إلها، وأمر المصريين أن يعبدوه فـعبدوه، وقال لهم، ليس لكم من الله غيرى، وطغى وبغى فحـسب أن البلاد ملكه، وقال طاغيا:

أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتي. أرسل الله تعالى إليه موسى فكان العبء كبيرا.

موسى وهارون

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾

استجاب موسى لله الذى أكرمه بالكلام معه، ولكنه أحس بالعبء الذى سيحمله، وإذا كان الله العزيزالكريم قد أمده بالآيات الدالة على الرسالة فهو فى نفسه طلب من الله تعالى أن يمده فى شخصه بالمعونة، وبأن يعطيه من ينصره ويؤيده، وإن العاقل الصافى النفس يعرف عيوبه من غير أن يعرِّفه غيره، ولقد أحس موسى عليه السلام بأنه يضيق صدره أحيانا وبأن الأمر الذى بعثه الله به خطير عسير ليس بيسير، وأنه ليس فصيح اللسان بحيث يفقه الناس قوله، وبأنه يحتاج إلى من يؤازره، ولذا طلب أمورا أربعة ليسهل عليه التكليف الذى كلفه الله تعالى إياه، فطلب أمورا أربعة:

أولها- قوله: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾﴾ شرح الصدر توسعته حسا، وما طلب توسعته حسا، إنما طلب أن يكون عنده قدرة على احتمال الرأى الذى يخالفه، وألا يكون صدره ضيقا حرجا بمن يخالفه، بل تكون عنده أناة الصابرين،

وإن موسى كان يضيق ذرعا بكل من يخالفه: ولعل ذلك لأنه نشأ ونما فى قوم مقهورين يُقتل أبناؤهم، وتُستحيا نساؤهم، ومن التربية الأولى فى بيت فرعون، ولأنه كان يحس بأنه وقومه مظلومون، ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩)﴾ [القصص].

ونفس موسى الكليم الشفافة أدركت عيوبها فطلب من ربه أن يبرئه منها عالما أنه سيلقى من فرعون عنتا، ولابد أن يلقاه بقلب قوى غير ضجر، ولا سائم، ليتحمل ما حمله، فطلب أن يشرح صدره بجعله قادرا على احتمال المخالفة، بل المعاندة والمهاترة فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾.

الأمر الثاني- أنه أحس بأنه مقدم على أمر خطير جسيم ليس هيِّنا لينا، هو مجابهة فرعون جبار الدنيا، وطاغية عصره، فطلب أن يسهل أمره معه فقال: ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦)﴾، أى اجعل الأمور ميسرة أمامى، وإضافة الأمر إليه أى الأمر الذى كلفتنيه، وهو لقاء فرعون فإن كان الطلب الأول خاصا بشخصه، فالثانى خاص برسالته التى حملها، وكلفه الله إياها. وقد اتجه من بعد ذلك إلى الأداة التى يكون بها التبليغ، هو اللسان، ولذا كان الطلب الثالث وهو الذى عبر عنه بقوله: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨)﴾ العقدة ألا ينطلق اللسان بالقول الفصيح الصحيح، ويقول أكثر المفسرين إنه كان فى لسان موسى رنه، وقد وصفه فرعون مستهينا به مستنكرا أن يكون هو الرسول عن الله تعالى: ﴿وَلا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢)﴾ [الزخرف] وقد طلب موسى طلبا يسيرا أن يحل عقدة قائمة من لسانه،

وفى هذا الكلام تشبيه لحال من لا يحسن القول بحال من يكون فيه عقدة تمنعه من الانطلاق، وقوله تعالى عنه: ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾، أى يعلموه ويفهموه فهما دقيقا، يصل إلى لبابه ومقصده ومرماه وغايته، يقال: فقه القول أى أدركه إدراكا مستقيما، و﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ مجزوم فى جواب الأمر، أى أن حل العقدة لغاية وهو أن يفقهوا قولى ويدركوا معناه.

المطلب الرابع الذى طالب به ربه أن يكون معه أخوه هارون ردءا له ليكونا معا أمام فرعون جبار الأرض فى زمانه، وقد قال فى ذلك: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَٰرُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤)﴾.

الوزير: المعاون، وهو من الوزر بمعنى أنه يحمل أوزار الأمر معه، أو من الوَزَر - بفتح الواو والزاى - بمعنى الملجأ، وهو بمعنى أنه يلجأ إليه فى المُلمَّات، أو من المؤازرة بمعنى المعاونة، والوزير الصادق المخلص فيه هذه المعانى كلها فهو يحمل التبعات، وهو ملجأ فى الملمات، وهو معاون عندما تشتد الأمور وتدلهمّ، يعين برأيه وتدبيره.

وقد ذكر أن يكون الوزير من أهله، وعين وزيره بالذات وهو أخوه هارون، وقد ابتدأ بذكر الوزير مطلقا، ثم خصصه أن يكون من أهله، ثم خصصه أخيرا بأن عينه بالذات، ولقد قال فى سورة القصص: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥)﴾ [القصص].

وقد طلب موسى عليه السلام فيما يتعلق بأخيه أمرين، أولهما: أنه يشد أزره وهو الظهر، وهو كناية عن أنه يكون قوة له، كما قال فى آية القصص يكون ردءا، وثانيهما: قوله: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢)﴾، أى اجعله شريكا لى فى حمل أعباء الرسالة وواجباتها ولنلتقى بفرعون مجتمعين غير منفردين، ولعله طالب بأن يكون

معه أخوه هارون، لأنه ليس لفرعون يد عليه، أما موسى فقد رباه فرعون وعيره بذلك، فقال: ﴿... أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨)﴾ [الشعراء] وأنه وإن كان ذلك لا يمس مقام الرسالة فإن هرون ليس لفرعون عليه حق التربية الذى ادعاه فرعون. وإن هذا التآزر الذى دعا موسى ربه أن يجيبه ذكر نتيجته وأولى ثمراته، وهو كثرة التسبيح لله تعالى وذكره، أى نسبحك ونقدسك تقديسا كثيرا ونذكرك فى أنفسنا كثيرا، إذ نكون قوة تجهر بتقديسك وذكرك، ويكون معنا من بنى إسرائيل من يسبحك كثيرا، ويذكرك ذكرا كثيرا ويشيع ذكرك فى أرض الفراعنة الذين استبد بهم فرعون فمنع كل الناس من أن يذكروا غير اسمه، وإنك أنت علام الغيوب وأعلم بنا من أنفسنا، ولذا قال عليه السلام: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥)﴾، أى عالما علم من يبصر لا يخفى عليك شىء فى الأرض ولا فى السماء، أجاب الله مطالب موسى الأربعة وقال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ (٣٦)﴾.

قال الله تعالى مخاطبا نبيه وكليمه: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ (٣٦)﴾ السؤل بمعنى المسئول، كالخبز بمعنى المخبوز، والأكُل بمعنى المأكول، و﴿أُوتِيتَ﴾ معناه أُعطيته، وصار بين يدك ما طلبت، وذلك فى نظرنا أبلغ من أُجِبْت؟ لأن الإجابة قد تكون بالقول، ويتحقق مدلولها بعد، إذ الإجابة لا تقتضى التحقق، بل إنها ربما تكون بينها وبين التحقيق زمن، والمجيب ليس بمخلفه، وإنه بندائه سبحانه بالاسم تقريب وإدناء، وإلقاء بالمودة التى لم يحرم منها كليم الله طول حياته، ولئلا يقصى عليه أمر بنى إسرائيل أمده الله تعالى بكل أسباب الصلاح، ولكنهم كانوا قد مردوا على الذل، ومرضت قلوبهم بالنفاق كما رباهم فرعون على الخنوع الذليل، ولم يجد فيهم من يجيئهم بالرشاد والموعظة الحسنة والولاية الهادية الرشيدة.

ولادته وكفالته

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ۝٣٧
إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ
فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ
عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ۝٣٩ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ
فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ
عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ
فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ۝٤٠
وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ۝٤١ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا
فِى ذِكْرِى ۝٤٢﴾

كلام لموسى عليه السلام، وكانت تلك المجاوبة الرحيمة من الله والمحبوبة لموسى من وقت أن آنس من جانب الطور نارا وذهب إليها ليأتى لأهله منها بقبس أو يجد على النار هدى، وقد من الله على موسى بأن آتاه سؤله، وذكّر موسى بأنه كانت كلاءته الكريمة من وقت أن وُلِدَ، ولذا قال له: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ۝٣٧﴾ فليست هذه أول ما مننا به عليك، فقد من عليك بمنن كثيرة من قبل، وإذا كانت هذة منة تسهيل الرسالة، وتبليغها عليك، فقد مننت عليك بالكفالة والمحبة من وقت ولادتك إلى أن لقيتنى عند الشجرة، ونبتدئ فنلخص هذه المنن الكريمة:

أولاها: عند ولادتك فإن أمك الرءوم[1] خشيت عليك من فرعون الطاغية الذى كان يذبح أبناء بنى إسرائيل، ويستحيى نساءهم ليكونوا خدما فى البيوت أو

(١) الرءوم: المحبة، من رأم: رَئِمَتِ الناقةُ ولدَها رِئْمانًا، إذا أحبَّته. الصحاح للجوهري- فصل الراء.

إماء، وقد قال تعالى فى إنجائه: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩)﴾ منن كثيرة فى منة واحدة، وهى إنقاذه من سكين فرعون الظالم القاسى الذى حاول الظالمون القساة أن يقلدوه فى ظلمه لمخالفيه، وطغيانه عليهم من غير رحمة أو رأفة إنسانية، وقد رأينا ذلك وعايناه فى طاغية كان دون فرعون شأنا ولكنه كان أشد منه غلظة فما رأيناه من فرعون فى معاملته لبنى إسرائيل بحسبان أنهم ليسوا من بنى جلدته، وغلظة هذا أشد فى أنه كان يفعله مع بنى جلدته، وهو ظلم وفحش فيه فى الحالين، وإن كانت إحداهما أشد وأغلظ. ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨)﴾ «إذ» ظرف للزمن الماضى، وهى متعلقة بـ ﴿مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾، و﴿أَوْحَيْنَا﴾ أى بالإلهام أو بالمنام بالرؤيا الصادقة، وهى جزء من ستة وأربعين جزءا من الوحى وقوله: ﴿مَا يُوحَىٰ﴾ أى الأمر الذى من شأنه ألا يعلم إلا بالوحى؛ لأنه من الغيب الذى لا يعلم إلا من قبل الله تعالى. كما قال تعالى:

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ... (٢٧)﴾ [الجن] وقد تعلقت بهذا الوحى مصلحة دينية، وعدل أرضىّ، أما المصلحة الدينية فهى نجاة من كتب الله تعالى فى غيبه المكنون أن يكون نبيا وكليما ومن المصطفين الأخيار، وأما إقامة العدل الأرضىّ فهو كف فرعون عن بنى إسرائيل الذى كان يقتل أبناءهم ويستحيى نساءهم، وإن الله يرسل فى الأرض من ينجى عباده من ظلم الظالمين، وفساد والمفسدين.

﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ هذا بيان لما أوحى الله تعالى به إلى أمِّ موسى، ويلاحظ أنه سبحانه وتعالى قال ﴿أُمِّكَ﴾ أى أمك الرءوم الشفيقة الرءوفة التى هى أشفق إنسان عليك، ولقوة الإلهام تركتك لا بغضا لك، ولكن محبة، وتركتك لا لتهلك، ولكن لتحيا. وإن فى قوله: ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾ أى كان مما أوحى به الأمر بقذفه، والقذف هو الإلقاء، كما قال تعالى: ﴿... وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ... (٢٦)﴾ [الأحزاب] ولا شك أن التعبير

بالقذف يفيد معنى الشدة فى الإلقاء وذلك للمعاناة النفسية التى كانت تعتلج فى قلب الأم الرءوم فكان التردد الشديد، ثم انتهى التردد بالإلقاء، وكأنها تقذف قطعة منها فى تابوت مغلق لا تدرى بالحس ما الله فاعل به.

ألقته فى التابوت بمعاناة نفسية، ثم ألقت التابوت الذى فيه موسى - قطعة نفسها - فى اليم وهى فى ألم مرير، والضمير فى قوله تعالى: ﴿اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾ يعود على موسى بلا ريب وأما فى قوله: ﴿فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ يحتمل أن يكون لموسى وأن يكون للتابوت، وفى كلتا الحالين هى تقذفه وقلبها معلق به، والأوضح أن يكون لموسى، لقوله تعالى: ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ فالعداوة ليست للتابوت، وإنما هى لشخص الرسول الكليم.

ويلاحظ أن العطف كله بالفاء التى تفيد الترتيب والتعقيب من غير تراخٍ زمني؛ ذلك لأن الأم الرءوم تريد المسارعة بنجاة ولدها الحبيب من الذبح، والإلقاء هو السبيل الوحيد أمامها، والله سبحانه وتعالى الذى ألهمها بإلهامه الذى هو وحى، ينقذه قبل أن يموت جوعا أو تتقاذفه الرياح، يعجل سبحانه وتعالى بالنجاة فألقاه فى الساحل وقوله تعالى: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ ﴿يَأْخُذْهُ﴾ مجزوم فى جواب الأمر، وعداوة فرعون لله تعالى واضحة وقت الإلقاء على الساحل، أما عداوة موسى لفرعون فستكون من القابل.

وقد عبر عن وجوده على الساحل بالإلقاء دون القذف؛ لأن القذف يكون من أعلى لأسفل ولأن الإلقاء لم يكن بمعاناة من الأم، بل كان برحمة من الله تعالى.

نجا موسى صغيرا من الذبح الذى كان يترقب كل مولود ذكر من بنى إسرائيل، ثم كانت الثانية وهى حفظه وكفالة أمه له، وأن يكون بين أحضانها وهذا هو المظهر الثانى لمنة الله تعالى فقد ألقى عليه تعالى محبة، فقال تعالت كلماته: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ ألقى الله تعالى عليه محبة منه سبحانه، والمحبة التى ألقاها تعالى ذات عناصر، أولها: أن الله تعالى أحبه، ومن أحبه الله تعالى كان

كريما على الناس، وثانيها: أن الناس بتوفيق الله وتوجيهه أحبوه، فكان محببا منهم إذ زرع فى قلوبهم محبته، وثالثها: أن الله تعالى فتح له القلوب المغلقة، ففتح له قلب فرعون المغلق، وفتح له قلب امرأته، فقالت: ﴿... قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ... ⑨﴾ [القصص] وكما قال تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ... ⑧﴾ [القصص]، أى فى المآل لا وقت الالتقاط، إذ إنهم فى وقت الالتقاط التقطوه ليكون قرة عين لفرعون وامرأته: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ ﴿لِتُصْنَعَ﴾ أى تتربى تحت رقابتى وملاحظتى فلا تقهر، ولا تذل بل تكون عزيزا كريما، ولتضمن التربية أن تكون تحت رقابة الله تعالى تعدت بـ «على»؛ لأن معنى هذه التعدية أن الله وقد مكن فرعون من تربيته والقيام على شئونه أشار سبحانه إلى أنه على رقابة له.

وإن فى الكلام استعارة تمثيلية، إذ شبه سبحانه وتعالى حال الرقابة على تربيته وصيانته بحال من يصنع شيئا على مرآه ونظره، وبعض المفسرين قال: إن «على» هنا بمعنى «الباء»، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾، «الواو» عاطفة على فعل محذوف تقديره لتنعم بمحبة الله والناس، ولتصنع على عين الله تعالى، وتحت رقابته ومحبته ورعايته سبحانه وتعالى. والمظهر الثالث لمنته الأخرى هو عودته إلى أمه ليتربى فى حضانتها رحمة به وبها؛ لأن أمه ما طابت نفسها بفراقه إلا لنجاته، ولأنها تريده لنفسها، كما تريد كل أم رءوم مُحبة، فرتب الله تعالى لها أن يعود إليها محفوظا مصونا فحرم الله تعالى عليه المراضع، وقد احتار من فى بيت فرعون فى أمره، وقد صار ملء قلوبهم جميعهم، ولكن الله تعالى أرسل إليهم.

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾، أى من يقوم بحضانته ورضاعه لكم فتغذيه بلبن الرضاعة، ومن يحمل هم تربيته وخدمته، وبهذه الرعاية الربانية عاد إلى أمه كى تقر عينها برؤيته، ويذهب اضطراب نفسها على غيبته عنها، ويذهب اضطرابها وخوفها عليه.

وإنه فى سورة القصص تفصيل لما أجمل هنا من غير تكرار، فقد ذكر سبحانه حال أمه بعد أن ألقته فى البحر فقال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ⑩ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ⑪ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ⑫ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ⑬ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ⑭﴾ [القصص].

وبذلك ترى أن ما أجمل هنا أو أشير إليه إشارة من غير بيان قد وضح هنالك فى سورة القصص من غير تكرار، بل جزء سيق فى موضعه من غير تكرار لفظ أو معنى.

المظهر للمنة الأخرى ذكره سبحانه وتعالى بقوله عز من قائل: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ أن الله تعالى قد نجاه من الغم الذى أصابه من قتله نفسا و﴿الْغَمِّ﴾ الحزن الذى يغمر النفس ويصيبها بما يشبه الغُمَّة، وهنا نجد أن الله ذكر النفس ولم يذكر من أى قبيل هو، وفى ذلك إشارة إلى سبب الغم، وهو أنه قتل نفسا، وحسب ذلك موجبا للغم الذى يصيب بكرب شديد من نفس كنفس موسى الطاهرة التى صنعت على عين الله، ولقد قال موسى عندما قتلها: ﴿... قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ⑮ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ⑯ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ⑰﴾ [القصص].

هذا هو الغم الذى أصابه بعد قتل النفس، وقد نجاه الله تعالى منه بأن غفر له سبحانه، وكانت هذه نعمة أنعم الله بها عليه، وعاهد الله تعالى ألا يكون ظهيرا للمجرمين.

وبعض المفسرين أو جلهم يقول: إن الغم الذى أصابه هو الخوف من القصاص، وربما يؤيد هذا قول الله تعالى عن موسى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا

يَتَرَقَّبُ ... ﴿١٨﴾ [القصص]. وقد نقول: إن الغم كان من الأمرين، عن نفسه اللوامة التى أوجدت كمدا وغما، ومن الخوف من فرعون، أو من الناس وقد قتل منهم واحدا.

المظهر الخامس من منة الله على موسى الكليم عليه السلام عبَّر الله تعالى عنه بقوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾، أى اختبرناك اختبارا شديدا، و«فتون» مصدر كـ «شُكور»، ويكون مصدر التوكيد الفتنة التى فتن الله تعالى موسى، ويصح أن تكون جمع فتن، أما أن الله تعالى أصابه بأنواع من الفتن، ففتنة الاحتياج، وفتنة الغربة، وفتنة العمل، وهو الذى كان مرفَّهًا مترفًا فى بيت فرعون.

ولكن كيف يكون فتنة الله تعالى له فتونًا أو بأصناف الفتن مظهر المنة، أو منة؟ ونقول فى جوابنا عن ذلك: إن موسى عليه السلام تربى فى بيت فرعون، فاكها فى نعيمه، وإن ذلك لا يكون منه نبى، بل لابد أن يعرك الحياة وتعركه، ويعيش بين من يستمع إلى أنينهم، ولابد أن يبتلى ليصل إلى مقام النبوة أو الإرهاص لها، وذلك بأن يفتن بالفتن ويختبر بالحرمان، وقد أدى موسى ذلك ونجح فى الاختبار، ولذلك عُدَّ مظهرا من مظاهر المنة وأى منَّة أعظم من أن يهيئه الله تعالى للنبوة، ويخرج من دار فرعون ليجىء إليه نبيا رسولا ينذره بالنذر، ويقدم له الآيات تَتْرى آية بعد آية.

ثم قال تعالى مبينا نتائج هذا الاختبار أنه سبحانه نقله من بيت فرعون إلى بيت رجل صالح، ومن أنه كان يأكل من ترف فرعون فى عيشة رخوة غير راضية، فانتقل إلى حياة عاملة كادحة بأجَلٍ من جهد مستمر مع شعيب، وقال تعالى: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ وهى من أرض سيناء على بعد ثمانى مراحل من مصر.

الفاء فى قوله تعالى: ﴿فَلَبِثْتَ﴾ عاطفة وهى للترتيب والتعقيب مع الإشارة إلى السببية فى الفاءات الثلاث، فكان قتل النفس سببا للغمِّ، فنجَّاه الله تعالى منه ثم اختبره الله تعالى ليعدَّه للنبوة، ثم استقر به المقام فى آل مدين عاملا كادحا، وصار ذا زوج طاهرة وبيت وأولاد يحمل أعباءهم. وبذلك قامت أصهار نبوته،

وكلام الله تعالى له: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾ العطف بـ «ثم» للدلالة على انتقاله من مكان إلى أعلى مكانة، وهى مكانة النبوة فى أعلى درجاتها، إذ كلمه الله تكليما، والقدر هو ما قدره الله تعالى لأن يكون رسولا نبيا كليما.

ولقد صرح الله تعالى بعظيم منزلته فقال تعالى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١)﴾، أى اخترتك لتكون لنفسى، والاصطناع افتعال من الصنع، وهو اختياره بالصنع مشددا فى اختباره وهذا موضح بقوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾، يقال: اصطنع الرجل فلانا لنفسه: جعله فى موضع التكريم عنده، وهذا فيه استعارة، إذ شبه اختيار الله تعالى له نبيا كليما بحال من يصطنعه الأمير لنفسه من الناس ليكون فى موضع الكرامة والشرف، وأى شرف أعلى من أن يكون كليمه، وأن يكلمه تكليما.

بعد هذا الاصطناع لموسى أمره سبحانه وأخاه بأن يقوما بالعمل العظيم الخطير فقال: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢)﴾.

كان أول ما كلفا به أن يذهبا إلى فرعون يدعوانه إلى التوحيد، وعبادة الله تعالى وحده، ولقد زودهما بأمرين ذكرهما:

أولهما: الآيات الدالة على أن الله تعالى بعثهما، وذكر الآيات الدالة على أن الله وحده خالق السموات والأرض، وسنرى أنهما ذكرا الآيات الدالة على وجود الله تعالى وخلقه.

والثانى: أن يذكرا صفات الله تعالى الدالة على أنه وحده الإله الذى يعبد دون سواه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾، أى لا تفترا ولا تقصرا فى ذكرى بصفات الكمال والجلال.

وقوله تعالى: ﴿بِآيَاتِي﴾، أى تصحبكما آياتى، أو معكما آياتى، والعناية بذكر الله تعالى لفرعون؛ لأن فرعون وقومه ما كانوا يعرفون الله كالعرب الذين بعث فيهم محمد ﷺ؛ لأنهم كانوا يعرفون الله وأنه خالق السموات والأرض والذى يلجأ إليه فى الشدائد ويستغيثون به فى الحال التى توجب الاستغاثة.

أما قوم فرعون فما كانوا يعرفون، وكانوا يعبدون الشمس ومظاهر الحياة، فاحتاجوا إلى التعريف بالله سبحانه وتعالى.

الرسالة والتبليغ

ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا
لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ
أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ
﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ
ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ
وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ
كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾
قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾
ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟
وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾

أمرهما الله تعالى بالأمر القاطع، بأن يذهبا إلى فرعون، كما أمر محمداً ﷺ من بعد أن يصدع بأمر ربه فقال له: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر].

فقال لهما سبحانه: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣)﴾ وقد أشرنا إلى نواحى طغيانه فى قوله لموسى منفردا ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ... (٢٤)﴾ وفى هذه الآية خاطبه وأخاه هارون إجابة لطلبه، فقال: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣)﴾، وقد طلب منهما أن يترفقا فى القول معه، فقال سبحانه: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤)﴾ والقول اللين لا يكون بالملق أو الإدهان أو المواراة، فإن هذه أمور تتجافى مع الحق إلا بالقول الحق، وما كانت رسالة موسى وأخيه إلا الحق وطلب الحق، ولا يطلب الحق إلا بالقول الحق، وإنما لين القول يكون باللين والرفق، حتى لا يُصدم فى أمره بالجفوة، وبيان أن الحق يزكى نفسه، ويرفع نفسه فوق ما هى فيه، كأن يقولا له: هل لك إلى أن تزكي؛ لأن ظاهر القول التساؤل والاستفهام، وأن يتبع الأمر باختياره لا بطلب من أحد، ومن القول اللين ألا يجافيه وأن يخاطبه بما لا يمسّ سلطانه، فإن طواغيت الدنيا لا يجدون شيئا أعز عليهم من سلطانهم فى الأرض، فيُصابون فى حسهم إذا مُسَّ ولو من بعيد، وإن قول موسى قولا لينا لفرعون يتفق مع أصل التبليغ الصحيح الذى يقتضى اللين فى القول، كما قال تعالى مخاطبا محمدا ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ... (١٥٩)﴾ [آل عمران]، وإن اللطف فى الدعوة من موسى لفرعون يقتضى الرفق فى القول؛ لأنه ربّاه صغيرا ورعاه، وكانت له به محبة فكان له مثل حق الأبوة، وقد عتب فرعون على موسى حتى هذه الدعوة الرقيقة، وقال له: ﴿... أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨)﴾ [الشعراء].

وقال تعالى: ﴿لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾، أى أن القول يكون معه رجاء الإجابة، فالرجاء منهما لا من الله تعالى، وإن القول اللين ينساب فى النفس كما ينساب النمير العذب فيحيى مواتها، وتثمر ثمراتها، والقول الجافى يصُدُّها صداً، وإن القول اللين يتبعه التأمل والتفكر، ولذا قال: ﴿لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ﴾، أى يبعث فى الفطرة السليمة الخالية من عنجهية الحكم وطغيانه فيتذكر ضعف الإنسان مهما يكن طغيانه، أمام

قدرة الله تعالى القهار، أو لعل القول اللين يجعله يحس بضعفه أمام قدرة الله تعالى فيخشى بطش الجبار الذى فوق بطشه، وقدرته فوق قدرته، وقهره فوق قهره.

بعد هذا الأمر الصادع الذى لا مثنوية فيه استجابا ولكن الحذر لا يفتر بقوته، ولذا قال الله عنهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾.

ابتدءا كلامهما بالالتجاء إلى الله الذى فوق كل جبار فى الأرض، ولو كان فرعون، قائلين ﴿رَبَّنَا﴾ أى الذى خلقنا وربَّنا ويعرف ما عندنا من قدرة، وما عنده من طغيان ومدى ما نستطيعه معه، ومدى مسارعته إلى الشر، وعدم تردده فيه.

﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ والفرط التقدم بالأذى والمسارعة إليه، فالفارط المتقدم السباق، ويقال فرس فارط، أى سابق الأفراس المسابقة، وبذلك يعاجلنا بالإهلاك أو الأذى قبل أن نرشده إلى رسالتك بلين القول أو جفائه ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ إذا سمع ولم يعجل بالإهلاك فيقول فى طغوائه ما لا يليق بمقامه الأعلى، أو يذهب به جبروته إلى منعنا من الدعوة وتضييق سبلها، أو ينزل بنا عقابا لا يمكننا من الاستمرار فى الدعوة، وفى الجملة يتبع معنا طرائق طغيانه من تعذيب وإيذاء مستمر، فطغيانه لا حدَّ له، كما تعلم: قال الله تعالى لهما: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾.

خاطبهما الله تعالى بعزته وجلاله مشيرا إلى أنهما فى حمايته وكلاءته، وأنه يسمع ويبصر، فكيف يكون نهى عن الخوف، والنهى عن الخوف كيف يكون وهو فزع من الأمر المخوف إذ هو أمر نفسى لا يقع تحت قبضة الخائف؟ ونقول فى الجواب عن ذلك: إن المراد الأمر بالاطمئنان وقرار النفس، وأن يشعرا بجلال الله تعالى، وأنه معهما، ولذلك أعقب سبحانه وتعالى النهى عن الخوف بأنهما فى معية الله تعالى فقال: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أى إننى فى صحبتكما أسمع قوله إذا هدد وأنذر، وأبصر فعله إن حاول سوءا أو أنزل بكما أذى، وإن هذا تبشير بأنه إن حاول أن يبطش بهما نزلت به البطشة الكبرى من رب العالمين.

ولقد كان من موجبات الفطرة أن يعتريهما الخوف، فقد كان جبارا فى الأرض ليس فوقه فى قومه من يرد كيده، ويزيل طغيانه.

اطمأنا إلى قول الله تعالى، وما كان لهما إلا أن يطمئنا بنصرته وتدبيره، ونجاتهما من فرط فرعون وطغيانه، ولذا قال: **﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ (٤٧)﴾**.

«الفاء» هنا «فاء الإفصاح» تفصح عن شرط مقدَّر تقديره: إن ذهب الخوف، واطمأننتما إلى الله **﴿فَأْتِيَاهُ﴾** فاذهبا إليه، والتعبير بإتيانه يفيد أنهما مدرعان بقوة الله التى ترهب كل مخلوق، ولو كان فرعون طاغية الأرض **﴿فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ﴾** ذكرت رسالتهما معا مكاثرة عليه ومغالبة، ولأنهما رسولا رب العالمين أحدهما بالأصالة والثانى بالمؤازرة والمعاونة، لقد أعطاهما الله تعالى قوة بعد ضعف وأمنا بعد خوف فأمراه ونهياه، وهو الذى كان يقول أنا ربكم الأعلى، أمراه فقالا: **﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ﴾** والأمر والنهى يتعلق بسلطانه وقوته وبطشه فهو يمسّ صميم جبروته **﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾** وتخلَّ عن حكمهم وأخرجهم عن طاعتك وجبروتك وطغيانك **﴿وَلا تُعَذِّبْهُمْ﴾** وكان - عليه اللعنة - يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم ويكلفهم بأشقّ الأعمال من حفر الترع وحمل الطوب والآجرّ والأحجار فى بناء الأبنية الكبيرة مع الإذلال والاستهانة والعنت الشديد، فجمع لهم عذاب الأجسام وإرهاقها، وعذاب الأنفس بإذلالها، وإذاقتهم عذاب الهوان، فكان كلامهما محاربة لطغيانه، ومواجهة له فى قوته وجبروته.

و«الفاء» فى قوله: **﴿فَقُولا﴾** عاطفة للترتيب والتعقيب من غير تراخ، فبمجرد أن أتياه جابهاه بالقول المر الذى لم يسمعه أبدا، ولكنهما أسمعاه له بقوة الله تعالى وقدرته، وبما ألقاه تعالى فى قلوبهما من قوة الحق الذى جهرا به، ولقد رجعا إلى الله تعالى فى آياته البينة التى تدل على رسالتهما، فقالا: **﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾** وهنا انتقل الموقف بهما من خائفين إلى مرهبين، وقوله تعالى: **﴿قَدْ جِئْنَاكَ﴾**، أى جئناك مجابهين مسلحين بآية **﴿مِّن رَّبِّكَ﴾** الذى خلقك ورباك وأعطاك هذا السلطان

والجبروت اختبارا لنفسك، وكل فعل وقول محتسب عليك، وختما قولهما بإلقاء الأمن بعد الإرهاب المفزع له، ولو كان فرعون مصر، فقالا: ﴿وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾، أى إن الأمن والاطمئنان والدعة وعدم الانزعاج يكون لمن اتبع الهدى، فإن لم تتبع الهدى فلا أمن ولا اطمئنان، بل انزعاج وعدم استقرار، وإرهاب من الله، ولو كنت فرعون، ووحَّدا الآية وهما اثنتان؛ لأن المراد ما به البرهان على الرسالة وواحدة كافية.

أخذا يخاطبانه بالرسالة التى بعثا بها، فقالا: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾، أى أن الرسالة التى بعثنا بها وأُوحى إلينا من الله معناها ولبها ﴿أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ وأعرض موليا الداعى بوجهه نائيا بجانبه عنه، وهنا إشارتان: إحداهما أن موسى عليه السلام كان ربه يكلمه ويوحى إليه، والثانية: أنهما ابتدءا الدعوة بالجزء المخوف منها، وهو العذاب لمن تولى وأعرض ونأى بجانبه عن الدعوة؛ وذلك لأن الجبابرة يرهبهم الأمر المغيب عنهم ويفزعهم فيحاولون من بعد إرهابهم الاستماع إلى القول، وإن كانت عاقبة الاستماع فى الاستجابة غير محققة، فالشر ينازع نفوسهم، ويقاوم الخير، فأيهما غلب كانت العاقبة له.

وقد أكد سبحانه الوحى وموضوعه بـ «قد»، و«أنَّ». ولقد كان ذلك الترهيب له أثره فقد اتجه إلى الاستفهام والتعرف...

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ كان الخطاب لهما ولكن اختص موسى بالذكر؛ لأنه المتكلم باسمهما، فما كانا يتكلمان معا، بل كان يتكلم موسى ويوافقه هارون؛ لأن هذا وزير، وذاك الرسول المبعوث، ولأنه كان يأنس موسى؛ لأنه تربى فى كفالته، ورعايته، وهو قريب إلى نفسه مع ما بينهما من بعد بالهداية فى موسى، والكبرياء الضال فى فرعون، وقال الزمخشرى: لأنه كان يعلم رُتَّة لسانه ويريد أن يحرجه فى البيان، ويستدل على ذلك بقوله عندما احتدم الخلاف: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ

هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ [الزخرف]، على أى حال مهما يكن السبب اختص موسى بالنداء وعمم خطابهما.

قال: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾، أى إذا لم أكن ربكما الأعلى فمن ربكما، فالفاء واقعة فى جواب شرط مقدر.

أجابه موسى لأن النداء وجه إليه فتعين أن يكون المجيب:

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ ﴿رَبُّنَا﴾ الذى خلقنا وربَّنا الذى قام على شئوننا، وسيّر أمورنا هو ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾، أى صورته وحاله التى تناسب ما عهد به إليه فهو أعطى كل شىء وجوده وهيأه لما أنشأه لأجله، ولقد قال فى ذلك الإمام الزمخشرى: «أى أعطى كل شىء صورته وشكله الذى يطابق المنفعة به، كما أعطى العين الهيئة التى تطابق الإبصار، والأذن الشكل الذى يوافق الاستماع، وكذلك الأنف واليد، والرجل واللسان كل واحد مطابق لما علق به من المنفعة غير نابٍ عنه؛ أعطى كل حيوان نظيره فى الخلق والصورة». والمعنى أنه أعطى كل موجود الصورة التى اختارها سبحانه وتعالى له، وهيأ كل ما فيه من قوى لما أعده الله سبحانه وتعالى له، فكل قوى الإنسان والحيوان صوَّره الله سبحانه لكى يؤدى عمله الذى خلقه الله تعالى له، ثم بعد هذا الخلق تكون الهداية العامة فى الحياة وفى الخير وفى الشر، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ وكان العطف بـ «ثم» فيه دلالة على البعد بين أصل الخلق والتصوير، وأداء كل عضو مهمته فى الحياة وإدراك معانيها، و﴿هَدَىٰ﴾ أى هدى كل عضو صورة لأداء المنفعة التى خلق لها فهديت العين إلى معرفة الأشياء بالبصر، وهديت الأذن لمعرفة كل ما يعلم عن طريق السماع، وهدى العقل الإنسانى إلى إدراك الخير والشر، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد]، وكما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس].

اتجه فرعون إلى سؤال آخر فقال: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾ فأجابه موسى الحكيم الكليم: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾.

قال فرعون: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى﴾، أى حالها ومآلها، وما صنع بها، و«الفاء» هنا للإفصاح، والسؤال قال بعض المفسرين: ليصرفه عن الحديث عن الله تعالى، وهو لا يريد السماع عن إله غيره. وإنى أرى أن السؤال كان عن أمر دينى عند المصريين القدماء، إذ إن الديانة المصرية كانت تؤمن بالبعث، ولذا عنوا بالتحنيط لتبقى الأجسام كما هى، وتبعث كما هى، ولهم فى ذلك أقوال بينة، حتى إن الكتاب المقدَّس لديهم هو «كتاب الموتى» يضعونه فى قبر الميت الذى يموت، وهو كتاب يشتمل على فضائل الأخلاق، وعلى ما تلقنه الروح لتحسن الإجابة أمام محكمة الحساب فى اليوم الآخر عندهم، وهو يعدّ الكتاب الأعلى عند قدماء المصريين، ويتعبدون بقراءته أحياء ويوضع فى قبورهم عند موتهم.

وعلى ذلك إن سؤال فرعون لموسى عن حال القرون أى الأجيال، سؤال نابع من مذهبهم فى الموتى، وإذا كان العرب يفضُلون المصريين بأنهم فى جاهليتهم كانوا يعرفون الله الخالق المنزه عن المشابهة للحوادث، ولكنهم يعبدون الأوثان معه، فالمصريون القدماء عرفوا البعث والحساب، الأمر الذى كان يجهله العرب ويقولون: ﴿... أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ... (٥)﴾ [الرعد].

أجاب فرعونَ إجابة المفوض أموره لله تعالى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى (٥٢)﴾.

أى إن علم حال الأموات بعد موتهم مسجل فى كتاب، وهذا تشبيه علم الله تعالى الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها بالعلم المسجل فى كتاب، وإذا كان كالعلم المسجل فإنه ﴿لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى﴾ أى لا يخطئ ولا ينسى؛ لأن المسجل لا يمكن أن يكون فيه خطأ ولا يمكن أن يعروه النسيان.

تعجل فرعون بعد أن ذكرا له أن العذاب على من كذب وتولى، فأخذ يسأل متعرفا بعد أن كان لا ينزل إلى التعرف حاسبا أنه الإله الأعلى كما عبر عن نفسه، فسأل ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ فأجابه إجابة مختصرة مفيدة؛ لأنها جامعة لمعنى الخلق فاعترض بقوله: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى﴾ صارفا القول، أو متعجلا فى تعرف حال

الأموات الذين كان أمرهم يهم المصريين لإيمانهم بأنهم يبعثون كما أشرنا، فكان ذلك الاعتراض شاغلا موسى عن أن يُتِمَّ التعريف بربه، ثم استأنف ذلك التعريف، فقال كما حكى الله تعالى عنه: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣)﴾.

وقد ذكر موسى الكليم من قدرة الله تعالى ما يتصل بفرعون وأرض مصر، فأرض مصر منبسط هو واد بين جبلين، وعيشها ميسور سهل، وهى أرض زراعية يجرى نيلها مبسوطا فى ديارها من جنوبها إلى شمالها ممهدة ليست وعرة، فقال بوحى من ربه: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا﴾، أى ممهدة لينة سهلة ليست وعرة متعثرة بالأحجار، فهى لأهلها الذين يعيشون فكهين فى نعيمها، كما يعيش الطفل فى مهده، وهذا كناية عن الراحة والاستقرار، ثم بين سبحانه تسهيل الانتقال فيها من مكان إلى مكان فى عيشة راضية ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾ والمعنى خطها خطوطا، وأنشأ فيها سبلا، أى طرقا مختلفة مسلوكة، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠)﴾ [الزخرف]، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا (٢٠)﴾ [نوح]، وإن مصر كذلك مبسوطة الأرض فيها الطرق والوديان حتى الصحراء نجد فيها وسط كثبان الرمال المسالك الصحراوية والواحات التى تعد كالجنات فى وسط الصحارى المجدبة ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾، أى أنزل من السحاب الذى يتكاثف ليعتريه البَرَد، فينزل ماء مدرارا، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ (٤٣)﴾ وماء النيل ينزل من السماء مطرا مدرارا، ثم يتجمع فيجرى من جبال الحبشة حتى يصل إلى مصر لا يعوقها عنها عائق.

وقوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ هو من حديث موسى عن ربه قطعا معرفا له لمن لا يعرفه، وإن كانت فطرته تناديه معرفة، ولكنه يتجاهلها، ويصم أذنيه عن

صوتها. ثم قال الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ هنا انتقال من الغيبة إلى المتكلم، ويحتمل أن يكون ضمير المتكلم لموسى، وهو بعيد؛ لأنه ضمير جماعة، وليس ضمير مفرد ويحتمل أن يكون لله تعالى وهو الواضح؛ لأن الله تعالى هو الذى يخرج النبات، وإن كان الزارع هو الذى يحرث، ويلقى البذور بعد الحرث، ويرجو الثمار من الرب، وكان الالتفات إلى المتكلم لأنه تحول القول من موسى إلى ربه الذى يتحدث عنه، والفعل ثابت له، فهو يخرج الحب والنوى وهو الذى أخرج كل شىء، وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾، أى بالماء فهو الذى أمدها بالحياة، كما قال تعالى: ﴿... وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ... (٣٠)﴾ [الأنبياء]، وقوله تعالى: ﴿أَزْوَاجًا﴾ يقول المفسرون: أى أصنافًا، وأرى أن أزواجا ليست من الازدواج بمعنى الأصناف، بل من الزوجية، أى أنه من كل نبات زوجان كما أن فى الحيوان من كلٍّ زوجين، ففى النبات زوجان ذكر وأنثى يجرى التلاقح بينهما وإن كان ربما لا نراه ولكن يجرى بمقدار.

﴿مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾، أى مختلف متنوع فهذا حب متراكب، وهذا فى سنابل وهذا للإنسان وذاك للحيوان، وهذا نخيل باسق وهذا كروم، وهذه فاكهة ورمان، و﴿شَتَّى﴾ جمع شتيت كمرضى جمع مريض، وهو على ما قلنا صفة للنبات.

بعد أن ذكر سبحانه أنه الذى أخرج كل شىء من الزرع فى بلد الزرع، وأنه هو الذى أنزل الماء من السماء فى بلد النيل، بعد ذلك ذكر نعمته المباشرة فى هذا فقال عز من قائل: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (٥٤)﴾.

وهذا التفات من ضمير المتكلم إلى ضمير المخاطبين؛ لبيان النعم التى أنعم بها عليهم، إذ إن هذا النبات فيه طعام لكم ولأنعامكم «والأنعام» جمع نعم وهى الإبل والبقر والغنم؛ لأنها نعم أنعم بها عليكم فى ركوبها، وفى أكلها، وفى أخذ أنواع المنافع منها، من أصوافها، وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين.

وقوله: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ الأمر فيها للإباحة لا للوجوب، والأمر بالأكل للإنسان واضح ولا يكون إلا بعد الإعداد من طحين ونخل وعجن وخبز، وبعضها

يؤكل مباشرة كبعض الخضر، وقال بالنسبة للأنعام: ﴿وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ ولم يقل: «لتأكل أنعامكم»، والجواب عن ذلك أن الماشية، لا تخاطب، والنعمة ليست لها، إن النعمة لمالكها، ولذا جعل خطاب الإباحة موجها إليهم بقوله جلت عزته: ﴿وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾؛ لأن الرعى ذاته نعمة أنعم بها عليهم؛ إذ ربما تكون لهم أنعام ولا يجدون مرعاها، فلا يمكنهم أن ينتفعوا بها، ومعنى: ﴿وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ مكنوها من الكلأ، والعشب الذى خلقه تعالى، ومعنى رعيها أن يقوم على شئونها، ويتتبع بها مواطن الماء والكلأ، وينتقل بها من مكان إلى مكان لسقيها وأكلها، فالمقصود الظاهر هو أكلها، وهو تعبير عن السبب وإرادة المسبب، أو الفعل وإرادة المآل، وذلك مجاز مرسل جائز فى أساليب البيان.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُوْلِي النُّهَى﴾ الإشارة إلى المذكور من آيات الله من خلق الأرض وجعلها ممهدة، وخط السبل فيها، وإنزال الماء من السماء إلى الأرض، وإخراج النبات أزواج فى صنوف شتى متفرقة متعددة المنافع متنوعة الأجناس، إن فى ذلك كله لآيات بينات تدل على قدرة الواحد الأحد، ولكن لا يدركها إلا أولو النهى، أى أولو العقول، وسمى العقل «نُهية»؛ لأنه ينهى عن قبائح الأفعال، كما سمى العقل عقلا؛ لأنه يعقل النفوس عن الزلل والوقوع فى الأخطاء والخطايا إن استعمل فيما خلقه الله تعالى له، ولم يشطط، ولم يفسد، وفى كل هذا كما أشرنا وحدانية الله؛ لأنه وحده الخالق الوهاب.

العناد والمواجهة بالآية

مِنْهَا
خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ
أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا
مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ

﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا
سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى
﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم
مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ
وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا
النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾﴾

استعلى فرعون على الخلق، واختبر الله به أهل مصر اختبارا شديداً حتى إنه فرض عليهم أن يجعلوه إلها فجعلوه، وفرض عليهم عبادة العجل فعبدوه، وأوجب عليهم أن يلغوا عقولهم فى عقله، ورأيهم فى رأيه، حتى إنه ليقول لهم ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد، فبين الله تعالى أنه من الأرض، ويعود إلى الأرض، ثم يكون الحساب الشديد على ما قدم من عمل، ولذا قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾.

فعظامه ولحمه نبت من تراب، فآدم أبوه، وأبو الخليقة خُلق من طين، ثم كان غذاء ذريته من نبات الأرض الذى ينبت فى الطين، ومن حيوان الأرض الذى يتغذى من نباتها، وهكذا كان لحمه، ولقد كان خطاب الله تعالى لفرعون الذى استكبر واستعلى ليخفف من غلوائه.

وما أن تنتهى حياته فى الدنيا حتى يعود إلى الأرض التى نبت منها، وصوره الله من طينها، ولذا قال تعالى: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ بأن تدفنوا فيها، وعبر سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ فعدَّى بـ «فى» دون «إلى»؛ للإشارة إلى أنه لم يخرج من محيط الأرض فمنها خلق وفيها يحيى فهو مستمر فيها حيّا وميتا.

وإنه سيخرج بعد ذلك بتجميع أجزائه المتفرقة، ولذا قال سبحانه: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ لكن هذا الإخراج ليس خلقا جديدا كما خلقكم منها، بل هو إعادة بجمع المتفرق من أجزائها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ... (٥١)﴾ [الإسراء].

تلك موعظة الله لفرعون، وتلك آياته، ولقد قال تعالى بعد ذلك إنه أبى فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (٥٦)﴾.

آتى الله تعالى موسى تسع آيات بينات، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ... (١٠١)﴾ [الإسراء]، وذلك لرسوخ الكفر فى نفس فرعون وقومه، فكان لابد من قوارع جسيمة تقرع حِسَّهم لتخرجهم من كفرهم الذى كثفته السنون المتوالية، وتكثف بالحضارة المستمكنة، والعلم المادى الذى كانوا عليه، ولقد بدأهم موسى بالعصا واليد البيضاء من غير سوء، ثم توالت الآيات: الجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات، والرجز، وكل ذلك لم يُجدِ فى القلب الجاسى المتصلب، والقلوب الخائفة التى تحسب أن الخنوع للفراعنة دين يتبع، ولذا قال:

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا﴾ وهذا النص يفيد أن الآيات كلها خوطب بها كل واحدة فى ميقاتها، وعند الحاجة إليها، والوعد بالإيمان إذا رفعها الله، كما وَعَدوا بالإيمان إذا رفع الله الرجز عنهم، ولكنه رفعه، (فبغوا) وقبل أن نتكلم فى أمر المعجزة الأولى وهى العصا نذكر أمرين، أولهما: أنه سبحانه وتعالى أكد أنه أبى وقد أعطاه الآيات كلها مبينا لها، واحدة بعد الأخرى مع أنه لم يبين هنا إلا آية واحدة وهى العصا، والجواب عن ذلك أن هذا النص الحكيم حكم عام على إبائه وتجبره واستكباره، وقد جاءته الآيات كلها، والإباء ختام لما قدمه موسى، فقد أكد الله تعالى أنه بين له الآيات كلها بـ «اللام» و«قد»، والتأكيد بكل ذلك حق لا ريب فيه، ولكنه اختص أولى الآيات؛ لأنها التى كانت بها الصدمة الأولى.

الأمر الثانى: لماذا اختص الله سبحانه وتعالى فرعون بالذكر ولم يذكر قومه إلا تابعين، ففى قصة النبى محمد ﷺ كان يذكر المشركون ويشار إلى زعمائهم، أما هنا فيذكر فرعون بالأصالة، وربما يذكر قومه بالإشارة، عندما يكون رجز يعم ولا يخص؟ والجواب عن ذلك أن قريشا كانوا أحرارا فى تفكيرهم ولو باطلا، فلم يكن فيهم ملك أو طاغية يفرض رأيه ويقول لهم ما أريكم إلا ما أرى، وأما أهل مصر فقد رضوا أن تندغم إرادتهم فى إرادته حتى ساغ له أن يقول: أنا مصر ومصر أنا وتلك خاصته فيهم، وقد رأينا بعضها الآن فى عهد طاغية مضى:

عندما قدم موسى أول آية ومعها الحجج الذى أفحمت فرعون، ونقول أرهبت الجبار عندما ذكر له أن العذاب على من كذب وتولى، وذكر آيته الباهرة فى الخلق والتكوين، وخص بالذكر ما يتعلق بالزراعة والنيل، عندئذ تقرر أنه إذا كانت فكرة الإيمان قد راودته، ففكرة السلطان قد عاودته، ولا يتخلى ملك ولو كان غير فرعون عن سلطانه طوعا واختيارا فلابد من مقاومته، وقد خشى أن يتسرب الفكر من المؤمن إلى قومه فجاء المصريين من ناحية ما يحرصون عليه، وهو حرصهم على سلامة أرضهم، وأن يكون الحاكم فيهم منهم، ولو كان فرعون، فقال: **﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾﴾**.

أتاهم من ناحية ما يحرصون عليه، وهو أرضهم، وأدخل قومه ليثير حميتهم، وقد خشى من موسى عندما انفرد بالقول معه، قد أفزعه بذكر ربه القوى القهار، الذى يُزيل ملك فرعون ونفسه بكلمة إن أرادها، ولقد قال فى ذلك الزمخشرى كلمة مصورة حاله: «إن فرائصه كانت ترتعد خوفا مما جاء به موسى عليه السلام، وإيقانه أنه على الحق، وأن المحق لو أراد قود الجبال لانقادت، وأن مثله لا يخذل ولا يقل أنصاره، وأنه غالب على ملكه»، وذلك ما كان، فقد أزاله وملكه، وغرق فى البحر هو وجنوده الذى تحكم بهم فى رقاب المصريين، قال تعالى: **﴿أَجِئْتَنَا﴾** هذا استفهام للتنبيه، وحث الهمم على المقاومة والمحاربة لإنكار الذى جاء به خوفا من أن يتسرب

إلى نفوسهم، كما تسرب لنفسه بالفزع والإرهاب والتخويف، ولكيلا يسرى إلى نفوسهم كما سرى إلى نفسه الفرعونية، وإن كانوا دونه حرصا؛ لأن ما يملكونه قليل يتفضل به عليهم، وقال: ﴿لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ﴾ لتخرجنا من أرضنا يعترف بأنها أرضهم وأرضه، وأنه لا ينفرد بملكيتها، وهو القائل لهم: ﴿... أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ... (٥١)﴾ [الزخرف]، ويقول ﴿بِسِحْرِكَ﴾ كأنه لفزعه وخوفه حسب أن السحر يخرج من الأرض، ولعله كان يعتقد ذلك؛ لأن السحر كان عندهم علما يغير ويبدل، ولكنه كان يستحث قومه على المقاومة، ولذلك قال ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ﴾.

وهنا يجب الالتفات إلى كلمة قالها فى هذه الحَوْمة من الجدل، فلقد نادى موسى قائلا ﴿يَا مُوسَىٰ﴾ استدرارا لمحبته، وتذكيرا له بسابق تربيته بينهم، إذ قال من قبل ﴿... أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨)﴾ [الشعراء]، وهذا يدل على فزعه واضطرابه وتلمس الأمن من أى جانب يكون فيه أمن واطمئنان، ولقد أقسم بما يقسم به عندهم، موثقا قوله عليهم مطمئنا إليهم ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ﴾ «الفاء» للسببية، أى بسبب سحرك لنأتينك بسحر يماثل سحرك، أقسم على قومهم استحثاثا لهممهم واستدرارًا لمعونتهم فى هذا الكرب النفسى، وأكد قوله بـ «نون» التوكيد، وبـ «لام» القسم، وقال ﴿مِّثْلِهِ﴾ شعورًا بالضَّعف، وأنه لا يزيد عليهم فهو ليس عنده طاقة بالزيادة، ولذلك أراد اللقاء فى معركة، ولم يجرؤ على أن يعين هو مكانها وزمانها وترك لموسى أن يعد الأمر ويبين الموعد، فقال: ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾، تلطف فرعون الجبار مع موسى الكليم ففوض إليه أن يختار هو الزمان والمكان الذى تكون فيه المغالبة بين سحرهم وعصى موسى، ولا شك أن هذا التلطف كان يمكن أن يكون مطمعا للإيمان، لولا الملك وطغيانه، وأن مصر بلد السحر، وأن سحرتها كانوا علماءها، وقوله: ﴿مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ ﴿مَوْعِدًا﴾ مفعول بـ ﴿فَاجْعَلْ﴾ وكذلك ﴿مَكَانًا﴾ و﴿سُوًى﴾ أى مكانا عدلا ووسطا بين الفريقين لا يشق علينا ولا عليك، وهو صالح

لأن يجتمع فيه الناس. وقوله على لسان فرعون ﴿لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنتَ﴾، أى لا نخلف فيه الوعد، وقدم نفسه ومن معه فى عدم الإخلاف تطامنا، وتلطفا فى القول، ثم تحدث عن موسى تلطفا معه، فقال ﴿وَلا أَنتَ﴾. و﴿مَوْعِداً﴾ مصدر ميمى بدليل ﴿لاَّ نُخْلِفُهُ﴾ فالوعد هو الذى لا يُخلف، والإخلاف عدم الالتزام، فالتزام فرعون بالموعد الذى يعينه موسى، والموعد يتضمن التعريف بزمان اللقاء ومكانه، وقد أجاب موسى عليه السلام بقوله: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩)﴾.

أجابه موسى عليه السلام مبينا الزمان والمكان، فالزمان هو ضحى يوم الزينة، والمكان هو مكان الاحتفال بيوم الزينة الذى يجتمع فيه الناس لهذا الاحتفال، و«الحشر» هو الجمع، كما قال تعالى فى آية أخرى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣)﴾ [الشعراء].

و﴿مَوْعِدُكُمْ﴾ اسم زمان بدليل أنها محمول وموضوعها يوم الزينة فلابد أن يتفق المحمول والموضوع فى الماهية، فلا يكون المحمول مكانا، والموضوع زمانا.

وما يوم الزينة؟ لم يبين القرآن ما هو ذلك اليوم، ولم يصح عن السنة ما يدل عليه، فقال بعض التابعين: يوم عاشوراء، وقيل يوم سوق عظيم يتزين فيه الشعب، وأقرب الأقوال إلى العقول، أنه يوم وفاء النيل، فمصر من قديم الزمان تحتفل فيه وتتزين سرورا باطمئنانها على السقى والرعى، ولعل كليم الله موسى اختار ذلك اليوم لأنه يكون فيه جمع حاشد، وفيه تذكير برحمة الله تعالى على مصر بهذا النيل السعيد، الذى يفيض رحمة من الله، فيكون الفصل فى قضية الإيمان فى زمان ومكان يكون نعمة الله سابغة على مصر الزراعية.

بعد الاتفاق على الموعد وزمانه لا باليوم فقط بل بجزء من اليوم وهو ضحى يوم الزينة، واختار الضحى ليكون الجمع أحشد، والشهود أكثر، فتكون المقاضاة على الحق أمام أكبر عدد ممكن، وتكون الدعوة والتبليغ لأوفر عدد، بعد هذا الاتفاق

انصرف فرعون وأخذ يتجادل فى الرأى مع أحد شوراه، وأهل الرأى والنظر الذين يستنصر بهم، ولذا قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠)﴾ «الفاء» عاطفة، أى بعد هذا الاتفاق على اللقاء ومكانه مباشرة انصرف فرعون، وأخذ يجمع أهل الرأى، ويتعرف الرأى الجامع منهم، وهذا هو التدبير الذى دبره، وسماه الله تعالى كيده؛ لأنه كان يدبر للغلب، يتعرف من يرسل إليه ومن يجيئون، ويتعرف بذلك أخلص الناس له، وأخذ هذا التدبير وقتا طويلا، ولذا قال بعده ﴿ثُمَّ أَتَى﴾ فكان العطف بـ «ثم» التى تدل على التراخى، وهذا يدل على أن جمع الكيد والتدبير أخذ وقتا طويلا.

أتى إلى الموعد، وموسى كليم الله تعالى قد أتى، وقد ابتدأ كليم الله - عليه السلام - بإرهابهم بقوة الله تعالى؛ لأنهم مقهورون بقوة فرعون وطاغوته وجبروته، فذكر أن قوة الله أعظم، وسلطانه أكبر فقال:

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١)﴾ اتجه إليهم ببيان قدرة الله تعالى وأنها تستأصل، ليزيل برهبة الله تعالى القادر - رهبة فرعون الذى لا يملك من أمره شيئا وإنما قوته تخيل ووهم، وهو فى ذاته ضعيف كغيره من الناس.

ومعنى قوله تعالى عن موسى: ﴿لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ معناه: لا تقطعوا كذبا ولا تقولوه فى مقام الحق، وصدَّر النهى بقوله: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ أى الهلاك النازل بكم إن غيرتم الحق وبدلتموه وآثرتم الباطل عليه مرضاة لفرعون وقومه ممالئين فى الحق وتقولون الباطل، ثم أكد وقوع الهلاك عليهم فقال الله عن موسى: ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ الإسحات: الاستئصال، وألا تبقى منهم (باقية)، ومع هذا الاستئصال الخيبة؛ لأن الافتراء أشد الخيبة وأفحشها ولا يلجأ إليه إلا الخائبون فى ذات أنفسهم، يعنى أنكم إن كذبتم وافتريتم فإن الهلاك نازل بكم لا محالة، ولا تكونون قد نجحتم فى هذا السباق الذى يكون فيه الاتجاه إلى طلب الحق.

أثرت هذه الكلمات الصادرة عن كليم الله تعالى فى نفوسهم تأثيرا قويا، كما أثرت لقاءات موسى مع فرعون فى نفسه فجعلته يتطامن فى القول، ويبهره الحق الواضح، ولتأثير هذه الكلمات فى أنفسهم أخذوا يتجادلون فيما بينهم، وقال تعالى عنهم: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾.

الفاء للسببية، أى بسبب ذلك القول الرهيب الذى أرهبهم تنازعوا أمرهم أى تجادلوا مختلفين غير متفقين فى موقفهم من فرعون الذى كلفهم، وموسى الذى أفزعهم إن حادوا عن الصواب وجانبوا الحق، وعبر سبحانه عن تجادلهم بأنهم تنازعوا القول فكان فريق فى جانب، وآخر فى جانب، وتجادلوا وكل مجادلة بين متناقضين فى النظر نزال وتصارع فى الأمر، ولكنهم من بعد غلب عليهم أنهم يريدون السلامة لأنفسهم، وأسروا القول، ولم يريدوا اطلاع الناس على أحاسيسهم وفزعهم، ولذا قال فى وصف حالهم: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ أى بالغوا فى إسرار مناجاتهم؛ لأن المناجاة ذاتها إسرار، ومعنى إسرارها المبالغة فيها بحيث لا يستطيع أحد أن يطلع عليهم، ولا يعرف ما أسروه وتناجوا به.

المنازلة

قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم
مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجۡمِعُواْ
كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾
قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ
بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ
﴿٦٦﴾ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ

﴿أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾

أنهم اختلفوا عندما بين لهم كليم الله موسى - عليه السلام - عاقبة الأمر وتناجوا فيما بينهم وأسروا النجوى مبالغين فى الإنكار، وانتهوا إلى أن أعلنوا رأى فرعون اتقاء للشر وتعرفا للأمر بعد وقوعه.

﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ فيها ثلاث قراءات أولاها وأشهرها بإنَّ المشددة والألف فى الاسم والخبر، والقراءة الثانية (إن هذين لساحران) بإن المشددة والياء فى (هذين)، والقراءة الثالثة (إنْ هذان لساحران) بـ «إنْ» المخففة لا المشددة. وإن القراءة الوسطى (الثانية) سائرة على الإعراب المشهور وهو أن (هذين) اسم «إنَّ» منصوب بالياء.

وأما القراءة الأولى فقالوا إنها على اللغة التى تلزم المثنى الألف فى الرفع والنصب والجر كما هى فى الأسماء الخمسة، كما قال القائل:

إنَّ أباها وأبا أباها قد بلغا فى المجدِ غايتاها

وأما القراءة الثالثة التى تقرأ بتخفيف «إن» فنقول: إن (إن) مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن ويكون التقدير إنه الأمر المقرر الثابت هذان لساحران، وتكون اللام لام التوكيد، وتؤذن بأن تكون «إنْ» مخففة من الثقيلة، هذه لفتة إلى الإعراب، قد ضل بعض الناس فادعى أنه روى عن عثمان أن فى المصحف لحنا تصححه ألسنة العرب، وهذا الضلال كان هنا فى المقام، اللهم إن هذا بهتان عظيم على جامع القرآن ذى النورين رضى الله عنه وعفا عنه وجزاه عن الإسلام خيرا(١).

---

(١) قرأ المدنيان، وابن عامر، ويعقوب، والكوفيون إلا حفصا بتشديد (إن)، و(هذان) بالألف، وتخفيف النون. وابن كثير بتخفيف (إن)، و(هذان) بالألف، وتشديد النون، وحفص كذلك، إلا أنه بتخفيف النون، وقرأ أبو عمرو بتشديد (إن)، و(هذين) بالياء، مع تخفيف النون. الشيخ محمود خليل الحصري- القراءات العشر من الشاطبية والدرة- ص٢٢٥.

ونعود على عَـجَل إلى الكلام فى معنى الآية الكريمة، إن السحـرة بعد أن أفزعتهم مقولة موسى، وبيان عاقبة قولهم إن حادوا عن الحق وآثروا أن ينطقوا على هوى فرعون حتى يتبين لهم الحق، ﴿ قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ (٦٣) ﴾.

ضربوا على نغمة فرعون ابتداء منجـاة بأنفسهم من بطشه، والنفس الإنسانية دائما مأسورة بالأمر الحاضر مؤجلة القابل إلى ميقاته، وكذلك كان هؤلاء ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾، «الباء» هنا للتعدية والمعنى ليذهبا طريقتكم، وجىء بالباء لتقوية التعدية أى ليذهبا أى إذهاب بطريقتكم المثلى، أى دينكم الأمـثل وكل معتقد يعتقد فى دينه أنه الأمثل فى الأديان، وإن كان ضلالا فى ضلال.

ويظهر أنه كان الخلاف مستحكما ولكن أخفوه، ولذا قالوا.

﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ (٦٤) ﴾. الفاء للسببية، أى بسبب أنهم أرادوا بسحرهم أن يخرجاكم من أرضكم، ويذهبا بطريقتكم المثلى، وهو أمر جامع متفق عليه، فـأجمعوا كيدكم أى اعتزموه، وأقدموا مـجتمعين غير متفرقين، وائتوا إلى موسى صفـا لا خلل فيه ولا افتراق ولا تنازع، واتفقوا على أمور ثلاثة:

أولها: إجماع كـيدهم، وهو تدبيرهم، ادخلوا الحومة مجـمعين على تدبير واحد غير متـفرقين فإن الإجماع وحده قوة، والفرقـة ضعف وعجز، ولا تنازعوا فتفشلوا.

وثانيها: أن يأتوا موسى صفا واحـدا لا ثلمة فيه ولا افتراق، فإن ذلك يزرع فى نفسه الهيبة منكم، قالوا ذلك وكأنهم مقدمون على ميدان قتال.

والأمر الثالث: أنهم اتفـقوا راغبين فى الاستعلاء وأخـذ الأجر من فرعون والاستعلاء بعـزته الفرعونية وكبريائه الغـاشمة، ولذا قالوا: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾، أى فاز برضا فرعون من استعلى على خصمه، والسين والتاء للطلب، أى

طلب العلو فعلا، وهذا حث على أن يشمروا عن ساعد الجد ليفوزوا برضا فرعون، ويستعلوا عنده باستعلائهم بالانتصار في هذا الميدان السحرى، اتجهوا بعد ذلك إلى موسى وقالوا له: ﴿... يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥)﴾.

بادروه باسمه توددا له كما تودد من قبل فرعون؛ ولأنه كان عندهم من بيت فرعون من قبل، فله مكانته في نفوسهم الفرعونية، وحسن أدب منهم؛ لأنه قد شارفت نفوسهم الحقيقة وإن لم تدخلها، ولذا تنازعوا فيها، خاطبوه بأدب فقالوا ﴿... يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥)﴾، أى اختر لنفسك أحد الأمرين، إما أن تلقى أنت عصاك التى في يدك، وإما أن نكون أول من ألقى، قابل موسى الكليم أدبهم بكرمه وقد لمح من كلامهم بإشارة القول أنهم يريدون أن يبدءوا، إذ قالوا في تخييره ﴿وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ فنفذ رغبتهم المطوية في عباراتهم، ولأنه يريد أن يعرف ما عندهم قبل أن يعرفوا ما عنده؛ ولأن الترتيب الذى ألهمه الله تعالى به، أنها ستلقف ما يلقون، فكان الترتيب الطبيعى أن يلقوا هم أولا، فقال موسى ﴿... بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦)﴾ استنفذوا كل جهدهم وطاقتهم، وقد سحروا بفعلهم أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم، وخيل إلى موسى من سحرهم أن عصيهم تسعى، وما انقلبت حيات تسعى، بل هى على حقيقتها حبال وعصى، ولكن الأعين هى التى سحرت، ولذا قال تعالى في تأثير ذلك على موسى ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ ولقد كان ذلك التخيل مفاجأة لموسى، ولذا عبر بـ (إذا) التى للمفاجأة، والمفاجأة ما كانت في تحول العِصِيّ إلى حيات، إنما كانت المفاجأة التى خيل إليه من سحرهم أنها تسعى، وكان موسى عليه السلام تتمثل فيه الطبيعة البشرية، والتخيل يؤثر في البشر وإن كان عنده الحق المبين، ولكن لا تزول المفاجأة إلا بتأييد من الله، والله معه: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ...(٦٩)﴾ ﴿فَأَوْجَسَ﴾ معناها أضمر أو أحس أو خاف، وذلك لأنه فوجئ بأمر لم يكن قد ألفه واعتاده، وهو أن يرى تخيلا عصيا وحبالا

تتحول إلى حيات تسعى، ثم يرى الجماد يسعى ويتحرك يمينًا وشمالا، وأمامًا ووراءً، فهذا التحول المفاجئ للحس يرهب، و﴿خِيفَةً﴾ «فعْلة» من الخوف، قلبت الواو ياء لكسر ما قبلها وسكونها، أى صار فى حال خوف وهيبة من المفاجأة، ولأنه خشى أن يؤثر ذلك فى الجماهير الحاشدة، فتصدق هذا الإفك، ولقد كان الله معه، وعليما بحاله، فقال له مطمئنا: ﴿لا تَخَفْ﴾ ولذا قال تعالى: ﴿قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ أى أذهب عنك الهواجس التى اعترتك من المفاجأة لأننا معك، والعاقبة لك ﴿إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ﴾ فى هذه المبارزة، وأفعل التفضيل ليس على بابه؛ لأنهم لا علو عندهم، وإنما المراد أنك أنت الغالب على فرعون وملئه، وأنت المسيطر فى الجولة، ومعك سلاح الغلب والسلطان، وهو المعجزة التى فى يمينك، ولذا قال له عز من قائل ينبهه إلى معجزته الأولى التى بجست الحجر وفلقت البحر، وما كان غافلا، بل إن الدهشة التى أوجس منها خيفة جعلته يحتاج إلى أن ينبهه الله تعالى فقال:

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾ وقالوا: إنما أبهم ولم يذكر أنها العصا تعظيما لأمرها؛ ولأنها هى عود صغير من شجر تأخذ كل هذه الحبال والعصى ولا تُبقى شيئًا يتخيل، أو لا يتخيل، وأرى أن قوله ﴿مَا فِي يَمِينِكَ﴾ تنبيه إلى أن فى يده ما يدفع وهمهم، فكيف يوجس خيفة، وهو فى يده، وقوله تعالى: ﴿ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾ بالجزم جوابا للأمر، أى ألقِ ما فى يمينك - وهو العصا - وقوله تعالى: ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾، أى تأخذه بسرعة وتبتلعه ولا يكون له أثر. ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾ الضمير يعود إلى العصا، ولذا صدَّر المضارع بالتاء، فكأنه إبهام ثم بيان فقال ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ فلم يذكر أنه العصا، ثم بينها بعود الضمير على لفظ العصا بالتاء، وقد علل الله تعالى لقف العصى والحبال، فقال:

﴿... إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾.

«ما» هنا اسم موصول بمعنى «الذى» وهى اسم «إنَّ» وقوله تعالى ﴿كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ خبر «إنَّ» وأفرد ساحر مع أنهم كانوا كثرة كاثرة حتى ادعى فى الأساطير

أنهم كانوا سبعين ألفا والله أعلم بعددهم، وعلى أى حال كانوا عددا غير قليل، أفرد لأن المقصود وصف ساحر؛ ولأن التدبير لا يمكن أن يكون من الجميع، إنما هو من واحد وأقره الجميع عليه، ونُكر لأنه واحد من جمعهم لا يهم معرفة شخصه، وعبر سبحانه بـ ﴿كَيْدُ سَاحِرٍ﴾؛ لأنه تدبيره فهو ليس قلبا للحقائق، فلم يقلب الجامد إلى حى يسعى، وإنما خُيل للأعين فقط، فهو تدبير ماكر، يكيد للحق، وليس قلبا للحقائق قط.

وقال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ كان التعريف بـ «أل» التى للجنس، ويكون المعنى ولا يفلح من كان عمله السحر فى أى مكان أتى، فكلمة ﴿حَيْثُ أَتَى﴾ حيث: ظرف مكان، أى من أى مكان أتى، وإلى أى مكان سار، فهو لا فوز له أبدا، ولكن ضلال وتمويه، وتخيل للأعين واسترهاب للنفوس.

عندما استعان فرعون بالسحر والسحرة استعان بهم ليغلبوا، ولكنهم كانوا المميزين بين السحر والمعجزة فأدركوا أن عصا موسى ليست من السحر، ولكنها معجزة الله تعالى أعطاها موسى فآمنوا، قال تعالى:

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠)﴾.

يقول الزمخشرى فى عبرة هذه الوقائع: «سبحان الله ما أعجب أمرهم قد ألقوا حبالهم وعصيهم، ثم ألقوا رءوسهم بعد ساعة للشكر والسجود، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين» اهـ. ونقول: ما أعظم الفرق بين الباطل والحق. وبين الاستجابة للباطل واستجابة للحق جل جلاله.

«الفاء» لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وكان ما قبلها هو إلقاء العصا ولقفها كل ما ألقوا وكان شيئًا كثيرا إذ امتلأ المكان بالحبال والعصى التى تسعى، حتى كأن الوادى صار أفاعى وحيات فى نظر الرائى، فكان عجبا أن تبتلعها عصا يتوكأ عليها، ويهش بها على غنمه، فكان الإيمان بالمعجزة، وهم أهل الخبرة فى معرفة ما هو سحر وما ليس بسحر فآمنوا بالمعجزة وخروا ساجدين.

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ ﴿سُجَّدًا﴾ جمع ساجد، كـ «صُوَّم» جمع صائم، وقوله: ﴿فَأُلْقِيَ﴾ بالبناء للمجهول للإشارة إلى أنهم ألقوا سجدا لوضوح الحق وظهوره، ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى﴾ آمنوا بالله واكتفوا من التعريف بأن يكون رب هذين الصادقين، وخبر الصادق صادق.

فرعون والسحرة بعد إيمانهم

قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ
لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ
أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ
ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ
ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا
عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا
فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ
عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

أحس فرعون بأن الأرض تميد من تحت أقدامه فلبس الجلد الفرعوني، وأخذ يهدد وينذر وينفذ ما قام به من شر؛ لأنه رأى بوادر المخالفة لأمره والمنازعة لرأيه، ولذلك بطش، وانتقل من الاستدراج إليه إلى القهر، وعاد إلى الطغيان.

﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ﴾ أى أسلمتم له وأذعنتم له، ويتضمن معنى المسايرة لموسى والمعاندة له، يقال ءامنتم له وءامنتم به، وتتضمن التعدية باللام التسليم له والإذعان له، وتتضمن التعدية بالباء الإيمان بالحق الذى جاء به، وقد جاءت التعديات فى هذا المقام، فهنا التعدية باللام، وفى سورة الأعراف كانت التعدية بالباء فقد قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴿١٢٣﴾﴾ [الأعراف].

وفى هذا الاستفهام إنكار للواقع، فهو ينكر إيمانهم الذى وقع، ويوبخهم عليه، وموضع التوبيخ أنهم آمنوا قبل أن يأذن لهم وهو بذلك يصل بهم إلى أعلى درجات العنت والطغيان، فهو يعلن بهذا أن حكمه يصل إلى فكرهم وقلوبهم، ويحقق فيهم قوله ما أريكم إلا ما أرى، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد.

كان فرعون على رأس طريق أخذ يسلكه السحرة، فلم يقل الحق ويذعن، ويسلك سبيل الرشاد، بل أخذ يموّه الحق بتمويه من الباطل، فرآهم تبعوا موسى فما أذعن للحق الذى تقاضى مع موسى فيه، بل أخذ يمارى، ولا يقول إنه غلبهم، لأنه على الحق، بل لأنه أكبر منهم قدرة وطاقة، وأنه منهم بمنزلة المعلم الذى علمهم، فقال: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾، فهو أسحر منهم وأعلم، وهم منه بمنزلة التلميذ من المعلم، فلم يغلبهم لأنه المحق وهم المبطلون، وإنما غلبهم لأنه أسحر منهم وأعلم، وهكذا كانت المعاندة لآيات الله وقد برزت.

ولأنهم على رأس طريق جديد وهو الخروج على طاعته ومقاومة جبروته، والاستعلاء بربهم على طغيانه - وضع العقبات وأنزل بهم العذاب الشديد، فقال: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ «الفاء» للسببية، أى بسبب ما فعلتم لأقطعن أيديكم.

فى هذا الكلام قسم بما يُقسم به عنده، و«اللام» لام القسم، ولذا كانت «نون» التوكيد الثقيلة، التى تلازم القسم فى اللغة، والتقطيع للأيدى والأرجل بصيغة التفعيل يدل على كثرة القطع، لكثرة من قطعت أيديهم وأرجلهم، وقوله ﴿مِّنْ خِلَافٍ﴾ أى تختلف جهة القطع، فإذا قطعت اليد اليمنى، تقطع الرجل اليسرى،

وهكذا، وقال مقسما أيضا بما يُقسم به عندهم ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾، وقالوا: إن ﴿فِي﴾ هنا بمعنى «على»، وعبر بـ «فى» لبيان تمكن الصلب واستقرارهم على جذوع النخل، وهذا الصلب على الجذوع يومئ إلى بقائهم على الصلب حتى يموتوا فهو قتل وتقطيع، ثم قال مقالة الجهالة والطغيان: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾.

أقسم الجهول فى قوله هذا بما يُقسم به عندهم، و﴿أَيُّنَا﴾ استفهام، وهى تفيد التنبيه فى زعمه إلى أنه أشد عذابا وأقسى من موسى، وأبقى أثرا فى عذابه من موسى، وهو جهل طاغٍ لأن موسى لا يعذِّب، ولكن يرشد ويهدى، إنما الذى يعذب هو الله رب موسى وهرون، وعذابه أليم هو جهنم يخلد فيها فرعون ومن يتبعه.

من دخل الإيمان قلبه يعمره الله بنوره ويستهين بالحياة والأحياء ولو كانوا فرعون وقبيله، ولذا أجابوا عن تهديده الذى نفذه بقولهم كما حكى الله تعالى عنهم: ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢)﴾.

إجابة حاسمة قاطعة تقطع أمله فى رجوعهم، والإيمان إذا دخل القلب وأشرب حبه كان أثبت من الرواسى، وهو إيمان بحجة وبينة وبرهان ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾، أى لن نتركه لأجلك أيها الطاغى الباغى، وهذا معنى مؤكد، لأن «لن» تفيد النفى المؤكَّد، حتى ادعى الزمخشرى أنها تفيد تأبيد النفى، فلا تطمع فى رجوعنا عن الحق والإيثار والتفضيل، أى لن نفضلك على البينات، أى الدلالات الواضحات التى جاءتنا، وفى هذا إشارة إلى أن ما عنده باطل وأوهام، وكيف نفضل الأوهام على الدليل والبرهان؟! وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ عطف على ﴿مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾، والذى فطرنا هو الله، يعنى لن نؤثرك على الحق الواضح، ولن نؤثرك على الله تعالى جل جلاله فهو القادر على كل شيء، فلن نؤثر الضعيف الظاهر على الله القادر العادل القهار، ويجوز أن يكون

قوله: ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾، أى أنشأنا ولم نكن شيئا، الواو للقسم لا للعطف، والمعنى لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والله الذى أنشأنا من عدم، فمن تكون أنت أيها المخلوق الضعيف، ولو كنت فرعون الطاغى المتجبر بصلفك وعتوك؟!

وقد رتبوا على عزمتهم النابعة من قلوب مؤمنة تفويضهم الأمور إلى ربهم والاستهانة بفرعون وبتهديده فقالوا ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ «ما» إن كانت موصولا حرفيا يكون المعنى فاقض قضاءك؛ لأنه قضاء الحياة الدنيا وهى فانية، والآخرة هى الباقية، ويصح أن تكون موصولا اسميا بمعنى فاقض الذى أنت قاض، ويكون الرابط فى الصلة ضمير فاقض ما أنت قاضيه.

وقالوا ما يدل على الاستهانة بحكمه القاصر ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ هذه الحياة الدنيا ظرف، فتقدم فى الكلام، والمعنى: إن قضاءك هو فى هذه الحياة الدنيا، وما موصول حرفى، وإذا قضاؤك هو فى هذه الحياة، فهو قضاء تنفيذه وقت قصير ومن بعده خير طويل، فإنما الحياة الدنيا متاع قليل والآخرة خير وأبقى، وإن هذا يدل على كمال الإيمان بالله، والاستهانة بفرعون وعذابه.

أول أمارات الإيمان الراسخ الإحساس بالتقصير والإذعان لله تعالى، وهذا أمر أولئك المؤمنين الذين كانوا من قبل ساحرين، قالوا مؤكدين إيمانهم ومؤنبين فرعون وشيعته: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٣)﴾.

قالوا مؤكدين إيمانهم بـ «إنَّ» أولا، وبالجملة الاسمية ثانيا، وبقولهم ﴿بِرَبِّنَا﴾، أى الذى خلقنا وأنشأنا إنشاء، فكأنهم يوثقون إيمانهم بأنه إيمان بمن خلق وصور لا بمن يظهر قدرته فى العذاب والإيذاء لا فى الخلق والإنشاء.

وذكروا ما يرجون من وراء إيمانهم فقالوا: ﴿لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ و«اللام» هنا لام العاقبة، أى لتكون عاقبة إيماننا بربنا أن يغفر لنا خطايانا، والخطايا جمع خطيئة، والخطيئة هى الذنب الذى يحيط بالنفس ويستولى عليه، حتى يصير كأنه صفة من صفات النفس يصدر عنه من غير تدبر ولا تفكر، ولذا قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ

سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١)﴾ [البقرة]؛ وذلك أن الإنسان إذا أذنب ذنبا نكتت فى قلبه نكتة سوداء، فإذا تكررت تكررت هذه النكت حتى يربادّ فيمتلئ بالخطايا وتصدر عنه أفعالها كأنه غير قاصد لها، وهى للضالّ تشبه الخطأ من الصالح فى ذات نفسه ومن تقع منه يسمى خاطئا أى آثما.

وقد ذكر رجاء الغفران من خطاياهم، أى آثامهم، التى كانت منهم، وهم فى ديانة القدماء من المصريين، وقد اعترفوا أنهم كانوا يفعلون هذه الخطايا مختارين، والأمر الثانى الذى اعترفوا به هو السحر، وهو إثم، ولكنهم ذكروا فى هذا أن فرعون كان يكرههم، ولذا قالوا ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾.

وإذا كنت يذهب غرورك بأن تقول: ﴿... وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١)﴾ فنحن نقول الحق: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾، فالله هو الدائم، وهو الخير كله، فلا يكون عنه إلا خير ولا يرضى لنا إلا كل خير.

ولقد بينوا رجاءهم فى الله، وعاقبة المجرمين فقال الله تعالى:

﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ (٧٤)﴾.

الضمير ضمير الشأن أى أنه الحال والشأن المقرر الثابت ﴿مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾، أى مرتكبا الآثام كاسبا لها، قد سيطرت عليه آثامه واستغرقت نفسه، ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى﴾.

وهذا القول يحتمل أن يكون من كلام السحرة الذين آمنوا وذلك ظاهر السياق؛ لأن الكلام فيما ردوا به على فرعون، ويحتمل أن يكون وصفا لما يجرى على الأشقياء بحكم الله تعالى وقضائه، ويرشح لهذا ما جاء بعد ذلك من ثواب المتقين، وقوله تعالى لمن يدخل جهنم: ﴿لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى﴾ وهذا وصف عميق للذين يخلدون فى النار فهم لا يموتون ليستريحوا راحة الموت، إذ يفقدون الحسّ شقاء أو نعيما، ولا يحيون حياة كريمة فيها متعة الأحياء، ولكنها عذاب وآلام، فهم لا يموتون فيها ولا يحيون؛ إذ هى حياة الألم المرير المستمر الذى لا ينقطع.

وقد جاء النص من بعد ذلك:

﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥)﴾.

الضمير في ﴿يَأْتِهِ﴾ يعود إلى ربه، ويتضمن معنى الإقرار بالربوبية، والخلق وإنشاء الإنسان، وفي ذلك رد فرعون واستهانة به، وهو الذي كان يقول أنا ربكم الأعلى. و﴿مُؤْمِنًا﴾ أي مذعنا خاضعا للحق مستقيم النفس والعمل، ولذا قال من بعد ﴿قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾، والصالحات الأعمال الصالحة التي تنشر العدل والحق وتقيم النفع وتدفع الفساد في الأرض، وتحفظ للإنسان كرامته، وتدفع عنه المهانة وتسوي بينه وبين الناس، وقد ذكر سبحانه وتعالى جزاءهم فقال: ﴿فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ «الفاء» في جواب الشرط، والإشارة إلى هؤلاء متصفين بالإيمان والصلاح، والقصد إلى الأعمال الصالحة النافعة غير المفسدة، ﴿لَهُمُ الدَّرَجَاتُ﴾، وهي الارتقاء في السمو والارتفاع، و﴿الْعُلَىٰ﴾ جمع «عُلْيَا» وهي مؤنث «أعلى»، أي الدرجات المرتفعة التي ما فوقها ارتفاع، فلا يرفع المؤمنين أن يرضى عنهم فرعون، وهو بشر دونهم؛ لأنهم أطهار وهو مجرم آثم ظالم غشيه الشر وأرداه، فلعنه الله ومن يتشبه به وإن كانوا دونه قوة واقتدارا، ولكنها الغطرسة الحمقاء.

وقد بين سبحانه هذه الدرجات العُلى، فقال سبحانه: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ (٧٦)﴾.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي إقامة، وهي إقامة مريحة ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦)﴾ [الغاشية]، وفي ذلك تبكيت لفرعون بأنهم ينالون بعملهم الصالح خيرا مما فيه، وإذا كان يقول معتزا بغير الله تعالى: ﴿... أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ... (٥١)﴾ [الزخرف]، فأولئك البررة الأتقياء تجرى من تحتهم الأنهار في جنات عدن، وإن هذه الجنات يخلدون فيها ويستمرون، وفيها النعم غير مقطوعة ولا ممنوعة ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾، الإشارة إلى هذا النعيم المقيم جزاء من تطهر من الظلم والمعاصي، ولم يَسِرْ وراء الأوهام الفاسدة.

ولقد سرنا على أساس أن الآيتين ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا ... (٧٤)﴾ و ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا ... (٧٥)﴾ هو من كلام الله تعالى لا من كلام السحرة؛ لأنه معطى النعيم، وهو المعاقب والمثيب فهو أليق به، وإن كان ثمة احتمال أن يكون من كلام السحرة، وإذا كان السياق يسوغه ابتداء فإن ثمة التفاتا من الحديث عنهم إلى أن يتكلم الله تعالى عن نفسه، فهو مالك يوم الدين.

نجاة بنى إسرائيل وغرق فرعون

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا
فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ
بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ
وَمَا هَدَىٰ (٧٩) يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ
جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ (٨٠) كُلُوا۟
مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى
وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ (٨١) وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ
وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ (٨٢)

لم يذكر سبحانه وتعالى إنزال الرجز عليهم، وآيات أخرى، ومجادلات لفرعون وملئه وادعائهم التطير بموسى ومن معه، ويلاحظ أنه لم يحاول الفتك بموسى وأخيه هارون، وقد ذكرت هذه الأحوال في سورة الأعراف، وهكذا تتبع قصة موسى مع فرعون وبنى إسرائيل يبدو بادئ الرأى أنها مكررة ، وبالتأمل تجدها

غير مكررة، وما يذكر في مكان يترك في مكان آخر، وفي كل مكان كانت عبرة قائمة بذاتها يذكر لها جزء من القصة، لتفرد كل عبرة في موضع، فيكون التجدد والتنبيه المستمر والعبرة، استعداد موسى للقاء فرعون، واللقاء بين نبي اختصه الله تعالى بأن كلَّمه تكليما، وأكبر الطغاة الذي تشبه به كل طاغية في الأرض، وآخرهم من رأينا في مصر، الذي أجرى الله مراحيض مصر على جثمانه النجس، ويصور هذا الجزء استدرار الطغاة لعاطفة مخالفيهم، ثم استبداده من بعد أن يغلب كما رأينا في معاملته للسحرة، الذين قال لهم: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ... (٧١)﴾ وقطع أيديهم وأرجلهم.

بعد ذلك ترك المجادلات واتجه القرآن الكريم إلى نهاية الطاغوت في الأرض وإغراق صاحبه:

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا (٧٧)﴾.

أوحى الله تعالى إلى نبيه موسى ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾، «أنْ» هنا تفسيرية، أي أن الإيحاء كان هو قوله: ﴿أَسْرِ بِعِبَادِي﴾، الإسراء: السير ليلا، وكأنهم خرجوا على استخفاء من فرعون خشية أن يبادرهم بالإيذاء، ولكنه علم بهم، فلحقهم بجنوده، وأمر الله تعالى موسى أن يخط لهم طريقا يبسا جافا من الماء؛ ولأن خط هذا الطريق كان بالضرب بالعصى التي بيده دائما - عبَّر عن الأمر بالتخطيط بالضرب، وقد جاء في سورة الشعراء ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ (٦٦)﴾ وفي هذه الآية أكد سبحانه وحيه لموسى بـ «اللام» و «قد»، وقوله تعالى: ﴿يَبَسًا﴾ مصدر هو وصف للطريق الذي أمر موسى به، وهو مصدر من يَبِسَ.

وقد طمأن الله موسى ومن معه من بني إسرائيل الذين سماهم عباده؛ لأنه خلصهم من فرعون وأهواله، طمأنهم بقوله تعالى: ﴿لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَىٰ﴾

والدَّرَك: اللحاق، أى لا تخاف أن يلحقوك، والدرك بالسكون والفتح الإدراك الحسى، وهو الوصول إليك واللحاق بك، ولا تخشى بأسه، فأنت فى أمن الله تعالى الذى لا يُدرك، مَن هو فى آمنه و«لا» هنا للنفى لا للنهى، فالمعنى ليس من شأنك أن تخاف اللحاق بك، ولا تخشى بعد اليوم بطش فرعون وقومه، والجملتان حاليتان، وإن من يكون فى أمان الله لا يخاف أحدا ولا يخشاه، ولقد بين الله تعالى أن فرعون منعهم وحاول اللحاق بهم، ولكنه لقى حتفه فى هذا اللحاق، ولذا قال تعالى:

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾.

يقال تبع وأتبع بمعنى تبع كما فى لحق، وألحق، والمعنى وتبعهم فرعون مصاحبا جنوده وقد أرسل إليهم يدعوهم معه قائلا: إن هؤلاء لشرذمة قليلون، وأنهم لنا لغائظون - اجتمع بكل ما عنده من جند قوى تجبر بهم وعاند، فتبع موسى الذى جمع بنى إسرائيل فكان جمع الأقوياء، وراء جمع الضعفاء، ولكن كان الله مع الضعفاء، فرعون وجنده وراء موسى وبنى إسرائيل، ويحسب المغرور أن البحر حاجزهم، ولكن رب السموات والأرض، ورب البحار والأنهار، شق البحر لهم، فضرب موسى البحر بعصاه فانفلق، وكان كل فرق كالطود العظيم، كان البحر الذى يكون الناس فيه كدود على عود اثنى عشر فرقا كان لكل جماعة طريقا، وتبع كل أناس إمامهم، فرأى المغرور الطريق بين يديه يبسا كما هو بين أيدى بنى إسرائيل، وقد ضل هو وجنده، حتى إذا تم دخولهم انطبق عليهم البحر، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ أى غطاهم من البحر ما غطاهم، وهذا من الإيجاز المعجز، وصاروا فى البحر، فلما أدركه الغرق قال: ﴿... آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ... ﴿٩٠﴾﴾ [يونس]، والإبهام هنا لتذهب فيه النفس بالخيال كل مذهب، وكل خيال فيه دون الحقيقة لأن جندا بأكمله، كان يتجبر به فرعون ويستعلى ويغتر وقد جمعه كله بإرادته، قد ألقاه فرعون فى البحر إلقاء، ولذا قال تعالى من بعد:

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ (٧٩)﴾.

أوقع فرعون فى نفوس جنده أنه مدركهم، وأنهم قاتلوهم، إذ هم عُزَّلٌ من السلاح وهم شرذمة قليلون كما قال، وما علم هو وهم أن معهم الله تعالى على كل شيء، وكان بهذا إضلالهم إضلالا حسيا، ظهرت عاقبته فيه وفيهم بإغراقهم، وإن هذه صورة جلية حسِّية من إضلالهم العقلى والدينى، فقد أضلهم فجعل نفسه إلها فيهم وأضلهم فأرغمهم فى نفسه، وصاروا ليس له معهم وجود إنسانى، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ وهو الذى كان يقول لهم: ﴿... مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٢٩)﴾ [غافر]، فكان اندغامهم فى فكره إبعادا للهداية وإمعانا فى الغواية.

موسى وبنو إسرائيل

عاش موسى المجاهد فى الحق أربعة أدوار: أولها أنه عاش فى بيت فرعون تكلؤه المحبة من زوج فرعون، وربما فرعون نفسه الذى لم يكن له ولد، فكان فى بيته بمثابة ولده، حتى إذا بلغ أشده وأدرك المجتمع الذى يعيش فيه كان الدور الثانى، فأدرك من هو فى مصر ومن قومه، فما ارتضى الظلم فى ذاته، ولا ظلم قومه، فكان ربيب نعمة فرعون من شيعة المظلومين المضطهدين، وعندئذ خرج من مصر حرًا كريما رضى بشظف العيش، وجفوة الصحراء وخلص لله، وقال مناجيا ربه: ﴿... إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)﴾ [القصص]، وعاش كادحا وتزوج من إحدى ابنتى شعيب، واستمر يرعى الأغنام متمتعا بحرية الصحراء ونسيمها غير الوبىء، وإذا كان قد حُرِمَ رافغ[1] العيش فى بيت فرعون، فقد منح حرية النفس وسلامة الاعتقاد، ونعمة الكفاح، وذَوْق متاعب الحياة بجوار نعيمها، فاكتملت بذلك إنسانيته، وعندئذ جاء الدور الرابع من حياته.

وهذا الدور الرابع كان فى حقيقته دورين: أولهما: لقاؤه هو وأخوه بفرعون، وقد انتهى بغرق فرعون، ونجاة بنى إسرائيل، ويبتدئ الدور الثانى، وهو دوره مع بنى إسرائيل ومحاولة تربيته لهم، لقد رُبوا على الاستخذاء والضعف والاستكانة،

(١) والرَّفاغِيةُ: سَعةُ العَيْشِ والخِصْبُ والسَّعةُ. وعيشٌ أَرْفَغُ و رافِغٌ و رفِيغٌ: خصيبٌ واسعٌ طيِّب. و رَفُغَ عيشُه، بالضم، رَفاغَةً: اتَّسَعَ. لسان العرب- رفغ.

فلابد أن يربى فيهم العزة والكرامة، وربُوا فى أحضان الوثنية فلابد أن تزرع فيهم الوحدانية، وربوا على الختل والاستهانة، فلابد أن تربى فيهم العناية والخلق الكريم، وهذا أشق الأدوار فى حياة موسى.

بعد أن نجا هو وبنو إسرائيل من فرعون، وألقاه الله تعالى فى اليم، قال الله تعالى مخاطبا لهم: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ (٨٠)﴾.

ناداهم الله تعالى مقربا مدنيا مؤنسا لهم ذاكرا سبحانه نعمته عليهم؛ ليعرفوا حقها عليهم من الشكر فلا يكفروها، ﴿قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ الذى تحكم فيكم وأسامكم سوء العذاب، وإن هذه كانت مظاهر العداوة من ذلك الظالم الغاشم ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ﴾ أى الإتيان فى جانب الطور الأيمن، فالكلام على حذف مضاف، وحُذف لأن المقصود هو ذات الجزء الجانب الأيمن، والإشادة به لأنه الجانب الذى لقى فيه ربه، وأنزلت عليه الألواح العشرة فيه، فهو المكان الذى كانت ذكريات نبوة موسى عليه السلام، وهو من أولى العزم من الرسل، والتوراة من الكتب المقدسة التى تشتمل على الشرائع الخالدة إلا ما نسخه القرآن الكريم.

وقد قال تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ﴾ وهنا ملاحظتان: إحداهما أن الله تعالى جعلهم طرفا فى المواعدة وهى مفاعلة تكون من جانبين، جعلهم الله سبحانه وتعالى طرفا مقابلا لذاته، وذلك تكريم لهم، ورفع لنفوسهم التى استخدمت بإذلال فرعون، فأعلاهم رب العالمين ورفع كبوتهم وأزال عنهم خسيسة الذل.

والثانية أن المواعدة كانت مع موسى رسولهم، لا معهم كلهم، ولكن موسى يجىء بهذه الشرائع إليهم ، وقد قال تعالى فى هذه المواعدة ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ... (١٤٢)﴾ [الأعراف]؛ ولأن موسى وهو رسولهم الذى أرسل إليهم كانت المواعدة معه مواعدة لهم. ولأن موسى اختار منهم من سيلونهم فى هذا اللقاء، فقد قال تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً

لِّمِيقَاتِنَا ... ﴿١٥٥﴾ [الأعراف]، فكان اختيار لهذا الموعد فيه معنى أنهم كانوا مواعدين، وخصوصا أنهم كانوا يمثلون بنى إسرائيل، ولذا قال تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا ... ﴿١٥٥﴾﴾ [الأعراف]، أى أنهم كأنهم قوم موسى جميعهم، كان ذلك كله تشريفا وتكريما، ورفعا لهم مما كانوا فيه من كبوة.

وقد ذكر سبحانه وتعالى طعامهم فى هذه الصحراء الجرداء، فبدلهم الله بطعام مصر طعامًا أشهى وأمرأ وأجدى وهو المن الذى أنزله الله فى الأشجار، والسلوى ذلك اللحم الطرى؛ ولذا قال تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا﴾ ولم يقل «أنزلنا»؛ لأن المن والسلوى لم ينزل عليهم دفعة واحدة، فيغمرهم فيحتاجون إلى وسائل لادخاره وحفظه، بل كان يعرض لهم على حسب حاجتهم شيئا فشيئا غير مقطوع فلا يحتاجون إلى الادخار، ولا يقطع عنهم فيكون الجوع، بل يجىء إليهم غير مقطوع ولا ممنوع، بل مستمر رحمة من الله تعالى.

هذا رزق الله تعالى لبنى إسرائيل فى هذه الصحراء الجرداء، وقد نهاهم الله عن الطغيان فى الرزق، فقال عز من قائل:

﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ ذكر الله تعالى رزق بنى إسرائيل بالمن والسلوى فى سيناء فناسب أن يبين - سبحانه - شكر الرزق، وفساد النعمة بالطغيان، فقال: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ وهذا الأمر لبيان إباحة الطيبات، وهو فى معناه يتضمن الطلب؛ لأن الأكل مباح ومطلوب، أما إباحته فلتخير ألوانه الطيبة، وأما طلبه فلمنع الإنسان نفسه من الأكل فيهلك، والطيبات لا بد لها من أمرين: أن تكون كسبا حلالا طيبا لا خبث من طريق الحصول عليه، وأن يكون غير مستقذر كالميتة ولحم الخنزير، والدم المسفوح، وغير ذلك من المحرمات التى حرمت لأنها رجس مستقذر؛ ونهى سبحانه عن الطغيان فى الرزق، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾، أى لا تتجاوزوا الحدود فيه، وتجاوز الحدود فيه يكون بضروب شتى، منها: أن يطلبه من غير حلِّه، ومنها: أن يأكل السحت والربا، ومنها: أن يمنع الفقير من حقه، ومنها: أن يسرف

فيه إسرافا، وأن ينفقه في غير موضعه، ومنها الشح والبخل بأن يكون عبد الدينار والدرهم، فكل هذه مجاوزة للحد، وطغيان، وإن الذى يترتب على الطغيان فى الرزق وعدم شكره غضب الله تعالى فقال: ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ «الفاء» فاء السببية، أى بسبب الطغيان ينزل بكم غضبى، وهو أعظم ما يفقد الإنسان معانى العلو، فغضب الله يبعد الشخص من سماء الرفعة، ويهوى فى مكان سحيق من المقت، والبعد عن الله تعالى، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ أى فقد نزل إلى الهاوية السحيقة البعيدة الغور، ومن سقط فى الهاوية فإنه يهلك لا محالة، ولذا قالوا: إن ﴿هَوَى﴾ معناها «هلك»، ولذلك فسر الزجَّاج ﴿فَقَدْ هَوَى﴾ بمعنى: فقد هلك.

وإن الله تعالى يقرن رحمته بعذابه، ومغفرته بعقابه، ولذا قال تعالى:

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (٨٢)﴾

﴿تَابَ﴾ عما يرتكب من كبائر وهفوات، فالتوبة ضراعة إلى الله، ورجوع إليه، وهى ذاتها عبادة، وإن الله يقبل التوبة من عباده، والتوبة تجبُّ ما قبلها من معاصٍ، كما أن الإيمان يجبُّ الكفر، و﴿آمَنَ﴾ معناها ملأ الإيمان بجلال قلبه، بأن قرن توبته بإذعان مطلق لله تعالى، وكان عمله كقلبه، ولذا قال: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ بأن قام بالعبادة مخلصا محتسبا، وعمل النافع للناس، وكان يحب الشيء لا يحبه إلا لله.

﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ الاهتداء أن يعلو إلى درجة المهتدين الذين يخلصون عن الدانى فى عقولهم ونفوسهم، ويكونون ربانيين لا يعرفون إلا ربهم، ويطرحون كل أمور الحياة وراء ظهورهم إلا أن يكون خيرا أمرهم به، وإن الوصول إلى هذه الدرجة وصول إلى مرتقى عال، ولذا كان العطف بـ «ثم» التى تدل على البُعد، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا (٣٠)﴾ [فصلت].

عبدوا العجل!!

وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن
قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ
رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ
ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ
يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ
ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم
مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ
أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾
فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ
وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا
يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ
يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ
أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾

إن هذا هو الدور الأخير من رسالة موسى عليه السلام وهو رعايته لبنى إسرائيل، لقد قيل فى الروايات: إن عددهم كان ستمائه ألف، ولكن تربيتهم على العقيدة السليمة عقيدة الوحدانية أخذت جهدا كبيرا، ثم إزالة ما علَق برءوسهم من

أوهام المصريين أخذ أمدا طويلا. وتربيتهم على النخوة والقوة والعزة كان فوق طاقة موسى عليه السلام، ولذا جعلهم الله يتيهون فى الأرض أربعين سنة، ليتربوا فيها على النخوة والبأس والعزة، إن كان فيهم استعداد لها ولتكاليفها، وقال الله تعالى لكليمه موسى مواسيا: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦)﴾ [المائدة].

أول صدمة لموسى الكليم فتنة العجل، ذهب موسى إلى جانب الطور الأيمن، كما وعده ربه ليتلقى التوراة، وذهب فرحًا عَجِلاً؛ لأنه على شوق لمخاطبة ربه، ولأن المسارعة إلى وعد الحبيب ترضيه، وترضى نفسه، وفى غيبة موسى عن قومه لم يكن وقتا طويلا، فتن بنو إسرائيل بعبادة العجل، وربما يكون موضع عتب بهذه المسارعة، لما اقترن بغيبته، وكل شىء بإرادة الله، ولكن على المرشد الهادى أن يراقب النفوس وموضع ضعفها، وموضع الضعف عند الإسرائيليين هو معاشرتهم لأهل فرعون، هو اتباعهم طريق هؤلاء فى أوهامهم وعاداتهم وتقاليدهم.

قال الله تعالى لكليمه، وقد جاء مسارعا إليه فى موعده:

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُوْلاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤)﴾.

«الواو» وصلت ما بعدها بما قبلها لكمال السياق، ولبيان أن الفتنة جاءت بعد الإنعام بالإنجاء، وتنزيل المن والسلوى، والمواعدة على خطاب الله تعالى لموسى، وهذا فيه تقريب لما يقع منهم من بعد، إذ قرنوا تلك النعم السامية بالكفر لا بالشك، وبذلك يتصور القارئ ما سيكون منهم.

كان موسى عليه السلام قد خرج من قومه بمن يمثلونهم، وهم السبعون المختارون الذين يمثلون أسباطهم، ولكنه ككل رئيس قد يسبق من معه يتعرف أمر اللقاء؛ ولأنه فى شوق للأنس بكلام ربه؛ ولأنه يرى أن الله تعالى سيخاطبه بشرائع قد بعث بها.

سبقهم إلى الموعد، ولكن الله تعالى قدر ميقاتا محدّد الابتداء والانتهاء لمصلحة قدرها ولم يكن تقديره لغير أمر قدره سبحانه، وإن لبث موسى فى قومه قد قدر الله فيه دفع ضرر، والله لا يخلف الميعاد، وكل شيء بقضاء الله، وبتقديره، وفى علمه المكنون فهو سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما سيكون.

عتب الله تعالى على كليمه المختار تعجله فى ذاته، وعتب عليه أن سبق قومه وتركهم، وهم يحتاجون إلى رعايته ومراقبة خواطرهم ببصيرته وهم قريبو عهد بمعاشرة الفاسقين.

عتب الله تعالى على كليمه هذا، وكان على موسى أن يعتذر عما كان منه، والله عليم بذات الصدور قال: ﴿هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي﴾ أشار إليهم، ولم يأت بـ «كاف» الخطاب تأدبا مع الله[1]، ولأنه سبحانه العليم، فلا يحتاج إلى تنبيه بها إذ هو يخاطب العليم الخبير، ومعنى ﴿أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي﴾ أنهم على مقربة منى، ولا يضلون الطريق؛ لأنهم ورائى، ثم قال معتذراً عن تعجله: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾، أى كان الدافع على عجلى إليك محاولتى إرضاءك حاسبا أن المسارعة إليك ترضيك، وقال كلمتين تقربا إليه سبحانه ومشيرا بهما إلى رغبة فى ذلك التعجيل وهو أنسا بكلامه معه.

الكلمة الأولى هى ﴿إِلَيْكَ﴾، أى عجلتى كانت إليك، وأنت القريب إلى نفسى آنس بكلامك، والكلمة الثانية هى ﴿رَبِّ﴾ أى القائم على نفسى، ومن صنعتنى على عينك فإنى أسارع إلى من صنعنى على عينه جل جلاله.

وقد نبهه سبحانه إلى مغبّة تعجله فقال عز من قائل:

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾.

فاعل «قال» هو الضمير العائد على الله جلت قدرته، والفاء للسببية، أى بسبب غيبتك وعدم قيامك بحق الرقابة النفسية عليهم التى مكناك منها، ﴿قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ أى اختبرناهم لتتبين مقدار إراداتهم وعقولهم ومداركهم وأضاف

---

(١) أي لم يقل: هم أولئك، ولكن قال: (أولاء).

الاختبار الذى سماه «فتنة» إلى نفسه، وهو العليم بكل شيء قبل وقوعه، وبعد وقوعه، فالأزمان تكون بالنسبة للناس لا بالنسبة للذات العلية.

وعبر سبحانه فقال: ﴿قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ أضاف القوم إليه استحثاثا لهمته، وقوة فى عتابه، أى أنهم قومه الذى جاء لإخراجهم من طغواء فرعون، ولكن لم يزل الأثر السيئ فى عقولهم فطغى بتعاليمه عليهم نفسيا، وإن خلعوا الربقة، وأزالوا رق الأجساد، فلم يزيلوا رق النفوس، ولقد قال تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾، أى أوقعهم فى الضلال، والسامرى شخص انتقل معهم من مصر، كان يجيد النحت والتصوير، ولم ينص على أنه من الإسرائيليين أو أهل مصر الأصليين، ويغلب على الظن أنه إسرائيلى اندمج مع المصريين وعرف صناعاتهم، وقيل: إنه كان هنديا يُعبد البقر، ثم اعتنق ديانة بنى إسرائيل.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (٨٦)﴾.

«الفاء» تفيد الترتيب والتعقيب، ففور أن بين الله تعالى ما كان بقومه رجع إليهم فى حال غضب وحزن، ولذا قال تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ والقوم هنا هم الإسرائيليون جميعا الذين كان منهم الذين عبدوا العجل ولم يكونوا عددا قليلا، بل كانوا كثيرين، وإن لم يكونوا الأكثرين، والغضب هو الثورة النفسية للمفاجأة بأمر مؤلم لم يكن يتوقعه، والأسف : الحزن الذى يسكن النفس بسبب أمر غير مقبول، ولا يوجد له أى مبرر، والحزن من شأنه أن يوجد فى النفس كآبة، وهمّا وغمّا، وكذلك كانت حال موسى عليه السلام عندما علم من ربه أن قومه عبدوا العجل، ولكن الحكمة النبوية توجب ألا يسترسل فى الكآبة والغم، والانفعال، بل لابد أن يعالج الموقف باستنكار شديد وحزم الشر واجتثاثه من أصله، وكذلك فعل، فقال لائما مستنكرا:

﴿يَا قَوْمِ﴾ هذا نداء مقرِّب بأنه منهم يؤلمه ما يضلهم، ويفرحه ما يكون خيرا لهم ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ أى ألم يعدكم ربكم بخيرى الدنيا والآخرة، وهو

وعد حسن يطمئنكم فى حاضركم وقابلكم، ولم يذكرهم بحاضرهم الذى هم فيه، وما كانوا عليه فى الماضى، وحتى لا يصل اللوم إلى المجافاة، ولأن ذلك إنعام عليه وعليهم، ومنزل النعم وهو الله تعالى هو الذى يذكرهم بذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ﴾ استفهام إنكارى، أى لقد وعدكم ربكم وعدا حسنا مع التنديد الخفى، وعبر بـ ﴿رَبُّكُمْ﴾ للإشارة إلى أنه وعد محقق لا محالة. لأنه وعد من الله ربكم الذى خلقكم، وهو القيوم على كل أموركم ومالكم نسيتم هذا الوعد ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ العهد أى الزمن، و«الفاء» هنا سببية، والمعنى فأطال عليكم الزمن فنسيتم الوعد الذى وعده الله، والمعنى أبسبب طول الأمد نسيتم وعد ربكم؟ وهو توبيخ شديد، فإن الزمن لم يطُل، بل كانت الأحداث متلاحقة لا تراخى فيها حتى يكون النسيان، فقد أنجاكم ربكم، وأغرق فرعون، ثم كان الوعد من الله باللقاء، وكانت فتنة العجل على قرب من ذلك.

ثم كانت الجملة الاستفهامية المعادلة ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ نزل بهم، رفقا بهم من المعاندة لله تعالى، وهى مرتقى صعب لا يريد أن يكونوا فيه، إلى المعاندة له هو، وسارع فتبين أنها هى الأخرى، مغاضبة لله تعالى؛ لأنه عليه السلام لا يتكلم إلا عن الله، ﴿أَمْ﴾ استفهامية للمعادلة، و﴿أَرَدتُّمْ﴾ هنا ليست متجهة إلى أن يحل بهم غضب من ربهم، إنما إرادتهم منصب على السبب الذى يفضى إلى حلول غضب الله تعالى عليهم. وفى هذا إشارة ليست خفية إلى أن ما ارتكبوه من عبادة العجل إغضاب لله تعالى، وكفر به، وإن ذلك يؤدى لا محالة إلى أن يحل بهم غضب الله تعالى، وعبر عن الذات العلية بقوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إشارة إلى أنه هو الذى نجاهم من فرعون وأغرقه، وكلأهم بكلاءته ونزل عليهم المن والسلوى.

وقال عن غضب الله بأنه يحل عليهم، والمعنى آثاره من إصابتهم بالبلاء من قتل وذبح وصَغَار فى الأرض، وقد ذاقوه وتمرسوا عليه فى حياتهم فى مصر، وهذا حث على طلب رضا الله تعالى، بدل أن يسيروا فيما يوجب أن يحل بهم غضبه.

وقد رتب الله تعالى حلول غضب الله على إخلافهم موعده فقال: ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ الموعد هنا مصدر ميمى بمعنى الوعد، وإخلاف الوعد ألا يقوموا بموجبه، وقد وعدوا موسى بالاستقامة والإيمان بالله وحده وترك الأوهام الباطلة التى سيطرت عليهم بسبب مقامهم فى أرض فرعون.

وإن هذا الموعد بلا ريب يؤدى إلى إغضاب الله تعالى؛ لأنه يكون إشراكا وتفريطا فى جنب الله، فلابد أن يحل عليهم غضب الله تعالى وأن يعاد إليهم ما ذاقوه من قبل وعرفوه، أجابوا معتذرين عن فعلتهم الكبرى.

﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧)﴾.

نفوا أنهم أخلفوا موعدهم مختارين مريدين، بل كانوا تحت تأثير إغراء شديد وتضليل كبير، وعبروا عن فقدهم لإرادتهم الحرة الخالية من الإغراء بقول ﴿بملكنا﴾ قرئت بفتح الميم ويكسرها وبضمها[1]، والمراد أنهم ما أخلفوا وعدك فى الوحدانية واستقامة النفس والفكر بإرادتهم الحرة المختارة، ولكن بإغراء.

وفى هذا اعتراف بالجريمة، واعتراف آخر بأنهم ارتكبوها وإرادتهم مسلوبة بإغراء شديد، ولو كانوا أمام قاضٍ من قضاة الدنيا لأخذهم باعترافهم، واعتذارهم بأنهم كانوا مغرورين ومخدوعين لا يخليهم من العقاب بل يقرره عليهم ويثبته، فالعبرة فى الجريمة بالاختيار، وقد كان الاختيار من غير إكراه ولا يُعد الغرور إكراها.

وخصوصا أنهم هم الذين قدموا سبب التضليل، وقالوا: ﴿وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾.

الاستدراك هنا استدراك من اعترافهم يتضمن الاعتذار عن ضعف إرادتهم، وضلال نفوسهم، وهو اعتذار سخيف كشأن بنى إسرائيل فى كل الأزمان ﴿حُمِّلْنَا﴾ هذا فعل مبنى للمجهول لم يذكروا من الذى حملهم هذه الأوزار، إنما هم الذين

---

(١) قرأها بفتح الميم: نافع وأبو جعفر، وعاصم غير جبلة، وبضمها: حمزة والكسائي، وخلف وجبلة، وقرأ الباقون بكسر اللام. غاية الاختصار: ٢/ ٥٧١.

حمَّلوها أنفسهم، وهناك قراءة (حَمَلنا)[1]، والأوزار جمع وزر، وهو الحمل الثقيل، ويصح أن يكون حمل بعضنا بعضا ما فى عهدته من زينة القوم أى من ذهبهم، وكون الأوزار أحمالا ثقيلة لا تخلو من إثم؛ لأن الوزر يطلق على الإثم باعتباره حملا ثقيلا على النفوس، كما قال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ (١٣)﴾ [العنكبوت]، وهذه الأحمال كان فيها آثام؛ لأنها من زينة بنى مصر كانوا استعاروها منهم، فما كانوا يملكون مثلها لإيذاء فرعون لهم، وإذلالهم فأخذوا يكثرون من الاستعارة عندما أُذن لهم بالرحيل، وقوله ﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾ أى ألقيناها، ولذا قالوا ﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾، وتدل الروايات على أن قذفهم لها كان فى النار لتصهر، وفعل السامرى مثلهم، وقد كان دبر ذلك معهم، ويروى أنه قال لهم: إن موسى يلومنا على ما أخذنا من زينة القوم فلنلقها فى النار لتصهر ولا يراها.

وإن هذا يدل على أنه كانت إرادة، وإنه كان إصرار على الجريمة، وأنهم سلكوا الطريق إلى أسبابها من أوله إلى آخره.

وإذا كانت الجريمة عبادة العجل، فقد وضعوا السبب الأول لصناعته، وتولى كبر الصناعة السامرى ودعاهم إلى عبادته فعبدوه.

وقد ذكر سبحانه ما صنعه السامرى فقال عز من قائل عنه:

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا (٨٩)﴾.

عندما ألقيت زينة القوم من الذهب، وكانت أحمالا ثقالا، وارتكبوا أوزارا كبارا لأنها كانت عاريات اغتصبوها، وأموالا سرقوها؛ لأن جحود العوارى يعدُّ من السرقات. يقول المفسرون إلا من أدركوا العصر الحاضر، وعلموا أخبار المصريين وصناعتهم، قالوا: إن السامرى رأى الأمين جبريل بعد أن صنع العجل، أخذ قبضة من الأرض التى سار عليها جبريل أو فرسه فألقاها فى المصنوع فصار يخور كما يخور العجل، وسرى فى جسمه ماء الحياة، فصار جسدا له خوار.

(١) قراءة (حملنا) بالبناء للفاعل، وتخفيف الميم: أبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف -غير حفص ورويس- وقرأ الباقون بالبناء للمجهول، وتشديد الميم. غاية الاختصار ٢/ ٥٧١.

ذلك كلامهم وروجـوه بأمرين: بأنه جسد أو له جسـد، والجسد لا يكون إلا للجسم الحى، فلا يقال عن الحجر إنه جسـد، كما لا يقال عن أى جماد إنه جسد، والأمر الثانى: قوله تعالى: ﴿لَّهُ خُوَارٌ﴾ والخوار لا يكون إلا لعجل حى، فما الحيلة فى هذا، لقد أعملوا تفكيرهم مستعينين بالإسرائيليات التى حشرت فى كتب التفسير فانتهوا إلى هذا القول.

ونحن نرى أن ذلك القول غـير معقـول، فإن ملائكة الله تعالى لا تسـير فى صورة حى إلا بأمر من الله، وإلا لنبى، ومـا كان السامرى نبيا، ومـا كان ثمة دليل منقول يقرر ذلك القـول، وما ادعاه السامرى عـندما ناقشه موسى فى هذا البـهتان، وإنه عدَّ ذلك الإفك من تسويل النفس وتزيينها الباطل، فكيف يكون تزيينا للباطل، ويكون بتتـبع آثار جبريل، وأيضـا فإن الحياة تكون بـإذن من الله تعالى، ومع ذلك يقول السامرى ﴿... وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦)﴾.

وإن الأمر المعقـول أن نقول: إن السامرى كما ذكـر ألقى الذهب هو ومن معه ذهب من زينة القوم من بنى إسرائيل ألقوها فى النار فـصهرت حتى صارت سائلا، وبما تعلمه من الصناعات المصرية صنعـه على شكل عجل، ووضعه فى مهب الرياح فدخل الهواء فى خروقـه بصوت الريح فى أجوافه - فصار له خـوار كخوار الثور، وما زلنا نرى فى لعب الأطفال مثل هذه الأصوات فى اللعب.

وما إن رأى الإسرائيليـون هذا حتى قالوا يخاطب بعضـهم بعضا ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾، أى السامرى، ﴿فَنَسِيَ﴾ هنا معناها ترك، فـأطلق النسيان وأريد تركه، ونسب النسيان إليه مع أن عباد العجل جميعا تركوا أو نسوا عبادة الله وحده، ونسوا الحق؛ وذلك لأنه هو الذى أخـرجه بصناعتـه، وفى التعبـير بـ ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا﴾ ما يشير إلى أنه صنعه صناعة.

بقى أن نرد على من فهم أن الجـسد لا يكون إلا جسمـا حيا يجرى فـيه الدم فنقول: إن الجـسد والجـسم لهما مـعنى يشتـركان فيـه، ومعنى يخـتص به الجسم، فالجسم يقال على كل الأشيـاء ما يتجسد ويصور، وما لا يتجسـد ولا يصور فيقال:

إن الماء جسم ولكن لا يقال له جسد، وقد ذكر ذلك الراغب فى مؤلفاته، فقد جاء فيه فى مادة جسد ما نصه:

«الجسد كالجسم لكنه أخص، قال الخليل: لا يقال الجسد لغير الإنسان من خلق الأرض ونحوه، وأيضا فإن الجسد ما له لون، والجسم يقال لما لا يبين له لون كالماء والهواء، وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ... (٨)﴾ [الأنبياء]، يشهد لما قال الخليل. وقال: ﴿عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤)﴾ [ص]، وباعتبار اللون يقال للزعفران جساد وثوب مجسد بالجساد».

وأظن هذا واضحا فى أن الجسد يستعمل كالجسم، والجسم أعم من الجسد.

فقوله تعالى: ﴿جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾ لا يمنع أنه جسم لا حياة فيه، وربما كان التعبير بالجسد مناسبا لقوله تعالى ﴿لَّهُ خُوَارٌ﴾ ولكنه جسم لا حياة فيه.

ولذا قال تعالى فى بيان أنه ليس فيه حياة قط: ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا (٨٩)﴾ الفاء للإفصاح، أى أنهم قالوا ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ﴾ وليس له من صفات الألوهية شيء، ﴿أَفَلا يَرَوْنَ﴾ و«الفاء» مؤخرة عن تقديم لأن الاستفهام له الصدارة، والتقدير فألا يرون أنه لا يرجع لهم قولا، أى يرد لهم قولا ولا يجيبهم فى قول، و«أن» هى المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الحال والشأن، ورَجْعُ القول إجابته فهو لا يرد إجابة سائق يسوقه، ولا قائد يقوده، ولا يعرف قولا كما يعرف الحيوان، فليس فيه أمر يدل على حياته حتى يعد حيا فى أحياء الحيوان، وإذا كان فإنه لا يمكن أن يكون إلها، وإذا كان حيا فلا يمكن أيضا أن يكون إلها، لا يمكن أن يكون إلها لأنه لا ينفع، فهم أخطئوا لأنهم عدُّوه حيا، وكفروا لأنهم عبدوه إلها، فضلوا بذلك ضلالا بعيدا.

موسى وهارون وبنو إسرائيل والسامري

قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ
أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ
إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ
قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ
بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ
فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ
فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ
مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ
عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾

كان موقف هارون وهم يتدلون من مرتبة التوحيد الذى أخرجهم به موسى من ربق الاستعباد والذل إلى مرتبة الوثنية المصرية لتأثرهم بها مدة إقامتهم الطويلة فى مصر ضعفاء مستكينين، والضعيف - كما قال ابن خلدون - شغوف دائما بتقليد القوى لحسبانه أن ما فيه من قوة سببه ما عنده من أفكار وآراء، ولو كانت باطلة فى ذاتها. كان هارون الذى خلف موسى فى قومه موقف المرشد الهادى لا موقف الساكت الممالئ، قال لهم عند تدليهم: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ﴾ قال لهم بمجرد أن رأى منهم عبادة العجل قبل أن يحضر موسى إليهم، وقبل أن يعرف لموسى أمر فتنتهم ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ﴾ أى اختبر إيمانكم بهذه الصورة صورة العجل، والضمير فى ﴿بِهِ﴾ يعود إلى العجل الذى هو موضع الحديث، سلبا وإيجابا شدّا إلى التوحيد، وجذبا

إلى الكفر، وإنما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ﴾، أى أنه ليس له حقيقة أى حقيقة حتى تجعلوه إلها يعبد، ولكنها فتنة نفوسكم التى أثرت فيها إقامتكم فى أرض الفراعنة.

قال لهم نبى الله هارون عليه السلام ذلك فى إبانه، فما قصر فى إرشاد، ولكن لم يؤثر فيهم ذلك القول، كما لو كان من موسى عليه السلام؛ لأن موسى الأصيل فى الرسالة، وهارون ردء له، فلم يكن له تأثيره، وكأنهم لا يقرون برياسة إلا لموسى، ومع أنه قرر حقيقة بدهية، وهى أن ربهم الرحمن، وطالبهم بأن يتبعوه ولا يخالفوه فى أمر، مع ذلك أعلنوا ما يفيد أنهم لا يعترفون إلا بموسى رئيسا مطاعا، وقبل أن ننقل قولهم الذى أفاد إصرارهم نقول أولا: إن هارون ناداهم بما يقربهم إليه ويؤنسهم به، فقال: ﴿يَا قَوْمِ﴾ فهذا إشعار بالرباط الذى يربطهم به نسبا، ويدنيهم إليه. ويقول ثانيا مؤكدا الفتنة التى يجب أن يتركوها، والمفتون تزول فتنته عند أول تنبيه إليها، ومع ذلك لم يتركوها ويعودوا إلى الصواب الذى يوافق العقول، ويذكر ثالثا وينتقل من هذا الإرشاد إلى الأمر الذى يجب أن يأخذوا فيقول: ﴿فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ وكان يجب أن يطيعوه لأنه رسول مع موسى وردؤه، ومخالفته مخالفة لموسى، ولكن رجس الوثنية قد ثبت فى نفوسهم، ولا ينخلع منه، و«الفاء» فى قوله ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ هى لترتيب هذا الأمر على أن عبادة هذا الصنم فتنة وأن ربكم الرحمن وحده، وعبارة ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ تفيد القصر أى لا معبود غيره لأنه الرب الخالق المدبر لشئونكم الحى القيوم.

﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ العكوف الإقامة للعبادة فى معبد أو مسجد أو غيره، و﴿لَن نَّبْرَحَ﴾ من الأفعال التى تفيد الاستمرار على الحال التى هم عليها، ولابد أن يسبقها حرف النفى، مثل أخواتها: «ما انفك، وما فتئ، وما زال»، والنفى بـ «لن» لتأكيد بقائهم على ما هم عليه من ضلال، فإذا كان هارون قد بلغ أقصى الغاية فى إرشادهم فقد بذلوا أقصى الغاية فى المعاندة، وقولهم ﴿عَلَيْهِ عَاكِفِينَ﴾ أى مقيمين على عبادته. وتقديم الجار والمجرور لإفادة الاقتصار على

عبادته وحده، فلا يعبدون معه غيره، ولو كان الله الرحمن الرحيم، متأثرين فى ذلك بقول السامرى لهم: إن هذا إلهكم وإله موسى.

وقد ذكروا النهاية التى إليها ينتهى ضلالهم: ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾.

هكذا كان هارون موحدا غير ممالئ، وما كان لنبى أن يعتنق غير التوحيد، ولا أن يمالئ المشركين، ولكنها التوراة التى فى أيدى اليهود جميعا لعنهم الله تقرر أنه مالأهم وعبده كما عبدوه، وتلك فرية على نبى الله تليق بقوم مفترين، ولا تليق بكتاب منسوب لله تعالى، ولكن النصارى واليهود يؤمنون بذلك.

جاء موسى غضبان أسفا، ووجه اللوم ابتداء إلى أخيه يحسب أنه قصر فى التوجيه والإرشاد، وما قصَّر، وكان كما يظهر من قوله أنه كان يرى أن يتبعه إلى المكان الذى ذهب إليه، ورأى هارون أن يبقى معهم، ويكرر إرشادهم، ويرقب حالهم: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣)﴾.

خاطب موسى ردءه وأخاه هارون بتعاطف، فناداه باسمه نداء الأخوة المحبة الأليفة، ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ لهذا الضلال المأفون الأحمق، و«إذ» للظرف الماضى أى: ما منعك وقت ضلالهم ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾، قالوا: «لا» زائدة، ونحن لا نرى فى القرآن حرفا زائداً، فهو كلام الله تعالى المنزَّه عن الزيادة، بل كل كلمة فى موضعها، ونقول: إن المنع بمعنى الحماية، ومنه مكان منيع وحصن منيع. وفلان ذا منعة، أى حماية.

وبتخريج النص السامى على هذا المعنى يكون كلام موسى لأخيه: ما منعك ألا تتبعنى، ما الذى جعلك ذا منعة وحماية على ألا تتبعنى، ويكون المعنى العام للنص ما النصير لك جعلك منيعا على ألا تتبعنى، كأنه يقول له: إنك معاونى وناصرى، فلماذا لا تتبعني؟ أصرت ذا قوة تحميك وتمنعك، وتجعلك منفصلا عنى، وأنت لى ردء ومعاون غير ممانع، ولذا أردف هذا بقوله: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ «الفاء» لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى فباعتمادك وحمايتك من غيرى عصيت أمرى، وقد قال الأصفهانى فى مفرداته: ويقال المنع فى الحماية، ومنه مكان منيع، وفلان

ذو منعة أى عزيز ممتنع على من يرومه قال: ﴿... أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [النساء]، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴿١١٤﴾﴾ [البقرة]، ﴿... مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ ... ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف]، أى حملك، وقيل ما الذى حملك وحدك على ترك ذلك.

وهذا قريب مما ذكرنا فى قوله: ﴿... يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾﴾ والله أعلم بمراده.

وإنه فى هذه الآية يبدو متعاطفا مع أخيه أو غير منافر له، ولا غاضب عليه، وفى سورة الأعراف بدا غاضبا شديد الغضب على أخيه، فقد قال الله تعالى: ﴿... بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأعراف].

هذا ما جاء فى سورة طه، وذلك ما جاء فى سورة الأعراف، والتوفيق أن أخذ رأس أخيه يجره كان فى فورة الغضب، والرفق والتعاطف بعد سورة الغضب وحدته، وقد هدأ وسكن وعلم أن هذه نفوس بنى إسرائيل.

ولقد أجاب هارون أخاه موسى بعد أن هدأ واطمأن، وذهبت عنه حال المفاجأة التى فاجأه بها قومه:

﴿قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾.

فى هذا إشارة إلى أنه أخذ بلحيته، كما ذكر فى سورة الأعراف وقت فورة الغضب، وكان ذكرها على لسان هارون نوعا من عتب رفيق لطيف فى مودة واصلة غير مفرقة.

كان النداء لأخيه ﴿يَا بْنَؤُمَّ﴾ وفهم من هذا بعض المفسرين أنهما كانا أخوين لأم، وإلا قال: يا بن أبى، وإنا لا نحسب أن هذا يدل على ما قالا، وإنما يدل على كمال الحنو، وكمال العطف والمودة والرحمة الغافرة الراضية، فإن هذا يشير إلى أنهما اجتمعا على ثدى واحدة ودرّ عليهما غذاء واحد، وجمعهما عطف أموى واحد وأنهما تغذيا عاطفيا بغذاء واحد، فإذا كانا قد انفصلا أحياء، فإن كليهما قطعتان من أم واحدة، وأحسب أن ذكر الأب الواحد لا يتضمن كل هذه المعانى، ولذا قال النبى ﷺ لرجل سأله قائلا: يا رسول من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك»، قالها ثلاثا، وفى كل مرة يقول: «أمك»، حتى إذا قال الرابعة: قال: «أبوك»[1].

﴿لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي﴾ هذا نهى ليس للزجر، ولكن للمحبة وللحق، وللبراءة من الاتهام والمؤاخذة، وقوله ﴿وَلا بِرَأْسِي﴾ يحتمل أنه كان قد أخذه فى غضبه من شعر رأسه، ويحتمل أنه ذكر رأسه كناية عن تفكيره وعمله، ويكون بذلك كنَّى عن عمله وقوله برأسه التى يفكر بها ويرى ويبصر. وعلَّل سكوته بعد إرشادهم وعدم اللحاق به أو استعمال العنف فيهم بقوله: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ أى إنى لم أعنف معهم، ولم ألحق بك بل أخذتهم بالرفق خشية أن يتفرقوا، وخشيت أن تقول لى إنى أوقعت فرقة بينهم، وفى الفرقة يكون التلافى والمقاومة، فيقاوم كل فريق الآخر فى قوله، فتكون المجادلة، ثم المحادَّة، ويضل فريق، ويهتدى فريق، وإنهم بلا شك قد انقسموا: فريق ضل، وفريق هداه الله، فلو قاومت الضالين، لكانت الحدة والمنازعة والمهاترة، فتركتهم حتى تجىء أنت من لقاء الله تعالى، فيكون معك نوره، فتكون الهداية.

وخشيت أن تقول ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ أى لم تلاحظ قولى اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين، وإنه بلا ريب لو تفرقوا وكنت سببا فى هذا التفرق لكنت من المفسدين، فالتفرق فى ذاته فساد وضلال، وإذا كانوا قد ضل بعضهم فهدايته ممكنة وعودته إلى الحق قريبة، ولكن عند التفرق يكون التعصُّب، وتكون

(١) سبق تخريجه.

الفتنة بينهم فى جموعهم، وهى تزيد فتنة العبادة حدَّة، فلا يمكن حينئذ أن يجتمعوا، إذ تتسع هُوَّة الافتراق.

وبعد أن تعاتب الأخوان وتراضيا، وطلب موسى أن يغفر الله له ولأخيه اتجه إلى مصدر الداء، فقال له:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦)﴾.

قال موسى متجها إلى السامرى الذى أحدث هذه الفتنة الطحناء، وأوجد ذلك الخطب الخطير فى قوم يعبدون الله تعالى، وقد رأوا آياته فيهم أنفسهم، فكانوا أحق الناس بتوحيد الله سبحانه وتعالى.

﴿فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ «الفاء» للإفصاح، أى إذا كان هذا هارون الرسول معى، فما شأنك الخطير الذى كان فى ذاته خطبا، وناداه باسمه ليفيض بنفسه بين يديه، ولا يرهبه ولا يفزع، فلا يكشف كل ما فى نفسه.

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾، أى فطنت لما لم يفطنوا، فإن الإبصار يكون بالعين البصرة، والبصر الذى هو مصدر يبصر يكون بالقلب والعقل والفكر، وقد كان السامرى فطنا يعلم صناعة التماثيل، وكان له فى ذلك مهارة فائقة كالمتخصصين فى هذه الصناعة، وقد قيل إنه صنع من قبل تمثالين من شمع أحدهما لثور، والآخر لثورة، ولعله صنعهما أمام موسى ليعلم موسى مقدار ما بصر به من صناعة التماثيل.

وقوله تعالى: **﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾** والأثر ليس هو أثر جبريل، ولا فرس جبريل، ولكنه أثر معنوى، والرسول ليس هو جبريل، فلم يجئ ذكر لجبريل فى هذا الموضوع حتى يراد بالمعرف بـ «أل»، إنما الرسول الذى تكرر ذكره بالرسالة هو موسى كليم الله، وأثر موسى كليم الله تعالى هو دعوته إلى التوحيد، وإلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، فذلك هو أثر موسى وهو أثر كل رسول

برسالة سماوية من الله تعالى ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾، أى ألقاها فى مهب الريح، كما تلقى النواة وترمى، واستبدل بالتوحيد الشرك والكفر، وأن يكون على دين من يعبدون البقر لعنهم الله تعالى، وقد بين بعد ذلك أن هذا من هوى النفس وليس قائما على منطق من عقل، ولذا قال: ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾، أى كذلك الذى رأيتم من فتنة بنى إسرائيل بهذا التضليل زينت لى نفسى، ومعنى التسويل أنه تردد فى هذا الأمر بتساؤل نفسى حتى أختار ما أختار وزينته وحسنته. كان لابد له من عقاب يكون به عبرة فى الدنيا، وعقاب الآخرة ثابت له.

ولذا ذكره موسى الكليم بعقاب فى الدنيا، وترك عقاب الآخرة لربه الأعلى.

﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧)﴾، «الفاء» كما ذكرنا للإفصاح عن شرط مقدر تقديره: إذا كان هذا ما صنعت، فاذهب إلى آخره، وقد ذكر له عقابين كما أشرنا عقاب الدنيا وعقاب الآخرة، فأما الدنيا، فقد قال فيه: ﴿فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ﴾ أى فإن الذى يبقى لك فيه أن ينفر الناس منك، وأن تكون فى حال من يمسك فيها يؤلمك أشد الإيلام، فإذا لقيت الناس قلت: لا مساس، أى لا تمسونى، وإن ذلك يدل دلالة قاطعة على أن المساس يؤلمه، فهو مرض يصاب به، ويكون عبرة بين الناس بآفته.

وأقوال الزمخشرى تتجه إلى أن قوله لا مساس منع من مخالطة الناس، حتى لا يجرهم إلى الضلال والفتنة، وقال فى ذلك: عوقب فى الدنيا بعقوبة لا شيء أطمَّ منها وأوحش، وذلك أنه منع من مخالطة الناس منعا كليا، وحرم عليه ملاقاتهم، ومكالمتهم، ومبايعتهم، ومواجهتهم، وكل ما يعايش به الناس بعضهم بعضا، وإذا اتفق أن يماسّ أحدا رجلا أو امرأة حم المماس والممسوس، فتحامى الناس وتحاموه، وكان يصيح: لا مساس، وعاد فى الناس أوحش من القاتل اللاجئ إلى الحرم، ومن الوحش النافر فى البرية، هذا هو عقاب السامرى فى الدنيا نفرة من الناس، ونفرة منه لمرض ألم به، ومنع من الناس، ونرى الأول كما أشرنا.

وأما العقاب الأخروى فقد ترك أمره لله تعالى، وقال له موسى ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ﴾ أى أنه جاءٍ لا محالة، وهو يوم البعث.

واتجه موسى إلى مادة الجريمة بعد أن اتجه إلى المجرم، وهو صورة العجل، أو تمثاله فقال: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ أمره موسى أن ينظر إليه لبيان أنه ليس شيئا يعبد، فإن المعبود باق يدوم ولا يفنى، وأمره بالنظر إليه مع التعبير بأنه إلـهه الذى يعبده تهكما به، وبمن اتخذه إلها ﴿الَّذِي ظَلْتَ﴾ مخفف من ﴿ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾، أى ظللت مقيما عابدا لله وحده ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ يقال حرَّق الشيء إذا برده بالمبرد، حتى صار ذرات تنسف، ومن ذلك قولهم: يحرق الأُرَّم، وإنه بعد بَرْده ينسف فى البحر نسفا أى يلقى فى البحر ذرات غير متجمعة ولا مجموعة، ومن الخطأ أن يفسر ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُ﴾ بمعنى الإحراق بالنار؛ لأن النار تذيب الذهب وتصهره، ولا تجعله ذرات تنسف، ولأن اللغة تفسر التحريق بالبرد بالمبرد، وهو المعقول المناسب للمقام، والمتفق مع السياق وكلمة النسف.

الواحد الأحد، وعاقبة جحوده

إِنَّمَآ
إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾
كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا
ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا
﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ

﴿فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾

بين الله سبحانه بعد أن كشف موسى لبنى إسرائيل بطلان عبادتهم تمثال العجل الذى عبدوه، وما نزل بمن ابتدع عبادته، ومآل ذلك التمثيل، أخذ يبين المعبود الحق، والإله الذى توافرت فيه أسباب الألوهية مخاطبا الناس أجمعين قريشا وغيرهم من الخليقة وبنى إسرائيل وسواهم، فقال عز من قائل:

﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ﴾ أكد سبحانه وحدانية الألوهية فى الله جل جلاله بثلاثة مؤكدات أولها: ﴿إِنَّمَا﴾ فإنها تدل على الحصر، أى أنها تدل على أنه لا إله غيره، والثانى: بتعريف الطرفين ﴿إِلَهُكُمُ اللَّهُ﴾ جل جلاله فإلهكم معرفة، والله جل جلاله معرفة. والثالث بقوله: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ هذا التأكيد كان من مقتضى الحال؛ لأنه تعقيب على قول ناس ضلوا ضلالا بعيدا، حتى بلغ بهم الوهم أن صنعوا تمثالا بأيديهم، وعبدوه، فكان فعلهم بهتانا عظيما بهتوا به العقول والمدارك، وعندما يشتد قول الباطل يكون من مقتضى الحال أن يؤكد بيان الحق ليمحو الأوهام.

ولقد ذكر سبحانه بعد ذلك السبب فى أن الله وحده هو الإله، فقال: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، أى وسع علمه كل شيء فهو سبحانه وتعالى يعلم الوجود كله من مبتدئه إلى منتهاه ومآله ولا يكون ذلك إلا للخالق المدبر سبحانه وتعالى، فالله تعالى كان الإله وحده؛ لأنه خلق كل شىء وحده، فلا يشاركه فى خلقه أحد، وهو بهذا ليس من نوع ما خلق، بل هو مخالف لكل الحوادث التى أنشأها، وغيره منها، فهو بمقتضى حكم العقل المعبودُ وحده، ولا معبود سواه؛ لأن ما عداه حجرا أو شخصا أو تمثالا ناقص محتاج إلى غيره، ولا يعبد إلا الكامل واجب الوجود المطلق.

وقوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ﴿عِلْمًا﴾ فيه تمييز محول من فاعل، أى وسع علمه كل شىء، وكان ذلك التحويل من فاعل إلى تمييز لتمكين نسبة العلم إليه سبحانه إذ إن فى الإبهام فى ﴿وَسِعَ﴾ وبعده البيان تمكين فضل.

ويشير سبحانه وتعالى إلى حكمة القصص وعبرته فيقول عز من قائل:

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا (٩٩)﴾.

الإشارة إلى القصص الذى قصه الله تعالى من أخبار موسى وفرعون وبنى إسرائيل وكيف سيطرت الأوهام ودافعت العقول حتى حلت فى العقول، وكيف طغى فرعون وتجبر وذبح واستضعف، وكيف نجى الله بنى إسرائيل من عذابهم، ثم كيف غلب الوهم القديم فدخل العقول بعد فضل الله عليهم.

و﴿كَذَلِكَ﴾ فى قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ الجار والمجرور متعلق بـ ﴿نَقُصُّ﴾ والتخريج يكون هكذا: ونقص عليك من أنباء ما قد سبق مثل ذلك القصص الكاشف المبين لمنابت الضلال عند من يضلون، وينابيع الهداية التى يستقون منها الحقائق سقيا.

والأنباء جمع نبأ، وهو الخبر الخطير ذو الشأن العظيم، وأى نبأ أعلى من العبرة من أنباء فرعون ذى الأوتاد، وموسى كليم الله، وبنى إسرائيل الذين كانوا المثل فى طرق الهداية والتمرد عليها، والانفلات منها بأوهامهم التى يتوهمونها.

وقال سبحانه: ﴿مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ «من» للتبعيض، أى بعض أنباء ما قد سبق، وأكد الله تعالى سبقهم بـ «قد» ليتعلم أهل مكة منها، وأنهم ضلوا كما ضل هؤلاء وستكون العقبى عندهم كالعاقبة التى حلت بهم، وأنه ينزل بهم ما نزل بغيرهم، وبين سبحانه الكتاب المنزل الذى ذكرت فيه هذه العبر، فقال تعالى: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ الذكر هنا هو القرآن الكريم؛ لأنه المذكِّر، وهو رسالة محمد ﷺ، وقد عظَّم الله سبحانه وتعالى القرآن بعبارات سامية، أولا: بأنه عطاء الله

لنبيه ﷺ وبينتـه الكبرى، وذكر أنه من لدنه أى من عنده، ووصفه بأنه مـذكِّر، فهو ذكر القلوب ودواؤها وطبُّها.

ثم قال تعالى فى جزاء مـن يعرض عنه أو يجحد: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠)﴾. القرآن رسـالة النبى ﷺ وحجتـه ومعجزته الكبـرى، فمن يعرض عنه فـقد أعـرض عن رسالة ربه، وعن آياته، وعـصى الله، وعصى نبـيه، وبذلك يرتكب وزراً أى إثما كبـيرا ثقيلا تنوء بحمله القـوى الإنسانية، ويذهب يوم القيامـة وهو حامل ذلك الإثم، ومن ذهب يوم القيامة مـوزورا آثما، فإنه يكون فى عذاب شديد.

وقال سـبحـانه وتعالى ﴿أَعْرَضَ﴾ ولم يقل «كـفر»؛ لأن الإعراض عـن فهم معانيه، وتبصرها وإدراك بلاغته، ووجوه إعجازه يؤدى إلى الجحود، لما اشتمل عليه من خيرى الدنيا والآخـرة، فعبَّر سبحانه بالإعـراض الذى هو سبب الجحود، وأراد الجحـود بذكـر سبـبه، وذلك لتـعظيم شأن الإعـراض وخطره، وما يؤدى إليـه من أضرار، ونقول إنه أراد بالوزر - بمعنى الإثم - عقابه لأنه يكون ثقيلا.

ونكر سبحـانه وتعالى ﴿وِزْرًا﴾ للتهـويل وبيان أنه وزر خطيـر، وإثم عظيم، وعذابه أليم. وقد وصف سبحانه هذا الوزر فقال:

﴿خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً (١٠١)﴾. الضمير فى ﴿فِيهِ﴾ يعود إلى الوزر، وأثره الخطيـر، وهو العذاب الدائم، فـأراد بالوزر عذابه كـما أشـرنا، وهو الجحيم، وذكر الوزر وأريد عـذابه؛ لأنه يكون على قدره من الثقل، والخطر العظيم الشأن بمقداره، فكأنه هو للتساوى بينهما فهو جزاء وفاق له: وهو بهذا حمل سيئ، شديد السوء حتى يتـعجب منه عند الناس، ولذا قال تعالى: ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً﴾، أى ما أسـوأه حملا، لسوء مـغبته، ولأنه يورث السـوء، يورث نار جهنم وحسبها من سوء.

وإذا الوزر وهو الحمل الثقـيل يتساوى مع نار جهنم، وهى بئس المصيـر، فهو وزر ثقيل سيئ، وهو يثير التعجب فـى مآله، وقد حسبوه (هينا)، وهو فى ذاته أمر عظيم.

وقد بين الله تعالى مقدمات يوم القيامة فقال تعالى:

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا (١٠٣)﴾.

﴿يَوْمَ﴾ عطف بيان على قوله ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وإن يوم نفخ الصور هو يوم البعث الذى يقدم بعده يوم القيامة، وهنا ثلاث قراءات فى ﴿يُنفَخُ﴾ فقرئ بالياء المضمومة والبناء للمجهول، وقرئ (ننفخ) وضمير المتكلم لله سبحانه وتعالى؛ لأن النفخ يكون بأمره، والآمر بأمر يعد فاعله، وقرئ (ينفخ) بفتح الباء بالبناء للفاعل، والضمير يعود على الله تعالى؛ لأنه الآمر، والفعل الآمر به كما ذكرنا.

و﴿الصُّورِ﴾ هو البوق، وقد قال الراغب الأصفهانى فى المفردات: «قيل هو مثل قرن ينفخ فيه، فيجعل الله سبحانه ذلك سببا لعود الصُّور والأرواح إلى أجسادها، وروى فى الأثر أن الصور فيه صُوَر الناس كلهم.

وعلى ذلك يكون للنفخ فى الصور معنيان أحدهما: أنه بوق يجمع الله تعالى بالنفخ فيه الأجزاء المتفتتة فى الأرض فتعود صورها وأرواحها، والثانى: أن صور الأجساد المتفتتة فيه ينفخ فيها فتكون أجسادا حية فيها أرواحها.

وعندى أن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ تصوير لجمع الأموات وبعثهم بأنه لا يتجاوز النداء كقوله (كن فيكون) كالقائد ينفخ فى البوق فيجتمع الجند بل إنه أسرع من لمح البصر، إذ يكفى النداء من رب العزة فيجتمع الجميع، وإذا اجتمع الجميع اختص الله المجرمين بالذكر، فقال عز من قائل: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾؛ لأنهم الذين كفروا وعاندوا فكان اليوم عليهم، وعاندوا واستكبروا، وقد قال تعالى: ﴿نَحْشُرُ﴾ أى نجمعهم مكدسين كالأشياء لا كرامة لهم بل مهانين غير محترمين، وقال تعالى فى سوء حالهم ﴿زُرْقًا﴾، وزرقا أى أن أعينهم عميت لأن العين إذا عميت كان سواد حبتها أزرق، وذلك تشويه لها وتشويه للوجه وطمس للعين، ويقول البيضاوى تابعا للزمخشرى: زرق العيون، وصفوا بذلك؛ لأن الزرقة

أسوأ ألوان العين وأبغضها إلى العرب؛ لأن الروم كانوا أعدى أعدائهم وهم زرق العيون، ولذلك قالوا فى صفة العدو أسود الكبد، أزرق العين.

ولعل وصف الزرق بالعمى أقرب من ذلك القول، ولا نحسب أن وصفهم بزرق العيون ذما جيدا فى ذاته.

ونحن نقول إن القرآن الكريم لم يجعل ﴿زُرْقًا﴾ وصفا للعيون، ولكنه وصف لأجسامهم، ولا شك أن وصفهم بأنهم زرق فى أجسامهم ووجوههم وصف لهم بالهلع والفزع، وهو المقصود، فهم هلعون فزعون من هول ذلك اليوم الشديد، والزرقة أقرب إلى السواد، فهى أدلّ على الفزع، ومعناه أنهم يجيئون سودا، ويتحقق قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ... (١٠٦)﴾ [آل عمران].

ويقول سبحانه: ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا (١٠٣)﴾

الخفت: خفض الصوت، و﴿يَتَخَافَتُونَ﴾: يتبادلون الصوت الخافت الذى يكون بين الجهر والإسرار والنجوى، فهو ليس إسرارا ولا نجوى، ولكنه إعلان فى خفت، وهذا التخافت من الهلع والفزع، فإن المفزوع الخائف الهالع يكون كلامه خفيضا من شدة فزعه؛ إذ لا يستطيع أعلى منه، ولأنه يحسب أنه محسوب عليه قوله.

واللبث المتحدث عنه فى أى حال هو، أهو اللبث فى الحياة الدنيا، أم اللبث فى القبور بين الموت والبعث؟ اتجه كثيرون من المفسرين إلى أنه اللبث فى الحياة الدنيا مستمتعين بلذائذها وزينتها وزخارفها، فإنهم يحسبونه زمنا قليلا ويجتمع عليهم ألمان: ألم بشعور قلة متاعهم فى الدنيا، والألم الثانى طول عذابهم فى الآخرة، أى أنهم يدركون أن الدنيا متاع قليل بجوار عذاب الآخرة الطويل، ومهما تكن حالهم فإنهم يستقلون متعتهم التى يحاسبون فيها بجوار الشقاء الذى يلقونه فى دار الجحيم التى يخلدون فيها، ويزكى هذا قوله تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣)﴾ [المؤمنون].

ويتجه بعض المفسريـن إلى أن اللبث فى القبور إلى وقت البعث، وذلك أنهم يحسبون أنهم لبثوا وقتا قصيرا ثم استيقظوا بالبعث.

وإنى أميل إلى ذلك الرأى، فـإنهم وقت البعث لا يحسـبون أنهم قضوا وقـتا طويلا فى القبـور، وذلك من قدرة الله وضـعف الإنسان، والعـشر هى عشـر ليال بدليل حذف التاء، والشهر العربى يعرف بالليالى، وهو لغة القرآن الكريم.

هذا ما يقـدره بعـض النـاس، ويقـدره آخـرون بيـوم واحـد، وهو أمثـلهم طريـقة، ولقد قـال تعـالى ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٤)﴾.

المتحدث هو الله تعالى بضـمير التعظيم، فهو وحده الـعظيم الكبير، وقوله: ﴿أَعْلَمُ﴾ أفعل التـفضيل ليس على بـابه بل معناه العليم علما لـيس مثله علم، ولا فوقه علم، وقوله تعالى: ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾ أى مع تخافتهم وقولهم فى خفت، بصوت غير مسموع إلا لأنفسـهم ليس لأحد غيرهم، وقال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ والأمثل هو الأعدل فى القول وفى الإدراك و﴿طَرِيقَةً﴾، أى طريقة التـفكير، واتجاه إلى الطريق المستقيم ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ «إن» نافية، أى: ما لبـثتم إلا يوما أى يومًا واحدا.

والله سبـحانه تعالى أخـبر عن تخافـتهم فى وقت الفزع الأكـبر، وأنهم فى هولهم يستقلون ما مضى عليهم فى الحيـاة بجوار ما يستقبلون من أيام شداد غلاظ، أو لوجودهم فى قـبورهم غيـر شاعرين لا يعـرفون الزمن الحـقيقى الذى لبـثوه فى القبـور، وذلك دليل قدرة الله - سبحـانه وتعالى - على البعث وحكمـته فى خلق الإنسان.

حال الأرض والسماء والناس بعد البعث

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ
فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾
لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ
لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا
﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ
قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ
عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ
حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾

كان الإحياء فى نظر السائلين سهل بالنسبة للجبال التى هى أوتاد الأرض، فقال تعالى فى بيان أنها هينة عند الله لا تحتاج إلى معاناة بل ﴿يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾، والنسف يقتضى أن يفتتها ذرات تنسف، ويؤكد سبحانه نسفها، وفى تأكيد النسف تأكيد للتفتيت أيضا.

﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ «الفاء» عاطفة، والضمير يعود إلى الجبال أو إلى الأرض على أنها استحضرت فى الذهن عند ذكر الجبال، وقد يعود الضمير على مطوىٍّ فى الذكر مستحضرا فى الذهن، كقوله تعالى: ﴿... مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ... ﴿٤٥﴾﴾ [فاطر] و«القاع» الأرض المستوية، و«الصفصف» الأرض التى لا نبات فيها، أى أن يوم البعث تكون الأرض مستوية لنسف جبالها وملساء لا زرع فيها، أى تزول جبالها ووهادها وزرعها البهيج،

وتكون قاعا صفصفا، ووضح سبحانه وتعالى: ﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ العوج: التعوج. والأمْتُ: التلال الصغيرة، أى تصير الأرض بعد نسف جبالها مستوية لا انخفاض فيها ولا ارتفاع، ويفسر ابن عباس العوج بالميل، والأمت الأثر، وروى عنه أنه قال العوج الوادى والأمت الرابية، وكلها معانٍ متقاربة، وتنتهى جميعها إلى أن الأرض تصير مستوية على نسق واحد، لا تعرف فيها واديا ولا رابية، ولا جبلا ولا تلا، فكل ما كان من فروق تفرق بين أجزائها تزول وتبقى شيئا واحدا، وذلك تمهيد لزوال كل الفروق الذى تكون بين الأشخاص إلا أن يكون عملا صالحا، فإنه يعلى صاحبه، أو عملا سيئًا فإنه يحطه ويرديه.

ويجب أن ننبه هنا إلى أمر ذكره الزمخشرى فإنه قرر أن «العِوَج» بكسر العين يكون فى المعنويات أو ما لا يعرف إلا بالنظر والمقايسات، و«العَوج» بفتح العين ما يكون فى الحسيِّات، ولكنه عبر هنا بما يدل على المعنويات؛ وذلك ليكون النفى شاملا لكل ما يكون علوا، ولو كان العلو لا يعرف بالنظر المجرد، بل يعرف بالقياس وميزان الماء، فهذا العوج وإن كان فى الحسيات لم يعرف بالمقاييس والموازين العقلية.

قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾، أى يومئذ وقت نسف الجبال وأن تكون الأرض قد استوت، ليس بها بناء، ولا ديار ولا حجر ولا مدر، ولا قيعان ملساء، ولا نبات ولا شجر ولا عوج ولا أمت، فى هذا اليوم وفى ذلك الوقت يدعو الداعى فتكون الإجابة من غير اعوجاج كما أن الدعوة لا اعوجاج فيها، فالضمير فى ﴿لَهُ﴾ يعود إلى الداعى، والداعى هو مَلَك وُكِّلَ إليه أمر دعوة الخلق التى يكون بها البعث ويستجيب لها الجميع من غير تلكؤ مسارعين مستجيبين، ونفى العوج عن الداعى باعتبار أن دعوته مستقيمة لا استثناء فيه، وعن المدعوين أيضا باعتبار أن استجابتهم مستقيمة، لا عوج فيها ويستجيبون سائرين فى خط مستقيم لا التواء فيه، فالدعوة حاسمة والاستجابة لا عصيان فيها، ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ﴾ أى خضعت وبدت فيها الاستكانة والخضوع

لله تعالى فكل صوت انخفض، وكل جهارة فى القول، والخضوع ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾، وهو القهار فى ذلك اليوم، ووصف بالرحمة لأنه يوم العدل، والعدل هو الرحمة، فكل يأخذ حقه، ويؤدى ما عليه، ويحاسب على ما قدمت يداه، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، إذا كان ذلك الخشوع خشية من الرحمن العادل ﴿فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا﴾، إلا صوتا خفيّا، وقالوا: إنه صوت وقع الأقدام فلا حديث ولا كلام هلعا وفزعا.

وكل إنسان مقدم على أمر أحس بخطورته، وقد اعترته هيبة اللقاء، وأحس بالحساب ولا يدرى ما الله فاعل به، فالأبرار يستقلون حسناتهم، ويَعُدون أخطاءهم كبائر، والأشرار يعروهم الإحساس بآثامهم وعظم ما ارتكبوا، ويجدون عملهم محضرا، ويعانون ما أنكروه من قبل، وهو البعث والحساب.

﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً (١٠٩)﴾.

«إذ» فى ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تشير إلى يوم ينفخ فى الصور، ويكون البعث المراد يوم الحساب، يجيء كل إنسان ومعه أعماله مسجلة عليه فى كتابه قد سجلت حسناته، وسجلت سيئاته، وجوارحه تنطق بما اكتسبت من آثام وتحوطه السيئات ويحاسب على ما عمل، ولا شفيع يشفع ولا فدية تدفع ﴿إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾، وهذه الشفاعة تكريما للشافع وليست استنزالا لعقاب، أو زيادة فى ثواب، فالله سبحانه يعلم الجزاء حق العلم وإنما هى إظهار لكرامة الكرماء عند الله العزيز الحكيم، الذى علم كل شيء فقدره تقديرا وما قدره فى علمه واقع لا محالة، فإن كان بشفاعة شفيع وقع ما كتب على أنه استجابة لشفاعة اختص بها كريما مكرما.

فالشفاعة بالإذن، ويقال للشفيع اشفع تشفع، فهى لا تكون إلا بإذن من الله ولا تكون إلا لمن ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾، كما قال فى آية أخرى، ﴿... إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ (٢٦)﴾ [النجم].

وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ كأنه لابد من شرطين لقبول الشفاعة وهو إذن الله تعالى، ولا يكون الإذن إلا من مرضى القول مقبول، لأنه تكريم من الله عز وجل لأجل الاستقامة، والعدالة فى القول، فلا يشفع لأثيم،

وقلنا: إن هذا يكون تكريما للشفيع ولرحمة العباد، وهو مقدَّر في علمه المكنون، فالشفاعة لا تغير مقدورا، ولكن تنفذ المقدور، وقوله تعالى: ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ التنكير هنا لتعميم القول لا لتخصيصه، أى رضى الله سبحانه وتعالى له قولا أيَّ قول، أى كان الصادق الأمين عند الله تعالى، ولا يكون ذلك إلا لرسول من المقربين المصطفين الأخيار.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠)﴾.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أى ما هو أمامهم ويستقبلهم، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، أى ما خلفوه وقاموا به من أعمال، هذا تعبير قرآنى يعبر عن الأمور الحاضرة والمستقبلة بأنها بين الأيدى، وكأن فى الكلام استعارة شبَّه الأمور التى تقع فى الحاضر أو المستقبل بما يكون مهيأ بين أيديهم يفعلونه، والأمور الماضية التى عملوها فى الماضى بما خلفهم؛ لأنهم تركوه فكان فى أعقابهم فالله علم أعمالهم، وما تستحق من جزاء، وما قدره من عقاب، وثواب وغفران ورحمة من عنده إنه هو الغفور الرحيم الودود السميع البصير.

﴿وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ الضمير فى ﴿بِهِ﴾ يصح أن نقول إنه يعود على ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ فالله سبحانه وتعالى يعلمه، وهم لا يحيطون بشىء من علم هذا، فالقابل مغيَّب عنهم لا يعلمونه، والحاضر لا يعلمونه علم إحاطة، بل علم الإحاطة عند الله وحده، وكذلك ما خلفهم لا يعلمونه علم إحاطة، والمراد بعلم الإحاطة علم البواعث والغايات والنافع والضار، ونتائج الأفعال وثمراتها وحقائقها وكنهها وما تسره الأنفس وما تعلنه، وقوله تعالى: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ هو كقوله تعالى: ﴿... وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ ... (٢٥٥)﴾ [البقرة].

ويصح أن نقول: إن الضمير يعود على ذى الجلالة، ؛لأن الله أعلى من أن نعرف ذاته، إلا بما يعرفنا به من صفات، والاحتمال الأول أقرب، وبه نقول، والله أعلم.

﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١)﴾.

﴿عَنَتِ﴾ من عنا يعنو إذا خضع، وخشع وخنع، ومنه قولهم عن الأسير أنه العانى، أى الخاضع وهذا الخنوع هل هو فى الدنيا، أم فى اليوم الآخر؟ إنه بلا شك فى اليوم الآخر؛ لأن الله سبحانه هو مالك يوم الدين، وهو مالكه، ففيه لا يكون إرادة إلا إرادة الواحد القهار، وقيل إن هذا فى الدنيا، فإن الله تعالى فى قبضته السموات والأرض فكل الوجود خانع عانٍ له سبحانه.

وأرى أن ذلك فى الدنيا والآخرة: ﴿الْوُجُوهُ﴾ المراد به الذوات كلها، فالوجه يعبر به عن الذوات؛ لأن به المواجهة، وقوله تعالى: ﴿لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾، أى الذى يبقى ولا يموت أبدا، فهو الحى الباقى الذى تذل له كل الوجوه، والقيوم هو القائم على الخلق يدبرهم، وهو القائم عليهم يحصى حسناتهم وسيئاتهم، وهو الدائم الباقى ملك الناس فى الدنيا والآخرة.

ولقد قال سبحانه: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾.

الواو واو الحال، والخيبة: الخسران والفشل والعجز، فهى تشمل فى معناها كل هذه المعانى، وسجل سبحانه وتعالى الخيبة على من حملٍ ظلما، وعبر سبحانه وتعالى عن حمل الظلم أو كسبه بقوله تعالى: ﴿مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ إشارة إلى أنه وزر كبير ينوء به من يحمله، وإنه يحسبه هينا، وهو حمل ثقيل، وهو تنبيه لمن يظلمون مستهينين بالناس مستخفين بأنهم يحملون ثقلا ينوء به الناس أمام الله، وقد نكَّر ﴿ظُلْمًا﴾ للإشارة إلى أن عموم الظلم عبء كبير، والمعنى حمل ظلما أى ظلم.

وفى الحديث الصحيح: «يقول الله عز وجل: «وعزتى وجلالى لا يجاوز اليوم ظلم ظالم»(١) وعن النبى ﷺ: «إياكم والظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة»(٢) والخيبة كل الخيبة لمن لقى الله تعالى وهو به مشرك فإن الله يقول: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان] والظلم قلَّ أو كثر خيبة كل الخيبة، لأن من ينال حقه بظلمٍ خائبٌ أمام الله والناس والحق فى ذاته، وناقص فى إنسانيته، والله أعلم.

---

(١) وعن ثوبان، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يُقبِلُ الجبَّارُ - تَبارَكَ وتَعالى - يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَثْنِي رِجْلَهُ عَلى الجِسْرِ، فَيَقُولُ: وَعِزَّتي وَجَلالي لا يُجَاوِزُني ظُلْمُ ظَالِمٍ، فَيُنْصِفُ الخَلْقَ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ حَتى إِنَّهُ لَيُنْصِفُ الشَّاةَ الجَمَّاءَ مِنَ الشَّاةِ العَضْبَاءِ بِنَطْحَةٍ تَنْطَحُهَا". رواه الطبراني، وراجع مجمع الزوائد: (٨١٤٨١).

(٢) بهذا اللفظ: رواه الدارمي: السير - في النهي عن الظلم (٢٤٠٤)، وهو جزء من حديث رواه أحمد: مسند المكثرين- مسند عبد الله بن عمرو بن العاص(٦٥٤٢).

الجزاء فى الآخرة وعلم القرآن فى الدنيا

وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾

بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى جزاء الأشرار وحالهم عندما يظهر لهم البعث ويرونه عيانا، وقد أنكروه من قبل وشددوا فى إنكاره حتى حسبوه غير معقول، ذكر لهم حال الذين آمنوا به وصدقوه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾، أى من يقوم بالعمل الصالح فى علاقته بربه، فلا يخضع إلا له، ويقوم بالعبادة التى كلفه إياها، وينفع الناس استجابة لأمر ربه ويحب نفعهم، ويكون كما قال النبى ﷺ: «أن يحب الشيء لا يحبه إلا لله»(١) فيكون فى عبادة دائمة حتى فى مأكله ومشربه وملبسه وفى بضعه إذ يفعل ذلك استجابة لله تعالى، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ «الواو» واو الحال، أى والحال أنه مؤمن، فالعمل الصالح لا يعطى حقه من الجزاء إلا مع الإيمان، لأن معطى الجزاء هو الله تعالى، والإيمان هو الإيمان بالله وكيف يثاب من الله تعالى من لا يؤمن بالله تعالى، إنه حائر بائر ليس له مقصد فى عمله، ولا نية يرتجى الخير بها، وقد قال فى الذين كفروا وفعلوا بعض الأمور النافعة فى الدين: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [آل عمران].

(١) سبق تخريجه.

وقوله تعالى: ﴿فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا﴾، هذا جواب الشرط، ومعناه يعطون أجرهم موفورا غير منقوص ﴿فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا﴾ الظلم النقص من العمل أو ثوابه، والهضم معناه الكسر، وقد خاض المفسرون فى الفرق بينهما، وحيثما اجتمعا وجب ذكر الفرق؛ لأنه يجب أن يكون لكلٍّ معنى خاصا به مؤسسا عليه والتأسيس أولى من التأكيد.

ونقرب الفرق بينهما فنقول: إن الظلم هنا هو النقص من الأعمال التى يستحق عليها الثواب، والزيادة من السيئات انتقاص من الأعمال الصالحة، وأما الهضم فهو ألا تعطى الأعمال حقها فتكسر، كما يكسر الطعام فى قلب الهضيم، والله أعلم.

بعد ذلك ذكر الله تعالى القرآن الكريم فى مقام بيان الحق والهداية فى الحياة الدنيا وكيف بقى محفوظا إلى يوم الدين.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣)﴾ قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، أى كهذا الإنزال الذى عاينته ونزل على قلبك قرآنا عربيا، والإشارة لبيان شأنه، والمشبه هو ما قدره الله لك معجزة، والمشبه به هو هذا الذى تذكر به، وهنا نلاحظ ملاحظتين:

أولاهما- أنه هنا عبر بـ ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾، وفى أكثر الآيات كان التعبير بنزلنا، وينزل، فما الفرق ولم كان الاختيار بأنزلناه؟ ونتلمس الحكمة فنقول: إن المراد به القرآن كمعجزة فى ذاته سواء أنزل دفعة واحدة أم منجما، فكان التعبير بأنزلنا، وعندما كان ينزل لبيان الشرع ولحفظ آية آية كان التعبير بنزّلنا، وهنا بيان أنه معجزة وأنه جاء مبشرا ومنذرا ينتفع به المتقون ويذكر به غيرهم ليكون لهم نذيرا.

الثانية: أنه قال ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ وهذه حال منْ ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ وفيه وصفان أحدهما أنه قرآن والثانى أنه عربى، ووصف قرآن يفيد أنه مقروء متلو يتعبد بتلاوته، وأن النبى ﷺ تلقاه عن جبريل بقراءاته وتلاوته، وأنه متواتر بتلاوته وطرق قراءاته، وهو محفوظ بقراءاته وتلاوته، وأن العناية تتجه إلى قراءاته لا إلى تسطيره فهو يحفظ بتواتره جيلا بعد جيل محفوظا فى الصدور، وليس متواترا فقط بكتابته فى السطور.

والوصف الثانى أنه عربى فلا يعد قرآنا ما ليس بعربى، فترجمة القرآن لا تعد قرآنا بل إنه لا يمكن ترجمته قط كما قرر العلماء، وكما هو الحق فى ذاته، وإذا كان قد رُوى عن أبى حنيفة أنه أجاز قراءة الفاتحة بالفارسية فذلك على أنها دعاء لا على أن الترجمة قرآن، ولذا لا تجب سجدة التلاوة بقراءة الترجمة، ومع ذلك فالرواية الصحيحة أنه رجح ذلك، والله أعلم.

وقال تعالى فى شأن القرآن وصفا ثالثا، وهو تصريف الوعيد فيه، من ذكر القصص الذى فيه المثلات، وما نزل بالعصاة، وفيه ذكر يوم القيامة، وما يكون فيه من عقاب وحساب، وفى ذكر الحق فى ذاته، وبيان كماله، وكمال من يتحلى به.

و﴿الْوَعِيدِ﴾ هو الإنذار، وتصريف الإنذار الإتيان به بأساليب مختلفة، كما أشرنا من بيان هول يوم القيامة، أو قصص الماضين، وفيه عبرة لأولى الأبصار، وهول القيامة، والتنبيه للآيات المختلفة الدالة على قدرة الله العلى.

وقال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾، أى صرفنا من الوعيد بطرق البيان المختلفة الصادقة ليكونوا فى حال من يرجى تقواهم وإذعانهم للحق، وتصديقهم له، ويتقون بذلك عذاب جهنم وإغضاب الله تعالى. وينالون رضوانه وهو أعظم الثواب، أو يحدث هذا التصريف لهم ذكرا يذكرهم بعذاب العاصين، ويكون لهم نذيرا، وقد أسندت التقوى إليهم؛ لأنها أمر نفسى يتجهون إليه بعد قيام الدليل، وأما من لم يتعظ فالقرآن يحدث لهم ذكرا وإنذارا ولقد قال تعالى:

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤)﴾.

قال تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾، الفاء للإفصاح عن شرط مقدر تقديره: إذا كان قد أنزل القرآن وصرف من الوعيد ليتقى من يتقى ولينذر من لم يتعظ، فإن هذا يدل على علوه وكمال حكمته. (تعالى) معناها بلغ فى العلو أعلاه، وقد تعالى فى ذاته وصفاته فليس كمثله شىء، وهو منزه عن الحوادث ومتصف بصفات الجلال والكمال، وهو الملك النافذ الأمر فى خلقه، والمبدع لهذا الوجود

الذى لا سلطان لأحد سواه، وكل سلطان لأحد فى الأرض مضطرب ينتهى إلى زوال، ومحاسب عما يفعل، ومجزى على عمله، وتدبيره وفكره العملى، فالله هو الملك الحق الثابت الذى لا يكون فوقه أحد، وهو العدل الذى يقدر كل شىء حق قدره.

هذا هو الله خالق السموات والأرض وما بينهما، وهو الذى يملك ميزان هذا الوجود: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِن بَعْدِهِ ... ﴿٤١﴾﴾ [فاطر].

ولقد ذكر سبحانه نزول القرآن فقال عز من قائل: ﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾.

كان النبى ﷺ يساوق الأمين جبريل فى قراءته عندما يوحى إليه بالقرآن فنهاه الله تعالى عن ذلك، وقال هذا النص السامى له تعليما عند تلقى القرآن الكريم، وقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾، أى من قبل أن ينتهى وحيه إليك ويحكم بترتيله وتلاوته، حتى ينقله إلى أمته مرتلا فيتوارثوه مرتلا، وذلك كقوله تعالى: فى سورة القيامة : ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة]، وقرءانه الثانية معناها تلاوته وترتيله، كما قال تعالى: ﴿... وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴿٤﴾﴾ [المزمل]، وكما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان].

هذا تعليم من الله تعالى لنبيه فى أمر يتعلق بمعجزته الكبرى ليتحقق حفظ الله تعالى كما وعد، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر]، وقد نبه سبحانه نبيه إلى ذلك العلم، وأمره بأن يطلب الزيادة فى العلم؛ لأن كمال الإنسان فى العلم وطلب الزيادة فيه فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ الأمر للنبى ﷺ بأن يطلب الزيادة فى العلم بالضراعة إليه سبحانه، وبالسعى فى طلبه، قال الزمخشرى فى هذا المقام: «هذا الأمر متضمن للتواضع لله تعالى، والشكر له عندما علم من ترتيب

التعليم أى علمتنى يا رب لطيفة فى باب التعليم، وأدبا جميلا ما كان عندى، فزدنى علما إلى علم، فإن لك فى كل شىء حكمة وعلما، قيل: ما أمر الله تعالى رسوله بطلب الزيادة فى شىء إلا فى العلم».

نسيان آدم وعزمه

وَلَقَدْ عَهِدْنَآ
إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا
لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ
﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا
مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾
وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ
ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ
لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا
يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾
ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا
جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى
فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾

هذا وصف الله للطبيعة الإنسانيـة أنها تنسى، وأنها إذا لم تذكّر بشرع من الله يقـوى الإرادة برجاء الثـواب وخوف العـقـاب، لا تكون للإنسان عـزيمة، وآدم أبو

البشرية فى هذا الوقت الذى نسب الله تعالى إليه أنه نسى، ولم يجد له عزما، كان وهو على الفطرة الأولى التى لم يكن فيها شرائع مدونة قد جاء بها رسل، ولم يكن قد تسلط عليه إبليس اللعين، وتسلط على ذريته، وكل هذا التسلط منه على ذرية آدم بعد أن هبط من الجنة إلى الأرض.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ﴾، أى من قبل الشرائع والرسل، أى من قبل أن يقع، والمعنى عهد الله تعالى لآدم قبل أن يوسوس إليه الشيطان، وهذا العهد هو أمر الله وتكليفه، وإن لم يكن فى دار تكليف، وكل أمر من الله تعالى هو عهد بين العبد وربه، وذلك العهد هو قوله تعالى: ﴿... وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة]، ولقد بين الله تعالى أن ذلك عهد مؤكد، وقد أكده سبحانه بـ «اللام»، وبـ «قد»، وبإضافة العهد إليه سبحانه وتعالى، وأنه وثق على آدم أشد توثيق، ولقد ذكر سبحانه وتعالى وصفين لآدم أحدهما إيجابى، والثانى سلبى، أما الأول فهو النسيان فقد قال: ﴿فَنَسِيَ﴾ «الفاء» للعطف. ونسى منصبة على العهد، أى فنسى العهد، ووقع فى المحظور الذى حذره منه، وليس ذلك ما يكون غضاضة على آدم، لأن الله تعالى يصف الطبع الإنسانى، وأنه يعرض له النسيان وتعرض له الغفلة، وما يقع فى ما ينهى عنه إلا وهو ناس غافل، الأمر الثانى، وهو السلبى ذكره سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾، أى عزيمة صادقة تحزم أموره وتقطعها، وعبر سبحانه بهذا القول : ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ فى الأمر الواقع، والله تعالى يعلم به من قبل أن يقع، فقد قدر الله تعالى كل ذلك، وعلم ما وقع قبل وقوعه فكيف يقول: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ وهو الذى خلقه وصوره وقدره، ونقول: إنه وجده واقعا، وهو يعلم علما أزليا لأنه هو الذى خلق وصور.

وإن إبليس وذريته يجيئون إلى ذرية آدم، من نسيانهم وغفلتهم، ونقص عزيمتهم، كما جاء إبليس اللعين إلى أبى الإنسانية من جهة نسيانه، وأنه لم يكن له عزم مانع، فليحذر الناس بعد أن جاءتهم الشرائع من وسوسة إبليس وذريته.

ولقد ابتدأ الله سبحانه وتعالى جزءا من قصة آدم يصور كيف بدت عداوة إبليس ونسيها آدم ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦)﴾.

و﴿إِذْ﴾ مفعول لفعل محذوف تقديره اذكر، والخطاب للنبى ﷺ ليعلن لأمته فتستعصم بالحذر من إبليس، كيلا يقعوا فى إغوائه الذى توعدهم إذ قال فى إصرار: لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين.

و﴿قُلْنَا﴾ ضمير المتكلم لله تعالى، والأمر للملائكة، ويظهر أنه كان داخلا فى عموم هذا الأمر سواء أكان منهم أم لم يكن فهو داخل فى عموم الأمر، ولذا كان الاستثناء، فسجدوا طائعين مع معارضتهم ابتداء لخلافته فى الأرض، فلما رأوا أن ربهم فضله عليهم بأن علمه الأسماء كلها ولم يعرفوها هم سجدوا، أما إبليس فقد أبى السجود معارضا لرب العالمين، وهنا ذكر أنه ﴿أَبَىٰ﴾ ولم يذكر سبب إبائه، وذكره فى آيات أخر، وهو قوله خلقتنى من نار وخلقته من طين، ونسى أن الله الخالق، وكان فى استطاعته أن يكون العكس، ولكن الله تعالى فعال لما يريد، لا يُسأل عما يفعل وهم يسئلون.

وقد أخذ يبين الله تعالى العهد وسياقه، فقال عز من قائل:

﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧)﴾.

«الفاء» فاء السببية؛ لأن ما قبلها سبب لما بعدها، فالحكم بأنه عدو لآدم وزوجه مترتب على امتناعه عن السجود وما سوغ له الامتناع، وهو توهمه أنه خير منه، وأنه يحسده على منزلته عند ربه، وأى عداوة أقوى من ذلك، وإذا كانت العداوة قد بدت فتوقَّع الشر، والإيذاء يقترن بها لا محالة، ولذا أكد الله هذه العداوة، فقال: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ وأكد العداوة بـ «إنَّ» المفيدة للتوكيد، وبالجملة الاسمية، وبالإشارة؛ لأن الإشارة متجهة نحو ما بدا منه وهو كلامه وامتناعه عن السجود، فالإشارة تشير إلى سبب العداوة، وإذا ثبتت العداوة فلابد أن يتوقع آدم نتائجها، وهى محاولة إخراجه من المكان الذى كرم فيه وكان السجود والخضوع فيه، ولذا قال تعالى ﴿فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ «لا» ناهية، والنهى

سببه العداوة، وقد أكد النهى بنون التوكيد الثقيلة، وبأن الخروج من الجنة، وأنه يترتب عليه الشقاء، وهنا ملاحظة بيانية، وهو أن النهى كان لهما، ولكن ذكر الشقاء لآدم، ونقول إن الشقاء أيضا لهما، ولكن ذكر آدم وحده، لأن آدم يشقى شقاءين، شقاؤه هو الذى يقع فيه، وشقاؤه إذ يشقى به؛ لأن الرجال يتحملون التبعات عن أنفسهم وعن النساء؛ لأنهم قوامون عليهم، فأوجدت هذا القوامة تبعات عليهم أكثر، وفى طبيعة النساء اليوم تحميل الرجال التبعة حتى على أخطائهن وحدهن.

بين له تعالى المتعة فى الجنة، وهو أنه لا يتحمل تبعات أى أمر، ولا تكليف، فقال تعالى:

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ (١١٩)﴾.

بين الله سبحانه وتعالى بهاتين الآيتين أن فى الجنة كل ما يطمع فيه الإنسان من حياة هينة فيها كل مرافق قوامه الآدمى من أكل وكسوة، وشرب، وإقامة، وفى ذلك إشارة إلى ما يجب أن يطلبه الإنسان، فإذا كفى هذا فقد أوتى الدنيا بحذافيرها، فإن وراء المطامع الأخرى من جاه وسلطان وتحكم المصارع، كما قال على كرم الله وجهه: مصارع الرجال تحت بروق المطامع.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾ أى لا تبرز، وقد ورد عن ابن عمر أنه رأى رجلا مستظلا عن الشمس قال: اِضْحَ لمن أحرمت له[1]، فضحى بمعنى برز للشمس، ولا يضحى بمعنى لا يبرز لها بأن يسكن فى كنٍّ لا يبرز فيها له، أى فى مسكن، والمعنى على ذلك أنك تجد كفايتك فى الحياة فتجد الطعام الذى تأكله، واللباس الذى يقيك العرى، والماء الذى تشربه، والسكن الذى يؤويك وحسبك ذلك وكفى، وقد قال البيضاوى فى هذا النص القرآنى الكريم: إنه بيان وتذكير لما له فى الجنة من أسباب الكفاية، وأقطاب الكفاف التى هى الشبع والرى والكسوة والسكن، مستغنيا عن اكتسابها، والسعى فى تحصيل أغراض ما عسى ينقطع ويزول منها بذكر نقائضها ليطرق بأصناف الشقوة المحذر عنها.

---

(١) ذكره القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٢٥٢.

أى أنه ذكر هذه الكفاية، وهى الطعام والكسوة والشراب والمسكن بصيغة النفى؛ لأن عدمها هو موضع التحذير والمنع، ولأن عدمها هو الشقاء فى الجنة، وقد نفى بذلك أنه لا يشقى فى الجنة إنما الشقاء فى غيرها، وإبليس العدو يعمل على شقائكما وكدحكما، إذ أخرجكما من الجنة فلا تطيعاه، وقد أشرنا إلى أن هذه الأمور يجب أن تكون مطلبك يا آدم، وإن فى طلب غيرها التناحر على البقاء، ومعه الشقاء، وهذه موعظة لمن أراد جنة الدنيا دون شقائها.

وفى الآيتين من أساليب البيان، فذكر المطلب الأساسى الإنسانى ﴿إِنَّ لَكَ﴾ مؤكدا أن له الأكل والكسوة والشراب والمأوى، هذا لك وحده ليس لك غيره، وفى الجنة، ويجب الاقتصار عليها فى الحياة التى تستقبلك.

ولقد جاء إبليس إليهما من وراء هذه الأمور، وهو الخلد.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾.

كان نعيم الجنة نعيما هادئا آمنا، ولكن لم يذكر أنه خالد، ومن كان فى عيشة راضية تمنى أن تكون باقية، فجاء إبليس من ناحية هذه الأمنية، وقال لآدم: هل أدلك على شجرة الخلد، وملك لا يبلى، وسوس إليهما بقول خفى يشبه وسوسة الذهب[1]، وأثار التمنى فى نفسه بقوله: **﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾** الاستفهام هنا للتنبيه أى أن هذه الشجرة التى نهى عن الأكل منها هى شجرة الخلد من أكل منها نال الخلود والبقاء والسلطان والسيطرة، وهذا هو المعنى المذكور فى آية أخرى، إذ قال الله تعالى عنه: **﴿... مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾** [الأعراف]، ومازال بهما يغريهما بالأكل حتى أكلا، ولقد قال تعالى: **﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ... ﴿٢٢﴾﴾** [الأعراف] فكان التدلى بالغرور أن أكلا منها، وكانت العاقبة ليست الحسنى، ولذا قال تعالى:

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾.

---

(١) الوَسْوَسَة و الوَسْواس: الصوت الخفي من ريح. و الوَسْواس: صوت الحلي. لسان العرب- وسس.

«الفاء» عاطفة، أى بعد هذه الوسوسة المستمرة غير المنقطعة أكلا منها، ويلاحظ أنه فى هذه الآية ذكر فيها آدم فقط وفى آية أخرى كانت الوسوسة لهما معا، إذ قاسمهما الشيطان إنه لهما من الناصحين، والآية التى ذكر فيها آدم فقط لا تمنع أن حواء كانت تستمع معه، وأن الإغراء كان لهما؛ لأحدهما بالخطاب وللآخر بالاستماع مع المشاركة فى الخطاب.

﴿فَأَكَلا مِنْهَا﴾ أى من الشجرة التى حرمت عليهما فى قوله تعالى فى الآيات، ﴿... وَلا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥)﴾ [البقرة]، وبمجرد أن أكلا منها بدت لهما سوءاتهما أى عوراتهما، فالعورة يسوء النظر إليها، وليس النظر إليها سارا عند أهل الطبائع المستقيمة، وكشف السوءتين فى هذا الموضع فُهِم منه بعض القارئين للقرآن الكريم أن الشجرة الممنوعة تتعلق بالجنس، ولكن الله تعالى لم يبين ورسوله لم يفسر، فحق علينا ألا نَقْفُ ما ليس لنا به علم.

وقد قال: إنه عقب بدوِّ السوءتين لهما أنهما أخذا يخصفان عليهما الأوراق فقال تعالى: ﴿طَفِقَا﴾ أخذا واستمرا، من جرَّاء كشف عوراتهما واستحيائهما من انكشافها ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾.

ومهما يكن من حالهما التى انكشفت، فإن آدم الكريم عصى ربه الذى خلقه وأمر الملائكة أن يسجدوا له، ولم يكن فى طاعة تقيه ذلك الانكشاف، وتجنبه إبليس ووسوسته ﴿فَغَوَىٰ﴾ أى ضل ووقع فى الغواية والضلال.

وفى هذا الكلام ما يشير، أولا: إلى أن الإنسان يؤتى من ناحية ما يتمنى، وإبليس وذريته يأتون من ناحية أمانيه، وتشير ثانيا: إلى أن الإرادة القوية هى العزم الصادق، وهى التى تمنع أو تقاوم وسوسة الشيطان.

وتشير ثالثا: إلى أن فتنة الجنس أشد الفتن، وقد أُثر عن النبى ﷺ أنه ذكر: أنه ما ترك فتنة أشد من فتنة النساء للرجال(١).

بعد هذا العصيان من أبينا آدم لم يعد له هو وإبليس مقام فى جنة الله، بل لابد أن ينزلا إلى المعترك فى الأرض، ولكن قبل أن ينزل من جنة الله التى لا

---

(١) عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنْ النِّسَاءِ». رواه البخاري: النكاح- ما يتقى من شؤم المرأة(٤٧٠٦)، ومسلم: الذكر والدعاء والتوبة- أكثر أهل الجنة الفقراء(٤٩٢٣).

تكليف فيها إلى أرض التكليف لابد أن يطهره الله من المعصية التى زل فيها بوسوسة الشيطان.

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢)﴾.

التعبير بـ «ثم» العاطفة للترتيب والتراخى، للإشارة إلى البعد بين المرتبتين مرتبة العصيان والغواية ومرتبة الاجتباء والهداية.

والاجتباء الاختيار والاصطفاء، وقد اجتباه ابتداء بأن جعله أول خلقه، واجتباه ثانيا بأن اختاره للاختبار، وتاب عليه من هذه المعصية التى عصاها، فرجع الله تعالى إليه بالمغفرة؛ إذ تاب هو بالشعور بالخطأ، وعاد الله تعالى عليه بالمغفرة، ثم بالهداية بعد ذلك.

وهذا المعنى يشير إلى أن الخطأ فى طبيعة الإنسان، والتوبة خلق المهديين والله تعالى غفور رحيم.

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣)﴾.

القائل هو الله جل جلاله، وقد قدر لهما، أن يكونا مع إبليس فى الأرض حيث التكليف والابتلاء، على أن ينزلا إلى الأرض، وقد طهرهما الله تعالى بعد اختبار، واختار لهما الهداية بعد هذا العصيان وغفر لهما العصيان؛ لأن الجنة لم تكن دار تكليف، قال الله لهما ﴿اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ الهبوط النزول من مكان عال إلى منخفض، ولا شك أن ترك الجنة التى لا تكليف فيها إلى حيث التكليف، فيكون الخير ومعه الثواب، والشر ومعه العقاب، ولا شك أن ذلك هبوط، ولكنه هو سبيل الرفعة مرة أخرى، فالتكليف كما هو نزول، هو طريق للتدرج إلى الرفعة بجهاد التنازع بين العلاقة الروحية والطبيعة الأرضية، فإذا علا بعد هذا الجهاد فقد وصل إلى السماك[1] الأعزل من قوة الإيمان، والهبوط أيضا ذريعة إلى انهواء عميق سحيق فى المعصية، وقد صرح سبحانه وتعالى بأمور ثلاثة بعضها يحتاج إلى توضيح:

---

(٢٢) السِّماكانِ نجمان نَيِّرانِ أحدهما السِّماك الأَعْزَل، والآخر السِّماكُ الرامِحُ، وسمي أَعزلَ لأنه لا شيء بين يديه من الكواكب، كالأَعْزَل الذي لا رمح معه، والرامح وليس هو من المنازل. لسان العرب- سمك.

أولها: قوله تعالى ﴿جَمِيعًا﴾ فإنها توكيد، والتوكيد يكون لرفع احتمال، ونقول: إن ﴿جَمِيعًا﴾ تشير إلى وجود إبليس معهما، وتدل على هذا قوله تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ فما كانت العداوة بين آدم وزوجه، إلا أن تكون الفتنة بين الرجال والنساء، وإنما العداوة هى بين آدم وإبليس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾.

الأمر الثانى: هو الاختبار والتكليف وبيان عاقبة العصيان، ولذا قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى﴾ و«إما» هى «إنْ» الشرطية و«ما» المؤكِّدة لمعنى الاشتراط فى فعل الشرط، وأكدته أيضا نون التوكيد الثقيلة، أى أن إتيان الهدى الهادى مؤكد لا مجال للريب فيه، والهدى يجىء على لسان هادٍ هو رسول من رب العالمين، وهو مبشر لمن اتبع الحق منذر لمن ضل عن سبيله، وإن هذا هو موجب التكليف؛ إذ لا تكليف إلا إذا وجد بيان، كما قال تعالى: ﴿... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥)﴾ [الإسراء].

الأمر الثالث: أن من اتبع هدى الله تعالى فإنه لا يضل ولا يشقى، وكان الشقاء مقترنا بالضلال؛ لأن الضلال يجعل المؤمن فى حيرة لا يدرك فيها حقا، ولا يهتدى، وإن ذلك شقاء أى شقاء، وشقاء الإنسان فى حيرته، وفوق ذلك فإن الضلال يؤدى إلى الشقاء لا محالة فى اليوم الآخر حيث الحساب والعقاب، وإن ثمرة الضلال لا محالة هو العقاب.

ويلاحظ أنه قد ذكر فى هذه الآية الاختبار مجملا، وذكر مفصلا فى سورة البقرة بعض التفصيل، فقال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨)﴾ [البقرة].

حال العصاة

وَمَنْ أَعْرَضَ عَن
ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾
قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ
نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ
وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ
فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾

بيَّن الله تعالى حال الذى هداه الله واهتدى بالهادى الذى أرسله حيث لا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن سماع الهدى فإنه يكون له معيشة ضنكا، يحس فيها بالضيق الشديد الدائم الذى يجعله فى لهج دائم بالحياة أو بنوع منها، وهذا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ الضنك: الضيق، يقال: منزل ضنك أى ضيق، وعيش ضنك، ومعيشة ضنك أى ضيقة، ويستوى فيه الذكر والأنثى والجمع والمثنى فهو وصف لا يتغير بتغير الموصوف.

وهنا أمران يحتاجان إلى بعض البيان، أولهما: أنه عبر هنا عن المرشد بـ ﴿ذِكْرِي﴾ والجواب أن هذا من إضافة المصدر لفاعله فهو تذكير من الله لعبيده، أو باعتبار أن الرسول مبشر ومذكر ومنذر فقط، وأن من ذكر بالهدى له ثوابه إن اهتدى، وإن لم يهتد فعليه إثمه.

ثانيهما: كيف توصف معيشة العاصى فى الحياة بأنها معيشة ضنك، مع أنه قد يكون فى بحبوحة من العيش وفى رغد دنيـوى يفاخر به، ويقول مفاخرا: ﴿... أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الكهف] فكيف يوصف بأنه فى مـعيـشة ضنك؟ والجواب عن ذلك أن الضـيق لا يكون من قِلّة المال فقط، بل يكون فى غـير ذلك؛ لأن من أعرض عن الهدى، وعن ذكر الله لا يكـون فى قناعة راضية، بل يكون فى طمع مستمـر، إذا كان عنده مال وفير استقله فلهب فى كثـيره، ويريد وجاهة الدنيا وسلطان الحياة، فيكون فى ضيق بحـياته، فإن حرم ظنها الكارثة، وهكذا هو يحس بالطلب الدائم، ووراء الطلب الإحساس بالضيق. وتعجبنى فى ذلك كلمة قرأتها فى تفسـير القـرطبى، فقد قـال: «ومعنى ذلك أن الله تعـالى جعل مع الدين التـسليم والقناعة، والتـوكل عليه، فـصاحبـه ينفق مما رزقه الله عـز وجل بسماح وسـهولة ويعيش عيشا رافغـا، كما قال تعالى: ﴿... فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ... ﴿٩٧﴾﴾ [النحل]، والمُعرض عن الـدين مستـولٍ عليه الحـرص، الذى لا يزال يطمع به إلى الازدياد من الدنيا مسلط عليه الشح الذى يقبض يده عن الإنفاق فـعيشه ضنك، وحاله مظلمة، كما قال بعضهم: لا يعرض أحد عن ذكر الله إلا أظلم وقته، وتشوش عليه رزقه».

وفوق أن الإعـراض عن ذكر الله تعـالى تكون النفس فـارغة وحيـث فرغت النفوس عن ذكـر الله كان الظلم، وحيـث كان الظلم كان اضطراب الحـياة، وتوقع الشر والانتـقام فتكون المعيـشة ضنكا وتكون الحيـاة ضيقة لمن يعـرف العواقب. هذا عذاب الإعـراض عن ذكر اللـه فى الدنيا، أمـا فى الآخرة، فـقد قـال تعالى فـيه: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ والمراد أنه لا يملك حجة ولا برهانا يبرر به ما فعل وما وقع منه، وفى هذا استـعارة تمثيلية، فـشبهت حال من تقـوم عليه الحجة ولا يـحير جوابا، بحـال الأعمى الذى لا يبصـر الطريق أين تكون النجاة، بجـامع الوقوع فى الهوة، وعدم البصر بطريق للخلاص أبدا، وإذا كان من فى الدنيا أعمى، فهذا الذى حُشر بين أهل الضلال فى الآخرة أعمى البصيرة وهو أشد ضلالا.

قال وقد رأى نفسه قد عمى عليه الدليل، وضلت عليه السبيل.

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥)﴾.

يسأل ربه لم حشرتنى أعمى، عاجزا عن الدفاع، وقد عميت عن الدليل، ولم أعرف وجهه مع أننى كنت فى الدنيا أبصر القول ومراميه، وأجادل، وأخاصم، وأنازل وأقاوم، والآن أنا مستسلم لمن يقودنى كالأعمى، ونادى بـ ﴿رَبِّ﴾ معترفا بأنه خالقه وبارئه، وقد كان من قبل يشرك بربه فى العبادة، ويضل ضلالا بعيدا.

فيرد الله تعالى بلسان الملائكة أو بإلهام الله تعالى الحق له: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾.

كهذا الإيتاء والحشر أعمى لا تستطيع القيام بحجة فى وقت حاجتك إليها - أتتك آياتنا فنسيتها، أى أنه فى مقابل نسيانك آيات الله تعالى، وتركك إياها كانت غشية العمى عليك وعجزك عن الحجة، وكذلك الذى تركت به آيات الله تنسى أنت فى شخصك وتهمل وتلقى فيما تستحق من عذاب أليم.

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ (١٢٧)﴾ ذكر الله تعالى عقوبتين لمن أعرض عن ذكر ربه أى عن الداعى لذكر ربه، أولاهما: المعيشة الضنك، أى الضيقة التى تضيق فيها النفوس وتطوع للمطامع التى لا تنال، وإن نيلت طلبت غيرها، وقد بين ابن كثير فى تفسيره كيف كان الخلو من اليقين يجعل المعيشة ضنكا، قال ابن كثير فى معنى الضنك: «أى ضنكا فى الدنيا فلا طمأنينة ولا انشراح صدر بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء فإن قلبه لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو فى قلق وحيرة وشك فلا يزال فى ريبة يتردد، فهذا من ضنك المعيشة».

هذه هى العقوبة الأولى وقد أشرنا إليها من قبل، أما العقوبة الثانية، فقد أشار سبحانه وتعالى إليها بقوله عز من قائل: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ وذكرنا أن العجز هو عن الحجة والبرهان، حيث يجب الإدلاء بها، فهو عجز فى موضع

الحاجة، ذانكم عقابان أحدهما فى الدنيا، وهو مشتق من ذات الجريمة فهو عقاب من ذات الفعل، والآخر وهو على ما لم يستعد له من الحساب وقد جاء من إنكار البعث، ولو كان قد آمن به لاستعد له، وما فوجئ به وارتج قلبه، فكان هذا عذابا شديدا؛ لأن اللسان يقف حيث الحاجة أشد ما تكون إليه، والبصر يكون عليه غطاء عند إرادة الإبصار.

هاتان العقوبتان قبل عذاب الآخرة الذى يكون بعد الحساب، وتقدير الجزاء، وهذان العقابان ينالان من أسرف فى أمره، وانغمر فى الشهوات، ولذلك قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾.

كهذا العقاب الدنيوى من إحساس بضنك العيش والضيق فيه والتبرم بحياته والإحساس بفقد الاطمئنان لأى شيء، والإسراف على نفسه باللذات، وبالإحساس بالحرمان المتجدد الذى لا يشبع من لذة، ثم يستكبر الأمور، ولذا تجده يكثر الأنتحار وبخع النفس عند المسرفين فى المعاصى، والمسرفين على أنفسهم بقلقهم، وعدم اطمئنانهم ومع ذلك يكون إحساسهم بسد الطرق فى وجوههم.

فالإشارة فى قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾ وهى إلى المعيشة الضنك، والحشر أعمى ﴿وَكَذَلِكَ﴾ مفعول لـ ﴿نَجْزِي﴾، والتعبير بالموصول ﴿مَنْ﴾ للإشارة إلى أن الصلة، وهى الإسراف، سبب لذلك الجزاء.

وقد بين سبحانه أن وراء هذا العذاب عذابا أشد وأبقى، فقال عز من قائل: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ وهو الذى يكون بعد الحساب، وتقرير أن الجزاء أشد لأنه بالنار، وهو أبقى أى إنهم يكونون فى جهنم خالدين فيها وبئس المهاد.

ولقد ذكر الله تعالى لمشركى مكة ما جاءهم من عبر، وما ساقه من قصص هاد مرشد فقال عز من قائل: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (١٢٨)﴾.

الكلام فى هذه الآية يتعلق بمشركى مكة، و«الفاء» عاطفة على فعل محذوف تقديره مثلا: أيستمرون فى عبادة الأوثان مع قيام العبر الدالة على ضلالهم فلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون.

«هدى» تتعدى بنفسها من غير «لام» فيقال هداه ويهديه، واللام لتقوية التعدية والتنبيه، وبيان الهداية لهم أولا وبالذات، أو نقول إن «يهدى» هنا متضمنة معنى «يتبين»، والمعنى أو لم يتبين لهم كم أهلكنا، والاستفهام هنا إنكارى بمعنى إنكار الواقع، والمعنى لم يعتبروا بمن أهلكناهم فى عددهم الكثير، وهم يشاهدون آثارهم، ويمشون فى مساكنهم، يمرون عليها فى رحلاتهم إلى الشام والعودة منه، ولقد مر النبى ﷺ بمساكن ثمود وهو مار فى غزوة تبوك[١].

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى﴾ إن فى هذه العبر عن القرون الماضية، وهى الجماعات السالفة لعبرة لمن عنده اعتبار، وقال تعالى ﴿لأُوْلِي النُّهَى﴾ والنُّهى جمع نُهْيَة، وهى العقل الذى ينهى عن مساوئ الأفكار ويحث على محاسنها، وكان حقا أن يعتبروا، ولكن ضعفت العقول، وقل الاعتبار.

ولقد كان المشركون لفرط إعراضهم، وصدهم عن سبيل الله يستعجلون العذاب تحديا أو جهلا، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ ... ﴿٦﴾﴾ [الرعد]، ولكن الله تعالى بين أنه قادر عليهم، ولكن لحكمة أخرهم، فقال:

﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾﴾.

«لولا» يقول النحويون: إنها حرف امتناع لوجود، والمعنى على هذا امتنع أن يكونُ العذاب ملازما للجريمة أى مقترنا بها فى الوقوع كما كان بالنسبة للأمم السابقة أو لبعضها، فإنها إذ كفرت بأنعم الله تعالى، وكفرت بنبيها أنزل الله بها عقابه للزوم المسبب للسبب. امتنعت هذه الملازمة بين إثم الكفر وعقابه؛ لوجود كلمة سبقت من ربك، ولأجل مسمى حدده الله تعالى لحكمة، وهو الحكيم العليم، وتلك الكلمة

---

(١) عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: مَرَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْحِجْرِ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ؛ حَذَرًا أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ" ثُمَّ زَجَرَ فَأَسْرَعَ حَتَّى خَلَّفَهَا. رواه مسلم: الزهد والرقائق- لا تدخلوا مساكن. . . (٥٢٩٣)، والبخاري مختصرا: الصلاة(٤١٥).

التى وعد الله بها هى أن النبى محمدا ﷺ خاتم النبيين وأن رسالته باقية، وليس هؤلاء وحدهم المخاطبين، بل من بعدهم أجيالهم وكان محمد ﷺ يرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله، وقد أجاب الله تعالى رجاء محمد رسوله الكريم فجعل من أصلابهم مجاهدين، فكان منهم خالد بن الوليد، ومن صلب أبى جهل عكرمة، وقد جاهد فى سبيل الله وحارب المرتدين، هذه كلمة الله ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ معطوف على ﴿كَلِمَةٌ﴾، واللزام الملازمة بملازمة العقاب لإثم الكفر، واقترانه به اقتران المسبب بالسبب.

ولهذا التأجيل الذى رجاه النبى ﷺ أمره بالصبر فقال تعالى:

فَٱصْبِرْ عَلَىٰ
مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا
وَمِنْ ءَانَآىِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا
تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ
وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ
﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى
ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ
لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن
قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ
فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

بعد هذا الإنذار للمشركين بما كان من هلاك الأمم، وأن الله تعالى أجله للمشركين مع استهزائهم بك وسخريتهم بالمؤمنين، وإيذائهم وقولهم عنك ساحر، وكاهن، وشاعر، ومجنون، وإنه سبحانه وتعالى ممهلهم غير مهملهم: ﴿**فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ**﴾، و«الفاء» للسببية، أى بسبب أن الله تعالى قد أجلهم ولا يمهلهم، اصبر على ما يقولون، أى تحمل ما يقولون، ولا تُلق بالا، ولا تحسبن أن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم لأجل غير بعيد، وهو محقق الوقوع، وما هو محقق الوقوع قريب غير بعيد، ولقد بين الله أن تربية النفس على الصبر تكون بالاتجاه إليه واستذكاره فى كل الأوقات، ولذلك قال بعد ذلك: ﴿**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ**﴾ أى نزِّهه. و«الباء» للدلالة على مصاحبة الحمد للتنزيه، أى نزه ربك عن أن يتركهم، حامدا ربك على أنه أعطاك القوة وهو لهم قاهر، وتفاءل ولا تتشاءم، واعلم أن الله معك غير متخلٍّ عنك.

والتسبيح يراد به التنزيه المطلق المصحوب بالحمد، وذلك مطلوب فى كل وقت أم المراد الصلاة، ولعلها كانت قد فرضت وأن تلك الآيات نزلت بعد المعراج، وهو الوقت الذى فرضت فيه الصلوات الخمس.

إن الآية يمكن أن تخرج على الأمرين، فيصح أن يكون المطلوب بها أن يلجأ الرسول بعد الصبر مستعينا به على اطمئنان النفس وتنزيهه وحده، فى الصباح قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها، ومن آناء الليل وساعاته، وفى أطراف النهار، قبل الزوال وبعده، أى يعمم أوقات الصحو كلها فى تنزيه وتقديس، وحمد، وإن ذكر الله يذهب الشدائد، ويعطى النفس قوة، ويمكنها من الصبر، ويعطيها الاطمئنان والقرار، ولذلك قال تعالى فى ختام النص السامى: ﴿**لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ**﴾ راجيا أنت أيها الرسول أن ترضى وتقبل على تبليغ الرسالة قرير العين غير آبه لهم، ولا ملتفت إليهم.

هذا على أن البيان للتسبيح المطلق والحمد والرضا، وقد يراد بالسياق الصلاة، ويكون فى النص السامى إشارات إلى أوقاتها كما فى قوله تعالى: ﴿**فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨)**﴾

[الروم] ويكون معنى قوله ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ المراد بالأول صلاة الصبح وأنه مستحسن الإسفار بها بأن تكون وقد زال الغلس، وما قبل الغروب هو صلاة العصر، ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ﴾ صلاة العتمة - المغرب والعشاء -، وأطراف النهار تأكيد لصلاة الفجر والمغرب، كقوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة]، فهو تكرار لتأكيد الطلب، وإن تأكيد الطلب فى صلاة الفجر؛ لأنها وقت الهدوء واستجمام النفس واستجماع كل القوى الروحية، وصلاة المغرب يضيق وقتها، ولذلك ورد فى الأثر: المغرب جوهرة فالتقطوها، والفجر قد يتلهى عن صلاته بالنوم، ولذلك من السنة فى أذان الفجر، الدعوة إلى الصلاة خير من النوم.

و﴿آنَاءِ﴾ جمع إنى، ومعناها وقت، أى نزه الله تعالى واحمده فى كل أوقات الليل، وهنا بعض ملاحظات بيانية، أولها: قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ قدم الزمان على الفعل وربط بينهما بالفاء، وذلك لمزيد العناية بالوقت فإنه وقت الهدأة والسكون، والاتصال بالله وحده.

الثانية: أن الفاء فى قوله: ﴿فَسَبِّحْ﴾ لتوكيد الطلب ووصل القول، كقوله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ ... ﴿٣٨﴾﴾ [المائدة]، وقوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ... ﴿٢﴾﴾ [النور].

الثالثة: أن قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ الرجاء فيها من النبى ﷺ لا من الله، فإن الله وحده هو الفعال لما يريد، والعليم الخبير، وإن فى هذا النص السامى تعليما لأتباع النبى ﷺ أن يلجئوا إلى الله عندما تشتد الشديدة.

ولقد روى أن النبى ﷺ كان إذا حزبه أمر لجأ إلى الصلاة[1] وقد قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة]، وإن الذى يذهب بلب اللبيب النظر إلى متع الحياة الدنيا عند غيره.

---

(١) عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: "كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى" حزبه: اشتد عليه وأهمه. والحديث رواه أبو داود: الصلاة- وقت قيام النبي صلى الله عليه وسلم(١١٢٤)، وأحمد: باقي مسند الأنصار(٢٢٢١٠).

فقال عز من قائل: ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١)﴾.

إن الذى يقض مضجع ذوى الأهواء أنهم ينظرون إلى ما عند غيرهم من أسباب المتع والملاذّ، وإنه هو الذى يمنع صبر من يريد الصبر ويتغيًّا الحقائق، ولذا بعد أن أمر الله تعالى نبيه بالصبر نهاه عما يضعف قوة النفس، والإرادة ليصون الرسول ومن معه نفسه، عن الأسباب التى تضعف الإرادة القوية الباصرة، فقال عز من قائل: ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

«الواو» عاطفة النهى عن مد العينين على الأمر بالصبر، وفى هذا النهى شحذ الإرادة لتقوى على الصبر كما أشرنا، وإن المعنى الذى يبدو من النص أنه نهى للنبى عن أن يلتفت النبى ﷺ إلى ما هم فيه من استيلاء على زخارف الدنيا، وزينتها ولا يأخذ نفسه ذلك فيحسب أن لهم به منزلة عند الله تعالى، بل إنه دليل خسرانهم، وإذا كان النهى عن أن يلتفت إلى زينة الحياة الدنيا، فهو أمر له عليه الصلاة والسلام، ومن معه أن يتجهوا إلى معالى الأمور ومعنوياتها عن زخارفها.

وفى الكلام مجاز، فقد عبر سبحانه عن عدم الالتفات إلى ما أعطاهم من زخارف بقوله ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾، أى لا تُطِلْ النظر وتسترسل فيه، وذلك يوجب ألا يلتفت، فشبه حال الالتفات بحال من يمد بصره، وذلك للإمعان فى التأمل وفى ذلك تتبع، ومن ذلك قول النبى ﷺ للفضل بن عباس، وقد أطال النظر فى امرأة «الأولى لك والثانية عليك»(١).

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ «إلى» هى نهاية المد، كأن البصر يكون ممتدا من العين إلى متعهم، وذلك قد يؤدى إلى النظر إليهم غابطًا لهم، وما هم فى غبطة، أو ما يغبطون عليه و﴿أَزْوَاجًا﴾ معناها أشباها متقابلة كبيرة، و﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ مفعول لفعل محذوف أو لـ ﴿مَتَّعْنَا﴾، بتضمينها «أعطينا»، والتعبير عن هذه الزخارف، وغيرها من أسباب القوة الظاهرة بـ ﴿زَهْرَةَ﴾ تدل على أمرين أحدهما أنها كالزهرة، والزهرة عمرها قصير، فهى لا تبقى طويلا، والثانى الإشارة

---

(٢٦) روى الترمذي: الأدب- ما جاء في نظر المفاجأة(٢٧٠١)عَنْ بُرَيْدَةَ رَفَعَهُ قَالَ: "يَا عَلِيُّ لا تُتْبِعْ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ؛ فَإِنَّ لَكَ الأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الآخِرَةُ". قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لا نَعْرِفُهُ إلا مِنْ حَدِيثِ شَرِيكٍ. كما رواه أحمد، وأبو داود.

إلى أن متعة الدنيا بريق لا يكون بعده قوة حقيقية، فهى متع كالسراج المزهر سرعان ما ينطفئ، وما أنت عليه يا محمد لا ينطفئ نوره أبدا.

وإن غاية هذه الزهرات إلى انطفاء، وهى اختبار لهم، ولذلك قال تعالى:

﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾، أى لنعاملهم معاملة المختبرين فيزدادوا طغيانا على طغيانهم. وتنكشف حقيقة أمرهم، ويعرف ما فيهم من غى وشر، والتعدية بقوله ﴿فِيهِ﴾ دون التعبير بالباء، وللإشارة إلى أنهم مغمورين فى فتنة دائمة قد أحاطت بهم فهم يسارعون فيها من جنبة إلى جنبة وقد أحيط بهم.

﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ والرزق هو ما يعطيه الله لعباده من أسباب النفقة وقد يطلق على المعاني؛ لأنها غذاء القلوب وقوت العقول، ويكون ذلك من باب المجاز، وقد رزق النبى ﷺ ومن معه من المؤمنين أنواعا ثلاثة من الرزق أولها وأعلاها وأكملها الهداية، وثانيها: المال الطاهر النقى، والثالث: القوة فى ذات أنفسهم كما بدت فى الجهاد.

وهذا خير؛ لأنه أبقى فى ذاته، وأبقى لأن له جزاء يوم القيامة، وهو النعيم المقيم قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾.

أمر الله تعالى نبيه بالصبر، وأمره بما يقوله، وهو أن يكون مستحضرا لله تعالى منزها له حامدا فى الصلاة وغيرها، ونهاه عما يضعف الإرادة وهو النظر إلى زخارف الدنيا وزينتها، وما عليه أهلها، ثم بين سبحانه أن الصلاة الدائمة المستمرة هى عدة المؤمنين، وعدة الصابرين، وإنه يجب أن يكون المؤمن فى جو الصلاة بأن يكون بيته مقيما للصلوات فقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ قال بعض العلماء: أهل النبى هم أهل بيته أو ذوو قرابته، وذلك ظاهر بيِّن، وأمرهم بجعل بيت النبى جوه كله مقيما للصلاة، والصلاة والصبر توأمان، كما قال تعالى فيما تلونا: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥)﴾ [البقرة]،

وقال آخرون: إن أهل النبى هم الذين اتبعوه، وقد كانوا فى مكة والمدينة أسرته المختارة، حتى إنه ﷺ يقول فى سلمان الفارسى: «سلمان منّا آل البيت»(١) والذى أراه من هذين الرأيين أن أهله ﷺ هم أهله الأقربون الذين يعاشرونه، وأمره عليه السلام أمر لأمته، فالله سبحانه وتعالى يأمر كل مؤمن بأن يقيم دعائم بيته على أركان من التقوى والإيمان، والاتجاه إلى الله تعالى، وإنه لو تربى كل بيت على الإيمان والعبادة والاتجاه إلى الله تعالى، وأول أركان العبادة الصلاة ليتكوّن مجتمع صالح من أسر صالحة.

قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ﴾ الأمر هو الطلب الحازم القاطع، وأمر الأهل حيث يمكن التنفيذ، يكون بالتنفيذ والقدوة فيعلم أولاده وأهله الصلاة ويصلى معهم ويرون فيه الأسوة الحسنة التى يتبعوها، وقد أمره بملازمتها بقوله عز وجل: ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ الاصطبار «افتعال» من الصبر، وهو يدل على أنه يربى نفسه على قوة احتمالها، ورياضة النفس عليها بأدائها كاملة بخشوع وحضور، واستحضار لجلال الله تعالى علام الغيوب، وأنه يراه فى عمله، وإن لم يكن هو يراه.

وإن هذه التربية على العبادة التى أجل مظهر لها إقامة الصلاة فإن الصلاة عمود الدين، ولا دين من غير صلاة، كما أشار النبى ﷺ(٢)، ليست هذه التربية لعائدة تعود على الله تعالى، فإن الله غنى حميد، وإنما لتكوين أسرة صالحة، ومجتمع صالح وجيل صالح، ولذا يقول العزيز الحكيم: ﴿لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ الخطاب للنبى ﷺ وخطابه عليه الصلاة والسلام خطاب لأمته كلها، وهذه الجملة تدل على أن غاية العبادة إصلاح العابدين، ولا يعود على الله منها شىء فهو ليس بمحتاج، والناس يحتاجون إليه، وقد أكد سبحانه وتعالى هذا المعنى بقوله:

---

(١) عن عمرو بن عوف المزني: أن رسول الله ﷺ خَطَّ الخندق من أحمر السبختين طرف بني حارثة عام حَزَّب الأحزابُ، حتى بلغ المذاحج، فقطع لكل عشرة أربعين ذراعا، واحتج المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي، وكان رجلاً قويا، فقال المهاجرون: سلمان منا، وقالت الأنصار: منا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ".

رواه الطبراني، وفيه: كثير بن عبد الله المزني، وقد ضعفه الجمهور، وحسن الترمذي حديثه، وبقية رجاله ثقات. مجمع الزوائد: ٦/ ١٨٩.

(٢) سبق تخريجه.

﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ وإنما الأمر أمر إصلاحكم، وخلاصكم من أعلاق الأرض، ولهذا قال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾، أى والأمر الذى يعقب هذا الأمر بالصلاة، والاصطبار عليها هو للتقوى المهذبة للنفوس الواقية لها من شرور إبليس وعداوته، والتقوى صفة المتقين، وإذا كانت العاقبة لهذه الصفة فهى عاقبة لهم بوجود مجتمع طاهر نقى.

أخذ يبين بعد ذلك إنكار المنكرين، وهو أنهم يحسبون أن محمدا لم يأت بآية تدل على صدقه: ﴿وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ (١٣٣)﴾. الواو واصلة بين هذه الآية، وما كان من المشركين وإسرافهم فى أمرهم وكفرهم بربهم، وحسبوا أنه لم تأتهم آية شاهدة على رسالة محمد ﷺ؛ لأنه لم يأتهم بمثل عصا موسى، ولم يبرئ الأكمه والأبرص، ولم يغرقهم كما أغرق قوم نوح وقوم فرعون.

﴿وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ «لولا» هنا معناها «هلا» الدالة على الحث والتحريض، ويتضمن هذا أنهم ينكرون وجود هذه الآية، وقد رد الله تعالى إنكارهم فقال: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ﴾ سمى القرآن ﴿بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى﴾، وهى كتب النبيين السابقين من توراة وإنجيل وزبور، وما جاء به إبراهيم وإسماعيل وغيرهم من النبيين والصديقين، وهذه البينة هى القرآن، وكان بينتها لأنه الكتاب الخالد الباقى الذى يحمل فى نفسه دليل حجيته، وهو حجة لنفسه، ولكل النبيين الذين سبقوه؛ لأنه معجزة باقية، وهو المسجل لكل المعجزات السابقة، لأنها كانت أحداثا ستنقضى بوقتها، أما القرآن فهو معجزة باقية تتحدى الأجيال كلها أن يأتوا بمثله فهو معجزة المعجزات، وهو سجلها الخالد الباقى، روى فى الصحيحين أنه ﷺ قال: «ما من نبى إلا أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله تعالى إلى وأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»[1] وليس أتباع عيسى وموسى هم الذين سموا اليهود، وسموا أنفسهم

---

(١) متفق عليه وقد سبق تخريجه بلفظه.

النصارى، إنما هؤلاء هم الذين يؤمنون بموسى رسولا نبيا، وبما اشتملت عليه التوراة من شرائع وتبشير برسل من بعده، وأتباع عيسى هم الذين يقولون إنه عبد لله خلقه كما يخلق البشر، وإن كان خلقه من غير الأسباب العادية لتعليم الناس فى عصر كان الفلسفة فيه لا تؤمن إلا بالأسباب والمسببات العادية، فالله تعالى يعلمهم أنه الفاعل المختار المريد، فهل الذين يدّعون أنهم أتباع موسى وعيسى يؤمنون بإيمانهم، وما جاءوا به من شرائع؟ إذن فأتباع محمد هم الكثرة، ومحمد عليه الصلاة والسلام، أكثر تابعا يوم القيامة وإنهم يكفرون بالقرآن آيةً، ويريدون آيةً غيره، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١)﴾ [العنكبوت].

وإن الله لم يأت بالمعجزات الحسية لأنهم كفروا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ... (٥٩)﴾ [الإسراء]، فهم ليسوا طلاب هداية يريدون الوصول إليها، بل هم مكذبون معاندون جاحدون يبررون جحودهم.

وهم إذ جاءتهم الآية كفروا بها، وإذا لم تجئهم أيضا برروا كفرهم بأنهم لم تجئهم آية، ولذا قال تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ (١٣٤)﴾.

إن بعث الرسل كان بمقتضى حكمة الله تعالى حتما لازما، لكيلا يكون للناس حجة، وكانت البينة المثبتة لرسالة الرسول تكون بإرادة من أرسله وهو سبحانه وتعالى المرسِل، والعليم بما يؤمن عليه البشر من آيات تدل على رسالة من أرسله.

ولو أنه سبحانه وتعالى لم يرسل رسلا، وكان الهلاك لقامت لهم حجة، ولذا قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ﴾.

الضمير فى ﴿قَبْلِه﴾ يعود إلى الرسول ﷺ؛ لأن المناقشة مع المشركين، فهو حاضر فى الذهن، وإن لم يكن مذكورا باللفظ، ويصح أن يعود إلى القرآن؛ لأنه البينة المثبتة لكل ما فى صحف إبراهيم ونوح وموسى وعيسى وغيرهم، والمعنى لو ثبت أنا أهلكناهم بكفرهم وضلالهم، وأنهم يعيثون فى الأرض فسادا لقالوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً﴾ يكون قولهم يوم القيامة ضارعا، إذ ينادون ﴿رَبَّنَا﴾ خالقنا والقائم على أمورنا وحياتنا : ﴿لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً﴾، أى هلا أرسلت إلينا رسولا يرشدنا ويعلمنا، ويجنبنا طريق الباطل، ويهدينا إلى الطريق المستقيم ﴿فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ الفاء للسببية، أى بسبب الرسل نتبع آياتك البينات، والمراد الآيات الشرعية التكليفية، أو نتبع خاضعين لموجب ما تدل عليه آياتك فى هذا الوجود كله: ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ﴾ باتباع الباطل والهلاك ﴿وَنَخْزَى﴾ أى نصاب بالخزى والعار فى الدنيا والآخرة.

وإن أمر الشرك وأهله لعجب؛ لأن الضلال إذا سيطر كان العجب، فإذا أرسل إليهم رسول جحدوا وعنتوا معه، وعاندوه ولم تعجبهم حجة لفرط إنكارهم لا لنقص فى الدليل الذى قدم إليهم برهانا ساطعا، وإن لم يرسل وعذبوا، قالوا هلا أرسل إلينا رسول من قبل أن نذل ونخزى، إنه ليس لهم إلا أن يروا عاقبة جحودهم وعنادهم، ولذا قال عز من قائل:

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ (١٣٥)﴾.

الخطاب للنبى ﷺ ومؤدى القول لقد جادلوك وصابرتهم وأحسنت جدالهم، فذرهم واتركهم لعاقبة أمرهم، و﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾ التنوين فى ﴿كُلٌّ﴾ قائم إلى مقام مضاف محذوف تقديره مثلا كل فريق متربص، أى منتظر عاقبته ليراها محسوسة معلومة، وإن كانت الحقيقة معروفة للنبى ﷺ، وهذا كقوله تعالى: ﴿... وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٤)﴾ [سبأ].

﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾.

«الفاء» تنبئ عن شرط مقدر، فإذا تربصنا فستعلمون من أصحاب الطريق المستقيم، فالصراط هو الطريق السوى أى المستقيم، ومن وصل إلى الهداية وإلى الحق، أى ستعلمون من يكون قد سلك المسلك المستقيم، ومن سار على الطريقة، ومن وصل إلى الحق، واهتدى إليه، والاستفهام للتنبيه والتوجيه، والجملة كلها للتهديد؛ لأن من اهتدى وسلك طريق الحق فقد نال حسن الهداية والتوفيق ونال الجنة والنعيم المقيم ورضوان من الله أكبر، ومن ضل وغوى، وسار فى مثارات الشيطان فقد هوى إلى نار جهنم وبئس المصير.

فاللهم اهدنا إلى صراطك المستقيم، وجنِّبنا سُبُل الضلالة الموصلة إلى عذاب الجحيم..

سورة الأنبياء

تمهيد:

هى جديرة باسمها؛ لأن فيها قصصا من أخبار النبيين، وهو غير مكرر مع ما ذكر فى غيرها من القصص، فكل قصة لست جزءا من القصة هو عبرة فى موضعها غير مكرر مع غيره، وقد نبهنا إلى ذلك من قبل، وضربنا المثل بقصة بدء خلق الإنسان، والمفارقات.

وسورة الأنبياء سورة مكية وآياتها اثنتا عشرة آية ومائة.

وقد ابتدأت السورة الكريمة بذكر الساعة وقربها وما وراءها من حساب على ما قدمت أيديهم، ﴿ **اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ** (١) ﴾ ويأخذون الحياة لعبا ولهوا حتى ما يكون تذكيرا باليوم الآخر ﴿ **مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ** (٢) **لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ...** (٣) ﴾ وقالوا لكل رسول جاءهم ﴿ ... **هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ** (٣) ﴾، واتهموا كل رسول يرسل إليهم بأن كلامه أضغاث أحلام وأن كلامه افتراء افتراه على الله تعالى، ﴿ ... **بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ ...** (٥) ﴾ ويذكر العبرة فى حال من سبقوا ﴿ **مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ** (٦) ﴾، ويخاطب نبيه فيقول: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** (٧) **وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ** (٨) ﴾.

ولقد كفر أقوامهم فصدق الله تعالى وعده لأنبيائه فأنجاهم وأهلك الكافرين لأنهم أسرفوا فى الضلال، وبين للنبى ﷺ أنه مذكور فى الكتب قبله، وأن الكتاب

الذى أنزله الله إليكم فيه ذكركم ورفعتكم، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى أنه أهلك الذين من قبلهم لضلالهم، ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾﴾، وقد أحسوا الهلاك النازل بهم عند نزوله ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾﴾.

وقد بين سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض ودلالتها على وحدانية الخالق، وأنه مالك السموات والأرض ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

ولقد جاء إثبات الوحدانية بدليل يجمع بين البلاغة وأعلى درجات المنطق فقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾، ولقد تحداهم سبحانه أن يأتوا بما يدل على ألوهية غيره سبحانه فقال: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

وقد أشار سبحانه من بعد إلى أنه قد أرسل رسلا من قبلكم وكانت دعوتهم التوحيد الخالص ونفى سبحانه عن ذاته العلية اتخاذ الولد ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾. ونفى سبحانه أن يقول أحد ممن ادعوا أنهم أبناء الله، ومن يقل بذلك يجزيه جهنم وكذلك يجزى الله الظالمين.

وقد أتى سبحانه بقضية كونية لم يصل إليها العلم إلا فى العصور المتأخرة، وهو أن السموات والأرض كانتا شيئا واحدا فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا

يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾، وبين بعد ذلك ما فى الأرض من جبال راسيات، ومن مهاد، ومن فجاج وسبل، وجعل السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون، وبين سبحانه أنه خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون، وأن نهاية النفوس جميعا إلى الموت ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾، ثم أشار سبحانه إلى استهزاء المشركين يقولون عند رؤية النبى ﷺ ﴿ أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾، وقد أشار سبحانه إلى ما فى الإنسان فى طبيعته من الاستعجال، ويستعجلون العذاب ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾، ثم بين سبحانه حال الكافرين ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾، ولقد ذكر الله تعالى لتسلية النبى ﷺ ما كان يفعله السابقون من السخرية برسلهم وحاق بالذين سخروا ما كانوا به يستهزئون.

ثم نبه سبحانه إلى ما أنعم به عليهم من نعم وهى دائمة ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾، وليس لهم من يمنعهم من الله، وأنه سبحانه مَتَّعَ هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم وظنوا أنه لا حساب، وقد وجدوا عقاب الله تعالى لمشركى مكة بالحرب التى كانت تنقص عليهم الأرض من أطرافها.

ولقد أشار سبحانه إلى موسى وهارون وقد آتاهم ما أضاء الحق وذكَّر المتقين، وما كان فرقانا بين الهدى والضلال، وهذا ذكر مبارك وهو القرآن، أفأنتم معشر المشركين له منكرون.

ذكر بعد ذلك شيئا من مجاوبة إبراهيم لعُبَّاد الأوثان قائلا لهم: ﴿ ... مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ

أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾. وحطم أصنامهم ووضع الفأس التى حطمها بها فى عنق كبيرهم، ثم جاءوا وتحروا فوقعت الظنة على إبراهيم فأرادوا أن يحرقوه بالنار فجعلها الله تعالى بردا وسلاما على إبراهيم، وهذا القدر من قصة إبراهيم لم يذكر فى أى سورة أخرى، مما يدل على أنه لا تكرار فى قصص القرآن، وإن بدا ذلك بظاهر الأمر لمن لم يفحص مرامى القصص وموضع العبرة فيه، وقد جرت بين الشاب وبينهم مجادلات فى عبادة الأوثان، حتى انتهى إلى قوله لهم: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

ونجى الله من كيدهم إبراهيم كما نجى الله تعالى لوطا.

وذكر سبحانه بعد ذلك ما وهبه له من إسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعله الله من الصالحين وجعلهم أئمة يهدون بأمره، ويقول سبحانه: ﴿... وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

ثم ذكر نوحا: ﴿... إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

وذكر سبحانه داود وسليمان، وقضايا سليمان وما فهَّمه سبحانه وتعالى من الحُكم فيها وما علمه لداود من صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون، وما مكَّن سبحانه وتعالى لسليمان، وقال: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

وقص سبحانه قصة نبى الله تعالى أيوب وما أصابه من ضر وصبره لما أصابه ﴿... إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾، وقد استجاب له

الله تعالى، وكشف ما به من ضر وقال سبحانه: ﴿... وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

وأشار سبحانه وتعالى إلى إسماعيل وإدريس وذى الكفل، وكل من الصابرين، وقال سبحانه: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾، ثم ذكر سبحانه قصة ذى النون فقال: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

وذكر خبر زكريا، ونداءه ربه ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾، وقد استجاب الله تعالى له ووهب له يحيى.

ثم ذكر سبحانه وتعالى خبر مريم فقال: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾﴾.

ثم أشار سبحانه إلى أن الناس جميعا أمة واحدة دعيت إلى دين واحد، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾.

وأشار سبحانه إلى أنه مع هذه الوحدة الجامعة تفرقوا حول الأنبياء الذين دعوا إلى عبادة الله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى أحوال يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، وبين سبحانه أن الساعة آتية لا ريب فيها، وقد اقتربت لأن كل آت قريب، وأشار إلى أحوال الناس عند هذه الساعة، وبين أنهم وما يعبدون من دون الله حصب جهنم، وبين لنا أن الذين سبقت لهم من الله الحسنى أولئك عن جهنم مبعدون، لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون، لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون.

وذكر سبحانه وتعالى ما يكون للكون يوم القيامة، وما كتبه الله فى كتبه السماوية أن الأرض يرثها الصالحون، وأمر نبيه أن يقول للمشركين الذين كفروا

برسالته: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

وبهذا تنتهى السورة الشريفة، وفيها كما يرى القارئ من هذا العرض أنها تشتمل على إشارات من قصص النبيين، وصلبها الدعوة إلى التوحيد، وما لقيه النبيون فى سبيل هذه الدعوة التى هى الحق، وضل من يعاندها.

معانى السورة

تلقّى الناس لدعوة الحق

ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾
مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ
يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ
تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ
وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ
ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ
﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

ابتدأ الله تعالى السورة الكريمة بذكر القيامة، وأعظم ما فى القيامة أثرا هو الحساب الذى يعقب التوجه إلى النعيم، أو التوجه إلى الجحيم، ابتدأ به؛ لأن كل ما يذكر من إعراض عن ذكر الله تعالى فى دعوات الأنبياء الذين أشارت إلى قصصهم

سببه الغفلة عن ذكر الله وعدم إدراك معانى التوحيد، والإعراض عن دعوات التوحيد التى تجددت الدعوة إليه على لسان كل نبى من الأنبياء الذين بعثوا إلى الناس عصرا بعد عصر، حتى جاء خاتم النبيين محمد ﷺ.

والناس فى قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ قيل عن ابن عباس رضى الله عنه إنهم المشركون؛ لأنهم الذين غفلوا عن يوم البعث، وأعرضوا عما دعا إليه محمد ﷺ، ولكن الظاهر أنهم الناس كافة الذين توالت عليهم النذر وخصوصا غير المؤمنين فى أى جيل من الأجيال، بدليل ما تجيء به الآية بعد هذه الآية من قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ نقول: إن معنى الاقتراب تأكُّد الوقوع كقوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ①﴾ [القمر] إذ إن كل أمر مؤكَّد الوقوع يصح أن يقال عنه إنه مقترب، وإن الأزمان بالنسبة للقرب والبعد عند الله سواء، فالقرب والبعد بالنسبة للحوادث لا بالنسبة إلى واجب الوجوب، ورب البرية، ولأن هذه الآية نزلت على محمد ﷺ وقد كان مبعثه على قرب من القيامة، كما رُوى عنه أنه قال: «بعثت فى نسم الساعة»[1] و(اقترب): صيغة افتعال من (قَرُب) وهى تدل على شدة الاقتراب، واقتراب الحساب هو اقتراب الساعة التى يكون فيها الحساب وعبر عنها بالحساب؛ لأن الحساب كما أشرنا هو الفصل بين الخلائق يوم القيامة لأنه هو الذى يعين مصائرهم، إما إلى الجنة أبدا وإما إلى النار أبدا، فذكرت القيامة بأعظم ما فيها، وهو ما يحدد مآل الناس، ولأن ذكره فيه ترهيب للناس وتنبيه لهذا اليوم الذى تجزى فيه كُل نفس ما كسبت، فذكره تنبيه للغافلين.

والتعدية باللام فى قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ إنها لتوكيد الحساب، وتنبيه الأفهام، وتقدير القول: اقترب حساب الناس، فكأن النص السامى أبهم الحساب، بأن الاقتراب للناس، ثم بين أنه ليس لذواتهم، بل لحسابهم، وفى

(١) أخرجه الحاكم في الكنى، والبزار عن أبي جبيرة رضي الله عنه. الفتح الكبير (٥١٥٤)، ومجمع الزوائد (١٣٢٨١).

التوضيح بعد الإبهام فضل توكيد للمعنى، وزيادة فى الترهيب بالإشارة إلى أن الاقتراب منهم.

ويلاحظ أن الاقتراب يتعدى بـ «إلى»، فيقال: اقترب إليه، وبـ «مِن» فيقال: اقترب منه، فلماذا كان التعدى فى الاقتران باللام؟ ونقول فى الجواب عن ذلك: إن التعدية بـ «إلى» أو «من» ربما تدل على المحبة والمودة، وهما لا يصلحان فى هذا المقام، فالاقتراب اقتراب مدة لا قرب رفق ومودة، ويقال فى قرب المبارزة، اقترب المبارز لخصمه، ولا يقال اقترب إليه أو منه؛ ولأن «اللام» تفيد الاختصاص، فالاقتراب للحساب يخصُّهم ويملكهم.

وقال تعالى: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ الجملة حالية، وقد وصفوا فيها بوصفين: الأول: أنهم فى غفلة عن هذا الحساب إذ هم لا يؤمنون بالبعث بسبب غشاوة جاءت على أعينهم، وقلوبهم غلف، فهم غافلون عن ذلك اليوم مأسورون بالحسّ، لا يعرفون ما وراءه، وأول مظاهر اليقظة النفسية تعرُّف ما وراء الحس، فيتساءلون لماذا خلق الإنسان وما غايته؟ وما نهايته؟ ويدركون أنه لم يخلق عبثا، وهذا فرق ما بين الإنسان والحيوان.

فهم فى غفلة عن هذا، وإذا جاء مذكر موقظ لعقولهم من رسول أو نبى أعرضوا عنه، فكان فى أوصافهم أمران أولهما: غفلة نفسية لا تدرك بذاتها، والثانى أنهم إذا جاء من يذكرهم أعرضوا عنه ونأوا بجانبهم، وقال تعالى: ﴿ مُّعْرِضُونَ﴾ بالوصف يدل الفعل للإشارة إلى أن الإعراض ملازمهم ملازمة الغفلة لهم؛ ولذا قال سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٣)﴾.

الذكر هنا هو الرسول المذكِّر، وعبر عن الرسول بالذكر؛ لأنه عمله ورسالته، فعبر عنه بأخص أوصافه، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١)﴾ [الغاشية]

وكما قال تعالى: ﴿ ... إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ ... ﴿٤٨﴾﴾ [الشورى] فالذكر هنا هو لب الرسالة، وغايتها، والمعنى أنهم غافلون، وإذا جاء الذكر لا يتذكرون، وقد وصف الذكر بوصفين أولهما: قوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِم﴾ أضيف الذكر إلى أنه من ربهم الذى خلقهم من العدم وقام على تربيتهم، فهو أعلم بحالهم وما يناسبهم، فقد علم أنه لا يناسبهم ملك من الملائكة ولكن يناسبهم رسول منهم هو من أنفسهم رحيم بهم رءوف عليهم، والوصف الثانى قوله تعالى: ﴿مُّحْدَثٍ﴾ أى أنه تذكير يتجدد لم ينقطع عنهم، فالرسول ومعه الذكر يجىء إليهم آنًا بعد آنٍ، غير منقطع حتى خاتم النبيين ﷺ، ونزل معه القرآن الحكيم الذى يذكرهم إلى يوم الدين.

والضمير فى ﴿اسْتَمَعُوهُ﴾ يعود إلى الذكر، وهذا من باب الترشيح للمجاز فى تسمية الرسول بالذكر لما ذكرنا، ويجوز أن نقول كما قال كثير من المفسرين: إن الذكر بمعنى الكتاب الذى جاء به الرسول، أو أريد به القرآن الذى جاء به محمد ﷺ، ومعنى ﴿مُّحْدَثٍ﴾ هو تجدد نزول آياته آية بعد آية مجددة التذكير الذى يهدى الضال ولكن الظالمين لا يهتدون.

وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ حالان، حال بعد حال، والحال الثانية عن سببه عن الحال الأولى، فـ ﴿لاهِيَةً﴾ سببها تلقى الآيات التى تجدد الإيمان لمن له قلب، باللعب والعبث والسخرية وعدم الاعتبار والتبصير والتدبر، مع السخرية والاستهزاء، وبسبب ذلك تلهو قلوبهم، وتنصرف عن الإصغاء إلى الحق، وإنهم وهم فى حال اللهو واللعب والانصراف عن الحق تماما - يعملون على مقاومته فيجتمعون ويتشاورون كيف يردون دعوة الرسول، وماذا يقولون لصد غيرهم عن سبيل الله وقد أضاء الحق فى ظلام الجاهلية، اجتمعوا فى كن من الخفاء، وهذا معنى قوله تعالى ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ النجوى والتناجى: التحدث فى سر لا جهر فيه، ومعنى ﴿أَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ تشاوروا فى الأمر بعيدا عن الناس، وبالغوا فى الإسرار، لكى يتدبروا الأمر الخطير الذى فوجئوا به، ويصرفوا الناس عنه

ويعودوا إلى دين آبائهم، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بدل من «واو الجمع» فى قوله ﴿وَأَسَرُّوا﴾ وفائدة ذكر هذا البدل وصفهم بأنهم كانوا ظالمين فى هذا التشاور والتآمر على الحق والصد عن سبيل الله، كما كانوا ظالمين فى الإعراض عن ذكر الله المتجدد آية بعد آية، ورسولا بعد رسول.

وقد كانت نتيجة تآمرهم قولهم: ﴿هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ الاستفهام هنا للإنكار، والمعنى: ما هذا إلا بشر مثلكم، وهذا تسويغ لإنكارهم؛ لأنهم لا يعتقدون أن الرسول لا يكون من جنس البشر بل يكون من الملائكة، فهم يريدون أن يلقوا فى روع الناس أن هذا مثلهم، فلا يمكن أن يكون نبيا مرسلا، والاستفهام الذى يدل على النفى فيه تنبيه لهم، وكأن النفى من السامع لا من المتكلم.

وقد بينوا أن إيمانهم به إيمان بالسحر، فقالوا: ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ «الفاء» عاطفة على فعل محذوف تقديره أتصدقونه فتأتون السحر وأنتم تبصرون، ومعنى إتيانهم السحر حضوره ومشاهدته فكأنهم هم الذين أتوه، ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أى لم يموه على أبصاركم فسحر عيونكم، بل أنتم تدركون بكامل بصركم وترون الأشياء والوقائع.

وفى هذا حكم على القرآن بأنه سحر؛ لأنه يعمل السحر، ولم يجدوا طريقا لإدخال إفكهم على الناس إلا بهذا الادعاء الباطل، وإذا كانوا قد ائتمروا بالنبى ﷺ فى إسرار نجواهم فالله تعالى يعلم ما تناجوا به، وما ائتمروا عليه، ولا يهمه ﷺ أن يعلم ما يتآمرون عليه من قول، وما يدبرونه من صد عن سبيل الله؛ ولذا قال تعالى:

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

الضمير الفاعل لـ ﴿قَالَ﴾ يعود على النبى ﷺ؛ لأنه المذكور قبل ذلك، إذ هو الرسول الأخير الذى خاطب المشركين، وأسروا له النجوى، وخرجوا إليه بالطعن فيه، وصرف الذين اتبعوه عنه، فهو يبين فى هذا أن الذى يأتمرون به من نجوى أو جهر يعلمه الله وهو فى معنى التفويض إليه سبحانه؛ لأنه رسوله الذى

أرسله وكل كيد له هو لتعويق الرسالة فهو حافظه وكالئه، وهو الذى يحمى الذين اتبعوه عن فتنة القول الذى يدبره هؤلاء المشركون.

﴿قَالَ رَبِّي﴾ الذى أرسلنى ويقوم على حماية رسالتى ﴿يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ والقول يشمل السر والجهر، وهو يفيد عموم علم الله تعالى لكل قول خفى أو جهير، فى سر أو فى علن، وهو راد كيدهم فى نحورهم ومبطل تدبيرهم، وذكر ﴿السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ لعموم علمه بكل قول سواء أكان من ملك كريم أم كان من شيطان رجيم، فهو سبحانه وتعالى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء، وختم سبحانه وتعالى الآية بوصفه سبحانه بوصف الكمال، بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أى أنه يعلم الأقوال كلها جهرها وسرها، وهو محيط بعلمه بكل شىء وذكر ﴿السَّمِيعُ﴾ لأن موضوع العلم فى الآية القول الذى دبروا به كيدهم، وما كيدهم إلا فى ضلال، وقال تعالى عما دبروا من قول يصدون به من آمنوا عن سبيل الحق:

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾.

﴿بَلْ﴾ هنا للإضراب الانتقالى؛ ينتقلون بقولهم من فرية إلى فرية يحسبونها أقوى صداً، ثم إلى أقوى منها، انتقلوا من فرية السحر إلى فرية أضغاث الأحلام إلى فرية أنه افتراه على الله إلى فرية أنه شاعر، ثم ينتهون إلى أنهم لا يرضون بهذه الآية الدالة على أنه مرسل من عند الله، كالآيات التى كانت للأنبياء السابقين من المعجزات الحسية كالعصى وإبراء الأكمة والأبرص، و«الأضغاث» جمع «ضغث»، وهو القبضة من الريحان والحشيش أو الحطب أو قضبان النبات، كما قال تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلا تَحْنَثْ ... (٤٤)﴾ [ص]، وشبهت بها الأحلام المختلطة التى لا تتبين حقائقها ولا تستبين عند الحالم. انتقلوا من ادعاء أن القرآن سحر ساحر إلى أنه تخاليط أحلام سيطرت على عقل النبى ﷺ إذ هى أخلاط، كالأحلام ليس فيها حق يدرك.

ثم انتقلوا من هذا الادعاء إلى ادعاء آخر أوغل منه فى الرد فى زعمهم، فقالوا ﴿بَلِ افْتَرَاهُ﴾، أى اخترعه من عنده اختراعا فهو قول مفترى، وهذا هو لب تكذيبهم، وإن لم يقصدوا إليه ابتداء، فهم مكذبون له فى كل الأحوال، ثم انتقلوا إلى ادعاء أنه قول ساحر، ولم يقولوا إنه شعر لأنهم يعلمون الشعر فى حقيقته، ويفرقون بذوقهم البيانى بين القرآن والشعر ولقد ادعوا أن محمدا شاعر، وأنه من أفانينه، وإن لم يكن شعرا، والشاعر يتفنن فى القول نثرا أو سجعا أو شعرا، وكل هذا باطل، وذلك التردد فى القول دليل على حيرتهم فى الرد، ودليل على لجاجتهم فى الجحود، فقالوا مرة: ساحر، ومرة: أضغاث أحلام، ومرة: افتراه، ومرة: إنه شاعر.

وهنا يجىء سؤال: أليسوا فى كل أقوالهم يدعون الافتراء، فلماذا خص الافتراء بالذكر؟ ونقول إنهم فى الثلاثة الأخر غير الافتراء يتكلمون فى النبى ﷺ، وفى الافتراء يتجهون إلى القرآن نفسه، ولقد قال فى ذلك الإمام الزمخشرى: «هم أضربوا عن قولهم هو سحر إلى أنه تخاليط أحلام ثم إلى أنه كلام يفترى، ثم إلى أنه قول شاعر، وهكذا الباطل لجلج والمبطل متحير، رجّاع غير ثابت على قول واحد، ويجوز أنه يكون تنزيلا من الله تعالى لأقوالهم فى درج الفساد، وأن قولهم الثانى أفسد من الأول، والثالث أفسد من الثانى، والرابع أفسد من الثالث».

وهذا الذى اخترناه، ونحن رأينا ابتداء أن هذه الإضرابات الانتقالية حكاية من الله تعالى لغيهم.

وخلاصة أقوالهم أنهم لا يعدون القرآن آية دالة على أنه رسول من عند الله؛ ولذا طلبوا آية حسية كالأنبياء السابقين فقال: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾ «الفاء» لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى فرتب على جحودهم بالقرآن آية، قولهم: ليأتنا بآية حسية باهرة قاهرة حسية، كما أرسل الأولون بآيات حسية، التشبيه بين ما يريدون من آيات وآيات الرسل الأولين.

وقد بين سبحانه أن هذه الآيات جاءت كما طلبوا ولم يؤمنوا بها فقال تعالى:
﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

إذا كانوا يطلبون آيات كالآيات التى كانت للأولين التى طلبوها هم أيضا، فما آمنوا بعد أن أجيب طلبهم، وقد عاهدوا الله تعالى على أن يؤمنوا إذا جاءتهم، فلما جاءتهم نكثوا فى أيمانهم، فحلّ الهلاك بهم، فإذا كنتم تقايسون بين الآيات تطلبونها وآيات الذين سبقوا، ففكروا فى نتائج آياتهم، وهى ذات النتيجة التى تكون منكم، فلن تؤمنوا كما لم يؤمنوا؛ لأن الجاحد لا ينفعه دليل ولا تقنعه حجة.

قوله تعالى: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ القرية المدينة العظيمة، أو الإقليم، والمعنى: ما آمنوا، بل كذبوا وهلكوا فاعتبروا بهم، ولقد قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ ۝١٠٩﴾ [الأنعام].

ولذا قال تعالى: ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ الفاء تفصح عن شرط تقديره: أإذا جاءتهم الآية هم يؤمنون؟! والاستفهام إنكارى، والمعنى أنهم لا يؤمنون، كما أنه لم يؤمن من كانوا قبلهم، فالجحود، لا يعالجه الدليل وكثرته، إنما يعالجه العقاب وصرامته.

وسياق الآيات الكريمات أنهم أنكروا أن يكون الرسول بشرا من البشر، ثم واصلوا إنكارهم فادعوا الافتراء، وقالوا فى شخصه ساحر، وأن ما جاء به أضغاث أحلام، وأنه مفترٍ وأنه شاعر، ثم قالوا من بعد منكرين للآية الدالة على رسالته، ولم يعقلوا بعقلهم الجَحود المنكر أن يكون القرآن معجزة، وإن عجزوا عن الإتيان بمثله بعد أن تحداهم أن يأتوا بمثله أو بعضه ولو مفترى.

والحقيقة أن الجحود هو الذى أملى الاعتراض عليه، وهو أنسب معجزة لخاتم النبيين؛ لأنه باقٍ متجدد الإعجاز لا تبلى جدته، وهذا يناسب رسالة باقية ما بقى الإنسان على ظهر البسيطة.

الرسل من البشر

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ
ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا
لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ
ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٩﴾
لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠﴾
وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا
ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ﴿١٢﴾
لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ
تُسۡـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلۡكَ
دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾

قال المشركون منكرى رسالة النبى ﷺ: ﴿هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴿٣﴾﴾ [الأنبياء]، أى ليس هذا إلا بشرا مثلكم فكيف نؤمن بأنه رسول يوحى إليه؟ فرد الله تعالى قولهم بقوله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾

فما اعتمدوا عليه فى تغرير الذين اتبعوا محمدا ﷺ بين الله تعالى بطلانه، فهو حجة داحضة؛ لأن الرسل جميعا ليسوا إلا رجالا، كما قال الله تعالى فى

آية أخرى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ... (١٠٩)﴾ [يوسف] وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ... (٩)﴾ [الأحقاف].

فسنة الله تعالى أن يرسل رسله من البشر، ليأنس بهم المدعون، وليأتلفوا معهم، ولأن الملك لا يمكن أن يخاطب البشر إلا إذا صار كالرجل كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩)﴾ [الأنعام]. وقد نبههم سبحانه إلى أن تلك سنة الله تعالى فيمن يبعثهم، وبين أيديهم ما يعلمون فيه سنة الله فى رسله، فإبراهيم عليه الصلاة والسلام وإسماعيل ابنه كانا من الأنبياء، وإبراهيم عزهم ومناط فخرهم حيث كان رسولا من أولى العزم من الرسل ـ كان من الرجال ولم يكن من الملائكة، وبنى البيت الحرام الذى كان حرما آمنا ويُتخطف الناس من حولهم، بناه بقوته البشرية لا بالروح الملكية.

ومع ذلك طلب الله تعالى أن يسألوا من يشايعونهم من اليهود الذين كانوا يناوئون الإسلام كما يناوئونه هم، ويؤذون النبى ﷺ كما يؤذيه المشركون على سواء ولقد قال تعالى: ﴿... وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ... (١٨٦)﴾ [آل عمران] فقال سبحانه: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ «الفاء» واقعة فى جواب شرط محذوف دل عليه ما بعده، وأهل الذكر هم أهل العلم بالرسالات، وأهل العلم هم كل من عنده علم بالرسالات الإلهية والرسل المهديين. وفى هذا النص رمى لهم بالجهل، وأنّ الذين يدَّعون العلم بأنه لا رسول إلا من الملائكة غير عالمين، ومفسدون، وفى هذا إذلال لهم، ورمى لهم بالجهل المطبق، مع الإرشاد إلى الحق والاحتجاج بعلم أهل الكتاب الذين يناوئون النبى ﷺ مثلهم.

ثم قال تعالى مؤكدا معنى الآية السابقة:

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾

الضمير يعود إلى الرسل، لأنهم مذكورون فى الآية السابقة بعبارة تفيد العموم بذكر الرجال ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً﴾ والنفى داخل على الجسد الذى لا يأكل

الطعام فمن طبيعة الجسد أن يأكل ويشرب ويمشى فى الأسواق، وهذا رد على من زعم أن الرسل ليسوا من البشر، وتجاهلوا ذلك أو جهلوه، ورد على الذين قالوا من المشركين: ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق. ﴿لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا﴾، وقد رد الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴿٢٠﴾﴾ [الفرقان].

نفى الله تعالى بهذه الآيات أن يكونوا جسدا لا يأكلون بل هم أجساد حية تحتاج إلى الغذاء كما يحتاج الجسد فى قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً﴾ لأن الجسد يدل على الجنس، والجنس يفيد العموم، ولأن الإفراد ملاحظ أيضا، فالمعنى: «وما جعلنا أى رسول جسدا لا يأكل الطعام» وإن الطعام يعوض الجسم البشرى ما يفقد منه يوميا حتى إذا ضعف الجسم عن الغذاء كان الموت؛ ولذا قال تعالى بعد ذلك: ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ لأنه إذا كان الرسول جسدا فإنه تعروه عوامل الفناء الجسدى، حتى يكون البعث يوم القيام، كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأعراف] فقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ تأكيد لمعنى الجسدية التى تأكل الطعام، وقد توهموا من معنى الملائكة أنهم لا يموتون فأكد الله سبحانه وتعالى نفى الملكية عنهم بذكر أنهم ليسوا خالدين كما تزعمون فى أن الرسل من الملائكة لا يفنون، وهكذا أبطل الله تعالى دعواهم أن الرسل لا يكونون من البشر، وأثبت سبحانه بالاستقراء والتتبع أن الرسل لا يمكن أن يكونوا إلا من البشر الذين يوحى إليهم.

وإن الله تعالى إذ يرسل الرسل من البشر يحوطهم بعنايته؛ ولذا قال تعالى:

﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾.

الضمير فى ﴿صَدَقْنَاهُمُ﴾ يعود إلى الأنبياء الذين مر ذكرهم فى الآيات السابقة، وصدق الوعد معناه الوفاء به بأنه يجىء العمل موافقا للعهد، ومن ذلك قول الرسل صدق، وقوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ العطف بـ «ثم» يفيد أنه بين الوعد وصدقه شدائد كثيرة نزلت بالأنبياء من ردٍّ وعناد واستهزاء وسخرية وإيذاء، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [يوسف] فكان العطف بـ «ثم» مشيراً إلى هذه الشدائد، وأنه لم يتبين صدق الوعد إلا بعد شدائد ذاقوها، ولم تهز إيمانهم، ولم توجد فى قلوبهم يأسا من صدق وعد الله.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُمْ﴾ «الفاء» تدل على أنه يجيء فور صدق الوعد الإنجاء للرسل، والإنجاء يشير إلى تضافر القوى ضدهم، ﴿وَمَن نَّشَاءُ﴾ هم التابعون للأنبياء الذين آمنوا بما جاءوا، وقد شاء الله تعالى إيمانهم لأنهم اختاروا الهدى، وقد عبر الله تعالى عنهم بقوله ومن نشاء للإشارة إلى أنهم آمنوا؛ لأن الله تعالى شاء لهم الإيمان، وكل شيء فى محيط مشيئته وإرادته، فلا يقع شيء إلا إذا تعلقت به مشيئة الله ولا يخرج شيء فى الوجود عن إرادته.

﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ وهم الذين خالفوا النبيين وعاندوهم ولم يؤمنوا، وكفروا بأنعم الله، وعبر الله عنهم بالمسرفين، لأنهم أسرفوا على أنفسهم، وأوقعوها فى الضلال بكفرهم برسالة الله، وإسرافهم فى العناد وإيذاء المؤمنين وإسرافهم فى ضلال العقل وعدم الإذعان لأى حجة أو برهان، وإسرافهم فى المعاصى، وهى إفساد، والله لا يحب المفسدين.

وإن الله تعالى أهلك المسرفين المفسدين دائما، ولكن بعد أن يرسل النذر، وقريش اختصت بكتاب فيه علمهم وذكرهم وشرفهم؛ ولذا قال عز من قائل:

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

أكد سبحانه نزول الكتاب من عنده إليهم بـ «اللام» التى تفيد التوكيد، و«قد» التى تفيد التحقيق، وكان التأكيد لأصل ما يعود به عليهم ذلك الكتاب العظيم؛ ولذلك قال تعالى فى هذا الكتاب ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ هذا من إضافة المصدر للمفعول، أى فيه تذكير لكم بالحق والمواعظ والأحكام الشرعية العادلة التى تنظم العلاقات بين

العباد آحادا وجماعات ودولا، وفيه المواعظ والقصص والعبر، وكل هذا تذكرة وهداية وإرشاد.

ويقول الزمخشرى: إن الذكر هنا هو الشرف، أى أن هذا الكتاب فيه شرف لكم لأنه يشرف من ينزل إليهم، ومن يشيع علمه بينهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ... ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف].

ونقول: إذا كان العرب يتفاخرون بقصيدة يقولها شاعر فى قبيلة فتكون فخرا لها فإن القرآن أعلى كلام فى الوجود، وأبلغه، وما قاله بشر، بل قاله الله تعالى وهو تنزيل من عزيز حميد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإنه لا يعرف قدره إلا من يعلو فى البيان إلى تدبر معانيه، وفصاحة مبانية، وبلاغة كلامه ومقتضيات الأحوال؛ ولذا قال تعالى: ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ «الفاء» عاطفة على فعل محذوف يقدَّر بما يناسب المقام فيقدر مثلا: أتردونه فلا تعقلون، فلا تدركون بعقولكم حقيقة ما تردون، ويعود بالخير عليكم شرفا وهداية وإرشادا ومواعظ وعبراً، والتنكير فى (كتاب) لبيان شرفه أى كتابَ أىَّ كتاب.

عاد سبحانه بعد هذا الإرشاد الحكيم بالقرآن الكريم، فقال عز من قائل:

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾

هذه الآية الكريمة مفصلة بعض التفصيل لما تضمنه هلاك المسرفين فى الآية السابقة ﴿وَكَمْ﴾ بمعنى الكثير، وهى مفعول لـ ﴿ قَصَمْنَا﴾، والقصم هو التكسير والتهشيم، الذى تنفصل فيه الأجزاء عن بعضها، وهى تدل على الغضب، والهلاك يكون لأهل القرية، والمعنى وكم قصمنا أهل قرية كانت ظالمة، وإنى أرى كما رأى بعض المفسرين أن القصم كان فى القرية نفسها، كما حدث لقوم لوط، إذ جعل عالى الأرض سافلها، وكما حصل لثمود، إذ جاءتهم ريح صرصر عاتية دمرتهم وكما حدث لعاد... إلى آخره، وقوله: ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾، أى أهلها ظالمون فالظلم

لا يقع من البناء والأحجار، ولكن من الذين يحلون فى القرية، فأسند الفعل إلى المحل وأريد الحالّ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ أى أن هذه القرية التى قصمت وحطم بنيانها وأزيلت من الوجود أنشأ بعدها قرية أخرى غير ظالم أهلها يسكنها قوم آخرون، وهنا أمران يوجبان الالتفات.

أولهما ـ أن الحديث عن القرية ولكنه سبحانه قال إنه لا ينشئ القرية مرة أخرى، إنما ينشئ قوما آخرين، وإنشاء قوم آخرين ينشئ قرية، وليس الأمر أمر البنيان، وإنما الأمر أمر من يسكنون البنيان، ووصفوا بـ ﴿آخَرِينَ﴾ لبيان تباينهم عن الأولين.

الأمر الثانى ـ التعبير بـ ﴿أَنشَأْنَا﴾، والتعبير بقوله ﴿بَعْدَهَا﴾، فالذكر للبَعدية بالنسبة للقرية مع أن الإنشاء للأقوام الآخرين، وكان ذلك لأن الحديث عن قصم القرية، وتكسيرها وتهشيمها وهو المظهر الحسى لهلاك الأقوام بهلاك قراهم وأماكنهم التى كانوا بها يعيشون.

﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣)﴾

«الفاء» للتفصيل، ﴿أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾ معناها بدت بوادر البأس الشديد والهلاك العتيد، وعلموها بحسهم وقرب نزوله ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ «إذا» للمفاجأة أى أنهم فاجأوا من حولهم بركضهم، والركض هو السرعة، وهو مأخوذ من ضرب الدابة برجلها، وقد شبهوا فى سرعة سيرهم وضربهم فى الأرض بضرب الدابة فى الأرض، وذلك تصوير لفزعهم وهربهم مسرعين لا يلوون، وقوله تعالى: ﴿لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ﴾ أى لا تفزعوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه، والإتراف هو الانغماس فى النعيم، وأن يكونوا فاكهين فيه ناعمين، وإن ذلك يؤدى إلى بَطَرِ النعمة وغمط الناس والاستكبار، ولكن من القائل لهم ذلك؟ قيل: الملائكة بأمر من الله تعالى، وعندى أنها حال اعترتهم فى نزعهم الأكبر، فكان

الخوف يدفعهم إلى الركض والهروب من البأس، والحرص الذى استمكن فى نفوسهم، وحرصهم على ما كانوا عليه يناديهم فى ذات أنفسهم: لا تركضوا وارجعوا إلى منازلكم التى كنتم فيها، وعلى النظر الأول يكون النهى عن الركض والرجوع إلى المتارف والملابس والمساكن التى ارتضوها مثابة لترفهم نوعا من التهكم عليهم، وكلا الاحتمالين ممكن الحصول، ويجوز أن يرادا معا، وقد قال الزمخشرى فى الكشاف فى تصوير معنى الرجوع إلى مساكنهم، وفى تصوير قوله تعالى: ﴿**لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ**﴾ ما نصه: «لعلكم تسألون: تهكم (على التخريج الأول) وتوبيخ، أى ارجعوا إلى نعيمكم ومساكنكم لعلكم تسألون غدا عما جرى عليكم ونزل بأموالكم ومساكنكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة، أو: ارجعوا واجلسوا كما كنتم فى مجلسكم وتزينوا فى مزاينكم حتى يسألكم عبيدكم وحشمكم ومن تملكون أمره وينفذ فيه أمركم ونهيكم، ويقول لكم: بم تأمرون؟ وبماذا ترسمون؟ وكيف تأتى وتذر كعادة المنعمين المخدومين، أو يسألكم الناس فى أنديتكم المعاونة فى نوازل الخطوب، ويستشيرونكم فى المهمات والعوارض، ويستشفون بتدابيركم، ويستضيئون بآرائكم ويسألكم الواردون عليكم، ويستمطرون سحائب أكفكم، ويمترون أخلاف معروفكم وأياديكم، إما لأنهم كانوا أسخياء ينفقون أموالهم رئاء الناس وطلب الثناء، أو كانوا بخلاء فقيل لهم ذلك تهكما إلى تهكم وتوبيخا إلى توبيخ».

هذا تصوير جيد لحال المترفين الذين ينعمون بنعيم الدنيا والسلطان، ويكون معنى ﴿**تُسْأَلُونَ**﴾ على أن الكلام من الملائكة بأمر الله تعالى، فيكون قوله: ﴿**لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ**﴾ فيه توبيخ أبلغ توبيخ. وعلى نظرنا الذى نقول فيه أنهم هم الذين حدثوا أنفسهم بالنهى عن الركوض فى هذا الهول، فيكون لقوله: ﴿**لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ**﴾ تصوير لما كانوا عليه من عز ورفاهية تجعلهم مقصودين بالسؤال فهم فى حيرة بين الاستجابة لفزعهم بالفرار وبين حرصهم بالبقاء، ومهما تكن هذه الحيرة فهم يحسون بالمرارة الشديدة والهم الأكبر، ويحسون بأنهم كانوا ظالمين ولذا:

﴿**قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ**﴾.

نادوا نداء الحسرة، وأشد الحسرة تكون عند الإحساس بالباطل عندما يكون العقاب عليه ولا يكون مناص منه، ينادون ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ أى يا هلاكنا الذى كتب علينا أَقْبِل فهذا وقتك، ومعنى نداءهم بهلاكهم الذى استحقوه هو أنه شعور باستحقاقهم له، وإضافة الويل إليهم؛ لأنهم سببه، وقد استحقوه، وقرروا ذلك بصريح اللفظ بقول: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، أكدوا ظلمهم بـ «إنَّ» المؤكدة، وبـ «كنا» لأنها تدل على استمرار طلبهم، ووصفوا أنفسهم بالظلم، وكان ظلمهم من نواحٍ كثيرة، فهم كفروا برسالة النبيين وجحدوها وعاندوهم، وآذوا المؤمنين، وكفروا بأنعم الله ولم يقوموا بحق شكرها، وهذا ظلم بيّن، وأشركوا فى عبادتهم، وإن الشرك لظلم عظيم، وعاثوا فى الأرض فسادا، وأكلوا أموال الناس بالباطل وغير ذلك مما يجىء تباعا للكفر بالأنبياء.

وإنهم يستمرون على الشعور بالويل ونداثه والإحساس بالظلم إلى الموت.

ولذا قال تعالى: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ﴾

الإشارة فى ﴿تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ إلى ﴿يَا وَيْلَنَا﴾، وسميت تلك دعوى يَدْعونها؛ لأنها بصيغتها تفيد نداء ويلهم كأنهم يقولون يا ويلنا ندعوك، الإشارة كما ذكرنا إلى قولهم يا ويلنا، وهى دعوى لأنها طلب لهم، والدعوى تطلب على طلب أمر من الأمور، وأكثر ما تكون أمام القضاء، فهى المطلب الحق تزعمه صاحبه، ويعتقد أنه حق، وسمى طلبهم دعوى مع أنه أقرب إلى الدعاء غير أنهم لا يطلبونه ضارعين مبتهلين حتى يسمى دعاء؛ لأنهم مشركون، إنما يطلبونه لأنه استحقاق لهم بحكم ما ارتكبوه من ظلم، وقوله تعالى: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ «الفاء» فاء الإفصاح، و﴿مَا زَالَت﴾ تدل على استمرار هذه الدعوى وبقائها، واستمرارها يدل على استمرار التحسر والتوجع والشعور بالهلاك، أى أنهم استمروا على الشعور بالتحسر والبكاء على ما كان، وأشد ما يؤلم العاتى الظالم شعوره بعتوه ولقاء معتبه، وقد صرح الله تعالى فى قرآنه العظيم بالنهاية لذلك البكاء المرير بقوله تعالت كلماته: ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ﴾ والحصيد فعيل بمعنى مفعول وهو الزرع المحصود المقطوع

الذى جف عوده شيئا فشيئا حتى يصير حطاما لانقطاع سبب الحياة عنه، وهذا فيه تشبيه لحالهم بحال الزرع المحصود الملقى المقطوع عن أسباب الحياة، كما انقطعت أسباب الحياة عنهم، وهذا تصوير لحلال هلاكهم ونزول الويل الشديد بهم، وأكد حالهم بقوله تعالى: ﴿ خَامِدِينَ﴾، والوصفان كناية عن موتهم وهمودهم، وأصل الخمود من قولهم خمدت النار خمودا طفئ لهيبها، ومنه استعير خمدت الحُمى، وكأن هناك تشبيها آخر بعد تشبيههم بالزرع المحصود، شبههم أيضا بالنار الذى أطفئ لهيبها، وفى ذلك إشارة إلى ما كانوا يشعلونه من إيذاء، وما يوقدون من حروب مفرقة تجمح فيها النفوس عن مواطن الاطمئنان، وليس هنا ثلاثة مفعولات لـ (جعلنا)، إنما هنا مفعولان فقط، و﴿ خَامِدِينَ﴾ حال، وليست مفعولا ثالثا، وأضاف سبحانه وتعالى الفعل إليه بالصيغة التى تليق بعظمته ﴿ جَعَلْنَاهُمْ﴾ إرهابا وإفزاعا، والإشارة بأن الذى يتولى هلاكهم هو الله جل جلاله، وتقدست ذاته وأفعاله.

الله خالق السماء والأرض وبه ثبت وجوده

وَمَا خَلَقْنَا
ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا
لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ
عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ
﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ
عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ
لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ
﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ

عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ
اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ
وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

اللعب هو الفعل الذى لا مقصد له، ويقال لعب فلان إذا كان فعله لا مقصد له أو ما قصد به قصدا جديا لـه غاية تليق بالحكماء، وأصله كما قال الراغب فى مفرداته من اللعاب وهو البزاق السائل الذى لا يكون إلا ممن لا يملك قوة مانعة منه، وغير العقلاء، والله سبحانه وتعالى منزه عن أن يفعل فعلا لغير مقصد صحيح، وإن كان لا يسأل عما يفعل؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ﴾

﴿السَّمَاءَ﴾ هى كما نعلم طبقات النجوم وأبراجها من شمس وقمر وكواكب ونجوم كل فى مداراتها، تربط بينها نواميس الكون التى تسمى أحيانا بالجاذبية، والقصور الذاتى، ﴿وَالأَرْضَ﴾ هى التى نعيش على سطحها، وتشمل الماء الذى يقدر بثلاثة أرباعها، واليابس مما فى ظاهرها من جبال هى رواسيها، ووهاد، وأرض مبسوطة، وفيها المزارع الكبيرة، وفى باطنها فلزات وأحجار، وما لا يمكن زرعه ملأه الله تعالى بالخيرات فى باطنه، من معادن سائلة وجامدة.

وفى البحار جواهر ولحم طرى من الأسماك وغيرها من ساكنات الماء حتى كان ما فيها من عوالم الأحياء لا يقل عما هو فى اليابس من حيوان مُتَبَدٍّ ومستأنس.

﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ هو الفضاء الذى سخر للإنسان، وفيه السحاب المثقل بالماء ينزل ليروى الحرث والغراس، ويقول سبحانه: ﴿لاعِبِينَ﴾ أى على غير مقصد صحيح نافع هادٍ ومرشد، فهو خلق هذا كله لحكم أرادها ومقاصد قصدها، وذكر اللعب لبيان نزاهة الله تعالى عن العبث، كما قال سبحانه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا

خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا... ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون]، ولأن ما ليس له مقصد نافع صحيح يعد لعبا، والعقلاء بعيدون عنه، فالله جل جلاله منزه عنه بالأولى، ولقد صرح سبحانه وتعالى بأنه خلق هذه الأمور لمعرفة الإنسان، وتعريفه بطبائع الوجود وليعرف منها خالقه، وكماله، ونزاهته عن أن يكون كالحوادث؛ إذ هو خالقهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ... ﴿٧﴾ ﴾ [هود] وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات]، وقد بين سبحانه وتعالى هذا المعنى بقوله تعالت كلماته:

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

﴿لَوْ﴾ كما يقول النحويون حرف امتناع لامتناع أى امتنع الشرط لامتناع الجواب فهو نفى بدليل، إذ يتضمن شرطها وجوابها بيان امتناع الجواب وامتناع الشرط بتلازم الامتناع فيهما، واللهو ما يشغل عما يعنى به ويهتم له، وهو يعم كل ما يلهى عن الغايات والمطالب، وهو يطلق على الأسباب التى تلهى الإنسان عن الغايات العليا، كالزخارف والطنافس، والسُّقُف المرفوعة المزخرفة، والأثاث والرئْي وغير ذلك مما يعنى به أهل الدنيا والسلاطين الذين فى لهوهم يعبثون ويلعبون.

ويقول سبحانه: ﴿لَهْوًا﴾ أى ما يلهينا، وذلك مستحيل، لأن الله جل جلاله لا يفعل إلا ما هو كمال، أو يؤدى إلى الكمال وكله خير، وهو معلم الخير، وجواب الشرط ﴿لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾ أى لكان ذلك صادرا عن ذاتنا العليا وصفات الكمال، واللهو لا يمكن أن يصدر عن ذاتنا المتصفة بكل كمال، والمنزهة عن صغائر الخصال، فكيف يصدر عنا، و﴿لَّدُنَّا﴾ بمعنى «عندنا» ولكنها أخص من «عند»؛ لأنها تدل على الابتداء لنهاية، أى أن اللعب من لدنا مبتدئ، وذلك لا يسوغ ولا يجوز.

وقال تعالى: ﴿إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ إن هذه الجملة شرطية وجواب الشرط محذوف دلت عليه الشرطية التى قبلها ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ وفى ذلك تكلف التقدير، ونحس أنه غير متسق مع النص الأول، وإنى أرى أن ﴿إِنْ﴾ نافية، وتكون تأكيدا للنفى الثابت بقوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾ ويكون: ما كنا فاعلين ذلك؛ لأنه لا يليق بالذات الكريمة ولا يتصور أن يكون منها، والله أعلم.

وقد بين سبحانه وتعالى المقصد الأسمى من خلق السموات والأرض.

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾.

﴿بَلْ﴾ للإضراب النافى لما قبله، لا مجرد الإضراب الانتقالى، والقذف الرمى من بعيد، والرمى من بعيد يكون مؤثرا فى المرمى عليه أكثر من القريب، ويكون أدل على شدة الرمى، و«بل» التى للإضراب تدل أشد الدلالة على نفى اللعب عن أفعاله فوق النفى السابق، سبحانه وتعالى عما تتصف به الحوادث من لعب، وتزجية الأوقات فهو القادر القهار الذى خلق كل شىء.

وفى قوله تعالى: **﴿نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾** تشبيه للحق بالجسم الصلب القوى الشديد، والباطل أمامه بأنه هش ضعيف، وذلك لبقاء الحق وسلامته وصلابته، و**﴿فَيَدْمَغُهُ﴾** معناه يصيبه فى دماغه، ويقال: دمغه إذا أصابه فى دماغه أو كسر دماغه، ووصل إلى تجاويف رأسه حتى يصيب مخه فيقتله، وفى ذلك أيضا تشبيه، فشبه سبحانه وتعالى إصابة الحق للباطل بإصابة الدماغ ووراء إصابة الدماغ الموت؛ ولذا قال تعالى: **﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾** و«الفاء» و«إذا» للمفاجأة، والمراد من المفاجأة سرعة الإبطال، و**﴿زَاهِقٌ﴾** معناها ميت؛ لأن زهق معناه خرجت روحه، وفى هذا الكلام أيضا تشبيه للباطل إذا زال وذهبت دولته بالنفس إذا خرجت ومات صاحبها، وفى ذلك إشارة إلى أن الباطل لا يبقى، والحق باق إلى يوم الخلود، وما يرمونه من باطل فهو ميت فانٍ، وما يثبت من حق باق خالد.

وبعد أن قرر سبحانه ذلك مؤكدا خلق السموات والأرض لإحقاق الحق وإبطال الباطل، التفت بالخطاب للمشركين، فقال عز من قائل منذرا لهم: **﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾** أى لكم الهلاك الذى يصحبه أنين وألم يستمر **﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾** «ما» موصول حرفى، والمعنى من الوصف الذى تصفونه به، و«من» سببية أى بسبب الوصف الذى تصفونه وأن له شركاء يعبدون، وإنهم يكونون شفعاء عنده، وهذه أوصاف لا تليق بالذات العلية، وهم يقولون باطلا: **﴿... مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ... ③﴾** [الزمر].

﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ﴾.

هذا النص مؤيد لمعنى الآية السابقة، وأنه لا أحد يشاركه فى ملكه، فهو وحده المالك للسموات والأرض، وما فيهما ومن فيهما، والعندية هى عندية المنزلة، لا عندية المكان؛ لأن الله تعالى ليس له مكان حتى يكون فى هذا المكان أحد، إنما العندية هى العندية المعنوية، وهى المكان، وأولئك هم الملائكة، وهم أزواج مطهرة ليس لها مكان نعرفه وهم عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

وذكر العندية كما يفيد ما ذكرنا من أنها عندية معنوية وقرب من الله تعالى، ويفيد أيضا تشريفهم ومكانتهم عنده، ومع هذه المكانة ﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾، أى أنهم خاضعون له تعالى خضوع العبودية له سبحانه؛ كما قال تعالى: ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ... (١٧٢)﴾ [النساء] وإذا كان الملائكة لا يستنكفون عن عبادته وهم المقربون فأولى بكم أيها الناس ثم أولى أن تكونوا له عابدين، وهم فى عبادتهم مستمرون لا يكلون ولا يضجرون؛ ولذا قال تعالى نافيا الكلام: ﴿وَلا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ وهو افتعال من الحسر بمعنى انكشاف قواهم، وظهور مللهم، وكان النفى بصيغة الافتعال الدالة على قوة الكلال مع أن المقام يقتضى نفى أصله لا نفى الكلال القوى منه؛ إذ إن نفى القوى من أمر لا يقتضى نفس الضعيف منه، ولكن نقول كان نفى القوى للإشارة إلى أنهم فى حال كلال قوى، وكان يمكن أن يكلوا، ومع ذلك استمروا دائبين فى عبادتهم مع شدة التعب، ولكن لا تعب فى أمر ما داموا يرضون ربهم، وهنا يسأل سائل لماذا أفردوا بالذكر مع أنهم داخلون فى ملكية الله تعالى، ولما ذكر أنهم عنده؟ ونقول فى الجواب عن ذلك: أفردوا لتعظيمهم ولقربهم من الله تعالى، ولأن بعض الناس كان يقدسهم، بل يعبدهم، فكان ذكرهم فيه عبرة لمن يعبدون الله تعالى، وذكر أنهم عنده لما ذكرنا تشريفا لهم، وللإشارة إلى قربهم من الله كما هو الشأن فى الملوك، وقال الملا أبو

السعود، إنهم عند الله تعالى بمنزلة المقربين من الملوك، ولله تعالى المثل الأعلى، وهو تقريب ليدركوا معانى القرآن. وقال تعالى فى أوصاف الملائكة وأعمالهم:

﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾.

التسبيح: التقديس والتنزيه، فهم مستمرون فى تقديسهم وتسبيحهم ﴿لا يَفْتُرُونَ﴾ أى لا يسكنون، والليل والنهار طرفان للتسبيح، ومعنى ذكر الليل والنهار أنهم لا يسكنون فى ليل أو نهار، فهم دائمو التسبيح والتنزيه وعبادته وحده، وقوله تعالى: ﴿لا يَفْتُرُونَ﴾ تأكيد لدوام التسبيح واستمراره، والفتور السكون، وقد جاء فى مفردات الراغب فى هذه الكلمة ﴿لا يَفْتُرُونَ﴾ أى لا يسكنون عن نشاطهم فى العبادة، وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «لكل عمل شرة، ولكل شرة فترة، فمن فتر إلى سنتى فقد نجا وإلا فقد هلك»[1] والشِّرَّة: غفوة الباطل وإن الملائكة لا تعتريهم شرة، ولا تعتريهم فترة، فهم عباد الله تعالى المطهرون.

وقد أشار سبحانه إلى ما وصفوا الله - سبحانه - به من أن له شركاء، فقال عز من قائل:

﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾

«أم» هى المنقطعة وهى تتضمن الإضراب الانتقالى، فانتقل النص القرآنى بهم من إنكارهم الرسل وإنكارهم الآيات، وكل هذه أمور باطلة ولكنها سلبية فى ذاتها تعدت إلى أمر إيجابى منهم، وهو باطل كالأمور السلبية على سواء، بل أشد وأعنف، وهو الباعث على إنكار ما أنكروا معه الرسل والآيات، والمعنى اللفظى

---

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦٩٣٩)، وابن حبان في صحيحه (١١)- ١/ ٧، وابن خزيمة في صحيحه(٢١٠٣)/٣/ ٢٩٣. "الشرّة" بكسر الشين، وتشديد الراء بعدها تاء تأنيث: هي النشاط والهمَّة. كما في الترغيب والترهيب للمنذري (٩٠)/١/ ٤٦. "ولكل شرة فترة" أي وهنا وضعفا وسكونا، يعني أن العابد يبالغ في العبادة أولا وكل مبالغ تسكن حدته وتفتر مبالغته بعد حين، وقال القاضي: المعنى أن من اقتصد في الأمور سلك الطريق المستقيم واجتنب جانبي الإفراط (الشرة) والتفريط (الفترة). فيض القدير ١ / ٥٩٢.

للنص السامى، بل اتخذوا آلهة من الأرض، وكان الله يواجههم بإفكهم وافترائهم فى عبادتهم، والاستفهام إنكارى منصب على ثلاثة أمور:

أولها ـ اتخاذ آلهة غير الله تعالى، فهو فى ذاته ظلم مستنكر وبهتان عظيم.

والثانى ـ أنها آلهة من الأرض، وفى ذكر الأرض مقابلة بين هذه الآلهة المزعومة والعباد عند الله الذين لا يستكبرون عن عبادته، ويسبحون ليلا ونهارا لا يفترون، والأرض التى اتخذت منها آلهتهم دون من عند الله فكيف يعبدونها، وفى ذكر الأرض استنكار آخر، وهو أن هذه الآلهة المزعومة من حجر من الأرض أو من جماد منها، لا يعقلون ولا يفكرون فكيف تكون آلهة، ومهما يكن فإن ما يكون متخذا من الأرض دون ما عند الله، ومن عند الله يعبدونه.

والأمر الثالث ـ أنكر عليهم أيضا بالاستفهام، وهو استفهام جديد وأحسب أنه لإنكار الوقوع لا لإنكار الواقع، فهم لم يقولوه، وهو فى قوله تعالى: ﴿**هُمْ يُنشِرُونَ**﴾ أن يحيون الموتى، وأصل نشر من نشر الثوب، ونشر الله تعالى الموتى فيه كشف لهم، وإخراج لهم من قبورهم أحياء، ولا شك أنهم لا يقولون بالنشر والبعث، فهم يحسبون أنه لا يكون قط، ولكن النص أثبت عجز من زعموهم آلهة عنه، والله تعالى الذى يشركون به هذه الأحجار قادر على ذلك وعلى كل شىء، كما قال تعالى: ﴿ ... **كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ** ﴿٢٩﴾ ﴾ [**الأعراف**] وفى هذا توبيخ على عدم إيمانهم بالبعث مع ادعاء الألوهية لمن لا يصلح أن يكون إلها لأنه لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى شيئا يجلب نفعا أو يرفع ضررا.

وقد بين سبحانه بعد ذلك استحالة الشرك بالدليل الفعلى الذى لا يزال حجية التوحيد فقال عز من قائل:

﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾.

﴿**لَوْ**﴾ كما قلنا حرف امتناع لامتناع، أى امتنع الفساد فى الكون لامتناع أن يكون فيهما غير الله، فهو يسير فى نظام لا يتخلف، فالنجوم فى مساراتها، والشمس والقمر يجريان بحسبان، والليل والنهار يتعاقبان من غير تخلف.

و﴿إِلاَّ﴾ هنا للوصف بمعنى «غير»؛ لأن الاستثناء فى المستغرق يجب أن يكون المستثنى مستغرقا فى المستثنى منه، ولا يمكن ذلك للغيرية المطلقة بين الاثنين، فلا ارتباط حتى يجعل أحدهما مستثنى من الآخر، فما قبلها لا يشمل ما بعدها بأى نوع من الشمول، والاستثناء المنقطع فيه نوع قرب وشمول بين المستثنى والمستثنى منه من وجه، والدليل مع أنه لا استثناء رفع لفظ الجلالة، إذ لو كان منقطعا لكان منصوبا، فدل على أنه لا استثناء قط، وعلى ذلك تكون «لا» وصفا بمعنى «غير».

والمعنى أنه امتنع التالى فى هذه الشرطية، وهو الفساد، وإذا بطل التالى لأنه يخالف الحس، والوجود كله قائم شاهد بالصلاح، فالسماء والأرض كل قائم به الصلاح بدل الفساد، فالسماء بأبراجها وكواكبها ونجومها، والشمس سائرة فى أبراجها ومساراتها بانتظام، والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون مما يدل على أن مدبرا للكون يدبره وينظمه، ولا يمكن أن يكون كل ذلك بالمصادفة، والمصادفة لا يفرضها إلا إذا ثبت أنه ليس ثمة موجد منشئ، وذلك باطل، وإن إثبات الوحدانية بهذا الدليل العقلى الذى جاء به القرآن هو أقوى دليل جاء به المتكلمون لإثبات الوحدانية، وهو الذى يسمى عندنا بدليل التمانع، وقبل أن نقرره كما جاء فى القرآن نقول: إن ذكر الآلهة لذكرها من قبل فى قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً﴾ فى الآية السابقة، فليس الدليل لمنع آلهة مع الله، بل هو لمنع أى إله مع الله تعالى العلى القدير.

وما يقرره علماء الكلام مقتبسين من استدلال القرآن أنهم يقولون: لو كان فيهما إلهان لتعارضت إرادتهما، فإن نفذت إرادة أحدهما دون الآخر، وتوالى ذلك فهو الإله دون الثانى، وإن توافقت إرادتهما على الدوام فهو إله واحد، والاتفاق على الدوام غير ممكن لأن كل واحد منهما له إرادة مستقلة عن إرادة الآخر، فإن لم تخالف فى كل أمر بالتخالف لا محالة ثابت فى بعض الأمور، وفوق ذلك عند التوافق، فهو يؤدى إلى أن يكون العقل الواحد يتوارد عليه فاعلان، وذلك مستحيل، إذن فلابد من فرض التخالف، والتخالف يؤدى إلى تحقق أمرين

متضادين، وذلك محال فما أدى إليه محال أيضا، وإن نفذت الإرادتان بعد التسليم بذلك المحال، فسد الوجود، وهو الصلاح كله، وإذا بطل الفساد بطل ما أدى إليه، فكان الله واحدا أحدا فردا صمدا، وقد قال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى يترتب على بطلان التعدد أن يكون الله تعالى هو وحده الواحد، فتنزيها له وتقديسا عما يصفون من الإشراك به، وقد وصف الله تعالى ذاته بقوله: ﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾ أى أن العرش له وحده لا شريك له.

وقد بين سبحانه وتعالى سلطانه الكامل فقال:

﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾.

أى أنه لا رقيب عليه فيما يفعل حتى يُسأل؛ لأنه سبحانه وتعالى هو الإله وحده، ولأنه خالق الوجود كله، فلا يسأله مخلوق خلقه؛ لأن ذلك قلب للأوضاع العقلية، ولأنه سبحانه لا يخطئ، والمخطئ هو الذى يسأل عن خطئه، والله تعالى فوق كل خطأ، ولأنه الكامل واجب الوجود المطلق وكل من دونه ناقص قد يحسن، وربما لا يحسن، وربما يخطئ، وربما لا يخطئ، فالرقابة من الله تعالى عليه؛ ولذا قال تعالى ﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ والضمير يعود إلى المشركين، فهم يسألون عما يقولون وعما يفعلون وعما ينكرون وعما يفسدون، وفى ذلك تهديد لهم، وإنذار بأنهم محاسبون على كل ما يكون منهم من شرك، والله أعلم.

قال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

أم هنا كالسابقة للإضراب والاستفهام، وهو إضراب انتقالى من اتخاذهم آلهة ليس لها قدرة فى شىء، وأنه لو كان التعدد لكان الفساد. انتقل من هذا بالإضراب إلى بيان أن اتخاذ شريك لله تعالى لا يؤيده العقل بل يخالفه وينكره، وكل دعوى لابد لها من دليل، ودليلها نقلى أو عقلى، فأين الدليل وقد طالبهم النص السامى بالبرهان.

والاستفهام الذى تتضمنه «أم» لإنكار الواقع أى لتوبيخهم على اتخاذهم آلهة غير الله تعالى، و﴿مِن دُونِهِ﴾ يعنى غيره مع قيام الدليل العقلى على أن ذلك لا يجوز بدليل التمانع فى قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ ومع هذا التوبيخ طالبهم الله تعالى بأن يأتوا ببرهان على صحة ما يدعون، وما يفتاتون، فأمر نبيه ﷺ بأن يطالبهم بالبرهان: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ وكانت هذه المطالبة من الرسول ﷺ لإفحامهم ولبيان عجزهم عن أى دليل، وأى مبرر معقول أو غير معقول، وإلا فكيف يستطيع العاقل أن يجد دليلا أو مبررا يبرر به عبادته لحجر لا ينفع ولا يضر، أو لإنسان خلقه الله تعالى كما خلق كل شىء.

وليس لديهم أى دليل عقلى، ومع ذلك ليس عندهم دليل من النقل، بل الدليل النقلى، وما عليه الرسل يناقض ما يقول؛ ولذا قال الله حكاية عن نبيه: ﴿هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ «ذكر» بمعنى «تذكير» وهو هنا من باب إضافة المصدر إلى مفعوله، أى هذا تذكير الذين فيهم وهم من معه، وهو القرآن ليس فيه إلا التوحيد الخالص والشرائع المنزهة الطاهرة عن كل ما فيه شرك بالله ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ أى هذا تذكير من كان قبلى من الناس لقد ذكرهم رسلهم بالتوحيد، ودعوا إليه ويصح أن يكون الذكر هو القرآن، وذكر من قبلى هو التوراة والإنجيل والزبور وغيرها من الكتب السماوية والغاية واحدة؛ لأن القرآن يكون فيه الذكر لمن معه، والتوراة والإنجيل والزبور فيها الذكر لمن كان قبله ﷺ.

فقد كان الانتقال من طلب الدليل المثبت إلى تقديم الدليل مما ادعوه واتخذوه من عبادة الأوثان، ثم قال تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ والإضراب بـ «بل» هنا للإشارة إلى أنهم طمس الله على بصيرتهم فصاروا لا يعلمون الحق ولا يدركونه، ولا يعرفون السبيل إليه؛ لأن قلوبهم غلف، ولا سبيل لأن يعرفوا الحق بها ويرشدهم ﴿فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ «الفاء» هنا للسببية أى أن ذلك بسبب أنهم معرضون، فهم حائرون بائرون، لا يرشدون بعقولهم، ولا يستمعون إلى مرشد يرشد، بل يعرضون عنه إعراضا.

الرسل جاءوا بالتوحيد

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ
بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم
بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ
وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ
﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ
جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾

هذه الآيات متصلة بما قبلها، فهى بيان إيجابى يعلم الناس أن النبيين جميعا كانت رسائلهم تدعو إلى التوحيد، وما جاءوا إلا لبيانه، فهو تأكيد للدليل النقلى الذى أشار إليه قول النبى: ﴿ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ﴾.

يقول تعالى مؤكدا هذا المعنى الخاص بالتوحيد:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾.

هنا نفى وإثبات، وهو نفى مستغرق استغراقا كاملا، فـ (مِنْ) الثانية لاستغراق الرسل وقوله: ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ أى الذين سبقوك، فما كنت بدعا من الرسل إذا دعوت إلى التوحيد، فهو لب الرسالات كلها، وما عداه لا يمكن أن يكون دينا، بل هو أوهام باطلة لا تقوم على دعائم من حق أو عقل فالعقل يمنعها، والحق يجافيها.

﴿إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ﴾ بيان أن هذا التوحيد هو أمر من الله، ووحى من عنده، والعرب يعرفون الله تعالى بأنه الخالق الذى يلجأون إليه فى شدائدهم، ولا يعرفون غيره إذا أحيط بهم، فهو الذى أمرهم بالتوحيد على لسان كل الرسل: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾، الضمير «أنا» فى محل رفع؛ ولذا جاء بضمير الرفع، وقوله تعالى ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ «الفاء» تفيد أن ما بعدها مسبب على ما قبلها، فإذا كان لا إله إلا هو فلا يعبد غيره، ولا يعد قد عبد الله تعالى إلا إذا عبده وحده، فالإشراك على أى صورة من صوره ليس فيه عبادة لله تعالى.

ولقد بين سبحانه وتعالى بطلان الذين يعبدون الأشخاص، كما بين بطلان عبادة الذين يعبدون الأوثان، فإن الجميع مشركون فى العبادة، بيد أن الذين يعبدون الأشخاص يسرفون على أنفسهم فيدعون أنهم أبناء الله:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾.

قائل هذا بعض المشركين والنصارى منهم؛ لأن ذلك إشراك فى العبادة لا مرية، وقالوا إن الله - تعالى عما يقولون - اتخذ المسيح ابنا له، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ... (٣٠)﴾ [التوبة]. وطائفة من العرب قيل إنهم من خزاعة قالوا الملائكة بنات الله، ولقد أشار سبحانه إلى ذلك بقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١)﴾ [الأنعام].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ أى جعل له ولدا، وكلامهم ينبنى عن احتياجه سبحانه إلى ولد؛ لأن الاتخاذ لا يكون إلا عن حاجة، وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أى تنزه وتقدس عن ذلك ﴿بَلْ﴾ إضراب وردٌّ لقولهم، ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾، أى كرمهم الله تعالى وهم عباده، فعيسى عبد لله، ولا يستنكف أن يكون عبدا، والملائكة المقربون لا يستنكفون أن يكونوا عبيدا له.

وقد ذكر سبحانه وتعالى حالهم فقال عز من قائل:

﴿لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾

وذكر سبحانه وتعالى هذا الوصف لهم، للإشارة إلى أنهم من الله بمنزلة من الطاعة، كمنزلة العبيد من مالكهم، لا يسبقونه فى أمر من أمور الشريعة أو الخلق والتكوين أو القول، بل هم تابعون خاضعون، ليس قول مع قوله سبحانه، فلا يتقدمون أمامه، وقالوا: إن ﴿لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ فى مؤدى لا يسبق قولهم قوله، أى لا يقولون قولا، بل قولهم دائمًا مسبوق بإرادة الله سبحانه وتعالى، وليس لهم أن يتقدموا بأمر، ثم قال تعالى فى بيان خضوعهم: ﴿وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ وتقديم الجار والمجرور لإفادة الاختصاص، والمعنى بأمره وحده لا بأمر غيره يعملون، وفى ذلك تعريض ببطلان ما يفعله المشركون إذ يفرضون لآلهتهم المزعومة مطالب يؤدونها، وذلك من أوهامهم.

ويبين سبحانه وتعالى أنهم فى قبضة يده يعلم حالهم فى حاضرهم وماضيهم فيقول سبحانه:

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾.

ذكر الله تعالى أنهم فى قبضته، وهو عالم بكل أحوالهم ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، وهذا يكنى به عن حاضرهم؛ لأنه بين أيديهم يفعلونه ويدورون فيه تحت سلطان إرادته، وعلى مقتضى علمه، وجميع ما يفعلون وما يفكرون تحت عين الله وفى رقابته ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ويعلم سبحانه ما هو خلف أعمالهم، أى ما يجيء فى المستقبل، فهو يعلم حالهم فى حاضرهم وفى قابلهم الذى يخلف حاضرهم، فهم فى سلطان الله تعالى مع تقريبهم وتفضيلهم وتكريمهم. وليس ذلك شأن من يتخذه ولدا، بل هو شأن من يكون من عباده.

﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ أى لا يشفعون لأحد إلا إذا كان مرتضى لله، ورضى الله أن يشفع كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴿٢٥٥﴾ ﴾

[البقرة]، وكما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴿١٠٩﴾﴾ [طه]، فهم فى شفاعتهم لا يسبق قولهم قول ربهم إنما قول الله تعالى هو السابق، وهو الذى يأذن لهم بالقول شفاعة أو غيرها.

وقد ذكر سبحانه وتعالى وصفا ثالثا، وهو حال دائمة مستمرة لهم فقال: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ الخشية الخوف مع التعظيم والضراعة والاستسلام لله عز وجل؛ ولذا اختصت بالذين يعلمون عظمة الله تعالى وجلاله، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر]، الذين علموا الله تعالى وعرفوه حق معرفته.

والإشفاق: الخوف مع توقع ما يخافونه، فهو خوف مع عناية بما يجىء به الزمن، وإن ذلك الإشفاق يكون من كمال العلم بالله واستشعار عظمته، وامتلاء النفس بمهابته، وذلك شأن من كانوا خاضعين، وليس شأن من زعموهم آلهة مع الله مناظرين، وإن هذه حال من قربوا من الله فهم أدرك لعظمته، وأكثرهم علما بقدرته، وحكمته وكماله.

وإن هذا التعبير الكريم يدل على دوام هذه الحال؛ لأن الجملة حالية أولا، ولأن الجملة اسمية تدل على الاستمرار ومؤكدة بالضمير، والله سبحانه أعلم بحالهم، فهم المقربون.

ولكنهم مع قربهم من الله تعالى، وأنهم المكرمون، لو انحرفوا عن الطريق لنالهم جزاء الضالين المضلين؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾

إن هؤلاء عباد خلقهم الله تعالى للطاعة والتسبيح لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وهم مجردون من الشهوات التى تضل وتهوى بصاحبها إلى مكان سحيق من المعصية ولتجردهم من الأهواء المردية والمطاولات التى تقع بين أهل الدنيا الذين تسيطر عليهم أحيانا أهواء إبليس عدو آدم - لا يقع منهم ما يخالف إرادته، ومع ذلك لو وقع منهم ما يعاند إرادة الله يكون جزاؤهم جزاء العصاة، فلا

يقول أحد منهم أنه إله من دون الله، فمن قالها منهم فإن جزاءه جزاء العصاة، وهذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ «من دونه» أى غير الله، ويعاند الله فى ظاهر حاله والفاء واقعة فى جواب الشرط، والإشارة إلى الذى يقول إنى إله من دونه، والإشارة إلى فاعل فعل هى إشارة إلى الفعل، فهى إشارة إلى أن ذلك القول إجرام، ويكون كقول فرعون ما علمت لكم من إله غيرى، وجهنم للعصاة دائما، و ﴿كَذَٰلِكَ﴾ فى ختام الآية الكريمة: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أى أنه كهذا الجزاء الذى ذكر لهم إذا ادَّعوا الألوهية يجزى الله الظالمين.

وفى هذا النص إشارة واضحة إلى أن الذين يعبدون المقربين كعيسى ابن مريم، وكالملائكة المقربين لا يغضبون الله وحده، بل يغضبون من يعبدونهم ويخالفونهم، فالذين يقولون عيسى ابن الله أو الرب أو إله يعصون أول ما يعصون عيسى عليه السلام، وكذلك الذين يعبدون الملائكة المقربين.

والظلم المذكور فى الآية هو ظلم الإشراك، وظلم المعصية، وظلم تضليلهم، وانهواء عقولهم، والله تعالى الهادى إلى سواء السبيل.

خلق الله يدل على وحدانية الله

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا
أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا
مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ
رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ
يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ
آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾

هذا كلام موصول لبطلان الشركاء لله تعالى ببيان إبداعه فى خلقه، سواء أكان أولئك الشركاء المزعومون أحجارا أم تماثيلَ أم أوثانا، أم ادَّعوا أن الله بديع السموات والأرض اتخذهم أبناء، وذلك البطلان ببيان عظمة خلقه.

﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ «الواو» عاطفة، وتقدمها الاستفهام، وتقدير القول: وألم ير الذين كفروا، والاستفهام له الصدارة دائما، والاستفهام لإنكار الوقوع أى أنهم لم يروا وكان حقهم أن يروا، والرؤية ليست رؤية البصر، ولكن رؤية العلم والبصر والإدراك؛ لأن أحدا لا يرى السموات والأرض رتقا، والرتق: الضم والالتحام خلقة كان أو صنيعة، وقد قال الأصفهانى فى مفرداته: كانتا رتقا أى منضمتين، والمتتبع لآيات القرآن فى بيان خلق السموات يرى أن النصوص تتضافر على أنهما كانتا شيئا واحدا كان كالدخان، أو هو ما يعبر عنه علماء الكون بالسديم، لأنه مثل الدخان، وقد ذكرت شيئا مثل ذلك فى تفسير ستة الأيام التى جاءت فى عدة سور، وقلنا إنها ستة أدوار، وليست ستة أيام زمنية؛ لأن الأيام مقدرة بالليل والنهار وهما كانا بعد خلق السموات والكواكب والنجوم والشمس والقمر، واقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝١١ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝١٢﴾ [فصلت].

فإن هذه الآيات تشير إلى أن السموات والأرض كانتا شيئا واحدا، وكانت السماء ومعها الأرض دخانا، وهو ليس الدخان الذى نعرفه؛ لأن الدخان الذى نعرفه هو الناتج من اشتعال نار من حطب أو نحوه من أى حطام، وما كان ذلك قبل السماء والأرض، فإذا قلنا إنه الذى سماه علماء الكون السديم، لا نكون مباعدين، بل نكون مقربين غير مدعين على القرآن ما ليس فيه، وتكون الأرض قد

خلقت فى ستة أيام أى أدوار فى التكوين بتدبير الله العزيز العليم، فخلق الله الأرض فى يومين هما دور انفصالها عن الكتلة الشمسية، وتكوين طبقتها الأرضية الظاهرة، وبقاء باطنها ملتهبا كأصلها، ويبدو أحيانا شىء منه فى براكين تقذف بالحمم والسعير، وبعد أن تكونت القشرة الأرضية كانت أربعة أدوار أخرى، فيها تكونت الجبال الرواسى، والسبل الفجاج، وتكون السحاب والمياه العذبة، والإنسان والحيوان والزروع والثمار، وكانت الأرض، هذا المهاد والفراش، وانتهى أمر الله بأن جعل من الماء كل شىء حى، فكان النبات والحيوان من الماء العذب، وكانت البحار موطنا ومحيا للسمك اللحم الطرى.

﴿ فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ «الفاء» عاطفة للترتيب والتعقيب، وكان التعقيب لأنه لم يكن بين الرتق والفتق أمر كونى آخر، وكل شىء من فعل الله تعالى يكون بقوله تعالى: «كن فيكون» ولا فاصل من الزمان بين قول الله «كن» وما يكون.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ كان فيه أدوار أربعة، كما قدر العزيز الرحيم، ثم قال تعالى: ﴿أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾ «الفاء» لترتيب التوبيخ بعدم الإيمان على ما قبلها، و«الفاء» مؤخره عن تقديم، والمعنى: فألا تؤمنون، والاستفهام لإنكار الواقع وهو عدم الإيمان، وإنكار الواقع بمعنى التوبيخ والتعجب من الكفر مع قيام الأدلة على وجوب الإيمان، فالفاء لترتيب التوبيخ على ما بين الله تعالى من خلق السموات والأرض من خلق الأرض من السماء وخلق الأرض فى ستة أيام.

وقد بين سبحانه الأرض وما يرى فيها بالعين والبصر، لا بالعلم والإدراك كما قال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

الرواسى هى الجبال، وهى جمع راسٍ، وفواعل تكون جمعا لما فيه التاء، وتكون جمعا للخالى من التاء، إذا كان وصفا لا يعقل، وهى هنا وصف للجبال.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ وهنا ذكر الوصف وحذف الموصوف، أى جبالا رواسى أى ثابتة، والجَعْل خلق لأمر موصوف بوصف معين،

والخلق مجرد الإنشاء، أما الجعل فهو خلق لأمر أراده الله تعالى فى التكوين، وهو أن يكون لأمر نافع للعباد، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ... ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء] وعلل الله كونه خلق الجبال وجعلها رواسى بقوله تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ والميد الاضطراب الشديد والحركة التى لا يكون معها قرار وثبات، ويتحقق أن تكون فراشا، وأن تكون مهادا، ومستقرا، وتقدير القول كما قال البصريون: كراهة أن تميد فتضطرب، ولا يكون لها قرار تثبت النفوس فيها وتطمئن وتسكن، وقال الكوفيون: إن معنى ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾: لئلا تميد بهـم، وهو تقدير لفظى اختلف فيـه، ولا يغير من المعنى اخـتلاف الآراء، بل المعنى فى التـقدير أن الجـبال رواسى، فـلا تضطرب الأرض وتكون فراشا وقرارا ومهادا.

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً﴾ الضميـر فى «فيها» قـيل يعود إلى الجبـال، والمعنى جعلنا فى الجبـال فجاجا فـيما بينهـا، وهى الشُّعب التى تكون بين الجبال أو فى الجـبال نفسهـا، فمع أنها راسيـات تكون فيها طرق يسـتطيع السائر أن يسير فيها فى علوها، كما ترى فى جبال الأطلس فى الجزائر وتونس والمغرب.

ولكنا نرى أن الضمـير يعـود إلى الأرض، أى جعلنا فى الأرض فجـاجا أى طرقا واسعـة، فالفج هو الطريق الواسع، وهو فى أصل وصفـه للطريق بين الجبلين كأنه شق بينهمـا شقا، وتوسع فيه حتى صار يشـمل كل طريق، جاء فى المفردات: الفج شقة يكتنفها جبلان ويستعمل فى الطريق الواسع، وجمعه فجاج، قال تعالى: ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج].

وقد اخترنا - كـما ذكرنا - معنى الطريق لأمرين أولهمـا: أنه سبحانه وصف الفجاج بأنها سبل أى سبل معبدة، وثانيهـما: أنه سبحانه وصفها بأن الغاية منها أن تكون طريقا للـهداية والتعـرف لمسالك الأرض فى غيـر ضلال فى متـاهاتها، وهذا أنسب لمعنى الطريق الواسع.

قـوله تعالـى: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أى لتـدركـوا الهـداية فـى طرائق الأرض، وألا تتيـهوا فى متاهاتها، وإنه بهذه الفجاج لعلكم ترجـون الهداية، فـهم إذا أدركوا

أن الله تعالى جعل لهم الفجاج سبلا ليهتدوا إلى مصالحهم فى معاشهم وعامة أمورهم ولكيلا تتيهوا فى ضلالها، عساهم يهتدون لوحدانيته رب العالمين.

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾.

أى خلقنا السماء خلقا، وجعلناها محفوظة من أن تنتثر نجومها، إذ تبدو متفرقة غير متماسكة، وهى متماسكة مترابطة بجاذبية كأنها أرسان[1] تربطها بعضها ببعض، فلا ينفصل نجم عن مدار بالنسبة لنجم آخر، وهذا كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولا** ... (٤١)﴾ [**فاطر**] وإمساكهما أن يكون كل منهما فى مكانه، ولقد قال تعالى: ﴿**وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ** (٦٥)﴾ [**الحج**]، وإنها لمحفوظة من كل شيطان، كما قال تعالى: ﴿**وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ** (١٧)﴾ [**الحجر**] وحفظها سبحانه بأبراجها، وبعلوها، وكما قال تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا** ... (٢)﴾ [**الرعد**] وكما قال تعالى: ﴿**وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ** (٧)﴾ [**الذاريات**] وهى زينة الوجود جديرة بأن تحفظ، وجعلها الله تعالى محفوظة. كما قال تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ** (٦)﴾ [**ق**].

﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ وفى السماء آيات متكاثرة، فالبروج والنجوم المتلألئة، والكواكب السيارة، وكل منها مسخر بأمره، فالشمس وما تكون بها من حرارة ودفء وضياء وأشعة تنبت الزرع وتنميه، وما يكون فى دورة الشمس من فصول السنة من صيف وشتاء وما فيها، والقمر من آيات يعرف بها الحساب، وكما قال الله تعالى: ﴿**وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ** (٥)﴾ [**يونس**]، وهذه كلها آيات تدل على الخبير، وأنه واحد أحد فرد صمد لا إله إلا هو ولكنهم عن كل هذا معرضون.

ومن كان معرضا عن آيات السماء ذات البروج فهو فى أعظم الجهل.

---

(١) جمع رَسَن، وهو الحبل. وقد سبق.

وقد ذكر سبحانه بعد ذلك أمرا محسوسا يحسونه، وهو من آيات السماء فقال:

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

الضمير لله تعالى، وقال إنه خلق الليل والنهار؛ لأنه خلق سببهما ونظامهما وهى نعمة فى ذاتها، فجعل الليل لباسا والنهار معاشا، فالليل يسكنون فيه، والنهار يخرجون فيه، وذكر بعد ذلك ما فى الليل من نعمة السكون، والاستمتاع بنور القمر الهادئ الساكن، وما فى النهار من الحركة والاستمتاع بضوء الشمس الساطع وحرارتها ودفئها، فقال تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ... ﴿٥﴾﴾ [يونس].

و﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ التنوين هنا عوض عن المضاف إليه، أى كل من الشمس والقمر فى فلك أى فى مدار ﴿يَسْبَحُونَ﴾ وهنا شبه جريانها بالسبح، يسبح فى اليم؛ لأنه يجرى فى فلكه بقدرة أودعها فيه، وبنظام ثابت، والضمير عاد ضمير العاقل ترشيحا للاستعارة؛ لأن السابح عاقل يدخل فى العقلاء عادة، فلما جاء التعبير بالسبح جاء معه وصف من يكون فيه عادةً.

وكان الضمير ضمير الجمع للإشارة إلى طوالع الشمس والقمر المتكرر الذى جعلهما جمعا، ولأن الطوالع تختلف معها الشمس، فتكون الشمس قريبة من الأرض فى أحد مطالعها وتكون بعيدة عنها فى مطلع آخر، والقمر يبدو فى النظر هلالا، ثم يكبر حتى يصير بدرا؛ ولذلك كانت الشمس والقمر بمطالعهما متعددين، فصح أن يعود إليهما الضمير ضمير جمع.

الأنبياء ومن يخالطونهم

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ
ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ
ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾
وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا
أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ
هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ
ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾

كان المشركون يتمنون موت النبى ﷺ، ويعيرونه بأنه بشر يموت، وإذا مات فإن آلهتهم تنجو من سبه وتعييبهم، فبين الله تعالى أنه سيموت، وهم يموتون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر]؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ وإن كونك بشرا يقتضى أن تموت وتبعث ككل البشر، فما قدرنا لبشر من قبلك الخلد والبقاء، والجعل هنا التقدير، أى ما جعلنا الخلد لأحد قبلك من آدم إلى عصرك، ولست بدعا من بين البشر، وإذا كانوا يتمنون موتك، فليعلموا أنهم أيضا ميتون، ولا يعلم إلا الله تعالى، من يموت قبلا؛ ولذا قال تعالى: ﴿أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ «الفاء» لترتيب ما بعدها مع قبلها، أى إذا كنت ستموت لا محالة فهل هم خالدون؟ فالاستفهام الذى فى حيزه الفاء مترتب على نفى الخلود عنه ﷺ، والاستفهام داخل على مضمون الشرطية، وهو استفهام

إنكارى فيه نفى الوقوع، والجملة الشرطية محطها الجواب، والمعنى إن مت لا يخلدون بل ينتهون أيضا، فلا يصح أن يتمنوا موتك، ولا يصح أن تشمتوا فالموت حق على كل نفس؛ ولذا قال تعالى مؤكدا موتهم وموته ﷺ:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾

هذا تكميل لبيان مساواتهم مع النبى ﷺ فى عدم الخلود، ثم ذكر ذلك فى قضية ماسة كلية لا استثناء فيها؛ لأن الموت يلازم البشرية؛ لأنه ما من حى من أحياء الأرض إلا له انتهاء وذكر ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ ولم يذكر كل إنسان، أو كل البشر؛ لأن النفس هى التى تذوق مرارة فراق الجسد، فالموت ينصب عليها ابتداء، وقوله: ﴿ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ عبر عن الفراق بالذوق كأن الموت شىء يذاق، وفيه تشبيه الموت بالذوق لأن كليهما يعتريه ألم ومرارة ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ أى نعاملكم معاملة المختبر؛ بأن نمكنكم من الشر لتفعلوه أو تتجنبوه، ومن الخير لتفعلوه، وقدم الشر على الخير، لأن الاختبار بالشر أشد فى ذاته، وإن يبدُ أخذه حلوا ولكنه مرى، ولأن أكثر الناس يستجيبون لداعى الشر بإغراء إبليس، وإسناد البلاء إلى الله تعالى لأنه هو الذى يمكنهم ويسهل لهم النجدين نجد الخير ونجد الشر، فقد قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد].

و﴿فِتْنَةً﴾ مفعول مطلق؛ لأنه مصدر فى معنى «نبلوكم» وإن لم يكن بلفظه، فالإنسان فى موضع اختبار فى النفع والضر، فإن أعطى الخير فشكر، فله الجزاء، وإن كان حرمان فصبر فله الجزاء ويختبر بفتنة الضر، فيلقى إليه الضر ويراه محبوبا، والشهوات لينزع عنها، فيكون فى ابتلاء، إن صبر أجر، وإن رتع فيها رتعا جوزى بسوء العاقبة فى الدنيا والآخرة، والصبر على النعمة بشكرها فيه الثواب، والصبر على النقمة باحتمال آلامها من غير أنين ولا ضجر يستحق به الثواب، ويقول سبحانه: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ تقديم الجار والمجرور يفيد الاختصاص أى ترجعون إلينا وحدنا، ويكون الملك يومئذ لله فيكون الحساب ثم الجزاء للطائعين والعقاب

للعصاة، وفى هذا إنذار للذين لا يطيعون أمر الله تعالى، وقد صور سبحانه وتعالى إعراضهم فى استهزائهم بالنبى ﷺ إذا دعاهم للحق فقال عز من قائل:

﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

إن الإيمان والكفر يتبديان من أول لقاء أو من أى لقاء، فإذا صحب اللقاء إقبال وتعرُّف سلك طريق تعرف الحق واهتدى، وإذا كان اللقاء إعراضا، وسدا لينابيع الإدراك، ومن أشد مظاهر الإعراض الاستهزاء والسخرية؛ لأن الاستهزاء يميع النفس، فلا تتجه إلى طلب المعرفة، وتحرى الصواب، ولقد كان الاستهزاء شأن المشركين فى لقاء النبى ﷺ وهذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا﴾، (إن) هى النافية، والمعنى لا يتخذونك فى اللقاء إلا هزوا، أى إلا مستهزئين منك، غير مقبلين على دعوتك، ولا على شخصك بتعرف ما عندك من قول، والنفى والإثبات بالاستثناء مفيد لاستغراق الاستهزاء كل أحوالهم، فليس عندهم فى نفوسهم فراغ لسماع الحق، والإنصات إليه فى جد وإقبال، وإنهم إذ يرون النبى ﷺ رءوفا بهم لا يريد إغباتهم متواضعا، وادعًا تغريهم هذه الرؤية بأن يجعلوا هذه الصفات العليا موضع استهزاء ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ وقد ابتدوا فى عباراتهم عن كلامهم ذكر الآلهة بسوء، فقالوا: يذكرها، وأنَّى يكون له أن يعلو إلى ذكرها فضلا عن تسفيه أحلامهم فى عبادتها، وهذا استفهام للتعجب والاستهزاء والسخرية، وذلك كقول الله تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (٤١) إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٢)﴾ [الفرقان].

و﴿يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ فيها معنى إعلاء آلهتهم، وتصغير شأن النبى ﷺ ومثلهم كمثل فرعون من موسى ﴿... هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢)﴾ [الزخرف] فهو استفهام للتعجب والاستغراب من أن هذا للتواضع، والتواضع عند أهل الفساد ضعة؛ لأن مقياس الخير والشر عندهم القوة، وقاعدتهم: من لا يظلم الناس يُظلم.

﴿وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾، و﴿بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ أى تذكير الرحمن لهم فهو من إضافة المصدر إلى فاعله ﴿ كَافِرُونَ﴾ أى جاحدون، وهنا أمران يجب الإشارة إليهما:

أولهما ـ تقديم ﴿بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ على ﴿كَافِرُونَ﴾ وهو يدل على التخصيص، أى هم بذكر الرحمن وحده كافرون فهم كافرون بالوحدانية.

الأمر الثاني ـ ذكر الله تعالى موصوفا بصفة الرحمن، وفى ذلك إشارة إلى أن بعث الرسل وخصوصا محمدا ﷺ هو من الرحمة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾ [الأنبياء] ونقول: إن محمدا ﷺ لم يكن مهينا، وإن كان متواضعا وديعا، متطامنا موطأ الكنف ولكنه كان ذا هيبة إذا اشتدت سخريتهم، يروى عبد الله بن عمرو بن العاص عن يوم من أشد الأيام التى لقيها النبى ﷺ من المشركين أن النبى ﷺ كان يطوف بالبيت والملأ من قريش بفناء البيت، فكان إذ مر بهم وهو يطوف غمزوا بالقول، فبدا أثر ذلك فى وجه النبى ﷺ، حتى إذا أتم الطواف التفت إليهم وقال: «شاهت هذه الوجوه، وأرغم الله هذه المعاطس، يا معشر قريش لقد جئت بالذبح»، فما كان إلا من يقول يرفؤه بأحسن القول، ويقول: اذهب أبا القاسم موفورا ما علمنا عنك إلا خيرا[1] فكان عليه السلام مهيبا، ولم يكن مهينا، ولكن تطامن ليدخل الناس فى الدعوة مختارين اختيارا كاملا لا رهبة فيه.

﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

العَجَل هو العَجَلة والتسرع والسبق إلى مخاطر الأمور من غير تفكير، ومعنى أنه خلق من عجل، المبالغة فى عجلته كما يقال خلق من كرم مبالغة فى الكرم،

---

(١) رواه أحمد: مسند عبد الله بن عمر بن العاص(٧٠١٦)، وابن حبان في صحيحه(٦٤٥٣)٦/ ٢٠١، وراجع مجمع الزوائد، والبداية والنهاية- فصل في أشد ما صنعه مشركو قريش برسول الله٣/ ١٧٨، وتاريخ الطبري١/ ٨٧٣.

وكما قال تعالى: ﴿... خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ... ﴿٥٤﴾﴾ [الروم] وقوله تعالى: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ نظيره ومؤداه ﴿... وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴿١١﴾﴾ [الإسراء] وهذا التعبير فيه تأكيد فى عجلته، وكأنه يكون من عجلة، وهذا كناية عن استعجاله للأمور، وفيه مجاز بتشبيه فى عجلته وكونها طبعا له غير منفصل عن ذاته بأنه خلق منها طبعا له لا تنفصل عنه، وهم يستعجلون دائما ما أوعد من عذاب، كما قال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ ... ﴿٦﴾﴾ [الرعد] فهم يستعجلون العذاب كأنهم يتحدون الله، والله أمهلهم لحكمة يعلمها، وكل شيء عنده بمقدار، وإذا كانوا يتحدون مستعجلين فالله تعالى ينذرهم ويخبرهم بأنه آتيهم لا ريب فيه، ويقول سبحانه: ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ الآيات هى آيات القدرة والقهر بالنذر التى تومئ، بغلبة محمد ﷺ ومن آمن به، وبالريح العاصف التى غَلَب بها محمد ﷺ فى غزوة بدر، هذه آيات بينات على ما ينزل بالكافرين لكفرهم ونصرة الحق عليهم، و«السين» هنا لتأكيد الفعل فى المستقبل، وإسناد الفعل إلى الله تعالى فيه تأكيد الوقوع، ورؤيتهم لهذه الآيات هى رؤية معاينة لا رؤية علم و نظر فقط ﴿فَلا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ أى لا تطلبون العجلة من أمر هو واقع فيكم لا محالة، واستأنوا فإن ما تطلبون نازل.

وذكر سبحانه من استعجالهم قوله:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

أى يقولون مستعجلين وعد الله تعالى بالهلاك إن استمروا على كفرهم، ووعد الله المؤمنين بالغلب والقدرة، وأن تكون كلمة الله هى العليا، وكلمة الشرك هى السفلى، يقولون ذلك إنكارا وتحديا وإعناتا؛ لأنهم مأسورون بالحاضر لا يدركون شيئا وراءه، فهم لا يتصورون أن يكون هؤلاء الضعاف الذين يستذلونهم ويفرضون عليهم الذل ويؤذونهم سيكون لهم الغلب يوما من الأيام، لا يتصورون أن يجلس عبد الله بن مسعود فوق أبى جهل ويحز رقبته، وأن يقتل بلال من كان سيدا له فى مكة، وهو من سادات قريش، لا يتصورون ويستبعدون أيضا عذاب

يوم القيامة لهم دون المؤمنين، ويظنون أنه إن كان بعث أو عذاب، فلن يكونوا هم وقودها، بل يقيسون الآخرة على الدنيا، ويبلغ بهم التحدى بعد استطالتهم أمد العذاب فيقولون: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ والمخاطب محمد ﷺ وأتباعه الكرام، أو المخاطب الدعاة إلى الله من رسل وأتباعهم، ويتهجمون ويتحدون الله، ولكنهم ضالون، وماذا بعد الحق إلا الضلال.

هول يوم القيامة

لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ
لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا
هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ
بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ
الرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ
لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ
أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ
وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي
الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾

استطالوا الزمن واستعجلوا العذاب، وتحدوا الله ورسوله أن يأتوا بالعذاب إن كانوا صادقين فبين الله تعالى هوله إذا جاءهم وأنه لا يأتيهم يوم القيامة إلا بغتة، وأنه بعده عذاب لا يتصورونه ولا يدركونه، وإن المشركين كانوا يتحدون الرسول أن يأتى بما وعد به من عذاب إن كان صادقا، فبين سبحانه أن ذلك التحدى من جهلهم، ثم بين مآلهم من عذاب يلقونه، وأن القيامة التى يكون وراءها العذاب تأتيهم بغتة وذكر العذاب قبل القيامة مع أنه بعدها وبعد الحساب فقال: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ أى يحيط بهم، وذكر الوجه والظهر لأنه إذا أحاط بهما أحاط بالجانبين لا محالة فلا يصل إلى الظهر إلا إذا أحاط بالشمال واليمين، فالنار تحيط بهم، ولا يستطيعوا كفها وذلك العجز عن كفها لأنه يقتضى الإحاطة بهم، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ... ﴿٤١﴾﴾ [الأعراف] وكما قال تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾﴾ [إبراهيم]، وكما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ... ﴿١٦﴾﴾ [الزمر].

و﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ العلم هنا بمعنى المعرفة، وهى الجزم المطابق للواقع، وعبر بالمضارع لتصوير حالهم عندما يعاينون العذاب، وينزل بهم العذاب الشديد، وجواب الشرط محذوف يدل على عظيم الهول وتقديره لرأوا هولا لم يدركوا كنهه، ولم يعرفوا أمره، كما فى قوله تعالى: ﴿... وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ ... ﴿١٦٥﴾﴾ [البقرة]، وعبر تعالى بقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ للإشارة إلى أن الكفر هو سبب ذلك الهوان العظيم، ﴿وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أى أن العذاب ينزل بهم لا يستطيعون كفه ولا يوجد من ينصرهم، ويكف عنهم، هذا ما يستعجلونه، ويتحدون أن يكون، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

تحدوا أن يذكر لهم متى هذا الوعد، وهو يوم القيامة، وقد بادر سبحانه بذكر ما يكون لهم فى هذه مما لا يسوغ لهم أن يستعجلوه، ثم ذكر لهم أنه لا يأتى فى وقت معلوم، بل يأتى فجأة فقال:

﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلا هُمْ يُنظَرُونَ﴾

البغتة المفاجأة التى لا تكون منتظرة، ويكون وقعها شديدا، والبَهْت المجىء الذى يكون فيه دهشة وتحير، قال تعالى: ﴿... فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ... (٢٥٨)﴾ [البقرة] أى شدة وتحير، ويطلق البهت على الكذب الذى لا أصل له، ويحير العقول المستقيمة، وتكون كل الظواهر مناقضة كما قال تعالى فى رمى أم المؤمنين عائشة: ﴿... هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦)﴾ [النور].

و﴿بَلْ﴾ هنا للإضراب الانتقالى وتضمن الرد على طالبى ميعاد للوعد، وقد استبطأوه، والمعنى بل تأتيكم بغتة أى فجأة على غير ترقب وتوقع وانتظار منكم ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أى تفاجئهم فتدهشهم وتحيرهم، وتحيط بهم ﴿فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أى لا يستطيعون دفعها، بل إنها الواقعة التى لا مناص منها، ولا خلاص ولا انفكاك عنها، ﴿وَلا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ لا يمهلون، فلا يستطيعون تأجيلها فهى محدودة، بميقات معلوم عند الله سبحانه وتعالى.

كان النبى ﷺ إذا عرض عليهم الدعوة إلى التوحيد ردوها، وإذا مَرّ بهم استهزأوا ساخرين، وإذا رأوه استصغروه، وهو القوى، فواساه الله تعالى بذكر أن الاستهزاء شأن الكافرين، وهو دليل عجزهم، وإن استطالوا بألسنتهم وأفعالهم.

ولذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

أكد الله سبحانه وهو الصادق فى كل قول، ولا يحتاج إلى توكيد قول، ولكنه أكد لأن الرسول ﷺ أحزنه أن يستهزئ ناس بنبيهم الذى جاء لهدايتهم، ولأن الوحدانية حق لا يستهزأ منه، وعبادتهم الأوثان هى الجديرة بالاستهزاء والسخرية، فأكد سبحانه لمواساة النبى ﷺ، وليوقع فى نفسه عليه الصلاة والسلام بأن دعوة الحق لا يعارضها ناس فضلاء، ومن طبيعة الأخساء أن يهبطوا فى خصومتهم إلى دركة الاستهزاء، فقال: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أكد سبحانه استهزاء السابقين بـ «اللام» و «قد»، ونكرت (رسل) لكثرتهم ومقامهم من الله، أى رسل

كثيرون لهم مكانتهم عند الله وفى أقوامـهم، والحق يسخر منه أهل الباطل خصوصا إذا كان واضحـا نيرا، والباطل حجته داحـضة، ويشعرون بأنها ليـست حجة، ومع ذلك يستمسكون بها اتباعا لأوهامهم، ولآبائهم وخضوعا لعادات وتقاليد فاسدة.

وإنهم محاسبون على استهزائهم، لقد حسبوه لغوا من الأقوال والأفعال، وهو عند الله عظيم؛ لأنه كفـر وعناد وخسة، ولذلك كان له عقـابه فى الدنيا والآخرة، وقال تعالى: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

«الفاء» تدل على أن مـا بعدها مـسبَّب لما قبلهـا، وقد صرح بهـذه السببـية، فخص سبحانه وتعالى نزول العذاب أو العقاب بالذين سخروا منهم، فذكر الموصول دليل على أن الصلة سـبب الحكم، وكان الإظهـار فى مقـام الإضمـار، لبيـان هذه السببـية، و(حاق) معناها نزل بهم وأصـابهم، وقد خص الساخرين بعـقاب خاص لأنهم فى معارضتهم بهذا النوع من المعارضـة كانوا أخساء فى ذات أنفسهم، فمن ذا الذى يجعل أبا جهل فى معارضته للإيمان كأبى سـفيان، فالأول خسيس والثانى فيه شرف، ولقد قـال وهرقل يسأله عن محمد بن عبـد الله: لولا أنى أخشى أن تحفظ عنى كذبة فى العرب لكذبت.

وقال تعالى: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ والمراد عذاب الاستهزاء لا ذات الاستهزاء، ولكنه سبـحانه عبر بأن الاستهزاء ذاته هو الذى يحيق للإشارة إلى الجزاء وفـاق للجريمة فهو هى؛ لبيـان المساواة العادلة، و﴿مَّا﴾ فى قوله ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ مصدرية، أى استهزاءهم.

والجزاء الذى ينزل بهم هلاك فى الدنيا، وقد جـاء قصص القرآن بهلاكهم فى آيات كثيرة، وعذاب أليم فى الآخرة.

وإن الله تعالى يذكـرهم بنعمة الـله تعالى فى حيـاتهم الخاصة والعـامة التى تحوطهم، ولا يشعرون بها، بل يكفرونها.

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾.

هنا التفـات، فقد كان الكلام فى استـهزاء المشركين بالنبى ﷺ واسـتهزاء من كانوا قبلهم بالأنبياء السابقين، ثم التفت القول إلى المستهزئين من قريش، وأمر النبى ﷺ أن يقول لهم: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ أى قل يا رسول الله: من يحميكم ويبقيكم ﴿مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ أى من عذابه وعقابه الدنيوى، والكلاءة بكسر الكاف مصدر كلأ هى الحماية والتبقية، وقد قال الأصفهانى فى مفرداته: والكلاءة، حفظ الشيء وتبقيته يقال كلأك الله وبلغ بك أكلأ العمر.

والنص السامى يفيد أمورا ثلاثة:

أولها ـ بيان نعمة الله تعالى عليهم فى حفـظهم وتبقيتهم مع عظيم جرائمهم فى مأوى يسكنون فيـه، ويقيهم الحر والبرد، ويمدهم بالغذاء والكسـاء لحفظ أنفسهم من الموت. ولتبـقيتهم إلى أن يقـضى أمرا كان مـفعولا، فهم فى كـلاءة الله تعالى المستمرة حتى ينزل بهم ما هم أهل له.

الثانى ـ مـا يضمنه من إنـذار شديد لهم، وأن الله تـعالى الذى كـلأهم هو مسيطر عليهم منزل بهم ما يستحقون، فهو يمهل ولا يهمل.

الثالث ـ أن هذه الوقاية من الرحـمن أى عذابه، ووصف سبحـانه ذاته العلية بالرحمن؛ للإشارة إلى أن نزول العذاب بهم بعد هذا الاسـتهزاء من دواعى رحمته؛ لأن عذاب المجرمين مـن الرحمة، لأنه إذا كان عذابـا للفجار فهو رحـمة بالأبرار، فمن الرحمة ألا يسوى بين المحسن والمسيء.

﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ الإضراب هنا إضراب انتقالى من وصف إلى وصف للمشركين، فهم يستهزئون ويجهلون ولا ينتبهون مع وجود المنبه المرشد الذى يرشدهم إلى ربهم، ويذكـره لهم، وأثبت أنهم معرضون عن ذكـر ربهم أى تذكره، فـ ﴿ذِكْرِ رَبِّهِم﴾ من إضافة المصـدر للمفعول، وهم فى غفلة مسـتمرة عنه، مع أنه خالقهم وحافظهم وفى كل حـياتهم ما يُذَكِّرهم، والجملة الاسمية مـؤكدة لاستمرار الإعراض، وقلوبهم غلف لا تفـتح لذكره سبـحانه وذكر آلائه ونعـمه، **وهنا أمران بيانيان:**

أولهما ـ أن الله تعالى فى ذكر نعمة الكلاءة من عذاب الرحمن، وقد ذكر الليل قبل النهار؛ لأن المفاجآت بالعذاب تكون فيه أكثر، ووقعها أشد، ولأن الليل حيث يكون الاطمئنان فالمباغتة تكون فيه أشد.

ثانيهما ـ أن الاستفهام هنا للتذكير والتنبيه، إلى ما هم فيه من نعم واقية، وإيجابية، والله تعالى أعلم.

إن الله سبحانه وتعالى هو الذى يقيهم من العذاب الذى يستحقونه لا آلهتهم؛ ولذا قال:

﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾.

﴿أَمْ﴾ هى أم المنقطعة، وهى تدل على الإضراب، وهمزتها للاستفهام، والمعنى بل ألهم آلهة . . والإضراب انتقالى من لوم إلى لوم، لامهم سبحانه على إنكارهم كلاءة الله تعالى لهم، ثم أنكر عليهم اتخاذهم آلهة يحسبون أنها تمنعهم من عذاب أو مما ينزل بالليل والنهار، والاستفهام المستفاد بـ «أم» بمعنى «بل» لهم آلهة، استفهام إنكارى بمعنى إنكار الواقع، وإنكار الواقع تأنيب ولوم، فقوله: **﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾** إنكار لما يعتقدون من أن آلهتهم تمنعهم دون أن يمنعهم الله، فقوله: **﴿مِّن دُونِنَا﴾** معناها غيرنا، ووصف الآلهة التى زعموها بوصف، ووصفهم بوصف، أما وصف آلهتهم فبقوله تعالى: **﴿لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾** أى أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، ولا نصرا فكيف ينصرون غيرهم، وهم لا يملكون لأنفسهم شيئا.

وكان الضمير على الأوثان ضمير العقلاء مجاراة لهم فى عبادتهم، وليس اعترافا بأنها تعقل. الوصف الثانى، وصف المشركين، وهو قوله تعالى: **﴿وَلا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾** أى يجارون، وهذا تفسير ابن عباس الذى رواه عنه مجاهد، واختاره الطبرى، ونحن نوافقه فى هذا الاختيار، والمعنى على هذا لا تنصرهم أوثانهم، والله لا يصحبهم بجوار يمنعهم لأنهم مشركون، ولا جوار من الله لمن يشرك به ولا يعبده وحده.

ولقد أشار سبحانه إلى السبب فى إصرارهم على الشرك، ومعاندتهم لدعوة التوحيد، فقال عز من قائل:

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

هذا إضراب انتقالى من بيان إلى بيان، فبين تعالى حمايتهم من أن يأتيهم العذاب بغتة، وأن آلهتهم لا تغنى عنهم من الله من شيء، ثم انتقل سبحانه إلى بيان لبعض ما تأدى بهم إلى الشرك والإصرار عليه، ومعاندة الأنبياء بعامة، ورسولهم محمد ﷺ بخاصة فقال: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أى متع الله سبحانه هؤلاء وكانت متعتهم امتدادا لما متع به آباءهم من قبلهم، متعهم أولا بسلطان فى البلاد العربية، وإن لم يكن ملكا، بل كانوا نفوذا أشبه بالملك، ومتعهم ثانيا بأن كانت إقامتهم فى بيت الله الحرام، وهم آمنون ويتخطف الناس من حولهم، ومتعهم ثالثا بأن كانت لهم متاجر تسير فى البلاد العربية من شمالها إلى جنوبها، ومتعهم رابعا بأن كانوا رؤساء الحج فى أيديهم السدانة والسقاية، ومفتاح الكعبة التى كان يؤمها الناس من كل فج عميق، ومتعهم خامسا بأن فى أيدى الكثيرين منهم المال والبنين وأنهم أكثر نفيرا.

متعوا بكل ذلك، والمتعة من غير إيمان تغرى بالشر، واستمرارها يؤدى إلى طمس النفس عن المعارف الدينية، ولقد كانت هذه المتع تتسلسل فيها الأبناء عن الآباء؛ ولذا قال تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾، و﴿بَلْ﴾ هنا للإضراب الانتقالى، بأن انتقل من المظاهر التى بدت فى شركهم وإعراضهم عن الله تعالى إلى بيان الحال النفسية التى كانوا عليها حتى أغرتهم بالتطاول على الله وعلى الحق، وسيطرت عليهم الأوهام، وتوارثوها جيلا بعد جيل حتى تحجرت عليها قلوبهم، وصارت قلوبهم غلفا، وصاروا صما عن سماع الحق بكما عن النطق به وركبتهم الطغواء، حتى صاروا لا يرون ما هو واقع، ولا يتوقعون إلا ما يتفق مع أهوائهم، ولا يعرفون أن الأمور التى استكنها الغيب لهم لا ترضيهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾.

«الفاء» مؤخرة عن تقديم، وهى تدل على أن ما قبلها سبب لما بعدها، والمعنى فألا يرون أن الأرض تنقص عليهم من أطرافها، والسورة مكية، ولم يكن الجهاد قد قام، واشتجرت السيوف وسار الإسلام من نصر إلى نصر حتى أحيط بهم. وأسند

الإتيان إلى الله تعالى فى قوله: ﴿نَأْتِي الأَرْضَ﴾ للإشارة إلى أن ذلك بإرادة الله تعالى الذى ينصر من يشاء ويعز من يشاء، وإذا كان الله تعالى هو يأتى الأرض ينقصها من أطرافها، فإن جنده هم الغالبون؛ ولذلك كان الاستفهام الإنكارى فى قوله تعالى: ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ «الفاء» فاء الإفصاح عن شرط مقدر، تقديره إذا كان الله هو الذى ينقص الأرض من أطرافها فأهم الغالبون، و«الفاء» مؤخرة عن تقديم، أى ليسوا هم الغالبين، وقد أكد النفى المفهوم من الاستفهام. وهذه الآية فى معناها ظاهرها أنها نزلت بالمدينة، وإن التمتع لهم ولآبائهم يجعلها أقرب إلى أن تكون مكية، ولعلها نزلت بمكة، ثم نزلت مرة أخرى بالمدينة، وقد جوز العلماء ذلك.

تلقى الكفار للرسالات

قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا
مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ
لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ
ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ
مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى الإنذارات فى الآيات السابقة بين سبحانه أن الإنذار بوحى من الله، وأنه ليس من عند محمد الذى يستهزئون به، إنما هو من عند الله خالق السموات والأرض، الذى يلجأون إليه عندما يحاط بهم ويضرعون إليه إذا مسهم الضر، ومن كان ملجأ لهم فى شدائد هو منزل العذاب فى كفرهم، ولذا قال تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾

الخطاب للنبى ﷺ يأمره سبحانه بأن يقول لهم ﴿إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾، ﴿إِنَّمَا﴾ أداة للقصر، والمعنى لا أنذركم إلا بوحى من الله تعالى، فلا أنذركم من عندى، إنما أنذركم من عند الله تعالى، وإن ذلك يوجب عليكم ألا تستهزئوا بالإنذار، لأنكم لا تستهزئون بى إنما تستهزئون بالله العلى العظيم الذى تلجأون إليه فى شدائدكم فى البر والبحر، وفى ذلك توكيد للإنذار؛ لأنه صادر عن الله تعالى، والله لا يخلف الميعاد.

ثم بين سبحانه وتعالى إذ لا يسمعون النذر يكونون كالصم إذا ما ينذرون، فشبه الله تعالى المشركين عند سماع النذر بالصم؛ لأن كلاهما لا يسمع، فالصم فى الآية هم المشركون، وهم لا يسمعون إذا أنذروا، والصم جمع أصم والمراد بهم المشركون بالله، والمعنى لا يسمع المشركون الذين شبهوا بالصم لعدم السماع فى كل ما ينذرون و﴿مَا﴾ لتأكيد الشرطية فى الشرط.

والدعاء: النداء بصوت عال قوى مرتفع صادع، والمشركون لا تجدى فيهم النذر، وهى من عند الله تعالى العلى القدير، الحكيم العليم.

ومع أنهم يصمون آذانهم عن النذر هم فى أشد الهلع والفزع إذا عاينوا العذاب، أو جاءتهم منه نفحة؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾

اللام الموطئة للقسم، والنفحة الريح الطيبة، وتستعمل للخير، وقد تستعمل للشر كما هنا بدليل قوله تعالى: ﴿نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾، والمعنى أنهم صم عند النذر، ما دامت قولا منذرا، ولو كان وحيا من الله تعالى، فإذا رأوا الفعل، ولو كان نفحة من ريح فيها عذاب اضطربوا وهلعوا وفزعوا، فلا يؤمنون بالنذر حتى يروا العذاب الأليم، و﴿مَّسَّتْهُمْ﴾ معناها أصابتهم إصابة حقيقية ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾

أدركوا هول العذاب، وكان إدراك معنى الإنذار، وأجابوا كما قال الله تعالى: ﴿يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أى أنهم إذا أصابتهم نفحة قليلة من العذاب يفزعون، وينادون بالويل والعذاب والهلاك يقولون يا ويلنا أقبل فهذا وقتك، ويدركون ظلمهم، ويؤكدونه فيقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، فقد أكدوا ظلمهم بثلاثة مؤكدات: بوصفهم بالظلم أولا، وبـ «إنَّ» المؤكدة ثانيا، وبـ «كان» الدالة على ظلمهم المستمر ثالثا، ولقد قال الزمخشرى فى معنى هذه الآية: «ولئن مستهم فى هذا الذى ينذرون به أدنى شىء لأذعنوا وذلوا وأقروا بأنهم ظلموا أنفسهم حين تصامُّوا وأعرضوا، وفى المس والنفحة ثلاث مبالغات، لأن النفحة فى معنى القلة والنزارة، يقال نفحته الدابة وهو رمح يسير، ونفحه بعطية؛ رضخه، ولبناء المرة»[١].

ونقول إن المسّ إصابة غير غامرة، بل هو لمسة.

وظلمهم هو ظلم لأنفسهم، وبشركهم، وبفسادهم، وبإعناتهم للرسل وصدهم عن سبيل الله تعالى، وإن ذكر هذه النفحة من العذاب تمهيد لذكر القيامة، وما يكون فيه من عذاب الجحيم؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾.

هذا بيان لحساب يوم القيامة، وأنه لا يذهب منه صغيرة ولا كبيرة إلا كانت موضع حساب، وستجزى كل نفس ما كسبت إن صغيرا وإن كبيرا، وإن خيرا، وإن شرا.

وقوله تعالى: ﴿لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ «اللام» هنا بمعنى «فى»، كقول القائل فعلته لخمس خلون من ذى الحجة، أو جاهدت لعشر خلون من رمضان، وبعضهم قدر

---

(١) تفسير الكشاف: ٢/ ٥٧٤.

مضافا محذوفا، أى لأهل يوم القيامة، والأول أوضح وأبين، ووضع الميزان فى قوله تعالى: ﴿الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ هو وضع معنوى، أى رصدنا الأعمال رصدا وحسبناها حسابا بخيرها وشرها، للإنسان أو عليه، ويصح أن يكون هناك ميزان محسوس يوم القيامة توزن به الأعمال، ولكنا نميل إلى التفسير الأول، ولقد ذكر ابن عباس أن كل ما يكون يوم القيامة هو من جنس مثله فى الدنيا، ولكنه غيره، وذكره تقريب للعقول، ولا مانع أن يكون محسوسا، ولكنه غير الموازين التى نراها فى الدنيا، وذكرها تقريب لما عندنا، والله أعلم.

ووزن الأعمال يكون بما هو مذكور فى كل كتاب للمكلف، فتوزن صحائفه فى خيره وفى شره، أو تكون الأعمال فى علم الله فى كتاب، لا يضل ربى ولا ينسى سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ أى الموازين التى هى القسط، وهو العدل، وفى هذا مبالغة فى وصف الموازين بالعدالة، كأنها العدالة ذاتها، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء.

ولقد قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾ إن كان العمل صغيرا يساوى وزنه وزن مثقال حبة من خردل، أى كان الوزن فى ذاته قليلا، وكان الموزون فى ذاته ليس ذا خطر وشأن فإنه يؤتى به ويحاسب عليه إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، ولا يغيب عن علم الله تعالى شىء، ولا عن الحساب شىء من غير جزاء، ولقد حكى سبحانه فى وصية لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان].

وإن المحاسب هو الله الذى يعلم كل شىء،ولذا قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ أى وكنا حاسبين فلا حساب بعد حساب الله ولا أدق منه ولا أعدل.

من قصة موسى وإبراهيم

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ
ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ
مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا
بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ
أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾
قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟
أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ
﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾
فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ
﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾
قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ
عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ
هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ

هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ
أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ
رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ
أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا
يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ
فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾
وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾

هاتان قصتان لاثنين من الرسل، قصة موسى وهارون وهما كرسول واحد، وقصة إبراهيم أبى الأنبياء، ويلاحظ:

أولا ـ أنه ليس فيهما تكرار لما ذكر منهما فى سور أخرى وآيات أخر، فقصة موسى وأخيه هارون تكلمت الآيات الكريمات فيهما بإشارة لامحة لا تفصيل فيها، وقصة إبراهيم كانت فى تحطيمه للأنصام والكيد لعبدتها، ومحاولة إحراقه بالنار، ومعجزة الله تعالى فى أن أطفأها وقال لها: ﴿ ... **كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ** ﴿٦٩﴾ ﴾ [**الأنبياء**] وذلك لم يذكر من قبل ولا من بعد، فدل هذا أنه لا تكرار فى قصص القرآن، وإن بدا لمن لا يمحصون الحقائق غير ذلك.

ثانيا ـ أنه سبحانه ذكر قصة موسى عليه السلام قبل قصة إبراهيم مع أنه جده الأعلى، وذلك لأنه صاحب شريعة دونت فى كتاب، وأنه أتى بهذا الكتاب وأخذ به حتى فى النصرانية التى جاءت من بعده، والقرآن ليس كتاب تاريخ حتى

ترتب أخباره ترتيبا زمنيا، كترتيب كتب التاريخ، إنما قصصه عبرة وذكرى لأولى الألباب، وإنما تذكر بمواضع العبرة، ومواطن الموعظة.

ثالثا ـ أنه كان تفصيل فى قصة إبراهيم عليه السلام؛ لأنه أبو العرب الذى كانوا يعتزون ويفتخرون به، ويقولون إنهم ضئضئ[1] إبراهيم وإسماعيل، وهم كانوا يعبدون الأوثان، كما كان الذين بعث فيهم إبراهيم يعبدونها هم وآباؤهم، وإن إبراهيم عليه السلام أثبت بالعمل أنهم لا يضرون، ولا يدفعون عن أنفسهم ضررا.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾

«الواو» واصلة ما بعدها بما قبلها، **﴿آتَيْنَا﴾** أى أعطيناه ومكناه منه، و**﴿الْفُرْقَانَ﴾** هو التوراة لأنها فرقت بين الحق والباطل، وبين قوم ليس لهم سلطان وقانون يحكمهم فى ماضيهم وأن صاروا من بعدها لهم قانون يحكمهم وسلطانهم من أنفسهم، كما قال تعالى منعما عليهم: **﴿... وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ... ﴿٢٠﴾﴾** [**المائدة**] أى مستقلين سلطانكم من أنفسكم.

وقال بعضهم: إن الفرقان هو نجاتهم فى البحر؛ إذ فرق الله البحر فصار كل فرق كالطود العظيم، وفى الحق: إن الفرقان يشمل بعمومه كل فارق بين أمرين، فآتاه الله تعالى أن انفلق البحر بعصاه، وأخرج بنى إسرائيل من الذل والهوان إلى العزة والقوة، وأن يطبقوها، ويتحملوا واجباتها وتبعاتها حتى اضطر موسى لأن يتركهم يتيهون فى الأرض أربعين سنة ليتعودوا حياة البأس والقوة، ومهما يكن فإن الله تعالى آتى موسى كل ذلك، ولعل ذلك هو السر فى قوله: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾** ولم يقل تعالى: (وأنزلنا الفرقان) وقال: **﴿وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾** الضياء النور الهادى المرشد، وهو هنا المعجزات التسع التى بعث الله تعالى موسى عليه السلام بها، والتعبير عنها بالضياء من قبيل الاستعارة فشبهت بالضياء؛ لأنها مرشدة هادية معرّفة كالضياء وهى نور، وهى ذات الضياء، وسماها سبحانه وتعالى **﴿ذِكْرًا﴾** لأنها مذكرة بالحق دائما، ولكن بشرط أن تكون قلوب متفتحة للحق؛ ولذا

---

(١) الضِّئْضِيءُ و الضُّؤْضُؤُ: الأصل والـمَعْدِنُ- لسان العرب- ضأضأ.

قال تعالى: ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أى الذين امتلأت قلوبهم بالتقوى ومخافة الله سبحانه وتعالى، ولذا قال فى أوصافهم:

﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾

وصفهم الله تعالى بوصفين **أولهما**: أنهم يخشونه، أى يخافونه معظمين له مؤمنين بألوهيته مصدقين لكل ما يأمر به، طائعين لأوامره ونواهيه، ووصف الله الذين يخشونه بأنه ربهم الذى خلقهم وربّهم وهو القائم على شئونهم، ويخشونه وهو غائب عنهم، علموه بالعقل والنقل فهم يعبدونه كأنهم يرونه وهذا هو الإحسان فى العبادة، وهو حقيقة الخشية.

الوصف الثانى: أنهم يعرفون أن الله تعالى لم يخلق الناس عبثا، بل لهم بعث وحساب وعقاب، وهم يستشعرون الخوف من نتيجة الحساب؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ أى والثواب، فهم يغلبون الخوف على الرجاء، والساعة هى يوم القيامة، وعبر بالساعة؛ لأنها ساعة شديدة، فهم يخافون الحساب لأنهم يستصغرون حسناتهم ويستكثرون سيئاتهم.

هذا شأن الفرقان الذى آتى الله موسى فيه تذكير للمتقين الذين لهم هذه الأوصاف، ولم يكن بنو إسرائيل على تلك الأوصاف، ولكنه مع ذلك ضياء وذكر للمتقين الذين ربما يوجدون من بعدهم حتى جاء محمد ﷺ.

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى النبى ﷺ وإلى القرآن فقال:

﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾.

وسَّط الله سبحانه بين قصة موسى وهارون، وقصة إبراهيم حاطم الأوثان بالإشارة إلى القرآن ومحمد ﷺ، الذى أزال الأوثان من البلاد العربية؛ لأن القرآن أكمل كتاب للشرائع التى فصلت بعضها التوراة، ونسخ القرآن بعضها، فأخذ شرعه من شرع موسى بعضه، ولكنه خالد دائم لا يعروه نسخ ولا تبديل، ولأن محمدا ﷺ أزال دولة الأوثان فى مستقرها.

و﴿هَذَا﴾ الإشارة إلى القرآن الذى يسمعون تلاوته، ويتحداهم أن يأتوا بمثله فيعجزون، ويتحدى الخليقة كلها أن تأتى بمثله فلا تستطيع. ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء].

والإشارة تتضمن كل ما فيه رأوه متلوا، وعلموه معجزا، وعاينوا آثاره فى إيمان المؤمنين، وقد عرّفه الله تعالى بأنه ﴿ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾، أى مذكر بالعذاب والثواب، وفيه تذكير بالله تعالى إذا امتلأت القلوب به كان فيها ذكر دائم، وبه تطمئن القلوب، وتذهب الوساوس، ولا تضطرب، ولا تفزع ولا تهلع ولا تجزع، ووصفه سبحانه بأنه ﴿مُّبَارَكٌ﴾، البركة: الخير الدائم المستمر الكثير الخيرات، ووصف القرآن بذلك أولا لأنه دائم بالخير والثمرات المرشدة ما دامت السموات والأرض، وهو خالد بخلود خاتم النبيين، ولأنه قد اشتمل على كل شيء يتعلق بالمواعظ والهداية، ولأنه مشتمل على الشريعة الباقية إلى يوم القيامة.

وقد رأى العرب المدركون فيه كل ذلك، ولكن المعاندون لم يدركوه؛ لأنه طمس على قلوبهم ولقد قال تعالى من بعد : ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ «الفاء» ترتب الاستفهام الدال على استنكار الواقع وهو عدم الإيمان فى الوقت الذى كان يجب الإيمان به، والفاء مقدم عن تأخير لأن الاستفهام له الصدارة، والتقدير: فأأنتم له منكرون، أى أنه يترتب على هذه الحقيقة الثابتة للقرآن، وهو مذكر ومبارك سؤالهم أأنتم له منكرون، وقلنا إن الاستفهام إنكارى لإنكار الواقع، فالثابت أنهم منكرون، وتلك جريمة عقلية وهو جحود بما قام الدليل عليه وإشراك، حيث قام الدليل على التوحيد، وإنكار لمعجزة القرآن حيث عجزوا عن الإتيان بمثله.

قصة إبراهيم

اختص هذا الجزء من قصة إبراهيم عليه السلام بمجابهته لقومه، وحطمه أوثانهم ويظهر أنه كان فى شبابه الباكر أو فى أول بعثته، ولا ندرى على وجه التحديد كم كان سنه.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾.

أكد سبحانه وتعالى ما آتاه لإبراهيم، بـ «اللام» و«قد»، والرشد هو العلم والإدراك والنفاذ إلى الحقائق كما رأينا تعرفه لله تعالى فى وسط الجهالة التى كانت غمامة على العقول منعتها من الإدراك السليم، وكيف تعرَّف فى نجم فرآه قد أفل، ثم فى القمر فرآه أيضا أفل، ثم رأى الشمس بازغة، فقال هذا حتى انتهى إلى الوحدانية.

هذا كله رشد وإدراك سليم انتهى إلى الإدراك الكامل لمعنى الألوهية المنزهة عن المشابهة للحوادث فى أفولها وظهورها، وفى فنائها وبقائها.

وقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ أى من قبل موسى عليه السلام، وهو أسبق منه، وكان تقديمه لما ذكرنا من أنه جاء بشريعة مفصلة وإن نسخ بعضها وبقى الآخر، وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ أى عالمين كيف ربيناه، وكيف صنع على أعيننا، وربينا فيه روح الحق وتتبعه والوصول إليه.

وبعد أن بعثه الله تعالى تقدم لمجاهدة أبيه وقومه المشركين، ابتدأت المجاهدة بقوله:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾

«إذ» هنا للوقت الماضى، وهى مفعول لفعل محذوف تقديره «اذكر»، والخطاب لمحمد ﷺ والمعنى اذكر لقومك من مشركى العرب الذين يفخرون به نسبا، ويدعون اتباعه كيف جاهد قومه فى هذا الشرك، وذكر أباه لأنه داع للحق، وداعى الحق لا يفرق فى دعوته بين قريب وغيره، بل يبتدئ بالقريب لأنه أقرب إجابة، ولأن الدعوة إلى الحق خير، فأولى به الدانى، وإبراهيم كان أبوه دانيا إلى قلبه وذكر بعد أبيه قومه، ومما قاله لهم هو: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ التماثيل جمع تمثال، وهو الصورة المجسمة للإنسان أو للحيوان، وأكثر ما يكون الآلهة لصورة إنسان، وكانت التماثيل عند اليونان والرومان وكانوا يعدونها أو

يسمونها آلهة، فيقولون: إله الحب، وإله الزرع، وإله العدالة، والعكوف: الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم له وعبادته.

والاستفهام منصب على سؤاله عن هذه الأصنام التى عكفوا عليها يعظمونها، ويعبدونها، وهو يتضمن أولا الاستهانة بها وتحقيرها بالإشارة؛ لأن الإشارة تتضمن أنها حجارة محسوسة لا تضر ولا تنفع، ويتضمن ثانيا استنكار العكوف عليها وعبادتها، والاستفهام ليس عن الماهية، بل عن أوصافها، وتنبيه إلى أنها لا تضر ولا مسوغ لعبادتها لأنها ليس فيها صفات الألوهية التى توجب العبادة.

لم يجيبوا عن سؤاله لأن ظاهره أنه يطالبهم بمسوّغ للعبادة، وقد فروا من الإجابة المسوغة إلى قولهم:

﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾.

لم يجدوا مسوغا عقليا ولا نقليا إلا التقليد للآباء، كما قال المشركون لمحمد ﷺ: ﴿... قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة] أى أن المسوغ أنا وجدنا آباءنا لها عابدين، أى استمروا على عبادتها، وما استمروا عليه فهو حق، ولا دليل عندنا سوى ذلك، ودل النص على استمرار آبائهم بالوصف بـ ﴿عَابِدِينَ﴾؛ لأنه دليل على استمرار عبادتهم لها وحدها، والدليل على استمرار عبادتهم لها وحدها تقديم الجار والمجرور على اسم الفاعل، وهذا الكلام يدل على أنهم لا يعرفون الله، أو يعرفونه ويشركون معه هذه التماثيل من غير حجة ولا برهان.

وما كان لأبى الأنبياء أن يتركهم من غير أن يصف عبادتهم بالضلال، فقال:

﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾.

الضلال: السير فى طريق لا يعرف نهايته، وليس موصلا لغايته، وأطلق على السير فى الباطل والوصول إلى مداه، فإنه تكون فى مثارات مختلفة من مثارات الشيطان، و﴿مُّبِينٍ﴾ معناه: واضح، وكان واضحا لأنه لا يستند إلى دليل علمى

ويناقض بدائه العقول؛ لأن المعبود يجب أن يكون أعلى وأقوى من عابده، فهل فى تمثال قوة وعلو على الإنسان، فأى ضلال أبين من هذا وأضل عقلا وفكرا.

وأكد سبحانه على لسان إبراهيم ضلالهم بـ «اللام، و«قد»، و«كان» الدالة على الدوام والاستمرار، وبضمير الفصل المؤكِّد، وإن إبراهيم جمع بين ضلالهم وضلال آبائهم، فكان جامعا بين ضلال المقلِّد والمقلَّد.

أجابوا عن ذلك الكلام الجاد بقولهم:

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ﴾.

لقد استغرق الضلال قلوبهم، وسد مسامع الإدراك فى أفكارهم، فحسبوا أن ذلك هو الحق وهو الضلال بعينه، قالوا مستفهمين ﴿أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ﴾ والاستفهام هنا بمعنى النفى، فهو لإنكار الوقوع، ومعناه: ما جئتنا بالحق، بل أنت من اللاعبين، و﴿أَمْ﴾ للإضراب عن كلامه الحق إذ قد صمت آذانهم عنه، ﴿أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ﴾ واستأنفوا كلاما جديدا، وحكموا بأنه من اللاعبين أى أنه يهزل بهذا الكلام، ولا يجدّ، ووصفوه بوصف مستمر وهو أنه من اللاعبين، ولصغره، حيث إنه كان بالنسبة لهم صغير السن، وقد أكدوا لعبه بالجملة الاسمية، وبـ «أنت»، وبإدخاله فى صفوف الهازلين؛ لأنهم لا يعيرون كلامه التفاتا، ولا يجعلون له غاية.

انتقل بهم خليل الله من مرتبة الاستنكار إلى مرتبة الإيجاب؛ لأن التخلية قبل التحلية، فبين لهم مَن الله الذى يعبده وتجب عبادته.

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

﴿بَل﴾ للإضراب والرد، وإبطال عبادتهم وبيان أن التماثيل ليست أربابا، بل الرب واحد وهو رب السموات والأرض الذى قام عليهن، وربَّهما وهو الحى القيوم ﴿الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ الذى خلقهن من عدم وأنشأهن فى هذا الوجود، وعبر بقوله: ﴿فَطَرَهُنَّ﴾ بدل خلقهن للإشارة إلى أنه شق الأرض من السماء، أو شق الوجود كله

من وحدة كانت تجمعه، كما قال تعالى من قبل فى هذه السورة: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ (٣٠)﴾ [الأنبياء] وقد ذكرنا هذا المعنى فى هذه الآية.

وقد أكد - عليه السلام - أن هذا هو ربهم، وليست تلك التماثيل بأنه يعلم ذلك، ويؤكد لهم علمه فقال الخليل عليه السلام: ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ هذا تأكيد لعلمه بذلك وهو الثقة فيهم والمرشد الأمين عندهم وأنه لا يكذبهم فيما يقول: ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ يلاحظ فيها أمور ثلاثة:

أولها ـ أنه قدم الجار والمجرور ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكُم﴾ على متعلقها ﴿مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾؛ لأهمية هذه الشهادة.

ثانيها ـ التعبير بالجمع فى الخطاب؛ لأن المخاطبين جمع لا فرد، وكذلك كلما كان اسم الإشارة يخاطب به جمع، وإذا لم تكن كذلك بأن كان الخطاب للواحد لا تجىء الميم، وقد حسب بعض الكتاب أن الأمرين جائزان، وذلك غير صحيح، إنما تكون إذا كان المخاطب جمعا، وتكون فيما عدا ذلك من غير الميم؛ لأنه إذا لم يكن جمعا كان المخاطب محمدا ﷺ.

والثالث ـ أن ﴿مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ معناها من العالمين علما يشبه علم المشاهدة والمعاينة فالدليل عنده يثبت اليقين كالمعاينة التى يراها ويشهدها.

اعتزم بعد ذلك إبراهيم أن يثبت لهم بالعيان كالعلم الذى أوتيه بأن يحطم أوثانهم فلا ترد له كيدا، فقال:

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾.

أراد أن يثبت لهم بالفعل أنها لا تضر ولا تنفع غيرها، بل لا تنفع نفسها، ولا تدفع عنها فأراد أن يكيد لها، أى يدبر لها أمرا لو فعل مع غيرها يضرها، فقال مقسما: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ أى لأفعلن معهم ما يكون كيدا للأحياء إذا توليتم مدبرين، أى إذا انصرفوا عنها وقد جعلوها وراء أدبارهم أى فى غيبتهم عنها، أو نقول: الكيد لهؤلاء العابدين، ولكن موضع الكيد هو الأصنام

جعل كأن الكيد لها، وهو للعابدين، والتاء للقسم وكان القسم بالتاء لأنه مظهر أشد توثيقا، واللام لام القسم، وروى أن ذلك كان وهم ذاهبون لعيد لهم، روى ذلك ابن مسعود، وقلنا إن ذكر الأصنام وإرادة العابدين لها للإشارة كما ذكرنا إلى أنها لا تدفع عن نفسها، ولا قدرة لها، ومن يعبدونها، إنما يعبدون غير قادر لا يملك من أمره شيئا، فكيف يملك لغيره أى شيء، والله على كل شيء قدير.

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾.

«الفاء» مبينة نوع الكيد، والجذاذ: الفتات، من جذ بمعنى كسر، والجذاذ بالضم أفصح من الكسر، أى أخذ الفأس وأخذ يضرب، كما قال تعالى: **﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾** [**الصافات**]، جعلهم إبراهيم عليه السلام فتاتا متكسرا، أى أزال هذه الصور وجعلها شيئا مطروحا تطؤه الأقدام **﴿إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ﴾**، أى كبيرا لهذه الأصنام **﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾** لعل الأصنام ترجع إليه، أو لعل الناس يرجعون إليه يسألونه عن بقية الحجارة التى صارت فتاتا متكسرا فما مآلها، وماذا أصابها، ويلاحظ أن الضمير كان يعاد دائما بضمير الجمع العاقل مجاراة لزعمهم الفاسد، وعندما عادوا ورأوا آلهتهم فتاتا متكسرا هالهم الأمر، وقوله: **﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾** تعبير للتهكم عليهم والسخرية بآلهتهم.

﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

جزعوا وأحسوا بضعف آلهتهم وضعف عبادتهم لها، وأخذوا يسألون مستفهمين متعجبين هلعين **﴿مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا﴾** متحسرين على ما أصاب هذه التماثيل من الحطم والتفتيت وجعلها فتاتا متكسرا، وقالوا: **﴿إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾** أكدوا ظلمه بإنَّ وباللام، وبوصفه بأنه ظالم مؤكد ظلمه، معدود فى عداد الظالمين مترب فى بيتهم راضع من لبان الظلم مترب فيه.

تساءلوا فيما بينهم باحثين متعرفين حتى قالوا:

﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ .

أى تقاولوا الأمر فيما بينهم حتى قال قائلون منهم ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾، وعبر عن إبراهيم بقوله ﴿فَتًى﴾؛ لأنه كان أقرب إلى الشباب والفتوة، و﴿يذكرهم﴾ معناه يذكرهم بالاستنكار بعبادتها، وإنكار أن تكون آلهة، وأن الله هو وحده الرب الذى يعبد فى السموات والأرض؛ لأنه الذى خلقهم، وهو وحده المعبود، وفهم ذلك من «يذكر»، فإنه فى هذا المقام الذى تجرى فيه شبهة إتهامه بتكسيرها، وتحطيمها لابد أن يكون الذكر بغير ما يوافقهم فى عبادتها؛ ولذلك اتجه الاتهام إليه، وأرادوا الإثبات.

﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ .

كانت غيرتهم على آلهتهم شديدة أصابتهم فعلة إبراهيم بحسرة، ثم بلوعة، ثم بحب النقمة والتحفز بها، فاشتدت عزيمتهم على إنزال الأذى، فاجتمعت جموعهم وقالوا: ﴿فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ﴾، اعرضوه على الأعين، لترتكب صورته على عقولهم، وفوق أعينهم، وفى ذلك مجاز بتشبيه رؤيتهم المدققة المرددة كرتين بالشيء الذى ركب عليها لكيلا تنساه وتنزل فى قلوبهم الخانقة الغاضبة ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أى يحضرون ويشاهدوا جريمته فى زعمهم، وينزلوا به من العذاب جزاء المعتدى على فعله الأثيم فى زعمهم، وهو عين الحق عند الله، جيء به، وشاهدوه، وقالوا له:

﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ .

سألوا إبراهيم عن نسبة الفعل إليه، ولم يسألوه عن الفعل ومبرراته، بل سألوه عن شخصه الفاعل؛ لأن الفعل رأوه، فلا حاجة إلى السؤال عن وقوعه، لأنهم عاينوه ورأوه، ولا عن مبرراته؛ لأنهم لا يعلمون مبررا يسوغ تحطيمها، وهى المقدسة المعبودة فى زعمهم، إنما كان السؤال عن الفاعل؛ ولذا تقدم ضمير الخطاب، لأن الاستفهام منصب عليه انصبابا، ﴿أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾، والسؤال

يتضمن استفهاما وملاما واستنكارا للفعل؛ ولذا قرن باسم خليل الله تعالى، ففيه لوم شديد، وفى ذكر الاسم نوع من تهويل فعله.

ولكن إبراهيم كان ثبتا صابرا مطمئنا قارّ النفس.

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾.

إن إبراهيم هو الذى حطم الأصنام، وجعلها فتاتا متكسرا، ووضع آلة الحطم والكسر فى رأس الكبير منها، فكيف يقول: **﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾**، و**﴿بَلْ﴾** للإضراب عن قولهم الذى يومئ إلى أنه الفاعل، وإن لم يكن صريحا، قال بعض المؤولين من علماء الكلام: إن الضمير فى **﴿فَعَلَهُ﴾** يعود إلى إبراهيم، وإن كان هو المتكلم، كأنه بإيماء القول جرد من نفسه شخصا آخر يخبر عنه، والمعنى أنه فعل، واستؤنف كلام بعد ذلك هو هذا كبيرهم، ولقد دفع بعض المتكلمين إلى هذا التكلف الذى ينافى السياق أنهم لا يريدون أن ينسبوا كذبة إلى أبى الأنبياء، فالنبى ﷺ معصوم عن الكذب والخيانة والظلم، قبل النبوة وبعدها، ولكن فى الصحيحين أن النبى ﷺ نسب إلى إبراهيم ثلاث كذبات أولاها هذه، والثانية أنه قال: إنى سقيم، والثالثة أنه قال عن زوجه سارة: إنها أخته[1].

ونحن نرى أن قوله: **﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾** ليس فيه كذب، بل فيها تهكم عليهم وسخرية بآلهتهم ولولا الأثر لقطعنا بهذا، ولكنه احتمال نذكره، ولعل الأثر عده كذبة على أساس مظهر القول لا على أساس المقصد لإبراهيم؛ لأن ظاهر القول أنه كذب.

---

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ رَسُولَ اللّه قَالَ: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ النَّبِيُّ، عَلَيْهِ السَّلاَمُ، قَطُّ إِلاَّ ثَلاَثَ كَذَبَات. ثِنْتَيْنِ فِي ذَاتِ اللّه. قَوْلُهُ: (إِنِّي سَقِيمٌ). وَقَوْلُهُ: (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذَا). وَوَاحِدَةً فِي شَأْنِ سَارَةَ. فَإِنَّهُ قَدِمَ أَرْضَ جَبَّارٍ وَمَعَهُ سَارَةُ. وَكَانَتْ أَحْسَنَ النَّاسِ. فَقَالَ لَهَا: إِنَّ هذَا الْجَبَّارَ، إِنْ يَعْلَمْ أَنَّكِ امْرَأَتِي، يَغْلِبْنِي عَلَيْكِ. فَإِنْ سَأَلَكِ فَأَخْبِرِيهِ أَنَّكِ أُخْتِي. فَإِنَّكِ أُخْتِي فِي الإِسْلاَمِ. فَإِنِّي لاَ أَعْلَمُ فِي الأَرْضِ مُسْلِماً غَيْرِي وَغَيْرَكِ. متفق عليه؛ رواه مسلم(٦٠٩٨)١٥/ ١٠٥، والبخاري: كتاب الأنبياء- قول الله تعالى(واتخذ الله إبراهيم خليلا) (٣٢٩٣). وراجع اللؤلؤ والمرجان١/ ٧٣٦.

والدليل على أنه سيق للتهكم والسخرية بهم وبآلهتهم قوله بعد ذلك ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ «الفاء» عاطفة على إخبارهم بأن رئيسهم الذى فعل، أو «الفاء» للإفصاح، أى إذا كان الفاعل هو أو غيرهم فاسألوهم، وذلك فيه تهكم واضح عليهم؛ لأنهم لا ينطقون فكيف يعبدون، وفى التهكم أخذ اعتراف منهم بأنهم لا ينطقون، وأنها أحجار لا تضر ولا تنفع، وهذا برهان قاطع على ضلالهم وبطلان ما يعبدون.

إن الصدمة تدفع إلى التفكر، وإذا كانت صدمة حق وإرشاد وتنبيه، فإنها ربما تهدى، وكذلك كان هؤلاء، فقد صدموا بتكسير الأصنام وجعلها جذاذا مما جعلهم يتفكرون ابتداء؛ ولذا قال تعالى عنهم:

﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أى تراجعوا الأمر فيما بينهم وتقاولوا ما بين مستنكر الفعل أى الكسر والحطم، وما بين مسترشد بالحق وقد لاح نوره، وانتهى بأن قالوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ مؤكدين أنهم هم الظالمون، أى أنهم الظالمون وحدهم، وقد تأكد الحكم بـ «إن» وبـ «أنتم»، وبالقصر، أى أنتم الظالمون وحدكم لا أحد غيركم؛ لأن تعريف الطرفين أوجب الحكم بالظلم وأكده، ولكن ما هذا الظلم؟ يحتمل الظلم فى العبادة أو الظلم فى عدم حراسة آلهتهم، ويرجح أنه الظلم فى العبادة؛ ولذلك أكدوه فى سَوْرة حق، ولكنه كان كغشاء ظاهرٍ عارٍ عن صميم القلوب؛ ولذا قال تعالى:

﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾.

لم يلبثوا كثيرا حتى عادوا إلى ضلالهم القديم الثابت فى رءوسهم، ولبدته السنون، حتى صار جزءا من تفكيرهم، وعبر سبحانه عن ذلك بقوله عز من قائل: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أى بعد أن جعلتهم الصدمة التى بغتتهم يفكرون ويقدرون نكسوا فى تفكيرهم، وعبر عن ذلك العلى القدير بقوله عز من قائل: ﴿نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أى قلبت أجسامهم فصارت رءوسهم فى أسفل وأجسامهم فى أعلى، وهذا كناية عن قلب التفكير من الحق إلى الباطل، والرشاد إلى الفساد، وكما شبه

انقلابهم الفكرى بالانقلاب الجسدى، ليتصور القارئ المتدبر كيف عكس تقديرهم، ونكس تفكيرهم، والتعبير بـ «ثم» هنا مع أن الأمر لم يتجاوز الخطاب، للبعد بين الهداية التى بدرت والضلالة التى سيطرت، فكانت «ثم» مصورة لهذا.

ولما نكسوا على رءوسهم نكس أيضا قولهم فى المجادلة، فقالوا: ﴿**لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ**﴾ مؤكدين أنه يعلم أن هؤلاء التماثيل لا تنطق، وليس من شأنها أن تنطق لأنها ليست كائنا حيا فضلا عن أن يكون إنسانا ينطق، وأكدوا أنه يعلم ذلك بـ «اللام» وبـ «قد»، وبالنفى بـ «ما» الدالة على النفى بالماضى، وهى واقعة على المضارع المصور لعدم نطقهم فى الحاضر، فهم لا ينطقون فى الماضى ولا ينطقون فى الحاضر ولا القابل، وإن هذا ما نطقوا به معترفين بعجز هذه الأحجار عن النطق فى كل الأحوال، وأى دليل ينفى ألوهيتهم أكثر من هذا؟! إنها أعجز من الإنسان فكيف يعبدها الإنسان وهى لا تنفع ولا تضر؛ ولذا قال خليل الله:

﴿**قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلايَضُرُّكُمْ**﴾.

لفظ من أقوالهم الحجة الدالة على بطلان ألوهية الأصنام، لقد قالوا: ﴿**لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ**﴾ أى ليست لهم قدرة على الكلام فلا قدرة على شيء فليس منهم نفع مجلوب، ولا ضرر مدفوع، قال خليل الله عليه السلام: ﴿**أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ**﴾ أى مخالفين لله تعالى معاندين له سبحانه ﴿ **مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلايَضُرُّكُمْ**﴾ أى شيئا من النفع أو الضر، و﴿ **شَيْئًا**﴾ مفعول مطلق قائم مقام المصدر.

وقوله تعالى: ﴿ **أَفَتَعْبُدُونَ**﴾ «الفاء» تدل على أن ما بعدها مترتب على ما قبلها؛ لأنه ترتب على قولهم ﴿**مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ**﴾ أنهم يكونوا يعبدون ما لا يملك ضرًا ولا نفعًا، والاستفهام إنكارى لإنكار الواقع، وإنكار الواقع توبيخ، وهم به جديرون، فأى عاقل يعبد ما دونه، وهو حى وهذا جماد لا يضر ولا ينفع.

وقد ترتب على هذا أن تأفف منهم، فدل هذا التأفف على النفور منهم عقلا، فهى أحجار ولو كانت تماثيل منحوتة نحتا جميلا، فهى أحجار لا تزيد على ذلك،

وعقلا لأنها تعبد ممن هو خير منها خلقا وتكوينا، وكان التأفف أيضا ممن يعبدونها؛ لأنهم حطوا عقولهم عن مستوى التفكير، بل عن مستوى الإنسانية المدركة التى تقدر الأشياء وتعرف النافع والضار؛ ولذا قال عنه عز من قائل:

﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿أُفٍّ﴾ جاء فى مفردات الراغب: «أصل الأف كل مستقذر من وسخ وقلامة ظفر، وما يجرى مجراهما، ويقال لكل مستخف استقذارا له»، فمعنى ﴿أُفٍّ لَّكُمْ﴾ استقذار لكم ولما تعبدون والاستقذار هنا معنوى، لقول الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ... ﴿٢٨﴾﴾ [التوبة]، وكذا الأمر فى أحجارهم فهى مستقذرة يتأفف منها كما تأفف من عابديها، وختم سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالى: ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام هنا لإنكار الوقوع أى بمعنى النفى مع التوبيخ وتحريض على التفكير والتعقل، وألا يطرحوا عقولهم وراء ظهورهم.

وإن المعرض عن الحق كلما جاء الدليل أعرض ونأى بجانبه ويزداد لجاجة فى باطله، هذا إبراهيم الخليل عليه السلام قد حطم أصنامهم، ورأوها جذاذا حطاما، وتبين أن هؤلاء لا ينطقون، وكان حقا عليهم أن يذعنوا للحق إذ جاءهم، ولكنهم لجوا فى الفتنة والضلال وعتوا عتوا كبيرا، وأرادوا إحراق الناطق بالحق.

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾

أخذوا الأمر أمر ممانعة ومغالبة، وهو وحده والله معه، والحق بحججه يصرخ به فى أوساطه لا يباليهم؛ لأنه يبالى الله وحده، ولا يبالى أحدا سواه، وهم بتماثيلهم وعددهم وقوتهم المادية الغاشمة وملكهم الغاشم، فلما حطم إبراهيم - بتأييد الله تعالى ومعونته - أصنامهم حسبوا بقانون المغالبة أنه غلب أصنامهم، فلابد أن ينتصروا لها، ولابد أن ينصروها كأنها شىء يحس ويغالب ويغلب، وكذلك سولت لهم أنفسهم، وكذلك يدخل الضلال العقول، ويذهب برشدها.

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ﴾ التحريق المبالغة فى الإحراق وإكثار حطبه، وقد جعلوا ذلك

التحريق فى مقابل ما قام به من تكسير وتحطيم لأصنامهم، حتى جعلها جذاذا فتاتا متكسرا تفرقت أجزاؤها؛ ولذا قالوا: ﴿وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾، أى خذوا بثأرهم عن الحَطْم الذى صغر به أمرهم، وأضعف به شأنهم، وقال قائلهم المتحدث فى جمعهم عنهم: ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أى إن كنتم تريدون الثأر لآلهتكم فأحرقوه، وإلا فالمهانة والعار والشنار، وإن ذلك يدل على أنه كان فى بعضهم تردد أو عطف، أو عدم إيمان حازم بما هم فيه من الضلال.

ولكن إبراهيم المؤمن بالله وبالحق لم يعرهم التفاتا، ولم يفزع من تهديدهم؛ لأنه يعلم أن الحق أبقى، ومن لا يفتدى الحق بنفسه لا يستحقه، فلابد فيه من فداء وقد عرف أبو الأنبياء من بعد بالفداء والبلاء فقد قبل أن يذبح ابنه لرؤيا صادقة رآها، حتى فداه الله بذبح عظيم.

ألقوا بإبراهيم خليل الله فى النار، وهو الصابر الراضى بحكم الله، ألقوه فى أتون النيران، وقد بُنى لها بناء تضطرم فيه، ولكن أمر الله تعالى كان فوق أمرهم وقدرته قاهرة عليهم، فألقى إبراهيم فى النار وتلقفته فى ساعتها رحمة رب العالمين:

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾.

أى كونى بردا أى باردة ليست متوهجة وهو آمن فى سلام لا يجزع من رؤيتها ولا يفزع من لهبها.

ومساق الكلام لا يدل على أنها أطفئت بريح شديدة، ولا مطر انهمر عليها، ولكنها المعجزة أنها بقيت متوهجة ولم تحرقه، فالله تعالى أزال عنها خاصة الحرق بالنسبة لإبراهيم، ومنعت من أن يصل أذاها إليه، كأن بجسمه موانع مانعة وحائلا يحول بينه وبينها.

نجا إبراهيم عليه السلام بهذه المعجزة الباهرة، وكان فيها معنى التحدى لأنهم أرادوا الغلب والانتصار لآلهتهم فلم يؤذ ولا هابها، وكان ذلك إعجازا لهم، وكان حقا عليهم من قبل ومن بعد أن يذعنوا، ولكن غلبت عليهم شقوتهم.

﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾.

الكيد هنا هو الإضرار الشديد الذى يكون نتيجة الكيد والتدبير الخبيث، فاطلقوا السبب وأرادوا المسبب وهو الضرر، وكيدهم كان فى مغالبتهم له ومجادلتهم، فكانوا هم الخاسرين؛ ولذا قال: ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾ فى هذه المغالبة، والأخسرون جمع أخسر، والمراد من بلغوا أقصى درجات الخسران.

خبر النبيين من بعد إبراهيم ومعه

وَنَجَّيْنَاهُ
وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا
لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾
وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ
الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا
عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ
الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ
فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾

كان لوط ذا قرابة بإبراهيم عليه السلام؛ ولذا اقترن به فى الذكر، وإنه لما جاء الملائكة مبشرين إبراهيم وامرأته بالولد، ذهبوا من عنده إلى لوط فدكوا قريته دكا لأنها كانت تعمل الخبائث، ما سبقهم بها أحد من العالمين؛ ولذا قرن نجاة إبراهيم عليه السلام بنجاته، وأنه أخذه معه إلى الأرض المباركة، وقال تعالى:

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾.

أى نجينا إبراهيم من النار، ولوطا من الدمار، أى نجاهما وأخذهما إلى الأرض المباركة وهنا أمران نذكرهما:

أولهما ـ التكلم من الله تعالى العلى الأعلى بضمير المتكلم المعظم، لبيان أنها كبيرة تليق بكبر المتكلم، فإخراج من النار أو جعلها عليه باردة وجعلها أمنا لا فزع منها، وإهلاك قرية الفسق بجعل عاليها سافلها، وإرسال عليها حجارة من سجيل منضود.

الأمر الثانى ـ ما الأرض التى باركها، وانتهى خليل الله وذو قرابته لوط إليها، رُوى عن أبى بن كعب أنها الشام؛ لأنه كان فيها النبيون من بعده فهى مباركة، وروى ابن عباس ترجمان القرآن وغيره، أنها مكة المكرمة؛ لأن إبراهيم هو الذى رفع بناءها وإسماعيلُ، ولأن بها أول بيت وضع للناس، ولأنها صارت حرما آمنا، ولأنها كانت مباركة بدعاء إبراهيم عليه السلام، ولأن الله وصف بيتها بأنه مبارك، فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران]، وقوله: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ الجار والمجرور متعلق بـ «نجيناه»، أى حفظناهما إلى أن وصلا إلى الأرض المباركة، وهذا دليل على أنهما فى هجرتهما إلى الأرض المباركة لاقى عنف الصحراء موماة موماة(١) حتى وصلا سالمين، وهو يدل على أن لوطا قد وصل إلى البيت الحرام وإن لم يكن له ذكر فيه، والبركة ثبوت الخير واستمراره، وقد كانت بركة مكة للعالمين، لكل الناس كانت للعرب حرما آمنا تجبى إليه ثمرات كل شىء، وكانت كذلك للناس أجمعين ففى بطحائها وُلد وظهر خير الخلق محمد ﷺ.

وقد ذكر سبحانه بعد ذلك النبوة فى ذرية إبراهيم، وذكر بعض الأنبياء منهم:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾.

أشار سبحانه إلى هبة الله لإبراهيم ولده إسماعيل، بالإشارة إلى نجاته إلى الأرض المباركة مكة وما حوت، وما حولها من منى وعرفات والمشعر الحرام، وهنا

---

(١) الموماة: المفازة الواسعة الملساء، وتكرارها توكيد لفظى. وقيل هى الفلاة التى لا ماء بها ولا أنيس. قال: وهى جماع أسماء الفلوات. لسان العرب ـ موم.

يصرح بأنه وهب لإبراهيم إسحاق، ومن ورائه يعقوب، وجعلهما معا مع أن إسحق أب ويعقوب ابنه، لأنهما كانا نبيين، وأن نبوتهما هبة الله، وتوالت النبوة والدعوة إلى هدم الأوثان ابنا عن أب عن جد؛ ليقتلعوا عبادة الأوثان من الرءوس التى استمكنت فيها، والنافلة ولد الولد، و﴿نَافِلَةً﴾ وصف ليعقوب لأنه ولد ولده، أى وهبناه لك هبة زائدة فوق الولد؛ لأن إبراهيم دعا ربه، وقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الصافات].

وهكذا نرى أن الله تعالى أراد لإبراهيم أن تتوارث فيه الدعوة إلى هدم الأوثان، لتذهب روعتها الكاذبة من نفوس الناس، ومحمد ﷺ من بعده قاوم الوثنية وحده، ولم يكن أحد من ذريته من قاومها، ولكن كان من أصحابه والتابعين من قاومها، حتى روى أن النبى ﷺ قال: «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل»[1] وقال تعالى: ﴿وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ التنوين قائم مقام المضاف إليه، أى كل واحد من الجد وابنه وحفيده جعلناه من الصالحين، أى المستقيمين فى طريقهم إلى الحق، وذكر أنهم صالحون مع أنهم من المصلحين فى طريق الحق والهداية إليه، وذلك لأن الصالح فى ذات الحق لابد أن يكون مصلحا؛ لأنه لا يتم الصلاح إلا إذا جعلنا مصلحا هاديا مرشدا داعيا إلى الحق، وإلى صراط مستقيم؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ الضمير يعود إلى إسحاق ويعقوب وأعيد الضمير بلفظ الجمع لأنه يجمع كل الذرية بعضهم بصريح اللفظ والآخر بطريق الإشارة والتضمين، وقد جاء الصريح فى قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة].

(١) سبق تخريجه.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أى وجعلنا إبراهيم وذريته أئمة أى رؤساء يوجهون ويرشدون، ويقتدى بهم، ويكونون قوة للخير والهداية ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾، أى يدعون بدعاية الله، وإضافة الهداية إلى أمر الله للإشارة إلى طاعتهم أولا، ولبيان صواب ما يدعون إليه وأنه الحق لا ريب فيه ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ أى ألهمنا نفوسهم وقلوبهم فعل الخيرات وهديناهم إليها، بما أوحينا به لرسلهم الذين جاءوا رسولا بعد رسول، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ... ﴿٤٤﴾﴾ [المؤمنون] أى رسولا بعد رسول، وكل أولئك فى ذرية إبراهيم عليه السلام والخيرات جمع خير، وهو كل ما فيه نفع للناس، ويقصد به فعله لنفعه للناس، ولإرضاء الله تعالى ثم قال سبحانه: ﴿وَإِقَامَ الصَّلاةِ﴾ أى أداءها على وجه أكمل من خضوع وخشوع، واستحضار لذات الله كأنهم يرونه، وإذا لم يروه يحسون بأنهم فى حضرته يرجون رحمته ويخافون عذابه ويطلبون محبته ورضوانه، ﴿وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ ليكون المجتمع كله متعاونا بارا يبر بعضه بعضا ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ أى كانوا فى كل أحوالهم وأعمالهم عابدين لله تعالى، وكل عمل فيه عبادة إذا قصد بإتقانه إرضاء الله وحده ومحبته سبحانه، كما قال النبى ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب الشىء لا يحبه إلا لله»[1].

وفى قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ تقديم الجار والمجرور، وهذا يفيد الاختصاص أى لنا وحدنا لا يشركون بى شيئا، والجملة تدل على استمرار العبادة أولا؛ لوجود «كان» الدالة على الاستمرار، وثانيا الوصف ﴿عَابِدِينَ﴾ أى مستمرين حتى تصير العبادة وصفا لهم فهم فى عبادة مستمرة آناء الليل وأطراف النهار.

بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى إشارات بينة إلى إبراهيم وبنيه، ويعقوب وذريته عاد إلى لوط بعد نجاته فقال:

﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾.

(١) سبق تخريج ما في معناه من أحاديث.

﴿وَلُوطًا﴾ منصوب بفعل محذوف تقديره: واذكر لوطا، وخص لوطا بالذكر، ولم يذكر قوم لوط لحقارتهم ومهانتهم وسوء أفعالهم، وخبيثة نفوسهم حتى انحطوا عن مرتبة الحيوانية فى شذوذ الفطرة، وفى ذكر لوط منفردا عن قومه تنويه بشأنه، ورفعة لذكره، وبيان أنه لا يضر النبى ﷺ أن يكون قومه مفسدين غير مهديين، فإنه جاء لهداية الضال وإصلاح الفاسد، فإن لم يصلحوا دمر الله عليهم وأنشأ قوما آخرين.

﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ الحكم هنا الحكمة والحلم والصبر على معاشرة المفسدين، وإلا فأى حكمة أوتيها ذلك النبى الكريم الذى استطاع بها أن يعاشر أولئك الشواذ من الإنسانية يدعوهم ويأخذهم بالهداية والإرشاد والرفق فى القول ويستمر فى رعايتهم هاديا مرشدا من غير سأم ولا ملال، حتى إذا جاءه ملائكة الله يبدو سوء نفوسهم ويظهر حتى يداريهم ليسكتوا فلا يسكتون. ﴿وَعِلْمًا﴾ وهو علم النبوة وبعثه، وما أجدت دعوته فحقت عليهم كلمة العقاب وحقت للوط النجاة، كما تنجو الفضيلة من ردغة[١] الرذيلة على أقبح صورها، ولذا قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾ أى نجيناه سالما طاهرا مطهرا ﴿مِنَ الْقَرْيَةِ﴾ أى المدينة العظيمة، أو المدائن العظيمة، وذكرت بالمفرد لإرادة جنس هذه القرية الموصوفة بذلك الوصف المشئوم البغيض، ﴿الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾، وهى جمع خبيثة، ولا يمكن أن توصف إلا بهذا الوصف أو ما يشبهه، ولقد قال تعالى فيها ﴿... أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ۝٨٠﴾ [الأعراف] ووصفت القرية بأنها كانت تأتى الخبائث مع أن الذى يفعلها آحادها، ولكن لأنها عمت وطمت كأنما صارت الأرض ذاتها تفعلها، ولقد قال تعالى بعد ذلك: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ أعيد الضمير على أهل القرية لأنهم الذين فعلوا ما فعلوا حتى صاروا عار هذه القرى الظالمة، وهذه الجملة السامية: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ فى مقام سبب ما فعلوا ويفعلون من خبائث. و«السوء» ما يسوء ويؤذى النفس والطبائع السليمة، ﴿فَاسِقِينَ﴾ شاذين خارجين على الفطرة الإنسانية إذ انهووا إلى ما دون الحيوان.

---

(١) الرَّدَغَةُ، مُحَرَّكَةً، وتُسكَّنُ: الماءُ، والطينُ، والوَحلُ الشَّديدُ. القاموس المحيط- ردغ.

وأكد سبحانه وصفهم بالسوء والفسق أولا، بـ ﴿كَانُوا﴾ أى استمروا عليه، وإضافتهم إلى السَّوء، كأنما هم أهله لا يخرجون عن حيِّزه، ولا يخرج عنهم ثانيا، والتعبير باسم الفاعل فى قوله تعالى: ﴿فَاسِقِينَ﴾ وبالجملة الاسمية وتصديرها بـ «إنَّ»، والله عليم بخلقه وشئونه.

نجى الله تعالى لوطا من هذه الدولة الظالمة فقال سبحانه:

﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

رحمة الله التى شرفها بالنسبة إليه سبحانه، هى هجرته منهم، ونجاته من الهلاك الذى كتب لهم وإيتاؤه حظه فى الآخرين، والتجاؤه له سبحانه كما قال تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ... (٢٦)﴾ [العنكبوت]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وهذا بيان لاستحقاقه رحمته سبحانه، وقد شرفه سبحانه بأن وصفه من بأنه من الصالحين.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ
وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ
نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾
فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا
مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾
وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ
فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ

﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢)﴾

هذا وصل للكلام السابق من أخبار إبراهيم ولوط والأنبياء من ذرية إبراهيم عليهم السلام، وفى قصصهم عبرة لأولى الألباب، وتسرية عن النبى ﷺ عن سوء ما يرتكبه معه المشركون من شطط فى القول، وإسراف فى استهزائهم، والله مستهزئ بهم، قوله: ﴿وَنُوحًا﴾ منصوب بفعل محذوف تقديره اذكر، أى اذكر نوحا وإيذاء قومه، وقد تشابهت أقوالهم مع أقوال المشركين للنبى ﷺ، لتشابه القلوب والمقاومة وطرائقها، فالناس أولاد الناس، ﴿إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ نادى ربه مستغيثا بالله وذلك فى قوله: ﴿... رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧)﴾ [نوح] دعا نوح ربه ذلك الدعاء، أو ناداه ذلك النداء فأجابه سبحانه فقال: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾، «الفاء» للترتيب والتعقيب، والمراد بالتعقيب تأكيد الإجابة، وقد قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ الاستجابة شدة الإجابة؛ لأن السين والتاء للطلب، أى أن الطلب طلب الإجابة وأرادها له؛ ولذا كانت التعدية بـ «اللام» مع أن «أجاب» تتعدى بنفسها، ولكن كانت «اللام» لشدة الإجابة؛ لأنها بطلب الله، وتشدده فى الطلب لأجل نوح عليه السلام، وأنه إذ استجاب له سبحانه ونجاه وأهله من الكرب العظيم، وقال سبحانه: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ حيث أرادوا إيذاءهم، وحيث كان كرب الطوفان؛ إذ أحاط بهم الماء من كل جانب، وركب فى السفينة من أراد الله إنجاءه.

﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

و(نصرنا) معناها انتصرنا له من القوم الذين كذبوا، فـ «نصرناه» متضمنة انتصرنا؛ لأن «انتصر» تتعدى بـ «من»، وكانت له محذوف دلت عليها ﴿لَهُ﴾ فى

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ والمعنى انتصفنا له منهم إذ ظلموه بالعناد والسخرية والتحدى والإنكار المستمر، والمجادلة بالباطل حتى يئس من إيمانهم، وقال الله تعالى له: ﴿... لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [هود] وقد بين سبحانه استحقاقهم لما نزل بهم، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ هذا بيان لاستحقاقهم ذلك الإغراق وإزالتهم من الوجود، وألا يبقى من ذريتهم أحد إذ لا يلدون إلا فاجرا كفارا، والسَّوء: هو ما يسوء الناس ويؤذيهم، وأضيف السوء إليهم؛ لأنهم لا يصدر عنهم إلا ما يسوء، وبسبب ذلك أغرقهم الله أجمعين، ولم يبق إلا من حملته السفينة المباركة.

قصص أنبياء من أولاد يعقوب كانوا بعد موسى

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾.

«الواو» وصلة الأخبار فى قصص النبيين، و(داود) منصوب بفعل محذوف تقديره «اذكر»، والمخاطب النبى ﷺ تسرية له فى الشدائد والكروب التى كان فيها وهى تسرية فيها أخبار جدية تبين أحكاما لنظام الحق وإدراكه، فهى ليست تسرية بلهو، بل هى أخبار فيها طرافة، وفيها تنبيه لتنظيم العدالة والتفكير.

﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾، ﴿إِذْ﴾ الأولى تتعلق بالفعل المحذوف «اذكر»، و﴿إِذْ﴾ الثانية متعلقة بـ ﴿يَحْكُمَانِ﴾، ﴿الْحَرْثِ﴾: الأرض المزروعة، سميت بمصدر حرث يحرث وهو قلب الأرض، ويطلق «الحرث» على الأرض المحروثة وعلى الزرع نفسه، و﴿نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ أى انتشرت فيه الغنم فأتلفته، وأصبح غير ذى قيمة، وقد تحاكم الخصمان صاحب الحرث وصاحب الغنم إلى داود عليه السلام.

وجاءت الروايات بأن داود عليه السلام حكم بأن يأخذ صاحب الحرث الغنم فى مقابل ما أتلفت الغنم من الحرث، وكانت القيمتان متقاربتين.

ولكن سليمان - عليه السلام - رأى أن خيرا من هذا أن يأخذ صاحب الحرث الغنم تدر عليه لبنها ويستولى على منافعها، ويأخذ الآخر الأرض يحرثها، وكأن أجرة الأرض تكون هى منافع الغنم وردها.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى أنه هو الذى أفهم سليمان هذا الحكم فقال عز من قائل:

﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

دل هذا القول على أن حكم سليمان كان بإلهام من الله، ويومئ إلى أنه كان الحق، وإن لم يكن حكم داود كان باطلا، فقد بذل فيه سبيل الاجتهاد، وكان مقاربا، ولم يكن مناقضا للحق، والأحكام تبنى فى الدنيا على المقاربة، ولو كان القاضى نبيا جعله الله تعالى خليفة فى الأرض ما دام الحكم لا شطط فيه؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أما العلم فعلم النبوة، وأما الحكم فقالوا إن الحكمة والقدرة على فهم الأمور ودراستها من كل جوانبها، ويصح أن نقول: إن المراد بالحكم أهلية الفصل بين الخصوم، وقد ذكر سبحانه وتعالى أنه كان شاهدا مقرا لحكمهم.

ويلاحظ هنا أن الحكم الذى أقره الله تعالى أو كان عليه شاهدا، وهو حكم داود عليه السلام وحكم ابنه سليمان هو جزاء مشتق من ذات الاعتداء ولو بالتسبب، فإن صاحب الغنم تركها من غير أن يراقبها ويحفظها فنفشت فى الحرث، فكان الجزاء من ذات موضع الاعتداء، فقدره داود بأن تؤخذ الغنم فى نظير الزرع لأن قيمتها كانت تساوى الزرع، وبذلك كان الجزاء من جنس الاعتداء وهو مقارب، وأفهم الله تعالى سليمان أن يجعل الاعتداء جزاءه مماثلا ولو فى الظاهر لموضع الاعتداء فكان أن يترك صاحب الحرث لصاحب الغنم يحرثها ويزرعها، حتى إذا

علا واستغلظ أو صار كالأول سلَّمَه ورد الغنم إلى صاحبها وكان صاحب الحرث قد أخذ عوض التأخير بدرِّ الغنم ومنافعها.

وفي هذا الجزاء مقاربة للعدالة والمساواة وفيه تعاون، وفيها فائدتان:

الأولى: أن يكون فضل تعاون، والثانية: أنه مساواة أو مقاربة من المساواة. وقد أثبت علماء البحث في العصر الحاضر أن أقرب الجزاء إلى تهذيب النفوس أن يكون العقاب من جنس الاعتداء؛ لأنه يجعل الجاني أو المهمل يحس بالجزاء وهو يقع في الجريمة أو الخطأ، فيكون ذلك أدعى إلى الامتناع أو التوقي.

وإن قصة هذا الحكم إرشاد للحكام إلى أقرب الطرق إلى تحقيق العدالة في هذه الدنيا، وقال تعالى فيما مكن الله به لداود، فقال عز من قائل:

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ كرم الله تعالى داود بأمرين: أولهما: أنه سخر له الجبال تتحرك بإرادته وتسكن، وتسبح بأمره عليه السلام، ولسنا نستغرب شيئا من ذلك لأننا نؤمن بالقوة الغيبية، يبثها الله، ولا يماري فيها إلا الذين لا يؤمنون إلا بالمادة وظواهرها، وكذلك سخر الله تعالى له الطير، وروى أن الجبال كانت تجاوبه في تسبيحه، وكذلك الطير، ولا غرابة فقد قال الله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ... ①﴾ [الجمعة] وقال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ ... ⑬﴾ [الرعد] وقال الله في داود: ﴿... يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ⑩﴾ [سبأ]، أي أن هذه إرادة الله، ولا مشاحة[1] له فيما يريد، وقال تعالى:

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾

﴿عَلَّمْنَاهُ﴾ التعليم هنا الإلهام والتوفيق والمرانة على عمل ما، وهو بتوفيق الله تعالى، وينسب إليه لأنه لا شيء إلا بإرادته وتوفيقه، و«الصنعة» هي الصناعة

(١) والمُشاحَّةُ: الضِّنَّةُ. وتَشاحَّا على الأمْرِ: لا يُريدانِ أن يَفوتَهُما، وتشاحّ القومُ في الأمْرِ: شَحَّ بَعْضهُم على بعضٍ حَذَرَ فَوْتِه.

والتفنن فيها وإجادتهـا، وهى من خواص الإنسان، و«اللبوس»: ما يلبس، وهو هنا الدرع الذى تتـقى به ضربات السـيوف، والرمـاح والسهـام فلا تنفـذ فيـه من هذه الأسلحة إلى الجسم، وقد ألان تعـالى الحديد لداود عليـه السلام ليـتمكن من أداء الصنعـة على الوجه الأكـمل، وقال تعـالى: ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ﴾ البأس: هو الشدة، وهو هنا الحرب التى يـشعلها الإنسان فى هذه الأرض سواء أكـانت هجوما معتديا آثما، أم دفاعا عادلا، وتحـصنكم مصدرها إحصان وهو المنع والحماية، وهذه نعمـة الله تعالى، فإنه كـما أوجد للإنسـان السيف، أوجد لـه الدرع فيكون الدفع للاعـتداء، وإضـافـة البأس إلى الناس فـيـه معنى بـلاغى رائع؛ إذ إنهم هم الذين يوقعون أنفسهم فى الشدائد، والله يدبر لهم أمر ردها ودفعها.

وإن ذلك يوجب شكر الله تعالى، وقـد دعا سبحانـه إلى ذلك فقال: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ «الفاء» لتـرتيب ما بعدها على مـا قبلها، أى بسـبب تلك النعم التى أسداها لكم من هذا التدبر المحكم بأن هيأ لكم الدواء عند الداء، والدفع عند احتمال الاعتداء. والاستفهام للحض على الشكر؛ ولذا قال علماء البلاغة إن هذا التعبير أدلّ تعبير على الطلب، والله تعالى المنعم ذو الجلال والإكرام أن نشكر ولكنا نكفر.

وأخبـر تعالى عن نبى اللـه داود الذى آتاه الحكم والخلافـة فى الأرض أنه قد اتخذ لنفسه صناعة يأكل منها، وأفهمه الله تعالى هذه الصناعة، وما كان أكل الرجل من عمل يده عـيبا، إنمـا العيب أن يكونَ كـلاًّ على الناس وهو القـادر على العمل، ولقد جاء فى تفسير القرطبى ما نصه: هذه الآية فى اتخاذ الصنائع والأسباب، وهو قول أهل العقـول والألباب، فالسبب سنة الله فى خلقه، وقد أخـبر الله تعالى عن نبيه داود عليه السلام أنه كـان يصنع الدروع، وكان أيضا يصنع الخوص، وكان يأكل من عمل يده، وكان آدم حراثا، ونوح نجارا، ولقمان خياطا، وطالوت دباغا، وقيل سقاء، فبالصنعة يكف الإنسـان نفسه عن الناس، ويدفع بها الضرر، وفى الحديث: «إن الله يحب المؤمن الضعيف المتعفف، ويبغض السائل الملحف»[1].

---

(١) الملحف: ألحف السـائل: ألح. رواه الطبـراني عن ابن مسـعـود عن فاطمـة الزهراء رضي الله عنهـا. كنز العمال(٤٣٤٨٥)١/ ٣٢٥١.

وقد ذكر سبحانه ما مكن الله لسليمان بعد داود فقال:

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾.

﴿الرِّيحَ﴾ منصوبة بفعل العطف، أى: وسخرنا لسليمان الريح، كما سخرنا لداود الجبال وقلنا يا جبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد، وكذلك سخرنا لسليمان الريح أى جعلناها له ذلولا، فأبوه كانت رواسى الجبال مسخرة له، وهو كانت عواصف الرياح مسخرة له، ومذللة له، والريح العاصفة هى الريح الشديدة فى هبوبها، بحيث تقوض القائم، وقد وصف الله الريح بهذا الوصف للإشارة إلى أنها فى قسوة هبوبها وعصفها لا تذر شيئا أتت عليه إلا أزالته، زللها الله تعالى لسليمان، فكانت تجرى بأمره رخاء، وقال تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ مع عنفها تهدأ له، وتسرى بأمره ﴿إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾، وهى هنا مدينة «أورشليم» إذ استردها داود من أيدى التتر[1]، وكان الحاكم فيها وجاء من بعده سليمان عليهما السلام، وإن ذلك كله بإرادة الله تعالى وعلمه؛ ولذا قال: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ وقدم الجار والمجرور للاهتمام بعموم علمه سبحانه، والجملة السامية تدل على استمرار علمه سبحانه، وأنه لا يغيب عنه شىء فى السماء ولا فى الأرض، ودل على الاستمرار الوصف ﴿عَالِمِينَ﴾ وتقديم الجار والمجرور، الجملة الاسمية المؤكدة، وكان الدالة على الاستمرار.

﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾.

«الواو» عاطفة والمعنى وسخرنا له من الشياطين ﴿مَن يَغُوصُونَ لَهُ﴾، أى أن الله تعالى كما سخر الرياح العاصفة فتجرى بأمره رخاء حيث أصاب، كذلك سخر له من الشياطين من يغوصون له، أى يغوصون فى أعماق البحر ليستخرجوا منها اللآلئ والأحجار الكريمة والعنبر وغيرها من منافع الماء، وقد أعطى الله سليمان ملك اليمن التى تمتلئ بحارها باللآلئ وثروات البحر، فكانت الشياطين تغوص فيها، وتخرجها له، وسيجىء ذلك فى سورة النمل إن شاء الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿يَغُوصُونَ لَهُ﴾ أى يغوصون لأجله وبأمره ومنافع غوصهم له، ﴿وَيَعْمَلُونَ

---

(١) التتر هم التتار برجاء الرجوع إلى صفحة ٤٩١٧ من هذا التفسير.

﴿عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ﴾، أي غير ذلك، وليس المعنى أقل من ذلك بل كلا العملين فيه خير؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ۝٣٧ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ۝٣٨﴾ [ص] وقال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ ... ۝١٣﴾ [سبأ].

﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ أى كنا لهم حافظين مما فى جوف البحر، ومؤيدين لأعمالهم ونحب أن نقول: إن الشياطين هنا لا نعتقد أنهم إخوان إبليس أو من ذريته؛ لأن إبليس وذريته متمردون على ربهم فكيف لا يتمردون على سليمان، إنما هم من خلق طائعين، وكانوا مؤيدين من الله، وهو حافظ لهم.

ولو اعتقد بعض الناس أنهم من شياطين الإنس الذين كانوا من شطار الأرض سخرهم الله لسليمان وهو بعيد، والله أعلم.

أنبياء من أنبياء بنى إسرائيل وغيرهم

وَأَيُّوبَ إِذْ
نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣
فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ
وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ۝٨٤
وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ
۝٨٥ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
۝٨٦ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ
فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي
كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ
مِنَ ٱلْغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨ وَزَكَرِيَّآ

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾

من أخبار النبيين السابقين فى هذه السورة كانت أخبار أولى العزم من الرسل، وجهادهم الشرك، وبيان لمجاهدتهم الكفر، وتعرضهم لأذى الشرك وصبرهم، وكيف صبروا حتى أدوا رسالات ربهم، وذلك تسرية للنبى ﷺ، وتحريض له على تبليغ الرسالة، وبيان أنه سبحانه ناصره كما نصرهم ولن يضيعه الله تعالى بخذلان أبدا.

وقد كان النبى ﷺ يصاب بشدائد من شأنها أن تلقى بالرجل فى غم وهم كالذى أصابه يوم ذهب إلى الطائف بثقيف، فأغروا به صبيانهم وشبابهم؛ ولذا ساق الله تعالى أخبار من أصيبوا بضر أو بغم، وكيف أنقذهم الله تعالى، ورفع عنهم.

وقد ابتدأ سبحانه من أخبار هؤلاء يخبر أيوب عليه السلام، فقال تعالى:

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

﴿أَيُّوبَ﴾ منصوب على أنه مفعول لفعل محذوف تقديره «اذكر»، والمخاطب النبى محمد ﷺ، وتقديره اذكر يا محمد وتذكَّر أيوب، و﴿الضُّرُّ﴾ هو ما يصيب الإنسان فى جسمه أو نفسه وأحبائه، وقد أصيب أيوب عليه السلام فى جسمه فأصيب بمرض عضال، قيل إنه الجذام، وقد ذكر ذلك ابن كثير فى تفسيره فقد جاء فيه: «ذكر تعالى عن أيوب عليه السلام ما كان أصابه من البلاء فى ماله وولده وجسده، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شىء كثير وأولاد كثيرون ومنازل مرضية، فابتلى فى ذلك كله وذهب عن آخره، ثم ابتلى فى جسده، يقال

بالجذام فى كل بدنه؛ ولم يبقَ منه شيء سليم سوى قلبه ولسان يذكر بهما الله تعالى، حتى عافه الجليس، وانفرد فى ناحية فى البلد ولم يبق أحد من الناس يحنو عليه سوى زوجه كانت تقوم بأمره، ويقال إنها احتاجت فصارت تخدم الناس لأجله».

ومع هذا المرض الممض المنفر، ومع الانفراد كان صابرا، كما قال الله تعالى: ﴿... إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص] ولم يشكُ لأحد غير الله، والشكوى لله لا تنافى الصبر، وإنما الذى ينافيه الأنين والشكوى للناس، قال لربه: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾، هذه الجملة الهادية، أى أصاب نفسى وحسِّى، قال ذلك طالبا رفع الضرر، فقال: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ لم يطلب من الله بصريح اللفظ، ولكنه ذكر حاله وكفى، وهو بها عليم، وإن ذكر الرحمة ينبئ عن الطلب، وهو أن يرحمه سبحانه، ولكن لم تتعين الرحمة كاشفة عن الضر، فقد يكون الضر من الرحمة، ففى حديث النبى ﷺ: «يبتلى الرجل على قدر دينه، فإن كان فى دينه صلابه زيد فى بلائه»[1] وصف الله تعالى بأنه ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، وأفعل التفضيل ليس على بابه لأنه لا رحم يقارب رحمته، وإنما يفسر على أنه سبحانه وتعالى بلغ فى رحمته أعلى درجاتها.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾.

«الفاء» للترتيب والتعقيب، أى كان الكشف فور الضراعة له سبحانه وتعالى، وذكر رحمته، وكشف الضر: إزالته، وخصوصا إذا كان الكشف إزالة هذا المرض الذى شوه جسمه، ونفر الناس منه، ولم يكن كشف إلا بإرادة، ولا يتعذر شيء إزاء إرادة الله، ولو كان جذاما لا يشفى فى عادة الناس وطبهم، ولقد قال تعالى فى بيان كيف كشفه: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (١٤٩٣).

مِنَّا وَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [ص] إن أخبار أيوب عليه السلام تفيد أن كل الناس نفروا منه حتى أهله، وذلك أشد على النفس من وقع الحسام المهنَّد، فكان ألم مرضه مع ألم فراق الأحبة؛ ولذا قال سبحانه في منته على أيوب ﴿**وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ**﴾ أي أعطيناه أهله الذين نفروا وكان عودتهم عطاء من الله غير مجذوذ، وجاء معهم مثلهم من محبين وموادين، أي أقبل عليه الناس بعد طول نفور، وذلك ﴿ **رَحْمَةً مِّنَّا**﴾، وأضافها سبحانه إلى ذاته العلية، فهي رحمة تليق بذاته الكريمة وهو الرحمن الرحيم ﴿**وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ**﴾ أي تذكيرا دائما للعابدين، بأن الله معهم دائما وإنه معهم لا يتركهم أبدا، يثيبهم في البلاء، ويرفع عنهم، «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان ذلك خيرا، وإن أصابته ضراء صبر فكان ذلك خيرا»[1]، كما روى الإمام أحمد رضى الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ، فهذه تذكرة لا يدركها إلا العابدون الذين ذاقوا حلاوة العبادة ولو في أشد الضرر.

﴿**وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ**﴾.

هؤلاء أنبياء ثلاثة، أو نبيان ورجل صالح وهو «ذو الكفل»، وكل هؤلاء امتازوا بالصبر، ﴿ **وَإِسْمَاعِيلَ**﴾ مفعول لفعل محذوف، وهو «اذكر»، والخطاب للنبي محمد ﷺ، فأخبار الصابرين تلهم بالصبروالاقتداء بهم، وأولهم إسماعيل كان عبدا صبورا عندما أراد أن يذبحه أبوه لرؤيا رآها، قال له أبوه: ﴿**يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾**﴾ [الصافات] فكان الصبر من الأب والابن عظيما، فالصبر من الأب بأن يرضى بذبح ولده البكر، وقد وهبه له ربه على الكبر هو وأخاه إسحق.

﴿**وَإِدْرِيسَ**﴾، ويقولون إنه أكبر من نوح عليهما السلام، وقد ذكر الله تعالى أنه من الصابرين؛ ولم يذكر موضع أو دليل صبره.

---

(١) رواه أحمد ومسلم، وقد سبق تخريجه.

﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾، فهم ابن كثير أنه نبى من وجوده فى أخبار الأنبياء، وقال بعض المفسرين السلفيين إنه كان رجلا صالحا، ومهما يكن من أمره فهو من الصابرين الذين جاهدوا للحق، وجاهدوا أنفسهم وقمعوها عن شهواتها، فإن ذلك يقتضى أثر الصبر، ولذا قال تعالى: ﴿كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ أى كل واحد من هؤلاء من الصابرين.

وقد قال فى جزاء صبرهم:

﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾.

رحمة الله تعالى تتناول أولا: محبته ورضاه فهى رحمة لا ينعم بها إلا الأبرار المصطفون الأخيار، وثانيا: اطمئنان نفوسهم ورضاهم عن أفعالهم وذكرهم لربهم، ﴿... أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد] وثالثا: جنات الخلد التى لهم فيها نعيم مقيم، وقد ذكر سبحانه السبب فى ذلك فقال: ﴿إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين استقامت قلوبهم وصلحت أعمالهم، وطابت أقوالهم، وكانوا نافعين قد استنارت قلوبهم، والله هو الهادى إلى الرشاد.

﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿وَذَا النُّونِ﴾، معطوف على ما قبلها، وهى مفعول لفعل محذوف خوطب به النبى ﷺ تقديره: «اذكر»، أى اذكر قصة ذى النون الذى غضب، وليس من شأن النبى الهادى أن يغضب، وقد عاقبه الله تعالى بضيق لتبرمه بقومه وغضبه عليهم لكفرهم، ولم يكن رفيقا بهم يأخذهم بالهوادة، وذو النون هو يونس صاحب الحوت، والحوت اسمه النون، ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا﴾ «إذ» متعلق بحال ذى النون، واذكر يونس فى وقت ذهابه مغاضبا، أى متبادلا الغضب مع قومه لأجل الله تعالى؛ لأنه دعاهم إلى الله وإلى التوحيد فلم يستجيبوا له، فغاضبهم، وذهب عنهم معرضا، وذلك ليس شأن الداعى، إن المدعوين جهلاء، والداعى هو النبى فلا

يجوز أن يخاصمهم ويغاضبهم وإلا زادهم نفورا، فالرفق يدنى، والغضب يبعد، وهو بهذه المغاضبة خالف ربه، وقد حسب أن النبوة أمر هين لين، بل أشق أعمال البشر.

وقال تعالى: **﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾** هنا تأويلان لمعنى **﴿أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾**، أولهما: أن نقدر فى معنى فقدر عليه رزقه، أى نضيق عليه، فالمعنى: فظن أنه لن نضيق عليه، وحسب أن النبوة ليس فيها ضيق، وقد عاقبه الله تعالى بأن التقمه الحوت **﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ﴾** أى ظلمات جوف الحوت **﴿أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ﴾** أى تنزهت ذاتك، وفى هذا القول معنى الضراعة الكاملة والالتجاء إلى الله وطلب نصرته، وإنقاذه والاستغاثة به؛ ولذا قال بعد: **﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾**.

التأويل الثانى: أن معنى قوله تعالى: **﴿أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾**، أى لا نقدر اليسر والفرج، وأحسب أن التأويل الأول أكثر ملاءمة للآية الكريمة ولمقامه.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾، أى أجبناه، والسين والتاء للطلب، وهما يدلان على شدة الإجابة وشدة الرفق، وكانت التعدية بـ «اللام»، مع أن «أجاب» تتعدى بنفسها؛ للدلالة على كمال العناية به وترادف النعم عليه، وقال تعالى: **﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾** الغم هو الألم الذى يصم النفس ويصيبها بغمة شديدة وهمّ واصب، وذلك من أثر المغاضبة التى غاضب بها قومه، وخرج - عليه السلام - عن سُنة النبيين الهادين المرشدين، **﴿وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾** أى كهذه النتيجة التى نجينا بها صاحب الحوت ننجى المؤمنين، فلا ندع مؤمنا فى غم، بل نفرج عنه.

وهنا أمران بيانيان نشير إليهما:

أولهما ـ أنه حذف من القول ما أنبأ به سياق الكلام، فلم يذكر التقام الحوت له، ولكن أشير إلى ندائه فى ظلمات جوف الحوت ودل على التقامه والشدة الشديدة التى كان فيها يونس، وأنه كان فى ظلمات لا يعرف لها نهاية ولا غاية، وذلك من الإيجاز بالحذف الحكيم.

الأمر الثانى ـ فى العطف بالفاء الدالة على الترتيب والتعقيب، وإضافة النجاة والاستجابة إليه سبحانه للدلالة على أنهما مؤكدان برحمته سبحانه وفضله.

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿زَكَرِيَّا﴾ معطوف على ما سبق من أخبار النبيين، وسبقت قصة زكريا عليه السلام للدلالة على أن الله تعالى لا يتقيد فى خلقه وإرادته بالأسباب العادية ومسبباتها، ففى الأسباب العادية لا يأتى الولد من امرأة عاقر، وفى الخبر تسرية عن النبى ﷺ بقصص النبى وتوقع نصره، وإعلاء كلمته على المشركين، وإن كانت ظواهر الأمور لا تنبئ عن ذلك، فالأمر كله لله، **﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾** قال **﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾** فردا أى منفردا عن قريب أدنى يرثنى، ولقد كان فى ندائه بالغا أقصى درجات الأدب فى جنب الله، فهو لا يجعل وراثة ذى القرابة القريبة أولى من وراثة الله فقال: **﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾** وأفعل التفضيل ليس على بابه، بل المعنى ووراثتك أعلى درجات الوراثة وأبقاها.

وهذا التعبير الموجز فى معناه قوله تعالى: **﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾** [مريم].

وقد أجابه تعالى بقوله هنا:

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾.

«الفاء» عاطفة تدل على الترتيب والتعقيب، أى أجبناه عقب سؤاله، والتعدية باللام تدل على كمال الاختصاص بالداعى والعناية به، وإصلاح زوجه هو جعلها صالحة للولادة، بعد أن جف جهازها التناسلى، وقد كانت فى ذاتها عاقرا لا تلد، وسبحان الفعال المختار الذى لا تحكمه الأسباب بل يحكمها وهو الفعال المختار.

وقوله ﴿لَهُ﴾ «اللام» معناها لأجله وتكريما له، وعناية به واستجابة لدعائه، وكان زكريا ويحيى خيرا خالصا، وكذلك الأنبياء السابقون جميعا؛ ولذا قال تعالى فى أوصافهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أن يتسارعون إلى الخيرات، كأنهم يتسابقون، وكانت التعدية بـ ﴿فِي﴾ للإشارة إلى أنهم يسارعون يسابق بعضهم بعضا فى دائرة الخيرات لا يخرجون عنها، فالخيرات أحاطت بهم إحاطة الدائرة، و﴿الْخَيْرَاتِ﴾ الأعمال النافعة التى قصد بها وجه الله والعبادة الخالصة له سبحانه، ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾، الرغب معناه السعة، والمعنى يدعون ربهم فى حال السعة والرخاء، والرهب الخوف مع الاضطراب والانزعاج، والمعنى يدعونه سبحانه وتعالى فى حال رخائهم، وحال شدتهم وانزعاجهم، فهم يدعونه فى كل الأحوال، لا كأولئك المشركين الذين يدعون الله فى الشدة، فإذا ذهبت إذا هم يشركون، ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ أى خاضعين خائفين راجين الرحمة.

أفرد سبحانه قصص مريم وابنها فقال:

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾

عطف على ما سبق من النبيين، وهى مريم البتول التى اصطفاها ربها على نساء العالمين حتى قيل إنها نبى أوحى إليها، وذكر الله تعالى أجل وصف للمرأة وأكمله، فقال: ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾، أى صانته وحفظته، وكانت هذه الصيانة ليكون فيه الوديعة التى أودعها الله تعالى فقال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ أى بسبب إحصانها لفرجها، وأنها طاهرة مطهرة اختارها الله تعالى ليودعها عيسى عبده ورسوله، و﴿رُّوحِنَا﴾ هو جبريل عليه السلام، فهو الذى نفخ فيها ولم ينفخ بظاهر الآية فى فرجها، بل نفخ كما قال المفسرون: «فى بعض ثيابها» وقد قال تعالى فى

تصوير النفخ فقد قال تعالى: ﴿ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾ [مريم].

هذا هو نفخ الله تعالى من روحه جبريل الروح القدس الأمين، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ أى آية دالة على كمال قدرته، وأنه الفاعل المختار لا تقيده الأسباب والمسببات، بل هو فاعل مختار، فكانت أمه آية فى خرق الأسباب، إذ حملت من غير بَعْلٍ، وكان ابنها آية إذ خلقه الله تعالى من غير أب كما خلق آدم من غير أب ولا أم.

تفرق الناس حول الرسالة الإلهية وهى واحدة

إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾

ذكر الله سبحانه وتعالى طائفة من الرسل الذين دعوا إلى الوحدانية، وإن إجابة الناس كانت واحدة، منهم مؤمنون وهم قليل، ومنهم كفروا وعاندوا وهم

كثير، وإن الذين أشركوا وعاندوا كانوا يستهزئون بالذين آمنوا، وكانوا يقولون هم أراذلنا بادى الرأى، وكانوا ينكرون البعث، ويقولون إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين، وكانت المادة تأسرهم، ولا يؤمنون بالغيب، والنبيون يجاهدون فى الدعوة إلى الله والحق ويصابرونهم، ويبالغون فى الدعوة ليعذروا لأنفسهم عند ربهم، ومن العصاة من يرتكبون أفحش الفواحش سائرين وراء شهواتهم المنحرفة، بعد ذلك بيَّن الله سبحانه وتعالى وحدة البشرية، ووحدة الرسالة؛ ولذا قال عز من قائل:

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾.

الإشارة بـ ﴿هَذِهِ﴾ إلى الجماعات الماضية رسلا مبشرين ومنذرين وأقوام بعثوا إليهم وعاندوهم أو وافقوهم، والخطاب للذين بعث فيهم النبى محمد ﷺ، و﴿أُمَّةً﴾ حال باعتبار الوصف بالوحدة، والمعنى إن هذه الجماعات التى مضت برسلها المصطفين الأخيار حالة كونها أمة واحدة هى أمتكم معشر المخاطبين، والمعنى أن الناس جميعا أمة واحدة فى كونهم مؤمنين، وكافرين، ومستقيمين ومنحرفين، وأمة واحدة فيما طبعه الله تعالى عليها، وجبلها على الصفات الإنسانية الواحدة، ما بين ملهمين التقوى وملهمين الفجور، والرسل المختارون يدعون الأبرار والفجار، فيستقيم على الطريقة المثلى الأبرار، وينحرف عن الجادة الأشرار، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ... (٢١٣)﴾ [البقرة].

وبعد أن بيَّن سبحانه وحدة البشرية فى الطبائع والجبلاَّت بين وحدة الرسالة، ووحدة الألوهية والربوبية، فقال عز من قائل: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ أى أنا خالقكم والقائم عليكم والكالئ لكم ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ الفاء فاء السببية أى بسبب هذه الربوبية الخالصة المبدعة - اعبدون، هنا ياء المتكلم محذوفة مع تقديرها فى الكلام.

وإنه نتج عن هذه الوحدة فى الجِبِلّة، وتنوع الغرائز وتضاربها وتغالبها، وتنازع الأهواء والشهوات أن تنازع الناس، وإن اختلفت منازعهم ما بين مهتد رشيد، ومنحرف عنيد؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾

﴿وَتَقَطَّعُوا﴾ أى تفرقوا مزائق، وفرقا متباينة: هذا مهتد، وهذا ضال، وقد نتج هذا من الوحدة فى الطبائع والغرائز، ففى الغرائز حب الغَلَب، وفى الغرائز حب السيطرة، وفى الغرائز الشهوات، وإنها إن اختلفت فى أصلها ومنبعها تفترق فى نزوعها واتجاهاتها، فمن وحدتها يكون اختلافها وهذا كقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة] فقد قدر فى القول كما أسلفنا بعد قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ فكان الاختلاف المقدر الذى تقرر بقوله: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ مترتبا على الوحدة فى أصل الغرائز التى تتضارب، والجبلات التى تتناحر.

كذلك هنا كانت وحدة الأمة الإنسانية فى أصول الغرائز وينابيع النفس سببا فى الاختلاف وتقطع الأمر وتفرقه، وعبر سبحانه عن تفرق الإنسانية بـ «تقطع» للإشارة إلى أن الجسم الإنسانى واحد وقد تقطع أجزاء، فهو تأكيد لأصل الوحدة، وقوله تعالى: ﴿أَمْرَهُم﴾ أى الأمر الجامع بينهم، وهو أصل الوحدة ووحدة الغرائز وجماعتهم الجامعة، قطعوها بين غالب ومغلوب ومسيطر ومسيطر عليه، ومهتد وضال.

ثم بين سبحانه وتعالى أنه كما ابتدأوا وحدة يعودون إلى الله تعالى مجتمعين فى المحشر؛ ولذا قال تعالى: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ فتقديم الجار والمجرور للدلالة على الاختصاص، أى راجعون إلينا وحدنا لا إلى غيرنا.

ثم ذكر سبحانه جزاء الأبرار، ثم جزاء الفجار، فقال عز من قائل:

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾

«الفاء» فاء الإفصاح؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، أى إذا كانوا جميعا إلينا راجعون، فإنا نجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وقوله تعالى: ﴿مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ «من» هنا إما للتبعيض، أو للاستغراق، ويكون المعنى من يعمل بعض

الصالحات وهو مؤمن بالله حق إيمانه متقربا بها إلى الله تعالى، فإن الله يقبل عمله ويثيبه عليه؛ لأنه لا سلامة للأعمال إلا بأن تكون لله وحده، ولا تكون لله وحده إلا إذا كان مؤمنا به وبرسله والكتاب والملائكة والغيب الذى أخبر الله تعالى.

وإنما ذكر بعض الصالحات؛ لأنه ليس فى الطاقة الإنسانية القيام بكل الصالحات، وكل ميسر لما يستطيعه، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

ويصح أن تكون ﴿مِنَ﴾ بيانية، أى ومن يعمل الصالحات بما فى طاقته ﴿فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ «الفاء» واقعة فى جواب الشرط، والكفران الستر، وكفران النعمة سترها، وكفران السعى عدم الجزاء عليه، والسعى هو العمل النافع الذى يكون فيه القرب إلى الله تعالى.

وعبر سبحانه عن عدم الجزاء بالكفران، إكراما للساعى وتأكيدا بأنه لن يهمل جزاءه، ومعاذ الله تعالى أن يفعل، كما قال تعالى ﴿... أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم ... ﴿١٩٥﴾﴾ [آل عمران] وقوله تعالى: ﴿... إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف].

وبين سبحانه، أن هذا السعى مكتوب قد أحصاه الله تعالى فقال: ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ أى قد أحصيناه إحصاء، وذكر الكتابة للدلالة على أنه غير ضائع أبدا، والله بكل شىء عليم، وقدم الجار والمجرور لكمال العناية بمن يعمل عملا صالحا، أى كل عامل يقيِّد له عمله بخاصة، ويحصى لكل ما يخصه.

هذا جزاء الأبرار، أما غيرهم فقد قال سبحانه فى جزائهم:

﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾

الحرام: الممنوع من الله تعالى، أو من الطبع، أو نحو ذلك، والحرام هنا ما حرمه الله تعالى على نفسه، وهو تأكيد لرجوع الناس جميعا إليه سبحانه وتعالى، أى حرّم الله تعالى على نفسه ألا يرجع الذين هلكوا، والمعنى: أوجب الله تعالى على نفسه أنهم إليه راجعون، لأنه إذا كان عدم الرجوع فيكون الواجب الرجوع؛ ولذا فسر الكثيرون، حرام بمعنى وجب أن يرجعوا.

والقرية الجماعة المجتمعة فى مدائن عظيمة أو مدائن متقاربة، وقوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ إشارة إلى عقاب الدنيا الذى ينال الضالين، وهو الهلاك والدمار، كما أغرق قوم نوح، وأهلك قوم عاد، وكالريح الصرصر العاتية التى أهلكت ثمود.

وقد ذكر سبحانه وتعالى هلاك الآثمين فى الدنيا، وقال تعالى: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ أى أوجب الله على نفسه أن يرجعوا، كما أوجب سبحانه وتعالى الرحمة على نفسه للمتقين الأبرار.

قوله: ﴿أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ تقديم الجار والمجرور فى معنى الاختصاص، أى أنهم لا يرجعون إلا إليه وحده ليتولاهم بعذابه فى الآخرة كما تولاهم بالهلاك فى الدنيا جزاء ما قدمت أيديهم، فرجوعهم سبحانه وتعالى إليه وحده إنذار بعذابهم على ما اجترموا فى جنب الله العزيز الحكيم.

القيامة ومقدماتها

حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ
يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾
وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا
ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ
هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾
لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

هذا بيان مما أعد للكافرين يوم القيامة، وقد ذكر أنهم إلى الله وحده راجعون وسيحاسبهم على ما أجرموا فى حق الله سبحانه، وظلمهم لعباده، وفى هذه الآية يذكر الكافرين بيوم القيامة، وما يختبر به عباده من قوم أشرار يعيثون فى الأرض فسادا، وربما يهديهم الله سبحانه وتعالى، ويخف بالهداية شرهم، وهم يأجوج ومأجوج، وقد استغاث الناس بالإسكندر ذى القرنين، فقالوا له: ﴿ **إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا** ﴿٩٤﴾ ﴾ [**الكهف**].

وقد هيأ الله تعالى أن أتم ما وعد، وقد تكلمنا فى تفسير هذه فى سورة الكهف.

ويظهر أنه فتح لهم جانب من السد[1]، وقال تعالى:

﴿**حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ**﴾.

﴿**حَتَّىٰ**﴾ للتفريع من قوله تعالى: ﴿**أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ**﴾ وفى ذلك إشارة إلى أن يأجوج ومأجوج الذين عرفوا فى التاريخ بالمغول، أو التتار، وهما فى أصلهما واحد، ثم انشعبا من بعد ذلك وكانوا عنصرا واحدا.

وقد ظهر هؤلاء فى القرن السادس، وانسابوا فى الشرق، حتى وصلوا إلى وسط أوربا، وتلقت البلاد الإسلامية صدمتهم، وقد كانوا يسيرون فاتحين مسرعين فى فتحهم حتى إنهم ليقطعون فى حروبهم أبعد المسافات فتحا بمقدار سيرهم لا يقف أمامهم شيء، حتى إذا كان القرن السابع تولتهم الجيوش المصرية، فهزمتهم فى عين جالوت، ولأول مرة عرفت السيوف مواضعها من أقفيتهم، وقد انحدروا كالصخرة من أعلى الصين، وما زالت تسير لا تلوى على شيء إلا جعلته كالرميم، حتى وصلت إلى فيينا، وكانت الحبالى تجهض من سماع أخبارهم.

---

(١) عن زينبَ بنتِ جَحشٍ أنَّ النبيَّ ﷺ دَخل عليها فزعاً يقول: «لا إلهَ إلا الله، ويلٌ للعرَبِ من شرٍّ قد اقترَب: فُتِحَ اليومَ من رَدم يأجوجَ ومأجوج مثلُ هذا». وحلَّقَ بإصبعه وبالتي تليها. فقالت زينبُ: فقلتُ يا رسولَ الله أنهلكُ وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كثرَ الخَبَث». متفق عليه؛ من رواية الأمام البخاري(٧٩٠٦)، ومسلم- اقتراب الفتن (٧١٧٤).

وقد ذكر القرآن الكريم ذلك من أخبارهم فقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ أى فتح سدهم ولم يعد مانعهم، وعبر عن فتحته بـ ﴿فُتِحَتْ﴾ بالبناء للمجهول، أى فتح لهم لأمر يعلمه الله تعالى، وعبر بالبناء للمجهول، وأضيف (الفتح) إليهم للدلالة على هولهم، وكأنهم نيران أو حجارة فتحت على الناس، وكأنهم جهنم الدنيا ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ أى نشز[1] من الأرض ﴿يَنسِلُونَ﴾ يسرعون، مشتق من نسلان الذئب أى سرعته.

هذا أمر وقع، ورآه التاريخ، واستمر يشغل الأرض الإسلامية القرن الثامن الهجرى، وإن الإخبار به قبل يوم القيامة يدل على أمرين: أولهما أنه يكون على مقربة من القيامة، وأنهم هلاك للناس فى الدنيا، وثانيهما أنه معجزة من إعجاز القرآن؛ لأنه سبحانه أخبر عن أمر يقع فى المستقبل، فوقع كما أخبر سبحانه، فكان ذلك دليلا على أنه من علم الله تعالى علام الغيوب، وأنه من قوله الحكيم.

وذكر بعد ذلك سبحانه قرب يوم القيامة فقال عز من قائل:

﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

﴿الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾، هو الوعد بالبعث، وما وراءه من قيامة وحساب، وهو حق لأنه صادق وثابت لا يرتاب فيه إلا المبطلون، و«الواو» عاطفة على ﴿فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾، وهذا دليل على اقتران فتح ما سُدَّ على يأجوج ومأجوج بالوعد الحق،

---

(١) الحدب الأكمة، والنشز ما ارتفع من الأرض. وروى مسلم في صحيحه (٧٣٢٢)عن النواس بن سمعان حديثا ذكر فيه النبي صلى الله عليه وسلم من أمر الدجال، إلى أن قال: "... فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللّهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ. فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ. بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ. وَاضِعاً كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ. إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ. فَلاَ يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلاَّ مَاتَ. وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ. فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدَ. فَيَقْتُلُهُ. ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللّهُ مِنْهُ. فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللّهُ إِلَى عِيسَى: إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَاداً لِي، لاَ يَدَانِ لأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ. فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ. وَيَبْعَثُ اللّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ. (وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ").

وذلك لأن الدنيا تكون قد فسدت واضطربت فيها موازين، واستحكم الشر، فمنذ الغزوات المغولية، والعالم يموج بالشر، ويمرج بالفساد، فجاءت بعده الغزوات الصليبية الشرسة، ومن بعدها تكون شذاب العالم[1] في القارتين الأمريكيتين، وأعطيت الشمالية علم إبليس وعقله، وخلقه الشرير، واتخذت الذرائع التي يمكن بها إبادة العالم، ولا ضمير يمنع، ولا زاجر يردع، وهي من وقت لآخر تهدد بالفناء، حتى صار العالم قاب قوسين من أن ينزل به أشد الخراب بفعل الإنسان، ولعل قيام القيامة يكون بإرادة من الله، ويسخر لها عملا من أعمال الإنسان، وقد ابتدأ الخراب بفتح السدود أمام يأجوج ومأجوج، وختم بإخوانهم الأمريكان الذين لم يدعوا قائما من الأخلاق والفضيلة حتى قوضوه.

وقد صور حال الناس عند البعث وقيام القيامة، وقد اضطرب الوجود، ﴿**فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ «الفاء» واقعة في جواب شرط مقدر، أي إذا جاء الوعد الحق فإذا. . . ، فـ «الفاء» و«إذا» الفجائية جواب هذا الشرط المقدر وهي للحال، أي فإذا الحال شاخصة أبصار الذين كفروا، أي واقفة أعينهم لا تتحرك، فمعنى شخوص العين أنها تفتح فلا تطرف، وذلك يكون في حال الفزع والهلع، وهذا تصوير لحالهم من الفزع فقد شبهت حالهم بحال من تكون أبصارهم شاخصة هلعا وفزعا، والجامع بينهم الفزع.

وذكر الموصول ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ للإشارة إلى أن سبب فزعهم كفرهم، فهو فزع لا يعرف له نهاية لسوء ما قدموا، ولسان حالهم يقول: ﴿**يَا وَيْلَنَا**﴾ فهذا مقول لقول محذوف مفهوم من حالهم، فهم قائلون بلسان الحال: يا ويلنا، ينادون ويلهم، كأنهم ينادون الهلاك؛ لأن هذا وقته، فهم بهذا يتوقعون الهلاك وينادونه كأنهم يستعجلونه، إذ إن من يكون في حال فزع وهلع يرون أن تزول هذه الحال، ولو بنزول الهلاك العاجل؛ لأن حال الانتظار أشد على النفس وقعا وبقاءها مرير مع الهم الشديد.

---

(١) رجلٌ شَاذَبٌ إذا كان مُطَّرَحاً، مأيوساً من فَلاحِهِ كأنه عَرِيَ من الخير، شُبِّه بالشَّذَبِ، وهو ما يُلْقَى من النخلةِ من الكَرانِيفِ وغير ذلك.

﴿قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ أى ربنا كنا غافلين عن هذا البعث، وما كنا نحسب أنه سيكون، وإذا كان لا يكون بهذا الهول العظيم والكرب الشديد، ثم أقروا بظلمهم ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ لأنفسنا ولاعتدائنا على المؤمنين، وبكفرنا بالرسل، ومعاندتنا لهم، وقد أكدوا ظلمهم بالجملة الاسمية، وبوصفهم بالظلم وبالإضراب بقولهم: ﴿بَلْ﴾ أى أنهم يُضربون عن قول ويصفون أنفسهم بالظلم المؤكد المستمر، لأن ﴿كُنَّا﴾ للاستمرار فى ظلمهم فى الدنيا.

ثم يقول سبحانه فى عذاب جهنم:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾.

الضمير للمشركين ومن تبعهم وخدع بأقوالهم وصار مثلهم، ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ من أوثان وأحجار، وعقلاء رضوا أن يكونوا معبودين كالفراعنة وأشباههم ممن عدوا أنفسهم آلهة فى الأرض ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أى غير الله ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أى أنهم يلقون فى النار كما يلقى الحصب فيها ليزيد اشتعالها، فشبههم فى إلقائهم فى النار بالحصب إذ يرمى فيها ليزيدها اشتعالا ويهيجها.

وهنا يرد سؤال: إن النصارى عبدوا المسيح، ومن المشركين من عبدوا الملائكة، فهل يعاقب المسيح وعزير والملائكة بسبب عبادة المشركين لهم، ولا ذنب لهم وقد نهوهم؟ والجواب عن ذلك: إنه لا يدخل فى هؤلاء العقلاء من عباد الله الأبرار، إنما يدخل فقط الأوثان، وهنا يرد سؤال آخر: هذه الأوثان لا تعقل فكيف تعذب، وهى لا تحس عذابا ولا نعيما؟ والجواب عن ذلك أنهم كانوا يعتقدون أن آلهتهم من هذه الحجارة تنفعهم وتشفع لهم، فالله تعالى يبين أنها لا قوة لها، وأنها تلقى فى النار مثلهم، وإن كانت لا تحس، وإذا كانت لا تنقذ نفسها من النار فأولى ألا تنقذهم.

ثم أكد سبحانه دخولهم فى النار فختم الآية الكريمة بقوله: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ الضمير فى ﴿لَهَا﴾ يعود لآلهتهم، أى أنتم لأجلها واردون النار أى

داخلون فـيـهـا، أى أنتـم لأجل الأوثان واردون النار وهى بئس الورد المورود، والورود: الدخول.

وبين سبحانه أنهم مضللون فى عبادة هذه الأوثان، فقال:

﴿لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

هذا دليل شرطى مشتق من الوقائع يوم القيامة، أى لو كانت هذه الأحجار مستحقة للعبادة ما وردت النار وما دخلتها؛ لأنها تكون مسيطرة قوية لا سلطان لأحد عليها حتى يُدخلها النار، ولكنها دخلتها مع من عبدوها فلم تكن آلهة، ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ التنوين قائم مقام المضاف إليه، أى كل من العابد بالباطل والمعبود خالدين فيها، أى الأحجار التى عبدت والمشركون، كلهم خالدون فى النار، الأحجار إذ تحمى عليها النار فتكون حجارة ملتهبة، والمشركون إذ تزداد التهابا يصلون بنارها، والنار خالدة، وهم فيها خالدون، فهو عذاب مقيم دائم.

ثم وصف الله تعالى حالهم فيها فقال:

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ﴾.

الضمير يعود إلى المشركين، والزفير كما جاء فى مفردات الأصفهانى: تردد النفس حتى تنتفخ الضلوع منه، وهو يكون فى حال الضيق وحال السقام، أى أنهم فى حال ضيق وسقام كحال الذى يزفر حتى تنتفخ أضلاعه، وهذا كناية عن شدة الضيق والضجر، وهى حال دائمة، يتألمون، ولا يسرى عنهم شىء يسمعونه، ولا خبر يطمئنون به، بل هم فى ألم مستمر لا تسرية فيه ولا منجاة، ولقد قال تعالى: ﴿... وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ... ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء] أى أنهم يحسون ولكن ليس لهم من حواسهم منافذ تسرى عنهم من مناظر تسرى عنهم أو أحاديث يسمعونها تروّح لنفوسهم، أو يتكلمون بكلمات يشكون بها حالهم وألمهم، لا يرجعون قولا ولا يرددون فكرا.

حال المتقين يوم القيامة

إِنَّ ٱلَّذِينَ
سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾
لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ
خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ
ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ
﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا
بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى جزاء الأشرار وأنهم يجزون سيئات ما فعلوا، ذكر سبحانه جزاء الأبرار، فقال عز من قائل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾.

﴿الْحُسْنَى﴾ مؤنث أحسن، أى سبقت لهم فى علم وحكمة الخصلة التى هى فى أعلى درجات الحسن، وهى تقوى الله تعالى ومخافة عقابه ورجاء ثوابه، و﴿سَبَقَتْ﴾ أى سبقت فى علم الله تعالى وقدرها لهم، وسلكوا سبيلها، واهتدوا إلى طريقها، فأخذ الله تعالى بأيديهم، فهداهم إلى الطريق الأمثل؛ لأن من سلك طريق الخير وطلبه وفقه الله وهداه، ومن تنكَّب طريق الخير أضله الله وأرداه، والله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب.

﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ الإشارة إلى أهل التقوى موصوفين بهذه الصفة، وهى سبب نجاتهم من النار وبعدهم عنها، أى إن تقواهم أبعدتهم عن النار وجحيمها وشقائها والتهاب حصبها، حتى يكون جمرات موقدة، وقدم الجار والمجرور لمزيد تأكيد البعد عنها، وإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

﴿لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾.

الحسيس حركة النار وحسها، أى أنهم يبعدهم الله تعالى عن النار بحيث لا يسمعون صوت اندلاعها واصطلاء أهلها بها، ولكنهم يعلمون أين هم، وهذا تأكيد لما جاء فى آخر الآية السابقة ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ فهم مبعدون عنها بحيث لا يسمعونها، وإذا كانوا مبعدين عن النار، فهم ﴿فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ والذى تشتهيه نفوسهم نعيم مقيم، وجنات تجرى من تحتها الأنهار وغير ذلك مما ذكره الله تعالى فيما اشتملت عليه الجنة، وما تشتهيه أنفسهم اطمئنان وقرار، وبُعد عن اللغو، وحور عين، وأعظم ما تشتهيه أنفسهم رضوان الله تعالى، فهو أكبر من اللذائذ، بل هو لذة أهل الإيمان الأولى.

وفى التعبير بقوله: ﴿فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ﴾ إشارة إلى أنهم حرموا من شهوات الدنيا الآثمة فنالوها فى الآخرة حلالا طيبا.

وهنا ملاحظتان بيانيتان:

أولاهما ـ أنه عبر عن نيلهم ما يشتهون بجعل ما يشتهون ظرفا لوجودهم، فما يشتهون أحاط بهم إحاطة الظرف بمظروفه فهم يعيشون فى دائرة ما يشتهون، لا يخرجون عن دائرة إجابة رغائبهم، فلا يحرمون من شىء يرغبونه.

ثانيتهما ـ أن الله أكد تمكنهم من رغائبهم فيها، أكده بـ ﴿هُمْ﴾، وبتقديم ﴿فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ﴾ للاهتمام والعناية، والله سبحانه يجزى كل نفس ما كسبت وهو العليم الحكيم.

﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

الفزع الأكبر هو يوم ينفخ فى الصور فتكون أنظار الذين كفروا شاخصة من شدة الهول، إذ يصيبها الفزع، ويقولون: ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الأعراف]، ولذلك يصابون بالحزن الشديد لأنهم لم يتوقعوه ولم يؤمنوا به، بل أنكروه وكانوا عنه غافلين.

أما أهل الإيمان الذين سبقت لهم الحسنى من الله تعالى، فإنه لا يحزنهم هذا الفزع، بل هو فزع بالنسبة لغيرهم؛ لأنهم توقعوه قبل أن يقع، بل آمنوا بأنه سيقع لا محالة.

وقد يقول قائل: كيف يسمى الفزع الأكبر بالنسبة لهم وهم لم يفزعوا منه؟ والجواب عن ذلك، ذلك إنه فى ذاته أمر مفزع؛ إذ إن الوجود كله يضطرب، فالشمس تتكور، والسماء تنفطر، والجبال تصير هباء منبثا، وكل الدنيا تضطرب بما فيها، فهو فى ذاته فزع، فهو يروعهم بأحداثه ولكن لا يلقى فى قلوبهم حزنا لأنه يوم جزائهم.

وإنه من بعد هذا اليوم المروع فى ذاته، ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ﴾ أى أنهم مع اطمئنانهم، وبعدهم عن الحزن والغم تتلقاهم الملائكة تلقى الكرماء لضيفانهم وكأنهم ينزلون فى مضيف لا فى دار حساب وجزاء، وذلك يؤكد أمنهم وسلامهم، والتلقى بالتحية المباركة يزيل كل ما من شأنه حزنهم أو جزعهم، أو غرابة حياتهم الجديدة التى كانوا يتوقعونها ويؤمنون بها ﴿هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ قدر المفسرون القول، أى قول الملائكة، والمعنى تتلقاهم الملائكة قائلين لهم هذا يومكم. . ونحن نرى أن قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ﴾ هذا بيان للتلقى؛ لأنه تحية لهم، وتصديق لما اعتقدوا من قبل.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ بيان لوعد الله تعالى بالبعث والجزاء والجنة والنعيم والرضوان، وقد ذكر سبحانه ذلك بعبارة تفيد التكرار، واستمرار التذكير، فالتعبير بالمضارع ﴿تُوعَدُونَ﴾ فيه إشارة إلى الوعد المتكرر على ألسنة الرسل رسولا رسولا، وقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ﴾ تفيد استمرار هذا التذكير لمن كان يتذكر، وهم المؤمنون الأبرار.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

﴿يَوْمَ﴾ هذه متعلقة بـ ﴿الْفَزَعُ الأَكْبَرُ﴾، فهو ظرف مبين لنوع الفزع الأكبر، وما يكون فيه من أهوال هائلة إذ تطوى السماء كطى السجل للكتب، ويصح أن تنول إن ﴿يَوْمَ﴾ متعلق بقوله تعالى: ﴿تُوعَدُونَ﴾ وأميل إلى الأول؛ لأنه مناسب للفزع الأكبر، والطى معناه درج المكتوب، ويتضمن إخفاءه وطمسه أو التعمية أو محوه، والمعنى أن السماء بكواكبها ونجومها تطوى فتنكدر كواكبها وشموسها ونجومها، كما قال تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۝﴾ [التكوير]، وكما قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ۝ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ۝ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝﴾ [الانفطار]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ... ۝﴾ [الزمر] و﴿السِّجِلِّ﴾ هو الصك، وأصلها من السَّجْل، وهو الدلو ويقال: ساجل الرجلُ الرجلَ إذا نزع كل واحد دلوا فى نظير دلو الآخر، ثم استعير للمكاتبات، وقال تعالى بعد بيان زوال الأرض والسماء فى يوم الفزع الأكبر ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ أى أننا نطوى السماء ونزلزل الأرض لتغيير الكون، وذلك بالإنشاء أولا، ثم الإزالة، ثم الإعادة كشأننا فى بدئنا الخلق ثم إعادته، وهذه العبارة تحمل فى نفسها دليل صدقها، وذلك أن من كان قادرا على الابتداء للخلق قادر على إعادته، كما قال: ﴿... كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ ... ۝﴾ [الأعراف]. ﴿وَعْدًا عَلَيْنَا﴾ منصوب ﴿وَعْدًا﴾ على أنه مفعول مطلق لفعل محذوف، والمعنى وعدناه وعدا علينا، وأكده سبحانه بهذا المصدر، وبأنه سبحانه وتعالى ألزم به نفسه وأنه صار حقا عليه، والله عز وجل لا يخلف الميعاد، فلا يمكن أن يخلف وعده، وأكد الوعد مرة أخرى بأنه ينقله من الوعد إلى الفعل، فقال: ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أى فاعلون الإعادة حتما، لأنه سبحانه لم يخلق الإنسان عبثا، كما قال سبحانه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا

خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا ترجعون ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون] وقد أكد سبحانه الإعادة بـ (إنَّ) ونسبة الفعل إليه، وهو العزيز الحكيم، وأكده بالجملة الاسمية، وبالتعبير باسم الفاعل، وهو على كل شيء قدير.

العاقبة للمتقين

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ
يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا
لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ
﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ
فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ
عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾
إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ
﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَالَ
رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

الزبور هو كتاب داود عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿... وآتينا داود زبورا ﴿٥٥﴾﴾ [الإسراء] والذكر: قالوا: هو التوراة؛ لأنها ذكر للشرائع وبيان لها، نسخ منها ما نسخ بالقرآن، وما بقي استمر محكما وإن كان القرآن حجتها، ولا دليل على صادقها سواه، ولو كان موسى بن عمران حيا ما وسعه إلا اتباع محمد ﷺ، وذكر الزبور وقد قام داود بتنفيذ ما في التوراة للإشارة إلى أن كتب الله المنزلة

تواردت على هذا المعنى وتعاونت على آدابه، وهو ﴿أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ أى أن الأرض كلها بقاصيها ودانيها لله، وأنها ليست لملك طاغٍ، ولا لزعيم مفسد ولا لرئيس يقود الناس إلى مراتع الفساد ومواطن التهلكة، إنما هى لله ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ أى يعطيها مالك الملك لعباده الصالحين، وعبر بقوله ﴿يَرِثُهَا﴾ للإشارة إلى أن الصالحين يخلفون من كانوا عليها من فاسدين ظالمين عتاة، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ... ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف] وإن العاقبة تكون دائما للمتقين.

وهنا التفات من الغائب إلى العودة إلى ضمير المتكلم، وهو الله جل جلاله، فالكلام بلغة المتكلم فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا﴾ فانتقل إلى الغائب ثم عاد إلى المتكلم فى قوله: ﴿عِبَادِيَ﴾، وفى ذلك تأكيد أن هذا مكتوب فى كتبه سبحانه فى كتبه المنزلة، وإضافة العباد إليه سبحانه.

وإن ذلك وعد سجله سبحانه فى كتبه بأن مآل هذه الأرض لعباده الصالحين، برغم جنحات المفسدين وغلبتهم وسعيهم بالفساد فى الأرض.

وقد يعترض الذين يأسرهم الزمان الذى يعيشون فيه، ولا تنفذ بصائرهم إلى ما وراءه بأن المفسدين فى الأرض الذين اتخذوا من العلم بالكون، وسائل تخريب فى الأرض، وتمكين للظلم، وأن أهل الحق الصالحين مغلوب عليهم مستضعفون، ونقول: إن ذلك حكم حقبة من الزمان هى التى نعيش، ولكن الله تعالى أخبر أن المآل للصالحين، والله أعلم بالمفسدين، وإن خبره صادق والمستقبل غيب لا يعلمه إلا هو، ولنا أن نصدق الله ونكذب حكم الزمان فى القابل.

﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾.

اسم الإشارة يشير إلى هذا الخبر الكريم الذى أخبر به الحكيم العليم، وأن العاقبة للصالحين، والبلاغ يطلق بمعنى المنتهى والكفاية، ويطلق بمعنى التبليغ، وعلى

أن الإشارة إلى الخبر فى الآية السابقة، يكون معنى البلاغ هو التبليغ أى أن هذه تبليغ للعابدين الذين امتلأت قلوبهم بعبادة الله تعالى، وصارت العبادة وصفا ملازما لهم لا يفارقونه، وصارت قلوبهم خاضعة وألسنتهم ترطب دائما بذكره.

ويصح أن تكون الإشارة إلى ما ذكر فى السورة من قصص النبيين، ومواعظ وتوجيهات إلى الكون وأسراره، ويكون معنى «بلاغ» منتهى وكفاية يدركها العابدون، ويفهم لبها العاكفون على عبادته سبحانه.

وإنى أميل إلى التخريج الأول؛ لأن الإشارة بقوله تعالى: **﴿إِنَّ فِي هَذَا﴾** إشارة إلى القريب، ولو كانت إلى المذكور فى السورة كلها من قوله تعالى: **﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ ... ①﴾** [**الأنبياء**] إلى هذه الآية، فقال عز من قائل: **﴿إِنَّ فِي هَذَا﴾** ولكلام الله تعالى المثل الأعلى، وليس لنا أن نتطاول على مقام كتابه المعجز، الحكيم الخالد.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

أى أن رسالة محمد ﷺ مقصورة على أن تكون رحمة للعالمين، أى لكل العقلاء، ورحمته ﷺ فى أنه بعث على فترة من الرسل؛ لإنقاذ الناس من الأوهام التى أركسوا فيها، وصاروا بها فى عمياء ضاربة عليهم لا يدركون معها حقا من باطل، وأنهم كانوا يتسافكون الدماء، وقد أكلت العداوة كل معانى الخير فى فطرهم، واشتفت كل ينابيع المودة فى صدورهم، وكان ﷺ رحمة بشريعته التى دونت فى القرآن وبينتها السنة النبوية المطهرة، بلسانه وعمله وإقراره حتى ترك الناس على المحجة البيضاء التى ليلها كنهارها، ولقد قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ٥٧﴾** [**يونس**]، وقد جاءت هذه الشريعة مشتملة على مصالح العباد، فكل ما فيها مصلحة، واستغرقت كل المصالح بالعبارة، وبالإشارة، وبوضع أصول كل نفع إنسانى، والله رءوف بالعباد.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

الخطاب للنبى ﷺ، وهو فى كل موضع تبليغ يجعل سبحانه وتعالت كلماته الخطاب للنبى ﷺ ليبلغ رسالة ربه وأول تكليف بتبليغ الرسالة هو فى التوحيد، وهو أول ما صدع به ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾.

كان فى الكلام قصران: أولهما: أن التبليغ بالتوحيد كان بإيحاء من الله تعالى لا بأمر من محمد ﷺ، أى أن الله تعالى الذى تجأرون إليه فى الشدائد وتستغيثون به فى المهالك وعندما يحاط بكم - هو الذى يوحى إلىَّ بأن توحدوه، والقصر الثانى: لبيان وحدة الألوهية، وقد دعاهم إلى الإسلام ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ الاستفهام للتنبيه والحض على الإسلام، وقال علماء البلاغة إن هذا التعبير أقوى تعبير فى الدعوة إلى الإسلام، و«الفاء» لبيان ترتب الدعوة على الإسلام، على تقدير أن الدعوة إلى الله وحده بإيحاء من الله.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أى أعرضوا عن دعوة الحق ولم يجيبوا داعى الإسلام والإذعان وإخلاص وجوههم لله تعالى وحده، والفاء الأولى فاء الإفصاح عن شرط مقدر، ونسق القول: إن دعوتهم فإن تولوا . . . إلى آخره، والفاء الثانية فى قوله تعالى: ﴿فَقُلْ﴾ واقعة فى جواب الشرط لأن بعدها طلبا هو الأمر.

و﴿آذَنتُكُمْ﴾ أى أعلمتكم وبينت لكم الحق، وأنكم ستبعثون وتحاسبون على سواء، أى على تسوية بين الضال والمهدى، أى كلا محاسب ومبعوث لهذا الحساب.

﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ إن هنا نافية، والمعنى ما أدرى أقريب أم بعيد اليوم الذى وعدتم، وهو يوم البعث، وإن النبى ﷺ وهو الذى يوحى إليه القرآن الكريم وحديثه، لا يعلم متى تكون الساعة، وقد قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ

السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ... ﴿١٨٧﴾ ﴾ [الأعراف] فقد خفى علمها عن كل البشر ولو كان خير البشر، واختص الله وحده بعلم الساعة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ... ﴿٣٤﴾ ﴾ [لقمان].

وإن هذا فيه إنذار لمن أعرضوا، وكان من الترفق بهم فى القول، أن ذكر أنهم ومن هداهم الله على سواء فيما يتعلق بالإعلام بالبعث والحساب، وإن اختلف الجزاء.

ثم بين الله تعالى إحاطة علمه الكامل، فقال عز من قائل:

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾.

الضمير يعود على ذى الجلال والإكرام، و﴿الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ﴾ وهو ما كان يجهر به أهل مكة من قول، هو استهزاء، أو غيره، وذكر علمه سبحانه وتعالى به تهديد بالحساب لقولهم، وهو حساب من لا يخفى عليه شىء من الأقوال والأفعال، وذكرت الأقوال من جحود وعناد وإيذاء وسخرية وتهكم، ولم يذكر الأفعال من إيذاء للضعفاء وفتنة لهم فى دينهم بتعذيبهم، كما فعلوا مع عمار بن ياسر وأبيه، وكما فعلوا مع خباب بن الأرَتّ، ولم يذكر الأفعال، لأن الأفعال أجهر وأبين من الأقوال، لا إذا كان يعلم الأقوال، فأولى أن يعلم الأفعال، وهو بكل شىء عليم.

﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ من إحن ومنافسة على الشرف الكاذب كما كان من أبى جهل وأشباهه فيما ينفسون على بنى عبد مناف، وفيما ينفس بنو أمية على بنى هاشم.

ويعلم انحراف الاعتقاد، وعبادة الأوثان، وما يعشش فى رءوسهم من خرافات وأوهام، وما يحلون ويحرمون بغير ما أنزل الله السر وأخفى، والجهر وما يعلن، وذكر علمه سبحانه وتعالى بالعصيان إنذار لهم بالحساب ثم العقاب.

وقـد يسأل سـائل لماذا أمهلهم مع هـذا السوء الذى أحـاط بهم فى جهـرهم وكتمانهم، فقال الله على لسان نبيه.

﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

إن هنا نافيـة، والكلام على لسان الرسـول ﷺ، لأن الله يدرى، والمعنى ما أدرى لماذا أمهلكم الله تعالى تساءل النبى ﷺ.

سورة الحج

تمهيد:

سورة الحج مدنية إلا الآيات ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، وعدد آياتها ثمان وسبعون آية، وسميت الحج فى عرف القراء؛ لأن مناسك الحج كثيرة فيها.

وقد ابتدأت السورة بذكر يوم القيامة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (٣)﴾ وأشار سبحانه إلى أن من يتولاه الشيطان فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير، وذكر سبحانه من ينكرون البعث وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥)﴾. ويشير إلى أن ذلك التطور التكوينى يثبت أن الله هو الحق، وأنه يحيى الموتى، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من فى القبور، ويذكر الذين يجادلون فى الله بغير علم ولا هدى ولا سلطان مبين، ويتولون معرضين ويضلون عن سبيل الله، وأن عقابهم فى الآخرة عذاب الحريق، وفى الدنيا خزى.

وبعد أن ذكر سبحانه الأشرار الخالصين للشر، ذكر من يترددون، فيعبدون الله على حرف إن أصابهم خير اطمأنوا إليه، وإن أصابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم خسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين. وإن هؤلاء وأولاء

يدعون ما لا يضر ولا ينفع، ومن ضَرُّه أقرب من نفعه لبئس المولى، ولبئس العشير.

بعد ذلك ذكر سبحانه الذين يعملون الصالحات وجزاءهم، وأبطل سبحانه أوهام الذين يظنون أنه لا ينصرهم الله فقال: ﴿ **مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ** (١٥) ﴾، ثم أشار سبحانه إلى آيات الله البينات وأن الله يهدى من يريد، وأشار سبحانه إلى اليهود والنصارى والصابئين والمجوس والهندوس والذين أشركوا، وأن الله سيفصل بينهم يوم القيامة.

ولقد أشار سبحانه إلى حال الفريقين المهتدى والضال، ﴿ ... **فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ** (١٩) **يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ** (٢٠) **وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ** (٢١) **كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ** (٢٢) ﴾.

وبين بعد ذلك جزاء المؤمنين فقال: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ** (٢٣) **وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ** (٢٤) ﴾.

وذكر سبحانه بعض أعمال المشركين من الصد عن سبيل الله والمسجد الحرام ﴿ ... **الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** (٢٥) ﴾.

ويشير سبحانه إلى نبأ إبراهيم وتطهير البيت للطائفين والعاكفين، والرُّكَّع السجود، ثم دعوة إبراهيم إلى الحج: ﴿ **وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ** (٢٧) **لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ** (٢٨) ﴾، ثم يشير سبحانه إلى بعض مناسك الحج، ويدعو سبحانه إلى تعظيم حرمات الله تعالى،

ويبين أنه أحلت بهيمة الأنعام إلا ما جاء النص بتحريمه، ويدعو سبحانه إلى اجتناب قول الزور، والرجس من الأوثان، وأن يكونوا حنفاء لله غير مشركين به، ويبين سبحانه أن تعظيم شعائر الله من تقوى القلوب، ويبين أن منسك أهل الحق والإيمان الحج إلى بيت الله الحرام، ثم يذكر سبحانه أن الإبل والبقر وهى البُدْن من شعائر الله تعالى: ﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧) ﴾.

ثم بين سبحانه شرعية الجهاد بعد هذه الإشارات إلى الحج، وهو من الجهاد، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) ﴾، ثم صرح سبحانه وتعالى بالإذن بالقتال: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ﴾، وقد بين الله تعالى فضل المتقين فى إقامتهم الصلاة، وإيتائهم الزكاة وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

وأشار سبحانه إلى المشركين، وأنهم لم يعتبروا بهلاك من سبقوهم إلى الشرك، واضطهاد أهل الإيمان ومعاندة الرسل، فأشار سبحانه إلى قوم عاد وثمود، وقوم إبراهيم وقوم لوط، وأصحاب مدين، وكُذِّب موسى ثم قال: ﴿ ... فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) ﴾.

ثم أشار سبحانه إلى هلاك القرى التى أهلكها سبحانه وهى ظالمة ﴿ ... فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (٤٥) ﴾، ودعا الله المشركين إلى أن يسيروا فى الأرض، فتكون لهم قلوب يعقلون بها، أو آذان يسمعون بها، ﴿ ... فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) ﴾.

ثم ذكر سبحانه حال المشركين، فى استعجالهم العذاب، بدل أن يعملوا للثواب، وبين أنه يملى لهم ثم يأخذ الآثم بإثمه، ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨) ﴾.

وذكر بعد ذلك أن عمل الرسول ﷺ هو الإنذار، والناس بعد ذلك أشقياء أو سعداء ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١) ﴾.

ثم بين سبحانه أن الأنبياء بشر كسائر البشر، ولكن الله يعصمهم، فإذا وسوس الشيطان فى صدورهم نسخ ما يلقى الشيطان: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) ﴾ وما يلقيه الشيطان لا يكون فتنة للأنبياء، ولكن يكون فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفى شقاق بعيد. ثم أشار إلى أن القرآن من عند الله يعلم أهل العلم أنه الحق من ربهم، وأما الذين كفروا فإنهم فى مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة، أو يأتيهم عذاب يوم عقيم، وإن الملك لله يوم القيامة هو الذى يحكم، فالذين كفروا لهم عذاب مهين، ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠) ﴾.

ثم بين سبحانه آياته فى الليل والنهار، وهذا يدل على أن الله هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير.

بعد هذا بين سبحانه وتعالى نعمه فى أنه ينزل المطر فتصبح الأرض مخضرة، وأنه ﴿ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ

السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٦٥) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦) ﴾.

وإن مناسك الناس مختلفة، ولكل أمة جعلنا منسكا فلا ينازعنك فى الأمر، ويخاطب نبيه فيقول : ﴿ ...وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ (٦٧) ﴾.

ولا تجادلهم بعد أن تبين لهم الحق، والله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون، وإن الله تعالى لا يخفى عليه شيء، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠) ﴾.

ثم ذكر عبدة الأوثان وهم مشركو مكة، فقال: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٧١) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢) ﴾، وقد ضرب الله تعالى مثلا بالذباب فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) ﴾.

ثم بين سبحانه أن خلق الله تعالى بالنسبة له على سواء، ولكنه يصطفى من الملائكة رسلا يكونون لخلقه، واصطفى من الناس رسلا يكونون دعاة للحق، والإخبار عن الله تعالى بينهم، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، وإليه ترجع الأمور، ثم أشار سبحانه أن رسالة محمد ﷺ امتداد لرسالة إبراهيم، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨) ﴾.

معانى السورة الكريمة

هول يوم القيامة وجدل الناس حولها

قال الله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾

ذكر الله تعالى هول يوم البعث حيث تزلزل القلوب والأرض، فإذا زلزلت الأرض زلزالها اضطربت مع هذه الزلزلة القلوب والنفوس، وزاغت الأبصار واضطربت الأفئدة.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) ﴾.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾، النداء للناس أجمعين فى عصر النبوة؛ عرب وعجم، أبيض وأسود وأحمر، الحاضرون فى عصر النبى ﷺ، ومن جاء بعدهم، فالخطاب لهم بناء على أن ما ثبت للحاضرين يثبت على المقبلين بقانون المساواة الذى يثبت تساوى الناس فى التكليف، وإنه لا يرفع الخطاب إلا عن من ليس أهلا للخطاب، ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾، أى ادّرِعوا لباس التقوى، ولتمتلئ نفوسكم باتقاء عذاب الله تعالى، وخشيته سبحانه، فخشية الله درع المؤمن، ووقايته من النار،

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ الزلزلة الحركة الشديدة العنيفة وترديدها مرة بعد أخرى، وقيل: إنها تكرار لـ «زال»، أى أنها تتحرك بزوال ثم تعود، فتضطرب الأرض، كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة].

و﴿زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ﴾ من إضافة المصدر إلى ظرفه، أى الزلزلة التى تكون فى يوم الساعة، وهو يوم القيامة، وعبر عن ذلك اليوم بالساعة؛ لأنه يكون ساعة شديدة خطيرة، لها ما بعدها من هول أعظم، وحساب وعقاب، وقد عبر الله سبحانه عن هذه الزلزلة بقوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾، أى أنها شديدة شدة لا يُكتنه كنهها، ولا يعبر عنها إلا بأنها ﴿شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾، فالشىء اسم لكل شديد، أى أن الألفاظ تضيق عن معانيها، فلا يتسع لها لفظ إلا ما يكون لفظا عاما غير محدودة؛ لأن شدتها غير محدودة، ولا يحدها نطاق.

وقد صور الله تعالى هول هذه الزلزلة، فقال عز من قائل:

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾.

صور الله تعالى الفزع الذى ينال الناس عند رؤية هذه الزلزلة فقال: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾، تذهل أى تنسى وتغفل، والذهول شغل يورث حزنا ونسيانا، وقوله تعالى: ﴿عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾، «ما» إما أن تكون بمعنى «الذى»، ويكون المعنى تذهل ناسية طفلها الذى أرضعته، وغذته من لبنها الذى هو قطعة منها، وكأنها فى هذا الحزن الداهم تنسى نفسها أو قطعة من ذاتها، ويصح أن تكون «ما» مصدرية، والمعنى أنها تنسى إرضاعها فتنسى تغذيه من هو كشخصها، أو امتداد

لشخصها، ويزكى هذا التخريج التعبير بالماضى، وكلا التخريجين يفيد أنها فى حال هذا الفزع تنسى وتذهل عما لا يمكن أن يُنسى أو يذهل عنه.

وإنه من هول هذا الموقف، وتلك الزلزلة ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ من الرهبة والفزع، فالحبالى ينزل حملهن من الفزع قبل ميعاد وضعه، ووضعه على الرغم منها لفزعها، واضطرابها، وكأن هذه الزلزلة تزلزل الجسم، وتزلزل النفس، كما قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا ... (٢١٤) ﴾ [البقرة]، وقد صور الله تعالى حالهم بعامة رجالا ونساء، مراضع وغير مراضع، حبالى وغير حبالى، فقال: ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ ﴾، أى تراهم كالسكارى، ﴿ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ ﴾ فكأن هنا استعارة مؤداها أن الناس لفرط ذهولهم، ونسيانهم لأنفسهم شبهوا بالسكارى، فهم فى غفلة وذهاب رشد، وضياع وعى كالسكارى، وإن لم يكونوا فى حقيقة أمرهم سكارى تناولوا مسكرا، كما تقول لشجاع قوى هو أسد وليس بأسد، أى أنه فى شجاعة الأسد، كأنه هو هو، وإن كان رجلا عاقلا، ولعل ذلك يكون أبلغ فى وصفه بالشجاعة.

﴿ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ الاستدراك هنا لنفى السُّكر عنهم، وإن كانوا كالسكارى، وبهذا الاستدراك بين سبحانه شدة عذابه الواقع عند الزلزلة، والمتوقع بعدها، وأنهم يستقبلون هولا أشد وقعا، وأعظم إيلاما، فهو ليس إفزاعا عقليا ونفسيا فقط، بل هو مع ذلك إيلام حسى بالنار كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب.

وإنه مع هذه الزلزلة التى تزلزل العقول والنفوس، هنا ناس فى لهو عن توقع ذلك مع شدة النذير، وكثرة العبر:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (٣) ﴾.

إنه فى الوقت الذى ينذر رسول الله محمد ﷺ بأخبار يوم القيامة الذى تكون فيه السموات غير السموات وتزلزل النفوس والعقول بزلزلة الأرض يكون

ناس من المشركين يجادلون فى ذات الله تعالى ويقول سبحانه: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾، ومجادلتهم فى الله سبحانه وتعالى مجادلة فى ذات الله تعالى من حيث قدرته على البعث، ومن حيث إرساله الرسل مبشرين ومنذرين، ومن حيث إن له شركاء فى العبادة، فهو فى لهو مستمر عن الحقائق ولا يتلقون الحقائق التى جاء بها محمد ﷺ بالجدل فيها وحولها من غير إذعان وتسليم، بل بعناد ولجاجة، والجدل فى أمر من شأنه أن يذهب لب الحقيقة فى وسط شد الجدل وجذبه، ويروى أن الآية نزلت فى جدل بعض المشركين وهو النضر بن الحارث، وكان رجلا جَدِلا خَصِما يقول: الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين، ولا بعث بعد الموت، . . . وهكذا، وعلى أى حال فالآية الكريمة عامة، ونرى هذا الصنف من الناس فى كل عصر، يمضغون الحقائق بجدل عقيم يثيرونه حولها، واختص هذا الصنف من الناس اليهود الذين اتبعهم الأوربيون والأمريكان وحذوا حذوهم؛ لأن ملهمهم واحد وهو الشيطان، فتشابهوا وتشاكلوا، لوحدة المصدر.

ومن يجادلون فى ذات الله على النحو الذى أشرنا إليه، كالذى جاء خبره عن النضر بن الحارث لا يكون جدلهم قائما على علم علموه، أو رسالة بلغوها، ولكنه التقليد المجرد للمبطلين؛ ولذا قال تعالى: ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾ الشيطان هنا عام يشمل شيطان الإنس من القادة والأمراء والرؤساء الضالين المضلين، ويشمل شياطين الجن الذين يوسوسون بالشر، ويزينونه، وقوله تعالى: ﴿ كُلَّ شَيْطَانٍ ﴾، الكلية تدل على أنهم يتبعون المنحرف من الأفكار والأقوال، فيتبعون أحيانا شياطين الوجودية، وأحيانا شياطين الشيوعية ورئيسها اليهودى، وأحيانا شياطين التحلل من كل خلق كريم، و﴿ مَّرِيدٍ ﴾ معناه المتجرد من كل معنى كريم، والعارى عن الفضائل، جاء فى مفردات الأصفهانى ما نصه: «المارد والمريد من شياطين الجن والإنس المتعرى من الخيرات فى قولهم إذا تعرى عن الورق، ومنه قيل رملة مرد، إذا لم تنبت شيئا».

فـ «المريد» على هذا التفسير المتجرد من الخيرات، العارى عن كل فضيلة، ومن سيطر عليه شيطان مريد أفسد نفسه، وأرسله إلى جهنم؛ ولذا قال سبحانه عز من قائل:

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٤)﴾.

الضمير فى ﴿عَلَيْهِ﴾ يعود إلى الشخص الذى يجادل بغير علم؛ لأنه هو المتحدث عنه؛ ولأن الكتابة التى يقدرها الله تعالى تكون على المكلفين، فالأنسب عود الضمير إلى المجادل بغير علم، ويكون معنى ﴿تَوَلَّاهُ﴾ جعل الولاية له على نفسه، واتبعه فيما يوسوس به شيطان الإنس من دعوة إلى الباطل والفجور، وفيما يوسوس شيطان الجن من إغراء بالشهوات والأمنيات الباطلة، أى فمن يجعله له وليا، ويتبعه، ويحسبه نصيرا له، ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾، أى يوقعه فى الضلالة، ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾، أى يسلك معه الطريق إلى عذاب السعير، أى إلى جهنم وبئس المهاد.

ويجوز أن تجعل الضمير فى ﴿عَلَيْهِ﴾ يعود إلى الشيطان المريد، وكذلك الضمير فى ﴿تَوَلَّاهُ﴾ يعود إليه، ويكون أن من يتولاه الشيطان ويسيطر عليه ويجعله تابعا له يضله، ويوصله إلى عذاب السعير.

وفى الحالين التعبير بقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾، فيه تهكم، ومؤداه أن الرسل يهدون إلى الجنة، أما الذين يتبعون الشياطين، فإن إغراءهم يوصلهم إلى النار، وتلك هدايتهم إن صح أن تسمى هداية.

القدرة على الابتداء تدل على البعث

قال الله تعالى:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى
رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ

مِن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ
وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ
طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ
وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن
بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا
الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي
الْقُبُورِ ﴿٧﴾

النداء فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ لكل الناس عامة، وللمشركين واليهود خاصة، فإن من اليهود طائفة الصدوقيين لا يؤمنون بالبعث والنشور، ولا يفهمون من الحياة إلا الدنيا.

﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ﴾ تخفيف من الله تعالى لحالهم، فليست حالهم حال ريب وشك، بل حالهم حال إنكار، فذكر الله تعالى حال الإنكار، والدليل المبين فى جواب الشرط يثبت للمرتاب والمنكر، وإن التعبير بالريب كما قلنا تخفيف من حال المشركين وغيرهم من المنكرين، وهو أيضا فيه تصوير للنفس التى لم تفطر على اليقين، ولا على الإنكار؛ لأنه مغيب لا يُعلم، فقد يعترى النفس شك لأنه لا يعلم إلا بالنقل، فيكون الخطاب موافقا لكثير من الفِطَر، إذا كان الخطاب يذكر حال الريب دون القطع بالإنكار، وهو فوق ذلك يدعو المنكرين إلى أن تكون حالهم حال ريب وتردد لا حال قطع وإنكار، بل انتظار حتى يجىء

الدليل من النقل القاطع، وجواب الشرط هو: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ...﴾ وهو دليل مشتق من الماضى الواقع المستمر الدائم يوما بعد يوم، وساعة بعد ساعة؛ لأن الناس يخلقون كل يوم بل كل ساعة، يخلقون من نطفة، ثم علقة، ثم مضغة... إلى آخر ما ذكر سبحانه.

﴿خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ كان الخلق من تراب مرتين: أولاهما فى أصل الخلق والتكوين فخلق آدم أبا الخليقة من تراب، وقد ذكر سبحانه قصة ذلك الخلق وذلك التكوين، والمرة الثانية أن ذلك متجدد مستمر، فالأب والأم يأكلان مما تنبته الأرض من نبات، وثمرات مختلف ألوانها، ومن حيوان يرعى فيها، وما ينتجه طينها من نبات، فذلك من الأرض بتحويل عناصرها إلى نبات، وأشجار وتوليد الثمار من الأشجار، ثم تحول العناصر المختلفة إلى نطفة، وفى كل الأحوال يكوّن سبحانه شيئا من شىء فهل يعجز عن تحويل الرميم إلى حى.

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ وهى ماء الرجل يلتقى بخلية المرأة التى ينفثها رحمها فى حال الحيض، وسمى النطفة، لأنه ينطفه أى يقطر منه وقد سماه سبحانه ماء دافقا، كما فى قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩)﴾ [الطارق]، ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾، أى أن النطفة صارت علقة، وهى قطعة لحم طرية ثم تجمدت، وصارت مبتدأ لخلق آخر، وهو مضغة؛ ولذا قال عز من قائل: ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾، أى انتهت العلقة إلى مضغة، وصارت هذه ابتداء خلق آخر، ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾، أى مصورة مميزة الأجزاء بالخلق والتكوين، وليست قطعة لحم فقط، بل صارت ذات شكل مميز يشير إلى أجزاء بعد كمال تكوينها، ولا تكون مخلقة قبل هذا التخليق وبيان الأعضاء، ولعل المخلقة هى التى تكون عظاما غير مكسوة بلحم أو مكسوة.

ونحسب غير المخلقة هى التى تكون مضغة لم تتكون عظامها؛ ولذا لم تذكر هنا حال كونها صارت عظاما، كما ذكر سبحانه فى سورة «المؤمنون»، حيث قال

تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون]، هذه أدوار خلق الإنسان فى بطن أمه، وما كان لأحد علم بهذه الأدوار التكوينية، حتى جاء العلم من بعد ببيانها، وعلم الله الذى جاء فى القرآن الحكيم فوق كل علم؛ لأنه العالم الخبير المنشئ الخالق، كما قال تعالى: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك].

ولقد قال تعالى: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾، «اللام» لام التعليل إذا كانت متعلقة بـ«ذكرنا» محذوفة، أى ذكرنا ذلك ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾، أى نعلمكم بالخلق والتكوين، وتكون اللام النافية إذا كانت اللام متعلقة بقوله: ﴿خَلَقْنَاكُم﴾، أى خلقنا الإنسان ذلك الخلق ليكون المآل والعاقبة أن يتبين لكم، وأن تعلموا بهذا الخلق والتكوين أمرين:

الأمر الأول ـ عجائب صنع الله تعالى فى خلق الكون والإنسان، كما أشار إلى ذلك بقوله جل وعز: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ [الذاريات]، وإن الله وحده هو الذى يخلق الأشياء من عدم، ثم يتولى هو سبحانه وتعالى تحويلها من حال إلى حال، حتى استوى الإنسان خلقا سويا.

الأمر الثانى ـ أن الذى حول التراب إلى كائنات حية، وتوالدت بخَلْقِه الأحياء أليس بقادر على أن يحيى الموتى.

﴿وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ «الواو» كما يقول المفسرون واو الاستئناف، وإنى أرى أن الواو واو الحال، أى أنه والحال أننا نضع على سبيل القرار فى الأرحام ما نشاء، من نطفة وعلقة ومضغة مخلَّقة وغير مخلَّقة، فإنها فى الأرحام تتحول من نطفة إلى علقة، فمضغة مخلقة بالعظام وغير مخلقة، وتكسى العظام باللحم، وإن قوله تعالى: ﴿مَا نَشَاءُ﴾، أى الذى نشاؤه فى أدواره المختلفة، فهو

بوضعه بمشيئة الله تعالى وإرادته، لا بما يسمونه بالتفاعل من غير إرادة الفاعل المختار الوهاب، وإن وضعها إلى أجل مسمى هو مدة الحمل التى لا يقدرها إلا الله تعالى.

﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾، أى يخرج كل واحد منكم طفلا لا يقوى على الحياة وحده؛ لأنه يكون ضعيفا كما قال الله تعالى: ﴿... وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا (٢٨)﴾ [النساء]، وأطول مدة لحاجة المولود إلى أبويه من الحيوان هو الإنسان، وفيها يحتاج إلى الرضاعة والحضانة، حتى يستوى شابا يبلغ أشده، وتكمل قواه، هذا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾، ثم عاطفة لتبلغوا أشدكم على فعل محذوف، هو فى معنى جزء العلة، وتقديره مأخوذ من الكلام السابق، والمعنى يخرجكم طفلا لتتربوا وتكبروا شيئا فشيئا وتكلأون برعاية آبائكم وأمهاتكم، ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾، وكان العطف بـ«ثم»؛ لأن مدة الطفولة، تطول ولا تقصر، فالتراخى ثابت بالزمان، وبالبعد بين الطفولة والرجولة و«أَشُدّ» يقول البيضاوى إنها جمع شدة، كأَنْعُم جمع نِعمة، والشدة هنا القوة المستمكنة التى تعتمد على ذاتها ويكون لها كيان مستقل عن أبويه، ومنكم من يتوفاه الله تعالى فى قوته وشبابه أو كهولته حتف أنفه أو قتلا فى جهاد أو اعتداء: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ ولم يقل سبحانه وتعالى يبلغ أرذل العمر؛ لأن بلوغ أرذل العمر ليس بلوغ غاية تُتَغيَّا وصالحة فى ذاتها، وعبر بقوله: ﴿يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾؛ لأنه رجعة إلى الوراء، وعودة إلى الضعف فى جسمه فَيَهِن العظم، ويتقوَّس الظهر، ويضعف العقل، ويضل الفكر، وينسى بعد أن كان يعلم؛ ولذا قال: ﴿لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾، أى أن ما علمه ينساه، فما كان من علم يذهب، وما كان عنده من تدبير وقدرة على العمل، ووزن للأمور، وسماه تعالى: ﴿أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾، أى العمر المرذول الذى يكون عبئا على صاحبه.

وقد ذكر سبحانه بعد هذا الدليل الملزم المبين قدرة الله تعالى ذكر دليلا آخر، وهو فى المطر والنبات كما كان الأول فى الإنسان، وإذا كان فى الأول نعمة الإيجاد، ففى الثانى نعمة الإرث.

﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥ ﴾.

تصوير لتغيير الله تعالى الأحياء أو مواضعها من حال إلى حال والخطاب فى قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً﴾ لكل من هو أهل للخطاب؛ لأنه استدلال للجميع على قدرة الله تعالى فى الأشياء من حال إلى حال، وأنه يخرج الحى من الميت، ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً﴾، أى جف نباتها وذبل ما فيها ومات، وصارت كالأرض الميتة لا حياة فيها ولا نبات ولا ماء، والهمود واضح أنه يعترى النبات، ووصفت به الأرض؛ لأنه محل هموده، ومحل حياته، فهو من إطلاق اسم الشيء وإرادة محله.

﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ من السماء أو الأنهار أو العيون، وسمى إنزالا؛ لأن أكثر الماء الذى يكون غيثا من السماء وماء الأنهار من الغيث، وماء العيون من ماء الأنهار الدفين فى الأرض، فالأصل هو الإنزال، فيصح أن يطلق على ماء السماء، وماء الأنهار والمياه الجوفية العذبة.

والضمير فى ﴿عَلَيْهَا﴾ يعود إلى الأرض، و﴿اهْتَزَّتْ﴾، أى اهتز نباتها الأخضر، فيميل يمينا وشمالا بالرياح التى تميله، والاهتزاز للنبات لا للأرض، ولكن أطلقت الأرض وأريد نباتها لأنها محله؛ ولأن الاهتزاز يراه الرائى فى اهتزاز النبات، وهو منبسط بلون سندسى، فيرى كأن الأرض هى التى تهتز لا النبات، ﴿وَرَبَتْ﴾: أى نمت وعلت، والنمو والعلو للنبات، وهذا مجاز على النحو الذى ذكرناه، والعلو وصفت به الأرض؛ لأن الرائى يراه، كأن الأرض هى التى تعلو، وقال تعالى فى إنبات الأرض: ﴿وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾، أى حسن المظهر، يظهر فى الأرض كأن يد راسم رسمته وزخرفته، و﴿زَوْجٍ﴾ المراد به الألوان المتقابلة من أبيض وأزرق، وأحمر وأصفر، فتبارك الله الخلاق العليم.

هذا هو الدليل الثانى، وهو محسوس فى أنه أحيا الأرض بعد موتها، وأنبت فيها ما فيه قوت الأحياء، وفيها من المناظر، وقد حول الله تعالى بهذا الماء، نباتا فيه غذاء الإنسان والحيوان، أفلا يستطيع إعادة الحياة إلى الإنسان كما بدأ.

بعد ذلك أخذ الله سبحانه النتيجة من هذين الدليلين اللذين ينبهان العقول التى تدرك، وتلهمهم بالدليل المزيل لريبهم، إن كانوا يرتابون، ويفحمهم بالدليل القاطع إن كانوا ينكرون.

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) ﴾.

﴿ ذَلِكَ ﴾ الإشارة إلى تحويل كون الإنسان من تراب إلى نطفة، ثم إلى مضغة مخلقة وغير مخلقة، ثم قراره فى الرحم حتى يستكمل نموه فى الدور الأول فى بطن أمه، ثم يخرج طفلا فى الوجود، ثم يبلغ أشده، وإنزال الماء والنبات، كل ذلك بسبب أن الله هو الحق، فـ «الباء» للسببية ﴿ الْحَقُّ ﴾، أى الثابت فى ذاته المطلق فى الوجود كله، فهو الموجود واجب الوجود، وكل موجود يستمد وجوده منه، وهو يخلق سبحانه وتعالى الأشياء ابتداء ويخلق بعضها من بعضها، فلا غرابة أن يخلق من الرميم حيا، ولو كانت فى تكوين حجارة أو حديد، أو ما هو أقوى صلابة من هذين، ﴿ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾؛ لأنه خلقها ابتداء فإعادتها أسهل عليه، كما قال تعالى: ﴿ ... كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) ﴾ [الأعراف]، ثم ذكر سبحانه وتعالى قدرته عز وجل بـ «أنَّ» المؤكدة، وذكر لفظ الجلالة الذى يشتمل على الوصف كماله، والتنزيه من كل نقص، وأكده بتقديم الجار والمجرور ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ على ﴿ قَدِيرٌ ﴾؛ لأن ذلك يدل على عظيم اهتمامه بخلقه.

وقد قدر سبحانه ما هو قاطع، وهو لب الإيمان، فقال عز من قائل:

﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ (٧) ﴾.

الواو عاطفة على ﴿ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾، وهى تتضمن القصر، أى الله وحده هو الحق، ولا حق غيره سبحانه، فعطف على ذلك ﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ

فِيهَا﴾، أى أنه كما أن الله وحده له الوجود، وأنه المعبود وحده، فكذلك الساعة آتية لا ريب فيها فلا يلتفت إلى ريب الذين يرتابون فيها، وإذا كان من الناس من يرتابون، فالأدلة قائمة مثبتة موجبة مزيلة للريب كاشفة للحق، ثم قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾، ولو تبددت أشلاؤهم، وتقطعت أوصالهم، وتداخلت فى أجسام، فالله على كل شىء قدير.

الجاحدون ومرضى القلوب والمنافقون

قال الله تعالى:

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى
وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى
ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ
بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ
مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ
فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ
ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ
وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن
ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾

هذه السورة مدنية، وفى المدينة التقى النبى ﷺ باليهود، وغيرهم من أهل الكتاب، ولم يكن الجدل بين النبى ﷺ لذلك تشعبت المناقشة حول الله تعالى إلى شعب شتى فوق الجدل فى عبادة الأوثان والإشراك بالله سبحانه وتعالى، فكان الجدل حول ما أشاعه العرب من عبادة، وحول إرسال الرسل من غير بنى

إسرائيل، ومقام الشريعة التى جاء بها محمد ﷺ من الشرائع السابقة، وخصوصا شريعة التوراة بعد أن حرف الكلم عن مواضعه، وقد قال تعالى:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٨) ﴾.

المجادلة فى الله تعالى هى المجادلة فى ذاته وصفاته وقدرته وعلمه ووحدانيته، وكل مجادلة حول شركاء له مجادلة فى ذات الله، وقوله تعالى: ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾، أى بغير علم يثبت بالضرورة، منكرًا كل أمر تهدى إليه الفطرة، ومتجاهلا الحقائق الثابتة بأن يتجاهل أن الأوثان لا تضر ولا تنفع، ومنكر البدهيات، فمعنى ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ بجهالة، ﴿ وَلَا هُدًى ﴾، ولا دليل يهدى إلى الحق ويبينه، ويسدد المدارك إلى الحق، ﴿ وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾، أى ولا كتاب منقول غير الحق، ويوضح السبيل إليه، ومعنى ذلك أنهم حائرون بائرون، لا يأخذون بعلم ضرورى، ولا بعلم يأتى بالنظر والبرهان، ولا بمنقول من كتاب منزل منير، ويهدى إلى سواء السبيل.

والآية السابقة، ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (٣) ﴾ مع هذه الآية ليستا واردتين على مورد واحد، فالآية السابقة واردة على الذين يتبعون كل شيطان متمرد من شياطين الإنس ويقلدونه ويسيرون وراءه سير التابع وراء المتبوع، وهذه الآية التى نتكلم فى معانيها السامية واردة فى الذين يقولون مستقلين غير تابعين لمارد ولا ذى سلطان، ولكنهم لا يتبعون علما ضروريا، ولا علما نظريا، ولا علما منقولا عن معصوم ينسب كلامه إلى رب العالمين.

وهذا من شأنه أن يعرض عن الحق، ويضل غيره؛ ولذا قال سبحانه:

﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ﴾.

(العِطْف) هو الجانب، و﴿ ثَانِيَ ﴾ اسم فاعل من ثنى يثنى، أى لواه مستكبرا أو معرضا، أو هما معًا، أى مع أنه يجادل فى الله بغير أى نوع من العلم، بل

بجهالة جهلاء، مع ذلك يلوى عنقه مستكبرا معرضا، مفاخرا بما هو عليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾ [المنافقون]، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا ... ۝٧﴾ [لقمان].

وإنهم بهذا التفاخر بالباطل والكبرياء والاستعلاء يضلون غيرهم لضعفهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أى ليضل غيره عن طريق الحق، فاستعلاء الباطل يغرى باتباعه، وإذلال أهل الحق يغرى بتركه إلا من ربط الله تعالى على قلبه.

وقد ذكر الله تعالى عند مغالبة الحق والباطل، فقال عز من قائل: ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾، يجعل كلمة الحق هى العليا، وكلمة الباطل هى السفلى، كما كان الخزى فى بدر، والأحزاب، وغيرهما، وذلك لا يعفيهم من عذاب الآخرة ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ هو وضعه في جهنم المحرقة نارها، وعبر بـ﴿نُذِيقُهُ﴾؛ لأن الإلقاء فى الجحيم من غير أن يذوق حريق النار، ويلهب إحساسه بها ـ لا يدرك معه حقيقة العذاب؛ لأن العذاب فى ذات الإحساس بالنار.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٠﴾.

الإشارة فى ﴿ذَٰلِكَ﴾ للعذاب و«الباء» للسببية، أى بسبب ما قدمت يداك، والمراد بما قدمت أنت، وعبر عن الذات باليد، من قبل التعبير عن الكل باسم الجزء، وهو من المجاز المرسل، إذا كان لذلك مزيد اختصاص فيما يساق له القول كما يعبر عن الجاسوس بالعين، وهنا كذلك عبر عن الذات باليد التى يكون بها الاعتداء بالبطش وسفك الدماء أو الاغتصاب والإيذاء.

و﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب، أى يقال له ذلك الذى نزل بك متكافئ مع ما قدمت يداك فما كان الله ظالما، ولكن أنت الظالم؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، وأن معطوف على ﴿بِمَا

قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾، أى بسبب ما قدمت يداك، وبسبب أن الله ليس بظلام للعبيد، و﴿بِظَلَّامٍ﴾ صيغة المبالغة من الظلم، للإشارة إلى أن الله تعالى لا يعاقب إلا بذنب، وإنه لو عاقب من غير ذنب ـ معاذ الله ـ لكان ظلاما وهو ليس بظلام، إذ يؤاخذ كل نفس بما كسبت، وإنه قد يعفو عن ظالم لخير فَعَلَه؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات؛ ولأنه غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا، ولكن لا يمكن أن يكون ظالما.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾.

هذا صنف من الناس لا يدخل الإيمان قلبه إلى درجة الصبر على البلاء فى إيمانه، بل يكون إسلامه بظاهر، وهو كأولئك الأعراب، الذين قالوا: آمنا، وأمرهم الله تعالى أن يقولوا: أسلمنا، ولما يدخل الإيمان بعد فى قلوبهم، هؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾.

«الحرف» هنا هو الطرف، أى يعبد الله على طرف من الدين، كالذى يكون على طرف من الجيش يقر فيه إذا أحس بالنصر ليأخذ من الغنيمة، وإن أحسَّ بالهزيمة فر لكيلا يناله القتل وآثار الهزيمة، وقال سبحانه: ﴿يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾، أى على طرف الإيمان، فلا يعبده عبادة من امتلأ قلبه بالإيمان، وذاق بشاشته، وأحس باطمئنان نفس، واستقامة اعتقاد، وهذا تصوير لضعفاء الإيمان الذين اضطرب اعتقادهم، فكأنهم يكونون على حرف مع الإيمان وهو أقرب إلى الكفر، فطرف الشىء هو الأقرب إلى ما يجافيه، وقد قالوا: إنها نزلت فى بعض الأعراب الذين قدموا المدينة وكان بعضهم إذا صح بدنه، ونتج إبله وولدت امرأته وكسب مالا وماشية، قال ما أصبت من هذا الدين إلا خيرا واطمأن، وإن أصابه شر قال ما أصبت وانقلب، وروى عن ابن عباس أنه قال: كان ناس من الأعراب يأتون النبى ﷺ فيسلمون، فإذا رجعوا إلى بلادهم فإن وجدوا عام غيث، وعام ولاد حسن قالوا: إن ديننا هذا لصالح فتمسكوا به، وإن وجدوه عام جدوبة وعام ولاد سوء وعام قحط قالوا: ما فى ديننا هذا خير، ويصدق على هؤلاء قوله

تعالى: ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ...(٩٧)﴾ [التوبة]، وهؤلاء وأشباههم من ضعاف الإيمان هم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾، أى أصابهم أمر يسرهم، وهو خير اطمأنوا وسكنوا، ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾، أى شديدة فيها ابتلاء لإيمانه واختبار لنفسه وتعرف لقوة إيمانه، انقلب على وجهه، أى ارتد بعد إسلام، وكفر بما أعلن الإيمان، وإن كان على طرف، وعبر سبحانه عن ردته بقوله: ﴿انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ وهذا التعبير فيه تشبيه حال المرتد عن دينه بحال من انقلب فوق وجهه فصار رأسه فى أسفله، ورجلاه فى أعلاه أى تصويره بصورة شوهاء، شاه منظرها، وقبحت حقيقتها.

وإن من يكون كذلك خسر الدنيا بما أصابه من فتنة لم يعتبر بها فى دينه، وكانت شرا عليه فى دنياه، إذا لم يستفد بها فى دينه، وخسر الآخرة؛ لأنه يموت كافرا، وذلك الأمر الذى آل إليه هو الخسران المبين الواضح.

وقد وصف الله تعالى من تكون هذه حاله بأنه كعبدة الأوثان على سواء.

﴿يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (١٢)﴾.

أى أن هذا الذى انقلب على وجهه وتشاءم بالإسلام يعود مرتدا إلى من لا يضر وما لا ينفع، فإذا كان لم يعجبه دين الله تعالى وتشاءم إذا أصابته فتنة يختبر بها إيمانه وتسليمه الأمور إلى الله تعالى خالق كل شيء الذى ينفع ويضر، فقد رجا ما لا يضر وما لا ينفع، لقد ترك دعاء الله تعالى وحاد إلى دعاء ما لا يضر وما لا ينفع، و﴿دُونِ اللَّهِ﴾ معناها غير الله، ﴿مَا لا يَضُرُّهُ﴾، أى الذى لا يضر، أى ليس سبب فيه التشاؤم الذى بغض إليكم دين الحق لأنكم فتنتم فيه ليختبر مقدار تسليمكم لله، وقد زعمتم أنه لا يضر إيمانكم به، فهو أيضا لا ينفعكم؛ ولذا كرر اسم الموصول، أى يدعون ما لا يضر، وهو أيضا ما لا ينفع، فالإسلام دين الله الذى يضر وينفع أما غيره فدين ما لا يضر وما لا ينفع.

وإنكم إذ خرجتم من دينكم، فقد خرجتم من الهدى إلى الضلال؛ ولذا قال عز من قائل: ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ﴾، أى ذلك الذى كان منكم، وهو أنكم تريدون الأقدار على ما تحبون، وتسير على ما تشتهون هو الضلال البعيد، أى الذى تبتدئون السير فيه حاسبين أنه هداية، وكلما أوغلتم بعدتم عنها بعدا طويلا، وبذلك تمعنون فى الضلال والتيه إمعانا.

﴿يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾.

فى الآية السابقة ذكر سبحانه أنهم يدعون ما لا يضرهم، وما لا ينفعهم، وقلنا: إنه كان لا يضرهم فهو لا ينفعهم، وأن الموصوف واحد، ولكن خطر على عقلى بعد كتابة ما تقدم أنهما واردان على موصوفين أولهما لا يضر، وثانيهما لا ينفع كما يدل تكرار الموصول، وهذا ضلال، ويناسب ما ذكر من بعد أنه الضلال البعيد الموغل فى طريق الضلال، والمعنيان بين يدى القارئ يتخير أحدهما، والقرآن حمَّال معان كلها بيِّن لا إيهام فيه قط.

وفى هذه الآية التى نتكلم فى معناها، نجدها تشير إلى أن الذى يدعوه من العقلاء، بدليل التعبير بـ (مَنْ) فى قوله: ﴿لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾، وتكون الدعوة بمعنى الالتجاء والاستغاثة، أو الموالاة والنصرة، والاعتماد عليه، و(اللام) فى قوله تعالى: ﴿لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾، تفيد التوكيد، سواء أكانت للتعليق أو للابتداء، فتلك تخريجات نحوية لا تمنع ما تدل عليه من توكيد المعانى و«مَنْ» كما أشرنا تفيد أن من يدعونه من العقلاء، وليس معبوداً من الأوثان والجمادات، وأن الدعوة للنصرة والموالاة، والمعاونة على الباطل، وكان ضره أكبر من نفعه؛ لأن الاعتماد عليه فيه ضرر عقلى ونفسى؛ لأنه يعتمد على غير الله، والاعتماد على غير الله تعالى رقٌّ لهذا المخلوق يحد من الحرية، ويمنع الانطلاق إلى العمل الصالح؛ ولأنه ضعيف مثله، لا ينتصر له، ولأنه يجره إلى الشر، فيكون التعاون بينهما قائما على الإثم والعدوان، ولأن الاعتماد عليه اعتماد على شفيرٍ هارٍ ينهار به فى نار جهنم.

﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ «اللام» واقعة فى جواب قسم محذوف، فهى تؤكد الحكم، وتثبته، و«بئس» من الأفعال الجامدة التى تدل على الذم، وهى فى مقابل «نِعْم» التى تدل على المدح، و﴿الْمَوْلَىٰ﴾ النصير الموالى الذى يعتمد عليه من يدعوه، ويندبه للنائبات، ويرجو موالاته فى الملمات، و﴿الْعَشِيرُ﴾ الصاحب الذى يعاشره، فيجره إلى الضلال، والصاحب الذى يوادّه، ويتعاون معه على غير الخير، بدليل ذمه، إذ لا يذم من يتعاون على الخير، والله وحده هو المستعان فى الشدائد المغيث فى الضراء، المحمود فى السراء.

وخلاصة القول فى معنى هذه الآية الكريمة: أن موضوعها ليس دعوة الأوثان والأحجار، إنما موضوعها الاستنصار بالأشخاص، والاعتماد على أهل الباطل فى الولاء، والذين يعاشرونهم .

جزاء المتقين والفصل بين الناس

قال الله تعالى:

إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ
تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ
يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى
ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾
وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ
﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ
وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ
يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾

أشار سبحانه وتعالى إلى أصناف الناس فى ضلالهم، فمنهم من يجادل فى الله مقلدا شيطانا مريدا من شياطين الإنس، ومنهم من يجادل فى الله غير متبع لغيره، ولكنه يتبع الهوى فلا يفكر بعلم ضرورى أو نظرى، أو نقل من كتاب منير، ومنهم من يعبد الله على طرف يرجو خير الدنيا فقط، وينقلب على وجهه إذا أصابه ما يُختبر به ليتبين مقدار إيمانه بقضاء الله وقدره، وإنه سبحانه هو المتصرِّف كما يريد هو لا كما يريد ذوو الأهواء ومنهم من يدعو ما لا يضر وما لا ينفع، ومنهم من يستنصرون بالموالى والعشراء، ويحسبون فيهم القوة والنصرة، وكل أولئك فى النار.

بعد ذلك بين سبحانه جزاء أهل الإيمان الصادق، فقال:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤) ﴾.

هذا جزاء المؤمنين الأبرار الذين آمنوا فطهروا قلوبهم وعقولهم من رجس الوثنية، وأزالوا ضلال الناس فى أنفسهم، وفى الاعتماد على غير الله تعالى، **﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾**، أى عملوا كل ما فيه خير للناس، وخير لأنفسهم، وسلامة اعتقادهم وطاعتهم فى عبادتهم، وإن الله تعالى يسكنهم جنات فيها نعيم دائم مقيم، يلتقى فيها نعيم الجسم بسرور النفس، فالإقامة دائمة فى ريحان الجنة، والأنهار تجرى من تحت الأشجار فيكون متعة النظر، وراحة البصر، وإن هذه إرادة الله تعالى، وقد أكد سبحانه هذه الإرادة، بقوله تعالى: **﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾** أكد سبحانه وتعالى أنه سبحانه فاعل مختار لا تصدر عنه الأشياء صدور العِلَّة عن معلولها، ولا السبب عن سببه، كما ضل الفلاسفة وغيرهم ممن اتبعهم، وقد أكد سبحانه القول بتأكيدات ثلاثة، أولها: «إنَّ»، وثانيها: لفظ الجلالة الذى يتضمن الوصف بكل كمال، وثالثها: التعبير بالمضارع الذى يدل على أنه سبحانه فعل ما أراد، ويفعل دائما ما يريد.

وإنه سبحانه وتعالى الفعَّال لما يريد، إن أراد أمرا قال له كن فيكون، ولا يريد شرا أبدا، وإن نزل بأحد ما يسوؤه فلن يستطيع أحد أن يغيره، وإن نال أحد نفعه فلن يمنعه أحد، وإن أراد نصرة من غيره فلن تكون إلا بإرادة الله؛ ولذا قال عز من قائل:

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥)﴾.

هذه الآية لبطلان وهم من يتوهم أن الله تعالى لن ينصره إذا طلب النصرة العادلة منه، واعتمد على غيره، وذلك رد على من يوالى العباد من الموالى والعشراء فى النصرة، فالله وحده هو نعم المولى ونعم النصير، وبئس من يطلب نصرا من غيره وإنه ناصر نبيه فى الدنيا والآخرة.

والضمير فى **﴿يَنصُرَهُ﴾** فى قوله تعالى: **﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ﴾** يعود إلى النبى ﷺ، وإن كان لم يجر ذكره فى الآيات قبله، أو فى الآية السابقة، فإنه حاضر فى نفس القارئ للقرآن، وفى قلب كل مؤمن فهو حاضر دائما، وإن محمداً بعد الهجرة قد قامت حروب بينه وبين المشركين، وبينه وبين اليهود، والله ناصره دائما، ولم يهزم فى موقعة، وإذا كان قد أصيب بجراح وقتل من قتل فى أُحُد فهو لم يهزم ولم يندحر فيها، وكان ذلك يغيظ الكافرين وخصوصا اليهود الذين كانوا يجاورونه فى المدينة، ويذهب بهم فى طغيانهم إلى أن يتمنوا ألا ينصره الله تعالى، كما يتمنى الحاسد الحقود، وقد بين سبحانه فى هذه الآية أن من المستحيل ألا ينصره الله وليموتوا بغيظهم؛ ولذا قال: **﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾** من كان يظن مستمرا فى ظنه الذى لا يصدُق، والاستمرار فى هذا الظن هو من التعبير بـ **﴿كَانَ﴾**، و«أنْ» مخففة من الثقيلة، واسمها الحال والشأن، أى من يظن أن الحال والشأن أن لن ينصر الله محمدا، وذلك مستحيل، فليمدد بسبب إلى السماء، والسبب: الحبل الذى يصعد به على النخل، والسماء. روى عن ابن عباس أنه قال: إنه سقف البيت، أى

ليمدد الحبل إلى سقف البيت، فإذا وصل وهو متصل به، مربوط فى عنقه، ثم ليقطع ذلك الحبل، فيختنق اختناقا، قيد هذا الاختناق بذلك الحبل، ﴿ **فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ** ﴾، والاستفهام بمعنى النفى؛ ولذا كانت نون التوكيد فى الفعل، وهى تجىء فى الفعل المنفى، تأكيدًا للنفى، وهذا تأكيد فوق تأكيد النفى بمجيئه بصيغة الاستفهام.

وهذا تخريج صادق كل الصدق، وهو فى مضمونه كقوله تعالى: ﴿ ... **قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ** ... (١١٩) ﴾ [آل عمران]، وإنا نوافق على التخريج ما دام منتجا معنى سليما مستقيما يتفق مع جلال القرآن، ومع سياق القصص فى السيرة، ولكن نخالف فقط تفسير السماء بالسقف، فذلك ليس فى القرآن، إنما تفسر السماء بما هو فوقك، من السماء ذات البروج، ومعنى «ليمدد»، أى ليمتد بالحبل إلى السماء، ثم ليقطعه فإنه يسقط مختنقا مجندلا، و«الكيد» التدبير، وإن الله تعالى ناصر عبده محمدا فى الدنيا والآخرة، ولتذهب نفس أعدائه حسرات، وكما أن الله تعالى ناصر نبيه فى الدنيا والآخرة. ناصر نبيه: مثبت صدق رسالته بالقرآن المبين، ولذا قال تعالى:

﴿ **وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ** (١٦) ﴾.

الإشارة إلى إنزال الآيات البينات الواضحات الهادية الدالة على صدق الرسول، والمشابهة بين ما قدر الله تعالى إنزاله وما أنزله فعلا، أى أنزلناه فى الواقع كما قدرناه فى علمنا، وهذا تأكيد لإرادة الله تعالى فى أن تكون معجزة النبى ﷺ من نوع الوحى بآيات بينات، وقوله تعالى: ﴿ **وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ** ﴾، أى كذلك الإنزال أن الله تعالى يهدى إليه من يريد له الهداية ويسلكها، وإنى أرى أن المشابهة ليست بين الإنزال المقدر فى علمه الأزلى، والمنزول الواقعى، وإنما أرى أن المشابهة بين نصر الله لنبيه فى الدنيا والآخرة وإقامة الحجة لرسالته فى الدنيا، حتى يبلغ الأجل، ويكون المعنى كما ننصره فى الدنيا والآخرة أيدناه بالمعجزة الباهرة القاطعة التى تتحدى الأجيال كلها أن يأتوا بمثله، وأنزلنا آيات بينات

واضحات، وأن الله يـهدى بهديه من يشاء، فـيهدى الناس ابتداء بهـا، ويزيد بها الذين اهتدوا، وذلك كـما يريد، ومن يريد، وسلك طريـق الحق، واتجه إليه غـير ملتفت لسواه.

وبين بعد ذلك سبحـانه أن الناس جميعا مجزيون بـعملهم يستوى فى ذلك المؤمن والمشرك واليهودى، والنصرانى والصابئ، فقال عز من قائل:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧) ﴾.

الناس جميعا يوم القيامة تميـزهم أعمالهم، وهى التى ينالون بها الجزاء عقابا أو ثوابا، والفـاصل بينهم هو أحكم الحـاكمـين رب العالمين وأعمـالهم هى التى تقدمهم.

وقد ذكر سبـحانه أصنافا ستة، وهم: المؤمنون، واليهـود، والصابئون (وهم عبـدة الكواكب الذين ادعوا دخـولهم فى النصرانية عندمـا أرادهم المأمون الخليـفة العبـاسى علـى أن يدخلوا فى دين كـتـابى، وهم أخـفـى الناس لاعـتـقـاد)، ﴿ وَالنَّصَارَىٰ ﴾ على اختـلاف طوائفهم مـا بين كاثوليك وأرثوذكس، وإنجـيليين، ﴿ وَالْمَجُوسَ ﴾، وهـم عبدة النار، ﴿ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾، أى الذين أشركوا مع الله تعالى غـيره فى العـبادة، وبهذا يدخـل فيهم الذين قـالوا: إن الملائكة بنات الله، ويدخل البراهمة؛ لأنهم قالوا: إن كرشنة ابن الله، وهم يصورون آلهتهم بتماثيل، كما يدخل البوذية؛ لأنهم قالوا إن بوذا ابن الله، ويدخل الكونفوشيوسية الآخذون بتعاليم كونغ فوتس الذى حُرِّف بكونفـشيوس، وهكذا فهم يدخلون فى المشركين؛ لأن الإشراك غـير مقصـور على العرب الأقدمـين، بل هو فيهم وفى غـيرهم مع ملاحظة أن كونغ فوتس بوذى الديانة ولكن له مذهبا خلقيا أخذ به أهل الصين.

وإن ذكر هؤلاء جميعا فى موضوع واحد متعاطفين يدل على أمرين:

الأمر الأول ـ أنه لا عبرة فى إجابة النبيين إلى اختلاف الملل والنحل، بل الجميع أمام الرسالات الإلهية على سواء، فمن أسرف وظلم كان حسابه عسيرا، ومن آمن واهتدى كان من الله قريبا، وإن الله سيفصل بينهم.

الأمر الثانى ـ أن الله وحده هو الذى يبين يوم القيامة: الحق فيثيب أهله، والباطل فيعذب الذين ترددوا فيه؛ ولذا قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ الفصل بين الأشياء والأشخاص إبانة كلٍّ بخيره وشره، والفصل بين الأقوال تبين صادقها من كاذبها، وحقها من باطلها، وكذلك الفصل بين النحل وأصحابها، أى بيان الحق فيها والباطل منها، وجزاء أهل الباطل، وثواب أهل الحق، وإن ذلك الفصل هو الحق؛ لأن الفاصل هو الله تعالى، وهو خير الفاصلين؛ ولأنه العالم بكل شىء وبهم جميعا، ولذا قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾، أى عالم علم من شاهد وعاين، فهو حكم مؤيد بأسبابه، وشاهده الأكبر، وقوله تعالى: ﴿**عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ فيه التعدية بـ«على» إشارة إلى معنى الرقابة عليهم، والإحاطة بهم، وهو بكل شىء محيط؛ لأن كل شىء خاضع له سبحانه.

خضوع الوجود لإرادته سبحانه

قال الله تعالى:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ
يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ
وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ
إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩ ﴿١٨﴾

هذا بيان من الله تعالى لخضوع الناس جميعا والكون كله لإرادته سبحانه، والاستفهام هنا لإنكار الوقوع بمعنى النفى، وهو داخل على حرف النفى «لم» ونفى النفى إثبات مؤكد، كأنه كان استفهام ثم نفى، والمعنى لقد رأيت أيها القارئ للقرآن الكريم أن الله يسجد له من فى السموات والأرض، أى يخضع خضوعا مطلقا كل من فى السموات والأرض طوعا أو كرها، كما قال تعالى فى سورة الرعد: ﴿ ويُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ويُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣) ﴾، إلى أن قال عز من قائل: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (١٥) ﴾ والسجود طوعا هو بإرادة العبادة من العقلاء المختارين، والسجود كرها، أى بحكم الخضوع المطلق لإرادة المنشئ للكون الواحد القهار.

و﴿مَن﴾ فى قوله: ﴿مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ﴾ ظاهر الكلام أن ذلك من العقلاء كالملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، والعقلاء من الجن والإنس المختارين المريدين، والباقى ممن ذكر من الشمس والقمر والنجوم والجبال والدواب، هؤلاء ينطبق عليهم السجود كرها، فالوجود كله خاضع لله سبحانه، وإن من شىء إلا يسبح بحمده فهم خاضعون له خضوع الشىء لمن أوجده، فالجبال تخر له وتصير هباء منبثا، وتتحرك بإرادته وأمره، ثم ذكر سبحانه الظالمين والمهتدين من عباده بالتفرقة بين الضال والمهتدى فقال سبحانه: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾، أى كثير اهتدوا وآمنوا فهم فى ذاتهم ليسوا عددا قليلا، وإن كان الفريق الثانى أكثر عددا، وإن لم يكونوا مهتدين؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾، أى أنه ليس بالمهتدى، بل كان من عبدة الأوثان أو من أهل التثليث، أو من أعداء البشرية اليهود، أو من عبدة النيران، أو من عبدة الكواكب وعبدة الملائكة الذين قالوا عنهم إنهم بنات الله تعالى.

وذكر سبحانه وتعالى هؤلاء الضالين بجزائهم، وهو قوله: ﴿حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ للإشارة إلى أنه ملازمهم، به يعرفون، وبه يعيَّنون وقوله تعالى: ﴿حَقَّ

عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾، أى ثبت لهم ولازمهم وكان عذابهم بحق لأنهم ظلموا أنفسهم والناس، وضلوا ضلالا بعيدا بعد أن جاءهم المرسلون، وقد كذبوا، وآذوا المؤمنين، وعاندوا الحق، وجحدوا به واستيقنته أنفسهم.

وإن الله قسم الناس، مهتد مكرم، ومهين قد لازمته الإهانة، ولا يمكن أن يكرمه أحد أبدا؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ وإهانة الله تعالى لمن يكتب له فى لوحه المحفوظ وقدره المحتوم، إنما تكون لمن سلك سبيل الغواية، وسد مسامع الهداية، فيأخذه سبحانه إلى مواطن الهوان، فبفعله هان، وبإعراضه عن الحق مريدا مختارا عُذِّب، وحق عليه العذاب فما لأحد أن يكرمه، ولا يمكن أن يُمكَّن من ذلك، ولا قدرة له عليه.

وقد أكد سبحانه إرادته الخالدة فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾، أى ما يريده ويشاؤه ويحبه، وليس لأحد من خلقه عنده إرادة ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء]، وأعمالهم فى سلطان إرادة الله سبحانه وتعالى فلا تخرج حركة عن حركة إلا بإذنه، وهو السميع العليم، وقد أكد سبحانه أن له وحده المشيئة المطلقة، والإرادة المختارة بـ ﴿إِنَّ﴾ المؤكدة، وبذكر لفظ الجلالة الذى يدل على الإرادة المطلقة، والاتصال بكل كمال، والله على كل شىء قدير.

الخصمان أمام الله يوم القيامة

قال الله تعالى:

هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟
فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ
مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ
وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟

أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ
(٢٢) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ
أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣)
وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ
(٢٤) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ۚ
وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥)

﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) ﴾.

الخصمان هما الذين آمنوا بمحمد ﷺ، والذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، وهما خصمان؛ لأنهما فى جانبين متقابلين؛ ولأن المؤمنين يؤمنون بكل ما جاء عن الله، وغيرهم يجادلون فى الله؛ لأن الخصومة فى الحق قائمة بينهم وهى من جانب الذين اتبعوا محمداً ﷺ هداية وإرشادا، ومجادلة بالتى هى أحسن، ومن جانب المخالفين لهم عناد وإغواء ودس وخيانة، ومجادلة بالباطل، وادعاء له.

وواضح أن الخصومة كانت فى الدنيا، وفى الآخرة كان الجزاء الوفاق، وكل ينال ما يستحق، **﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾**، أى تقدر لهم على قدر أجسامهم، وتقطع وتخاط، بحيث تحيط النار بأجسامهم ماسة أبدانهم كما يمس الثوب جسم اللابس له، ويحتك بلحمه،

وتكون النار مشتعلة فى الثياب والأجسام معا، و﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾، وهو الماء الساخن الذى يصل إلى درجة الغليان، فالنار تحرقهم فى أجسامهم ورؤوسهم، وتصل إلى داخل أبدانهم، ولذا قال تعالى:

﴿ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) ﴾.

الصهر إذابة الحديد، فقوله تعالى: ﴿ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ ﴾ من أحشاء من معدة وأمعاء وقلب وكبد وغيرها، يذاب هذا كله، وأى عذاب يكون فى هذه الحال، ﴿ وَالْجُلُودُ ﴾ أيضا تذاب من شدة الحرارة، ولا شك أن ذلك كله تصوير للعذاب الذى ينزل بهم، وإنه لواقع، والله هو الذى ينجى المؤمنين بفضل رحمته، وبمنٍّ منه، وهو الرءوف الرحيم.

وقد وصف سبحانه بقية من عذابهم، فقال:

﴿ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢) ﴾.

المقامع جمع مِقْمَع، وهو ما يذلل به، ويدفع، وكأن خزنة جهنم من الملائكة الأطهار، واقفون كلما هموا أن يخرجوا من النار ردوهم إليها بهذه المقامع التى تزودهم وتدفعهم، وتردهم إليها؛ ولذا قال تعالى: ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا ﴾ فارين من جهنم ونيرانها وغمها وآلامها ردوا بالمقامع إليها وأعيدوا فيها، وقالوا لهم: ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾، أى عذاب النار التى تحرق أجسامكم فى ظاهرها كما شوت أحشاؤكم فى باطنها، كما أذقتم المؤمنين العذاب فى الدنيا، وقوله: ﴿ مِنْ غَمٍّ ﴾، أى بسبب غم العذاب وغم البؤس، وشعورهم بأنه أبدىّ خالد، هذا جزاء الكافرين المعد لهم الذى يرتقبهم، وهو جزاء الخصم الأول، أما الخصم الثانى وهو المؤمن فجزاؤه روح وريحان وجنة النعيم؛ ولذا قال عز من قائل:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) ﴾.

بعد أن بين سبحانه حال الخصم الأول، ويشمل الكافرين بشتى أنواعهم الذين يجادلون المؤمنين، بين سبحانه حال الخصم الآخر وهم المؤمنون، وإذا كان الفريق الأول قطعت لهم ثياب من نار، وصب من فوق رؤوسهم الحميم وصهرت أحشاؤهم إذا كان هذا الفريق كذلك، فالفريق المؤمن يُدخله الله تعالى بسبب إيمانه، ولقد عبر بالموصول، ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ ويجتمع فيها النعيم الحسى، والنفسى، فيكون المنظر البهيج بالأنهار تجرى من تحت الجنات، وغرف أهل الجنة، وقد أضاف سبحانه وتعالى الإدخال إليه كأنهم فى ضيافته مكرمون، لا يلقون فى الجحيم مدحورين معذبين.

وإذا كانت ثياب المجرمين قطعت من نار لبسوها؛ فثياب المؤمنين من ذهب ولآلئ وحرير؛ ولذا قال تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾.

يصح أن تكون من تبعيضه، أى يحلون بعض أساور من ذهب، وأساور جمع لسوار، إذ هى جمع أسورة، وأسورة جمع سوار، ويصح أن تكون ﴿مِنْ﴾ ابتدائية، أى يحلون، وحليتهم من أساور فتكون بيانية، أى هى من أساور، ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ عطف على محل ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾؛ لأن محلها النصب، أو نقول مفعول لفعل محذوف تقديره وترصع لؤلؤا، ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾، أى لا يلبسون إلا حريرًا، وهذا أقصى أحوال النعيم الحسى، وقد يقال: كيف يذكر ذلك على أنه من نعيم أهل الجنة، وقد وردت الآثار بأن الذهب والحرير حرام على رجال الأمة، فكيف يذكران على أنهما من نعيم أهل الجنة(١).

والجواب عن ذلك: إن الجنة ليست دار تكليف، إنما هى دار ثواب؛ ولذا كان فيها أنهار من خمر لذة للشاربين، ﴿لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنزِفُونَ (١٩)﴾

---

(١) عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «حُرِّمَ لِبَاسُ الْحَرِيرِ وَالذَّهَبِ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِي وَأُحِلَّ لإِنَاثِهِمْ». رواه الترمذى: اللباس- ما جاء فى الحرير والذهب. وقال حسن صحيح. وعن حُذَيْفَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ وَالْحَرِيرُ وَالدِّيبَاجُ: هِيَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَكُمْ فِي الآخِرَةِ». رواه البخارى: اللباس- لبس الحرير وافتراشه للرجال (٥٣٨٣)، ومسلم: اللباس والزينة (٣٨٤٩).

[الواقعة]، وفوق ذلك أن الجنة فيها نعيم الرجال والنساء، ولا شك أن الأساور واللآلئ والحرير من نعيم النساء، والله سبحانه وتعالى هو المكافئ العلى القدير.

وإنه بجوار هذا النعيم الحسى من كل الجوانب فى الجنة النعيم المعنوى؛ ولذا قال تعالى:

﴿ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤) ﴾.

هذا وصف لأهل الجنة من أقوالهم وأفعالهم فى الدنيا، أم هو وصف لأقوالهم فى الجنة، وقبل أن نتكلم فى مكان القول نشير إلى بعض ما يدل عليه: القول الطيب هو القول الحق، الذى يتقرب به إلى الله تعالى، والذى يقرر القائل له كمال الله تعالى ووحدة ألوهيته والطاعة لله تعالى، وتكبيره، وتقديسه، وتسبيحه، والخضوع المطلق له، وحمده فى كل وقت، و﴿ صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾، هى طريق الله تعالى بإعلان عبادته وحده لا يشرك به شيئا، و﴿ الْحَمِيدِ ﴾، أى المحمود فى كل ما يوصف به، والإضافة إما أن تكون بيانية، كقولهم خاتم حديد، أى خاتم هو حديد، ويكون المعنى صراط هو الحميد المحمود فى كل مسالكه من مبتدئه إلى منتهاه، فهو طريق كل خير، ينتقل فيه من مرحلة خير إلى غيرها، فهو مراحل الاستقامة تبتدئ من أولها إلى نهايتها، ويصح أن يكون المراد من ﴿ الْحَمِيدِ ﴾ ذات الله تعالى لأنه المختص بالحمد، ويكون المعنى، وهدوا إلى طريق الله تعالى البالغة الموصلة له مثل قوله: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ... (١٥٣) ﴾ [الأنعام]، وهدوا بالبناء للمجهول فى الفعلين، ولم يذكر الفاعل مع أن الهداية كلها من الله تعالى، فحذف للعلم به؛ ولأن الهداية تتعدد مسالكها، فهى تبتدئ بعمل من المهدى بأن يتجه إلى الحق مخلصا النية، فيأخذ الله بيده ويبلغ به إلى أقصى ما يبلغ به من مراتبه.

بقى أن نتكلم فى زمانها ومكانها، أكانت فى الدنيا، وهى التى أوصلتهم إلى هذا الجزاء الوفاق فى الآخرة، ويكون ذكرها فى الجنة تحقيقا لها، وتأكيدا لها

وبيان أن ذلك هو السبب فى النعيم الذى آتاهم الله بفضله ومنته، فبعملهم فى الدنيا وأقوالهم الطيبة بالتوحيد والعبادة، وسلوكهم الطريق الأقوم نالوا ما نالوا فى الآخرة.

وثمة اتجاه آخر، وهو أن هدايتهم إلى القول الطيب، والصراط الحميد هو فى الآخرة ويكون من النعيم النفسى، إذ إن أهل الجنة يسمرون ويتبادلون القول الطيب، والسلوك الحميد فى الآخرة، فيضاف إلى إنعام الله إنعامٌ بالسامرة التى ليس فيها فسوق فى القول، بل مبادلة محبة ومحبة، وعندى أنه يجمع بين القولين، فتكون الهداية إلى القول الطيب والطريق المحمود فى الدنيا والآخرة، والله أعلم.

بعد أن بين الله تعالى جزاء المؤمنين عاد سبحانه إلى ذكر جزاء الكافرين وأعمالهم التى استحقوا بها هذا الجزاء فقال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥)﴾.

ابتدأ سبحانه وتعالى القول بذكر الكافرين مؤكدا كفرهم بـ«إنَّ» الدالة على التأكيد، وقد ذكر الموصول لبيان أن الصلة هى سبب هذا الجزاء، والصلة فيها أمور ثلاثة تستدعى الاستنكار والعذاب الشديد:

الأمر الأول ـ الكفر، وكفر أهل مكة هو الإشراك بالله تعالى بعبادة الأوثان.

الأمر الثانى ـ الصد عن سبيل الله تعالى بإيذاء المؤمنين ومحاربتهم، ودعوة العرب إلى عدم الإيمان بالله وبرسوله.

الأمر الثالث ـ بصدهم عن المسجد الحرام، ومنعهم من أداء المؤمنين الحج فيه، ويظهر أن هذه الآية نزلت فى فترة الحديبية؛ لأن المسلمين حيل بينهم وبين الوصول إلى المسجد الحرام، وهو للناس جميعا؛ ولذا وصفه الله تعالى بالموصول

بقوله: ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾، أى أن هؤلاء الناس المصدون عن المسجد الحرام من يريد الحج إليه وقد جعله الله ـ الذى باركه وأكرمهم به ـ للناس جميعا، وليس لقريش وحدها، فهم فيه كغيرهم من الناس، وإن كان الله تعالى كرمهم بأن جعل منهم سدنة البيت والقائمين عليه وعلى خدمته وعمارته، وكلمة ﴿سَوَاءً﴾ قرئت مفتوحة وتكون مفعولا لجعلناه وهى المفعول الثانى، والأول الهاء، وتكون ﴿لِلنَّاسِ﴾ متعلقة بـ ﴿سَوَاءً﴾، وقرئت مضمومة، وتكون مبتدأ، ويكون المعنى مستوفية العاكف والباد، وتكون الجملة فى مقام المفعول الثانى أو حال[(١)].

و﴿الْعَاكِفُ﴾ المقيم فى مكة، وعبر عنه بالعاكف إيماء إلى أنه ينبغى أن يكون عاكفا عابدا، لا أن يكون وثنيا مشركا، صادًّا عنه مانعًا له، والبادى: المقيم فى البادية، وإذا كان المقيم ببادية يستوى مع المقيم فى مكة حول البيت الحرَام فأولى المتحضر المقيم فى الحاضرة؛ ولذا قالوا: إن البادى هو من يكون من غير أهل مكة سواء الحاضر فيها والبادى، والتعبير بالمضارع فى يصدون إشارة إلى استمرارهم على الصد عن سبيل الله.

وخبر «إن» محذوف، دل عليه ما يجىء بعد ذلك من قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ تقديره له عذاب شديد، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أى إن الذى يريد فيه إلحادا وميلا عن الحق واحترام البيت وصيانته بظلم يرتكبه بالشرك والاعتداء على حرماته، وصد الناس، ومنعهم من الطواف يذيقه الله تعالى من عذاب أليم ينزل به فى الدنيا بالحروب التى تهزمهم، وفى الآخرة بالنار يذوقون حريقها.

وفى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ﴾ أمور بيانية نشير إليها:

---

(١) كلمة (سواء) منصوبة: قراءة حفص، وجبلة عن المفضل عن عاصم، وقرأ الباقون بالنصب. غاية الاختصار: ٢/ ٥٧٨.

الأمر الأول ـ فى قوله ﴿فِيهِ﴾ الضمير يعود إلى المسجد الحرام، أى يريد خروجا عن مبادئ الحق والإيمان متلبسا بإلحاد، و﴿مَن﴾ شرطية، وجواب الشرط ﴿نُذِقْهُ﴾ إلى آخره، و«الباء» للملابسة أو الملاصقة أو تقوية التعدية، والإلحاد الميل عن الحق والانحراف إلى الباطل، يقال ألحد إلى كذا: مال إليه، ويقول الأصفهانى فى مفرداته: الإلحاد ضربان: إلحاد إلى الشرك بالله وإلحاد إلى الشرك بالأسباب، فالأول ينافى الإيمان ويبطله، والثانى يوهن عُراه ولا يبطله، ومن هذا النحو قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

ونرى أن الإلحاد هنا من النوع الذى يبطل الإيمان، فهو ميل وانحراف إلى عبادة غير الله تعالى، وقد فعل ذلك المشركون فى المسجد الحرام، فقد كانت الأوثان مادة ذلك الإلحاد فى البيت وموضوعة على الكعبة نفسها.

الأمر الثانى ـ أن قوله تعالى: ﴿بِظُلْمٍ﴾، بيان لنوع الإلحاد، وهو الظلم، والشرك أفظع الظلم وأشده، ولقد قال تعالى: ﴿... إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان] وإن اللفظ المطلق إذا لم يقيد انصرف إلى أكمل أفراده، فهو هنا انصرف إلى الشرك وكان من المشركين مع الشرك الذى هو أشد الظلم ظلمات أخرى فكان فيهم ظلم الضعفاء وإيذاؤهم، وكان فيهم ظلم الاعتداء المتكرر منهم على المؤمنين، وكان فيهم ظلم الاستهزاء بالنبى ﷺ، وكان فيهم ظلم الغدر والخيانة ونكث العهود، وكانوا لا يرقبون فى المؤمنين إلاً ولا ذمة.

الأمر الثالث ـ فى قوله تعالى: ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، ﴿مِنْ﴾ هنا بيانية أو ابتدائية، أى نذقه عذابا أليما، أو نذقه ذوقا مرا مأخوذا من عذاب أليم، والله سبحانه وتعالى أعلم.

آيات فى الحج

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩)﴾

الحج شريعة إبراهيم بانى البيت عليه السلام؛ لأنه بانى الكعبة؛ ولأنه أول من أمره الله سبحانه وتعالى بالدعوة إليه؛ ولأن مناسكه كلها هى مناسك إبراهيم عليه السلام؛ لأن ما فيه من هدْى يومئ إلى فدية الله تعالى الذى فدى بها إسماعيل عليه السلام عندما هم بذبحه، برؤيا إبراهيم عليه السلام، وذكر هنا فى هذا المقام إشارة إلى أنه ليس حق الطواف فيه مقصورا على قريش وحدها.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦)﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ متعلق بفعل محذوف تقديره اذكر يا محمد لهؤلاء الذين يصدون عن البيت، ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ﴾، بوأ بمعنى

هيَّأ وسـوى، وهيأ المكان سـواه وأعده، و«اللام» فى قـوله تعالى: ﴿لِإِبْرَاهِيمَ﴾، «لام» الاختصـاص، أى بوأنا المكان وسويناه لإبراهيم يتخذه مكانـا للبيت الحرام، ويكون مثابة لـلناس وأمنا، كما أشارت لذلك الآيات الأخـرى الكثيرة، وإن هذه التبـوئة والمكان كان مكان عبادة، فـهو إشارة إلى الكعـبة التى هى أول بيت وضع للناس؛ ولذلك كانت التبوئة من سياق تاريخ إبراهيم وأعماله عليه السلام متضمنة معنى العبادة، وقد فسر الله تعالى العبادة التى أمر الله بها نبيه وخليله إبراهيم بقوله تعالى: ﴿أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (أن) هنا تفسيرية، وهى بيـان لما تضمنه معنى التبوئة والتخصـيص، وجعله مثابة للناس وأمنا.

فسر الله تعالى العبادة التى طالب الله سبحانه وتعالى خليله بها هى:

أولا ـ ﴿لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾، أى شيئا من الشـرك، أى اجعل عبادتك لى خالصـة، فلا تشرك فى عبـادتك صنما، ولا كوكبـا، ولا شمسا ولا قـمرا، ولا ترائى بأى نوع من الرياء فى أى عبادة من العبادات.

وثانيا ـ تطهيـر البيت من كل ما فـيه قاذورات حسـا أو معنى، ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، والقائمون هم القائمون للصـلاة، فكأنه قد ذكر فيها الأمر بالصلاة، بالأمر بأركان من قـيام وركوع وسجود، و﴿الرُّكَّعِ﴾ جمع راكع، و﴿السُّجُودِ﴾ جمع ساجـد وقوله تعالى: ﴿أَن لاَّ تُشْرِكْ﴾ وما عطف عليهـا فيها الطلب بالنهى فى ﴿لاَّ تُشْـرِكْ﴾، وبالطلب فى ﴿وَطَهِّـرْ بَيْـتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَـائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، وأضاف سـبحـانه وتعالى إلى ذاته البـيت فى قوله تـعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾ إلى آخره، تشريـفا لهذا البيت زاده الله تشريفـا وتكريما، ولبيـان أن البيت بيت الله تعالى للناس أجمـعين، فلا يسوغ لأحـد أن يصد عنه؛ لأنه يصد عن أكـرم بيوت الله تعالـى، فكأن الصد عنه تحدٍّ لله تعالى، ولقـد أمر سبحانه بعد الأمر بما أمر، وبما نهى عنه ـ أمر بأن يؤذن للحج، فقال تعالى:

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) ﴾.

﴿ وَأَذِّن ﴾ أمر من الله تعالى لإبراهيم بانى الكعبة، ﴿ وَأَذِّن ﴾ ـ من «أذن» بمعنى أجاز ـ وأعلم كآذن، والتأذين: الإعلام والدعوة، والمؤذن هو الداعى إلى الله تعالى، وخصص ـ عرفا ـ بالدعوة إلى الصلاة.

﴿ فِي النَّاسِ ﴾ إخبار للناس كلهم عربا وعجما، وهى دعوة عامة إلى حج البيت الحرام، وعدى الفعل بـ«فى»، ولم يقل «الناس»، بل قال تعالى: ﴿ فِي النَّاسِ ﴾ للإشارة إلى عموم الإعلام فى الناس؛ لأنه إذا لم يذكر (فى)، فقد يفهم أنه يكلم أهل عصره، أو من يمكنه خطابهم فقط، وذكر (فى) يدل على أن الإعلام فى أوساط الناس كلهم، لا فرق بين القريب الدانى والبعيد القاصى، فالجميع يجب أن يبادروا إلى الحج إلى بيت الله؛ لأنه أول بيت وضع للعبادة للناس؛ ولأن التأذين بالحج يتضمن إعلام الناس، أو معناه إعلام الناس تعدى بالباء.

والحج معناه القصد، وخص بالقصد إلى بيت الله الحرام، وخصص عرفا شرعيا، أو اصطلاحا دينيا بالقصد إلى الكعبة طائفا، وإلى الصفا والمروة ساعيا، وإلى عرفة واقفا فى ميقاته، وهو من زوال اليوم التاسع، والبيات بمنى، والوقوف بالمشعر الحرام، وهو المزدلفة، والعود إلى منى ورمى الجمار بها بعد النحر فى أيام ثلاث بعد يوم النحر، وهى أيام التشريق ويكون الهدى، وسيشار إلى كثير من ذلك فى الآيات التى نتكلم فى معانيها من بعد.

﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً ﴾، أى إذا ناديت وأعلمتهم بفريضة الحج يأتوك راجلين سائرين على أقدامهم، و﴿ رِجَالاً ﴾ جمع راجل كصاحب وصحاب، وتاجر وتجار، والراجل هو الماشى على رجله، فى مقابل الراكب، وهنا أمران بيانيان:

الأمر الأول ـ فى قوله: ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً ﴾، والدعوة ليست المجيء إلى إبراهيم، إنما المجيء إلى البيت وما حوله، ولكن ذكر المجيء إلى إبراهيم لأنه المؤذِّن، ولأنه البانى للبيت.

والأمر الثانى ـ أن ﴿ يَأْتُوكَ ﴾، جواب الأمر، وهو يدل على قوة الإجابة، إذ يجمع الناس على الحق والهداية والتعاون وهو بيان لما ينبغى ويجب، ولا يمنع ذلك أن يكون فى الناس عصاة لا يهتدون ولا يجيبون داعى الله تعالى.

﴿ وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾، الضامر: البعير المهزول الذى ضمر من شدة التعب، وأجهده السفر، وهذه الحال تكون عند وصوله مكة وما حولها، ويكون هذا الوصف دليلا على أن الذين جاءوا إلى البيت، وقد صرحت الآية بذلك فى وصف الابتداء الذى ابتدأت به للاتجاه إلى بيت الله تعالى، فقال تعالى: ﴿ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ الفج يطلق على الطريق بين جبلين ويطلق على الطريق الواسع، والعميق معناه البعيد، وأطلق على البعيد بعدا رأسيا كالآبار ونحوها، ثم أطلق على البعيد مطلقا، و﴿ يَأْتِينَ ﴾ يعود الضمير إلى الإبل تكريما لها فى حمل الحجيج إلى بيت الله الحرام.

وإن هذه الدعوة التى قام بها إبراهيم خليل الله ومنشئ أول بيت وضع للناس فى مكة وسط العالم والتى يصلى حولها العباد المسلمون وقد أخذت الآيات الكريمة تشير إلى مناسك الحج من غير بيان تفصيلى.

﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ﴾.

«اللام» هنا لام العاقبة، أى لتكون عاقبة ذلك السفر الطويل أن يشهدوا منافع لهم، ويذكروا الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، والشهود هو الحضور، أى يحضروا منافع لهم، ويعاينوها، ولكن ما هى هذه المنافع التى تسبق ذكر الله بالعبادة والذبح، قال ابن عباس رضى الله عنه: منافع الدنيا والآخرة، أما منافع

الدنيا فما يصيبون من منافع البُدن والذبائح والتجارات، وأما منافع الآخرة، فرضوان الله تعالى، وكذا قال مجاهد راوى التفسير عن ابن عباس، ونقول: إنه سبحانه وتعالى ذكر المنافع بلفظ نكرة، والتعبير بالنكرة يدل على أنها منافع عظيمة، لا يقدر قدرها ولا تدرك نهايتها للناس، ونرى أن هذه المنافع مادية ومعنوية وعبادية، وهى سنام المنفعة، أما المنافع المادية فتجارات تتبادل بين الأقاليم الإسلامية، فأهل كل إقليم يجلبون معهم من مواردهم ما لا يكون عند غيرهم، فما عند الهنود من خيرات يفيضون به على غيرهم من المسلمين، وما عند المصريين من خيرات يفيضون به على غيرهم ممن ليس عندهم مثلها أو هو قليل، وتعقد فى مواسم الحج الصفقات الاقتصادية وذلك ليس بممنوع، بل هو مطلوب، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ... (١٩٨)﴾ [البقرة]، وإن ذلك يجيز بل يوجب أن يعقد فى موسم الحج الاتفاقات التجارية، ويتخذ من موسم الحج موعدا للدراسات الاقتصادية بين المسلمين، ولقد كانت فى مكة الأسواق التجارية مثل عكاظ وذى المجاز، وغيرهما.

أما المنافع المعنوية، فدراسة التعاون الإسلامى من كل النواحى الاجتماعية والحربية والتعاونية والتعليمية ويعمل كل إقليم على التعرف ببقية الأقاليم الإسلامية والتعريف بحاجاته من العلم والحرب، وغيرهما وكذلك يشعر كل إقليم بأنه يعيش فى مدن الأقاليم الإسلامية، ولا يشعر بنفرة الانفراد.

أما المنافع الدينية، فهى قضاء النسك الإسلامى فى أماكن النسك، وإن المنافع السابقة لا تخلو من أنها دينية، وأنها تكون عبادة إذا قصد بها وجه الله ورفعة الإسلام، وإيجاد الوحدة الإسلامية وتوثيقها، فالمسلمون جميعا أمة واحدة، وبذلك ينتفع الحاج إلى بيت الله الحرام، وهو مزود بالتقوى والمعرفة والأخوة فى الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾ ذكر الله تسبيحه وامتلاء القلب بالإيمان به، والخضوع له، والخشوع،

والضراعة له، وذكر اسمه لهذا أيضا، ولكن يذكر اسم الله على الذبيحة لتكون لله، وللبعد عن رجس الجاهلية فى ذبحهم على النصب، وذِكْر اسم الأوثان، وذكر اسم الله تعالى هنا على ذبائح الهدى من البدن والغنم، والبدن اسم حبشى جمع للبدنة، وهى الذبائح من الإبل والبقر، فالواحدة منها تكفى عن سبعة.

ونلاحظ أنه ذكر سبحانه أن ذِكْر اسمه تعالى فى أيام معلومات، وأن الذكر يكون على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، فالذكر يكون على بهيمة الأنعام، والإضافة بيانية، أى بهيمة هى الأنعام جمع نَعَم، وهى الإبل والبقر والغنم، وسميت نعما؛ لأنها نعمة الله تعالى، وهى التى تكون هديا فى الحج، لمن يجمع بين الحج والعمرة فى إحرام واحد، أو فى إحرامين بينهما تحلل فى أشهر الحج.

وذكر اسم الله يكون فى أيام معلومات، وهذا يقتضى أن يكون ذبح الهدى فى هذه الأيام المعلومات، ولكن ما هى الأيام المعلومات التى يكون فيها الذبح، وذكر اسم الله تعالى فيها، بالتسبيح والتكبير، وامتلاء النفس والمشاعر المؤمنة به، ما هى هذه الأيام المعلومات، روى أنها الليالى العشر التى تبتدئ بيوم عرفات، وينتهى بها الحج، والتى جاء فيها النص القرآنى بقوله تعالى: ﴿ ... **فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١)** ﴾ [البقرة].

وقد وردت الآثار الصحيحة عن النبى ﷺ بفضل ذكر الله ودعائه فى هذه الأيام العشر التى تبتدئ من اليوم التاسع، فقد روى ابن عمر عن النبى ﷺ أنه قال: «**ما من أيام أعظم عند الله، ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد**»(١).

---

(١) رواه بهذا اللفظ أحمد: مسند المكثرين من الصحابة- مسند عبد الله بن عمر رضى الله عنهما (٥١٨٩).

وقيل: إن هذه الأيام المعلومات هي الأيام المعدودات في قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ ... (٢٠٣) ﴾ ونميل إلى أنها الأيام العشرة، ولقد قيل: إنها الليالى العشر فى قوله تعالى: ﴿ وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) ﴾ [الفجر].

قال تعالى: ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾، «الفاء» هنا للإفصاح؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، أى إذا ذبحتموها اذكروا اسم الله تعالى فكلوا منها، فالأكل من الهدى مندوب، وليس فرضا، ولا ممنوعا، والبائس هو الذى يكون فى شدة وبؤس شديد من مرض، أو شدة، أو إجهاد فى سفر، والفقير المحتاج، وقد قال العلماء فى الهدى: إن المندوب أن يأكل ما لا يزيد على الثلث، ويهدى ما لا يزيد على الثلث، ويطعم الفقير المحتاج، وقد يكون ثمة فقر شديد، وحاجة ملحة فيزيد فى إطعام البائس الفقير.

وقال تعالى:

﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ﴾.

التفث: الأوساخ والأدران التى تكونت بسبب المنع من الاستحمام، وحلق الشعر، والعانة والإبط، مما يوجبه الإحرام، ويستمر به الشخص محرما، لا يتناول شيئا مما حرمه الله تعالى، وذلك ليعيش عيشة الفقراء، فيحس بآلام الفقراء، وبؤس المحرومين من زينة الدنيا، وليكون الناس على سواء أمام الله تعالى، وليجيئوا إلى ضيافة الرحمن، كما ولدتهم أمهاتهم، ويخرجوا من الحج، كما ولدتهم أمهاتهم، وقضاء التفث يرمز إليه بحلق الرأس، أو التقصير والاكتفاء بقدر من قص الشعر، وتقليم الأظفار الذى كان ممنوعا بالتحريم.

والتعبير بـ﴿ ثُمَّ ﴾ هنا لإفادة التفاوت بين حال المنع بالإحرام، وحال التحلل منه مثوبا مكرما، وحين ذلك يكون نحر الهدى لمن وجب عليه الهدى.

﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ أمر بالوفاء بالنذور ووقته هو بعد التحلل من إحرام الحج، لأن الوفاء بالنذر، لقول النبى ﷺ: «**من نذر أن يطيع الله، فليطعه، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه**»(١)، وقد قال الفقهاء: إن النذر يجب الوفاء به بشرط ألا يكون معصية وأن يكون طاعة فى ذاته، وأن يكون من جنسه، وكان الوفاء بالنذر بعد التحلل من الإحرام، لكيلا تختلط عبادتان، وليكون إحرام الحج خالصا للحج، ثم قال تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ وشدد سبحانه فى الطواف بصيغة الافتعال، تشديدا فى الوجوب؛ لأن صيغة الافتعال تفيد التشديد فى الفعل، وإن هذا الطواف الذى يكون بعد النحر والوقوف بعرفة والمشعر الحرام هو الركن، وهو ما يسمى بطواف الزيارة، و«البيت» هو المسجد الحرام، وذكره مجرد إشعار بشرفه، ولأنه معرف من غير تعريف، ووصف بالعتيق، «العتيق» معناه القديم، ومعناه المعتق من التعدى على حرماته، فهو أول بيت وضع للناس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا ... (٩٦)﴾ [آل عمران]، وهو معتق من الاعتداء عليه من عدو مهاجم، وبذلك يتبين الإثم الكبير الذى رمى به الطاغية الأثيم الحجاج بن يوسف الثقفى، وهذا إلحاد فى البيت، ولا يبرره أى مبرر، ولكن مع إثم الحجاج قد أعاد الله بيته على يده الهادمة، فكان معتقا أيضا.

تعظيم مناسك الحج

قال الله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾

---

(١) سبق تخريجه.

حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ
السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ
﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ
﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ
الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ
اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ
فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ
قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾

﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ **ذَلِكَ** ﴾، الإشـارة هنا إلى الحج الذى أذن به خليـل الله إبراهيم، وتكون ﴿ **ذَلِكَ** ﴾ خبرا لمبـتدأ محذوف تقديره الحج هو ذلك؛ لأن الآيات السـابقة أشارت إلى أركانه وواجبـاته، إذ أشارت إلى الوقوف بعرفة أول الأيام العـشرة، وأشارت إلى الطواف بالبـيت، وأشارت إلى مـحـرمات الإحـرام، والتحلل، وحـدَّت كل شعيـرة من شعائره، ووقت لها فى مـيقاتها المعلوم، ثم حـثت الآية الكريمة على المحافظة على حرمات الحج، فلا يتحلل قبل ميقاته لمن أحرم بالحج على حسب ما نوى من حج وعمـرة أو أحدهما، ووقت تحلله من إحرامـه، فقال: ﴿ **وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ** ﴾، «الواو» عاطفـة على جملة ﴿ **ذَلِكَ** ﴾ الدالة على التعـريف الموجز للحج، والإشارة إلى أركـانه، ومحرمـاته، وأوقاته، و﴿ **يُعَظِّمْ** ﴾ معناها يعطيـها

حقـها من الإعظام والإكـبار، فلا ينتـهك موانع الإحـرام، ولا يؤدى الأركان فى مواعيـدها، ولا يرفث ولا يفسق ولا يجادل فى الحج، كـما قال تعالى فى كـتابه الكريم: ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ... (١٩٧) ﴾ [البقرة]، والحرمات جمع «حـرمة»، وهو ما لا يحل انتهاكه مما حرمه الله تعالى فى الحج من بعد الإحرام وهو فرض الحج عليه، وقد روى عن زيد بن أسلم أنه قـال: حرمات الحج خـمس: الكعبـة الحرام، والمسجـد الحرام، والبلد الحرام، والشهـر الحرام، وما حرمه الله تعالى على المحـرم بعد فرضه الحج على نفسه(١).

﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾، هذا جواب الـشرط ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ ﴾ و«الفاء» واقعة فى جواب الشرط، وهو قوله: ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾، فيها تأكيد الخيرية أولا: بذكر ضمير الفصل «هو» ـ وثانـيا: بتخصيص الخيرية «له»؛ لأنه قام بمناسك الحج، أدى موجباتها وبعد عن موانعـها، وقام بحق ضيافة الله تعالى حق قيامـه، وتعاون مع المسلمين وتعرف بهم، وذلك خيـر له ولكل المؤمنين. وثالثا: بأن أضاف الخيرية بأنها ﴿ عِندَ رَبِّهِ ﴾ الكالئ له والحامى.

وقد ذكـر الحرمـات مضـافة إلى ذى العـزة والجلال حـضا على صـيانتـها وتكريمهـا ومراعاتهـا حق رعايتهـا، وأحل ما أحل وحرم مـا حرم، وإن الحج لا يكون خيـرا إلا إذا طهرت النفوس من الآثام واتجهت إلى الديان وحـده لا شريك له؛ ولذا قال تعالى عاطفا على ما قبله ﴿ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ ﴾ الإضافة هنا بيانية، أى البهيمة التى هى الأنعام، أى أنها من النعم التى أنعم الله بها عليكم، فتحريمها بغير تحريـم الله تعالى كفر بنعمتـه، واستباحتها بغـير إباحة الله تعالى كفر بـنعمته أيضا؛ ولذا قال تعالى: ﴿ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ وما تلى هو ما جاء فى سورة البقرة والأنعام والمائدة، وآخـرها ما جاء فـى المائدة، فقد قـال تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ

---

(١) زيد بن أسلم، العدوى القرشى، وكنيـته أبو أسامة، من الطبقة الوسطى من التـابعين، وهو ثقة يرسل، أقام بالمدينة وتوفى بها ١٣٦هـ. راجع الطبقات الكبرى لابن سعد- الطبقة الوسطى- زيد بن أسلم.

الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣)﴾ [المائدة].

هذا ما أحل وهذا ما استثنى من الحلال، وذكرت بهائم الأنعام وإحلالها فى هذا المقام لمناسبة الهدى ووجوبه والأكل منه، وإن المشركين كما أشرنا أحلوا ما حرم الله فأكلوا ما أهلّ به لغير الله من أوثانهم، وحرموا ما أحل الله تعالى فى تحريم السائبة والوصيلة والحام، ونسبوا التحريم إلى الله تعالى، وذلك زور فى القول، والإهلال لغير الله والذبح على النصب والاستقسام بالأزلام، كل ذلك من الوثنية أو الكذب على الله تعالى؛ ولذلك جاء من بعد النهى عن الوثنية وقول الزور، فقال عز من قائل: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾.

﴿الرِّجْسَ﴾ هو الشىء القذر، والقذارة هنا معنوية وليست حسية؛ لأن النفس والعقل يقذران بتقديس الأحجار وعبادتها؛ لأنها تنزيل للفكر، وضلال فى العقل، وافتئات على الله جل جلاله، والأوثان جمع وثن، وهو ما يعبد من تماثيل، وأصله من وثن الشىء أى أقامه فى مقامه، فسمى الوثن كذلك؛ لأنه يركز فى مقامه، وهو بطبعه جماد لا يتحرك إلا بمحرك، و﴿مِنَ﴾ فى قوله تعالى: ﴿مِنَ الأَوْثَانِ﴾ بيانية، أى اجتنبوا الرجس، وهو الأوثان، ففى الكلام بيان بعد إبهام وهو يمكن المعنى فى النفس، واجتنبوا معناها ابتعدوا كل الابتعاد، وهو أبلغ فى النهى، وكان النهى عن الأوثان فى هذا المقام؛ لأن الله أحل بهيمة الأنعام، إلا الميتة وما يشبهها، وما أهل لغير الله به، وقد استباحوا ما أهل به للأصنام وما ذبح على النصب، واستقسموا بالأزلام، فلا حج لمن كان كذلك، ولا خير له فى حجه.

وعطف الله تعالى الأمر باجتناب قول الزور على اجتناب الأوثان؛ لأنهم كانوا يحرمون على أنفسهم بعض بهائم الأنعام، وينسبون التحريم إلى الله كاذبين مزورين، ولا حج لهؤلاء، ولا خير لهم فى تعظيمهم بعض مناسك الحج؛ لأن الخير يكون لمن قام بالواجب، وأبعد موانع القربى إلى الله تعالى.

وقد وصف الله تعالى الذى يكون تعظيم حرمات الله خيرا له عند ربه بقوله تعالى:

﴿ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ﴾.

هذه الآية جزء متمم للآية السابقة متصلة بألفاظها؛ ولذا كانت كلمة **﴿حُنَفَاءَ﴾** حال من «الواو» فى **﴿فَاجْتَنِبُوا﴾**، أى اجتنبوا الرجس من الأوثان، واجتنبوا قول الزور حال كونكم خالصين لله تعالى مستقيمين سائرين فى سبيله، و**﴿حُنَفَاءَ﴾** جمع حنيف، وهو المائل من الانحراف إلى الاستقامة، فهؤلاء يخلصون من رجس الأوثان، ومن قول الزور الاستقامة والإخلاص لله تعالى أى يكونون كلهم لله تعالى لا يبغونها عوجا فليس فيهم ضلال قط، ولا إشراك قط، بل خلصوا أنفسهم لله وحده، لا يشركون فى قلوبهم غيره، ولذا قال تعالى مؤكدا معنى إخلاصهم لله تعالى: **﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾**، حال بعد حال، أى غير مشركين به أحدا أو شيئا فى عبادته، وضرب بعد ذلك مثلا للمشركين يصور كيف ينحدر من سماء العقل والفكر، إلى منهوى الأرض، فقال تعالى: **﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾** شبه الله تعالى من يشرك بالله تعالى قد أضله الشيطان وأغواه بتشبيهين مبينين المنهوى الذى انهوى إليه عقله ومداركه، **فشبهه فى الأول** بمن خر من السماء هابطا، ففى هبوطه تخطفه الطير، فتقطعه بمناقيرها، والتهمته أجزاء، وذلك لأن من أشرك قد هوى من سماء الإدراك السليم، والفكر المستقيم إلى مهاوٍ توزعته الأهواء، حتى صار ليس له فكر جامع، بل صار موزعا بين ضلال شتت نفسه، وصار موزعا بين أوهام فاسدة لا راشدا يرشده، ولا عقل يهديه.

والتشبيه الثانى هو أن من يشرك بالله فكأنما خر من السماء، وصار كالريشة فى مهب ريح الشك والأوهام فيركب متن ريح هوجاء ألقته فى مكان سحيق عن الحق، والهداية، بل صار ينتقل من ضلال إلى ضلال لا إرادة له.

والسَّحق التفتيت، والمكان السحيق، أى البعيد يلقى إليه مع بعده فتاتا مقطع الفكر موزع الأهواء، ولا فكر يسير ولا عقل يرشد، وقد قبسنا الكلام فى هذين التشبيهين مع التوضيح والتوجيه من كلام الزمخشرى، فقد قال: «ويجوز فى هذا التشبيه أن يكون من المركَّب والمفرق فإن كان تشبيها مركبا قال من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكا ليس بعده نهاية، بأن صور حاله بصورة من خر من السماء فاختطفته الطير فصيرته مزعا فى حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به فى بعض المطاوح البعيدة، وإن كان مفرقا فقد شبه الإيمان فى علوه بالسماء، والذى ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء، وشبه الأهواء التى تتوزع أفكاره بالطير المختطفة، والشيطان الذى يطوح به فى وادى الضلالة بالريح التى تهوى بما عصفت به المهاوى المتلفة» اهـ.

ونرى أنه جعله تشبيها واحدا مركبا ومفرقا، ونرى أنه تشبيهان مفرقين أو مركبين، وإن هذا التصوير كما ذكرنا، وكما ذكر الزمخشرى هو على ذلك فى الدنيا، لبيان هلاك المشرك، وتخطف الأهواء لمداركه ويبين فساد عقله وضلاله، وإنه لا يكون بالنسبة للدين إلا فى حيرة تسيره الأوهام ولا سلطان له على نفسه، وقد قال بعض المفسرين: إن تحقق هذه الحال المبينة بالتشبيه، إنما هى فى الآخرة لا فى الدنيا. وإننا نرى أن الجميع ممكن بأن تكون هذه حاله فى الدنيا والآخرة، وإنه فى الدنيا يتردى إلى ضلال الأوهام والأهواء من سماء الإيمان، وفى الآخرة يتردى إلى العذاب الأليم الذى يكون فيه خالدا.

﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾.

الإشارة إلى الحج، والفاصل كان متعلقا بالحج، فقد كان فيه الأمر باجتناب رجس الأوثان، والكذب على الله بقول الزور والأمر بأن تكون الذبيحة لله، وأن

يكون البعد عن الإشراك، وكل هذا إن لم يكن من الحج ليس بعيدًا عنه؛ ولذا كان الاعتراض بما هو تتميم للحج، فالمعنى ذلك الحج بما فيه من حرمات، وإذا كانت حرمات الله تعالى يجب أن تكون مصونة غير معتدى عليها، فكذلك شعائر الله تعالى يجب أن تكون مصونة معظمة، وشعائر الله تعالى جمع شعيرة، وهى الأنعام التى وضعت عليها علامة على أنها خصصت للبيت الحرام تذبح فيه؛ ولذا صحت نسبتها إلى الله تعالى أو إضافتها إليه عز وجل، وجاء فى مفردات الراغب الأصفهانى: «ويقال: شعائر الحج الواحد شعيرة. . . أى ما يهدى إلى بيت الله تعالى، وسمى بذلك؛ لأنها تشعر أى تعلم بأن تدمى بشعيرة أو حديدة يشعر بها»، وكانت واجبة التعظيم، لا لذات البهيمة، بل لأنها لبيت الله تعالى، ولأنها دليل الاتجاه إلى العطاء الكريم فى بيت الله؛ ولأنها تكون لفقراء مكة الذين يكون إطعامهم استجابة لدعاء إبراهيم، وتعظيمها ألا تمس بسوء، وألا يعتدى عليها، وأن يحافظ عليها وعلى الشعار الذى أشعرت به، وأن تختار من خير صنفها فى عظامه وسنامه، وسمنه، وأن يكون لها أكل طيب بالنسبة لها. ويقول تعالى: ﴿**فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ**﴾، الضمير فى ﴿**فَإِنَّهَا**﴾ يعود إلى الشعائر، و«الفاء» واقعة فى جواب الشرط، وهو قوله تعالى: ﴿**وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ**﴾ وكانت الشعائر من تقوى القلوب لأن تخصيصها لفقراء الحرم، والاتجاه بها فى العبادة مظهر حسِّى يدل على تقوى القلوب، وهى بمقصدها وغايتها نابعة من التقوى، وهى استشعار خشية الله تعالى والشعور بضيافته، ويلتقى بالناس متساويا معهم فقيرا وغنيا، ومعينا لفقيرهم، ومكرما لضيوف الرحمن من الحجيج، وأضيفت التقوى إلى القلوب؛ لأن القلب هو مكان التقوى، وقد قال ﷺ: «**التقوى هاهنا**»، وأشار إلى قلبه الكريم(١).

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَحاسَدُوا، ولا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَباغَضُوا، وَلا تَدَابَرُوا، وَلا يَبْعِ بَعْضُكُمْ على بَعْضٍ، وكُونُوا عِبادَ اللَّهِ إخوَانا، المُسلِم أخُو المُسْلِم، لا يَظْلِمُهُ، وَلا يَخذُلُهُ وَلا يَحقِرُه، التَّقْوى هاهُنا- ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بحَسْب امرئٍ مِنَ الشَّرِّ أنْ يَحْقِرَ أخاهُ المُسْلِمَ، كلُّ المُسْلِمِ على المُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ ومالُهُ وَعِرْضُهُ». رواه مسلم (٦٤٩٣). وقد سبق تخريجه.

﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣) ﴾.

الضمير فى ﴿فِيهَا﴾ يعود على الشعائر على أساس أن البُدن وغيرها من هدايا البيت هى الشعائر، على أساس ما يرمز إليه من تكريم البيت، والمعاونة فى ضيافته، ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ بدرها وعملها، وصوفها ووبرها ما دامت فى حوزتكم ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، وهو مدة بقائها فى أيديكم إلى أن يحين وقت نحرها فى يوم النحر، وفى هذه الحال يكون نسلها لكم، وكل ما يكون لها من نفع، ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، ﴿ثُمَّ﴾ للترتيب والتراخى، والتراخى هنا التراخى الزمنى، إن كان ثمة تراخ فى الزمن، وهو زمن السير فى ميقات الحج إلى محلها العتيق، والتراخى المعنوى، وهو أنها تنتقل من دابة لمنافع دنيوية إلى مرتبة دينية تشعر وتكون من شعائر الرحمن، وتحبس للفقراء فى البيت، و﴿ثُمَّ﴾ مع دلالتها على التراخى تدل على انتهاء الأجل المسمى والغاية التى تنتهى إليها هذه الشعيرة، وهى المكان الذى تذبح فيه ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، أى محل ذبحها ينتهى إلى البيت العتيق، وهو أقدم بيت وأكرمه، وهو المعتق المعصوم من تحكم الملوك وسيطرتهم، فلم يسيطر عليه ملك قط، وما كان من هدم الحجاج الطاغية له مع أنه كان طغيان من لا يهتم لمناسك الله ـ لم يكن تسلطا من سلطان ملك، وقد بناه من بعد عبد الملك بن مروان الذى كان الحجاج يعمل له.

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) ﴾.

«المنسك» اسم مكان من «نَسَك» وهو مكان العبادة، والعبادة يطلق عليها النسك، وقد اختار الله لأمة محمد البيت الحرام مكانا لنسكها وأداء العبادة فى حج البيت الحرام، والإقامة فيما حوله، وأن يكون الذبح، وإطعام الفقراء، ﴿لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾، أى يذكروا اسم الله تعالى عند ذبحها، شاكرين له نعمته وإذا كان الله تعالى شارع الشرائع قد جعل لكل أمة منسكا هم ناسكوه؛ فذلك لأنه إلهكم أنتم وغيركم إلها واحدًا، فكان للماضين من الأمم

منسك لكل أمة واحد، وإذا كان الله واحدًا أحدًا، فالمناسك كلها في ماضيها وحاضرها له سبحانه، وهو مبينها للماضين، كما بينها للحاضرين، وجعل منسك أمة خاتم النبيين هي مكة المكرمة التي بها البيت العتيق، أول بيت وضع للناس بمكة المكرمة.

و«الفاء» في قوله تعالى: ﴿فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ هي فاء الإفصاح؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، إذ المعنى إذا كان لكل أمة منسك فالله الذي شرع المناسك واحد، وكلها لعبادته والتقرب إليه سبحانه وتعالى، كذلك كان منسككم، وكان للماضين مناسك شرعها ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾، «الفاء» عاطفة، ﴿أَسْلِمُوا﴾، أي أذعنوا، وأطيعوا متطامنين غير متمردين، ولا متطاولين ولا مستطيلين على أحد؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ بالثواب الجزيل والنعيم المقيم، ورضوان الله تعالى، وهو أكبر الجزاء، فرضا الخالق بديع السموات والأرض غاية أهل الإيمان العليا التي هي فوق كل مبتغى.

والمخبت هو المتطامن المتواضع الذي لا يتعالى، ولا يستطيل على أحد، وقد قال الراغب الأصفهاني في مادة خبت: «الخَبْتُ المطمئن من الأرض، وأخبت الرجل قصد الخبت أو نزله نحو أسهل وأنجد، ثم استعمل الإخبات استعمال اللين والتواضع، ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾، أي: المتواضعين، فالتواضع سمة المؤمنين، والغطرسة سمة الكافرين، والذين لم يشرب قلوبهم حب الإيمان، وهم ليسوا أذلاء، بل هم الأعزاء، ولقد قال محمد ﷺ: **«مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ. وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزا. وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلاَّ رَفَعَهُ اللَّهُ»**(١).

وقد وصف الله تعالى المخبتين الذين بشرهم سبحانه وتعالى بقوله:

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥)﴾.

---

(١) رواه مسلم (٦٥٤٤)، وقد سبق تخريجه.

خلالٌ أربع هى جماع خصال المؤمن الذى هذبت نفسه، وتجمل بالصبر، وأقام الصلاة، وأنفق مما رزقه الله تعالى.

الخلة الأولى ـ ﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، (الوجل) الخوف والخشية من الله، لا لأنهم كثيرو الذنوب، إنما هو لاستصغار حسناتهم، واستكثار سيئاتهم وتصورها، فهم من الله تعالى القوى القهار فى وجل، ومن خاف الله حذر مخالفته، وحاول طاعته، وسعى فى مرضاته، والوجل صفة أهل الإيمان كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ... ۝٢٣﴾ [الزمر].

هذه حال الذين يعرفون الله ويتقونه حق تقاته.

الخلة الثانية ـ فيها الصبر؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾، والصبر ضبط النفس، وسيطرة العقل، فإذا أصابهم أمر من أمور الدنيا المزعجة لا يهلعون ولا يفزعون، ويضبطون أنفسهم، فلا يكون عليهم شهوة جامحة، فلا يكون الهوى سيدا مطاعا، بل تكون الشهوة أمة لا سيطرة لها، وإن كل شىء من مصائب الدنيا يهون أمام الصابر.

والخلة الثالثة ـ إقامة الصلاة، أى أداؤها مقومة كاملة فى ظاهرها وباطنها، فتكون النفس خاشعة خاضعة قانتة تحس النفس بروعتها، وأنها فى حضرة ذى الجلال والإكرام وتمتلئ النفس بهيبته، وتخشع لعظمته؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ عبر باسم الفاعل لبيان أن الصلاة صارت شأنا من شئونه لا يتخلف عنها، والصلاة والصبر فيهما عون للمؤمن على الطاعة، قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ۝٤٥﴾ [البقرة].

والخلة الرابعة - الاتجاه إلى التعاون الاجتماعى، وذلك بمعونة الفقير، وسد الحاجات الاجتماعية والحربية، وهذا قوله تعالى: ﴿**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾، والإنفاق يشمل الزكاة المفروضة، والصدقات المنثورة، والصدقات تكفر الذنوب، كما قال النبى ﷺ: «**الصدقة تطفئ الخطيئة، كما يطفىء الماء النار**»[1]، ويشمل الذنوب والكفارات، ويشمل الإنفاق فى الجهاد كما قال تعالى: ﴿**وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ** ... (١٩٥)﴾ [البقرة]؛ لأن ترك الإنفاق فى الجهاد يؤدى إلى التهلكة والانهزام.

وقد تقدم قوله تعالى: ﴿**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ**﴾ على الفعل؛ لبيان أن الإنفاق مما رزقهم الله وحده فليس من جهودهم ولا أعمالهم ولكن من توفيق الله تعالى، ومن رزقه الذى رزقه إياهم.

وإن الإنفاق بكل أنواعه التى أشرنا إليها هو تعاون اجتماعى فى السلم والحرب؛ ولذا سماه الله تعالى الماعون فقال تعالى: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)**﴾ [الماعون]، وهى الزكاة؛ لأنها يكون بها التعاون الدائم المستمر.

أعلى أنواع الهدى

قال الله تعالى:

وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا

---

(١) سبق تخريجه.

﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾

البدُن جمع بدنة، وهى تطلق على البدنة من الإبل، وسميت كذلك، لبدانتها، وسمنها وضخامتها، ولا تطلق إلا على الإبل وتعطى البقرة حكمها، فتجزئ عن سبعة كما تجزئ البدنة؛ لأنهما متقاربان فى الحجم، وما يؤخذ منهما من لحم، والبدن من شعائر الله، أى أن سوقها فى الحج من شعائر الله، وهى جمع شعيرة، وهى العبادة المعلمة التى يجمع فيها بين البينة، والإعلام بمناسك الحج؛ وذلك لأن أيام الحج كلها أيام إعلام، وإشعار بمناسك الحج، يلتقى فيها المظهر الإعلامى، وتقوى القلوب، فهى باعتبارها، وكون العبد قائما فى ضيافة الله، واستشعار عظمته وجلاله فى كل عمل من أعماله، وطاعته، وتكبيره، وإهلاله وترتيبه، فى كل هذا تقوى القلوب؛ ولأنها مظهر حسِّى، كانت شعيرة معلمة كالقيام والقراءة والركوع والسجود شعائر معلمة؛ ولأنها مناجاة العبد لربه كان فيها تقوى القلوب.

﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾، وفى قراءة صوافن، وصواف جمع صافة، والصافة هى من رفعت إحدى يديها بالفعل لئلا تضطرب، والمعنى اذكر اسم الله تعالى عند إعدادها للذبح، وصافنة كصافة فى المعنى.

والذى أراه أن تُصَفّ النوق صفوفا عند ذبحها، بحيث تكون مقدمة للذبح فى صفوف متتالية بعضها وراء بعض، وذلك فيه روعة فى المظهر، وظهور للمشعر، وقد جاء فى مفردات الراغب الأصفهانى: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ أى مصطفة، وصففت كذا: جعلته على صف واحد، قال تعالى: ﴿... عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ... ﴿٢٠﴾﴾ [الطور].

﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾، ﴿وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾، أى سقطت ذبيحة بعد ذكر اسم الله تعالى، ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ

وَالْمُعْتَرَّ﴾، «القانع» من القناعة، وهو الفقير الراضى الذى لا يسأل الناس إلحافا، و«المعتر» افتعل من عَرَّ، وهو الذى يكشف فقره ولا يستره، ويطلب من الناس، ولا يمتنع عن السؤال، والإعطاء لهؤلاء صدقة مبرورة، وقدم عليها أكله هو لكيلا يحسب الناس أنه لا يصح أن يأكل، ﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ﴾، أى أنها مسخرة لكم تقضون عليها حوائجكم، وتنقلكم فى هذه الصحراء المحرقة، وكما يقول الناس: الجمل سفينة الصحراء، إنه ينقل الأحمال فى الصحراء كما تنقل السفينة الأحمال من إقليم إلى إقليم على متن البحار، وسخرها معناها زللها لكم لتكون فى منافعكم، والكاف للتشبيه، أى أن الإبل كما أن الله جعلها من شعائر الله قد سخرها لكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أى رجاء أن تشكروا الله تعالى على أنعمه التى أنعمها عليكم ولا تكفروها، ﴿... لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧)﴾ [إبراهيم].

وإن هذا كله لخير العباد، ولإعلان المناسك، ولا يعود على ذات الله تعالى العلية منها شىء.

﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧)﴾.

نفى الله تعالى نفيا مؤكدا، أن يصل إلى الله تعالى منها شىء؛ لأنه واجد الوجود غير محتاج حتى يحتاج إلى لحم البُدن ودماؤها، فإنما يحتاج إلى ذلك من يكون فقيرا إليها، ولا أن تكون مرضاته فى لحومها، ولا فى دمائها، فإذا كان قد أوجب عليكم نحرها، والتقرب بذبحها، فليس ذلك لأجل رضائه باللحم والدماء، ﴿وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾، أى يبلغ مبلغ رضاه وقبوله التقوى منكم، فالله سبحانه لا يرضى بلحم يؤكل ولا تكون مرضاته فى دم يهراق، وإن كان ذلك، وإنما يبلغ مرضاته وقبوله التقوى، وهذه إشارة إلى أمرين:

الأمر الأول ـ أن الدم المهراق مطلوب فى الحج تذكيرا بفداء إسماعيل.

والأمر الثانى - أن الله تعالى ما طلب شعيرة البدن إلا لأجل التقوى، ولتكون مظهر هذه التقوى القلبية، وشعار مناسك الحج.

﴿ **كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ** ﴾، أى كهذا التسخير من ذبح وأكل وتصدق ﴿ **سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ** ﴾، واللام للعاقبة، أى سخرها لتكون العاقبة أن تكبروا الله فى الحج على هدايتكم إليه سبحانه وتعالى، ولتقيموا شعائره، ولتحسنوا أداء التكليفات التى كلفتموها، ﴿ **وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ** ﴾، أى أن المحسنين ينالون الخير العميم، والفضل العظيم، والهداية، فبشرهم بالبشرى الطيبة، والجزاء الحسن، وإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

الإذن بالجهاد

قال الله تعالى:

إِنَّ ٱللَّهَ
يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾
أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ
لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن
يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ
صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ
كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ
عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ
وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ... (٢٥٧)﴾ [البقرة]، وإذا كان الذين آمنوا أولياء الله فإنه يتولى الدفاع عنهم، وحمايتهم ما داموا قائمين على الحق يستمسكون بالعروة الوثقى؛ ولذا قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨)﴾.

لقد دافع الله عن الذين آمنوا فحفظهم في مكة، وإذا كانوا قد تعرضوا للأذى، فقد حماهم الله بالصبر، والهجرة فارين بدينهم إلى الحبشة مرتين، ثم إلى المدينة، وأفرغ عليهم الصبر، واحتموا بحمايته، وهو عدة المؤمنين، ولما هاجروا إلى المدينة خف عنهم الإيذاء وزال، ولكن كتب عليهم الجهاد، وأذن لهم في القتال، فكانت حماية الله تعالى أوضح، ونجد هنا أنه سبحانه عبر بالمضارع والمستقبل، أي أن الله من شأنه أن يدافع عن الذين آمنوا؛ لأنهم أولياؤه، وأحباؤه، ومن نصبهم للدفاع عن الحق ودين الحق، وقد أكد الله دفاعه عن الحق بـ«إن» وذكر لفظ الجلالة الله جل جلاله القوى المنتقم، ومن ينصره الله فلا غالب له، وقد أكد سبحانه دفاعه بأنه سبحانه لا يحب أعداءهم، لأنهم أعداء الحق المتألبون عليه؛ ولأنهم خائبون وأشد الناس كفرا، فقال عز من قائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ فهذه الجملة السامية في مقام التعليل لمدافعته سبحانه عن المؤمنين؛ إذ هو سبحانه لا يحب مقاتليهم، قد ذكر وصفين من أوصافهما هما سبب أن الله تعالى لا يحبهم:

الوصف الأول ـ الخيانة التي بالغوا في الاتصاف بها.

والوصف الثاني ـ الكفر الذي أوغلوا فيه وأمعنوا؛ ولذا عبر بـ ﴿خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾، والخيانة تتضمن مخالفة الفطرة، وتتضمن عدم طاعة أوامره ونواهيه، وتتضمن عبادتهم أحجارا، وإشراكهم مع الله، وتتضمن خيانة المؤمنين، ونكث العهود كما كان يفعل اليهود الذين حاربوا النبي ﷺ ومالأوا أعداءه وعاونوهم،

حتى برز لهم وأجلاهم من ديارهم، وقتل رءوس الفساد فيهم، وغزاهم فى خيبر. و«الكَفُور» هو الذى أشرك وسيطرت عليه الأوهام، وكفر بنعمة الله تعالى وافترى على الله تعالى، فادعى أن الله حرم وما حرم، وأحل وما أحل.

وقد ذكر سبحانه الكُلِّية فقال: ﴿كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ لعمومهم فى الخيانة آحادًا وجماعات، فليس منهم إلا خوَّان كفور.

وقال تعالى: ﴿يُدَافِعُ﴾ بصيغة المفاعلة للدلالة على المغالبة بين الحق والباطل، وأن الله معهم فى هذه المغالبة.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩)﴾.

لم يجئ محمد ﷺ للقتال، ولكن جاء للحق والدعوة إليه، ولنصرة الفضيلة، وفضيلته إيجابية وليست سلبية، ودينه إيجابى، وليس بسلبى، وما كان ليستخذى أمام الباطل، بل يقاومه، وإلا عمَّ الفساد؛ ولذا قال تعالى: ﴿... وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١)﴾ [البقرة]، ولقد كان المؤمنون فى مكة يؤذَوْن فيصبرون، حتى إذا كانوا فى المدينة وكانت لهم قوة حامية أذن لهم فى القتال دفاعا عن كيانهم ودينهم، فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾ وعبر سبحانه وتعالى بالبناء للمجهول.. و﴿يُقَاتَلُونَ﴾، إشارة إلى أن المؤمنين لم يبتدئوا بالقتال، بل ابتدأ غيرهم عندما كانوا يؤذون المؤمنين، وهموا بقتل النبى ﷺ، وأحاطوا بداره ليقتلوه، ولكن الله نجَّاه منهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)﴾ [الأنفال].

وقد علل الله تعالى الإذن بالقتال: بقوله: ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾، أى بسبب أنهم ظلموا. وانتصار الأمة المظلومة من الظالمين لها أمر يسوغه قانون العدل وقانون الرحمة، فمن الرحمة بالإنسان وقف ظلمه، ورد بغيه عليه، وأن يدافع عن المؤمنين المظلومين كما وعد؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾،

أى أن الله كالئهم، وقادر وقدرته مطلقة على نصرهم إذا أخذوا فى الأسباب، وأعدوا للقتال عدته، وتقدموا بقلوب خاضعة لله تعالى مؤمنة به سبحانه، وقد أكد سبحانه وتعالى نصره لهم بـ «إنَّ» وبذكر لفظ الجلالة وهو ﴿ اللَّهَ ﴾ القادر الغالب، وبتقديم الجار والمجرور ﴿ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ ﴾، وبـ «اللام» فى قوله: ﴿ لَقَدِيرٌ ﴾، والله ينصر من ينصره، ويؤيد بالحق المؤمنين، ويخزى الكافرين.

وقد ذكر سبحانه كيف ظُلم المؤمنون، فقال عز من قائل:

﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ﴾.

﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾، بيان لظلمهم، إذ إن الخروج من الديار والبعد عن الأوطان فى ذاته ظلم، وإذا كان بغير سبب مسوغ أو حق مبرر يكون الظلم، ولذا ذكر هذا الأَشَر[1] فقال: ﴿ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾، أى بغير مبرر إلا أن يكون (ظلما)، لأنه إذا لم يكن يسوغ أو يبرر فهو ظلم لا محالة وقد أكد ذلك الظلم، وإنه بغير حق، بل لأمر غير الحق ﴿ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ وهذا من بديع القول ففيه تأكيد المدح بما يشبه الذم، وذلك كقول النابغة الذبيانى:

ولا عيبَ فيهم غير أنَّ سيوفَهم ... بهنَّ فلُولٌ من قِراعِ الكتائبِ

والمعنى للنص السامى أن هؤلاء المشركين أخرجوا المؤمنين من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يكون ما شاهت به عقولهم، وضلت به أفهامهم من إشراك بالله تعالى فى العبادة، وخضوع للأوهام، فيحسبون قول: ﴿ رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ باطلا وهو الحق، فإنهم ما أنكروه ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ... (٢٥) ﴾ [لقمان]، وقوله تعالى حكاية عن المؤمنين ﴿ رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ يفيد قصر الربوبية على الله تعالى وحده إذ لا رب سواه، ولا خالق سواه، ولا معبود بحق سواه.

---

(١) الأشَر: البَطَر. الصحاح.

وإنه تجب محاربة الباطل، ومقاومة الشر، ومدافعة الظلم، وإلا تحكم الفساد والطغيان، ولكان الناس تحت طاغوت مستمر، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾، (لولا) حرف امتناع لوجود، أى لولا وجود الدفع بأمر الله ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ...﴾، أى دور العبادة لكن لم تهدم بيوت العبادة لوجود منع الله الأخيار للأشرار، والصوامع جمع صومعة، وهى البيوت المخصصة للرهبانية، و«البيع»، وهى كنائس النصارى، و«الصلوات» وهى بيوت العبادة لليهود، قال الزجاج: هى كنائس اليهود وهى بالعبرانية صلوتا، ثم عربت فصارت صلوات.

والنص الكريم يفيد أن دفع الباطل إذا لم يكن لم يستطع أهل دين أن يقيموا عباداتهم، فتهدم صوامع الرهبان، وبيع النصارى، وصلوات اليهود وكانت تهدم هذه البيوت، ولا تقام شعائر أهل دين من الأديان السماوية قبل انتساخها، وساد الشرك وتحكم، وهذا النص السامى يفيد أمرين:

الأمر الأول ـ تمكين أهل كل دين من عبادتهم ببقاء أماكن العبادة لا تهدم ولا تمس.

والأمر الثانى ـ منع هدم معابد أهل الذمة على ألا يحدثوا جديدا.

﴿وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾، ﴿مَسَاجِدُ﴾ معطوف على ﴿صَوَامِعُ﴾، أى لهدمت مساجد يهدمها المشركون إذا استطاعوا، ولكن يدفع الله الناس بعضهم ببعض، فلا يمكنون، ووصف الله تعالى المساجد بأنها ﴿يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾، كما قال فى آية أخرى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧)﴾ [النور].

وأخيرا نقرر حكم الله تعالى، وهو أن حكم الله تعالى أنه إن لم يدفع الشر يتحكم، وتهدم بيوت العبادة كلها، وتهدم المساجد على العباد، والله سبحانه يتولى عباده.

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾، هذا قسم من رب العـزة جل جلاله، ولذلك كانت «اللام» وكانت «نون» التوكيد الثـقيلة، وكان القسم من ذى العزة والجلال أن ينصر مـن ينصره بأن ينصر ديـنه ويطيع أوامره، ويجـتنب نواهيه، ويكون مـعليا لكلمة الحق والإيمـان، وإنه فى مقابل نـصره لله ينصره، فـالله لا ينصر من يكون عدوا لله تعالى ولمبادئه ومشركا به أوثانا لا يضرون ولا ينفعون، وإن من ينصره الله غالب لا مـحالة؛ ولذا قال سبـحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾، فينصـر من يعمل لإعزاز دينه وهو قوى قاهر قادر على كل شىء، وأكد قوته سبحانه بـ﴿ إِنَّ ﴾ الدالة على التوكيد، وبـ«اللام» وبذكر لفظ الجلالة ﴿ اللَّهَ ﴾، وبوصفه بالعزة وهى أنه ذو المنعة الغالب القهار.

وإن أولئك الذين أُخرجوا من ديارهم بغـير حق إن مكنوا فى الأرض أقاموا العبادة الحق، وأصلحوا، ولا يفسدون؛ ولذا قال تعالى:

﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٤١) ﴾.

إن الظلم وقع على الذين أخرجـوا من ديارهم بحق إلا أن يقولوا ربنا الله، وإن هؤلاء خير البـرية ولهم فضل أنهم لا يشركون بالله، وإنهم لـيقولون ربنا الله فـيحكمـون بوحدة الـربوبية ووحـدة الخلق ووحدة الـتكوين، وهم إن تمكنوا من الأرض عمروها، وسادتها العبادة الحق والتعاون فى المال والفضيلة.

قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ ﴾، هذا وصف ثان للذين أخرجـوا من ديارهم، وقد صورهم سبـحانه مظلومين أُذن لهم بالدفاع عن الحق الـذى حملوه، وردع الباطل الذى ظلموا منه، ويصورهم الآن أنهم إن مكنوا فى الأرض عمروها، ونشروا فيها الخير والفضيلة، و﴿ إِن مَّكَّنَّاهُمْ ﴾، أى جعلنا لهم مكانا متميزا فى الأرض، ودولة قائمة فى الأرض يظلها العدل والخير والفضيلة، وقد ذكر الله تعالى أعمالا يقومون بها إن وجدت فى جماعة كانت الأمة الفاضلة فى الأرض.

أول هذه الأعمال: إقامة الصلاة التى تقوم بها تلك الجماعة الكريمة تطهير نفوس آحادها، وملؤها بطاعة الله وخشيته، وذلك بإقامة الصلاة فقال: ﴿**أَقَامُوا الصَّلاةَ**﴾، أى أتوا بها مقومة تمتلئ فيها القلوب بذكره سبحانه، وتستشعر خشيته وهيبته ومحبته وجلاله، وبذلك تتطهر القلوب، وتعمرها خشية الله تعالى ومحبته، فتحب عباده، وتحب كل شيء له، ويتحقق فيهم قول النبى ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب الشيء لا يحبه إلا لله**»[1].

ثانى هذه الأعمال: إيتاء الزكاة، ﴿**وَآتَوُا الزَّكَاةَ**﴾، وهى حق السائل والمحروم، وهى رمز للتعاون الاجتماعى بين القادر والعاجز والغنى والفقير، ومن ابتلاه الله تعالى بالمال، ومن ابتلاه الله تعالى بالحرمان.

وثالث هذه الأعمال: التعاون على الخير، ودفع الآثام، وذلك يكون بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتكوين رأى عام فاضل يحث على الفضيلة، ويمنع الرذيلة، وهو قوله تعالى: ﴿**وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ**﴾ وبها يتكون رأى عام فاضل يشجع الفضلاء، ويقمع الأرذلين.

وقال تعالى فى ختام الآية الكريمة: ﴿**وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ**﴾، وهو يشير إلى أنهم يؤمنون بلقاء الله تعالى وأنهم لم يخلقوا سدى، فيكون الخير لأهله يوم القيامة جنات النعيم، ولأهل الشر عذاب الحميم.

تكذيب الرسل قبل محمد ﷺ

قال الله تعالى:

وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾

---

(١) ورد بلفظ: أن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وهو جزء من حديث صحيح. وقد سبق تخريجه.

وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ
أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ
أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا
وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾

هذه إشارات إلى قصص بعض النبيين الذين طغت أقوامهم في البلاد وأكثروا فيها الفساد، وكيف كانت عاقبة أمرهم من هلاك لم ينتظروه، وشر لم يتوقعوه، وذلك تسلية للنبي ﷺ في عناد قومه له، فهو تسرية عن النبي ﷺ وإنذار للمشركين الذين جحدوا بآيات الله.

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ ﴾.

ذكر الله تعالى ما يشير إلى قوم نوح، وقد عاندوه وجادلوه، وتحدوه أن ينزل بهم ما هددهم به، وقد أغرقهم الله ولم ينج معه في السفينة إلا من آمن وأهله إلا امرأته وابنه إلى آخر ما بينه سبحانه وتعالى في قصصه الحكيم وآياته البينات.

وأشار سبحانه إلى قصة عاد قوم نبي الله تعالى هود عليه السلام أن عاندوه وكفروا به فجاءتهم ريح صرصر عاتية، وإلى قوم ثمود قوم صالح عليه السلام، الذين عقروا الناقة، فدمدم عليهم ربك عذابا ريحا صرصرا عاتية.

وأشار سبحانه إلى قوم إبراهيم عليه السلام الذين أرادوا إحراقه عندما حطم لهم الأوثان، وإلى قوم لوط الذين كانوا يأتون الفاحشة ما سبقهم بها من أحد من العالمين، وكيف دمر عليهم ديارهم، وجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل.

﴿ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) ﴾.

وأشار سبحانه إلى تكذيب فرعون لموسى ولأصحاب مدين الذين بعث فيهم شعيب بالتوحيد، وبالإصلاح الاقتصادى فقالوا له: ﴿ ... وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ... (٩١) ﴾ [هود].

وبعد أن أشار سبحانه إلى هؤلاء الأنبياء وأقوامهم الذين عاندوا وكفروا وأفسدوا قال سبحانه وتعالى: ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾.

«الفاء» هنا لترتيب ما بعدها على ما قبلها، «أمليت لهم» أعطيتهم ملاوة من الزمان وأمهلتهم، ثم أخذتهم أخذا شديدا، فانظر كيف «نكير» ياء المتكلم محذوفة، فانظر كيف كان نكيرى عليهم، فكيف كان قوم نوح كما أشرقوا أغرقوا، وقوم لوط أهلكوا، وفرعون والملأ معه قد انطبق عليهم البحر، فكانوا من المغرقين.

وعمم سبحانه مآل الجماعات الظالمة، فقال تعالت آياته:

﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (٤٥) ﴾.

«الفاء» عاطفة على قوله تعالى: ﴿ فَأَمْلَيْتُ ﴾، و«كأين» بمعنى «كم» الخبرية الدالة على الكثرة، والمعنى فكثير من القرى، وهى المدن العظيمة بمعنى القبيلة المجتمعة فى المدائن، أو الإقليم، والمعنى كثير من القرى أهلكها الله تعالى بمعنى أهلك أهلها، وأضيف الهلاك إلى المكان؛ لأنه تخرب وتهدم، وسقطت عروشه على جدرانه وخوى، فكأن الهلاك أصابها فى المظهر، وإن كان لا يقع إلا على السكان، وقد ذكر الله سبحانه أن ذلك كان والحال أنها ظالمة، فنسب إليها الظلم، وإن كان من أهلها، وذلك لعموم الظلم فى كل ربوعها، وكل كيانها، فأكل أموال الناس بالباطل، وإشراك بالله، واعتداء على الضعفاء، وعدم إقامة لأى نوع من

أنواع العدل، فلا عدل فى قانون، ولا قضاء، ولا اجتماع، بل فساد فى فساد، وقال تعالى: ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾، ولم يقل ظالمة، للإشارة إلى أن الهلاك جاءها، والظلم محيط بها لا تخرج عنه؛ ولأن فى التعبير بالحال يدل على التلبس به؛ ولأن كلمة «هى» لتأكيد الظلم، ففيه تكرار لذكر القرية، ثم قال تعالى: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾، «الفاء» عاطفة على ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾، و﴿خَاوِيَةٌ﴾ بمعنى الخواء والفراغ وبمعنى السقوط، وإن العذاب الذى كان ينزل بأولئك الظالمين الذين أشركوا بالله، وعاثوا فى الأرض فسادا، كان يجيئهم بصواعق تنزل بهم أو أمطار بحجارة من سجيل، أو نحوها كجعل عالى الأرض سافلها، ومن شأن هذا أن السقوف، وهى العروش المذكورة فى الآية تهوى، ثم تتحطم أو تسقط الجدران من بعد على العروش، ولذا نرجح أن يكون تفسير الخاوية بسقوطها متهدمة على العروش.

﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾، معطوفة على ﴿قَرْيَةٍ﴾، وتعطيل البئر كناية عن فناء الذين كانوا يردون إليها يستسقون منها، ومعهم نعمهم، وغيرها، ومعنى هذا أنه لم يكن أحد من أهلها يأخذ الماء ليحيى به هو ودوابه، بل ذهب كل ذلك، فتعطلت الحياة والأمواه.

﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ مرتفع ومجصص بالجص مزين، أى أنه تعطل كما تعطلت البئر، وأصبح خاويا لا ساكن فيه، وقد بناه للزينة والراحة، فذهب وبقى القصر، أو تهدم كالقرية أو فى ضمنها، وقد أراده للبقاء.

فى الأرض فى الماضين عبرة

قال الله تعالى:

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا
لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا
عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن
قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ
﴿٤٨﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾
وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾

هذه الآيات الكريمة موضحة لما تضمنته الآيات السابقة، وهى شواهد حسية، لما أخبر به العليم الحكيم:

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾.

و«الفاء» فى قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وهى تنبههم إلى السير، وهى مؤخرة عن تقديم لأن الاستفهام له الصدارة، وتقدير الكلام: فألم يسيروا فى الأرض...، وهذا حث لهم على السير للاعتبار بمن سبقوا والاتعاظ بما نزل، ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾، «الفاء» عاطفة ما بعدها على ما قبلها، والاستفهام حث على السير فى الأرض للاتعاظ والاعتبار بمن مضوا، وهذا حث لهم على التعقل، والتدبر، فيترتب على السير أن يتدبروا بعقولهم، ويعملوها للوصول إلى الحق وألا يشركوا به شيئا، ويروا رسوم الديار التى عفَت وأهلكها الله بظلم أهلها، ﴿ أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾، وهذا حث لهم على تعرف أخبار الديار ومن كانوا فيها، وما جرى منهم من ظلم، وما جرى عليهم من هلاك، وخراب أرضهم وديارهم.

ولكنهم لم يعتبروا، ولم يتدبروا أمرهم، ولم يعيشوا حاضرهم على ماضى غيرهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

هذا النص فيه إشارة إلى أنهم وإن كانوا ذوى أبصار تنظر وترى ولكنها عمت عن الحق، ولم تنظره نظرة اعتبار واستبصار، فهم عمت قلوبهم عن الإدراك وكانت غير مبصرة للحق، ولا نافذة إلى لبه ومعناه، وفى الكلام مجاز بالاستعارة إذ شبه عدم إدراك عقولهم للحق وعدم إذعان قلوبهم بالعمى - بجامع عدم الإدراك فى كلٍّ، وقوله: ﴿الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ ترشيح للاستعارة وإبعاد للأبصار عن أن يكون عماها هو المراد؛ لأنها فى الوجوه دون القلوب، والضمير فى ﴿فَإِنَّهَا﴾ ضمير الحال والشأن أى الحال والشأن لا تعمى الأبصار وإن المشركين مع أن الرسوم والآثار تعلن ما نزل بالغابرين، يتحدونك فيستعجلون العذاب، فقال تعالى عنهم:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧)﴾.

السين والتاء للطلب، والمعنى يطلبون العجلة بالعذاب متحدين زاعمين أن ذلك الإنذار لا يقع كما قالوا: ﴿... فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠)﴾ [الأعراف]، وإن هذا التحدى منشؤه غفلة فى نفوسهم وعقولهم، إذ حسبوا أنه لن يجىء، على حسب زعمهم، فأكده الله تعالى بقوله: ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾، فهو جاءٍ لا محالة. وكل ما يأتى واقع وقريب مهما يكن تمادى الزمان، وإن الزمان قريب أو بطىء، هو بالنسبة للعباد، أما عند الله فإنه لا تحكمه الأزمان والأماكن، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾؛ لأن أزمان أهل الدنيا، أعراض لأحوالهم، أما الزمن عند الله فهو غير مقدور ولا معدود؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ فلا تستطيعوا أن تقدروا زمنا لما يعدكم به، فلا يقال لكم هو مائة أو مائتان، ولكن هو محكوم بإرادته وتقديره سبحانه، وهذا

تصوير لإمهال الله فى تقديره، وهو العظيم الحكيم العلى القدير، وتقديره سبحانه، اليوم عند الله تعالى بألف سنة مما نعده بالأيام والليالى، إشارة إلى أنه لا يُعدّ وهو فوق تقديركم، والعرب ما كانوا يعرفون إلا الألف ومضاعفاته عدًّا، روى أن أعرابيا أعطاه الخليفة ألف دينار، فذكر ذلك لبعض صحبه، فقال له: لو طلبت أكثر لأعطاك، فقال الأعرابى: ما كنت أعرف فوق الألف عددا، فذكر الألف تقدير بأكبر عدد نعرفه، أو إطلاق للعدد، فالمعنى أنه ليس لكم أن تتصوروا سنين معدودة، بل إن وعد الله بالعذاب سيجيئكم لا محالة، ولا تتحدوا رسوله، وإنهم يرونه بعيدا، ونحن نراه قريبا.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨) ﴾.

فى الآية السابقة استعجلوا العذاب وتحدوا النبى ﷺ أن يأتيهم به قريبا بعد أن ذكر لهم الله القرى التى أهلكت وهى ظالمة، وفى هذه الآية ضرب لهم الأمثال بمن أملى لهم، وأمهلهم من القرى، وأن ذلك الإمهال قد غرهم أو اغتروا به ولم يفلتوا فقال: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾، فـ ﴿ كَأَيِّن ﴾ هنا كأختها السابقة بمعنى (كم) الخبرية الدالة على الكثرة، أى كم من قرية أهلكناها ﴿ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾، والجملة حالية، أى وهى فى حال ظلم قد أحاطوا بأعمالها من شرك وعتو، وكبر وفساد فى الأرض فأمهلها سبحانه مع بقاء هذه الحال، ثم جاءها العذاب من حيث لا يتوقعون بياتا أو هم قائلون، أو ضحى وهم يلعبون.

ولذا قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾، ﴿ ثُمَّ ﴾ للتراخى ليتناسب التراخى مع الإمهال الذى أملى الله تعالى به لهم، وإضافة الأخذ إليه سبحانه فيه تهديد شديد لأن الآخذ لهم القوى الجبار الذى لا يفلت عن قدرته شىء، ثم قوله تعالى: ﴿ وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾، أى أنهم يصيرون إليه سبحانه، وهو الذى أنذر وأرسل الرسل مبشرين ومنذرين، وهو شديد المحال، يجزيهم بما اكتسبوا من سوء وإيذاء وإضلال.

وقد بين سبحانه وتعالى بعد ذلك أن الرسالة المحمدية مقصورة على الإنذار، وليس عليه أن يؤمنوا، فقال:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٤٩)﴾.

الخطاب للنبى ﷺ، وهو أمر له ﷺ، ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله تعالى حاسما لهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الخطاب للناس كافة، وللمشركين من أهل مكة خاصة، ﴿إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، ﴿إِنَّمَا﴾ للقصر، والقصر هنا لأنهم طلبوا استعجال العذاب ولضلالهم البعيد، ولاستمكان الغفلة عن الحق فى قلوبهم، يقولون للنبى ﴿... فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠)﴾ [الأعراف]، فيقول لهم النبى ﷺ بأمر ربه: إن عملى فيكم، ورسالتى إليكم، أنى نذير موضح مبين لكم الحق والشريعة، والعذاب أمره إلى الله تعالى وحده، وكذلك الثواب والعقاب إليه وحده، وكل امرئ بما كسب رهين؛ ولذا قال سبحانه:

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠)﴾.

«الفاء» تفصح عن شرط مقدر يتبين من الآية السابقة، ومعناه إذا علمتم أنى لكم نذير مبين فقط، فإما أن تطيعوا فتكونوا مؤمنين، وإما أن تعصوا فتكفروا بآيات الله تعالى ونعمه، والجزاء يذكر للمؤمنين إيمانا صادقا ويعملون عملا صالحا، والعمل الصالح ذكرناه فى موضع أنه الطاعات من أوامر ونواه، والقيام بكل ما هو نافع للناس مرضاة لله تعالى، فلا يقصد بنفعهم إرضاءهم، إنما يقصد إرضاء ربهم، فمن يقصد إرضاء الناس فقط قد يرتكب إثما فى سبيل إرضائهم.

وسياق الكلام يتجه إلى أن الكلام كلام النبى بأمر ربه يحكيه الله تعالى عنه، وذكر جزاء المتقين بقوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، المغفرة تنبئ عن رضا الله تعالى عليهم، وهى ذاتها جزاء؛ لأن المؤمن مهما يكن تقيا له هفوات وهنات يحس بها فى ذات نفسه، وكلما أرهف إحساسه الدينى، وكلما هُذِّبت نفسه بالتقوى أَحسَّ بهفواته واستكثرها، واستصغر حسناته، ولقد قال الله تعالى لنبيه:

﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ ... (٢) ﴾ [الفتح]، وما كان له ﷺ ذنب، ولكن الله تعالى يخبر نبيه بمحبته، إن المغرورين هم الذين يستكثرون حسناتهم، ويستصغرون سيئاتهم، وحالهم هذه قد تجرهم إلى العصيان والوقوع فى الشر، وما دام الرجل يستصغر ما فعل من حسنات، فهو لا يُدلُّ بها، ولا يمنُّ على الله، كما حكى عن بعض الأعراب قال: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ... (١٧) ﴾ [الحجرات].

والرزق الكريم بعد المغفرة هو دخول الجنة، فهى ذاتها رزق كريم، وفيها كل ما تشتهى الأنفس، وأنهار جارية من تحت أشجارها، وعسل مصفى، وأنهار من خمر لذة للشاربين وحور عين، وغير ذلك، وكل رزق من الله كريم رزق المتقين إياه، وهو رزق سخى طيب، جزاء ما فعلوا من خير، وكفوا أنفسهم عن الأهواء والشهوات، وهو رزق واسع دائم، ونعيم مقيم.

هذا ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١) ﴾.

﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ ﴾، أى اجتهدوا فى آياتنا لا لإدراكها ومعرفة ما فيها من حجة وبرهان، بل ليغالبونا فيها ويعاجزونا، أى ليبادلونا المناقشة فى إعجازها، ودلالاتها على رسالة محمد ﷺ وعلى وحدانية الله تعالى جل وعلا، وقد قال الزمخشرى فى هذه الآية: «وسعى فى أمر فلان إذا أصلحه أو أفسده بسعيه، وعاجزه: سابقه؛ لأن كل واحد منهما فى طلب عجز الآخر عن اللحاق به، فإذا سبقه قيل أعجزه وعجَّزه، والمعنى سعوا فى معناها بالإفساد من طعن، حيث سموها سحرا وأساطير الأولين، ومن تثبيط الناس عنها سابقين، أو مسابقين فى زعمهم وتقديرهم، طامعين فى أن كيدهم للإسلام يتم لهم».

والمرمى فى هذا الكلام أن هؤلاء المشركين يجتهدون فى آيات الله تعالى متعرفين غايتها ودلالتها لا بصدق وأمانة وإدراك سليم، بل لغاية، وهى معاجزة المؤمنين، وتحويل الأمر إلى جدل عقيم، يحاولون إعجاز المؤمنين فى حجتهم، والمؤمنون يتحدونهم أن يأتوا، وبتحول الأمر إلى مجادلة ضاعت الحقيقة، وتبعثرت فى وسط لجاجتهم فى القول.

هؤلاء بين الله تعالى جزاءهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ الإشارة إلى هؤلاء الذين يسعون لإفساد الحق على أهله، وضياعه فى لجاجة من الباطل يثيرونها، ولكن الحق لا يضيع بلجاجة الباطل، أولئك المتصفون بهذه الصفة بسببها يدخلون النار، وهم أصحاب الجحيم الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه.

الرسول ﷺ بشر صانه الله وعصمه

قال الله تعالى:

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢)﴾.

«التمنى» قال فيه الراغب الأصفهانى فى مفرداته: «والتمنى تقدير شيء فى النفس وتصويره فيها، وذلك قد يكون عن تخمين وظن، ويكون عن روية، وبناء

على أصل لكن لما كان أكثره عن تخمين صار الكذب له أملك وأكثر التمنى تصور ما لا حقيقة له، والأمنية: الصورة الحاصلة فى النفس من تمنى شىء.

و«الرسول» هو الذى يوحى إليه بشرع يكون شريعة للناس، و«النبى» لا يكون له شريعة مستقلة، ولكن يشرح بوحى من الله شريعة رسول كالأنبياء من بنى إسرائيل من بعد موسى، ولقد ورد فى الأثر: «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل».

وإن هذه الآية الكريمة تصور كيف يدخل الشيطان فى قلب الإنسان، إنه يجيئه من ناحية ما يتمناه، وما يجىء نتيجة لهذا التمنى وهى الأمنية، فإذا تمنى ألقى الشيطان بزيفه وتضليله فى نفس المتمنى، ولو كان رسولا مرسلا أو نبيا يوحى إليه، لكن ما يلقيه الشيطان فى نفس النبى أو الرسول ينسخه الله تعالى أى يزيله، ولا يبقى له فى نفسه أثرًا، بخلاف الذين فى قلوبهم مرض، وليست إرادة تكف كإرادة الأنبياء.

وهذا قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ**﴾، أى إلا إذا قدر لنفسه شيئا يريده ويحبه ويتمناه إلا وجد الشيطان لنفسه الذريعة التى ينفذ منها بوسوسته، فيلقى ما يوسوس فى أمنيته ما يتمناه، ولكن النبى له إرادة حاكمة، وفى قلبه نور وهدى، وبهذه الإرادة والنورانية التى قذفها الله فى قلبه يزيل بها الله تعالى ما وسوس به الشيطان، ثم يحكم الله آياته، أى ينزلها محكمة لا ريب فيها، وهدى للعالمين، والله سبحانه وتعالى عليم حكيم، يعلم كل شىء ويدبره.

ويذكر بعض علماء الأثر قصة الغرانيق العلا الذى ادُّعى فيها أن النبى ﷺ سُحِر، وقال عن اللات والعزى: تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى، فهى قصة باطلة كاذبة مهما يكن راويها، ومنزلته فى الرواية، فتصديقها يؤدى إلى الطعن فى الرسالة المحمدية، وتكذيب راوٍ فى قصة مهلهلة خير من تكذيب الرسالة والرسول، ومن يقبلها فهو فى غفلة لا يلتفت إليه، ويجب أن ننبه هنا إلى أمرين:

الأمر الأول ـ أننا لسنا بالنسبة لرواية أحاديث النبى ﷺ ممن يسبقون بالقول فنقدم الشك فى الرواية على تصديقها ما دامت رواية ثقات، ولم يكن من النصوص الثابتة ما يخالفها.

الأمر الثانى ـ أننا لا نقدم ما يرويه الراوى مهما يكن ثقة على نص قطعى غير قابل للتخصيص، فكيف نقدم رواية تؤدى إلى الطعن فى صدق الرسالة المحمدية كلها ككون النبى ﷺ سُحِر، وقال عن اللات والعزى: تلك الغرانيق العلا، فهذا كذب لا يمترِى فى تكذيبه مؤمن.

وننبه أيضا إلى أن الشيطان يأتى قلوب الناس يوسوس فيها من ناحية أمانيهم، وقد أزال تعالى ذلك عن أنبيائه بالنص القرآنى القاطع، وادعاء سحره يناقض ذلك النص القاطع، أما غيرهم فإنه يغويهم لأنهم ليسوا عباد الله المخلصين، والأنبياء بلا ريب من عباده المخلصين، وقال تعالى:

﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣)﴾.

إن الله تعالى عصم الأنبياء؛ لأنهم حملة رسالته إلى خلقه، ويعرفوها نيرة سائغة، أما غير الأنبياء فإنهم أقسام؛ قسم أخلص لله، واستقامت قلوبهم، وهم من عباده المخلصين، وهم الصديقون والشهداء والذين يتبعون النبيين. وقسم آخر فى قلوبهم مرض وضعف إيمان، بما قلدوا واتبعوا أهل الشر، وسلموا أنفسهم لهم، ولم يسلموها لله تعالى. وقسم قست قلوبهم فهى كالحجارة أو أشد قسوة بما مردوا عليه من نفاق، وقد غلفوا قلوبهم، فلا يدخلها نور الحق، وهم المنافقون واليهود شر البرية وهذان الفريقان هم الذين قال تعالى فيهم هذه الآية.

وقوله تعالى: **﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾**، «اللام» هى التى تسمى لام العاقبة، أى لتكون نتيجة ترك الشيطان مسلطا على الناس يأتيهم من قبل أمانيهم، أى يجعل سبحانه ما يلقيه الشيطان من

وسوسة وإغـواء بمسايرتهم فيما يتمنونـه حتى يصلوا إلى ما يرديهم ﴿فِتْنَةً﴾، أى نعاملهم معـاملة المختبر لصنفين من الناس يسـتهويهم بشره، وقد أقـسم ليغوينهم أجمعـين إلا عباد الله المخلصين. والذين فى قلوبهم مرض هم الذين قـد استولى عليـهم الشك، فالشـك مرض القلوب، وهم الذين يتـبـعون آباءهم، ويقـولون: ﴿... بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠)﴾ [البقرة]، فالتقليد من غير تفكـير، ووزن للأقوال مرض كالشك أو يزيد، والقاسية قلوبهم هم اليـهود وغـيرهم ممن يسـتمـسكون بما هم عليه من أقـوال لا تمت إلى التوراة بسـبب، وقد وصفهم الله تعـالى بقسوة القلوب، فـلا تفتح للحق بل هى مغلقة، تسد كل نور لهداية، فقال تعالى فيهم: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)﴾ [البقرة].

وقد رأينا المشركين آمنوا بعد شرك، أما اليهود، فلم يؤمنوا، وعاشوا للدس والخـيانة ونقض العـهود والمـواثيق، وختم الله تعـالى الآية الكريمـة بذكر أوليـاء الشيطان فقال: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾، والظلم وصف يعم ظلم العبادة فيشـمل الشرك، وإن الشرك لظلم عظيم، كـما قال لقمـان الحكيم لابنه، ويشمل ظلم العباد بعضـهم لبعض، ويشمل الخيانة والنميمـة فعل اليهود. ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ﴾، أى كل فـريق منهم فى شق يفـارق الآخر، فـالمشركـون فى شق، واليهود فى شق، والمنافقون فى شق، والنفاق ضروب مختلفة، وكل شق بينه وبين الآخر مسافة بعيدة، ولذا وصف الشقاق كله بأنه ﴿بَعِيدٍ﴾، مختلف فى أجزائه.

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٤)﴾.

«الواو» عـاطفـة، و«اللام» هنا كـ «اللام» هناك، أى لتـكون نتيـجـة إلقـاء الشيطان بوسوسته، للاختبار لمرضى القلوب والقساة الغلاظ، ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من أتبـاع النبيـين الحق، أى أنهم أوتوا علم النبوة من الأنبـياء فنفـوا عن

أنفسهم بما ألقى الله تعالى فى قلوبهم من علم بالصدق والصبر الضابط للنفس ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ﴾، الضمير يعود على القرآن الذى ذكر الله تعالى أنه أحكمت آياته، بعد دفع إغواء الشيطان ووسوسته عن الرسل والأنبياء من وقت مبعثهم إلى أن قبضهم الله سبحانه وتعالى إليه.

وقوله: ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ﴾، فيه قصر، لتعريف الطرفين أى أن القرآن الكريم هو الحق، فليس حديثا يفترى ولا أساطير الأولين، ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾، ولذلك يؤمنون به و«الفاء» للسببية، أى بسبب علمهم يؤمنون به ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾، الإخبات قال فيه الراغب فى مفرداته: الخبت المطمئن من الأرض، وأخبت الرجل قصد الخبت أو نزله نحو أسهل وأنجد، ثم استعمل الإخبات استعمال اللين والتواضع، والمعنى تواضعت قلوب المؤمنين، ولم تمار فى الحق قلوبهم، بل أخبتت وسكنت إلى الحق.

و«الفاء» فى قوله تعالى: ﴿فَيُؤْمِنُوا﴾ فاء السببية أو عاطفة على العلم الذى أوتوا، وكذلك «الفاء» فى قوله تعالى: ﴿فَتُخْبِتَ﴾، ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، أى أن الله من شأنه جل جلاله أن يهدى الذين آمنوا بأن سلكوا إلى الطريق الأقوم أو شرعوا فيأخذ الله بأيديهم، والصراط هو الطريق المستقيم، وهو صراط الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ... (١٥٣)﴾ [الأنعام].

وقد أكد سبحانه هداية الله تعالى المؤمنين إلى الصراط المستقيم بـ«إنَّ» المؤكدة وبـ«اللام» وبـ «الجملة الاسمية».

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥)﴾.

﴿وَلَا يَزَالُ﴾ معناها استمر، وكأنه كان يتوقع بتوالى الأدلة، وتضافر الإثبات أن يزول ريبهم، ولكنه لم يزل بل استمر، والمرية: الشك، والضمير فى

﴿ مِّنْهُ ﴾ يعود على القرآن، فبينما الذين أوتوا العلم وهبوا اليقين أنه الحق من ربهم وخالقهم وذارئهم، ولا يمكن أن يكون إلا حقا لتوالى التحدى وتوالى العجز، ﴿ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾، وإنهم مستمرون على هذا الشك ﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾، أى القيامة وينتهى الكون، وهم فى ضلالهم القديم، ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾، فى هذا اليوم الذى وصفه الله تعالى بالعقيم، وأنه لا خير فيه، ولا ثمرة تنتج منه، ويحتمل أن يكون يوم القيامة ويكون عقمه فى أن كل يوم له يوم يعقبه، وكأنه عقبه الذى أنجبه، أما يوم القيامة فليس له تال يكون كالعقب له، والسياق يجافى ذلك؛ لأن الساعة يوم القيامة و﴿ أَوْ ﴾ تقتضى أن يكون اليوم العقيم غيره، ويحتمل أن يكون يوما كيوم بدر، ووصف بأنه عقيم؛ لأن فيه قطعت أرحام قطعها المشركون، وفيه حرمت النساء من أولادهن فصاروا كأنهم لم يلدوهم، ولأن يوم بدر وأشباهه يوم حرب، ويوصف رجاله ومقاتلوه بأنهم أبناء الحرب، والحرب لا تنتج، فهى عقيم، ثم هو لا خير فيه للمشركين، فهو يوم عقيم، ويقال كما فى القرآن الكريم: ﴿ ... الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) ﴾ [الذاريات]، أى لا مطر فيها ولا خير.

هذا، وإن الكافرين يستمرون فى مريتهم، والشك حيرة واضطراب، حتى تأتيهم الساعة أو يأتيهم يوم يقاتلون فيه، ولا خير فيه يعود عليهم، بل شر مستطير، فهو يوم عقيم، والله يهدى من يشاء بإذنه.

الملك لله يوم القيامة

قال الله تعالى:

ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا
لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ
الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ
اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾

﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦)﴾.

﴿الْمُلْكُ﴾ فى يوم القيامة لله وحده، فليس لأحد فى ذلك سلطان ولو صوريا كسلطان أهل الدنيا، ولا حكم، ولو تحكميا، كحال الملوك المستبدين، ولا رقابة لأحد غير الله تعالى، كل الملك لله وحده فلا طاغوت ولا طغيان، ولا حكم لغير الله، والتنوين فى ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ينبئ عن مضاف إليه يناسب المقام، وهو يوم القيامة والجزاء والحساب، والمعنى على ذلك يكون الملك المطلق يوم تقوم القيامة، وينصب الميزان، ويكون الحساب ومن بعد الثواب والعقاب، وذلك فيه إنذار شديد بأن المؤمنين ومخالفيهم يلاقون ربهم، ويواجهون أعمالهم، ويفصل بينهم سبحانه بالحق والقسطاس المستقيم.

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، «الفاء» للإفصاح عن شرط مقدر، والمعنى إذا كان الله تعالى هو الحكم وحده ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، من عبادات، وطاعات للأوامر والنواهى، وعمل صالح نافع للناس لا يقصدون به إلا وجه الله، ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، الإضافة هنا بيانية، أى فى جنات النعيم الدائم الخالد المقيم.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥٧)﴾.

هذا جزاء المؤمنين عندما يلاقون ربهم أما الذين كفروا من المشركين وأهل الكتاب، وكذبوا بآياتنا، وعبر بالموصول فى الكفر والتكذيب بآيات الله؛ للإشارة

إلى أن سبب الجزاء هو كفرهم برسالة محمد ﷺ وتكذيبهم لآيات الله، وتكذيب آيات الله تسجل تكذيبهم للآيات القرآنية، أى تكذيبهم للقرآن مع عجزهم عن أن يأتوا بمثله، وتكذيبهم لدلالة الآيات الكونية الدالة على وحدانيته وإبداعه فى خلقه.

وأضاف سبحانه وتعالى الآيات لذاته العلية لبيان عظيم افترائهم، وأنهم فعلوا ذلك استعلاء واستكبارًا، ولذلك وصف الله سبحانه وتعالى العذاب النازل بهم بأنه عذاب مهين مذل ملقٍ بهم فى الهوان؛ لاستعلائهم على الحق وآيات الله.

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) ﴾.

هذه الآية فيها حث على تجميع المؤمنين فى لواء واحد، وكل مؤمن مدعو للهجرة إلى تجمع المؤمنين، حتى لا يكون المؤمنون مبعثرين فى الأرض، فالمستضعف فى أرض عليه أن يهاجر إلى موضع تجمع المؤمنين، فليس لمؤمن أن يعيش ذليلا للاستضعاف فى أرض عدو لا يستطيع أن يقيم شعائره الإسلامية فيها، فقد قال تعالى: **﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩) وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٠) ﴾** [النساء].

فالهجرة ليصل إلى جماعة المؤمنين أو ليقاتل ويجاهد ما زال بابه مفتوحا وفيه ثواب الجهاد والهجرة، وحديث «**لا هجرة بعد الفتح**»(١)، يراد به الهجرة من

(١) رواه البخارى: لا هجرة بعد الفتح (٣٨١٢) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، كما رواه مسلم(٤٧٨٧)، ولفظه عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ عَنِ الْهِجْرَةِ؟ فَقَالَ: «لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ. وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا».

مكة إلى المدينة، فقد صارت مكة أرضا للإسلام، لا يهاجر منها إلا للجهاد فى المدينة والتجمع كما يكون فى المدينة يكون فى مكة.

وإذا كانت الهجرة مطلوبة من أرض فيها ضعف إلى حيث العزة الإسلامية والجهاد، فالذين هاجروا فى سبيل الله تعالى ليجتمعوا مع المؤمنين ويجاهدوا معهم لهم جزاء؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أى كانت هجرتهم فى سبيل الله، أى إن ذات الهجرة للجماعة الإسلامية جهاد فى ذاته، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا﴾، العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ الدالة على التراخى فى موضعه؛ لأن قتلهم ليس عقب الهجرة، ولا موتهم، بل إنهم يعيشون مقيمين مع المؤمنين ما شاء الله أن يقيموا مجاهدين حتى يستشهدوا فى قتال أو يموتوا حتف أنوفهم، وقد بين الله تعالى جزاءين أحدهما فى الدنيا، وقد بينه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

أقسم الله سبحانه بأنه يرزقهم رزقا حسنا، أى طيبا سخيا، يغدق الله تعالى فيه عليهم من خيره، من الفىء وغنائم الحرب، فإن الله تعالى جعل رزق المجاهدين فى ظلال سيوفهم، وشكاة سلاحهم، وفى سنابك خيلهم، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾، والله أكرم الرازقين. وأفعل التفضيل ليس على بابه، بل إن الله تعالى رزقه فى أعلى درجات الرزق، هذا هو جزاء الدنيا، فإن الهجرة من أرض الذل إلى أرض العزة فى سبيل الله يكون فيه الرزق.

أما الجزاء الأخروى فقد ذكره سبحانه بقوله عز من قائل:

﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩)﴾.

أقسم سبحانه وتعالت قدرته، فقال: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ﴾، أى ليدخلنهم الله، وكأنهم ضيوفه يوم القيامة، وأكد ذلك بـ «القسم» و «لامه» و«نون» التوكيد، ﴿مُّدْخَلاً﴾، اسم مكان، وصفه بأنهم ﴿يَرْضَوْنَهُ﴾، يستطيبون نعيمه، ويفكهون فى خيره، وهو الجنة التى تجرى من تحتها الأنهار، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾، بأحوال خلقه يعلم مؤمنهم وكافرهم، وهو حليم يغفر السيئات

بالحسنات، كما قال تعالى: ﴿ ... إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ... (١١٤) ﴾ [هود]، والخلق جميعا قبضته يوم القيامة.

نصر الله تعالى وقدرته العليا، وعلمه

قال الله تعالى:

ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ
مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى
ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ
﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن
دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ
مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠) ﴾.

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ﴾ الآية، الإشارة إلى البعيد، من قوله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ... (٣٩) ﴾ إلى آخر ما جاء بعد ذلك من جزاء أهل الحق فى الدنيا والآخرة، وجزاء أهل الباطل فى الدنيا والآخرة ذكر الله سبحانه وتعالى أن من يرد الاعتداء بمثله، ﴿ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ ﴾، أى إذا بُغى عليه بعد ذلك ﴿ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ ﴾.

وسمى سبحانه رد الاعتداء عقابا للجانى، وذلك حق؛ لأنه أوذى فيعاقب المؤذى بمقدار، ولكن سمى الاعتداء عقابا وذلك من قبيل المشاكلة اللفظية، وليتم القصاص بين الجانى والمجنى عليه بالتساوى، وإن الله يذكر أنه بعد العقاب برد الاعتداء بمثله، لا يصح للمعتدى أن يعاود اعتداءه؛ لأن ذلك يكون بغيا وظلما، ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾، وكان التعبير بـ ﴿ثُمَّ﴾ للإشارة إلى بعد ما بين مرتبة القصاص العادل والبغى الظالم، وإن الله تعالى ينصر العادل على الباغى.

﴿لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ الضمير يعود إلى من بغى عليه، وقد أكد الله تعالى نصره للمعاقب المقتص، بالقسم و«لام» القسم، وبـ «نون» التوكيد الثقيلة كما يعبر النحويون.

وختم الله تعالى الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ العَفُوُّ «فعول» من العفو، أى أنه سبحانه وتعالى كثير العفو، وهو صفة من صفاته جل وعلا، أو اسم من أسمائه، فهو يعفو عن كل تقصير، وكل مخالفة ليست ذنبا، وهو غفور يغفرها إذا كانت مما لم يأثم بالنفس، ويكسبها إعتاما وإظلاما، بل يكون بجواره حسنات تكشف ظلمتها، وتكون مع ذلك توبة نصوح تَجُبُّ السيئات.

وقد قيل: لماذا ختمت الآية بالعَفُوِّ الغفور، مع أن النصرة لدفع الظلم، وذلك يقتضى اسم القدرة والقهر؟، ومعاذ الله أن يكون المفسرون قد يتطاولون على عبارات القرآن الكريم، ونقول: المناسب هو العفو الغفور، بالنسبة للباغى، والمعاقب، ذلك أن الحرب فى عصر النبى ﷺ، وما قام به الصحابة والتابعون من بعده ما كانت حرب دماء وغلب، بل كانت حرب هداية وإرشاد، وتعليم، ورفع للظلم، ورحمة للعالمين؛ ولذلك دعا الله تعالى إلى العفو فيها فقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦)﴾ [النحل]، وقال تعالى فى هذا المقام أيضا: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (٤٣)﴾ [الشورى]، وقال: ﴿...فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ... (٤٠)﴾ [الشورى]،

وهكذا أكثرت الآيات التى طالبت بالعفو مع القصاص، فكان القصاص سائغا، والعفو والتسامح والصفح مندوبا إليه، كما قال تعالى ﴿... فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥)﴾ [الحجر]، ولذا كان ختم الآية بالعفو والغفران له موقعه، وهو من الأسلوب الحكيم الذى لا يعلو إليه متكلم فى الأرض، فهو يحث على العفو كما حثت الآيات الأخر، وهو يبين أن حرب الإسلام العادلة يؤثر الله فيها الصفح من أهل الإيمان ما كان سبيل إليه، إذ إنها ليست للانتقام، وإلا تكررت الحروب، فهذا الفريق يقتصّ، ثم الفريق الآخر يبغى، ويتوالى القصاص والبغى، وفتح باب العفو يغلق باب الحرب، ما دام الحق يمكن إقامته بغير توالى القتال، القتال عادلا، أو باغيا.

وقد صور الله تعالى دفع الباطل بالحق، وكون النصر والقتال له يكون دولة بإيلاج الليل فى النهار، فقال تعالى:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١)﴾.

الإشارة إلى نصر الله لمن يبغى عليه بعد أن دافع عن نفسه، والولوج الدخول فى مضيق كما جاء فى قوله تعالى: ﴿... حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ... (٤٠)﴾ [الأعراف]، وجاء فى المفردات قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ تنبيه على ما ركب الله عز وجل العالم من زيادة الليل فى النهار، وزيادة النهار فى الليل، وذلك بحسب مطالع الشمس ومغاربها.

والمعنى أن هذا تنبيه لاختلاف مدار الأرض حول الشمس، وقربها أو بعدها بجعلها قريبة نسبيا بقدر ضئيل، فيطول النهار، وبعيدة نسبيا بمثله فيطول الليل، وكل شىء عند ربك بمقدار، وهو الكبير المتعال المالك لكل شيء، والمسير للكون بإحكام، وبنواميس لا تتخلف، كما اختار العزيز الحكيم العالم بكل شىء ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ «أن» معطوفة على ﴿بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ إلى آخره،

﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما يجرى فى الكون، يعلم علم من يسمع، و﴿بَصِيرٌ﴾ يعلم علم من يبصر لا يغيب عنه شىء فى السماء ولا فى الأرض.

ويسأل سائل هنا: لماذا ذكر سبحانه وتعالى ذلك فى هذا الموضع من نصره سبحانه وتعالى لمن بُغى عليه؟، وأنه سبحانه وتعالى يعفو عمن يترك ما يؤذيه إليه سبحانه، ويغفر له، والجواب عن ذلك أن الله تعالى ذكر أمرين أو أشار إليهما:

الأمر الأول ـ أن الله سبحانه ينصر من بغى عليه وأكد سبحانه وتعالى نصره، بالتوكيدات التى ذكرناها فى موضعها.

والأمر الثانى ـ أن الله تعالى يندب إلى العفو والتسامح عند القصاص، وفى هذا النص السامى الكونى يشير سبحانه إلى أنه يجعل النصر والهزيمة دولة بين الناس، والقوة والضعف دولة بين الناس كما يجعل الليل يدخل فى النهار، والنهار يدخل فى الليل، فيزاد هذا تارة وينقص أخرى، فعلى الدولة المنتصرة أن تذكر أنها قد تنهزم، فلا تغالى فى القصاص، بل تفتح زاوية للمعروف من العفو والتسامح.

وبذلك يدعو الإسلام إلى أن لا تكون الحروب الإنسانية قاطعة مانعة لكل سلام، بل يجب أن يشع نور السلام فى وقت الحروب العادلة، إلا أن يكون العدو شرسا كاليهود أعداء الإنسانية.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢)﴾.

الإشارة إلى معنى الآية السابقة من نصره سبحانه لمن بغى عليه مع دعوته إلى العفو إذا كان له موضع، ويفتح باب السلام ولا يغلقه، ما لم يكن مطمعا للباطل فى الحق، أى كان ذلك بإجازة القصاص مع فتح الباب بالعفو، ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾، أى بسبب أن الله هو الحق، والله تعالى هو الحق لأنه منشئ الكون، وناصر الحق والداعى إليه، وهو المعبود الحق الذى لا إله غيره؛ ولذا وصف بأنه

الحق، وأنه هو الخالق الحق، والواحد في ذاته وصفاته، والمعبود بالحق، لذلك أخبر عنه بأنه الحق، والتعبير بقوله: ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ يفيد القصر، أي أنه لا حق غير الله، فكل ما عداه باطل، لأنه إلى فناء.

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾، أي ما يعبدون من آلهة غيره باطلة؛ لأنها لا تضر ولا تنفع، وليس لها من وجود في ذاتها؛ إذ هي جماد، لا يتحرك إلا إن تحرك.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ الذي لا يساميه موجود، ولا يناهده أحد، إذ الجميع خلقه، وهو القاهر فوق العباد، وهو ﴿الْكَبِيرُ﴾، فهو واجب الوجود المطلق، وكل شيء يستمد منه وجوده فهو وحده الكبير، والنص السامي يدل على انحصار العلا والكبر بذاته وصفاته فيه وحده، ودل على اختصاصه بذلك التعبير بقوله ﴿هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ تعريف الطرفين فإنه يدل على القصر، فكان العلاء والكبرياء مقصورين عليه وحده، إذ كل مخلوق سواه مستمد وجوده منه، ووجوده غير باق، فهو سبحانه الباقي وحده، وهو وحده واجب الوجود.

وبين سبحانه نعمه على خلقه، فقال عز من قائل:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣)﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾، الاستفهام هنا للتنبيه، وقد جاء على صيغة الاستفهام الإنكاري الدال على نفي الوقوع، وهو داخل على «لم» النافية ونفي النفي إثبات، والمعنى لقد رأيت بنظرك وعلمك ﴿أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾، والسماء هنا ما علاك، فليست أجرام السماء من شمس وقمر وكواكب في أبراجها، وتماسكها، إنما المطر ينزل من سحاب قريبة دانية أو بعيدة قاصية، وذلك بينه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ

يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ (٤٤) ﴾ [النور].

فهذا النص الكريم يوضح نزول المطر من السحاب المتكاثف بقدرة الله تعالى وما كانت لتدرّه إلا بأمر الله، وإنه ينزل المطر إلى الأرض لتعمل أيدى الزراع فتبذر البذور وترجو الثمار من الترب، وتخضر الأرض، ولذا قال تعالى: ﴿فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾، «الفاء» عاطفة، وهى للتعقيب، وبظاهر اللفظ يكون الاخضرار عقب نزول المطر بلا تراخٍ فى الزمن، وكيف يكون وثمة تراخ بإنبات البذر وظهور عيدانه، وصيرورة الأرض مخضرة؟، والجواب عن ذلك أن التراخى فى أعمال العباد، وليس من الله، بل إن إرادة الله لا تراخى فيها، إنما هى أن يقول كن فيكون؛ ولأن التعبير بـ «الفاء» التى تفيد الفورية فيه تنبيه إلى عجائب الله فى الخلق والتكوين، إذ يكون من التلاقح بين الماء والأرض اليابسة نبات مخضر تزدان به الأرض، وتكون ذات منظر بهيج، وقد وصف سبحانه الأرض بأنها مخضرة إذ اختفت طينتها، ولم تبد إلا خضرة زرعها، والاخضرار للزرع لا لها؛ ولكن لأنه فيها سنح أن توصف هى بالاخضرار باعتبار ما فيها، ولأنه صار لها كسوة باهرة زاهرة.

وختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾، أى لطيف بعباده عليم علما دقيقا علم خبرة بما ينفعهم ويقوم به عيشهم، فيوفقهم له.

وجملة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾، فى مقام التعليل لإنعامه بهذه النعم الكثيرة المتوالية نعمة تلو أخرى.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤)﴾.

هذه الجملة فى مقام التعليل للآية السابقة، أى أن الله ينزل من السماء ماء فتصبح الأرض اليابسة مخضرة تكون بهجة للناظرين؛ لأن الله تعالى ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾، وله ما فيها، وهو سبحانه وتعالى غنى عن عباده، فهو

غير محتاج إليهم وهم محتاجون إليه فالله هو الغنى، ونحن الفقراء إليه، ولأنها فى معنى التعليل لما تضمنته الآية السابقة كان الفصل بينهما ولم يكن وصل بـ«الواو» و«اللام» للملكية، فالله تعالى مالك لما فى السموات من شمس وقمر ونجوم مسخرات بأمره، ومالك لما فى الأرض من جبال ووهاد، وزروع وثمار، وحيوان وأنعام، وإبل وأفراس، وما فى باطنها من فلزات ومعادن وكنوز، وما فيها من لآلئ وجواهر، ولحم طرى، كل ذلك لله، لأنه خالقه، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ وتعريف الطرفين فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ يدل على القصر والاختصاص، فالله وحده هو الغنى، وجميع الوجود محتاج إليه سبحانه، والحميد بمعنى المحمود، فهو «فعيل» بمعنى مفعول، فهو وحده المستحق لأن يُحمد، ولا يحمد فى الوجود سواه.

وقد تأكد غناه سبحانه جل جلاله، بـ «إنَّ» الدالة على التوكيد، وبـ «اللام» فى قوله: ﴿لَهُوَ﴾، وبضمير الفصل، وبتعريف الطرفين كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر]، وكل الوجود يحتاج إليه سبحانه، وهو لا يحتاج لشىء فى الوجود.

فضل الله على خلقه

قال الله تعالى:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ
بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ
ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ
ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾
لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ

فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٦٥)﴾.

الاستفهام هنا للإنكار بمعنى نفى الوقوع، وهو داخل على «لم» النافية، ونفى النفى إثبات، فهو بيان لأن الله سخر ما فى الأرض، والمعنى قد سخر الله لكم ما فى الأرض، وكأن الاستفهام هنا مع النفى تنبيه؛ لأن الله تعالى ذلل ما فى الأرض لكم، وقدم ﴿لَكُم﴾ على المفعول وهو ﴿مَّا فِي الأَرْضِ﴾، لبيان أن التسخير من الله تعالى لكم، ليذلل كل ما فيها لإرادتكم ورغباتكم، ومعاشكم، فكل ما فيها طاهرا فوق أرضها من زروع وثمار، وغابات، وجبال ووهاد، وما فى باطنها من معادن وكنوز، وفى بحارها من لآلئ، ولحم طرى، كل هذا سخره الله تعالى وذلله لكم، فهى نعم تنادى من أُنعم عليه بها بشكرها، وذكر أمرا فى الأرض، وخصَّه بالذكر، لوضوح نعمته تعالى فيه، ﴿وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾، فهذه الفلك تجرى فى البحر بإذن الله وأمره وتسييره لها سبحانه وتعالى أنها ﴿بِأَمْرِهِ﴾ مع أن كل شىء بأمره، وذلك لأنها فى مرأى تسير فى البحر ماخرات عبابه، لا يسيّرها شىء إلا الهواء، فإن التعبير ﴿بِأَمْرِهِ﴾ فى هذا مسايرة لمرأى العين ومجرى الريح، وهى آية من آيات الله تعالى، ولذا قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٣٢)﴾ [الشورى] وهى تجرى فى البحر ناقلة ما تحمل من خيرات الأرض إلى أقاليم أخرى، ولذا قال فى آية أخرى: ﴿... وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ ... (١٦٤)﴾ [البقرة]، فهى تصل الناس بعضهم ببعض بالمتاجر، والرحلات والتعارف والاتصال الدائم بينهم.

وإن الله رفع السماء عن الأرض بغير عمد ترونها، ولكنها مربوطة بقوى الجاذبية والقصور الذاتى، وحفظ الله توازن الكون، وإنه بهذه النواميس الكونية التى تسرى بأمره، والتى خلقها سبحانه، بحفظ الكون، ويمسك السماء أن تقع على الأرض؛ ولذا قال: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، أى يمسك السماء من أن تقع على الأرض، لأنها بغير عمد ترونها، إنما يمسك سبحانه بقوى ونواميس خلقها، «وأن تقع» مجرورة بمن، وقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤)﴾ [الانفطار].

وإن هذا التوازن الكونى بين السماء والأرض ليعيش الناس فى أمن واطمئنان من حوادث الكون، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الرءوف من «رؤف»، والرحيم صفة مشبهة للرحمة، والرأفة أصلها رقّة القلب، والشفقة بالناس، والرحمة من الناس تشمل معنى الإنعام الذى يناسب الناس، أما الرأفة بالنسبة لله تعالى فهى ما يقتضيه اتصافه بالكمال، وتنزيهه سبحانه عن المشابهة بالحوادث، وهو أنه سبحانه يقدم ما يكون إنعاما عليهم فى مشاعرهم وأحاسيسهم، والرحمة الإنعام والإحسان فى عامة أمورهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، أى يعاملهم معاملة من يرأف بهم ويشفق عليهم، ومعاملة من ينعم عليهم ويرحمهم فى عامة أمورهم، وإن هذه الجملة السامية فى مقام التعليل لما سبق من تصرفه فى الكون، وقد أكد سبحانه رأفته ورحمته بهم، بعدة مؤكدات، أولها، ﴿إِنَّ﴾، وثانيها تقديم ﴿بِالنَّاسِ﴾، وثالثها بـ «اللام»، ورابعها بالتعبير بالصفة المشبهة، وذكر سبحانه بيان قدرته فيهم فقال عز من قائل:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦)﴾.

الضمير يعود على الله جل جلاله، وهى معطوفة على قوله تعالى: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ﴾، وقد ذكر سبحانه فضله تعالى، وهو المنشئ المنعم فى ثلاثة أدوار:

الدور الأول ـ أنه هو الذى أمدنا بالحياة ذاتهـا فأخرجنا من التراب، ثم من نطفة، إلى أن جـعلنا فى أحسن تقويم، وأمـدنا بما يبقى حياتنا من نبـات وثمار، وحيوان يأكل مما تنبت الأرض، وعبَّـر سبحانه بقوله: ﴿**وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ**﴾ وقد أشار سبحانه وتعالى إلى عناصر الحياة التى تمدها بالبقاء بإرادته فى آيات أخر.

الدور الثانى ـ الموت، بعد أجل مـسمى من ابتداء الحـياة، وهذا محـسوس مرئى يحدث كل يـوم، ولذا قال تعالى: ﴿**ثُمَّ يُمِيتُكُمْ**﴾ وقد عبـر بالمضارع؛ لأنه مستمر متجدد يُرى كل يوم، ولا يرتاب فيه مرتاب، لأنه مرئى بالعيان.

الدور الثالث ـ الحياة بعـد الموت، وهو البعث والنشور، وقد عبر سـبحانه وتعالى عن ذلـك الدور بقوله: ﴿**ثُمَّ يُحْيِيكُمْ**﴾ وعـبر بالمضـارع؛ لأنه واقع فى المستقـبل يؤمن به من يؤمن بالغيب، ومن يعلم أن الإنسان لم يخلق عـبثا، ولكن لأن هذا الدور ليس مشـاهد الآن بالعيـان أنكره الكافرون، لأنهم قـالوا: أئذا متنا وكنا ترابا ﴿... **أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا** (٤٩)﴾ [الإسراء]، ولكن الله الذى خلق الإنسان من تراب، وأمـده بكل عناصر الحـياة والبقـاء أخبر بـأنه هو القادر الذى خلقـهم وأحيـاهم، وأنه يعيـدهم كمـا بدأهم ﴿... **كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ** (٢٩)﴾ [الأعراف]، ولكنْ المشركـون وهم كثيرون لـم يؤمنوا بالبعث وكـفروا به، ولذا قال تعالى عقب ذلك: ﴿**إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ**﴾، أى يجحد الدور الأخير؛ لأنه لا يؤمن إلا بالأمر المحسوس، وإنما ذلك أمر مـغيب، والفرق بين الكافر والمؤمن أن المؤمن يؤمن بالغيب، والكافر لا يؤمن إلا بالحس، وقد أكد سبحانه كفر الكافر بالغيب، أولا بـ ﴿**إِنَّ**﴾، وثانيا بـ «اللام»، وثالثا بالصفة المشبهة «كفور».

و﴿**الإِنسَانَ**﴾ هنا هو الذى لا يؤمن بالغيب، ويلاحظ فى التعبير بـ ﴿**ثُمَّ**﴾ أنها للتراخى، ففترة ما بين الحياة والموت ليست قصيرة يعمل فيها ما يحاسب عليه بالعقاب أو الثواب، وكذلك الفترة بين الموت والحياة الثانية.

إن أهل الديانات التى تنتـمى لأصل سمـاوى يعتـرضون على الإسـلام بما اشتمل عليه من أحكام ليست عندهم، فرد الله تعالى كلامهم بقوله تعالى:

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ (٦٧)﴾.

المنسك مكان النسك وهو العبادة، أو مصدر ميمى، والمراد العبادة أيضا، ويقرر أكثر المفسرين أن النسك هو شرائع النبيين، كقوله تعالى: ﴿... لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ... (٤٨)﴾ [المائدة]، فالله تعالى جعل لكل أمة شريعة جاء بها نبيها، وجاءت شريعة مهيمنة على كل الشرائع، وخاتمة لها، وناسخة لما يخالفها، ولو كان موسى بن عمران حيا ما وسعه إلا اتباع محمد ﷺ؛ لأن شريعته هى خاتمة الشرائع الإلهية، وقوله تعالى: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾، أى العابدون الله تعالى على منهاجه، والضمير يعود على النسك، وناسكوه كما أشرنا: سالكون طريق العبادة الذى سن فيه.

﴿فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ﴾، «الفاء» للإفصاح، أى إذا كان لكل أمة دين، فلا ينازعنك فى الأمر، و«لا» ناهية، والنهى لمن يحتمل أن يكون للنبى ﷺ ومعناه النهى عن تمكينهم من منازعته، وردهم فى هذه المنازعة والمجادلة، وربما يؤيد هذا قوله تعالى من بعد فى الآية التالية: ﴿وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨)﴾، فمضمون النهى عن عدم الالتفات إليهم، والسير على منهاجه، ولذا قال سبحانه بعد ذلك: ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، أى امض فى طريقك داعيا إلى ربك العليم بكل عمل، وبكل قول حقا أو افتراء، وهذا النهى كقوله تعالى: ﴿وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ... (٨٧)﴾ [القصص]، ثم أكد سبحانه مضيه وعدم التفاته إليهم بقوله: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾، أى وإنك فى نسكك وشريعته لمستمكن من الهداية المستقيمة تمكين من يعلو على الهداية، فالتعبير بقوله تعالى: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى﴾ أنك متمكن من هدايتك تمكن من كان فوق الهداية مستمكنا منها كالقائم عليها والجالس عليها ووصف سبحانه الهدى الذى استمكن منه ﷺ واقتعده بالاستقامة، والاستقامة وصف للحق، ولكل هداية.

هذا هو الاحتمال الذى يكون النهى فيه موجها للنبى؛ لأنه ﷺ صاحب رسالة الله تعالى، وحاملها، وهو المخاطب بتكليفات الرسالة، وليس المخالفون مخاطبين إلا عن طريقه.

وقد ذكر المفسرون احتمالا آخر، ورجحه كثيرون، وهو أن يكون النهى للمخالفين المعترضين، ونراه بعيدا، وإذا كان الله ينهاه عن المنازعة؛ لأنه لا موضوع لها إذ لكل دين نسكه وشريعته، وإن شريعة محمد ﷺ عامة ناسخة ما يخالفها، فقد نهاه أيضا عن الجدل معهم، فقال عز من قائل:

﴿ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) ﴾.

الجدْل إحكام فتل الحبل، وإحكام البناء، والجدال فى مسائل الحق والباطل إحكام كل مجادل قوله ليستطيع أن يزيف الحق أو أن يزيف كلام خصمه، وإنه شاع فى قول الباطل، والمجادلة فى الحق، وهذا النوع من الجدال من شأنه أن يبعثر الحق، ويشكك فيه، وقد كان الإمام مالك رضي الله عنه ينهى عن الجدل فى الحقائق، وكان يقول: كلما جاء رجل أجدل من رجل نقص مما جاء به محمد ﷺ، وقد أمر الله تعالى ألا يجادل المشركين واليهود، وأن يفوض أمورهم بعد أن تبين لهم الحق الذى يجب اتباعه، ودلائله من آيات الله المتلوة والكونية، وأمره أن يقول لهم: ﴿ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾، وهذا فيه تهديد لهم على عملهم، ومؤداه لا تحاولوا تبرئتكم فى أعمالكم بالملاحاة والمجادلة، فالله أعلم بعملكم.

وأفعل التفضيل هنا ليس على بابه، فلا مفاضلة فى علم الله تعالى، إنما المعنى أن الله يعلم بما تعملون علما ليس فوقه علم وإن علم الله بأعمالكم سيبينه يوم القيامة، فقال عز من قائل:

﴿ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) ﴾.

إذا كان الله تعالى هو الذى يعلم عملهم علما ليس فوقه علم، فهو الذى يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون، وخاطبهم الله تعالى بقوله: ﴿ اللَّهُ

يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩)﴾ الخطاب للذين جادلوا النبى ﷺ، وأمره الله تعالى بالإعراض عنهم، وألا يلتفت إليهم، وهم كانوا مختلفين فيما بينهم، فاليهود مختلفون مع المشركين، واليهود مختلفون فيما بينهم فى عقائدهم؛ فمنهم صدوقيون لا يؤمنون بالبعث، ومنهم ربانيون، ومنهم قراء، والمشركون واليهود مختلفون مع النبى ﷺ، والله تعالى يحكم بين هؤلاء أجمعين، وإن الجحيم مأوى الكافرين به.

الله خالق الكل والعليم بما خلق

قال الله تعالى:

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٧١) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (٧٢) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ (٧٤)

ذكر الله تعالى فى الآيات السابقة أن الله تعالى هو الذى يحكم بين الكافرين والمؤمنين فيما خالفوا فيه، ويحكم بين الكافرين من أهل الكتاب فيما يختلفون فيه فيما بينهم، وكل باطل، بعد هذا الذى ذكره سبحانه بالعبارة وبالإشارة ذكر أنه حكم عالم لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء، فقال عز من قائل:

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠) ﴾.

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ ﴾ معناها: قد علمت، وبينا كيف استخلص ذلك المعنى السامى، الاستفهام الإنكارى الداخل على فعل منفى، وسياق القول: قد علمت يا محمد علما مؤكدا يقينيا ﴿ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ من عقلاء وأناس مكلفين، وما مكَّن لهم فيهما، وماذا فعلوا فيما سخر لهم، فإذا كان هو الله الذى يحكم بينهم فحكمه هو الفصل، وهو خير الفاصلين، وإنه مع علمه سبحانه المحيط، قد سجل ذلك فى كتاب وهو اللوح المحفوظ، وهو الكتاب الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وقد بين الله تعالى الحكم والإحصاء فى كتاب سهل يسير على الله تعالى، فقال تعالت كلماته: ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾، أى سهل لا يحتاج إلى معاناة من الله العلى الكبير، بل إنه سهل عليه سبحانه، وإن الحكم الفاصل يقع منه فى ساعات أو لحظات.

هذا هو الحق، وإنه سيلاقيهم يوم يعلم كل إنسان ما قدمت يداه، ولكن المشركين فى عماء عن الحق؛ ولذا قال تعالت كلماته:

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٧١) ﴾.

الضمير فى ﴿ وَيَعْبُدُونَ ﴾ يعود إلى الكافرين الذين سيطرت عليهم الأوهام والأهواء والتقليد، فيعبدون ما لم تنزل به حجة ترشدهم إلى عبادته، والسلطان فى قوله: ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾، أى حجة نقلية نزلت من عند الله تعالى، وسميت سلطانًا؛ لأنها تكون قوة تجعل لمن نزلت له قوة تجعل ما عنده قويا

كالسلطان ولكن لم ينزل شيء من ذلك، وإذا كان لم ينزل دليل نقلى من عند الله بعبادته، هل لديهم برهان عقلى ينتج يقينا؟ نفى الله تعالى ذلك أيضا فقال تعالى: ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ﴾، أى ليس لهم به برهان عقلى يسوغ عبادتهم، بل إن البرهان العقلى يؤدى إلى نقيضه؛ لأنه لا يسمع ولا يبصر، والقانون العقلى يوجب أن يكون المعبود أعظم من العابد، فكيف يعبدون جمادًا، وهم أحياء، وهو لا يعقل، وهم يعقلون؟!!.

إذا لم يكن عندهم دليل من عند الله أنزله فكان لهم سلطان، ولا علم عقلى فإن ذلك يكون ظلما؛ ولذا ختم الله سبحانه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾، وإذا كانوا يعبدون ما لا دليل عليه من نقل أو عقل، ويشركون مع خالقهم فى العبادة، وهو الواحد الأحد، فإن ذلك لأنفسهم ولقولهم ضلال وفساد، وقد نفى الله تعالى أن يكون لهم نصير أىَّ نصير؛ إذ لا يمكن أن يكون نصيرا أمام قوة الله.

ومن لاستغراق النفى أى ليس نصير أىَّ نصير من ملك أو إنسان.

ونشير هنا إشارة بيانية فى قوله تعالى: ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ﴾ فيه أن كلمة ﴿لَهُم﴾ قدمت على ﴿عِلْمٌ﴾، وهى المبتدأ؛ للدلالة على أنهم تهجموا من غير علم فقدَّم عقابه فى الاهتمام، وللدلالة على ضلالهم، وقدم ﴿بِهِ﴾ على ﴿عِلْمٌ﴾ للدلالة على إمعانهم فى الضلال وظلمهم للحق، والله ولىُّ المؤمنين.

وإن هؤلاء الذين سيطرت عليهم الأوهام، وتحكمت فيهم الأهواء والتقليد الأعمى لا يلقون آيات الله تعالى بما يستحق من عناية، بل يقابلون بالاستنكار والسخرية، فلا يهتدون ولا يفتحون قلوبهم لدخول الهداية، ولذا قال تعالى عنهم:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢)﴾.

إن حال هؤلاء الذين يعبدون من دون الله ما لا دليل عندهم يسوغ عبادته إلا أن تكون الأوهام التى تضلل الأفهام ـ من شأنهم ألا يستمعوا إلى الحق، بل يعرضون عنه إعراضا؛ ولذا قال عز من قائل: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ﴾ الآيات هنا آيات القرآن المنكرة فإذا تتلى عليهم تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر ـ يصح أن يفسر المنكر هنا بالإنكار ويكون من قبيل المصدر الميمى، كالمكرم بمعنى الإكرام، وتكون معرفة الإنكار من الوجوه بالتهجم، والغيظ، ويصح أن يكون المنكر هو حال وجوههم من التغيظ والبسور، والاستفظاع، وسميت هذه الحال، ﴿الْمُنكَرَ﴾؛ لأنها فى ذاتها أمر منكر، إذ لا يتلقون الحق بالتفهم والتدبر، بل يبادرون برده ردا عنيفا مستكبرين، قد غلظت أعناقهم، وتجهمت وجوههم ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ السطو: الوثب للفتك بالذين يتلون، كما حاولوا أن يسطوا بأبى بكر الصديق، وكما حاول الجاهلون بالسطو على المستضعفين من المؤمنين، وقال تعالى: ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾، مع أنهم سطوا بالفعل، ونقول: إن ذلك حكم عام، والسطو الفعلى كان من بعضهم، لا من جميعهم، وما كان من التلاوة فقط، بل كان من اعتناقهم الإسلام مع هذه التلاوة، فالمقاربة بالنسبة لجميعهم، لا بالنسبة لبعضهم.

وقد أمر الله تعالى نبيه الكريم أن يقول لهم: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، الإنباء الإخبار بأخبار خطيرة لا تسرهم بل تضرهم، والتنبيء كالإنباء بيد أن اللفظ ينبئ عن خطر ما تضمنه، و«الفاء» فى ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم﴾ فاء الإفصاح عن شرط، تقديره مثلا أئذا كنتم تتجهمون من التلاوة أفأنبئكم بشر من هذه التلاوة، وهذا نوع من التهكم بهم وإنذارهم بالإنذار الشديد، والعقاب العتيد، وبيان لمقابلة التهجم من القرآن والإعراض عنه بأنه يستقبلهم بما يوجب الغيظ والتجهم، والبسور أشد وأفظع، وهو النار أنذر الله تعالى بها الذين كفروا، وعبر بالموصول للإشارة إلى أن الصلة وهى الكفر، والإعراض عن الآيات البينات (هى سبب الحكم)، وإنها نار لا نهاية لعذابها، بل

هم خالدون فيها، وهى مصيرهم الذى لا ينتهى، ولذا قال تعالى: ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ بئس من أفعال الذم، ومع أنها جامدة فهى من الألفاظ الدالة على البؤس، فالنار مصير هو بؤس.

وقد بين الله سبحانه ضلالهم فى اعتقادهم الباطل الذى لم يُبن على علم نقلى أو عقلى بمثل عظيم، فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ﴾.

الخطاب عام للناس وقالوا: إنه إذا كان النداء: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ كان يعم الناس عامة والمشركين خاصة، وإن موضوع القول، وهو عبادة الأوثان يجعل الخطاب للمشركين أَمَسّ وأقرب، و﴿ ضُرِبَ ﴾ معناها: بُيِّن، والمثل الحال والشأن، ففيه تقريب حال بحال، فحال ضعفهم الشديد صورها سبحانه بأنهم لعجزهم ﴿ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ فحالهم حال عجز عن خلق أى حى، ولو اجتمعت الأوثان كلها، وكيف تُعبد، وهى لا تستطيع خلق الذباب، ولو اجتمعت له كل هذه الآلهة التى يعبدونها من دون الله تعالى، و﴿ لَن ﴾ هى لتأكيد النفى، وذكر ضمير الأوثان ضمير عقلاء على زعمهم وتفكيرهم، وليسوا أحياء فضلا عن أن يكونوا عاجزين، وعبر سبحانه عن حال عجزهم بالمثل، كأنه مثل مضروب سائر، وبيّن ذلك الزمخشرى فقال: «قد سميت الصفة أو القصة الرائعة الملقاة بالاستحسان والاستغراب مثلا تشبيها لها ببعض الأمثال المسيرة لكونها مستحسنة مستغربة». وإن هذا التصوير السامى الذى سماه جل جلاله مثلا، هو برهان على عدم صلاحيتهم للألوهية؛ لأنها عاجزة محتاجة، والمعبود قادر غير عاجز.

﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ هذا النص السامى دل على أن هذه الآلهة أعجز من الذباب؛ لأنه يعدو عليها؛ لأنه لو أخذ منها شيئا على سبيل

السلب لا يستطيعون أن يستردوه منه، فهو القادر عليها، و﴿يَسْتَنقِذُوهُ﴾، السين والتاء للطلب، أى لا يستطيعون بأكثر جهد وطلب أن ينقذوه منه؛ لأنها لا قوة لها فى أى ناحية، فهى جماد لا يتحرك، ولكن الوهم هو الذى جعل لها قوة فى نظرهم الذى لا يبصر، وَسَوَّل لهم الشيطان عبادتها.

ونقف هنا وقفة قصيرة، فنسأل الذين ينكرون وجود الله، وهم ملاحدة هذا الزمان الذين يحسبون إلحادهم يقوم على فلسفة عقلية: لقد اختبرتم الكون وعلمتم علمه، وعرفتم النواميس التى خلقها الله، وإن كنتم تحسبونه ظواهر للأشياء، وعلوتم إلى داخل الفضاء حتى وصلتم إلى القمر وإلى المشترى، وعلمتم تكوين الأشياء وأجزاءها وعناصرها، فهل استطعتم أن تخلقوا ذبابة، إن لله فى كل شىء آية، فآمنوا به ولا تنكروه.

لم تستطع آلهتهم أن تستنقذ ما يسلبه الذباب، ولو بذلت أقصى الجهد إن كان لها جهد، ولذا قال تعالى: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾، ﴿الطَّالِبُ﴾ هو الأوثان فإنها لا حياة فيها ولا قوة لها، ﴿وَالْمَطْلُوبُ﴾ وهو الذباب فهو حيوان ضعيف يستحقر فى أعين الناس ولكنه مخلوق لله يضرب به المثل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ... (٢٦)﴾ [البقرة]، فسر بعض السلف الطالب بالعابد والمطلوب بالصنم، فضعيف الفكر والعقل والإدراك يدعو ضعيفا فى ذاته لأنه جماد، وكلا الرأيين معقول.

﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤)﴾.

هذه الآية نتيجة للآيات السابقة؛ ولذلك كان الفصل بدل الوصل، فبينهما ما يشبه علاقة العلة فى الحكم بالمعلول، أو المقدمة والنتيجة.

إن هؤلاء الذين خضعوا لأوهامهم فعبدوا حجارة لا تنفع ولا تضر، وبالأولى لا تخلق ذبابًا، ولو اجتمعت أصنام كل أمة وثنية ما عرفوا الله حق المعرفة، ولا أدركوا كماله وجلاله حق الإدراك، ولا عرفوا معنى الألوهية حق

المعرفة، إن الله تعالى هو القادر الخالق، وهو الواحد فى ذاته وصفاته، وليس فى الأوثان من هذا، والله تعالى قوى قاهر، ولا يمكن أن يكون عاجزًا؛ ولذا عرف الله تعالى رب العالمين بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، أى قوى قادر على كل شىء، عزيز غالب لا يحتاج لشىء، ويحتاج إليه كل شىء، وهو العليم القدير.

وأكد سبحانه قوته بـ﴿إِنَّ﴾ الدالة على توكيد الحكم، وبـ «اللام» فى قوله تعالى: ﴿لَقَوِيٌّ﴾ وبـ «الجملة الاسمية»، سبحانه إنه القاهر فوق عباده.

الرسل مصطفون، والرسالات الإلهية متصلة

قال الله تعالى:

ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ
رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٧٥﴾ يَعۡلَمُ
مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٧٦﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ
رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ ﴿٧٧﴾
وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ
عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ
ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ
وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ
وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝ ﴾.

﴿ اللَّهُ ﴾ ذو الجلال والإكرام، ﴿ يَصْطَفِي ﴾، أى يختار من صفوة خلقه ﴿ مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً ﴾ كجبريل الأمين روح القدس، اختاره ليكون رسولا لأنبيائه ورسله الذين اختارهم أيضا من صفوة عباده، فاختار سبحانه من الملائكة من يبلغون عن الله تعالى مصطفين من الناس ليتلقوا رسالة الله إلى الناس، فالذين اختارهم من صفوة الملائكة ما اختارهم تعالى إلا ليبلغوا خلقه، وكل ذلك بأمر الله وباختياره، وإن هؤلاء المختارين من الملائكة يبلغون إما بالوحى وإما برسل يرسلون، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ... ۝ ﴾ [الشورى].

وإن الله تعالى لا يختار لهذا المنصب الأقدس منصب التبليغ عن الله تعالى إلا من كانوا فى أعلى القداسة والنزاهة النقية ﴿ ... اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ...۝ ﴾ [الأنعام]، ولذا قال تعالى مبينا أن الله تعالى لا يصطفى إلا عن علم من لا يخفى عليه شىء، فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾، أى أن الله عليم علما يقينيا هو علم من يسمع، فهو السميع، وعلم من يبصر فهو البصير.

ولقد أكد سبحانه إحاطة علمه فقال تعالى:

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ۝ ﴾.

﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ وهو الحاضر المهيأ، وسمى بين أيديهم، لأنه أمامهم، فشبه علم حاضر بما يكون مهيأ معدا، ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ الخلف يطلق على ما هو خلف الإنسان وهو ضد القُدَّام، فهو يطلق على الماضى والقابل، وهو الذى يخلفه من بعده، ولعله من الخلافة، وقد فسر بالقابل الذى لم يقع، ويكون المعنى يعلم حاضرهم، وقابلهم الذى يخلف ذلك الحاضر والضمير فى قوله تعالى: ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾، قيل: يعود إلى الرسل، والظاهر أنه يعود إلى الذين يبلغهم الرسل فالضمير يعود إلى كل الناس، ولذا عقب الآية بقوله: ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ

﴿الأُمُورُ﴾، أى أن الأمور كلها ترجع إليه وحده يوم القيامة، ليحاسب كل نفس بما كسبت، وتجد كل نفس ما عملت محضرا، من خير أو من شر، ويكون له وحده الجزاء، وفى تقديم الجار والمجرور بيان أن المرجع إليه وحده، وله وحده الحساب، وهو بكل شىء عليم.

بعد ذلك خاطب الله تعالى الذين آمنوا برسالة محمد ﷺ، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧)﴾.

واضح كل الوضوح أن النداء للرسول وأتباعه، وليس لكل الناس، فالناس يدخلون فى النداء إذا آمنوا ومن يؤمن بالرسالة المحمدية فهذا تكليفها، وهو الصلاة، واختصت بالابتداء لأنها عمود كل دين، ولا دين من غير صلاة وإن اختلفت أشكالها فى الديانات السماوية وكلٌّ طريق إلى الله واتجاه إليه سبحانه، ولأن الصلاة هى العبادة التى تنصرف فيها النفس والجوارح إلى الله وحده، ولأنها امتلاء النفس بذكر الله تعالى؛ ولأنها إذا أديت على وجهها من قيام وخشوع كامل، وضراعة صادقة، واستحضار النفس لكل معانيها، لا تقع من الإنسان المنهيات، كما قال تعالى فى خاصتها: ﴿... إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ... (٤٥)﴾ [العنكبوت]، وخص الركوع والسجود بالطلب مع أن الصلاة لها أركان قراءة وتكبير، وركوع وسجود، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾؛ وذلك لأن الركوع والسجود هما المظهر الحسى للخضوع لله تعالى خضوعا كاملا، ولأنهما لا يسقطان عن المكلف قط، فالقراءة قد تسقط عن المكلف إذا كان يصلى مؤتما بإمام قارئ، وتسقط عند العجز عن القراءة، أما الركوع والسجود فلا يسقطان فإن لم يستطع الصلاة قائما، صلى قاعدا، وإذا لم يستطع الصلاة بحركات صلى بالإيماء، وإلا فهو فى عفو الله، وروى أن بعض الشافعية أجاز الصلاة بالإيماء بالعينين، ولأنهما لا يسقطان فكانا رمزا للصلاة كلها.

وبعد الصلاة أمر سبحانه وتعالى بالعبادات كلها، وهذا من قبيل ذكر العام بعد الخاص، فيشمل ذكر العبادة الصوم والحج، والكفارات والنذور، والزكاة، والصدقات المنثورة، وأن يعبد الله تعالى فى كل عمل يعمله، بأن يقصد به وجه الله تعالى، فالعامل فى مصنع أو فى متجر أو فلاحة الأرض يقصد وجه الله ونفع الناس، فيكون فى عبادة مستمرة، ويصدق عليه قوله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب الشيء لا يحبه إلا لله**»(١).

وقد أمر سبحانه وتعالى بفعل الخير أمرا مطلقا غير مقيد ولا محدود فقال عز من قائل: ﴿**وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾، الخير كل عمل يكون فيه نفع للناس، ويتفاوت الخير فيه بتقارب مقدار النفع، فالنفع الكثير يكون الخير بقدره، ونفع أكبر عدد يكون الخير كله، مع القيام بالعبادات على شتى فروعها وكل أنواعها.

وقال تعالى: ﴿**لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾، أى رجاء أن تفلحوا وتفوزوا فى الدارين فى الدنيا فتكونوا خير الناس؛ لأن النبى ﷺ يقول: «**خير الناس أنفعهم للناس**» والرجاء من العباد لا من الله؛ لأن الله تعالى لا يرجو بل يعلم وينفذ. إنه عليم حكيم.

ونرى أن الآية ابتدأت بالأمر بتطهير النفوس بتوجهها إلى الله تعالى فى الصلاة والعبادة، ثم اتجهت الأوامر إلى نفع الجماعة وأن يكون كل واحد عنصر نفع إنسانى فيها.

ثم اتجهت من بعد إلى ما فيه حماية الأمة الإسلامية ونشر دعوتها، فقال تعالى:

﴿**وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ**

---

(١) سبق قريبا.

وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨) ﴾.

هذا تكميل ما جاء فى الآية السابقة، ففى الآية السابقة كان التدرج من الأمر بتطهير النفس، وملئها بالله تعالى فى الصلاة والعبادة، ثم فعل الخير لأكبر عدد ممكن فى الأمة، وفى هذه الآية المطالبة بالنفع الإنسانى بتبليغ الرسالة المحمدية رسالة الإنسانية للناس جميعا، وذلك بالدعوة إلى الإسلام، وهو جهاد، وتذليل العقبات فى سبيل هذه الدعوة، وإزالة كل المحاجزات التى تحاجز دونها، ولو كان ذلك بالحرب؛ ولذا قال تعالى: ﴿ **وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ** ﴾.

الجهاد مفاعلة ببذل الجهد، فالمؤمن يبذل جهده فى الدعوة إلى الله، والمقاوم من الكفار يبذل جهده فى الصد عن سبيل الله، ومقاومة الحق.

وقوله تعالى: ﴿ **فِي اللَّهِ** ﴾، أى الجهاد لأجل ذات الله وابتغاء مرضاته فـ﴿ **في** ﴾ هنا تفيد السببية، كما فى الحديث الشريف: «**دخلت امرأة النار فى هرة**»[1]، والإتيان بـ ﴿ **في** ﴾ بدل «الباء» أو «من» فيه معنى إحاطة الله تعالى بالجهاد بأن يكون كله لله تعالى، وقوله تعالى: ﴿ **حَقَّ** ﴾ الإضافة فيه بيانية، أى الجهاد الحق الذى يكون من غير إرادة الفخر، أو ابتغاء دنيا يصيبها، وحق الجهاد أن يخلص النفس من أدران الهوى، وإرادة إراقة الدماء، وأن يجاهد المقاتل نفسه أولا، فيقيها عن شهواتها، ويبعد عنها نزغات الشيطان، وأن يجاهد للحق ورفعته، ويكون الجهاد أحيانا أمام الحكام الغاشمين، ولقد قال النبى محمد ﷺ: «**أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**»[2]، وإذا قتله يكون خير الشهداء.

---

(١) عن ابن عمرَ رضىَ الله عنهما، وعن أبى هريرة، عن النبىِّ ﷺ قال: «دَخلَت امرأةٌ النارَ فى هرَّة ربطَتْها، فلم تُطعمْها، ولم تَدَعها تأكلُ من خشاش الأرض». رواه البخارى: (٣٢٤٨)، ومسلم (٦٩٣١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

وحق الجهاد ألا يرفع السيف فى سبيل الدعوة الإسلامية إلا إذا تعذرت الإجابة بالتى هى أحسن، وإلا بعد البيان، ومحاجزة أهل الباطل بين الدعوة المحمدية والناس، ولذلك كان الجهاد فى الإسلام ليس للشعوب، ولكن لمعسكر السلطان الذى يحول بين الدعوة الإسلامية والشعوب، وإذا وصلت الدعوة إلى الشعوب فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما ربك بظلام للعبيد، فلا إكراه فى الدين، قد تبين الرشد من الغى.

ويقول سبحانه مشيرا إلى الحقائق الإسلامية، ومبينا أن الأمة الإسلامية هى المختارة لهذه الدعوة فقال تعالى: ﴿**هُوَ اجْتَبَاكُمْ**﴾، أى اختاركم من سائر الناس، أى اختاركم واصطفاكم، ونقول هنا: هذا خطاب لكل المسلمين على أنهم الأمة المختارة للتوحيد والدعوة إليه، والجهاد فى سبيله، أم أن المخاطب هم العرب على أساس أن البعثة المحمدية كانت فيهم، وأن الله اختار نبيه منهم، وأنهم الذين حملوا الدعوة، وقد بينا لماذا كان الاجتباء فى كتاب خاتم النبيين.

ومعنى ﴿**اجْتَبَاكُمْ**﴾، من الجَبْى بمعنى الجمع، يقال: جبى الخراج، بمعنى جمعه، واجتباه، افتعال من جبى، فهو سبحانه وتعالى جمع الناس جمعا كاملا، وخص بعض هذه الجموع بالخير، فكان المجتبى، وإن الله تعالى اجتبى العرب أو المسلمين بعامة، ليكونوا حاملى الدعوة، والمجاهدين ابتداء فى سبيلها، ومنع المحاجزات التى تعترض طريقها بكل طرق الجهاد، وقد قال ﷺ: « **جاهدوا المشركين بأنفسكم وأموالكم، وألسنتكم**»[(١)].

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى أعذار الجهاد، فقال عز من قائل: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾ ومع أن هذا النص يشير إلى أن الجهاد مفروض على كل القادرين يشير إلى أصحاب المعاذير كالذين فى قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ**

(١) سبق تخريجه.

لَتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢)﴾ [التوبة].

فقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ فيه إشارة إلى أن فرضية الجهاد مرفوعة عن أصحاب المعاذير وقت عذرهم، وهى فى الوقت ذاته قاعدة عامة فى معانى الشريعة الإسلامية، والحرج أصله الضيق بين الأشياء المجتمعة فهو الضيق فى صدور الناس وفى تكليفاتهم.

والشريعة الإسلامية جاءت لنفع الناس وجلب الخير لهم، «**وخير الدين أيسره**»(١)، كما روى عنه ﷺ، وقد روت أم المؤمنين عائشة عن أعمال النبى ﷺ، فقالت ما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما، ذلك أن الشاق يصعِّب على المؤمن المداومة، والمداومة تربى فى النفس عادة الطاعة، وتكون لها فى النفس مجار تنير الخير، ولذلك روى فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: «**أحب الأعمال أدومها وإن قل**»، وروى عنه أنه قال: «**إن الله يحب الديمة من الأفعال**»، ونهى عن التشدد فى الدين، وقال: «**لا تشددوا، ولكن سددوا وقاربوا**»، وقد وصل الله تعالى شريعة محمد ﷺ بشريعة إبراهيم أبى العرب لتقريبها إليهم، فقال:

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾، ﴿مِّلَّةَ﴾ منصوب على الاختصاص، أى أعنى ملة أبيكم إبراهيم عليه السلام، وسمى أبا للعرب، وإن كان أبا لبعضهم؛ وذلك لأن العرب جميعا كانوا يتفاخرون بالانتساب إليه، ولأنه بانى البيت الحرام الذى كان مناط عزة العرب أجمعين، ولأنه أب بالفعل لقريش الذين ابتدأت الدعوة المحمدية فيهم، وكان ذكر هذه الدعوة الكريمة تقريبا وتأليفا، وإدناء من الإسلام، ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾، الإشارة إلى القرآن، وسماهم المسلمين من قبل فى مثل ما حكاه الله تعالى من دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا

(١) رواه الطبرانى فى الكبير، عن عمران بن حصين رضى الله عنه، ورجاله رجال الصحيح، ولفظه: «خَيْرُ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ». مجمع الزوائد (٧٣٨٥).

مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ... (١٢٨) ﴾ [البقرة] وسمى القرآن المتبعين لمحمد ﷺ كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ...** (١٩) ﴾ [آل عمران].

قوله تعالى: ﴿ **لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** ﴾ «اللام» وما بعدها متعلق بقوله تعالى، ﴿ **وَجَاهِدُوا** ﴾، والمعنى جاهدوا لأجل أن يكون الرسول شهيدا عليكم بأنكم بلغتم وأديتم الأمانة التى أودعها الله ونبيه إياكم، فيشهد الرسول بأنكم أديتموها حق أدائها، ورعيتموها حق رعايتها، وإن رسالة نبيكم والقرآن فيهما شهادة للأنبياء أجمعين ومعجزاتهم، ومن أطاعوا ومن كفروا، وأنتم بهذا تكونون شهداء بأن بلغتم لهم رسالات الله مؤيدة بمعجزاتها، وأن منهم من آمن ومنهم من كفر.

ولأن لهم هذه المنزلة، ومقامهم من رسالة محمد ﷺ والرسائل السابقة أمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فقال تعالت كلماته: ﴿ **فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ** ﴾، «الفاء» للإفصاح عن شرط مقدر تقديره إذا كانت لكم هذه المكانة، فادرعوا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والاعتصام بالله فأمرهم بإقامة الصلاة وقال: ﴿ **فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ** ﴾ ائتوا بها مقومة خالصة لوجه الله تعالى بأركانها من ركوع وسجود وقعود خاشعين لله مستحضرين لذاته العلية، إذا ذكرتموه وإذ كبرتم، ﴿ **وَآتُوا الزَّكَاةَ** ﴾، وقد جمع سبحانه بذلك بين التهذيب الروحى بالصلاة، والتعاون الاجتماعى بالزكاة، ثم أمر بالاتفاق على طاعة الله تعالى فقال: ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ** ﴾ الاعتصام الاستمساك، فمعنى الاعتصام بالله الاستمساك به، بأن يكونوا مستمسكين بأوامره ونواهيه، ومستمسكين بذاته العلية لا يفكرون إلا فيه، ولا يبتغون غيره، ويلتفون حول شريعته غير منفصلين عنه، وهو نعم المولى ونعم النصير؛ ولذا ختم السورة بقوله: ﴿ **فَنِعْمَ الْمَوْلَى** ﴾ الذى تكون له ولاية المؤمن لا يوالى غيره ولا يواد من يحادّ الله ورسوله، ﴿ **وَنِعْمَ النَّصِيرُ** ﴾ الناصر، فلا ناصر فى الشدائد، ولا منجى سواه.

* * *

سورة المؤمنون

تمهيد:

هى سورة مكية نزلت قبل الهجرة، وعدد آياتها ١١٨ (ثمانى عشرة ومائة آية)، قيل أنها نزلت بعد سورة الأنبياء، وقد ابتدأت بأوصاف المؤمنين الذين كتب الله تعالى لهم الفلاح والفوز فى الدنيا والآخرة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧)﴾، ثم بين سبحانه أن رعاية الأمانة والعهد من أوصاف أهل الإيمان، وأشار إلى أن الذين وصفوا بهذه الأوصاف هم ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)﴾.

وبين سبحانه أصل خلق الإنسان من سلالة من طين، ثم جعله سبحانه نطفة فى قرار مكين، ثم خلق النطفة علقة، ثم خلق من العلقة مضغة، فخلق من المضغة عظاما، فكسا العظام لحما، ثم أنشأه خلقا آخر ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦)﴾، ثم إنكم يوم القيامة مبعوثون.

ولقد بين بعد ذلك خلق الكون، فأنشأ فوق الأرض سبع طرائق، ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨)﴾، ثم بين سبحانه نعمه تعالى فيما أنشأ به الماء من جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه ومنها

تأكلون، ثم ذكر ما أنعم الله به من شجرة الزيتون التى تنبت فى سيناء، وبين نعم الله تعالى فى الأنعام، والعبرة فى أنه سبحانه وتعالى يسقينا ما فى بطونها، وما فيها من منافع، ونأكل من لحمها.

وذكر سبحانه وتعالى خبر قوم نوح وكفرهم وما آل إليه أمرهم بعد أن صنع الفلك ونجا هو وأهله ومن اتبعه، ثم بين سبحانه أنه بعد أن أغرق قوم نوح أنشأ من بعدهم قرنا آخرين، وأرسل فيهم رسولا وكذبوه، وكان ما سوغوه لأنفسهم من كفر أنه بشر مثلهم، وأنه ينذرهم بالبعث، فقالوا: ﴿**هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧)**﴾. ورموا رسولهم بالكذب وقالوا: ﴿**إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨)**﴾، فاتجه رسولهم إلى ربه يستنصر به، قال: ﴿**قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠)**﴾.

ثم بين بعد ذلك ما نزل بهم من عذاب ساحق ﴿**فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١)**﴾.

بعد ذلك أشار الله تعالى إلى قصة موسى وهارون وإرسالهما ﴿**إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦)**﴾، استغربوا أن يؤمنوا لموسى وهارون، وقومهما مستعبدون لهم، فكذبوهما، وكانوا من المهلكين، ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩)**﴾، وجاء من بعد موسى عيسى ابن مريم، ﴿**وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠)**﴾.

وبعد ذلك وجه الله تعالى خطابه للرسل عامة فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢)**﴾ لنبين بذلك وحدة الرسالة الإلهية، ولكن الناس تقطعوا أمرهم وكل حزب بما لديهم فرحون، واغتر الأكثرون بما أوتوا من مال وبنين، ﴿**أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ (٥٦)**﴾.

ويذكر سبحانه حال المؤمنين الذين اتبعوا الرسل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١) وَلا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٢)﴾.

ويبين سبحانه بعد ذلك ظلم الظالمين، وأنهم فى غمرة من هذا القرآن، ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون، وأن الترف هو الذى أفسد نفوسهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧) أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (٧٤)﴾.

وإن الرحمة تطغيهم، وكشف الضر يعميهم، ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦)﴾، وإنهم يتحيرون إذا أنزل الله تعالى عليهم عذابا.

ومن بعد ذلك يبين سبحانه فضل الإنشاء، وقدرته فى الإحياء والإماتة، واختلاف الليل والنهار: ﴿أَفَلا تَتَّقُونَ﴾، بل قالوا مثل ما قال الأولون: ﴿قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٨٣)﴾.

يوجه سبحانه وتعالى أنظارهم إلى خلق السموات والأرض وما فيهما، وَمَن رب السموات السبع والأرض ورب العرش، ومن بيده ملكوت كل شيء وهو يجير

ولا يجار عليه وسيقولون فى كل هذه الأسئلة المنبهة بأنها لله سبحانه وتعالى: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢)﴾.

وقد أمر الله تعالى بأن يدعوهم هو ومن تبعه ﴿وَقُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (٩٥)﴾، ويأمرهم سبحانه بالدعوة إلى الحق ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ولا يحاربهم فى حمقهم ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ (٩٨) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠)﴾.

ثم يذكر بعد ذلك يوم القيامة، وكيف يبتدئ بالنفخ فى الصور ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١)﴾، وإن الميزان بعد ذلك يقام ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤)﴾، ويبين لهم كيف كذبوا بآيات الله ويجيبون مدعين، ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦)﴾، ويتجهون إلى ربهم طالبين أن يخرجهم، وأنهم لا يعودون، فيجابون: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ (١٠٨)﴾.

ويبين سبحانه وتعالى فريق الصالحين، وأنهم يعاملون بما قدموا، ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١)﴾.

ويبين سبحانه أن أمد الدنيا قصير فى علم الله مهما يطل فى علم الناس، وإنهم لا يحسون معدود ما يلبثون فى الدنيا، ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤)﴾.

وقد بين الله تعالى حكمة البعث فقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾.

وختم سبحانه وتعالى السورة ببيان واسع سلطانه، وكفر من يشرك به فقال عز من قائل:

﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧) وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١١٨)﴾.

معانى السورة

المؤمنون حقا

قال الله تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ②
وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ
فَاعِلُونَ ④ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ⑤ إِلَّا عَلَىٰ
أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ⑥
فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ⑦ وَالَّذِينَ هُمْ
لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ⑧ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ
يُحَافِظُونَ ⑨ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ⑩ الَّذِينَ يَرِثُونَ
الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ⑪﴾

هذه أوصاف المؤمنين حقا وصدقا، وهم الذين يفوزون بجنة الفردوس، ويخلدون فيها، وهم الذين يفلحون أمام الله، وقد أكد فلاحهم بقد، التى لم تستعمل فى القرآن الكريم إلا للتحقيق، وتأكيد القول، وقد عبر بالماضى، مع أن دخول الفردوس، والفوز سيكون بعد يوم القيامة والحساب؛ إذ من بعد ذلك يكون الثواب بالفوز بالفردوس، وذلك لتأكد الوقوع، وأنه لا محالة سيكون كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ... ①﴾ [النحل].

وقد ذكر الله تعالى فى هذه صفات للمؤمنين بها تتنزه نفوسهم وجوارحهم.

أولى هذه الصفات الخشوع فى الصلاة، وقد قال تعالى فى هذه الصفة: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ②﴾ الخشوع: الضراعة وخضوع القلب، ومن

مظهر الخشوع فى الصلاة ألا يلتفت المصلى يمينا أو شمالا بأن يكون كل اتجاهه إلى الله تعالى قلبا ونفسا وإحساسا، وجوارح، والخشوع فى ذاته محله القلب، والجوارح مظهره، وروى عن النبى ﷺ أنه رأى رجلا يعبث بلحيته فى الصلاة، فقال: «لو خشع قلب هذا الرجل لخشعت جوارحه»[1]. وإن الخشوع يتضمن أن يكون المصلى قد عمر قلبه بذكر الله تعالى، وإذا عمر قلبه استحضر الله فى كل أركان الصلاة وأحس بأنه فى حضرة الله تعالى، فلا يحس بسواه.

وابتدأ بهذا الوصف؛ لأنه الطهارة النفسية والقلبية التى هى الأصل فى تربية المؤمن.

والصفة الثانية: الإعراض عن اللغو، وقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ** ③﴾ جاء فى مفردات القرآن للراغب الأصفهانى «اللغو من الكلام، ما لا يعتد به وهو الذى يورد لا عن روية وفكر، فيجرى مجرى اللغا، وهو صوت العصافير، ونحوها من الطيور.. قال تعالى: ﴿**لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا** ㉕﴾ [الواقعة].

وإن سماع اللغو من القول يهون فى النفس الأمور الخطيرة، ويجعلها فى حال عبث ولهو، ومع الإكثار من سماع اللغو تنماع النفس انمياعا، ولا تقوى على تحمل مشاق التكليفات الشرعية، وما تقتضيه من صبر، وضبط نفس، ولا يكون رجلا نافعا أبدا، وتقديم (عن اللغو) يفيد أهمية الإعراض عن اللغو، وأنه لا يعرض إلا عن اللغو، لتكون كل نفسه للجد من الأمور والمشاركة فى الأعمال النافعة، والإعراض يفيد البعد عن اللاغين، وعن مجالسهم... ألا فليعتبر الذين يجعلون حياتهم لهوا ولعبا وعبثا.

والصفة الثالثة: إيتاء الزكاة، ولقد ذكر سبحانه هذه الصفة بقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ** ④﴾.

المعروف فى تعبير القرآن الكريم أنه يعبر عن الزكاة بقوله عز من قائل: ﴿**وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ**﴾، وهو مناسب لمعناها؛ لأن الزكاة عطاء، وفضلها فى إيتائها، ولكن

(١) رواه الحكيم عن أبي هريرة رضى الله عنه. الفتح الكبير (١٠٠٣٠): ج٣/ ٤٥.

هنا عبر عنها بـ (فاعلون). قال الزمخشرى فى هذا لِمَنْ يُعطى، ومعنى من المعانى ينسب للمعطى على أنه فعلها، فهو قد فعل الأمر المعنوى، وهو أنه أخرج الزكاة راضيا بالعطاء، ونقول إنه يرشح لهذا المعنى أن الآيات كلها تتجه إلى النواحى المعنوية، لا إلى مجرد الأعمال الحسية، والزكاة لها ناحيتها المعنوية، وهو أن يدفعها طيبة نفسه، راضية يحسبها مغنما، ولا يعدها مغرمًا، وهذا هو الخير فيها، فإن الأمة تكون بخير ما عدت الزكاة مغنما ولم تعدها مغرما، وأن المعطِى لها يغنم من العطاء أكثر مما يعطيه المعطَى له من مال.

وإن ذلك يكون أعلى درجات الإحساس بالتعاون الإنسانى والاجتماعى والإسلامى.

الوصف الرابع العفة: والمحافظة على النسل، وهذا ما عبر الله تعالى عنه بقوله:

﴿الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦)﴾.

الفروج جمع فرج، وهو عضو التناسل عند الرجل وعند المرأة، واللام لتقوية التعدية بسبب تقدم الفروج على اسم الفاعل (حافظ)، وحفظ الفروج يتضمن ثلاثة معان:

أولها ـ معنى الصيانة، فهو يصونها عن رجس الحرام، ورجس الحرام معنوى ومادى. أما المعنوى فهو ما فى الحرام من خبث يطهر نفسه منه، وأما المادى فهو يكون فى الزنى من تعرض لأمراض خبيثة، هى التى جاءت من الأوربيين، والتى يسمى بعضها المرض الإفرنجى، ولا مانع من أن نشير إليها عند تفسير الآية، وإن لم تكن معروفة، ولكنها عرفت. فمنزل القرآن هو علام الغيوب.

ثانيها ـ الاستمساك والتحفظ بالعفة، وألا يرمى ماءه فى غير محله، وليحفظ له نسبه.

ثالثها ـ التقيد، أى ليسوا منطلقين يلقونها فى أى مكان، وعلى أى امرأة، كل ينزو كما تنزو القردة، وكالحمار ينزو على كل أتان.

والحفظ عن كل النساء وفى كل الأحوال ﴿**إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ**﴾ ولتضمن الحفظ معنى الاستمساك والصيانة، كانت الإباحة متعدية بـ (على) فى المستثنى ﴿**إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ**﴾، لا يرسل نفسه إلا على زوجه أو ما ملكت يمينه، أى أنه مرسل على زوجه أو ما ملكت يمينه وأن التعدية بـ «على» جار مجرى قولهم: فلانة تحت فلان، أو فلان تحته فلانة، وربما يكون التعبير مأخوذا من الواقع الحسى، وفى التعدية بـ «على» إشارة إلى الحقيقة الإسلامية ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ . . .**(٣٤)﴾ [النساء].

ويصح أن يكون الاستثناء منقطعا، ويكون المعنى وصفهم بأنهم يحافظون على فروجهم فى كل الأحوال، وباستمرار، ولكن على أزواجهم وما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين، ولا يمنع ذلك من جواز أن يكون متصلا.

وقوله تعالى: ﴿**فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ**﴾ «الفاء» للإفصاح لأنها تفصح عن شرط مقدر مأخوذ من الكلام، أى فإذا كان ذلك ﴿**عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ**﴾ أى ليس حراما، وفى التعبير بقوله تعالى: ﴿**غَيْرُ مَلُومِينَ**﴾ إشارة إلى أن عدم المحافظة والانطلاق موضع لوم فى ذاته مع تحريمه؛ لأنه لا يليق بأهل العقل والحكمة والفضيلة.

والوطء بملك اليمين حلال؛ لأن فيه تكريما للأمة وإعلاء لمنزلتها كالزوجة، وذريعة لعتقها، ومنع بيعها؛ لأنها إذا صارت أم ولد حرم بيعها، وإذا ولدت عتقت.

وإن من سار فى غير ذلك وراء شهوته فهو المعتدى.

﴿**فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ** (٧)﴾.

«الفاء» تفيد ترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى إذا كان الحلال فى هذه الدائرة فغيره عدوان على الأسر، وعلى المجتمع وعلى النفس، فيترتب على التحريم السابق

منع ابتغاء المحرمات، والابتغاء هو الطلب الشديد الذى يؤدى إلى العدوان؛ لأن الابتغاء افتعال من البغى، والبغى فى ذاته فى معنى التعدى، وأولئك الذين تنحرف طبائعهم، فلا يقفون عند الانحلال يطلبون الشهوات بشدة تؤدى بهم إلى الانحراف عن الجادة، وقوله: ﴿وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ أى سواه، وعبر عنه بـ «وراء» إشارة إلى أنه انحطاط فى الرتبة، وإلى أنه وراء الإنسانية المستقيمة، وانحراف فى القصد: ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ الإشارة إلى هؤلاء الذين يبتغون غير الحلال، والإشارة إلى الموصوف بصفة فيها بيان أن هذه هى علة الحكم، والحكم أنهم عادون، أى ظالمون ومتجاوزون، فقد تجاوزوا حد الحلال وهو واسع: يجوز زواج أربع، والتسرى بمن يشاء من الإماء، وهو ظالم لنفسه بارتكاب الحرام، وظالم لنسله، وظالم للمجتمع، والظلم مرتعه وخيم، ولا شك أن نكاح المتعة مما وراء ذلك؛ لأنها ليست زواجا، ولا ملك يمين، وبها احتجت عائشة على ابن عباس، وأخطأ الزمخشرى ومن تبعه إذ عدها زواجا، وما هى بزواج، وما سماها أحد من السلف زواجا.

الوصف الخامس: مراعاة الأمانة، وهكذا انتقلت الآيات من مرتبة النفس إلى التعاون الاجتماعى إلى إقامة الأسرة على أساس العدل، والمحافظة على النسل، ثم بينت بعد ذلك الأسس التى يقوم عليها التعامل الإنسانى، وهو الأمانة، فقال عز من قائل:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨)﴾.

الأمانة: ما يؤتمن عليه الإنسان، والعهد ما يكون اتفاقا بين طرفين يتعهد كل واحد لصاحبه، والمحافظة على الأمانة والعهد من صفات المؤمنين، وخيانتهما من صفات المنافقين، وقد ورد فى الحديث الصحيح «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا اؤتمن خان، وإذا عاهد غدر»، وزيدت فى رواية أخرى رابعة، «وإذا خاصم فجر».

ورعاية الأمانة ـ والعهد القيام عليهما وملاحظتهما، والدقة فى المحافظة عليهما، كما يرعى الراعى رعيته، وقال الزمخشرى فى ذلك: والراعى القائم على

الشيء يحفظه بهمة وإصلاحٍ كراعى الغنم وراعى الرعية ويقال: مَنْ راعى هذا الشيء أىْ متوليه وصاحبه.

وإن اللفظ يشمل كل ما يؤتمن عليه الإنسان من مال وشرف، وسر وعرض، وكل ما يطلع عليه الإنسان، ولا يكون من المروءة إعلانه، وكل ما يعاهد عليه، ويكون من البر والخير الوفاء به، ولقد قرن الله تعالى الأمر بأداء الأمانة بالأمر بالعدل، فقال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ** ... (٥٨)﴾ [النساء]، فأداء الأمانات وإقامة العدل يستقيم بهما أمر الناس، ويتعاونون فيما بينهم من غير شطط ولا مجاوزة للحد، ويكون المجتمع فاضلا.

وقرنت خيانة الأمانة بخيانة الله ورسوله، فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** (٢٧)﴾ [الأنفال].

الوصف السادس: هو المحافظة على الصلاة، وهو غير الخشوع، فالأول وصفهم بالخشوع، وهنا الوصف بالمحافظة عليها، وكلاهما لازم، ومطلوب، وهو صفة للمؤمن، فالمؤمن يحافظ على الصلاة، ويخشع فيها، ولكن قدم الخشوع على المحافظة؛ لأن الخشوع لبها، ولأنه أساس كل الفضائل الإسلامية؛ ولأنه روحانية الصلاة؛ ولأنه امتلاء النفس بها، وقال تعالى فى المحافظة عليها:

﴿**وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ** (٩)﴾.

والمحافظة على الصلاة تقتضى:

أولا ـ المداومة عليها.

ثانيا ـ أداؤها فى أوقاتها.

ثالثا ـ إقامتها بإتيانها مقومة ظاهرة وباطنة، وإن المداومة على الصلاة فى أوقاتها مع إقامتها مصحوبة بذكر الله واستحضاره فى قراءتها وقيامها وركوعها وسجودها، وامتلاء النفس بالخشية تكون مذهبة لصدأ النفوس، يبتدئ يومه بصلاة

الصبح، ليقبل على اليوم طاهر النفس خاشعا من خشية الله، حتى إذا ابتدأ الصدأ يعلوها بمعالجة الحياة وأعمالها جاءت صلاة الظهر، ثم صلاة العصر، ثم صلاتا العشى؛ المغرب والعشاء، ثم ينام طاهرا مطهرا، كما ابتدأ طاهرا، والمحافظة على الصلاة فى أوقاتها تجعل المؤمن فى خشية دائمة، وهو مشفق منه سبحانه.

تنبيهان:

أولهما ـ أن الأوصاف التى وصف الله تعالى عباده المؤمنين بها كان سبحانه يذكرها مقرونة بعبارات تفيد اختصاصهم بها، وأنها مقصورة عليهم، وهم مقصورون عليها بدليل اقتران ﴿هُمْ﴾ بكل الأوصاف.

فقال سبحانه فى الخشوع: ﴿**الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣)**﴾ فهم مختصون من بين عباد الله تعالى من الإنس والجن بأنهم الخاشعون فى صلاتهم، وأنهم وحدهم الذين هم عن اللغو معرضون؛ وأنهم الذين هم للزكاة فاعلون راغبين فى إعطائها معتبرين ذلك مغنما وليس مغرما، وأنهم هم وحدهم الذين يستمسكون بالمحافظة على أعراضهم، وأنهم وحدهم الذين يداومون على الصلوات، وأنهم هم الذين يراعون العهود والأمانات، وإنه فى هذه الأمور يعبر عنهم باسم الفاعل ما عدا الأخير فقد عبر بالمضارع للدلالة على أنه صار لهم صفة.

والثانى ـ ما أشرنا إليه من أن الآية تدل على المباح من العلاقة بين الرجل والمرأة، وهو ما يكون بالزواج أو بملك اليمين، وعلى ذلك تكون المتعة حراما، وتكون داخلة فى قوله تعالى: ﴿**فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧)**﴾ وليست زواجا، حتى عند الذين يبيحونها؛ ولذلك احتجت بهذه الآيات عائشة ـ رضى الله عنها وعن أبيها ـ على عبد الله بن عباس عندما بلغها أنه يبيح المتعة، وهى لا تتوافر فيها شروط الزواج حتى تكونه؛ لأن من شروط عقد الزواج ألا يكون فيه ما يدل على التوقيت.

وقد ذكر الله سبحانه بعد ذلك جزاء أولئك المتصفين بهذه الصفات، وهم المؤمنون حقا، فقال عز من قائل:

﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ⦗١٠⦘ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ⦗١١⦘﴾.

الإرث انتقال المال من إنسان لإنسان بحكم الخلافة عنه، أو بحكم البقاء دونه، وهذا المعنى هو الظاهر من العبارات، فإن أولئك المشركين كانوا يحسبون أنهم وحدهم الباقون؛ لأنهم أكثر مالا وأعز نفرا، وبقاؤهم في هذه الدنيا؛ لأنهم ما كانوا يؤمنون بالبعث، ويقولون أئذا متنا وكنا ترابا أئنا لفى خلق جديد، ويفرضون أنه إن كان بعث فإنهم أصحاب السلطان يوم البعث.

فبين الله تعالى أن أهل هذه الصفات هم الذين يرثون، ويخلفون غيرهم، وأنهم الباقون، وأن كل متع الآخرة تكون لهم؛ لأنهم أبقى وسجاياهم تجعلهم أهل النعيم الباقى، ولذا قال عن ميراثهم: ﴿يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

الفردوس الأرض الواسعة المملوءة بالحدائق الغناء، والمثمرات اليانعات، والجنات المزهرة، وينعمون فيها بخيراتها ومناظرها إذ تجرى من تحتها الأنهار، وينعمون مع ذلك بالخلود؛ ولذا قال تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، والضمير فى ﴿فِيهَا﴾ يعود إلى الفردوس على أساس معناها، لأن معناها الجنة.

آية الله فى خلق الإنسان

قال تعالى:

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾

السلالة: هى صفو الطين هنا، والإنسان دخل فى تكوينه صفو الطين مرتين: المرة الأولى ـ عندما خلق آدم من تراب فكان صفو الطين فى تكوينه، والثانية ـ أن الطين يدخل فى تكوينه بعد أن صار كيانا إنسيا؛ ذلك أن غذاءه يتكون من النبات والحيوان وكلاهما من صفو الطين؛ لأن النبات ينبت من اختلاط الطين بالماء، والحيوان آكل من النبات، فكانت سلالة من طين فيه ﴿مِن﴾ فى قوله تعالى: ﴿مِن سُلالَةٍ﴾ هى ﴿مِن﴾ الابتداء التى تدل على أن الإنسان يكون من سلالة طين و﴿مِّن﴾ الثانية بيانية، أى من سلالة هى طين.

ولقد ذكر سبحانه خلقه بعد أن صار فى أصلاب الآباء، ثم أرحام الأمهات، فقال:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾.

العطف بـ «ثم» له موضعه؛ لأنه مر بأصلاب الآباء، ثم دفق الماء الذى هو النطفة فى أرحام الأمهات، كما قال تعالى فى تكوينه: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾ [الطارق] وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ﴾، الضمير يعود إلى الطين الذى جعل سلالته أى ما ينسل منه ـ نطفة.

و﴿جَعَلْنَاهُ﴾ هنا بمعنى حولناه فى أصلاب الآباء نطفة هى الماء الدافق الذى ألقى فى أرحام الأمهات، وهذه الأرحام هى (القرار المكين) فالقرار معناه المستقر، ووصف بأنه مكين، أى أنه محكم، ما استقر فيه لا يمكن أن يخرج منه، ووصف المستقر بأنه مكين من حيث إن ما يدخله يكون ثابتا، بل يتربى فى موضعه ويتغذى حتى يحين ميقاته، فوصف الموضع بالاستقرار، والمكانة والثبات مع أن الثابت المستقر هو ما أودعه، كما يوصف الطريق بأنه سائر مع أن السائر هو الماشى فيه.

وإن الله الخلاق العليم يجعل الأرحام عندما يدفق فيها الماء يغلق عليه ويتربى فيه، ويتغذى من الدم، حتى يحين ميعاد الولادة، والأدوار التى يذكرها الله تعالى بعد ذلك وهو فى القرار المكين، حتى خلق خلقا جديدا فقال تعالى:

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾.

العطف بـ «ثم» فى خلق العلقة من الماء السائل الأبيض فى موضعه؛ لأنه يكون فى وقت أطول، إذ إنه يتحول إلى لحمة حمراء، ويتحيز فى مكان بعد أن كان سائلا ليس له مكان متحيز فيه يملأ فراغا، وعبر هنا بالخلق، ولم يعبر بالجعل، لأنه أنشأه إنشاءً، إذ إن تحول ما ينسل من الطين إلى ماء هو النطفة تحويل بخلق الخالق؛ ولذا عبر بـ «جعل» التى تدل على الخلق، والتصيير والتحويل، بعد ذلك ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾، أى أن العلقة تحولت إلى مُضْغة، والأصل فى المضغة قدر ما يمضغ فى الفم من اللحم، ويبتدئ فى المضغة تشكيل اللحم وتصويره بالصورة التى تكون عليه؛ ولذا جاء فى سورة الحج: ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ... (٥)﴾ [الحج] فيبتدئ فى المضغة التخليق، وينتهى بأن يكسى عظاما، والتعبير بـ ﴿خَلَقْنَا﴾ هنا للإشارة إلى أن ذلك التصيير أو التحويل إنما هو بخلق الله تعالى لا بالسببية التى تحول الجنين من نطفة إلى علقة ثم إلى مضغة، فإن الله تعالى هو الخلاق العليم الذى ينشئ الشىء، فلا ينشأ شىء بغير إرادته، إنما إرادة الله تعالى وقدرته هى الفاعلة.

ثم قال سبحانه: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾، أى بعد أن تخلقت المضغة، وتميزت أجزاؤها، جعلها الله تعالى عظاما أى جعل من هذه المضغة عظاما صلبة تتحمل. سبحان الله تعالى، طين فماء مهين فقطعة لحم، فمضغة مخلقة وغير مخلقة، ثم قال تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾، أى جعلنا العظام التى خلقت من المضغة ـ مكسوة باللحم، وظاهر أن ذلك بخلق الله وتكوينه، ابتدأت بماء مهين، ثم بقطعة لحم ثم بمضغة قدر ما يمضغه الإنسان، ثم بتخليقها، وجعلها عظاما ثم يكسو العظام باللحم، ذلك بقدرة العليم الحكيم وخلقه.

وهنا نلاحظ أن العطف كان بالفاء الدالة على الترتيب والتعقيب، فى قوله تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾؛ وذلك للدلالة على سرعة

التكوين مع تفاوت هذا التكوين، أو التحول بإرادة الله تعالى وحده، وبذلك يتبين أنه سهلٌ يسيرٌ عليه، وأن إعادته تكون أيسر، وما خلق الإنسان بأكبر من خلق السماء والأرض.

وأما قوله تعالى في سورة الحج: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ...(٥)﴾.

وكان العطف بـ «ثم» لا بـ «الفاء»؛ لأن السياق لبيان المراحل، كما قال سبحانه: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ وقد اقتضى هذا أن يكون العطف بما يدل على التراخي، وإن ذلك نسبى، فهو بالنسبة لنا تراخ حقيقى، إذ إن تكوّن العلقة من النطفة يحتاج إلى زمن، وإن كان عند الله يسيرا، فأيامنا عنده أزمان قصيرة، وإن طالت عندنا.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾، أى أوجدنا فيه حالا غير الأحوال السابقة، فقد خرج إلى الحياة طفلا، ثم بلغ أشده ومنهم من يتوفى، ومنهم من يرد إلى أرذل العمر؛ لكيلا يعلم من بعد علم شيئا، وقد جعل الله تعالى لهم سمعا وبصرا وأفئدة، وبذلك صار إنسانًا سويا، وأرسل إليه الرسل فَضَلَّ من ضلَّ واهتدى من اهتدى، وكل هذا أشار إليه سبحانه وتعالى بقوله عز من قائل: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ وكان العطف بـ «ثم» له موضعه؛ لأن ذلك الخلق الآخر أخذ أدوارا مختلفة.

وكلمة ﴿آخَرَ﴾ تشير إلى أنه وصل إلى حال هى غير الطين وغير العلقة وغير المضغة، بل إنه خلق كامل، وقد قال فى ذلك الزمخشرى: ﴿خَلْقًا آخَرَ﴾، أى خلقا مباينا للخلق الأول مباينة ما أبعدها حيث جعله حيوانا، وكان جمادا، وناطقا. وكان أبكم، وسميعا، وكان أصم، وبصيرا، وكان أكمه، وأودع باطنه وظاهره، وكل عضو من أعضائه، وكل جزء من أجزائه عجائب قدرته، وغرائب حكمه لا تدرك بوصف الواصف، ولا بشرح الشارح.

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ «الفاء» للإفصاح؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر معناه إذا كان الله هو الذى خلق ذلك الخلق فتبارك الله أحسن الخالقين، وروى أن

عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل عندما سمعا الآية من قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾، قالا: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ فقال النبي ﷺ: هكذا أنزلت[1]، ونحن لا نرضى هذه الرواية، ولكن ذكرناها؛ لأنها تنبئ عن أن هذه الجملة السامية ثمرة طيبة للخلق السابق.

والبركة أصلها من موضع برك الجمل، وقد أطلقت على كل أمر خير ثابت، ﴿فَتَبَارَكَ﴾ معناها تسامى في البركة وعلا، حتى لا يناهده أحد في خيره الدائم، و﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾، أفعل التفضيل ليس على بابه إنما معناه أن خلق الله تعالى وصل إلى أعلى درجات الحسن، بحيث لا يناصبه حسن قط، وحقا لقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤)﴾ [التين].

وإن نهاية هذا الإنسان في الدنيا هي الموت، ولم يخلق عبثًا، بل يكون بعد الموت البعث؛ ولذا قال تعالى:

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦)﴾.

العطف بـ «ثم» في موضعه؛ لأن مؤداه أنهم بعد خلقهم في أحسن خِلقة، ومنهم من يرده الله تعالى إلى أسفل السافلين، ويستمرون إلى أجل مسمى، ضلوا فيه أو اهتدوا، أخلصوا دينهم لله أو كفروا، وبعث فيهم الرسل مبشرين ومنذرين إنهم، بعد هذا الدور لميتون، وقد أكد سبحانه موت الناس مع أنه واقع مشاهد كل يوم يموت ناس ويولد ناس، وكان التأكيد بـ «أنَّ» وبالجملة الاسمية، وباللام وبالوصف، ﴿مَيِّتُونَ﴾ وكان ذلك التوكيد لكيلا يغتر الناس بغرور هذه الدنيا، وأنها إلى فناء مهما طالت، وأن الحياة الآخرة هي الباقية الخالدة في سعادة ونعيم، أو في شقاء وجحيم.

وفي التعبير بالوصف ﴿مَيِّتُونَ﴾ إشارة إلى أن حياتهم في الدنيا كأنها الموت لأنه يترصدهم، فلا يغتروا بغرورها، وبعد الموت يكون البعث، ولذا قال تعالى:

---

(١) رواه الطيالسي، وابن أبي حاتم وابن مردويه، وابن عساكر، وهو صحيح. كما في كنز العمال(٣٥٧٤٧): ج١/ ٢٥٤٩.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾.

كان العطف بـ «ثم» له موضعه؛ لأن الأجسام تبقى فى القبور أو حيث تكون فى أجزاء أخرى كما قال تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ... (٥١)﴾ وقد أكد سبحانه وتعالى: البعث لأن الله تعالى لم يخلقنا عبثا، وقال عز من قائل: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥)﴾.

أكد الله سبحانه وتعالى البعث ليعظم إنكارهم له، ولقد بالغوا فى إنكاره كشأن الذين لا يؤمنون إلا بما يحسون ولا يؤمنون بالغيب، وأكده سبحانه بـ «أن» وبالجملة الاسمية، وجعل ذلك يوم القيامة، والله سبحانه وتعالى هو الذى خلق وأبدع، وخلقه فى الإنشاء، دليل على قدرته على الإعادة.

خلق الكون ونعم الله على الإنسان

قال تعالى:

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

بعد أن بين الله تعالى خلق الإنسان، وما فيه من عجائب تدل على قدرة الله تعالى - جل وعز - أخذ يبين سبحانه وتعالى خلق ما هو أكبر من الإنسان، وما فيه حياة الإنسان ومعاشه، وما هو مسخر له في السموات والأرض فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) ﴾.

الطرائق جمع طريقة، وهي هنا بمعنى مطروقة من طرق النقل من حيث إنها مسالك، ومن طرق الخوافي في الطير، بمعنى أن كل طبقة منها فوق الطبقة الأخرى، وطرائق السماء أفلاكها، إذ كل فلك فوق الفلك الآخر وكل مربوطة بأرسان[1] من الجاذبية والنواميس الكونية، بحيث تكون متماسكة، كل نجم وكوكب فيها مشدود بالآخر، كأن حبلا أو سلكا يمسكه، وفسر بعض علماء الفلك هذا النص السامي بأن سبع طرائق سبعة أفلاك لكل سماء طريق يجري بما فيها من الأقمار والنجوم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ أي أن هذه الطرائق بما فيها من كواكب ونجوم مسخرات بأمره سبحانه يجري كل تحت رعاية الله تعالى وعينه، وهو القائم على كل شيء يسيره بأمره سبحانه إنه عليم خبير ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾ [الملك].

ونفى سبحانه وتعالى الغفلة عن ذاته العلية، وهي منفية بحكم علمه الكامل ولكن كان نفي الغفلة كناية عن كمال عنايته بخلقه، وأنه يمسك السموات والأرض أن تزولا، وأن كل الوجود تحت رعايته وعنايته، وأنه يسير بأمره، وعلى مقتضى إرادته النافذة، وحكمته العالية.

وصيغة النفي تدل على أن الغفلة ليست من شأنه تعالى؛ لأنه نفي الكينونة بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾، أي ليس من شأننا أن نغفل عن خلقنا، بل نحن قائمون عليه مراقبون له محافظون عليه.

---

(١) أرسان جمع رَسَن، وهو الحبل.

ولقد بين سبحانه وتعالى بعد ذلك نعمه على خلقه فى صلة الأرض بما فوقها، فقال تعالى:

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) ﴾.

يمن الله علينا، وله المن والفضل، بأننا نعيش فى الأرض برخاء، ونجد حاجاتنا منها موفورة، وأسبابها قائمة بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾، أى بمقدار مصلح للأرض على أن يكون غيثا لا عتيا، فالمطر الزائد كالسيل الجارف لا يكون غيثا بل يكون عتيا، ويهدد الله به الظالمين من الناس، كالسيل الذى أغرق قوم نوح، فقوله تعالى: ﴿بِقَدَرٍ﴾ أى على القدر الذى تعنيه الحاجات، ويكون إصلاحا، ولا يكون فيه فساد للزرع والضرع، ويقول سبحانه: ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ﴾ أى جعلنا فى الأرض مستقرا له، كأنما يسكنها، كما يأوى الآوى إلى مسكنه.

وذلك أن ما تنزله السماء قسمان: قسم عارض ممطر يغيث فى وقت الجدب، ولا ينزل بانتظام كالمطر الذى ينزل بالاستسقاء، كما كان النبى ﷺ يستسقى، ومن بعده أهل الصلاح والتقوى، وقسم يجرى فى أنهار ويسلك ينابيع الأرض فى عيون، وهذا يُسكنه الأرض، كنهر النيل، فإنه ينزل على الجبال، وفى البحيرات التى تمده، وهذا يبدو كأنه الساكن فى الأرض، وإن كان فى سير دائم من منبعه إلى مصبه، وهذا وأشباهه يوجد الخصب والنماء بإذن الله تعالى، ومن الناس مَن اعتقد أنه دائم لا يغيض، ولذا قال تعالى: ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ أى إنا على إذهابه لقادرون، والباء للتعدية، ولقوة الإذهاب كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ [البقرة]، وإن مثل الأنهار العيون، فهى ينابيع فى الأرض قد اختزنتها الأرض فى جوفها وهى لله، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ (٣٠)﴾ [الملك].

وقد قال تعالى فى بيان بعض نعم الماء:

﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) ﴾ [الأنعام].

الفاء عاطفة، وانشأنا، خلقنا بإنشاء جديد لا بمجرد التوليد لشيء من شيء، فإن إخراج الحى من الجامد ليس توليدا مجردا، إنما هو إنشاء لمخلوق جديد، واقرأ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٩٥) ﴾ [الأنعام] ثم يقول سبحانه: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) ﴾ [الأنعام].

وقوله تعالى: ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾، من هنا بيانية، فهى بيان لنوع الجنات، ﴿وَأَعْنَابٍ﴾، جمع عنب، وجمعه لأنه أنواع مختلفة فالأعناب بكل أنواعها، خلقها الله تعالى وأنشأها إنشاء، ولم تذكر الحبوب؛ لأنها كانت قليلة فى مكة وما حولها، وإنما كان النخيل والأعناب فيها، وفى الطائف القريبة منها.

وهذان النوعان النخيل والأعناب، فاكهة يانعة يتفكهون بها، وغذاء طيب يستغنون به عن كل الأطعمة، فإذا كان عند الرجل نخلة وناقة، فعنده الغذاء الموفور من التمر واللبن، ولذا قال تعالى: ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، أى إنها فاكهة وغذاء، فالعنب يؤكل رطبا وزبيبا، والبلح يؤكل رطبا وبسرا، وهو أنواع مختلفة.

وذكر سبحانه وتعالى نوعا ثالثا من الأشجار، وهو الزيتون، فقال تعالى:

﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ (٢٠) ﴾.

الواو عاطفة، ﴿شَجَرَةً﴾ معطوفة على ﴿وجنات﴾، أى أنشأنا شجرة، وقال المفسرون جميعا، إنها شجرة الزيتون وهى شجرة مباركة، وتنكيرها لبيان فضل خيراتها، و﴿مِن﴾ للابتداء أو بمعنى (فى)، والمعنى شجرة تخرج مباركة فى طور

سيناء، والطور هو جبل الطور، والمراد كل سيناء، وعرفت بأكرم مكان فيها؛ لأن فيه تجلى الله على موسى كليمه، وهى أرض مقدسة من الأراضى التى شرفها الله تعالى بتقديسه، وقد أقسم الله تعالى بها، فقد قال عز من قائل: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ (٣)﴾ [التين] فقرنها فى القسم بالبلد الأمين بيت الله الحرام، وكان ذكرها لتوجيه الأنظار إليها وعدم تركها لقتلة الأنبياء وفسقة الأرض، وليس لليهود أن يطلبوا تراث موسى أو ما خلفه، لأن أحق الناس بموسى عليه السلام محمد ﷺ ومن اتبعه، فلو كان موسى حيا ما وسعه إلا أن يتبعه، فإن يهود هذا الزمان ومن قبلهم مقطوعون عن موسى - عليه السلام - قد قتلوا الأنبياء؛ ولأن شريعة محمد ﷺ قد نسخت شريعة التوراة، وما جاء به موسى إلا ما أبقاه القرآن الكريم كشريعة القصاص.

وإن ذكر طور سيناء منسوبة إليها شجرة الزيتون، لتوجيه عقول المسلمين إليها، إذ الزيتون شجرته فى كثير من أرض الله تعالى، وقد وصف الله تعالى شجرة الزيتون بقوله: ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ﴾، أى تنبت هذه الشجرة المباركة مصاحبة للدهن، أى تنبت وقد أودعها الله تعالى الدهن، وإن الذى ينبت هو أخشاب الشجرة، ولكن لأن الدهن خلقه الله تعالى فيها، وتفيض به جعلت كأنها أنبتت الدهن ذاته، أو أن الدهن نبت مع أخشابها، والدهن هو الزيت، وإن فيه شفاء للناس، وقد وصف الله تعالى شجرته بأنها مباركة فقال تعالى فى سورة النور: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ... (٣٥)﴾ [النور].

والصبغ، وهو إدام الطعام، وإنه يؤخذ من زيتون الشجرة إذا لم يعصر زيته إدام للطعام، يسهل تناوله، وذكر سبحانه بعد ذلك نعم الله تعالى التى تجىء ثمرة للنبات الذى أنتجه الله تعالى بالماء.

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١)﴾.

الأنعام: جمع نعم وهى الإبل والبقر والغنم، وما يشبهها فيما يؤدى مؤداها ما يزلل للإنسان، ويكون تحت سلطانه، ويطوَّع لإرادته، وأول ما حكم به سبحانه أن فيها عبرة أى اعتباراً بدلالتها على خلق الخالق وقدرته وإبقائه على الإنسان، فهى حيوان مسخر للإنسان، ومع أن له إرادة، وإن لم تكن عاقلة، وكونا مستقلا، سخره الله تعالى للإنسان مطوعة له مستأنسة له، وذكر من هذه العبر ما فى درها من لبن يسقينا إياه رب العالمين، ولكم فيها منافع، فيتخذ من أصوافها، وأوبارها وأشعارها أثاثا، ويتخذ من جلودها بيوتا وأخبية، ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أى نأكل لحمها فهو حلال طيب، فحياتها كلها خير تدر لبنا، ويؤخذ منها أثاث، وبيوت ومساكن، ولحمها يؤكل، وكل هذه نعم يجب علينا شكرها، ولا يصح أن نكفر بها، ونشرك بالله تعالى المنعم؛ إذ شكر المنعم واجب بحكم العقل والإيمان.

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢)﴾.

الضمير فى ﴿عَلَيْهَا﴾ يعود على الأنعام، وليس معناه أن كلها يحمل الإنسان بل إن بعضها، وهو الإبل، والخيل والبغال والحمير إن أدخلناها فى عموم النعم، ومن المؤكد أن بعضها وهو الإبل يتخذ للحمل حتى سموا الإبل سفينة الصحراء، وقد قال ذو الرمة فى الإبل: سفينة بر تحت خدى زمامها.

ولذا ذكرت وراء الإبل من الأنعام الفلك، فإن الفلك تجرى بقدرة الله تعالى حاملة الأمتعة والمنافع من الشرق إلى الغرب، رابطة الأقاليم فى الأرض بعضها إلى بعض، فهى التى تنقل خيرات الأرض بعضها لبعض.

من أخبار الرسل

قال تعالى:

وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ
غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ
إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ
مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا
رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى
بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا
وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن
كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ
مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾
فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا
مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ
ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾

قص الله تعالى بعد ذلك قصص النبيين تسلية للنبي ﷺ، وتعليما له وبيانا لتشابه إجابة الكافرين؛ مما يدل على موطن الشك فى قلوبهم الذى ينادى بها إلى الكفر، وظلم النبيين، وإنكار الحقائق التى تؤيدها الفطرة، وإنهم إذ يتشابهون فى الكفر قد تشابهوا فيما يتذرعون به من إنكار، كما أن دعوات النبيين واحدة فى

ابتدائها وهى الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده، وهذا نوح الأب الثانى للبشرية يقول الله تعالت كلماته فيه:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣)﴾.

ناداهم مقربا لنفوسهم متلطفا معهم فى القول: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ ابتدأ بذكر أنهم قومه الذين ألفهم وألفوه، وجربوه، ولم يعهدوا عليه كذبا، وما أشبه هذا بقول محمد ﷺ فى أول دعوته لقريش: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى؟ قالوا: نعم؛ ما جربنا عليك إلا صدقا، قال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد»[(١)] قال نوح لقومه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أى وحده فلا عبادة إلا له وحده؛ ولذا قال بعد ذلك ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ ﴿مِّنْ﴾ لاستغراق النفى، أى ليس لكم أى إله غيره، فلا ألوهية إلا له سبحانه وتعالى، وحرضهم على الطاعة، وخلع عبادة الأوثان، فقال: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى ترتب على الأمر بعبادته سبحانه وحده وبطلان عبادة الأوثان التى يعبدونها أن يطلب منهم محرضا تقوى الله واتقاء عذابه، والفاء مؤخرة عن تقديم لأن الاستفهام له الصدارة، والاستفهام للتنبيه، والتحريض على اتقاء العذاب، كما قال النبى ﷺ لقومه فى أول دعوته: «إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد. وإنها للجنة أبدا أو النار أبدا»[(٢)].

هذا كلام نوح ـ عليه السلام ـ فى دعوته قومه، وقد بينا أنه يتشابه مع دعوة النبى ﷺ قومه، وقد كان جواب قومه بعد أن دعاهم عليه السلام مشابها لإجابة قريش لمحمد ﷺ بعد أن أمعن فى دعوته، قالوا له عليه السلام:

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤)﴾.

---

(١) رواه البخارى: تفسير القرآن ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ (٤٣٩٧) وبنحوه مسلم: الإيمان فى قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ (٣٠٧) من رواية ابن عباس رضى الله عنهما.

(٢) سبق تخريجه.

كانت إجابتهم إجابة من فوجئ بأمر لم يألفه ولم يعرفه، وكذلك كانت إجابة أهل مكة للنبى ﷺ قالوا أولا ـ ﴿مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، كذلك قال أهل مكة، قالوا: ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان]، وقالوا ثانيا ـ ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أى يطلب الفضل عليكم بالرياسة والسلطان، كذلك قال أبو جهل أحد زعماء الشرك وأطغاهم؛ فقد قال فى سبب كفره: تنازعنا وبنى عبد مناف الشرف، اطعموا فأطعمنا، وسقوا فسقينا، حتى إذا تحاذينا على الركب قالوا منا نبى، فأنى يكون لنا ذلك، والله لا نؤمن به أبدًا.

وقالوا ثالثا ـ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً﴾، أى لو شاء الله أن ينزل رسالة من عنده لأنزل بها ملكا يخاطبنا، كذلك طلب المشركون أن ينزل عليهم بالرسالة ملك، ﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ ⑧ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ⑨﴾ [الأنعام].

وقالوا رابعا فى رد دعوة نوح للتوحيد: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾، أى إنهم لا يتبعون إلا ما كان عليه آباؤهم، كما قال تعالى عن مشركى مكة، ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ⑰⓪﴾ [البقرة]، وهكذا نجد رد قوم نوح عليه السلام يشبهه تماما رد المشركين على النبى ﷺ، وقد كانت نتيجته أن أهلك الله تعالى الكافرين من قوم نوح، وكان عليهم أن يتوقعوا مثل ما نزل بقوم نوح، لولا رحمة الله، عسى أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله، بل أن يكون منهم من ينصر الحق، ويجاهد مع المجاهدين.

ولقد استمرت دعوة نوح عليه السلام إلى الحق، واستمر عنادهم، ووصفوه بأنه مجنون، وأنهم ينتظرونه حتى يفيق.

﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ㉕﴾.

﴿جِنَّةٌ﴾ بكسر الجيم، أى ما هو إلا رجل به جنون ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى إذا كان به جنون فتربصوا به حتى حين، أى إلى حين

يستفيق ويرشد، والتربص انتظار زوال أمر، أو مجيئه، أى انتظروه حتى يفيق، أو يعرض عن هذه الدعوة.

وكذلك قال قوم محمد ﷺ فقالوا مجنون، وقالوا إن كان الذى يأتيك رئيا من الجن بذلنا من أموالنا ما نكشفه عنك، وهكذا تشابهت أقوال الكفار لأنها تنبع جميعا من نفوس غير مؤمنة، وتشك فى القول الحكيم المرشد.

يئس نوح من إيمان قومه أو الأكثرين منهم، وقال له الله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ [هود] فاتجه إلى ربه ضارعا طالبا النصرة.

﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦)﴾.

أى قال: انصرنى عليهم لأنهم كذبونى ودفعهم تكذيبهم إلى الفساد، وقال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧)﴾ [نوح].

وهنا نجد الفارق بين نوح عليه السلام، وخاتم النبيين محمد ﷺ، فبينما نوح يدعو لهلاك الكافرين من قومه ويخاطب ربه، فيقول: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧)﴾ [نوح]، يقول خاتم النبيين صاحب الرسالة الأخيرة الباقية: «إنى لأرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا»[١].

استجاب الله تعالى لدعاء نوح، ودبر له الأمر لينجو نوح ومن آمن معه، وما آمن معه إلا قليل، وقال تعالى:

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧)﴾.

---

(١) متفق عليه، وقد سبق تخريجه.

أوحى الله تعالى إلى نوح أن يصنع الفلك لينجو فيه من أراد الله تعالى نجاته وهم الذين آمنوا وأهل نوح الذين لم يكفروا، أن تفسيرية، لمعنى الإيحاء الذى أوحى به إلى نوح عليه السلام، فقوله: ﴿ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾، أى اصنع الفلك برعايتنا ورقابتنا، كمن يكون تحت العين والبصر، ولا يعد ذلك تأويلا، بل إنه ظاهر اللفظ، من غير تأويل، فلا حاجة إلى ما قيل إن هذا تأويل كقول الخلف، ولا إلى القول بأن لله عينا ليست كأعيننا، كما يُدَّعى أنه قول السلف (راجع فى هذا رسالة الغزالى: إلجام العوام عن علم الكلام).

أى أن صناعة الفلك كانت برقابة الله ـ تعالى ـ ورعايته ووحيه فى البناء والتصرفات، ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ الفُرْنُ الذى يخبز فيه الخبز، والتعبير عن سبب سير السفينة الذى يقترن بسيرها بقوله تعالى: ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ فيه ما يشير إلى أنها كانت تسير ببخار الماء، وقد أشرنا إلى هذا المعنى فى سورة هود.

﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾، أى أدخل فيها من كل صنفين زوجين ذكر وأنثى، واسلك بمعنى أدخل هى فى اللغة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢)﴾ [المدثر]، أى ما أدخلكم فيها، وقال تعالى: ﴿ وَأَهْلَكَ﴾، أى أدخل أهلك إلا من سبق عليه القول بهلاكهم لأنهم كافرون، وقد خاطبه نوح فى شأن ابنه كما جاء فى سورة هود إذ قال نوح ـ عليه السلام ـ إشفاقا على ابنه: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي...(٤٥)﴾ [هود]، فقال الله تعالى له: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ...(٤٦) ﴾ [هود]. وقوله: ﴿مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ وهو الحكم عليهم بالهلاك، ولذا تعدى بعَلَىَ

وقد التفت الله تعالى حكمه، من بعد ذلك إلى نوح ومن معه مذكرًا لهم بعد أن أغرق الكافرين، فقال مخاطبا نوحا:

﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) ﴾.

استويت، أى تمكنت واقتعدت أنت ومن معك مقاعدكم، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، وإن ذلك يدل على أن قوم نوح قد ساوروه بالأذى وإرادة

إهلاكه وقومه، حتى أمر بأن يحمد الله تعالى على نجاته منهم وقد كانوا ظالمين، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام]، وهكذا أمر الله تعالى نوحا بأن يحمد الله تعالى إذا استوى كما قال في سورة هود: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [هود]، كما أمره سبحانه وتعالى أن يدعو الله فى قابل أمره شاكرا حامدا، فقال تعالى:

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

الخطاب لنوح عليه السلام، وصوره: بـ ﴿رَّبِّ﴾ للإشارة إلى أنه إذ نجاه لا يصح أن يلجأ إلا لعنايته وكلاءته وحمايته ﴿أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا﴾ المنزل هنا بمعنى المصدر، لا بمعنى المكان، أى أنزلنى إنزالا فيه خير ونماء وبركة، بأن يثبت الله تعالى قلوب الذين آمنوا على الحق، وقد رأوا بأعينهم عاقبة الذين ظلموا أنفسهم بالكفر ومعاندة الحق، وقد بارك سبحانه من معه، فجعل منهم ذرية الخليقة فكان بحق الأب الثانى للإنسانية، وقد أثنى على ربه بما هو حقه، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾، أى أنت الذى تنزل منازل أعلى ما يكون الإنزال المبارك.

وقد بين سبحانه وتعالى العبرة فى هذا قصص المحكم الخاص بنوح وقومه، فقال عز من قائل:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

أى أن فى ذلك القصص الخاص بنوح وقومه، وكيف أرهقوه من أمر الرسالة عسرا، لآيات وعبر للذين يستبصرون، ويدركون أن الأمور البالية يتعرض أصحابها للمشقات من أهل الباطل والضلال، وقد كان إحجام الضالين أولا لأنه بشر مثلهم، ولأنهم ينكرون البعث ولا يؤمنون به، ولأنه اتبعه الضعفاء والفقراء الذين ازدرتهم أعين المستكبرين، وهكذا مما ابتليت به أنت، وكانت الآية الأخيرة أن الله تعالى أغرقهم، وقطع دابر الذين ظلموا، وفيه آية سامية فى علوها وهى أن الزلفى عند الله بالحق والإيمان به، لا بالقرابة فهذا ابن نوح كان من المغرقين مع أنه أقرب الناس إلى نوح.

وإن من فضل الله تعالى وشأنه أن يعامل الأخيار معاملة المختبرين، ولذا قال تعالى: ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ إن هنا هى المخففة من الثقيلة، وإنها ضمير الشأن،

والمعنى، وإن الحال والشأن للذات العلية ﴿كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾، و(كان) تدل على الدوام، واللام واقعة فى خبر إن مميزة لها، ومبتلين خبر كنا، وهى اسم فاعل، لا اسم مفعول، أى إن الحال والشأن أن نعامل الأبرار معاملة المختبرين لكى يعرف خيرهم، ويظهر استحقاقهم للثواب، وإن المخير لا يأتى عفوا سهلا ميسرا، لا بد له من من جهاد، وعلى قدر الجهاد يكون الثواب، وكان حقا على محمد ﷺ أن يجاهد المشركين، ولا ييأس من نصر الله، ولله ورسوله الغلبة والعزة.

الرسل بعد نوح لاقوا ما لاقى

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا
مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟
ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا
تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ
﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ
﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا
ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ
ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ
ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾
فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

ذكر الله تعالى نبذة صغيرة من قصة نوح عليه السلام مشيرة إلى سائرها الذى ذكر مفصلا فى سورة هود، وهى نموذج قرآنى لقصة الذين كانوا بين نوح ومحمد ﷺ، من الرسل، فى تكذيب أقوامهم، ونوع هذا التكذيب، فهم يحسبون أن الرسول لا يكون بشرا يأكل مما يأكلون، ويشرب مما يشربون، ويحسبون أنه لا بعث ولا نشور، وأن الأتباع يكونون من الأقوياء لا من الضعفاء الأذلين فى زعمهم الفاسدين، وفى ذلك بيان أن ما ينزل بمحمد من بلاء الأقوياء المستكبرين هو صور من صور ما لاقاه النبيون من نوح. فعليه الصبر كما صبر أولو العزم من الرسل.

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٣١) ﴾.

العطف بثم لتطاول الزمن بين نوح، وبين من جاءوا بعد، والقرن جماعة من الناس، وذكرهم سبحانه وتعالى بالمفرد ولم يذكرهم بالجمع، لتشابه أحوالهم فى نوع إنكارهم، وما يدعون إليه رسلهم، فكانوا كقرن واحد، وليسوا قرونا متعددين، وكلمة ﴿آخَرِينَ﴾، أى ليس هم قوم نوح، وإن كانوا على شاكلتهم، وكفروا كفرهم، وضلوا ضلالهم. ولم يذكر سبحانه من هم هذا القرن، ولا شك أنه جاء بعد نوح عاد وثمود، ومدين، وأرسل لهم رسلا آخرين دعوهم إلى ما دعا إليه نوح عليه السلام، من توحيد، وإيمان بالبعث والنشور، وأن الثواب للمؤمنين، والعقاب للظالمين، ولم يذكر الله تعالى بالتعيين هؤلاء الأقوام، وإن لم يقصص القرآن قصصهم فقد قال تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ (٧٨)﴾ [غافر].

وإن أهل هذه القرون أُرسل إليهم رسل فقال تعالى:

﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣٢) ﴾.

فى هذا النص أنه سبحانه وتعالى أرسل إليهم رسولا، مع أن الذين جاءوا بعد نوح رسل فى أقاليم مختلفة، وفى قرون متوالية، رسولا بعد رسول، وربما يكونون عدة رسل فى جيل واحد، كإبراهيم ولوط، وكموسى وهارون، ولكن أفرد ذكر الرسول؛ لأنهم جميعا جاءوا برسالة واحدة وهى التوحيد، والإصلاح، فهم وإن

تعددوا هم كرسول واحد، وذكرت الدعوة بالصيغة التى ذكرت بها دعوة نوح عليه السلام: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴾ و ﴿أَنِ﴾ هنا تفسيرية؛ لأن ما بعدها تفسير لـ ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾، أى أرسلناهم بأن يقولوا اعبدوا الله ما لكم من إله غيره. أى ليس لكم من إله أى إله غيره، ﴿أَفَلا تَتَّقُونَ﴾، وقد تقدم ذكر معناها قريبًا، ولقد ذكر سبحانه أن الرسول منهم يعرفونه ويألفونه، ويكون من أوسطهم نسبا، وأعلاهم مكانة، ولقد كان رد قومه عليه ـ وهو مثل من الرسل الذين جاءوا بعد نوح ـ كرد قوم نوح فقال تعالى عنهم:

﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣)﴾.

وصف الله الذين كفروا وكذبوا بثلاث صفات هى الصفات الملازمة لمعارضى الأنبياء ومعانديهم، **الصفة الأولى**: أنهم من الملأ، أى من أشراف قومه وبطانة الرؤساء والكبراء، وليسوا من الضعفاء ولا الفقراء والعبيد، **الصفة الثانية**: أنهم كذبوا بلقاء الآخرة، لا يؤمنون بالبعث والنشور؛ لأنهم استغرقتهم المادة، فلا يؤمنون بالبعث، ولا يصدقون إلا المحسوس الذى يرونه، ومن لا يؤمن إلا بما يحس فقلبه أعمى وعقله فى ضلال، وهو كالأنعام بل أضل سبيلا، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ﴾ من إضافة المصدر إلى ظرفه، أى اللقاء الذى يكون فى الآخرة، وهو لقاء الحساب والعقاب والثواب، ولقاء ملائكة العذاب، أى أنه يلقى كل فى الآخرة كل ما هو شقاء مرهوب.

والصفة الثالثة: قوله تعالى ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ والترف التوسع فى النعيم، وأترفوا فى الحياة الدنيا معناها وسع لهم فيها، ونالوا نعيمها، وذكر ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إشارة إلى أنهم ينعمون فى الحياة الدنيا، ولم يلهموا شكر النعمة فيها؛ لأنهم لو ألهموا الشكر، لوسعت عليهم النعمة فى الدنيا والآخرة.

وذكر الإتراف فى هذه الحياة الدنيا؛ لأن الترف فيها لا يجعلهم يعملون للآخرة؛ إذ تلهيهم أموالهم وأولادهم عن العمل للآخرة، كما قال الله تعالى

للكافرين: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝﴾ [التكاثر]؛ ولأن الترف من غير إيمان يجعل النفس مائعة غير جادة إلا فيما يعنى جمع المال؛ ولأن كثرة المادة تمنع إدراك معانى الإيمان لأن المادة تستغرق الإدراك، وأساس الإيمان هو الإيمان بالغيب، وبما وراء الحس، ولا يكون ذلك إلا بقلب مملوء بالرحمة والمعانى الإنسانية السامية.

ومع هذه الأوصاف نجد سبب إنكارهم أنه بشر مثلهم، فيقولون فى تكذيبهم: ﴿مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ فهم أولا يحكمون بالمثلية لهم، وفى ذلك إشعار بأنهم ينفسون عليه مكانته من النبوة دونهم، وأن ذلك يومئ بحقدهم عليه، وحسدهم له على ما آتاه الله تعالى من فضله، ووضحوا هذه المثلية بقوله تعالى عنهم: ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ فأقيستهم مادية صرفة، ولا يؤمنون بمعنى من المعانى العالية، ولقد قرروا خسرانهم إن أطاعوا بشراً مثلهم، فقال تعالى حاكيا عنهم: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ۝﴾.

أكدوا من فرط حسدهم خسرانهم إن أطاعوا بشرا مثلهم، وأكدوه بلام القسم، وبالقسم، وبالتأكيد فى الجواب بـ «إنَّ» وبلام التوكيد الواقعة فى جواب (إن)، وإنهم فى زعمهم يخسرون مكانتهم فى قومهم وشرفهم المزعوم فى قبيلهم، وسلطانهم فى أقوامهم، ويصيرون تابعين لمثلهم، وهم المتبوعون فى أقوامهم، وذلك كله غرور الترف، وفساد المقاييس، وسيطرة المادة.

ويذكرون بعد ذلك أشد ما يدعوهم استنكارا، وهو وعدهم بالبعث، فيقول تعالى عنهم:

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝﴾.

كانت المادة الأولى لإنكارهم التى سوغت كفرهم أنه بشر مثلهم، ثم كانت المادة الثانية أنه يعدهم بأنهم سيبعثون، قالوا مستنكرين ومستبعدين: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، أى استنكار هذا الوعد، لإنكار الواقع، فهو فى معنى التوبيخ للنبيين على هذا الوعد الذى وعدوه، والذى هو جزء من رسالتهم، ويذكرون سبب الإنكار فى أمرين:

أولا ـ أنهم ماتوا.

والثانى ـ أنهم صاروا ترابا وعظاما بالية، وهى رميم، وإن ذلك يجعل الإعادة فى نظرهم مستحيلة؛ لأن الأرواح زهقت بالموت، والأجسام بليت، ونسوا أن الذى بدأهم وأنشأهم من العدم، كما قال سبحانه: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩)﴾ [الأعراف]، وأن الذى فطرهم أولا هو الذى يعيدهم ثانية. ويزيدون فى استبعادهم أو إنكارهم أنهم مخرجون من دفائن القبور إلى ظاهر الوجود، وكل ذلك من سيطرة المادة. ويؤكدون ذلك فيقولون:

﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) ﴾.

﴿ هَيْهَاتَ﴾ يقول النحويون: إنها اسم فعل ماضٍ بمعنى بَعُدَ، وقد أكدوا البعد بالتوكيد اللفظى بتكرار الكلمة، كما أكد الاستبعاد باللام فى قوله تعالى: ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ فكأن مضمون الكلام البعد المؤكد لما توعدون، أى الذى توعدونه من بعث ونشور وعقاب وحساب، كاللام فى قوله تعالى: ﴿ هَيْتَ لَكَ ... (٢٣)﴾ [يوسف] أى النداء لك أو لإغرائك.

وهكذا قد غشيت المادة تفكيرهم، حتى صاروا لا يفكرون إلا عن طريقها، ويستبعدون بأهوائهم، ولا يفكرون بعقولهم، ويؤكدون إنكار البعث، فيقولون كما حكى الله تعالى عنهم بقوله:

﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧)﴾.

فصلت هذه الجملة عما قبلها؛ لأنها فى معنى البيان لها، وتوكيدها، وقد انتقلوا من مرتبة الإنكار، إلى مرتبة ادعاء النقيض وادعاء أنه لا حياة بعد هذه الحياة فقالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ فإن نافية، ففى الجملة نفى وإيجاب، وهذا يفيد القصر، أى لا حياة إلا هذه الحياة الدنيا، والدنيا مؤنث أدنى، أى هذه الدنيا القريبة وليست الحياة البعيدة ﴿هِيَ﴾ ـ تفيد التوكيد، إذ مضمونها أن هذه الحياة وحدها.

﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أى يولد من يولد، ويموت من يموت، ويحيا بالميلاد من يحيا، كما نرى الموتى والأحياء، فهم يقرون بالواقع المحسوس فقط، ليموت من يموت، ولا يعود، ويولد من يولد فيحيا ثم يموت، ولا عود لمن مات، ولذا حكى عنهم أنهم يقولون: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أكدوا النفى بالباء، وبنفى الوصف، أى ليس من شأننا أن نبعث؛ لأن من مات لا يعود؛ ولأنه لا تحيا العظام بعد أن صارت رميما.

بعد هذا الإنكار الذى من شأن الذين كذبوا بلقاء الآخرة ينتقلون من مرتبة الإنكار المجرد، إلى مرتبة التهجم على مقام الرسالة، فيقولون:

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) ﴾.

الافتراء: الاختلاق؛ لأنه افتعال من فرى بمعنى قطع، أى أنه قطع واشتد فى اختلاق الكذب، بما قال من قول بعيد عن معقولهم وأهوائهم، وادعوا أنه افتراء الكذب على الله تعالى، وهو أعظم الافتراء، ﴿إِنْ﴾ نافية، وبعدها الاستثناء فهو نفى وإيجاب، ومعنى ذلك أنهم قصروا حال الرسول على افتراء الكذب على الله تعالى، وكأن عبارتهم فيها نوع تحقير لرسولهم، إذ يقولون: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ﴾ من غير أن يذكروا اسمه، أو رسالته، ويحصرونه فى الافتراء عليه سبحانه، ثم يردفون ذلك مؤكدين كفرهم ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾، أى ما نحن بمذعنين لقوله ولا مصدقين به، ولتضمن الإيمان معنى الإذعان والتسليم عدى باللام، أى ما نحن بمصدقين، ولا مذعنين له.

كان كلامهم هذا إيذانا بالإيذاء، وقد هددوه، ولذا يتجه الرسول إلى من أرسله، فيطلب نصره:

﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) ﴾.

اتجه الرسول، وهو أى رسول جاء بعد نوح، فهم فى معاندة الكافرين لهم، والتجائهم إلى ربهم بسبب صورة واحدة تكررت فى القرون التى جاءت بعده عليه

السلام، تبين طبائع بعض الناس فى تلقى الحق، وتبين صبر الرسل، وبقاء العنت من أقوامهم. ونادى ربه الحافظ الكالئ الحامى، ﴿انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾، أى التكذيب، وما تبع التكذيب من إعنات وإيذاء، ومقاومة عنيفة آثمة، فطلب النصرة لا يكون من التكذيب المجرد، إنما يكون مما يصحبه ويكون ملازما له.

أجابه ربه بأن نصره قريب فقال له:

﴿ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) ﴾.

﴿عَمَّا﴾ هنا لتأكيد القول، ولبيان القلة الزمنية التى تكون حتى ينزل عليهم عذاب الله الساحق الماحق، أى عن قليل من الزمن متجاوزين عنه أى تاركين له أى قلة فى غيهم يرتعون ﴿لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ على كفرهم وعلى عنادهم، وصدهم عن سبيل الله بعد مقاومتهم للحق.

وقد تأكد نزول العذاب بهم بمؤكدات، فأكد **أولا** ـ بـ «مَّا» المؤكدة، **وثانيا** ـ بالقسم، **وثالثا** ـ لام القسم، **ورابعا** ـ نون التوكيد الثقيلة، وقد بين سبحانه كيف نزل بهم العذاب، فعبر عن أمر الله بعذابهم بصيحة أرجفت أرضهم وديارهم، وجاءتهم بريح صرصر عاتية، فقال:

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١) ﴾.

«الفاء» عاطفة على القسم السابق جاء ما بعده فوره، أى بعد زمن ليس ببعيد فى علم، والصيحة بالحق هى إرادة الله التى تكون بالحق دائما، فهى كناية عن إرادة الله تعالى التى لا يتخلف حكمها ساعة من زمان، وكانت هذه الإرادة تتجلى فى رجفة تجعل عالى الأرض سافلها، أو تدكدك الديار، أو بريح صرصر عاتية، كما فعل الله مع قوم لوط وعاد وثمود.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ تعبير مجازى مؤداه أنه نزلت بهم آثارها التى أرادها الله تعالى بهم، وقد شبهت الصيحة بسبع: التهمهم وأخذهم؛ لأنها لم تُبقِ منهم ولم تذر، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ الفاء عاطفة على ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾،

أى أن هذه أمور متعاقبة من غير تراخٍ، والغثاء الأشياء التى ليس لها كيان ولكن تبدو كأنها شىء موجود له كيان، جاء فى مفردات الراغب الأصفهانى فى مفردات القرآن، الغثاء غثاء السيل والقدر، وهو ما يطفح ويغرق من النبات اليابس، وزبد القدر، ويضرب به المثل فيما يضيع، ويذهب غير معتدٍّ به، ويقال: «غثا الوادى غثوا، وغثت نفسه تغثى غثيانا غثيت».

ومؤدى هذا القول: أن أولئك الذين كانوا يحسبون أنهم كجلاميد الصخر فى عنفهم وعنادهم وإيذائهم قد صاروا شيئا ليس له كيان، وإن كان لهم كيان، فهو لا يبقى زمانين، بل كان رغاء، يعلو وينتفخ ويزول بنفخة واحدة، وقال تعالى: ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ الفاء للإفصاح، أى إذا كانوا قد صاروا غثاء فقد بعدوا وهلكوا فبعدا وهلاكا لهم، والبعد ضد القرب، والبعد لغير أوبة هلاك وموت؛ لذا يقال: «بعِد» بكسر العين بمعنى مات وهلك، كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥)﴾ [هود]، أى هلكت، وأظهر سبحانه فى موضع الإضمار لبيان أن ذلك كان بسبب ظلمهم لأنفسهم، وللناس، وللحقائق، ولتدليهم فى الشرك فعقابهم قصاص من ظلمهم، وما ربك بظلام للعبيد.

القرون من بعدهم

قال تعالى:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ (٤٢)
مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا
كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ
أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (٤٤) ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ
هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٤٥) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ

فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا
وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ
﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا
ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ
﴿٥٠﴾

﴿ثُمَّ﴾ للترتيب والتراخى، وقد ذكرت هنا للإشارة إلى أنها مهما تتطاول الأزمنة، فإنها متعاقبة، لا يخلو جيل من رسول، وقد توالت النذر، و﴿أَنشَأْنَا﴾ معناها أوجدنا بعد عدم (الفاسقين) الظالمين قبلهم ﴿قُرُونًا﴾، أى أجيالا آخرين، يجيئون جيلا بعد جيل، يخلف كل جيل ما قبله، والقادر الحكيم العليم هو المنشئ لها جميعا.

وإن كل جيل أمة واحدة تجيء فى ميقاتها تعقب من سبقها، ويسبق من بعدها، والدنيا لا تقف حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا، وحتى يبعث الله من فى القبور.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

الأجل الوقت المعلوم المحدود لها، فلا توجد أمة قبل ميقاتها تجيء فى وقت، ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾، أى ما يطلبون تأخير وقتها فتزيد فى عمرها، بل إن ما حدَّه الله تعالى، هو الواقع فى حده، وعاد الضمير إلى الأمة بضمير الجمع العاقل للإشارة إلى أن الأمة مجموعة العقلاء المدركين المكلفين، المخاطبين من الرسل، وإن حد زمن كل أمة محدود برسولها الذى بُعث بخطاب الله تعالى لها، ولذا قال تعالى ذاكرا رسلهم المرسلين إليهم فقال:

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (٤٤)﴾.

ذكر ﴿ثُمَّ﴾ هنا كما أشرنا لتطاول الأزمنة، وقوله تعالى: ﴿تَتْرَا﴾ أصلها وترى، والألف للتأنيث كما قال الزمخشرى أو للإلحاق، وهناك قراءة بالتنوين، أى تترًا[1]، والمعنى واحد، أى أرسلنا رسلنا وترا، أى واحدا بعد واحد ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ ومجىء الرسول لأمة هو مجىء دعوته ورسالته التى كلفه الله تعالى بتبليغها، فليس مجىء الرسول مجىء شخصى مجرد، إنما مجيئه بوصف كونه رسولا من الله تعالى، وبهذا الوصف يكون مجىء الرسالة، والتكذيب له فى هذه الرسالة مع أنه فى كل الأحوال معروف بالصدق بينهم، ولا يختار الرسول إلا من الصادقين أهل الأمانة.

﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ الضمير يعود إلى المكذبين، والإتباع إنما هو إتباع المكذبين بالإهلاك أى بعضهم فى الهلاك يتبع من سبقوه، فتوالى الإرسال، وتوالى الجحود، وتوالى الهلاك من بعد ذلك، وقد صاروا بعد الهلاك المتعاقب أحاديث تذكر للعبرة والاعتبار، و(أَحَادِيث) اسم جنس لحديث.

والمعنى أنهم بعد هلاكهم المتوالى فى العصور والأزمان صاروا أحاديث للناس يعتبر بها من يعتبر، ويستبصر بها من يستبصر، ويتلهى بها من يتلهى بأخبار الأولين.

﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾، أى فهلاكا لقوم لا يؤمنون، أى ليس من شأنهم الإيمان والإذعان للحق المبين، والفاء للسببية أى بسبب ذلك التكذيب المتتابع، والهلاك المترادف تكون الدعوة بالهلاك للذين لا يؤمنون، ويتجدد كذبهم آنا بعد آن.

وبعد أن ذكر سبحانه تتابع الرسل فى أرض العرب، أشار سبحانه إلى أنبياء بنى إسرائيل، وابتدأ بموسى وأخيه هارون اللذين أنقذ الله تعالى بنى إسرائيل على أيديهما فقال:

---

(١) قرأها بالتنوين: ابن كثير وأبو عمرو، ويزيد: أبو جعفر المدنى، وقرأ الباقون بغير تنوين. غاية الاختصار ٢/ ٥٨٤.

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ التى للتراخى لبعد الزمان وبعد المكان، وللانتقال من قوم متشابهين إلى غيرهم، ذكر الله تعالى رسالة موسى وهارون؛ لأن الله تعالى استجاب لموسى عندما دعا ربه أن يجعل له وزيرا من أهله، هارون، وقد خاطبا معا فرعون ذا الأوتاد عندما لقياه.

أرسلهما الله تعالى بآياته، وقد بلغت تسعا، ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أى بحجة باهرة، فالسلطان فى لغة القرآن يطلق على الحجة؛ ولأن الحجة سلطان الداعى وقوته، ولا قوة لمن لا حجة له ولو كان فرعون، ووصف الله تعالى السلطان بأنه ﴿مُّبِينٍ﴾، أى واضح بين من حيث الحجية؛ إذ إنه غير قابل للنقض، ومعلوم معروف؛ لأنه غير قابل للإنكار.

وقد ذكر الله تعالى من أرسل إليه موسى وأخاه هارون فقال:

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

فرعون فى عصره كان طاغية الدنيا، وكان المصريون قد استسلموا له وكان ملؤه حكام مصر يحكمون بطغيانه، ويسولون له كل ما يفعل، ويسوغون له ما به يعلو ويسرف، وباسمه عتوا عن أمر العقل والمنطق والحق، بعث الله تعالى موسى وهارون إلى هؤلاء وكل يعتز بعزة فرعون، وكانوا يستفتحون بعزته، فكانوا من منطق الوقائع، لا من منطق الحق والعقل مستكبرين؛ ولذا رتب على حالهم أنهم مستكبرون فقال: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾، و(الفاء) فاء السببية، أى بسبب هذه الطغواء استكبروا وكانوا قوما عالين، أى مرتفعين عن الناس، لا فى ذات أنفسهم، بل بحكم واقع الحكم والأمور التى تسير سيرا مطردا، وهم يعلون فى أنفسهم ادعاء وغلوا وطغيانا لا يستمعون إلى الحق، ولا يصغون إلى داعية، يغالون فى رده، ولقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [القصص]، وقد ذكر الله تعالى مضمون ردهم، فكان كرد غيرهم، وهو استبعاد أن يكون الرسول مثلهم، وقد تواضعوا فى ذكر هذه المثلية.

﴿ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

الفاء عاطفة ما بعدها على ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾، وقولهم ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ الاستفهام هنا للإنكار بمعنى النفى مع الإنكار الشديد، فالمعنى لا نؤمن ولا نذعن لبشرين مثلنا، وقد» سببوا كفرهم بسببين.

أولهما ـ أنهما مثلهم فى البشرية، وكأنهم تصوروا أن الرسالة الإلهية لا تكون لبشر، وقد لفوا فى هذا لف غيرهم من المشركين الذين مر ذكرهم.

والثانى ـ أن قومهما ـ وهم بنو إسرائيل ـ لهم عابدون، أى خاضعون خضوعا مطلقا قد استذلوهم وذبحوا أبناءهم واستحيوا نساءهم، وعبَّدوهم، كما فرض فرعون على المصريين أن يعبدوه، وقال لهم: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ... ﴿٣٨﴾﴾ [القصص]، ومهما يكن فهم كانوا يعدونهم دونهم، كما يعد القوى دائما الضعيف الذليل دونه قدرا ومكانا.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

«الفاء» للإفصاح، والمعنى إذا كان ذلك قولهم فقد كذبوهما، وكفروا برسالة موسى ـ عليه السلام ـ مع توالى الآيات المثبتة لرسالته، ومع غلبه عليهم، وقد جمعوا الجموع من المدائن حاشرين، ولذلك كانوا مهلكين، ولذا قال تعالى: ﴿فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ أى فرعون وملؤه وجيوشه، فقد فتح البحر لبنى إسرائيل، فكان كل فرق كالطود العظيم، فسار فرعون وملؤه وجنده فانطبق عليهم، فكانوا من المغرقين، ونجا المصريون الذين لم يكونوا من ملته ولا من جنده.

وإن حكم فرعون كان يقوم على إرادته المنفردة، فما أراده فهو قانون، يفرض بالقسر والقوة، فعندما بعث فيهم موسى بين لهم أن القانون من الله، لا من فرعون وأشباهه، وأنه أتى لهم بهذا القانون فى التوراة، ولذا قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

أكد الله تعالى أنه أعطاهم كتابا ينظم العلاقة بين الناس بعضهم مع بعض، والعلاقة بين الحاكم والمحكوم، وينظم الأسرة، ويقيم العلاقات بين آحادها، وأكد

سبحانه وتعالى إيتاء موسى هذا الكتاب الذى يعد دستور الحكم لأرض مصر وغيرها، ويقيد فرعون وغيره، ويكفه عن طغيانه، جاء موسى بهذا من عند الله تعالى فى عصر لم يكن يعرف إلا حكم الطاغوت من فرعون وأشباهه من طواغيت أهل مصر، ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾، أى رجاء أن يهتدوا إلى العمل الصالح، وأن يعرفوا ما لهم من حقوق إنسانية، وما عليهم من واجبات، وتنظم بها العلاقات بين الناس على أساس من العدل والحق.

ويجب أن ننبه هنا إلى أن الذى بين أيدينا مما يسمى كتب العهد القديم ليست هى توراة موسى، بل نسوا حظا مما ذكروا به، وزيد فيها أحاديث ما أنزل الله بها من سلطان بل هى أساطير الأولين.

وبعد موسى جاء أنبياء ينفذون أحكام التوراة التى كانت صادقة، كداود وسليمان وأيوب وغيرهم، ثم جاء من بعدهم عيسى عليه السلام، ولذا قال تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ ﴾.

أى صيرنا ابن مريم وأمه آية، أى معجزة خارقة للعادة، وعرف عيسى بأنه ابن مريم لبيان أنه ليس له أب، وأن مريم ولدته من غير أب، وكان بذلك هو وأمه آية خارقة لمجرى العادات، ذلك أن مجرى العادات فى الأسباب والمسببات أن الولد يكون من نطفة توضع فى رحم المرأة فيجىء الولد بإذن الله تعالى، كما تبين فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ إلى آخر الآيات الكريمات، فكانت المعجزة فى أن عيسى جاء من غير أب؛ وذلك لإثبات قدرة الله تعالى وإرادته، وأنه مختار فعال لما يريد، ذلك أن الفلسفة الأيونية التى ظهرت فى آسيا الصغرى، وتولدت منها الفلسفة اليونانية كانت تؤمن إيمانا عميقا ـ ولو كان باطلا ـ بأن الدنيا وجدت بالسببية، أى بوجود المعلول عن علة، حتى قالوا إن الكون كله وجد عن السبب الأول بالعلة، وبولادة عيسى من غير أب تبين أن الله فاعل مختار، رزاق، وهو ذو القوة المتين، وكان عيسى عليه السلام وأمه آية خارقة للعادة، فأمه ـ عليها السلام ـ حملت من غير نطفة، وهو ولد من غير أب، فكانت المعجزة فى كليهما، ومكونة منهما.

ويقول تعالى: ﴿وَآوَيْنَاهُمَا﴾، أى جعلنا مأواهما ربوة، أى مكانا مرتفعا، قد أوت إليه مريم عندما فاجأها المخاض إلى جذع النخلة، حتى لا يراها الناس وقد قال تعالى فى ذلك: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم].

والربوة مع أنها مرتفع من الأرض ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، أى يمكن القرار فوقها، لأنها مستوية، فيها مهاد كالفراش، ﴿وَمَعِينٍ﴾ أى ماء طاهر ثرّ. وقال الزجاج: هو الماء الجارى، وقال بعض الباحثين فى اللغة يقال: معن الماء إذا جرى، وهكذا اقترنت ولادة عيسى بمعجزات، فكانت الربوة فى المرتفع عن الأرض، ذات قرار ممهد، وفيها الماء الجارى، وتكلم فى المهد صبيا، وكان هو فى ذاته معجزة.

الأنبياء بشر يأكلون، والكفر بهم واحد

قال الله تعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا
تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ
فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ
فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا
نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ
﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم
بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾

وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾
أُوْلَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ
نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾
بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا
عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ
﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾

﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ النداء للرسل، وهو نداء لبيان حقيقة الرسل، وأنهم من البشر يأكلون الطعام، وكان النداء لهم وقد مضوا إلى ربهم، ولم يكن عند نزول الآ ية الكريمة إلا محمد ﷺ، وذكر النداء فى هذا للدلالة على أنهم كانوا يخاطبون بهذا الخطاب، رسول منهم كان يخاطب بهذا الخطاب، وتباح له طيبات الطعام، والطيبات من الرزق، ويؤمر به كالأمر بكل مباح، والطيبات تتحقق طيبتها بأمور؛ منها: أولهما ألا يكون خبيثا فى ذاته كالميتة والدم ولحم الخنزير، وأن يكون قد سمى عليه عند ذبحه، وأن يكون قد كسب من حلال، فيجتمع فيه الحل الذاتى والحل الدينى، ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ وليس الأمر الذى يكون به متميزا عن سائر البشر إلا العمل الصالح بأن يكون خالصا له، والعمل الصالح هو العمل الطيب الذى يكون خيرا محضا للناس لا يكون معه شر لا فى ذاته، ولا فى نيته، والعمل الصالح ما يكون فيه النفع لأكبر عدد ممكن، وما تكون فيه سعادة عاجلة لأكثر الناس، أو سعادة آجلة لعامتهم، ويدخل فى هذا دعوتهم إلى الهداية والرشاد، والتبليغ عن أمر ربهم.

﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وقد وثق الله تعالى العمل الصالح عليهم ببيان إحاطة علمه تعالى به، فقال: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، وقد أكد الله تعالى علمه بكل ما

يعملون ليترقبوا جزاءه الوفاق لأعمالهم، وهم بشر يجزون بالخير على ما يقدمون كغيرهم من البشر.

وقد أشار سبحانه إلى أن الناس جميعا فطرة واحدة ينبعثون عن غرائز واحدة، ويختلفون عند اصطدام هذه الغرائز، واختلاف النزوع باختلافها، ولذا قال عز من قائل:

﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) ﴾.

﴿وَإِنَّ هَذِهِ﴾ إن بالكسر، على أن الواو لاستئناف كلام جديد، له وثيق الصلة بالآية السابقة، وقال أكثر المفسرين: إن الأمة بمعنى الدين والملة، وأمة منصوبة بالحال، أى أن هذه أمتكم حال كونها أمة واحدة أى على دين واحد، وهو توحيد الله - تعالى - بلغته الرسل أجمعون، ولكن جاء الاختلاف، فتقطعوا زبرا، وصاروا أحزابا، ولكن كل حزب بما لديهم فرحون، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾، أى أن ربكم واحد، كما أن دينكم واحد، أجمع عليه الرسل الذين بعثوا من عند الله، والفاء فى قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُونِ﴾ سببية، أى بسبب أنى ربكم الذى خلقكم، ويكلؤكم بالليل والنهار ﴿ فَاتَّقُونِ﴾، أى اعبدوه، واجعلوا بينكم وبين غضبه وقاية.

هذه على تفسير أمتكم بمعنى دينكم الواجب اتباعه، ولا يصح أن تسمى غير التوحيد دينا قيما، وقد عرض لى أن نفسر كلمة أمة بما فسرناها به فى سورة البقرة، فى قوله تعالى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ...(٢١٣)﴾ [البقرة]، أى صنفا على طريقة واحدة، وعلى غرائز واحدة وقد تتناحر نوازع نفوس التى تسير وراء الغرائز من غير تهذيب بدين يجىء به نبى مرسل، وبذلك يترتب التقاطع من هذه الوحدة فى الغرائز والطبائع، فإذا كان حب الغلب غريزة، فإنه لابد من التغالب؛ لأن كلا يجد فى نفسه دافعا لأن يكون هو الغالب، فيكون التنازع والتقاطع، ويكون التعبير بالفاء فى قوله فى الآية الآتية: ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا...﴾، أى أنه جاء التقطع من وحدة الغرائز.

هذا ما بدر لنا، والله أعلم بمراده، وقوله: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾، أى أن النداء بالتقوى لكف الغرائز، وتهذيبها هو الذى يكفها، ويجعلها فى ميزان الاعتدال.

﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

الزبر جمع زبرة أو اسم جنس جمعى، وهو الذى يفرق فيه بين المفرد والجمع بالتاء أو بياء النسب، كروم وروميى، والزبرة قطعة من الحديد، وقد شبهت الجماعات المختلفة فى نزاعها بزبر الحديد، من حيث إن كل واحدة شديدة فى التمسك بما عندها كأنها صلب الحديد، لا تترك رأيها، كما لا تتفرق زبر الحديد.

أى اختلفوا متقطعين متنابزين غير مجتمعين فى أمرهم، بحيث لا متسع للالتقاء فيما بينهم، يتحزبون فى تفكيرهم: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾، أى كل جماعة متحزبة متعصبة لما عندها، فرحة به، وتحسب أنه الحق الذى لا ريب فيه، وهو الضلال المبين، وإن التحزب لفكرة يدفع إلى التعصب لها، والتعصب يعمى ويصم، وتقديم الجار والمجرور ـ بما لديهم ـ لبيان أهميته عندهم.

وهنا ننبه إلى أن الفاء فى قوله: ﴿فَتَقَطَّعُوا﴾ فاء السببية، وهى بهذا المعنى يرجح أن معنى الأمة ما بدر لنا، وتبعا أن يكون معناها: دين التوحيد؛ لأنه لا يترتب عليه التقاطع والتفرق.

﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

الخطاب للنبى ﷺ، والضمير يعود إلى المشركين، فإنهم حاضرون فى ذهن النبى ﷺ فى أنهم فى كفرهم وعنادهم موضوع القول، وتسرية الله لنبيه لأجل أذاهم المستمر اللحوح، والغمرة الماء الكثير الذى يغمر من ينزل فيه، والمراد الجهالة، أى ذرهم فى جهالتهم التى غطت عقولهم وفكرهم كما تغطى الغمرة: التى تغطى أجسامهم، وإن جهالتهم هذه جعلتهم فى حيرة بين حق رأوا دلائله، وباطل قد استولى على نفوسهم، وقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ إلى حين ليس ببعيد، وإنه لقريب؛ لأنه واقع، وكل واقع قريب مهما يتباعد زمانه.

والفاء فاء الإفصاح، والمعنى إذا كانوا قد أعرضوا عن الحق، ولجوا فى إعراضهم جهالة وحيرة فذرهم حتى حين، والحين الذى ينتهى عنده انتظار أمر الله

هو ما بعد الهجرة، ولقاؤهم فى ميدان القتال، ويكون دفع ظلمهم ووقفهم عند حدودهم، ولا يصح أن يظنوا أن مالهم وأولادهم تغنى عنهم شيئا، ولذا قال تعالى:

﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ (٥٦)﴾.

هذه الآية الكريمة متصلة بما قبلها؛ إذ مغزى الآية السابقة أن الله تعالى ينذرهم بأنهم بعد حين سيتسلط عليهم العباد المؤمنون، وإذا كانت نقمة الله تعالى نازلة بهم لا محالة على أيدى عباد الله الصابرين، فلا يصح أن يظنوا أن الله يسارع لهم فى الخيرات، **﴿أَيَحْسَبُونَ﴾** الاستفهام للاستنكار بمعنى النفى مع رميهم بالجهل والغرور، أى لا يحسبون أن الذى نمدهم من مال وبنين، وكل أسباب القوة مسارعة لهم فى خير لهم، إنما هو مطاولة، وإمهال من غير إهمال، **﴿بَل لاَّ يَشْعُرُونَ﴾** بل للإضراب، أى إضراب عن هذا الزعم الذى يزعمونه، والحسبان الذى يظنون، إنما هم لا يشعرون، أى لا يشعرون بما يرتكبون من جرائم، ولا يشعرون بأن عذاب الله واقع، ولذا لا يستعدون.

ولقد ذكر بعد ذلك المؤمنين فقال عز من قائل:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧)﴾.

الخشية خوف يشوبه تعظيم، والإشفاق خوف تشوبه محبة، وكذلك شأن المؤمن فهو يخاف الله ويعظمه، ويحبه، فهو يحب الله تعالى، ويحبه الله تعالى، وهو يعظم الله تعالى، ويخاف عذابه، فهو يستكثر أخطاءه، ويخاف العقاب، ولذلك كان من شأن أهل الإيمان أن يغلب فى نفوسهم خوف العقاب على رجاء الثواب، وقد أكد سبحانه خشية المؤمنين وإشفاقهم بمؤكدات:

أولها ـ **﴿إِنَّ﴾** فهى لتوكيد الكلام.

وثانيها ـ ضمير الفصل **﴿هُم﴾**.

وثالثها ـ تقديم الخشية على متعلقها.

ورابعها ـ التعبير بربهم، أى القائم على أمورهم وكالئهم، وحاميهم.

هذا هو الوصف الأول من أوصاف أهل الإيمان الذين يستحقون الثواب، ولهم الغرفات الآمنة عند ربهم.

وذُكر أولا ـ لأنه يتضمن إذعان القلب، وامتلاء النفس بهيبته سبحانه، فيكون قريبا منه، يفطن لآياته، ولذا قال سبحانه فى الوصف الثانى:

﴿ **وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ** (٥٨) ﴾.

إنهم لخشيتهم من ربهم، وإشفاقهم، ومحبتهم لربهم تصفو نفوسهم، وتذهب الكدرة من أفهامهم، فإذا رأوا الآيات توجهوا إليها بقلب سليم مشرق، قذف به نور الإخلاص، والواو عاطفة تعطف صفة على صفة؛ ولذا قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ**﴾ يصدقون موجب هذه الآيات، وما تدعو إليه؛ ذلك أن الإخلاص إذا دخل القلب ملأه بنور الحكمة، فأدرك به، ولم تقف حوائل دون الإدراك فيكون الإدراك سليمًا، ولا ينطق اللسان إلا بالحق، ولقد تأكد الحكم بما تأكد به الوصف الأول، والتعبير بالمضارع يفيد تجدد الإيمان بتجدد الآيات، فكلما كانت آية من آيات الله وهى كثيرة زادت المؤمن إيمانا، فإيمانهم متجدد فى نماء، ويزيد بزيادة الآيات، وقال سبحانه فى الوصف الثالث:

﴿ **وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ** (٥٩) ﴾.

الشرك يجىء دائما من أوهام تسيطر على النفس الإنسانية، فتجعلها تعتقد قوة فى حجر، أو فى شخص، وقد تكون مسوغات موهمة، وقد يكون الوهم نفسيا من ذات النفس، ونفس المؤمن سليمة صافية فيها نور الحق، قد استضاءت به، وعمرت بذكر الله تعالى وامتلأت به فلا تضل أبدا، ولذا قال تعالى: فى الوصف الثالث من أوصاف المؤمنين ﴿ **وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ**﴾ إنهم يعترفون أن العبادة لا تكون إلا للقادر على كل شىء الذى لا مثيل له الواحد فى ذاته وصفاته وخلقه، فهم كما عرفوا آياته وأذعنوا، فهم أيضا يذعنون لمعانى الوحدانية، فلا يشركون به شيئا، وفى الجملة السامية التوكيدات فى الآيات السابقة وإن من أجل صفات المؤمنين كما أشرنا من قبل أنهم يستصغرون حسناتهم، ويستكثرون أخطاءهم، ولذا قال فيهم رب العالمين.

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝٦٠ ﴾.

ذلك هو الوصف الرابع، وهو أنهم فى وجل من لقاء ربهم مع ما يعطون من حسنات.

الوجل: الخوف مع الاضطراب الشديد، والإحساس بالقصور، وهذا هو الوصف الرابع لأهل الإيمان، والإيتاء: الإعطاء، والمعنى أن هؤلاء المؤمنين لفرط إحساسهم بخشية ربهم، وإشفاقه يعطون العطاء الكبير ويخشون مع ذلك ألا يقبل منهم لرياء أو نحوه مما يمحق الحسنات، أو لوجود داء يذهب بخير القربات، ولقد قال الحسن البصرى سيد أهل البصرة: لقد أدركنا أقواما كانوا من حسناتهم أن ترد أشفق منكم على سيئاتكم أن تعذبوا عليها، ولا شك أن ذلك من تغليب خوفهم على رجائهم، وقوله تعالى: ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ حال من فاعل يؤتون(١).

ووجلهم من أنهم إلى ربهم راجعون، وهذا يدل على أمرين:

أحدهما ـ أنهم ذاكرون دائما لليوم الآخر، ويغلبون خوفهم منه على رجائهم فيه، لفرط إحساسهم بالخشية من الله تعالى.

ويدل ثانيا ـ على أنهم يرهبون الوقوف أمام الله استصغارا لحسناتهم، واستكثارا لسيئاتهم.

وقد قال تعالى فى جزائهم:

﴿ أُوْلَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ۝٦١ ﴾.

الإشارة إلى الحاملين لأوصاف السبق عند الله تعالى، الذين هم من خشية ربهم مشفقون، والذين هم يذعنون لدلائل آيات ربهم، ولا يشركون شيئا فى

---

(١) عن عَائشَةَ زَوْجِ النَّبِىِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ عَنْ هَذه الآيَة (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجلَةٌ) قَالَتْ عَائشَةُ: أَهُمْ الَّذينَ يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قَالَ: «لا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ؛ وَلَكنَّهُمْ الَّذينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لا يُقْبَلَ منْهُمْ، أُولَئكَ الَّذينَ يُسَارِعُونَ فى الْخَيْرَات». رواه الترمذى- تفسير القرآن- ومن سورة المؤمنون(٣٠٩٩)، كما رواه ابن ماجه فى الزهد (٤١٨٨).

العبادة، والذين يقطعون من أموالهم للفقراء، ويوجلون إذ يعلمون أنهم إلى ربهم راجعون، هؤلاء بهذه الصفات التى تسمو بهم يسارعون فى الخيرات؛ لأنهم يتنقلون فى وسط صفات سامية، فيتنقلون مسرعين فى وسط خيرات، ويلاحظ هنا أن التعدية بـ «فى» تفيد أنهم ينتقلون من مرتبة خير إلى أعلى منها مسارعين بهذه الصفات السامية، فهم وسط دائرة الخير دائما يتنقلون فى درجاتها، أو الخير يمهِّد للخير، وكل خير يمهد إلى أعلى منه: ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ الجملة حال من فاعل يسارعون، فهم بهذه المسارعة المتنقلة بهم من خير إلى خير يسابقون إليها وكأنما يسبقون إلى الجزاء الأوفى، والنعيم، فجزاء المسارعة فى الخير، سبق إليه، والضمير يعود إلى الخيرات، والمعنى أن السبق إلى الخير هو نفسه خير، وينتهى إلى جزائه، فهؤلاء يبتدئ جزاؤهم من أعمالهم براحة ضمائرهم، واستمتاعهم برضا ربهم، وإحساسهم بإنسانيتهم الكريمة، فالخير جزاؤه يبتدئ من ذات فعله، وينتهى به إلى النعيم يوم القيامة.

وبين سبحانه أن الله تعالى يريد اليسر من عباده، ولا يريد العسر، وأنه لا يكلف سبحانه إلا بما يكون فى دائرة الطاقة فى يسر ومن غير مشقة، فيقول تعالت حكمته:

﴿ وَلا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٢)﴾.

الواو للاستئناف، ﴿وَلا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ أى إلا ما فى طاقتها، وتستطيع القيام به فى سعة من غير إرهاق ولا إجهاد، فلفظ ﴿وُسْعَهَا﴾، يشير إلى أنه تكون عند عمله فى سعة من غير ضيق ولا إحراج، فلا حرج فى الدين ولا ضيق، وكذلك كل تكليفات الإسلام ليس فيها شقة فوق الطاقة، وما يكون فيها شقة ربما تكون شديدة أحيانا لا تكون على الكافة كالجهاد، بل يكون ابتداء فرض كفاية إلا أن يدخل العدو أرضنا، فيكون فرض عين على كل قادر على حمل السلاح؛ لأنه يكون شقة شديدة لدفع شقة أشد، وهى شقة الذل وضياع الدين، وهذه أشد الشُّقات.

والصفات التى اتصف بها المؤمنون، والأعمال التى يقومون بها فى الطاقة، والعمل عن سعة ويسر وسهولة إلا على الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر.

وإن كل عمل خيرا أو شرا فى إحصاء دقيق لا يتخلف عنه شيء، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ﴾ قالوا: إنه كتاب الأعمال الذى يحصى فيه كل عمل خيرا كان أو شرا، ويصح أن نقول: إن ذلك تصوير لعلم الله بما يفعله كل إنسان، ويوم القيامة يجده محضرا يخبر به ويحاسب عليه، لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، وصور الله سبحانه وتعالى إحصاء أعماله كله كأنها تنطق به متلبسة بالحق مخالطة له غير بعيدة، وأكد سبحانه أنهم لا يظلمون، فقال: ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾، فلا ينقص من خير فعلوه، ولا يزاد على سيئاتهم سيئات، بل إن الله يعفو عن السيئات إذا كثرت الحسنات: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ...(١١٤)﴾ [هود].

هذه صفات المؤمنين وعقباها جاء بها سبحانه وسط وصف الكافرين، واستكبارهم ليكون المؤمنون مجال اعتبار، وليمكن لهم، ثم أخذ سبحانه يتمم بيان ضلال الكافرين، فقال تعالى:

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣)﴾.

الإضراب هنا فيه بيان أنهم لا ينتفعون بالعظات والعبر، ولا يستبصرون بهداية المهتدين، ولا يتعرفون مآل الحق وأهله، ولا مآل الباطل وأهله ﴿فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ الغمرة أصلها ما يغمر الإنسان من الماء، وقد فسر بعضهم الغمرة بالغفلة التى غمرتهم، وهو تفسير حسن، وقد غفلوا أولا عن الكتاب الذى يكتب الحسنات والسيئات، أو علم الله تعالى الذى لا يغادر صغيرة أو كبيرة إلا أحصاها، وغفلوا عن رقابة الله تعالى لأعمالهم وغفلوا عن أعمال المؤمنين واستقامة قلوبهم، وهم أناس مثلهم، قد سبقوهم فى الفضل وشرف الإيمان، والمسارعة فى الخيرات والسبق فيها، وأنهم قد سارعوا فى الكفر، كما سارع المؤمنون فى الخيرات، وسبقوا إليها،

فكان لهم فى الكفر أعمال كثيرة منها: أنهم حرموا على أنفسهم ما لم يحرم الله تعالى، كما حرموا السائبة والوصيلة والبحيرة...، ومنها: أنهم جعلوا للأوثان نصيبا من الحرث، ومنها: أنهم صدوا عن سبيل الله، ومنها: أنهم فتنوا المؤمنين فى دينهم، ومنها: أنهم آذوهم وأخرجوهم، ومنها: أن رءوسهم صارت عشا للخرافات والأوهام؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ وقد أشرنا إلى بعض هذه الأعمال. ومنها: طوافهم بالبيت عراة، وادعاؤهم أن الله تعالى أمر بها ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا... (٢٨)﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ ذَلِكَ﴾ الإشارة إلى الشرك والكفر بآيات الله تعالى، وإنكار التوحيد، و﴿مِّن﴾ بيانية، ﴿دُونِ﴾ أى غيرها وأدنى منها درجة فى التكليف، وأنهم مستمرون، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ فالجملة حالية من ضمير «لهم»، أى والحال أنهم مستمرون على هذه الأعمال غير منقطعين عنها فهم فى ضلال مستمر.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ (٦٥)﴾.

حتى للغاية، والمعنى: فهم فى غفلتهم المستمرة الغامرة الحق بالباطل لا يستبصرون ولا يتيقظون، ولا ينبههم إلا قارعة تقرعهم؛ ولذا قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ﴾ فتقرعهم القارعة، أى أنهم غافلون، حتى تنبههم من الغفلة قارعة تمس المترفين، وخص المترفين بالذكر، مع أن القارعة تعمهم وغيرهم إذ المهلكات تعم، ولا تخص المترفين منهم. خص المترفين؛ لأنهم أصل الإنكار الذين تلهيهم الغفلة عن الحق، أو يلهيهم ما هم فيه من ترف عن أن يدركوا الحق؛ لأنهم لا شدائد تنبههم، فالشدائد ترهف المدارك، وتوقظ الأفهام، ولأنهم لا يصبرون على الابتلاء، بل يخرون صاغرين أمام أى شدة، أو كارثة تكرثهم؛ ولذا قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ ﴿إِذَا﴾ للمفاجأة، والمفاجأة تحوُّل حالهم من استكبار واعتزاز وغفلة إلى صغار وتنبه، وضراعة، فالجؤار مصدر جأر وهو رفع الصوت بالضراعة والاستغاثة.

والعذاب قيل: هو عذاب الدنيا بكارثة دنيوية أو حرب هازمة لهم، والتعبير ﴿أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ﴾ معناها أنزلنا بهم العذاب جزاء ما أجرموا. وكنى عن ذنوبهم بالعذاب الذى استحقوه بها، وقال أخذناهم، كناية عن أنه أخذهم حتى لا يفلتوا منه، وشبه إنزاله بهم بأخذهم إليه أخذا مصحوبا بالعذاب الشديد.

وإنهم إذ يضرعون ويجأرون يفعلون ذلك فى وقت غير مناسب؛ لأنه قد فات وقت الضراعة والاستغاثة بالله، إذ إن تلك الضراعة كانت وهم فى وقت التكليف؛ ولذا قال تعالى:

﴿لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ (٦٥)﴾.

هذه الجملة السامية فى مقام التعليل للجملة التى قبلها، أى لا تضرعوا، لأنكم تأبيتم فى وقت التكليف واستكبرتم علينا وكفرتم بآياتنا، فلن ننصركم، وبقى عليكم أن تذوقوا مغبة أعمالكم، وذلك كقوله: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً (١٢)﴾ [المزمل]، وكقوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَّلاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣)﴾ [ص].

حالهم فى غفلتهم وإعراضهم

قال تعالى:

قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى
تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ
بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ
ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ
﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ
كَـٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ

وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾

الآيات هى الآيات القرآنية بدليل التعبير بقوله: ﴿تُتْلَى﴾، والتلاوة القراءة المرتلة التى تجىء الكلمة تلو الكلمة واضحة فى نطقها متقنة فى صرفها عند النطق مستوفية مدها وهى الترتيل، كما قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ④﴾ [المزمل]، وكما قال تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ﴾ [الفرقان]، وأن القرآن الكريم قد تواتر كتابة وقراءة وترتيلا، وهو فى ترتيله قد تلقاه النبى ﷺ عن جبريل، علمه الله تعالى إياه.

وقد أكد سبحانه وتعالى بـ (قَدْ) الدالة على التحقيق و﴿كَانَتْ﴾ تدل على استمرار التلاوة، ولكنهم ما كانوا ليتبعونها، ويتدبرونها، ويتعرفون مراميها وغايتها، معتبرين بعبرها، متأولين مآلها، بل إنهم يستمعون بآذانهم، وقلوبهم لاهية، وعقولهم معرضة؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ «الفاء» عاطفة، «كنتم» معناها أن هذه كانت حالا دائمة مستمرة لا يستمعون إلا بآذانهم، وقلوبهم معرضة، وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ﴾، هذا التعبير تصوير للإعراض يظهر حسيا، كيف كان إعراضهم عن الحق ﴿تَنكِصُونَ﴾، أى ترجعون وراءكم، ووجوهكم كأنها مقبلة، فهم يرجعون القهقرى، بأدبارهم، ويسيرون إلى الوراء بأعقابهم، وقد جاء فى قراءة شاذة منسوبة لعلى بن أبى طالب «فكنتم على أدباركم»، ولعلها تفسير له رضى الله تعالى عنه، وهذا تشبيه حال بحال، فشبهت حالهم فى أنهم يسمعون بآذانهم دون أن تعيه قلوبهم بحال من يلقون بوجوههم وهم يسيرون القهقرى إلى الوراء.

وبين سبحانه أن ذلك كان استكبارا، فقال:

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧)﴾.

﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ حال من «الواو» فى ﴿تَنكِصُونَ﴾، وهى تفرقة واضحة بين حالين، إحداهما تململهم عند سماع الحق حتى إنهم ينكصون على أعقابهم عند سماعهم، وحالهم وهم يجأرون ضارعين صاغرين عندما يؤخذون ببعض العذاب الذى يستحقون.

وقوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ الضمير فى ﴿بِهِ﴾ يعود إلى القرآن الذى تتلى آياته، مستكبرين استكبارا مصاحبا لسماعه، أى متعالين على القرآن نفسه، أو متعالين بسببه لأنهم لم يذعنوا لحقائقه، ويصح أن يكون متعلقا بـ ﴿سَامِرًا﴾ أى جاعلين القرآن موضع سمرهم حول الكعبة، ﴿تَهْجُرُونَ﴾[1]، أى يقولون الهجر من القول الفاحش، أى أنهم مع نكوصهم على أعقابهم عند سماع تلاوته يجعلون الطعن فيه وسب النبى ﷺ موضع سمرهم وقولهم الهَجْر من القول الفاحش، وقرئ يُهجرون، وبضم الياء وماضيها «أهجر» أى دخل فى هجر القول.

وخلاصة المعنى على هذا أنهم ينكصون معرضين عند سماع التلاوة مستكبرين سامرا به بهجر القول، أى لا سمر لهم إلا السخرية به وبمحمد ﷺ ناطقين بالهجر الفاحش من القول، ومع ذلك يجأرون ضارعين عندما يأخذهم عذاب يفجأهم أو كارثة تكرثهم، وكان حقا عليهم أن يتدبروا القرآن بدل أن يعرضوا عنه ويتخذوه موضوعا لسمرهم وهجرهم.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨)﴾.

الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وهى مؤخرة عن تقديم؛ لأن الاستفهام له الصدارة، ومؤدى القول أنهم قد نكصوا على أعقابهم ثم جأروا عندما اشتدت بهم الشديدة، أفما كان أولى من هذا أن يتدبروا القول بأن يتدبروا ما تلى عليهم ويتعرفوا معانيه، أم أنه جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين، فـ ﴿أَمْ﴾ على هذا هى التى تكون للمعادلة بين أمرين، والاستفهام هنا لاستنكار المعادلة، والمعنى ألم

---

(١) قراءة (تُهجِرون) بضم التاء وكسر الجيم: نافع، وقرأ الباقون بفتح التاء وضم الجيم. غاية الاختصار: ٢/ ٥٨٤.

يتدبروا ما سمعوا من آيات تتلى أم أنهم جعلوا هذه الآية فى منزلة ما جاء به آباؤهم فمادامت لم يجئ بها آباؤهم فهى فى موضع الإنكار، وفى هذا توبيخ لهم من ناحيتين:

أولاهما ـ أنهم مقلدون لا يفكرون بعقولهم تفكير موازنة بين حق وباطل.

وثانيهما ـ أنهم مقلدون آباءهم، ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون.

﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٦٩) ﴾.

﴿أَمْ﴾ تتضمن معنى بل، والاستفهام الإنكارى، و«بل» معناها الإضراب، فالكلام فيه إضراب انتقالى، والمعنى نضرب عن هذا، ونسألهم ألم تعرفوا رسولكم فأنتم له منكرون، ومؤدى هذا التساؤل أنكم قد عرفتم رسولكم، فقد نشأ بينكم، وعرفتم صدقه وعدله واتزان فكره، وسلامة طبعه، وضئضئ نسبه، وأنه من أوسطكم، وأنه الأمين بينكم فكيف تنكرون رسالته، وتنكرون شخصه، وهو الأمين النسيب فيكم، وأرجح رجالكم عقلا.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) ﴾.

﴿أَمْ﴾ تدل على الإضراب والاستفهام معا، وهو إضراب انتقالى يضرب بها عن الكلام قبله، وينتقل إلى استفهام جديد، ولا شك أنهم يعرفون أمانته وصدقه، واستقامة نفسه وخلقه وعقله، وطبعه، ولا يتحول ذلك إلا إذا اضطرب كيانه العقلى والنفسى، وأصيب بجنون، والمعنى أيقولون به جنة؟ أى أتحول عنطبيعته، وأصابه جنون، وهو يقول القول الحكيم، ويتصرف التصرف الحكيم، فلم يكن به جنون، بل زاد بالبعث عقلا وعلما، وإنما هو الكراهية للحق؛ ولذا قال: **﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾**، **﴿بَلْ﴾** للإضراب عن كل ما سبق فهم يعرفون إعجاز القرآن وقد تحداهم أن يأتوا بمثله فعجزوا، وإذا لم يتدبروا القول، فهو يقرعهم بالحجة، وهم يعرفون الأمانة عنده، وهم لا يقولون صادقين إنه مجنون، ليس هذا ولا شيء منه، ولكن الحق ثقل عليهم، وقد جاء به ليبطل عبادة الأوثان وتحريمهم

ما أحل الله، وأكثر أهل مكة كارهون للحق: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ... (١١٦)﴾ [الأنعام]، وإن هو إلا الهوى سيطر عليهم واتخذوا إلههم هواهم؛ ولذا قال تعالى:

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ (٧١)﴾.

الهوى ينبعث من مصدرين:

أولهما ـ الشهوة والسيطرة التي قد تجمح بصاحبها عن مناهج السداد، وموضع الاستقامة، والتي تضل معها الأفهام والعقول.

وثانيهما ـ سيطرة الأهواء، فيتخيل ثم يخال، وإن هذين الأمرين لا يقوم بهما أمر صالح للبقاء، فالشهوات نزعات ولا تكون معها إلا لذات وقتية لا تدوم، بل تنتهي بانتهاء وقتها؛ فلذة الخمر تنتهي بانتهاء وقتها، وكذلك كل لذة جسمية تنفعل بها النفس لا تدوم، وشهوات الناس مختلفة، فيكون التضاد بين الناس والتنازع المستمر، والتناحر القاتل، كما نرى الآن في أمم أوربا وخاصة أمريكا، ثم الأوهام من شأنها أن تصور ما ليس واقعا كأنه واقع، ويتخيل الشخص، ثم يخال.

هذا هو الهوى، وأهواء العرب، كانت انحرافا فكريا أدى إلى استحسان الشر، وضعفا عقليا أدى إلى اتباع الآباء ولو كانوا لا يعقلون شيئا، مما أدى إلى تحريم ما أحل الله، وأدى إلى الطواف عرايا، للتخلص من نجاسة الثياب المعنوية، كما توهموا، وأدى إلى قتل أبنائهم ووأد بناتهم، وإلى استباحة أكل أموال الناس بالباطل.

هذه هي الأهواء ما كان معروفا منها بعضه عند العرب، أما الحق فإن مصدره العقل، والعقل يقوم على ثلاثة أمور:

أولها ـ الميزان بين الأشياء والأفعال فيتخير أنقاها وأثبتها وأصلحها، وأكثرها نفعا.

وثانيها ـ القسطاس المستقيم الذى يكون ميزان الأشياء، وحكم الموازنة فيها.

وثالثها ـ أنه يقدر خير الأمور بأنه ما يكون باقيا، ولو كان فى آجل.

على هذا لا يمكن أن يكون الحق متفقا مع الأهواء، وخصوصا أهواء العرب التى أشرنا إلى بعضها؛ ولذا قال تعالى: ﴿**وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ**﴾. أما فساد السموات فلأنها قائمة على تماسك أجرامها بأركان قوية منتظمة لا تتخلف، ولو كانت خاضعة لأهواء أهل الشرك لتزايلت؛ لأن أهواء أهل الشرك تفرق المجتمع، كما كانت الحال بينهم، وأما الأرض فلأنها تعمر باستنباط خيرها، وتعرُّف إصلاحها والغرائز الإنسانية التى تمد النفوس بشهوة الغلب، وشهوة الجنس، وشهوة المال، وشهوة السلطان والتحكم، وإذا حكمت هذه وأشباهها، فإن الحاكم يعجل بفنائه، ولولا رحمة من ربك ببقاء سلطان الحق ولو فى الأقوال دون الأفعال، لآذنت الدنيا بخراب، قال تعالى فى بيان أن الرسل جميعا جاءوا بالحق وميزانه: ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥)**﴾ [الحديد].

﴿**بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ**﴾ بل للإضراب عن توهمهم أن الحق يساير أهواءهم، وأتيناهم بما بذكرهم الحق، ويبعدهم عن أهوائهم ويذكرهم بمعنى التذكير، وهو من إضافة المصدر إلى مفعوله، أى جئناهم بما يذكرهم، وينبههم إلى خلل تفكيرهم وبعدهم عن الحق وسيطرة أهوائهم ﴿**فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ**﴾ و«الفاء» لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فرتبوا النقيض على نقيضه، وبنوا إهمال التذكير على التذكير، وذلك من ضلال العقول، فرتبوا الإعراض على التذكير. اللهم أكفنا شر ضلال الأهواء، إن النبى ﷺ يدعوهم إلى الحق الخالص، لا يسألهم أجرا، ولا جزاء ولا سلطانا؛ ولذا قال تعالى:

﴿ **أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢)**﴾.

﴿أَمْ﴾ تتضمن معنى بل، وهمزة الاستفهام، والإضراب إضراب انتقالى، فنقلهم سبحانه من الحكم بأنهم يتبعون أهواءهم، إلى مكانة النبى ﷺ، وأنه لا يطلب منهم مالا، ولا سلطانا، والاستفهام هنا لإنكار الوقوع، أى لا يسألكم خرجا والخرج المال الذى يأخذه السلطان من الرعية، والخراج العطاء الكثير، ما سألتهم خرجا حتى يدعوا أنك تريد سلطانا عليهم وجاها، فما أعطاه الله تعالى خير، وهو كثير، وهو ربك وكافلك، ومديم العطاء عليك، وهو مغنيك دائما عن الناس، وهو خير الرازقين، فرزقه خير الأرزاق، وافر يتفضل على من وقف على بابه، والمعنى خراجه أى عطاؤه أغلى رزق وعطاء، وليس فوقه رزق لطالب رزق، ويصح أن نقول: إن المراد من خراج الله تعالى نعمة على محمد ﷺ، وهى نعم معنوية، فما كان محمد ﷺ معروفا بالمال، إنما كان معروفا بالسمو الإنسانى الكامل الذى لم يناصبه أحد فيه؛ ولذا اجتباه رب العالمين خاتما للنبيين، وكان آخر لبنة فى صرح الرسالات الإلهية.

ولقد قال الزمخشرى كلمة بليغة فى معنى هذه الآية: قد ألزمهم الحجة فى هذه الآيات، وقطع معاذيرهم، وعللهم، بأن الذى أرسل إليهم رجل معروف أمره وحاله، مخبور سره وعلنه، خليق بأن يجتبى مثله للرسالة من بين ظهرانيهم، وأنه لم يعرض له حتى يدعى بمثل هذه الدعوى العظيمة بباطل، ولم يجعل ذلك سلما للنيل من دنياهم واستعطاء أموالهم، ولم يدعهم إلا إلى الإسلام الذى هو الصراط المستقيم مع إبراز المكنون من أدوائهم، وهو إضلالهم بالتدبر والتأمل وتعللهم بأنه مجنون بعد ظهور الحق وثبات التصديق من الله بالمعجزات والآيات المنزلة، وكراهيتهم للحق وإعراضهم عما فيه حظهم من الذكر. اهـ ملخصا.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٣)﴾.

وبعد أن أشار سبحانه إلى أنهم يبتغون الهوى المنبعث من أوهامهم وشهواته وتقليدهم، وأن الحق لا يتبع أهواءهم، بين الله سبحانه وتعالى أن دعوة محمد ﷺ هى دعوة الحق، وأمارة الحق استقامة طريقه فهو لا اعوجاج فيه؛ ولذا قال تعالى:

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ الخط المستقيم هو أقرب خط بين نقطتين، فالوصول إليه قريب سهل، والصراط هو الطريق المستقيم، ولقد شبه الله تعالى الحق من حيث إنه أقرب طريق للوصول إلى الله تعالى، فإن الله هو الحق، وطريقه الحق، ورسالته الحق، وأكد الله تعالى أن رسوله يدعو إلى الحق، وأن صراطه هو المستقيم بمؤكدات:

أولها ـ «إن» المؤكدة الدالة على التحقيق.

والثانية ـ اللام فى خبرها.

والثالثة ـ الجملة الاسمية.

وهنا نجد تفرقة واضحة بين الحق الذى يدعو إليه النبيون، والهوى الذى يدعو إليه المشركون، فالله يدعو ورسوله إلى طريق مستقيم يتفق مع العقول ولا اعوجاج فيه، ولا أمت، يرتفعون فيه وينخفضون، بينما الأهواء متفرقة المخارق متفاوتة فى طريق يتنازعون فيها أمرهم.

وإن هؤلاء يتنكبون الصراط المستقيم؛ ولذا قال تعالى:

﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (٧٤)﴾.

يقال: نكب عنه أى: مال عنه وانحرف إلى غيره، والصراط هو الصراط المستقيم، وقد مالوا عنه إلى مثارات الشيطان، فالصراط المستقيم هو صراط الله تعالى كما قال تعالت كلماته: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾ [الأنعام].

وقد وصف الله سبحانه الذين لا يؤمنون بالآخرة بالميل عن طريق الحق؛ وذلك لأن الذين لا يؤمنون بالآخرة ماديون لا يؤمنون إلا بالمادة، والإنسان روح كماله فى أن يؤمن بالغيب، ولذلك كان من أوصاف المؤمنين: الإيمان بالغيب، وإن الذين لا يؤمنون بالغيب يحسبون أن الحياة الدنيا هى كل شىء فتسلط عليهم أهواؤهم وشهواتهم، والشهوات مردية، والأهواء فاتنة النفوس، والذين لا يؤمنون

بالآخرة يحسبون أنهم خلقوا عبثا، وأنه لا جزاء لمن أحسن، ولا عقاب على من يسيء، كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥)﴾.

يذكرون الله فى الشدة ولا يذكرونه فى الرخاء

قال الله تعالى:

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ
يَعْمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ
وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ
إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ
وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ
وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ
اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠) بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ
الْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا
لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا
إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٣)﴾

إن من شأن من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، أن يكون إحساسه خاضعا للساعة التى يكون فيها لا ينفذ ببصيرته إلى ما وراءها فيقول فى كل شىء: ما هى إلا حياتنا الدنيا، ولا يفكر إلا فى الحالة التى تظله.

ومن شأنه أنه إذا نالته شدة أحس بسلطان الله تعالى، وأنه كاشف الضر، فإذا زال عنه الضر عاد إلى كفره، وهذا المعنى بصوره قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ (١٢)﴾ [يونس].

لقد تضرع المشركون لبلاء نزل بهم فرقَّ النبى ﷺ، فقال الله تعالى مبينا سنته فيهم وفى أمثالهم:

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥)﴾.

أى لو غمرناهم برحمتنا فى وقت شدتهم، فأزلنا عنهم الغم، وكشفنا الضر من مرض أو بلاء لاستمروا لاجين فى ظلمهم الطاغى يعمهون، الكشف كناية عن ذهاب الضر؛ لأن الضرر يكون كالغمة، وكشفها إزالة كربها، وما المراد من الرحمة وكشف الضرر أهو زواله بعد النزول، أم أنه يستمر فى الرحمة بأن يتمتع بنعمة الصحة والعافية وعدم وجود الضرر؟ إن الآية تحتملهما، وإن الرحمة هى التمتع بمتع الحياة، وعدم نزول الضرر، بل هو مكشوف عنها كل ضرر يحتمل أن يوجد، ويكون المعنى أن النعمة تغرهم فيكفرونها، وعدم نزول ضرر بهم كذلك، فيستمرون فى حالهم لاجِّين فيها و﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ أى فى ظلمهم الطاغى ﴿يَعْمَهُونَ﴾، أى يترددون ويتحيرون، فإن الطاغى متردد متحير دائما، إذ إن للفطرة العادلة صوتا وإن لم يكن مجلجلا، والظلم لجلج دائما، وإذا رأيت الظالم يعنف دائما، فاعلم أن ذلك لإسكات الصوت الخفى الذى ينبعث خافتا ليسكته.

وعلى الاحتمال الآخر، وهو أن هذا يكون بعد نزول ضرر وكشفه، فإنه واضح، ولكن نحن نرجح الأول لقوله تعالى: ﴿لَّلَجُّوا﴾ ـ إلى آخره؛ لأن اللجاجة استمرار الحال قائمة، والشدة فيها، ويكون المعنى أن استمرار النعمة عليهم تطغيهم بالظلم، وتغريهم بالشر.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦)﴾.

الضمير فى قوله: ﴿أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ يعود إلى مشركى مكة الذين كانوا يعاندون النبى ﷺ، أو يعود إلى الكفار عامة من حيث إنه بيان لحال الكفار، فى أنهم إذا نزلت بهم جائحة أو شديدة خنعوا فى وقت نزولها، وما استكانوا لها وما تضرعوا لها وما تضرعوا بعدها وآمنوا. كان تفسير الزمخشرى على أن موضوع القول، هم كفار مكة نزلت بهم مجاعة، كما جعل موضوع الآية السابقة والآية التالية أهل مكة، وذكر أن ثمامة بن أثال الحنفى منع الميرة عن أهل مكة، وقال: لا أعطيكم حبة حنطة إلا أن يأذن رسول الله، فأخذهم الله تعالى بالسنين فجاء أبو سفيان إلى رسول الله فى المدينة، وقال له: أنشدك الله والرحم، ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين. فقال محمد ﷺ بلى، فقال: قتلت الآباء، وجوعت الأبناء فنزلت هذه الآيات الثلاث[1].

وربما يكون هذا الكلام مستقيما لو كانت الآيات بعد غزوة بدر، وبعد الغزوات كلها إلى الحديبية، ولكن السورة كلها مكية ونسقها مكى، فكيف تجىء آية بمعان مدنية لم تتحقق إلا فى المدينة، ولم يثبت أن هذه الآيات نزلت بالمدينة استثناء من السورة.

ولذا نقول: إن الآيات الثلاث عامة فى وصف غير الكفار فى كفرهم من أنهم يخنعون عند الشدائد، ويعودون إلى الاستكبار، فيخنعون، ثم يتمردون، اقرأ قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥)﴾ [الأعراف].

فالله جل علاه كان ينزل الشدائد على الكافرين، فيذلون عند نزولها، ولكن إذا انكشفت الغمة عادوا إلى كفرهم وطغيانهم، كما رأينا فى فرعون وملئه، وقد ذكر سبحانه وتعالى أن ذلك شأن كل الكافرين يكشف الله تعالى عنهم الضر إذا أصيبوا به، فيخنعون فى وقته، ثم يعودون إلى كفرهم بعد كشفه.

---

(١) ذكره بنحو من ذلك: الطبرى فى جامع البيان: ١٨/ ٣٤، من رواية ابن حميد عن ابن عباس، وراجع سيرة ابن هشام: أسر ثمامة بن أثال الحنفى وإسلامه.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ «الفاء» للإفصاح، والاستكانة معناها كما أشار الراغب، وبين الزمخشرى: الانتقال من كون إلى كون، وحال إلى حال، فهى افتعل من كان، أى فيما انتقلوا من الكَوْن الذى هم فيه وهو الكفر إلى الكون الذى يدعوهم رسولهم إليه، وهو الإيمان بالله ورسوله ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أى لم ينتقلوا إلى كَوْن الإيمان، وما اتجهوا بالضراعة الدائمة المتجددة لله تعالى المستمرة شأن المؤمنين الضارعين لربهم، وكان نفى المضارع لنفى تجدد الضراعة ودوامها فى كل أحوال الشخص، لا فى وقت الشدة فقط.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾، معناها أخذناهم متلبسين بالعذاب، أى أنه سبحانه أخذهم، وهم فى حال العذاب وأنقذهم، ومع ذلك استمروا على كفرهم، وأنهم يستمرون فى غيهم حتى يجيئهم العذاب الذى لا يزول؛ ولذا قال تعالى:

﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

سار الزمخشرى على المنهاج الذى ارتضاه فى الآيات الثلاث، وهو أن موضوع الآيات أهل مكة، فذكر أن الباب الذى فتحه الله تعالى هو الجوع، وذكر أنه أشد الأبواب.

ونحن على رأينا، وهو أن الآيات وصف للمشركين فى الشدائد تنزل بهم، والكفر المستمر الذى يلابسهم فى كل أحوالهم، ويكون الباب الذى يفتح عليهم من العذاب ولا يغلق - يوم القيامة.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ ... ﴿٧٧﴾﴾.

﴿حَتَّىٰ﴾ هنا تفريعية لا غائية أى يتفرع عن هذا اللهو الذى هم فيه سائرون، لا تنزع بهم الشدائد عن شرهم أن يُفاجَأوا إذا جاء باب من الشدة لا يغلق، ولا يرجى أن يغلق، وهو يوم القيامة، وسماه سبحانه بابًا ذا عذاب شديد؛ لأنه كالباب الذى كان مسدودا، ثم فتحه الله تعالى فلا يسد أبدا، فهو باب ابتدأ بالبعث والنشور، ثم ثنى سبحانه بالحساب وأعمالهم تنطق عليهم بآثامهم، وإنها لتنطق

بالحق، ثم ختم بالإلقاء فى الجحيم، وكل هذا تصوير لحالهم من حيث إنهم كانوا كلما نزلت بهم شديدة رجوا بعدها نجاة حتى جاءهم ما لا ينتهى ولا يسد أبدا، وهو يوم القيامة، وسمى بابا؛ لأنه يفتح، وينتهى إلى الجحيم التى فيها يُسَجَّرون.

ويقول سبحانه: ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ الضمير يعود إلى الباب، ويقصد ما وراءه مما يدخلون فيه ﴿مُبْلِسُونَ﴾ أى متحيرون، كما يقول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢)﴾ [الروم]، وقال تعالى: ﴿لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥)﴾ [الزخرف]، والإبلاس كما أشرنا هو الحيرة الشديدة مع اليأس الذى لا رجاء فيه.

بعد ذلك بين سبحانه إنشاءه للإنسان، وإنه أنشأ له حواسه التى بها يحس، وعقله الذى به يدرك، ولكنه كفر بهذه النعم، فقال تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨)﴾.

بين الله سبحانه وتعالى أنه منحهم أسباب الإدراك، ولم يدركوا، ولم يشكروا الله تعالى على ما أنعم، فهو سبحانه وتعالى أنشأ لكم السمع لتسمعوا الخير وتدركوه، ولتسمعوا آيات الله تعالى فى الرعد، فترهبوه، ولتسمعوا النذر فتتقوا، ولتسمعوا المبشرات فترجوه. والأبصار: وهى جمع بصر، لتبصروا الكون وما فيه، فتبصروا الشمس والقمر، والنجوم فى أبراجها، والماء ينزل فينبت الزرع، وتكون الأرض ذات منظر بهيج، وجمع الأبصار، ولم يأت بها مفردة كالسمع لتعدد المبصرات وتغايرها وتكاثرها، وفى كل مبصر منها آية تدل على وحدانية الله وقدرته، وكل مبصر له حيز وشكل وصور مختلفة، ولبيان أن فى المبصرات مناظر مختلفة تسوغ تعدد البصر لأجلها.

والأفئدة جمع فؤاد، وهو القلب، والعرب كانت تجعل موضع الإدراك والتفكير القلب، وأنه عند التحقيق أوسع إدراكا من العقل؛ لأن القلب يشعر ويحس ويتصور، وفى الشعور علم، والعقل يدرك ويتصور ويربط الأسباب بالنتائج، ويقيس بين الأشياء، وجمع الأفئدة؛ لتعدد المدركات، وسموها أو انحدارها.

وإن هذه الحواس والمدارك هى التى بها عـلا الإنسان، وقال تعالى: ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ﴿مَّا﴾ دالة على تأكد ما قبلها أى قليلا أىَّ قلة ﴿مَّا تَشْكُرُونَ﴾ فلا تقومون بحق هذه النعم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦)﴾ [الإسراء]، وقال تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ ... (٢٦)﴾ [الأحقاف] إذ كانوا يجحدون بآيات الله تعالى، وإن أول شكر للنعمة الإقرار بفضل من أنعم، وألا يسوى بغيره مما لا يضر ولا ينفع، وليس له سمع ولا بصر ولا فؤاد، بل هى أحجار لا حياة فيها.

﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩)﴾.

الضمير يعود على ذى الجلال والإكرام، والواو عاطفة، ذرأ معناها أظهر ونشر فهو الله جل جلاله هو الذى أظهرنا فى الأرض، ونشرنا فى أقاليم شتى فى الأرض، وجعلنا ألوانا وألسنة مختلفة، وتلك من آيات الله تعالى، كما قال جلت قدرته: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ...(٢٢)﴾ [الروم]، وذكر سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿فِي الأَرْضِ﴾ إشارة إلى أن الانتشار فى عموم الأرض كلها، وإشارة إلى أننا منها وبثَّنا الله تعالى فيها، وإليها نعود، ثم قال تعالى مبينا المآل: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ تقديم الجار فيه معنى الاختصاص، أى إليه وحده تحشرون، لا يكون معكم شيء مما تدعون من دونه، وقال سبحانه: ﴿تُحْشَرُونَ﴾، أى تُجمعون محشورين غير مفرقين، بل يكونون جمعا لا تفاوت فيه.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٨٠)﴾.

الضمير يعود أيضا إلى الله جل جلاله؛ وذلك لتربية المهابة فى النفس، والمعنى: هو الله الخالق الذى يحيى الإنسان كل يوم وكل ساعة من زمان، فينشئ من يحييه، ويميت من ينتهى أجله، فإذا جاء أجله لا يستأخر ساعة، ولا يتقدم ساعة، ولكل أجل كتاب.

وكما ذكر الله سبحانه وتعالى أنه يملك الحياة والموت، وأننا نعاين كل يوم من يموت، ومن يولد، ويستقبل الحياة فلله سبحانه وتعالى ما هو أعظم وأكبر، له الليل والنهار، وذكر سبحانه وتعالى الليل والنهار باللام على أن ذلك فى سلطانه وقبضته سبحانه للإشارة إلى السموات والأرض فى قبضته؛ لأن الليل والنهار يجيئان من دوران الأرض حول الشمس أى من صلة الأرض بالسماء وطولهما وقصرهما يتبعان ذلك، فذكر الليل والنهار يومئ إلى سلطان الله تعالى الكامل على السماء والأرض وما بينهما وعلى الوجود كله، وإذا كانت الحياة والموت تصور خلق الأحياء، وأنه فى سلطان الحياة والموت، فإن ذكر اختلاف الليل والنهار يصور سلطانه ـ سبحانه وتعالى ـ على كل الوجود.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ «الفاء» لترتيب ما بعدها على ما قبلها، والاستفهام للتحريض على التفكير بعقولهم، والموازنة بين الحقائق التى يرونها بأعينهم، والمعنى إذا رأيتم ذلك عينا ومحسوسا ألا تدركون بعقولكم أن الله قادر على كل شىء، وعلى الإعادة بعد الموت، وأنتم ترون كل يوم حياة وموتا، والليل والنهار خلفة، ذلك هو الله خالق كل شىء، ولكنهم مع ذلك ينكرون البعث ودلائله قائمة ثابتة تقرع حسهم.

﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢)﴾.

بل للإضراب والانتقال، وهو الانتقال من ذكر أحوال الكافرين المتشابهة جيلا بعد جيل، إلى المشركين الذين يعاندون النبى ﷺ، وبيان المشابهة بين قولهم وقول من سبقوهم، وأوضح هذه المشابهة فى كفر الحاضرين بالبعث، كما كفر الماضون، وعقد سبحانه المشابهة فى كفرهم بالبعث، فقال: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ﴾ الذين غلب على تفكيرهم المادة المحسوسة دون الغيب المعقول، وفسر الله تعالى قولهم الذى شابهوا به من سبقوهم، والتقوا معهم على مائدة الإنكار لغير المادى المحسوس، ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، فى قوله

تعالى عنهم: ﴿أَئِذَا مِتْنَا﴾، وقوله: ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، فى هذا الاستفهام إشارة إلى موضع استنكارهم، فموضع استنكارهم البعث بعد أن يموتوا ويصيروا ترابا وعظاما، كقولهم: ﴿مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ... ﴿٧٩﴾﴾ [يس]، وكرر سبحانه الاستفهام للنص على موضع إنكارهم أو استنكارهم، وذلك جهل منهم بالله وهو الخالق، وهو شديد المحال.

وقد أفرط المشركون فى إنكارهم فقالوا:

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

إن النبى ﷺ وعدهم بالبعث والنشور فى أول دعوته لهم، فقد قال عندما أمره ربه أن يصدع بأمر ربه، وقال له: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الحجر]، وعندما قال له عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء] قال ﷺ: «والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون»[1] واستمر يكرر هذه الدعوة لهم غير وانٍ ولا مقصر، وبمقدار استمراره كان جحود المشركين؛ ولذا أخبر الله تعالى عنهم: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ﴾ أكدوا أنهم وعدوا وآباؤهم الذين أدركوا النبى ﷺ من قبل هذا الزمان، وقد أكدوا أنه وعدهم بقد، وباللام، ولكن مع توكيد وعدهم أكدوا إنكارهم له، فقد قالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ ﴿إِنْ﴾ نافية أى ما هذا الوعد المكرر إلا أكاذيب الأولين التى تقال فى موضع السمر والتفكه بفارغ القول، جاء فى مفردات الراغب فى الأساطير: «قال المبرد هى جمع أسطورة، نحو أرجوحة وأراجيح، وأفية وأثافى وأحدوثة وأحاديث»، أى أنها أخبار غير صادقة يتفكه بها، ويقطع الوقت بالسمر عليها، فليست حقا تتبع، ولا جدًّا من القول يتعظ به.

---

(١) سبق تخريجه.

الكون يخبر بواحدانية الله

قال الله تعالى:

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ
﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ
﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ
مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾
بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ
وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا
بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ
ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾

هذه الآيات كلها توجيه للعقول إلى الله تعالى خالق الكون والقوام عليه، وهى استفهامات يتعين الجواب فيها وليس لديهم سبيل لإنكار الجواب، بل الجواب متعين، لا مناص منه، ولا سبيل لغيره؛ لأن العرب كانوا يعلمون أن الله خالق السموات والأرض ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ... (٢٥)﴾ [لقمان]، فهم ما كانوا يجهلون الله تعالى، بل كانوا يعلمون أنه خالق السموات والأرض، وأنه الذى يلجأ إليه فى الشدائد، ويعلمون أنه واحد فى ذاته وصفاته، ولكنهم فى العبادة يشركون به غيره، وكأنهم يحسبون أنهم لا يصلون إلى مقام الذات العلية، فيتخذون بأوهامهم الأوثان ذرائع، ويقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى.

قال الله تعالى مخاطبا نبيه آمرا له: ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤)﴾ الأمر للنبى ﷺ بأن يواجههم بالحقائق وما يترتب على العلم بها، ولمن الأرض؟ أى من يملك الأرض ومن عليها من العقلاء ملكية كاملة بالخلق والإنشاء والتكوين؟ أمره أن يسألهم عن ذات الأرض، وعن العقلاء فيها، ولكن لم يسأل عن غير العقلاء من الدواب، وما فى باطنها من معادن وفلزات، وما فى بحارها من جواهر كريمة، ونقول: إن كلمة الأرض شملت بعمومها كل ما على ظاهرها من نبات وحيوان وجماد، وما فى جوفها من فلزات سائلة وغير سائلة ومعادن أكثرها فى باطنها. ولأن الملكية وإن وقعت على العقلاء باعترافهم فهى على غيرهم تثبت بالأولى؛ لأن غير العقلاء أشياء تشترى وتباع، فهى أولى بالملكية، ويعلق النبى - بأمر الله - الإجابة على علمهم، والتعليق يومئ إلى علمهم وأنه حقيقة، ولكن ذكر بـ «إنْ» التى تفيد الشك فى وقوع الشرط، للإشارة إلى أن علمهم كلا علم؛ لأنهم يعملون بنقيضه.

ولقد بين الله تعالى إجابتهم، فقال: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٨٥)﴾ السين لتأكيد القول، أى سيكون جوابهم حتما: لله، لما ذكرنا من أنهم يعلمون أن خالق الكون كله بما فيه ومن فيه هو الله تعالى لا ريب عندهم فى ذلك، ولكنهم يفصلون النتيجة عن مقدماتها، فعلمهم بالخالق كان يوجب عليهم ألا يعبدوا غيره؛ لأن العبادة نتيجة الخلق والتكوين، ولذا قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ والخطاب للنبى ﷺ: ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ (الفاء) لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى لترتيب التذكر على إيمانهم بأن الله تعالى خالق الأرض ومن فيها، أى إذا كنتم تعلمون هذا وتؤمنون فألا تذكرون، والاستفهام إنكارى لإنكار الواقع، أى أنهم فى الواقع لا يتذكرون، ولا يربطون المقدمات بنتائجها، والذكر هو إدراك موجبات العقل، والحقائق التى تؤمن بها القلوب.

وقد أمر الله تعالى نبيه أن يسألهم فى أمر كونى آخر.

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧) ﴾.

الخطاب أيضا للنبى يأمره أن يسألهم ﴿مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ﴾، والربوبية تقتضى:

أولا ـ الخلق والتكوين.

وتقتضى ثانيا ـ الإمداد برحمته.

وتقتضى ثالثا ـ الرقابة عليه والتنظيم له، والتسيير له، والقيام على شئونه، والسموات وصفها بأنها سبع، ثم قال تعالى: ﴿وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾، أى صاحب السلطان العظيم المهيمن على الوجود كله.

وإجابتهم لا محالة ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ السين لتأكيد القول فى المستقبل، وذلك لما ذكرنا من قبل من أنهم يعلمون أنه لا سلطان فى الخلق والتكوين والهيمنة على الوجود إلا لله، ولكنهم كما قلنا: لا يرتبون النتائج على علمهم، بل يعبدون غير الله بسيطرة أوهامهم على تفكيرهم، ونجد هنا افتراقا فى الجواب عن السؤال، فالسؤال: مَن رب السموات؛ والجواب: الله، وظاهر الجواب أن يكون «الله» من غير لام، ونقول فى الجواب عن ذلك إن السؤال عن الربوبية يقتضى السؤال عن الملكية والسلطان، كأنه قيل لمن السلطان والملك فكان الجواب (لله).

ويلاحظ أنه تكرر لفظ الرب فى قوله تعالى: ﴿مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ونقول: إن التكرار لتغاير معنى الربوبية، ففى الأولى السؤال عن الخالق، والمنمى، والقائم بالتدبير، والتسيير، والثانى معنى الربوبية السلطان والحكم، ﴿قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ الأمر موجه للنبى ﷺ ليقنعهم بخلق الله مع استحقاقه وحده العبودية ﴿أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ (الفاء) كما ذكرنا لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى أنه إذا كان يجب عليهم أن يتقوا الله ويجعلوا وقاية بينهم وبين عذابه، ما دام هو رب هذا الوجود كله، ورب السلطان فيه وحده، وهو الذى يعذب من يشاء، ويغفر لمن يشاء.

ولقد أمره سبحانه أن يسألهم سؤالا ثالثا:

﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩)﴾ الملكوت صيغة مبالغة تفيد الملك الممكن الذى لا سلطان إلا له، فالواو والتاء للمبالغة، كجبروت، ورهبوت ورحموت، وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، و﴿مَنْ بِيَدِهِ﴾، أى من له السلطان والملك الكامل لأقصى أنواع الملك، وهو يقبضه كما يقبض صاحب الصولجان[1].

وقد صور الله سبحانه وتعالى اتساع سلطانه، وفرضه على كل إنسان وكل شيء بذى قوة يضم إلى جواره من يشاء، ويمنعه من أن تصل إليه يد معتدية، لا يمكن أن يكون لأحد جوار يمنعه سبحانه من أن ينزل من الهلاك ما شاء لمن شاء؛ لأنه فوق العالمين لا يسأل عما يفعل، وهم يسألون: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وأتى بـ (إن)؛ لأن حالهم من الشرك تدل على أنهم لا يعلمون، ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ التعدية باللام لتضمن السؤال معنى الملك والسلطان، أى أن الملكوت كله لله تعالى.

أمر الله تعالى نبيه بقوله: ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ (الفاء) أيضا لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى يترتب على علمهم بأن الله تعالى خالق الأرض، ومن فيها والسموات السبع، وربوبيته للعرش ولها، وكونه صاحب السلطان الأعظم يترتب على كل هذا أن يسألوا كيف يُسحرون، أى ينخدعون ويميلون عن الحق الراكز فى نفوسهم إلى الباطل الذى هو أوهام مخيلة، وليس حقائق ثابتة معلومة لكل ذى فكر وعقل وإدراك، و(أنى) هنا بمعنى كيف، كـ «أنى» فى قوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ... (٢٢٣)﴾ [البقرة].

فهذه الآيات تبين كيف تسيطر الأوهام على ذوى الأهواء الذين لا يفكرون، وتقاوم الحقائق الثابتة لديهم، وتسيرهم مع مخالفتها لكل معقول، ولما كان عندهم من علم سابق، ولقد قال تعالى:

---

(١) الصولجان: فارسى معرَّب، وهو المحجن أى العود المعوج. الذى نراه فى أيدى العظماء والملوك لسان العرب «بتصرف» (صلج).

﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) ﴾.

هذا إضراب انتقالى، انتقل الله بهم من المجاوبة التى تكون بينهم وبين النبى ﷺ إذ يوجه أنظارهم إلى ما ينبئ عن الحق وهو الوحدانية، يأخذها من نتائج ما يقولون، وإذا كان الأمر كما يقول المناطقة: النتائج متضمنة فى مقدماتها، وما البرهان إلا كشف ما تطويه المقدمات من نتائج، فعلمهم بأن الكون كله مخلوق لله تعالى متضمن وحدانيته تعالى فى العبادة.

الإضراب الانتقالى هو الانتقال من المجاوبة إلى تقرير الحق مبينا بطلان ما يدعون بطريق إثبات بطلانه فى ذاته، وبيان صحة نقيضه، قال تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ﴾، أى بالأمر الثابت الذى لا يتطرق إليه الريب، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ جعل وصفهم بالكذب المستمر مقابلا للحق الذى جاءهم الله تعالى به؛ لأن الكذب إذا مردت عليه النفس فسدت، وصارت لا تفرق بين باطل وحق، إذ تكون نفسه غير مؤمنة، لأن الإيمان تصديق وإذعان، فلابد من الصدق لكى يكون الإيمان، ولقد قال النبى ﷺ: «إياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور، والفجور يهدى إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب حتى يكتب عند الله كذابا»[(١)].

ولقد ذكر النبى ﷺ أن الإيمان والكذب نقيضان لا يجتمعان، فقد سئل أيكون المؤمن بخيلا؟ قال: يكون، أو يكون المؤمن جبانا؟، قال: نعم يكون، وسئل: أيكون المؤمن كذابا؟ قال: لا يكون المؤمن كذابا »[(٢)].

ولذا كان حقا أن يقابل الحق الذى يجىء به الله تعالى ويتأكد كذبهم، وقد أكد الله تعالى بـ «أن» المؤكدة، وباللام، وبالوصف، بأنهم من شأنهم الكذب، وبالجملة الاسمية.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) عَنْ صَفْوَانَ بْنِ سُلَيْمٍ أَنَّهُ قَالَ قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا؟ فَقَالَ: "نَعَمْ"، فَقِيلَ لَهُ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلا؟ فَقَالَ: "نَعَمْ"، فَقِيلَ لَهُ: أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَّابًا؟ فَقَالَ: "لا". رواه مالك فى الموطأ- الجامع (١٥٧١).

ولا يفتح القلب للأوهام، ووسوسة الشيطان إلا أن يمرد على الكذب؛ لأن الكذب يخفت صوت الحق والبرهان والعقل، ولقد نفى الله تعالى من بعد ذلك أوهامهم، فقال: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾.

نفى الله تعالى أن يكون له ولد، وادعاءهم أن الله اتخذ ولدا فالنصارى قالوا: اتخذ الله عيسى ولدا له، وبعض المشركين قالوا: اتخذ الله تعالى الملائكة بنات له، واليهود قالوا: اتخذ الله عزيرا ولدا له، وتعبيرهم بـ ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ يشير إلى احتياج الله تعالى للولد، كما يقول النصارى اتخذ الله عيسى ولدا ليُقتل ويكفِّر عن خطيئة آدم، والله سبحانه وتعالى غفار للذنوب قابل للتوب، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥)﴾ [فاطر]، أى المحمود على كرمه وإفضاله دائما.

والقسم الثانى من المشركين الذين اتخذوا الأوثان آلهة من دون الله أو معه، وقد نفى الله سبحانه وتعالى ذلك نفيا كاملا مستغرقا، و﴿مِن﴾ فى قوله: ﴿مِن وَلَدٍ﴾، و﴿مِنْ إِلَهٍ﴾، لاستغراق النفى، والمعنى ما اتخذ الله من ولد أىَّ ولد كان، فالكل خَلْق له، ولا تفاوت أمامه، وما كان معه من إله أى إله، ومن أى مادة.

ولقد بَرْهن سبحانه، على بطلان الشرك فقال: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أى إذا كان هناك آلهة غير الله. فالتنوين فى ﴿إِذًا﴾ ينبئ عن جملة أضيفت إليها (إذا)، وتكون فى معنى الشرط، ولو كان هناك لترتب على ذلك أمران محالان، ولا وجود لهما، وإذا انتفيا انتفى ما أدى إليهما، فنفى اللازم يقتضى نفى الملزوم، والأمران هما:

الأول ـ أن يذهب كل واحد بما خلق، وبذلك لا يتحقق التناسق فى الوجود، وكله نسق واحد، لا تفاوت فيه.

والثانى ـ أن يكون بينهما التعالى، فلا يكونان فى قدرة واحدة، بل يكونان على أقدار مختلفة، وفرض التساوى فى القدر ينتهى إلى أن يكونوا كشخص واحد أو كإله واحد، والواحد ضد التعدد، فلكى يستقيم فرض التعدد لابد أن يفرض أن بعضهم يعلو على بعض، وذلك يؤدى إلى التنازع، وهذا يؤدى إلى الفساد، كما قال تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ** (٢٢)﴾ [الأنبياء].

وقال فى هذه الآية، ﴿**فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾، أى تقدس سبحانه وتعالى «ما» يصح أن تكون موصولا حرفيا، ويصح أن تكون موصولا اسميا، وعلى الأول يكون المعنى تقدس الله تعالى وتنزه عن وصفهم له بأن له شريكا أو اتخذ ولدا، وعلى الثانى يكون المعنى تقدس الله عن الذى يصفونه به وهو أن له شريكا، والمؤدى واحد.

وقد بين سبحانه ما يؤدى إلى نزاهته نزاهة مطلقة، فقال عز من قائل:

﴿ **عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** (٩٢)﴾.

وقدم الغيب على الشهادة؛ لأن العلم بالغيب أبلغ فى الدلالة على وصف العلم من الشهادة، وقال تعالى: ﴿**عَالِمِ الْغَيْبِ**﴾ من غير التعدية بالباء، للإشارة إلى أنه يعلم الغيب كله لا يغيب عنه شىء فى الأرض ولا فى السماء، لا فى الغيب ولا فى الشهادة، ومن كان كذلك فهو كامل الوجود، ليس له شبيه، ولا مثيل، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير، فتعالى الله عما يشركون، أى فتسامى سبحانه عن أن يشركوا به شيئا، و(ما) موصول حرفى، أى تعالى الله عن إشراكهم به، ويصح أن تكون موصولا اسميا.

ما يوعدون من عذاب

قال تعالى:

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

فى هذه الآيات الكريمة تهديد بما أعده الله تعالى من عذاب للمشركين بعد أن بين لهم بالأدلة القاطعة أن الشرك باطل. وإن النفوس المنحرفة تخاطب بالدليل الهادى المرشد، فإن لم تجد الهداية المرشدة، والبراهين الساطعة كان الإنذار الشديد، وقد برهن فبقى الإنذار، ابتدأ سبحانه الإنذار الشديد، بأن أشار للنبى ﷺ إلى أنه إنذار لا يقع فى نظر النبى ﷺ مثله، وأنه يحسن أن يطلب رؤيته، فقال: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

ابتدأ القول بالنداء بـ ﴿رَّبِّ﴾ لبيان أن ذلك الذى ينذر به من مقتضى الربوبية، لأن مقتضى الربوبية؛ أن يجزى المحسن إحسانا، والمسىء بما يستحق، فلا يستوى الأعمى والبصير، ولا الظلمات ولا النور. ﴿إِمَّا تُرِيَنِّي﴾ «إما» ـ هى «إنْ»مدغمة فى «ما»، و(ما) جاءت لتوكيد فعل الشرط، ولذلك جاءت نون التوكيد الثقيلة رادفة

لتوكيد «ما» والجواب محذوف لتذهب النفوس فيه كل مذهب، وفى ذلك إشارة إلى هوله وأنه لا تكتنه العقول كنهه، و(ما) فى قوله تعالى: ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ ما هنا موصولة بمعنى الذى، وإن الله تعالى وعدهم بالعذاب فى الدنيا والعذاب فى الآخرة، أما فى الدنيا فالنصر الذى وعد الله تعالى به نبيه الأمين، والذى كان له فيه الغلب، وكان النصر حليفه دائما ولم يهزم ولا فى أحُد، وأما عذاب الآخرة فهو الجحيم خالدين فيها، وبئس المصير.

﴿ رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤)﴾.

ضراعة من النبى ﷺ اتجه بها إلى ربه بأمر ربه، و(الفاء) تفصح عن شرط مقدر، وتقدير القول إذا كان ما يوعدون به من هذا الهول الذى لا يُكتنه، ولا يقدر قدره من العذاب، فلا تجعلنى فيهم، وأظهر فى موضع الإضمار لإثبات ظلمهم، وأن ذلك العذاب هو بسبب ذلك الظلم، وهذا النص يتضمن براءة النبى ﷺ من أن يكون ظالما، وأن يكون من الأقوام الظالمين أو فى صفوفهم، فإن الرضا عن الظلم كالظلم، وإن كان دونه جزاء.

﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (٩٥)﴾.

يبين الله تعالى أنه سيرى رسوله، ما وعد به الكفار من عذاب فى الدنيا بالغلب والانتصار، وفى ذلك تبشير وإنذار، تبشير للنبى ﷺ بأن ما يعدهم من عذاب على أيدى المؤمنين، وأن الله تعالى قادر على أن يريه لنبيه فى حياته قبل أن يمضى لربه، وقد أكد سبحانه وتعالى قدرته على أن يريه النبى ﷺ فى هذه الدنيا أكدها الله سبحانه بالجملة الاسمية و«إنَّ»، وإضافة الأمر إليه سبحانه بضمير المتكلم العظيم المعظم، وثانيا باللام، وبالوصف بقادر. سبحانه وتعالى.

ولقد أمر الرسول إلى أن يريه عذابهم، ويحين حينه، ألا يكون غليظا فيهم، بل يدفع بالتى هى أحسن، حتى لا يشمس نفوسهم، بل إن التبليغ يوجب عليه أن يدنيهم، ولو كانوا مناوئين، ولذا قال الحكيم العليم:

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦)﴾.

وقد بين الله تعالى لنبيه أنه فى سبيل التبليغ لا يدفع السيئة بسيئة مثلها، بل يأخذهم بالصفح، والتجاوز عن الإساءة فى سبيل دعوة الحق والإيمان، فقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ السيئة مفعول، ﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، أى الحال التى تكون أحسن الردود ردا مدنيا مقربا، وليس جافيا مبعدا، والتعبير بـ أفعل التفضيل معناه أن يتخير خير ما يدفع به سفه القول، وحمق الفعال من سخرية واستهزاء وتهكم بدعوته، وبالذين معه من ذكرهم بالسوء وإيذائهم وتعذيبهم، ورد الإساءة بالأمر الحسن فضيلة ذوى السلام من الرجال الصابرين، وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾، أى نحن نعلم علما ليس فوقه علم بالأوصاف التى يصفونك بها أنت وأصحابك، فلا تأخذك هذه الأوصاف إلى أن تعاملهم بمثلها، إنك جئت هاديا داعيا إلى الحق ومرشدا، وما جئت مجافيا ولا معاديا، وبالرفق تدنيهم وبالجفوة والغلظة تقصيهم، فألفهم، ولا تخاصمهم، وأحمق الدعاة من يوجد خصومة بينه وبين من يدعوهم، فتثور أعصابهم لتقاوم دعوته، وقد بين سبحانه أن مغاضبة من يدعوهم من همزات الشياطين، فقال:

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ (٩٨)﴾.

يأمر الله تعالى نبيه بأن يلجأ إليه، ويعوذ به من همزات الشياطين، وأن يحضروه فى معالجة الدعوة الخالصة لله تعالى، وتبليغ الرسالة الإلهية إلى خلقه، والهمزة: هى النخسة التى تكون من وراء، واللمزة هى النخسة التى تكون من الأمام، وهمزات الشيطان هى سورة الغضب وحدته، ونسبت إلى الشيطان؛ لأنها تكون من غير الحكمة، وأمر الله تعالى نبيه بأن يستعيذ من همزات الشياطين هو أمر له بأن يدرع بالصبر وألا ينساق وراء الغضب من أفعال من يدعوهم، بل يسايرهم ويلاينهم ما لم يكن فى ذلك ضياع حق أو علو بالباطل، فالأمر بالدعاء بالالتجاء إلى الله من همزات الشياطين، أمر له عليه الصلاة والسلام بأن يتئد، ويدعو

بالحكمة، كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ... (١٢٥)﴾ [النحل].

﴿أَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾، أى ألجأ إليك عائذا لائذا أن يحضر الشياطين دعوتى إلى الحق، حتى لا أخرج عن جادة الدعوة بالتى هى أحسن، وإن هذا وما سبقه تحريض للنبى ﷺ بألطف عبارة، وأبلغ إشارة بأن يأخذ قومه بالرفق، والأناة، والمواتاة حتى لا ينفروا، وكذلك الشأن فى كل داع لأمر، أو لجديد من الحق لم يألفه الناس لا يغاضبهم ولا ينافرهم، بل يتألفهم، ويقرب منهم، ولا يباعدهم.

وقد أنذر سبحانه المشركين بأنهم سيندمون حيث لا ينفع الندم، وأنهم يحاولون أن يصلحوا من أنفسهم حيث فاتهم الأجل وسبقهم الزمن، وما سبقهم لا يعود.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠)﴾.

الضمير فى ﴿أَحَدَهُمُ﴾، يعود إلى المشركين الذين كانوا يرددون: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، والذين كانوا يرددون ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، هؤلاء إذا حضر أحدهم الموت، ورأى رهبته وأدرك معانى الآيات الكونية والقرآنية، والدعوة المحمدية، علم أنه كان فى ضلال، وذكر أحدهم مع أن الأمر يعمهم؛ للإشارة إلى أن الضلال كان من اجتماعهم وتألفهم على الباطل، وتعاونهم على إثمه - ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ الخطاب للجماعة التى تقبض الأرواح من الملائكة، أو هو عندما يكون قاب قوسين من الموت، ينادى من حوله أو فى نفسه يقول: ارجعون، كما يقول المستغيث عندما يدلهم عليه الأمر، أو تحدثه نفسه بذلك، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ... (٨)﴾ [المجادلة].

وقوله تعالى: ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾، أى رجاء أن أعمل صالحا فيما تركت من مال وقوة، وسلطان، وكان الرجاء والتردد لأنه لا يضمن توفيق الله، أو

لأن الرجاء هو ما تقتضيه الكياسة، فهو يطلبه راجيا، وقد رد الله تعالى رجاءه مكذبا له في عزمته على تدارك ما فاته، وإنما هي أمنية يتمناها ويخالفها كما كان يعد في الدنيا أنه إذا ذهب الكرب عاد إلى ربه مؤمنا، فإذا كشف الله عنه الضر عاد كافرا . رد الله تعالى كلامه بقوله: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾، أي أن هذا الرجاء كلمة نطق بها، ولا تصادف عقيدة في قلبه، وأكد هذا بقوله تعالى: ﴿هُوَ قَائِلُهَا﴾ أي أنه لا يتجاوز النطق بها، ولا معنى لها في القلب، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ...(٢٨)﴾ [الأنعام]، ﴿ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ الوراء تدل على ما يستقبل أي ما يجيئهم بعد قولهم، وهذا كقوله: ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩)﴾ [الكهف].

والضمير في ﴿وَرَائِهِم﴾ يعود إلى جماعة المشركين، وما قاله أحدهم هو المتردد على ألسنتهم جميعا، فعاد الضمير إليهم جميعا، والبرزخ هو الحاجز المانع، قال الجوهري: البرزخ الحاجز بين الشيئين، والبرزخ ما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى البعث، وقد قالوا: إنه القبر، ونقول: هو القبر لمن يقبر، والله أعلم.

يوم القيامة وما فيه من حساب وعقاب

قال تعالى:

فَإِذَا نُفِخَ
فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾
فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ
خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ
خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾

أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟
رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ
أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا
وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ
ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ
سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾
إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾

جاء فى المفردات فى تفسير كلمة الصور فى قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ الصور مثل قرن ينفخ فيه فيجعل الله سبحانه ذلك سببا لعودة الصور والأرواح إلى أجسادها، أى أن البعث يكون على الله يسيرا، إذ ليس إلا كنفخ القائد فى البوق، فيجىء الناس بصورهم وأجسامهم، وأرواحهم تلتقى بأجسامهم بعد جمع متفرق من أماكنها التى كانت فيها متفرقة، والفاء فى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ فاء الإفصاح لأنها تفصح عن محذوف، والفاء الثانية: ﴿فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ الواقعة فى جواب الشرط، ومعنى فلا أنساب بينهم، أى أنهم يكونون أمام الله تعالى على سواء، فلا أنساب بينهم يتفاخرون بها، ويعلو بعضهم على بعض بشرفهم ولا تفاوت بينهم بسببها، إنما الأعمال هى التى تكون مناط الفخر، وسر الاستكبار: ﴿وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾، أى يكون كل فى شغل بنفسه من هول اليوم العظيم، فلا يسأل المرء عن زوجه ولا عن أبيه وأخيه، وابنه، بل ترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد، وفى هذا الوقت يكون الحكم الذى ترتضى حكومته هو العمل، وميزان الأعمال، لذا قال تعالى:

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤)﴾.

الفاء للإفصاح أيضا، وقد صور الله الأعمال بأنها كالمحسوسات توزن فإن كانت جيدة يقبلها الله تعالى فإنها تكون فى الميزان وتنخفض كفتها لثقلها، وإن ذلك تصوير للأعمال الراجحة المقبولة التى كانت مع الحق، ونفعت الناس، وكانت صالحة، وهذا تأويل حسن للميزان، بأنه تصوير دقيق للعدالة الربانية التى لا تبخس الناس أشياءهم، ولا تنقص الناس أعمالهم، والسلفيون الذين لا يؤولون، ولا يفسرون ويقولون: إنه يكون يوم القيامة ميزان حقيقى توزن به الأعمال.

وقد قال تعالى فى جزاء الذين يقبل الله أعمالهم، ويكافئهم عليها ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الإشارة إلى ذوى الأعمال الطيبة التى عرفت بالميزان أو كأن ذكر الميزان تصوير للعدالة ودقة الحساب، أى أولئك بسبب هذه الأعمال، والإشارة إليهم موصوفين بعملهم هم المفلحون أى الفائزون بالجنة ونعيمها، ورضوان الله تعالى، وهو أكبر، وفى الكلام قصر، أى هم الفائزون وحدهم، ولو كانوا فى الدنيا ضعفاء، وأرقاء ومساكين، وغيرهم عتاة مستكبرون، وقد دل على القصر تعريف الطرفين فإنه يفيد القصر، على ما هو معروف فى علم البيان، وقد تأكد القصر بضمير الفصل، و﴿هُمُ﴾.

هذا جزاء من ثقلت موازينه، أما من خفت موازينه، فقد قال سبحانه فيه:

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣)﴾.

وإن ذلك تصوير لعدل الله تعالى الذى لا يظلم أحدا، فهو كالميزان الذى توضع فيه الأعمال، فلا يظلم أحد شيئا، أو يكون ثمة ميزان حقيقى، كما يقول السلفيون الذين يقولون: إن السلف لا يؤول، ولكن يفوض، ويقول ثمة ميزان يناسب اليوم الآخر، وقد ذكر الله تعالى لهم عقابهم، وهو مكون من ثلاثة:

أولها ـ أنهم خسروا أنفسهم، فقد خسرا المعانى الروحية التى كانت ترفعهم من دركة الحيوانية إلى مرتبة الإنسانية، وخسروا العزاء النفسى الذى كان يكشف عنهم ضراء الحياة ويجعلهم يحتملونها، وخسروا الإيمان الصادق بالله فهو نعمة لا يحس بها إلا المؤمنون.

ثانيها ـ العذاب الشديد الذى ينزل بهم، وهو الدخول فى جهنم، ولهذا قال الله تعالى فيه: ﴿**فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ**﴾ وقدم الجار والمجرور؛ لبيان اختصاص جهنم بخلودهم فيها، أى خالدون فى جهنم لا فى غير، فليس عندهم فى هذا الخلود قسمة من نعيم.

والعنصر الثالث ـ من الجزاء ذكره بقوله تعالى: ﴿**تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ**﴾.

هذه أوصاف جهنم أو ما يصيب الذين ينزلون فيها ويخلدون، ولفح: معناها أصابتهم بحرّها وسمومها، فأجسامهم حطبها، ووجوههم تصاب بحرها وسمومها، ويقال: لفحته بالسيف إذا ضربته به، فهم فى عذاب دائم مستمر لا يسلم منه جزء من أجسامهم ﴿**وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ**﴾ وعن ابن عباس فى تفسير ﴿**وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ**﴾ يريد كالذى كلح، وتقلصت شفتاه، وسال صديده، والمعنى الجملى، تشوى وجوههم النار، وتتقلص شفاههم وتعبس، ويقال: إن الكالح هو الذى وتقلصت شفتاه، وبدت أسنانه، وفى الجملة شاهت منهم الوجوه وتحرقت الأجسام ويقول لهم ربهم وهم فى هذه الحال.

﴿ **أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥)** ﴾.

الاستفهام داخل على حرف نفى، وهو للإنكار بمعنى عدم الوقوع، ونفى النفى إثبات، والاستفهام مع دلالته على النفى فيه توبيخ وتذكير بجرائمهم، وجحودهم بالحق، وهو أبلج، والمعنى قد كانت آياتى تتلى عليكم، والواضح أنها آيات القرآن، لأنها هى التى تتلى مرتلة، كما أنزلها الله تعالى على نبيه محمد ﷺ،

وأضاف سبحانه وتعالى الآيات إلى ذاته العلية؛ لأنها آياته إذ هو كلام الله تعالى، وهو تشريف لها، وبيان عظم جرمهم فى تكذيبهم، إذ يكذبون الله سبحانه وتعالى، وقوله تعالى: ﴿فَكُنتُم﴾ و(الفاء) للترتيب والتعقيب، أى فكنتم فور تلاوتها تسارعون بالتكذيب من غير تأمل وتدبر، وإنهم يكذبونها ويكذبون النبى ﷺ مع إقامته الحجة، وعجزهم عن أن يأتوا بمثله، ويكذبون الله تعالى منزل الخلق، والذى خاطب خلقه، وعدَّى التكذيب بالباء للإشارة إلى أن موضوع التكذيب آيات الله، أى أنهم كذبوا النبى، وكان موضوع تكذيبهم آيات الله تعالى خالق كل شىء.

وقد أجاب المشركون يوم القيامة:

﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) ﴾.

قالوا يوم القيامة عارفين ربهم مخاطبين له بلفظة: ﴿رَبَّنَا﴾ إذعانا لمعنى الربوبية الذى كانت أعمالهم منكرة له، والشِقوة بكسر الشين كرِدة، معناها الشقاوة والشقاء وهو ضد السعادة، ولعل المراد بالملاذ والأهواء والشهوات الجامحة فهى التى غلبت عليهم وأنستهم أنفسهم والحق، ويكونون قد عبروا عن المسبب وأرادوا السبب على سبيل المجاز المرسل، وكأن المعنى سيطرت علينا ملاذنا التى أدت بنا إلى هذا الشقاء، وقد صرحوا بذلك وبأنها أدت بهم الشهوات إلى الضلال فقالوا: ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾، أى استمررنا ضالين؛ لأن «كان» تدل على الاستمرار، أى عشنا حياتنا كلها ضالين الحق مجانبين الصواب، وذكر (قَوْمًا) للدلالة على أنهم تعاونوا على الإثم والعدوان، وقاوموا الحق، وضلوا مجتمعين.

أقروا بضلالهم، ولكنهم حسبوا أنهم إن عادوا أصلحوا من أمرهم، قالوا:

﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) ﴾.

ابتدءوا متضرعين متقدمين فى ندائهم بالربوبية الكالئة معترفين (أخرجنا منها) الضمير يعود إلى الجحيم، على ألا يعودوا إلى ما كانوا عليه من كفر وفساد فى الأرض، وخروج عن كل جادة مستقيمة ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾، أى إلى ما كنا عليه من شرك

وعصيان، ﴿فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ الفاء واقعة فى جواب الشرط، حكموا على أنفسهم بأنهم يكونون ظالمين، أى يكون الظلم وصفا مستمرا لهم، وكأنهم يومئون إلى أنهم لم يكونوا ظالمين من قبل، أو كأنهم لم يعدوا الإعلام السابق عن طريق النبيين ليس معدودًا فى الإعلام، وكأنه لا إعلام إلا بالعذاب، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ... (٢٨)﴾ [الأنعام].

أجابهم الله فى ذلك بقوله: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨)﴾.

القائل كما يظهر من ثنايا القول هو الله جل جلاله، ﴿اخْسَئُوا﴾ أى ابعدوا ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، ياء المتكلم محذوفة والمعنى «لا تكلمونى»؛ وذلك لأن كلام الله تعالى منزلة من الرضا لا يصل إليها إلا الأبرار المتقون الذين يكلمهم الله وينظر إليهم ويزكيهم، أما هؤلاء فهم مطرودون من رحمته محرومون من رضاه، وذلك رد عنيف لطلبهم أن يخرجوا كأنهم يخدعون ربهم، وحالهم فى الدنيا كاشف، وقد كانوا يتضرعون فى الشديدة فإذا عادوا كأن لم يتضرعوا من قبل.

وقد ذكر سبحانه أسوأ أحوالهم، وهى السخرية ممن يتضرعون إلى الله تعالى، فقال:

﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩)﴾.

وإن الله تعالى ليذكرهم بأعمالهم مع المؤمنين الذين كانوا يضرعون إلى الله تعالى، ويرجون رحمته، ويخافون عذابه، فيقول: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي﴾ هذه الجملة فى مقام التعليل لإبعاد المشركين وطردهم، ومنعهم من الكلام معه، أى أنه سبحانه وتعالى يعاملهم يوم القيامة بهذه المعاملة المبعدة الطاردة جزاء وفاقا لما كانوا يعملونه مع المؤمنين، والفريق من عباده هم فريق المؤمنين الذين كانوا يؤمنون به وبرسله ويضرعون إليه، يقولون: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا﴾، أى صدقنا وأذعنَّا، وصرنا ممن اتبعوا رسولك، ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾.

وشأن المؤمن الضارع أن يحسب أن ذنوبه قبل حسناته، فيطلب الغفران قبل طلب الجزاء على الطاعة؛ لأنه يحس أنه لم يقم بحق الله تعالى عليه، حتى يطالب بحق له، ﴿ارْحَمْنَا﴾، أى امنن علينا بدوام الهداية، وأدخلنا فى رحمتك، دعوا الله تعالى أن يرحمهم ولم يدعوه بأن يكافئهم، بل يحسبون كشأن الأبرار أن ما كان يجزيهم به من خير فهو فضل رحمته ورضوانه، ولا يحسبون أنهم عملوا ما يستحقون عليه جزاء، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾، أى وأنت الذى ترحم رحمة ليس فوقها رحمة يا رب العالمين.

ماذا كان لقاء المشركين لهؤلاء المؤمنين؟

﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠)﴾.

الفاء للإفصاح عن شرط مقدر، أى إذا كانوا على هذه الضراعة، فلم يقتدوا بهم ويأتسوا، بل اتخذوهم سخريا.. قرئ بضم السين، وقرئ بكسرها [١]، وفرق بعض اللغويين بأن القراءة بالضم معناها التسخير، وبالكسر معناها الاستهزاء ،ولا يعرف هذه التفرقة الخليل بن أحمد ولا سيبويه ولا الكسائى ولا الفراء بل هما لغتان بمعنى واحد، ولقد كان المشركون يسخرون من الذين آمنوا، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾، أى أن هذه السخرية جعلتهم لا يلتفتون إلى معانى الذكر الحكيم، ولا يتدبرون آياته، ولا يعتبرون بعبره، وإنه بسبب هذا كله ينسون ذكر الله تعالى فلا تمتلئ قلوبهم به، ولا يخشونه، ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾، أى كنتم أيها المشركون الساكنون فى جهنم تضحكون منهم، والضحك يميت القلب، ولا تكون معه عبرة ولا استبصار.

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١)﴾.

قرئ بفتح همزة «أن»[١] وتكون مجرورة بلام محذوفة، والمعنى إنى جزيتهم

(١) قرأها بضم السين: نافع وأبو جعفر، وحمزة والكسائى وخلف، ووافق أبو يزيد (عن المفضل عن عاصم)- جبلة، وقرأ الباقون بكسر السين. غاية الاختصار: ٢/ ٤٨٥.

اليوم الذى تعذبون فيه هذا العذاب الأليم بسبب صبرهم على سخريتكم، وعلى الإيذاء الذى تؤذونهم، وكان ذلك الجزاء اليوم، أى فى الوقت الذى تكونون فيه فى الجحيم يكون هؤلاء الذين كنتم تتخذونهم سخريا، وكنتم منهم تضحكون فى نعيم مقيم، ورضوان من الله تعالى ينظر إليهم، ويكلمهم، ويزكيهم.

وعلى قراءة كسر همزة «إنَّ»[٢] تكون (إن) جملة فى معنى تعليل الجزاء، أو بيانه، ﴿ إِنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ أى هم وحدهم الفائزون، ودل على القصر تعريف الطرفين، والتأكيد بضمير الفصل، والجملة فيها عدة تأكيدات، فهى مؤكدة بـ «أن»، وبالجملة الاسمية، وبـ «هُم»، والله سبحانه رءوف رحيم.

مدة البقاء فى الأرض

قال تعالى:

قَٰلَ
كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ
يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ
إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا
هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا
ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ
ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

---

(١) (إنهم هم الفائزون) بكسر الهمزة، حمزة والكسائى، وقرأ الباقون بفتح همزة "إن". غاية الاختصار: ٢/ ٥٨٦.

(٢) انظر السابق.

إن هذه الدنيا مع أدوارهم فيها من أجنة فى الأرحام إلى الخروج من بطون أمهاتهم أطفالا فشبابا فكهولا يكون الإحساس بها، كأنها يوم أو بعض يوم؛ ولذا يسألون يوم القيامة عن مدة مكثهم ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾، أىَّ مدة بقيتم فى الأرض قد اتخذتموها مهادا وفراشا وأفسدتم بها ما أفسدتم وعادين ذلك بالسنين ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ هذا بيان لأصل الاستفهام بعد نوع إيهام، أى كم لبثتم من عدد السنين، فالسؤال عن عدد السنين، لا عن عدد الشهور والأيام؛ لأنهم فى ذلك الوقت يكونون قرب الخروج من أرحام الأمهات أطفالا، فالسؤال عن وقت وعيهم وهو يكون بالسنين.

وقد أجابوا: بأنهم مكثوا يوما أو بعض يوم؛ لأنهم كانوا فيها يتمتعون ويرتعون فى الحرام فكانت قصيرة فى نظرهم، ولذا قالوا:

﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣)﴾:

(الفاء) للإفصاح، أى أنهم يجهلون عدد السنين فلا يستطيعون الإجابة، وأحسوا بأن الذى يسألهم عنده وسائل المعرفة، وعده عليهم من سنين حياتهم فى الدنيا، كما أحصى أعمالهم، ووجدوها محضرة، فمن أحصى الأعمال لابد أن يعرف عدد السنين؛ ولذا ﴿فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾، أى الذين من شأنهم أن يعدوا ويحصوا.

وقد أكد سبحانه أنهم ما لبثوا إلا قليلا، والقلة بالنسبة للآخرة، ولذا قال عز من قائل:

﴿قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤)﴾.

﴿إِنْ﴾ نافية، أى ما لبثتم إلا زمنا قليلا؛ لأن الدنيا متاع قليل غير باق، والآخرة خير وأبقى، فمهما تطل الآجال فى الدنيا فهى فانية، والفانى قليل إذا وزن بالباقى الذى لا يفنى، وذلك ما لم يكونوا يعلمونه إذ كانوا يقولون ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا، وما نحن بمبعوثين؛ ولذا قال تعالى: ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أى لو ثبت وقَرَّ فى نفوسكم أنكم كنتم تعلمون حقيقة هذه الدنيا، وأنها معبر طال

زمنه أو قصر إلى حياة دائمة باقية، إما أن تكون عذابا مستقرا أو فانية أو نعيما باقيا، و(لو) ـ حرف امتناع لامتناع، أى امتنع علمكم فى الآخرة لامتناع علمكم فى الدنيا بأنها سنون قليلة بالنسبة للآخرة، وقد أكد نفى علمهم بـ «إنَّ»، وبـ «كان»، ولله فى خلقه شئون، وقد انتفى علمهم، لأنهم حسبوا أنه لا حياة بعد الموت؛ ولذا قال عز من قائل:

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾ . .

قلنا: إن الآية السابقة فيها إيماء إلى أن الحياة الدنيا أمدها قصير بالنسبة للآخرة، وإنها لجنة أبدا ولنار أبدا، وإن ذلك مع ما سبق يتبين أنه لابد من البعث، وأن حكمة الخلق والإيجاد للإنسان لا تتحقق إلا به، ولذا قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ (الفاء) تفيد ترتيب السؤال على ما قبلها، وهى مؤخرة عن تقديم، ؛لأن أداة الاستفهام لها الصدارة، والاستفهام للاستنكار أى إنكار ما وقع، فهم حسبوا ذلك، وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين، و﴿أَنَّمَا﴾ أداة حصر، أى ما خلقناكم إلا عبثا، أى من غير حكمة باهرة ظاهرة، والعبث أى من غير حكمة من الله تعالى، وعبثا منكم أى خلقناكم لتعبثوا من غير طلب مطلوب منكم، ولا غاية تتجهون إليها، لتلهو أو تلعبوا وتقولوا وما الحياة الدنيا إلا لهو ولعب، ولا محاسب يحاسبكم، ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ الواو عاطفة أى وحسبتم أنكم إلينا لا ترجعون لتحاسبوا على ما كان منكم من لهو عابث، وتقديم الجار والمجرور يدل على الاختصاص والتهديد بالرجوع إليه سبحانه وتعالى وحده بحيث لا يكون معهم شفيع يشفع، ولا وَلِىٌّ يناصر، ولا فدية تعطى، بل يؤاخذ كل على ما فعل، إن قليلا، وإن كثيرا، وإن خيرا، وإن شرا، وأكد سبحانه وتعالى رجوعهم إليه، بالجملة الاسمية، وبتصديرها بـ «إنَّ» الدال على التحقيق، والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) ﴾ .

الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإنه يترتب على ما ذكر من خلق الإنسان والكون كله أن يكون فى علو لا يتسامى إليه أحد فى الوجود، وقد وصفه سبحانه بصفات خمس هى لا تكون إلا له سبحانه؛ إذ هو كامل الوجود، وتلك صفات كامل الوجود، وليست إلا له:

الأولى ـ أنه سبحانه له وحده الملك والسلطان، ولا سلطان فوق رب العالمين.

والصفة الثانية ـ أنه الحق الثابت الدائم، الذى لا ثبات لغيره، وملكه قائم على الحق والعدل؛ لأنه قام على كونه خالق الوجود كله، وهو ربه، فهو الملك وهو الحق، وهو قائم على دعائم الحق، ويحكمه سبحانه وتعالى بالعدل.

والصفة الثالثة ـ أنه هو الله وحده فلا إله غيره؛ سبحانه وتعالى؛ لأنه إذا كان الخالق وحده، وله الملك وحده، فهو الإله وحده، وقد أشرنا من قبل إلى أن العرب كانوا يعترفون بأن الله وحده خالق كل شيء، وأنه واحد فى ذاته وصفاته، ولكن عند العبادة يعبدون الأوثان، فالله سبحانه يبين أن الخلق ووحدة الذات توجبان وحدة الألوهية.

الصفة الرابعة ـ أنه رب العرش، أى صاحب السلطان وحده فى الدنيا والآخرة فلا سلطان لشخص أو حجر، إنما السلطان له وحده فى الدنيا والآخرة.

الصفة الخامسة ـ أنه الكريم الذى فاض بنعمه الظاهرة والباطنة على الوجود كله، ويغفر ويرحم، والذى يقبل التوبة عن عباده، كما قال عز من قائل: **﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ (٨٢)﴾** [طه].

وإن المشركين لا برهان عندهم على أن ما يعبدونه استحق العبادة؛ ولذا قال تعالى:

﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧) ﴾.

﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ ﴾، أى يعبد مع الله إلها آخر بزعمه من بشر أو حجر «لا برهان له به» أى بعَدِّه إلها، أو باستحقاقه لصفة الألوهية، فالضمير فى ﴿بِهِ﴾ يعود على ﴿إِلَهًا آخَرَ﴾، ونفى البرهان يقتضى أولا أنه لا برهان على وجوده بحيث يكون نافعا ضارا، وينفى ثانيا: استحقاقه للعبادة؛ لأن من يعبده أغلى تكوينا منه فى كثير من الأحيان، فالإنسان يعبد حجرا، وهو يسمع ويبصر، والحجر لا يسمع ولا يبصر ولا حياة فيه، بل هو جماد، وإذا كان لا برهان يسوغ عبادته، فإنما الوهم لا العقل هو الذى سهل هذه العبادة، وقال تعالى فى جواب الشرط: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ (الفاء) واقعة فى جواب الشرط، (إنما) للحصر، أى لا يحاسبه إلا ربه، وفى ذلك إنذار شديد بالعقاب الأليم فحسابه عند ربه الذى خلقه، وقام عليه، وهو القاهر فوق عباده، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ وهذه الجملة فى بيان نتيجة الحساب وهو أشد العقاب، والضمير فى ﴿إِنَّهُ﴾ ضمير الشأن، أى أن الحال والشأن لا يفلح الكافرون لكفرهم، ولن يغنى عنهم شىء.

﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١١٨)﴾.

الخطاب للنبى ﷺ يطالبه بأن يدعو ربه ضارعا إليه بالغفران والرحمة فهو ﴿خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ أى الرحمن الذى لا يصل إلى رحمته أحد وقد طلب أن يغفر من غير ذكر المغفور له، وطلب أن يرحم من غير ذكر من يُرحم، وذلك لشمول من يطلب الغفران لهم، والرحمة لهم، فهو الغفور الرحيم الذى سبقت رحمته عذابه، وفى ذلك الطلب من النبى ﷺ تصفية لنفسه من شوائب الحقد، والحسد، ليدنى من يدعوهم، ولا يجافيهم، فإن الجفوة تبعد، والرحمة تقرب، إن الله غفور رحيم.

سورة النور

تمهيد:

هذه سورة مدنية وعدد آياتها (٦٤) أربع وستون آية، وسميت النور لقوله تعالى فيها: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ... (٣٥)﴾، وإنها لو سميت سورة الأسرة لكانت جديرة بهذا الاسم.

وقد ابتدأ بما هو آفة الأسرة، وحمايتها منه، وهو الزنى، فكان أولها ـ عقوبة الزناة التى تحمى الأسرة والمجتمع من أشراره ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣)﴾.

وأراد الله تعالى أن يكون المجتمع الإسلامى مجتمعا نزيها لا يترامى بالسوء والفاحشة صيانة للفضيلة، ونصاب الشهادة بالزنى أربعة، فمن رمى محصنة أو محصنا بالزنى يجلد ثمانين جلدة. ، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥)﴾ قرر سبحانه عقوبة مادية بالجلد ثمانين جلدة، وعقوبة أدبية تبعية، وهى ألا تقبل لهم شهادة أبدا.

ولكن قد يرمى الرجل زوجه، وليس معه شهود أربعة، فأوجب اللعان، بأن يتحالفا على البراءة، وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩)﴾، وإن ذلك فضل من الله ورحمة لأنه حمى المجتمع والأسرة من تلك الآفة الخلقية المخربة، ولأنه منع قول الزور وأن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا.

وقد أشارت السورة إلى حديث الإفك على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وعن أبيها، فقال عز من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١)﴾، وعلمنا الأدب عندما نستمع خبر سوء فلا يجوز لنا أن نذيعه بل نظن خيرا بالمؤمنين وخصوصا ما يتعلق ببيت الرسول: ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣)﴾.

وإن هذا كان جرما عظيما؛ لأن رمى المحصنات أمر عظيم، ورمى زوج النبى ﷺ جرم هو أعظم الحرام، ويقول سبحانه: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧)﴾، وإن إشاعة قول السوء عن أم المؤمنين تؤدى إلى إشاعة الفاحشة فى المؤمنين ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٢٠)﴾ ويبين لنا سبحانه أن الخوض فى مثل هذا من تتبع خطوات الشيطان.

وينهانا سبحانه عن ذلك، فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ... (٢١)﴾.

والأسر لابد فيها من التراحم، ولو كان بعض آحادها قد شذ، كما شذ بعض ذوى قرابة أبى بكر الذى كان يمده بفضل ماله، فخاض فى حديث الإفك على عائشة، فمنعه أبو بكر من فضله، فقال الله تعالى ناهيا أبا بكر، ومن يكون فى مثل حاله: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢)﴾، وقد بين سبحانه بعد ذلك إثم الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات، ﴿... لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥)﴾.

وإن الله لا يختار لنبيه إلا الطيب من النساء؛ لأن الطيبات للطيبين والخبيثات للخبيثين، والنبى وزوجه مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم، وقد بين سبحانه وتعالى حرمة البيوت، وتحريم التهجم على الأسرة بغير إذن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨)﴾، ويفصل سبحانه بدقة لأحوال الاستئذان، فيقول: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩)﴾.

بعد ذلك أقر الله تعالى بعض الطرف للرجال والنساء، ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل

لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)﴾، ويحث على إنكاح الأيامى غير المتزوجات، والصالحين من العباد ولو كانوا فقراء، وإن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله، ونهى عن البغاء ووسائله، ونهى عن إكراه الإماء على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا، ﴿...وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣)﴾.

وتنتقل الآيات إلى تطهير المجتمع على نور من أحكام الله تعالى، وقد ابتدأ بذكر نوره سبحانه، فقال جل شأنه: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥)﴾.

وإن صلاح المجتمع يبتدئ من بيوت العبادة: بالصلاة، فهى طهارة القلوب، والمجتمع الصالح ما قام إلا على طهارة النفوس، فذكر سبحانه وتعالى المساجد ومكانتها عند الله فقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨)﴾.

وقد بين سبحانه وتعالى بعد ذلك أن أعمال الكفار فى ضياع ما داموا لم يؤمنوا بالله واليوم الآخر، وقد شبهها سبحانه وتعالى بعدة تشبيهات، فشبهها

بالسراب الذى يكون بقيعة حتى إذا جاءه لم يجد شيئا، وشبهه بالظلمات ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾.

ويوجه الأنظار إلى خلقه سبحانه وتعالى وخضوع الوجود له ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾.

يوجه سبحانه الأنظار إلى السحاب، وكيف يتكون ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾﴾.

ثم يوجه سبحانه الأنظار إلى خلق الدواب ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾.

بعد هذا بين كيف أنزل أكبر النعم، وهى نعمة الرسالة، ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾، ويذكر بعد ذلك أحوال الذين تلقوا هذه الآيات، ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾، وهؤلاء لا يتجاوز النطق بالشهادة حناجرهم، ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾. وهؤلاء كالأعراب الذين كانوا فى عصر النبى ﷺ، وكالذين يذكرون فى الأسماء الإسلامية، ويؤمنون بالقوانين الأوربية، ولا يؤمنون بشريعة القرآن ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا

سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢)﴾ ومن ضعفاء الإيمان من يقسمون بالله إنهم لمعهم، فيقول لهم الله تعالى: ﴿... لاَّ تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٥٤)﴾، وبين من بعد ذلك ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥)﴾، ويأمر سبحانه تعالى بعد ذلك بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول رجاء رحمة الله، ويبين بعد ذلك أنه لايعجزه المشركون فى الأرض، ولكن يمهلهم، ومأواهم بعد الإمهال جهنم وبئس المصير.

بعد هذه الآيات المتعلقة بالإيمان، وأخلاق ضعفاء الإيمان ومن فى قلوبهم مرض والمشركين، يعود إلى الأسرة وآداب الاستئذان، وقد تكلم فى الاستئذان بالنسبة للداخلين فى بيوت غير بيوتهم، ثم من بعد ذلك تكلم فى استئذان الساكنين من الأسرة فى دار واحدة فى الاستئذان على الأسرة نفسها فى الدخول إلى الحجرات المخصصة للرجل وزوجه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨)﴾. الأطفال البالغون الحلم علَّمهم الاستئذان ككل آحاد الأسرة، لا فى أوقات العورات فقط، ولا تترك الآيات أحكام القواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة، وإن يستعففن خير لهن والله سميع عليم.

وتكلم سبحانه فى نفقات الأقارب فيقول: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١)﴾.

وقد ذكر سبحانه وتعالى ما يجب أن يكون عليه المؤمنون، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢)﴾، ويعلّم سبحانه المؤمنين فى أدبهم مع الرسول فيقول عز من قائل: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)﴾.

وختم الله سبحانه وتعالى السورة ببيان سلطانه فى هذا الوجود كله ﴿أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤)﴾.

معانى السورة

حد الزنى

قال الله تعالى:

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾

ابتدأ سبحانه وتعالى السورة باختصاصها بأنها سورة ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾، وذكرها منكرة لإعلاء شأنها، وحسبها أنها منزلة من عند الله، واختصت بذكر أنها أنزلت من عند الله، وقوله: ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾، أى فرضنا ما فيها من أحكام تتعلق بحماية الأسرة وعقاب المعتدين على النسل فيها، ولكيلا يتمرد على أحكامها أحد، فهى أحكام مفروضة من عند الله، وهى تطهير للعباد من إثمهم، وكما شرف الله تعالى السورة كلها بنسبة إنزالها إليه، شرف آيات الأحكام فيها بالإنزال؛ تأكيدا للإلزام بأحكامها، والتزام أحكامها، ولو كانت شديدة فهى شديدة على المعتدين، وحفظ للمؤمنين، وقوله تعالى: ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾، أى فرضنا ما اشتملت عليه من أحكام، وأولها وأشد عقوبة: الزنى، وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، أى تذكرون أحكامها، وتعرفون شدتها، فتعرفون قبح الجريمة، وأثرها فى المجتمع الإسلامي، وأنها لا تكون فى قوم إلا كتبت عليهم الذلة، والضعف والاستسلام، والخنوع.

وقد ابتدأ من ذلك بحكم من يرتكبون هذه الجريمة المفرقة بين الجماعات، المضيعة للنسل، فقال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢)﴾.

الزنى هو وضع النطفة فى رحم غير حلال له، أو بشكل عام: وضع العضو فى عضو ليس حلالا له، والزنى أقبح الجرائم التى تفتك بالجماعات الإنسانية، ولذا قرن النهى عنه بالقتل إذ يقول سبحانه: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (٣٢) وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا (٣٣)﴾ [الإسراء]. وترى النهى عن الزنى جاء بعد النهى عن الوأد؛ لأنه من بابه، وإذا كان الوأد قتلا للولد، فالزانى كذلك؛ لأنه يرمى النطفة، ولذا لوحظ فى الأمم التى تكثر فيها الفاحشة، أنها تفنى شيئا فشيئا، وأن شيوع الزنى فى أمة يضعف قوتها ونخوتها ويجعلها جماعة لاهية لاعبة.

وهذه الجريمة لما فيها من فحش، وإضعاف لقوة الأمة، وإردائها فى مهاوى الهلكة شدد الله تعالى عقوبتها، فقال: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ وهنا ثلاث إشارات بيانية:

أولاها: فى تقديم الزانية على الزاني، قالوا: لأن قوة الشهوة الدافعة إلى الزنى عند المرأة أقوى، وربما لا نوافق على ذلك كثيرا؛ لأن الرجل يطلب فى أكثر الأحيان، والمرأة لا تطلب الرجل إلا قليلا، وإن حدثتها نفسها فإن الحياء يكفها إلا إذا خلعته، وقد نقول: إنها إن طلبها الرجل ولم تكن مؤمنة سارعت إليه، ونقول فى تعليل ذلك إن العقوبة قاسية، وقد قدمت المرأة لكيلا يمتنع أحد عن إقامة الحد بدعوى ضعفها، والشفقة عليها والرفق بها؛ لأنها من القوارير.

ثانيتها: أن كلمة الزانى والزانية وصف بالزنى، وذلك يكون فى أكثر الأحوال من تعوّد هذه الجريمة، ولذلك لا يكون إلا ممن أعلن هذه الجريمة الفاحشة ولذلك

كان لابد من شروط لإقامة هذا الحد: أن يشهد أربعة بها، ولا يكون ذلك إلا إذا كانت الجريمة معلنة مجاهرا بها، وذلك لا يكون إلا ممن تعودوا هذه الجريمة، وقد يكون الزنى فى أول أمره، ولكن ينـدر أن يحضره أربعة من الرجال العدول، ومع ذلك يطبق الحكم سدا للذريعة.

ثالثتها: أن التعبير عن الضرب بالجَلْد للإشارة إلى أنه يؤلم الجِلْد، وذلك بأن يكون الضرب قريبا من الجلد، فلا يستره إلا ثوب عادي، ولا يضرب على حشوة من قطن أو نحوه.

والفاء فى قوله تعالى: ﴿فَاجْلِدُوا﴾ هى الفاء الواقعة فى جواب الشرط، والتعبير بـ (زانية وزان) يفيد أن من يرتكب هذه الجريمة فاجلدوهم مائة جلدة.

وهذه هى العقوبة الأولى، وقد تبعتها عقوبة أخرى، وهى أن تكون هذه العقوبة فى العلن لا فى السر، ولذا قال تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أى ليحضر العقوبة التى هى ﴿عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وما حد الطائفة، قيل: اثنان. وقيل: أربعة، ونقول إنها الطائفة التى يكون بها الإعلام، بأن تكون العقوبة فى مكان تكون فيه علنية لا سرية، وسمى الله هذه العقوبة عذابا؛ لأنها عذاب الدنيا، ووراءها عذاب الآخرة، إن لم يتوبا توبة نصوحا؛ ولأنها قاسية غليظة، والرحمة بالجانى تشجيع على الجناية، والغلظة فى عقابه رحمة بالجماعة الإنسانية.

ولغلظة العقوبة قال تعالى: ﴿وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ الرأفة انفعال نفسى يدفع إلى الشفقة والألم والتقزز منها والاستنكار النفسى لها، فلا يصح أن تكون الرأفة هى المسيطرة، وعبر عن ذلك بقوله: ﴿وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾، أى لا يصح أن تستولى عليكم حتى يقال: إنها أخذتكم، فالرأفة بالجانى استهانة بالحكم وتشجيع عليه كما ذكرنا.

وألفاظ الآية الكريمة عامة، وأجمعوا على أنها تطبق على البكر، أى غير المتزوج، أى غير المحصن الذى أحصن بالزواج ودخل فى هذا الزواج.

وإنه من المقررات الشرعية أنه لا يخصص اللفظ إلا بمخصص فى قوته، والحنفية يعدون العام قطعى الدلالة، وهو الذى عرضناه، فلا يخصصه إلا قطعى مثله قرآنا أو سنة مشهورة تبلغ مبلغ القرآن فى قطعيته، والآية -بلا ريب- قطعية السند؛ لأن القرآن كله متواتر، ومن أنكر ذلك فقد كفر.

ولذا كان لابد أن يكون ما يخصصه من نصوص قطعى السند قطعى الدلالة، وقد ادعى الحنفية أن حديث رجم الزاني، وإن كان حديث آحاد فهو مشهور، والشهرة ادعاء له.

ومن أجل أن نبين مقام هذه الآيات من الآيات الواردة فى عقوبة الزنى، نذكر أن قبلها ثلاث آيات فى ترتيب المصحف، وننبه أننا لا نرى فى القرآن منسوخا قط؛ لأنه سجل الشريعة الذى سجلت الأحكام الدائمة الباقية فى تكليفها إلى يوم الدين.

الآيتان الأوليان ﴿وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً (١٥) وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (١٦)﴾ [النساء].

دلت هاتان الآيتان على ثلاثة أمور باقية: أولها: أن الشهادة على الزنى تكون: بأربعة، ولذا قرر قبل هذا المنع الحاجز الصائن الاستشهاد بأربعة، والإمساك فى البيوت لحماية الضعفاء من العبث حتى الموت أو الزواج، وهو السبيل الذى جعله الله تعالى لصيانتهن، وليس الحد سبيلا، ثانيها: العقوبة للزانى والزانية، ولكنه سبحانه وتعالى ذكر العقوبة مجملة، بينتها آية سورة النور التى نتكلم فى معانيها، فالإيذاء فى سورة النساء مجمل بينته سورة النور، ثالثها: أن التوبة إذا كانت وجب الإعراض عن العقوبة، ولذا قال عز من قائل: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ وتكون العقوبة شرعا محكما إذا لم يتوبا، وتكون العقوبة فى سورة

النساء شرطها عدم التوبة فى وقتها، وبذلك قال الحنابلة والظاهرية ورواية عن الشافعى رضى الله عنه.

ومن أخطاء بعض المفسرين الواضحة تفسيرهم «اللاتى يأتين الفاحشة» بأنها السحاق، فإن البقاء فى البيوت تمكين لها، ولا الفاحشة فى الآية الثانية باللواط، فإن ذلك ينفر منه الذوق السليم، والفاحشة تكاد تكون محصورة فى الزنى، وقد قيل: إن ثمة آية تقول (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة) ونسخت تلاوة، ولم تنسخ حكما، وهذه رواية بطريق الآحاد، وإن ادعيت شهرة الخبر[١].

وقد يقول قائل: إن الرجم أقسى عقوبة فى الأرض فكيف يثبت ما دونها بالقرآن القطعى بدلالته وسنده، ولا تثبت تلك العقوبة الغليظة إلا بحديث آحاد، وإن ادعيت شهرته، والاعتراض وارد، ولا سبيل لدفع إيراده.

ولقد سأل بعض التابعين الصحابة أكان رجم النبى ﷺ لماعز والغامدية قبل نزول آية النور أم بعدها؟ فقال: لا أدرى لعله قبلها، ونحن لا نتهجم بالنسخ، ولو كان نسخ السنة، فلسنا ندعى نسخها بالآية الكريمة، ولم يبين أنها نسخته ولا نسمح بنسخ السنة بمجرد الاحتمال، ولا بمجرد التعارض، ولكن يبقى بين أيدينا أن العقوبات كلها مذكورة فى القرآن إلا هذه مع أنها أقسى عقوبة، وإذا كان ثمة احتمال النسخ، فهو احتمال ناشئ من دليل وليس احتمالا مجردا أقسى من أشد عقوبات إلا الآية التى فيها محاربة الله ورسوله، وهو القتل والصلب، فإن الرجم: الرمى بالحجارة حتى يموت فهو عذاب حتى الموت، والصلب أهون لأنه بعد الموت حيث لا يكون إحساس، ولا يضر الشاة سلخها بعد موتها، كما قالت ذات النطاقين أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها وعن أبيها، ولعن الله من آذاها فى نفسها وفى أبيها وآذى الكعبة معها.

---

(١) رواه ابن ماجه: الحدود- الرجم (٢٥٣٤) عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما، وأحمد: مسند الأنصار- حديث زر بن حبيش عن أبى بن كعب (٢٠٢٦١)، فى مسند الأنصار- حديث زيد بن ثابت عن النبى ﷺ (٢٠٦١٣). وراجع البخارى: الحدود (٦٣٢٧)، ٦٣٢٨)، الاعتصام بالكتاب والسنة (٦٧٧٨)، ومسلم: الحدود (٣٢٠١).

هذه عقوبة الزنى، ونعتقد أن حكم الآية عام، والظاهر من الألفاظ أنها تعم المحصن وغير المحصن، وقالوا: ثبت بالسنة تغريب عام، بعد الجلد على ملأ من الناس لكى يذهب عنه عار الجلد. وروى عن مالك أن المرأة لا تعذب حتى لا تكون عرضة للسقوط مرة أخرى، وفائدة التعذيب بالنسبة للرجل لكى يذهب عنه خزى الجريمة؛ لأن الخزى يجعله يهون فى ذات نفسه، فيهون عليه ارتكاب الجريمة، إذ الجريمة فى ذاتها هوان.

وقد يقول قائل فى هذه المناسبة: إن الدعوة إلى أن يشهد العقوبة طائفة من المؤمنين يناقض الستر الذى دعا إليه النبى ﷺ فى مثل قوله ﷺ: «كل أمتى معافى إلا المجاهرين»[1] والجواب عن ذلك أن إعلان العقوبة خير، لأنه ردع عام، أما إعلان الجريمة من غير عقوبة فدعوة إلى الجريمة، وفرق بين دعوة الردع ودعوة الفجور.

لم نذكر الآية الرابعة، وهى إحدى الثلاث غير المذكورة فى سورة النور، وهى قوله تعالى: ﴿**وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٥)**﴾.

إن ظاهر الآية من غير تأويل، ولا تحميل الألفاظ غير ما يحتمل أن الظاهر من قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا أُحْصِنَّ**﴾، أى فإذا تزوجن فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب، وإن الرجم لا ينصف، وإذن يكون ما على المحصنات المتزوجات جلدا قابلا للتنصيف، وإن هذا يدل بدلالة الإشارة أو الاقتضاء على أنه لا رجم؛ ولذا

(١) رواه البخارى: الأدب- ستر المؤمن على نفسه (٥٦٠٨)، ومسلم: الزهد والرقائق- النهى عن هتك الإنسان ستر نفسه (٥٣٠٦). من رواية أبى هريرة رضى الله عنه.

قلنا: إن احتمال نسخ الرجم بآية من سورة النور احتمال ناشئ عن دليل، وما كان النسخ نسخ قرآن، إنما هو نسخ سنة، إذ الرجم لم يثبت إلا بالسنة.

هذه آية سورة النور، وما يرتبط بها، وما يتعلق بأحكام الزنى، قال تعالى بعد ذلك:

﴿الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣)﴾.

إن الرجل النظيف لا يلقى بمائه فى موضع دنس، وأى دنس أخبث من دنس الزنى، أى فهو لا يتزوج زانية، والنكاح هنا بمعنى العقد، لا بمعنى الوطء كما روى عن ابن عباس برواية ضعيفة لم تصح، ويقول الزجاج: إن النكاح لم يذكر فى القرآن إلا بمعنى العقد، فلا ينكح مؤمن زانية قط، ما دامت لم تتب توبة نصوحا، ولم تنخلع من هذه الموبقة، وتطهرها بالتوبة بعد الحد، وإن المؤمنة التقية لا ترضى أن يكون زوجا لها زان عرف بالزنى، بل إن الزانى إذا تزوج مؤمنة كان الزواج فاسدا بحكم الكفاءة فى الزواج، وقد أجمع الفقهاء على عد الكفاءة فى التدين وقال فيه مالك رضى الله عنه: إنه زوج.

وكما أن الزانى لا يجد من يقبله زوجا إلا زانية أو مشركة، كذلك الزانية لا تجد زوجا يقبلها إلا إذا كان زانيا أو مشركا، وإن ذلك حكم الطبع السليم الذى تكون فيه النفس غير مهينة، ولا مبتذلة، ولا مدنسة بالرجس والآثام؛ وذلك لأن الزوج عشير يخالط زوجه بالحس، ويخالطه بالنفس، وعدوى النفوس كعدوى الآثام تتلاقح بالأمراض، كما تنتقل الأمراض بين الناس.

جانيك من يجنى عليك وقد ... تعدى الصحاح مبارك الجرب

وإن ذلك وإن كانت الفطرة تمنعه، فالشرع لا يرضاه، وقد قال: **﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾** الإشارة إلى النكاح، أى نكاح الزانى بغير الزانية، والزانية بغير الزاني، أى لا يكون دأب النفوس إلا متفاعلا بعضه ببعض، وبظاهر الآية أخذ

بعض الفقهاء، ومنهم الظاهرية والحنابلة أو بعضهم، وبعض قليل من الشافعية والمالكية والحنابلة وأكثر الشافعية على أن نكاح الزناة ليس بفاسد.

ويجب أن نقول: إن الزانية التى وصف الزنى قائم بها، وإذا تابت فإنها تنخلع منه؛ لأن التوبة النصوح تجبُّ ما قبلها، وكذلك الزانى، فإن التوبة تطهر النفس، والإخلاص فى التوبة يوجب الندم، وإن الله هو قابل التوبة، وغفار الذنوب، وكذلك نقرر أنه بالإجماع يجوز الزواج ممن تاب وآمن وعمل صالحا.

وإن الشريعة كما تطهر الأسرة من الزناة تحميها من الذين يريدون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا، فيعاقب الذين يرمون الطاهرات العفيفات بالزنى ووضعت لهم عقابا رادعا ثمانين جلدة، فقال تعالت كلماته:

حد القذف

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾

هذه جريمة القذف، وهو فى الشريعة رمى المحصن بالزنى، والمذكور فى الآية رمى المحصنات، وقد ثبت بقانون المساواة أن هذا حكم رامى الرجال؛ ذلك لأن قانون المساواة الشرعية يجعل حكم الرجل كحكم المرأة، فإننا نرى التكليف كان فى أكثر الأحوال يجىء بمخاطبة الرجال، ثم يدخل النساء بحكم قانون المساواة فى التكليف.

وذكر النساء وحدهن، وإن دخل الرجال بحكم قانون المساواة؛ لأن المحصنات يصيبهن ضرر الرمى بالزنا أكثر من الرجل بحكم العرف فى الدنيا؛ ولأنها موضع الأمانة الربانية، فصيانتها أوجب، ورميها يكون أشد، ولأن أول رمى كان لأطهر نساء قريش - بعد فاطمة - زوج محمد رسول الله ﷺ وبنت أبى بكر الصديق، فكان ذكر النساء أولا.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ لم يقل بالزنى، بل لم يذكر المرمى به تحصنا وإبعادًا لألفاظ الشين عن المحصنات الطاهرات العفيفات، وقوله تعالى: ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾، الفاء هنا كفاء الشرط لتضمن الموصول معنى الشرط، وفيه مع ذلك إشارة واضحة إلى أن رمى المحصنات هو سبب هذا الحكم القاسي، والإحصان يتضمن معانى ثلاثة: أولها: الإسلام، فلا إحصان لغير مسلم ولا مسلمة، وثانيها: الحرية فلا إحصان لعبد، ولا لأمة، وثالثها: ألا يقع فى زنى من قبل، أو يكون قد دخل فى عقد فاسد بشبهة تسقط الحد، ولا تمنع بقاء وصف الزنى كالعقد على المحارم ونحوه مما هو مفصل فى كتاب «الزواج»، فليرجع إليه[1].

والعقوبات ثلاث كما أشرنا:

الأولى: الجلد ثمانين جلدة، ووضحنا المعنى فى التعبير بقوله ﴿فَاجْلِدُوهُمْ﴾ من حيث إن المراد ضرب يؤلم الجِلْد، فلا يكون ثمة حاجز يمنع إيلام الجلد كحشية أو نحو ذلك، وهذه عقوبة بدنية تصيب البدن وتؤلمه، وإذا كانت هذه عقوبة ومن قبل عقوبة الزانية فيها قسوة، فإنها رحمة بالجماعة المؤمنة من أن يفشو فيها الزنى، ويشيع، وفى ذلك فتنة وخراب وفساد كبير، وضياع للأمم، وللنسل، وخيانة للأمانة التى أودعها الله أصلاب الرجال، وأرحام النساء.

الثانية: إهدار أقوال القاذفين بألا تقبل لهم شهادة فى قضاء، وهذا قوله تعالى: ﴿وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ والأبدية توجب ألا تقبل لهم شهادة مطلقا: تابوا أو لم يتوبوا، وهذا ما قرره الحنفية وأكثر الفقهاء، وقرر الشافعية أن التوبة

(١) ارجع إلى كتاب «عقد الزواج وآثاره» للإمام محمد أبو زهرة.

النصوح تنهى هذه العقوبة؛ لأن التوبة المقبولة تجبُّ ما قبلها من المعاصي؛ ولأن استثناء التوبة فى الآية: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ جاء بعد ﴿لا تَقْبَلُوا﴾، والحكم بالفسق، فيشمل الاستثناء منهما لا من أحدهما، ونحن نميل إلى ما فهمه الحنفية، أولا لأن النص على الأبدية يمنع الاستثناء؛ ولأن ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ جملة مستقلة، والجملة «ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا» قد انتهت، فلا يتعلق الاستثناء بها؛ ولأن هذا هو الذى يلائم أنها عقوبة؛ ولأن إشاعة الفاحشة أعظم جرائم اللسان، فيجب أن تتعلق العقوبة به.

العقوبة الثالثة: الوصف بالفسق فى قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، وهذه هى التى دخلها الاستثناء؛ لأنها فى جملته والحكم بالفسق اقترن به الاستثناء، فخرج المستثنى من حكم المستثنى منه.

وشرط تحقق حد القذف، ألا يأتى من يرمى بالزنى بأربعة شهود هو منهم، وبعبارة أدق بثلاثة معه يقرون قوله، ولذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ وكان التعبير فى العطف بـ (ثم) الدالة على التراخى فيه إشارة إلى بعد الحصول على ثلاثة يشهدون معه، فإن إثبات الزنى بأربعة عسير، إلا أن يكون فعلا علنيا، ولا يحدث ذلك إلا فى أفحش الأمم فجورا كأهل أوروبا وأمريكا.

والرمى - لكى يقام حد القذف - يجب أن يكون رميا صريحا بالزنى حتى يقول الفقهاء إنه رآه يضع إحليله فى فرجها كما تضع الميل فى المكحلة، أو نحو هذا التعبير.

ولو عَرَّضَ لا يكون رميا بالزنى، ولو كان التعريض كالتصريح وضوحا، وقد رُمى المغيرة بن شعبة الذى صار نصيرا لمعاوية، فشهد ثلاثة من الأربعة بالرمى الصريح، وعرض زياد ابن أبيه الذى ألحقه معاوية بنسبه لم يصرح، فَعَدَّهُم عمر بن الخطاب الذى كان يقضى فى الأمر بنفسه، قاذفين، وعاقبهم عقوبة الجلد.

وما كان ذلك إلا ليحمل الناس الذين يرون تلك الجريمة البشعة ألا ينطقوا بها، حتى لا تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا ويشيع الترامى بالزنى، فيستهين الناس به.

ثم قال الله تعالى فى وصف القاذفين ﴿... وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥)﴾ الإشارة إلى الذين يرمون المحصنات، والإشارة إلى الموصوف بصفة أو القائم بعمل، بين أن ذلك العمل هو سبب الحكم، فالقذف سبب الحكم بالفسق؛ لأنه فى ذاته فسق فى القول، وقد أكد سبحانه وتعالى الحكم بفسقهم أولا: بالجملة الإسمية، وثانيا: بضمير الفصل «هم»، وثالثا: بجعل الفسق وصفا لهم، ورابعا: بقصرهم على الفسق، أى أنهم لا يخرجون من الفسق، فهم فى دائرته لا يخرجون عنها، فهم فى شر مستمر دائم لا يخرجون عن دائرته قط إلا إذا تابوا، ولذا قال تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾.

الاستثناء من الحكم باستغراق الفسق؛ لأن رحمة الله تتسع للعصاة الذين أذنبوا، ولذلك ترفع عن القاذفين عقوبة عدم قبول شهادة، وإن ذلك هو الذى يتفق مع المتبادر من السياق البيانى للقرآن الكريم؛ إذ إن الأمر بعدم قبول الشهادة فى آية منفردة عن هذه الآية، وهى أمر بهذا العقاب معطوف على أمر بالعقاب البدني، وهما فى جملتين إنشائيتين، والحكم بالفسق فى جملة خبر.

والرأى الذى فى المذهب الشافعى الذى يجيز قبول الشهادة إن تابوا، قال: إن الاستثناء من الآيتين معا، وقد قلنا: إننا نميل إلى رأى الجمهور فى الاستثناء من الحكم بالفسق فقط، لذكر كلمة ﴿أَبَدًا﴾ وما كان قول الله لغوا، ولأنه المتبادر.

ولأن منع قبول الشهادة لحق الناس ولصيانة مجلس القضاء.

والاستثناء هو قوله تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ فالتوبة هى الإقلاع عن هذا والعزم على ألا يعود إليه، والندم على ما وقع، وذلك بالشعور بالحسرة لوقوعه، ولابد من الإصلاح بدل الإفساد والتخريب، فالذى تغير الفسق،

وذلك بأن يكون صالحا، وخصوصا أن الله جل جلاله سجل عليهم وصف الفسق، فلا يزيله إلا وصف الإصلاح.

وبين قبول توبتهم عن الفسق، فيقول عز من قائل: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ دليل على قبول التوبة؛ لأن الفاء كالواقعة فى جواب الشرط، لتضمن التوبة والإصلاح معنى الشرط، والمعنى فإن الله يقبل توبة هؤلاء الفاسقين لأن الله غفور رحيم يغفر الذنوب لمن يتوب من عباده، ويعفو عن السيئات، وذلك رحمة بعباده.

ونقرر أخيرا أن العقوبة بعدم قبول الشهادة أمر دنيوى نظم الله تعالى أهلية الشهادة، والحكم بها، وأما الغفران فأمره إلى الله تعالى، وهو الغفور الرحيم.

اللعان

وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

روى أن رجلا قال للنبى ﷺ: «إن الرجل يجد الرجل مع أهله وإن قتله قتلتموه، وإن تكلم ضربتموه، وإن سكت سكت على غيظ اللهم بين»(١)؛ فكانت

(١) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: إِنَّا لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ فِى الْمَسْجِدِ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ الأَنْصَارِ فَقَالَ لَوْ أَنَّ رَجُلا وَجَدَ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلا فَتَكَلَّمَ جَلَدْتُمُوهُ أَوْ قَتَلَ قَتَلْتُمُوهُ وَإِنْ سَكَتَ سَكَتَ عَلَى غَيْظٍ وَاللَّهِ لأَسْأَلَنَّ عَنْهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ .. الحديث. رواه مسلم: اللعان- باب (٢٧٤٨)، كما رواه أبو داود وابن ماجه وأحمد.

هذه الآيات علاجا لذلك وشفاء لغيظه، ورحمة بالناس، وخاصة بالأسرة الإسلامية: لتقوم على الاطمئنان النفسي، والثقة التى تكون بين ركنيها، وهما الزوجان، ولصيانتها عن القالة.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ﴾، أى لم يكن شهداء غيرهم ولم يذكر عددا فى الرمى؛ للإشارة إلى ما ينبغى، وهو ألا يعلم أحد بما يلاحظه على زوجه فى هذه التهمة، فأسرار الأسرة لا يصح أن تعلن على الملأ فلا يُسأل: مَنْ شهودك الذين يشهدون بصحة قولك، ولا يقدم هو تهمته، فيعفيه حكم اللعان من تقديم شهادة أو المطالبة بأى شاهد.

وسميت العقوبة عقوبة اللعان، لما اشتملت عليها بعض الأيمان بأن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، وكلمة ﴿شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ﴾ الشهادة تطلق، ويراد بها الحضور، ولعل هذا هو المعنى الأصلى، وتطلق ويراد بها الإقرار كقوله تعالى: ﴿... وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا ... (٨١)﴾ [يوسف]، وتطلق ويراد بها الشهادة، وكلمة أشهد بالله تتضمن معنى اليمين، وقال بعض اللغويين: إن كلمة (أشهد) بذاتها من غير اقترانها بكلمة (بالله) تتضمن معنى اليمين.

وكلمة: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ﴾ هى جمع شهيد أو شاهد، الظاهر أنه ليس معهم شاهد يشهد إلا أنفسهم؛ لأنه لم يحضر سواهم، أو لم يتقدم للشهادة أحد سواهم، وأنفسهم مستثنى مفرغ من (شهداء)، أى لم يشهد فى الرمى إلا أنفسهم، وقد ذكر الله أربع شهادات ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾، ونرى أن الشهادة قد اقترنت بالله فكانت الشهادة يمينا، فيحلف أربع مرات متتالية ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾، وقد أكد صدقه فى يمينه بثلاثة مؤكدات: أولها (إن) التى تفيد التوكيد، واللام المؤكدة دخلت عليه، والثالثة وصفه بأنه من الصادقين، أى من زمرة أهل الصدق، وجماعتهم، وهم المتقون الأبرار.

والشهادة الخامسة، أى اليمين الخامسة يحلف بأن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، أى يحلف بأن الله تعالى ينزل عليه لعنته إن كان من الكاذبين، فهو يوثق

طلب إنزال لعنة الله به إن كان كاذبا، وهذه الجملة أهى طلبية بمعنى أنه يطلب من الله أن ينزل اللعنة به؟ الظاهر ذلك، ولكن تحتمل أن تكون خبرية، بمعنى أنه يحلف أنه يستحق لعنة الله تعالى إن كان من الكاذبين، وذلك ظاهر من التعليق، وإلى هذا نميل.

هذه أيمان الرجل، انتهت بالحلف على استحقاقه اللعنة إن كان كاذبا، أما المرأة فإنها تكون عرضة للعذاب، وهو عقاب الزنى، فإذا كان الرجل صادقا وأقرت بالزنى، فالعقوبة هى العقوبة المقررة فى آيات الزني، ولكنها لم تقر، فقال تعالى: ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩)﴾.

ويدرأ معناها يميل عنها، أو يدفع وتبرأ ساحتها، أن تحلف أربع مرات بالله إنه لمن الكاذبين، وقد تأكد إثباتها لكذبه بما تأكد به إثباته لصدقه، بأن واللام، ودخوله فى صفوف الكاذبين، والخامسة حلفها باستحقاقها للعذاب بأن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، وكونها طلبية أو خبرية، وميلنا إلى أنها خبرية شرطية هو ما قلناه فى شهادته الإيجابية المثبتة فيقال هنا فى النفى ما قيل فى الإثبات.

ولابد هنا من الكلام فى أمور:

الأمر الأول: أن نفى نسب الولد يعد من الرمى بشرط ألا يكون منه إقرار بالنسب ولو ضمنا، فلو نفى بسبب الولادة إذا لم يوجد منه ما يدل على رضاه به ونسبته إليه، ولو كان وهو جنين فى بطن أمه، فإن النسب ينتفى، ويجب اللعان، وإلا حُدَّ حد القذف، وإذا امتنعت هى عن اللعان سترة بالنفى حُـدَّت حد الزنى المقرر فى القرآن.

والأمر الثانى: أنه فى الآية اشترط رؤية الرجل للزنى، وإن اشتراطه قول من لا دليل عنده فى هذا، بل الدليل قائم على نفى هذا الشرط، بدليل اللعان عند نفى نسب الولد، وبالدليل جواز اللعان من الأعمى، واشتراط علمه بالجس باليد، كلام غير جدير بالالتفات.

الأمر الثالث: أن الشهادات فى اللعان يمين فلا يشترط فيه إلا صلاحية العبادة باليمين، بأن يكون بالغا عاقلا، أم أنها شهادة وليست يمينا مجردة، بل الشهادة جزء من أجزائها، فيشترط فيها ما يشترط فى الشهادة من أن يكون بالغا عاقلا مسلما حرا.

بالأول أخذ مالك والشافعى وأحمد، ولذا لا يشترط فى اللعان أن يكون المتلاعنان مسلمين حرين، فلا يجوز اللعان بين الذميين، ولا العبيد، بل يجب التلاعن فى الذميين، وغيرهم، وذلك القول يجعل الجماعة الإسلامية نزيهة عن قول الباطل، وعن سماعه من الذميين، والعبيد، وهذا القول كما ترى مبنى على أن هذه الشهادات أيمان خالصة.

والقول الآخر، أنها شهادة فيها يمين، وقد قال أبو حنيفة، وقول عند الشافعي، فلا لعان عند هؤلاء بين الذميين ولا بين العبيد، ولا لعان إذا كان أحد الزوجين ذميا أو عبدا.

الأمر الرابع: أن الثقة دعامة العلاقة بين الزوجين، فإذا عرض لها ما يزعزعها انفصمت العلاقة الزوجية وأصبح الزواج حراما وبينهما اللعان ويفرق بينهما، وهى فرقة أبدية لا يحل له أن يتزوجها، وتكون كحرمة المشركة والمشرك، وعلى هذا جمهور الفقهاء.

وقال أبو حنيفة: إنها تحرم عليه إلى أن يكذب نفسه، فإذا كذب نفسه حلت له، وحُدَّ حد القذف، فله أن يتزوجها من جديد وتقوم بينهما عشرة زوجية بعقد ومهر جديدين، وإن هذا الرأى أرفق بالناس، وفى هذا الموضوع كلام فارجع إليه فى كتاب الفقه[1]. وإن اللعان فضل من الله تعالى على عباده، وقبل أن نترك الكلام فى طريقته نقول: إنه عبر عن اللعنة فى جانب الرجال؛ لأنهم أقوى جلدا وإدراكا لمعنى الطرد، ولا يؤثر فيهم الغضب بمقدار ما يؤثر الطرد الحسى، لا مجرد الغضب النفسى، وفى جانب النساء عبر بالغضب؛ لأنه يؤثر فى نفوسهن، ومجرد الإعراض يؤثر فى نفوسهن.

---

(١) كتاب «أصول الفقه» للإمام محمد أبو زهرة.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ⑩﴾.

﴿لَوْلا﴾ حرف يقول النحويون إنه حرف امتناع لوجود، أى امتنع وقوع الجزاء لوجود الشرط والجزاء؛ لبيان أنه كبير عظيم لا يكتنه كنهه، ولا تتصورون وأنتم تفعلون هذه الأفعال نتائجها، ولو كان القرآن يساير أهواءكم لكان الويل والثبور، وعظائم الأمور، فكنتم تتقاتلون على الأعراض، ولقطعتم الأرحام، ولضاعت مصالح الإنسان ولشاعت الفاحشة فى الدين، فجواب الشرط محذوف لسعة عمومه، وكثرة آثامه إذا لم يتداركهم بفضله فى أحكامه الرادعة، وأحكامه التى تجمع ولا تفرق، وفضل الله تعالى ظاهر فى أحكامه فى الزنى وفى القذف، وفى جمع شمل الأسرة فى اللعان.

وقد فتح سبحانه وتعالى باب التوبة فى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ أى لولا فضل الله سبحانه وتعالى فيما شرع وقرر أنه يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن سيئاتهم ولحكمته فيها قرر وقدر وشرع - لكان الهول العظيم، وضياع الأمور.

ووصف الله سبحانه وتعالى نفسه بأنه تواب، أى كثير التوبة للمذنبين من عباده رحمة بهم، وتهذيبا لنفوسهم؛ وذلك لأن المذنب إذا أذنب وأحس بذنبه، ذهب عنه غروره وتضرع إلى ربه، والإحساس بالمعصية وطلب العفو عنها يقربه من الله تعالى ويدنيه منه؛ ولذا قال بعض حكماء الصوفية: معصية مُذلة خير من طاعة مُدِلَّة، ومعصية أورثت ذلا وانكساراً خير من طاعة أورثت دِلا وافتخارا، والله عفو غفور.

الإفك حول أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ
خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ
كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ
وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا
جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ
فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾
إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ
وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ
قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾

كان هذا القــصص الحق الخاص بالإفك على أم المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق رضى الله تعالى عنهمــا، وقد روى أن اللعان نزل فى فتنة هذا الإفك الذى حِيكَ حولها رضى الله عنها، ومهما تكن قيمة هذه الرواية فمن المؤكد أنه طبق على الذين رددوه، فقد قيل فيــما روى أنه طبق على مسطح بن أثال، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جــحش أخت زينب زوج رسول الله ﷺ وكانت لهــا منزلة عند رسول الله ﷺ تناصى منزلة عائشة رضى الله عنها[١].

(١) راجع القصة فى صـحيح البخارى: الشهادات- تعديل النساء بعـضهن بعضا (٢٤٦٧)، ومسلم: التوبة- فى حديث الإفك وقبول توبة القاذف (٤٩٧٤).

والإفك هو الكذب، كأن الكاذب صرف عن الحق إلى الباطل؛ لأن الإفك أصل معناه الصرف. كأن الأفاك يرى الحق واضحا بينا، فيعدل عنه إلى قول الباطل وينصرف إليه، وكذلك الأمر بالنسبة للإفك على عائشة، بين أيديهم أمارات الحق واضحة بينة فينصرفون عنها إلى الباطل الذى لا ريب فيه.

والعصبة: الطائفة المجتمعة التى يشد بعضها بعضا، وكأنهم جماعة يتآمرون فيما بينهم على قول الباطل وترويجه وإشاعته، وقوله تعالى: ﴿مِّنكُمْ﴾، إشارة إلى أنهم يعيشون بينكم، وأنهم يتغلغلون فى أوساطكم، وحسبك أن مسطحا هذا له بالصديق قرابة، وكان أبو بكر -رضى الله عنه- يعطيه من فضل ماله، كما تبين ذلك عند الكلام فى معانى قوله تعالى: **﴿وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ... (٢٢)﴾** [النور].

وقال تعالى: **﴿لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾** نفى الله تعالى أن يكون شرا، ونهانا عن أن نظن أنه شر، وقرر مؤكدا أنه خير لكم، وهنا نسأل ما وجه الخيرية لكم، وقرر الله تعالى أنه خير لكم، أى أنه ليس خيرا فى ذاته، ولا يمكن أن يكون خيرا فى ذاته، ونهى عن أن يظن المؤمنون أنه شر لهم، فالشرية والخيرية بالنسبة لجماعة المؤمنين فى عاقبة هذا الإثم ونتائجه، وإن نظرنا هذه النظرة، نجد أن المؤمنين أدركوا أولا: أن فيهم خُبْثًا يُحترس منه، ومعرفة الداء الذى يكون فى الجسم لعلاجه خير من إخفائه أو الجهل به، وثانيا: لأن هذا الداء لحق النبى ﷺ، فعالجه بدواء من الله، إذ ناله من الألم ما ينال البشر فى هذه الحال، ولكنه صبر على الأذى، وعالج الأمر بالحكمة والروية، لا بالغضب والتسرع، نعم إن الاتهام سبق إلى نفسه، ولكن لم يسبق بالعمل استجابة للغضب من غير تثبيت واستيقان. وثالثا: أنه لا يصح الإفراط فى الغضب، حتى تنحل قوى النفس، ورابعا: أنه لا يصح أن تتخذ مجالس السمر للحديث فى الأعراض، واتهام الأبرياء والبريئات الطاهرات من النساء، وخامسا: أنه لا يصح أن يتلقى العلم فى الأعراض عن

الأسماع، وتردد ما سمعت الآذان الأفواه، بل إن علم ذلك يكون بالمعاينة، وأن الإفشاء شر فى ذاته والستر أولى.

﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

قسم الله تعالى الذين تحدثوا فى هذا الإفك إلى قسمين ـ أولهما: من ردد القول ترديدا، ولم يكن هو مخترع القول بل أشاعه. والقسم الثانى: وهو منهم الذى اخترع القول ونشره؛ ولهذا عبر سبحانه وتعالى عنه بأنه (تولى كبره) الكبر الإثم الكبير الذى أنشأه وأشاعه واقتدى به، ولا شك أن ذلك إثمه أكبر، ولذلك ذكر أن له عذابا عظيما، لا يحد حده إلا أن يراه ويذوقه، فإن عليه وزره، ووزر من تبعه، والآخرون عليهم إثم أنهم نجسوا ألسنتهم بترداده، ولاكته ألسنتهم واستمرأوه فى مجالسهم غير مقدرين مقام القول فيها -رضى الله عنها- ومقام زوجها ﷺ، ولا متعرفين مصدره، بل صرفوا أنفسهم من الحق إلى الباطل.

وهنا إشارتان بيانيتان:

الأولى: فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ﴾ وهذه إشارة إلى أنه لم يكن له أصل واقع، ولكن جاءوا مروجين له مرددين سامرين فى مجالسهم، يتلهون به.

الثانية: ﴿مِّنكُمْ﴾ إشارة إلى أنهم متغلغلون فى أوساطكم يبثون فيها الانحراف الفكرى والنفسى واللسانى، يلهونكم عن جد الأعمال إلى لغو القول الآثم، وإشاعة الفساد والتقاطع بينكم، وتسهيل الفسق؛ لأن ترداد القول ونسبة الفعل الفاحش إلى زوج محمد ﷺ يروج الفسق بين الفتيات اللاتى ليس لهن مكانة زوج محمد ﷺ وابنة الصديق.

وقد ذكرت أم المؤمنين عائشة فيما روى عنها أن الذى تولى كبر هذا الإثم وأشاعه هو رأس النفاق وكبير المنافقين، عبد الله بن أبى ابن سلول.

ولنقص طرفا من قصة الإفك الأثيم بيانا لموضوع النص الكريم:

كان النبى ﷺ يختار من بين نسائه من يصحبه فى غزواته، وفى غزوة بنى المصطلق اختار أم المؤمنين عائشة، وبعد أن انتهت الغزوة بانتصار المؤمنين عاد الجيش، وقد كانت عائشة تركت مركبها لحاجة فى الصحراء، ورحل القوم فى هذه الأثناء، وحملوا هودجها إلى البعير يحسبونها فيه، وشدوه، وقد انطلق الركب به، فلما عادت من حاجتها، لم تجد أحدا فتلحفت بجلبابها، واضطجعت مسلِّمة أمرها إلى ربها الذى لا ينام، فمر صفوان بن المعطل السلمى، وكان قد تخلف عن العسكر لبعض شأنه فرأى سواد عائشة وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ظعينة رسول الله، وقرب منها بعيره فقال اركبى فركبت، ولم يصلوا إلى الناس، وما بحثوا عنها، حتى أصبح الصباح، وعلموا تخلفها ثم حضورها على جمل مع الصالح الذى سار وراءه، وكان حصورا، لا أرب له فى النساء، وجدها رأس النفاق مقالا يقوله، فنشر الإثم رأس النفاق وقال مقالته، وقبلها من المهاجرين والأنصار من لا يحصون الأقوال، ويتعرفون نتائجها وغاياتها، ويرجفون ويرمونه جزافا.

وأثر القول فى نفس رسول الله ﷺ لأنه بشر، وقد مرضت فرأت من الرسول ما لم تعهده، وانتقلت إلى بيت أبيها لتمرضها أمها، وعرفت ما شاع من قالة السوء، فبكت، وانضاف إلى وجع جسمها وجع نفسها.

عندئذ أعلن الرسول بين المؤمنين ما فى نفسه، واستشار صحابته فى خاصة أمره، فبادر بعض كبار الصحابة بالبراءة، بما ألهمه به إيمانه، وعلى رأس هؤلاء عمر، ورأى على بن أبى طالب قاضى الصحابة أن يترك رسول الله ﷺ الأمر والنساء غيرها كثيرات، ويحقق، فيسأل جاريتها عن أحوالها، فسأل النبى ﷺ جاريتها بريرة، فقالت: والله ما أعلم إلا خيرا، وما كنت أعيب على عائشة إلا أنى كنت أعجن عجينى، فآمرها أن تحفظه، فتنام عنه، فتأتى الشاة فتأكله، وإذا كانت الواقعة أنها كانت نائمة وقد عاد الذى ساق بعيرها، فقد ثبت أن عذرها كان من جنس ما اعتادت مع ملاحظة أنها كانت صبية لم تبلغ الخامسة عشر من عمرها.

اطمأن النبى ﷺ إلى أنها فرية مفتراة، وهم بأن يعيدها إلى بيته الكريم، ولكنها أبت أن تعود إلا إذا برأها الله، وما كانت تطمع فى أن ينزل قرآن يتلى ببراءتها، ولكن الله تعالى أكرم نبيه بقرآن يتلى ببراءتها، والقرآن الذى نزل ببراءتها قوله تعالى: ﴿الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ ... (٢٦)﴾ [النور] الآيات[١].

ولقد بين الله تعالى ما يجب على أهل الإيمان عند شيوع قالة السوء، فقال عز من قائل:

﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢)﴾.

﴿لَوْلا﴾ للتحضيض على ظن الخير من المؤمنين والمؤمنات بأنفسهم خيرا، فإذا تلقى المؤمن والمؤمنة خبرا احتمل الصدق والكذب، وفيه شر يسارع إلى رده، ويقول: هذا إفك مبين. أى بين واضح، وخصوصا إذا كان ذلك الخبر، يمس من عرف بالطهر والعفاف، ومن يكون من شأنهم الطهر والعفاف والأمانة والإخلاص؛ وذلك أن الناس فى تلقى أخبار السوء قسمان:

أحدهما: يظن فى المؤمن الخير، ويحمل كل أحواله على الصلاح، فلا يقبل الإفك عليه، ويكذبه، ويقول: هذا إفك مبين بين واضح، ويرى من الصلاح فى حال المؤمنين دليلا على الكذب، ودافعا إلى التكذيب.

والقسم الثانى: وهو الخاضع للشيطان يحسبه نهزة فينتهزها لإشاعة السوء، والسمر به فى المجالس، ويجعله ملهاته ويغتاب أخاه المؤمن، ويأكل لحمه، ويعبث بكرامته مستهينا متندرا عابثا، وهذا يكبر أخبار السوء فيشيعها وقد نماها الخيال الفاسد، والعبث العابث.

وفى الآية الكريمة إشارتان بيانيتان.

---

(١) المرجع السابق.

أولاهما: في قوله تعالى: ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ﴾ فالتعبير ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾ يشير إلى الأخوة الإسلامية الرابطة التي تجعل إشاعة السوء عن بعضهم إشاعة عن جميعهم، وتوهين للرابطة التي تربطهم، وإشاعة السوء تنبعث من تفكك في بعض الجماعة وتنتهي إلى تفككها كلها، وتذهب بالذمار الخلقي فيها.

الثانية: ذكر ﴿الْمُؤْمِنَاتُ﴾ هنا مع أن كل حكم أو أمر يعم المؤمنين والمؤمنات من غير نص على المؤمنات، ولكن نص على المؤمنات هنا؛ لأن النساء كثيرا ما يقعن في هذا النوع من الغيبة من غير احتراس ولا تحفظ، ألم تر إلى أن حمنة بنت جحش وقعت في إشاعة هذا الإفك تحسب أن في ذلك ما يرضى أختها أم المؤمنين زينب، وهذه كانت برة تقية، كانت تنفى عن عائشة ولا تقر كلام أختها، بل ترده، وبالتعبير بالوصف في المؤمنين والمؤمنات يشير -سبحانه- إلى أن الإيمان يقتضى ذلك، والله على كل شيء شهيد.

بعد هذا بين -سبحانه- طريق التثبت لأهل الدين والتقوى فقال تعالى:

﴿لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣)﴾.

﴿لَوْلا﴾ للحض كالسابقة، والحض حض على التثبت في القول، ولا يقبله المؤمن والمؤمنة، إلا أن يكون مثل الشمس وضوحا، وقد قال النبي ﷺ لشاهد جاء يشهد: «على مثلها فاشهد» وأشار إلى الشمس في رائعة النهار[1].

وإن التثبت يكون بأربعة شهداء، فالحض على التثبت، وليس على جمع الشهود ليشهدوا، فإن ذلك لا يخلو من إشاعة للفاحشة، وقد دل الحض على أمرين:

أولهما: أنه لا يصح التكلم إلا إذا جاءوا بأربعة شهداء يشهدون، فإنه في هذه الحال يحل التكلم؛ لأنه سيقام الحد ويشهد عليه طائفة من المؤمنين.

---

(١) رواه أبو سعيد النقاش في القضاة. كنز العمال(١٧٧٨٢):ج١/ ١٣١٠

الأمر الثانى: أنه لا يصح المبادرة إلى الكلام، بل يُكفُّ، ويلزم الصمت إذا لم يكن هؤلاء الأربعة من الشهداء، وإلا حق عليه الحد للافتراء، أو كما يعبر الفقهاء حد الفرية، وهو حد القذف، ولذا قال تعالى:

﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ الفاء الأولى فاء الإفصاح أو عاطفة، والفاء الثانية هى الواقعة فى جواب الشرط، والإشارة إلى الذين يرمون من غير بينة، وهذه الإشارة تفيد أن هذه الحال سبب للحكم عليهم بالكذب الملازم الثابت فيهم الذى يمنع أن يقبل منهم قول بعد ذلك، وهم الذين يحدون حد القذف كما بينا، ولا تقبل لهم شهادة أبدا؛ لأن وصف الكذب ملازم لهم، ولا تقبل شهادة كاذب، ويعاقب عقوبة المفترين المبعدين، والتبعية، والأدبية، وهى الحكم عليه بالفسق.

والتعدية بـ «على» فى قوله تعالى: **﴿لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾** معناها إثبات الإفك إذ الضمير يعود عليه، وإثبات الإفك المراد موضوعه، وهو رمى المحصنة الكريمة بنت الكريم وزوج الكريم، وفى ذلك إشارة إلى أنه غير ممكن، فـ «لولا» تدل مع التحضيض على الاستبعاد، بل الاستحالة لمقام موضوع الافتراء.

وقد بين سبحانه عظم الإثم وضرره فى الجماعة المسلمة، فقال عز من قائل:

﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤)﴾.

﴿وَلَوْلا﴾ كما يقول علماء اللغة هنا حرف امتناع لوجود، أى امتنع جوابها وهو أنه يمسهم عذاب عظيم لوجود فضل الله تعالى ورحمته، فأما فضله، فهو ما أنعم به عليهم من نعمة الإيمان التى تجعل نفوسهم متأدبة بآدابه آخذة بأهدابه، وأنهم إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فعادوا إلى الحق نادمين تائبين مطهرين أنفسهم وألسنتهم وقلوبهم، وألا يخوضوا من بعد ذلك فى حديث، هذا فضل الله تعالى الذى كانوا فيه بنعمة الإيمان، وما كان إنما هو أمر عارض قد زال بهداية الله تعالى،

وأما رحمته فهى أنه سبحانه وتعالى لم يأخذهم بأمر عارض، بل غفر لهم، وأى رحمة أعظم من غفران لعمل كان منهم بجهالة، ثم تابوا من قريب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ... (١٧)﴾ [النساء].

وجواب الشرط ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ و«مَسَّ» معناها أصاب جلودكم كما يمس الحديد المحمى الجسم الحى فيؤلمه. وفى كلمة ﴿أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ «أفاض» أصلها من فاض الإناء حتى سال، ومعنى ﴿أَفَضْتُمْ﴾ فيه مجاز بالاستعارة، إذ شبه حديثهم الذى خاضوا فيه غير محترسين ولا مفكرين، بالماء الذى يسيل، فلا يضبط، وكأن الحديث يسيل سيلا زائدا عن حده، وبغير غاية.

وقوله تعالى: ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ التنكير فيه للتعظيم، أى عذاب لا تدركونه اليوم، وسترونه، ثم صور حالهم فى عدم تفكيرهم فقال سبحانه:

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥)﴾.

﴿إِذْ﴾ ظرف متعلق بقوله تعالى: ﴿لَمَسَّكُمْ﴾، لمسكم العذاب العظيم فى القول ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ﴾ تتلقون هذا الإفك من الألسنة، وترددونه من غير علم ولا تثبت، واقتران المس بزمنه، ينبئ عن أن هذا الذى كان فى الظرف، أو كان الظرف وعاء له، عن أنه هو السبب لولا فضل الله ورحمته. ومعنى ﴿تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾، أى وسائل التلقى والعلم لم تكن معاينة ولكن هى الألسنة، وتقولونه مرددين ما سمعتم بأفواهكم، ولم تؤمن به قلوبكم، ولم تعاينوه وتروه، بل انتقلت الكلمات من الألسنة ورددتها الأفواه من غير علم أو تثبت، فالألسنة قالته من غير علم، ورددته الأفواه من غير علم، واتخذوه سمرا، يرطبون فيه المجالس بالإثم من غير علم، ظنا منهم أنه هين لا أثر له، ولا إثم فيه، وأن التفكه بهذا القول هو أمر هين، ﴿وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ وذكر اسم الله تعالى توهينا لزعمهم، وبيان عظم الإثم، وفيه توبيخ شديد لهم، فليس ما ارتكبوه هنة صغيرة بل هو جريمة كبيرة

تفتك ببناء الجماعة الإسلامية التى من شأنها أن تقوم على تقوى من الله تعالى ورضوان، فترديد الاتهام يسهل الإجرام، وليس ذلك شأن الجماعات الفاضلة، وهنا إشارتان بيانيتان:

أولاهما: التعبير ﴿**بِأَلْسِنَتِكُمْ**﴾ الخطاب للجميع مع أنه لم يردد هذا إلا عدد قد أقيم عليهم حد القذف، وحدوا، ولكن خوطب الجميع للإشارة إلى أن واجب الفضلاء إذا سمعوا لغو القول الجارح أن يوقفوا قائليه ويمنعوهم، فإذا سمعوا ولم يتكلموا ولم يشاركوا فكأنهم جميعا تكلموا.

الثانية: أن قوله تعالى: ﴿**وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم**﴾ تفيد أنهم يتكلمون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم كقوله تعالى: ﴿... **يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ** ... (١١)﴾ [الفتح] بل هى ألسنة تردد قولا لا علم لهم به، ومآله على جماعتهم وخيم.

وقد بين سبحانه وتعالى ما ينبغى للمؤمن عند تلقيه خبر السوء، فقال: ﴿**وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ** (١٦)﴾.

الواو واصلة الجملتين، وهو امتداد للتوبيخ للذين خاضوا فى هذا الإثم، و(لولا) للتحضيض لاتباع ما ينبغى عند سماع قول السوء فى أخيه المؤمن، وخصوصا إذا كان من العليين المكرمين عند الله والناس أجمعين: ﴿**وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ**﴾ وهذا حض على أن يقولوا هذا القول مؤمنين به ﴿**مَّا يَكُونُ لَنَا**﴾، أى ليس لنا، وليس بكائن سائغ لنا ﴿**أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا**﴾، وهذا شأن الإنسان المؤمن الكامل، لا يسمح لنفسه أن يخوض فى حديث لا يعلمه، وخصوصا إذا كان يتكلم فى الأعراض، عرض أى امرئ كان، فكيف إذا كان ذلك فى عرض الصديقة بنت الصديق، وزوج خير الخلق أجمعين، ولها مكانة من محبة رسول الله ﷺ، وفى الآية نفى للكينونة ﴿**مَّا يَكُونُ**﴾، وهى أبلغ نفى لمثل هذا القول، وأبلغ من النفى المؤكد، وأنه غير سائغ فى ذاته لأمرين:

أولهما: تقديس الله تعالى، لتأكيد النفى عن زوج نبيه، ومن لها مكان الاختصاص بمحبة فوق محبة غيرها من أزواجه، وهذا فى معنى التعجب من أن

يكون مثل هذا الفعل وهذا القول مرددا بين المؤمنين، ولم يوقفوه حتى تفاقم الأمر، وآذى النبى، إذ وصل إلى سمعه الكريم، وأن التنزيه لله سبحانه فى هذا المقام إشعار بأنه وحده المنزه، ويقال ذلك فى كل موضع يتفاقم فيه الإثم.

﴿هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ الإشارة إلى الإفك، والبهتان: الكذب الذى تدهش له العقول وتتحير لفظاعته وغرابته، وبعده عن كل معقول، وهذا هو الكذب على زوج رسول الله ﷺ.

هذا ما ينبغى للمؤمن إذا نقل إليه خبر السوء الذى لا يعقل ولا يقبل، فيجب عليه أمران. **أولهما**: ألا يردده لأنه لا يليق بالكامل أن يجعله موضع أحاديثه، لأنه منكر لا يردد، وفحش لا ينطق. **الثانى**: أن يسارع إلى التكذيب إذا كانت عنده أدلة التكذيب من مقام المفترى عليه بين قومه، ومقام من ينتسب إليه، وبذلك يقف الكذب، ولا يسير فى وسط الجماعات، والله بعباده رءوف رحيم.

عظة الله فى هذا

قال تعالى:

يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾
وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا
فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾
۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ

﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾

الوعظ زجر مقترن بتخويف من العذاب أو سوء العقاب والمآل فى الجماعة الإسلامية ـ وقال الخليل بن أحمد: هو التذكير بالخير فيميل له القلب، والتعبير بالمضارع لبيان أن ما مضى من قول فيه عظة، والله سبحانه وتعالى مستمر ومجدد لهم العظة آنًا بعد آن، فهو سبحانه وتعالى مديم تجديد الإرشاد والتنبيه إلى ما فيه طهارة جماعتكم، والبعد عن ذمها، ﴿أَن تَعُودُوا﴾ المصدر المنسبك من «أن» وما بعده، متعلق بمقدر محذوف مناسب، وهو كراهة أن تعودوا، أى كراهة عودتكم لمثلها أبدا، والضمير يعود إلى الشأن وهو الحال التى كانوا عليها، ووقعوا فيها، والتعبير عنها بـ ﴿لِمِثْلِهِ﴾، مبالغة لأن لا يقعوا فيها، كما تقول لكريم: مثلك لا يبخل: أى أنت لا تبخل؛ لأن فيه سجايا لا تسمح له أن يبخل كما لا تسمح لمثله، فمعنى لا ﴿تَعُودُوا لِمِثْلِهِ﴾ لمثلها، أى لا تعودوا إليها. وأشباهها، ثم علق القول على الإيمان فقال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وهذا تنبيه إلى أمرين **أولهما**: إثبات أن الإيمان يتجافى عن رمى المحصنات المؤمنات، وتلقيه وترديده من غير علم ولا تثبت، ويقين، فإن ذلك من أشد أنواع الغيبة وأفحشها، ويؤدى إلى فساد الجماعة بشيوع الترامى بالزنى فيه. **والأمر الثانى**: هو الحض على الإيمان والتمسك به، وبأخلاق المؤمنين، والله غفور رحيم.

ويقول سبحانه: ﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

الواو عاطفة، وقد عطفت قوله تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ﴾ الآيات ظاهر القول أنها هى الآيات القرآنية الدالة على المواعظ الشرعية، والرحمة بالجماعة الإسلامية، فإن القرآن موعظة ورحمة وهدى، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ

جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس]
ويكون المعنى على ذلك ويبين لكم الآيات، أى ينزل عليكم سبحانه وتعالى آيات مبينة الأحكام الشرعية، والمواعظ الموجهة إلى الخير، والداعية إلى الرشاد، والهادية، وتضمن البيان معنى الإنزال؛ لأن الإنزال من الله تعالى هو بيان الحقائق الإسلامية.

وإن هذه الآيات هى الملائمة الرائدة للجماعة الإسلامية المرشدة لها، التى تتجه بها نحو سيادة الفضيلة، والله سبحانه وتعالى هو الذى يعلم ما فيه الخير والرشاد، ولذا عقب الآية الكريمة بقوله عز من قائل ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى أنه -سبحانه وتعالى- ينزل عليكم أنه عالم بكل شيء يعلم ما يسرّ وما يعلن، وأنه حكيم يعالج آفات الجماعات بحكمته وتدبيره، ويشرع ما هو جدير بعلمه وحكمته، وما يصلح مالهم وعامة أمورهم، ويجعلهم جماعة فاضلة، وأنها خير أمة أخرجت للناس.

وبيَّن سبحانه وتعالى أن الذين يروجون الفساد ويتهمون الأبرار يعملون على إشاعة الفاحشة ونشرها، فقال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

بين سبحانه فى هذه الآية ما يترتب على رمى البرآء، واتهام الأتقياء وخصوصا من لهم مكانة فى الإيمان والفضل، وقد بين ما يترتب عليه إشاعة الفحشاء ونشرها بين الذين آمنوا؛ وذلك لأنها إذا شاعت فى الأتقياء ذوى المكانة سهل ارتكاب الفاحشة، فإذا تسامع من يكون فى قلبه نزغة أن فلانة من أزواج الكبراء، قد ارتكبتها فلا تجد حرجا أو لائمة أن ترتكبها، فكان الذين يلوكون بألسنتهم اتهام أزواج الكبراء قاصدين إليها غير متأثمين من ترويجها يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا؛ لأنهم إذا علموا النتائج المترتبة على قولهم، واستمروا فى غيهم، فهم يحبون هذه النتيجة ويسعون بعملهم إليها، وقد ذكر سبحانه ذلك ليعلم العابثون إن استمروا أنهم يحبون هذا الفساد، وقد ذكر سبحانه جزاءهم، فقال:

﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾، أما عذاب الدنيا فهو العقاب الصارم وهو الحد، والحد كما قلنا يتضمن ثلاثة أنواع لا يكفَّر إلا آخرها، وهى الجلد ثمانين جلدة، والثانى: ألا تقبل لهم شهادة أبدا، والثالث: الحكم عليهم بأنهم فاسقون، وهذا ما تكفره التوبة.

وأما عذاب الآخرة فإن الله تعالى اختصه بعلمه، حتى نراه يوم القيامة عيانا، ولا نعلم منه إلا ما أراد الله بيانه فى القرآن الكريم من عذاب الكافرين، ثم قال تعالى مؤكدا العواقب الوخيمة من رمى البريئات والبرآء ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ الله وحده يعلم صحة الاتهام إن كان صحيحا، ومواضع التهمة، ويعلم أثر ذلك فى الجماعات من إشاعة الفساد، وانحلال الرابطة الاجتماعية، وإشاعة الأقوال الباطلة ﴿وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ أسرار البيوت ودخائلها، فإن ذلك فى كِنٍّ مستور، ومن المصلحة ستره، روى أبو الدرداء أن النبى ﷺ قال: «أيما رجل حالت شفاعته دون حد من حدود الله تعالى لم يزل فى سخط الله تعالى حتى ينزع، وأيما رجل شد غضبا على مسلم فى خصومة لا علم له بها فقد عاند الله حقه وحرص على سخطه، وعليه لعنة الله المتتابعة إلى يوم القيامة، وأيما رجل أشاع على رجل مسلم بكلمة وهو منها برىء يشينه بها فى الدنيا كان حقا على الله تعالى أن يدنيه يوم القيامة فى النار حتى يأتى بنفاذ ما قال»(١)، وإن هذا الحديث كما روى، جامع لآفات اللسان التى ترمى فى نار جهنم. ثم يبين سبحانه أن هذه الآفات تكب الناس على وجوههم فى جهنم لولا فضل الله. وأشنعها حديث الإفك. فقال تعالى:

﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٢٠)﴾.

﴿لَوْلا﴾ هنا حرف امتناع لوجود، والجواب الممتنع لوجود فعل محذوف، لتذهب فيه النفس والفكر كل مذهب، وذلك ينبئ عن أنه هول أى هول، وشديد أى شدة يتناسب مع عِظم الجرم، وذلك العذاب ممتنع لوجود فضل الله تعالى المنعم

---

(١) رواه الطبرانى عن أبى الدرداء رضى الله عنه، وراجع الترغيب والترهيب للمنذرى (٣٣٩٩): ٣/ ١٣٧.

علينا ببيان شريعته وعفوه عنا، وقد نبهنا إلى مغبة هذا لنرتدع، ونستغفر، ونقلع عن أهواء النفس، ووسوسة الشيطان، ورحمته بنا من أن نؤخذ بجرمنا فور ارتكابه، وإن كنا نستحقه، وأن الله تعالى من صفته أنه رءوف رحيم، الرأفة انفعال النفس بالرفق والعطف على من يخشى عليه، وهذا بالنسبة للإنسان، أما بالنسبة لله تعالى فهى صفة تليق بذاته الكريمة، وهى تقابل ما عند العبيد، ولكنها تتفق مع صفات الكمال التى يتصف بها الله تعالى، والرحمة لطف الله تعالى فى الأحكام ووضعها فى مواضعها سواء أكانت خفيفة أم كانت غليظة فى عقاب، فالعقوبة - مهما كانت شديدة - من رحمة الله تعالى بعباده، وإن رمى الأبرياء من طاعة الشيطان، ولذا قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾.

ذكر سبحانه العواقب الوخيمة التى تترتب على ترداد الإفك على ألسنة الناس وإنه يترتب عليه فساد أمر المؤمنين وتشيع الفاحشة فى الذين آمنوا، وفى هذه الآية يشير إلى أنه من وسوسة الشيطان، ومن اتباع مسالكه، ونهى المؤمنين عن ذلك صيانة لأنفسهم، ولعقولهم، فقال: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾** تقرأ بضم الخاء وفتحها، وقراءة الجمهور بضمها، وخطوات الشيطان جمع خطوة، وهى ما يكون بين الرِجْلين عند السير، وذلك يتضمن النهى عن السير فى مسالك الشيطان، وعبَّر عن طريق الشيطان بخطواته، على أنه تعبير مجازى شبه من يخضع لهواه بمن يتبع الشيطان فى خطواته، فيخطو مثله غير متجنب لها، ولا لطريقه.

ثم بيَّن سبحانه سير الشيطان، وأن من يتبعه يتبع الفحشاء والمنكر، فقال عز من قائل: **﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾** والفحشاء: الأمر الزائد فى القبح الذى يتجاوز كل حد، والمنكر: الأمر الذى تنكره العقول، والفطرة المستقيمة، ولا يقبله الناس، ولا يرضاه ذوو الكرامات، والذين يتطهرون فى أقوالهم وأفعالهم.

وقوله تعالى ﴿فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾، ليست جواب الشرط، بل هو يومئ إليه؛ لأنه علة، ويكون مجرى البيان: ومن يتبع خطوات الشيطان فهو منساق إلى الفساد، لأنه يأمر بالفحشاء والمنكر، وعبر سبحانه عن وسوسة الشيطان وإغوائه بالأمر لأنه يستولى على من اتبعه، وكأنه سلطان مسيطر يأمره وينهاه، ولا سلطان على نفس الضال غيره؛ لأنه رضى مسلك الشيطان طريقا، وهو ينتهى لا محالة إلى الضلال الذى لا هداية معه قط.

وإن الله سبحانه بفضله ورحمته لا يترك الناس تحت إغواء الشيطان، ودنسه، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١)﴾.

الزكاة تطلق بمعنى التنمية، وتطلق بمعنى الطهارة، وهنا بمعنى تزكية العقول فى النفس، وامتلائها طهرا، وعفافا وإيمانا، أى أنه لولا فضل الله تعالى بالموعظة والهداية وتربية النفوس بالتقوى ورحمته بهدايتكم وقبولكم للحق وتجنبكم مخاوف الشيطان ما طهر منكم من أحد أبدا، وقد أكد سبحانه جواب الشرط وعمومه أولا بـ «مِنْ» الدالة على استغراق النفى للآحاد والجماعة، وأكد النفى أيضا بدخول (من) على (أحد)، كما أكده بذكر (أبدا)؛ وذلك لأن الشيطان يأتى النفوس من قبل أهوائها وشهواتها، وشهوات النفس حلوة، ولكنها وبيئة، ولكن الله تعالى لا يترك عباده جميعا تحت غواية الشيطان الرجيم، فهو يجتبى من عباده من يزكيه ويطهره فى قلبه ولسانه ونفسه، ولا يشاء الله تعالى لعبده تلك الطهارة إلا إذا سلك سبيلها، واختار نجدها، فيأخذه إلى ما اختار.

ثم ختم الله تعالى الآية بقوله تعالت كلماته: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، أى واسع الرحمة والفضل، عليم بمن يستحقها، فيتوجه إليه سبحانه وتعالى بأن يسلك به طريق الهداية والطهارة.

المعصية لا تسوغ قطع الرحم، والبراءة من الإفك

قال تعالى:

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ
وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ
الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣)
يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
(٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ
الْمُبِينُ (٢٥) الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ
وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ
مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦)﴾

﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ معناها لا يحلف، من الإلية بمعنى الحلف، وائتلى افتعل من الإلية، ويروى في ذلك أن مسطح بن أثاثة كان ابن خالة أبي بكر الصديق رضى الله تعالى عنه، وكان فقيرا مسكينا، ومهاجرا في سبيل الله. وحضر بدرا ولكن زلق لسانه فخاض في حديث الإفك مع قرابته من أبي بكر، الذي كان ينفق عليه لفقره وقرابته، وهجرته، وحضوره بدرا، فلما فعل فعلته، ولاك بلسانه سمعة الصديقة

بنت الصديق منع النفقة، وقال: لا أنفعه بنافعة قط، فنهاه الله تعالى عن ذلك[١] وكان نهيا عاما لكل من يكون فى مثل حال الصديق ومثل حال مسطح، وإن السبب يكون خاصا، ولكن الحكم يكون عاما، وهو نهى عن الحلف، وعن المحلوف به، ومؤداه أنه يجب عليه أن يرد نافعته إليه، ويستمر فى النفقة ويحنث فى يمينه، كما قال ﷺ: «من حلف على شيء فرأى غيره خيرا منه فليحنث وليكفر»[٢]، ولا تصح أيمان مانعة من الخير كما قال تعالى: ﴿**وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ... (٢٢٤)**﴾ [البقرة]، أى لا تجعلوها حائلة بينكم وبين أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس.

﴿**الْفَضْلِ**﴾ هنا هو الخلق الكريم الذى يفيض بالخير على الناس، فالمعنى ولا يأتل أصحاب الفضل الذين لا يشحون بخير على من دونهم، ومن مثل أبى بكر فى الفضل بعد النبيين، الذى كان إذا رأى من يفتن فى دينه اشتراه من وليه وأعتقه، و(السعة)، أى الخير الكثير فى المال، وبذلك يكون أولئك الفضلاء يجمعون بين الخلق الكامل والمال الثرى، يفيض بخلقه، ويعطى من ماله، يطالب هؤلاء بأن يغفروا زلات من يعطونهم، كما يغفر الله لهم زلاتهم وخطيئاتهم إن كانت، فيقول سبحانه ﴿**أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ**﴾ الاستفهام بمعنى النفى والتنبيه على وجوب الغفران، أى أنه كما أنكم تحبون أن يغفر الله لكم فاصفحوا واعفوا، فإن الجزاء من جنس العمل والوجدان والإحساس، والفرق بين العفو، والصفح، هو أن العفو هو عدم جزاء السيئة بمثلها، ودفع السيئة بالحسنة، والصفح هو محو آثار الإساءة من النفس، وقد أمر الله تعالى رسوله بالصفح الجميل، فقال عز من قائل: ﴿... **فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥)**﴾ [الحجر] وهو الصفح مع تجافى ما يذكر بالإساءة.

---

(١) راجع القصة فى الموضع المشار إليه آنفا من البخارى ومسلم: وكذلك الترمذى: تفسير القرآن- ومن سورة النور (٣١٠٤).

(٢) سبق تخريجه.

وقد ختم سبحانه وتعالى الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أى كثير المغفرة تعم رحمته بكثرتها، وذكر هذين الوصفين فى هذا المقام دعوة للناس بأن يتخلقوا بصفات الله، وإن كانت لا تليق إلا بذاته وجلاله.

وقد يستنبط الفقهاء من هذا خطأ من يقول إن الزكاة لا تصرف لعاص؛ لأن ذلك يتنافى مع معنى هذه الآية ومغزاها الكريم؛ ولأن منع العاصى ربما يؤدى إلى إسرافه فى المعصية، والرفق به قد يقربه ويهديه.

وبعد هذا الأدب الكريم الذى يعم ولا يخص الصديق وابنته - بين بعد ذلك عقاب الذين يرمون المحصنات، فقال عز من قائل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣)﴾.

هذه الآية عامة فى كل من يرمى محصنة، وهى التى عرفت بالتقوى والبعد عن الخنا، وليس موضوعه مَنْ رمى عائشة -رضى الله عنها- بل من يكون لسانه غير منضبط، يرسل القول إرسالا، بين المؤمنين فى المحصنات، فهى تعم كل من ليس عفيف اللسان يرمى النساء بالفحش، لأدنى شبهة، وإن الكامل يعف لسانه عن النطق بالهجر.

والمحصنة هى التى لم ترتكب الخنا، وهى عفيفة عرفت بالعفة، ولم تعرف بالفجر، ﴿الْغَافِلاتِ﴾ الغافلة هى الطيبة الطاهرة التى ليس عندها خبرة، ولا معرفة بأحوال الناس، وشأن المرأة التقية أن تكون فى غفلة عما يلهو به الناس، لا تعرف الرذيلة ولا ترتكبها، فيها غرارة، وسذاجة، والمؤمن كما فى الأثر: غِرٌ كريم، والمنافق خب لئيم[1]، وليس المراد أنها بلهاء، بل تفسر الغافلة بأنها الساذجة المستقيمة النفس التى تعيش بالفطرة ولا تجانفها. وقد قال الزمخشرى فى تفسير معنى الغافلات: الغافلات السليمات الصدور التقيات القلوب اللاتى ليس فيهن

(١) سبق تخريجه.

دهاء، ولا مكر، لأنهن لا يعرفن الأمور ولم يرزن الأحوال فلا يفطنّ لما تفطن له المجربات العارفات.

وإن الغافلات أيضا لا ينتبهن لمقالات الآثمين، ولا يعملن على ردها، وسوق الفاسدين إلى القضاء ليقيم عليهن حد القذف، وقذف هؤلاء أعظم جرما، وأدل على اللجاجة فى الأذى والاستهتار فى القول من غير تأثم ولا تحرج، ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾، أى اللاتى يجملهن الإيمان، ويزيدهن عفة فوق عفتهن بالفطرة السليمة النقية الطاهرة، وقد ذكر سبحانه عقاب خسة هؤلاء الذين يرمون المحصنات الغافلات فقال: ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ أى طردوا ونبذوا فى الدنيا، فليس لهم فيها ذكر طيب، ولا كرامة لهم، ولا احترام لخساسة نفوسهم، ولعنوا فى الآخرة فهم مبعدون عن رضا الله، وعن أن ينظر إليهم، ولا يكلمهم؛ لأنهم قد دنسوا ألسنتهم بإشاعة هذا الهجر من القول، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو دخولهم فى الجحيم.

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤)﴾.

﴿يَوْمَ﴾ متعلق بقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، أى أن ذلك العذاب العظيم يكون فى يوم لا يخفى فيه آثم، ويكون كل شيء شاهدا على ما أجرموا، وقد صور الله تعالى ذلك بأن ألسنتهم تشهد عليهم بما اخترصوا فيه، وأرجلهم تشهد بما سعوا فيه بالباطل، وأفسدوا به الناس، وأيديهم تشهد بما بطشوا، وما فعلوا من آثام، وشهادتهم منصبة على ما كانوا يعملون.

هذا كله متعلق بحادث الإفك، ذكر فى بعض الآيات ما هو موضوع الإفك حول أم المؤمنين عائشة، وبعضه عام ذكر لمناسبة الحديث عن هذا الإفك الأثيم، ولقد قال الزمخشرى رضى الله عنه فى هذا المقام ما نصه:

«لو فلّيت القرآن كله وفتشت عما أوعد به العصاة لم تر الله تعالى قد غلظ فى شيء تغليظه فى إفك عائشة رضوان الله تعالى عليها، ولا أنزل آية من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد، والعتاب البليغ، والزجر العنيف، واستعظام ما ركب من ذلك واستفظاع ما أقدم عليه ما أنزل فيه عن طرق مختلفة وأساليب مفتنة،

كل واحد منهـا كافٍ فى بابه، ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفى بها، حيث جعل القذفة ملعونين فى الدارين جميعا، وتوعدهم بالعذاب العظيم فى الآخرة، وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا وبهتوا، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب الذى هم أهله»(١).

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥)﴾.

﴿يَوْمَ﴾ بدل أو عطف بيان من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ والآية السابقة كانت مشتملة على الإثبات يوم القيامة وأنه كان من جوارحهم التى تشهد عليهم، وهى شهادة صادقة، وهذه الآية تبين الحكم، وهو العقاب الشديد، والدين هنا هو الجزاء الصارم الشديد، فـ (الدين) تجىء بمعنى الجزاء والحساب، يوفيهم جزاءهم الحق الذى استحقوه بأقوالهم الآثمة، وعندئذ فى هذا يعلمون الله، وصدق وعيده، فيعلمون أنه سبحانه هو وحده الحق المبين، ويعلمون أن ما أشركوا به كان باطلا، ولا حق إلا الله، ولا يعبد بحق سواه، تبارك الله وتعالى أحسن الخالقين.

بعد ذلك بين -سبحانه- براءة عائشة من الإفك، فقال عز من قائل:

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦)﴾

وهذا برهان منطقى مستمد من واقع الحياة، وما يختاره الله تعالى للناس، وهو التجانس بين الأزواج فى الأخلاق والأعمال والأقوال.

الخبيثات جمع خبيثة، وهل المراد وصف النساء أم وصف الأقوال؟ قال مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء وجمهور مفسرى السلف: ويكون المعنى أن خبيث الأقوال، إنما ينطبق على خبيث الرجال وقد حصرت فيهم، وكذلك الخبيثون انحصروا فى خبيث الأقوال لا يعدونها، ﴿وَالطَّيِّبَاتُ﴾، أى الأقوال الطيبة تنحصر

(١) راجع الكشاف للزمخشرى: ج٣/ ٥٧.

فى الطيبين من الرجال، وهم منحصرون فيها لا يتجاوزونها إلى خبيث الأقوال، وقد عد هذا احتمالا فى الآية الزمخشرى، والاحتمال الثانى الذى ذكره أن المراد بالخبيثات النساء، وكذلك الطيبات، وإلى هذا نميل، فليس موضوع الكلام خبائث الأقوال، وطيباتها، إنما موضوعها البريئات من النساء والبرآء من الرجال الذين يرمون بخبث القول، فهى أولى بأن تفسر بموضوعها.

والخبيث هو من قام به الخبث، وهو الرجس الحسى، وقد شبه الرجس المعنوى، وهو فساد النفوس وارتكابها موبق الأفعال من زنى وشرب خمر وسرقة، واختلاس واغتصاب بالخبث الحسى، كما فى قوله تعالى: ﴿... **إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا** ... (٢٨)﴾ [التوبة].

وقوله تعالى: ﴿**الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ**﴾ هو من قبيل القصر؛ لأن فيه تعريفا للطرفين، ومعنى ذلك أن الخبيثات لا يكن إلا للخبيثين من الرجال، أى لا يمكن أن يكن أزواجا إلا للخبيث من الرجال، إذا لا يقدم عليهن إلا مثلهن، وكذلك كان القصر فى الجملة الثانية، والخبيثون للخبيثات، أى انحصر زواج الخبيثين فى الخبيثات من النساء، أى لا ترضى بواحد منهم زوجا لها تجتاز معه مرحلة الحياة إلا الخبيثات من النساء، فلا ترضى شريفة طيبة برجل خبيث النفس والقول والعمل.

وكذلك الطيبات للطيبين هو أيضا فيه قصر بتعريف الطرفين، أى أن الطيبات من النساء لا يقبلن إلا زواج الطيبين؛ لأن الطيبة الكريمة لا ترضى أن تكون فراشا إلا للطيب الكريم، ولا يرضى ذووها إلا بكريم طيب ذى خلق ودين، والطيبون ذوو الأخلاق الذين لا يختارون إلا كريمة ذات خلق ودين، والشطر الأول كقوله تعالى: ﴿**الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ** ... (٣)﴾ [النور].

﴿**أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**﴾ الإشارة هنا إلى الطيبين والطيبات؛ لأنهم الأقرب فى الذكر ولأنهم الذين يأثم الخبثاء بالقول القاذف فيهم، والتبرئة لا تكون إلا لمن يرمى بالقول الخبيث.

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، أما المغفرة فهى أن الله تعالى يغفر لهم من اللمم، وبعض السيئات بسبب القذف الآثم لهم فإنه ينتقص من سيئات المظلوم بمقدار اعتداء الظالمين، والرزق الكريم هو الحسنات فى الدنيا، وجـزاؤها فى الآخرة، وهذا كقوله تعالى: ﴿... وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١)﴾ [الأحزاب].

والآية الكريمة عامة تـعم نساء النبى ﷺ، ونساء المؤمنين، وهى مع عمـومها تدل على براءة أم المؤمنين عائشـة من ناحية التصـريح بكل طيبة ترمى، فـقد صرح سبـحانه بالبراءة، فى قـوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ وبرأها سبـحانه بتضمين القول الدال على انحصار الخبيث من القول فى الخبثاء والخبيثات، وانحصار الطيب من النسـاء والرجال فى الطيب من الأخلاق والأقـوال.. وإذا كان زوج كل طيب طيبة فزوج أطيب الرجال فى الإنسانية أطيب النساء، والله واسع عليم.

أدب البيوت وصيانتها

قال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا
وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧)
فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن
قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
عَلِيمٌ (٢٨) لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ
فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩)

كان الكلام السابق فى رمى الأبرياء وحد القذف، واللعان، وحديث الإفك، وما يستوجبه رمى المحصنين والمحصنات إذا كان صادقا من شهادة أربعة من الشهداء، وقد يدفع الفضول بعضهم إلى أن يفشى سر البيوت لتأكيد مظنة الزنى، فجاء النص الكريم باحترام حرمة البيوت، دفعا لهذه، ومنعا لغشيان البيوت وانتهاك حرمتها وصيانة الأسر، فقال عز من قائل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧)**﴾.

النداء للذين آمنوا، وفى ذلك إشارة إلى ما يطلبه سبحانه من خواص أهل الإيمان، وهو من الأدب الذى يناسب إيمانكم وهو عدم التهجم على الأسر، وتكشف أستارها، وتحاشى إزعاجها، و(تستأنسوا) أى تطلبوا الأنس بأهلها وتزيلوا الوحشة التى تحدثها المفاجأة، والسين والتاء للطلب، وقالوا: إن معنى ﴿**حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا**﴾، حتى تستأذنوا، وقيل إن ثمة قراء قرءوا حتى تستأذنوا[١]، ونقول: الاستئناس أدق فى التعريف وأدل على الاستعلام؛ لأن الاستئذان الإذن المجرد، وتتحقق الإجابة بالإذن، أما الاستئناس فطلب الأنس وإزالة الوحشة، وذلك لا يتحقق بمجرد الإذن بل لابد لتحققه من إيجاد الألفة، وهو يتضمن فى تحقيق طلب الإذن، والاستجابة بالإذن فعلا.

وإن هذا يتضمن فى معناه ومغزاه النهى عن التجسس والتحسس، وظن السوء، وأنه يجب أن يظن خيرا.

وإنه من تمام الاستئناس السلام، ولذا قال تعالى: ﴿**وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا**﴾ ولقد كان النبى ﷺ إذا أراد أن يدخل بيتا سلم ثلاث مرات[٢]، ولا يكتفى بسلام واحد إعلاما لمن يدخل عليهم، واستئناسًا لهم، وإزالة لوحشة المفاجأة، والبيوت: الظاهر أنها ليس الدور، إنما هى محل البيات حيث تكون العورات مظنة أن تكون مكشوفة

---

(١) قراءة حتى (تستأذنوا)، ليست من القراءات المتواترة.

(٢) البخارى: الاستئذان- التسليم والاستئذان ثلاثا (٥٧٧٥)، والترمذى: الاستئذان والآداب (٢٦٤٧). عن أنس رضى الله عنه.

غير مستورة، فإذا كانت الدار ذات بيوت فى كل بيت منها سكن كان الاستئناس والسلام واجبين، وقد ذكر فى أدب السلف الصالح أنه إذا وجد البيت بابه مفتوحًا، يستأذن وهو واقف بجانب منه.

وننبه هنا إلى أمرين:

أولهما: أن السلف الصالح كانوا يذكرون أسماءهم عند الاستئذان والاستئناس، فعمر رضى الله تعالى عنه استأذن على النبى ﷺ فقال عمر، وكذلك أبو موسى الأشعرى، ويكره أن يقول المستأذن: (أنا، من غير ذكر اسمه)(١).

ثانيهما: أنه يستأذن على محارمه وغيرهم، وروى أن النبى ﷺ سئل من رجل: أيستأذن على أمه؟ فقال: نعم، أترضى أن تراها عارية(٢).

وفى الحق: إن الاستئناس والتسليم لثلاثة أسباب. أولها: أن يكون صاحب البيت ليس على حال يصح للقاء واستقبال الناس. وثانيها: احترام الملكية، سواء أكانت ملكية عينية بأن يكون البيت ملكه، أو ملكية منفعة إذا كان مؤجرا، وثالثها: إزالة وحشة المفاجأة.

وقد ختم سبحانه الآية الكريمة بقوله عز من قائل: ﴿**ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ الإشارة إلى هذه الآداب الكريمة، والخطاب لمن وجه إليهم الخطاب فى قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ**﴾، وكان الخطاب بلفظ الجمع؛ لأن المخاطبين جمع، وتكون «ذلك» بالخطاب المفرد، إذا كان المخاطب محمدا وحده، وإنه بتقصى ذلك فى القرآن تثبت هذه التفرقة فى الخطاب. وقد خاطب بالإشارة بأمرين:

أولهما: أنه ﴿**خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾، لكى تصان الأعراض، وتستر العورات، ولا يكون نطاق اتهام، ونفور بالاستيحاش، وحيث كشفت الأستار كانت الفتن وكان ظن السوء، فتسود القطيعة، والتفاحش، ورمى الأبرياء.

---

(١) عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي دَيْنٍ كَانَ عَلَى أَبِي فَدَقَقْتُ الْبَابَ فَقَالَ: «مَنْ ذَا؟» فَقُلْتُ: أَنَا، فَقَالَ: «أَنَا. أَنَا!!» كَأَنَّهُ كَرِهَهَا. رواه البخارى: الاستئذان– إذا قال: من ذا؟ قال: أنا (٥٧٨١)، ومسلم: الآداب: كراهة قول المستأذن أنا، إذا قيل له: من هذا.

(٢) رواه مالك فى الموطأ: الجامع– الاستئذان (١٥١٩) عن عطاء بن يسار رضى الله عنه.

ثانيهما: رجاء التذكر وتعرف المصلحة وتحرى الاحتشام، حتى من الآباء والأمهات.

وقد ذكر سبحانه وتعالى: **﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨)﴾**.

الآيتان متصلتان، وهذه الآية تفريع على الآية السابقة، فالسابقة فرض فيها الإذن بعد الاستئناس والسلام، وإن كان فيها أناس استئذنوا، واستئنسوا، وسلموا عليهم، وهذه الآية مفروضة فى جزء منها فى حال إذا لم يجدوا أحدا، والجزء الثانى مفروض فيه إذا لم يكن إذن، بل كان الأمر بالمنع والرجوع.

فأما الجزء الأول فقد قال تعالى: **﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾** فاصبروا حتى يوجد أو يحضر من يأذن لكم من أهل البيت، وقد يقال: إنه لا أحد يخشى الاطلاع على المستور من عوراته، وقد أجاب الزمخشرى على ذلك الاعتراض بقوله: «ذلك أن الاستئذان لم يشرع لئلا يطلع الدامر على عورة، ولا تسبق عينه إلى ما لا يحل النظر إليه فقط، إنما شرع لئلا يقف على الأحوال التى يطويها الناس فى العادة عن غيرهم، ويتحفظون من اطلاع أحد عليها، ولأنه تصرف فى ملك غيرك فلابد أن يكون برضاه، وإلا أشبه الغصب والتغلب»[(١)].

الفرض الأخير هو حال الرجوع، بين سبحانه حال الإذن، وحال خلو البيت وبقيت حال الرد، وطلب الرجوع وعدم الدخول، وهذا كما ترى متشعب عن الاستئناس، فقال تعالى: **﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾** والفاء واقعة فى جواب الشرط، و«أزكى» معناها أطهر وأكرم؛ لأنها لا تصح اللجاجة، فإن ذلك يكون خسة بكم، ولا يليق بكرامة الكريم.

ويقول الزمخشرى عند قوله تعالى: **﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾** ألا تلحوا فى إطلاق الإذن ولا تلحوا فى تسهيل الحجاب ولا تقفوا على الأبواب منتظرين؛

---

(١) الكشاف للزمخشرى: ٣/ ٥٩. والدامر فى قوله: لئلا يطلع الدامر، أى الهالك الذى لا خير فيه. لسان العرب(دمر).

لأن هذا ما يجلب الكراهة ويقدح فى قلوب الناس وخصوصا إذا كانوا ذوى مروءة، ومرتاضين بالآداب الحسنة، وإذا نهى عن ذلك لأدائه إلى الكراهة وجب الانتهاء عن كل ما يؤدى إلى ذلك بعنف، والتصييح بصاحب الدار وغير ذلك مما يدخل من لم يتهذب من الناس.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ بمعنى الطهر، أى هو أطهر لكم، وأكرم، وأنمى لمروءتكم، ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، أى الله تعالى يعلم ما فيه خيركم وطهركم وأليق بكرمائكم، وما يبعد المنافرة بين جماعتكم، وأنتم لا تعلمون خيركم، ولا ما فيه طهارتكم وسموكم، ومعرفة الفاضل من أموركم، أى الله تعالى يعلم ما تعملون من خير وشر ولائق وغير لائق، عليم به، وقدم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ على ﴿عَلِيمٌ﴾ للأهمية وللاختصاص، وقبل الكلام فى معانى هذه الآية الحكيمة وما قبلها نقول: إنه سبحانه لم يقل: فإن لم يأذنوا، بل قال ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ للإشارة إلى أن عدم الإذن يتضمن الأمر بالرجوع يفهمه ذو الإحساس المرهف المدرك المنفذ لما يكون فيه حفظ للمروءة وصون للكرامة، وذلك يشير إلى منع اللجاجة، وألا يدخلوا بيوتا لا يرغب فى دخولهم أصحابها، وقد بين الله تعالى ما يرخص فيه من دخول بيوت غيرهم، فقال:

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩)﴾.

الجناح الإثم، وتنكيره ليعم، أى ليس إثم فى أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم، أى طعام أو أى شيء يقتنى وينتفع به من فرش وثياب، وأمتعة، وغيرها، وقيد سبحانه وتعالى أن تكون غير مسكونة، فلا يترتب على الدخول كشف للأستار، ولا انتهاك للحرمات، ولا تهجم، وقد يقال: إن فيها اعتداء على حق الملكية، ونقول: إنه ليس فيها اغتصاب، بل إنه دفع ضرر أكبر من ضرر الدخول، إذ إنه لو لم يتمكن من الدخول ربما يتلف المتاع إذا لم يسارع إلى أخذه، فلصاحب المتاع نفع، ولا ضرر على صاحب البيت مطلقا، وقد وضع محمد ﷺ

بقبس من القرآن أنه يمكّن لصاحب الحق من دفع الضرر عنه ما دام ذلك لا يضر أخاه، وقد قالوا: إن ذلك يتحقق فى الخانات التى تكون مخصصة لنزول التجار من المسافرين، يتركون فيها بضائعهم، ثم يعودون لأخذها، ونحو ذلك من الدور التى توضع فيها الأمتعة، ولا يسكنها الناس إلا قليلا.

ويبين الله سبحانه وتعالى أنه يعلم الظاهر والباطن ويعلم ما تخفون من نيات تكتمونها، فقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾، أى يعلم ما تظهرونه من أعمالكم، ويعلم ما تخفونه من نيات وتستبطنونه صدوركم فهو وحده علام الغيوب.

غض البصر

قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ
ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ
يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ
زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ
وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ
ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ
أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ
أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ التَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُولِى الْإِرْبَةِ مِنَ
الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَٰتِ النِّسَآءِ ۖ

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٣١﴾

غض البصر هو النقص من النظر بحيث لا يمعن بالنظر، ولا يحاول أن يتقصى أطراف من ينظر إليه، و(مِنْ) فى قوله تعالى: ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ إما أن نقول: إنها لتقوى الأمر بالغض، أى غضوا أبصاركم أىَّ غض، فلا تمعن فى شيء من النساء، وإما أن نقول إنها للتبعيض، أى تغض من بعض بصرك، والبعض الذى يغض عنه هو الإمعان والتتبع، والاستمرار فى النظر حتى تغيب عنه، لا ينفلت بنظره عنها، فذلك هو المطلوب من الغض، أما نظر الفجأة فمعفو عنه، ولذا قال النبى ﷺ: «لا تتبع النظرة النظرة، فإنما الأولى لك والثانية عليك»(١).

ولقد قال ﷺ فى معنى هذا: «إياكم والجلوس فى الطرقات، فقالوا: مالنا من مجالسنا بدّ، نتحدث فيها، فقال: فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه، قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر»(٢).

وابتدأ سبحانه وتعالى بالأمر بغض البصر؛ لأنه الباب الأكبر إلى القلب؛ ولأن النظرة المريبة ذريعة إلى أكبر الفحش؛ ولأن النظر المحصف يناقض الحياء؛ ولأنه يؤذى النساء، فيمنعهن من قضاء شئونهن خارج منازلهن، ومالهن بد من أدائها؛ ولأن غض البصر، ينشر اللياقة والحياء العام، والحياء خير كله.

﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ معطوفة على الأمر بغض الأبصار الذى كان عاما، ولذا جمعت الأبصار، وذلك لتطهير البيئة الاجتماعية الإنسانية، فإن سلامة البيئة تجعل

---

(١) سبق تخريجه من رواية الترمذى، وأبو داود، وأحمد، والدارمى.

(٢) رواه البخارى: الاستئذان- قول الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا. . ((٥٧٦١)، ومسلم: اللباس والزينة- النهى عن الجلوس فى الطرقات (٣٩٦٠). من رواية أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه.

الرأى العام صالحا طيبا طاهرا فاضلا يحث على الفضيلة، ويمنع الرذيلة، وفوق ذلك أمر بحفظ الفروج، والفروج جمع فرج، وهو سوءة المرأة وسوءة الرجل، وحفظها بسترها، ومنعها مما حرم الله تعالى، وهو الزنى، فإن الزنى يعرضها للأمراض الخبيثة، ويمنع النسل، والفروج تشمل فروج الرجال والنساء معا، وخوطب الرجال بحفظ فروج النساء بسترهن، ومتعهن بما أحل الله، وألا يؤذوهن بالفاحشة، وألا يعرضوهن لها، ولما حرم الله تعالى، فالرجل مسئول عن حشمة النساء، وهو الحريص عليهن.

﴿**ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ**﴾ ذلك، وهو غض البصر، وحفظ الفروج، أطهر لكم فيكون المجتمع طاهرا نقيا سليما، والبيوت طاهرة سليمة، وهم فى ذات أنفسهم أطهار طيبون، ويكونون خيرًا فى خير يظلهم الخير دائما، ويكونون فى قبة من الفضيلة تظلهم، وتؤدى بهم جميعا إلى جنة الآخرة، كما كانوا فى ظلة من الفضيلة فى الدنيا.

﴿**إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ**﴾ هذا النص فيه تهديد وتبشير، فيه تبشير للأخيار إن استقاموا على الطريقة المستقيمة وفيه إنذار للفجار؛ لأنه سبحانه عليم علما دقيقا بما يصنعه كل واحد من الناس، و﴿**يَصْنَعُونَ**﴾ أدق فى الدلالة على العمل من: يعملون؛ لأن يصنع معناها يفعله ويصير عادة له كعادة الصانع فى صنعته.

ويلاحظ أن الخطاب كان من الله تعالى للنبى ليأمر المؤمنين بأن يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم؛ لأن ذلك من تبليغ النبى ﷺ ربه، وقد ذكر الله تعالى أولا غض البصر للرجال ثم ذكر سبحانه أمره للنبى عليه الصلاة والسلام بأن يطالب المؤمنات بغض البصر أيضا، كما طالب المؤمنين فقال عز من قائل:

﴿**وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ**﴾.

الأمر للنبى ﷺ بأن يقول للمؤمنات كما قال للمؤمنين ﴿**يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ**﴾ بألا يمعن النظر فى الرجال فإن ذلك يغريهن بالفتنة، كما يغرى الرجال

الإمعان فى النظر إليهن، وقد روى فى بعض الأخبار أن محمدا ﷺ سأل فاطمة ابنته خير نساء المؤمنين: ما عفة المرأة؟ قالت: ألا ترى رجلا وألا يراها رجل[١]، وليس معنى ذلك إلا أن تغض بصرها عند رؤية الرجال، وإن نظرات النساء الممعنة فيهم تغرى الرجال وتغريها، إذا كان فيمن تنظر إليه ما يحببه للنساء، ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ بسترها فلا تبدو، وبمنعها مما لا يحل، وحفظها من الأمراض الخبيثة التى تفسد النسل والجسم. وقال تعالى: ﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ بأن يتبرجن، ويظهرن فى حلية تغرى، وقد قال تعالى فى معنى هذا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٥٩)﴾ [الأحزاب].

واستثنى من النهى عن إبداء ما تظهر منها من غير قصد إلى إظهارها: ﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ من غير قصد الإعلان عن جمالها، وقالوا: إن الوجه والكفين ظهورهما مقبول فى الصلاح لا يمنع صلاحها فيكون ظهورها فى الحياة العامة ليس من إبداء الزينة المحرم، وقال ابن عطية من فقهاء المالكية «يظهر لى بحكم ألفاظ الآية بأن المرأة مأمورة بأن لا تبدى، وأن تجتهد فى الإخفاء لكل ما هو زينة، ووقع الاستثناء فيما يظهر بحكم ضرورة حركة فيما لابد منه أو إصلاح شأن» والخلاصة أن الممنوع ما تبديه المرأة من زينة لتلفت الأنظار إلى محاسنها، ومفاتنها، فيكون ذلك إغراء للرجال، أما ما ظهر منها من زينة من غير محاولة إبداء له إغراءً، وتبرزًا للرجال فإنه لا بأس به.

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ الجيوب فتحات الصدر التى تبدو منه أجزاء من الجسم، وهذه من العورة، والخُمُر جمع خمار، ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ أى ليضعن الخمر على هذه الجيوب التى ترى منها الصدور، فيستتر ذلك الجزء من عورة المرأة؛ لأن عورة المرأة الحرة كل جسمها، ومن النساء فى هذه الأيام من يبدين بعض أجسامهن على أنه من الزينة التى تغرى الرجال.

---

(١) رواه فى رواية أطول من هذه: الدارقطنى فى الأفراد من رواية الحسن البصرى عن على رضى الله عنه، وقال: هذا حديث حسن غريب. كما فى كنز العمال (٤٦٠١١): ج١/ ٣٤٤٠.

هذا أمر عــام للنساء بألا يبدين شـيئا من الزينــة إلا الذى يظهر فى ذاته؛ لأن منع ظهوره فيه ضيق وحرج، وما جعل عليكم فى الدين من حرج.

وقد استثنى سبحــانه وتعالــى المحارم الذين يخــالطون المرأة من إبداء الزينة أمامهم؛ لأن هؤلاء مــحرَّمون عليها؛ ولأنهــا لو منعت الزينة عن رؤيتهم تكون هى فى حرج، هى وزوجها.

وأول هؤلاء بعولتهن، فــإن إبداء الزينة لهم من المستحسن من غير اســتهجان فإن الرغبة فى زوج تعفه، وتبعده عن الرذيلة.

الطائفة الثانية آباؤهن، فإنها قطعة منه، وهو رحم محرم منها، وزينتها تسره، ولا تضره، ولا تغريه.

الطائفة الثالثة: آباء بعولتهن فإن أبا الزوج محرم لها، ولا يغرى بامرأة ابنه إلا لئيم، ومن يخرج عن الفطرة السليمة.

الطائفة الرابعة: أبناؤهن فإنهم قطعة منها، ولا يغرى بأمه إلا خبيث النفس.

الطائفة الخامسة: أبناء بعولتهن، فإنه ربيبها كابنها.

الطائفة السادسة: إخوانهن، وبنو إخوانهن.

الطائفة السابعة: أخواتهن، وبنو أخواتهن.

الطائفة الثامنة: نساؤهن. أى نساء المؤمنات فإنه يجوز إبداء الزينة أمامهن.

الطائفة التاسعة: أو ما ملكت أيمانهن، «ما» تشمل ما ملكت اليمين من العبيد والإماء، ولكن هنا المخــتص مما ملكت اليمين الذين تبدى المرأة لهم زينتــها الإماء، لأنه لا يصح أن تُبدى زينتهن أمام الرجال، وعلى ذلك أكثر فقهاء الأمصار، وروى غيــر ذلك عن بعض فقهاء الصــحابة والتابعين، وعندى ألا يبــدين زينتهن للعبــيد، فإنهم رجــال يشتهون، وليس عندهم من الكــرامة ما يحملهم على التــعفف، ولعل الدين ليس له تأثيــر قوى عند أكــثرهم، ومن العــبيد من يكون ذا جــمال تشــتهــيه النساء، وقد كــان بعض النساء فى عهد الإمام عــمر -رضى الله عنه- من تأولن آية سورة النساء فى قــوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ... ۝٣﴾ [النساء]، فملكت

نفسها عبدها من مقايسة النساء على الرجال، وقد منعها عمر، وروى أنه عزرها بمنع زواجها من الأحرار.

لهذا نرى أن قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ الظاهر من تخصيصها بالنساء أما العبيد الرجال، فهن وبقية الرجال على سواء فى المنع من ألا يبدين زينتهن لهم، صونا للبيوت ولكرامة النساء، ولحرمات البيوت الطاهرات.

الطائفة العاشرة: ما ذكرها سبحانه وتعالى بقوله: ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾.

﴿الإِرْبَةِ﴾ معناها الحاجة إلى النكاح، وقد اشترط فيهم أن يكونوا تابعين، وألا يكونوا مشتهين للنساء، إما لأنه ثبت أنه عنين، أو شيخ فان قد انتهى أمد شهوته، أو خصي أو مجبوب، وهو تابع فى البيوت يؤاكل النساء ويخالطهن، وفى إبعاده حرج لهم ولهن.

وفى الحق: إن الآية ذكرت الوصف، ولم تذكر النوع، فكل من لا يكون له أرب أو شهوة كالشيخ الفانى القاعد فى البيت قابعا، وثبت أنه لا أرب له فى النساء، ولا يشتهى منهن حتى النظر، فإنه فى موضع الاستثناء.

وقد ألحق بهؤلاء غير أولى الإربة المخنثين من الرجال الذين كانوا يخدمون فى البيوت فى المدينة، ويطلعن على عورات النساء، ويبدى النساء زينتهن أمامهم، وشك النبى ﷺ لسماعه أحدهم يصف المرأة قائلا: تقبل بأربع، وتدبر بثمان. وهذا وصف لا يقوله إلا من يمعن النظر، وفى نظرته شهوة، فأمر بإبعاد المخنثين عن البيوت(١)، والأمر فى معرفة غير أولى الإربة إلى الملاحظة واحترام النفس والكرامة.

الطائفة الحادية عشرة: هى ما ذكرها الله سبحانه بقوله: ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ الطفل اسم جنس أى جمع أطفال، ولذا عاد الضمير

(١) رواه البخارى: المغازي- غزوة الطائف (٣٩٨٠)، ومسلم: السلام- منع المخنثين الدخول على الأجانب (٤٠٤٨). من رواية أم سلمة رضى الله عنها.

ضمير جمع فى قوله تعالى: ﴿لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾، أى لم يعلموا عورات النساء يقال: ظهر عليه أى علمه واطلع عليه، يقال ظهرت على كذا أى علمته، أى يرون المرأة، فلا يفرقون بين العورة وغيرها، وهذا دليل على كمال الغفلة عن العلاقة بين الرجل والمرأة، فهؤلاء يستثنون من إبداء الزينة أمامهم، فإن نظراتهم، ليس فيها شهوة منبعثة، وهناك حرج على النساء فى إخفاء زينتهن عنهم، ولا يوجد ما يدعو إلى الوقوع فى الحرج، فسبب المنع غير قائم، والباعث عليه غير موجود.

هذا هو الأمر بالنسبة لإبداء الزينة، ما منع منه، وما استثنى فى أحوال قد تقصيناها حالا، حالا.

وقد قال تعالى بعد ذلك عاطفا على النهي، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾، أى لا تضرب برجلها ليعلم الناس ما تخفيه من خلخال أو زينة على الساق، وإن النهى عن هذا يتضمن النهى عن الضرب فى ذاته بحركة غير محتشمة، تتلوى فيها المرأة تلويا مغريا، ثم إنه يبدى الزينة المغرية المشتهاة، وقد قال الغزالى: إن الصَّبَّ المتيم يثير شهوته سماع صوت الهون تدق به حبيبة.

وفى الجملة: إنه يجب التستر فى كل شيء، فلا يبدو منها ما يثير النظر أو الشهوة، وإن النفوس قد تغفل عن بعض هذا الواجب وهو غض البصر، ولذلك ختم الله تعالى الآيتين بقوله: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

أمر الله سبحانه وتعالى بالتوبة مما عساه يكون قد غفلوا عنه من أمر الغض الذى لا يعلمه إلا علام الغيوب، ولتتطهر منه السرائر، كما تطهرت المظاهر، وقوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ ليعم الأمر بالتوبة الذكور والإناث، فقد يدخل البيوت من يظن فيه الخير، وليس خيرا، وقد يكون تأثم من إدخاله إذا تبين فساد نفسه، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، أى تفوزون، والرجاء من العباد، لا من الله تعالى الذى يعلم السر وأخفى.

النكاح هو الحصن

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣) وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤)﴾

كانت الآيات السابقة فيها ما يصون الأسرة فى كيانها، وما فيه صيانة النساء من قول السوء، وأن تمس عفتهن بالأنظار الجارحة، فأمر الرجال بغض البصر، وأمر بأن تكون نظرات النساء غير مغرية لأهل السوء، وألا يكون إبداء الزينة مغريا لأهل الدعارة والفساد، وكل هذا كان لحماية النفوس من الشر، وبعد ذلك بين الأمر الإيجابى الذى يصون المرأة، وهو سبيل العفة، وطريقها، وهو النكاح، فقال عز من قائل: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾.

أنكحوا أى زوِّجوا، فالنكاح هو الزواج، والإنكاح هو التزويج، والخطاب للأولياء على النساء الذين لهم ولايتهم بقوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ... (٣٤)﴾ [النساء] ويصح أن يكون الخطاب للأمة فى مجموعها بأن

يسهلوا زواج الأيامى، وتكون الأيامى شاملة للرجال والنساء، ويكون الأمر بالنكاح هو الأمر بتسهيله وإشاعته، وتمكين كل بالغ وبالغة، فإنه حينئذ يعف النساء والرجال معا، ويكون غض البصر فى الطرقات والبيوت، وألا يكون شيء يجر إلى الشر فى المجتمع الإسلامى، فيكون طاهرا متنزها، لا يظهر فيه إلا الخير، وتختفى المنكرات ونحن نميل إلى هذا التخريج.

والأيامى جمع أيِّم، وهو غير المتزوج من النساء والرجال، وقال أهل اللغة الأيم فى الأصل هو المرأة، ومنه قوله ﷺ: «الأيِّم أحق بنفسها من وليها» سواء أكانت بِكْرًا أم كانت ثيبا، ولقد قال النبى ﷺ: « أيما امرأة تأيمت على ولدها الصغار حتى يبلغوا، أو يغنيهم الله من فضله كهاتين فى الجنة»(١)، وأشار بأصبعيه، ولكنه على سبيل المجاز المشهور أطلق على الرجل، وإن ذلك أوضح، وأبين.

أمر الله تعالى فى هذه الآية بتسهيل زواج ثلاثة:

أولهم الأيم من الرجال والنساء الأحرار، وذلك بتسهيل الزواج، وألا تكون عوائق من أعراف بين الناس تصعب الزواج من مهور مفحشة، وجهاز مرهق مانع، ومساكن مستعلية فى السكن، ويكون كما قال النبى ﷺ: «خير الزواج أيسره كلفة»(٢).

وثانيهم وثالثهم الصالحون من العباد والإماء، فيزوج السيد عبده إن أراد العبد أن يتزوج، ويكرهه على الزواج إن خشى عليه العنت، أو أن يقع فى الزنى إن لم يتزوج فإنه يكون الزواج فرضا، والمسئول عن العبد هو مالكه فعليه أن يعفه، ويمنعه من الزنى، ولا طريق للمنع عنه إلا تزويجه، فكان التزويج فرضا على المالك؛ لأن

(١) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "الأَيِّمُ أَحَقُّ بِنَفْسِهَا مِنْ وَلِيِّهَا، وَالْبِكْرُ تُسْتَأْذَنُ فِى نَفْسِهَا وَإِذْنُهَا صُمَاتُهَا". رواه مسلم: استئذان الثيب فى النكاح بالنطق والبكر. (٢٥٤٥)، والترمذى: النكاح- ما جاء فى استئمار الثيب والبكر (١٠٢٦).

(٢) عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "إِنَّ أَعْظَمَ النِّكَاحِ بَرَكَةً أَيْسَرُهُ مُؤْنَةً". رواه أحمد: باقى مسند الأنصار- حديث السيدة عائشة رضى الله عنها(٢٣٣٣٨).

الزواج فرض على العبد، وعبر بالصالحين من عبادكم وإمائكم؛ لأنهم الذين يرغبون فى الصون والعفاف.

وكذلك الأمر بالنسبة للإماء إن خشى عليهن العنت يكون واجبا عليها أن تتزوج، وهى لا تملك نفسها، بل يملك الولاية عليها مالكها، فيكون التزويج فرضا عليه، فإن لم تره وأراده كان له أن يكرهها، وقد أجمع الفقهاء على أن التزويج على الأمة ولاية إجبار لا اختيار لها فيها.

وعباد جمع عبد، وإماء جمع أمة.

إذا كان واجبا على الجماعة أن تسهل الزواج وتشيعه لأنه سنة الإسلام، فإنه لا يصح أن يحول الفقر منه بين الزواج، فإن المال مال الله غاد ورائح، ففقير اليوم قد يكون من بعد غنيا، ولذا قال تعالى: **﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾** أى أن الله تعالى يعطى من يشاء، ويغنى من يشاء، **﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾** أى واسع الرحمة والعطاء، عليم بمكان الحاجة وموضع العطاء.

وإن هذا النص يشمل الأحرار؛ لأنه قد يكون فقيرا، أما العبيد أو الإماء فلا مال يملكونه، وقد يدخل فقراء الملاك فى العموم أيضا.

ثم قال تعالى فى علاج حال الفقراء، فقال عز من قائل:

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾.

اللام لام الأمر، و«يستعفف» السين والتاء للطلب، والمعنى ليطلب العفة ولايتجافى سبيلها والوصول إليها والحصول عليها، إنما يسلك كل المسالك لطلبها، فهى طلب للجهاد فى العفة والحصول عليها **﴿الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾** أى مهيئات النكاح من مهر ونفقة، ومسكن إلى آخر ما يكون سببا للنكاح أو تمهيدا له، فالتعبير بالنكاح ذكر للمسبب وإرادة للسبب، ومن لم يجد مهيئات النكاح لا يجد النكاح، وأسباب الاستعفاف كثيرة منها ضبط النفس، ومنها الصيام، ومنها الانشغال بالعبادة وتلاوة القرآن، وقد قال النبى ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة

فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[1] الباءة تكاليف الزواج التى يمكنه أن يبوء بها فى هذه العقدة المباركة، والصوم يتضمن معانى روحانية والتجرد من الملاذ والأهواء، ويتضمن الصبر وضبط النفس، وقرع الشهوات، والوجاء قطع الشهوات، ودفع سيطرتها، فتكون الشهوة أمة ذلولا، ولا تكون سيدا مطاعا، تخضع له النفوس وتتطامن، وتخنع.

وإن الاستعفاف يستمر حتى يغنيهم الله من فضله، فهو يستمر ضابطا نفسه مسيطرا عليها، حتى يغنيه الله تعالى من فضله أى بفضله ورحمته، وهو ذو الفضل العظيم.

وإن هذا الاستعفاف للأحرار من الرجال الذين لا يملكون باءة النكاح، فما حال الرجال العبيد الذين لا يملكون أسباب النكاح، ولهم فيه رغبة، ولا يزوجهم مواليهم، فما الذى يستطيعونه، شرع الله تعالى لهم المكاتبة وطالبهم بأدائها، وأمر الموالى أن يجيبوهم، فقال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا**﴾.

﴿**وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ**﴾، كلام مستأنف له صلة بالكلام السابق، و﴿**يَبْتَغُونَ**﴾ يطلبون راغبين متشددين فى الطلب، والكتاب مصدر كاتَب يُكاتب؛ لأن مصدر فاعل، فِعَال أو مُفاعلة كقتال ومقاتلة، وعناد ومعاندة، فمعنى الكتاب المكاتبة، أى إن طلبوا المكاتبة ﴿**فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا**﴾ والفاء هى كالفاء الواقعة فى جواب الشرط؛ لأن الاسم الموصول، ﴿**وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ**﴾ فى معنى فعل الشرط، والمكاتبة اتفاق بين المالك والمملوك على أن يتركه حتى يحصل على قدر من المال يتفقان عليه، فإن أنفذه وأداه عتق، وقد شرع الله ذلك العقد تسهيلا لفك الرقاب من غير ضياع حق للمالك، وتعليق الأمر بالمكاتبة على قوله: ﴿**إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا**﴾ والخير هنا الأمانة والاستقامة والقدرة على السعى للحصول على مال المكاتبة، وقال

(١) رواه البخارى: الصوم- الصوم لمن خاف على نفسه العزبة (١٧٧٢)، ومسلم: النكاح- استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد (٢٤٨٥). من رواية عبد الله بن مسعود رضى الله عنه.

الظاهرية وبعض الفقهاء: إن الأمر هنا ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ للوجوب بمقتضى ظاهر الأمر، أى إن الأمر هنا للوجوب بمقتضى ظاهر اللفظ.

وإنه من الواجب أو المندوب أن يؤتيهم القادرون ما يستعينون به على فك رقابهم، ولذا قال تعالى: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ أعطوهم من المال الذى أعطاكم الله تعالى، ونسبة المال إلى الله تعالى فيه حث على الإعطاء؛ لأنه بمال الله الذى جعلكم مستخلفين فيه، فكان حقا عليكم بمقتضى هذا الاستخلاف أن تعطوه لعيال الله تعالى، وهم الفقراء الأرقاء الذين يحتاجون ليفكوا رقبتهم، وقد أوجب الله تعالى ذلك فجعله مصرفا من مصارف الزكاة، وهو يصرف فى الرقاب فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ... (٦٠)﴾ [التوبة].

وقال الفقهاء: إن سهم الرقاب ينفق فى معاونة المكاتبين حتى يسدوا ما عليهم، وتسارع لهم الحرية.

وقد نهى سبحانه عن إكراه الإماء على البغاء، وهو طلب المرأة للزنى، وقد كان رأس النفاق عبد الله بن أبى ابن سلول عنده ست إماء كان يكرههن على البغاء ويأخذ أجورهن وهو سحت؛ لأن مهر البغايا سحت، وقد قال تعالى: ﴿وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ الفتيات المراد بهن الإماء، وعبر عنهن بالفتيات لنقتدى بالقرآن، والنبى ﷺ إذ يقول: «لا تقل عبدى وأمتى بل قل فتاى وفتاتي»(١) وللحض على عدم إكراههن على البغاء لأنهن فتياته، فلا يسوغ إكراههن؛ ولأن التعبير بالفتاة فيه إيماء إلى صغرهن؛ وأنه مرغوب فيهن مبغى طلبهن ولسن عجائز يرغب عنهن، وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾، مبالغة فى اللوم والتأثيم، والتحصن إرادة حصن العفة يتحصنّ به، ولا يجعلن أنفسهن متاعا يستفرشه الرجال فى حرام.

---

(١) رواه بنحو من هذا مسلم: الألفاظ من الأدب وغيرها- حكم إطلاق لفظ العبد على المولى (٤١٧٧)، والبخارى: العتق (٢٣٦٦) من رواية أبى هريرة رضى الله عنه.

وليس معنى التعليق أنهن إذا كن يبغين البغاء يكرهن، إنما الشرط لتحقيق معنى الإكراه، فهو لا يكون إلا حيث تكون إرادة التحصن وهو توبيخ لمالك الأمة التى تفعل، فهى الأمة تأبى أن تكون بغيا، وهو الذى يريدها بغيا، ويقول سبحانه: ﴿لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وعرض الحياة الدنيا هو المال من طريقه الرخيص الذى لا يرضاه، وهو أدنى طريق وأحقره.

ثم يقول تعالى فى بيان أن الله تعالى يعفو عن هؤلاء المكرهات، ويكون إثم الإكراه على مواليهن، فقال: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أى إن الله يغفر لهن هذا الذنب الذى كان بإكراه، وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ﴾ للإشارة إلى أن الفعل الآثم يكون من بعد الإكراه وبسببه، فالله يغفر ذلك الإثم، لأنه غفور رحيم.

هذه الأحكام كلها أحكام لصيانة المجتمع الإسلامى وليكون طاهرا لا دنس فيه، ولصيانة الأسرة، ولصيانة المرأة المسلمة حرة أو أمة، والرجل المسلم حرا أو عبدا، وهى آيات بينات، ولذا قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

يذكر الله تعالى فى هذه الآية أنه أنزل فى القرآن الكريم ثلاثة أمور.

أولها: ﴿آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾، أى آيات مبينة للأحكام الشرعية فى الأسرة والمجتمع الإسلامى والعلاقات الإنسانية بين المسلمين وغيرهم، ففيها الآيات المكونة للأسرة من زواج وأحكام أولاد، وحقوق للزوجين فى أثناء قيام الحياة الزوجية وانتهائها، وحقوق المرأة وحقوق الرجل، ثم فيها ما شُرع حماية للأسرة.

والأمر الثانى: ﴿وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾، أى من أمثال الذين خلوا من قبلكم، و«مثل» هنا مفرد يدل على الجمع ما دام غير معين، وهو القصص الحكيم الذى كان فيه العبر، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ ... (١١١)﴾ [يوسف].

والأمر الثالث: الموعظة - ببيان عقاب الذين يفسدون المجتمع الإسلامى، فذكر من قبل القصاص الذى تكون فيه المساواة بين الجريمة والعقوبة، وساق سبحانه القول فى ذلك سوقا حكيما، ثم عقاب الذين يفسدون النسل، والذين يشيعون الفاحشة فى الذين أسلموا، ففى كل هذا وعقوباته عظات لأولى الألباب يتعظ بها المتقون الذين يخافون عقابه ويرجون ثوابه، أما الذين لا يتقون الله ولا يرجون ما عنده، فالسياط تكوى ظهورهم، والسيوف تقطع رقابهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ... ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد].

نور الله ومساجده

ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ
ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ
لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ
نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ
لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ
وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾
رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ
ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾
لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ
مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾

النور فى لغة العرب ضد الظلام وهو الذى يضىء للأبصار فترى الأشياء وتميز بينها، وقد أطلق على سبيل المجاز على ما يميز بين المعانى فيفرق بين الحق والباطل، ولذا وصف به القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿... وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (١٧٤)﴾ [النساء]، وقال تعالى فى وصف الكتاب: ﴿... وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤)﴾ [آل عمران]، وسمى النبى ﷺ نورًا فقال تعالى: ﴿... قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥)﴾ [المائدة].

وأطلق على التدبير المحكم، فيقال فى مدح الملوك: الملك نور هذا البلد، وعلى رب البيت أنه نور البيت. وفى كل هذه الأمثلة يكون النور معنويا فاصلا بين الحق والباطل، والسديد وغير السديد، وعلى هذا نذكر معانى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، أى الله مدبر الوجود ومنشئه، خلقه ودبره فى أدق نظام، وأعظم إبداع، فربط بين أجزائه برباط محكم لا تنفصل كواكبه، ولا نجومه فتتساقط كوكبا بعد كوكب، ونجما بعد نجم، يأبى الله على السموات والأرض أن تزولا، ﴿وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ... (٤١)﴾ [فاطر].

فقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ كلمة (نور) من قبيل الاستعارة، إذ شبه إدارة الله تعالى للسموات والأرض وتعليماته للعقلاء، وتسخيرها لغير العقلاء، بنظام رتيب محكم دقيق بالنور المميز، فصح وصف الله تعالى أو الإخبار عنه بالنور على هذا المعنى المجازى المصور لما نرى ونحس، ونور الله فوق ما نبصر وأعلى مما ندرك.

صور الله تعالى نوره المميز للأشياء والعقلاء مقربا له من مداركنا فيما نحس ونعلم ونرى، فقال تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ المشكاة هى الكوة فى البيت، والمصباح فى هذه المشكاة أى فى الجدار الذى فتحت فيه الكوة، وهى النافذة الضيقة التى ينبعث منها النور للبيت وهى فى ذاتها منيرة، وينبعث نورها بقوة؛ لضيقها، ويشع داخل الحجرة، ومع ذلك قد وضع فى جدارها مصباح فيه زجاجة، وهى

قنديل الزيت، وهى صافية صفاء واضحا، ومتلألئة، وكأنها كوكب درى، و﴿دُرِّيٌّ﴾، كالكواكب الدرية المزهرة المنيرة، و﴿دُرِّيٌّ﴾ نسبة للدر المتألق، وذلك إذا قرئت بضم الدال، وتقرأ بكسرها دِرِّى، وتكون على وزن فعّيل وهى من الدر قلبت الهمزة ياء، وذلك الإعلال كثير فى اللغة العربية، وأدغمت التاء فى الياء لسكون إحداهما[1]. والدرء: الدفع، ويكون معناها أنها تدفع الظلام، وقوله تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ الضمير فى يوقد يعود على ﴿كَوْكَبٌ﴾ المشبه به فى الآية، وهذا على قراءة الياء، وعلى قراءة التاء يعود الضمير إلى زجاجة، وهى المتحدث عنه. ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾ «من» للابتداء، أى مصدر الوقود شجرة مباركة، وهذه الشجرة هى شجرة الزيتون، والوقود من زيتها فهو منها، على هذا المعنى، وقد قال تعالى فى هذه الشجرة على أنها من نعم الله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ (٢٠)﴾ [المؤمنون]، وكانت الشجرة مباركة، وكما قال الزمخشرى وصفها سبعون نبيا بأنها مباركة، وحسبها وصف القرآن، وصفها القرآن بأنها مباركة هنا وفى سورة «المؤمنون»، وإذا كانت سورة «المؤمنون» مكية، وسورة «النور» مدنية، فقد أجمع القرآن المكى والمدنى على أنها مباركة، وبركتها فى أنها ذات منافع كثيرة، يكون منها الوقود المضىء، وهو دهن يكون طعاما طيبا، وهو يدخل فى أدوية الجلد الطبية، وترابه إذا حرق يكون كحلا للعيون ولا يضرها، وهو إدام، والزيتون نفسه للطعام، وهو الصبغ الذى قال الله فيها: ﴿وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ﴾.

وقال عز من قائل: فى وصف هذه الشجرة المباركة (زيتونة) وهذا بدل من (مباركة)، وهو إيضاح بعد إبهام فيكون فيه بيان مؤكد، وقد وصفها سبحانه بقوله: ﴿لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ﴾، أى أنها فى وسط الأرض لا ينقطع عنها ضوء الشمس، إذ الشرقية ينقطع عنها الضوء فى المساء، والغربية ينقطع عنها الضوء فى الصباح، فهى لا تستر عنها الشمس فى المساء أو الصباح، وهذا يساعد على نموها ونمو ثمارها.

---

(١) قرأها بكسر الدال وتشديد الياء، من غير مد ولا همز: المفضل عن عاصم. وقد شذت هذه القراءة فلا يقرأ بها اليوم، وقرأها بضم الدال وبالمد والهمز: حمزة وأبو بكر، وقرأ الباقون بضم الدال وياء مشددة، من غير مد ولا همز. غاية الاختصار: ٢/ ٥٨٩.

ووصف سبحانه وتعالى زيتها بالصفاء فقال تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ فهو صاف لا عكرة فيه، ومشرق لا دكنة فيه.

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾، أى أنه نور يجىء على نور، فنور المشكاة التى تدخل الحجرة نورها فيضىء، ونور المصباح، ونور الزجاجة، التى هى كالكوكب الدرى، ونور الزيت الذى يكاد لصفائه يضىء.

وكل هذا وصف لنور الله الهادى المرشد، فإنه يغمر القلوب التى تفتح له بالهداية، وأما الذين حقت عليهم الضلالة فإنهم لا يهتدون، وسدت القلوب عن أن يصل النور إليها.

ولذا قال تعالى: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ وهو من سلك طريق الهداية، وأبعد عن نفسه الغواية، التى يوسوس بها الشيطان، ويحاول جاهدا أن يغوى عباد الله، ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾، يبين سبحانه وتعالى الأشباه والنظائر والغايات والنتائج ليهتدوا، ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، أى بكل شيء عليم، يعلم المهتدين وطريق هدايتهم، ويعلم الضالين وعاقبة ضلالهم، فهذه الجملة فيها تبشير للمؤمنين المهتدين، وإنذار للضالين الذين أغواهم الشيطان.

وقبل أن نترك الكلام فى معانى هذه الآية لابد من ذكر إشارة بيانية، هى أن الله تعالى ذكر ﴿مِصْبَاحٌ﴾ منكرة ثم ذكرها من بعد ذلك معرفة، فيكون المبهم والمعرف واحدا، والذكر بالإبهام تم التعريف فيه بيان بعد إبهام، وفى ذلك فضل بيان وتأكيد، وكذلك بالنسبة لزجاجة فقد ذكرت نكرة، ثم ذكرت معرفة، وذلك فيه أيضا بيان وتأكيد للبيان، وقد بين سبحانه بعد ذلك مكان النور الربانى، فيكون أشد ما يكون فى المساجد، فقال تعالى:

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧)﴾.

الآيتان مرتبطتان بالآيات التى قبلهما إعزازا لمعني؛ وذلك لأن قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ الجار والمجرور متعلقان بالآية التى قبلها، وفيها عدة أفعال كل فعل فيها يصلح متعلقا، فيصح أن يكون متعلقا بقوله: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ﴾، ويصح أن يكون متعلقا بقوله: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ ويصح أن يكون التعليق بقوله: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ فالتعليق يصح أن يكون لفعل من هذه الأفعال، فالمساجد تتعلق بالنور والهداية، وهى بيوت الله تعالى، وفيها النور، وفيها يوقد النور الإلهى، وفيها الهداية.

ونكرت البيوت، لتذهب النفس فى تعرفها كل مذهب، وقد عرفها سبحانه وتعالى بوصفها الذى يجليها، ويزيل إبهامها للنكرة، وهو قوله تعالى: ﴿أَذِنَ اللَّهُ﴾ الإذن الإعلام، ورفعتها هى رفعة مكانتها وقدرها، فالرفعة معنوية لا حسية، ورفعتها المعنوية؛ لأن فيها النور وفيها الهداية، وفيها السمو، وفيها الربانيون الذين لا يريدون إلا رضا الله تعالى، وإنه يقترن بهذه الرفعة، أو بذكر اسم الله تعالى، ولذا قال تعالى: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾، أى تتذكر القلوب اسم الله تعالى، وتمتلئ بهيبته وجلاله، وترتفع إلى مقام التجرد الروحى لله تعالى، فليس المراد كما يظهر ذكر اسم الله بلفظ الجلالة، وترداده فى حلقات ذكر، وما تلهث فيه الأنفاس وترديده من صياح، بل المراد تذكر القلب والعقل لعظمته وامتلاؤهما بجلاله، وتقشعر منه الجلود، لا بمجرد التمايل فى حلقات ربما يتوسطها الشيطان!! ويكون فيها تقديس الله تعالى، وتنزيهه وعبادته كما جاء بها القرآن والسنة، ولذا قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾، أى فى الصباح، وهو أول اليوم، والآصال، وهى جمع أصيل، وهو آخر اليوم، وربما يدخل فيها ما بعدها، وهو العشى، كما قال تعالى فى آية أخرى ﴿... بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١)﴾ [مريم]، والتسبيح هنا يحتمل أن يراد به التنزيه المطلق، ويكون المراد أنه فى هذه البيوت التى يذكر فيها اسم الله تعالى ينزه الله تعالى ويقدسه فيها رجال.. إلى آخره، فهى بيوت الله لا يذكر فيها غيره، ولا يقدس فيها سواه.

ويحتمل أن يراد بالتسبيح الصلاة، وقد عبر سبحانه عن الصلاة بالتسبيح والتنزيه في قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم]، قد جعل الله تعالى الصلاة موضع عبادته وتنزيهه، وهى عمود الدين، ولا دين من غير صلاة، ولكن لم يذكر الله تعالى من أوقات الصلاة إلا الغدو والآصال، ونقول: إن ذكر الآصال والغدو هو ذكر لما بينهما من الظهر، ولما بعدهما من العشى، وأن تفسير التسبيح بالصلاة أنسب للمساجد التى هى بيوت الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن].

وقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾، إن اتصال هذه الآية بما قبلها إعرابا وبيانا للمعانى واضح، لأن ﴿رِجَالٌ﴾ فاعل لـ ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾، وقد بين سبحانه أحوال هؤلاء الرجال وصفاتهم، فقال: ﴿لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أما إنهم لا تلهيهم الحياة وما فيها عن ذكر الله، فهم فى ذكر لله دائم، فى تجارتهم يذكرون وفى بياعاتهم يذكرون الله تعالى، فذكر الله يجب أن تملأ به القلوب، لا يغفلون عن ذكره أبدا، وإذا ذكر الله تعالى فى معاملاته الإنسانية كان فى طهارة دائمة فلا يغش، ولا يداهن، ولا يبخس الناس أشياءهم، والصلاة شرعت فى أوقاتها الخمس لدوام ذكر الله تعالى، فصلاة الفجر لملء النفس بذكر الله، فيقبل على الحياة، وهو ممتلئ بذكر الله تعالى، حتى إذا ابتدأ القلب يصدأ جاءت الظهر فجلته وطهرته بذكر الله، حتى صلاة الأصيل ثم صلاة العشاءين، ويختتم اليوم بتسبيح الله تعالى، وامتلاء النفس بذكره، فيستمر ذكر الله فيهم، ولا تلهيهم تجارة ولا بياعات، ولا أعمال الحياة عن ذكر الله أبدا؛ لأنهم فى ذكر دائم بعبادة الله تعالى وخصوصا الصلاة، ولذا ذكر الصلاة وإقامتها، فقال تعالى: ﴿وَإِقَامِ الصَّلاةِ﴾ وهذا من عطف الخاص على العام، وإقام الصلاة الإتيان بها مقومة مستقيمة بذكر الله تعالى فى كل أركانها وكل عباراتها. والصلاة كما أشرنا تهذيب الروح واتصالها بالله، والمصلى وهو واقف لإقامتها يحس بأنه واقف فى

الحضرة الربانية، والله يراه وهو العليم بما فى الصدور، وما تخفى الأنفس، وهؤلاء لا تلهيهم مطالب الحياة وغاياتها عن إيتاء الزكاة، وهى التعاون الاجتماعى الذى تقوم على دعائمه الحياة الإنسانية فى الإسلام.

وإن الأساس للخلاص الكامل للمؤمن هو الإيمان بالبعث والنشور والقيامة والحساب، فإن ذلك يجعل الإنسان يحس بأن لحياته معنى وغاية، ولم يخلق عبثا أو سدى، بل إن له يوما يحاسب فيه على ما قدم وما كسب، ولذا قال فى أوصاف الرجال الذين يعمرون مساجد الله ﴿**يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ**﴾، أى يخافون يوم الفزع الأكبر، و﴿**تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ**﴾ تضطرب، والتقلب التحول أى بمعنى تتحول وتنتقل من مكانها ثم تعود، وتكون فى تحول ثم عودة، وهذا يدل على اضطرابها، وفزعها أشد ما يكون الفزع، وإن تقلب القلوب يكون بين الطمع والخوف، والرجاء والهلع، وتقلب الأبصار يكون بأن تتقلب حدقة العين فى الحركة من الخوف، وهذا يدل على فزع واضطراب مستمر، كما قال تعالى : ﴿**وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ ... (١١٠)**﴾ [الأنعام].

والنتيجة لهذا اليوم بينها الله تعالى بقوله:

﴿**لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨)**﴾.

هذا الجزاء، هو للذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله تعالى، فمع عملهم الصالح يخافون لقاء الله ويرهبونه استصغارا لأعمالهم الصالحة، وخوفا من هناتهم، وكذلك الطاهرون دائما؛ لأن نفوسهم نظيفة يخافون أن تلوث، كما يخاف اللامس على ثوبه الطاهر؛ لأن أى دنس يشوه منظره، ويقبح مخبره، فالطيب المستقيم على حق دائما، وقوله تعالى: ﴿**لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا**﴾ اللام هى لام العاقبة، أى لتكون عاقبة هذا اليوم بالنسبة لهؤلاء الأطهار أن يكون جزاء حسنا لأحسن أعمالهم، وجعل سبحانه وتعالى الجزاء لأحسن الأعمال، والجزاء لهم على أعمالهم، وذكر الكلام بهذه الصيغة لبيان أن الجزاء مساو للعمل تماما، والله قد يزيد

على الأعمال رحمة منه وفضلا، ولذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ الرزق هنا هو الثواب الذى يزيد عن العمل، وهو فيض من رحمته، وفضل منه سبحانه، وقوله ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فيه إشارة إلى أنه عطاء غير مجذوذ.

أعمال الكفار ونتيجتها

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ
بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا
وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾
أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن
فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ
يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ
اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ
عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي
سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ
خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ

﴿وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾

وصف الله تعالى أعمال الذين كفروا الخيرة فى زعمهم وضرب لها مثلا، وأعمال الشر من عبادة الأوثان وما يتعلق بها من نيات، وقد قال تعالى فى آية أخرى فى وصف أعمال الخير فى نظرهم، فقال: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [آل عمران].

وأن الله تعالى ضرب مثلا فى هذه الآيات للأعمال التى يحسبونها خيرا كالعطاء عند الميسر وشرب الخمر، ويبنون عليها طلب الجزاء يوم القيامة، فإذا جاء لا يجدون، فشبهها سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ السراب هو ما يرى فى اشتداد الحر كالماء ويسرب ويجرى كالماء، وهو لا حقيقة له فى ذاته، ولكنه الظمأ يصوره للظمآن كأنه ماء، والقيعة جمع قاع وهو ما انبسط من الأرض لا زرع فيه ولا شجر، والمعنى أن الذين كفروا يعتمدون على ما يحسبونه خيرا فى زعمهم، وهو خير فى ذاته كصلة الرحم، ولكن لا قيمة له لعدم الإيمان، والنية الحسنة، ويحسبون به أنه خير قدموه وهو لا وجود له، فهو كالسراب الذى يحسبه الظمآن ماءً، ويسير حتى يجهده السير، ويسير ثم يسير، ويشتد فى طلبه حتى إذا جاء إلى ما ظنه عنده لم يجده شيئا، ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ﴾ ليحاسبه أشد الحساب، ﴿فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، أى أن الله موف الحساب من عذاب الجحيم، وقال: ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ للدلالة على تأكد وقوعه، أنه لا يتأخر حتى ينسى، ولا يتصور أن ينسى، بل يجىء سريعا مؤكدا ولا يمكن أن يهمل.

هذا تشبيه ما يظنونه خيرا، كما كانوا يفعلون من أعمال أى لا يريدون بها ما عند الله، بل يريدون التعاظم والتفاخر بها، ولا يحتسبون أنها مقربة لله؛ لأنهم كانوا يشركون به.

أما أعمالهم السيئة وتضافرها وتكاثرها، فقد كانت ظلمات بعضها فوق بعض، ولذا شبهها بالظلمات المتكاثفة، فقال: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (٤٠)﴾.

(أو) هنا لبيان الأعمال، وما اختص بعضها من تشبيه بالسراب، بأن كان يرجى منها الخير لو استقامت القلوب، وحسنت النية - فكانت كالسراب، وأعمال لا خير فيها، لا فى ذاتها، ولا فى نياتها، فكانت كالظلمات، فأمره هنا كأمره فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ... (٣٣)﴾ [المائدة]، فهى لبيان اختلاف الحكم باختلاف الجريمة، وهنا تدل (أو) على اختلاف التشبيه باختلاف حال العمل، من ظاهر الخير، وإن لم يكن بنية محتسبة بل بنية التفاخر، والتظاهر بالسلطان، إلى عمل كله شر فى ظاهره وفى نيته، ويحيط به الإثم من كل نواحيه.

﴿كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾: اللجى نسبة إلى اللجة، وهى الماء الكثير، فالبحر كثير الماء، عميق ممتلئ، لا يسبر غوره ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ﴾ يعلوه، ويستره ﴿مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ أى موج متراكب بعضه فوق بعض، فالبحر لجيٌّ فيه ظلمات، والموج المتراكب الذى يكون موجا كثيفا بعد موج مضطرب مصطفق، ومن فوق الموج سحاب معتم، وغيم شديد، فهى ظلمات بعضها فوق بعض، فظلمة اللجة، وظلمة الموج المتراكب، وظلمة السحاب، كل هذا يوجد ظلاما دامسا لا توجد معه رؤية صحيحة سليمة تكون طريقا للإدراك الصحيح، ولذا قال فى تكميل التشبيه، فقال عز من قائل: ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾، إذا أخرج يده من جيبه لا يكاد يراها،

مع أنها يده، وأخرجها من جيبه، والعلم بها متحقق؛ لأنها يده، وبعمله أخرجها، ومن مكانه فى ثيابه التى يلبسها، ومع ذلك لا يكاد يراها.

وخلاصة هذا التشبيه أن الله تعالى شبه حال الكافر فى أفعاله التى تدفعه إلى الباطل، وهى فى ذاتها باطل، وإن الباطل يدفع إلى باطل، فهو قد أشرك، وكان الشرك كبحر لُجيٍّ، ويدفع إلى أمواج من الباطل متكاثفة ويكون فوقها بسبب الشرك غمة تجعله فى ظلام دائم، حتى يصبح غير مفرق بين حق وباطل، وتنسدّ عليه مسالك الإدراك، كما يُسد على البصير النور فى الغمام، والأمواج واللجج.

وإن هذا التشبيه يصور لنا حال المشرك كيف تتكاثف عليه ظلمات الباطل، فالشرك يكون كلجة دخل بها فى بحر من الباطل لا حدود له، وكلما أوغل فيه ازداد إعتاما، وهكذا تتضافر أسباب إظلام الأمور على العقل، فكلما خطا خطوة انسد عليه باب الإدراك انسدادا، تبتدئ بعبادة غير الله، ثم بالذبح لغير الله، ثم بتحريم ما أحل الله وإسناد التحريم، ثم باستباحة ما حرم الله من الخمر وأكل الخنزير، وأكل الموقوذة، والنطيحة، والميتة، وهكذا تتكاثف الظلمة، حتى لا يرى حقا، ولا باطلا، ويكون لمن إذا أخرج يده لم يكد يراها، وختم الله الآيتان بقوله تعالى ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾، وهذا فى مقام التجريد للتشبيه؛ لأنه مناسب للمشبه به، وليس بمناسب للمشبه لأن المؤدي، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً﴾ يؤديه إلى الحق، كما كان من المشركين الذين أدت أفعالهم إلى ظلمات متكاثفة، ﴿فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ كان تشبيه ظلمات الكفر بالبحر اللجى، والذى يعلوه ويستره موج من فوقه موج من فوقه سحاب، موعزا إلى التفكير فى تكوين السحاب ونزول الأمطار، وبذلك الإيعاز الفكرى الذى يكون من آية إلى معانى تالية، ترتبط آيات القرآن الكريم فيكون بعضها آخذا بحجز بعض فى ارتباط عقلى نفسى، ولذا عقب هاتين الآيتين ببيان تسبيح الطير فى السماء فقال عز من قائل:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١)﴾.

الاستفهام فى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، إنكارى بمعنى النفى مع التنبيه إلى الحقائق لإدراكها، وهو داخل على نفى، وهو «لم»، ونفى النفى إثبات، والمعنى: قد رأيت أن الله يسبح له من فى السموات والأرض، ومعناها يقدسه ويخضع له ويسجد، أما تسبيحه فلأنه يدل على كمال الله تعالى، وتنزيهه عن مشابهة الحوادث، وأنه واحد أحد، وأنه صمد ليس بوالد ولا ولد، وأما السجود، فهو الخضوع الكامل لله تعالى.

والتعبير بـ (مَن) فى قوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ﴾ مع أن فيها ما لا يعقل؛ فلأنها كلها فى دلالتها على التسبيح أقيمت مقام العاقل؛ ولأن فيها عقلاء وغير عقلاء، غَلَّب فى البيان العقلاء؛ لأنهم أعلى مكانة من غيرهم كالملائكة، فإنهم أعلى من غيرهم، ومثل ذلك عقلاء الإنس والجن المهديون، وغيرهم.

﴿وَالطَّيْرُ﴾ لما فيها من إعجاز من أنها تطير، وتسير فى الفضاء من غير أن يكون سيرها على أجرام جامدة تتحمل ما يسير عليها، بل هى تسير من غير جرم جامد ثقيل تسير عليه، ولذلك خصها بالذكر لفضل ما تدل عليه من إبداع فى الخلق والتكوين، حتى كانت موضع درس للإنسان فأراد أن يقلدها، وتم له ما أراد فكانت الطائرات التى تقطع أجواز الفضاء، وسبحان من خلق كل شيء من غير مثال سبق، وقوله تعالى: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾، أى تطير فى الفضاء تسير صافات، أى فى صفوف متتالية ومتوازية، الأجنحة وراء الأجنحة، كما ترى فى أسراب الحمام وغيرها من الطير من انتقالها من مكان إلى مكان متآخية منتظمة فى صفوف، وذلك من إلهام العلى الخبير لها، والطير بالرفع عطف على ﴿مَن﴾ أى أن الطير تُسبح، كما يُسبح كل من فى السموات والأرض، وذكر مع ذلك إبداع الله تعالى خلقَها، وما ألهمها إياه، وما سخر لها من فضاء بالسير لمسافات.

إن فاعل (علم) يعود على الله تعالى أى كل فريق وطائفة، وخلق من خلقه - علم الله تعالى صلاته وتسبيحه، وقالوا: إن الصلاة تكون من العقلاء المهديين، والتسبيح بالخضوع والدلالة بالخلق والإبداع يكون من غير المهديين وغير العقلاء فهم فى صفهم، فهم كالأنعام، بل أضل سبيلا.

وبين الله تعالى بعد ذلك كمال سلطانه، فقال:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢)﴾.

الملك هو السلطان الكامل، والله تعالى له السلطان على السموات والأرض وحده؛ لأنه هو الذى خلقها، وما فيها ومن فيها، والنص الكريم يفيد الاختصاص بتقديم الجار والمجرور، أى له وحده السلطان الكامل فى الأرض والسماء فلا سلطان لوجود سواه، فالمعبودات التى يعبدونها من أشخاص، وأوثان وشمس ونار، كل هذه لا سلطان لها ولا شفاعة، بل السلطان لله وحده، وإن هذا السلطان يعلمه المؤمنون، وسيراه رأى العيان الكافرون، ولذا قال تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾، أى المآل والنهاية. وتقديم الجار والمجرور أيضا يفيد القصر أى يصيرون إليه، لا إلى أحد سواه، وعندئذ يلقاهم بأعمالهم والجزاء عليها.

بعد ذلك بين الله تعالى كيف يكون السحاب، وهم يرون هذا التكوين، وقد قلنا: إن ذكر البحر اللجى والأمواج المتلاطمة والسحاب توعز بإرادة تعرف خلقها، ولذا قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ (٤٣)﴾.

الزج السوق والدفع، ومنه قوله: ﴿... وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ ... (٨٨)﴾ [يوسف]، أى مدفوعة لا يقبل عليها أحد، والمعنى لقد رأيت أن الله يزجى... ونقول: الاستفهام فيه إنكارى للتنبيه، ونفى النفى إثبات، و(لم تر) جملة منفية لفظا، والمعنى لقد رأيتم أن السحاب والرؤية هنا علمية، أى لقد علمتم، فهم لم يروا بالحس أن الله يزجى سحابا، لكن علموا مما علمهم أن الله يزجى سحابا، أى يثيرها من بخار الماء، فيتكون من هذا البخار سحاب فيدفعه الله تعالى ويسوقه فى تجمعه حتى يصير ركاما، وإن ذلك لا يكون فور تكوين السحاب، إنما يكون بعد زمن، ولذلك كان العطف بـ «ثم»، فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾، ومعنى

(ركام) مجتمع بعضه يكون فوق بعض، ولقد قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الطور]، وإنه إذا تراكم السحاب، وصار بعضه فوق بعض كان المطر، ولذا قال تعالى: ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ﴾، والودق هنا المطر، يقال: ودقت السحاب فهى وادقة - إذا أمطرت - وقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ﴾ ينبئ عن أنه مطر ضعيف لا ينهمر انهمارا، ولا يكون وابلا؛ لأن الوابل تنحل فيه السحاب وتنهمر، ولا يكون ودقا يخرج خلاله من سحاب متراكم، ثم أشار سبحانه إلى الماء المنهمر بعد ذلك بقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾ السماء هنا ما علاك، ﴿مِن جِبَالٍ﴾ بدل اشتمال من السماء، أى ينزل مما علاك من جبال فيها من برد، وقد شبه السحاب المتراكم الذى يعلو طبقة فوق طبقة بالجبال لكمال تماسكها وتراكمها، وعلوها حتى صارت كالجبال فى منظرها، وما ركبت الطائرة التى تحلق ونظرت السحاب المتراكم حتى حسبته جبلا، أو جبالا، وإذا كان محمد ﷺ لم يركب طائرة تمر فوق السحاب، فيكون هذا من دلائل إعجاز القرآن، وأنه لم يكن من عند أحد من البشر، وقوله تعالى: ﴿مِن بَرَدٍ﴾، أى وينزل من الجبال التى تشبهها السحاب، أى ينزل من السحاب بعض البرد الذى فيها، والبرد هو كما قال الراغب فى المفردات، والبرد ما يبرد من المطر فى الهواء فيصلب، وبرد السحاب اختص بالذكر، وهذا قريب مما يقوله علماء الطبيعة من أن الماء يتبخر، فيكون سحابا، ثم يتكون من السحاب قطع صلبة هى البرد.

وتقريب القول بلغة الناس، وإن كان للقرآن المثل الأعلى فى البيان الذى لا يناهد، تقريبه هكذا. وينزل السحاب التى تشبه الجبال فى منظرها، وتكون (من) الثانية بيانية، أو تكون تبعيضية، أى ينزل منها بعض البرد، ونحن نميل إلى أنها بيانية.

وإذا كان ينزل المطر من البرد، فإنه لا ينزل إلا بما يشاء سبحانه: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾، فيصيب به من يشاء أى ينزل عليه، وعبر بـ (يصيب)، دون (ينزل)؛ لأن الإصابة قد تكون بالخير، وقد تكون بغيره، فقد يكون

المطر غيثا فيه كرم يغاث فيه الناس، وقد يكون غيثا مدمرا، وصرفا عمن يشاء، قد يكون سببا فى القحط، وقد يكون للدمار.

ثم وصف المطر فى انهماره بأن يكون فيه برق ورعد، وحيثما كان البرق فإنه يكون الرعد، وقال تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾، أى أن ضياءه الخاطف يكاد ﴿يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾، أى يذهبها، وعبر بالباء، للدلالة على أن البريق يأخذ الأبصار مصاحبا لها، فالباء للمصاحبة.

وذكر البرق ذكر للرعد؛ لأن البرق اصطدام سحابتين إحداهما موجبة فى كهربتها، والثانية سالبة فى كهربتها، فإذا احتكتا تولدت الشرارة فكان البرق، ومن هنا الاحتكاك كان صوت وهو الرعد، وهذا دليل على غزارة المطر، وكثرة انهماره، ثم ذكر بعد ذلك آية أخرى فقال:

﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ (٤٤)﴾.

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى قدرته وإنعامه على خلقه بالماء، بين نعمته فى الليل والنهار، فقال: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ والتقلب معناه أن يجعل أحدهما فى موضع قلب الآخر، وتقليب الليل والنهار يبدو فى أمرين:

أولهما: فى أن يكون الليل والنهار خلفة، فيكون أحدهما خلفة للآخر، فيسلخ الليل من النهار، والنهار من الليل فى نظام مستمر.

ثانيهما: أن يكون النهار أطول صيفا، وأن يكون الليل أطول شتاء، فى نظام مستمر لا يتخلف، قد يفسر العلم ظواهره، ولكن لا يستطيع تغييره ولا إنشاءه، فالعلم يحصى الوقائع، ولا يوجدها، ذلك تقدير العزيز العليم، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ﴾ العبرة فى مدلولها الخاص بمعنى الاعتبار، والمؤدى لها أن تأخذ من الحاضر المشاهد دلالة على الغائب غير المشاهد، فيأخذ المستبصر من رؤية تقلب الليل والنهار، وانتظامه بإحكام ودوامه دليلا على أن إرادة حكيمة متصرفة تفعل ذلك بتدبير وإحكام، وخص أولى الأبصار بالعبرة؛ لأنهم يدركون

ببصرهم ما يحسون وما يرون، ويدركون ببصيرتهم ما وراء هذا الذى يحسون به من قدرة باهرة.

الماء وأثره فى الوجود

قال الله تعالى:

وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن
يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ
وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ
ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ
ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ
يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ
أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾
إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ
أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن
يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾

ذكر الله سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة الماء فى تشبيه أعمال الكافرين، والماء العذب فى تكوينه، وذكر معه إنزاله على من يصيبه، ونعمته فى صرفه عنه إن لم تكن الأرض صالحة للزرع، حتى لا يكون غثيا[1] بدل أن يكون غيثا، فكان فى هذه الآية مبينا لنعمة الماء فى الحياة والأحياء بشكل عام كما قال تعالى فى كتابه العزيز: ﴿... وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ... (٣٠)﴾ [الأنبياء]، وذلك يعم الحيوان والنبات، والأشجار، من كل حى، وهنا يخص الأحياء من الحيوان، فيقول عز من قائل: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ وصدَّر الآية الكريمة بلفظ الجلالة للإشارة إلى اختصاصه بالعبادة؛ لأن لفظ الجلالة يتضمن معنى الألوهية، وكل ما يذكر بعد ذلك من خلقه يكون دليل ألوهيته سبحانه، فالمخلوق يدل على الخالق، وكذلك كل عبادة سامية لله جل جلاله، ودلت على الخلق يكون فيها هذا المعنى الجليل.

والدابة من دب يدب، واسم الفاعل الدابّ، وألحقت به التاء للدلالة على المبالغة، وهى تشمل الحيوان جميعا، فكل حيوان يدب على الأرض، ويسير عليها، بقدرة الله تعالى، وخلقها من الماء معناها أن الماء من الأسباب الجوهرية لحياتها بخلق الله تعالى وإرادته، والماء مصدر حياتها بإذن الله وتمكينه وجعله؛ لأن الماء رِيُّها، ولا يحيا الحى إلا بشربه، وغذاء الحيوان كله مما ينبت من زرع، ويغرس من أشجار فيها ثمار مختلفة، حتى الحيوانات آكلة اللحوم غذاؤها يعود إلى الماء؛ لأنها تتغذى من النبات، والحيوان كله آكلا ومأكولا من النبات، كما قال تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ... (٤)﴾ [الرعد].

فالحيوان من الماء، بل الأحياء كلها من حيوان ونبات من الماء، والفرق بين الحيوان والنبات أن النبات غذاؤه من الماء مباشرة، والحيوان يرتوى من الماء، ويأخذ غذاءه من النبات الذى كان تكوينه من الماء.

وبين سبحانه وتعالى تنوع خلقه فى الحيوان لبيان عدم التفرقة فى الخلق بين حيوان يمشى على بطنه زاحفا وبين حيوان على رجلين سائرا، وما يمشى على أربع،

---

(١) غَثْيًا، غثا السَّيْلُ المَرْتَعَ: جَمَعَ بَعْضَهُ إلى بعضٍ، وأَذْهَبَ حَلاوَتَهُ.

فقال عز من قائل: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ﴾ كالحيات والديدان، وغيرها من الزواحف، ومنهم من يمشى على رجلين، كالإنسان والطيور، ومنهم من يمشى على أربع كالإبل والبقر والغنم، والفيل، والذئب، والأسد والكلب، وهنا ثلاث ملاحظات:

أولاها: أن الفاء هنا للإفصاح، فهى بيان أو جواب لشرط محذوف.

الثانية: التعبير بـ ﴿مَّن﴾، وهى تشمل العقلاء، وغير العقلاء، وقالوا: إنها إذا كانت للعموم جاز التعبير بـ (مَنْ) عن الجميع، وذلك تعبير عن الأعظم، والأكمل حيوانية، كما يعبر عن الجمع الذى يشمل الذكور والإناث بلفظ الذكور.

ثالثها: أن من الحيوان من يكون ذا أرجل أكثر من أربع، ولم يذكر أو يُشَر إليه، والجواب عن ذلك أن ذا الأرجل الكثيرة مشير إلى أربع منها، فهو مذكور أو نقول إن الآية لم تذكر الكل، أو أشير بذكر الأربع سيراً للاطِّراد بالزيادة فذكر أولا ما لا رجل له، ثم ما له رجلان ثم ما له أربع، ثم بالإشارة ما له أكثر، وخصوصا أن الله تعالى ختم الآية بقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فإن ذلك يشير إلى أنه يخلق الأكثر من أربع كما يشاء، وهو قادر على كل شيء.

وهذه كلها آيات دالة على ألوهية الله جل جلاله وحده، وإنه لا يهتدى إلى الوحدانية مع قيام دلائلها إلا من سار على الطريق واستقام على الجادة، فيأخذه الله تعالى إلى الهداية، ولذا قال تعالى:

﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وهداية الله تعالى تكون لمن سلك طريق الحق وأبعد نفسه عن الضلالة، ذلك أن الله تعالى أودع فطرة الإنسان الاستعداد للحق والباطل، كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨)﴾ [الشمس] وقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠)﴾ [البلد]، أى نجد الحق، ونجد الباطل، فمن سار فى صراط

الحق فإن الله تعالى يأخذه إلى نهايته، ومن سار فى طريق الضلالة تركه إلى نهايتها، ولذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ له الهداية إذا اختار نجد الهداية ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، أى إلى طريق مستقيم هو طريق الحق، وهو أقصر طريق للهداية؛ لأن الخط المستقيم هو أقرب خط بين نقطتين، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ... (١٥٣)﴾ [الأنعام].

النفاق وضعف الإيمان

﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُوْلَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧)﴾.

بين سبحانه وتعالى الذين استضاءوا بنور الله تعالى وأقاموا الحق فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، وأشار إلى أعمال الذين كفروا، وأن ما يحسبونه خيرا منها يكون كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، وشرهم كظلمات فى بحر لجي، وهنا يبين سبحانه حال الذين لا يمس الإيمان قلوبهم، وتتردد به ألسنتهم، كالأعراب الذين قالوا آمنا ولم يؤمنوا، ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ... (١٤)﴾ [الحجرات].

يؤكدون إعلانهم الإيمان بأنهم يؤمنون بالله وبالرسول، ويؤكدون ذلك بالطاعة، والضمير يعود على المنافقين وضعاف الإيمان، وإن الأمر الذى يختبر به إيمانهم هو طاعتهم لحكم الله تعالى، وهؤلاء يبادرون بإعلان الطاعة بألسنتهم، وقلوبهم غير مؤمنة، ولا خاضعة لحكمه، ولا مذعنة لأمره سبحانه، وإنهم إذ يعلنون الإيمان بالله وبالرسول، ويقولون أطعنا ثم يتولى فريق منهم غير مؤمن للحق ولا مذعن له، ولذا يقول الله تعالى فيهم: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ يتولى أى يعرض غير مؤمن ولا مذعن، والتعبير بـ ﴿ثُمَّ﴾ للبعد بين ما نطقوا وحقيقتهم فى ذات أنفسهم، ولذلك نفى الله تعالى عنهم الإيمان نفيا مؤكدا، فقال: ﴿وَمَا أُوْلَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ أولئك إشارة للذين قالوا آمنا بالله وبالرسول، ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ﴾،

فالإشارة إلى هذا الفريق الذى أظهر الإيمان وأبطن الكفر، نفى سبحانه وتعالى عنهم الإيمان، وأكد النفى بالباء؛ لأن الإيمان يقتضى إذعان القلب وتسليم الفؤاد.

﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

هذا موضع الكشف عن ضمائرهم، وهو الخضوع لحكم الله ورسوله، وإذا دعوا إلى الله ورسوله، والدعوة إلى الله ورسوله، ليحكم بينهم، الضمير يعود عليهم، على أنه ضمير الواحد مع أنهما اثنان الله ورسوله، ولكن لوحدة حكمها، وأنه واحد، عاد الضمير عليهما بالواحد، وذلك كقوله تعالى: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ... ﴿٨٠﴾﴾ [النساء]، مع هذا الإيمان الذى أظهروه، والطاعة التى أبدوها يفاجأون بأن فريقا منهم يعرض، فإذا الفجائية تدل على المنافرة الشديدة بين ما يعلنون من إيمان وطاعة، وبين ما يظهر من حالهم من معاندة الأحكام وعدم خضوع لها، ووصف سبحانه إعراضهم مؤكدا له بالجملة الاسمية، وتصديره بكلمة (هم)، ووصفهم بالإعراض كأنه حالهم المستمرة، ولا علاقة بين ما أعلنوا وأظهروا، وبين ما أسروا وأخفوا.

هذا إذا كان الحق عليهم، أو كان مرددا بينهم وبين غيرهم، أما إذا كان الحق لهم، ويطمعون فى أن يكون حكم الشريعة لهم فإنهم يبادرون بالخضوع، ولذا قال تعالى فيهم: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

إن كان الحق بحكم الشريعة لهم، يأتون إلى النبى ﷺ مذعنين، أى خاضعين له غير مغيرين ولا مبدلين، وكأن الأمر على هواهم إن أيدت الشريعة ما يدّعون خضعوا لها، وإن لم تؤيد ما يدّعون يتولون معرضين، فهم لا يخضعون إلا لهواهم، وشهواتهم.

وإن الناس الآن، وقد هجروا حكم الشريعة يتنادون بها إن وافقت أهواءهم، وإن لم توافق أهواءهم أبدوا ما زين لهم من قوانين الغرب التى لم تقم على أساس

العدالة المجردة، بل قامت على أساس أعراف الحكام، وما يشتهى الناس، ولذا عطلت الحدود، وأضاعت حقوق الناس.

ولقد قال الله تعالى مستنكرا حالهم هذه:

﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

هذا استفهام توبيخى، وهو إنكار للواقع من أمرهم، والمرض الذى يصيب القلب إما النفاق، وإما ضعف الإيمان، فهو تشبيه للمرض النفسى من ضعف الإيمان بالحقائق وعدم الإذعان للأحكام الشرعية، بالمرض الجسمى الذى يضعف فيه الجسم، وقد تدرج سبحانه فى توبيخ مَن هذا حاله فابتدأ بضعف الإيمان والنفاق، ثم ثنى فى التوبيخ بأنهم واقعون فى الارتياب فى حقائق أصل الدين والإيمان، ثم قال سبحانه ما هو أعظم من ذلك فقال: ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، يحيف معناها يجور فى الحكم، ولا يجدون العدل عند الله ورسوله، وهذا انتقال من دركة إلى دركة فى التوبيخ، فوبخوا أولا بضعف الإيمان ومرض القلوب، ثم كان التوبيخ؛ لأنهم يرتابون فى الحقائق الإسلامية ثم كان التوبيخ الأشد؛ لأنهم يحسبون أن الله ورسوله يجوران، فكان ذلك ترقيا فى التوبيخ، حتى وصل أعلاه وهو الكفر البواح برمى الله تعالى بالظلم، وهم الظالمون، ولذا قال تعالى: ﴿بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ «بل» للإضراب ورد ما يومئ إليه حالهم، فهم الظالمون لأنفسهم بالضلال الذى اختاروه، وهم الظالمون لأنهم اختاروا الحكم الظالم، وتجانفوا عن الحق للإثم، وقد أكد الله تعالى ظلمهم بالجملة الاسمية، وبقصرهم على الظلم، وقصر الظلم عليهم، وبكلمة (هم) ضمير الفصل المؤكدة لظلمهم.

هذا مقال المنافقين وضعفاء الإيمان، أما مقال المؤمنين، فقد ذكره بقوله تعالت كلماته:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾.

بعد أن بين سبحانه حال المنافقين وضعاف الإيمان بين أقوال المؤمنين وأحوالهم، فقال سبحانه وتعالى عن أولئك المؤمنين: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ «إنما» للحصر وتدل على القصر، و«كان» هنا تدل على الدوام والاستمرار فى الماضى والحاضر والقابل، (وقول) خبر كان وقوله تعالى: ﴿أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ويكون مؤدى الكلام السامي، إنما كان قول المؤمنين المستمر الدائم، إذا دعوا إلى الله ورسوله، أى حكم القرآن والسنة، وهو حكم الله رسوله هو قولهم ﴿سَمِعْنَا﴾ دعوة الله ورسوله ليحكم بيننا ﴿وَأَطَعْنَا﴾ قولهما، ووحد الحكم وعاد الضمير عليهما بضمير الواحد؛ لأن الحكم واحد، إذا أمر الله رسوله به نفذه ودعا إليه، ولا قول لهم سوى ذلك، بل قولهم مقصور عليه، وهم مقصورون عليه لا قول لهم غيره، فلا مرض فى قلوبهم، ولا امتراء فى إيمانهم، ولا هوى يتحكم فيهم فيتبعون حكم الله إن صادف أهواءهم، ويعرضون عنه إن لم يصادف هذه الأهواء فهواهم هو الذى يحكمهم، لا الحق هو الذى يحكمهم.

وقد حكم الله تعالى لهؤلاء الذين قالوا: سمعنا وأطعنا بقوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، أى الفائزون، وقد فازوا بالحق؛ لأن الحق فى ذاته قوة واطمئنان وسعادة لمن ذاقه وعرفه، وهو اطمئنان النفوس واستقرارها وفازوا عند الله تعالى برضاه وهو أكبر الفوز، وأعظمه، والإشارة إلى أولئك المتصفين بالطاعة وسماع الحق والإيمان به والإذعان له، وهنا قصر واختصاص، وذلك بتعريف الطرفين أى أولئك وحدهم هم المفلحون، ولا فلاح لسواهم، وقد أكد سبحانه فلاحهم بالقصر.

وهنا نشير بكلمة موجزة عن حال المسلمين بعد ضعفهم، واستخذائهم، وركوب النصارى واليهود عليهم، لقد ارتضوا القوانين الأوروبية بديلا لأحكام القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، حاسبين أن ما عند النصارى هو الخير وما عند غيرهم لا خير فيه، حتى إنه لو دعا داع إلى أحكام الله ورسوله فى كتابه وسنة نبيه رموه

بأنه رجعي، وأنه يريد أن يعود بالأمة إلى الوراء، ويقولون تقدم الأمة أمامها لا وراءها.

وفى الحق: إننا إذا دعونا إلى تطبيق حكم القرآن والسنة، إنما ندعو إلى الحق فى ذاته وإلى العدل، وإن القرآن إذ يدعوهم بالحق والعدل فى ذاته الذى لا يفرق بين الناس، تدعوهم الأمة النصرانية إلى تحكيم الأعراف من غير نظر إلى كونه عدلا أو باطلا، ويقولون بل نتبع أعراف الناس، وما أشبه هذا بقول المشركين، بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، وإننا نترك حكم القرآن وهو النور، وهو الحق وهو العدل وهو الفضيلة، وهو حبل الله الممدود إلى يوم القيامة، ونأخذ بالأحكام التى تبيح الزنى وشرب الخمر والربا والسحت، وأكل أموال الناس بالباطل، وأحكام الله هى العدل كما تشهد الفطرة، وكما يشهد الإنصاف . . . نترك الحق ونأخذ بالجبت والطاغوت . . . فهل نحن مؤمنون!!.

إنه لا قوة لنا إلا إذا كنا عدولا فيما بيننا، ولا نكون عدولا حقا إلا إذا أقمنا كتاب الله وسنة رسوله، وتركنا وراءنا ظهريا تلك القوانين، فهى الطاغوت، وهى والفضيلة نقيضان لا يجتمعان.

وإن حكم الله تعالى الأخذ به من تقواه، والاعتصام بالعروة الوثقى، ولذا قال تعالى:

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

الواو عاطفة استئنافية، لبيان أن من يتقى الله ويخشاه هو الذى يفوز حقا، ونجد هذا الكلام فيه شرط وجزاء، والشرط مكون من أجزاء ثلاثة بعضها مترتب على بعض. أولها: طاعة الله ورسوله، بامتلاء القلب بالطاعة. بحيث يخضع له ظاهرا وباطنا، ويخضع قلبه مع خضوع كل جوارحه، وهذا هو الجزء الأول، أو النقطة الأولى من الخط المستقيم الذى يبتدئ بالطاعة، وامتلاء القلب، ثم ينتقل من الطاعة الخاضعة الخانعة إلى الخشية، خشية الله تعالى، إذ يعلم ذاته وصفاته، ويمتلئ بهيبته وطاعته، كما قال تعالى: **﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ... ﴿٢٨﴾﴾** [فاطر]،

ويقول الراغب الأصفهاني: والخشية خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك على علم بما يخشى منه، وقال تعالى في صفة العلماء: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ ... (٣٩)﴾ [الأحزاب].

وإنه يجيء بعد الخشية الخوف من الله واتقاء عذابه، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ﴾، فالتقوى جعل وقاية بين الشخص وعذاب الله تعالى، قال تعالى في وصف المؤمنين، ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧)﴾ [المؤمنون].

هذه أجزاء الشرط، أما الجزاء، فهو قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ الفاء فاء الجزاء، والإشارة إلى المتصفين بهذه الصفات الجليلة، والإشارة إلى موصوف بصفات تكون الصفات سبب الجزاء، فهذه الصفات سبب الفوز، والآيات تفيد قصر الفوز عليهم ونصرهم، وذلك لتعريف الطرفين، وقد أكد سبحانه وتعالى فوزهم بالجملة الاسمية، وبضمير الفصل (هم)، وبقصر الفوز عليهم.

استخلاف الله أهل الطاعة

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ

﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾

الجَهْد الطاقة، أو أقصى درجاتها، وجاء فى مفردات الراغب الأصفهانى فى تفسير آية ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾، أى حلفوا واجتهدوا فى الحلف أن يأتوا على أبلغ ما فى وسعهم، وعلى ذلك يكون معنى الجهد فى قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾، أى باذلين أقصى ما وسعهم من تأكيد القول، وباذلين فى اليمين أعلى درجاتها فى تأكيد القول، أى لا يتركون قولا يؤكدون به عزمهم وإرادتهم إلا سلكوه.

والضمير فى «أقسموا» يعود إلى جماعات المؤمنين، ويكون بهذا يدعوهم إلى ألا يقسموا بل يعملوا ويطيعوا، وعلى ذلك يكون المعنى عاما، وإن كان يشير إلى المنافقين وضعاف الإيمان، كأنهم مقصودون بالقصد الأول، والعموم مقصود بالقصد الثانى.

وأكثر المفسرين على أن الضمير يعود إلى المنافقين ومرضى القلوب ابتداء، ويكون تحذيرا للمؤمنين بعامة من أن يكون منهم مثل هذا الذى يحلف الأيمان الفاجرة، وقد رد الله تعالى هذه الأيمان، وقال سبحانه: ﴿قُل لاَّ تُقْسِمُوا﴾ وهذا فيه إيماء إلى أنها غير صادقة، وفيه تصريح بردها زجرا لهم؛ لأنهم بهذا يرتكبون إثْمين إثم التخلف عن الجهاد، وإثم اليمين الفاجرة، وإن بدل الإثم أن يتجهوا إلى الطاعة، ولذا قال سبحانه: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾، أى طاعة حقيقية مشهورة معروفة لا

مجال لإنكارها، ولا للتردد فيها، إذ هى قاطعة؛ لأنها ثابتة بالعيان لا بالقول مجردا، والقسم ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أى عالم علما دقيقا بما يعملون، أى بما يستمرون عليه من عمل يتفق مع إيمانهم أو لا يتفق، وإنه يعلم ما تبدون وما تكتمون، ولا يخفى عليه شيء فى الأرض، ولا فى السماء.

وننبه هنا إلى أمور ثلاثة:

أولها: أن قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ فقوله: ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ﴾ هى القسم، وهى تتضمن فعل الشرط، كأنه يوهم إلى أنهم لم يؤمروا مع أن الأمر عام يدخلون فيه إن كانوا صادقين، وهم كاذبون، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧)﴾ [التوبة]، والحديث عنهم بالغياب، لأنه بيان لقولهم وأحوالهم.

ثانيها: الانتقال إلى الخطاب فى أمر النبى ﷺ: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا﴾ لمواجهتهم بالأمر والتقصير والنفاق فى القول، والفجر فى الأيمان.

ثالثها: أن الضمير فى (وأقسموا) يعود إلى المنافقين أو إلى المسلمين عامة وفيهم المنافقون وضعاف الإيمان، ولكن لم يكن من قبل ذكر لهؤلاء إلا المؤمنين. ونقول فى الجواب عن ذلك: إن القرآن كان ينزل فى وسط جماعات تدعى إلى الإيمان فلم يكن مفصولا عمن يكونون بحضرة النبى ﷺ عند نزوله، وقد كانت الآيات ذاتها هى التى تعين مع مواقع الضمير، ففى مكة، كان النبى ﷺ يخاطب بالقرآن الكريم المشركين وهم الذين يعاندونه، فكانوا كأنهم حاضرون فيعود الضمير إليهم إذا كان فيه حكاية لعنادهم ومهاتراتهم، فلما انتقل إلى المدينة، فبعد غزوة بدر الكبرى ظهر النفاق، وبدت أنياب اليهود، فكانت المعاندة من المنافقين واليهود، وظهر ضعاف الإيمان الذين يعبدون الله على حرف، فكانت الآيات التى تشير إلى

معاندة، أو خور، أو نفاق، تعود على هؤلاء، ومعانى الآيات الكريمة تعين من يعيد الضمير إليهم.

ولقد أمر الله تعالى رسوله بأمرهم بالطاعة فى كل الأمور فى الحرب وغيرها من الطاعات، وما تقوم عليه الجماعات فقال:

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤)﴾

أمر الله تعالى نبيه أن يقول لهم ذلك؛ لأن هذا من تبليغ الرسالة، وهو وحده المبلغ، والله هو الذى يكلفه بالتبليغ، وإن الطاعة وحدها هى التى تكشف ما يختفى من نيات، وما يظهر من أمور قد تبين فى لحن القول، والمنافقون يعرفون فى لحن أقوالهم كما قال: **﴿... وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ... (٣٠)﴾** [محمد]، **﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾**، أى أطيعوا طاعة من صميم قلوبكم، لا من ظاهر أقوالكم، وذكر الرسول مع الله، للإشارة إلى التلازم بينهما، وإلى أن طاعة الرسول واجبة على الأمة، لكيلا يتململ اليهود، والمنافقون من إجابة الرسول، زاعمين فى نفوسهم الفاسدة الفصل بين طاعة الله وطاعة رسوله، فيعصون الرسول، ويحسبون أنهم يحسنون صنعا، والخطاب للمنافقين ومن فى قلوبهم مرض **﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾** هذا فعل مضارع حذفت فيه التاء الأولى، فى «تتولوا» حذفت لكيلا يثقل على اللسان توالى التاءات، أى فإن تعرضوا ولا تطيعوا وتخضعوا **﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾** من تكليف بالبلاغ، والدعوة إلى الجهاد والفضيلة، والعبادة الخالصة لوجه الله، **﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾** من الطاعة والاستجابة، والفاء هى الواقعة فى جواب الشرط، والفاء الأولى فى قوله تعالى: **﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾** تفصح عن كلام مقدر، أى إن استجبتم فقد آمنتم، وإن تتولوا فالعاقبة عليكم، ودل على هذا قوله تعالى: **﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾**، أى وهو البلاغ، أى ليس عليه إلا ما حمله وهو البلاغ، وقدم الجار والمجرور للدلالة على الاختصاص، أى عليه ما حمّل وهو التبليغ ليس عليه غيره، فهو لا يهديكم، ولكن يرشدكم ويدعوكم، ثم قال تعالى **﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾** من

إجابة للتبليغ، وقيام بحق الطاعة، والإخلاص، وإن لم تقوموا بحق ما حملتم ضل سبيلكم وخاب أمركم، ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ أى أن السبيل لاهتدائكم، ليست الأيمان التى تحلفونها، وإنما السبيل لذلك هو أن تطيعوا بملء قلوبكم، وخضوع نفوسكم، وليس ذلك إلا ما حملتموه، وما على الرسول أن تهتدوا، إنما عليه أن يرشد، ولذلك قال عز من قائل: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾، المبين الموضح للحقائق من غير مماراة، فإن الجدل وراء الجدل ضياع، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

وإن وراء الطاعة المخلصة، والجهاد أن تستخلفوا فى الأرض، ولذا قال سبحانه:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥)﴾.

بعد أن هاجر النبى ﷺ كان فى جهاد مستمر هو ومن معه من المؤمنين، فبين الله تعالى غاية هذا الجهاد أن يكونوا هم الذين يخلفون الكافرين فى السيطرة على الأرض والسلطان عليها، وكما ملئت الأرض فسادا تُملأ إصلاحا.

كان حال المهاجرين والأنصار جهادا مستمرا، لا توضع سيوفهم فى أغمدتها، والنبى ﷺ يدعو إلى الحق بلسان الحق من غير إكراه على إسلام، فإنه لا إكراه فى الدين، ولكن كان الجهاد ليعلم الرشد من الغى، ولإزالة المحاجزات التى كان يقيمها المتحكمون فى الناس، فما كانت الحرب إلا لإزالة هذه المحاجزات، ولكى يخلو الناس بوجوههم للدعوة الإسلامية، ومن اهتدى بعد ذلك فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ التعبير بالموصول للدلالة على أن الصلة سبب هذا المؤكد، والاستخلاف جعلهم خلفاء، والأرض هى أرض العرب وغيرها من أرض الفرس والروم، وما وراءها من المشارق، والمغارب، والسين والتاء

للطلب، وهما يفيدان تأكيد الاستخلاف؛ لأن الطلب من الله، وهو لا يتخلف، وتنصرفان إلى التأكيد المطلق، فجعلهم خلفاء فى الأرض لمن كانوا قبلهم، فخلفوهم فى السيطرة على الأرض، وكمال سلطانهم.

وقوله تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ اللام تنبئ عن قسم مضمر فى القول، فالله وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات بسبب إيمانهم، وعملهم الصالح فى الطاعات والمعاملات الإنسانية وعدهم سبحانه بأن يستخلفهم فى الأرض كما استخلف الذين من بعد نوح كعاد، وغيرهم خلفاء مسيطرين على ما فى الأرض، وقد أكد سبحانه وتعالى وعده بالقسم، وبنون التوكيد الثقيلة، وبالمشابهة بينهم، وبين من سبقوهم ممن جعلهم خلفاء فى الأرض.

وإن ذلك تبشير للمؤمنين الذين آمنوا واتبعوا محمداً ﷺ فى جهاده، وهو ماض إلى يوم القيامة، وليست الخلافة هى خلافة النبى ﷺ، ولكنها خلافة الله فى الأرض بمقتضى الفطرة الإنسانية التى قال تعالى فيها: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ... (٣٠)﴾ [البقرة]، فهى السلطان فى الأرض بمقتضى التمكين الإلهى.

ذلك أن النبى ﷺ ما إن جاء بدعوته إلى الهدى، حتى كانت مكة كلها تقاومه بكل أنواع المقاومة، ولهاميم(١) قريش تكيد له، ولما انتقل إلى المدينة ليدعو إلى دينه، وقد فشا ذكره فى أرض العرب، اضطر للجهاد، وأخذ يشق الطريق للدعوة فكان وعد الله تعالى، وهم فى هذا الجهاد، وعد الله بأن يكونوا الممكنين فى الأرض، وأن يكونوا مستخلفين فيها، وذلك الوعد يتضمن أمرين أحدهما: نصر مؤزر دائما ما داموا مؤمنين عاملين الصالحات، والثانى: أن يكون لهم السلطان، وأن يكونوا المسيطرين فى الأرض، وإن استخلافهم فى الأرض كان معه أمور أعزتهم وأعلتهم، ذكرها سبحانه فى قوله تعالى:

---

(١) اللهاميم: جمع اللُّهْمُومُ: الجَوَادُ من الناس والخيل. الصحاح للجوهرى: فصل اللام.

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ وهذا هو الأمر الأول، وهو أساس لما قبله ولما بعده، فالدين يمكن فيما بينهم، فلا يكون ثمة ما يسوغ ضعف اليقين، بل تبقى الحجة للقرآن وحده، ويدركه الناس فى دعة واستقرار، ولا يوجد إيذاء ولا استخذاء ولا استهزاء، ولا تهكم على المؤمنين، ولا يستطيعون كما فعلوا من قبل ﴿... وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ... ﴿٢٧﴾﴾ [هود].

والثانى بينه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾، أى يجعل الله تعالى من بعد الخوف المستمر من المشركين أمنا دائما مستقرا، وكان التنكير لبيان عظيم الأمن، وإنه أمن مستقر ثابت، ولقد قال النبى ﷺ: «ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون»(١)، وهنا إشارة بيانية فى قوله تعالى: ﴿دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾، أى الذى ارتضاه سبحانه واختاره لهم، ففى هذا إشارة أولا: إلى كمال نعمته عليهم بهذا الدين، وثانيا: بأنه اختاره وارتضاه لهم، وثالثا: بأنه الحق الذى لا ريب فيه.

وقال سبحانه مبينا خاصة هذا الدين الحق، وشعار الذين بدلهم سبحانه من بعد خوفهم أمنا، فقال: ﴿يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾، أى يعبدوننى وحدى فى عامة أمورهم، لا يشركون بى شيئا فى عبادة ولا طاعة ولا عمل، فعبادتهم له سبحانه وطاعتهم له وحده، فلا يطيعون حاكما ويتركون طاعة الله، وإذا خيروا بين عصيان الحاكم، وعصيان الله اختاروا عصيان الحاكم، فإن استمروا على ذلك استمر لهم السلطان فى الأرض.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، أى من كفر وخالف وعصى الله بعد التمكين والأمن والاستقرار ﴿فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، أى الخارجون الجائرون البائرون فلا يكون كفرهم مجرد جحود، بل هو الضياع لا محالة، واعتبر

(١) جزء من حديث رواه البخارى: المناقب- علامات النبوة فى الإسلام (٣٣٤٣)، أبو داود: الجهاد (٢٢٧٨). من رواية لخباب بن الأرتّ رضى الله عنه.

بحال المسلمين ـ فقد نالوا خلافة الأرض، وصار ملكهم فى مشارق الأرض، ومغاربها، وصاروا المسيطرين من الصين إلى بحر الظلمات، فلما فسقوا عن أمر ربهم صاروا قوما بورا، وإنه إذا كان ضياعهم لأنهم ضلوا واتخذوا القرآن قولا مهجورا، فعودتهم إليه فيها عودة عزهم.

وهكذا قد ابتدأ نور الحق يشرق، وفجر الإسلام يملأ نوره الآفاق، والله سبحانه وتعالى هو الهادي.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦)﴾.

إن الطريق لإقامة الاستخلاف على أساس من العدل والاستقامة والاتصال بالله تعالى يكون بثلاثة أمور مذكورة فى هذه الآية الكريمة.

الأمر الأول: إقامة الصلاة وقد أمر بها سبحانه فى قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أى صلوا صلاة مقومة تستشعر فيها جلال الله تعالى وكبرياءه، وتحس فيها أنك فى حضرة الله تعالى وكأنك تراه فى مثولك بين يديه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وهذه تربية روحية، واتصال بالله سبحانه وتعالى فيكون امرأ يألف ويؤلف.

والأمر الثانى: إيتاء الزكاة، أى إعطاؤها لولى الأمر، وهو يصرفها فى مصارفها، وهذا الأمر ذكره بقوله تعالى: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، عبر سبحانه بقوله: ﴿وَآتُوا﴾ دون «أدوا»، للإشارة إلى أنها عطاء يعطى، ويعطيها المزكى على أنها مغنم لا على أنها مغرم، وهى تعاون اجتماعى لا مذلة فيه لفقير، ولا استطالة لغنى.

والأمر الثالث: طاعة الرسول فى كل ما يأمر به وينهى عنه، وينظم به الدولة الإسلامية، ويقيم دعائم الحكم على أساس من العدل، وتنسيق الأمور، وهذا هو الأمر الثالث، وقد ذكره سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ وطاعته فى حياته باتباع أوامره فى تنظيم الدولة، وتوزيع قواها كلها، بحيث يتبع فى توسيد الأمور للقائمين بها، فى الحرب والسلم على سواء، وبعد مماته تكون طاعته باتباع ما أثر عن سنته فهى المحجة الواضحة، والطاعة للأمير الذى ينفذ الحق والعدل، ويقيم

حكمه على دعائم من القرآن كأبى بكر وعمر وعثمان وعَليٍّ، ولا يطيع الذين يخالفون الكتاب والسنة إلا فى طاعة الله، حتى لا تكون الأمور فوضى، ويضطرب ميزان الحق والعدل، وتعطل الحدود، ولا تقام الفرائض ولا تقاد الجيوش، ولا تسد الثغور، ولا يحمى الحمى.

ثم قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، أى رجاء أن ترحموا ببقاء العزة، وألا تكونوا نهبا مقسوما بين الأمم، وألا تتداعى عليكم الأمم تداعى الأكلة على قصعتها، والرجاء هنا من الناس لا من الله تعالى، فالله تعالى لا يرجو، لأنه عالم الغيب وما يكنه المستقبل.

وأشار سبحانه إلى أن الذين كفروا مأواهم النار وبئس المصير، فقال عز من قائل:

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾

بين الله تعالى فى الآيتين السابقتين أنه بالجهاد الدائم المستمر يكون للمؤمنين الصالحين الاستخلاف فى الأرض بوعد الله المؤكد، وبإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول والأئمة العادلين من بعده، وفى هذه الآية يبين سبحانه مآل المشركين الذين يحاربون الله ورسوله والمؤمنين، وكان الفصل بين الجملتين وعدم الاتصال بالعطف لكمال الاتصال بين موضوع الآيتين، فالآيتان السابقتان فيهما بيان ما للمؤمنين من منزلة وما تحلَّوا به من طاعة للرسول، والآية الأخيرة فيها بيان المخالفة والمعاندة، وفوق ذلك الآية الأولى تبين غاية الجهاد، والثانية حال الذين يجاهدهم المؤمنون.

والنهى عن الحسبان والظن، وهو فى معنى النفي، أى لا يصح لمثلك يا رسول الحق والتوحيد أن تظن أن الذين كفروا معجزين فى الأرض، بل جاهدهم وأنت الغالب، والله ناصرك، والعاقبة للمتقين الأبرار، لا للكفار الفجار.

والتعبير بالموصول وهو ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يشير إلى السبب فى نصر المؤمنين وخذلان الكافرين، وقوله تعالى: ﴿مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ﴾، أى أنهم غالبون فى الأرض لا يعجزهم شىء، فإن الكافرين يحملون فى نفوسهم عوامل عجزهم؛ لأنهم تسيطر عليهم الأهواء وهم بعيدون عن الحق، فمن غالبهم يغلبهم بعون الله تعالى وتأييده، والله يؤيد من يشاء بنصر من عنده.

وإن نتيجة الحياة الدنيا لهم أن يكونوا فى الآخرة فى جهنم، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ المأوى المكان الذى يأوى إليه المسافر أو العامل الكادح، فالتعبير عن النار بأنها مأوى فيه نوع من التهكم عليهم، و«بئس» لفظ يدل على الذم، والنار تذم لأنها عذاب، ولأنهم خالدون فيها، وقد أكد سبحانه الذم باللام، ﴿وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

الاستئذان فى داخل البيوت من الأهل

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ
ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ
وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ
وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى
بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾
وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ

الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ
نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ
غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠)

ذكر الله سبحانه وتعالى الاستئذان عند الدخول على بيوت غير بيوتنا فقال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ... (٢٧)**﴾ إلى آخر الآيات، ثم ذكر عفة الذين لا يجدون نكاحا، ثم ذكر سبحانه وتعالى نور الشريعة ونور الحق، وعاد بعد ذلك إلى ما ينبغي في أدب البيوت، وفي الشئون الداخلية، فإذا كانت الآيات السابقة في بيان استئذان الذين يدخلون غير بيوتهم، فهذه الآية في بيان استئذان الذين يعيشون في دار واحدة لبعضهم من بعض، فذكر سبحانه وتعالى وجوب الاستئذان في ثلاثة أوقات، هذه الأوقات هي أوقات التجرد من الثياب وكون الناس يكونون في حال لا يرغبون أن يراهم فيها أحد، فقال تعالى:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨)**﴾.

واضح من هذا أن هذه الآية وآية الاستئناس لم يردا على موضوع واحد، بل لكل واحدة موضوع؛ فالسابقة موضوعها الاستئذان للدخول في بيوت غير بيوت المستأنس، أما هذه فهي للأهل الذين يسكنون في دار واحدة، وهم مختلطون يدخل

بعضهم بيوت البيتوتة من غير حرج أو استئذان، فالآية تعلم الناس أدب الاختلاط، سواء أكانوا ذوى أرحام، أم لم يكونوا، فذكرت الآية الكريمة الآداب المبينة لما يحسن، وما لا يحسن، وما يليق وما لا يليق ﴿لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ ذكورا كانوا أو إناثا، فاللفظ عام ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ﴾، أى الأطفال المميزون، وذكر الذين لم يبلغوا الحلم ينبئ عن أنهم مميزون يستطيعون وصف ما يرون ويشاهدون وإذا كان هذا شأن الذين لم يبلغوا الحلم، فبالأولى لابد من استئذان من بلغوا الحلم، وقد صرحت الآية من بعد ذلك فقال تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

والأوقات التى ذكرتها الآية هى الأوقات التى يظن فيها العرى والتجرد من الثياب، فقال: ﴿مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ﴾؛ لأنه وقت امتداد الليل وإنهائه والاستعداد للصلاة، ومظنة ذلك أن يتجرد الرجل وأهله من ثيابهما، ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ﴾، أى حين تخلعون ثيابكم، من الظهيرة أى من الحرارة التى تكون فى الظهيرة، فهو وقت تجرد وعرى ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ﴾ فهو وقت التجرد لأجل النوم، ثم قال تعالى: ﴿ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ﴾، أى ثلاثة أوقات فيها تبدو عوراتكم وتكون ظاهرة، وتحبون أن تستتروا، وجعلت الأوقات عورات؛ لأن فيها تظهر هذه العورات فهى من تسمية الزمان بما فيه، فهذه الأوقات التى تكون العورات فيها مكشوفة، لا يصح التقحم بالدخول على أصحابها من غير استئذان حتى يستتروا، ويستعدوا للقاء هذا الزائر، وأحسب أنه لو كف أهل البيت عن الدخول إلا لضرورة ملحة، ويكون معها الاستئذان لا محالة، فإن ذلك يكون خيرا وهو الأجمل بأهل المروءة، وإنه بعد هذه الأوقات التى تكون مظنة كشف العورات ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ لا جناح عليكم، ولا جناح عليهم، الجناح هنا الإثم، والميل نحوه، أى لا إثم عليكم فى أن تدخلوا، ولا إثم عليهم فى أن تدخلوا عليهم، وفى هذا إشارة إلى أن الإثم يلحق الذين يكشفون عوراتهم ولا يتخذون الأستار، وقاية من أن تنالها الأعين ولو كانت بريئة، وفى ذلك دعوة إلى ضرورة اتخاذ أسباب

الستر، ولا تكون البيوت كبيوت أهل الخنا، وقال تعالى: ﴿بَعْدَهُنَّ﴾، أى بعد هذه الأوقات.

وبين سبحانه السبب فى رفع الحرج فى غير هذه الأوقات، فهؤلاء الذين ملكت أيمانهم، والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم يدخلون من غير استئذان؛ لأنهم طوافون مترددون فى البيت، ويكون حرج شديد إذا كان الاستئذان فى كل وقت، ويكون حرج على الأمهات إذا كان أطفالهن لا يدخلون إلا باستئذان وهم غير مكلفين.

وما ملكت أيمانهم عامة: أيراد بها كل من ملكت أيمانهم رجالا و نساء. إنه بمقابلة النصوص بعضها ببعض، وتخصيص بعضها ببعض يكون المتفق مع روحها، وألفاظها، أنه لا استئذان على الرجال مما ملكت أيمانهم من الرجال والنساء، لا إثم فى ذلك، ولا مظنة لعرى، وأما بالنسبة للنساء فإنه لا يدخل الرجال عليهن إلا بإذن، والإماء قد رفع عنهن الإثم، لأنهن طوافات على النساء (راجع ما قلنا فى تفسير آيات غض البصر) وإنه بمقتضى هذه الآيات يجب أن يكون فى غير هذه الأوقات مستورا دائما ولو كان فى بيته؛ لأنه إذا كان الاستئذان لمظنة ظهور العورة فى الأوقات الممنوعة إلا باستئذان، فمعنى ذلك أنه لا يصح أن يطلع على العورة إذا كشفت حتى الأطفال المميزون ما داموا لم يبلغوا الحلم، وعلى ذلك يجب ستر العورة لكى يكون الاستئذان ولا حرج.

وقال تعالى: ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، بعضكم بدل من طوافون، أى بعضكم يطوف على بعض. هذه أوامر هى تعليم من الله وإرشاد، وتوجيه إلى ما ينبغى فى بيوتهم، وكذلك قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، أى كهذا البيان فى ذكر ما هو لائق وما تكون عليه الأسرة يبين الله تعالى الآيات المتلوة ويوضحها لكم لتقوم الأسر على دعائم من الطهر، والمودة والرحمة، والله تعالى عليم بأحوالكم ظاهرها وباطنها، وحكيم فيما شرع ويأمر. فهو يبين لكم الأحكام، وما يليق بكل حال.

واللام فى قوله تعالى: ﴿لِيَسْتَأْذِنكُمُ﴾ هى لام الأمر، والأمر للوجوب إلا إذا كان ثمة ما يخرجها عن معنى الوجوب من نص أو قرينة حال.

وقد نص الله تعالى على حكم الأطفال الذين بلغوا الحلم:

﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

هذه حال الأطفال الذين يبلغون الحلم، وإنهم إذا بلغوا الحلم صاروا رجالا، وتسميتهم أطفالا باعتبار ما كان، كاليتامى فى قوله تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ... (٢)﴾ [النساء] وكان تسميتهم أطفالا فى داخل الأسرة؛ لأنهم كانوا يعاملون معاملة الأطفال، حتى طرأت هذه الحال، والرجال لا يعدون من الطوافين، ولكن يعدون من الداخلين على البيت الذين يجب عليهم الاستئذان قبل الدخول، ولو كانوا داخلين على آبائهم وأمهاتهم، حتى أوجب النبى على الرجل أن يستأذن على أمه بالنص منه ﷺ على ذلك، فإن الاستئذان يطلب من الرجال على كل حال، وقال الزهرى المحدث: يستأذن الرجل على أمه؛ وذلك لأن الرجال ليسوا من الذين يلازمون البيت، ويكونون من الطوافين؛ لأن هذا إنما يكون للمتخصصين للبيوت لخدمتها، والقيام بواجبات كالمملوكين.

ويبين الله تعالى حال القواعد من النساء، فقال عز من قائل:

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠)﴾.

القواعد جمع قاعدة بالتاء، وهى التى لا تحيض، ولا قدرة لها على العمل، ولا تستخدم عادة في البيوت، وقال بعض اللغويين: القواعد هنا جمع قاعد من غير تاء وهى قعود الكبر، وحذفت التاء ليكون الحذف مميزاً لها عن غيرها، كما حذفت التاء فى حامل فى حاملة لتتميز عن الحاملة على كتفها كحاملة الحطب.

وإن الآية واردة فى النساء القعود عن العمل فى البيت اللاتى لا يرجون نكاحا، أى لا يطمعن فى زواج؛ لأنهن من الكبر العاتى يجعلهن لا يرجونه، لهذه

السن، ولأنهن فى حال لن يقبل الناس على الزواج منهن، وهذه الأوقات التى تكشف فيها عورات غيرهن، لا عبرة لها عندهن، ولا تعد هذه الأوقات عورات لهن، وليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن، أى يلقين عن أنفسهن ثيابهن، كالخمار ونحوه، مما يتستر به الشواب اللائى يطمع فيهن، ويرجون النكاح لأنهن فى سن الزواج، وليس معنى ذلك أن للقواعد أن يتجردن من الثياب، ويكن فى البيت عاريات، بل المراد أنهن يضعن بعض الثياب التى يثقل عليهن حملها، ولذا كانت قراءة ابن مسعود (أن يضعن من ثيابهن)[1] أى بعض ثيابهن، والبعضية، وإن لم تكن (من) فى القراءات الأخريات ملاحظة فيها، وهى مفهومة من سياق القول.

وقد لاحظ الله تعالى فى القرآن ما يكون من بعض العجزة من رغبة شديدة فى الزينة ناسيات سنهن وما ينبغى لمثلهن، ولذا قال: ﴿**غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ**﴾ التبرج الظهور بالزينة، أى غير مظهرات الزينة، كأن الإسلام تسامح معهن فى الزينة، وإن لم تكن فى وقتها، بيد أنه لم يرض لهن إكراما لهن بأن يظهرن بها.

وقد فرض الله فيهن الرغبة فى الرجال، ولو كان وقتها قد فات، فقال: ﴿**وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ**﴾ السين والتاء للطلب، والمعنى: وأن يطلبن العفة خير لهن، وفى هذا تنبيه كريم إلى ما ينبغى لهن من غير أن يؤذى إحساسهن، وفيه تذكر بما ينبغى، وبما يليق بهن فى رفق قول، وقد ختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿**وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾، أى علم علما دقيقا هو علم من يسمع، وعليم، فهو محيط بكل شيء علما.

التعاون فى الأسرة

قال تعالى:

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ
حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا

---

(١) (أن يضعن من ثيابهن) ليست من العشر المتواترة.

مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٦١﴾

هذه الآية الكريمة واضحة فى بيان التعاون فى الأسرة فى المال وما توجبه النفقات، وكأن مال الأسرة شركة بينهم، وإنها شركة يفرضها التعاون، وسد حاجة المحتاج، بحيث يعطى الغنى القادر من فضل ماله ما يسد حاجة الفقير العاجز، وكأنه يسد حاجة نفسه، وبذلك تكون القرابة والمودة هى الرابطة بين الناس لا النظم التى تسلب الغنى ملكيته، والنبى ﷺ يقول: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفسه»[(١)]، ولا يطمع الفقير فى مال لم يكسبه، فيكون أخذه إياه اغتصابا.

وهذه الآية تقرر أمرين، هما ما يؤخذ بسبب القرابة من نفقة، وما يكون إباحة من ذى مال كصديق، أو رجل فاضل أعطاه مفاتحه، وعلى ذلك نقول: إن الآية اشتملت على أمرين، **أولهما**: نفقة القريب، **والثانى**: الأخذ من مال قد أبيح

---

(١) جزء من حديث حجة الوداع كما رواه أحمد: أول مسند البصريين- حديث عم أبى حرة الرقاشى (١٩٧٧٤).

له. وشرط الأمرين أن يكون فقيرا عاجزا عن الكسب؛ ولذلك ابتدأت بذكر ما يومئ عن العجز، والفقر، وقد كان الأمر بالأخذ لا جناح فيه ولا إثم إشارة إلى أن الإعطاء مودة ورحمة، وتبادل لها بين المعطى والآخذ، ونفى الجناح فيه إشارة إلى الاحتياج، بل الاضطرار.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾، أى ضيق أو إثم، وهذا فريق الفقراء العاجزين الذين يشترط فيهم مع الفقر العجز عن الكسب، ثم قال تعالى: ﴿وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ ولم يذكر فى هذا العجز، بل ذكر مطلقا عن العجز، فهذا يدل على أن العجز ليس بشرط بالنسبة لأنفسكم، والجواب عن ذلك هو شرط بالنسبة للجميع، إلا من يعتبر ماله هو ماله كالأب وولده والأم وولدها، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «أنت ومالك لأبيك»[1]، ﴿أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ ذكر البيوت مضافة إلى من يأخذ النفقة، فيه إشارة إلى تشابه بيت طالب النفقة والمطلوب منه، فهما كبيت واحد بالنسبة للمستحق للنفقة، إذ هو كبيته لما بينهما من قرابة أوجبت هذا التعاون.

﴿أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ﴾ ويلاحظ هنا ملاحظتين:

أولاهما: أن (أو) ليست للتخيير المجرد، إنما هى تدل على الترتيب الأقرب فالأقرب، فالأول الآباء، فإن لم يكن فالأمهات بأن كان الآباء عاجزين، وهكذا يتوالى الوجوب الأقرب فالأقرب بشرط أن يكون قادرا على الإنفاق على نفسه وغيره.

الثانية: أن هؤلاء الأقارب لوحظ أنهم أقارب ذوو رحم محرم منه تستحق النفقة، وبذلك اشترط الحنفية لاستحقاق النفقة على القريب أن يكون ذا رحم محرم منه، وعدوا الميراث مرجحا ولم يعدوه شرطا أساسيا، بحيث لو كان قريبان أحدهما

(١) سبق تخريجه.

ذو رحم محرم ووارث، يـرجح على الآخر إذا كان ذا رحم محـرم فقط، وإذا كان وارث كابن العم، وبنت الأخ لا نفقة على الوارث هنا؛ لأنه ليس ذا رحم.

والحنابلة جعلوا الميراث أساس وجوب النفقة لقوله تعالى: ﴿**وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ** ... (٢٣٣)﴾ [البقرة] ولأن الغنم بالغرم، فإذا كان يستحق ميراثه إذا مات، فعليه نفقته إذا احتاج، وكان عاجزا.

هذه هى النفقـة بين الأقارب، بقى بيـان الآخذ من المال الذى يباح للعـاجز، وقد ذكر سبحانه وتعالى حالين:

الأولى: ﴿**مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ**﴾، أى بتمكين من المالك، فـإعطاؤه المفاتيح دليل على الإباحة

الثانية: الصديق، فهو يأخذ نفقة من مال صديقه.

وإن الأخذ فى هاتين الحالتين لا يكون بإلزام قضائى، إنما يكون بتبرع شخصى من المالك ذى الصلة الوثيقـة، سواء أكان نائبا عنه فى إدارة أمواله، أم كـان صديقا بينهما خلطة تجعل المحبة بينهما مالهما مشتركا.

وقد قال تعـالى فى تأكيد معنى التعاون، وشـركة الأسرة: ﴿**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا**﴾ أى تأكلون مجتمعين، أو أشتاتا جمع شت وهو التفرق، أى تأكلون جماعات وفرادي.

وإن ذلك مظنة الدخـول فى بيت من تكون النفقـة منه، والاستـئذان حـينئذ واجب، ولذا قال تعالى: ﴿**فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً**﴾ فالسلام هنا سلام اسـتئذان، وقال: ﴿**عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ**﴾، أى أن بعضكم من بعض، فهم أنتم وأنتم هم ﴿**تَحِيَّةً**﴾ مصدر، أى يحـيى بهذا السلام ﴿**تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً**﴾، وكانت ﴿**مِّنْ عِندِ اللَّهِ**﴾ لأنه أمر بها ولأنها يحـفها رضا الله وبركته، وطيبهُ.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، أى كهذا البيان الواضح المبين المرشد، بين الله تعالى لكم الآيات المتلوة، أى يأتى لكم بينة واضحة هادية مرشدة ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، أى رجاء أن تعقلوا وتدركوا ما فيه خيركم وصلاح حالكم، وقيام جمعكم، والرجاء من العبد، أى أن الله تعالى قدم لكم ما يرجى به صلاح أموركم، واجتماع على الحق والهداية والتعاون

الإيمان الحق

قال تعالى:

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ
عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ
أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ
لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ
ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ
بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ
أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ
مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ
يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

ابتدأت السورة الكريمة بقوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١)﴾ وأنزل سبحانه وتعالى ما يكون وقاية للأسر، من عقوبات للزناة، والذين يرمون المحصنات الأطهار، ويريدون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا، وبينت أمرًا أهم المسلمين جميعا، وهو حديث الإفك، ثم تكلمت فى نور الإيمان وظلمات الكفر، ثم تكلمت على عورات الأسرة فى داخلها وحماية آحادها، وانتقلت السورة من حماية الأسرة إلى حماية الجماعة المؤمنة، وحمايتها بطاعة رسول الله ﷺ حيًا، وطاعة الإمام العادل الذى يخلفه بشورى المؤمنين، واختبارهم من بعده، فقال تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾.

﴿إِنَّمَا﴾ هنا أداة قصر، أى أن المؤمنين حقا وصدقا وحدهم دون غيرهم هم الذين يؤمنون بالله ورسوله، إيمان إذعان وتسليم، لا إسلام تردد أو تمرد، كضعاف الإيمان المنافقين الذين فى قلوبهم مرض النفاق وهو أشد أمراض القلوب، بل إنه داؤها الدوى، وأن يكون فى حال تظلهم، ولا يخرجون عنها، وهذه الحال التى عبر عنها سبحانه بقوله ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾.

أى إذا كانوا مع الرسول على أمر جامع لهم كشورى فى مصلحة تهم المؤمنين، أو دفع ضرر يعمهم إن وقع، أو مداهمة عدو يغير عليهم، أو الخروج لغزوات اضطرت الأحوال للخروج إليها كغزوة تبوك أو نحو ذلك، يجتمعون حوله لمبادلة النظر، ثم يذهبون إليه مجتمعين على كلمة الحق وأمر الرسول، وقد عبر الله تعالى عن ذلك بقوله: ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾، فإن هذا الكلام يتضمن اجتماعهم، كأنه مطوى كلمة اجتمعوا، ويكون سياق الكلام، ولكلام الله تعالى المثل الأعلى: وإذا كانوا معه على أمر جامع ودعاهم اجتمعوا له، ولم يذهبوا حتى يستأذنوه، أى يدخلون فى الأمر الجامع مجتمعين غير متفرقين، وقوله تعالى: ﴿لَّمْ

يَذْهَبُوا﴾ «لم» لنفى الماضي، وهذا دليل على أنهم اجتمعوا معه، فهو عطف نفى فى الماضى على اجتماع قبله.

وما حدود الأمر الجامع؟ حاول أن يضبطه القرطبى فقال نقلا من بعض الأقوال:

المراد به ما للإمام من حاجة إلى جمع الناس لإذاعة مصلحة من إقامة سنة فى الدين، أو لترهيب عدو باجتماعهم، وللحروب، قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ... (١٥٩)﴾ [آل عمران] فإذا كان أمر يشملهم نفعه وضره جمعهم للتشاور فى ذلك[1].

وخلاصة هذا القول والأقوال التى ساقها من بعد أن يكون أمرا عاما يجمعهم ليتشاور فيه معهم، إذ يكون له أثر فى الناس من بعد، ولعلاج حال قائمة، وإن النبى ﷺ كان يفعل ذلك كما شاورهم فى غزوة أحد، وفى غزوة الخندق وكما جمعهم لغزوة تبوك.

وكان خلفاؤه كذلك من بعده، فجمعهم أبو بكر لمقاومة الردة، وجمعهم عمر لتقسيم الأراضى بين الغزاة، أو بقائها تحت يد ولى الأمر العادل، وكما جمعهم لاستشارتهم فى خروجه بشخصه إلى الحرب، إذ تكاثر الفرس على المؤمنين، فأرادوا أن يخرج إليهم، فجمعهم، ونهاه علىّ، وبرأيه أخذ المجتمعون رضى الله عنهم أجمعين، وإن الاستئذان لا ينقص الإيمان، ولذا قال: ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ الفاء للإفصاح ﴿لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ بعض أحوالهم الخاصة بهم التى يجدون حرجا عليهم فى أن يذهبوا مع الغزاة أو يستمروا مع المجتمعين لأمر ما: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ الفاء واقعة فى جواب ﴿لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ ولا يشاء رسول الله ﷺ، والإمام العادل من بعده إلا ما هو خير ومصلحة، فيكون الإذن لمن لا يضر الإذن له، ولمن يعلم حاجته إلى التخلف، ولمن يعلم صدقه، ومن يأذن له يطلب الغفران له، ولذا قال تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ﴾ السين والتاء للطلب أى اطلب

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٢/ ٣٢٠.

المغفرة لهم، وظاهر النص أن طلب الغفران لمن أذن لهم، وذلك يومئ إلى أنه كان الأولى بقاؤهم مع المجتمعين على أمر يصح أن نقول: إن طلب الغفران لهم جميعا، ليكونوا جميعا في رحمة الله تعالى، وقد ختم الله تعالى الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ غفور يغفر الذنوب جميعا مع التوبة النصوح، فهو التواب الذى يقبل من عباده التوبة، وهو رحيم، والرحمة صفة من صفاته جل وعز، رحمهم بما بين لهم من شرائع منظمة لجموعهم، وحاكمة بينهم، ورحيم بغفرانه لما يجترحون من سيئات، ويتوبون بعد من قريب.

وقد بين الله سبحانه أدب الاجتماع مع الرسول فى الأمر الجامع، فقال عز من قائل:

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)﴾.

هذه الآية لبيان الحال الذى يجتمع فيه المؤمنون فى ﴿أَمْرٍ جَامِعٍ﴾، وصفه الزمخشرى بقوله «أنه خطب جليل لابد لرسول الله ﷺ فيه من ذوى رأى وقوة يظاهرونه عليه، ويعاونونه، ويستضيء بآرائهم ومعارفهم، وتجاربهم فى كفايته»[1].

وإنه فى هذا الاجتماع يجب أن تلاحظ مكانة النبى ﷺ، فلا يخاطب كما يخاطب أى شخص، والدعاء: النداء، وهو من إضافة المصدر إلى مفعوله، أى لا تنادوا الرسول كما ينادى بعضكم بعضا، واعرفوا حق الاجتماع من أدب القول، واجتماع القلوب، فلا ينفر أحدكم، ولا يتجانف، واعرفوا حق الاجتماع.

ثم قال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ «قد». للتحقيق، و«قد» لا تستعمل فى القرآن إلا للتحقيق، ولا تستعمل للتقليل ولا التكثير، وخصوصا بالنسبة لعلم الله تعالى، (يتسللون)، معناها يخرجون متدرجين فى الخروج واحدا بعد آخر، فهم يخرجون قليلا ﴿لِوَاذًا﴾، أى يلوذ بعضهم ببعض،

(١) الكشاف للزمخشرى: ٣/ ٧٨.

حتى يتكاثر جمعهم، وأولئك هم المنافقون الذين يشق عليهم اجتماع المؤمنين، ويشتد غيظهم، كلما رأوهم يتبادلون الأمر فيما بينهم، ولذلك كان أشق الأيام عليهم يوم الجمعة، إذ يجتمع المؤمنون فى المسجد يتشاورون فى أمورهم الحاضرة والقابلة.

ثم قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ الفاء للإفصاح، وهى تومئ إلى شرط مقدر، واللام للأمر، والأمر بالحذر يوجب العمل على الوقاية من شر المخالفة، والضمير فى ﴿أَمْرِهِ﴾ يعود إلى النبى ﷺ، والمعنى ليحذر الذين يخالفون رسول الله ﷺ صادين عن أمره ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. الفتنة هى اضطراب وانحلال الجماعة وتفرقها، والعذاب الأليم هو عذاب يوم القيامة، فمخالفة الرسول فى الأمر الجامع تؤدى إما إلى فتنة مردية، ولا يكون ذلك فى حياة الرسول، بل يحتمل أن يكون فى الأئمة من بعده كما كانت الفتنة فى عهد الإمام عثمان، والإمام على رضى الله عنهما، وانفلت الأمر إلى معاوية فكان ملكا عضوضا.

والعذاب الأليم للمنافقين الذين يفرقون فى الجماعة، ويشيعون عدم الثقة والفساد، يستقبلهم يوم القيامة كما يستقبل كل الكفار، مع ملاحظة أن النفاق ذاته عذاب لذوى النفوس المدركة؛ لأن المنافق يكون مضطربا دائما بين ما يخفيه وما يظهره، وما يناله، ولقد قال ﷺ فى بيان حال المنافق: «مثل المنافق كمثل الشاة الحائرة بين غنمين لا تدرى إلى أيهما تذهب» وهذا عذاب نفسى أليم.

لقد ذكرهم سبحانه بسلطانه فى السموات والأرض، وأن المآل إليه فقال:

﴿أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٤)﴾.

أكد الله سبحانه وتعالى ملكيته لكل ما فى السموات من نجوم وكواكب، وبروج مشيدة، وغيرها، وما فى الأرض من إنس وجن، وجبال ووهاد، وما فى باطنها من معادن جامدة وسائلة، وفلزات، وما فيها من بحار، فيها أحياء تثير العجب من إبداع الخلق والتكوين.

وكان الله تعالى يملكها ملكية مطلقة؛ لأنه خـالقها، ومبدعها، وهو يعلم كل ما خلق ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ... ﴿١٤﴾﴾ [الملك].

﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ «قد» للتحقيق والتأكيد كما هى فى القرآن دائما، وهذا فيه تبشير وترهيب، فهو يعلم ما أنتم عليه من خير وشر، وما تعتزمون، وما تعلنون به، فلا تخفى عليه خافية من أموركم، وهو مجازيكم بما يعلم وما تعملون.

﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾.

الفاء فى قوله تعالى كفاء جواب الشـرط، وكفاء الصلة، ويوم يرجعون ينبئهم التنبىء والإخبـار بالشئون الخطيـرة، وأى خطر أعظم من حساب يوم الـقيامة عـما عملوا فى الدنيا وجزائهم عليه من نعيم أو جحيم.

والتنبىء بما عملوا، جـعله حاضرا بين أيديهم، ويـجزون عليه جزاء وفـاقا، وختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء.

سورة الفرقان

تمهيد:

هذه السورة مكية إلا ثلاث آيات هى أرقام ٦٨، ٦٩، ٧٠، وعدد آياتها سبع وسبعون آية.

سميت سورة الفرقان؛ لأنها ابتدأت بذكر تنزيل القرآن على عبده، فقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ① ﴾، ووصف ذاته العلية بأنه الذى له ملك السموات والأرض، ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديرا، ثم ذكر شرك المشركين الذين اتخذوا مع الله آلهة لا يَخْلُقون، وهم يُخْلَقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا، ولا موتا، ولا حياة، ولا نشورا، وأنكروا القرآن الكريم مع عجزهم عن أن يأتوا بمثله، وقالوا: ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ④ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ⑤ ﴾.

ورد الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ⑥ ﴾، وتحدثوا فى جدلهم بالنبى وأنكروا أن يكون الرسول ﷺ من البشر: ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ⑦ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ⑧ ﴾.

وقد رد سبحانه افتراءاتهم فقال: ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ⑨ ﴾.

بعد ذلك بين الله سبحانه وتعالى قدرته بالنسبة لرسوله، فقال: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا (١٠) بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) ﴾، ويقال حينئذ ﴿ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤) ﴾.

وقد وازنت الآيات الكريمات بين نعيم المتقين، وعذاب الكافرين: ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (١٥) لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا (١٦) ﴾.

ثم ذكر سبحانه وتعالى حالهم يوم: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩) ﴾.

وقد بين سبحانه وتعالى أن المرسلين جميعا كانوا يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق فقال عز من قائل: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠) ﴾.

وقد ذكر سبحانه أنهم كانوا يريدون ملائكة: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا (٢٢) ﴾.

وقد بين سبحانه أن أعمالهم باطلة فقال: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤) ﴾ وقد ذكرهم سبحانه بما يكون يوم البعث، ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا (٢٥) ﴾.

وإنه بعد البعث السلطان ظاهرا وباطنا لله تعالى وحده: ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً (٢٩) ﴾.

بعد ذلك ذكر الله سبحانه وتعالى موقف الرسول من هؤلاء الكافرين ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠) ﴾ ويبين سبحانه أنه يجعل لكل نبى عدوا من المجرمين: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١) ﴾.

ولقد كان المشركون لا يؤمنون بالقرآن، ولكنهم يثيرون الشكوك حوله ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ وقد بين أن ذلك لتثبيته فى القلوب، ولإنزاله مرتلا، وتحفيظه مرتلا، ولذا قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) ﴾ وقد ذكر سبحانه أوصافهم عند الحشر ﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٣٤) ﴾.

وقد أشار سبحانه إلى بعض قصص موسى وهارون: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَرُونَ وَزِيرًا (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) ﴾.

وذكر سبحانه من قصة نوح، وإغراق الكافرين من قومه، وقال ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩) ﴾، وقد بين سبحانه بعدُ أنهم أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء، أفلم يكونوا يرونها، بل كانوا لا يرجون نشورا، وبين سبحانه سوء معاملة المشركين للنبى ﷺ فقال: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (٤١) إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن

صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٤٢﴾ ﴾، ولقد ذكر سبحانه أن دينهم أهواءهم، فقال ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٤٤﴾ ﴾.

وبين الله تعالى من بعد مظاهر الإبداع فى خلقه وتكوينه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ ﴾ وبين الله تعالى إنذاره لخلقه ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾، ثم بين سبحانه الإبداع فى خلقه ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ ﴾، ثم أشار سبحانه إلى الإبداع فى تناسل الإنسان، وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا .

ومع هذا الإحكام فى الخلق، والإبداع فيه ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾.

وبين سبحانه مقام محمد ﷺ فى الرسالة وواجبه فقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾.

ووصف سبحانه بعد ذلك عباد الرحمن، ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى

الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) ﴾.

وقد بين الله جزاء من يتصفون بهذه الصفات ﴿ أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧) ﴾.

معانى السورة

قال تعالى :

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا
﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ
يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾
وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ
وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا
وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ
ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا
﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ
عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ ﴾ أصل ﴿ تَبَارَكَ ﴾ من البرك وهو صدر البعير، ثم صارت البركة تطلق على كل خير مـلازم ثابت، ومنه البركة بكسر الباء تطلق على الماء الثابت، والماء فى ذاته بركة وخير .

وتبارك ـ معنـاها التنبيه على ما فى القـرآن من خير لا زم مستـمر، لا تبلى جدته أبدا، فالبركة فى القرآن، ونسبتـها إلى الله تعالى لأنه مصدرها، وموجدها، فالله تعالى تسامت بركـته بإنزال القرآن لعباده، وتعريفهم بما اشـتمل عليه من بيان العقائد والأحكام.

و﴿عَبْدِهِ﴾ هو محمد ﷺ، فالله تعالت كلماته أنزل القرآن على عبده، ليبلغه لعباده من العالمين، وليكون نذيرا، أى منذرا مبينا، وهو بشير ونذير، ولكن ذكر النذير فقط لأن كثرة الذين تلقوه كانوا مستحقين للعذاب، إذا استمروا فى غيهم وضلالهم، ولذلك ذكر الإنذار، وترك التبشير للآيات الأخرى من غير إهمال فهو الجانب الأحب فى ذاته.

والفرقان هو القرآن، وسمى الفرقان لأنه فارق بين الحق والباطل، والهداية والضلال، والعدل والظلم؛ ولأنه نزل مفرقا منجما، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْث .. (١٠٦)﴾ [الإسراء] ، وذكر الزمخشرى أن القرآن سمى فرقانا لتفرقته بين الحق والباطل، أو لأنه نزل مفرقا، وأرى أنه لا مانع من الجمع ففيه الأمران فهو مبين للحق والشريعة، وقد نزل مفرقا، فهما ليسا وجهين مختلفين، بل فيه الأمران.

و (العالمون) العقلاء من الجن والإنس المكلفون أحكامه، والمطالبون بتنفيذها.

وبعد أن أشار سبحانه إلى بركته وخيره، ونمائه، شرّفه بمُنْزله، وهو الله خالق السموات والأرض فقال:

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢)﴾.

هذا شرف للقرآن ناله، من أن منزله هو منشئ هذا الكون الذى لا يشبه أحدا من الحوادث، ولا يشبهه شىء فى الوجود، ﴿الَّذِي﴾ بدل أو عطف بيان للذى الأولى فى قوله تعالى: ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ﴾ وذكر هذا بعد ذكر إنزال القرآن للدلالة أولا على شرف القرآن بإضافته إلى من له الملك فى السموات والأرض، ويبين أن إنزال القرآن من تدبير صاحب الملك لملكه، لإصلاح عباده وإرشادهم به.

والملك هو السلطان وهو مطلق لله تعالى لا سلطان لغيره، وهو قَيِّم السموات والأرض، فالنجوم لا تسير إلا بسلطانه، وكل ما فيها من شمس وقمر، ونجوم مسخرات بأمره وحده، وكذلك الأرضون، كل ما فيها من جبال ووهاد وبحار ونجاد وحيوان وجماد ومعادن وفلزات وغيرها كله مسخر بأمره.

وصف الله سبحانه ذاته العلية بصفتين سلبيتين، وصفة إيجابية تدل على إثبات السلب، الأولى قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾، وذلك رد على النصارى الذين ادعوا أن عيسى ابن الله، وعلى الهنود والبوذيين الذين أخذ منهم النصارى هذه النحلة، وعلى الذين يعبدون الملائكة، ويقولون إنهم بنات الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ أى لم يجعل له من بين خلقه مَن يتخذه عونا ونصيرا، والنفى بهذه الصفة يحمل فى نفسه بطلان الاتخاذ، لأن الاتخاذ يدل على الحاجة، والله تعالى لا يحتاج لأحد من خلقه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥)﴾ [فاطر].

الصفة السلبية الثانية قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ هذا نفى مطلق، لأنه لو كان له شريك فى الملك ما استقام الكون، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢)﴾ [الأنبياء].

الصفة الثالثة وهى الإيجابية، وتتضمن فى معناها برهان السلب فى السلبيتين، وقد بينها سبحانه بقوله تعالى ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾، أى أنشأ كل شىء إنشاء مقدرا بإحكام، هو تقدير العزيز العليم، فالسماء ذات بروج، والمطر ينزل فينبت الزرع، والحيوان يأكل مما تنبت الأرض، وهكذا يسير الكون بقدرة الله العلى القدير، وتتفاعل الأشياء بعضها من بعض بإرادة الله تعالى العزيز الحكيم.

ومع هذا تضل العقول فى معرفة الله تعالى، وفى الخضوع له وفى عبادته، فقال:

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا ﴾.

ومع أن الله الذى خلق السموات والأرض وصاحب السلطان المطلق، وخلق كل شىء فقدره تقديرا فَجَرَ المشركون وجحدوا واتخذوا من دونه، من غيره ما هو دون فى ذاته آلهة، وسميت الأحجار آلهة على زعمهم لأنهم يعبدونها من دون الله سبحانه وتعالى. والضمير فى ﴿ وَاتَّخَذُوا ﴾ يعود على المشركين، لأنهم حاضرون فى مواجهة النبى ﷺ.

ومعنى اتخذوا من دونه آلهـة أنهم آثروا على عبادة الله عبادة آلهـة عاجزة، وهذا الاتخاذ إفك مبيـن كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا .. (١٧) ﴾ [العنكبوت]، فالحجارة ليست آلهـة، ولكنهم خلقوا إفكا فسموها آلهة، وقد خلقوا إفكا من ناحية تسميتـها آلهة، وهم يصنعونها بأيديهم، فتكون الصناعة على أنها آلهة إفك، وانتحال اسم الآلهة لها إفك أيضًا.

وقابل سبـحانه بين الهداية والضلال، فـالهداية عبادة الله، والضـلال عبادة هذه الأحجار، فـذكر أن الله خالق وأن هذه الآلهة لا تخلق شيـئا، وهى فى ذاتها مخلوقة، فقال : ﴿ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ وأعاد الضمير عليها بضمير ما يفعل مسايرة للذين يعبدونها افتراء على أنفسهم

وفوق أن هذه الأحجـار مخلوقة لا تملك ضرا ولا نفعا، فـهى لا قدرة لها على شىء ضار أو نافع، وعبَّادها أقدر منها ، وبين سبحانه وتعالى أنها على حال جامدة مسـتمرة لا تحيى ولا تميت، ولا تبعث ولا تنشر، فهى خـالية من أى صفة من صفات الإله المعبود، وقال سبحانه: ﴿ وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا ﴾ إن هذه الآلهة لا تسـتطيع دفع ضرر، ولا جلب نفع، ولذا قـال سبحـانه وتعالى فى وصفها ﴿ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا ﴾.

قال سبـحانه: ﴿ لا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا ﴾ ولم يقل لا تميت ولا

تحيى ولا تبعث؛ للإشارة إلى أنها ليست ميتة ولا حية فى نفسها، ولا تبعث ولا تنشر، فهى لا تملك الحياة لنفسها، فلا تملكها لغيرها، فهى جامدة ليست لها حياة، ولا تحيى، وهى لا تسمى ميتة؛ لأن الموت إنما يكون لحى، ولا تملك نشورا، فلا تنشر؛ لأن البعث والنشور للأحياء الذين يحاسبون، ويلقون فى الجحيم، أو يجزون بالنعيم.

هذه حال المشركين فى عبادتهم وأوهامهم، وقد جاءهم القرآن بالبركة الروحية والنماء المعنوى فهل اهتدوا بهديه !

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾.

وقد أظهر هنا، ولم يذكر الضمير مجردا كالآية السابقة؛ لبيان أن الصلة هى السبب فى هذا القول، فالقرآن لم يكن إفكا فى ذاته، فقد تحداهم أن يأتوا بمثله فعجزوا وببعضه فعجزوا، وبأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، وحصروه فى الإفك فلم يقولوا: إفك بل يحصرونه فى الإفك فى قولهم ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ (إن) هنا نافية فهنا نفى وإيجاب، أى ما هذا إلا إفك افتراه، أى كذب قصد إلى افترائه، وقد أوغلوا فى الادعاء البهات الكذب فقالوا: ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ والقوم الآخرون هم ناس كانوا من الروم بمكة، وقد قال تعالى فى رد كلامهم : ﴿ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾ [النحل]، وقد وصف الله تعالى فعلهم بقوله: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ (جاءوا) بمعنى أتوا، فيقال جئت المكان وأتيته، الفاء للإفصاح، أى فقد أتوا ظلما بهذا القول، لأنه كفر وشرك، ﴿ .. إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان]، (وزور) أى كذب يبهت السامع لأنه غريب فى أنه لا أصل له، وقد نكَّر - ظلما وزورا - للإشارة إلى عظمة هذا، وكبر هذا الزور، إذ إنه غير معقول فى ذاته بالنسبة لمحمد ﷺ إذ عاش بينهم أربعين سنة قبل الرسالة، واشتهر بالصدق والأمانة، حتى كان الأمين، وقد قال تعالى حكاية.

﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ .

الضمير يعود إلى المشركين الذين اتخذوا مع الله آلهة أخرى؛ لأنهم حاضرون فى ذهن أهل الإيمان دائما بجدالهم المستمر، وعنادهم وملاحاتهم للنبى ﷺ، ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ جمع أسطورة، كما قال الزجاج، وهو أخبار السابقين التى تذكر عنهم فى السمر والمجالس، وليس لها أصل صحيح، إنما تكون لتزجية الفراغ، وهذا فيه سخرية بالقرآن واستهانة به، وبث الاستهانة عند القارئين له والسامعين ﴿اكْتَتَبَهَا﴾ هذه صيغة الافتعال من الكتابة، أى كتبها وجوَّد كتابتها، وهذا كلام يحتمله معنى اكتتبها، وقيل إن معناها أنه طلب كتابتها من غيره، لأنه أمى لا يقرأ ولا يكتب ﴿فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ ، أى تلقى عليه ليكتبها، أو يقرؤها عليه من يكتبها، وأصل تملى تملل قلبت اللام الثانية ياء، وعلى أى حال يملل ويملى بمعنى واحد، وهما مترادفان.

وهؤلاء الكافرون لفرط استهانتهم افتروا على النبى ﷺ ثلاثة أمور:

أولها- أنه إفك مفترى، وقد ذكره سبحانه فى الآية السابقة.

والثانية- أنه أساطير الأولين، وأحاديثهم المفتراة.

والثالثة- أنها تملى عليه فيكتبها، أو تملى على النبى ﷺ إملاء، فيحفظها.

وقبل أن ننتهى من القول فى هذه الآية نقول: إن الراغب الأصفهانى فى مفرداته قال: إن اكتتب تكون لكتابة ما هو مختلق لا أصل له، فتكون فى كلمة اكتتب اتهام رابع بالافتراء والاختلاق، ومعنى بكرة وأصيلا، أى فى الغدوة والأصيل، أى أنه يملى عليه طول النهار فى أوله وآخره، والأصيل ما يكون قبل الغروب، وبعد الظهيرة .

وقد أمر الله تعالى بأن يرد قولهم بقوله:

﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

الأمر للنبى ﷺ، وقد كان الرد الذى أمر الله تعالى به نبيه ليس مجاراة لهم، ولكنه بيان لافترائهم بإثبات نقيض الافتراء، وهو أن الذى أنزله على محمد ﷺ هو الله الذى يعلم السر فى السموات والأرض، وهذا دليل إيجابى يثبت نقيض ما يفترون من ثلاثة وجوه.

أولها ـ أن الذى يعلم السر فى السموات والأرض يعلم ما خفى، وما خلق وما أنشأ، وليس بغريب عليه أن ينزل قرآنا كريما فيه الدليل القاطع على رسالة محمد ﷺ، وإن السر الذى فى السموات والأرض فى خلق كل منهما وارتباط كل واحدة بالأخرى، وما يربط النجوم بعضها ببعض من جاذبية شديدة تجعلها بناء واحدا، وإمساك الله تعالى للسموات أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكها أحد من بعده.

ثانيها ـ أن من يعلم سر السموات والأرض يستلزم أنه أوجدها، ومن أوجد السموات والأرض ليس بغريب عليه أن ينزل قرآنا هو دليل رسالة محمد ﷺ، ومعجزته الكبرى.

ثالثها ـ أن الذى يعلم السر فى السموات والأرض يعلم كل شىء، فهو الذى يعلم نبيه القرآن، ولا يحتاج إلى من يملى عليه بكرة وأصيلا.

وننبه هنا إلى أمرين: أولهما – الدليل الذى يدل على أن الله تعالى هو الذى أنزله، هو العجز بعد التحدى الشامخ.

الأمر الثانى – أن الله تعالى الذى يعلم السر فى السموات والأرض فقال المفسرون: إنه ذكر السر، ومن يعلم السر يعلم بالأولى الظاهر البين، وذلك كلام حسن فى ذاته، ولكن بدر إلينا أن معرفة السر فى السموات معناه السر فى ارتباط أجزائها، وبنائها من غير عمد، وذلك وحده دليل القدرة الباهرة، وإشارة إلى التكوين العجيب فى صنعه، وختم الله تعالى الآية بفتح باب التوبة فقال: ﴿**إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ ، أى أنه سبحانه وتعالى يغفر للتائبين ويرحمهم.

الرسول من البشر

قال تعالى:

وَقَالُوا
مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ
لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ
إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ
ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرۡ
كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ
سَبِيلٗا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ
جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا ﴿١٠﴾

الضمير فى (قالوا) يعود إلى المشركين وهم حاضرون يعاندون ويفتح على النبى ﷺ، وكان ضلالهم أن ظنوا أو توهموا أن النبى لا يكون بشرا، وإن كان بشرا يكون من أعلاهم مادة وسلطانا، وهم أو من يحوطون بهم، ويلوذون بملاذهم .

قالوا مستغربين: ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾ .والمعنى: أى شأن لهذا الرسول يؤهله لمكانة الرسالة من الله حال أنه يأكل الطعام كما نأكل، فليس ملكاً من الملائكة، بل هو بشر يأكل الطعام، وليس ملكا تصل إليه حاجاته بخدمه وعبيده، بل إنه يعيش باحثا عن رزقه وحاجته ككل الناس، فلا امتياز له على أحد، فكيف يكون رسولا .

﴿لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾، أى هلا أنزل منضما إليه ملك ﴿فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾، الفاء فاء السببية التى ينصب الفعل بعدها، ومعنى السياق هلا ضم إليه وأنزل من عند الله ملك، فيكون معه منذرا.

﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا﴾

تدرجوا فى الادعاء من أعلى إلى أدنى فاشترطوا لاتباعه أن يكون منضما إليه ملك ليكون معه نذيرا، فيكون الملك شاهدا بصدق الرسالة، ومن قبل طلبوا أن يكون معه قرطاس، أو أن يكون الرسول ملكا، وقد رد الله تعالى كلامهم، وأنهم لا يؤمنون ويقولون هذا سحر مبين، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝﴾ [الأنعام].

وقد نزلوا عن اشتراط أن يكون معه ملك إلى أمر آخر يمنع أن يمشى فى الأسواق بأن يغنيه عن ذلك شأن الكبراء، بأن يلقى إليه، أى يعطى كنزا يغنيه، وعبَّر عن إعطاء الكنز بكلمة يلقى إليه للإشارة إلى أن هذا العطاء لا يكلف من أرسله شيئا؛ لأنه إلقاء من خزائن الله تعالى، وقد كانوا يعرفون الله ولا يعبدونه، فيعرفون أن معه خزائن السموات والأرض، ويكون بهذا الكنز كملوك أهل الأرض فلا ينزل إلى الأسواق كما ينزل دهماء الناس والفقراء.

وتنزلوا من مرتبة الملوك إلى مرتبة أتباعها وحواشيهم، الذين يمنحهم الملك الحدائق والمزارع؛ فقالوا: ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ ، أى بستان يغنيه بثماره وغلاته، فيأكل منها بدل أن ينزل الأسواق.

وإن هذا بلا ريب نظرات ناس ماديين لا يؤمنون بالروح، ولا بالمعانى الإنسانية العالية، إنما يؤمنون بالمادة وحدها، والعلو عندهم بالسيطرة الممكنة من لذائذ هذه الحياة، إما بملك قاهر، أو بمتع يلقيها إليهم ملوك قاهرون.

ولكنهم يرون فى محمد ﷺ ما ليس عند الملوك وحواشيهم، يرون القرآن

الذى عجزوا عن أن يأتوا بمثله، ورأوا أتباع محمد ينمون ولا ينقصون، ورأوا ميل بعض كفارهم إلى سماع القرآن وما يدعو إليه محمد ﷺ .

رأوا ذلك، ولم يستطيعوا دفعه، ولكن بدل أن يذعنوا للحق إذ تبين لهم، ادعو أن ما يجىء به هو السحر، فظلموا ظلما كبيرا .

﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾ .

هنا إظهار فى موضع إضمار، وذلك لوصفهم بالظلم أولا، ولبيان ظلمهم وعدم إرادتهم الحق هو الذى رفعهم إلى رمى النبى ﷺ بالسحر، وهو يتكلم عن الله تعالى: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ إن هنا نافية، أى لا تتبعون إلا رجلا مسحورا، أى ينطق على لسانه الحق، وهذا يومئ إلى أنهم رأوا عجائب فبدل أن يقولوا إنها من عند الله قالوا: إنه مسحور ينطق على لسانه الجن والشياطين.

وفى الآية الكريمة إشارة إلى أنه كان من أهل مكة من يريدون اتباع محمد ﷺ، وقد اتبعه من اتبعه .

﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾ .

الخطاب للنبى ﷺ، و ﴿ضَرَبُوا﴾ معناها بينوا، والأمثال هى الأحوال المتشابهة فى زعم القائل، أن انظر كيف حاولوا أى تكون الرسالة مع ملك من السماء يكون ردءا للرسول فى إنذاره، ثم كيف حاولوا أن يجعلوه كالملك الذى تجرى كنوز الأرض تحت يديه، أو كحواشى الملوك الذين يقطنون الإقطاعات الواسعة، حاولوا عقد المشابهة بين هذه الأحوال والرسالة، وهذه أمور دنيوية تنأى عن معنى الرسالة، ولذا قال تعالى: ﴿فَضَلُّوا﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى بسبب زعمهم هذه المشابهات ضلوا وبعدوا عن الحق وأوغلوا فشبهوا رسالة الله برسالة الناس، وأنه يكون معها شاهد من قبل المرسل، كملك، وشبهوا الرسول بالملك الغنى أو حاشيته، وكل هذه تشبيهات باطلة فى أصل موضوعها وفى أوصاف الموضوع، فليس الله كأحد من خلقه، إنما معجزته هى الشاهد،

وليس النبى ملكا أو حاشية لملك، فضلوا بسبب تلك الأمثال، ومن ضل فى الطريق يسير فى ضلاله إلى أقصى مداه، ولذا قال سبحانه: ﴿فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ الفاء عاطفة، أى أنه يتبع هذا الضلال أن صاروا فى عماية من أمرهم لا يستطيعون الهداية، ولا يستطيعون معرفة سبيل للنجاة من الضلالة التى أوقعوا فيها أنفسهم بعماياتهم وجهالتهم، وذلك لما أصابهم من غشاوة، وضلال وحيرة فى الطرق.

وقد رد الله تعالى عليهم أن أخذوا على النبى ﷺ أنه فقير يمشى فى الأسواق، فقال:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾.

تبارك أى تكاثرت وتسامت بركة الله تعالى على أوليائه وعلى المرسلين من عباده، وعلى نبيه محمد ﷺ خاتم النبيين ﴿إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ علقه سبحانه وتعالى على مشيئته التى تكون على مقتضى حكمته، جعل لك خيرا مما يتباهون به، وينتقضون رسالتك، لأنها لم تكن ذات كنوز، ولا حدائق، و(خيرا) مفعول، و(جنات) بدل من خير، وبادر النص بالخيرية لإثبات أن الله تعالى قادر على إعطاء محمد ﷺ ما هو أعظم زينة، والخيرية هنا هى خير المظهر، والنعيم الدنيوى، وأما ما هو خير عند الله تعالى جزاء معنويا وماديا فإنه فى الآخرة.

﴿وَيَجْعَل لَّكَ﴾ معطوف على ﴿جَعَلَ﴾ والجزم على محل جَعَل، لأن ﴿جَعَلَ﴾ جواب الشرط فمحله الجزم، فيكون العطف عطف مجزوم على مجزوم، والقصور هى مساكن عطاء الدنيا التى يتباهى بجمالها، ومتانة بنيانها، وزخارفها، وطنافسها.

ولكن الله تعالى لم يشأ لأنبيائه زخارف الحياة، ولكن اختار لهم مشقة الحياة

وأن يعيشوا على الكفاف، لأنه حيث كان القل من العيش كان الإخلاص والاتجاه الكامل إلى الله تعالى، لا يشغله عنه شاغل من متع هذه الحياة، ولقد كان محمد ﷺ فيما روى عنه يقول : «**اللهم أحينى مسكينا، وأمتنى مسكينا، واحشرنى فى زمرة المساكين**»، ولأن الأنبياء قادة الخليقة إلى الله تعالى، فيجب أن يكونوا قريبين من أضعف الناس لا يتجافون عنهم فى مظهر، ولا عرض من أعراض الدنيا، ولأنهم يتجهون إلى معالى الأمور، ولا يتجهون إلى سفسافها.

إن تكذيب الساعة أوجد الضلال

قال تعالى:

بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾
إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ
أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾
لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ
أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ
لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ
كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾

﴿بَلْ كَذَّبُوا بالسَّاعَةِ﴾، بل للإضراب الانتقالى الذى يكون بانتقال الكلام من مقام إلى مقام، فكان الكلام فى بيان تكذيبهم للنبى ﷺ، وادعائهم على القرآن أنه إفك افتراه الرسول، وقولهم إنا نريد ملكا معه يكون ردءا له، وإنه لا يعيش عيشة الملوك وحاشيتهم، فانتقل إلى سبب ذلك كله، وهو كفرهم بالساعة، ذلك

أن كفرهم بالبعث والنشور هو سبب ضلالهم؛ لأنهم لم يؤمنوا بالبعث، ولم يؤمنوا بالغيب، فكانت حياتهم كلها مادية، لا رجاء بعدها، فكان منهم الإيمان بالمادة وحدها.

والساعة هى يوم القيامة، وسميت الساعة؛ لأنها يكون فيها الفصل بين الحق والباطل، والحساب الكامل والجزاء الوفاق للعمل، بجنة النعيم، أو بنار الجحيم، وكل ذلك فى ساعة، وهى الساعة الكاملة لكثرة ما يكون من أحداث تتعلق بمصير البشرية، وهى ساعة الفصل، فالألف واللام تدل على الكمال، أى أنها الساعة الجديرة بأن تسمى الساعة.

﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً ﴾، أى هيأنا للذين كذبوا بالساعة نارا ملتهبة كبيرة، تشتد فى لهيبها تفزع وترعب من رآها، ويحترق بها من يدخلها، وأعتدنا معناها أعددنا وهيأنا، وكررت الساعة وكان الإظهار فى موضع الإضمار أولا للإفزاع والنكير على من أنكر الساعة وكذب الخبر بها، ولبيان أن السبب فى السعير هو التكذيب، لأنه كفر فى ذاته، ولأنه أدى إلى الجحود المستمر .

وقد وصف الله سبحانه هول السعير، وشدتها، فقال :

﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيراً ﴾.

معنى ﴿ إِذَا رَأَتْهُم ﴾ على ما يقول المفسرون، وإذا كانت على مرأى منهم كأنها تراهم ويرونها، من مكان بعيد، أى وكانت الرؤية من مكان ليس بالقريب، ولكنها بعيد بالنسبة للرؤية وللسمع ﴿ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيراً ﴾، أى هياجا شديدا يكاد مع البعد لهولها، والتغيظ وهو بدو الغيظ الشديد، والهياج العنيف الذى يتقلص الوجه له، والزفير تردد النفس حتى تنتفخ الضلوع منه.

وإنى أرى أن السعير شبهت بالإنسان الذى يرمى ويتغيظ ويزفر، ويحس ويشعر، إذا رأى شخصا يريد عقابه، فإنه يتغيظ ويزفر، والمعنى أن السعير تستعد وتتهيأ هائجة، لمجىء العصاة إليها، ويسمعون ما يشبه التغيظ والزفير من مكان بعيد.

﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾.

وإذا ألقوا فى النار، فى مكان ضيق منها حال كونهم مقرنين، أى قد قُرِّنت أيديهم إلى أعناقهم مصفدين، ووصف المكان بالضيق فيه إشارة إلى الشدة، لأن الضيق يقترن بالشدة، والسعة تقترن بالفرح، و ﴿أُلْقُوا﴾ تفيد أنهم لم يدخلوا مختارين بل ألقوا فيها إلقاء كما تلقى الأشياء، وألقوا وهم مصفدون فى الأغلال ليس لهم حركة إرادية قط و ﴿مِنْهَا﴾ أى من النار، و ﴿مَكَانًا﴾ ظرف، منصوب لألقوا، أى ألقوا فى مكان ضيق من النار قد غلت أيديهم إلى أعناقهم، وهم فى هذه الشديدة المرهقة، يتمنون الموت بدلها، لأن الموت إنقاذ لهم ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ ﴿هُنَالِكَ﴾ إشارة إلى البعيد، وفيه إثبات شدة ما هم فيه، والإشارة للبعيد، فقد نادوا ثبورا، أى هلاكا، أى نادوه؛ لأن هذا وقته، إذ بلغت الشدة قواها، فكان الهلاك إنقاذا لهم مما هم فيه، أو نادوه تحسرا على أنفسهم وعلى ما فرطوا وأساءوا، وقد بين الله تعالى أن هذا الثبور الذى نادوه لاجئين إليه من عظيم الإحساس بالآلام أو متحرين مما نزل بهم، ليس ثبورا واحدا، بل هو هلاك متتال، لا قصور فيه، فقال تعالى: ﴿لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾.

النهى عن أن يدعوا وينادوا ثبورا واحدا ينقذهم من آلامهم، أو يتحسرون به لما هم فيه، بل هو ثبور متوال عليهم وقتا بعد آخر؛ لأن أسبابه قائمة مستمرة باستمرار حالهم وهى إلقاؤهم فى مكان ضيق، يلقى بضيقه وعذابه ووضع الأصفاد التى تجمع أيديهم إلى أعناقهم، فتستمر دعوة الثبور ونداؤهم ما داموا فى جهنم، وهى خالدة إذ هم فيها خالدون، وكلما نضجت جلودهم بدلهم الله تعالى جلودا غيرها ليذوقوا العذاب المستمر.

هذه حالهم، وهى حال هلاك مستمر ينادونه ويطلبونها تحسرا، أو إنقاذا مما هم فيه، فهى حياة هلاك متجدد آنا بعد آن، وقد ذكر سبحانه بعد ذلك حال المتقين بعد الساعة.

﴿ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴾.

الخطاب للنبى ﷺ، طلب إليه ربه تعالى بعد أن ذكر لهم ما أعده الله تعالى للذين لا يؤمنون بالبعث ويشركون بربهم، أن يبين لهم ما أعده للمتقين الأبرار الذين يؤمنون بالبعث مقابلا بينه وبين ما أعد للمشركين، فقال: أذلك السعير الذى أعد لهم، والذى ينادون فيه بالهلاك حسرة وندما خير فى مآله ونهايته، أم جنة الخلد والنقاء التى أعدها للمتقين الأبرار، والمعادلة من حيث إن كلا مستعد هيأ الله له ما يستحقه، فهم يستطيعون أن ينالوا الجنة إن اتقوا، كما ينال الذين أنكروا البعث ما يلقون من جهنم وسعير.

وإن الجنة استحقوها جزاء لأعمالهم، وهى مصيرهم ومآلهم الذى كان لهم نهاية، وغاية المتقين الأطهار.

﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولاً ﴾.

الضمير فى لهم يعود إلى المتقين ﴿ مَا يَشَاءُونَ ﴾، أى ما يحبون ويريدون من ملاذ، ومن متع أغلى مما فى هذه الحياة، ففيها كل ما يحبون؛ ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، وإن الإحساس بالقدرة على تحقيق كل رغباتهم من نعمة هو فى ذاته نعمة، مع ما يتضمن من نعم أخرى ينالها، فالملاذ نعمة، والقدرة المستمرة عليها نعمة أخرى، نعمة التمكين، وهناك نعمة ثالثة تحف بهم، وهى نعمة الخلود والدوام، فهى نعم غير مقطوعة، ولا ممنوعة ساعة من زمان، وقد أكد سبحانه وتعالى وعده بها، وأنه سبحانه كتبها على نفسه بقوله: ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولاً ﴾، أى كان ذلك الوعد الذى كتبه على نفسه مسئولا، أى حقيقا بأن يسأله ويطلب فضلا من ربك ورحمة، فقد ألزم نفسه به، ولم يلزمه به غيره، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، فهو قد كتبه على ذاته العلية.

والتعبير بقوله تعالى: ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولاً ﴾ يشير إلى أنه من فضل الربوبية ورحمة المنعم القادر على كل شىء، فالمسئولية ليست مسئولية إلزام، إنما

هى مسئولية إنعام نسألها، كقوله تعالى كما أمرنا ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ .. (١٩٤) ﴾ [آل عمران] ، وكما يسأل الملائكة لعباد الله المؤمنين فيقولون: ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ .. (٨) ﴾ [غافر].

حشر الكافرين وما يعبدون

قال تعالى :

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا
يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى
هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ
يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ
وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ
كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا
نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾
وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ
ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ
لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

الكلام السامى فى قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ... ﴾ بضمير الغيبة؛ لأنه حديث عن جلال الله تعالى وعظمته وما يكون يوم القيامة من خطاب له سبحانه، وبذاته العلية لمن يشاء أن يكلمهم، وهم الأبرار الذين يسعدهم رب

البرية بكلامه معهم، ونظره سبحانه إليهم نظرة تقريب، وإيناس، وما لا يشاء لا يكلمهم ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم، وما يجرى يوم القيامة فى هذا الحديث هو للذين ينكرون البعث ويشكون، فكانوا غير جديرين لأن يخاطبهم بذاته العلية لأنهم لا يكلمهم ولا ينظر إليهم، فناسب ذلك ضمير الغياب، وهناك قراءة بضمير المتكلم إلقاء للهيبة فى نفوسهم، وليس خطابهم إلا للوم والتأنيب، ويجوز أن يكون الخطاب من الملائكة ونسب إليه سبحانه، لأنه هو الذى أمر، والذين يعبدون يشمل العقلاء الذين عبدوهم كالملائكة، وعيسى وعزير، وكرشنة فى البرهمية، وبوذا فى البوذية، كما يشمل الأوثان والنار، وغيرهما مما لا يعقل.

وقد اتجه القول يوم القيامة إلى المعبودين فى الدنيا من العقلاء وغيرهم، اتجه القول إليهم: **﴿فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ﴾**، الفاء للإفصاح؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، والسياق هكذا، وإذا حشروا وما يعبدون يقول لهم . . .، والسؤال ءأنتم أضللتم عبادى هؤلاء، والإشارة تعود إلى الذين عبدوا غير الله من يهود، ونصارى ووثنيين ورومان وعرب، هذا الشطر الأول من المعادلة، والشطر الثانى أم هم ضلوا السبيل، والسؤال أهؤلاء الذين عبدوكم أنتم أضللتموهم بالدعوة إلى عبادتكم، أم هم ضلوا الطريق الموصل إلى الحق بالأوهام التى غشت عقولهم والشهوات التى أفسدت نفوسهم، والمتع الدنيوية التى ألهتهم.

ولقد أجاب المعبود بنفى الإضلال عنهم.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾.

غلب فى القول العقلاء على غيرهم، وقيل: أنطق الله الأحجار فنطقت كما نطق العقلاء، وليس ذلك بمعجز على قدرة الله العلى الحكيم، ومهما يكن فقد نطق المعبودون جلهم أو كلهم، قائلين: **﴿مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾** وفى قوله تعالى: **﴿نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ﴾** قراءتان إحداهما نتخذ بالفعل المبنى

للفاعل، وقراءة بضم النون الأولى بالبناء لغير الفاعل، ويكون المعنى على القراءة الأولى، ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من غيرك أولياء ونصراء، وإذا كان ذلك لا يسوغ لنا، فبالأولى لا نسوغه لغيرنا، وكان تدل على الكينونة، أي ما كنا بوجودنا إلا عبادا لا يكون لنا أن نتخذ أولياء غيرك فلا يجوز أن ندعو أحدا إليه.

وعلى القراءة الثانية بالبناء للمفعول ما كان ينبغي لنا أن نرضى بأن نتخذ أولياء ونصراء غيرك، وذلك كقول عيسى عليه السلام عندما يسأله ربه يوم القيامة ﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) ﴾ [المائدة].

وقوله تعالى: ﴿ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ من الأولى معناها من غيرك، وهو دونك مكانة ومقاما، ومن الثانية تدل على الاستغراق، أي ولي نصير معبود فهي لاستغراق النفي وتأكيده.

وإنه يجيء على لسان المعبودين ما هو الحق في ذاته: ﴿ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴾ ، أي أن المتعة التي متعتهم بها من سلطان وجاه، وإعطائهم المال والأولاد، والسيطرة والتمكن كما مكنت لفرعون وأشباهه، وإن المتع والأهواء والشهوات تغشى النفس بفساد من الضلال ينسون به ذكر الله، ويتركون ما هو حق في ذاته إلى ما تمليه الأهواء والأوهام فأنستهم ذكر الله، وألهتهم، وصاروا قوما بورا، البور وصف لأولئك الذين ضلوا، فهم بائرون قد انحلوا من كل وثاق لأهل الإيمان، وأصل بار معناها كسد، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ ... تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) ﴾ [فاطر]، والشيء الكاسد يفسد، وهؤلاء قد فسدوا بكلامهم الذي لا أصل له، ولا دعامة يقوم عليها أو أي دليل إلا الوهم والهوى.

وقد بين سبحانه في خطابه لهم بعد كلام ما عبدوهم.

﴿ **فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا** ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ **بِمَا تَقُولُونَ** ﴾ فيها قراءتان إحداهما بالياء ﴿ **يقولون** ﴾ والثانية بالتاء وهى المشهورة وهى قراءة الأكثرين والمعنى على القراءة الأولى فقد كذبكم من كنتم تعبدونهم، بما يقولون من أنه ما كان ينبغى لهم أن يتخذوا من دونه من أولياء وإن ذلك ظاهر، وعلى القراءة الثانية، وهى قراءة الجمهور يكون الخطاب ابتداء للكفار، والباء بمعنى فى، وتجيء كثيرا بمعنى فى ويكون توجيه القول، فقد كذبوكم فيما تقولون وتعبدون به الأوثان، وتحسبون أن لكم نصرة من الذين تعبدونهم، إذا مَحلَ بكم الدليل وشهد عليكم ما تعبدونهم، فقد تقرر العذاب عليكم، وأن تؤخذوا به أخذ عزيز مقتدر، ولذا قال مرتبا على تكذيب هؤلاء ﴿ **فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلا نَصْرًا** ﴾، أى لا تملكون صرف العذاب عنكم ولا نصرا من أحد ينصركم، لأنكم أيها الكفار قد خذلكم من كنتم تعبدونهم، وبينوا بطلان قولكم، ولا نصر من أحد، إذا كنتم ترجون النصرة منهم، وبقيتم وحدكم من غير ناصر ولا عاذر، وتقرر العقاب العتيد عليكم، ولذا قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا** ﴾ ومن يظلم، أي يشرك، ويفتن الناس عن دينهم، وصد عن سبيل الله تعالى، وقد أفردتم عن النصير والمعين ﴿ **نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا** ﴾، أى عظيما لا يحد مقداره، ولا يعلم شدته إلا علام الغيوب، والتنكير لبيان هوله، وأنه لا يقادر بقدر، ولا يغيا بغاية يعلمها البشر.

وقد عاد القرآن الكريم إلى رد قولهم مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق، فقال عز من قائل:

﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا** ﴾ .

هذا بيان أن الرسل لا يكونون إلا من البشر، وذلك ليستطيعوا أن يرشدوهم

ويوجهوهم، ويهديهم الله تعالى بهم، ولا يمكن أن يكون ملكا، لأنه ليس من جنسهم، ولا يمكن أن يكون قدوة؛ لأن المقتدى يكون من جنس المقتدى؛ لتتم القدوة، ولا يكون هنالك ما يكون للقدوة من خواص يختص بها، ولأن الرسول يدعو بعمله، ويتبع فى أعماله، فلابد أن يكون من البشر ليتبع فى أعماله، ولأن الناس قد يحال بينهم وبين مواجهته بمحاجزات من الملوك والرؤساء، فلا بد من رفع المحاجزات ليخلو وجه الناس لهم .

لا بد أن يكون الرسل من البشر، وإنهم يدعون الضعفاء والأقوياء، ولا يتبعهم ابتداء إلا الضعفاء، ولتمام الدعوة وسلامتها، لا بد أن يعيشوا كما يعيش الضعفاء، فلا يكونون ملوكا أو من حواشى الملوك، وإذا كان بعض الأنبياء ذكر بالملك كداود وسليمان، فقد كانوا ملوكا فى سلطانهم الحق، ولكن فى عيشهم كانوا يعيشون كالضعفاء، فداود عليه السلام كان يأكل من عمل يده، ولعل ابنه سليمان لم يكن من الملوك الذين يستقلون فى معيشتهم عن رعيتهم ومن المؤكد أنه لم يكن ملكا مستعليا على رعيته، ولا يعيش عيش ضعفائهم.

﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ** ﴾ من هنا بيانية، والمعنى ما أرسلنا قبلك من المرسلين ﴿ **إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ** ﴾ ، إنهم ليأكلون الطعام إلى آخره جملة حالية ﴿ **إِلاَّ إِنَّهُمْ** ﴾ فى حال يأكلون فيها الطعام أى ما أرسلناهم إلا والحال التى تحيط بهم أنهم يأكلون الطعام، فتلك حالهم، وبعض النحويين يقررون أن فى الكلام محذوفا (هذه صفته) فذكرت الصفة مغنية عن الموصوف المقدر، ويكون سياق القول، وما أرسلنا إلا رسلا إنهم ليأكلون، وأرى أن عد الجملة حالية أولى بالأخذ، لأن ما لا يحتاج لتقدير أولى.

والخطاب فى قوله تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً** ﴾ للناس أجمعين، والفتنة أصلها ما يفتن به الفلز، ليخرج منه الذى يعلق به، وأُطلق على ما تفتن به النفوس من جاه ومال ونفر، وعلو فى الأرض، ومعنى ﴿ **جَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً** ﴾، جعل الأقوياء فتنة للضعفاء بإيذائهم، والكافرين فتنة للرسل بعنادهم،

والأغنياء فتنة للفقراء باستعلائهم، والضعفاء فتنة للأقوياء بسبقهم إلى الإيمان والحق، وتأخرهم، وهكذا كل من أعطى خيرا دنيويا أو أخرويا يكون فتنة لمن لم يكن مثله، وإن الواجب للمفتون هو الصبر، والواجب على أهل الحق من الأنبياء والصديقين أن يصبروا؛ ولذا قال تعالى: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ والصبر فى الفتنة هو السبيل لاجتياز المحنة والخروج منها مؤمنا خالصا، فالاستفهام هو للتوجيه للصبر، والتحريض، ويلاحظ أن الله تعالى أكد أن الرسل يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق بالجملة الاسمية، وبإن المؤكدة، وباللام فى خبرها ﴿لَيَأْكُلُونَ﴾.

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ كان دالة على الدوام، وأن الناس تحت رقابة الله دائما، يعلم بحال الصابرين والتمكين منهم علم السميع الذى يسمع، والبصير الذى يبصر، ويكافئ كلا بحسب حاله التى علمها الله تعالى إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، فليعملوا عمل ما يرى ويسمع، والله بكل شىء محيط.

إنكار البعث والتهديد به

قال تعالى:

وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ
أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا
﴿٢١﴾ يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ
حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ
هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا
وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ﴿٢٤﴾ وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ
تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى
ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا ﴿٢٦﴾

الكلام موصول في بيان أحوال المشركين، وتعلاتهم في كفرهم بالرسول ﷺ ومعجزاته وخصوصا القرآن الذى هو أعظم المعجزات التى جاء بها الرسل، وهو المعجزة الباقية التى تتحدى الأجيال أن يأتوا بمثلها إلى يوم القيامة، وفى هذه الآية ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ...﴾ يشير سبحانه إلى السبب فى كفرهم وجحودهم بكل شيء، وهو أنهم لا يرجون لقاء الله تعالى فقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾.

لا يرجون لقاءنا، أى ينكرون لقاء الله تعالى ولا يؤمنون، وأن لهم هذه الحياة التى يعيشونها فى الدنيا، ولا يؤمنون بغيرها، وعبر سبحانه عن عدم إيمانهم باليوم الآخر ولقائه بقوله: ﴿لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ ، أى لا يطمعون ولا يأملون فى لقائنا، للإشارة إلى أن الإيمان باليوم الآخر فيه رجاء الخير، فمن يؤمن به يرجو الخير، لأنه يعلم أن هناك جزاء، وأن أعماله ليست هباء، فإذا كان متعبا فى هذه شقيا فيها، كان رجاء العوض يوم البعث، فينال الخير بدل الحياة الشاقة التى يعيشها، فالمؤمن له رجاء، والكافر بالبعث حاسر، وأضاف اللقاء إليه سبحانه؛ لأنه مفرج الكروب، والمجازى سبحانه بالخير خيرا، وبالشر شرا، وفيه إيناس بأن من يرجو لقاء الله، إنما يرجو لقاء السند القوى، ومن يكفر به، يعدم ذلك السند الذى لا يعتمد عليه غيره، سبحانه عظمت آلاؤه، والتعبير بالموصول: ﴿الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ فيه إشارة إلى أن السبب فى لجاجتهم فى الكفر وإنكارهم للمعجزات، وعدم تعقلهم للحقائق هو أنهم لا يرجون لقاء الله، ولو رجوا لقاء الله، لعملوا حساب هذا اللقاء واهتدوا بدل الكفران.

﴿لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾.

لولا للتحريض، أى هلا أنزل علينا الملائكة، يخبرون برسالة الله تعالى لهم، ولا يجيئنا واحد منا يأكل مما نأكل ويمشى فى الأسواق كما نمشى، فهذا تحريض على أن يكون ملائكة، أو نرى ربنا، أو تقول لولا ـ حرف شرط امتناع أى

امتنع إيماننا لأنه لا تنزل ملائكة أو لم نر ربنا، والأظهر أنها للتمنى، أى نطلب متمنين أن ينزل علينا ملائكة أو نرى ربنا، وهذا مؤدى الحض، فهم يتمنون متعللين بهذه الأمنية الباطلة لتبرير كفرهم.

ومعنى قولهم ومؤداه أننا لا نؤمن بأنك رسول، ولو كان الله يرسل رسولا لأرسله من الملائكة، ولماذا لا يخاطبنا، وهكذا سار المشركون على ما سار اليهود من قبلهم، فقد قالوا لموسى عليه السلام لن نؤمن لك حتى نرى الله، إن هذا الذى طلبوه يتضمن فى ذات نفسه خروجا بهم عن طورهم الإنسانى؛ لأن الرسول يجب أن يكون من جنس من أرسل إليهم، فهم بطلبهم هذا كطلب بنى إسرائيل من قبل قد تعدوا الحدود، ولذا قال تعالى بعد ذلك ﴿**لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا**﴾ السين والتاء للطلب، أى طلبوا الكبر فى ذات أنفسهم وتعدوا حدودهم، وحسبوا بكبرهم الذى طلبوه أنهم فوق البشرية، وألفوا الظلم، والنّبوّ عن الحق، والخروج من دائرته، ولا سبيل إلى رجعتهم، وقد أكد الله سبحانه وتعالى استكبارهم عن الحق وبعدهم باللام وبقد، وبوصف بعد عن الحق كبير وضلال بعيد، قد أوغلوا فيه وإذا كانوا يريدون أن يروا الملائكة فسيرونهم، ولكن لا على أنهم مبشرون ومنذرون، ورسلا فى الدنيا من قبل رب العالمين، ولكن يرون مبشرين بدخول الجنة فعلا يوم القيامة، أو ملقين لهم ولأشباههم فى الجحيم، ولذا قال تعالى:

﴿**يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا**﴾.

أى أنهم سيرون الملائكة غير نازلين لهم فى الدنيا، فالرسالة من البشر، كما هى سنة الله فى دعوة الخلق إلى الهداية، وكما كان شأن الرسل من قبل محمد ﷺ، كما قال تعالى مخاطبا نبيه ﴿**... قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ...** (٩)﴾ [الأحقاف]، فهم يطلبون محالا فى الدنيا، وستنزل إليهم الملائكة فيرونهم عيانا، ويكون عذاب منهم إليهم، ولذا قال تعالى ﴿**لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ**﴾ هذه عبارة

سامية فيها تهديد للمجرمين الذين أجرموا فى جنب الله تعالى، وفيها تبشير للمؤمنين .

فهذه الجملة السامية مع إيجازها المعجز، فيها تبشير وفيها ذكر لعذاب المجرمين، فالمجرمون لا بشرى لهم بدخول جنة النعيم، إذ هم محرومون منها، وفيها - بالمفهوم - بشرى لغير المجرمين، ففيها جزاء المؤمنين بالنعيم المقيم وحرمان المجرمين منه، وهذا أدنى الجزاء، وهو عقوبة سلبية، والعقوبة الإيجابية وهى دخولهم فى الجحيم بدل بشرى النعيم، فهى مذكورة فى آيات كثيرة، وأشير إلى بشرى المؤمنين، لأنهم يرجون لقاء ربهم، فكانوا صفوفا فى منازل الأبرار.

﴿ **وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً** ﴾ الضمير فى ﴿ **يَقُولُونَ** ﴾ يصح أن يعود على الملائكة، ويصح أن يعود إلى المجرمين، والحجر معناه المكان المحجور الممتنع كنقض بمعنى منقوض، ومن ذلك حجر إبراهيم، فهو مكان ممنوع، ووصفه بالمحجور تصريح بما تضمنه اللفظ، وتأكيد لمعنى المنع على غير المؤمنين.

وتخريج القول على أن الضمير يعود على الملائكة ويكون المعنى أن الملائكة يقولون لا بشرى يومئذ للمجرمين، أى البشرى بالجنة تكون لغير المجرمين مقصورا ما يبشر به على المؤمنين، فأنتم معشر المجرمين ممنوعون منه محرومون.

وإذا كان الضمير فى يقولون يعود إلى المجرمين يكون المعنى أنهم أدركوا أنه لا نصيب لهم بالبشرى فى الجنة، ليقولوا متحسرين نادمين مكبوتين ﴿ **حِجْراً مَّحْجُوراً** ﴾ أى مكان ممنوع علينا منعا مؤكدا .

وإن المجرمين يكونون قد أحسنوا فى الدنيا بأن فعلوا أحيانا ما توجبه المروءة والنجدة، ولكن لأنهم فقدوا الهيئة المحتسبة المخلصة لله تعالى لا يكافئون عليها لأن الأعمال بالنيات، ولذا قال تعالى :

﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً** ﴾ .

٢ - الهباء ذرات التراب الرقيقة التى لا تبدو إلا فى ضوء الشمس المنبثق من

كوة مفتوحة، وقد روى عن على كرم الله وجهه أن الهباء المنثور هو شعاع الشمس الذى يبدو من الكوة، ويراد بالهباء ذرات التراب التى لا تظهر إلا فى الضوء الساطع من الكوة لدقته، والمنثور معناه المفرق فى الهواء وكأنه لا وجود له،أو لا يُحس بالبصر متميزا عن غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا﴾، أى عمدنا إلى ما عملوا من عمل يرونه برا يكافئون عليه، فجعلناه كالهباء المفرق فى الهواء لا يرى؛ ذلك لأن البر إنما يكون مع النية المحتسبة عند الله، وهؤلاء ليست لهم نية محتسبة لأنهم لا يعبدون الله، بل يعبدون الأوثان، ولا يرجون سواها، فهم آثمون بعملهم لفساد نياتهم.

هذه حال المشركين فيما يعملون من أعمال يحسبون أن فيها خيرا، وهى ضلال فى ضلال لفساد النية، أما الذين لهم البشرى فهم أصحاب الجنة.

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾.

أصحاب الجنة هم المتقون كقوله تعالى ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ وعبر سبحانه عن المتقين بأنهم أصحاب الجنة، أى الذين اختصوا بها ويلازمونها، كما اختصت بملازمتهم، وأفعل التفضيل ليس على بابه لأنه لا خير لغيرهم يفاضلون به بينهم وبين أهل الجنة، إنما المعنى الظاهر أن أصحاب الجنة أتاهم فى الاستقرار والبقاء خير لا يقادر قدره، ولا علو لغيره، ولا يعلوه شىء فى الوجود، والمقيل اسم مكان من قال يقيل، أى أنه استراح فى القيلولة، وأفعل التفضيل على غير بابه، أى أن لهم استراحة فى وقت القيلولة، ليس هناك ما يماثلها فى حسنها وراحتها، وعبر عن راحة الجنة باستراحة وقت القيلولة؛ لأن الراحة فى هذا الوقت تكون متعة فى ذاتها، وقد شبهت راحة الجنة بهذه الراحة لحسنها، ومتعتها؛ ولأن الجنة مقابلة بالنار، فكانت كأنها الراحة فى وسط القيلولة، أى أن المجرمين فى وقت راحة الجنة واستمتاعهم يكونون فى ستار من الجحيم، وعذاب الخلد.

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً ﴾.

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ﴾ معطوفة على قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ أى فى هذا اليوم الذى تنزل الملائكة ويرونها، وهى تعويل لهم، يكون معه يوم آخر، وهو يوم تشقق السماء بالغمام، تشقق أصلها تتشقق حذفت إحدى التاءين تخفيفا، كقوله تعالى: ﴿ تلظى ﴾ والباء هنا للملاصقة أو الظرفية، أى تشقق السماء بتشقق الغمام، وهذا كناية عن أن السماء تضطرب، وتتقطع أجزاؤها، وهذا كقوله تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) ﴾ [الإنشقاق]، وكقوله تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) ﴾ [الإنفطار]، والمعنى إذا اضطرب الكون بما فيه ومن فيه يكون يوم البعث، وفى هذه الحال تنزل الملائكة فوجا بعد فوج للحساب وتقرير المصير إلى النعيم أو الجحيم، ولذا قال تعالى: ﴿ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً ﴾ والتنزيل النزول فريقا بعد فريق، أى أنه لا يكون حساب واحد، بل حساب بعد حساب، ومن شدد عليه الحساب عذب، وهذه الآية فى معناها كقوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ .. (٢١٠) ﴾ [البقرة].

وإن هذه الآية وأشباهها فى سموها ومعانيها تهديد بيوم البعث الذى أنكروه، وإنه يوم يضطرب فيه الكون، ويكون فيه الهول، وإن السلطان حينئذ يكون لله تعالى وحده، ولذا قال عز من قائل :

﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾.

﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ﴾ ، أى السلطان الكامل، ودل على الكمال بأل الدال على كمال الاستغراق كأنه لا ملك غيره، ولا يسمى ملكا سواه، ووصفه سبحانه وتعالى بأنه الحق، أى الثابت الذى لا يتخلف حكمه، ولا يكون لغيره أبدا.

وهذا الملك الثابت الكامل ﴿ لِلرَّحْمَنِ ﴾ جلت رحمته، ووصف الله تعالى هنا بصفة الرحمن مع أن ذلك اليوم شديد عسير على الكافرين، كما سيذكر

سبحانه ﴿ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ لأن حكم الله سيكون شديد الحمل عسيرا عليهم، وصف الله تعالى بالرحمة؛ للإشارة إلى أنه سيكون رحيما بالمؤمنين؛ عسيرا على الكافرين، فرحمته فى ظاهر العبارة خاصة بالمؤمنين، وأما الكافرين فسيكون عسيرا عليهم، ولعل الأصوب أن نقول: إنه فى بشراه بالجنة للمؤمنين، والعذاب العسير للكافرين، وهو الرحيم؛ لأن الرحمة الحقيقية تقتضى تعذيب الكافرين، وإثابة المتقين؛ لأن موجب الرحمة ألا يتساوى المسىء مع المحسن، ولا الأعمى مع البصير، وألا يستوى الذين لا يعلمون والذين يعلمون.

حال المشركين يوم القيامة

قال تعالى :

وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ
يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ
فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى
وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ
يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ
جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا
وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ هذا معطوف على ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ ﴾، وقوله تعالى ﴿ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾، هذا التعبير كناية عن تحسره

وغيظه وندمه على أن فاته وقت العمل، وقد ووجه بعاقبة ما أهمل، وإنكاره ليوم البعث الذى رآه رأى العين، وشاهده وهو الآن يلقى ويلاته وآلامه.

ولسان حاله يقول: ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ ويا هنا ليست للنداء، ولكنها للتنبيه على ما يتمناه نفسه وقد فات وقت الأمانى، وتمنى الأمانى، وقد فات وقتها، وسجل عليه فواتها، أو نقول إن يا للنداء، وتنادى فيه الأمانى التى فاتته نادما، ولات حتى يندم.

والأمنية التى كان يتمناها، وهى قوله: ﴿ اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴾ ، أى لم أفارقه، ولم أعانده، ولم أكذبه، وقد كان الصديق الأمين، والرسول هو محمد ﷺ، وإن البيان كمال شخصه ورسالته، ومعنى ﴿ اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴾ أى سرت فى مساره غير مفارق سبيله الذى اختار، وتنكير سبيلا للإشارة إلى كرم طريق الرسالة والهداية الذى فارقه، ولم يسر فيه، بل ضل عنه ضلالا بعيدا.

والظالم هو من اتصف بالظلم فى عبادته فأشرك، وإن الشرك لظلم عظيم، أو آذى المؤمنين أو كان يعثوا فى الأرض فسادا، فليس المراد شخصا أو أشخاصا، وإن كانت الآية قد اقترن نزولها بظلمهم.

﴿يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾.

ويلتا : الألف مقلوبة عن ياء المتكلم، والويلة بمعنى الهلاك، فهو ينادى هلاكه الذى نزل به، وذلك للشعور بما نزل به، فكأنه ينادى بهلاكه إيماء إلى نزوله به، وكأنه يناديه تحسرا، وكأنه يقول يا هلاكى أقبل فهذا وقتك، فإنك نازل لا محالة، وفيه إشعار بأنه يستحقه، ولقد كان فى الآية السابقة يتمنى أن يتخذ مع الرسول السبيل الجيد المستقيم، فهنا يتمنى أنه لم يتخذ فلانا خليلا صادقا يخاله ويوده، ويقترن به ويتبعه، ليت وهل ينفع شيئا ليت، وفلان كناية عن صاحبه وأصحابه، ويتمنى أن لو كان لم يتخذهم أخلاء له، ويتحقق قوله تعالى: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧)﴾ [الزخرف].

وهذه الآية وإن كان موضوعها فى اليوم الآخـر، يشير إلى سبب الفساد بين الناس فى دار الابتلاء، والسبب يتلخص فى أمرين: **أولهما** ـ صحبة السوء، فإن صاحب السوء أخو الشيطان يسهل للشيطان سبيله، **ثانيهما** - الرأى الفاسد، فإنه يكثر فـيه خلان السوء ودعاة الـشر، والتخذيل عن الخـير، ولقد قال سبـحانه فى وصف خليل السوء، ﴿ **لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي** ﴾ اللام واقعة فى جواب قسم مـقدر، وهى والقـسم المقدر تفـيدان التـوكيـد، وقد تفـيد التـوكيـد أيضا، و﴿**أَضَلَّنِي**﴾ أى أبعدنى وأوقعنى فى الضلالة منصـرفا عن الذكر الذى يذكرنى بربى وهو القرآن والنبى ﷺ، وما اشـتمل قوله عليه السلام من تذكير بالله والإيمـان، فالذكر يشمل القـرآن والنبى، وما اشتملت عـليه الدعوة المحمـدية من تذكر مستـمر بالله تعالى، فقرين السوء أبعده عن الحق والتذكير به إبعادا تاما.

وحَدُّ وقت الذكر، وهو وقت مجيئـه الذى يكون فيه الهدى والضلال، وفى ذكر هذا الوقت إيذان بأنه قـد جاء المذكر، ولم يجب داعيـه، وإيذان أيضا بأنه لا سبيل له إلى استعادة ما فات، وتغليظ لفساد صحبة صاحبه.

وقوله تعالى: ﴿ **وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً** ﴾ هذه الجملة السـامية من كلام الله تعالى وأحكامه من كلام الذى يقول: ﴿ **لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً** ﴾.

فإن كانت مـن كلام الله تعالى فهو سـبحانه وتعالـى يقرر حقيقـة ثابتة فى الناس، والشـيطان هنا هو الخليل الذى يدعـو إلى السـوء؛ لأنه يكون كالشـيطان تسرى نفثاته فى نفسه كما تسرى نفثات الشيطان، والشيطان خذول للإنسان يخذله عن السير فى طريق الخير وهدايته.

وعلى أن هذا من كلام الكافر يوم القيامة، يكون رميا لخليله الذى أضله بأنه كالشيطان أفسد قلبه وإدراكه وخذله عن أن يسلك مسلك النبى ﷺ، ويتخذ سبيله ﷺ الحق والذكر والمعرفة، والهداية والبعد عن الضلال، وخَذُول صيغة مبالغة من خاذل، وهو الذى يجعل الشخص المقدم على أمـر يتردد فيه ولا يفعله، والمراد هنا هو التخذيل عن فعل الخير، وسلوك الطريق الأقوم، والأهدى سبيلا.

هذا ما يكون من أمر الظالمين فى الآخرة، وقد ذكر من بعد ذلك جهاد الرسول، وقد ضلوا بإغوائهم بعضهم بعضا، فقال :

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً ﴾ .

هذه حال الرسول ورسالته وإعراضهم عنها فى الدنيا مما يوقعهم فى حالهم التى صورها سبحانه وتعالى فى الآخرة، وعبر سبحانه بالرسول للإشارة إلى حق الرسالة عليه من الاتباع والدعوة، وحقه عليهم من الاستجابة والطاعة له.

وقد نادى ربه ضارعا له أن ينصره ويؤيده فقال: يارب؛ ليشكو بثه وحزنه إليه، إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا. وعبر بقومى لإبداء الغرابة من إنكارهم، لأنهم عرفوه صادقا أمينا، وعاشروه وعرفوا أنه الأمين، ليس بالكذاب ومعه الحجة المثبتة لرسالته التى لا تدع ارتيابا لمرتاب.

وقوله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ الإشارة إلى القرآن الذى عرف بصفاته العالية من أنه هدى ورحمة وشفاء لما فى الصدور، وهو نور يهدى إلى صراط مستقيم وبلاغته تبعد عن كل قول وفيه الشريعة، اتخذوا القرآن صاحب الصفات العليا مهجورا، أى شيئا مهجورا، هجرته القلوب، وهجروه بذواتهم فكانوا يقولون: ﴿ ... لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) ﴾ [فصلت]، وقالوا الهجر والفحش ما يدل على فحشهم وهجر أفعالهم، وقد استغرب النبى ﷺ من حالهم المناقضة لرشدهم.

هذه شكوى الرسول ﷺ من قومه، وقد عزى الله نبيه بأن الباعث على هذا هو العداوة، والعداوة من شأنها أن تؤدى إلى المهاترة، وهجر الأقوال والأفعال، وهؤلاء أعداء كما كان للرسل من قبلك أعداء.

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً ﴾ .

إنه منذ هبط آدم وإبليس إلى الأرض، والخير والشر فى نزاع مستمر؛ تحقيقا

لقوله تعالى: ﴿ ... وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (٣٦) ﴾ [البقرة]، فإذا كان من سنة الله تعالى فى خلقه أن يبعث النذير والداعى إلى الخير، فإنه تكون وسوسة الشيطان دائمة مستمرة، والإنسان فى غلاب مستمر بين نوازغ الشر، ودواعى الخير، وبين الداعى إلى الخير ودعاة الشر دائما، ولذلك جعل الله للنبيين أعداء من المجرمين، ليتحقق للنبى فضل الجهاد، وليتحقق الابتلاء الذى يبتلى به النبيون، كما قال تعالى: ﴿ .. وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً .. (٣٥) ﴾ [الأنبياء]، ولذلك كان لكل نبى عدو من المجرمين، وإلا ما كان فضل الجهاد، وفضل الاختبار الشديد لأهل الإيمان.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ الإشارة إلى ما قوبل به النبى ﷺ من عداوة كبار المشركين، كأبى لهب، وأبى جهل، ولجاجتهما فى العداوة والإحن مع قرب القرابة، والرحم الواصلة، والمعنى كهذه العداوة التى تلقاها من بعض المجرمين من قومك، وجعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين، وعدوا تشمل الجمع والواحد أى يكون لنبى عدو، فرادى وجماعات؛ لأن تلك سنة الحياة التى سنها الله تعالى: ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً (٤٣) ﴾ [فاطر]، و (من) هنا ابتدائية، أى يكونون من المجرمين دون غيرهم.

وإذا كان ذلك شأن الوجود الإنسانى أن يكون الإنسان فى متنازع الخير والشر، فإن النبى ﷺ غالب، لأن الله تعالى ناصره ومعه، ولذا قال: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ الباء لتأكيد كفاية الله تعالى له، وإنه معه يغنيه عن الاستعانة بغيره، والتعبير ﴿ بِرَبِّكَ ﴾ أى كالئك وحافظك ومربيك، والقائم على شئونك، ﴿ هَادِيًا ﴾ إلى أقوم سبل الحياة الفاضلة، ﴿ وَنَصِيرًا ﴾ نصرا مؤزرا دائما، وليستخلفن فى الأرض المؤمنين الصالحين.

تنزيل القرآن وضرب الأمثال

قال تعالى:

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً
وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾
وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾
ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ
مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ
وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى
ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ
نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ
ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟
وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا
لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ
ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ
كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾

أدى جحود المشركين لمعنى النبوة والرسالة الإلهية إلى أن يتقحموا فى كلام غير معقول، وأداهم تكذيبهم للنبى ﷺ ومعجزته إلى أن يقولوا كلاما لا موضوع له إلا أن يريدوا توهينه.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ ﴿ لَوْلا ﴾ هنا للحض والتحريض على قدر ما تدركه عقولهم، وكأنهم فى هذا يعيبون القرآن؛ لأنه نزل مفرقا، ولم ينزل دفعة واحدة، ويعيبون إعجازه، لأنه نزل أجزاء مفرقة، وكل ذلك لتسويغ أفكارهم وكفرهم، وقد رد سبحانه قولهم بقوله عز من قائل: ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾، وقد ذكر سبحانه وتعالى حكمتين فى نزوله مفرقا على أجزاء تنزل فى أوقات متفرقة: أولاهما- هى إيناس النبى ﷺ، وتثبيت قلبه على الدعوة باستمرار الوحى نازلا بالقرآن لا ينقطع، وهذه الحكمة أشار إليها سبحانه بقوله: ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ أى أنزلناه كذلك لنثبت به فؤادك فتعرف بالوحى المستمر أن الله معك، الثانية- أشار إليها سبحانه بقوله: ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ والترتيل هو قراءة القرآن الكريم على نسق منسق مصور للمعانى الجليلة فى التلاوة، فيتلقاه النبى ﷺ مرتلا، ثم يقرؤه لغيره من القراء من أصحابه كذلك، وبذلك يتواتر القرآن مرتلا، كما أقرأه جبريل للنبى ﷺ، وكما قرأه النبى ﷺ على أصحابه، فالقرآن الكريم ليس متواترا بلفظه فقط، بل بلفظه وترتيله، فقد علّم جبريل النبى ﷺ، كما جاء فى قوله تعالى: ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) ﴾ [القيامة]، وقال تعالى: ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ .. (١٠٦) ﴾ [الإسراء].

وإن العرب كانوا أمة أمية، فما كان فيها كاتب عنده القدرة على أن يكتب القرآن كله، ولأن الله تعالى تكفل أن يحفظ كتابه من غير تحريف ولا تبديل، ليحفظه إلى يوم القيامة، فكان ذلك بحفظه فى الصدور، وإن ما يحفظ على قرطاس يسهل تحريفه أو تبديله أو حذف جزء منه، أما ما يحفظ فى الصدور فإنه يكون فى وعى لا يغير ولا يبدل، ولما أراد اليهود فى أفريقيا أن يحرفوا فى كتابة المصحف كان الحفاظ وراءهم، وقد ردوا كيدهم فى نحورهم.

وقد حسب المشركون لجهلهم وجحودهم أن ذلك ينال من الذكر الحكيم،

فبين الله تعالى الحكمة واضحة نيرة موضحة مفسرة وقال: ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾.

إنهم قد سدت عليهم المسالك كشأن كل مبطل يريد أن يثير لجاجة فى القول والريب حول حقيقة ثابتة لا مجال للريب فيها، فهم أنكروا أن يكون آية وطلبوا غيره مع عجز صارخ عن أن يأتوا بمثله، وجاءوا بعد إلى أمر شكلى حوله يريدون أن يتخذوا منه سبيلا لأن يقولوا إن محمدا اصطنعه اصطناعا بعد أن قالوا: إنه أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا، قالوا لماذا لا ينزل جملة واحدة، فبين الله تعالى حكمته العليا فى أنه نزل مفرقا، وقال ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ المثل الحال والصورة، أى لا يأتونك بحال يتوهمون أنها تلقى بريب أو شك، إلا جئناك بالأمر الثابت الذى لا ريب فيه، فيلقمهم الحجة ويزداد الحق نصوعا وسطوعا وبيانا يقطع جهيزة كل متكلم، ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ أفعل التفضيل ليس على بابه، لأنهم ليس لهم تفسير للحقائق حتى يكون بيان القرآن أحسن منه، إنما الظاهر أن بيان الحقائق فى القرآن لا يوجد بيان أعلى منه ولا أجمل ولا أوضح، فالتفسير البيان، وكأن الله سخرهم باعتراضهم لتزداد حجة النبى ﷺ وضوحا، والله عليم حكيم، وقد ذكر سبحانه من بعد ذلك عاقبة لجاجتهم، فقال :

﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾.

موضع ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ﴾ النصب على الاختصاص، وبيان عاقبة أمرهم بعد هذا الذى يثيرونه حول الحجة الكبرى للرسالة الخالدة إلى يوم القيامة، وقد عبر سبحانه عن حشرهم يوم القيامة بصورة تجعل القارئ يدرك منها مقدار المهانة التى تلحقهم يوم الحشر، الذى كانوا ينكرونه ويبالغون فى إنكاره، إذ إنهم يقلبون على وجوههم التى كانت لا تتجه فى الدنيا إلا إلى الأسفل، فهم يسحبون سحبا، ويجرون جرا على وجوههم، وهذا يشير إلى أنهم يساقون ولا يكون لهم اختيار، ويساقون على أقبح حال، فبدل ما كان يدَّعون لأنفسهم فى الدنيا من سيطرة،

وسلطان يتحكمون به فى رقاب العباد، ويفتنون الناس فى عقائدهم يكونون على هذه الصورة من الذل والهوان، وأنهم يؤخذون أخذا إلى جهنم، ﴿ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ الإشارة إلى المشركين محملين بهذه الصفات التى كانت لهم فى الدنيا من غطرسة وكبرياء واستنكار عن الحق ولجاجة فى الباطل، وإلى ما آل إليه أمرهم من السحب على وجوههم إلى جهنم سحبا، و (شر) فى معنى أفعل التفضيل هو ليس على بابه، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ .. (٦٠) ﴾ [المائدة]، والمعنى من بلغ فى الشر أقصى حالاته.

لقد كان المشركون يعيرون النبى ﷺ على أن أتباعه العبيد والفقراء، وهم فى نظرهم الأراذل من قومه، فبين سبحانه أنهم إذ يسحبون إلى النار على وجوههم مع صفاتهم السابقة شر مكانا، أى مكانهم الحقيقى والمعنوى شر هو الشر كله، وغيرهم كان هاديا يهدى فى الدنيا، وخير مثوبة فى الآخرة، ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ أى أبعد عن السبيل الحق فى الدنيا والآخرة، ففى الدنيا بإنكارهم للحق، حتى وصلوا إلى درجة العمى، وبالموازنة بين ما كانوا يدعون لأنفسهم، وما آل إليه أمرهم يتبين أولا ـ أنهم كانوا فى ضلال وهم فى الدنيا، والأرذلون فى زعمهم كانوا أهدى سبيلا، ويتبين لهم ثانيا- أنهم فى الآخرة يسحبون على وجوههم إلى جهنم، والمتقون كانوا سائرين إلى النعيم .

من قصص الأنبياء

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَرُونَ وَزِيرًا (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ .

ذكر سبحانه وتعالى طغيان المشركين وضلالهم، وتحديهم وعنادهم، ثم مآلهم، ثم ذكر سبحانه بعد ذلك العبر التى سبقتهم، وما آل إليه الطغيان والكفر، مشيرا غير مفصل - التفصيل فى مواضع أخرى - ، وابتدأ بقصة فرعون وملئه،

وقومه، وقد كان أشد طاغية فى عصره، لبيان أنه لا يستعصى على الله تدمير عاص مهما يكن طغيانه، وهو الذى كان يعبد، ويقول لهم ﴿ .. مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي .. (٣٨) ﴾ [القصص]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ وهو التوراة، وقد أكد سبحانه وتعالى نزوله صادقا باللام وبقد، فهذا يدل على صدق النزول، ولا يدل على صدق البقاء فقد نسوا حظا مما ذكروا به، وحرفوا الكلم عن مواضعه، وأفرد موسى بأنه أوتى الكتاب، ولم يكن معه أخوه هارون، فهو الذى تلقى الألواح العشرة، وهارون كان مؤازرا له، معينا فى أداء الرسالة، والذى تلقاها كاملة هو موسى، ولذا قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴾ أى مؤازرا معاونا استجابة لطلب موسى فى قوله: ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) ﴾ [طه].

وقد أرسلا معا إلى فرعون: ﴿ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ الفاء عاطفة للترتيب فى أنه عند إرادة الجعل وزيرا لموسى كلفهما بالتبليغ معا، فقال لهما، وأضاف سبحانه القول إلى ذاته العلية تشريفا لهما وتنويها بأمرهما، وقوله تعالى: ﴿ اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ الأمر بالذهاب يومئ إلى أنهما مقدمان على أمر جليل فى شأنه، خطير فى ذاته؛ لأنه لقوم عتاة، يسبقون إلى الكفر بدل السبق بالإيمان.

وقد وصفهم الله سبحانه وتعالى بأنهم كذبوا بآيات الله مع التكذيب بعد الذهاب، وبعدما آتى الله تعالى موسى تسع آيات مبينات، فكيف يكونون موصوفين بذلك عند الذهاب، والجواب عن ذلك أنه أخبر بالماضى، لبيان تأكد الدفوع منهم، كما فى قوله تعالى: ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١) ﴾ [النحل]، وكما فى قوله تعالى: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١) ﴾ [القمر]، عند بعض المفسرين الذين يقولون: إن انشقاق القمر يوم البعث.

والتدمير إدخال الهلاك فى الشىء، أو الهلاك، والفاء أيضا للعطف

والترتيب والتعقيب، قد يقال كيف كان التدمير عقب الذهاب، وقد لبث موسى فيهم يدعو سنين، ونقول: إن الزمن فى ذاته لم يكن طويلا، وإن كان عند الناس طويلا؛ ولأن التكذيب يتبعه لا محالة التدمير.

وذكر القوم، ولم يذكر فرعون مع أنه الرأس الطاغى، ونقول فى الجواب عن ذلك، إنه لولا حاشيته وقومه ما طغى وتجبر، وكذلك الشأن فى كل طاغية جبار ملؤه هم الذين يقرونه ويشجعونه.

بعد ذلك ذكر سبحانه وتعالى قوم نوح فقال تعالى :

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ ﴾ منصوب بفعل محذوف تقديره اذكر قوم نوح، والرسل هنا يراد بهم نوح عليه السلام إذ إنهم كذبوه، فقد كذبوا رسالة الله تعالى إلى خلقه، فكأنهم يكذبون الرسل جميعا الذين جاءوا قبل نوح، والذين جاءوا بعده، لأنهم كذبوا أصل الرسالة الإلهية، ولذا كان العقاب بأن استؤصلوا وأنشأ من بعدهم قوما آخرين، وكان ذلك بالإغراق الذى اجتث شأفتهم أجمعين، ولم يبق إلا من آمن بنوح، وما آمن معه إلا قليل، وقال تعالى: **﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ﴾** ، أى جعلناهم آية معلمة لصدق الرسالة، وهلاك المكذبين الضالين، وقدم للناس على أية إشارة إلى أنه يعتبر بهذه الآية، ومن لم يعتبر فهو لايعد من الناس؛ لضلاله وفساد إدراكه.

﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾، أى هيأنا للظالمين بسبب ظلمهم، الذى يشمل الشرك والفساد فى الأرض، والاعتداء على الناس، **﴿ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾** أى مؤلما، ففعيل بمعنى اسم الفاعل، كبديع بمعنى البدع، وعبر بالوصف بالظلم، ليشير إلى أنه سبب العذاب المؤلم **﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾**.

وعادا معطوفة على قوم نوح، وعاد هم قوم هود الذين كفروا، فأنزل الله بهم عذابه فى الدنيا بريح فيه عذاب شديد، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) ﴾ [الأحقاف].

وثمود هم قوم صالح أهلكوا بريح صرصر عاتية.

وأما أصحاب الرس، فقد اختلفت الروايات عن السلف فى تفسيرها أو من هم، وأصل الرس كما قال الأصفهانى فى مفرداته: الأثر القليل الموجود فى الشىء يقال: سمعت رسا من خبر، ورس الحديث فى نفسى، أى أثره، وروى أن الرس اسم لبئر، وهكذا وردت روايات كثيرة عن أصحاب الرس، وأحسن ما روى فى ذلك روايتان هما أن أصحاب الرس وأصحاب الأيكة هم قوم شعيب الذين دعاهم إلى التوحيد، ومبادئ الأخلاق، وتنظيم المعاملة والعدالة فى الكيل والميزان

والثانية ما رواه ابن جرير واختاره، وهم أصحاب الأخدود الذين هلكوا بإلقائهم فى أخاديد ألقيت فيها النيران، وأصحاب الأخدود الذين هلكوا هم الذين فعلوا بالمؤمنين ذلك كما جاء فى سورة البروج فى قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) ﴾ .

وإن هؤلاء قد بلغوا أقصى غايات القسوة فى معاملة المؤمنين، وقد أخذهم الله تعالى أخذ عزيز مقتدر، وذكرهم فى هذه المناسبة؛ لبيان عتوهم، وأنهم قد انتقم منهم كما انتقم من فرعون، وكما ينتقم من كل المشركين، وإنا نميل إلى الرواية الأولى، وهى أنهم قوم شعيب؛ لأن سنة القرآن الكريم فى قصصه أن يعرض قصة شعيب بعد عاد وثمود، فبمقتضى هذا المنهاج القويم نميل إلى أنه سبحانه وتعالى أشار إلى قصة شعيب بهذه الإشارة.

الإشارة فى قوله تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ إلى الزمن الذى كان بين نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس، والقرن هو الجيل من الناس، أى أن أجيالا بين هؤلاء الأنبياء كثيرا كانت فيها العبر، ولكن قل المعتبر، و ﴿كَثِيراً﴾ وصف لمحذوف تقديره عدد، أو وصف لقرون نفسها.

﴿وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً ﴾.

وهذه القرون الكثيرة التى بعث لها النبيون بين نوح وموسى، حذرهم الله وأنذرهم، وضرب الأمثال من قصص النبيين، وكيف هلك الأقوام، إذ كذبوا الرسل، ويبين الله كيف أهلكهم وفتتهم، وأذلهم، ولذا قال تعالى: ﴿وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ﴾ كلا، الضمير قائم مقام مضاف إليه، أى كل قرن من هذه القرون الكثيرة بينا له الأمثال من الذين سبقوه، وكذبوا رسلهم، وكيف كانوا عبرة لهم، ولكن لم يعتبروا، ﴿وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً﴾ فسر الراغب الأصفهانى التتبير بالإهلاك، والمعنى: وكلا أهلكناهم إهلاكا، وكانوا عبرة، ولكن لم يكن اعتبار، فعم الفساد، وضلوا ضلالا بعيدا، إلا من هدى الله، وآمن واهتدى.

وقال الزمخشرى وتبعه فى هذا كل المفسرين الذين أخذوا أن التتبير هو التكسير والتفتيت، أى أن الله تعالى كسرهم حتى صاروا فتاتا، متقطعا متجزئا.

والمعنيان متلاقيان يصح الجمع بينهما بأن أهلكهم بطريق كسرهم وتفتيتهم، حتى صاروا فتاتا مندثرا .

وإن المشركين لم يعتبروا بما بين أيديهم من آثار الذين ظلموا مثل ظلمهم، وعليهم أن يعدوا أنفسهم لمثل المآل الذى آل من سبقوهم، وإنهم يمرون على ديارهم، ولا يعتبرون بهم، ولذا قال تعالى :

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً ﴾.

القرية هى المدينة العظيمة، وهى هنا قرية قوم لوط، ومطر السوء هو

الحجارة، وهذا تشبيه للحجارة التى كانت مقصودة بالمطر، لأنها نزلت عليهم منهمرة انهمارا، ولكنه لم يكن مطر ماء مغيث، ولا ماء مغيث، بل مطر حجارة حاطمة، فهو سوء، أى سيىء فى ذاته مؤلم، وهو سيىء فى عقباه، أفلم يروها ولم يروا ما نزل بها فيعتبروا ويتدبروا، ولكنهم مروا ولم يروا روعة اعتبار.

أتوا هذه القرية أى مروا عليها فى رحلاتهم إلى الشام، ولم يعتبروا، وقال أتوها، ولم يقل مروا، للإشارة إلى أنه كان يجب أن يأتوا، ويعتبروا بها، ويخشون أن ينزل بهم لما ارتكبوا من آثام مثلها، أو أشد منها، وإن لم تكن من نوعها .

﴿بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ بل هنا للإضراب الانتقالى، أى أنه لا يتوقع منهم اعتبار بالسابقين؛ لأنهم لا يرجون نشورا، لا يتوقعون أن ينشروا ويبعثوا ويحاسبوا، لأن من فقد ذلك الشعور لا يأبه لشىء ولا يفكر فى عبرة أو اعتبار، إذ يحسب أنها الحياة الدنيا وحدها ويقول: ما هى إلا حياتنا الدنيا نلهو ونلعب وما نحن بمبعوثين.

النبى والمشركون

قال تعالى :

وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾

المشركون كشأن كل ضال أن يكون مصروفا بقلبه عن الحق منصرفا عن المعانى إلى الظاهر، وعن الحقائق الثابتة إلى الأمور الحسية، لقد رأوا النبى يأكل

كما يأكلون، ويمشى فى الأسواق كما يمشون، فصرفتهم هذه المشابهات الحسية عن معانيه ﷺ التى سمى من أجلها الأمين بينهم، فاستهزءوا لمظهر حاضره، ونسوا حقيقة ماضيه العامر بالجود والفضائل، بل نسوا معنى الرسالة ومعجزتها.

الضمير فى ﴿رَأَوْكَ﴾ يعود إلى المشركين، لأنهم حاضرون دائما بمجادلتهم ومهاتراتهم، وفتنتهم للمؤمنين، أى إذا رآك المشركون داعيا موجها مرشدا ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً﴾ إن هنا نافية، وفى الكلام معنى القصر والتخصيص، فالنفى والاستثناء يفيدان القصر، إنهم إذا رأوك لا ينظرون إليك إلا نظر المستهزئ الساخر، فلا يفكرون فى الدعوة أهى حق أم باطل، أو أهى فى أخلاق الناس وإرشادهم أمر حسن أم أمر باطل، وفى دليلها، أهو ساطع قاطع، وفى تحديه لهم، أهم عاجزون أم قادرون، وفى ماضيه أهو كريم أم غير كريم، لا يفكرون فى شىء من هذا، بل يغلبهم الإعراض والاستهزاء قائلين ساخرين ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً﴾ أى أهذا الذى يعيش كما نعيش، ليس معه ملك وليس له كنز، وليس له بستان يغنيه، بعثه الله رسولا، وضمير الصلة محذوف ودل عليه الكلام، والاستفهام فى قوله أهذا الذى بعث الله رسولا، استفهام إنكارى للتهم، يفيد نفى الرسالة، لعدم لياقته لهم فى زعمهم وكذبهم على الله العزيز الحكيم، وهو أعلم حيث يجعل رسالته.

ويستمرون فى غيهم، فيقولون:

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾.

إن - مخففة من إن، واسمها ضمير الشأن محذوف تقديره إن الحال والشأن أنه كاد إلى آخره، أى أنه بماضيه وظهور صدقه، وعدم الدليل على كذبه فى حججه المتوالية التى كانت تجىء دليلا ردف دليل قارب أن يبعدنا عن آلهتنا، أى يبعدنا عن عبادة آلهتنا، ويجنبنا إياها، ﴿لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أى لولا أن حبسنا

أنفسنا عليها، فصبر هنا بمعنى حبس، كقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ... (٢٨)﴾ [الكهف].

وإن هذا النص الكريم الحاكى لأحوالهم النفسية يدل على أمرين: أولهما- أنهم كانوا فى مغالطة نفسية، بين باطل اعتنقوه وحق لاح نوره بين أيديهم بحججه وأدلته الناصعة المنيرة، والثانى- أنهم لتقليدهم وتعصبهم لما كانوا عليه وما وجدوا عليه الآباء فكانوا يحاولون إبطال الحق وتأييد الباطل، فحبسوا أنفسهم على الباطل حبسا، وأنهم كانوا يتبعون الحق لولا أنهم حبسوا أنفسهم على الباطل، ولولا ـ شرطها صبرنا، وجوابها محذوف دل عليه ما قبلها.

وهكذا المبطل دائما يكون غير مستقر على فكرة، بل الأوهام تسيطر، وتضع على الإدراك غشاء مانعا من أن يصلوا إلى الحقائق ويؤمنوا بها، ولا تحسبن الضالين يؤمنون بشىء.

وقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ سوف هنا لتأكيد وقوع الفعل فى المستقبل، أى سيعلمون علما مؤكدا فى أى جانب كان الضلال، أكان مع الهادى المرشد الأمين، أم منكم، وأنتم تعبدون أحجارا لا تنفع ولا تضر، وقد حبستم أنفسكم عليها حبسا لا تخرجون من دائرة سلطانه الموهوم، وإنكم ستعرفون الحق الواضح الأبلج الناصع فى نوره وبياضه عندما ترون العذاب، فالنفوس الضالة لا يهديها إلى الحق الحجة الدامغة، بل تزيدهم إصرارا على باطلهم، ويعلمون حينئذ الحق فى وقته، إذ يعلمونه فى وقت نزول العذاب، وهو علم ندم، ولات حين مندم.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ استفهام لإنكار حالهم وتوبيخهم على جهلهم مع مجازاتهم على ما كان منهم فى جنب النبى فى الدنيا، ﴿أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ أى أبعد عن الطريق المستقيم، والله بكل شىء عليم، وإن هذا القول الذى حكاه سبحانه وتعالى عنهم يدل على أنهم يختارون من الآلهة ما يتجه إليه هواهم دون عقولهم، ولذا قال سبحانه:

﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ .

ترتب على حبسهم أنفسهم على الضلالة لا يتجاوزونها، ولو بدا لهم الحق لائحا منيرا أنهم يريدون آلهتهم على ما يهوون ويحبون، لا على ما يدركون بعقولهم، وتبين به الآيات الباهرة، وعظمة الله تعالى القاهرة، والمعنى لقد رأيت من اتخذ إلهه هواه، وقالوا: إن المفعول الأول هواه، وأُخّر للاهتمام بمعنى الألوهية التى لا تكون هوى قط، وكأن سياق القول، أفرأيت من اتخذ هواه إلها يعبده، والإله هو الواحد الأحد النافع الضار الذى يملك كل شيء فى الوجود، ولا سلطان لأحد عليه، والاستفهام هنا للتوبيخ، لأنه إنكار لفعلهم الذى فعلوه، ويفعلونه، ويلجون فيه من غير تفكير، ولا تَعَرّف للحق.

﴿ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ الوكيل الحفيظ المتصرف المحامى عليه، لقد كان النبى ﷺ حريصا على هدايتهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ .. (٥٦) ﴾ [القصص]، وقال تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ [الشعراء]، فهذه الآية وسابقتها تدل على أنهم يعبدون ما يحبون لا ما يعلمون ويدركون، وأنهم قد انغمروا فى ضلال لا منجاة لهم منه، ولذا قال تعالى: ﴿ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى إذا كانوا يتخذون هواهم إلها، فأنت تكون عليهم حفيظا تهديهم، وتخرجهم من الظلمات إلى النور، إن فسادهم فى ذات أنفسهم، فإن حفظتهم عن أن يضلوا غيرهم، فكيف تحفظهم من ذات أنفسهم، إن ضلالهم فى ذات أنفسهم، والاستفهام للتنبيه إلى ضلالهم، وقال تعالى :

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ .

أم ـ هى أم المنقطعة الدالة على الإضراب والاستفهام معا، أى أنها تدل على الإضراب والانتقال من أمر شديد، إلى أشد، فالأمر الأول كان يفرض أنهم

يستمعون، ويعقلون واختاروا الهوى إلها، أما الاستفهام فى هذه الآية فهو على إنكار أنهم يسمعون.

﴿تَحْسَبُ﴾ معناها تظن ونقدر أنهم يسمعون ويعقلون، وإنكار أنهم يسمعون؛ لبيان أنهم لا يسمعون الحق ولا يهتدون ولا يتدبرون، فكانوا كمن لا يسمعون أصلا، لأن الله وهب لنا السمع لنتقى به أضرار المفاجآت، ولنكون فى يقظة، فإذا لم يفد السماع إدراك الحق فهو لم يسمع، ففى الكلام مجاز، وكذلك من عنده عقل ولا يستعمله فكأنه سلبه.

وقال سبحانه: ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ لأن الله عدل فى حكمه دائما، فمنهم من يؤمن، ويكون من المجاهدين، ومنهم من كان يستنكر فى نفسه ما يفعله هؤلاء، فليسوا جميعا كأبى جهل وأبى لهب، وإن هؤلاء الكثرة كانوا هم المسيطرون على الجو الفكرى حتى أدال الله تعالى من دولة الكفر، وكانت الكلمة العليا لله ولرسوله وللمؤمنين، فأخذ الإسلام يغزو القلوب قلبا قلبا قلبا، وفقد الهوى سلطانه إلا فى بعض الأعمال دون العباد، ويئس الشيطان أن يعبد فى أرض العرب، وبين سبحانه أن هذه الكثرة أضل من الأنعام فقال: ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾.

هنا نفى وإثبات، وإن نافية، أى ليسوا إلا كالأنعام، فى أنهم لا يعقلون الحق ولا يدركونه، وفى الكلام مجاز، إذ شبهوا بالأنعام، لجامع الجهالة وعدم الفهم، وقد أكد الله جهلهم بقوله ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ أى أنهم أضل طريقا وهداية؛ لأن الأنعام تتبع هاديها، ومن يأخذها إلى منتجع الكلأ والماء، أما هم فلا يهتدون ولا يتبعون هاديا مرشدا، فهم جائرون بائرون، ولقد قال الزمخشرى فى هذا المعنى :

« إن الأنعام تنقاد لأمر من يرعاها ويتعهدها، وتعرف من يحسن إليها، ومن يسىء إليها، وتطلب ما ينفعها، وتتجنب ما يضرها، وتهتدى لمراعيها ومشاربها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم، ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذى هو عدوهم، ولا يطلبون الثواب الذى هو أعظم المنافع، ولا يتقون العذاب الذى هو

أشد المضار، والمهالك، ولا يهتدون بالحق الذى هو المشرع الهنى، والعذب الروى».

وهكذا كان الذين يحسبون الهداية ضلالا، والعكوف على الأوثان والتمسك بها صبرا، يحمدون عليه، وليس هوانا يحسب عليهم، والله الهادى.

آيات الله فى الكون

قال تعالى:

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۚ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾

الرؤية هنا بصرية نظرية، ذلك أنه من ينظر ببصره الظل وهو يُمَدُّ، والمد: الجر والسحب، يراه رأى العين يجر شيئا فشيئا من انبلاج الفجر، إلى طلوع الشمس يرى ذلك بالنظر، ثم يتدبر بالفكر فى صانعه، ولذلك قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ والرؤية بالبصر تكون فى مد الظل شيئا فشيئا، والرؤية النظرية فى سر ذلك وسببه، ولذا وجهت الرؤية إلى الله خالق الأكوان والقادر على كل شىء، والرؤية

حينئذ رؤية علمية إلى صانع المد، وما يكون حتى مطلع الشمس، والمد كما قلنا هو السحب والجر، و الظل وهو ما لا تظهر فيه الشمس، سواء أكانت فى حال إشراقها، أم فى حال زوالها، وهو هنا ما قبل إشراقها، وهو يمتد شيئا فشيئا، فالفجر ينبلج، ثم يكون الإسفار متدرجا حتى تطلع الشمس فهو كقوله تعالى: ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ ﴾ [التكوير]، إذ يمتد الظل شيئا فشيئا، ويبرز الناس إلى الحياة متدرجين فى بعث الحياة فى الأعمال، وكأنه يتنفس تنفسا.

هذا توجيه إلى تعرف بدائع الخلق، وإنه فى هذه الحال، تكون الراحة النفسية، واستقبال الحياة مبشرا، وإن ذلك صنيع الله تعالى خالق كل شىء ومبدعه، خلقه سبحانه بإرادته المختارة، التى ينشئ بها كل شىء فى الوجود، فلا تصدر عنه صدور العلة عن معلولها، ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾، أى باقيا مقيما، وتكون كلمة ساكنا وضعا من السكنى، وعندئذ لا تبعث الراحة والسعادة والاستبشار، وقد قال تعالى فى آية أخرى ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ .. ﴿٧١﴾ ﴾ [القصص]، فسبحان مقلب الأحوال، وسبحان مقلب القلوب.

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ انتقل السياق القرآنى من الغيبة إلى المتكلم؛ لبيان إرادة الله الواضحة، وأنه هو الفاعل المختار، ولتربية المهابة فى النفوس بخطابه بذاته العلية خطابا واضحا معلما، والعطف بثم للإشارة إلى التفاوت بين الظل والشمس الساطعة، وكانت الشمس دليلا على الظل، لأن إشراقها نهايته؛ ولأن ضوء الشمس يدخل فى ظلام الليل شيئا فشيئا من انبثاق الفجر، فهو الدليل الواضح للظل، حتى يكون الصباح.

وإنه بعد الإشراق يأخذ الظل فى الانقباض حتى يكون الظلام الحالك، ولذا قال تعالى:

﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ وإنه بعد إشراق الشمس يكون الظل والحرور، ويستمر طول النهار مصطحبا مع الشمس المشرقة والنور حتى يكون فى الغروب وتختفى الظلال والأضواء ويكون الظلام الدامس، والليل الذى تستكن فيه

النفوس، وترخى أستار الظلام، وهذا قوله: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا﴾ أى نسخناه وأزلناه، وشبه زوال الظل بجوار الضياء بشىء يقبض، وأضيف القبض إليه سبحانه لأنه يكون بإرادته، وبالنظام الثابت الذى وضعه الله تعالى للكون، فجعل سبحانه الأرض تدور حول الشمس، وبهذا الدوران يكون الليل والنهار، وثم هنا فى موضعها؛ لأن القبض مستمر طول النهار، ويتم فى آخره، فالتعبير بثم فى موضعه.

والقبض اليسير هو القبض المتدرج آنا بعد آن، وساعة بعد ساعة، فالقبض للظل مستمر من شروق الشمس إلى غروبها، وهو يتناقص شيئا فشيئا حتى ينتهى النهار.

وإن هذا النص يثبت أن الأرض كروية، ويومئ إلى دوران الأرض حول الشمس .

ولقد صرح سبحانه بأنه خالق الليل والنهار بعد أن أشار إلى بعض الأسباب.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾.

فى هذه الآية الكريمة يذكر ما جعله الله تعالى من خواص الليل، وما جعله من خواص النهار، فجعل الليل كاللباس للناس، لأنه يستر عوراتهم، ولا يكشف، ويكونون فى كِن من الظلام ساتر غير كاشف، فشبه سبحانه الليل باللباس الساتر بجامع ستره للعورات وما لا يصح إبداؤه، وقوله تعالى ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أى جعلنا النوم قاطعا عن العمل منهيا للحركة، وفى ذلك الراحة اليومية، وتجديد القوى للعود للعمل؛ وذلك لأن السبات من السبت وهو القطع، وسمى السبت سبتا لأنه قاطع عن عمل الأسبوع، ومَنْهٍ له، وإخلاد إلى الراحة من بعده، وذلك فى عقيدة اليهود إذ كانوا فى السبت ينقطعون عن العمل والصيد، ويستجمون، والنوم فى ذاته موت للحس، وقعود عن الحركة، ولذا قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ .. (٦٠)﴾ [الأنعام].

وجعل النهار نشورا، أى جعل النهار فيه النشور، أى الانتشار للحركة والعمل، وفى كلمة نشور إشارة إلى أمور ثلاثة: **أولها** - إبعاد إلى لباس الليل وإنهاء لسباته، **وثانيها** - الحركة العاملة التى بها يعمر الكون، **وثالثها** - الكسب فى الحياة وظهور الأعمال خيرها وشرها، ولذا قال تعالى فى الآية التى تلونا، ﴿ **وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ** ﴾ أى كسبتم بالنهار، وسمى الله تعالى النهار نشورا، فسمى الزمان باسم ما يقع عليه، وهذا مجاز علاقته الظرفية، وفى ذلك ما يفيد أنه زمن حركة وعمل، وليس زمن توان وكسل، وهذه دعوة إلى العمل، فالعمل حياة، والكسل موت.

وهذه الآية متصلة بما قبلها، فالآية السابقة شرحت عجائب فى خلق النهار من الليل كيف يبتدئ بمد الظل، ولو شاء لجعله ساكنا، وكيف جعل الشمس مشرقة داعية إلى العمل والحياة، وكيف قبض الظل متدرجا حتى جاء الليل، وفى هذه الآية: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا** ... ﴾ بين سبحانه حكمته فى خلق الليل والنهار، إذ يبدأ النهار بمد الظل، ثم يقبضه متدرجا فى قبضه، حتى يجئ الليل، ومن الليل النهار، وجعلهما خلفة.

بعد بيان نعمته على عباده فى الليل والنهار، وبيان أن النفوس تستروح الراحة فى الليل، وتنهض للعمل فى النهار لطلب الرزق بين سبحانه أنه يرزق الناس بما يكون مادة عملهم، وفيه معاشهم، فقال الحكيم العليم الخلاق العظيم:

﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا** ﴾.

الضمير لله جل جلاله الذى أسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة، وأرسل الرياح أطلقها، كأنها مقيدة بإرادته سبحانه ثم أرسلها، والرياح جمع ريح، وهى تتلاقى فى استقامتها مع الراحة، كما تتلاقى فى وقائعها مع الراحة أيضا، وإن كانت المعانى ليست واحدة، أطلقها سبحانه وتعالى لتكون مبشرة للناس بنزول الماء الطهور، ولذا قال تعالى: ﴿ **بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ** ﴾ وبشرا مخففة من بشر بضم

الاثنين، جمع بشور، أى مُبَشّر، والمعنى على ذلك مبشرات برحمته، وهو إنزال الماء الطهور، الذى يطهر من الأرجاس، ويسقى الزرع والغرس والحيوان، والإنسان، ويصح أن تكون جمعا لبشرى، وهى فى نظرنا أظهر والمؤدى واحد، وهو أنها مبشرات، وقد تكون الرياح عواصف جدباء، وليست هذه التى تكون بشرا، بل إنه يكون نذيرا من النذر كما وقع لعاد قوم هود، ولثمود قوم صالح، وقوله تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أى أنها مقدمة لرحمته تليها الرحمة الإلهية لخلقه، وفى هذا الكلام تشبيه حسن باستعارة تمثيلية، فقد شبهت الرياح الممطرة غيثا بمن يسير وأمامه فى سيره رحمة مباركة طيبة، ورشحت وقويت الاستعارة بقوله بشرا فإنها تقوى معنى المشبه به، والاستعارة إذا كانت مقواة بما يكون فيه معنى المشبه به كانت مرشحة أى مقواة. وقول ﴿بُشْرًا﴾ قرئت بالنون، أى نشر جمع نشور، كما جمع رسل من رسول، والمعنى أنها تنتشر وتعم لتعم الرحمة، ونذهب إلى أن القراءتين المتلاقيتين فى المعنى نجمع بينهما فيكون المعنى أن الرياح فيها وصفان أحدهما أنها مبشرة بالخير، والثانى أنها منتشرة وعامة.

ويكون المؤدى أن كل قراءة آية قائمة بذاتها، وهى قراءة، والجمع بينهما يكون الجمع بين آيتين، فى أوجز لفظ، وبالجمع تكون الرياح مبشرات ومنتشرات، والله هو الرزاق ذو القوة المتين.

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ والسماء هنا جهة العلو، أنزلنا من السحاب الذى حملته الرياح المبشرة المنتشرة ماء طهورا، والطهور هو الطاهر فى نفسه المطهر لغيره، وإن أطهر الماء هو ماء المطر؛ لأنه فوق خلوه من الأنجاس الحسية والقاذورات هو خال خلوا تاما من جراثيم الأمراض الوبائية وغيرها، ووصفه بطهور ينبئ عن ذلك، وإنه ينزل كذلك ثم يكون تلوثه بجراثيم الأمراض بعد ذلك بمكوثه فى الأرض واستقراره بها.

وإنه فى الشريعة يطهر الإنسان طهارة حسية بإزالة الأنجاس الحسية، وطهارة

معنوية بالاغتسال والوضوء، وإنعاش الأجسام بالاستحمام، والاستراحة من وعثاء الأعمال، وكل هذه نعم تعَمُّ البر والفاجر.

وقد بين سبحانه غاية هذه الماء الطاهرة، أو عاقبة نزوله بإرادة الله تعالى وأمره الذى لا معقب له، ولا راد لفضله، فقال ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾.

اللام لام العاقبة، وليست لام التعليل فى نظرنا؛ لأن أفعال الله جل جلاله لا تعلل، ولكنها لام العاقبة وبيان اقتران نعمة الله تعالى بهذا الخير العميم، وقد ذكر الله تعالى ثلاث نعم كل نعمة تشير إلى ما وراءها.

النعمة الأولى - إحياء موات الأرض، وقد عبر الله تعالى عن ذلك بقوله تعالت كلماته: ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ البلدة الميت هى الخالية من الزرع والماحلة من الغرس، ولا ينتفع بها فى بناء أو غيره، بل هى معدة للزرع والغرس، وإحياؤها هو سقيها، وإزالة أسباب بوارها، وزرعها أو غرسها، والماء هو حياة الزرع والغرس، وخلق الله تعالى من الماء كل شىء حى، يلاحظ هنا أن كلمة « بلدة » مؤنث لفظى، وهو دال فى ذاته على البقعة، فكيف يوصف بكلمة ميتا الخالية من التاء، قال علماء البيان: إنه أريد بالبلدة مكانها، فميتا وصف للمكان وهو الذى يوصف بأنه محل خاو من الزرع والضرع، فكان حذف التاء، فيه إيماء إلى ما يجرى فيه الإحياء وهو المكان وليس البلدة التى تتكون من البيوت والدور، وهى لا تكون إلا حيث يحييها الله تعالى بالزرع، وإن إيراد المكان بالبلدة هو الذى يتفق مع السياق، والبيان.

وقال علماء البيان أيضا: إن الوصف بميت من غير تاء فيه مبالغة فى مَحْلها، وجدبها وخلوها من النبات، وما به ينبت، أى أن الجدب حال مستمرة باقية يراها الناس كذلك، وذلك وجه معقول كسابقه.

وسمى الله تعالى وجود الزرع والغرس، وما يتبعهما من إحياء، تشبيها بالحياة، أى أن الأرض فى حال جدبها كالميت، وفى حال زرعها واستغلالها

كالحى، وكل بفضل من الله تعالى، ذلك أنه إذا كـانت الأرض ماحلة لا حياة لها بزرع أو غرس، فإنه قـد يكون باطنها عامرا بالمعادن فلزات وغيـر فلزات كما نرى فى الصحـارى فى بلاد الحجاز، وفى الصـحراء الغربية فـى تخوم ليبيـا والجزائر، ومصر، وفى العراق وإيران، وغيرها من أرض الله تعالى العليم القدير.

النعـمة الثانية- سقى الحـيوان من الأنعـام وغيـرها، وذلك قوله تعـالى: ﴿ وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا ﴾ أشار فى هذه الآيـة إلى ثلاث نعم فى ضمن نعـمه **أولها**: السقى ذاته فهـو نعمة، **وثانيها** : أن الأنعام يسقين خلق الله تعالى، وهى تكون حاملة وعاملة، **وثالثها**: أنها حيوان هى نعم فى ذاته، ولذا سميت الأنعام.

ورابعـها: سـقى الأناسى، وهى جـمع إنس بمعنى الإنسـان، وهذه نعمـة أخيرة، وهى نعمة الرى، ودفع العطش القاتل، إنه هو المنعم الكبير.

التصريف فى القرآن والنذر

قال تعالى :

وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ
لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا
لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ
وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ
ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا
وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ
نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾

اللام لام قسم محذوف، وهى لتـأكيد القول، وقد للتأكيد، والضـمير يعود إلى القرآن، وهـو حاضر فى نفـوس المؤمنين والكافـرين، فأما المؤمنـون فلأنه زاد تقواهم، وأما الكافرون فـلأنه موضوع لجاجتهم وافتـرائهم، وقولهم على الله بغير الحق، وافـترائهم عليـه، وتحديهم أن يأتوا بمثله فـعجـزوا عن أن يأتوا، وبدل أن يخنعوا بعد هذا العجز يمارون فى الحق بعد أن يتعبوا، وهذا على أن الضمير يعود إلى القرآن وهو حاضر فى كل الآذان، وتصريفـه تحويل بيانه من باب فى الإعجاز إلى باب آخر، فمن قـصص حكيم فيه عبرة لأولى الأبصار إلى بيـان الشرائع وما فيها من إصلاح، إلى الكون وما فيـه من بيان لقدرة الله تعالى وإبداعه، وكأن هذا التصريف بينهم؛ ليبعث فيهم الذكرى، وهذا قوله تعالى: ﴿بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا﴾ واذَّكر افتعال من الذكر، أى أعملوا عقـولهم ليذكروه دائما، ولكنهم كفروا، ولم يجعلوا للذكر موضعـا فى قلوبهم، ولذا قال تعالى: ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً﴾، وهم المشركون، والفاء عاطفة وتشير إلى السببـية، أى أنهم بدل أن يجعلوا القرآن سبيلا لتذكـرهم وتدبرهم جعـلوه سبيـلا لكفرهم وبعـدهم عن الحق، وأكثـر الناس هم المشركون، وقد كـانوا فى مكة والكثرة الكاثرة، والمؤمنون كانوا القلة المستـضعفة، ولكنها القوية بالحق فهو عز المؤمنين، وذل الكافرين مهما يكن عددهم.

هذا على أن الضمـير يعود إلى القـرآن، وإن الضمير يعـود إلى الماء الطهور الذى ينزله الله تعالى ليحيى به موات الأرض، ويسـقى بها الأنعام التى خلقها الله تعالـى وأناسى، والعود إليـه ظاهر؛ لأنه أقرب مـذكور، ﴿صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ﴾ ، أى وزعناه بينهم، فهـو مرة يكون غيثـا فى الشرق، وأخرى فى الغرب، وأحـيانا فى الوسط، وأحـيانا فى الجنـوب، ورابعة فى الشـمـال، وكل يفيض عليـه رزق الله تعالى، وكل يـسقيـه الله تعالى بقدر، وكـان حقـا عليهم أن يتذكـروا هذه النعم ويشكروها؛ لأنه سبحانه وتعالى خلقـهم، وكفل أرزاقهم، ومكنهم من أن يعملوا ويقومـوا على الحرث والنسل، ويستخـرجوا من الأرض خيرها، ولكن أبـى أكثر الناس إلا كفورا وجحودا .

هذا، وإنا نميل إلى أن الضمير يعود على القرآن؛ لأنه حجة النبى ﷺ الذى بعثه الله تعالى بشيرا ونذيرا، ولقد قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً ﴾.

إن الله تعالى رحيم بعباده رفيق بهم، ولكنه خلق لهم أعينا يبصرون بها وآذانا يسمعون بها، وقلوبا يفقهون بها، وجعل لهم علما وإدراكا، ومكنهم من أن يصلحوا فى الأرض ولا يفسدوها، وصلاحها بأن يقوموا بمكارم الأخلاق، وجعل لهم بعثا ونشورا، وحسابا وجزاء وعقابا، ولكنه علت قدرته لابد أن يعطيهم النذر مرشدة، حتى لا يتردوا بأهوائهم فى الضلال، فبعث إليهم محمدا بشيرا ونذيرا، بالنذر العامة التى تعم القرى والمدائن، ولو شاء لجعل فى كل قرية نذيرا، والقرية المدينة العظيمة، أو القبيل الكبير، ولذا قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً ﴾ ، أى منذرا يخصها، ويبين الحق بيانا كاملا، ويبين ما يعقب الكفر من عذاب الجحيم، وما يكون بعد الإيمان من جنات النعيم.

لو - حرف امتناع لامتناع، أى امتنع الجواب لامتناع الشرط، أى امتنع أن يجعل الله تعالى فى كل قرية نذيرا، لامتناع مشيئته سبحانه ذلك، وله سبحانه وتعالى فى ذلك حكمة وإرادة، وعلى أن الناس متشابهون خلقا وتكوينا وإرادة، وسيطرة الأهواء الشيطانية على بعضهم، والعقل على آخرين اصطفاهم الله تعالى، وبهداه اقتدوا، فكان الإعلام بالرسالة والنذير، إعلاما لهم أجمعين، ومن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، وكان إنذار محمد ﷺ عاما للناس أجمعين، وكان التبليغ الكامل حقا عليه وعلى من تبعه من بعده، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ... (٦٧) ﴾ [المائدة].

وإذا كان إنذار الناس أجمعين حقا على النبى واجبا عليه، كان لابد من الجهاد، ولذا قال تعالى :

﴿ فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ .

الفاء للإفصاح لأنها تفصح عن شرط مقدر، وقد أمره تعالى بأمرين:

الأمر الأول ـ ألا تطع الكافرين؛ لأنه منذر لهم، والطاعة تكون بتخاذله فى الدعوة، وممالأتهم فيما يعبدون، وذلك مستحيل أن يكون من محمد المبعوث رحمة للعالمين والذى جاء لإصلاحهم، فلا يصح أن يعود إلى مداهنتهم فى الحق، وإنما ذلك أمر لأتباعه ﷺ من بعده، ومن هم معه فى حال حياته، وذكر الكافرين بالاسم الظاهر لبيان أن طاعتهم طاعة للكفر، فكان ذلك تأكيد النفى ببيان سببه.

والأمر الثانى - جهادهم، والجهاد بذل الجهد فى مقاومة ضلالهم، وبيان الحق الذى يدعو إليه، والإصرار عليه، والجهاد كان فى مكة بالصبر على الدعوة إلى الإيمان، والأذى فى سبيلها، والاستهزاء والسخرية بها، وألا ينى عن الإعلام بها لمن لم يكن يعلم، وقد حقق النبى وأصحابه ذلك فى مكة، فقد صبروا وصابروا، وتعرض النبى ﷺ للقبائل بعد أن ذهب إلى الطائف وردوه ردا منكرا، تعرض للقبائل فى موسم الحج، حتى كان الأوس والخزرج من أهل يثرب، إذ وجدوا فيه منجاتهم مما هم فيه من عداء بينهم، وحرب مع اليهود، فهاجر إليهم، فكانوا له أنصارا، وكان الجهاد بالمنازلة بعد الجهاد بالمصابرة.

ووصف الله تعالى المطلوب بأنه جهاد كبير، لأن المصابرة أمر عظيم، وبها قام المسلمون، وتكونت الخلية الأولى من أهل الوحدانية. وحملوا مع النبى ﷺ عبء الجهاد فى دوره الثانى، وكان الجهاد كبيرا؛ لأنه كان فى كل أدوراه بالصبر، وقوله: ﴿ بِهِ ﴾ أى القرآن ببيانه والتمسك به، فإنه فى ذاته قوة، وإنه بهذا يشير إلى وجوب الدعوة إلى الإسلام والجهاد فى سبيلها والمصابرة، وهو أمر كبير إلا على الخاشعين، وإن كبر الجهاد ليس بكثرة المقتولين، وإنما كبره يكون بالصبر عليه، وإرادة الله تعالى فيه، وتحمل الأذى والرضا بالأذى، ما دام يوصل إلى الغاية، وهى أن تكون كلمة الله تعالى هى العليا.

وقد ذكر سبحانه آياته فى خلقه الدالة على قدرته القاهرة، وإبداعه الباهر، فقال عز من قائل:

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾.

الضمير يعود إلى الله جل جلاله، ومرج، لها معنيان وردا فى لغة العرب، المعنى الأول - خلّى وأرسل، والمعنى الثانى - خلط من غير امتزاج، وإدخال أحدهما فى الآخر، وقبل أن نخوض فى معنى الكلمات والأسلوب نقرر أن هذه الآية من دلائل الإعجاز؛ لأن محمدا لم ير البحار التى تمخر عبابها السفن، فذكره سبحانه وتعالى لخواصها فى القرآن دليل على أنه ليس من عند محمد ﷺ الذى لم يرها ولم يعرفها، ودليل على أن الكلام لله تعالى خالق البحر واليابس، والأنهار والبحار، وهو بكل شىء عليم.

والمعنيان للمرج يستعملان فى هذا المقام، فالله سبحانه وتعالى خلّى البحرين يجريان كل منهما فى مجراه من غير أن يمتزج أحدهما بالآخر، وهما غير متجاورين أحيانا، وأحيانا يكونان متجاورين يختلطان ويتجاوران ولا يمتزجان، والبحران هما النهر العظيم كالدجلة والفرات والنيل وسيحون وجيحون وغيرها من الأنهار العظيمة الذى يخليها الله تعالى ويرسلها فى المروج، فتنبت الزرع نباتا وغراسا، ويشرب منها الناس، ويسقون دوابهم وأنعامهم، والبحر الثانى هو البحر الملح، كبحر الروم وبحر القلزم، وبحر الهند، وبحر الظلمات وغيرها، والأول عذب فرات، والثانى ملح أجاج، أى ملح شديد الملوحة، وفيه أحيانا دفء، وفيه نعم لا تحد، ففيه الجواهر والياقوت والمرجان، وفيه اللحم الطيب، وهواؤه فيه مواد مطهرة للصدر، فيه اليود، ومنه تنبعث الريح، وفيه تجرى البواخر كالأعلام وفى هذا بيان نعمة الله تعالى فى الماء العذب الفرات الذى يكون لسقى الأرض وإحياء نباتها وغرسها.

وقد ذكر الحافظ ابن كثير عجائب الله تعالى فى البحر الأجاج، فذكر ما

يكون فيه من مد وجزر تبعا للقمر، فقال رضى الله تعالى عنه فى تفسير ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ : أى مالح مرّ زعاق لا يستساغ كالبحار المعروفة فى المشارق والمغارب والبحر المحيط.

وأخذ يضرب الأمثال حتى قال: وما يشابهها من البحار الساكنة التى لا تجرى ولكن تموج وتضطرب وتلتطم فى زمن الشتاء وشدة الرياح، ومنها ما فيه مد وجزر، ففى أول كل شهر يحصل مد وفيض فإذا شرع الشهر فى النقصان جزرت حتى ترجع إلى حالتها الأولى، فإذا استهل الهلال من الشهر الآخر شرعت فى المد لليلة الرابعة عشرة، ثم شرع فى النقص فأجرى الله سبحانه وتعالى تلك العادة.

وإن نعم الله تعالى فى البحار كما ذكرنا عظيمة، وقد سئل النبى ﷺ عن ماء البحر فقال: « هو الطهور ماؤه الحل ميتته ».

وقد أشار سبحانه إلى أن كلا من البحرين العذب الفرات والملح الأجاج كلاهما محجوز عن صاحبه، بل يأخذ الإنسان من كل منهما منافعه ونعمه من غير أن يختلط أحدهما بالآخر، فيختلط الملح بالعذب الفرات، فلا ينتفع الإنسان بشربه، ولا الزرع بسقيه.

ولذا قال : ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أى جعل بينهما حاجزا مانعا، وحجرا، أى حدّا، وهو بمعنى محجوز، كنقض بمعنى منقوض، وأكد سبحانه المنع، فقال: ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أى حدا ممنوعا لا يمكن أن يعدو أحدهما.

وقد قلنا إن ﴿مَرَجَ﴾ هنا بمعنى خلا وأرسل، وقد بينا معنى مرج البحرين على ذلك المعنى، وهى أيضا بمعنى خلط وجاور من غير أن يمتزج الماءان كل منهما بالآخر مع أن الماء سريع السيران، ويتم الامتزاج فيه، لكن فى النوعين من الماء نجدهما يتجاوران مختلطين بالجوار غير سائل أحدهما فى الآخر، فتجد فى مصبات الأنهار حيث يختلط ماء النهر وتجاور ماء البحر، تجد بينهما مانعا حسيا يكون كل واحد منهما متميزا بحيزه لا يعدوه؛ لأن ماء النهر خفيف، والماء الملح

ثقيل فكلاهمـا لا يمتزج بالآخـر، وإن كان ماء البـحر على ماء النهـر، ولذا قال تعالى : فى هذا النوع من المرج ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ ﴾ [الرحمن].

وبعد أن بين سبحانه مـا فى الكون من عجائب وبدائع بادية للعيان، ويدرك بعضها الجنان عاد بنا إلى الإنسان المخاطب بالتكليف فقال:

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾.

الضمير ﴿هُوَ﴾ يعود إلى الله جل جلاله خالق الوجـود كله جليله ودقيقه، وفى هذه الآية يقول عـز وجل أنه خلق من الماء بشرا، ونجد فـى النص تفاوتا بين الماء المخلوقه، والمخلوق منه البشر، فهذا ماء ظـاهر أنه لا حياة فيها يكون منه بشر له حياة وحس ظاهر وخفى، والماء لا يتألم، والبشر يتألم، ومع هذا التغير الظاهر كان المخلوق والمخلوق منه مـوجودين فى كيان واحد، ومـا ذلك إلا بقدرة العليم الحكيم الذى يُغيِّر ولا يتـغير، ويحول ولا يتحول، وقد خلق البـشر الحى الحساس من الماء مرتين: أولاهما - أنه ككل حى متحرك ينمو كان من الماء، فالماء كان منه الزرع والثمـار وغيرهمـا، والإنسان كان من النبـات، ونما من الحيوان، كمـا قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبيـاء]، وخلق من الماء وهو المنى، وما هو إلا مـاء مهين، لا يعبـأ به النظر، وأشار سبـحانه إلى أن هذا الذى كان منه الماء يتـوالد، ويتلاحم البـشر فى الأسر والقـبائل، والشعـوب، ولذا قال مشـيرا إلى هذا التوالد، فـقال" : ﴿ فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ وهذا فيـه إشارة إلى الصلات الإنسـانية التى تربط الإنسان، وتـكون منها المودة الراحمـة الواصلة. إما بتوالد نسبى يجمعه الأصل، والنسب، وإما بسـبب صهرى، ولقد ذكر الزمخشرى أن ذكـر النسب والصهـر والسـبب إشارة إلى أن العـلاقة الإنـسانيـة تكون بنسب الرجال، أو بالمصاهرة التى تكون بالنساء إذ تكون بالمزاوجة، والمرأة هى السبب فى علاقتها، كما قال تعالى ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ [القيامة].

وإن ذلك كله بقدرة الله تعالى وإبداعه فى هذا الوجود، ولذا ختم الله تعالى الآية بقوله عز من قائل، ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً ﴾ وكان ربك خالقك الذى أنشأك ويكلؤك ويرعاك قادرا قد علت قدرته كأقصى ما يتصور العقلاء، و (كان) هنا هى الدالة على الاستمرار والدوام، أو الكينونة الدائمة.

ومع هذه القدرة القاهرة، والعجائب الباهرة، وكما رأيت من مد الظلال، وخلق الليل والنهار، ومرج البحرين، وخلق الإنسان من ماء، مع كل هذا تجد الذين سيطرت أوهامهم يعبدون حجارة لا تنفع ولا تضر، ولذا قال سبحانه عقب ذلك: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيراً ﴾.

﴿ وَيَعْبُدُونَ ﴾ الواو هنا واو الحال، والمعنى: هذه قدرة الله القاهرة الباهرة مع أنهم لم يعتبروا ولم يدركوها، والحال أنهم يعبدون من دون الله أحجارا، أو ما يشبهها لا تنفعهم بشىء قط بحيث يعبدونها رجاء، ولا تستطيع ضررا لهم فتكون العبادة دفعا لهذا الضرر، فهى لا حياة لها، وهى دونهم، ولكن الوهم جعلهم يعبدونها، مع هذه الحال.

وقال تعالى: ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيراً ﴾ روى عن مفسرى السلف، أن ظهيرا معناها أن الكافر يظاهر الشيطان على الله تعالى، إذ يدليه بغروره فلا يعبد الله، ويعبد الحجارة، وهذه المظاهرة على الله تعالى ربه الذى خلقه وأنعم عليه، وأسبغ عليه ظاهرا وباطنا، وذكر الكافر بالوصف، للإشارة إلى أن سبب ذلك هو ضلال الكفر وطمسه لبصيرة عابد الأوثان.

وفسر بعض العلماء ﴿ظَهِيراً﴾ أى مهينا، والمعنى هينا على ربه لا يضره كفره، وقالوا إن ذلك من قولهم ظهرت عليه، أى جعلته وراء ظهرى، لا ألتفت إليه، ولا أهتم به، وذلك قريب من قوله تعالى: ﴿ ... وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا... (٩٢) ﴾ [هود]، وهذا القول قاله أبو عبيد، وهو قائم على أن ظهير بمعنى مظهور أى ملقى وراء ظهره.

والمعنيان متلاقيان، فالكافر حليف الشيطان هو الذى يدفعه دفعا إلى معاندة الله تعالى، وهو هين على الله تعالى وليس له عند الله إلا مكان الهون .

الله يؤيد الرسل

قال الله تعالى :

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ
عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ
عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ
خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ
أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ
فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ
الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ
شُكُورًا ﴿٦٢﴾

إن المشركين أثاروا من أوهامهم أمورا حول النبى ﷺ، فزعموا أنه يريد مالا، وزعموا أنه مجنون، وأنه ساحر إلى آخر ما أوحت به أوهامهم، فبين الله سبحانه أنه ما كان إلا بشرا رسولا، وقال :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ .

الجملة السامية الأولى دالة على القصر بالنفى والإثبات أى ما أرسلنا ذا سلطان، ولا ذا مال، لا لأى عرض من أعراض الدنيا، ولكن أرسلنا مبشرا بالحق داعيا إليه منذرا من يتمسك بالباطل أو يدعو إليه، أرسلناك فقط لتبشير من يبتغون الحق بالنعيم المقيم وجنة الفردوس، ومن يصرون على الباطل لهم عذاب الجحيم.

ومعنى هذا القصر الثابت بالنفى المستغرق، والاستثناء الموضح أنه ﷺ هاد مرشد، فلا تعبثوا بهذه الحقيقة بما تثيرون من أوهام باطلة، وتصدون عن سبيل الله تعالى بهذه الترهات الفاسدة.

وأمر الله تعالى نبيه أنه لا يريد أجرا إلا الهداية واتباع الحق، فقال عز من قائل:

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً﴾.

الأمر فى ﴿قُلْ﴾ للنبى ﷺ، وقد أمر الله تعالى نبيه أن يقول ذلك القول؛ لأنهم قالوا وأشاروا وصرحوا أنه يريد سيادة دنيوية فى جاه يبتغيه، أو مال يتموله، فهو ﷺ الذى يتولى الرد، وبيان أنه لا يريد إلا الهداية ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ من - هنا دالة على استغراق النفى، أى لا أسئلكم على هذا الإرشاد والتوجيه الذى أدعوكم به إلى ترك الأوثان وعبادة الله تعالى وحده أى أجر، وإن فائدة هذه الدعوة مغبتها عليكم إذا اهتديتم، وتعود عليكم بالعقاب إن كفرتم .

ثم قال تعالى مستثنيا من الأجر ﴿إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً﴾.

هذا الاستثناء يحتمل أن يكون متصلا، ويحتمل أن يكون منقطعا، وعلى أنه متصل يكون المعنى ظاهرا والمعنى لا أسألكم أجرا تدفعونه، أو تؤدونه، إلا ابتغاء من شاء أن يتخذ إلى ربه منهاجا مستقيما، وطريقا موصلا إلى ربه، فإن ذلك هو الأجر الذى أبتغيه، وهو نعم الأجر ونعم الجزاء، فيكون الكلام دالا على مطلبه ﷺ، ودالا على شرف الغاية التى يبتغيها، فليس يطلب مالا ولا جاها، ولكن يطلب هداية وتوفيقا وإرشادا.

ويكون معنى النص السامى على أن الاستثناء منقطع، لا أسألكم عليه أجرا، لكن من شاء اتخذ إلى ربه سبيلا هو مطلبى وغايتى، وموضع دعايتى ودعوتى.

ومهما يكن من تخريج، فالمعنى أنه لا جزاء للنبى إلا أن يتبعوا الحق، ويهتدوا به، ويوحدوا العبادة.

وفى قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ إشارات بيانية ثلاث.

الأولى - التعبير بقوله: ﴿مَن شَاءَ﴾ إشارة إلى أن الثواب لا يكون إلا بالإرادة الحرة المختار، إذ هى أساس التكليف.

الثانية ـ التعبير بقوله: ﴿يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ التعبير بالرب توجيه إلى أنه الخالق المربى القائم على الخلق، ففى ذلك دعوة للاتباع المدرك، شكرا لنعمة الله تعالى عليه.

الثالثة- وصف الهداية بأنها اتخاذ السبيل؛ لأنه المنهاج، وهو ﴿سَبِيلاً﴾، وكان التنكير لبيان أن السبيل المطلوب هو ما كان إلى الله تعالى.

وبعد أن أمر الله تعالى نبيه أن يقول لهم ما قال أمره سبحانه بأن يتجه إلى الحق معتمدا عليه سبحانه وتعالى وحده فقال:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً﴾.

أمر الله تعالى نبيه بالتوكل عليه بعد أن يئس من المشركين، ليكون خالصا للدعوة إليه، وليكون معتمدا عليه وحده، وليكون ذلك تبشيرا للنبى ﷺ بالنصر عليهم، وأن الله تعالى معطيه ومن معه القوة الدافعة، والتوكل معناه اعتماد القلب على الله تعالى، واتخاذ الأسباب الظاهرة، وإن لم تكن هى وحدها الناصرة إنما هى وسائط، أمر سبحانه وتعالى باتخاذها من غير اعتماد عليها وحدها، وقد ذكر

سبحـانه وتعالى وصفين لذاته العـلية يؤكدان أنه لا يعتـمد إلا عليه: **الأول** - أنه الحى الكامل الموجود. **الثانى** أنه سبحـانه لا يموت فهو الباقى، ومن يعـتمد على من يموت لا يكون له معتمد بعد موته، أما من يعتمد على الباقى فمعتمده باقٍ لا يفنى.

وبعد أن أمر سبحانه بالتوكل عليه وحـده أمر بالتسبيح، وهو التنزيه بوصفه بصفـات الكمال المـطلق من قدرة وإرادة ووحـدانية وغيـرها من الصفـات التى لا يشبهه فيها أحد من خلقه، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير، العلى الكبير.

وقوله تعالى: ﴿ بِحَمْدِهِ ﴾ ، أى مصاحبا بـالحمد بالثناء عليه بما هو أهله، فكان الأمر بالتنزيه، وأمرنا بالثناء عليه سبحانه بما أنعم، وشكره على ما أجزل من عطاء غير مجذوذ.

﴿ وَكَفَىٰ بِهِ ﴾ ، أى الكفاية به سـبحانه وتعالى وحـده، والباء لتأكيـد معنى الكفاية والاعتماد على ذاته وحده، ومن توكـل عليه لا يحتاج إلى غيره ولا يغنى غناءه أحد من خلقه، وقوله تعالى: ﴿ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴾ بذنوب، جار ومجرور متعلق بقوله تعالى: ﴿ خَبِيرًا ﴾، والخبير هو ذو العلم الدقيق الذى لا يعلمه غيره، وقدم الجار والمجرور ﴿ بِذُنُوبِ ﴾ على متعلقه لبيان الاهتمام بالعلم بهذه الذنوب، وأنهم مجزيون بها، فإذا كانوا قد عاندوا وضلوا وصدوا عن سبيل الله تعالى فإنهم مأخوذون بذنوبهم، وخبيرا - حال من ضمير به، ومؤدى القول الكريم، وكفى به خبـيرا بذنوبهم، وهى خـبرة وراءها جزاؤهم عليـها، وهذا تهـديد شديد، وإنذار بليغ.

وذكر سبحانه خلق السموات والأرض فى ستة أيام، فقال عز من قائل:

﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ .

بدل أو عطف من الحى، وذكـر ذلك بـعد هـذا الوصف الجليل لبيـان أن

التوكل على القادر المنشئ للوجود كله، وستة الأيام التى فى هذه الآية التى ذكر سبحانه أنه خلق السموات والأرض ليست هى الأيام التى نعرفها الآن بيننا، لأن أيامنا مربوطة بالشمس والأرض، ودوران الأرض حول الشمس، فيكون الليل والنهار خلفة يخلف أحدهما الآخر، وقبل السموات والأرض لم تكن الشمس ولا الأرض، ولذلك تفسر الأيام بالأدوار الكونية التى يخلق الله بها السموات والأرض، وقد ذكر سبحانه وتعالى فى سورة فصلت، فقال عز وجل:

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) ﴾ [فصلت].

وإن هذا النص السامى يدل على أن الأرض أخذت أربعة أدوار منها الدوران الأولان، والسماء قضاهن سبحانه سبع سموات فى يومين.

وإن لعلماء الكون جولات علمية فى معانى هذه الآيات، وما تدل عليه من حكمة اللطيف الخبير.

بعد أن خلق سبحانه وتعالى السموات السبع والأرض فى ستة أدوار كونية، جلس سبحانه على عرش الكون؛ لأنه سبحانه وتعالى خالقه فقال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ هذا كناية عن كمال سلطانه فى خلقه يدبره كما شاء، ففى الكلام تشبيه، إذ شبه سبحانه وتعالى سلطانه على الكون يقوم عليه ويدبره، لأنه سبحانه وتعالى الحى القيوم، بمن يجلس على عرش مملكته يدبرها ويقوم على مصالحها، ولله المثل الأعلى.

وقال سبحانه ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾، التعبير بـ (ثم) فى موضعه، لأنه سبق ذلك أدوار كونية لا يعلمها إلا الله، ووصف سبحانه وتعالى سلطانه على العرش، فقال عز من قائل ﴿الرَّحْمَنُ﴾ أى أنه يدبره ويسيطر عليه

برحمته، فكل عمل منه سبحانه فى عرش السموات والأرض رحمة فى ذاته الرحمن الرحيم.

وإن المتتبع لهذا الخلق وذلك التكوين، والقيام عليه بقدرته تعالى يرى بقلبه رحمته سبحانه، ولذا قال تعالى: ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً﴾ الفاء للإفصاح عن شرط مقدر إذا أردت أن تعرف فاسأل به خبيرا، والباء - فيما أحسب - بمعنى فى، والمعنى فاسأل خبيرا أى عليما يعلم علما دقيقا، فإنه ينبئك عن جلال الله تعالى فى الخلق والتكوين والرحمة.

بعد ذكر هذا الخلق، وهذا التكوين العجيب، والإشارة إلى خلق الله تعالى الوجود كله فى أدواره المحكمة أعاد بيان حال المشركين فى مكة التى يتعلقون بألفاظ يدورون حولها غير متعقلين ولا مدركين، فقال عز من قائل:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً﴾.

لم يكونوا يذكرون الله تعالى بلفظ الرحمن، فهم لا يعرفونه إلا باسم الله تعالى، فلما ذكره باسم الرحمن استنكروا هذا الاسم، وكأنهم لا يقرونه، قالوا: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ الواو عاطفة على محذوف، كأنهم يقولون سمعنا قولك من قبل، وما هذا الذى تريده وتسميه الرحمن، كأنهم يحسبون أنه شيء غير الله تعالى، أتريد أن نسجد لما تأمرنا، وكأنهم يقولون تأمرنا بألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئا، وتريد أن تأمرنا أيضا بأن نسجد لهذا الرحمن، كأن المسألة بيننا وبينك ليس أمر التوحيد تدعو إليه، إنما أنت تعادى آلهتنا بآلهة أخرى، ومرماهم أنك تتحكم فى عبادتنا، ولا تخالفنا فى شركنا، ﴿وَزَادَهُمْ نُفُوراً﴾ ، أى زادهم الأمر بالسجود للرحمن نفورا، لأن من لا يدرك يزداد نفورا بجهالته، وعدم معرفته، لأنهم ضلوا، وعقولهم الضالة تزداد نفورا، كما أن نزول السورة يزيدهم كفرا.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾ عبر بالفعل المبنى للمجهول، ولم يذكر الفاعل، وقد علم من البعض، لأنهم قالوا للنبى ﷺ ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا

تَأْمُرُنَا﴾ والسجود هنا العبادة، أو الصلاة من بينها؛ لأن أظهر مظاهر العبادة الخضوع وأظهر مظاهره السجود لله سبحانه وتعالى.

وذكر الفعل مبنيا للمجهول للإشارة إلى نفورهم من أصل تسمية الله بالرحمن، وكانوا يحسبونه غير الله تعالى ويقولون رحمن اليمامة أى إله أرض أخرى.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾

تبارك - أى تعالت بركته سبحانه، فالضمير يعود إلى الله تعالى الذى يمتلئ الوجود كله بذكره وتسبيحه، وإن كل بركة ونفع فى هذا الوجود يرجع إليه سبحانه، ولذا تتعالى بركته فى هذا الوجود الإنسانى كله، وقد أشار سبحانه وتعالى إلى بعض مظاهر بركته، وفيض رحمته فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ البروج جمع برج، وهو القصر العظيم، كما قال تعالى: ﴿... وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ... (٧٨)﴾ [النساء]، ولقد قال مجاهد: البروج فى الآية الكريمة هى الكواكب العظام وكأنها شبهت فى عظم مرآها وجمالها، وكمالها بالقصور المشيدة التى تأخذ بالأنظار تقريبا للأنفس، وليس المعنى أنها مشبهة بالقصور فى تكوينها، فإن خلقها أقل من خلق الكواكب العظيمة، والمشبه به يكون أقوى من المشبه، وليس الأمر كذلك فى هذا التشبيه، إنما التشبيه للتقريب لإدراكنا.

وخص سبحانه وتعالى من الكواكب بالذكر الشمس والقمر، فقال: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ الضمير فى فيها يعود إلى البروج، أى جعل فى البروج أى فى عمومها سراجا، والسراج هو الشمس كما عبر سبحانه وتعالى فى آية أخرى ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣)﴾ [النبأ]، وكما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦)﴾ [نوح].

وهنا نقول: شبهت الشمس بالسراج تقريبا لأفهامنا على سبيل الاستعارة،

وذلك إشارة إلى أنها مصدر الضوء والنور لما حولها من الكواكب، ووصف القمر بأنه منير، أى أن من شأنه أن ينير فى الظلام، ولكن الشمس، جعلها الله تعالى المصدر؛ لأنها سراج هذا الوجود، وقد قال فى ذلك علماء الكون: إن الشمس تضىء الأرض فيكون النهار، ومن انعكاس أشعتها على الأرض يكون نور القمر، فالأصل كما خلق الله تعالى كان من الشمس، وأضاء الأرض، وبانعكاس ضوئها على القمر كان القمر منيرا.

ولهذه الصلة بين الشمس والأرض والقمر قال تعالى بعد ذكر الشمس :

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ .

الضمير يعود للذات الإلهية التى يجب أن يكون ذكرها فى قلب كل مؤمن، وهو الذى يسبح له الرعد بحمده، ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾، أى يخلف كل واحد منهما الآخر، كأنه يذهب عن الوجود ليكون الثانى خليفة له فى إحكام ودقة، وانتظام وتداول بينهما، فالإنسان بين ليل يغشاه، وليل يبرزه، وبين حياة هادئة ساكنة يستروح فيها راحة الحياة واستقرارها، وبين لغوب وعمل وكد وعناء، وقال تعالى: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ يذكر أصلها ليتذكر، أى أنه فى هدأة الليل يتذكر نعم الله تعالى نعمة نعمة، ويعتبر أمره عبرة بعد عبرة، وأخذ مواعظه عظة بعد عظة.

وقوله تعالى: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ اللام حرف جر متعلق بجعل، أى هذا الليل والنهار خلفة لتكون مادة اعتبار وإدراك لمن أراد أن يتذكر، ويعرف قدرة الله تعالى وخلقه، وإبداعه فى التكوين، فيذكر قدرة الله تعالى الخلاق العليم، وأنه ليس كمثله شىء، وأنه خالق كل شىء، والمنعم على كل شىء، وأراد أن يُشكر على ما أنعم بالطاعة.

وفى هذا التعبير الحكيم إشارة إلى تبعة الإنسان فى إهماله أو اعتباره، لأنه سبحانه قال ﴿لِّمَنْ أَرَادَ﴾ فإرادته هى الموجهة له بعلم الله العلى الكبير، وبهذه الإرادة يستحق الثواب ويستحق العقاب، والله تعالى يهدى من أراد الهداية بالتذكر

وشكر النعمة، و ـ أو ـ هنا للدلالة على التردد بين أمرين . أولهما ـ التذكر وهى تذكرة دائما، أو الخطوة الأخرى التى تكون بعد التذكر، وهو الشكور، وهى مصدر شكَر، فمصدر شكَر الشكر، والشكور، كمصدر كفر الكفر والكفور.

واذكر أصلها تذكر، سكنت التاء وادغمت فى الذال وجاءت همزة الوصل ليمكن النطق بالساكن، وإن الليل والنهار من تعاقب الشمس والقمر فى الحس، وهما مستمران فى دأب وتوالٍ، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣)﴾ [إبراهيم]، وقال تعالى: ﴿... يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ... (٥٤)﴾ [الأعراف] صدق الله تعالى .

صفات المؤمنين المتذكرين

قال تعالى :

وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ
هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ
يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ
رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا
(٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا
لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧)
وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ
الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ
أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ

مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا
فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ
مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ
مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ
لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا
هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا
لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا
صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ
فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي
لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ﴿٧٧﴾

هذه الآيات الكريمات تصور صفات المؤمنين التى يتكون منها المؤمن الصادق، وهى تجمع بين أمور ثلاثة من الصفات: أولها- الصفات الموجبة المكونة معنى الإيمان، والتى هى خلال أهل الإيمان الذين تعلو الإنسانية بهم، ولا يستعلون عليها، وهى من أول الآيات إلى قوله تعالى : ﴿**لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ**﴾.

وثانيها ـ صفات سلبية، وهى التى تبتدئ من هذه الآية الأخيرة.

وثالثها- الذين يبتغون الحياة الزوجية بالطهر والعفاف، وختم سبحانه الآية ببيان الجزاء الأوفى.

الصفات الإيجابية

قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾.

وصفهم الله تعالى بأنهم عباد الرحمن، وهذا الوصف يشعر بأنهم رحماء فيما بينهم، لا يجافون، ولا يتناحرون، بل هم فى اطمئنان وسلام، وروحانية، لا يجعلون للمادة من حياتهم إلا أن تكون غذاء طيبا يأخذون منه القوة للقيام بواجبهم، وهم فى أوصافهم الظاهرة والباطنة يتطامنون، ولا يستكبرون، والهون مصدر هان يهون هونا، وهو المشى فى غير عنف، ولا تجبر، وهو وصف محمود، وهو ضد الهوان الذى يذل صاحبه للقوى أو المتغطرس، ويهون عليه، وهو من عذاب، ومعنى هونا أى يمشى فى سكينة ووقار وفى قصد وتؤدة، وتلك أخلاق الأنبياء والذين يقتدون بهم، فالمؤمن يسير فى رفق، وقد وصف الله مشى النبى بأنه كان يمشى فى هون ورفق، تبدو فى مشيته قوة الماشى غير المصطنع المتخاذل، وغير المختال المرح المتعالى، وكما قال الله تعالى: ﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (٣٧)﴾ [الإسراء]، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ والجاهلون هم الحمقى الذين لا يعرفون ما أحله الشرع، ﴿قَالُوا سَلامًا﴾ أى سَلْما وأمنا، فهم لا يعلون على الناس، ولكن يسالمونهم، وإذا رأوا حمقى لا يحاورونهم، ولا يخاطبونهم على مقتضى قولهم، وإن ذلك دأب الحكماء المتقين، يهدون، ولا يجهلون، ولقد كان النبى ﷺ لا تزيده شدة الجاهل إلا حلما.

ولقد روى أن إبراهيم بن المهدى كان ناصبيا يعادى، وكان المأمون علويا معتدلا، فقال إبراهيم بن المهدى رأيت فى رؤيا عليّا فتكلم، فما رأيت فى كلامه بلاغة، قال فماذا قال لك إذ خاطبته؟ قال: سلام، قال إذن فقد رأيت عليا، يشير إلى أن عليا خاطبه بما تؤدب به الآية، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما، وقد

قال تعالى في وصف المتقين في آية أخرى ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥)﴾ [القصص].

الوصف الثاني من أوصاف أهل الإيمان الإيجابية: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾.

هذا عمل إيجابي، وإذا كان العمل الأول معناه التطامن للناس، وألا يكون بينهم وبينهم شغب، حتى إذا خاطبهم السفهاء بما لا يصدر إلا عنهم، لا يبادلونهم السفه بسفه مثله، بل يقدمون لهم السلام والأمن ويطمئنون، ولا يشاغبون. وهذا عملهم مع الناس، أما هم بالنسبة لله، فقد ذكر سبحانه ذلك في بيانهم، وهو السجود لله تعالى والقيام له، والخضوع له تعالى، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ هذا عطف على الجملة السابقة في بيان عملهم لله، وكذلك ما يجيء من بعده من أحوال لهم، واللام في قوله ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ متعلقة بـ ﴿سُجَّدًا﴾ أي أنهم يبيتون ساجدين لربهم خاضعين، وقائمين له، وقدم قوله تعالى ﴿لِرَبِّهِمْ﴾؛ لبيان قصر السجود عليه، فلا يسجدون لغيره إذ لا يعبدون غيره، ولا يسجدون لسواه.

والسجود والقيام كناية عن الصلاة، فهم يتهجدون مطيعين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا (٧٩)﴾ [الإسراء].

وإن معنى الآية أنهم يبيتون على هذه الحال، تنام أعينهم، ولا تنام قلوبهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ... (١٦)﴾ [السجدة] وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ... (٩)﴾ [الزمر].

هذه بعض أحوال عباد الرحمن: اتجاه إلى الله وإغضاء عن مساوئ الناس، ويكون الله تعالى في بياتهم فيكونون لله تعالى في مبيتهم، وفيما يجْرَحُونَ من أعمال بالنهار.

وإن من كانت هذه أحوالهم يظنون التقصير فى ذات أعمالهم، ويترقبون العقاب، ويغلب عليهم الخوف، ولذا يقولون:

﴿ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾.

لقد توقعوا النار وأيقنوا بعذابها، وعملوا ما يجنبهم إياها، ولكنهم مع ذلك أيقنوا أن أعمالهم لا تكفى لتجنبهم، فضرعوا إلى ربهم أن يصرفها عنهم عالمين أن الجنة من فضل الله، وليست بعمل عملوه ولكن برضا من الله عما عملوه، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ﴾ والتعبير بالمضارع يفيد أن هذا حال ملازمة لهم يكررونها دائما، بالخضوع والخشوع والحذر الدائم المستمر، فهم فى حذر دائم مستمر، فيكونون مع الله بحذرهم لا يفترون، ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ أى كان أمرا ملازما، فالغرام هو الأمر الملازم الذى يكون خسارا وشرا، ولذا فسر بعض التابعين الغرام بالشر الملازم وكل غرام يزول عن صاحبه أو يفارق صاحبه إلا غرام جهنم، وإن المؤمن الحق يؤتى الله حقه، ولا يحسبه قد أوفى، ولذا قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ... (٦٠) ﴾ [المؤمنون].

﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ ساءت بمعنى بئس، فهى لذم جهنم، والمستقر هو مكان الاستقرار، والمقام هو مكان الإقامة، والمعنى بئس الورود إليها على جهة الاستقرار، والإقامة فيها، والجمع بينهما للإشارة إلى أنه ليس استقرارا عارضا ولكنه إقامة دائمة.

بعد أن ذكر حال عباد الله مع الله، ومع الناس أخذ سبحانه وتعالى يذكر حالهم فى أنفسهم، ودنياهم وأسرهم، فقال عز من قائل:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾.

الإنفاق هو الصرف فيما يقيم الأود ويدفع الجوع، والإسراف هو الإنفاق فى غير الحاجة بالزيادة عليها، والإسراف المنهى عنه هو الإنفاق فى غير حق لله أو

للناس أو لنفسه، ولقد قال ابن عباس: «من أنفق مائة ألف فى حقه فليس بمسرف، ومن أنفق درهما فى غير حقه فهو مسرف، ومن منع من حق عليه قتر».

وظاهر الآية أن عباد الرحمن قد أخذوا بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإسراء]، والقتر هو التضييق على النفس بحيث يكون فى قدرة، ويحرم نفسه من أقل مطالب الحياة، أو يضيق فيها، والإقتار الفقر أو الضيق فى المادة، كما قال تعالى: ﴿ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ ... ﴿٢٣٦﴾ ﴾ [البقرة]، ومعنى الآية أنه ينفق فى حلال بمقدار طاقته وقدرته، ولا يضيق على نفسه فى الحلال، ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ أى عدلا بين الإسراف والقتر.

وإن النص الكريم يفهم منه أمران: أحدهما - ألا ينفق فى حرام قط، وألا يضن عن حلال موجود إلا تربية للنفس وتهذيبا، وفطما لها عن الشهوات، ولذا كان عمر رضى الله عنه يعد من يطلب كل ما يشتهى مسرفا؛ لأنه إذا حق الأمر لا يستطيع قدع نفسه عن شهواتها.

الأمر الثانى - أن الإنفاق بين الإسراف والقتر يختلف باختلاف أحوال الأشخاص، فإذا كان الرجل كسوبا عليه أن ينفق فى الحلال والجهاد بمقدار كسبه وطاقته ما دام ينفق فى مطلوب، وما دام كسبه واسعا، ولقد قبل النبى ﷺ من أبى بكر كل موفور ماله لأنه تاجر كسوب، يعرف مواضع الكسب والخسارة، ولم يقبله من غيره، وقد قال تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ... ﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة]، أى السهل اللين الذى لا يجهد ذا المال إنفاقه ولا يصعب عليه.

هذه أحوال إيجابية هى التى صورت شخصية عباد الرحمن والتى كونت فيهم الإيمان والعمل الصالح، والجمع بين سلامة القلب، واستقامة العمل، وتكوين الإنسان النافع، وقد ذكر سبحانه وتعالى بعد ذلك ما يتجنبونه لكيلا يكون ما يعوق هذه الأخلاق العالية، فقال تعالى :

﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾.

إن أولئك الأبرار الذين رضى الله سبحانه وتعالى أن يضيفهم إلى ذاته العلية، فقال وعباد الرحمن، قد اتصفوا بالكمالات البشرية فهم لا يستعلون على الناس، ويرفقون بهم، ولا يشاكسون بل تكون علاقتهم بالناس دائما أمنا وسلاما، وامتلأت قلوبهم بالتقوى والخوف من العذاب، والذين قد اتزنوا فى حياتهم لا يسرفون ولا يقترون، أولئك قد اتصفوا بصفات، وهى ذاتها تحمل جزاء، فالكريم إذا اتصف بمعالى الصفات، كان جزاؤه هو هذه الصفات ذاتها، وهى نعم الجزاء، ولذا لم يذكر سبحانه وتعالى جزاءها، وإن كان لها الجزاء الأوفى.

وقد ذكر سبحانه ما اجتنبوه، وهو كبريات المساوئ الإنسانية، كما أنهم تحلوا بأعلى المناهج الكمالية، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾.

وهذا أول معصية تحط من قدر الإنسان، وتنزل به إلى أكبر المهاوى الإنسانية ﴿يَدْعُونَ﴾ يعنى يعبدون، لأن العبادة دعاء لله تعالى وضراعة إليه، وتسليم كل أمورهم فى جنب الله، والدعاء مخ العبادة، كما قال ﷺ، والإنسان يهبط فى درجة الإنسانية إذا عبد غير الله، وأى كرامة إنسانية لمن يعبد حجرا لا يضر ولا ينفع، أو يعبد إنسانا مثله، أو يعبد ما يصوره وهمه كالملائكة يتصور أنها تعبد، أو نارا، أو غيرها، إن هذا انهواء إنسانى، ومن يعبد شيئا من هذا، إنما يعبد وهما تدفع إليه شهوة منحرفة، فقد اتخذ إلهه هواه.

هذا هو الانحراف الأول الذى تجنبه عباد الرحمن، أما الانحراف الثانى الذى تجنبوه فقد نفاه الله تعالى عنهم بقوله عز من قائل: ﴿وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ وهذا وصف للعاصين، وهو المشاكسة التى تؤدى إلى القتل، فهذا مقابل للسلام فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾، وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ الجار والمجرور متعلق ﴿لا يَقْتُلُونَ﴾ الحق هو الأمر الثابت الذى يسوغ القتل من اعتداء أثيم، أو زنى أو رِدَّة بعد إيمان، وهذا النص يفيد أن

الأصل فى النفوس الصيانة، وألا يعتدى عليه، ويحفظ أمنها، وأنه لا تستباح الأنفس، إلا بحق كما قال تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ... (٣٢) ﴾ [المائدة].

والأمر الثالث الذى نفاه الله تعالى عن عباد الرحمن الاعتداء على النسل بالزنى، ولذا قال تعالى: ﴿ وَلا يَزْنُونَ ﴾؛ لأن إشاعة الزنى تضيع النسل، ولا تجعل الناس فى أمن ودعة، وتضعف الوحدة الإنسانية، ويكون الناس فى تناحر، وتنزل بالقيمة الإنسانية إلى دركة الحيوانية، ولقد قال محمد ﷺ: «**وما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة فى رحم امرأة لا تحل له**».

وقال ﷺ: «**إن الله ينهاك أن تعبد المخلوق، وتدع الخالق، وينهاك أن تقتل ولدك وتغذو كلبك، وينهاك أن تزنى بحليلة جارك**».

وقد ذكر سبحانه وتعالى عقاب هذه المآثم التى هى أمهات الرذائل فقال: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ الآثام جزاء الإثم وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، أى أنه جزاء من نوع ما ارتكب، ولكنه جزاء كبير، وإطلاق الآثام بمعنى جزاء الإثم، وارد فى اللغة العربية، فقد جاء فى الكشاف هذا البيت من الشعر:

جزى الله ابن عروة حيث أمسى عقوقا، والعقوق له أثام

وإن هذا الأثام شديد، حتى إنه ليحسب أنه مضاعف الإثم ليس مثله، ولذا قال تعالى فى بيان هذا الأثام وتوضيحه: ﴿ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾.

إن الله تعالى عدل، يجازى السيئة بمثلها، ورحيم يجازى الحسنة بعشرة أمثالها، فكيف يجعل العقاب ضعف الذنب، أجاب عن ذلك صاحب الكشاف بأن المضاعفة لأنه عقاب الشرك، وعقاب الذنب الذى ارتكب من قتل نفس وزنى، ونقول حينئذ لا مضاعفة.

والذى يبدو لى - غير متطاول على مقام الزمخشرى - أن العذاب شديد

عنيف حتى إنه ليبدو لدى المعاقب، كأنه مضاعف للذنب، وإن المذنب دائما يحس بالجزاء كأنه أكثر من الذنب، فالله تعالى يصور له العقاب كأنه مضاعف، ولأنه يتجدد آنا بعد آن، كلما نضجت جلودهم بدلهم الله تعالى جلودا غيرها، فهو عذاب بعد عذاب، وبهذا التكرار الدائم يكون كأنه مضاعف.

وإنه عذاب دائم مستمر، ولذا قال تعالى: ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾، أي أنه مستمر مع مهانته الشديدة الواضحة الدائمة المستمرة، وكذلك يستبدل الله بغطرستهم الجاهلية، واعتزازهم الظالم العاتي مهانة دائمة مستمرة، وقد استثنى العادل الحكيم الذين يتوبون في الدنيا، فقال:

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾.

هذا الاستثناء من العذاب السابق ذكره في الآية السابقة، وقد ذكر سبحانه وتعالى ثلاثة أمور تخرج الشخص من دركة الكفر والطغيان إلى درجة الإحسان واستحقاق الثواب.

وأول هذه الأمور- التوبة، وثانيها- الإيمان، وثالثها- العمل الصالح فقال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾.

أما أولها: وهي التوبة فهي أعلى درجات الاعتذار عن العمل السيئ، وقد قال في ذلك الراغب الأصفهاني في مفرداته: «التوبة ترك الذنب على أكمل وجوه الاعتذار، فإن الاعتذار على ثلاثة أوجه، إما أن يقول المعتذر :لم أفعل، أو يقول: فعلت لأجل كذا أو فعلت وأسأت وقد أقلعت، ولا رابع لذلك، وهذا الأخير هو التوبة، والتوبة في الشرع ترك الذنب لقبحه، والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة فمن اجتمعت له هذه الأربع فقد كمل شرائط التوبة».

ولا شك أن من تكون له هذه الإنابة يغسل قلبه من أدران الشر، ويرحض

عنه كل ما كان من المآثم التى ارتكبها فى حال غيه، ولذلك يغفر الله ما قد سلف، ويبتدئ التائب صفحة جديدة تحل محل صفحة السوء، ويبدل مكان السيئات حسنات، ويقول الله تعالى فى ذلك: ﴿ **قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ** ... (٣٨) ﴾ [الأنفال].

هذا هو الأمر الأول، وهو الأساس للأمرين الآخرين، بل هو النور الهادى لهما، أما الأمر الثانى: فهو الإيمان بأن ينتقل من دركة المعصية إلى درجة الوحدانية، ومن دركة الكفر بمحمد والقرآن والعناد إلى درجة الإذعان للحق والإيمان به والجهاد فى سبيله.

وأما الأمر الثالث، فهو العمل الصالح، وقد قال تعالى: ﴿ **وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا** ﴾ وإن ذلك العمل يؤكد الإيمان ويوثقه، لأن والعمل ثمرة الإيمان، أو هو جزء منه، كما أن ثمرة العلم العمل، والإيمان أعلى درجات العلم، إذ هو علم وتصديق وإذعان وتسليم، وقد أكد سبحانه وتعالى العلم فقال ﴿ **وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا** ﴾ وذلك بذكر المصدر تأكيدا لمعنى العمل، وليكون ذلك العمل بعد الإيمان مقابلا للعمل الذى كان فى جاهليتهم، ولبيان أنهم يعملون عمل عباد الرحمن، الذين يمشون على الأرض هونا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما.

وقد بين سبحانه وتعالى جزاء هذه المثوبة الكاملة، وذلك العمل الصالح، والإيمان الكامل فقال: ﴿ **فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ** ﴾ الفاء واقعة فى جواب الشرط، أو ما هو فى معنى الشرط؛ لأن الموصول فى معنى الشرط، وأولئك إشارة إلى الذين كانت فيهم هذه الأحوال من توبة وإيمان وعمل صالح، والإشارة إلى الموصوف بصفات إشارة إلى هذه الصفات، وإلى أنها سبب الحكم، ولم تجد الحكم جزاء بالنعيم، وسيجىء ذلك من بعد، إنما الجزاء أن يبدل سيئاتهم حسنات، والتبديل هو التغيير، أى أنه سبحانه وتعالى يغير سيئاتهم، ويضع محلها حسنات، وإن ذلك بلا ريب واضح من التوبة؛ ذلك أن التوبة كما قررنا ترحض النفوس، وتزيل عنها أدرانها، وتجعلها مجلوة مصقولة، وصالحة لأن يحل محلها

الطهر والنقـاء، والعمل الصالح المجدى، ألم تر إلى عـمر بن الخطاب الذى مكث يكابر ويغلظ فى عناد، ويشتد على المؤمنين بضع سنين بعد البعث المحمدى، كيف تاب وآمن وعمل عمـلا صالحا، ألا تراه قد زالت مآثمـه من قلبه وأحل الله تعالى محلها عملا صـالحا، فَحَلَّت الأعمال الصالحة ذات الأثر البـعيد فى الإسلام محل ما كان منه فى الجاهليـة، ولذا قال سبحانه ﴿ **فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ** ﴾ فالتبديل على هذا هو تغيير ما كـان فى النفس من أدران السيئات، وإحلال طيبات الأعمال والنيات محلها.

وختم الله سـبحانه وتعالى الآية بقـوله تعالى: ﴿ **وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ هاتان صفتان من صفات الله تعالى أنه يغفـر السيئات ويسترها، ويرحم عباده بهذا الغفران، وكذلك شأنه الأعلى، شأنه سبحانـه يقرب عباده بالغفران والرحمة وفتح باب التوبة لمن أراد من عباده الصالحين.

ثم قال تعالى : ﴿ **وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا** ﴾.

فى هذا النص السـامى يبين الله تعـالى أن من يؤمن تائبـا، ويعمل العـمل الصالح ضارعا، فـإنه يعود إلى الله تعالى راضيا مرضـيا، ويركن إلى الله تعالى، وحسبه أنه ركـن إلى الله تعالى القوى القهار الغالب، يأمن بجـانب الله تعالى شر كل مـخلوق، ومـتـاب ـ أحسـب أنه اسم مكان، أى أنه يعـود إلى مكان التـوبة وملجئـها الحصـين الذى لا يذل من يلجأ إليه، ويـجعله حصنه الحـصين، وركنه الركين، والفاء فـى قوله تعالى: ﴿ **فَإِنَّهُ يَتُوبُ** ﴾ الفاء واقعـة فى جواب الموصول؛ لأنه فى معنى الشرط كما ذكرنا، وإن ذلك هو الثمرة الكبرى للتوبة.

وقال سبحانه وتعالى فى الأحوال النافية لعباد الرحمن :

﴿ **وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا** ﴾.

الزور: هو كل باطل مـزور مـزخرف بحـيث يؤثر فى النفس مـرآه، وهو زخرف باطل، فـيدخل فى ذلك اللهو العابث والقـول الماجن، والكذب والفحش

وفسوق القول، فعباد الله الرحمن الذين شرفوا بالانتساب إليه لا يحضرون هذا النوع من الباطل، لأنه من سوق الخطائين الذين تروج بضاعته بينهم، وبهذا تفسر الآية الآية، فلا يشهدون أى لا يحضرون، فهم لا يجلسون فى مجالس الزور من الأقوال والأفعال، بل تستغرقهم مجالس العبادة، ومجالس الجد والأفعال الحميدة التى تعود بالنفع على الناس، وتدرس فيها الحقائق الكونية والمصلحية، وتروى فيها السنة النبوية، وتعرف فيها معانى الذكر الحكيم، والقرب من رب العالمين.

هذا تفسير للنص القرآنى، ولقد قال الزمخشرى فى هذا المعنى على أنه احتمالى: «يحتمل أنهم ينفرون عن محاضر الكذابين ومجالس الخطائين، فلا يحضرونها، ولا يقربونها تحرزا عن مخالطة الشر وأهله صيانة لدينهم عما يثلمه، لأن مشاهدة الباطل شركة فيه، ولذا قيل فى النظارة إلى ما لا تسوغه الشريعة هم شركاء فاعليه فى الإثم، لأن حضورهم ونظرهم دليل على الرضا به، وسبب وجوده والزيادة فيه، لأن الذى سلط على فعله هو استحسان النظارة، ورغبتهم فى النظر إليه، وفى مواعظ عيسى عليه السلام: «إياكم ومجالسة الخطائين» وهذا نظر حسن، واتجاه سليم فإنه من المقررات أن أول الشر استحسانه، وأول الباطل حضوره.

هذا احتمال فى معنى الآية وهو معنى حكيم سليم مرشد، وهو يليق بحال عباد الرحمن، وهناك احتمال آخر، وهو أنهم لا يشهدون شهادة الزور، ويكون الكلام على حذف مضاف، فمعنى ﴿لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أى لا يشهدون شهادة الزور وسميت الشهادة فى هذه الحال الزور؛ لأنها كذب، وهى تكون فى مجالس الظلم أو معاونة للظالم، أو معاونة على الظلم، ويصح لنا أن شهادة الزور التى يروج فيها الباطل، ويُنصر الظالم، وتؤكل أموال الناس بالباطل تكون داخلة فى شهادة الزور، وحضور مجالسه.

ويقال للكذب زور لأنه مائل بالنفس عن قول الحق، وكأن طبيعة النفس ألا تقول إلا صدقا، والكذب انحراف بها وميل عن الصراط المستقيم؛ لأن القلب

المخلص يتجه اتجاها مستقيما، ثم ينطق نطقا مستقيما، فينطق بالصدق، ثم يسير فى خط الاستقامة إلى أقصى مداه، وهو خط الحكمة والفطرة الإنسانية.

ولقد قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ اللغو من الكلام ما لا يعتد به وهو الذى يورد من غير روية وفكر، ليجرى مجرى اللغا، وهو صوت الطير الذى يكون له معنى محدود، وكما يقصر اللغو على القول الذى لا يكون له قصد معقول يقره العقلاء، كذلك يطلق على الأفعال العابثة، والمقابح التى يلهو بها بعض الناس فى جلوسهم على المقاهى، وأهل اللغو من شأنهم أن يعيبوا غير المعيب، ويسخروا من أهل الفضل، ولا يجاريهم إلا من يكون على شاكلتهم فى الأفعال والأقوال، ويقطعون الساعات فى غير عبادة مقررة، ولا عمل نافع يقصد إليه، فعباد الرحمن لا يخوضون مع هؤلاء فى قول أو فعل، ولذا قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ أى مروا معرضين، كما يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ... (٥٥) ﴾ [القصص]، وكراما تدل أولا: على أنهم ينكرونه بقلوبهم لا ينكرون ما يفعله أهله بألسنتهم، حتى لا يخوضوا معهم فى حديث يجرهم إلى أن يجىء على مسامعهم رفث القول وفسوقه، وثانيا: يكتفون بالاستنكار السلبى، وذلك يفعل فى النفوس ما لا تفعله الأقوال، وهو موعظة واستنكار للأشخاص والأفعال، والأقوال، وثالثا: ينصرف إلى نفسه، فيهذبها عن اللغو، وذلك فى ذاته دعوة إلى الجد، والابتعاد عن العبث وانصراف إلى المجد.

وسماهم فى هذه الحال كراما؛ لأن الكريم يعلو بنفسه عن مواضع العبث والهذر والسخف، يقال تكرم فلان عما يشينه، وأكرم نفسه عن القبح، وفى ذلك إشعار بأن الخوض فى العبث أو مشاركة أهله فيه هو مهانة كل المهانة، وحط كل الحطة.

ومن أحوال المؤمن السلبية، وإن جاء بشكل فيه مظهر إيجاب ما ذكره سبحانه وتعالى بقوله:

﴿ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾.

ذكروا بآيات ربهم بأن تليت عليهم آياته إن كانت متلوة أو ذكروا بآية كونية فى خلقه السموات والأرض، وإبداعه فى خلق الإنسان ﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ الخرور فى اللغة يطلق على السقوط الذى يكون صوتا أو النزول من أعلى إلى أسفل نسبيا بصوت، كخرور الماء فإنه نزول من مكان يعلو نسبيا إلى ما دونه، والخرور قد يكون معنويا بالسجود لله تعالى: ﴿ خروا سجدا وبكيا ﴾ وإن خرور السجود حسى معنوى، فهو ينزل ساجدا لله تعالى فيلتقى فيه الخرور الحسى والخرور المعنوى.

ومعنى النص السامى أنهم إذا ذُكِّروا بآيات الله تعالى: ﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ والصمم والعمى هنا يراد به عدم الاعتبار بالآيات، فكأنهم صم لم يسمعوا، أو عميان لم يروا، وهذه أخلاق المشركين فهم الذين يخرون كالصم والعمى لا يعتبرون ولا يدركون، وليس المراد وصف المشركين بهذا الوصف السلبى، فقط، بل إنه وصف المؤمنين عباد الرحمن بأنهم على نقيض وصف الظالمين يخرون سجدا وبكيا، فهم ليسوا كأخلاق هؤلاء لا يعتبرون، بل يعتبرون ويخرون لله فى كل آية يسمعونها، وفى كل عبرة يعتبرونها، وينظرون إلى خلق الله تعالى نظرة مدركة مستبصرة مستهدية طالبة الرشاد، فهذا النص يشتمل على نفى الحال التى يكون عليها المشركون، فهم لا يخرون صما وعميانا، بل يخرون ناظرين مدركين متفهمين، كقول العرب: مثلك لا يبخل، فالمراد به فى كلام العرب: أنت لا تبخل.

وهنا إشارة بيانية نذكرها، وهى أن الله تعالى يقول: لا يخرون صما وعميانا بنفى الخرور، وفى ذلك إشارة إلى أن الآيات التى تتلى أو توجه الأنظار فى المخلوقات من شأنها أن تجعل من يتأملها ويسمعها أن تجعله يخر خرورا لوضوح إعجازها ودلالتها، لكنَّ عباد الرحمن يخرون سجدا وبكيا، والكافرون يخرون صما وعميانا.

ذكر الله تعالى بعد ذلك وصفا يدل على إخلاص قلوبهم لمن يجيء بعدهم من ذرياتهم، إذ يريدون أن تمتد التقوى فى أعقابهم من بعدهم، فيقول سبحانه ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

هذا النص السامى يدل على أن أخلاق عباده أن يطلبوا الولد صالحا تقيا مؤمنا صادق الإيمان لا أن يطلبوا النعم؛ لأن عمارة هذا الوجود بالولد، ولذا طلبوا هبته، ولم يطلبوا الحرمان، كما يطلب فجرة هذا الزمان المشئوم، كرر طلب الولد الصلبى فى قوله تعالى: ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا﴾؛ لأن الولد المنسوب إلى الأزواج وهو جمع زوج هو الولد الصلبى، وأما الولد من الذرية فهو من بعد الولد الصلبى، والذرية الأولاد من الظهور كالابن وابن الابن وبنت الابن، وذلك على اصطلاح الفقهاء، وهو مشتق من اللغة، ونرى أن النص يومئ إلى أنه من يكون من دمه، سواء أكان من أولاد الظهور، أم من أولاد البطون، ومهما يكن الخلاف فى هذا فإنه لا جدوى فيه من موضوعنا لأنه إن اقتصر فى ناحية على أولاد الظهور، فمن ناحية أخرى يطلب غيره من يكون من أولاد الظهور له، وتعم الدعوة السلالات أجمعين إذا خلصت كل النفوس، وكانوا عباد الرحمن.

كان طلب عباد الله الصالحين، أن تكون لهم أعقاب صالحة، عبروا عنها فى دعوتهم بقوله ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ القرة من القرار وهو الاستقرار والثبات، ويقول الأصفهانى فى مفرداته: إن الأصل فيه أنه من القر بضم الراء وهو البرد؛ لأن العين فى حال تستقر، وتهدأ، إذ كانوا يرهبون الحر، لأنه عندهم يكون شديدا، وقالوا برد المتقين وغيرهم يقول حرار الإيمان، والمفهوم من قرة العين أن تكون مطمئنة بذكر الله وأن يكونوا فى سكينة الإيمان، وقرار العين مظهر من مظاهر سكون النفس، واطمئنان الفؤاد.

وقالوا فى دعائهم: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أى اجعلنا معشر عباد الرحمن ـ

إماما ـ أى يقتدى بنا ونتبع فى الهداية والتوفيق، وإمام معناها أئمة؛ لأن إمام مصدر يوصف به الواحد والجمع والذكر والأنثى.

ولقد بين سبحانه وتعالى جزاء من يكونون فى هذه الأحوال الموجبة والسالبة، والمشبهة، فقال عز من قائل:

﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

يقول المفسرون الذين يتجهون إلى الإعراب ابتداء إن قوله أولئك **﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ ...﴾** خبر لقوله تعالى: **﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾**، وما وليها من صفات وأحوال، وأنا أقول، إن قوله تعالى: **﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾** هو مبتدأ وخبره، وما جاء بعد ذلك من معطوفات على الخبر، والمؤدى واحد، فليس الاختلاف اختلافا فى المعنى، إنما اختلاف فى الإعراب.

والإشارة هنا إلى أصحاب هذه الأحوال والصفات، ومن المعروف أن الإشارة إلى الموصوف تومئ إلى أن هذه الأوصاف سبب الحكم، وهو هنا الجزاء فهذه الصفات سبب ذلك الجزاء، وقد قال القرطبى فى عبارة جامعة لهذه الصفات: «وأوصافهم من التخلى، وصفات التخلى هى إحدى عشرة، التواضع والحلم، والتهجد والخوف، وترك الإسراف والإقتار، والنزاهة عن الشرك، والزنى والقتل، والتوبة وتجنب الكذب، والعفو عن المسىء، وقبول المواعظ، والابتهال إلى الله تعالى».

والغرفة تطلق على علية البيت، واستعيرت للجنة أو لعلية الجنة أى أعلى مكان فيها؛ لأن هذه الصفات رفعتهم إلى أعلى درجات الإنسانية، فاستحقوا أعلى جزاء وهو الجنة أو أعلاها.

وإنهم يجدون فى الجنة التى تسنموا أعلاها، وكانوا فى الذروة الترحاب والأنس والكمال ويجدون مع هذا كله الأمن والسلام والاطمئنان والقرار، ولذا قال تعالى: **﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا﴾** لقَّى هى مضعف لقى أى يلقون فى قوة

راحمة تحية طيبة، وهى اللقاء الطيب، مع الأنس والاحترام والإقبال، كما قال تعالى: ﴿ .. وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) ﴾ [الإنسان]، والسلام الأمن والاطمئنان، فلا يزعجون بشيء مما يزعج به أهل الدنيا، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب، ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) ﴾ [الرعد].

وهنا إشارة بيانية فى قوله تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ ، أى أن هذا الجزاء الموفور الذى هو أعلى درجات الجنة بما صبروا، أى بسبب صبرهم وذكر ذلك تصويرا لصبرهم الدائم المستمر؛ وذلك لأن هذه الطاعات تحتاج إلى إرادة قوية صابرة، فإنها قمع لشهوات التعالى فى الدنيا، والغطرسة والسلطان، وغيرها من الغرائز الإنسانية، فقد قمعوا هذه الغرائز وشذبوها، وجعلوها فى ناحية الخير لا تعدوها.

وإن الله سبحانه وتعالى كَمَّل هذه النعمة بدوامها، وبقائها، وخلودهم فيها فقال تعالى: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ إذ النعم ينقصها فناؤها، وهذه نعمة كاملة لا تفنى ويخلد فيها أصحابها، وكما قال سبحانه وتعالى فى عذاب جهنم ﴿ سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ قال فى هذه ﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾، أى هذه الغرفة العالية فى الجنة نعم هى مستقرا فيها حين يستقرون ونعم هى مقام طيب خالد.

قال تعالى مخاطبا الخارجين عن طاعته، وفيه التفات من عباد الرحمن إلى المشركين:

﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾.

الخطاب للنبى ﷺ ليوجه إلى المشركين خطاب الله تعالى، وقد أمر النبى ﷺ بأن يخاطبهم بهذا الخطاب؛ لأنه نبيهم المرسل؛ ولأنهم يعاندونه ويتحدونه، ويكفرون، فأمره سبحانه بأن يذكر لهم أن الله تعالى لا يباليهم، ولا يهتم لهم لولا تصحيح اعتقادهم.

وما نافيـة، ومعنى ما يعبـأ لا يبالى، ولا يحمل عبـئكم لولا دعاؤكم، أى لولا عبادتكم عبادة صحيحة تؤمنون فيها بالواحد، فالدعاء هنا العبادة، ودعاء الله عبادته، أى أنه سبحانه لا يهـتم بكم إلا لأجل تصحيح عبادتكم، ويصح أن يقال إن الدعاء هنا هو دعوتهم إلى العبادة الصـحيحة والمؤدى واحد، وفى الأول يكون «دعاؤكم» الدعاء منهم لله تعالى، وفى الثـانى يكون الدعاء من الله ورسوله إليهم ليعبدوه سبحانه وتعالى.

وجعل بعـضهم اللفظ يحتـمل هذا المعنى لولا دعاؤكم الأوثان وعـبادتهم، وذلك ضلال فى عقولكم، وأفن فى أنفسكم، والله لا يرضى لعباده هذا الضلال، ونحسب أن التخريج بعيد فى تأويله وتفسيره.

وقال تعالى: ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ الفاء للسببية، أى لا يبالى سبـحانـه بكم لولا أنه يدعوكم بالحق، وبسـبب تكذيبكم لا يعـبأ بكم لا يبـالى ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ الفاء عاطفـة وسوف لتأكيد الوقوع فى المسـتقبل، واللزام مصدر لازم، فـمصدر فاعل فعـال ومفاعلة، وهو ملازمة العـذاب لهم، وقد قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ ﴾ [طه].

ومعنى النص فى الآية الكريمة السامـية لا يبالى بكم ربكم لولا دعاؤكم أن نعبدوا الله وحده، ولكن كذبتم دعوة الحق وأصررتم على تكذيبكم، فسوف يكون العذاب ملازما لكم وتكونون خالدين فيه .

* * *

سورة الشعراء

تمهيد:

هى سورة مكية نزلت بمكة إلا آية ١٩٥ ، وآية ٢٢١ ، وعدد آياتها ٢٢٧، وسميت الشعراء ؛ لأن فى آخرها قوله تعالى: ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) ﴾.

وسورة الشعراء أكثرها خصص للنبيين، والعبرة فيهم.

ابتدأت السورة بالحروف المتقطعة التى لا يعلمها إلا الله، ثم ذكرت حرص النبى ﷺ على إيمان المشركين من قريش ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ وإن الله تعالى خالقهم قدر لهم ماهم، فلن تغير ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) ﴾، وقد وصف سبحانه وتعالى حالهم فقال: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) ﴾ فقد كذبوا قبل أن يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون، وقد نبههم سبحانه إلى أنهم كذبوا والآيات تخبرهم بإبداع الخالق ووحدانيته ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩) ﴾.

وقد ذكرهم سبحانه بالذين كانوا أقوى منهم سلطانا، وابتدأ بذكر فرعون، ويلاحظ هنا أنه سبحانه لم يكرر ما ذكر فى خبر هذا الموضع من أنباء موسى وفرعون، إلا ما يقتضيه السياق عما ذكر فى غيره، فهنا ذكر ما كان بين فرعون وموسى فى مرباه فى بيته، ولم يذكر من قبل ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) ﴾.

هنا يبتدئ ذكر تربية موسى ، ولم يذكر من قبل: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) ﴾، هنا يعترف الرسول بفعلته، ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) ﴾، أخذ فرعون يسأل عن رب العالمين ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) ﴾، فأجاب موسى ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ هنا يرميه بالجنون كما قالت قريش ولكن موسى يصر على التعريف بربه فيقول: ﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ وعند ذلك يهدد فرعون موسى بسجنه إن اتخذ إلها غيره ﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) ﴾ بهره الأمر، ولكنه لم يذعن ، وظن أنه سحر، وقال ﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) ﴾، ولم يكن غريبا ذلك، لأن السحرة كانوا علماءهم، والتفت إلى أصحابه والملأ حوله، ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) ﴾ وكأنه كان يتردد في جمع الناس، حتى لا يؤثر فيهم ما يأتي به موسي، اجتمعوا والسحرة وطلب السحرة أجرا على ما يفعلون إن كانوا هم الغالبين فوعدهم بالأجر، وأكثر من الأجر، وهو أن يكونوا من المقربين إليه، لكن السحرة، خيبوا ظنه، وآمنوا برب موسى وهارون، فقال: ﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) ﴾، قالوا وقد ملأ الإيمان قلوبهم ﴿ قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) ﴾.

احتدم الخلاف، موسى يدعو إلى ربه، وفرعون يعذب ، فأوحى الله تعالي: ﴿ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ ، وأرسل فرعون يستنصر بقومه الذين لم يعاينوا خذلانه، وشهادة السحرة عليه ﴿ إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا

لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾، ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ وأوحى الله تعالى إلى موسى ﴿ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ ، وأنجى الله موسى وبنى إسرائيل ، وأغرق الآخرين.

بعد هذه الأحزاء من قصة موسى وفرعون، والمتأمل فيها يجد أنها ليست مكررة إلا بما يقتضى المقام ذكره، وما يذكر يجد المتأمل فيه نوع اختلاف وتوجيه، لم يذكر فى غير هذا الموضع، وكل كلام الله تعالى له حلاوة، وعليه طلاوة.

وجاء من بعد ذلك قصص أبى الأنبياء إبراهيم، وفيه يبتدئ إبراهيم باستنكار عبادة الأوثان، ويبين لقومه أنها لا تصلح أن تكون معبودا، لأنها لا تسمع ولا تنفع ولا تضر : ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ ويردون قوله بأنهم وجدوا آباءهم يفعلون، فينذر بهم إبراهيم ويقول إنهم عدو لى إلا رب العالمين، ويصف ربه تعالى، وأفعاله فيقول: ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾.

ويتجه من بعد إلى ربه يدعوه ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ ثم بين سبحانه وتعالى ما يكون يوم القيامة عندما يلتقى الكافرون وما يعبدون من دون الله : ﴿ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

بعد ذلك أشار إلى قصص نوح وقومه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾، وقد اتبعه الضعفاء فقالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

ثم أشار سبحانه إلى عاد ورسولهم هود، وقد دعاهم كما دعا نوح، وكذبوه كما كذب قوم نوح، فقال لهم: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾، قالوا ملحين في الكفر، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾.

ولقد ذكر سبحانه وتعالى بعد ذلك قصة ثمود ونبيهم صالح، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾.

ثم يذكر سبحانه مشيرا إلى قصة نبى الله لوط، وقومه الفاسقين فقد نصحهم وأرشدهم إلى عيبهم الفاسق الفاجر، ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾، وقد لجوا فى طغيانهم يعمهون ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

ولقد ذكر بعد ذلك قصة شعيب عليه السلام مع أصحاب الأيكة قال لهم شعيب ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

وبعد هذا البيان القصصى الذى فيه عبرة ببيان أحوال من سبقوهم من أهل الكفر وتشابه أقوالهم، ذكر سبحانه القرآن الحجة الكبرى، والمعجزة الخالدة المستمر إعجازها فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾، ثم بين سبحانه أن العذاب يجيئهم من حيث لا يشعرون، ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ (٢٠٣)﴾، ثم يذكر سبحانه أنهم كانوا يستعجلون عذاب الله، فيقول سبحانه وتعالي: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧)﴾.

وقد بين الله سبحانه وتعالى أنه ما أهلك قرية إلا بعد إنذارها فقال: ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩) وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾.

ويدعو الله تعالى نبيه ومن معه، ومن أرسل إليهم، فيقول: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾.

وبين سبحانه وتعالى من تنزل عليه الشياطين، ﴿ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) ﴾ وبين بعد ذلك أنه بمنأى عن الشعر والشعراء، فقال: ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧) ﴾.

معانى السورة

القرآن مبين، والنبى منذر ومبشر

قال الله تعالى :

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ
أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ
أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ
إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟
بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ
كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾

﴿طسٓمٓ﴾ هذه حروف ابتدأت بها السورة، وقد ذكر أن معناها على الحقيقة لا نعلمها ، بل اختص بها علم الله تعالى والله بكل شيء عليم، وقد نعرف حكمتها على قدر طاقتنا ، وهى الإشارة إلى أن القرآن مكون من الحروف التى تنطقون بها، ولكنكم تعجزون عن أن تأتوا بمثله؛ لأنه من عند الله، ولأن النبى ﷺ أمى لا يقرأ ولا يكتب، فهو يعرف الكلمات ولا يعرف الحروف، فذكرها فى القرآن دليل على أنه ليس من عند ذلك الأمى إنما هو من العالم بكل شيء الذى لا يغيب عن علمه شىء فى السماء ولا فى الأرض، ولأن كبار المشركين قالوا فيما بينهم لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ، فإذا ابتدأت السورة بهذه الحروف الصوتية استرعاهم صوتها، فجاءوا متلهفين للاستماع، ويذهب عنهم ما اتفقوا.

ولذا كانت أكثر السور المفتتحة بهذه الأحرف، يعقبها ذكر القرآن، وهنا جاء بعد هذه الحروف الصوتية قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) ﴾.

– الإشارة فى قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) ﴾ للسورة أو آيات مضافة إلى الكتاب، والإضافة بمعنى (من) أى آيات من الكتاب، وأضيفت إلى الكتاب كأنها كل الكتاب؛ لأن كل آية من الكتاب فيها خصائصه من إعجاز، وبيان وروعة، وكانت الإشارة ﴿ بتلك ﴾ التى تدل على البعد لعلو منزلتها، وارتفاع قدرها ، وسموّ مكانها ، و﴿ الْمُبِينِ ﴾ معناها البين فى ذاته والمبين للشرائع والتوحيد ، وهداية البشر، وما من شيء يتعلق بالإيمان وشرائعه إلا بينه، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فهذا الكتاب أو بعضه واضح الدلالة على أنه من عند الله تعالى بإعجازه ، ولقد كان محمد الصدوق طول حياته حتى إنه ما عرفت له كذبة قط ، وهو الشفيق على قومه حريص على أن يؤمنوا به، حتى لا تفوته فضيلة التصديق ، ولا يفوتهم خير الإيمان، ولذا قال تعالى :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ .

البخع قطع خيط العنق، أى إصابة النخاع الشوكى الذى يسير فى فقرات العنق، فإن ذلك نهاية الفرج ﴿ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ الضمير المنسبك من أن وما بعدها فاعل باخع، أى يبخعك ويقتلك ألا يكونوا مؤمنين، وهذا كقوله تعالى فى أول سورة الكهف: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ ، وكقوله تعالى: ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ وقلنا إن فاعل: باخع هو ألا يكونوا مؤمنين، بعدا عن التأويل، لأن ما لا يحتاج إلى التأويل أولى بالأخذ مما يحتاج إلى تأويل، ولأن التأويلات فيها بعد، وفيها خروج عن معنى الآية الظاهر.

وقوله: ﴿ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ يشير إلى أن بخع نفس الرسول ﷺ؛ لأنهم لم يكونوا مؤمنين أى لم يؤمنوا، والضمير كينونتهم أنهم من المؤمنين، فيكونوا قوة، وهم أقرب الناس إليه، وهو عليهم شفيق.

وقد بين سبحانه وتعالى أن الله أراد أن يكونوا مختارين فى إيمانهم، فيؤمنوا بعد الموازنة بين حالهم، وما يدعوهم إليه النبي، فيكون التكليف بعد الاختيار والموازنة، ويكون الجزاء على الإيمان، والجزاء على الامتناع.

قال عز من قائل: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾.

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً﴾ ، أى معجزة من السماء قاهرة تقسرهم على الإيمان قسرا بحيث لا يكون لديهم احتمال التكذيب أو الرد، أو التفكير، فيؤمنوا مقهورين مقسورين، غير مفكرين، وما كانت مثل هذه الآية من عند بعث أى رسول، بل كانت عقابا عاجلا فى الدنيا على كفرهم على الاختيار، وبها ينتهى أمرهم وجدلهم.

والتعليق - بإن - يومئ إلى أن الله لا يغفل جلت قدرته؛ لأنه سبحانه كما تدل أعماله، يريد التكليف لا مجرد الامتناع عن الشر والعصيان.

وقال سبحانه ما يدل على أن الآية التى لو شاء لأنزلها قاهرة مانعة من المخانعة، ولذا قال (عليهم) الدالة بكلمة (على) على القهر والقسرة، وذلك غير ما أودعه الله الإنسان من علم وفكر أراد له به الخلافة فى الأرض، وفضله على الخلق أجمعين، حتى على الملائكة، إن استقام وسار على الجادة.

﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾، أى فظلوا واستمروا لها خاضعين، وعبر عن خضوعهم بالأعناق على سبيل المجاز المرسل، إذ عبر باسم الجزء عن الكل، لأن لهذا الجزء مزية فى هذا المقام عن بقية الأجزاء ، إذ هو مظهر الخضوع والخنوع، وللإشارة إلى أن استكبار الكافرين هو الذى منعهم من الإيمان فعبر بهذا للدلالة على أنهم يخضعون ولأن العنق يعبر به عن الكبراء المتجبرين، فيقال عنق القوم أى كبارهم المسيطرون أو المتغطرسون، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وعبر بخاضعين التى هى وصف العقلاء بدل خاضعات التى هى مقتضى السياق للدلالة على أن المقصود من ذلك هو الأشخاص.

ومما يجب التنبيه إليه أنه عبر بالماضى فى معنى المضارع للدلالة على تأكد خضوعهم وأنهم يظلون خاضعين غير متمردين، ولكنه أراد الاختيار تكريما لبنى آدم فى الأرض كما أراد أن يجعله خليفة.

وقد بين سبحانه وتعالى تلقى المشركين للقرآن، فقال عز من قائل:

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

- الذكر هنا ليس القرآن كله، إنما هو بعض ما ينزل من مواعظ مذكرة، وقصص وأحكام تذكر، وعبَّر بلفظ، ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾ على أن ذلك قريب محدث مجرد لمعنى التذكر والتفكر لمن هو أهل لذلك، إلا كانت حالهم حال إعراض، فالاستثناء من أعم الأحوال، والجملة بعد (إلا) منصوبة فى معناها على الحال. وإن هذا الذكر من الرحمة بهم ؛ لأن التذكير رحمة ، ولذا قال تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾ أى من الله تعالى الذى هو مصدر الرحمة ، والذى لا يكون منه إلا ما هو رحمة ، فهم يعرضون عن الذكر وهو رحمة بهم ، فكل شيء منه رحمة جزاؤه رحمة، وعقابه رحمة، ومواعظه وشرائعه رحمة، و(من) فى قوله تعالى: ﴿مِّن ذِكْرٍ﴾ لبيان عموم الاستغراق، ومن الثانية للابتداء وبيان من صدر عنه التذكير الذى هو رحمة للعباد، وكانوا دالة على استمرارهم فى الإعراض كأنه شأن من شئونهم ، وحال دائمة من أحوالهم ، وتقديم ﴿عَنْهُ﴾ عن متعلقها،وهى (معرضون) لأن التقديم يفيد معنى الاختصاص، أى كأنهم لا يعرضون إلا عن الحق ، ومن فساد نفوسهم لا يعرضون عن باطل، بل لا يعرضون إلا عن الحق لأنه يلائم فساد نفوسهم، وضلال تفكيرهم.

وقال تعالى: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ الفاء هنا لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى فإنه يترتب على هذا الإعراض التكذيب ، أى بسبب ذلك الإعراض قد كذبوا الحق لما جاءهم، وبسبب ذلك سيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون والأنباء جمع نبأ، وهو الخبر العظيم الشأن الذى يؤثر فى شأنهم ، وإن المواعظ ، والذكر الحكيم كان فيه إنذار بما يقع لهم فى العاجلة والآجلة ، ففى العاجلة يجعل الله

كلمة الذين كفروا السفلي، وكلمة الحق هى العليا بتوالى هزائم الشرك حتى تطهر منه أرض العرب، وفى الآخرة بعذاب الجحيم ، ولذا قال تعالى: ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ الفاء كما أشرنا لبيان أن ما بعدها مترتب على ما قبلها والسبب لتأكيد الوقوع فى المستقبل، والأنباء هنا الوقائع التى أنبأ عنها القرآن الكريم، والنبى الحكيم، فهم يرون هذه الأخبار وقائع تقرع حسهم، وتنبه غافلهم، وتوجه اليقظ إلى الحق الصريح الواضح البين.

وقوله تعالى: ﴿أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ توبيخ لهم على استهزائهم، وقد كان له هذه الوقائع القارعة، وتقديم الجار والمجرور على يستهزئون فيه اختصاص نسبي، أى لا يستهزئون إلا بالحق، وقلوبهم معرضة، ونفوسهم مصروفة عن الحق إلى الباطل، فلا يستهزئون له، وهذا تصوير نفسى لانحرافهم عن الجادة ، والتواء تفكير ، حتى لا يكون منهم إلا الباطل وتأييده، ونصرته.

وإن هذه الآية كقوله تعالي: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ④ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ⑤﴾ [الأنعام].

مع لجاجتهم فى الكفر والتكذيب والاستهزاء يذكرهم تعالى بنعمه عليهم بإيجاز فيقول:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ⑦ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ⑧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ⑨﴾.

- الهمزة للاستفهام الإنكارى بمعنى التوبيخ، والواو عاطفة على فعل محذوف تقديره فى القول افعلوا ذلك ، ولم ينظروا، وهذا توبيخ على فعلهم ؛ لأنهم استهزءوا بالحق، ونعم الله تحوطهم وتستغرقهم ﴿يَرَوْا﴾ معناه يرون، ولكنها هنا نظرة تأملية متتبعة وليست نظرة عاجلة خاضعة ، بل ترجع البصر حينا بعد حين ؛ ولذا كانت التعدية للدلالة على التتبع متبصرين إلى الأرض كيف ينبت

فيهـا النبات، ويستغلظ سـوقه، ويقوى عوده حـتى يصير طعامـا فى ذاته أو حبا متراكبـا ، وهكذا ، ولذا قال تعالى: ﴿كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ كم- هنا هى الخبر الدال على الكثرة ، وموضعها فى الإعراب النصب أى كثيرا ما أنبتنا فيها ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ من بيانيـة، أى أنبتنا من زوج أى شـيئين متـقابلين فى اللون أو الذكورة والأنوثة، وغير ذلك من كل شيئين متقابلين فى الألوان والطعوم، وكريم- أى كثـير المنافع فى الأكل والملبس، والمأوى، وإن هذه الجـملة السامـية فيـها من دلائل الإعجاز بإيجاز القصر، الذى تكثر فيه المعانى مع قلة الألفاظ، فهذه الجملة شملت كل ما فى معانى الإنبات، وثـماره من زرع وغراس نخيل وعنب، وفواكه من كل ما تشمله الالفاظ، وتراه الأعين.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ الإشـــارة إلى الإنبـــات ، أى إن فى ذلك لآية، أى لعلامـة تدل على قدرة القادر، ونراها كل يوم فى حـياتنا الخاصة والعـامة، وهى حولنا تنبـئنا بالعليم الخبـير، القـادر على كل شيء ، فحولنا الـنخيل والأعناب، وحولنا الحب المـتراكب، والزروع والحشـائش التى تأكل منها أنعـامنا، وتدر علينا الدر الوفير، ولكن مع هذه الآية الباهرة والدلائل القاهرة أكثرهم لا يؤمنون، ولذا قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (كان) هى الدالة على الاستمرار، أى وقد استمر أكثرهم غير مؤمنين ؛ لأنهم لم تدرك عقولهم ، ولم يتدبروا ولم يتفكروا.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

الواو عاطفـة على ما ذكـر من ءايات بينات. والتعـبير بربـك للإشارة إلى معانى الخلق والربوبية والكلاءة والحفظ والرعاية والقيام على الحياة والأحياء، لأنه الحى القيوم (لهو) اللام لام التوكيد، (العـزيز) أى الغالب (الرحيم) المتصف بصفة الرحمة الدائم، فهو رحيم بهذا الخلق والتكوين، ورحيم بهذه الرسائل التى أرسلها على أيدى الرسل، ورحـيم بالبعث والنشـور، ورحيم بكل مـا ورد به الرسل من معـجزات دالة على رسالاتهم، ورحـيم بالعقاب والثـواب، لأن ذلك حمل على الخير، وجزاء عليه .

من قصة موسى عليه السلام

قال تعالى :

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ
أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ
إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ
كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ
فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾
وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾
قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ
فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا
عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ
﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾
قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ
لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ
أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ

ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ
فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ
عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا
تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ
﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ
لِمِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾
لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ
قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ
وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾

هذه قصة موسى وفرعون، والمقاولة التى جرت بين موسى الكليم، وفرعون الجبار العنيد، وإن فيها جزءا لم يذكر فى قصة موسى وهارون، وهى المجاوبة التى كانت بين كليم الله ومربيه حتى بلغ رشده ، وفيها عَتْب المربى ودفاع من تربى ومجابهته بالحق القوى الصريح، وجاء ما هو مذكور فى غير هذا الموضع من قصة العصا، ثم قصة النجاة، التى سنذكرها فى موضعها فيما يلى ، وإن ذكر التربية هو الذى اختصت به القصة، وجاء ذكر المعجزة، وأعمال السحرة تابعا ، ولا يعد ذلك تكرارا لأصل القصة، إن كان طاغوت فرعون يذكر فيما تشبه التكرار تنبيها على الظلم والطغيان، كما يكرر ذكر طلب التوحيد ، والنهى عن الشرك.

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ ۝١١ ﴾.

الواو عاطفة هذا الكلام على ما سبقه، أو دالة على الاستئناف و﴿إِذْ﴾ متعلقة بمحذوف، تقديره اذكر، أى اذكر لقومك قصة موسى، والتعبير بربك إشارة إلى أنه الكالئ الحامى المدبر القيوم على كل شيء، أن- حرف تفسير للنداء، نداء الله تعالى جلت قدرته، فالنداء ﴿ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ وصفوا بالظلم؛ لأنهم هم الذين مكنوا فرعون من ظلمه، فكانوا ظالمين؛ لأنهم الذين أقاموه، وأيدوه، وطاوعوه، ومهدوا، وصاروا آلة طيعة لتنفيذ مظالمه، وإنه لا يسأل العامة عن ظلم الخاصة، حتى يروا الظلم فلا يستنكروه، وكذلك كان أهل مصر، وعبر عنهم بقوم فرعون لأنهم كانوا له تبعا ، وقد فنى وجودهم فى وجوده، ﴿أَلا يَتَّقُونَ﴾ هذه جملة مستأنفة دالة على أنهم لم يتقوا، وأفرطوا فى اتباع فرعون، وكان إسرافهم على أنفسهم ، إذ إنهم لما لم يستنكروا أوغل هو فى الطغيان بمقدار إسرافهم فى الخضوع، فرد الطغاة وقاية للأنفس، واتقاء لله، و(ألا) دالة على التحريض والحث على التقوى، وهنا التفات من الخطاب إلى الغيبة، للدلالة على الغضب عليهم، وهناك قراءة بالخطاب ألا تتقون ، ويكون النص محرضا لهم على التقوى.

وإن ذلك النص بعد فوات قرون، فيكون معناه أنهم كانوا فى حال كان يجب أن يحرضوا فيها على التقوى ، وأن موسى عليه السلام حرضهم عليها، ولم يتركهم لأنفسهم، وفى ذلك إشارة إلى أنه يجب أن يقمع كبراء قريش ، وألا يستسلم الناس لهم ، ويخنعوا لعبادة الأوثان.

وهناك قراءة بكسر نون ﴿أَلا يَتَّقُونَ﴾ وتكون منبئة عن ياء المتكلم ، أى ألا تتقون الله رب العالمين.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝١٣ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝١٤ قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ۝١٥ ﴾.

هذا جواب موسى لربه، وقد فصلت هذه الجملة لأنها جواب عن سؤال مقدر ، وكيف أجاب موسى، وصدر كلامه بالنداء لربه، للدلالة على شعوره بأنه فى كلاءته، وأنه سيعمل فى رعايته وحمايته، ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ بكسر النون للإشعار بأن ياء المتكلم محذوف ، والخوف هنا لا يتضمن معنى النكوص عن الاستجابة لربه ، إنما يتضمن معنى تقدير الموقف وإرادة الاستعداد ، والشعور بعظم المهمة التى كلفه الله تعالى إياها ، وإنها تحتاج إلى جمع كل ما عنده من قوة، وقد أحس بموضع الضعف فيه ، وهو البيان مع توقع الضيق والحرج، ولذا قال: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ (١٣)﴾.

ضيق الصدر هو من التكذيب والمباهتة فى قوة من فرعون، وطغيانه، فيكون فى شدة من هجوم الباطل المؤزر بالطغيان الفرعوني، مع حبسة اللسان فلا يستطيع رد إنكار أولئك الكاذبين المكذبين المزودين بطغيان عظيم، ولذا استغاث بربه قائلا: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ﴾ والفاء لبيان أن ما بعدها مترتب على ما قبلها، أى فإنه يترتب على هذه الحال التى أكون عليها أن أطلب إليك أن ترسل إلى أخى هارون بأن تجعل له رسالة معي، و(إلى) تدل على أن النهاية أن يكون رسولا معي، وهذا كقوله تعالى: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَرُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥)﴾.

أجاب الله تعالى طلب موسى عليه السلام، وقال فى آية أخرى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ (٣٦)﴾ ولكن موسى عليه السلام ذكر أن له عندهم ذنبا، وأنه يخاف أن يقتلوه فقال: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ والنون مكسورة منبية عن ياء متكلم محذوفة، والذنب ليس إثما ذاتيا، إنما هو ذنب عندهم، فهو ذنب لهم، قد قدر موسى الكليم أن يشطوا عليه ويقتلوه، وذلك الذنب أنه قتل واحدا من المصريين، لاعتدائه على إسرائيلى من قومه، وقد قال تعالى فى ذلك فى سورة القصص ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ

هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧) ﴾.

هذا هو الذنب، وسنتكلم في مقدار كونه ذنبا عندما نتكلم على هذا فى سورة القصص قريبا إن شاء الله تعالى.

أجابهما الله تعالى على طلب هارون، وعلى بث روح العمل، ودفع الخوف، فقال:

﴿ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) ﴾.

كلا- حرف للرد مع ردع، أو قوة فى الرد، والفاء للإفصاح، لأنها تفصح عن شرط مقدر، أى إذا كان ذلك ما تخاف فاذهبا، والخطاب بالتثنية دليل على أنه أجيب سؤله بالنسبة لهارون ﴿ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ﴾ أى محملين بالآيات التى تدل على الرسالة، فإنه إذا كان قويا بسلطانه، فأنتما قويان بالحق الثابت بالآيات الباهرة القاهرة التى لا يمارى فيها إلا أثيم، ثم طمأنهما على أنه لا يؤذيهما، فقال: ﴿ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ وقد أكد سبحانه وتعالى نصرتهما بثلاث مؤكدات أولها ـ إنَّ الدالة على التوكيد، والثانى المعية، فى الله معهما، ومن كان الله معه لا يغلب ولا يرهب أبدا، والثالثة أنه مستمع لما يجرى مرتب عليه ما يستحقه أهل الطغيان، وهذا كقوله فى سورة طه ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾.

﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) ﴾.

الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، لأن المترتب على الأمر بالذهاب أن يأتياه ويخاطباه بأنهما رسول رب العالمين، وأفردت رسالتهما بالتعبير برسول رب العالمين للإشارة إلى أن الرسالة التى أرسلا بها واحدة، وأنهما كرسول واحد، وأن موسى يتلقى أمر ربه ويعاونه هارون فى التوضيح والتبيين، فهما رسولان لرسالة واحدة، وقد ذكر أنهما رسولان فى سورة طه، فقالا: ﴿ إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ ﴾ [طه: ٤٧]

على أساس أنهما رسولان، وإن كانت الرسالة واحدة، وأسندت إلى رب العالمين أى ربك ورب آبائك الأولين، ورب الناس أجمعين، فهو خطاب يوجب الخضوع لله تعالى من فرعون طاغية الأرض ، ومن معه من قومه الذين يمالئونه، ويشجعونه.

﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أن هنا تفسيرية، أى أن تفسير القول هو هم أرسل معنا بنى إسرائيل، ويلاحظ هنا أن الرسالة ليست لبنى إسرائيل خاصة؛ إنما هى دعوة إلى التوحيد، ورفع الظلم، وابتدئ ببنى إسرائيل، لأن ظلمهم صارخ، إذ هو يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم.

هذا الكلام الذى سبق كله كان أمر الله تعالى لموسى، وكان كلام موسى وهارون لفرعون، فبماذا أجاب فرعون ؟.

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) ﴾.

ابتدأ الكلام بعتب، واتهام بكفر النعمة، أو كفره بألوهيته، قال فرعون ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾ الاستفهام إنكارى بمعنى النفى. والمعنى: لقد ربيناك فينا، أى فى وسطنا مكرما فينا عزيزا، أى خلطناك بأنفسنا خلطا وكأنك منا، ﴿ وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ ، أى أقمت فينا مختلطا بنا سنين، الظاهر أنه بقى فيهم حتى بلغ الرشد ، وصار شابا سويا ، يدبر أموره ، ويعرف غاياته ، ومقام رب العالمين، وخصوصا أن جزءا من التربية كان مع أمه ، كما قال تعالى: ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ ويقال إنه مكث فى بيت فرعون إلى أن بلغ ثلاثين سنة ، والراجح عندنا أنه مكث حتى صار رجلا سويا، بدليل ما آتاه الله من قوة عندما استغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه.

ثم ذكر بعد المودة المقربة ، ما فيه لوم له ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ﴾ قرئت بفتح الفاء فى فعلتك وكسرها، وعلى الفتح تكون للمرة وعلى الكسر تكون للهيئة،

والمعنى فى كلتا القراءتين القتلة التى قام بها الرجل القبطى، إذ استغاثه الذى من شيعته، قال فرعون: ﴿وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، أى الكافرين بألوهيته، وبأنه لم يكن ليذعن له كما يذعن الذين يعدونه إلها، ويقول لهم ليس لكم من إله غيري، وقال بعض المفسرين: المراد كفر النعمة، ولا نحسب أن فرعون يرى من كفر نعمته قتل واحد من الرعايا، ولو كان ذا صلة به كخادم أو نحوه، فموسى فيما أحسب كان أقرب إليه من كل الخدم، إذ امرأة فرعون قد اتخذته لها وله ولدا.

لم ينكر نبى الله تعالى أنه فعلها كما وصف، ولكن أنكر أنه ملوم لكفره به، فقال:

﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾.

فعلتها إذ ذاك وأنا من الضالين، ضلالا بريئا، والضلال البرئ يكون بالجهل والنسيان والبعد عن التأنى والصبر، وأخذ الأمور، والاكتفاء فى الدفاع عن الحق بأقل الأضرار التى ينزلها بالمعتدي، فنبى الله النقى يعترف بأنه لم يسلك طريق الجادة المستقيمة، وهذه حال موسى عليه السلام وإذاً معناها إذ ذاك، فالتنوين عوض عن المضاف إليه مرتبا الواقعة على مقدماتها من شر فى القبطى أو المصري، معترفا بأنه ضال ضلالا بريئا كما ذكرنا.

ولما فعلها فرَّ، فقال: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ الفاء عاطفة، وقد ذكر سبحانه وتعالى أسباب الفرار وكيف كان فى سورة القصص، فقال عز من قائل ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٢١)﴾.

والفاء فى قوله تعالى: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ عاطفة، والحكم هو الحكمة أى التجربة، وبعد أن كان غفلا فى النعمة فى قصر فرعون اكتسب حكمة وتجربة، وعمل وكسب، فإن الشدة تصقل النفس، وتربى الحكمة ووزن الأمور والأفعال، ويصح أن يكون الحكم بمعنى الرسالة، والأول أولى؛ لأن التأسيس أولى من التأكيد، وجعلنى رسولا من المرسلين الذين أرسلهم رب العالمين، فقد جعله الله تعالى من أولى العزم من الرسل.

ثم بين كليم الله أن النعمة التى يمن بها عليه هى نعمة سببها أشد النقم؛ لأنها كانت بسبب إيذائك المطلق لبنى إسرائيل مما جعل أمه تلقيه فى تابوت فى اليم فيكون فى قصر فرعون ، فلولا هذه النقمة الفاجرة ما كانت تلك النعمة التى تمن بها ، وتستطيل عليَّ بذكرها ، ولذا قال: ﴿ **وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ** (٢٢) ﴾ الإشارة إلى نعمة التربية وليدا وإنه لبث فيهم من عمره سنين ﴿ **تَمُنُّهَا عَلَيَّ** ﴾ أى تمن بها عليَّ أنك عَبَّدْت بنى إسرائيل ، وفى هذا إشارة إلى سبب النعمة، وهو أنه عَبَّدَ بنى إسرائيل وأذلهم وذبح أطفالهم ، واستحيا نساءهم فاضطرت أمه إلى ما كان مؤديا بإنعام الله إلى قصره، وإشارة أيضا إلى أنه يقابل هذه النعمة إذلاله لقومه بنى إسرائيل .

اتجه فرعون من بعد ذلك إلى السؤال عن رب العالمين:

﴿ **قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ** (٢٣) **قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ** (٢٤) **قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ** (٢٥) **قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ** (٢٦) ﴾ .

- الاستفهام من فرعون عن الذات العلية يتعرف ماهيتها وحقيقتها، فالاستفهام بم يدل على ذلك؟ أى ما هو؟ ما ذاته ؟ قال موسى مجيبا ، إجابة هادية مرشدة إلى أن الذات لا يستفسر عنها، إنما يعرف رب العالمين بخلقه ، فقال: ﴿ **رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ** (٢٤) ﴾ ورب السموات تتضمن أنه خالقهما وموجودهما والقائم عليهما ، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا** ﴾ وما بينهما هو الفضاء القائم، والذى تكون فيه السحاب وينزل منه المطر، وذكر السموات فيه إشارة إلى أن الله رب الشمس التى كانوا يعبدونها باطلا باسم رع ﴿ **إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ** ﴾، أى إن كنتم تريدون الحق الذى تسيرون عليه فى طريق اليقين والإذعان، ولكن فرعون خشى على قومه من أن يتأثروا بقول موسى الكليم، فأراد أن ينبههم إلى سلطانه ﴿ **قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ** ﴾ النص تحريض منه لمن حوله على الاستماع والتأمل وهو جدير بالنظر والتفكر، موهما لهم أن ذلك لا يناقض ألوهيته ولا يعارضها، ولكنه جدير بالنظر، وقد يكون ذلك استنكارا لأن يكون لأجرام السموات والأرض موجه غيره

مما جعل موسى عليه السلام يوجه للتعريف برب العالمين إلى مقام آخر، يبين عظم ربوبيته على الماضين والحاضرين وإنكم وفرعون لستم إلا طبقة من طبقات الوجود الإنساني: ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾.

التفت فرعون لمن حوله كأنه ينبههم إلى إنكار موسى لألوهيته المقررة الثابتة عندهم، فنبههم موسى **أولا** : إلى أن الله ربكم الذى خلقكم وأنشأكم، وخلق آباءكم الأولين ورباهم وكونهم ، فهل فرعون خلق وقدر، وهو المخلوق الذى لا يخلق، ولا يقدر، **وثانيا**: إلى أن الله رب آبائكم الأولين قبل أن يوجد فرعون، **وثالثا**: إلى أن الرب يجب أن يكون قديما باقيا، ولا يكون محدثا فانيا، كفرعون.

- كان كلام موسى عليه السلام متضمنا حجة قوية لإبطال ألوهية فرعون، وإنه بشر كسائر البشر، لا يملك خلقا ولا إنشاء؛ ولذلك اتجه فرعون إلى رمى موسى بالجنون أولا، وتهديده بالسجن، فقال:

﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) ﴾.

أول رمية رمى فرعون بها موسى هى الجنون، كما كان المشركون يقولون ذلك عن النبى ﷺ، وفى ذلك تسرية عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم، وأكد فرعون جنون موسى بأنَّ، وبلام التوكيد، وبالجملة الإسمية، وذكره بوصف الرسالة تهكما وإمعانا فى الإنكار والتنفير، وأنه مع جنونه المدعى أرسل إليكم، وفى ذلك تحريض على استنكار رسالته كأنه يقول: اختير لكم رسول مجنون.

ولكن موسى كليم الله لم يرعه ذلك الكلام الباطل، ولم يهتز له، بل استمر فى بيان بطلان ألوهية فرعون، فقال أن ربه رب الكون: **﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾** أى أن أقصى سلطان فرعون أن يكون فى مصر، ومصر ليست إلا جزءا من الأرض، والرب الخالق يكون رب الجميع من سكان الأرض، والسموات، والشرق والغرب، فهل تستطيع أن تدعى هذا؟ بل إنك لا يمكن أن

تتطاول إلا على أهل مصر، الذين تعودوا الخنوع لحكامهم فى ماضيهم وحاضرهم، فقول موسى عليه السلام لطاغوت مصر عن رب العالمين ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ إبطال واضح لألوهية فرعون المدعاة، وقد التفت موسى إلى من حوله الذين ينادون بألوهيته فقال محرضا لهم على التفكير بعقولهم، فقال: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أى إن كنتم ذوى عقل تعقلون، وتعلمون أن الألوهية ليست أجزاء مجزأة، إنما هى سلطان على الوجود كله.

عندئذ أيقن فرعون أنه ينكر ألوهيته، وأنه يحرض من حوله على إنكارها، ويدعوهم إلى إعلان بطلانها ، هذا وفى ذكر المشرق والمغرب بيان لقدرة الله تعالى الباهرة، وتنبيه إلى ما يشاهدونه كل يوم من شروق الشمس وغروبها فى المغرب، والشمس بذلك تنتقل فى مداراتها ، فهل فرعون يفعل هذا ، إنه ليس برب، ولا بإله.

اتجه فرعون إلى حجته التى يحسبها دامغة، وهى ذريعة الطغيان فقال:

﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) ﴾ .

اللام هى الممهدة للقسم، وقد أكد تهديده بقول يشبه القسم، أو أقسم بما يقسم به مثله فى طغوانه، واتخذت معناها : جعلت لك إلها غيرى ، وكأن الألوهية أمر يجعل، وليس إذعانا لحقيقة ثابتة فى الوجود يخضع لها العبد بسلطان الربوبية وبسلطان الفطرة المدركة الواعية، وذلك ضلال كل من كان الطاغوت ديدنهم الذى لا يخالفونه، ﴿لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ هذا تهديد لموسى عليه السلام، أى لألقين بك فى السجن، حيث لا تستطيع قولا، وتكون فى ضمن المسجونين الذين لا يسمع لهم صوت، ولا قول.

ولكن موسى كليم الله لم يرعه ذلك، ولم يرهبه، بل أخذ يدير القول إلى الحجة والبرهان فقال لفرعون: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠)﴾.

كان فرعون رجلا يؤمن بالأمر المحسوس، فجاراه موسى عليه السلام فيما يؤمن فقال ما قال: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ﴾ الواو عاطفة على فعل محذوف تقديره يناسب

المقام، وكأن سياق القول أتسجنني، ولو جئتك بشيء مبين، أى بحجة واضحة مبينة لرسالتي، ولبطلان ألوهيتك وعجزك، والشيء هو المعجزة الكبرى التى جاء بها موسى فى ضمن تسع آيات بينات، وعبر بشيء فى هذا المقام لأن العصا، وما معها شيء، ولتقريب القول إلى فرعون ، ولتكون الحجة نتيجة لما يقاوله ويبطل قوله.

وفرعون يحسب أنه يعجز عن أن يأتي، فيقول: ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) ﴾ أى إن كان شأنك أنك صادق فى زمرة الصادقين ولست كذابا ولا بهاتا ، ولا مفتريا على فرعون وألوهيته.

المعجزة ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) ﴾.

الفاء عاطفة تفيد الترتيب والتعقيب، أى أنه بمجرد أن طلب الدليل جاءه تباعا معقبا للطلب، وكان الجواب عملا وليس قولا ، ألقى عصاه فى الأرض ، فإذا هى ثعبان، (إذا) للمفاجأة أى فوجئ الناظر ، فوجدها ثعبانا مبينا أى واضحا بينا ، وأتبعه بمعجزة أخرى، وأخرج يده، ففوجئ أيضا بأنها بيضاء للناظرين ، وكان قد أخرجها من جيبه ، فإذا هى بيضاء من غير سوء ، كما قال تعالى فى سورة القصص ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢) ﴾ [القصص].

ويظهر أنه لم تكن يده فى أصل خلقته بيضاء ناصعة البياض، فتغير لونها مفاجأة إلى ناصعة يعد معجزة حسية فى ذاتها، وهى تومئ إلى أن يده ستكون مقدم خير على بنى إسرائيل، وعلى مصر، إذ تكون قاضية على طغيان فرعون، ثانيا حيرت المعجزة أو المعجزتان فرعون فرمى موسى بأنه ساحر ماهر عليم بالسحر، وأنه يريد بهذا السحر أن يخرج أهل مصر من أرضهم ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ

إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ ثم أثار نخوتهم الوطنية، أو العداوة التى كانت بينهم وبين الهكسوس، فقال: ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

حمله فرعون حماية لطغيانه أمرين:

الأمر الأول : أنه بهذا لا يريد هداية وتعليما وإرشادا وإصلاحا ، ولكن يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره، والإخراج يكون بألا يكون لكم سلطان فى الأرض، بل يكون الأمر لغيركم وتكونون عبيدا تعيشون على هامش الحياة فيها.

الأمر الثانى: أن يكون له سلطان عليكم، وذلك ذهاب لسلطانكم ، وإخراج لكم من دياركم، وإن ذلك كله بسحره، وهذا ينبئ عن الفزع ، ولكنه فزع يتصور الويل والثبور وعظائم الأمور ، وإلا ما كان السحر ذاته مزيلا للملك ، ومخرجا من الديار.

وإنه فى هذا يستحث قومه على معاندة موسي، وألا يميلوا كل الميل له، لأنه عدو الديار، ويكل الأمر إليهم ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ يطلب استشارتهم متطامنا خاضعا، وقد أحس أن الأمر يخرج عن سلطانه ، فيقول فى استشارتهم فماذا تأمرون، أى ما الذى تأمرون به ، وإنى أنفذه.

أجابوا عن ذلك بأنهم يستفزون الشعب كله ، وكأنهم توهموا أن فى سحر موسى ما يخرج من الديار .

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أى أرجئه وأخاه ، وحذفت الهمزة فى آخر الكلمة تخفيفا ، والهاء ضمير يعود على موسى عليه السلام، والمعنى أرجئه وأرجئ أخاه أمدا، وقيل أنه حبسهما، وليس عندنا ما يدل على ذلك، إنما الذى يدل عليه القول هو أنه أجلهما أمدا معلوما ليختبر الدليل الذى قدَّماه، ولا نحسب أنه كان عنده قوة على الحبس، فقد اضطرب أمره، وتحير تدبيره، وكان فى فزع قد فوجئ بأسبابه ، فاختل ميزان طاغوته، هذه هى الوصية الأولى التى تقدموا بها،

والثانية: هي قولهم، وابعث في المدائن حاشرين. المدائن- جمع مدينة، وحاشرين- جمع حاشر، أي جامع للناس يجمعهم في ميقات يوم معلوم، وسمي حاشرا للدلالة على أنه يجمع أكبر عدد ويحشرهم حشرا، ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ ، (يأتوك) جواب الأمر فهو مجزوم لذلك ، وفعل الشرط ، (ابعث)، و(السحار) صيغة مبالغة من السحر، أي أنهم بارعون في السحر ، لا يغلبون ، علماء بأسبابه ، وما يكون فيه ، بحيث لا يغيب عنهم باب من أبوابه ولا طريق من طرائقه ، ولا منهاج من مناهجه.

﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ الفاء للترتيب والتعقيب النسبي، أي فجمع السحرة باتخاذ الطريق الذي رسموه، والمنهاج الذي حفظوه، واللام بمعنى في، وهي كاللام في قوله تعالى: ﴿ أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ..(٧٨) ﴾ [الإسراء].

وهذا الميقات المعلوم كان باقتراح موسى عليه السلام ، كما قال تعالى في سورة طه : ﴿ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩) ﴾ [طه].

وإن هذا يدل على أنه لم يكن مسجونا كما ادعى بعض المفسرين:

﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ القائل للناس مجهول غير مذكور، فمن هو القائل أهو فرعون ؟ أم هم الحاشرون الذين بعثوا ليجمعوا الناس؟ وكان هذا الاستفهام للتأكد من اجتماعهم أجمعين وأنه لم يتخلف أحد، وللدلالة على العناية بالاجتماع لخطر موضعه، ولشدة حاجة فرعون إليه.

وقال الداعي غير المذكور أو الذي جهل ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠) ﴾ لَعَلَّ للرجاء، وهو يدل على أنهم غير متأكدين من علمهم ، كما أنه وجد أيضا أمر آخر، يدل على الشك في القلب، وهو التعبير في التعليق بإن الدالة على الشك، لا بإذا الدالة على التحقيق، وفي تعبيرهم ﴿ نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ ﴾ يشير إلى أنهم يسيرون وراءهم في حكمهم إن غلبوا.

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) ﴾.

لم يكونوا مـؤمنين بفرعـون الإيمان كله ، بدليل أنهم طلبوا منه أجـرا على عملهم، وكان عدولا فى طلبهم؛ لأن حدودا الأجـر بالوصول إلى الغاية كالطبيب الذى يطالب بالأجر على الشـفاء لا على العلاج والعمل، ولذا قـالوا مؤكدين فى حال الغلب ﴿ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ فأكدوا الأجر فى حـال الغلب بعدة مؤكدات أولهـا كنا، لأن كان تدل على الكينونـة الثابتـة المستـمرة التى تكون بعـد المعركـة والمغالبـة، وثانيها - نحن - فـهى تأكيد للـضمير فـى كنا، وثالثها- ذكـر الغالبين بالوصف والتعريف ، أى ولم ننهزم أمام موسى ، بل غلبناهم ، وهكذا ابتدءوا.

أجابهم فرعون بقوله: ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ أقر طلبهم أولا ، بقوله (نعم) الدالة على استحقاقهم، وعدالة طلبهم، وقرر جزاءين:

الجـزاء الأول : الأجـر، وقـال: إن لكم لأجـرا مـؤكـدا الأجـر بأنه لهم واستحقاقهم، وإنه أجر كبير لتنكير أجرا ، أى أجرا عظيما لا يقادر قدره.

والجزاء الثانى : الذى يعد جزاء كبيرا عند الملوك والطغاة ، وهو أن يكونوا مـقربين، وهذا التـقـريب إليه، يتـضـمن مزايا مـعنوية فى نظرهم، وهو الرضـا السامي، كـما كنا نسمع من عـبارات الثناء على المقربين عـند الملوك والذين كانوا يقلدون فرعون فى طغـوانه، وإن كانوا فى معاملة الرعية شرا منـه، ويتضمن مزايا أخرى بأنهم ينالون جزاء مما يسلط على العباد بتسليطهم ، ويتضمن مكاسب مادية من السعاية والإفساد، وقد أكـد قربهم منه بمؤكدات أولها : إنَّ ، وثانيها: اللام ، وثالثهـا: الحكم بأنهم يكونون من ذوى الزلفى المحـيطين به، فيكونون فـى ظلامه وظلمه، وبين أن ذلك نتيجة عملهم وذلك بالتعبير بـ (إذن) أى أنه نتيجة عملكم، حثا لهم على الجد والعناية.

اللقاء

قال الله تعالى :

قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ
﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ
ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ
﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾
رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ
لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ
إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ
أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾

التقى السحرة بموسى، وقال لهم: ﴿ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾ فهو يعطيهم حق الابتداء ليأتوا بكل ما عندهم، ومكنهم من أن يكون بدء الرمى لهم ليسترهبوا الناس الحاشدين المجتمعين، ويكتسبوا من ذلك حماسة وقوة اندفاع ، وهو يعلم أن الله معه، وهو غالبهم بنصر الله تعالى وقوة الحق الذى لا يمكن الله تعالى الباطل منه أبدا.

﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ ﴾ الفاء للعطف والتعقيب، أى أنهم سارعوا بإلقاء حبالهم وعصيهم، وكان لهم أثر شديد فى نفوس المجتمعين كما جاء فى سورة

الأعراف ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦)﴾ وقالوا وهم يلقون الحبال والعصى التى سحروا بها أعين الناس ﴿وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ أى متيمنين مقسمين بعزة فرعون مؤكدين بذلك أن الغلب لهم وأكدوا عليه أولا بأنَّ، وباللام، وبنحن المؤكدة للضمير تأكيدا لفظيا. وبقصر الغلب عليهم بتعريف الطرفين أى أنهم وحدهم الغالبون دون غيرهم، ولن يغلب موسى وقد قالوا ذلك بعد التأكد من الأجر الكبير والتقريب.

﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥)﴾ والفاء أيضا للعطف والتعقيب أى سارع موسى عليه السلام معتمدا على الله تعالى، وعلى عزته، وقدرته سبحانه القاهرة، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ هى للمفاجأة، أى أنه كانت المفاجأة الكبرى لهم وللحشد المجتمع، تبتلع ما يأفكون، أى تلقف الحبال والعصى التى كانوا يكذبون بها ويصرفون عن المعجزة بسحر أعين الناس واسترهابهم، والإفك يتضمن معنى الكذب والصرف عن الحق الواضح الجلى، وهنا تبدو المعجزة جلية بينة لأهل الخبرة فى السحر، ويعلمون أن ما جاء به موسى ليس من نوع السحر، بل هو إعجاز الله تعالى، ولذا قال تعالى عنهم:

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (٤٨)﴾.

والفاء كما قلنا لترتيب والتعقيب أى أنهم فور ما رأوا أن العصا تلقف ما يأفكون، فتبتلع مادة سحرهم التى تسحر العيون، ووجدوا حقيقة لا تخييلا ولا وهما، فكان الحق فأسرعوا بالسجود، وقوله تعالى ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾، مبنى للمفعول إشارة إلى أن إيمانهم وإذعانهم للحق هو الذى ألقاهم ساجدين، وكأنهم غير مختارين ولا مريدين، فالسجود كان مساوقا للعلم الذى أوتوه من معجزة موسى عليه السلام، و ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، لأنه المنشئ القاهر القدير الكالئ الحامى ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾.

وإن هذا يدل على صفاء نفوس هؤلاء، وقد أشرنا فى الآيات السابقة إلى أنهم لم يكونوا مذعنين لما يدعيه فرعون، كما يبدو من لحن أقوالهم.

وإن أولئك آمنوا حقا وصدقا، إذ إنهم تركوا الأجر، وكان كبيرا، وتركوا الازدلاف إلى فرعون والقرب منه والتحكم باسمه، ورضوا بأن يُقطعوا ويصلبوا وذلك هو الإيمان حقا وصدقا.

طغى طغيان فرعون، وظهر حمقه، فبدل أن يذعن للحكم الذى اختاره ثار عليهم وقال:

﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) ﴾.

داهية نزلت بألوهية فرعون، وتأثيره فى قومه، وبطلان حجته فى رد موسى أمام حشد مجتمع، من مدائن مصر كلها ليشهدوا نصرته، فشهدوا بطلان حجته، وهزيمته، فاستخدم الطغيان ليحول الأذهان، ولتكون رهبته محل حجته ﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ إذا جعلنا همزة أستفهام، فى القول، وإذا لم يكن استفهام يكون ذكر الإيمان قبل الإذن منه، هو الاستنكار، كأنه ملك قلوبهم وأجسادهم وخواطرهم ونوازع نفوسهم، وهذا شأن كل جبار متحكم ، كأنه ملك الأفئدة والعقول والنفوس؛ لأن الذين حوله يوعزون له بذلك، وبأن هذا حق الله فرضته الطاعة، ثم الألوهية الباطلة، وقوله تعالى ـ له ـ أى مذعنين خاضعين له.

ولم يفرض أنه الحق بموجب علمهم، وتفريقهم بين باطل السحر، ومعجزة الحق، بل فرض أنه كبيرهم الذى علمهم السحر ليموهٍ على الناس، فقال إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ، فأنتم تتبعون معلمكم ولا تتبعوني.

ثم انتقل من التضليل إلى التهديد كشأن الطغاة دائما إذا ما حل بهم الدليل يسترون عجزهم بالتهديد، فيقول: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، واللام تفيد توكيد التهديد، وسوف- لبيان تأكيد العلم فى المستقبل، وهو علم معاينة لا علم إخبار، ولذا ذكر ما هدد به نافذا واقعا ﴿ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ﴾ أى : يد من جانب، ورجل من جانب، ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ إن التصليب يكون مقارنا للقتل، فكأنه هددهم بأمور ثلاثة أولها

التعذيب بقطع الأيدى والأرجل من خلاف، وثانيها- القتل، وثالثها- التصليب؛ ليكونوا عبرة لغيرهم، إذ هم أول من شقوا عصا الطاعة، ونبذوا ألوهيته وراء ظهورهم.

هذا صوت التهديد الفرعونى فلنسمع صوت الإيمان، فقد أجابه المؤمنون بقولهم:

﴿ قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١) ﴾.

الضير : المضار وإيقاع الضرر، أى لا تملك أن تضارنا، فإنا قد عرفنا ما عندك، وقدرة ربنا ، وأن ما عندك أمر ضئيل إلى زمن محدود، وما عند الله باق لا ينتهي، وضررك ضرر عاجل موقوت ندفعه ويدفعه الله عنا بخير دائم غير موقوت، وكأنهم لقوة إيمانهم يقولون : ما أنت، وما عذابك؟ إنه أذى ساعة، وما عند الله خير دائم : ﴿ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ انقلب إليه، أى ترك ما هو فيه راجعا إلى الخير العظيم، و ﴿ إِلَىٰ رَبِّنَا ﴾ متعلق بمنقلبون، وكان تقديمه لبيان الاختصاص وأنهم يرجعون إلى ربهم، لا إلى غيره من أشباه فرعون.

﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١) ﴾ إيمان قوى وصبر على البلاء، ورجاء ما عند الله العزيز الحكيم، وذكروا طمعهم فى غفرانه، ولم يذكروا تأكدهم منه؛ لأن شأن المؤمن الذى يذكر سيئاته أن يرجو ولا يطمع، ويخاف ولا يتأكد، ولتذكرهم لما أخطئوا به فى جنب الله لم يذكروا فى طمعهم إلا أن يغفر لهم خطاياهم، والخطايا جمع خطيئة، وهو الإثم الذى استغرق النفس حتى امتلأ بالباطل ، وكذلك كانوا فى عهد الرحمن، وأى خطيئة أعظم من أن يعبدوا فرعون وهو الجبار حتى طمع فيهم وأذلهم ، وأذل أرض مصر ومن فيها.

وقد قالوا فى الخير الذى فعلوه مقابلين به الطمع فى الغفران ﴿ أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ من أهل مصر قوم فرعون، وأن وما بعدها مصدر فى موضع جر باللام المحذوفة. وتقدير القول ، لأن كنا أول المؤمنين أى لكوننا أول المؤمنين.

النجاة

قال تعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم
مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ
لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ
﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾
كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾
فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ
كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب
بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾
وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾
ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾

الواو استئنافية، وهى استئناف لبقية القصة الصادقة قصة موسى وفرعون الصادقة المصورة لوقوف الحق أمام جبروت أطغى الطغاة، وفى هذا الجزء من القصة خبر النجاة للمظلومين أمام الظالم وملئه.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ الإسراء هو السير ليلا، وقد صرح بالليل فى القصة فى بعض السور، وعبادى جمع عبد، والمراد بهم

بنو إسرائيل الذين كان فرعون يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ، والتعبير بعبادى فيه إشارة إلى أن الله عامل على إنقاذهم من فرعون وقومه، وأنه سبحانه وتعالى منقذهم كما شاء سبحانه.

ساروا متجهين إلى البحر، وأدرك فرعون أنهم عاملون على الإنقاذ، فخاف، وتوقع الأذى من بعد ما كان منه لموسى وهارون، وللسحرة الذين عاندوه، وقاوموا طغيانه ورفضوا ألوهيته، ولجئوا إلى الله تعالى ، وظهر خوفه وتوقعه الضرر، فأرسل رسله ، كما قال تعالى ، وعلل سبحانه السير ليلا بقوله: ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ الفاء للترتيب والتعقيب والمعنى سارع فور انفصالهم وأرسل - حاشرين - أى جامعين للناس من كل مدائن مصر، وذلك ليلاحقهم بالأذى والقتل، وبرر دعوتهم لحربهم أو بالأحرى لقتلهم وسهل أمرهم بقوله: ﴿ إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) ﴾.

الشرذمة الجماعة المنقطعة التى لا ناصر لها، وقد وصفهم بالقلة، فقال قليلون ، وبذلك ذكر فيهم وصفين لاستضعافهم :

أولهما- أنهم منقطعون عن قومهم، ونصرائهم.

الثانى - قليلون، وذلك ليشجع قومه على اتباعهم وإهلاكهم، ويبين خوفه منهم، وإن حالهم مع انقطاعهم، وإنهم قليلون، وذكر غيظه منهم قائلا: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾، وأنهم قليلون يتوجب الحذر منهم ، فقال: ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾ أى نخشى شرهم ونتوقعه ، وذلك كما بدا من ضعفه أمامهم ، فإن الحق يرهب أقوى الأقوياء ولو كان فرعون ذا الأوتاد ، وقد أكد حذره وحذر من معه بعدة مؤكدات منها (إنَّ) الدالة على التحقيق، والتأكيد بجميع ـ والثالث- اللام. ورابعها- التعبير بالجملة الاسمية الدالة على الاستمرار، كان إيذانا، لنخوفهم، وضياع الأمر من أيديهم ، وإن أمر مصر يتساقط من جموحهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) ﴾.

الفاء للعطف مع الترتيب والتعقيب، أى أنه سبحانه بعد هذا الفزع بين مآل أمرهم، وقد يقال: يكون إغراقهم معقبا لقول فرعون مع أن بينهما حوادث، والجواب عن ذلك الإشارة إلى أن الله تعالى قدر ذلك واقعا وتكوينا ، عندما أخذ فرعون الطاغى ومعه ذلك الذعر ، فكأنه وقع عقبه، لتأكد وقوعه .

الجنات ـ هى مصدر ذاتها ، فكأنها لعموم زرعها وثمارها، وأنها فى وسط الصحارى من حولها شرقا وغربا ، كأنها جنات فى أعلاها وأدناها ، وعيون ، جمع عين، وهى الماء الثر النابع من جوف الأرض ، وفى ذلك إشارة إلى نيلها السعيد الذى يجرى من أعلاها لأدناها، وقد كانت الآبار بين مصر وليبيا ، تجرى فيها عيون الماء، فتخصبها، وكانت الأرض بينها وبين تونس، وكانت تسمى أفريقيا، وكانت أرضها مملوءة فى باطنها بالمعادن والفلزات، وكنوز من سبقوهم من الفراعنة، كما لا تزال آثار من قبل فرعون موسى، مملوءة بالآثار الدالة على قوة سلطانهم وثرائهم ، والكنوز، الآثار أو كل ما استبطنته الأرض من معادن وكنوز ـ ومقام كريم ـ أى المقام اسم مكان من قام يقوم، أى مقام طيب حسن مع الاحترام والإجلال ، وهى المنازل المشيدة.

ولن تكون هذه المنازل بعدهم قال تعالى: ﴿ **كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩)** ﴾ أى أخرجناهم ذلك الإخراج من الجنات والعيون والكنوز ، والمقام الكريم لنورثها بنى إسرائيل، فنجعلهم ورثتهم، وقد كانوا يستضعفونهم، ويذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم، وكان ذلك ظلما ، فأورث الله المظلوم ظالمه، وهذا كقوله تعالى: ﴿ **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥)** ﴾ [القصص].

﴿ **فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠)** ﴾ لم يحس قوم فرعون بهم إلا فى الصباح، ﴿ **فَأَتْبَعُوهُم** ﴾ أى ساروا وراءهم ولحقوهم، يقال اتبعه أى لحقه، وسار سيرا مسرعا وراءه، و﴿ **مُّشْرِقِينَ** ﴾، أى وقت الشروق متجهين شرقا وراءهم، فقد اتجهوا إلى ناحية البحر الأحمر، حيث المعجزة الظاهرة الباهرة ، وهو فلق البحر كل فرق كالطود العظيم، وقد جد جيش فرعون الذى دعا فيه بالنفير العام حتى تراءى لهم ففزع بنو إسرائيل منهم ؛ لأن سابق الأذى خلع قلوبهم خلعا، ولذلك كان الخوف الشديد وقال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١)** ﴾ .

الفاء فاء الإفصاح عن شرط مقدر، تقديره نحو فإذا تقاربا، وتراءى الجمعان أى صار كل واحد منهما على مرأى الآخر؛ لأن الترائى تفاعل الرؤية من الجانبين، بحيث صار كلٌ واحد منهما يرى الآخر، قال بنو إسرائيل من فرط جزعهم ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ وقد أكدوا أنهم مدركوهم بإن وباللام، وبالجملة الاسمية، وهى جملة خبرية فى ظاهرها، وفى حقيقتها كشف عن هلعهم وفزعهم، وكان على موسى أن ينبئهم بما يذهب عنهم الخوف ، فقال الله تعالى عنه:

﴿ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ .

قال موسى عليه السلام ردا ومنعا: ﴿كَلاَّ﴾ وهذه نفى لأن يدركوهم أو نفى لما يترتب على لحاقهم بهم ، وقوله: ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ هى لإذهاب الخوف من نفوسهم ، فإذا كانوا يرهبون بعزة فرعون الموهومة ، فنحن فى كلاءة الله تعالى، ورعايته، الله تعالى ربى الذى أنشأنى وحاطنى بحمايته وكلاءته، وهو الحى القيوم رب السموات والأرض، ويهدينى إلى طريق النجاة منهم، والسين لتأكيد هداية الله لطريق النجاة فى المستقبل وكانت النجاة.

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) ﴾ .

الفاء للترتيب والتعقيب، أى كان عقب طلب الاستهداء كان الإيحاء استجابة لموسى عليه السلام، كان الإيحاء لموسى أن اضرب بعصاك، أن تفسيرية، ضرب موسى بعصاه البحر، ﴿ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾، الفلق هو شق الشيء حتى ينفصل بعضه عن بعضه، ويصير كل قسم منفصلا عن الآخر فى كيانه، والفرق القسم المفروق عن الآخر، والطود هو الجبل العالى ووصفه بالعظيم لضخامته ومتانته وقوته، وهذا إعجاز حسى يجعل كل قلب يؤمن بالحق، ولو كان قلب فرعون طاغية الأرض، وكان هذا هاديا موسى أن يتقدم بنى إسرائيل، فيدخلون فى البحر، وهو يبس لا يعوق سائرا وهو طريق معبَّد ، يسيرون فيه بيسر وسهولة.

الله سبحانه وتعالى جرَّ الآخرين بتقليدهم أن يسيروا وراءهم ، ولذا قال عز من قائل: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ (٦٤) ﴾ .

وأزلفنا ، أى قربنا إليهم الآخرين ، وهم فرعون وقومه ، قربوا حاسبين أنهم ناجون كما نجا بنو إسرائيل ، وحسبوها نعمة لهم

وثمَّ ،ظرف بمعنى مكان، الآخرون هم قوم فرعون ، ووصفوا كذلك لأنهم متأخرون فى اعتقادهم وعملهم وجاءوا متأخرين فى سيرهم .

﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ .

أنجى الله موسى ومن معه من بنى إسرائيل، وربما من قد آمن معهم من أهل مصر، كما آمن السحرة، ولذا أكد سبحانه وتعالى بما يفيد إغراقهم جميعا.

وكأن التعبير يتم للدلالة على فرق ما بين النجاة والإغراق والرشاد والضلالة، والعدالة والطغيان.

وإن هذه آية حسية عظيمة ، ولذا قال تعالى :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ أى آية دالة على رسالة موسى عليه السلام، وعلى قدرة الله تعالى القوى القهار، وأنه وحده القادر على كل شيء، وأن الكون كله قبضة يمينه، و(آية) جيء بها نكرة لعظمها، وأنه لا يقادر قدرها، ولا يعاظم أمرها ، ولكن هل آمن كلهم ، أو جلهم ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ هذه الجملة تدل بظاهر اللفظ أن الأكثرين لم يؤمنوا ، فلم تأخذهم هذه الآية الباهرة إلى الإيمان واليقين، وتدل بمطويها أن من المصريين من آمن واتبع موسى عليه السلام .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾ .

استأنف الله تعالى القول ببيان قدرته الظاهرة، وحكمته الباهرة، فقال: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أى إن الله تعالى الذى خلقك، وقام بربوبيته لحمايتك، وهو الحى القيوم، لهو العزيز، الغالب، الرحيم، فيما يعمل مما يسوء الظالمين ويكافئ المحسنين، وقد أكد الله تعالى عزته ورحمته بعدة مؤكدات هى إنَّ، وذكر الربوبية، وباللام، وبضمير الفصل، وإن رحمته بادية فى نظام هذا

الوجود، وبادية في عدم تسويته بين المحسن، ومن لا يحسن، ومن يعلم، ومن لا يعلم ومن يعدل ومن يظلم، والله رءوف بالعباد.

- يلاحظ هنا أربعة أمور:

الأمر الأول ـ أن ما يتعلق بذكر التربية على لسان فرعون عاتبا أو لائما قد انفردت بذكره هذه السورة، وكذلك ما يتعلق بالإشارة إلى قتله رجلا من المصريين، واستحقاقه العقوبة عليه؛ لأنه كان ظالما.

الأمر الثاني ـ بيانه لرب العالمين، وسؤال فرعون عنه متهما، أو مستنكرا، لم يذكر بهذا التفصيل مرة أخرى وفي ذلك البيان تنبيه وإنكار لألوهية فرعون المزعومة الباطلة، وكذلك التهديد بالسجن إذا اتخذ إلها غيره، فإنه لم يذكر بهذا التأكيد في موضع آخر.

الأمر الثالث ـ أنه ذكرت معجزة العصا، وما ترتب عليها من إيمان السحرة، ثم إنذارهم بأن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، قد ذكر في آيات أخرى مع اختلاف في العبارات والسياق ، وحذف في بعضها، ولكن مذكورة ، ولا يعد الاختلاف في التعبير والتصوير مع زيادة أو نقص، لا يعد تكرارا، وهذه المعجزة الحسية الباهرة ذكرها ضروري لبيان أن المعجزات الحسية التي يطلب المشركون من محمد ﷺ مثلها لا تجدي ما دام القلب جاحدا ، وما دام الكفر يسبق الإيمان في قلوب الجاحدين.

الأمر الرابع ـ أنه ذكر فلق البحر الذي صار كالطود العظيم، وهي معجزة، وهو في ذات الوقت أمرها شديد، ونذير للكافرين، وذكر مع اختلاف العبارات، وهو ضروري لبيان أن مآل المشركين كمآل فرعون أو أشد.

قصة إبراهيم أبي الأنبياء

قال تعالى :

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ
نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟
نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ
تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا
كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ
وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ
﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ
يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ
﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾
وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ
ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ
يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ
سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾

جاءت فى هذه السورة قصة إبراهيم بعد قصة من قصص موسى عليه السلام، لأن قصة موسى تسلية للنبى ﷺ بهلاك فرعون فى طغيانه، وكيف غرق فرعون ومن معه من المعاونين الممالئين؛ لكى يكون ذلك بشارة بنصره على قريش، مهما يكن طغيانهم ، فلن يكونوا كفرعون ذى الأوتاد.

وفى قصة أبى الأنبياء إبراهيم بيان لهم بما كان عليه أبو العرب الذى يفخرون بالانتساب إليه ، وإنه محتدهم ، وإنهم ضئضئ إبراهيم وذريته.

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾.

الواو فى معنى العاطفة، إذ فيها عطف قصة على قصة، والنبأ الخبر الخطير ذو الشأن العظيم، واتل أى اقصص عليهم قصة إبراهيم متلوة يتلو بعضها بعضا مرتبة منسقة ليروا فيها العبرة التى يعتبرون بها إن كانوا فرحين، جاء إبراهيم فرآهم يعبدون الأصنام فقال لهم مستنكرا لائما:

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) ﴾ وإذ متعلقة بـ (اتل)، أى اتل عليهم ماذا كان فى ذلك الوقت، وقرب أبيه لقومه لبيان أن أباه فى قرن معهم مساو لهم فى الدعوة، وإذا كان قد طلب الغفران له ثم تاب عن ذلك، فهو معهم فى الدعوة على سواء، والاستفهام إنكارى أو للتنبيه وطلب الإجابة ، ونقول : إن الأول هو الأظهر والأبين.

أجابوه بقولهم: ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) ﴾

لقد أجابوه، لأنهم لم يفهموا وجه استنكاره أو ظنوا أنه لا وجه للاستنكار، والأصنام هى الحجارة التى نحتت تماثيل ليعبدوها ، وقد جاءت بعض الروايات تقول : إن أباه كان يصنعها ، ولعل ذلك وجه من ذِكْر أبيه مع قومه ابتداء.

والفاء فى قوله تعالى: ﴿فَنَظَلُّ﴾ فاء الإفصاح، لأنها تفصح عن شرط محذوف، ونظل هنا بمعنى ندوم على عبادتها ﴿عَاكِفِينَ﴾ أى مستمرين فى عبادتها لا ننى عن ذلك ليلا ولا نهارا، لا فى وقت معين.

وهنا نجد إبراهيم يبين لهم بطلان هذه العبادة، لأن المعبود يجب أن يكون أعلى من العابد كيانا، وأنفع وأضر، فقال لهم خليل الله تعالى:

﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) ﴾.

أول سؤال إنكارى وجهه إليهم: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ﴾ وتنادونهم عابدين، و(إذ) ظرف دال على الماضى، وتتعلق بيسمعـونكم، وكان الظرف ماضيا دالا على مضارع لتصوير جهالتهم، إذ يدعون مالا يستطيعون جوابا، وما لا يستطيع أقل فى الكون والوجود ممن يدعوه، إذ الداعى سـميع مبصر، وهذه لا تسـمع ولا تبصر، ويصح أن نقول إن ﴿تَدْعُونَ﴾ معناها تعـبدون ، وكأنهم يعبـدون ما لا يسمع، ووجودهم أقل، إذ هم أحياء يسمعون ، وهؤلاء جماد لا حياة فيه.

﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ أو عاطفـة، أى هل ينفعـونكم أو يضرون؟ هل يملكون نفعا أو ضررا، وكأنه يقول لهم إن المعبود يكون موجودا، أو يكون نافعا أو ضارا يعـبد رجاء نفعـه أو اتقاء ضرره، ولا شيء من ذلك فكيف تعـبدونهم؟ إنه ضلال العقل.

أجابوا مـتخلصين من الجـدل الكاشف لجهلهم إنهم مـا درسوا نفـعهم ولا ضررهم ، ولكن تبعوا آباءهم الأولين ، فقالوا:

﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤)﴾ .

بل، للإضراب الانتقـالى من أسئلة إبراهيم، وإحراجهم وتقـرير ما عندهم من حـال سوء: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ لم يسـموا ما أخـذوه عن آبائهم عبـادة، وكأنهم لا يفهمـون معنى العبـادة، ولا يدركون مرمى أفعـالهم، كذلك، الإشارة إلى فعلهم الذى فعلوه، أى وجدنا آباءنا يفـعلون مثل فعلنا، كقول العرب فى عبـادة الأوثان، ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠)﴾ [البقرة].

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ (٧٦)﴾ .

الفاء فـاء الإفصاح وهى مـؤخرة عن تقديم؛ لأن الاسـتفهـام له الصدارة، والاستفهام للتنبيه ، والمعنى فيـما يفهم من كلام الله تعالى ، أفرأيتم أى أشاهدتم ما تعبدون أنتم وآباؤكم الأولون إنه ضلال لا أوافق عليه ولا أرضاه، ولذا ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧)﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى بسبب ذلك الضـلال، والضمـيـر فى أنهم ضمـير الحـال . أى أن أنتم وهذه الحـال التى هـى

عبادة الأوثان، وتقليد الآباء عدو لى أناهضها وأقاومها إلا عبادة رب العالمين. فمعنى ﴿ إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ على حذف مضاف إلا عبادة رب العالمين، وقد ذكر عليه السلام صفات رب العالمين التى أوجبت عبادته والإذعان له، فقال:

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) ﴾

بعد أن ذكر لهم أن العاقل يعادى عبادة الأوثان، ولا يرضى إلا بعبادة الديان، أخذ إبراهيم يصف ربوبية الله تعالى له فى حياته من خلقه إلى موته، ثم بعثه، وأنها منبه دائم إلى استحقاقه وحده العبادة، وأنه لا إله إلا هو، وفى ذلك توجيه للعرب سلالة إبراهيم عليه السلام إلى نعمه تعالى التى تغمرهم فى حياتهم اليومية، والمستمرة، ما داموا فى قيد الحياة ، فذكر أول نعمة، وهى الخلق والهداية، ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ النون مكسورة إشارة إلى أن ياء المتكلم مطوية فى الكلام طيا، والفاء لبيان أن ما بعدها مترتب على ما قبلها، فالهداية مترتبة على الخلق والتكوين، وقد يقول قائل، كيف يكون ذلك، والناس منهم شقى ضال، وسعيد مهدي، ولو كانت الهداية مترتبة على الخلق لكان الناس جميعا فى هداية غير مقطوعة ولا ممنوعة؟ والجواب عن ذلك إن الله تعالى خلق الناس مختارين يريدون، ويفعلون ويتحملون تبعات أعمالهم ، إن شرا فشر ، وإن خيرا فخير، ولكنه هيأ فيهم أسباب الهداية ودعاهم إليها، فقال: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) ﴾ [الشمس] وقال تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) ﴾ [البلد] نجد الخير ونجد الشر، وإذا كان سبحانه قد خلق فى النفس المسلكين بالاستعداد لهما ، فإنها إذا سلكت طريق الهداية فالهادى هو الله سبحانه وتعالى بما خلق من أسباب الهداية ، ولذا قال تعالى: ﴿ وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [النحل: ٩٣] ومن يضل يسلك مختارا طريق الضلالة.

وإذا كان إبراهيم الرسول خليل الله فإنه سلك طريق الهداية فالله تعالى أرسله هاديا مرشدا ، وجعله من أولى العزم من الرسل.

والنعمة الثانية ذكرها إبراهيم بقوله تعالى كما حكى الله تعالى عنه، ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ هذه نعمة أخرى من مظاهر الربوبية العالية، وهى أنه يطعم عباده ، أى أنه سبحانه وتعالى هيأ لهم أسباب الطعام وأسباب الشراب، فطعام الإنسان لحم شهي، أو سمك طري، أو خبز، أو ثمر جنى ، وكل ذلك من الله ، فهو الذى أنبت النبات، وأثمر الغراس، وتغذى من النبات الأنعام، وهو سبحانه الذى خلق الأنهار والبحار التى تعيش فيها الأسماك، وهو الذى ينزل الأمطار فيشرب منها الإنسان والحيوان، وهكذا هو الذى يطعم ويسقى ، بتضافر الأسباب سببا بعد سبب.

والنعمة الثالثة نعمة الشفاء من المرض، وحكى الله تعالى فيها قول إبراهيم ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ وقد ذكر المرض وشفاء الله تعالى منه بعد الطعام والسقى للإشارة إلى أن بعض الأمراض سببها الإفراط فى الطعام، كما ورد فى بعض الآثار: المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء. ومهما يكن من الطب والعلاج فالشفاء دائما من الله واهب القوى، والقادر على كل شيء، وكثيرا ما يقول الطبيب وقد عجز: إن الشفاء بمعجزة ، ويفوض الأمر إلى الله تعالى القادر على كل شيء .

الأمر الرابع الذى تبدو فيه ربوبية الله تعالى الكاملة ﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ هذا شعور قوى بكمال الربوبية من خليل الله تعالى إبراهيم عليه السلام ، فهو وحده الذى يميت، ولو كان الإنسان فى بروج مشيدة، وللناس آجال، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، وإنه بعد الموت البعث، وهو الحياة الأخرى الجديرة بأن تكون الحياة حقا وصدقا، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [العنكبوت] وعطف بثم فى موضعها، لأن البعث لا يكون عقب الموت، بل يكون بينهما تراخ فى الزمن حسا ومعنى، أما الحس فظاهر، وأما المعنوى فهو التفاوت بين حياة لاغية مكدودة، وحياة بالنسبة لمثل خليل الله تعالى حياة هادئة لا لغوب فيها، بل هى جنات النعيم.

الحال الخامسة هو ما يرجوه إبراهيم الذى كان فى حياته أُمَّةً ، كما يقول تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ وهو ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ أى أنه يطمع ويسمى طلبه طمعا، استصغارا لحسناته، واستكبارا لسيئاته كشأن أهل الورع الذين يتقون ويخافون، وتستشعر نفوسهم الخوف دائما ، كما كانت حال محمد ﷺ فقد كان لعظيم مكانته يطلب رحمة الله بالمغفرة لا بالجزاء. والخطيئة هى الذنب الذى يستغرق النفس ، ويستولى عليها ، وقد كان إبراهيم كسائر النبيين يحسب ذنبه كبيرا ، وحسناته صغيرة ، ويوم الدين هو يوم الحساب والجزاء.

ويتجه إبراهيم إلى ربه راجيا داعيا ضارعا قائلا:

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦)﴾.

ضرع إبراهيم إلى ربه فدعاه بما يدعو به الرجل الصالح الذى يريد أن يعاونه الله تعالى فى الخط المستقيم الذى يسلكه، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

اتجه إلى ربه جل جلاله مناديا بالربوبية لأنها هى التى توجه وتربى النفوس، وتجعل الرجل ربانيا ، وأول ما طلبه هو الحكم، وهو الحكمة الضابطة المانعة للنفوس من التردى فى مهاوى الهوى، ومنازع الشيطان، والحكيم هو الذى يمنع نفسه ويحكم عليها بالتزام الجادة وسواء السبيل، ولقد قال أكثم بن صيفى: الصمت حكم وقليل فاعله، ونسب بعض الناس ذلك للنبى ﷺ ، وإن الرجل المستقيم مبتدئ بنفسه فيروضها على الحكمة النافعة المهذبة، فإذا امتلأ قلبه بها اتجه اتجاها مستقيما ، ونطق بالحق، وسلك طريق الحق، فكان الخلق المستقيم ، وكانت المعاملات المستقيمة، وكانت الاستقامة فى كل حياته، وقد دعا إبراهيم أن يهبه الله حكما، يكون أولا على نفسه، وقال: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ أى وفقنى لكل أسباب الكمال، والعلو فى النفس والخلق لألحق بأهل الكمال والصلاح وأعَدَّ فى زمرة الأبرار.

والدعوة الثانية هى دعوة بالعاقبة، وهى قوله ضارعا إلى ربه: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ الآخرين أى الذين يجيئون بعده، و﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾ فيه إضافة اللسان للصدق أى بأن يكون الصدق مستغرقا له، بحيث لا يقال عنه إلا ما هو صدق، وأن يكون اللسان صادقا دائما، وأن يمتد الصدق منه وفيه إلى ما بعده، وإن لسان الصدق يكون بعده يكون بأمور، منها أن يكون ذكره حسنا صادقا من بعده، بأن يكون أثرا محمودا من بعده، ويكون نافعا بعد مماته كما كان نافعا فى حياته، ومنها أن تكون دعوته إلى الحق باقية من بعده يرددها الناس، ويدعون إليها، ومنها أن تكون له محبة ومودة بين الناس من بعده، كما كانوا يودونه فى حياته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦)﴾ [مريم].

هذا، وإن النص الكريم يدل على أن حب المحمدة بين الناس ليس أمرا غير صالح ما دام يقصد إليها النفع والخير، وعموم الإصلاح وما دام لا يتعالى ولا يستطيل على الناس.

والدعوة الثالثة، هى ما ذكرها بقوله: ﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ أى اجعلنى فى جنة النعيم، وعبر بهذا التعبير للإشارة إلى أن جنة النعيم تكون ميراثا للعمل الصالح، وطلبها من الله تعالى مع أنه عمل عملا صالحا، للإشارة إلى أن عمله لا يعطيه ذلك الحق إنما هبة من الله تعالى ومنة وفضلاً، فلا يستحق عامل بعمله إلا أن يتغمده الله برحمته.

بعد ذلك اتجه إلى ربه بالدعاء يصلح به نفسه، اتجه إلى ربه فى شأن أبيه وقد وعده بأن يدعو له، كما جاء فى سورة مريم: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧)﴾ [مريم] أنجز خليل الله وعده، وقال ضارعا إلى ربه: ﴿وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦)﴾ طلب ذلك من الله، ولكنه لم يصر عليه، وإن كان قد أنجز وعده، ولكن تبرأ من هذا الاستغفار، كما قال فى آية أخرى، ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤)﴾ [التوبة].

هذه الدعوات كلها مطالب من إبراهيم الخليل المخلص إلى ربه، وهى مطالب إيجابية، اتجه بعد ذلك إلى مطالب سلبية مانعة، فقال عليه السلام:

﴿ وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) ﴾.

الواو عاطفة، والجملة التماس من الله تعالى ألا يخزيه يوم البعث، وذات البعث لا خزيان فيه، إنما الخزى يوم الحساب ويوم تشهد عليهم أعضاؤهم بما فعلوا، وتنطق أعمالهم بما ارتكبوا، ولا ننسى أن الدعاء من خليل الله، وكيف يتصور أن يخزيه الله تعالى وهو رسوله، ولكن لفرط إحساسه بحق الله تعالى يظن فى نفسه القصور، ومعه الخزي، فإن دقة الإحساس تجعله يستصغر حسناته فى جنب الله تعالى العزيز الحكيم، وكلما قرب الإنسان من الله تعالى أحس بقصوره، ولا يحس بعظمة ما فعل، ويحسب أنه من المقصرين، لا من المقربين الصادقين.

وبين سبحانه وتعالى على لسان خليله الصافى نفسه وقلبه ، فقال: ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴾ يوم، بدل أو عطف بيان من يوم يبعثون، أى أنه فى هذا اليوم لا ينفع المال ولا البنون اللذان هما عز هذه الحياة الدنيا وزينتها، كما قال الله تعالى: ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ... ﴾ [الكهف: ٤٦] فالمال والبنون هما الزينة التى أعدت للفخر بها من أهل الدنيا .

﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ .

القلب السليم هو القلب الخالى من أوشاب الوهم والشهوة والضلال، والاستثناء هنا يصح أن يكون متصلا بأن يكون من عموم نفى النفع بالمال والبنين إلا من كان ذا مال وبنين، وأعطى المال حقه، وربى البنين وأحسن تربيتهم فكانوا له عملا صالحا دائما ؛ لأنه إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له. فمع المال والولد ينفع الإنسان إذا أتى الله بقلب سليم من كل المفاسد فى الدنيا، ويصح أن يكون الاستثناء منقطعا بمعنى لكن، ويكون المعنى لا ينفع مال ولا بنون، ولكن من أتى الله بقلب سليم من مطامع المال وغطرسة البنين، لا يعتز إلا بالله، وقد سلم قلبه وكل أحاسيسه له سبحانه.

قال تعالى :

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) ﴾

أزلفت، أى قربت إلى الزلفة وهى الحظوة الحسنة، فمعنى ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ ﴾ أى قربوا إلى موضع حظوتهم وجزائهم على الحسنى حسنى مثلها أو أكبر منها، وقوله تعالى: ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾، أى للذين عرفوا الله تعالى واتقوه وخافوا عذابه، ورجوا رحمته، وهذه الجنة هى جزاؤهم جزاء موفورا.

وإذا كان هذا جزاء المؤمنين قد قرب إليهم زلفة وحظوة، فقد برزت الجحيم، وهى نار الله الموقدة للكافرين، ولذا قال عز من قائل: ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ أى ظهرت واضحة، لأن برز معناها: ظهرت وقربت منهم، والتفعيل مبالغة فى الظهور أى رأوا الجحيم رؤيا العيان فعلموا مآلهم ونهايتهم بالعيان، والغاوون هم الضالون الكافرون.

بعد ذلك البيان فى قصة إبراهيم، وما فيها هنا لم يذكر فى سور أخرى إلا بعض ما يتعلق بعبادة الأصنام ذكر سبحانه بعض ما يكون يوم القيامة.

قال تعالى :

﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤) ﴾

هذه النصوص السامية مصورة لحال الكافرين وما أضلوهم فى يوم القيامة وأول اتجاه إلى مجاوبتهم، وقد كانوا يتخذونها شفعاء تقربهم إلى الله زلفى ، أن يسألوا عن هذا الادعاء أهو ظاهر فيها اليوم فيقال لهم:

﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ ﴾

أين الأصنام أو الأشخاص التى حكم أوهامكم أن تعبدوها من دونى هل أمدتكم بنصر أو شفاعة أو تقريب زلفة أو حظوة، ﴿ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾ أو هنا لمعنى الإضراب، فليست قائمة مقام - أم - والمعنى فيها الإضراب عن أن ينصروكم ، أهم ينتصرون، بأن تحمى نفسها من عذاب واقع أو متوقع، والاستفهام إنكارى لإنكار الواقع، فهو للتوبيخ ، إذ كانوا يحسبون أن لها قوة تنصر، فتبين أنها لا تنصر غيرها، ولا تنتصر لنفسها .

﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ .

الكب إلقاء الشيء على أعلاه أو على وجهه، والكبكبة، تساقط الشيء فى هوة بتدهور، ويقول الزمخشرى : الكبكبة توالى الكب، فهو يكب ثم يكب أخرى، ويتوالى الكب، وهكذا حتى يصل إلى القاع.

والفاء هنا للإفصاح، لأنها تفصح عن شرط مقدر، أى إذا كانوا لا ينصرون، ولا ينتصرون ،فإنهم كبكبوا فيها هم، والغاوى - الواقع فى الغواية والضلالة ، أى أنه يكب فيها ما كانت تعبد، هى والذين ضلوا، وهذا التعبير كناية عن أن من كانوا يحسبونه شفيعا لا قدرة له، وإنه يلقى فى النار ولو كان لا يحس ولا يشعر.

﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ الجند هو ما يستعان به في القتال، أو مادته، وإبليس قال لربه: ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص] وجنود إبليس أشخاص من الإنس ، قد أشربوا فى أنفسهم شره، فكانوا له جندا، ويصح أن يكون من جنوده المطامع والأهواء والشهوات والأوهام، فكل هؤلاء يكبكبون فى النار، وقد أكد سبحانه وتعالى ذلك تأكيدا لفظيا بقوله تعالى: ﴿ أَجْمَعُونَ ﴾ فالنار لا يتخلف عنها عاص ولا تذره.

﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) ﴾ .

كان الاختصام بين المعبود الباطل والعابد فى جهنم، وكأنما وهب الحجارة أن تتكلم وتبين، أو هو بيان للحال التى كانوا عليها وقد تكشفت الأمور، وزال زيغ الباطل، والضمير يعود إلى الكافرين الذين أزلهم الشيطان، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ جملة حالية ، أى قال المشركون، وهم يختصمون مع ما عبدوهم، ﴿إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ إن هنا هى المخففة من إنَّ الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، أى إنه الحال والشأن كنا لفى ضلال مبين، اللام للتوكيد، وقد أكدوا ضلالهم بها، وبأن الضلال استغرقهم كما يستغرق الظرف ما فيه، أى احتواهم، وصاروا يسارعون فى أرجائه من ضلال إلى ضلال، وهو بين واضح يدركه العقلاء، ولكن ضاعت ألبابهم في وسط ذلك التيه من الضلال، وقد قرروا الحق الآن، فقال: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إذ، ظرف متعلق بكنا، وإذ ظرف دال على الماضى وذكر مع المضارع لتصوير حالهم فى الماضي، والتسوية بين آلهتهم ورب العالمين. موضع استنكارهم فى ذلك اليوم لأنهم أدركوا أن هذه حجارة لا تعبد، بل يرمى بها، وهذا رب العالمين الذى خلق العقلاء جميعا، وقام على ربوبيتهم، فهو الحى القيوم اللطيف الخبير، ثم أقروا بمن كانوا خاضعين لهم، قالوا: ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ ما نافية، أى ما أضلنا إلا المجرمون الذين اتبعناهم ، وفى الواقع، إن الجو كله كان جوا إجراميا ، فهم يترامون بالإجرام ، وكان الإجرام فيهم جميعا؛ لأنهم اشتركوا جميعا فى تكوين رأى عام فاسد ، يروج فيه الباطل، ويختفى فيه الحق الصادع، فكانوا فى ضلال يترامون به، ولا يخلص منه واحد منهم.

﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢)﴾.

الفاء فاء الإفصاح؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، وتقدير القول، إذا كان الذين صاحبونا وشجعونا مجرمين، فما لنا من شفيع يشفع لنا ، ويضم صوته إلى صوتنا، ولا صديق حميم يتألم معنا ، ويرفع عنا مقت ربنا ، أو يشاركنا ، فينقص منا ما يصيبنا من مقت وسوء عاقبة ، ويتمنون نادمين ، ولات حتى مندم، وعدد الشافعين ، لأنهم فى الشدة يكونون كثيرين ، وذكر الصدق مفردا لأن الصديق الحميم يكون قليلا ، وليس كثيرا.

﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

الفاء أيضا للإفصاح لأنها سدت عليهم كل منافذ النجاة، فتمنوا رجعة إلى الدنيا كرة أخرى يؤمنون فيها، ويدركون الحق ويذعنون له، (لو) هنا للتمني، وهو تمنى أن يعودوا إلى الدنيا كرة أخرى ، والفاء فاء السببية، وأن مضمرة بعدها ، أى فنكون بسبب ذلك من المؤمنين المذعنين للحق الذين لا يمارون فيه.

كان الكلام فى يوم الآخرة عندما قال عليه السلام يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، ولقد أشار سبحانه من بعد ذلك إلى تتمة القصة، فقال سبحانه:

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤) ﴾ .

الإشارة إلى قصص إبراهيم، وما جاء فيها على لسان إبراهيم من بيان فضل الربوبية، والإذعان لحقها، وقد جاء فى البيضاوى تلك العبارات المدركة فى بيان معنى (لآية)لحجة وعظة لمن أراد أن يستبصر بها ويعتبر، فإنها جاءت على أنظم ترتيب وأحسن تقرير ، ويتبعه المتأمل فيها لغزارة علمه ، لما فيها من الإشارة إلى أصول العلوم الدينية والتنبيه على دلائلها، وحسن دعوته للقوم، وحسن مخالفته معهم وكمال إشفاقه عليهم، وتصور الأمر فى نفسه وإطلاق الوعد، والوعيد على سبيل الحكاية؛ تعريضا وإيقاظا لهم ليكون أدعى للاستماع والقبول.

ومع هذه الحجة الباهرة، والوصايا التى تقنع بذاتها ، وتلزم بحقيقتها ، كان أكثرهم غير مؤمنين، ولذا قال: ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم ﴾ وإذا كان الأكثرون غير مؤمنين، فمعنى ذلك أن المؤمنين كانوا الأقل عددا ؛ وذلك لأن الشيطان يتحكم فى الكثرة، ويعاون أهل الشر بعضهم بعضا.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ الغالب الرحيم مع أنه القادر القاهر على كل شيء هو الرحيم وكان رحيما بهم فى أنه لم يعجل بالعذاب ، بل أمهل أهل الشر حتى يكون اليوم ، وكان رحيما بهم فى أنه لم يسو الصحيح بالسقيم والمحسن بالمسىء ، وكان رحيما بهم فى أن وضع عذابا للمجرمين ، لكيلا يوغلوا فى إجرامهم ، ففى هذا الوصف بالرحمة إنذار وتبشير؛ لأن العالم لا يقوم على المساواة بين الخير والشر، ولكل موضعه.

من قصص قوم نوح

قال تعالى :

كَذَّبَتْ
قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦)
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ
عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُونِ (١١٠) ۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١)
قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي
لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ
(١١٥) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ
رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ
مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ
(١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢)

جاءت قصة إبراهيم بعد قصة موسى؛ لأن موسى قاوم أشد طواغيت الدنيا وأهلكه الله تعالى بعد المعركة، وذلك فيه إيذان بأن محمدًا سيهزم الجمع من المشركين، ويولون الدبر ، وجاء بعده قصص من إبراهيم تأديبا للعرب ، لأنه أبوهم الذى يشرفون بمحتده ويحتمون بمسجده أول بيت وضع للناس ، ولعلهم يهتدون بهديه ، ويطيعون بطاعته ، ويتأدبون بأدبه.

وجاء من بعد بقصص من قصص نوح الأب الثانى للخليقة ، وفيه ذكر شذوذ الكافرين من العرب، ولذلك ابتدأ سبحانه القصص بتكذيبهم ، ولم يبتدئه برسالة نوح عليه السلام ، فقال تعالى :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) ﴾.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ابتدأ القول الكريم بتكذيب قوم نوح للمرسلين، أى أن طبعهم، وما آل إليه أمرهم أنهم يكذبون الرسالة الإلهية على لسان رسول يبشر وينذر، فهم لا يكذبون نوحا وحده، وإنما يكذبون أصل الرسالة الإلهية لأنهم ماديون لا يؤمنون إلا بالمادة، ولا يؤمنون بالغيب، ولب الإيمان هو الإيمان بالغيب، فلا إيمان لمن لا يؤمن بالغيب.

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴾ إذ ظرف للماضى متعلق بقوله: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ كأنهم جابهوا نوحا عليه السلام ، وهو يقول لهم ﴿ أَلا تَتَّقُونَ ﴾ بإنكار أصل الرسالة ، وكأنهم يقولون: مالنا ورسالتك ، ورسالة غيرك وقوله: ﴿ أَلا تَتَّقُونَ ﴾ ألا للتحريض والحث علي التقوى، وما أجدر كل منكر جبار، أن يطالب بالتقوى ، واتخاذ وقاية لأنه يكون مغرورا، وكل من يتدلى بالغرور، يطالب باتخاذ وقاية ليمتلئ بالتقوى ووراء التقوى الإيمان .

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ أكد رسالته لهم بإن المؤكدة، وتقديم الجار والمجرور ﴿ لَكُمْ ﴾ أى لكم خاصة، ووصف نفسه بالأمانة، والأمانة تقتضى ألا يكذب على الله، فيدعى عليه الرسالة، وهو لم يرسله، وتقتضى الأمانة فيما يخبرهم ، ومع الأمانة الرعاية والمحبة والإخلاص لهم، والبر بهم .

ولأنه رسولهم الذى أرسل إليهم طالبهم بتقوى الله والطاعة فقال: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ ؛ أى أطيعونى لأن هنا ياء المتكلم مقدرة فى القول بدليل كسر النون المنبئ عنها، طالبهم بأمرين: تقوى الله، لأن قلوبهم جامدة جافية عن ربها، إذ ليس فيهم إيمان بشيء، ولا خوف من حاضر ولا غائب، ولا علاج للنفس اللاهية الجافية إلا بالتقوى، أو الدعوة إليها، والأمر الثانى طاعة الرسول، ولا سبيل لطاعته إلا أن تمتلئ نفوسهم بالتقوى ، ومهابة الله والخضوع له .

والفاء فى قوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، أى بسبب أن الرسول أمين لكم اتقوا الله وأطيعون.

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ منْ لاستغراق النفي، أى لا أسألكم على هذا التبليغ أى أجر مما يتعلق بالدنيا، لا أسألكم جاها، ولا رياسة ، ولا سلطانا، ولا غاية، ولا مالا، ولا أى عرض من أعراض الدنيا، ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ إن نافية، أى ليس لى أجر إلا عند الله تعالى، وعبر بعلى للإشارة إلى علو هذا الأجر وهو يعلو عليكم ، ولا يمكن أن تتساموا إليه؛ لأنه من رب العالمين الذى يدين له العالمون أجمعون بالربوبية والطاعة والخضوع.

وإذا كنت لا أجد منكم جزاء ولا شكورا ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ الفاء للإفصاح، لأنها تفصح عن شرط مقدر كأنه هو: إذا كنت أمينا لكم ولا أريد عرضا من أعراض الدنيا، فاتقوا الله، وأطيعوني، لفضل الإخلاص والأمانة

- أجابه قومه على هذه الدعوة المخلصة إلى الحق بالتمرد.

﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ ﴾ الأرذلون جمع أرذل أى الذى بلغ أقصى المهانة فى نظرهم، وهم الفقراء والضعفاء والعبيد ، وكأنهم يتخذون قوة الحق من قوة معتنقيه، وحالهم، ولأنهم لا يريدون أن يتساووا بهم ، ودعوة الرسل المساواة بين القوى والضعيف. والغنى والفقير، والاستفهام إنكارى لإنكار الوقوع ، أى لا يقع منا اتباع لك، بحيث نتساوى مع الأرذلين الذين اتبعوك، وكذلك فعلت قريش مع النبى ﷺ، لقد ذكروا ذلك للنبى ﷺ ونهى الله نبيه أن يلتفت إليهم ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣) وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٤) ﴾ [الأنعام] وفى قراءة وأتباعك جمع تبع أى ليس معك إلا الأرذلون.

أجابهم نوح على امتناعهم عن الإيمان بسبب إيمان الضعفاء والفقراء والعبيد، وهذا من سخف تفكيرهم ، وتفكيرهم المادى الذى بنوا فيه تقدير الناس على أساس قوتهم المادية الجسمية ، وأموالهم ، أجاب عليه السلام بقوله:

﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١١٥) ﴾.

الاستفهام هنا للتنبيه إلى أنه لا يعلم ما كانوا يعملون لنيل رزقهم، وأنه لا يهتم به، إنما يهمه فقط إجابة دعوته، وما يحرضهم عليه من تقوى وهداية، أى أنه عليه السلام لا يهتم بالذى كانوا يعملونه وهم مستمرون على عمله سواء كانوا يمتهنون صناعات صغيرة، أو صناعات كبيرة، إن ذلك لا يعنيه، ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ أى ما حسابهم إلا على ربى لو شعرتم بالحق وأدركتموه.

﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ نفى عن نفسه أن يكون من شأنه أن يطرد من استجاب وآمن بالحق واستجاب دعوته، أى أنه ما أرسل لتوزيع الأعمال على الناس، إنما أرسل لدعوة الحق والإيمان، وترى أن النفى لوصفه بطرد المؤمنين، فهو نفى عن شأنه بوصف كونه رسولا داعيا إلى الحق، لا يهمه إلا استجابة دعوته.

﴿ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ إن نافية، أى ما أنا إلا نذير مبين، أى إلا منذر مبين، فلا يهمنى إلا بيان ما فيه الإنذار، وبيان ما فيه من تبشير، ويلاحظ أن قول نوح عليه السلام فيه تهديد لهم، ولذا اقتصر على ذكر الإنذار، ولم يذكر التبشير، مع أن أصل الرسالة للأمرين.

وقد أمر الله تعالى محمدا ﷺ وقد جوبه من المشركين بما جوبه به نوح عليه السلام، وقال الله تعالى له:

﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) ﴾ [الأنعام].

وهكذا توافقت أقوال المشركين من عهد نوح الأب الثانى للخليقة إلى عهد قوم محمد خاتم النبيين، وكان الجواب واحدا أحرج قوم نوح والمبطل إذا أحرج هدد وأنذر.

﴿ قالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾.

يئسوا من رده، وهو يحججهم بالحجة تلو الحجة، فانتقلوا من الجدل العقيم منهم إلى التهديد بالرجم بالحجارة، وقد فقدوا كل عناصر الود، وأعلنوا القطيعة وقالوا مصرين على الكفر: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ ﴾ اللام هى الدالة على القسم ، بأنه إذا لم ينته يكون الرجم جزاءه، وطريق معاملته، وينتقلون من حال الرجم بالقول إلى حال الرجم بالحجارة، ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ هذا جواب القسم، واللام واقعة فيه مؤكدة ،والتوكيد أيضا بنون التوكيد الثقيلة، وبذلك بلغوا أقصى حدود التكذيب مع التهديد العنيف. عندئذ اتجه إلى ربه قائلا: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ بكسر النون للإيماء إلى ياء المتكلم المحذوفة، وصدر القول بالنداء إلى ربه للإشارة بالنداء إلى طلب النصر والعون، والمدد الكريم منه جلت قدرته، وهو الذى أظلهم بنعمة الربوبية، وقوله: ﴿ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ فيه إيماء إلى أنهم كذبوه، فى حال كان يرجو إيمانهم؛ لأنهم أولا قومه، وعرفوا صدقه، وخوفه عليهم، ورفقه بهم، ورغبته لخيرهم، ومع كل هذا كذبوه وقطعوا صلته وأعلنوا عداوته، وهددوه بالرجم، وإن لم يذكره لربه ، لأنه عليم بهم يرى ويسمع.

اتجه إلى ربه يدعوه إلى أن يفصل بينه وبينهم: ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

وقد كان تهديدهم له بالرجم خطا فاصلا بينه وبينهم ، وأخبره الله تعالى بقوله تعالى: ﴿ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [هود] والفاء للإفصاح، وتقدير القول إذا كانوا كذبوك ولا يؤمن إلا من قد آمن فلا تبتئس .

والفتح معناه الحكم والفصل بألا يمكنهم منه، وممن آمن معه وما آمن معه إلا قليل.

وقد أجابه الله تعالى إلى مطلبه فور دعائه إليه.

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴾.

الفاء عاطفة للترتيب والتعقيب ، أى أنه فور دعائه أجابه، ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ﴾ أى الذين معه فى الإيمان والإذعان والتصديق وناصروه، وإن كانوا قليلا، وقوله تعالى: ﴿الْمَشْحُونِ﴾ الذى حمل فيه كل ما يحتاجون حتى تستوى على بر السلامة، وهذا قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ۝٤٠﴾ [هود].

هذه عاقبة نوح، ومعه أهل الإيمان من قومه، والطائعين له من أهله، أما الباقون فقد قال تعالى فيهم:

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾.

والعطف بثم فى موضعه؛ لأن التفاوت بين الحالين ثابت، إذ هو بعد وتفاوت بين الإنجاء والإهلاك ، ولأنه تفاوت بين غضب الله على الباقين، ورضاه على المؤمنين ، وقوله - بعد - فيها إشارة إلى أن الغرق كان بعد صناعة الفلك، وركوبه، ومجىء السيول المغرقة التى كان الموج فيها كالجبال، وغير ذلك مما هو مذكور بتفصيل فى سورة هود.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أى لمعجزة قاهرة دالة على رسالة نوح عليه السلام، وعلى قوة صبره، وعلى إيمانه بربه، ومع ذلك ما كان أكثرهم مؤمنين، بل ما آمن معه إلا عدد قليل، وهذا دليل على أن المعجزة الحسية التى كانوا يطالبون بها وقتا بعد آخر، ليس من شأنهما أن تحملهم على الإيمان حملا ، إذا لم تكن النفوس راضية مرضية، متجهة إلى الإيمان من غير معوق من سلطان أو مال ، أو غرور مبين وقوة دنيوية.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أى الغالب، والرحيم، الذى يرحم عباده باختبارهم، وعقاب المسىء وثواب المحسن، وإمهالهم حتى لا يكون أمل فى رجوعهم إلى ربهم، وإنابتهم إلى خالقهم .

عاد وهود

قال تعالى :

كَذَّبَتْ
عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ
آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾
وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾
وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾
وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ
﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾
إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾

إن هذه الآيات الكريمات ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) ﴾ .

هى التى قدمت بها قصة نوح عليه السلام، وذكرها هنا ليس تكرارا من غير معانٍ واضحة بينة، وهى تدل أولا على أن الكافرين بالرسل لا يعارضون الآيات، وينكرونها ، إنما هم لجحودهم ينكرون أصل الرسالة الإلهية إلى البشر، فهم لا يؤمنون بالله تعالى ، إذ لا يؤمنون بالغيب، وإنما يؤمنون بالأمور المحسوسة فقط ، والإيمان بالغيب هو التدين، كما قال تعالى فى أوصاف المؤمنين الذين يؤمنون بالغيب.

وتدل ثانيا ـ على أن الرسل أمناء الله تعالى على خلقه، وإرشادهم وتقويمهم، كما كان يقول كل رسول : ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ وهم يكونون من المعروفين بالأمانة فى أقوالهم ، لتكون شهرتهم بالأمانة دليلا على صدقهم ابتداء، فلا يفاجئون بما يتوهم كذبه.

وتدل ثالثا ـ على أن رسل الله لا مطمع لهم فى أمر دنيوى ، إنما يريدون الهداية والتقوى والإيمان، وأنهم لا يرجون أجرا إلامن رب العالمين يوم تجزى كل نفس ما كسبت.

وتدل رابعا - على أن التقوى مطلب النبيين أجمعين؛ ولذلك قال كل منهم فى مبدأ دعوته ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾.

وتدل خامسا- على أن طاعة الرسول واجبة لأنها طاعة لله تعالي، وكما قال الله تعالى : ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴿٨٠﴾﴾ [النساء] وإن ذلك ليس تكرارا، ولكنه تأكيد بيان طبائع المشركين وبيان هداية الرسل.

ويظهر أن عاداً كانوا يعنون بالبناء والتشييد، ولذا قال لهم نبيهم:

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾.

الاستفهام إنكارى لإنكار الواقع، إذ إنهم بنوا فعلا، والريع، اسم جنس جمعى لريعة، وهو الذى يفرق بينه وبين مفرده بالتاء المربوطة ، أو ياء النسبة، والريع ما ارتفع من الأرض، وقيل: أبراج الحمام، لأنها تبنى على مرتفع وتكون

مرتفعة، وآية معناها علامة، وليس المراد منها آية الكون أو الكتاب ، بل المراد مطلق علامة . ومعناها هنا أنهم اتخذوا علامات للطرقات فى الجبال أو فجاج الجبال، وكانوا يتخذونها ليهتدوا فى البر وفى السير، فيتعرفوا بها الطرقات حيث ساروا.

ووجه العبث فى بنائها أنهم يغالون فى الارتفاع بها مفاخرة، فهم يعيشون، ولا يكتفون بقدر الحاجة ، وكل ما يزيد عن قدر الحاجة يكون عبثا ، وكل ما يدفع إلى البطر فهو عبث، أيا كان نوعه.

وذكر الزمخشرى أن العبث فيها أنه لا حاجة إلى هذه العلامات، لأن تهديهم إلى الطرق، وكان لهم بها علم ، وقد قال تعالى : ﴿ **وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ** (١٦) ﴾ [النحل].

﴿ **وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ** (١٢٩) ﴾ أى تبنون أماكن وقصورا مشيدة مصنوعة صناعة محكومة تبقى على الأزمان وتناطح الدهر، لعلكم تخلدون، أى ترجون لها أن تخلدوا فيها، والمصانع جمع مصنع، وهو مكان الصنع الجيد، والصنع إتقان العمل ، ويقال للحاذق المجيد صَنَعٌ بفتحتين، وللحاذقة المجيدة صناع ، ويقال صنَّاع، فالمصانع، القصور المجود بناؤها، المزخرف طلاؤها ، وكأنهم يرجون أن تكون جنتهم التى يخلدون فيها.

وقد بين سبحانه، أنهم يبنون، ويستعلون عابثين، ويبنون القصور المشيدة لعلهم يخلدون، وذلك لتكون لهم السلطة والقهر والغلب، ولذا قال فى وصفهم عز من قائل:

﴿ **وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ** ﴾.

الخطاب لعاد قوم هود، وهو وصف لحالهم وهو أنهم جبابرة فى طغيانهم، والتجبر، يدفع إلى الأذى والسيطرة بالباطل، والتدابر والتقاطع وإن هذه حالهم؛ القوى فيهم يأكل الضعفاء، فالحقوق مهضومة، والباطل رافع رأسه فيهم،

وخاطبهم، بذلك نبيهم هود عليه السلام عن ربه العليم الحكيم. والبطش السطو، والعسف قتلا بالسيوف ، أو ضربا بالسياط ، والجبار المتسلط العاتي، وقد نفى الله تعالى عن نبيه أن يكون جبارا فقال: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥]، ومعنى النص أنكم يا عاد طغاة جبارون إذا بطشتم عاسفين كان بطشكم بطش جبارين يسومون الضعفاء الذل والهوان.

ويجب أن تتخلفوا عن هذا الوصف الذميم، وترفقوا بأنفسكم، ولذا قال لهم هود ذاكرا عن ربه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ الفاء للإفصاح ، أى إذا كنتم كذلك غير مترفقين ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أى اجعلوا بينكم وبين غضب الله وقاية، واجعلوا التقوى شعاركم يذهب غروركم بالقوة، وأطيعون فيما أنقل لكم من شرع الله تعالى والنظام المحكم.

ولقد أخذ هود عليه السلام يذكرهم بنعم الله عليهم، وأنها توجب أن يملئوا أنفسهم بتقواه خوفا من عذابه، وشكرا لنعمته ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥)﴾.

الواو عاطفة، وقد أمرهم بالتقوى عامة، وبالطاعة كذلك، وهنا يأمرهم بتقوى صاحب النعمة التى أنعمها عليهم، والذى أمدهم بالنعم التى كانت بها قوتهم فى الأرض وقدرتهم على البطش كالجبارين، والأمر بالتقوى يتحقق بأن تمتلئ نفوسهم بتقواه وللحمل على الوقاية، وأن تكون قلوبهم خاشعة مملوءة بمهابته، ومخافته ، لا أن يكون أمرهم بورا، ولا يرهبون، ولا يقدرون، وقوله تعالى: ﴿بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ علما محسوسا ترونه، وتتبحبحون فيه، وما اتخذتموه قوة للبطش والظلم، ولم تتخذوه قوة للعدل وإقامة القسطاس المستقيم.

﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ - أى أمدكم بكل أسباب القوة ، أمدكم بالأنعام، وهى رمز لقوة المال، وفيها رغد العيش، ومتعة النفوس، كما قال تعالى فى سورة

النحل ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) ﴾ والبنون هم قوة النفر، وبها يكون السلطان القوى، وبالمال وبالبنين تكتمل زينة الحياة الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ...(٤٦) ﴾ [الكهف] .

فإذا كنتم تبطشون بهذا الخير الذى أمدكم ، فاذكروا فى أوقات بطشكم من أعطاكم ما اتخذتموه سببا ، واجعلوه سببا للتقوى وشكر النعمة.

﴿ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ والجنات جمع جنة، وهى تشمل النخيل والكروم، والعيون عيون الماء التى يكون بها سقيهم ورعيهم ، ونباتهم وكلؤهم التى ترعى فيها أنعامهم، فكل هذه نعم توجب الشكر، وتوجب امتلاء القلوب بتقوى من أمدهم بها، ومكنهم بمعايش فى الأرض جعلت لهم قوة، فلا يصح أن يبطشوا ، بل يشكرونها ، وتمتلئ بخوف معطيها ، لأن من يمنح يمنع، ولأنه يريد السعادة للناس، ولذا قال لهم : ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾.

وقد ذكرهم بنعمه أولا، وأشار إلى أنهم اتخذوا هذه النعم ذريعة ليكونوا أقوياء باطشين، لا أن يكونوا شاكرين، وقد أنذرهم بعد بعذاب الله تعالى التى ينزل بمن يظلمون ويفسدون فى الأرض، فإنه لا يفسد الأرض غير الظلم والطغيان، قال الرسول الشفيق بقومه: ﴿ إِنِّي أَخَافُ ﴾ مشفقا عليكم منذرا لكم ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وهو يوم القيامة، يوم لا ينفعهم مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وقد أكد العذاب بإن، وبوصف العذاب بأنه عظيم لا يقادر قدره، وكان تنكيره لبيان كبره وشدته ، وأنه فوق التقدير والوصف.

ذكرهم بالنعمة، ثم أنذرهم بالجزاء، ولكن لم يرعووا، ولم يستيقظوا، وكانوا فى عمياء ضالة ، ولذا رأوا هذا وقالوا:

﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ (١٣٧) ﴾.

الوعظ يجمع بين معنى التذكير بالخير، وإثارة النفس إلى الخير، والزجر المقترن بالتخويف، وقد جمع كلام نبى الله هود على المعنيين، فهو أولا ذكرهم بالنعم التى هى خير محض، ثم أنذرهم بالعذاب الشديد، فقالوا مصرين على ما هم عليه ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ ، أى تساوى عندنا حالك إذا كنت الواعظ المذكر بالنعم، والمنذر بالنقم، أم لم تكن من الواعظين، بأن تركتنا فى أمورنا، وحالنا.

ولم يكتفوا بذلك بل تهجموا على ما يدعو إليه ، وقالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ﴾ وإن نافية، أى ما هذا إلا خلق الأولين، وفى النص الكريم قراءتان: إحداهما ـ بضم الخاء واللام ،والمعنى على هذا يتضمن أولا أن ما هم عليه من شرك، وقد اتبعوا فيه آباءهم، كما قال المشركون، وجدنا عليه آباءنا، ويتضمن ثانيا أن ما هم عليه من بطش جعلهم جبارين هو خلق الأولين من قومهم، ولذا عبروا بخلق بدل دين ليشملهما معا.

والقراءة الثانية هى خَلْقْ بفتح الخاء وسكون اللام، ويكون المعنى إن هذا الوعظ إلا ما اختلقه الأولون وافتراؤهم، كما قال المشركون عن القرآن الكريم، ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٢٥)﴾ [الأنعام].

ولشدة غرورهم وعظم تكذيبهم قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ الباء لتأكيد نفى التعذيب، وإن ذلك النفى يتضمن ثلاثة أمور: أولها ـ أنهم لغرور يقررون أنهم لا يعذبون، وليس من شأنهم أن يعذبوا ، ويتضمن ثانيا إنكار البعث وتلك خلة الكافرين، ويتضمن ثالثا ، أنه إن كان بعث فلن يكون العذاب نصيبهم ، بل تكون حالهم فى الآخرة هى حالهم فى الدنيا ، ذلك ما يأفكون به ، وهم الضالون.

ولقد كان الهلاك هو نهايتهم، ولذا قال تعالى:

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠) ﴾.

- الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى ترتب على ما قالوا الحكم بتكذيبهم، والفاء الثانية عاطفة للترتيب والتعقيب، أى عقب تكذيبهم، فأهلكوا بريح صرصر عاتية، كما قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) ﴾ [الحاقة] وقال: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾، أى إن فى هلاكهم بعد التكذيب، ونفيهم للتعذيب والبعث، وبطشهم وقوتهم وغرورهم لآية دالة على قدرة الله تعالى، وأنه يأخذ الظالمين فى قدرتهم، ولا يعجزون الله، فما كانوا معجزين.

ثم حكم الله تعالى عليهم باستمرار كفر أكثرهم، وكانوا بذلك مستحقين لما نزل بهم، ولذا قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فما كان الهلاك للمؤمنين بل كان للكثرة الكافرة، وما أغنى عنهم طغيانهم وبطشهم.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ وإن ربك، والخطاب للنبى ﷺ لهو العزيز الغالب الذى هو فوق كل شيء، الرحيم فى أحكامه، وإمهاله، ومن رحمته ألا يتساوى المحسن مع المسيء، ولا الأعمى والبصير، والله هو العليم الحكيم، وقد أكد سبحانه وتعالى عزته ورحمته بإنَّ المؤكدة، وباللام، وبضمير الفصل، وبأنه وحده المختص بالعزة والرحمة.

وقد كان سبحانه يعقب قصة كل نبى بهاتين الآيتين.

صالح وثمود

قال الله تعالى :

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ
لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ
إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾
فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾
وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ
﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ
وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ
إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ
هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا
بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا
نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

ابتدأ الله تعالى قصة صالح مع ثمود بما ابتدأ به قصة نوح وإبراهيم ، وعاد قوم هود ، من بيان أنهم يكذبون المرسلين ، وكأنهم لا يؤمنون برسالة الله تعالى إلى أهل الأرض ، وبأن الرسول أخوهم ومنهم كشأن الرسل دائما يرسلون إلى أقوامهم ، وإنهم يعرفون بالأمانة والصبر بينهم ، وإن أول مطلب لهم منهم

يقربهم إلى الله زلفى هو أن يملئوا نفوسهم بالتقوى ، حتى يعمر قلبهم بالإيمان به، ويبتعدوا عن التمرد، وينتقلوا من طريق الشر إلى طريق الخير ، فيأمرهم بتقوى الله وطاعته ؛لأن طاعته طاعة لله تعالى ، وقد أشرنا إلى ذلك فى معانى الآيات الأولى لقصة هود وعاد، وهذا هو معنى الآيات الخمس الأولى من قصة صالح وثمود ، وهى قوله تعالى:

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) ﴾.

ابتدأ سبحانه وتعالى بأن خاطبهم أخوهم صالح ، يذكر لهم أنهم قد أوتوا نعما ، فلا يمكن أن يتركوا هملا من غير مسئولية على ما حملوا من نعم ، فبقدر النعمة تكون النقمة ، كما قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾ [المؤمنون] فقال لهم ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴾.

أتتركون ـ الهمزة للاستفهام الإنكارى بمعنى نفى الوقوع، أى لا تتركون فيما هاهنا، أى فى هذا المكان آمنين، أى لا تتركون فى هذا المكان آمنين من الموت والحساب والعقاب أو الثواب إن حبستم أنفسكم ، ولكن الموت حق عليكم وهو يأتيكم بكل الأسباب، وذلك يستدعى أن تفكروا فى عواقب أموركم ، ولا تحسبوا أنها نعمة لا حساب عليها، ولا عواقب تعقبها، إن خيرا فالنعيم بعدها، وإن شرا فالعذاب الأليم من ورائها.

﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ الجار والمجرور متعلق بتتركون، أو بآمنين، والجنات جمع جنة والعيون عيون الماء المثمرة كما أشرنا من قبل ، والجنات الأشجار الباسقة من كروم ، وتفاح ورمان وغيرها ، وزروع، جمع زرع وهو النبات الذى يكون منه الحب المتراكب ويتغذى منه الإنسان، والذى يكون منه السنابل من قمح وأرز وغير ذلك من النعم التى أنعم بها على الإنسان فى غذائه، ويشمل النبات والحشائش التى تكون كلأ الأنعام، وخص النخل بالذكر، لأنه كان غذاء العرب ،

حتى سمى العرب أمة التمر واللبن، وكان ذكره بعد النبات لبيان إنعام الله تعالى على الإنسان بالغذاء بكل أنواعه، فأهل المدر غذاؤهم من النبات ذى الحب المتراكب، وفرى السنابل، وأهل الوبر غذاؤهم من النخل فى أكثره، والله هو المنعم للفريقين.

والضمير فى قوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ يعود على النخل ؛ لأن النخل أنثى ، أو لأنه جمع ما لا يعقل، إذ النخل اسم جنس جمعى للنخلة ، ويفرق بين المفرد والجمع بالتاء أو ياء النسب ، وقد فرق بينهما هنا بالتاء.

والطلع ، ما يطلع من جوف النخل كنصل السيف، والهضيم اللطيف المنضم المتلاصق فى وعائه فى الجوف قبل أن يظهر ، وهو اليانع النضيج، وهذه الأوصاف تكون بحسب الحال ، وبحسب المآل إذ يكون منه البلح الرطب، وأجود التمر.

بعد ذلك ذكر نعمة عليهم ، ولهم فيها عمل بتهيئة الأسباب، فقال تعالي: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ فى فارهين هذه القراءة، وفيها قراءة أخرى فَرِهين، وكلاهما بمعنى واحد، ولا اختلاف فى المعنى بين القراءتين، أى يبنون فى الجبال بيوتا ، لا بلبنات ينقلونها، بل بنحت فيه تسوية وبرد ، وإذهاب أجزاء وإبقاء أجزاء ، ﴿فَارِهِينَ﴾ حال ومعناها حاذقين متحصنين بها معجبين متجبرين.

وهذا الكلام من الله سبحانه وتعالى يفيد أنهم فى نعم بما فى الأرض من جنات وعيون، وزروع ونخل طيب وبيوت تنحتونها وتسوونها من الجبال، ويحسبون أنهم متروكون ويأكلون ويشربون ، ويتلهون متجبرين عابثين.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (١٥٢)﴾.

الفاء هنا للإفصاح، أى إذا كنتم على هذه الحال من النعم التى أحاطت بكم، فاتقوا الله، أى فاملئوا أنفسكم بتقوى الله ومهابته شكرا للنعمة، وتوقعا

للحساب الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وأطيعونى فيما أنقل إليكم من شرائع ربكم التى فيها استقامة أموركم، وصلاح أحوالكم.

وإن الناس هم الذين يفسدون الناس ، ويخلقون فى الأرض أجواء فاسدة ، وأولئك هم المسرفون، ولذا قال بعد هذا ﴿ وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴾.

والمسرفون هم الذين يخرجون بطبيعتهم البشرية عن حد الاعتدال، إلى حد الإسراف، فيسرفون فى شهواتهم حتى يصيروا عبيدا للشهوات، ويسرفون فى أوهامهم، فيحسبون ما تدفع إليه الأوهام حقيقة، وليست إلا وهما باطلا، ويسرفون فى طلب السلطان فلا يحسبون أنه لإقامة العدل والقسطاس المستقيم، ويسرفون فى القوة فلا يحسبونها لحماية الضعفاء ، بل يظنونها للاستعلاء والاستكبار عليهم ، وليجعلوهم عبيدا أذلاء.

وهكذا كان المسرفون مفسدين لنفوسهم ولمجتمعهم؛ ولذا قال تعالى فى وضعهم العام : ﴿ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴾.

وصف الله تعالى المسرفين فى ذات أنفسهم أنهم يفسدون فى الأرض ولا يصلحون، ذلك بأنهم بإسرافهم على أنفسهم فى شهواتهم ، وقواتهم ، وغرائزهم يميلون إلى الأثرة فيجعلون كل ما وهبهم الله لأنفسهم، وليس لغيرهم حق من الحقوق، فيكون الاعتداء الظالم، ويكون التغالب لسيطرة الباطل، وهضم الحقوق، وأى فساد للناس أكثر من أن يكون قانون الغابة هو الحكم بين الناس ، ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) ﴾ [البقرة] فالمسرفون يفسدون دائما ولا يصلحون ، قرر الله لهم وصفين: إيجابي، وهو الفساد المترتب على إسرافهم، والوصف الثانى سلبى فقال: ﴿ وَلا يُصْلِحُونَ ﴾ أى لا يمكن أن يكون منهم إصلاح كالذى يدعيه الطغاة من الحكام، والأقوياء من الأمراء من أنهم يصلحون بين الناس، وإن الوجود فى حاجة إليهم، ولا نشعر، فهذا النص السامى يرد كلامهم فى أعناقهم ، إلا أن يخرجوا عن إسرافهم فى نفوسهم ، وعلى مجتمعهم.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ﴾ بدل من المسرفين، أو عطف.

ونلاحظ ملاحظة بيانية، وهى أنه تعالى عبَّر عن الإسراف بالوصف للإشارة إلى أن الإسراف إذا استمكن فى النفس ترتب عليه ذلك الفساد وعدم الإصلاح.

وبماذا أجاب المشركون تلك الموعظة الهادية الزاجرة

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤)﴾.

يظهر أن هذا القول الطيب سرى فى نفوسهم، ولكنهم بدل أن ينطقوا بالحق ويذعنوا له نطقوا بالباطل، ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ المسحر هو الذى أوتى علم السحر، فكانت له قدرة على الإتيان بالقول الخادع الذى يوجد تخييلات الحق وليس بحق، وإنك بهذا التسحير الذى علمته تصرف الأنظار عن الحق، فتسحر فكر الناس كما يسحر الساحر أعين الناس ويسترهبهم بفعله، وقولهم هذا فيه قصر له على أنه من المسحرين، وذلك لأن (إنما) من أدوات الحصر، ولقد رمى المشركون كتاب الله تعالى ، فقالوا إنه قول ساحر.

وأكد ذلك بقولهم من بعد كما أكدوا جحودهم بقولهم:﴿مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ . أى لا يمكن أن تكون رسولا، لأنك لست إلا بشرا مثلنا، وكذلك قال المشركون لمحمد ﷺ، قالوا : ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ (٧)﴾ [الفرقان].

أى أنه لا يكفى لإثبات رسالتك ما قلت ما دمت بشرا مثلنا فائت بآية، أى دليل يدل على أنك رسول من قبل رب العالمين إن كنت من الصادقين، ويظهر أنهم كانوا زراعا، ذوى أنعام وإبل ، فجاءت المعجزة من قبل ما يألفون، ويربون، وهو أنه أتى لهم بناقة هى ناقة الله ، وقد كان على علم بالجمال وخواصها، وخصوصا إناثها كما كان قوم فرعون على علم بالسحر، يعلمون ما هو سحر، وما ليس بسحر ، كذلك هؤلاء يعلمون ناقة الله من بين نوق البشر ، قال لهم صالح .

﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦)﴾.

الشرب الحظ من الماء المشروب، وهذا هو حق الشرب، والشرب فى اصطلاح الفقهاء حظ الزرع من الماء، والمراد قدر شرب الناقة ، وقوله: ﴿ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ أى أن لهذه الناقة المخصوصة شرب يوم معلوم ولكم شرب يوم معلوم.

وهذه الناقة ناقة مولودة كسائر النوق، أم أن الله تعالى أتى لهم بناقة خاصة لم تولد مثل سائر النوق ؟، ظاهر الآية أنها ناقة ولدت كسائر النوق، ولكن كان لها خواص معلومة، ففى شربها تشتف شربها ولا تبقى منه شيئا وتدر فى آخر النهار لبنا خالصا سائغا للشاربين، والإعجاز، فى هذا، ولكن روى عن ابن عباس أن الله تعالى جعل لهم ناقة خرجت من الجبل حمراء عشراء قد مضى لحملها عشرة أشهر ترد الماء فتشربه ، وتأتى بقدره تماما لبنا ، وهو كلام مقبول إذا ورد عن المبعوث محمد ﷺ ، فهو مبين القرآن وموضحه ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل] وإنى أميل إلى أن أترك النص على عمومه، ولكن لا بد أن نفرض أن لهذه الناقة خواص وصفات فيها ما يبهر العقول، ويوجه الأنظار إلى قدرة الله تعالى ، وليكن من خواصها أن تشرب الماء فى الغداة وفى العشى تعطى لبنا بقدره، وهذا دال على قدرة الله تعالى ، وعلى أنها آية من آياته لها دلالتها وإعجازها وإثبات رسالة صالح عليه السلام.

وإذا كانت ناقة لها صفة المعجزة وأنها دليل الرسالة ، فإنه يجب إشعارها بصفة خاصة بها ، ولذا قال تعالى: ﴿ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

نهوا عن أن يمسوها بأى سوء أو أذى، لأن الله حارسها وحاميها، وهى معجزة نبيه، ولأن النفس الطيبة لا تؤذى الطيب، وهذه ناقة تشرب الماء فتحوله إلى لبن بقدرة الله تعالى وعلمه لإظهار معجزة نبيه، وآية نبوته، ولكن الوسواس الخناس يجرى فى الدم البشرى . واليوم العظيم- ووصفه بالعظيم لعظم العذاب فيه، وهو يوم فى الدنيا بهلاكهم بسببه، وفى الآخرة بالعذاب المقيم لعصيانه ، إذ يلقون فى الجحيم.

﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ أى نحروها، وذلك لوسوسة الشيطان لهم؛ ولأن النفس تحاول معرفة الغريب من الأشياء ، وهى مولعة بالغريب من الأمور، ولقد كان وجودها بينهم فوق أنها دلالة النبوة، ومعجزة النبى مثيرة لاستغرابهم ، وحملهم على الضبط ، فلما عقروها ، وقدروا خواصها ﴿ فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴾ على فعلتهم، لما فاتهم من خيرها ، ولأنهم رأوا خواصها، ولأنهم توقعوا العقاب الأليم بعدها ، ولذا قال تعالى فيهم: ﴿ فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴾ ، أى أن الندم استغرقهم ، وصار حالا دائمة لهم.

والعاقر بلا ريب بعضهم ، ولكنه برضاهم ؛ لأنهم لم ينهوه ، فنسب الفعل إليهم، لأنهم لم يتناهوا عن هذا المنكر الذى نبهوا بالنهى عنه تنبيها شديدا وأنذروا بعذاب يوم عظيم.

ولم يمنع الندم العذاب عنهم ﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ أى أن العذاب سيطر عليهم كأنه أخذهم إليه أخذا. وقال الحافظ ابن كثير فى هذا العذاب: هو أن أرضهم زلزلت زلزالا شديدا، وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب من محالها، وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون وأصبحوا فى ديارهم جاثمين.

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ الإشارة إلى الناقة وهى معجزة ، وعقرها، ونزول العذاب بعده، وهذه كلها آيات بينات على نبوة صالح ، وعلى قدرة الله الباهرة ، وعلى فرض الضلالة الظاهرة.

ومع هذه الآيات ﴿ مَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ بل كان المؤمنون هم القلة الظاهرة، لأن إبليس يجرى فى نفوس أتباعه مجرى الدم ، والله بكل شىء عليم.

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ الخطاب لمحمد ﷺ ليسليه بهذا القصص الحكيم المشتمل على العبر ليصبر كما صبر قبله النبيون، وليعلم أن المعجزات الحسية لا تتبعها الهداية الحتمية، والقرآن هو المعجزة الكبرى ، وإن لم تكن فى إعجازها حسية ، والعزيز هو الغالب القوى العليم بالنفوس وشقوتها وسعادتها ، وهدايتها وضلالها.

قصة لوط وقومه

قال تعالى :

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥)﴾

الآيات الخمس فى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤)﴾.

قد ذكرنا أن هذه الآيات الخمس الحكيمة تنبئ أولا ـ عن أن الضالين يسارعون إلى التكذيب، وينكرون رسالة الله إلى أهل الأرض، يدل على ذلك ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ وكذلك قوم نوح وعاد وثمود، وقوم لوط.

وتدل ثانيا، على أن الرسول يكون من بينهم، ولذلك عبر عنه بأنه أخوهم وقبل ذلك فى نوح وهود وصالح ، ويقال فى لوط أيضا.

وتدل ثالثا، على أمانة من أرسل إليهم، وأنهم عرفوا بين أقوامهم بذلك، وتدل رابعا، على أنهم لا يطلبون أجرا من جاه أو من مال إنما يطلبون الأجر من عند الله وحده.

وقد أشرنا إلى ذلك من قبل، وقد خاطب بعد ذلك نبى الله لوط قومه مستنكرا شنيع أفعالهم، فقال عليه السلام فيما حكاه الله عنه من ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

الذكران جمع ذكر كذكور، ولكن جاء النص كذلك ليكون تشنيعا أشد ، وأحسب أنه لا يكون ذكرانا جمعا إلا لذكور الإنسان، وفى التعبير ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ كناية لطيفة، والاستفهام لاستنكار الواقع بمعنى التوبيخ وبيان شناعة العمل، لأنه ضد الفطرة، وعبر بالإتيان كإتيان الرجل المرأة ، ولكنه فى دبره، فهو إفساد للفطرة، وأحسن من عبَّر عنه بالشذوذ الجنسى؛ لأنه دليل على فساد الفطرة وشناعة الفعل فى ذاته، وقوله تعالى ﴿مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أى من أهل المعرفة والعلم ، ولا يرضى بذلك إلا من هو أشد فسادا من الفاعلين، وإن ذلك يشيع ويكثر كلما فسدت الفطر، وقد كثر فى الماضى فى قوم لوط، وكثر فى الحاضر فى أهل أوربا وأمريكا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وإنهم ليتركون الفطرة، ولذا قال تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ تذرون ، فعلها الماضى لا يذكر ، ولكن الزمخشرى ذكره فى كتابه أساس البلاغة ونص على أنه يقال: ذروا هذا الأمر، فيقولون وذرناه.

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم﴾ تدل على الترك والإهمال، وتلك إحدى الكبر، كأنهم يرتكبون أمرين: أولا الفعل مع الذكران، وإهمال الأزواج، ولذلك قالوا إن التعبير بـ ﴿تَذَرُونَ﴾ أبلغ من تتركون، والآية تدل على أن الفطرة

هى ما يكون مع الأزواج ، والآخر ضد الفطرة ، ثم صرح الله تعالى بأنهم ظالمون وعادون، فقال عز من قائل: ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ بل للإضراب الانتقالى بأن انتقل من وصف عملهم الآثم ، إلى وصف أشخاصهم، و(عادون) جمع عاد، وهو الظالم المعتدى الذى تجاوز الحد ، فقد تجاوزوا حد الفطرة، وخرجوا عليها ، وشذوا عن الإنسانية.

بعد هذه الموعظة الزاجرة، أجابوه إجابة الغواية الفاجرة، هددوه بالرجم (كما ورد فى آية أخرى) أو الإخراج من البلد والنفى فى مكان بعيد ، كما فى هذه الآية.

﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) ﴾.

قالوا مصممين موثقين قولهم باليمين، ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ اللام هى اليمينية، أى أقسموا بما يقسمون به إذا لم تنته، وكان النداء لتأكيد أن الخطاب له، ولم تكن لمودة بجمعهم، إنما هو لنفرة شديدة لتفرقهم، لأنه يحول بينهم وما يشتهون من خروج على الفطرة والطبع الإنسانى ، والمقسم به لتكونن من المخرجين أو المرجومين، واللام واقعة فى جواب القسم، وقد أكدوا الإخراج أو الرجم بها ، وبأن يصير فى عداد المرجومين أى أنه يرجم ويقبر، ويكون فى عداد الأموات الذين يموتون بالرمى بالحجارة، حتى ماتوا، وأكدوا الرجم أيضا بنون التوكيد الثقيلة وكذلك التأكيد على إخراجه فيكون بعيدا عنهم ويرتاحوا من مواعظه.

وكانوا فى فجورهم الذى لجوا فيه واستمرءوه، وهو لا يستمرأ إلا عند ذوى الطباع الشاذة الخارجة عن الفطرة وهم فاسقون أقوياء جبارون، فلم يسع نبى الله إلا أن يعلن استنكاره لفعلهم الذى يجافى الفطرة الإنسانية.

﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴾.

عملهم هو هذا الفجور الذى أصروا عليه ولم يتركوه، وأرادوا قتل النبى الذى بيَّن قبحه لهم بأقبح وأفجر قتلة وهو الرجم، أعلن النبى الأمين بغضه الشديد له عساهم يرتدعون، أو يقلعون عنه إن كان فيه بقية من الإنسانية قال

لهم: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾ أى المبغضين له بغضا شديدا، يقال قلى فلان الأمر أبغضه بغضا شديدا وعافه وقدم الجار والمجرور لعظيم النفرة من عملهم، وقد أشار إلى أن الناس جميعا يبغضون ذلك؛ لأنه مناف للفطرة، بقوله: ﴿مِّنَ الْقَالِينَ﴾ أى المبغضين له بغضا شديدا، أى اجعلنى فى تعداد الناس الذين استقبحوه ونفروا منه.

ولقد علم عقبى فعلهم، والأثر السيىء الذى يعقبه، فقال:

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي﴾.

اتجه إلى ربه ضارعا أى مناديا ﴿رَبِّ﴾ أى كالئى ومن يحميني، ومن أنعم على بربوبيته وكلاءته، نجنى وأهلى مما يعملون، أى من أثر ما يفعلون من معصية تخر لها الجبال الشواهق، فإنه قد نجاه فعلا من هذه الفعلة الفاجرة، لأنه قلاها وأبغضها، إنما الذى يضرع إليه، أن ينجو من آثار هذه الفعلة الشنعاء، وقد أجابه الله تعالى إلى دعائه فقال:

﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (١٧٣)﴾.

فنجاه الله تعالى من أثر هذه الجريمة الفاجرة، وعقوبتها الصارمة هو وأهله أجمعين إلا امرأة عجوزا كانت فى الغابرين وهى امرأة لوط، فقد كانت فيها ممالئة لهم، ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ أى الذين ردغوا فى حمأة الرذيلة، وقد أمطر الله عليهم مطرا من الحجارة، فساء، أى ما أسوأ من هؤلاء المنذرين، وقد ذكر سبحانه العقاب تفصيلا فى سورة هود فقال عز من قائل فى لقاء الملائكة وأعقابه.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ

منكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١)
فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً
عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) ﴾.

هذه كانت آيات الله تعالى لآل لوط، وما آمن أكثرهم ، ولذا قال تعالى :
﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥) ﴾.

أى إن فى ذلك الإهلاك الذى أهلكهم به، وما كان لهم من مواعظ زاجرة لآية منبهة مرشدة لهم وللمشركين من بعدهم ممن يعاصرونكم ، وبيان لأن الفساد والطغيان مرتعه هلاك لا ريب فيه، وما كان أكثرهم عند هلاكهم مؤمنين ، فالله لا يهلك المؤمنين بجزاء من عنده، ولكن يهلكون باعتداء البشر إن لم يتخذوا الأسباب والله ناصرهم ومؤيدهم.

وختم آيات قصة قوم لوط بما ختم به قصة إبراهيم ونوح وهود وثمود ببيان عزته ورحمته وربوبيته فقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أكد عزته ورحمته بذكر أن ذلك من مقتضى الربوبية ، وأنه غالب ، وأنه رحيم فى إمهاله ، وأن يفرق بين المحسن والمسىء كما يكون الفرق بين الأعمى والبصير ، والظلمات والنور.

شعيب وأصحاب الأيكة

كَذَّبَ أَصْحَٰبُ
لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّى لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٨٠) ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا
تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ (١٨٢)
وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣)

وَاتَّقُوا الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ
مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ
الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ
مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّى أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾
إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

الأيك الشجر الملتف واحده أيكة، والمراد أصحاب الشجر الملتف الذى صار أيكة يعاش فى ظلها، ونرى سيدنا شعيبا نبى الله أحيانا يذكر أنه بعث إلى مدين قومه ، وأحيانا يذكر أنه بعث لأصحاب الأيكة ، ويظهر أن المؤدى واحد ، لأن مدين كانت تسكن حول هذه الأشجار الملتفة، فهى منتفع بها ، وذكرت الأيكة دون مدين لأنها موضع نعمتهم ، وقال بعض المفسرين إنه بعث إلى أمتين مدين وأصحاب الأيكة ، وإنى أميل إلى الأول، وهو الأوضح الذى يسبق إلى الذهن.

والآيات الخمس من قوله تعالي: ﴿ **كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠)** ﴾.

قلنا من قبل إن هذه الآيات تصور وحدة الشرك فى أنه لا يؤمن بالرسالة الإلهية ، وأنهم ينكرون أن يكون الرسول بشراً ، كما يبدو من جحودهم ، وأن الرسول يكون منهم ، وأنه معروف فيهم بالأمانة والصدق ، وأنه كان محل صدق عندهم ، لا يكذبونه ، وأنه بهذه الأمانة والثقة والإرسال من الله تعالى يدعوهم، وأنه لا يطلب جاها ولا مالا ، ولا ملكا ، وإنما يطلب الجزاء والرضا من الله

تعالى: ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى ليس أجرا إلا ما يكون من الله تعالى، بثواب من عنده، ورضا من لدنه ، وهو أكبر من كل جزاء.

ابتدأ شعيب دعوته فى قومه بعد ذكر الأمانة التى توجب التصديق ، فقال :

﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) ﴾.

يظهر أن مدين أو أصحاب الأيكة كانوا قوما تجارا ، وإن الشرائع السماوية جاءت لمنع الاعتداء على المال ، وعلى الأنفس ، وإذا كانوا تجارا ، كأهل مكة فإن أخص ما يدعون به ألا يطففوا الكيل والميزان ، ولذا كانت أخص دعوة شعيب بعد التوحيد ألا يطففوا الكيل والميزان حتى لا ينالهم الويل الذى هدد به فى قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) ﴾ [المطففين].

قال شعيب لقومه: ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾.

أوفوا الكيل، أعطوه فى معاملتكم وافيا، كامل الوفاء غير منقوص، ﴿ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾ المخسر هو الذى ينقص المكيال ، فيدفع معامله إلى الخسران، بألا يخسره ولا يعطيه حقه ، وقوله تعالى: ﴿ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾ أبلغ فى الدلالة من ولا تخسروا، لأن معنى لا تكونوا من الطائفة التى اعتادت الإخسار ، لا تكونوا فى صفوفهم فتصاب تجارتكم بالكساد، لأن الناس لا يقبلون على الشراء، إلا ممن استقام فى طريقته، وأعطى المتعاملين حقوقهم، ولأن الإخسار أكل مال الناس بالباطل ، ولأنه ظلم ، والظلم نتيجته وخيمة دائما.

﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾

القسطاس، الميزان الذى يوزن به، ومعنى ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ ﴾، أى زنوا بالميزان المستقيم الذى لا يظلم فى ميزانه، بل يكون فى اعتدال واضح، وهو

يتضمن نوعين من النهى :أولهما- ألا يكون الميزان غير منتظم فى رفعه وخفضه، والثانى- ألا يتعمد الخلل فيه ، فيخفضه ويرفعه كما يريد كما يكتال ظالما، وكما يكيل ظالما، وإن ذلك إفساد للثقة التى هى أساس التعامل العادل، وأكل لمال الناس بالباطل، وظلم مبين، وإفساد للعلاقات الإنسانية التى تربط الناس بعضهم ببعض.

﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾.

الأموال من حيث تقديرها تنقسم إلى قسمين : أموال مثلية وحداتها متحدة فى القيمة إذا توافر اتحاد الجنس والنوع والصفة فى جودة أو رداءة ، وهذه تقدر بالكيل أو الوزن، وقد نهى سبحانه على لسان نبيه شعيب عليه السلام من التطفيف فيها.

والقسم الثانى أموال قيمية لا يحد قيمتها الكيل والوزن، ولكن يحد قيمتها تقويم المقومين ، وهنا يجرى فيها البخس والشطط، ولقد نهى سبحانه فى هذا النص عن البخس بأن تقوَّم بأقل من قيمتها، وكل نقص فى القيمة هو نقص فى المالية فيكون فيه الظلم، وأكل أموال الناس، ولذا قال الله تعالى على لسان شعيب.

﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾

أى لا تنقصوا قيمة ما عند الناس ، والمعنى الظاهر لا تبخسوا أشياء الناس، ولكن عبر ذلك التعبير القرآنى السامى العميق لفائدتين جليلتين - أولاها - أن بخس قيم الأشياء بخس للناس أنفسهم ، فمن بخس تقدير القيم ، فقد ظلم ، وأعظم الجريمة. الفائدة الثانية -أن فى ذلك إبهاما ثم بيانا ، فيكون ذلك توكيدا للمعنى فضل توكيد.

وبعد أن نهى عن تطفيف الكيل والميزان، وبخس قيم الأشياء. نهى عن الاعتداء بشكل عام ، فقال عز من قائل:

﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾.

وذلك يشمل إفساد زرع غيره، أو منع الماء عنه، أو إتلافه ، أو ألا يعطيه حقه من الماء، أو ما يجرى بين المختلطين من مساحة، والعثى أو العثو ، الفساد النفسى أو المادي، ونميل إلى العثى النفسى، والمعنى القصد إلى العثو مفسدين حال مؤكدة لمعنى العثو، لأن العثو يؤدى إلى الفساد فى الجماعة ، فيتقاطعون، ويتدابرون.

﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ ﴾

الواو عاطفة، أى خلقكم وخلق الجبلة الأولين، والجبلة الجماعات المجبولة على سير وأخلاق سبقوا إليها ، سواء أكانت خيرا أم كانت شرا، والسياق يقول اتقوا الله، واملئوا قلوبكم بالخوف منه، أنتم والذين سبقوكم، وجبلوا على ما سلكوه واتبعوه، والأمر بالتقوى لهم، ولمن جبلوا عليه، ليصادرهم فى دعواهم، إنهم يتبعون ما كان يعبد آباؤهم، فالتقوى مطلوبة منكم، وممن سبقوكم ، وإن كانوا يجأرون بالشرك فإنهم مطالبون بالتقوى كما تطالبون.

دعاوى واضحة فى إقامة العدل فى المعاملات الإنسانية التى تقوم عليها المعيشة ليستقيم أمر الناس فى هذه الحياة العاملة الكادحة، والتى يقرها أهل العقول جميعا، ولكن قومه يقولون متمردين:

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾.

المُسحَّر - الذى سحر أى صار مسحورا بقوة ، والتضعيف لتشديد وقوعه تحت السحر، كما قال تعالى عن بعض الرسل ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا (٤٧) ﴾ [الإسراء] وقيل : المسحَّر الذى يملأ سحرته وهى الرئة، وبذلك يشيرون إلى أنه محتاج إلى طعام يأكله ، ولذا كانت كل أوامره فى الكيل والوزن.

والأول هو الواضح الأوضح، وأكثر الأنبياء لقوة نفوسهم، وسيطرتهم على العامة من أقوامهم رموا بالسحر، وقد رمى به محمد ﷺ، ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا ﴾.

﴿وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أى لست أنت إلا بشرا مثلنا، وكيف تكون من بيننا رسولا ونبيا ، أى أنه فى نظرهم لا يكون الرسول منهم أو مثلهم يأكل مما يأكلون منه، ويشرب مما يشربون، وذكروا النتيجة ، وهى أنه ما دام منهم أو مثلهم فليس نبيا، ولذا قالوا بعد ذلك ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ إن هنا هى المخففة من الثقيلة ، واسمها هو ضمير الشأن والحال أى إنه الحال والشأن نظنك لمن الكاذبين، والدليل على أنها مخففة من الثقيلة اللام فى قوله تعالى لمن الكاذبين، وقد أكدوا رميهم له بالكذب بإن وباللام، وبعده فى صفوف الكاذبين البهاتين.

والظن هنا معناه العلم القطعي، ولكن عبروا بالظن أو باقى القول ، وإن أرادوا العلم، وكان من أدب العرب فى القول أن يؤثروا الظن على القطع ، وإن كانوا ظالمين.

وطلبوا معجزة، فقالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

الكسف، جمع كِسْفَة أى قطع من السماء، فلم يطلبوا رسالة مع ملك أو نحو ذلك، بل كانوا قساة من طبعهم ماديين، طلبوا أن ينزل عليهم قطعا من السماء ، وقد أشبههم فى هذه من بعدهم كفار قريش، فقالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢)﴾ [الأنفال] وإن ذلك أشد الحمق وأفحشه ، فكانوا مثلهم.

أجابهم الله تعالى بعذاب شديد من جنس ما طلبوا وهو سحابة كانت من ورائها صيحة شديدة، فكانوا فى ديارهم جاثمين، ولقد قال لهم نبى الله مفوضا الأمر إلى ربه ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وهذه الجملة السامية فيها تفويض وتهديد، أما التفويض فهو أنه قال: ربى أعلم بما تعملون ، فهو يفوض الأمر لله سبحانه.

وأما التهديد فهو أيضا فى هذه الجملة السامية من حيث إنه يعلم وحده بكافة ما تعملون من تطفيف فى الكيل والميزان ، وبخس للناس أشياءهم وعثو فى

الأرض فسادا بالاعتداء على حقوق العباد وأموالهم فى زرع يزرعونه، وغرس يغرسونه، وماء يسقون به زرعهم، ما يعثون فيه بفسادهم وظلمهم وضلالهم.

وقد جعل الله تعالى عقابهم من جنس ما طلبوا، إذ طلبوا كسفا من السماء.

والفاء فى قوله تعالى: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ للإفصاح، أى إذا كنت مرسلا وأنت بشر مثلنا، ﴿فَأَسْقِطْ﴾ وهو طلب دال على الاستهانة بالرسالة.

أنزل الله العذاب من جنس ما طلبوه، فقال:

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩١) ﴾.

الظلة السحابة التى تكون مظلة لما تحتها، وقد تكون ذات حرارة شديدة، كقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦] وإن السحابة إذا كانت حارة فيها نار يكون العذاب شديدا، والألم مريرا، لأنه تكون النار حيث يرجى الظل لا الحرور، وقالوا إنه فى يوم الظلة أحسوا بالحر، فلجئوا إلى ظل سحابة، فكانت الظلة القاتلة، ووراءها الدمار، فأصبحوا فى عذاب وبذلك كان العذاب الساحق الماحق من جنس ما طلبوا ، وهو كسفا من السماء.

وكانت هذه آية من الله مرشدة هادية لمن يعيشون مثل عيشهم ظلما وعدوانا، وأكلا لمال الناس بالباطل والعدوان، والعثو فى الأرض فسادا، وهى دالة على أن شعيبا كان يدعوهم بالحق، وهم المبطلون.

وإذا أنزل عليهم هذه الساحقة ما أنزلها على كثرة مؤمنة، بل أنزلها على كثرة فاسقة ضالة ظالمة، ولذا قال : ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

وإن ربك الكالئ الحافظ القائم على خلقه بربوبيته هو العزيز الغالب القوى الرحيم الذى يرحم عباده، ولا يسوى بين المحسن والمسيء، وقد أكد سبحانه عزته ورحمته بإن، وباللام وبضمير الفصل.

القرآن عربي مبين

قال تعالى:

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢)﴾

كان هذا القصص الكريم الذى شمل بعضا من قصة موسى الكليم وإبراهيم الخليل، وقوم نوح، وعاد ، وثمود ، وأصحاب الأيكة مصورا لطبائع المفسدين ومقاومة النبيين ، وطلب المعجزات المادية واستجابة الله تعالى لهم فى معجزاتهم، وكفر أكثرهم من غير ارتداع ،أخذ يبين سبحانه من بعد ذلك المعجزة الكبرى الخالدة ، وهى القرآن الكريم، فقال :

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤)﴾.

الضمير فى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ﴾ يعود على القرآن الكريم؛ لأنه وإن لم يكن له ذكر فى اللفظ هو مذكور فى نفوس المؤمنين والمشركين، أما ذكره فى قلوب المؤمنين، فلأنها عامرة به سامعة لتلاوته وتقشعر أبدانهم لسماعه، ويطمئنون بتلاوته، وأما ذكر الجاحدين له فلأنهم فى حيرة من بلاغته، وأصابت قلوبهم

فصاحته، وهم فى ردهم له يخالط نفوسهم بحلاوته وجلاله فهو مذكور عند المؤمن به، والجاحد له.

وقد وصفه الله سبحانه وتعالى بثلاث صفات معلية له مشرفة بنسبته فوق شرفه الذاتى من بلاغة وشمول الشرع.

الأولى - أنه تنزيل من رب العالمين، والتنزيل النزول جزءا بعد جزء منجما مقطعا، ليسهل حفظه، وليرتل ترتيلا، وليعلم النبى قراءته وتلاوته ، ويتعلمها منه أصحابه، وبذلك تكون تلاوة القرآن مرتلا متواترة، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** (٩) ﴾ [الحجر]، وقد أشرنا إلى ذلك فى عدة مواضع عند ذكر معانى الذكر الحكيم.

الثانية -أنه نزل بالوحى نزل به الروح الأمين على قلبك، الروح الأمين هو جبريل، وهو روح القدس، نزل بهذا القرآن، وكان نزوله على قلبك، فاتصل به ووعاه، وحفظه مرتلا ﴿ **لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ** ﴾ لأنك تعلمت علمه، وأوتيت حكمته، وعلمت شريعته لتكون من المنذرين أهل الضلالة عن غوايتهم، ودعوتهم إلى التوحيد، ولما ذكر المنذر دون المبشر، وهو بشير ونذير، لأن هداية المشركين تكون أولا بالإنذار، والتبشير يكون بالإقلاع عن الشرك، ولذلك كان أول دعوته بالإنذار، إذ قال: ﴿ **إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ** (٤٦) ﴾ [سبأ] عندما استجاب لقوله تعالى : ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ** (٢١٤) ﴾ وقد كان النبى ﷺ يقول: أنا النذير العريان.

الثالثة- أنه باللغة العربية، ولذا قال عز من قائل: ﴿ **بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ** ﴾.

اللسان هنا اللغة، لأنها تكون باللسان، وهو متميزها، وأداتها، وأطلق اللسان وأريد المسبب له وهو اللغة ، وكل لغة تخص لسانا فى أدائها ونغمتها وصوتها . وأداؤها فى القرآن الكريم كان باللغة العربية فليس بقرآن مالا يكون باللغة العربية ، فترجمة القرآن إن كانت ممكنة (وهى ليست ممكنة) ليست قرآنا، وقوله: ﴿ **مُّبِينٍ** ﴾ أى واضح فى تميزه ومعانيه، ومقاصده، ومعانيه وهى فى أعلى درجات الإعجاز بهذا البيان ، ولغيره مما اشتمل عليه.

الرابعة ـ أن أكثر ما فيه من معانٍ وقصص، وشرائع فى زبر الأولين، أى أن القرآن الكريم بعضه فى كتب الأولين، والزبر جمع زبور، وهو الكتاب، وإن ذلك يكون على أن الضمير يعود إلى الكتاب ومقتضى السياق، ويكون المعنى على هذا إن هذا الكتاب مشار إليه فى الكتب السابقة، وهو مهيمن عليها مبين للصحيح، كما فى قوله تعالى: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ** ﴾ [المائدة].

ويصح أن يكون الضمير عائدا على النبى ﷺ، لأنه مبشر به فى التوراة والإنجيل ، كما قال تعالي: ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧)** ﴾ [الأعراف].

﴿ **أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩)** ﴾.

الواو عاطفة على فعل، وسياق القول الحكيم أينكرون، ولم يكن لهم آية تدل على الصدق أن يعلمه علماء بنى إسرائيل وهم أهل علم بالكتاب، والضمير يعود إلى القرآن فى ﴿ **يَعْلَمَهُ** ﴾ أى إذا كنتم مدعين جهلكم أو لم تكن عند دلالة على الصدق أن يعلم خبره علماء بنى إسرائيل، وما كفروا به إلا عنادا وطغيانا، أو نقول كما قال بعض التابعين: المراد من علماء بنى إسرائيل العدول الذين آمنوا واهتدوا كعبد الله بن سلام، وقيل: وسلمان الفارسي، وابن عباس اختار التعميم حتى يشمل من آمن، ومن لم يؤمن، وقد قال تعالى فى بنى إسرائيل: ﴿ **وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا**

أنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩٠) ﴾ [البقرة] فهم كانوا يعلمون القرآن ومحمدا، وكانوا يستفتحون به جيرانهم من أهل المدينة الذين كانوا يشركون.

وقيل أن الضمير فى ﴿أن يَعْلَمَهُ﴾ يعودْ على محمد ﷺ، ولكن الأظهر هو ما قررنا.

﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) ﴾ .

الضمير يعود على القرآن الكريم، لو نزله الله على بعض الأعجمين الذين لا يعرفون العربية لكان أعجميا بغير العربية، فقرأه عليهم بالأعجمية ما فهموه وما آمنوا به، واستمر عدم إيمانهم به، وتقديم الجار والمجرور (به) على متعلقه لبيان أهمية عدم الإيمان ، وإن عدم الإيمان لسببين: أولهما أنه جاء من رجل أجنبى عنهم ، ومن نعم الله أن كان الرسول منهم ، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة].

الثانى أنه لا ينزل عليهم بالعربية فلا يفهمون كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) ﴾ [فصلت].

﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ .

المشبه هو ما عليه الشرك من تكذيب وجحود، وسلكناه أى أدخلناه، والظاهر، أن المعنى، كهذا الجحود والكفر والتكذيب أدخلنا القرآن فى قلوب المجرمين ، فهم لا ينظرون إليه نظرة هداية واسترشاد وتعرف للحقيقة وأوجه إعجاز ، بل ينظرون إليه نظرا فيه عور لا يعرفون حقيقته، ولا يدركون الغاية، ولا يعرفون الحق لاعوجاج نظرهم.

ومن كان هذا نظرهم لا يمكن أن يؤمنوا ، ولذا قال تعالى فى أمرهم.

﴿لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ .

قال تعالى: ﴿لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ أى إن ذلك شأنهم ، ولذلك كان النفى داخلا على المضارع، لأن فيه تصويرا لعدم إيمانهم، إذ هم ماديون حسيون لا يؤمنون إلا بالحس، وما يشبهه ، هذا معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ المؤلم الشديد فى إيلامه ؛ أى لا يؤمنون إلا بما يحسون ، وكذلك شأن الكافرين لا يؤمنون بالغيب، بل يؤمنون بما يرون ويحسون فقط، والفرق بين الإيمان والكفر هو الإيمان بالغيب، فالكافر لا يؤمن إلا بالحس والتجربة المحسة.

قوله تعالى: ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ الفاء فاء السببية، أى يترتب ما بعدها على ما قبلها، وهى عاطفة على يروا، أى أنهم فى جهالتهم عمون عن الحق لا يدركونه، ولا يتوقعونه، ﴿فَيَأْتِيَهُم﴾ والضمير يعود إلى الساعة؛ لأنها فى أذهانهم جميعا مؤمنين بها أو جاحدين لها، فهى مستولية عليهم إيمانا أو استغرابا، فتأتيهم مباغتة لهم حيث يستمرئون الحياة الدنيا وما فيها من متع غافلة غير شاعرة، وقد ألهتهم لواهيها، وتكاثرها.

وإنهم إذ يكونون فى الآخرة يحسون بطلب العودة، وقال تعالى فى حالهم فيها.

قال تعالى : فَيَقُولُوا
هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ
إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾
مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا
لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ
ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ
عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾

يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون، ولقد كانوا وهم فى غرور الدنيا ولهوها يكذبون النبى الذى يخوفهم بعذاب الله ويتحدونه، فيستعجلونه ، كما قال تعالى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ ﴾ [الرعد] ولكنهم فى الآخرة وقد رأوه عيانا يطلبون التأجيل ، ويعجبون من الاستعجال ، فيقولون:

﴿ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾.

الاستفهام هنا يدل على التمنى، أى يتمنون أن يكونوا منظرين، أى مؤجلين، وقد كانوا يهددون ويخوفون فى الدنيا أن يكون ما يرون تهديدا وتخويفا، وينظرون فيه حتى يكون منهم البر، ويستدركون ما فاتهم، ولكن لات حين مناص، ويترتب على رجائهم الانتظار والتأجيل التعجيل بالعذاب ، فيقولون ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ والفاء دالة على ترتيب ما بعدها على ما قبلها، وهى مؤخرة عن تقدم، وتقدير القول فأبعذابنا يستعجلون أى يترتب عن تمنى الانتظار التعجب من الاستعجال، والاستفهام الثانى لاستنكار التعجيل، وبعذابنا تتعلق بالاستعجال، وتقدم عليه ، لأنه يخيل إليهم أن الاستعجال خاص بعذابهم وحدهم، ونسوا ما فعلوا من ظلم ، وما اجترحوا من سيئات.

وإن ذلك العذاب منطقى ، فقد متعوا سنين وأوعدوا ، وذكر لهم ما يوعدون ، وهذا وقت الجزاء، ولذا قال:

﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) ﴾.

يذكر سبحانه العجب من حالهم، وإنكارهم ما ذكروا به فى تمتعهم سنين، والفاء مؤخرة عن تقديم الاستفهام، لأن الاستفهام له الصدارة دائما ، والاستفهام للتعجب، والمعنى فأريتهم كيف متعناهم بزخارف الدنيا سنين مهما تكثر فهى معدودة محدودة، وإذا تحقق ما يوعدون من عذاب يطلبون التأجيل، ويعجبون من التعجيل أو الاستعجال، ولا استعجال أبدا بل كل شيء فى وقته المحدود وأمده المعلوم، وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ العطف بثم له معناه فإن ما بين البعث والتمتع سنين محدودة كبير فى نظرهم، والتفاوت بين المتعة والعذاب يسوغ التفاوت والبعد بثم، ونحوها ؛ لأنه ثمة فارق وتفاوت بين المتعة وما ينزل لهم من عذاب دائم مقيم.

وإن المتعة التى يعقبها عذاب أليم لا تجدى ولا تنفع ولا ترفع ، ولقد كانوا يتوهمون أن ما هم فيه من تمتع يكفيهم، ولكن ﴿ ما أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ .

ما هنا موصول حرف ، وليست موصولا اسميا بمعنى الذي، لأن الصلة فى الموصول الاسمى يجب أن تشتمل على ما يربطها بالاسم من ضمير، أو نحوه، ولا ضمير يربطها ، فهى إذن موصول حرفى يكون وما بعده مصدرا منسبكا، وتقديره: وما كان تمتعهم هذه السنين طالت أو قصرت مغنيا عنهم فى الآخرة رافعا عذابهم الشديد النازل بهم، كما كانوا يتوهمون أنه لا بعث، وأنه إن كان بعث فليس بمعقول أن يعاقبوا، وأن يكون أولئك الضعفاء المرذولون والعبيد المهينون هم المثوبين، وكانوا دائما معتمدين على دوام تمتعهم فى السنين المحدودة والأمد المعلوم.

وأنهم قد أنذروا ، فالملام في عقوبتهم عليهم هم وحدهم، ولذا قال عز من قائل : ﴿ مَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩) ﴾

أى ما أهلكنا أى قرية، والقرية المدينة العظيمة أو القبيل ، ومن دالة على عموم النفى واستغراقه ،إلا كان لها منذرون بالعذاب الشديد من رسل الله تعالى الذين يتكلمون عن الله تعالى، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) ﴾ [الإسراء] وقال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) ﴾ [فاطر].

وإن الرسول يذكرهم دائما، وتبقى فى رءوس المعتبرين منهم ذكرى دائمة باقية حتى يجنبهم ما أنذروا به، ولذا قال تعالى: ﴿ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أى أن ذلك الإنذار على ألسنة الرسل تذكير لهم أن اعتبروا واخشوا وخافوا، وأكد سبحانه أنه لا يظلمهم ، فيأتيهم بالعذاب من غير إنذار، فقال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ (كان) هنا دالة على النفى الدائم ، أو نفى الشأن ، أى وما كان من شأننا الظلم ، كما قال تعالى فى آية أخرى، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦) ﴾ [فصلت] ولقد قال فى إنذارهم ﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) ﴾ [إبراهيم].

ولقد كـانوا يتوهمون أن القرآن قـول كاهن، ولم ينزل من الله ، ولكن نزل من الشـياطين ، كـمـا ينزلون على الكهـان، وذلك زعم باطل فى أصله ، وفى تطبـيقه علـى القرآن الكريم، ونفى الله ذلك نفـيا مـؤكدا فـقال: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾.

لقد ادعوا أن القرآن قول كاهن ، وأقـوال الكهان تتنزل بها الشياطين، وهى جمع شيطان وهم إخوان إبليس أو أتباعـه وزمرته، وقد نفى الله تعالى ذلك بثلاثة أمور.

أولها ـ أنه مـا ينبغى لهم؛ لأنهـم محـرضون على الفـساد، والقـرآن هاد مرشد، وذلك احـتجاج عليهم بحقـيقة القرآن، فـلا يمكن أن يتلاقى مع وساوس الشياطين ومفاسدهم ، فما يصح أن يكون منهم.

والثانى - أنهم لا يستطيعـونه، لأنه معجز، وهو يعجـز الجن والإنس كما قال الله تعالي: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء].

والثـالث - أنهم لا يمكن أن يـنقلوه أو يسـرقـوه ، ويتنزلـوا به على أهل الكهـانة ، لأنهم مـعـزولون عن ذلك، وهذا قـوله تعـالى : ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ ، وقد أكد سبحانه وتعـالى عزلهم بإنَّ الدالة على التوكيد، وباللام ، وبالجملة الاسمية.

ولقد تكلم الحـافظ ابن كثيـر فى هذه الأمور الثلاثة المـانعة من أن تتنزل به الشـياطين ، فـقال رضى الله عنه « ذكـر سبـحانه أنه يمـتنع عنهم ذلك من ثلاثة أوجه: أحدها: أنه ما ينبغى لهم، أى ليس هو من بغـيتهم ولا من طلبتهم ، لأن من سجـاياهم الفساد ، وإضلال العـباد، وهذا فيه الأمـر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ونور وهدى وبرهان عظيم ، فبينه وبين الشياطين مـنافاة عظيمة ، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، أى ولو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك. قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] ثم بين أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته ما وصلوا إلى ذلك؛ لأنهم بمعزل حين استماع القرآن حال نزوله ؛ لأن السماء ملئت حرسا شديدا وشهبا فى مدة نزول القرآن على رسول الله ﷺ، فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد، ولم يجد منه لئلا يشتبه الأمر، وهذا من رحمته بعباده وحفظه لشرعه، وتأييده لكتابه ولرسوله، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ وكل هذا على أن الضمير فى (به) من قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ يعود على القرآن، وهو فى النفوس المؤمنة يملؤها ، والمشركة يساورها، ولا احتمال سواه.

التوحيد لب الإيمان

قال تعالى :

فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ
مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ
جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي
بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي
يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾

الفاء للإفصاح عن شرط وتقديره إذا كان القرآن هو الحق ، وهو يدعو إلى التوحيد ، فلا تدع مع الله إلها آخر ، والدعاء هنا الالتجاء إليه والعبادة أى لا تعبد مع الله إلها آخر ، وتلجأ إليه ﴿ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴾ ، أى فتكون بسبب ذلك من المعذبين، الفاء للسببية، ولذا نصب الفعل بعدها، ولقد كان النهى موجها إلى نبى الوحدانية، ليقتدى به غيره، وليعلم كل إنسان أن العذاب لاحق بمن يعبد مع الله إلها آخر، فقلب العبادة: الوحدانية، ولب الإيمان ألا يكون مع الله إله آخر.

بعد ذلك أمر سبحانه وتعالى أمرين متعلقين بالدعوة ، فقال:

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

العشير القرابة القريبة، والأقربين جمع أقرب، وهو الأشد قرابة، وقد جاء فى مفردات الراغب ما نصه:

والعشير أهل الرجل الذين يتكثر بهم ، أى يصيرون له بمنزلة العدد الكامل، وذلك أن العشرة هى العدد الكامل، والمعنى أن العشير الأقارب الذين يعتز بهم، ويحس بأنه منهم، وأنهم منه، أنه ﷺ قد جاء فى كتب السيرة وكتب السنة أنه عندما نزلت هذه الآية داعية إنذار عشيرته صار النبى ﷺ إلى الصفا ، ودعا قريشا، ومنهم من حضر بشخصه، ومن لم يحضر بشخصه وبعث من يسمع عنه وقال لهم : « يا بنى عبد المطلب، يا بنى فهر، يا بنى لؤى : أرأيتم لو أخبرتكم بأن عيرا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتمونى؟ قالوا: نعم، قال: فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد.

دعاهم عليه السلام هذه الدعوة، وهى أولى الدعوات، وكانت الدعوات قبل ذلك دعوات خاصة للزوجة والأهل والأصدقاء، فهذه أول دعوة عامة ، أو شبه عامة وعمومها جزئى على أى حال.

هذه دعوة من لم يكن مؤمنا، وقد أرشده سبحانه إلى الرفق بالمؤمنين، لأنهم قوام الدعوة، وعماد الحق، وقد تعرضوا للأذى باتباع النبى ﷺ فقال له

لتعينهم على الإيمان ويروا الرحمة بجوار الأذى والعذاب ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ مِنْ: هنا بيانية، والمعنى اخفض جناحك لمن اتبعك، وهم المؤمنون، وخفض الجناح فيه استعارة فيها تشبيه، فشبه الحانى العطوف على من معه من المؤمنين بالطائر الذى يخفض جناحه ويحوط به فراخه، حتى ينضجوا ويستغنوا عن كلاءته، وحمايته.

هذا شأن من أطاعه من عشيرته ومن معه من المؤمنين، وقال فيمن عصاه:

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦)﴾.

الفاء للإفصاح، والضمير فى عصوك يعود إلى الأقربين، وإلى المؤمنين، وربما نميل إلى أن تكون على المؤمنين فقط، لأنه أقرب مذكور، ولأن خفض الجناح لهم مشروط بأنهم مؤمنون لا يعصون، فإن عصوك أيها الرسول فتبرأ منهم، فإنك تخفض الجناح لتربيتهم وتهذيبهم، وإبقائهم على الحق لا يخرجون عنه، فإن خرجوا فتبرأ منهم، وقل ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾، ويكون فيه عصيان لى، ولا يعتمد عليهم فى هذا العصيان، والاعتماد كله يكون على الله، ولذا قال من بعد.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠)﴾

التوكل هو تفويض الأمر لله تعالى بعد أخذ الأسباب، فلا يظن أن الأسباب وحدها كافية، بل إنه لابد من الاعتماد على الله تعالى بعد الأخذ فى الأسباب، والعناية بها، والتوكل هو على الله العزيز القوى الذى لا يغلب، الرحيم بعباده فى شدتهم والذى يجيب مطالبهم العادلة بفضل رحمته سبحانه، وقد وصف الله تعالى بثلاث صفات، تبين أن الاعتماد عليه هو اعتماد على المحيط بكل شيء علما، فوصفه بثلاث صفات تفيد كمال العلم والعزة، وكمال السلطان والقهر.

الصفة الأولى: أشار سبحانه وتعالى بقوله: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ من منامك متجها إلى الله تعبده، وإلى الناس تنفعهم وإلى نفسك تهذبها، وإلى صلاتك تقيمها.

والصفة الثانية - أنه يعلم تقلب النبى ﷺ ، ولذا قال: ﴿ **وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ** ﴾ أى خرورك ساجدا لرب العالمين متقلبا من القيام إلى السجود، أى أنه يعلم أحوالك فى صلاتك ، فهو سبحانه وتعالى يعلمك فى كل أحوالك ، من وقت قيامك إلى سجودك فى صلاتك.

الثالثة- ﴿ **إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ أى الذى يعلم كل شيء منك علم من قد أحاط بكل شيء علما.

نبذات الشياطين

قال تعالى:

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ
كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾
وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ
يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن
بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

ادعى المشركون أن القرآن الكريم تنزلت به الشياطين، كما يزعمون أنها تتنزل على الكهان وأشباههم ، فنفى الله تعالى ذلك ، وأخذ يبين صفات من تنزل عليهم الشياطين ، وذكر أصنافا من هؤلاء الذين تنزل عليهم الشياطين فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ** ﴾ الاستفهام للتنبيه ، والتنبىء الإخبار بما له شأن ، وللنفس به اهتمام ، والتنزل النزول ، ولا يقال عن الله تعالى ، وإنما يقال عن الملائكة فيقال تنزل كما قال تعالى: ﴿ **تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾** ﴾ [القدر] وهو

ما يبث فى النفوس من البشرى والاطمئنان ، والشياطين لا يقال فى المفترى أو الآثم إلا التنزل، وقد جاء فى المفردات للراغب الأصفهانى «لا يقال فى المفترى والكذب وما كان من الشيطان إلا التنزل وعلى من تنزل الشياطين إلى آخر الآية

والتنزل من الشياطين ، هو ما يوسوسون به ، ويوجهونها نحو الشر والإثم المبين ، ويلاحظ أن تنزل محذوفة التاء ، وأصلها تتنزل.

ثم قال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ الأفاك هو المفترى الكاذب الذى يصرف عن الحق، ويضل النفس ويذهب بالاطمئنان، والأثيم الذى تمرست نفسه بالإثم ، وصار عنده استعداد للاستماع إلى الإفك الصارف والكذب البين.

والوصف الثانى لمن تنزل عليهم الشياطين هو ما بينه سبحانه بقوله ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾.

يقال ألقى السمع إليه، أصغى إليه وجعل سمعه كله إليه لا يسمع سواه والضمير فى ﴿يُلْقُونَ﴾ يعود إلى كل أفاك أثيم ، أى من صفة هؤلاء أنهم يصغون إليه، ويضعون سمعهم يلقونه إليه، وأكثرهم كاذبون، أى من صفات الكثرة الكاثرة منهم الكذب ، فهم يستملون الشياطين ويروجونه بين الناس مبالغين فى كذبهم.

وإن من هؤلاء : الشعراء الذين يقولون الكذب ويفترونه ، ويتخيلونه ، وليسوا كلهم بدليل هذا الاستثناء الذى سيجىء ،ومن الشعراء الذين استثنوا فى الجاهلية زهير بن أبى سلمي، وفى الإسلام حسان بن ثابت الذى كان يدعوه النبى للرد على المشركين ، ووصفه النبى ﷺ بأن روح القدس يؤيده.

قال تعالى : ﴿الشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾.

الغاوون جمع غاو وهو الصالح ، وأولئك الذين يهيمون فى ذكر النساء ، وتصور وقائع كاذبة قد تنزل بها الشياطين عليهم حتى كانوا يقولون لكل شاعر شيطان ، وقد أيد الله تعالى تنزل الشياطين عليهم بقوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) ﴾.

الاستفهام هنا لإنكار الوقوع فنفى النفى إثبات، والمعنى قد رأيتهم فى كل واد من أودية القول يهيمون، أى يقولون ، فقالوا فى الغزل، والتشبب بالنساء وذكرهن وما يخفى من أجسامهن ، وما يكون بينها وبين الرجل مما يجب ستره، والكلام فيه موقوف فيقول، كما ترى فى معلقة امرئ القيس، وكما ترى فى قصائد الفرزدق الذى كان يحاكى منهاجه ، ويتفحش فى القول، ولقد كانوا يتخيلون المآثم، ولا يفعلونها ، كما كنت ترى من بعد فى شعر عمر بن أبى ربيعة من غزل ، وهكذا. وإن ذلك كله من تنزل الشيطان على الشعراء.

وإذا كان من كبار التابعين من كان يذكر فى درسه بالمسجد الحرام شيئا من هذا الشعر كابن عباس فيما يروى عنه رضى الله عنهما ـ فإنما كان ذلك لكى تستمر رواية شعر العرب .

وإن الشعر العربى فيه خير كثير، وفيه شر كبير ، فلا يذم كله ، ولا يمدح كله ، وإنه ككل كلام عربى جيد فى مبناه بليغ فى ذاته يحمد لسنه ، ويذم واسده فى المعنى.

ويلاحظ أن ذكر الشعر بأنه تنزل به الشياطين لإبعاده عن القرآن ، فالقرآن وحى الله تعالى الذى نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ بلسان عربى مبين.

وقد استثنى سبحانه وتعالى من الشعراء الذين يتبعهم الغاوون الذين ءامنوا، أو استثنى الذين آمنوا من الغاوين الضالين الذين يتبعون الشعراء فقال عز من قائل:

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧) ﴾.

ظاهر اللفظ أن الاستثناء من الشعراء، ويكون الاستثناء متصلا، والمعنى أن الشعراء يتبعهم الضالون؛ لأنهم فى كل واد يهيمون ، ويقولون ما لا يفعلون

فيستثنى من هؤلاء الشعراء الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وامتلأت قلوبهم بذكر الله، وذكروا الله كثيرا ، كعبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت ، وكعب بن زهير، وأولئك انتصروا للحق وناصروه ، وكانوا يدفعون الهجاء عن النبي ﷺ ومنهم من قاد الجيوش ، واستشهد أمام الروم فى غزوة مؤتة ، وهو عبد الله بن رواحة.

ويصح أن يكون الاستثناء منقطعا ، ومستثنى من الضالين ، ويكون معنى (إلا) لكن، والمعنى : والشعراء يتبعهم الغاوون إلى آخره ، لكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا بأن امتلأت قلوبهم بذكره ، وانتصروا أى انتصفوا من المشركين من بعد ظلموا فإنهم يتبعون الحق ويتبعهم أهل الحق .

وقوله تعالى ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا (٢٢٧)﴾ ، (ما) مصدر حرفى أى من بعد ظلمهم ، وإرهاقهم فى أمرهم ، وكل هذا كان بيانا لنصرة الله تعالى من بعد الأذى فى مكة، وإشارة إلى وعد الله تعالى بالنصر المبين ، وانتصر معناها انتصف بنيله النصر، بعد جهاد فى سبيل الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ .

السين هنا لتأكيد الفعل فى المستقبل ، والعلم الذى سيعلمونه هو علم المعاينة ، إذ سيرون العذاب ، وسيحسونه نازلا بهم ، إذ يكونون فى جهنم، وبئس المهاد ، والتعبير بالموصول لبيان أن الصلة هى سبب ما ينزل بهم من عذاب شديد، لا يعرفونه الآن ، وسيعرفونه من بعد ، وقد ظلموا أولا بالشرك ، وثانيا بتكذيب الرسل ، وثالثا بإنكارهم للقرآن ، ورميهم له بأنه تنزل به الشياطين ، وأنه كأقوال الكهان ، وغير ذلك مما ظلمت به العقيدة ، والحقائق ، وقد أضافوا إلى ذلك ظلم العباد ، والصد عن سبيل الله تعالى ، والمنقلب هو انقلابهم من الطغيان إلى المهانة، ومن رغد العيش إلى شدته ، وقد أبهم هذا المنقلب، تأكيدا للتهديد ، والإنذار الشديد .

سورة النمل

تمهيد :

هذه سورة مكية نزلـت بمكة. وسميت النمل؛ لأن قصة سليمان مع النمل أخذت حيزا كبيرا منها، وعدد آياتها ٩٣ آيه.

وقد ابتدأ سبحانه بحروف مفردة هى الطاء والسين، وقد ذكرنا حكمة ذكرها فى سورة الشعراء وما سبقها، وقـد كانت أول آية تتعلق بالقرآن، كشأن الأكثر فى السور المبتـدأة بحروف مفردة، تلك آيات القرآن الكريم، وبشـرى للمؤمنين الذين يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، وهم بالآخرة هم يوقنون.

ثم بين سبـحانه أحوال الذين لا يؤمنون بالآخرة، وأنه تزين لهم أعـمالهم، وأنهم فى أعـمالهم يعـمـهون ، وأنهم هم الذيـن لهم سوء العـذاب، وأنهم فى الآخرة هم الأخسرون.

وقد بين مقام النبى ﷺ ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦) ﴾.

وقد ذكر سبحانه بعد ذلك جزءا من قصة موسى فى مدين: إذ ذهب يبحث لأهله عن نار، ﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) ﴾، وكان أن كلمه ربه، ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ

(١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٣) ﴾ وإنهم راعتهم المعجزة، ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤) ﴾.

ولقد كان ذلك الجزء الصغير من قصة موسى عليه السلام تمهيدا لقصة داوود وسليمان، وخصوصا سليمان فإنهما نبيان من أنبياء بنى إسرائيل جاءا لإحياء شريعة التوراة فيمن جاء لذلك من الرسل.

ولقد قال تعالى فى ذلك ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) ﴾.

وقد أوتى سليمان ملكا لم يكن لأحد من بعده ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) ﴾ كما أوتى علم منطق الطير، فقد أوتى أيضا علم منطق كل شىء ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩) وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) ﴾ ولكنه بعد ذلك أتى بخبر غريب كان له ما يفيد فى سياسة سليمان ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦) ﴾.

سمع سليمان الملك الحكيم الخبر فلم يصدقه بادئ ذى بدء ولم يكذبه، بل أخذ يتفحصه قائلا: سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين، وكلفه أن يذهب بكتابه إليهم.

ذهب الكتاب إليها، فجمعت ملأها ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ(٣١)﴾.

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣)﴾ فردت قائلة:

﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥)﴾.

جاء الرد والهدية إلى سليمان الملك العظيم قال: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧)﴾.

وقبل أن يذهب إليهم بجنده أراد أن يعرف عرشها وسلطانها، ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠)﴾.

جاءت الملكة إليه: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا

ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤) ﴾.

وبعد ذلك ذكر سبحانه بعضا من قصة ثمود وصالح، ودعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده، ولقد استعجلوا العذاب إذ دعاهم فقال لهم ﴿ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) ﴾ وقد تقاسموا مع المفسدين على أن يهلكوه وأهله، ويقولوا لوليه ﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٠) ﴾.

وقد ذكر سبحانه عاقبة الأمر على ثمود قوم صالح.

ثم ذكر سبحانه قصة لوط، وذكر لهم لوط ما عندهم من فواحش خرجوا بها عن الفطرة، قائلا لهم: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) ﴾.

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (٥٨) ﴾.

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

بعد ذلك بين الله سبحانه وتعالى الدلائل الكونية الدالة على وحدانية الخالق، وأنه ليس كمثله شيء، فقال سبحان: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا .. (٦٠) ﴾.

ثم بعد أن بين هذه الحقيقة سألهم مستنكرا فعلهم ﴿ .. أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) ﴾.

ثم نبههم سبحانه إلى الأرض، وما فى خلقها من عجائب، ووجه الأنظار

إلى عجـائبها، وقرارها وأنهـارها وجبالهـا، وأنه جعل بين البحرين حـاجزا، ثم استـفهم منكرا مـوبخا أإله مع الله بـل أكثرهم هم لا يـعلمون. وذكر بـعد ذلك تفضله سبحانه عليهم بإجابة المضطر إذا دعاه وكشفه السوء، وجعل الإنسان خليفة فى الأرض، ويسـأل سبحـانه مسـتنكرا حالهم مـن الشرك ﴿ **أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ** (٦٢) ﴾ ويذكرهم سـبحانه بهدايتـه لهم فى ظلمات البر والبحـر وإرساله الرياح مبـشرات بين يدى رحمـته، ويسـألهم من بعد ﴿ **أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** (٦٣) ﴾.

ويذكر سبحانه بذاته العلية، إذ يبدأ الخلق ثم يعيده، ويرزقه سبحانه وتعالى من السماء والأرض، ثم يسألهم مستنكرا حالهم ﴿ **أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** (٦٤) ﴾.

ويأمر نبيه الكريم بأن ينبههم إلى أنه لا يعلم من فى السماء والأرض غيره، وشعورهم عندما يبـعثون وإنهم يتداركون جهلهم عندما يبعـثون، ويعلمون ما لم يكونوا علموه من قبل بالعـيان، لا بالأفهام. ويأمرهم سبحـانه وتعالى أن يسيروا فى الأرض ليعلموا مكانهم فيها، والعبر من أهلها، إذ طغوا وأكثروا فيها الفساد.

ويذكر لنبيه أنه ليس عليه إيمانهم، إنما عليه تبليغهم: ﴿ **وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ** (٧٠) ﴾ وذكر سبحانه بعد ذلك ، اسـتعجالهم لما يوعدون به من عذاب ﴿ **وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** (٧١) **قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ** (٧٢) **وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ** (٧٣) ﴾ ويذكر سبحانه بعد ذلك عموم علمه فى السماء والأرض، ويقول عز من قائل: ﴿ **وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** (٧٥) ﴾.

ويذكر من بعد مـقام القرآن الكريم، ﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ**

أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) ﴾ وما عليك من حسابهم من شيء ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٨١) ﴾.

وبعد ذلك يذكر سبحانه ما يكون قرب البعث، وما يكون بعده: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ (٨٢) ﴾ ويبين سبحانه بالإشارة الواضحة حال الناس يوم الحشر وحالهم وهم يقدمون على العذاب.

ثم يذكرهم سبحانه بغفلتهم عن آياته: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) ﴾.

ويذكر سبحانه يوم الهول العظيم يوم البعث، ثم يذكر الحساب والثواب والعقاب: ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠) ﴾.

وإن عبادة الله وحده هي الغاية الأولى: ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾.

ذكر معانى السورة

قال الله تعالى:

طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ
لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم
بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ
أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ
وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن
لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾

ابتدأت السورة بالحروف الـهجائية المفردة، ولا يعرف لها معنى معين ولكن لوجودها حكمة يقررها المدركون، وقد أشرنا إلى أن منها الإعجاز ليشير لهم بأن القرآن مكون من الحروف التى يتكون منها كلامكم فى شعركم وخطبكم وخطاباتكم، ومع ذلك كان معجزا يتحداكم ذلك التحدى الشامل، وتقفون وتسكتون ومنها أنهم قد تفاهموا على ألا يستمعوا لهذا القرآن، وأن يلغوا فيه، فإذا ابتدئ بترتيل هذه الحروف الصوتية أصغوا إليه غير مختارين، ثم يهجم عليهم القرآن بمعانيه وعباراته، وما فيها من بلاغة وفصاحة تحير عقولهم، وفوق ذلك فإن النبى كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، فكيف ينطق بهذه البلاغة التى لا ينطق بها إلا كاتب قارئ. ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ①﴾. الإشارة إلى ما جاء فى السورة من آيات متلوة، وفى ذلك بيان أن هذه الحروف يحتمل أن تكون اسما للسورة، وقد ذكر للقرآن وصفان:

أحدهما أنه كتاب مقروء متلو، يتلى، وتلاوته عبادة، وقد علمنا سبحانه وتعالى كيف نتلوه، وعلم نبينا تلاوته ليعلمها للناس أجمعين، فهو متواتر بلفظه، ومتواتر بتلاوته، كما قال تعالى ﴿**وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً** (٣٢)﴾ [الفرقان]، وكما قال تعالى: ﴿**وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً** (٤)﴾ [المزمل]، وكما قال تعالى: ﴿**إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ** (١٧)﴾ [القيامة].

والوصف الثانى أنه كتاب مبين أى بين فى ذاته، ومبين لكل ما اشتمل عليه من دلائل التوحيد، ودلائل النبوة وأحكام شرعية، وهداية للناس، كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** (٥٧)﴾ [يونس].

وقد ذكر سبحانه وصفا ثالثا ورابعا، فقال تعالى: ﴿**هُدًى وَبُشْرَى**﴾، أى أنه هو ذاته يهدى فهو بإعجازه وبلاغته وعباراته المحكمة، يهدى النفوس الطالبة للحق المهتدية التى تتجه إلى الحق، كما تتجه إبرة البوصلة إلى قطبها، فهو فى ذاته هداية، وهو أيضا مشتمل على الهداية، ففيه دعائم التوحيد، وصور الكون الهادية، وآيات الله البينات فى الأحكام الشرعية، والمواعظ والعبر، وقصص الماضين من الأنبياء، وإن فى قصصهم لعبرة لأولى الأبصار. والقرآن نور لا يرى نوره إلا المبصر، وغذاء للأرواح، ولكن لا يتغذى به إلا الأصحاء، وشفاء، ولكن لا يشفى به إلا من كان قابلا للشفاء، ولذا قال فيمن ينتفعون ببشراه، وهى الوصف الثانى الذى معناه أنه يبشر المؤمنين بالجنة والنعيم فقال: للمؤمنين.

وقد قال -عز من قائل- من بعد ذلك فى التعريف بالمؤمنين.

﴿**الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ** (٣)﴾.

ذكر للمؤمنين أمورا ثلاثة هى:

الصفة الأولى: أنهم يقيمون الصلاة، أى يؤدونها، مستوفية أركانها الحسية والروحية، والمصلى يستشعر عظمة الله تعالى وجلاله، ويحس أنه فى حضرة الله تعالى، وذلك كله يتضمنه معنى الإقامة؛ لأن الإقامة إقامة الشىء مستويا مستقيما

لا عوج فيه، ولا اضطراب، بل يتجه إلى أعلى اتجاها مستقيما، وفى ذكر إقامة الصلاة إشارة إلى المعانى الروحية فى العبادات الإسلامية من صلاة وصوم وحج، فهو ابتداء تطهير للنفوس من أدرانها، وإقامة للعلاقات الإنسانية على هذه الطهارة من أدران الأحقاد والأضغان.

والصفة الثانية: أنهم يؤتون الزكاة، وهى الفريضة المادية الروحية، والتى يقوم عليها التعاون الاجتماعى بين الغنى والفقير، ولذا سميت الزكاة بالماعون، أى ما يكون به العون، كما قال تعالى فى وصف الضالين: ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ④ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ⑤ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ⑥ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ⑦** ﴾ [الماعون]، والماعون هو الزكاة التى هى أساس للتعاون الإنسانى.

والصفة الثالثة: وهى الأصل للأولين، وهى الإيمان باليوم الآخر، فهو لب الدين، وهو توجيه الإنسان إلى حقيقة معناه فقال سبحانه ﴿**وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**﴾.

بالآخرة - تتعلق بالفعل يوقنون، أى يؤمنون مذعنين غير مترددين؛ لأن العلم اليقينى يدفع الإنسان إلى عمل الخير، ولو كان تناله المشقة منه فى الحياة، فإن ذلك يكون دافعا إلى الاستمرار مؤمنا بأن جزاءه يستقبله، وكلما زادت المشقة فيه، زاد الأجر، وما عند الله خير وأبقى.

ولقوة هذه الخصلة الكريمة للمؤمنين وكونها لب الإيمان أكد الله تعالى إيمان المؤمنين باليوم الآخر بعدة مؤكدات، أولها بتقديم الجار والمجرور، وثانيها بالجملة الاسمية، وذكر ضمير الفصل مرتين فى صدر الجملة وآخرها.

وقد ذكر سبحانه بعد ذلك حال الذين لا يؤمنون بالآخرة، فقال سبحانه وتعالت كلماته:

﴿**إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ④ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ ⑤**﴾.

أكد سبحانه أن الذين لا يؤمنون بالآخرة لهم فى الدنيا أمران أحدهما سبب للآخر، ولهم فى الآخرة سوء العذاب، وهم فى الآخرة هم الأخسرون.

ولنتكلم مستشرفين لمعانى القرآن الكريم فى الأمرين فى الدنيا والآخرة، وقبل أن نخوض فيها خوضا نقرر أنه كما أن اليقين باليوم الآخر خلة المؤمن الدافعة إلى الخير، والتى تجعله يتحمل متاعب هذه الحياة راجيا ما وراءها فإن فقد الإيمان باليوم الآخر ينسى الإنسان نفسه فيعتقد أن هذه الحياة هى وحدها الحياة، ولا حياة بعدها، ويحسب أنه خلق عبثا، ولذا قال سبحانه: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾، أى حَسَّن الله لهم أعمالهم، فحسبوها وحدها الخير، ولا يحسبون أن أعمالهم كلها زينة وأمر حسن، فهم دائما ممن زين لهم أعمالهم فرأوه حسنا، فكل أعمالهم لا ينظرون إليها إلا من وراء نفوسهم غير المستقيمة، ولا يعترفون بإرشاد مرشد، ولا هداية هاد؛ واعظ أو زاجر، فهم فى لهو دائم عن الحق، وإن من كانت حاله كذلك، قد ضرب على آذانه، فلا يسمع الحق، ولا يهتدى بهديه، قد أهمل عقله وتفكيره، وما أعطاه الله تعالى من مواهب، وفطرة مستقيمة، ولذا قال تعالى: ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ الفاء لبيان أن ما بعدها مترتب على ما قبلها، أى ترتب على هذا التزيين لكل الأعمال التى يعملون، ويحسبونها زينة يترتب على ذلك أنهم يعمهون.

والعمه: التردد والحيرة، أى ترتب على أن أعمالهم زينتها لهم نفوسهم، أن صاروا فى حيرتهم لفطرتهم السليمة التى تريهم الحق حقا، والباطل باطلا، وتزين نفوسهم للباطل حقا، وللحق باطلا، فتكون الحيرة بين الفطرة الهادية والشر المتحكم، والضلال المظلم.

وقد أكد الله سبحانه وتعالى هذه الحال بمؤكدات: أولها بإن المؤكدة، وبإضافة التزيين إليه سبحانه، وأن ما يريده الله لا يتخلف، ولا يمكن أن يتخلف، ولكن التزيين ابتدأ من أنفسهم، وتمكن الشيطان منهم وإغوائهم، وقد ذكر سبحانه بعد وصف حالهم فى الدنيا، وهو أن الدنيا تكون لهم مضطربا فسيحا، فإن من الحيرة والاضطراب حالهم فى الآخرة، فذكر أمرين أولهما سوء العذاب، وثانيهما أنهم وحدهم الأخسرون، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ

الْعَذَابِ﴾ الإشارة إلى المتصفين بعدم الإيمان باليوم الآخر، وتزيين العمل السيئ لهم، فحسبوه حسنا، وما هو بحسن، وهذه الأحوال هى سبب العذاب لأن ذكر الإشارة إلى الصفات يومئ إلى أن هذه الصفات هى سبب الحكم، وسوء العذاب هو العذاب الذى يسوء النفوس، ويشوى الوجوه، وهو النار الدائمة، والعذاب المقيم الدائم ما شاء الله تعالى أن تدوم، خالدين فيها أبدا. وقال الله تعالى فى بيان حالهم: ﴿وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾ الأخسرون جمع أخسر، وهو أفعل تفضيل على غير بابه، أى هم الذين خسروا خسارة ليس فوقها خسارة أبدا، وفيه تأكيد للقول الكريم، وقد أكد ثانيا بـ (هم) التى تكررت، وأكد ثالثا بالقصر لتعريف الطرفين، أى هم وحدهم الأخسرون، ولا يخسر أحد سواهم.

بعد ذلك بين الله تعالى معدن الهداية، وهو القرآن الكريم فقال:

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦)﴾.

وتلقى معناها يلقى إليك بقوة فتلقاه راضيا بقوة متحملا ما يوجبه تحمله وتلقيه من صبر دائم، وجهاد مستمر ومصابرة لأعدائه، وتلقيه هو من عند الله تعالى الحكيم الذى يعطى كلاما هو صالح، وهو عليم بالنفوس يطب لأدرانها بما يزيل أسقامها.

وهو وصف للقرآن الكريم بأحكم الصفات وأعمقها فى معناها.

فهو أولا من عند الله، ولا يجىء من عند الله إلا ما هو خير، وقد شرفه الله تعالى بذلك الذى لا يقدر قدره، وهو الحكيم الذى يشرع للناس ما يصلحهم فى معادهم ومعاشهم، وما يجمع ويصلح، ولا يفرق ويشتت، وهو العليم بكل شىء، قد أحاط بكل شىء علما.

وقد أكد الله تعالى القول، بخطاب النبى، وحمله عبء القرآن الكريم.

إشارة إلى بعض قصة موسى عليه السلام

قال تعالى:

إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم
مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا
جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ
ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ
فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ
إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ
سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ
مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ
﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾
وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

إذ ظرف دال على الزمان، وهو متعلق بتلقى فى الآية السابقة، أى أنك تتلقى القرآن من حكيم عليم صادق فى الوقت الذى جرت فيه أحداث قصة موسى وفرعون، فهى قصة صادقة من لدن حكيم عليم، هو الله سبحانه الذى أحاط بكل شىء علما.

ونجد أن قصة موسى هنا فى جملتها ليست مكررة مع غيرها، وقد فصلت جزءا لم يفصل فى موضع آخر، فصل فيه بعض حياته مع أهله، وفصل فيه لقاءه

بربه، والكلام الذى كان بينهما، وذكر ارتباطه بالرسالة، ودليلها وهو العصا وإخراج اليد من الجيب بيضاء من غير سوء، وكونها فى تسع ءايات قدمها لفرعون برهانا على الرسالة، وإذا كانت بعض الأمور ذكرت مكررة كالعصا؛ فلأن المقام اقتضاها، وليست ثابتة بالقصد الأول، بل هى جاءت تابعة لإثبات الرسالة لموسى نفسه، لا لإثباتها لغيره، وهو فرعون وقومه، أى لإثبات أن الذى يخاطبه من وراء الشجرة ربه، لا أحد غيره.

كان موسى وأهله فى ليلة ليلاء قرور شديد بردها، يلتمسون ما يستدفئون من نار، فنظر فى الجو، فحسب أنه رأى نارا فقال لأهله: إنى آنست نارا أى رأيت نارا قال وهو يتمناها، ويرعاها، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ (٦)﴾ [النساء]، ﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ أى إنى ذاهب إليها لعلى آتيكم منها بخبر نستفيد منه علم ما لم نكن نعلم، أو شهاب، والشهاب هو الشعلة المشتعلة من نجم أو نار أو نحوها - وقبس بدل أو عطف بيان، والقبس هو القطعة من جذوة النار، أى آتيكم بقطعة من النار شديدة الاشتعال فنلقيها حول أحطاب نستدفئ منها، وهذا معنى ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أى تستدفنون بها، فيقال من صلى قلبت التاء طاء؛ لأنها من حروف الإطباق أى رجاء أن تستدفئوا، ومؤدى ذلك أنهم كانوا فى برد شديد، وهكذا عاش من تربى فى بيت فرعون فهو يذوق الحر والبرد فى صحراء، فى هذا الوقت، وفى هذه الشديدة، بعث موسى عليه السلام.

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨)﴾.

(مَن) هنا للعاقل، فالبركة ليست فى شىء يتعلق بما يلهبها، إنما البركة والنماء والزيادة فيمن هو ذاهب إلى النار، ويوشك أن يكون فيها، وهو كليم الله تعالى موسى عليه السلام؛ ولأنها بقعة مباركة فيها الملائكة، واختار الله تعالى أن يخاطب نبيه الكليم الأمين فيها، عليه وعلى نبينا أزكى السلام.

ومن حولها من ملائكة أطهار، فهى أرض طاهرة مقدسة منها كانت رسالة موسى، كما كانت رسالة عيسى عليه السلام من ساعير، ورسالة محمد عليه السلام فى فاران. وهى، كما ترى ذلك فى التوراة حتى بعد تحريفها فى هذه الأيام، وهذه البقعة المباركة. كما صرح سبحانه بذلك فى سورة القصص ﴿ **فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(٣٠)** ﴾ [القصص].

والبركة نماء الخير وزيادته، وجعلت البركة فى النار؛ لأن النار سبب مجىء موسى إليها، فهو جاء على أنها نار، وليست شجرة مباركة خضراء، ولذا فسر بعض المفسرين النار بأنها النور، وكذلك كانت تلك الشجرة الخضراء نورا إذ بعث فيها رسول من أولى العزم من الرسل، وهو موسى عليه السلام.

وختم الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بتسبيح الله الواجب على عباده، فقال﴿ **وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ أى التسبيح الخالص لله رب العالمين الخالق والمنعم عليهم بربوبيته الكاملة سبحان، ولا يدركها إلا العالمون العقلاء المدركون إن استقامت مداركهم، واتجهوا إلى الحق وحده غير مضطربين، ولا معوجين، وأن فى قوله ﴿ **أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا** ﴾ هى تفسير للنداء من الحق جل جلاله، فالنداء هو ذكر الله تعالى لهذه البركة النامية المتجددة فى كل حين.

﴿ **يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩)** ﴾.

النداء المتكرر من الله تعالى لكليمه موسى عليه السلام ليؤنسه بذاته العلية، وليشعر بنصرته له أمام من سيرسل إليه، وهو فرعون طاغية الأرض فى عصره، ومن تأله، وملك أخصب أرض الله تعالى، وكان يقول أليس لى ملك مصر، وهذه الأنهار تجرى من حولى.

الضمير فى﴿ **إِنَّهُ** ﴾ ضمير الشأن ﴿ **أَنَا اللَّهُ** ﴾ تدل على قصر الألوهية على ذاته العلية، وذلك بتعريف الطرفين، فليس فرعون الذى تذهب إليه إلها أو شبه

إله، كما يدعى لنفسه بين المصريين، ويقول مستخفا لهم ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي (٣٨)﴾ [القصص] ووصف ذاته العلية بقوله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، أى القوى الغالب على كل شىء، الحكيم الذى يدبر الوجود كله على مقتضى علمه الذى أحاط بكل شىء علما، وفى ذلك إشعار بأن فرعون الطاغية لن يرهبه، ولن يفزعه، إذا احتدم الأمر.

ولكن موسى يود أن يطمئن إلى أن الله تعالى هو الذى يخاطبه ويمنحه ذلك الشرف، ولذا أمره بأن يلقى عصاه حجة تدل على أن الله تعالى هو الذى يخاطبه، فقال:

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠)﴾.

كان موسى فى حال من يكون فى حيرة من أمره، يخاطبه الله، فالله جل جلاله أزال عنه هذه الخشية، بدليل قاطع يدل على أن الله تعالى يخاطبه، وأنه رسول من عنده، بالعصا - ألقاها، فتحولت العصا إلى شىء يهتز ويضطرب كأنه حية تسعى، والجان هنا حية تهتز وتتحرك، فلما رآها كذلك ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾، أى سائرا إلى الخلف، وظهره كأنه وجهه ولم يعقب، أى لم يرجع، كالجندى الذى يقاتل يرتد إلى الوراء ليحسن الهجوم، فيعقب على خصمه يضربه، ولكن رجوع موسى عليه السلام كان رجوع الخائف الفزع الوجل، ليس من شأنه أن يقدم بعد إحجامه، بل يحجم لغير غاية، ولذا قال تعالى عالما بخوفه: ﴿لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ أمره سبحانه بألا يخاف تأنيا له وتقريبا، وبيانا له بأنه كالئه وحاميه، ولا يخاف من الله ناصره، وقال تعالى ما هو بمنزلة السبب للنهى ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ إنى لا يمكن أن يخاف عندى المرسلون؛ لأنى مانع كل شر عنهم، ولا يمكن أن ينالهم عندى إلا الأمان الذى لا يكون بعده أمان، فكيف تخاف، وأنت فى حضرة المولى جل جلاله، ثم فوق ذلك أنت مرسل من قبلى للدعوة إلى الهداية، وكيف يخاف مرسل أرسله مع المرسلين.

ولكن موسى عليه السلام كان قد قتل مصريا مناصرة لإسرائيلى، وقال شاعرا بخطئه: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧) ﴾ [القصص] وإن هذه الفعلة هى التى ألجأته إلى مدين، بين الله تعالى أنه غافرها، ما دام قد عمل حسنا بعدها، فقال:

﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١) ﴾.

الاستثناء هنا استثناء منقطع، فما كان ثمة فى الآية السابقة رمى بسوء حتى يكون الاستثناء، فيتعين أن يكون منقطعا بمعنى لكن من ظلم، بقتله نفسا بغير حق، ولكن كانت ظالمة عاتية، ثم تاب عما ارتكب، ولم يكتف بالتوبة المجردة، بل اتجه إلى الخير مستقيما مدركا، وبدل حسنا بعد سوء، أى وضع فى تصرفاته مكان السوء حسنا فإن الله يغفر له لأنه غفور من شأنه المغفرة الدائمة لمن تاب، رحيم دائم الرحمة بالناس ومن شأن الرحيم أن يتقدم عباده لعباده بفعل الخير رحمة بالناس لكى يسود الخير بينهم.

والفاء فى قوله تعالى: ﴿ فَإِنِّي غَفُورٌ ﴾ واقعة فى جواب مَنْ؛ لأنها شرط أو فى معنى الشرط، وثم للتراخى، لأنه ثمة تراخ بين الظلم والغفران.

وذكر سبحانه معجزة أخرى لموسى

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) ﴾.

هذه آية أخرى ليأنس موسى ربه، وأنه الذى خاطبه، وأنه رسول من رب العالمين إلى الناس، وهى أن يدخل يده فى جيب قميصه بلونها الطبيعى الظاهر، المتوافق مع سائر جسمه، ويخرجها من الجيب فيراها بيضاء ناصعة البياض من غير سوء من بهق أو نحوه، وتلك آية أخرى هى واحدة من تسع آيات إلى فرعون وقومه، ثم ذكر ما يدل على العناية بهم فى الاستدلال بتسع، إنهم كانوا قوما فاسقين، و(كانوا) تدل على استمرارهم فى التوغل فى الفسق، وهو الخروج عن كل معقول، ورفض كل مقبول، وأنهم قوم لا يفقهون حديثا.

وفى ذكر هذه الآيات عند بعثه إلى فرعـون وقومه دلالة على أنه يذهب إليه مزودا بآيات تترى آية بعد آية وكل آية حجـة عليهم، ودليل قاطع، ولكنهم أصروا على كفرهم حتى أغرقوا.

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤) ﴾.

الفاء للإفصاح، أى أنهم لما جاءت الآيات التسع مبصرة موضحة مبينة كأنها الأبصار التى تبصر، وهى ذاتها بصائر بينة واضحـة، قالوا هذا سحر مبين، ومبين معناها واضح بين، وذلك لقصر مداركهم، وقد كانوا يظنون العصا سحرا، وجمع السحرة فى المدائن حاشرين، وأيقنوا أنها آية الله وليست بسحر، ثم كان اختبارهم بالقمل والضفادع، والدم آيات مفصلات، فهل كانت سحرا، لعلهم لغلبة الأوهام عليهم، ولعدم إيمـانهم ولعدم إدراكهم الفرق بين الحق والباطل قـالوا أيضا: إنها سحر، فقد كان غالبا على تفكيرهم، ويعدون السحرة علماء لهم.

وهم فى هذا الادعـاء كانوا ضالين يدركـون الحقـائق، وتذعن أفهـام لها، ولكنهم يجحـدونها، وهى بينة واضحة يذعن لها أهل الحـق، ولذا قال تعالى فى حالهم ﴿ **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ** ﴾، والجحود نفى مـا يثبت فى العقل، وإثبات مـا ينفى فى العـقل، فهؤلاء يجـحدون الحق بعـقولهم وأقـوالهم، ولكن نفوسهم مستيقنة لأنها لا سبـيل لها لأن تنكر وتجحد، فهم بتوارد الأدلة المختلفة، وتكاثرها؛ ولأن نفـوسهم فطرية يسـتيـقنون ويذعنون ولكن يعـارضهم جـو عام وبىء، فنفوسـهم مستيـقنة بالحق، وتذعن له لولا مقـاومة التيارات الفـاسدة التى تدفعهم إلى الجحود دفعا.

وقـد بين سبـحانه وتـعالى ذلك مـشيـرا إليـه بأنه الظلم، فقـال: ﴿ **ظُلْمًا وَعُلُوًّا** ﴾، وهمـا مفـعول لأجله، من فـعل (وجحـدوا)، أى جحـدوا وأنكروا، وخالفوا نفوسهم، وفطرتهم، لأجل الظلم، أى استمرارهم فى الظلم والطغيان، ومعاضدتهم لفرعون فى ظلمه وعدوانه وإرادتهم العلو فى الأرض، وقد أدى ذلك

الطغيان الآثم، والعلو الباطل إلى فساد الأرض، وإلى غرضهم، ولذا قال تعالى: ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾؛ أى انظر كيف كان مآل الفساد، وهو الخراب والغرق، والفساد كان فى الظلم، وإرادة العلو بالباطل، إنه لا يفسد الجماعات إلا الظلم أولا، والتعالى بالباطل ثانيا، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وهو الغرق والهلاك، وهو عاقبة الجحود الظالم المستعلى المفسد.

من قصة سليمان

قال تعالى:

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا
وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾
وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ
وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ
لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾
حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟
مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا
تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾
وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ
ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ

أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ
أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾
إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا
عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن
دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ
فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ
فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ
أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا
فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ
ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾
قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِي فِيٓ أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ
تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ
فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً
أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾
وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ
ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم
بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾
قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى
عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ
بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا
مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ
لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا
نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ
أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ
﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ
﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن
سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى
ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

أتينا بما ذكر القرآن الكريم من قصة سليمان فى سورة النمل، وقد ذكرناها كلها جملة واحدة، وقد ذكر سبحانه قصة سليمان وأشار إلى قصة أبيه داوود عليهما السلام، وكانا ملكين قد أعطاهما الله تعالى سلطانا وعلما، ليعلم ما يجب أن يكون عليه الحكام من أخلاق، قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) ﴾.

الواو لاستئناف قصة نبيين من الأنبياء امتازا بتمكين الله تعالى لهما فى الأرض بما لم يكن مثله لأحد من الأنبياء قبلهما، فقد كان إبراهيم وأبناؤه من الأنبياء يقاومون الملوك الظالمين، وقد رأينا فيما قصه الله تعالى علينا من قصة موسى كيف كان يقاوم فرعون، وأتاه بتسع آيات بينات فما ارتدع وآمن، حتى أغرقه الله، فقال عند الغرق الآن آمنت برب هرون وموسى وبنى إسرائيل، وليست هذه توبة ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨) ﴾ [النساء]. أما داوود وسليمان فقد كانا ملكين، وإذا كانت الملوك الذين بعث فيهم الأنبياء صورة للعصاة المنحرفين عن الحق فقد كان داوود وسليمان صورة عالية للملك الذى يخاطبه الوحى ويهديه ويرشده، كما قال تعالى لداوود: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ (٢٦) ﴾[ص].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ﴾ أكد الله سبحانه أنه أعطى داوود وابنه سليمان علما، باللام وبقد فإنها تدل على التحقيق، ونكَّر سبحانه ﴿ عِلْمًا ﴾ للإشارة إلى أنه علم عظيم لا يقدر قدره، فقد أعطى داوود علم القيادة، وعلم إدارة الدولة، وعلم صناعة أدوات كما قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ (٨٠) ﴾ [الأنبياء] وأعطى سليمان علم منطق الطير، كما ستشير الآيات لذلك، وعلم الابن ثمرته تعود على الأب، فهو شخصه ممتد، وكسبه كَسْبٌ له كما هو مقرر بحكم الفطرة، ولذلك حمدا الله على ما آتاهما من فضله: ﴿ وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وكان التفضيل أولا بالعلم، وثانيا بالسلطان والحكم، وهذا يستوجب الحمد والشكر لا الظلم والطغيان، ونقول إن الله أعطاهما الذى أعطاه، وهو نعمة، وتكليف، فالمؤمن يحسب النعمة تكليفا، والتكليف بالنسبة للحكام العدل، وقد قص سبحانه وتعالى

قصص سليمان الذى ورث ملك داوود بالموارثة الملكية فقال:

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) ﴾.

ذكر الله تعالى وراثة سليمان لأبيه فى ملكه، فقد ورث هذا السلطان، ولم يرث الرعية، فالرعية لا تورث ولا يمكن أن تورث، وهذا خطأ بعض الذين تولوا الملك بالوراثة، فحسبوا أن الرعية شيء يورث، إنما الذى يورث هو الحكم ولا يكون إلا بوراثة يقرها الشرع، كوراثة سليمان لداوود، وقد أباحها الحكم الربانى ليجتمع شمل بنى إسرائيل أمام من ظلموهم، وأرهقوهم من أمرهم عسرا.

أخذ سليمان يبين لقومه ما أعطاه الله تعالى من مؤهلات الحكم، وما اختصه فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ ﴾، أى علم لغة الطير، وعرف ما تدل عليه أصواتها من معان تقصدها وتريدها، وذلك يدل على مقدار تمكين الله تعالى له فى ملكه وفى سلطانه عليهم، وأن الطير والدواب أمم أمثالنا لها لغة ولها منطق وعبارات مفهومة، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) ﴾ [الأنعام]. وقد ذكر الضمير ضمير الجمع لبيان مكانته من السلطان، وما أعطاه الله من قوة، وذكر أنه لم يؤته الله تعالى منطق الطير فقط، بل آتاه من كل شيء ولذا قال الله تعالى عنه: ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى من كل شيء علما، فعلمنا منطق النمل، ومنطق الأحياء كلها، وأوتينا علم القيادة، وعلم الحكم العادل، والضمير ضمير الجمع لبيان سيطرة السلطان العادل، وقيل الضمير له ولأبيه، ولكن لم يرد فى القرآن ما يدل على معرفة داوود منطق الطير، والنمل، وغيرهما من الأحياء، والله ذو الفضل العظيم، ولذا قال: ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ أى أن هذا العلم لهو الفضل الواضح المبين للحق والسلطان، وقد أكد سبحانه فضل الله تعالى عليه، وعلى أبيه من قبله بأن، وباللام، وبضمير الفصل.

جمع سليمان جنده، وقال تعالى فى هذا الجمع:

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

حشر: أى جمع لسليمان جنوده، ولم يكونوا من الإنس فقط، بل كانوا من الجن والإنس، والجن هم من العالم الذى لا يرى فى الظاهر، ولا غرابة فى ذلك فإن الذى علمه منطق الطير، يمده بالجن والإنس، وقد يقال: إن المراد بالجن طوائف من الناس ليسوا فى أرضه، ولكنهم جاءوا إليه مناصرين له، فهم يوزعون، الفاء للإفصاح التى تفصح عن شرط مقدر، أى إذا اجتمعوا فهم لم يكونوا مفرقين غير محكومين ولا مضبوطين، بل كانوا مدفوعين، إلى التجمع المنظم طوائف، بل كانوا متحرفين للقتال: جاء فى مفردات الراغب الأصفهانى فى كلمة وزع: قال وزعته عن كذا كففته عنه قال تعالى: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ فقوله يوزعون إشارة إلى أنهم مع كثرتهم وتفاوتهم لم يكونوا مهملين، ومبعدين، كما يكون الجيش الكثير المتأذى بمعرفتهم، بل كانوا مسومين ومقموعين، وقيل فى قوله يوزعون أى حبس أولهم على آخرهم.

والمعنى الجملى لهذا أن هذا الجيش الذى جمع القريب والبعيد والمؤتلف والمختلف قد كان مسوسا، ملتئما بقيادة حكيم، وقد سار الجيش سيرا حثيثا، وأحس به النمل، فتكلم ليرتب أمره، فقال تعالى عنهما.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

أتوا بمعنى أقبلوا على وادى النمل، ولذا كان التعدى بعلى، وقالوا إنه واد بالشام، ونقول: إن كل أرض فيها النمل، ويتخذ له مكانا يقيم فيه، ويكون كالوادى له، وحطم معناها كسر، ومعنى ﴿ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ ﴾، أى ليسير من فوقكم، فيحطم عظامكم، وقد أكدت النملة القول بما يشبه القسم، ولذا كانت اللام وكانت نون التوكيد الثقيلة، وأسندت الحطم أولا لسليمان باعتباره قائد

الجند، والجند جنده، فهو الذى يسند إليه الحطم أولا وبالذات، ولغيره بالتبع، وهم لا يشعرون بما يمرون عليهم من نمل.

سمع سليمان كلامها: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ وضاحكا حال مؤكدة لمعنى القسم، وهو يتضمن معنى التعجب من حرصها واهتدائها إلى النتيجة لمرور الجيش عليها، وعلى صواحبها، وإن ذلك دفعه لأن يتجه إلى ربه الذى أعطاه وأباه ما أعطى فقال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾.

لم يغتر، ولم يفخر، ولم يفاخر، بل عرف حق النعمة واتجه إلى شكرها، ودعا ربه ثلاثا.

أولا: ضرع إلى ربه أن يدفعه، فقال أوزعنى أى ادفعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت بها على، وعلى والدى، فإن هذه نعمة تحتاج إلى الالتجاء إليك لأتمكن من شكرها، وهى علىَّ، وعلى والدى فقد كان نبيا آتيته ما آتيت ولده سليمان، فكان ما أنا فيه نعمة علىَّ وعليه.

ثانيا: دعا ربه أن يوفقه للخير فقال: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾، أى أن أعمل عملا هو صالح فى ذاته وأن ترضاه بأن يكون خاليا من كل غرض غير رضاك سبحانك، إنك أنت المعطى، والمانع.

ثالثا: أن يكون فى ضمن عباد الله الصالحين، فقال: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾، أى أن الدخول فى الصالحين من عباده سبحانه هو برحمته سبحانه، لا بعمل قدمه، فكل عمل هو من فضله، وكل جزاء هو من رحمته.

رأى من النملة ما رأى، وكان بعد ذلك الطير.

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١)﴾.

يظهر أنه كان عند طائفة من الطير يتعهدها، ويسألها عن مآل أمرها،

فتفقدها بتعرف حالها، فلم يجد من بينها الهدهد وسأل عنه، وهذا قوله تعالى عنه: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ أى تعهدها، وتعرفها وتعرف حالها، فلم يجد الهدهد، فقال متعجبا ﴿مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾، وكان حفيا يأن يعرف، ويسأل مالى لا أرى الهدهد أهو غائب عن عينى متخف بين إخواته من الطير ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ بأن كان غائبا عن جماعة الطير التى كانت فى حوزته، وتحت قبضته، وإن له عقابا، ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ فـ (أو) لبيان تنوع المعاملة بتنوع الحال مثل قوله تعالى لذى القرنين، ﴿إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦)﴾ [الكهف]، فإذا كان قد غاب مستهينا مستهترا فإنى أعذبه عذابا شديدا، وإن كان متمردا فإنى أذبحه، وأكد العذاب والتذبيح بما يشبه القسم وباللام وبنون التوكيد الثقيلة، وإن كان غائبا لحاجة، فليأتينى بسلطان مبين أى بحجة بينة مبينة لأمر جديد.

والفاء فى قوله تعالى: ﴿فَقَالَ﴾ هى فاء الإفصاح، أى إذ تعهد الطير لم يجد الهدهد وإذ لم يجده فقال:

ولكن الهدهد كان ماكثا فى مكان غير بعيد.

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣)﴾.

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾، الفاء عاطفة ما بعدها على ما قبلها، أى فمكث غير بعيد أو زمانا غير بعيد، أى لم يقض وقتا طويلا مديدا فى مكثه، بل جاء فور التهديد الذى هدد به نبى الله سليمان عليه السلام، وجاء إليه يقول له: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ أى علمت علم إحاطة ومعاينة، لأمر لم تحط به، ولم تعلم به علم معاينة، وهكذا كان حظ الطير الضعيف أن يخاطب العظيم الذى أوتى كل شىء بالحرية وبالحق، ليعلم الحكام الجهلة، أن من واجبهم أن يواجهوا الحاكم بكل ما يعلمون وفيه مصلحة الدولة، وأن عليهم أن يتقبلوا شديد القول كما يتقبلون لينه ﴿جِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾.

النبأ هو الخبر العظيم الشأن البعيد الأثر، وهو يقين فى علمه، إذ علمه عن عيان ومشاهدة، وحضور، والنبأ الخطير الشأن العظيم، هو أنه وجد امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء، أى أن قومها آتوها من كل أسباب الحكم بالخضوع والطاعة، والاستسلام ما جعلها ملكة عليهم، ولها فى هذا الملك عرش عظيم ذو أبهة ورونق، وإشعار بعظم السلطان، وهذا قوله تعالى فى كلام الهدهد ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾، وقد أكد كلامه باللام وقد، وقال إنها تملكهم للإشارة إلى أن خضوعهم لها كخضوع العبيد لمن يملكهم، وبنى للمجهول إيتاؤها كل شىء، وهذا يفيد أن قومها آتوها أمرهم، ووضعوا رقابهم تحت سلطانها. وسبأ من خير أرض الله تعالى وأمكنها بخيراته، وقد قال تعالى فيها وفيهم: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ] ويقول الحافظ ابن كثير: وسبأ هم حمير وفيهم ملوك اليمن والمرأة التى كانت تحكمهم هى بلقيس بنت شرحبيل وكانت ملكة لسبأ.

وقال الهدهد الخبير الصادق الأمين:

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾.

كان فى هذا العصر أقوام عظموا الشمس لما فيها من دفء، ومن أشعة تحيى زرعهم، ولذلك شاعت عبادة الشمس فى أهل مصر، لأنهم أهل زرع، وفى سبأ؛ لأنهم أيضا أهل زرع وأهل حدائق غلب، فشاعت فيهم عبادة الشمس ضلالا

لعقولهم، وفسادا لتفكيرهم، واستجابة لدعاة السوء بينهم، وفعلوا هذه العبادة من دون الله، أى إنهم عبدوها دون أن يعبدوا خالقها الذى خلقها، وخلق كل ما يكون مما جعلها الله تعالى سببا لنمائه، وهو وحده الخلاق العليم.

وذلك لاستيلاء الشيطان على قلوبهم، ولذا قال عز من قائل: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ﴾.

إنه من الحقائق النفسية الثابتة أن أول الشر استحسانه، فالشيطان يزين أعمال السوء للفاعل ويحسنها له، ويظن أنها الخير وحدها، وأن ما عداها باطل، وفرق بين المهتدى وغير المهتدى، أن من هداه الله يميز الخبيث من الطيب، فلا يتردى فى باطل، وإن تردى فيه سرعان ما يعود إلى الحق، ولا يقبل وسوسة الشيطان بالشر، وليس قلبه موضع لتزيينه، ثم قال ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾، أى أنهم بسبب تزيين الشيطان لهم قد مكنوه من أنفسهم، فصدهم عن السبيل، أى لعلهم يعرضون عن الطريق المستقيم فى ابتدائه، ومن ضل فى أول الطريق سار فى ضلال إلى آخره، ولذا قال مرتبا على ذلك: فهم لا يهتدون، أى فهم يسيرون فى ضلال غير مهتدين إلى الحق إلى النهاية، حتى يكون الحساب والعقاب: ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

يصح أن نقول إن قوله تعالى: ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ حرف جر محذوف، وحذفه كثير قبل أن وما بعدها.

والمعنى كان ذلك التزيين والصد وعدم الاهتداء فى ذاته لأن لا يهتدوا إلى عبادة الخالق الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض.

ويصح أن نقول: إنه متعلق بـ ﴿زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أى أنه حسن ذلك فى قلوبهم ليصرفهم عن السبيل، ويكون التركيب هكذا زين لهم ألا يهتدوا إلى عبادة الله تعالى الذى يخرج الخبء.. إلى آخره.

و(الخبء) ما ستره الله تعالى حتى يخرجه للناس، فخبء السموات مطرها، حتى يحين حينه، ويدرك إبانه، وكل شيء عند ربك بمقدار.. عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال.

وصف الله تعالى المعبود بحق بثلاث صفات هى أعلى الصفات لواجب الوجود، وكل صفاته عليا.

الصفة الأولى: أنه هو الذى يخرج خبء السموات بالمطر الذى ينبت الزرع والنخيل والأعناب، ويخرج به خبء الأرض، بفلق الحب والنوى، وإخراج المتراكب الذى يكون به غذاء الأحياء.

الصفة الثانية: أنه يعلم ما يسر وما يعلن الإنسان، فهو عليم بحاله فى حركاته وسكناته، وما يفعل من خير وشر، ومجازيه على كل ما يفعل، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وفيها تبشير بالجزاء، وإنذار بالعقاب.

الصفة الثالثة: أنه لا إله إلا هو، فهو وحده المتصف بصفات الكمال التى توجب عبادته، وهو صاحب السلطان رب العرش العظيم.. صاحب السلطان الكامل فى هذا الوجود.

سمع سليمان الملك العظيم الذى آتاه الله تعالى علم منطق الطير والنمل، وسائر الأحياء كما يبدو من عظم حكمه، وتكميل الله تعالى لسلطانه، فلم يحكم بمجرد السماع، بل قال كما حكى الله تعالى عنه:

﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) ﴾.

كان سليمان ملكا حكيما لا يجعل علمه قيما يقضى فيه من سمعه فقط، فإن ذلك أضل الملوك، وهو الذى يوصف بأنه أُذُنٌ فتكون الحاشية وليه الذى يسيطر عليه، ولذا قال للهدهد: سننظر أى أننا نؤكد أننا سننظر فى حقيقة ما جئت به إلينا، أصدقت أم كنت من الكاذبين. الاستفهام فيه إيماء إلى تغليب

الكذب؛ لأنه فى معادلة الكذب تكلم بما يوهم أنه ربما يكون كاذبا، فقال ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾، فقد ذكر احتمال الكذب بما يفيد قربه، فأكده بالوصف بالكذب، وبكان الدالة على الدوام، وبكونه أن يكون من صفوف الكاذبين.

وانتقل نبى الله الملك، إلى مقام التيقن فقال له: ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾.

كما كان الهدهد هو المخبر بحالهم جعله حاملا رسالته إليهم قال له: ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ والجار والمجرور متعلق بمحذوف تقدير القول فيه، فألقه موصلا له إليهم.

ولم يتعرض القرآن لبيان طريق توصيل كتاب سليمان إليهم، وقد قيل إنه أوصله من الكوة التى تشرق عليها الشمس منها لتعبدها فيها، وقيل: إنه جاء إلى جمعهم، وألقى الكتاب المختوم بخاتم الملك لسليمان، فألقاه عليهم وهم يجتمعون، والله تعالى وحده العليم كيف أوصل إليهم الكتاب، ولا نتعرض لبيانه، لأنه لو لم يعلمنا به الله فحق علينا التوقف، كما قال تعالى: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ (٣٦)﴾ [الإسراء]، ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ العطف بـ (ثم) فى موضعه، أى ألقه متأكدا، وصوله إليهم، وبعد تأكد ذلك تول عنهم وانصرف غير بعيد لتكون مترقبا ماذا يرجعون، أى ماذا يرجعون أو يردون ذلك الخطاب، والواقع أنهم لا يرجعون الكتاب، إنما يرجعون ما تضمنه الكتاب من دعوة لعبادة الله وحده، والاستسلام لسليمان والخضوع لحكمه كما يبين مضمون هذا الكتاب عند استفتاء قومها.

وصل إليها الكتاب، فعرضته على قومها:

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١)﴾.

جمعت قومها تستفتيهم فى الأمر الذى جد وكانت حكيمة إذ جمعتهم وفوضت الأمر إليهم ليروا فيه ما يرون، عرضت عليهم صيغته ووصفته بأنه كتاب

كريم، فقدمت القول الحسن، الاحترام والتجلة، ووصفت الكتاب بأنه كريم طيب داع إلى خير لا فساد، وتلت عليهم الكتاب وهذا نصه:

﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١)﴾ ابتدأ بذكر المرسل واكتفى باسمه، ويظهر أنه كان معروفا بين ملوك الأرض، لأنه أقواهم، وأعظمهم قدرا وأوسعهم سلطانا، وعلما ومعرفة، وهل هناك علم أعلى من أنه يعرف منطق الطير، ومنطق الأحياء، وإنه أوتى من كل شيء قوة وعلما، قوله: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أن هنا مخففة من الثقيلة، أى أنه الحال والشأن لا تعلوا علىَّ وتستكبروا وتتعاظموا على حين تكون مغالبة، وائتونى مسلمين، وفى كلمة مسلمين إيراد الإيمان بالله وإسلام وجوههم لله تعالى، قال بعض المفسرين ذلك، وقال بعض المفسرين: المراد أن يستسلموا له ويخنعوا له، وبعد ذلك تكون دعوة الإيمان والإسلام، وأميل إلى هذا، لأنه المناسب لقوله: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ﴾.

وقد استرسلت الملكة العاقلة فقالت:

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢)﴾.

جمعت قومها، واتخذت خطابها مع أشرافهم وذوى الرأى فيهم الذين يولون ويعزلون، وقالت لهم: ﴿أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ . وأضافت الأمر إليها، إذ هى المسئولة عنهم، والمخاطبة بأمر القوم عنهم، وأخبرتهم أنهم لا تبت فى أمر وتقطع فيه برأيها منفردة دونهم ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون، حتى تشهدوا الأمر وتعاينوه، ونكون معا، والنون نون الوقاية، وياء المتكلم محذوفة أى حتى تشهدونى، أى حتى تحضروا معى وأتبادل الأمر معكم لنعرف ما يكون فيه خيركم. أجابوها بما يقوى عزمها ويشد أزرها ويطمئن حكمها كشأن حاشية الملوك، ومدبرى الأمر معهم قالوا: ﴿نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣)﴾ أجابوا بثلاثة أمور مطمئنة ملقية فى نفسها روح الاطمئنان على حكمها وسلطانها.

أول هذه الأمور الثلاثة ﴿نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ﴾، أى أصحاب قوة فى استعدادنا من حيث العدد والذخيرة، وكل ما يحتاج إليه الجند القوى المستعد، **وثانى هذه الأمور** أنهم ﴿أُوْلُوا بَأْسٍ﴾ ،أى أهل همة ونجدة وشجاعة لا نفرط فى الدفاع أو الجهاد إذا دعا داعيه، وإن بأسنا شديد، لا نتخاذل فى حرب .

الأمر الثالث: أن القيادة كلها (الأمر إليها)، ولذا قالوا: ﴿وَالأَمْرُ إِلَيْكِ﴾، أى نحن نتعاون طائعون فالأمر إليك، ﴿فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أى إذا كان الأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين، أى انظرى فى نفسك الذى تأمرين به؛ لأن الاستعداد كامل تنفيذ الذى تأمرين به كاملا غير منقوص.

قالت لهم بعد أن دبرت أمرها، وتعرفت مآل أمرها، وحالها.

﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥)﴾.

قدرت ودبرت ورأت المسالمة بدل المقاومة رهبا فى الملك، ورغبا فى موادته، قالت محذرة من غلوائهم ومقدرة أمرها وأمرهم: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ والقرية هى المدينة العظيمة التى تكون مكونة من جموع كثيرة متكاثفة، ودخولهم القرية العظيمة يكون بحرب جائحة تأكل الأخضر واليابس، وهذا هو الفساد والخراب، فلو أمكن، وفى شر ذلك ما قد يكون خيرا، وذكرت أمرا آخر يفعله الملوك، وهو أن يجعلوا أعزة أهلها أذله، إنما يقلبون الأوضاع فيها فيجعلون من هم فى موطن العزة والسلطان، هم الذين يكونون فى موطن الذلة والهوان وإنها فى ذلك تشير إلى خوفها على نفسها من أنها فى السنام منهم قد تكون غير ذلك، وأنهم لهاميم قومهم قد يكونون فى غير مواضعهم، وسجلت أن ذلك حال الملوك دائما وهو شأنهم، ولذا قالت: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، أى ذلك شأنهم دائما. وكان التعبير بالفعل المضارع لتصور حالهم المستمرة الدائمة كأنها شأن من شئونهم، وغاية لهم.

اتجهت بعد ذلك إلى الملاينة والمسالمة بالإهداء، والإهداء من المحبة، ويؤدى إليها إذا لم يكن من ترسل إليه الهدية ملكا ولذا قالت لملئها: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ ذكرتهم بصيغة الجمع، لأن الملك يكون معه جيش وأقوام، وهى ترسل إليهم جميعا بهدية، ويظهر أنها لا تتوقع الأمان المطلق ، بل كانت تتوجس منهم خيفة، ولذا قالت: ﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ والفاء عاطفة، ناظرة بمعنى منتظرة مترقبة الأمر الذى يرجع به المرسلون، أسلام وأمان، أم حرب ودمار.

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦)﴾.

هذا وقع الهدية فى نفس نبى الله وملك الأرض الذى علمه الله تعالى منطق الطير، وجاء لسليمان أى جاء الوفد وقابل سليمان، ومعه الهدية التى أرسلتها الملكة، خاطب نبى الله وملك الأرض الوفد مستحقرا الهدية، ومستهينا بتفكير مرسليها ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾، أى أتجعلون المدد الواصل بينى وبينكم مالا والمال هين على وهو عندى بل عندى ما هو خير منه، ﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم﴾ آتانى الملك العظيم القوى، وآتانى العلم بكل شىء ومن شئون الدنيا آتانى علم منطق الطير والأحياء، وآتانى من كل شىء، ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾، بل للإضراب الانتقالى ورد للهدية، أنتم تفرحون بهديتكم، ولا تفرحون بغيرها، لأنكم ماديون، لا تفرحون إلا بالمادة وما يتصل بها من أمثالها. وتقديم الجار والمجرور بهديتكم - للقصر والاختصاص، أى لا تفرحون إلا بها، ثم هددهم نبى الله بالجيوش الجرارة، فقال:

﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧)﴾.

كان الخطاب بالمفرد؛ لأنه الوفد الذى يخبرهم بأمر سليمان، وما استعد به لهم، فلنأتينهم الفاء عاطفة دالة على الترتيب والتعقيب أى فور رجوعهم لنأتينهم، وقد أكد غزو الشرك بالقسم، ولام القسم، ونون التوكيد الثقيلة، وقد أكد إرسال

الجيش، وأكد نتيجته، بقوله: ﴿لَنُخْرِجَنَّهُم﴾ والإخراج يصح أن يكون المعنى إبعادهم عن سلطان الحكم، فلا يكون لهم رأى ولا إرادة، وكأنهم المخرجون، وأذلة أى كونهم أذلاء صاغرين أى منحطين إلى المنزل الدون راضين بذلك؛ لأنه لا قدرة عندهم على تغيير حالهم، والتفكير فى أمرهم، كان هذا رد الملك النبى، وما كان ليسكت عن قوم يعبدون الشمس ومشركين، فهو ملك نبى ونبوته لا تتأخر، بل هى العامل الأول المسير لملكه دائما.

بعد ذلك أخذ يفكر فى تعرف حالهم، وإظهار القدرة التى منَّ الله بها عليه، فأراد أن يختبر ذكاءها قال:

﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨)﴾.

العرش كرسى السلطان، وقد سبق أن وصف الهدهد ذلك العرش بأنه عرش عظيم، قد أوتى من الأبهة والزخرفة الكثير، وإنه دليل على كمال السيطرة، وكمال الثروة، وما الذى يطلبه نبى الله الملك من الملأ من قومه أهو أن يأتوه به ذاته، ذلك ظاهر القول، ولو يوجد ما ينفى الظاهر، ونحن نأخذ بظاهر القول ما لم يوجد من الاستحالة العقلية ما يخرجنا من الظاهر إلى غيره، فالأمر كله لا غرابة فيه، فالنمل يتكلم، ويسمع كلامه ويفهم، والطير يتكلم ويفهم، ويرسل فى رسائل وكتب إذن فلا غرابة فى أن يأتى بعض الملأ بذات العرش.

وقد قال بعض الذين يتكلمون فى معانى الذكر الحكيم. إن الذى طلبه نبى الله تعالى هو أن يأتوه بصورة العرش لا ذاته، ونحن نرى أن هذا التأويل وإن كان محتملا لا نرضاه؛ لأنه غير ظاهر اللفظ، وظاهر اللفظ يسير فى مؤداه ما دام لا يستحيل، وقوله قبل أن يأتونى مسلمين يقول إن الإسلام هنا هو الخضوع، ويصح أن يكون المعنى الإسلام الحقيقى، وهو شهادة أن لا إله إلا الله، وإنا نميل إلى الأول؛ لأن الإسلام بشهادة الحق جاء بعد ذلك عندما قالت بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)﴾.

أخذ الملأ ممن حول سليمان يعملون على إجابة طلبه.

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) ﴾.

العفريت، قال ابن قتيبة إنه الموثق الخلق أى القوى فى بنيانه، وقد كان الجن من جيش سليمان، ونسير بالكلام على ظاهره من غير محاولة تأويل، لأنه ليس عندنا مسوغاته، ولا نعمل الفكر فيما لا يسوغ فيه، قال القوى من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك أى من مجلسك هذا، وإنى عليه لقوى أمين، وقد أكد قوته وأمانته بعدة مؤكدات، أولها بأن والثانى باللام، والثالث بكلمة عليم، وفيها إشارة إلى أنه فى قبضة يده.

ولم تبين الآية كيف يكون ذلك، ولنسلم بظاهر الآية، غير متكلفين، فالله تعالى أمر بعدم التكلف فقال ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) ﴾ [ص].

ولكن الملك نبى الله عليه السلام استطال هذه المدة، فتقدم عليه بعض الذين أوتوا علم الكتاب.

﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) ﴾.

وصف الذى أتاه قبل أن يرتد إليه طرفه بأن عنده علم الكتاب، فما هو هذا الكتاب، أهو السجل المحفوظ، أم كتاب من كتب العلم والمعرفة، ومن أى جنس، أهو من الإنس أم من الملائكة، لم يبين القرآن قبيله ولا كتابه، فكان حقا علينا ألا نتعرف ما لم يعرفنا الله به، إذ لا سبيل لذلك، ولم يرد عن السنة ما يوضح ذلك بخبر صحيح يمكن الاعتماد عليه.

وإن هذه سمعيات يجب التصديق بها والإذعان لها، وكثير من قصة سليمان أمور غيبية توجب الإذعان ويكتفى بالإيمان بظواهرها، غير متأولين، ولا قافين ما

لا نعلم، وقد نقول إن علم الكتاب علم ربانى يؤتيه الله من فضله من يشاء من عباده إنه عليم خبير.

وارتداد الطرف أن ينظر إلى أمر بتحديق عين، ثم يرد إليه بعد النظر المتحدق، وهو لا يتسع لزمن قل أو كثر؛ ولذا قال بعد ﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ ﴾ الفاء للعطف والتعقيب، أى أنه عقب قول صاحب علم الكتاب رآه مستقرا عنده، أى موجودا قارا ثابتا عنده، لا يتصور بعده عنه بعد ذلك، كانت هذه نعمة على سليمان تستوجب الشكر، ولذا قال معلنا أن ذلك اختبار من الله، قال: ﴿ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ يقرر فى هذه الجملة السابقة - ما يقرره النبى الملك، يقرر أولا أنه فضل من الله ليس إلا نعمة أعطاها عطاء ومنًّا من غير سابق طلب، ويقرر ثانيا أنه يعامله معاملة من يختبره أيكون من الشاكرين للنعمة القائمين بحقها، أم الكافرين الذين يجحدون، ويغترون ويعاندون ويحسبون أن ذلك استحقاق وليس عطاء ثم يقول: ﴿ مَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾، أى فإن شكره يكون عائدا على نفسه، لأنه يفعل الخير، ويثابر عليه وثمرة ذلك تعود عليه، ولأن من يشكر النعمة يزيده الله منها، كما قال تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) ﴾ [إبراهيم] أى ومن يكفر ليغتر ويجحد ويعاند، فإنه يضر نفسه، ولكن لا يقطع بفضل الله ولا منه وفضله وكرمه، فالله غنى لا يحتاج شكر عباده، وكريم يعطى دائما والحساب فى الآخرة.

يظهر أنهم قد حاولوا أن يكونوا قريبين من سليمان، أو أن يحضروا مستسلمين، أو أنها أعلنت المجىء إليه مستسلمة، ولذا قال الله عن سليمان:

﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) ﴾.

التنكير جعل العرش فى وضع أو حال بحيث لا يعرف، ولذا قيل: إنه وضع فى وسط أمتعة متفرقة مختلفة بحيث يصعب تعرفه فى وسطها، وروى ابن

عباس ومن أخذ عنه أنهم غيروا فى ألوانه، وأخذوا بعض ما فيه من جواهر، ونرى أنهم لم يغيروه، ولكن نكروه، ننظر جواب الأمر أى لننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون، أى لننظر فاحصين ذاتها، ألها نظرات ثاقبة، تصل من ورائها إلى الحقيقة محصين مدركين واصلين، أم هى من أهل الغفلة الذين لا يهتدون، ولا يمحصون ولا يدركون.

وقد تبين من الاختبار أنها واعية مدركة، وأن النساء يدركن دائما ما يتعلق بالفراش وزينة الحياة الدنيا، ولذا علمت، وإذا كان قد اعتراها نوع تشكك، فلغرابة أن يجيء إلى نبى الله سليمان قبل مجيئها.

﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ لم تقل إنه هو من قبيل الحرص؛ لأنها رأته بعينها ولكن كانت الغرابة فى أنه جاء قبلها فتساءلت فى ذات نفسها، كيف جاء، وبأى طريق وصل، هذا هو الذى تحترس من أن تقول هو هو - بل قالت كأنه، وقال سليمان مؤكدا أنه هو: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ أى أوتينا العلم به المستيقن المحسوس من قبل مجيئها، وقد يعلل بهذا من قال: «إنها صورة العرش لا ذاته» وما كان لنا أن نترك الظاهر الذى يبين اليقين بعبارة موهمة غير قاطعة ثم قال: سليمان: ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ أى مذعنين للحق ببيناته.

وإن هذه الأحوال كلها خوارق للعادات مثبتة نبوة سليمان، وفى الحق أن سلطان سليمان قد قام كله على خوارق للعادات، وكان الزمن زمن المادة والأسباب، والمسببات، فكان هذا الملك قرعا لأسماع الماديين المتعلقين بالأسباب والمسببات العادية، ويحسبون مخطئين أنها قانون الوجود.

وذكر سبحانه وتعالى حالها فقال:

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣)﴾.

وهنا نجد كتاب الله تعالى الذى ينصف فى كل أحكامه، لا تجد فيه عوجا ولا أمتا، فالله سبحانه يبين على لسان نبيه الملك أنه صدها عن سبيل الله ما كانت

تعبده من دون الله تعالى من الشمس التى هى من خلق الله تعالى الدالة على كمال قدرته سبحانه، وقال: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ وهذه الجملة السامية فى مقام التعليل: الشيطان يصدها عن السبيل القويم أى أنها كانت فى بيئة كفر؛ لأن قومها وأجدادها قد توارثوا الكفر، فكانوا أبعد الناس عن إيمان، فمرنت على الكفر، واعتنقته، وعبدت ما يعبدون من دون الله.

بين الله من بعد ذلك على لسان سليمان ما يرغب أمثالها من النساء، وهو أن الملك يملك من زخارف الحياة ما ليس عندها، وما يبتهر فقال:

﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)﴾.

الصرح، القصر العالى المزخرف، ودخلت الصرح، فدخلت صحنه، وهو ممرد أى مملس ملمسه ناعم وله بريق بسبب تمريده، وإزالة كل خشونة فيه حتى يحسبه الرائى لتنسيقه، وكأنه لجة من الماء، فحسبته ماء فى صحن الصرح وخشيت على ثيابها المزخرفة فرفعتها، وكشفت عن ساقيها، فنبهها سليمان إلى أنه ليس بماء وإنما هو صرح ممرد من زجاج يبدو بادئ الرأى كأنه لجة ماء وما هو بماء، فقال لها: إنه صرح ممرد من قوارير، أى من زجاج تكون منه القوارير، وهى جمع قارورة.

أدركت السيدة بلقيس، وهى تروعها الزخارف كما تروع كل النساء، فكرت فى ماضيها إذ كانت تعبد الشمس، وسليمان يعبد الله تعالى، وقد آتاه الله من النعم ما لا يمكن أن يكون لأحد غيره، فاهتزت، وعلمت أنها كانت على باطل،

وأنها ظلمت نفسها بما كانت عليه، قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أقرت بأنها ظلمت نفسها بعبادتها الشمس، فالشرك

ظلم للنفس وطمس للقلب، وأى طمس للعقل أكبر من أن يعبد الشمس. وهى مخلوقة لله تعالى، ويترك الخالق وهو الله سبحانه وتعالى ونادت الله تعالى بلفظ الرب إيمانا بالربوبية الكاملة. وأكدت ظلمها للنفس بإن الدالة على التأكيد، وجعل الظلم واقعا على نفسها، وإذا كانت قد علمت أن الشرك ظلم عظيم للنفس، فقد خلصت لله تعالى، ولذا قالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أى سلمت نفسى مع سليمان لله رب العالمين، وذكر معيتها مع سليمان؛ لأنه هو الذى دعاها وأرشدها، وذكر الله تعالى موصوفا بأنه رب العالمين، أى الخالق القائم على العالمين بالتدبير الحكيم.

من قصة صالح وثمود

قال الله تعالى:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا
هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ
بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ
عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ
رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟
تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا
مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا
وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥١ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝٥٢﴾ ۝٥٣

بعد ذكر قصة سليمان ملك الأنبياء، وكيف كانت حياته وملكه ونبواته معجزات متوالية، وكل شيء كان يجرى بأمر خالد، ذكر سبحانه قصص بعض الأنبياء، وابتدأ من بعده بصالح، وهو صورة لنبى لم يكن ملكا بل كان من الشعب، همَّ قومه أن يقتلوه.

وليس فى قصة صالح وثمود تكرارا، بل ذكر فيه ما لم يذكر فى غير هذا الموضع، ولم يذكر فيه ما ذكر فى غيره، لم تذكر المعجزة وهى الناقة، وما كان منهم من اعتداء عليها، وذكر هنا الائتمار على قتل صالح وامرأته، ولم ينجه منهم إلا إنزال العذاب بهم، وما ترك العذاب فيهم من عبر.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ۝٤٥﴾.

الواو استئنافية أكد الله تعالى الإرسال حيث دعت دواعيه، وأكده باللام، وقد، وإضافة الإرسال إلى ذاته العلية، وذكر سبحانه أن الإرسال كان بإرسال أخيهم أى أنه واحد منهم يعرف أمرهم وحالهم، وهو رءوف عليهم شفيق بهم قد عرفوا صدقه وأمانته وحبه لهم، وإلفهم به، وكانت الرسالة هى عبادة الله تعالى وحده؛ ولذا قال: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أن تبشير لمعنى الرسالة، وعبادة الله لا تتحقق إلا بأن تكون العبادة لله تعالى وحده، لا يشرك به شيئا، فإذا عبد مع الله غيره فقد أشرك ولم يعبد الله تعالى، لقد كانوا يعبدون الأوثان فلم يكونوا يعبدون الله فكان أمرهم بعبادة الله وحده متضمنا لنهيهم عن عبادة غيره من الأوثان وغيرها،

وإن الشرك أمر تنكره العقول المستقيمة، وتعافه النفوس القويمة، ولذا كانت المفاجأة ألا يختلفوا فى عبادة الله فمنهم من اهتدى ومنهم من حقت عليه الضلالة، ولذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾، الفاء وإذا للمفاجأة الفاء واقعة لترتيب ما بعدها على نقيض ما قبلها، ولذا كانت المفاجأة بها وبإذا بعدها، فريقان: فريق أطاع واهتدى، وفريق ضل وغوى، وهم يختصمون أى يختلفون ويكون كل فريق خصما للآخر يجادله لإثبات الحق والدعوة إلى الحق، ويستمسك الباقون على شركهم بما كان عليه آباؤهم.

وقد أنذر صالح الضالين بالعذاب الشديد، وأن الله تعالى آخذ بالنواصى، فقالوا كما فى آيات أخرى: ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين، ولكنه يرجو لهم الهداية بدل العذاب.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦)﴾.

قال لهم صالح رأفة بهم، وإن كانوا يرأفون بأنفسهم، ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾، ابتدأ بالأمر الذى يربطه بهم، ويوجب محبتهم والحدب عليهم، وهو أنهم قومه الذين يرتبط نسبه بنسبهم، تنبيها لهم إلى ما فيه رحمتهم ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾، أى تطلبون فى استعجال الأمر الذى يسوء وهو العذاب الأليم الذى تهددون به، وهو العذاب الذى يسوء، وتقدمون ما يسوء على الحسنة، وهو الإيمان الذى هو حسن فى ذاته، وحسن لكم إذ من ورائه الثواب بدل العذاب، والاستفهام هنا للاستغراب، وللتوبيخ، ولبيان أنهم يطلبون ما فيه الأذى بدل ما فيه الإكرام والثواب، وينبههم إلى ما يجب أن يطلبوه، وهو مغفرة الله والإيمان به، فهو طريق الخير، فيقول: ﴿لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ و(لولا) هنا للحض على طلب المغفرة، أى هلا تطلبون مغفرة الله رجاء منكم أن ترحموا بالإيمان بالله وحده، وترك الشرك، والإذعان لله تعالى، ففى هذا رحمتكم، وأن توقوا عذاب الجحيم، ولكنهم يلجون فى الكفر، ويتهمون نبيهم بأن دعوته شؤم عليهم.

﴿ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

التطير تعرف مستقبل الأمـر عن طريق بأن تثأر الطير من وكناتها، وباتجاهها يتفاءلون أو يتشاءمـون، وهو هنا التشاؤم، أى أنك يا صالح كنت أنت ومن معك من المؤمنين سببـا لتشاؤمنا منكم بوجودكم، كـأنهم يقولون لهم أنتم نحس علينا، فلا يصح أن تدعـونا إلى ما تدعوننا إلـيه، فرد عليـهم صالح بأن تعرفـهم الغيب بالطيرة أمر باطل إنما علم الغيب الذى تتعرفونه بالطير هو عند الله تعالى وحده فلا يعلم الغيب إلا الله وحده، ولا يعلم أحد إلا بإعـلامه، فمعنى طائركم عند الله، علم الطائر الذى تدعـونه لأنفسكم عند الله وحـده علام الغـيوب، ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾، أى تمتـحنون بتلك الأوهام عليكم فـتحـتسبـون التطيـر يسعـدكم أو يشقيكم، وأنتم تمتحنون وتعذبون بالسير فى طريق العذاب الذى يستقبلكم، فالفتنة هنا معناها الاخـتبار وتسلط الأوهام علـيكم، وسيؤدى هذا الامتـحان حتـما إلى العذاب الأليم، عذاب الدنيا والآخرة.

استـمر صـالح فى دعـوته تبليغـا لرسالة ربه، ومـعه الفـريق المؤمن الذى يخاصـمه الفريق الكافـر إلى أن تململوا به، وبمن معه، وأرادوا قـتله، وأن يتوزع دمه، وهذا قوله تعالى.

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

الرهط الجماعـة من الناس، والإضافة بيانيـة، والمعنى وكان فى المدينة التى كانت مبعث صـالح تسعة رهط أى جماعة مـتحدة المشاعر والأحاسيس يجـمعها العداوة للرسالة، والتآمر عليها، وهذه الجماعة من أوصافها أنها تفسد ولا تصلح، وقد كـانت الرسالة الإلَهـية لإصلاح هؤلاء، ومنع لإفـسادهم عن الجمـاعة، ولا يهـمنا أكـانوا من الكبـراء أم كانوا من الأصـغـرين بيـد أن عمـلهم يكشف عن فسادهم، ﴿ فقَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾، قالوا تقاسموا، أى أن قولهم هو

التقاسم على موته وأهله، فهما بدل ومبدل منه أو الثانى عطف بيان للأول، ومعنى تقاسموا أن كل واحد منهم تبادل القسم مع الباقين، والقسم بالله، ولا غرابة فى ذلك فقد كانوا يعرفون الله وأنه خالق كل شيء ولا خالق غيره، ولكنهم يعبدون الأوثان لتكون زلفى إليه سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا.

وموضوع القسم ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ أى لنجيئنهما بياتا وهم نائمون، ويقتلونهم، ويهلكونهم، ويجيئون بيمين كاذبة يقولون ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون. يقولون لولى دمه من أهل وعشيرة، ويدعون أنهم صادقون، وإنهم لكاذبون وهم بذلك يدبرون جريمة، ولكن الله رادٌّ كيدهم فى نحرهم، وهو محيط بهم، ولذلك قال تعالى:

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٠)﴾.

دبروا هذا التدبير الآثم وسماه الله تعالى مكرا، وقد أحكموا التدبير، وأحاطوه بما يضمن التنفيذ بإحكام، ولذا أكدوه بالمفعول المطلق مكرا، والله من ورائهم محيط، ولذا دبر لعبده، وسمى تدبيره الحكيم مكرا من قبيل المشاكلة اللفظية؛ ولأن المكر هو التدبير، ويكون فى الخير والوقاية من الشر، كما يكون فى تدبير السوء كما كان منهم، ومكر الله تعالى لإحباط تدبيرهم الخبيث، وهو القضاء على الفساد والمفسدين، وهم لا يشعرون أن الله محبط عملهم، و مبطل تدبيرهم وذلك بالقضاء عليهم قبل أن ينفذوا.

أصابتهم صيحة خربت ديارهم ، وأفسدت تدبيرهم، ولذا قال سبحانه:

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١)﴾.

الفاء للإفصاح، أى إذا كان الله قد دبر لرسوله كما دبروا آثمين، فانظر كيف كان عاقبة مكرهم، وأن ما أنزله الله تعالى من عذاب مدمر كان بسبب اعتزامهم قتل صالح وأهله، وما كان الله تعالى ليذر رسوله نهبا لهم يغتالونه، بل إنه سبحانه لهم بالمرصاد، قتلهم قبل أن يقتلوه، فجاءتهم الصيحة، فأصبحوا فى

دارهم جاثمين، ﴿دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وصار الذين كانوا يهددون هم مساقط الأحجار، وموطئ المارين.

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣)﴾.

الفاء أيضا للإفصاح، أى إذا كانوا قد مكروا ودبرنا لحماية الحق فتلك بيوتهم خاوية، والإشارة إلى البقاع التى كانت لثمود، وقد أهلكهم الله تعالى بالصيحة، وخاوية أى فارغة لا ساكن فيها، ولا أحد يجىء إليها، ويكون من خوى إذا فرغ، وخلا ويكون تشبيها لأرضهم فى خلوها من أهل، بالبطن إذا خلت من الطعام، وكان المآل الهلاك والبوار، فإن المكان الخالى من السكان مآله البعد، وأما إن خوى بمعنى سقط، فهى ساقطة متهدمة، من قولهم خوى النجم إذا سقط تهدم.

ولقد استغلظت قريش فى معاملتها للمؤمنين الذين كانوا الخلية الأولى للإيمان، واستهانوا بهم، وحسبوا أنفسهم الأقوياء على الرسول، وهذا الذى فعله سبحانه مع ثمود آية لهم دالة على أن هلاكهم يسير إذا أراد الله، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، أى لآية دالة، ما يعقب الكفر والاعتداء لقوم يعقلون، وهذا دعوة لقريش ليعقلوا ويتدبروا عاقبة أمرهم.

هذا هلاك الكافرين المعتدين أما الذين آمنوا فقد نجاهم الله فقال: ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾، أى الذين أذعنوا للحق وآمنوا به، وهدموا الأوثان، وكان من شأنهم التقوى وخوف الله تعالى ووقاية أنفسهم من غضب الله، ورجاء رحمته، وعبر بالمضارع لتصوير حالهم فى تقواهم.

كان ينتهى الجزء التاسع عشر عند قوله تعالى ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾، أى قوم لوط، وبها يبتدئ الجزء المتمم للعشرين، ولكنا آثرنا أن يبتدئ الجزء بقصة لوط.

من قصة لوط

قال تعالى:

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ
أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ
ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾
۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ
لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ
وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا
عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾

الواو عاطفة وتكون كلمة لوطا معطوفة على صالحا، ويكون المعنى ولقد أرسلنا لوطا إلى قومه، وإذ متعلقة بالفعل المنوى ذكره لعطف النسق، أى أرسلنا لوطا إذ قال لقومه، أتأتون الفاحشة أى الفعلة الفاحشة البينة الزائدة عن أن تدرك فى أى عقل، والحال أنكم تبصرون مدركين فحشها عالمين قبحها، والاستفهام إنكارى لإنكار الواقع، فهو توبيخ على وقوع فعلهم، وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ فيه إشارة إلى أن البصر يكفى لإثبات قبحه فهو قبيح حسا وطبعا وعقلا، إذ هو بالحس وضع للشىء فى غير موضعه، واستعمال للمكان فى غير ما خصص له بمقتضى الفطرة السليمة، وقد وضح لوط عليه السلام لهم قبح فعلهم بالتوضيح الواضح، بعد التلويح اللائح، فقال:

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

الاستفهام داخل على أمر مؤكد وقوعه، فالاستفهام ليس لشك فى وقوع

الأمر بل لغرابة فى الوقوع المؤكد، فالاستفهام بلا ريب يفيد استغراب هذا الواقع المؤكد، وهو إتيان الرجال شهوة من دون النساء، ووجه الغرابة: أولا أنهم يجعلون الرجال فى موضع النساء، وذلك فساد فى الفطرة أى فساد، ووجه الغرابة ثانيا، أن الإتيان لأجل الولد، وهذا ليس موضع الحرث المنتج، ووجه الغرابة ثالثا، أنه فاحشة فى ذاته، إذ هو فساد، وقال سبحانه بعد ذلك: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

بل للإضراب الانتقالى، وكأنه إضراب عن بيان غرابة أفعالهم، لأنه لا غرابة ممن شأنه أن يجهل ولا يتحرى الصواب فى أفعاله، بل إنه حائر بائر، لا يفعل إلا ما يجهل ، ولذا عبر بالمضارع المصور لحال الجهل الذى لا تصدر عنه أفعالهم إلا وهم يجهلون، وسجل سبحانه وتعالى عليهم أنهم لا يفعلون إلا ما هو مجهول عند أهل العقول السليمة، أولا بالجملة الاسمية وبالخطاب المواجه المصور الموبخ، وبالتعبير بالمضارع الدال على تصوير الجهل المستمر الذى يدل على أن الجهل حال دائمة لا تنفصل عنهم.

وإن الباطل ينفر من الحق، ولا يستطيع أن يواجهه، ولذا اتجهوا إلى إخراج لوط ومن معه من الأطهار من بينهم.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

الفاء للإفصاح عن شرط مقدر، أى إذا ما كانوا على هذه الحال من سيطرة الجهل، فإن الجهل لا يطيق الطهارة والتطهر، ولذا كان جوابهم، وإن قالوا مصرين أخرجوا آل لوط من مدينتكم العظيمة؛ لأنه لا تجتمع الطهارة العفيفة مع الدناسة الجاهلة، وقد عللوا ذلك بقولهم: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، أى من شأنهم الطهارة والبعد عن هذا الدنس المخالف للفطرة، والطبع السليم، وقد صور سبحانه بما جاء على ألسنتهم يتطهرون أى أن لوطا ومن معه من شأنهم الطهارة المستمرة، وعبر بفعل المضارع للدلالة على تصوير حال الطهارة المستمرة فيهم، كان عذاب الله

تعالى لابد أن ينزل بهم لكى لا يستمر فسادهم؛ ولأنهم يقلبون الفطرة، كما نرى الآن فى إنجلترا وأمريكا، إذ تفاقم الشر، وفحشت الفواحش، ومسخت الطبائع، فكان لابد من النازلة، جعل الله عالى أرضهم سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل مسومة منضودة.

ولقد بين سبحانه نجاة لوط ومن معه إلا امرأته، فقال:

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ (٥٧) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (٥٨) ﴾.

الفاء للترتيب والتعقيب، أى أنه سبحانه قرر هلاكهم وقرر النجاة للوط وآله، فكان معقبا أو مقارنا لتقرير الهلاك، وهو أقرب من التعقيب، وإليك خبر الهلاك، وطلب النجاة فقد جاء فى سورة هود من مخاطبة الملائكة للوط عليه السلام: **﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) ﴾** [هود].

أنجى الله تعالى لوطا وأهله بأن أمرهم بأن يسروا من البلد ليلا، واستثنى امرأته لأنها من الغابرين من الماضين، وظاهر أن ما كان منها هو الشرك، وعدم إنكارها لأفعالهم الخبيثة، فعدم الإنكار لجريمة بشعة معلنة قد جاهروا رضا بها، فهى معهم فى الشرك أو الرضا، بتلك الفاحشة الفحشاء، ولذا قال قدرناها من الغابرين، أى عددناها منهم.

وبعد هلاك القرية، وجعل عاليها سافلها، أمطر عليهم سبحانه مطرا وهو حجارة حاطمة رءوسهم مهلكة، ولذا قال تعالى: **﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾**، أى أنزلنا عليهم من السماء حجارة هى أشبه بالمطر فى وابله وتراكمه، ولقد بين أنه أسوأ مطر «فساء مطر المنذرين» أى ما أسوأ مطر المنذرين الذين أنذرهم.

وقد بين سبحانه فى آيات أخر أنه مطر حجارة لا مطر ماء، فقال فى سورة هود: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) ﴾.

هذه أقوام أشركت، وبين الله تعالى عاقبة إشراكها، إذ همت بالاعتداء على نبيها، ولم يكن له قبل بها، والآيات قائمة والأدلة معلمة، وقد ذكر سبحانه وتعالى بعض هذه الآيات.

من آيات الله على الوحدانية

قال تعالى:

(٥٨) قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ
عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩)
أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ
أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠)
أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا
رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ
وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ
مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى
ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ

رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾
أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ
أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾
قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ
أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ
فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾

بعد أن ذكر سبحانه من أخبار الرسل، ما لم يكن مكررا فى أخبار سبقت، فمثلا أولئك الرهط التسعة الذين ائتمروا بقتل صالح عليه السلام لم يذكروا من قبل، وهكذا، تجد فى كل قصة تجدد ذكرها شيئا لم يذكر من قبل. بعد هذا القصص قال الله لنبيه ورسوله ﷺ أن يقول لهم الحمد لله.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩)﴾.

قل لهم يا محمد الحمد لله، أقدم القول بحمد الله تعالى والثناء عليه بما هو أهله أن أمدنى بهذا القصص الصادق، وإنى ما كنت بدعا من الرسل، وإنى ما جئتكم بأمر من عندى، وأن المثلات قد سبقت لقومى بما أدى إليه كفرهم، وتحية سلام للذين اصطفاهم الله تعالى واختارهم، وأرسلهم تترى وتلقوا الصدمات من أقوامهم صدمة بعد صدمة وصبروا حتى بدل من بعد خوفهم أمنا ومن غطرسة أقوامهم هلاكا، وهأنذا أتلقى الصدمة والله مبدل خوفى أمنا إن شاء الله تعالى والقضية التى كان حولها الإيذاء والتعنت والدعوة الحق، ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أى أن الذى كان حوله النزاع بين الحق والباطل عبادة الله وحده خير أم الذى يشركون به، وجعلت الصيغة الموازنة بين ذات الخالق البارئ المنشئ من العدم خير، أم الأوثان التى يجعلونها شريكة فى عبادته، وهى موازنة ظاهرة

البطلان أو كيف يوازن بالخالق والمخلوق، والمنشأ ومن أنشأه. تعالى الله عما يشركون، ولا يستويان فلا يستوى الخالق والأوثان. ثم ذكر سبحانه من بعد ذلك أدلة الوحدانية وأن الله تعالى هو المعبود وحده فقال عز من قائل:

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠)﴾.

ذكر سبحانه وتعالى فى الآية السابقة ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، بالاستفهام، وهو نفى للمعادلة، وفى هذه الآية يوضح بطلان الموازنة بين خالق السموات والأرض، والموازن معه محذوف مع تقديره فى القول، وحذف استهانة به مع ذكر مدلوله فى الجملة، والمقصود الأول التعريف بالذات العلية جل جلاله، والمعنى أمَّن خلق السموات والأرض، وأنزل لكم من السماء ماء خير أما تشركون، وذكرت النتيجة أءله مع الله.

وأم فى قوله أمن خلق السموات منقطعة، فهى للإضراب الانتقالى، وهو يدل على التوبيخ والتبكيت، وفى قوله أم ما تشركون قراءة بالتاء وتكون للخطاب، وقراءة بالياء وتكون للغائب، والمعنى ظاهر فى القراءتين، وهو آية أمن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء... كأنها تكون تبكيتا صريحا، بعد أن كان فى الآية السابقة تبكيتا ضمنا، وتصريح بسبب العبادة وموجب الإذعان والخضوع، ومَنْ مبتدأ، والإضراب الانتقالى فيه معنى الاستفهام، والمعنى ننتقل إلى أمر واضح: أمَّن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء، خير أم ما تعبدونهم. وجاء بجملة تحل محل نفس المساواة فى المعادلة فقال أءله مع الله.

وقال سبحانه: خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء، فيه تعميم لبيان أن خالق الوجود كله: السموات والأرض وما فيها، ثم تخصيص النعم القريبة بالذكر، وهى التقاء السماء بما فيها والأرض بما فيها من خير للإنسان والحيوان. وتكلم عنها بالغيبة، لأن الإخبار، والإعلام به، وهو واضح بين؛ لأن الخلق، وإنزال الماء إلى الأرض، وهو من التزاوج بين السماء والأرض، ولكن عند

نبات الزرع والشجر، كان إسناد الإنبات إليه سبحانه، لكيلا يظن أحد أن ذلك الإنبات من الأخذ بالأسباب والمسببات، وأنه فعل طبائع الأشياء، وبين الله تعالى أن ذلك الإنبات منه، وهو فوق الأسباب والمسببات، سبحانه بديع السموات والأرض، والخالق لكل شيء على غير مثال سبق، وقال بعد ذلك سبحانه: أءله مع الله، أي يتساوى الخالق والمخلوق بل أدنى مخلوق، والله خير من أوثانهم، ودل على عدم التساوى بتوبيخهم على أن يجعلوا مع الله إلها آخر، مع هذا التفارق، وأنه لا يكون المخلوق كالخالق أبدا، ثم قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أي يعدلون عن حكم العقل، وحكم المنطق، والطريق المستقيم، وكان التعبير بالمضارع لتصوير عدولهم عن الحق إلى الباطل، ومن العقل إلى الهوى، ألا ساء ما يقولون، وما يفعلون.

وقوله بالنسبة لإنبات الحدائق فيه إشارتان بيانيتان.

الأولى: أنه عبر بالإنبات للأشجار مع أنه فى آيات أخريات كان يضيف الإنبات إلى الزرع ويعبر عن خلق الأشجار، بقوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى (٩٥)﴾ [الأنعام]، وذكر الإنبات هنا بالنسبة للحدائق ذات الأشجار الوارفة الظلال؛ لبيان عظيم قدرته فى أنه ينبت هذه الدوحات والأشجار العظام، ويتعهد من حال النبات، حتى يصير فيحاء ذات بهجة وزينة، ويسر الناظرين مرآها، ويسر الناظرين ثمرها اليانع، وقطوفها الدانية.

الثانية: هى قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾ كان هى كان الناقصة، ونفيها معناها نفى الكينونة، أى ليس فى وجود ولا كيان، أن لكم، أى فى قدرتهم، أن تنبتوا شجرها، إنما ينبتها العزيز الرحيم، والخلاق العظيم.

﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١)﴾.

أم للإضراب الانتقالى، ودالة على الاستفهام المتضمن معنى المعادلة والموازنة، بين الله تعالى خالق الكون وما فيه ومن فيه، وأوثانهم التى يعبدونها.

وإن الإضراب الانتقالى مؤداه أنه انتقال من لوم وتوبيخ إلى لون آخر فيه أشد تأنيبا، وأبعد استنكارا وكلمة ﴿جَعَلَ الأَرْضَ﴾، أى خلق الأرض، ومهدها تمهيدا، بحيث جعلها ذات قرار وإقامة، واستمكانا للأحياء يمكنون فيها ويتخذون مساكن، من البناء أو الأخبية، وجعل من خلالها أنهارا أى فى أوساطها وأجزاء منها أنهارا مياها عذبة تكون ذات مناظر بهيجة، وتلطف حرارتها، وترطبها، وتذهب بجفافها، وتكون منها المياه العذبة، منها إنبات الزرع وفلق الحب والنوى، والكلأ الذى يأكل منه الحيوان، وتتغذون به، وتكون منه إبلكم التى فيها جمال حتى تريحون، وحين تسرحون.

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ أى جبالا رواسى ثابتة تثبت الأرض، وهى لها كالأوتاد، وتنحتون فيها بيوتا، ويكون فيها مزارع وأشجار ونخيل، بل غابات تحمى الأنفس، كما نرى فى جبال الجزائر وجبال الشامات، وفيها جبال جرد وغرابيب سود، أى أن فيها متعة ومنعة، وقوة بأس.

وما فى الأرض اجتماع المياه العذبة والمياه التى فيها ملح أجاج، وتجاورهما من غير أن يختلط أحدهما بالآخر، بل يكون العذب الفرات بجوار الملح الأجاج، ومع تجاورهما لا يختلطان كأن بينهما بقدرة الله القادر القهار، حاجزا يحجز أحدهما ذا الثقل وهو الملح عن الأخر الخفيف، ولذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ أى جعل بين بحر العذب الفرات والبحر الأجاج حاجزا ربانيا لا يجعل أحدهما يختلط بالآخر، كما قال تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ (٢٠)﴾ [الرحمن].

هل يستوى خالق هذا، ومبدع الأرض ذلك الإبداع مع أوثان لا تضر ولا تنفع، ولذا قال تعالى نافيا عنها الألوهية ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ الاستفهام إنكارى لإنكار الوقوع، والمعنى لا إله مع الله، بل هم قوم لا يعلمون، ومن للإضراب الانتقالى وهم لا يعلمون، أى لا علم لهم، ويتجدد جهلهم بتجدد أفعالهم، ولذلك كان التعبير بالمضارع الدال على التصوير، وتجدد الفعل بتجدد أفعالهم وإنكارهم.

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢)﴾.

أيضا للإضراب الانتقالى، وفيها معنى الاستفهام، والمضطر افتعال من الضرر، والافتعال دال على شدة الضرر، والمعنى من يقع فى الضرر الملجئ للالتجاء إلى الله تعالى ولا يجد منقذا للمستصرخ سواه. أمن يجيب المضطر إذا دعاه، ولجأ إليه ضارعا مستغيثا به داعيا له، وإذا دعاه كشف عنه الأمر الذى يسوءه ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾، أى أنه ينعم عليكم بنعمتين أولاهما كشف الضر، والثانية يجعلكم الورثة لهذه الأرض ترثون سكانها وزرعها وثمارها، وسلطانها، فتكونون من المحكمين المسلطين فيها، وهذه نعمة عليكم إن شكرتموها، فقمتم فى حقها بالعدل والقسطاس المستقيم، وهى نقمة الله تعالى إن ظلمتم، وأفسدتم وأقمتم الباطل بدل الحق، أيكون من مكنكم ذلك التمكن خيرا، أم الأوثان، وقد دل على الحق بقوله سبحانه أءله مع الله، أى لا إله مع الله، ولكنكم لا تتذكرون الحق، ولا تعتبرون، ولذا قال: ﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ والتأكيد قلة التذكر، أى قليلا أى قلة تتذكرون وتعتبرون وتدركون فضل العقل على الهوى، والفكر على الإهمال.

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣)﴾.

أم أيضا للإضراب الانتقالى، ومن دالة على الاستفهام مع تضمن أمْ له، ومعنى الهداية فى ظلمات البر والبحر أن النجوم المسخرة فى السماء تكون هادية مرشدة فى البر والبحر، ففى البرّ تهديكم وأنتم فى مراكب الصحراء، التى تعد كسفن فيها، وفى البحر تهدى السفن الماخرة فى عباب البحر الجارية على سطح الماء. قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾، أى أن الله هو الذى يرسل الرياح من الشرق والغرب مبشرة بالماء الطاهر الذى يكون من المطر، الذى يخرج الخبء، وتبنت به النبات بإذن الله تعالى، وإن ذلك كله بعمل الله سبحانه

وتعالى، وإذا كان بخار الماء يتصاعد، ويعلو حتى يكون سحابة مملوءة بالماء، فيرسلها الله تعالى إلى حيث أراد فذلك بفضله ونعمته على عباده، يرسلها من أرض إلى أرض، ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا.. (٥٨) ﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾، مجاز مشهور، أى أن الله تعالى يجعل تبشير الرياح بالماء مقدمة لرحمته مهيئة لها كما يهيئ من بين يديه الرحمة المتمكن منها، والتى فى قبضته سبحانه وتعالى، وهو القابض الباسط، الرزاق ذو القوة المتين ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ الاستفهام لإنكار الوقوع أى لا إله مع الله تعالى، ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أى تقدست ذاته، وتعالى علوا كبيرا عما يشركون أى عن شركهم، فهم بهذا الشرك معتدون ظالمون، وإن الشرك لظلم عظيم.

﴿ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) ﴾.

أم للإضراب، ومَنْ للاستفهام، أى أن الإضراب انتقالى، انتقل من السؤال عن أصل خلق الكون وما اشتمل وما توالى عليه من نعم الماء، والإنبات وتصريف الرياح لتكون مبشرة بين يدى رحمته، بعد ذلك سألهم عن أصل خلقهم، وعن مآلهم، وهو أمر متعلق أشد التعلق، والمعنى من الذى خلقكم ابتداء، وجعل لكم أجلا مسمى، وتكفل برزقكم فى الدنيا، وعبر سبحانه عن بدء الخلق بقوله ﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾، مع أنه بدأه وخلقه فى الماضى، فهو قد ذكر المضارع دون الماضى لأمرين: أولهما. تصوير البدء واستمراره، فالمضارع يدل على ذلك، والثانى أن البدء فى الخلق مستمر فهو فى الحاضر والقابل كما كان فى الماضى، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ التعبير بثم فى موضعه؛ لأن بين الإعادة والبدء أعمار الناس، وليس ذلك زمنا قصيرا، وذكر البدء فى هذا المقام إنذار لهم وتذكير، والحياة عابثة إذ لم يكن بها تذكير باليوم الآخر، وإنما مستمر، وسبحانه وتعالى يذكره دائما لكى لا ينسوه، وفيه إنذار لهم وتبشير.

وإنه مع أن البعث جاء لا محالة تكفل سبحانه وتعالى، برزقهم فى الفترة التى يعيشونها، فرحمة الله سابغة دائما، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ أى يرزقكم من السماء بنجومها المسخرات التى تهديكم فى ظلمات البر والبحر، والشمس بأشعتها الواقية والهادية، والقمر بنوره الذى ينير لكم فى جوف الليل البهيم، والمطر الذى ينزل من السحاب فنحيى الأرض، ويرزقكم من الأرض بمعدنها وأفلاذها، ونباتها، وحدائقها ذات البهجة والجمال.

لا يستوى الله الخالق المبدع مع الأوثان، ثم قال تعالى: ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ أى لا إله مع الله، وقد انتقل القرآن من بيان ما يوجب عبادة الله تعالى إلى مطالبتهم بأن يأتوا بدليل يسوغ عبادة الأوثان، آمرا نبيه بأن يطالبهم بدليل يسوغ حالهم التى هم فيها من عبادة غيره. ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ البرهان هو الدليل العقلى المنطقى، أى هاتوا دليلا فعليا منطقيا يسوغ لكم عبادتها إن كنتم صادقين فى استحقاقها للعبادة.

طالبهم القرآن الكريم بالبرهان العقلى، ولكنهم لا يمكن أن يأتوا به، لأنه لا يمكن أن يكون ثمة دليل علمى منطقى يسوغ عبادة أحجار لا تملك نفعا، ولا ضررا، وهى فى ذاتها أقل فى وجودها ممن يعبدونها، ولكنه ضلال الأوهام.

﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥)﴾.

علم الإنسان حسى حاضر غير مغيب، لأنه لم يؤت علم الغيب إلا الله تعالى، ومن يشاء سبحانه أن يعطيه أحدا من عباده والعلم بالغيب هو العلم مما أكنه الله تعالى فى الوجود فى قابل الأمور، لا فى ماضيها، فالماضى يعرف بالكتابة أو القراءة أو نحو ذلك، وقد أمر الله تعالى نبيه بأن يبين لقومه أنه لا يعلم الأمور الغيبية إلا الله، فقال: ﴿قُل﴾، أى يا رسولى: ﴿لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾، ومَن هنا للعاقل، وإذا انتفى الغيب عن العقلاء فهو عن غيرهم أنفى، والغيب مفعول به ومن هنا تشمل العقلاء جميعا من يكونون فى

السموات والأرض فيدخل فى العمـوم الملائكة، والجن والإنس، والاستثناء متصل فهو ليس منقطعا، بمعنى لكن، وإن كـان قد ادعى بعض المفسرين ذلك، وإن علم الإنسان فى مـحيط وجوده وهو يحسب أن علمـه هو ما يشعر بـه وحده ولا أحد غيـره، حتى إن الأعمى، ما كـان ليشعـر بعلم المبصرين لولا تضـافر الناس على نقص علمه، وكذلك الأصم، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾، أى فى أى وقت يبعثون، لا يشعرون فى أى وقت يبعثون، والشعور علم يقارب الحس المتلمس، أى ما يحسون فى أى وقت يبعثون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ .. (٣٤)﴾ [لقمـان]. وإنه يستفـاد من هذا أن علم الغيب هو العلم بما يقع فى المستقبل لا بما هو واقع فى الماضى أو الحاضر.

يروى فى ذلك أنه دخل على الحـجاج بن يوسف الثـقفى منجـم فاعتـقله، فأخـذ حصوات فـعدها، ثم قال: كم فى يدى مـن حصاة، فـحسب المنجم، ثم قال: كذا، فأصاب، ثم اعتقله فـأخذ حصوات لم يعدهن ثم قال: كم فى يدى، فحسب وأخطأ، ثم قال أيها الأميـر أظنك لا تعرف عددها، وقال: لا، قال فإنى لا أجيد العد. قال فما الفرق؟ قال إن ذلك أحـصيته فخرج عن حد الغيب، وهذا لم تحصه فهو غيب، ولا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله.

ولقد أخرج مـسلم عن عائشة أنها قالت: «من زعم أن محـمدا يعلم ما فى غد، فقد أعظم الفرية على الله تعالى، يقول ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾».

﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ (٦٦)﴾.

فيـها عدة قـراءات فى لفظ ادارك فقـرئت من غير مـد أدَّرك وقرئت أدرك، وكلها قراءات يتقارب معناها، ولا يتـباعد، ولنا أن ادارك أصلها تدارك قلبت التاء دالا وأدغمت الدال فى الدال وأتى بهمزة الوصل ليـمكن الابتداء بالساكن، ومعنى ادارك تلاحق وتضافر العلم، ولنا فيها تخريجان، وكلاهما معقول:

أولهما أن تلاحق العلم فى الدنيا، فقد تلاحقت الأدلة على إمكان البعث، والحياة فى الآخرة مثل قوله تعالى ﴿ ..**كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ** (٢٩) ﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿ .. **مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ** (٧٨) **قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ..** (٧٩) ﴾ [يس] وقوله تعالى: ﴿ **قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا** (٥٠) **أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ..** (٥١) ﴾ [الإسراء]. وهكذا كثير من الآيات الكريمات التى تبين قرب العودة، وأنها غير مستحيلة، بل إنها واجبة؛ لأن الله ما خلق الإنسانية عبثا، كما قال تعالى: ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ** (١١٥) ﴾ [المؤمنون] إنها واجبة.

التخريج الثانى أن يكون ذلك العلم المتدارك المتلاحق فى الآخرة، إذ يكون الحس بالبعث، ويكون الحساب والثواب والعقاب، وتشهد عليهم ألسنتهم وسائر جوارحهم، ويكون العلم اليقينى فى الآخرة، ويرشح لهذا قوله تعالى فى الآخرة لأنه يفيد أن ذلك التلاحق العلمى فى الآخرة.

وبل للإضراب الانتقالى، وهو الانتقال من موضوع إلى موضوع، أو الانتقال من عدم الشعور بالبعث إلى العلم به علم يقين، وبل الثانية للإضراب الانتقالى، وهو الانتقال من العلم المتلاحق الذى سيكون الآن أو من الآن إلا أنهم فى حال شك من الإيمان، لا اليقين، ولذا قال تعالى: ﴿ **بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا** ﴾، أى أنه مع هذا العلم المتوافر المثبت لليقين بالبعث كانوا فى شك منه، وقد أكد سبحانه الشك فى قوله: ﴿ **بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا** ﴾ وكان التوكيد ببل المفيدة للإضراب، وبالضمير، وبأن الشك أحاط بهم كما تحيط الدائرة بقطرها، فهم سيغرقون فيه لا يخرجون عنه، ولا يتركونه إلى يقين أيضا، والضمير يعود إلى الآخرة التى يرتابون فيها ﴿ **بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ** ﴾ جمع عم أى أنهم عمى عن الآخرة، أى أنها واقعة لا ريب، ولكنهم عمون عن حقائقها، وما يكون فيها، فالحقائق ثابتة بأدلتها السمعية والنقلية، ولكنهم عمون عنها غافلون، وليس العيب فى حقائق يوم القيامة، إنما العيب فى عماهم عنها.

وتقدم الجار والمجرور لمعنى الاختصاص، أى أنهم عمون عن الحياة الآخرة وليسوا عمين عن غيرها، وهى أعراض الدنيا، وما فيها من لهو ولعب، وملاذ، وشهوات، وأكد الحكم بالإضراب وبالضمير، وبالجملة الاسمية.

أقوال الكفار المنكرين

قال تعالى:

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ
أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا
هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾
قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ
﴿٦٩﴾ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿٧٠﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلۡ عَسَىٰٓ
أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٧٤﴾

بعد أن بين حقيقة البعث، وأن الأدلة قائمة عليه، وأن العقل يثبت إمكانه والنقل يثبت وجوده، ذكر سبحانه وتعالى قول الذين كفروا فيه، فقال: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ**﴾ يذكرون فى تفكير الحسى الذى يؤمنون فيه بالمادة وحدها مانعين حسيين فى زعمهم الباطل، والمانع الأول هو الموت، وهو فى زعمهم مانع حسى كيف يعود الميت حيا، وهم لم يألفوه، ولم يروه فهو وحده كاف للمنع، وقد أضيف المانع الثانى، وهو أنهم يصيرون ترابا، وكان هنا بمعنى صار، وكنا ترابا أى صرنا ترابا، وتحللت الأجزاء الحية من أجسامنا، وأبعدت عنا الحياة بحقيقتها ومظاهرها، كيف تبصر بعد ذلك أن نحيا

بعد أن ندفن، ولذا قال تعالى عنهم: ﴿أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾، أى أننا نخرج من القبور، بعد أن دفنا فيها، وصرنا فى ضمن أجزائها، ولا منفصل عنها، فكيف يتميز خلقنا عن خلقها، وقد أكدوا عدم الخروج بتكرار الاستفهام، كأنه فى ذاته أمر غريب، وزكوا الاستفهام المانع باللام والوصف، أى أنكون مخرجين حقا وصدقا، وخروجا مؤكدا.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كان الإظهار فى موضع الإضمار، فلم يقل وقالوا؛ وذلك لأن الصلة وهى الجحود والكفر هما الإنكار، واستغراق المادة لهم، حتى إنهم لا يفكرون قط فى أمر معنوى، ولا أمر غيبى فقد استغرقتهم المادة حتى صاروا لا يؤمنون إلا بها.

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٦٨)﴾.

هذه الآية تدل على أن المشركين فى مكة كانت عندهم بقايا من الديانات، وخصوصا ملة إبراهيم، ولكن نفوسهم مرنت على الإنكار واستمرأت الجحود، واستغرقتهم المادة، فلا يؤمنون إلا بما يوائمها ويوافقها، وذلك بقولهم ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ﴾، أى قبل أن يجىء محمد، وأكد الوعد باللام، وبقد، وينتقلون من الإنكار المطلق إلى ادعاء كذب هذا الوعد، وكان من أبيهم مكان شرفهم الذى يعتزون، به ويقولون ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ إن نافية، والمعنى ما هذا إلا أساطير الأولين اكتتبها، فهى تملى عليه بكرة وأصيلا.

وهكذا يشتطون فى القول حتى ليصلوا إلى اتهام إبراهيم مناط شرفهم وعزتهم بأنه يأتى بأساطير. بقى أن يذكرهم سبحانه بما نزل بمن كانوا على إنكارهم فقال عز من قائل:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩)﴾.

الأمر للنبى ﷺ، وهو أمر للتذكير بالعذاب الذى نزل بإخوانهم، وقريب منهم آثار عاد وثمود وأصحاب الأيكة، وقوم لوط وغيرهم.

والسير فى أراضى هؤلاء للاعتبار والعظة، والعلم بما أنزله الله تعالى بهم، ولذا قال تعالى: ﴿فَانظُرُوا﴾ نظرات عظة واعتبار ومعرفة بأنه سينزل بهم مثل ما نزل بهؤلاء لأنه إذا تساوت الأسباب فالنتيجة واحدة.

وقوله ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾، الفاء عاطفة للترتيب والتعقيب أى أن نتيجة السير أن تنظر نظرات اعتبار إلى عاقبة المجرمين، وما آل إليه أمرهم بعد أن طغوا فى البلاد، وأكثروا فيها الفساد، وعبر بالمجرمين لبيان آثار إجرامهم فى الأرض ونهايته، ولبيان أن المؤمنين مهما يكونون ضعفاء لا يمكن أن يكونوا مجرمين.

﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠)﴾.

إذا كانوا يسيرون فى الأرض ليريهم عاقبة المجرمين فذلك إعلام لهم بأنهم مثلهم وسينزل بهم مثل ما نزل بغيرهم، ولأنهم ضالون مثلهم، ولا شك أن ذلك يحزن النبى ﷺ كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣)﴾ [الشعراء]؛ ولذا نهى النبى ﷺ، إذ هم قومه وعشراؤه، إذ قال تعالى: ﴿ولا تحزن عليهم﴾ قيل أى لا تحزن، على كونهم، وإنى أرى أن الحزن عليهم هم لأنهم قومه، وقد قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)﴾ [التوبة].

﴿وَلا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ الضيق الحرج الشديد، ومما يمكرون أى يدبر التدبير الخبيث من إيذاء المؤمنين والاستهزاء بالنبى ﷺ، وتدبير المكائد من مثل مقاطعتهم للنبى ﷺ، وعزل المؤمنين الموالين لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم فى شعْب قريش ونحو ذلك، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ.. (٦٧)﴾ [المائدة]. إن الله عاصمك مهما تمالئوا عليك.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٧١)﴾.

الضمير يعود إلى الكفار وهو يدل على تعنتهم، وإعناتهم لأنفسهم، ويتحدون الله ورسوله، أن ينزلوا بهم ما وعدهم من عذاب ويستفهمون قائلين، متى هذا الوعد؟ والاستفهام لا يخلو من استنكار وتهكم على الوعد، إن كنتم صادقين فى إيعادكم، وشككوا فى صدقهم ولذا كان التعليق بإن التى لا تدل على تحقق الشرط، وإن النبى ﷺ يرجو الإيمان من أصلابهم، ومن غير المعقول أن ينزل الله بهم عذابا دنيويا ساحقا، والنبى بينهم، كما قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ** ..(٣٣) ﴾ [الأنفال].

وقد ذكر سبحانه أنه سينالهم عذاب شديد، ليس من قبيل السحق والإبادة، بل يكون من قبيل المنازلة، ولذا قال سبحانه:

﴿ **قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ** (٧٢) ﴾.

أى قل لهم يا محمد: لا تستعجلوا العذاب، وعسى أن يكون ردف لكم، أى دنا منكم، وصار ردفا لكم قريبا منكم بعض الذى تسعجلون. وذكر بعض الذى يستعجلونه دون العذاب الساحق الماحق، كما كان لعاد وثمود وأصحاب الأيكة؛ لأن الله تعالى يتولى تأديبهم فى الحياة الدنيا، بالغزوات المؤدبة لهم كغزوة بدر، والخندق، والحديبية وفتح مكة، لأنه سبحانه يريد أن يجعل من ذريتهم من يعبد الله ويجاهد فى سبيله كما كان خالد بن الوليد، وعكرمة بن أبى جهل وغيرهما.

والتعبير بعسى، ولعل، ونحو ذلك من العبارات يراد به توكيد الوقوع كما تجرى عبارات الرؤساء والأقوياء، وأهل السلطان، وقد بين سبحانه أن نزول بعض ما تستعجلون من فضله ورحمته، فقال:

﴿ **وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ** (٧٣) ﴾.

أى أن نزول بعض ما يستعجلون هو من فضل الله على الناس من المشركين من أهل مكة، ورحمة بهم ليكون فى لاحقهم إن تعذر أن يكون فى بعض حاضرهم، ولكن أكثر الناس لا يشكرون تلك النعمة المزجاة إليهم، ولا يعرفون حقها، والله من ورائهم محيط ﴿ **وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ**(٧٤) ﴾.

أكد سبحانه علم الله وفضله فى هذه الآيـة الكريمة كما أكد فضله فى الآية السابقة بإن وبالتـعبير بربك القائم عليك بفـضل الربوبية واللام فيها، فـإنها تؤكد موضعها فضل توكيد. ﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ هو ما أكنوه من أسرار يخفونها ولا يبـدونها، ومن تدبر وفكـر، واتجاه إلى المكر السـيئ، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من عداوة صريحـة واستهزاء بالمؤمنين، وصـد عن سبيل الله وهذا تهـديد لهم بأن الله تعالى محاسبهم عليه، وإن ربك بالمرصاد لهم.

* * *

عقد الإمام محمـد أبو زهرة فى أواخر عام ١٩٧٣ وأوائل عام ١٩٧٤ العديد من الندوات والاجتماعات بجامعة القاهرة والإسكندرية وفى جمعية الشبان المسلمين لمحاربة التعـدى على الشريعة الإسلامـية، وكانت له صولات وجـولات فى مجمع البحوث الإسلامية والأزهر بخصـوص تحديد النسل وتقييد تعدد الزوجات والطلاق فى مشروع قانون الأحوال الشخصية لوزارة الشئون الاجتماعية، وقرر فضيلة الإمام رحمه الله إقامة مؤتمر شعبى لمناقشة هذا الأمر فى سرادق كبير فى شارع العزيز بالله أمام منزله بضاحية الزيتون، أقامه الإمام رحمـه الله على نفقته الخاصة وقام فضيلته بمعاينة المكان وإنشاء السرادق مبكرا فى صباح يوم الجمعة ١٢/ ٤/ ١٩٧٤ ثم عاد إلى حجرة المكتب بالدور العلوى وشرع فى إكمال تفـسير سورة النمل حتى أذان الظهر، وأثناء نزول فضـيلته حـاملا القلم والمصحف مـفتوحـا على آخر مـا وصل إليه فى التفسـير وأيضا الورق الذى به ما كـتب من التفسيـر تعثر رحمة الله عـليه وسقط ساجـدا على المصحف وعلى أوراق التفسـير، ثم فاضت روحه الكريمة إلى بارئها أثناء أذان المغـرب. وهـكذا شـاءت إرادة الله العظيم أن يكـون هذا السـرادق الذى أشرف فضيلته على إقامته لمؤتمر شعبى هو سرادق العزاء للإمام.

رضى الله عن شيخ مشايخ عصره، الإمام محمد أبو زهرة وأرضاه، وأسكنه فسيح جناته وأجـمل فراديسه، وجعله مع النبيين والصديقين والشـهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

أسرة الإمام الجليل محمد أبو زهرة